سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ

١

تفسير القرآن الكريم

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

بجمع بإشراف مؤسسة

الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

دار ابن الجوزي

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين

(١)

تفسير القرآن الكريم

الفاتحة - البقرة

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

تطبع بإشراف مؤسسة
الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

دار ابن الجوزي

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (١)

تفسير القرآن الكريم

الفاتحة - البقرة

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الأول

دار ابن الجوزي
طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيرا.

أما بعد:

فقد اعتنى علماء الإسلام - رحمهم الله تعالى - بكتاب الله عز وجل عناية كبيرة، ومن ذلك تفسير ألفاظه وبيان معانيه، واستنباط الأحكام والفوائد من آياته.

ومن هؤلاء العلماء فضيلة شيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته - حيث عقد دروساً كثيرة لتفسير القرآن الكريم خلال فترات طويلة من جلوسه للتدريس.

ورغبة في نشر هذا العلم الذي يتعلق بتفسير كلام رب العالمين جل وعلا. وافق الشيخ المؤلف - رحمه الله تعالى - على تفريغ الأشرطة التي تحتوي على التفسير فقام أحد طلابه «خالد بن حامد بن خليل» - جزاه الله خيراً - بنسخ أشرطة التفسير لسورتي الفاتحة والبقرة ومراجعة الشيخ فيما تم نسخه وقراءته عليه حتى تم اعتماده من الشيخ - رحمه الله -، ثم خرّج أحاديثه وتولّت اللجنة العلمية مراجعته للطباعة والنشر.

وحيث أن تفسير شيخنا رحمه الله تعالى، يمتاز بميزات علمية سوف يقف عليها القارئ بنفسه - إن شاء الله - وتعميماً للفائدة، وتسهيلاً لطالب العلم، وتحقيقاً لأهداف مؤلفه رحمه الله فإن مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية تتولَّى طباعة ونشر جميع ما دوّن وسجّل من تفسير لفضيلته بعون الله وتوفيقه سبحانه وتعالى.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، موافقاً لمرضاته، نافعاً لعباده، وأن يجزي فضيلة شيخنا المؤلف عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ويضاعف له المثوبة والأجر، ويعلي درجته في المهديين، ويسكنه فسيح جناته إنه سميع مجيب وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

اللجنة العلمية

في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه؛ ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليماً. أما بعد:

فإنَّ من المهم في كل فن أن يتعلمَ المرءُ من أصوله ما يكون عوناً له على فهمه وتخريجه على تلك الأصول؛ ليكونَ علمه مبنيًّا على أسس قوية ودعائم راسخة، وقد قيل: من حُرِمَ الأصول؛ حرم الوصول.

ومن أجلِّ فنون العلم، بل هو أجلها وأشرفها: علم التفسير الذي هو تبيين معاني كلام الله عز وجل، وقد وَضَعَ أهلُ العلمِ له أصولاً، كما وضعوا لعلم الحديث أصولاً، ولعلم الفقه أصولاً.

وقد كنتُ كتبتُ من هذا العلمِ ما تيسَّرَ لطلابِ المعاهد العلمية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فطلب مني بعض الناس أن أفردها في رسالة، ليكون ذلك أيسر وأجمع فأجبته إلى ذلك.

وأسأل الله تعالى أن ينفع بها.

ويتلخص ذلك فيما يأتي:

• **القرآن الكريم:**

١ ـ متى نزل القرآن على النبي ﷺ، ومن نزل به عليه من الملائكة.

٢ ـ أول ما نزل من القرآن.

٣ ـ نزول القرآن على نوعين: سببي وابتدائي.

٤ ـ القرآن مكي ومدني، وبيان الحكمة من نزوله مفرَّقاً، وترتيب القرآن.

٥ ـ كتابة القرآن وحفظه في عهد النبي ﷺ.

٦ ـ جمع القرآن في عهد أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما.

• **التفسير:**

١ ـ معنى التفسير لغة واصطلاحاً، وبيان حكمه، والغرض منه.

٢ ـ الواجب على المسلم في تفسير القرآن.

٣ ـ المرجع في التفسير إلى ما يأتي:

أ ـ كلام الله تعالى بحيث يفسر القرآن بالقرآن.

ب ـ سنة الرسول ﷺ؛ لأنه مبلغ عن الله تعالى، وهو أعلم الناس بمراد الله تعالى في كتاب الله.

جـ ـ كلام الصحابة رضي الله عنهم لا سيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير؛ لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم.

د ـ كلام كبار التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم.

هـ ـ ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللغوية حسب السياق، فإن اختلف الشرعي واللغوي؛ أخذ بالمعنى الشرعي إلا بدليل يرجح اللغوي.

٤ ـ أنواع الاختلاف الوارد في التفسير المأثور.

٥ ـ ترجمة القرآن: تعريفها ـ أنواعها ـ حكم كلٍّ نوع.

- خمس تراجم مختصرة للمشهورين بالتفسير ثلاث للصحابة واثنتان للتابعين.
- أقسام القرآن من حيث الإحكام والتشابه:
  - موقف الراسخين في العلم، والزائغين من المتشابه.
  - التشابه: حقيقي ونسبي.
  - الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه.
- موهم التعارض من القرآن والجواب عنه وأمثلة من ذلك.
- **الْقَسَم:**

  تعريفه ـ أداته ـ فائدته.

- **القصص:**

  تعريفها ـ الغرض منها ـ الحكمة من تكرارها واختلافها في الطول والقصر والأسلوب.
- الإسرائيليات التي أُقحمت في التفسير وموقف العلماء منها.
- **الضمير:**

  تعريفه ـ مرجعه ـ الإظهار في موضع الإضمار وفائدته ـ الالتفات وفائدته ـ ضمير الفصل وفائدته.

❁ ❁ ❁

القرآن الكريم

القرآن في اللغة: مَصْدَرُ قرأَ بمعنى تَلا، أو بمعنى جَمع، تقول: قَرَأَ قَرْءاً وقُرْآناً، كما تقول: غفر غَفْراً وغُفْراناً. فعلى المعنى الأول (تلا) يكون مصدراً بمعنى اسم المفعول؛ أي بمعنى متلوّ. وعلى المعنى الثاني (جَمَعَ) يكون مصدراً بمعنى اسم الفاعل؛ أي بمعنى جامع لجمعه الأخبار والأحكام[1].

والقرآن في الشرع: كلامُ الله تعالى المنزل على رسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإنسان: ٢٣]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢].

وقد حَمَى الله تعالى هذا القرآن العظيم من التغيير والزيادة والنقص والتبديل، حيث تكفَّل عز وجل بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩] ولذلك مضت القرون الكثيرة ولم يحاول أحدٌ من أعدائه أن يغيرَ فيه، أو يزيد، أو ينقص، أو يبدل إلا هتك الله تعالى ستره، وفضح أمره.

وقد وصفه الله تعالى بأوصاف كثيرة، تدلُّ على عظمته وبركته وتأثيره وشموله، وأنه حاكم على ما قبله من الكتب.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ

---

(١) ويمكن أن يكون بمعنى اسم المفعول أيضاً؛ أي بمعنى مجموع؛ لأنه جُمع في المصاحف والصدور.

ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ [الحجر: ٨٧]، ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١].

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة: ٧٧]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١]، ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

والقرآنُ الكريمُ مصدرُ الشريعةِ الإسلامية التي بُعِثَ بها محمدٌ ﷺ إلى الناس كافَّة، قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾ [إبراهيم: ١، ٢].

وسنةُ النبيِّ ﷺ مصدرُ تشريع أيضاً كما قرره القرآن، قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

١ ـ نزول القرآن

نَزل القرآنُ أوَّل ما نزل على رسول الله ﷺ في ليلة القدر في رمضان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر: ١]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدخان: ٣، ٤]، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وكان عُمْرُ النبيِّ ﷺ أول ما نزل عليه أربعين سنة على المشهور عند أهل العلم، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعطاء وسعيد بن المسيِّب وغيرهم. وهذه السِّنُّ هي التي يكون بها بلوغ الرشد وكمال العقل وتمام الإدراك.

والذي نزل بالقرآن من عند الله تعالى إلى النبيِّ ﷺ، جبريلُ أحدُ الملائكة المقربين الكرام، قال الله تعالى عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥].

وقد كان لجبريل عليه السلام من الصفات الحميدة العظيمة، من الكرم والقوة والقرب من الله تعالى والمكانة والاحترام بين الملائكة والأمانة والحسن والطهارة؛ ما جعله أهلاً لأن يكون

رسول الله تعالى بوحيه إلى رسله قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]. وقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾﴾ [النجم: ٥ ـ ٧].

وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل: ١٠٢].

وقد بيَّن الله تعالى لنا أوصاف جبريل، الذي نزل بالقرآن من عنده، وتدل على عظم القرآن، وعنايته تعالى به؛ فإنه لا يرسل من كان عظيماً إلا بالأمور العظيمة.

٢ ـ أول ما نزل من القرآن

أول ما نزل من القرآن على وجه الإطلاق قطعاً الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، وهي قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١ ـ ٥] ثم فتر الوحي مدة، ثم نزلت الآياتُ الخمسُ الأولى من سورة المدثر، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ [المدثر: ١ ـ ٥] ففي «الصحيحين»: «صحيح البخاري ومسلم»[(١)] عن عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي قالت: حتى جاءه الحقُّ، وهو في غار حراء، فجاءه المَلَكُ فقال: اقرأ، فقال النبي ﷺ: ما أنا

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ١: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ...، أصول في التفسير، حديث رقم ٣؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب ٧٣: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم ٤٠٣ [٢٥٢] ١٦٠.

بقارئ (يعني لستُ أعرف القراءة) فذكر الحديث، وفيه ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ ـ ٥] وفيهما[١] عن جابر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال وهو يحدث عن فترة الوحي: «**بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء...**» فذكر الحديث، وفيه: فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ إلى ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ١ ـ ٥].

وثمت آيات يقال فيها: أول ما نزل، والمراد أوّل ما نزل باعتبار شيء معين، فتكون أوليّة مقيدة مثل: حديث جابر رضي الله عنه في «الصحيحين»[٢] أن أبا سلمة بن عبد الرحمن سأله: أي القرآن أنزل أول؟ قال جابر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: ١]. قال أبو سلمة: أنبئت أنه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١]. فقال جابر: لا أخبرك إلا بما قال رسول الله ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «جاورت في حراء فلما قضيت جواري هبطت...» فذكر الحديث وفيه: «فأتيت خديجة، فقلت: دثروني، وصبّوا عليّ ماءً بارداً، وأنزل عليّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ١ ـ ٥]».

فهذه الأوّلية التي ذكرها جابر رضي الله عنه باعتبار أول ما نزل بعد فترة الوحي، أو أول ما نزل في شأن الرسالة؛ لأن ما نزل من

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ١: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم ٤؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب ٧٣: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم ٤٠٦ [٢٥٥] ١٦١.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ٣: قوله: **﴿يا أيها المدثر﴾**، حديث رقم ٤٩٢٤؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب ٧٣: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم ٤٠٩ [٢٥٧] ١٦١.

سورة اقرأ ثبتت به نبوة النبي ﷺ، وما نزل من سورة المدثر ثبتت به الرسالة في قوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: ٢] ولهذا قال أهل العلم: إن النبي ﷺ نُبِّئ بـ: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق: ١] وأرسل بـ ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١].

٣ ـ نزول القرآن ابتدائي وسببي

ينقسم نزول القرآن إلى قسمين:

القسم الأول: ابتدائي: وهو ما لم يتقدم نزوله سبب يقتضيه، وهو غالب آيات القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥﴾ [التوبة: ٧٥] الآيات، فإنها نزلت ابتداء في بيان حال بعض المنافقين، وأما ما اشتهر من أنها نزلت في ثعلبة بن حاطب في قصة طويلة، ذكرها كثير من المفسرين، وروجها كثير من الوعاظ، فضعيف لا صحة له[(١)].

القسم الثاني: سببي: وهو ما تقدم نزوله سبب يقتضيه.

والسبب:

أ ـ إما سؤال يجيب الله عنه مثل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

ب ـ أو حادثة وقعت تحتاج إلى بيان وتحذير مثل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥] الآيتين نزلتا في رجل من المنافقين قال في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله ﷺ وأصحابه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن فجاء الرجل يعتذر إلى النبي ﷺ فيجيبه ﴿أَبِٱللَّهِ

---

(١) رواه الطبراني، وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك.

وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥][١].

جـ - أو فعل واقع يحتاج إلى معرفة حكمه مثل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١] الآيات.

فوائد معرفة أسباب النزول:

معرفة أسباب النزول مهمة جدًّا، لأنها تؤدي إلى فوائد كثيرة منها:

١ - بيان أن القرآن نزل من الله تعالى؛ وذلك لأن النبي ﷺ يسأل عن الشيء، فيتوقف عن الجواب أحياناً، حتى ينزل عليه الوحي، أو يخفى عليه الأمر الواقع، فينزل الوحي مبيناً له.

مثال الأول: قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥]. ففي «صحيح البخاري»[٢] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رجلاً من اليهود قال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت، وفي لفظ: فأمسك النبيَّ ﷺ، فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمتُ أنه يوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] الآية.

ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، ففي «صحيح

---

(١) ذكر هذه الحادثة ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٦٨)، والطبري أيضاً (١٠/ ١٧٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب قول الله تعالى: ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾. حديث رقم (١٢٥)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح، وقوله: ﴿**يسألونك عن الروح ..**﴾ الآية. حديث رقم (٢٧٩٤).

البخاري»[١] أن زيد بن أرقم رضي الله عنه سمع عبد الله بن أُبَي رأس المنافقين يقول ذلك، يريد أنه الأعزُّ ورسول الله ﷺ وأصحابه الأذل، فأخبر زيد عمه بذلك، فأخبر به النبيَّ ﷺ، فدعا النبيُّ ﷺ زيداً، فأخبره بما سمع، ثم أرسل إلى عبد الله بن أُبَي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فصدقهم رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله تصديق زيد في هذه الآية؛ فاستبان الأمر لرسول الله ﷺ.

٢ ـ بيان عناية الله تعالى برسوله ﷺ في الدفاع عنه.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢]. وكذلك آيات الإفك؛ فإنها دفاع عن فراش النبي ﷺ وتطهيرٌ له عمَّا دنَّسه به الأفَّاكون.

٣ ـ بيان عناية الله تعالى بعباده في تفريج كرباتهم وإزالة غمومهم.

مثال ذلك آية التيمم، ففي «صحيح البخاري»[٢] أنه ضاعَ عقدٌ لعائشةَ رضي الله عنها، وهي مع النبي ﷺ في بعض أسفاره فأقام النبي ﷺ لطلبه، وأقام الناس على غير ماء، فشكوا ذلك إلى أبي بكر، فذكر الحديث وفيه: فأنزل الله آية التيمم فتيمموا،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، سورة المنافقون، باب قوله: ﴿**إذا جاءك المنافقون قالوا إنك لرسول الله**﴾ الآية. حديث رقم (٤٩٠٠)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب صفات المنافقين وأحكامهم. حديث رقم (٢٧٧٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التيمم، قول الله تعالى: ﴿**فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه**﴾ حديث رقم (٣٣٤)، ومسلم، كتاب الحيض، باب التيمم. حديث رقم (٣٦٧).

فقال أسيد بن حضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر. والحديث في البخاري مطولاً.

٤ ـ فهم الآية على الوجه الصحيح.

مثال ذلك قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] أي يسعى بينهما، فإنَّ ظاهر قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] أن غاية أمر السعي بينهما، أن يكون من قسم المباح. وفي «صحيح البخاري»[1] عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك رضي الله عنه عن الصفا والمروة، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما؛ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] إلى قوله: ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]. وبهذا عرف أن نفي الجناح ليس المراد به بيان أصل حكم السعي، وإنما المراد نفي تحرجهم بإمساكهم عنه، حيث كانوا يرون أنهما من أمر الجاهلية، أما أصل حكم السعي فقد تبين بقوله: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

عموم اللفظ وخصوص السبب:

إذا نزلت الآية لسبب خاص، ولفظها عام كان حكمها شاملاً لسببها، ولكل ما يتناوله لفظها؛ لأن القرآن نزل تشريعاً عامًّا لجميع الأمة فكانت العبرة بعموم لفظه لا بخصوص سببه.

مثال ذلك: آيات اللعان، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب ما جاء في السعي بين الصفا والمروة، ومسلم، كتاب الحج، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلّا به. حديث رقم (١٢٧٨).

أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٦ ـ ٩]. ففي «صحيح البخاري»(١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: البيِّنة أو حَدٌّ في ظهرك، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل، وأُنزل عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ [النور: ٦] فقرأ حتى بلغ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٩] الحديث.

فهذه الآيات نزلت بسبب قذف هلال بن أمية لامرأته، لكن حكمها شامل له ولغيره، بدليل ما رواه البخاري من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، أن عويمر العجلاني جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال النبي ﷺ: قد أنزل اللهُ القرآنَ فيك وفي صاحبتك. فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سمى الله في كتابه، فلاعنها. الحديث(٢).

فجعل النبي ﷺ حكم هذه الآيات شاملاً لهلال بن أمية وغيره.

٤ ـ المكي والمدني

نزل القرآن على النبي ﷺ مفرقاً في خلال ثلاث وعشرين سنة، قضى رسول الله ﷺ أكثرها بمكة، قال الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦]

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب إذا دعي أو قذف فله أن يلتمس البينة وينطلق لطلب البينة. حديث رقم (٢٦٧١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، سورة النور، باب قوله عز وجل: ﴿**والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء...**﴾ الآية. حديث رقم (٤٢٣)، ومسلم كتاب اللعان. حديث رقم (١٤٩٢).

ولذلك قسَّم العلماء رحمهم الله تعالى القرآن إلى قسمين: مكي ومدني:

فالمكي: ما نَزَلَ على النبي ﷺ قبل هجرته إلى المدينة.

والمدني: ما نزل على النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] من القسم المدني وإن كانت قد نزلت على النبي ﷺ في حجة الوداع بعرفة، ففي «صحيح البخاري»[(١)] عن عمر رضي الله عنه أنه قال: قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، نزلت وهو قائم بعرفة يوم جمعة.

ويتميز القسم المكي عن المدني من حيث الأسلوب والموضوع:

أ ـ أما من حيث الأسلوب فهو:

١ ـ الغالب في المكي قوة الأسلوب، وشدة الخطاب؛ لأن غالب المخاطبين مُعرِضون مستكبرون، ولا يليق بهم إلا ذلك، اقرأ سورتي المدثر، والقمر.

أما المدني: فالغالب في أسلوبه اللين، وسهولة الخطاب، لأن غالب المخاطبين مقبلون منقادون، اقرأ سورة المائدة.

٢ ـ الغالب في المكي قصر الآيات، وقوة المحاجة؛ لأن غالب المخاطبين معاندون مشاقون؛ فخوطبوا بما تقتضيه حالهم، اقرأ سورة الطور.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه. حديث رقم (٤٥)، ومسلم، كتاب التفسير، باب في تفسير آيات متفرقة. حديث رقم (٣٠١٥).

أما المدني: فالغالب فيه طول الآيات، وذكر الأحكام؛ مرسلة بدون محاجة؛ لأن حالهم تقتضي ذلك، اقرأ آية الدَّيْنِ في سورة البقرة.

ب ـ وأما من حيث الموضوع فهو:

١ ـ الغالب في المكي تقرير التوحيد والعقيدة السليمة، خصوصاً ما يتعلق بتوحيد الألوهية والإِيمان بالبعث؛ لأن غالب المخاطبين ينكرون ذلك.

أما المدني فالغالب فيه تفصيل العبادات والمعاملات؛ لأن المخاطبين قد تقرر في نفوسهم التوحيد والعقيدة السليمة، فهم في حاجة لتفصيل العبادات والمعاملات.

٢ ـ الإِفاضة في ذكر الجهاد وأحكامه والمنافقين وأحوالهم في القسم المدني لاقتضاء الحال؛ ذلك حيث شرع الجهاد، وظهر النفاق بخلاف القسم المكي.

فوائد معرفة المدني والمكي:

معرفة المكي والمدني نوع من أنواع علوم القرآن المهمة؛ وذلك لأن فيها فوائد منها:

١ ـ ظهور بلاغة القرآن في أعلى مراتبها، حيث يخاطِب كلَّ قوم بما تقتضيه حالهم من قوة وشدة، أو لين وسهولة.

٢ ـ ظهور حكمة التشريع في أسمى غاياته حيث يتدرج شيئاً فشيئاً بحسب الأهم على ما تقتضيه حال المخاطبين واستعدادهم للقبول والتنفيذ.

٣ ـ تربية الدعاة إلى الله تعالى، وتوجيههم إلى أن يتبعوا ما سلكه القرآن في الأسلوب والموضوع، من حيث

المخاطبين، بحيث يبدأ بالأهم فالأهم، وتستعمل الشدة في موضعها والسهولة في موضعها.

٤ ـ تمييز الناسخ من المنسوخ فيما لو وردت آيتان مكية ومدنية، يتحقق فيهما شروط النسخ، فإن المدنية ناسخة للمكية؛ لتأخر المدنية عنها.

الحكمة من نزول القرآن مفرقاً:

من تقسيم القرآن إلى مكي ومدني؛ يتبين أنه نزل على النبي ﷺ مفرقاً. ولنزوله على هذا الوجه حِكَمٌ كثيرة منها:

١ ـ تثبيت قلب النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ (يعني كذلك نزلناه مفرقاً) لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ـ ليصدوا الناس عن سبيل الله ـ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣].

٢ ـ أن يسهل على الناس حفظه وفهمه والعمل به، حيث يقرأ عليهم شيئاً فشيئاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

٣ ـ تنشيط الهمم لقبول ما نزل من القرآن وتنفيذه، حيث يتشوق الناس بلهف وشوق إلى نزول الآية؛ لا سيما عند اشتداد الحاجة إليها كما في آيات الإفك واللعان.

٤ ـ التدرج في التشريع حتى يصلَ إلى درجة الكمال، كما في آيات الخمر الذي نشأ الناس عليه، وألفوه، وكان من الصعب عليهم أن يُجابَهُوا بالمنع منه منعاً باتًّا، فنزل في شأنه أولاً قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، فكان في هذه الآية تهيئة للنفوس لقبول

تحريمه حيث إن العقل يقتضي أن لا يمارس شيئاً إثمه أكبر من نفعه.

ثم نزل ثانياً قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، فكان في هذه الآية تمرين على تركه في بعض الأوقات وهي أوقات الصلوات، ثم نزل ثالثاً قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝٩٢﴾ [المائدة: ٩٠ ـ ٩٢]، فكان في هذه الآيات المنع من الخمر منعاً باتًّا في جميع الأوقات، بعد أن هُيِّئت النفوس، ثم مُرِنَت على المنع منه في بعض الأوقات.

ترتيب القرآن:

ترتيب القرآن: تلاوته تالياً بعضه بعضاً حسبما هو مكتوب في المصاحف ومحفوظ في الصدور.

وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ترتيب الكلمات بحيث تكون كل كلمة في موضعها من الآية، وهذا ثابت بالنص والإجماع، ولا نعلم مخالفاً في وجوبه وتحريم مخالفته، فلا يجوز أن يقرأ: لله الحمد رب العالمين بدلاً من ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الفاتحة].

النوع الثاني: ترتيب الآيات بحيث تكون كل آية في موضعها من السورة، وهذا ثابت بالنص والإجماع، وهو واجب على القول الراجح وتحرم مخالفته ولا يجوز أن يقرأ: مالك يوم الدين الرحمن الرحيم بدلاً من: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝﴾

[الفاتحة] ففي «صحيح البخاري»[١] أن عبد الله بن الزبير قال لعثمان بن عفان رضي الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]: قد نسختها الآية الأخرى يعني قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] وهذه قبلها في التلاوة قال: فَلِمَ تكتبها؟ فقال عثمان رضي الله عنه: يا ابن أخي لا أغيِّر شيئاً منه من مكانه.

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي من حديث عثمان رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان ينزل عليه السُّوَر ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء، دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا[٢].

النوع الثالث: ترتيب السُّوَرُ بحيث تكون كل سورة في موضعها من المصحف، وهذا ثابت بالاجتهاد فلا يكون واجباً. وفي «صحيح مسلم»[٣] عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: أنه صلى مع النبي ﷺ ذات ليلة، فقرأ النبي ﷺ البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، وروى البخاري[٤] تعليقاً عن الأحنف: أنه قرأ في

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشر . .**﴾ الآية حديث رقم (٤٥٣٠).

(٢) أحمد (٣٩٩)، وأبو داود (٧٨٦)، والنسائي في السنن الكبرى (٨٠٠٧)، والترمذي (٣٠٨٦).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل. حديث رقم (٧٧٢).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب (الجمع بين السورتين في الركعة. .).

الأولى بالكهف، وفي الثانية بيوسف أو يونس، وذكر أنه صلى مع عمر بن الخطاب الصبح بهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «تجوز قراءة هذه قبل هذه، وكذا في الكتابة. ولهذا تنوعت مصاحف الصحابة رضي الله عنهم في كتابتها، لكن لمَّا اتفقوا على المِصْحَف في زمن عثمان رضي الله عنه، صار هذا مما سَنَّه الخلفاء الراشدون، وقد دل الحديث على أن لهم سنة يجب اتباعها» اهـ.

٥ ـ كتابة القرآن وجمعه

لكتابة القرآن وجمعه ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: في عهد النبي ﷺ، وكان الاعتماد في هذه المرحلة على الحفظ أكثر من الاعتماد على الكتابة؛ لقوة الذاكرة وسرعة الحفظ وقلة الكاتبين ووسائل الكتابة، ولذلك لم يجمع في مصحف بل كان من سمع آية حفظها، أو كتبها فيما تيسر له من عُسُب النخل، ورقاع الجلود، ولِخاف الحجارة، وكِسر الأكتاف وكان القراء عدداً كبيراً.

ففي «صحيح البخاري»[1] عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ بعث سبعين رجلاً يقال لهم: القرَّاء، فعرض لهم حيَّان من بني سليم رِعل وذكوان عند بئر معونة فقتلوهم، وفي الصحابة غيرهم كثير كالخلفاء الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأُبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي الدرداء رضي الله عنهم.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب العون بالمدد. حديث رقم (٣٠٦٤).

المرحلة الثانية: في عهد أبي بكر رضي الله عنه في السنة الثانية عشرة من الهجرة. وسببه أنه قُتِلَ في وقعة اليمامة عددٌ كبيرٌ من القراء منهم، سالم مولى أبي حذيفة؛ أحد من أمر النبي ﷺ بأخذ القرآن منهم.

فأمر أبو بكر رضي الله عنه بجمعه لئلا يضيع، ففي «صحيح البخاري»[1] أن عمر بن الخطاب أشار على أبي بكر رضي الله عنهما بجمع القرآن بعد وقعة اليمامة، فتوقف تورعاً، فلم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله صدر أبي بكر لذلك، فأرسل إلى زيد بن ثابت فأتاه، وعنده عمر فقال له أبو بكر: إنك رجلٌ شابٌّ عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فَتَتَبَّع القرآن فاجمعه، قال: فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللِّخاف وصدور الرجال، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما. رواه البخاري مطولاً.

وقد وافق المسلمون أبا بكر على ذلك وعدُّوه من حسناته، حتى قال علي رضي الله عنه: أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله.

المرحلة الثالثة: في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في السنة الخامسة والعشرين، وسببه اختلاف الناس في القراءة بحسب اختلاف الصحف التي في أيدي الصحابة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم..**﴾ الآية.

رضي الله عنهم فخيفت الفتنة، فأمر عثمان رضي الله عنه أن تجمع هذه الصحف في مصحف واحد؛ لئلا يختلف الناس، فيتنازعوا في كتاب الله تعالى ويتفرقوا.

ففي «صحيح البخاري»[١] أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان من فتح أرمينية وأذربيجان، وقد أفزعه اختلافهم في القراءة، فقال: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة، أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، ففعلت، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وكان زيد بن ثابت أنصاريًا والثلاثة قرشيين ـ وقال عثمان للرهط الثلاثة القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش؛ فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق.

وقد فعل عثمان رضي الله عنه هذا بعد أن استشار الصحابة رضي الله عنهم، لما روى ابن أبي داود[٢] عن علي رضي الله عنه

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن. حديث رقم (٤٩٨٧).

(٢) أخرجه الخطيب في كتابه «الفصل للوصل المدرج» ٢/ ٩٥٤؛ وفي الإسناد المحفوظ «محمد بن أبان الجعفي» (علل الدارقطني ٣/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠): قال ابن معين: «ضعيف» (الجرح والتعديل للرازي ٧/ ٢٠٠).
أخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف ص٢٢.

أنه قال: واللهِ ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملإٍ مِنَّا، قال: أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا اختلاف، قلنا: فَنِعْمَ ما رأيت.

وقال مصعب بن سعد[١]: أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، أو قال: لم ينكر ذلك منهم أحد، وهو من حسنات أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه التي وافقه المسلمون عليها، وكانت مُكَمِّلة لجمع خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر رضي الله عنه.

والفرق بين جمعه وجمع أبي بكر رضي الله عنهما أن الغرض من جمعه في عهد أبي بكر رضي الله عنه تقييد القرآن كله مجموعاً في مصحف، حتى لا يضيع منه شيء دون أن يحمل الناس على الاجتماع على مصحف واحد؛ وذلك أنه لم يظهر أثرٌ لاختلاف قراءاتهم يدعو إلى حملهم على الاجتماع على مصحف واحد.

وأما الغرض من جمعه في عهد عثمان رضي الله عنه فهو تقييد القرآن كله مجموعاً في مصحف واحد، يحمل الناس على الاجتماع عليه لظهور الأثر المخيف باختلاف القراءات.

وقد ظهرت نتائج هذا الجمع حيث حصلت به المصلحة العظمى للمسلمين من اجتماع الأمة، واتفاق الكلمة، وحلول الأُلفة، واندفعت به مفسدة كبرى من تفرق الأمة، واختلاف الكلمة، وفشو البغضاء، والعداوة.

---

(١) أخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف ص١٢.

وقد بقي على ما كان عليه حتى الآن متَّفقاً عليه بين المسلمين متواتراً بينهم، يتلقاه الصغير عن الكبير، لم تعبث به أيدي المفسدين، ولم تطمسه أهواء الزائغين. فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين.

❁ ❁ ❁

التفسير

التفسير لغة: من الفَسْر، وهو: الكشف عن المغطىٰ.

وفي الاصطلاح. بيان معاني القرآن الكريم.

وَتَعَلُّمُ التفسير واجب لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩] ولقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

وجه الدلالة من الآية الأولى أن الله تعالى بيَّن أن الحكمة من إنزال هذا القرآن المبارك؛ أن يتدبر الناس آياته، ويتَّعظوا بما فيها.

والتدبر هو التأمل في الألفاظ للوصول إلى معانيها، فإذا لم يكن ذلك، فاتت الحكمة من إنزال القرآن، وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لها.

ولأنه لا يمكن الاتِّعاظ بما في القرآن بدون فهم معانيه.

ووجه الدلالة من الآية الثانية أن الله تعالى وبخ أولئك الذين لا يتدبرون القرآن، وأشار إلى أن ذلك من الإقفال على قلوبهم، وعدم وصول الخير إليها.

وكان سلف الأمة على تلك الطريقة الواجبة، يتعلمون القرآن ألفاظه ومعانيه؛ لأنهم بذلك يتمكنون من العمل بالقرآن على مراد الله به فإن العمل بما لا يعرف معناه غير ممكن.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يُقرِؤونَنَا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات، لم يجاوزوها، حتى يتعلموا

ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب، ولا يستشرحوه فكيف بكلام الله تعالى الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم.

ويجب على أهل العلم، أن يبينوه للناس عن طريق الكتابة أو المُشَافهة لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وتبيين الكتاب للناس شامل لتبيين ألفاظه ومعانيه، فيكون تفسير القرآن، مما أخذ الله العهد على أهل العلم ببيانه.

والغرض من تعلم التفسير هو الوصول إلى الغايات الحميدة والثمرات الجليلة، وهي التصديق بأخباره والانتفاع بها وتطبيق أحكامه على الوجه الذي أراده الله؛ ليُعبَدَ اللَّهُ بها على بصيرة.

الواجب على المسلم في تفسير القرآن

الواجب على المسلم في تفسير القرآن أن يُشعِر نفسه حين يُفَسر القرآن بأنه مترجم عن الله تعالى، شاهد عليه بما أراد من كلامه فيكون مُعظِّماً لهذه الشهادة خائفاً من أن يقول على الله بلا علم، فيقع فيما حرم الله، فَيُخزَى بذلك يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر: ٦٠].

المرجع في تفسير القرآن

يرجع في تفسير القرآن إلى ما يأتي:

أ ـ كلام الله تعالى، فيفسر القرآن بالقرآن، لأن الله تعالى هو الذي أنزله، وهو أعلم بما أراد به.

ولذلك أمثلة منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢]، فقد فسر أولياء الله بقوله في الآية التي تليها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٣].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾﴾ [الطارق: ٢]، فقد فسر الطارق بقوله في الآية الثانية: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ [الطارق: ٣].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: ٣٠]، فقد فسر دحاها بقوله في الآيتين بعدها: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: ٣١، ٣٢].

ب ـ كلام رسول الله ﷺ، فيفسر القرآن بالسُّنة، لأن رسول الله ﷺ مبلِّغ عن الله تعالى، فهو أعلم الناس بمراد الله تعالى بكلامه.

ولذلك أمثلة منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فقد فسر النبي ﷺ الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى، فيما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم صريحاً من حديث أبي موسى[(١)]،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/١٩٤٥، حديث رقم ١٠٣٤١؛ وأخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد المجلد الثاني ٣/٤٥٨ ـ ٤٥٩، حديث رقم ٧٨٥.

وأُبي بن كعب[١]. ورواه ابن جرير من حديث كعب بن عجرة[٢].

وفي «صحيح مسلم»[٣] عن صهيب بن سنان عن النبي ﷺ في حديث قال فيه: «فيكشف الحجاب فما أُعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»، ثم تلا هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] فقد فسر النبي ﷺ القوة بالرمي. رواه مسلم[٤]، وغيره من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

جـ ـ كلام الصحابة رضي الله عنهم لا سيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير، لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم، ولأنهم بعد الأنبياء أصدق الناس في طلب الحق، وأسلمهم من الأهواء، وأطهرهم من المخالفة التي تحول بين المرء وبين التوفيق للصواب.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٦٩، حديث رقم ١٧٦٣٣؛ واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد، المجلد الثاني ٣/ ٤٥٦.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٦٨، حديث رقم ١٧٦٣١؛ واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد، المجلد الثاني ٣/ ٤٥٦ ـ ٤٥٧.

(٣) أخرجه مسلم ص٧٠٩، كتاب الإيمان، باب ٨٠: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، حديث رقم ٤٤٩ [٢٩٧] ١٨١، ٤٥٠ [٢٩٨] ١٨١.

(٤) أخرجه مسلم ص١٠٢٠، كتاب الإمارة، باب ٥٢: فضل الرمي والحث عليه...، حديث رقم ٤٩٤٦ [١٦٧] ١٩١٧؛ والترمذي ص١٩٦٣، كتاب تفسير القرآن، باب ٨: ومن سورة الأنفال، حديث رقم ٣٠٨٣؛ وفي سند الترمذي مبهم؛ وأخرجه أبو داود ص١٤٠٩، كتاب الجهاد، باب ٢٣: في الرمي، حديث رقم ٢٥١٤؛ وابن ماجه ص٢٦٤٧، كتاب الجهاد، باب ١٩: الرمي في سبيل الله، حديث رقم ٢٨١٣؛ وأخرجه غيرهم أيضاً.

ولذلك أمثلة كثيرة جدًّا منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣]، فقد صَحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه فسر الملامسة بالجماع[١].

د ـ كلام التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم، لأن التابعين خير الناس بعد الصحابة، وأسلم من الأهواء ممن بعدهم. ولم تكن اللغة العربية تغيرت كثيراً في عصرهم، فكانوا أقرب إلى الصواب في فهم القرآن ممن بعدهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: إذا أجمعوا ـ يعني التابعين ـ على الشيء فلا يُرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السُّنَّة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

وقال أيضاً: من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك، كان مخطئاً في ذلك، بل مبتدعاً، وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه، ثم قال: فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم، فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً.

هـ ـ ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللغوية حسب السياق لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١/ ١٣٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ١٩٢).

(٢) مجموع الفتاوى

بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف: ٣]، وقوله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

فإن اختلف المعنى الشرعي واللغوي، أُخذ بما يقتضيه الشرعي، لأن القرآن نزل لبيان الشرع، لا لبيان اللغة إلا أن يكون هناك دليل يترجَّح به المعنى اللغوي فيؤخذ به.

مثال ما اختلف فيه المعنيان، وقدم الشرعي: قوله تعالى في المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤]، فالصلاة في اللغة الدعاء، وفي الشرع هنا الوقوف على الميت للدعاء له بصفة مخصوصة فيقدم المعنى الشرعي، لأنه المقصود للمتكلم المعهود للمخاطب، وأما منع الدعاء لهم على وجه الإطلاق فمن دليل آخر.

ومثال ما اختلف فيه المعنيان، وقدم فيه اللغوي بالدليل: قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، فالمراد بالصلاة هنا الدعاء، وبدليل ما رواه مسلم[1] عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: كان النبي ﷺ إذا أُتي بصدقة قوم، صلَّى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صلِّ على آل أبي أوفى».

وأمثلة ما اتفق فيه المعنيان الشرعي واللغوي كثيرة: كالسماء والأرض والصدق والكذب والحجر والإنسان.

---

(١) أخرجه البخاري ص٣٤٢، كتاب المغازي، باب ٣٦: غزوة الحديبية، حديث رقم ٤١٦٦؛ ومسلم ص٨٤٩، كتاب الزكاة، باب ٥٤: الدعاء لمن أتى بصدقة، حديث رقم ٢٤٩٢ [١٧٦] ١٠٧٨.

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: اختلاف في اللفظ دون المعنى، فهذا لا تأثير له في معنى الآية. مثاله قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] قال ابن عباس: قضى: أمر، وقال مجاهد: وصَّى، وقال الربيع بن أنس: أوجب، وهذه التفسيرات معناها واحد، أو متقارب فلا تأثير لهذا الاختلاف في معنى الآية.

القسم الثاني: اختلاف في اللفظ والمعنى، والآية تحتمل المعنيين لعدم التضاد بينهما، فتحمل الآية عليهما، وتفسر بهما، ويكون الجمع بين هذا الاختلاف أن كل واحد من القولين ذكر على وجه التمثيل، لما تعنيه الآية أو التنويع، مثاله قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]، قال ابن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل، وعن ابن عباس أنه: رجل من أهل اليمن، وقيل: رجل من أهل البلقاء.

والجمع بين هذه الأقوال: أن تحمل الآية عليها كلها، لأنها تحتملها من غير تضاد، ويكون كل قول ذكر على وجه التمثيل.

ومثال آخر: قوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ [النبأ: ٣٤] قال ابن عباس: دهاقاً مملوءة، وقال مجاهد: متتابعة، وقال عكرمة: صافية.

ولا منافاة بين هذه الأقوال، والآية تحتملها فَتُحمل عليها جميعاً ويكون كل قول لنوع من المعنى.

القسم الثالث: اختلاف اللفظ والمعنى، والآية لا تحتمل المعنيين معاً للتضاد بينهما، فتحمل الآية على الأرجح منهما بدلالة السياق أو غيره.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: ١٧٣] قال ابن عباس: غير باغ في الميتة ولا عَادٍ في أكله، وقيل: غير خارج على الإمام ولا عاصٍ بسفره، والأرجح الأول، لأنه لا دليل في الآية على الثاني، ولأن المقصود بحل ما ذكر دفع الضرورة، وهي واقعة في حال الخروج على الإمام، وفي حال السفر المحرم وغير ذلك.

ومثال آخر: قوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧] قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الذي بيده عقدة النكاح: هو الزوج، وقال ابن عباس: هو الولي، والراجح الأول لدلالة المعنى عليه، ولأنه قد روي فيه حديث عن النبي ﷺ.

ترجمة القرآن

الترجمة لغة: تطلق على معانٍ ترجع إلى البيان والإيضاح.

وفي الاصطلاح: التعبير عن الكلام بلغة أخرى.

وترجمة القرآن: التعبير عن معناه بلغة أخرى.

والترجمة نوعان:

أحدهما: ترجمة حرفية، وذلك بأن يوضع ترجمة كل كلمة بإزائها.

الثاني: ترجمة معنوية، أو تفسيريَّة، وذلك بأن يعبر عن معنى الكلام بلغة أخرى من غير مراعاة المفردات والترتيب.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف: ٣].

فالترجمة الحرفية: أن يترجم كلمات هذه الآية كلمة كلمة فيترجم (إنا) ثم (جعلناه) ثم (قرآناً) ثم (عربياً) وهكذا.

والترجمة المعنوية: أن يترجم معنى الآية كلها بقطع النظر عن معنى كل كلمة وترتيبها، وهي قريبة من معنى التفسير الإِجمالي.

حكم ترجمة القرآن:

الترجمة الحرفية بالنسبة للقرآن الكريم مستحيلة عند كثير من أهل العلم، وذلك لأنه يشترط في هذا النوع من الترجمة شروط لا يمكن تحققها معها وهي:

أ ـ وجود مفردات في اللغة المترجم إليها بإزاء حروف اللغة المترجم منها.

ب ـ وجود أدوات للمعاني في اللغة المترجم إليها مساويةٍ أو مشابهة للأدوات في اللغة المترجم منها.

جـ ـ تماثل اللغتين المترجم منها وإليها في ترتيب الكلمات حين تركيبها في الجمل والصفات والإِضافات وقال بعض العلماء: إن الترجمة الحرفية يمكن تحققها في بعض آية، أو نحوها، ولكنها وإن أمكن تحققها في نحو ذلك ـ محرمة لأنها لا يمكن أن تؤدي المعنى بكماله، ولا أن تؤثر في النفوس تأثير القرآن العربي المبين، ولا ضرورة تدعو إليها؛ للاستغناء عنها بالترجمة المعنوية.

وعلى هذا فالترجمة الحرفية إن أمكنت حسًّا في بعض الكلمات فهي ممنوعة شرعاً، اللهم إلا أن يترجم كلمة خاصة بلغة من يخاطبه ليفهمها، من غير أن يترجم التركيب كله فلا بأس.

وأما الترجمة المعنوية للقرآن فهي جائزة في الأصل لأنه لا محذور فيها، وقد تجب حين تكون وسيلة إلى إبلاغ القرآن والإِسلام لغير الناطقين باللغة العربية؛ لأن إبلاغ ذلك واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

لكن يشترط لجواز ذلك شروط:

الأول: أن لا تجعل بديلاً عن القرآن بحيث يستغنى بها عنه، وعلى هذا فلا بد أن يكتب القرآن باللغة العربية وإلى جانبه هذه الترجمة؛ لتكون كالتفسير له.

الثاني: أن يكون المُتَرْجِمُ عالماً بمدلولات الألفاظ في اللغتين المترْجَم منها وإليها، وما تقتضيه حسب السياق.

الثالث: أن يكون عالماً بمعاني الألفاظ الشرعية في القرآن.

ولا تُقْبَلُ الترجمة للقرآن الكريم إلا من مأمون عليها، بحيث يكون مسلماً مستقيماً في دينه.

❁ ❁ ❁

المشتهرون بالتفسير من الصحابة

اشتهر بالتفسير جماعة من الصحابة، ذكر السيوطي منهم: الخلفاء الأربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضي الله عنهم، إلا أن الرواية عن الثلاثة الأولين لم تكن كثيرة؛ لانشغالهم بالخلافة، وقلة الحاجة إلى النقل في ذلك لكثرة العالمين بالتفسير.

ومن المشتهرين بالتفسير من الصحابة أيضاً: عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس، فلنترجم لحياة علي بن أبي طالب مع هذين رضي الله عنهم.

١ ـ علي بن أبي طالب:

هو ابن عم الرسول ﷺ، وزوج ابنته فاطمة رضي الله عنه وعنها، وأول من آمن به من قرابته، اشتهر بهذا الاسم. وكنيته أبو الحسن، وأبو تراب.

ولد قبل بعثة النبي ﷺ بعشر سنين، وتربى في حِجْر النبي ﷺ، وشهد معه المشاهد كلها، وكان صاحب اللواء في معظمها، ولم يتخلف إلا في غزوة تبوك، خلفه النبي ﷺ في أهله، وقال له: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»[١]، نقل له من المناقب والفضائل

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك. حديث رقم (٤٤١٦)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب. حديث رقم (٦٢١٨).

ما لم ينقل لغيره، وهلك به طائفتان: النواصب الذين نصبوا له العداوة، وحاولوا إخفاء مناقبه، والروافض الذين بالغوا فيما زعموه من حبه، وأحدثوا له من المناقب التي وضعوها ما هو في غنى عنه، بل هو عند التأمل من المثالب.

اشتهر رضي الله عنه بالشجاعة والذكاء مع العلم والزكاء حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن، ومن أمثلة النحويين: قضية ولا أبا حسن لها، وروي عن علي أنه كان يقول: سلوني سلوني وسلوني عن كتاب الله تعالى، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أَنَزَلت بليل أو نهار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا جاءنا الثبت عن علي لم نعدل به، وروى عنه أنه قال: ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب. كان أحد أهل الشورى الذين رشحهم عمر رضي الله عنه لتعيين الخليفة، فعرضها عليه عبد الرحمن بن عوف فأبى إلا بشروط لم يقبل بعضها، ثم بايع عثمان فبايعه علي والناس، ثم بويع بالخلافة بعد عثمان حتى قتل شهيداً في الكوفة ليلة السابع عشر من رمضان، سنة أربعين من الهجرة رضي الله عنه.

٢ ـ عبد الله بن مسعود:

هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، وأُمه أُمُّ عَبْدٍ كان ينسب إليها أحياناً[١]، وكان من السابقين الأولين في الإِسلام، وهاجر الهجرتين، وشهد بدراً، وما بعدها من المشاهد.

تلقى من النبي ﷺ بضعاً وسبعين سورة من القرآن، وقال له

(١) وذلك لأن أباه مات في الجاهلية، وأدركت أمُّه الإِسلامَ فأسلمت.

النبي ﷺ في أول الإسلام: «إنك لغلام مُعَلَّم»[١]، وقال: «من أحب أن يقرأ القرآن غضًا كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أُم عَبْد»[٢]، وفي «صحيح البخاري»[٣] أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله، وقال: والله الذي لا إله غيره ما أُنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أُنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن أُنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبتُ إليه، وكان ممن خَدَم النبي ﷺ فكان صاحبُ نعليه وطهوره ووساده حتى قال أبو موسى الأشعري: قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حيناً ما نرى إلا أن عبد الله بن مسعود رجل من أهل بيت النبي ﷺ لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي ﷺ[٤]، ومن أجل ملازمته النبي ﷺ تأثر به وبهديه، حتى قال فيه حذيفة: ما أَعرف أحداً أقرب هدياً وسمتاً ودلّاً بالنبي ﷺ من ابن أُم عَبْد[٥].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٩، ٤٦٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٣٨).

(٣) أخرجه البخاري ص٤٣٣ ـ ٤٣٤، كتاب فضائل القرآن، باب ٨: القراء من أصحاب رسول الله ﷺ، حديث رقم ٥٠٠٠.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضل عائشة رضي الله عنها. حديث رقم (٣٧٦٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما. حديث رقم (٢٤٦٠).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضل عائشة. حديث رقم (٢٧٦٢).

بعثه عمر بن الخطاب إلى الكوفة؛ ليعلمهم أُمور دينهم، وبعث عماراً أميراً وقال: إنهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ، فاقتدوا بهما، ثم أَمَّرهُ عثمان على الكوفة، ثم عزله، وأَمَرَهُ بالرجوع إلى المدينة، فتوفي فيها سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع وهو ابن بضع وسبعين سنة.

٣ ـ عبد الله بن عباس:

هو ابن عم رسول الله ﷺ ولد قبل الهجرة بثلاث سنين لازم النبي ﷺ لأنه ابن عمه، وخالته ميمونة تحت النبي ﷺ، وضمه النبي ﷺ إلى صدره وقال: اللهم علِّمه الحكمة، وفي رواية: الكتاب[١]، وقال له حين وضع له وضوءه: اللهم فَقِّههُ في الدين[٢]، فكان بهذا الدعاء المبارك حَبْرَ الأمة في نشر التفسير والفقه، حيث وفقه الله تعالى للحرص على العلم والجد في طلبه والصبر على تلقيه وبذله، فنال بذلك مكاناً عالياً حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يدعوه إلى مَجَالِسه ويأخذ بقوله، فقال المهاجرون: ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس؟! فقال لهم: ذاكم فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول، ثم دعاهم ذات يوم فأدخله معهم ليريهم منه ما رآه، فقال عمر: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١] حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا فتح علينا، وسكت بعضهم، فقال عمر لابن عباس: أكذلك

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما. حديث رقم (٣٧٥٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء. حديث رقم (١٤٣).

تقول؟ قال: لا، قال: فما تقول؟ قال: هو أجل رسول الله ﷺ، أعلمه الله له إذا جاء نصر الله، والفتح فتح مكة، فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك، واستغفره إنه كان تواباً، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لَنِعْمَ تُرجُمان القرآن ابن عباس، لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد، أي ما كان نظيراً له، هذا مع أن ابن عباس عاش بعده ستًّا وثلاثين سنة، فما ظنك بما اكتسب بعده من العلم.

وقال ابن عمر لسائل سأله عن آية: انطلق إلى ابن عباس فاسأله فإنه أعلم من بقي بما أُنزل على محمد ﷺ، وقال عطاء: ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس فقهاً وأعظم خشية، إنَّ أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشِّعر عنده، يصدرهم كلهم من وادٍ واسع.

وقال أبو وائل: خطبنا ابن عباس وهو على الموسم (أي والٍ على موسم الحج من عثمان رضي الله عنه) فافتتح سورة النور فجعل يقرأ ويفسر، فجعلت أقول ما رأيت، ولا سمعت كلام رجلٍ مثله، ولو سمعته فارس والروم والترك لأسلمت، ولَّاه عثمان على موسم الحج سنة خمس وثلاثين وولاه علي على البصرة فلمَّا قتل مضى إلى الحجاز، فأقام في مكة، ثم خرج منها إلى الطائف فمات فيها سنة ثمانٍ وستين عن إحدى وسبعين سنة.

المشتهرون بالتفسير من التابعين

اشتهر بالتفسير من التابعين كثيرون فمنهم:

أ ـ أهل مكة وهم أتباع ابن عباس كمجاهد وعكرمة وعطاء بن أبي رباح.

ب ـ أهل المدينة وهم أتباع أُبي بن كعب، كزيد بن أسلم وأَبي العالية ومحمد بن كعب القرظي.

جـ ـ أهل الكوفة وهم أتباع ابن مسعود، كقتادة وعلقمة والشعبي.

فلنترجم لحياة اثنين من هؤلاء: مجاهد وقتادة.

١ ـ مجاهد:

هو مجاهد بن جبر المكي مولى السائب بن أبي السائب المخزومي ولد سنة إحدى وعشرين من الهجرة، وأخذ تفسير القرآن عن ابن عباس رضي الله عنهما، روى ابن إسحاق عنه أنه قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أُوقفه عند كل آية وأسأله عنها، وكان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، واعتمد تفسيره الشافعي والبخاري وكان كثيراً ما ينقل عنه في «صحيحه»، وقال الذهبي في آخر ترجمته: أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به، توفي في مكة وهو ساجد سنة أربع ومئة، عن ثلاث وثمانين سنة.

٢ ـ قتادة:

هو قتادة بن دعامة السدوسي البصري ولد أكمه أي أعمى سنة إحدى وستين، وَجَدَّ في طلب العلم، وكان له حافظة قوية حتى قال عن نفسه: ما قلت لمحدث قط أَعد لي، وما سمعت أُذناي شيئاً قط إلا وعاه قلبي، وذكره الإمام أحمد فأطنب في ذكره فجعل ينشر من علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير ووصفه بالحفظ والفقه، وقال: قلَّما تجد من يتقدمه أما المِثْل فلعل، وقال: هو أَحفظُ أَهل البصرة، لم يسمع شيئاً إلا

حفظه، وتوفي في واسط سنة سبع عشرة ومئة، عن ست وخمسين سنة.

❁ ❁ ❁

القرآن محكم ومتشابه

يتنوع القرآن الكريم باعتبار الإحكام والتشابه إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الإحكام العام الذي وصف به القرآن كله، مثل قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقوله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس: ١]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف: ٤].

ومعنى هذا الإحكام الإتقان والجودة في ألفاظه ومعانيه فهو في غاية الفصاحة والبلاغة، أخباره كلها صدق نافعة، ليس فيها كذب، ولا تناقض، ولا لغو لا خير فيه، وأحكامه كلُّها عدل، وحكمه ليس فيها جور ولا تعارض ولا حكم سفيه.

النوع الثاني: التشابه العام الذي وصف به القرآن كله، مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣] ومعنى هذا التشابه، أن القرآن كله يشبه بعضه بعضاً في الكمال والجودة والغايات الحميدة ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢].

النوع الثالث: الإحكام الخاص ببعضه، والتشابه الخاص ببعضه، مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ

هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧].

ومعنى هذا الإحكام أن يكون معنى الآية واضحاً جلياً، لا خفاء فيه، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣] وأمثال ذلك كثيرة.

ومعنى هذا التشابه: أن يكون معنى الآية مشتبهاً خفيًّا بحيث يتوهم منه الواهم ما لا يليق بالله تعالى، أو كتابه أو رسوله، ويفهم منه العالم الراسخ في العلم خلاف ذلك.

مثاله: فيما يتعلق بالله تعالى، أن يتوهم واهم من قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] أن لله يدين مماثلتين لأيدي المخلوقين.

ومثاله فيما يتعلق بكتاب الله تعالى، أن يتوهم واهم تناقض القرآن وتكذيب بعضه بعضاً حين يقول: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩]، ويقول في موضع آخر: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النساء: ٧٨].

ومثاله فيما يتعلق برسول الله، أن يتوهم واهم من قوله

تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس: ٩٤] ظاهره أن النبي ﷺ كان شاكًّا فيما أنزل إليه.

موقف الراسخين في العلم والزائغين من المتشابه

إن موقف الراسخين في العلم من المتشابه وموقف الزائغين منه بينه الله تعالى فقال في الزائغين: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]، وقال في الراسخين في العلم: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]. فالزائغون يتخذون من هذه الآيات المشتبهات وسيلة للطعن في كتاب الله، وفتنة الناس عنه، وتأويله لغير ما أراد الله تعالى به، فَيضِلون، ويُضِلونَ.

وأما الراسخون في العلم، فيؤمنون بأن ما جاء في كتاب الله تعالى فهو حق، وليس فيه اختلاف، ولا تناقض؛ لأنه من عند الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وما جاء مشتبهاً ردوه إلى المحكم؛ ليكون الجميع محكماً.

ويقولون في المثال الأول: إن لله تعالى يدين حقيقيتين على ما يليق بجلاله وعظمته، لا تماثلان أيدي المخلوقين، كما أن له ذاتاً لا تماثل ذوات المخلوقين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ويقولون في المثال الثاني: إن الحسنة والسيئة كلتاهما بتقدير الله عزّ وجل، لكن الحسنة سببها التفضل من الله تعالى

على عباده، أما السيئة فسببها فعل العبد كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]، فإضافة السيئة إلى العبد من إضافة الشيء إلى سببه، لا من إضافته إلى مُقَدِّره، أما إضافة الحسنة والسيئة إلى الله تعالى فمن باب إضافة الشيء إلى مقدره، وبهذا يزول ما يوهم الاختلاف بين الآيتين لانفكاك الجهة.

ويقولون في المثال الثالث: إن النبي ﷺ لم يقع منه شكٌّ فيما أنزل إليه، بل هو أعلم الناس به، وأقواهم يقيناً كما قال الله تعالى في نفس السورة: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [يونس: ١٠٤]، المعنى إن كنتم في شكٍّ منه فأنا على يقين منه، ولهذا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، بل أكفر بهم وأعبد الله.

ولا يلزم من قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [يونس: ٩٤] أن يكون الشكُّ جائزاً على الرسول ﷺ، أو واقعاً منه. ألا ترى قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ٨١﴾ [الزخرف: ٨١] هل يلزم منه أن يكون الولد جائزاً على الله تعالى أو حاصلاً؟ كلَّا، فهذا لم يكنْ حاصلاً، ولا جائزاً على الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ٩٣﴾ [مريم: ٩٢، ٩٣].

ولا يلزم من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] أن يكون الامتراء واقعاً من الرسول ﷺ؛ لأن النهي عن الشيء قد يوجه إلى من لم يقع منه. ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا

تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [القصص: ٨٧] ومن المعلوم أنهم لم يصدُّوا النبي ﷺ عن آيات الله، وأن النبي ﷺ لم يقع منه شرك. والغرض من توجيه النهي إلى من لا يقع منه: التنديد بمن وقع منهم والتحذير من منهاجهم، وبهذا يزول الاشتباه، وظن ما لا يليق بالرسول ﷺ.

أنواع التشابه في القرآن

التشابه الواقع في القرآن نوعان:

أحدهما: حقيقي وهو ما لا يمكن أن يعلمه البشر كحقائق صفات الله عز وجل، فإننا وإن كنا نعلم معاني هذه الصفات، لكننا لا ندرك حقائقها، وكيفيتها لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣] ولهذا لما سُئِل الإمام مالك رحمه الله تعالى عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥] كيف استوى قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وهذا النوع لا يسأل عن استكشافه لتعذر الوصول إليه.

النوع الثاني: نسبي وهو ما يكون مشتبهاً على بعض الناس دون بعض، فيكون معلوماً للراسخين في العلم دون غيرهم، وهذا النوع يسأل عن استكشافه وبيانه؛ لإمكان الوصول إليه، إذ لا يوجد في القرآن شيء لا يتبين معناه لأحد من الناس، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال:

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٨، ١٩]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء: ١٧٤].

وأمثلة هذا النوع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] حيث اشتبه على أهل التعطيل، ففهموا منه انتفاء الصفات عن الله تعالى، وادَّعوا أن ثبوتها يستلزم المماثلة، وأعرضوا عن الآيات الكثيرة الدالة على ثبوت الصفات له، وأن إثبات أصل المعنى لا يستلزم المماثلة.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣] حيث اشتبه على الوعيدية، ففهموا منه أن قاتل المؤمن عمداً مخلد في النار، وطردوا ذلك في جميع أصحاب الكبائر، وأعرضوا عن الآيات الدالة على أن كل ذنب دون الشرك فهو تحت مشيئة الله تعالى.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠] حيث اشتبه على الجبرية، ففهموا منه أن العبد مجبور على عمله، وادعوا أنه ليس له إرادة ولا قدرة عليه، وأعرضوا عن الآيات الدالة على أن للعبد إرادة وقدرة، وأن فعل العبد نوعان: اختياري، وغير اختياري.

والراسخون في العلم أصحاب العقول، يعرفون كيف يخرجون هذه الآيات المتشابهة إلى معنى يتلاءم مع الآيات الأخرى، فيبقى القرآن كله محكماً لا اشتباه فيه.

الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه

لو كان القرآنُ كلُّه محكماً لفاتت الحكمة من الاختبار به تصديقاً وعملاً لظهور معناه، وعدم المجال لتحريفه، والتمسك بالمتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، ولو كان كلُّه متشابهاً لفات كونه بياناً، وهدى للناس، ولما أمكن العمل به، وبناء العقيدة السليمة عليه، ولكن الله تعالى بحكمته جعل منه آيات محكمات، يرجع إليهن عند التشابه، وأُخر متشابهات امتحاناً للعباد؛ ليتبين صادق الإيمان ممن في قلبه زيغ، فإن صادق الإيمان يعلم أن القرآن كله من عند الله تعالى، وما كان من عند الله فهو حق، ولا يمكن أن يكون فيه باطل، أو تناقض لقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، وقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وأما من في قلبه زيغ، فيتخذ من المتشابه سبيلاً إلى تحريف المحكم واتباع الهوى في التشكيك في الأخبار والاستكبار عن الأحكام، ولهذا تجد كثيراً من المنحرفين في العقائد والأعمال، يحتجون على انحرافهم بهذه الآيات المتشابهة.

❁ ❁ ❁

موهم التعارض في القرآن

التعارض في القرآن أن تتقابل آيتان، بحيث يمنع مدلول إحداهما مدلول الأخرى، مثل أن تكون إحداهما مثبتة لشيء والأخرى نافية له.

ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما خبري، لأنه يلزم كون إحداهما كذباً، وهو مستحيل في أخبار الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] ـ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما حُكْمِي؛ لأن الأخيرة منهما ناسخة للأولى قال الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦] وإذا ثبت النسخ كان حكم الأولى غير قائم ولا معارض للأخيرة.

وإذا رأيت ما يوهم التعارض من ذلك، فحاول الجمع بينهما، فإن لم يتبين لك وجب عليك التوقف، وتكلَ الأمر إلى عالمه.

وقد ذكر العلماء رحمهم الله أمثلة كثيرة لما يوهم التعارض، بينوا الجمع في ذلك. ومن أجمع ما رأيت في هذا الموضوع كتاب «دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب» للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى.

فمن أمثلة ذلك قوله تعالى في القرآن: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقوله فيه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ

هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥] فجعل هداية القرآن في الآية الأولى خاصة بالمتقين، وفي الثانية عامة للناس، والجمع بينهما أن الهداية في الأولى هداية التوفيق والانتفاع، والهداية في الثانية هداية التبيين والإرشاد.

ونظير هاتين الآيتين، قوله تعالى في الرسول ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وقوله فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] فالأولى هداية التوفيق والثانية هداية التبيين.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢]، وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، وقوله: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١] ففي الآيتين الأوليين نفي الألوهية عما سوى الله تعالى وفي الأخريين إثبات الألوهية لغيره.

والجمع بين ذلك أن الألوهية الخاصة بالله عز وجل هي الألوهية الحق، وأن المثبتة لغيره هي الألوهية الباطلة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢].

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦] ففي الآية الأولى نفى أن يأمر الله تعالى بالفحشاء، وظاهر الثانية أن الله تعالى يأمر بما هو فسق.

والجمع بينهما أن الأمر في الآية الأولى هو الأمر الشرعي، والله تعالى لا يأمر شرعاً بالفحشاء لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠] والأمر في الآية الثانية هو الأمر الكوني، والله تعالى يأمر كوناً بما شاء حسب ما تقتضيه حكمته لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

ومن رام زيادة أمثلة فليرجع إلى كتاب الشيخ الشنقيطي المشار إليه آنفاً.

❁ ❁ ❁

القسم

القَسَم: بفتح القاف والسين، اليمين، وهو: تأكيد الشيء بذكر مُعَظَّم بالواو، أو إحدى أخواتها. وأدواته ثلاث:

الواو ـ مثل قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣] ويحذف معها العامل وجوباً، ولا يليها إلا اسم ظاهر.

والباء ـ مثل قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾ [القيامة: ١] ويجوز معها ذكر العامل كما في هذا المثال، ويجوز حذفه كقوله تعالى عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢﴾ [ص: ٨٢] ويجوز أن يليها اسم ظاهر كما مثَّلنا، وأن يليها ضمير كما في قولك: الله ربي وبه أحلف لينصرن المؤمنين.

والتاء ـ مثل قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٦٥] ويحذف معها العامل وجوباً، ولا يليها إلا اسم الله، أو رب مثل: تربِّ الكعبة لأحجنَّ إن شاء الله.

والأصل ذكر المقسم به، وهو كثير كما في المثل السابقة.

وقد يحذف وحده مثل قولك: أحلف عليك لتجتهدن.

وقد يحذف مع العامل وهو كثير مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: ٨].

والأصل ذكر المقسم عليه، وهو كثير مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

وقد يحذف جوازاً مثل قوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ [ق: ١] وتقديره ليهلكن.

وقد يحذف وجوباً إذا تقدمه، أو اكتنفه ما يغني عنه، قاله ابن هشام في المغني ومثَّلَ له بنحو: زيد قائم والله، وزيد والله قائم.

وللقَسَم فائدتان:

إحداهما: بيان عظمة المقسم به.

والثانية: بيان أهمية المقسم عليه، وإرادة توكيده، ولذا لا يحسن القسم إلا في الأحوال التالية:

الأولى: أن يكون المقسم عليه ذا أهمية.

الثانية: أن يكون المخاطب متردداً في شأنه.

الثالثة: أن يكون المخاطب مُنْكِراً له.

❁ ❁ ❁

القصص

القصص والقص لغة: تتبع الأثر.

وفي الاصطلاح: الإخبار عن قضية ذات مراحل، يتبع بعضها بعضاً.

وقصص القرآن أصدق القصص؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] وذلك لتمام مطابقتها للواقع.

وأحسن القصص؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣] وذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى.

وأنفع القصص، لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يونس: ١١١]. وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

وهي ثلاثة أقسام:

- قسم عن الأنبياء والرسل، وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين.
- وقسم عن أفراد وطوائف، جرى لهم ما فيه عبرة، فنقله الله تعالى عنهم، كقصة مريم، ولقمان، والذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود، وغير ذلك.

• وقسم عن حوادث وأقوام في عهد النبي ﷺ، كقصة غزوة بدر، وأحد، والأحزاب، وبني قريظة، وبني النضير، وزيد بن حارثة، وأبي لهب، وغير ذلك.

وللقصص في القرآن حكم كثيرة عظيمة منها:

١ ـ بيان حكمة الله تعالى فيما تضمنته هذه القصص؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر: ٤، ٥].

٢ ـ بيان عدله تعالى بعقوبة المكذبين؛ لقوله تعالى عن المكذبين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠١].

٣ ـ بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ [القمر: ٣٤، ٣٥].

٤ ـ تسلية النبي ﷺ عما أصابه من المكذبين له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ [فاطر: ٢٥، ٢٦].

٥ ـ ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه، إذ علموا نجاة المؤمنين السابقين، وانتصار من أُمروا بالجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـْۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧].

٦ ـ تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد: ١٠].

٧ ـ إثبات رسالة النبي ﷺ فإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩].

تكرار القصص

من القصص القرآنية ما لا يأتي إلا مرة واحدة، مثل قصة لقمان، وأصحاب الكهف. ومنها ما يأتي متكرراً حسب ما تدعو إليه الحاجة، وتقتضيه المصلحة، ولا يكون هذا المتكرر على وجه واحد، بل يختلف في الطول والقصر واللين والشدة وذكر بعض جوانب القصة في موضع دون آخر.

ومن الحكمة في هذا التكرار:

١ ـ بيان أهمية تلك القصة لأن تكرارها يدل على العناية بها.

٢ ـ توكيد تلك القصة؛ لتثبت في قلوب الناس.

٣ ـ مراعاة الزمن وحال المخاطبين بها، ولهذا تجد الإيجاز والشدة غالباً فيما أتى من القصص في السور المكية والعكس فيما أتى في السور المدنية.

٤ ـ بيان بلاغة القرآن في ظهور هذه القصص على هذا الوجه وذاك الوجه على ما تقتضيه الحال.

٥ ـ ظهور صدق القرآن، وأنه من عند الله تعالى، حيث تأتي هذه القصص متنوعة بدون تناقض.

❁ ❁ ❁

الإسرائيليات

الإسرائيليات: الأخبار المنقولة عن بني إسرائيل من اليهود وهو الأكثر، أو من النصارى. وتنقسم هذه الأخبار إلى ثلاثة أنواع:

الأول: ما أقره الإسلام، وشهد بصدقه فهو حق.

مثاله: ما رواه البخاري وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنَّا نجد أنّ الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧][1].

الثاني: ما أنكره الإسلام وشهد بكذبه فهو باطل.

مثاله: ما رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول إذا جامعها من ورائها، جاء الولد أحول؛ فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣][2].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: **﴿وما قدروا الله حق قدره﴾** حديث رقم (٤٨١١)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب صفة القيامة والجنة والنار. حديث رقم (٢٧٨٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب **﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم** =

الثالث: ما لم يقره الإسلام، ولم ينكره، فيجب التوقف فيه، لما رواه البخاري[(١)] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] الآية، ولكن التحدث بهذا النوع جائز، إذا لم يخش محذور؛ لقول النبي ﷺ: «بلِّغوا عنِّي ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» رواه البخاري[(٢)].

وغالب ما يروى عنهم من ذلك ليس بذي فائدة في الدِّين كتعيين لون كلب أصحاب الكهف ونحوه.

وأما سؤال أهل الكتاب عن شيء من أمور الدين، فإنه حرام لما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء؛ فإنهم لن يهدوكم، وقد ضلوا، فإنكم إما أن تصدقوا بباطل، أو تكذبوا بحق، وإنه لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني»[(٣)].

وروى البخاري[(٤)] عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

= **أنىٰ شئتم﴾** حديث رقم (٤٥٢٨)، ومسلم، كتاب النكاح، باب جواز جماعه امرأته في قُبلِها، من قدامها أو من ورائها، من غير تعرض للدبر. حديث رقم (١٤٣٥).

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ١١: **﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾**، حديث رقم ٤٤٨٥.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٥٠: ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم ٣٤٦١.

(٣) أحمد (٣/٣٣٨، ٣٨٧).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يسأل أهل الشرك عن =

أنه قال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله مَحضاً، لم يُشَبْ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتاب الله، وغيروا، فكتبوا بأيديهم، قالوا: هو من عند الله؛ ليشتروا بذلك ثمناً قليلاً، أو لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أنزل إليكم.

موقف العلماء من الإسرائيليات

اختلفت مواقف العلماء، ولا سيما المفسرون من هذه الإسرائيليات على ثلاثة أنحاء:

أ ـ فمنهم من أكثر منها مقرونة بأسانيدها، ورأى أنه بذكر أسانيدها خرج من عهدتها، مثل ابن جرير الطبري.

ب ـ ومنهم من أكثر منها، وجردها من الأسانيد غالباً، فكان حاطب ليل مثل البغوي الذي قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1] عن تفسيره: إنه مختصر من الثعلبي، لكنه صانه عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة، وقال عن الثعلبي: إنه حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع.

جـ ـ ومنهم من ذكر كثيراً منها، وتعقب البعض مما ذكره بالتضعيف أو الإنكار مثل ابن كثير.

= الشهادة وغيرها. حديث رقم (٢٦٨٥)، (٦٩٢٩).

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٠٤).

د ـ ومنهم من بالغ في ردها، ولم يذكر منها شيئاً يجعله تفسيراً للقرآن كمحمد رشيد رضا.

❁ ❁ ❁

الضمير

الضمير لغة: من الضمور وهو الهزال لقلة حروفه أو من الإضمار وهو الإخفاء لكثرة استتاره.

وفي الاصطلاح: ما كني به عن الظاهر اختصاراً وقيل: ما دل على حضور، أو غيبة لا من مادتهما.

فالدال على الحضور نوعان:

أحدهما: ما وضع للمتكلم مثل: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [غافر: ٤٤].

الثاني: ما وضع للمخاطب مثل: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة].

وهذان لا يحتاجان إلى مرجع اكتفاء بدلالة الحضور عنه.

والدال على الغائب، ما وضع للغائب. ولا بد له من مرجع يعود عليه.

والأصل في المرجع أن يكون سابقاً على الضمير لفظاً ورتبة مطابقاً له لفظاً ومعنًى مثل: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ [هود: ٤٥].

وقد يكون مفهوماً من مادة الفعل السابق مثل: ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ﴾ [المائدة: ٨].

وقد يسبق لفظاً لا رتبة مثل: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقد يسبق رتبة لا لفظاً مثل: (حمل كتابه الطالب).

وقد يكون مفهوماً من السياق مثل: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١١]، فالضمير يعود على الميت المفهوم من قوله: ﴿مِّمَّا تَرَكَ﴾.

وقد لا يطابق الضمير معنى مثل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] فالضمير يعود على الإنسان باعتبار اللفظ؛ لأن المجعول نطفة ليس الإنسان الأول.

وإذا كان المرجع صالحاً للمفرد والجمع جازَ عود الضمير عليه بأحدهما مثل: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١].

والأصل اتحاد مرجع الضمائر إذا تعددت مثل: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ٥ ـ ١٠] فضمائر الرفع في هذه الآيات تعود إلى شديد القوى وهو جبريل.

والأصل عود الضمير على أقرب مذكور إلا في المتضايفين فيعود على المضاف؛ لأنه المتحدث عنه مثال الأول: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الإسراء: ٢].

ومثال الثاني: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقد يأتي على خلاف الأصل فيما سبق بدليل يدل عليه.

الإظهار في موضع الإضمار

الأصل أن يؤتى في مكان الضمير بالضمير لأنه أبين للمعنى وأخصر للفظ، ولهذا ناب الضمير في قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥] عن عشرين كلمة المذكورة قبله، وربما يؤتى مكان الضمير بالاسم الظاهر وهو ما يسمى (الإظهار في موضع الإضمار). وله فوائد كثيرة، تظهر بحسب السياق منها:

١ ـ الحكم على مرجعه بما يقتضيه الاسم الظاهر.

٢ ـ بيان علة الحكم.

٣ ـ عموم الحكم لكل متصف بما يقتضيه الاسم الظاهر.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٨]، ولم يقل فإن الله عدو له، فأفاد هذا الإظهارُ:

١ ـ الحكم بالكفر على من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال.

٢ ـ أن الله عدو لهم لكفرهم.

٣ ـ أن كل كافر فالله عدو له.

مثال آخر: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: ١٧٠]، ولم يقل إنا لا نضيع أجرهم؛ فأفاد ثلاثة أمور:

١ ـ الحكم بالإصلاح للذين يمسكون الكتاب، ويقيمون الصلاة.

٢ ـ أن الله آجرهم لإصلاحهم.

٣ ـ أن كل مصلح فله أجر غير مضاع عند الله تعالى.

وقد يتعين الإظهار، كما لو تقدم الضمير مرجعان، يصلح عوده إلى كل منهما والمراد أحدهما مثل: اللهم أصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانة ولاة أمورهم، إذ لو قيل: وبطانتهم، لأوهمَ أن يكون المراد بطانة المسلمين.

ضمير الفصل

ضمير الفصل: حرف بصيغة ضمير الرفع المنفصل يقع بين المبتدأ والخبر إذا كانا معرفتين.

ويكون بضمير المتكلم كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤] وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الصافات: ١٦٥] وبضمير المخاطب كقوله تعالى: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

وبضمير الغائب كقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وله ثلاث فوائد:

الأولى: التوكيد، فإنَّ قولك: زيد هو أخوك أوكَد من قولك: زيد أخوك.

الثانية: الحصر، وهو اختصاص ما قبله بما بعده، فإن قولك: المجتهد هو الناجح يفيد اختصاص المجتهد بالنجاح.

الثالثة: الفصل؛ أي التمييز بين كون ما بعده خبراً، أو تابعاً، فإن قولك: زيد الفاضل يحتمل أن تكون الفاضل صفة لزيد، والخبر منتظر، ويحتمل أن تكون الفاضل خبراً، فإذا قلت: زيد هو الفاضل؛ تعين أن تكون الفاضل خبراً، لوجود ضمير الفصل.

❁ ❁ ❁

الالتفات

الالتفات: تحويل أسلوب الكلام من وجه إلى آخر، وله صور منها:

١ ـ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة] فحوَّل الكلام من الغيبة إلى الخطاب في قوله: إياك.

٢ ـ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢] فحوَّل الكلام من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾.

٣ ـ الالتفات من الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢] فحوَّل الكلام من الغيبة إلى التكلم في قوله ﴿وَبَعَثْنَا﴾.

٤ ـ الالتفات من التكلم إلى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ [الكوثر: ١، ٢] فحوَّل الكلام من التكلم إلى الغيبة في قوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾،

وللالتفات فوائد منها:

١ ـ حمل المخاطب على الانتباه، لتغير وجه الأسلوب عليه.

٢ ـ حمله على التفكير في المعنى، لأن تغير وجه الأسلوب، يؤدي إلى التفكير في السبب.

٣ ـ دفع السآمة والملل عنه، لأن بقاء الأسلوب على وجه واحد، يؤدي إلى الملل غالباً.

وهذه الفوائد عامة للالتفات في جميع صوره.

أما الفوائد الخاصة فتتعين في كل صوره، حسب ما يقتضيه المقام.

والله أعلم. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم ولله الحمد رب العالمين

❁ ❁ ❁

الفهرس

الموضوع | الصفحة

- مقدمة اللجنة العلمية ..... - أ -
- مقدمة ٥
- القرآن الكريم ٨
  - نزول القرآن ١٠
  - أول ما نزل من القرآن ١١
  - نزول القرآن ابتدائي وسببي ١٣
    فوائد معرفة أسباب النزول ١٤
    عموم اللفظ وخصوص السبب ١٦
  - المكي والمدني ١٧
    فوائد معرفة المدني والمكي ١٩
    الحكمة من نزول القرآن مفرقاً ٢٠
    ترتيب القرآن ٢١
  - كتابة القرآن وجمعه ٢٣
- التفسير ٢٨
  - الواجب على المسلم في تفسير القرآن ٢٩
  - المرجع في تفسير القرآن ٣٠
  - الاختلاف الوارد في التفسير المأثور ٣٤
  - ترجمة القرآن ٣٥
    حكم ترجمة القرآن ٣٦
  - المشتهرون بالتفسير من الصحابة ٣٨
    علي بن أبي طالب ٣٨
    عبد الله بن مسعود ٣٩
    عبد الله بن عباس ٤١
  - المشتهرون بالتفسير من التابعين ٤٢
    مجاهد ٤٣
    قتادة ٤٣

- القرآن محكم ومتشابه ٤٥
- موقف الراسخين في العلم والزائغين من المتشابه ٤٧
- أنواع التشابه في القرآن ٤٩
- الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه ٥١
- موهم التعارض في القرآن ٥٢
- القسم ٥٥
- القصص ٥٧
- تكرار القصص ٥٩
- الإسرائيليات ٦١
- موقف العلماء من الإسرائيليات ٦٣
- الضمير ٦٥
- الإظهار في موضع الإضمار ٦٧
- ضمير الفصل ٦٨
- الالتفات ٦٩

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (١)

تفسير القرآن الكريم

الفاتحة - البقرة

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الأول

دار ابن الجوزي
طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الفاتحة

سورة الفاتحة سمِّيت بذلك؛ لأنه افتتح بها القرآن الكريم؛ وقد قيل: إنها أول سورة نزلت كاملة.

هذه السورة قال العلماء: إنها تشتمل على مجمل معاني القرآن في التوحيد، والأحكام، والجزاء، وطرق بني آدم، وغير ذلك؛ ولذلك سمِّيت «**أم القرآن**»[(١)]؛ والمرجع للشيء يسمى «أُمّاً».

وهذه السورة لها مميزات تتميّز بها عن غيرها؛ منها أنها ركن في الصلوات التي هي أفضل أركان الإسلام بعد الشهادتين: فلا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب؛ ومنها أنها رقية: إذا قرئ بها على المريض شُفي بإذن الله؛ لأن النبي ﷺ قال للذي قرأ على اللديغ، فبرئ: «**وما يدريك أنها رقية**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ص٦١، كتاب الأذان، باب ١٠٤: القراءة في الفجر، حديث رقم ٧٧٢؛ وأخرجه مسلم في صحيحه ص٧٤٠ في كتاب الصلاة، باب ١١: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، حديث رقم ٨٧٨ [٣٨] ٣٩٥؛ وأخرجه الترمذي في جامعه ص١٩٦٨، كتاب تفسير القرآن، باب ١٥: ومن سورة الحجر، حديث رقم ٣١٢٤، ولفظه: «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ص١٧٧، كتاب الإجارة، باب ١٦: ما يُعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب، حديث رقم ٢٢٧٦؛ وأخرجه مسلم في صحيحه ص١٠٦٨، كتاب السلام، باب ٢٣: جواز أخذ =

وقد ابتدع بعض الناس اليوم في هذه السورة بدعة، فصاروا يختمون بها الدعاء، ويبتدئون بها الخُطب ويقرؤونها عند بعض المناسبات ـ، وهذا غلط: تجده مثلاً إذا دعا، ثم دعا قال لمن حوله: «الفاتحة»، يعني اقرؤوا الفاتحة؛ **وبعض الناس** يبتدئ بها في خطبه، أو في أحواله ـ وهذا أيضاً غلط؛ لأن العبادات مبناها على التوقيف، والاتِّباع.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾: الجار والمجرور متعلق بمحذوف؛ وهذا المحذوف يقَدَّر **فعلاً متأخراً مناسباً**؛ فإذا قلت: «**باسم الله**» وأنت تريد أن تأكل؛ تقدر الفعل: «باسم الله آكل».

قلنا: إنه يجب أن يكون **متعلقاً بمحذوف**؛ لأن الجار والمجرور معمولان؛ ولا بد لكل معمول من عامل.

وقدرناه متأخراً لفائدتين:

الفائدة الأولى: التبرك بتقديم اسم الله عزّ وجلّ.

والفائدة الثانية: الحصر؛ لأن تأخير العامل يفيد الحصر، كأنك تقول: لا آكل باسم أحد متبركاً به، ومستعيناً به، إلا باسم الله عزّ وجلّ.

= الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار، حديث رقم ٥٧٣٣ [٦٥] ٢٢٠١.

وقدرناه **فعلاً**؛ لأن الأصل في العمل الأفعال ـ وهذه يعرفها أهل النحو؛ ولهذا لا تعمل الأسماء إلا بشروط.

وقدرناه **مناسباً**؛ لأنه أدلّ على المقصود؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «**من لم يذبح فليذبح باسم الله**»[(١)] ـ أو قال ﷺ: «**على اسم الله**»[(٢)]: فخص الفعل.

و﴿**الله**﴾: اسم الله رب العالمين لا يسمى به غيره؛ وهو أصل الأسماء؛ ولهذا تأتي الأسماء تابعة له.

و﴿**الرحمن**﴾ أي ذو الرحمة الواسعة؛ ولهذا جاء على وزن «فَعْلان» الذي يدل على السعة.

و﴿**الرحيم**﴾ أي الموصل للرحمة من يشاء من عباده؛ ولهذا جاءت على وزن «فعيل» الدال على وقوع الفعل.

فهنا رحمة هي صفته ـ هذه دل عليها ﴿**الرحمن**﴾؛ ورحمة هي فعله ـ أي إيصال الرحمة إلى المرحوم ـ دلّ عليها ﴿**الرحيم**﴾.

و﴿**الرحمن الرحيم**﴾: اسمان من أسماء الله يدلان على الذات، وعلى صفة الرحمة، وعلى الأثر: أي الحكم الذي تقتضيه هذه الصفة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ص٧٧، كتاب العيدين، باب ٢٣: كلام الإمام والناس في خطبة العيد، حديث رقم ٩٨٥؛ وأخرجه مسلم في صحيحه ص١٠٢٧، كتاب الأضاحي، باب ١: وقتها، حديث رقم ٥٠٦٤ [١] ١٩٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ص٤٧٤، كتاب الذبائح والصيد، باب ١٧: قول النبي ﷺ: «فليذبح على اسم الله»، حديث رقم ٥٥٠٠؛ وأخرجه مسلم في صحيحه ص١٠٢٧، كتاب الأضاحي، باب ١: وقتها، حديث رقم ٥٠٦٤ [٢] ١٩٦٠.

والرحمة التي أثبتها الله لنفسه رحمة حقيقية دلّ عليها السمع، والعقل؛ أما السمع فهو ما جاء في الكتاب، والسنّة من إثبات الرحمة لله ـ وهو كثير جداً؛ وأما العقل: فكل ما حصل من نعمة، أو اندفع من نقمة فهو من آثار رحمة الله.

هذا وقد أنكر قوم وصف الله تعالى بالرحمة الحقيقية، وحرّفوها إلى الإنعام، أو إرادة الإنعام، زعماً منهم أن العقل يحيل وصف الله بذلك؛ قالوا: «لأن الرحمة انعطاف، ولين، وخضوع، ورقة؛ وهذا لا يليق بالله عزّ وجلّ»؛ والرد عليهم من وجهين:

الوجه الأول: منع أن يكون في الرحمة خضوع، وانكسار، ورقة؛ لأننا نجد من الملوك الأقوياء رحمة دون أن يكون منهم خضوع، ورقة، وانكسار.

الوجه الثاني: أنه لو كان هذا من لوازم الرحمة، ومقتضياتها فإنما هي رحمة المخلوق؛ أما رحمة الخالق سبحانه وتعالى فهي تليق بعظمته، وجلاله، وسلطانه؛ ولا تقتضي نقصاً بوجه من الوجوه.

ثم نقول: إن العقل يدل على ثبوت الرحمة الحقيقية لله عزّ وجلّ، فإن ما نشاهده في المخلوقات من الرحمة بَيْنها يدل على رحمة الله عزّ وجلّ؛ ولأن الرحمة كمال؛ والله أحق بالكمال؛ ثم إن ما نشاهده من الرحمة التي يختص الله بها ـ كإنزال المطر، وإزالة الجدب، وما أشبه ذلك ـ يدل على رحمة الله.

والعجب أن منكري وصف الله بالرحمة الحقيقية بحجة أن العقل لا يدل عليها، أو أنه يحيلها، قد أثبتوا لله إرادة حقيقية

بحجة عقلية أخفى من الحجة العقلية على رحمة الله، حيث قالوا: إن تخصيص بعض المخلوقات بما تتميز به يدل عقلاً على الإرادة؛ ولا شك أن هذا صحيح؛ ولكنه بالنسبة لدلالة آثار الرحمة عليها أخفى بكثير؛ لأنه لا يتفطن له إلا أهل النباهة؛ وأما آثار الرحمة فيعرفه حتى العوام، فإنك لو سألت عامياً صباح ليلة المطر: «بِمَ مطرنا؟»، لقال: «بفضل الله، ورحمته».

مسألة:

هل البسملة آية من الفاتحة؛ أو لا؟

في هذا خلاف بين العلماء؛ فمنهم من يقول: إنها آية من الفاتحة، ويقرأ بها جهراً في الصلاة الجهرية، ويرى أنها لا تصح إلا بقراءة البسملة؛ لأنها من الفاتحة؛ ومنهم من يقول: إنها ليست من الفاتحة؛ ولكنها آية مستقلة من كتاب الله؛ وهذا القول هو الحق؛ ودليل هذا: النص، وسياق السورة.

أما النص: فقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين: إذا قال: ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي؛ وإذا قال: ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي؛ وإذا قال: ﴿**مالك يوم الدين**﴾ قال الله تعالى: مجّدني عبدي؛ وإذا قال: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ قال الله تعالى: هذا بيني وبين عبدي نصفين؛ وإذا قال: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾... إلخ، قال الله تعالى: هذا لعبدي؛ ولعبدي ما سأل»[1]؛ وهذا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ص٧٤٠، كتاب الصلاة، باب ١١: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، حديث رقم ٨٧٨ [٣٨] ٣٩٥.

كالنص على أن البسملة ليست من الفاتحة؛ وفي الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**صلَّيت خلف النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر؛ فكانوا لا يذكرون ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ في أول قراءة، ولا في آخرها**»[(١)]: والمراد لا يجهرون؛ والتمييز بينها وبين الفاتحة في الجهر وعدمه يدل على أنها ليست منها.

أما من جهة السياق من حيث المعنى: فالفاتحة سبع آيات بالاتفاق؛ وإذا أردت أن توزع سبع الآيات على موضوع السورة وجدت أن نصفها هو قوله تعالى: **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾** وهي الآية التي قال الله فيها: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين**»؛ لأن **﴿الحمد لله رب العالمين﴾**: واحدة؛ **﴿الرحمن الرحيم﴾**: الثانية؛ **﴿مالك يوم الدين﴾**: الثالثة؛ وكلها حق لله عزّ وجلّ **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾**: الرابعة ـ يعني الوسَط؛ وهي قسمان: قسم منها حق لله؛ وقسم حق للعبد؛ **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾** للعبد؛ **﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾** للعبد؛ **﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾** للعبد.

فتكون ثلاث آيات لله عزّ وجل وهي الثلاث الأولى؛ وثلاث آيات للعبد ـ وهي الثلاث الأخيرة؛ وواحدة بين العبد وربِّه ـ وهي الرابعة الوسطى.

ثم من جهة السياق من حيث اللفظ، فإذا قلنا: إن البسملة آية من الفاتحة لزم أن تكون الآية السابعة طويلة على قدر آيتين؛ ومن المعلوم أن تقارب الآيات في الطول والقصر هو الأصل.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ص٧٤١، كتاب الصلاة، باب ١٣، حجة من قال: لا يجهر بالبسملة، حديث رقم ٨٩٢ [٥٢] ٣٩٩.

فالصواب الذي لا شك فيه أن البسملة ليست من الفاتحة ـ كما أن البسملة ليست من بقية السور.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾: ﴿**الحمد**﴾ وصف المحمود بالكمال مع المحبة، والتعظيم؛ الكمال الذاتي، والوصفي، والفعلي؛ فهو كامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله؛ ولا بد من قيد وهو «**المحبة، والتعظيم**»؛ قال أهل العلم: «لأن مجرد وصفه بالكمال بدون محبة، ولا تعظيم: لا يسمى حمداً؛ وإنما يسمى مدحاً»؛ ولهذا يقع من إنسان لا يحب الممدوح؛ لكنه يريد أن ينال منه شيئاً؛ تجد بعض الشعراء يقف أمام الأمراء، ثم يأتي لهم بأوصاف عظيمة لا محبة فيهم؛ ولكن محبة في المال الذي يعطونه، أو خوفاً منهم؛ ولكن حمدنا لربنا عزّ وجلّ حمدَ محبةٍ، وتعظيمٍ؛ فلذلك صار لا بد من القيد في الحمدَ أنه وصف المحمود بالكمال مع المحبة، والتعظيم؛ و«**أل**» في ﴿**الحمد**﴾ للاستغراق: أي استغراق جميع المحامد.

وقوله تعالى: ﴿**لله**﴾: اللام للاختصاص، والاستحقاق؛ و«**الله**» اسمَ ربنا عزّ وجلّ؛ لا يسمى به غيره؛ ومعناه: المألوه ـ أي المعبود حباً، وتعظيماً.

وقوله تعالى: ﴿**رب العالمين**﴾؛ «**الرب**»: هو من اجتمع

فيه ثلاثة أوصاف: الخلق، والملك، والتدبير؛ فهو الخالق المالك لكل شيء المدبر لجميع الأمور؛ و﴿**العالمين**﴾: قال العلماء: كل ما سوى الله فهو من العالَم؛ وُصفوا بذلك؛ لأنهم عَلَم على خالقهم سبحانه وتعالى؛ ففي كل شيء من المخلوقات آية تدل على الخالق: على قدرته، وحكمته، ورحمته، وعزته، وغير ذلك من معاني ربوبيته.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: إثبات الحمد الكامل لله عزّ وجلّ، وذلك من «**أل**» في قوله تعالى: ﴿**الحمد**﴾؛ لأنها دالة على الاستغراق.

٢ ـ **ومنها**: أن الله تعالى مستحق مختص بالحمد الكامل من جميع الوجوه؛ ولهذا كان النبي ﷺ إذا أصابه ما يسره قال: «**الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات**»؛ وإذا أصابه خلاف ذلك قال: «**الحمد لله على كل حال**»[(١)].

٣ ـ **ومنها**: تقديم وصف الله بالألوهية على وصفه بالربوبية؛ وهذا إما لأن «**الله**» هو الاسم العَلَم الخاص به، والذي تتبعه جميع الأسماء؛ وإما لأن الذين جاءتهم الرسل ينكرون الألوهية فقط.

٤ ـ **ومنها**: عموم ربوبية الله تعالى لجميع العالم؛ لقوله تعالى: ﴿**العالمين**﴾.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه ص٢٧٠٣، كتاب الأدب، باب ٥٥: فضل الحامدين، حديث رقم ٢٨٠٣؛ وأخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٩، كتاب الدعاء، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وأقرّه الذهبي، وحسّنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٣١٩، حديث رقم ٣٠٦٦.

القرآن

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿الرحمن الرحيم﴾: ﴿الرحمن﴾ صفة للفظ الجلالة؛ و﴿الرحيم﴾ صفة أخرى؛ و﴿الرحمن﴾ هو ذو الرحمة الواسعة؛ و﴿الرحيم﴾ هو ذو الرحمة الواصلة؛ فـ﴿الرحمن﴾ وصفه؛ و﴿الرحيم﴾ فعله؛ ولو أنه جيء بـ«الرحمن» وحده، أو بـ«الرحيم» وحده لشمل الوصف، والفعل؛ لكن إذا اقترنا فُسِّر ﴿الرحمن﴾ بالوصف؛ و﴿الرحيم﴾ بالفعل.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إثبات هذين الاسمين الكريمين ـ ﴿الرحمن الرحيم﴾ لله عزّ وجلّ؛ وإثبات ما تضمناه من الرحمة التي هي الوصف، ومن الرحمة التي هي الفعل.

٢ ـ **ومنها**: أن ربوبية الله عزّ وجلّ مبنية على الرحمة الواسعة للخلق الواصلة؛ لأنه تعالى لما قال: ﴿رب العالمين﴾ كأن سائلاً يسأل: «ما نوع هذه الربوبية؟ هل هي ربوبية أخذ، وانتقام؛ أو ربوبية رحمة، وإنعام؟» قال تعالى: ﴿الرحمن الرحيم﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾ صفة لـ﴿الله﴾؛ و﴿يوم

الدين﴾ هو يوم القيامة؛ و﴿الدين﴾ هنا بمعنى الجزاء؛ يعني أنه سبحانه وتعالى مالك لذلك اليوم الذي يجازى فيه الخلائق؛ فلا مالك غيره في ذلك اليوم؛ و«**الدين**» تارة يراد به الجزاء، كما في هذه الآية؛ وتارة يراد به العمل، كما في قوله تعالى: ﴿**لكم دينكم ولي دين**﴾ [الكافرون: ٦]، ويقال: «كما تدين تدان»، أي كما تعمل تُجازى.

وفي قوله تعالى: ﴿**مالك**﴾ قراءة سبعية: ﴿**مَلِك**﴾، و«**الملك**» أخص من «**المالك**».

وفي الجمع بين القراءتين فائدة عظيمة؛ وهي أن ملكه جلّ وعلا ملك حقيقي؛ لأن مِن الخلق مَن يكون ملكاً، ولكن ليس بمالك: يسمى ملكاً اسماً وليس له من التدبير شيء؛ ومِن الناس مَن يكون مالكاً، ولا يكون ملكاً: كعامة الناس؛ ولكن الرب عزّ وجلّ مالكٌ مِلك.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إثبات ملك الله عزّ وجلّ، وملكوته يوم الدين؛ لأن في ذلك اليوم تتلاشى جميع الملكيات، والملوك.

فإن قال قائل: أليس مالك يوم الدين، والدنيا؟

فالجواب: بلى؛ لكن ظهور ملكوته، وملكه، وسلطانه، إنما يكون في ذلك اليوم؛ لأن الله تعالى ينادي: ﴿**لمن الملك اليوم**﴾ [غافر: ١٦] فلا يجيب أحد؛ فيقول تعالى: ﴿**لله الواحد القهار**﴾ [غافر: ١٦]؛ في الدنيا يظهر ملوك؛ بل يظهر ملوك يعتقد شعوبهم أنه لا مالك إلا هم؛ فالشيوعيون مثلاً لا يرون أن هناك رباً

للسموات، والأرض؛ يرون أن الحياة: أرحام تدفع، وأرض تبلع؛ وأن ربهم هو رئيسهم.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات البعث، والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾.

٣ ـ **ومنها**: حث الإنسان على أن يعمل لذلك اليوم الذي يُدان فيه العاملون.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿إياك نعبد﴾؛ ﴿إياك﴾: مفعول به مقدم؛ وعامله: ﴿نعبد﴾؛ وقُدِّم على عامله لإفادة الحصر؛ فمعناه: لا نعبد إلا إياك؛ وكان منفصلاً لتعذر الوصل حينئذ؛ و﴿نعبد﴾ أي نتذلل لك أكمل ذلّ؛ ولهذا تجد المؤمنين يضعون أشرف ما في أجسامهم في موطئ الأقدام ذلاً لله عزّ وجلّ: يسجد على التراب؛ تمتلئ جبهته من التراب ـ كل هذا ذلاً لله؛ ولو أن إنساناً قال: «أنا أعطيك الدنيا كلها واسجد لي» ما وافق المؤمن أبداً؛ لأن هذا الذل لله عزّ وجلّ وحده.

و«**العبادة**» تتضمن فعل كل ما أمر الله به، وترك كل ما نهى الله عنه؛ لأن من لم يكن كذلك فليس بعابد: لو لم يفعل المأمور به لم يكن عابداً حقاً؛ ولو لم يترك المنهي عنه لم يكن

عابداً حقاً؛ **العبد**: هو الذي يوافق المعبود في مراده الشرعي؛ فـ«**العبادة**» تستلزم أن يقوم الإنسان بكل ما أُمر به، وأن يترك كل ما نُهي عنه؛ ولا يمكن أن يكون قيامه هذا بغير معونة الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وإياك نستعين**﴾ أي لا نستعين إلا إياك على العبادة، وغيرها؛ و«**الاستعانة**» طلب العون؛ والله سبحانه وتعالى يجمع بين العبادة، والاستعانة، أو التوكل في مواطن عدة في القرآن الكريم؛ لأنه لا قيام بالعبادة على الوجه الأكمل إلا بمعونة الله، والتفويض إليه، والتوكل عليه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إخلاص العبادة لله؛ لقوله تعالى: ﴿**إياك نعبد**﴾؛ وجه الإخلاص: تقديم المعمول.

٢ ـ **ومنها**: إخلاص الاستعانة بالله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**وإياك نستعين**﴾، حيث قدم المفعول.

فإن قال قائل: كيف يقال: إخلاص الاستعانة لله وقد جاء في قوله تعالى: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى**﴾ [المائدة: ٢] إثبات المعونة من غير الله عزّ وجلّ، وقال النبي ﷺ: «**تعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة**»؟[١].

فالجواب: أن الاستعانة نوعان: **استعانة تفويض**؛ بمعنى أنك تعتمد على الله عزّ وجلّ، وتتبرأ من حولك، وقوتك؛ وهذا

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٣٢، كتاب الجهاد، باب ٧٢: فضل من حمل متاع صاحبه في السفر، حديث رقم ٢٨٩١؛ وأخرجه مسلم ص٨٣٧، كتاب الزكاة، باب ١٦: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم ٢٣٣٥ [٥٦] ١٠٠٩، واللفظ لمسلم.

خاص بالله عزّ وجلّ؛ **واستعانة بمعنى المشاركة** فيما تريد أن تقوم به: فهذه جائزة إذا كان المستعان به حياً قادراً على الإعانة؛ لأنه ليس عبادة؛ ولهذا قال الله تعالى: **﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾** [المائدة: ٢].

فإن قال قائل: وهل الاستعانة بالمخلوق جائزة في جميع الأحوال؟

فالجواب: لا؛ الاستعانة بالمخلوق إنما تجوز حيث كان المستعان به قادراً عليها؛ وأما إذا لم يكن قادراً فإنه لا يجوز أن تستعين به: كما لو استعان بصاحب قبر فهذا حرام؛ بل شرك أكبر؛ لأن صاحب القبر لا يغني عن نفسه شيئاً؛ فكيف يعينه!!! وكما لو استعان بغائب في أمر لا يقدر عليه، مثل أن يعتقد أن الوليّ الذي في شرق الدنيا يعينه على مهمته في بلده: فهذا أيضاً شرك أكبر؛ لأنه لا يقدر أن يعينه وهو هناك.

فإن قال قائل: هل يجوز أن يستعين المخلوقَ فيما تجوز استعانته به؟

فالجواب: الأولى أن لا يستعين بأحد إلا عند الحاجة، أو إذا علم أن صاحبه يُسَر بذلك، فيستعين به من أجل إدخال السرور عليه؛ وينبغي لمن طلبت منه الإعانة على غير الإثم والعدوان أن يستجيب لذلك.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

التفسير:

قوله تعالى: **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾**: **﴿الصراط﴾** فيه قراءتان: بالسين: **﴿السراط﴾**، وبالصاد الخالصة: **﴿الصراط﴾**؛

والمراد بـ﴿الصراط﴾ الطريق؛ والمراد بـ«الهداية» هداية الإرشاد، وهداية التوفيق؛ فأنت بقولك: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ تسأل الله تعالى علماً نافعاً، وعملاً صالحاً؛ و﴿المستقيم﴾ أي الذي لا اعوجاج فيه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: لجوء الإنسان إلى الله عزّ وجلّ بعد استعانته به على العبادة أن يهديه الصراط المستقيم؛ لأنه لا بد في العبادة من إخلاص؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿إياك نعبد﴾؛ ومن استعانة يتقوى بها على العبادة؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿وإياك نستعين﴾؛ ومن اتباع للشريعة؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾؛ لأن ﴿الصراط المستقيم﴾ هو الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: بلاغة القرآن، حيث حذف حرف الجر من ﴿اهدنا﴾؛ والفائدة من ذلك: لأجل أن تتضمن طلب الهداية: التي هي هداية العلم، وهداية التوفيق؛ لأن الهداية تنقسم إلى قسمين: **هداية علم، وإرشاد؛ وهداية توفيق، وعمل**؛ فالأولى ليس فيها إلا مجرد الدلالة؛ والله عزّ وجلّ قد هدى بهذا المعنى جميع الناس، كما في قوله تعالى: ﴿**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدًى للناس**﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ والثانية فيها التوفيق للهدى، واتباع الشريعة، كما في قوله تعالى: ﴿**ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتقين**﴾ [البقرة: ٢]؛ وهذه قد يحرمها بعض الناس، كما قال تعالى: ﴿**وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى**﴾ [فصلت: ١٧]: ﴿فهديناهم﴾ أي بيّنّا لهم الحق، ودَلَلْناهم عليه؛ ولكنهم لم يوفقوا.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الصراط ينقسم إلى قسمين: مستقيم، ومعوج؛ فما كان موافقاً للحق **فهو مستقيم**، كما قال الله تعالى: ﴿**وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه**﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ وما كان مخالفاً له **فهو معوج**.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ۝ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم**﴾ عطف بيان لقوله تعالى: ﴿**الصراط المستقيم**﴾؛ والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً**﴾ [النساء: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿**غير المغضوب عليهم**﴾: هم اليهود، وكل من علم بالحق ولم يعمل به.

قوله تعالى: ﴿**ولا الضالين**﴾: هم النصارى قبل بعثة النبي ﷺ، وكل من عمل بغير الحق جاهلاً به.

وفي قوله تعالى: ﴿**عليهم**﴾ قراءتان سبعيتان: إحداهما ضم الهاء؛ والثانية كسرها؛ واعلم أن القراءة التي ليست في المصحف الذي بين أيدي الناس لا تنبغي القراءة بها عند العامة لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن العامة إذا رأوا هذا القرآن العظيم الذي قد ملأ قلوبهم تعظيمه، واحترامه إذا رأوه مرةً كذا، ومرة كذا تنزل منزلته عندهم؛ لأنهم عوام لا يُفرقون.

الوجه الثاني: أن القارئ يتهم بأنه لا يعرف؛ لأنه قرأ عند العامة بما لا يعرفونه؛ فيبقى هذا القارئ حديث العوام في مجالسهم.

الوجه الثالث: أنه إذا أحسن العامي الظن بهذا القارئ، وأن عنده علماً بما قرأ، فذهب يقلده، فربما يخطئ، ثم يقرأ القرآن لا على قراءة المصحف، ولا على قراءة التالي الذي قرأها ـ وهذه مفسدة.

ولهذا قال عليّ: «**حدِّثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يُكذب الله، ورسوله**»[(١)]، وقال ابن مسعود: «**إنك لا تحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة**»[(٢)]؛ وعمر بن الخطاب لما سمع هشام بن الحكم يقرأ آية لم يسمعها عمر على الوجه الذي قرأها هشام خاصمه إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ لهشام: «**اقرأ**»، فلما قرأ قال النبي ﷺ: «**هكذا أنزلت**»، ثم قال النبي ﷺ لعمر: «**اقرأ**»، فلما قرأ قال النبي ﷺ: «**هكذا أنزلت**»[(٣)]؛ لأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فكان الناس

---

(١) أخرجه البخاري ص١٤، كتاب العلم، باب ٤٩: من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا، رقم ١٢٧.

(٢) أخرجه مسلم ص٦٧٥، مقدمة الكتاب، رقم ١٤.

(٣) أخرجه البخاري ص١٨٩، كتاب الخصومات، باب ٤: كلام الخصوم بعضهم في بعض، حديث رقم ٢٤١٩؛ وأخرجه مسلم ص٨٠٥ ـ ٨٠٦، كتاب صلاة المسافرين، كتاب فضائل القرآن وما يتعلق به، باب ٤٨: =

يقرؤون بها حتى جمعها عثمان رضي الله عنه على حرف واحد حين تنازع الناس في هذه الأحرف، فخاف رضي الله عنه أن يشتد الخلاف، فجمعها في حرف واحد ـ وهو حرف قريش؛ لأن النبي ﷺ الذي نزل عليه القرآن بُعث منهم؛ ونُسيَت الأحرف الأخرى؛ فإذا كان عمر رضي الله عنه فعل ما فعل بصحابي، فما بالك بعامي يسمعك تقرأ غير قراءة المصحف المعروف عنده! والحمد لله: ما دام العلماء متفقين على أنه لا يجب أن يقرأ الإنسان بكل قراءة، وأنه لو اقتصر على واحدة من القراءات فلا بأس؛ فدع الفتنة، وأسبابها.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: ذكر التفصيل بعد الإجمال؛ لقوله تعالى: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾: وهذا مجمل؛ ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم**﴾: وهذا مفصل؛ لأن الإجمال، ثم التفصيل **فيه فائدة**: فإن النفس إذا جاء المجمل تترقب، وتتشوف للتفصيل، والبيان؛ فإذا جاء التفصيل ورد على نفس مستعدة لقبوله متشوفة إليه؛ ثم **فيه فائدة ثانية هنا**: وهو بيان أن الذين أنعم الله عليهم على الصراط المستقيم.

٢ ـ **ومنها**: إسناد النعمة إلى الله تعالى وحده في هداية الذين أنعم عليهم؛ لأنها فضل محض من الله.

٣ ـ **ومنها**: انقسام الناس إلى ثلاثة أقسام: **قسم** أنعم الله عليهم؛ **وقسم** مغضوب عليهم؛ **وقسم** ضالون؛ وقد سبق بيان هذه الأقسام.

= بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف وبيان معناها، حديث رقم ١٨٩٩ [٢٧٠] ٨١٨.

وأسباب الخروج عن الصراط المستقيم: إما الجهل؛ أو العناد؛ والذين سببُ خروجهم العناد هم المغضوب عليهم ـ وعلى رأسهم اليهود؛ والآخرون الذين سبب خروجهم الجهل كل من لا يعلم الحق ـ وعلى رأسهم النصارى؛ وهذا بالنسبة لحالهم قبل البعثة ـ أعني النصارى؛ أما بعد البعثة فقد علموا الحق، وخالفوه؛ فصاروا هم، واليهود سواءً ـ كلهم مغضوب عليهم.

٤ ـ **ومن فوائد الآيتين**: بلاغة القرآن، حيث جاء التعبير عن المغضوب عليهم باسم المفعول الدال على أن الغضب عليهم حاصل من الله تعالى، ومن أوليائه.

٥ ـ **ومنها**: أنه يقدم الأشد، فالأشد؛ لأنه تعالى قدم المغضوب عليهم على الضالين؛ لأنهم أشد مخالفة للحق من الضالين؛ فإن المخالف عن علم يصعب رجوعه ـ بخلاف المخالف عن جهل.

وعلى كل حال السورة هذه عظيمة؛ ولا يمكن لا لي، ولا لغيري أن يحيط بمعانيها العظيمة؛ لكن هٰذا قطرة من بحر؛ ومن أراد التوسع في ذلك فعليه بكتاب «مدارج السالكين» لابن القيم رحمه الله.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة البقرة

نزلت سورة البقرة بعد الهجرة؛ ولذلك فهي مدنية؛ فإن كل ما نزل بعد الهجرة فهو مدني؛ وما نزل قبلها فهو مكي؛ هذا هو الصحيح؛ لأن العبرة بالزمن ـ لا بالمكان.

وغالب السور المدنية **يكون** فيها تفصيل أكثر من السور المكية؛ **ويكون** التفصيل فيها في فروع الإسلام دون أصوله؛ **وتكون** غالباً أقل شدة في الزجر، والوعظ، والوعيد؛ لأنها تخاطب قوماً كانوا مؤمنين موحدين قائمين بأصول الدين، ولم يبق إلا أن تُبَيَّن لهم فروع الدين ليعملوا بها؛ **وتكون غالباً أطول آيات من السور المكية.**

القرآن

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾: قد تقدم الكلام عليها في سورة الفاتحة.

﴿١﴾ قوله تعالى: ﴿الم﴾ حروف هجائية: ثلاثة أحرف: أَلِف، ولام، وميم؛ تقرأ لا على حسب الكتابة: «أَلَمْ»؛ ولكن على حسب اسم الحرف: «**أَلِفْ لامْ ميمْ**».

هذه الحروف الهجائية اختلف العلماء فيها، وفي الحكمة منها على أقوال كثيرة يمكن حصرها في أربعة أقوال:

القول الأول: أن لها معنًى؛ واختلف أصحاب هذا القول في تعيينه: هل هو اسم لله عزّ وجلّ؛ أو اسم للسورة؛ أو أنه إشارة إلى مدة هذه الأمة؛ أو نحو ذلك؟

القول الثاني: هي حروف هجائية ليس لها معنًى إطلاقاً.

القول الثالث: لها معنًى الله أعلم به؛ فنجزم بأن لها معنًى؛ ولكن الله أعلم به؛ لأنهم يقولون: إن القرآن لا يمكن أن ينزل إلا بمعنى.

القول الرابع: التوقف، وألا نزيد على تلاوتها؛ ونقول: الله أعلم: أَلَها معنًى، أم لا؛ وإذا كان لها معنًى فلا ندري ما هو.

وأصح الأقوال فيها القول الثاني؛ وهو أنها حروف هجائية ليس لها معنًى على الإطلاق؛ وهذا مروي عن مجاهد؛ **وحجة هذا القول**: أن القرآن نزل بلغة العرب؛ وهذه الحروف ليس لها معنًى في اللغة العربية، مثل ما تقول: أَلِف؛ باء؛ تاء؛ ثاء؛ جيم؛ حاء...؛ فهي كذلك حروف هجائية.

أما كونه تعالى اختار هذا الحرف دون غيره، ورتبها هذا الترتيب فهذا ما لا علم لنا به.

هذا بالنسبة لذات هذه الحروف؛ أما بالنسبة للحكمة منها فعلى قول من يعين لها معنًى فإن الحكمة منها: الدلالة على ذلك المعنى ـ مثل غيرها مما في القرآن.

وأما على قول من يقول: «ليس لها معنًى»؛ أو: «لها معنًى الله أعلم به»؛ أو: «يجب علينا أن نتوقف» فإن الحكمة عند

هؤلاء على أرجح الأقوال ـ وهو الذي اختاره ابن القيم، وشيخ الإسلام ابن تيمية، واختاره تلميذه الحافظ الذهبي، وجمع كثير من أهل العلم ـ هو الإشارة إلى بيان إعجاز القرآن العظيم، وأن هذا القرآن لم يأتِ بكلمات، أو بحروف خارجة عن نطاق البشر؛ وإنما هو من الحروف التي لا تعدو ما يتكلم به البشر؛ ومع ذلك فقد أعجزهم.

فهذا أبين في الإعجاز؛ لأنه لو كان في القرآن حروف أخرى لا يتكلم الناس بها لم يكن الإعجاز في ذلك واقعاً؛ لكنه بنفس الحروف التي يتكلم بها الناس ـ ومع هذا فقد أعجزهم ـ؛ **فالحكمة منها** ظهور إعجاز القرآن الكريم في أبلغ ما يكون من العبارة؛ قالوا: ويدل على ذلك أنه ما من سورة افتتحت بهذه الحروف إلا وللقرآن فيها ذكر؛ إلا بعض السور القليلة لم يذكر فيها القرآن؛ لكن ذُكر ما كان من خصائص القرآن:

فمثلاً قوله تعالى: ﴿**كهيعص**﴾ [مريم: ١] ليس بعدها ذكر للقرآن؛ ولكن جاء في السورة خاصية من خصائص القرآن ـ وهي ذِكر قصص من كان قبلنا ـ: ﴿**ذكر رحمت ربك عبده زكريا...**﴾ [مريم: ٢].

كذلك في سورة الروم قال تعالى في أولها: ﴿**الم * غلبت الروم**﴾ [الروم: ١، ٢]؛ فهذا الموضع أيضاً ليس فيه ذكر للقرآن؛ ولكن في السورة ذكر شيء من خصائص القرآن ـ وهو الإخبار عن المستقبل ـ: ﴿**غلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين**﴾ [الروم: ٢ ـ ٤].

وكذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿**الم * أحسب الناس أن يتركوا**

أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ [العنكبوت: ١، ٢] ليس فيها ذكر القرآن؛ ولكن فيها شيء من القصص الذي هو أحد خصائص القرآن: **﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنَّ الله الذين صدقوا. . .﴾** [العنكبوت: ٣].

فهذا القول الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية، واختاره جمع من أهل العلم هو الراجح: أن الحكمة من هذا ظهور إعجاز القرآن في أبلغ صوره، حيث إن القرآن لم يأتِ بجديد من الحروف؛ ومع ذلك فإن أهل اللغة العربية عجزوا عن معارضته وهم البلغاء الفصحاء.

وقال بعضهم: إن الحكمة منها تنشيط السامعين؛ فإذا تلي القرآن، وقرئ قوله تعالى: **﴿الم﴾** كأنه تعالى يقول: أنصتوا؛ وذلك لأجل المشركين ـ حتى ينصتوا له ـ.

ولكن هذا القول فيه نظر؛ لأنه لو كان كذلك لكان هذا في كل السور؛ مع أن أكثر السور غير مبتدئ بمثل هذه الحروف؛ وأيضاً لو كان كذلك ما صارت في السور المدنية ـ مثل سورة البقرة ـ؛ لأن السور المدنية ليس فيها أحد يلغو في القرآن؛ **فالصواب** أن الحكمة من ذلك هو ظهور إعجاز القرآن.

﴿٢﴾ قوله تعالى: **﴿ذلك الكتاب﴾**: «**ذا**» اسم إشارة؛ واللام للبعد؛ فإذا كان المشار إليه بعيداً تأتي بهذه اللام التي نسميها «لام البعد»؛ أما الكاف فهي للخطاب؛ وهذه الكاف فيها ثلاث لغات:

الأولى: مراعاة المخاطب؛ فإن كان مفرداً مذكراً فُتِحت؛ وإن كان مفرداً مؤنثاً كُسِرت، وإن كان مثنى قرنت بالميم،

والألف: «**ذلكما**»؛ وإن كان جمعاً مذكراً قرنت بالميم: «**ذلكم**»؛ وإن كان جمعاً مؤنثاً قرنت بالنون المشددة: «**ذلكنَّ**»؛ وهذه هي اللغة الفصحى.

اللغة الثانية: لزوم الفتح والإفراد مطلقاً، سواء خاطبت مذكراً، أو مؤنثاً، أو مثنى، أو جمعاً؛ فتقول للرجل: «**ذلكَ**»؛ وللمرأة: «**ذلكَ**»؛ وللاثنين: «**ذلكَ**»؛ وللجماعة: «**ذلكَ**».

اللغة الثالثة: أن تكون بالإفراد سواء كان المخاطب واحداً، أم أكثر ـ مفتوحة في المذكر مكسورة في المؤنث ـ؛ فتقول: «**ذلكَ**» إذا كان المخاطب مذكراً؛ وتقول: «**ذلكِ**» إذا كان مؤنثاً.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿**ذلك**﴾ لكل مخاطب يصح أن يوجه إليه الخطاب؛ والمعنى: ذلك أيها الإنسان المخاطَب.

والمراد بـ﴿**الكتاب**﴾ القرآن؛ و﴿**الكتاب**﴾ بمعنى المكتوب؛ لأن «فِعال» كما تأتي مصدراً ـ مثل: قتال، ونضال ـ تأتي كذلك بمعنى اسم مفعول، مثل: بناء بمعنى مبني؛ وغراس بمعنى مغروس؛ فكذلك «**كتاب**» بمعنى مكتوب؛ فهو مكتوب عند الله؛ وهو أيضاً مكتوب بالصحف المكرمة، كما قال تعالى: ﴿**في صحف مكرمة * مرفوعة مطهَّرة * بأيدي سفرة**﴾ [عبس: ١٣ ـ ١٥]؛ وهو مكتوب في الصحف التي بين أيدي الناس؛ وأشار إليه بأداة البعيد لعلوّ منزلته؛ لأنه أشرف كتاب، وأعظم كتاب.

قوله تعالى: ﴿**لا ريب فيه هدًى للمتقين**﴾: أهل النحو يقولون: إنّ ﴿**لا**﴾ هنا نافية للجنس؛ و﴿**ريب**﴾ اسمها مبني على الفتح؛ لأنه مركب معها؛ فهي في محل نصب؛ ويقولون: إنّ ﴿**لا**﴾ النافية للجنس تفيد العموم في أقصى غايته ـ يعني تدل على

العموم المطلق ـ، فتشمل القليل، والكثير؛ فإذاً القرآن ليس فيه ريب لا قليل، ولا كثير.

و«**الريب**» هو الشك؛ ولكن ليس مطلق الشك؛ بل الشك المصحوب بقلق لقوة الداعي الموجب للشك؛ أو لأن النفس لا تطمئن لهذا الشك؛ فهي قلقة منه ـ بخلاف مطلق الشك ـ؛ ولهذا من فسّر الريب بالشك فهذا تفسير تقريبي؛ لأن بينهما فرقاً.

والنفي هنا على بابه؛ فالجملة خبرية؛ هذا هو الراجح؛ وقيل: إنه بمعنى النهي ـ أي لا ترتابوا فيه ـ؛ والأول أبلغ؛ **فإن قال قائل**: ما وجه رجحانه؟

فالجواب: أن هذا ينبني على قاعدة هامة في فهم وتفسير القرآن: وهي أنه يجب علينا إجراء القرآن على ظاهره، وأن لا نصرفه عن الظاهر إلا بدليل، مثل قوله تعالى: ﴿**والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء**﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فهذه الآية ظاهرها خبر؛ لكن المراد بها الأمر؛ لأنه قد لا تتربص المطلقة؛ فما دمت تريد تفسير القرآن الكريم فيجب عليك أن تجريه على ظاهره إلا ما دلّ الدليل على خلافه؛ وذلك؛ لأن المفسر للقرآن شاهد على الله بأنه أراد به كذا، وكذا؛ وأنت لو فسّرت كلام بشر على خلاف ظاهره لَلامَكَ هذا المتكلم، وقال: «لماذا تحمل كلامي على خلاف ظاهره! ليس لك إلا الظاهر»؛ مع أنك لو فسرت كلام هذا الرجل على خلاف ظاهره لكان أهون لوماً مما لو فسرت كلام الله؛ لأن المتكلم ـ غير الله ـ ربما يخفى عليه المعنى، أو يعييه التعبير، أو يعبر بشيء ظاهره خلاف ما يريده، فتفسره أنت على ما تظن أنه يريده؛ أما كلام الله عزّ وجلّ فهو صادر عن علم، وبأبلغ كلام،

وأفصحه؛ ولا يمكن أن يخفى على الله عزّ وجلّ ما يتضمنه كلامه؛ فيجب عليك أن تفسره بظاهره.

فقوله تعالى: ﴿**لا ريب فيه**﴾: ظاهرها أنها جملة خبرية تفيد النفي؛ والمعنى: ليس فيه ريب أبداً؛ **وقيل**: إن الخبر هنا بمعنى النهي؛ فمعنى: ﴿**لا ريب فيه**﴾: لا ترتابوا فيه؛ والذي أوجب أن يفسروا النفي بمعنى النهي قالوا: لأنه قد حصل فيه ريب من الكفار، والمنافقين؛ قال تعالى: ﴿**فهم في ريبهم يترددون**﴾ [التوبة: ٤٥]؛ فلا يستقيم النفي حينئذ؛ وتكون هذه القرينة الواقعية من ارتياب بعض الناس في القرآن قرينةً موجبة لصرف الخبر إلى النهي؛ **ولكننا نقول**: إن الله تعالى يتحدث عن القرآن من حيث هو قرآن ـ لا باعتبار من يتلى عليهم القرآن ـ؛ والقرآن من حيث هو قرآن لا ريب فيه؛ عندما أقول لك: «هذا الماء عذب» فهذا بحسب وصف الماء بقطع النظر عن كون هذا الماء في مذاق إنسان من الناس ليس عذباً؛ كون مذاق الماء العذب مراً عند بعض الناس فهذا لا يؤثر على طبيعة الماء العذب؛ وقد قال المتنبي:

ومن يك ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ ... يجدْ مُرّاً به الماءَ الزُّلالا

فما علينا من هؤلاء إذا كان القرآن عندهم محل ريبة؛ فإن القرآن في حد ذاته ليس محل ريبة؛ والله سبحانه وتعالى يصف القرآن من حيث هو قرآن؛ على أن كثيراً من الذين ادّعوا الارتياب كاذبون يقولون ذلك جحوداً، كما قال تعالى: ﴿**فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾ [الأنعام: ٣٣]؛ فكثير منهم ربما لا يكون عنده ارتياب حقيقي في القرآن؛ ويكون في داخل نفسه يعرف أن هذا ليس بقول الرسول ﷺ، وأن محمداً ﷺ لا

يستطيع أن يأتي بمثله؛ ولكن مع ذلك يجحدون، وينكرون.

وعلى هذا فالوجه الأول هو الوجه القوي الذي لا انفصام عنه ـ وهو أن الله تعالى وصف القرآن من حيث هو قرآن بقطع النظر عمن يُتلى عليهم هذا القرآن: أيرتابون، أم لا يرتابون فيه.

وقوله تعالى: ﴿**لا ريب فيه هدًى للمتقين**﴾: وقف بعض القراء على قوله تعالى: ﴿**لا ريب**﴾؛ وعليه فيكون خبر ﴿**لا**﴾ محذوفاً؛ والتقدير: لا ريب في ذلك؛ ويكون الجار والمجرور خبراً مقدماً، و﴿**هدًى**﴾ مبتدأً مؤخراً؛ ووقف بعضهم على قوله تعالى: ﴿**فيه**﴾؛ وعليه فيكون الجار والمجرور خبر ﴿**لا**﴾؛ ويكون قوله تعالى: ﴿**هدًى**﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ والتقدير: هو هدًى للمتقين.

و«التقوى»: اتخاذ وقاية من عذاب الله عزّ وجل بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: بيان علوّ القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿**ذلك**﴾؛ فالإشارة بالبعد تفيد علوّ مرتبته؛ وإذا كان القرآن عالي المكانة والمنزلة، فلا بد أن يعود ذلك على المتمسك به بالعلوّ والرفعة؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**ليظهره على الدين كله**﴾ [التوبة: ٣٣]؛ وكذلك ما وُصِف به القرآن من الكرم، والمدح، والعظمة فهو وصف أيضاً لمن تمسك به.

٢ ـ **ومنها**: رفعة القرآن من جهة أنه قرآن مكتوب معتنٍ به؛ لقوله تعالى: ﴿**ذلك الكتاب**﴾؛ وقد بيّنّا أنه مكتوب في ثلاثة مواضع: اللوح المحفوظ، والصحف التي بأيدي الملائكة، والمصاحف التي بأيدي الناس.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن هذا القرآن نزل من عند الله يقيناً؛ لقوله تعالى: ﴿**لا ريب فيه**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن المهتدي بهذا القرآن هم المتقون؛ فكل من كان أتقى لله كان أقوى اهتداءً بالقرآن الكريم؛ لأنه عُلِّق الهدى بوصف؛ والحكم إذا عُلق بوصف كانت قوة الحكم بحسب ذلك الوصف المعلَّق عليه؛ لأن الوصف عبارة عن علة؛ وكلما قويت العلة قوي المعلول.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: فضيلة التقوى، وأنها من أسباب الاهتداء بالقرآن، والاهتداء بالقرآن يشمل الهداية العلمية، والهداية العملية؛ أي هداية الإرشاد، والتوفيق.

فإن قيل: ما الجمع بين قوله تعالى: ﴿**هدًى للمتقين**﴾، وقوله تعالى: ﴿**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدًى للناس وبينات من الهدى والفرقان**﴾؟ [البقرة: ١٨٥]

فالجواب: أن الهدى نوعان: عام، وخاص؛ أما **العام** فهو الشامل لجميع الناس وهو **هداية العلم، والإرشاد**؛ ومثاله قوله تعالى عن القرآن: ﴿**هدًى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان**﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى عن ثمود: ﴿**وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى**﴾ [فصلت: ١٧]؛ وأما **الخاص** فهو **هداية التوفيق**: أي أن يوفق الله المرء للعمل بما علم؛ مثاله: قوله تعالى ﴿**هدًى للمتقين**﴾، وقوله تعالى: ﴿**قل هو للذين آمنوا هدًى وشفاء**﴾ [فصلت: ٤٤].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.

التفسير:

﴿٣﴾ بعد أن ذكر الله عزّ وجلّ أن المتقين هم الذين ينتفعون ويهتدون بهذا الكتاب، بيَّن لنا صفات هؤلاء المتقين؛ فذكر في هذه الآيات ست صفات:

الأولى: الإيمان بالغيب في قوله تعالى: ﴿**الذين يؤمنون بالغيب**﴾، أي يقرون بما غاب عنهم مما أخبر الله به عن نفسه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وغير ذلك مما أخبر الله به من أمور الغيب؛ وعلى هذا فـ﴿**الغيب**﴾ مصدر بمعنى اسم الفاعل: أي بمعنى: غائب.

الصفة الثانية: إقامة الصلاة في قوله تعالى: ﴿**ويقيمون الصلاة**﴾، أي يقومون بها على وجه مستقيم، كما جاء عن رسول الله ﷺ؛ والمراد بـ﴿**الصلاة**﴾ هنا الجنس؛ فتعم الفريضة، والنافلة.

الصفة الثالثة: الإنفاق مما رزقهم الله في قوله تعالى: ﴿**ومما رزقناهم ينفقون**﴾، أي مما أعطيناهم من المال يخرجون؛ و«**مِن**» هنا يحتمل أن تكون للتبعيض، وأن تكون للبيان؛ ويتفرع على ذلك ما سيُبَيَّن في الفوائد ـ إن شاء الله تعالى ـ.

﴿٤﴾ **الصفة الرابعة** قوله تعالى: ﴿**والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك**﴾، أي يؤمنون بجميع الكتب المنزلة؛

وبدأ بالقرآن مع أنه آخرها زمناً؛ لأنه مهيمن على الكتب السابقة ناسخ لها؛ والمراد بـ﴿ما أنزل من قبلك﴾ التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وموسى، وغيرها.

الصفة الخامسة: الإيقان بالآخرة في قوله تعالى: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾؛ والمراد بذلك البعث بعد الموت، وما يتبعه مما يكون يوم القيامة من الثواب، والعقاب، وغيرهما؛ وإنما نص على الإيقان بالآخرة مع دخوله في الإيمان بالغيب لأهميته؛ لأن الإيمان بها يحمل على فعل المأمور، وترك المحظور؛ و«**الإيقان**» هو الإيمان الذي لا يتطرق إليه شك.

﴿٥﴾ قوله تعالى: ﴿أولئك﴾: المشار إليه ما تقدم ممن اتصفوا بالصفات الخمس؛ وأشار إليهم بصيغة البعد لعلوّ مرتبتهم؛ ﴿على هدًى﴾ أي على علم، وتوفيق؛ و﴿على﴾ للاستعلاء؛ وتفيد علوهم على هذا الهدى، وسيرهم عليه، كأنهم يسيرون على طريق واضح بيّن؛ فليس عندهم شك؛ تجدهم يُقبلون على الأعمال الصالحة وكأن سراجاً أمامهم يهتدون به: تجدهم مثلاً ينظرون في أسرار شريعة الله، وحِكَمها، فيعلمون منها ما يخفى على كثير من الناس؛ وتجدهم أيضاً عندما ينظرون إلى القضاء والقدر كأنما يشاهدون الأمر في مصلحتهم حتى وإن أصيبوا بما يضرهم أو يسوءهم، يرون أن ذلك من مصلحتهم؛ لأن الله قد أنار لهم الطريق؛ فهم على هدًى من ربهم وكأن الهدى مركب ينجون به من الهلاك، أو سفينة ينجون بها من الغرق؛ فهم متمكنون غاية التمكن من الهدى؛ لأنهم عليه؛ و﴿من ربهم﴾ أي خالقهم المدبر لأمورهم؛ والربوبية هنا خاصة متضمنة للتربية الخاصة التي فيها سعادة الدنيا، والآخرة.

قوله تعالى: ﴿**وأولئك هم المفلحون**﴾: الجملة مبتدأ وخبر، بينهما ضمير الفصل الدالّ على التوكيد، والحصر؛ وأعيد اسم الإشارة تأكيداً لما يفيده اسم الإشارة الأول من علوّ المرتبة، والعناية التامة بهم كأنهم حضروا بين يدي المتكلم؛ وفيه الفصل بين الغاية، والوسيلة؛ فالغاية: الفلاح؛ ووسيلته: ما سبق؛ و«**الفلاح**» هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب؛ فهي كلمة جامعة لانتفاء جميع الشرور، وحصول جميع الخير.

تنبيه:

من المعروف عند أهل العلم أن العطف يقتضي المغايرة ـ أي أن المعطوف غير المعطوف عليه ـ؛ وقد ذكرنا أن هذه المعطوفات أوصاف للمتقين وهو موصوف واحد؛ فكيف تكون المغايرة؟

والجواب: أن التغاير يكون في الذوات كما لو قلت: «قدم زيد، وعمرو»؛ ويكون في الصفات كما في هذه الآيات، وكما في قوله تعالى: ﴿**سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدَّر فهدى * والذي أخرج المرعى**﴾ [الأعلى: ١ ـ ٤]؛ قالوا: والفائدة من ذلك أن هذا يقتضي تقرير الوصف الأول ـ كأنه قال: «أتصف بهذا، وزيادة ـ.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيات**: أن من أوصاف المتقين الإيمان بالغيب؛ لأن الإيمان بالمُشاهَد المحسوس ليس بإيمان؛ لأن المحسوس لا يمكن إنكاره.

٢ ـ **ومنها**: أن من أوصاف المتقين إقامة الصلاة؛ وهو عام لفرضها، ونفلها.

ويتفرع على ذلك: الترغيب في إقامة الصلاة؛ لأنها من صفات المتقين؛ **وإقامتها** أن يأتي بها مستقيمة على الوجه المطلوب في خشوعها، وقيامها، وقعودها، وركوعها، وسجودها، وغير ذلك.

٣ ـ **ومن فوائد الآيات**: أن من أوصاف المتقين الإنفاق مما رزقهم الله؛ وهذا يشمل الإنفاق الواجب كالزكاة، وإنفاقَ التطوع كالصدقات، والإنفاقِ في سبل الخير.

٤ ـ **ومنها**: أن صدقة الغاصب باطلة؛ لقوله تعالى: ﴿**ومما رزقناهم**﴾؛ لأن الغاصب لا يملك المال الذي تصدق به، فلا تقبل صدقته.

٥ ـ **ومنها**: أن الإنفاق غير الزكاة لا يتقدر بشيء معين؛ لإطلاق الآية، سواء قلنا: إن «**مِن**» للتبعيض؛ أو للبيان.

ويتفرع على هذا جواز إنفاق جميع المال في طرق الخير، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه حين تصدق بجميع ماله[1]؛ لكن هذا مشروط بما إذا لم يترتب عليه ترك واجب من الإنفاق على الأهل، ونحوهم؛ فإن ترتب عليه ذلك فالواجب مقدم على التطوع.

---

(١) راجع سنن أبي داود ص١٣٤٨، كتاب الزكاة، باب ٤٠: الرخصة في ذلك، حديث رقم ١٦٧٨؛ والترمذي ص٢٠٣٠، كتاب المناقب، باب ١: رجاؤه ﷺ أن يكون أبو بكر ممن يدعى من جميع أبواب الجنة، حديث رقم ٣٦٧٥؛ والدارمي ١/ ٤٨٠، كتاب الزكاة، باب ٢٦: الرجل يتصدق بجميع ما عنده، حديث رقم ١٦٦٠، وقال الألباني في صحيح أبي داود ١/ ٤٦٦: حسن.

٦ ـ **ومن فوائد الآيات**: ذم البخل؛ ووجهه أن الله مدح المنفقين؛ فإذا لم يكن إنفاق فلا مدح؛ والبخل خلق ذميم حذر الله سبحانه وتعالى منه في عدة آيات.

تنبيه:

لم يذكر الله مصرف الإنفاق أين يكون؛ لكنه تعالى ذكر في آيات أخرى أن الإنفاق الممدوح ما كان في سبيل الله من غير إسراف، ولا تقتير، كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن: **﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾** [الفرقان: ٦٧].

٧ ـ **ومن فوائد الآيات**: أن من أوصاف المتقين الإيمان بما أنزل على الرسول ﷺ، وما أنزل من قبله.

٨ ـ **ومنها**: أن من أوصاف المتقين الإيقان بالآخرة على ما سبق بيانه في التفسير.

٩ ـ **ومنها**: أهمية الإيمان بالآخرة؛ لأن الإيمان بها هو الذي يبعث على العمل؛ ولهذا يقرن الله تعالى دائماً الإيمان به عزّ وجلّ، وباليوم الآخر؛ أما من لم يؤمن بالآخرة فليس لديه باعث على العمل؛ إنما يعمل لدنياه فقط: يعتدي ما دام يرى أن ذلك مصلحة في دنياه: يسرق مثلاً؛ يتمتع بشهوته؛ يكذب؛ يغش...؛ لأنه لا يؤمن بالآخرة؛ فالإيمان بالآخرة حقيقة هو الباعث على العمل.

١٠ ـ **ومنها**: سلامة هؤلاء في منهجهم؛ لقوله تعالى: **﴿أولئك على هدًى من ربهم﴾**.

١١ ـ **ومنها**: أن ربوبية الله عزّ وجلّ تكون خاصة، وعامة؛

وقد اجتمعا في قوله تعالى عن سحرة فرعون: ﴿**آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون**﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢].

١٢ ـ **ومنها**: أن مآل هؤلاء هو الفلاح؛ لقوله تعالى: ﴿**وأولئك هم المفلحون**﴾.

١٣ ـ **ومنها**: أن الفلاح مرتب على الاتصاف بما ذُكر؛ فإن اختلَّت صفة منها نقص من الفلاح بقدر ما اختل من تلك الصفات؛ لأن الصحيح من قول أهل السنة والجماعة، والذي دلّ عليه العقل والنقل، أن الإيمان يزيد، وينقص، ويتجزأ؛ ولولا ذلك ما كان في الجنات درجات: هناك رتب كما جاء في الحديث: «**إن أهل الجنة ليتراءون أصحاب الغرف كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق؛ قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال ﷺ: لا؛ والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين**»[1]، أي ليست خاصة بالأنبياء.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٦٣، كتاب بدء الخلق، باب ٨: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، حديث رقم ٣٢٥٦؛ وأخرجه مسلم ص١١٧٠، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ٣: ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء، حديث رقم ٧١٤٤ [١١] ٢٨٣١.

التفسير:

ثم ذكر الله قسماً آخر ـ وهم الكافرون الخلَّص ـ؛ ففي هذه السورة العظيمة ابتدأ الله تعالى فيها بتقسيم الناس إلى ثلاثة أقسام: المؤمنون الخلَّص؛ ثم الكافرون الخلَّص؛ ثم المنافقون بألسنتهم دون قلوبهم؛ فبدأ بالطيب، ثم الخبيث، ثم الأخبث؛ إذاً **الطيب**: هم المتقون المتصفون بهذه الصفات؛ **والخبيث**: الكفار؛ **والأخبث**: المنافقون.

﴿٦﴾ قوله تعالى: ﴿سواء﴾ أي مستوٍ؛ وهي إما أن تكون خبر ﴿إن﴾ في قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا﴾؛ ويكون قوله تعالى: ﴿أأنذرتهم﴾ فاعلاً بـ﴿سواء﴾ مسبوكاً بمصدر؛ والتقدير: سواء عليهم إنذارُك، وعدمُه؛ وإما أن تكون ﴿سواء﴾ خبراً مقدماً، و﴿أأنذرتهم﴾ مبتدأً مؤخراً؛ والجملة خبر ﴿إن﴾؛ والأول أولى؛ لأنه يجعل الجملة جملة واحدة؛ وهنا انسبك قوله تعالى: ﴿أأنذرتهم﴾ بمصدر مع أنه ليس فيه حرف مصدري؛ لكنهم يقولون: إن همزة الاستفهام التي للتسوية يجوز أن تسبك، ومدخولها بمصدر.

قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا﴾ أي بما يجب الإيمان به.

قوله تعالى: ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾: هذا تسلية من الله لرسوله ﷺ ـ لا اعتذاراً للكفار ـ، ولا تيئيساً له ﷺ؛ و«**الإنذار**» هو الإعلام المقرون بالتخويف؛ والرسول ﷺ بشير، ونذير؛ بشير معلم بما يسر بالنسبة للمؤمنين؛ نذير معلم بما يسوء بالنسبة للكافرين؛ فإنذار النبي ﷺ، وعدمه بالنسبة لهؤلاء الكفار المعاندين، والمخاصمين ـ الذين تبين لهم الحق، ولكن جحدوه ـ مستوٍ عليهم.

وقوله تعالى: ﴿لا يؤمنون﴾: هذا محط الفائدة في نفي التساوي ـ أي إنهم أنذرتهم أم لم تنذرهم ـ لا يؤمنون؛ وتعليل ذلك قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾.

و«**الختم**»: الطبع؛ و«الطبع» هو أن الإنسان إذا أغلق شيئاً ختم عليه من أجل ألا يخرج منه شيء، ولا يدخل إليه شيء؛ وهكذا فهؤلاء ـ والعياذ بالله ـ قلوبهم مختوم عليها لا يصدر منها خير، ولا يصل إليها خير.

﴿٧﴾ قوله تعالى: ﴿وعلى سمعهم﴾ أي وختم على سمعهم، فهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿على قلوبهم﴾؛ والختم على الأذن: أن لا تسمع خيراً تنتفع به.

قوله تعالى: ﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾: الواو للاستئناف؛ فالجملة مستقلة عما قبلها؛ فهي مبتدأ، وخبر مقدم؛ ويحتمل أن تكون الواو عاطفة، لكن عطف جملة على جملة؛ و﴿غشاوة﴾ أي غطاء يحول بينها وبين النظر إلى الحق؛ ولو نظرت لم تنتفع.

قوله تعالى: ﴿ولهم﴾ أي لهؤلاء الكفار الذين بقوا على كفرهم ﴿عذاب عظيم﴾: وهو عذاب النار؛ وعظمه الله تعالى؛ لأنه لا يوجد أشد من عذاب النار.

انتهى الكلام على الصنف الثاني من أصناف الخلق، وهم الكفار الخُلَّص الصرحاء.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: تسلية الرسول ﷺ حين يردُّه الكفار، ولا يَقبلون دعوته.

٢ ـ **ومنها**: أن من حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يؤمن

مهما كان المنذِر والداعي؛ لأنه لا يستفيد ـ قد ختم الله على قلبه ـ، كما قال تعالى: ﴿**إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم**﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿**أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار**﴾ [الزمر: ١٩] يعني هؤلاء لهم النار؛ انتهى أمرهم، ولا يمكن أن تنقذهم.

٣ ـ **ومنها**: أن الإنسان إذا كان لا يشعر بالخوف عند الموعظة، ولا بالإقبال على الله تعالى فإن فيه شبهاً من الكفار الذين لا يتعظون بالمواعظ، ولا يؤمنون عند الدعوة إلى الله.

٤ ـ **ومنها**: أن محل الوعي القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿**ختم الله على قلوبهم**﴾ يعني لا يصل إليها الخير.

٥ ـ **ومنها**: أن طرق الهدى إما بالسمع؛ وإما بالبصر: لأن الهدى قد يكون بالسمع، وقد يكون بالبصر؛ بالسمع فيما يقال؛ وبالبصر فيما يشاهد؛ وهكذا آيات الله عزّ وجلّ تكون مقروءة مسموعة؛ وتكون بيّنة مشهودة.

٦ ـ **ومنها**: وعيد هؤلاء الكفار بالعذاب العظيم.

مسألة:

إذا قال قائل: هل هذا الختم له سبب من عند أنفسهم، أو مجرد ابتلاء وامتحان من الله عزّ وجلّ؟

فالجواب: أن له سبباً؛ كما قال تعالى: ﴿**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم**﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية**﴾ [المائدة: ١٣].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾.

التفسير:

﴿٨﴾ قوله تعالى: ﴿**ومن الناس**﴾: ﴿**من**﴾ للتبعيض؛ أي: وبعض الناس؛ ولم يصفهم الله تعالى بوصف ـ لا بإيمان، ولا بكفر ـ؛ لأنهم كما وصفهم الله تعالى في سورة النساء: ﴿**مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء**﴾ [النساء: ١٤٣]؛ و﴿**الناس**﴾ أصلها الأناس؛ لكن لكثرة الاستعمال حذفت الهمزة تخفيفاً، كما قالوا في «خير»، و«شر»: إن أصلهما: «أخير»، و«أشر»؛ لكن حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة الاستعمال؛ وسُموا أناساً: من الأُنس؛ لأن بعضهم يأنس بعضاً، ويركن إليه؛ ولهذا يقولون: «الإنسان مدني بالطبع»؛ بمعنى: أنه يحب المدنية ـ يعني الاجتماع، وعدم التفرق ـ.

قوله تعالى: ﴿**من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر**﴾ أي يقول بلسانه ـ بدليل قوله تعالى: ﴿**وما هم بمؤمنين**﴾ أي بقلوبهم ـ؛ وسبق معنى الإيمان بالله، وباليوم الآخر.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: بلاغة القرآن؛ بل فصاحة القرآن في التقسيم؛ لأن الله سبحانه وتعالى ابتدأ هذه السورة بالمؤمنين الخلَّص، ثم الكفار الخلَّص، ثم بالمنافقين؛ وذلك؛ لأن التقسيم مما يزيد الإنسان معرفة، وفهماً.

٢ ـ **ومنها**: أن القول باللسان لا ينفع الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن المنافقين ليسوا بمؤمنين ـ وإن قالوا: إنهم مؤمنون ـ؛ لقوله تعالى: ﴿**وما هم بمؤمنين**﴾؛ ولكن هل هم مسلمون؟ إن أريد بالإسلام الاستسلام الظاهر فهم مسلمون؛ وإن أريد بالإسلام إسلام القلب والبدن فليسوا بمسلمين.

٤ ـ **ومنها**: أن الإيمان لا بد أن يتطابق عليه القلب، واللسان.

ووجه الدلالة: أن هؤلاء قالوا: «آمنا» بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم؛ فصح نفي الإيمان عنهم؛ لأن الإيمان باللسان ليس بشيء.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾.

التفسير:

﴿٩﴾ قوله تعالى: ﴿**يخادعون الله**﴾ أي بإظهار إسلامهم الذي يعصمون به دماءهم، وأموالهم.

قوله تعالى: ﴿**والذين آمنوا**﴾ معطوف على لفظ الجلالة؛ والمعنى: ويخدعون الذين آمنوا بإظهار الإسلام، وإبطان الكفر، فيظن المؤمنون أنهم صادقون.

قوله تعالى: ﴿**وما يخدعون إلا أنفسهم**﴾ أي ما يخدع هؤلاء المنافقون إلا أنفسهم، حيث منَّوها الأماني الكاذبة.

قوله تعالى: ﴿**وما يشعرون**﴾ أي ما يشعر هؤلاء أن خداعهم على أنفسهم مع أنهم يباشرونه؛ ولكن لا يُحِسُّون به، كما تقول: «مَرَّ بي فلان ولم أشعر به».

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: مكر المنافقين، وأنهم أهل مكر، وخديعة؛ لقوله تعالى: ﴿**يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم**﴾؛ ولهذا قال الله تعالى في سورة المنافقين: ﴿**هم العدو فاحذرهم**﴾ [المنافقون: ٤]؛ فحصر العداوة فيهم؛ لأنهم مخادعون.

٢ ـ **ومنها**: التحفظ من المنافقين؛ لأنه إذا قيل لك: «فلان يخدع» فإنك تزداد تحفظاً منها؛ وأنه ينبغي للمؤمن أن يكون يقظاً حذراً، فلا ينخدع بمثل هؤلاء.

فإن قال قائل: كيف نعرف المنافق حتى نكون حذرين منه؟

فالجواب: نعرفه بأن نتتبع أقواله، وأفعاله: هل هي متطابقة، أو متناقضة؟ فإذا علمنا أن هذا الرجل يتملق لنا، ويظهر أنه يحب الإسلام، ويحب الدين، لكن إذا غاب عنا نسمع عنه بتأكد أنه يحارب الدين عرفنا أنه منافق؛ فيجب علينا أن نحذر منه.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن المكر السيئ لا يحيق إلّا بأهله؛ فهم يخادعون الله، ويظنون أنهم قد نجحوا، أو غلبوا؛ ولكن في الحقيقة أن الخداع عائد عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿**وما يخدعون إلا أنفسهم**﴾: فالحصر هنا يدل على أن خداعهم هذا لا يضر الله تعالى شيئاً، ولا رسوله، ولا المؤمنين.

٤ ـ **ومنها**: أن العمل السيئ قد يُعمي البصيرة؛ فلا يشعر الإنسان بالأمور الظاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿**وما يشعرون**﴾ أي ما يشعرون أنهم يخدعون أنفسهم؛ و«**الشعور**» أخص من العلم؛ فهو

العلم بأمور دقيقة خفية؛ ولهذا قيل: إنه مأخوذ من الشَّعر؛ والشعر دقيق؛ فهؤلاء الذين يخادعون الله، والرسول، والمؤمنين لو أنهم تأملوا حق التأمل لعرفوا أنهم يخدعون أنفسهم، لكن لا شعور عندهم في ذلك؛ لأن الله تعالى قد أعمى بصائرهم ـ والعياذ بالله ـ، فلا يشعرون بهذا الأمر.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾.

التفسير:

﴿١٠﴾ قوله تعالى: ﴿في قلوبهم مرض﴾: هذه الجملة جملة اسمية تدل على مكث وتمكنٌ هذا المرض في قلوبهم؛ ولكنه مرض على وجه قليل أثّر بهم حتى بلغوا النفاق؛ ومن أجل هذا المرض قال سبحانه وتعالى: ﴿فزادهم الله مرضاً﴾: الفاء هنا عاطفة؛ ولكنها تفيد معنى السببية: زادهم الله مرضاً على مرضهم؛ لأنهم ـ والعياذ بالله ـ يريدون الكفر؛ وهذه الإرادة مرض أدى بهم إلى زيادة المرض؛ لأن الإرادات التي في القلوب عبارة عن صلاح القلوب، أو فسادها؛ فإذا كان القلب يريد خيراً فهو دليل على سلامته، وصحته؛ وإذا كان يريد الشر فهو دليل على مرضه، وعلته.

وهؤلاء قلوبهم تريد الكفر؛ لأنهم يقولون لشياطينهم إذا خلوا إليهم: ﴿إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ [البقرة: ١٤]، أي

بهؤلاء المؤمنين السذج ـ على زعمهم ـ ويرون أن المؤمنين ليسوا بشيء، وأن العِلْية من القوم هم الكفار؛ ولهذا جاء التعبير بـ﴿**إنا معكم**﴾ [البقرة: ١٤] الذي يفيد المصاحبة، والملازمة.

فهذا مرض زادهم الله به مرضاً إلى مرضهم حتى بلغوا إلى موت القلوب، وعدم إحساسها، وشعورها.

قوله تعالى في مجازاتهم: ﴿**ولهم عذاب**﴾ أي عقوبة؛ ﴿**أليم**﴾ أي مؤلم؛ فهو شديد، وعظيم، وكثير؛ لأن الأليم قد يكون مؤلماً لقوته، وشدته: فضربة واحدة بقوة تؤلم الإنسان؛ وقد يكون مؤلماً لكثرته: فقد يكون ضرباً خفيفاً؛ ولكن إذا كثر، وتوالى آلَم؛ وقد اجتمع في هؤلاء المنافقين الأمران؛ لأنهم في الدرك الأسفل من النار ـ وهذا ألم حسي ـ؛ وقال تعالى في أهل النار: ﴿**كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون**﴾ [السجدة: ٢٠]، وهذا ألم قلبي يحصل بتوبيخهم.

قوله تعالى: ﴿**بما كانوا يكذبون**﴾: الباء للسببية ـ أي بسبب كذبهم ـ، أو تكذيبهم؛ و«**ما**» مصدرية تؤول وما بعدها بمصدر؛ فيكون التقدير: بكونهم كاذبين؛ أو: بكونهم مكذبين؛ لأن في الآية قراءتين؛ الأولى: بفتح الياء، وسكون الكاف، وكسر الذال مخففة؛ ومعناها: يَكْذِبون بقولهم: آمنا بالله، وباليوم الآخر ـ وما هم بمؤمنين ـ؛ والقراءة الثانية: بضم الياء، وفتح الكاف، وكسر الذال مشددة؛ ومعناها: يُكَذِّبون الله، ورسوله؛ وقد اجتمع الوصفان في المنافقين؛ فهم كاذبون مكذِّبون.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الإنسان إذا لم يكن له إقبال على الحق، وكان قلبه مريضاً فإنه يعاقب بزيادة المرض؛ لقوله تعالى: ﴿**في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً**﴾؛ وهذا المرض الذي في قلوب المنافقين: شبهات، وشهوات؛ فمنهم من علم الحق، لكن لم يُرِده؛ ومنهم من اشتبه عليه؛ وقد قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿**إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً**﴾ [النساء: ١٣٧]، وقال تعالى في سورة المنافقين: ﴿**ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون**﴾ [المنافقون: ٣].

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن أسباب إضلال اللَّهِ العبدَ هو من العبد؛ لقوله تعالى: ﴿**في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً**﴾؛ ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم**﴾ [الصف: ٥]، وقوله تعالى: ﴿**ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة**﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿**فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم**﴾ [المائدة: ٤٩].

٣ ـ **ومنها**: أن المعاصي والفسوق، تزيد وتنقص، كما أن الإيمان يزيد وينقص؛ لقوله تعالى: ﴿**فزادهم الله مرضاً**﴾؛ والزيادة لا تُعقل إلا في مقابلة النقص؛ فكما أن الإيمان يزيد وينقص، كذلك الفسق يزيد، وينقص؛ والمرض يزيد، وينقص.

٤ ـ **ومنها**: الوعيد الشديد للمنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿**ولهم عذاب أليم**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن العقوبات لا تكون إلا بأسباب ـ أي أن الله

لا يعذب أحداً إلا بذنب ـ؛ لقوله تعالى: ﴿بما كانوا يكذبون﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن هؤلاء المنافقين جمعوا بين الكذب، والتكذيب؛ وهذا شر الأحوال.

٧ ـ **ومنها**: ذم الكذب، وأنه سبب للعقوبة؛ فإن الكذب من أقبح الخصال؛ وقد بين رسول الله ﷺ أن الكذب من خصال المنافقين، فقال ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب...**»[1] الحديث؛ والكذب مذموم شرعاً، ومذموم عادة، ومذموم فطرة أيضاً.

مسألة:

إن قيل: كيف يكون خداعهم لله وهو يعلم ما في قلوبهم؟

فالجواب: أنهم إذا أظهروا إسلامهم فكأنما خادعوا الله؛ لأنهم حينئذ تُجرى عليهم أحكام الإسلام، فيلوذون بحكم الله ـ تبارك وتعالى ـ حيث عصموا دماءهم وأموالهم بذلك.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

التفسير:

﴿١١﴾ قوله تعالى: ﴿**وإذا قيل لهم لا تفسدوا في**

(١) أخرجه البخاري ص٥، كتاب الإيمان، باب ٢٤: علامات المنافق، حديث رقم ٣٣؛ وأخرجه مسلم ص٦٩٠، كتاب الإيمان، باب ٢٥: خصال المنافق، حديث رقم ٢١١ [١٠٧] ٥٩.

الأرض﴾: القائل هنا مبهم للعموم ـ أي ليعم أيَّ قائل كان؛ و«**الإفساد في الأرض**» هو أن يسعى الإنسان فيها بالمعاصي ـ كما فسره بذلك السلف؛ لقوله تعالى: **﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾** [الروم: ٤١].

وقوله تعالى: **﴿في الأرض﴾**: المراد الأرض نفسها؛ أو أهلها؛ أو كلاهما ـ وهو الأولى؛ **أما إفساد الأرض نفسها**: فإن المعاصي سبب للقحط، ونزع البركات، وحلول الآفات في الثمار، وغيرها، كما قال تعالى عن آل فرعون لما عصوا رسوله موسى عليه السلام: **﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون﴾** [الأعراف: ١٣٠]، فهذا فساد في الأرض.

وأما الفساد في أهلها: فإن هؤلاء المنافقين يأتوا إلى اليهود، ويقولون لهم: **﴿لئن أخرجتم لنخرجنَّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم﴾** [الحشر: ١١]: فيزدادوا استعداءً للرسول ﷺ ومحاربة له؛ **كذلك أيضاً من فسادهم في أهل الأرض**: أنهم يعيشون بين المسلمين، ويأخذون أسرارهم، ويفشونها إلى أعدائهم؛ **ومن فسادهم في أهل الأرض**: أنهم يفتحون للناس باب الخيانة والتَقِيَّة، بحيث لا يكون الإنسان صريحاً واضحاً، وهذا من أخطر ما يكون في المجتمع.

قوله تعالى: **﴿قالوا إنما نحن مصلحون﴾**؛ **﴿إنما﴾**: أداة حصر؛ و**﴿نحن﴾**: مبتدأ؛ و**﴿مصلحون﴾**: خبر؛ والجملة اسمية؛ والجملة الاسمية تفيد الثبوت، والاستمرار؛ فكأنهم يقولون: ما

حالنا إلا الإصلاح؛ يعني: أنه ليس فيهم إفساد مطلقاً.

ومن توفيق الله أنه لم يلهمهم، فيقولوا: إنما نحن المصلحون؛ فلو أنهم قالوا: «نحن المصلحون» كان مقتضاه أن لا مصلح غيرهم؛ لكنهم قالوا: ﴿**إنما نحن مصلحون**﴾ أي ما حالنا إلا إصلاح؛ ولم يدَّعوا أنهم المصلحون وحدهم.

﴿**١٢**﴾ قوله تعالى: ﴿**ألا إنهم هم المفسدون**﴾؛ ﴿**ألا**﴾: أداة تفيد التنبيه، والتأكيد؛ و﴿**إنهم**﴾: توكيد أيضاً؛ و﴿**هم**﴾: ضمير فصل يفيد التوكيد أيضاً؛ فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: ﴿**ألا**﴾، و«**إن**»، و﴿**هم**﴾؛ وهذا من أبلغ صيغ التوكيد؛ وأتى بـ«**أل**» الدالة على حقيقة الإفساد، وأنهم هم المفسدون حقاً؛ ووجه حصر الإفساد فيهم أن ﴿**هم**﴾ ضمير فصل يفيد الحصر ـ أي هم لا غيرهم المفسدون؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿**هم العدو فاحذرهم**﴾ [المنافقون: ٤] أي هم لا غيرهم؛ فلا عداء أبلغ من عداء المنافقين للمؤمنين؛ ولا فساد أعظم من فساد المنافقين في الأرض.

قوله تعالى: ﴿**ولكن لا يشعرون**﴾ أي لا يشعرون أنهم مفسدون؛ لأن الفساد أمر حسي يدرك بالشعور والإحساس؛ فلبلادتهم وعدم فهمهم للأمور، لا يشعرون بأنهم هم المفسدون دون غيرهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: أن النفاق الذي هو إظهار الإسلام، وإبطان الكفر من الفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿**وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض**﴾؛ والنفاق من أعظم الفساد في الأرض.

٢ ـ **ومنها**: أن من أعظم البلوى أن يُزَيَّن للإنسان الفساد حتى يَرى أنه مصلح؛ لقولهم: ﴿**إنما نحن مصلحون**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن غير المؤمن نظره قاصر، حيث يرى الإصلاح في الأمر المعيشي فقط؛ بل الإصلاح حقيقة أن يسير على شريعة الله واضحاً صريحاً.

٤ ـ **ومنها**: أنه ليس كل من ادعى شيئاً يصدق في دعواه؛ لأنهم قالوا: ﴿**إنما نحن مصلحون**﴾؛ فقال الله تعالى: ﴿**ألا إنهم هم المفسدون**﴾؛ وليس كل ما زينته النفس يكون حسناً، كما قال تعالى: ﴿**أفمن زُين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء**﴾ [فاطر: ٨].

٥ ـ **ومنها**: أن الإنسان قد يبتلى بالإفساد في الأرض، ويخفى عليه فساده؛ لقوله تعالى: ﴿**ولكن لا يشعرون**﴾.

٦ ـ **ومنها**: قوة الرد على هؤلاء الذين ادعوا أنهم مصلحون، حيث قال الله عزّ وجلّ: ﴿**ألا إنهم هم المفسدون**﴾؛ فأكد إفسادهم بثلاثة مؤكدات؛ وهي ﴿**ألا**﴾ و«**إن**»، و﴿**هم**﴾؛ بل حصر الإفساد فيهم عن طريق ضمير الفصل.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

التفسير:

﴿١٣﴾ قوله تعالى: ﴿**وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس**﴾: القائل هنا مبهم للعموم ـ أي ليعم أيَّ قائل كان؛ والكاف

للتشبيه، و«ما» مصدرية ـ أي كإيمان الناس؛ والمراد بـ﴿الناس﴾ هنا الصحابة الذين كانوا في المدينة، وإمامهم النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾؛ الاستفهام هنا للنفي، والتحقير؛ والمعنى: لا نؤمن كما آمن السفهاء؛ وربما يكون أيضاً مضمناً معنى الإنكار ـ أي أنهم ينكرون على من قال: ﴿آمنوا كما آمن الناس﴾؛ وهذا أبلغ من النفي المحض؛ و﴿السفهاء﴾: الذين ليس لهم رشد، وعقل؛ والمراد بهم هنا أصحاب النبي ﷺ ـ على حدّ زعم هؤلاء المنافقين؛ فقال الله تعالى ـ وهو العليم بما في القلوب ـ رداً على هؤلاء: ﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾: وهذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: ﴿ألا﴾، و«إن»، وضمير الفصل: ﴿هم﴾، وهو أيضاً مفيد للحصر؛ وهذه الجملة كالتي قبلها في قوله تعالى: ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾.

قوله تعالى: ﴿ولكن لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون سفههم؛ فإن قيل: ما الفرق بين قوله تعالى هنا: ﴿ولكن لا يعلمون﴾، وقوله تعالى فيما سبق: ﴿ولكن لا يشعرون﴾؟

فالجواب: أن الإفساد في الأرض أمر حسي يدركه الإنسان بإحساسه، وشعوره؛ وأما السفه فأمر معنوي يدرك بآثاره، ولا يُحَسُّ به نفسِه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن المنافق لا تنفعه الدعوة إلى الخير؛ لقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾؛ فهم لا ينتفعون إذا دعوا إلى الحق؛ بل يقولون: ﴿أنؤمن كما آمن السفهاء﴾.

٢ ـ **ومنها**: إعجاب المنافقين بأنفسهم؛ لقولهم: ﴿**أنؤمن كما آمن السفهاء**﴾.

٣ ـ **ومنها**: شدة طغيان المنافقين؛ لأنهم أنكروا على الذين عرضوا عليهم الإيمان: ﴿**قالوا أنؤمن**﴾؛ وهذا غاية ما يكون من الطغيان؛ ولهذا قال الله تعالى في آخر الآيات: ﴿**في طغيانهم يعمهون**﴾ [البقرة: ١٥].

٤ ـ **ومنها**: أن أعداء الله يصفون أولياءه بما يوجب التنفير عنهم لقولهم: ﴿**أنؤمن كما آمن السفهاء**﴾؛ فأعداء الله في كل زمان، وفي كل مكان يصفون أولياء الله بما يوجب التنفير عنهم؛ فالرسل وصفهم قومهم بالجنون، والسحر، والكهانة، والشعر تنفيراً عنهم، كما قال تعالى: ﴿**كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون**﴾ [الذاريات: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿**وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين**﴾ [الفرقان: ٣١]؛ وورثة الأنبياء مثلهم يجعل الله لهم أعداء من المجرمين، ولكن ﴿**وكفى بربك هادياً ونصيراً**﴾ [الفرقان: ٣١]؛ فمهما بلغوا من الأساليب فإن الله تعالى إذا أراد هداية أحد فلا يمنعه إضلال هؤلاء؛ لأن أعداء الأنبياء يسلكون في إبطال دعوة الأنبياء مَسْلكين؛ مسلك الإضلال، والدعاية الباطلة في كل زمان، ومكان؛ ثم مسلك السلاح ـ أي المجابهة المسلحة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**هادياً**﴾ [الفرقان: ٣١] في مقابل المسلك الأول الذي هو الإضلال ـ وهو الذي نسميه الآن بالأفكار المنحرفة، وتضليل الأمة، والتلبيس على عقول أبنائها؛ وقال تعالى: ﴿**ونصيراً**﴾ [الفرقان: ٣١] في مقابل المسلك الثاني ـ وهو المجابهة المسلحة.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن كل من لم يؤمن فهو سفيه، كما قال الله تعالى: ﴿**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه**﴾ [البقرة: ١٣٠].

٦ ـ **ومنها**: أن الحكمة كل الحكمة إنما هي الإيمان بالله، واتباع شريعته؛ لأن الكافر المخالف للشريعة سفيه؛ فيقتضي أن ضده يكون حكيماً رشيداً.

٧ ـ **ومنها**: تحقيق ما وعد الله به من الدفاع عن المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**إن الله يدافع عن الذين آمنوا**﴾ [الحج: ٣٨]؛ فإذا ذموا بالقول دافع الله عنهم بالقول؛ فهؤلاء قالوا: ﴿**أنؤمن كما آمن السفهاء**﴾، والله عزّ وجلّ هو الذي جادل عن المؤمنين، فقال: ﴿**ألا إنهم هم السفهاء**﴾ يعني هم السفهاء لا أنتم؛ فهذا من تحقيق دفاع الله تعالى عن المؤمنين؛ أما دفاعه عن المؤمنين إذا اعتُدي عليهم بالفعل فاستمع إلى قول الله تعالى: ﴿**إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان**﴾ [الأنفال: ١٢]: هذه مدافعة فعلية، حيث تنْزل جنود الله تعالى من السماء لتقتل أعداء المؤمنين؛ فهذا تحقيق لقول الله تعالى: ﴿**إن الله يدافع عن الذين آمنوا**﴾ [الحج: ٣٨]؛ ولكن الحقيقة أن هذا الوعد العظيم من القادر جل وعلا الصادق في وعده يحتاج إلى إيمان حتى نؤمن بالله عزّ وجلّ، ولا نخشى أحداً سواه، فإذا ضعف الإيمان أصبحنا نخشى الناس كخشية الله، أو أشد خشية؛ لأننا إذا كنا نراعيهم دون أوامر الله فسنخشاهم أشد من خشية الله عزّ وجلّ؛ وإلا لكنا ننفذ أمر الله عزّ وجلّ، ولا نخشى إلا الله سبحانه وتعالى.

فنحن لو آمنا حقيقة الإيمان بهذا الوعد الصادق الذي لا يُخلَف لكنا منصورين في كل حال؛ لكن الإيمان ضعيف؛ ولهذا صرنا نخشى الناس أكثر مما نخشى الله عزّ وجلّ؛ وهذه هي المصيبة، والطامة العظيمة التي أصابت المسلمين اليوم؛ ولذلك تجد كثيراً من ولاة المسلمين ـ مع الأسف ـ لا يهتمون بأمر الله، ولا بشريعة الله؛ لكن يهتمون بمراعاة فلان، وفلان؛ أو الدولة الفلانية، والفلانية ـ ولو على حساب الشريعة الإسلامية التي من تمسك بها فهو المنصور، ومن خالفها فهو المخذول؛ وهم لا يعرفون أن هذا هو الذي يبعدهم من نصر الله؛ فبدلاً من أن يكونوا عبيداً لله أعزة صاروا عبيداً للمخلوقين أذلة؛ لأن الأمم الكافرة الكبرى لا ترحم أحداً في سبيل مصلحتها؛ لكن لو أننا ضربنا بذلك عُرض الحائط، وقلنا: لا نريد إلا رضى الله، ونريد أن نطبق شريعة الله سبحانه وتعالى على أنفسنا، وعلى أمتنا؛ لكانت تلك الأمم العظمى تهابنا؛ ولهذا يقال: من خاف الله خافه كل شيء، ومن خاف غير الله خاف من كل شيء.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: الدلالة على جهل المنافقين؛ لأن الله عزّ وجلّ نفى العلم عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿**ولكن لا يعلمون**﴾؛ فالحقيقة أنهم من أجهل الناس ـ إن لم يكونوا أجهل الناس؛ لأن طريقهم إنما هو خداع، وانخداع، وتضليل؛ وهؤلاء المنافقون من أجهل الناس؛ لأنهم لم يعلموا حقيقة أنفسهم، وأنهم هم السفهاء.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾.

التفسير:

﴿١٤﴾ قوله تعالى: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا﴾ أي قابلوهم، أو جلسوا إليهم؛ ﴿قالوا﴾ أي للمؤمنين الذين لقوهم؛ ﴿آمنا﴾ أي كإيمانكم.

قوله تعالى: ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾؛ ضُمِّن الفعل هنا معنى «رجعوا»؛ ولذلك عُدِّي بـ﴿إلى﴾، لكن عُدِّي بالفعل ﴿خلوا﴾ ليكون المعنى: رجعوا خالِين بهم؛ والمراد بـ﴿شياطينهم﴾ كبراؤهم؛ وسمي كبراؤهم بـ«**الشياطين**» لظهور تمردهم؛ وقد قيل: إن «**الشيطان**» كل مارد؛ أي كل عاتٍ من الجن، أو الإنس، أو غيرهما: شيطان؛ وقد وصف النبي ﷺ الكلب الأسود بأنه شيطان؛ وليس معناه شيطان الجن؛ بل معناه: الشيطان في جنسه: لأن أعتى الكلاب، وأشدها قبحاً هي الكلاب السود؛ فلذلك قال ﷺ: «**الكلب الأسود شيطان**»[1]؛ ويقال للرجل العاتي: هذا شيطان بني فلان ـ أي مَريدهم، وعاتيهم.

وكلمة: «**شيطان**»: النون فيها أصلية من «شطن» بمعنى بعُد؛

---

(١) أخرجه مسلم ص٧٥٧، كتاب الصلاة، باب ٥٠: قدر ما يستر المصلي، حديث رقم ١١٣٧ [٢٦٥] ٥١٠.

ولكونها أصلية صُرف الاسم بتنوين، كما في قوله تعالى: ﴿**ويتبع كل شيطان مريد**﴾ [الحج: ٣]؛ ولو كانت النون والألف زائدتان منعت من الصرف؛ لأن الألف والنون إذا كانتا زائدتين في عَلَم؛ أو وصف فإنه يُمنع من الصرف؛ وأما إذا كانتا زائدتين في غير علم، ولا وصف فإنه لا يمنع من الصرف.

قوله تعالى: ﴿**إنا معكم**﴾ أي صحب مقارنون لكم تابعون لكم؛ ﴿**إنما نحن مستهزئون**﴾ أي ما نحن إلا ساخرون بالمؤمنين: نظهر لهم أنا مسلمون لنخادعهم.

﴿**١٥**﴾ قوله تعالى: ﴿**الله يستهزئ بهم**﴾ أي يسخر تبارك وتعالى بهم بما أملى لهم، وكفّ أيدي رسول الله ﷺ، وأصحابه عن قتلهم ـ مع أنهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار.

قوله تعالى: ﴿**ويمدهم في طغيانهم يعمهون**﴾؛ الطغيان مجاوزة الحد، كقوله تعالى: ﴿**إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية**﴾ [الحاقة: ١١]؛ و«**العمه**» الضلال؛ والمعنى أن الله يبقيهم ضالين في طغيانهم؛ واعلم أن بين «يَمد» الثلاثي، و«يُمد» الرباعي فرقاً؛ فالغالب أن الرباعي يستعمل في الخير، والثلاثي في الشر؛ قال الله تعالى: ﴿**ونمد له من العذاب مداً**﴾ [مريم: ٧٩]: وهذا في الشر؛ وقال تعالى: ﴿**وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون**﴾ [الطور: ٢٢]: وهذا في الخير؛ وهنا قال تعالى: ﴿**ويَمدهم**﴾: فهو في الشر.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: ذلّ المنافق؛ فالمنافق ذليل؛ لأنه خائن؛ فهم ﴿**إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا**﴾ خوفاً من المؤمنين؛

و﴿**إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم**﴾ خوفاً منهم؛ فهم أذلاء عند هؤلاء، وهؤلاء؛ لأن كون الإنسان يتخذ من دينه تَقيَّة فهذا دليل على ذله؛ وهذا نوع من النفاق؛ لأنه تستر بما يُظَن أنه خير وهو شر.

٢ ـ **ومنها**: أن الله يستهزئ بمن يستهزئ به، أو برسله، أو بشرعه جزاءً وفاقاً؛ **واعلم أن ها هنا أربعة أقسام**:

قسم هو صفة كمال لكن قد ينتج عنه نقص: هذا لا يسمى الله تعالى به؛ ولكن يوصف الله به، مثل «المتكلم»، و«المريد»؛ فـ«المتكلم»، و«المريد» ليسا من أسماء الله؛ لكن يصح أن يوصف الله بأنه متكلم، ومريد على سبيل الإطلاق؛ ولم تكن من أسمائه؛ لأن الكلام قد يكون بخير، وقد يكون بشر؛ وقد يكون بصدق، وقد يكون بكذب؛ وقد يكون بعدل، وقد يكون بظلم؛ وكذلك الإرادة.

القسم الثاني: ما هو كمال على الإطلاق، ولا ينقسم: فهذا يسمى الله به، مثل: الرحمٰن، الرحيم، الغفور، السميع، البصير... وما أشبه ذلك؛ وهو متضمن للصفة؛ وليس معنى قولنا: «يسمى الله به» أن نُحْدِث له اسماً بذلك؛ لأن الأسماء توقيفية؛ لكن معناه أن الله سبحانه وتعالى تَسَمَّى به.

القسم الثالث: ما لا يكون كمالاً عند الإطلاق؛ ولكن هو كمال عند التقييد؛ فهذا لا يجوز أن يوصف به إلا مقيداً، مثل: الخداع، والمكر، والاستهزاء، والكيد. فلا يصح أن تقول: إن الله ماكر على سبيل الإطلاق، ولكن قل: إن الله ماكر بمن يمكر به، وبرسله، ونحو ذلك.

مسـألـة:

هل «المنتقم» من جنس الماكر، والمستهزئ؟

الجواب: مسألة «المنتقم» اختلف فيها العلماء؛ منهم من يقول: إن الله لا يوصف به على سبيل الإفراد، وإنما يوصف به إذا اقترن بـ«العفوّ»؛ فيقال: «العفوُّ المنتقم»؛ لأن «المنتقم» على سبيل الإطلاق ليس صفة مدح إلا إذا قُرِن بـ«العفوّ»؛ ومثله أيضاً المُذِل: قالوا: لا يوصف الله سبحانه وتعالى به على سبيل الإفراد إلا إذا قُرِن بـ«المُعِز»؛ فيقال: «المعزُّ المُذل»؛ ومثله أيضاً «الضار»: قالوا: لا يوصف الله سبحانه وتعالى به على سبيل الإفراد إلا إذا قُرِن بـ«النافع»؛ فيقال: «النافع الضار»؛ ويسمون هذه: الأسماء المزدوجة.

ويرى بعض العلماء أنه لا يوصف به على وجه الإطلاق ـ ولو مقروناً بما يقابله ـ أي إنك لا تقول: العفوّ المنتقم؛ لأنه لم يرد من أوصاف الله سبحانه وتعالى «المنتقم»؛ وليست صفة كمال بذاتها إلا إذا كانت مقيدة بمن يستحق الانتقام؛ ولهذا يقول عزّ وجلّ: ﴿**إنا من المجرمين منتقمون**﴾ [السجدة: ٢٢]، وقال عزّ وجلّ: ﴿**والله عزيز ذو انتقام**﴾ [آل عمران: ٤]؛ وهذا هو الذي يرجحه شيخ الإسلام ابن تيمية؛ والحديث الذي ورد في سرد أسماء الله الحسنى، وذُكر فيه المنتقم غير صحيح؛ بل هو مدرج؛ لأن هذا الحديث فيه أشياء لم تصح من أسماء الله؛ وحذف منها أشياء هي من أسماء الله ـ مما يدل على أنه ليس من كلام الرسول ﷺ.

القسم الرابع: ما يتضمن النقص على سبيل الإطلاق: فهذا

لا يوصف الله سبحانه وتعالى به أبداً، ولا يسمى به، مثل: العاجز؛ الضعيف؛ الأعور. . . . وما أشبه ذلك؛ فلا يجوز أن يوصف الله سبحانه وتعالى بصفة عيب مطلقاً.

والاستهزاء هنا في الآية على حقيقته؛ لأن استهزاء الله بهؤلاء المستهزئين دال على كماله، وقوته، وعدم عجزه عن مقابلتهم؛ فهو صفة كمال هنا في مقابل المستهزئين مثل قوله تعالى: ﴿**إنهم يكيدون كيداً * وأكيد كيداً**﴾ [الطارق: ١٥، ١٦] أي أعظمَ منه كيداً؛ فالاستهزاء من الله تعالى حق على حقيقته، ولا يجوز أن يفسر بغير ظاهره؛ فتفسيره بغير ظاهره محرم؛ وكل من فسر شيئاً من القرآن على غير ظاهره بلا دليل صحيح فقد قال على الله ما لم يعلم؛ والقول على الله بلا علم حرام، كما قال تعالى: ﴿**قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾ [الأعراف: ٣٣]؛ فكل قول على الله بلا علم في شرعه، أو في فعله، أو في وصفه غير جائز؛ بل نحن نؤمن بأن الله جل وعلا يستهزئ بالمنافقين استهزاءً حقيقياً؛ لكن ليس كاستهزائنا؛ بل أعظم من استهزائنا، وأكبر، وليس كمثله شيء.

وهذه القاعدة يجب أن يسار عليها في كل ما وصف الله به نفسه؛ فكما أنك لا تتجاوز حكم الله فلا تقول لما حرم: «إنه حلال»، فكذلك لا تقول لما وصف به نفسه أن هذا ليس المراد؛ فكل ما وصف الله به نفسه يجب عليك أن تبقيه على ظاهره، لكن تعلم أن ظاهره ليس كالذي ينسب لك؛ فاستهزاء الله ليس كاستهزائنا؛ وقرب الله ليس كقربنا؛ واستواء الله على عرشه ليس كاستوائنا على السرير؛ وهكذا بقية الصفات نجريها على ظاهرها،

ولا نقول على الله ما لا نعلم؛ ولكن ننزه ربنا عما نزَّه نفسه عنه من مماثلة المخلوقين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ [الشورى: ١١].

أما الخيانة فلا يوصف بها الله مطلقاً؛ لأن الخيانة صفة نقص مطلق؛ و«الخيانة» معناها: الخديعة في موضع الائتمان ـ وهذا نقص؛ ولهذا قال الله عزّ وجلّ: ﴿**وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم**﴾ [الأنفال: ٧١]، ولم يقل: فخانهم؛ لكن لما قال تعالى: ﴿**يخادعون الله**﴾ [النساء: ١٤٢] قال: ﴿**وهو خادعهم**﴾ [النساء: ١٤٢]؛ لأن الخديعة صفة مدح مقيدة؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «**الحرب خدعة**»[(١)]، وقال ﷺ: «**لا تخن من خانك**»[(٢)]؛ لأن الخيانة تكون في موضع الائتمان؛ أما الخداع فيكون في موضع ليس فيه ائتمان؛ والخيانة صفة نقص مطلق.

٣ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن الله سبحانه وتعالى قد يُملي للظالم حتى يستمر في طغيانه.

فيستفاد من هذه الفائدة فائدة أخرى: وهي تحذير الإنسان

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٤٣، كتاب الجهاد والسِيَر، باب ١٥٧؛ الحرب خدعة، حديث رقم ٣٠٢٨؛ وأخرجه مسلم ص٩٨٦، كتاب الجهاد والسِيَر، باب ٥؛ جواز الخداع في الحرب، حديث رقم ٤٥٤٠ [١٨] ١٧٤٠.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣/ ٤١٤؛ وأخرجه أبو داود في سننه ص١٤٨٥، كتاب البيوع، باب ٧٩: في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، حديث رقم ٣٥٣٤؛ وأخرجه الترمذي ص١٧٧٨، كتاب البيوع، باب ٣٨: أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، حديث رقم ١٢٦٤؛ وأخرجه الدارمي في سننه ٢/ ٣٤٣، حديث رقم ٢٥٩٧، كتاب البيوع، باب ٥٧: في أداء الأمانة واجتناب الخيانة، قال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح ٢/ ١٨، وقال عبد القادر الأرناؤوط في حاشية جامع الأصول: صحيح ٦/ ٣٢٣، حاشية رقم ١.

الطاغي أن يغتر بنعم الله عزّ وجلّ؛ فهذه النعم قد تكون استدراجاً من الله؛ فالله سبحانه وتعالى يملي، كما قال تعالى: ﴿**ويمدهم في طغيانهم يعمهون**﴾؛ ولو شاء لأخذهم، ولكنه سبحانه وتعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ـ كما جاء في الحديث[١].

فإن قال قائل: كيف يعرف الفرق بين النعم التي يجازى بها العبد، والنعم التي يستدرج بها العبد؟

فالجواب: أن الإنسان إذا كان مستقيماً على شرع الله فالنعم من باب الجزاء؛ وإذا كان مقيماً على معصية الله مع توالي النعم فهي استدراج.

٤ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن صاحب الطغيان يعميه هواه، وطغيانه عن معرفة الحق، وقبوله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**ويمدهم في طغيانهم يعمهون**﴾؛ ومن الطغيان أن يُقَدِّم المرء قوله على قول الله ورسوله؛ والله تعالى يقول: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقدِّموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم**﴾ [الحجرات: ١].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾.

---

(١) راجع البخاري ص٣٨٩، كتاب التفسير، باب ٥: قوله: ﴿**وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد**﴾، حديث رقم ٤٦٨٦؛ ومسلماً ص١١٣٠، كتاب البر والصلة والأدب، باب ١٥: تحريم الظلم، حديث رقم ٦٥٨١ [٦١] ٢٥٨٣.

التفسير:

﴿١٦﴾ قوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾؛ «أولاء» اسم إشارة؛ والمشار إليهم المنافقون؛ وجاءت الإشارة بصيغة البُعد لبُعد منزلة المنافق سفولاً؛ و﴿اشتروا﴾ أي اختاروا؛ و﴿الضلالة﴾: العماية؛ وهي ما ساروا عليه من النفاق؛ و﴿بالهدى﴾: الباء هنا للعوض؛ أخذوا الضلالة، وأعطوا الهدى - مثلما تقول: اشتريت الثوب بدرهم؛ فالهدى المدفوع عوض عن الضلالة المأخوذة، كما أن الدرهم المدفوع عوض عن الثوب المأخوذ.

قوله تعالى: ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ أي ما زادت تجارتهم - وهي اشتراؤهم الضلالة بالهدى.

قوله تعالى: ﴿وما كانوا مهتدين﴾ أي ما كانوا متصفين بالاهتداء حينما اشتروا الضلالة بالهدى؛ بل هم خاسرون في تجارتهم ضالون في منهجهم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية**: بيان سفه هؤلاء المنافقين، حيث اشتروا الضلالة بالهدى.

٢ - **ومنها**: شغف المنافقين بالضلال؛ لأنه تبارك وتعالى عبر عن سلوكهم الضلال بأنهم اشتروه؛ والمشتري مشغوف بالسلعة محب لها.

٣ - **ومنها**: أن الإنسان قد يظن أنه أحسنَ عملاً وهو قد أساء؛ لأن هؤلاء اشتروا الضلالة بالهدى ظناً منهم أنهم على صواب، وأنهم رابحون، فقال الله تعالى: ﴿فما ربحت تجارتهم﴾.

٤ ـ **ومنها**: خسران المنافقين فيما يطمعون فيه بالربح؛ لقوله تعالى: ﴿**فما ربحت تجارتهم**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن المدار في الربح، والخسران على اتباع الهدى؛ فمن اتبعه فهو الرابح؛ ومن خالفه فهو الخاسر؛ ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿**والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾ [العصر: ١ ـ ٣]، وقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾ [الصف: ١٠، ١١]: تقف على ﴿**خير لكم**﴾؛ لأن ﴿**إن كنتم تعلمون**﴾ إذا وصلناها بما قبلها صار الخير معلقاً بكوننا نعلم ـ وهو خير علمنا أم لم نعلم.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن هؤلاء لن يهتدوا؛ لقوله تعالى: ﴿**وما كانوا مهتدين**﴾؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً؛ ولذلك لا يرجعون؛ وهكذا كل فاسق، أو مبتدع يظن أنه على حق فإنه لن يرجع؛ فالجاهل البسيط خير من هذا؛ لأن هذا جاهل مركب يظن أنه على صواب ـ وليس على صواب.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾.

التفسير:

﴿١٧﴾ قوله تعالى: ﴿**مثلهم**﴾ أي وصْفهم، وحالهم ﴿**كمثل الذي استوقد ناراً**﴾ أي طلب من غيره أن يوقد له ناراً، أو طلب من غيره ما يوقد به النار بنفسه؛ ﴿**فلما أضاءت ما حوله**﴾ أي أنارت ما حول المستوقد، ولم تذهب بعيداً لضعفها؛ ﴿**ذهب الله بنورهم**﴾ يعني: وأبقى حرارة النار؛ و«**لما**» حرف شرط، و﴿**أضاءت**﴾ فعل الشرط؛ و﴿**ذهب الله**﴾ جواب الشرط؛ والمعنى: أنه بمجرد الإضاءة ذهب النور؛ لأن القاعدة أن جواب الشرط يلي المشروط مباشرة.

وفي هذه الآية نجد اختلافاً في الضمائر: ﴿**استوقد**﴾: مفرد؛ ﴿**حوله**﴾: مفرد؛ ﴿**بنورهم**﴾: جمع؛ ﴿**تركهم**﴾: جمع؛ ﴿**لا يبصرون**﴾: جمع؛ قد يقول قائل: كيف يجوز في أفصح الكلام أن تكون الضمائر مختلفة والمرجع فيها واحد؟ الجواب من وجهين:

الأول: أن اسم الموصول يفيد العموم؛ وإذا كان يفيد العموم فهو صالح للمفرد، والجمع؛ فتكون الضمائر في ﴿**استوقد**﴾، و﴿**حوله**﴾ عادت إلى اسم الموصول باعتبار اللفظ؛ وأما ﴿**نورهم**﴾، و﴿**تركهم**﴾، و﴿**لا يبصرون**﴾ فعادت إلى الموصول باعتبار المعنى.

الوجه الثاني: أن الذي استوقد النار كان مع رفقة، فاستوقد النار له، ولرفقته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم...**﴾ إلخ.

وعلى الوجه الثاني تكون الآية ممثلة لرؤساء المنافقين مع

أتباعهم؛ لأن رأس المنافقين هو الذي استوقد النار، وأراد أن ينفع بها أقرانه، ثم ذهبت الإضاءة، وبقيت الحرارة، والظلمة، وتركهم جميعاً في ظلمات لا يبصرون.

قوله تعالى: ﴿**وتركهم في ظلمات**﴾: جمعها لتضمنها ظلمات عديدة؛ **أولها**: ظلمة الليل؛ لأن استيقاد النار للإضاءة لا يكون إلا في الليل؛ لأنك إذا استوقدت ناراً بالنهار فإنها لا تضيء؛ **والثانية**: ظلمة الجو إذا كان غائماً؛ **والثالثة**: الظلمة التي تحدث بعد فقد النور؛ فإنها تكون أشد من الظلمة الدائمة؛ و﴿**لا يبصرون**﴾ تأكيد من حيث المعنى لقوله تعالى: ﴿**في ظلمات**﴾ دال على شدة الظلمة.

﴿١٨﴾ قوله تعالى في وصفهم: ﴿صم﴾ خبر لمبتدأ محذوف ـ أي هم صم؛ و﴿صم﴾ جمع أصم؛ و«الأصم» الذي لا يسمع، لكنه هنا ليس على سبيل الإطلاق؛ بل أريد به شيء معين: أي هم صم عن الحق، فلا يسمعون؛ والمراد نفي السمع المعنوي ـ وهو السمع النافع؛ لا الحسي ـ وهو الإدراك؛ لأن كلهم يسمعون القرآن، ويفهمون معناه، لكن لما كانوا لا ينتفعون به صاروا كالصم الذين لا يسمعون؛ وذلك مثل قول الله تعالى: ﴿**ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون**﴾ [الأنفال: ٢١].

قوله تعالى: ﴿بُكْمٌ﴾ جمع أبكم؛ وهو الذي لا ينطق؛ والمراد أنهم لا ينطقون بالحق؛ وإنما ينطقون بالباطل؛ و﴿عُمْيٌ﴾ جمع أعمى؛ والمراد أنهم لا ينتفعون بما يشاهدونه من الآيات التي تظهر على أيدي الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام.

فبهذا سُدت طرق الحق أمامهم؛ لأن الحق إما مسموع؛

وإما مشهود؛ وإما معقول؛ فهم لا يسمعون، ولا يشهدون؛ كذلك أيضاً لا يؤخذ منهم حق؛ لأنهم لا ينطقون بالحق؛ لأنهم بُكم؛ فهم لا ينتفعون بالحق من غيرهم، ولا ينفعون غيرهم بحق.

قوله تعالى: ﴿**فهم لا يرجعون**﴾: الفاء هذه عاطفة، لكنها تفيد السببية ـ أي بسبب هذه الأوصاف الثلاثة لا يرجعون عن غيِّهم؛ فلا ينتفعون بسماع الحق، ولا بمشاهدته، ولا ينطقون به.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: بلاغة القرآن، حيث يضرب للمعقولات أمثالاً محسوسات؛ لأن الشيء المحسوس أقرب إلى الفهم من الشيء المعقول؛ لكن من بلاغة القرآن أن الله تعالى يضرب الأمثال المحسوسة للمعاني المعقولة حتى يدركها الإنسان جيداً، كما قال تعالى: ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون**﴾ [العنكبوت: ٤٣].

٢ ـ **ومنها**: ثبوت القياس، وأنه دليل يؤخذ به؛ لأن الله أراد منا أن نقيس حالهم على حال من يستوقد؛ وكل مثل في القرآن فهو دليل على ثبوت القياس.

٣ ـ **ومنها**: أن هؤلاء المنافقين ليس في قلوبهم نور؛ لقوله تعالى: ﴿**كمثل الذي استوقد ناراً**﴾؛ فهؤلاء المنافقون يستطعمون الهدى، والعلم، والنور؛ فإذا وصل إلى قلوبهم ـ بمجرد ما يصل إليها ـ يتضاءل، ويزول؛ لأن هؤلاء المنافقين إخوان للمؤمنين من حيث النسب، وأعمام، وأخوال، وأقارب؛ فربما يجلس إلى المؤمن حقاً، فيتكلم له بإيمان حقيقي، ويدعوه، فينقدح في قلبه هذا الإيمان، ولكن سرعان ما يزول.

٤ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن الإيمان نور له تأثير حتى في قلب المنافق؛ لقوله تعالى: ﴿**فلما أضاءت ما حوله**﴾: الإيمان أضاء بعض الشيء في قلوبهم؛ ولكن لما لم يكن على أسس لم يستقر؛ ولهذا قال تعالى في سورة المنافقين ـ وهي أوسع ما تحدَّث الله به عن المنافقين: ﴿**ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم**﴾ [المنافقون: ٣].

٥ ـ **ومنها**: أنه بعد أن ذهب هذا الضياء حلت الظلمة الشديدة؛ بل الظلمات.

٦ ـ **ومنها**: أن الله تعالى جازاهم على حسب ما في قلوبهم: ﴿**ذهب الله بنورهم**﴾، كأنه أخذه قهراً.

فإن قال قائل: أليس في هذا دليل على مذهب الجبرية؟

فالجواب: لا؛ لأن هذا الذي حصل من رب العباد عزّ وجلّ بسببهم؛ وتذكَّر دائماً قول الله تعالى: ﴿**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم**﴾ [الصف: ٥] ـ حتى يتبين لك أن كل من وصفه الله بأنه أضله فإنما ذلك بسبب منه.

٧ ـ **ومن فوائد الآيتين**: تخلي الله عن المنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿**وتركهم**﴾.

ويتفرع على ذلك: أن من تخلى الله عنه فهو هالك ـ ليس عنده نور، ولا هدًى، ولا صلاح؛ لقوله تعالى: ﴿**وتركهم في ظلمات لا يبصرون**﴾.

٨ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن هؤلاء المنافقين أصم الله تعالى آذانهم، فلا يسمعون الحق؛ ولو سمعوا ما انتفعوا؛ ويجوز أن يُنفى الشيء لانتفاء الانتفاع به، كما في قوله تعالى: ﴿**ولا تكونوا**

كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ [الأنفال: ٢١].

٩ ـ **ومنها**: أن هؤلاء المنافقين لا ينطقون بالحق ـ كالأبكم.

١٠ ـ **ومنها**: أنهم لا يبصرون الحق ـ كالأعمى.

١١ ـ **ومنها**: أنهم لا يرجعون عن غيِّهم؛ لأنهم يعتقدون أنهم محسنون، وأنهم صاروا أصحاباً للمؤمنين، وأصحاباً للكافرين: هم أصحاب للمؤمنين في الظاهر، وأصحاب للكافرين في الباطن؛ ومن استحسن شيئاً فإنه لا يكاد أن يرجع عنه.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

التفسير:

﴿١٩﴾ قوله تعالى: **﴿أو كصيِّب من السماء﴾**؛ **﴿أو﴾** هنا للتنويع؛ لأن المثل الثاني نوع آخر؛ والكاف اسم بمعنى «مِثل»؛ فالمعنى: أو مِثل صيب؛ ويجوز أن نقول: إن الكاف حرف تشبيه، والتقدير: أو مَثلهم كصيب؛ و«**الصيِّب**» المطر النازل من السماء؛ والمراد بـ**﴿السماء﴾** هنا العلو.

قوله تعالى: **﴿فيه ظلمات﴾** أي معه ظلمات؛ لأن الظلمات تكون مصاحبة له؛ وهذه الظلمات ثلاث: ظلمة الليل؛ وظلمة السحاب؛ وظلمة المطر؛ والدليل على أنها ظلمة الليل قوله تعالى

بعد ذلك: ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾، وقوله تعالى: ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾: وهذا لا يكون إلا في الليل؛ **والثاني: ظلمة السحاب**؛ لأن السحاب الكثير يتراكم بعضه على بعض، فيَحدُث من ذلك ظلمةٌ فوق ظلمة؛ **والثالث: ظلمة المطر النازل**؛ لأن المطر النازل له كثافة تُحدِث ظلمةً؛ هذه ثلاث ظلمات؛ وربما تكون أكثر، كما لو كان في الجو غبار.

قوله تعالى: ﴿ورعد وبرق﴾؛ «**الرعد**» هو الصوت الذي نسمعه من السحاب؛ أما «**البرق**» فهو النور الذي يلمع في السحاب.

فهؤلاء عندهم ظلمات في قلوبهم ـ فهي مملوءة ظلمة من الأصل؛ أصابها صيب ـ وهو القرآن ـ فيه رعد؛ والرعد هو وعيد القرآن؛ إلا أنه بالنسبة لهؤلاء المنافقين وخوفهم منه كأنه رعد شديد؛ وفيه برق ـ وهو وعد القرآن؛ إلا أنه بالنسبة لما فيه من نور، وهدى يكون كالبرق؛ لأن البرق ينير الأرض.

قوله تعالى: ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم﴾؛ الضمير في ﴿يجعلون﴾ يعود على أصحاب الصيب؛ ففيها حذف المضاف؛ والتقدير: أصحاب الصيب؛ وإنما قلنا ذلك؛ لأنه ليس المشبه به هنا هو الصيب؛ وإنما المشبه به الذين أصابهم الصيب؛ و«**أصابع**» جمع أصبع، وفيه عشر لغات أشار إليها في قوله:

وهمزَ أنملةٍ ثلِّث وثالثَه ... التسعُ في إصبعٍ واختم بأصبوع

هذا وقد قيل: إن في الآية مجازاً من وجهين؛ **الأول**: أن الأصابع ليست كلها تجعل في الأذن؛ **والثاني**: أنه ليس كل الأصبع يدخل في الأذن؛ **والتحقيق**: أنه ليس في الآية مجاز؛

أما **الأول**: فلأن «**أصابع**» جمع عائد على قوله تعالى: ﴿**يجعلون**﴾، فيكون من باب توزيع الجمع على الجمع ـ أي يجعل كل واحد منهم أصبعه في أذنه؛ وأما **الثاني**: فلأن المخاطَب لا يمكن أن يفهم من جعْل الأصبع في الأذن أن جميع الأصبع تدخل في الأذن؛ وإذا كان لا يمكن ذلك امتنع أن تحمل الحقيقة على إدخال جميع الأصبع؛ بل الحقيقة أن ذلك إدخال بعض الأصبع؛ وحينئذ لا مجاز في الآية؛ **على أن القول الراجح** أنه لا مجاز في القرآن أصلاً؛ لأن معاني الآيات تدرك بالسياق؛ وحقيقة الكلام: ما دلّ عليه السياق ـ وإن استعملت الكلمات في غير أصلها؛ وبحث ذلك مذكور في كتب البلاغة، وأصول الفقه، **وأكبر دليل على امتناع المجاز في القرآن**: أن من علامات المجاز صحة نفيه، وتبادر غيره لولا القرينة؛ وليس في القرآن ما يصح نفيه؛ وإذا وجدت القرينة صار الكلام بها حقيقة في المراد به.

قوله تعالى: ﴿**من الصواعق**﴾؛ ﴿**من**﴾ سببية ـ أي يجعلونها بسبب الصواعق؛ و﴿**الصواعق**﴾ جمع صاعقة؛ وهي ما تَصعَق ـ أي تُهلك ـ مَنْ أصابته؛ هذه الصواعق معروفة بآثارها؛ فهي نار تنطلق من البرق؛ فإذا أصابت أحداً، أو شيئاً أحرقته؛ وغالباً تسقط على النخيل، وتحرقها؛ وترى فيها النار، والدخان؛ وأحياناً تسقط على المنازل وتهدمها؛ لأنها كتلة نارية تنطلق بشدة لها هواء تدفعه أمامها.

فيجعلون أصابعهم في آذانهم من هذه الصواعق لئلا يموتوا؛ ولكنهم لا ينجون منها بهذا الفعل؛ إلا أنهم كالنعامة إذا رأت الصياد أدخلت رأسها في الرمل لئلا تراه؛ وتظن أنها إذا لم تره

تنجو منه! وكذلك الذين يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق لا يسلمون بهذا؛ إذا أراد الله تعالى أن يصيبهم أصابهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**والله محيط بالكافرين**﴾، فلن ينفعهم الحذر.

﴿٢٠﴾ ولما بَيَّن الله شدة الصوت، وأنهم لفرارهم منه، وعدم تحملهم إياه يجعلون أصابعهم في آذانهم بَيَّن شدة الضوء عليهم، فقال تعالى: ﴿**يكاد البرق يخطف أبصارهم**﴾ أي يقرب أن يخطف أبصارهم ـ أي يأخذها بسرعة، فتعمى؛ وذلك لقوته، وضعف أبصارهم.

قوله تعالى: ﴿**كلما أضاء لهم مشوا فيه**﴾؛ فكأنهم ينتهزون فرصة الإضاءة، ولا يتأخرون عن الإضاءة طرفة عين؛ كلما أضاء لهم ـ ولو شيئاً يسيراً ـ مشوا فيه.

قوله تعالى: ﴿**وإذا أظلم عليهم**﴾ أي أصابهم بظلمة؛ وذلك أن الضوء إذا انطفأ بسرعة اشتدت الظلمة بعده؛ ﴿**قاموا**﴾ أي وقفوا.

قوله تعالى: ﴿**ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم**﴾ دون أن تحدث الصواعق، ودون أن يحدث البرق؛ لأن الله على كل شيء قدير؛ فهو قادر على أن يُذهب السمع والبصر بدون أسباب: فيذهب السمع بدون صواعق، والبصر بدون برق؛ ﴿**إن الله على كل شيء قدير**﴾.

هذا المثل ينطبق على منافقين لم يؤمنوا أصلاً؛ بل كانوا كافرين من قبل، كاليهود؛ لأن المنافقين منهم عرب من الخزرج، والأوس؛ ومنهم يهود من بني إسرائيل؛ فاليهود لم يذوقوا طعم الإيمان أبداً؛ لأنهم كفار من الأصل؛ لكن أظهروا الإسلام خوفاً من النبي ﷺ بعد أن أعزه الله في بدر؛ فهؤلاء ليسوا على هدًى ـ

كالأولين؛ الأولون استوقدوا النار، وصار عندهم شيء من النور بهذه النار، ثم ـ والعياذ بالله ـ انتكسوا؛ لكن هؤلاء من الأصل في ظلمات؛ فيكون هذا المثل غير المثل الأول؛ بل هو لقوم آخرين؛ والمنافقون أصناف بلا شك.

و«**الصواعق**» عبارة عما في القرآن من الإنذار، والخوف؛ ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى عنهم في آية أخرى: ﴿**يحسبون كل صيحة عليهم**﴾ [المنافقون: ٤]؛ و«**البرق**» نور الإسلام، لكنه ليس نوراً يستمر؛ نور البرق ينقطع في لحظة؛ وميض؛ فهؤلاء لم يدخل الإيمان في قلوبهم أصلاً، ولا فكروا في ذلك؛ وإنما يرون هذا النور العظيم الذي شع، فينتفعون به لمجرد خطوة يخطونها فقط؛ وبعد ذلك يقفون؛ كذلك أيضاً يكاد البرق يخطف أبصارهم؛ لأنهم لا يتمكنون من رؤية النور الذي جاء به النبي ﷺ؛ بل لكبريائهم، وحسدهم للعرب يكاد هذا البرق يعمي أبصارهم؛ لأنه قوي عليهم لا يستطيعون مدافعته، ومقابلته.

فالظاهر أن القول الراجح أن هذين مثلان يتنَزلان على صنفين من المنافقين.

فإن قال قائل: الصنف الأول كيف نقول: إنه دخل الإيمان في قلوبهم؟

فالجواب: نقول: نعم؛ قال الله تعالى: ﴿**ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون**﴾ [المنافقون: ٣]؛ وهذا يدل على أنهم آمنوا أولاً، ثم كفروا ثانياً؛ لأن الإيمان لم يستقر في قلوبهم، ولم تستنر به؛ وإنما هو وميض ضوء ما لبث أن طفئ؛ وإلا فإن الإيمان إذا دخل القلب دخولاً حقيقياً فإنه لن

يخرج منه بإذن الله؛ ولهذا سأل هرقل أبا سفيان عن أصحاب الرسول ﷺ الذين يدخلون في الإسلام: «**فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فيه؛ فقال: لا؛ فقال: وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلوبَ**»(١)؛ لكن الإيمان الهش ـ الذي لم يتمكن من القلب ـ هو الذي يُخشى على صاحبه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: تهديد الكفار بأن الله محيط بهم؛ لقوله تعالى: ﴿**والله محيط بالكافرين**﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن البرق الشديد يخطف البصر؛ ولهذا يُنهى الإنسان أن ينظر إلى البرق حال كون السماء تبرق؛ لئلا يُخطف بصره.

٣ ـ **ومنها**: أن من طبيعة الإنسان اجتناب ما يهلكه؛ لقوله تعالى: ﴿**وإذا أظلم عليهم قاموا**﴾.

٤ ـ **ومنها**: إثبات مشيئة الله؛ لقوله تعالى: ﴿**ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان أن يلجأ إلى الله عزّ وجلّ أن يمتعه بسمعه، وبصره؛ لقوله تعالى: ﴿**ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم**﴾؛ وفي الدعاء المأثور: «**متعنا بأسماعنا، وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري ص١ ـ ٢، كتاب بدء الوحي، حديث رقم ٧؛ وأخرجه مسلم ص٩٩٢ ـ ٩٩٣، كتاب الجهاد والسِيَر، باب ٢٦: كتب النبي ﷺ إلى هرقل...، حديث رقم ٤٦٠٧ [٧٤] ١٧٧٣.

(٢) أخرجه الترمذي ص٢٠١٢، كتاب الدعوات، باب ٧٩: اللهم اقسم لنا =

٦ ـ **ومنها**: أن من أسماء الله أنه قدير على كل شيء.

٧ ـ **ومنها**: عموم قدرة الله تعالى على كل شيء؛ فهو جلّ وعلا قادر على إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، وعلى تغيير الصالح إلى فاسد، والفاسد إلى صالح، وغير ذلك.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾.

التفسير:

﴿٢١﴾ ﴿**يا أيها الناس**﴾: النداء هنا وجّه لعموم الناس مع أن السورة مدنية؛ والغالب في السور المدنية أن النداء فيها يكون موجهاً للمؤمنين ـ والله أعلم بما أراد في كتابه؛ ولو قال قائل: لعل هذه آية مكية جعلت في السورة المدنية؟

فالجواب: أن الأصل عدم ذلك ـ أي عدم إدخال الآيات المكية في السور المدنية، أو العكس؛ ولا يجوز العدول عن هذا الأصل إلا بدليل صحيح صريح؛ وعلى هذا فما نراه في عناوين بعض السور أنها مدنية إلا آية كذا، أو مكية إلا آية كذا غير مسلَّم حتى يثبت ذلك بدليل صحيح صريح؛ وإلا فالأصل أن السورة المدنية جميع آياتها مدنية، وأن السور المكية جميع آياتها مكية إلا بدليل ثابت.

= من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك...، حديث رقم ٣٥٠٢، قال الألباني في صحيح الترمذي: حسن [٣/ ١٦٨، حديث رقم ٢٧٨٣].

قوله تعالى: ﴿**اعبدوا ربكم**﴾ أي تذللوا له بالطاعة؛ وذلك بفعل الأوامر، واجتناب النواهي ذلاً تاماً ناشئاً عن المحبة، والتعظيم؛ و«**الرب**» هو الخالق المالك المدبر لشؤون خلقه؛ ﴿**الذي خلقكم**﴾ أي أوجدكم من العدم؛ ﴿**والذين من قبلكم**﴾ معطوف على الكاف في قوله تعالى: ﴿**خلقكم**﴾ ـ يعني وخلق الذين من قبلكم؛ والمراد بـ«**من قبلنا**»: سائر الأمم الماضية.

وقوله تعالى: ﴿**الذي خلقكم**﴾ صفة كاشفة تبين بعض معنى الربوبية؛ وليست صفة احترازية؛ لأنه ليس لنا ربان أحدهما خالق، والثاني غير خالق؛ بل ربنا هو الخالق.

قوله تعالى: ﴿**لعلكم تتقون**﴾؛ «**لعل**» هنا للتعليل ـ أي لتصلوا إلى التقوى؛ ومعلوم أن التقوى مرتبة عالية، حتى قال الله عزّ وجلّ في الجنة: ﴿**أعدت للمتقين**﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿**واعلموا أن الله مع المتقين**﴾ [البقرة: ١٩٤].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: العناية بالعبادة؛ يستفاد هذا من وجهين؛ **الوجه الأول**: تصدير الأمر بها بالنداء؛ **والوجه الثاني**: تعميم النداء لجميع الناس مما يدل على أن العبادة أهم شيء؛ بل إنّ الناس ما خُلقوا إلا للعبادة، كما قال تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ [الذاريات: ٥٦].

٢ ـ **ومنها**: أن الإقرار بتوحيد الربوبية مستلزم للإقرار بتوحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿**اعبدوا ربكم**﴾.

٣ ـ **ومنها**: وجوب عبادة الله عزّ وجلّ وحده ـ وهي التي

خُلق لها الجن، والإنس؛ و«العبادة» تطلق على معنيين؛ **أحدهما: التعبد** ـ وهو فعل العابد؛ **والثاني: المتعبَّد به** ـ وهي كل قول، أو فعل ظاهر، أو باطن يقرب إلى الله عزّ وجلّ.

٤ ـ **ومنها**: أن وجوب العبادة علينا مما يقتضيه العقل بالإضافة إلى الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿**اعبدوا ربكم**﴾؛ فإن الرب عزّ وجلّ يستحق أن يُعبد وحده، ولا يعبد غيره؛ والعجب أن هؤلاء المشركين الذين لم يمتثلوا هذا الأمر إذا أصابتهم ضراء، وتقطعت بهم الأسباب يتوجهون إلى الله، كما قال تعالى: ﴿**وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين**﴾ [لقمان: ٣٢]؛ لأن فطرهم تحملهم على ذلك ولابد.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات أن الله عزّ وجلّ هو الخالق وحده، وأنه خالق الأولين، والآخرين؛ لقوله تعالى: ﴿**الذي خلقكم والذين من قبلكم**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن من طريق القرآن أنه إذا ذَكر الحكم غالباً ذَكر العلة؛ الحكم: ﴿**اعبدوا ربكم**﴾؛ والعلة: كونه رباً خالقاً لنا، ولمن قبلنا.

٧ ـ **ومنها**: أن التقوى مرتبة عالية لا ينالها كل أحد إلا من أخلص العبادة لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**لعلكم تتقون**﴾.

٨ ـ **وربما يستفاد** التحذير من البدع؛ وذلك؛ لأن عبادة الله لا تتحقق إلا بسلوك الطريق الذي شرعه للعباد؛ لأنه لا يمكن أن نعرف كيف نعبد الله إلا عن طريق الوحي والشرع: كيف نتوضأ، كيف نصلي... يعني ما الذي أدرانا أن الإنسان إذا قام للصلاة يقرأ، ثم يركع، ثم يسجد... إلخ، إلا بعد الوحي.

٩ ـ **ومنها**: الحث على طلب العلم؛ إذ لا تمكن العبادة إلا بالعلم؛ ولهذا ترجم البخاري ـ رحمه الله ـ على هذه المسألة بقوله: «**باب: العلم قبل القول، والعمل**».

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٢﴾ قوله تعالى: ﴿**الذي جعل لكم الأرض فراشاً...**﴾ هذا من باب تعديد أنواع من مخلوقاته عزّ وجلّ؛ جعل الله لنا الأرض فراشاً مُوَطَّأة يستقر الإنسان عليها استقراراً كاملاً مهيأة له يستريح فيها ـ ليست نشَزاً؛ وليست مؤلمة عند النوم عليها، أو عند السكون عليها، أو ما أشبه ذلك؛ والله تعالى قد وصف الأرض بأوصاف متعددة: وصفها بأنها فراش، وبأنها ذلول، وبأنها مهاد.

قوله تعالى: ﴿**والسماء بناءً**﴾ ـ كما قال تعالى: ﴿**وبنينا فوقكم سبعاً شداداً**﴾ [النبأ: ١٢]: السماء جعلها الله بمنزلة البناء، وبمنزلة السقف، كما قال تعالى: ﴿**وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً**﴾ [الأنبياء: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿**وأنزل من السماء ماءً**﴾: ليست هي السماء الأولى؛ بل المراد بـ﴿**السماء**﴾ هنا العلو؛ لأن الماء ـ الذي هو المطر ـ ينزل من السحاب، والسحاب بين السماء، والأرض،

كما قال الله تعالى: ﴿**ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله**﴾ [النور: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿**إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار....**﴾ [البقرة: ١٦٤] إلى قوله تعالى: ﴿**والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**﴾ [البقرة: ١٦٤]؛ وبهذا نعرف أن السماء يطلق على معنيين؛ **المعنى الأول**: البناء الذي فوقنا؛ **والمعنى الثاني**: العلو.

قوله تعالى: ﴿**فأخرج به**﴾ أي بسببه؛ ﴿**من الثمرات**﴾ جمع ثمرة؛ وجمعت باعتبار أنواعها.

قوله تعالى: ﴿**رزقاً لكم**﴾ أي عطاء لكم؛ وهو مفعول لأجله.

قوله تعالى: ﴿**فلا تجعلوا**﴾ أي لا تُصَيِّروا ﴿**لله أنداداً**﴾ أي نظراء، ومشابهين في العبادة ﴿**وأنتم تعلمون**﴾ أنه لا نِد له في الخلق، والرزق، وإنزال المطر، وما أشبه ذلك من معاني الربوبية، ومقتضياتها؛ لأن المشركين يقرُّون بأن الخالق هو الله، والرازق هو الله، والمدبر للأمر هو الله إقراراً تاماً، ويعلمون أنه لا إله مع الله في هذا؛ لكن في العبادة ينكرون التوحيد: يشركون؛ يجعلون مع الله إلهاً آخر؛ وينكرون على من وحّد الله حتى قالوا في الرسول ﷺ: ﴿**أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب**﴾ [ص: ٥]؛ وإقرارهم بالخلق، والرزق أن الله منفرد به يستلزم أن يجعلوا العبادة لله وحده؛ فإن لم يفعلوا فهم متناقضون؛ ولهذا قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية؛ وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية؛

يعني من أقر بتوحيد الربوبية لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية؛ ومن أقر بتوحيد الألوهية فإنه لم يقرَّ بها حتى كان قد أقر بتوحيد الربوبية.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: بيان رحمة الله تعالى، وحكمته في جعل الأرض فراشاً؛ إذ لو جعلها خشنة صلبة لا يمكن أن يستقر الإنسان عليها ما هدأ لأحد بال؛ لكن من رحمته، ولطفه، وإحسانه جعلها فراشاً.

٢ ـ **ومنها**: جعْل السماء بناءً؛ وفائدتنا من جعل السماء بناءً أن نعلم بذلك قدرة الله عزّ وجلّ؛ لأن هذه السماء المحيطة بالأرض من كل الجوانب نعلم أنها كبيرة جداً، وواسعة، كما قال تعالى: ﴿**والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون**﴾ [الذاريات: ٤٧].

٣ ـ **ومنها**: بيان قدرة الله عزّ وجلّ بإنزال المطر من السماء؛ لقوله تعالى: ﴿**وأنزل من السماء ماء**﴾؛ لو اجتمعت الخلائق على أن يخلقوا نقطة من الماء ما استطاعوا؛ والله تعالى ينزل هذا المطر العظيم بلحظة؛ وقصة الرجل الذي دخل والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قال: **ادع الله يغيثنا، فرفع ﷺ يديه، وقال: «اللهم أغثنا»**[1]، وما نزل من المنبر إلا والمطر يتحادر من لحيته.

---

(١) أخرجه البخاري ص٧٩، أبواب الاستسقاء، باب ٧: الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، حديث رقم ١٠١٤؛ وأخرجه مسلم ص٨١٧، كتاب صلاة الاستسقاء، باب ٢: الدعاء في الاستسقاء، حديث رقم ٢٠٧٨ [٨] ٨٩٧.

٤ ـ **ومنها**: حكمة الله سبحانه وتعالى، ورحمته بإنزال المطر من السماء؛ وجه ذلك: لو كان الماء الذي تحيى به الأرض يجري على الأرض لأضر الناس؛ ولو كان يجري على الأرض لحُرِم منه أراضٍ كثيرة ـ الأراضي المرتفعة لا يأتيها شيء؛ ولكن من نعمة الله أن ينزل من السماء؛ ثم هناك شيء آخر أيضاً: أنه ينزل رذاذاً ـ يعني قطرةً قطرةً؛ ولو نزل كأفواه القرب لأضر بالناس.

٥ ـ **ومنها**: إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿**فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن الأسباب لا تكون مؤثرة إلا بإرادة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**فأخرج به**﴾.

٧ ـ **ومنها**: أنه ينبغي لمن أراد أن يضيف الشيء إلى سببه أن يضيفه إلى الله مقروناً بالسبب، مثل لو أن أحداً من الناس غرق، وجاء رجل فأخرجه ـ أنقذه من الغرق؛ فليقل: أنقذني الله بفلان؛ وله أن يقول: أنقذني فلان؛ لأنه فعلاً أنقذه؛ وله أن يقول: أنقذني الله ثم فلان؛ وليس له أن يقول: أنقذني الله وفلان؛ لأن هذا تشريك مع الله؛ ويدل لهذا ـ أي الاختيار أن يضيف الشيء إلى الله مقروناً بالسبب ـ أن النبي ﷺ لما دعا الغلام اليهودي للإسلام وكان هذا الغلام في سياق الموت، فعرض عليه النبي ﷺ أن يسلم، فأسلم؛ لكنه أسلم بعد أن استشار أباه: التفت إليه ينظر إليه يستشيره؛ قال: «أطع أبا القاسم» ـ أمر ولده أن يسلم، وهو لم يسلم في تلك الحال، أما بعد فلا ندري، والله أعلم؛ فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله**

الذي أنقذه بي من النار»[(١)]، وهكذا ينبغي لنا إذا حصل شيء بسبب أن نضيفه إلى الله تعالى مقروناً ببيان السبب؛ وذلك؛ لأن السبب موصل فقط.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: بيان قدرة الله، وفضله بإخراج هذه الثمرات من الماء؛ أما القدرة فظاهر: تجد الأرض شهباء جدباء ليس فيها ورقة خضراء فينزل المطر، وفي مدة وجيزة يخرج هذا النبات من كل زوج بهيج بإذن الله عزّ وجلّ، كما قال تعالى: **﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءاً فتصبح الأرض مخضرَّة﴾** [الحج: ٦٣]؛ وأما الفضل فبما يمن الله به من الثمرات؛ ولذلك قال تعالى: **﴿رزقاً لكم﴾**.

٩ ـ **ومنها**: أن الله عزّ وجلّ منعم على الإنسان كافراً كان، أو مؤمناً؛ لقوله تعالى: **﴿لكم﴾**، وهو يخاطب في الأول الناس عموماً؛ لكن فضل الله على المؤمن دائم متصل بفضل الآخرة؛ وفضل الله على الكافر منقطع بانقطاعه من الدنيا.

١٠ ـ **ومنها**: تحريم اتخاذ الأنداد لله؛ لقوله تعالى: **﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾**؛ وهل الأنداد شرك أكبر، أو شرك أصغر؛ وهل هي شرك جلي، أو شرك خفي؛ هذا له تفصيل في علم التوحيد؛ **خلاصته**: إن اتخذ الأنداد في العبادة، أو جعلها شريكة لله في الخلق، والملك، والتدبير فهو شرك أكبر؛ وإن كان دون ذلك فهو شرك أصغر، كقول الرجل لصاحبه: «ما شاء الله وشئت».

---

(١) أخرجه أبو داود ص١٤٥٦، كتاب الجنائز، باب ٢: في عيادة الذمي، حديث رقم ٣٠٩٥؛ وأخرجه أحمد ٣/ ١٧٥، رقم ١٢٨٢٣.

١١ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه ينبغي لمن خاطب أحداً أن يبين له ما تقوم به عليه الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿**فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾، ولقوله تعالى في صدر الآية الأولى: ﴿**اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم**﴾ [البقرة: ٢١]؛ فإن قوله تعالى: ﴿**الذي خلقكم والذين من قبلكم**﴾ [البقرة: ٢١] فيه إقامة الحجة على وجوب عبادته وحده؛ لأنه الخالق وحده.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٣﴾ قوله تعالى: ﴿**وإن كنتم...**﴾: الخطاب لمن جعل لله أنداداً؛ لأنه تعالى قال: ﴿**فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون * وإن كنتم في ريب**﴾.

وفي ذكر هذه الآية المتعلقة برسالة محمد ﷺ إشارة إلى كلمتي التوحيد؛ وهما شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله؛ لكن شهادة أن لا إله إلا الله: توحيد القصد؛ والثاني: توحيد المتابعة؛ فكلاهما توحيد؛ لكن الأول توحيد القصد بأن يكون العمل خالصاً لله؛ والثاني توحيد المتابعة بأن لا يتابع في عبادته سوى رسول الله ﷺ؛ وإذا تأملت القرآن وجدت هكذا: يأتي بما يدل على التوحيد، ثم بما يدل على الرسالة؛

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿**أفلم يدَّبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين**﴾ [المؤمنون: ٦٨]، ثم قال تعالى: ﴿**أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون**﴾ [المؤمنون: ٦٩]؛ وهذا مطَّرد في القرآن الكريم.

قوله تعالى: ﴿**في ريب**﴾: «**الريب**» يفسره كثير من الناس بالشك؛ ولا شك أنه قريب من معنى الشك، لكنه يختلف عنه بأن «**الريب**» يُشعر بقلق مع الشك، وأن الإنسان في قلق عظيم مما وقع فيه الشك؛ وذلك؛ لأن ما جاء به الرسول حق؛ والشاك فيه لا بد أن يعتريه قلق من أجل أنه شك في أمر لا بد من التصديق به؛ بخلاف الشك في الأمور الهينة، فلا يقال: «ريب»؛ وإنما يقال في الأمور العظيمة التي إذا شك فيها الإنسان وجد في داخل نفسه قلقاً، واضطراباً.

قوله تعالى: ﴿**مما نزَّلنا**﴾: المراد به القرآن؛ لأن الله أنزله على محمد ﷺ؛ ﴿**على عبدنا**﴾: هو محمد رسول الله ﷺ؛ والله ـ تبارك وتعالى ـ وصف رسوله ﷺ بالعبودية في المقامات العالية: في الدفاع عنه؛ وفي بيان تكريمه بالمعراج، والإسراء؛ وفي بيان تكريمه بإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده**﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً**﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالى: ﴿**فأوحى إلى عبده ما أوحى**﴾ [النجم: ١٠]، وقال تعالى: ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا**﴾: هذا في مقام التحدي، والمدافعة؛ وأفضل أوصاف الرسول ﷺ هي العبودية، والرسالة؛ ولهذا قال ﷺ: «**إنما أنا عبد؛ فقولوا:**

عبد الله، ورسوله»[١]؛ و«**العبودية**»: هي التذلل للمحبوب، والمعظم؛ ولهذا قال الشاعر في محبوبته:

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

يعني: لا تقل: فلان، وفلان؛ بل قل: يا عبد فلانة؛ لأن هذا عنده أشرف أوصافه، حيث انتمى إليها ـ نعوذ بالله من الخذلان.

قوله تعالى: ﴿**فأتوا بسورة**﴾: أمر يقصد به التحدي ـ يعني: إذا كنتم في شك من هذا القرآن فإننا نتحداكم أن تأتوا بسورة واحدة؛ ﴿**من مثله**﴾: يحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الرسول ﷺ؛ والمعنى: من مثل محمد ﷺ؛ ويحتمل أن يكون عائداً إلى القرآن المنزل؛ والمعنى: من مثل ما نزلنا على عبدنا ـ أي من جنسه؛ وكلاهما صحيح.

قوله تعالى: ﴿**وادعوا شهداءكم**﴾ أي الذين تشهدون لهم بالألوهية، وتعبدونهم كما تعبدون الله، ادعوهم ليساعدوكم في الإتيان بمثله؛ وهذا غاية ما يكون من التحدي: أن يتحدى العابدَ والمعبودَ أن يأتوا بسورة مثله.

قوله تعالى: ﴿**من دون الله**﴾ أي مما سوى الله؛ ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ أي في أن هذا القرآن مفترًى على الله؛ والجواب على هذا: أنه لا يمكن أن يأتوا بسورة مثله مهما أتوا من المعاونين، والمساعدين.

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٨١، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٤٨: قول الله تعالى: ﴿**واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها**﴾، حديث رقم ٣٤٤٥.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: دفاع الله سبحانه وتعالى عن رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾؛ لأن الأمر هنا للتحدي؛ فالله عزّ وجلّ يتحدى هؤلاء بأن يأتوا بمعارضٍ لما جاء به الرسول ﷺ.

٢ ـ **ومنها**: فضيلة النبي ﷺ؛ لوصفه بالعبودية؛ والعبودية لله عزّ وجلّ هي غاية الحرية؛ لأن من لم يعبد الله فلا بد أن يعبد غيره؛ فإذا لم يعبد الله عزّ وجلّ ـ الذي هو مستحق للعبادة ـ عَبَدَ الشيطان، كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في النونية:

هربوا من الرق الذي خلقوا له وبلوا برق النفس والشيطان

٣ ـ **ومنها**: أن القرآن كلام الله؛ لقوله تعالى: ﴿مما نزلنا﴾؛ ووجه كونه كلام الله أن القرآن كلام؛ والكلام صفة للمتكلم، وليس شيئاً بائناً منه؛ وبهذا نعرف بطلان قول من زعم أن القرآن مخلوق.

٤ ـ **ومنها**: إثبات علوّ الله عزّ وجلّ؛ لأنه إذا تقرر أن القرآن كلامه، وأنه منزل من عنده لزم من ذلك علوّ المتكلم به؛ وعلو الله عزّ وجلّ ثابت بالكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة؛ وتفاصيل هذه الأدلة في كتب العقائد؛ ولولا خوض أهل البدعة في ذلك ما احتيج إلى كبير عناء في إثباته؛ لأنه أمر فطري؛ ولكن علماء أهل السنة يضطرون إلى مثل هذا لدحض حجج أهل البدع.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن القرآن معجز حتى بسورة ـ ولو كانت قصيرة؛ لقوله تعالى: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾.

٦ ـ **ومنها**: تحدي هؤلاء العابدين للآلهة مع معبوديهم؛ وهذا أشد ذلًّا مما لو تُحدوا وحدهم.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٤﴾ قوله تعالى: ﴿**فإن لم تفعلوا**﴾ يعني فإن لم تأتوا بسورة من مثله.

ولما قال تعالى: ﴿**فإن لم تفعلوا**﴾ ـ وهي شرطية ـ قطع أطماعهم بقوله: ﴿**ولن تفعلوا**﴾ يعني: ولا يمكنكم أن تفعلوا؛ و﴿**لن**﴾ هنا للتأبيد؛ لأن المقام مقام تحدٍّ.

قوله تعالى: ﴿**فاتقوا النار**﴾: الفاء هنا واقعة في جواب الشرط ـ وهو ﴿**إن لم تفعلوا**﴾ يعني: إن لم تفعلوا، وتعارضوا القرآن بمثله فالنار مثواكم؛ فاتقوا النار ـ ولن يجدوا ما يتقون به النار إلا أن يؤمنوا بما أنزل على محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿**التي وقودها الناس والحجارة**﴾؛ ﴿**التي**﴾ اسم موصول صفة لـ﴿**النار**﴾؛ و﴿**وقود**﴾ مبتدأ؛ و﴿**الناس**﴾ خبر المبتدأ؛ والجملة: صلة الموصول؛ و«**الوقود**» ما يوقد به الشيء، كالحطب ـ مثلاً ـ في نار الدنيا؛ في الآخرة وقود النار هم الناس، والحجارة؛ فالنار تحرقهم، وتلتهب بهم؛ و﴿**الحجارة**﴾: قال بعض العلماء: إن المراد بها الحجارة المعبودة ـ يعني

الأصنام؛ لأنهم يعبدون الأصنام؛ فأصنامهم هذه تكون معهم في النار، كما قال تعالى: ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون**﴾ [الأنبياء: ٩٨]؛ وقيل: هذا، وهذا ـ الحجارة المعبودة، والحجارة الموقودة التي خلقها عزّ وجلّ لتوقد بها النار.

قوله تعالى: ﴿**أعدت**﴾: الضمير المستتر يعود على النار؛ والمعِدُّ لها هو الله عزّ وجلّ؛ ومعنى «**الإعداد**» التهيئة للشيء؛ ﴿**للكافرين**﴾ أي لكل كافر سواء كفر بالرسالة، أو كفر بالألوهية، أو بغير ذلك.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن من عارض القرآن فإن مأواه النار؛ لقوله تعالى: ﴿**فاتقوا النار**﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن الناس وقود للنار كما توقد النار بالحطب؛ فهي في نفس الوقت تحرقهم، وهي أيضاً توقد بهم؛ فيجتمع العذاب عليهم من وجهين.

٣ ـ **ومنها**: إهانة هؤلاء الكفار بإذلال آلهتهم، وطرحها في النار ـ على أحد الاحتمالين في قوله تعالى: ﴿**الحجارة**﴾؛ لأن من المعلوم أن الإنسان يغار على من كان يعبده، ولا يريد أن يصيبه أذًى؛ فإذا أحرق هؤلاء المعبودون أمام العابدين فإن ذلك من تمام إذلالهم، وخزيهم.

٤ ـ **ومنها**: أن النار موجودة الآن؛ لقوله تعالى: ﴿**أعدت**﴾؛ ومعلوم أن الفعل هنا فعل ماض؛ والماضي يدل على وجود الشيء؛ وهذا أمر دلت عليه السنة أيضاً؛ فإن النبي ﷺ

عُرضت عليه الجنة، والنار، ورأى أهلها يعذبون فيها: رأى عمرو بن لحيّ الخزاعي يجر قصبه ـ أي أمعاءه ـ في النار؛ ورأى المرأة التي حبست الهرة حتى ماتت جوعاً: فلم تكن أطعمتها، ولا أرسلتها تأكل من خشاش الأرض؛ ورأى فيها صاحب المحجن ـ الذي كان يسرق الحُجَّاج بمحجنه ـ يعذب: وهو رجل معه محجن ـ أي عصا محنية الرأس ـ كان يسرق الحُجاج بهذا المحجن؛ إذا مر به الحجاج جذب متاعهم؛ فإن تفطن صاحب الرحل لذلك ادعى أن الذي جذبه المحجن؛ وإن لم يتفطن أخذه؛ فكان يعذب ـ والعياذ بالله ـ بمحجنه في نار جهنم[1].

مسألة:

هل النار باقية؛ أو تفنى؟ ذكر بعض العلماء إجماع السلف على أنها تبقى، ولا تفنى؛ وذكر بعضهم خلافاً عن بعض السلف أنها تفنى؛ والصواب أنها تبقى أبد الآبدين؛ والدليل على هذا من كتاب الله عزّ وجلّ في ثلاث آيات من القرآن: في سورة النساء، وسورة الأحزاب، وسورة الجن؛ فأما الآية التي في النساء فهي قوله تعالى: ﴿**إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً**﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]؛ والتي في سورة الأحزاب قوله تعالى: ﴿**إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً * خالدين فيها أبداً**﴾ [الأحزاب: ٦٤،

---

(١) راجع مسلم ص٨١٩ ـ ٨٢٠، كتاب الكسوف، باب ٣: ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، حديث رقم ٢١٠٠ [٩] ٩٠٤؛ وراجع مسلم ص١١٧٣، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ١٣: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، حديث رقم ٧١٩٢ [٥٠] ٢٨٥٦.

٦٥]؛ والتي في سورة الجن قوله تعالى: ﴿**ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً**﴾ [الجن: ٢٣]؛ وليس بعد كلام الله كلام؛ حتى إني أذكر تعليقاً لشيخنا عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله على كتاب «شفاء العليل» لابن القيم؛ ذكر أن هذا من باب: «لكل جواد كبوة؛ ولكل صارم نبوة» ـ وهو صحيح؛ كيف إن المؤلف رحمه الله يستدل بهذه الأدلة على القول بفناء النار مع أن الأمر فيها واضح؟! غريب على ابن القيم رحمه الله أنه يسوق الأدلة بهذه القوة للقول بأن النار تفنى! وعلى كل حال، كما قال شيخنا في هذه المسألة: «لكل جواد كبوة؛ ولكل صارم نبوة»؛ والصواب الذي لا شك فيه ـ وهو عندي مقطوع به ـ أن النار باقية أبد الآبدين؛ لأنه إذا كان يخلد فيها تخليداً أبدياً لزم أن تكون هي مؤبدة؛ لأن ساكن الدار إذا كان سكونه أبدياً لابد أن تكون الدار أيضاً أبدية.

وأما قوله تعالى في أصحاب النار: ﴿**خالدين فيها ما دامت السمٰوات والأرض إلا ما شاء ربك**﴾ [هود: ١٠٧] فهي كقوله تعالى في أصحاب الجنة: ﴿**خالدين فيها ما دامت السمٰوات والأرض إلا ما شاء ربك**﴾ [هود: ١٠٨]؛ لكن لما كان أهل الجنة نعيمهم، وثوابهم فضلاً ومنَّة، بيَّن أن هذا الفضل غير منقطع، فقال تعالى: ﴿**عطاءً غير مجذوذ**﴾ [هود: ١٠٨]؛ ولما كان عذاب أهل النار من باب العدل، والسلطان المطلق للرب عزّ وجلّ قال تعالى في آخر الآية: ﴿**إن ربك فعال لما يريد**﴾ [هود: ١٠٧]؛ وليس المعنى: ﴿**إن ربك فعال لما يريد**﴾ [هود: ١٠٧] أنه سوف يخرجه من النار، أو سوف يُفني النار.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن النار دار للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿**أعدت للكافرين**﴾؛ وأما من دخلها من عصاة المؤمنين فإنهم لا يخلدون فيها؛ فهم فيها كالزوار؛ لا بد أن يَخرجوا منها؛ فلا تسمى النار داراً لهم؛ بل هي دار للكافر فقط؛ أما المؤمن العاصي ـ إذا لم يعف الله عنه ـ فإنه يعذب فيها ما شاء الله، ثم يخرج منها إما بشفاعة؛ أو بمنة من الله وفضل؛ أو بانتهاء العقوبة.

مسألة:

إذا قال قائل: ما وجه الإعجاز في القرآن؟ وكيف أعجز البشر؟.

الجواب: أنه معجز بجميع وجوه الإعجاز؛ لأنه كلام الله، وفيه من وجوه الإعجاز ما لا يدرك؛ فمن ذلك:

أولاً: قوة الأسلوب، وجماله؛ والبلاغة، والفصاحة؛ وعدم الملل في قراءته؛ فالإنسان يقرأ القرآن صباحاً، ومساءً ـ وربما يختمه في اليومين، والثلاثة ـ ولا يمله إطلاقاً؛ لكن لو كرر متناً من المتون كما يكرر القرآن ملّ.

ثانياً: أنه معجز بحيث إن الإنسان كلما قرأه بتدبر ظهر له بالقراءة الثانية ما لم يظهر له بالقراءة الأولى.

ثالثاً: صدق أخباره بحيث يشهد لها الواقع؛ وكمال أحكامه التي تتضمن مصالح الدنيا، والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿**وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً**﴾ [الأنعام: ١١٥].

رابعاً: تأثيره على القلوب، والمناهج؛ وآثاره، حيث ملك به السلف الصالح مشارق الأرض، ومغاربها.

وأما كيفية الإعجاز فهي تحدي الجن، والإنس على أن يأتوا بمثله، ولم يستطيعوا.

مسألة ثانية:

حكى الله عزّ وجلّ عن الأنبياء، والرسل، ومن عاندهم أقوالاً؛ وهذه الحكاية تحكي قول من حُكيت عنه؛ فهل يكون قول هؤلاء معجزاً ـ يعني مثلاً: فرعون قال لموسى: ﴿**لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين**﴾ [الشعراء: ٢٩]: هذا يحكيه الله عزّ وجلّ عن فرعون؛ فيكون القول قول فرعون؛ فكيف كان قول فرعون معجزاً والإعجاز إنما هو قول الله عزّ وجلّ؟

فالجواب: أن الله تعالى لم يحك كلامهم بلفظه؛ بل معناه؛ فصار المقروء في القرآن كلام الله عزّ وجلّ ـ وهو معجز.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٥﴾ مناسبة الآية لما قبلها أن الله لما ذكر وعيد الكافرين المكذبين للرسول ﷺ ذكر وعد المؤمنين به، فقال تعالى: ﴿**وبشر...**﴾ الآية؛ و«**البشارة**» هي الإخبار بما يسر؛ وسميت بذلك لتغير بَشَرة المخاطَب بالسرور؛ لأن الإنسان إذا

أُخبر بما يُسِرُّه استنار وجهه، وطابت نفسه، وانشرح صدره؛ وقد تستعمل «**البشارة**» في الإخبار بما يسوء، كقوله تعالى: ﴿**فبشرهم بعذاب أليم**﴾ [آل عمران: ٢١]: إمَّا تهكماً بهم؛ وإما لأنهم يحصل لهم من الإخبار بهذا ما تتغير به بشرتهم، وتَسودَّ به وجوههم، وتُظلِم، كقوله تعالى في عذابهم يوم القيامة: ﴿**ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم**﴾ [الدخان: ٤٨، ٤٩].

والخطاب في قوله تعالى: ﴿**بشِّر**﴾ إما للرسول ﷺ؛ أو لكل من يتوجه إليه الخطاب ـ يعني بشِّر أيها النبي؛ أو بشِّر أيها المخاطَب من اتصفوا بهذه الصفات بأن لهم جنات.

قوله تعالى: ﴿**الذين آمنوا**﴾ أي بما يجب الإيمان به مما أخبر الله به، ورسوله؛ وقد بيَّن الرسول ﷺ أصول الإيمان بأنها الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره؛ لكن ليس الإيمان بهذه الأشياء مجرد التصديق بها؛ بل لا بد من قبول، وإذعان؛ وإلا لما صح الإيمان.

قوله تعالى: ﴿**وعملوا الصالحات**﴾ أي عملوا الأعمال الصالحات ـ وهي الصادرة عن محبة، وتعظيم لله عزّ وجلّ المتضمنة للإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله؛ فما لا إخلاص فيه فهو فاسد؛ لقول الله تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[1]؛ وما لم يكن على الاتِّباع فهو مردود لا يقبل؛ لقول

(١) أخرجه مسلم ص١١٩٥، كتاب الزهد، باب ٤: تحريم الرياء، حديث رقم ٧٤٧٥ [٤٦] ٢٩٨٥.

النبي ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[١].

قوله تعالى: ﴿**أن لهم جنات**﴾: هذا المبشر به: أن لهم عند الله عزّ وجلّ ﴿**جنات...**﴾: جمع «جنَّة»؛ وهي في اللغة: البستان كثير الأشجار بحيث تغطي الأشجار أرضه، فتجتن بها؛ والمراد بها شرعاً: الدار التي أعدها الله للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قوله تعالى: ﴿**تجري من تحتها الأنهار**﴾ أي تسيح من تحتها الأنهار؛ و﴿**الأنهار**﴾ فاعل ﴿**تجري**﴾؛ و﴿**من تحتها**﴾ قال العلماء: من تحت أشجارها، وقصورها؛ وليس من تحت سطحها؛ لأن جريانها من تحت سطحها لا فائدة منه؛ وما أحسن جري هذه الأنهار إذا كانت من تحت الأشجار، والقصور! يجد الإنسان فيها لذة في المنظر قبل أن يتناولها.

وقد بيّن الله تعالى أنها أربعة أنواع، كما قال تعالى: ﴿**مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفًّى**﴾ [محمد: ١٥].

قوله تعالى: ﴿**كلما رزقوا**﴾ أي أعطوا؛ ﴿**منها**﴾ أي من الجنات؛ ﴿**من ثمرة**﴾ أي من أيّ ثمرة؛ ﴿**قالوا هذا الذي رزقنا من قبل**﴾ لأنه يشبه ما سبقه في حجمه، ولونه، وملمسه، وغير ذلك

---

(١) أخرجه البخاري ص٢١٤، كتاب الصلح، باب ٥: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث رقم ٢٦٩٧؛ وأخرجه مسلم ص٩٨٢ ـ ٩٨٣، كتاب الأقضية، باب ٨: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم ٤٤٩٣ [١٨] ١٧١٨، واللفظ لمسلم.

من صفاته؛ فيظنون أنه هو الأول؛ ولكنه يختلف عنه في الطعم والمذاق اختلافاً عظيماً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وأتوا به متشابهاً﴾؛ وما أجمل وألذّ للإنسان إذا رأى هذه الفاكهة يراها وكأنها شيء واحد؛ فإذا ذاقها وإذا الطعم يختلف اختلافاً عظيماً! تجده يجد في نفسه حركةً لهذا الفاكهة، ولذةً، وتعجباً؛ كيف يكون هذا الاختلاف المتباين العظيم والشكل واحد! ولهذا لو قُدم لك فاكهة ألوانها سواء، وأحجامها سواء، وملمسها سواء، ثم إذا ذقتها وإذا هذه حلو خالص، وهذه مُز ـ أي حلو مقرون بالحموضة ـ وهذه حامضة؛ تجد لذة أكثر مما لو كانت على حد سواء، أو كانت مختلفة.

قوله تعالى: ﴿وأتوا به متشابهاً﴾؛ ﴿أتوا﴾ من «أتى» التي بمعنى جاء؛ فالمعنى: جيء إليهم به متشابهاً يشبه بعضه بعضاً ـ كما سبق.

قوله تعالى: ﴿ولهم فيها أزواج﴾؛ لما ذكر الله الفاكهة ذكر الأزواج؛ لأن في كل منهما تفكهاً، لكن كل واحد من نوع غير الآخر: هذا تفكه في المذاق، والمطعم؛ وهذا تفكه آخر من نوع ثان؛ لأن بذلك يتم النعيم؛ و﴿أزواج﴾ جمع زوج؛ وهو شامل للأزواج من الحور، ومن نساء الدنيا؛ ويطلق «الزوج» على الذكر، والأنثى؛ ولهذا يقال للرجل: «زوج»، وللمرأة: «زوج»؛ لكن في اصطلاح الفرضيين صاروا يلحقون التاء للأنثى فرقاً بينها وبين الرجل عند قسمة الميراث.

قوله تعالى: ﴿مطهرة﴾ يشمل طهارة الظاهر، والباطن؛ فهي مطهرة من الأذى القذر: لا بول، ولا غائط، ولا حيض، ولا نفاس، ولا استحاضة، ولا عرق، ولا بخر، مطهرة من كل شيء ظاهر حسي؛ مطهرة أيضاً من الأقذار الباطنة، كالغل، والحقد، والكراهية، والبغضاء، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿هم فيها خالدون﴾ أي ماكثون لا يخرجون منها.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: مشروعية تبشير الإنسان بما يسر؛ لقوله تعالى: ﴿**وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾؛ ولقول الله تبارك وتعالى: ﴿**وبشرناه بإسحاق نبيًا من الصالحين**﴾ [الصافات: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿**وبشروه بغلام عليم**﴾ [الذاريات: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿**فبشرناه بغلام حليم**﴾ [الصافات: ١٠١]؛ فالبشارة بما يسر الإنسان من سنن المرسلين ـ عليهم الصلاة والسلام؛ وهل من ذلك أن تبشره بمواسم العبادة، كما لو أدرك رمضان، فقلت: هنّاك الله بهذا الشهر؟ **الجواب**: نعم؛ وكذلك أيضاً لو أتم الصوم، فقلت: هنّأك الله بهذا العيد، وتقبل منك عبادتك وما أشبه ذلك؛ فإنه لا بأس به، وقد كان من عادة السلف.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الجنات لا تكون إلا لمن جمع هذين: الإيمان، والعمل الصالح.

فإن قال قائل: في القرآن الكريم ما يدل على أن الأوصاف أربعة: الإيمان؛ والعمل الصالح؛ والتواصي بالحق؛ والتواصي بالصبر؟

فالجواب: أن التواصي بالحق، والتواصي بالصبر من العمل الصالح، لكن أحياناً يُذكر بعض أفراد العام لعلة من العلل، وسبب من الأسباب.

٣ ـ **ومنها**: أن جزاء المؤمنين العاملين للصالحات أكبر بكثير مما عملوا، وأعظم؛ لأنهم مهما آمنوا، وعملوا فالعمر

محدود، وينتهي؛ لكن الجزاء لا ينتهي أبداً؛ هم مخلدون فيه أبد الآباد؛ كذلك أيضاً الأعمال التي يقدمونها قد يشوبها كسل؛ قد يشوبها تعب؛ قد يشوبها أشياء تنقصها، لكن إذا منّ الله عليه، فدخل الجنة فالنعيم كامل.

٤ ـ **ومنها**: أن الجنات أنواع؛ لقوله تعالى: ﴿**جنات**﴾؛ وقد دل على ذلك القرآن، والسنة؛ فقال الله تعالى: ﴿**ولمن خاف مقام ربه جنتان**﴾ [الرحمٰن: ٤٦]، ثم قال تعالى: ﴿**ومن دونهما جنتان**﴾ [الرحمٰن: ٦٢]؛ وقال النبي ﷺ: «**جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما؛ وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما**»[(١)].

٥ ـ **ومنها**: تمام قدرة الله عزّ وجلّ بخلق هذه الأنهار بغير سبب معلوم، بخلاف أنهار الدنيا؛ لأن أنهار الماء في الدنيا معروفة أسبابها؛ وليس في الدنيا أنهار من لبن، ولا من عسل، ولا من خمر؛ وقد جاء في الأثر[(٢)] أنها أنهار تجري من غير أخدود ـ يعني لم يحفر لها حفر، ولا يقام لها أعضاد تمنعها؛ بل النهر يجري، ويتصرف فيه الإنسان بما شاء ـ يوجهه حيث شاء؛ قال ابن القيم رحمه الله في النونية:

أنهارها في غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان

---

(١) أخرجه البخاري ص٤١٧، كتاب التفسير، سورة الرحمن، باب ١: قوله: ﴿**ومن دونهما جنتان**..﴾، حديث رقم ٤٨٧٨؛ وأخرجه مسلم ص٧٠٩، كتاب الإيمان، باب ٨٠: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، حديث رقم ٤٤٨ [٢٩٦] ١٨٠.

(٢) أخرج الطبري هذا الأثر في تفسيره عن مسروق ١/ ٣٨٤، رقم ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١؛ ورجاله ثقات.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن من تمام نعيم أهل الجنة أنهم يؤتون بالرزق متشابهاً؛ وكلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا: هذا الذي رُزقنا من قبل؛ وهذا من تمام النعيم، والتلذذ بما يأكلون.

٧ ـ **ومنها**: إثبات الأزواج في الآخرة، وأنه من كمال النعيم؛ وعلى هذا يكون جماع، ولكن بدون الأذى الذي يحصل بجماع نساء الدنيا؛ ولهذا ليس في الجنة مَنِيّ، ولا مَنِيَّة؛ والمنيّ الذي خلق في الدنيا إنما خُلق لبقاء النسل؛ لأن هذا المنيّ مشتمل على المادة التي يتكون منها الجنين، فيخرج بإذن الله تعالى ولداً؛ لكن في الآخرة لا يحتاجون إلى ذلك؛ لأنه لا حاجة لبقاء النسل؛ إذ إن الموجودين سوف يبقون أبد الآبدين لا يفنى منهم أحد؛ ثم هم ليسوا بحاجة إلى أحد يعينهم، ويخدمهم؛ الوِلدان تطوف عليهم بأكواب، وأباريق، وكأس من معين؛ ثم هم لا يحتاجون إلى أحد يصعد الشجرة ليجني ثمارها؛ بل الأمر فيها كما قال الله تعالى: ﴿**وجنى الجنتين دان**﴾ [الرحمٰن: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿**قطوفها دانية**﴾ [الحاقة: ٢٣]؛ حتى ذكر العلماء أن الرجل ينظر إلى الثمرة في الشجرة، فيحسّ أنه يشتهيها، فيدنو منه الغصن حتى يأخذها؛ ولا تستغرب هذا؛ فنحن في الدنيا نشاهد أن الشيء يدنو من الشيء بغير سلطة محسوسة؛ وما في الآخرة أبلغ، وأبلغ.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أن أهل الجنة خالدون فيها أبد الآباد؛ لا يمكن أن تفنى، ولا يمكن أن يفنى من فيها؛ وقد أجمع على ذلك أهل السنة والجماعة.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٦﴾ قوله تعالى: ﴿**إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما**﴾ أي لا يمنعه الحياء من أن يضرب مثلاً ولو كان مثلاً حقيراً ما دام يثبت به الحق؛ فالعبرة بالغاية؛ و﴿ما﴾ يقولون: إنها نكرة واصفة ـ أي: مثلاً أيَّ مثل.

قوله تعالى: ﴿بعوضة﴾: عطف بيان لـ﴿ما﴾ أي: مثلاً بعوضة؛ والبعوضة معروفة؛ ويضرب بها المثل في الحقارة؛ وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية أن المشركين اعترضوا: كيف يضرب الله المثل بالذباب في قوله تبارك وتعالى: ﴿**يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له**﴾ [الحج: ٧٣]: قالوا: الذباب يذكره الله في مقام المحاجة! فبيَّن الله عزّ وجلّ أنه لا يستحيي من الحق حتى وإن ضرب المثل بالبعوضة، فما فوقها.

قوله تعالى: ﴿**فما فوقها**﴾: هل المراد بما فوق ـ أي فما فوقها في الحقارة، فيكون المعنى أدنى من البعوضة؛ أو فما فوقها في الارتفاع، فيكون المراد ما هو أعلى من البعوضة؟ فأيهما أعلى خلقة: الذباب، أو البعوضة؟ **الجواب**: الذباب أكبر، وأقوى ـ لا شك؛ لكن مع ذلك يمكن أن يكون معنى الآية:

﴿فما فوقها﴾ أي فما دونها؛ لأن الفوقية تكون للأدنى، وللأعلى، كما أن الوراء تكون للأمام، وللخلف، كما في قوله تعالى: ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً﴾ [الكهف: ٧٩] أي كان أمامهم.

قوله تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه﴾ أي المثل الذي ضربه الله ﴿الحق من ربهم﴾، ويؤمنون به، ويرون أن فيه آيات بينات.

قوله تعالى: ﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ لأنه لم يتبين لهم الحق لإعراضهم عنه، وقد قال الله تعالى: ﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين * كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ [المطففين: ١٣، ١٤].

وقوله تعالى: ﴿ماذا﴾: «ما» هنا اسم استفهام مبتدأ؛ و«ذا» اسم موصول بمعنى «الذي» خبر المبتدأ ـ أي: ما الذي أراد الله بهذا مثلاً، كما قال ابن مالك:

ومثل ما ذا بعد ما استفهام أو مَن إذا لم تلغ في الكلام

قوله تعالى: ﴿يضل به كثيراً﴾: الجملة استئنافية لبيان الحكمة من ضرب المثل بالشيء الحقير؛ ولهذا ينبغي الوقوف على قوله تعالى: ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾؛ و﴿يضل به﴾ أي بالمثل؛ ﴿كثيراً﴾ أي من الناس؛ ﴿ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين﴾ أي الخارجين عن طاعة الله؛ والمراد هنا الخروج المطلق الذي هو الكفر؛ لأن الفسق قد يراد به الكفر؛ وقد يراد به ما دونه؛ ففي قوله تبارك وتعالى: ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ [السجدة: ٢٠]: المراد به في هذه الآية الكفر؛ وكذلك هنا.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إثبات الحياء لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما**﴾.

ووجه الدلالة: أن نفي الاستحياء عن الله في هذه الحال دليل على ثبوته فيما يقابلها؛ وقد جاء ذلك صريحاً في السنة، كما في قول النبي ﷺ: «**إن ربكم حييّ كريم يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صِفراً**»[1]؛ والحياء الثابت لله ليس كحياء المخلوق؛ لأن حياء المخلوق انكسار لما يَدْهَمُ الإنسان ويعجز عن مقاومته؛ فتجده ينكسر، ولا يتكلم، أو لا يفعل الشيء الذي يُستحيا منه؛ وهو صفة ضعف ونقص إذا حصل في غير محله.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله تعالى يضرب الأمثال؛ لأن الأمثال أمور محسوسة يستدل بها على الأمور المعقولة؛ انظر إلى قوله تعالى: ﴿**مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً**﴾ [العنكبوت: ٤١]؛ وهذا البيت لا يقيها من حَرّ، ولا برد، ولا مطر، ولا رياح ﴿**وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت**﴾ [العنكبوت: ٤١]؛ وقال تعالى: ﴿**والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو**

---

(١) أخرجه أبو داود ص١٣٣٣، كتاب الوتر، باب ٢٣: الدعاء، حديث رقم ١٤٨٨؛ وأخرجه الترمذي ص٢٠١٨، كتاب الدعوات، باب ١٠٤: «إن الله حيّي كريم...»، حديث رقم ٣٥٥٦؛ وأخرجه ابن ماجه ص٢٧٠٧، كتاب الدعاء، باب ١٣: رفع اليدين في الدعاء، حديث رقم ٣٨٦٥؛ وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٥١، باب رفع اليدين في الصلاة، حديث رقم ٣٢٥٠، قال الألباني في صحيح أبي داود: صحيح [١/ ٤٠٩، حديث رقم ١٤٨٨].

ببالغه﴾ [الرعد: ١٤]: إنسان بسط كفيه إلى غدير مثلاً، أو نهر يريد أن يصل الماء إلى فمه! هذا لا يمكن؛ هؤلاء الذين يمدون أيديهم إلى الأصنام كالذي يمد يديه إلى النهر ليبلغ فاه؛ فالأمثال لا شك أنها تقرب المعاني إلى الإنسان إما لفهم المعنى؛ وإما لحكمتها، وبيان وجه هذا المثل.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن البعوضة من أحقر المخلوقات؛ لقوله تعالى: **﴿بعوضة فما فوقها﴾**؛ ومع كونها من أحقر المخلوقات فإنها تقض مضاجع الجبابرة؛ وربما تهلك: لو سُلطت على الإنسان لأهلكته وهي هذه الحشرة الصغيرة المهينة.

٤ ـ **ومنها**: رحمة الله تعالى بعباده حيث يقرر لهم المعاني المعقولة بضرب الأمثال المحسوسة لتتقرر المعاني في عقولهم.

٥ ـ **ومنها**: أن القياس حجة؛ لأن كل مثل ضربه الله في القرآن، فهو دليل على ثبوت القياس.

٦ ـ **ومنها**: فضيلة الإيمان، وأن المؤمن لا يمكن أن يعارض ما أنزل الله عزّ وجلّ بعقله؛ لقوله تعالى: **﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾**، ولا يعترضون، ولا يقولون: لِم؟، ولا: كيف؟؛ يقولون: سمعنا، وأطعنا، وصدقنا؛ لأنهم يؤمنون بأن الله عزّ وجلّ له الحكمة البالغة فيما شرع، وفيما قدر.

٧ ـ **ومنها**: إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله تعالى: **﴿من ربهم﴾**؛ واعلم أن ربوبية الله تعالى تنقسم إلى قسمين: عامة؛ وخاصة؛ فالعامة هي الشاملة لجميع الخلق، وتقتضي التصرف المطلق في العباد؛ والخاصة هي التي تختص بمن أضيفت له، وتقتضي عناية خاصة؛ وقد اجتمعتا في قوله تعالى: **﴿قالوا آمنا**

برب العالمين * رب موسى وهارون﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]: فالأولى ربوبية عامة؛ والثانية خاصة بموسى، وهارون؛ كما أن مقابل ذلك «العبودية» تنقسم إلى عبودية عامة، كما في قوله تبارك وتعالى: **﴿إن كل من في السمٰوات والأرض إلا آتي الرحمٰن عبداً﴾** [مريم: ٩٣]؛ وخاصة كما في قوله تعالى: **﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده﴾** [الفرقان: ١]؛ والفرق بينهما أن العامة هي الخضوع للأمر الكوني؛ والخاصة هي الخضوع للأمر الشرعي؛ وعلى هذا فالكافر عبد لله بالعبودية العامة؛ والمؤمن عبد لله بالعبودية العامة، والخاصة.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أن ديدن الكافرين الاعتراض على حكم الله، وعلى حكمة الله؛ لقوله تعالى: **﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾**؛ وكل من اعترض ولو على جزء من الشريعة ففيه شبه بالكفار؛ فمثلاً لو قال قائل: لماذا ينتقض الوضوء بأكل لحم الإبل، ولا ينتقض بأكل لحم الخنزير إذا جاز أكله للضرورة مع أن الخنزير خبيث نجس؟

فالجواب: أن هذا اعتراض على حكم الله عزّ وجلّ؛ وهو دليل على نقص الإيمان؛ لأن لازم الإيمان التام التسليم التام لحكم الله عزّ وجلّ ـ إلا أن يقول ذلك على سبيل الاسترشاد، والاطلاع على الحكمة؛ فهذا لا بأس به.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: أن لفظ الكثير لا يدل على الأكثر؛ لقوله تعالى: **﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾**؛ فلو أخذنا بظاهر الآية لكان الضالون، والمهتدون سواءً؛ وليس كذلك؛ لأن بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون من الألف ضالون؛ وواحد من الألف

مهتدٍ؛ فكلمة: ﴿كثيراً﴾ لا تعني الأكثر؛ وعلى هذا لو قال إنسان: عندي لك دراهم كثيرة، وأعطاه ثلاثة لم يلزمه غيرها؛ لأن «كثير» يطلق على القليل، وعلى الأكثر.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: أن إضلال من ضل ليس لمجرد المشيئة؛ بل لوجود العلة التي كانت سبباً في إضلال الله العبد؛ لقوله تعالى: ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾؛ وهذا كقوله تعالى: **﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾** [الصف: ٥].

١١ ـ **ومنها**: الرد على القدرية الذين قالوا: إن العبد مستقل بعمله ـ لا علاقة لإرادة الله تعالى به؛ لقوله تعالى: **﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾**.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٧﴾ قوله تعالى: **﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾** أي العهد الذي بينهم وبين الله عزّ وجلّ؛ وهو الإيمان به، وبرسله؛ فإن هذا مأخوذ على كل إنسان؛ إذا جاء رسول بالآيات فإن الواجب على كل إنسان أن يؤمن به؛ فهؤلاء نقضوا عهد الله، ولم يؤمنوا به، وبرسله؛ والنقض حَلّ الشيء بعد إبرامه؛ وقد بين الله عزّ وجلّ هذا العهد في قوله تعالى: **﴿ولقد**

أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ [المائدة: ١٢].

قوله تعالى: **﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾** أي يقطعون كل ما أمر الله به أن يوصل، كالأرحام، ونصرة الرسل، ونصرة الحق، والدفاع عن الحق.

قوله تعالى: **﴿ويفسدون في الأرض﴾** أي يسعون لما به فساد الأرض فساداً معنوياً كالمعاصي؛ وفساداً حسياً كتخريب الديار، وقتل الأنفس.

قوله تعالى: **﴿أولئك هم الخاسرون﴾**: جملة اسمية مؤكَّدة بضمير الفصل: **﴿هم﴾**؛ لأن ضمير الفصل له ثلاث فوائد؛ **الفائدة الأولى**: التوكيد؛ **والفائدة الثانية**: الحصر؛ **والفائدة الثالثة**: إزالة اللبس بين الصفة، والخبر؛ **مثال ذلك**: تقول: «زيد الفاضل»: كلمة «الفاضل» يحتمل أن تكون خبراً؛ ويحتمل أن تكون وصفاً، فتقول: «زيد الفاضل محبوب»؛ إذا قلت: «زيد الفاضل محبوب» تعين أن تكون صفة؛ وإذا قلت: «زيد الفاضل» يحتمل أن تكون صفة، والخبر لم يأت بعد؛ ويحتمل أن تكون خبراً؛ فإذا قلت: «زيد هو الفاضل» تعين أن تكون خبراً لوجود ضمير الفصل؛ ولهذا سُمي ضمير فصل ـ لفصله بين الوصف والخبر؛ **الفائدة الثانية**: **التوكيد**؛ إذا قلت: «زيد هو الفاضل» كان أبلغ من قولك: «زيد الفاضل»؛ **والفائدة الثالثة**: **الحصر**؛ فإنك إذا قلت: «زيد هو

الفاضل» فقد حصرت هذا الوصف فيه دون غيره؛ وضمير الفصل ليس له محل من الإعراب، كما في قوله تعالى: ﴿**لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين**﴾ [الشعراء: ٤٠]؛ ولو كان له محل من الإعراب لكانت: «هم الغالبون»؛ وربما يضاف إليه اللام، كما في قوله تعالى: ﴿**إن هذا لهو القصص الحق**﴾ [آل عمران: ٦٢]؛ فيكون في إضافة اللام إليه زيادة توكيد.

وقوله تعالى: ﴿**الخاسرون**﴾؛ «**الخاسر**» هو الذي فاته الربح؛ وذلك؛ لأن هؤلاء فاتهم الربح الذي ربحه من لم ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، ولم يقطع ما أمر الله به أن يوصل.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن نقض عهد الله من الفسق؛ لقوله تعالى: ﴿**الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه**﴾؛ فكلما رأيت شخصاً قد فرط في واجب، أو فعل محرماً فإن هذا نقض للعهد من بعد الميثاق.

٢ ـ **ومنها**: التحذير من نقض عهد الله من بعد ميثاقه؛ لأن ذلك يكون سبباً للفسق.

٣ ـ **ومنها**: التحذير من قطع ما أمر الله به أن يوصل من الأرحام ـ أي الأقارب ـ وغيرهم؛ لأن الله ذكر ذلك في مقام الذم؛ وقطع الأرحام من كبائر الذنوب؛ لقول النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنة قاطع**»[1]، يعني قاطع رحم.

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٠٧، كتاب الأدب، باب ١١: إثم القاطع، حديث رقم ٥٩٨٤؛ وأخرجه مسلم ص١١٢٦، كتاب البر والصلة، باب ٦: صلة الرحم وتحريم قطيعتها، حديث رقم ٦٥٢٠ [١٨] ٢٥٥٦.

٤ ـ **ومنها**: أن المعاصي والفسوق سبب للفساد في الأرض، كما قال تعالى: ﴿**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون**﴾ [الروم: ٤١]؛ ولهذا إذا قحط المطر، وأجدبت الأرض، ورجع الناس إلى ربهم، وأقاموا صلاة الاستسقاء، وتضرعوا إليه سبحانه وتعالى، وتابوا إليه، أغاثهم الله عزّ وجلّ؛ وقد قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿**فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لهم أنهاراً**﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

فإن قال قائل: أليس يوجد في الأرض من هم صلحاء قائمون بأمر الله مؤدون لحقوق عباد الله ومع ذلك نجد الفساد في الأرض؟

فالجواب: أن هذا الإيراد أوردته أم المؤمنين زينب رضي الله عنها على النبي ﷺ، حيث قال: «**ويل للعرب من شر قد اقترب**»؛ قالت: أنهلك وفينا الصالحون؟! قال ﷺ: «**نعم، إذا كثر الخبث**»[1]؛ وقوله ﷺ: «**إذا كثر الخبث**» يشمل معنيين:

أحدهما: أن يكثر الخبث في العاملين بحيث يكون عامة الناس على هذا الوصف.

والثاني: أن يكثر فعل الخبث بأنواعه من فئة قليلة، لكن لا

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٧١، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٧: قصة يأجوج ومأجوج، حديث رقم ٣٣٤٦؛ وأخرجه مسلم ص١١٧٦ ـ ١١٧٧، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ١: اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، حديث رقم ٧٢٣٥ [١] ٢٨٨٠.

تقوم الفئة الصالحة بإنكاره؛ فمثلاً إذا كثر الكفار في أرض كان ذلك سبباً للشر، والبلاء؛ لأن الكفار نجس؛ فكثرتهم كثرة خبث؛ وإذا كثرت أفعال المعاصي كان ذلك سبباً أيضاً للشر، والبلاء؛ لأن المعاصي خبث.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن هؤلاء الذين اعترضوا على الله فيما ضربٌ من الأمثال، ونقضوا عهده، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض هم الخاسرون ـ وإن ظنوا أنهم يحسنون صنعاً.

القرآن

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٨﴾ قوله تعالى: ﴿**كيف تكفرون بالله...**﴾: الاستفهام هنا للإنكار، والتعجيب؛ والكفر بالله هو الإنكار، والتكذيب مأخوذ من: كَفَر الشيء: إذا ستره؛ ومنه الكُفُرّى: لغلاف طلع النخل؛ والمعنى: كيف تجحدونه، وتكذبون به، وتستكبرون عن عبادته، وتنكرون البعث مع أنكم تعلمون نشأتكم؟!.

قوله تعالى: ﴿**وكنتم أمواتاً**﴾: وذلك: قبل نفخ الروح في الإنسان هو ميت؛ جماد؛ ﴿**فأحياكم**﴾ أي بنفخ الروح؛ ﴿**ثم يميتكم**﴾ ثانية؛ وذلك بعد أن يخرج إلى الدنيا؛ ﴿**ثم يحييكم**﴾ الحياة الآخرة التي لا موت بعدها؛ ﴿**ثم إليه ترجعون**﴾: بعد الإحياء الثاني ترجعون إلى الله، فينبئكم بأعمالكم، ويجازيكم عليها.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: شدة الإنكار حتى يصل إلى حد التعجب ممن يكفر وهو يعلم حاله، ومآله.

٢ ـ **ومنها**: أن الموت يطلق على ما لا روح فيه ـ وإن لم تسبقه حياة ـ؛ يعني: لا يشترط للوصف بالموت تقدم الحياة؛ لقوله تعالى: ﴿**كنتم أمواتاً فأحياكم**﴾؛ أما ظن بعض الناس أنه لا يقال: «ميت» إلا لمن سبقت حياته؛ فهذا ليس بصحيح؛ بل إن الله تعالى أطلق وصف الموت على الجمادات؛ قال تعالى في الأصنام: ﴿**أموات غير أحياء**﴾ [النحل: ٢١].

٣ ـ **ومنها**: أن الجنين لو خرج قبل أن تنفخ فيه الروح فإنه لا يثبت له حكم الحي؛ ولهذا لا يُغَسَّل، ولا يكفن، ولا يصلي عليه، ولا يرث، ولا يورث؛ لأنه ميت جماد لا يستحق شيئاً مما يستحقه الأحياء؛ وإنما يدفن في أيّ مكان في المقبرة، أو غيرها.

٤ ـ **ومنها**: تمام قدرة الله عزّ وجلّ؛ فإن هذا الجسد الميت ينفخ الله فيه الروح، فيحيى، ويكون إنساناً يتحرك، ويتكلم، ويقوم، ويقعد، ويفعل ما أراد الله عزّ وجلّ.

٥ ـ **ومنها**: إثبات البعث؛ لقوله تعالى: ﴿**ثم يحييكم ثم إليه ترجعون**﴾؛ والبعث أنكره من أنكره من الناس، واستبعده، وقال: ﴿**من يحيي العظام وهي رميم**﴾ [يس: ٧٨]؛ فأقام الله ـ تبارك وتعالى ـ على إمكان ذلك ثمانية أدلة في آخر سورة «يس»:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿**قل يحييها الذي أنشأها أول مرة**﴾ [يس: ٧٩]: هذا دليل على أنه يمكن أن يحيي العظام وهي رميم؛ وقوله تعالى: ﴿**أنشأها أول مرة**﴾ دليل قاطع، وبرهان جليّ

على إمكان إعادته كما قال الله تعالى: ﴿**وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه**﴾ [الروم: ٢٧].

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿**وهو بكل خلق عليم**﴾ [يس: ٧٩] يعني: كيف يعجز عن إعادتها وهو سبحانه وتعالى بكل خلق عليم: يعلم كيف يخلق الأشياء، وكيف يكونها؛ فلا يعجز عن إعادة الخلق.

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿**الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون**﴾ [يس: ٨٠]: الشجر الأخضر فيه البرودة، وفيه الرطوبة؛ والنار فيها الحرارة، واليبوسة؛ هذه النار الحارة اليابسة تخرج من شجر بارد رطب؛ وكان الناس فيما سبق يضربون أغصاناً من أشجار معينة بالزند؛ فإذا ضربوها انقدحت النار، ويكون عندهم شيء قابل للاشتعال بسرعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**فإذا أنتم منه توقدون**﴾ [يس: ٨٠] تحقيقاً لذلك.

ووجه الدلالة: أن القادر على إخراج النار الحارة اليابسة من الشجر الأخضر مع ما بينهما من تضاد قادر على إحياء العظام وهي رميم.

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿**أو ليس الذي خلق السمٰوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى**﴾ [يس: ٨١].

ووجه الدلالة: أن خلْق السمٰوات والأرض أكبر من خلق الناس؛ والقادر على الأكبر قادر على ما دونه.

الدليل الخامس: قوله تعالى: ﴿**وهو الخلَّاق العليم**﴾ [يس: ٨١]؛ فـ﴿**الخلاق**﴾ صفته، ووصفه الدائم؛ وإذا كان خلَّاقاً، ووصفه الدائم هو الخلق فلن يعجز عن إحياء العظام وهي رميم.

الدليل السادس: قوله تعالى: ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**﴾ [يس: ٨٢]: إذا أراد شيئاً مهما كان؛ و﴿**شيئاً**﴾: نكرة في سياق الشرط، فتكون للعموم؛ ﴿**أمره**﴾ أي شأنه في ذلك أن يقول له كن فيكون؛ أو ﴿**أمره**﴾ الذي هو واحد «أوامر»؛ ويكون المعنى: إنما أمره أن يقول: «كن»، فيعيده مرة أخرى.

ووجه الدلالة: أن الله سبحانه وتعالى لا يستعصي عليه شيء أراده.

الدليل السابع: قوله تعالى: ﴿**فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء**﴾: كل شيء فهو مملوك لله عزّ وجلّ: الموجود يعدمه؛ والمعدوم يوجده؛ لأنه رب كل شيء.

ووجه الدلالة: أن الله سبحانه وتعالى نزه نفسه؛ وهذا يشمل تنزيهه عن العجز عن إحياء العظام وهي رميم.

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿**وإليه ترجعون**﴾.

ووجه الدلالة: أنه ليس من الحكمة أن يخلق الله هذه الخليقة، ويأمرها، وينهاها، ويرسل إليها الرسل، ويحصل ما يحصل من القتال بين المؤمن، والكافر، ثم يكون الأمر هكذا يذهب سدًى؛ بل لابد من الرجوع؛ وهذا دليل عقلي.

فهذه ثمانية أدلة على قدرة الله على إحياء العظام وهي رميم جمعها الله عزّ وجلّ في موضع واحد؛ وهناك أدلة أخرى في مواضع كثيرة في القرآن؛ وكذلك في السنة.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الخلق مآلهم، ورجوعهم إلى الله عزّ وجلّ.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

التفسير:

لما ذكر جلّ وعلا أنه قادر على الإحياء والإماتة، بيَّن منَّته على العباد بأنه خلق لهم ما في الأرض جميعاً.

﴿٢٩﴾ قوله تعالى: **﴿هو الذي خلق لكم﴾** أي أوجد عن علم وتقدير على ما اقتضته حكمته جلّ وعلا، وعلمه؛ و**﴿لكم﴾**: اللام هنا لها معنيان؛ المعنى الأول: الإباحة، كما تقول: «أبحت لك»؛ والمعنى الثاني: التعليل: أي خلق لأجلكم.

قوله تعالى: **﴿ما في الأرض جميعاً﴾**؛ **﴿ما﴾** اسم موصول تعُمّ: كل ما في الأرض فهو مخلوق لنا من الأشجار، والزروع، والأنهار، والجبال... كل شيء.

قوله تعالى: **﴿ثم﴾** أي بعد أن خلق لنا ما في الأرض جميعاً **﴿استوى إلى السماء﴾** أي علا إلى السماء؛ هذا ما فسرها به ابن جرير ـ رحمه الله؛ وقيل: أي قصد إليها؛ وهذا ما اختاره ابن كثير ـ رحمه الله؛ فللعلماء في تفسير **﴿استوى إلى﴾** قولان: **الأول**: أن الاستواء هنا بمعنى القصد؛ وإذا كان القصد تاماً قيل: استوى؛ لأن الاستواء كله يدل على الكمال، كما قال تعالى: **﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾** [القصص: ١٤] أي كمل؛ فمن نظر إلى أن هذا الفعل عُدّي بـ **﴿إلى﴾** قال: إن **﴿استوى﴾** هنا ضُمِّن معنى قصد؛ ومن نظر إلى أن الاستواء لا يكون إلا في علوّ جعل **﴿إلى﴾** بمعنى «على»؛ لكن هذا ضعيف؛ لأن الله تعالى لم يستوِ

على السماء أبداً؛ وإنما استوى على العرش؛ فالصواب ما ذهب إليه ابن كثير رحمه الله وهو أن الاستواء هنا بمعنى القصد التام، والإرادة الجازمة؛ و﴿السماء﴾ أي العلوّ؛ وكانت السماء دخاناً ـ أي مثل الدخان؛ ﴿فسواهن سبع سموات﴾ أي جعلها سوية طباقاً غير متناثرة قوية متينة.

قوله تعالى: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾؛ ومن علمه عزّ وجلّ أنه علم كيف يخلق هذه السماء.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: منّة الله تعالى على عباده بأن خلق لهم ما في الأرض جميعاً؛ فكل شيء في الأرض فإنه لنا ـ والحمد لله ـ والعجب أن من الناس من سخر نفسه لما سخره الله له؛ فخدم الدنيا، ولم تخدمه؛ وصار أكبر همه الدنيا: جمع المال، وتحصيل الجاه، وما أشبه ذلك.

٢ ـ **ومنها**: أن الأصل في كل ما في الأرض الحلّ ـ من أشجار، ومياه، وثمار، وحيوان، وغير ذلك؛ وهذه قاعدة عظيمة؛ وبناءً على هذا لو أن إنساناً أكل شيئاً من الأشجار، فقال له بعض الناس: «هذا حرام»؛ فالمحرِّم يطالَب بالدليل؛ ولو أن إنساناً وجد طائراً يطير، فرماه، وأصابه، ومات، وأكله، فقال له الآخر: «هذا حرام»؛ فالمحرِّم يطالب بالدليل؛ ولهذا لا يَحْرم شيء في الأرض إلا ما قام عليه الدليل.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: تأكيد هذا العموم بقوله تعالى: ﴿جميعاً﴾ مع أن ﴿ما﴾ موصولة تفيد العموم؛ لكنه سبحانه وتعالى أكده حتى لا يتوهم واهم بأن شيئاً من أفراد هذا العموم قد خرج

من الأصل.

٤ ـ **ومنها**: إثبات الأفعال لله عزّ وجلّ ـ أي أنه يفعل ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾: و﴿استوى﴾ فعل؛ فهو جلّ وعلا يفعل ما يشاء، ويقوم به من الأفعال ما لا يحصيه إلا الله، كما أنه يقوم به من الأقوال ما لا يحصيه إلا الله.

٥ ـ **ومنها**: أن السموات سبع؛ لقوله تعالى: ﴿سبع سموات﴾.

٦ ـ **ومنها**: كمال خلق السموات؛ لقوله تعالى: ﴿فسواهن﴾.

٧ ـ **ومنها**: إثبات عموم علم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن نشكر الله على هذه النعمة ـ وهي أنه تعالى خلق لنا ما في الأرض جميعاً؛ لأن الله لم يبينها لنا لمجرد الخبر؛ ولكن لنعرف نعمته بذلك، فنشكره عليها.

٩ ـ **ومنها**: أن نخشى، ونخاف؛ لأن الله تعالى بكل شيء عليم؛ فإذا كان الله عليماً بكل شيء ـ حتى ما نخفي في صدورنا ـ أوجب لنا ذلك أن نحترس مما يغضب الله عزّ وجلّ سواء في أفعالنا، أو في أقوالنا، أو في ضمائر قلوبنا.

القرآن

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

التفسير:

﴿٣٠﴾ قوله تعالى: ﴿**وإذ قال ربك**﴾: قال المعربون: ﴿إذ﴾ مفعول لفعل محذوف؛ والتقدير: اذكر إذ قال؛ والخطاب في قوله تعالى: ﴿ربك﴾ للنبي ﷺ؛ ولما كان الخطاب له صارت الربوبية هنا من أقسام الربوبية الخاصة.

قوله تعالى: ﴿**للملائكة**﴾: اللام للتعدية ـ أي تعدية القول للمقول له؛ و«**الملائكة**» جمع «مَلْئَك»، وأصله «مألك»؛ لأنه مشتق من الأَلُوكة ـ وهي الرسالة؛ لكن صار فيها إعلال بالنقل ـ أي نقل حرف مكان حرف آخر؛ مثل أشياء أصلها: «شيئاء»؛ و«**الملائكة**» عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، وجعل لهم وظائف، وأعمالاً مختلفة؛ فمنهم الموكل بالوحي كجبريل؛ وبالقطر، والنبات كميكائيل؛ وبالنفخ في الصور كإسرافيل؛ وبأرواح بني أدم كملَك الموت... إلى غير ذلك من الوظائف، والأعمال.

قوله تعالى: ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾؛ خليفة يخلف الله؛ أو يخلف من سبقه؛ أو يخلف بعضهم بعضاً يتناسلون ـ على أقوال:

أما **الأول**: فيحتمل أن الله أراد من هذه الخليقة ـ آدم، وبنيه ـ أن يجعل منهم الخلفاء يخلفون الله تعالى في عباده بإبلاغ شريعته، والدعوة إليها، والحكم بين عباده؛ لا عن جهل بالله سبحانه وتعالى ـ وحاشاه من ذلك، ولا عن عجز؛ ولكنه يمنّ على من يشاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿**يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس**﴾ [ص: ٢٦]: هو

خليفة يخلف الله عزّ وجلّ في الحكم بين عباده.

والثاني: أنهم يخلفون من سبقهم؛ لأن الأرض كانت معمورة قبل آدم؛ وعلى هذا الاحتمال تكون ﴿**خليفة**﴾ هنا بمعنى الفاعل؛ وعلى الأول بمعنى المفعول.

والثالث: أنه يخلف بعضهم بعضاً؛ بمعنى: أنهم يتناسلون: هذا يموت، وهذا يحيى؛ وعلى هذا التفسير تكون ﴿**خليفة**﴾ صالحة لاسم الفاعل، واسم المفعول.

كل هذا محتمل؛ وكل هذا واقع؛ لكن قول الملائكة: ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾ يرجح أنهم خليفة لمن سبقهم، وأنه كان على الأرض مخلوقات قبل ذلك تسفك الدماء، وتفسد فيها، فسألت الملائكة ربها عزّ وجلّ: ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾ كما فعل من قبلهم ـ واستفهام الملائكة للاستطلاع، والاستعلام، وليس للاعتراض؛ قال تعالى: ﴿**إني أعلم ما لا تعلمون**﴾ يعني: وستتغير الحال؛ ولا تكون كالتي سبقت.

قوله تعالى: ﴿**ونحن نسبح**﴾ أي نُنَزِّه؛ والذي يُنَزَّه الله عنه شيئان؛ **أولاً**: النقص؛ **والثاني**: النقص في كماله؛ وزد **ثالثاً** إن شئت: مماثلة المخلوقين؛ كل هذا يُنَزَّه الله عنه؛ **النقص**: مطلقاً؛ يعني أن كل صفة نقص لا يمكن أن يوصف الله بها أبداً ـ لا وصفاً دائماً، ولا خبراً؛ **والنقص في كماله**: فلا يمكن أن يكون في كماله نقص؛ قدرته: لا يمكن أن يعتريها عجز؛ قوته: لا يمكن أن يعتريها ضعف؛ علمه: لا يمكن أن يعتريه نسيان... وهلم جراً؛ ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿**ولقد خلقنا السموات والأرض**

وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ [ق: ٣٨] أي تعب، وإعياء؛ فهو عزّ وجلّ كامل الصفات لا يمكن أن يعتري كماله نقص؛ **ومماثلة المخلوقين**: هذه إن شئنا أفردناها بالذكر؛ لأن الله تعالى أفردها بالذكر، فقال: **﴿ليس كمثله شيء﴾** [الشورى: ١١]. وقال تعالى: **﴿وله المثل الأعلى﴾**، وقال تعالى: **﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾** [النحل: ٧٤]؛ وإن شئنا جعلناها داخلة في القسم الأول ـ النقص ـ لأن تمثيل الخالق بالمخلوق يعني النقص؛ بل المفاضلة بين الكامل والناقص تجعل الكامل ناقصاً، كما قال القائل:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

لو قلت: فلان عنده سيف أمضى من العصا تبين أن السيف هذا رديء، وليس بشيء؛ فربما نفرد هذا القسم الثالث، وربما ندخله في القسم الأول؛ على كل حال التسبيح ينبغي لنا ـ عندما نقول: «سبحان الله»، أو: «أسبح الله»، أو ما أشبه ذلك ـ أن نستحضر هذه المعاني.

قوله تعالى: و**﴿بحمدك﴾**: قال العلماء: الباء هنا للمصاحبة ـ أي تسبيحاً مصحوباً بالحمد مقروناً به؛ فتكون الجملة متضمنة لتنزيه الله عن النقص، وإثبات الكمال لله بالحمد؛ لأن الحمد: وصف المحمود بالكمال محبة، وتعظيماً؛ فإن وصفتَ مرة أخرى بكمال فسَمِّه ثناءً؛ والدليل على هذا ما جاء في الحديث الصحيح أن الله تعالى قال: **«قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين؛ فإذ قال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال تعالى: حمدني عبدي؛ وإذا قال: ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال تعالى:**

أثنى عليّ عبدي»[١]؛ لأن نفي النقص يكون قبل إثبات الكمال من أجل أن يَرِد الكمال على محل خالٍ من النقص.

قوله تعالى: ﴿**ونقدس**﴾: «**التقديس**» معناه التطهير؛ وهو أمر زائد على «التنْزيه»؛ لأن «التنزيه» تبرئة، وتخلية؛ و«التطهير» أمر زائد؛ ولهذا نقول في دعاء الاستفتاح: «**اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب؛ اللهم نقني من خطاياي كما ينقَّى الثوب الأبيض من الدنس؛ اللهم اغسلني من خطاياي بالماء، والثلج، والبَرد**»[٢]: **فالأول**: طلبُ المباعدة؛ **والثاني**: طلب التنقية ـ يعني: التخلية بعد المباعدة؛ **والثالث**: طلب الغسل بعد التنقية حتى يزول الأثر بالكلية؛ فيجمع الإنسان بين تنْزيه الله عزّ وجلّ عن كل عيب ونقص، وتطهيره ـ أنه لا أثر إطلاقاً لما يمكن أن يعلق بالذهن من نقص.

قوله تعالى: ﴿**لك**﴾ اللام هنا للاختصاص؛ فتفيد الإخلاص؛ وهي أيضاً للاستحقاق؛ لأن الله ـ جلّ وعلا ـ أهل لأن يقدس.

أجابهم الله تعالى: ﴿**قال إني أعلم ما لا تعلمون**﴾ أي من أمر هذه الخليفة التي سيكون منها النبيون، والصدِّيقون، والشهداء، والصالحون.

---

(١) سبق تخريجه ص٧.

(٢) أخرجه البخاري ص٥٩، كتاب الأذان، باب ٨٤: رفع اليدين إذا كبر وإذا ركع وإذا رفع، حديث رقم ٧٤٤؛ وأخرجه مسلم ص٧٧١، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ٢٧: ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة، حديث رقم ١٣٥٤ [١٤٧] ٥٩٨، واللفظ لمسلم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إثبات القول لله عزّ وجلّ، وأنه بحرف، وصوت؛ وهذا مذهب السلف الصالح من الصحابة، والتابعين، وأئمة الهدى من بعدهم؛ **يؤخذ كونه بحرف** من قوله تعالى: ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾؛ لأن هذه حروف؛ **ويؤخذ كونه بصوت** من أنه خاطب الملائكة بما يسمعونه؛ **وإثبات القول لله** على هذا الوجه من كماله سبحانه وتعالى؛ بل هو من أعظم صفات الكمال: أن يكون عزّ وجلّ متكلماً بما شاء كوناً، وشرعاً؛ متى شاء؛ وكيف شاء؛ فكل ما يحدث في الكون فهو كائن بكلمة ﴿كن﴾؛ لقوله تعالى: ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**﴾ [يس: ٨٢]؛ وكل الكون مراد له قدراً؛ وأما قوله الشرعي: فهو وحيه الذي أوحاه إلى رسله، وأنبيائه.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الملائكة ذوو عقول؛ وجهه أن الله تعالى وجه إليهم الخطاب، وأجابوا؛ ولا يمكن أن يوجه الخطاب إلا إلى من يعقله؛ ولا يمكن أن يجيبه إلا من يعقل الكلامَ، والجوابَ عليه؛ وإنما نبَّهْنا على ذلك؛ لأن بعض أهل الزيغ قالوا: إن الملائكة ليسوا عقلاء.

٣ ـ **ومنها**: إثبات الأفعال لله عزّ وجلّ أي أنه تعالى يفعل ما شاء متى شاء كيف شاء؛ ومن أهل البدع من ينكر ذلك زعماً منه أن الأفعال حوادث؛ والحوادث لا تقوم إلا بحادث فلا يجيء، ولا يستوي على العرش، ولا ينْزل، ولا يتكلم، ولا يضحك، ولا يفرح، ولا يعجب؛ وهذه دعوى فاسدة من وجوه:

الأول: أنها في مقابلة نص؛ وما كان في مقابلة نص فهو مردود على صاحبه.

الثاني: أنها دعوى غير مسلَّمة؛ فإن الحوادث قد تقوم بالأول الذي ليس قبله شيء.

الثالث: أن كونه تعالى فعالاً لما يريد من كماله، وتمام صفاته؛ لأن من لا يفعل إما أن يكون غير عالم، ولا مريد؛ وإما أن يكون عاجزاً؛ وكلاهما وصفان ممتنعان عن الله سبحانه وتعالى.

فتَعَجَّبْ كيف أُتي هؤلاء من حيث ظنوا أنه تنزيه لله عن النقص؛ وهو في الحقيقة غاية النقص!!! فاحمد ربك على العافية، واسأله أن يعافي هؤلاء مما ابتلاهم به من سفه في العقول، وتحريف للمنقول.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن بني آدم يخلف بعضهم بعضاً ـ على أحد الأقوال في معنى ﴿خليفة﴾؛ وهذا هو الواقع؛ فتجد من له مائة مع من له سنة واحدة، وما بينهما؛ وهذا من حكمة الله عزّ وجلّ؛ لأن الناس لو من وُلِد بقي لضاقت الأرض بما رحبت، ولما استقامت الأحوال، ولا حصلت الرحمة للصغار، ولا الولاية عليهم إلى غير ذلك من المصالح العظيمة.

٥ ـ **ومنها**: قيام الملائكة بعبادة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**﴾.

٦ ـ **ومنها**: كراهة الملائكة للإفساد في الأرض؛ لقولهم: ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾.

٧ ـ **ومنها**: أن وصف الإنسان نفسه بما فيه من الخير لا

بأس به إذا كان المقصود مجرد الخبر دون الفخر؛ لقولهم: ﴿**ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**﴾؛ ويؤيد ذلك قول النبي ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[1]؛ وأما إذا كان المقصود الفخر، وتزكية النفس بهذا فلا يجوز؛ لقوله تعالى: ﴿**فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى**﴾ [النجم: ٣٢].

٨ ـ **ومنها**: شدة تعظيم الملائكة لله عزّ وجلّ، حيث قالوا: ﴿**ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾.

التفسير:

﴿٣١﴾ قوله تعالى: ﴿**وعلم آدم**﴾: الفاعل هو الله عزّ

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٢، حديث رقم ١١٠٠٠؛ وأخرجه الترمذي ص١٩٧٠، كتاب تفسير القرآن، باب ١٧: ومن سورة بني إسرائيل، حديث رقم ٣١٤٨؛ وأخرجه ابن ماجه ص٢٧٣٩، كتاب الزهد، باب ٣٧: ذكر الشفاعة، حديث رقم ٤٣٠٨؛ ومدار الحديث على عليّ بن زيد بن جدعان، وفيه ضعف، والحديث صحيح بطرقه وشواهده، منها ما أخرجه الدارمي في المقدمة بمعناه ١/ ٣٩، حديث رقم ٤٧؛ وما أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة ٢/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦، وقال الألباني في تخريجه: صحيح الإسناد ٢/ ٣٥٦، وقال في صحيح الترمذي: صحيح ٣/ ٧١، حديث رقم ٢٥١٦ ـ ٣٣٦٩.

وجلّ؛ و﴿آدم﴾ هو أبو البشر؛ و﴿الأسماء﴾ جمع «اسم»؛ و«أل» فيها للعموم بدليل قوله تعالى: ﴿كلها﴾؛ وهل هذه الأسماء أسماء لمسميات حاضرة؛ أو لكل الأسماء؟ للعلماء في ذلك قولان؛ والأظهر أنها أسماء لمسميات حاضرة بدليل قوله تعالى: ﴿ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء﴾؛ وهذه الأسماء ـ والله أعلم ـ ما يحتاج إليها آدم، وبنوه في ذلك الوقت.

قوله تعالى: ﴿ثم عرضهم﴾ أي عرض المسميات؛ بدليل قوله تعالى: ﴿أنبئوني بأسماء هؤلاء﴾، ولأن الميم علامة جمع العاقل؛ فلم تعلم الملائكة أسماء تلك المسميات؛ بل كان جوابهم: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾، ثم قال تعالى: ﴿يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾: وأراد عزّ وجلّ بذلك أن يعرف الملائكة أنهم ليسوا محيطين بكل شيء علماً، وأنهم يفوتهم أشياء يفضلهم آدم فيها.

قوله تعالى: ﴿أنبئوني﴾: هل هو فعل أمر يراد به قيام المأمور بما وُجّه إليه، أو هو تحَدٍّ؟

الجواب: الظاهر الثاني: أنه تحدٍّ؛ بدليل قوله تعالى: ﴿إن كنتم صادقين﴾ أن لديكم علماً بالأشياء فأنبئوني بأسماء هؤلاء؛ لأن الملائكة قالت فيما سبق: ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**﴾ [البقرة: ٣٠]، فقال تعالى: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾، ثم امتحنهم الله بهذا.

﴿٣٢﴾ قوله تعالى: ﴿سبحانك﴾ أي تنزيهاً لك عما لا يليق بجلالك؛ فأنت يا ربنا لم تفعل هذا إلا لحكمة بالغة.

قوله تعالى: ﴿لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾: اعتراف من

الملائكة أنهم ليسوا يعلمون إلا ما علمهم الله، هذا مع أنهم ملائكة مقرَّبون إلى الله عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿إنك أنت العليم الحكيم﴾: هذه الجملة مؤكدة بـ «إن»، وضمير الفصل: ﴿أنت﴾؛ والمعنى: إنك ذو العلم الواسع الشامل المحيط بالماضي والحاضر، والمستقبل؛ و﴿الحكيم﴾ يعني ذا الحكمة، والحكم؛ لأن الحكيم مشتقة من الحكم، والحكمة؛ فهذان اسمان من أسماء الله عزّ وجلّ: ﴿العليم﴾، و﴿الحكيم﴾.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: بيان أن الله تعالى قد يمنّ على بعض عباده بعلم لا يعلمه الآخرون؛ وجهه: أن الله علم آدم أسماء مسميات كانت حاضرة، والملائكة تجهل ذلك.

٢ ـ **ومنها**: أن اللغات توقيفية ـ وليست تجريبية؛ «توقيفية» بمعنى أن الله هو الذي علم الناس إياها؛ ولولا تعليم الله الناسَ إياها ما فهموها؛ وقيل: إنها «تجريبية» بمعنى أن الناس كوَّنوا هذه الحروف والأصوات من التجارب، فصار الإنسان أولاً أبكم لا يدري ماذا يتكلم، لكن يسمع صوت الرعد، يسمع حفيف الأشجار، يسمع صوت الماء وهو يسيح على الأرض، وما أشبه ذلك؛ فاتخذ مما يسمع أصواتاً تدل على مراده؛ ولكن هذا غير صحيح؛ والصواب أن اللغات مبدؤها توقيفي؛ وكثير منها كسبي تجريبي يعرفه الناس من مجريات الأحداث؛ ولذلك تجد أن أشياء تحدث ليس لها أسماء من قبل، ثم يحدث الناس لها أسماء؛ إما من التجارب، أو غير ذلك من الأشياء.

٣ ـ **ومن فوائد الآيتين**: جواز امتحان الإنسان بما يدعي أنه مُجيد فيه.

٤ ـ **ومنها**: جواز التحدي بالعبارات التي يكون فيها شيء من الشدة؛ لقوله تعالى: ﴿**أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن الملائكة تتكلم؛ لقوله تعالى: ﴿**أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم**﴾.

٦ ـ **ومنها**: اعتراف الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بأنهم لا علم لهم إلا ما علمهم الله عزّ وجلّ.

ويتفرع على ذلك أنه ينبغي للإنسان أن يعرف قدر نفسه، فلا يدَّعي علم ما لم يعلم.

٧ ـ **ومنها**: شدة تعظيم الملائكة لله عزّ وجلّ، حيث اعترفوا بكماله، وتنزيهه عن الجهل بقولهم: ﴿**سبحانك**﴾؛ واعترفوا لأنفسهم بأنهم لا علم عندهم؛ واعترفوا لله بالفضل في قولهم: ﴿**إلا ما علمتنا**﴾.

٨ ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما ﴿**العليم**﴾، و﴿**الحكيم**﴾؛ فـ ﴿**العليم**﴾: ذو العلم الواسع المحيط بكل شيء جملة وتفصيلاً لما كان، وما يكون من أفعاله، وأفعال خلقه.

و﴿**الحكيم**﴾: ذو الحكمة البالغة التي تعجز عن إدراكها عقول العقلاء وإن كانت قد تدرك شيئاً منها؛ و«**الحكمة**» هي وضع الشيء في موضعه اللائق به؛ وتكون في شرع الله، وفي قدر الله؛ **أما الحكمة في شرعه** فإن جميع الشرائع مطابقة للحكمة

في زمانها، ومكانها، وأحوال أممها؛ فما أمر الله بشيء، فقال العقل الصريح: «ليته لم يأمر به»؛ وما نهى عن شيء، فقال: «ليته لم ينهَ عنه»؛ **وأما الحكمة في قدره** فما من شيء يقدره الله إلا وهو مشتمل على الحكمة إما عامة؛ وإما خاصة.

واعلم أن الحكمة **تكون في نفس الشيء**: فوقوعه على الوجه الذي حكم الله تعالى به في غاية الحكمة؛ **وتكون في الغاية المقصودة منه**: فأحكام الله الكونية، والشرعية كلها لغايات محمودة قد تكون معلومة لنا، وقد تكون مجهولة؛ والأمثلة على هذا كثيرة واضحة.

ولـ ﴿**الحكيم**﴾ معنًى آخر؛ وهو ذو الحكم، والسلطان التام؛ فلا معقب لحكمه؛ وحكمه تعالى نوعان: شرعي، وقدري؛ **فأما الشرعي** فوحيه الذي جاءت به رسله؛ ومنه قوله تعالى: ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**﴾ [المائدة: ٥٠]، وقوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿**ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم**﴾ [الممتحنة: ١٠]؛ **وأما حكمه القدري** فهو ما قضى به قدراً على عباده من شدة، ورخاء، وحزن، وسرور، وغير ذلك؛ ومنه قوله تعالى عن أحد إخوة يوسف: ﴿**فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين**﴾ [يوسف: ٨٠].

والفرق بين الحكم الشرعي، والكوني: أن **الشرعي** لا يلزم وقوعه ممن حُكِم عليه به؛ ولهذا يكون العصاة من بني آدم، وغيرهم المخالفون لحكم الله الشرعي؛ وأما **الحكم القدري** فلا معارض له، ولا يخرج أحد عنه؛ بل هو نافذ في عباده على كل حال.

القرآن

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾.

التفسير:

﴿٣٣﴾ قوله تعالى: ﴿**قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم**﴾؛ القائل هو الله عزّ وجلّ؛ و﴿**آدم**﴾ هو أبو البشر؛ والظاهر أن هذا اسم له، وليس وصفاً؛ وهو مشتق لغة من الأُدْمة؛ وهي لون بين البياض الخالص والسواد.

قوله تعالى: ﴿**فلما أنبأهم بأسمائهم**﴾ أي أنبأ الملائكة؛ ﴿**قال**﴾ أي قال الله؛ ﴿**ألم أقل لكم**﴾: الاستفهام هنا للتقرير؛ والمعنى: قلت لكم، كقوله تعالى: ﴿**ألم نشرح لك صدرك**﴾ [الشرح: ١]: والمعنى: قد شرحنا لك صدرك؛ ﴿**إني أعلم غيب السموات والأرض**﴾ أي ما غاب فيهما ـ وهو نوعان: نسبي؛ وعام؛ فأما **النسبي** فهو ما غاب عن بعض الخلق دون بعض؛ وأما **العام** فهو ما غاب عن الخلق عموماً.

قوله تعالى: ﴿**وأعلم ما تبدون**﴾ أي ما تظهرون؛ ﴿**وما كنتم تكتمون**﴾ أي تخفون.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إثبات القول لله عزّ وجلّ لقوله تعالى: ﴿**يا آدم**﴾؛ وأنه بحرف، وصوت مسموع؛ لأن آدم سمعه، وفهمه، فأنبأ الملائكة به؛ وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة، والسلف الصالح ـ أن الله يتكلم بكلام مسموع مترتب بعضه سابق لبعض.

٢ ـ **ومنها**: أن آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ امتثل، وأطاع، ولم يتوقف؛ لقوله تعالى: ﴿**فلما أنبأهم**﴾؛ ولهذا طوى ذكر قوله: «فأنبأهم» إشارة إلى أنه بادر، وأنبأ الملائكة.

٣ ـ **ومنها**: جواز تقرير المخاطب بما لا يمكنه دفعه؛ والتقرير لا يكون إلا هكذا ـ أي بأمر لا يمكن دفعه؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿**ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض**﴾.

٤ ـ **ومنها**: بيان عموم علم الله عزّ وجلّ، وأنه يتعلق بالمشاهد، والغائب؛ لقوله تعالى: ﴿**أعلم غيب السموات والأرض**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن السموات ذات عدد؛ لقوله تعالى: ﴿**السموات**﴾؛ و«**الأرض**» جاءت مفردة، والمراد بها الجنس؛ لأن الله تعالى قال: ﴿**الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن**﴾ [الطلاق: ١٢] أي في العدد.

٦ ـ **ومنها**: أن الملائكة لها إرادات تُبدى، وتكتم؛ لقوله تعالى: ﴿**وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون**﴾.

٧ ـ **ومنها**: أن الله تعالى عالم بما في القلوب سواء أُبدي أم أُخفي؛ لقوله تعالى: ﴿**ما تبدون وما كنتم تكتمون**﴾.

فإن قال قائل: ما الدليل على أن الملائكة لها قلوب؟.

فالجواب: قوله تعالى: ﴿**حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير**﴾ [سبأ: ٢٣].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

التفسير:

﴿٣٤﴾ قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا﴾ يعني اذكر إذ قلنا؛ ومثل هذا التعبير يتكرر كثيراً في القرآن، والعلماء يقدرون لفظ: «اذكر»، وهم بحاجة إلى هذا التقدير؛ لأن «إذ» ظرفية؛ والظرف لا بد له من شيء يتعلق به إما مذكوراً؛ وإما محذوفاً؛ وفي نظم الجُمل:

لا بد للجار من التعلق بفعل أو معناه نحو مرتقي

ومثله الظرف؛ وجاء الضمير في ﴿قلنا﴾ بضمير الجمع من باب التعظيم ـ لا التعدد ـ كما هو معلوم.

قوله تعالى: ﴿للملائكة﴾: سبق الكلام على ذكر الملائكة، ومن أين اشتق هذا اللفظ.

قوله تعالى: ﴿اسجدوا لآدم﴾: «**السجود**» هو السجود على الأرض بأن يضع الساجد جبهته على الأرض خضوعاً، وخشوعاً؛ وليس المراد به هنا الركوع؛ لأن الله تعالى فرَّق بين الركوع والسجود، كما في قوله تعالى: ﴿**تراهم ركعاً سجداً**﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا**﴾ [الحج: ٧٧].

قوله تعالى: ﴿فسجدوا﴾ أي من غير تأخير؛ فالفاء هنا للترتيب، والتعقيب؛ ﴿إلا إبليس﴾ هو الشيطان؛ وسمي إبليساً لأنه أَبلَسَ من رحمة الله ـ أي أَيِسَ منها يأساً لا رجاء بعده ـ ﴿أبى﴾ أي امتنع؛ ﴿واستكبر﴾ أي صار ذا كبر؛ ﴿وكان من الكافرين﴾: زعم بعض العلماء أن المراد: كان من الكافرين في علم الله بناءً على أن ﴿كان﴾ فعل ماضٍ؛ والمضي يدل على شيء سابق؛ لكن هناك تخريجاً أحسن من هذا: أن نقول: إن «كان»

تأتي أحياناً مسلوبة الزمان، ويراد بها تحقق اتصاف الموصوف بهذه الصفة؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وكان الله غفوراً رحيماً**﴾ [النساء: ٩٦]، وقوله تعالى: ﴿**وكان الله عزيزاً حكيماً**﴾ [النساء: ١٥٨]، وقوله تعالى: ﴿**وكان الله سميعاً بصيراً**﴾ [النساء: ١٣٤]، وما أشبهها؛ هذه ليس المعنى أنه كان فيما مضى؛ بل لا يزال؛ فتكون ﴿**كان**﴾ هنا مسلوبة الزمان، ويراد بها تحقيق اتصاف الموصوف بما دلت عليه الجملة؛ وهذا هو الأقرب، وليس فيه تأويل؛ ويُجرى الكلام على ظاهره.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: بيان فضل آدم على الملائكة؛ وجهه أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا له تعظيماً له.

٢ ـ **ومنها**: أن السجود لغير الله إذا كان بأمر الله فهو عبادة؛ لأن لله تعالى أن يحكم بما شاء؛ ولذلك لما امتنع إبليس عن هذا كان من الكافرين؛ وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على كفر تارك الصلاة؛ قال: لأنه إذا كان إبليس كفر بترك سجدة واحدة أُمر بها، فكيف عن ترك الصلاة كاملة؟! وهذا الاستدلال إن استقام فهو هو؛ وإن لم يستقم فقد دلت نصوص أخرى من الكتاب، والسنة، وأقوال الصحابة على كفر تارك الصلاة كفراً أكبر مخرجاً عن الملة.

ويدل على أن المحرَّم إذا أمر الله تعالى به كان عبادة قصة إبراهيم عليه السلام، حين أمره الله أن يذبح ابنه إسماعيل فامتثل أمر الله؛ ولكن الله رحمه، ورحم ابنه برفع ذلك عنهما، حيث قال تعالى: ﴿**فلما أسلما وتلَّه للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم ***

قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ [الصافات: ١٠٣ ـ ١٠٥]؛ ومن المعلوم أن قتل الابن من كبائر الذنوب، لكن لما أمر الله عزّ وجلّ به كان امتثاله عبادة.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن إبليس ـ والعياذ بالله ـ جمع صفات الذم كلها: الإباء عن الأمر؛ والاستكبار عن الحق، وعلى الخلق؛ والكفر؛ إبليس استكبر عن الحق؛ لأنه لم يمتثل أمر الله؛ واستكبر على الخلق؛ لأنه قال: **﴿أنا خير منه﴾** [الأعراف: ١٢]؛ فاستكبر في نفسه، وحقر غيره؛ و«الكبر» بطر الحق، وغمط الناس.

تنبيه:

إن قال قائل: في الآية إشكال ـ وهو أن الله تعالى لما ذكر أمر الملائكة بالسجود، وذكر أنهم سجدوا إلا إبليس؛ كان ظاهرها أن إبليس منهم؛ والأمر ليس كذلك؟.

والجواب: أن إبليس كان مشاركاً لهم في أعمالهم ظاهراً، فكان توجيه الأمر شاملاً له بحسب الظاهر؛ وقد يقال: إن الاستثناء منقطع؛ والاستثناء المنقطع لا يكون فيه المستثنى من جنس المستثنى منه.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

التفسير:

﴿٣٥﴾ قوله تعالى: **﴿قلنا﴾** فاعل القول هو الله عزّ وجلّ؛

﴿اسكن أنت وزوجك﴾: «زوج» معطوف على الفاعل في ﴿اسكن﴾؛ لأن ﴿أنت﴾ توكيد للفاعل؛ وليست هي الفاعل؛ لأن ﴿اسكن﴾ فعل أمر؛ وفعل الأمر لا يمكن أن يظهر فيه الفاعل؛ لأنه مستتر وجوباً؛ وعلى هذا فـ ﴿أنت﴾ الضمير المنفصل توكيد للضمير المستتر؛ و﴿زوجك﴾ هي حواء، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري، وغيره.

قوله تعالى: ﴿الجنة﴾ هي البستان الكثير الأشجار، وسمي بذلك لأنه مستتر بأشجاره؛ وهل المراد بـ ﴿الجنة﴾ جنة الخلد؛ أم هي جنة سوى جنة الخلد؟.

الجواب: ظاهر الكتاب، والسنة أنها جنة الخلد، وليست سواها؛ لأن «**أل**» هنا للعهد الذهني.

فإن قيل: كيف يكون القول الصحيح أنها جنة الخلد مع أن من دخلها لا يخرج منها ـ وهذه أُخرج منها آدم؟.

فالجواب: أن من دخل جنة الخلد لا يخرج منها: بعد البعث؛ وفي هذا يقول ابن القيم في الميمية المشهورة:

فحيِّ على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم

قال: «منازلك الأولى»؛ لأن أبانا آدم نزلها.

قوله تعالى: ﴿وكُلا﴾: أمر بمعنى الإباحة، والإكرام؛ ﴿منها﴾ أي من هذه الجنة؛ ﴿رغداً﴾ أي أكلاً هنياً ليس فيه تنغيص؛ ﴿حيث شئتما﴾ أي في أيّ مكان من هذه الجنة، ونقول أيضاً: وفي أيّ زمان؛ لأن قوله تعالى: ﴿كُلا﴾ فعل مطلق لم يقيد بزمن.

قوله تعالى: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ أشار الله تعالى إلى

الشجرة بعينها، و«أل» فيها للعهد الحضوري؛ لأن كل ما جاء بـ «أل» بعد اسم الإشارة فهو للعهد الحضوري؛ إذ إن اسم الإشارة يعني الإشارة إلى شيء قريب؛ وهذه الشجرة غير معلومة النوع، فتبقى على إبهامها.

قوله تعالى: ﴿فتكونا﴾: وقعت جواباً للطلب ـ وهو قوله تعالى: ﴿لا تقربا﴾؛ فالفاء هنا للسببية؛ والفعل بعدها منصوب بـ «أن» مضمرة بعد فاء السببية؛ وقيل: إن الفعل منصوب بنفس الفاء؛ القول الأول للبصريين، والثاني للكوفيين؛ والثاني هو المختار عندنا بناءً على القاعدة أنه متى اختلف علماء النحو في إعراب كلمة أو جملة فإننا: نأخذ بالأسهل ما دام المعنى يحتمله.

قوله تعالى: ﴿من الظالمين﴾ أي من المعتدين لمخالفة الأمر.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إثبات القول لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿وقلنا يا آدم﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن قول الله يكون بصوت مسموع، وحروف مرتبة؛ لقوله تعالى: ﴿يا آدم اسكن...﴾ إلخ؛ ولولا أن آدم يسمعه لم يكن في ذلك فائدة؛ وأيضاً هو مرتب؛ لقوله تعالى: ﴿يا آدم اسكن أنت وزوجك﴾: وهذه حروف مرتبة، كما هو ظاهر؛ وإنما قلنا ذلك لأن بعض أهل البدع يقول: إن كلام الله تعالى هو المعنى القائم بنفسه، وليس بصوت، ولا حروف مرتبة؛ ولهم في ذلك آراء مبتدعة أوصلها بعضهم إلى ثمانية أقوال.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: منّة الله عزّ وجلّ على آدم، وحواء حيث أسكنهما الجنة.

٤ ـ **ومنها**: أن النكاح سنة قديمة منذ خلق الله آدم، وبقيت في بنيه من الرسل، والأنبياء، ومن دونهم، كما قوله تعالى: ﴿**ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية**﴾ [الرعد: ٣٨].

فإن قال قائل: زوجته بنت من؟.

فالجواب: أنها خلقت من ضلعه.

فإن قال: إذاً تكون بنتاً له، فكيف يتزوج ابنته؟.

فالجواب: أن لله تعالى أن يحكم بما شاء؛ فكما أباح أن يتزوج الأخ أخته من بني آدم الأولين؛ فكذلك أباح أن يتزوج آدم من خلقها الله من ضلعه.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الأمر يأتي للإباحة؛ لقوله تعالى: ﴿**وكُلا منها**﴾؛ فإن هذه للإباحة بدليل قوله تعالى: ﴿**حيث شئتما**﴾: خيَّرهما أن يأكلا من أيّ مكان؛ ولا شك أن الأمر يأتي للإباحة؛ ولكن الأصل فيه أنه للطلب حتى يقوم دليل أنه للإباحة.

٦ ـ **ومنها**: أن ظاهر النص أن ثمار الجنة ليس له وقت محدود؛ بل هو موجود في كل وقت؛ لقوله تعالى: ﴿**حيث شئتما**﴾؛ فالتعميم في المكان يقتضي التعميم في الزمان؛ وقد قال الله تعالى في فاكهة الجنة: ﴿**وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة**﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣].

٧ ـ **ومنها**: أن الله تعالى قد يمتحن العبد، فينهاه عن شيء قد تتعلق به نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تقربا هذه الشجرة**﴾؛ ووجه ذلك أنه لولا أن النفس تتعلق بها ما احتيج إلى النهي عن قربانها.

٨ ـ **ومنها**: أنه قد يُنهى عن قربان الشيء والمراد النهي عن فعله؛ للمبالغة في التحذير منه؛ فإن قوله تعالى: ﴿**ولا تقربا هذه الشجرة**﴾: المراد: لا تأكلا منها، لكن لما كان القرب منها قد يؤدي إلى الأكل نُهي عن قربها.

٩ ـ **ومنها**: إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: أن معصية الله تعالى ظلم للنفس، وعدوان عليها؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾.

التفسير:

﴿٣٦﴾ قوله تعالى: ﴿**فازلهما الشيطان**﴾؛ وفي قراءة: ﴿**فأزالهما**﴾؛ والفرق بينهما أن ﴿**أزلهما**﴾ بمعنى أوقعهما في الزلل؛ و﴿**أزالهما**﴾ بمعنى نحَّاهما؛ فعلى القراءة الأولى يكون الشيطان أوقعهما في الزلل، فزالا عنها، وأُخرجا منها؛ وعلى الثانية يكون الشيطان سبباً في تنحيتهما؛ و﴿**الشيطان**﴾ الظاهر أنه الشيطان الذي أبى أن يسجد لآدم: وسوس لهما ليقوما بمعصية الله كما فعل هو حين أبى أن يسجد لآدم.

قوله تعالى: ﴿**عنها**﴾ أي عن الجنة؛ ولهذا قال تعالى:

﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ من النعيم؛ لأنهما كانا في أحسن ما يكون من الأماكن.

قوله تعالى: ﴿وقلنا﴾ أي قال الله لهما؛ ﴿اهبطوا﴾: الضمير للجمع، والمراد آدم، وحواء، وإبليس؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بعضكم لبعض عدو﴾: الشيطان عدو لآدم، وحواء.

قوله تعالى: ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ يعني أنكم سوف تستقرون في الأرض، وسوف تتمتعون بها بما أعطاكم الله من النعم، ولكن لا على وجه الدوام؛ بل إلى حين - وهو قيام الساعة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية**: الحذر من وقوع الزلل الذي يمليه الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾.

٢ - **ومنها**: أن الشيطان يغرّ بني آدم كما غرّ أباهم حين وسوس لآدم، وحواء، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين، وقال: يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى؛ فالشيطان قد يأتي الإنسان، فيوسوس له، فيصغر المعصية في عينه؛ ثم إن كانت كبيرة لم يتمكن من تصغيرها؛ منّاه أن يتوب منها، فيسهل عليه الإقدام؛ ولذلك احذر عدوك أن يغرك.

٣ - **ومنها**: إضافة الفعل إلى المتسبب له؛ لقوله تعالى: ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه﴾؛ وقد ذكر الفقهاء - رحمهم الله - أن المتسبب كالمباشر في الضمان، لكن إذا اجتمع متسبب ومباشر تمكن إحالة الضمان عليه فالضمان على المباشر؛ وإن لم تمكن فالضمان على المتسبب؛ مثال الأول؛ أن

يحفر بئراً، فيأتي شخص، فيدفع فيها إنساناً، فيهلك: فالضمان على الدافع؛ ومثال الثاني: أن يلقي شخصاً بين يدي أسد، فيأكله: فالضمان على الملقي ـ لا على الأسد.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الشيطان عدو للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿**بعضكم لبعض عدو**﴾؛ وقد صرح الله تعالى بذلك في قوله تعالى: ﴿**إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً**﴾ [فاطر: ٦].

٥ ـ **ومنها**: أن قول الله تعالى يكون شرعياً، ويكون قدرياً؛ فقوله تعالى: ﴿**يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها**﴾: هذا شرعي؛ وقوله تعالى: ﴿**وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو**﴾: الظاهر أنه كوني؛ لأنه سبحانه وتعالى يعلم أنه لو عاد الأمر إليهما لما هبطا؛ ويحتمل أن يكون قولاً شرعياً؛ لكن الأقرب عندي أنه قول كوني ـ والله أعلم.

٦ ـ **ومنها**: أن الجنة في مكان عالٍ؛ لقوله تعالى: ﴿**اهبطوا**﴾؛ والهبوط يكون من أعلى إلى أسفل.

٧ ـ **ومنها**: أنه لا يمكن العيش إلا في الأرض لبني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿**ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين**﴾؛ ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿**فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون**﴾ [الأعراف: ٢٥]؛ وبناءً على ذلك نعلم أن محاولة الكفار أن يعيشوا في غير الأرض إما في بعض الكواكب، أو في بعض المراكب محاولة يائسة؛ لأنه لابد أن يكون مستقرهم الأرض.

٨ ـ **ومنها**: أنه لا دوام لبني آدم في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿**ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾.

التفسير:

﴿٣٧﴾ قوله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه﴾ يعني أخذ، وقَبِل، ورضي من الله كلمات حينما ألقى الله إليه هذه الكلمات؛ وهذه الكلمات هي قوله تعالى: **﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾** [الأعراف: ٢٣]؛ فالكلمات اعتراف آدم وحواء بأنهما أذنبا، وظلما أنفسهما، وتضرعهما إلى الله سبحانه وتعالى بأنه إن لم يغفر لهما ويرحمهما لكانا من الخاسرين؛ و﴿من ربه﴾ فيه إضافة الربوبية إلى آدم؛ وهي الربوبية الخاصة.

قوله تعالى: ﴿فتاب عليه﴾: الفاعل هو الله ـ يعني فتاب ربه عليه؛ و«التوبة» هي رفع المؤاخذة، والعفو عن المذنب إذا رجع إلى ربه عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾: هذه الجملة تعليل لقوله تعالى: ﴿فتاب عليه﴾؛ لأن التوبة مقتضى هذين الاسمين العظيمين: ﴿التواب الرحيم﴾؛ و﴿هو﴾ ضمير فصل يفيد هنا الحصر، والتوكيد؛ و﴿التواب﴾ صيغة مبالغة من «تاب»؛ وذلك لكثرة التائبين، وكثرة توبة الله؛ ولذلك سمى الله نفسه «التواب»؛ و﴿الرحيم﴾ أي ذو الرحمة الواسعة الواصلة إلى من شاء من عباده.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: منة الله سبحانه وتعالى على أبينا آدم

حين وفقه لهذه الكلمات التي كانت بها التوبة؛ لقوله تعالى: ﴿**فتلقى آدم من ربه كلمات**﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن منة الله على أبينا هي منة علينا في الحقيقة؛ لأن كل إنسان يشعر بأن الله إذا منَّ على أحد أجداده كان مانّاً عليه.

٣ ـ **ومنها**: أن قول الإنسان: «**ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**» سبب لقبول توبة الله على عبده؛ لأنها اعتراف بالذنب؛ وفي قول الإنسان: «**ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**» أربعة أنواع من التوسل؛ **الأول**: التوسل بالربوبية؛ **الثاني**: التوسل بحال العبد: ﴿**ظلمنا أنفسنا**﴾؛ **الثالث**: تفويض الأمر إلى الله؛ لقوله: ﴿**وإن لم تغفر لنا...**﴾ إلخ؛ **الرابع**: ذكر حال العبد إذا لم تحصل له مغفرة الله ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿**لنكونن من الخاسرين**﴾، وهي تشبه التوسل بحال العبد؛ بل هي توسل بحال العبد؛ وعليه فيكون توسل العبد بحاله توسلاً بحاله قبل الدعاء، وبحاله بعد الدعاء إذا لم يحصل مقصوده.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله تعالى يتكلم بصوت مسموع؛ وجه ذلك أن آدم تلقى منه كلمات؛ وتلقي الكلمات لا يكون إلا بسماع الصوت؛ وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة أن الله يتكلم بكلام بصوت مسموع، وحروف مرتبة.

٥ ـ **ومنها**: منة الله عزّ وجلّ على آدم بقبول التوبة؛ فيكون في ذلك منَّتان؛ **الأولى**: التوفيق للتوبة، حيث تلقَّى الكلمات من الله؛ **والثانية**: قبول التوبة، حيث قال تعالى: ﴿**فتاب عليه**﴾.

واعلم أن لله تعالى على عبده توبتين؛ **التوبة الأولى** قبل توبة العبد؛ وهي التوفيق للتوبة؛ **والتوبة الثانية** بعد توبة العبد؛ وهي قبول التوبة؛ وكلاهما في القرآن؛ قال الله ـ تبارك وتعالى: ﴿**وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا**﴾ [التوبة: ١١٨]: فقوله تعالى: ﴿**ثم تاب عليهم**﴾ أي وفقهم للتوبة، وقوله تعالى: ﴿**ليتوبوا**﴾ أي يقوموا بالتوبة إلى الله؛ وأما توبة القبول ففي قوله تعالى: ﴿**وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات**﴾ [الشورى: ٢٥].

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الإنسان إذا صدق في تفويض الأمر إلى الله، ورجوعه إلى طاعة الله فإن الله تعالى يتوب عليه؛ وهذا له شواهد كثيرة أن الله أكرم من عبده؛ من تقرب إليه ذراعاً تقرب الله إليه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه الله هرولة؛ فكرم الله عزّ وجلّ أعلى، وأبلغ من كرم الإنسان.

٧ ـ **ومنها**: إثبات هذين الاسمين الكريمين: ﴿**التواب**﴾، و﴿**الرحيم**﴾؛ وما تضمناه من صفة، وفعل.

٨ ـ **ومنها**: اختصاص الله بالتوبة، والرحمة؛ بدليل ضمير الفصل؛ ولكن المراد اختصاصه بالتوبة التي لا يقدر عليها غيره؛ لأن الإنسان قد يتوب على ابنه، وأخيه، وصاحبه، وما أشبه ذلك؛ لكن التوبة التي لا يقدر عليها إلا الله ـ وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿**ومن يغفر الذنوب إلا الله**﴾ [آل عمران: ١٣٥] ـ هذه خاصة بالله.

كذلك الرحمة المراد بها الرحمة التي لا تكون إلا لله؛ أما رحمة الخلق بعضهم لبعض فهذا ثابت ـ لا يختص بالله عزّ وجلّ؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمن**»(١).

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

التفسير:

﴿٣٨﴾ قوله تعالى: ﴿**قلنا اهبطوا منها جميعاً**﴾: الواو ضمير جمع، وعبر به عن اثنين لأن آدم، وحواء هما أبَوَا بني آدم؛ فوجه الخطاب إليهما بصيغة الجمع باعتبارهما مع الذرية؛ هذا هو الظاهر؛ وأما حمله على أن أقل الجمع اثنين، وأن ضمير الجمع هنا بمعنى ضمير التثنية فبعيد؛ لأن كون أقل الجمع اثنين شاذ في اللغة العربية؛ وأما قوله تعالى: ﴿**إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما**﴾ [التحريم: ٤] فإن الأفصح في المتعدد إذا أضيف إلى متعدد أن يكون بلفظ الجمع ـ وإن كان المراد به اثنين؛ و﴿**جميعاً**﴾

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٦٠، حديث رقم ٦٤٩٤؛ وأخرجه أبو داود ص١٥٨٥، كتاب الأدب، باب ٥٨: في الرحمة، حديث ٤٩٤١؛ وأخرجه الترمذي ص١٨٤٦، كتاب البر والصلة، باب ١٦: ما جاء في رحمة الناس، حديث رقم ١٩٢٤، وفي الحديث: أبو قابوس لم يوثقه غير ابن حبان، قال الألباني: حديث صحيح بالشواهد والمتابعات [السلسلة الصحيحة ٢/ ٦٣٠ ـ ٦٣١، حديث رقم ٩٢٥].

منصوبة على الحال من الواو في قوله تعالى: ﴿اهبطوا﴾.

قوله تعالى: ﴿فإما﴾ أصلها: «فإنْ ما»: أدغمت النون في «ما»؛ و«إن» شرطية، و«ما» زائدة للتوكيد؛ و﴿يأتينكم﴾ فعل مضارع مؤكد بنون التوكيد؛ ولذلك لم يكن مجزوماً؛ بل كان مبنياً على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد لفظاً، وتقديراً.

قوله تعالى: ﴿مني هدًى﴾ أي علماً: وذلك بالوحي الذي يوحيه الله تعالى إلى أنبيائه، ورسله.

قوله تعالى: ﴿فمن تبع﴾: الفاء هنا رابطة لجواب الشرط؛ لأن الجملة بعد الفاء هي جواب الشرط؛ والجملة هنا اسمية؛ و«مَنْ» شرطية؛ و«تبع» فعل الشرط؛ والفاء في قوله تعالى: ﴿فلا خوف﴾ رابطة للجواب أيضاً، و«لا» نافية، و«خوف» مبتدأ؛ وجملة: ﴿فمن تبع هداي فلا خوف﴾ جواب «إنْ» في قوله تعالى: ﴿فإما يأتينكم﴾؛ وجملة: ﴿فلا خوف﴾ جواب ﴿فمن تبع﴾.

وقوله تعالى: ﴿فمن تبع هداي﴾ أي أخذ به تصديقاً بأخباره، وامتثالاً لأحكامه؛ وأضافه الله لنفسه لأنه الذي شرعه لعباده، ولأنه موصل إليه.

قوله تعالى: ﴿فلا خوف عليهم﴾ أي فيما يستقبل؛ لأنهم آمنون؛ ﴿ولا هم يحزنون﴾ أي على ما مضى؛ لأنهم قد اغتنموه، وقاموا فيه بالعمل الصالح؛ بل هم مطمئنون غاية الطمأنينة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية** أن الجنة التي أُسكنها آدم أولاً كانت عالية؛ لقوله تعالى: ﴿اهبطوا﴾؛ والهبوط لا يكون إلا من أعلى.

٢ ـ **ومنها**: إثبات كلام الله؛ لقوله تعالى: ﴿قلنا﴾.

٣ ـ **منها**: أنه بصوت مسموع، وحروف مرتبة؛ لقوله تعالى: ﴿**اهبطوا منها جميعاً**﴾؛ فلولا أنهم سمعوا ذلك ما صح توجيه الأمر إليهم.

٤ ـ **ومنها**: أن التوكيد في الأسلوب العربي فصيح، ومن البلاغة؛ لقوله تعالى: ﴿**جميعاً**﴾؛ وهو توكيد معنوي: لأنه حال من حيث الإعراب؛ لأن الشيء إذا كان هاماً فينبغي أن يؤكد؛ فتقول للرجل إذا أردت أن تحثه على الشيء: «يا فلان عجل عجل عجل» ثلاث مرات؛ والمقصود التوكيد، والحث.

٥ ـ **ومنها**: أن الهدى من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿**فإما يأتينكم مني هدًى**﴾.

فإن قال قائل: «**إنْ**» في قوله تعالى: ﴿**فإما**﴾ لا تدل على الوقوع؛ لأنها ليست كـ «**إذا**»؟ قلنا: نعم، هي لا تدل على الوقوع، لكنها لا تنافيه؛ والواقع يدل على الوقوع ـ أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير؛ وممكن أن نقول: في هذه الصيغة ـ ﴿**فإما يأتينكم**﴾ ـ ما يدل على الوقوع؛ وهو توكيد الفعل.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنك لا تسأل الهدى إلا من الله عزّ وجلّ؛ لأنه هو الذي يأتي به.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن من اتبع هدى الله فإنه آمن من بين يديه، ومن خلفه؛ لقوله تعالى: ﴿**فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾.

٧ ـ **ومنها**: أنه لا يتعبد لله إلا بما شرع؛ لقوله تعالى: ﴿**فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن من تعبد لله بغير ما شرع فهو على غير هدى؛ فيكون ضالاً كما شهدت بذلك السنة؛ فقد كان النبي ﷺ

في خطبة الجمعة يقول: «**وشر الأمور محدثاتها؛ وكل محدثة بدعة؛ وكل بدعة ضلالة**»[(١)].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾.

التفسير:

﴿٣٩﴾ قوله تعالى: ﴿**الذين كفروا**﴾ مبتدأ؛ وجملة: ﴿**أولئك أصحاب النار**﴾ خبر المبتدأ؛ وجملة: ﴿**هم فيها خالدون**﴾ في موضع نصب على الحال ـ يعني حال كونهم خالدين ـ ويجوز أن تكون استئنافية لبيان مآلهم.

قوله تعالى: ﴿**الذين كفروا**﴾ أي بالأمر؛ ﴿**وكذبوا**﴾ أي بالخبر؛ فعندهم جحود، واستكبار؛ وهذان هما الأساسان للكفر؛ لأن الكفر يدور على شيئين: إما استكبار؛ وإما جحود؛ فكفر إبليس: كفر استكبار؛ لأنه مقر بالله، لكنه استكبر؛ وكفر فرعون، وقومه: كفر جحود؛ لقوله تعالى: ﴿**وجحدوا بها**﴾: فهم في ألسنتهم مكذبون، لكنهم في نفوسهم مصدقون؛ لقوله تعالى: ﴿**واستيقنتها أنفسهم**﴾ [النمل: ١٤].

---

(١) أخرجه النسائي ص٢١٩٣، كتاب صلاة العيدين، باب ٢٢: كيف الخطبة، حديث رقم ١٥٧٩، بزيادة: «وكل ضلالة في النار»، وقال الألباني في صحيح النسائي: صحيح [١/ ٥١٢، حديث رقم ١٥٧٧]، وأصله في مسلم ص٨١٣، كتاب الجمعة، باب ١٣: تخفيف الصلاة والخطبة، رقم الحديث ٢٠٠٥ [٤٣] ٨٦٧، بدون: «وكل محدثة بدعة» ولا «وكل ضلالة في النار».

فقوله تعالى: ﴿**والذين كفروا**﴾ أي كفروا بالله، فاستكبروا عن طاعته، ولم ينقادوا لها؛ ﴿**وكذبوا بآياتنا**﴾أي بالآيات الشرعية؛ وإن انضاف إلى ذلك الآيات الكونية زاد الأمر شدة؛ لكن المهم الآيات الشرعية؛ لأن من المكذبين الكافرين من آمنوا بالآيات الكونية دون الشرعية؛ فمثلاً كفار قريش مؤمنون بالآيات الكونية مقرون بأن الله خالق السموات، والأرض، وأنه المحيي، وأنه المميت، وأنه المدبر لجميع الأمور؛ لكنهم كافرون بالآيات الشرعية.

قوله تعالى: ﴿**أولئك**﴾ أي المذكورون؛ وأشار إليهم بإشارة البعيد لانحطاط رتبتهم لا ترفيعاً لهم، وتعلية لهم؛ ﴿**أصحاب النار**﴾ أي الملازمون لها؛ ولهذا لا تأتي «**أصحاب النار**» إلا في الكفار؛ لا تأتي في المؤمنين أبداً؛ لأن المراد الذين هم مصاحبون لها؛ والمصاحب لابد أن يلازم من صاحبه؛ ﴿**هم فيها خالدون**﴾ أي ماكثون؛ والمراد بذلك المكث، الدائم الأبدي؛ ودليل ذلك ثلاث آيات في كتاب الله؛ آية في النساء، وآية في الأحزاب، وآية في الجن؛ أما آية النساء فقوله تعالى: ﴿**إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً**﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]؛ وأما آية الأحزاب فقوله تعالى: ﴿**إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً * خالدين فيها أبداً**﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]؛ وأما آية الجن فقوله تعالى: ﴿**ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً**﴾ [الجن: ٢٣].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الذين جمعوا بين هذين الوصفين

ـ الكفر، والتكذيب ـ هم أصحاب النار مخلدون فيها أبداً ـ كما سبق؛ فإن اتصفوا بأحدهما فقد دل الدليل على أن المكذب خالد في النار؛ وأما الكافر فمن كان كفره مخرجاً عن الملة فهو خالد في النار؛ ومن كان كفره لا يخرج من الملة فإنه غير مخلد في النار.

٢ ـ **ومنها**: أن الله تعالى قد بين الحق بالآيات التي تقطع الحجة، وتبين المحجة.

٣ ـ **ومنها**: انحطاط رتبة من اتصفوا بهذين الوصفين ـ الكفر، والتكذيب.

٤ ـ **ومنها**: إثبات النار؛ وقد ثبت بالدليل القطعي أنها موجودة الآن، كما في قوله تعالى: ﴿**واتقوا النار التي أعدت للكافرين**﴾ [آل عمران: ١٣١].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠﴾.

التفسير:

﴿٤٠﴾ قوله تعالى: ﴿**يا بني إسرائيل**﴾ أي يا أولاد إسرائيل؛ والأصل في «**بني**» أن تكون للذكور، لكن إذا كانت لقبيلة، أو لأمة شملت الذكور، والإناث، كقوله تعالى: ﴿**يا بني آدم**﴾، وقوله تعالى: ﴿**يا بني إسرائيل**﴾؛ و﴿**إسرائيل**﴾ لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل؛ ومعناه ـ على ما قيل ـ

عبد الله؛ وبنوه هم اليهود، والنصارى، ورسلهم؛ لكن النداء في هذه الآية لليهود والنصارى الموجودين في عهد النبي ﷺ؛ ووجه الله تعالى النداء لبني إسرائيل؛ لأن السورة مدنية؛ وكان من بني إسرائيل ثلاث قبائل من اليهود في المدينة وهم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة؛ سكنوا المدينة ترقباً للنبي ﷺ الذي علموا أنه سيكون مهاجره المدينة ليؤمنوا به، ويتبعوه؛ لكن لما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

قوله تعالى: ﴿**اذكروا نعمتي**﴾ أي اذكروها بقلوبكم، واذكروها بألسنتكم، واذكروها بجوارحكم؛ وذلك؛ لأن الشكر يكون في الأمور الثلاثة: في القلب، واللسان، والجوارح.

وقوله تعالى: ﴿**نعمتي**﴾ مفرد مضاف، فيعم جميع النعم الدينية، والدنيوية؛ وقد أنعم الله تعالى على بني إسرائيل بنعم كثيرة.

قوله تعالى: ﴿**التي أنعمت عليكم**﴾: أشار بهذه الجملة إلى أن هذه النعم فضل محض من الله عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿**وأوفوا بعهدي**﴾ أي ائتوا به وافياً؛ وعهده سبحانه وتعالى أنه عهد إليهم أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويؤمنوا برسله، كما قال تعالى: ﴿**ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً**﴾ [المائدة: ١٢] ـ هذا عهد الله ـ.

قوله تعالى: ﴿**أوفِ بعهدكم**﴾ أي أعطكم ما عهدت به إليكم وافياً ـ وهو الجزاء على أعمالهم ـ المذكور في قوله

تعالى: ﴿**لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ [المائدة: ١٢]؛ فلو وفوا بعهد الله لوفى الله بعهدهم.

وقوله تعالى: ﴿**أُوفِ**﴾ جواب الطلب في قوله تعالى: ﴿**أوفوا بعهدي**﴾؛ ولهذا جاءت مجزومة بحذف حرف العلة.

قوله تعالى: ﴿**وإياي فارهبون**﴾ أي لا ترهبوا إلا إياي؛ و«**الرهبة**» شدة الخوف.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الله تعالى يوجه الخطاب للمخاطب إما لكونه أوعى من غيره؛ وإما لكونه أولى أن يمتثل؛ وهنا وجّهه لبني إسرائيل؛ لأنهم أولى أن يمتثلوا؛ لأن عندهم من العلم برسالة النبي ﷺ، وأنها حق ما ليس عند غيرهم.

٢ ـ **ومنها**: أن تذكير العبد بنعمة الله عليه أدعى لقبوله الحق، وأقوم للحجة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿**اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم**﴾؛ فهل هذا من وسائل الدعوة إلى الله؛ بمعنى أننا إذا أردنا أن ندعو شخصاً نذكره بالنعم؟

فالجواب: نعم، نذكره بالنعم؛ لأن هذا أدعى لقبول الحق، وأدعى لكونه يحب الله عزّ وجلّ؛ ومحبة الله تحمل العبد على أن يقوم بطاعته.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: عظيم منة الله تعالى في إنعامه على هؤلاء؛ لقوله تعالى: ﴿**التي أنعمت عليكم**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن من وفى لله بعهده وفى الله له؛ لقوله تعالى: ﴿**وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم**﴾؛ بل إن الله أكرم من عبده، حيث

يجزيه الحسنة بعشر أمثالها؛ وفي الحديث القدسي: «**إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً؛ وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً؛ وَإِذَا أَتَانِي مَشْياً أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»(١).

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن من نكث بعهد الله فإنه يعاقب بحرمانه ما رتب الله تعالى على الوفاء بالعهد؛ وذلك؛ لأن المنطوق في الآية أن من وفى لله وفّى الله له؛ فيكون المفهوم أن من لم يفِ فإنه يعاقب، ولا يعطى ما وُعِد به؛ وهذا مقتضى عدل الله عزّ وجلّ.

٦ ـ **ومنها**: وجوب الوفاء بالنذر؛ لأن الناذر معاهد لله، كما قال تعالى: ﴿**ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين**﴾ [التوبة: ٧٥].

٧ ـ **ومنها**: وجوب إخلاص الرهبة لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**وإياي فارهبون**﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن الرهبة عبادة؛ لأن الله تعالى أمر بها، وأمر بإخلاصها.

فإن قال قائل: هل ينافي التوحيد أن يخاف الإنسان من سبُع، أو من عدو؟

فالجواب: لا ينافي هذا التوحيد؛ ولهذا وقع من الرسل: إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما جاءه الضيوف، ولم يأكلوا

---

(١) أخرجه البخاري بلفظه ص٦٢٩، كتاب التوحيد، باب ٥٠: ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه، حديث رقم ٧٥٣٦؛ وأخرجه مسلم ص١١٤٤، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ١: الحث على ذكر الله تعالى، حديث رقم ٦٨٠٥ [٢] ٢٦٧٥.

أوجس منهم خيفة؛ وموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما ألقى السحرة حبالهم، وعصيهم أوجس في نفسه خيفة؛ ولأن الخوف الطبيعي مما تقتضيه الطبيعة؛ ولو قلنا لإنسان: «إنك إذا خفت من أحد سوى الله خوفاً طبيعياً لكنت مشركاً»، لكان هذا من تكليف ما لا يطاق؛ لأن خوف الإنسان مما يخاف منه خوفٌ طبيعي غريزي لا يمكنه دفعه؛ كل إنسان يخاف مما يُخشى منه الضرر.

فإن قال قائل: لو منعه الخوف من واجب عليه هل يُنهى عنه، أو لا؟

فالجواب: نعم، يُنهى عنه؛ لأن الواجب عليه يستطيع أن يقوم به؛ إلا إذا جاء الشرع بالعفو عنه في هذه الحال فلا حرج عليه في هذا الخوف؛ قال الله تعالى: ﴿**إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين**﴾ [آل عمران: ١٧٥]؛ لكن إذا كان في الشرع رخصة لك أن تخالف ما أمر الله به في هذه الحال فلا بأس؛ ولهذا لو كان إنسان يريد أن يصلي صلاة الفريضة، وحوله جدار قصير، ويخشى إن قام أن يتبين للعدو؛ فله أن يصلي قاعداً؛ وهذا لأن الله تعالى عفا عنه: قال الله تعالى: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾ [التغابن: ١٦]؛ ولو كان العدو أكثر من مثلَي المسلمين فلا يلزمهم أن يصابروهم، ويجوز أن يفروا.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾.

التفسير:

﴿٤١﴾ قوله تعالى: ﴿وآمنوا﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿اذكروا﴾.

﴿بما أنزلت﴾: هو القرآن أنزله الله سبحانه وتعالى على محمد ﷺ؛ ﴿مصدقاً لما معكم﴾ أي مصدقاً لما ذُكر في التوراة، والإنجيل من أوصاف محمد ﷺ، ومن أوصاف القرآن الذي يأتي ﷺ به؛ وكذلك أيضاً هو مصدق لما معهم: شاهد للتوراة، والإنجيل بالصدق؛ فصار تصديق القرآن لما معهم من وجهين؛ **الوجه الأول**: أنه وقع مطابقاً لما أخبرت التوراة، والإنجيل به؛ **والوجه الثاني**: أنه قد شهد لهما بالصدق؛ فالقرآن يدل دلالة واضحة على أن الله أنزل التوراة، وأنزل الإنجيل ـ وهذه شهادة لهما بأنهما صدق ـ؛ وكذلك التوراة، والإنجيل قد ذُكر فيهما من أوصاف القرآن، ومن أوصاف محمد ﷺ حتى صاروا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم؛ فإذا وقع الأمر كما ذُكر فيهما صار ذلك تصديقاً لهما؛ ولهذا لو حدثتك بحديث، فقلت أنت: «صدقتَ»، ثم وقع ما حدثتك به مشهوداً تشاهده بعينك؛ صار الوقوع هذا تصديقاً أيضاً.

قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ يعني لا يليق بكم وأنتم تعلمون أنه حق أن تكونوا أول كافر به؛ ولا يعني ذلك كونوا ثاني كافر؛ والضمير في قوله تعالى: ﴿تكونوا﴾ ضمير جمع، و﴿كافر﴾ مفرد، فكيف يصح أن تخبر بالمفرد عن الجماعة؟

والجواب: قال المفسرون: إن تقدير الكلام: أول فريق كافر به؛ لأن الخطاب لبني إسرائيل عموماً ـ وهم جماعة ـ.

قوله تعالى: ﴿ولا تشتروا﴾ أي لا تأخذوا؛ ﴿بآياتي ثمناً قليلاً﴾ أي الجاه، والرئاسة، وما أشبه ذلك؛ لأن بني إسرائيل إنما كفروا يريدون الدنيا؛ ولو أنهم اتبعوا محمداً ﷺ لكانوا في القمة، ولأوتوا أجرهم مرتين؛ لكن حسداً، وابتغاء بقاء الجاه، والشرف، وأنهم هم أهل كتاب حسدوا النبي ﷺ، فلم يؤمنوا به.

قوله تعالى: ﴿وإياي فاتقون﴾ أي لا تتقوا إلا إياي؛ و«التقوى» اتخاذ وقاية من عذاب الله عزّ وجلّ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ ففي الآية الأولى: ﴿وإياي فارهبون﴾ أمر بالتزام الشريعة، وألا يخالفوها عصياناً؛ وفي هذه الآية: ﴿وإياي فاتقون﴾ أمر بالتزام الشريعة، وألا يخالفوها لا في الأمر، ولا في النهي.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أنه يجب على بني إسرائيل أن يؤمنوا بالقرآن الذي جاء به محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿**وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم**﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن الكافر مخاطب بالإسلام؛ وهذا مجمع عليه، لكن هل يخاطب بفروع الإسلام؟

الجواب: فيه تفصيل؛ إن أردت بالمخاطبة أنه مأمور أن يفعلها فلا؛ لأنه لا بد أن يُسلم أولاً، ثم يفعلها ثانياً؛ ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «**فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله؛ فإن هم أطاعوا لذلك فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري ص١١٨، كتاب الزكاة، باب ٦٣: أخذ الصدقة من =

إذاً هم لا يخاطبون بالفعل ـ يعني لا يقال: افعلوا ـ؛ فلا نقول للكافر: تعال صلِّ؛ بل نأمره أولاً بالإسلام؛ وإن أردت بالمخاطبة أنهم يعاقبون عليها إذا ماتوا على الكفر فهذا صحيح؛ ولهذا يقال للمجرمين: ﴿**ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين**﴾ [المدثر: ٧٢ ـ ٤٧] يعني هذا دأبهم حتى ماتوا؛ ووجه الدلالة من الآية أنه لولا أنهم كانوا مخاطبين بالفروع لكان قولهم: ﴿**لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين**﴾ [المدثر: ٤٣ ـ ٤٤] عبثاً لا فائدة منه، ولا تأثير له.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن من اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً ففيه شبه من اليهود؛ فالذين يقرؤون العلم الشرعي من أجل الدنيا يكون فيهم شبه باليهود؛ لأن اليهود هم الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً؛ وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة**»[1] يعنى ريحها؛ وحينئذ يشكل على كثير من

= الأغنياء...، حديث رقم ١٤٩٦؛ وأخرجه مسلم ص٦٨٤، كتاب الإيمان، باب ٧: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم ١٢١ [٢٩] ١٩.

(١) أخرجه أبو داود ص١٤٩٤، كتاب العلم، باب ١١: في طلب العلم لغير الله، حديث رقم ٣٦٦٤؛ وأخرجه ابن ماجه ص٢٤٩٢، كتاب السنّة، باب ٢٣: الانتفاع بالعلم والعمل به، حديث رقم ٢٥٢؛ وأخرجه أحمد ٢/٣٣٨، حديث رقم ٨٤٣٨؛ وأخرجه الحاكم في مستدركه ١/٨٥، كتاب العلم، وقال: هذا حديث صحيح سنده ثقات رواته على الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، ومدار الحديث على فليح بن سليمان =

الطلبة من يدخل الجامعات لنيل الشهادة: هل يكون ممن اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً؟

والجواب: أن ذلك حسب النية؛ إذا كان الإنسان لا يريد الشهادة إلا أن يتوظف ويعيش، فهذا اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً؛ وأما إذا كان يريد أن يصل إلى المرتبة التي ينالها بالشهادة من أجل أن يتبوأ مكاناً ينفع به المسلمين فهذا لم يشتر بآيات الله ثمناً قليلاً؛ لأن المفاهيم الآن تغيرت، وصار الإنسان يوزن بما معه من بطاقة الشهادة.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن جميع ما في الدنيا قليل، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿**قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً**﴾ [النساء: ٧٧].

٥ ـ **ومنها**: أن شرائع الله من آياته لما تضمنته من العدل، والإصلاح ـ بخلاف ما يسنُّه البشر من الأنظمة والقوانين فإنه ناقص:

أولاً: لنقص علم البشر، وعدم إحاطتهم بما يُصلح الخلق.

ثانياً: لخفاء المصالح عليهم: فقد يظن ما ليس بمصلحة مصلحة؛ وبالعكس.

ثالثاً: أننا لو قدرنا أن هذا الرجل الذي سن النظام، أو القانون من أذكى الناس، وأعلم الناس بأحوال الناس فإن علمه

= الخزاعي، قال الدارقطني: يختلفون فيه وليس به بأس، تهذيب التهذيب ٨/ ٢٧٣، وقال الحاكم فيه: «اتفاق الشيخين عليه يقوي أمره، ت. التهذيب، وقال عبد القادر الأرناؤوط في تخريج جامع الأصول ٤/ ٥٤٤، حاشية رقم ١: «توبع في جامع بيان العلم ١/ ٩٠ فهو به حسن». اهـ.

هذا محدود في زمانه، وفي مكانه؛ أما في زمانه فظاهر؛ لأن الأمور تتغير: قد يكون المصلحة للبشر في هذا الزمن كذا، وكذا؛ وفي زمن آخر خلافه؛ وفي المكان أيضاً قد يكون هذا التشريع الذي سنه البشر مناسباً لأحوال هؤلاء الأمة في مكانهم؛ ولكن في أمة أخرى لا يصلح؛ ولهذا ضل كثير من المسلمين مع الأسف الشديد في أخذ القوانين الغربية، أو الشرقية، وتطبيقها على مجتمع إسلامي؛ لأن الواجب تحكيم الكتاب، والسنة؛ والعجب أن بعض الناس ـ نسأل الله العافية ـ تجدهم قد مشوا على قوانين شرعت من عشرات السنين، أو مئاتها، وأهلها الذين شرعوها قد عدلوا عنها، فصار هؤلاء كالذين يمشمشون العظام بعد أن ترمى في الزبالة؛ وهذا شيء واضح: هناك قوانين شرعت لقوم كفار، ثم تغيرت الحال، فغيروها، ثم جاء بعض المسلمين إلى هذه القوانين القشور الملفوظة، وصاروا يتمشمشونها.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: وجوب تقوى الله عزّ وجلّ، وإفراده بالتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وإياي فاتقون﴾.

فإن قال قائل: أليس الله يأمرنا أن نتقي أشياء أخرى، كقوله تعالى: ﴿**واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله**﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقوله تعالى: ﴿**واتقوا النار التي أعدت للكافرين**﴾ [آل عمران: ١٣١]، وقوله تعالى: ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة**﴾ [الأنفال: ٢٥]؟

فالجواب: بلى، ولكن اتقاء هذه الأمور من تقوى الله عزّ وجلّ ـ فلا منافاة ـ.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

التفسير:

﴿٤٢﴾ قوله تعالى: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ أي لا تمزجوا بينهما حتى يشتبه الحق بالباطل؛ فهم كانوا يأتون بشبهات تُشَبِّه على الناس؛ فيقولون مثلاً: محمد حق، لكنه رسول الأميين لا جميع الناس.

قوله تعالى: ﴿وتكتموا الحق﴾: هنا الواو تحتمل أنها عاطفة، وتحتمل أنها واو المعية؛ والمعنى على الأول: لا تلبسوا الحق بالباطل ولا تكتموا الحق؛ فتكون الجملتان منفرداً بعضهما عن بعض؛ ويحتمل أن تكون الواو للمعية، فيكون النهي عن الجمع بينهما؛ والمعنى: ولا تلبسوا الحق بالباطل مع كتمان الحق؛ لكن على هذا التقدير يبقى إشكال: وهو أن قوله تعالى: ﴿لا تلبسوا الحق بالباطل﴾ يقتضي أنهم يذكرون الحق، والباطل؛ فيقال: نعم، هم وإن ذكروا الحق والباطل فقد كتموا الحق في الحقيقة؛ لأنهم لبسوه بالباطل، فيبقى خفياً.

قوله تعالى: ﴿وأنتم تعلمون﴾: الجملة في موضع نصب على الحال ـ أي والحال أنكم تعلمون صنيعكم ـ.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: وجوب بيان الحق، وتمييزه عن الباطل؛ فيقال: هذا حق، وهذا باطل؛ لقوله تعالى: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾؛ ومن لبْس الحق بالباطل: أولئك القوم الذين يوردون الشبهات إما على القرآن، أو على أحكام القرآن، ثم

يزيلون الإشكال ـ مع أن إيراد الشبه إذا لم تكن قريبة لا ينبغي ـ ولو أزيلت هذه الشبهة؛ فإن الشيطان إذا أوقع الشبهة في القلب فقد تستقر فيه ـ وإن ذكِر ما يزيلها ـ.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه ليس هناك إلا حق، وباطل؛ وإذا تأملت القرآن والسنة وجدت الأمر كذلك؛ قال تعالى: ﴿**ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل**﴾ [الحج: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿**وإنا أو إياكم لعلى هدًى أو في ضلال مبين**﴾ [سبأ: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿**فماذا بعد الحق إلا الضلال**﴾ [يونس: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال النبي ﷺ: «**القرآن حجة لك أو عليك**»(١).

فإن قال قائل: أليس هناك مرتبة بين الواجب، والمحرم؛ وبين المكروه، والمندوب ـ وهو المباح ـ؟ قلنا: بلى، لا شك في هذا؛ لكن المباح نفسه لا بد أن يكون وسيلة إلى شيء؛ فإن لم يكن وسيلة إلى شيء صار من قسم الباطل كما جاء في الحديث: «**كل لهو يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا لعبه في رمحه، ومع أهله، وفي فرسه**»(٢)؛ وهذه الأشياء الثلاثة إنما

---

(١) أخرجه مسلم ٧١٨، كتاب الطهارة، باب ١: فضل الوضوء، حديث رقم ٥٣٤ [١] ٢٢٣.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٤٤، ١٤٨؛ وأخرجه أبو داود ص١٤٠٩، كتاب الجهاد، باب ٢٣: في الرمي، حديث رقم ٢٥١٣؛ وأخرجه الترمذي ص١٨٢٠، كتاب فضائل الجهاد، باب ١١: ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، حديث رقم ١٦٣٧؛ وأخرجه النسائي ص٢٣٢٤، كتاب الخيل، باب ٨؛ تأديب الرجل فرسه، حديث رقم ٣٦٠٨؛ وأخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ٩٥، كتاب الجهاد، ومدار إسناد بعضها على =

استثنيت؛ لأنها مصلحة ـ كلها تعود إلى مصلحة ـ.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: تحريم كتمان الحق؛ لقوله تعالى: ﴿**وتكتموا**﴾؛ ولكن هل يقال: إن الكتمان لا يكون إلا بعد طلب؟

الجواب: نعم، لكن الطلب نوعان: طلب بلسان المقال؛ وطلب بلسان الحال؛ فإذا جاءك شخص يقول: ما تقول في كذا، وكذا: فهذا طلب بلسان المقال؛ وإذا رأيت الناس قد انغمسوا في محرم: فبيانه مطلوب بلسان الحال؛ وعلى هذا فيجب على الإنسان أن يبين المنكر، ولا ينتظر حتى يُسأل؛ وإذا سئل ولم يُجب لكونه لا يعلم فلا إثم عليه؛ بل هذا هو الواجب؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم**﴾ [الإسراء: ٢٣] ـ **هذه واحدة**.

ثانياً: إذا رأى من المصلحة ألا يبين فلا بأس أن يكتم كما جاء في حديث علي بن أبي طالب: «**حدثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟!**»[1]؛ وقال ابن مسعود: «**إنك لن تحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة**»[2]؛ فإذا رأيت من المصلحة ألا تبين فلا تبين ولا لوم عليك.

ثالثاً: إذا كان قصد السائل الامتحان، أو قصده تتبع الرخص، أو ضرب أقوال العلماء بعضها ببعض ـ وأنت تعلم

= خالد بن زيد، قال الحافظ في التقريب: مقبول، وصحح الحاكم حديثه في المستدرك (٢/ ٩٥) ووافقه الذهبي، وقال: صحيح، ومدار بعضها على عبد الله بن زيد الأزرق، قال شعيب الأرناؤوط في تحرير التقريب ٢/ ٣٤٤: مجهول لم يرو عنه إلا أبو سلام.

(١) سبق تخريجه ص١٨، حاشية رقم ١.

(٢) سبق تخريجه ص١٨، حاشية رقم ٢.

هذا ـ: فلك أن تمتنع؛ **الامتحان** أن يأتي إليك، وتعرف أن الرجل يعرف المسألة، لكن سألك لأجل أن يمتحنك: هل أنت تعرفها، أو لا؛ أو يريد أن يأخذ منك كلاماً ليشي به إلى أحد، وينقله إلى أحد: فلك أن تمتنع؛ كذلك إذا علمت أن الرجل **يتتبع الرخص**، فيأتي يسألك يقول: سألت فلاناً، وقال: هذا حرام ـ وأنت تعرف أن المسؤول رجل عالم ليس جاهلاً: فحينئذٍ لك أن تمتنع عن إفتائه؛ أما إذا كان المسؤول رجلاً تعرف أنه ليس عنده علم ـ إما من عامة الناس، أو من طلبة العلم الذين لم يبلغوا أن يكونوا من أهل الفتوى: فحينئذ يجب عليك أن تفتيه؛ لأنه لا حرمة لفتوى من أفتاه؛ أما لو قال لك: أنا سألت فلاناً، ولكني كنت أطلبك، ولم أجدك، وللضرورة سألت فلاناً؛ لكن لما جاء الله بك الآن أفتني: فحينئذ يجب عليك أن تفتيه؛ لأن حال هذا الرجل كأنه يقول: أنا لا أطمئن إلا لفتواك؛ **وخلاصة القول أنه لا يجب عليك الإفتاء إلا إذا كان المستفتي مسترشداً؛ لأن كتمان الحق لا يتحقق إلا بعد الطلب بلسان الحال، أو بلسان المقال.**

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

التفسير:

﴿٤٣﴾ قوله تعالى: ﴿**وأقيموا الصلاة**﴾ أي ائتوا بها مستقيمة بشروطها، وأركانها، وواجباتها، ومكملاتها؛ وهذا كما أمر الله تعالى به بني إسرائيل أمر به هذه الأمة؛ و﴿**الصلاة**﴾ هنا تشمل الفريضة، والنافلة.

قوله تعالى: ﴿وآتوا الزكاة﴾ أي أعطوا الزكاة؛ و«آت» التي بمعنى «أعطِ» تنصب مفعولين؛ المفعول الأول هنا الزكاة؛ والمفعول الثاني محذوف؛ والتقدير: أهلَها؛ و﴿الزكاة﴾ هي المال المدفوع امتثالاً لأمر الله إلى أهله من أموال مخصوصة معروفة؛ وسمي بذل المال زكاة؛ لأنه يزكي النفس، ويطهرها، كما قال الله تعالى: **﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾** [التوبة: ١٠٣].

قوله تعالى: ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أي صلوا مع المصلين؛ وإنما قلنا ذلك؛ لأنه لا يُتعبد لله بركوع مجرد.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الصلاة واجبة على الأمم السابقة، وأن فيها ركوعاً كما أن في الصلاة التي في شريعتنا ركوعاً؛ وقد دلّ على ذلك أيضاً قول الله تعالى لمريم: **﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾** [آل عمران: ٤٣]؛ فعلى الأمم السابقة صلاة فيها ركوع، وسجود.

٢ ـ **ومنها**: أن الأمم السابقة عليهم زكاة؛ لأنه لابد من الامتحان بالزكاة؛ فإن من الناس من يكون بخيلاً ـ بذل الدرهم عليه أشد من شيء كثير ـ؛ فيُمتحَن العباد بإيتاء الزكاة، وبذلِ شيء من أموالهم حتى يُعلم بذلك حقيقة إيمانهم؛ ولهذا سميت الزكاة صدقة؛ لأنها تدل على صدق إيمان صاحبها.

٣ ـ **ومنها**: الإجمال في موضع، وتبيينه في موضع آخر؛ لقوله تعالى: ﴿وآتوا الزكاة﴾، ولم يبين مقدار الواجب، ولا من يدفع إليه، ولا الأموال التي فيها الزكاة؛ لكن هذه الأشياء مبينة

في موضع آخر؛ إذ لا يتم الامتثال إلا ببيانها.

٤ ـ **ومنها**: جواز التعبير عن الكل بالبعض إذا كان هذا البعض من مباني الكل التي لا يتم إلا بها؛ لقوله تعالى: ﴿**واركعوا مع الراكعين**﴾.

٥ ـ **ومنها**: وجوب صلاة الجماعة؛ لقوله تعالى: ﴿**واركعوا مع الراكعين**﴾؛ هكذا استدل بها بعض العلماء؛ ولكن في هذا الاستدلال شيء؛ لأنه لا يلزم من المعية المصاحبة في الفعل؛ ولهذا قيل لمريم: ﴿**اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين**﴾: والنساء ليس عليهن جماعة؛ إذاً لا نسلم أن هذه الآية تدل على وجوب صلاة الجماعة؛ ولكن ـ الحمد لله ـ وجوب صلاة الجماعة ثابت بأدلة أخرى ظاهرة من الكتاب، والسنة، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

التفسير:

﴿٤٤﴾ قوله تعالى: ﴿**أتأمرون الناس بالبر...**﴾: الاستفهام هنا للإنكار؛ والمراد إنكار أمر الناس بالبر مع نسيان النفس؛ إذ النفس أولى أن يبدأ بها؛ و«البر» هو الخير؛ قال أهل التفسير: إن الواحد منهم يأمر أقاربه باتباع الرسول ﷺ، ويقول: إنه حق؛ لكن تمنعه رئاسته، وجاهه أن يؤمن به؛ ومن أمثلة ذلك أن

النبي ﷺ عاد غلاماً من اليهود كان مريضاً، فحضر أجله والنبي ﷺ عنده؛ فدعاه النبي ﷺ إلى الرشد، فنظر إلى أبيه كأنه يستشيره، فقال له أبوه: «**أطع أبا القاسم**» ـ وأبوه يهودي ـ، فتشهد الغلام شهادة الحق، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه بي من النار**»[1] أي بدعوتي؛ إذاً هؤلاء اليهود من أحبارهم من يأمر الناس بالبر ـ وهو اتباع الرسول ﷺ ـ ولكنه ينسى نفسه، ولا يؤمن؛ فقال الله تعالى: ﴿**وأنتم تتلون الكتاب**﴾ أي تقرؤون التوراة؛ والجملة هنا حالية ـ أي والحال أنكم تتلون الكتاب ـ؛ فلم تأمروا بالبر إلا عن علم؛ ولكن مع ذلك ﴿**تنسون أنفسكم**﴾ أي تتركونها، فلا تأمرونها بالبر.

قوله تعالى: ﴿**أفلا تعقلون**﴾: الاستفهام هنا للتوبيخ ـ يعني أفلا يكون لكم عقول تدركون بها خطأكم، وضلالكم ـ؟! و«**العقل**» هنا عقل الرشد، وليس عقل الإدراك الذي يناط به التكليف؛ لأن العقل نوعان: عقل هو مناط التكليف ـ وهو إدراك الأشياء، وفهمها ـ؛ وهو الذي يتكلم عليه الفقهاء في العبادات، والمعاملات، وغيرها؛ وعقل الرشد ـ وهو أن يحسن الإنسان التصرف ـ؛ وسمي إحسان التصرف عقلاً؛ لأن الإنسان عَقَل تصرفه فيما ينفعه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: توبيخ هؤلاء الذين يأمرون بالبر، وينسون أنفسهم؛ لأن ذلك منافٍ للعقل؛ وقد ورد الوعيد الشديد على من كان هذا دأبه؛ فقد أخبر النبي ﷺ: «**أنه يؤتى بالرجل**

---

(١) سبق تخريجه ص٧٩.

فيلقى في النار فتندلق أقتابه» ـ و«الأقتاب» هي الأمعاء ـ **«فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان، أليس كنت تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر، فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»**[1]؛ فهو من أشد الناس عذاباً ـ والعياذ بالله ـ.

فإن قال قائل: بناءً على أنه مخالف للعقل، وبناءً على شدة عقوبته أنقول لمن لا يفعل ما أَمَر به، ومن لا يترك ما نهى عنه: «لا تأمر، ولا تنهَ»؟

فالجواب: نقول: لا، بل مُرْ، وافعل ما تأمر به؛ لأنه لو ترك الأمر مع تركه فِعلَه ارتكب جنايتين: **الأولى**: ترك الأمر بالمعروف؛ **والثانية**: عدم قيامه بما أمر به؛ وكذلك لو أنه ارتكب ما ينهى عنه، ولم يَنْهَ عنه فقد ارتكب مفسدتين: **الأولى**: ترك النهي عن المنكر؛ **والثانية**: ارتكابه للمنكر.

ثم نقول: أينا الذي لم يسلم من المنكر! لو قلنا: لا ينهى عن المنكر إلا من لم يأت منكراً لم يَنهَ أحد عن منكر؛ ولو قلنا: لا يأمر أحد بمعروف إلا من أتى المعروف لم يأمر أحد بمعروف؛ ولهذا نقول: مُرْ بالمعروف، وجاهد نفسك على فعله، وانْهَ عن المنكر، وجاهد نفسك على تركه.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: توبيخ العالم المخالف لما يأمر به،

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٦٤، كتاب بدء الخلق، باب ١٠: صفة النار وأنها مخلوقة، حديث رقم ٣٢٦٧؛ وأخرجه مسلم ص١١٩٥، كتاب الزهد والرقائق، باب ٧: من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله، حديث رقم ٧٤٨٣ [٥١] ٢٩٨٩.

أو لما ينهى عنه؛ وأن العالم إذا خالف فهو أسوأ حالاً من الجاهل؛ لقوله تعالى: ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾؛ وهذا أمر فُطر الناس عليه ـ أن العالم إذا خالف صار أشد لوماً من الجاهل ـ؛ حتى العامة تجدهم إذا فعل العالم منكراً قالوا: كيف تفعل هذا وأنت رجل عالم؟! أو إذا ترك واجباً قالوا: كيف تترك هذا وأنت عالم؟!

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: توبيخ بني إسرائيل، وأنهم أمة جهلة حمقى ذوو غيٍّ؛ لقوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن من أمر بمعروف، ولم يفعله؛ أو نهى عن منكر وفعله من هذه الأمة، ففيه شبه باليهود؛ لأن هذا دأبهم ـ والعياذ بالله ـ.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

التفسير:

﴿٤٥﴾ قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ أي استعينوا على أموركم بالصبر، والصلاة؛ و«**الاستعانة**» هي طلب العون؛ و«**الاستعانة بالصبر**» أن يصبر الإنسان على ما أصابه من البلاء، أو حُمِّل إياه من الشريعة؛ و﴿الصلاة﴾ هي العبادة المعروفة؛ وتعم الفرض، والنفل.

قوله تعالى: ﴿وإنها﴾: قيل: إن الضمير يعود على ﴿الصلاة﴾؛ لأنها أقرب مذكور؛ والقاعدة في اللغة العربية أن

الضمير يعود إلى أقرب مذكور ما لم يمنع منه مانع؛ وقيل إن الضمير يعود على الاستعانة المفهومة من قوله تعالى: ﴿**واستعينوا**﴾؛ لأن الفعل ﴿**استعينوا**﴾ يدل على زمن، ومصدر؛ فيجوز أن يعود الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿**اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾ [المائدة: ٨]، أي العدل المفهوم من قوله تعالى: ﴿**اعدلوا**﴾ أقرب للتقوى؛ لكن المعنى الأول أوضح.

قوله تعالى: ﴿**لكبيرة**﴾ أي لشاقة ﴿**إلا على الخاشعين**﴾ أي الذليلين لأمر الله.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إرشاد الله ـ تبارك وتعالى ـ عباده إلى الاستعانة بهذين الأمرين: الصبر، والصلاة.

٢ ـ **ومنها**: جواز الاستعانة بغير الله؛ لكن فيما يثبت أن به العون؛ فمثلاً إذا استعنت إنساناً يحمل معك المتاع إلى البيت كان جائزاً؛ قال النبي ﷺ: «**وتعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة**»[(١)].

أما الاستعانة بما لا عون فيه فهي سفه في العقل، وضلال في الدين، وقد تكون شركاً: كأن يستعين بميت، أو بغائب لا يستطيع أن يعينه لبعده عنه، وعدم تمكنه من الوصول إليه.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: فضيلة الصبر، وأن به العون على مكابدة الأمور؛ قال أهل العلم: والصبر ثلاثة أنواع؛ وأخذوا هذا التقسيم من الاستقراء؛ **الأول**: الصبر على طاعة الله؛ **والثاني**:

---

(١) سبق تخريجه ص١٤.

الصبر عن معصية الله؛ **والثالث: الصبر على أقدار الله**؛ فالصبر على الطاعة هو أشقها، وأفضلها؛ لأن الصبر على الطاعة يتضمن فعلاً وكفاً اختيارياً: فعل الطاعة؛ وكفّ النفس عن التهاون بها، وعدم إقامته؛ فهو إيجادي إيجابي؛ والصبر عن المعصية ليس فيه إلا كف فقط؛ لكنه أحياناً يكون شديداً على النفس؛ ولهذا جعل النبي ﷺ الشاب الذي دعته امرأة ذات منصب، وجمال، فقال: «إني أخاف الله»[1] في رتبة الإمام العادل من حيث إن الله يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ـ وإن كان الإمام العادل أفضل ـ؛ لأن قوة الداعي في الشباب، وكون المرأة ذات منصب وجمال، وانتفاء المانع فيما إذا كان خالياً بها يوجب الوقوع في المحذور؛ لكن قال: «إني أخاف الله»؛ ربما يكون هذا الصبر أشق من كثير من الطاعات؛ لكن نحن لا نتكلم عن العوارض التي تعرض لبعض الناس؛ إنما نتكلم عن الشيء من حيث هو؛ فالصبر على الطاعة أفضل من الصبر عن المعصية؛ والصبر عن المعصية أفضل من الصبر على أقدار الله؛ لأنه لا اختيار للإنسان في دفع أقدار الله؛ لكن مع ذلك قد يجد الإنسان فيه مشقة عظيمة؛ ولكننا نتكلم ليس عن صبر معين في شخص معين؛ قد يكون بعض الناس يفقد حبيبه، أو ابنه، أو زوجته، أو ما أشبه ذلك، ويكون هذا أشق عليه من كثير من الطاعات من حيث الانفعال النفسي؛ والصبر على أقدار الله ليس من المكلف فيه عمل؛ لأن ما وقع

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٦٧ ـ ٥٦٨، كتاب الحدود، باب ١٩: فضل من ترك الفواحش، حديث رقم ٦٨٠٦؛ وأخرجه مسلم ص٨٤٠، كتاب الزكاة، باب ٣٠: فضل إخفاء الصدقة، حديث رقم ٢٣٨٠ [٩١] ١٠٣١.

لابد أن يقع ـ صبرت، أم لم تصبر ـ: هل إذا جزعت، وندمت، واشتد حزنك يرتفع المقدور؟!

الجواب: لا؛ إذاً كما قال بعض السلف: إما أن تصبر صبر الكرام؛ وإما أن تسلو سُلوّ البهائم.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: الحث على الصبر بأن يحبس الإنسان نفسه، ويُحمِّلها المشقة حتى يحصل المطلوب؛ وهذا مجرب ـ أن الإنسان إذا صبر أدرك مناله؛ وإذا ملّ كسل، وفاته خير كثير ـ؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز**»[(١)]؛ وكثير من الناس يرى أن بداءته بهذا العمل مفيدة له، فيبدأ، ثم لا يحصل له مقصوده بسرعة، فيعجز، ويكِلّ، ويترك؛ إذاً ضاع عليه وقته الأول، وربما يكون زمناً كثيراً؛ ولا يأمن أنه إذا عدل عن الأول، ثم شرع في ثانٍ أن يصيبه مثل ما أصابه أولاً، ويتركه؛ ثم تمضي عليه حياته بلا فائدة؛ لكن إذا صبر مع كونه يعرف أنه ليس بينه وبين مراده إلا امتداد الأيام فقط، وليس هناك موجب لقطعه؛ فليصبر: لنفرض أن إنساناً من طلبة العلم همّ أن يحفظ: «بلوغ المرام»، وشرع فيه، واستمر حتى حفظ نصفه؛ لكن لحقه الملل، فعجز، وترك: فالمدة التي مضت خسارة عليه إلا ما يبقى في ذاكرته مما حفظ فقط؛ لكن لو استمر، وأكمل حصل المقصود؛ وعلى هذا فقس.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: فضيلة الصلاة، حيث إنها مما يستعان بها على الأمور، وشؤون الحياة؛ لقوله تعالى: ﴿**والصلاة**﴾؛ **ونحن نعلم علم اليقين أن هذا خبر صدق لا مرية فيه؛ وقد روي**

---

(١) أخرجه مسلم ص١١٤٢، كتاب القدر، باب ٨: الإيمان بالقدر والإذعان له، حديث رقم ٦٧٧٤ [٣٤] ٢٦٦٤.

عن النبي ﷺ **أنه كان إذا حزبه أمر صلى**[١]؛ ويؤيد ذلك اشتغاله لله في العريش يوم بدر بالصلاة، ومناشدة ربه بالنصر[٢].

فإن قال قائل: كيف تكون الصلاة عوناً للإنسان؟

فالجواب: تكون عوناً إذا أتى بها على وجه كامل ـ وهي التي يكون فيها حضور القلب، والقيام بما يجب فيها ـ؛ أما صلاة غالب الناس اليوم فهي صلاة جوارح لا صلاة قلب؛ ولهذا تجد الإنسان من حين أن يكبِّر ينفتح عليه أبواب واسعة عظيمة من الهواجيس التي لا فائدة منها؛ ولذلك من حين أن يسلِّم تنجلي عنه، وتذهب؛ لكن الصلاة الحقيقية التي يشعر الإنسان فيها أنه قائم بين يدي الله، وأنها روضة فيها من كل ثمرات العبادة لا بد أن يَسلوَ بها عن كل همّ؛ لأنه اتصل بالله عزّ وجلّ الذي هو محبوبه، وأحب شيء إليه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**جعلت قرة عيني في الصلاة**»[٣]؛ أما الإنسان

---

(١) أخرجه أحمد ٥/٣٨٨، حديث رقم ٢٣٦٨٨؛ وأخرجه أبو داود ص١٣٢١، كتاب الصلاة، باب ٢٢: وقت قيام النبي ﷺ من الليل، حديث رقم ١٣١٩، ومدار الحديث على محمد بن عبد الله بن أبي قدامة الدؤلي، قال الذهبي: «ما أعلم روى عنه غير عكرمة بن عمار». ميزان الاعتدال (٣/ ٥٩٥) رقم ٧٧٤٧، وأقره الحافظ في تهذيب التهذيب ٩/ ٢٤١، وقال شعيب الأرناؤوط في تحرير التقريب: «مجهول»، تفرد بالرواية عنه عكرمة بن عمار اليمامي ولم يوثقه أحد ٣/ ٢٧٢، وقال الحافظ في الفتح: أخرجه أبو داود بإسناد حسن ٣/ ١٧٢.

(٢) راجع البخاري ص٢٣٤، كتاب الجهاد، باب ٨٩: ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب، حديث رقم ٢٩١٥؛ ومسلماً ص٩٩٠، كتاب الجهاد، باب ١٨: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، حديث رقم ٤٥٨٨ [٥٨] ١٧٦٣؛ والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٦.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ١٢٨، حديث رقم ١٢٣١٨؛ وأخرجه النسائي =

الذي يصلي ليتسلى بها، لكن قلبه مشغول بغيرها فهذا لا تكون الصلاة عوناً له؛ لأنها صلاة ناقصة؛ فيفوت من آثارها بقدر ما نقص فيها، كما قال الله تعالى: **﴿اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾** [العنكبوت: ٤٥]؛ وكثير من الناس يدخل في الصلاة، ويخرج منها لا يجد أن قلبه تغير من حيث الفحشاء والمنكر ـ هو على ما هو عليه ـ؛ لا لانَ قلبه لذكر، ولا تحول إلى محبة العبادة.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه إذا طالت أحزانك فعليك بالصبر، والصلاة.

٧ ـ **ومنها**: أن الأعمال الصالحة شاقة على غير الخاشعين ـ ولا سيما الصلاة ـ.

٨ ـ **ومنها**: أن تحقيق العبادة لله سبحانه وتعالى بالخشوع له مما يسهل العبادة على العبد؛ فكل من كان لله أخشع كان لله أطوع؛ لأن الخشوع خشوع القلب؛ والإخبات إلى الله تعالى، والإنابة إليه تدعو إلى طاعته.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

التفسير:

﴿٤٦﴾ قوله تعالى: **﴿الذين يظنون﴾** أي يتيقنون؛ و**«الظن»**

= ص٢٣٠٧، كتاب عشرة النساء، باب ١: حب النساء، حديث رقم ٣٣٩١، وقال الألباني في صحيح النسائي: حسن صحيح ٣/ ٥٧، حديث رقم ٣٩٤٩.

يستعمل في اللغة العربية بمعنى اليقين، وله أمثلة كثيرة؛ منها قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿**حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه**﴾ [التوبة: ١١٨]، وقوله تعالى: ﴿**ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً**﴾ [الكهف: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿**أنهم ملاقو ربهم**﴾ أي أنهم سيلاقون الله عزّ وجلّ؛ وذلك يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿**وأنهم إليه راجعون**﴾ أي في جميع أمورهم، كما قال تعالى: ﴿**وإليه يرجع الأمر كله**﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿**وإلى الله ترجع الأمور**﴾ [البقرة: ٢١٠].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إثبات ملاقاة الله عزّ وجلّ؛ لأن الله مدح الذين يتيقنون بهذا اللقاء.

٢ ـ **ومنها**: إثبات رؤية الله عزّ وجلّ، كما ذهب إليه كثير من العلماء؛ لأن اللقاء لا يكون إلا مع المقابلة، وهذا يعني ثبوت الرؤية؛ فإن استقام الاستدلال بهذه الآية على رؤية الله فهذا مطلوب؛ وإن لم يستقم الاستدلال فَثَمّ أدلة أخرى كثيرة تدل على ثبوت رؤية الله عزّ وجلّ يوم القيامة.

٣ ـ **ومنها**: أن هؤلاء المؤمنين يوقنون أنهم راجعون إلى الله في جميع أمورهم؛ وهذا يستلزم أموراً:

أولاً: الخوف من الله؛ لأنك ما دمت تعلم أنك راجع إلى الله، فسوف تخاف منه.

ثانياً: مراقبة الله عزّ وجلّ ـ المراقبة في الجوارح ـ؛

والخوف في القلب؛ يعني أنهم إذا علموا أنهم سيرجعون إلى الله، فسوف يخشونه في السرّ، والعلانية.

ثالثاً: الحياء منه؛ فلا يفقدك حيث أمرك، ولا يجدك حيث نهاك.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾.

التفسير:

﴿٤٧﴾ قوله تعالى: ﴿**يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي**﴾ أي بألسنتكم، وقلوبكم؛ والمراد بـ«**النعمة**» ـ وإن كانت مفردة ـ جميع النعم، كما قال الله تعالى: ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾ [إبراهيم: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿**التي أنعمت عليكم**﴾: وهي نعم كثيرة؛ منها ما ذكَّرَهم بها نبيهم موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حيث قال: ﴿**اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين**﴾ [المائدة: ٢٠]: وهي نعم عظيمة دينية، ودنيوية؛ فالدينية في قوله: ﴿**إذ جعل فيكم أنبياء**﴾؛ والدنيوية في قوله: ﴿**وجعلكم ملوكاً**﴾؛ و﴿**آتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين**﴾: من النعمتين.

قوله تعالى: ﴿**وفضلتكم على العالمين**﴾ أي جعلتكم أفضل من غيركم؛ والمراد عالَم زمانهم؛ وأصل «**عالمين**» كل من

سوى الله، كما قال تعالى: ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ [الفاتحة]؛ فليس ثم إلا رب، ومربوب؛ العالَم: مربوب؛ والله: رب؛ فالعالَم من سوى الله؛ وسمي عالماً؛ لأنه عَلَم على خالقه؛ فإن العالم من آيات الله سبحانه وتعالى الدالة على كمال علمه، وقدرته، وسلطانه، وحكمته، وغير ذلك من معاني ربوبيته.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أنه يجب على بني إسرائيل أن يذكروا نعمة الله عليهم، فيقوموا بشكرها؛ ومن شكرها أن يتبعوا محمداً ﷺ.

٢ ـ **ومنها**: إظهار أن هذه النعمة لم تأت بكسبهم، ولا بكدِّهم، ولا بإرث عن آبائهم؛ وإنما هي بنعمة الله عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿**أنعمت عليكم**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن بني إسرائيل أفضل العالم في زمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿**وأني فضلتكم على العالمين**﴾؛ لأنهم في ذلك الوقت هم أهل الإيمان؛ ولذلك كُتب لهم النصر على أعدائهم العمالقة، فقيل لهم: ﴿**ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم**﴾ [المائدة: ٢١]؛ و«**الأرض المقدسة**» هي فلسطين؛ وإنما كتب الله أرض فلسطين لبني إسرائيل في عهد موسى؛ لأنهم هم عباد الله الصالحون؛ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال موسى لقومه: ﴿**إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده**﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ثم قال: ﴿**والعاقبة للمتقين**﴾ [الأعراف: ١٢٨]؛ إذاً المتقون هم الوارثون للأرض؛ لكن بني إسرائيل اليوم لا يستحقون هذه الأرض المقدسة؛ لأنهم ليسوا من عباد الله

الصالحين؛ أما في وقت موسى فكانوا أولى بها من أهلها؛ وكانت مكتوبة لهم، وكانوا أحق بها؛ لكن لما جاء الإسلام الذي بُعث به النبي ﷺ صار أحق الناس بهذه الأرض المسلمون ـ لا العرب ـ؛ ففلسطين ليس العرب بوصفهم عرباً هم أهلها؛ بل إن أهلها المسلمون بوصفهم مسلمين ـ لا غير ـ، وبوصفهم عباداً لله عزّ وجلّ صالحين؛ ولذلك لن ينجح العرب فيما أعتقد ـ والعلم عند الله ـ في استرداد أرض فلسطين باسم العروبة أبداً؛ ولا يمكن أن يستردوها إلا باسم الإسلام على ما كان عليه النبي ﷺ، وأصحابه، كما قال تعالى: **﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾** [الأعراف: ١٢٨]؛ ومهما حاول العرب، ومهما ملؤوا الدنيا من الأقوال والاحتجاجات، فإنهم لن يفلحوا أبداً حتى ينادوا بإخراج اليهود منها باسم دين الإسلام ـ بعد أن يطبقوه في أنفسهم ـ؛ فإن هم فعلوا ذلك فسوف يتحقق لهم ما أخبر به النبي ﷺ: **«لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ، وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ، أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ»**[1]؛ فالشجر، والحجر يدل المسلمين على اليهود يقول: **«يا عبد الله»** ـ باسم العبودية لله ـ، ويقول: **«يا مسلم»** ـ باسم الإسلام ـ؛ والرسول ﷺ يقول: **«يقاتل المسلمون اليهود»**، ولم يقل: «العرب».

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٣٥، كتاب الجهاد والسِيَر، باب ٩٤: قتال اليهود، حديث رقم ٢٩٢٦؛ وأخرجه مسلم ص١١٨٤، كتاب الفتن، باب ١٨: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، حديث رقم ٧٣٣٩ [٨٢] ٢٩٢٢.

ولهذا أقول: إننا لن نقضي على اليهود باسم العروبة أبداً؛ لن نقضي عليهم إلا باسم الإسلام؛ ومن شاء فليقرأ قوله تعالى: **﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾** [الأنبياء: ١٠٥]: فجعل الميراث لعباده الصالحين؛ وما عُلِّق بوصف فإنه يوجد بوجوده، وينتفي بانتفائه؛ فإذا كنا عبادَ الله الصالحين ورثناها بكل يسر وسهولة، وبدون هذه المشقات، والمتاعب، والمصاعب، والكلامِ الطويل العريض الذي لا ينتهي أبداً!! نستحلها بنصر الله عزّ وجلّ، وبكتابة الله لنا ذلك ـ وما أيسره على الله ـ! ونحن نعلم أن المسلمين ما ملكوا فلسطين في عهد الإسلام الزاهر إلا بإسلامهم؛ ولا استولوا على المدائن عاصمة الفرس، ولا على عاصمة الروم، ولا على عاصمة القبط إلا بالإسلام؛ ولذلك ليت شبابنا يعون وعياً صحيحاً بأنه لا يمكن الانتصار المطلق إلا بالإسلام الحقيقي ـ لا إسلام الهوية بالبطاقة الشخصية ـ! ولعل بعضنا سمع قصة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حينما كسرت الفُرس الجسور على نهر دجلة، وأغرقت السفن لئلا يعبر المسلمون إليهم؛ فسخَّر الله لهم البحر؛ فصاروا يمشون على ظهر الماء بخيلهم، ورجلهم، وإبلهم؛ يمشون على الماء كما يمشون على الأرض لا يغطي الماء خفاف الإبل؛ وإذا تعب فرس أحدهم قيض الله له صخرة تربو حتى يستريح عليها؛ وهذا من آيات الله ـ ولا شك ـ؛ والله تعالى على كل شيء قدير؛ فالذي فلق البحر لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولقومه، وصار يبساً في لحظة، ومشوا عليه آمنين؛ قادر على ما هو أعظم من ذلك.

فالحاصل أن بني إسرائيل لا شك أفضل العالمين حينما كانوا عباد الله الصالحين؛ أما حين ضربت عليهم الذلة، واللعنة،

والصَّغار فإنهم ليسوا أفضل العالمين؛ بل منهم القردة، والخنازير؛ وهم أذل عباد الله لقوله تعالى: ﴿**ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله**﴾ [آل عمران: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿**لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون**﴾ [الحشر: ١٤].

ويدل لذلك ـ أي أن المراد بقوله تعالى ـ: ﴿**فضلتكم على العالمين**﴾ أي في وقتكم، أو فيمن سبقكم: قوله تعالى في هذه الأمة أمة محمد ﷺ: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم**﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ فقوله تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ صريح في تفضيلهم على الناس؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم**﴾؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ **أننا نوفي سبعين أمة نحن أكرمها، وأفضلها عند الله عزّ وجلّ**[1] ـ وهذا أمر لا شك فيه ـ، ولله الحمد.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله تعالى إذا فضل أحداً بعلم، أو مال، أو جاه فإن ذلك من النعم العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿**وأني فضلتكم على العالمين**﴾: خصها بالذكر لأهميتها.

٥ ـ **ومنها**: تفاضل الناس، وأن الناس درجات؛ وهذا أمر

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢، حديث رقم ٢٠٢٦٤؛ وأخرجه الترمذي ص١٩٥٤، كتاب تفسير القرآن، باب ٣: ومن سورة آل عمران، حديث رقم ٣٠٠١؛ وأخرجه ابن ماجه ص٢٧٣٧، كتاب الزهد، باب ٣٤: صفة أمة محمد ﷺ، حديث رقم ٤٢٨٨، وقال الألباني في صحيح الترمذي: حسن ٣/ ٣٢، حديث رقم ٢٣٩٩.

معلوم ـ حتى الرسل يفضل بعضهم بعضاً ـ، كما قال تعالى: ﴿**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض**﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿**ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض**﴾ [الإسراء: ٥٥].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

التفسير:

﴿٤٨﴾ قوله تعالى: ﴿**واتقوا يوماً**﴾ أي اتخذوا وقاية من هذا اليوم بالاستعداد له بطاعة الله.

قوله تعالى: ﴿**لا تجزي نفس عن نفس شيئاً**﴾ أي لا تغني؛ و﴿**نفس**﴾ نكرة في سياق النفي، فيكون عاماً؛ فلا تجزي، ولا تغني نفس عن نفس أبداً ـ حتى الرسول ﷺ لا يغني شيئاً عن أبيه، ولا أمه ـ؛ وقد نادى ﷺ عشيرته الأقربين؛ فجعل ينادي كل واحد باسمه، ويقول: «**يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً؛ يا فاطمة بنت رسول الله، لا أغني عنك شيئاً...**»[(١)] ـ مع أن العادة أن الإنسان يدافع عن حريمه، وعن نسائه ـ؛ لكن في يوم القيامة ليست هناك مدافعة؛ بل قال الله تعالى: ﴿**فإذا نفخ**

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٢١، كتاب الوصايا، باب ١١: هل يدخل النساء والولد في الأقارب؟ حديث رقم ٢٧٥٣؛ وأخرجه مسلم ص٧١٦، كتاب الإيمان، باب ٨٩: في قوله تعالى: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين...**﴾، حديث رقم ٥٠٤ [٣٥١] ٢٠٦.

في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ [المؤمنون: ١٠١]: تزول الأنساب، وينسى الإنسان كل شيء، ولا يسأل أين ولدي، ولا أين ذهب أبي، ولا أين ذهب أخي، ولا أين ذهبت أمي: **﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾** [عبس: ٣٧].

قوله تعالى: **﴿ولا يقبل منها شفاعة﴾** أي لا يقبل من نفس عن نفس شفاعة؛ و«**الشفاعة**» هي التوسط للغير بجلب منفعة، أو دفع مضرة؛ فشفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة[(١)]: من جلب المنفعة؛ وشفاعته فيمن استحق النار ألا يدخلها[(٢)]، وفيمن دخلها أن يخرج منها[(٣)]: من دفع المضرة؛ فيومَ القيامة لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ولا يقبل من نفس عن نفس شفاعة أبداً.

---

(١) راجع مسلماً ص٧١٥، كتاب الإيمان، باب ٨٥: في قول النبي ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة..»، حديث رقم ٤٨٣ [٣٣٠] ١٩٦؛ وباب ٨٤: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم ٤٨٢ [٣٢٩] ١٩٥؛ وفيه: يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة...

(٢) قال شيخنا محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في شرح العقيدة الواسطية: فهذه قد تستفاد من دعاء الرسول ﷺ للمؤمنين بالمغفرة والرحمة على جنائزهم، فإنه من لازم ذلك أن لا يدخل النار كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين...» (٢/ ١٧٧ ـ ١٧٨)، وذكر الحافظ ابن حجر أن دليل هذا قوله ﷺ في حديث حذيفة عند مسلم: «ونبيكم على الصراط يقول: رب سلِّم، رب سلِّم» (فتح الباري ١١/ ٤٢٨)؛ مسلم ص٧١٥، كتاب الإيمان، باب ٨٤: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم ٤٨٢ [٣٢٩] ١٩٥.

(٣) راجع البخاري ص٦٢٥ ـ ٦٢٦، كتاب التوحيد، باب ٣٦: كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، حديث رقم ٧٥١٠؛ ومسلماً ص٧١٤، كتاب الإيمان، باب ٨٤: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم ٤٧٩ [٣٢٦] ١٩٣.

قوله تعالى: ﴿**ولا يؤخذ منها**﴾ أي من النفس؛ ﴿**عدل**﴾ أي بديل يعدل به عن الجزاء؛ و«**العدل**» بمعنى المعادِل المكافئ؛ ففي الدنيا قد تجب العقوبة على شخص، ويفتدي نفسه ببدل؛ لكن في الآخرة لا يمكن.

قوله تعالى: ﴿**ولا هم ينصرون**﴾ أي لا أحد ينصرهم ـ أي يمنعهم من عذاب الله ـ؛ لأن الذي يخفف العذاب واحد من هذه الأمور الثلاثة: إما شفاعة؛ وإما معادلة؛ وإما نصر.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: التحذير من يوم القيامة؛ وهذا يقع في القرآن كثيراً؛ لقوله تعالى: ﴿**واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله**﴾، وقوله تعالى: ﴿**يوماً يجعل الولدان شيباً**﴾ [المزمل: ١٧].

٢ ـ **ومنها**: أنه في يوم القيامة لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ـ بخلاف الدنيا ـ: فإنه قد يجزي أحد عن أحد؛ لكن يوم القيامة: لا.

٣ ـ **ومنها**: أن الشفاعة لا تنفع يوم القيامة؛ والمراد لا تنفع من لا يستحق أن يشفع له؛ وأما من يستحق فقد دلت النصوص المتواترة على ثبوت الشفاعة ـ وهي معروفة في مظانها من كتب الحديث، والعقائد ـ.

٤ ـ **ومنها**: أن يوم القيامة ليس فيه فداء؛ لا يمكن أن يقدم الإنسان فداءً يعدل به؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا عدل**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أنه لا أحد يُنصر يوم القيامة إذا كان من العصاة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿**ما لكم لا تناصرون * بل هم اليوم مستسلمون**﴾ [الصافات: ٢٥، ٢٦]؛ فلا أحد ينصر أحداً يوم القيامة ـ لا الآلهة، ولا الأسياد، ولا الأشراف، ولا غيرهم ـ.

القرآن

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

التفسير:

﴿٤٩﴾ قوله تعالى: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ أي واذكروا إذ أنقذناكم من آل فرعون؛ والمراد بـ﴿آل فرعون﴾ جماعة فرعون، ويدخل فيهم فرعون بالأولوية؛ لأنه هو المسلِّط لهم على بني إسرائيل.

وكان بنو إسرائيل مستضعفين في مصر، وسُلِّط عليهم الفراعنة حتى كانوا كما قال الله تعالى: ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾؛ ومعنى «السوم» في الأصل: الرعي؛ ومنه السائمة ـ أي الراعية ـ والمعنى: أنهم لا يرعونكم إلا بهذا البلاء العظيم و﴿سوء العذاب﴾ أي سيئه وقبيحه.

قوله تعالى: ﴿يذبحون أبنائكم﴾: الفعل مضَعَّف ـ أي مشدد ـ للمبالغة؛ لكثرة من يذْبحون، وعظم ذبحهم؛ هذا وقد جاء في سورة الأعراف: ﴿يقتلون﴾ وهو بمعنى ﴿يذبحون﴾؛ ويحتمل أن يكون مغايراً له؛ فيُحمل على أنهم يقتلون بعضاً بغير الذبح، ويذبحون بعضاً؛ وعلى كلٍّ فالجملة بيان لقوله تعالى: ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾؛ هذا وجاء في سورة إبراهيم: ﴿يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم﴾ بالواو عطفاً على قوله تعالى: ﴿يسومونكم﴾؛ والعطف يقتضي المغايرة؛ فيكون المعنى أنهم جمعوا بين سوم العذاب ـ وهو التنكيل، والتعذيب ـ وبين الذبح.

قوله تعالى: ﴿**ويستحيون نساءكم**﴾ أي يستبقون نساءكم؛ لأنه إذا ذهب الرجال، وبقيت النساء ذلّ الشعب، وانكسرت شوكته؛ لأن النساء ليس عندهن من يدافع، ويبقين خدماً لآل فرعون؛ وهذا ـ والعياذ بالله ـ من أعظم ما يكون من الإذلال؛ ومع هذا أنجاهم الله تعالى من آل فرعون، وأورثهم ديار آل فرعون، كما قال تعالى: ﴿**فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل**﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩] وقال تعالى: ﴿**كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوماً آخرين**﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨] ـ وهم بنو إسرائيل ـ.

قوله تعالى: ﴿**وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم**﴾ أي وفي إنجائكم من آل فرعون ابتلاء من الله عزّ وجل عظيم ـ أي اختبار عظيم ـ؛ ليعلم من يشكر منكم، ومن لا يشكر.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: تذكير الله تعالى لبني إسرائيل نعمته عليهم بإنجائهم من آل فرعون.

٢ ـ **ومنها**: أن الإنجاء من العدو نعمة كبيرة ينعم الله بها على العبد؛ ولهذا ذكرهم الله بها في قوله تعالى: ﴿**نجيناكم**﴾.

٣ ـ **ومنها**: بيان حنق آل فرعون على بني إسرائيل؛ وقيل: إن هذا التقتيل كان بعد بعثة موسى؛ لأن فرعون لما جاءه موسى بالبينات قال: ﴿**اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم**﴾ [غافر: ٢٥]، وقال في سورة الأعراف: ﴿**سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون**﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وذكر بعض المؤرخين أن هذا التقتيل كان قبل بعثة موسى، أو قبل ولادته؛ لأن الكهنة ذكروا لفرعون أنه سيولد لبني إسرائيل ولد يكون هلاكك على يده؛ فجعل يقتلهم؛ وعضدوا هذا القول بما أوحى الله تعالى إلى أم موسى: ﴿**أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني**﴾ [القصص: ٧]؛ لكن هذه الآية ليست صريحة فيما ذكروا؛ لأنها قد تخاف عليه إما من هذا الفعل العام الذي يقتَّل به الأبناء، أو بسبب آخر، وآية الأعراف: ﴿**قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا**﴾ [الأعراف: ١٢٩] لا دليل فيها صراحة على أن التقتيل كان قبل ولادة موسى عليه السلام؛ لأن الإيذاء لا يدل على القتل، ولأن فرعون لم يقل: سنقتل أبناءهم، ونستحيي نساءهم إلا بعد أن أُرسل إليه موسى عليه السلام، ولهذا قال موسى عليه السلام لقومه بعد ذلك: ﴿**استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده**﴾ [الأعراف: ١٢٨].

٤ ـ **ومنها**: أن الرب سبحانه وتعالى له مطلق التصرف في عباده بما يسوؤهم، أو يسرهم؛ لقوله تعالى: ﴿من ربكم﴾ يعني هذا العذاب الذي سامكم إياه آل فرعون، والإنقاذ منه؛ كله من الله عزّ وجلّ؛ فهو الذي بيده الخير، ومنه كل شيء، وبيده ملكوت كل شيء.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

التفسير:

﴿٥٠﴾ قوله تعالى: ﴿وإذ﴾: متعلقة بمحذوف؛ والتقدير: واذكروا ـ يعني بني إسرائيل ـ إذ؛ ﴿فرقنا بكم البحر﴾ أي فلقناه

لكم، وفصلنا بعضه عن بعض حتى عبرتم إلى الشاطئ.

قوله تعالى ﴿**فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون**﴾: وذلك أن موسى، وقومه لما تكاملوا خارجين من هذا الذي فلقه الله عزّ وجلّ من البحر دخل فرعون، وقومه؛ فلما تكاملوا داخلين أمر الله تعالى البحر، فانطبق عليهم، فغرقوا جميعاً.

قوله تعالى: ﴿**وأنتم تنظرون**﴾: الجملة هذه حالية ـ أي أن هذا وقع والحال أنكم تنظرون؛ ولهذا قال الله ـ تبارك وتعالى ـ لفرعون: ﴿**فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية**﴾ [يونس: ٩٢] ينظرون إليك أنك قد هلكت.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: مناسبة قوله تعالى: ﴿**وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون**﴾ لما قبله ظاهرة جداً، وذلك أنه لما ذكر الله سبحانه وتعالى تسلُّطَ آل فرعون عليهم ذكر مآل هؤلاء المتسلطين؛ وأن الله أغرقهم، وأنجى هؤلاء، وأورثهم أرضهم، كما قال الله تعالى: ﴿**وأورثناها بني إسرائيل**﴾ [الشعراء: ٥٩].

٢ ـ **ومنها**: تذكير الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بنعمه؛ وقد تضمن هذا التذكير حصول المطلوب، وزوال المكروه؛ حصول المطلوب: بنجاتهم؛ وزوال المكروه: بإهلاك عدوهم.

٣ ـ **ومنها**: بيان قدرة الله تعالى على كل شيء؛ فهذا الماء السيال أمره الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يتمايز، وينفصل بعضه عن بعض؛ فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم ـ أي كالجبل العظيم؛ وثم وجه آخر من هذه القدرة: أن هذه الطرق صارت

يبساً في الحال مع أنه قد مضى عليها سنون كثيرة لا يعلمها إلا الله عزّ وجلّ والماء من فوقها، ولكنها صارت في لحظة واحدة يبساً، كما قال تعالى: ﴿**ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى**﴾ [طه: ٧٧]؛ وقد ذكر بعض المفسرين أنه كانت في هذه الفرق فتحات ينظر بعضهم إلى بعض ـ حتى لا ينْزعجوا، ويقولوا: أين أصحابنا؟! وهذا ليس ببعيد على الله سبحانه وتعالى.

وقد وقع مثل ذلك لهذه الأمة؛ فقد ذكر ابن كثير ـ رحمه الله في «**البداية والنهاية**» أنه ما من آية سبقت لرسول إلا لرسولنا ﷺ مثلها: إما له ﷺ هو بنفسه، أو لأمته؛ ومعلوم أن الكرامات التي تقع لمتبع الرسول هي في الحقيقة آيات له؛ لأنها تصديق لطريق هذا الولي المتبع للرسول؛ فتكون آية على صدق الرسول، وصحة الشريعة؛ ولهذا من القواعد المعروفة أن كل كرامة لولي فهي آية لذلك النبي المتبع؛ وذكر ابن كثير رحمه الله في «**البداية والنهاية**» على ذلك أمثلة؛ ومنها أن من الصحابة من مشَوا على الماء؛ وهو أبلغ من فلق البحر لبني إسرائيل، ومشيهم على الأرض اليابسة.

٤ ـ **من فوائد الآية**: أن الآل يدخل فيهم من ينتسبون إليهم؛ فقد قال تعالى: ﴿**وأغرقنا آل فرعون**﴾؛ وفرعون قد غرق بلا شك، كما قال تعالى: ﴿**حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين**﴾ [يونس: ٩٠] الآيتين.

٥ ـ **ومنها**: أن إغراق عدو الإنسان وهو ينظر من نعمة الله عليه؛ فإغراقه، أو إهلاكه نعمة؛ وكون عدوه ينظر إليه نعمة أخرى؛ لأنه يشفي صدره؛ وإهلاك العدو بيد عدوه أشفى، كما قال تعالى:

﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]؛ نعم، عند عجز الناس لا يبقى إلا فعل الله عزّ وجلّ؛ ولهذا في غزوة الأحزاب نُصروا بالريح التي أرسلها الله عزّ وجلّ، كما قال تعالى: **﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾** [الأحزاب: ٩].

٦ ـ **ومن فوائد الآية:** عتوّ بني إسرائيل؛ فإن بني إسرائيل مع هذه النعم العظيمة كانوا من أشد الناس طغياناً، وتكذيباً للرسل، واستكباراً عن عبادة الله عزّ وجلّ.

٧ ـ **ومنها:** أن الله تعالى سخِر من فرعون، حيث أهلكه بجنس ما كان يفتخر به، وأورث أرضه موسى ـ عليه الصلاة والسلام؛ وقد كان فرعون يقول: **﴿يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون * أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾** [الزخرف: ٥١ ـ ٥٢]؛ فأغرقه الله تعالى بالماء الذي كان يفتخر بجنسه، وأورث موسى أرضه الذي وصفه بأنه مهين، ولا يكاد يبين.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

التفسير:

﴿٥١﴾ قوله تعالى: **﴿وإذ واعدنا موسى﴾** أي واذكروا إذ واعدنا موسى؛ **﴿أربعين ليلة﴾**: وعده الله تعالى لميقاته ثلاثين

ليلة، ثم أتمها بعشر، فصارت أربعين ليلة؛ وفي قوله تعالى: ﴿واعدنا﴾ قراءتان سبعيتان: بألف بعد الواو؛ وبدونها.

قوله تعالى: ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ أي صيرتم العجل؛ و﴿العجل﴾ مفعول أول؛ والثاني: محذوف؛ والتقدير: اتخذتم العجل إلهاً؛ و«العجل» تمثال من ذهب صنعه السامري، وقال لبني إسرائيل: هذا إلٰهكم، وإله موسى فنسي.

قوله تعالى: ﴿من بعده﴾ أي من بعد موسى حين ذهب لميقات الله.

قوله تعالى: ﴿وأنتم ظالمون﴾: هذه الجملة حال من التاء في قوله تعالى: ﴿اتخذتم﴾؛ والفائدة من ذكر هذه الحال زيادة التوبيخ، وأنهم غير معذورين.

﴿٥٢﴾ قوله تعالى: ﴿ثم عفونا عنكم﴾ أي تجاوزنا عن عقوبتكم؛ ﴿من بعد ذلك﴾: أتى بها؛ لأن العفو إنما حصل حين تابوا إلى الله، وقتلوا أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿لعلكم تشكرون﴾، «لعل» هنا للتعليل؛ و﴿تشكرون﴾ أي تشكرون الله على نعمه؛ والشكر يكون بالقلب: وهو إيمان القلب بأن النعمة من الله عزّ وجلّ، وأن له المنة في ذلك؛ ويكون باللسان: وهو التحدث بنعمة الله اعترافاً ـ لا افتخاراً؛ ويكون بالجوارح: وهو القيام بطاعة المنعِم؛ وفي ذلك يقول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثةً يدي ولساني والضمير المحجبا

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: حكمة الله ـ تبارك وتعالى ـ في تقديره، حيث واعد موسى أربعين ليلة لينزِّل عليه فيها التوراة ـ مع

أنه سبحانه وتعالى قادر على أن يَنزِّلها في ليلة مرة واحدة؛ ولكن لحكمة ـ لا نعلم ما هي ـ وعده الله تعالى ثلاثين ليلة أولاً، ثم أتمها بعشر؛ فتم ميقات ربه أربعين ليلة.

٢ ـ **ومنها**: بيان جهل بني إسرائيل الجهل التام؛ وجه ذلك أن هذا الحلي الذي جعلوه إلهاً هم الذين صنعوه بأنفسهم؛ فقد استعاروا حلياً من آل فرعون، وصنعوه على صورة الثور عجلاً جسداً ـ لا روح فيه؛ ثم قال السامري: ﴿**هذا إلهكم وإله موسى فنسي**﴾ [طه: ٨٨]؛ وزعموا أن موسى ضلّ، ولم يهتد إلى ربه، وهذا ربه! والعياذ بالله؛ فكيف يكون المصنوع رباً لكم، ولموسى وأنتم الذين صنعتموه! وهذا دليل على جهلهم، وغباوتهم إلى أبعد الحدود؛ وقد قالوا لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ حينما أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿**اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة**﴾ [الأعراف: ١٣٨] قال لهم نبيهم موسى: ﴿**إنكم قوم تجهلون**﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وصدق عليه الصلاة والسلام.

٣ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن اتخاذهم العجل كان عن ظلم؛ لقوله تعالى: ﴿**وأنتم ظالمون**﴾ ـ وهذا أبلغ، وأشنع في توبيخهم، والإنكار عليهم.

٤ ـ **ومنها**: سعة حلم الله عزّ وجلّ، وأنه مهما بارز الإنسان ربه بالذنوب فإن حلم الله تعالى قد يشمله، فيوفق للتوبة؛ وهؤلاء وفِّقوا لها.

٥ ـ **ومنها**: أن العفو موجب للشكر؛ لقوله تعالى: ﴿**لعلكم تشكرون**﴾؛ وإذا كان العفو ـ وهو زوال النقم ـ موجباً للشكر فحدوث النعم أيضاً موجب للشكر من باب أولى.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

التفسير:

﴿٥٣﴾ قوله تعالى: ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب﴾ أي واذكروا إذ أعطينا موسى؛ ﴿الكتاب﴾ أي التوراة.

قوله تعالى: ﴿والفرقان﴾ إما صفة مشبهة، أو مصدر بمعنى اسم الفاعل؛ لأن المراد بـ﴿الفرقان﴾ الفارق؛ والمراد به هنا الفارق بين الحق والباطل؛ وعطفه هنا من باب عطف الصفة على الموصوف؛ والعطف يقتضي المغايرة؛ والمغايرة يكتفى فيها بأدنى شيء؛ قد تكون المغايرة بين ذاتين؛ وقد تكون المغايرة بين صفتين؛ وقد تكون بين ذات وصفة؛ فمثلاً: قوله تعالى: ﴿**خلق السماوات والأرض**﴾ [الأنعام: ١]: المغايرة بين ذاتين؛ وقوله تعالى: ﴿**سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى * والذي أخرج المرعى**﴾ [الأعلى: ١ ـ ٤]: المغايرة بين صفتين؛ وقوله تعالى هنا: ﴿الكتاب والفرقان﴾: المغايرة بين ذات وصفة؛ فـ﴿الكتاب﴾ نفس التوراة؛ و﴿الفرقان﴾ صفته؛ فالعطف هنا من باب عطف الصفة على الموصوف.

قوله تعالى: ﴿لعلكم تهتدون﴾: «**لعل**» للتعليل؛ أي لعلكم تهتدون بهذا الكتاب الذي هو الفرقان؛ لأن الفرقان هدى يهتدي به المرء من الضلالة؛ و﴿تهتدون﴾ أي هداية العلم، والتوفيق؛ فهو نازل للهداية؛ ولكن من الناس من يهتدي، ومنهم من لا يهتدي.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن إنزال الله تعالى الكتب للناس من

نعمه، وآلائه؛ بل هو من أكبر النعم؛ لأن الناس لا يمكن أن يستقلوا بمعرفة حق الخالق؛ بل ولا حق المخلوق؛ ولذلك نزلت الكتب تبياناً للناس.

٢ ـ **ومنها**: أن موسى ﷺ نبي رسول، لأن الله تعالى آتاه الكتاب.

٣ ـ **ومنها**: فضيلة التوراة؛ لأنه أُطلق عليها اسم ﴿**الكتاب**﴾؛ و«**أل**» هذه للعهد الذهني؛ فدل هذا على أنها معروفة لدى بني إسرائيل، وأنه إذا أُطلق الكتاب عندهم فهو التوراة؛ أيضاً سماها الله تعالى الفرقان، كما سمى القرآن الفرقان؛ لأن كلا الكتابين أعظم الكتب، وأهداهما؛ لقوله تعالى: ﴿**قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما**﴾ [القصص: ٤٩] ـ يعني التوراة، والإنجيل ـ ﴿**أتبعه إن كنتم صادقين**﴾ [القصص: ٤٩]؛ ودل هذا على أن التوراة مشاركة للقرآن في كونها فرقاناً؛ ولهذا كانت عمدة الأنبياء من بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿**إنا أنزلنا التوراة فيها هدًى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء**﴾ [المائدة: ٤٤].

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: بيان عتوّ بني إسرائيل، وطغيانهم؛ لأنه إذا كانت التوراة التي نزلت عليهم فرقاناً، ثم هم يكفرون هذا الكفر دلّ على زيادة عتوهم، وطغيانهم؛ إذ من نُزِّل عليه كتاب يكون فرقاناً كان يجب عليه بمقتضى ذلك أن يكون مؤمناً مذعناً.

٥ ـ **ومنها**: أن الله ـ تبارك وتعالى ـ يُنزل الكتب، ويجعلها فرقاناً لغاية حميدة حقاً ـ وهي الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿**لعلكم تهتدون**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن من أراد الهداية فليطلبها من الكتب المنزلة

من السماء ـ لا يطلبها من الأساطير، وقصص الرهبان، وقصص الزهاد، والعباد، وجعجعة المتكلمين، والفلاسفة، وما أشبه ذلك؛ بل من الكتب المنَزلة من السماء.

فعلى هذا ما يوجد في كتب الوعظ من القصص عن بعض الزهاد، والعباد، ونحوهم نقول لكاتبيها، وقارئيها: خير لكم أن تبدو للناس كتاب الله عزّ وجلّ، وما صح عن رسوله ﷺ، وتبسطوا ذلك، وتشرحوه، وتفسروه بما ينبغي أن يفهم حتى يكون ذلك نافعاً للخلق؛ لأنه لا طريق للهداية إلى الله إلا ما جاء من عند الله عزّ وجلّ.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبَّباتها؛ وبسط ذلك مذكور في كتب العقائد.

٨ ـ **ومنها**: أن الإيتاء المضاف إلى الله سبحانه وتعالى يكون كونياً، ويكون شرعياً؛ مثال الكوني قوله تعالى: ﴿**وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة**﴾ [القصص: ٧٦]؛ ومثال الشرعي قوله تعالى: ﴿**وآتينا موسى الكتاب**﴾ [الإسراء: ٢].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾.

التفسير:

﴿٥٤﴾ ثم ذكر الله تعالى نعمة أخرى أيضاً فقال: ﴿وإذ قال

موسى لقومه﴾ أي واذكروا إذ قال موسى لقومه؛ **﴿يا قوم﴾** أي يا أصحابي؛ وناداهم بوصف القومية تحبباً، وتوددًا، وإظهاراً بأنه ناصح لهم؛ لأن الإنسان ينصح لقومه بمقتضى العادة.

قوله تعالى: **﴿إنكم ظلمتم أنفسكم﴾**: أكد الجملة لبيان حقيقة ما هم عليه؛ و**﴿ظلمتم﴾** بمعنى نقصتم أنفسكم حقها؛ لأن **«الظلم»** في الأصل بمعنى النقص، كما قال الله تعالى: **﴿كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً﴾** [الكهف: ٣٣] أي لم تنقص.

قوله تعالى: **﴿باتخاذكم العجل﴾**: الباء هنا للسببية ـ أي بسبب اتخاذكم العجل؛ و**«اتخاذ»** مصدر فِعْله: اتخذ؛ وهو مضاف إلى فاعله: الكاف؛ و**﴿العجل﴾** مفعول أول؛ والمفعول الثاني محذوف تقديره: إلهاً؛ والمعنى: ظلمتم أنفسكم بسبب اتخاذكم العجل إلهاً تعبدونه من دون الله؛ وهذا العجل سبق أنه عجل من ذهب، وأن الذي فتن الناس به رجل يقال له: السامري.

قوله تعالى: **﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾** أي ارجعوا إليه من معصيته إلى طاعته؛ و**«البارئ»**: الخالق المعتني بخلقه؛ فكأنه يقول: كيف تتخذون العجل إلهاً وتَدَعون خالقكم الذي يعتني بكم؛ وهذا كقول إلياس عليه السلام لقومه: **﴿أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين﴾** [الصافات: ١٢٥، ١٢٦].

قوله تعالى: **﴿فاقتلوا أنفسكم﴾**: الفاء هنا تفسيرية؛ لأن قوله تعالى: **﴿فاقتلوا﴾** تفسير للمجمل في قوله تعالى: **﴿توبوا﴾**؛ وعلى هذا فالفاء للتفسير؛ أي: فتوبوا بهذا الفعل ـ وهو أن تقتلوا

أنفسكم؛ أي ليقتل بعضكم بعضاً؛ وليس المعنى أن كل رجل يقتل نفسه ـ بالإجماع؛ فلم يقل أحد من المفسرين: إن معنى قوله تعالى: ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ أي يقتل كل رجل نفسه؛ وإنما المعنى: ليقتل بعضكم بعضاً: يقتل الإنسان ولده، أو والده، أو أخاه؛ المهم أنكم تستعدون، وتتخذون سلاحاً ـ خناجر، وسكاكين، وسيوفاً ـ وكل واحد منكم يهجم على الآخر، ويقتله.

واختلف المفسرون: هل هذا القتل وقع في ظلمة، أو وقع جهاراً بدون ظلمة؟ فقيل: إنهم لما أمروا بذلك قالوا: لا نستطيع أن يقتل بعضنا بعضاً وهو ينظر إليه: ينظر الإنسان إلى ابنه، فيقتله، وإلى أبيه، وإلى صديقه! هذا شيء لا يطاق؛ فألقى الله تعالى عليهم ظلمة، وصار يقتل بعضهم بعضاً، ولا يدري مَن قتل.

وقيل: بل إنهم قتلوا أنفسهم جهراً بدون ظلمة، وأن هذا أبلغ في الدلالة على صدق توبتهم، وأنه لما رأى موسى ﷺ أنهم سينتهون ـ لأنه إذا قتل بعضهم بعضاً لن يبقى إلا واحد ـ ابتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يرفع عنهم الإصر؛ فأمروا بالكف؛ وقيل: بل سقطت أسلحتهم من أيديهم ـ والله أعلم.

وظاهر القرآن أنه لم تكن هناك ظلمة، وأنهم أمروا أن يقتل بعضهم بعضاً عِياناً، وهذا أبلغ في الدلالة على صدق توبتهم، ورجوعهم إلى الله سبحانه وتعالى.

وذهب بعضهم إلى أن المراد: أن يقتل البريء منكم المجرم ـ يعني الذين دعوا إلى عبادة العجل، وعكفوا عليه يُقتَلون؛ والذين تبرؤوا منه يَقتلون ـ والله أعلم.

ولكن الظاهر الأول؛ لأن قتل البريء للمجرم ليس فيه دلالة

على صدق التوبة من المجرمين؛ لأن الإنسان قد يُقتل وهو مصرّ على الذنب؛ ولا يدل ذلك على توبته.

قوله تعالى: ﴿ذلكم﴾ المشار إليه قتل أنفسهم؛ ﴿خير لكم عند بارئكم﴾ أي من عدم التوبة؛ أو من عدم القتل؛ وهذا من التفضيل بما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ والتفضيل بما ليس في الطرف الآخر منه شيء وارد في اللغة العربية؛ لكن بعضهم يقول: إنه لا يكون بمعنى التفضيل؛ بل المراد به وجود الخير في هذا الأمر بدون وجود مفضَّل عليه.

قوله تعالى: ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾: هذه الجملة تعليل لما قبلها؛ و﴿هو﴾ ضمير فصل؛ وسبق بيان فوائده؛ و﴿التواب﴾ أي كثير التوبة: لكثرة توبته على العبد الواحد، وكثرة توبته على التائبين الذين لا يحصيهم إلا الله، فهو يتوب في المرات المتعددة على عبده، ويتوب على الأشخاص الكثيرين الذين تكثر توبتهم؛ و﴿الرحيم﴾ أي ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أنه ينبغي للداعي إلى الله أن يستعمل الأسلوب الذي يجذب إليه الناس، ويعطفهم عليه؛ لقوله تعالى حكاية عن موسى: ﴿يا قوم﴾؛ فإن هذا لا شك فيه من التودد، والتلطف، والتحبب ما هو ظاهر.

٢ ـ **ومنها**: أن اتخاذ الأصنام مع الله ظلم؛ لقوله: ﴿إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن المعاصي ظلم للنفوس؛ وجه ذلك: أن النفس أمانة عندك؛ فيجب عليك أن ترعاها بأحسن رعاية، وأن

تجنبها سوء الرعاية؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص: «**إن لنفسك عليك حقاً**»[١].

٤ ـ **ومنها**: أنه ينبغي التعبير بما يناسب المقام؛ لقوله: ﴿**فتوبوا إلى بارئكم**﴾؛ لأن ذكر «**البارئ**» هنا كإقامة الحجة عليهم في أن العجل لا يكون إلهاً؛ فإن الذي يستحق أن يكون إلهاً هو **البارئ** ـ أي الخالق سبحانه وتعالى.

٥ ـ **ومنها**: وجوب التوبة؛ لقوله: ﴿**فتوبوا إلى بارئكم**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن التوبة على الفور؛ لقوله: ﴿**فتوبوا**﴾؛ لأن الفاء للترتيب، والتعقيب.

٧ ـ **ومنها**: إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبباتها؛ لقوله ﴿**باتخاذكم**﴾: فإن الباء هنا للسببية.

٨ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للداعي إلى الله أن يبين الأسباب فيما يحكم به؛ لقوله: ﴿**إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل**﴾.

٩ ـ **ومنها**: سفاهة بني إسرائيل، حيث عبدوا ما صنعوا وهم يعلمون أنه لا يرجع إليهم قولاً، ولا يملك لهم ضراً، ولا نفعاً.

١٠ ـ **ومنها**: ما وضع الله تعالى على بني إسرائيل من الأغلال، والآصار، حيث كانت توبتهم من عبادة العجل أن يقتل بعضهم بعضاً؛ لقوله: ﴿**فاقتلوا أنفسكم**﴾.

١١ ـ **ومنها**: أن الأمة كنفس واحدة؛ وذلك لقوله: ﴿**فاقتلوا أنفسكم**﴾؛ لأنهم ما أُمروا أن يقتل كل واحد منهم نفسه؛ بل يقتل

---

(١) أخرجه البخاري ص١٥٤، كتاب الصوم، باب ٥١: من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع...، حديث رقم ١٩٦٨.

بعضهم بعضاً؛ ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿**ولا تلمزوا أنفسكم**﴾ [الحجرات: ١١] أي لا يلمز بعضكم بعضاً؛ وعبر عن ذلك بـ«**النفس**»؛ لأن الأمة شيء واحد؛ فمن لمز أخاه فكمن لمز نفسه

١٢ ـ **ومنها**: تفاضل الأعمال؛ لقوله: ﴿**ذلكم خير لكم عند بارئكم**﴾.

١٣ ـ **ومنها**: أن الله سبحانه وتعالى يتوب على التائبين مهما عظم ذنبهم؛ لقوله تعالى: ﴿**فتاب عليكم**﴾.

١٤ ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله ـ وهما ﴿**التواب**﴾، و﴿**الرحيم**﴾؛ وإثبات ما تضمناه من صفة ـ وهي: التوبة، والرحمة؛ وإثبات ما تضمناه من صفة باقترانهما ـ لا تكون عند انفراد أحدهما؛ لأنه لما اقترنا حصل من اجتماعهما صفة ثالثة ـ وهي: الجمع بين التوبة التي بها زوال المكروه، والرحمة التي بها حصول المطلوب.

١٥ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان أن يتعرض لما يقتضيه هذان الاسمان من أسماء الله؛ فيتعرض لتوبة الله، ورحمته؛ فيتوب إلى ربه سبحانه وتعالى، ويرجو الرحمة؛ وهذا هو أحد المعاني التي قال عنها رسول الله ﷺ: «**من أحصاها**» ـ أي أسماء الله التسعة والتسعين ـ «**دخل الجنة**»[1]؛ فإن من إحصائها أن يتعبد الإنسان بمقتضاها.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري ص٢١٩، كتاب الشروط، باب ١٨: ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار...، حديث رقم ٢٧٣٦؛ وأخرجه مسلم ص١١٤٤، كتاب الذكر والدعاء، باب ٢: في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، حديث رقم ٦٨١٠ [٦] ٢٦٧٧.

القرآن

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

التفسير:

﴿٥٥﴾ قوله تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى﴾ أي: واذكروا أيضاً يا بني إسرائيل إذ قلتم...؛ والخطاب لمن كان في عهد الرسول ﷺ، لكن إنعامه على أول الأمة إنعام على آخرها؛ فصح توجيه الخطاب إلى المتأخرين مع أن هذه النعمة على من سبقهم.

قوله تعالى: ﴿لن نؤمن لك﴾ أي لن ننقاد، ولن نصدق، ولن نعترف لك بما جئت به.

قوله تعالى: ﴿حتى نرى الله جهرة﴾: ﴿نرى﴾ بمعنى نبصر؛ ولهذا لم تنصب إلا مفعولاً واحداً؛ لأنها رؤية بصرية؛ واختلف العلماء متى كان هذا، على قولين:

القول الأول: أن موسى ﷺ اختار من قومه سبعين رجلاً لميقات الله، وذهب بهم؛ ولما صار يكلم الله، ويكلمه الله قالوا: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾؛ فعلى هذا القول يكون صعقهم حينما كان موسى خارجاً لميقات الله.

القول الثاني: أنه لما رجع موسى من ميقات الله، وأنزل الله عليه التوراة، وجاء بها قالوا: «ليست من الله؛ ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾».

والسياق يؤيد الثاني؛ لأنه تعالى قال: ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان﴾، ثم ذكر قصة العجل، وهذه كانت بعد مجيء

موسى بالتوراة، ثم بعد ذلك ذكر: ﴿**وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿**فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين**﴾ [الأعراف: ١٥٥] فقد أيد بعضهم القول الأول بهذه الآية؛ ولكن الحقيقة ليس فيه تأييد لهم؛ لأنه تعالى قال: ﴿**فلما أخذتهم الرجفة**﴾ [الأعراف: ١٥٥] ـ رُجِفَ بهم؛ والأخرى: أخذتهم الصاعقة ـ صعقوا، وماتوا.

فالظاهر لي أن القول الأول لا يترجح بهذه الآية لاختلاف العقوبتين؛ هذه الآية كانت العقوبة بالصاعقة؛ وتلك كانت بالرجفة ـ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**فأخذتكم الصاعقة**﴾ يعني الموت الذي صعقوا به؛ ﴿**وأنتم تنظرون**﴾ أي ينظر بعضكم إلى بعض حين تتساقطون؛ والجملة في قوله تعالى: ﴿**وأنتم تنظرون**﴾ حال من الكاف في قوله تعالى: ﴿**فأخذتكم الصاعقة**﴾ يعني: والحال أنكم تنظرون.

﴿٥٦﴾ قوله تعالى: ﴿**ثم بعثناكم بعد موتكم**﴾: أصل «**البعث**» في اللغة الإخراج؛ ويطلق على الإحياء، كما هذه الآية؛ ويدل على أن المراد به الإحياء هنا قوله تعالى: ﴿**من بعد موتكم**﴾؛ وهو موت حقيقي، وليس نوماً، لأن النوم يسمى وفاة؛ ولا يسمى موتاً، كما في قوله تعالى: ﴿**وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار**﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿**الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها**﴾ [الزمر: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿**بعثناكم من بعد موتكم**﴾: هذه نعمة كبيرة عليهم أن الله تعالى أخذهم بهذه العقوبة، ثم بعثهم ليرتدعوا؛ ويكون كفارة لهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**لعلكم تشكرون**﴾ أي تشكرون الله سبحانه وتعالى؛ و«**لعل**» هنا للتعليل.

وهذه إحدى الآيات الخمس التي في سورة البقرة التي فيها إحياء الله تعالى الموتى؛ والثانية: في قصة صاحب البقرة؛ والثالثة: في الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فقال الله لهم: ﴿**موتوا ثم أحياهم**﴾ [البقرة: ٢٤٣]؛ والرابعة: في قصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، فقال: ﴿**أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه**﴾ [البقرة: ٢٥٩]؛ والخامسة في قصة إبراهيم: ﴿**رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي...**﴾ [البقرة: ٢٦٠] الآية؛ والله تعالى على كل شيء قدير، ولا ينافي هذا ما ذكر الله في قوله تعالى: ﴿**ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون**﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦]؛ لأن هذه القصص الخمس، وغيرها ـ كإخراج عيسى الموتى من قبورهم ـ تعتبر أمراً عارضاً يؤتى به لآية من آيات الله سبحانه وتعالى؛ أما البعث العام فإنه لا يكون إلا يوم القيامة؛ ولهذا نقول في شبهة الذين أنكروا البعث من المشركين، ويقولون: ﴿**متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**﴾ [الأنبياء: ٣٨]، ويقولون: ﴿**فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين**﴾ [الدخان: ٣٦] نقول: إن هؤلاء مموهون؛ فالرسل لم تقل لهم: إنكم تبعثون الآن؛ بل يوم القيامة؛ ولينتظروا، فسيكون هذا بلا ريب.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: تذكير الله تعالى بني إسرائيل بنعمته عليهم، حيث بعثهم من بعد موتهم.

٢ ـ **ومنها**: سفاهة بني إسرائيل؛ وما أكثر ما يدل على سفاهتهم؛ فهم يؤمنون بموسى، ومع ذلك قالوا: ﴿**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن من سأل ما لا يمكن فهو حري بالعقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿**فأخذتكم الصاعقة**﴾؛ لأن الفاء تدل على السببية ـ ولا سيما في مثل حال هؤلاء الذين قالوا هذا عن تشكك؛ وفرْق بين قول موسى عليه السلام: ﴿**رب أرني أنظر إليك**﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وبين قول هؤلاء: ﴿**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**﴾؛ فموسى قال ذلك شوقاً إلى الله عزّ وجلّ، وليتلذذ بالرؤية إليه؛ أما هؤلاء فقالوه تشككاً ـ يعني: لسنا بمؤمنين إلا إذا رأيناه جهرة؛ ففرق بين الطلبين.

٤ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن ألم العقوبة، ووقعها إذا كان الإنسان ينظر إليها أشد؛ لقوله تعالى: ﴿**وأنتم تنظرون**﴾؛ فإن الإنسان إذا رأى الناس يتساقطون في العقوبة يكون ذلك أشد وقعاً عليه.

٥ ـ **ومنها**: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى، حيث أحياهم بعد الموت؛ لقوله تعالى: ﴿**ثم بعثناكم من بعد موتكم**﴾.

٦ ـ **ومنها**: وجوب الشكر على من أنعم الله عليه بنعمة؛ لقوله تعالى: ﴿**لعلكم تشكرون**﴾؛ والشكر هو القيام بطاعة المنعم إقراراً بالقلب، واعترافاً باللسان، وعملاً بالأركان؛ فيعترف بقلبه

أنها من الله، ولا يقول: إنما أوتيته على علم عندي؛ كذلك أيضاً يتحدث بها بلسانه اعترافاً ـ لا افتخاراً؛ وكذلك أيضاً يقوم بطاعة الله سبحانه وتعالى بجوارحه؛ وبهذه الأركان الثلاثة يكون الشكر؛ وعليه قول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثةً يدي ولساني والضمير المحجبا

٧ ـ **ومن فوائد الآيتين**: إثبات الحكمة لله تعالى: لقوله: ﴿لعلكم تشكرون﴾؛ فإن «**لعل**» هنا للتعليل المفيد للحكمة.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

التفسير:

﴿٥٧﴾ قوله تعالى: ﴿**وظللنا عليكم الغمام**﴾ أي جعلناه ظلاً عليكم؛ وكان ذلك في التيه حين تاهوا؛ وقد بقوا في التيه بين مصر والشام أربعين سنة يتيهون في الأرض؛ وما كان عندهم ماء، ولا مأوى؛ ولكن الله تعالى رحمهم، فظلل عليه الغمام؛ و﴿**الغمام**﴾ هو السحاب الرقيق الأبيض؛ وقيل: السحاب مطلقاً؛ وقيل: السحاب البارد الذي يكون به الجو بارداً، ويتولد منه رطوبة، فيبرد الجو ـ وهذا هو الظاهر.

قوله تعالى: ﴿**وأنزلنا عليكم المن**﴾: يقولون: ﴿**المن**﴾ شيء يشبه العسل؛ ينْزل عليهم بين طلوع الفجر، وطلوع الشمس؛ فإذا قاموا أكلوا منه؛ ﴿**والسلوى**﴾: طائر ناعم يسمى «السُّمَانَى»،

أو هو شبيه به؛ وهو من أحسن ما يكون من الطيور، وألذه لحماً.

قوله تعالى: ﴿كلوا﴾ الأمر هنا للإباحة؛ يعني أننا أبحنا لكم هذا الذي أنزلنا عليكم من المن، والسلوى؛ ﴿من طيبات ما رزقناكم﴾: ﴿مِنْ﴾ هنا لبيان الجنس؛ وليست للتبعيض؛ لأنهم أبيح لهم أن يأكلوا جميع الطيبات.

قوله تعالى: ﴿وما ظلمونا﴾ أي ما نقصونا شيئاً؛ لأن الله لا تضره معصية العاصين ولا تنفعه طاعة الطائعين.

قوله تعالى: ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾: ﴿أنفسهم﴾ مفعول مقدم لـ﴿يظلمون﴾؛ وقُدِّم لإفادة الحصر ـ أي لا يظلمون بهذا إلا أنفسهم؛ أما الله ـ تبارك وتعالى ـ فإنهم لا يظلمونه؛ لأنه سبحانه وبحمده لا يتضرر بمعصيتهم، كما لا ينتفع بطاعتهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: نعمة الله تبارك وتعالى بما هيأه لعباده من الظلِّ؛ فإن الظلّ عن الحرّ من نعم الله على العباد؛ ولهذا ذكره الله عزّ وجلّ هنا ممتناً به على بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿وظللنا عليكم الغمام﴾، وقوله تعالى: ﴿**والله جعل لكم مما خلق ظلالاً**﴾ [النحل: ٨١].

٢ ـ **ومنها**: أن الغمام يسير بأمر الله عزّ وجلّ، حيث جعل الغمام ظلاً على هؤلاء.

٣ ـ **ومنها**: بيان نعمة الله على بني إسرائيل بما إنزل عليهم من المن، والسلوى ـ يأتيهم بدون تعب، ولا مشقة؛ ولهذا وصف بـ «**المن**».

٤ ـ **ومنها**: أن لحم الطيور من أفضل اللحوم؛ لأن الله تعالى هيأ لهم لحوم الطير ـ وهو أيضاً لحوم أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿**ولحم طير مما يشتهون**﴾ [الواقعة: ٢١].

٥ ـ **ومنها**: أن الإنسان إذا أنعم الله عليه بنعمة فينبغي أن يتبسط بها، ولا يحرم نفسه منها؛ لقوله تعالى: ﴿**كلوا من طيبات ما رزقناكم**﴾ [البقرة: ٥٧]؛ فإن الإنسان لا ينبغي أن يتعفف عن الشيء المباح؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله: «من امتنع من أكل الطيبات لغير سبب شرعي فهو مذموم»؛ وهذا صحيح؛ لأنه ترك ما أباح الله له وكأنه يقول: إنه لا يريد أن يكون لله عليه منة؛ فالإنسان لا ينبغي أن يمتنع عن الطيبات إلا لسبب شرعي؛ والسبب الشرعي قد يكون لسبب يتعلق ببدنه؛ وقد يكون لسبب يتعلق بدينه؛ وقد يكون لسبب يتعلق بغيره؛ فقد يمتنع الإنسان عن اللحم؛ لأن بدنه لا يقبله، فيكون تركه له من باب الحمية؛ وقد يترك الإنسان اللحم، لأنه يخشى أن تتسلى به نفسه حتى يكون همه أن يُذهب طيباته في حياته الدنيا؛ وقد يترك الإنسان الطيب من الرزق مراعاة لغيره، مثل ما يذكر عن عمر رضي الله عنه في عام الرمادة ـ عام الجدب المشهور ـ أنه كان لا يأكل إلا الخبز والزيت، حتى اسود جلده، ويقول: بئس الوالي أنا إن شبعت والناس جياع[1]؛ فيكون تركه لذلك مراعاة لغيره؛ إذاً من امتنع من الطيبات لسبب شرعي فليس بمذموم.

٦ ـ **ومنها**: أن المباح من الزرق هو الطيب؛ لقوله تعالى: ﴿**كلوا من طيبات**﴾.

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٨٥.

٧ ـ **ومنها**: تحريم أكل الخبيث، والخبيث نوعان: خبيث لذاته؛ وخبيث لكسبه؛ **فالخبيث لذاته** كالميتة، والخنْزير، والخمر، وما أشبهها، كما قال الله تعالى: ﴿**قل لا أجد في ما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنْزير فإنه رجس**﴾ [الأنعام: ١٤٥] أي نجس خبيث؛ وهذا محرم لذاته؛ محرم على جميع الناس؛ **وأما الخبيث لكسبه** فمثل المأخوذ عن طريق الغش، أو عن طريق الربا، أو عن طريق الكذب، وما أشبه ذلك؛ وهذا محرم على مكتسبه، وليس محرماً على غيره إذا اكتسبه منه بطريق مباح؛ ويدل لذلك أن النبي ﷺ كان يعامل اليهود مع أنهم كانوا يأكلون السحت، ويأخذون الربا، فدلّ ذلك على أنه لا يحرم على غير الكاسب.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أن بني إسرائيل كفروا هذه النعمة؛ لقوله تعالى: ﴿**ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾.

٩ ـ **ومنها**: أن العاصي لا يضر الله شيئاً؛ وإنما يظلم نفسه.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

التفسير:

﴿٥٨﴾ قوله تعالى: ﴿**وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية**﴾ أي

واذكروا يا بني إسرائيل إذ قلنا ادخلوا هذه القرية؛ و﴿**ادخلوا**﴾ أمر كوني، وشرعي؛ لأنهم أُمروا بأن يدخلوها سجداً وهذا أمر شرعي؛ ثم فُتحت، فدخلوها بالأمر الكوني.

واختلف المفسرون في تعيين هذه **القرية**؛ والصواب أن المراد بها: بيت المقدس؛ لأن موسى قال لهم: ﴿**ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم**﴾ [المائدة: ٢١]؛ و﴿**القرية**﴾ هي البلد المسكون؛ مأخوذة من القرْي ـ وهو التجمع؛ وسميت البلاد المسكونة قرية لتجمع الناس بها؛ ومفهوم القرية في اللغة العربية غير مفهومها في العرف؛ لأن مفهوم القرية في العرف: البلد الصغير؛ وأما الكبير فيسمى مدينة؛ ولكنه في اللغة العربية ـ وهي لغة القرآن ـ لا فرق بين الصغير، والكبير؛ فقد سمى الله عزّ وجلّ مكة قرية، كما في قوله تعالى: ﴿**وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم**﴾ [محمد: ١٣]: المراد بقريته التي أخرجته: مكة، وقال تعالى: ﴿**وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها**﴾ [الشورى: ٧]: فسمى مكة أم القرى وهو شامل للبلاد الصغيرة، والكبيرة.

قوله تعالى: ﴿**فكلوا منها**﴾: الأمر للإباحة أي فأبحنا لكم أن تأكلوا منها؛ ﴿**حيث شئتم**﴾ أي في أي مكان كنتم من البلد في وسطها، أو أطرافها تأكلون ما تشاءون؛ ﴿**رغداً**﴾ أي طمأنينة، وهنيئاً لا أحد يعارضكم في ذلك، ولا يمانعكم.

قوله تعالى: ﴿**وادخلوا الباب**﴾ أي باب القرية؛ لأن القرى يجعل لها أبواب تحميها من الداخل، والخارج؛ ﴿**سجداً**﴾ منصوب على أنه حال من الواو في قوله تعالى: ﴿**ادخلوا**﴾ أي

ساجدين؛ والمعنى: إذا دخلتم فاسجدوا شكراً لله؛ وعلى هذا فالحال ليست مقارنة لعاملها؛ بل هي متأخرة عنه.

قوله تعالى: ﴿وقولوا حطة﴾ أي قولوا هذه الكلمة: ﴿حطة﴾ أي احطط عنا ذنوبنا، وأوزارنا؛ فهي بمعنى قولوا: ربنا اغفر لنا؛ والمراد: اطلبوا المغفرة من الله سبحانه وتعالى إذا دخلتم، وسجدتم؛ و﴿حطة﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: سؤالنا حطة، أو حاجتنا حطة ـ أي أن تحط عنا ذنوبنا؛ والجملة من المبتدأ، والخبر في محل نصب مقول القول.

قوله تعالى: ﴿نغفر لكم﴾ بنون مفتوحة، وفاء مكسورة؛ وفي قراءة: ﴿تُغفَر لكم﴾ بتاء مضمومة، وفاء مفتوحة؛ وفي قراءة ثالثة: ﴿يُغفَر﴾ بياء مضمومة وفاء مفتوحة؛ وكلها قراءات صحيحة؛ بأيها قرأت أجزأك.

وقوله تعالى: ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾: «**المغفرة**» هي ستر الذنب، والتجاوز عنه؛ ومعناه أن الله ستر ذنبك، ويتجاوز عنك، فلا يعاقبك؛ لأن «المغفرة» مأخوذة من المغفر ـ وهو ما يوقى به الرأس في الحرب؛ لأنه يستر، ويقي؛ ومن فسر «المغفرة» بمجرد الستر فقد قصَّر؛ لأن الله تعالى إذا خلا بعبده المؤمن يوم القيامة، وقرره بذنوبه قال: «**قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»[1] أي اليوم أسترها أيضاً، ثم أتجاوز عنها؛ و﴿خطاياكم﴾

---

(١) أخرجه البخاري ص١٩٢، كتاب المظالم، باب ٢: قول الله تعالى: ﴿**ألا لعنة الله على الظالمين**﴾، حديث رقم ٢٤٤١؛ وأخرجه مسلم ص١١٥٨، كتاب التوبة، باب ٨: في سعة رحمة الله تعالى على المؤمنين وفداء كل مسلم بكافر من النار، حديث رقم ٧٠١٥ [٥٢] ٢٧٦٨.

جمع خَطِيَّة، كـ«مطايا» جمع مطية؛ و«**الخطية**» ما يرتكبه الإنسان من المعاصي عن عمد؛ وأما ما يرتكبه عن غير عمد فيسمى «أخطاء»؛ ولهذا يفرق بين «مخطئ»، و«خاطئ»؛ الخاطئ ملوم؛ والمخطئ معذور، كما قال الله تعالى: ﴿**لنسفعاً بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة**﴾ [العلق: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿**ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا**﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قوله تعالى: ﴿**وسنزيد**﴾ أي سنعطي زيادة على مغفرة الذنوب ﴿**المحسنين**﴾ أي الذين يقومون بالإحسان، و«**الإحسان**» نوعان:

الأول: إحسان في عبادة الله؛ وقد فسره رسول الله ﷺ بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(١)].

والنوع الثاني: إحسان في معاملة الخلق وهو بذل المعروف، وكفُّ الأذى.

﴿**٥٩**﴾ قوله تعالى: ﴿**فبدل الذين ظلموا**﴾ أي فاختار الذين ظلموا منهم على وجه التبديل، والمخالفة ﴿**قولاً غير الذي قيل لهم**﴾: وذلك أنهم قالوا: «حنطة في شعيرة» بدلاً عن قولهم: «**حطة**».

وفي قوله تعالى: ﴿**فبدَّل الذين ظلموا**﴾ إظهار في موضع الإضمار؛ ومقتضى السياق أن يكون بلفظ: فبدلوا قولاً.. إلخ، وللإظهار في موضع الإضمار فوائد من أهمها:

---

(١) أخرجه البخاري ص٦، كتاب الإيمان، باب ٣٧: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان...، حديث رقم ٥٠؛ وأخرجه مسلم ص٦٨١، كتاب الإيمان، باب ١: بيان الإيمان والإسلام...، حديث رقم ٩٣ [١] ٨.

أولاً: تحقيق اتصاف محل المضمر بهذا الوصف؛ معنى ذلك: الحكم على هؤلاء بالظلم.

ثانياً: أن هذا مقياس لغيرهم أيضاً؛ فكل من بدل القول الذي قيل له فهو ظالم؛ فيؤخذ منه تعميم الحكم بعموم علة الوصف.

ثالثاً: التنبيه أعني تنبيه المخاطب؛ لأنه إذا جاء الكلام على خلاف السياق انتبه المخاطب.

قوله تعالى: ﴿**فأنزلنا**﴾ الفاء للسببية؛ والمعنى: فبسبب ما حصل منهم من التبديل أنزلنا ﴿**على الذين ظلموا**﴾ أي عليهم؛ ﴿**رجزاً**﴾ أي عذاباً؛ لقوله تعالى: ﴿**لئن كشفت عنا الرجز**﴾ [الأعراف: ١٣٤] ـ أي العذاب ـ ﴿**لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل**﴾ [الأعراف: ١٣٤]، والعذاب غير الرجس؛ لأن الرجس النجس القذر؛ والرجز: العذاب، ﴿**من السماء**﴾ أي من فوقهم، كالحجارة، والصواعق، والبَرَد، والريح، وغيرها؛ والمراد بـ﴿**السماء**﴾ هنا العلوّ، ولا يلزم أن يكون المراد بها السماء المحفوظة؛ لأن كل ما علا فهو سماء ما لم يوجد قرينة كما في قوله تعالى: ﴿**وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون**﴾ [الأنبياء: ٣].

قوله تعالى: ﴿**بما كانوا يفسقون**﴾: الباء هنا للسببية ـ أي بسبب؛ و«**ما**» مصدرية ـ أي بكونهم فسقوا؛ وإذا كانت مصدرية فإنه يحول ما بعدها من الفعل، أو الجملة إلى مصدر؛ و﴿**كانوا**﴾: هل المراد فيما مضى؛ أم المراد تحقيق اتصافهم بذلك؟ الجواب: الثاني؛ وهذا يأتي في القرآن كثيراً؛ و﴿**يفسقون**﴾ أي يخرجون عن طاعة الله عزّ وجلّ.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: إثبات القول لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**وإذ قلنا ادخلوا**﴾؛ وهو قول حقيقي بصوت، وبحرف؛ لكن صوته سبحانه وتعالى لا يشبهه صوت من أصوات المخلوقين؛ ولا يمكن للإنسان أن يدرك هذا الصوت؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا يحيطون به علماً**﴾ [طه: ١١٠]؛ وهكذا جميع صفات الله عزّ وجلّ لا يمكن إدراك حقائقها.

٢ ـ **ومنها**: وعد الله لهم بدخولها؛ ويؤخذ هذا الوعد من الأمر بالدخول؛ فكأنه يقول: فتحنا لكم الأبواب فادخلوا.

٣ ـ **ومنها**: جواز أكل بني إسرائيل من هذه القرية التي فتحوها؛ فإن قال قائل: أليس حِلّ الغنائم من خصائص هذه الأمة ـ أي أمة محمد ﷺ؟ فالجواب: بلى، والإذن لبني إسرائيل أن يأكلوا من القرية التي دخلوها ليس على سبيل التمليك؛ بل هو على سبيل الإباحة؛ وأما حِلّ الغنائم لهذه الأمة فهو على سبيل التمليك.

٤ ـ **ومنها**: أنه يجب على من نصره الله، وفتح له البلاد أن يدخلها على وجه الخضوع، والشكر لله؛ لقوله تعالى: ﴿**وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة**﴾؛ ولهذا لما فتح النبي ﷺ مكة دخلها مطأطئاً رأسه[1] يقرأ قول الله تعالى: ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً**﴾ [الفتح: ١].

٥ ـ **ومنها**: لؤم بني إسرائيل، ومضادَّتُهم لله، ورسله؛ لأنهم

---

(١) راجع البخاري ص٣٥٠، كتاب المغازي، باب ٤٩: أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح، حديث رقم ٤٢٨١؛ ومسلماً ص٨٠٣، كتاب صلاة المسافرين، كتاب فضائل القرآن وما يتعلق به، باب ٣٥: ذكر قراءة النبي ﷺ سورة الفتح يوم فتح مكة، حديث رقم ١٨٥٤ [٢٣٨] ٧٩٤؛ ولم أقف على من أخرجه بلفظ «مطأطئاً رأسه».

لم يدخلوا الباب سجداً؛ بل دخلوا يزحفون على أستاههم على الوراء استكباراً واستهزاءً.

٦ ـ **ومنها**: بيان قبح التحريف سواء كان لفظياً، أو معنوياً؛ لأنه يغير المعنى المراد بالنصوص.

٧ ـ **ومنها**: أن الجهاد مع الخضوع لله عزّ وجلّ، والاستغفار سبب للمغفرة؛ لقوله تعالى: ﴿**نغفر لكم خطاياكم**﴾، وسبب للاستزادة أيضاً من الفضل؛ لقوله تعالى: ﴿**وسنزيد المحسنين**﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن الإحسان سبب للزيادة سواء كان إحساناً في عبادة الله، أو إحساناً إلى عباد الله؛ فإن الإحسان سبب للزيادة؛ وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه قال: «**الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**»[(١)]؛ **وقال**: «**ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته**»[(٢)].

٩ ـ **ومنها**: تحريم التبديل لكلمات الله وهو تحريفها؛ وأنه من الظلم، لقوله تعالى: ﴿**فبدل الذين ظلموا قولاً**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: بيان عقوبة هؤلاء الظالمين، وأن الله أنزل عليهم الرجز من السماء.

١١ ـ **ومنها**: الإشارة إلى عدل الله عزّ وجلّ، وأنه لا يظلم أحداً، وأن الإنسان هو الظالم لنفسه.

---

(١) أخرجه مسلم ص١١٤٧، كتاب الذكر والدعاء، باب ١١: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، حديث رقم ٦٨٥٣ [٣٨] ٢٦٩٩.

(٢) أخرجه البخاري ص١٩٢، كتاب المظالم، باب ٣: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، حديث رقم ٢٤٤٢؛ وأخرجه مسلم ص١١٢٩، كتاب البر والصلة، باب ١٥: تحريم الظلم، حديث رقم ٦٥٧٨ [٥٨] ٢٥٨٠.

١٢ ـ **ومنها**: إثبات فسوق هؤلاء بخروجهم عن طاعة الله؛ والفسق نوعان: **فسق أكبر** مخرج عن الملة، وضده «**الإيمان**»، كما في قوله تعالى: ﴿**وأمَّا الذين فسقوا فمأواهم النار**﴾ [السجدة: ٢٠]؛ و**فسق أصغر** لا يخرج عن الملة، وضده «**العدالة**»، كما في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا**﴾ [الحجرات: ٦].

١٣ ـ **ومنها**: إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبَّباتها؛ لقوله تعالى: ﴿**بما كانوا يفسقون**﴾.

١٤ ـ **ومنها**: الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الله سبحانه وتعالى مجبر العبد على عمله؛ ووجه الرد أن الله سبحانه وتعالى أضاف الفسق إليهم؛ والفسق هو الخروج عن الطاعة؛ والوجه الثاني: أنهم لو كانوا مجبرين على أعمالهم لكان تعذيبهم ظلماً، والله ـ تبارك وتعالى ـ يقول: ﴿**ولا يظلم ربك أحداً**﴾ [الكهف: ٤٩].

١٥ ـ **ومنها**: أن الفسوق سبب لنُزول العذاب.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

التفسير:

﴿٦٠﴾ قوله تعالى: ﴿**وإذا استسقى موسى لقومه**﴾ أي:

واذكر إذ استسقى موسى لقومه ـ أي طلب السقيا لهم؛ وهذا يعم كونهم في التيه، وغيره.

قوله تعالى: ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾: «العصا» معروفة؛ و﴿الحجر﴾: المراد به الجنس؛ فيشمل أيّ حجر يكون؛ وهذا أبلغ من القول بأنه حجر معين؛ وهذه «العصا» كان فيها أربع آيات عظيمة:

أولاً: أنه يلقيها، فتكون حية تسعى، ثم يأخذها، فتعود عصا.

ثانياً: أنه يضرب بها الحجر، فينفجر عيوناً.

ثالثاً: أنه ضرب بها البحر، فانفلق؛ فكان كل فرق كالطود العظيم.

رابعاً: أنه ألقاها حين اجتمع إليه السحرة، وألقوا حبالهم، وعصيهم، فألقاها فإذا هي تلقف ما يأفكون.

قوله تعالى: ﴿فانفجرت منه﴾؛ «الانفجار»: الانفتاح، والانشقاق؛ ومنه سمي «الفجر»؛ لأنه ينشق به الأفق؛ فمعنى ﴿انفجرت﴾ أي تشققت منه هذه العيون.

قوله تعالى: ﴿اثنتا عشرة عيناً﴾؛ ﴿عيناً﴾: تمييز؛ وكانت العيون اثنتي عشرة؛ لأن بني إسرائيل كانوا اثنتي عشرة أسباطاً؛ لكل سبط واحدة.

قوله تعالى: ﴿قد علم كل أناس﴾ أي من الأسباط ﴿مشربهم﴾ أي مكان شربهم، وزمانه حتى لا يختلط بعضهم ببعض، ويضايق بعضهم بعضاً.

وهذه من نعمة الله على بني إسرائيل؛ وهي من نعمة الله

على موسى؛ أما كونها نعمة على موسى فلأنها آية دالة على رسالته؛ وأما كونها نعمة على بني إسرائيل فلأنها مزيلة لعطشهم، ولظمئهم.

قوله تعالى: ﴿**كلوا واشربوا**﴾ الأمر هنا للإباحة فيما يظهر؛ ﴿**من رزق الله**﴾ أي من عطائه، حيث أخرج لكم من الثمار، ورزقكم من المياه.

قوله تعالى: ﴿**ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾ أي لا تسيروا مفسدين؛ فنهاهم عن الإفساد في الأرض؛ فـ«العُثو»، و«العِثي» معناه الإسراع في الإفساد؛ والإفساد في الأرض يكون بالمعاصي، كما قال الله تعالى: ﴿**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون**﴾ [الروم: ٤١].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: مشروعية الاستسقاء عند الحاجة إلى الماء؛ لأن موسى استسقى لقومه؛ وشرع من قبلنا شرع لنا إن لم يرد شرعنا بخلافه؛ فكيف وقد أتى بوفاقه؟! فقد كان النبي ﷺ يستسقي في خطبة الجمعة[(١)]، ويستسقي في الصحراء على وجه معلوم[(٢)].

---

(١) راجع البخاري ص٧٩، كتاب الاستسقاء، باب ٧: الاستسقاء في خطبة الجمعة، حديث رقم ١٠١٤؛ وصحيح مسلم ص٨١٧ ـ ٨١٨، كتاب صلاة الاستسقاء، باب ٢: الدعاء في الاستسقاء، حديث رقم ٢٠٧٨ [٨] ٨٩٧.

(٢) راجع البخاري ص٨٠، كتاب الاستسقاء، باب ٢٠: استقبال القبلة في الاستسقاء، حديث رقم ١٠٢٨؛ وراجع مسلماً ص٨١٧، كتاب صلاة الاستسقاء، باب ١: كتاب صلاة الاستسقاء، حديث رقم ٢٠٧٢ [٣] ٨٩٤.

٢ ـ **ومنها**: أن السقيا كما تكون بالمطر النازل من السماء تكون في النابع من الأرض.

٣ ـ **ومنها**: أن الله سبحانه وتعالى هو الملجأ للخلق؛ فهم إذا مسهم الضر يلجؤون إلى الله سبحانه وتعالى.

٤ ـ **ومنها**: أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كغيرهم في الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى؛ فلا يقال: إن الرسل قادرون على كل شيء، وأنهم لا يصيبهم السوء.

٥ ـ **ومنها**: رأفة موسى بقومه؛ لقوله تعالى: ﴿**وإذا استسقى موسى لقومه**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن الله سبحانه وتعالى قادر جواد؛ ولهذا أجاب الله تعالى دعاء موسى؛ لأن العاجز لا يسقي؛ والبخيل لا يعطي.

٧ ـ **ومنها**: إثبات سمع الله سبحانه وتعالى، لقوله تعالى: ﴿**فقلنا**﴾؛ لأن الفاء هنا للسببية؛ يعني: فلما استسقى موسى قلنا؛ فدل على أن الله سمع استسقاء موسى، فأجابه.

٨ ـ **ومنها**: كمال قدرة الله عزّ وجلّ، حيث إن موسى ﷺ يضرب الحجر اليابس بالعصا، فيتفجر عيوناً؛ وهذا شيء لم تجر العادة بمثله؛ فهو دليل على قدرة الله عزّ وجلّ، وأنه ليس كما يزعم الطبائعيون بأنه طبيعة؛ إذ لو كانت الأمور بالطبيعة ما تغيرت، وبقيت على ما هي عليه.

٩ ـ **ومنها**: الآية العظيمة في عصا موسى، حيث يضرب به الحجر، فيتفجر عيوناً مع أن الحجر صلب، ويابس؛ وقد وقع لرسول الله ﷺ ما هو أعظم، حيث أُتي إليه بإناء فيه ماء، فوضع

يده فيه، فصار يفور من بين أصابعه كالعيون[1]؛ **ووجه** كونه أعظم: أنه ليس من عادة الإناء أن يتفجر عيوناً بخلاف الحجارة؛ فقد قال الله تعالى: ﴿**وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار**﴾ [البقرة: ٧٤]؛ **ووجه آخر**: أن الإناء منفصل عن الأرض لا صلة له بها بخلاف الحجارة.

١٠ ـ **ومنها**: حكمة الله سبحانه وتعالى بجعل هذا الماء المتفجر اثنتي عشرة عيناً؛ لفائدتين:

الفائدة الأولى: السعة على بني إسرائيل؛ لأنه لو كان عيناً واحدة لحصلت مشقة الزحام.

الفائدة الثانية: الابتعاد عن العداوة، والبغضاء بينهم؛ لأنهم كانوا اثنتي عشرة أسباطاً؛ فلو كانوا جُمعوا في مكان واحد مع الضيق، والحاجة إلى الماء لحصل بينهم نزاع شديد؛ وربما يؤدي إلى القتال؛ فهذا من رحمة الله ـ تبارك وتعالى ـ ببني إسرائيل، حيث فجره اثنتي عشرة عيناً، ولهذا أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذه النعمة بقوله: ﴿**قد علم كل أناس مشربهم**﴾: كل أناس من بني إسرائيل.

١١ ـ **من فوائد الآية**: أن الله سبحانه وتعالى يذكِّر بني إسرائيل بهذه النعم العظيمة لأجل أن يقوموا بالشكر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾.

١٢ ـ **ومنها**: أن ما خلق الله تعالى من المأكول، والمشروب للإنسان فالأصل فيه الإباحة، والحل؛ لأن الأمر

---

(١) راجع البخاري ص١٩، كتاب الطهارة، باب الوضوء في التَّوْر، حديث رقم ٢٠٠.

للإباحة؛ فما أخرج الله تعالى لنا من الأرض، أو أنزل من السماء فالأصل فيه الحل؛ فمن نازع في حل شيء منه فعليه الدليل؛ فالعبادات الأصل فيها الحظر؛ وأما المعاملات، والانتفاعات بما خلق الله فالأصل فيها الحل، والإباحة.

١٣ ـ **ومنها**: تحريم الإفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾؛ والأصل في النهي التحريم.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

التفسير:

﴿٦١﴾ قوله تعالى: ﴿**وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد**﴾؛ المن، والسلوى من أحسن الأطعمة، وأنفعها للبدن، وألذّها مذاقاً، ومن أحسن ما يكون؛ لكن بني إسرائيل لدناءتهم لم يصبروا على هذا؛ قالوا: ﴿**لن نصبر على طعام واحد**﴾: لا نريد المن، والسلوى فقط؛ نريد أطعمة متعددة؛ ولكنها أطعمة بالنسبة للتي رُزِقوها أدنى ـ يعني ليست مثلها؛ بل إنها تعتبر رديئة جداً بالنسبة لهذا.

فإن قال قائل: كيف يقولون: طعام واحد وهما طعامان: المن، والسلوى؟

فالجواب: أن المن في الغالب يستعمل في الشرب؛ فهو ينبذ في الماء، ويشرب؛ أو يقال: المراد بالطعام هنا الجنس؛ يعني: لا نصبر على هذا الجنس فقط ـ ليس عندنا إلا منّ وسلوى.

قوله تعالى: ﴿**فادع لنا ربك**﴾: هذا توسل منهم بموسى ليدعو الله عزّ وجلّ لهم؛ وكلمة: ﴿**فادع لنا ربك**﴾ تدل على جفاء عظيم منهم؛ فهم لم يقولوا: «ادع لنا ربنا»، أو «ادع الله»؛ بل قالوا: «**ادع لنا ربك**»، كأنهم بريئون منه ـ والعياذ بالله؛ وهذا من سفههم، وغطرستهم، وكبريائهم.

قوله تعالى: ﴿**يخرج لنا**﴾؛ ﴿**يخرج**﴾ فعل مضارع مجزوم على أنه جواب الطلب: «**ادع**»؛ أو جواب لشرط محذوف؛ والتقدير: إن تدعه يخرج لنا.

قوله تعالى: ﴿**مما تنبت الأرض**﴾ أي مما تخرجه.

قوله تعالى: ﴿**من بقلها**﴾؛ ﴿**من**﴾ بيانية؛ بينت الاسم الموصول: ﴿**ما**﴾؛ لأن الاسم الموصول مبهم يحتاج إلى بيان؛ و﴿**بقلها**﴾: هو النبات الذي ليس له ساق، مثل الكراث؛ ﴿**وقثائها**﴾: هي صغار البطيخ؛ ﴿**وفومها**﴾ هو الثُّوم؛ يقال: «ثوم» بالمثلثة؛ ويقال: «فوم» بالفاء الموحدة، ﴿**وعدسها**﴾؛ «**العدس**» معروف؛ ﴿**وبصلها**﴾: أيضاً معروف.

وكل هذه بالنسبة للمن، والسلوى ليست بشيء؛ ولهذا أنكر عليهم موسى ﷺ، فقال: ﴿**أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو**

خير﴾، أي أتأخذون الذي هو أدنى بدلاً عن الذي هو خير.

قوله تعالى: ﴿اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم﴾ يعني أن هذا ليس بصعب يحتاج إلى دعاء الله؛ لأن الله تعالى أوجده في كل مصر؛ وكأن موسى ﷺ أنكر عليهم هذا؛ وبين لهم أنه لا يليق به أن يسأل الله سبحانه وتعالى لهم ما هو أدنى وموجود في كل مصر؛ وأما قول من قال من المفسرين: «إنه دعا، وقيل له: قل لهم: يهبطون مصراً فإن لهم ما سألوا» فهذا ليس بصحيح؛ لأنه كيف ينكر عليهم أن يطلبوا ذلك منه، ثم هو يذهب، ويدعو الله به!!! فالصواب أن موسى وبَّخهم على ما سألوا، وأنكر عليهم، وقال لهم: إن هذا الأمر الذي طلبتم موجود في كل مصر؛ ولهذا قال: ﴿اهبطوا مصراً﴾؛ و﴿مصراً﴾ ليست البلد المعروف الآن، ولكن المقصود أيّ مصر كانت؛ ولهذا نُكِّرت؛ و«مصر» البلد لا تنكَّر، ولا تنصرف؛ واقرأ قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً﴾ [يونس: ٨٧]؛ فالمعنى: اهبطوا أيّ مصر من الأمصار تجدون ما سألتم.

قوله تعالى: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾؛ وفي قوله تعالى: ﴿عليهم﴾ ثلاث قراءات: كسر الهاء وضم الميم؛ وكسرها جميعاً؛ وضمهما جميعاً.

قوله تعالى: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾: جملة مستأنفة إخبار من الله عزّ وجلّ بما حصل عليهم؛ و﴿الذلة﴾: الهوان؛ فهم أذلة لا يقابلون عدواً، وقد قال الله تعالى: ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر﴾ [الحشر: ١٤] و﴿المسكنة﴾: الفقر؛ فليس عندهم شجاعة، ولا غنًى؛ لا

كرم بالمال، ولا كرم بالنفس؛ فـ«الشجاعة» كرم بالنفس: بأن يجود الإنسان بنفسه لإدراك مقصوده؛ و«الكرم» جود بالمال؛ فلم يحصل لهم هذا، ولا هذا؛ فلا توجد أمة أفقر قلوباً، ولا أبخل من اليهود، فالأموال كثيرة، لكن قلوبهم فقيرة، وأيديهم مغلولة.

قوله تعالى: ﴿**وباءوا بغضب من الله**﴾ أي رجعوا؛ والباء للمصاحبة؛ و﴿**من**﴾ للابتداء؛ يعني الغضب من الله ـ أي أن الله غضب عليهم، كما قال تعالى: ﴿**قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت**﴾ [المائدة: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿**ذلك**﴾: الظاهر أن المشار إليه كل ما سبق، وليس فقط قوله تعالى: ﴿**وضربت عليهم الذلة...**﴾؛ فكل ما سبق مشار إليه حتى سؤالهم الذي هو أدنى عن الذي هو خير؛ ﴿**بأنهم**﴾: الباء للسببية؛ ﴿**كانوا يكفرون بآيات الله**﴾ أي يكذبون بها؛ والمراد الآيات الكونية، والشرعية؛ فالشرعية تتعلق بالعبادة؛ والكونية تتعلق بالربوبية، فهم يكفرون بهذا، وبهذا.

قوله تعالى: ﴿**ويقتلون النبيين**﴾ أي يعتدون عليهم بالقتل؛ وفي قوله تعالى: ﴿**النبيين**﴾ قراءتان؛ **الأولى**: بتشديد الياء بدون همز: ﴿**النبيِّين**﴾؛ **والثانية**: بتخفيف الياء، والهمز: ﴿**النبيئين**﴾؛ فعلى القراءة الأولى قيل: إنه مشتق من النَّبْوَة ـ وهو الارتفاع؛ لارتفاع منْزلة الأنبياء؛ وقيل: من النبأ، وأبدلت الهمزة ياءً تخفيفاً؛ وعلى القراءة الثانية فإنه مشتق من النبأ، لأن الأنبياء مخبرون عن الله عزّ وجلّ.

قوله تعالى ﴿**بغير الحق**﴾ أي بالباطل المحض؛ وهذا القيد

لبيان الواقع، وللتشنيع عليهم بفعلهم؛ لأنه لا يمكن قتل نبي بحق أبداً.

قوله تعالى: ﴿**ذلك**﴾: المشار إليه ما سبق من كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق؛ ﴿**بما عصوا**﴾: الباء للسببية؛ و«**المعصية**» الخروج عن الطاعة إما بترك المأمور؛ وإما بفعل المحظور؛ ﴿**وكانوا يعتدون**﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿**بما عصوا**﴾؛ و«**الاعتداء**» مجاوزة الحد إما بالامتناع عما يجب للغير؛ أو بالتعدي عليه.

والفرق بين «**المعصية**»، و«**العدوان**» إذا ذكرا جميعاً: أن «**المعصية**» فعل ما نهي عنه؛ و«**الاعتداء**» تجاوز ما أُمِر به، مثل أن يصلي الإنسان الظهر مثلاً خمس ركعات؛ وقيل: إن «**المعصية**» ترك المأمور؛ و«**العدوان**» فعل المحظور.

وسواء أكان هذا أم هذا فالمهم أن هؤلاء اعتدوا، وعصوا؛ فلم يقوموا بالواجب، ولا تركوا المحرم؛ ولذلك تدرجت بهم الأمور حتى كفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءه؛ وفي ذلك دليل لما ذهب إليه بعض أهل العلم أن المعاصي بريد الكفر؛ فالإنسان إذا فعل معصية استهان بها، ثم يستهين بالثانية، والثالثة... وهكذا حتى يصل إلى الكفر؛ فإذا تراكمت الذنوب على القلوب حالت بينها، وبين الهدى، والنور، كما قال تعالى: ﴿**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾ [المطففين: ١٤].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: لؤم بني إسرائيل، وسفههم؛ حيث إنهم طلبوا أن يغير لهم الله هذا الرزق الذي لا يوجد له نظير بقولهم:

﴿لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يُخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثَّائها وفومها وعدسها وبصلها﴾.

٢ ـ **ومنها**: غطرسة بني إسرائيل، وجفاؤهم؛ لقولهم: **﴿ادع لنا ربك﴾**؛ ولم يقولوا: «ادع لن ربنا»، أو: «ادع لنا الله»؛ كأن عندهم ـ والعياذ بالله ـ أنفة؛ مع أنهم كانوا مؤمنين بموسى ومع ذلك يقولون: **﴿ادع لنا ربك﴾** ـ كما قالوا: **﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾** [المائدة: ٢٤].

٣ ـ **ومنها**: أن من اختار الأدنى على الأعلى ففيه شبه من اليهود؛ ومن ذلك هؤلاء الذين يختارون الشيء المحرم على الشيء الحلال.

٤ ـ **ومنها**: أن من علوّ همة المرء أن ينظر للأكمل، والأفضل في كل الأمور.

٥ ـ **ومنها**: أن التوسع في المآكل، والمشارب، واختيار الأفضل منها إذا لم يصل إلى حد الإسراف فلا ذم فيه؛ ولذلك لم ينكر النبي ﷺ على أصحابه حين أتوه بتمر جيد بدلاً عن الرديء[(١)]؛ لكن لو ترك التوسع في ذلك لغرض شرعي فلا بأس كما فعله عمر رضي الله عنه عام الرمادة؛ وأما إذا تركها لغير غرض شرعي فهو مذموم؛ لأن الله تعالى يحب من عبده إذا أنعم عليه نعمة أن يرى أثر نعمته عليه[(٢)].

---

(١) راجع البخاري ص١٨١، كتاب الوكالة، باب ١١: إذا باع الوكيل شيئاً فاسداً فبيعه مردود، حديث رقم ٢٣١٢؛ وصحيح مسلم ص٩٥٤، كتاب المساقاة، باب ١٨؛ بيع الطعام مثلاً بمثل، حديث رقم ٤٠٨٣ [٩٦] ١٥٩٤.

(٢) انظر ص١٩٧ الفائدة الخامسة.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: حِلّ البقول، والقثاء، والفوم، والعدس، والبصل؛ لقولهم: ﴿**ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض...**﴾ إلى قوله: ﴿**اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم**﴾ أي من الأصناف المذكورة.

وهذه الأصناف مباحة في شريعة موسى؛ وكذلك في شريعتنا؛ فإنه لما قُدِّم للرسول ﷺ قدر فيه بقول فكره أكلها؛ فلما رآه بعض أصحابه كره أكلها، قال الرسول ﷺ: «**كل؛ فإني أناجي من لا تناجي**»[1]؛ فأباحها لهم؛ وكذلك في خيبر لما وقع الناس في البصل، وعلموا كراهة النبي ﷺ لها قالوا: حُرّمت؛ قال ﷺ: «**إنه ليس بي تحريم ما أحل الله**»[2]؛ فبين أنه حلال.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: جواز إسناد الشيء إلى مكانه لا إلى الفاعل الأول؛ لقولهم ﴿**مما تنبت الأرض**﴾؛ والذي ينبت حقيقة هو الله سبحانه وتعالى.

٨ ـ **ومنها**: جواز إسناد الشيء إلى سببه الحقيقي الذي ثبت أنه سبب شرعاً، أو حساً؛ مثال ذلك: لو أطعمت جائعاً يكاد يموت من الجوع فإنه يجوز أن تقول: «لولا أني أطعمته لهلك»؛ لأن الإطعام سبب لزوال الجوع؛ والهلاك معلوم بالحس؛ ومثال الشرعي: القراءة على المريض، فيبرأ، فتقول: «لولا القراءة عليه

---

(١) أخرجه البخاري ص٦٧، كتاب الأذان، باب ١٦٠: ما جاء في الثوم النِّيء والبصل والكراث، حديث رقم ٨٥٥؛ وأخرجه مسلم ص٧٦٤، كتاب المساجد، باب ١٧: نهي من أكل ثوماً...، حديث رقم ١٢٥٣ [٧٣] ٥٦٤.

(٢) أخرجه مسلم ص٧٦٤ ـ ٧٦٥، كتاب المساجد، باب ١٧: نهي من أكل ثوماً...، حديث رقم ١٢٥٦ [٧٦] ٥٦٥.

لم يبرأ»؛ أما المحظور فهو أن تثبت سبباً غير ثابت شرعاً، ولا حساً، أو تقرن مشيئة الله بالسبب بحرف يقتضي التسوية مع الله عزّ وجلّ؛ **مثال الأول**: أولئك الذين يعلقون التمائم البدعية، أو يلبسون حلقاً، أو خيوطاً لدفع البلاء، أو رفعه ـ كما زعموا؛ **ومثال الثاني**: ما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال له رجل: «ما شاء الله وشئت»، فقال له النبي ﷺ: «**أجعلتني لله نداً، بل ما شاء الله وحده**»[1]، لأنك إذا قلت: «ما شاء الله وشئت» جعلت المخاطَب ندًّا لله في المشيئة.

فإذا قال قائل: أليس الله قد ذم قارون حينما قال: ﴿**إنما أوتيته على علم عندي**﴾ [القصص: ٧٨]؛ فنسب حصول هذا المال إلى العلم؛ وهذا قد يكون صحيحاً؟

فالجواب أن هذا الرجل أنكر أن يكون من الله ابتداءً؛ ومعلوم أن الإنسان إذا أضاف الشيء إلى سببه دون أن يعتقد أن الله هو المسبِّب فهو مشرك؛ وأيضاً فإن قارون أراد بقوله هذا أن يدفع وجوب الإنفاق عليه مبتغياً بذلك الدار الآخرة.

والخلاصة: أن الحادث بسبب معلوم له صور:

الصورة الأولى: أن يضيفه إلى الله وحده.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢١٤، حديث رقم ١٨٣٩؛ وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، راجع فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد ٢/ ٢٥٣، باب ٣٣٩: قول الرجل: ما شاء الله وشئت، حديث رقم ٧٨٣؛ وأخرجه ابن أبي شيبة ٥/ ٣٤٠، باب ٢٣١: في الرجل يقول: ما شاء الله وشاء فلان، حديث رقم ٢٦٢٨٢، قال الألباني في السلسلة الصحيحة: فالإسناد حسن ١/ ٢١٧، حديث رقم ١٣٩، وقال في صحيح الأدب المفرد: صحيح ص٢٩٢.

الثانية: أن يضيفه إلى الله تعالى مقروناً بسببه المعلوم؛ مثل أن يقول: «لولا أن الله أنجاني بفلان لغرقت».

الثالثة: أن يضيفه إلى السبب المعلوم وحده مع اعتقاد أن الله هو المسبِّب؛ ومنه قول النبي ﷺ في عمه أبي طالب لما ذكر عذابه: «**لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»[1].

الرابعة: أن يضيفه إلى الله مقروناً بالسبب المعلوم بـ«ثم»، كقوله: «لولا الله ثم فلان»؛ «**وهذه الأربع كلها جائزة**».

الصورة الخامسة: أن يضيفه إلى الله، وإلى السبب المعلوم مقروناً بالواو؛ فهذا شرك، كقوله: «لولا الله وفلان».

الصورة السادسة: أن يضيفه إلى الله ، وإلى السبب المعلوم مقروناً بالفاء، مثل: «لولا الله ففلان»؛ **فهذا محل نظر**: يحتمل الجواز، ويحتمل المنع.

الصورة السابعة: أن يضيفه إلى سبب موهوم ليس بثابت شرعاً، ولا حساً، **فهذا شرك ـ كما سبق**.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: توبيخ موسى عليه السلام لبني إسرائيل، وأن الذي يستبدل الأدنى بالذي هو خير يستحق التوبيخ؛ لأن موسى وبخهم، حيث قال: ﴿**أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: أنه يجوز للإنسان أن يعتذر عن الوساطة إذا لم

---

(١) أخرجه البخاري ص٣١٥، كتاب مناقب الأنصار، باب ٤٠: قصة أبي طالب، حديث ٣٨٨٣؛ وأخرجه مسلم ص٧١٧، كتاب الإيمان، باب ٩٠: شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، حديث رقم ٥١٠ [٣٥٧] ٢٠٩.

يكن لها داعٍ؛ لأنه قال: ﴿**اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم**﴾؛ وكأنه قال: لا حاجة أن أدعو الله أن يخرج لكم مما تنبت الأرض.

١١ ـ **ومنها**: ضرب الذلة على بني إسرائيل؛ وقد ذكر الله تعالى أنهم ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله ـ وهو الإسلام؛ أو بحبل من الناس وهو المساعدات الخارجية؛ والمشاهد الآن أن اليهود أعزاء بما يساعدهم إخوانهم من النصارى.

١٢ ـ **ومنها**: أن اليهود قد ضربت عليهم المسكنة وهي الفقر؛ ويشمل فقر القلوب الذي هو شدة الطمع بحيث أن اليهودي لا يشبع، ولا يتوقف عن طلب المال ولو كان من أكثر الناس مالاً؛ ويشمل أيضاً فقر المال وهو قلته.

١٣ ـ **ومنها**: أن بني إسرائيل لا يقومون للمسلمين لو حاربوهم من قبل الإسلام؛ لأن ضرب الذلة بسبب المعصية؛ فإذا حوربوا بالطاعة والإسلام فلا شك أنه سيكون الوبال عليهم؛ وقد قال الله تعالى: ﴿**لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر**﴾ [الحشر: ١٤]؛ وما يشاهد اليوم من مقاتلة اليهود للعرب فإنما ذلك لسببين:

الأول: قلة الإخلاص لله تعالى؛ فإن كثيراً من الذين يقاتلون اليهود ـ أو أكثرهم ـ لا يقاتلونهم باسم الإسلام، وأن تكون كلمة الله هي العليا؛ وإنما يقاتلونهم باسم العروبة؛ فهو قتال عصبي قَبَليّ؛ ولذلك لم يفلح العرب في مواجهة اليهود.

والسبب الثاني: كثرة المعاصي من كبيرة، وصغيرة؛ حتى إن

بعضها ليؤدي إلى الكفر؛ وقد حصل للمسلمين في أُحُد ما حصل بمعصية واحدة مع ما انضم إليها من التنازع، والفشل، كما قال الله تعالى: ﴿**حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون**﴾ [آل عمران: ١٥٢].

١٤ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات صفة الغضب لله تعالى؛ وغضب الله سبحانه وتعالى صفة من صفاته؛ لكنها لا تماثل صفات المخلوقين؛ فنحن عندما نغضب تنتفخ الأوداج منا، ويحمر الوجه، ويقفُّ الشعر، ويفقد الإنسان صوابه؛ وهذه العوارض لا تكون في غضب الله؛ لأن الله ليس كمثله شيء؛ بل هو غضب يليق بالله عزّ وجلّ دال على كمال عظمته، وسلطانه؛ وإذا قلنا بهذا، وسلَّمنا أن الغضب صفة حقيقية برئت بذلك ذمتنا، وصرنا حسب ما أمر الله به، ورسوله.

وفسر أهل التحريف «غضب الله» بانتقامه، ولا يثبتونه صفة لله عزّ وجلّ؛ وفسره آخرون بأنه إرادة الانتقام؛ فمعنى ﴿**غضب الله عليهم**﴾ عندهم: أراد أن ينتقم منهم؛ وتفصيل ذلك مذكور في كتب العقائد.

١٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن بني إسرائيل جمعوا بين المعاصي، والعدوان.

١٦ ـ **ومنها**: بيان حكمة الله عزّ وجلّ حيث ربط الأشياء بأسبابها؛ لقوله تعالى: ﴿**ذلك بأنهم**﴾، وقوله تعالى: ﴿**ذلك بما عصوا**﴾؛ وهذا من الحكمة أن يكون للأسباب تأثيراً في مسبَّباتها بما جعله الله رابطاً بين الأسباب والمسبَّبات، ولكن الأسباب قد يكون لها موانع؛ فقد توجد الأسباب، ولكن توجد موانع أقوى

منها؛ فالنار لم تحرق إبراهيم ﷺ - مع أنها سبب للإحراق - لوجود مانع؛ وهو قول الله تعالى لها: ﴿**كوني برداً وسلاماً على إبراهيم**﴾ [الأنبياء: ٦٩].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

التفسير:

لما ذكر الله سبحانه وتعالى ما عاقب به بني إسرائيل من ضرب الذلة، والمسكنة، والغضب بَيَّن أن المؤمنين من بني إسرائيل، وغيرهم كلهم لهم أجرهم عند الله.

ومناسبة الآية لما قبلها أنه تعالى لما قال: ﴿**وباءوا بغضب من الله**﴾ بيَّن أن من آمن منهم، وعمل صالحاً فإن الله لا يضيع أجره؛ فقال تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر فلهم أجرهم...**﴾.

﴿٦٢﴾ قوله تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا**﴾ يعني أمة محمد ﷺ؛ لأنهم هم الذين يستحقون الوصف بالإيمان المطلق، حيث آمنوا بجميع الكتب، والرسل.

قوله تعالى: ﴿**والذين هادوا**﴾ أي الذين انتسبوا إلى دين اليهود - وهي شريعة موسى، ﴿**والنصارى**﴾ أي الذين انتسبوا إلى دين عيسى.

قوله تعالى: ﴿والصابئين﴾: اختلف فيهم على عدة أقوال؛ فمن العلماء من يقول: إن الصابئين فرقة من النصارى؛ ومنهم من يقول: إنهم فرقة من اليهود؛ ومنهم من يقول إنهم فرقة من المجوس؛ ومنهم من يقول: إنهم أمة مستقلة تدين بدين خاص بها؛ ومنهم من يقول: إنهم من لا دين لهم: من كانوا على الفطرة؛ ولا يتدينون بدين ـ وهذا هو الأقرب؛ فإذا أرسل إليهم الرسل فآمنوا بالله واليوم الآخر ثبت لهم انتفاء الخوف، والحزن، كغيرهم من الطوائف الذين ذُكروا معهم.

قوله تعالى: ﴿من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ هذا بدل ممن قبله عائد إلى الذين هادوا، والنصارى، والصابئين.

قوله تعالى: ﴿فلهم أجرهم﴾ أي ثوابهم؛ وسمى الله تعالى «الثواب» أجراً؛ لأنه سبحانه وتعالى التزم على نفسه أن يجزي به كالتزام المستأجر بدفع الأجرة للأجير؛ ﴿عند ربهم﴾: أضاف ربوبيته إليهم على سبيل الخصوص تشريفاً، وتكريماً، وإظهاراً للعناية بهم؛ فهذه كفالة من الله عزّ وجلّ، وضمان، والتزام بهذا الأجر؛ فهو أجر غير ضائع.

قوله تعالى: ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾؛ «**الخوف**» هو الهمّ مما يستقبل؛ و«**الحزن**»: هو الغم على ما فات من محبوب، أو ما حصل من مكروه؛ ولهذا يقال لمن أصيب بمصيبة: «إنه محزون»؛ ويقال لمن يتوقع أمراً مرعباً، أو مروعاً: «إنه خائف»؛ وقد يطلق «الحزن» على الخوف مما يستقبل، كقول النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه وهما في الغار: «**لا تحزن إن الله**

معنا»[١]، فالمراد ـ والله أعلم ـ لا تخف؛ فقوله تعالى: ﴿**ولا خوف عليهم**﴾ أي من كل مما يخاف في المستقبل: من عذاب القبر، وعذاب النار، وغير ذلك؛ وقوله تعالى: ﴿**ولا هم يحزنون**﴾ أي على ما مضى من الدنيا؛ لأنهم انتقلوا إلى خير منها؛ أما الكافر فيحزن على ما فرط في الحياة الدنيا، ويتحسر، كما قال تعالى: ﴿**وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله**﴾ [الزمر: ٥٤ ـ ٥٦]: هذا تحزُّن، وتحسُّر.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً، فكل من آمن بالله واليوم الآخر، فإن له أجره من أيّ صنف كان.

٢ ـ **ومنها**: ثمرة الإيمان بالله، واليوم الآخر ـ وهو حصول الأجر، وانتفاء الخوف مما يستقبل، والحزن على ما مضى.

٣ ـ **ومنها**: أنه لا فرق في ذلك بين جنس وآخر؛ فالذين هادوا، والنصارى، والصابئون مثل المؤمنين إذا آمنوا بالله، واليوم الآخر ـ وإن كان المؤمنون من هذه الأمة يمتازون على غيرهم بأنهم أكثر أجراً.

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٩٤، كتاب المناقب، باب ٢٥: علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم ٣٦١٥؛ وأخرجه مسلم ص١١٩٩، كتاب الزهد، باب ١٩: في حديث الهجرة ويقال له حديث الرجل، حديث رقم ٧٥٢١ [٧٥] ٢٠٠٩.

٤ ـ **ومنها**: عظم أجر الذين آمنوا، وعملوا الصالحات؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿**عند ربهم**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أنه إذا ذكر الثناء بالشر على طائفة، وكان منهم أهل خير فإنه ينبغي ذكر أولئك الذين اتصفوا بالخير حتى لا يكون قدحاً عاماً؛ لأنه تعالى بعدما قال: ﴿**ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق**﴾ [البقرة: ٦١] بيَّن أن منهم من آمن بالله، واليوم الآخر، وأن من آمن بالله واليوم الآخر فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

التفسير:

﴿٦٣﴾ ثم ذكَّر سبحانه وتعالى بني إسرائيل بأمر أخذه عليهم، فقال تعالى: ﴿**وإذ أخذنا ميثاقكم**﴾ يعني اذكروا إذا أخذنا ميثاقكم؛ و«**الميثاق**»: العهد الثقيل المؤكد؛ وسمي بذلك من الوَثاق ـ وهو الحبل الذي يُشد به المأسور، كما في قوله تعالى: ﴿**فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق**﴾ [محمد: ٤].

قوله تعالى: ﴿**ورفعنا فوقكم**﴾ أي فوق رؤوسكم ﴿**الطور**﴾ هو الجبل المعروف؛ رفعه الله ـ تبارك وتعالى ـ على بني إسرائيل

لما تهاونوا في طاعة الله سبحانه وتعالى إنذاراً لهم، وقال تعالى لهم: ﴿**خذوا ما آتيناكم بقوة**﴾ أي: اقبلوا ما أعطيناكم من التوراة ـ كما قال تعالى: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب**﴾ [البقرة: ١٢١] ـ واعملوا به بقوة؛ والمراد بالـ«**قوة**» هنا الحزم، والتنفيذ؛ والتطبيق؛ وضده أن يأخذ الإنسان أخذاً ضعيفاً متساهلاً على كسل؛ والباء في قوله تعالى: ﴿**بقوة**﴾ للمصاحبة؛ أي خذوا هذا الكتاب ـ أي التوراة التي جاء بها موسى ﷺ ـ أخذاً مصحوباً بقوة، فلا تهملوا شيئاً منه.

قوله تعالى: ﴿**واذكروا ما فيه**﴾ أي اذكروا كل ما فيه، واعملوا به؛ لأن ﴿**ما**﴾ اسم موصول يفيد العموم.

قوله تعالى: ﴿**لعلكم تتقون**﴾: «**لعل**» للتعليل؛ أي لأجل أن تتقوا الله عزّ وجلّ؛ فالأخذ بهذا الميثاق الذي آتاهم الله على وجه القوة، وذكر ما فيه وتطبيقه يوجب التقوى؛ لأن الطاعات يجر بعضها بعضاً، كما قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾ [البقرة: ١٨٣]؛ فالطاعات يجر بعضها بعضاً، لأن الطاعة إذا ذاق الإنسان طعمها نشط، وابتغى طاعة أخرى، ويتغذى قلبه؛ وكلما تغذى من هذه الطاعة رغب في طاعة أخرى؛ وبالعكس المعاصي: فإنها توجب وحشة بين العبد وبين الله عزّ وجلّ، ونفوراً، والمعاصي يجر بعضها بعضاً؛ وسبق قوله تعالى: ﴿**ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**﴾ [البقرة: ٦١]؛ ثم بعد هذا الإنذار، وكون الجبل فوقهم في ذلك الوقت خضعوا، وخشعوا، قال الله تعالى: ﴿**وإذ نتقنا**

الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ [الأعراف: ١٧١]؛ ففي تلك الساعة هرعوا إلى السجود؛ وسجدوا؛ ولكنهم مالوا في سجودهم ينظرون إلى الجبل خائفين منه؛ ولهذا يقال: إن سجود اليهود إلى الآن سجود مائل كأنما ينظرون إلى شيء فوقهم؛ وقالوا: إن هذا السجود سجدناه لله سبحانه وتعالى لإزالة الشدة؛ فلا نزال نسجد به؛ فهذا سجودهم إلى اليوم.

﴿٦٤﴾ قوله تعالى: **﴿ثم توليتم﴾** أي أعرضتم وأدبرتم عن طاعة الله سبحانه وتعالى **﴿من بعد ذلك﴾**: المشار إليه: رفع الجبل في قوله تعالى: **﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾**؛ والمعنى: بعد هذه الإنابة وقت رفع الطور توليتم، ولم تذكروها؛ ما ذكرتم أن الذي خوفكم بهذا الجبل قد يعيد عليكم ذلك مرة أخرى.

قوله تعالى: **﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته﴾** بإرسال الرسل، وبيان السبل، وغير ذلك فـ«**الفضل**» بمعنى التفضل؛ و«**لولا**» حرف امتناع لوجود؛ و«**فضل**» مبتدأ، وخبره محذوف، كما قال ابن مالك:

وبعد لولا غالباً حذف الخبر حتم وفي نص يمين ذا استقر

والتقدير: فلولا فضل الله عليكم موجود.

قوله تعالى: **﴿لكنتم من الخاسرين﴾**: اللام واقعة في جواب «**لولا**».

وقوله تعالى: **﴿الخاسرين﴾** أي الذين خسروا الدنيا، والآخرة، فلم يربحوا منهما بشيء؛ لأن أخسر الناس هم الكفار؛ فلا هم استفادوا من دنياهم، ولا من آخرتهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: تذكير الله ـ تبارك وتعالى ـ لبني إسرائيل بما أخذ عليهم من عهد؛ لقوله تعالى: ﴿**وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور**﴾؛ وهذا التذكير مقتضاه الإلزام ـ أي فالتزموا بالميثاق.

٢ ـ **ومنها**: عتوّ بني إسرائيل، حيث لم يؤمنوا إلا حين رفع فوقهم الطور كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم؛ فحينئذٍ آمنوا؛ وهذا الإيمان في الحقيقة يشبه إيمان المكره الذي قيل له: إما أن تؤمن؛ أو تُقْتَل.

٣ ـ **ومنها**: بيان قوة الله عزّ وجلّ، وقدرته؛ لقوله تعالى: ﴿**ورفعنا فوقكم الطور**﴾؛ وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿**وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة**﴾ [الأعراف: ١٧١]؛ فلا أحد من الخلق يستطيع أن يحمل ذلك الجبل، ويجعله ظلة لا يسقط عليهم إلا الله عزّ وجلّ؛ فالأحجار العظيمة الثقيلة الكبيرة أمسكها الله تعالى بقدرته.

٤ ـ **ومنها**: أن الواجب على أهل الملة أن يأخذوا كتابهم بقوة لا بضعف، ولين، ومداهنة؛ بل لابد من قوة في التطبيق، والدعوة؛ التطبيق على أنفسهم؛ ودعوة غيرهم إلى ذلك بدون فتور، ولا تراخٍ على حدّ قوله تعالى: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ [النمل: ١٢٥]؛ لأنه لا يتم الأمر إلا بهذا.

٥ ـ **ومنها**: أن الأخذ بالكتاب المُنَزَّل يوجب التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿**لعلكم تتقون**﴾ أي لأجل أن تكونوا من المتقين لله عزّ وجلّ.

٦ ـ **ومنها**: لؤم بني إسرائيل؛ لأنهم بعد أن رجع الجبل إلى مكانه تولوا، كما قال تعالى: ﴿**ثم توليتم من بعد ذلك**﴾؛ وهذا من اللؤم؛ لأن من الواجب أن يذكروا رفع الجبل فوقهم حتى يستقيموا، ويستمروا على الأخذ بقوة؛ لكنهم تولوا من بعد ما رأوا الآيات.

٧ ـ **ومنها**: بيان فضل الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿**فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين**﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن الإنسان لا يستقل بنفسه في التوفيق؛ لقوله تعالى: ﴿**فلولا فضل الله عليكم ورحمته**﴾.

٩ ـ **ومنها**: إثبات فضل الله تعالى على بني إسرائيل بما أعطاهم من الآيات الكونية، والشرعية.

١٠ ـ **ومنها**: إثبات الأسباب، وربطها بمسبباتها؛ لقوله تعالى: ﴿**فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين**﴾؛ فهذا صريح في إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبَّباتها.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

التفسير:

﴿٦٥﴾ قوله تعالى: ﴿**ولقد**﴾: اللام موطئة للقسم؛ وعلى هذا فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، وهي: القسم المقدر،

واللام، و«قد»؛ والتقدير: والله لقد؛ و﴿علمتم﴾: الخطاب لبني إسرائيل؛ أي علمتم عِلم القين، وعرفتم معرفة تامة ﴿الذين اعتدوا منكم﴾ أي تجاوزوا الحدود، وطغوا منكم.

قوله تعالى ﴿في السبت﴾ أي في الحكم الذي حكم الله به عليهم يوم السبت؛ وذلك أن الله حرم عليهم العمل والصيد في ذلك اليوم ليتفرغوا للعبادة؛ فابتلاهم بكثرة الحيتان يوم السبت حتى تكون فوق الماء شُرَّعاً، ثم لا يرونها بعد ذلك؛ فتحيلوا على صيدها بحيلة، حيث وضعوا شباكاً يوم الجمعة، فتدخل فيه الحيتان إذا جاءت يوم السبت، ثم يأخذونها يوم الأحد، ويقولون: نحن لم نصدها يوم السبت، فقال لهم الله تعالى: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ أي ذليلين، فصاروا كذلك.

﴿٦٦﴾ قوله تعالى: ﴿فجعلناها﴾ أي صيرناها؛ واختلف المفسرون في مرجع الضمير المفعول به؛ فقيل: يعود على القرية؛ لقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت﴾؛ فيكون مرجع الضمير مفهوماً من السياق؛ وقيل: يعود على العقوبة ـ أي فجعلنا العقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين * فجعلناها نكالاً﴾؛ فيكون المعنى: فجعلنا هذه العقوبة نكالاً.

قوله تعالى: ﴿نكالاً﴾: النكال، والتنكيل أن يعاقب الإنسان بعقوبة تمنعه من الرجوع إلى ما عوقب عليه.

قوله تعالى: ﴿لما بين يديها وما خلفها﴾: اختلف في مرجع الضمير «ها»؛ فقيل: يرجع إلى القرية؛ فيكون: ﴿لما بين يديها﴾: ما قرب منها من القرى من أمامها؛ و﴿ما خلفها﴾: ما

كان من القرى من خلفها؛ لأن أهل القرى علموا بما نزل بها من العقوبة، فكان ذلك نكالاً لهم؛ وقيل: إن المراد بـ«**ما بين يديها**»: ما يأتي بعدها: «**وما خلفها**»: ما سبقها؛ ولكن في هذا إشكالاً؛ لأن من سبقها قد مضى، فلا يكون منتفعاً، ولا ناكلاً إلَّا أن يراد بـ«ما بين يديها» من عاصرها، و«**ما خلفها**»: من يأتي بعدهم، ويكون «**الخَلْف**» هنا بمعنى الأمام، كما جاء «الوراء» بمعنى الأمام في قوله تعالى: ﴿**وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً**﴾ [الكهف: ٧٩].

قوله تعالى: ﴿**وموعظة للمتقين**﴾ أي موضع اتعاظ للذين يتقون الله.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: توبيخ اليهود الموجودين في عهد الرسول ﷺ على عدم الإيمان به؛ ووجه ذلك أنهم علموا ما حلّ بأسلافهم من النكال بسبب المخالفة؛ فكان عليهم أن يكون ذلك موعظة لهم يرتدعون به عن معصية الله ورسوله.

٢ ـ **ومنها**: تحريم الحيل، وأن المتحيل على المحارم لا يخرج عن العدوان؛ لقوله تعالى: ﴿**الذين اعتدوا منكم في السبت**﴾؛ بل الحيل على فعل محرم أعظم إثماً من إتيان المحرم على وجه صريح؛ لأنه جمع بين المعصية، والخداع؛ ولهذا كان المنافقون أشد جرماً وعداوة للمؤمنين من الكفار الصرحاء؛ قال أيوب السختياني ـ رحمه الله ـ في المتحيلين: «إنهم يخادعون الله كما يخادعون الصبيان؛ ولو أتوا الأمر على وجهه لكان أهون»؛ وصدق رحمه الله؛ وللحيل مفاسد كثيرة ـ راجع إن شئت كتاب

«إغاثة اللهفان» لابن القيم ـ رحمه الله ـ وغيره.

وأنت إذا تأملت حيل اليهود في السبت، وحيلهم في بيع شحوم الميتة وقد حرمت عليهم، ثم أذابوها، وباعوها، وأكلوا ثمنها؛ وتأملت حيل بعض المسلمين اليوم على الربا وغيره. وجدت أن حيل بعض المسلمين اليوم على ما ذُكر أشد حيلة من حيل اليهود ـ ومع ذلك أحل الله بهم نقمته، وقد نهانا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل**»[(١)]؛ فالمتحيل على المحرَّم واقع فيه، ولا تنفعه الحيلة.

٣ ـ **ومن فوائد الآيتين**: بيان حكمة الله في مناسبة العقوبة للذنب؛ لأن عقوبة هؤلاء المتحيلين أنهم مسخوا قردة خاسئين؛ والذنب الذي فعلوه أنهم فعلوا شيئاً صورته صورة المباح؛ ولكن حقيقته غير مباح؛ فصورة القرد شبيهة بالآدمي، ولكنه ليس بآدمي؛ وهذا؛ لأن الجزاء من جنس العمل؛ ويدل لذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿**فكلاً أخذنا بذنبه**﴾ [العنكبوت: ٤٠].

٤ ـ **ومنها**: بيان قدرة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**كونوا قردة خاسئين**﴾؛ فكانوا في لحظة قردة.

٥ ـ **ومنها**: إثبات القول لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين**﴾.

---

(١) قال ابن القيم: [رواه أبو عبد الله ابن بطة: «حدثنا أحمد بن سلَّام حدثنا الحسن بن صباح حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن عمرو»، وهذا إسناد جيد يصحح مثله الترمذي].اهـ. إغاثة اللهفان ١/ ٥١٣؛ عون المعبود مع شرح ابن القيم ٩/ ٣٤٠.

٦ ـ **ومنها**: أن الذين مسخوا قردة من هذه القرية هم الذين اعتدوا في السبت؛ وأما الذين نَهَوا عن السوء فقد نجوا؛ وأما الذين سكتوا عن المعتدين، ولم يشاركوهم فقد سكت الله عنهم؛ فنسكت عنهم.

٧ ـ **ومنها**: أن العقوبات فيها تنكيل لغير العامل؛ لقوله تعالى: ﴿**فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها**﴾؛ ولهذا يقص الله علينا من نبأ المكذبين للرسل ما يكون لنا فيه عبرة، كما قال عزّ وجلّ: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾ [يوسف: ١١١].

٨ ـ **ومنها**: أن الحدود الشرعية نكال للفاعل أن يعود مرة أخرى إلى هذا الذنب، ولغير الفاعل.

٩ ـ **ومنها**: أن الذين ينتفعون بمثل هذه المواعظ هم المتقون.

١٠ ـ **ومنها**: أن المواعظ قسمان: كونية، وشرعية؛ فالموعظة هنا كونية قدرية؛ لأن الله أحل بهم العقوبة التي تكون نكالاً لما بين يديها، وما خلفها، وموعظة للمتقين؛ وأما الشرعية فمثل قوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور**﴾ [يونس: ٥٧]؛ والمواعظ الكونية أشد تأثيراً لأصحاب القلوب القاسية؛ أما المواعظ الشرعية فهي أعظم تأثيراً في قلوب العارفين بالله اللينة قلوبهم؛ لأن انتفاع المؤمن بالشرائع أعظم من انتفاعه بالمقدورات.

١١ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن الذين ينتفعون بالمواعظ هم المتقون؛ وأما غير المتقي فإنه لا ينتفع لا بالمواعظ الكونية، ولا بالمواعظ الشرعية؛ قد ينتفع بالمواعظ الكونية اضطراراً، وإكراهاً؛ وقد لا ينتفع؛ وقد يقول: هذه الأشياء ظواهر كونية

طبيعية عادية، كما قال تعالى: ﴿**وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم**﴾ [الطور: ٤٤]؛ وقد ينتفع، ويرجع إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿**فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجَّاهم إلى البر إذا هم يشركون**﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿**وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجَّاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختَّار كفور**﴾ [لقمان: ٣٢].

١٢ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن من فوائد التقوى ـ وما أكثر فوائدها ـ أن المتقي يتعظ بآيات الله سبحانه وتعالى الكونية، والشرعية.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

التفسير:

﴿٦٧﴾ قوله تعالى: ﴿**وإذ قال موسى لقومه**﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل إذ قال موسى لقومه، وإضافة «**القوم**» إليه لبيان أنه عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يقول لهم إلا ما فيه خير؛ لأن الإنسان سوف ينصح لقومه أكثر مما ينصح لغيرهم.

قوله تعالى: ﴿**إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة**﴾: قالها في جواب ذكره الله سبحانه وتعالى في أثناء القصة: ﴿**وإذ قتلتم نفساً فادَّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون**﴾ [البقرة: ٧٢]؛ فقد قُتل منهم نفس فتخاصموا، وتدافعوا: كل يدعي أن هؤلاء قتلوه؛ حتى كادت تثور الفتنة بينهم؛ ولا حاجة بنا إلى أن نعلل لماذا قتل؛ أو لأي غرض؛ هذا ليس من الأمور التي تهمنا؛ لأن القرآن لم يتكلم بها؛ ولكن غاية ما يكون أن نأخذ عن بني إسرائيل ما لا يكون فيه قدح في القرآن، أو تكذيب له، فقالوا: لا حاجة إلى أن نتقاتل، ويُذهب بعضنا بعضاً؛ نذهب إلى نبي الله موسى، ويخبرنا من الذي قتله؛ فذهبوا إليه، فقال لهم: ﴿**إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة**﴾ صدَّر الأمر من الله؛ لم يقل: آمركم، ولا قال: اذبحوا؛ بل قال: ﴿**إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة**﴾؛ ليكون أعظم وقعاً في نفوسهم، وأدعى إلى قبوله، وامتثاله.

وقوله ﴿**بقرة**﴾: لم تعين بوصف؛ فلو ذبحوا أيّ بقرة كانت لكانوا ممتثلين؛ ولكنهم تعنتوا، وتشددوا فشدد الله عليهم ـ كما سيأتي.

قوله تعالى: ﴿**أتتخذنا هزواً**﴾؛ ﴿**هزواً**﴾ مصدر بمعنى اسم

المفعول؛ أي أتتخذنا مهزوءاً بنا؛ ويجوز أن تكون **(هزواً)** على بابها؛ ويكون المعنى: أتتخذنا ذوي هُزْء؛ فحُذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه؛ **«والهزء»** السخرية؛ وإنما قالوا ذلك لاستبعادهم أن يكون ذبح البقرة سبباً لزوال ما بينهم من المدارأة؛ والتعبير بقولهم: **﴿أتتخذنا هزواً﴾** أبلغ من قول «أتستهزئ بنا»؛ لأن الأولى تفيد أنهم جُعلوا محل استهزاء ـ بخلاف الثانية فإنما تدل على حصول الاستهزاء ـ ولو بمرة واحدة.

فأجابهم نبي الله بقوله: **﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾** أي أعتصم بالله أن أكون من أولي الجهل فأتخذ عباد الله هزواً؛ والمراد بـ**«الجهل»** هنا السفه، كما في قوله تعالى: **﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة﴾** [النساء: ١٧] ـ أي بسفاهة ـ **﴿ثم يتوبون من قريب﴾** [النساء: ١٧].

﴿٦٨ ـ ٦٩﴾ قوله تعالى: **﴿قالوا ادع لنا ربك﴾**: سبق الكلام على نظيرها؛ **﴿يبين لنا ما هي﴾**: هذا الطلب ليس له وجه؛ لأن اللفظ بين: فالبقرة معلومة، والمطلق ليس مجملاً يحتاج إلى بيان ـ لوضوح معناه؛ فإذا قيل مثلاً: «أكرم رجلاً»؛ فلا يحتاج أن تقول: «ما صفة هذا الرجل»؛ إذا أكرمت أيّ رجل حصل المقصود؛ فلو أنهم ذهبوا، وذبحوا أيّ بقرة، وامتثلوا ما أمرو به لانتهى الأمر؛ ولكنهم تعنتوا.

قوله تعالى: **﴿قال﴾** أي موسى **﴿إنه يقول﴾** أي الله عزّ وجلّ **﴿إنها بقرة لا فارض ولا بكر﴾**: **«البكر»** معروف: التي لم تلد، ولا قرعها الفحل، و**«الفارض»** تُعرف بمقابلها، فإذا كانت

«**البكر**» هي التي لم يقرعها الفحل، فإن «**الفارض**» هي المسنة الكبيرة؛ وهذا ـ أي تفسير الكلمة، أو معرفة معنى الكلمة بمعرفة ما يقابلها ـ له نظير في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿**فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً**﴾[النساء: ٧١]؛ فكلمة: ﴿**ثبات**﴾ هنا يتبين معناها بما ذكر مقابلاً لها ـ وهو قوله تعالى: ﴿**أو انفروا جميعاً**﴾؛ فيكون معناها: متفرقين أفراداً.

قوله تعالى: ﴿**عوان بين ذلك**﴾ أي وسط بين ذلك ـ أي بين كونها فارضاً وبكراً؛ وفيه إشكال على هذا: لأنه إذا كان المشار إليه اثنين وجب تثنية اسم الإشارة؛ واسم الإشارة هنا مفرد مذكر؟ والجواب عنه أن يقال: ﴿**بين ذلك**﴾ أي بين ذلك المذكور من الفارض والبكر ـ أي لا تكون هكذا، ولا هكذا، ولكن عوان بين ذلك المذكور.

قوله: ﴿**فافعلوا ما تؤمرون**﴾؛ هذا الأمر من موسى؛ وليس من كلام الله عزّ وجلّ؛ فموسى يقول لبني إسرائيل: افعلوا ما تؤمرون به من ذبح بقرة لا فارض، ولا بكر، ولا تتعنتوا فيشدد عليكم مرة ثانية؛ ولو أنهم امتثلوا، وذبحوا بقرة عواناً بين ذلك لحصل المقصود؛ وكان عليهم أن يفعلوا ـ وإن لم يأمرهم نبيهم به؛ ولكنهم أهل عناد، وتعنت؛ ولهذا أمرهم أمراً ثانياً؛ ومع ذلك قالوا: ﴿**ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها**﴾: كل هذا من باب التعنت، والتشدد؛ و﴿**ما لونها**﴾ يعني أيّ شيء لونها ـ بيضاء؛ سوداء؛ شهباء..؟

قوله تعالى: ﴿**قال**﴾ أي موسى ﴿**إنه يقول**﴾ أي الله سبحانه وتعالى ﴿**إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين**﴾: شدد عليهم

مرة أخرى في اللون: **أولاً** حيث قال تعالى: ﴿**إنها بقرة صفراء**﴾، فخرج بهذا ما عدا الصفرة من الألوان ـ وهذا نوع تضييق؛ **ثانياً** بكونها: ﴿**فاقع لونها**﴾؛ و«**الفاقع**» يعني الصافي؛ والمعنى: أنه ليس فيه ما يشوبه، ويخرجه عن الصفرة؛ وقيل: معنى ﴿**فاقع لونها**﴾ أي شديد الصفرة، وهو كلما كان صافياً كان أبين في كونه أصفر؛ **ثالثاً** بكونها: ﴿**تسر الناظرين**﴾ يعني ليست صفرتها صفرة توجب الغم؛ أو صفرتها مستكرهة؛ بل هي صفرة تجلب السرور لمن نظر إليها؛ فصار التضييق من ثلاثة أوجه: صفراء؛ والثاني: فاقع لونها؛ والثالث: تسر الناظرين.

﴿٧٠﴾ قوله تعالى: ﴿**قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي**﴾: هذا أيضاً طلب ثالث؛ يقولون: ﴿**ادع لنا ربك يبين لنا ما هي**﴾ أي من حيث العمل؛ ﴿**إن البقر تشابه علينا**﴾ أي اشتبه علينا البقرة المطلوبة؛ وفي الحقيقة أنه ليس في هذا اشتباه؛ إذ ذُكر لهم أنها بقرة، وذكر لهم سنها؛ وذكر لهم لونها؛ فأين التشابه؟! لكن هذا من عنادهم، وتعنتهم، وتباطئهم في تنفيذ أمر الله.

قولهم: ﴿**وإنا إن شاء الله لمهتدون**﴾: أكدوا الهداية هنا بمؤكدين؛ وهما: «إن»، واللام؛ ومؤكد ثالث؛ وهو الجملة الاسمية؛ وهي أبلغ من الجملة الفعلية، وأخذوا على أنفسهم أنهم سيهتدون؛ ولكنهم علقوا ذلك بمشيئة الله، قال بعض السلف: «لو لم يقولوا: ﴿**إن شاء الله**﴾ لم يهتدوا إليها أبداً» ـ وهذا فيما إذا كان قصدهم تفويض الأمر إلى الله عزّ وجلّ؛ ويحتمل أن يكون قصدهم أنهم لو لم يهتدوا لاحتجوا بالمشيئة، وقالوا: «إن الله لم يشأ أن نهتدي»! وما هذا الاحتمال ببعيد عليهم.

﴿٧١﴾ فأجابهم على هذا: ﴿قال﴾: أي موسى ﴿إنه يقول﴾ أي الله عزّ وجلّ ﴿إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلَّمة لا شية فيها﴾: هذا أيضاً تشديد زيادة على ما سبق؛ و﴿ذلول﴾ على وزن فَعول؛ وهي المتذللة التي ذللت لصاحبها؛ و«والمذللة» هي التي تثير الأرض للزرع؛ و﴿لا تسقي الحرث﴾ أي لا يُسنَى عليها؛ فهي ليست سانية، ولا حارثة؛ و﴿مسلمة﴾ أي من العيوب؛ ﴿لا شية فيها﴾ أي ليس فيها لون يخالف لونها؛ مأخوذ من وشي الثوب ـ وهو تلوينه بألوان مختلفة، مثل عِدَة مأخوذة من الوعد؛ إذاً هي صفراء ليس فيها سواد، ولا فيها بياض، ولا فيها أي لون آخر؛ وهذا كله من زيادة التشديد عليهم.

وبهذا التقرير نعرف أنه لا حاجة بنا إلى ما ذكره كثير من المفسرين من الإسرائيليات من أن هذه البقرة كانت عند رجل بارّ بأمه، وأنهم اشتروها منه بملء مَسكها ذهباً ـ يعني بملء جلدها ذهباً؛ وهذا من الإسرائيليات التي لا تصدق، ولا تكذب، ولكن ظاهر القرآن هنا يدل على كذبها؛ إذ لو كان واقعاً لكان نقله من الأهمية بمكان لما فيه من الحث على برّ الوالدين حتى نعتبر؛ فالصواب أن نقول في تفسير الآية ما قال الله عزّ وجلّ، ولا نتعرض للأمور التي ذكرها المفسرون هنا من الحكايات.

قوله تعالى: ﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾؛ ﴿الآن﴾ اسم زمان يُشار به للوقت الحاضر؛ فمقتضى كلامهم أنه أولاً أتى بالباطل، وقد صدّروا هذه القصة بقولهم ﴿أتتخذنا هزواً﴾؛ يعني الآن عرفنا أنك لست تستهزئ؛ وإنما أنت صادق؛ هذا هو المتبادر من الآية الكريمة، وليس بغريب على تعنتهم أن يقولوا مثل هذا القول؛

وقال بعض المفسرين اتقاءً لهذا المعنى البشع: إن المراد بقولهم: ﴿**بالحق**﴾ أي بالبيان التام ـ أي الآن بينت لنا أوصافها، فجعلوا «**الحق**» هنا بمعنى البيان؛ ولكن الصواب أن «**الحق**» هنا ضد الهزء، والباطل؛ يدل على ذلك أنهم صدروا هذه القصة بقولهم: ﴿**أتتخذنا هزواً**﴾؛ فبعد هذه المناقشات مع موسى، والسؤالات، وطلب الله عزّ وجلّ قالوا: الآن جئت بالحق، وعرفنا أنك لست مستهزئاً بنا؛ بل إنك جادّ فيما تقول.

قوله تعالى: ﴿**فذبحوها**﴾ أي بعد العثور عليها بأوصافها السابقة؛ ﴿**وما كادوا يفعلون**﴾ أي ما قاربوا أن يفعلوا؛ وذلك بإيرادهم الطلب عن سنها، ولونها، وعملها، وهذا تباطؤ يبعدهم من الفعل؛ لكنهم فعلوا؛ لقوله تعالى: ﴿**فذبحوها**﴾.

﴿**٧٢ ـ ٧٣**﴾ قوله تعالى: ﴿**وإذ قتلتم نفساً**﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل إذ قتلتم نفساً؛ ووجه الخطاب لمن كانوا في عهد النبي ﷺ مع أن الفعل كان ممن سبقهم؛ لأن الأمة الواحدة بمنزلة الجسد الواحد؛ وفعل أولها كفعل آخرها فيما يلحقهم من ذمّ.

قوله تعالى: ﴿**فادّارأتم فيها**﴾ أي تدافعتم؛ كل منكم يدافع عن نفسه التهمة، ويتهم الآخر، وكان قد قُتل منهم قتيل من إحدى القبيلتين؛ فادّعت كل واحدة أن الأخرى هي قاتلته؛ وكاد يكون بينهم فتنة؛ فأتوا إلى موسى، فقال لهم: ﴿**إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة...**﴾ إلخ.

قوله تعالى: ﴿**والله مخرج ما كنتم تكتمون**﴾ أي مظهر ما كنتم تخفونه من تعيين القاتل؛ وذلك بالآية العظيمة التي بينها في

قوله تعالى: ﴿**فقلنا اضربوه ببعضها**﴾؛ القائل هو الله عزّ وجلّ؛ ولكن عن طريق الوحي إلى نبيه موسى ـ عليه الصلاة والسلام؛ وأضاف قول موسى إليه تبارك وتعالى؛ لأنه هو الآمر به، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه**﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٨]: فالمراد بقوله تعالى: ﴿**قرأناه**﴾ قرأه جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ فهنا قوله تعالى: ﴿**فقلنا اضربوه ببعضها**﴾ يعني أن الله تعالى أمر نبيه موسى ﷺ، فقال لهم بأمر الله: ﴿**اضربوه ببعضها**﴾ أي اضربوا هذا القتيل ببعض هذه البقرة؛ ولم يعين الله تعالى البعض: أهو الساق؛ أو الفخذ؛ أو الرقبة؛ أو الرأس، أو أيّ جزء من أجزائها، فليس لنا أن نعينه بجزء منها.

قوله تعالى: ﴿**كذلك يحيي الله الموتى**﴾ أي مثل إحياء هذا القتيل يحيي الله عزّ وجلّ الموتى بكلمة واحدة، كما قال تعالى: ﴿**إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون**﴾ [يس: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿**ويريكم آياته**﴾ أي يظهرها لكم حتى تروها؛ والمراد بـ«**الآيات**» هنا الآيات الكونية؛ لأنها إحياء ميت بضربه بجزء من أجزاء هذه البقرة؛ ويحتمل أن يكون المراد آياته الشرعية أيضاً؛ لأن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمرهم بذلك؛ فضربوا الميت ببعض هذه البقرة؛ فصار ذلك مصداقاً لقول موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قوله تعالى: ﴿**لعلكم تعقلون**﴾؛ «**لعل**» للتعليل؛ أي لأجل أن تعقلوا عن الله ـ تبارك وتعالى ـ آياته، وتفهموها؛ والعقل هو ما يحجز الإنسان عن فعل ما لا ينبغي؛ وهو خلاف الذكاء؛

فالذكاء هو سرعة البديهة، والفهم؛ وقد يكون الإنسان ذكياً، ولكنه ليس بعاقل.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيات**: تعظيم الله عزّ وجلّ، حيث أسند الأمر إليه بصيغة الغائب، كقوله تعالى: ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان**﴾ [النحل: ٩٠].

٢ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان أن يسلك الأسباب التي تؤدي إلى قبول الأمر، أو الخبر؛ لقوله: ﴿**إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة**﴾.

٣ ـ **ومنها**: استهتار بني إسرائيل، حيث قالوا لنبيهم عليه الصلاة والسلام: ﴿**أتتخذنا هزواً**﴾ وقد أخبرهم أن الله تعالى أمرهم أن يذبحوا بقرة؛ فلم يحملوا هذا محمل الجدّ مع أن الواجب أن يحملوا هذا محمل الجدّ؛ لأنه أمر من الله عزّ وجلّ.

٤ ـ **ومنها**: أن الاستهزاء بالناس من الجهل وهو الحمق، والسفه؛ لقول موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿**أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن جميع الخلق محتاجون إلى الله تعالى، وإلى الاعتصام به عزّ وجلّ؛ فإن موسى ﷺ كان من أولي العزم من الرسل؛ ومع ذلك فهو محتاج إلى ربه تبارك وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿**قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين**﴾؛ والاستعاذة لا تكون إلا بالله عزّ وجلّ؛ وقد تكون بالمخلوق فيما يقدر عليه، مثل قوله ﷺ: «**فمن وجد معاذاً فليعذ به**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٩٠ ـ ٥٩١، كتاب الفتن، باب ٩: تكون فتنة =

٦ ـ **ومنها**: استكبار بني إسرائيل، حيث قالوا لموسى ـ عليه الصلاة والسلام: ﴿ادع لنا ربك﴾؛ فأمروه أمراً، ثم أضافوا ربوبية الله عزّ وجلّ إلى موسى، كأنهم متبرئون من ذلك؛ فلم يقولوا: «ادع ربنا»، أو «ادع الله»؛ ومما يدل على استكبارهم كونهم طلبوا من موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يبين لهم ما هذه البقرة مع أن البقرة معروفة؛ وهي عند الإطلاق تشمل أيّ واحدة.

٧ ـ **ومنها**: تأكيد الأمر على بني إسرائيل أن يفعلوه؛ لقوله: ﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾؛ ومع ذلك لم يمتثلوا؛ بل تعنتوا، وطلبوا شيئاً آخر: ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها﴾؛ فسألوه عن اللون مع أن أيّ لون يمكن أن يكون في البقرة لا يمنع من إجزائها.

٨ ـ **ومنها**: بيان ما يدل أيضاً على تعنتهم؛ وذلك أنهم طلبوا بيان هل البقرة عاملة، أو غير عاملة.

٩ ـ **ومنها**: أن استعمال البقر في الحرث والسقي كان قديماً معروفاً بين الأمم، ولا يزال إلى وقتنا هذا قبل أن تظهر الآلات الحديدية.

١٠ ـ **ومنها**: تشديد الله عليهم، حيث أمرهم بذبح بقرة موصوفة بهذه الصفات التي يعز وجودها في بقرة واحدة؛ وذلك بأن تكون متوسطة في السن لا فارضاً ولا بكراً؛ وأن تكون

= القاعد فيها خير من القائم، حديث رقم ٧٠٨١؛ وأخرجه مسلم ص١١٧٧ ـ ١١٧٨، كتاب الفتن، باب ٣: نزول الفتن كمواقع القطر، حديث رقم ٧٢٤٩ [١٢] ٢٨٨٦.

صفراء فاقعاً لونها تسر الناظرين؛ وألا تكون ذلولاً تثير الأرض وتسقي الحرث؛ وأن تكون مسلَّمة ليس فيها شيء من العيوب.

وألا يخالط لونها لون آخر؛ لقوله: ﴿**لا شية فيها**﴾.

١١ ـ **ومنها**: أن من شدد على نفسه شدد الله عليه ـ كما حصل لهؤلاء؛ فإنهم لو امتثلوا أول ما أُمِروا، فذبحوا أيّ بقرة لكفاهم؛ ولكنهم شددوا، وتعنتوا، فشدد الله عليهم؛ على أنه يمكن أن يكون تعنتهم هذا للتباطؤ في تنفيذ الأمر.

١٢ ـ **ومنها**: أن بني إسرائيل أرادوا أن يتقهقروا عن تنفيذ أمر الله عزّ وجلّ على درجات؛ **الدرجة الأولى**: ما سبق من قولهم: ﴿**أتتخذنا هزواً**﴾؛ **الدرجة الثانية**: قولهم: ﴿**ادع لنا ربك يبين لنا ما هي**﴾، **الدرجة الثالثة**: قولهم: ﴿**ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها**﴾؛ **الدرجة الرابعة**: قولهم: ﴿**ادع لنا ربك يبين لنا ما هي**﴾ مرة أخرى.

١٣ ـ **ومنها**: استهتار بني إسرائيل، حيث قالوا: ﴿**الآن جئت بالحق**﴾؛ فكأنهم يقولون: الآن رضينا بوصف هذه البقرة، ثم قاموا بذبحها على مضض؛ وكل هذا يدل على استهتارهم بأوامر الله عزّ وجلّ.

١٤ ـ **ومنها**: أن الإنسان إذا لم يقبل هدى الله عزّ وجلّ من أول مرة فإنه يوشك أن يشدد الله عليه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**إن الدين يسر؛ ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه**»[1].

١٥ ـ **ومنها**: تذكير بني إسرائيل بهذه النعمة التي أنعم الله

---

(١) أخرجه البخاري ص٥، كتاب الإيمان، باب ٢٩: الدين يسر، حديث رقم ٣٩.

بها عليهم ببيان الأمر الواقع حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم.

١٦ ـ **ومنها**: تأخير ذكر السبب بعد القصة، والمبادرة بذكر النعمة قبل بيان سببها.

١٧ ـ **ومنها**: أن قول الرسول قول لمرسله إذا كان بأمره؛ لقوله تعالى: ﴿**فقلنا اضربوه ببعضها**﴾.

١٨ ـ **ومنها**: أن البعض الذي ضرب به هذا القتيل من البقرة غير معلوم؛ لقوله تعالى: ﴿**ببعضها**﴾؛ فقد أبهمه الله؛ ومحاولة بعض المفسرين أن يعينوه محاولة ليس لها داع؛ لأن المقصود الآية.

١٩ ـ **ومنها**: أنه ينبغي لطالب العلم أن يعتني بمعنى القصة، وغرضها دون من وقعت عليه؛ لقوله تعالى: ﴿**ببعضها**﴾؛ ولم يعين لهم ذلك توسعة عليهم؛ ليحصل المقصود بأيّ جزء منها؛ ولهذا نرى أنه من التكلف ما يفعله بعض الناس إذا سمع حديثاً أنه جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: «**يا رسول الله...**» **كذا وكذا**؛ تجد بعض الناس يتعب، ويتكلف في تعيين هذا الرجل؛ وهذا ليس بلازم؛ المهم معنى القصة، وموضوعها؛ أما أن تعرف من هذا الرجل؟ من هذا الأعرابي؟ ما هذه الناقة مثلاً؟ ما هذا البعير؟ فليس بلازم؛ إذ إن المقصود في الأمور معانيها، وأغراضها، وما توصل إليه؛ فلا يضر الإبهام ـ اللهم إلا أن يتوقف فهم المعنى على التعيين.

٢٠ ـ **ومن فوائد الآيات**: أن المبهم في أمور متعددة أيسر على المكلف من المعين؛ وذلك إذا كانوا قد أمروا أن يضربوه ببعضها فقط؛ فإذا قيل لك: «افعل بعض هذه الأشياء» يكون

أسهل مما إذا قيل لك: «افعل هذا الشيء بعينه»؛ فيكون في هذا توسعة على العباد إذا خيروا في أمور متعددة ـ والله أعلم.

٢١ ـ **ومنها**: أن هذه الآية من آيات الله عزّ وجلّ ـ وهي أن تكون البقرة سبباً لحياة هذا القتيل؛ إذ لا رابطة في المعقول بين أن تُذبح البقرة، ويضرب القتيل ببعضها، فيحيى.

٢٢ ـ **ومنها**: أن بيان الأمور الخفية التي يحصل فيها الاختلاف، والنِّزاع، من نعمة الله عزّ وجلّ؛ يعني مثلاً إذا اختلفنا في أمور، وكاد الأمر يتفاقم، ويصل إلى الفتنة، ثم أظهر الله ما يبينه فإن هذا من نعمة الله سبحانه وتعالى علينا؛ لأنه يزيل بذلك هذا الخلاف، وهذا النِّزاع.

٢٣ ـ **ومنها**: أن الله سبحانه وتعالى يخرج ما كان يكتمه أهل الباطل، ويبينه للناس؛ لقوله تعالى: ﴿**والله مخرج ما كنتم تكتمون**﴾؛ واذكروا قول الله تعالى: ﴿**يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيِّتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً**﴾ [النساء: ١٠٨].

٢٤ ـ **ومنها**: التحذير من أن يكتم الإنسان شيئاً لا يرضاه الله عزّ وجلّ؛ فإنه مهما يكتم الإنسان شيئاً مما لا يُرضي الله عزّ وجلّ فإن الله سوف يطلع خلقه عليه ـ إلا أن يعفو الله عنه ـ.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

التفسير:

﴿٧٤﴾ قوله تعالى: ﴿**ثم قست قلوبكم**﴾ أي صلبت، وتحجرت؛ ﴿**من بعد ذلك**﴾ أي من بعد أن منَّ الله عليكم بما حصل من المدارأة في القتيل حتى تبين.

قوله تعالى: ﴿**فهي**﴾ أي قلوبكم ﴿**كالحجارة**﴾ أي مثلها؛ ﴿**أو أشد قسوة**﴾ أي من الحجارة؛ لأن الحجارة أقسى شيء - حتى إنّها أقسى من الحديد؛ إذ إن الحديد يلين عند النار، والحجارة تتفتت، ولا تلين؛ و﴿**أو**﴾ هنا ليست للشك؛ لأن الله سبحانه وتعالى عالم بحالها؛ لكن اختلف العلماء - رحمهم الله - هل هي بمعنى «بل»، فتكون للإضراب؛ أو إنها لتحقيق ما سبق - أي أنها إن لم تكن أشد من الحجارة فهي مثلها؟ في هذا قولان لأهل العلم - رحمهم الله؛ وهي كقوله تعالى: ﴿**وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون**﴾ [الصافات: ١٤٧]: فمن العلماء من قال: إن ﴿**أو**﴾ بمعنى «بل» - أي بل يزيدون على مائة ألف؛ ومنهم من قال: إنها لتحقيق ما سبق - أي إن لم يزيدوا على مائة ألف فإنهم لن ينقصوا؛ والله أعلم بما أراد في كتابه.

ثم بين الله عزّ وجلّ أن الحجارة فيها خير بخلاف قلوب هؤلاء فإنه لا خير فيها؛ فقال تبارك وتعالى: ﴿**وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار**﴾ يعني إن بعض الحجارة تتفجر منها الأنهار - أي أنهار الماء التي يشرب الناس منها، ويسقون بها زروعهم، ومواشيهم.

وقوله تعالى: ﴿**لما يتفجر**﴾: ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب اسم ﴿**إن**﴾؛ واللام للتوكيد؛ أي: لَلذِي يتفجر منه الأنهار.

قوله تعالى: ﴿وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء﴾: وهي دون الأول؛ الأول يتفجر منها الأنهار؛ أما هذه فإنها تتشقق، ويخرج منها الماء كالذي يحصل في أحجار الآبار، وما أشبهها.

قوله تعالى: ﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾، كما قال تعالى: **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾** [الحشر: ٢١]، ولما قال موسى عليه السلام: **﴿رب أرني أنظر إليك﴾** [الأعراف: ١٤٣]، قال الله سبحانه وتعالى له: **﴿لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا وخرَّ موسى صعقاً﴾** [الأعراف: ١٤٣].

وقوله تعالى: ﴿من خشية الله﴾، ﴿من﴾ هنا سببية؛ و﴿خشية الله﴾ أي خوفهم مع العلم بعظمته.

قوله تعالى: **﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾**: فنفى سبحانه وتعالى أن يكون غافلاً عما يعملون؛ وذلك لكمال علمه، وإحاطته تبارك وتعالى.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: لؤم بني إسرائيل الذين جاءتهم هذه النعم ومع ذلك فهم لم يلينوا للحق؛ بل قست قلوبهم على ظهور هذه النعم.

٢ ـ **ومنها**: تشبيه المعقول بالمحسوس في قوله تعالى: **﴿فهي كالحجارة﴾**؛ لأن الحجارة أمر محسوس؛ والقلب قسوته أمر معقول؛ إذ إنه ليس المعنى أن القلب الذي هو المضغة يقسو؛ القلب هو هو؛ لكن المراد: أنه يقسو قسوة معنوية بإعراضه عن الحق، واستكباره عليه؛ فهو أمر معنوي شبه بالأمر الحسي؛ وهذا

من بلاغة القرآن تشبيه المعقول بالمحسوس حتى يتبين.

٣ ـ **ومنها**: أن الحجارة أقسى شيء يضرب به المثل.

٤ ـ **ومنها**: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى، حيث جعل هذه الحجارة الصماء تتفجر منها الأنهار؛ وقد كان موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يضرب بعصاه الحجر، فينبجس، ويتفجر عيوناً بقدرة الله ـ تبارك وتعالى.

٥ ـ **ومنها**: أن الحجارة خير من قلوب هؤلاء بأن فيها خيراً؛ فإن من الحجارة ما يتفجر منه الأنهار؛ ومنها ما يشقق، فيخرج منه الماء؛ ومنها ما يهبط من خشية الله؛ وهذه كلها خير، وليس في قلوب هؤلاء خير.

٦ ـ **ومنها**: أن الجمادات تعرف الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**وإن منها لما يهبط من خشية الله**﴾؛ وهذا أمر معلوم من آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿**يسبح لله ما في السموات وما في الأرض**﴾ [الجمعة: ١]، وقوله تعالى: ﴿**تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم**﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿**ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين**﴾ [فصلت: ١١]: ففهمتا الأمر، وانقادتا.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: عظمة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**من خشية الله**﴾؛ والخشية هي الخوف المقرون بالعلم؛ لقوله تعالى: ﴿**إنما يخشى اللّهَ من عباده العلماء**﴾ [فاطر: ٢٨]؛ فمن علم عظمة الله سبحانه وتعالى فلا بد أن يخشاه.

٨ ـ **ومنها**: سعة علم الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى:

﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾؛ وهذه الصفة من صفات الله سبحانه وتعالى السلبية؛ والصفات السلبية هي التي ينفيها الله سبحانه وتعالى عن نفسه. وتتضمن أمرين هما: نفي هذه الصفة؛ وإثبات كمال ضدها.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

التفسير:

﴿٧٥﴾ قوله تعالى: ﴿أفتطعمون أن يؤمنوا لكم﴾؛ الهمزة للاستفهام؛ والمراد به الاستبعاد، والتيئيس ـ أي تيئيس المسلمين من أن يؤمن هؤلاء اليهود لهم؛ والفاء عاطفة على مقدر بعد الهمزة مناسب للمقام؛ و«**الطمع**» معناه الرجاء المقرون بالرغبة الأكيدة؛ يعني: أنتم ترجون مع رغبة؛ لأن الذي يرجو الشيء مع الرغبة الأكيدة فيه يقال: طمع فيه؛ و«**الإيمان**» هنا بمعنى التصديق؛ أي أن يُصَدِّقوا لكم؛ ويحتمل أن يكون بمعنى الانقياد، والاستسلام لكم؛ وهذا أمر بعيد؛ لقوله تعالى: ﴿وقد كان فريق منهم...﴾: الواو هنا للحال؛ و﴿قد﴾ للتحقيق؛ فالجملة في محل نصب حالاً من الواو في ﴿يؤمنوا لكم﴾ يعني: والحال أن فريقاً منهم يسمعون كلام الله؛ و«**الفريق**» بمعنى الطائفة؛ و﴿منهم﴾ أي من بني إسرائيل.

قوله تعالى: ﴿يسمعون كلام الله ثم يحرِّفونه﴾: ذكر المفسرون فيه قولين:

القول الأول: أن المراد بذلك التوراة ـ يسمعونها ثم يحرفونها ـ أي يغيرونها؛ ومنه قولهم: حَرَفْت الدابة ـ يعني غيرت اتجاهها؛ ﴿**من بعد ما عقلوه**﴾ أي من بعد ما فهموها، وعرفوا معناها، ولم تشكل عليهم؛ ومن ذلك تحريفهم إياها في صفة النبي ﷺ، ومبعثه، وقولهم: إنه الرسول المنتظر ـ وليس هذا الرسول.

والقول الثاني: أن المراد بذلك الذين أسمعهم الله كلامه سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام؛ وهم الذين اختارهم موسى ـ وهم سبعون رجلاً فأسمعهم الله تعالى كلامه لموسى، ولكنهم قالوا: ﴿**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**﴾، ثم حرفوا ما سمعوه من كلام الله سبحانه وتعالى لموسى.

وقد بحثت في كتب التفسير التي لدي فلم أجد احتمالاً ثالثاً ـ وهو أن المراد بـ﴿**كلام الله**﴾ القرآن، وأنهم يسمعونه، ثم يحرفونه؛ لأن القرآن كلام الله؛ وقد قال الله تعالى: ﴿**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله**﴾ [التوبة: ٦] أي حتى يسمع القرآن؛ فإن كان هذا الاحتمال صحيحاً فهو أقرب من القولين السابقين ـ والله أعلم بمراده.

قوله تعالى: ﴿**وهم يعلمون**﴾ أي يعلمون أنهم يحرفون الكلم أي كلام الله عزّ وجلّ، ويعلمون أن التحريف محرم؛ فتعدوا الحدود، وحرفوا كلام الله عزّ وجلّ، وارتكبوا الإثم عن بصيرة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن من كان لا يؤمن بما هو أظهر فإنه

يبعد أن يؤمن بما هو أخفى؛ لأن من يسمع كلام الله، ثم يحرفه، أبْعَدُ قبولاً للحق ممن لم يسمعه.

٢ ـ **ومنها**: أن الله تعالى يسلي رسوله ﷺ بما يذهب عنه الأسى، والحزن؛ حيث بين له حال هؤلاء، وأنهم قوم عتاة لا مطمع في إيمانهم.

٣ ـ **ومنها**: إثبات أن الله يتكلم، وأن كلامه بصوت مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿**يسمعون كلام الله**﴾؛ وكلام الله ـ تبارك وتعالى ـ صفة حقيقية تتضمن اللفظ، والمعنى؛ فهو سبحانه وتعالى يتكلم بحروف، وأصوات مسموعة؛ وتفصيل ذلك والرد على من خالفه مذكور في كتب العقائد.

٤ ـ **ومنها**: أن كلام الله سبحانه وتعالى من صفاته الفعلية باعتبار آحاده؛ وأما باعتبار أصل الصفة فهو صفة ذاتية؛ والفرق بين الصفات الذاتية، والفعلية أن **الصفات الذاتية** لازمة لذات الله أزلاً، وأبداً ـ ومعنى «أزلاً» أي فيما مضى؛ و«أبداً» أي فيما يستقبل ـ مثل الحياة، والعلم، والقدرة، والقوة، والعزة، والسمع، والبصر إلى غير ذلك، و**الصفات الفعلية** هي التي تتعلق بمشيئته، فتحْدُث إذا شاء، كالاستواء على العرش، والنُّزول إلى سماء الدنيا، والمجيء يوم القيامة للفصل بين العباد، والفرح، والرضا، والغضب.. عند وجود أسبابها.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: الرد على الأشعرية، وغيرهم ممن يرون أن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه؛ وأن الحروف، والأصوات عبارة عن كلام الله، وليست كلام الله؛ بل خلقها الله ليعبر بها عما في نفسه؛ و**الرد عليهم مفصلاً** في كتب العقائد.

٦ ـ **ومنها**: أن هؤلاء اليهود قد حرفوا كلام الله، لقوله تعالى: ﴿ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه﴾.

٧ ـ **ومنها**: بيان قبح تحريف هؤلاء اليهود، لأنهم حرفوا ما عقلوه؛ والتحريف بعد عقل المعنى أعظم؛ لأن الإنسان الجاهل قد يعذر بجهله؛ لكن الإنسان العالم الذي عقل الشيء يكون عمله أقبح؛ لأنه تجرأ على المعصية مع علمه بها ـ فيكون أعظم.

٨ ـ **ومنها**: قبح تحريف كلام الله، وأن ذلك من صفات اليهود؛ ومن هذه الأمة من ارتكبه، لكن القرآن محفوظ؛ فلا يمكن وقوع التحريف اللفظي فيه؛ لأنه يعلمه كل أحد؛ وأما التحريف المعنوي فواقع، لكن يقيض الله عزّ وجلّ من الأئمة، وأتباعهم من يبينه، ويكشف عوار فاعله.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

التفسير:

﴿٧٦﴾ قوله تعالى: ﴿وإذا لقوا﴾ الضمير يعود على اليهود؛ أي إذا قابلوا، واجتمعوا بـ﴿الذين آمنوا﴾ أي بالله ورسوله محمد ﷺ، ﴿قالوا﴾ أي بألسنتهم ﴿آمنا﴾ أي دخلنا في الإيمان كإيمانكم، وآمنا بالرسول محمد ﷺ؛ هذا إذا لقوا المؤمنين؛ و﴿إذا خلا بعضهم إلى بعض﴾ أي إذا أوى بعضهم إلى بعض،

وانفرد به قال بعضهم لبعض: ﴿أتحدثونهم﴾: الاستفهام هنا للإنكار، والتعجب؛ والضمير الهاء يعود على المؤمنين بالرسول ﷺ؛ يعني يقول اليهود بعضهم لبعض إذا اجتمعوا: كيف تحدثون المؤمنين بالله ورسوله ﴿بما فتح الله عليكم﴾ أي من العلم بصحة رسالة النبي ﷺ ﴿ليحاجوكم به عند ربكم﴾: اللام للعاقبة ـ أي أن ما حدثتموهم به ستكون عاقبته أن يحاجوكم به عند ربكم.

قوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾: الهمزة للاستفهام؛ والمراد به التوبيخ؛ يعني: أين عقولكم؟! أنتم إذا حدثتموهم بهذا، وقلتم: إن هذا الذي بُعث حق، وأنه نبي يحاجونكم به عند الله يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾؛ الفاء واقعة بعد همزة الاستفهام؛ وهذا يكثر في القرآن: ﴿أفلا تعقلون﴾؛ ﴿أفلا تذكرون﴾؛ ﴿أفلم يسيروا﴾؛ ﴿أو لم يسيروا﴾؛ ﴿أثم إذا ما وقع آمنتم به﴾؛ وأشباه ذلك؛ يعني أنه يأتي حرف العطف بعد همزة الاستفهام؛ وهمزة الاستفهام لها الصدارة في جملتها؛ ولا صدارة مع وجود العاطف؛ لأن الفاء عاطفة؛ فقال بعض النحويين: إن بين الهمزة وحرف العطف جملة محذوفة عُطفت عليها الجملة التي بعد حرف العطف، وهذه الجملة تقدر بما يناسب المقام؛ وقال آخرون: بل إن الهمزة مقدمة؛ وإن حرف العطف هو الذي تأخر ـ يعني زُحلق حرف العطف عن مكانه، وجعلت الهمزة مكانه؛ وعلى هذا فيكون التقدير: فألا تعقلون؛ أما على الأول فيكون التقدير: أجهلتم فلا تعقلون؛ أو: أسفهتم فلا تعقلون... المهم يقدر شيء مناسب حسب السياق؛ فالقول

الأول أدق؛ والثانية أسهل؛ لأن الثاني لا يحتاج عناءً وتكلفاً فيما تقدره بين الهمزة والعاطف.

قوله تعالى: ﴿**أو لا يعلمون**﴾: الاستفهام هنا للتوبيخ، والإنكار عليهم لكونهم نزَّلوا أنفسهم منْزلة الجاهل؛ ﴿**أن الله يعلم ما يسرون**﴾: يشمل ما يسره الإنسان في نفسه، وما يسره لقومه وأصحابه الخاصين به؛ ﴿**وما يعلنون**﴾ أي ما يظهرون لعامة الناس؛ فالله سبحانه وتعالى يعلم هذا، وهذا؛ ولا يخفى عليه شيء؛ والمعنى: كيف يؤنب بعضهم بعضاً بهذا الأمر وهم لو جاءوا إلى النبي ﷺ، ومن معه، وأنكروا نبوَّته، ولم يؤمنوا فإن الله تعالى لا يخفى عليه الأمر؟! فسواء أقروا، أو لم يقروا عند الصحابة أن الرسول حق فإن الله تعالى عالم بهم.

الفوائد:

١ ـ **ومن فوائد الآية**: أن في اليهود منافقين؛ لقوله تعالى: ﴿**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا...**﴾ إلخ.

٢ ـ **ومنها**: أن من سجايا اليهود وطبائعهم الغدر؛ لقوله تعالى: ﴿**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض...**﴾ إلخ؛ لأن هذا نوع من الغدر بالمؤمنين.

٣ ـ **ومنها**: أن بعضهم يلوم بعضاً على بيان الحقيقة حينما يرجعون إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿**وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن العلم من الفتح؛ لقولهم: ﴿**بما فتح الله عليكم**﴾؛ ولا شك أن العلم فتح يفتح الله به على المرء من أنواع العلوم والمعارف ما ينير به قلبه.

٥ ـ **ومنها**: أن المؤمن، والكافر يتحاجَّان عند الله يوم القيامة؛ لقولهم: ﴿**ليحاجُّوكم به عند ربكم**﴾؛ ويؤيده قوله تعالى: ﴿**ثم إنكم بعد ذلك لميِّتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون**﴾ [المؤمنون: ١٥].

٦ ـ **ومنها**: سفه اليهود الذين يتخذون من صنيعهم سلاحاً عليهم؛ لقولهم: ﴿**أفلا تعقلون**﴾.

٧ ـ **ومنها**: الثناء على العقل، والحكمة؛ لأن قولهم: ﴿**أفلا تعقلون**﴾ توبيخ لهم على هذا الفعل؛ وأنه ينبغي للإنسان أن يكون عاقلاً؛ ما يخطو خطوة إلا وقد عرف أين يضع قدمه؛ ولا يتكلم إلا وينظر ما النتيجة من الكلام؛ ولا يفعل إلا وينظر ما النتيجة من الفعل: قال النبي ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً، أو ليصمت**»(١).

٨ ـ **ومنها**: أن كفر اليهود بالرسول محمد ﷺ عن علم؛ ولهذا صاروا مغضوباً عليهم.

٩ ـ **ومنها**: توبيخ اليهود على التحريف؛ لقوله تعالى: ﴿**أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: إثبات عموم علم الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**يعلم ما يسرون وما يعلنون**﴾.

١١ ـ **ومنها**: الوعيد على مخالفة أمر الله عزّ وجلّ؛ لقوله

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٠٩، كتاب الأدب، باب ٣١؛ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، حديث رقم ٦٠١٨؛ وأخرجه مسلم ص٦٨٨، كتاب الإيمان، باب ١٩: الحث على إكرام الجار...، حديث رقم ١٧٣ [٧٤] ٤٧.

تعالى: ﴿أولا يعلمون أن الله يعلم....﴾ الآية؛ لأن المقصود بذلك تهديد هؤلاء، وتحذيرهم.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

التفسير:

﴿٧٨﴾ قوله تعالى: ﴿ومنهم﴾ أي من اليهود؛ ﴿أميون﴾ أي بمنْزلة الأميين؛ والأُمّي من لا يعرف أن يقرأ، ولا أن يكتب؛ ﴿لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ أي إلا قراءة بدون فهم للمعنى؛ ومن لم يفهم المعنى فهو في حكم من لا يعرف القراءة؛ لأنه لا يستفيد شيئاً بقراءته؛ ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ أي ما هم إلا يظنون؛ لأن الإنسان الذي لا يعرف إلا اللفظ ليس عنده علم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الأُمّية يوصف بها من لا يقرأ، ومن يقرأ ولا يفهم؛ لقوله تعالى: ﴿ومنم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾.

٢ ـ **ومنها**: ذم من لا يعتني بمعرفة معاني كتاب الله عزّ وجلّ.

٣ ـ **ومنها**: أن من لا يفهم المعنى فإنه لا يتكلم إلا بالظن؛ لقوله تعالى: ﴿وإن هم إلا يظنون﴾؛ العامي يقرأ القرآن من أوله إلى آخره، لكن لا يفهم معناه؛ فإذا تكلم في حكم من أحكام الله

الشرعية التي دل عليها الكتاب فإنما كلامه عن ظن؛ لأنه في الحقيقة لا يعلم؛ ولا يمكن أن يعلم إلا إذا فهم المعنى.

٤ ـ **ومنها**: ذم الحكم بالظن، وأنه من صفات اليهود؛ وهذا موجود كثيراً عند بعض الناس الذين يحبون أن يقال عنهم: «إنهم علماء»؛ تجده يفتي بدون علم، وربما أفتى بما يخالف القرآن، والسنة وهو لا يعلم.

٥ ـ **ومنها**: أن المقلد ليس بعالم؛ لأنه لا يفهم المعنى؛ وقد قال ابن عبد البر: «إن العلماء أجمعوا أن المقلد لا يعد في العلماء»؛ وهو صحيح: المقلد ليس بعالم؛ غاية ما هنالك أنه نسخة من كتاب؛ بل الكتاب أضبط منه؛ لأنه قد ينسى؛ وليس معنى ذلك أننا نذم التقليد مطلقاً؛ التقليد في موضعه هو الواجب؛ لقوله تعالى: **﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾** [النمل: ٤٣].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

التفسير:

﴿٧٩﴾ قوله تعالى: **﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم...﴾**؛ «**ويل**» كلمة وعيد؛ يتوعد الله تعالى من اتصفوا بهذه الصفة؛ وهي مبتدأ؛ وجاز الابتداء بها وهي نكرة؛ لأنها تفيد الوعيد ـ والوعيد معنًى خاص، فزال به إجمال النكرة

المطلقة؛ و﴿الكتاب﴾ بمعنى المكتوب؛ والمراد به التوراة؛ ﴿بأيديهم﴾: كلمة مؤكدة لقوله تعالى: ﴿يكتبون﴾؛ أو مبينة للواقع؛ لأنه لا كتابة إلا باليد غالباً؛ والمعنى: أنهم يكتبونه بأيديهم، فيتحققون أنه ليس الكتاب المنَزَّل؛ فهم يباشرون هذه الجناية العظيمة؛ ﴿ثم يقولون﴾ أي بعدما كتبوه بأيديهم، وعرفوا أنه من صُنْع أيديهم؛ ﴿هذا من عند الله﴾ أي نزل من عند الله؛ ﴿ليشتروا به﴾ أي ليأخذوا به؛ واللام للتعليل؛ فإذا دخلت اللام على الفعل المضارع تكون للتعليل ـ كما هي هنا؛ وتكون للعاقبة، مثل: ﴿ليكون لهم عدوًا وحزناً﴾ [القصص: ٨]؛ وتكون زائدة، مثل: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله﴾ [الصف: ٨] أي يريدون أن يطفئوا؛ لأن الفعل «يريد» يتعدى بنفسه بدون حرف الجرّ؛ ﴿ثمناً قليلاً﴾ أي عوضاً قليلاً؛ وهذا العوض القليل هو الرئاسة، والجاه، والمال، وغير ذلك من أمور الدنيا، كما قال تعالى: ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾ [النساء: ٧٧]؛ فمهما حصل في الدنيا من رئاسة، وجاه، ومال، وولد، فهو قليل بالنسبة للآخرة؛ كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[1]: الدنيا من أولها إلى آخرها برئاساتها، وأموالها، وبنيها، وقصورها، وكل ما فيها، وموضع السوط متر تقريباً؛ إذاً متاع الدنيا قليل.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣٣٠، حديث رقم ٢٣١٨٣؛ وأخرجه البخاري ص٢٣٢، كتاب الجهاد والسِيَر، باب ٧٣: فضل رباط يوم في سبيل الله، حديث رقم ٢٨٩٢.

قوله تعالى: ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم﴾: هذا وعيد على فعلهم؛ ﴿وويل لهم مما يكسبون﴾: هذا وعيد على كسبهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: الوعيد على الذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله وهم كاذبون.

٢ ـ **ومنها**: أنهم يفعلون ذلك من أجل الرئاسة، والمال، والجاه؛ لقوله تعالى: ﴿ليشتروا به ثمناً قليلاً﴾؛ وقد ورد الوعيد على من طلب علماً يبتغى به وجه الله لينال عرضاً من الدنيا.

٣ ـ **ومنها**: أن الدنيا كلها مهما بلغت فهي قليل، كما قال تعالى: ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ [النساء: ٧٧].

٤ ـ **ومنها**: أن الجزاء بحسب العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم﴾.

٥ ـ **ومنها**: إثبات العلل، والأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿مما كتبت أيديهم﴾؛ فإن هذا بيان لعلة الوعيد؛ وهذه غير الفائدة السابقة؛ لأن الفائدة السابقة جزاؤهم بقدر ما كتبوا؛ وهذه بيان السبب.

٦ ـ **ومنها**: أن عقوبة القول على الله بغير علم تشمل الفعل، وما ينتج عنه من كسب محرم؛ لقوله تعالى: ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾؛ فما نتج عن المحرم من الكسب فإنه يأثم به الإنسان؛ مثلاً: إنسان عمل عملاً محرماً ـ كالغش ـ فإنه آثم بالغش؛ وهذا الكسب الذي حصل به هو أيضاً آثم به.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

التفسير:

﴿٨٠﴾ قوله تعالى: ﴿**وقالوا**﴾ أي اليهود ﴿**لن تمسنا النار**﴾ أي لن تصيبنا نار الآخرة ﴿**إلا أياماً معدودة**﴾ يعنون أنهم يبقون فيها أياماً معدودة، ثم يخلفهم فيها النبي ﷺ، والمؤمنون؛ فنحن نقول: إقراركم على أنفسكم بدخول النار مقبول؛ ودعواكم الخروج من النار دعوى لا بينة لها؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى متحدياً إياهم: ﴿**قل**﴾ ـ الخطاب للنبي ﷺ ـ ﴿**أتخذتم عند الله عهداً**﴾ أي أأخذتم عند الله عهداً أن لا تمسكم النار إلا أياماً معدودة، ثم يخلفكم فيها الرسول، والمؤمنون؟! والاستفهام هنا للإنكار؛ و«**العهد**» الميثاق، والالتزام؛ ﴿**فلن يخلف الله عهده**﴾ أي إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلفه؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد.

قوله تعالى: ﴿**أم تقولون على الله ما لا تعلمون**﴾؛ قيل: إن ﴿**أم**﴾ متصلة؛ وقيل: إنها منقطعة؛ والفرق بينهما من وجهين: **الأول**: أن المنقطعة تكون بمعنى «بل»؛ **والثاني**: أن ما بعدها منقطع عما قبلها؛ وأما المتصلة فتكون بمعنى «أو»، وما بعدها معادل لما قبلها؛ مثال المتصلة: قوله تعالى: ﴿**إن الذين كفروا**

سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ [البقرة: ٦]؛ ومثال المنقطعة: قوله تعالى: **﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون﴾** [الطور: ٣٢] أي بل هم قوم طاغون؛ أما في هذه الآية التي نحن بصددها فيحتمل أنها منقطعة؛ وعلى هذا فيكون معناها: بل تقولون على الله ما لا تعلمون؛ ويحتمل أنها متصلة، فيكون معناها: هل أنتم اتخذتم عند الله عهداً فادعيتموه، أو أنكم تقولون على الله ما لا تعلمون؟! وعلى كلا الاحتمالين فهم يقولون على الله ما لا يعلمون؛ إذاً إذا لم يكن عندهم من الله عهد، وقد قالوا على الله ما لا يعلمون، فتكون دعواهم هذه باطلة.

﴿٨١﴾ قوله تعالى مبيناً من الذي تمسه النار، ومن الذي لا تمسه: **﴿بلى من كسب سيئة﴾**: قال المفسرون: **﴿بلى﴾** هنا بمعنى «بل»؛ فهي للإضراب الانتقالي؛ ويحتمل أن تكون للإضراب الإبطالي ـ أي لإبطال قولهم: **﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾**؛ و**﴿مَنْ﴾** يحتمل أن تكون اسم شرط؛ وجوابه: **﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**؛ ويحتمل أن تكون موصولة بمعنى الذي؛ وهي مبتدأ، وخبره: **﴿فأولئك أصحاب النار﴾**، وقرن بالفاء لمشابهة الاسم الموصول الاسم الشرط في العموم؛ والاحتمال الأول أولى؛ و«**الكسب**» معناها: حصول الشيء نتيجة لعمل؛ و**﴿سيئة﴾** من ساء يسوء؛ والمراد الأعمال السيئة.

قوله تعالى: **﴿وأحاطت به خطيئته﴾**: «الإحاطة» في اللغة: الشمول؛ و**﴿أحاطت﴾** أي صارت كالحائط عليه، وكالسور ـ أي اكتنفته من كل جانب؛ وفي قوله تعالى: **﴿خطيئته﴾** قراءتان: الإفراد، والجمع؛ والإفراد بمعنى الجمع؛ لأنه مفرد مضاف

فيعم؛ لكن الجمع يفيد الإشارة إلى أنواع الخطايا.

وقوله تعالى: ﴿سيئة﴾، و﴿خطيئته﴾: قيل: بمعنى واحد، وأن السيئة امتدت حتى أحاطت به؛ وقيل: إن المراد بالسيئة: الكفر؛ والخطيئة: ما دونه؛ وهذا هو المعروف عند المفسرين.

قوله تعالى: ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾: المشار إليه ما سبق؛ و﴿أصحاب﴾ جمع صاحب ـ أي أهل النار؛ وسموا أصحاباً لها لملازمتهم إياها ـ والعياذ بالله؛ و﴿خالدون﴾ أي ماكثون؛ فالخلود بمعنى المكث، والدوام؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود﴾ [ق: ٣٤].

﴿٨٢﴾ قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾: مبتدأ؛ خبره: قوله تعالى: ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾؛ لما ذكر الله عزّ وجلّ مصير الكافرين ذكر بعده مصير المؤمنين ليكون العبد سائراً إلى الله سبحانه وتعالى بين الخوف والرجاء؛ وقد وصف الله تعالى القرآن بأنه مثاني ـ أي تُثَنَّى فيه المعاني، والأحوال.

وقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا﴾ أي صدقوا بما يجب الإيمان به مع القبول، والإذعان؛ فلا يكون الإيمان مجرد تصديق؛ بل لا بد من قبول للشيء، واعتراف به، ثم إذعان، وتسليم لما يقتضيه ذلك الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وعملوا الصالحات﴾ أي عملوا الأعمال الصالحات؛ والعمل يصدق على القول، والفعل؛ وليس العمل مقابل القول؛ بل الذي يقابل القول: الفعل؛ وإلا فالقول، والفعل كلاهما عمل؛ لأن القول عمل اللسان، والفعل عمل الجوارح.

قوله تعالى: ﴿**أولئك أصحاب الجنة**﴾ أي أهلها الملازمون لها؛ لأن الصحبة ملازمة؛ و﴿**الجنة**﴾: الدار التي أعدها الله تعالى للمتقين؛ وفيها كما قال الرسول ﷺ: «**ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[1]، كقوله تعالى: ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون**﴾ [السجدة: ١٧].

قوله تعالى: ﴿**هم فيها خالدون**﴾ سبق الكلام عليها.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيات**: أن اليهود يقرون بالآخرة، وأن هناك ناراً، لقوله تعالى: ﴿**وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة**﴾؛ لكن هذا الإقرار لا ينفعهم؛ لأنهم كذبوا محمداً ﷺ؛ وعلى هذا ليسوا بمؤمنين.

٢ ـ **ومنها**: أنهم قالوا على الله ما لا يعلمون، إما كذباً، وإما جهلاً؛ والأول أقرب؛ لقوله تعالى: ﴿**أم تقولون على الله ما تعلمون**﴾.

٣ ـ **ومنها**: حسن مجادلة القرآن؛ لأنه حصر هذه الدعوى في واحد من أمرين، وكلاهما منتفٍ: ﴿**أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون**﴾؛ وهذا على القول بأن ﴿**أم**﴾ هنا متصلة؛ أما على القول بأنها منقطعة فإنه ليس فيها إلا إلزام واحد.

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٦٣، كتاب بدء الخلق، باب ٨: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، حديث رقم ٣٢٤٤؛ وأخرجه مسلم ص١١٦٩، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ١: صفة الجنة، حديث رقم ٧١٣٠ [٢] ٢٨٢٤.

٤ ـ **ومنها**: أن الله سبحانه وتعالى لن يخلف وعده؛ وكونه لا يخلف الوعد يتضمن صفتين عظيمتين هما: الصدق، والقدرة، لأن إخلاف الوعد إما لكَذِب، وإما لعجز؛ فكون الله ـ جلَّ وعلا ـ لا يخلف الميعاد يقتضي كمال صدقه، وكمال قدرته.

٥ ـ **ومنها**: أن من دأب اليهود القول على الله بلا علم؛ لقوله تعالى: ﴿**أم تقولون على الله ما لا تعلمون**﴾؛ والقول على الله يتضمن القول عليه في أحكامه، وفي ذاته، وصفاته؛ من قال عليه ما لا يعلم بأنه حلَّل، أو حرَّم، أو أوجب، فقد قال على الله بلا علم؛ ومن أثبت له شيئاً من أسماء، أو صفات لم يثبته الله لنفسه فقد قال على الله بلا علم؛ ومن نفى شيئاً من أسمائه وصفاته فقد قال على الله بلا علم؛ ومن صرف شيئاً عن ظاهره من نصوص الكتاب والسنة بلا دليل فقد قال على الله بلا علم.

٦ ـ **ومن فوائد الآيات**: تحريم الإفتاء بلا علم؛ وعلى هذا يجب على المفتي أن يتقي الله عزّ وجلّ، وألا يتسرع في الإفتاء؛ لأن الأمر خطير.

٧ ـ **ومنها**: أن الثواب والعقاب لا يترتب على الأشخاص بحسب النسب، أو الانتماء؛ وإنما هو بحسب العمل.

٨ ـ **ومنها**: أن من أحاطت به خطيئته فلم يكن له حسنة فإنه من أصحاب النار الذين لا يخرجون منها.

٩ ـ **ومنها**: أن من كسب سيئة لكن لم تحط به الخطيئة فإنه ليس من أصحاب النار؛ لكن إن كان عليه سيئات فإنه يعذب بقدرها ـ ما لم يعف الله سبحانه وتعالى عنه.

١٠ ـ **ومنها**: إثبات النار، وأنها دار الكافرين

١١ ـ **ومنها**: خلود أهل النار فيها؛ وهو خلود مؤبد لا يخفف عنهم فيه العذاب، وقد صرح الله عزّ وجلّ بتأبيد الخلود فيها في ثلاثة مواضع من القرآن؛ **الأول**: في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿**إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً**﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]؛ **الموضع الثاني**: في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿**إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً * خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً**﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]؛ **الموضع الثالث**: في سورة الجن في قوله تعالى: ﴿**ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً**﴾ [الجن: ٢٣].

١٢ ـ **ومن فوائد الآيات**: أن أهل الجنة هم الذين قاموا بالإيمان، والعمل الصالح؛ ولا يكون العمل صالحاً إلا بأمرين: الإخلاص لله عزّ وجلّ، والمتابعة للرسول ﷺ، والدليل على ذلك قول الله تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[(١)] ـ وهذا فُقِدَ فيه الإخلاص؛ وقول النبي ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ**»[(٢)] ـ وهذا فُقِدَ فيه المتابعة؛ وكذلك قول الرسول ﷺ: «**فأيما شرط كان ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مِائة شرط**»[(٣)].

---

(١) سبق تخريجه ص٩٠.

(٢) سبق تخريجه ص٩١.

(٣) أخرجه البخاري ص٢٠١ ـ ٢٠٢، كتاب المكاتب، باب ٣: استعانة المكاتب وسؤاله الناس، حديث رقم ٢٥٦٣؛ وأخرجه مسلم ص٩٣٧، كتاب العتق، باب ١: ذكر سعاية العبد، حديث رقم ٣٧٧٩ [٨] ١٥٠٤.

١٣ ـ **ومن فوائد الآيات**: أن الإيمان وحده لا يكفي لدخول الجنة؛ بل لا بد من عمل صالح.

١٤ ـ **ومنها**: أن العمل وحده لا يكفي حتى يكون صادراً عن إيمان؛ لقوله تعالى: ﴿**آمنوا وعملوا الصالحات**﴾؛ ولذلك لم ينفع المنافقين عملهم؛ لفقد الإيمان في قلوبهم.

١٥ ـ **ومنها**: بلاغة القرآن، وحسن تعليمه؛ حيث إنه لما ذكر أصحاب النار ذكر أصحاب الجنة؛ وهذا من معنى قول الله تعالى: ﴿**الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني**﴾ [الزمر: ٢٣]؛ فإن من معاني المثاني أن تثنى فيه الأمور؛ فيذكر الترغيب والترهيب؛ والمؤمن والكافر؛ والضار والنافع؛ وما أشبه ذلك.

١٦ ـ **ومنها**: إثبات الجنة.

١٧ ـ **ومنها**: أن أصحاب الجنة مخلدون فيها؛ وتأبيد الخلود في الجنة صرح الله سبحانه وتعالى به في آيات عديدة.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

التفسير:

﴿٨٣﴾ قوله تعالى: ﴿**وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل**﴾ أي اذكروا إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل؛ و«**الميثاق**»: العهد؛ وسمي

«العهد» ميثاقاً؛ لأنه يوثق به المعاهد، كالحبل الذي توثق به الأيدي، والأرجل؛ لأنه يُلزمه؛ و﴿**إسرائيل**﴾ هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم؛ وبنوه: ذريته من ذكور، وإناث، كما يقال: «بنو تميم» لذكورهم، وإناثهم؛ و«**بنو إسرائيل**» بنو عم للعرب؛ لأن العرب من بني إسماعيل؛ وهؤلاء من بني إسرائيل؛ وجدهم واحد ـ وهو إبراهيم ﷺ؛ والميثاق بينه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾؛ فالميثاق اشتمل على ثمانية أمور:

الأول: أن لا يعبدوا إلا الله؛ لقوله تعالى: ﴿**لا تعبدون إلا الله**﴾؛ و«**العبادة**» معناها: الذل، والخضوع؛ مأخوذة من قولهم طريق معبَّد ـ أي مذلَّل.

الثاني: الإحسان إلى الوالدين؛ لقوله تعالى: ﴿**وبالوالدين إحساناً**﴾ أي أحسنوا بالوالدين إحساناً؛ وهو شامل للإحسان بالقول، والفعل، والمال، والجاه، وجميع طرق الإحسان؛ لأن الله أطلق؛ فكل ما يسمى إحساناً فهو داخل في قوله تعالى: ﴿**وبالوالدين إحساناً**﴾؛ والمراد بـ«**الوالدين**» الأب، والأم، والأباعد لهم حق؛ لكن ليسوا كحق الأب، والأم الأدنيين، ولهذا اختلف إرثهم، واختلف ما يجب لهم في بقية الحقوق.

الثالث: الإحسان إلى القرابة؛ لقوله تعالى: ﴿**وذي القربى**﴾؛ وهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿**بالوالدين**﴾؛ والمعنى: وإحساناً بذي القربى؛ و﴿**ذي**﴾ بمعنى صاحب؛ و﴿**القربى**﴾ بمعنى القرابة؛ ويشمل: القرابة من قِبَلِ الأم؛ والقرابة من قِبَلِ الأب،

لأن ﴿القربى﴾ جاءت بعد «**الوالدين**» أي القربى من قِبَل الأم، ومن قِبَل الأب.

الرابع: الإحسان إلى اليتامى؛ لقوله تعالى: ﴿**واليتامى**﴾: جمع يتيم ـ وهو الذي مات أبوه قبل أن يبلغ من ذكر، أو أنثى، وأوصى الله تعالى باليتامى؛ لأنه ليس لهم من يربيهم، أو يعولهم؛ إذ إن أباهم قد توفي؛ فهم محل للرأفة، والرحمة، والرعاية.

الخامس: الإحسان إلى المساكين؛ لقوله تعالى: ﴿**والمساكين**﴾: جمع مسكين وهو الفقير الذي أسكنه الفقر؛ لأن الإنسان إذا اغتنى فإنه يطغى، ويزداد، ويرتفع، ويعلو؛ وإذا كان فقيراً فإنه بالعكس، وهنا يدخل الفقراء مع ﴿**المساكين**﴾؛ لأن «الفقراء»، و«المساكين» من الأسماء التي إذا قرنت افترقت؛ وإذا افترقت اجتمعت؛ فكلمة «الفقراء» إذا كانت وحدها شملت الفقراء، والمساكين؛ و«المساكين» إذا كانت وحدها شملت الفقراء، والمساكين؛ وإذا قيل: فقراء ومساكين ـ مثل آية الزكاة: ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين**﴾ [التوبة: ٦٠] ـ صار «الفقراء» لها معنى؛ و«المساكين» لها معنى؛ لما اجتمعت الآن افترقت: فـ«الفقير»: من لا يجد شيئاً من الكفاية، أو يجد دون النصف؛ و«المسكين»: من يجد نصف الكفاية دون كمالها.

السادس: أن يقولوا للناس قولاً حسناً؛ لقوله تعالى: ﴿**وقولوا للناس حسناً**﴾ بسكون السين، وفي قراءة: ﴿**حسَناً**﴾ بفتحها؛ والقول الحسن يشمل: الحسن في هيئته؛ وفي معناه،

ففي هيئته: أن يكون باللطف، واللين، وعدم الغلظة، والشدة، **وفي معناه**: بأن يكون خيراً؛ لأن كل قولٍ حسنٍ فهو خير؛ وكل قول خير فهو حسن.

السابع: إقامة الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿**وأقيموا الصلاة**﴾ أي ائتوا بها قائمة ـ أي قويمة ليس فيها نقص؛ وذلك بأن يأتوا بها بشروطها، وأركانها، وواجباتها؛ وكمال ذلك أن يأتوا بمستحباتها؛ و﴿**الصلاة**﴾ تشمل الفريضة، والنافلة.

الثامن: إيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿**وآتوا الزكاة**﴾ أي أعطوها مستحقها؛ و«**الزكاة**» هي النصيب الذي أوجبه الله لمستحقه في الأموال الزكوية.

قوله تعالى: ﴿**ثم توليتم إلا قليلاً منكم**﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ وفائدته: إدخال الموجودين في عهد النبي ﷺ في هذا الحكم ـ أعني التولي؛ و«**التولي**» ترك الشيء وراء الظهر؛ وهذا أبلغ من الإعراض؛ لأن الإعراض قد يكون بالقلب، أو بالبدن مع عدم استدبار.

قوله تعالى: ﴿**وأنتم معرضون**﴾ الجملة هنا حالية؛ أي توليتم في إعراض؛ وذلك أن المتولي قد لا يكون عنده إعراض في قلبه ـ فقد يتولى بالبدن، ولكن قلبه متعلق بما وراءه؛ ولكن إذا تولى مع الإعراض فإنه لا يرجى منه أن يُقْبِل بعد ذلك.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: بيان عظمة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**وإذ أخذنا**﴾؛ لأن الضمير هنا للتعظيم؛ وهو سبحانه وتعالى العظيم الذي لا أعظم منه.

٢ ـ **ومنها**: أن التوحيد جاءت به الرسل جميعاً؛ لقوله تعالى: ﴿**لا تعبدون إلا الله**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن العبادة خاصة بالله ـ تبارك وتعالى؛ فلا يعبد غيره؛ لقوله تعالى: ﴿**لا تعبدون إلا الله**﴾؛ لأن هذا يفيد الحصر.

٤ ـ **ومنها**: وجوب الإحسان إلى الوالدين؛ لقوله تعالى: ﴿**وبالوالدين إحساناً**﴾؛ وإنما أوجب ذلك؛ لأن نعمة الوالدين على ولدهما هي التي تلي نعمة الله عزّ وجلّ؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في سورة لقمان: ﴿**أن اشكر لي ولوالديك**﴾ [لقمان: ١٤]؛ فهما سبب وجودك، وإمدادك، وإعدادك ـ وإن كان أصل ذلك من الله؛ فلولا الوالدان ما كنت شيئاً؛ والإحسان إلى الوالدين شامل للإحسان بالقول، والفعل، والمال، والجاه، وغير ذلك من أنواع الإحسان؛ وضده أمران؛ **أحدهما** أن يسيء إليهما؛ **والثاني**: **أن لا يحسن، ولا يسيء؛ وكلاهما تقصير في حق الوالدين مناف لبرهما؛ وفي الإساءة زيادة الاعتداء**.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: وجوب الإحسان إلى ذوي القربى ـ أي قرابة الإنسان ـ وهم من يجتمعون به بالأب الرابع، فما دون؛ ولكن يجب أن نعلم أن الإحسان يتفاوت؛ فكل من كان أقرب فهو أولى بالإحسان؛ لأن الحكم إذا عُلِّق بوصف قوي بحسب قوة ذلك الوصف؛ فمثلاً يجب عليك من صلة العم أكثر مما يجب عليك من صلة أولاد العم؛ ويجب عليك من صلة الخال أكثر مما يجب عليك من صلة أولاد الخال.

٦ ـ **ومنها**: وجوب الإحسان إلى اليتامى؛ وهو يشمل الإحسان إليهم أنفسهم؛ والإحسان في أموالهم؛ لقوله تعالى:

﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ [الأنعام: ١٥٢].

٧ ـ **ومنها**: وجوب الإحسان إلى المساكين؛ وذلك بإعطائهم ما يستحقون من الزكاة، ودفع الضرورة، وما أشبه ذلك.

٨ ـ **ومنها**: وجوب القول الحسن؛ لقوله تعالى: **﴿وقولوا للناس حسناً﴾**؛ وضد القول الحسن قولان؛ قول سوء؛ وقول ليس بسوء، ولا حسن؛ أما **قول السوء** فإنه منهي عنه؛ وأما **القول الذي ليس بسوء، ولا حسن** فليس مأموراً به، ولا منهياً عنه؛ لكن تركه أفضل؛ ولهذا وصف الله عباد الرحمٰن بأنهم: **﴿لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مرُّوا كراماً﴾** [الفرقان: ٧٢]؛ وقال الرسول ﷺ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً؛ أو ليصمت»**[(١)].

٩ ـ **ومنها**: الأمر بإقامة الصلاة على وجه الوجوب فيما لا تصح الصلاة إلا به؛ وعلى وجه الاستحباب فيما تصح الصلاة بدونه وهو من كمالها.

١٠ ـ **ومنها**: أن الصلوات مفروضة على من كان قبلنا.

١١ ـ **ومنها**: وجوب إيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: **﴿وآتوا الزكاة﴾**.

١٢ ـ **ومنها**: وجوب الزكاة على من كان قبلنا؛ ولكن لا يلزم أن يكونوا مساوين لنا في الأموال التي تجب فيها الزكاة، ولا في مقدار الزكاة، ولا في أهلها الذين تدفع إليهم.

١٣ ـ **ومنها**: أن بني إسرائيل مع هذا الميثاق الذي أخذه الله عليهم لم يقوموا به إلا القليل منهم.

---

(١) سبق تخريجه ص٢٥٥.

١٤ ـ **ومنها**: أن تولي بني إسرائيل كان تولياً كبيراً، حيث كان تولياً بإعراض.

١٥ ـ **ومنها**: أن المتولي المعرض أشد من المتولي غير المعرض.

١٦ ـ **ومنها**: أن التولي قد يكون بإعراض، وقد يكون بغير إعراض؛ لأنه لو كان بإعراض مطلقاً لم يستقم قوله: ﴿**وأنتم معرضون**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

التفسير:

﴿٨٤ ـ ٨٥﴾ قوله تعالى: ﴿**وإذ أخذنا ميثاقكم**﴾: يذكِّرهم الله سبحانه وتعالى بالميثاق الذي أخذه عليهم؛ وبين الله تعالى الميثاق هنا بأمرين:

الأول: قوله تعالى: ﴿**لا تسفكون دماءكم**﴾ أي لا تريقونها؛

و«السفك»، و«السفح» بمعنى واحد؛ والمراد بسفك الدم: القتل، كما قال الرسول ﷺ في مكة: «**لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً**»[١] أي يقتل نفساً بغير حق؛ و﴿**دماءكم**﴾ أي دماء بعضكم؛ لكن الأمة الواحدة كالجسد الواحد؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «**ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم**»[٢]، وقال: «**ويجير عليهم أقصاهم**»[٣].

الأمر الثاني: قوله تعالى: ﴿**ولا تخرجون أنفسكم من دياركم**﴾؛ المراد: لا يخرج بعضكم بعضاً من دياركم؛ ولا شك أن الإخراج من الوطن شاق على النفوس؛ وربما يكون أشق من القتل.

قوله تعالى: ﴿**ثم أقررتم وأنتم تشهدون**﴾ أي ثم بعد هذا الميثاق بقيتم عليه، وأقررتم به، وشهدتم عليه، ولم يكن الإقرار غائباً عنكم، أو منسياً لديكم؛ بل هو باق لا زائل؛ ثم بعد هذا

---

(١) أخرجه البخاري ص١٢، كتاب العلم، باب ٣٧: ليبلغ العلم الشاهد الغائب، حديث رقم ١٠٤؛ وأخرجه مسلم ص٩٠٣ ـ ٩٠٤، كتاب الحج، باب ٨٢: تحريم مكة وتحريم صيدها وخلاها...، حديث رقم ٣٣٠٤ [٤٤٦] ١٣٥٤.

(٢) أخرجه البخاري ص٢٥٧، كتاب الجزية والموادعة، باب ١٧: إثم من عاهد ثم غدر، حديث رقم ٣١٧٩؛ وأخرجه مسلم ص٩٠٥، كتاب الحج، باب ٨٥: فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة...، حديث رقم ٣٣٢٧ [٤٦٧] ١٣٧٠.

(٣) أخرجه أبو داود ص١٤٢٨، كتاب الجهاد، باب ١٤٧: في السرية ترد على أهل العسكر، حديث رقم ٢٧٥١؛ وأخرجه ابن ماجه ص٢٦٣٨، كتاب الديات، باب ٣١: المسلمون تتكافأ دماؤهم، حديث رقم ٢٦٨٥، قال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح ٢/ ١٧٠.

الميثاق، والإقرار به، والشهادة عليه ﴿أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾؛ و﴿هؤلاء﴾ منادى حذف منه حرف النداء ـ أي: يا هؤلاء؛ وليست خبر المبتدأ؛ و﴿أنتم﴾: مبتدأ خبره جملة: ﴿تقتلون﴾؛ والخطاب لمن كان في عهد الرسول ﷺ؛ وإنما وجه إليهم؛ لأنهم من الأمة التي فعلت ذلك، ورضوا به.

وقوله تعالى: ﴿تقتلون أنفسكم﴾ أي يقتل بعضكم بعضاً؛ ﴿وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم﴾ أي تجلونهم عن الديار؛ وهذا وقع بين طوائف اليهود قرب بعثة النبي ﷺ؛ حيث قتل بعضهم بعضاً، وأخرج بعضهم بعضاً من ديارهم.

قوله تعالى: ﴿تظاهرون﴾ بتخفيف الظاء؛ وفيها قراءة أخرى: ﴿تظّاهرون﴾ بتشديد الظاء؛ وأصله: تتظاهرون؛ ولكن أبدلت التاء ظاءً، ثم أدغمت بالظاء الأصلية؛ و﴿تظاهرون﴾ أي تعالَون؛ لأن الظهور معناه العلوّ، كما قال الله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ [الصف: ٩] يعني ليعليه؛ وسمي العلوّ ظهوراً: من الظهر؛ لأن ظهر الحيوان أعلاه؛ وقيل: ﴿تظاهرون﴾ أي تعينون من يعتدي على بعضكم في عدوانه.

قوله تعالى: ﴿بالإثم﴾ أي بالمعصية؛ ﴿والعدوان﴾ أي الاعتداء على الغير بغير حق؛ فكل عدوان معصية؛ وليست كل معصية عدواناً ـ إلا على النفس: فالرجل الذي يشرب الخمر عاصٍ، وآثم؛ والرجل الذي يقتل معصوماً هذا آثم، ومعتد؛ والذي يخرجه من بلده آثم، ومعتد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان﴾؛ فهؤلاء بعد ما أخذ عليهم الميثاق مع

الإقرار، والشهادة لم يقوموا به؛ أخرجوا أنفسهم من ديارهم، وتظاهروا عليهم بالإثم، والعدوان.

قوله تعالى: ﴿**وإن يأتوكم**﴾ أي يجيئون إليكم؛ ﴿**أسارى**﴾: جمع أسير؛ وتجمع أيضاً على أسرى، كما في قوله تعالى: ﴿**يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى**﴾ [الأنفال: ٧٠]؛ والأسير هو الذي استولى عليه عدوه؛ ولا يلزم أن يأسره بالحبل؛ لكن الغالب أنه يؤسر به؛ لئلا يهرب؛ و﴿**تفادوهم**﴾ أي تفكوهم من الأسر بفداء؛ وفي قراءة: ﴿**تفدوهم**﴾.

قوله تعالى: ﴿**وهو محرم عليكم إخراجهم**﴾ يعني: تفدون المأسورين وهو محرم عليكم إخراجهم من ديارهم؛ فأنتم لم تقوموا بالإيمان بالكتاب كله؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض**﴾؛ والاستفهام هنا للإنكار، والتوبيخ؛ والفاء في قوله تعالى: ﴿**أفتؤمنون**﴾ عاطفة؛ وسبق الكلام على مثل ذلك؛ أعني وقوع العاطف بعد همزة الاستفهام[1]؛ ووجه كونهم يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض: أنهم كفروا بما نهوا عنه من سفك الدماء، وإخراج أنفسهم من ديارهم؛ وآمنوا بفدائهم الأسرى؛ والذي يعبد الله على هذه الطريق لم يعبد الله حقيقة؛ وإنما عبد هواه؛ فإذا صار الحكم الشرعي يناسبه قال: آخذ به؛ وإذا كان لا يناسبه راوغ عنه بأنواع التحريف، والتماس الأعذار.

قوله تعالى: ﴿**فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة**﴾؛ «**ما**» نافية؛ والجزاء، والمجازاة، والمعاقبة معناها واحد؛ أو متقارب؛ ومعنى «**الجزاء**»: إثابة العامل على عمله؛

---

(١) ص٢٤٩.

والمعنى: ما ثوابكم على عملكم هذا إلا خزي في الحياة الدنيا؛ و«**الخزي**» معناه الذلّ.

قوله تعالى: ﴿**ويوم القيامة**﴾ أي يوم البعث؛ وسمي بذلك؛ لأن الناس يقومون فيه من قبورهم لرب العالمين؛ ولأنه يقوم فيه الأشهاد؛ ولأنه يقام فيه العدل؛ و﴿**يوم القيامة**﴾ ظرف متعلق بـ﴿**يردون**﴾ أي يرجعون من ذلّ الدنيا، وخزيها؛ ﴿**إلى أشد العذاب**﴾ أي أعظمه؛ و﴿**العذاب**﴾: العقوبة.

قوله تعالى: ﴿**وما الله بغافل**﴾: هذه صفة سلبية ـ أي نفى الله سبحانه وتعالى عن نفسه صفة الغفلة؛ وذلك لكمال علمه، ومراقبته؛ و﴿**عما تعملون**﴾: بالتاء؛ وفيها قراءة: ﴿**يعملون**﴾: بالياء.

﴿٨٦﴾ قوله تعالى: ﴿**أولئك**﴾: المشار إليه هؤلاء اليهود الذين نقضوا العهد؛ ﴿**اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة**﴾ أي اختاروا الدنيا على الآخرة؛ فالآخرة عندهم مزهود فيها مبيعة؛ والدنيا مرغوب فيها مشتراة؛ ووصفت هذه الحياة بالدنيا لدنوها زمناً ـ لأنها سابقة على الآخرة؛ ولدنوها منْزلة ـ لأنها دون الآخرة؛ وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**الموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[1].

وقوله تعالى: ﴿**بالآخرة**﴾: الباء هنا للبدل؛ وهي تدخل دائماً على الثمن، كقولهم: «اشتريت الثوب بدينار»: فالدينار هو الثمن؛ ويقال: «اشتريت الدينار بثوب»: فالثوب هو الثمن.

قوله تعالى: ﴿**فلا يخفف عنهم العذاب**﴾ أي لا يهوَّن عنهم

---

(١) سبق تخريجه ص٢٥٨.

لا زمناً، ولا شدة، ولا قوة؛ ﴿**ولا هم ينصرون**﴾ أي ولا أحد يمنع عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿**وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب * قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال**﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠]؛ فهم يائسون من الخروج؛ فلم يقولوا: «أخرجنا من النار»، ولم يقولوا: «يخفف عنا دائماً»؛ بل قالوا: ﴿**يخفف عنا يوماً من العذاب**﴾: يتمنون أن العذاب يخفف عنهم يوماً واحداً من الأبدي السرمدي؛ ولكن ذلك لا يحصل لهم؛ فيقال لهم توبيخاً، وتقريعاً، وتنديماً: ﴿**أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا**﴾؛ ولا ينفعهم الدعاء، كما قال تعالى: ﴿**وما دعاء الكافرين إلا في ضلال**﴾، أي ضياع.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيات**: أن بني إسرائيل أُخذ عليهم تحريم قتال بعضهم بعضاً؛ لقوله تعالى: ﴿**وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم**﴾.

٢ ـ **ومنها**: تحريم إخراج بعضهم بعضاً من ديارهم.

٣ ـ **ومنها**: أن الأمة كالنفس الواحدة؛ لقوله تعالى: ﴿**لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم**﴾.

٤ ـ **ومنها**: الأسلوب البليغ في قوله تعالى: ﴿**لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم**﴾؛ وذلك أن مثل هذا التعبير فيه الحث البليغ على اجتناب ما نُهي عنه، وكأن الذي اعتدى على غيره قد اعتدى على نفسه.

٥ ـ **ومنها**: أن بني إسرائيل قد أقروا على أنفسهم بهذا

الميثاق، وشهد بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿**ثم أقررتم وأنتم تشهدون**﴾.

٦ ـ **ومنها**: بيان تمرد بني إسرائيل؛ حيث إنهم نقضوا العهد الذي أخذه الله عليهم، فصار بعضهم يقتل بعضاً، ويخرج بعضهم بعضاً من ديارهم.

٧ ـ **ومنها**: أن بعضهم يتعالى على بعض بالإثم، والعدوان.

٨ ـ **ومنها**: تحريم التظاهر على الغير بغير حق؛ لقوله تعالى: ﴿**تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان**﴾؛ وأما إذا علا عليه بحق فإن هذا لا بأس به؛ فإن الله سبحانه وتعالى فضل العباد بعضهم على بعض، كما قال تعالى: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿**فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم**﴾ [محمد: ٣٥].

٩ ـ **ومنها**: تناقض بني إسرائيل في دينهم، وقبولهم للشريعة؛ حيث إنه يقتل بعضهم بعضاً، ويخرج فريقاً من ديارهم؛ ثم إذ أتى بعضهم أسيراً فاداه ـ أي دفع فدية لفك أسره؛ لأنه واجب عليهم في شريعتهم أن يفدي بعضهم بعضاً؛ وهذا من الإيمان ببعض الكتاب، والكفر ببعضه؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: أن الكفر ببعض الشريعة كفر بجميعها؛ وجه ذلك أن الله توعد هؤلاء الذين يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض؛ ومثل ذلك إذا آمن ببعض الرسل دون بعض فإنه كفر بالجميع؛ ودليل ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿**كذبت قوم نوح المرسلين**﴾ [الشعراء: ١٠٥] ـ ونوح هو أول الرسل لم يسبقه

رسول؛ ومع ذلك جعل الله المكذبين له مكذبين لجميع الرسل؛ ولقوله تعالى: ﴿**إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً * أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً**﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

١١ ـ **ومن فوائد الآيات**: مضاعفة العقوبة على بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿**فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب**﴾.

١٢ ـ **ومنها**: إثبات يوم القيامة؛ وهو اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين مبعوثين من قبورهم.

١٣ ـ **ومنها**: تهديد الذين نقضوا العهد؛ لقوله تعالى: ﴿**وما الله بغافل عما تعملون**﴾.

١٤ ـ **ومنها**: كمال علم الله سبحانه وتعالى، ومراقبته لخلقه.

١٥ ـ **ومنها**: إثبات أن صفات الله تعالى ثبوتية، ومنفية؛ لكن يجب أن نعلم أن النفي المحض لا يوجد في صفات الله تعالى؛ وإنما النفي الواقع في صفاته لبيان كمال ضد ذلك المنفي؛ ففي قوله تبارك وتعالى: ﴿**ولا يظلم ربك أحداً**﴾ [الكهف: ٤٩] إثبات كمال العدل مع نفي الظلم عنه؛ وفي قوله تعالى: ﴿**وما مسَّنا من لغوب**﴾ [ق: ٣٨] إثبات كمال القوة مع نفي اللغوب عنه؛ وعلى هذا فقس؛ فالضابط في الصفات التي نفاها الله تعالى عن نفسه أنها تدل على نفي تلك الصفة، وعلى ثبوت كمال ضدها.

١٦ ـ **ومن فوائد الآيات**: توبيخ من اختار الدنيا على

الآخرة؛ وهو مع كونه ضلالاً في الدين سفه في العقل؛ إذ إن الدنيا متاع قليل، ثم يزول؛ والآخرة خير، وأبقى.

١٧ ـ **ومنها**: أن هؤلاء القوم خالدون في العذاب أبد الآبدين؛ لقوله تعالى: ﴿**فلا يخفف عنهم العذاب**﴾.

١٨ ـ **ومنها**: أن المجرم لا يجد ناصراً له يمنعه من عذاب الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا هم ينصرون**﴾.

مسألة:

هذا الذي قصه الله تعالى علينا من أخبار بني إسرائيل مضمونه التحذير من الوقوع فيما وقعوا فيه ولكن مع الأسف أن بعض هذه الأمة وقعوا في جنس ما وقع فيه بنو إسرائيل؛ وهذا مصداق قول النبي ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**»(١).

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/٢١٨، حديث رقم ٢٢٢٤٢؛ وأخرجه الترمذي ص١٨٧١، كتاب الفتن، باب ١٨: ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم، حديث رقم ٢١٨٠؛ وأخرجه ابن حبان في صحيحه ٨/٢٤٨، باب: ذكر الأخبار عن اتباع هذه الأمة سنن من قبلهم من الأمم، حديث رقم ٦٦٦٧، وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح ٢/٢٣٥، حديث رقم ١٧٧١.

التفسير:

﴿٨٧ ـ ٨٨﴾ قوله تعالى: ﴿**ولقد**﴾: اللام موطئة للقسم؛ و«**قد**» للتحقيق؛ وعليه فتكون هذه الجملة مؤكّدة بثلاثة مؤكّدات ـ وهي: القسم المقدَّر، واللام الموطئة للقسم، و«**قد**»؛ و﴿**آتينا**﴾ أي أعطينا؛ و﴿**موسى**﴾ هو ابن عمران أفضل أنبياء بني إسرائيل؛ و﴿**الكتاب**﴾: المراد به هنا التوراة.

قوله تعالى: ﴿**وقفينا من بعده بالرسل**﴾ أي أتبعنا من بعده بالرسل؛ لأن التابع يأتي في قفا المتبوع.

قوله تعالى: ﴿**وآتينا عيسى ابن مريم**﴾ أي أعطيناه ﴿**البينات**﴾: صفة لموصوف محذوف؛ والتقدير: الآيات البينات ـ أي الظاهرات في الدلالة على صدقه، وصحة رسالته؛ وهذه الآيات البينات تشمل الآيات الشرعية، كالشريعة التي جاء بها؛ والآيات القدرية الكونية، كإحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم بإذن الله.

قوله تعالى: ﴿**وأيدناه**﴾ أي قويناه، كقوله تعالى: ﴿**فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين**﴾ [الصف: ١٤] أي قويناهم عليهم؛ وهو معروف اشتقاقه؛ لأنه من «الأيد» بمعنى القوة، كما قال الله تعالى: ﴿**والسماء بنيناها بأيد**﴾ [الذاريات: ٤٧] أي بقوة.

قوله تعالى: ﴿**بروح القدس**﴾ من باب إضافة الموصوف إلى صفته ـ أي بالروح المقدس؛ و«القُدُس»، و«القُدْس» بمعنى الطاهر؛ واختلف المفسرون في المراد بـ«**روح القدس**»:

القول الأول: أن المراد روح عيسى؛ لأنها روح قدسية طاهرة؛ فيكون معنى: ﴿**أيدناه بروح القدس**﴾ أي أيدناه بروح طيبة طاهرة تريد الخير، ولا تريد الشر.

والقول الثاني: أن المراد بـ«**روح القدس**»: الإنجيل؛ لأن الإنجيل وحي؛ والوحي يسمى روحاً، كما قال الله تعالى: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا**﴾ [الشورى: ٥٢].

والقول الثالث: أن المراد بـ«**روح القدس**» جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما قال تعالى: ﴿**قل نزله روح القدس من ربك**﴾ [النحل: ١٠٢]: وهو جبريل؛ وقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت وهو يهجو المشركين: «**اللهم أيده بروح القدس**»[1] أي جبريل؛ وهذا أصح الأقوال ـ وهو أن المراد بـ«**روح القدس**»: جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ يكون قريناً له يؤيده، ويقويه، ويلقنه الحجة على أعدائه؛ وهذا الذي رجحناه هو الذي رجحه ابن جرير، وابن كثير ـ أن المراد بـ«**روح القدس**»: جبريل عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿**أفكلما**﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، والتوبيخ؛ والفاء عاطفة؛ و«**كلما**» أداة شرط تفيد التكرار؛ ولا بد فيها من شرط، وجواب؛ والشرط هنا: قوله تعالى: ﴿**جاءكم**﴾؛ والجواب: ﴿**استكبرتم**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**أفكلما جاءكم رسول**﴾ أي من الله؛ ﴿**بما**﴾ أي بشرع؛ ﴿**لا تهوى أنفسكم**﴾ أي لا تريد؛ ﴿**استكبرتم**﴾ أي سلكتم طريق الكبرياء، والعلوّ على ما جاءت به الرسل؛

---

(١) أخرجه البخاري ص٣٨، كتاب الصلاة، باب ٦٨: الشعر في المسجد، حديث رقم ٤٥٣؛ وأخرجه مسلم ص١١١٤ ـ ١١١٥، كتاب فضائل الصحابة، باب ٣٤: فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه، حديث رقم ٦٣٨٤ [١٥١] ٢٤٨٥.

﴿ففريقاً﴾ أي طائفة؛ ونصب على أنه مفعول مقدم لـ﴿كذبتم﴾؛ ﴿وفريقاً تقتلون﴾ أي وطائفة أخرى تقتلونهم؛ وقدم المفعول على عامله؛ لإفادة الحصر مع مراعاة رؤوس الآي؛ والحصر هنا في أحد شيئين لا ثالث لهما: إما التكذيب؛ وإما القتل ـ يعني مع التكذيب.

وهنا قال تعالى: ﴿كذبتم﴾ ـ فعل ماضٍ؛ وقال تعالى: ﴿تقتلون﴾ ـ فعل مضارع؛ فأما كون الأول فعلاً ماضياً فالأمر فيه ظاهر؛ لأنه وقع منهم التكذيب؛ وأما الإتيان بفعل مضارع بالنسبة للقتل فهو **أولاً** مراعاة لفواصل الآيات؛ لأنه لو قال: «فريقاً قتلتم» لم تتناسب مع التي قبلها، والتي بعدها؛ ثم إن بعض العلماء أبدى فيها نكتة: وهي أن هؤلاء اليهود استمر قتلهم الرسل حتى آخرهم محمد ﷺ؛ فإنهم قتلوا الرسول ﷺ بالسم الذي وضعوه له في خيبر؛ فإنه ﷺ ما زال يتأثر منه حتى إنه ﷺ في مرض موته قال: «**ما زالت أكلة خيبر تعاودني، وهذا أوان انقطاع الأبهر مني**»[1]؛ قال الزهري: إن النبي ﷺ مات شهيداً؛ لأن اليهود تسببوا في قتله؛ وهذا ليس ببعيد أن يكون هذا من أسرار التعبير بالمضارع في القتل؛ وإن كان قد يَرِدُ عليه أن التكذيب استمر حتى زمن الرسول ﷺ؛ فلماذا لم يقل: «فريقاً تكذبون

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً ص٣٢٢، كتاب المغازي، باب ٨٤: مرض النبي ﷺ ووفاته...، حديث رقم ٤٤٢٨؛ وأخرجه الحاكم موصولاً ٣/ ٥٨، كتاب المغازي، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي؛ وأخرجه أبو داود ص١٥٥٤، كتاب الديات، باب ٦: فيمن سقى رجلاً سماً أو أطعمه فمات، حديث رقم ٤٥١٢، وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح ٣/ ٩١.

وفريقاً تقتلون»؟! والجواب عن هذا أن القتل أشد من التكذيب؛ فعبر عنه بالمضارع المستمر إلى آخر الرسل.

فإن قيل: كيف يصح قول الزهري: إن النبي ﷺ مات شهيداً؛ لأن اليهود كانوا سبباً في قتله، وقد قال الله تعالى: ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾؟

فالجواب: المراد بقوله تعالى: ﴿**يعصمك من الناس**﴾: حال التبليغ؛ أي بلغ وأنت في حال تبليغك معصوم، ولهذا لم يعتد عليه أحد أبداً في حال تبليغه، فقتله.

قوله تعالى: ﴿**وقالوا**﴾ أي بنو إسرائيل معتذرين عن ردهم ما جاء به الرسول ﷺ؛ ﴿**قلوبنا غلف**﴾ جمع أغلف؛ و«الأغلف» هو الذي عليه غلاف يمنع من وصول الحق إليه ـ يعني مغلفة لا تصل إليها دعوة الرسل؛ وهذه حجة باطلة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**بل لعنهم الله بكفرهم**﴾؛ و﴿**بل**﴾ للإضراب الإبطالي ـ أي أن الله تعالى أبطل حجتهم هذه، وبيَّن أنه تعالى: ﴿**لعنهم**﴾ ـ أي طردهم، وأبعدهم عن رحمته؛ ﴿**بكفرهم**﴾ أي بسبب كفرهم، حيث اختاروا الكفر على الإيمان؛ و«**كُفْر**» مصدر مضاف إلى فاعله؛ ولم يذكر مفعوله ليعم الكفرَ بكل ما يجب الإيمان به.

قوله تعالى: ﴿**فقليلاً ما يؤمنون**﴾ أي قليلاً إيمانهم؛ وعلى هذا تكون ﴿**ما**﴾ إما مصدرية؛ وإما زائدة لتوكيد القلة؛ وهل المراد بالقلة العدم، أو هي على ظاهرها؟ المعنى الأول أقرب؛ لأن الظاهر من حالهم عدم الإيمان بالكلية؛ ولا يمتنع أن يراد بالقلة العدم إذا دلت عليه القرائن الحالية، أو اللفظية.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: إثبات رسالة موسى؛ لقوله تعالى: ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب**﴾.

٢ ـ **ومنها**: تأكيد الخبر ذي الشأن ـ وإن لم ينكر المخاطب؛ لقوله تعالى: ﴿**ولقد آتينا**﴾؛ فإنها مؤكدة بثلاث مؤكدات مع أنه لم يخاطب بها من ينكر؛ وتأكيد الكلام يكون في ثلاثة مواضع:

أولاً: إذا خوطب به المنكِر، وقد قال علماء البلاغة: إنه في هذه الحال يؤكد وجوباً.

ثانياً: إذا خوطب به المتردد؛ وقد قال علماء البلاغة: إنه في هذه الحال يؤكد استحساناً.

ثالثاً: إذا كان الخبر ذا أهمية بالغة فإنه يحسن توكيده ـ وإن خوطب به من لم ينكر، أو يتردد.

٣ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن من بعد موسى من الرسل من بني إسرائيل تبع له؛ لقوله تعالى: ﴿**وقفينا من بعده بالرسل**﴾؛ ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿**إنا أنزلنا التوراة فيها هدًى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار**﴾ [المائدة: ٤٤].

٤ ـ **ومنها**: ثبوت رسالة عيسى؛ لقوله تعالى: ﴿**وآتينا عيسى بن مريم البينات**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن من ليس له أب فإنه ينسب إلى أمه؛ لأن عيسى عليه السلام نسب إلى أمه.

وبهذا نعرف أن القول الراجح من أقوال أهل العلم أن أم

من ليس له أب شرعاً هي عصبته؛ فإن عدمت فعصبتها ـ خلافاً لمن قال: إن أمه ليس لها تعصيب؛ ويظهر أثر ذلك بالمثال: فلو مات من ليس له أب عن أمه، وخاله: فلأمه الثلث والباقي لخاله ـ على قول من يقول: إن الأم لا تعصيب لها؛ أما على القول الراجح: فلأمه الثلث فرضاً، والباقي تعصيباً.

٦ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن عيسى بن مريم ﷺ أعطاه الله سبحانه وتعالى آيات كونية، وشرعية؛ مثال الشرعية: الإنجيل؛ ومثال الكونية: إحياء الموتى، وإخراجهم من القبور، وإبراء الأكمه، والأبرص، وأنه يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه، فيكون طيراً يطير بإذن الله؛ وكذلك أيضاً يخبرهم بما يأكلون، وما يدخرون في بيوتهم؛ قال العلماء: إنما أعطي هذه الآيات الكونية؛ لأن الطب في عهده ارتقى إلى درجة عالية، فأتاهم بآيات لا يقدر الأطباء على مثلها؛ كما أن محمداً ﷺ ترقى في عهده الكلام إلى منْزلة عالية في البلاغة، والفصاحة؛ فآتاه الله سبحانه وتعالى القرآن العظيم الذي عجزوا أن يأتوا بمثله.

٧ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن الله سبحانه وتعالى أيد عيسى بجبرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿**وأيدناه بروح القدس**﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن الملائكة من جملة تسخيرهم للخلق أنهم يؤيدون من أمَرَهم الله بتأييده؛ ولهذا قال النبي ﷺ لحسان بن ثابت: «**اللهم أيده بروح القدس**»[1].

٩ ـ **ومنها**: بيان عتوّ بني إسرائيل، وأنهم لا يريدون الحق؛

---

(١) سبق تخريجه ص٢٨٢.

لقوله تعالى: ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾.

١٠ ـ **ومنها**: أن بني إسرائيل يبادرون بالاستكبار عند مجيء الرسل إليهم، ولا يتأنون؛ لقوله تعالى: ﴿أفكلما جاءكم﴾، ثم قال تعالى: ﴿استكبرتم﴾؛ لأن مقتضى ترتب الجزاء على الشرط أن يكون الجزاء عقيباً للشرط: كلما وجد الشرط وجد الجزاء فوراً.

١١ ـ **ومنها**: توبيخ ولوم بني إسرائيل، وبيان مناهجهم بالنسبة للشرائع، وبالنسبة لمن جاء بالشرائع؛ ففي الشرائع: لا يقبلون إلا ما وافق أهواءهم، وبالنسبة لمن جاء بالشرائع بما لا تهوى أنفسهم: انقسموا إلى قسمين: فريقاً يكذبون؛ وفريقاً يقتلون مع التكذيب.

١٢ ـ **ومنها**: أن من استكبر عن الحق إذا كان لا يوافق هواه من هذه الأمة فهو شبيه ببني إسرائيل؛ فإذا استكبر عن الحق ـ سواء تحيل على ذلك بالتحريف؛ أو أقر بأن هذا الحق، ولكنه استكبر عنه ـ فإنه مشابه ببني إسرائيل.

والخارجون عن الحق ينقسمون إلى قسمين: **قسم** يقرُّ به، ويعترف بأنه عاصٍ؛ وهذا أمره واضح، وسبيله بين، **وقسم آخر** يستكبر عن الحق، ويحاول أن يحرف النصوص إلى هواه؛ وهذا الأخير أشد على الإسلام من الأول؛ لأنه يتظاهر بالاتباع وهو ليس من أهله.

١٣ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن بعض الناس يستكبر عن الحق؛ لأنه مخالف لهواه.

١٤ ـ **ومنها**: أن بني إسرائيل انقسموا في الرسل الذين

جاءوا بما لا تهوى أنفسهم إلى قسمين: قسم كذبوهم؛ وقسم آخر قتلوهم مع التكذيب.

١٥ ـ **ومنها**: أن هؤلاء الذين لم يقبلوا الحق احتجوا بما ليس بحجة؛ فقالوا: قلوبنا غلف.

١٦ ـ **ومنها**: أن من صنع مثل صنيعهم فهو شبيه بهم؛ يوجد أناس نسمع عنهم أنهم إذا نُصِحوا، ودُعوا إلى الحق قالوا: «ما هدانا الله»؛ وهؤلاء مشابهون لليهود الذين قالوا: ﴿**قلوبنا غلف**﴾.

١٧ ـ **ومنها**: أن القلوب بفطرتها ليست غلفاء؛ لقوله تعالى: ﴿**بل لعنهم الله**﴾؛ وهذا الإضراب للإبطال ـ يعني ليست القلوب غَلفاء لا تقبل الحق، لكن هناك شيء آخر هو الذي منع من وصل الحق؛ وهو لَعْن الله إياهم بسبب كفرهم.

١٨ ـ **ومنها**: أن الفطرة من حيث هي فطرة تقبل الحق، ولكن يوجد لها موانع.

١٩ ـ **ومنها**: بيان أن الأسباب مهما قويت إذا غلب عليها المانع لم تؤثر شيئاً؛ فالقلوب وإن كانت مفطورة على الدين القيم لكن إذا وجد موانع لم تتمكن من الهدى؛ وقد قيل: إن الأمور لا تتم إلا بوجود أسبابها، وانتفاء موانعها.

٢٠ ـ **ومنها**: إثبات الأسباب، وأن لها تأثيراً في مسبباتها بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿**بل لعنهم الله بكفرهم**﴾.

٢١ ـ **ومنها**: أن الإيمان في هؤلاء اليهود قليل، أو معدوم؛ لقوله تعالى: ﴿**فقليلاً ما يؤمنون**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

التفسير:

﴿٨٩﴾ قوله تعالى: ﴿**ولما جاءهم كتاب**﴾: هو القرآن؛ ونكَّره هنا للتعظيم؛ وأكد تعظيمه بقوله تعالى: ﴿**من عند الله**﴾، وأضافه الله تعالى إليه؛ لأنه كلامه ـ كما سيأتي في الفوائد إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿**مصدق لما معهم**﴾: له معنيان:

الأول: أنه حكم بصدقها، كما قال في قوله تعالى: ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله**﴾ [البقرة: ٢٨٥]؛ فهو يقول عن التوراة: إنه حق، وعن الإنجيل: إنه حق؛ وعن الزبور: إنه حق؛ فهو يصدقها، كما لو أخبرك إنسان بخبر، فقلت: «صدقت» تكون مصدقاً له.

المعنى الثاني: أنه جاء مطابقاً لما أخبرت الكتب السابقة ـ التوراة، والإنجيل؛ فعيسى بن مريم ﷺ قال: ﴿**إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد**﴾ [الصف: ٦]؛ فجاء هذا الكتاب مصدقاً لهذه البشارة.

وقوله تعالى: ﴿**لما معهم**﴾ أي من التوراة، والإنجيل؛ وهذا واضح أن التوراة أخبرت بالرسول ﷺ إما باسمه، أو بوصفه الذي لا ينطبق على غيره.

قوله تعالى: ﴿وكانوا من قبل﴾ أي من قبل أن يجيئهم ﴿يستفتحون﴾ أي يستنصرون، ويقولون سيكون لنا الفتح، والنصر ﴿على الذين كفروا﴾ أي من المشركين الذين هم الأوس، والخزرج؛ لأنهم كانوا على الكفر، ولم يكونوا من أهل الكتاب ـ كما هو معروف؛ فكانوا يقولون: إنه سيبعث نبي، وسنتبعه، وسننتصر عليكم؛ لكن لما جاءهم الشيء الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم كفروا به؛ ﴿فلعنة الله﴾: اللعنة: هي الطرد، والإبعاد عن رحمة الله؛ ﴿على الكافرين﴾ أي حاقة عليهم؛ وهو مظهر في موضع الإضمار؛ إذ كان مقتضى السياق: «فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله عليهم»؛ والإظهار في موضع الإضمار له فوائد؛ منها: مراعاة الفواصل كما هنا؛ ومنها الحكم على موضع الضمير بما يقتضيه هذا الوصف؛ ومنها الإشعار بالتعليل؛ ومنها إرادة التعميم.

﴿٩٠﴾ قوله تعالى: ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم﴾: «بئس» فعل ماضٍ لإنشاء الذم؛ يقابلها «نِعْم»: فهي فعل ماضٍ لإنشاء المدح؛ و«بئس»، و«نعْم» اسمان جامدان لا يتصرفان ـ أي لا يتحولان عن صيغة الماضي؛ و«ما» اسم موصول بمعنى الذي ـ أي بئس الذي اشتروا به أنفسهم؛ أو إنها نكرة موصوفة، والتقدير: «بئس شيئاً اشتروا به أنفسهم»، و﴿اشتروا﴾ فسرها أكثرهم بمعنى باعوا؛ وهو خلاف المشهور؛ لأن معنى «اشترى الشيء»: اختاره؛ والمختار للشيء لا يكون بائعاً له؛ والصحيح أنها على بابها؛ ووجهه أن هؤلاء الذين اختاروا الكفر كانوا راغبين فيه، فكانوا مشترين له.

قوله تعالى: ﴿أن يكفروا﴾: ﴿أن﴾ هنا مصدرية؛ والفعل

بعدها مؤول بمصدر، والتقدير: كفرُهم؛ وهو المخصوص بالذم؛ وإعرابه مبتدأ مؤخر خبره الجملة قبله؛ ﴿**بما أنزل الله**﴾: «**ما**» هذه اسم موصول بمعنى الذي؛ والمراد به: القرآن؛ لأنه تعالى قال في الأول: ﴿**ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم**﴾؛ و﴿**بغياً**﴾ مفعول لأجله عامله: قوله تعالى: ﴿**يكفروا**﴾؛ و«**البغي**» فسره كثير من العلماء بالحسد؛ والظاهر أنه أخص من الحسد؛ لأنه بمعنى العدوان؛ لأن الباغي هو العادي، كما قيل: على الباغي تدور الدوائر؛ وقيل: البغي: مرتعُ مبتغيه وخيم؛ فالبغي ليس مجرد الحسد فقط؛ نعَم، قد يكون ناتجاً عن الحسد؛ والذين فسَّروه بالحسد فسَّروه بسببه.

قوله تعالى: ﴿**أن ينزل الله من فضله**﴾: «الفضل» في اللغة: زيادة العطاء؛ والمراد بـ«**الفضل**» هنا الوحي، أو القرآن، كما قاله تعالى: ﴿**قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون**﴾ [يونس: ٥٨].

قوله تعالى: ﴿**على مَن يشاء من عباده**﴾: ﴿**مَنْ**﴾ اسم موصول؛ والمراد: النبي ﷺ؛ لأن القرآن في الحقيقة نزل على النبي ﷺ للناس، كما قال تعالى: ﴿**كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور**﴾ [إبراهيم: ١]؛ و﴿**يشاء**﴾ أي يريد بالإرادة الكونية؛ والمراد بـ﴿**عباده**﴾ هنا الرسل.

قوله تعالى: ﴿**فباءوا**﴾ أي رجعوا؛ ﴿**بغضب**﴾: الباء للمصاحبة ـ يعني رجعوا مصطحبين لغضب من الله سبحانه وتعالى؛ ونكَّره للتعظيم؛ ولهذا قال بعض الناس: إن المراد بـ«**الغضب**»: غضب الله سبحانه وتعالى، وغيره ـ حتى المؤمنين

من عباده يغضبون من فعل هؤلاء، وتصرفهم.

قوله تعالى: ﴿**على غضب**﴾ ـ كقوله تعالى: ﴿**ظلمات بعضها فوق بعض**﴾ [النور: ٤٠] ـ يعني غضباً فوق غضب؛ فما هو الغضب الذي باءوا به؟ وما هو الغضب الذي كان قبله؟

الجواب: الغضب الذي باءوا به أنهم كفروا بما عرفوا، كما قال تعالى: ﴿**فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به**﴾؛ والغضب السابق أنهم استكبروا عن الحق إذا كان لا تهواه أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿**أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم**﴾ [البقرة: ٨٧]؛ والغضب الثالث: قتلهم الأنبياء، أو تكذيبهم؛ فهذه ثلاثة أنواع من أسباب الغضب؛ وقد يكون أيضاً هناك أنواع أخرى.

قوله تعالى: ﴿**وللكافرين عذاب مهين**﴾: هذا إظهار في موضع الإضمار فيما يظهر؛ لأن ظاهر السياق أن يكون بلفظ الضمير ـ أي ولهم عذاب مهين؛ والإظهار في موضع الإضمار له فوائد سبق بيانها قريباً.

وقوله تعالى: ﴿**عذاب**﴾ أي عقوبة؛ و﴿**مهين**﴾ أي ذو إهانة، وإذلال؛ ولو لم يكن من إذلالهم ـ حين يقولون: ﴿**ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون**﴾ [المؤمنون: ١٠٧] ـ إلا قول الله عزّ وجلّ لهم: ﴿**اخسئوا فيها ولا تكلمون**﴾ [المؤمنون: ١٠٨] لكفى.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: أن القرآن من عند الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**كتاب من عند الله**﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن القرآن كلامه سبحانه وتعالى تكلم به حقيقة؛ لقوله تعالى: ﴿**كتاب من عند الله**﴾؛ ومعلوم أن الكلام ليس جسماً يقوم بنفسه حتى نقول: إنه مخلوق.

٣ ـ **ومنها**: التنويه بفضل القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿**مصدق لما معهم**﴾، ولقوله تعالى: ﴿**من عند الله**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن اليهود كانوا يعرفون أن النبي ﷺ سيبعث، وتكون له الغلبة؛ لقوله تعالى: ﴿**وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا**﴾ يعني يستنصرون ـ أي يطلبون النصر؛ أو يَعِدون به؛ فقبل نزول القرآن، وقبل مجيء الرسول ﷺ يقولون للعرب: إنه سيبعث نبي، وينْزل عليه كتاب، وننتصر به عليكم، ولما جاءهم الرسول الذي كانوا يستفتحون به كفروا به.

٥ ـ **ومنها**: أن اليهود لم يخضعوا للحق؛ حتى الذي يقرون به لم يخضعوا له؛ لأنهم كفروا به؛ فيدل على عتوهم، وعنادهم.

٦ ـ **ومنها**: أن الكافر مستحق للعنة الله، وواجبة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿**فلعنة الله على الكافرين**﴾.

٧ ـ استدل بعض العلماء بهذه الآية على جواز لعن الكافر المعين؛ ولكن لا دليل فيها؛ لأن اللعن الوارد في الآية على سبيل العموم؛ ثم هو خبر من الله عزّ وجلّ، ولا يلزم منه جواز الدعاء به؛ ويدل على منع لعن المعين أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهم العن فلاناً، وفلاناً**»[1] ـ لأئمة الكفر، فنهاه الله عن ذلك؛ ولأن الكافر المعين قد يهديه الله للإسلام إن كان حياً؛ وإن كان

---

(١) أخرجه البخاري ص٣٣٣، كتاب المغازي، باب ٢٢: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾، حديث رقم ٤٠٦٩.

ميتاً فقد قال النبي ﷺ: «**لا تسبوا الأموات؛ فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا**»(١).

٨ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن كفر بني إسرائيل ما هو إلا بغي، وحسد؛ لقوله تعالى: ﴿**بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده**﴾.

٩ ـ **ومنها**: أن من رد الحق من هذه الأمة لأن فلاناً الذي يرى أنه أقل منه هو الذي جاء به؛ فقد شابه اليهود.

١٠ ـ **ومنها**: أنه يجب على الإنسان أن يعرف الحق بالحق لا بالرجال؛ فما دام أن هذا الذي قيل حق فاتْبَعْه من أيٍّ كان مصدره؛ فاقبل الحق للحق؛ لا لأنه جاء به فلان، وفلان.

١١ ـ **ومنها**: أن العلم من أعظم فضل الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**أن ينَزِّل الله من فضله على من يشاء**﴾؛ ولا شك أن العلم أفضل من المال؛ وإذا أردت أن تعرف الفرق بين فضل العلم، وفضل المال فانظر إلى العلماء في زمن الخلفاء السابقين؛ الخلفاء السابقون قَلّ ذكرهم؛ والعلماء في وقتهم بقي ذكرهم: هم يُدَرِّسون الناس وهم في قبورهم؛ وأولئك الخلفاء نُسوا؛ اللهم إلا من كان خليفة له مآثر موجودة، أو محمودة؛ فدل هذا على أن فضل العلم أعظم من فضل المال.

١٢ ـ **ومن فوائد الآيتين**: إثبات مشيئة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**على من يشاء**﴾؛ وهي عامة فيما يحبه الله، وما لا يحب؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ وكل شيء عُلِّق

---

(١) أخرجه البخاري ص١٠٩، كتاب الجنائز، باب ٩٧: ما ينهى من سبّ الأموات، حديث رقم ١٣٩٣.

بالمشيئة فهو مقرون بالحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿**وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً**﴾ [الإنسان: ٣٠]؛ فليست أفعال الله وأحكامه لمجرد المشيئة؛ بل هي لحكمة بالغة اقتضت المشيئة.

١٣ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن هذا الفضل الذي نزله الله لا يجعل المفضَّل به رباً يُعْبد؛ بل هو من العباد ـ حتى ولو تميز بالفضل؛ لقوله تعالى: ﴿**على من يشاء من عباده**﴾.

وهذه الفائدة لها فروع نوضحها، فنقول: إن من آتاه الله فضلاً من العلم والنبوة لم يخرج به عن أن يكون عبداً؛ إذاً لا يرتقي إلى منْزلة الربوبية؛ فالرسول ﷺ عبد من عباد الله؛ فلا نقول لمن نزل عليه الوحي: إنه يرتفع حتى يكون رباً يملك النفع، والضرر، ويعلم الغيب.

ويتفرع عنها أن من آتاه الله من فضله من العلم، وغيره ينبغي أن يكون أعبد لله من غيره؛ لأن الله تعالى أعطاه من فضله؛ فكان حقه عليه أعظم من حقه على غيره؛ فكلما عظم الإحسان من الله عزّ وجلّ استوجب الشكر أكثر؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقوم في الليل حتى تتورم قدماه؛ فقيل له في ذلك؛ فقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»[1].

ويتفرع عنها فرع ثالث: أن بعض الناس اغتر بما آتاه الله من

---

(١) أخرجه البخاري ص٨٨، كتاب التهجد، باب ٦: قيام النبي ﷺ الليل، حديث رقم ١١٣٠؛ وأخرجه مسلم ص١١٦٩، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب ١٨: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم ٧١٢٤ [٧٩] ٢٨١٩.

العلم، فيتعالى في نفسه، ويتعاظم حتى إنه ربما لا يقبل الحق؛ فحُرِم فضل العلم في الحقيقة.

١٤ ـ **من فوائد الآيتين**: أن العقوبات تتراكم بحسب الذنوب جزاءً وفاقاً؛ لقوله تعالى: ﴿**فباءوا بغضب على غضب**﴾.

١٥ ـ **ومنها**: أن المستكبر يعاقب بنقيض حاله؛ لقوله تعالى: ﴿**عذاب مهين**﴾ بعد أن ترفعوا؛ فعوقبوا بما يليق بذنوبهم؛ وعلى هذا جرت سنة الله سبحانه وتعالى في خلقه؛ قال الله تعالى: ﴿**فكلاً أخذنا بذنبه**﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿**جزاءً وفاقاً**﴾ [النبأ: ٢٦].

١٦ ـ **ومنها**: أن الإظهار في موضع الإضمار من أساليب البلاغة، وفيه من الفوائد ما سبق ذكره قريباً.

١٧ ـ **ومنها**: إثبات الغضب من الله سبحانه وتعالى، لقوله تعالى: ﴿**فباءوا بغضب على غضب**﴾؛ والغضب من صفات الله الفعلية المتعلقة بمشيئته؛ وهكذا كل صفة من صفات الله تكون على سبب.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾.

التفسير:

﴿٩١﴾ قوله تعالى: ﴿**وإذا قيل لهم**﴾ أي لليهود؛ وأبهم

القائل ليكون شاملاً لكل من قال لهم هذا القول: إما الرسول ﷺ؛ وإما غيره؛ ﴿آمنوا بما أنزل الله﴾ أي صدِّقوا به مع قبوله، والإذعان له؛ لأن الإيمان شرعاً: التصديق مع القبول، والإذعان؛ وليس كل من صدق يكون مؤمناً حتى يكون قابلاً مذعناً؛ والدليل على ذلك أن أبا طالب كان مصدقاً برسول الله ﷺ ولم يكن مؤمناً؛ لأنه لم يقبل، ولم يذعن؛ و«ما» اسم موصول؛ المراد به: القرآن العظيم؛ و﴿أنزل الله﴾ أي من عنده.

قوله تعالى: ﴿قالوا﴾: هذا جواب: ﴿إذا﴾؛ ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ يعنون به التوراة؛ ﴿ويكفرون بما وراءه﴾ يعنون به القرآن؛ و«وراء» هنا بمعنى سوى؛ ﴿وهو الحق﴾: هذه الجملة حال من «ما» في قوله تعالى: ﴿بما وراءه﴾ يعني أن هذا الذي كفروا به هو الحق؛ وضده الباطل ـ وهو الضائع سدىً الذي لا يستفاد منه؛ أما الحق فهو الثابت المفيد النافع؛ وهذا الوصف بلا شك ينطبق على القرآن؛ ﴿مصدقاً﴾: حال أيضاً من ﴿هو﴾ أي الضمير؛ وسبق معنى كونه مصدقاً لما معهم؛ وقوله تعالى هنا: ﴿لما معهم﴾ يعني التوراة.

ثم قال تعالى مكذباً لقولهم: ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾: ﴿قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾؛ الخطاب في ﴿قل﴾ إما للرسول ﷺ؛ وإما لكل من يتأتى خطابه؛ ﴿فلم﴾: اللام حرف جر؛ و«ما» اسم استفهام دخل عليه حرف جر، فوجب حذف ألفها للتخفيف؛ والاستفهام للإنكار، والتوبيخ؛ يعني لو كنتم صادقين بأنكم تؤمنون بما أنزل عليكم فلم تقتلون أنبياء الله؛ لأن قتلهم لأنبياء الله مستلزم لكفرهم بهم ـ أي

بأنبياء الله؛ ﴿من قبل﴾ أي من قبل بعثة الرسول ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أنبياء﴾ فيها قراءتان: ﴿أنبئاء﴾ بالهمزة؛ و﴿أنبياء﴾ بالياء، مثل: «النبي»، و«النبيء»؛ و«النبيء» جمعه أنبئاء؛ و«النبي» جمعه أنبياء.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن القرآن كلام الله؛ لقوله تعالى: ﴿آمنوا بما أنزل الله﴾؛ لأن ما أنزل الله هو القرآن ـ وهو كلام؛ والكلام ليس عيناً قائمة بذاتها؛ بل هو صفة في غيره؛ فإذا كان صفة في غيره، وهو نازل من عند الله لزم أن يكون كلام الله عزّ وجلّ.

٢ ـ **ومنها**: علوّ الله سبحانه وتعالى؛ لأنه إذا كان القرآن كلامه، وهو نازل من عنده دلَّ على علوّ المتكلم به.

٣ ـ **ومنها**: كذب اليهود في قولهم: ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾؛ لأنهم لو آمنوا به لآمنوا بمحمد ﷺ، كما قال تعالى: **﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر...﴾** [الأعراف: ١٥٧] إلخ.

٤ ـ **ومنها**: عتوّ اليهود، وعنادهم؛ لأنهم يقولون: لا نؤمن إلا بما أنزل علينا.

٥ ـ **ومنها**: أن من دُعي إلى الحق من هذه الأمة، وقال: «المذهب كذا، وكذا» ـ يعني ولا أرجع عنه ففيه شبه من اليهود ـ لأن الواجب إذا دعيت إلى الحق أن تقول: «سمعنا وأطعنا»؛ ولا تعارضه بأي قول كان، أو مذهب.

٦ ـ **ومنها**: وجوب قبول الحق من كل من جاء به.

٧ ـ **ومنها**: إفحام الخصم بإقامة الحجة عليه من فعله؛ ووجه ذلك أن الله أقام على اليهود الحجة على فعلهم؛ لأنهم قالوا: نؤمن بما أنزل علينا وهم قد قتلوا أنبياء الله الذين جاءوا بالكتاب إليهم؛ فإن قولهم: ﴿**نؤمن بما أنزل علينا**﴾ ليس بحق؛ لأنه لو كانوا مؤمنين حقيقة ما قتلوا الأنبياء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

التفسير:

﴿**٩٢**﴾ قوله تعالى: ﴿**ولقد جاءكم موسى**﴾: الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام الموطئة للقسم ـ وهي للتوكيد؛ و«**قد**» وهي هنا للتحقيق؛ لأنها دخلت على الماضي؛ و﴿**جاءكم**﴾: الخطاب لليهود؛ والدليل على أنه لليهود قوله تعالى: ﴿**موسى**﴾؛ لأن موسى نبيهم؛ وهنا خاطبهم باعتبار الجنس لا باعتبار الشخص؛ إذ إن موسى لم يأت هؤلاء الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ؛ لكنه أتى بني إسرائيل الذين هؤلاء منهم.

قوله تعالى: ﴿**بالبينات**﴾: الباء للمصاحبة، أو للتعدية؛ يعني: جاءكم مصحوباً بالبينات؛ أو أن البينات هي التي جيء بها، فتكون للتعدية؛ و«**البينات**» صفة لموصوف محذوف؛ والتقدير: بالآيات البينات ـ أي بالعلامات الدالة على رسالته؛

ومنها: اليد، والعصا، والحجر، وفلق البحر، والجراد الذي أرسل على آل فرعون، والسنون، وأشياء كثيرة، مثل القمل، والضفادع، والدم.

قوله تعالى: ﴿ثم﴾: تفيد الترتيب بمهلة ـ يعني ثم بعد أن مضى عليكم وقت أمكنكم أن تتأملوا في هذه الآيات، وأن تعرفوها: الذي حصل أنكم لم ترفعوا بها رأساً: ﴿**اتخذتم العجل**﴾: «**اتخذ**» من أفعال التصيير، كقوله تعالى: ﴿**واتخذ الله إبراهيم خليلاً**﴾ [النساء: ١٢٥] يعني صيَّره؛ إذاً هي تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ، والخبر؛ المفعول الأول: ﴿**العجل**﴾؛ والمفعول الثاني محذوف تقديره: إلهاً؛ وحذف للعلم به، كما قال ابن مالك في الألفية:

وحذف ما يعلم جائز

و﴿**العجل**﴾ هو ولد البقرة، وليس عجلاً من حيوان؛ ولكنه عجل من حلي: صنعوا من الحلي مجسماً كالعجل، وجعلوا فيه ثقباً تدخله الريح، فيكون له صوت كخوار الثور، فأغواهم السامري، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى فنسي؛ لأن موسى كان قد ذهب منهم لميقات ربه على أنه ثلاثون يوماً، فزاد الله تعالى عشراً، فصار أربعين يوماً؛ فقال لهم السامري: إن موسى ضلّ عن إلهه؛ ولهذا تخلف، فلم يرجع؛ فهو قد ضلّ، ولم يهتد إلى إلهه؛ فهذا إلهكم، وإله موسى، فاتَّخِذوه إلهاً.

قوله تعالى: ﴿**من بعده**﴾ أي من بعد ذهاب موسى لميقات ربه؛ لأن موسى رجع إليهم، وقال للسامري عن إلهه: ﴿**لنحرقنه ثم لننسفنَّه في اليم نسفاً**﴾ [طه: ٩٧]؛ وجرى هذا: فحرقه موسى ﷺ، ونسفه في البحر.

قوله تعالى: ﴿وأنتم ظالمون﴾ أي معتدون؛ وأصل الظلم النقص، كما في قوله تعالى: ﴿**كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً**﴾ [الكهف: ٣٣]؛ وسمي العدوان ظلماً؛ لأنه نقص في حق المعتدى عليهم؛ وجملة: ﴿وأنتم ظالمون﴾ حال في موضع النصب من فاعل ﴿اتخذتم﴾ أي والحال أنكم ظالمون؛ وهذا أبلغ في القبح: أن يعمل الإنسان العمل القبيح وهو يعلم أنه ظالم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إقامة البرهان على عناد اليهود؛ ووجه ذلك أنه قد جاءهم موسى بالبينات، فاتخذوا العجل إلهاً.

٢ ـ **ومنها**: سفاهة اليهود، وغباوتهم، لاتخاذهم العجل إلهاً مع أنهم هم الذين صنعوه.

٣ ـ **ومنها**: أن اليهود اغتنموا فرصة غياب موسى مما يدل على هيبتهم له؛ لقوله تعالى: ﴿من بعده﴾ يعني من بعد ذهاب موسى إلى ميقات ربه.

٤ ـ **ومنها**: أن اليهود عبدوا العجل عن ظلم، وليس عن جهل؛ لقوله تعالى: ﴿وأنتم ظالمون﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

التفسير:

﴿٩٣﴾ قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾: ﴿إذ﴾ تأتي في القرآن كثيراً؛ والمعربون يعربونها بأنها مفعول لفعل محذوف؛ تقديره: اذكر؛ وإذا كان الخطاب لأكثر من واحد يقدر: اذكروا، أي اذكروا إذ أخذنا ميثاقكم؛ و«**الميثاق**»: العهد؛ وسمي العهد ميثاقاً؛ لأنه يتوثق به.

قوله تعالى: ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ وهو الجبل المعروف؛ رفعه الله عزّ وجلّ على رؤوسهم تهديداً لهم؛ فجعلوا يشاهدونه فوقهم كأنه ظلة؛ فسجدوا خوفاً من الله عزّ وجلّ، وجعلوا ينظرون إلى الجبل وهم يتضرعون إلى الله سبحانه وتعالى بكشف كربتهم؛ ولهذا ذكر بعض أهل العلم عن اليهود أنهم يرون أن أفضل سجدة يسجدون لله بها أن يسجدوا وقد أداروا وجوههم إلى السماء؛ يقولون: هذه السجدة أنجانا الله بها؛ فهي أشرف سجدة عندنا.

قوله تعالى: ﴿خذوا﴾ فعل أمر؛ وهو في محل نصب مقولاً لقول محذوف ـ أي: قلنا: خذوا ـ ﴿ما أتيناكم﴾ أي ما أعطيناكم؛ والمراد به التوراة ﴿بقوة﴾ أي بجدٍّ، ونشاط؛ فالجد: العزيمة الثابتة؛ والنشاط: القوة في التنفيذ؛ ﴿واسمعوا﴾ أي سماع قبول، واستجابة؛ فأمروا بأن يأخذوا بالتوراة بقوة، وأن يسمعوا، ويستجيبوا، وينقادوا؛ وكان الجواب: ﴿قالوا سمعنا﴾ أي بآذاننا؛ ﴿وعصينا﴾ أي بأفعالنا؛ فما سمعوا السمع الذي طُلب منهم؛ ولكنهم استكبروا عنه؛ وظاهر الآية الكريمة أنهم قالوا ذلك لفظاً: ﴿سمعنا وعصينا﴾؛ وقال بعضهم: قالوا: ﴿سمعنا﴾ بألسنتهم، وعصوا بأفعالهم؛ فيكون التعبير بالعصيان هو عبارة عن أفعالهم،

وأنهم لم يقولوا بألسنتهم: ﴿وعصينا﴾؛ وهذا ضعيف؛ لأن الواجب حمل اللفظ على ظاهره حتى يقوم دليل صحيح على أنه غير مراد، ولأنه لا يمتنع أن يقولوا: «سمعنا وعصينا» بألسنتهم وهم الذين قالوا لموسى: ﴿**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**﴾ [البقرة: ٥٥]؛ فالذين تجرأوا أن يقولوا: ﴿**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**﴾ يتجرءون أن يقولوا: ﴿**سمعنا وعصينا**﴾ بألسنتهم؛ وكأن الذين قالوا: إن المراد بالمعصية هنا فعل المعصية؛ وليس معناه أنهم قالوا بألسنتهم: ﴿وعصينا﴾ كأنهم قالوا: إنهم التزموا بهذا والجبل فوق رؤوسهم؛ ومن كان هذه حاله لا يمكن أن يقول: «سمعنا، وعصينا» والجبل فوقه؛ ويمكن الجواب عن هذا بأنهم قالوا ذلك بعد أن فُرِّج عنهم؛ و«العصيان»: هو الخروج عن الطاعة بترك المأمور، أو فعل المحظور؛ فمن ترك الجماعة وهي واجبة عليه فهو عاصٍ؛ ومن زنى، أو سرق، أو شرب الخمر فهو أيضاً عاصٍ لله. ورسوله.

قوله تعالى: ﴿**وأُشربوا في قلوبهم العجل**﴾: قال بعضهم: إنه على تقدير مضاف؛ والتقدير: أشربوا في قلوبهم حب العجل؛ لأن العجل نفسه لا يمكن أن يشرب في القلب؛ ومعنى ﴿أشربوا﴾: أنه جُعل هذا الحب كأنه ماء سقي به القلب؛ إذاً امتزج بالقلب كما يمتزج الماء بالمدر إذا أشرب إياه؛ والمدر هو الطين اليابس؛ فهذا القلب أشرب فيه حب العجل، ولكن عبر بالعجل عن حبه؛ لأنه أبلغ؛ فكأن نفس العجل دخل في قلوبهم؛ والذي أشرب هذا في قلوبهم هو الله سبحانه وتعالى؛ ولكن من بلاغة القرآن أن ما يكرهه الله يعبر عنه غالباً بالبناء لما لم يسم

فاعله؛ لأن النبي ﷺ يقول: «**والشر ليس إليك**»[(١)]، وقال الله تعالى عن الجن: ﴿**وأنَّا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً**﴾ [الجن: ١٠]؛ ففي الشر قالوا: ﴿**أريد**﴾، ولم ينسبوه إلى الله؛ أما الرشد فنسبوه إلى الله عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿**بكفرهم**﴾: الباء هنا للسببية؛ أي بسبب كفرهم بالله السابق على عبادة العجل؛ لأنهم قد نووا الإثم قبل أن يقعوا فيه؛ فصاروا كفاراً به، ثم أشربوا في قلوبهم العجل حتى صاروا لا يمكن أن يتحولوا عنه: قال لهم هارون ﷺ: ﴿**يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمٰن فاتبعوني وأطيعوا أمري**﴾ [طه: ٩٠]؛ ولكن كان جوابهم لهارون: ﴿**لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى**﴾ [طه: ٩١]؛ فأصروا؛ لأنهم أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم.

قوله تعالى: ﴿**قل**﴾: يخاطب الله سبحانه وتعالى النبي ﷺ، أو يخاطب كل من يصح توجيه الخطاب إليه ـ أي قل أيها النبي؛ أو قل أيها المخاطب؛ ﴿**بئسما يأمركم به إيمانكم**﴾: «**بئس**» فعل ماض يراد به إنشاء الذم؛ و«**ما**» نكرة مبنية على السكون في محل نصب تمييز، يعني: بئس شيئاً يأمركم به إيمانكم عبادةُ العجل؛ يعني: إذا كان عبادة العجل هو مقتضى إيمانكم فإن إيمانكم قد أمركم بأمر قبيح؛ يعني: أين إيمانكم وأنتم قد أشرب في قلوبكم العجل؟! وأن هذا الإيمان الذي زعمتموه هو الذي حبب إليكم عبادة العجل، وعبدتموه.

---

(١) أخرجه مسلم ص٨٠٠، كتاب صلاة المسافرين، باب ٢٦: صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل، حديث رقم ١٨١٢ [٢٠١] ٧٧١.

قوله تعالى: ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ أي صادقين في دعوى الإيمان؛ و﴿**إن**﴾ شرطية، والمقصود بها التحدي؛ يعني: إن كنتم مؤمنين حقيقة فكيف يأمركم إيمانكم بهذا العمل القبيح!!!

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الله تعالى أخذ الميثاق على بني إسرائيل بالإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿**وإذ أخذنا ميثاقكم...**﴾ إلخ.

٢ ـ **ومنها**: أن بني إسرائيل ما آمنوا إلا عن كره؛ لأنهم لم يؤمنوا إلا حين رفع فوقهم الطور.

٣ ـ **ومنها**: بيان قدرة الله عزّ وجلّ.

٤ ـ **ومنها**: أن أمر الكون كله بيد الله عزّ وجلّ، وأنه سبحانه وتعالى قادر على خرق العادات؛ لقوله تعالى: ﴿**ورفعنا فوقكم الطور**﴾.

٥ ـ **ومنها**: وجوب تلقي شريعة الله بالقوة دون الكسل والفتور، لقوله تعالى: ﴿**خذوا ما آتيناكم بقوة**﴾.

٦ ـ **ومنها**: بيان عتوّ بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿**قالوا سمعنا وعصينا**﴾؛ وهذا أبلغ ما يكون في العتوّ؛ لأنه كان يمكن أن يكون العصيان عن جهل؛ لكنهم قالوا: ﴿**سمعنا وعصينا**﴾.

٧ ـ **ومنها**: أن السمع نوعان: سمع استجابة، وسمع إدراك؛ مثال الأول: ﴿**خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا**﴾؛ ومثال الثاني: ﴿**سمعنا وعصينا**﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن المؤمن حقاً لا يأمره إيمانه بالمعاصي؛

لقوله تعالى: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني إن كنتم مؤمنين حقاً ما اتخذتم العجل إلهاً.

٩ ـ **ومنها**: أن الشر لا يسنده الله تعالى إلى نفسه؛ بل يذكره بصيغة المبني لما لم يُسمَّ فاعله؛ لقوله تعالى: ﴿وأشربوا في قلوبهم﴾؛ ولهذا نظير من القرآن، كقوله تعالى: ﴿**وأنَّا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً**﴾ [الجن: ١٠]؛ والنبي ﷺ يقول: «**والشر ليس إليك**»[1]؛ فالشر في المفعول ـ لا في الفعل؛ الخير والشر كل من خلْق الله عزّ وجلّ؛ لكن الشر بالنسبة لإيجاد الله له هو خير، وليس بشر؛ لأن الله سبحانه وتعالى ما أوجده إلا لحكمة بالغة، وغاية محمودة ـ وإن كان شراً ـ لكن الشر في المفعولات ـ أي المخلوقات؛ وأما نفس الفعل فهو ليس بشر؛ أرأيت الرجل يكوي ابنه بالنار ـ والنار مؤلمة محرقة ـ لكنه يريد أن يُشفى ـ فهذا المفعول الواقع من الفاعل شر مؤلم محرق لكن غايته محمودة ـ وهو شفاء الولد؛ فيكون خيراً باعتبار غايته.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله تعالى قد يبتلي العبد، فيملأ قلبه حباً لما يكرهه الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾.

١١ ـ **ومنها**: أن الإيمان الحقيقي لا يحمل صاحبه إلا على طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾.

❁ ❁ ❁

---

(١) سبق تخريجه ص٣٠٤.

القرآن

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

التفسير:

﴿٩٤ ـ ٩٥﴾ قوله تعالى: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس﴾: ﴿كانت﴾ هنا ناقصة، وخبرها يجوز أن يكون الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿لكم﴾؛ وتكون ﴿خالصة﴾ حالاً من ﴿الدار﴾ ـ يعني: حال كونها خالصة من دون الناس؛ ويجوز أن يكون الخبر: ﴿خالصة﴾؛ والمعنى واحد؛ والمراد بـ﴿الدار الآخرة﴾ الجنة؛ وإنما قال تعالى ذلك؛ لأنهم قالوا: «لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة، وبعدها تخلفوننا أنتم في النار؛ ونكون نحن في الجنة» ـ هذا كلام اليهود؛ والذي يقول هذا الكلام يدعي أن الدار الآخرة خالصة ـ أي خاصة ـ له من دون الناس، وأن المستحق للنار منهم يدخلها أياماً معدودة، ثم يخرج إلى الجنة.

قوله تعالى: ﴿فتمنوا الموت﴾ أي اطلبوا حصوله ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي في دعواكم أن الدار الآخرة خالصة لكم من دون الناس؛ لأنها حينئذٍ تكون لكم خيراً من الدنيا؛ فتمنوا الموت لتصلوا إليها؛ وهذا تحدٍّ لهم؛ ولهذا قال الله تعالى هنا: ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾؛ وفي سورة الجمعة قال تعالى: ﴿ولا يتمنونه أبداً﴾ [الجمعة: ٧] وذلك؛ لأنهم يعلمون كذب دعواهم أن لهم الدار الآخرة خالصة.

وظاهر الآية الكريمة على ما فسرنا أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يتحداهم بأنه إن كانت الدار الآخرة لهم كما يزعمون فليتمنوا الموت لِيَصِلوا إليها؛ وهذا لا شك هو ظاهر الآية الكريمة؛ وهو الذي رجحه ابن جرير، وكثير من المفسرين؛ وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بقوله تعالى: ﴿**فتمنوا الموت**﴾ أي فباهلونا، وتمنوا الموت لمن هو كاذب منا؛ فتكون هذه مثل قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿**فمن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبنائنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين**﴾ [آل عمران: ٦١]؛ فيكون المعنى: تمنوا الموت عن طريق المباهلة؛ ورجح هذا ابن كثير؛ وضعف الأول بأنه لو كان المراد: تمنوا حصول الموت لكانوا يحتجون أيضاً علينا نحن، ويقولون: أنتم أيضاً إن كنتم تقولون: إن الدار الآخرة لكم فتمنوا الموت؛ لأن تحديكم إيانا بذلك ليس بأولى من تحدينا إياكم به؛ لأنكم أنتم أيضاً تقولون: إن الدار الآخرة لكم، وأن اليهود بعد بعثة الرسول ﷺ في النار؛ فتمنوا الموت أنتم أيضاً، والجواب عن ذلك أنا لم ندع أن الدار الآخرة خالصة لنا من دون الناس؛ بل نؤمن بأن الدار الآخرة لكل من آمن وعمل صالحاً سواء كان من هذه الأمة أم من غيرها؛ وهذا المعنى الذي نحا إليه ابن كثير ـ رحمه الله ـ مخالف لظاهر السياق؛ فلا يعوَّل عليه؛ وقد عرفت الانفكاك منه.

﴿٩٦﴾ قوله تعالى: ﴿**ولتجدنهم أحرص الناس على حياة**﴾؛ اللام في ﴿**لتجدنهم**﴾ موطئة للقسم؛ والنون للتوكيد؛ وعليه تكون الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، والنون؛ والضمير

الهاء يعود على اليهود؛ و﴿أحرص﴾ اسم تفضيل؛ و«**الحرص**» هو أن يكون الإنسان طامعاً في الشيء مشفقاً من فواته؛ والحرص يستلزم بذل المجهود؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز**»[1]؛ ونكر ﴿حياة﴾ ليفيد أنهم حريصون على أيّ حياة كانت ـ وإن قلّت؛ حتى لو لم يأتهم إلا لحظة فهم أحرص الناس عليها.

قوله تعالى: ﴿**ومن الذين أشركوا**﴾ أي الشرك الأكبر؛ واختلف المفسرون فيها؛ فمنهم من قال: هو مستأنف، والكلام منقطع عما قبله؛ والتقدير: ومن الذين أشركوا من يود أحدهم لو يعمر...؛ وهذا وإن كان محتملاً لفظاً، لكنه في المعنى بعيد جداً؛ ومنهم من قال: إنه معطوف على قوله تعالى: ﴿**الناس**﴾ يعني: ولتجدنهم أحرص الناس، وأحرص من الذين أشركوا؛ يعني: اليهود أحرص من المشركين على الرغم من أن اليهود أهل كتاب يؤمنون بالبعث، وبالجنة، وبالنار؛ والمشركون لا يؤمنون بذلك، والذي لا يؤمن بالبعث يصير أحرص الناس على حياة؛ لأنه يرى أنه إذا مات انتهى أمره، ولا يعود؛ فتجده يحرص على هذه الحياة التي يرى أنها هي رأس ماله؛ وهذا القول هو الصواب.

قوله تعالى: ﴿**يود أحدهم لو يعمر ألف سنة**﴾؛ «**الود**» خالص المحبة؛ والضمير في ﴿أحدهم﴾ يعود على المشركين لا غير ـ على القول الأول: أي أن قوله تعالى: ﴿**ومن الذين أشركوا**﴾ مستأنف؛ وعلى القول الثاني: يحتمل أن يكون الضمير عائداً على اليهود؛ ويصير انقطع الكلام عند قوله تعالى:

---

(١) سبق تخريجه ص١٦٣.

﴿أشركوا﴾؛ ويحتمل أن يكون عائداً إلى المشركين؛ ويرجحه أمران:

أحدهما: أن الضمير في الأصل يعود إلى أقرب مذكور؛ والمشركون هنا أقرب.

والثاني: أنه إذا كان المشرك يود أن يعمر ألف سنة، وكان اليهودي أحرص منه على الحياة، فيلزم أن يكون اليهودي يتمنى أن يعمر أكثر من ألف سنة.

وقوله تعالى: ﴿**لو يعمر**﴾ أي لو يزاد في عمره؛ و«العمر» هو الحياة؛ و﴿لو﴾ هنا مصدرية؛ وكلما جاءت بعد «ود» فهي مصدرية، كما في قوله تعالى: ﴿**ودوا لو تدهن فيدهنون**﴾ [الأحزاب: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿**يودوا لو أنهم بادون في الأعراب**﴾ [يونس: ٨٧]؛ ومعنى «مصدرية» أنها بمعنى «أنْ» تؤول، وما بعدها بمصدر، فيقال في الآية ـ ﴿**يود أحدهم لو يعمَّر ألف سنة**﴾: يود أحدهم تعميره ألف سنة؛ و«**السنة**» هي العام؛ والمراد بها هنا السنة الهلالية ـ لا الشمسية ـ لأن الكلمات إذا أطلقت تحمل على الاصطلاح الشرعي؛ وقد قال الله تعالى: ﴿**إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم**﴾ [التوبة: ٣٦]؛ فالميقات الذي وضع الله للعباد إنما هو بالأشهر الهلالية، كما قال تعالى: ﴿**يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج**﴾ [البقرة: ١٨٩]، وكما قال تعالى في القمر: ﴿**وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب**﴾ [يونس: ٥].

قوله تعالى: ﴿**وما هو بمزحزحه من العذاب**﴾ أي بدافعه، ومانعه؛ ﴿**أن يعمر**﴾: ﴿أن﴾، والفعل بعدها فاعل «**زحزح**»؛

والتقدير: وما هو بمزحزحه تعميره؛ لأن «**مزحزح**» اسم فاعل يعمل عمل فعله؛ والمعنى أنه لو عُمِّر ألف سنة، أو أكثر وهو مقيم على معصية الله تعالى فإن ذلك لن يزحزحه من العذاب؛ بل إن الإنسان إذا ازداد عمره وهو في معصية الله ازداد عذابه؛ ولهذا جاء في الحديث: «**شرُّكم من طال عمره، وساء عمله**»[1].

قوله تعالى: ﴿والله بصير بما يعملون﴾: ﴿بصير﴾ هنا بمعنى عليم؛ أي أنه جَلَّ وعلا عليم بكل ما يعملونه في السر، والعلانية من عمل صالح، وعمل سيء.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيات**: تكذيب اليهود الذين قالوا: «لنا الآخرة، ولكم الدنيا، لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة»؛ ووجهه: أن الله تعالى قال لهم: ﴿فتمنوا الموت﴾، وقد قال تعالى: ﴿ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم﴾.

٢ ـ **ومنها**: أنَّ الكافر يكره الموت لما يعلم من سوء العاقبة؛ لقوله تعالى: ﴿بما قدمت أيديهم﴾.

٣ ـ **ومنها**: إثبات السببية ـ تؤخذ من الباء في قوله تعالى: ﴿بما قدمت أيديهم﴾.

٤ ـ **ومنها**: إثبات علم الله تعالى للمستقبل؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٠، حديث رقم ٢٠٦٨٦؛ وأخرجه الترمذي ص١٨٨٦، كتاب الزهد، باب ٢٢: أي الناس خير وأيهم شر، حديث رقم ٢٣٣٠؛ مدار الحديث على عليّ بن زيد، قال الحافظ في التقريب: ضعيف، وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح بما قبله ٢/ ٢٧١، حديث رقم ١٨٩٩.

﴿ولن يتمنوه أبداً﴾؛ فوقع الأمر كما أخبر به.

٥ ـ **ومنها**: جواز تخصيص العموم لغرض؛ لقوله تعالى: ﴿والله عليم بالظالمين﴾ فخص علمه بالظالمين تهديداً لهم.

٦ ـ **ومنها**: أن اليهود أحرص الناس على حياة.

٧ ـ **ومنها**: إبطال قولهم: «لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة»، ثم يخرجون منها، ويكونون في الجنة؛ لأن من كان كذلك لا يكره الموت.

٨ ـ **ومنها**: أن الناس يتفاوتون في الحرص على الحياة؛ لقوله تعالى: ﴿أحرص﴾؛ و﴿أحرص﴾ اسم تفضيل.

٩ ـ **ومنها**: أن المشركين من أحرص الناس على الحياة، وأنهم يكرهون الموت؛ لقوله تعالى: ﴿ومن الذين أشركوا﴾ مما يدل على أنهم في القمة في كراهة الموت ما عدا اليهود.

١٠ ـ **ومنها**: أن طول العمر لا يفيد المرء شيئاً إذا كان في معصية الله؛ لقوله تعالى: ﴿وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر﴾.

١١ ـ **ومنها**: غَوْرُ فهم السلف حين كرهوا أن يُدْعَى للإنسان بالبقاء؛ فإن الإمام أحمد كره أن يقول للإنسان: «أطال الله بقاءك»؛ لأن طول البقاء قد ينفع، وقد يضر؛ إذاً الطريق السليم أن تقول: «أطال الله بقاءك على طاعة الله»، أو نحو ذلك.

١٢ ـ **ومنها**: أن الله سبحانه وتعالى محيط بأعمال هؤلاء كغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿والله بصير بما يعملون﴾؛ والبصر هنا بمعنى العلم؛ ويمكن أن يكون بمعنى الرؤية؛ قال النبي ﷺ: «لو

كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[(١)]؛ فأثبت لله بصراً؛ لكن تفسيره بالعلم أعم.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

التفسير:

﴿٩٧﴾ قوله تعالى: ﴿**قل**﴾ أي يا محمد؛ ويجوز أن يكون المراد: كل من يتوجه إليه الخطاب؛ ﴿**من كان عدواً لجبريل**﴾ أي معادياً له؛ «**وجبريل**» هو الملَك الموكل بالوحي؛ وكان اليهود يعادونه، ويقولون: «إنه ينْزل بالعذاب»؛ ﴿**فإنه نزله على قلبك**﴾: فيه إعرابان: **الأول**: أن الجملة جواب الشرط؛ ووجه ارتباطه بفعل الشرط من الناحية المعنوية تأكيد ذم هؤلاء اليهود المعادين لجبريل، كأنه لم يكن فيه ما يوجب العداوة إلا أنه نزله على قلبك؛ وهذا يشبه تأكيد المدح بما يشبه الذم، كقول القائل:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

فالمعنى: من كان عدواً لجبريل فلا موجب لعداوته إلا أنه نزله ـ أي القرآن ـ على قلبك؛ وهذا الوصف يقتضي ولايته ـ لا عداوته؛ وقيل: إن جواب الشرط محذوف؛ والتقدير: من كان

---

(١) أخرجه مسلم ص٧٠٩، كتاب الإيمان، باب ٧٩: في قوله عليه السلام: «إن الله لا ينام»...، حديث رقم ٤٤٢ [٢٩٣] ١٧٩.

عدواً لجبريل فليمت غيظاً؛ لكن الإعراب الأول أصح، وأبلغ.

وقوله تعالى: ﴿**على قلبك**﴾ أي قلب النبي ﷺ؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿**نزل به الروح الأمين * على قلبك**﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]؛ وإنما كان نزوله على قلبه؛ لأن القلب محل العقل، والفهم، كما قال تعالى: ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها**﴾ [الحج: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿**بإذن الله**﴾ أي بإذنه الكوني القدري؛ ﴿**مصدقا لما بين يديه**﴾: حال من الضمير ـ الهاء ـ في قوله تعالى ﴿**نزله**﴾؛ يعني نزله حال كونه مصدقاً لما بين يديه ـ أي لما سبقه من الكتب، كالتوراة، والإنجيل، وغيرهما من الكتب التي أخبرت عن نزول القرآن؛ وسبق بيان معنى تصديق القرآن لما بين يديه.

قوله تعالى: ﴿**وهدًى**﴾ أي دلالة؛ ﴿**وبشرى**﴾ أي بشارة؛ و«البشارة» الإخبار بما يسر؛ وقد تأتي في الإخبار بما يضر، مثل قوله تعالى: ﴿**فبشره بعذاب أليم**﴾ [لقمان: ٧]؛ و﴿**للمؤمنين**﴾ متعلق بـ﴿**بشرى**﴾؛ وإنما كان بشرى للمؤمنين خاصة؛ لأنهم الذين قبلوه، وانتفعوا به؛ فـ«**المؤمنون**» أي الذين آمنوا بما يجب الإيمان به مع القبول، والإذعان؛ لأن الإيمان يدل على أمن، واستقرار؛ ولهذا قال بعض العلماء: إنه يكون في الأمور الغيبية دون الأمور المحسوسة.

﴿**٩٨**﴾ قوله تعالى: ﴿**من كان عدواً لله**﴾ أي معادياً له مستكبراً عن عبادته.

قوله تعالى: ﴿**وملائكته**﴾ يعني وعدواً لملائكته؛ و«**الملائكة**» جمع ملَك؛ وهم عالم غيبي خلقهم الله عزّ وجلّ من نور،

وسخرهم لعبادته يسبحون الليل، والنهار لا يفترون؛ ومنهم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل الذين كان النبي ﷺ يذكر أسماءهم في افتتاح صلاة الليل(١).

قوله تعالى: ﴿ورسله﴾ جمع رسول؛ وهم الذين أوحى الله تعالى إليهم بشرع، وأمرهم بتبليغه؛ أولهم نوح، وآخرهم محمد ـ صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

قوله تعالى: ﴿وجبريل وميكال﴾: معطوف على قوله تعالى: ﴿وملائكته﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ وعطف الخاص على العام يدل على شرف الخاص؛ فجبريل موكل بالوحي من الله إلى الرسل؛ و﴿ميكال﴾ هو ميكائيل الموكل بالقطر، والنبات؛ وخص هذين الملكين؛ لأن أحدهما موكل بما تحيى به القلوب وهو جبريل؛ والثاني موكل بما تحيى به الأرض وهو ميكائيل.

قوله تعالى: ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾: هذا جواب الشرط: من كان عدواً لله فالله عدو له؛ ومن كان عدواً للملائكة فإن الله عدو له؛ ومن كان عدواً لرسله فإن الله عدو له؛ ومن كان عدواً لجبريل فإن الله عدو له؛ ومن كان عدواً لميكائيل فإن الله عدو له؛ وهنا أظهر في موضع الإضمار لفائدتين؛ إحداهما: لفظية؛ والثانية: معنوية؛ **أما الفائدة اللفظية**: فمناسبة رؤوس الآي؛ وأما **الفائدة المعنوية** فهي تتضمن ثلاثة أمور: **الأول**: الحكم على أن من كان عدواً لله ومن ذُكر، بأنه يكون كافراً؛ يعني: الحكم على هؤلاء بالكفر؛ **الثاني**: أن كل كافر سواء كان سبب كفره

---

(١) راجع صحيح مسلم ص٨٠٠، كتاب صلاة المسافرين، باب ٢٦: صلاة النبي ﷺ ودعاؤه، حديث رقم ١٨١١ [٢٠٠] ٧٧٠.

معاداة الله، أو لا، فالله عدو له، **ثالث**: بيان العلة ـ وهي في هذه الآية: الكفر.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: أن من الناس من يكون عدواً لملائكة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**قل من كان عدواً لجبريل**﴾: ووجه ذلك: أن مثل هذا لكلام لو لم يكن له أصل لكان لغواً من القول؛ والقرآن منزه عن هذا اللغو.

٢ ـ **ومنها**: فضيلة جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأن الله تعالى دافع عنه.

٣ ـ **ومنها**: ذكر الوصف الذي يستحق أن يكون به ولياً لجبريل؛ لقوله تعالى: ﴿**فإنه نزله على قلبك**﴾ يعني: ومن كان هذه وظيفته فإنه يستحق أن يكون ولياً.

٤ ـ **ومنها**: إثبات علوّ الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**فإنه نزله**﴾؛ وإنما نزل به من عند الله؛ والنّزول لا يكون إلا من أعلى.

٥ ـ **ومنها**: أن النبي ﷺ قد وعى القرآن وعياً كاملاً لا يتطرق إليه الشك؛ لقوله تعالى: ﴿**نزله على قلبك**﴾؛ لأن ما نفذ إلى القلب حلّ في القلب؛ وإذا حلّ في القلب فهو في حرز مكين.

٦ ـ **ومنها**: أن هذا القرآن إنما نزل بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿**نزله على قلبك بإذن الله**﴾؛ والإذن هنا كوني؛ وقد ذكر العلماء أن إذن الله تعالى نوعان:

كوني: وهو المتعلق بالخلق، والتكوين، ولا بد من وقوع

ما أذِن الله تعالى فيه بهذا المعنى؛ مثاله قوله تعالى: ﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه**﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله تعالى: ﴿**وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله**﴾ [البقرة: ١٠٢] وقوله تعالى: ﴿**ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله**﴾ [التغابن: ١١].

والثاني شرعي: وهو ما يتعلق بالشرع، والعبادة؛ مثاله قوله تعالى: ﴿**قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون**﴾ [يونس: ٥٩]؛ وقوله تعالى: ﴿**أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله**﴾ [الشورى: ٢١]؛ **والفرق بينهما** أن المأذون به شرعاً قد يقع، وقد لا يقع؛ وأما المأذون به قدراً فواقع لا محالة؛ ومن جهة أخرى: أن المأذون به شرعاً محبوب إلى الله عزّ وجلّ؛ والمأذون به قدراً قد يكون محبوباً، وقد يكون غير محبوب.

٧ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن القرآن بشرى للمؤمنين؛ وعلامة ذلك أنك تنتفع به؛ فإذا وجدت نفسك منتفعاً به حريصاً عليه تالياً له حق تلاوته فهذا دليل على الإيمان، فتناله البشرى؛ وكلما رأى الإنسان من نفسه كراهة القرآن، أو كراهة العمل به، أو التثاقل في تطبيقه فليعلم أنه إنما فاقد للإيمان بالكلية، أو أن إيمانه ناقص.

٨ ـ **ومنها**: أن من عادى الله فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿**من كان عدواً لله**﴾، ثم قال تعالى: ﴿**فإن الله عدوّ للكافرين**﴾.

٩ ـ **ومنها**: أن من كان عدواً للملائكة، أو للرسل فإنه عدو لله؛ لأن الملائكة رسل الله، كما قال تعالى: ﴿**جاعل الملائكة رسلاً**﴾ [فاطر: ١]؛ والرسل البشريون أيضاً رسل لله؛ فمن عادى ملائكة الله من جبريل أو غيره، أو عادى الرسل من محمد أو غيره فقد عادى الله عزّ وجلّ.

فإن قيل: فهل من عادى المؤمنين يكون معادياً لله ؟

فالجواب: هذا محل توقف في دلالة الآية عليه؛ اللهم إلا إذا عادى المؤمنين لكونهم تمسكوا بشريعة الرسل؛ فهذا يظهر أن الله يكون عدواً لهم، لأن من عاداهم إنما فعل ذلك بسبب أنهم تمسكوا بما جاءت به الرسل؛ فكان حقيقة معاداتهم أنهم عادوا رسل الله، كما قال أهل العلم في قوله تعالى: ﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾ [الكوثر: ٣] أي مبغضك، ومبغض ما جئت به من السنة هو الأبتر؛ وفي الحديث الصحيح أن الله تعالى في الحديث القدسي قال: «**من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب**»(١).

١٠ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن كل كافر فاللَّه عدوّ له؛ لقوله تعالى: ﴿**فإن الله عدوّ للكافرين**﴾.

١١ ـ **ومنها**: إثبات صفة العداوة من الله ـ أي أن الله يعادي؛ وهي صفة فعلية كالرضا، والغضب، والسخط، والكراهة؛ و«**المعاداة**» ضدها الموالاة الثابتة للمؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿**الله وليّ الذين آمنوا**﴾ [البقرة: ٢٥٧].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

التفسير:

﴿٩٩﴾ قوله تعالى: ﴿**ولقد**﴾: سبق الكلام عليها؛ ﴿**أنزلنا**

(١) أخرجه البخاري ص٥٤٥، كتاب الرقاق، باب ٣٨: التواضع، حديث رقم ٦٥٠٢.

إليك﴾: الإنزال إنما يكون من الأعلى إلى الأسفل؛ وذلك؛ لأن القرآن كلام الله؛ والله تعالى فوق عباده.

قوله تعالى: **﴿آيات﴾** جمع آية؛ والآية في اللغة: العلامة، لكنها في الحقيقة أدق من مجرد العلامة؛ لأنها تتضمن العلامة، والدليل؛ فكل آية علامة ـ ولا عكس؛ لكن العلماء ـ رحمهم الله ـ قد يفسرون الشيء بما يقاربه، أو يلازمه ـ وإن كان بينهما فرق، كتفسيرهم «**الريب**» بالشك في قوله تعالى: **﴿لا ريب فيه﴾** [البقرة: ٢] مع أن «**الريب**» أخص من مطلق الشك؛ لأنه شك مع قلق؛ وقد أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة «أصول التفسير».

قوله تعالى: **﴿بينات﴾** جمع بينة؛ وهن الواضحات في ذاتها، ودلالتها.

وقوله تعالى: **﴿وما يكفر بها﴾** أي بهذه الآيات البينات؛ **﴿إلا الفاسقون﴾** أي الخارجون عن شريعة الله؛ فالمراد بـ«**الفسق**» هنا الفسق الأكبر، كقوله تعالى في سورة السجدة: **﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾** [السجدة: ٢٠].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن القرآن وحي من الله عزّ وجلّ.

٢ ـ **ومنها**: عظمة القرآن؛ لأن الله سبحانه وتعالى أضافه إليه، وجعله آية.

٣ ـ **ومنها**: ثبوت علوّ الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: **﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾**؛ والنّزول لا يكون إلا من أعلى؛ وعلوّ الله سبحانه وتعالى من صفاته الذاتية اللازمة له التي لم

يزل، ولا يزال متصفاً بها؛ وأما استواؤه على العرش فإنه من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته.

٤ ـ **ومنها**: وصف القرآن بأنه آيات بينات، ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿**منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات**﴾ [آل عمران: ٧]؛ لأن هذا التشابه يكون متشابهاً على بعض الناس دون بعض؛ ولأنه يُحمل على المحكم، فيكون الجميع محكماً، كما قال تعالى: ﴿**فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم**. . .﴾ [آل عمران: ٧] الآية.

فالحاصل: أن القرآن ـ ولله الحمد ـ آيات بينات؛ ولكنه يحتاج إلى قلب ينفتح لهذا القرآن حتى يتبين؛ أما قلب يكره القرآن، ثم يأتي بما يُشتَبه فيه ليضرب القرآن بعضه ببعض فهذا لا يتبين له أبداً؛ إنما يتبين الهدى من القرآن لمن أراد الهدى؛ وأما من لم يرده فلا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وما يكفر بها إلا الفاسقون**﴾.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه لا يكفر بالقرآن إلا الفاسق.

٦ ـ **ومنها**: أن من كفر به فهو فاسق.

٧ ـ **ومنها**: إطلاق الفاسق على الكافر؛ وعلى هذا يكون الفسق على نوعين:

فسق أكبر مخرج عن الملة، كما في قوله تعالى: ﴿**فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون * وأما الذين فسقوا فمأواهم النار**﴾ [السجدة: ١٩، ٢٠] الآية؛ ووجه الدلالة أنه تعالى جعل الفسق هنا مقابلاً للإيمان.

والثاني: **فسق أصغر** لا يخرج من الإيمان؛ ولكنه ينافي

العدالة، كقوله تعالى: ﴿**ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان**﴾ [الحجرات: ٧]: فعطف ﴿**الفسوق**﴾ على ﴿**الكفر**﴾؛ والعطف يقتضي المغايرة.

مسألة:

تنقسم آيات الله تعالى إلى قسمين: كونية، وشرعية؛ فالكونية مخلوقاته، كالشمس، والقمر، والنجوم، والإنسان، وغير ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿**ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر**﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿**ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين**﴾ [الروم: ٢٢]؛ وأما الشرعية فهي ما أنزله الله تعالى على رسله من الشرائع، كقوله تعالى: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته**﴾ [الجمعة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم..**﴾ [سبأ: ٤٣] الآية، وكذلك الآية التي نحن بصدد تفسيرها.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾.

التفسير:

﴿١٠٠﴾ قوله تعالى: ﴿أَوَ كلما﴾: الهمزة هنا للاستفهام؛

والواو للعطف؛ ومثل هذه الصيغة متكررة في القرآن كثيراً؛ وقد سبق الكلام عليها؛ أما ﴿**كلما**﴾ فإنها أداة شرط تفيد التكرار ـ أي كثرة وقوع شرطها، وجوابها؛ وكلما حصل الشرط حصل الجواب؛ فإذا قلت: «كلما جاء زيد فأكرمه» اقتضى تكرار إكرامه بتكرر مجيئه قلّ، أو كثر.

قوله تعالى: ﴿**عاهدوا عهداً**﴾؛ «**العهد**»: الميثاق الذي يكون بين الطوائف سواء كان ذلك بين أمة مسلمة وأمة كافرة؛ أو بين أمتين مسلمتين؛ أو بين أمتين كافرتين؛ والضمير في ﴿**عاهدوا**﴾ يعود على اليهود؛ ﴿**نبذه فريق منهم**﴾: «**النبذ**»: الطرح، والترك ـ أي ترك هذا العهد جماعة منهم ـ أي من اليهود ـ فطرحوه، ولم يفوا به؛ وهذا هو حال بني إسرائيل مع الله سبحانه وتعالى، ومع عباد الله؛ فالله تعالى أخذ عليهم العهد، والميثاق؛ ومع ذلك نبذوا العهد، والميثاق؛ والنبي ﷺ عاهدهم، ونبذوا عهده.

قوله تعالى: ﴿**بل أكثرهم لا يؤمنون**﴾: هذا الإضراب للانتقال من وصف إلى وصف: من وصف نقض العهد ونبذه، إلى وصف عدم الإيمان؛ فعليه يكون هذا الإضراب إثباتاً لما قبله، وزيادة وصف ـ وهو انتفاء الإيمان عن أكثرهم؛ لأن المؤمن حقيقة لا بد أن يفي بالعهد، كما قال الله تعالى: ﴿**وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً**﴾ [الإسراء: ٣٤]، وأخبر النبي ﷺ أن آية المنافق ثلاث: «**إذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر...**»[1]؛ ولو أنهم آمنوا ما نقضوا العهد الذي بينهم وبين الله، أو الذي بينهم وبين عباد الله.

---

(١) سبق تخريجه ص٤٥.

﴿١٠١﴾ قوله تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله﴾؛ ﴿لما﴾ هنا شرطية؛ وهي على أربعة أنحاء في اللغة العربية: شرطية؛ ونافية جازمة؛ وبمعنى «إلا»؛ وبمعنى «حين»؛ و﴿من عند الله﴾ صفة لـ﴿رسول﴾ أي رسول مرسل من عند الله ـ وهو محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿مصدق لما معهم﴾ أي للذي معهم من التوراة إن كانوا من اليهود، ومن الإنجيل إن كانوا من النصارى؛ والحديث في هذه الآيات كلها عن اليهود؛ وتقدم معنى ﴿مصدق لما معهم﴾؛ فكان على اليهود، والنصارى أن يفرحوا بهذا القرآن؛ لأنه مؤيد لما معهم؛ ولكن الأمر كان بالعكس!!!

قوله تعالى: ﴿نبذ﴾ أي طرح بشدة ﴿فريق﴾ أي جماعة ﴿من الذين أوتوا﴾ أي أُعطوا؛ و﴿الكتاب﴾: مفعول ثان لـ﴿أوتوا﴾؛ ومفعولها الأول: الواو، وهي نائب الفاعل؛ و«أل» هنا للعهد الذهني؛ وهو بالنسبة لليهود التوراة؛ وبالنسبة للنصارى الإنجيل؛ و﴿كتاب الله﴾ أي القرآن؛ وهو مفعول ﴿نبذ﴾؛ وأضيف إلى الله لأنه المتكلم به؛ فالقرآن الذي نقرؤه الآن هو كلام ربنا ـ تبارك وتعالى ـ تكلم به حقيقة بلفظه، ومعناه، وسمعه منه جبريل، ثم أتى به إلى النبي ﷺ، فنزل به على قلب النبي ﷺ حتى وعاه، وأداه إلى الصحابة؛ والصحابة أدوه إلى التابعين، وهكذا حتى بقي إلى يومنا هذا ـ ولله الحمد؛ وسمي القرآن كتاباً، لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ؛ وفي الصحف التي بأيدي الملائكة؛ وفي الصحف التي بأيدي البشر.

قوله تعالى: ﴿وراء ظهورهم﴾ أي رموه بشدة وراء الظهر؛ وهو عبارة عن الانصراف التام عنه؛ لأنهم لو نبذوه أمامهم، أو عن اليمين، أو عن الشمال لكان من الجائز أن يكونوا يأخذون

به؛ لكن من ألقاه وراء ظهره كان ذلك أبلغ في التولي، والإعراض عنه، وعدم الرجوع إليه؛ لأن الشيء إذا خُلِّف وراء الظهر فإنه لا يرجع إليه.

قوله تعالى: ﴿كأنهم لا يعلمون﴾: «**كأن**» لها معنى، ولها عمل؛ عملها: عمل «إنّ» ـ تنصب الاسم، وترفع الخبر؛ وأما معناها: فهو هنا التشبيه ـ يعني كأنهم في نبذهم لكتاب الله وراء ظهورهم لا يعلمون أنه حق.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: أن اليهود لا يوثق منهم بعهد؛ لأنهم كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم.

٢ ـ **ومنها**: أن نبذ فريق من الأمة يعتبر نبذاً من الأمة كلها ـ ما لم يتبرؤوا منه؛ فإن تبرؤوا منه فإنهم لا يلحقهم عاره؛ لكن إذا سكتوا فإن نبذ الفريق نبذ للأمة كلهم؛ وجه ذلك أن الله وبخ هؤلاء على نبذ فريق منهم مع أنهم لم يباشروه.

٣ ـ **ومنها**: أن من أهل الكتاب من لم ينبذ كتاب الله وراء ظهره؛ بل آمن به كالنجاشي من النصارى، وعبد الله بن سلام من اليهود.

٤ ـ **ومنها**: أن من نبذ العهد من هذه الأمة فقد ارتكب محظورين:

أحدهما: النفاق؛ لقول النبي ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف؛ وإذا اؤتمن خان**»[1]، وفي

---

(١) سبق تخريجه ص٤٥.

الحديث الآخر: «**أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه واحدة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها...**»[(١)]، وذكر منها: «**إذا عاهد غدر**».

والمحظور الثاني: مشابهة اليهود.

٥ ـ **ومنها**: أن رسالة النبي ﷺ حق؛ لقوله تعالى: ﴿**من عند الله**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن الرسول ﷺ قد أخبرت به الكتب السابقة؛ لقوله تعالى: ﴿**مصدق لما معهم**﴾.

٧ ـ **ومنها**: أن رسالة النبي ﷺ تقرر ما سبق من رسالات الرسل، لقوله تعالى: ﴿**مصدق لما معهم**﴾.

٨ ـ **ومنها**: أنه مع هذا البيان والوضوح، فإن فريقاً من الذين أوتوا الكتاب نبذوا هذا الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ.

٩ ـ **ومنها**: أن نبذ من عنده كتاب وعلم أقبح ممن ليس عنده ذلك؛ ولهذا نص على قوله تعالى: ﴿**فريق من الذين أوتوا الكتاب**﴾؛ لإظهار شدة القبح من هؤلاء في نبذهم؛ لأن النبذ مع العلم أقبح من النبذ مع الجهل.

١٠ ـ **ومنها**: أن القرآن كلام الله، لأن الله تعالى أضافه إليه في قوله تعالى: ﴿**كتاب الله**﴾.

١١ ـ **ومنها**: توكيد قبح ما صنع هؤلاء المكذبون؛ لقوله تعالى: ﴿**كأنهم لا يعلمون**﴾؛ لأنهم في الواقع يعلمون؛ ولكن

---

(١) أخرجه البخاري ص١٩٣، كتاب المظالم، باب ١٧: إذا خاصم فجر، حديث رقم ٢٤٥٩؛ وأخرجه مسلم ص٦٩٠، كتاب الإيمان، باب ٢٥: خصال المنافق، حديث رقم ٢١٠ [١٠٦] ٥٨.

فعلهم كأنه فعل من لم يعلم؛ وكفر من علم أشد من كفر من لم يعلم.

١٢ ـ **ومنها**: أن هذا النبذ الذي كان منهم لا يرجى بعده قبول؛ لقوله تعالى: ﴿**وراء ظهورهم**﴾؛ لأن النبذ لو كان أمامهم ربما يتلقونه بعد؛ كذلك لو كان عن اليمين، والشمال، لكن إذا كان وراء الظهر فمعناه استبعاد القبول منهم.

١٣ ـ **ومنها**: شدة كراهية اليهود للقرآن، واستهانتهم به، حيث نبذوه وراء ظهورهم.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

التفسير:

﴿١٠٢﴾ قوله تعالى: ﴿**واتبعوا**﴾ أي اليهود؛ و﴿**تتلو**﴾ هنا ليست بمعنى «تقرأ»؛ لكنه من: تلاه يتلوه ـ بمعنى: «تبعه» ـ؛ أي ما تَتْبعه الشياطين، وتأخذ به؛ ﴿**على ملك سليمان**﴾ أي في ملكه؛ أي في عهده؛ وإنما قال تعالى: ﴿**على ملك سليمان**﴾؛

لأن الله جمع له بين النبوة، والملك، ووهبه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده: فسخر له الرياح، والجن، والشياطين؛ فإن سليمان عليه السلام كان ملكاً نبياً رسولاً؛ وكل من ذكر في القرآن من الأنبياء فهم أنبياء رسل؛ لقوله تعالى: ﴿**ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك**﴾ [غافر: ٧٨]؛ وعند اليهود ـ قاتلهم الله ـ أن سليمان ملك فقط؛ وهو لا ريب ملك، ونبي، ورسول؛ وسليمان كان بعد موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿**ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى...**﴾ [البقرة: ٢٤٦] إلى قوله تعالى: ﴿**وقتل داود جالوت**﴾ [البقرة: ٢٥١]؛ وسليمان هو ابن داود ـ عليهما السلام ـ.

قوله تعالى: ﴿**وما كفر سليمان**﴾ أي بتعلم السحر؛ أو تعليمِه.

قوله تعالى: ﴿**ولكنَّ الشياطينَ كفروا**﴾ بتشديد نون ﴿**لكنَّ**﴾، ونصب ﴿**الشياطينَ**﴾؛ وفي قراءة سبعية بتخفيف نون ﴿**لكن**﴾ وإسكانها ثم كسرها تخلصاً من التقاء الساكنين؛ و﴿**الشياطينُ**﴾ برفع النون؛ فعلى القراءة الأولى تكون الواو حرف عطف، و﴿**لكنّ**﴾ حرف استدراك يعمل عمل «إنّ» ينصب الاسم، ويرفع الخبر، و﴿**الشياطينَ**﴾ اسمها، وجملة: ﴿**كفروا**﴾ خبرها؛ وعلى قراءة التخفيف تكون الواو للعطف، و﴿**لكن**﴾ حرف استدراك مبني على السكون حُرِّك بالكسر لالتقاء الساكنين، و﴿**الشياطين**﴾ مبتدأ، وجملة: ﴿**كفروا**﴾ خبر المبتدأ.

وقوله تعالى: ﴿**ولكن الشياطين**﴾ جمع شيطان؛ وجاءت بالجمع؛ لأن الشياطين يوحي بعضهم إلى بعض، ويعلم بعضهم

بعضاً؛ و﴿كفروا﴾: فسَّر هذا بقوله تعالى: ﴿**يعلمون الناس السحر**﴾؛ و«السحر» في اللغة هو كل شيء خفيَ سببه، ولطف؛ ومنه قول الرسول ﷺ: «**إن من البيان لسحراً**»[1]؛ لأن البيان ـ وهو الفصاحة ـ يجذب النفوس، والأسماع حتى إن الإنسان يجد من نفسه ما يشده إلى سماع هذا البيان، والتأثر به، فيسحر الناس؛ لكن ليس هو السحر الذي ورد ذمه؛ وإنما المراد بالسحر المذموم: عُقَد، ورُقى ينفث فيها الساحر، فيؤثر في بدن المسحور، وعقله؛ وهو أنواع: منه ما يقتل؛ ومنه ما يمرض؛ ومنه ما يزيل العقل، ويخدر الإنسان؛ ومنه ما يغير حواس المرء، بحيث يسمع ما لم يكن، أو يشاهد الساكن متحركاً، أو المتحرك ساكناً؛ ومنه ما يجلب المودة؛ ومنه ما يوجب البغضاء؛ المهم أن السحر أنواع؛ وأهله يعرفون هذه الأنواع.

قوله تعالى: ﴿**يعلمون الناس السحر**﴾ جملة حالية من الفاعل في ﴿كفروا﴾ يعني حال كونهم يعلمون الناس السحر؛ ويجوز أن تكون استئنافية لبيان نوع كفرهم.

قوله تعالى: ﴿**وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت**﴾ يعني واتبعوا أيضاً ما أنزل على الملكين؛ والجملة معطوفة على قوله: ﴿**واتبعوا ما تتلو**﴾؛ و﴿**الملَكين**﴾ بفتح اللام تثنية ملَك؛ والفرق بين «ملَك» و«ملِك» أن «الملَك» بفتح اللام واحد الملائكة؛ و«الملِك» بكسر اللام: الحاكم الذي له سلطة؛

---

(١) أخرجه البخاري ص٤٤٥، كتاب النكاح، باب ٤٨: الخطبة، حديث رقم ٥١٤٦؛ وأخرجه مسلم ص٨١٣، كتاب الجمعة، باب ١٣: تخفيف الصلاة والخطبة، حديث رقم ٢٠٠٩ [٤٧] ٨٦٩.

و«بابل» اسم لبلد في العراق؛ و﴿هاروت وماروت﴾ عطف بيان على ﴿الملكين﴾ لبيان اسمهما؛ وهما اسمان أعجميان؛ والمنزَّل عليهما شيء من أنواع السحر.

قوله تعالى: ﴿وما يعلِّمان﴾ أي الملكان هاروت، وماروت ﴿من أحد﴾ أي أحداً؛ وزيدت ﴿مِن﴾ للتوكيد.

قوله تعالى: ﴿حتى يقولا إنما نحن فتنة﴾ أي اختبار للناس؛ ليتبين من يريد السحر ممن لا يريده.

قوله تعالى: ﴿فلا تكفر﴾ أي بتعلم السحر ﴿فيتعلمون﴾ أي الناس ﴿ما يفرقون به﴾ أي سحراً يفرقون به ﴿بين المرء وزوجه﴾؛ ويسمى هذا النوع من السحر «الصرف»؛ ويقابله سحر «العطف»؛ وهو من أشد أنواع السحر؛ لأنه يصل بصاحبه إلى الهيمان، والخبل.

قوله تعالى: ﴿وما هم بضارين به من أحد﴾ أي ما هؤلاء المتعلمون للسحر بضارين به أحداً ﴿إلا بإذن الله﴾ أي إلا بإذنه القدري ـ وهو بمعنى المشيئة ـ؛ و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿من أحد﴾ زائدة للتوكيد.

قوله تعالى: ﴿ويتعلمون﴾ أي الناس من الملكين ﴿ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ أي ما مضرته محضة لا نفع فيها.

قوله تعالى: ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق﴾: الجملة مؤكدة بالقسم المقدر، واللام الواقعة في جوابه، و«قد»؛ و﴿لمن اشتراه﴾: اللام لام الابتداء؛ وهي معلِّقة للفعل ﴿علموا﴾ عن العمل؛ و«مَن» مبتدأ؛ وخبره جملة: ﴿ما له في الآخرة من خلاق﴾ أي نصيب؛ والجملة في محل نصب سدت

مسد مفعولَي ﴿علموا﴾ أي علم هؤلاء المتعلمون للسحر أن من ابتغاه بتعلمه ليس له نصيب في الآخرة؛ وعلموا ذلك من قول الملكين: ﴿إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾.

قوله تعالى: ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم﴾: اللام موطئة للقسم؛ والتقدير: والله لبئس ما شروا به أنفسهم؛ و«بئس» فعل ماض لإنشاء الذم ـ وهو جامد ـ؛ ومثله: «نعم»، و«عسى»، و«ليس»؛ ويسمونها الأفعال الجامدة؛ لأنها لا تتغير عن صيغتها: فلا تكون مضارعاً، ولا أمراً؛ و﴿ما﴾ اسم موصول؛ وهي فاعل «بئس»؛ والمخصوص بالذم محذوف؛ و﴿شروا﴾ بمعنى باعوا في اللغة العربية؛ لأن الشراء بيع؛ و«الاشتراء» هو أخذ السلعة؛ فالمشتري طالب؛ والشاري جالب، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾ [البقرة: ٢٠٧] يعني يبيعها؛ فقوله تعالى: ﴿لبئس ما شروا به أنفسهم﴾ أي باعوا به أنفسهم؛ لأنهم في الحقيقة لما اشتروا السحر، الثمن الذي بذلوه في هذا السحر: أنفسهم؛ لأنهم في الحقيقة خسروا أنفسهم؛ صارت الدنيا الآن ليس لهم فيها ربح إطلاقاً؛ والآخرة ليس لهم فيها ربح أيضاً؛ فخسروا الدنيا، والآخرة.

قوله تعالى: ﴿لو كانوا يعلمون﴾: جملة شرطية؛ وجوابها محذوف تقديره: ما تعلَّموا السحر؛ يعني: لو كانوا من ذوي العلم المنتفعين بعلمهم ما تعلموا السحر؛ وهنا ينبغي للقارئ أن يبتدئ بـ﴿لو﴾، وأن يقف على ﴿ما شروا به أنفسهم﴾؛ لأن الوصل يوهم أن محل الذم في حال علمهم؛ أما في حال عدم علمهم فليس مذموماً! وهذا خلاف المعنى المراد؛ إذ المعنى

المراد: توبيخهم، حيث عملوا عمل الجاهل؛ فقوله تعالى: ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾ نداء عليهم بالجهل.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن اليهود أخذوا السحر عن الشياطين؛ لقوله تعالى: ﴿**واتبعوا ما تتلو الشياطين**﴾؛ ويدل على هذا أن أحدهم ـ وهو لبيد بن الأعصم ـ سحر النبي ﷺ[1].

٢ ـ **ومنها**: أن السحر من أعمال الشياطين؛ لقوله تعالى: ﴿**ما تتلو الشياطين**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن الشياطين كانوا يأتون السحر على عهد سليمان مع قوة سلطانه عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿**ما تتلو الشياطين على ملك سليمان**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن سليمان لا يقر ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿**وما كفر سليمان**﴾؛ إذ لو أقرهم على ذلك ـ وحاشاه ـ لكان مُقراً لهم على كفرهم.

٥ ـ **ومنها**: أن تعلم السحر، وتعليمه كفر؛ وظاهر الآية أنه كفر أكبر مخرج عن الملة؛ لقوله تعالى: ﴿**ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر**﴾، وقوله تعالى: ﴿**وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر**﴾؛ وهذا فيما إذا كان السحر عن طريق الشياطين؛ أما إذا كان عن طريق الأدوية، والأعشاب، ونحوها ففيه خلاف بين العلماء.

---

(١) راجع البخاري ص٤٩٢، كتاب الطب، باب ٥٠: السحر، حديث رقم ٥٧٦٦؛ وصحيح مسلم ص١٠٦٦ ـ ١٠٦٧، كتاب السلام، باب ١٧: السحر، حديث رقم ٥٧٠٣ [٤٣] ٢١٨٩.

واختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ هل تقبل توبته، أو لا؟ والراجح أنها تقبل فيما بينه وبين الله عز وجل؛ أما قتله فيرجع فيه إلى القواعد الشرعية، وما يقتضيه اجتهاد الحاكم.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله تعالى قد ييسر أسباب المعصية فتنةً للناس ـ أي ابتلاءً ـ، وامتحاناً؛ لقوله تعالى: ﴿**وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة**﴾؛ فإياك إياك إذا تيسرت لك أسباب المعصية أن تفعلها؛ واذكر قصة بني إسرائيل حين حُرِّم عليهم الصيد يوم السبت ـ أعني صيد البحر ـ؛ فلم يصبروا حتى تحيلوا على صيدها يوم السبت؛ فقال لهم الله تعالى: ﴿**كونوا قردة خاسئين**﴾ [البقرة: ٦٥]؛ واذكر قصة أصحاب محمد ﷺ حين ابتلاهم الله عز وجل وهم محرِمون بالصيد تناله أيديهم، ورماحهم؛ فلم يُقدم أحد منهم عليه حتى يتبين لك حكمة الله ـ تبارك وتعالى ـ في تيسير أسباب المعصية؛ ليبلوَ الصابر من غيره.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه يجب على الإنسان أن ينصح للناس ـ وإن أوجب ذلك إعراضهم عنه ـ؛ لقوله تعالى: ﴿**وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما فتنة فلا تكفر**﴾؛ فإذا كانت عندك سلعة رديئة، وأراد أحد شراءها يجب عليك أن تُحذِّره.

٨ ـ **ومنها**: أنّ من عِظم السحر أن يكون أثره التفريق بين المرء، وزوجه؛ لقوله تعالى: ﴿**فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه**﴾؛ لأنه من أعظم الأمور المحبوبة إلى الشياطين، كما ثبت في الحديث الصحيح **أن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول**

فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، فيدنيه منه، ويقول: «نِعْم أنت»[1]؛ وفيه سحر مقابل لهذا: وهو الربط بين المرء، وزوجه؛ حتى إنه ـ والعياذ بالله ـ يُبتلى بالهيام؛ فلا يستطيع أن يعيش ـ ولا لحظة ـ إلا وزوجته أمامه؛ وبعضهم يقضي عليه هذا الأمر ـ نسأل الله العافية ـ.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الأسباب ـ وإن عظمت ـ لا تأثير لها إلا بإذن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**وما هم بضارِّين به من أحد إلا بإذن الله**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: أن قدرة الله عز وجل فوق الأسباب؛ وأنه مهما وجدت الأسباب ـ والله لم يأذن ـ فإن ذلك لا يؤثر؛ وهذا لا يوجب لنا أن لا نفعل الأسباب؛ لأن الأصل أن الأسباب مؤثرة بإذن الله.

١١ ـ **ومنها**: الإشارة إلى أنه ينبغي اللجوء إلى الله دائماً؛ لقوله تعالى: ﴿**إلا بإذن الله**﴾؛ فإذا علمت أن كل شيء بإذن الله فإذاً تلجأ إليه سبحانه وتعالى في جلب المنافع، ودفع المضار.

١٢ ـ **ومنها**: أنّ تعلم السحر ضرر محض، ولا خير فيه؛ لقوله تعالى: ﴿**ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم**﴾؛ فأثبت ضرره، ونفى نفعه.

١٣ ـ **ومنها**: أن كفر الساحر كفر مخرج عن الملة؛ لقوله تعالى: ﴿**ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق**﴾

---

(١) أخرجه مسلم ص١١٦٨، كتاب صفات المنافقين، باب ١٦: تحريش الشيطان...، حديث رقم ٧١٠٦ [٦٧] ٢٨١٣.

يعني: من نصيب؛ وليس هناك أحد ليس له نصيب في الآخرة إلا الكفار؛ فالمؤمن مهما عذب فإن له نصيباً من الآخرة.

١٤ ـ **ومنها**: أن هؤلاء اليهود تعلموا السحر عن علم؛ لقوله تعالى: ﴿**ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق**﴾.

١٥ ـ **ومنها**: إثبات الجزاء، وأنه من جنس العمل؛ فإن الكافر لما لم يجعل لله نصيباً في دنياه لم يجعل الله له نصيباً من الآخرة.

١٦ ـ **ومنها**: ذم هؤلاء اليهود بما اختاروه لأنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿**ولبئس ما شروا به أنفسهم**﴾.

١٧ ـ **ومنها**: أن صاحب العلم الذي يَنتفِع بعلمه هو الذي يحذر مثل هذه الأمور؛ لقوله تعالى: ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾ يعني: لو كانوا ذوي علم نافع ما اشتروا هذا العلم الذي يضرهم، ولا ينفعهم؛ والذي علموا: أنّ من اشتراه ما له في الآخرة من خلاق.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

التفسير:

﴿١٠٣﴾ قوله تعالى: ﴿**ولو أنهم آمنوا**﴾ أي بقلوبهم ﴿**واتقوا**﴾ أي بجوارحهم؛ فالإيمان بالقلب؛ والتقوى بالجوارح؛ هذا إذا جمع بينهما؛ وإن لم يجمع بينهما صار الإيمان شاملاً للتقوى، والتقوى شاملة للإيمان؛ لقول النبي ﷺ: «**التقوى**

هاهنا»[١] وأشار إلى قلبه؛ والإيمان عند أهل السنة والجماعة: «التصديق مع القبول، والإذعان»؛ وإلا فليس بإيمان؛ و«**التقوى**» أصلها: وَقْوَى؛ وهي اتخاذ وقاية من عذاب الله؛ وذلك بفعل أوامر الله، واجتناب نواهيه؛ وهذا أجمع ما قيل في معناها؛ وإلا فبعضهم قال: «**التقوى**» أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله؛ وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله؛ وبعضهم قال في تعريف «**التقوى**»:

خلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واعمل كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

وقوله تعالى: ﴿**ولو أنهم**﴾: «**أن**» هنا مفتوحة الهمزة؛ و«أن» من الحروف المصدرية التي تؤول، وما بعدها بمصدر فاعل لفعل محذوف؛ والتقدير: لو ثبت أنهم آمنوا ـ أي إيمانهم ـ.

قوله تعالى: ﴿**لمثوبة**﴾؛ «**المثوبة**»، و«**الثواب**» بمعنى الجزاء؛ وسمي بذلك؛ لأنه من ثاب يثوب: إذا رجع؛ لأن الجزاء كأنه عمَلُ الإنسان رجع إليه، وعاد إليه منفعته، وثمرته.

قوله تعالى: ﴿**من عند الله**﴾ أضافها الله إلى نفسه، وجعلها من عنده لأمرين:

الأول: أنها تكون أعظم مما يتصوره العبد؛ لأن العطاء من العظيم عظيم؛ فالعطية على حسب المعطي؛ عطية البخيل قليلة؛ وعطية الكريم كثيرة.

---

(١) أخرجه مسلم ص١١٢٧، كتاب البر والصلة، باب ١٠: تحريم ظلم المسلم وخذله...، حديث رقم ٦٥٤١ [٣٢] ٢٥٦٤.

الثاني: اطمئنان العبد على حصولها؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد.

قوله تعالى: ﴿خير﴾: الأَولى أن نقول: هي خيرية مطلقة - خير من كل شيء -؛ واللام في قوله: ﴿لمثوبة﴾ واقعة في جواب ﴿لو﴾؛ ويوقف عند قوله: ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾؛ ولا توصل بما بعدها؛ لأنها لو وصلت به لاختل المعنى، حيث تكون مع الوصل: المثوبة خير بشرط العلم؛ والأمر ليس كذلك؛ وعلى هذا فجواب ﴿لو كانوا يعلمون﴾ محذوف تقديره: لآمنوا واتقوا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية**: سعة حلم الله، حيث يعرض عليهم الإيمان، والتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا﴾ يعني فيما مضى، وفيما يستقبل؛ وهذه من سنته سبحانه وتعالى أن يعرض التوبة على المذنبين؛ انظر إلى قوله تعالى: ﴿**إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق**﴾ [البروج: ١٠]: يُحَرِّقون أولياءه، ثم يعرض عليهم التوبة؛ لقوله تعالى: ﴿**ثم لم يتوبوا**﴾.

٢ - **ومنها**: أن الإيمان يُنال به ثواب الله؛ لقوله تعالى: ﴿**ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير**﴾.

٣ - **ومنها**: أن ثواب الله خير لمن آمن واتقى من الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير﴾ أي خير من كل شيء؛ قال رسول الله ﷺ: «**لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا، وما فيها**»[1].

---

(١) سبق تخريجه ص٢٥٨.

٤ ـ **ويؤخذ منها**: ومن قوله تعالى عن الناصحين لمن تمنوا أن يكون لهم مثل ما لقارون: ﴿**ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً**﴾ [القصص: ٨٠]، أنّ التقوى هي العمل الصالح.

٥ ـ **ومنها**: أن فعل هؤلاء اليهود، واختيارهم لما فيه الكفر من تعلم السحر فعلُ الجاهل؛ لقوله تعالى: ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤﴾.

التفسير:

﴿١٠٤﴾ قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾: تصدير الحكم بالنداء دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب انتباه المنادَى؛ ثم النداء بوصف الإيمان دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ وعلى أن فواته نقص في الإيمان؛ قال ابن مسعود رضي الله عنه: «**إذا سمعت الله يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فأرعها سمعك** ـ يعني استمع لها ـ؛ **فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه**[1]». وهذه الآية من النهي: ﴿**لا تقولوا راعنا**﴾ يعني

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في كتاب التفسير ١/١٩٦، تحقيق أسعد أحمد الطيب، وسنده: قال ابن أبي حاتم: ثنا أبي ثنا نعيم بن حماد ثنا عبد الله بن المبارك ثنا مسعر ثنا معن وأبو عون أو أحدهما أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود...، ونعيم بن حماد قال الحافظ فيه: صدوق يخطئ كثيراً، وقد تتبع ابن عدي ما أخطأ فيه وقال: أرجو أن يكون باقي حديثه مستقيماً، الكامل لابن عدي ٨/٢٥١ ـ ٢٥٦، ولم يذكر ابن عدي هذا =

لا تقولوا عند مخاطبة النبي ﷺ: راعنا؛ و﴿**راعنا**﴾ من المراعاة؛ وهي العناية بالشيء، والمحافظة عليه؛ وكان الصحابة إذا أرادوا أن يتكلموا مع الرسول ﷺ قالوا: «**يا رسول الله، راعنا**»؛ وكان اليهود يقولون: «يا محمد، راعنا»؛ لكن اليهود يريدون بها معنى سيئاً؛ يريدون «راعنا» اسم فاعل من الرعونة؛ يعني أن الرسول ﷺ راعن؛ ومعنى «الرعونة» الحمق، والهوج؛ لكن لما كان اللفظ واحداً وهو محتمل للمعنيين نهى الله عز وجل المؤمنين أن يقولوه تأدباً، وابتعاداً عن سوء الظن؛ ولأن من الناس من يتظاهر بالإيمان ـ مثل المنافقين ـ فربما يقول: «راعنا» وهو يريد ما أرادت اليهود؛ فلهذا نُهي المسلمون عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿**وقولوا انظرنا**﴾ يعني إذا أردتم من الرسول أن ينتظركم فلا تقولوا: ﴿**راعنا**﴾؛ ولكن قولوا: ﴿**انظرنا**﴾: فعل طلب؛ و«النظر» هنا بمعنى الانتظار، كما في قوله تعالى: ﴿**هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام**﴾ [البقرة: ٢١٠]، أي ما ينتظر هؤلاء.

قوله تعالى: ﴿**واسمعوا**﴾ فعل أمر من السمع بمعنى الاستجابة؛ أي اسمعوا سماع استجابة، وقبول، كما قال تعالى:

= الأثر، ومعن هو ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، ت. التهذيب، وأبو عون، كما في التهذيب هو أبو عون الثقفي محمد بن عبيد الله الأعور؛ وكلاهما ثقة، لكن معن بن عبد الرحمن لم يدرك عبد الله بن مسعود، لأن الحافظ عدّه من الطبقة السابعة، وأما أبو عون فإنه مات سنة ١١٠ هجرياً، وعبد الله بن مسعود مات سنة ٣٣هـ، ت. التهذيب [٩/ ٢٨٥، ٦/ ٢٥]، فيبعد أن يكون قد أدرك ابن مسعود، فيكون حديث معن وأبي عون عن ابن مسعود مرسلاً.

﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ [الأنفال: ٢١] يعني اسمعوا ما تؤمرون به فافعلوه، وما تنهون عنه فاتركوه.

قوله تعالى: ﴿وللكافرين عذاب أليم﴾؛ المراد بـ«الكافرين» هنا اليهود؛ و﴿عذاب﴾ بمعنى عقوبة؛ و﴿أليم﴾ بمعنى مؤلم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أنه ينبغي استعمال الأدب في الألفاظ؛ يعني أن يُتجنب الألفاظ التي توهم سبًّا، وشتماً؛ لقوله تعالى: ﴿لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن الإيمان مقتضٍ لكل الأخلاق الفاضلة؛ لأن مراعاة الأدب في اللفظ من الأخلاق الفاضلة.

٣ ـ **ومنها**: أن مراعاة الأخلاق الفاضلة من الإيمان.

٤ ـ **ومنها**: أنه ينبغي لمن نهى عن شيء أن يدل الناس على بدله المباح؛ فلا ينهاهم، ويجعلهم في حيرة.

٥ ـ **ومنها**: وجوب الانقياد لأمر الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿واسمعوا﴾.

٦ ـ **ومنها**: التحذير من مخالفة أمر الله، وأنها من أعمال الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وللكافرين عذاب أليم﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾.

التفسير:

﴿١٠٥﴾ قوله تعالى: ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين﴾؛ ﴿ما﴾ نافية؛ و﴿يود﴾ بمعنى يحب؛ و«**الود**» خالص المحبة؛ و﴿مِن﴾ هنا لبيان الجنس؛ وليست للتبعيض؛ وعليه يصير المعنى أن أهل الكتاب كلهم كفار؛ ﴿ولا المشركين﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿من أهل الكتاب﴾ يعني: ما يود الذين كفروا من هؤلاء، ولا هؤلاء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ولا المشركين﴾؛ لأنها لو كانت معطوفة على ﴿الذين كفروا﴾ لكانت بالرفع؛ فعلى هذا تكون ﴿من﴾ لبيان الجنس؛ أي الذين كفروا من هذا الصنف ـ الذين هم أهل الكتاب؛ وكذلك من المشركين.

قوله تعالى: ﴿أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾: ﴿أن ينزل﴾ مفعول ﴿يود﴾ يعني: ما يودون تنزيل خير؛ وقوله تعالى: ﴿من خير﴾: ﴿مِن﴾ زائدة إعراباً؛ و«**الخير**» هنا يشمل خير الدنيا، والآخرة، القليل والكثير؛ لو حصل للكافرين من أهل الكتاب من اليهود، والنصارى، ومن المشركين أن يمنعوا القطر عن المسلمين لفعلوا؛ لأنهم ما يودون أن ينزل علينا أيّ خير؛ ولو تمكنوا أن يمنعوا العلم النافع عنا لفعلوا؛ وهذا ليس خاصاً بأهل الكتاب والمشركين في زمان الرسول ﷺ؛ بل هو عام؛ ولهذا جاء بصيغة المضارع: ﴿ما يود﴾؛ وهو دال على الاستمرار.

وقوله تعالى: ﴿ينزَّل﴾ بتشديد الزاي؛ وفي قراءة بدون تشديد؛ والفرق بينهما أن «**التنزيل**»: هو إنزاله شيئاً فشيئاً؛ وأما «**الإنزال**»: فهو إنزاله جملة واحدة؛ هذا هو الأصل؛ فهم لا

يودون هذا، ولا هذا: لا أن ينزل علينا الخير جملة واحدة؛ ولا أن ينزل شيئاً فشيئاً.

قوله تعالى: ﴿والله يختص برحمته من يشاء﴾؛ «يختص» تستعمل لازمة، ومتعدية؛ فإن كانت لازمة فإن ﴿مَن﴾ فاعل ﴿يختص﴾؛ والمعنى على هذا: ينفرد برحمته من يشاء؛ كما تقول: اختصصت بهذا الشيء: أي انفردت به؛ وإن كانت متعدية فهي بمعنى: يخص برحمته من يشاء؛ وعلى هذا فتكون ﴿مَن﴾ مفعولاً به لـ﴿يختص﴾؛ وعلى كلا الوجهين المعنى واحد: أي أن الله عز وجل يخص برحمته من يشاء؛ فيختص بها.

وقوله تعالى: ﴿برحمته﴾ يشمل رحمة الدين، والدنيا؛ ومن ذلك رحمة الله بإنزال هذا الوحي على محمد ﷺ؛ لأن هذا الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ هو من رحمة الله عليه، وعلينا، كما قال تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾** [الأنبياء: ١٠٧].

وقوله تعالى: ﴿من يشاء﴾ هذا مقرون بالحكمة؛ يعني اختصاصه بالرحمة لمن يشاء مبني على حكمته سبحانه وتعالى؛ فمن اقتضت حكمته ألا يختصه بالرحمة لم يرحمه.

قوله تعالى: ﴿والله ذو الفضل﴾ أي ذو العطاء الزائد عما تتعلق به الضرورة؛ و﴿العظيم﴾ أي الواسع الكثير الكبير؛ فالعِظم هنا يعود إلى الكمية، وإلى الكيفية.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: بيان عداوة غير المسلمين للمسلمين؛ لأنه تعالى ذكر صنفين ينتظمان جميع الأصناف: أهل الكتاب ـ

وهم اليهود، والنصارى ـ؛ والمشركين ـ وهم كل أصحاب الأوثان ـ؛ فكل هؤلاء أعداء للمسلمين؛ لأنهم لا يودون الخير للمسلمين.

٢ ـ **ومنها**: أنه يجب علينا أن نحذر من كل تصرف يصدر عن اليهود، والنصارى، والمشركين، ونتخذهم أعداءً، وأن نعلم أنهم بجميع تصرفاتهم يحاولون أن يمنعوا الخير عن المسلمين.

٣ ـ **ومنها**: أن هؤلاء الكفار يودون أن يمنعوا عن المسلمين التقدم.

٤ ـ **ومنها**: أنه يحرم على المسلمين أن يُوَلُّوا هؤلاء الكفار أيّ قيادة؛ لأنهم ما داموا لا يودون لنا الخير فلن يقودونا لأيّ خير مهما كان الأمر؛ ولهذا يحرم أن يجعل لهم سلطة على المسلمين لا في تخطيط، ولا في نظام، ولا في أي شيء؛ بل يجب أن يكونوا تحت إمرة المسلمين، وتحت تدبيرهم ما أمكن؛ وإذا استعنا بهم فإنما نستعين بهم لإدراك مصالحنا وهم تحت سلطتنا؛ لأنهم لو استطاعوا أن يمنعوا القطر وينبوع الأرض عن المسلمين لفعلوا؛ إذاً فيجب علينا الحذر من مخططاتهم، وأن نكون دائماً على سوء ظن بهم؛ لأن إحسان الظن بهم في غير محله؛ وإنما يحمل عليه الذل، وضعف الشخصية، والخور، والجبن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم**﴾؛ وهي شاملة لخير الدنيا، والآخرة؛ فاليهود حسدوا المسلمين لما آمنوا بمحمد ﷺ، ونزل عليهم هذا الكتاب.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن خير الله لا يجلبه ودّ وادّ، ولا

يرده كراهة كاره؛ لقوله تعالى: ﴿**والله يختص برحمته من يشاء**﴾؛ فلا يمكن لهؤلاء اليهود، والنصارى، والمشركين أن يمنعوا فضل الله علينا؛ وعلى هذا جاء الحديث الصحيح: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك؛ ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»[(١)].

٦ ـ **ومنها**: أن الإنسان الذي لا يود الخير للمسلمين فيه شبه باليهود، والنصارى؛ لأن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

٧ ـ **ومنها**: إثبات المشيئة لله؛ لقوله تعالى: ﴿**من يشاء**﴾؛ ومشيئته تعالى عامة في كل شيء سواء كان من أفعاله، أو من أفعال عباده؛ لقوله تعالى: ﴿**ولو شاء الله ما فعلوه**﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وقوله تعالى: ﴿**وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين**﴾ [التكوير: ٢٩]؛ وأما ما يتعلق بأفعاله تعالى فالأمثلة عليه كثيرة، كقوله تعالى: ﴿**ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها**﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿**إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد**﴾ [فاطر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿**والله يفعل ما يشاء**﴾، وغير ذلك من الآيات.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات الرحمة لله؛ لقوله تعالى: ﴿**برحمته**﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٩٣، حديث رقم ٢٦٦٩؛ وأخرجه الترمذي ص١٩٠٤ ـ ١٩٠٥، كتاب صفة القيامة، باب ٥٩: حديث حنظلة، حديث رقم ٢٥١٦، وفي سنده قيس بن الحجاج، قال الحافظ في التقريب: صدوق، وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح ٢/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩، حديث رقم ٢٠٤٣.

٩ ـ **ومنها**: إثبات الإرادة لله؛ لقوله تعالى: ﴿يختص﴾؛ لأن التخصيص يدل على الإرادة.

١٠ ـ **ومنها**: إثبات الفضل لله؛ لقوله تعالى: ﴿ذو الفضل﴾.

١١ ـ **ومنها**: إثبات أن فضله ليس كفضل غيره؛ ففضل غيره محدود؛ وأما فضل الله ففضل عظيم لا حدود له؛ فإن الله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم؛ ومن فضله تبارك وتعالى أنه خص هذه الأمة بخصائص عظيمة كثيرة ما جعلها لأحد سواها؛ منها ما جاء في حديث جابر في الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر؛ وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ؛ وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي؛ وأعطيت الشفاعة؛ وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**»[(١)].

تنبيه:

لا يعارض هذه الآية قوله تعالى: ﴿**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون**﴾ [المائدة: ٨٢]؛ لأن هذه الآية في صنف معين من النصارى: وهم الذين منهم القسيسون، والرهبان الذين من

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٩، كتاب التيمم، باب ١، حديث رقم ٣٣٥، وأخرجه مسلم ص٧٥٩، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ١: المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ١١٦٢ [٢] ٥٢٠.

صفاتهم أنهم لا يستكبرون؛ فإذا وجد هذا الصنف في عهد الرسول، أو بعده انطبقت عليه الآية؛ لكن اختلفت حال النصارى منذ زمن بعيد؛ نسأل الله أن يعيد للمسلمين عزتهم وكرامتهم، حتى يعرفوا حقيقة عداوة النصارى، وغيرهم من أهل الكفر، فيعدوا لهم العدة.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

التفسير:

﴿١٠٦﴾ قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ فيها ثلاث قراءات؛ الأولى: بفتح النون الأولى في ﴿نَنسخ﴾؛ وضمها في ﴿نُنسها﴾ بدون همز؛ والثانية: بفتح النون الأولى في ﴿نَنسخ﴾؛ وفتحها في ﴿نَنسأها﴾ مع الهمز؛ والثالثة بضم النون الأولى في ﴿نُنسخ﴾؛ وضمها في ﴿نُنسها﴾ بدون همز.

قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية...﴾؛ ﴿ما﴾: شرطية؛ وهي اسم شرط جازم يجزم فعلين؛ الأول: فعل الشرط: ﴿ننسخ﴾؛ والثاني: جوابه: ﴿نأت﴾؛ وأما قوله تعالى: ﴿أو ننسها﴾ فهي معطوفة على ﴿ننسخ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ننسخ من آية أو ننسها﴾ بضمير الجمع للتعظيم؛ وليس للتعدد؛ لأن الله واحد؛ و«النسخ» معناه في اللغة: الإزالة؛ أو ما يشبه النقل؛ فالأول كقولهم: «نسخت

الشمس الظل» يعني أزالته؛ والثاني كقولهم: «نسخت الكتاب»؛ إذ ناسخ الكتاب لم يزله، ولم ينقله؛ وإنما نقش حروفه، وكلماته؛ لأنه لو كان «نسخ الكتاب» يعني نقله كان إذا نسخته انمحت حروفه من الأول؛ وليس الأمر كذلك؛ أما في الشرع: فإنه رفع حكم دليل شرعي، أو لفظه، بدليل شرعي؛ و﴿مِن﴾ لبيان الجنس؛ لأن ﴿ما﴾ اسم شرط جازم مبهم؛ والمراد بـ«**الآية**» الآية الشرعية؛ لأنها محل النسخ الذي به الأمر والنهي دون الآية الكونية.

وقوله: ﴿**ننسها**﴾ من النسيان؛ وهو ذهول القلب عن معلوم؛ وأما ﴿**ننسأها**﴾ فهو من «النسأ»؛ وهو التأخير؛ ومعناه: تأخير الحكم، أو تأخير الإنزال؛ أي أن الله يؤخر إنزالها، فتكون الآية لم تنزل بعد؛ ولكن الله سبحانه وتعالى أبدلها بغيرها؛ وأما على قراءة ﴿**ننسها**﴾ فهو من النسيان؛ بمعنى نجعل الرسول ﷺ ينساها، كما في قوله تعالى: ﴿**سنقرئك فلا تنسى * إلا ما شاء الله**﴾ [الأعلى: ٦ ـ ٧]؛ والمراد به هنا رفع الآية؛ وليس مجرد النسيان؛ لأن مجرد النسيان لا يقتضي النسخ؛ فالنبي ﷺ قد ينسى بعض الآيات؛ وهي باقية كما في الحديث: «**أن النبي ﷺ قرأ في الصلاة فترك شيئاً لم يقرأه فقال له رجل: تركت آية كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: هلاَّ أذكرتنيها**»[1].

قوله تعالى: ﴿**نأت بخير منها**﴾ هو جواب الشرط؛ والخيرية

---

(١) أخرجه أبو داود ص١٢٩٠، كتاب الصلاة، باب ١٥٨: الفتح على الإمام في الصلاة، حديث رقم ٩٠٧، أ، قال الألباني في صحيح أبي داود، حسن، ١/ ٢٥٤.

هنا بالنسبة للمكلف؛ ووجه الخيرية ـ كما يقول العلماء ـ أن النسخ إن كان إلى أشد فالخيرية بكثرة الثواب؛ وإن كان إلى أخف فالخيرية بالتسهيل على العباد مع تمام الأجر؛ وإن كان بالمماثل فالخيرية باستسلام العبد لأحكام الله عز وجل، وتمام انقياده لها، كما قال تعالى: ﴿**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه**﴾ [البقرة: ١٤٣].

قوله تعالى: ﴿**أو مثلها**﴾ أي نأتي بمثلها.

قوله تعالى: ﴿**ألم تعلم**﴾ الهمزة هنا للاستفهام؛ والمراد به التقرير؛ وكلما جاءت على هذه الصيغة فالاستفهام فيها للتقرير، مثل: ﴿**ألم نشرح لك صدرك**﴾ [الشرح: ١]؛ فقوله تعالى: ﴿**ألم تعلم**﴾ يقرر الله المخاطَب ـ سواء قلنا: إنه الرسول ﷺ؛ أو كل من يتأتى خطابه ـ بالاستفهام بأنه يعلم ﴿**أن الله على كل شيء قدير**﴾؛ يعني أنك قد علمت قدرة الله على كل شيء؛ ومنها القدرة على النسخ.

وقوله تعالى: ﴿**قدير**﴾: لما أريد بها الوصف جاءت على صيغة «فعيل»؛ لكن إذا أريد بها الفعل تكون بصيغة «الفاعل»، كما في قوله تعالى: ﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم**﴾ [الأنعام: ٦٥]؛ و«**القدرة**» صفة تقوم بالقادر بحيث يفعل الفعل بلا عجز؛ و«القوة» صفة تقوم بالقوي بحيث يفعل الفعل بلا ضعف؛ إذاً المقابل للقدرة: العجز؛ لقوله تعالى: ﴿**وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً**﴾ [فاطر: ٤٤]؛ والمقابل للقوة: الضعف، قال تعالى: ﴿**الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة**﴾ [الروم:

٥٤]؛ والفرق الثاني بينهما: أن «القوة» يوصف بها من له إرادة، وما ليس له إرادة؛ فيقال: رجل قوي؛ وحديد قوي؛ وأما «القدرة» فلا يوصف بها إلا ذو إرادة؛ فلا يقال: حديد قادر.

تنبيه:

من هذا الموضع من السورة إلى ذكر تحويل القبلة في أول الجزء الثاني تجد أن كل الآيات توطئة لنسخ استقبال القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ ولهذا تجد الآيات بعدها كلها في التحدث مع أهل الكتاب الذين أنكروا غاية الإنكار تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: ثبوت النسخ، وأنه جائز عقلاً، وواقع شرعاً؛ وهذا ما اتفقت عليه الأمة إلا أبا مسلم الأصفهاني؛ فإنه زعم أن النسخ مستحيل؛ وأجاب عما ثبت نسخه بأن هذا من باب التخصيص؛ وليس من باب النسخ؛ وذلك لأن الأحكام النازلة ليس لها أمد تنتهي إليه؛ بل أمدها إلى يوم القيامة؛ فإذا نُسِخت فمعناه أننا خصصنا الزمن الذي بعد النسخ ـ أي أخرجناه من الحكم ـ؛ فمثلاً: وجوب مصابرة الإنسان لعشرة حين نزل كان واجباً إلى يوم القيامة شاملاً لجميع الأزمان؛ فلما نُسخ أخرج بعض الزمن الذي شمله الحكم، فصار هذا تخصيصاً؛ وعلى هذا فيكون الخلاف بين أبي مسلم وعامة الأمة خلافاً لفظياً؛ لأنهم متفقون على جواز هذا الأمر؛ إلا أنه يسميه تخصيصاً؛ وغيره يسمونه نسخاً؛ والصواب تسميته نسخاً؛ لأنه صريح القرآن: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾؛ ولأنه هو الذي جاء عن السلف.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الناسخ خير من المنسوخ؛ لقوله تعالى: ﴿**نأت بخير منها**﴾؛ أو مماثل له عملاً ـ وإن كان خيراً منه مآلاً ـ؛ لقوله تعالى: ﴿**أو مثلها**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن أحكام الله سبحانه وتعالى تختلف في الخيرية من زمان إلى زمان؛ بمعنى أنه قد يكون الحكم خيراً للعباد في وقت؛ ويكون غيره خيراً لهم في وقت آخر.

٤ ـ **ومنها**: عظمة الله عز وجل لقوله تعالى: ﴿**ما ننسخ**﴾: فإن الضمير هنا للتعظيم؛ وهو سبحانه وتعالى أهل العظمة.

٥ ـ **ومنها**: إثبات تمام قدرة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير**﴾؛ ومن ذلك أنه قادر على أن ينسخ ما يشاء.

٦ ـ **ومنها**: أن قدرة الله عامة شاملة؛ لقوله تعالى: ﴿**أن الله على كل شيء قدير**﴾.

٧ ـ **ومنها**: أن القادر على تغيير الأمور الحسية قادر على تغيير الأمور المعنوية؛ فالأمور القدرية الكونية الله قادر عليها؛ فإذا كان قادراً عليها فكذلك الأمور الشرعية المعنوية؛ وهذا هو الحكمة في قوله تعالى: ﴿**ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير**﴾ بعد ذكر النسخ.

٨ ـ **ومنها**: أن الشريعة تابعة للمصالح؛ لأن النسخ لا يكون إلا لمصلحة؛ فان الله لا يبدل حكماً بحكم إلا لمصلحة.

قد يقول قائل: ما الفائدة إذاً من النسخ إذا كانت مثلها والله تعالى حكيم لا يفعل شيئاً إلا لحكمة؟

فالجواب: أن الفائدة اختبار المكلف بالامتثال؛ لأنه إذا امتثل

الأمر أولاً وآخراً، دل على كمال عبوديته؛ وإذا لم يمتثل دل على أنه يعبد هواه، ولا يعبد مولاه؛ مثال ذلك: تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ هذا بالنسبة للمكلف ليس فيه فرق أن يتجه يميناً، أو شمالاً؛ إنما الحكمة من ذلك اختبار المرء بامتثاله أن يتجه حيثما وجه؛ أما المتجَه إليه، وكونه أولى بالاتجاه إليه فلا ريب أن الاتجاه إلى الكعبة أولى من الاتجاه إلى بيت المقدس؛ ولهذا ضل من ضل، وارتد من ارتد بسبب تحويل القبلة: قال الله تعالى: ﴿**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله**﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ فالإنسان يبتلى بمثل هذا النسخ؛ إن كان مؤمناً عابداً لله قال: سمعت وأطعت؛ وإن كان سوى ذلك عاند، وخالف: يقول: لماذا هذا التغيير! فيتبين بذلك العابد حقاً، ومن ليس بعابد.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله تعالى وعد بأنه لا يمكن أن ينسخ شيئاً إلا أبدله بخير منه، أو مثله؛ ووعده صدق.

١٠ ـ **ومنها**: ذكر ما يطمئن به العبد حين يخشى أن يقلق فكره؛ لقوله تعالى: ﴿**ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

التفسير:

﴿١٠٧﴾ قوله تعالى: ﴿**ألم تعلم أن الله له ملك السموات**

والأرض﴾ أي أن الله وحده الذي له ملك السموات، والأرض: ملك الأعيان، والأوصاف، والتدبير؛ فأعيان السموات، والأرض، وأوصافها ملك لله؛ و«التدبير» يعني أنه تعالى يملك التدبير فيها كما يشاء: لا معارض له، ولا ممانع؛ و**﴿السموات﴾** جمع سماء؛ ويُطلق على العلو، وعلى السقف المحفوظ ـ وهو المراد هنا ـ؛ وهي سبع سموات كما جاء في القرآن الكريم، والسنة النبوية؛ و**﴿الأرض﴾** أي جنس الأرضين، فيشمل السبع كلها.

قوله تعالى: **﴿وما لكم من دون الله﴾** أي من سواه؛ **﴿من ولي﴾**: فعيل بمعنى مفعل؛ أي ما من أحد يتولاكم فيجلب لكم الخير؛ **﴿ولا نصير﴾** أي ولا ناصر يدفع عنكم الشر؛ و**﴿مِن﴾**: حرف جر زائد إعراباً؛ ولكنه أصلي المعنى؛ إذ إن الغرض منه التنصيص على العموم؛ يعني ما لكم أيّ ولي.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: تقرير عموم ملك الله؛ لقوله تعالى: **﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾**؛ ولا يرد على هذا إضافة الملك للإنسان، كما في قوله تعالى: **﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾** [النساء: ٣]؛ فإن هذه الإضافة ليست على سبيل الإطلاق؛ لأن ملك الإنسان للأشياء ملك محدود، وناقص، وقاصر؛ محدود من حين استيلائه عليه إلى أن يخرج عن ملكه ببيع، أو هبة، أو موت، أو غير ذلك؛ كذلك هو ناقص: فهو لا يملك التصرف فيه كما يشاء؛ بل تصرفه مقيد بما يباح له شرعاً؛ ولهذا لو أراد أن يحرق ملكه لم يملك ذلك؛ كذلك أيضاً ملك

الإنسان قاصر؛ فهو لا يملك إلا ما تحت يده؛ فلا يشمل ملك الآخرين.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: اختصاص ملك السموات، والأرض بالله؛ وهذا مأخوذ من تقديم الخبر، حيث إن تقديم الخبر يدل على الحصر؛ لقوله تعالى: ﴿**له ملك السموات والأرض**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن من ملك الله أنه ينسخ ما يشاء، ويثبت؛ فكأن قوله تعالى: ﴿**ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض**﴾ تعليل لقوله تعالى: ﴿**ما ننسخ من آية**﴾؛ فالمالك للسموات والأرض يتصرف فيهما كما شاء.

٤ ـ **ومنها**: أنه لا أحد يدفع عن أحد أراد الله به سوءاً؛ لقوله تعالى: ﴿**وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أنه يجب على المرء أن يلجأ إلى ربه في طلب الولاية، والنصر.

فإذا قال قائل: إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين**﴾ [الأنفال: ٦٢]، ويقول تعالى: ﴿**إلا تنصروه فقد نصره الله**﴾ [التوبة: ٤٠]؛ فأثبت نصراً لغير الله.

فالجواب: أن إثبات النصر لغير الله إثبات للسبب فقط؛ وليس نصراً مستقلاً؛ والنصر المستقل من عند الله؛ أما انتصار بعضنا ببعض فإنه من باب الأخذ بالأسباب؛ وليس على وجه الاستقلال.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن ما يريده الإنسان فهو إما جلب منفعة يحتاج إلى ولي يجلبها له؛ وإما دفع مضرة يحتاج إلى نصير يدفعها عنه.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾.

التفسير:

﴿١٠٨﴾ قوله تعالى: **﴿أم تريدون أن تسألوا﴾**؛ **﴿أم﴾** هنا منقطعة بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام؛ أي: بل أتريدون؛ والإضراب هنا ليس للإبطال؛ لأن الأول ليس بباطل؛ بل هو باق؛ فالإضراب هنا إضراب انتقال؛ و«**الإرادة**» هنا بمعنى المشيئة؛ وإن شئت فقل: بمعنى المحبة؛ والخطاب هنا قيل: إنه لليهود حينما سألوا النبي ﷺ آيات يأتي بها؛ وقيل: إنه للمشركين؛ لقوله تعالى: **﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾** [الإسراء: ٩٠]؛ وقيل: إنه للمسلمين؛ والآية صالحة للأقوال كلها؛ لأن محمداً ﷺ رسول للجميع؛ لكن تخصيصها باليهود يبعده قوله تعالى: **﴿كما سئل موسى من قبل﴾**؛ فمعنى الآية: أتريدون أن توردوا الأسئلة على رسولكم كما كان بنو إسرائيل تورد الأسئلة على رسولها؛ ولا شك أن الاستفهام هنا يراد به الإنكار على من يكثرون السؤال على النبي ﷺ.

قوله تعالى: **﴿رسولكم﴾**: أضافه سبحانه وتعالى إليهم، مع أنه في آيات كثيرة أضافه الله إلى نفسه: **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم﴾** [المائدة: ١٥]؛ والجمع بين ذلك: أن كل واحدة من الإضافتين تنزل على حال: فهو رسول الله باعتبار أنه أرسله؛ ورسولنا باعتبار أنه أرسل إلينا؛ والمراد به محمد ﷺ بالإجماع.

قوله تعالى: ﴿**كما سئل موسى من قبل**﴾ أي كما سأل بنو إسرائيل موسى من قبل، كقولهم: ﴿**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**﴾ [البقرة: ٥٥]، وقولهم: ﴿**اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة**﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وغير ذلك؛ فبنو إسرائيل هم المشهورون بالأسئلة، والتعنت، والإعجاز؛ أما هذه الأمة فإنها قد أدَّبها الله عز وجل فأحسن تأديبها: لا يسألون إلا عن أمر لهم فيه حاجة.

قوله تعالى: ﴿**ومن يتبدل الكفر بالإيمان**﴾ أي يأخذ الكفر بديلاً عن الإيمان؛ ﴿**فقد ضل**﴾ أي تاه ﴿**سواء السبيل**﴾ أي وسط الطريق؛ يعني يخرج عن وسط الطريق إلى حافات الطريق، وإلى شعبها؛ وطريق الله واحد؛ وعليك أن تمشي في سواء الصراط - أي وسطه - حتى لا تعرض نفسك للضلال.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية**: إنكار كثرة الأسئلة لرسول الله ﷺ؛ لأن الاستفهام: ﴿**أم تريدون**﴾ يقصد به الإنكار؛ وقد قال النبي ﷺ محذراً من ذلك: «**ذروني ما تركتكم فإنما هلك الذين من قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**»[(١)]؛ وصح عن النبي ﷺ: «**أن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرَّم فحُرِّم من أجل مسألته**»[(٢)]؛ فهذا نهي، وإنكار على الذين يسألون

---

(١) أخرجه مسلم ص٩٠١، كتاب الحج، باب ٧٣: فرض الحج مرة في العمر، حديث رقم ٣٢٥٧ [٤١٢] ١٣٣٧.

(٢) أخرجه البخاري ص٦٠٧، كتاب الاعتصام، باب ٣: ما يكره من كثرة السؤال، حديث رقم ٧٢٨٩، وأخرجه مسلم ص١٠٩٢ - ١٠٩٣، كتاب الفضائل، باب ٣٧: توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله...، حديث رقم ٦١١٦ [١٣٢] ٢٣٥٨.

رسول الله ﷺ مسائل؛ والمطلوب من المسلم في زمن الوحي أن يسكت حتى ينزل ما أراد الله عز وجل من أمر أو نهي.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: تأكيد ذم هذا النوع من الأسئلة؛ لقوله تعالى: ﴿**رسولكم**﴾؛ فكأنه أراد أنه لما كان رسولكم، فالذي ينبغي منكم عدم إعناته بالأسئلة.

٣ ـ **ومنها**: أن إرسال محمد ﷺ من مصالحنا، ومنافعنا؛ لقوله تعالى: ﴿**رسولكم**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن كثرة الأسئلة للنبي ﷺ فيها مشابهة لليهود؛ لقوله تعالى: ﴿**كما سئل موسى من قبل**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أنه لا ينبغي إلقاء السؤال إلا لمصلحة: إما رجل وقعت له مسألة يسأل عن حكمها؛ أو طالب علم يتعلم ليستنتج المسائل من أصولها؛ أما الأسئلة لمجرد استظهار ما عند الإنسان فقط؛ أو أقبح من ذلك من يستظهر ما عند الإنسان ليضرب آراء العلماء بعضها ببعض، وما أشبه ذلك؛ أو لأجل إعنات المسؤول، وإحراجه؛ فكل هذا من الأشياء المذمومة التي لا تنبغي.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: ذم بني إسرائيل الذين أرسل إليهم موسى ﷺ، حيث إن الله سبحانه وتعالى ذكرهم في هذه الآية على سبيل الذم.

٧ ـ **ومنها**: أن اليهود كانوا سألوا موسى عن أشياء فكانت العاقبة فيها وخيمة: فقد سألوا عن أشياء بينت لهم؛ لكنهم لم يعملوا بها؛ فكانت نتيجة السؤال الخيبة.

٨ ـ **ومنها**: إثبات رسالة موسى ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿**كما سئل موسى من قبل**﴾ يعني: وهو رسول.

٩ ـ **ومنها**: ذم من استبدل الكفر بالإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل**﴾؛ وهذا يشمل من بقي على كفره بعد عرض الإيمان عليه، ومن ارتد بعد إيمانه؛ فإنه في الحقيقة تبديل؛ لأن كل مولود يولد على الفطرة؛ فإذا كفر فقد تبدل الكفر بالإيمان.

١٠ ـ **ومنها**: أن من اختار الكفر على الإيمان فهو ضال.

١١ ـ **ومنها**: عكس هذه المسألة: أن من يتبدل الإيمان بالكفر فقد هُدي إلى سواء السبيل.

١٢ ـ **ومنها**: الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان ليس له إرادة في عمله، وأنه مجبر عليه؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن يتبدل الكفر بالإيمان**﴾.

١٣ ـ **ومنها**: أنه يجب على السائل أن يعمل بما أجيب به؛ لأنه إذا علم ولم يعمل فقد تبدل الكفر بالإيمان من بعد ما تبين له أنكر؛ فالواجب على المرء إذا سأل من يثق به أن يعمل بقوله؛ ولهذا قال العلماء: ومن سأل مفتياً ملتزماً بقوله حرم عليه أن يسأل غيره؛ لأنه حين سأله كان يعتقد أن الذي يقوله هو الشرع؛ فإذا كان يعتقد هذا فلا يسأل غيره؛ نعم، إذا سأل إنساناً يثق به بناءً على أن فتواه هو الشرع، وأفتاه، ولكنه سمع في مجلس عالم آخر حكماً نقيض الذي أُفتي به مدعَّماً بالأدلة، فحينئذ له أن ينتقل؛ بل يجب عليه؛ أو سأل عالماً مقتنعاً بقوله للضرورة ـ لأنه ليس عنده في البلد أعلم منه ـ على نية أنه إذا وجد أعلم منه سأله؛ فهذا أيضاً يجوز أن يسأل غيره إذا وجد أعلم منه.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾.

التفسير:

﴿١٠٩﴾ قوله تعالى: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً﴾؛ ﴿ود﴾ بمعنى أحب؛ بل إن «**الود**» خالص المحبة؛ والمعنى: أن كثيراً من أهل الكتاب يودون بكل قلوبهم أن يردوكم كفاراً؛ أي يرجعوكم كفاراً؛ وعلى هذا فـ﴿يردونكم﴾ تنصب مفعولين؛ الأول: الكاف في ﴿يردونكم﴾؛ والثاني: ﴿كفاراً﴾؛ و﴿أهل الكتاب﴾ هم اليهود، والنصارى؛ والمراد بـ﴿الكتاب﴾ التوراة، والإنجيل؛ و﴿لو﴾ هنا مصدرية؛ وضابطها أن تقع بعد «ود» ونحوها؛ و﴿من بعد إيمانكم﴾ أي من بعد أن ثبت الإيمان في قلوبكم.

قوله تعالى: ﴿حسداً﴾ مفعول لأجله عامله: ﴿ود﴾؛ أي ودوا من أجل الحسد؛ يعني هذا الود لا لشيء سوى الحسد؛ لأن ما أنتم عليه نعمة عظيمة؛ وهؤلاء الكفار أعداء؛ والعدو يحسد عدوه على ما حصل له من نعمة الله؛ و«**الحسد**» تمني زوال نعمة الله على الغير سواء تمنى أن تكون له، أو لغيره، أو لا لأحد؛ فمن تمنى ذلك فهو الحاسد؛ وقيل: «**الحسد**» كراهة نعمة الله على الغير.

قوله تعالى: ﴿من عند أنفسهم﴾ أي هذه المودة التي يودونها ليست لله، ولا من الله؛ ولكن من عند أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿**من بعد ما تبين**﴾ أي من بعد ما ظهر ﴿**لهم**﴾ أي لهؤلاء الكثيرين؛ ﴿**الحق**﴾ أي ما أنتم عليه من الحق؛ و«**الحق**» هو الشيء الثابت؛ فإن وصف به الحكم فالمراد به العدل؛ وإن وصف به الخبر فالمراد به الصدق؛ فـ﴿**الحق**﴾ الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام؛ ودين الإسلام على هذا؛ وما جاء به الرسول ﷺ على هذا؛ فإن أخباره صدق، وأحكامه عدل.

قوله تعالى: ﴿**فاعفوا واصفحوا**﴾: الخطاب للمؤمنين عامة؛ ويدخل فيهم الرسول ﷺ؛ و«**العفو**» بمعنى ترك المؤاخذة على الذنب؛ كأنه من عفا الأثر: إذا زال لتقادمه؛ و﴿**اصفحوا**﴾: قيل: إنه من باب عطف المترادفين، كقول الشاعر:

فألفى قولها كذباً ومِيناً

و«الكذب» و«المين» معناهما واحد؛ ولكن الصواب أن بين «**العفو**»، و«**الصفح**» فرقاً؛ فـ«**العفو**» ترك المؤاخذة على الذنب؛ و«**الصفح**» الإعراض عنه؛ مأخوذ من صفحة العنق؛ وهو أن الإنسان يلتفت، ولا كأن شيئاً صار ـ يوليه صفحة عنقه ـ؛ فـ«**الصفح**» معناه الإعراض عن هذا بالكلية وكأنه لم يكن؛ فعلى هذا يكون بينهما فرق؛ فـ«**الصفح**» أكمل إذا اقترن بـ«**العفو**».

قوله تعالى: ﴿**حتى يأتي الله بأمره**﴾ أي بأمر سوى ذلك؛ وهو الأمر بالقتال.

قوله تعالى: ﴿**إن الله على كل شيء قدير**﴾ أي لا يعتريه عجز في كل شيء فعله.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: بيان شدة عداوة اليهود، والنصارى

للأمة الإسلامية؛ وجه ذلك أن كثيراً منهم يودون أن يردوا المسلمين كفاراً حسداً من عند أنفسهم.

٢ ـ **ومنها**: أن الكفر بعد الإسلام يسمى ردة؛ لقوله تعالى: ﴿**لو يردونكم**﴾؛ ولهذا الذي يكفر بعد الإسلام لا يسمى باسم الدين الذي ارتد إليه؛ فلو ارتد عن الإسلام إلى اليهودية، أو النصرانية لم يعط حكم اليهود، والنصارى.

٣ ـ **ومنها**: أن الحسد من صفات اليهود، والنصارى.

٤ ـ **ومنها**: تحريم الحسد؛ لأن مشابهة الكفار بأخلاقهم محرمة؛ لقول النبي ﷺ: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[1]؛ واعلم أن الواجب على المرء إذا رأى أن الله أنعم على غيره نعمة أن يسأل الله من فضله، ولا يكره ما أنعم الله به على الآخرين، أو يتمنى زواله؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله**﴾ [النساء: ٣٢]؛ والحاسد لا يزداد بحسده إلا ناراً تتلظى في جوفه؛ وكلما ازدادت نعمة الله على عباده ازداد حسرة؛ فهو مع كونه كارهاً لنعمة الله على هذا الغير مضاد لله في حكمه؛ لأنه يكره أن ينعم الله على هذا المحسود؛ ثم إن الحاسد

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٥٠، حديث رقم ٥١١٤، وأخرجه أبو داود ص١٥١٨، كتاب اللباس، باب ٤: في لبس الشهرة، حديث رقم ٤٠٣١، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب السير، باب ٧٩: ما قالوا فيما ذكر من الرماح واتخاذها، حديث رقم ٣٣٠٠٦، قال الحافظ في الفتح ١٠/ ٢٧١: أخرجه أبو داود بسند حسن؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح ٢/ ٥٠٤، وقال في الإرواء: صحيح ٥/ ١٠٩، حديث رقم ١٢٦٩.

ـ أو الحسود ـ مهما أعطاه الله من نعمة لا يرى لله فضلاً فيها؛ لأنه لابد أن يرى في غيره نعمة أكثر مما أنعم الله به عليه، فيحتقر النعمة؛ حتى لو فرضنا أنه تميز بأموال كثيرة، وجاء إنسان تاجر، وكسب مكسباً كبيراً في سلعة معينة تجد هذا الحاسد يحسده على هذا المكسب بينما عنده ملايين كثيرة؛ وكذلك أيضاً بالنسبة للعلم: بعض الحاسدين إذا برز أحد في مسألة من مسائل العلم تجده ـ وإن كان أعلم منه ـ يحسده على ما برز به؛ وهذا يستلزم أن يحتقر نعمة الله عليه؛ فالحسد أمره عظيم، وعاقبته وخيمة؛ والناس في خير، والحسود في شر: يتتبع نعم الله على العباد؛ وكلما رأى نعمة صارت جمرة في قلبه؛ ولو لم يكن من خُلُق الحسد إلا أنه من صفات اليهود لكان كافياً في النفور منه.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: علم اليهود، والنصارى أن الإسلام منقبة عظيمة لمتبعه؛ لقوله تعالى: ﴿**حسداً**﴾؛ لأن الإنسان لا يحسد إلا على شيء يكون خيراً، ومنقبة؛ ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿**ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم**﴾ [البقرة: ١٠٥].

٦ ـ **ومنها**: وجوب الحذر من اليهود، والنصارى؛ ما دام كثير منهم يودون لنا هذا فإنه يجب علينا أن نحذر منهم.

٧ ـ **ومنها**: بيان خبث طوية هؤلاء الذين يودون لنا الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿**من عند أنفسهم**﴾؛ ليس من كتاب، ولا من إساءة المسلمين إليهم؛ ولكنه من عند أنفسهم: أنفس خبيثة تود الكفر للمسلمين حسداً.

٨ ـ **ومنها**: أن هؤلاء الذين يودون الكفر للمسلمين قد تبين

لهم الحق؛ فلو كانوا جاهلين بأن المسلمين على حق، وقالوا: «لا نريد أن نكون على دين مشكوك فيه» لكان لهم بعض العذر؛ ولكنهم قد تبين لهم الحق، وعلموا أن الرسول ﷺ حق، وأن دينه حق، وأن المؤمنين على حق؛ ومع ذلك فهم يودون هذه المودة، ويسعون بكل سبيل أن يصلوا إلى غايتهم؛ فمن أحب شيئاً سعى في تحصيله؛ فكثير من هؤلاء اليهود والنصارى يسعون بكل ما يستطيعون من قوة مادية، أو أخلاقية، أو غيرهما ليردوا المسلمين بعد الإيمان كفاراً.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: مراعاة الأحوال، وتطور الشريعة، حيث قال تعالى: ﴿**فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: أن الذم إنما يقع على من تبين له الحق؛ وأما الجاهل فهو معذور بجهله إذا لم يقصر في طلب العلم.

١١ ـ **ومنها**: جواز مهادنة الكفار إذا لم يكن للمسلمين قوة.

١٢ ـ **ومنها**: إثبات الحكمة لله عز وجل، حيث أمر بالعفو، والصفح إلى أن يأتي الله بأمره؛ لأن الأمر بالقتال قبل وجود أسبابه، وتوفر شروطه من القوة المادية والبشرية، ينافي الحكمة.

١٣ ـ **ومنها**: الرد على منكري قيام الأفعال الاختيارية بالله عز وجل؛ والذي عليه أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه وتعالى فعال لما يريد فعلاً يليق بجلاله وعظمته، وما تقتضيه حكمته؛ لقوله تعالى: ﴿**حتى يأتي الله بأمره**﴾.

١٤ ـ **ومنها**: ثبوت القدرة لله عز وجل، وأنها شاملة لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الله على كل شيء قدير**﴾.

١٥ ـ **ومنها**: الرد على المعتزلة القدرية؛ لأنهم يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله؛ وإذا كان مستقلاً بعمله لزم من ذلك أن الله لا يقدر على تغييره؛ لأنه إن قدر على تغييره صار العبد غير مستقل.

١٦ ـ **ومنها**: بشارة المؤمنين بأن الله سبحانه وتعالى سيغير حالهم المقتضية للعفو والصفح، إلى قوة يستطيعون بها جهاد العدو.

١٧ ـ **ومنها**: اتباع الحكمة في الدعوة إلى الله بالصبر، والمصابرة حتى يتحقق النصر، وأنْ تعامَل كل حال بما يناسبها.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾.

التفسير:

﴿١١٠﴾ قوله تعالى: ﴿**وأقيموا الصلاة**﴾ يعني أدوا الصلاة على وجه الكمال؛ لأن إقامة الشيء جعله قيماً معتدلاً مستقيماً؛ فمعنى ﴿**أقيموا الصلاة**﴾ أي ائتوا بها كاملة بشروطها، وواجباتها، وأركانها، ومكملاتها.

قوله تعالى: ﴿**وآتوا الزكاة**﴾ أي أعطوها؛ وهنا حذف المفعول الثاني؛ والتقدير: وآتوا الزكاة مستحقيها؛ و﴿**الزكاة**﴾ المفعول الأول؛ ومستحقوها قد بينهم الله في سورة براءة في قوله تعالى: ﴿**إنما الصدقات للفقراء...**﴾ إلخ [التوبة: ٦٠].

و«الزكاة» في اللغة النماء، والزيادة؛ ومنه قولهم: «زكا الزرع» إذا نما، وزاد؛ وفي الشرع هي دفع مال مخصوص لطائفة مخصوصة تعبداً لله عز وجل؛ وسميت زكاة؛ لأنها تزكي الإنسان، كما قال الله تعالى: ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ فهي تزكي الإنسان في أخلاقه، وعقيدته، وتطهره من الرذائل؛ لأنها تخرجه من حظيرة البخلاء إلى حظيرة الأجواد، والكرماء؛ وتكفِّر سيئاته.

قوله تعالى: ﴿**وما تقدموا لأنفسكم**﴾؛ ﴿**ما**﴾ شرطية؛ لأنها جزمت فعل الشرط، وجوابه.

قوله تعالى: ﴿**من خير**﴾ يشمل ما يقدمه من المال، والأعمال؛ وهو بيان للمبهم في اسم الشرط.

قوله تعالى: ﴿**تجدوه عند الله**﴾ أي تلقونه عند الله يوم القيامة مدخراً لكم: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كما قال تعالى: ﴿**مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء**﴾ [البقرة: ٢٦١].

قوله تعالى: ﴿**إن الله بما تعملون بصير**﴾؛ هذه الجملة مؤكدة بـ﴿**إن**﴾ مع أن الخطاب ابتدائي؛ إذ إنه لم يوجه إلى متردد، ولا منكر؛ والخطاب إذا لم يوجه لمنكر، ولا متردد فإنه يسمى ابتدائياً؛ والابتدائي لا يؤكد؛ لأنه لا حاجة لذلك؛ ولكنه قد يؤكد لا باعتبار حال المخاطب؛ لكن باعتبار أهمية مدلوله؛ فهنا له أهمية عظيمة: أن الله سبحانه وتعالى يخبرنا أنه بكل ما نعمل بصير؛ و﴿**ما**﴾ اسم موصول يفيد العموم؛ أي بما نعمل قلبياً،

وبدنياً؛ قولياً، وفعلياً؛ لأن القلوب لها أعمال كالمحبة، والخوف، والرجاء، والرغبة، وما أشبه ذلك؛ و﴿بما تعملون﴾ متعلقة بـ﴿بصير﴾؛ وقدمت عليها لغرضين؛ الأول: مراعاة الفواصل؛ لأن التي قبلها فاصلة بالراء: ﴿قدير﴾، وبعدها: ﴿بصير﴾؛ والثاني: من أجل الحصر؛ والحصر هنا وإن كان يقلل من العموم لكنه يفيد الترهيب والترغيب؛ لأنه إذا قيل: أيهما أعظم في التهديد أو الترغيب، أن نقول: إن الله بصير بكل شيء مما نعمل، ومما لا نعمل؛ أو أنه بصير بما نعمل فقط؟

فالجواب: أن الأول أعم؛ والثاني أبلغ في التهديد، أو الترغيب؛ وهو المناسب هنا؛ كأنه يقول: لو لم يكن الله بصيراً إلا بأعمالكم فإنه كاف في ردعكم، وامتثالكم؛ و﴿بصير﴾ ليس من البصر الذي هو الرؤية؛ لكن من البصر الذي بمعنى العلم؛ لأنه أشمل حيث يعم العمل القلبي، والبدني؛ والعمل القلبي لا يدرك بالرؤية.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: وجوب إقامة الصلاة؛ والصلاة تشمل الفريضة والنافلة؛ ومن إقامة الفرائض كثرة النوافل؛ لأنه جاء في الحديث[1] أن النوافل تكمل بها الفرائض يوم القيامة؛ ما من إنسان إلا وفي فريضته نقص؛ لكن هذه النوافل تكملها، وترقعها.

٢ ـ **ومنها**: وجوب إيتاء الزكاة ـ يعني لمستحقيها ـ.

---

(١) كما في سنن أبي داود في الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه»، من حديث أنس بن حكيم حديث رقم (٨٦٤). والترمذي باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة حديث رقم (٤١٣)، والنسائي في الصلاة. باب المحاسبة على الصلاة.

٣ ـ **ومنها**: أن الصلاة أوكد من الزكاة؛ ولهذا يقدمها الله عليها في الذكر.

٤ ـ **ومنها**: أن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة من أسباب النصر؛ لأن الله ذكرها بعد قوله: **﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾** [البقرة: ١٠٩]؛ وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى: **﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز * الذين إن مكنَّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾** [الحج: ٤٠، ٤١].

٥ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان أن يتشاغل بالأهم فالأهم مع الدعوة إلى الله عز وجل.

٦ ـ **ومنها**: أن كل خير يقدمه العبد لربه عز وجل فإنه سيجد ثوابه عنده.

٧ ـ **ومنها**: أن الثواب عام لجميع الأعمال صغيرها، وكبيرها؛ لقوله تعالى: **﴿من خير﴾**؛ فإنها نكرة في سياق الشرط؛ فتفيد العموم؛ فأيّ خير قدمته قليلاً كان، أو كثيراً ستجد ثوابه؛ قال الرسول ﷺ: **«اتقوا النار ولو بشق تمرة»**[1].

٨ ـ **ومنها**: الترغيب في فعل الخير، حيث إن الإنسان يجد ثوابه عند ربه مدخراً له ـ وهو أحوج ما يكون إليه ـ.

٩ ـ **ومنها**: أن الإنسان إذا قدم خيراً فإنما يقدمه لنفسه؛ لقوله تعالى: **﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير﴾**؛ ولهذا ليس له من ماله إلا ما أنفق لله؛ وما أخره فلوارثه.

---

(١) أخرجه البخاري، ص١١١، كتاب الزكاة، باب ١٠: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»، حديث رقم ١٤١٧، وأخرجه مسلم ص٨٣٨، كتاب الزكاة، باب ٢٠: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة...، حديث رقم ٢٣٤٨ [٦٧] ١٠١٦.

١٠ ـ **ومنها**: عموم علم الله سبحانه وتعالى بكل ما نعمل.

١١ ـ **ومنها**: التحذير من المخالفة؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الله بما تعملون بصير**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾.

التفسير:

﴿١١١﴾ قوله تعالى: ﴿**وقالوا**﴾ أي اليهود، والنصارى؛ ﴿**لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً**﴾: هذا قول اليهود؛ ﴿**أو نصارى**﴾: هذا قول النصارى.

قوله تعالى: ﴿**تلك أمانيهم**﴾ أي تلك المقالة؛ و﴿**أمانيهم**﴾ جمع أمنية؛ وهي ما يتمناه الإنسان بدون سبب يصل به إليه.

قوله تعالى: ﴿**قل**﴾ أي يا محمد؛ ﴿**هاتوا**﴾: فعل أمر؛ لأن ما دل على الطلب، ولحقته العلامة فهو فعل أمر؛ يقال: «هاتي» للمرأة؛ «هاتيا» للاثنين؛ والأمر هنا للتحدي، والتعجيز؛ ﴿**برهانكم**﴾ أي دليلكم؛ مِن «برهن على الشيء»: إذا بينه؛ أو من «بَرَه الشيء»: إذا وضح بالعلامة؛ فعلى الأول تكون النون أصلية؛ وعلى الثاني تكون النون زائدة؛ وعلى القولين جميعاً فـ«**البرهان**» هو الذي يتبين به حجة الخصم؛ يعني ما نقبل كلامكم إلا إذا أقمتم عليه الدليل؛ فإذا أقمتم عليه الدليل فهو على العين، والرأس.

قوله تعالى: ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ يعني أن هذا أمر لا يمكن

وقوعه؛ فهو تحدٍّ، كقوله تعالى: ﴿**فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم**﴾ [البقرة: ٩٤، ٩٥]؛ فإذا كانوا صادقين في زعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، أو نصارى فليأتوا بالبرهان؛ ولن يأتوا به؛ إذاً يكونون كاذبين.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: بيان ما كان عليه اليهود، والنصارى من الإعجاب بما هم عليه من الدين.

٢ ـ **ومنها**: تعصب اليهود، والنصارى؛ وتحجيرهم لفضل الله.

٣ ـ **ومنها**: أن ما ادعوه كذب؛ لقوله تعالى: ﴿**تلك أمانيهم**﴾؛ فعلى قول هؤلاء اليهود يكون النصارى، والمسلمون لن يدخلوا الجنة؛ وقد سبق أن قالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ثم تخلفوننا فيها؛ وعلى قول النصارى لا يدخل اليهود، ولا المسلمون الجنة؛ أما اليهود فصحيح: فإنهم كفروا بعيسى، وبمحمد؛ ومن كفر بهما فإنه لن يدخل الجنة؛ وأما بالنسبة للمسلمين فغير صحيح؛ بل المسلمون هم أهل الجنة؛ وأما اليهود والنصارى الذين لم يتبعوا رسول الله ﷺ فهم أهل النار؛ لقول النبي ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بما أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[1]؛ فالحاصل أن هذا القول ـ وهو قولهم: **لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى** ـ كذب من الطرفين؛

---

(١) أخرجه مسلم ص٧٥٣، كتاب الإيمان، باب ٧٠: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس...، حديث رقم ٣٨٦ [٢٤٠] ١٥٣.

ولهذا قال تعالى: ﴿**تلك أمانيهم**﴾؛ وقال النبي ﷺ: «**الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**»[(١)].

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن من اغتر بالأماني، وطمع في المنازل العالية بدون عمل لها ففيه شَبه من اليهود، والنصارى.

٥ ـ **ومنها**: عدل الله عز وجل في مخاطبة عباده، حيث قال تعالى: ﴿**قل هاتوا برهانكم**﴾؛ لأن هذا من باب مراعاة الخصم، وأنه إن كان لكم بينة فهاتوها؛ وهذا لا شك من أبلغ ما يكون من العدل؛ وإلا فالحكم لله العلي الكبير.

٦ ـ **ومنها**: أن هؤلاء لا برهان لهم على ما ادعَوه بدليل أنهم لم يأتوا به.

٧ ـ **ومنها**: أنهم كاذبون؛ لقوله تعالى: ﴿**إن كنتم صادقين**﴾؛ ولو كان لهم أدنى حيلة بما يبرر قولهم، ويصدِّقه لأتوا بها.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٢٤، حديث رقم ١٧٢٥٣، وأخرجه الترمذي ص١٨٩٩، كتاب صفة القيامة، باب ٢٥: حديث الكيس من دان نفسه...، حديث رقم ٢٤٥٩؛ وأخرجه ابن ماجه ص٢٧٣٥، كتاب الزهد، باب ٣١: ذكر الموت والاستعداد له، حديث رقم ٤٢٦٠، وأخرجه الحاكم في مستدركه ١/ ٥٧ و٤/ ٢٥١؛ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد؛ وقال الذهبي في ذيل المستدرك (١/ ٥٧): أبو بكر واهٍ، وقال في ذيل المستدرك ٤/ ٢٥١: «صحيح» اهـ؛ وقال الألباني: «ضعيف» (ضعيف ابن ماجه ص٣٤٩، حديث رقم ٩٣٠)، فمدار الحديث على أبي بكر بن أبي مريم، قال الحافظ في التقريب: «ضعيف» تحرير التقريب ٤/ ١٥٨.

القرآن

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

التفسير:

﴿١١٢﴾ قوله تعالى: ﴿بلى﴾: هذا إبطال للنفي في قولهم: ﴿لن يدخل...﴾ إلخ؛ وإن كان بعض المفسرين يقول: إن ﴿بلى﴾ هنا بمعنى «بل»؛ ولكن نقول: ﴿بلى﴾ هنا حرف جواب تفيد إبطال النفي؛ يعني لما قالوا: ﴿لن يدخل الجنة...﴾ إلخ قال الله تعالى: ﴿بلى﴾ أي يدخل الجنة من ليس هوداً، أو نصارى؛ وبينه بقوله تعالى: ﴿من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره﴾؛ ﴿من﴾ شرطية؛ وهي مبتدأ؛ وجواب الشرط قوله تعالى: ﴿فله أجره﴾؛ والمراد بـ«الوجه» القصد، والنية، والإرادة؛ «أسلمه لله» أي جعل اتجاهه، وقصده، وإرادته خالصاً لله عز وجل؛ وعبر بـ«الوجه» لأنه الذي يدل على قصد الإنسان؛ ولهذا يقال: أين كان وجه فلان؟ يعني: أين كان قصده، واتجاهه.

وقوله تعالى: ﴿وهو محسن﴾: الجملة في محل نصب على الحال من فاعل ﴿أسلم﴾؛ يعني: أسلم والحال أنه محسن ـ أي متبع لشريعة الله ظاهراً، وباطناً ـ.

قوله تعالى: ﴿فله أجره﴾ أي ثوابه؛ وشبَّهه بالأجر؛ لأن الله التزم به للعامل.

قوله تعالى: ﴿عند ربه﴾: أضاف العندية إليه لفائدتين:

الفائدة الأولى: أنه عظيم؛ لأن المضاف إلى العظيم عظيم؛ ولهذا جاء في حديث أبي بكر الذي علمه الرسولُ ﷺ إياه أنه

قال: «**فاغفر لي مغفرة من عندك**»[(١)].

والفائدة الثانية: أن هذا محفوظ غاية الحفظ، ولن يضيع؛ لأنك لا يمكن أن تجد أحداً أحفظ من الله؛ إذاً فلن يضيع هذا العمل؛ لأنه في أمان غاية الأمان.

وأضافه إلى وصف الربوبية ليبين كمال عناية الله بالعامل، وإثابته عليه؛ فالربوبية هنا من الربوبية الخاصة.

قوله تعالى: ﴿**ولا خوف عليهم**﴾ أي فيما يستقبل من أمرهم ﴿**ولا هم يحزنون**﴾ أي فيما مضى من أمرهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن أهل الجنة هم الذين جمعوا بين وصفين؛ **الأول**: الإخلاص لله؛ لقوله تعالى: ﴿**من أسلم وجهه لله**﴾؛ **والثاني**: اتباع شرعه؛ لقوله تعالى: ﴿**وهو محسن**﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن إخلاص النية وحده لا يكفي في تبرير التعبد لله؛ لقوله تعالى: ﴿**وهو محسن**﴾؛ وعلى هذا فمن قال: إنه يحب الله، ويخلص له وهو منحرف في عبادته فإنه لا يدخل في هذه الآية لاختلال شرط الإحسان.

ويتفرع على هذه الفائدة أن أهل البدع لا ثواب لهم على بدعهم ـ ولو مع حسن النية ـ؛ لعدم الإحسان الذي هو المتابعة؛ والأجر مشروط بأمرين: **الأول**: إسلام الوجه لله؛ **والثاني**: الإحسان.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: الدلالة على الشرطين الأساسيين في

---

(١) أخرجه البخاري ص٦٦، كتاب الأذان، باب ١٤٩: الدعاء قبل السلام، حديث رقم ٨٣٤، وأخرجه مسلم ص١١٤٨، كتاب الذكر والدعوات، باب ١٤: الدعوات والتعوذ، حديث رقم ٦٨٦٩ [٤٨] ٢٧٠٥.

العبادة؛ وهما الإخلاص؛ والمتابعة للرسول ﷺ.

٤ ـ **ومنها**: ثبوت الأجر في الآخرة، وأن العمل لن يضيع؛ لقوله تعالى: ﴿**فله أجره عند ربه**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن الجزاء من جنس العمل.

٦ ـ **ومنها**: عظم الثواب؛ لإضافته إلى الله في قوله تعالى: ﴿**عند ربه**﴾.

٧ ـ **ومنها**: انتفاء الخوف، والحزن لمن تعبد لله سبحانه وتعالى بهذين الوصفين؛ وهما الإخلاص والمتابعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾ [الأنعام: ٨٢].

٨ ـ **ومنها**: حسن عاقبة المؤمنين بانتفاء الخوف، والحزن عنهم؛ وغير المؤمنين تُملأ قلوبهم رعباً، وحزناً؛ قال تعالى: ﴿**وتقطعت بهم الأسباب**﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿**كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار**﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿**وأنذرهم يوم الحسرة**﴾ [مريم: ٣٩] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تحسر هؤلاء الذين لم يهتدوا إلى صراط الحميد.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: الحث على الإخلاص لله سبحانه وتعالى في العبادة، واتباع الشرع فيها؛ لأن الله إنما أخبرنا بهذا الثواب لمن أخلص، واتبع الشريعة من أجل أن نقوم بذلك؛ وليس لمجرد الخبر؛ وهكذا يقال في كل ما أخبر الله به من ثواب على طاعة، أو عقاب على معصية؛ فإنه إنما يراد به الحث على الطاعة، والزجر عن المعصية.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

التفسير:

﴿١١٣﴾ قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ يعني على شيء من الدين.

قوله تعالى: ﴿وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ يعني على شيء من الدين.

وإنما قالت اليهود ذلك؛ لأنهم يكفرون بعيسى، ولا يرون شريعته ديناً؛ وقالت النصارى: ﴿ليست اليهود على شيء﴾؛ لأنهم يرون أن الدين الحق ما كانوا عليه، واليهود قد كفروا به؛ أما عن دعوى اليهود فإنها باطلة على كل تقدير؛ لأن النصارى بلا شك على دين قبل بعثة النبي ﷺ؛ وأما دعوى النصارى في اليهود فحق؛ لأن دينهم نسخ بما جاء به عيسى؛ إذ إنهم يجب عليهم أن يؤمنوا بعيسى؛ فإذا كذبوه لم يكونوا على شيء من الدين؛ بل هم كفار.

قوله تعالى: ﴿وهم يتلون الكتاب﴾: الجملة هذه حالية؛ والضمير ﴿هم﴾ يعود على اليهود، والنصارى؛ يعني: والحال أن هؤلاء المدعين كلهم ﴿يتلون الكتاب﴾ يعني يقرؤونه؛ والمراد بـ﴿الكتاب﴾ الجنس، فيشمل التوراة، والإنجيل؛ و«كتاب» فعال بمعنى مفعول؛ لأن الكتب المنزلة من السماء تكتب وتُقرأ؛ ولا سيما أن التوراة كتبها الله بيده سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾؛ قال المعربون: إن الكاف في مثل هذا التعبير اسم بمعنى «مثل»، وأنها منصوبة على المفعولية المطلقة؛ وأن «ذلك» اسم إشارة يشير إلى المصدر؛ أي مثلَ ذلك القول قال: ﴿الذين لا يعلمون﴾؛ يعني: الذين لم يقرؤوا كتاباً؛ وكلمة ﴿مثل قولهم﴾ تأكيد لـ﴿كذلك﴾؛ قالوا: لأن العامل الواحد لا ينصب معمولين بمعنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿الذين لا يعلمون﴾؛ قال بعض المفسرين: المراد بهم كفار قريش ـ أهل الجاهلية ـ؛ فإنهم قالوا: إن محمداً ﷺ ليس على دين، وليس على شيء؛ وقال بعض المفسرين: إنهم أمم سابقة؛ وقال بعض المفسرين: إنهم طوائف من اليهود، والنصارى؛ يعني أن الذين يتلون الكتاب من اليهود، والنصارى قالوا مثل قول الذين لا يعلمون منهم؛ فاستوى قول عالمهم، وجاهلهم؛ والأحسن أن يقال: إن الآية عامة ـ مثل ما اختاره ابن جرير، وغيره ـ؛ والقاعدة أن النص من الكتاب، والسنة إذا كان يحتمل معنيين لا منافاة بينهما، ولا يترجح أحدهما على الآخر فإنه يحمل على المعنيين جميعاً؛ لأنه أعم في المعنى؛ وهذا من سعة كلام الله عز وجل، وكلام رسوله ﷺ، وشمول معناهما؛ وهذه قاعدة مهمة ينبغي أن يحتفظ بها الإنسان.

قوله تعالى: ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة﴾؛ الفاء حرف عطف؛ ولفظ الجلالة مبتدأ؛ وجملة: ﴿يحكم﴾ في محل رفع خبر المبتدأ؛ و﴿يحكم﴾ للمستقبل؛ و«الحكم» معناه القضاء، والفصل بين الشيئين؛ والله ـ تبارك وتعالى ـ يوم القيامة يقضي بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون؛ فيبين لصاحب الحق حقه، ويجزيه

به؛ و﴿يوم القيامة﴾ هو اليوم الذي يبعث فيه الناس؛ وسمي بذلك لأمور ثلاثة سبق ذكرها[١].

قوله تعالى: ﴿فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي في الخلاف الواقع بينهم؛ ومعلوم أن هناك خلافاً بين اليهود، والنصارى؛ بل النصارى الآن مختلفون في مللهم بعضهم مع بعض اختلافاً جوهرياً في الأصول؛ واليهود كذلك على خلاف؛ وكذلك المسلمون عامة مع الكفار؛ والذي يحكم بينهم هو الله عز وجل يوم القيامة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الأمم الكافرة يكفِّر بعضها بعضاً؛ فهم أعداء بعضهم لبعض من جهة؛ وأولياء بعضهم لبعض من جهة أخرى: بالنسبة لنا هم بعضهم لبعض وليّ؛ وبالنسبة لما بينهم بعضهم لبعض عدو؛ فالإسلام عدو مشترك لليهودية، والنصرانية، وسائر الكفار؛ فيجب أن يتولى بعضنا بعضاً.

٢ ـ **ومنها**: شدة قبح قول من خالف الحق وهو يعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وهم يتلون الكتاب﴾؛ فهذه الجملة تفيد زيادة القبح فيما قالوه، حيث قالوا ذلك وهم يتلون الكتاب، ويعرفون الحق؛ فالنصارى تتلو التوراة، وتعرف أن اليهود تدين بالتوراة ـ وهم على دين صحيح قبل بعثة عيسى ـ؛ واليهود أيضاً يتلون الإنجيل، ويعرفون أن عيسى حق؛ لكنهم كفروا استكباراً؛ ولا ريب أن الذي ينكر الحق مع العلم به أعظم قبحاً من الذي ينكر الحق مع الجهل به؛ لأن هذا معاند مكابر بخلاف الجاهل، فالجاهل ينكر

---

(١) انظر: ص٢٧٦.

الحق للجهل به؛ ثم إذا تبين له الحق اتبعه إذا كان المانع له من اتباعه الجهل؛ لكن العالم لا عذر له.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿**فالله يحكم بينهم يوم القيامة**﴾؛ والإيمان بيوم القيامة أحد أركان الإيمان الستة؛ ولأهميته يقرنه الله سبحانه وتعالى كثيراً بالإيمان به عز وجل.

٤ ـ **ومنها**: إثبات الحكم لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**فالله يحكم بينهم**﴾؛ وحكم الله سبحانه وتعالى ينقسم إلى ثلاثة أقسام: شرعي، وكوني، وجزائي؛ فالشرعي: مثل قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿**ذلكم حكم الله يحكم بينكم**﴾ [الممتحنة: ١٠]؛ والكوني: مثل قوله تعالى عن أخي يوسف: ﴿**فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين**﴾ [يوسف: ٨٠]؛ والجزائي: مثل هذه الآية: ﴿**فالله يحكم بينهم يوم القيامة**﴾؛ والحكم الجزائي هو ثمرة الحكم الشرعي؛ لأنه مبني عليه: إن خيراً فخير؛ وإن شراً فشر؛ هذا الحكم يوم القيامة بين الناس إما بالعدل؛ أو بالفضل؛ ولا يمكن أن يكون بالظلم؛ لقوله تعالى: ﴿**وما ربك بظلام للعبيد**﴾ [فصلت: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿**ولا يظلم ربك أحداً**﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً**»[1]؛ هذا بالنسبة لحقوق الله؛ أما بالنسبة لحقوق الخلق فيما بينهم فيقضى بينهم بالعدل.

فإذا قال قائل: إذا كان الله تعالى يجزي المؤمنين بالفضل،

---

(١) أخرجه مسلم ص١١٢٩، كتاب البر والصلة، باب ١٥: تحريم الظلم، حديث رقم ٦٥٧٢ [٥٥] ٢٥٧٧.

فما الجواب عن قوله تعالى: ﴿**ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط**﴾ [يونس: ٤]؟

فالجواب: أن هذا هو الذي أوجبه الله على نفسه؛ والفضل زيادة؛ والمقام مقام تحذير.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن هؤلاء الذين اختلفوا في الحق، والباطل، سوف يكون القضاء بينهم يوم القيامة بين يدي الله عز وجل؛ فيجزي صاحب الحق بعمله، ويجزي صاحب الباطل بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿**فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**﴾، وقوله تعالى: ﴿**فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً**﴾ [النساء: ١٤١]؛ ولهذا لا يوجد حكم يبين للخصم أن الحق له دون خصمه إلا في هذا؛ فالقاضي مثلاً لا يقول لأحد الخصمين: «لن يكون لخصمك سبيل عليك» حتى يتبين، ويأتي كلٌّ بحجته؛ لكن هنا بيّن الله أن الكافرين ليس لهم سبيل على المؤمنين؛ لأن الحجة واضحة للجميع.

❁ ❁ ❁

انتهى المجلد الأول من التفسير ويليه المجلد الثاني بإذن الله
وبدايته تفسير الآية ١١٤ من سورة البقرة

الفهرس

الموضوع — الصفحة

- مقدمة اللجنة العلمية ..... - أ -
- مقدمة ٥
- القرآن الكريم ٨
  - نزول القرآن ١٠
  - أول ما نزل من القرآن ١١
  - نزول القرآن ابتدائي وسببي ١٣
    فوائد معرفة أسباب النزول ١٤
    عموم اللفظ وخصوص السبب ١٦
  - المكي والمدني ١٧
    فوائد معرفة المدني والمكي ١٩
    الحكمة من نزول القرآن مفرقاً ٢٠
    ترتيب القرآن ٢١
  - كتابة القرآن وجمعه ٢٣
- التفسير ٢٨
  - الواجب على المسلم في تفسير القرآن ٢٩
  - المرجع في تفسير القرآن ٣٠
  - الاختلاف الوارد في التفسير المأثور ٣٤
  - ترجمة القرآن ٣٥
    حكم ترجمة القرآن ٣٦
  - المشتهرون بالتفسير من الصحابة ٣٨
    علي بن أبي طالب ٣٨
    عبد الله بن مسعود ٣٩
    عبد الله بن عباس ٤١
  - المشتهرون بالتفسير من التابعين ٤٢
    مجاهد ٤٣
    قتادة ٤٣

● القرآن محكم ومتشابه ٤٥
ـ موقف الراسخين في العلم والزائغين من المتشابه ٤٧
ـ أنواع التشابه في القرآن ٤٩
ـ الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه ٥١
● موهم التعارض في القرآن ٥٢
● القسم ٥٥
● القصص ٥٧
ـ تكرار القصص ٥٩
● الإسرائيليات ٦١
ـ موقف العلماء من الإسرائيليات ٦٣
● الضمير ٦٥
ـ الإظهار في موضع الإضمار ٦٧
ـ ضمير الفصل ٦٨
ـ الالتفات ٦٩

*** تفسير القرآن الكريم ***

● **تفسير سورة الفاتحة** ٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. ٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. ١١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾. ١١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. ١٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾. ١٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ١٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. ١٧
● **تفسير سورة البقرة** ٢١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ ٢١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ... ۝٢﴾. ٢٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ... ۝٣﴾ ٣٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ... ۝٤﴾ ٣٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ... ۝٥﴾. ٣١

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ... ﴿٦﴾﴾ ٣٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ... ﴿٧﴾﴾. ٣٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ... ﴿٨﴾﴾. ٣٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟... ﴿٩﴾﴾. ٤٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ... ﴿١٠﴾﴾. ٤٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ... ﴿١١﴾﴾ ٤٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ... ﴿١٢﴾﴾. ٤٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ... ﴿١٣﴾﴾. ٤٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا... ﴿١٤﴾﴾ ٥٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ... ﴿١٥﴾﴾. ٥٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ... ﴿١٦﴾﴾. ٥٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا... ﴿١٧﴾﴾ ٦١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ ... ﴿١٨﴾﴾. ٦٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ... ﴿١٩﴾﴾ ٦٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ... ﴿٢٠﴾﴾. ٦٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ... ﴿٢١﴾﴾. ٧٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً... ﴿٢٢﴾﴾. ... ٧٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ... ﴿٢٣﴾﴾. ٨٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ... ﴿٢٤﴾﴾. ٨٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ... ﴿٢٥﴾﴾. ٨٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا... ﴿٢٦﴾﴾. ٩٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ... ﴿٢٧﴾﴾. ١٠١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا... ﴿٢٨﴾﴾. ١٠٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا... ﴿٢٩﴾﴾ ١٠٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ... ﴿٣٠﴾﴾ ١١١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ... ﴿٣١﴾﴾ ١١٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ... ﴿٣٢﴾﴾. ١١٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ... ﴿٣٣﴾﴾. ١٢٣

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ... ﴿٣٤﴾﴾. ١٢٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ... ﴿٣٥﴾﴾. ١٢٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ... ﴿٣٦﴾﴾. ... ١٣١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ... ﴿٣٧﴾﴾. ١٣٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا... ﴿٣٨﴾﴾. ١٣٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ... ﴿٣٩﴾﴾. ١٤٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ... ﴿٤٠﴾﴾. ١٤٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ... ﴿٤١﴾﴾. ١٤٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ... ﴿٤٢﴾﴾. ١٥٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ... ﴿٤٣﴾﴾. ١٥٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ... ﴿٤٤﴾﴾. ١٥٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ... ﴿٤٥﴾﴾. ١٦٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ... ﴿٤٦﴾﴾. ١٦٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ... ﴿٤٧﴾﴾. ١٦٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا... ﴿٤٨﴾﴾. ١٧٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ... ﴿٤٩﴾﴾. ١٧٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ... ﴿٥٠﴾﴾. ١٧٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً... ﴿٥١﴾﴾ ١٨٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم... ﴿٥٢﴾﴾. ١٨١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ... ﴿٥٣﴾﴾. ١٨٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ... ﴿٥٤﴾﴾. ١٨٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ... ﴿٥٥﴾﴾ ١٩١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ... ﴿٥٦﴾﴾. ١٩٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ... ﴿٥٧﴾﴾. ١٩٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ... ﴿٥٨﴾﴾ ١٩٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا... ﴿٥٩﴾﴾. ١٩٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ... ﴿٦٠﴾﴾. ٢٠٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ... ﴿٦١﴾﴾. ... ٢١٠

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ . . . ﴿٦٢﴾﴾ ٢٢١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ . . . ﴿٦٣﴾﴾ ٢٢٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ . . . ﴿٦٤﴾﴾ ٢٢٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ . . . ﴿٦٥﴾﴾ ٢٢٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا . . . ﴿٦٦﴾﴾ ٢٢٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ . . . ﴿٦٧﴾﴾ ٢٣٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ . . . ﴿٦٨﴾﴾ ٢٣٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا . . . ﴿٦٩﴾﴾ ٢٣٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ . . . ﴿٧٠﴾﴾ ٢٣٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ . . . ﴿٧١﴾﴾ ٢٣٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَءْتُمْ فِيهَا . . . ﴿٧٢﴾﴾ ٢٣٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا . . . ﴿٧٣﴾﴾ ٢٣٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ . . . ﴿٧٤﴾﴾ ٢٤٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ . . . ﴿٧٥﴾﴾ ٢٤٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا . . . ﴿٧٦﴾﴾ ٢٥٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ . . . ﴿٧٧﴾﴾ ٢٥٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ . . . ﴿٧٨﴾﴾ ٢٥٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ . . . ﴿٧٩﴾﴾ ٢٥٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ . . . ﴿٨٠﴾﴾ ٢٦٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ . . . ﴿٨١﴾﴾ .. ٢٦١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ . . . ﴿٨٢﴾﴾ ٢٦٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . . . ﴿٨٣﴾﴾ ٢٦٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ . . . ﴿٨٤﴾﴾ ٢٧٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ . . . ﴿٨٥﴾﴾ ٢٧٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ . . . ﴿٨٦﴾﴾ ٢٧٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ . . . ﴿٨٧﴾﴾ ٢٨٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ . . . ﴿٨٨﴾﴾ ٢٨١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ . . . ﴿٨٩﴾﴾ ٢٨٩

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ... ﴿٩٠﴾﴾. ٢٩٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ... ﴿٩١﴾﴾. ٢٩٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ... ﴿٩٢﴾﴾. ٢٩٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ... ﴿٩٣﴾﴾. ٣٠١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ... ﴿٩٤﴾﴾ ٣٠٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ... ﴿٩٥﴾﴾ ٣٠٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ... ﴿٩٦﴾﴾. ٣٠٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ... ﴿٩٧﴾﴾ ٣١٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ... ﴿٩٨﴾﴾. ٣١٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ... ﴿٩٩﴾﴾. ٣١٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم... ﴿١٠٠﴾﴾ ٣٢١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ... ﴿١٠١﴾﴾. ٣٢٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ... ﴿١٠٢﴾﴾. ٣٢٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟... ﴿١٠٣﴾﴾. ٣٣٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا... ﴿١٠٤﴾﴾. ٣٣٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ... ﴿١٠٥﴾﴾. ٣٣٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ... ﴿١٠٦﴾﴾. ٣٤٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ... ﴿١٠٧﴾﴾. ٣٥٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ... ﴿١٠٨﴾﴾. ٣٥٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ... ﴿١٠٩﴾﴾. ٣٥٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ... ﴿١١٠﴾﴾. ٣٦٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا... ﴿١١١﴾﴾. ٣٦٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ... ﴿١١٢﴾﴾. ٣٦٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ... ﴿١١٣﴾﴾. ٣٧٢
* الفهرس ٣٧٧

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (١)

تفسير القرآن الكريم

سورة البقرة

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الثاني

دار ابن الجوزي
طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير
القرآن الكريم

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد الصالح
تفسير القرآن الكريم.ـ الدمام.
٤٥٦ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك: ٠ ـ ٣١ ـ ٧٦٧ ـ ٩٩٦٠ (مجموعة)
٧ ـ ٣٣ ـ ٧٦٧ ـ ٩٩٦٠ (٢)
١ ـ القرآن ـ تفسير أ ـ العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ٢٣/٠٣٥١

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
إلا لمن أراد طبعه لتوزيعه مجاناً بعد مراجعة
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
رحمه الله تعالى

الطبعة الأولى
صفر ١٤٢٣

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية
الدمام ـ شارع ابن خلدون ـ ت: ٨٤٢٨١٤٦ ـ ٨٤٦٧٥٨٩ ـ ٨٤٦٧٥٩٣
ص.ب: ٢٩٨٢ ـ الرمز البريدي: ٣١٤٦١ ـ فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الإحساء ـ الهفوف ـ شارع الجامعة ـ ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة: ت: ٦٥١٦٥٤٩
الرياض: ت: ٤٢٦٦٣٣٩

القرآن

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

التفسير:

﴿١١٤﴾ قوله تعالى: ﴿**ومن أظلم**﴾: ﴿**من**﴾ اسم استفهام؛ وهي مبتدأ؛ و﴿**أظلم**﴾ خبرها؛ والاستفهام هنا بمعنى النفي؛ يعني لا أحد أظلم؛ والميزان الذي يبيِّن أن الاستفهام بمعنى النفي أنك لو حذفت الاستفهام، وأقمت النفي مقامه لصح؛ والفائدة من تحويل النفي إلى الاستفهام أنه أبلغ في النفي؛ إذ إن الاستفهام الذي بمعنى النفي مشرب معنى التحدي؛ كأنه يقول: بيِّنوا لي أيّ أحد أظلم من كذا وكذا.

وقوله تعالى: ﴿**أظلم**﴾ اسم تفضيل من الظلم؛ وأصله في اللغة النقص؛ وهو أن يفرط الإنسان فيما يجب؛ أو يعتدي فيما يحرم؛ ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿**كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً**﴾ [الكهف: ٣٣] أي لم تنقص؛ وهو في الشرع بهذا المعنى؛ لأن الظلم عبارة عن تفريط في واجب، أو انتهاك لمحرم ـ وهذا نقص ـ.

قوله تعالى: ﴿**ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه**﴾: «**مِن**» حرف جر؛ و﴿**مَن**﴾ اسم موصول؛ أي من الذي منع؛ وأضيفت المساجد إلى الله عز وجل؛ لأنها محل عبادته؛ فتكون الإضافة هنا من باب التشريف.

وقوله تعالى: ﴿مساجد الله﴾ منصوب على أنه مفعول ﴿منع﴾؛ و﴿أن يذكر فيها اسمه﴾ بدل منه.

قوله تعالى: ﴿وسعى في خرابها﴾ معطوف على ﴿منع﴾؛ يعني جمع وصفين: منع المساجد أن يذكر فيها اسمه؛ والسعي في خرابها؛ والخراب هو الفساد، كما قال تعالى: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم﴾ [الحشر: ٢].

قوله تعالى: ﴿أولئك﴾ اسم إشارة يعود إلى الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وسعوا في خرابها؛ ﴿ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ يحتمل ثلاثة معان:

الأول: ما كان ينبغي لهؤلاء أن يدخلوها إلا خائفين فضلاً عن أن يمنعوا عباد الله؛ لأنهم كافرون بالله عز وجل؛ فليس لهم حق أن يدخلوا المساجد إلا خائفين.

الثاني: أن هذا خبر بمعنى النهي؛ يعني: لا تدعوهم يدخلوها ـ إذا ظهرتم عليهم ـ إلا خائفين.

الثالث: أنها بشارة من الله عز وجل أن هؤلاء الذين منعوا المساجد ـ ومنهم المشركون الذين منعوا النبي ﷺ المسجد الحرام ـ ستكون الدولة عليهم، ولا يدخلونها إلا وهم ترجف قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ أي ذل، وعار ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ أي عقوبة عظيمة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن المعاصي تختلف قبحاً؛ لقوله تعالى: ﴿ومن أظلم﴾؛ و﴿أظلم﴾ اسم تفضيل؛ واسم التفضيل يقتضي مفضَّلاً، ومفضَّلاً عليه؛ وكما أن المعاصي تختلف، فكذلك الطاعات تختلف: بعضها أفضل من بعض؛ وإذا كانت الأعمال

تختلف فالعامل نتيجة لها يختلف؛ فبعض الناس أقوى إيماناً من بعض؛ وبهذا نعرف أن القول الصحيح قول أهل السنة، والجماعة في أن الإيمان يزيد، وينقص، والناس يتفاوتون تفاوتاً عظيماً لا في الكسب القلبي، ولا في الكسب البدني: فإن الناس يتفاوتون في اليقين؛ ويتفاوتون في الأعمال الظاهرة من قول أو فعل.

يتفاوتون في اليقين: فإن الإنسان نفسه تتفاوت أحواله بين حين وآخر؛ في بعض الأحيان يصفو ذهنه وقلبه حتى كأنما يشاهد الآخرة رأي عين؛ وفي بعض الأحيان تستولي عليه الغفلة، فيَقِلُّ يقينه؛ ولهذا قال الله تعالى لإبراهيم: ﴿**أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي**﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ وتفاوت الناس في العلم، واليقين أمر معلوم: فلو أتى رجل، وقال: «قدم فلان» ـ والرجل ثقة عندي ـ صار عندي علم بقدومه؛ فإذا جاء آخر، وقال: «قدم فلان» ازداد علمي؛ فإذا جاء الثالث ازداد علمي أكثر؛ فإذا رأيتُه ازداد علمي؛ فالأمور العلمية تتفاوت في إدراك القلوب لها.

أيضاً يتفاوت الناس في الأقوال: فالذي يسبِّح الله عشر مرات أزيد إيماناً ممن يسبِّحه خمس مرات؛ وهذه زيادة كمية الإيمان؛ كذلك يتفاوت الناس في الأعمال من حيث **جنس العمل**: فالمتعبد بالفريضة أزيد إيماناً من المتعبد بالنافلة؛ لقوله تعالى في الحديث القدسي: «**ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه**»[1]؛ فبهذا يكون القول الصواب بلا ريب قول أهل السنة، والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص.

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٤٥ ـ ٥٤٦، كتاب الرقاق، باب ٣٨: التواضع، حديث رقم ٦٥٠٢.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: جواز منع دخول المساجد لمصلحة؛ لقوله تعالى: ﴿**أن يذكر فيها اسمه**﴾؛ ومنع مساجد الله له أسباب؛ فتارة تمنع المساجد من أن تمتهن فرشها، أو أرضها، أو كتبها، أو مصاحفها؛ فتغلَّق الأبواب حماية لها؛ وتارة تغلق أبوابها خوفاً من الفتنة، كما لو اجتمع فيها قوم لإثارة الفتن، والتشويش على العامة؛ فتغلق منعاً لهؤلاء من الاجتماع؛ وتارة تغلق لترميمها، وإصلاحها؛ وتارة تغلق خوفاً من سرقة ما فيها؛ ففي كل هذه الصور إغلاقها مباح، أو مطلوب.

٣ ـ **ومنها**: تحريم منع المساجد من أن يذكر فيها اسم الله سواء كان ذكر الله: صلاة، أو قراءة للقرآن، أو تعليماً للعلم، أو غير ذلك.

وأخذ بعض العلماء من هذه الآية: تحريم التحجر؛ وهو أن يضع شيئاً في الصف، فيمنع غيره من الصلاة فيه، ويخرج من المسجد؛ قالوا: لأن هذا منع المكان الذي تحجره بالمسجد أن يذكر فيه اسم الله؛ لأن هذا المكان أحق الناس به أسبق الناس إليه؛ وهذا قد منع من هو أحق بالمكان منه أن يذكر فيه اسم الله؛ وهذا مأخذ قوي؛ ولا شك أن التحجر حرام: أن الإنسان يضع شيئاً، ويذهب، ويبيع، ويشتري، ويذهب إلى بيته يستمتع بأولاده، وأهله؛ وأما إذا كان الإنسان في نفس المسجد فلا حرج أن يضع ما يحجز به المكان بشرط ألا يتخطى الرقاب عند الوصول إليه، أو تصل إليه الصفوف؛ فيبقى في مكانه؛ لأنه حينئذ يكون قد شغل مكانين.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: شرف المساجد؛ لإضافتها إلى الله؛

لقوله تعالى: ﴿**مساجد الله**﴾؛ والمضاف إلى الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام: إما أن يكون أوصافاً؛ أو أعياناً؛ أو ما يتعلق بأعيان مخلوقة؛ **فإذا كان المضاف إلى الله وصفاً** فهو من صفاته غير مخلوق، مثل كلام الله، وعلم الله؛ **وإذا كان المضاف إلى الله عيناً قائمة بنفسها** فهو مخلوق وليس من صفاته، مثل مساجد الله، وناقة الله، وبيت الله؛ فهذه أعيان قائمة بنفسها إضافتها إلى الله من باب إضافة المخلوق لخالقه على وجه التشريف؛ ولا شيء من المخلوقات يضاف إلى الله عز وجل إلا لسبب خاص به؛ ولولا هذا السبب ما خص بالإضافة؛ **وإذا كان المضاف إلى الله ما يتعلق بأعيان مخلوقة** فهو أيضاً مخلوق؛ وهذا مثل قوله تعالى: ﴿**ونفخت فيه من روحي**﴾ [الحجر: ٢٩]؛ فإن الروح هنا مخلوقة؛ لأنها تتعلق بعين مخلوقة.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن المصلَّيات التي تكون في البيوت، أو الدوائر الحكومية لا يثبت لها هذا الحكم؛ لأنها مصلَّيات خاصة؛ فلا يثبت لها شيء من أحكام المساجد.

٦ ـ **ومنها**: أنه لا يجوز أن يوضع في المساجد ما يكون سبباً للشرك؛ لأن ﴿**مساجد الله**﴾ معناها موضع السجود له؛ فإذا وضع فيها ما يكون سبباً للشرك فقد خرجت عن موضوعها، مثل أن نقبر فيها الموتى؛ فهذا محرم؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك.

٧ ـ **ومنها**: وجوب تطهير المساجد؛ وهذا مأخوذ من إضافتها إلى الله تلك الإضافة القاضية بتشريفها، وتعظيمها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركَّع السجود**﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن الناس فيها سواء؛ لأن الله تعالى أضافها إلى

نفسه: ﴿مساجد الله﴾؛ والناس عباد الله ـ بالنسبة إلى الله في المسجد سواء ـ؛ فكل من أتى إلى هذه المساجد لعبادة الله فإنه لا فرق بينه وبين الآخرين.

وهنا نقول: إن للعالِم الحق أن يتخذ مكاناً يجعله لإلقاء الدرس، وتعليم الناس؛ لكنه إذا أقيمت الصلاة لا يمنع الناس ـ هو، وغيره سواء ـ.

٩ ـ **ومنها**: أن ذكر الله لا بد أن يكون باسمه، فتقول: لا إله إلا الله؛ سبحان الله؛ سبحان ربك رب العزة عما يصفون؛ سبحان ربي العظيم؛ فالذكر باللسان لا يكون إلا باسم الله؛ أما ذكر القلب فيكون ذكراً لله، وذكراً لأسمائه؛ فقد يتأمل الإنسان في قلبه أسماء الله، ويتدبر فيها، ويكون ذكراً للاسم؛ وقد يتأمل في أفعال الله عز وجل، ومخلوقاته، وأحكامه الشرعية.

أما ذكره بالضمير المفرد فبدعة، وليس بذكر، مثل طريقة الصوفية الذين يقولون: أفضل الذكر أن تقول: «هو»، «هو»؛ «هو»، «هو»؛ قالوا: لأنك لا تشاهد إلا الله ـ والعياذ بالله؛ فهم يرون أن أكمل حال الإنسان هو الفناء ـ أي يفنى عن مشاهدة ما سوى الله، بحيث إنه ما شاهد إلا الله؛ ويقولون: ليس بلازم أن تقول: «لا إله إلا الله»: تثبت إلهين: واحد منفي، والثاني مثبت! بل قل: «هو»، «هو»، «هو»؛ فهذا لا شك من البدع؛ وليس ذكراً لله عز وجل؛ بل هو من المنكر.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: تحريم تخريب المساجد؛ لقوله تعالى: ﴿وسعى في خرابها﴾؛ ويشمل الخراب الحسي، والمعنوي؛ لأنه قد يتسلط بعض الناس ـ والعياذ بالله ـ على هدم المساجد حسًّا بالمعاول، والقنابل؛ وقد يخربها معنًى، بحيث

ينشر فيها البدع والخرافات المنافية لوظيفة المساجد.

١١ ـ **ومنها**: البشارة للمؤمنين بأن العاقبة لهم، وأن هؤلاء الذين منعوهم لن يدخلوها إلا وهم خائفون؛ وهذا على أحد الاحتمالات التي ذكرناها.

١٢ ـ **ومنها**: أن عقوبة من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها، الخزي والعار في الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة.

١٣ ـ **ومنها**: أن الذنب إذا كان فيه تعدٍّ على العباد فإن الله قد يجمع لفاعله بين العقوبتين: عقوبة الدنيا، وعقوبة الآخرة؛ عقوبة الدنيا ليشفي قلب المظلوم المعتدى عليه؛ ولا شك أن الإنسان إذا اعتدى عليك، ثم رأيت عقوبة الله فيه أنك تفرح بأن الله سبحانه وتعالى اقتص لك منه؛ أما إذا كان في حق الله فإن الله تعالى لا يجمع عليه بين عقوبتين؛ لقوله تعالى: **﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾** [الشورى: ٣٠].

١٤ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات يوم القيامة؛ لقوله تعالى: **﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾**.

١٥ ـ **ومنها**: أن عذاب الآخرة أعظم من عذاب الدنيا، كما أن نعيم الآخرة أكمل من نعيم الدنيا؛ ولكن الله سبحانه وتعالى يُري عباده نموذجاً من هذا، ومن هذا؛ لأنه لا يستقيم فهم الوعيد، ولا فهم الوعد، إلا بمشاهدة نموذج من ذلك؛ لو كان الله توعد بالنار، ونحن لا ندري ما هي النار، فلا نخاف إلا خوفاً إجمالياً عاماً؛ وكذلك لو وعد بالنعيم والجنة، ولا نعرف نموذجاً من هذا النعيم، لم يكن الوعد به حافزاً للعمل.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

التفسير:

﴿١١٥﴾ قوله تعالى: ﴿**ولله المشرق والمغرب**﴾؛ اللام للاختصاص؛ يعني أن الله سبحانه وتعالى مختص بملك المشرق، والمغرب؛ وأما من سواه فملكه محدود؛ و﴿**المشرق**﴾ مكان الشروق؛ و﴿**المغرب**﴾ مكان الغروب؛ وقد وردت المشرق، والمغرب في القرآن على ثلاثة أوجه: مفردة، ومثناة، وجمع؛ فجاءت مفردة هنا فقال تعالى: ﴿**ولله المشرق والمغرب**﴾؛ وجاءت مثناة في قوله تعالى: ﴿**رب المشرقين ورب المغربين**﴾ [الرحمن: ١٧]، وجمعاً في قوله تعالى: ﴿**فلا أقسم برب المشارق والمغارب**﴾ [المعارج: ٤٠]؛ والجمع بين هذه الأوجه الثلاثة أن نقول: أما «**المشرق**» فلا ينافي «**المشارق**»، ولا «**المشرقين**»؛ لأنه مفرد محلى بـ«**أل**»؛ فهو للجنس الشامل للواحد، والمتعدد؛ وأما ﴿**رب المشرقين ورب المغربين**﴾، و﴿**رب المشارق والمغارب**﴾ فالجمع بينهما أن يقال: إن جمع ﴿**المشارق**﴾، و﴿**المغارب**﴾ باعتبار الشارق، والغارب؛ لأن الشارق، والغارب كثير: الشمس، والقمر، والنجوم؛ كله له مشرق، ومغرب؛ فمن يحصي النجوم! أو باعتبار مشرق كل يوم، ومغربه؛ لأن كل يوم للشمس مشرق، ومغرب؛ وللقمر مشرق، ومغرب؛ وثنَّى باعتبار مشرق الشتاء، ومشرق الصيف؛ فمشرق الشتاء تكون الشمس في أقصى الجنوب؛ ومشرق الصيف في أقصى الشمال؛ وبينهما مسافات عظيمة لا يعلمها إلا الله؛ وسورة «الرحمن» أكثر ما فيها بصيغة التثنية؛

فلذلك كان من المناسب اللفظي أن يذكر المشرق، والمغرب بصيغة التثنية؛ أما عند العظمة فذكرت بالجمع: ﴿**فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون * على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين**﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١]؛ فقوله تعالى: ﴿**ولله المشرق والمغرب**﴾ أي مشرق كل شارق؛ ومغرب كل غارب؛ ويحتمل أن المراد له كل شيء؛ لأن ذكر المشرق والمغرب يعني الإحاطة والشمول.

قوله تعالى: ﴿**فأينما تولوا فثم وجه الله**﴾؛ «**أين**» شرطية؛ و«**ما**» زائدة للتوكيد؛ و﴿**تولوا**﴾ فعل الشرط مضارع مجزوم بأداة الشرط؛ وعلامة جزمه حذف النون؛ وقوله تعالى: ﴿**فثم وجه الله**﴾: الفاء رابطة لجواب الشرط؛ و﴿**ثم**﴾ اسم إشارة يشار به للبعيد؛ وهو ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم؛ ﴿**وجه**﴾ مبتدأ مؤخر؛ والجملة من المبتدأ، وخبره في محل جزم جواب الشرط.

قوله تعالى: ﴿**تولوا**﴾ أي تتجهوا؛ ﴿**فثم**﴾ أي فهناك؛ والإشارة إلى الجهة التي تولوا إليها؛ و﴿**وجه الله**﴾: اختلف فيه المفسرون من السلف، والخلف، فقال بعضهم: المراد به وجه الله الحقيقي؛ وقال بعضهم: المراد به الجهة: ﴿**فثم وجه الله**﴾ يعني: في المكان الذي اتجهتم إليه جهة الله عز وجل؛ وذلك؛ لأن الله محيط بكل شيء؛ ولكن الراجح أن المراد به الوجه الحقيقي؛ لأن ذلك هو الأصل؛ وليس هناك ما يمنعه؛ وقد أخبر النبي ﷺ أن الله تعالى قِبَل وجه المصلي[1]؛ والمصلُّون حسب مكانهم

---

(١) أخرجه البخاري ص٣٥، كتاب الصلاة، باب ٣٣: حك البزاق باليد من المسجد، حديث رقم ٤٠٦، وأخرجه مسلم ص٧٦٣، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ١٣: النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها...، حديث رقم ١٢٢٣ [٥٠] ٥٤٧.

يتجهون؛ فأهل اليمن يتجهون إلى الشمال؛ وأهل الشام إلى الجنوب؛ وأهل المشرق إلى المغرب؛ وأهل المغرب إلى الشرق؛ وكل يتجه جهة؛ لكن الاتجاه الذي يجمعهم الكعبة؛ وكل يتجه إلى وجه الله؛ وعلى هذا يكون معنى الآية: أنكم مهما توجهتم في صلاتكم فإنكم تتجهون إلى الله سواء إلى المشرق، أو إلى المغرب، أو إلى الشمال، أو إلى الجنوب.

قوله تعالى: ﴿**إن الله واسع عليم**﴾؛ «**الواسع**» يعني واسع الإحاطة، وواسع الصفات؛ فهو واسع في علمه، وفي قدرته، وسمعه، وبصره، وغير ذلك من صفاته؛ و﴿**عليم**﴾ أي ذو علم؛ وعلمه محيط بكل شيء.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: انفراد الله بالملك؛ لتقديم الخبر في قوله تعالى: ﴿**ولله المشرق والمغرب**﴾.

٢ ـ **ومنها**: عموم ملك الله؛ لأن المشرق والمغرب يحتويان كل شيء.

٣ ـ **ومنها**: إحاطة الله تعالى بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿**فأينما تولوا فثم وجه الله**﴾.

٤ ـ **ومنها**: عموم ملك الله تعالى للمشرق، والمغرب خلقاً وتقديراً؛ وله أن يوجه عباده إلى ما شاء منهما من مشرق ومغرب؛ فله ملك المشرق والمغرب توجيهاً؛ وقد سبق أن قوله تعالى: ﴿**ما ننسخ من آية أو ننسها...**﴾ [البقرة: ١٠٦] إلى آيات نسخ القبلة كله تمهيد لتحويل القبلة؛ فكأن الله تعالى يقول: لله المشرق والمغرب فإذا شاء جعل اتجاه القبلة إلى المشرق؛ وإذا

شاء جعله إلى المغرب؛ فأينما تولوا فثم وجه الله.

٥ ـ **ومنها**: إثبات الوجه لله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿**فثم وجه الله**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن الله تعالى له مكان لقوله تعالى: ﴿**فثم**﴾؛ لأن «**ثم**» إشارة إلى المكان؛ ولكن مكانه في العلو؛ لا يحيط به شيء من مخلوقاته؛ قال النبي ﷺ للجارية: «**أين الله؟ قالت: في السماء**»[1].

٧ ـ **ومنها**: إبطال بدعتين ضالتين؛ إحداهما بدعة الحلولية القائلين بأن الله تعالى في كل مكان بذاته؛ فإن قول هؤلاء باطل يبطله السمع، والعقل، والفطرة أيضاً؛ الثانية: قول النفاة المعطلة الذين يقولون: إن الله لا داخل العالم، ولا خارجه؛ ولا فوق العالم، ولا تحته؛ ولا يمين العالم، ولا شمال العالم، ولا متصل بالعالم، ولا منفصل عن العالم؛ وهذا القول قال بعض أهل العلم: لو قيل لنا: صفوا لنا العدم ما وجدنا وصفاً أدق من هذا.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: ﴿**واسع**﴾، و﴿**عليم**﴾.

٩ ـ **ومنها**: إثبات سعة الله، وعلمه؛ ونستفيد صفة ثالثة من جمع السعة والعلم؛ للإشارة إلى أن علم الله واسع بمعنى أنه لا يفوته شيء من كل معلوم لا في الأرض، ولا في السماء.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه مسلم ص٧٦١، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ٧: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، حديث رقم ١١٩٩ [٣٣] ٥٣٧.

القرآن

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

التفسير:

﴿١١٦﴾ قوله تعالى: ﴿**وقالوا اتخذ الله ولداً**﴾ أي قالت النصارى، واليهود، والمشركون، اتخذ الله ولداً؛ اليهود قالت: عُزير ابن الله؛ والنصارى قالت: المسيح ابن الله؛ والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله؛ فنزه الله نفسه عن ذلك بقوله تعالى: ﴿**سبحانه**﴾ أي تنزيهاً له أن يكون له ولد؛ لأنه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته؛ وهو سبحانه وتعالى مالك لجميع المخلوقات، كما قال تعالى مبطلاً هذه الدعوى: ﴿**بل له ما في السموات والأرض**﴾؛ ومن له ملك السموات والأرض، لا يحتاج إلى ولد؛ ولأنه لو كان له ولد لكان الولد مماثلاً له؛ والله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء.

قوله تعالى: ﴿**كل له قانتون**﴾ أي كل له خاشع ذليل؛ لأنه مملوك؛ والله ـ تبارك وتعالى ـ هو المالك؛ وهذا من الاستدلال بالعقل على كذب دعوى هؤلاء أن له سبحانه وتعالى ولداً.

﴿١١٧﴾ قوله تعالى: ﴿**بديع**﴾: فعيل بمعنى مُفعل؛ أي مبدع؛ ولها نظير في اللغة العربية، مثل قول الشاعر:

أم الريحانةَ الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

فـ«السميع» بمعنى المسمِع؛ ﴿**بديع السموات والأرض**﴾ أي موجدهما على غير مثال سابق.

قوله تعالى: ﴿**وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**﴾ أي إذا أراد أن يقضي أمراً؛ والفعل يأتي بمعنى إرادته المقارنة له، مثل قوله تعالى: ﴿**فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم**﴾ [النحل: ٩٨] أي إذا أردت قراءته؛ والدليل على تأويل ﴿**قضى**﴾ بمعنى «أراد أن يقضي» هو قوله تعالى في آية أخرى: ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**﴾ [يس: ٨٢]؛ على أنه يصلح أن يكون ﴿**إذا قضى أمراً...**﴾ بمعنى إذا فعل شيئاً فإنما يقول تعالى له عند فعله: ﴿**كن فيكون**﴾؛ يعني أن فعله سبحانه وتعالى للشيء يكون بعد قوله عز وجل: ﴿**كن**﴾ من غير تأخر؛ لأنه ليس أمراً شاقاً عليه؛ و﴿**أمراً**﴾ واحد الأمور؛ يعني الشؤون؛ أي إذا قضى شأناً من شؤونه سبحانه وتعالى فإن ذلك لا يصعب عليه: ﴿**فإنما يقول له كن**﴾؛ أي لا يقول له إلا «**كن**» مرة واحدة بدون تكرار؛ و﴿**كن**﴾ هنا تامة من «كان» بمعنى حدث؛ ﴿**فيكون**﴾ أي فيحدث كما أمره الله سبحانه وتعالى على ما أراد الله عز وجل.

وفي قوله تعالى: ﴿**فيكون**﴾ قراءتان؛ هما النصب، والرفع؛ فعلى قراءة النصب تكون جواباً للأمر: ﴿**كن**﴾ أي فبسبب ذلك يكون؛ وتكون الفاء للسببية؛ وعلى قراءة الرفع تكون للاستئناف؛ أي فهو يكون.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: بيان عتوّ الإنسان وطغيانه، حيث سبَّ الله سبحانه وتعالى هذه السبَّة العظيمة، فقال: إن الله اتخذ ولداً!!! في الحديث الصحيح القدسي: «**كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك؛ وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: إنه**

لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفئاً أحدٌ»[1]؛ فهذا من أعظم العدوان؛ وهو يشير كما تقدم في التفسير إلى ثلاث طوائف: اليهود، والنصارى، والمشركين؛ وقد أبطل الله هذه الدعوى الكاذبة من ستة أوجه:

الوجه الأول: في قوله تعالى: ﴿**سبحانه**﴾؛ فإن تنزهه عن النقص يقتضي أن يكون منزهاً عن اتخاذ الولد؛ لأن اتخاذ الولد يقصد به الإعانة، ودفع الحاجة، أو بقاء العنصر؛ والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك؛ ومنزه أيضاً عن المماثلة؛ ولو كان له ولد لكان مثيلاً له.

الوجه الثاني: في قوله تعالى: ﴿**بل له ما في السموات والأرض**﴾؛ وعموم ملكه يستلزم استغناءه عن الولد.

الوجه الثالث: في قوله تعالى: ﴿**بل له ما في السموات والأرض**﴾، والمملوك لا يكون ولداً للمالك؛ حتى إنه شرعاً إذا ملك الإنسان ولده يعتق عليه؛ فالمملوك لا يمكن أن يكون ولداً للمالك؛ فالله خالق؛ وما سواه مخلوق؛ فكيف يكون المخلوق ولداً للخالق!

الوجه الرابع: في قوله تعالى: ﴿**كل له قانتون**﴾؛ ووجهه أن العباد كلهم خاضعون ذليلون؛ وهذا يقتضي أنهم مربوبون لله عابدون له؛ والعبد لا يكون ولداً لربه.

الوجه الخامس: في قوله تعالى: ﴿**بديع السموات والأرض**﴾؛ ووجهه أنه سبحانه وتعالى مبدع السموات والأرض؛

---

(١) أخرجه البخاري ص٤٣١، كتاب التفسير، باب ١: حديث رقم ٤٩٧٤.

فالقادر على خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق إنساناً بلا أب، كما قال تعالى: ﴿**لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس**﴾ [غافر: ٥٧].

الوجه السادس: في قوله تعالى: ﴿**إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**﴾؛ ومن كان هذه قدرته فلا يستحيل عليه أن يوجد ولداً بدون أب.

فبطلت شبهتهم التي يحتجون بها على أن لله ولداً.

٢ ـ **ومن فوائد الآيتين**: امتناع أن يكون لله ولد؛ لهذه الوجوه الستة.

٣ ـ **ومنها**: عموم ملك الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿**بل له ما في السموات والأرض**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن الله لا شريك له في ملكه؛ لتقديم الخبر في قوله تعالى: ﴿**له ما في السموات والأرض**﴾؛ وتقديم الخبر يفيد الاختصاص.

٥ ـ **ومنها**: أن كل من في السموات، والأرض قانت لله؛ والمراد القنوت العام ـ وهو الخضوع للأمر الكوني ـ؛ والقنوت يطلق على معنيين؛ معنى عام وخاص؛ «المعنى الخاص» هو قنوت العبادة، والطاعة، كما في قوله تعالى: ﴿**أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً**﴾ [الزمر: ٩]، وكما في قوله تعالى: ﴿**وصدَّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين**﴾ [التحريم: ١٢]، وكما في قوله تعالى: ﴿**يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين**﴾ [آل عمران: ٤٣]؛ و«المعنى العام» هو قنوت الذل العام؛ وهذا شامل لكل من في السموات، والأرض، كما في هذه الآية:

﴿**كل له قانتون**﴾؛ حتى الكفار بهذا المعنى قانتون لله سبحانه وتعالى؛ لا يخرجون عن حكمه الكوني.

٦ ـ **ومن فوائد الآيتين**: عظم قدرة الله عز وجل ببدع السموات، والأرض؛ فإنها مخلوقات عظيمة.

٧ ـ **ومنها**: حكمة الله سبحانه وتعالى بأن هذه السموات، والأرض على نظام بديع عجيب؛ قال تعالى: ﴿**ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت**﴾ [الملك: ٣]؛ هذا النظام الواسع الكبير العظيم لا يختل، ولا يتغير على مر السنين، والأعوام؛ فتدل على قدرة باهرة بالغة، وحكمة عظيمة بالغة: كل شيء منظم تنظيماً بديعاً متناسباً، فلا يصطدم شيء بشيء فيفسده؛ ولا يغير شيء شيئاً؛ بل كل سائر حسب ما أمره الله به؛ قال الله تعالى: ﴿**وأوحى في كل سماء أمرها**﴾ [فصلت: ١٢]؛ إذاً ﴿**بديع السموات والأرض**﴾ يستفاد منها القوة، والقدرة، والحكمة.

٨ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن السموات عدد؛ لأن الجمع يدل على العدد؛ وقد بيَّن الله في القرآن، وثبتت السنة، وأجمع المسلمون على أن السماء جرم محسوس؛ وليس كما قال أهل الإلحاد: إن الذي فوقنا فضاء لا نهاية له؛ وأما الأرض فلم تأت في القرآن إلا مفردة؛ لكن أشار الله سبحانه وتعالى إلى أنها سبع في قوله تعالى: ﴿**الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن**﴾ [الطلاق: ١٢]؛ وصرحت السنة بذلك في قوله ﷺ: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين**»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٥٩، كتاب بدء الخلق، باب ٢: ما جاء في سبع أرضين، حديث رقم ٣١٩٨، وأخرجه مسلم ص٩٥٨، كتاب المساقاة، =

٩ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عن أمره شيء؛ لقوله تعالى: ﴿**إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: إثبات القول لله؛ لقوله تعالى: ﴿**فإنما يقول له**﴾.

١١ ـ **ومنها**: أن قول الله بصوت مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿**فإنما يقول له كن فيكون**﴾؛ و﴿**له**﴾ صريحة في توجيه القول للمقول له؛ ولولا أنه يسمعه لما صار في توجيهه له فائدة؛ ولهذا يسمعه الموجه إليه الأمر، فيمتثل، ويكون.

١٢ ـ **ومنها**: أن قول الله بحروف؛ لقوله تعالى: ﴿**كن**﴾؛ وهي كلمة بحرفين.

فإن قال قائل: كيف يمكن أن نتصور هذا ونحن نقول: ليس كمثله شيء؛ وأنتم تقولون: إنه بحروف؟ قلنا: نعم؛ الحروف هي الحروف؛ لكن كيفية الكلام، وحقيقة النطق بها ـ أو القول ـ لا يماثل نطق المخلوق، وقوله؛ ومن هنا نعرف أننا لا نكون ممثِّلة إذا قلنا: إنه بحرف، وصوت مسموع؛ لأننا نقول: صوت ليس كأصوات المخلوقين؛ بل هو حسب ما يليق بعظمته، وجلاله.

١٣ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن الجماد خاضع لله سبحانه وتعالى؛ وذلك لأن قوله تعالى: ﴿**وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**﴾ يشمل الأمور المتعلقة بالحيوان، والمتعلقة بالجماد؛ فالجماد إذا قال الله تعالى له: ﴿**كن**﴾ كان.

= باب ٣٠: تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، حديث رقم ٤١٣٢ [١٣٧] ١٦١٠، واللفظ لمسلم.

١٤ ـ **ومنها**: أنه ليس بين أمر الله بالتكوين، وتكونه تراخٍ؛ بل يكون على الفورية؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿**فيكون**﴾: بالفاء؛ والفاء تدل على الترتيب، والتعقيب.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

التفسير:

﴿١١٨﴾ قوله تعالى: ﴿**وقال الذين لا يعلمون**﴾ أي ليسوا من ذوي العلم ﴿**لولا يكلمنا الله**﴾ أي هلَّا يكلمنا الله بتصديق الرسل ﴿**أو تأتينا آية**﴾ أي علامة على صدقهم؛ وهذا منهم على سبيل التعنت والعناد؛ فالتعنت قولهم: ﴿**لولا يكلمنا الله**﴾؛ والعناد قولهم: ﴿**أو تأتينا آية**﴾؛ لأن الرسل أتوا بالآيات التي يؤمن على مثلها البشر؛ وأعظمها القرآن الكريم الذي نزل على محمد ﷺ؛ وقد تحداهم الله أن يأتوا بمثله، فعجزوا.

قوله تعالى: ﴿**كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم**﴾؛ أي مثلَ هذا القول قال الذين من قبلهم؛ وعلى هذا يكون ﴿**مثل قولهم**﴾ توكيداً لقوله تعالى: ﴿**كذلك**﴾؛ أي مثل هذا القول الذي اقترحوه قد اقترحه من قبلهم: قوم موسى قالوا: ﴿**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**﴾ [البقرة: ٥٥]؛ فهذا دأب المكذبين للرسل ينكرون، ويقترحون؛ وقد أُتوا من الآيات بأعظم مما اقترحوه.

قوله تعالى: ﴿**تشابهت قلوبهم**﴾: الأولون، والآخرون قلوبهم متشابهة في رد الحق، والعناد، والتعنت، والجحود؛ من أول ما بعثت الرسل إلى خاتمهم محمد ﷺ - بل وإلى يوم القيامة - فقلوب أهل الكفر، والعناد متشابهة؛ إنما يختلف الأسلوب؛ قد يقترح هؤلاء شيئاً؛ وهؤلاء شيئاً آخر؛ لكن الكلام على جنس الاقتراح، وعدم قبولهم للحق.

قوله تعالى: ﴿**قد بينا**﴾ أي أظهرنا؛ لأن «بان» بمعنى ظهر؛ و«بيَّن» بمعنى أظهر؛ و﴿**الآيات**﴾ جمع آية؛ وهي العلامة المعيِّنة لمدلولها؛ فكل علامة تعين مدلولها تسمى آية؛ فآيات الله هي العلامات الدالة عليه.

قوله تعالى: ﴿**لقوم يوقنون**﴾ متعلقة بقوله تعالى: ﴿**بينا**﴾؛ و«**الإيقان**» هو العلم الذي لا يخالجه شك.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية**: أن أهل الباطل يجادلون بالباطل؛ لأن طلبهم الآيات التي يعينونها ما هو إلا تعنت واستكبار؛ ففي الآيات التي جاءت بها الرسل ما يؤمن على مثلها البشر؛ ثم إنهم لو جاءت الآيات على ما اقترحوا لم يؤمنوا إذا حقت عليهم كلمة ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم**﴾ [يوسف: ٩٦، ٩٧].

٢ - **ومنها**: وصف من لم يَنقَدْ للحق بالجهل؛ لقوله تعالى: ﴿**وقال الذين لا يعلمون**﴾؛ فكل إنسان يكابر الحق، وينابذه فإنه أجهل الناس.

٣ ـ **ومنها**: أن المشركين يقرون بأن الله يتكلم بحرف، وصوت مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿**لولا يكلمنا الله**﴾؛ فهم خير في هذا ممن يدعون أن كلام الله هو المعنى القائم في نفسه.

٤ ـ **ومنها**: أنه ما من رسول إلا وله آية؛ لأن قولهم: ﴿**أو تأتينا آية**﴾ هذا مدَّعى غيرهم؛ إذ إن من لم يأت بآية لا يلام من لم يصدقه؛ مثلاً إذا جاء رجل يقول: «أنا رسول الله؛ آمنوا بي وإلا قتلتكم، واستحللت نساءكم، وأموالكم» فلا نطيعه؛ ولو أننا أنكرناه لكنا غير ملومين؛ لكن الرسل تأتي بالآيات؛ ما من رسول إلا وأعطاه الله تعالى من الآيات ما يؤمن على مثلها البشر؛ فالله تعالى لا يرسل الرسل، ويتركهم بدون تأييد.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن أقوال أهل الباطل تتشابه؛ لقوله تعالى: ﴿**كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم**﴾، وقوله تعالى: ﴿**كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون**﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]؛ وأنت لو تأملت الدعاوى الباطلة التي رد بها المشركون رسالة الرسول ﷺ من زمنه إلى اليوم لوجدت أنها متشابهة، كما قال تعالى: ﴿**وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون**﴾ [المطففين: ٣٢]؛ واليوم يقولون للمتمسكين بالقرآن، والسنة هؤلاء رجعيون؛ هؤلاء دراويش لا يعرفون شيئاً.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الأقوال تابعة لما في القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿**كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم**﴾؛ فلتشابه القلوب تشابهت الأقوال؛ ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد**

كله؛ وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب»[(١)].

٧ ـ **ومنها**: تشابه قلوب الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿**تشابهت قلوبهم**﴾.

٨ ـ **ومنها**: تسلية الرسول ﷺ؛ لأن الإنسان المصاب إذا رأى أن غيره أصيب فإنه يتسلى بذلك، وتخف عليه المصيبة، كما قال تعالى: ﴿**ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون**﴾ [الزخرف: ٣٩]؛ فالله تعالى يسلي رسوله ﷺ بأن هذا القول الذي قيل له قد قيل لمن قبله.

٩ ـ **ومنها**: إبطال دعوى قولهم: ﴿**أو تأتينا آية**﴾ في قوله تعالى: ﴿**قد بينا الآيات**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: أنه لا ينتفع بالآيات إلا الموقنون؛ لقوله تعالى: ﴿**قد بينا الآيات لقوم يوقنون**﴾؛ وأما غير الموقنين فلا تتبين لهم الآيات لما في قلوبهم من الريب والشك.

١١ ـ **ومنها**: أن الموقن قد يتبين له من الآيات ما لم يتبين لغيره؛ ويؤيده قوله تعالى: ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدًى وآتاهم تقواهم**﴾ [محمد: ١٧].

١٢ ـ **ومنها**: أن الآيات تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، وآيات كونية؛

فالآيات الشرعية: ما جاءت به الرسل من الوحي؛ **والقسم الثاني آيات كونية**: وهي مخلوقات الله الدالة عليه، وعلى ما تقتضيه

---

(١) أخرجه البخاري ص٦، كتاب الإيمان، باب ٣٩: فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم ٥٢، وأخرجه مسلم ص٩٥٥، كتاب المساقاة، باب ٢: أخذ الحلال وترك الحرام، حديث رقم ٤٠٩٤ [١٠٧] ١٥٩٩.

أسماؤه، وصفاته، كالشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، وغيرها:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

١٣ ـ **ومنها**: زيادة العلم باليقين؛ لأن من آيات الله هذا الوحي الذي جاء به الرسول ﷺ؛ فكلما ازداد يقينك تبين لك من آيات الله ما لم يتبين لغيرك، فيزداد علمك؛ فباليقين يزداد العلم؛ قال تعالى: ﴿**ويزداد الذين آمنوا إيماناً**﴾ [المدثر: ٣١]؛ فكلما كان الإنسان أقوى يقيناً كان أكثر علماً؛ وكلما ازداد علمه ازداد يقينه؛ فهما متلازمان.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾.

التفسير:

﴿١١٩﴾ قوله تعالى: ﴿**إنا أرسلناك**﴾؛ «**إن**» للتوكيد؛ اسمها «نا» لكن حذفت النون لتوالي الأمثال؛ مع أن الأصل أنها لا تحذف: «إننا»؛ لكن لا نقول اسمها الألف؛ إذ إن الألف لا تكون ضميراً إلا إذا اتصلت بفعل، مثل: قالا، قاما، وما أشبه ذلك؛ وحذف المرسل إليه لإفادة العموم؛ لأن النبي ﷺ مرسل إلى العالمين؛ وغيره من الرسل إلى قومهم خاصة.

قوله تعالى: ﴿**بالحق**﴾؛ الباء هنا للمصاحبة، أو الملابسة؛ يعني أرسلناك متلبساً بالحق؛ أو أن المعنى: حاملاً الحق في هذه الرسالة؛ والآية تحتمل المعنيين؛ أحدهما: أن إرسالك حق؛ والثاني: أن ما أرسلت به حق؛ والمعنيان كلاهما صحيح؛

فتحمل الآية عليهما؛ فالرسول ﷺ رسالته حق؛ وعليه فالباء للملابسة؛ والرسول ﷺ ما أرسل به فهو حق؛ وعلى هذا فالباء للمصاحبة ـ يعني أن رسالتك مصحوبة بالحق ـ؛ لأن ما جئت به حق؛ والحق هو الثابت المستقر؛ وهو ضد الباطل؛ والحق بالنسبة للأخبار الصدق؛ وبالنسبة للأحكام العدل.

قوله تعالى: ﴿**بشيراً**﴾ من البشارة؛ وهي الإخبار بما يسر؛ وقد تقع فيما يسوء، كقوله تعالى: ﴿**فبشرهم بعذاب أليم**﴾ [آل عمران: ٢١].

قوله تعالى: ﴿**ونذيراً**﴾ من الإنذار؛ وهو الإعلام بالمكروه؛ أي بما يخاف منه.

والرسول ﷺ لا شك أنه مبشر بما يسر ـ وهو الجنة ـ؛ ومنذر بما يخاف منه ـ وهو النار ـ؛ و﴿**بشيراً**﴾ حال من الكاف في ﴿**أرسلناك**﴾؛ و﴿**نذيراً**﴾ حال أخرى بواسطة حرف العطف؛ فجمع الله له بين كونه مبشراً، ومنذراً؛ لأن ما جاء به أمر، ونهي؛ والمناسب للأمر: البشارة؛ وللنهي: الإنذار؛ فعليه تكون رسالة النبي ﷺ جامعة بين البشرى، وبين الإنذار؛ والأمر، والنهي؛ إذاً فالرسول مبشر للمتقين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً؛ ومنذر للكافرين أن لهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب.

قوله تعالى: ﴿**ولا تسأل عن أصحاب الجحيم**﴾؛ في ﴿**تسأل**﴾ قراءتان؛ إحداهما بالرفع على أن ﴿**لا**﴾ نافية؛ والفعل مبني لما لم يسم فاعله؛ يعني: ولا تُسأل أنت عن أصحاب الجحيم؛ أي لا يسألك الله عنهم؛ لأنك بلَّغت؛ والحساب

على الله؛ والقراءة الثانية: بالجزم على أن ﴿لا﴾ ناهية؛ و﴿تَسأَلْ﴾: فعل مضارع مبني للفاعل مجزوم بها؛ والمعنى: لا تَسأل عن أصحاب الجحيم بما هم عليه من العذاب؛ فإنهم في حال لا يتصورها الإنسان؛ وهذا غاية ما يكون من الإنذار لهؤلاء المكذبين المخالفين الذين هم أصحاب الجحيم؛ فالنهي هنا للتهويل؛ والقراءتان سبعيتان جامعتان للمعنيين؛ و﴿أصحاب﴾ جمع صاحب؛ وهو الملازم؛ و﴿الجحيم﴾ النار العظيمة؛ وهي لها أسماء كثيرة منها: النار، والسعير، وجهنم، والجحيم؛ كل ذلك لاختلاف أوصافها؛ وإلا فهي واحدة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: الرد على هؤلاء الذين قالوا: ﴿**لولا يكلمنا الله...**﴾؛ لقوله تعالى: ﴿**إنا أرسلناك بالحق**﴾.

٢ ـ **ومنها**: ثبوت رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿**إنا أرسلناك**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن النبي ﷺ رسول صادق؛ وليس برب؛ لأن الرسول لا يمكن أن يكون له مقام المرسِل.

٤ ـ **ومنها**: أن رسالة النبي ﷺ متضمنة لأمر، ونهي، وتبشير، وإنذار؛ لقوله تعالى: ﴿**بشيراً ونذيراً**﴾؛ والحكمة من ذلك ظاهرة؛ وذلك لأن الإنسان قد يهون عليه فعل الأوامر، ويشق عليه ترك المنهيات؛ أو بالعكس؛ فلو كانت الشريعة كلها أوامر ما تبين الابتلاء في كفّ الإنسان نفسه عن المحارم، ولو كانت كلها نواهي ما تبين ابتلاء الإنسان بحمل نفسه على الأوامر؛ فكان الابتلاء بالأمر، والنهي غاية الحكمة؛ فالشيخ

الكبير يهون عليه ترك الزنى؛ ولذلك كانت عقوبته على الزنى أشد من عقوبة الشاب؛ المهم أن الابتلاء لا يتم إلا بتنويع التكليف؛ فمثلاً الصلاة تكليف بدني؛ والزكاة بذل للمحبوب؛ والصيام ترك محبوب؛ والحج تكليف بدني، ومالي.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن وظيفة الرسل الإبلاغ؛ وليسوا مكلفين بعمل الناس؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم**﴾.

وعلى القراءة الثانية نستفيد فائدة ثانية؛ وهي شدة عذاب أصحاب الجحيم ـ والعياذ بالله ـ؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تَسأل عن أصحاب الجحيم**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾.

التفسير:

﴿١٢٠﴾ قوله تعالى: ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**﴾: كان النبي ﷺ يحب أن يتألف اليهود، والنصارى؛ والذي يحب أن يتألفهم يحب أن يرضوا عنه؛ فبين الله عزّ وجلّ أن هؤلاء اليهود والنصارى قوم ذوو عناد؛ لا يمكن أن يرضوا عنك مهما تألفتهم؛ ومهما ركنت إليهم بالتألف ـ لا بالمودة ـ فإنهم لن يرضوا عنك حتى تتبع ملتهم؛ ولهذا كان النبي ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يُنهَ عنه؛ ثم بعد ذلك

كان يأمر بمخالفتهم؛ و﴿لا﴾ هنا للتوكيد؛ وليست مستقلة؛ فإنها لو حذفت، وقيل: «ولن ترضى عنك اليهود والنصارى» لاستقام الكلام؛ لكنها زيدت للتوكيد؛ لأجل ألا يظن الظان أن المراد أن الجميع لا يرضون مجتمعين؛ مع أن الواقع أن كل طائفة لن ترضى؛ ونظير ذلك في زيادة «لا»: قوله تعالى: **﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾** [الفاتحة: ٧]: فإنها تفيد ما أفادته «لا» في قوله تعالى: **﴿ولا النصارى﴾**؛ و**﴿حتى﴾**: حرف غاية؛ وهي تنصب المضارع بنفسها عند الكوفيين؛ وبـ«أن» المقدرة عند البصريين؛ و**﴿ملتهم﴾** أي دينهم الذي كانوا عليه؛ فاليهود لن يرضوا عنك حتى تكون يهودياً، والنصارى لن ترضى عنك حتى تكون نصرانياً؛ ولكن الجواب الوحيد لهؤلاء الذين يقولون: «لا نرضى عنك حتى تتبع ملتنا»، قوله تعالى: **﴿قل﴾** أي مجيباً لهم في عدم اتباع ملتهم **﴿إن هدى الله هو الهدى﴾** أي ليس الهدى ما أنتم عليه؛ بل إن هدى الله وحده هو الهدى؛ و**﴿هو﴾** ضمير فصل لا محل له من الإعراب؛ وقوله تعالى: **﴿الهدى﴾** خبر **﴿إن﴾**؛ أما اسمها فهو قوله تعالى: **﴿هدى الله﴾**.

قوله تعالى: **﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾**: الخطاب للرسول ﷺ؛ أو لكل من يتأتى خطابه؛ ولكن الأقرب أنه للرسول ﷺ؛ و**﴿لئن اتبعت﴾** جملة فيها شرط، وقسم؛ وإذا اجتمعا ـ أي الشرط، والقسم ـ فإنه يحذف جواب المؤخر منهما؛ قال ابن مالك في الألفية:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم ... جواب ما أخرت فهو ملتزم

والقسَم دلت عليه اللام في قوله تعالى: **﴿ولئن اتبعت﴾**؛ إذ إن التقدير: «والله لئن اتبعت»؛ والشرط «إن». والجواب: **﴿ما**

لك من الله. . .﴾؛ وهو جواب القسم بناءً على القاعدة التي أشار إليها ابن مالك؛ ولأنه لو كان جواب الشرط لوجب اقترانه بالفاء؛ لأنه نُفي بـ**﴿ما﴾**؛ وجواب الشرط قيل: إنه محذوف دل عليه جواب القسم؛ وقيل: إنه لا يحتاج إليه لتمام الكلام بدونه؛ وهذا القول هو الراجح ـ أنه لا يحتاج إليه لتمام الكلام بدونه ـ؛ والدليل على ذلك؛ أنه لم يأت ذكره في أي أسلوب من أساليب اللغة العربية؛ فإذا لم يأت في أي أسلوب من أساليب اللغة العربية دل على أن الكلام مستغن عنه.

قوله تعالى: **﴿بعد الذي جاءك من العلم﴾** يشير إلى الوحي الذي جاء إلى النبي ﷺ سواء كان القرآن، أو السنة؛ فالذي جاء إلى الرسول ﷺ عِلم.

قوله تعالى: **﴿ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾**: **﴿ما﴾** نافية؛ و**﴿لك﴾** جار ومجرور خبر مقدم؛ و**﴿وليّ﴾** مجرور لفظاً مرفوع محلاً على أنه مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد إعراباً؛ وأصلها: «ما لك من الله وليٌّ»؛ وجملة: **﴿ما لك من الله﴾** لا محل لها من الإعراب؛ لأنها جواب القسم؛ و«**الولي**» هو الذي يتولى غيره بحفظه، وصيانته؛ فالمعنى: ما أحد يتولى حفظك سوى الله عزّ وجلّ؛ و«**النصير**» هو الذي يدفع الشر؛ أي: ولا أحد يتولى نصرك، فيدفع عنك الشر سوى الله عزّ وجلّ.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: بيان عناد اليهود، والنصارى، حيث لا يرضون عن أحد إلا إذا اتبع دينهم.

٢ ـ **ومنها**: أن من كان لا يرضى إلا بذلك فسيحاول إدخال غير اليهود، والنصارى في اليهودية، والنصرانية.

٣ ـ **ومنها**: الحذر من اليهود، والنصارى؛ إذ لا يرضون لأحد حتى يكون يهودياً؛ أو نصرانياً.

٤ ـ **ومنها**: أن الكفر ملة واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿**ملتهم**﴾؛ وهو باعتبار مضادة الإسلام ملة واحدة؛ أما باعتبار أنواعه فإنه ملل: اليهودية ملة؛ والنصرانية ملة؛ والبوذية ملة؛ وهكذا بقية الملل؛ ولكن كل هذه الملل باعتبار مضادة الإسلام تعتبر ملة واحدة؛ لأنه يصدق عليها اسم الكفر؛ فتكون جنساً، والملل أنواعاً.

٥ ـ **ومنها**: الرد على أهل الكفر بهذه الكلمة: ﴿**هدى الله هو الهدى**﴾؛ والمعنى: إن كان معكم هدى الله فأنتم مهتدون؛ وإلا فأنتم ضالون.

٦ ـ **ومنها**: أن ما عدا هدى الله ضلال؛ قال الله تعالى: ﴿**فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون**﴾ [يونس: ٣٢]؛ فكل ما لا يوافق هدى الله فإنه ضلال؛ وليس ثمة واسطة بين هدى الله، والضلال.

٧ ـ **ومنها**: أن البدع ضلالة؛ لقوله تعالى: ﴿**قل إن هدى الله هو الهدى**﴾؛ وقوله تعالى: ﴿**وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين**﴾ [سبأ: ٢٤]؛ فليس بعد الهدى إلا الضلال؛ ولقول النبي ﷺ: «**كل بدعة ضلالة**»[1].

٨ ـ **ومنها**: تحريم اتباع أهواء اليهود، والنصارى؛ لقوله

---

(١) سبق تخريجه ١/ ١٤٠.

تعالى: ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من وليّ ولا نصير**﴾.

٩ ـ **ومنها**: أن ما عليه اليهود والنصارى ليس ديناً؛ بل هو هوى؛ لقوله تعالى: ﴿**أهواءهم**﴾؛ ولم يقل ملتهم كما في الأول؛ ففي الأول قال تعالى: ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**﴾؛ لأنهم يعتقدون أنهم على ملة، ودين؛ ولكن بيَّن الله تعالى أن هذا ليس بدين، ولا ملة؛ بل هوى؛ وليسوا على هدًى؛ إذ لو كانوا على هدى لوجب على اليهود أن يؤمنوا بالمسيح عيسى بن مريم؛ ولوجب عليهم جميعاً أن يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ لكن دينهم هوى، وليس هدًى؛ وهكذا كل إنسان يتبع غير ما جاءت به الرسل ـ عليهم الصلوات والسلام ـ، ويتعصب له؛ فإن ملته هوى، وليست هدًى.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: أن من اتبع الهوى بعد العلم فهو أشد ضلالة؛ لقوله تعالى: ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم...**﴾ الآية.

١١ ـ **ومنها**: أن ما جاء إلى الرسول سواء كان القرآن، أو السنة فهو علم؛ فالنبي ﷺ كان أمياً ـ لا يقرأ، ولا يكتب ـ، كما قال تعالى: ﴿**وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك**﴾ [العنكبوت: ٤٨]؛ ولكن الله تعالى أنزل عليه هذا الكتاب حتى صار بذلك نبياً جاء بالعلم النافع، والعمل الصالح.

١٢ ـ **ومنها**: أن من أراد الله به سوءاً فلا مرد له؛ لقوله تعالى: ﴿**ما لك من الله من ولي ولا نصير**﴾.

١٣ ـ **ومنها**: أنك إذا اتبعت غير شريعة الله فلا أحد

يحفظك من الله؛ ولا أحد ينصرك من دونه ـ حتى لو كثر الجنود عندك؛ ولو كثرت الشُرَط؛ ولو اشتدت القوة ـ؛ لأن النصر والولاية تكون بالهداية باتباع هدى الله عزّ وجلّ، كما قال تعالى: ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾ [الأنعام: ٨٢]؛ فالأمن إنما يكون بالإيمان، وعدم الظلم.

١٤ ـ **ومنها**: أنه يجب تعلق القلب بالله خوفاً، ورجاءً؛ لأنك متى علمت أنه ليس لك وليّ، ولا نصير فلا تتعلق إلا بالله؛ فلا تعلق قلبك أيها المسلم إلا بربك.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾.

التفسير:

﴿١٢١﴾ قوله تعالى: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب**﴾ مبتدأ؛ وجملة؛ ﴿**يتلونه حق تلاوته**﴾ قيل: إنها خبر المبتدأ؛ وعلى هذا فتكون الجملة الثانية: ﴿**أولئك يؤمنون به**﴾ استئنافية؛ وقيل: إن قوله تعالى: ﴿**يتلونه حق تلاوته**﴾ جملة حالية، وأن جملة: ﴿**أولئك يؤمنون به**﴾ خبر المبتدأ؛ والأقرب الإعراب الثاني؛ لأن الكلام هنا عن الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ: لا يؤمنون به إلا من يتلو الكتاب حق تلاوته سواء التوراة، أو الإنجيل، أو القرآن؛ وعلى هذا فقيد الذي آتيناه الكتاب بكونهم يتلونه حق التلاوة

أحسن ـ يعني: أن من أوتي الكتاب، وصار على هذا الوصف ـ يتلوه حق تلاوته ـ فهو الذي يؤمن به ـ.

وقوله تعالى: ﴿آتيناهم الكتاب﴾ أي أعطيناهم الكتاب؛ والإيتاء هنا إيتاء شرعي، وكوني؛ لأن الله تعالى قدر أن يعطيهم الكتاب، فأعطاهم إياه؛ وهو أيضاً إيتاء شرعي؛ لأنه فيه الشرائع، والبيان؛ والمراد بمن آتاهم الكتاب: إما هذه الأمة؛ أو هي، وغيرها؛ وهذا هو الأرجح ـ أنه شامل لكل من آتاه الله الكتاب ـ؛ و﴿الكتاب﴾ المراد به الجنس؛ فيشمل القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وغيرها من كتب الله عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿يتلونه حق تلاوته﴾؛ «**التلاوة**» تطلق على تلاوة اللفظ ـ وهي القراءة ـ؛ وعلى تلاوة المعنى ـ وهي التفسير ـ؛ وعلى تلاوة الحكم ـ وهي الاتِّباع ـ؛ هذه المعاني الثلاثة للتلاوة داخلة في قوله تعالى: ﴿يتلونه حق تلاوته﴾؛ فـ «التلاوة اللفظية» قراءة القرآن باللفظ الذي يجب أن يكون عليه معرباً كما جاء لا يغير؛ و«التلاوة المعنوية» أن يفسره على ما أراد الله؛ ونحن نعلم مراد الله بهذا القرآن؛ لأنه جاء باللغة العربية، كما قال لله تعالى: ﴿**بلسان عربي مبين**﴾ [الشعراء: ١٩٥]؛ وهذا المعنى في اللغة العربية هو ما يقتضيه هذا اللفظ؛ فنكون بذلك قد علمنا معنى كلام الله عزّ وجلّ؛ و«تلاوة الحكم» امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وتصديق الأخبار.

وقوله تعالى: ﴿حق تلاوته﴾ هذا من باب إضافة الوصف إلى موصوفه ـ يعني: التلاوة الحق ـ؛ أي التلاوة الجِد، والثبات، وعدم الانحراف يميناً، أو شمالاً؛ وهو من حيث الإعراب: مفعول مطلق؛

لأنه مضاف إلى مصدر، كما قال ابن مالك في الألفية:

كـجِـدَّ كـل الـجِـدِّ

قوله تعالى: ﴿**ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون**﴾؛ ﴿**من**﴾ شرطية جازمة؛ ﴿**بكفر**﴾ مجزوم على أنه فعل الشرط؛ ﴿**به**﴾ أي بالكتاب؛ وجملة: ﴿**فأولئك هم الخاسرون**﴾ هي جواب الشرط؛ واقترنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية؛ والجملة الاسمية إذا كانت جواباً للشرط وجب اقترانها بالفاء؛ وأتى بالجملة الاسمية المفيدة للثبوت، والاستمرار؛ وأتى بضمير الفصل ﴿**هم**﴾ لإفادة الحصر، والتوكيد؛ يعني: فأولئك الذين كفروا به هم الخاسرون لا غيرهم؛ وأصل «الخسران» النقص؛ ولهذا يقال: ربح؛ ويقال في مقابله: خسر؛ فهؤلاء هم الذي حصل عليهم النقص لا غيرهم؛ لأنهم مهما أوتوا من الدنيا فإنها زائلة، وفانية، فلا تنفعهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: منة الله عزّ وجلّ على من آتاه الله تعالى الكتاب، فتلاه حق تلاوته.

٢ ـ **ومنها**: أنه ليس مجرد إتيان الكتاب فضيلة للإنسان؛ بل الفضيلة بتلاوته حق تلاوته.

٣ ـ **ومنها**: أن للإيمان علامة؛ وعلامته العمل؛ لقوله تعالى: ﴿**أولئك يؤمنون به**﴾ بعد قوله عزّ وجلّ: ﴿**يتلونه حق تلاوته**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن من خالف القرآن في شيء كان ذلك دليلاً على نقص إيمانه؛ لقوله تعالى: ﴿**يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به**﴾؛ فمعنى ذلك: إذا لم يتلوه حق تلاوته فإنهم لم يؤمنوا به؛ بل نقص من إيمانهم بقدر ما نقص من تلاوتهم له.

٥ ـ **ومنها**: أن تلاوة القرآن نوعان؛ تلاوة حق؛ وتلاوة ناقصة ليست تامة؛ فالتلاوة الحق أن يكون الإنسان تالياً للفظه، ولمعناه عاملاً بأحكامه مصدقاً بأخباره؛ فمن استكبر أو جحد فإنه لم يتله حق تلاوته.

٦ ـ **ومنها**: أن الكافر بالقرآن مهما أصاب من الدنيا فهو خاسر؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون**﴾؛ يكون خاسراً ـ ولو نال من الدنيا من أموال، وبنين، ومراكب فخمة، وقصور مشيدة ـ؛ لأن هذه كلها سوف تذهب، وتزول؛ أو هو يزول عنها، ولا تنفعه؛ واذكر قصة قارون، واتل قول الله تعالى: ﴿**قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين**﴾ [الزمر: ١٥]؛ فإذاً يصدق عليهم أنهم هم الخاسرون، كما في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله**﴾ [المنافقون: ٩]؛ ولما كان الذي يتلهى بذلك عن ذكر الله يظن أنه يربح قال تعالى: ﴿**ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون**﴾ [المنافقون: ٩] يعني: ولو ربحوا في دنياهم.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: علوّ مرتبة من يتلون الكتاب حق تلاوته؛ للإشارة إليهم بلفظ البعيد: ﴿**أولئك يؤمنون به**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾.

التفسير:

﴿١٢٢﴾ قوله تعالى: ﴿**يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي...**﴾ الآية؛ سبق الكلام على نظيرها، وفوائدها.

﴿١٢٣﴾ قوله تعالى: ﴿**واتقوا يوماً**﴾: سبق الكلام على نظيرها.

قوله تعالى: ﴿**لا تجزي نفس عن نفس شيئاً**﴾ أي لا تغني نفس عن نفس شيئاً؛ فليس تفضيل آبائكم على العالمين بمغنٍ عنكم شيئاً؛ لا تقولوا: لنا آباء مفضلون على العالمين، وسَنَسْلَم بهم من النار، أو من عذاب هذا اليوم؛ و﴿**شيئاً**﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم أيّ شيء؛ ولا يرد على هذا الشفاعة الشرعية التي ثبتت بها السُّنة؛ فإن هذه الآية مخصوصة بها.

قوله تعالى: ﴿**ولا يُقبَل منها**﴾ أي من النفس؛ والذي يَقبل، أو يَردّ هو الله سبحانه وتعالى؛ و﴿**عدل**﴾ أي ما يعدل به العذاب عن نفسه ـ وهو الفداء ـ؛ فـ «**العدل**» معناه الشيء المعادِل، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿**أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ليذوق وبال أمره**﴾ [المائدة: ٩٥] أي ما يعادله من الصيام؛ وهنا: لو أتت بالفداء لا يقبل.

قوله تعالى: ﴿**ولا تنفعها شفاعة**﴾؛ «**الشفاعة**» هي التوسط للغير بدفع مضرة، أو جلب منفعة؛ سميت بذلك؛ لأن الشافع إذا انضم إلى المشفوع له، صار شِفعاً بعد أن كان وتراً؛ فالشفاعة لأهل النار أن يخرجوا منها: شفاعة لدفع مضرة؛ والشفاعة لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة؛ شفاعة في جلب منفعة.

قوله تعالى: ﴿**ولا هم ينصرون**﴾: مع أن السياق يرجع إلى مفرد في قوله تعالى: ﴿**نفس عن نفس**﴾، وقوله تعالى: ﴿**ولا يقبل**

منها﴾، وقوله تعالى: ﴿ولا تنفعها﴾؛ جاء الكلام هنا بصيغة الجمع باعتبار المعنى؛ لأن قوله تعالى: ﴿لا تجزي نفس عن نفس﴾ للعموم؛ والعموم يدل على الجمع، والكثرة؛ ثم إن هنا مناسبة لفظية؛ وهي مراعاة فواصل الآيات؛ ومراعاة الفواصل أمر ورد به القرآن ـ حتى إنه من أجل المراعاة يقدم المفضول على الفاضل ـ، كما في قوله تعالى في سورة طه؛ ﴿**قالوا آمنا برب العالمين * رب هارون وموسى**﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨]؛ لأن سورة طه كلها على فاصلة ألف إلا بعض الآيات القليلة؛ فمراعاة الفواصل إذاً من بلاغة القرآن.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إثبات يوم القيامة، وأن هذا اليوم شديد يجب اتقاؤه والحذر منه.

٢ ـ **ومنها**: أن ذلك اليوم لا تغني نفس عن نفس شيئاً؛ حتى الوالد لا يجزي عن ولده شيئاً؛ ولا المولود يجزي عن والده شيئاً، كما قال تعالى: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن من استحق العذاب ذلك اليوم لا يُقبل منه عدل؛ قال تعالى: ﴿**إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم**﴾.

٤ ـ **ومنها**: ثبوت أصل الشفاعة في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿**لا تنفعها شفاعة**﴾؛ وثبت أن النبي ﷺ يشفع في أهل الموقف أن يُقضى بينهم[1]، وأنه ﷺ يشفع في أهل الكبائر أن لا

---

(١) راجع البخاري ص٣٩٣ ـ ٣٩٤، كتاب التفسير، باب ٥: ﴿**ذرية من** =

يدخلوا النار[١]؛ وفيمن دخل النار أن يخرج منها[٢]؛ فعلى هذا يكون العموم في قوله تعالى: ﴿**ولا تنفعها شفاعة**﴾ مخصوصاً بما ثبتت به السنة من الشفاعة.

٥ ـ **ومنها**: أن الكافرين لا تنفعهم الشفاعة؛ لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿**فما تنفعهم شفاعة الشافعين**﴾ [المدثر: ٤٨].

٦ ـ **ومنها**: أنه لا ينصر أحد أحداً من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا هم ينصرون**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

التفسير:

﴿١٢٤﴾ قوله تعالى: ﴿**وإذ ابتلى إبراهيم ربه**﴾؛ ﴿**إبراهيم**﴾ مفعول مقدم؛ و﴿**ربه**﴾ فاعل مؤخر؛ فالمبتلي هو الله؛ والمبتلى هو إبراهيم؛ والابتلاء هو الاختبار، والامتحان؛ و﴿**إبراهيم**﴾ بكسر الهاء، وياء بعدها؛ وفيها قراءة: ﴿**إبراهام**﴾ بفتح الهاء، وألف بعدها؛ وهنا أضاف الربوبية إلى إبراهيم: وهي من الربوبية

= حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾، حديث رقم ٤٧١٢؛ ومسلماً ص٧١٤ ـ ٧١٥، كتاب الإيمان، باب ٨٤: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم ٤٨٠ [٣٢٧] ١٩٤.

(١) راجع حاشية رقم ٢، ١/ ١٧٣.

(٢) راجع حاشية رقم ٣، ١/ ١٧٣.

الخاصة؛ فالربوبية بإزاء العبودية؛ فكما أن العبودية نوعان ـ خاصة، وعامة ـ فالربوبية أيضاً نوعان: خاصة، وعامة؛ وقد اجتمعا في قول السحرة: ﴿**آمنا برب العالمين**﴾ [الأعراف: ١٢١]: هذه عامة؛ ﴿**رب موسى وهارون**﴾ [الشعراء: ٤٨]: هذه خاصة؛ ولا شك أن ربوبية الله سبحانه وتعالى للرسل ـ ولا سيما أولو العزم منهم؛ وهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام ـ أخص الربوبيات.

قوله تعالى: ﴿**بكلمات**﴾؛ هذه الكلمات ـ التي هي محل الابتلاء، والاختبار ـ أطلقها الله سبحانه وتعالى؛ فهي كلمات كونية؛ وشرعية؛ أو جامعة بينهما؛ واختلف المفسرون في هذه الكلمات؛ وأصح الأقوال فيها أن كل ما أمره به شرعاً، أو قضاه عليه قدراً، فهو كلمات؛ فمن ذلك أنه ابتُلي بالأمر بذبح ابنه، فامتثل؛ لكن الله سبحانه وتعالى رفع ذلك عنه حين استسلم لربه؛ وهذا من الكلمات الشرعية؛ وهذا امتحان من أعظم الامتحانات؛ ومن ذلك أن الله امتحنه بأن أوقدت له النار، وأُلقي فيها؛ وهذا من الكلمات الكونية؛ وصبر، واحتسب؛ فأنجاه الله منها، وقال تعالى: ﴿**يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم**﴾ [الأنبياء: ٦٩]؛ وكل ما قدره الله عليه مما يحتاج إلى صبر، ومصابرة، أو أمره به فهو داخل في قوله تعالى: ﴿**بكلمات**﴾.

قوله تعالى: ﴿**إني جاعلك**﴾أي مصيرك؛ وهي تنصب مفعولين؛ لأنها مشتقة من «جعل» التي بمعنى «صيّر»؛ والمفعول الأول: الكاف التي في محل جر بالإضافة؛ والمفعول الثاني: ﴿**إماماً**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**للناس إماماً**﴾ عامة فيمن أتى بعده: فإنه

صار إماماً حتى لخاتم الرسل محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿**ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**﴾ [النحل: ١٢٣]؛ و«الإمام» مَن يُقتدى به سواء في الخير، أو في الشر؛ لكن لا ريب أن المراد هنا إمامة الخير.

فإذا قال قائل: أرُونا دليلاً على أن الإمامة في الشر تسمى إمامة؟ قلنا: قوله تعالى: ﴿**وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون**﴾ [القصص: ٤١]، وقول النبي ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»[(١)]؛ وهذا لأنه إمام.

قوله تعالى: ﴿**ومن ذريتي**﴾ أي واجعل من ذريتي إماماً؛ وهنا ﴿**مِن**﴾ يحتمل أنها لبيان الجنس؛ وبناءً على ذلك تصلح ﴿**ذريتي**﴾ لجميع الذرية؛ يعني: واجعل ذريتي كلهم أئمة؛ ويحتمل أنها للتبعيض؛ وعليه فيكون المقصود: اجعل بعض الذرية إماماً؛ والكلام يحتمل هذا، وهذا؛ ولكن سواء قلنا؛ إنها لبيان الجنس؛ أو للتبعيض؛ فالله تعالى أعطاه ذلك مقيداً، فقال تعالى: ﴿**لا ينال**﴾ أي لا يصيب ﴿**عهدي**﴾ أي تعهدي لك بهذا ﴿**الظالمين**﴾؛ و﴿**عهدي**﴾ فاعل؛ و﴿**الظالمين**﴾ مفعول به؛ أي أجعل من ذريتك إماماً؛ ولكن الظالم من ذريتك لا يدخل في ذلك.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الله قد يبتلي بعض العباد بتكليفات خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿**وإذ ابتلى إبراهيم ربه**﴾؛ وكما أنه يبتلي

---

(١) أخرجه مسلم ص٨٣٨، كتاب الزكاة. باب ٢٠: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة...، حديث رقم ٢٣٥١ [٦٩] ١٠١٧.

بعض العباد بتكليفات خاصة شرعية، فإنه قد يبتليهم بأحكام كونية، مثل: مرض، مصائب في المال، أو في الأهل؛ وما أشبه ذلك.

٢ ـ **ومنها**: فضيلة إبراهيم ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿**ربه**﴾ حيث أضاف ربوبيته إلى إبراهيم ـ وهي ربوبية خاصة ـ؛ ولقوله تعالى: ﴿**فأتمهن**﴾؛ ولقوله تعالى: ﴿**إني جاعلك للناس إماماً**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن من أتم ما كلفه الله به كان من الأئمة؛ لقوله تعالى: ﴿**إني جاعلك للناس إماماً**﴾؛ فإنه لما أتمَّهن جوزي على ذلك بأن جُعل للناس إماماً.

٤ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان أن يدعو لذريته بالإمامة، والصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿**قال ومن ذريتي**﴾؛ وإبراهيم طلب أن يكون من ذريته أئمة، وطلب أن يكون من ذريته من يقيم الصلاة: ﴿**رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي**﴾ [إبراهيم: ٤٠].

٥ ـ **ومنها**: أن الظالم لا يستحق أن يكون إماماً؛ والمراد: الظلم الأكبر ـ الذي هو الكفر ـ؛ لقوله تعالى: ﴿**لا ينال عهدي الظالمين**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن الظلم ينزل بأهله إلى أسفل سافلين؛ لا يجعلهم في قمة؛ بل ينزلهم إما في الدنيا؛ وإما في الآخرة.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

التفسير:

﴿١٢٥﴾ قوله تعالى: ﴿**وإذ جعلنا البيت مثابة للناس**

وأمناً﴾؛ ﴿**إذ**﴾ للظرفية؛ وهي متعلقة بمحذوف تقديره: «اذكر»؛ يعني: اذكر يا محمد للناس هذا الأمر الذي صيرناه للناس؛ و﴿**جعلنا**﴾ أي صيرنا؛ و﴿**البيت**﴾: «**أل**» هنا للعهد الذهني؛ والمراد به الكعبة؛ لأنها بيت الله عزّ وجلّ؛ وأتى هنا بـ«**أل**» للتفخيم والتعظيم؛ يعني: البيت المعهود الذي لا يُجهل، ولا يُنسى جعلناه مثابة...؛ و«**المثابة**» بمعنى المرجع؛ أي يثوب الناس إليه، ويرجعون إليه من كل أقطار الدنيا سواء ثابوا إليه بأبدانهم، أو بقلوبهم، فالذين يأتون إليه حجاجاً، أو معتمرين يثوبون إليه بأبدانهم؛ والذين يتجهون إليه كل يوم بصلواتهم يثوبون إليه بقلوبهم فإنهم لا يزالون يتذكرون هذا البيت في كل يوم، وليلة؛ بل استقباله من شروط صحة صلاتنا.

وقوله تعالى: ﴿**أمناً**﴾ أي وجعلناه أمناً للناس؛ أي مكان أمن يأمن الناس فيه على دمائهم، وأموالهم ـ حتى أشجار الحرم، وحشيشه آمن من القطع ـ.

قوله تعالى: ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلًّى**﴾ أي صيِّروا، واجعلوا؛ وفيها قراءتان؛ إحداهما: بفعل الأمر: ﴿**اتخِذوا**﴾؛ والثانية: بفعل الماضي: ﴿**اتخَذوا**﴾ أي: واتخذ الناس؛ وعلى الأولى: اتخذوا أنتم من مقام إبراهيم مصلًّى؛ و﴿**مِن**﴾ هنا لبيان الجنس؛ ويجوز أن تُضمَّن «في»؛ يعني: واتخذوا في هذا المقام مكاناً للصلاة؛ و«**المقام**» مكان القيام؛ ويطلق إطلاقين: إطلاقاً عاماً ـ وهو مكان قيام إبراهيم للعبادة ـ؛ وإطلاقاً خاصاً ـ وهو مقامه لبناء الكعبة ـ؛ فعلى الإطلاق الأول يكون جميع مواقف الحج، ومشاعر الحج من مقام إبراهيم: عرفة؛ مزدلفة؛

الجمرات؛ الصفا، والمروة... إلخ؛ وعلى الإطلاق الثاني الخاص يكون المراد الحجر المعين الذي قام عليه إبراهيم ﷺ ليرفع قواعد البيت؛ وهو هذا المقام المشهور المعروف للجميع.

وقوله: ﴿**مصلًّى**﴾ مفعول أول لـ﴿**اتخذوا**﴾ منصوب بالفتحة المقدرة على آخره منع من ظهورها التعذر؛ والتنوين الذي فيه عوض عن الألف المحذوفة؛ والمفعول الثاني: هو الجار والمجرور المقدم؛ و«**المصلى**» مكان الصلاة؛ وهل المراد بالصلاة الصلاة اللغوية؛ أو الصلاة الشرعية المعروفة؟ يحتمل هذا، وهذا؛ فإن قلنا بالأول شمل جميع مناسك الحج؛ لأنها كلها محل للدعاء؛ وإن قلنا بالثاني اختص بالركعتين بعد الطواف خلف المقام؛ ويؤيده أن النبي ﷺ حين فرغ من طوافه تقدم إلى مقام إبراهيم، وقرأ: ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾، وصلى ركعتين[1]؛ والقول بالعموم أشمل؛ ويجاب عن فعل النبي ﷺ بأنه فسر المعنى ببعض أفراده؛ وهذا لا يقتضي التخصيص عند أهل التحقيق من الأصوليين.

قوله تعالى: ﴿**وعهدنا إلى إبراهيم**﴾؛ «**العهد**» الوصية بما هو هام؛ وليست مجرد الوصية؛ بل لا تكون عهداً إلا إذا كان الأمر هاماً؛ ومنه عهْد أبي بكر رضي الله عنه بالخلافة إلى عمر رضي الله عنه؛ ومعلوم أن أهم ما يكون من أمور المسلمين العامة الخلافة.

قوله تعالى: ﴿**وإسماعيل**﴾: هو ابن إبراهيم؛ وهو أبو العرب؛ وهو الذبيح على القول الصحيح؛ يعني: هو الذي أمر الله

---

(١) راجع مسلماً ص٨٨٠ ـ ٨٨١، كتاب الحج، باب ١٩: حجة النبي ﷺ، حديث رقم ٢٩٥٠ [١٤٧] ١٢١٨.

إبراهيم أن يذبحه؛ وهو الذي قال لأبيه: ﴿**يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين**﴾ [الصافات: ١٠٢]؛ وقول من قال: «إنه إسحاق» بعيد؛ وقد قال بعض أهل العلم: إن هذا منقول عن بني إسرائيل: لأن بني إسرائيل يودون أن الذبيح إسحاق؛ لأنه أبوهم دون إسماعيل؛ لأنه أبو العرب عمهم؛ ولكن من تأمل آيات «**الصافات**» تبين له ضعف هذا القول.

قوله تعالى: ﴿**أن طهرا بيتي**﴾؛ ﴿**أنْ**﴾ تفسيرية؛ لأنّ ﴿**عهدنا**﴾ فيه معنى القول دون حروفه؛ أي أنّ العهد هو قوله تعالى: ﴿**طهرا بيتي...**﴾؛ و﴿**طهرا**﴾ فعل أمر؛ و﴿**بيتي**﴾ المراد به الكعبة؛ وأضافها الله سبحانه وتعالى إلى نفسه إضافة تشريف؛ والمراد تطهير البيت من الأرجاس الحسية والمعنوية.

قوله تعالى: ﴿**للطائفين**﴾ أي للذين يطوفون بالبيت؛ فاللام هذه للتعليل ـ أي لأجلهم ـ؛ والثاني: ﴿**العاكفين**﴾ أي الذين يقيمون فيه للعبادة؛ والثالث: ﴿**الركع السجود**﴾ أي الذين يصلون فيه؛ وعبر عن الصلاة بالركوع، والسجود؛ لأنهما ركنان فيها؛ فإذا أطلق جزء العبادة عليها كان ذلك دليلاً على أن هذا الجزء ركن فيها لا تصح بدونه؛ و﴿**الركع**﴾ جمع راكع؛ و﴿**السجود**﴾ جمع ساجد؛ وهنا بدأ بـ﴿**الطائفين**﴾؛ لأن عبادتهم خاصة بهذا المسجد؛ ثم بـ﴿**العاكفين**﴾؛ لأن عبادتهم خاصة بالمساجد؛ لكنها أعم من الطائفين؛ وثلّث بـ﴿**الركع السجود**﴾؛ لأن ذلك يصح بكل مكان بالأرض؛ لقوله ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**»[1]؛ فإذاً يكون الله سبحانه وتعالى بدأ بالأخص فالأخص.

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٣٤٤.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: فضيلة البيت الحرام من وجهين: أنه مثابة؛ وأمن.

٢ ـ **ومنها**: ظهور رحمة الله؛ فإنه لما جعل هذا البيت مثابة، والناس لابد أن يرجعوا إليه رحمهم بأن جعله أمناً؛ وإنما أحلها الله لرسوله ﷺ ساعة من نهار للضرورة؛ وهي ساعة الفتح؛ ثم قال ﷺ: «**وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس**»؛ ثم أورد ﷺ سؤالاً قال فيه: «**فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم**»[1]؛ والحكم لله العلي الكبير: أذِن للرسول في تلك الساعة؛ ولكنه لم يأذن لأحد بعده كما لم يأذن لأحد قبله؛ ولهذا نُهي عن حمل السلاح في الحرم حتى يبقى كل إنسان آمناً؛ ولما طعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وهو على راحلته في منى ـ طعنه أحد الخوارج بسنان الرمح في أخمص قدمه حتى لزقت قدمه بالركاب جاءه الحجاج يعوده، **فقال الحجاج: لو نعلم من أصابك؟! فقال ابن عمر: أنت أصبتني! قال: وكيف؟ قال: «حملت السلاح في يوم لم يكن يحمل فيه، وأدخلت السلاح الحرم ولم يكن السلاح يدخل الحرم»**[2]؛ وبهذا

---

(١) أخرجه البخاري ص١٢، كتاب العلم، باب ٣٧: ليبلغ العلم الشاهد الغائب، حديث رقم ١٠٤، وأخرجه مسلم ص٩٠٣ ـ ٩٠٤، كتاب الحج، باب ٨٢: تحريم مكة وتحريم صيدها...، حديث رقم ٣٣٠٤ [٤٤٦] ١٣٥٤.

(٢) أخرجه البخاري ص٧٦، كتاب العيدين، باب ٩: ما يكره من حمل السلاح في العيد والحرم، حديث رقم ٩٦٦.

تعرف عظم جرم أولئك الذين يوقعون المخاوف بين المسلمين في مواسم الحج، وأنهم ـ والعياذ بالله ـ من أعظم الناس جرماً؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل هذا البلد آمناً في كل وقت؛ فكيف في وقت أداء مناسك الحج التي ما أُمِّن ـ والله أعلم ـ إلا لأجلها.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه ينبغي أن يكون كل مكان مثابة للناس أمناً؛ ولهذا كره أهل العلم أن يحمل السلاح في المساجد؛ قالوا: لأن المساجد محل أمن؛ لكن إذا كان المراد من حمل السلاح حفظ الأمن كان مأموراً به.

٤ ـ **ومنها**: وجوب اتخاذ المصلى من مقام إبراهيم؛ لقوله تعالى: ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلًّى**﴾؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب؛ فإن قلنا بأن المراد بالمقام جميع مناسك الحج فلا إشكال؛ لأن فيه ما لا يتم الحج إلا به كالوقوف بعرفة، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة؛ ومنه ما يصح الحج بدونه مع وجوبه كالمبيت بمزدلفة، ورمي الجمرات؛ ومنه ما يصح الحج بدونه وليس بواجب، كصلاة الركعتين بعد الطواف على المشهور؛ وإذا قلنا: المراد به الركعتان بعد الطواف صار فيه إشكال: فإن جمهور العلماء على أنهما سنة؛ وذهب الإمام مالك إلى أنهما واجبتان؛ والذي ينبغي للإنسان: أن لا يدعهما؛ لأن الرسول ﷺ فسر الآية بهما، حيث تقدم إلى مقام إبراهيم بعد الطواف، فقرأ: ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن الله سبحانه وتعالى يثيب العامل بأكثر من عمله؛ فإبراهيم ﷺ لما أتم الكلمات جعله الله تعالى إماماً للناس، وأمر الناس أن يتخذوا من مقامه مصلًّى؛ وهذا بعض من إمامته.

٦ ـ **ومنها**: وجوب تطهير البيت من الأرجاس الحسية، والمعنوية؛ لقوله تعالى: ﴿**وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا**﴾؛ والعهد هو الوصية بالأمر الهام؛ ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا**﴾ [التوبة: ٢٨]؛ ولهذا لا يجوز للمشركين وغيرهم من أهل الكفر أن يدخلوا أميال الحرم؛ لأنهم إذا دخلوها قربوا من المسجد الحرام والله تعالى يقول: ﴿**فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا**﴾ [التوبة: ٢٨].

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: اشتراط طهارة مكان الطواف؛ لقوله تعالى: ﴿**للطائفين**﴾.

٨ ـ **ومنها**: اشتراط طهارة لباس الطائفين من باب أولى، وأنه لا يجوز أن يطوف بثوب نجس؛ لأن ملابسة الإنسان للثياب ألصق من ملابسته للمكان.

٩ ـ **ومنها**: أن الطواف لا يكون إلا حول الكعبة؛ لقوله تعالى: ﴿**وطهرا بيتي للطائفين**﴾؛ ولهذا قال العلماء: يشترط لصحة الطواف أن يكون في المسجد الحرام، وأنه لو طاف خارج المسجد ما أجزأه؛ فلو أراد الإنسان ـ مثلاً ـ أن يطوف حول المسجد الحرام من خارج فإنه لا يجزئ؛ لأنه يكون حينئذ طائفاً بالمسجد لا بالكعبة؛ أما الذين يطوفون في نفس المسجد سواء فوق أو تحت، فهؤلاء يجزئهم الطواف؛ وعلى هذا يجب الحذر من الطواف في المسعى، أو فوقه؛ لأن المسعى ليس من المسجد؛ إذ لو كان من المسجد لكانت المرأة إذا حاضت بعد الطواف لا تسعى؛ لأنه يلزم من سعيها أن تمكث في المسجد.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: فضيلة هذه العبادات الأربع: الطواف، والاعتكاف، والركوع، والسجود؛ وأن الركوع والسجود أفضل هيئة في الصلاة؛ فالركوع أفضل هيئة من القيام؛ والسجود أفضل منه؛ والقيام أفضل من الركوع، والسجود بما يُقرأ فيه؛ ولهذا نُهي المصلي أن يقرأ القرآن راكعاً، أو ساجداً؛ فإنَّ ذِكْر القيام كلام الله؛ وهو أفضل من كل شيء؛ وذكر الركوع والسجود هو التسبيح؛ وهو أقل حرمة من القرآن؛ ولذلك حل الذكر للجنب دون قراءة القرآن، ويجوز مس الورقات التي فيها الذكر بغير وضوء دون مس المصحف؛ فالله سبحانه وتعالى حكيم: جعل لكل ركن من أركان الصلاة ميزة يختص بها؛ فالقيام اختصه بفضل ذكره؛ والركوع والسجود بفضل هيئتهما.

تنبيه:

اختلف المؤرخون: هل كان الحجر الذي كان يرفع عليه إبراهيم ﷺ بناءَ الكعبة لاصقاً بالكعبة، أو كان منفصلاً عنها في مكانه الآن؛ فأكثر المؤرخين على أنه كان ملصقاً بالكعبة، وأن الذي أخره إلى هذا الموضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وبناءً على ذلك يكون للخليفة حق النظر في إزاحته عن مكانه إذا رأى في ذلك المصلحة؛ أما إذا قلنا: إن هذا مكانه على عهد النبي ﷺ فالظاهر أنه لا يجوز أن يغير؛ لأن النبي ﷺ أقره؛ وإذا أقره النبي ﷺ فليس لنا أن نؤخره عنه؛ وقد كتب أحد طلبة العلم رسالة في هذا الموضوع، وقرَّظها الشيخ عبد العزيز بن باز، ورأى أنه يجوز إزاحته عن مكانه من أجل المصلحة والتوسعة بناءً على المشهور عند المؤرخين أنه كان لاصقاً بالكعبة، ثم أُخِّر؛

وهذا لا شك أنه لو أُخِّر عن مكانه فيه دفع مفسدة ـ وهي مفسدة هؤلاء الذين يتجمعون عنده في المواسم؛ وفيه نوع مفسدة ـ وهي أنه يبعد عن الطائفين في غير أيام المواسم؛ فهذه المصالح متعارضة هنا: هل الأولى بقاؤه في مكانه؟ أو الأولى تأخيره عن مكانه؟ فإذا كانت المصالح متكافئة فالأولى أن يبقى ما كان على ما كان، وحذراً من التشويش واختلاف الآراء في هذه المسألة؛ ومسألة تضييق المصلين على الطائفين هذا يمكن زواله بالتوعية إذا أفادت؛ أو بالمنع بالقهر إذا لم تفد؛ وفي ظني أنها قلّت في السنوات الأخيرة بعض الشيء؛ لأن الناس صار عندهم وعي.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

التفسير:

﴿١٢٦﴾ قوله تعالى: ﴿**وإذ قال إبراهيم**﴾ أي اذكر إذ قال إبراهيم: ﴿**رب اجعل**﴾ أي صيِّر ﴿**هذا**﴾ أي مكة ﴿**بلداً آمناً**﴾؛ «البلد» اسم لكل مكان مسكون سواء كان ذلك مدينة كبيرة، أو مدينة صغيرة؛ كله يسمى بلداً؛ وقد سمى الله سبحانه وتعالى مكة بلداً، كما في قوله تعالى: ﴿**وهذا البلد الأمين**﴾ [التين: ٣]؛ وسماها الله تعالى قرية، كما في قوله تعالى: ﴿**وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم**﴾ [محمد: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿**آمناً**﴾: قال بعض المفسرين: أي آمناً مَن

فيه؛ لأن البلد نفسه لا يوصف بالأمن، والخوف؛ «البلد» أرض، وبناء؛ وإنما الذي يكون آمناً: أهلُه؛ أما هو فيكون أمْناً؛ والذي ينبغي هو أن يبقى على ظاهره، وأن يكون البلد نفسه آمناً؛ وإذا أمِنَ البلد أمِن مَن فيه ـ وهو أبلغ ـ؛ لأنه مثلاً لو جاء أحد، وهدم البناء ما كان البناء آمناً، وصار البناء عرضة لأن يتسلط عليه من يُتلفه؛ فكون البلد آمناً أبلغ من أن نفسره بـ«آمناً أهله»؛ لأنه يشمل البلد، ومن فيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وارزق أهله**﴾؛ لأن البلد لا يرزق.

قوله تعالى: ﴿**ارزق**﴾ فعل دعاء؛ ومعناه: أعطِ؛ و﴿**أهله**﴾ مفعول أول؛ و﴿**من الثمرات**﴾ مفعول ثانٍ؛ و﴿**من آمن بالله واليوم الآخر**﴾ بدل من قوله: ﴿**أهله**﴾ ـ بدل بعض من كل ـ؛ و«الإيمان» في اللغة: التصديق؛ وفي الشرع: التصديق المستلزم للقبول، والإذعان؛ والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته؛ و﴿**اليوم الآخر**﴾ هو يوم القيامة؛ وسمي آخراً؛ لأنه لا يوم بعده؛ وسبق بيان ذلك.

قوله تعالى: ﴿**قال ومن كفر**﴾؛ القائل هو الله سبحانه وتعالى؛ فأجاب الله تعالى دعاءه؛ يعني: وأرزق من كفر أيضاً؛ فهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿**من آمن**﴾؛ ولكنه تعالى قال في الكافر: ﴿**فأمتعه قليلاً**..﴾ إلخ.

قوله تعالى: ﴿**فأمتعه**﴾ فيها قراءتان؛ الأولى بفتح الميم، وتشديد التاء؛ والثانية بإسكان الميم، وتخفيف التاء؛ و«**الإمتاع**» و«**التمتيع**» معناهما واحد؛ وهو أن يعطيه ما يتمتع به؛ و«المتعة»: البلغة التي تلائم الإنسان.

قوله تعالى: ﴿**قليلا**﴾: القلة هنا تتناول الزمان، وتتناول عين الممتَّع به؛ فالزمن قصير: مهما طال بالإنسان العمر فهو قليل؛ قال الله عزّ وجلّ: ﴿**كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار**﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ كذلك عين الممتع به قليل؛ كل ما يحصل للإنسان من هذه الدنيا من اللذة، والمتاع قليل بالنسبة للآخرة، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**الموضع سوطٍ في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[(١)]؛ ومع قلته فهو مشوب بكدر سابق، ولاحق، كما قال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نُساء ويوم نُسَرُّ

ويقول الآخر:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة ... لذاته بادكار الموت والهرم

وإذا شئت أن تعرف حقيقة الأمر فقس ما بقي من حياتك بما مضى؛ الآن كلنا يعرف أننا خلفنا أياماً كثيرة؛ فما خلفنا بالأمس كأنه لا شيء؛ نحن الآن في الوقت الذي نحن فيه؛ وأما ما مضى فكأنه لم يكن؛ ولهذا قال النبي ﷺ واصفاً الدنيا: «**إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها**»[(٢)]: إنسان اطمأن قليلاً تحت ظل شجرة، ثم ارتحل! هذه الدنيا كلها.

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٢٥٨.

(٢) أخرجه أحمد ج١/ ٤٤١، حديث رقم ٤٢٠٧؛ وأخرجه الترمذي ص١٨٩٠، كتاب الزهد، باب ٤٤: حديث: «ما الدنيا إلا كراكب استظل»، حديث رقم ٢٣٧٧، وأخرجه ابن ماجه ص٢٧٢٧، كتاب الزهد، باب ٣: مثل الدنيا، حديث رقم ٤١٠٩، واللفظ لأحمد؛ وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح ٢/ ٢٨٠ حديث رقم ١٩٣٦.

قوله تعالى: ﴿**ثم أضطره إلى عذاب النار**﴾ أي ألجئه إلى عذاب النار؛ وإنما جعل الله ذلك إلجاءً؛ لأن كل إنسان يفر من عذاب النار؛ لكنه لا بد له منه إن كان من أهل النار؛ لأنه هو الذي فعل الأسباب التي توجبه؛ و«**العذاب**» العقوبة التي يتألم بها المرء؛ و﴿**النار**﴾ اسم معروف.

قوله تعالى: ﴿**وبئس المصير**﴾؛ ﴿**بئس**﴾ فعل ماضٍ جامد إنشائي يراد به الذم؛ و﴿**المصير**﴾ فاعل ﴿**بئس**﴾؛ والمخصوص بالذم محذوف تقديره: هي؛ أي: وبئس المصير هي؛ لأنه لو لم تقدر هذا لم تكن الجملة عائدة على ما سبق؛ و﴿**المصير**﴾ بمعنى مكان الصيرورة؛ أي المرجع الذي يصير إليه الإنسان.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: التنويه بفضل إبراهيم؛ لأن قوله تعالى: ﴿**وإذ قال**﴾ سبق أنها على تقدير: واذكر إذ قال؛ ولولا أن هذا أمر يستحق التنويه، والإعلام ما أمر به.

٢ ـ **ومنها**: أنه لا غنى للإنسان عن دعاء الله مهما كانت مرتبته؛ فلا أحد يستغني عن الدعاء أبداً؛ لقوله تعالى: ﴿**رب اجعل...**﴾ إلخ.

٣ ـ **ومنها**: أن للدعاء أثراً في حصول المقصود سواء كان دفع مكروه، أو جلب محبوب؛ لأنه لولا أن للدعاء أثراً لكان الدعاء عبثاً؛ وقول من يقول: «لا حاجة للدعاء: إن كان الله كتب هذا فهو حاصل، دعوت أو لم أدعُ؛ وإن كان الله لم يكتبه فلن يحصل، دعوت أو لم أدعُ»، فإن جوابنا عن هذا أن نقول: إن الله قد كتبه بناءً على دعائك؛ فإذا لم تدع لم يحصل، كما أنه لو

قال: «لن آكل الطعام؛ فإن أراد الله لي الحياة فسوف أحيا ـ ولو لم آكل؛ وإن كان يريد أن أموت فسوف أموت ـ ولو ملأت بطني إلى حلقومي»؛ نقول: لكن الأكل سبب للحياة؛ فإنكار أن يكون الدعاء سبباً إنكار أمور بديهيات؛ لأننا نعلم علم اليقين فيما أُخبرنا به، وفيما شاهدناه، وفيما جرى علينا أن الله سبحانه وتعالى يقدِّر الأشياء بالدعاء؛ فالله تعالى قص علينا في القرآن قصصاً كثيرة فيها إجابة للدعاء؛ كذلك يجري للإنسان نفسه أشياء يدعو الله بها فيشاهدها رأي العين أنها جاءت نتيجة لدعائه؛ فإذاً الشرع، والواقع كلاهما يبطل دعوى من أنكر تأثير الدعاء.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: رأفة إبراهيم ﷺ بمن يؤم هذا البيت؛ لأن جعل البيت آمناً يتضمن الإرفاق بمن أمّه من الناس.

٥ ـ **ومنها**: رأفة إبراهيم ﷺ أيضاً، حيث سأل الله أن يرزق أهله من الثمرات؛ لقوله تعالى: ﴿**وارزق أهله من الثمرات**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أدب إبراهيم ﷺ، حيث لم يعمم في هذا الدعاء؛ فقال: ﴿**وارزق أهله من الثمرات من آمن**﴾ خوفاً من أن يقول الله له: «من آمن فأرزقه»، كما قال تعالى حين سأله إبراهيم أن يجعل من ذريته أئمة: ﴿**لا ينال عهدي الظالمين**﴾ [البقرة: ١٢٤]؛ فتأدب في طلب الرزق: أن يكون للمؤمنين فقط من أهل هذا البلد؛ لكن المسألة صارت على عكس الأولى: الأولى خصص الله دعاءه؛ وهذا بالعكس: عمم.

٧ ـ **ومنها**: أن رزق الله شامل للمؤمن، والكافر؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن كفر**﴾؛ فالرزق عام شامل للمؤمن، والكافر؛ بل للإنسان، والحيوان، كما قال تعالى: ﴿**وما من دابة في الأرض إلا**

على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها﴾ [هود: ٦]؛ وأنت ترى بعض الخشاش في الأرض ما حوله شيء، ولكن ييسر الله له الرزق يُجلب إليه من حيث لا يشعر، ولا يحتسب؛ ويُذكر في هذه الأمور قصص غريبة، ويشاهَد بعض الحيوانات الصغيرة الصماء العمياء يَجلب الله لها رزقاً كلما احتاجت إلى ذلك، فتأكله؛ والله على كل شيء قدير.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه يجب علينا أن نتخذ من هذا الوقت القصير عملاً كثيراً ينفعنا في الآخرة؛ لقوله تعالى: **﴿فأمتعه قليلاً﴾**؛ والعمل اليسير ـ ولله الحمد ـ يثمر ثمرات كثيرة في الآخرة يضاعف بعشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

٩ ـ **ومنها**: إثبات عذاب النار.

١٠ ـ **ومنها**: إثبات كلام الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: **﴿قال﴾**؛ وأنه بحرف، وصوت مسموع؛ والدليل على أنه بحرف أن قوله تعالى: **﴿ومن كفر﴾** مثلاً مكوَّن من حروف؛ والدليل على أنه بصوت مسموع: المحاورة مع إبراهيم؛ فلولا أن إبراهيم يسمع صوتاً لم تكن محاورة.

١١ ـ **ومنها**: إثبات سمع الله؛ لأنه يسمع إبراهيم وهو يكلمه سبحانه وتعالى.

١٢ ـ **ومنها**: إثبات اليوم الآخر.

١٣ ـ **ومنها**: الثناء على النار بهذا الذم، وأنها بئس المصير؛ فكل إنسان يسمع هذا من كلام الله عزّ وجلّ سوف ينفر من هذه النار، ولا يعمل عمل أهلها.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾.

التفسير:

﴿١٢٧﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه جعل هذا البيت مثابة للناس بيَّن الله تعالى كيف نشأ هذا البيت، فقال تعالى: ﴿وإذ يرفع...﴾.

قوله تعالى: ﴿وإذ يرفع﴾؛ ﴿إذ﴾ ظرف عاملها محذوف؛ والتقدير: واذكر إذ يرفع؛ و﴿يرفع﴾ فعل مضارع؛ والمضارع للحاضر، أو للمستقبل؛ ورفع البيت ماضٍ؛ لكنه يعبَّر بالمضارع عن الماضي على حكاية الحال كأن إبراهيم يرفع الآن، يعني: ذكِّرهم بهذه الحال التي كأنها الآن مشاهدة أمامهم.

قوله تعالى: ﴿إبراهيم﴾ فيها قراءتان؛ إحداهما: بكسر الهاء بعدها ياء؛ والثانية: بفتح الهاء بعدها ألف: ﴿إبراهام﴾.

قوله تعالى: ﴿القواعد﴾ مفعول ﴿يرفع﴾؛ جمع قاعدة؛ وقاعدة الشيء أساسه.

قوله تعالى: ﴿من البيت﴾ بيان للقواعد؛ وهي في محل نصب على الحال؛ والمراد بـ﴿البيت﴾ الكعبة، كما سبق.

قوله تعالى: ﴿وإسماعيل﴾ عطفاً على قوله تعالى: ﴿إبراهيم﴾؛ فهو مشارك لأبيه في رفع القواعد؛ وأخّر ذكر إسماعيل؛ لأن الأصل: إبراهيم؛ وإسماعيل مُعِين؛ هذا الظاهر ـ والله أعلم ـ.

قوله تعالى: ﴿ربنا تقبل منا﴾؛ «رب» منادى حذفت منه «يا»

النداء؛ وأصله: يا ربنا؛ حذفت «يا» النداء للبداءة بالمدعو المنادى ـ وهو الله ـ؛ وجملة: ﴿ربنا تقبل منا﴾ عاملها محذوف تقديره: «يقولان»؛ وجملة: «يقولان» في موضع نصب على الحال؛ ودعَوَا الله سبحانه وتعالى باسم «**الرب**»؛ لأن إجابة الدعاء من شأن الربوبية؛ لأنها خلق وإيجاد.

قوله تعالى: ﴿ربنا تقبل منا﴾ يعني كل واحد يقول بلسانه: ربنا تقبل منا؛ هذا ظاهر اللفظ؛ و«**القبول**» أخذ الشيء، والرضا به؛ ومنه ما يذكره الفقهاء في قولهم: ينعقد البيع بالإيجاب، والقبول؛ فتقبُّلُ الله سبحانه وتعالى للعمل أن يتلقاه بالرضا، فيرضى عن فاعله؛ وإذا رضي الله تعالى عن فاعله فلا بد أن يثيبه الثواب الذي وعده إياه.

قوله تعالى: ﴿إنك أنت السميع العليم﴾: هذه الجملة تعليل لطلب القبول؛ يعني: نسألك أن تقْبل لأنك أنت السميع العليم: تسمع أقوالنا، وتعلم أحوالنا؛ وهذه الجملة مؤكدة بمؤكدين؛ أحدهما: «**إنّ**»؛ والثاني: ﴿أنت﴾؛ ومن المعلوم أن ضمير الفصل يفيد التوكيد؛ وضمير الفصل لا محل له من الإعراب؛ و﴿السميع﴾ خبر «**إن**»؛ وقوله تعالى: ﴿العليم﴾ أي ذو العلم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: فضل عمارة الكعبة؛ لأن الله تعالى أمر نبيه أن يذكر هذه الحادثة؛ لقوله تعالى: ﴿وإذ يرفع...﴾ إلخ.

٢ ـ **ومنها**: فضل إبراهيم، وإسماعيل، عليهما الصلاة والسلام، حيث قاما برفع هذه القواعد.

٣ ـ **ومنها**: أن من إحكام البناء أن يؤسس على قواعد؛

لقوله تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد﴾؛ وإذا بني على غير قاعدة فإنه ينهار.

٤ ـ **ومنها**: جواز المعاونة في أفعال الخير.

٥ ـ **ومنها**: أهمية القبول، وأن المدار في الحقيقة عليه؛ وليس على العمل؛ فكم من إنسان عمل أعمالاً كثيرة وليس له من عمله إلا التعب، فلم تنفعه؛ وكم من إنسان عمل أعمالاً قليلة قبلت فنفعه الله بها؛ ولهذا جاء في الحديث: «**رب صائم حظه من صيامه الجوع، والظمأ؛ ورب قائم حظه من قيامه السهر**»[(١)].

٦ ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما ﴿السميع﴾، و﴿العليم﴾؛ وكل اسم من أسماء الله يدل على صفة من صفاته؛ بل على صفتين أحياناً، أو أكثر ـ ما يلزم من إثبات الصفة التي يدل عليها الاسم ـ؛ مثال ذلك: «الخالق» دل على صفة الخلق؛ وصفة الخلق تستلزم ثبوت صفة العلم، والقدرة؛ وقد يدل الاسم على الأثر إذا كان ذلك الاسم متعدياً؛ مثاله: ﴿السميع﴾ يدل على صفة السمع، ويدل على أن الله يسمع كل صوت يحدث.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات السمع لله عزّ وجلّ؛ وينقسم السمع إلى قسمين: سمع بمعنى سماع الأصوات؛ وسمع بمعنى الإجابة؛ فمثال الأول قوله تبارك وتعالى: ﴿**أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى**﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقوله تعالى: ﴿**قد**

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٧٣، حديث رقم ٨٨٤٣ واللفظ له، وأخرجه ابن ماجه ص٢٥٧٨، كتاب الصيام، باب ٢١: ما جاء في الغيبة والرفث للصائم، حديث رقم ١٦٩٠؛ قال الألباني في صحيح ابن ماجه: حسن صحيح ١/ ٢٨٢، حديث رقم ١٣٧١.

سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾ [المجادلة: ١]؛ ومثال الثاني قوله تعالى: **﴿إن ربي لسميع الدعاء﴾** [إبراهيم: ٣٩] أي مستجيب الدعاء؛ وكذلك قول المصلي: «سمع الله لمن حمده» ـ يعني استجاب لمن حمده ـ؛ والسمع الذي هو بمعنى سماع الأصوات من صفاته الذاتية؛ والسمع بمعنى الاستجابة من صفاته الفعلية؛ لأن الاستجابة تتعلق بمشيئته: إن شاء استجاب لمن حمده؛ وإن شاء لم يستجب؛ وأما سماع الأصوات فإنه ملازم لذاته ـ لم يزل، ولا يزال سميعاً ـ؛ إذ إن خلاف السمع الصمم؛ والصمم نقص؛ والله سبحانه وتعالى منزه عن كل نقص؛ وكلا المعنيين يناسب الدعاء: فهو سبحانه وتعالى يسمع صوت الداعي، ويستجيب دعاءه.

والسمع ـ أعني سماع الأصوات ـ تارة يفيد تهديداً؛ وتارة يفيد إقراراً، وإحاطة؛ وتارة يفيد تأييداً. **يفيد تهديداً**، كما في قوله تعالى: **﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا...﴾** [آل عمران: ١٨١] الآية، وقوله تعالى: **﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى﴾** [الزخرف: ٨٠] **ويفيد إقراراً، وإحاطة**، كما في قوله تعالى: **﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾** [المجادلة: ١]؛ **ويفيد تأييداً**، كما في قوله تعالى لموسى وهارون: **﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾** [طه: ٤٦].

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات العلم لله ـ تبارك وتعالى ـ جملةً، وتفصيلاً؛ موجوداً، أو معدوماً؛ ممكناً، أو واجباً، أو مستحيلاً؛ مثال علمه بالجملة: قوله تعالى: **﴿لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾** [الطلاق: ١٢]،

وقوله تعالى: ﴿**الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً**﴾ [طه: ٩٨]، ومثال علمه بالتفصيل: قوله تعالى: ﴿**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين**﴾ [الأنعام: ٥٩]؛ ومثال علمه بالموجود: ما أخبر الله به عن علمه بما كان، مثل قول الله تعالى: ﴿**علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم**﴾ [البقرة: ١٨٧]؛ ومثال علمه بالمعدوم الذي قد وجِد: ما علمه الله من أحوال الماضين؛ ومثال علمه بالمعدوم الذي لم يوجد بعد: ما علمه الله عزّ وجلّ من أحوال القيامة، ومآل الخلق؛ ومثال علمه بالممكن: ما علمه الله عزّ وجلّ من الحوادث الواقعة من الإنسان؛ ومثال علمه بالواجب: ما علمه الله عزّ وجلّ من كمال صفاته؛ ومثال علمه بالمستحيل: قوله تعالى: ﴿**ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض**﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقوله تعالى: ﴿**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**﴾ [الأنبياء: ٢٢].

واعلم أن من أنكر علم الله فهو كافر سواء أنكره فيما يتعلق بفعله، أو فيما يتعلق بخلقه؛ فلو قال: إن الله تعالى لا يعلم ما يفعله العبد فهو كافر، كما لو قال: إن الله لا يعلم ما يفعله بنفسه؛ ولهذا كفَّر أهل السنة والجماعة غلاة القدرية الذين قالوا: إن الله سبحانه وتعالى لا يعلم أفعال العباد؛ فالذي ينكر علم الله بأفعال العباد لا شك أنه كافر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**﴾ [ق: ١٦]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿**أم يحسبون أنا لا نعلم سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون**﴾ [الزخرف: ٨٠]؛ فالذي يقول: إن الله لا يعلم

أفعال العباد فإنه كافر بهذه الآيات؛ ولهذا قال الشافعي في القدرية: «ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خُصِموا؛ وإن أنكروه كفروا»؛ وإيمانك بهذا يوجب لك مراقبته، والخوف منه، وامتثال أمره، واجتناب نهيه؛ لأنك متى علمت أنه عالم بك فإنك تخشاه؛ تستحيي منه عند المخالفة؛ وترغب فيما عنده عند الموافقة.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته المناسبة لما يدعو به؛ لقوله تعالى: ﴿**إنك أنت السميع العليم**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: أن الدعاء يكون باسم «**الرب**»؛ لأن إجابة الدعاء من شأن الربوبية؛ لأنها خَلْق، وإيجاد.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾.

التفسير:

﴿١٢٨﴾ قوله تعالى: ﴿**ربنا واجعلنا مسلمين**﴾: أتى بالواو عطفاً على قوله تعالى: ﴿**ربنا تقبل منا**﴾ يعني ربنا واجعلنا مع قبولك مسلمين لك؛ و﴿**اجعلنا**﴾ أي صيِّرنا.

قوله تعالى: ﴿**ومن ذريتنا أمة مسلمة لك**﴾ يعني واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك؛ فأتى بـ﴿**من**﴾ التي للتبعيض؛ والمراد بـ﴿**ذريتنا**﴾ من تفرعوا منهما؛ فذرية الإنسان من تفرعوا منه.

قوله تعالى: ﴿**أمة مسلمة لك**﴾ هذه الأمة هي أمة

محمد ﷺ؛ لأنه لا يصدق على أحد أنه من ذرية إبراهيم، وإسماعيل إلا أمة محمد ﷺ؛ لأن اليهود، والنصارى ليسوا من بني إسماعيل؛ بل من بني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿**وأرنا مناسكنا**﴾ أي بيِّنها لنا حتى نراها؛ و«**المناسك**» جمع منسك؛ وهو هنا مكان العبادة.

قوله تعالى: ﴿**وتب علينا**﴾ أي وفقنا للتوبة فنتوب؛ والتوبة من العبد: هي الرجوع من المعصية إلى الطاعة؛ ومن الله عزّ وجلّ: هي توفيق العبد للتوبة، ثم قبولها منه.

قوله تعالى: ﴿**إنك أنت التواب الرحيم**﴾: هذا من باب التوسل بأسماء الله عزّ وجلّ المناسبة للمطلوب؛ و﴿**التواب**﴾ صيغة مبالغة لكثرة من يتوب الله عليهم، وكثرة توبته على العبد نفسه؛ و﴿**الرحيم**﴾ أي الموصوف بالرحمة التي يرحم بها من يشاء من عباده.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: شدة افتقار الإنسان إلى ربه، حيث كرر كلمة: ﴿**ربنا**﴾؛ وأنه بحاجة إلى ربوبية الله الخاصة التي تقتضي عناية خاصة.

٢ ـ **ومنها**: أن الإنسان مفتقر إلى تثبيت الله؛ وإلا هلك؛ لقوله تعالى: ﴿**واجعلنا مسلمين**﴾؛ فإنهما مسلمان بلا شك: فهما نبيَّان؛ ولكن لا يدوم هذا الإسلام إلا بتوفيق الله؛ قال الله سبحانه وتعالى للرسول ﷺ: ﴿**ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات**﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

٣ ـ **ومنها**: أهمية الإخلاص؛ لقوله تعالى: ﴿**مسلمين لك**﴾: ﴿**لك**﴾ تدل على إخلاص الإسلام لله عزّ وجلّ، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿**بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه**﴾ [البقرة: ١١٢].

٤ ـ **ومنها**: أن الإسلام يشمل كل استسلام لله سبحانه وتعالى، ظاهراً وباطناً.

٥ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان أن يشمل ذريته في الدعاء؛ لأن الذرية الصالحة من آثار الإنسان الصالحة؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن ذريتنا أمة مسلمة لك**﴾؛ وقال إبراهيم ﷺ في آية أخرى: ﴿**واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام**﴾؛ فالذرية صلاحها لها شأن كبير بالنسبة للإنسان.

٦ ـ **ومنها**: أن الأصل في الإنسان الجهل؛ لقوله تعالى: ﴿**وأرنا مناسكنا**﴾ يعني: أعلمنا بها.

٧ ـ **ومنها**: أن الأصل في العبادات أنها توقيفية ـ يعني: الإنسان لا يتعبد لله بشيء إلا بما شرع ـ؛ لقوله تعالى: ﴿**وأرنا مناسكنا**﴾.

٨ ـ **ومنها**: تحريم التعبد لله بما لم يشرعه؛ لأنهما دعَوَا الله عزّ وجلّ أن يريهما مناسكهما؛ فلولا أن العبادة تتوقف على ذلك لتَعبدا بدون هذا السؤال.

٩ ـ **ومنها**: افتقار كل إنسان إلى توبة الله؛ لقوله تعالى: ﴿**وتب علينا**﴾؛ إذ لا يخلو الإنسان من تقصير.

١٠ ـ **ومنها**: إثبات ﴿**التواب**﴾، و﴿**الرحيم**﴾ اسمين من أسماء الله سبحانه وتعالى، وما تضمناه من صفة.

١١ ـ **ومنها**: مشروعية التوسل إلى الله عزّ وجلّ بأسمائه، وصفاته؛ لأن قوله تعالى: ﴿**إنك أنت التواب الرحيم**﴾ تعليل للطلب السابق؛ فهو وسيلة يتوصل بها الداعي إلى حصول مطلوبه.

١٢ ـ **ومنها**: أن التوسل بأسماء الله يكون باسم مطابق لما دعا به؛ لقوله تعالى: ﴿**وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم**﴾، ولقوله تعالى: ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**﴾.

تنبيه:

إن قال قائل: كيف يستقيم أن يسأل إبراهيم، وإسماعيل ربهما أن يجعلهما مسلمين له مع أنهما كانا كذلك؟

فالجواب: أن المراد بذلك تثبيتهما على الإسلام؛ لأن الإنسان من حيث هو إنسان لا يأمن العاقبة؛ أو يقال: إن المراد تقوية إسلامهما بالإخلاص لله عزّ وجلّ، والانقياد لطاعته؛ أو يقال: إنهما قالا ذلك توطئة لما بعدها في قولهما: ﴿**ومن ذريتنا أمة مسلمة لك**﴾؛ والأول أقوى الاحتمالات.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

التفسير:

﴿١٢٩﴾ قوله تعالى: ﴿**ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك**﴾، أي أرسل فيهم رسولاً مرسَلاً من عندك يقرأ

عليهم آياتك، ويبينها لهم، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: **﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾** [النحل: ٤٤].

قوله تعالى: **﴿ويعلمهم الكتاب﴾** أي القرآن، وما فيه من أخبار صادقة نافعة، وأحكام عادلة؛ **﴿والحكمة﴾**: قيل: هي السنة؛ لقوله تعالى: **﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾** [النساء: ١١٣]؛ ويحتمل أن يكون المراد بها معرفة أسرار الشريعة المطهرة، وأنها شريعة كاملة صالحة لكل زمان، ومكان.

قوله تعالى: **﴿ويزكيهم﴾** أي ينمي أخلاقهم، ويطهرها من الرذائل.

قوله تعالى: **﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾**؛ **﴿أنت﴾**: ضمير فصل لا محل له من الإعراب؛ و**﴿العزيز﴾** خبر **﴿إن﴾**؛ و**﴿الحكيم﴾** خبر ثان؛ والكاف اسم **﴿إن﴾**؛ و**﴿العزيز﴾** أي ذو العزة؛ و«**العزة**» بمعنى القهر، والغلبة؛ فهو سبحانه وتعالى ذو قوة، وذو غلبة: لا يغلبه شيء، ولا يعجزه شيء؛ و**﴿الحكيم﴾** أي ذو الحُكم، والحكمة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: ضرورة الناس إلى بعث الرسل؛ ولذلك دعا إبراهيمُ وإسماعيلُ الله سبحانه وتعالى أن يبعث فيهم الرسول.

٢ ـ **ومنها**: أن كون الرسول منهم أقرب إلى قبول دعوته؛ لقوله تعالى: **﴿رسولاً منهم﴾**؛ لأنهم يعرفونه، كما قال تعالى: **﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾** [النجم: ٥٣]؛ فتأمل قوله تعالى:

﴿**ما ضل صاحبكم**﴾ [النجم: ٥٣]، حيث أضافه إليهم؛ يعني: صاحبكم ـ الذي تعرفونه، وتعرفون رجاحة عقله، وتعرفون أمانته ـ ما ضل، وما غوى.

٣ ـ **ومنها**: أن الرسول ﷺ جعل الله سبحانه وتعالى فيه من الخير أنه يتلو الآيات، ويعلم الكتاب، ويعلم الحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿**يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن رسالة النبي ﷺ تتضمن ذكر آيات الله الكونية، والشرعية، وتتضمن تعليم الكتاب تلاوةً، ومعنًى، وتتضمن أيضاً الحكمة ـ وهي معرفة أسرار الشريعة، وتتضمن تزكية الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿**يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن ما جاء به النبي ﷺ يزكي الأخلاق، ويطهرها من كل رذيلة، كما قال ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[1]؛ وهكذا كانت شريعة الرسول ﷺ: تنمية للأخلاق الفاضلة، وتطهيراً من كل رذيلة؛ فهو يأمر بالبر، ويأمر بالمعروف، ويأمر بالإحسان، ويأمر بالصلة، ويأمر بالصدق، ويأمر بكل خير؛ كل ما فيه خير للإنسان في دينه ودنياه فإن الإسلام يأمر به ـ وهذه تزكية ـ؛ وينهى عن ضد ذلك؛ ينهى عن الإثم، والقطيعة، والعدوان، والعقوق، والكذب، والغش، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق ـ وهذه أيضاً تزكية ـ.

---

(١) أخرجه أحمد ج٢/ ٣٨١، حديث رقم ٨٩٣٩، وأخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ٦١٣، وقال حديث صحيح على شرط مسلم؛ وأقره الذهبي، وقال ابن عبد البر: وهذا حديث مدني صحيح (التمهيد ٢٤/ ٣٣٤).

وحال الناس قبل الإسلام بالنسبة للعبادة لا تَسأل! شرك، وكفر؛ وبالنسبة للأحوال الاجتماعية لا تَسأل أيضاً عن حالهم! القوي يأكل الضعيف؛ والغني يأكل الفقير؛ ويأكلون الربا أضعافاً مضاعفة؛ يُغيِر بعضهم على بعض؛ يتعايرون بالأنساب؛ يدعون بدعوى الجاهلية... إلخ.

جاء الإسلام، وهدم كل هذا؛ ومن تدبر التاريخ قبل بعثه ﷺ وبعده، علم الفرق العظيم بين حال الناس قبل البعثة، وحالهم بعدها؛ وظهر له معنى قوله تعالى: ﴿**ويزكيهم**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن هذه الشريعة كاملة؛ لتضمن رسالة النبي ﷺ لهذه المعاني الجليلة مما يدل على كمال شريعته.

٧ ـ **ومنها**: إثبات العزة، والحكمة لله؛ لقوله تعالى: ﴿**إنك أنت العزيز الحكيم**﴾.

٨ ـ **ومنها**: إثبات هذين الاسمين لله: ﴿**العزيز**﴾، و﴿**الحكيم**﴾.

٩ ـ **ومنها**: مناسبة العزة، والحكمة لبعث الرسول؛ وهي ظاهرة جداً؛ لأن ما يجيء به الرسول كله حكمة، وفيه العزة: قال الله تعالى: ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾ [المنافقون: ٨٠]؛ للمؤمنين عرباً كانوا، أو عجماً؛ من كان مؤمناً بالله عزّ وجلّ قائماً بأمر الله فإن له العزة؛ ومن لم يكن كذلك فاته من العزة بقدر ما أخل به من الإيمان، والعمل الصالح؛ ولهذا يجب أن تكون رابطة الإيمان أقوى الروابط بين المؤمنين؛ لأنه لا يمكن أن تكون هناك عزة واجتماع على الخير برابطة أقوى من هذه الرابطة.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

التفسير:

﴿١٣٠﴾ قوله تعالى: ﴿**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه**﴾؛ ﴿**مَن**﴾ اسم استفهام يراد به النفي؛ وهو مبتدأ؛ وجملة: ﴿**يرغب**﴾ خبره؛ ولا نقول: ﴿**مَن**﴾ هنا شرطية؛ نعم، لو كانت الآية: «ومن يرغب عن ملة إبراهيم فقد سفه نفسه» صارت شرطية؛ لكن الأول أبلغ.

قوله تعالى: ﴿**يرغب عن ملة إبراهيم**﴾: يقال: رغب في كذا؛ ورغب عنه؛ والفرق أن «رغب فيه» يعني طلبه؛ و«رغب عنه» يعني تركه، واجتنبه؛ هنا: ﴿**ومن يرغب عن ملة إبراهيم**﴾ يعني تركها؛ و«**الملة**» بمعنى الدين ـ أي دين إبراهيم ـ؛ ودين إبراهيم ﷺ أنه كان حنيفاً مسلماً لله، ولم يكن من المشركين؛ و﴿**إبراهيم**﴾ هو الخليل ﷺ الذي هو أبو الأنبياء، وأشرفهم بعد رسول الله ﷺ، وجعله الله إماماً، قال الله تعالى: ﴿**إن إبراهيم كان أمة قانتاً**﴾ [النحل: ١٢٠]، وجعل ملته هي الملة الحنيفية؛ فإذا كان كذلك فلا أحد يرغب عن الملة الحنيفية القويمة.

قوله تعالى: ﴿**إلا من سفه نفسه**﴾ أي أوقعها في سفه؛ و«**السفه**» ضد الرشد؛ وقيل: معناه: جهل نفسه ـ أي جهل ما يجب لها، فضيعها؛ ولنا أن نقول: إن التعبير بما يحتمل الوجهين فيه نكتة عظيمة؛ وهي أن يكون التعبير صالحاً للأمرين؛ فكأنه

ناب عن جملتين؛ فهو في الحقيقة جاهل إن لم يتعمد المخالفة؛ وسفيه إن تعمد المخالفة.

قوله تعالى: ﴿**ولقد اصطفيناه في الدنيا**﴾: الجملة هنا مؤكدة بمؤكدات ثلاثة؛ وهي القسم المقدر؛ واللام؛ و«**قد**»؛ لأن اللام هنا موطئة للقسم؛ والتقدير: ووالله لقد.

وقوله تعالى: ﴿**اصطفيناه**﴾ افتعال من الصفوة؛ فأصل هذه المادة من صفا يصفو؛ ومعنى ﴿**اصطفيناه في الدنيا**﴾ اخترناه، وجعلناه صفياً من الخلق: اصطفاه الله سبحانه وتعالى في الدنيا على كل الأنبياء ما عدا محمداً ﷺ؛ واتخذه الله سبحانه وتعالى خليلاً.

قوله تعالى: ﴿**وإنه في الآخرة لمن الصالحين**﴾: ﴿**إنه**﴾: «**إنّ**» واسمها؛ و﴿**لمن الصالحين**﴾: خبرها؛ وهذه الجملة مؤكدة بـ«**إن**» واللام فقط؛ و﴿**في الآخرة**﴾: في موضع نصب على الحال؛ أي إنه في حال كونه في الآخرة؛ لمن الصالحين؛ في الدنيا اصطفاه الله، واختاره؛ وفي الآخرة يكون من الصالحين الذين أدوا ما أوجب الله عليهم لنفسه ولخلقه.

وهنا ذكر الله تعالى الاصطفاء في الدنيا، والصلاح في الآخرة؛ فهل هنا نكتة لتغاير الحالين، أو لا؟

الجواب: يبدو لي ـ والله أعلم ـ أن هناك نكتة؛ وهي أن الدنيا دار شهوات، وابتلاء؛ فلا يصبر عن هذه الشهوات، ولا على هذا الابتلاء إلا واحد دون الآخر؛ فإذا أخلص الإنسان نفسه لله صار صفوة من عباد الله؛ والآخرة ليست هكذا؛ الآخرة حتى الكفار يؤمنون؛ ولكن الفرق بين من يكون من الصالحين، وغير الصالحين؛ لأنهم إذا عرضوا على النار قيل لهم: ﴿**أليس**

هذا بالحق قالوا بلى وربنا﴾ [الأنعام: ٣٠]، وقيل لهم: **﴿أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى﴾** [غافر: ٥٠]؛ وقالوا: **﴿يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾** [يس: ٥٢]... وهكذا ما يدل على أنهم مؤمنون؛ لكنهم ليسوا من الصالحين؛ فإن كانت هذه هي النكتة فذلك من فضل الله؛ وإن لم تكن إياها فالعلم عند الله؛ ولا بد أن يكون هناك نكتة جهلناها.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الرشد في اتباع ملة إبراهيم؛ لقوله تعالى: **﴿إلا من سفه نفسه﴾**.

٢ ـ **ومنها**: أن مخالفة هذه الملة سفه؛ مهما كان الإنسان حكيماً في قوله فإنه يعتبر سفيهاً إذا لم يلتزم بشريعة الله.

٣ ـ **ومنها**: فضيلة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حيث اصطفاه الله، واختاره على العالمين؛ لقوله تعالى: **﴿ولقد اصطفيناه في الدنيا﴾**.

٤ ـ **ومنها**: إثبات الآخرة؛ لقوله تعالى: **﴿وإنه في الآخرة﴾**.

٥ ـ **ومنها**: أن الصلاح وصف للأنبياء، ومن دونهم؛ فيوصف النبي بأنه صالح، ويوصف متبع الرسول بأنه صالح؛ ولهذا كانت الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يحيون الرسول ﷺ ليلة المعراج بقولهم: «**مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح**»[1]؛ فوصفوه بالصلاح.

---

(١) أخرجه البخاري في ٣١٥ ـ ٣١٦، كتاب مناقب الأنصار، باب ٤٢: المعراج، الحديث رقم ٣٨٨٧، وأخرجه مسلم ص٧٠٧، كتاب الإيمان، باب ٧٤: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، حديث رقم ٤١٦ [٢٦٤] ١٦٤.

٦ ـ **ومنها**: أن المخالفين للرسل سفهاء؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه**﴾، وقوله في المنافقين: ﴿**ألا إنهم هم السفهاء**﴾ [البقرة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿**سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها**﴾ [البقرة: ١٤٢]؛ فإنهم ـ وإن كانوا أذكياء، وعندهم علم بالصناعة، والسياسة ـ هم في الحقيقة سفهاء؛ لأن العاقل هو الذي يتبع ما جاءت به الرسل فقط.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾.

التفسير:

﴿١٣١﴾ قوله تعالى: ﴿**إذ قال له ربه أسلم**﴾؛ هذا من الثناء على إبراهيم؛ ﴿**إذ**﴾: يحتمل أن تكون متعلقة بقوله: ﴿**ولقد اصطفيناه**﴾ أي: ولقد اصطفيناه إذ قال له ربه؛ ويحتمل أن تكون متعلقة بمحذوف، والتقدير: اذكر إذ قال له ربه؛ فيكون أمراً للرسول ﷺ أن ينوه بهذه الحال التي كان إبراهيم ﷺ عليها.

قوله تعالى: ﴿**أسلمت**﴾ يشمل إسلام الباطن، والظاهر.

قوله تعالى: ﴿**لرب العالمين**﴾ يتضمن توحيد الربوبية، والأسماء، والصفات؛ وما أكثر الذين أُمروا بالإسلام ولم يسلموا: تسعمائة وتسعة وتسعون من الألف من بني آدم كلهم في النار، وواحد من ألف في الجنة؛ لأنهم أُمروا بالإسلام، ولم يسلموا.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: فضيلة إبراهيم ﷺ، حيث لم يتوانَ، ولم يستكبر؛ فبادَر بقوله: ﴿**أسلمت لرب العالمين**﴾ حين قال له ربه عزّ وجلّ: ﴿**أسلم**﴾ ولم يستكبر؛ بل أقر؛ لأنه مربوب لرب العالمين.

٢ ـ **ومنها**: إثبات ربوبية الله سبحانه وتعالى العامة لكل أحد؛ لقوله تعالى: ﴿**لرب العالمين**﴾.

٣ ـ **ومنها**: الإشارة إلى أن الخلق من آيات الله؛ لأنهم سُمّوا «عالمين»، حيث إنهم عَلَم على خالقهم.

٤ ـ **ومنها**: المناسبة بين قوله تعالى: ﴿**أسلمت**﴾، و﴿**رب**﴾؛ كأن هذا علة لقوله تعالى: ﴿**أسلمت**﴾؛ فإن الرب هو الذي يستحق أن يُسْلَم له؛ الرب: الخالق؛ ولهذا أنكر الله سبحانه وتعالى عبادة الأصنام، وبيّن علة ذلك بأنهم لا يخلقون؛ قال تعالى: ﴿**والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون**﴾ [النحل: ٢٠، ٢١]؛ فتبين بهذا مناسبة ذكر الإسلام مقروناً بالربوبية.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

التفسير:

﴿١٣٢﴾ قوله تعالى: ﴿**ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب**﴾؛ ﴿**وصى**﴾ فيها قراءتان؛ إحداهما بهمزة مفتوحة مع تخفيف

الصاد: ﴿أَوصَى﴾، والثانية بحذف الهمزة مع تشديد الصاد: ﴿وصَّى﴾؛ أما ﴿إبراهيم﴾ ففيها قراءتان؛ إحداهما بكسر الهاء بعدها ياء: ﴿إبراهيم﴾؛ والثانية بفتح الهاء بعدها ألف: ﴿إبراهام﴾؛ وقراءة: ﴿أوصى﴾ لا تنطبق عليها الشروط الثلاثة في القراءة، والمجموعة في البيتين، وهما:

وكل ما وافق وجه نحو ... وكان للرسم احتمالاً يحوي
وصح نقلاً فهو القُران ... فهذه الثلاثة الأركان

فقوله تعالى: ﴿وصى﴾، و﴿أوصى﴾ لم تتفق في الرسم؛ إذاً الشروط أو الأركان التي ذكرت بناءً على الأغلب.

قوله تعالى: ﴿**ووصى بها إبراهيم**﴾: الضمير «ها» يعود على هذه الكلمة العظيمة؛ وهي ﴿**أسلمت لرب العالمين**﴾ [البقرة: ١٣١]؛ ويجوز أن يكون الضمير يعود على الملة ـ أي: وصى بهذه الملة ـ؛ والمعنى واحد؛ لأن ﴿**ملة إبراهيم**﴾ [البقرة: ١٣٠] هي ﴿**إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين**﴾ [البقرة: ١٣١]؛ و«**التوصية**» العهد المؤكّد في الأمر الهام.

قوله تعالى: ﴿بنيه﴾ مفعول ﴿وصى﴾؛ ولهذا نُصبت بالياء؛ لأنها ملحق بجمع المذكر السالم.

قوله تعالى: ﴿ويعقوب﴾ معطوفة على ﴿إبراهيم﴾ فهي مرفوعة؛ يعني: وكذلك وصى بها يعقوب بنيه؛ وسمي يعقوب: قيل: لأنه عقب إسحاق؛ وقيل: إنه اسم غير عربي، ومثله لا يطلب له اشتقاق.

قال يعقوب: ﴿يا بني﴾ أي يا أبنائي؛ وإنما ناداهم بوصف البنوة ترفقاً معهم ليكون أدعى إلى القبول.

قوله تعالى: ﴿إن الله اصطفى﴾ أي اختار ﴿لكم﴾ أي لأجلكم ﴿الدين﴾ أي العبادة، والعمل؛ ويطلق على الجزاء؛ ففي قوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾ [الفاتحة: ٤] المراد بـ ﴿الدين﴾ الجزاء؛ وفي قوله تعالى: ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [المائدة: ٣]؛ «الدين»: العبادة؛ فالدين يطلق على هذا، وعلى هذا ـ على العمل، وعلى الجزاء عليه ـ؛ ومنه قولهم: كما تدين تدان ـ يعني كما تعمل تُجازى.

قوله تعالى: ﴿فلا تموتن﴾ الفاء للتفريع؛ أي فعلى هذا الاختيار تمسكوا بهذا الدين؛ و«لا» ناهية؛ و﴿تموتن﴾ مجزوم بحذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة؛ والنون هنا التي فيها للتوكيد؛ وأصلها: «تموتونَنَّ»: حذفت النون للجزم فصارت «تموتونّ»؛ ثم حذفت الواو لالتقاء الساكنين؛ لأن الحرف المشدد أوله ساكن؛ والواو ساكنة؛ فحذفت الواو؛ قال ابن مالك:

إن ساكنان التقيا اكسر ما سبق وإن يكن ليناً فحذفه استحق

قوله تعالى: ﴿إلا وأنتم مسلمون﴾ جملة حالية يراد بها استمرارهم على الإسلام إلى الممات.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أهمية هذه الوصية؛ لأنه اعتنى بها إبراهيم، ويعقوب؛ فإبراهيم أبو العرب والإسرائيليين؛ ويعقوب أبو الإسرائيليين؛ فهذان الرسولان الكريمان اعتنيا بها، حيث جعلاها مما يوصى به.

٢ ـ **ومنها**: أنه ينبغي العناية بهذه الوصية اقتداءً بإبراهيم، ويعقوب.

٣ ـ **ومنها**: أن الله سبحانه وتعالى اختار لعباده من الدين ما هو أقوم بمصالحهم؛ لقوله تعالى: ﴿**اصطفى لكم الدين**﴾؛ فلولا أنه أقوم ما يقوم بمصالح العباد ما اختاره الله سبحانه وتعالى لعباده.

٤ ـ **ومنها**: أنه ينبغي التلطف في الخطاب؛ لقوله تعالى: ﴿**يا بنيّ**﴾؛ فإن نداءهم بالبنوة يقتضي قبول ما يلقى إليهم.

٥ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان أن يتعاهد نفسه دائماً حتى لا يأتيه الموت وهو غافل؛ لقوله تعالى: ﴿**فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن الأعمال بالخواتيم؛ لقوله تعالى: ﴿**فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.

التفسير:

﴿١٣٣﴾ قوله تعالى: ﴿**أم كنتم شهداء**﴾؛ ﴿**أم**﴾ هنا منقطعة؛ و«المنقطعة» يقول المعربون: إنها بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام؛ فمعنى ﴿**أم كنتم**﴾: بل أكنتم؛ والضمير في ﴿**كنتم**﴾ يعود على اليهود الذين ادعوا أنهم على الحق، وأنّ هذه وصية أبيهم يعقوب، فالتزَموا ما هم عليه؛ ويحتمل أن يكون عائداً على

جميع المخاطبين، ويكون المقصود بذلك الإعلام بما حصل من يعقوب حين حضره الموت؛ وهذا الاحتمال أولى؛ لأنه لا يوجد هنا دليل على أنه يعود على اليهود؛ بل الآية كلها عامة؛ وهي أيضاً منقطعة عن اليهود بآيات سابقة كثيرة؛ فالمعنى: تقرير ما وصى به يعقوب حين موته؛ و﴿**شهداء**﴾ جمع شهيد، أو شاهد ـ بمعنى حاضر ـ.

قوله تعالى: ﴿**إذ حضر يعقوب الموت**﴾؛ ﴿**إذ**﴾ ظرف مبنية على السكون في محل نصب ـ أي وقت حضور يعقوب الموت ـ؛ و﴿**يعقوب**﴾ منصوبة؛ لأنها مفعول به مقدم؛ و﴿**الموت**﴾ فاعل مؤخر؛ لأن الحاضر الموت؛ والمحضور يعقوب.

قوله تعالى: ﴿**إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي**﴾؛ ﴿**إذ**﴾ بدل من ﴿**إذ**﴾ الأولى: يعني: إذ حضر إذ قال؛ يعني: أم كنتم شهداء إذ قال لبنيه: «ما تعبدون من بعدي» حين حضره الموت؛ وبنو يعقوب هم يوسف، وإخوته: أحد عشر رجلاً؛ حضر يعقوب الموت، فكان أولاده حاضرون، فقال لهم: ﴿**ما تعبدون من بعدي**﴾ أي من بعد موتي ﴿**قالوا نعبد إلهك**﴾: بدؤوا به؛ لأنهم يخاطبونه؛ ﴿**وإله آبائك**﴾ جمع أب؛ ثم بينوا الآباء بقولهم: ﴿**إبراهيم وإسماعيل وإسحاق**﴾؛ ﴿**إبراهيم**﴾ بالنسبة إلى يعقوب جدّ؛ و﴿**إسماعيل**﴾ بالنسبة إليه عم؛ و﴿**إسحاق**﴾ بالنسبة إليه أب مباشر؛ أما إطلاق الأبوة على إبراهيم، وعلى إسحاق فالأمر فيه ظاهر؛ لأن إسحاق أبوه، وإبراهيم جده؛ والجد أب؛ بل قال الله عزّ وجلّ لهذه الأمة: ﴿**ملة أبيكم إبراهيم**﴾ [الحج: ٧٨]؛ وهي بينها وبين إبراهيم عالَم؛ لكن الإشكال في عدِّهم إسماعيل من

آبائه مع أنه عمهم؛ فيقال كما قال النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه: «**أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه**»[(١)]؛ و«الصنو» الغصنان أصلهما واحد؛ فذُكر مع الآباء؛ لأن العم صنو الأب؛ وكما قال الرسول ﷺ: «**الخالة بمنزلة الأم**»[(٢)]؛ كذلك نقول: العم بمنزلة الأب؛ وقيل: إن هذا من باب التغليب، وأن الأب لا يطلق حقيقة على العم إلا مقروناً بالأب الحقيقي؛ وعلى هذا فلا يكون فيها إشكال إطلاقاً؛ لأن التغليب سائغ في اللغة العربية، فيقال: «القمران»؛ والمراد بهما الشمس، والقمر؛ ويقال: «العُمَرانِ»؛ وهما أبو بكر، وعمر.

وقوله تعالى: ﴿**إبراهيم**﴾ بدل من ﴿**آبائك**﴾؛ أو عطف بيان؛ وفيها قراءة: ﴿**إبراهام**﴾ بفتح الهاء بعدها ألف.

قوله تعالى: ﴿**إلهاً واحداً**﴾ أي نعبده؛ و﴿**إلهاً**﴾ هذه حال؛ يسمونها حال موطئة؛ ولكنها بناءً على أن «إله»، و«الله» غير مشتق؛ والصحيح أنه مشتق، وأنه بمعنى مألوه؛ وعليه فتكون حالاً مؤسسة حقيقية؛ وليست موطئة؛ لأن الحال الموطئة التي تكون تمهيداً لمشتق، مثل: ﴿**قرآناً عربياً**﴾ [يوسف: ٢] فإن «قرآن» غير مشتقة؛ والحال ـ كما تقدم ـ تكون مشتقة و﴿**واحداً**﴾ حال أخرى مكررة.

قوله تعالى: ﴿**ونحن له مسلمون**﴾؛ ﴿**نحن**﴾ مبتدأ؛

---

(١) أخرجه مسلم ص٨٣٢، كتاب الزكاة، باب ٣: في تقديم الزكاة ومنعها، حديث رقم ٢٢٧٧ [١١] ٩٨٣.

(٢) أخرجه البخاري ص٢١٤، كتاب الصلح، باب ٦: كيف يكتب: هذا ما صالح فلان بن فلان...، حديث رقم ٢٦٩٩.

و﴿مسلمون﴾ خبره؛ و﴿له﴾ جار ومجرور متعلقة بـ﴿مسلمون﴾ قدمت عليها لإفادة الحصر ـ من حيث المعنى؛ ولمراعاة فواصل الآيات ـ من حيث اللفظ؛ و﴿نحن له مسلمون﴾ أي منقادون لأمر هذا الإله الواحد سبحانه وتعالى، وشرعه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن التوحيد وصية الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن الموت حق حتى على الأنبياء؛ قال الله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ [آل عمران: ١٤٤].

٣ ـ **ومنها**: جواز الوصية عند حضور الأجل؛ لقوله تعالى: ﴿إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك﴾؛ وهذا كالوصية لهم؛ ولكنه يشترط أن يكون الموصي يعي ما يقول؛ فإن كان لا يعي ما يقول فإنه لا تصح وصيته.

٤ ـ **ومنها**: رجحان القول الصحيح بأن الجدّ أب في الميراث؛ لقوله تعالى: ﴿آبائك إبراهيم﴾.

٥ ـ **ومنها**: أنه يجوز إطلاق اسم الأب على العم تغليباً؛ لقوله تعالى: ﴿وإسماعيل﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن أبناء يعقوب كانوا على التوحيد، حيث قالوا: ﴿نعبد إلهك وإله آبائك﴾؛ وهذا لا شك توحيد منهم.

٧ ـ **ومنها**: أن النفوس مجبولة على اتباع الآباء؛ لكن إن كان على حق فهو حق؛ وإن كان على باطل فهو باطل؛ لقولهم: ﴿وإله آبائك﴾؛ ولهذا الذين حضروا وفاة أبي طالب قالوا له: أترغب عن ملة عبد المطلب.

٨ ـ **ومنها**: أهمية التوحيد، والعناية به؛ لقوله تعالى: ﴿**ما تعبدون من بعدي**﴾.

٩ ـ **ومنها**: أن العبادة والألوهية معناهما واحد؛ لكن العبادة باعتبار العابد؛ والألوهية باعتبار المعبود؛ ولهذا كان أهل العلم يسمون التوحيد توحيد العبادة؛ وبعضهم يقول: توحيد الألوهية.

١٠ ـ **ومنها**: إخلاص الإسلام لله، حيث قال تعالى: ﴿**ونحن له مسلمون**﴾؛ وجه الإخلاص: تقديم المعمول في ﴿**له**﴾؛ لأنه متعلق بـ﴿**مسلمون**﴾؛ فهو معمول له؛ وقد عُلم أن تقديم المعمول يفيد الحصر.

١١ ـ **ومنها**: إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿**إلهاً واحداً**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

التفسير:

﴿١٣٤﴾ قوله تعالى: ﴿**تلك آمة قد خلت**﴾: المشار إليه إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ومن سبق؛ وكان اليهود يجادلون النبي ﷺ في هؤلاء؛ فبين الله تعالى أن هذه أمة قد مضت ﴿**لها ما كسبت ولكم ما كسبتم**﴾ فلا تنالون مما كسبوا شيئاً؛ ولا ينالون مما كسبتم شيئاً.

و«**الأمة**» هنا بمعنى طائفة؛ وتطلق في القرآن على عدة معانٍ؛ **المعنى الأول**: الطائفة، كما هنا؛ **المعنى الثاني**: الحقبة من الزمن، مثل قوله تعالى: ﴿**وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة**﴾ [يوسف: ٤٥] يعني: بعد حقبة من الزمن؛ **والمعنى الثالث**: الإمام، مثل قوله تعالى: ﴿**إن إبراهيم كان أمة**﴾ [النحل: ١٢٠]؛ **والمعنى الرابع**: الطريق، والملة، مثل قوله تعالى: ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمة**﴾ [الزخرف: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿**ولا تسألون عما كانوا يعملون**﴾ أي لا تُسألون عن أعمال من سبقكم؛ لأن لهم ما كسبوا، ولكم ما كسبتم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الاعتماد على أعمال الآباء لا يجدي شيئاً؛ لقوله تعالى: ﴿**تلك أمة قد خلت...**﴾ الآية؛ يعني هم مضوا، وأسلموا لله؛ وأنتم أيها اليهود الموجودون في عهد الرسول ﷺ عليكم أن تنظروا ماذا كسبتم لأنفسكم.

٢ ـ **ومنها**: الإشارة إلى أنه ينبغي لنا أن نسكت عما جرى بين الصحابة؛ لأنا نقول كما قال الله لهؤلاء: ﴿**تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم**﴾ فنحن معنيون الآن بأنفسنا؛ ويُذكر عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ أنه سئل عما جرى بين الصحابة، فقال لهم: «**هذه دماء طهر الله سيوفنا منها؛ فنحن نطهر ألسنتنا منها**»؛ هذه كلمة عظيمة؛ فعلى هذا النزاع فيما جرى بين معاوية، وعلي بن أبي طالب، وعائشة، وما أشبه ذلك لا محل له؛ لكن الذي يجب أن نعتني به حاضر الأمة؛ هذا الذي يجب أن يبين فيه الحق، ويبطَل فيه

الباطل؛ ونقول: ﴿**ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم**﴾ [الحشر: ١٠].

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الإنسان وعملَه؛ لقوله تعالى: ﴿**لها ما كسبت ولكم ما كسبتم**﴾؛ فلا أحد يعطى من عمل أحد، ولا يؤخذ منه؛ قال تعالى: ﴿**كل نفس بما كسبت رهينة**﴾ [المدثر: ٣٨].

٤ ـ **ومنها**: أن الآخِر لا يُسأل عن عمل الأول؛ ولكن الأول قد يُسأل عن عمل الآخر، كما قال تعالى: ﴿**وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار**﴾ [القصص: ٤١]؛ فقد يكون الأول صاحب بدعة، ويُتَّبَع على بدعته؛ فيكون دالاً على ضلالة؛ فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة؛ لكن الآخر لا يسأل عن عمل الأول؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا**»[(١)]؛ وفي لفظ: «**فتؤذوا الأحياء**»[(٢)].

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات عدل الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يؤاخذ أحداً بما لم يعمله؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تسألون عما كانوا يعملون**﴾.

٦ ـ **ومنها**: إثبات السؤال، وأن الإنسان سيُسأل؛ لقوله

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٢٩٤.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٢٥٢، حديث رقم ١٨٣٩٦، وأخرجه الترمذي ص١٨٥٥ ـ ١٨٥١، كتاب البر والصلة، باب ٥٠: ما جاء في الشتم، حديث رقم ١٩٨٢، وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح ٢/ ١٩٠، حديث رقم ١٦١٤.

تعالى: ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾؛ منطوق الآية: نفي السؤال عن عمل الغير؛ ومفهومها: ثبوت السؤال عن عمل العامل، وأنه مسؤول عن العمل.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

التفسير:

﴿١٣٥﴾ قوله تعالى: ﴿وقالوا﴾: الضمير يعود على اليهود، والنصارى، يخاطبون المسلمين؛ ﴿كونوا هوداً﴾ يعني من اليهود على ملتهم؛ و«هود» جمع هائد، مثل «عود» جمع عائد؛ والذين يقولون: ﴿كونوا هوداً﴾ هم اليهود؛ وقوله تعالى: ﴿أو نصارى﴾ يقوله النصارى؛ أي كونوا نصارى ـ أي على ملتهم ـ.

قوله تعالى: ﴿تهتدوا﴾ مجزوم على أنه جواب الأمر؛ أي تكونوا مهتدين.

قال الله تعالى في جواب من يدعو إلى اليهودية من اليهود، أو النصرانية من النصارى: ﴿قل بل ملة إبراهيم حنيفاً﴾؛ ﴿بل﴾ هنا للإضراب الإبطالي؛ لأنها تبطل ما سبق؛ يعني: بل لا نتبع، ولا نكون هوداً، ولا نصارى؛ بل ملة إبراهيم؛ وبهذا التقدير يتبين لنا على أيّ وجه نصب ﴿ملة﴾؛ فهي مفعول لفعل محذوف تقديره: بل نتبع ملة إبراهيم؛ و«الملة» بمعنى الدين كما سبق؛ وملة إبراهيم هي التوحيد؛ يعني نتبع توحيد الله عزّ وجلّ،

والإسلام له؛ لأن إبراهيم لما قال له ربه عزّ وجلّ: ﴿**أسلم**﴾ [البقرة: ١٣١]؛ قال: ﴿**أسلمت لرب العالمين**﴾ [البقرة: ١٣١].

وقوله تعالى: ﴿**حنيفاً**﴾ منصوب على الحال من إبراهيم؛ وهي حال لازمة بدليل قوله تعالى: ﴿**وما كان من المشركين**﴾.

قوله تعالى: ﴿**وما كان من المشركين**﴾: هذا توكيد لقوله تعالى: ﴿**حنيفاً**﴾؛ لأن «**الحنيف**» المائل عما سوى التوحيد؛ مأخوذ من حنف الذئب ـ أي ميله؛ فهو مائل عن كل ما سوى التوحيد؛ إذاً ﴿**وما كان من المشركين**﴾ يكون توكيداً لهذه الحال توكيداً معنوياً لا إعرابياً؛ يعني أنه ﷺ ما كان فيما مضى من المشركين، ولا فيما يستقبل؛ لأن «كان» لا تدل على الحدث؛ تدل على اتصاف اسمها بخبرها، مثل: ﴿**وكان الله غفوراً رحيماً**﴾ [النساء: ٩٦]؛ فقوله تعالى: ﴿**وما كان**﴾ يعني أن هذا الوصف منتف عنه؛ وقوله تعالى: ﴿**من المشركين**﴾ يعم انتفاء الشرك الأصغر والأكبر عنه؛ هذه هي الملة التي يتبعها الرسول ﷺ، ونتبعها نحن ـ إن شاء الله سبحانه وتعالى؛ ونرجو الله عزّ وجلّ أن نموت عليها؛ هذه هي الملة الحنيفية الحقيقية التي توصل العبد إلى ربه، كما قال تعالى: ﴿**وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن أهل الباطل يدْعون إلى ضلالهم، ويدَّعون فيه الخير؛ ﴿**كونوا هوداً أو نصارى**﴾: هذه دعوة إلى ضلال؛ ﴿**تهتدوا**﴾: ادعاء أن ذلك خير؛ وهكذا أيضاً قد ورث هؤلاء اليهود من ضل من هذه الأمة، كأهل البدع في العقيدة،

والقدر، والإيمان ـ الذين ادعوا أنهم على حق، وأن من سلك طريقهم فقد اهتدى؛ قال النبي ﷺ: «**لتركبن سَنن من كان قبلكم**»[(١)].

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن كل داع إلى ضلال ففيه شبه من اليهود، والنصارى؛ دعاة السفور الآن يقولون: اتركوا المرأة تتحرر؛ اتركوها تبتهج في الحياة؛ لا تقيدوها بالغطاءِ، وتركِ التبرج، ونحو ذلك؛ أعطوها الحرية؛ وهكذا كل داع إلى ضلالة سوف يطلي هذه الضلالة بما يغر البليد فهو شبيه باليهود، والنصارى.

٣ ـ **ومنها**: مقابلة الباطل بالحق؛ لقوله تعالى: ﴿**بل ملة إبراهيم حنيفاً**﴾؛ إذ لابد للإنسان من أن يسير على طريق؛ لكن هل هو حق، أو باطل؟! بين الله أن كل ما خالف الحق فهو باطل في قوله تعالى: ﴿**بل ملة إبراهيم حنيفاً**﴾.

٤ ـ **ومنها**: الثناء على إبراهيم عليه السلام من وجوه ثلاثة:

أولاً: إمامته؛ ووجهها: أننا أمرنا باتباعه؛ والمتبوع هو الإمام.

ثانياً: أنه حنيف؛ والحنيف هو المائل عن كل دين سوى الإسلام.

ثالثاً: أنه ليس فيه شرك في عمله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿**وما كان من المشركين**﴾.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الشرك ممتنع في حق الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿**وما كان من المشركين**﴾.

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٢٨٠.

٦ ـ **ومنها**: أن ملة إبراهيم ﷺ أفضل الملل؛ وهي التوحيد، والحنيفية السمحة؛ لقوله تعالى: ﴿**بل ملة إبراهيم حنيفاً**﴾.

٧ ـ **ومنها**: أن اليهودية والنصرانية نوع من الشرك؛ لأن قوله تعالى: ﴿**وما كان من المشركين**﴾ في مقابل دعوتهم إلى اليهودية والنصرانية يدل على أنهما نوع من الشرك؛ كل من كفر بالله ففيه نوع من الشرك؛ لكن إن اتخذ إلهاً فهو شرك حقيقة، وواقعاً؛ وإلا فإنه شرك باعتبار اتباع الهوى.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾.

التفسير:

﴿١٣٦﴾ قوله تعالى: ﴿**قولوا آمنا بالله**﴾: الخطاب للرسول ﷺ، وأمته جميعاً؛ والمراد بالقول هنا القول باللسان، وبالقلب؛ فالقول باللسان: نطقه؛ والقول بالقلب: اعتقاده؛ و«**الإيمان**» ـ كما سبق ـ هو التصديق المستلزم للقبول، والإذعان؛ والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور: الإيمان بوجوده؛ والإيمان بانفراده بالربوبية؛ والألوهية؛ والأسماء، والصفات.

قوله تعالى: ﴿**وما أنزل إلينا**﴾ يعني وآمنا بما أنزل إلينا؛ فـ﴿**ما**﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل جر عطفاً على لفظ الجلالة: ﴿**الله**﴾؛ وقوله تعالى: ﴿**وما أنزل إلينا**﴾ يشمل

القرآن ـ وهو منزل ـ؛ ويشمل السنة أيضاً؛ لقوله تعالى: ﴿**وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة**﴾ [النساء: ١١٣]: فإن ﴿**الحكمة**﴾ [البقرة: ٢٦٩] هي السنة.

قوله تعالى: ﴿**وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط**﴾؛ ﴿**إبراهيم**﴾ منزل إليه؛ لأنه نبي رسول؛ والذي أنزل إليه هي الصحف التي ذكرها الله تعالى في موضعين من القرآن: ﴿**صحف إبراهيم وموسى**﴾ [الأعلى: ١٩]، ﴿**أم لم ينبأ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفى**﴾ [النجم: ٣٦، ٣٧]؛ و﴿**إسماعيل**﴾ نبي منزل إليه قطعاً؛ ولم نعلم ما الذي أنزل إليه بالتحديد؛ و﴿**إسحاق ويعقوب**﴾ أيضاً منزل إليهما؛ لكن لم يذكر لنا ما الذي أنزل إليهما؛ و﴿**الأسباط**﴾ جمع سِبْط؛ قيل: إنهم أولاد يعقوب، ومنهم يوسف؛ وقيل: هم الأنبياء الذين بعثوا في أسباط بني إسرائيل الذين لم يذكروا بأسمائهم.

قوله تعالى: ﴿**وما أوتي موسى وعيسى**﴾ يعني: وما أعطوا من الآيات الشرعية، والكونية؛ الشرعية كالتوراة لموسى، والإنجيل لعيسى؛ والكونية كاليد والعصا لموسى؛ وكإخراج الموتى من قبورهم بإذن الله، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله لعيسى؛ ونص على موسى، وعيسى؛ لأنهما أفضل أنبياء بني إسرائيل.

هنا قد يسأل سائل: لِمَ عبر الله تعالى بقوله: ﴿**وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل**﴾، وفي موسى وعيسى قال تعالى: ﴿**وما أوتي موسى وعيسى**﴾؛ فهل هناك حكمة في اختلاف التعبير؟

فالجواب: أن نقول بحسب ما يظهر لنا ـ والعلم عند الله: إن هناك حكمة لفظية، وحكمة معنوية.

الحكمة اللفظية: لئلا تتكرر المعاني بلفظ واحد؛ لو قال: «ما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وما أنزل إلى موسى... وما أنزل إلى النبيين» تكررت أربع مرات؛ ومعلوم أن من أساليب البلاغة الاختصار في تكرار الألفاظ بقدر الإمكان.

أما الحكمة المعنوية: فلأن موسى وعيسى دينهما باقٍ إلى زمن الوحي، وكان أتباعهما يفتخرون بما أوتوا من الآيات؛ فالنصارى يقولون: عيسى بن مريم يُحيي الموتى، ويفعل كذا، ويفعل كذا؛ وهؤلاء يقولون: إن موسى فلق الله له البحر، وأنجاه، وأغرق عدوه، وما أشبه ذلك؛ فبين الله سبحانه وتعالى في هذا أن هذه الأمة تؤمن بما أوتوا من وحي وآيات.

قوله تعالى: ﴿**وما أوتي النبيون من ربهم**﴾ من باب عطف العام على الخاص؛ والمراد بما أوتوه: ما أظهره الله على أيديهم من الآيات الكونية، وما أوحاه إليهم من الآيات الشرعية؛ و﴿**من ربهم**﴾: ﴿**من**﴾ للابتداء؛ لأن هذا الإيتاء من الله؛ وإضافة الربوبية إليهم على وجه الخصوص؛ وإلا فالله سبحانه وتعالى رب كل شيء؛ لكن هذه ربوبية خاصة.

قوله تعالى: ﴿**لا نفرق بين أحد منهم**﴾ هذه الجملة داخلة في مقول القول؛ يعني: قولوا آمنا على هذا الوجه؛ ﴿**لا نفرق بين أحد منهم**﴾ أي في الإيمان؛ وليس في الاتّباع؛ والضمير في ﴿**منهم**﴾ يعود على الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿**ونحن له مسلمون**﴾؛ ﴿**له**﴾ الضمير يعود

على الله سبحانه وتعالى ـ يعني: ونحن لله ـ؛ وقدمه على عامله لإفادة الحصر، ومناسبة رؤوس الآي؛ و«**الإسلام**» هنا هو الاستسلام لله ظاهراً، وباطناً.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: وجوب الإيمان بالله، وما أنزل إلينا... إلى آخر ما ذكر في هذه الآية؛ لقوله تعالى: ﴿**قولوا آمنا بالله...**﴾ الآية.

٢ ـ **ومنها**: أن الذين يؤمنون بوجود الله لكن يشركون معه غيره في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته لم يكونوا مؤمنين.

٣ ـ **ومنها**: أن الذين يؤمنون بالله، وبربوبيته، وأنه الرب الفعال الخلاق الذي لا يشاركه أحد في هذا، لكنهم يعبدون معه غيره ليسوا بمؤمنين.

٤ ـ **ومنها**: أن الذين يؤمنون بوجود الله، وربوبيته، وألوهيته لكن في الأسماء والصفات لا يؤمنون ـ إما أن ينكروا الأسماء، والصفات؛ وإما أن ينكروا الأسماء دون الصفات؛ وإما أن ينكروا بعض الصفات ـ هؤلاء لم يؤمنوا بالله حق الإيمان، وإيمانهم ناقص.

٥ ـ **ومنها**: أن الكتب التي أوتيها الرسل قد نزلت من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿**وما أنزل إلينا**﴾، ولقوله تعالى: ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾ [الحديد: ٢٥].

٦ ـ **ومنها**: الإشارة إلى البداءة بالأهم ـ وإن كان متأخراً؛ لقوله تعالى: ﴿**وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم**﴾ مع أن ما أنزل إلينا متأخر عما سبق.

٧ ـ **ومنها**: الإيمان بما أوتي النبيون من الآيات الكونية، والآيات الشرعية.

٨ ـ **ومنها**: أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل، على حد سواء في أصل الإيمان؛ وأما الشرائع فلكلٍّ منهم جعل الله شرعة ومنهاجاً، كما قال تعالى: ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**﴾ [المائدة: ٤٨]؛ فنحن مأمورون باتّباع شريعة محمد ﷺ التي نسخت جميع الأديان؛ أما في الإيمان بأنهم رسل من عند الله، وأنهم صادقون بما جاءوا به فإنا لا نفرق بين أحد منهم؛ لقوله تعالى: ﴿**لا نفرق بين أحد منهم**﴾، وقوله تعالى: ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله**﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: وجوب الإخلاص لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**ونحن له مسلمون**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: أن الرسل ليسوا مستقلين بهذه الآيات؛ فلا يملكون أن يأتوا بهذه الآيات، أو بهذا الوحي؛ فهم يتلقون من الله؛ حتى الرسول ﷺ إذا طُلب منه الآيات لا يستطيع أن يأتي بها؛ ولهذا لما اقترح المكذبون عدة آيات قال تعالى: ﴿**قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولًا**﴾ [الإسراء: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿**وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين**﴾ [العنكبوت: ٥٠]، أي فلا أملك أن آتي بالآيات.

١١ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للمؤمن أن يشعر أنه هو وإخوانه كنفس واحدة، كما قال النبي ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد**

بعضه بعضاً»[١] وشبّك بين أصابعه؛ لقوله تعالى: ﴿**ونحن له مسلمون**﴾: فأتى بضمير الجمع: ﴿**قولوا آمنا بالله... ونحن...**﴾.

١٢ ـ **ومنها**: أن الإسلام لا بد أن يكون بالقلب، واللسان، والجوارح؛ لإطلاقه في قوله تعالى: ﴿**مسلمون**﴾؛ فيستسلم قلب المرء لله ـ تبارك وتعالى ـ محبة، وتعظيماً، وإجلالاً؛ ويستسلم لسانه لما أمره الله سبحانه وتعالى أن يقول؛ وتستسلم جوارحه لما أمره الله تعالى أن يفعل.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾.

التفسير:

﴿١٣٧﴾ قوله تعالى: ﴿**فإن آمنوا**﴾ أي اليهود، والنصارى؛ لأن هذه الآيات كلها متتابعة: ﴿**وقالوا كونوا هوداً أو نصارى... قولوا آمنا بالله... فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به...**﴾.

قوله تعالى: ﴿**بمثل ما آمنتم به**﴾: اختلف المعربون في الباء، وفي «**مثل**» أيهما الزائد؟ فقيل: إن «**مثل**» هي الزائدة، وأن التقدير: فإن آمنوا بما آمنتم به فقد اهتدوا؛ وأن «**مثل**» زائدة

---

(١) أخرجه البخاري ص٤٠، كتاب الصلاة، باب ٨٨: تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، حديث رقم ٤٨١؛ وأخرجه مسلم ص١١٣٠، كتاب البر والصلة، باب ١٧: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم ٦٥٨٥ [٦٥] ٢٥٨٥؛ بدون و«شبك أصابعه».

إعراباً لا معنًى؛ وأن المعنى: أنهم إن آمنوا بما آمنتم به إيماناً مماثلاً لإيمانكم؛ فعلى هذا تكون الزيادة في كلمة «**مثل**»؛ وقيل: إن الزائد هو الباء ـ حرف الجر ـ؛ وأن التقدير: فإن آمنوا مثل ما آمنتم ـ أي مثل إيمانكم ـ؛ والباء الثانية أيضاً زائدة؛ فصار قولان: الأول: أن الزائد «**مثل**»؛ والثاني أن الزائد الباء؛ والجميع اتفقوا على أن المراد الزيادة الإعرابية؛ وليست الزيادة المعنوية؛ لأنه ليس في القرآن ما هو زائد معنى ـ أي لا فائدة فيه ـ؛ والمعروف أن الأسماء لا تزاد؛ وأما الزيادة في الحروف فكثيرة؛ لأن الاسم كلمة جاءت لمعنى في نفسها؛ والحرف كلمة جاءت لمعنى في غيرها؛ ومعلوم أننا لو وزنا بالميزان المستقيم لكان ما يجيء لمعنى في غيره أولى بالزيادة مما يجيء لمعنى في نفسه؛ ولهذا أنكر بعض النحويين زيادة الأسماء، وقالوا: لا يمكن أن تزاد الأسماء؛ لأنها جاءت لمعنى في ذاتها؛ بخلاف الحرف؛ فعلى هذا تكون الزيادة في الباء ـ أي فإن آمنوا مثل ما آمنتم ـ؛ أي مثل إيمانكم؛ وعلى كلا الاحتمالين من حيث الإعراب فالمعنى واحد ـ أي إن آمنوا إيماناً مطابقاً لإيمانكم مماثلاً له من كل الوجوه فقد اهتدوا ـ.

قوله تعالى: ﴿**فقد اهتدوا**﴾ أي سلكوا سبيل الهداية؛ و«**الهداية**» هنا هداية العلم، والتوفيق؛ لأنهم آمنوا عن علم فوفِّقوا، واهتدوا؛ والهداية هنا مطلقة كما أن المسلمين الذين آمنوا على الوصف المذكور مهتدون هداية مطلقة.

قوله تعالى: ﴿**وإن تولوا**﴾: «**التولي**» الإعراض؛ أي عن الإيمان بمثل ما آمنتم به.

قوله تعالى: ﴿**فإنما هم في شقاق**﴾ جملة اسمية للدلالة على الاستمرار، والثبوت؛ وأتت بـ«**إنما**» الدالة على الحصر؛ أي فما حالهم إلا الشقاق؛ و﴿**في**﴾ للظرفية ـ كأن الشقاق محيط بهم من كل جانب منغمسون فيه ـ؛ و«**الشقاق**» بمعنى الخلاف؛ وهو في كل معانيه يدور على هذا ـ حتى في قوله تعالى: ﴿**وإن الظالمين لفي شقاق بعيد**﴾: فبعضهم قال: «**الشقاق**» هنا بمعنى الضلال؛ ولكن الصحيح أن معناه: الخلاف؛ فكلما جاءت في القرآن فمآلها إلى الخلاف؛ ولكنها أشد، حيث تفيد الاختلاف مع طلب المشقة على الخصم؛ ويدل لهذا أن أصل معنى «الشقاق» أن يكون أحد الطرفين في شق، والثاني في شق آخر؛ وبهذا يكون الخلاف.

وكأن الإنسان إذا سمع ﴿**فإنما هم في شقاق**﴾ قد يهاب، ويخاف؛ فطمأن الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿**فسيكفيكهم الله**﴾؛ هذه الجملة فيها فعل، وفاعل، ومفعولان؛ الفاعل: لفظ الجلالة؛ والفعل: ﴿**يكفي**﴾؛ والمفعول الأول: الكاف؛ والمفعول الثاني: الهاء؛ والسين هنا يقول العلماء: إنها للتنفيس، وتفيد شيئين هما تحقق الوقوع، وقرب الوقوع؛ بخلاف «سوف» فإنها تفيد التحقق؛ ولكن مع مهلة.

قوله تعالى: ﴿**وهو السميع العليم**﴾؛ ﴿**السميع**﴾ من أسماء الله؛ و﴿**العليم**﴾ أيضاً من أسمائه ـ تبارك وتعالى ـ؛ وسبق تفسيرهما.

قد يقول قائل: يبدو لنا أن المناسب أن يقول: «وهو القوي العزيز» لأنه قال: ﴿**فسيكفيكهم الله**﴾ فما هو الجواب عن ختمها

بالسمع، والعلم؟ فالظاهر لي ـ والله أعلم ـ أنه لما كان تدبير الكيد للرسول ﷺ من هؤلاء قد يكون بالأقوال، وقد يكون بالأفعال؛ والتدبير أمر خفي ليس هو حرباً يعلن حتى نقول: ينبغي أن يقابل بقوة، وعزة؛ قال تعالى: ﴿**وهو السميع العليم**﴾ أي حتى الأمور التي لا يُدرى عنها، ولا يبرزونها، ولا يظهرون الحرابة للرسول ﷺ فإن الله سميع عليم بها؛ هذا ما ظهر لي ـ والله أعلم ـ.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أنه لا بد أن يكون إيمان اليهود، والنصارى مثل إيمان النبي ﷺ، وأمته حقيقة، ووصفاً.

٢ ـ **ومنها**: أن ما خالف ما عليه النبي ﷺ فهو ضلال؛ لأن الله سبحانه وتعالى علق الاهتداء بأن يؤمنوا بمثل ما آمن به الرسول ﷺ وأمته.

٣ ـ **ومنها**: أنه لا حجة لمن تولى عن شريعة النبي ﷺ إلا الشقاق، والمجادلة بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿**فإن تولوا فإنما هم في شقاق**﴾.

٤ ـ **ومنها**: وقوع الشقاق بين أهل الكتاب، والمسلمين؛ وعليه فلا يمكن أن يتفق المسلمون وأهل الكتاب؛ فتبطل دعوة أهل الضلال الذين يدْعون إلى توحيد الأديان؛ لقوله تعالى: ﴿**فإنما هم في شقاق**﴾؛ فاليهود، والنصارى لما لم يؤمنوا صاروا معنا في شقاق؛ وهذا الشقاق لا بد أن يؤدي إلى عداوة، وبغضاء؛ وبالتالي إلى قتال؛ وهكذا وقع: فالمسلمون قاتلوا اليهود، وقاتلوا النصارى ـ الروم كلهم نصارى ـ؛ ومن بعد ذلك

قاتلوا النصارى في الحروب الصليبية؛ وسيقاتلونهم أيضاً مرة أخرى حتى يدخل الإسلام عاصمتهم الروم؛ ولا بد من هذا في المستقبل بإذن الله؛ وسنقاتل اليهود حتى يختبئ اليهودي بالحجر، والشجر فينادي: «**يا عبد الله، هذا يهودي ورائي فاقتله إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود**»[1] فلا يبَلِّغ عنهم.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: الوعيد الشديد لهؤلاء المتولين عن شريعة النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿**فسيكفيكهم الله**﴾.

٦ ـ **ومنها**: تكفل الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ أنهم إذا لم يؤمنوا بمثل ما آمن المؤمنون، وتولوا، فإن الله سبحانه وتعالى سيكفيه إياهم عن قرب؛ لقوله تعالى: ﴿**فسيكفيكهم الله**﴾؛ والحمد لله أنه صار ذلك عن قرب: فإن الرسول ﷺ لم يُتوفَّ حتى أجلى اليهود عن المدينة، وفتح حصونهم في خيبر، وأبقاهم فيها عمالاً؛ وفي خلافة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أجلاهم من خيبر؛ فكفى الله المؤمنين شرهم ـ والحمد لله ـ.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: الإشارة إلى التوكل على الله ـ تبارك وتعالى ـ في الدعوة إليه، وفي سائر الأمور؛ لأنه إذا كان وحده سبحانه وتعالى هو الكافي فيجب أن يكون التوكل والاعتماد عليه وحده؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾ [الطلاق: ٣].

٨ ـ **ومنها**: إثبات الاسمين الكريمين ﴿**السميع**﴾، و﴿**العليم**﴾، وما يتضمناه من الصفات والمعاني العظيمة.

٩ ـ **ومنها**: أنه يجب على المرء مراقبة الله سبحانه وتعالى

---

(١) سبق تخريجه ١/ ١٦٩.

في جميع أقواله؛ لأن الله سبحانه وتعالى سامع لها لا يخفى عليه الصوت مهما خفي؛ بل هو يعلم عزّ وجلّ ما توسوس به نفس الإنسان ـ وإن لم يتكلم به ـ.

١٠ ـ **ومنها**: مراقبة الله سبحانه وتعالى في السر، والعلن؛ وذلك؛ لأن مقتضى اسمه الكريم: ﴿العليم﴾ أنه يعلم كل شيء.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

التفسير:

﴿١٣٨﴾ قوله تعالى: ﴿صبغة الله﴾؛ «الصبغة» معناها اللون؛ وقالوا: المراد بـ﴿صبغة الله﴾ دين الله؛ وسمي «الدين» صبغة لظهور أثره على العامل به؛ فإن المتدين يظهر أثر الدين عليه: يظهر على صفحات وجهه، ويظهر على مسلكه، ويظهر على خشوعه، وعلى سمته، وعلى هيئته كلها؛ فهو بمنزلة الصبغ للثوب يظهر أثره عليه؛ وقيل: سمي صبغة للزومه كلزوم الصبغ للثوب؛ ولا يمنع أن نقول: إنه سمي بذلك للوجهين جميعاً: فهو صبغة للزومه؛ وهو صبغة أيضاً لظهور أثره على العامل به.

ووجه نصب ﴿صبغة الله﴾: قيل: إنها مصدر معنوي؛ لقوله تعالى: ﴿آمنا﴾ في قوله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله﴾؛ فإن ﴿آمنا﴾ معناها الدين، وأن التقدير: تدينا دين الله؛ ولا ريب أن هذا بعيد؛ لأن ﴿آمنا﴾ في آية أخرى قبلها؛ ويبعد أن يكون هذا متعلقاً بها؛ ولأنه فُصِل بينهما بفواصل كثيرة؛ إذاً هو منصوب على

الإغراء ـ يعني: الزموا صبغة الله، ولا يصدنكم هؤلاء عن دينكم ـ؛ وأضيفت «**الصبغة**» إلى الله؛ لأنها منه: فإن الشريعة جاءت من الله؛ ولا أحد يشرع للخلق إلا خالقهم.

قوله تعالى: ﴿**ومن أحسن من الله صبغة**﴾: الاستفهام هنا بمعنى النفي؛ أي لا أحد أحسن من الله صبغة؛ وذلك؛ لأن دين الله عزّ وجلّ مشتمل على المصالح، ودرء المفاسد؛ ولا يوجد دين يشتمل على هذا إلا ما جاء من عند الله، سواء كان الدين الإسلامي الذي جاء به محمد ﷺ، أو الأديان الأخرى ما دامت قائمة لم تنسخ؛ ومجيء الاستفهام بمعنى النفي أبلغ من النفي المجرد؛ لأنه يتضمن التحدي؛ فإن القائل إذا قال: «ليس مثل زيد بشر» ليس كقوله: «مَنْ مثل زيد مِن البشر؟!»؛ الثاني أبلغ: كأنه يتحدى المخاطَب أن يأتي بأحد مثله.

قوله تعالى: ﴿**ونحن له عابدون**﴾: الضمير ﴿**نحن**﴾ يعود على النبي ﷺ، وأصحابه؛ وتقديم المعمول في قوله تعالى: ﴿**له عابدون**﴾ على عامله هنا له فائدتان؛ أولهما: لفظية؛ وهي مراعاة فواصل الآيات؛ والثانية: معنوية؛ وهي الحصر، والاختصاص؛ فهو كقوله تعالى: ﴿**إياك نعبد**﴾ [الفاتحة: ٥]؛ و«**العبادة**» التذلل لله عزّ وجلّ بفعل أوامره محبة له، واجتناب نواهيه تعظيماً له مع شعور الإنسان بمنزلته، وأن منزلته أن يكون عبداً لله عزّ وجلّ.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: وجوب الالتزام بدين الله؛ لأن المعنى: الزموا صبغة الله عزّ وجلّ.

٢ ـ **ومنها**: أن هذا الدين حق؛ لأن الله سبحانه وتعالى

أضافه إلى نفسه؛ وكل ما يضاف إلى الله عزّ وجلّ فإنه حق.

٣ ـ **ومنها**: أن دين الله سبحانه وتعالى أحسن الأديان، وأكملها، وأشملها، وأقومها بمصالح العباد؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن أحسن من الله صبغة**﴾.

٤ ـ **ومنها**: وجوب إخلاص العبادة لله؛ لقوله تعالى: ﴿**ونحن له عابدون**﴾؛ فقدم المعمول لإفادة الحصر؛ وعبادة الله فخر، وشرف للعبد؛ ولهذا جاء وصف العبودية في المقامات العليا لرسول الله ﷺ، فجاءت في مقام الدفاع عنه في قوله تعالى: ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا**﴾ [البقرة: ٢٣]؛ وفي مقام تكريمه بالإسراء في قوله تعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى**﴾ [الإسراء: ١]، وفي مقام رسالته، مثل قوله تعالى: ﴿**الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً**﴾ [الكهف: ١]؛ ويقول الشاعر في معشوقته:

لا تدعني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن العقل يقضي بالتزام الدين؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن أحسن من الله صبغة**﴾؛ فإن العقل يهدي إلى التزام الأحسن؛ كل إنسان له عقل سليم فإن عقله يأمره بالتزام الأحسن.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾.

التفسير:

﴿١٣٩﴾ قوله تعالى: ﴿**قل أتحاجُوننا في الله**﴾: الخطاب في قوله تعالى: ﴿**قل**﴾ موجه إلى رسول الله ﷺ؛ و﴿**أتحاجوننا في الله**﴾ موجه للذين يحاجون الرسول ﷺ من اليهود، والنصارى؛ و«**المحاجة**» هي أن يدلي كل خصم بحجته لينقض حجة الخصم الآخر.

قوله تعالى: ﴿**ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم**﴾ أي أننا لا نسأل عنكم، ولا تُسألون عنا؛ كل له عمله؛ وسيجازيه الله به يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿**ونحن له مخلصون**﴾ أي لله عزّ وجلّ مخلصون؛ و«**الإخلاص**» تنقية الشيء من كل الشوائب التي قد تَعْلَق به؛ فالمعنى: أننا مخلصون لله الدينَ لا نشرك به شيئاً.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: الإنكار على اليهود والنصارى الذين يحاجون المسلمين في الله مع إقرارهم بأنه ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿**قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم**﴾.

٢ ـ **ومنها**: وجوب البراءة من أعمال الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿**ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم**﴾؛ فإن المراد بذلك البراءة مما هم عليه.

٣ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للمرء أن يفتخر بما هو عليه من الحق؛ لقوله تعالى: ﴿**ولنا أعمالنا**﴾ أي فنحن مفتخرون بها بريئون من أعمالكم.

٤ ـ **ومنها**: أنه لا يجوز التشبه بأعداء الله؛ لأن المشابهة موافقة في العمل؛ لهذا قال النبي ﷺ: «**من تشبه بقوم فهو**

منهم»[١]؛ وهنا قال تعالى: ﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾: فنحن متميزون عنكم، وأنتم متميزون عنا.

٥ ـ **ومنها**: وجوب الإخلاص لله؛ لتقديم المعمول في قوله تعالى: ﴿ونحن له مخلصون﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

التفسير:

﴿١٤٠﴾ قوله تعالى: ﴿أم تقولون إن إبراهيم...﴾؛ ﴿أم﴾ هنا للإضراب؛ والمعنى: بل أتقولون؛ وهو إضراب انتقال؛ وليس إضراب إبطال؛ والمعنى أنه انتقل من توبيخ هؤلاء الذين يحاجون في الله إلى توبيخ آخر؛ وهو دعواهم أن هؤلاء الرسل الكرام كانوا هوداً، أو نصارى؛ وهذه دعوى كاذبة؛ فليس هؤلاء هوداً، ولا نصارى؛ بل إن الله سبحانه وتعالى قال موبخاً لهؤلاء مبيناً ضلالهم ـ الذين ادعوا أن إبراهيم كان يهودياً، أو نصرانياً ـ: ﴿**ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين**﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿**وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون**﴾ [آل عمران: ٦٥]؛ فكيف

(١) سبق تخريجه ١/ ٣٥٩.

يكون يهودياً أو نصرانياً وكتاب اليهود والنصارى لم ينزل إلا من بعد إبراهيم؟!!!

قوله تعالى: ﴿وإسماعيل﴾: هو أكبر أولاد إبراهيم؛ وهو الذي أمر الله أباه أن يذبحه؛ والقصة مبسوطة في سورة الصافات.

قوله تعالى: ﴿وإسحاق﴾: هو أخو إسماعيل؛ وهو الولد الثاني لإبراهيم ﷺ؛ ﴿ويعقوب﴾: هو ابن إسحاق؛ وهو الذي ينتمي إليه بنو إسرائيل؛ ﴿والأسباط﴾ سبق الكلام على بيانهم[1].

قوله تعالى: ﴿كانوا هوداً أو نصارى﴾ يعني كانوا على ملة اليهودية، والنصرانية؛ وهذا من سفه هؤلاء اليهود الذين يدعون ذلك؛ لأن أصل اليهودية، والنصرانية حدثت بعد هؤلاء؛ فكيف يكون هؤلاء هوداً، أو نصارى؟!!!

ثم أبطل الله تعالى دعواهم بطريق آخر فقال: ﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾؛ ومن المعلوم أنه لا أحد أعلم من الله عزّ وجلّ؛ ولكن الله سبحانه وتعالى قال ذلك إلزاماً للخصم حتى يتبين بطلان ما ادعاه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿آلله خير أم ما يشركون﴾؛ ومن المعلوم أن الله خير مما يشركون؛ لكن من أجل إفحام الخصم، وإلزامه بما هو ظاهر لا إشكال فيه.

قوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ يعني لا أحد أظلم في كتمان الشهادة ممن كتم شهادة عنده من الله؛ وهؤلاء اليهود والنصارى كتموا الشهادة عندهم من الله؛ لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ أخبر عن نبيه محمد ﷺ، وذكر أوصافه

---

(١) انظر ٢/ ٨٧.

في التوراة، والإنجيل، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ في سورة الأعراف: ﴿**الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم**﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ فهذه أوصاف النبي ﷺ في التوراة والإنجيل معلومة لبني إسرائيل؛ ولكنهم يكتمون هذه الشهادة؛ ولا أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله تعالى في كتمان الشهادة؛ وإن كان المشرك أظلم الظالمين؛ لكن اسم التفضيل يختص بالشيء المعين الذي يشترك فيه المفضل، والمفضل عليه.

قوله تعالى: ﴿**وما الله بغافل عما تعملون**﴾ يعني أن الله عزّ وجلّ لا يغفل عما يعمل هؤلاء؛ بل هو جل وعلا عالم به، وسوف يحاسبهم عليه.

﴿**١٤١**﴾ قوله تعالى: ﴿**تلك أمة قد خلت لها ما كسبت...**﴾ الآية: قد سبق الكلام على نظيرها، وفوائدها.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إبطال دعوى هؤلاء اليهود، والنصارى أن إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، كانوا هوداً أو نصارى؛ فهذه الدعوى باطلة؛ بل وصفُ هؤلاء الإسلام؛ فإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط ليسوا هوداً، ولا نصارى؛ بل هم مسلمون لله سبحانه وتعالى.

٢ ـ **ومنها**: رد علم هذه الأشياء إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿**أأنتم أعلم أم الله**﴾.

٣ ـ **ومنها**: الرد على أهل التحريف في أسماء الله، وصفاته الذين يقولون: «إن هذا جائز عقلاً على الله؛ فنقر به؛ وهذا يمتنع عقلاً على الله؛ فلا نقر به» كالمعتزلة، والأشاعرة، ونحوهم؛ نقول لهم كلهم في الجواب: **﴿أأنتم أعلم أم الله﴾**: أأنتم أعلم بما يجوز على الله، ويمتنع عليه، ويجب له، أم الله أعلم بما يمتنع عليه، ويجب له، ويجوز له؟!!! وهذه في الحقيقة حجة ملزمة مفحمة مقحمة لهؤلاء الذين يتحكمون في صفات الله تعالى بعقولهم، فيقولون: «يجب لله كذا؛ يمتنع عليه كذا»؛ نقول: **﴿أأنتم أعلم أم الله﴾**.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: عظم كتم العلم؛ لقوله تعالى: **﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾**؛ فإن العالم بشريعة الله عنده شهادة من الله بهذه الشريعة، كما قال الله تعالى: **﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾** [آل عمران: ١٨]؛ فكل إنسان يكتم علماً فقد كتم شهادة عنده من الله؛ ثم إن في هذا عظم إثمه؛ لقوله تعالى: **﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾**.

٥ ـ **ومنها**: كمال علم الله، ومراقبته لعباده؛ لقوله تعالى: **﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾**.

٦ ـ **ومنها**: ثبوت الصفات المنفية؛ وهي ما نفاه الله سبحانه وتعالى عن نفسه؛ لقوله تعالى: **﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾**؛ فإن هذه صفة منفية، وليست ثبوتية؛ والصفات المنفية متضمنة لإثبات كمال ضدها؛ فلكمال مراقبته، وعلمه سبحانه وتعالى ليس بغافل عما نعمل.

٧ ـ **ومنها**: تخويف الإنسان، وإنذاره من المخالفة؛ لقوله

تعالى: ﴿**وما الله بغافل عما تعملون**﴾؛ فإياك والمخالفة؛ مثلما تهدد إنساناً بشيء تقول: لست بغافل عنك.

٨ ـ **ومنها**: إضافة العمل إلى العامل؛ ففيه رد على الجبرية الذين يقولون: «إن الإنسان مجبر على عمله»؛ لقوله تعالى: ﴿**عما تعملون**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾.

التفسير:

﴿١٤٢﴾ قوله تعالى: ﴿**سيقول السفهاء من الناس**﴾؛ ﴿**سيقول**﴾: السين للتنفيس؛ وإذا دخلت على المضارع أخلصته للمستقبل؛ المضارع إذا دخلت عليه «لم» أخلصته للماضي؛ وإذا دخلت عليه السين أخلصته للمستقبل؛ وإذا كان مجرداً فهو صالح للحاضر، والمستقبل؛ و﴿**سيقول**﴾ تفيد أيضاً مع الاستقبال تحقيق وقوع هذا الشيء، وتفيد أيضاً قرب هذا الشيء؛ بخلاف «سوف» فإنها تدل على المستقبل البعيد؛ و﴿**السفهاء**﴾ جمع سفيه؛ وهو الذي لا يحسن التصرف لنفسه؛ وكل من خالف الحكمة في تصرفه فهو سفيه؛ فهؤلاء السفهاء سفهاء في دينهم؛ وقد يكونون في المال جيدين؛ وسفه الدين بينه الله سبحانه وتعالى بقوله تعالى: ﴿**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه**﴾ [البقرة: ١٣٠].

وقوله تعالى: ﴿**من الناس**﴾ بيان للسفهاء؛ وهي في موضع نصب على الحال ـ يعني حال كونهم من الناس ـ.

قوله تعالى: ﴿**ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها**﴾ في موضع نصب على أنها مقول القول؛ و﴿**ما**﴾ اسم استفهام؛ يعني: أيّ شيء صرفهم ﴿**عن قبلتهم**﴾ أي ما يستقبلون؛ فقبلة الإنسان ما يستقبله؛ والمراد بها بيت المقدس؛ لأن الرسول ﷺ أول ما قدم المدينة صار متجهاً إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً؛ أو سبعة عشر شهراً[1] ـ يعني إما سنة وأربعة أشهر؛ أو سنة وخمسة أشهر؛ إذا كان مستقبلاً لبيت المقدس تكون الكعبة خلفه تماماً؛ لهذا يقول ابن عمر: «**رأيت النبي ﷺ يقضي حاجته مستدبر القبلة مستقبل الشأم**»[2].

قوله تعالى: ﴿**التي كانوا عليها**﴾ أي قبل أن يتجهوا إلى الكعبة؛ فأخبر الله عزّ وجلّ بما سيقول هؤلاء السفهاء، وأعلمه بالرد عليهم.

قوله تعالى: ﴿**قل لله المشرق والمغرب**﴾؛ ﴿**لله**﴾: خبر مقدم؛ و﴿**المشرق**﴾ مبتدأ مؤخر؛ وتقديم الخبر ـ وهو حقه التأخير ـ يفيد الحصر؛ يعني: لله وحده المشرق، والمغرب؛

---

(١) راجع البخاري ص٥، كتاب الإيمان، باب ٣٠: الصلاة من الإيمان...، حديث رقم ٤٠، وراجع صحيح مسلم ص٧٥٩، كتاب المساجد، باب ٢: تحويل القبلة من المقدس إلى الكعبة، حديث رقم ١١٧٧ [١٢] ٥٢٥.

(٢) أخرجه البخاري ص١٥، كتاب الوضوء، باب ١٤: التبرز في البيوت، حديث رقم ١٤٨، وأخرجه مسلم ص٧٢٣ ـ ٧٢٤، كتاب الوضوء، باب ١٧: الاستطابة، حديث رقم ٦١٢ [٦٢] ٢٦٦.

فهو الذي يوجه إن شاء إلى المشرق؛ وإن شاء إلى المغرب؛ وإن شاء إلى الشمال؛ وإن شاء إلى الجنوب؛ وخص المشرق، والمغرب؛ لأن منهما تطلع الشمس، وتغرب؛ و﴿**المشرق**﴾: مكان شروق الشمس، والقمر، والنجوم؛ و﴿**المغرب**﴾ محل غروبها.

قوله تعالى: ﴿**يهدي من يشاء**﴾ أي يدِلّ، ويوفق؛ و﴿**من يشاء**﴾ مفعول ﴿**يهدي**﴾؛ وهي عامة؛ ولكن كل شيء قيد بمشيئة الله فهو مقرون بالحكمة: يهدي من يشاء ممن هو أهل للهداية؛ و«**المشيئة**» هي الإرادة الكونية: فما شاء الله كان؛ وما لم يشأ لم يكن.

قوله تعالى: ﴿**إلى صراط مستقيم**﴾؛ «الصراط» الطريق الواسع الذي يسهل سلوكه؛ والمراد به هنا شريعة الله التي شرعها لعباده، و«**المستقيم**» الذي لا اعوجاج فيه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: علم الله تعالى بما سيكون؛ لقوله تعالى: ﴿**سيقول السفهاء**﴾.

٢ ـ **ومنها**: تحقق وقوع خبر الله عزّ وجلّ؛ لأنهم قالوا ذلك.

٣ ـ **ومنها**: من اعترض على حكم الله فهو سفيه.

٤ ـ **ومنها**: تسلية النبي ﷺ، وأصحابه، حيث أخبر الله تعالى أنه لا يعترض عليه في ذلك إلا سفيه.

٥ ـ **ومنها**: إعلام المرء بما يتوقع أن يكون ليستعد له؛ ومن ذلك أن النبي ﷺ لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: «**إنك**

تأتي قوماً أهل كتاب»؛ ليكون مستعداً[١].

٦ ـ **ومنها**: جواز تعليل الأحكام الشرعية بمقتضى الربوبية لإسكات الناس حتى لا يحصل منازعة؛ إذا قال أحد: لماذا كذا؟ قلت: الله ربك يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد؛ «لماذا أحل كذا، وحرم كذا؟» تقول: لأنه ربك؛ «لماذا توجه الناس من المشرق إلى المغرب؛ من المغرب إلى المشرق؛ من بيت المقدس إلى الكعبة؟» قلت: لأن ذلك بمقتضى ربوبية الله: ﴿**لله المشرق والمغرب**﴾.

٧ ـ **من فوائد الآية**: أن العدو يحتج على عدوه بما يثير نعرته، ويلزمه؛ لقوله تعالى: ﴿**عن قبلتهم**﴾؛ لم يقولوا: عن القبلة؛ كأنهم يقولون: كنتم تتولون ذلك فما الذي صرفكم عنه؟!! وهكذا قد يثير شعور الإنسان حتى يبقى على ما هو عليه، وكأنهم قالوا: بالأمس تختارونها، واليوم تنكرونها، وتنبذونها؛ فالخصم دائماً يُهيج خصمه بما يثير نعرته؛ ليوافقه فيما ذهب إليه.

٨ ـ **من فوائد الآية**: عموم ملك الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**لله المشرق والمغرب**﴾؛ فهو المالك سبحانه وتعالى للجهات يُصرِّف إليها العباد كيف يشاء؛ ونحن ليس علينا إلا السمع، والطاعة؛ أينما وجهنا توجهنا؛ هذا المهم؛ لا أن تتجه إلى كذا، أو إلى كذا؛ فالسجود لغير الله شرك؛ وكان بالنسبة للملائكة حين أمرهم الله بالسجود لآدم طاعة، وعبادة؛ وقتل النفس بغير حق ـ ولا سيما قتل الولد ـ من أكبر الكبائر؛ وحين أمر الله تعالى

---

(١) سبق تخريجه ١/١٤٨.

إبراهيم أن يذبح ابنه كان قربة، وعبادة؛ فالاعتبار بطاعة الله سبحانه وتعالى.

٩ ـ **من فوائد الآية**: إثبات مشيئة الله؛ لقوله تعالى: ﴿**يهدي من يشاء**﴾.

فإن قال قائل: هل في ذلك حجة للجبرية في قولهم: إن العبد مجبر على عمله؟

فالجواب: أنه لا حجة لهم في ذلك؛ لأن الاحتجاج ببعض القرآن دون بعض كفر به؛ فالقرآن من متكلم واحد؛ فمطلقه في موضع يقيد في موضع آخر؛ بل إن سنة الرسول ﷺ تقيد القرآن، وتبينه، وتخصصه؛ فإذاً لا دليل في هذه الآية للجبرية إلا من نظر بعين أعور؛ لأن الأعور ينظر من جانب العين الصحيحة؛ لكن من جانب العين العوراء لا يرى؛ والواجب أن ينظر الإنسان إلى النصوص بعينين ثاقبتين؛ وليس بعين واحدة؛ وقد دلت النصوص من الكتاب، والسنة على أن الإنسان له إرادة، واختيار، وقدرة، وأضافت أعماله إليه؛ وحينئذ لا يمكن أن يكون مجبراً.

١٠ ـ **من فوائد الآية**: أن الهداية بيد الله؛ لقوله تعالى: ﴿**يهدي من يشاء**﴾، ومنها: أنْ هدَى هذه الأمة إلى القبلة التي يرضاها الرسول ﷺ.

١١ ـ **ومنها**: الثناء على هذه الأمة؛ لأنها التي على صراط مستقيم؛ لأن أول من يدخل في قوله تعالى: ﴿**يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾ هؤلاء الذين تولوا عن بيت المقدس إلى الكعبة.

١٢ ـ **ومنها**: أن معارضة الشرع كما أنه سفه، فهو أيضاً

ضلال؛ لأن الشرع هو الصراط المستقيم ـ وهو الهداية؛ وما سواه ضلال، واعوجاج.

١٣ ـ **ومنها**: فضيلة هذه الأمة، حيث هداها الله إلى استقبال بيته الذي هو أول بيت وضع الناس.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

التفسير:

﴿١٤٣﴾ قوله تعالى: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً**﴾؛ الكاف هنا اسم بمعنى «مثل» في محل نصب على المفعولية المطلقة ـ أي: مثلَ ذلك؛ والمشار إليه ما سبق؛ وهو جعل القبلة إلى الكعبة؛ أي: مثلَ هذا الجعل الذي جعلنا لكم ـ وهو اتجاهكم إلى القبلة ـ جعلناكم أمة وسطاً.

وقوله تعالى: ﴿**جعلناكم**﴾ أي صيرناكم؛ والكاف مفعوله الأول؛ و﴿**أمة**﴾ مفعوله الثاني؛ و﴿**أمة**﴾ هنا بمعنى جماعة؛ وتطلق في القرآن على أربعة معانٍ، وسبق بيانها[1]؛ و﴿**وسطاً**﴾ أي عدلاً خياراً.

قوله تعالى: ﴿**لتكونوا شهداء على الناس**﴾؛ اللام في قوله: ﴿**لتكونوا**﴾ للتعليل؛ وليست للعاقبة؛ والفرق بين لام العاقبة،

---

(١) انظر ٢/ ٨١.

ولام التعليل: أن لام العاقبة تدخل على أمر غير مراد؛ لكن النتيجة آلت إليه؛ ولام التعليل تدخل على أمر مراد ليكون علة للحكم؛ و﴿**شهداء**﴾ جمع شهيد؛ أي تشهدون على الناس بأن الرسل قد بلغتهم؛ فمنهم من آمن، ومنهم من كفر.

قوله تعالى: ﴿**ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾: النبي ﷺ يشهد على أمته بأنه بلغ البلاغ المبين.

قوله تعالى: ﴿**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها**﴾ وهي استقبال بيت المقدس ﴿**إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه**﴾: المراد علم ظهور، أو علم يترتب عليه الجزاء؛ لأن علم الله الكائن في الأزل لا يترتب عليه الجزاء حتى يُمتحن العبد، ويُنظر؛ أو علم ظهور ـ أي علم بأن الشيء حصل، فيعلمه أنه حاصل؛ وأما العلم به قبل وقوعه فهو علم بأنه سيحصل؛ وفرق بين العلم بالشيء أنه سيحصل، والعلم بأنه قد حصل؛ وقد قال بعض أهل المعاني: إن ﴿**لنعلم**﴾ هنا بمعنى الماضي ـ أي إلا لعلمنا؛ والمعنى: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لعلمنا من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه؛ وهذا ـ وإن كان له وجه من حيث اللفظ؛ وهو أن يعبر بالمضارع عن الماضي أحياناً ـ لكنه ضعيف هنا من حيث المعنى؛ إذ لا حكمة من ذلك؛ لأنه يكون معنى الآية: وما جعلنا هذا إلا لأننا قد علمنا من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه؛ وحينئذ يقال: إذاً ما الفائدة؟! لأنه لا يناسب أن الله ما جعل هذه القبلة إلا لأنه قد علم من يبقى على دينه، ومن لا يبقى؛ فالصواب الوجهان الأولان؛ وأحسنهما أن يكون المراد بالعلم هنا الذي يترتب عليه الجزاء؛ لأنه الواضح وليس فيه تكلف.

وذكر بعض المعربين أن «**نعلم**» هنا ضمن معنى «نميز» بدليل

قوله تعالى: ﴿**ممن ينقلب**﴾؛ مثل: ﴿**ليميز الله الخبيث من الطيب**﴾ [الأنفال: ٣٧]؛ فقالوا: إن مثل هذا التقييد يدل على أن هذا الفعل للتمييز ـ أي لنميز من يتبع ممن ينقلب على عقبيه؛ وليس هذا ببعيد أن يكون الفعل ضمن معنى «نميز» مع أنه دال على العلم؛ إذ لا تمييز إلا بعد العلم؛ والفعل إذا ضمن معنى فعل آخر فإنه يدل على معناه الأصلي، وعلى معناه المضمن.

وقوله تعالى: ﴿**وما جعلنا**﴾: ﴿**ما**﴾ نافية؛ و﴿**جعلنا**﴾ يحتمل أن تكون بمعنى «صيرنا»؛ أو بمعنى «شرعنا»؛ فعلى الاحتمال الأول تحتاج إلى مفعولين؛ وعلى الثاني لا تحتاج إلى مفعولين؛ و«الجعل» يأتي بمعنى الشرع في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿**ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام**﴾ [المائدة: ١٠٣] أي ما شرع؛ وعلى هذا المعنى لا يبقى في الآية أيّ إشكال؛ يعني: ما شرعنا القبلة التي كنت عليها ـ وهي اتجاهك إلى بيت المقدس ـ إلا لنعلم من يتبع الرسول إذا صرفناك عنها ممن ينقلب على عقبيه؛ أما على احتمال أن تكون بمعنى «صيرنا» فإنها تحتاج إلى مفعولين؛ الأول: ﴿**القبلة**﴾؛ والتقدير: وما صيرنا القبلة التي كنت عليها قبلةً.

وقوله تعالى: ﴿**إلا لنعلم من يتبع الرسول**﴾؛ ﴿**إلا**﴾ أداة حصر؛ وهذا الاستثناء من أعم الأحوال؛ إذا كان الاستثناء مفرغاً يقولون: إنه استثناء من أعم الأحوال ـ يعني: ما جعلنا بأي حال من الأحوال هذه القبلة إلا لهذه الحال فقط لنعلم من يتبع؛ والمراد بـ﴿**الرسول**﴾ محمد ﷺ؛ وأظهر وصفه في موضع الإضمار تنويهاً بصدقه، وحثاً على اتباعه؛ إذ مقتضى السياق ـ لولا ذلك ـ أن يقال: إلا لنعلم من يتبعه.

والأصل في «الاتباع» المشي خلف الإنسان؛ وهو يختلف باختلاف السياق: إن تعلق بأمور حسية فمعناه: أنك تمشي خلفه في الشارع، وما أشبه ذلك؛ وإن تعلق بأمور معنوية يكون المراد به التأسي بأفعاله، وأقواله؛ وهنا علق بأمور معنوية؛ فيكون المراد به التأسي بأقواله وأفعاله.

وقوله تعالى: ﴿**ممن ينقلب على عقبيه**﴾ أشد مما لو قال: ممن لم يتبع الرسول؛ لأن الانقلاب على العقب أشد نفوراً، واستنكاراً ممن وقف.

قوله تعالى: ﴿**وإن كانت لكبيرة**﴾؛ الضمير يعود على الواقعة؛ يعني: وإن كانت هذه الواقعة ـ وهي تحويل القبلة ـ لكبيرة؛ و﴿**إن**﴾ هنا مخففة من الثقيلة؛ واسمها ضمير الشأن؛ والتقدير: وإنها كانت لكبيرة؛ واللام هنا للتوكيد؛ ويجوز أن نقول: إنها للفصل بين «إنْ» النافية، و«إنْ» المخففة؛ و﴿**كبيرة**﴾ أي عظيمة شاقة؛ فالكبَر يراد به الشيء الشاق العظيم؛ ومنه قوله ﷺ في صاحبَي القبرين: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير**»[1]، أي في أمر شاق عليهما.

قوله تعالى: ﴿**إلا على الذين هدى الله**﴾؛ ﴿**الذين**﴾ اسم موصول؛ والعائد ضمير منصوب محذوف؛ والتقدير: إلا على الذين هداهم الله؛ والمراد بالهداية هنا هداية العلم، وهداية التوفيق؛ أما كونها هداية العلم فلأن الذين يخشون الله هم العلماء، كما قال الله

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٠، كتاب الوضوء، باب ، حديث رقم ٢١٨، وأخرجه مسلم ص٧٢٧، كتاب الطهارة، باب ٣٤: الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، حديث رقم ٦٧٧ [١١١] ٢٩٢.

تعالى: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ [فاطر: ٢٨] أي العلماء به، وبأسمائه، وصفاته، وبأحكامه؛ هذه هي هداية العلم؛ لأنهم إذا علموا خشوا الله سبحانه وتعالى، ولم يكرهوا شريعته، ولم يكبر ذلك عليهم، ولم يشق؛ كذلك هداية التوفيق ـ وهي المهمة: إذا وفق العبد للانقياد لله سبحانه وتعالى سهل عليه دينه، وصار أيسر عليه من كل شيء، كما قال تعالى: ﴿**فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى**﴾ [الليل: ٥ ـ ٧].

قوله تعالى: ﴿**هدى الله**﴾: أضاف الفعل إلى نفسه؛ لأن كل شيء بقضاء الله، وقدره.

قوله تعالى: ﴿**وما كان الله ليضيع إيمانكم**﴾؛ اللام في قوله تعالى: ﴿**ليضيع**﴾ يسمونها لام الجحود؛ و«الجحود» يعني النفي؛ وهذه اللام لها ضابط؛ وهو أن تقع بعد «كون» منفي؛ فاللام التي تأتي بعد «كون» منفي تسمى لام الجحود؛ هذا من جهة الإعراب؛ أما من جهة المعنى فكلما جاءت «ما كان الله...» في القرآن فهي الأمر الممتنع غاية الامتناع؛ مثل: «لا ينبغي»، أو «ما ينبغي» فالمراد أنه ممتنع مستحيل، كقوله تعالى: ﴿**لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر**﴾ [يس: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿**وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً**﴾ [مريم: ٩٢] أي ممتنع مستحيل؛ وقوله ﷺ: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام**»[1]، المعنى: أنه مستحيل.

قوله تعالى: ﴿**ليضيع إيمانكم**﴾؛ «**يضيع**» بمعنى يتركه سدًى

---

(١) أخرجه مسلم ص٧٠٩، كتاب الإيمان، باب ٧٩: في قوله عليه السلام: «إن الله لا ينام»...، حديث رقم ٤٤٥ [٢٩٣] ١٧٩.

بدون مجازاة عليه؛ والمراد بـ﴿إيمانكم﴾ صلاتهم إلى بيت المقدس؛ وهذا عام للذين ماتوا قبل تحويل القبلة، ومن بقوا حتى حولت؛ وقد ذكر بعض المفسرين أن سبب نزول هذه الآية أن اليهود صاروا يقولون للمسلمين: الذين صلوا منكم قبل تحويل القبلة ضاعت صلاتهم، وليس لهم فيها ثواب؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾.

قوله تعالى: ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾؛ ﴿لرؤوف﴾ فيها قراءتان: ﴿لرؤف﴾ بحذف الواو بعد الهمزة؛ و﴿لرؤوف﴾ بإثبات الواو بعد الهمزة؛ وكلتاهما قراءتان سبعيتان؛ هذه الجملة مؤكدة بمؤكدين؛ أحدهما: ﴿إنّ﴾؛ والثاني: اللام، و﴿لرؤوف﴾ قال العلماء: إن الرأفة أشد الرحمة؛ فهي رحمة خاصة؛ و﴿رحيم﴾ أي متصف بالرحمة؛ وقالوا: إنه قدمت ﴿لرؤوف﴾ على ﴿رحيم﴾ ـ مع أن «الرؤوف» أبلغ ـ من أجل مراعاة الفواصل؛ وقال تعالى: ﴿رحيم﴾ لأن هذا يتعلق بفعله ـ أي برحمته الخلق.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: فضيلة هذه الأمة حيث هداها الله إلى استقبال بيته الذي هو أول بيت وضع للناس؛ وروى الإمام أحمد في مسنده أن مما يحسدنا عليه اليهود القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها؛ فهم يحسدوننا على هذه الخصلة؛ وكذلك على يوم الجمعة، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين[1]؛ المهم أن استقبال

---

(١) أخرجه أحمد ص١٨٦٩، حديث رقم ٢٥٥٤٣؛ وفيه علي بن عاصم شيخ الإمام أحمد؛ قال يعقوب بن شيبة: «كان من أهل الدين، والصلاح، والخير البارع، وكان شديد التوقي، أُنكر عليه كثرة الغلط، والخطأ مع =

القبلة مما حسدونا عليه؛ لأن الكعبة أول بيت وضع للناس، وأعظم بيت في الأرض؛ ولا يوجد بيت قصده ركن من أركان الإسلام للحج إلا الكعبة؛ ولذلك حسدنا اليهود عليها، وأثاروا ضجة عظيمة على التولي عن قبلتهم إلى الكعبة، وصاروا مع من يناصرهم من المشركين؛ أحدثوا أمراً عظيماً حتى إن بعض المسلمين ارتد ـ والعياذ بالله ـ عن الإسلام لما سمع من زخرف القول من هؤلاء اليهود، وغيرهم.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: فضل هذه الأمة على جميع الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿**وسطاً**﴾.

٣ ـ **ومنها**: عدالة هذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿**لتكونوا شهداء على الناس**﴾؛ والشهيد قوله مقبول؛ والمراد بـ«**الأمة**» هنا أمة الإجابة؛ ومن هنا نعرف حذق أهل الفقه، حيث قالوا: إن «العدل» من استقام على دين الله؛ يعني: هذه الأمة أمة وسط إذا كانت على دين الرسول ﷺ فتكون شهيداً، وتقبل شهادتها إذا استقامت على دين الله، وكانت أمة حقيقية؛ فعلية يؤخذ من هذا حدّ «العدل»: أن العدل من استقام على دين الله.

٤ ـ **من فوائد الآية**: أن هذه الأمة تشهد على الأمم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿**لتكونوا شهداء على الناس**﴾؛ والشهادة تكون في الدنيا، والآخرة؛ فإذا حشر الناس، وسئل الرسل: هل

= تماديه على ذلك» (ميزان الاعتدال ٣/ ١٣٥)؛ وقال الألباني: «ولذلك ضعفه جمهور أئمة الحديث، وكذبه ابن معين وغيره»، (سلسلة الأحاديث الضعيفة ٣/ ٤٤٣)؛ وقال أحمد: «هو والله عندي ثقة، وأنا أحدث عنه» (الكامل في ضعفاء الرجال ٦/ ٣٢٦).

بلغتم؟ فيقولون: نعم؛ ثم تسأل الأمم: هل بُلِّغتم؟ فيقولون: ما جاءنا من بشير، ولا نذير؛ ما جاءنا من أحد؛ فيقال للرسول: من يشهد لك؟ فيقول: «محمد، وأمته»؛ يُستشهدون يوم القيامة، ويَشهدون؛ فيكونون شهداء على الناس.

فإذا قال قائل: كيف تشهد وهي لم تر؟ نقول: لكنها سمعت عمن خبره أصدق من المعاينة ـ صلوات الله وسلامه عليه.

٥ ـ **من فوائد الآية**: أن نبينا ﷺ يكون شهيداً علينا يوم القيامة ـ شهيداً علينا بالعدالة؛ وقيل: شهيداً علينا بأنه بلغ البلاغ المبين؛ وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال يوم عرفة في أعظم مجمع حصل له مع الصحابة: «**ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم؛ قال: اللهم اشهد؛ ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم؛ قال: اللهم اشهد؛ ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم؛ قال: اللهم اشهد**»[1]؛ فأشهد النبي ﷺ ربه على إقرار أمته بالبلاغ؛ نعم؛ لقد بلغ البلاغ المبين ﷺ، فترك أمته على المحجة البيضاء؛ وما مات حتى أكمل الله به الدين؛ وما بقي شيء يحتاج الناس إليه في دينهم صغيراً كان، أو كبيراً إلا بينه ﷺ بياناً واضحاً ـ والحمد لله ـ فالرسول ﷺ شهيد على هذه الأمة؛ قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿**فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً**﴾ [النساء: ٤١]، يعني: كيف تكون الحال في ذلك اليوم عظيم؛ ولهذا لما قرأ ابن مسعود على النبي ﷺ، ووصل

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٩٠، كتاب الفتن، باب ٨: قول النبي ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً»...، حديث رقم ٧٠٧٨، وأخرجه مسلم ص٨٨٠ ـ ٨٨١، كتاب الحج، باب ١٩: حجة النبي ﷺ، حديث رقم ٢٩٥٠ [١٤٧] ١٢١٨.

إلى هذه الآية قال له النبي ﷺ: «**حسبك**» يعني: قف؛ قال: «**فإذا عيناه ﷺ تذرفان**»[(١)]؛ لأن الأمر العظيم؛ فالنبي ﷺ شهيد علينا؛ يشهد بأننا بُلِّغنا، وأقيمت علينا الحجة، وما بقي لنا عذر بأيّ وجه من الوجوه؛ ولهذا لا عذر لأحد بعد أن يتبين له الهدى أن يشاق الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿**ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً**﴾ [النساء: ١١٥].

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿**ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾.

٧ ـ **ومنها**: أنه لا رسول بعده؛ لأن «**أل**» هنا للعهد، وهو يخاطب هذه الأمة؛ فالرسول المعهود فيها واحد؛ وهو محمد ﷺ؛ ويلزم من ذلك أن لا يكون بعده رسول.

٨ ـ **ومنها**: أن الله سبحانه وتعالى قد يمتحن العباد **بالأحكام الشرعية** إيجاباً، أو تحريماً، أو نسخاً؛ لقوله تعالى: ﴿**ما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه**﴾؛ فلينتبه الإنسان لهذا؛ فإن الله قد يبتليه بالمال بأن يعطيه مالاً ليبلوه أيقوم بواجبه، أم لا؛ وهذه محنة؛ لأن غالب من ابتلي بالمال طغى من وجه، وشح من وجه آخر؛ ثم اعتدى في تمول المال؛ فضَلَّ في تموله، والتصرف فيه، وتصريفه؛ وقد

---

(١) أخرجه البخاري ص٤٣٧، كتاب فضائل القرآن، باب ٣٣: قول المقرئ للقارئ «حسبك»؛ وأخرجه مسلم ص٨٠٣، كتاب صلاة المسافرين، باب ٤٠: فضل استماع القرآن...، حديث رقم ١٨٦٧ [٢٤٧] ٨٠٠؛ واللفظ للبخاري.

يبتليه بالعلم؛ فيرزقه علماً ليبلوه أيعمل به، أم لا؛ ثم هل يعلمه الناس، أم لا؛ ثم هل يدعو به إلى سبيل الله، أم لا؛ فليحذر من آتاه الله علماً أن يخل بواحد من هذه الأمور.

وكذلك قد يمتحن العباد **بالأحكام الكونية**؛ ومنها ما يجري على العبد من المصائب.

ومن امتحانه **بهما** أن الله حرم الصيد على المحرِم، ثم أرسله على الصحابة وهم محرِمون حتى تناله أيديهم، ورماحهم.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: وجوب اتباع الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿**لنعلم من يتبع الرسول**﴾؛ فالله امتحن العباد ليعلم هل يتبعون الرسول؛ والصحابة رضي الله عنهم اتبعوا الرسول ﷺ في ذلك أشد الاتباع: جاءهم رجل وهم يصلون الفجر في قباء وهم ركوع، فقال: «**إن النبي ﷺ قد أُنزل عليه الليلة القرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشأم؛ فاستداروا إلى الكعبة**»[(١)]؛ هذا هو الاتباع العظيم؛ وكذلك فعل بنو سلمة في مسجد القبلتين[(٢)]؛ إذاً فاتباع الرسول واجب؛ وإلا لما احتيج إلى محنة الناس عليه.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات علم الله؛ لقوله تعالى: ﴿**لنعلم**﴾؛ وعلم الله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿**لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً**﴾ [الطلاق: ١٢].

---

(١) أخرجه البخاري ص٣٥، كتاب الصلاة، باب ٣٢: ما جاء في القبلة...، حديث رقم ٤٠٣، وأخرجه مسلم ص٧٥٩ ـ ٧٦٠، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ٢: تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، حديث رقم ١١٧٨ [١٣] ٥٢٦.

(٢) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٤١ ـ ٢٤٢.

١١ ـ **ومنها**: أن الردة عن الإسلام انقلاب؛ لقوله تعالى: ﴿**ممن ينقلب على عقبيه**﴾؛ فإن بعض الذين أسلموا ارتدوا حينما تحولت القبلة إلى الكعبة؛ وقالوا: «إن محمداً ليس على يقين من أمره: بالأمس له قبلة؛ واليوم له قبلة»؛ وما علموا أن ذلك مما يؤيد رسالته؛ لأن الإنسان الكذاب يحرص على أن لا يتراجع؛ لأن التراجع وصمة فيه؛ لكن الإنسان الصدوق لا يهتم أن يقول ما أوحي إليه، سواء وافق ما كان عليه أولاً، أو خالف.

١٢ ـ **ومنها**: أن التقدم حقيقة إنما يكون بالإسلام، وأن الرجعية حقيقة إنما تكون بمخالفة الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿**ممن ينقلب على عقبيه**﴾؛ فإن هذا حقيقة الرجوع على غير هدًى؛ لأن الذي ينقلب على عقبيه لا يبصر ما وراءه؛ فمن قال للمتمسكين بكتاب الله وسنة رسوله رجعيون، قلنا له: بل أنت الرجعي حقيقة؛ لأن الله سمى مخالفة الرسول ﷺ انقلاباً على العقب؛ ولا أبلغ من هذا الرجوع أن الإنسان يرجع على عقبيه رجوعاً أعمى ـ والعياذ بالله ـ لا يدري ما وراءه.

١٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن تغيير القبلة شاق إلا على طائفة معينة من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿**وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله**﴾؛ وهذا يقع كثيراً للإنسان: تشق عليه بعض الأوامر الشرعية، واجتناب بعض النواهي الشرعية؛ لكن بتمام الإيمان تزول هذه المشقة، وتكون سهلة؛ والعلماء اختلفوا: أيهما أفضل رجل يفعل العبادة بمشقة، ويترك المعصية بمشقة؛ وآخر يفعل العبادة بيسر، ويترك المعصية بيسر؛ قال بعض العلماء: الأول أفضل؛ لأنه مجاهد يجاهد نفسه، فيتعب؛ وقال آخرون: بل

الثاني أفضل؛ لأن العبادة كأنها امتزجت بدمه ولحمه، حتى صارت سجية له، ويسيرة عليه لا ينشرح صدره إلا بها؛ والصحيح أن يقال: أما الذي يفعلها بسهولة، ويسر، وانقياد فهذا أكمل حالاً بلا شك؛ لأنه مطمئن بالإيمان فرح بالطاعة؛ أما الثاني فحاله أدنى؛ ولكنه يؤجر على مجاهدة نفسه على الطاعة؛ وعلى ترك المعصية؛ على أن هذا الثاني الذي قلنا: إنه مفضول، وله أجر المشقة ربما يمن الله عزّ وجلّ عليه ـ وهو أكرم الأكرمين ـ حتى تكون العبادة في نفسه سهلة، ويفعلها بارتياح؛ وهذا هو معنى قول بعض أهل العلم: طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله؛ فالإنسان قد يفعل العبادة في البداية بمشقة، ويكون عنده نوع من التعب في تنفيذها؛ لكن إذا علم الله من نيته صدق القصد والطلب، يسر الله له الطاعة حتى كانت سجية له.

١٤ ـ **ومن فوائد الآية**: إظهار منة الله عزّ وجلّ على من هداه الله؛ لأنه نسب الهداية إليه؛ لقوله تعالى: ﴿**إلا على الذين هدى الله**﴾؛ وهذه أعظم منة منَّ الله بها عليه أن هداه للإسلام؛ فيجب أن يشعر بها الإنسان؛ لا يمنّ بدينه على ربه؛ بل يعتقد أن المنة لله عليه، كما قال تعالى: ﴿**يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين**﴾ [الحجرات: ١٧]؛ فكم من أناس ضلوا عن الحق مع بيانه، ووضوحه؛ وهم كثيرون؛ بل هم الأكثر، كما قال تعالى: ﴿**وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله**﴾ [الأنعام: ١١٦]؛ وانظر إلى الفضل، والكرم: هو الذي منّ علينا بالهداية، ثم يقول في سورة الرحمٰن: ﴿**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان**﴾ [الرحمٰن: ٦٠]؛ فكأننا نحن الذين أحسنا؛ فأحسن إلينا بالجزاء مع

أن له الإحسان أولاً، وآخراً؛ هو الذي أحسن إلينا أولاً، وأحسن إلينا آخراً؛ ولكن هذه مِن منَّته سبحانه وتعالى، ومِن شكره لسعي عبده، كما قال تعالى: ﴿**إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً**﴾ [الإنسان: ٢٢].

١٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر عمل عامل إذا كان مبنياً على الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿**وما كان الله ليضيع إيمانكم**﴾؛ كل عمل تعمله صادر عن إيمانه فإنه لن يضيع؛ ستجده مسجلاً ـ قولاً كان، أو فعلاً، أو همّاً بالقلب، كما قال النبي ﷺ: «**من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة**»[1].

١٦ ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: «**الرؤوف**» و«**الرحيم**»، وما تضمناه من الصفة؛ وهي الرأفة، والرحمة.

١٧ ـ **ومنها**: إثبات عموم الرحمة لكل الناس؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الله بالناس لرؤوف رحيم**﴾؛ وهذه هي الرحمة العامة التي بها يعيش الناس في دنياهم برزق الله من طعام، وشراب، وكسوة، وغيرها؛ وأما الرحمة الخاصة فهي للمؤمنين خاصة؛ وبها يحصل سعادة الدنيا، والآخرة، كالعلم والإيمان المثمرَين لطاعة الله، ورسوله.

١٨ ـ **ومنها**: أن العمل من الإيمان، لقوله تعالى: ﴿**وما كان الله ليضيع إيمانكم**﴾؛ فإنها فسرت بالصلاة إلى بيت المقدس؛ وهذا مذهب أهل السنة والجماعة: أن العمل داخل في

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٤٤، كتاب الرقاق، باب ٣١: من هم بحسنة أو سيئة، حديث رقم ٦٤٩١، وأخرجه مسلم ص٧٠٠، كتاب الإيمان، باب ٥٩: إذا هم العبد بحسنة...، حديث رقم ٣٣٨ [٢٠٧] ١٣١.

الإيمان؛ وهذا أحد أدلتهم؛ ومن الدليل على ذلك قوله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة؛ فأفضلها قول: لا إله إلا الله؛ وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق؛ والحياء شعبة من الإيمان**»[1]؛ فقول: «**لا إله إلا الله**» من أعمال اللسان؛ و«**إماطة الأذى عن الطريق**» من أعمال الجوارح؛ وقوله ﷺ: «**الحياء شعبة من الإيمان**» من أعمال القلوب؛ كما أن الإيمان أيضاً يطلق على الاعتقاد؛ لقوله ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله**»[2]؛ فقوله ﷺ: «**أن تؤمن بالله**» هذا اعتقاد القلب؛ فالإيمان عند أهل السنة والجماعة يشمل: اعتقاد القلب، وقول اللسان، وعمل القلب، وعمل الجوارح؛ ووجه كون الأعمال من الإيمان أنها صادرة عن إيمان؛ الإيمان هو الذي حمل عليها، ولهذا لا يعد عمل المنافق من الإيمان؛ عمل المنافق ـ صلاته، وذكره لله؛ ونفقاته ـ لا يُعَدّ من الإيمان؛ لأنه صادر عن غير إيمان.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

التفسير:

﴿١٤٤﴾ قوله تعالى: ﴿**قد نرى تقلب وجهك في السماء**﴾؛

---

(١) أخرجه مسلم ص٦٨٧، كتاب الإيمان، باب ١٢: بيان عدد شعب الإيمان...، حديث رقم ١٥٣ [٥٨] ٣٥.

(٢) سبق تخريجه ١/ ٢٠١.

﴿**قد**﴾ هنا للتحقيق؛ و﴿**نرى**﴾ فعل مضارع عبر به عن الماضي؛ لأن النبي ﷺ كان يكرر تقلب وجهه في السماء؛ فأتى بالفعل المضارع للدلالة على استمرار رؤية الله له كما استمر تقلب وجه النبي ﷺ في السماء ترقباً لنزول جبريل بتحويل القبلة إلى الكعبة؛ وقيل: إنه فعل مضارع على بابه، فيكون إخباراً بأن الله سيرى تقلب وجهه، ثم يحوله إلى القبلة التي يرضاها؛ وهذا أقرب إلى ظاهر اللفظ.

قوله تعالى: ﴿**فلنولينك**﴾ الفاء للتفريع؛ لأن ما بعدها مفرع على ما قبلها؛ واللام موطئة للقسم؛ فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات؛ وهي القسم المقدر، واللام، والنون؛ وقوله: ﴿**فلنولينك**﴾ أي فلنوجهنَّك؛ وقيل: فلنحولنَّك إلى ﴿**قبلة ترضاها**﴾؛ ونكِّرت ﴿**قبلة**﴾ للتعظيم؛ و﴿**ترضاها**﴾ أي تطمئن إليها، وتحبها، وتقبلها؛ والرسول ﷺ قَبِل القبلة الأولى، ورضيها قبل أن يحول إلى الكعبة؛ لكنه يحب أن يحول إلى الكعبة.

قوله تعالى: ﴿**فول وجهك**﴾ أي استقبل بوجهك؛ و«**وجه**» مفعول أول؛ و﴿**شطر**﴾ مفعول ثان؛ والمراد بـ«**الشطر**» هنا الجهة؛ يعني: جهة المسجد الحرام؛ والمراد بـ«**الوجه**» جميع البدن؛ لأن البدن بهيئته وطبيعته إذا استقبل الوجه جهة صار جميع البدن مستقبلاً لها.

قوله تعالى: ﴿**المسجد الحرام**﴾؛ «المسجد» في الأصل مكان السجود؛ وقيل: إن «المسجَد» بفتح الجيم: مكان السجود؛ و«المسجِد» بكسر الجيم: المكان المعد للسجود؛ فيكون بينهما فرق: هو أن المكان المبني المعَدّ للسجود يسمى مسجِداً ـ بالكسر ـ

وأما المكان الذي سجدت فيه بالفعل فيسمى مسجَداً ـ بالفتح.

وقوله تعالى: ﴿الحرام﴾ صفة مشبهة من الحُرم؛ وهو المنع؛ وسمي «حراماً»؛ لأنه يمنع فيه من أشياء لا تمنع في غيره، ولأنه محترم معظم؛ والمراد به الكعبة، وما حولها من البناء المعروف.

قوله تعالى: ﴿وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾؛ عدل عن الخطاب للنبي ﷺ إلى الخطاب لأمته؛ لأن الخطاب الموجه للنبي ﷺ خطاب له، وللأمة؛ إذ إنه الإمام؛ والخطاب إذا وجه للإمام فهو خطاب له، ولمن اتبعه؛ ونظير ذلك أن الوزير مثلاً يقول للقائد: اتجه إلى كذا؛ المعنى: اتجه، ومن يتبعك من الجنود؛ فهكذا الخطاب الموجه للرسول ﷺ يكون له، وللأمة؛ ونظير هذا قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ [الطلاق: ١]؛ فخاطب النبي ﷺ أولاً، ثم قال تعالى: ﴿إذا طلقتم﴾؛ **لأن الحكم له، ولأمته.**

قوله تعالى: ﴿حيث﴾ ظرف مكان لكنها شرطية زيدت عليها ﴿ما﴾ لفظاً لا معنًى للتوكيد؛ و﴿كنتم﴾ فعل الشرط؛ وجواب الشرط قوله تعالى: ﴿فولوا وجوهكم﴾.

قوله تعالى: ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب﴾؛ المراد بـ﴿الكتاب﴾ الجنس؛ وهو التوراة، والإنجيل؛ والذين أوتوه هم اليهود، والنصارى.

قوله تعالى: ﴿ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾؛ اللام للتوكيد؛ فالجملة إذاً مؤكدة بـ﴿إن﴾، واللام؛ و«العِلم» إدراك الشيء إدراكاً جازماً مطابقاً للواقع.

وقوله تعالى: ﴿**أنه الحق**﴾ أي استقبالك المسجد الحرام الحق؛ و﴿**الحق**﴾ معناه الشيء الثابت؛ فإن أضيف إلى الخبر فهو الصدق؛ وإن أضيف إلى الحكم فهو العدل؛ قال الله تعالى: ﴿**وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلًا**﴾ [الأنعام: ١١٥].

قوله تعالى: ﴿**من ربهم**﴾؛ «**الرب**» الخالق المالك الكامل السلطان المدبر لجميع الأمور.

قوله تعالى: ﴿**وما الله بغافل عما يعملون**﴾؛ ﴿**ما**﴾ هنا حجازية؛ لأن القرآن بلغة قريش؛ والدليل على هذا قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿**ما هذا بشراً**﴾ [يوسف: ٣١]؛ ولم يقل: «**بشر**»؛ فالقرآن بلغة قريش؛ وقريش حجازيون؛ و﴿**ما**﴾ عندهم تعمل عمل «ليس».

وقوله تعالى: ﴿**بغافل**﴾: الباء زائدة إعراباً مفيدة معنًى ـ وهو التوكيد؛ و﴿**غافل**﴾ خبر ﴿**ما**﴾ منصوب بها؛ وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد؛ و«**الغفلة**» اللهو والسهو عن الشيء.

وقوله تعالى: ﴿**عما يعملون**﴾: «**ما**» اسم موصول تفيد العموم؛ يعني: عن أيّ عمل يعملونه سواء كان يتعلق بالجوارح، أو يتعلق بالقلوب؛ فيشمل الاعتقاد، ويشمل القول، والفعل.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إثبات رؤية الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**قد نرى تقلب وجهك في السماء**﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن النظر إلى السماء ليس سوء أدب مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿**قد نرى تقلب وجهك في السماء**﴾؛ لكن في الصلاة لا يرفع بصره إلى السماء؛ لورود الوعيد الشديد به.

٣ ـ **ومنها**: إثبات علو الله؛ لأن الرسول ﷺ يقلب وجهه في السماء؛ لأن الوحي يأتيه من السماء.

٤ ـ **ومنها**: كمال عبودية الرسول ﷺ لربه، حيث كان يحب أن يتوجه إلى الكعبة؛ لكنه لم يفعل حتى أُمر بذلك.

٥ ـ **ومنها**: إثبات عظمة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿**فلنولينك قبلة**﴾؛ فإن ضمير الجمع للتعظيم.

٦ ـ **ومنها**: أن النبي ﷺ كان يحب أن يتوجه إلى الكعبة؛ لقوله تعالى: ﴿**ترضاها**﴾ مع قوله تعالى: ﴿**قد نرى تقلب وجهك**﴾.

٧ ـ **ومنها**: وجوب الاتجاه نحو المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿**فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام**﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن الوجه أشرف الأعضاء حيث عبر به عن سائر الجسم.

٩ ـ **ومنها**: ما استدل به المالكية على أنه ينبغي للمصلي أن ينظر تلقاء وجهه؛ لقوله تعالى: ﴿**فول وجهك شطر المسجد الحرام**﴾؛ فإذا ولّى الإنسان وجهه شطر المسجد الحرام فسيكون نظره تلقاء وجهه غالباً؛ وهذه المسألة اختلف فيها أهل العلم: ماذا ينظر إليه المصلي حال القيام؟ فالمشهور عن المالكية أن المصلي ينظر تلقاء وجهه؛ وعند الإمام أحمد أنه ينظر إلى موضع سجوده ـ وهو مذهب الشافعي، وأبي حنيفة؛ واستدلوا لذلك بأثر مرسل عن محمد بن سيرين أن النبي ﷺ **كان يطأطئ رأسه، وينظر إلى موضع سجوده**[1]؛ ولأنه أظهر في الخشوع؛ وقال بعض

(١) راجع تفسير الطبري ١٩/٨.

العلماء: إن الإمام والمنفرد ينظران إلى موضع السجود؛ وأما المأموم فينظر إلى إمامه ـ بكسر الهمزة؛ واستدلوا لذلك بأحاديث في البخاري؛ وهي أن الرسول ﷺ حينما صلى صلاة الكسوف، وأخبر أصحابه بأنه عرضت عليه الجنة والنار قال لهم: «**وذلك حين رأيتموني تقدمت وتأخرت**»[(١)]؛ وهذا دليل على أنهم ينظرون إليه؛ ومنها أنه لما صنع له المنبر قام يصلي عليه، فكان يقوم، ويركع؛ فإذا أراد السجود نزل، وسجد على الأرض؛ وقال: «**إنما فعلت هذا لتأتموا بي، ولتعلَّموا صلاتي**»[(٢)]؛ وهذا دليل على أنهم ينظرون إليه؛ ومنها أيضاً أنهم لما أخبروا أن الرسول ﷺ كان يقرأ في صلاة السر؛ قيل لهم: بم تعرفون ذلك؟ قالوا: «**باضطراب لحيته**»[(٣)]؛ وهذه كلها في الصحيح؛ فهذا دليل على أن المأموم ينظر إلى إمامه؛ ولأنه أبلغ في الائتمام به؛ لأن الإمام قد يقوم، وقد يجلس ساهياً مثلاً؛ فإذا كان المأموم ينظر إلى الإمام كان ذلك أبلغ في الاقتداء به؛ أما الإمام، والمنفرد فإنهما ينظران

---

(١) أخرجه البخاري ص٩٤، كتاب الجمعة، باب ١١: إذا انفلتت الدابة في الصلاة، حديث رقم ٢١٢؛ وأخرجه مسلم ص٨٢٠، كتاب الكسوف، باب ٣: ما عرض على النبي في صلاة الكسوف...، حديث رقم ٢١٠٢ [١٠] ٩٠٤.

(٢) أخرجه البخاري ص٧٢، كتاب الجمعة، باب ٢٦: الخطبة على المنبر، حديث رقم ٩١٧؛ وأخرجه مسلم ص٧٦٢، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ١٠: جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة...، حديث رقم ١٢١٦ [٤٤] ٥٤٤.

(٣) أخرجه البخاري ص٥٩، كتاب الأذان، باب ٩١: رفع البصر إلى الإمام في الصلاة، حديث رقم ٧٤٦.

إلى موضع السجود؛ وهذا القول أقرب؛ ولا سيما إذا كان المأموم محتاجاً إلى ذلك، كما لو كان لا يسمع، فيريد أن ينظر إلى الإمام ليقتدي به، أو نحو ذلك.

لكن يستثنى من ذلك إذا كان جالساً؛ فإنه ينظر إلى موضع إشارته؛ لقول عبد الله بن الزبير: «**كان النبي ﷺ لا يجاوز بصره إشارته**»[1]؛ ومما يستثنى من ذلك عند بعضهم: إذا كنت في المسجد الحرام ويمكنك مشاهدة الكعبة؛ فإنك تنظر إلى الكعبة؛ ومنها إذا كنت في خوف وحولك العدو؛ فإنك تنظر إلى جهة العدو؛ فهذه المسائل الثلاث تستثنى؛ والراجح في مسألة الكعبة أن المصلي لا ينظر إليها حال صلاته؛ لعدم الدليل على ذلك؛ ولأنه ربما ينشغل به عن صلاته، لا سيما إذا كان الناس يطوفون حولها؛ وأما استثناء الصلاة حال الخوف فصحيح؛ لدخوله في عموم قوله تعالى: ﴿**وخذوا حذركم**﴾؛ وقد ورد عن النبي ﷺ **أنه بعث طليعة؛ فكان يصلي وهو يلتفت إلى الشعب هل جاء الطليعة أم لا**[2].

---

(١) أخرجه أبو داود ص١٢٩٦، كتاب الصلاة، باب ١٨٠: الإشارة في التشهد، حديث رقم ٩٩٠، وأخرجه النسائي ص٢١٧٠ كتاب السهو، باب ٣٩: موضع البصر عند الإشارة...، حديث رقم ١٢٧٦، وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه ١/٣٥٥، باب ٢٢٦: النظر إلى السباب ة، حديث رقم ٧١٨، وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح (١/٤٠٧).

(٢) أخرجه أبو داود ص١٢٩٠، كتاب الصلاة، باب ١٦٣: الرخصة في ذلك، حديث رقم ٩١٦، وأخرجه ابن خزيمة ١/٢٤٦، باب ٩٣: ذكر الدليل على أن الالتفات المنهي عنه في الصلاة...، حديث رقم ٤٨٥، وأخرجه الحاكم في مستدركه ٢/٨٣ ـ ٨٤، كتاب الجهاد، وقال الحاكم =

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: عظمة هذا المسجد لوصفه بالحرام ـ أي ذي الحرمة والتعظيم ـ ولهذا كان من يدخله آمناً، ولا يدخله أحد إلا بإحرام وجوباً إن كان لم يؤد الفرض؛ أو استحباباً إن كان قد أداه ـ بخلاف غيره؛ فكل شيء فيه حياة فهو آمن داخل الحرم ـ حتى الجماد: فالشجر آمن لا يجوز قطعه في الحرم؛ والصيد آمن لا يقتل في الحرم؛ بل ولا ينفر من مكانه.

١١ ـ **ومنها**: وجوب الاتجاه إلى القبلة في أيّ مكان كان الإنسان: من بر، أو بحر، أو جو؛ لقوله تعالى: ﴿**وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره**﴾؛ ويشمل من كان في مكة، ومن كان بعيداً عنها، ومن كان في جوف الكعبة؛ لعموم قوله تعالى: ﴿**وحيث ما كنتم**﴾؛ إذاً إذا كان في جوف الكعبة يستقبل أمام وجهه من أيّ الجهات كان؛ إلا أن بعض أهل العلم يقول: لا يستقبل الباب إذا كان مفتوحاً ما لم يكن له عتبة؛ لأنه لابد من شاخص يكون بين يديه حتى يصح أن يقال: إنه ولّى وجهه شطره؛ وإذا كنا خارج الكعبة ـ ولكن في المسجد ـ فإنا ندور حوله؛ لأننا لو استقمنا في صف مستقيم لم نوَلّ وجوهنا شطره؛ ويكون من خرج عن مسامتته ولّى وجهه جهة غيره؛ لأنه محصور الآن؛ وإذا ابتعدنا فإن بعض العلماء يقول: إن كنت في مكة فاستقبل المسجد؛ وإن كنت خارج مكة فاستقبل مكة؛ لكن هذا

= (صحيح على شرط الشيخين غير أنهما لم يخرجا لسهل لقلة رواية التابعين عنه)؛ وأقره الذهبي؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: (صحيح) ١/٢٥٦.

تقريبي؛ إنما الصواب في هذه المسألة أن من أمكنه مشاهدة عين الكعبة وجب عليه استقبال العين ـ لا يخرج عن مسامتتها؛ ومن لا يمكن مشاهدتها لبعد، أو حيلولة شيء دونها استكفى بالجهة؛ لقوله تعالى: ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ويسقط استقبال القبلة في مواضع؛ منها:

أ ـ عند صلاة النفل في سفر؛ فيصلي حيث كان وجهه.

ب ـ عند الخوف الشديد إذا كان لا يمكن استقبال القبلة.

ج ـ إذا كان عاجزاً عن استقبال القبلة لمرض ـ أو صلب ـ يعني: لو صلب إلى غير القبلة، أو نحو ذلك.

أما إذا اشتبهت عليه القبلة فعليه أن يجتهد إن كان بمكان يصح فيه الاجتهاد؛ فإن أصاب فذاك؛ وإن أخطأ فهو معذور؛ إذاً فالاشتباه لا يُستثنى؛ لأن حقيقة الأمر أنه لا يجوز أن يصلي إلا وهو يعتقد أنه إلى القبلة؛ بخلاف الذي ذكرنا؛ فالعاجز يعرف أن القبلة خلفه، فيصلي إلى غير القبلة؛ وكذلك في شدة الخوف؛ وكذلك المتنفل في السفر.

١٢ ـ **ومن فوائد الآية**: مراعاة الشريعة اجتماع المسلمين على وجهة واحدة؛ لأنه تعالى قال: ﴿**وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره**﴾؛ فالمسلمون في أقطار الدنيا كلها يتجهون إلى قبلة واحدة؛ هذا توحيد؛ ولا سيما أنهم يتجهون هذا الاتجاه، ويتحدون هذا الاتحاد في أعظم مشعر عملي، أو في أعظم فريضة عملية ـ وهي الصلاة؛ فيدل هذا على أن الشرع يراعي مراعاة تامة توحيد المسلمين في دينهم، وتوحيدهم في الاتجاه البدني، وكذلك في الاتجاه القلبي الفكري.

١٣ ـ **ومنها**: بيان عناد اليهود، والنصارى؛ لقوله تعالى: ﴿**وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم**﴾؛ ولكن مع ذلك شنعوا على النبي ﷺ تشنيعاً عظيماً حين توجه إلى الكعبة بأمر ربه.

١٤ ـ **ومنها**: أن ما كان من عند الله فهو حق؛ لقوله تعالى: ﴿**أنه الحق**﴾ مضافاً إلى الله: ﴿**من ربهم**﴾.

١٥ ـ **ومنها**: أن هؤلاء المعاندين من أهل الكتاب يعاندون مع علمهم التام، ومع إقرارهم بربوبية الله سبحانه وتعالى؛ فهم يعلمون أن الرسول ﷺ سيستقبل الكعبة؛ وهم علموا ذلك مما جاء في كتبهم من وصف الرسول ﷺ بأن هذا النبي الأمي سوف يتجه إلى الكعبة؛ وكان عليهم حيث أقروا بربوبية الله لهم، وعلموا الحق أن ينقادوا له، وأن يكونوا أولى الناس باتباعه؛ لأن من أقر بربوبية الله سبحانه وتعالى لزم أن يقر بأحكامه، ويلتزم بها؛ لأن الرب له الملك المطلق يتصرف كيف يشاء؛ ولهذا أضاف الربوبية هنا إليهم: ﴿**من ربهم**﴾؛ لإقامة الحجة عليهم حيث يعترفون بربوبيته.

١٦ ـ **ومن فوائد الآية**: انتفاء غفلة الله عزّ وجلّ عن أعمالهم المتضمن لكمال علمه، وإحاطته بهم؛ ولا يكفي أن نقول: انتفاء الغفلة فقط؛ بل نقول: المتضمن لكمال العلم، والإحاطة؛ لقوله تعالى: ﴿**وما الله بغافل عما يعملون**﴾.

١٧ ـ **ومنها**: صحة تقسيم الصفات إلى ثبوتية، ومنفية؛ لأن التي في الآية هنا منفية ـ وهي قوله تعالى: ﴿**وما الله بغافل عما يعملون**﴾ فالصفات المنفية: كل صفة صُدِّرت بما يدل على النفي

بأيّ أداة كانت، مثل قوله تعالى: ﴿**لا تأخذه سنة ولا نوم**﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله تعالى: ﴿**وتوكل على الحي الذي لا يموت**﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿**وما مسنا من لغوب**﴾ [ق: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿**ولم يعيَ بخلقهن**﴾ [الأحقاف: ٣٣]؛ واعلم أن الصفات المنفية لا يراد بها مجرد النفي؛ وإنما يراد بها مع النفي: ضدها؛ فإذا قال الله تعالى عن نفسه: ﴿**وما مسنا من لغوب**﴾ [ق: ٣٨] فالمراد: نفي اللغوب، وإثبات كمال قوته، وقدرته.

١٨ ـ **ومن فوائد الآية**: تهديد هؤلاء المعاندين الذين أوتوا الكتاب، وعلموا الحق، ولم يتبعوه؛ لقوله تعالى: ﴿**وما الله بغافل عما يعملون**﴾؛ ويشبه هؤلاء من بعض الوجوه من يتعصب لمذهبه ـ ولو علم أن الحق في خلافه ـ إحساناً للظن بمن قلدهم؛ ولو أتيتهم بكلام من كلام مشايخهم قالوا: على العين والرأس! ولهذا أكثر شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في «الفتوى الحموية» النقول عن العلماء من الأشاعرة، وغيرهم؛ وقال: «إنه ليس كل من نقلنا قوله فإننا نقول به؛ ولكن لما كان بعض الطوائف منتحلاً إلى إمام أو مذهب، صار لو أُتي بكل آية ما تبعها حتى يؤتى بشيء من كلامهم»؛ وهذا من الدعوة بالحكمة؛ فإنه يقنع المعارض بما لا يمكنه نفيه، ومعارضته؛ إذا أتى إليه بشيء من كلام مقلّده لا يمكنه أن يحيد عنه؛ وهؤلاء المتعصبون للمذاهب إذا قلنا لهم: هذا الإمام الشافعي، والإمام مالك، والإمام أحمد، والإمام أبو حنيفة كلهم ينكرون تقليدهم مع مخالفة الكتاب، والسنة، ويقولون: «اضربوا بأقوالنا عُرض الحائط إذا خالفت الكتاب، والسنة»؛ ولهم عبارات في هذا المعنى كثيرة؛ وإذا كانوا يقولون هكذا فإن الذين يتعصبون لهم مع مخالفة الدليل لم يقلدوهم

حقيقة؛ ولو قلدوهم حقيقة لكانوا إذا بين لهم الدليل أخذوا به كما أمر به هؤلاء الأئمة؛ لكنهم لم يقلدوهم حقيقة؛ بل تعصبوا تعصباً لا يحمدون عليه ما دام قام الدليل على خلافه؛ أما إذا لم يقم الدليل عند الإنسان ـ سواء كان ممن يطلب الدليل، ويستطيع أن يعرف الحكم بالأدلة؛ أو لم يكن كذلك ـ فهذا على كل حال يعذر إذا قلد من يرى أنه أقرب إلى الحق؛ أما مع وضوح الدليل، وبيانه فإن التقليد حرام؛ ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن التقليد بمنزلة أكل الميتة يحل للضرورة، أما مع وجود لحم مذكّى فلا تأكل الميتة؛ فمع وجود الدليل من الكتاب، والسنة، وتبينه للإنسان فإنه لا يحل له أن يقلد؛ ولهذا لم يأمر الله بسؤال أهل العلم إلا عند عدم العلم فقال تعالى: ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * بالبينات والزبر**﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤]؛ أما إذا كنا نعلم بالبينات، والزبر فلا نسألهم؛ ونأخذ من البينات، والزبر.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

التفسير:

﴿١٤٥﴾ في قوله تعالى: ﴿**ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك**﴾ أمران متنازعان: قسَم، وشرط؛ قَسَم

مدلول عليه باللام؛ لأن اللام واقعة في جواب القسم المقدر ـ أي: والله لئن؛ والثاني المنازع للقسَم: «**إن**» الشرطية؛ وكل من القسم، والشرط يحتاج إلى جواب؛ فجواب القسم: ﴿**ما تبعوا قبلتك**﴾؛ والمحذوف جواب الشرط؛ لأن الشرط مؤخر؛ فاستغنى عن جوابه بجواب القسم؛ يقول ابن مالك:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

وقوله تعالى: ﴿**أتيت**﴾ بمعنى جئت؛ و﴿**الذين أوتوا الكتاب**﴾ يعني اليهود، والنصارى؛ و﴿**بكل آية**﴾ الباء للمصاحبة؛ والمعنى: مصطحباً كل آية؛ ويحتمل أن تكون الباء للتقوية ـ أي: تعدية الفعل؛ و«**الآية**» العلامة على صدق ما أتيت به إليهم؛ يعني: إن أتيتهم بكل آية تدل على صدق ما أتيت به ﴿**ما تبعوا قبلتك**﴾ أي الكعبة؛ لعنادهم، واستكبارهم.

قوله تعالى: ﴿**وما أنت بتابع قبلتهم**﴾: الواو هنا استئنافية؛ لأننا لو جعلناها عاطفة على قوله تعالى: ﴿**ما تبعوا قبلتك**﴾ لصار المعنى: وما أنت بتابع قبلتهم في حال إتيانك بالآيات التي تدل على صدق ما جئت به؛ ومعلوم أن الرسول ﷺ لا يمكن أن يتبع قبلتهم مطلقاً؛ وهذا هو السر في التعبير ـ والله أعلم ـ بالجملة الاسمية في قوله تعالى: ﴿**وما أنت بتابع**﴾، وفي الكلام عنهم أتى بالجملة الفعلية في قوله تعالى: ﴿**ما تبعوا قبلتك**﴾.

قوله تعالى: ﴿**وما بعضهم**﴾ أي الذين أوتوا الكتاب ﴿**بتابع قبلة بعض**﴾: فاليهود لا تتبع قبلة النصارى؛ والنصارى لا تتبع قبلة اليهود؛ لأن النصارى يقولون: إن اليهود كفار؛ واليهود يقولون: إن النصارى كفار ليسوا على حق؛ ولهذا يكذبون عيسى ﷺ.

قوله تعالى: ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم**﴾: نقول فيها مثلما قلنا في قوله تعالى: ﴿**ولئن أتيت**﴾؛ ففيها قَسَم، وشرط؛ والجواب للقسم ـ وهو قوله تعالى: ﴿**إنك إذاً. . .**﴾؛ والخطاب للنبي ﷺ؛ و«**إن**» الشرطية لا تستلزم وقوع شرطها؛ وإنما قلنا ذلك لئلا يقول قائل: هل من الممكن أن الرسول ﷺ يتبع أهواءهم من بعد ما جاءه من العلم؟ الجواب: لا يمكن؛ و«إن» الشرطية لا تستلزم وقوع جواب شرطها: ألم يقل الله سبحانه وتعالى: ﴿**ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك**﴾ [الزمر: ٦٥]؛ وإشراك النبي ﷺ لا يمكن أبداً وقوعه؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿**قل إن كان للرحمٰن ولد فأنا أول العابدين**﴾ [الزخرف: ٨١]؛ ووجود الولد لله لا يمكن.

وقوله تعالى: ﴿**أهواءهم**﴾ جمع هوى، وهو الميل؛ ومنه يقال للنجم: «هوى» إذا مال، وسقط؛ ويطلق «الهوى» في الغالب على الميل عن الحق؛ ويقابله «الهدى»؛ فيقال: اتبعَ الهوى بعد الهدى؛ وإن صح الحديث ـ وهو قول الرسول ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**»[1] ـ فهو دليل على أن الهوى يكون في الخير كما يكون في الشر.

قوله تعالى: ﴿**من بعد ما جاءك من العلم**﴾ متعلق

---

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة ١/ ٢١٢ ـ ٢١٣، حديث رقم ١٠٤، قال النووي في آخر الأربعين النووية «حسن صحيح»، وقال الحافظ في الفتح ١٣/ ٢٨٩: أخرجه الحسن بن سفيان وغيره؛ ورجاله ثقات؛ وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٩٤): تصحيح هذا الحديث بعيد جداً من وجوه. . .

بـ﴿اتبعت﴾؛ يعني: إذا وقع هذا الاتباع بعد العلم فإنه يكون الظالم؛ وقوله تعالى: ﴿**من بعد ما جاءك**﴾ وردت في القرآن على ثلاثة أوجه؛ هذا أحدها؛ والثاني ﴿**بعد ما جاءك من العلم**﴾؛ والثالث: ﴿**بعد الذي جاءك من العلم**﴾، أما ﴿**بعدما جاءك من العلم**﴾، و﴿**بعد الذي...**﴾ فلا فرق بينهما إلا أنه عبر بـ﴿**ما**﴾ عن ﴿**الذي**﴾؛ وأما ﴿**من بعد ما جاءك**﴾ فهي أبلغ من قوله تعالى: ﴿**بعد الذي جاءك**﴾؛ لأن ﴿**مِن**﴾ تدل على أنه جاءه العلم، وتمهل، وحصل هذا الأمر بعد مجيء العلم؛ نظير ذلك قوله تعالى: ﴿**ومن بيننا وبينك حجاب**﴾ [فصلت: ٥]؛ فهو أشد مما لو قالوا: «بيننا وبينك حجاب»؛ لأن ﴿**مِن**﴾ تدل على مسافة قبل الحجاب، ثم حجاب، والمراد بـ«**العلم**» الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ.

قوله تعالى: ﴿**إنك إذاً لمن الظالمين**﴾: أكدت بـ﴿**إن**﴾ واللام؛ وهذه الجملة جواب القسم؛ و﴿**إذاً**﴾ ظرف؛ وهنا أدوات ثلاث: إذ، وإذا، وإذاً؛ وهذه الأدوات الثلاثة تنازعت الأزمنة: «**إذ**» للماضي؛ و«**إذا**» للمستقبل؛ و«**إذاً**» للحاضر؛ فمعنى ﴿**إنك إذاً**﴾ أي إنك في حال اتباعك أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم ﴿**لمن الظالمين**﴾ أي المعتدين الذين نقصوا الواجب عليهم من اتباع الحق دون الأهواء.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الرسول ﷺ كان حريصاً على هداية الخلق؛ لأن قوله تعالى: ﴿**ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية**﴾ دليل على أنه ﷺ كان يعرض الآيات، ويبين الحقائق؛ ولكن لا ينتفعون بها.

٢ ـ **ومنها**: شدة عناد هؤلاء الذين أوتوا الكتاب؛ وأنهم مهما أوتوا من الآيات فإنهم لن ينصاعوا لها، ولن يتبعوها.

٣ ـ **ومنها**: أن الذين أوتوا الكتاب لن يتبعوا قبلة الرسول ﷺ؛ وإذا كان كذلك فلن يتبعوا دينه؛ لأن القبلة بعض الدين؛ فمتى كفروا بها فهو كفر بالدين كله.

٤ ـ **ومنها**: أن الكعبة قبلة للمسلمين خاصة؛ لأنه تعالى أضاف استقبالها إليهم؛ ولكن الظاهر ـ والله أعلم ـ أن الكعبة قبلة لكل الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿**إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً**﴾ [آل عمران: ٩٦]؛ وهكذا قال شيخ الإسلام: إن المسجد الحرام قبلة لكل الأنبياء؛ لكن أتباعهم من اليهود، والنصارى هم الذين بدلوا هذه القبلة.

٥ ـ **ومنها**: وجوب الانقياد للحق إذا ظهرت آياته؛ لأن هذه الآية سيقت مساق الذم؛ فدل هذا على وجوب اتباع الحق إذا تبينت الآيات.

٦ ـ **ومنها**: أن النبي ﷺ مستحيل أن يكون تابعاً لقبلتهم؛ لأن قبلتهم التي يدعونها لم تثبت شرعاً؛ ثم لو فرض أنها جاءت في شرائعهم فإنها نُسِخت بقبلة الإسلام.

٧ ـ **ومنها**: أنه يستحيل شرعاً أن يتبع المسلم طريقة اليهود، والنصارى؛ لقوله تعالى: ﴿**وما أنت بتابع قبلتهم**﴾؛ وجه الاستحالة: أن الجملة جاءت بالاسمية المؤكدة بحرف الجر في سياق النفي؛ فالمؤمن حقيقة لا يمكن أن يتابع أعداء الله، ولا أن يأخذ بآرائهم، وأفكارهم، واتجاهاتهم؛ وقد حمى النبيُّ ﷺ ذلك غاية الحماية، حيث قال: «**من تشبه**

بقوم فهو منهم»[(١)]، حتى نحذر ونبعد عن التشبه بأعداء الله، والتقليد لهم سواء في أمور العبادة، أو في أمور العادة؛ فإن التشبه بأعداء الله حرام: وقد يؤدي إلى الكفر، والشرك ـ والعياذ بالله.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أن اليهود والنصارى لا يتبع بعضهم بعضاً؛ بل يضلل بعضهم بعضاً؛ فاليهود يرون النصارى ليسوا على شيء من الدين؛ والنصارى يرون اليهود ليسوا على شيء من الدين أيضاً؛ كل منهم يضلل الآخر فيما بينهم؛ كل واحد منهم يرى أن الآخر ليس على ملة صحيحة؛ ولهذا قال تعالى: **﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾** [البقرة: ١٤٥]؛ فقبلة اليهود إلى بيت المقدس ـ إلى الصخرة؛ وقبلة النصارى إلى المشرق ـ يتجهون نحو الشمس؛ لكنهم على الإسلام يد واحدة بعضهم لبعض وليّ، كما قال الله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض﴾** [المائدة: ٥١]؛ لأنهم كلهم أعداء للإسلام.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: أن اتباع اليهود والنصارى اتباع للهوى لا للهدى؛ لقوله تعالى: **﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾**.

١٠ ـ **ومنها**: أن اليهود والنصارى ليسوا على هدى، حيث جعل الله سبحانه وتعالى ما هم عليه هوى، وليس بهدى.

١١ ـ **ومنها**: أن الإنسان لا يؤاخذ بالمخالفة إلا بعد قيام الحجة؛ لقوله تعالى: **﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾**؛ فالإنسان قد يتابع غيره جهلاً؛ فلا يؤاخذ به ـ وإن كان يسمى ضالاً؛ لكنه

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٣٥٩.

ليس بظالم؛ لأنه لم يتعمد المخالفة؛ لا يتحقق الظلم إلا لمن عرف الحق وخالفه.

١٢ ـ **ومنها**: التلطف في الخطاب للرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿**لمن الظالمين**﴾؛ لأنك لو قلت لرجل: «أنت رجل ظالم» لكان أشد وقعاً من قولك له: أنت من الظالمين؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿**عبس وتولى**﴾ [عبس: ١]؛ عندما تقرؤها تظن أن العابس والمتولي غير الرسول ﷺ؛ تظن أنه رجل آخر؛ ولكن المراد به الرسول ﷺ.

١٣ ـ **ومنها**: بيان أن العلم حقيقة هو علم الشريعة؛ لقوله تعالى: ﴿**من بعد ما جاءك من العلم**﴾: أتى بـ«**أل**» المفيدة للكمال؛ ولا شك أن العلم الكامل الذي هو محل الحمد والثناء هو العلم بالشريعة؛ ولذلك نقول: إن عصر النبوة هو عصر العلم؛ وليس عصرنا الآن هو عصر العلم الذي يمدح على الإطلاق؛ لكن ما كان منه نافعاً في الدين فإنه يمدح عليه لهذا.

١٤ ـ **ومنها**: أن الظلم، والعدل، وغير ذلك مقرون بالأعمال؛ لا بالأشخاص؛ بمعنى أنه ليس بين الله تعالى وأحد من الخلق شيء يحابيه، ويراعيه به؛ كل من خالفه فهو ظالم؛ فلا نقول مثلاً: هذا قريب من الرسول ﷺ تكفر سيئاته لقربه من الرسول ﷺ؛ أو نقول: هذا إنسان من قريش من سلالة الأشراف ـ من سلالة بني هاشم ـ تكفّر عنه سيئاته؛ فإذا كان الرسول ﷺ يقول الله سبحانه وتعالى له: ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين**﴾؛ فما بالك بمن دون الرسول ﷺ!!! فلا أحد يحابى من قِبل الله عزّ وجلّ

من أجل نسبه، أو حسبه، أو جاهه بين الناس: قال الله تعالى: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ [الحجرات: ١٣].

١٥ ـ **ومن فوائد الآية**: قد يرد التعليق على شرط لا يمكن تحققه؛ لقوله تعالى: ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين**﴾؛ فهذا الشرط لا يمكن أن يقع من رسول الله ﷺ.

١٦ ـ **ومنها**: تحذير الأمة من اتباع أهواء غير المؤمنين؛ وجه ذلك أنه إذا كان هذا الوصف يكون للرسول ﷺ لو اتبع أهواءهم فالذي دونه من باب أولى؛ فعلينا أن نحذر غاية الحذر من اتباع أهواء أعداء الله؛ فالواجب على علماء الأمة أن يحذِّروها مما وقعت فيها الآن من اتباع أهواء أعداء الله، ويبينوا لهم أن اتباع أهوائهم هو الظلم؛ والظلم ظلمات يوم القيامة؛ والظلم مرتع مبتغيه وخيم.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

التفسير:

﴿١٤٦﴾ قوله تعالى: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾؛ ﴿**الذين**﴾ مبتدأ؛ والخبر جملة: ﴿**يعرفونه**﴾؛ والضمير الهاء المفعول يعود إلى النبي ﷺ؛ و﴿**كما**﴾؛ الكاف للتشبيه؛ و«**ما**» مصدرية ـ أي كمعرفة أبنائهم.

قوله تعالى: ﴿آتيناهم﴾ أي أعطيناهم؛ والمراد بـ﴿الكتاب﴾ التوراة، والإنجيل؛ والذين أوتوهما اليهود، والنصارى؛ وإنما كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم؛ لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، إلى آخر ما ذكر من أوصافه التي عرفوه بها كما يعرفون أبناءهم؛ وعبَّر بقوله تعالى: ﴿يعرفونه﴾ بالفعل المضارع؛ لأن معرفتهم به تتجدد كلما تأملوا آياته، وصفاته؛ وعبر بقوله تعالى: ﴿يعرفونه﴾؛ لأن الغالب أن «العلم» يعبر به عن الأمور المعقولة التي تدرك بالحس الباطن، و«المعرفة» يعبر بها عن الأمور المحسوسة المدركة بالحس الظاهر؛ فأنا أقول لك: «أعرفت فلاناً»؛ ولا أقول لك: «أعلمت فلاناً»؛ لكن أقول: «أعرفت فلاناً فعلمت ما فعل»؛ فهنا جعلنا العلم في الفعل؛ و﴿أبناءهم﴾ جمع ابن؛ وخصه دون البنت؛ لأن تعلق الإنسان بالذّكَر أقوى من تعلقه بالأنثى؛ فهو به أعرف.

قوله تعالى: ﴿وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ يعني طائفة منهم تكتم الحق ـ أي يخفونه، فلا يبينونه؛ ولهذا ذكر الله في سورة آل عمران أن بعضهم يقول لبعض: كيف تبينون الهدى لمحمد، وأصحابه؟! إذا بينتموه يحاجوكم به عند الله أفلا تعقلون! فهم يتواصون بالكتمان ـ والعياذ بالله.

وقوله تعالى: ﴿وهم يعلمون﴾ في موضع نصب على الحال من فاعل يكتمون ـ وهو الواو؛ يعني: يكتمون والحال أنهم يعلمون أنه الحق؛ وهذا أبلغ في الذم، وأقبح في الفعل أن يكونوا كاتمين للحق وهم يعلمون.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن النبي ﷺ معروف عند أهل الكتاب معرفة تامة؛ وذلك كما جاء في كتبهم، كما قال الله ـ تبارك وتعالى: ﴿**الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم**﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٢ ـ **ومنها**: أنه لا عذر ولا حجة لأهل الكتاب في إنكارهم رسالة النبي ﷺ؛ لأنهم أوتوا من وصفه ما يعرفونه به كما يعرفون أبناءهم.

٣ ـ **ومنها**: بيان أن تعلق الإنسان بالابن أقوى من تعلقه بالبنت؛ لقوله تعالى: ﴿**كما يعرفون أبناءهم**﴾؛ فهو يعرف الابن أكثر مما يعرف البنت لقوة تعلقه به.

٤ ـ **ومنها**: الاحتراس في القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿**وإن فريقاً منهم**﴾؛ لأن كتمان الحق لم يكن من جميعهم؛ بل من فريق منهم؛ وطائفة أخرى لا تكتم الحق؛ فإن من النصارى من آمن، كالنجاشي؛ ومن اليهود ـ كعبد الله بن سلام ـ مَن آمن، ولم يكتم الحق.

٥ ـ **ومنها**: شدة اللوم، والذم لهؤلاء الذين يكتمون الحق؛ لأنهم يكتمونه مع العلم به؛ فهم عامدون ظالمون؛ وهذا أشد قبحاً من كتمان الإنسان ما يكون متردداً فيه.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

التفسير:

﴿١٤٧﴾ قوله تعالى: ﴿**الحق من ربك**﴾؛ ﴿**الحق**﴾ مبتدأ؛ و﴿**من ربك**﴾ خبره؛ وهنا الجملة لتقرير ما سبق؛ يعنى أن الحق ثابت، وحاصل من ربك؛ وقيل: إن ﴿**الحق**﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: هذا الحق من ربك.

وهنا الربوية خاصة؛ لأن الله سبحانه وتعالى رب العالمين؛ لكن أضافها إلى النبي ﷺ؛ لأن المقام يقتضيه، حيث هو مقام التثبيت، والنصرة؛ فلولا أن الله سبحانه وتعالى ثبَّت الرسول ﷺ لكان كما قال الله تعالى: ﴿**ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً**﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥]؛ و«**الرب**» هو الخالق المالك المدَبِّر: هو الذي خلق الخلق كله؛ وهو مالك الخلق كله؛ وهو سبحانه وتعالى المدبر للخلق كله.

قوله تعالى: ﴿**فلا تكونن من الممترين**﴾؛ ﴿**لا**﴾ ناهية؛ والفعل بعدها مبني على الفتح في محل جزم؛ وإنما بني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد؛ لأن الفعل المضارع إذا اتصل بنون التوكيد صار مبنياً على الفتح دائماً؛ والخطاب هنا للرسول ﷺ؛ وهذا النهي يراد به التثبيت؛ إذ لا يمكن وقوع الامتراء من النبي ﷺ؛ كما أن أمر المؤمن بالإيمان يراد به الثبوت، والاستمرار عليه، كما في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من**

قبل﴾ [النساء: ١٣٦]، كما أن الشرط قد يعلق بما لا يمكن وقوعه كما سبق في قوله تعالى: **﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين﴾** [البقرة: ١٤٥].

قوله تعالى: **﴿من الممترين﴾**: معنى «الامتراء»: الشك.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن ما جاء من عند الله فهو حق؛ لقوله تعالى: **﴿الحق من ربك﴾**.

٢ ـ **ومنها**: أنه ما دام الحق من الله فإنه يجب أن يؤمن الإنسان به، وأن لا يلحقه في ذلك شك، ولا مرية.

٣ ـ **ومنها**: أن كل شيء خالف ما جاء عن الله فهو باطل؛ لقوله تعالى: **﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون﴾** [يونس: ٣٢].

٤ ـ **ومنها**: تقوية الرسول ﷺ على ما هو عليه من الحق ـ وإن كتمه أهل الكتاب ـ لأن الإنسان بشر؛ لما أنكر هؤلاء الذين أوتوا الكتاب الحق قد يعتري الإنسان شيء من الشبهة ـ وإن كان بعيداً؛ فبين الله سبحانه وتعالى أن ما جاء به هو الحق؛ لقوله تعالى: **﴿الحق من ربك﴾**.

٥ ـ **ومنها**: عناية الله سبحانه وتعالى بالنبي بذكره بالربوبية الخاصة؛ لقوله تعالى: **﴿من ربك﴾**.

٦ ـ **ومنها**: أن الشك ينافي الإيمان؛ لقوله تعالى: **﴿فلا تكونن من الممترين﴾**.

٧ ـ **ومنها**: أنه قد ينهى عن الشيء مع استحالة وقوعه؛ لقوله تعالى: **﴿فلا تكونن من الممترين﴾**؛ فإن النبي ﷺ لا يمكن أن يكون من الممترين.

٨ ـ **ومنها**: عناية الله سبحانه وتعالى بالرسول ﷺ بالتثبيت؛ لأن قوله تعالى له: ﴿**الحق من ربك**﴾ يقتضي ثباته عليه؛ وقوله تعالى: ﴿**فلا تكونن من الممترين**﴾ يقتضي استمراره على هذا الثبات؛ ولا شك أن في هذا من تأييد الرسول ﷺ، وتثبيته ما هو ظاهر.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾.

التفسير:

﴿١٤٨﴾ قوله تعالى: ﴿**ولكل وجهة هو موليها**﴾؛ الوجهة، والجهة، والوجه، معناها متقارب؛ أي: لكل واحد من الناس جهة يتولاها؛ وهذا شامل للجهة الحسية، والمعنوية؛ مثال الحسية: اختلاف الناس إلى أين يتجهون في صلاتهم: فمنهم من يتجه نحو المشرق؛ ومنهم من يتجه نحو بيت المقدس؛ ومنهم من يتجه إلى الكعبة؛ واختلاف الناس كذلك في اتجاههم في العمل: فمنهم من يتجه للتجارة؛ ومنهم من يتجه للحدادة؛ ومنهم من يتجه للنجارة... وهكذا؛ ومثال المعنوية: اختلاف الناس في الملل، والنحل، وما أشبه ذلك.

وقوله تعالى: ﴿**هو موليها**﴾ فيها قراءتان؛ الأولى: بكسر اللام، وياء ساكنة بعدها ـ ﴿**مولِّيها**﴾ ـ على أنها اسم فاعل؛ والقراءة الثانية: بفتح اللام، وألف بعدها ـ ﴿**مولاَّها**﴾ ـ على أنها

اسم مفعول؛ فالمعنى على القراءة الأولى: هو متجه إليها؛ والمعنى على القراءة الثانية: هو موجَّه إليها إما شرعاً؛ وإما قدراً؛ وإما شرعاً وقدراً؛ وجملة: ﴿هو موليها﴾، أو ﴿هو مولاها﴾ في محل رفع صفة لـ﴿وجهة﴾؛ وليس المراد بهذه الجملة إقرار أهل الكفر على كفرهم؛ وإنما المراد ـ والله أعلم ـ تسلية المؤمنين، وتثبيتهم على ما هم عليه من الحق؛ لأن لكل أحد وجهة ولَّاه الله إياها حسب ما تقتضيه حكمته.

قوله تعالى: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أمر من الاستباق؛ والمراد به التسابق إلى الخيرات؛ وتعدّى بنفسه دون حرف الجر كأنه ضُمِّن معنى افعلوا على وجه المسابقة؛ وفائدة تضمين الفعل فعلاً آخر لأجل أن يدل التضمين على المعنيين، كقوله تعالى: ﴿عيناً يشرب بها عباد الله﴾ [الإنسان: ٦].

قوله تعالى: ﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً﴾؛ «أين» شرطية؛ و«ما» زائدة للتوكيد؛ و﴿تكونوا﴾ فعل الشرط مجزوم بحذف النون؛ والواو فاعل؛ لأن «كان» هنا تامة؛ وليست ناقصة؛ يعني: أينما توجدوا يأت بكم الله؛ و﴿يأت﴾ جواب الشرط مجزوم بحذف الياء؛ والكسرة قبلها دليل عليها.

وقوله تعالى: ﴿أينما تكونوا﴾ في برّ، أو بحر، أو جوّ فإن الله يأتي بكم جميعاً، وذلك يوم القيامة، حيث يحشر الله الأولين، والآخرين في مقام واحد.

قوله تعالى: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾: هذه جملة خبرية مؤكدة بـ﴿إن﴾؛ عامة في كل شيء من موجود، أو معدوم؛ و«القدرة» صفة تقوم بالقادر بحيث يفعل الفعل بلا عجز.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الأمم قد تختلف مناهجها ـ وإن اتفقت على أصل واحد؛ وهو الإسلام؛ ونعني بـ«الإسلام» المعنى العام؛ وهو الاستسلام لله بشرائعه القائمة التي لم تُنسَخ.

٢ ـ **ومنها**: أن الإنسان يجب عليه أن يتبع الحق أينما كان؛ ولا ينظر إلى كثرة المخالف؛ لا يقل: الناس على كذا فكيف أشذ عنهم! بل يجب عليه أن يتبع الحق؛ لأن قوله تعالى: ﴿**ولكل وجهة**﴾ يشمل الوجهة الشرعية، والوجهة القدرية؛ يعني ما وجه الله العباد إليه شرعاً، وما وجههم إليه قدراً؛ الوجهة القدرية معروفة: فمن الناس من يهديه الله تعالى فيكون اتجاهه إلى الحق؛ ومن الناس من يُخذَل فيَضل، ويكون اتجاهه إلى الباطل؛ فالوجهة التي يتبعها المشركون، واليهود، والنصارى، وما أشبه ذلك هذه وجهة قدرية؛ أما شرعية فلا؛ لأن الله ما شرع الكفر أبداً؛ ولا شرع شيئاً من خصال الكفر؛ والوجهة الشرعية: اختلاف الشرائع بين الناس؛ فلا تظن أن اختلاف الشريعة الإسلامية عن غيرها معناه أنها ليست حقاً؛ فإنها الحق من الله.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: وجوب المسابقة إلى الخير؛ لقوله تعالى: ﴿**فاستبقوا الخيرات**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن الأمر يقتضي الفورية؛ لأن الاستباق إلى الخير لا يكون إلا بالمبادرة إلى فعله؛ فهذه الآية مما يستدل به على أن الأمر المطلق للفورية.

٥ ـ **ومنها**: البلاغة التامة في قوله تعالى: ﴿**فاستبقوا الخيرات**﴾ دون «استبقوا إلى الخيرات» ـ وإن كان بعض الناس

يقولون: إنها نُزِع منها حرف الجر؛ وليس بصحيح؛ لأن ﴿**فاستبقوا الخيرات**﴾ يشمل الاستباق إليها، والاستباق فيها؛ فليس معناه: إذا وصلت إلى الخير فإنك تقف؛ بل حتى في نفس فعلك الخير كن مسابقاً؛ وهذا يشبهه قوله تعالى: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ [الفاتحة: ٦]؛ فالمطلوب أن يصل الإنسان إلى الصراط، ويستمر فيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ [الفاتحة: ٦].

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: إحاطة الله تعالى بالخلق أينما كانوا؛ لقوله تعالى: ﴿**أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً**﴾.

٧ ـ **ومنها**: الإشارة إلى البعث؛ لأن الإتيان بالجميع يكون يوم القيامة.

٨ ـ **ومنها**: إثبات عموم قدرة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الله على كل شيء قدير**﴾؛ وقد قال الله تعالى: ﴿**وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً**﴾ [فاطر: ٤٤].

وهناك كلمة يقولها بعض الناس فيقول: «إن الله على ما يشاء قدير»؛ وهذا لا ينبغي:

أولاً: لأنه خلاف إطلاق النص؛ فالنص مطلق.

ثانياً: لأنه قد يفهم منه تخصيص القدرة بما يشاء الله دون ما لم يشأ؛ والله قادر على ما يشاء، وعلى ما لا يشاء.

ثالثاً: أنه قد يفهم منه مذهب المعتزلة القدرية الذين قالوا: «إن الله عزّ وجلّ لا يشاء أفعال العبد؛ فهو غير قادر عليها».

ولهذا ينبغي أن نطلق ما أطلقه الله لنفسه، فنقول: إن الله على كل شيء قدير؛ أما إذا جاءت القدرة مضافة إلى فعل معين

فلا بأس أن تقيد بالمشيئة، كما في قوله تعالى: ﴿**وهو على جمعهم إذا يشاء قدير**﴾ [الشورى: ٢٩]؛ فإن ﴿**إذا يشاء**﴾ عائدة على «**الجمع**»؛ لا على «**القدرة**»؛ فهو قدير على الشيء شاءه، أم لم يشأه؛ لكن جمعه لا يقع إلا بالمشيئة؛ ومنه الحديث في قصة الرجل الذي أكرمه الله سبحانه وتعالى، فقال: «**ولكني على ما أشاء قادر**»[1]؛ لأنه يتكلم عن فعل معين؛ ولهذا قال: «**قادر**»: أتى باسم الفاعل الدال على وقوع الفعل دون الصفة المشبهة ـ «قدير» ـ الدالة على الاتصاف بالقدرة.

القرآن

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾.

التفسير:

﴿١٤٩﴾ قوله تعالى: ﴿**ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام**﴾؛ ما أعظم هذا الحدث؛ ولهذا أكده الله عدة مرات؛ ﴿**من**﴾ حرف جر؛ و﴿**حيث**﴾ مبنية على الضم؛ قال ابن مالك في عدّ المبنيات:

كأينَ أمسِ حيثُ والساكن كمْ

و﴿**خرجت**﴾: الخطاب هنا إما أن يكون للرسول ﷺ؛ وإما أن يكون لكل من يتأتى خطابه؛ أي من حيث خرجت أيها الإنسان ﴿**فول وجهك شطر المسجد الحرام**﴾ أي مستقبلاً له؛ وذلك عند

---

(١) أخرجه مسلم ص٧١٢، كتاب الإيمان، باب ٨٣، آخر أهل النار خروجاً، رقم الحديث: ٤٦٣ [٣١٠] ١٨٧.

الصلاة؛ و﴿**شطر المسجد**﴾ أي جهة المسجد؛ و﴿**المسجد الحرام**﴾ هو المسجد الذي فيه الكعبة؛ لقول النبي ﷺ: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام...**»[(١)]؛ بل لقوله تعالى: ﴿**هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله**﴾ [الفتح: ٢٥]؛ ووصِف بالحرام لاحترامه، وتعظيمه.

قوله تعالى: ﴿**وإنه**﴾ أي توليك شطر المسجد الحرام ﴿**للحق**﴾ اللام هنا للتوكيد؛ فالجملة هنا مؤكدة بمؤكدين؛ أحدهما: «**إن**»؛ والثاني: اللام؛ و«**الحق**» هو الشيء الثابت؛ لأنه محقوق ـ أي مثبت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿**إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون**﴾ [يونس: ٩٦]: ﴿**حقت**﴾ بمعنى ثبتت، ووجبت.

قوله تعالى: ﴿**من ربك**﴾ تقدم الكلام عليها، وأنها ربوبية خاصة.

قوله تعالى: ﴿**وما الله بغافل**﴾: الباء حرف جر زائد للتوكيد؛ والأولى أن نقول: «الباء للتوكيد» فقط؛ ولا نقول: «زائد»؛ لئلا يفهم السامع أن في القرآن ما ليس له معنى؛ و﴿**غافل**﴾ خبر ﴿**ما**﴾ منصوب بفتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر؛ و«**الغفلة**» الذهول.

قوله تعالى: ﴿**عما تعملون**﴾ بالتاء: خطاب للمسلمين؛ وفي قراءة: ﴿**عما يعملون**﴾ بالياء: خطاب لهؤلاء الذين اعترضوا على

---

(١) أخرجه البخاري ص٩٢، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة، باب ١: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، حديث رقم ١١٨٩، أخرجه مسلم ص٩٠٩، كتاب الحج، باب ٩٥: فضل المساجد الثلاثة، حديث رقم ٣٣٨٤ [٥١١] ١٣٩٧.

النبي ﷺ؛ فإن الله تعالى ليس بغافل عنهم؛ بل سوف يجازيهم بما يستحقون.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: وجوب التوجه إلى المسجد الحرام أينما كان الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام**﴾؛ وسبق ذكر ما يستثنى من ذلك عند قوله تعالى: ﴿**قد نرى تقلب وجهك في السماء...**﴾ [البقرة: ١٤٤] الآية[(١)].

٢ ـ **ومنها**: تكرار الأمر الهام لتثبيته، والثبات عليه، ودفع المعارضة فيه؛ لأنه كلما كرر كان مقتضاه أن الأمر ثابت محكم يجب الثبوت عليه؛ وكون المسلمين ينقلون من وجهة إلى وجهة في القبلة أمر هام له شأن عظيم؛ ولهذا ارتد من ارتد من الناس حين حوِّلت القبلة.

٣ ـ **ومنها**: إثبات حرمة المسجد الحرام، وتعظيمه؛ لقوله تعالى: ﴿**المسجد الحرام**﴾؛ فالمسجد محترم معظم؛ حتى ما حوله صار محترماً معظماً؛ فالبلد كله آمن حتى الأشجار التي لا إحساس لها آمنة في هذا المكان؛ ولهذا حرم النبي ﷺ أن يختلى خلاها، أو يعضد شوكها[(٢)]، أو يقطع شجرها[(٣)]، كل هذا لاحترام هذا المكان، وتعظيمه.

---

(١) انظر ٢/٤٧.

(٢) راجع البخاري ص١٤٤، كتاب جزاء الصيد، باب ١٠: لا يحل القتال بمكة، حديث رقم ١٨٣٤؛ ومسلماً ص٩٠٣، كتاب الحج، باب ٨٢: تحريم مكة، وتحريم صيدها، وخلاها، وشجرها، ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، حديث رقم ٣٣٠٢ [٤٤٥] ١٣٥٣.

(٣) راجع البخاري ص١٢، كتاب العلم، باب ٣٩: كتابة العلم، حديث رقم =

٤ ـ **ومنها**: أن التوجه إلى الكعبة هو الحق؛ لقوله تعالى: **﴿وإنه للحق من ربك﴾** فأثبت فيه الحقية مؤكداً بـ**﴿إن﴾**، واللام.

٥ ـ **ومنها**: كمال علم الله سبحانه وتعالى، ومراقبته لخلقه؛ لقوله تعالى: **﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾**.

٦ ـ **ومنها**: إضافة العمل إلى الإنسان، فيكون فيه رد على الجبرية؛ لقوله تعالى: **﴿عما تعملون﴾**؛ ولا شك أن الإنسان يضاف إليه عمله؛ وعمله: كسبه ـ إن كان في الخير ـ واكتسابه ـ إن كان في الشر ـ كما قال تعالى: **﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾** [البقرة: ٢٨٦].

والناس في هذه المسألة ـ أعني مسألة أعمال العباد ـ ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من يرون أن الإنسان مجبر على العمل؛ لا يفعل شيئاً باختيار أبداً؛ وما فعله الاختياري إلا كفِعله الاضطراري: فمن نزل من السطح على الدرج درجة درجة هو كمن سقط بدون علمه من أعلى السطح؛ وهذا مذهب الجبرية من الجهمية؛ وهو مذهب باطل ترده الأدلة السمعية، والعقلية.

القسم الثاني: من يرون أن الإنسان مستقل بعمله، وأن الله سبحانه وتعالى لا يصرِّف العبد إطلاقاً؛ فالعبد له الحرية الكاملة في عمله، ولا تعلق لمشيئة الله به، ولا تعلق لتقدير الله، وخلقه بعمل الإنسان، وهذا مذهب المعتزلة القدرية؛ وهو مذهب باطل للأدلة السمعية، والعقلية.

= ١١٢؛ ومسلماً ص٩٠٤، كتاب الحج، باب ٨٢: تحريم مكة، وتحريم صيدها، وخلاها...، حديث رقم ٣٣٠٦ [٤٤٨] ١٣٥٥..

وكلا القسمين مع بطلانهما يلزم عليهما لوازم باطلة.

القسم الثالث: يرون أن فعل العبد باختياره؛ وله تعلق بمشيئة الله؛ فمتى فعل العبد الفعل علمنا أن الله تعالىَ قد شاءه، وقدره؛ وأنه لا يمكن أن يقع في ملك الله ما لا يريد؛ بل كل ما وقع فهو مراد لله مخلوق له؛ ووجه كون فعل العبد مخلوقاً لله: أن الإنسان مخلوق لله؛ وفعله كائن بأمرين: بعزيمة صادقة؛ وقدرة؛ والله عزّ وجلّ هو الذي خلق العزيمة الصادقة، والقدرة؛ فالإنسان بصفاته، وأجزائه، وجميع ما فيه كله مخلوق لله عزّ وجلّ.

هذا القول الوسط هو الذي تجتمع فيه الأدلة جميعاً؛ لأن الذين قالوا: «إن الإنسان مجبر» أخذوا بدليل واحد، وأطلقوا من أيديهم الدليل الآخر؛ والذين قالوا: «إنه مستقل» أخذوا بدليل واحد، وأطلقوا الدليل الثاني من أيديهم؛ لكن أهل السنة، والجماعة ـ والحمد لله ـ أخذوا بأيديهم بالدليلين؛ وقالوا: الإنسان يفعل باختياره؛ ولكن تصرفه تحت مشيئة الله عزّ وجلّ؛ ولهذا إذا وقع الأمر بغير اختياره رُفع عنه حكمه: فالنائم لا حكم لفعله، ولا لقوله؛ والمكره على الشيء لا حكم لفعله، ولا لقوله؛ بل أبلغ من ذلك: الجاهل بالشيء لا حكم لفعله مع أنه قد قصد الفعل؛ لكنه لجهله يعفى عنه؛ كل ذلك يدل على أن الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۙ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

التفسير:

﴿١٥٠﴾ قوله تعالى: ﴿**ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام**﴾ هذه الجملة تقدم الكلام عليها؛ وكررت للتوكيد، وبيان الأهمية، والتوطئة لما بعدها؛ وهو قوله تعالى: ﴿**لئلا يكون للناس عليكم حجة**﴾؛ ﴿**لئلا**﴾: اللام هنا للتعليل اقترنت بها «**أن**» المصدرية، و«**لا**» النافية؛ و﴿**يكون**﴾ فعل مضارع منصوب بـ«**أن**» المصدرية؛ ولا يضر الحيلولة بين الناصب والمنصوب بـ«**لا**» النافية؛ و﴿**حجة**﴾ اسم ﴿**يكون**﴾ إن كانت ناقصة؛ أو فاعل إن كانت تامة؛ والمراد بـ«**الناس**» كل من احتج على المسلمين بتحولهم من بيت المقدس إلى الكعبة؛ وقد احتج على المسلمين في هذه المسألة اليهود، والمشركون، والمنافقون؛ فالحجة التي احتج بها اليهود لها جهتان:

الأولى: أنهم قالوا: إن الرجل ترك ملتنا إلى ملة آبائه.

والجهة الثانية: أنه لو بقي على استقبال بيت المقدس لقالوا: ليس هذا النبي هو الذي جاء وصفه في التوراة.

وأما **حجة المشركين** فقالوا: إنه متبع هواه؛ فقد داهن اليهود أول أمره، ثم عاد، واستقبل الكعبة؛ وقالوا: «هذا الرجل خالفنا في عقيدتنا وخالفنا في ملتنا حين هاجر إلى المدينة، ثم رجع إلى قبلتنا؛ فسيرجع إلى ديننا».

وأما **حجة المنافقين** فقالوا: إن هذا الرجل لا يثبت على دينه؛ ولو كان نبياً حقاً لثبت على دينه.

وهذه عادة أهل الباطل يموِّهون، ويقلبون الحق باطلاً؛ لأنهم يريدون غرضاً سيئاً؛ بل إن تحوله إلى استقبال الكعبة مع

هذه الاعتراضات، والمضايقات دليل على أنه رسول الله حقاً فاعل ما يؤمر به.

وقوله تعالى: ﴿عليكم﴾: الضمير يعود على الرسول ﷺ والمؤمنين؛ لأن كل حجة يُحتج به على الرسول للتلبيس وإبطال الدعوة، فهي في الحقيقة حجة على جميع أتباعه؛ لأن أتباعه إنما تبعوه لأنه على الحق؛ فإذا جاء من يُلَبِّس صار ذلك تلبيساً على جميعهم ـ التابع، والمتبوع.

وقوله تعالى: ﴿حجة﴾ أي حجة باطلة؛ ولا يلزم من الاحتجاج قبوله، كما قال تعالى: **﴿والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم﴾** [الشورى: ١٦] أي باطلة.

قوله تعالى: **﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾**؛ المراد بهم المعاندون المكابرون الذين لا يَرْعَوون للحق مهما تبين؛ واختلف في الاستثناء أهو متصل، أم منقطع؟ فمنهم من قال: إنه متصل؛ ومنهم من قال: إنه منقطع، و﴿إلا﴾ بمعنى «لكن»؛ يعني: لئلا يكون للناس عليكم حجة؛ لكن الذين ظلموا منهم لن تنجوا من محاجتهم، ومخاصمتهم؛ ومن قال: «إنه متصل» قال: يكون **﴿الذين ظلموا﴾** مستثنى من **«الناس»**؛ لأن الناس منهم ظالم؛ ومنهم من ليس بظالم؛ والأقرب عندي ـ والله أعلم ـ أن الاستثناء منقطع؛ لأن قوله تعالى: **﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾** هذا عام شامل؛ لكن من ظلَم من اليهود، أو المشركين، فإنه لن يرعوي بهذه الحكمة التي أبانها الله عزّ وجلّ.

قوله تعالى: **﴿فلا تخشوهم واخشوني﴾** يعني مهما قال الذين ظلموا من كلام، ومهما قالوا من زخارف القول، ومهما

ضايقوا من المضايقات فلا تخشوهم؛ و«الخشية»، و«الخوف» متقاربان؛ إلا أن أهل العلم يقولون: إن الفرق أن «الخشية» لا تكون إلا عن علم؛ لقوله تعالى: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ [فاطر: ٢٨] بخلاف «الخوف»: فقد يخاف الإنسان من المخوف وهو لا يعلم عن حاله؛ والفرق الثاني: أن «الخشية» تكون لعظم المخشيّ؛ و«الخوف» لضعف الخائف ـ وإن كان المخوف ليس بعظيم، كما تقول مثلاً: الجبان يخاف من الجبان ـ يخاف أن يكون شجاعاً؛ وعلى كل حال إن صح هذا الفرق فهو ظاهر؛ لكن الفرق الأول واضح؛ وهو أن «الخشية» إنما تكون عن علم.

وأتى بالأمر ﴿**واخشوني**﴾ بعد النهي؛ لأنه كما يقال: التخلية قبل التحلية؛ أزِلْ الموانع أولاً، ثم أثبت؛ فأولاً فرِّغ قلبك من كل خشية لغير الله، ثم مكن خشية الله من قلبك؛ فأنت أزل الشوائب حتى يكون المحل قابلاً؛ فإذا كان المحل قابلاً فحينئذٍ يكون الوارد عليه وارداً على شيء لا ممانعة فيه؛ والأمر هنا للوجوب بلا شك؛ الواجب على المرء أن يخشى الله وحده.

قوله تعالى: ﴿**ولأتم نعمتي عليكم**﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿**لئلا يكون**﴾؛ وإتمام الشيء: بلوغ غايته؛ والغالب أنه يكون في الكمال؛ و«**النعمة**» هي ما ينعَم به الإنسان؛ ويقال: «نِعمة» بكسر النون؛ ويقال: «نَعمة» بالفتح؛ لكن الغالب في نعمة الخير أن تكون بالكسر؛ و«النَّعمة» بالفتح: التنعم من غير شكر، كما قال تعالى: ﴿**ونعمة كانوا فيها فاكهين**﴾ [الدخان: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿**وذرني والمكذبين أولي النَّعمة**﴾ [المزمل: ١١].

ونزلت هذه الآية في أول الهجرة عند تحويل القبلة ـ يعني

في السنة الثانية ـ ولا يعارضها قوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي**﴾ [المائدة: ٣]؛ وقد نزلت في يوم عرفة في حجة الوداع؛ لأن المراد في آية المائدة: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي**﴾ الإتمام العام في كل الشريعة؛ أما هنا: ﴿**ولأتم نعمتي عليكم**﴾ [البقرة: ١٥٠]: في هذه الشريعة الخاصة ـ وهي استقبال الكعبة بدلاً عن بيت المقدس؛ لأنه سبق أن الرسول ﷺ كان يقلب وجهه في السماء ينتظر متى يؤمر بالتوجه إلى الكعبة؛ فلا شك أنه من نعمة الله عزّ وجلّ أن أنعم على المسلمين بأن يتجهوا إلى هذا البيت الذي هو أول بيت وضع للناس، والذي ـ كما قال بعض أهل العلم ـ هو قبلة جميع الأنبياء، كما ذكره شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ ويحتمل وجهاً آخر في الجمع بين الآيتين: بأن هذه الآية جاءت بصيغة المضارع الدال على الاستمرار؛ وآية المائدة بصيغة الماضي الدال على الانتهاء.

وأضاف الله سبحانه وتعالى النعمة إليه؛ لأنه عزّ وجلّ صاحبها: هو الذي يسديها، ويوليها على عباده؛ ولولا نعم الله العظيمة ما بقي الناس طرفة عين؛ وانظر إلى قوله تعالى: ﴿**إهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم * غير المغضوب عليهم**﴾ [الفاتحة]؛ في النعمة قال: ﴿**أنعمت عليهم**﴾؛ **لأن النعمة من الله وحده، كما قال تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾** [النحل: ٥٣]؛ وأما الغضب على المخالف في دين الله فيكون من الله، ومن أولياء الله من الرسل، وأتباعهم.

وقوله تعالى: ﴿**ولعلكم تهتدون**﴾؛ «**لعل**» هنا للتعليل؛ أي: تكتسبون علماً، وعملاً؛ وهذه هي العلة الثالثة؛ العلة الأولى:

﴿**لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم**﴾؛ والعلة الثانية: ﴿**ولأتم نعمتي عليكم**﴾؛ والثالثة: ﴿**ولعلكم تهتدون**﴾؛ وسيأتي بيان أنواع الهداية.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: تكرير الأمر الهام؛ وذلك لتثبيته، وتَسِرَّ به النفوس، وبيان أهميته.

٢ ـ **ومنها**: وجوب استقبال الكعبة أينما كان الإنسان؛ قال أهل العلم: من أمكنه مشاهدة الكعبة فالواجب إصابة عينها؛ ومن لم تمكنه كفى استقبال جهتها؛ لقوله تعالى: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾؛ وسبق ذكر ما يستثنى من ذلك عند قوله تعالى: ﴿**قد نرى تقلب وجهك في السماء**﴾ [البقرة: ١٤٤] الآية.

٣ ـ **ومنها**: دفع ملامة اللائمين ما أمكن؛ تعالى: ﴿**لئلا يكون للناس عليكم حجة**﴾.

٤ ـ ومنها: أن الظالم لا يدفع ملامته شيء؛ بمعنى أنه سيلوم وإن لم يكن محل لوم؛ لقوله تعالى: ﴿**إلا الذين ظلموا منهم**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن أهل الباطل يحاجون في الحق لإبطاله؛ ولكن حججهم باطلة.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي للإنسان أن يعرف شبه المخالفين التي يدعونها حججاً لِيَنْقَضَّ عليهم منها، فيبطلها؛ قال الله تعالى: ﴿**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون**﴾ [الأنبياء: ١٨].

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: وجوب تنفيذ شريعة الله عزّ وجلّ، وألا يخشى الإنسان لومة لائم.

٧ ـ **ومنها**: وجوب خشية الله تعالى؛ لأنه هو الذي بيده النفع، والضرر.

٨ ـ **ومنها**: نعمة الله ـ تبارك وتعالى ـ على هذه الأمة، وفضله، وإحسانه؛ لقوله تعالى: ﴿**ولأتم نعمتي عليكم**﴾.

٩ ـ **ومنها**: إثبات حكمة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿**ولأتم... ولعلكم تهتدون**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: أن تنفيذ أوامر الله، وخشيته سبب للهداية؛ والهداية نوعان: هداية علمية؛ وهداية عملية؛ ويقال: هداية الإرشاد؛ وهداية التوفيق.

فـ«الهداية العلمية» معناها أن الله يفتح على الإنسان من العلم ما يحتاج إليه لأمور دينه ودنياه.

و«الهداية العملية» أن يوفق للعمل بهذا العلم.

الأولى: وسيلة، والثانية: غاية؛ ولهذا لا خير في علم بدون عمل؛ بل إن العلم بدون عمل يكون وبالاً على صاحبه؛ والهداية هنا شاملة للعلمية، والعملية؛ ووجه كونها شاملة: أنهم لم يعلموا أن مرضاة الله بالتوجه إلى الكعبة إلا بما علمهم الله؛ ثم إن الله وفقهم للعمل به؛ فلم يمانعوا أبداً؛ بل إن أهل قباء أتاهم الخبر وهم يصلون صلاة الفجر وكانوا متجهين إلى بيت المقدس، فاستداروا إلى الكعبة؛ فصار الإمام نحو الجنوب، والمأمومون نحو الشمال؛ هذه هداية عملية عظيمة؛ لأن انتقال الإنسان إلى ما أمره الله به بهذه السهولة مع توقع المعارضات، والمضايقات يدل على قوة إيمانهم، وثقتهم بربهم سبحانه وتعالى؛ وهكذا يجب على كل مؤمن إذا

جاء أمر الله أن يمتثل الأمر؛ وسيجعل الله له من أمره يسراً؛ لأن تقوى الله فيها تيسير الأمور؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً**﴾.

١١ ـ **ومنها**: إثبات الحكمة في أفعال الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**ولعلكم تهتدون**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾.

التفسير:

﴿١٥١﴾ قوله تعالى: ﴿**كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم**﴾؛ هذه أيضاً منّة رابعة وجهت إلى المؤمنين؛ والثلاث قبلها هي: قوله تعالى: ﴿**لئلا يكون للناس عليكم حجة**﴾ [البقرة: ١٥٠]، وقوله تعالى: ﴿**ولأتم نعمتي عليكم**﴾ [البقرة: ١٥٠]، وقوله تعالى: ﴿**ولعلكم تهتدون**﴾ [البقرة: ١٥٠]؛ يعني أن نعمة الله عزّ وجلّ علينا بالتوجه إلى الكعبة بدلاً عن بيت المقدس عظيمة، كما أن نعمته علينا بالرسول ﷺ عظيمة؛ و«**الإرسال**» بمعنى البعث؛ يعني أنه مرسل من الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿**يتلو عليكم آياتنا**﴾ يعني: يقرأ عليكم آياتنا؛ فيأتي بها كما سمع.

قوله تعالى: ﴿**ويزكيكم**﴾ أي ويطهركم، وينمي أخلاقكم، ودينكم.

قوله تعالى: ﴿**ويعلمكم الكتاب**﴾ أي القرآن؛ وكان العرب أُميين لا يقرؤون، ولا يكتبون إلا النادر منهم.

قوله تعالى: ﴿**والحكمة**﴾: هي أسرار الشريعة، وحسن التصرف بوضع كل شيء في موضعه اللائق به ـ بعد أن كانوا في الجاهلية يتصرفون تصرفاً أهوج من عبادة الأصنام، وقتل الأولاد، والبغي على العباد...

قوله تعالى: ﴿**ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾ أي من أمور الدين، والدنيا؛ وهذه الجملة لتقرير ما سبق من تعليمهم الكتاب، والحكمة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: بيان نعمة الله تعالى علينا بإرسال الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿**كما أرسلنا فيكم رسولاً**﴾؛ لأن هذه الآية متعلقة بقوله تعالى: ﴿**ولأتم نعمتي عليكم**﴾ [البقرة: ١٥٠]؛ فإن هذا من تمام النعمة؛ وذلك أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليُعبَد بما شرع؛ ولا يمكن أن نعرف أن هذا مما يرضاه الله أن نتعبده به، وهذا مما لا يرضاه إلا بواسطة الرسل؛ ولو أن الإنسان وكِل إلى عقله في العبادة ما عرف كيف يعبد الله؛ ولو وكِل إلى عقله في العبادة ما اجتمع الناس على عبادة الله: لكان كل واحد يقول: هذا هو الصواب؛ ولو أن الإنسان وكل إلى عقله في العبادة ما كانت أمتنا أمة واحدة؛ فعلى كل حال لا يمكن لنا بمجرد عقولنا أن ندرك كيف نعبد الله؛ ومَثَل يسير يبين ذلك: لو أُمرنا بالتطهر للصلاة ـ ولم يبين لنا الكيفية ـ لتنازع الناس في ذلك؛ وأخذ كلٌّ برأيه؛ فافترقت الأمة؛ فلولا أن الله

أبان لنا كيف نعبده ما عرفنا كيف نعبده، فهذا من نعمة الله علينا من إرسال هذا الرسول محمداً ﷺ الذي بين لنا كل شيء؛ ولهذا قال أبو ذر رضي الله عنه: «**تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا عندنا منه علم**»(١)؛ حتى الطيور في السماء علمنا عنها الرسول ﷺ.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن كون الرسول مِنّا يقتضي أن تكون قريش أول من يصدق به؛ لأنهم يعرفونه، ويعرفون نسبه، ويعرفون أمانته؛ ولهذا وبخهم الله تعالى على الكفر به، ووصْفِه بالضلال، والجنون، فقال جل وعلا: ﴿**ما ضل صاحبكم وما غوى**﴾ [النجم: ٢]، وقال جل وعلا: ﴿**وما صاحبكم بمجنون**﴾ [التكوير: ٢٢].

٣ ـ **ومنها**: أن النبي ﷺ بلغ جميع ما أوحي إليه على وجه الكمال؛ لقوله تعالى: ﴿**يتلو عليكم آياتنا**﴾؛ فإن هذا يدل على أن جميع الآيات التي أوحاها الله إليه قد تلاها؛ ولهذا القرآن ـ والحمد لله ـ مبين لفظه، ومعناه؛ ليس فيه شيء يشتبه على الناس إلا اشتباهاً نسبياً بحيث يشتبه على شخص دون الآخر، أو في حال دون الأخرى؛ قال الله تعالى: ﴿**إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه**﴾ [القيامة: ١٧ ـ ١٩].

٤ ـ **ومنها**: أن من فوائد رسالة النبي ﷺ حصول العلم؛

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٦٢: حديث ٢١٧٧٠، وأخرجه ابن حبان ١/ ١٤٢ باب الزجر عن كِتْبة المرء السُّنن مخافة أن يتكل عليها دون الحفظ لها، حديث رقم ٦٥، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢/ ١٦٦ رقم ١٦٤٧؛ قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٦٧، (رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح)، (تخريج صحيح ابن حبان: ١/ ٢٦٧، حديث ٦٥ حاشية (١))، وقال: إسناده صحيح.

لأن هذه الآيات كلها علم؛ لقوله تعالى: ﴿يتلو عليكم آياتنا﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن ما جاء به النبي ﷺ فهو من آيات الله الدالة على كمال ربوبيته، وسلطانه، ورحمته، وحكمته سواء كان من الآيات الكونية، أو الشرعية؛ لكن منها ما هو بيِّن ظاهر؛ ومنها ما يخفى على كثير من الناس إلا الراسخين في العلم؛ ومنها ما هو بيْن ذلك.

٦ ـ **ومنها**: أن الشريعة التي جاء بها النبي ﷺ كلها تزكية للأمة، وتنمية لأخلاقها، ودعوة إلى الأخلاق الفاضلة؛ ولهذا كان من القواعد المقررة في الشريعة أنها تأتي بالمصالح الخالصة، أو الراجحة، وتنهى عن المفاسد الخالصة، أو الراجحة؛ فالخمر فيه مصالح، ومفاسد؛ لكن مفاسده راجحة؛ ولهذا حرم؛ الحجر على السفيه فيه مصالح، وفيه مفاسد؛ لكن مصالحه راجحة؛ فلذلك قدمت المصالح؛ أو مصالح خالصة ـ فليس فيها مفاسد، كعبادة الله مثلاً؛ هذه قاعدة الشريعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ويزكيكم﴾.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: أن كل ما فيه تزكية للنفوس فإن الشريعة قد جاءت به؛ لقوله تعالى: ﴿ويزكيكم﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن وظيفة الرسول ﷺ، ومهمته التي جاء بها أنه يعلمنا الكتاب والحكمة.

٩ ـ **ومنها**: الرد على أهل التأويل، وأهل التجهيل؛ لقوله تعالى: ﴿يعلمكم الكتاب﴾ ـ أهل التأويل الذين يؤولون آيات الصفات ـ لأنه لو كان هذا التأويل من العلم لعلمنا إياه النبي ﷺ؛ فلما لم يعلمنا إياه علمنا أنه ليس من العلم الذي جاء به الرسول ﷺ؛ وأهل التجهيل ـ وهم طائفة

يقولون: «إن الرسول ﷺ، وأصحابه، والأمة كلها لا تعلم معاني آيات الصفات، وأحاديثها؛ فلا يدرون ما معناها؛ حتى النبي ﷺ يتكلم بالحديث من صفات الله ولا يدري معناها»!!!

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الرسول ﷺ علم الأمة لفظ القرآن، ومعناه؛ ولهذا إذا استشكل الصحابة شيئاً من المعنى سألوه، فعلمهم؛ ولكن الغالب أنهم لا يستشكلون؛ لأنه نزل بلغتهم، وفي عصرهم، يعرفون معناه، ومغزاه، وأسبابه.

١١ ـ **ومنها**: اشتمال الشريعة على الحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿**ويعلمكم الكتاب والحكمة**﴾؛ فالشريعة متضمنة للحكمة تضمناً كاملاً؛ فما من شيء من مأموراتها، ولا منهياتها، إلا وهو مشتمل على الحكمة؛ لكن هنا حكمة لازمة لكل حكم؛ وهو طاعة الله ورسوله؛ فإن هذه أعظم حكمة؛ وهي ثابتة فيما نعقل حكمته، وفيما لا نعقلها؛ ولهذا لما قالت المرأة لعائشة رضي الله عنها: «**ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ قالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة**»[1]؛ فبينت الحكمة من ذلك؛ وهو طاعة الله، ورسوله؛ وهذه حكمة لازمة في كل حكم سواء عقل معناه، أو لم يُعقَل.

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٧، كتاب الحيض، باب ٢٠: لا تقضي الحائض الصلاة، حديث رقم ٣٢١، وأخرجه مسلم ص٧٣٣، كتاب الحيض، باب ١٥: وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، حديث رقم ٧٦٣ [٦٩] ٣٣٥.

١٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الأصل في الإنسان الجهل؛ لقوله تعالى: ﴿**ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾؛ وهو مما يدل على نقص الإنسان، حيث كان الأصل فيه الجهل؛ قال تعالى: ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً**﴾ [النحل: ٧٨]؛ ثم قال عزّ وجلّ: ﴿**وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة**﴾ [النحل: ٧٨]؛ فبين طرق العلم: ﴿**السمع والبصر**﴾؛ وبهما الإدراك؛ و﴿**الأفئدة**﴾؛ وبها الوعي، والحفظ.

١٣ ـ **ومنها**: فضل الله عزّ وجلّ، حيث علمنا ما لم نكن نعلم؛ لقوله تعالى: ﴿**ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾؛ وهذا عام في كل ما نحتاج إلى العلم به من أمور الدنيا، والآخرة.

إذا قال قائل: «اضربوا لنا مثلاً» فماذا نقول؟

فالجواب: أن كل الشريعة مثال؛ فإننا لا نعرف كيف نصلي إلا بتعليم الرسول ﷺ؛ ولا كيف نتوضأ، ولا مقدار الواجب في الأموال من الزكاة، ولا مَن تُصرف إليهم الزكاة، ولا غير ذلك من أمور الشريعة إلا بتعليم الرسول ﷺ؛ وهناك أحكام قدرية لا نعرفها أيضاً علمنا الله سبحانه وتعالى إياها، كابتداء الكون، ونهايته: كخلق السموات، والأرض؛ واليوم الآخر؛ إذاً فعلومنا الشرعية، والقدرية متلقاة من الرسول ﷺ؛ وليس لنا علم بها قبل تعليم النبي ﷺ.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾.

التفسير:

﴿١٥٢﴾ قوله تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم﴾؛ «**اذكروني**» فعل أمر؛ فيه نون الوقاية؛ والياء مفعول به؛ والواو فاعل؛ وجواب فعل الأمر: ﴿أذكركم﴾.

فقوله تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ عمل، وجزاء؛ العمل: ما أفاده قوله تعالى: ﴿اذكروني﴾؛ والجزاء: ما أفاده قوله تعالى: ﴿أذكركم﴾؛ وذِكر الله يكون بالقلب، واللسان، والجوارح.

وقوله تعالى: ﴿فاذكروني﴾ فيها قراءة بفتح الياء؛ وقراءة بإسكانها؛ لأن ياء المتكلم من حيث اللغة العربية يجوز إسكانها، وفتحها، وحذفها تخفيفاً؛ لكنها في القرآن تتوقف على السماع.

قوله تعالى: ﴿واشكروا لي﴾؛ ﴿اشكروا﴾ فعل أمر من «شكر»؛ أي قوموا بالشكر؛ واللام للاختصاص؛ و«**الشكر**» هو القيام بطاعة المنعم؛ وقد اختلف علماء العربية هل: ﴿واشكروا لي﴾ بمعنى «اشكروني»؛ أي أن الفعل يتعدى بنفسه تارة، وباللام أخرى؛ أو أن بينهما فرقاً؟ فقال بعضهم: هي بمعناها، فيقال: شكره؛ ويقال: شكر له؛ وقال بعضهم: إنها ليست بمعناها؛ وأن «شكر» تتعدى بنفسها دائماً، وأن المفعول هنا في نحو ﴿واشكروا لي﴾ محذوف؛ يعني: اشكروا لي ما أنعمت عليكم، أو نعمتي، أو ما أشبه ذلك؛ والخلاف في هذا قريب؛ لأن الجميع متفقون على أن المراد شكر الله عزّ وجلّ على نعمته.

قوله تعالى: ﴿**ولا تكفرون**﴾؛ ﴿**لا**﴾ ناهية؛ والنون هنا نون الوقاية، وليست نون الإعراب؛ ومثله قوله تعالى: ﴿**فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون**﴾ [الذاريات: ٥٩]؛ ولهذا كانت مكسورة فيهما؛ و﴿**لا تكفرون**﴾ أي لا تجحدوني، أو تجحدوا نعمتي؛ بل قوموا بشكرها، وإعلانها، وإظهارها.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: وجوب ذكر الله؛ للأمر به؛ مطلق الذكر واجب: يجب على كل إنسان أن يذكر ربه؛ بل كل مجلس يجلسه الإنسان ولا يذكر الله فيه، ولا يصلي على النبي إلا كان عليه ترة ـ أي خسارة، وحسرة ـ يوم القيامة؛ فالعبد مأمور بذكر الله؛ لكن ذكر الله ينقسم إلى فريضة من فرائض الإسلام؛ وإلى واجب من واجباته؛ وإلى سنة من سننه ـ بحسب ما تقتضيه الأدلة؛ إنما مطلق الذكر حكمه أن واجب.

٢ ـ **ومنها**: أن مَنْ ذَكر الله ذكره الله؛ لقوله تعالى: ﴿**أذكركم**﴾؛ وكون الله يذكرك أعظم من كونك تذكره؛ ولهذا قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي؛ ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه**»[1]؛ وذكر الله يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح؛ فالأصل ذكر القلب كما

---

(١) أخرجه البخاري ص٦١٦، كتاب التوحيد، باب ١٥: قول الله تعالى: ﴿**ويحذركم الله نفسه**﴾، حديث رقم ٧٤٠٥، وأخرجه مسلم ص١١٤٤، كتاب الذكر والدعوات...، باب ١: الحث على ذكر الله تعالى، حديث رقم ٦٨٠٥ [٢] ٢٦٧٥.

قال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله؛ وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب**»[(١)] فالمدار على ذكر القلب؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه**﴾ [الكهف: ٢٨]؛ وذكر الله باللسان، أو بالجوارح بدون ذكر القلب قاصر جداً، كجسد بلا روح؛ وصفة الذكر بالقلب التفكر في آيات الله، ومحبته، وتعظيمه، والإنابة إليه، والخوف منه، والتوكل عليه، وما إلى ذلك من أعمال القلوب؛ وأما ذكر الله باللسان فهو النطق بكل قول يقرب إلى الله؛ وأعلاه قول: «لا إله إلا الله»؛ وأما ذكر الله بالجوارح فبكل فعل يقرب إلى الله: القيام في الصلاة، والركوع، والسجود، والجهاد، والزكاة، كلها ذكر لله؛ لأنك عندما تفعلها تكون طائعاً لله؛ وحينئذٍ تكون ذاكراً لله بهذا الفعل؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿**وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر**﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ قال بعض العلماء: أي لما تضمنته من ذكر الله أكبر؛ وهذا أحد القولين في هذه الآية.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: فضيلة الذكر؛ لأن به يحصل ذكر الله للعبد؛ وذكر الله للعبد أمر له شأن كبير عظيم؛ فليس الشأن بأن تذكر الله، أو أن تحب الله؛ ولكن الشأن أن يذكرك الله عزّ وجلّ، وأن يحبك الله عزّ وجلّ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾ [آل عمران: ٣١]؛ فقال تعالى: ﴿**يحببكم الله**﴾؛ لأن هذا هو الغاية المطلوبة.

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٢٥.

٤ ـ **ومنها**: وجوب الشكر؛ لقوله تعالى: ﴿**واشكروا لي**﴾؛ و«الشكر» يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح؛ ولا يكون إلا في مقابلة نعمة؛ فسببه أخص من سبب «الحمد»؛ ومتعلَّقه أعم من متعلق «الحمد»؛ فيختلفان إذاً من حيث السبب؛ ويختلفان من حيث المتعلق؛ سبب «الحمد» كمال المحمود، وإنعام المحمود؛ فإذا كان سببه إنعام المحمود كان «الحمد» من «الشكر»؛ أما «الشكر» فسببه واحد؛ وهو نعمة المشكور؛ وأما متعلق «الحمد» فيكون باللسان فقط؛ وأما متعلق «الشكر» فثلاثة: يكون باللسان، والقلب، والجوارح؛ وعليه قول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

فـ«يدي» هذا الشكر بالجوارح؛ و«لساني» هذا الشكر باللسان ـ يعني القول؛ و«الضمير المحجبا» يعني القلب.

والشكر بالقلب أن يعتقد الإنسان بقلبه أن هذه النعمة من الله عزّ وجلّ وحده؛ فيحب الله سبحانه وتعالى لهذا الإنعام؛ ولهذا ورد في الحديث: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه**»[(١)]؛ فإن الإنسان إذا شعر بأن هذه النعمة من الله أحب الله سبحانه وتعالى؛ لأن النفوس مجبولة على محبة من يحسن إليها.

---

(١) أخرجه الترمذي ص٢٠٤١، كتاب المناقب، باب ٣١، في مناقب أهل بيت النبي ﷺ، حديث رقم ٣٧٨٩، وأخرجه الحاكم في مستدركه ٣/ ١٥٠، كتاب الهجرة، ومن مناقب أهل بيت رسول الله ﷺ؛ وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ وقال الذهبي: «صحيح» (المرجع السابق).

وأما الشكر باللسان فأن يتحدث الإنسان بنعمه لا افتخاراً؛ بل شكراً؛ قال الله تعالى: ﴿**وأما بنعمة ربك فحدث**﴾ [الضحى: ١١]؛ وقال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر**»(١).

وأما الشكر بالجوارح فأن يقوم الإنسان بطاعة الله، ويصرف هذه النعمة لما جعلت له؛ فإن هذا من شكر النعمة.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: وجوب ملاحظة الإخلاص؛ لقوله تعالى: ﴿**واشكروا لي**﴾ يعني مخلصين لله عزّ وجلّ؛ لأن الشكر طاعة؛ والطاعة لا بد فيها من الإخلاص، كما قال تعالى: ﴿**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً**﴾ [الكهف: ١١٠].

٦ ـ **ومنها**: تحريم كفر النعمة؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تكفرون**﴾ ولهذا إذا أنعم الله على عبده نعمة فإنه يحب أن يرى أثر نعمته عليه؛ فإذا أنعم الله عليه بعلم فإن الله يحب من هذا العالم أن يظهر أثر هذه النعمة عليه:

أولاً: على سلوكه هو بنفسه بحيث يكون معروفاً بعلمه، وعمله به.

ثانياً: بنشر علمه ما استطاع، سواء كان ذلك على وجه العموم، أو الخصوص.

ثالثاً: أن يدعو إلى الله على بصيرة بحيث إنه في كل مجال يمكنه أن يتكلم في الدعوة إلى الله بقدر ما يستطيع حتى في

---

(١) سبق تخريجه ١/١١٨.

المجالس الخاصة فيما إذا دعي إلى وليمة مثلاً، ورأى من المصلحة أن يتكلم فليتكلم؛ وبعض أهل العلم يكون معه كتاب، فيقرأ الكتاب على الحاضرين، فيستفيد، ويفيد؛ وهذا طيب إذا علم من الناس قبول هذا الشيء بأن يكون قد عوَّدهم على هذا، فصاروا يرقبونه منه؛ أما إذا لم يعوِّدهم فإنه قد يثقل عليهم بهذا، ولكن من الممكن أن يفتح المجال بإيراد يورده ـ سؤالاً مثلاً ـ حتى ينفتح المجال للناس، ويسألون، وينتفعون؛ لأن بعض طلبة العلم تذهب مجالسهم كمجالس العامة لا ينتفع الناس بها؛ وهذا لا شك أنه حرمان ـ وإن كانوا لا يأثمون إذا لم يأتوا بما يوجب الإثم؛ فالذي ينبغي لطالب العلم ـ حتى وإن لم يُسأل ـ أن يورد هو سؤالاً لأجل أن يفتح الباب للحاضرين، فيسألوا؛ وقد جاء جبريل إلى النبي ﷺ يسأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة، وأماراتها؛ وقال النبي ﷺ: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»[1]؛ مع أن الذي يجيب الرسول ﷺ؛ ولكن جعله معلماً وهو يسأل؛ لأنه هو السبب في هذا التعليم.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾.

التفسير:

﴿١٥٣﴾ قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾؛ سبق أن الكلام إذا صدَّر بالنداء فهو دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء

(١) سبق تخريجه ١/ ٢٠١.

يوجب التفات المخاطب إلى مناديه؛ وسبق بيان فوائد تصدير الخطاب بوصف الإيمان[١].

قوله تعالى: ﴿**استعينوا بالصبر والصلاة**﴾ أي اجعلوا الصبر عوناً لكم؛ وكذلك استعينوا بالصلاة؛ وسبق الكلام على نظير هذه الجملة[٢].

قوله تعالى: ﴿**إن الله مع الصابرين**﴾: هذه بشرى عظيمة لمن صبر؛ وقال تعالى: ﴿**مع الصابرين**﴾ لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن الصلاة من الصبر؛ لأنها صبر على طاعة الله.

الوجه الثاني: أن الاستعانة بالصبر أشق من الصلاة؛ لأن الصبر مُرّ:

الصبر مثل اسمه مُرٌّ مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل

فهو مرٌّ يكابده الإنسان، ويعاني، ويصابر، ويتغير دمه حتى من يراه يقول: هذا مريض.

الوجه الثالث: أنه إذا كان مع الصابرين فهو مع المصلين من باب أولى بدليل أنه ثبت عن النبي ﷺ أن الإنسان المصلي يناجي ربه، وأن الله قِبل وجهه[٣] ـ وهو على عرشه سبحانه وتعالى.

---

(١) ١/ ٣٣٧.

(٢) ١/ ١٦٠.

(٣) راجع البخاري ص٣٥، كتاب الصلاة، باب ٣٣: حك البزاق باليد من المسجد، حديث رقم ٤٠٦، وراجع صحيح مسلم ص٧٦٣، كتاب المساجد، باب ١٣: النهي عن البصاق في المسجد...، حديث رقم ١٢٢٣ [٥٠] ٥٤٧.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: فضيلة الإيمان، وأنه من أشرف أوصاف الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا...**﴾.

٢ ـ **ومنها**: الإرشاد إلى الاستعانة بالصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿**استعينوا بالصبر والصلاة**﴾.

٣ ـ **ومنها**: بيان الآثار الحميدة للصلاة، وأن من آثارها الحميدة أنها تعين العبد في أموره.

٤ ـ **ومنها**: جواز الاستعانة بغير الله فيما يمكن أن يعين فيه؛ لقوله تعالى: ﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة**﴾؛ وجاء في الحديث: «**وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة**»[1].

٥ ـ **ومنها**: أن الاستعانة بالصلاة من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا استعينوا...**﴾ إلخ.

٦ ـ **ومنها**: فضيلة الصبر؛ لأنه يعين على الأمور؛ والصبر ثقيل جداً على النفس؛ لأن الإنسان إذا أصابه ضيق، أو بلاء ثقل عليه تحمله، فاحتاج إلى الصبر؛ ولهذا قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿**تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين**﴾ [هود: ٤٩]؛ فقال تعالى: ﴿**فاصبر**﴾ إشارة إلى أن هذا الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ يحتاج إلى صبر، وتحمل؛ لأنه سيجد من ينازع، ويضاد؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً * فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً**﴾ [الإنسان: ٢٣، ٢٤]؛ إذاً الصبر

---

(١) سبق تخريجه ١/ ١٤.

شاق على النفوس؛ لكن يجب على الإنسان أن يصبر؛ ولهذا من لم يوفق للصبر فاته خير كثير؛ والذي يصبر أيضاً غالباً ينتظر الفرج لا سيما إذا صبر بإخلاص، وحسن نية؛ وانتظار الفرج عبادة، وباب للفرج؛ لقول النبي ﷺ: «**واعلم أن النصر مع الصبر؛ وأن الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسراً**»[(١)]؛ لأنه إذا كان منتظراً للفرج هان عليه الصبر؛ لأنه يؤمل أن الأمور ستزول، وأن دوام الحال من المحال؛ فإذا كان يؤمل الأجر في الآخرة، ويؤمل الفرج في الدنيا هان عليه الصبر كثيراً؛ وهذه لا شك من الخصال الحميدة التي جاء بها الإسلام، ودليل على أن الأمور تسهل بالصبر؛ مهما بلغتك الأمور اصبر، فتهون؛ ولهذا جعل الله الصبر عوناً.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: أن في الصبر تنشيطاً على الأعمال، والثبات عليها؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الله مع الصابرين**﴾؛ فإذا آمن الإنسان بأن الله معه ازداد نشاطاً، وثباتاً؛ وكون الله سبحانه وتعالى مع الإنسان مسدداً له، ومؤيداً له، ومصبِّراً له، لا شك أن هذه درجة عالية كل يريدها؛ ولهذا لما جاء النبي ﷺ إلى قوم يتناضلون قال: «**ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً وأنا مع بني فلان؛ قال الآخرون: يا رسول الله، إذا كنت معهم فلا نناضل؛ فقال: ارموا وأنا معكم كلكم**»[(٢)].

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات معية الله سبحانه وتعالى؛ ومعيته تعالى نوعان:

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٣٤٣.

(٢) أخرجه البخاري ص٢٣٣، كتاب الجهاد، باب ٧٨: التحريض على الرمي...، حديث رقم ٢٨٩٩.

النوع الأول: عامة لجميع الخلق، ومقتضاها الإحاطة بهم علماً، وقدرة، وسلطاناً، وسمعاً، وبصراً، وغير ذلك من معاني ربوبيته؛ لقوله تعالى: ﴿**ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا**﴾ [المجادلة: ٧].

والنوع الثاني: خاصة؛ ومقتضاها مع الإحاطة: النصر، والتأييد؛ وهي نوعان: **مقيدة بوصف**، كقوله تعالى: ﴿**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**﴾ [النحل: ١٢٨]؛ **ومقيدة بشخص**، كقوله تعالى لموسى، وهارون: ﴿**إنني معكما أسمع وأرى**﴾ [طه: ٤٦]، وقوله عن نبيه محمد ﷺ: ﴿**إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا**﴾ [التوبة: ٤٠].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

التفسير:

﴿١٥٤﴾ قوله تعالى: ﴿**ولا تقولوا**﴾؛ ﴿**لا**﴾ ناهية؛ ولهذا جزمت الفعل؛ وعلامة جزمه حذف النون.

قوله تعالى: ﴿**لمن يقتل في سبيل الله**﴾ أي فيمن يقتل في سبيل الله؛ وهو الذي قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

قوله تعالى: ﴿**أموات**﴾ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هم أموات.

فإن قال قائل: كيف لا نقول أموات وقد ماتوا؟

فالجواب: أن المراد هنا: لا تقولوا: أموات موتاً مطلقاً ـ دون الموت الذي هو مفارقة الروح للجسد؛ فهذا موجود؛ ولولا أن أرواحهم فارقت أجسادهم لما دفناهم، ولكانوا باقين يأكلون، ويشربون؛ ولكن الموت المطلق لم يقع منهم بدليل الإضراب الإبطالي في قوله تعالى: ﴿**بل أحياء**﴾ يعني: بل هم أحياء؛ ف﴿**أحياء**﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ وهي جمع «حي»؛ والمراد: أحياء عند ربهم، كما في أية آل عمران؛ وهي حياة برزخية لا نعلم كيفيتها؛ ولا تحتاج إلى أكل، وشرب، وهواء، يقوم به الجسد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**ولكن لا تشعرون**﴾ أي لا تشعرون بحياتهم؛ لأنها حياة برزخية غيبية؛ ولولا أن الله عزّ وجلّ أخبرنا بها ما كنا نعلم بها.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: النهي عن القول بأن الذين قتلوا في سبيل الله أموات؛ وهو يشمل القول بالقلب ـ وهو الاعتقاد، والقول باللسان ـ وهو النطق.

٢ ـ **ومنها**: التنبيه على الإخلاص في القتال؛ لقوله تعالى: ﴿**في سبيل الله**﴾؛ وقد سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياءً أيّ ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[1]؛ وهذه مسألة

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٥١ ـ ٢٥٢، كتاب فرض الخمس، باب ١٠: من قاتل للمغنم هل ينقص من أجره، حديث رقم ٣١٢٦، وأخرجه مسلم ص١٠١٨، كتاب الإمارة، باب ٤٢: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حديث رقم ٤٩٢٠ [١٥٠] ١٩٠٤، واللفظ لمسلم.

مهمة؛ لأن كثيراً من الناس قد يقصد أن هذا جهاد، فيخرج؛ لأنه جهاد وقتال لأعداء الله؛ لكن كونه يشعر بأن هذا في سبيل الله ـ أي في الطريق الموصل إلى الله ـ أبلغ.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات حياة الشهداء؛ لكنها حياة برزخية لا تماثل حياة الدنيا؛ بل هي أجلّ، وأعظم، ولا تعلم كيفيتها.

٤ ـ **ومنها**: أن ثواب الله سبحانه وتعالى للعامل أجلٌّ، وأعلى؛ وذلك؛ لأن الشهيد عرض نفسه للموت ابتغاء ثواب الله؛ فأثابه الله، حيث جعله حياً بعد موته حياة برزخية أكمل من حياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿**عند ربهم يرزقون**﴾ [آل عمران: ١٦٩].

٥ ـ **ومنها**: إثبات الحياة البرزخية؛ لقوله تعالى: ﴿**بل أحياء**﴾؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه إذا دفن الإنسان رد الله عليه روحه، وجاءه ملكان يسألانه عن ربه، ودينه، ونبيه[(١)].

٦ ـ **ومنها**: إثبات نعيم القبر؛ لقوله تعالى: ﴿**بل إحياء**﴾.

٧ ـ **ومنها**: أن أحوال البرزخ، وعالم الغيب غير معلومة لنا، ولا نشعر بها إلا ما علمنا الله ورسوله.

❁ ❁ ❁

---

(١) راجع مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦، حديث رقم ١٨٨١٥، وأبو داود ص١٥٧٢، كتاب السنة، باب ٢٣: المسألة في القبر وعذاب القبر، حديث رقم ٤٧٥٣، والترمذي مختصراً ص١٩٦٨، كتاب تفسير القرآن، باب ١٤: ومن سورة إبراهيم، حديث رقم ٣١٢٠، وقال الألباني في صحيح أبي داود ٣/ ١٦٥ ـ ١٦٦ «صحيح». اهـ. وأصله في البخاري ومسلم.

القرآن

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾.

التفسير:

﴿١٥٥﴾ قوله تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع...﴾ هذه مصائب خمس؛ والجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، والنون؛ والتقدير: واللَّهِ لنبلونكم؛ والفعل هنا مع نون التوكيد مبني على الفتح؛ و«**نبلو**» بمعنى نختبر.

وقوله تعالى: ﴿بشيء﴾: التنكير هنا للتقليل؛ ويحتمل أن يكون للتكثير.

وقوله تعالى: ﴿من الخوف﴾ أي الذُّعْر؛ وهو شامل للخوف العام، والخوف الخاص؛ الخوف العام: كأن تكون البلاد مهددة بعدو؛ والخوف الخاص: كأن يكون الإنسان يبتلى بنفسه بمن يخيفه ويروعه.

وقوله تعالى: ﴿والجوع﴾: هو خلو البطن من الطعام مع شدة اشتهائه؛ وهو ضد «الشِّبع»؛ وله أسباب؛ **السبب الأول**: قلة الطعام؛ **والسبب الثاني**: قلة المال الذي يحصل به الطعام؛ **والسبب الثالث**: أن يصاب الإنسان بمرض يمنعه من الطعام إما لقلة الشهية؛ وإما للعجز عن استساغه لسدَدٍ في الحلق، أو قروح في المعدة، أو غير ذلك؛ والجوع لا يدرك أثره إلا من جربه؛ بل كل المصائب لا يدرك أثرها إلا من جربها؛ أما من لم يجرب فإنه لا يشعر بآثار المصائب؛ ولهذا قيل: وبضدها تتبين الأشياء.

قوله تعالى: ﴿ونقص من الأموال﴾؛ ﴿الأموال﴾ جمع «مال»؛ وهو كل ما يتموله الإنسان من نقود، ومتاع، وحيوان.

قوله تعالى: ﴿والأنفس﴾ جمع «نفس»؛ والمراد: الأرواح، كالأمراض الفتاكة التي تهلك بها أمم، مثل الطاعون، وغيره.

قوله تعالى: ﴿والثمرات﴾ جمع «ثمرة»؛ وهي ما ينتج من أشجار النخيل، والأعناب، وغيرهما، بأن تأتي كوارث تنقص بها هذه الثمار، أو تتلف.

قوله تعالى: ﴿وبشر الصابرين﴾ أي أخبرهم بما يسرهم؛ وسبق معنى الصبر، وأقسامه[1].

﴿١٥٦﴾ قوله تعالى: ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة﴾، أي من هذه المصائب التي ذكرها في الآية الأولى.

قوله تعالى: ﴿قالوا﴾ أي بقلوبهم، وألسنتهم ﴿إنا لله﴾: اللام للملك؛ يعني إنا ملك لله يفعل بنا ما يشاء.

قوله تعالى: ﴿وإنا إليه راجعون﴾ أي صائرون في جميع أمورنا دنيا، وأخرى؛ فنرجو الذي أصابنا بهذه المصيبة عند رجوعنا إليه أن يجزينا بأفضل منها؛ فهم جمعوا هنا بين الإقرار بالربوبية في قولهم: ﴿إنا لله﴾، وبين الإقرار، والإيمان بالجزاء الذي يستلزم العمل الصالح؛ لأنهم يقولون: ﴿وإنا إليه راجعون﴾؛ فنحن نرجو ثوابه مع أنه فعل بنا ما هو ملكه، وبيده؛ وتقديم المتعلق يفيد الحصرَ ـ أي راجعون إليه لا إلى غيره، ومناسبةَ رؤوس الآي.

---

(١) ١/ ١٦١.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: ابتلاء العباد بما ذكر الله من الخوف، والجوع، ونقص الأموال، والأنفس، والثمرات، وهو لمن وقع به ظاهر؛ ولغيرهم يكون الابتلاء بالاعتبار، والخوف أن يقع بهم مثل ما وقع بالذين ابتلوا.

٢ ـ **ومنها**: أن الناس ينقسمون عند المصائب إلى قسمين: صابر، وساخط؛ وقد جاء في الحديث: «**من رضي فله الرضا؛ ومن سخط فله السخط**»[1]؛ فالصبر على المصائب واجب؛ وقد ذكر العلماء أن للإنسان عند المصيبة أربعة مقامات:

المقام الأول: **الصبر** ـ وهو واجب.

المقام الثاني: **الرضا** ـ وهو سنة على القول الراجح؛ والفرق بينه، والصبر، أن الصابر يتجرع مرارة الصبر، ويشق عليه ما وقع؛ ولكنه يحبس نفسه عن السخط؛ وأما الراضي: فإن المصيبة باردة على قلبه لم يتجرع مرارة الصبر عليه؛ فهو أكمل حالاً من الصابر.

المقام الثالث: **الشكر**: بأن يشكر الله على المصيبة.

فإن قيل: كيف يشكره على المصيبة؟

فالجواب: أن ذلك من وجوه:

---

(١) أخرجه الترمذي ص١٨٩٢، كتاب الزهد، باب ٥٦: ما جاء في الصبر على البلاء، حديث رقم ٢٣٩٦، وأخرجه ابن ماجه ص٢٧١٩، كتاب الفتن، باب ٢٣: الصبر على البلاء، حديث رقم ٤٠٣١، وفي الحديث سعد بن سنان مختلف فيه، قال الألباني في السلسلة الصحيحة: «سنده حسن» ١/٢٢٩، حديث رقم ١٤٦.

منها: أن ينسبها إلى ما هو أعظم منها؛ فينسب مصيبة الدنيا إلى مصيبة الدين؛ فتكون أهون؛ فيشكر الله أن لم يجعل المصيبة في الأشد.

ومنها: احتساب الأجر على المصيبة بأنه كلما عظم المصاب كثر الثواب؛ ولهذا ذكروا عن بعض العابدات أنها أصيبت بمصيبة، ولم يظهر عليها أثر الجزع؛ فقيل لها في ذلك، فقالت: إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها.

المقام الرابع: **السخط** ـ وهو محرم ـ بل من كبائر الذنوب؛ فقد قال النبي ﷺ: «**ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**»[(١)].

٣ ـ **ومن فوائد الآيتين**: البشرى للصابرين.

٤ ـ **ومنها**: أن من سمة الصابرين تفويض أمرهم إلى الله بقلوبهم، وألسنتهم إذا أصابتهم المصائب؛ لقوله تعالى: ﴿**وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾.

٥ ـ **ومنها**: مشروعية هذا القول؛ وقد جاءت السنة بزيادة: «**اللهم أْجُرني في مصيبتي**» ـ أي أثبني عليها ـ «**وأخلف لي**» بقطع الهمزة ـ أي اجعل لي خلفاً «**خيراً منها**»[(٢)] والدليل على هذا قصة

---

(١) أخرجه البخاري ص١٠١، كتاب الجنائز، باب ٣٨: ليس منا من ضرب الخدود، حديث رقم ١٢٩٧؛ وأخرجه مسلم ص٦٩٥، كتاب الإيمان، باب ٤٤: تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب...، حديث رقم ٢٨٥ [١٦٥] ١٠٣.

(٢) أخرجه مسلم ص٨٢٢، كتاب الجنائز، باب ٢: ما يقال عند المصيبة، حديث رقم ٢١٢٦ [٣] ٩١٨.

أم سلمة رضي الله عنها: كانت تحب زوجها ابن عمها أبا سلمة محبة شديدة؛ ولما مات ـ وكان النبي ﷺ قد حدثها بهذا الحديث ـ قالت: «**اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها**»؛ فكانت تفكر في نفسها، وتقول: من يصير خيراً من أبي سلمة!!!وهي مؤمنة في نفسها أن ما قاله النبي ﷺ حق؛ لكن لا تدري من هو؛ وما كان يجول في فكرها أن الرسول ﷺ سيكون هو الخلف؛ فأخلف الله لها خيراً من زوجها؛ فإذا قالها الإنسان مؤمناً محتسباً أجرَه الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾.

التفسير:

﴿١٥٧﴾ قوله تعالى: ﴿**أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة**﴾؛ الإشارة إلى ﴿**الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله...**﴾ [البقرة: ١٥٦] إلخ؛ وجاءت بلفظ الإشارة للبعيد للدلالة على علو مرتبتهم، ومنزلتهم، ومقامهم؛ و﴿**عليهم**﴾ خبر مقدم؛ و﴿**صلوات**﴾ مبتدأ مؤخر؛ ولكنه مبتدأ ثانٍ؛ والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره في محل رفع خبر المبتدأ الأول: ﴿**أولئك**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**صلوات**﴾ اختلف العلماء في معناها؛ ولكن أصح الأقوال فيها أن المراد بها الثناء عليهم في الملأ الأعلى؛ والمعنى أن الله يثني على هؤلاء في الملأ الأعلى رفعاً لذكرهم، وإعلاءً لشأنهم.

وقوله تعالى: ﴿ورحمة﴾ عطفها على ﴿الصلوات﴾ من باب عطف العام على الخاص؛ لأن الثناء عليهم في الملأ الأعلى من الرحمة.

قوله تعالى: ﴿وأولئك هم المهتدون﴾، «أولاء» اسم إشارة تعود إلى ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ [البقرة: ١٥٦]؛ وهي مفيدة للحصر؛ وطريقه: ضمير الفصل؛ و﴿المهتدون﴾ أي الذين اهتدوا إلى طريق الحق؛ فإن هذا الكلام الذي يقولونه مع الصبر هو الهداية.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: بيان حكمة الله عزّ وجلّ فيما يبتلي به العباد.

٢ ـ **ومنها**: عظم ثواب الصبر؛ لقوله تعالى: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾.

٣ ـ **ومنها**: إثبات رحمة الله عزّ وجلّ؛ وهي صفة حقيقية ثابتة لله؛ بها يرحم من يشاء من عباده؛ ومن آثارها حصول النعم، واندفاع النقم.

٤ ـ **ومنها**: الثناء على الصابرين بأنهم هم المهتدون الذين اهتدوا إلى ما فيه رضا الله وثوابه.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾.

التفسير:

﴿١٥٨﴾ قوله تعالى: ﴿**إن الصفا والمروة**﴾: جبلان معروفان؛ يقال للصفا: جبل أبي قبيس؛ وللمروة: قُعَيقعان؛ وهما شرقي الكعبة؛ وقد كانت أم إسماعيل رضي الله عنها تصعد عليهما لتتحسس هل حولها أحد؛ وذلك بعد أن نفد منها التمر، والماء، وتقلص لبنها، وجاع ابنها؛ والقصة مطولة في صحيح البخاري.

قوله تعالى: ﴿**من شعائر الله**﴾، ﴿**من**﴾ للتبعيض - يعني بعض شعائر الله؛ و«**الشعائر**» جمع شعيرة؛ وهي التي تكون عَلَماً في الدين؛ يعني: من معالم الدين الظاهرة؛ لأن العبادات منها خفية: بَيْنَ الإنسان وربه؛ ومنها أشياء عَلَم ظاهر بيِّن - وهي الشعائر.

وقوله تعالى: ﴿**من شعائر الله**﴾ ليس المراد أن نفس الجبل من الشعائر؛ بل المراد الطواف بهما من الشعائر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما**﴾؛ وأضيفت الـ﴿**شعائر**﴾ إلى ﴿**الله**﴾؛ لأنه هو الذي شرعها، وأثبتها، وجعلها طريقاً موصلاً إليه.

قوله تعالى: ﴿**فمن حج البيت**﴾؛ «حج» في اللغة بمعنى قصد؛ إذاً ﴿**حج البيت**﴾ أي قصده لأداء مناسك الحج؛ و﴿**البيت**﴾ هو بيت الله؛ أي الكعبة.

قوله تعالى: ﴿**أو اعتمر**﴾؛ ﴿**أو**﴾ للتنويع؛ لأن قاصد البيت إما أن يكون حاجاً؛ وإما أن يكون معتمراً؛ و«العمرة» في اللغة: الزيارة؛ والمراد بها زيارة البيت لأداء مناسك العمرة.

قوله تعالى: ﴿**فلا جناح عليه**﴾: «**لا**» نافية للجنس؛ و﴿**جناح**﴾ اسمها؛ وخبرها ﴿**أنْ**﴾ وما دخلت عليه؛ أي لا جناح عليه في التطوف بهما؛ والـ﴿**جناح**﴾ هو الإثم؛ يعني فلا إثم عليه في أن يتطوف بهما؛ وإنما نفى الإثم؛ لأنهم كانوا يتحرجون من الطواف بهما.

قوله تعالى: ﴿**أن يطوَّف بهما**﴾: ﴿**يطوَّف**﴾أصلها يتطوف؛ ولكن قلبت التاء طاءً لعلة تصريفية؛ فصار ﴿**يطوّف**﴾؛ و﴿**بهما**﴾ المراد: بينهما، كما تفسره سنة النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿**ومن تطوع خيراً**﴾ أي ازداد خيراً في الطاعة؛ ويشمل الواجب، والمستحب؛ وتخصيص التطوع بالمستحب اصطلاح فقهي؛ أما في الشرع فإنه يشمل الواجب، والمستحب؛ و﴿**من**﴾ شرطية؛ و﴿**تطوع**﴾ فعل الشرط؛ وجواب الشرط جملة: ﴿**فإن الله شاكر عليم**﴾؛ و﴿**خيراً**﴾ يجوز في إعرابها وجهان؛ **الوجه الأول**: أن تكون منصوبة بنزع الخافض؛ والتقدير: ومن تطوع بخير فإن الله شاكر عليم؛ **والوجه الثاني**: أن تكون مفعولاً لأجله ـ أي ومن تطوع لأجل الخير، وطلبه فإن الله شاكر عليم.

قوله تعالى: ﴿**فإن الله شاكر**﴾ أي فالله يشكر؛ وهو سبحانه وتعالى شاكر، وشكور؛ وشكره تعالى أنه يثيب العامل أكثر من عمله؛ فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

قوله تعالى: ﴿**عليم**﴾ أي ذو علم؛ وعلمه تعالى محيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿**وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً**﴾ [الطلاق: ١٢]؛ وقرن العلم بالشكر لاطمئنان العبد إلى أن عمله لن يضيع فإنه معلوم عند الله، ولا يمكن أن يضيع منه شيء؛ يعني: إذا عَلم

العامل أن الله تعالى شاكر، وأنه عليم، فإنه سيطمئن غاية الطمأنينة إلى أن الله سبحانه وتعالى سيجزيه على عمله بما وعده به، ويعطيه أكثر من عمله.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: مشروعية الطواف بين الصفا، والمروة؛ ويؤخذ ذلك من كونه من شعائر الله؛ وهل هو ركن، أو واجب، أو سنة؟ اختلف في ذلك أهل العلم على أقوال ثلاثة؛ فقال بعضهم: إنه ركن من أركان الحج لا يتم الحج إلا به؛ وقال بعضهم: إنه واجب من واجبات الحج يجبر بدم، ويصح الحج بدونه؛ وقال آخرون: إنه سنة، وليس بواجب.

والقول بأنه سنة ضعيف جداً؛ لأن قوله تعالى: ﴿**من شعائر الله**﴾ يدل على أنه أمر مهم؛ لأن الشعيرة ليست هي السنة فقط؛ الشعيرة هي طاعة عظيمة لها شأن كبير في الدين.

بقي أن يكون متردداً بين الركن، والواجب؛ والأظهر أنه ركن؛ لأن النبي ﷺ قال: «**اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي**»[(١)]؛ وقالت عائشة: «**والله! ما أتم الله حج امرئ ولا عمرته لم يطف بين الصفا والمروة**»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٤٢١ ـ ٤٢٢، حديث رقم ٢٧٩١١، وأخرجه ابن خزيمة ٤/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣، حديث رقم ٢٧٦٤، ٢٧٦٥، وأخرجه الشافعي في مسنده ١/ ٣٥١ ـ ٣٥٢، حديث رقم ٩٠٧، وقال الألباني الحديث «صحيح» (الإرواء: ٤/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠).

(٢) أخرجه البخاري ص١٤٠، كتاب العمرة، باب ١٠: يفعل بالعمرة ما يفعل بالحج حديث رقم ١٧٩٠، وأخرجه مسلم ص٨٩٩، كتاب الحج، =

فالأقرب أنه ركن؛ وليس بواجب؛ وإن كان الموفق ـ رحمه الله ـ وهو من مشائخ مذهب الإمام أحمد ـ اختار أنه واجب يجبر بدم.

٢ ـ **من فوائد الآية**: دفع ما توهمه بعض الصحابة من الإثم بالطواف بالصفا، والمروة؛ لقوله تعالى: ﴿**فلا جناح عليه أن يطوف بهما**﴾؛ وعلى هذا فلا ينافي أن يكون الطواف بينهما ركناً من أركان الحج، أو واجباً من واجباته، أو مشروعاً من مشروعاته؛ وذلك أن أناساً من الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية المذكورة في القرآن؛ وهي في المشلّل ـ مكان قرب مكة ـ فكانوا يتحرجون من الطواف بالصفا والمروة وقد أهلوا لمناة؛ فلما جاء الإسلام سألوا النبي ﷺ عن ذلك فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية: ﴿**فلا جناح عليه أن يطوف بهما**﴾؛ فعلى هذا يكون النفي هنا لدفع ما وقع في نفوسهم من التحرج؛ لأنها من شعائر الله؛ وليس لبيان أصل الحكم.

وفيه سبب آخر لتحرج الناس من الطواف بهما: وهو أنهم كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية، فكانوا يطوفون بهما كما كانوا يطوفون بالبيت أيضاً، فذكر الله عزّ وجلّ الطواف بالبيت، ولم يذكر الطواف بالصفا، والمروة؛ فقالوا: لو كان ذلك جائزاً لذكره الله عزّ وجلّ، فهذا دليل على أنه ليس بمشروع؛ لأنه من أعمال الجاهلية؛ فلا نطوف؛ فأنزل الله هذه الآية.

وفيه أيضاً سبب ثالث؛ وهو أنه يقال: إنه كان فيهما

= باب ٤٣: بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن...، حديث رقم ٣٠٧٩ [٢٥٩] ١٢٧٧.

صنمان: إساف، ونائلة؛ وقيل: إنهما كانا رجلاً وامرأة زنيا في جوف الكعبة؛ فمسخهما الله سبحانه وتعالى حجارة؛ فكان من جهل العرب أن قالوا: «هذان مسخا حجارة؛ إذاً لا بد أن هناك سراً، وسبباً، فاخرجوا بهما عن الكعبة، واجعلوهما على الجبلين ـ الصفا، والمروة ـ نطوف بهما، ونتمسح بهما»؛ وقد كان؛ وعلى هذا يقول أبو طالب:

وحيث يُنيخ الأشعرون ركابهم بمفضى السيول من إسافٍ ونائل

و«مفضى السيول» مجرى الوادي المعروف الذي بين الصفا، والمروة؛ فالحاصل أن هذه ثلاثة أسباب في نزول الآية؛ وأظهرها السبب الأول؛ على أنه لا مانع من تعدد الأسباب.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الطواف بالصفا والمروة من طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن الطاعة خير؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن تطوع خيراً**﴾؛ ولا ريب أن طاعة الله سبحانه وتعالى خير للإنسان في حاله ومآله.

٥ ـ **ومنها**: إثبات اسم «**الشاكر**» لله؛ لقوله تعالى: ﴿**شاكر**﴾.

٦ ـ **ومنها**: إثبات «**العليم**» اسماً لله؛ لقوله تعالى: ﴿**شاكر عليم**﴾.

٧ ـ **ومنها**: إثبات صفة الشكر، والعلم؛ لقوله تعالى: ﴿**شاكر عليم**﴾؛ لأنهما اسمان دالان على الصفة؛ وعلى الحكم إن كان متعدياً، فقوله تعالى: ﴿**عليم**﴾ يدل على العلم ـ وهذه هي الصفة؛ ويدل على الحكم بأنه يعلم كل شيء.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾.

التفسير:

﴿١٥٩﴾ قوله تعالى: **﴿إن الذين يكتمون﴾** أي يخفون؛ لكنه لا يكون كتماً إلا حيث دعت الحاجة إلى البيان إما بلسان الحال؛ وإما بلسان المقال.

قوله تعالى: **﴿ما أنزلنا من البينات﴾**؛ **﴿البينات﴾** جمع بينة؛ وهي صفة لموصوف محذوف؛ والتقدير: من الآيات البينات.

قوله تعالى: **﴿والهدى﴾**: أي العلم النافع الذي يهتدي به الخلق إلى الله عزّ وجلّ.

قوله تعالى: **﴿من بعد ما بيناه﴾** أي أظهرناه؛ **﴿للناس﴾** أي للناس عموماً ـ المؤمن، والكافر؛ فإن الله تعالى بين الحق لعموم الناس، كما قال تعالى: **﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾** [فصلت: ١٧]؛ فكل الناس قد بين الله لهم الحق؛ لكن منهم من اهتدى؛ ومنهم من بقي على ضلاله.

قوله تعالى: **﴿في الكتاب﴾**: المراد به جميع الكتب؛ فهو للجنس؛ فما من نبي أرسله الله إلا ومعه كتاب، كما قال تعالى: **﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان﴾** [الحديد: ٢٥]، وكما قال تعالى: **﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾** [البقرة: ٢١٣].

قوله تعالى: **﴿أولئك يلعنهم الله﴾**؛ **﴿أولئك﴾** مبتدأ؛ وجملة

﴿يلعنهم الله﴾ خبره؛ والمبتدأ الثاني، وخبره خبر «إن»؛ و﴿يلعنهم الله﴾ أي يطردهم، ويبعدهم عن رحمته؛ لأن «اللعن» في اللغة: الطرد، والإبعاد.

قوله تعالى: ﴿ويلعنهم اللاعنون﴾ أي يسألون لهم اللعنة؛ وهم أيضاً بأنفسهم يبغضونهم، ويعادونهم، ويبتعدون عنهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن كتم العلم من كبائر الذنوب؛ يؤخذ من ترتيب اللعنة على فاعله؛ والذي يرتب عليه اللعنة لا شك أنه من كبائر الذنوب.

٢ ـ **ومنها**: الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿يكتمون﴾؛ والكاتم مريد للكتم.

٣ ـ **ومنها**: أن ما أنزل الله من الوحي فهو بيِّن لا غموض فيه؛ وهدًى لا ضلالة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿من البينات والهدى من بعد ما بيَّنَّاه للناس في الكتاب﴾؛ والبيان ينقسم إلى قسمين: بيان مفصل؛ وبيان مجمل؛ فالمجمل هي القواعد العامة في الشريعة؛ والمفصل هو أن يبين الله سبحانه وتعالى قضية معينة مفصلة مثل آيات الفرائض في الأحكام؛ فإنها مفصلة مبيّنة لا يشذ عنها إلا مسائل قليلة؛ وهناك آيات مجملة عامة مثل: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ [المائدة: ١]: فهو بيان عام؛ وكذلك بعض القصص يذكرها الله سبحانه وتعالى مفصلة، وأحياناً مجملة؛ وكل هذا يعتبر بياناً.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: الرد على أهل التحريف الذين يسمون أنفسهم بأهل التأويل؛ لأن لازم طريقهم ألا يكون القرآن بياناً للناس؛ لأن الله أثبت لنفسه في القرآن صفات ذاتية، وفعلية؛ فإذا

صرفت عن ظاهرها صار القرآن غير بيان؛ يكون الله سبحانه وتعالى ذكر شيئاً لا يريده؛ وهذا تعمية لا بيان؛ فيستفاد من هذه الآية الرد على أهل التأويل؛ والحقيقة أنهم ـ كما قال شيخ الإسلام ـ أهل التحريف لا أهل التأويل؛ لأن التأويل منه حق، ومنه باطل؛ لكن طريقهم باطل لا حق فيه.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: الرد على أهل التفويض الذين يقولون: إن آيات الصفات وأحاديثها لا يعلم الخلق معناها؛ وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن قولهم من شر أقوال أهل البدع والإلحاد.

٦ ـ **ومنها**: بيان فضل الله عزّ وجلّ على عباده بما أنزله من البينات، والهدى؛ لأن الناس محتاجون إلى هذا؛ ولولا بيان الله سبحانه وتعالى وهدايته ما عرف الناس كيف يتوضؤون، ولا كيف يصلون، ولا كيف يصومون، ولا كيف يحجون؛ ولكن من فضل الله أن الله سبحانه وتعالى بيّن ذلك.

٧ ـ **ومنها**: إثبات علو الله؛ لقوله تعالى: ﴿**ما أنزلنا**﴾؛ والنزول إنما يكون من أعلى؛ وعلو الله بذاته ثابت بالكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

٨ ـ **ومنها**: قبح هذ الكتمان الذي سلكه هؤلاء؛ لأنه كتمان بعد بيان؛ ليس لهم أن يقولوا: «ما تكلمنا؛ لأنّ الأمر مشتبه علينا»؛ فالإنسان الذي لا يتكلم بالشيء لاشتباه الأمر عليه قد يعذر؛ لكن الذي لا يتكلم مع أن الله بينه للناس يكون هذا أعظم قبحاً ـ والعياذ بالله.

٩ ـ **ومنها**: وجوب نشر العلم عند الحاجة إليه سواء ظهرت

الحاجة بلسان الحال، أو بلسان المقال، **ولسان الحال**: أن ترى إنساناً يعمل عملاً ليس على الوجه المرضي؛ فهذا لسان حاله يدعو إلى أن تبين له الحق؛ **ولسان المقال**: أن يسألك سائل عن علم وأن تتعلمه؛ فيجب عليك أن تبلغه ما دمت تعلم؛ أما إذا كنت لا تعلم فإنه يجب أن تقول: «لا أدري»، أو «لا أعلم»؛ كذلك لو رأيت الناس عمّ فيهم الجهل في مسألة من أمور الدين؛ فهنا الحاجة داعية إلى البيان؛ فيجب أن تبين.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الكتب السماوية كلها بيان للناس، لأن قوله تعالى: ﴿**في الكتاب**﴾ المراد به الجنس لا العهد؛ فالله تعالى بين الحق في كل كتاب أنزله؛ لم يترك الحق غامضاً؛ بل بينه لأجل أن تقوم الحجة على الخلق؛ لأنه لو كان الأمر غامضاً لكان للناس حجة في أن يقولوا: ما تبين لنا الأمر.

١١ ـ **ومنها**: أن الرجوع في بيان الحق إلى الكتب المنزلة.

١٢ ـ **ومنها**: أن هؤلاء الكاتمين ملعونون؛ يلعنهم الله، ويلعنهم اللاعنون؛ لقوله تعالى: ﴿**أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون**﴾.

١٣ ـ **ومنها**: إثبات الأفعال الاختيارية لله عزّ وجلّ؛ وهي كل فعل يتعلق بمشيئته، مثل النزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين عباده؛ والاستواء على العرش؛ والضحك؛ والكلام؛ والتعجب؛ وما إلى ذلك؛ كل فعل يتعلق بمشيئة الله عزّ وجلّ فإنه من الأفعال الاختيارية؛ و«اللعن» منها؛ ويدل على أنه منها أن له سبباً؛ وما كان له سبب فإنه يوجَد بالسبب، ويعدم بعدمه؛ إذاً فاللعن من الأفعال الاختيارية.

١٤ ـ **ومنها**: جواز الدعاء باللعنة على كاتم العلم؛ لقوله

تعالى: ﴿**يلعنهم اللاعنون**﴾؛ لأن من معنى ﴿**يلعنهم اللاعنون**﴾ الدعاء عليهم باللعنة؛ تقول: اللهم العنهم؛ ولا يلعن الشخص المعين؛ بل على سبيل التعميم؛ لأن الصحيح أن لعن المعين لا يجوز ـ ولو كان من المستحقين للعنة؛ لأنه لا يُدرى ماذا يموت عليه؛ قد يهديه الله، كما قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿**ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم**﴾ [آل عمران: ١٢٨]؛ وأما لعنه بعد موته أيجوز، أم لا يجوز؟ فقد يقال: إنه لا يجوز لقول النبي ﷺ: «**لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا**»(١)؛ وهذا عام؛ ثم إنه قد يثير ضغائن، وأحقاد من أقاربه، وأصحابه، وأصدقائه؛ فيكون في ذلك مفسدة؛ ثم إن النبي ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**»(٢)؛ وأيّ خير في كونك تلعن واحداً كافراً قد مات؛ وأما طريقته فالواجب التنفير عنها، والقدح فيها، وذمها؛ أما هو شخصياً فإنه لا يظهر لنا جواز لعنه ـ وإن كان المعروف عند جمهور أهل العلم أنه يجوز لعنه إذا مات على الكفر.

١٥ ـ **ومن فوائد الآية**: عظم كتم العلم، حيث كان من الكبائر؛ وكتم العلم يتحقق عند الحاجة إلى بيانه إما بلسان الحال؛ وإما بلسان المقال؛ فإن من سُئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار إلا أن يكون السائل متعنتاً، أو يريد الإيقاع بالمسؤول، أو ضرب آراء العلماء بعضها ببعض، أو يترتب على إجابته مفسدة، فلا يجاب حينئذ؛ وليس هذا من كتم العلم؛ بل هو من مراعاة المصالح، ودرء المفاسد.

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٢٩٤.

(٢) سبق تخرجه ١/ ٢٥٥.

مسـألـة:

دفع الفتوى ـ وهو أن يحوِّل المستفتي إلى غيره، فيقول: اسأل فلاناً، أو اسأل العلماء ـ اختلف فيها أهل العلم: هل يجوز، أو لا يجوز؟ والصحيح أنه لا يجوز؛ إلا عند الاشتباه فيجب؛ أما إذا كان الأمر واضحاً فإنه لا يجوز؛ لأنه يضيع الناس لا سيما إذا كان الإنسان يرى أنه إذا دفعها استُفتي أناس جهال يضلون الناس؛ فإنه هنا تتعين عليه الفتوى؛ ويستعين الله عزّ وجلّ، ويسأل الله الصواب والتوفيق.

١٦ ـ **ومن فوائد الآية**: استحقاق الكاتمين للعنة الله، ولعنة اللاعنين.

قد يقول قائل: هذا تحصيل حاصل، لأنه كقول القائل: قام القائمون، أو يقوم القائمون، ويدخل الداخلون.

فالجواب: لا، لأنه ليس كل من نسب إليه الوصف يكون قائماً به على الوجه الأكمل؛ قد تقول: «قام القائمون» بمعنى أنهم أتوا بالقيام على وجهه؛ فمعنى ﴿**يلعنهم اللاعنون**﴾ أي الذين يعرفون من يستحق اللعنة، ويوجهونها إلى أهلها؛ فهم ذوو علم بالمستحِق، وذوي حكمة في توجيه اللعنة إليه؛ ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله**...﴾ [النساء: ١٣٦] الآية؛ فناداهم باسم الإيمان، وأمرهم به؛ أي بتحقيقه، والثبات عليه.

إذاً هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات، والهدى مع ظهوره، وبيانه يستحقون ـ والعياذ بالله ـ هذا الجزاء الوخيم من الله، ومن عباد الله؛ وعكس ذلك الذين يبينون الحق ـ نسأل الله أن يجعلنا منهم؛ فهؤلاء يكون لهم المودة، والمحبة من الله، ومن أولياء الله؛

وقد ورد في حديث أبي الدرداء الطويل أن العالم يستغفر له أهل السموات والأرض حتى الحيتان في الماء[١]؛ لأن الذي يبين شريعة الله يُلقي الله سبحانه وتعالى في قلوب عباده مودته، ومحبته، والقبول له حتى في السماء؛ ونحن نعلم ذلك ـ وإن لم يرد به نص خاص ـ عن طريق القياس الجلي: فإذا كان الله سبحانه وتعالى يعاقب الكاتمين بهذه العقوبة الواقعة منه، ومن عباده؛ وهو الذي سبقت رحمته غضبه، فالذين يبينون البينات، والهدى يستحقون أن يثني الله سبحانه وتعالى عليهم بدلاً من اللعنة، ويقربهم بدلاً من البعد.

١٧ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه يجب على من قال قولاً باطلاً، ثم تبين له بطلانه أن يبينه للناس إلا إذا كان اختلاف اجتهاد فلا يلزمه أن يبين بطلان ما سبق؛ لأنه لا يدري أيّ الاجتهادين هو الصواب.

---

(١) أخرجه أحمد ص١٦٠٢، حديث رقم ٢٢٠٥٨؛ والترمذي ص١٩٢٢، كتاب العلم، باب ١٩ ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حديث رقم ٢٦٨٢؛ وأبو داود ص١٤٩٣، أول كتاب العلم، باب ١: في فضل العلم، حديث رقم ٣٦٤١؛ وابن ماجه ص٢٤٩١، كتاب السنة، باب ١٧: فضل العلماء والحث على طلب العلم، حديث رقم ٢٢٣؛ والدارمي ١/ ١١٠، المقدمة، باب ٣٢: في فضل العلم والعالم، حديث رقم ٣٤٢؛ ومدار هذه الأسانيد على داود بن جميل عن كثير بن قيس (ويقال: قيس بن كثير؛ والأول أصوب ـ قاله الحافظ في التقريب ـ)؛ وكل من داود، وكثير ضعيف؛ وقال الألباني: «لكن أخرجه أبو داود من طريق أخرى عن أبي الدرداء بسند حسن» (راجع صحيح الترغيب والترهيب، الطبعة الثانية، حاشية ٣ ص٣٣)؛ لكن في سنده شبيب بن شيبة، قال الحافظ في التقريب: مجهول؛ وقال عمرو بن عثمان: «عن شعيب بن رزيق» بدلاً عن شبيب بن شيبة؛ وقال: «وهو أشبه بالصواب» (راجع تهذيب التهذيب ٤/ ٢٧١)؛ وشعيب بن رزيق الشامي قال الحافظ في التقريب: «صدوق يخطئ»؛ وقيل: صدوق حسن الحديث (تحرير تقريب التهذيب ٢/ ١١٧)؛ وعليه فالإسناد حسن.

القرآن

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾.

التفسير:

﴿١٦٠﴾ قوله تعالى: ﴿**إلا الذين تابوا**﴾: الاستثناء هنا متصل؛ لأنه استثناء من الكاتمين؛ يعني إلا إذا تابوا؛ و«التوبة» في اللغة الرجوع؛ وفي الشرع: الرجوع من معصية الله إلى طاعته؛ والمراد بالتوبة هنا الرجوع عن كتمان ما أنزل الله إلى بيانه، ونشره.

قوله تعالى: ﴿**وأصلحوا**﴾ أي أصلحوا عملهم ﴿**وبينوا**﴾ أي وضحوا للناس ما كتموا من العلم ببيانه، وبيان معانيه؛ لأنه لا يتم البيان إلا ببيان المعنى؛ ﴿**فأولئك**﴾ يعني الذين تابوا، وأصلحوا، وبينوا ﴿**أتوب عليهم**﴾ أي أقبل منهم التوبة؛ لأن توبة الله على العبد لها معنيان؛ أحدهما: توفيق العبد للتوبة؛ الثاني: قبول هذه التوبة، كما قال الله تعالى: ﴿**ثم تاب عليهم ليتوبوا**﴾.

قوله تعالى: ﴿**وأنا التواب**﴾ صيغة مبالغة، ونسبة؛ لأن «فعال» تأتي للمبالغة، وتأتي للنسبة: فإن قيدت بمعمول فهي للمبالغة؛ وإن أطلقت فهي للنسبة؛ أو نقول: هي للمبالغة، والنسبة بكل حال إلا أن يمنع من ذلك مانع، كقوله تعالى: ﴿**وما ربك بظلام للعبيد**﴾ فإن هذه للنسبة؛ ولا تصح للمبالغة لفساد المعنى بذلك؛ لأنها لو كانت للمبالغة لكان المنفي عن الله كثرة الظلم مع أنه جل وعلا ﴿**لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة**

يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ [النساء: ٤٠]؛ وقوله تعالى: **﴿التواب﴾** تصلح للأمرين جميعاً؛ فهو سبحانه وتعالى موصوف بالتواب؛ وهو ذو توبة على جميع العباد؛ وكذلك موصوف بكثرة توبته سبحانه وتعالى، وكثرة من يتوب عليهم: كم يفعل الإنسان من ذنب، ويتوب، فيتوب الله عليه! وكم من أناس أذنبوا، فتابوا، فتاب الله عليهم! فلهذا جاء بلفظ: **﴿التواب﴾**.

وقوله تعالى: **﴿الرحيم﴾** سبق الكلام عليه؛ وجمع بين التوبة والرحمة؛ لأن بالرحمة يكون الإحسان؛ وبالتوبة يكون زوال العقوبة؛ فجمع الله بينهما؛ فهو يتوب؛ وإذا تاب سبحانه وتعالى رحم التائب، ويسَّره لليسرى، وسهل له أمور الخير؛ فحصل على الخير العظيم.

وفي هذه الآية التفات من التكلم إلى الغيبة في قوله تعالى: **﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى. . .﴾** [البقرة: ١٥٩]، وقوله تعالى: **﴿أولئك يلعنهم الله﴾** [البقرة: ١٥٩]؛ ولم يقل: «نلعنهم»؛ وللالتفات فائدتان:

الأولى: تنبيه المخاطب؛ لأنه إذا تغير نسق الكلام أوجب أن ينتبه المخاطب لما حصل من التغيير.

والفائدة الثانية: تكون بحسب السياق: ففي هذه الآية: **﴿أولئك يلعنهم الله﴾** الفائدة: التعظيم؛ لأن قوله: **﴿يلعنهم الله﴾** أبلغ في التعظيم من «أولئك نلعنهم»؛ لأن المتكلم إذا تحدث عن نفسه بصيغة الغائب صار أشد هيبة، مثل قول الملك: إن الملك يأمركم بكذا، وكذا؛ وأمر الملك بكذا، وكذا ـ ويعني نفسه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن توبة الكاتمين للعلم لا تكون إلا بالبيان، والإصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿**إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا**﴾: ثلاثة شروط:

الأول: التوبة؛ وهي الرجوع عما حصل من الكتمان.

الثاني: الإصلاح لما فسد بكتمانهم؛ لأن كتمانهم الحق حصل به فساد.

الثالث: بيان الحق غاية البيان.

وبهذا تبدل سيئاتهم حسنات.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن كل ذنب ـ وإن عظم ـ إذا تاب الإنسان منه فإن الله سبحانه وتعالى يتوب عليه.

٣ ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله سبحانه وتعالى، وهما ﴿**التواب**﴾، و﴿**الرحيم**﴾؛ ﴿**التواب**﴾ على من أذنب؛ ﴿**الرحيم**﴾ على من أخلص، وعمل؛ فالرحمة تجلب الخير؛ والتوبة تدفع الشر.

٤ ـ **ومنها**: إثبات صفتين من صفات الله؛ وهما التوبة، والرحمة.

٥ ـ **ومنها**: إثبات حكمين من هذين الاسمين: أن الله يتوب، ويرحم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**فأولئك أتوب عليهم**﴾.

٦ ـ **ومنها**: توكيد الحكم بما يوجبه؛ لقوله تعالى: ﴿**وأنا التواب الرحيم**﴾.

٧ ـ **ومنها**: كثرة توبة الله، وكثرة من يتوب عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿**التواب**﴾.

والتوبة هي الرجوع إلى الله من معصيته إلى طاعته؛ فيرجع من الشرك إلى التوحيد؛ ومن الزنى إلى العفاف؛ ومن الاستكبار إلى الذل، والخضوع؛ ومن كل معصية إلى ما يقابلها من الطاعة؛ وشروطها خمسة: الإخلاص لله سبحانه وتعالى؛ والندم على الذنب؛ والإقلاع عنه في الحال؛ والعزم على أن لا يعود؛ وأن تكون التوبة في وقت تقبل فيه.

الشرط الأول: الإخلاص لله بأن يكون قصده بالتوبة رضا الله، وثواب الآخرة، وألا يحمله على التوبة خوف مخلوق، أو رجاء مخلوق، أو علو مرتبة، أو ما أشبه ذلك.

الشرط الثاني: الندم على ما جرى منه من الذنب؛ ومعنى «الندم» أن يتحسر الإنسان أن وقع منه هذا الذنب.

الشرط الثالث: الإقلاع عن المعصية؛ وهذا يدخل فيه أداء حقوق العباد إليهم؛ لأن من لم يؤد الحق إلى العباد فإنه لم يقلع؛ فهو ليس شرطاً مستقلاً ـ كما قاله بعض العلماء؛ ولكنه شرط داخل في الإقلاع؛ إذ إن من لم يؤد الحق إلى أهله لم يقلع عن المعصية.

الشرط الرابع: أن يعزم ألا يعود؛ فإن لم يعزم فلا توبة، وليس من الشرط ألا يعود فإذا صحت التوبة، ثم عاد إلى الذنب لم تبطل توبته الأولى؛ لكنه يحتاج إلى تجديد التوبة.

الشرط الخامس: أن تقع التوبة في الوقت الذي تقبل فيه؛ يعني أن تكون في وقت قبول التوبة؛ وذلك بأن تكون قبل حضور الموت، وقبل طلوع الشمس من مغربها؛ فإذا كان بعد حضور الموت لم تقبل؛ لقوله تعالى: ﴿**وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن**﴾ [النساء:

١٨]؛ وإذا كانت بعد طلوع الشمس من مغربها لم تقبل؛ لقوله تعالى: ﴿**يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً**﴾ [الأنعام: ١٥٨]؛ وقول النبي ﷺ: «**لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة؛ ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها**»(١).

وهل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؟ للعلماء في هذا ثلاثة أقوال؛ **الأول**: أنها تصح؛ **والثاني**: أنها تصح إن كان الذنب من غير الجنس؛ **والثالث**: لا تصح؛ والصحيح أنها تصح من ذنب مع الإصرار على غيره؛ لكن لا يستحق اسم التائبين على سبيل الإطلاق؛ فلا يستحق وصف التائب، ولا يدخل في مدح التائبين؛ لأن توبته مقيدة من هذا الذنب المعين؛ ومثال ذلك: إذا تاب رجل من الزنى لكنه يتتبع النساء بالنظر المحرم فإن توبته من الزنى تصح على القول الراجح؛ لكن لا يستحق وصف التائب على سبيل الإطلاق؛ وعلى القول بأنها تصح إذا كانت من غير الجنس: فإنها لا تصح؛ وإذا تاب من الزنى مع الإصرار على الربا فإنها تصح؛ لأن الربا ليس من جنسه؛ إلا على القول الثالث الذي يقول لا تصح إلا مع الإقلاع عن جميع الذنوب.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٩٩، حيث رقم ١٧٠٣٠، وأخرجه أبو داود ص١٤٠٦، كتاب الجهاد، باب ٢: الهجرة قد انقطعت، حديث رقم ٢٤٧٩، وأخرجه الدارمي ج٢/ ٣١٢، كتاب السير، باب ٧٠: الهجرة لا تنقطع، حديث رقم ٢٦١٣؛ وفي سنده أبو هند البجلي قال الذهبي في الميزان ٤/ ٨٥٣: «لا يصرف؛ لكن احتج به النسائي على قاعدته»؛ قال عبد القادر في تخريج جامع الأصول لابن الأثير ١١/ ٦٠٦ حاشية رقم (٢): رواه أحمد في المسند ١/ ١٩٢ من طريق آخر وإسناده حسن. اهـ (باختصار).

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: عظم الكتمان؛ لأن الله ذكر لنجاتهم من هذه اللعنة ثلاثة شروط: التوبة، والإصلاح، والبيان؛ لأن كتمهم لِما أنزل الله يتضمن إفساداً في الأرض، وإضلالاً للخلق؛ فتوبتهم منه لا تكفي حتى يصلحوا ما فسد بسبب كتمانهم، مثال ذلك: قوم كتموا صفة النبي ﷺ، وقالوا: «ليس هو بالرسول الذي سيبعث»؛ فسيضل من الناس بناءً على قولهم عالَم؛ فلا يكفي أن يتوبوا، ويندموا، ويقلعوا، ويُسْلِموا، حتى يصلحوا ما أفسدوا من الآثار التي ترتبت على كتمانهم الحق؛ وإلا لم تصح التوبة.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: عظم العلم، وأنه حمل ثقيل، وعبء عظيم على من حمَّله الله سبحانه وتعالى إياه، وأن الإنسان على خطر إذا لم يقم بواجبه من البيان؛ وسبق أن البيان حين يحتاج الناس إليه ويسألون، إما بلسان الحال؛ وإما بلسان المقال.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

التفسير:

الآيتان قبلها في العلماء الذين كتموا الحق؛ وهذه في الكفار الذين استكبروا عن الحق.

﴿١٦١﴾ قوله تعالى: ﴿**إن الذين كفروا**﴾: «الكَفْر» في اللغة بمعنى الستر؛ ومنها كُفُرَّى النخل ـ أي وعاء طلعه ـ لستره الطلع؛ والمراد بالكُفر في القرآن والسنة: جحد ما يجب لله سبحانه وتعالى

من الطاعة، والانقياد؛ وهو نوعان: إما تكذيب؛ وإما استكبار.

قوله تعالى: ﴿وماتوا وهم كفار﴾ معطوفة على ﴿كفروا﴾ فلا محل لها من الإعراب؛ لأنها معطوفة على صلة الموصول التي لا محل لها من الإعراب؛ وجملة ﴿وهم كفار﴾ حالية من الفاعل في ﴿ماتوا﴾؛ يعني أنهم ـ والعياذ بالله ـ استمروا على كفرهم إلى الموت، فلم يزالوا على الكفر، ولم يتوبوا، ولم يرجعوا؛ وخبر ﴿إن﴾ جملة ﴿أولئك عليهم لعنة الله﴾: ﴿أولئك﴾ مبتدأ ثانٍ؛ و﴿عليهم﴾ جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿لعنة﴾؛ و﴿لعنة﴾ مبتدأ ثالث؛ والجملة من المبتدأ الثالث، وخبره خبر المبتدأ الثاني: ﴿أولئك﴾؛ والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره خبر ﴿إن﴾.

وقوله تعالى: ﴿لعنة الله﴾ أي طرده، وإبعاده عن رحمته؛ ﴿والملائكة﴾ أي ولعنة الملائكة؛ والملائكة عالم غيبي خُلِقوا من نور؛ وهم محجوبون عن الإنس؛ وربما يرونهم إما على الصورة التي خلقوا عليها، كما رأى النبي ﷺ جبريل على صورته التي خلِق عليها له ستمائة جناح[1] قد سد الأفق[2]؛ وإما على صورة أخرى، كما رأى النبي ﷺ جبريل على صورة

---

(١) راجع البخاري ص٢٦٢، كتاب بدء الخلق، باب ٧: إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غُفر له ما تقدم من ذنبه، حديث رقم ٣٢٣٢؛ ومسلماً ص٧٠٨، كتاب الإيمان، باب ٧٧: معنى قول الله عز وجل: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾...، حديث رقم ٤٣٢ [٢٨٠] ١٧٤.

(٢) راجع البخاري ص٢٦٢، كتاب بدء الخلق، باب ٧: إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء...، حديث رقم ٣٢٣٥؛ ومسلماً ص٧٠٩، كتاب الإيمان، باب ٧٧: معنى قول الله عز وجل: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾...، حديث رقم ٤٤٢ [٢٩٠] ١٧٧.

دحية الكلبي[(١)]؛ وهم عباد لله عزّ وجلّ لا يستكبرون عن عبادته، ولا يستحسرون؛ يسبحون الليل والنهار لا يفترون؛ لا يأكلون، ولا يشربون؛ صُمْدٌ ـ أي لا أجواف لهم؛ والملائكة عليهم السلام لهم وظائف، وأعمال خصهم الله سبحانه وتعالى بها؛ فإسرافيل، وميكائيل، وجبريل موكلون بما فيه الحياة؛ ولهذا كان النبي ﷺ يستفتح صلاة الليل بقوله: «**اللهم رب جَبرائيل وميكائيل وإسرافيل**...»[(٢)] الحديث؛ لأن هؤلاء الثلاثة موكلون بما فيه الحياة؛ والبعث من النوم حياة؛ ولهذا ناسب أن يكون هذا الاستفتاح في أول عمل يعمله الإنسان بعد أن توفاه الله عزّ وجلّ بالنوم؛ وهؤلاء الثلاثة أحدهم مكلف بما فيه حياة القلوب ـ وهو جبريل ـ والثاني بما فيه حياة الأبدان ـ وهو إسرافيل ـ والثالث بما فيه حياة النبات ـ وهو ميكائيل ـ وأفضلهم جبريل ـ ولهذا امتدحه الله عزّ وجلّ بقوله تعالى: ﴿**إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين**﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠]، وبقوله تعالى: ﴿**فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً**﴾ [مريم: ١٧]؛ فجبريل أفضل الملائكة على الإطلاق.

قوله تعالى: ﴿**والناس أجمعين**﴾ أي عليهم لعنة الناس أجمعين؛ يلعنهم الناس ـ والعياذ بالله، ويمقتونهم ولا سيما في يوم القيامة؛ فإن هؤلاء يكونون مبغضين عند جميع الخلق؛ فهم أعداء الله سبحانه وتعالى.

﴿١٦٢﴾ قوله تعالى: ﴿**خالدين فيها**﴾ أي في هذه اللعنة ـ

---

(١) راجع مسلماً ص٧٠٧، كتاب الإيمان، باب ٧٤: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، حديث رقم ٤٢٣ [٢٧١] ١٦٧.

(٢) سبق تخريجه ١/ ٣١٥.

والعياذ بالله؛ والمراد فيما يترتب عليها؛ فإنهم خالدون في النار التي تكون بسبب اللعنة.

قوله تعالى: ﴿**لا يخفف عنهم العذاب**﴾؛ أي لا يخففه الله سبحانه وتعالى؛ وحذف الفاعل للعلم به.

قوله تعالى: ﴿**ولا هم ينظرون**﴾ أي لا يمهلون؛ بل يؤخذون بالعقاب؛ من حين ما يموتون وهم في العذاب؛ ويحتمل أن المراد لا ينظرون بالعين؛ فلا ينظرون نظر رحمة، وعناية بهم؛ وهذا قد يؤيَّد بقوله تعالى: ﴿**قال اخسئوا فيها ولا تكلمون**﴾ [المؤمنون: ١٠٨]؛ فإن هذا من احتقارهم، وازدرائهم أنهم يوبخون بهذا القول.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: أن الكافر مستحق للعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين.

٢ ـ **ومنها**: أنه تشترط لثبوت هذا أن يموت على الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار**﴾؛ فلو رجعوا عن الكفر إلى الإسلام ارتفعت عنهم هذه العقوبة.

٣ ـ **ومنها**: إثبات الملائكة.

٤ ـ **ومنها**: أن الكافر يلعنه الكافر؛ لقوله تعالى: ﴿**والناس أجمعين**﴾؛ وقد أخبر الله تعالى عن أهل النار أنه كلما دخلت أمة لعنت أختها، وقال تعالى: ﴿**إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب**﴾ [البقرة: ١٦٦] إلخ؛ فالكافر ـ والعياذ بالله ـ ملعون حتى ممن شاركه في كفره.

٥ ـ **ومنها**: أن الذين يموتون وهم كفار مخلدون في لعنة الله، وطرده، وإبعاده عن رحمته.

٦ ـ **ومنها**: أن العذاب لا يخفف عنهم، ولا يوماً واحداً؛ ولهذا يقول الله عزّ وجلّ: ﴿**وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب**﴾ [غافر: ٤٩]؛ لم يسألوا أن يرفع العذاب؛ ولم يسألوا أن يخفف دائماً؛ بل يخفف ولو يوماً واحداً من أبد الآبدين؛ يتمنون هذا؛ يتوسلون بالملائكة إلى الله عزّ وجلّ أن يخفف عنهم يوماً واحداً من العذاب؛ ولكن يوبخون إذا سألوا هذا: ﴿**قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى**﴾ [غافر: ٥٠]؛ فما يستطيع أحد أن يتصور كيف تكون حسرتهم حينئذٍ؛ يقولون: ليتنا فعلنا؛ ليتنا صدقنا؛ ليتنا اتبعنا الرسول؛ ولهذا يقولون: ﴿**بلى**﴾؛ لا يستطيعون أن ينكروا أبداً؛ ﴿**قالوا فادعوا**﴾ [غافر: ٥٠] أي أنتم؛ ولكن دعاء لا يقبل، كما قال تعالى: ﴿**وما دعاء الكافرين إلا في ضلال**﴾ [غافر: ٥٠] أي في ضياع ـ والعياذ بالله؛ والمقصود أنه لا يخفف عنهم العذاب.

٧ ـ **من فوائد الآيتين**: أنهم لا ينظرون؛ إما أنه من النظر؛ أو من الإنظار؛ فهم لا يمهلون ولا ساعة واحدة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها**﴾ [الزمر: ٧١]؛ فمن يوم يجيئونها تفتح؛ أما أهل الجنة فإذا جاءوها لم تفتح فور مجيئهم، كما قال تعالى: ﴿**حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها**﴾ [الزمر: ٧١]؛ لأنهم لا يدخلونها إلا بالشفاعة، وبعد أن يقتص من بعضهم لبعض؛ فإذا جاءوها هذبوا، ونقوا، ثم شفع النبي ﷺ في دخول الجنة؛ وحينئذ تفتح أبوابها.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾.

التفسير:

﴿١٦٣﴾ قوله تعالى: ﴿وإلهكم﴾ الخطاب للبشر كلهم؛ أي أيها الناس معبودكم الحق الذي تكون عبادته حقاً؛ و﴿إله﴾ بمعنى مألوه؛ فهي بمعنى اسم المفعول؛ و«المألوه» معناه المعبود حباً، وتعظيماً ـ وهو إله واحد؛ و﴿إلهكم﴾ مبتدأ؛ و﴿إله﴾ خبر؛ و﴿واحد﴾ صفة لـ﴿إله﴾؛ وجملة ﴿إلهكم إله واحد﴾ طرفها الأول معرفة؛ والثاني نكرة موصوفة، ومؤكد بالوحدانية يعني أن إله الخلق إله واحد؛ ووحدانيته بالألوهية متضمنة لوحدانيته بالربوبية؛ إذ لا يُعبد إلا من يُعلم أنه رب.

ثم أكد هذه الجملة الاسمية بجملة تفيد الحصر، فقال: ﴿لا إلٰه إلا هو﴾؛ وهذه الجملة توكيد لما قبلها في المعنى؛ فإنه لما أثبت أنه إلٰه واحد نفى أن يكون معه إلٰه.

وقوله تعالى: ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا معبود حق إلا هو؛ وعلى هذا تكون ﴿لا﴾ نافية للجنس؛ وخبرها محذوف؛ والتقدير: لا إله حق إلا هو؛ وإنما قدرنا «حق»؛ لقوله تعالى: ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل﴾ [الحج: ٦٢]؛ ولهذا قال الله تعالى عن هذه الآلهة: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ [النجم: ٢٣]؛ وقد زعم بعضهم أن تقدير الخبر «موجود»؛ وهذا غلط واضح؛ لأنه يختل به المعنى اختلالاً كبيراً من وجهين:

الوجه الأول: أن هناك آلهة موجودة سوى الله؛ لكنها باطلة، كما قال تعالى: ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل﴾ [الحج: ٦٢]، وكما قال تعالى: ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم

التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك﴾ [هود: ١٠١]، وكما قال تعالى: **﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر﴾** [الشعراء: ٢١٣].

الوجه الثاني: أنه يقتضي أن الآلهة المعبودة من دون الله هي الله، ولا يخفى فساد هذا؛ وعليه فيتعين أن يكون التقدير: «لا إله حق»، كما فسرناه.

قوله تعالى: **﴿الرحمٰن الرحيم﴾** خبر ثالث، ورابع لقوله تعالى: **﴿إلهكم﴾**؛ ويجوز أن يكونا خبرين لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: هو الرحمٰن الرحيم؛ فألوهيته مبنية على الرحمة؛ وهذه الآية تشبه قوله تعالى: **﴿الحمد لله رب العالمين * الرحمٰن الرحيم﴾** [الفاتحة: ٢، ٣]؛ فإن ذكر هذين الاسمين بعد الربوبية يدل على أن ربوبيته مبنية على الرحمة.

وقوله تعالى: **﴿الرحمٰن الرحيم﴾** اسمان من أسماء الله؛ أحدهما يدل على سعة رحمته ـ وهو **﴿الرحمٰن﴾**؛ والثاني يدل على إيصال الرحمة ـ وهو **﴿الرحيم﴾**؛ وأسماء الله سبحانه وتعالى لها ثلاث دلالات: دلالة مطابقة؛ ودلالة تضمن؛ ودلالة التزام؛ فدلالة الاسم على الذات، والصفة دلالة مطابقة؛ ودلالته على الذات وحدها، أو الصفة وحدها دلالة تضمن؛ ودلالته على ما يستلزمه من الصفات الأخرى دلالة التزام؛ مثال ذلك «الخالق»: فهو دال على ذات متصفة بالخلق؛ وعلى صفة الخلق؛ فدلالتها على الأمرين دلالة مطابقة؛ وعلى أحدهما دلالة تضمن؛ وهي تدل على صفة العلم، والقدرة دلالة التزام؛ إذ لا خلق إلا بعلم وقدرة.

و«الرحمة» تنقسم إلى عامة، وخاصة؛ فالعامة هي التي تشمل جميع الخلق؛ والخاصة تختص بالمؤمنين.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن إله الخلق إله واحد ـ وهو الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**وإلهكم إله واحد**﴾.

٢ ـ **ومنها**: إثبات اسم «**الإله**»، و«**الواحد**» لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**وإلهكم إله واحد**﴾؛ وقد جاء في قوله تعالى: ﴿**لله الواحد القهار**﴾ [إبراهيم: ٤٨]: فأثبت اسم «**الواحد**» سبحانه وتعالى.

٣ ـ **ومنها**: اختصاص الألوهية بالله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**لا إله إلا هو**﴾.

فإن قال قائل: إن هؤلاء المشركين قد يفتنون بهذه الآلهة، فيدعونها، ثم يأتيهم ما دعوا به؛ فما هو الجواب؟

فالجواب: عن هذا أن هذه الأصنام لم توجِد ما دعوا به قطعاً؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم من دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، ولقوله تعالى: ﴿**إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير**﴾ [فاطر: ١٤]؛ فيكون حصول ما دعوا به من باب الفتنة التي يضل بها كثير من الناس؛ والذي أوجدها هو الله عزّ وجلّ؛ لكن قد يُمتحَن الإنسان بتيسير أسباب المعصية ابتلاءً من الله عزّ وجلّ؛ فيكون هذا الشيء حصل عند دعاء هذه الأصنام لا به.

٤ ـ **ومنها**: كفر النصارى القائلين بتعدد الآلهة؛ لأن قولهم تكذيب للقرآن؛ بل وللتوراة، والإنجيل؛ بل ولجميع الرسل؛ وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي**

أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[(١)].

٥ ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما ﴿**الرحمٰن الرحيم**﴾.

٦ ـ **ومنها**: إثبات ما تضمنه هذان الاسمان من الصفة ـ وهو الرحمة ـ والحكم: أنه يرحم بهذه الرحمة.

٧ ـ **ومنها**: أنه قد يكون للاسم من أسماء الله معنًى إذا انفرد؛ ومعنًى إذا انضم إلى غيره؛ لأن ﴿**الرحمٰن**﴾ لو انفرد لدل على الصفة، والحكم؛ وإذا جمع مع ﴿**الرحيم**﴾ جُعل ﴿**الرحمٰن**﴾ للوصف؛ و﴿**الرحيم**﴾ للفعل.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

التفسير:

﴿١٦٤﴾ قوله تعالى: ﴿**إن في خلق السموات والأرض**﴾؛ ﴿**السموات**﴾ جمع سماء، وتقدم أنها سبع؛ و﴿**الأرض**﴾ مفرد يراد به الجنس؛ فيشمل السبع؛ و﴿**خلق السموات والأرض**﴾ أي إيجادهما من عدم؛ ويشمل ذلك بقاءهما، وكيفيتهما، وكل ما

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٣٦٧.

يتعلق بهما من الشيء الدال على علم الله سبحانه وتعالى، وقدرته، وحكمته، ورحمته.

وقوله تعالى: ﴿والأرض﴾ يشمل ما أودع الله فيها من المنافع، حيث جعلها متضمنة، ومشتملة على جميع ما يحتاج الخلق إليه في حياتهم، وبعد مماتهم، كما قال تعالى: **﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً * أحياءً وأمواتاً﴾** [المرسلات: ٢٥، ٢٦] إلى آخر الآيات؛ ما ظنك لو جعل الله هذه الأرض شفافة كالزجاج، فدفن فيها الأموات ينظر الأحياء إلى الأموات ـ فلا تكون كفاتاً لهم! وما ظنك لو جعل الله هذه الأرض صلبة كالحديد، أو أشد فلا يسهل علينا أن تكون كفاتاً لأمواتنا، ولا لنا أيضاً في حياتنا! ثم هذه الأرض أودع الله فيها من المصالح، والمعادن شيئاً لم نستطع الوصول إليه حتى الآن.

قوله تعالى: **﴿واختلاف الليل والنهار﴾** يعني في الإضاءة، والظلمة؛ في الحر، والبرد؛ في النصر، والخذلان؛ في كل شيء يتعلق بالليل، والنهار؛ هذه الليالي، والأيام التي تدور على العالم كم فَنِي فيها من حي! كم فيها من حي! كم عز فيها من ذليل! كم ذل فيها من عزيز! كم حصل فيها من حوادث لا يعلمها إلا الله! هذا الاختلاف كله آيات تدل على تمام سلطان الله عزّ وجلّ، وعلى تفرده بالوحدانية سبحانه وتعالى.

واختلاف الليل، والنهار أيضاً في الطول، والقصر، كما قال تعالى: **﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾** [الحج: ٦١] على وجه خفي لا يشعر الناس به: يزداد شيئاً فشيئاً، وينقص شيئاً فشيئاً ـ ليست الشمس تطلع فجأة من مدار السرطان، وفي اليوم التالي مباشرة من مدار الجدي! ولكنها تنتقل بينهما شيئاً

فشيئاً حتى يحصل الالتئام، والتوازن، وعدم الكوارث؛ فلو انتقلت فجأة من مدار السرطان إلى مدار الجدي لهلك الناس من حر شديد إلى برد شديد؛ والعكس بالعكس؛ ولكن الله ـ جل وعلا ـ بحكمته، ورحمته جعلها تنتقل حتى يختلف الليل والنهار على حسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

قوله تعالى: ﴿**والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس**﴾؛ ﴿**الفلك**﴾ هي السفينة؛ وتطلق على المفرد، كما في هذه الآية؛ وعلى الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿**حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم**﴾ [يونس: ٢٢]؛ و﴿**تجري**﴾ أي تسير؛ ﴿**في البحر**﴾ أي في جوف البحر: فالغواصات تجري في البحر بما ينفع الناس وهي في جوفه؛ لأنه يقاتل بها الأعداء، وتحمى بها البلاد؛ وهذا مما ينفع الناس؛ ويجوز أن تكون ﴿**في**﴾ بمعنى «على» أي على سطح البحر، كقوله تعالى: ﴿**ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام**﴾ [الشورى: ٣٢]؛ وهذه أيضاً من آيات الله؛ سفن محملة بالآدميين، والأمتعة، والأرزاق، تجري على سطح الماء بدون تقلب، أو إزعاج غالباً! هذا من آيات الله؛ وقد حدث في عصرنا هذا ما هو أعظم آية، وأكبر منه؛ وهو الفلك الذي يجري في الهواء؛ فإذا أشار الله سبحانه وتعالى إلى شيء من آياته في أمر فما هو أعظم منه يكون أقوى دلالة على ذلك؛ وها هو الطير مسخراً في جو السماء لا يمسكه إلا الله من آيات الله، كما قال تعالى: ﴿**ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون**﴾ [النحل: ٧٩]؛ هذه الطيور لا تحمل إلا نفسها، فجعلها الله سبحانه وتعالى آية؛ فكيف بهذه الطائرات! تكون أعظم، وأعظم.

وقوله تعالى: ﴿**بما ينفع الناس**﴾: الباء هنا للمصاحبة ـ أي مصحوبة بما ينفع الناس من الأرزاق، والبضائع، والأنفس، والذخائر، وغيرها؛ لأن ﴿**ما**﴾ اسم موصول يفيد العموم؛ فالفلك آية من آيات الله عزّ وجلّ الدالة على كمال قدرته، وكمال رحمته، وتسخيره، كما قال تعالى في أخرى: ﴿**وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار**﴾ [إبراهيم: ٣٢].

ومن حكمة الله عزّ وجلّ أنه قدر في الأرض أقواتها ـ يعني جعل قدْراً هنا، وقدْراً هنا، وقدْراً هنا؛ لأجل أن ينتفع الناس؛ فهناك ناس لا تكثر عندهم البقول، والخضروات، وما أشبه ذلك؛ يأتيهم من أرض أخرى؛ وهناك ناس يكثر عندهم نوع من النخيل لا يوجد في مكان آخر، فينقل إلى المكان الآخر، فيتبادل الناس الأرزاق، وينتفع الناس، ويتحركون ـ كل فيما قدر له.

قوله تعالى: ﴿**وما أنزل الله من السماء من ماء**﴾ يعني: وفيما أنزل الله سبحانه وتعالى من السماء من ماء آيات لقوم يعقلون؛ والمراد بـ﴿**السماء**﴾ هنا العلو؛ لأن المطر ينزل من السحاب المسخر بين السماء، والأرض؛ وليس من السماء نفسها.

وقوله تعالى: ﴿**من ماء**﴾ بيان لـ﴿**ما**﴾ في قوله تعالى: ﴿**وما أنزل الله**﴾؛ والمراد به المطر الذي أنزله الله من السماء؛ وفيه آيات عظيمة؛ منها كونه ينزل من السماء؛ فإن الذي حمله إلى السماء هو الله عزّ وجلّ؛ كذلك كونه ينزل رذاذاً هذا من آيات الله الدالة على رحمته؛ لأنه لو كان ينزل صباً لأهلك العالم؛ وكونه ينزل من السماء لا يجري من الأرض هذا أيضاً من آيات الله؛ لأجل أن ينتفع به سهول الأرض، وجبالها؛ ولو كان يجري من

الأرض لغرق الأسفل قبل أن يصل إلى الأعلى؛ كذلك من آيات الله كونه ينزل لا حاراً، ولا بارداً؛ البردَ ذكره الله تعالى في سياق يدل على أنه نوع من الانتقام، فقال تعالى: ﴿**وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار**﴾ [النور: ٤٣]؛ وإن كان الله قد يجعله رحمة؛ لكن الغالب أنه انتقام.

قوله تعالى: ﴿**فأحيا به الأرض**﴾: الذي يحيىٰ هو النبات الذي فيها ـ وليس الأرض؛ و﴿**بعد موتها**﴾ أي بعد أن كانت يابسة هامدة لا نبات فيها؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿**فتصبح الأرض مخضرة**﴾ [الحج: ٦٣]؛ وفي إحياء النبات آيات كثيرة: آيات دالة على الرحمة؛ وآيات دالة على الحكمة؛ وآيات دالة على القدرة.

آيات دالة على الرحمة: لما في هذا الإحياء من المنافع العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿**أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم**﴾ [النازعات: ٣١، ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿**فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صباً...**﴾ [عبس: ٢٤] إلى قوله تعالى: ﴿**متاعاً لكم ولأنعامكم**﴾؛ فكم من نعم كثيرة في هذه الزروع التي أحياها الله سبحانه وتعالى بالمطر لنا، ولأنعامنا قوتاً، ودواءً، وغير ذلك.

وآيات دالة على الحكمة: وهو أن حياة الأرض جاءت بسبب ـ وهو الماء الذي نزل؛ فمنه نأخذ أن الله ـ جل وعلا ـ يخلق بحكمة، ويقدّر بحكمة؛ الله ـ جل وعلا ـ قادر على أن يقول للأرض: «أنبتي الزرع» فتنبت بدون ماء؛ لكن كل شيء

مقرون بسبب؛ فكونه جلا وعلا ربط إحياء الأرض بنزول الماء يدل على الحكمة، وأن كل شيء له نظام خاص لا يتعداه منذ خُلق إلى أن يأذن الله تعالى بخراب العالم.

وآيات دالة على القدرة: وهي أنك ترى الأرض خاشعة هامدة سوداء شهباء ما فيها شيء؛ فإذا أنزل الله عليها المطر؛ تأتي إليها بعد نحو شهر تجدها تهتز أزهاراً، وأوراقاً، وأشجاراً: قال تعالى: ﴿**فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير**﴾ [فصلت: ٣٩]؛ وهذه قدرة عظيمة؛ واللَّهِ! لو أن البشر من أولهم إلى آخرهم اجتمعوا على أن يخرجوا ورقة واحدة من حبة لما استطاعوا؛ وحبة تنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة؛ أليس هذا دليلاً على القدرة العظيمة!!!

قوله تعالى: ﴿**وبث فيها**﴾ أي نشر، وفرق؛ وهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿**أنزل**﴾ أي: وفيما بث في الأرض من كل دابة آيات لقوم يعقلون؛ و﴿**من كل دابة**﴾ أي من كل ما يدب على الأرض من صغير، وكبير، وعاقل، وبهيم؛ وأتى بـ﴿**كل**﴾ لإفادة العموم الشامل لجميع الأجناس، والأنواع، والأفراد؛ ففي الأرض دواب لا يَعلَم بأنواعها، ولا أجناسها ـ فضلاً عن أفرادها ـ إلا الذي خلقها سبحانه وتعالى يعلم هذه الأجناس، وأنواعها، وأفرادها، وأحوالها، وكل ما يصلحها؛ ففيها من آيات الله الدالة على كمال قدرته، ورحمته، وعلمه، وحكمته ما يبهر العقول؛ تجد هذه الدواب المختلفة المتنوعة، والحشرات الصغيرة كيف هداها الله لما خلقت له؛ قال تعالى: ﴿**أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**﴾ [طه: ٥٠] حتى إنك لترى الماء يدخل في

جحر النمل، فترى النملة تخرج من هذا الجحر حاملة أولادها! ماذا ترجو من هذه الأولاد؟! لكن رحمة أرحم الراحمين أن جعل في قلب هذه النملة رحمة لتحمل أولادها عن الغرق؛ كذلك أيضاً السباع الضارية التي تأكل ما دون أولادها من الحيوان: تجدها تحنو على ولدها، وتربيه؛ حتى إذا استقل بنفسه صار عدواً لها، أو صارت عدوة له؛ فالهرة تربي أولادها؛ فإذا استغنوا عنها طردتهم، وصارت عدوة لأولادها؛ فهذا من آيات الله عزّ وجلّ؛ ترى بعض الدواب تدب على الأرض؛ ولكن لا تكاد تدرك جسمها صغراً فضلاً عن أعضائها، وعما في جوفها؛ ومع ذلك فهي عايشة، وتعرف مصالحها، وتعرف جحرها تأوي إليه؛ فهذه من آيات الله عزّ وجلّ؛ ومن درس في علم الأحياء وجد من هذا ما يبهر العقول؛ فما بث الله سبحانه وتعالى في الأرض من الدواب من أجناسها، وأنواعها، وأفرادها فيه من آيات الله ما لا يحصى؛ لأن في كل شيء منه آية؛ وهو لا يحصى أنواعاً، أو أجناساً فضلاً عن أفرادٍ؛ وهذه الدواب تنقسم باعتبار مصالح الخلق إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما فيه مصلحة خالصة، أو راجحة.

الثاني: ما فيه مضرة خالصة، أو راجحة؛ لكن مضرتها لها حِكَم كثيرة ليس هذا موضع ذكرها.

الثالث: ما لا مضرة فيه، ولا مصلحة؛ ولكن فيه دلالة على كمال الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وتصريف الرياح﴾ أي تنويعها في اتجاهها، وشدتها، ومنافعها؛ و﴿الرياح﴾ جمع ريح؛ وهي الهواء؛ وفي

قراءة: ﴿**الريح**﴾ بالإفراد؛ والمراد به الجنس؛ والتصريف يشمل تصريفها من حيث الاتجاه؛ تصريفها من حيث الشدة، وعدمها؛ تصريفها من حيث المنافع، وعدمها؛ فمن حيث الاتجاه جعلها الله سبحانه وتعالى متجهة جنوباً، وشمالاً، وغرباً، وشرقاً؛ وهذه هي أصول الجهات؛ وهناك جهات أخرى تكون بينها؛ وتسمى النكبة؛ لأنها ليست في الاستقامة في الشرق، أو الغرب، أو الشمال، أو الجنوب؛ فهي نكباء ـ ناكبة عن الاتجاه الأصلي.

وفي تصريف هذه الرياح آيات: لو بقيت الريح في اتجاه واحد لأضرت بالعالم؛ لكنها تتقابل، فيكسر بعضها حدةَ بعض، ويذهب بعضها بما جاء به البعض الآخر من الأذى، والجراثيم، وغيرها؛ كذلك أيضاً في تصريفها آيات بالنسبة للسحاب فبعضها يجمع السحاب؛ وبعضها يفرقه؛ وبعضها يلقحه؛ وبعضه يدره، فيمطر، كما قال تعالى: ﴿**الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء**﴾ [الروم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿**وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين**﴾ [الحجر: ٢٢]؛ قال المفسرون: تلقح في السحاب؛ وفي تصريف الرياح أيضاً آيات للسفن الشراعية؛ وفيه أيضاً آيات في إهلاك الناس، وإنجاء آخرين: أهلك الله به عاداً، وطرد به الأحزاب عن رسول الله ﷺ؛ وأنجى الله رسول الله ﷺ بهذه الريح من شر الأحزاب؛ ومن تدبر هذا عرف ما فيها من قدرة الله، ورحمته، وعزته، وحكمته؛ لو أن جميع مكائن الدنيا كلها اجتمعت، وصارت على أقوى ما يكون من نَفْث هواء لا يمكن أن تحرك ساكناً إلا فيما حولها فقط؛ لكن أن تصل من أقصى

الشمال إلى الجنوب، أو بالعكس فلا؛ والله ـ جل وعلا ـ يقول للشيء إذا أراده: ﴿**كن فيكون**﴾ [البقرة: ١١٧]؛ فتجد الرياح شديدة شمالية؛ وفي لحظة تنعكس، وتكون جنوبية شديدة؛ هذه تمام القدرة العظيمة، حيث يدبر الله هذه الرياح بأمر لا يستطيعه البشر؛ ولهذا صار تصريف الرياح آية من آيات الله العظيمة الدالة على قدرته؛ ثم إن في تصريفها أيضاً مصالح للسفن الجوية؛ لأن لها تأثيراً على الطائرات ـ كما يقولون؛ وكذلك بالنسبة للسيارات لها تأثير.

قوله تعالى: ﴿**والسحاب المسخر بين السماء والأرض**﴾ أي وفي السحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون؛ و﴿**السحاب**﴾ هو هذا الغمام، والمزن؛ وسمي سحاباً؛ لأنه ينسحب انسحاباً في الجو بإذن الله؛ و﴿**المسخر**﴾ أي المذلل بأمر الله لمصالح الخلق؛ ومن الآيات فيه أنه دال على القدرة، والرحمة، والحكمة:

أما دلالته على القدرة: فلأنه لا يستطيع أحد أن يفرقه إلا الله؛ ولا يستطيع أحد أن يوجهه إلى أي جهة إلا الله؛ ثم من يستطيع أن يجعل هذا السحاب أحياناً متراكماً حتى يكون مثل الجبال السود يوحش من يراه؛ وأحياناً يكون خفيفاً؛ وأحياناً يكون سريعاً؛ وأحياناً يكون بطيئاً؛ وأحياناً لا يتحرك؛ لأنه يسير بأمر الله.

وأما دلالته على الحكمة: فلأنه يأتي من فوق الرؤوس حتى يكون شاملاً لما ارتفع من الأرض، وما انهبط منها؛ ويأتي قطرات حتى لا ينهدم البنيان، ولا تشقق الأرض.

وأما دلالته على الرحمة: فلما يحصل من آثاره من نبات الأرض المختلف الذي يعيش عليه الإنسان، والبهائم.

وقوله تعالى: ﴿**بين السماء والأرض**﴾؛ المراد بـ﴿**السماء**﴾ السقف المرفوع؛ و﴿**الأرض**﴾: أرضنا هذه؛ وهذه البينية لا تقتضي الملاصقة، ولا المماسة ـ كما هو ظاهر؛ وبهذا يعرف الرد على الذين أنكروا قول الرسول ﷺ: «**إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمٰن**»[1]، وقالوا: «لو كان هذا حقيقة للزم أن تكون أصابع الرحمٰن داخل أجوافنا؛ وهذا مستحيل؛ فيكون ظاهر الخبر مستحيلاً، ويصرف إلى معنى أن الله يقلب القلوب دون أن تكون بين أصابعه»؛ ولا شك أن هذا تحريف للكلم عن مواضعه؛ وقد تبين بهذه الآية الكريمة أن البينية لا تستلزم الملاصقة، والمماسة؛ وعليه فلا يكون من لازم كون القلوب بين أصابع الرحمٰن أن تكون أصابعه داخل أجوافنا؛ ويقال أيضاً: بدر بين مكة والمدينة ـ هذا في المكان، وبينهما مسافة واضحة.

قوله تعالى: ﴿**لآيات**﴾ اللام للتوكيد؛ و«**آيات**» اسم ﴿**إنّ**﴾ مؤخر منصوب بها؛ و«**آيات**» جمع آية؛ وهي العلامة المعيِّنة لمعلومها؛ وصارت تلك آيات؛ لأنها دالة على كمال علم الله، وقدرته، ورحمته، وحكمته، وسلطانه، وغير ذلك من مقتضى ربوبيته.

قوله تعالى: ﴿**لقوم يعقلون**﴾ أي لهم عقول؛ والمراد هنا عقل الرشد الحامل لمن اتصف به على الانتفاع بالعقل؛ فالإنسان العاقل حقاً إذا تأمل هذه الأشياء وجد أن فيها آيات تدل على

---

(١) أخرجه مسلم ص١١٤٠، كتاب القدر، باب ٣: تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، حديث رقم ٦٧٥٠ [١٧] ٢٦٥٤.

خالقها ـ جل وعلا ـ، وموجدها، وعلى ما تضمنته من صفات كماله؛ أما الإنسان المعرض ـ وإن كان ذكاؤه قوياً ـ فإنه لا ينتفع بها ـ ولهذا وصف الله سبحانه وتعالى الكفار بأنهم لا يعقلون مع أنهم في العقل الإدراكي ـ يدركون به ما ينفعهم، وما يضرهم ـ عقلاء؛ لكن نفاه الله عنهم لعدم انتفاعهم به، وعدم عقلهم الرشدي الذي يرشدهم إلى ما فيه مصلحتهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: عظم خلق السموات، والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿**لآيات**﴾؛ فلولا أنه عظيم ما كان آيات.

٢ ـ **ومنها**: أن السموات متعددة؛ لقوله تعالى: ﴿**إن في خلق السموات**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن السموات مخلوقة؛ فهي إذاً كانت معدومة من قبل؛ فليست أزلية.

ويتفرع على هذه الفائدة الرد على الفلاسفة الذين يقولون بقدم الأفلاك ـ يعنون أنها غير مخلوقة، وأنها أزلية أبدية؛ ولهذا أنكروا انشقاق القمر في عهد النبي ﷺ، وقالوا: إن الأفلاك العلوية لا تقبل التغيير، ولا العدم؛ وفسروا قوله تعالى: ﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾ [القمر: ١] بأن المراد ظهور العلم، والنور برسالة النبي ﷺ؛ ولا شك أن هذا تحريف باطل مخالف للأحاديث المتواترة الصحيحة في انشقاق القمر انشقاقاً حسياً.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه ينبغي للإنسان أن يتأمل في هذه السموات والأرض ليصل إلى الآيات التي فيها؛ فيكون من الموقنين.

٥ ـ **ومنها**: أن الآيات في خلق السموات، والأرض متنوعة بحسب ما تدل عليه من القدرة، والحكمة، والرحمة، وما إلى ذلك.

٦ ـ **ومنها**: ما في اختلاف الليل، والنهار من الآيات، والعبر التي سبق بيان شيء منها؛ لقوله تعالى: ﴿**واختلاف الليل والنهار**﴾.

٧ ـ **ومنها**: أن اختلاف الليل، والنهار من رحمة الله، وحكمته.

٨ ـ **ومنها**: ما في الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس من آيات الله، ونعمه؛ وسبق تفصيل ذلك.

٩ ـ **ومنها**: ما تضمنه إنزال المطر من السماء؛ ففيه آيات عظيمة سبقت الإشارة إليها.

١٠ ـ **ومنها**: ما تضمنه قوله تعالى: ﴿**فأحيا به الأرض بعد موتها**﴾ من الآيات؛ وسبق الكلام عليها؛ وهي آيات عظيمة دالة على كمال القدرة، والرحمة، والعظمة، وعلى إحياء الله سبحانه وتعالى الموتى.

١١ ـ **ومنها**: ما تضمنه قوله تعالى: ﴿**وبث فيها من كل دابة**﴾ من الآيات التي سبق بيان شيء منها.

١٢ ـ **ومنها**: ما في تصريف الرياح من الآيات التي سبق ذكر شيء منها.

١٣ ـ **ومنها**: ما في السحاب المسخر بين السماء، والأرض من الآيات العظيمة؛ وسبق ذكر شيء منها.

١٤ ـ **ومنها**: مدح العقل، وأنه به يستظهر الإنسان الآيات

التي تزيده إيماناً، ويقيناً؛ لقوله تعالى: ﴿**لقوم يعقلون**﴾.

١٥ ـ **ومنها**: أن الناس ينقسمون في هذه الآيات إلى قسمين: قسم يعقل ما فيها من الآيات، ويستدل به على ما لله سبحانه وتعالى فيها من كمال الصفات؛ وقسم لا يعقلون ذلك، وقد وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿**إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً**﴾ [الفرقان: ٤٤].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾.

التفسير:

لما ذكر الله سبحانه وتعالى: ﴿**وإلهكم إله واحد...**﴾، واستدل على ألوهيته بما في خلق السموات، والأرض، وما ذكر من الآيات، بيّن بعد ذلك أن من الناس ـ مع هذه الآيات الواضحة ـ من يتخذ من دون الله أنداداً.

﴿**١٦٥**﴾ قوله تعالى: ﴿**ومن الناس**﴾؛ ﴿**مِن**﴾ بمعنى بعض؛ ﴿**مَن يتخذ**﴾؛ ﴿**مَن**﴾: اسم موصول مبتدأ مؤخر؛ وعند بعض النحويين أن ﴿**مِن**﴾ مبتدأ؛ وأن ﴿**مَن**﴾ خبره؛ لكن المشهور ما قلناه أولاً.

وقوله تعالى: ﴿**من يتخذ من دون الله أنداداً**﴾ أي من يجعل من دون الله آلهة أنداداً؛ و﴿**أنداداً**﴾ جمع ندّ؛ وهو الشبيه النظير؛

لأنه من: نادّه ينادّه إذا كان نظيراً له مكافئاً له.

قوله تعالى: ﴿**يحبونهم كحب الله**﴾ أي يحبون تلك الأنداد؛ وجاء الضمير جمعاً للعاقل دون أن يأتي بضمير المؤنث ـ مع أن الأكثر من هذه الأنداد أنها لا تعقل؛ وغير العاقل يكون ضميره مؤنثاً ـ باعتبار عقيدة عابديها؛ لأنهم يعتقدون أنها تنفع وتضر.

وجملة: ﴿**يحبونهم**﴾ صفة لأنداد؛ ويحتمل أن تكون استئنافية لبيان معنى اتخاذهم أنداداً.

وقوله تعالى: ﴿**كحب الله**﴾ أي كحبهم لله؛ أو كحب المؤمنين لله؛ والأول أظهر؛ ولهذا جعلوهم أنداداً ـ أي هؤلاء جعلوا هذه الأصنام مساوية لله في المحبة فيحبونهم كحب الله ـ؛ فهم يحبون هذه الأصنام، ويعتقدون أنها تنفع، وتضر؛ ولا فرق في ذلك بين من يتخذ محبوباً إلى الله عز وجل، أو غير محبوب إليه؛ فمن اتخذ النبي ﷺ نداً لله في المحبة، والتعظيم، كمن اتخذ صنماً من شجر، أو حجر؛ لأن النبي ﷺ، وهذا الصنم كلاهما لا يستحق أن يكون نداً لله عز وجل؛ ولهذا لما نزلت: ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون**﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وكان ظاهر الآية يشمل الأنبياء الذين عُبدوا من دون الله، استثناهم الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿**إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون**﴾ [الأنبياء: ١٠١] ـ ولو عُبِدوا من دون الله ـ؛ وقال النبي ﷺ لرجل قال له: «ما شاء الله وشئت»: «**أجعلتني لله نداً!!! بل ما شاء الله وحده**»[1]؛ فأنكر عليه أن يجعله نداً لله.

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٢١٧.

قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾؛ ﴿الذين﴾: مبتدأ؛ و﴿أشد﴾: خبره؛ و﴿حباً﴾: تمييز؛ لأنها بعد أفعل تفضيل؛ و﴿أشد﴾ اسم تفضيل يقتضي مفضلاً، ومفضلاً عليه؛ فالمفضل: حب الذين آمنوا لله؛ والمفضل عليه: إما حب هؤلاء لأصنامهم؛ فيكون المعنى: أن الذين آمنوا أشد حباً لله من هؤلاء لأصنامهم؛ وإما أن المفضل عليه حب هؤلاء لله؛ فيكون المعنى: أن الذين آمنوا أشد حباً لله من هؤلاء لله؛ وكلا الاحتمالين صحيح؛ أما الأول فلأن حب المؤمنين لله يكون في السراء، والضراء؛ وحب هؤلاء لأصنامهم في السراء فقط؛ وعند الضراء يلجؤون إلى الله عز وجل؛ فإذاً ليس حبهم الأصنام كحب المؤمنين لله عز وجل؛ ثم إن بعضهم يصرح، فيقول: «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»؛ وأما الاحتمال الثاني في الآية فوجه التفضيل ظاهر؛ لأن حب المؤمنين لله خالص لا يشوبه شيء؛ وحب هؤلاء لله مشترك: يحبون الله، ويجعلون معه الأصنام نداً.

قوله تعالى: ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب﴾ فيها قراءات؛ أولاً: ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يَرون العذاب﴾ بياء الغيبة في ﴿يرى﴾، وبفتح الياء في ﴿يَرون﴾؛ ثانياً: ﴿ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب﴾ بتاء الخطاب في ﴿ترى﴾، وبفتح الياء في ﴿يَرون﴾؛ وبضمها: ﴿يُرون﴾؛ فالقراءات إذاً ثلاث.

قوله تعالى: ﴿الذين ظلموا﴾؛ الظلم في الأصل هو النقص؛ ومنه قوله تعالى: ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً﴾ [الكهف: ٣٣] أي لم تنقص؛ ولكنه يختلف بحسب السياق؛ فقوله تعالى: ﴿الذين ظلموا﴾ هنا: أي الذين نقصوا الله حقه، حيث جعلوا له أنداداً؛ وهم أيضاً ظلموا أنفسهم ـ أي نقصوها

حقها ـ؛ لأن النفس أمانة عندك يجب أن ترعاها حق رعايتها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها**﴾ [الشمس: ٩، ١٠]؛ فالنفس أمانة عندك؛ فإذا عصيت ربك فإنك ظالم لنفسك.

قوله تعالى: ﴿**إذ يرون العذاب**﴾؛ ﴿**إذ**﴾ ظرف بمعنى «حين»؛ أي حين يرون العذاب؛ وقال بعض المعربين: ﴿**إذ**﴾ هنا بمعنى «إذا»؛ وتأتي «إذ» بمعنى «إذا»؛ لأنها إذا تعلقت بمضارع لا تكون للماضي؛ إذ إن الماضي للماضي؛ والمضارع للمستقبل؛ فهنا الآية للمستقبل؛ فتكون «إذ» بمعنى «إذا»؛ ونظيرها قوله تعالى: ﴿**إذ الأغلال في أعناقهم**﴾ [غافر: ٧١] أي إذا الأغلال في أعناقهم؛ فكلمة ﴿**إذ**﴾ إذا كان العامل فيها فعلاً مضارعاً فهي للمستقبل بمعنى «إذا»؛ والحكمة في كونها جاءت للماضي ـ وهي في الحقيقة للمستقبل ـ بيان تحقق وقوعه؛ فصار المستقبل كأنه أمر ماض؛ ونظيره في «الفعل» قوله تعالى: ﴿**أتى أمر الله فلا تستعجلوه**﴾ [النحل: ١]؛ ﴿**أتى**﴾ بمعنى المستقبل؛ لأنه قال: ﴿**فلا تستعجلوه**﴾؛ ولو كان قد أتى لم يصح أن يقال: ﴿**فلا تستعجلوه**﴾.

قوله تعالى: ﴿**إذ يرون العذاب**﴾؛ على قراءة ﴿**يَرون**﴾ بفتح الياء الرؤية هنا بصرية؛ ولهذا لم تنصب إلا مفعولاً واحداً؛ وكذلك على قراءة ﴿**يُرون**﴾ بضم الياء هي بصرية؛ لكنها تعدت إلى مفعولين بالهمزة؛ فهي رباعية؛ لأنها من: أراه يريه؛ فـ﴿**يُرون**﴾ أي يُجعلون يَرون؛ وأصل «أراه»: «أرآه» لكن حذفت الهمزة تخفيفاً؛ والحاصل أن ﴿**يُرون**﴾ هي رؤية بصرية ـ أي

يريهم الله عز وجل العذاب ـ؛ و﴿العذاب﴾ معناه العقوبة ـ والعياذ بالله ـ التي تحصل لهم على أفعالهم.

قوله تعالى: ﴿أن القوة لله جميعاً﴾؛ اللام هنا للاختصاص ـ يعني أن المختص بالقوة الكاملة من جميع الوجوه هو الله ـ؛ و﴿جميعاً﴾ حال من ﴿القوة﴾؛ أي حال كونها جميعاً؛ فلا يشذ منها شيء؛ فكل القوة لله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وأن الله شديد العذاب﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿أن القوة لله جميعاً﴾؛ و﴿شديد العذاب﴾ أي قوي العقوبة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن بعض الناس يجعل لله نداً في المحبة يحبه كحب الله؛ لقوله تعالى: ﴿يحبونهم كحب الله﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن محبة الله من العبادة؛ لأن الله جعل من سوّى غيره فيها مشركاً متخذاً لله نداً؛ فالمحبة من العبادة؛ بل هي أساس العبادة؛ لأن أساس العبادة مبني على الحب، والتعظيم؛ فبالحب يفعل المأمور؛ وبالتعظيم يجتنب المحظور؛ هذا إذا اجتمعا؛ وإن انفرد أحدهما استلزم الآخر.

٣ ـ **ومنها**: أن من جعل لله نداً في المحبة فهو ظالم؛ لقوله تعالى: ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب﴾.

٤ ـ **ومنها**: إثبات الجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿إذ يرون العذاب﴾.

٥ ـ **ومنها**: إثبات القوة لله؛ لقوله تعالى: ﴿أن القوة لله جميعاً﴾؛ فإن قيل: كيف يتفق قوله تعالى: ﴿جميعاً﴾ مع أن للمخلوق قوة؟

فالجواب: أن قوة المخلوق ليست بشيء عند قوة الخالق؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿**فإن العزة لله جميعاً**﴾ [النساء: ١٣٩] مع أن الله أثبت للمخلوق عزة؛ وهكذا نقول في بقية الصفات التي يشترك فيها الخالق والمخلوق في أصل الصفة.

٦ ـ **ومنها**: أن المؤمن محب لله عز وجل أكثر من محبة هؤلاء لأصنامهم؛ لقوله تعالى: ﴿**والذين آمنوا أشد حباً**﴾.

٧ ـ **ومنها**: أنه كلما ازداد إيمان العبد ازدادت محبته لله؛ وجه ذلك أن الله سبحانه وتعالى رتب شدة المحبة على الإيمان؛ وقد عُلم أن الحكم إذا عُلِّق على وصف فإنه يقوى بقوة ذلك الوصف، وينقص بنقصه؛ فكلما ازداد الإنسان إيماناً بالله عز وجل ازداد حباً له.

٨ ـ **ومنها**: شدة عذاب الله عز وجل لهؤلاء الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿**وأن الله شديد العذاب**﴾؛ فإن قيل: كيف يكون الله عز وجل شديد العذاب مع أنه أرحم من الوالدة بولدها؟

فالجواب: أن هذا من كمال عزه، وسلطانه، وعدله، وحكمته؛ لأنه أنذر مستحق العذاب، وأعذر منهم بإرسال الرسل؛ فلم يبق لهم حجة توجب تخفيف العذاب عنهم؛ فلو رحم هؤلاء الكافرين به لكان لا فرق بينهم والمؤمنين به.

وشدة عذاب الله لهؤلاء مذكور في القرآن، والسنة: قال الله تعالى: ﴿**وإن يستغيثوا**﴾ [الكهف: ٢٩] أي أهل النار ﴿**يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه**﴾ [الكهف: ٢٩]؛ فما بالك لو وصلت إلى الأمعاء؟!!؛ ولهذا قال تعالى في آية أخرى: ﴿**وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم**﴾ [محمد: ١٥]؛ ومع ذلك تتقطع، وتلتئم بسرعة كما

قال تعالى في جلودهم: ﴿**كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها**﴾ [النساء: ٥٦]؛ و﴿**كلما**﴾ تفيد التكرار؛ وجوابها يفيد الفورية؛ والحكمة: ﴿**ليذوقوا العذاب**﴾ [النساء: ٥٦]؛ وقال تعالى: ﴿**إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلي في البطون * كغلي الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم**﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٨]؛ ويقال له أيضاً: تبكيتاً، وتوبيخاً، وتنديماً، وتلويماً، ﴿**ذق**﴾؛ ويذكّر أيضاً بحاله في الدنيا فيقال له: ﴿**إنك أنت العزيز الكريم**﴾؛ فحينئذ يتقطع ألماً، وحسرة؛ ولا شك أن المؤمنين يسرون بعذاب أعداء الله؛ فعذابهم رحمة للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾.

التفسير:

﴿١٦٦﴾ قوله تعالى: ﴿**إذ تبرأ الذين اتبعوا**﴾؛ ﴿**إذ**﴾ ظرف عامله محذوف؛ والتقدير: اذكر إذ تبرأ؛ والمراد بالذكر هنا: الذكر للغير، والتذكر أيضاً؛ فالله سبحانه وتعالى يُذكِّرنا، ويأمرنا أيضاً أن نذكر لغيرنا؛ و﴿**تبرأ**﴾ أي تخلى، وبعُد ﴿**الذين اتُّبِعوا**﴾: وهم الرؤساء، والسادة يتبرءون من ﴿**الذين اتَّبعوا**﴾: وهم الأتباع، والضعفاء، وما أشبههم؛ فمن ذلك مثلاً: رؤساء الكفر يدعون الناس إلى الكفر، مثل فرعون: فقد دعا إلى الكفر؛ فهو متَّبَع؛

وقومه متَّبِعون؛ وكذلك غيره من رؤساء الكفر، والضلال، فإنهم أيضاً متَّبَعون؛ ومن تبعهم فهو متّبع، فهؤلاء يتبرأ بعضهم من بعض؛ وقد ذكر الله سبحانه وتعالى مناقشة بعضهم لبعض، ومحاجة بعضهم بعضاً في عدة آيات.

ولا يشمل قوله تعالى: ﴿**إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا**﴾ من اتبع أئمة الهدى؛ فالمتبعون للرسل لا يتبرأ منهم الرسل؛ والمتبعون لأئمة الهدى لا يتبرأ منهم أئمة الهدى؛ لقوله تعالى: ﴿**الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين**﴾ [الزخرف: ٦٧]؛ فالأخلاء، والأحبة يوم القيامة يتبرأ بعضهم من بعض إلا المتقين.

قوله تعالى: ﴿**ورأوا العذاب**﴾؛ أمامنا الآن فعل ماض في ﴿**تبرأ**﴾، وفعل ماض في ﴿**رأوا**﴾ ـ مع أن هذا الأمر مستقبل ـ؛ لكن لتحقق وقوعه عبر عنه بالماضي؛ وهذا كثير في القرآن.

وقوله تعالى: ﴿**ورأوا العذاب**﴾ أي رأوه بأعينهم، كما قال تعالى: ﴿**ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً**﴾ [الكهف: ٥٣]؛ و﴿**العذاب**﴾ هو العقوبة التي يعاقب الله بها من يستحقها.

قوله تعالى: ﴿**وتقطعت بهم الأسباب**﴾؛ الباء هنا إما أن تكون بمعنى «عن»؛ أو تكون صلة بمعنى أنهم متشبثون بها الآن، ثم تنقطع بهم كما ينقطع الحبل بمن تمسك به للنجاة من الغرق؛ و﴿**الأسباب**﴾ جمع سبب؛ وهو ما يتوصل به إلى غيره؛ والمراد بها هنا كل سبب يؤملون به الانتفاع من هؤلاء المتبوعين، مثل قولهم: ﴿**اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم**﴾ [العنكبوت: ١٢]، وقول

فرعون لقومه: ﴿**ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد**﴾ [غافر: ٢٩]؛ فهذه الأسباب التي سلكها المتبعون ظناً منهم أنها تنقذهم من العذاب إذا كان يوم القيامة تقطعت بهم؛ ولا يجدون سبيلاً إلى الوصول إلى غاياتهم؛ وفسر ابن عباس رضي الله عنهما ﴿**الأسباب**﴾ هنا بالمودة؛ أي تقطعت بهم المودة؛ وهذا التفسير على سبيل التمثيل؛ والآية أعم من ذلك؛ ووجه تفسير ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية في سياق محبة هؤلاء المشركين لأصنامهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن المتبوعين بالباطل لا ينفعون أتباعهم؛ لقوله تعالى: ﴿**إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا**﴾؛ ولو كانوا ينفعونهم لم يتبرؤوا منهم.

٢ ـ **ومنها**: أن الأمر لا يقتصر على عدم النفع؛ بل يتعداه إلى البراءة منهم، والتباعد عنهم؛ وهذا يكون أشد حسرة على الأتباع مما لو كان موقفهم سلبياً.

٣ ـ **ومنها**: ثبوت العقاب؛ لقوله تعالى: ﴿**ورأوا العذاب**﴾.

ويتفرع عليه ثبوت البعث.

٤ ـ **ومنها**: أن الله سبحانه وتعالى يجمع يوم القيامة بين الأتباع والمتبوعين توبيخاً، وتنديماً لهم؛ ويتبرأ بعضهم من بعض؛ لأن هذا ـ لا شك ـ أعظم حسرة إذا صار متبوعه الذي كان يعظمه في الدنيا يتبرأ منه وجهاً لوجه.

٥ ـ **ومنها**: أن جميع الأسباب الباطلة التي لا تُرضي الله ورسوله، تتقطع بأصحابها يوم القيامة، وتزول، ولا تنفعهم.

٦ ـ **ومنها**: أن من استغاث بالرسل، أو غيرهم من المخلوقات فيما لا يقدر عليه إلا الله، فقد ضل في دينه، وسفه في عقله، وأتى الشرك الأكبر.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾.

التفسير:

﴿١٦٧﴾ قوله تعالى: ﴿**وقال الذين اتبعوا**﴾: هم الأتباع.

قوله تعالى: ﴿**لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم**﴾؛ ﴿**لو**﴾ هنا ليست شرطية؛ ولكنها للتمني؛ يعني: ليت لنا كرة فنتبرأ؛ والدليل على أنها للتمني أن الفعل نصب بعدها؛ وهو منصوب بـ«أنْ» المضمرة بعد الفاء السببية؛ و«لو» تأتي في اللغة العربية على ثلاثة أوجه: تكون شرطية؛ وتكون للتمني؛ وتكون مصدرية؛ فـ﴿**لو**﴾ في قوله تعالى: ﴿**وودوا لو تكفرون**﴾ [الممتحنة: ٢] مصدرية؛ و﴿**لو**﴾ في قوله تعالى: ﴿**ولو شاء الله ما اقتتلوا**﴾ [البقرة: ٢٥٣] شرطية؛ ﴿**لو**﴾ في قوله تعالى: ﴿**لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم**﴾ للتمني؛ ومثلها قوله تعالى: ﴿**فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين**﴾ [الشعراء: ١٠٢].

و«الكرة» الرجوع إلى الشيء؛ والمراد هنا: الرجوع إلى الدنيا؛ فنتبرأ منهم في الدنيا إذا رجعنا كما تبرءوا منا هنا في الآخرة؛ فنجازيهم بما جازونا به؛ لكن أنى لهم ذلك!!! فهذا التمني لا ينفعهم؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**كذلك**

يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾؛ و**﴿كذلك﴾**: الكاف: اسم بمعنى «مثل»؛ وهي مفعول مطلق عامله الفعل بعده؛ وهذا كثيراً ما يأتي في القرآن، كقوله تعالى: **﴿وكذلك يفعلون﴾** [النمل: ٣]، وقوله تعالى: **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾** [البقرة: ١٤٣].

وقوله تعالى: **﴿يريهم﴾** من: أرى يُري؛ فزيادة الهمزة جعلتها تنصب ثلاثة مفاعيل؛ الأول: الضمير، والثاني: **﴿أعمالهم﴾**؛ والثالث: **﴿حسرات﴾**؛ و**﴿حسرات﴾** جمع حسرة؛ وهي الندم مع الانكماش، والحزن؛ فهؤلاء الأتباع شعورهم بالندم، والخيبة، والخسران لا يتصور؛ فالأعمال التي عملوها لهؤلاء المتبوعين صارت ـ والعياذ بالله ـ خسارة عليهم، وندماً؛ ضاعت بها دنياهم، وآخرتهم؛ وهذا أعظم ما يكون من الحسرة.

قوله تعالى: **﴿وما هم بخارجين من النار﴾**، أي أنهم خالدون فيها.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن هؤلاء الأتباع يتمنون أن يرجعوا إلى الدنيا ليتبرءوا من متبوعيهم كما تبرأ هؤلاء منهم في الآخرة؛ وهو غير ممكن؛ وما يزيدهم هذا إلا حسرة؛ ولهذا قال الله تعالى: **﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم﴾**.

٢ ـ **ومنها**: تحسر هؤلاء، وأمثالهم الذين فاتهم في هذه الدنيا العمل الصالح؛ فإنهم يتحسرون في الآخرة تحسراً لا نظير له لا يدور في خيالهم اليوم، ولا في خيال غيرهم؛ لأنه ندم لا يمكن العتبى منه.

٣ ـ **ومنها**: إثبات نكال الله بهم؛ لقوله تعالى: ﴿**كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن المشركين مخلدون في النار لا يخرجون منها؛ لقوله تعالى: ﴿**وما هم بخارجين من النار**﴾؛ وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الخلود الأبدي في النار في ثلاثة مواضع من القرآن: في سورة النساء؛ وفي سورة الأحزاب؛ وفي سورة الجن؛ وبه يبطل قول من ادعى أن النار تفنى؛ لأن خلود الماكث الأبدي يدل على خلود مكانه.

٥ ـ **ومنها**: إثبات النار، وأنها حق.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾.

التفسير:

﴿١٦٨﴾ هذه الآية جاءت في سورة البقرة؛ وسورة البقرة مدنية؛ وقد سبق أنه جاء أيضاً مثلها: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم**﴾ [البقرة: ٢١]؛ وقد ذكر كثير من المؤلفين في أصول التفسير أن الغالب في السور المدنية أن يكون الخطاب فيها بـ ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ [البقرة: ١٠٤]؛ لأن الرسول ﷺ لما هاجر إلى المدينة صارت المدينة بلاد إسلام؛ وهي أول بلد إسلامي يحكمه المسلمون في هذه الرسالة؛ فصار التوجه إليها بالخطاب بـ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾؛ لكنها ليست قاعدة؛ ولكنها ضابط يخرج منه بعض

المسائل؛ لأن من السور المدنية فيها ﴿يا أيها الناس﴾، كسورة النساء، وسورة الحجرات.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس﴾؛ ﴿الناس﴾ أصلها: الأناس؛ وحذفت الهمزة منها تخفيفاً؛ والمراد بـ﴿الناس﴾ بنو آدم.

قوله تعالى: ﴿كلوا مما في الأرض﴾؛ «مِن» يحتمل أن تكون لبيان الجنس؛ ويحتمل أن تكون للتبعيض؛ لكن كونها لبيان الجنس أولى؛ ويرجحه قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ [البقرة: ٢٩]؛ أي كلوا من هذا ما شئتم؛ ويشمل كل ما في الأرض من أشجار، وزروع، وبقول، وغيرها؛ ومن حيوان أيضاً؛ لأنه في الأرض.

قوله تعالى: ﴿حلالًا﴾: منصوبة على الحال من «ما»؛ أي كلوه حال كونه حلالاً ـ أي محللاً ـ؛ فهي بمعنى اسم المفعول؛ و﴿طيباً﴾ حال أخرى ـ يعني: حال كون طيباً ـ مؤكد لقوله تعالى: ﴿حلالًا﴾؛ ويحتمل أن يكون المراد بـ«الحلال» ما كان حلالاً في كسبه؛ وبـ«الطيب» ما كان طيباً في ذاته؛ لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وأحل الله البيع﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقوله تعالى في الميتة، ولحم الخنزير: ﴿فإنه رجس﴾ [الأنعام: ١٤٥]؛ وهذا أولى؛ لأن حمل الكلام على التأسيس أولى من حمله على التوكيد.

قوله تعالى: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾؛ ﴿لا﴾ ناهية؛ و«اتباع الخطوات» معناه: أن يتابع الإنسان غيره في عمله، كمتبع الأثر الذي يتبع أثر البعير، وأثر الدابة، وما أشبهها؛ و﴿خطوات الشيطان﴾ أي أعماله التي يعملها، ويخطو إليها؛ وهو شامل للشرك فما دونه؛ فإن الشيطان يأمر بالفحشاء، والمنكر؛ قال

تعالى: ﴿**إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على ما لا تعلمون**﴾ [البقرة: ١٦٩]، وقال تعالى: ﴿**ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر**﴾ [النور: ٢١]؛ فكل شيء حرمه الله فهو من خطوات الشيطان سواء كان عن استكبار، أو تكذيب، أو استهزاء، أو غير ذلك؛ لأنه يأمر به، وينادي به، ويدعو إليه؛ و﴿**الشيطان**﴾ من: شطن؛ فالنون أصلية؛ وليس من «شاط»؛ لأنه مصروف في القرآن؛ قال تعالى: ﴿**وما هو بقول شيطانٍ رجيم**﴾ [التكوير: ٢٥]؛ ولو كان من «شاط» لكانت النون زائدة، والألف زائدة؛ فيكون ممنوعاً من الصرف؛ إلا أنه قد يقال: لا يمنع من الصرف؛ لأن مؤنثه: شيطانة؛ والذي يمنع من الصرف إذا كان مؤنثه «فعلى»، كـ«سكران»، و«سكرى»؛ ومعنى «شطن» بعُد؛ فسمي الشيطان بذلك لبعده عن رحمة الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿**إنه لكم عدو مبين**﴾؛ محل هذه الجملة استئنافية تعليل لما قبلها؛ والعدو ضد الصديق؛ وإن شئت فقل: ضد الولي؛ لقوله تعالى: ﴿**لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء**﴾؛ وقد حده الفقهاء ـ رحمهم الله ـ بقولهم: من سره مساءة شخص؛ أو غمه فرحه فهو عدو؛ فالعدو من يحزن لفرحك، ويُسَرّ لحزنك.

وقوله تعالى: ﴿**مبين**﴾ أي ظاهر العداوة؛ وقد كان عدواً لأبينا آدم ﷺ؛ فما زالت عداوته إلى قيام الساعة؛ وقال تعالى عنه: ﴿**لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنَّهم ولأمنينَّهم ولآمرنَّهم فليبتكنَّ آذان الأنعام ولآمرنَّهم فليغيرنَّ خلق الله**﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩]، ثم قال تعالى: ﴿**ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً**﴾ [النساء: ١١٩].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إظهار منة الله على عباده، حيث أباح لهم جميع ما في الأرض من حلال طيب؛ لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً**﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن الأصل فيما في الأرض الحل والطيب حتى يتبين أنه حرام.

٣ ـ **ومنها**: أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؛ لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس**﴾؛ وهم داخلون في هذا الخطاب؛ ومخاطبتهم بفروع الشريعة هو القول الصحيح؛ ولكن ليس معنى خطابهم بها أنهم ملزمون بها في حال الكفر؛ لأننا ندعوهم أولاً إلى الإسلام، ثم نلزمهم بأحكامه؛ وليس معنى كونهم مخاطبين بها أنهم يؤمرون بقضائها؛ والدليل على الأول قوله تعالى: ﴿**وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله**﴾ [التوبة: ٥٤]؛ فكيف نلزمهم بأمر لا ينفعهم؛ هذا عبث، وظلم؛ وأما الدليل على الثاني فقوله تعالى: ﴿**قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف**﴾ [الأنفال: ٣٨]؛ ولهذا لم يأمر النبي ﷺ أحداً ممن أسلم بقضاء ما فاته من الواجبات حال كفره؛ والفائدة من قولنا: إنهم مخاطبون بها ـ كما قال أهل العلم ـ زيادة عقوبتهم في الآخرة؛ وهذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿**إلا أصحاب اليمين * في جنات يتساءلون * عن المجرمين * ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين**﴾ [المدثر: ٣٩ ـ ٤٧].

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: تحريم اتباع خطوات الشيطان؛ لقوله

تعالى: ﴿**ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين**﴾؛ ومن ذلك الأكل بالشمال، والشرب بالشمال؛ لقول النبي ﷺ: «**لا يأكل أحدكم بشماله، ولا يشرب بشماله؛ فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله**»[1]؛ ومن اتباع خطوات الشيطان القياس الفاسد؛ لأن أول من قاس قياساً فاسداً هو إبليس؛ لأن الله لما أمره بالسجود لآدم عارض هذا الأمر بقياس فاسد: قال: ﴿**أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾ [صٓ: ٣٨]؛ يعني: فكان الأولى هو الذي يسجد؛ فهذا قياس في مقابلة النص؛ فاسد الاعتبار؛ ومن اتباع خطوات الشيطان أيضاً الحسد؛ لأن الشيطان إنما قال ذلك حسداً لآدم؛ وهو أيضاً دأب اليهود، كما قال تعالى: ﴿**ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم**﴾ [البقرة: ١٠٩]؛ وكل خُلق ذميم، أو عمل سوء، فإنه من خطوات الشيطان.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: تأكيد عداوة الشيطان لبني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿**إنه لكم عدو مبين**﴾؛ فإن الجملة مؤكدة بـ«**إن**».

٦ ـ **ومنها**: ظهور بلاغة القرآن؛ وذلك لقرن الحُكم بعلته؛ فإن قرن الحكم بعلته له فوائد؛ منها معرفة الحكمة؛ ومنها زيادة طمأنينة المخاطب؛ ومنها تقوية الحكم؛ ومنها عموم الحكم بعموم العلة ـ يعني القياس ـ؛ مثاله قوله تعالى: ﴿**قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس**﴾ [الأنعام: ١٤٥]؛ فإن مقتضى هذا التعليل أن كل ما كان نجساً فهو محرم.

---

(١) أخرجه مسلم ص١٠٣٩، كتاب الأشربة، باب ١٣: آداب الطعام والشراب وأحكامهما، حديث رقم ٥٢٦٥ [١٠٥] ٢٠٢٠.

٧ ـ **ومنها**: التحذير الشديد من اتباع خطوات الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿**إنه لكم عدو مبين**﴾؛ وما أظن أحداً عاقلاً يؤمن بعداوة أحد ويتبعه أبداً.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

التفسير:

﴿١٦٩﴾ قوله تعالى: ﴿**إنما يأمركم بالسوء والفحشاء**﴾؛ ﴿**إنما**﴾ أداة حصر؛ و«الحصر» إثبات الحكم في المذكور، ونفيه عما سواه، كما لو قلت: «إنما القائم زيد»؛ أثبتَّ القيام لزيد، ونفيته عمن سواه؛ يعني ما يأمركم إلا بالسوء والفحشاء... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿**يأمركم**﴾ أي الشيطان؛ والخطاب للناس جميعاً؛ لأن الآيات كلها سياقها للناس.

وقوله تعالى: ﴿**بالسوء**﴾ أي كل ما يسوء من المعاصي الصغيرة؛ أي السيئات؛ و﴿**الفحشاء**﴾ أي المعاصي الكبيرة، كالزنا؛ فهو يأمر بهذا، وبهذا؛ مع أن المعاصي الصغار تقع مكفّرة بالأعمال الصالحة إذا اجتنبت الكبائر؛ لكنه يأمر بها؛ لأنه إذا فعلها الإنسان مرة بعد أخرى فإنه يفسق، ويقسو قلبه؛ ثم لا ندري أتقوى هذه الأعمال الصالحة على تكفير السيئات، أم يكون فيها خلل، ونقص يمنع من تكفيرها السيئات.

قوله تعالى: ﴿**وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿**بالسوء**﴾ يعني أن الشيطان يأمركم أن تقولوا

على الله ما لا تعلمون ـ أي تنسبوا إليه القول من غير علم ـ؛ وعطْف ﴿أن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ على ﴿السوء والفحشاء﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ فإنه داخل إما في السوء، أو الفحشاء؛ وهو أيضاً إلى الفحشاء أقرب.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن للشيطان إرادة، وأمراً؛ لقوله تعالى: ﴿إنما يأمركم﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن الشيطان لا يأمر بالخير؛ لقوله تعالى: ﴿إنما يأمركم بالسوء والفحشاء﴾؛ وهذا حصر بـ﴿إنما﴾؛ وهو يوازن: ما يأمركم إلا بالسوء والفحشاء.

٣ ـ **ومنها**: أن الإنسان إذا وقع في قلبه همّ بالسيئة أو الفاحشة فليعلم أنها من أوامر الشيطان، فليستعذ بالله منه؛ لقوله تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

٤ ـ **ومنها**: أن القول على الله بلا علم من أوامر الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾؛ والقول على الله سبحانه وتعالى ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يقول على الله ما يعلم أن الله قاله؛ هذا جائز؛ ويصل إلى حد الوجوب إذا دعت الحاجة إليه.

القسم الثاني: أن يقول على الله ما يعلم أن الله قال خلافه؛ فهذا حرام؛ وهذا أشد الأقسام لما فيه من محادة الله.

القسم الثالث: أن يقول على الله ما لا يعلم أن الله قاله؛ وهذا حرام أيضاً.

فصار القول على الله حراماً في حالين؛ إحداهما: أن يقول على الله ما لا يعلم أن الله قاله، أم لم يقله؛ والثانية: أن يقول على الله ما يعلم أن الله قال خلافه.

وقوله تعالى: ﴿**وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾ يشمل القول على الله **في ذاته**، كالقائلين أنه سبحانه وتعالى ليس بداخل العالم، ولا خارجه، ولا متصل، ولا منفصل، ولا فوق العالم، ولا تحت؛ هؤلاء قالوا على الله بلا علم؛ بل بما يُعلم أن الأمر بخلافه.

ويشمل القول على الله **في أسمائه**، مثل أن يقول: إن أسماء الله سبحانه وتعالى أعلام مجردة لا تحمل معاني، ولا صفات: فهو سميع بلا سمع؛ وبصير بلا بصر؛ وعليم بلا علم؛ فهو عليم بذاته ـ لا بعلم هو وصفه ـ.

ويشمل أيضاً من قال في **صفات الله** ما لا يعلم، مثل أن يثبتوا بعض الصفات دون بعض، فيقولون فيما نفوه: أراد به كذا، ولم يرد به كذا؛ فقالوا على الله بلا علم من وجهين:

الوجه الأول: أنهم نفوا ما أراد الله بلا علم.

والثاني: أثبتوا ما لم يعلموا أن الله أراده؛ فقالوا مثلاً: ﴿**استوى على العرش**﴾ [الأعراف: ٥٤] بمعنى استولى عليه؛ قالوا على الله بلا علم من وجهين؛ **الوجه الأول**: نفيهم حقيقة الاستواء بلا علم؛ **والثاني**: إثباتهم أنها بمعنى الاستيلاء بلا علم.

كذلك يشمل القول على الله بلا علم **في أفعاله**، مثل أن يثبتوا أسباباً لم يجعلها الله أسباباً، كمثل المنجمين، والخرَّاصين، وشبههم؛ هؤلاء قالوا على الله بلا علم في أفعاله، ومخلوقاته؛

فيقولون: سبب وجود هذا وهذا كذا؛ وهو لا يُعلم أنه سبب له كوناً، ولا شرعاً.

ويشمل أيضاً القول على الله بلا علم في **أحكامه**؛ مثل أن يقول: «هذا حرام» وهو لا يعلم أن الله حرمه؛ أو «واجب» وهو لا يعلم أن الله أوجبه؛ وهم كثيرون جداً؛ ومنهم العامة، ومنهم أدعياء العلم الذي يظنون أنهم علماء وليس عندهم علم؛ ومن الأشياء التي مرت عليّ قريباً، وهي غريبة: أن رجلاً ذهب إلى إمام مسجد ليكتب له الطلاق؛ فقال له: «طلق امرأتك طلقتين؛ أنا لا أكتب طلقة واحدة؛ لأن الله يقول: ﴿**الطلاق مرتان**﴾ [البقرة: ٢٢٩]»؛ فقال له الرجل: «اكتب أني طلقت امرأتي مرتين»؛ وهذا جهل مركب منافٍ لمعنى الآية؛ لأن معناها أن الطلاق الذي يملك فيه الرجعة هو الطلقة الأولى، والطلقة الثانية؛ فإن طلقها الثالثة لم تحل له حتى تنكح زوجاً غيره.

فالقول على الله بلا علم في ذاته، أو أسمائه، أو صفاته، أو أفعاله، أو أحكامه، كل ذلك من أوامر الشيطان؛ والغالب أنه لا يحمل على ذلك إلا محبة الشرف، والسيادة، والجاه؛ وإلا لو كان عند الإنسان تقوى لالتزم الأدب مع الله عز وجل، ولم يتقدم بين يدي الله ورسوله، وصار لا يقول على الله إلا ما يعلم.

فإذا قال قائل: ألستم تبيحون الفتوى بالظن عند تعذر اليقين؟

فالجواب: بلى؛ بشرط أن يكون لهذا الظن أساس شرعي ـ من اجتهاد، أو تقليد لمن هو أهل لذلك ـ يبنى عليه؛ فإذا أفتينا بالظن لتعذر اليقين فقد أفتينا بما أذن الله لنا فيه؛ لقوله تعالى: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿**لا يكلف الله**

نفساً إلا وسعها﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ ومعلوم أن القول بغلبة الظن خير من التوقف؛ وكثير من مسائل الفقه التي تكلم فيها الفقهاء، واختلفوا فيها من هذا الباب؛ لأنها لو كانت يقينية لم يحصل فيها اختلاف؛ ثم إن الشيء قد يكون يقيناً عند شخص لإيمانه، وكثرة علمه، وقوة فهمه؛ ومظنوناً عند آخر لنقصه في ذلك.

٥ ـ **ومنها**: تحريم الفتوى بلا علم؛ فإن المفتي يقول على الله، ويعبر عن شرع الله؛ وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى: **﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾** [الأعراف: ٣٣].

٦ ـ **ومنها**: ضلال أهل التأويل في أسماء الله، وصفاته؛ لأنهم قالوا على الله بلا علم.

٧ ـ **ومنها**: وجوب تعظيم الله عز وجل؛ لأنه تعالى حرم القول عليه بلا علم تعظيماً له، وتأدباً معه؛ وقد قال الله عز وجل: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾** [الحجرات: ١].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

التفسير:

﴿١٧٠﴾ قوله تعالى: **﴿وإذا قيل لهم﴾**؛ **﴿قيل﴾** مبني

أصلها «قُوِل»؛ لكن صار فيها إعلال؛ وهي أن الواو مكسورة فقلبت ياءً، فكُسر ما قبلها للمناسبة؛ و﴿لهم﴾ أي للكفار.

قوله تعالى: ﴿اتبعوا ما أنزل الله﴾ عقيدةً، وقولاً، وفعلاً؛ و﴿ما﴾ اسم موصول يفيد العموم فتشمل جميع ما أنزل الله على رسوله ﷺ من الكتاب، والحكمة؛ وقد قال كثير من أهل العلم: «**الحكمة**» هي السنة؛ فإذا قيل لهم هذا القول لا يلينون، ولا يُقبلون؛ بل يكابرون.

قوله تعالى: ﴿قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾؛ ﴿بل﴾ هذه للإضراب الإبطالي؛ يعني: قالوا مبطلين هذا القول الذي قيل لهم: ﴿بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾؛ ﴿ما﴾ اسم موصول؛ ﴿ألفينا﴾ أي وجدنا، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿**بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا**﴾ [لقمان: ٢١]؛ والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

وقوله تعالى: ﴿ما ألفينا عليه آباءنا﴾ يعني ما وجدناهم عليه من العقيدة والعمل، حقاً كان أو باطلاً؛ و﴿آباءنا﴾ يشمل الأدنى منهم، والأبعد؛ وجوابهم هذا باطل خطأ؛ ولهذا أبطله الله تعالى في قوله: ﴿أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾؛ والمعنى: أيتبعون آباءهم ولو كان آباؤهم في هذه الحال التي لا يستحقون أن يُتَّبعوا فيها لا يعقلون شيئاً؛ والمراد بالعقل هنا عقل الرشد؛ لا عقل الإدراك؛ فآباؤهم أذكياء، ويدركون ما ينفعهم، وما يضرهم؛ لكن ليس عندهم عقل رشد ـ وهو حسن تصرف ـ.

وقوله تعالى: ﴿شيئاً﴾ نكرة في سياق النفي؛ والنكرة في سياق النفي للعموم؛ فإذا قال قائل: إذا كانت للعموم فمعنى ذلك أنهم لا يعقلون شيئاً حتى من أمور الدنيا مع أنهم في أمور الدنيا

يحسنون التصرف: فهم يبيعون، ويشترون، ويتحرون الأفضل، والأحسن لهم؟ فيقال: هذا ليس بشيء بالنسبة إلى ما يتعلق بأمور الآخرة؛ أو يقال: إن المراد بهذا العموم الخصوص؛ أي لا يعقلون شيئاً من أمور دينهم لأن المقام هنا مقام منهاج، وعمل، وليس مقام دنيا، وبيع، وشراء؛ فيكون المراد بقوله تعالى: ﴿شيئاً﴾ شيئاً من أمور الآخرة؛ وكلا الاحتمالين يرجع إلى معنى واحد.

قوله تعالى: ﴿ولا يهتدون﴾ أي لا يعملون عمل العالم المهتدي؛ وبهذا انتفى عنهم الرشد في العمل؛ والعلم في طريق العمل؛ وهؤلاء الذين بهذا الوصف ـ لا يعقلون، ولا يهتدون ـ لا يستحقون أن يُتَّبعوا؛ ولهذا جاءت همزة الإنكار في قوله تعالى: ﴿أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾؛ وأقرب شبه لهؤلاء الآية التي بعدها.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: ذم التعصب بغير هدى؛ لقوله تعالى: ﴿بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾؛ مع أن آباءهم لا عقل عندهم، ولا هدى.

٢ ـ **ومنها**: أن من تعصب لمذهب مع مخالفة الدليل ففيه شبه من هؤلاء؛ والواجب أن الإنسان إذا قيل له: «اتبع ما أنزل الله» أن يقول: «سمعنا، وأطعنا».

٣ ـ **ومنها**: أنه لا يجب الانقياد إلا لما أنزل الله ـ وهو الكتاب، والحكمة ـ.

٤ ـ **ومنها**: بيان عناد هؤلاء المستكبرين الذين إذا قيل لهم: ﴿اتبعوا ما أنزل الله﴾ قالوا: ﴿بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ دون أن يقيموا برهاناً على صحته.

٥ ـ **ومنها**: أن كل من خالف الحق، وما أنزل الله فليس بعاقل، وليس عنده هدًى؛ لقوله تعالى: ﴿**لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

التفسير:

﴿١٧١﴾ قوله تعالى: ﴿**ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق**﴾ يعني كمثل الراعي الذي ينادي.

قوله تعالى: ﴿**بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً**﴾ وهم البهائم؛ فهؤلاء مثلهم كمثل إنسان يدعو بهائم لا تفهم إلا الصوت دعاءً، ونداءً؛ و«**الدعاء**» إذا كان يدعو شيئاً معيناً باسمه؛ و«**النداء**» يكون للعموم؛ هناك بهائم يسميها الإنسان باسمها بحيث إذا ناداها بهذا الاسم أقبلت إليه؛ والنداء العام لجميع البهائم هذا لا يختص به واحدة دون أخرى؛ فتقبل الإبل جميعاً؛ لكن مع ذلك لا تقبل على أساس أنها تعقل، وتفهم، وتهتدي؛ ربما يناديها لأجل أن ينحرها؛ هؤلاء الكفار مثلهم ـ في كونهم يتبعون آباءهم بدون أن يفهموا هذه الحال التي عليها آباؤهم ـ كمثل هذا الناعق بالماشية التي لا تسمع إلا دعاءً، ونداءً.

قوله تعالى: ﴿**صم**﴾ جمع أصم؛ وهو الذي لا يسمع؛ وهي خبر مبتدأ محذوف؛ والتقدير: هم صم؛ و﴿**بكم**﴾ جمع أبكم؛ وهو الذي لا ينطق؛ و﴿**عمي**﴾ جمع أعمى؛ وهو الذي لا

يبصر؛ أي فهم صم عن سماع الحق؛ ولكن سماع غيره لا فائدة منه؛ فهو كالعدم؛ وهم بُكم لا ينطقون بالحق؛ ونطقهم بغير الحق كالعدم؛ لعدم نفعه؛ وهم كذلك عُمي لا يبصرون الحق؛ وإبصارهم غير الحق لا ينتفعون به.

قوله تعالى: ﴿**فهم لا يعقلون**﴾ أي لكونهم صماً بكماً عمياً فهم لا يعقلون عقل رشد ـ وإن كان عندهم عقل إدراك ـ؛ فلعدم انتفاعهم بعقولهم نفى الله عنهم العقل؛ ورتب الله انتفاء العقل عنهم على كونهم صماً بكماً عمياً؛ لأن هذه الحواس وسيلة العقل والإدراك.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن هؤلاء في اتباع آبائهم مثل البهائم التي تستجيب للناعق وهي لا تسمع إلا صوتاً دعاءً، ونداءً؛ لا تسمع شيئاً تعقله، وتعرف فائدته، ومضرة مخالفته.

٢ ـ **ومنها**: أن هؤلاء قد طبع الله على قلوبهم فلا يسمعون ما يدعون إليه من حق، ولا يقولون به؛ فهُمْ: ﴿**صم بكم عمي فهم لا يعقلون**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن لهؤلاء أمثالاً يدعون بدعوى الجاهلية، كأولئك الذين يدعون إلى القومية: فإن مثلهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً، ونداءً؛ وهذه الدعوى لا يفكر الدعاة لها فيما يترتب عليها من تفريق المسلمين، وتمزيق وحدتهم، وكونهم يجعلون الرابطة هي اللغة، أو القومية، فيدخل فيها غير المسلم ممن تشملهم القومية، ويخرج بها مسلمون كثيرون ممن لا تشملهم القومية؛ لكن الرابطة الدينية التي قال الله سبحانه وتعالى

فيها: ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾ [الحجرات: ١٠]؛ هذه تدخل جميع المؤمنين ـ ولو من غير العرب ـ؛ وتخرج من ليس بمؤمن ـ ولو كان عربياً ـ؛ فهذا إبراهيم عليه السلام قال الله عز وجل عنه: ﴿**وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم**﴾ [التوبة: ١١٤]؛ وقد حثنا الله عز وجل على التأسي بإبراهيم عليه السلام، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿**قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده**﴾ [الممتحنة: ٤]، ولما قال نوح عليه السلام: ﴿**رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق**﴾ [هود: ٤٥] قال الله عز وجل له: ﴿**إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح**﴾ [هود: ٤٥]؛ فكون الناس انجرفوا في هذه الدعوى الباطلة ـ دعوى القومية ـ هو داخل في هذه الآية: أنهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾.

التفسير:

﴿١٧٢﴾ قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ سبق الكلام على ذكر فوائد تصدير الخطاب بالنداء، وبوصف الإيمان

للمنادى؛ وتصدير الحكم بالنداء يدل على الاهتمام به؛ لأن النداء يستلزم انتباه المنادى.

قوله تعالى: ﴿**كلوا من طيبات ما رزقناكم**﴾: الأمر هنا للامتنان، والإباحة؛ و﴿مِن﴾ هنا الظاهر أنها لبيان الجنس؛ لا للتبعيض؛ والمراد بـ«**الطيب**»: الحلال في عينه، وكسبه؛ وقيل: المراد بـ«**الطيب**»: المستلذ، والمستطاب.

قوله تعالى: ﴿**واشكروا لله**﴾؛ «الشكر» في اللغة: الثناء؛ وفي الشرع: القيام بطاعة المنعم؛ وإنما فسرناها بذلك؛ لأن النبي ﷺ قال: «**إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله﴾**»[1]؛ فالشكر الذي أُمر به المؤمنون بإزاء العمل الصالح الذي أُمر به المرسلون؛ والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

قوله تعالى: ﴿**إن كنتم إياه تعبدون**﴾؛ ﴿إن﴾ شرطية؛ وفعل الشرط: ﴿كنتم﴾؛ و﴿إياه﴾ مفعول لـ﴿تعبدون﴾ مقدم؛ وجملة: ﴿تعبدون﴾ خبر كان؛ وجواب الشرط: قيل: إنه لا يحتاج في مثل هذا التعبير إلى جواب؛ وهو الصحيح؛ وقيل: إن جوابها محذوف يفسره ما قبله؛ والتقدير: إن كنتم إياه تعبدون فاشكروا له؛ و«**العبادة**» هي التذلل لله عز وجل بالطاعة؛ وذلك بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ مأخوذة من قولهم: طريق معبَّد ـ يعني مذللاً للسالكين ـ؛ يعني: إن كنتم تعبدونه حقاً فكلوا من رزقه، واشكروا له.

---

(١) أخرجه مسلم ص٨٣٨، كتاب الزكاة، باب ١٩: قبول الصدقة من الكسب الطيب، حديث رقم ٢٣٤٦ [٦٥] ١٠١٥.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: فضيلة الإيمان، حيث وجَّه الله الخطاب إلى المؤمنين، فهم أهل لتوجيه الخطاب إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾.

٢ ـ **ومنها**: الأمر بالأكل من طيبات ما رزق الله؛ لقوله تعالى: ﴿**كلوا من طيبات ما رزقناكم**﴾؛ وهو للوجوب إن كان الهلاك، أو الضرر بترك الأكل.

٣ ـ **ومنها**: أن الخبائث لا يؤكل منها؛ لقوله تعالى: ﴿**من طيبات ما رزقناكم**﴾؛ والخبائث محرمة؛ لقوله تعالى: ﴿**ويحرم عليهم الخبائث**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن ما يحصل عليه المرء من مأكول فإنه من رزق الله؛ وليس للإنسان فيه إلا السبب فقط؛ لقوله تعالى: ﴿**ما رزقناكم**﴾ [البقرة: ٥٧].

٥ ـ **ومنها**: توجيه المرء إلى طلب الرزق من الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**ما رزقناكم**﴾؛ فإذا كان هذا الرزق من الله سبحانه وتعالى فلنطلبه منه مع فعل الأسباب التي أمرنا بها.

٦ ـ **ومنها**: وجوب الشكر لله؛ لقوله تعالى: ﴿**واشكروا لله**﴾.

٧ ـ **ومنها**: وجوب الإخلاص لله في ذلك؛ يؤخذ ذلك من اللام في قوله تعالى: ﴿**لله**﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن الشكر من تحقيق العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿**إن كنتم إياه تعبدون**﴾.

٩ ـ **ومنها**: وجوب الإخلاص لله في العبادة؛ يؤخذ ذلك من تقديم المعمول في قوله تعالى: ﴿**إياه تعبدون**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: إثبات رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده من وجهين:

أولاً: من أمره إياهم بالأكل من الطيبات؛ لأن بذلك حفظاً لصحتهم.

ثانياً: من قوله تعالى: ﴿ما رزقناكم﴾؛ فإن الرزق بلا شك من رحمة الله.

١١ ـ **ومنها**: الرد على الجبرية من قوله تعالى: ﴿كلوا﴾، و﴿اشكروا﴾، و﴿تعبدون﴾؛ كل هذه أضيفت إلى فعل العبد؛ فدل على أن للعبد فعلاً يوجه إليه الخطاب بإيجاده؛ ولو كان ليس للعبد فعل لكان توجيه الخطاب إليه بإيجاده من تكليف ما لا يطاق.

١٢ ـ **ومنها**: التنديد بمن حرموا الطيبات، كأهل الجاهلية الذين حرموا السائبة، والوصيلة، والحام.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾.

التفسير:

مناسبة هذه الآية لما قبلها واضحة؛ لأنه لما أمر بالأكل من الطيبات بين ما حرم علينا من الخبائث.

﴿١٧٣﴾ قوله تعالى: ﴿إنما حرم عليكم الميتة﴾؛ ﴿إنما﴾ أداة حصر؛ و«الحصر» إثبات الحكم في المذكور، ونفيه عما سواه؛ فالتحريم محصور في هذه الأشياء؛ والمعنى: ما حرم عليكم

إلا الميتة. . . ؛ و«**التحريم**» بمعنى المنع؛ ومعنى ﴿**حرم عليكم**﴾ أي منعكم ـ أي حرم عليكم أكلها ـ؛ والدليل أنه حرم أكلها الآية التي قبلها: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم**﴾ [البقرة: ١٧٢]؛ ثم قال تعالى: ﴿**إنما حرم عليكم الميتة**﴾؛ فكأنه قال: «كلوا» ثم استثنى فقال: ﴿**إنما حرم عليكم الميتة. . .**﴾ أي فلا تأكلوها؛ و﴿**الميتة**﴾ في اللغة ما مات حتف أنفه ـ يعني بغير فعل من الإنسان ـ؛ أما في الشرع: فهي ما مات بغير ذكاة شرعية، كالذي مات حتف أنفه؛ أو ذبح على غير اسم الله؛ أو ذبح ولم ينهر الدم؛ أو ذكاه من لا تحل تذكيته، كالمجوسي، والمرتد.

قوله تعالى: ﴿**والدم**﴾ يعني: وحرم عليكم الدم؛ و«**الدم**» معروف؛ والمراد به هنا الدم المسفوح دون الذي يبقى في اللحم، والعروق، ودم الكبد، والقلب؛ لقوله تعالى: ﴿**قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس**﴾ [الأنعام: ١٤٥].

قوله تعالى: ﴿**ولحم الخنزير**﴾ أي: وحرم عليكم لحم الخنزير؛ و«**الخنزير**» حيوان معروف قذر؛ قيل: إنه يأكل العذرات.

قوله تعالى: ﴿**وما أهلَّ به لغير الله**﴾ يعني: وحرم عليكم ما أهلَّ به لغير الله؛ و«الإهلال» هو رفع الصوت؛ ومنه الحديث: «**إذا استهل المولود ورث**»[1]؛ والمراد به هنا ما ذكر عليه اسم

---

(١) أخرجه أبو داود ص١٤٤١، كتاب الفرائض، باب ١٨: في المولود يستهل ثم يموت، حديث رقم ٢٩٢٠، وأخرجه بطريق آخر ابن ماجه ص٢٦٤٢، كتاب الفرائض، باب ١٧: إذا استهل المولود ورث، حديث رقم ٢٧٥١؛ وقال الألباني في الإرواء: سنده صحيح (٦/ ١٤٩)؛ فالحديث صحيح =

غير الله عند ذبحه مثل أن يقول: «باسم المسيح»، أو «باسم محمد»، أو «باسم جبريل»، أو «باسم اللات»، ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿**فمن اضطر**﴾: فيها قراءتان: بكسر النون؛ وضمها؛ فأما الكسر فعلى القاعدة من أنه إذا التقى ساكنان كسر الأول منهما؛ وأما الضم فمن أجل الإتباع لضمة الطاء؛ و﴿مَن﴾ هنا شرطية؛ و﴿**اضطر**﴾ فعل ماضٍ مبني لما لم يسم فاعله؛ أي ألجأته الضرورة للأكل؛ والضرورة فوق الحاجة؛ فالحاجة كمال؛ والضرورة ضرورية يكون الضرر منها.

قوله تعالى: ﴿**غير باغٍ ولا عادٍ**﴾ بنصب ﴿**غير**﴾ على الحال من نائب الفاعل في ﴿**اضطرَّ**﴾؛ و«**الباغي**» الطالب لأكل الميتة من غير ضرورة؛ و«**العادي**» المتجاوز لقدر الضرورة؛ هذا هو الراجح في تفسيرهما؛ ويؤيده قوله تعالى: ﴿**فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم**﴾ [المائدة: ٣]؛ والله سبحانه وتعالى أباح لنا الميتة بثلاثة شروط:

١ ـ الضرورة.

٢ ـ أن لا يكون مبتغياً ـ أي طالباً لها ـ.

٣ ـ أن لا يكون متجاوزاً للحد الذي تندفع به الضرورة.

وبناءً على هذا ليس له أن يأكل حتى يشبع إلا إذا كان يغلب على ظنه أنه لا يجد سواها عن قرب؛ وهذا هو الصحيح؛ ولو قيل: بأنه في هذه الحال يأكل ما يسد رمقه، ويأخذ شيئاً منها يحمله معه ـ إن اضطر إليه أكل، وإلا تركه ـ لكان قولاً جيداً.

= بشواهده [راجع الإرواء ٦/١٤٧ ـ ١٥٠، حديث رقم ١٢٠٧ والسلسلة الصحيحة للألباني ١/٢٣٣ ـ ٢٣٥، أحاديث رقم ١٥١، ١٥٢، ١٥٣].

قوله تعالى: ﴿**فلا إثم عليه**﴾: هذا جواب ﴿**مَن**﴾؛ وقرن بالفاء؛ لأن الجملة اسمية؛ وإذا كان جواب الشرط جملة اسمية وجب قرنها بالفاء؛ وقوله تعالى: ﴿**فلا إثم عليه**﴾ أي فلا عقوبة عليه، أو فلا جناح.

قوله تعالى: ﴿**إن الله غفور رحيم**﴾؛ هذا تعليل للحكم؛ فالحكم انتفاء الإثم؛ والعلة: ﴿**إن الله غفور رحيم**﴾؛ ﴿**غفور**﴾ يحتمل أن تكون صيغة مبالغة ـ وقد ورد أن من صيغ المبالغة «فعول» ـ لكثرة مغفرته سبحانه وتعالى، وكثرة من يغفر لهم؛ فالكثرة هنا واقعة في الفعل، وفي المحل؛ في الفعل: كثرة غفرانه لذنوب عباده؛ وفي المحل: كثرة المغفور لهم؛ ويحتمل أن تكون صفة مشبهة؛ و«**الغفور**» مأخوذ من الغَفْر؛ وهو الستر مع الوقاية؛ وليس الستر فقط؛ ومنه سمي «المغفر» الذي يغطى به الرأس عند الحرب؛ لأنه يتضمن الستر، والوقاية؛ ويدل لذلك قوله تعالى إذا خلا بعبده المؤمن يوم القيامة، وحاسبه: «**قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»[1].

وقوله تعالى: «**الرحيم**» صيغة مبالغة، أو صفة مشبهة من الرحمة؛ والرحمة صفة من صفات الله سبحانه وتعالى الذاتية الفعلية؛ فهي باعتبار أصل ثبوتها لله صفة ذاتية؛ وباعتبار تجدد من يرحمه الله صفة فعلية؛ ولهذا علقها الله سبحانه وتعالى بالمشيئة في قوله تعالى: ﴿**يعذب من يشاء ويرحم من يشاء**﴾ [العنكبوت: ٢١] فهي صفة حقيقية ثابتة لله عز وجل؛ وأهل التأويل ـ والأصح أن نسميهم أهل التحريف ـ يقولون: إن الرحمة غير حقيقية؛ وأن المراد

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٢٠٠.

برحمة الله إحسانه؛ أو إرادة الإحسان؛ فيفسرونها إما بالإرادة؛ وإما بالفعل؛ وهذا لا شك أنه خطأ؛ وحجتهم: أنهم يقولون: إن الرحمة رقة، ولين؛ والرقة، واللين لا تناسبان عظمة الخالق سبحانه وتعالى؛ فنقول لهم: إن هذه الرحمة رحمة المخلوق؛ أما رحمة الخالق فإنها تليق به سبحانه وتعالى؛ ولا تتضمن نقصاً؛ فهو ذو رحمة بالغة، وسلطان تام؛ فلا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

وهنا مسائل تتعلق بالآية:

١ ـ نجاسةُ الميتة حسيةٌ.

٢ ـ الذي يعيش في البر والبحر يعطى حكم البر تغليباً لجانب الحظر.

٣ ـ بالنسبة لميتة الآدمي ـ إذا اضطر إليها الإنسان ـ اختلف فيها أهل العلم ـ؛ فالمشهور عند الحنابلة أنه لا يجوز أن يأكلها ـ ولو اضطر ـ؛ وقالت الشافعية: «إنه يجوز أكلها عند الضرورة» ـ وهو الصحيح ـ.

٤ ـ كل المحرمات إذا اضطر إليها، وزالت بها الضرورة كانت مباحة؛ قلنا: «وزالت بها الضرورة» احترازاً مما لا تزول به الضرورة، كما إذا ما اضطر الإنسان إلى أكل سمّ ـ فلا يجوز أن يأكل ـ؛ لأنه لا تزول بها ضرورته؛ بل يموت به؛ ولو اضطر إلى شرب خمر لعطش لم يحل له؛ لأنه لا تزول به ضرورته؛ ولذلك لو احتاج إلى شربه لدفع لقمة غص بها حلّ له؛ لأنه تزول به ضرورته.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: تحريم الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله.

٢ ـ **ومنها**: أن التحريم والتحليل إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿**إنما حرم عليكم**﴾.

٣ ـ **ومنها**: حصر المحرمات في هذه الأشياء الأربعة: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله؛ لقوله تعالى: ﴿**إنما**﴾؛ لأنها أداة حصر؛ لكن هذا الحصر قد بُين أنه غير مقصود؛ لأن الله حرم في آية أخرى غير هذه الأشياء: حرم ما ذبح على النصب ـ وليس من هذه الأشياء ـ؛ وحرم النبي ﷺ كل ذي ناب من السباع[1]، وكل ذي مخلب من الطير[2] ـ وليس داخلاً في هذه الأشياء ـ؛ وحرم النبي ﷺ الحمر الأهلية[3] ـ وليس داخلاً في هذه الأشياء ـ؛ فيكون هذا الحصر غير مقصود بدلالة القرآن، والسنة.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: تحريم جميع الميتات؛ لقوله تعالى: ﴿**والميتة**﴾؛ و«**أل**» هذه للعموم إلا أنه يستثنى من ذلك السمك، والجراد ـ يعني ميتة البحر، والجراد ـ؛ للأحاديث الواردة في ذلك؛ والمحرم هنا هو الأكل؛ لقول النبي ﷺ في الميتة: «**إنما حرم**

---

(١) راجع البخاري ص٤٧٦، كتاب الذبائح والصيد، باب ٢٩: أكل كل ذي ناب من السباع، حديث رقم ٥٥٣٠؛ ومسلماً ص١٠٢٣، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب ٣: باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، حديث رقم ٤٩٨٨ [١٢] ١٩٣٢.

(٢) راجع مسلماً ص١٠٢٣، كتاب الصيد والذبائح...، باب ٣: تحريم أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، حديث رقم ٤٩٩٦ [١٦] ١٩٣٤.

(٣) راجع البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب ٢٨: لحوم الحمر الإنسية، حديث رقم ٥٥٢١، ومسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل لحمه من الحيوان، باب ٥: تحريم أكل لحم الحمر الإنسية، حديث رقم ٥٠٠٥.

أكلها»[١]؛ ويؤيده أن الله سبحانه وتعالى قال هنا: **﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾** [البقرة: ٥٧]، ثم قال تعالى: **﴿إنما حرم عليكم الميتة﴾**؛ لأن السياق في الأكل؛ ويدخل في تحريم أكل الميتة جميع أجزائها.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: تحريم الدم المسفوح؛ لقوله تعالى: **﴿والدم﴾**.

٦ ـ **ومنها**: تحريم لحم الخنزير؛ لقوله تعالى: **﴿ولحم الخنزير﴾**؛ وهو شامل لشحمه، وجميع أجزائه؛ لأن اللحم المضاف للحيوان يشمل جميع أجزائه؛ لا يختص به جزء دون جزء؛ اللهم إلا إذا قُرن بغيره، مثل أن يقال: «اللحم، والكبد»، أو «اللحم، والأمعاء»، فيخرج منه ما خصص.

٧ ـ **ومنها**: تحريم ما ذكر اسم غير الله عليه؛ لقوله تعالى: **﴿وما أهل به لغير الله﴾**.

٨ ـ **ومنها**: تحريم ما ذبح لغير الله ـ ولو ذكر اسم الله عليه ـ، مثل أن يقول: «بسم الله والله أكبر؛ اللهم هذا للصنم الفلاني»؛ لأنه أهل به لغير الله.

٩ ـ **ومنها**: أن الشرك قد يؤثر الخبثَ في الأعيان ـ وإن كانت نجاسته معنوية ـ؛ هذه البهيمة التي أَهل لغير الله بها نجسة خبيثة محرمة؛ والتي ذكر اسم الله عليها طيبة حلال؛ تأمل خطر

---

(١) أخرجه البخاري ص٤٧٥، كتاب الذبائح والصيد، باب ٢٨: لحوم الحمر الإنسية، حديث رقم ٥٥٢٧؛ ومسلم ص١٠٢٤، كتاب الصيد والذبائح...، باب ٥: تحريم أكل لحم الحمر الإنسية، حديث رقم ٥٠٠٧ [٢٣] ١٩٣٦.

الشرك، وأنه يتعدى من المعاني إلى المحسوسات؛ وهو جدير بأن يكون كذلك؛ لهذا قال الله عز وجل: ﴿**إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا**﴾ [التوبة: ٢٨] مع أن بدن المشرك ليس بنجس؛ لكن لقوة خبثه المعنوي، وفساد عقيدته وطويته صار مؤثراً حتى في الأمور المحسوسة.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: فضيلة الإخلاص لله.

١١ ـ **ومنها**: أن الضرورة تبيح المحظور؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه**﴾؛ ولكن هذه الضرورة تبيح المحرم بشرطين:

الشرط الأول: صدق الضرورة بحيث لا يندفع الضرر إلا بتناول المحرم.

الشرط الثاني: زوال الضرورة به حيث يندفع الضرر.

فإن كان يمكن دفع الضرورة بغيره لم يكن حلالاً، كما لو كان عنده ميتة ومذكاة، فإن الميتة لا تحل حينئذ؛ لأن الضرورة تزول بأكل المذكاة؛ ولو كان عطشان، وعنده كأس من خمر لم يحل له شربها؛ لأن ضرورته لا تزول بذلك؛ إذا لا يزيده شرب الخمر إلا عطشاً؛ ولهذا لو غص بلقمة، وليس عنده ما يدفعها به إلا كأس خمر كان شربها لدفع اللقمة حلالاً.

١٢ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات رحمة الله عز وجل؛ لأن من رحمة الله أن أباح المحَرَّمَ للعبد لدفع ضرورته.

١٣ ـ **ومنها**: أن الأعيان الخبيثة تنقلب طيبة حين يحكم الشرع بإباحتها على أحد الاحتمالين؛ فإن حل الميتة للمضطر يحتمل حالين:

الأولى: أن نقول: إن الله على كل شيء قدير؛ فالذي

جعلها خبيثة بالموت بعد أن كانت طيبة حال الحياة قادر على أن يجعلها عند الضرورة إليها طيبة، مثل ما كانت الحمير طيبة تؤكل حال حلها، ثم أصبحت بعد تحريمها خبيثة لا تؤكل؛ فالله سبحانه وتعالى هو خالق الأشياء، وخالق صفاتها، ومغيرها كيف يشاء؛ فهو قادر على أن يجعلها إذا اضطر عبده إليها طيبة.

الحال الثانية: أنها ما زالت على كونها خبيثة؛ لكنه عند الضرورة إليها يباح هذا الخبيث للضرورة؛ وتكون الضرورة واقية من مضرتها؛ فتناولها للضرورة مباح؛ وضررها المتوقع تكون الضرورة واقية منه.

والحالان بينهما فرق؛ لأنه على الحال الأولى انقلبت من الرجس إلى الطهارة؛ وعلى الحال الثانية هي على رجسيتها لكن هناك ما يقي مضرتها ـ وهو الضرورة ـ؛ وهذه الحال أقرب؛ لأنه لو كان عند الضرورة يزول خبثها لكانت طيبة تحل للمضطر، وغيره؛ ويؤيده الحس: فإن النفس كلما كانت أشد طلباً للشيء كان هضمه سريعاً، بحيث لا يتضرر به الجسم؛ وانظر إلى نفسك إذا أكلت طعاماً على طعام يتأخر هضم الأول، والثاني ـ مع ما يحصل فيه من الضرر ـ؛ لكن إذا أكلت طعاماً وأنت جائع فإنه ينهضم بسرعة؛ ويشهد لهذا ما يروى عن صهيب الرومي أنه كان في عينيه رمد؛ فجيء إلى النبي ﷺ بتمر وهو حاضر؛ فأكل منه النبي ﷺ، فأراد صهيب أن يأكل منه، فقال له النبي ﷺ: «**تأكل تمراً وبك رمد**» ـ لأن المعروف أن التمر يزيد في وجع العين ـ فقال: «**إني أمضَغ من ناحية أخرى**»[1] أي إذا

---

(١) أخرجه ابن ماجه ص٢٦٨٤، كتاب الطب، باب ٣: الحمية، حديث رقم ٣٤٤٣، وقال الألباني في صحيح ابن ماجه ٢/٣٥٣، حديث رقم ٢٧٧٦: «حسن».

كانت اليمنى هي المريضة بالرمد أمضغه على الجانب الأيسر؛ فضحك النبي ﷺ، ومكنه من أكله؛ قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «إن الحكمة في أن الرسول مكنه ـ مع أن العادة أن هذا ضرر ـ؛ لأن قوة طلب نفسه له يزول بها الضرر: ينهضم سريعاً، ويتفاعل مع الجسم، ويذهب ضرره».

١٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن من تناول المحرم بدون عذر فهو آثم؛ لقوله تعالى: ﴿**فلا إثم عليه**﴾؛ فعُلم منها أن من كان غير مضطر فعليه إثم.

١٥ ـ **ومن فوائد الآية عند بعض أهل العلم**: أن العاصي بسفره لا يترخص؛ لقوله تعالى: ﴿**غير باغ ولا عاد**﴾؛ فإنهم قالوا: إن المراد بـ«الباغي» الخارج عن الإمام؛ و«العادي» العاصي بسفره؛ وقالوا: إن العاصي بسفره؛ أو الباغي على الإمام لا يترخص بأي رخصة من رخص السفر: فلا يقصر الصلاة، ولا يمسح الخف ثلاثة أيام، ولا يأكل الميتة، ولا يفطر في رمضان؛ وهذه المسألة فيها خلاف بين أهل العلم تفصيله في كتب الفقه.

تنبيه:

قد يقال إنه يستفاد من إباحة المحرم عند الضرورة: وجوب تناوله؛ لأن المحرم لا ينتهك إلا بواجب؛ وهذه قاعدة ذهب إليها بعض أهل العلم: قال: إن المحرم إذا انتهك فهو دليل على الوجوب، مثلما قالوا في وجوب الختان: فقد أخذ بعض العلماء الوجوب من هذه القاعدة، قالوا: إن الأصل أن قطع الإنسان شيئاً من بدنه حرام؛ والختان قطع شيء من بدنه؛ ولا ينتهك المحرم إلا لشيء واجب؛ فقرروا وجوب الختان من هذه القاعدة؛ ولكنها

غير مطردة؛ ولهذا يجوز للمسافر أن يفطر في رمضان؛ والفطر انتهاك محرم مع أن الفطر ليس بواجب.

١٧ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما «**الغفور**» و«**الرحيم**»، وما تضمناه من صفة.

١٨ ـ **ومنها**: إثبات ما ذكره أهل السنة والجماعة من أن أسماء الله سبحانه وتعالى المتعدية يستفاد منها ثبوت تلك الأحكام المأخوذة منها؛ فالأسماء المتعدية تتضمن الاسم، والصفة، والأثر ـ الذي هو الحكم المترتب عليه ـ؛ والعلماء يأخذون من مثل هذه الآية ثبوت الأثر ـ وهو الحكم ـ؛ لأنه لكونه غفوراً رحيماً غفر لمن تناول هذه الميتة لضرورته، ورحمه بحلها؛ فيكون في هذا دليل واضح على أن أسماء الله عز وجل تدل على «الذات» الذي هو المسمى؛ و«الصفة»؛ و«الحكم»، كما قال بذلك أهل العلم ـ رحمهم الله ـ.

تنبيه:

ما أهل به لغير الله أنواع:

النوع الأول: أن يهل بها لغير الله فقط، مثل أن يقول: باسم جبريل، أو محمد، أو غيرهما؛ فالذبيحة حرام بنص القرآن ـ ولو ذبحها لله ـ.

النوع الثاني: أن يهل بها لله، ولغيره، مثل أن يقول: «باسم الله واسم محمد»؛ فالذبيحة حرام أيضاً؛ لأنه اجتمع مبيح، وحاظر؛ فغلب جانب الحظر.

النوع الثالث: أن يهل بها باسم الله، وينوي به التقرب، والتعظيم لغيره؛ فالذبيحة حرام أيضاً؛ لأنه شرك.

وهل يكون ذبح الذبيحة للضيف إهلالاً بها لغير الله؟

الجواب: إن قصد بها إكرام الضيف فلا يدخل بلا شك، كما لو ذبح الذبيحة لأولاده ليأكلوها؛ وإن قصد بذلك التقرب إليه، وتعظيمه تعظيم عبادة فإنه شرك، كالمذبوح على النصب تماماً، فلا يحل أكلها؛ وقد كان بعض الناس ـ والعياذ بالله ـ إذا قدم رئيسهم أو كبيرهم يذبحون بين يديه القرابين تعظيماً له ـ لا ليأكلها، ثم تترك للناس ـ؛ وهذا يكون قد ذبح على النصب؛ فلا يحل أكله ـ ولو ذكر اسم الله عليه ـ.

النوع الرابع: أن لا يهل لأحد ـ أي لم يذكر عليها اسم الله، ولا غيره؛ فالذبيحة حرام أيضاً؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه**﴾ [الأنعام: ١٢١]، ولقول النبي ﷺ: «**ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا**»(١).

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾.

التفسير:

﴿١٧٤﴾ قوله تعالى: ﴿**إن الذين يكتمون...**﴾: جملة

---

(١) أخرجه البخاري ص١٩٧، كتاب الشركة، باب ١٦: من عَدَل عشرة من الغنم بجزور في القسم، حديث رقم ٢٥٠٧، وأخرجه مسلم ص١٠٢٩، كتاب الأضاحي، باب ٤: جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر وسائر العظام، حديث رقم ٥٠٩٢ [٢٠] ١٩٦٨.

مكونة من ﴿إن﴾ الدالة على التوكيد؛ و﴿الذين﴾ اسمها؛ و﴿أولئك﴾: «أولاء» مبتدأ ثانٍ؛ وجملة: ﴿ما يأكلون﴾ خبر المبتدأ الثاني؛ والجملة من المبتدأ، والخبر خبر ﴿إن﴾.

وقوله تعالى: ﴿يكتمون ما أنزل الله﴾ أي يخفون؛ ﴿من الكتاب﴾: «أل» إما أن تكون للعهد؛ أو للجنس؛ فإن قلنا: «للعهد» فالمراد بها التوراة؛ ويكون المراد بـ﴿الذين يكتمون﴾ اليهود؛ لأنهم كتموا ما علموه من صفات النبي ﷺ؛ وإن قلنا: إن «أل» للجنس، شمل جميع الكتب: التوراة، والإنجيل، وغيرها؛ ويكون ﴿الذين يكتمون﴾ يشمل اليهود، والنصارى، وغيرهما؛ وهذا أرجح لعمومه.

وقوله تعالى: ﴿ما أنزل الله من الكتاب﴾ أي على رسله؛ فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب﴾ [الحديد: ٢٥]؛ فكل رسول فإن معه كتاباً من الله عز وجل يهدي به الناس.

قوله تعالى: ﴿ويشترون به﴾ يعني يأخذون بما أنزل الله؛ ويجوز أن يكون الضمير عائداً على الكتم؛ يعني يأخذون بهذا الكتم.

قوله تعالى: ﴿ثمناً قليلاً﴾: هذا الثمن إما المال؛ وإما الجاه، والرياسة؛ وكلاهما قليل بالنسبة لما في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾: الاستثناء هنا مفرغ؛ والإشارة للبعيد لبعد مرتبتهم، وانحطاطها، والتنفير منها.

قوله تعالى: ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ يعني لا يكلمهم تكليم رضا؛ فالنفي هنا ليس نفياً لمطلق الكلام؛ ولكنه للكلام المطلق

ـ الذي هو كلام الرضا؛ ﴿**ولا يزكيهم**﴾ أي لا يثني عليهم بخير.

قوله تعالى: ﴿**ولهم عذاب أليم**﴾؛ «فعيل» هنا بمعنى مفعِل؛ و«مؤلم» أي موجع؛ والعذاب هو النكال، والعقوبة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: وجوب نشر العلم؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الذين يكتمون**﴾؛ ويتأكد وجوب نشره إذا دعت الحاجة إليه بالسؤال عنه؛ إما بلسان الحال؛ وإما بلسان المقال.

٢ ـ **ومنها**: أن الكتب منزلة من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿**ما أنزل الله من الكتاب**﴾.

٣ ـ **ومنها**: علو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**ما أنزل الله**﴾؛ فإن لازم النزول من عنده أن يكون سبحانه وتعالى عالياً.

٤ ـ **ومنها**: أن هذا الوعيد على من جمع بين الأمرين: ﴿**يكتمون**﴾، و﴿**يشترون**﴾؛ فأما من كتم بدون اشتراء؛ أو اشترى بدون كتم فإن الحكم فيه يختلف؛ إذا كتم بدون اشتراء فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون**﴾ [البقرة: ١٥٩]؛ وهذا يدل على أن كتمان ما أنزل الله من كبائر الذنوب؛ ولكن لا يستحق ما ذُكر في الآية التي نحن بصدد تفسيرها؛ وأما الذين يشترون بما أنزل الله من الكتاب ثمناً قليلاً بدون كتمان فقد قال الله تعالى: ﴿**من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون**﴾ [هود: ١٥، ١٦].

فالناس في كتمان ما أنزل الله ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من يكتم العلم بخلاً به، ومنعاً لانتفاع الناس به.

والقسم الثاني: من يكتم العلم، ولا يبينه إلا لغرض دنيوي من مال، أو جاه، أو رئاسة، أو غير ذلك.

والقسم الثالث: من يكتم العلم بخلاً به، ولا يبينه إلا لغرض دنيوي؛ فيجمع بين الأمرين؛ وهذا شر الأقسام؛ وهو المذكور في الآية التي نحن بصدد تفسيرها؛ وقد تبين عقوبة كل واحد من هذه الأقسام فيما سبق.

أما من أظهر العلم لله، وتعلم لله، فهذا هو خير الأقسام؛ وهو القسم الرابع الذي يبين بلسانه، وحاله، وقلمه، ما أنزل الله عز وجل؛ والذي يكتم خوفاً إذا كان سيبين في موضع آخر فلا بأس؛ أما الذي يكتم مطلقاً فهذا لا يجوز؛ فيجب أن يبين ولو قُتل ـ إذا كان يتوقف بيان الحق على ذلك ـ، كما جرى لبعض أهل السنة الذين صبروا على القتل في بيانها لتعينه عليهم.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن متاع الدنيا قليل ـ ولو كثر ـ؛ لقوله تعالى: ﴿**ويشترون به ثمناً قليلاً**﴾.

٦ ـ **ومنها**: إطلاق المسبَّب على السبب؛ لقوله تعالى: ﴿**أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار**﴾ هم لا يأكلون النار؛ ولكن يأكلون المال؛ لكنه مال سبب للنار.

٧ ـ **ومنها**: إقامة العدل في الجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿**أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار**﴾؛ فجعل عقوبتهم من النار بقدر ما أكلوه من الدنيا الذي أخذوه عوضاً عن العلم.

٨ ـ **ومنها**: إثبات كلام الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا**

يكلمهم الله﴾؛ لأنه لو كان لا يتكلم لا معهم، ولا مع غيرهم، لم يكن في نفي تكليمه إياهم فائدة؛ فنفيه لتكليمه هؤلاء يدل على أنه يكلم غيرهم؛ وقد استدل الشافعي ـ رحمه الله ـ بقوله تعالى: **﴿كلا إنهم﴾** [المطففين: ١٥] أي الفجار **﴿عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾** [المطففين: ١٥] برؤية الأبرار له؛ لأنه ما حجب هؤلاء في حال السخط إلا لرؤية الأبرار في حال الرضا؛ إذ لو كان لا يُرى مطلقاً لم يكن لذكر حجب الفجار فائدة؛ وكلام الله عز وجل هو الحرف، والمعنى؛ فالله سبحانه وتعالى يتكلم بكلام بحروف، وصوت؛ وأدلة هذا، وتفصيله مذكور في كتب العقائد.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الكلام من صفات الله الفعلية المتعلقة بمشيئته؛ لقوله تعالى: **﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾**؛ لأن تخصيصه بيوم القيامة يدل على أنه يتعلق بمشيئته؛ وهذه هي الصفات الفعلية؛ لكن أصل الكلام صفة ذاتية؛ لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلماً.

١٠ ـ **ومنها**: إثبات يوم القيامة.

١١ ـ **ومنها**: أن يوم القيامة يُزَكى فيه الإنسان؛ وذلك بالثناء القولي، والفعلي؛ فإن الله يقول لعبده المؤمن حين يقرره بذنوبه: **«سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»**[1]؛ وأما الفعلي فإن علامة الثناء أنه يعطى كتابه بيمينه، ويَشهد الناسُ كلهم على أنه من المؤمنين؛ وهذه تزكية بلا شك.

١٢ ـ **ومنها**: غلظ عقوبة هؤلاء بأن الله تعالى لا يكلمهم يوم القيامة، ولا يزكيهم؛ والمراد كلام الرضا؛ وأما كلام الغضب

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٢٠٠.

فإن الله تعالى يكلم أهل النار، كما قال تعالى: ﴿**اخسئوا فيها ولا تكلمون**﴾.

١٣ ـ **ومنها**: إثبات الجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿**ولهم عذاب أليم**﴾.

١٤ ـ **ومنها**: أن عذاب هؤلاء الكافرين عذاب مؤلم ألماً نفسياً، وألماً جسمانياً؛ فأما الألم النفسي فدليله قوله تعالى: ﴿**قال اخسئوا فيها ولا تكلمون**﴾؛ فهذا من أبلغ ما يكون من الإذلال الذي به الألم النفسي؛ وأما الألم البدني فدليله قول الله تعالى: ﴿**كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً**﴾ [النساء: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿**وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم**﴾ [محمد: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿**يصب من فوق رؤوسهم الحميم * يصهر به ما في بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق**﴾ [الحجر: ٢١، ٢٢].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾.

التفسير:

﴿١٧٥﴾ قوله تعالى: ﴿**أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى**﴾: المشار إليهم: ﴿**الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً**﴾ [البقرة: ١٧٤]؛ و﴿**اشتروا**﴾ بمعنى

اختاروا؛ ولكنه عبر بهذا؛ لأن المشتري طالب راغب في السلعة؛ فكأن هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ طالبون راغبون في الضلالة بمنزلة المشتري؛ و﴿**الضلالة**﴾ هنا كتمان العلم؛ فإنه ضلال؛ وأما «**الهدى**» فهو بيان العلم ونشره.

وقوله تعالى: ﴿**بالهدى**﴾: الباء هنا للعوض؛ ويقول الفقهاء: إن ما دخلت عليه الباء هو الثمن؛ سواء كان نقداً، أم عيناً غير نقد؛ فإذا قلت: اشتريت منك ديناراً بثوب، فالثمن الثوب؛ وقال بعض الفقهاء: الثمن هو النقد مطلقاً؛ والصحيح الأول؛ والثمن الذي دفعه هؤلاء هو الهدى؛ فهم دفعوا الهدى ـ والعياذ بالله ـ لأخذ الضلالة.

قوله تعالى: ﴿**والعذاب بالمغفرة**﴾؛ فهم أيضاً اشتروا العذاب بالمغفرة؛ ولو أنهم بينوا، وأظهروا العلم لَجُوزوا بالمغفرة؛ ولكنهم كتموا، فجُوزوا بالعذاب.

قوله تعالى: ﴿**فما أصبرهم على النار**﴾؛ «**ما**» تعجبية مبتدأ؛ وجملة ﴿**أصبرهم**﴾ خبرها؛ والمعنى: شيء عظيم أصبرهم؛ أو ما أعظم صبرهم على النار؛ وهذا التعجب يتوجه عليه سؤالان:

السؤال الأول: أهو تعجب من الله أم تعجيب منه؛ بمعنى: أيرشدنا إلى أن نتعجب ـ وليس هو موصوفاً بالعجب؛ أو أنه من الله ـ؟

السؤال الثاني: أن قوله: ﴿**فما أصبرهم**﴾ يقتضي أنهم يصبرون، ويتحملون مع أنهم لا يتحملون، ولا يطيقون؛ ولهذا يقولون لخزنة جهنم: ﴿**ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب**﴾ [غافر: ٤٩]؛ وينادون: ﴿**يا مالك ليقض علينا ربك**﴾ [الزخرف: ٧٧] أي ليهلكنا؛ ومن قال هكذا فليس بصابر؟

والجواب عن السؤال الأول: ـ وهو أهو تعجب، أو تعجيب ـ: فقد اختلف فيه المفسرون؛ فمنهم من رأى أنه تعجب من الله عز وجل؛ لأنه المتكلم به هو الله؛ والكلام ينسب إلى من تكلم به؛ ولا مانع من ذلك لا عقلاً، ولا سمعاً ـ أي لا مانع يمنع من أن الله سبحانه وتعالى يعجب؛ وقد ثبت لله العجب بالكتاب، والسنة؛ فقال الله تعالى في القرآن: ﴿**بل عجبتُ ويسخرون**﴾ [الصافات: ١٢] بضم التاء؛ وهذه القراءة سبعية ثابتة عن النبي ﷺ؛ والتاء فاعل يعود على الله سبحانه وتعالى المتكلم؛ وأما السنة ففي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**عجب ربنا من قنوط عباده وقرب غِيَرِه**»[1]؛ وعلى هذا فالعجب لله ثابت بالكتاب، والسنة؛ فلا مانع من أن الله يعجب من صبرهم؛ فإذا قال قائل: العجب يدل على أن المتعجب مباغَت بما تعجب منه؛ وهذا يستلزم أن لا يكون عالماً بالأمر من قبل ـ وهو محال على الله ـ؟

فالجواب: أن سبب العجب لا يختص بما ذكر؛ بل ربما يكون سببه الإنكار على الفاعل، حيث خرج عن نظائره، كما تقول: «عجبت من قوم جحدوا بآيات الله مع بيانها، وظهورها»؛

---

(١) أخرجه أحمد ٤/١١، حديث رقم ١٦٢٨٨، وابن ماجه ص٢٤٨٨، كتاب السنة، باب ١٣: فيما أنكرت الجهمية، حديث رقم ١٨١، وكلاهما بلفظ (ضحك ربنا...)؛ وأما لفظ (عجب ربنا) فقد ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية وقال: حديث حسن، وكذلك ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة...**﴾.

وهو بهذا المعنى قريب من معنى التوبيخ، واللوم؛ ومن المفسرين من قال: إن المراد بالعجب: التعجيب؛ كأنه قال: اعجب أيها المخاطب من صبرهم على النار؛ وهذا وإن كان له وجه لكنه خلاف ظاهر الآية.

وأما الجواب عن السؤال الثاني:ـ وهو كيف يُتعجب من صبرهم مع أنهم لم يصبروا على النار ـ فقال أهل العلم: إنهم لما صبروا على ما كان سبباً لها من كتمان العلم صاروا كأنهم صبروا عليها، مثلما يقال للرجل الذي يفعل أشياء ينتقد فيها: ما أصبرك على لوم الناس لك مع أنه ربما لم يلوموه أصلاً؛ لكن فعل ما يقتضي اللوم؛ يصير معنى: ﴿**ما أصبرهم على النار**﴾ أنهم لما كانوا يفعلون هذه الأفعال الموجبة للنار صاروا كأنهم يصبرون على النار؛ لأن الجزاء من جنس العمل، كما تفيده الآيات الكثيرة، فيعبر بالعمل عن الجزاء؛ لأنه سببه المترتب عليه؛ و﴿**النار**﴾ هي الدار التي أعدها الله سبحانه وتعالى للكافرين والظالمين؛ لكن الظلم إن كان ظلم الكفر فهم مخلدون فيها؛ وإن كان ظلماً دون الكفر فإنهم مستحقون للعذاب بحسب حالهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن سبب ضلال هؤلاء وكتمانهم الحق أنهم لم يريدوا الهدى؛ وإنما أرادوا الضلال والفساد ـ والعياذ بالله ـ؛ لقوله تعالى: ﴿**أولئك الذين اشتروا**. . .﴾ إلخ.

٢ ـ **ومنها**: الرد على الجبرية؛ لإضافة الفعل إلى الفاعل.

٣ ـ **ومنها**: أن كتمان العلم أو بيانه لغرض من الدنيا من

الضلال؛ وذلك؛ لأنه جاهل بما يجب على العالم في علمه من النشر، والتبليغ، ولأنه جهل على نفسه، حيث منعها هذا الخير العظيم في نشر العلم؛ لأن من أفضل الأعمال نشر العلم؛ فإنه ـ أعني العلم ـ ليس كالمال؛ المال يفنى؛ والعلم يبقى؛ أرأيت الآن في الصحابة رضي الله عنهم أناس أغنياء أكثر غنًى من أبي هريرة رضي الله عنه وذِكر أبي هريرة بين الخاص والعام الآن أكثر، والثواب الذي يأتيه مما روى عن النبي ﷺ من أحاديث أكثر وأعظم؛ ثم أرأيت منزلة الإمام أحمد بن حنبل، ونحوه من الأئمة مع من في عهدهم من الخلفاء، والوزراء، والأغنياء، هل بقي ذكرهم، كما بقي ذكر هؤلاء الأئمة؟!! فكتمان العلم لا شك أنه ضلالة في الإنسان، وجهالة.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن عقوبة الله لهم ليست ظلماً منه؛ بل هم الذين تسببوا لها، حيث اشتروا الضلالة بالهدى؛ والله عز وجل ليس بظلام للعبيد.

٥ ـ **ومنها**: أن نشر العلم، وإظهاره، وبيانه من أسباب المغفرة؛ لأنه جعل لهم العذاب في مقابلة الكتمان، واختيارهم العذاب على المغفرة، والضلالة على الهدى؛ فدل ذلك على أن نشر العلم من أسباب مغفرة الذنوب؛ كما أن الذنوب أيضاً تحول بين الإنسان، والعلم، فكذلك كتم العلم يحول بين الإنسان، والمغفرة؛ وقد استدل بعض العلماء بأن الذنوب تحول بين الإنسان، والعلم بقوله تعالى: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً * واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً**﴾ [النساء: ١٠٥، ١٠٦]؛ فقال

تعالى: ﴿**لتحكم**﴾، ثم قال تعالى: ﴿**واستغفر الله**﴾؛ فدل هذا على أن الاستغفار من أسباب فتح العلم ـ وهو ظاهر ـ؛ وبقوله تعالى: ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به**﴾ [المائدة: ١٣]؛ لأن الذنوب ـ والعياذ بالله ـ رين على القلوب، كما قال تعالى: ﴿**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾ [المطففين: ١٤]؛ فإذا كانت ريناً عليها فإن الاستغفار يمحو هذا الرين، وتبقى القلوب نيرة مدركة واعية.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات العجب لله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿**فما أصبرهم على النار**﴾ ـ على أحد الاحتمالين ـ؛ وهو من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته؛ وكل صفة من صفات الله تتعلق بمشيئته فهي من الصفات الفعلية.

فإذا قال قائل: ما دليلكم على أن العجب يتعلق بمشيئته؟

فالجواب: أن له سبباً؛ وكل ما له سبب فإنه متعلق بالمشيئة؛ لأن وقوع السبب بمشيئة الله؛ فيكون ما يتفرع عنه كذلك بمشيئة الله.

٧ ـ **ومنها**: توبيخ هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله؛ لقوله تعالى: ﴿**فما أصبرهم على النار**﴾؛ وكان الأجدر بهم أن يتخذوا وقاية من النار لا وسيلة إليها.

٨ ـ **ومنها**: الإشارة إلى شدة عذابهم، كما يقال في شخص أصيب بمرض عظيم: «ما أصبره على هذا المرض»، أي أنه مرض عظيم يؤدي إلى التعجب من صبر المريض عليه.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾.

التفسير:

﴿١٧٦﴾ قوله تعالى: ﴿**ذلك بأن الله نزل الكتاب**﴾: المشار إليه ما ذكر من جزائهم؛ أي ذلك الجزاء الذي يجازون به؛ ﴿**بأن**﴾: الباء هنا للسببية؛ والرابط هنا بين السبب، والمسبَّب واضح جداً؛ لأنه ما دام الكتاب نازلاً بالحق فمن اللائق بهذا الكتاب المنزل بالحق أن لا يُكتم؛ الحق يجب أن يبين؛ فلما أخفاه هؤلاء استحقوا هذا العذاب؛ ومعنى: ﴿**نزل الكتاب بالحق**﴾ أن ما نزل به حق، وأنه نازل من عند الله حقاً؛ و﴿**الكتاب**﴾ المراد به الجنس: القرآن، والتوراة، والإنجيل، وغيرها من الكتب التي أنزلها الله.

قوله تعالى: ﴿**وإن الذين اختلفوا في الكتاب**﴾ بكسر همزة ﴿**إن**﴾ لوقوع اللام في خبرها؛ أي اختلفوا في الكتاب الذي نزله الله عز وجل بحق؛ وهذا الاختلاف يشمل الاختلاف في أصله: فمنهم من آمن؛ ومنهم من كفر، والاختلافَ فيما بينهم أي فيما بين أحد الطرفين: فمنهم من استقام في تأويله؛ ومنهم من حرف في تأويله على غير مراد الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿**لفي شقاق بعيد**﴾ أي: لفي جانب بعيد عن الحق؛ وهذا البعد يختلف: فمنهم من يكون بعيداً جداً؛ ومنهم من يكون دون ذلك.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إثبات العلل، والأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿**ذلك بأن**﴾؛ والباء للسببية؛ وقد ذكر بعض أهل العلم أن في القرآن أكثر من مائة موضع كلها تفيد إثبات العلة؛ خلافاً للجبرية ـ الذين يقولون: «إن فعل الله عز وجل ليس لحكمة؛ بل لمجرد المشيئة».

٢ ـ **ومنها**: الثناء على كتب الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**بأن الله نزَّل الكتاب بالحق**﴾.

٣ ـ **ومنها**: ثبوت العلو لله عزّ وجل ؛ لقوله تعالى: ﴿**بأن الله نزَّل الكتاب**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن المختلفين في كتب الله لا يزالون في شقاق بعيد لا تتقارب أقوالهم ـ وإن تقاربت أبدانهم.

٥ ـ **ومنها**: أن الاختلاف ليس رحمة؛ بل إنه شقاق، وبلاء؛ وبه نعرف أن ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**اختلاف أمتي رحمة**»[1] لا صحة له؛ وليس الاختلاف برحمة؛ بل قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك**﴾ [هود: ١١٨] أي فإنهم ليسوا مختلفين؛ نعم؛ الاختلاف رحمة بمعنى: أن من خالف الحق لاجتهاد فإنه مرحوم بعفو الله عنه؛ فالمجتهد من هذه الأمة إن أصاب فله أجران؛ وإن أخطأ فله أجر واحد؛ والخطأ معفو عنه؛ وأما أن يقال هكذا على الإطلاق: «إن الاختلاف رحمة» فهذا مقتضاه أن نسعى إلى الاختلاف؛ لأنه هو

---

(١) قال الألباني في السلسلة الضعيفة: لا أصل له، ولقد جهد المحدثون في أن يقفوا له على سند، فلم يوفقوا (١/ ٧٦ حديث رقم ٥٧).

سبب الرحمة على مقتضى زعم هذا المروي!!! فالصواب أن الاختلاف شر.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

التفسير:

﴿١٧٧﴾ قوله تعالى: ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب**﴾: في هذه الآية قراءتان: ﴿**ليس البِرَّ**﴾بفتح الراء؛ و﴿**ليس البِرُّ**﴾ بضم الراء؛ فأما على قراءة الرفع فإن ﴿**البرُّ**﴾ تكون اسم ﴿**ليس**﴾، و﴿**أن تولوا**﴾ خبرها؛ وأما على قراءة النصب فتكون ﴿**البرَّ**﴾ خبر ﴿**ليس**﴾، و﴿**أن تولوا**﴾ اسمها مؤخراً؛ يعني تقدير الكلام على الأول: ليس البرُّ توليتَكم وجوهكم؛ والتقدير على الثاني: ليس البرَّ توليتُكم ـ بالرفع.

و«**البر**» في الأصل الخير الكثير؛ ومنه سمي «البَرّ» لسعته، واتساعه؛ ومنه «البَرّ» اسم من أسماء الله، كما قال تعالى: ﴿**إنّا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم**﴾ [الطور: ٢٨]؛ ومعنى الآية: ليس الخير، أو كثرة الخير، والبركة أن يولي الإنسان

وجهه قبل المشرق ـ أي جهة المشرق؛ أي جهة المغرب.

وهذه الآية نزلت توطئة لتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ فبين الله عز وجل أنه ليس البر أن يتوجه الإنسان إلى هذا، أو هذا؛ ليس هذا هو الشأن؛ الشأن إنما هو في الإيمان بالله... إلخ؛ أما الاتجاه فإنه لا يكون خيراً إلا إذا كان بأمر الله؛ ولا يكون شراً إلا إذا كان مخالفاً لأمر الله؛ فأيّ جهة توجهتم إليها بأمر الله فهو البر؛ وجاءت الآية بذكر المشرق، والمغرب؛ لأن أظهر، وأبين الجهات هي جهة المشرق، والمغرب.

قوله تعالى: ﴿ولكن البر﴾: فيها قراءاتان؛ الأولى: ﴿ولكنِ البرُّ﴾ بالرفع؛ وعلى هذا تكون ﴿لكن﴾ مهملة غير عاملة؛ والقراءة الثانية التي في المصحف: ﴿ولكنَّ البرَّ﴾ بتشديد نون ﴿لكنَّ﴾، فتكون عاملة.

قوله تعالى: ﴿ولكن البر من آمن بالله...﴾: ﴿البر﴾ عمل؛ و﴿من آمن﴾ عامل؛ فكيف يصح أن يكون العامل خبراً عن العمل؟ في هذا أوجه:

الوجه الأول: أن الآية على تقدير مضاف؛ والتقدير: ولكن البر بر من آمن بالله... إلخ.

الوجه الثاني: أن الآية على سبيل المبالغة؛ وليس فيها تقدير مضاف، كأنه جعل المؤمن هو نفس البر، مثلما يقال: «رجل عدل» بمعنى أنه عادل.

الوجه الثالث: أن نجعل ﴿البر﴾ بمعنى البارّ؛ فيكون مصدراً بمعنى اسم الفاعل؛ أي: ولكن البارَّ حقيقة القائمَ بالبر من آمن بالله...

وقوله تعالى: ﴿من آمن بالله﴾؛ تقدم أن «الإيمان» في اللغة بمعنى التصديق؛ لكنه إذا قرن بالباء صار تصديقاً متضمناً للطمأنية، والثبات، والقرار؛ فليس مجرد تصديق؛ ولو كان تصديقاً مطلقاً لكان يقال: آمنه ـ أي صدقه؛ لكن «آمن به» مضمنة معنى الطمأنينة، والاستقرار لهذا الشيء؛ وإذا عديت باللام ـ مثل: ﴿فآمن له لوط﴾ [العنكبوت: ٢٦] ـ فمعناه أنها تضمنت معنى الاستسلام والانقياد.

قوله تعالى: ﴿واليوم الآخر﴾: هو يوم القيامة؛ وسمي آخراً؛ لأنه ليس بعده يوم.

قوله تعالى: ﴿والملائكة﴾ جمع ملَك؛ وهم عالَم غيبي خلقهم الله سبحانه وتعالى من نور، وذللهم لعبادته، وهم لا يستكبرون عن عبادته، ولا يستحسرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وهم أجسام ذوو عقول؛ لقوله تعالى: ﴿**جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة**﴾ [البقرة: ٣٠]؛ ولقوله تعالى في وصف جبريل: ﴿**إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين**﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١].

قوله تعالى: ﴿والكتاب﴾؛ المراد به الجنس؛ فيشمل كل كتاب أنزله الله عز وجل على كل رسول.

قوله تعالى: ﴿والنبيين﴾ يدخل فيهم الرسل؛ لأن كل رسول فهو نبي، ولا عكس: قال الله تعالى: ﴿**إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده**﴾ [النساء: ١٦٣].

قوله تعالى: ﴿وآتى﴾ بالمد؛ بمعنى أعطى؛ إذاً هي تنصب مفعولين؛ المفعول الأول: ﴿المال﴾؛ والمفعول الثاني: قوله

تعالى: ﴿ذوي القربى﴾، وما عطف عليه؛ و﴿المال﴾: كل عين مباحة النفع سواء كان هذا المال نقداً، أو ثياباً، أو طعاماً، أو عقاراً، أو أيّ شيء.

قوله تعالى: ﴿على حبه﴾ حال من فاعل ﴿آتى﴾؛ يعني حال كونه محباً له لحاجته إليه، كالجائع؛ أو لتعلق نفسه به، مثل أن يعجبه جماله، أو قوته، أو ما أشبه ذلك.

قوله تعالى: ﴿ذوي القربى﴾ أي أصحاب القرابة؛ والمراد قرابة المعطي؛ وبدأ بهم قبل كل الأصناف؛ لأن حقهم آكد؛ وقد ذكروا أن القرابة ما جمع بينك وبينهم الجد الرابع.

قوله تعالى: ﴿واليتامى﴾ جمع يتيم؛ وهو من مات أبوه قبل بلوغه من ذكر، أو أنثى؛ فأما من ماتت أمه فليس بيتيم؛ ومن بلغ فليس بيتيم؛ وسمي يتيماً من اليتم؛ وهو الانفراد؛ ولهذا إذا صارت القصيدة جميلة، أو قوية يقولون: هذه الدرة اليتيمة ـ يعني أنها منفردة ليس لها نظير.

قوله تعالى: ﴿والمساكين﴾ جمع مسكين؛ وهو الفقير؛ سمي بذلك لأن الفقر أسكنه، وأذله؛ والفقر ـ أعاذنا الله منه ـ لا يجعل الإنسان يتكلم بطلاقة؛ هذا في الغالب؛ لأنه يرى نفسه أنه ليس على المستوى الذي يمكنه من التكلم؛ ويرى نفسه أنه لا كلمة له، كما قال النبي ﷺ: «**رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**»[1].

واعلم أن الفقير بمعنى المسكين؛ والمسكين بمعنى الفقير؛

---

(١) أخرجه مسلم ص١١٣٥، كتاب البر والصلة، باب ٤٠: فضل الضعفاء والخاملين، حديث رقم ٦٦٨٢ [١٣٨] ٢٦٢٢.

إلا إذا اجتمعا صار لكل واحد منهما معنى غير الآخر؛ فالفقير أشد حاجة، كما في آية الصدقة: ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين...**﴾ [التوبة: ٦٠]؛ لأن الله بدأ به؛ ويُبدأ بالأحق فالأحق، والأحوج فالأحوج في مقام الإعطاء؛ ويجمعهما ـ أعني الفقير، والمسكين ـ أن كلاً منهما ليس عنده ما يكفيه وعائلته من مطعم، ومشرب، وملبس، ومسكن، ومنكح، ومركوب.

قوله تعالى: ﴿**وابن السبيل**﴾؛ «السبيل» بمعنى الطريق؛ والمراد بـ ﴿**ابن السبيل**﴾ الملازم للطريق؛ وهو المسافر؛ والمسافر يكون في حاجة غالباً، فيحتاج إلى من يعطيه المال؛ ولهذا جعل الله له حظاً من الزكاة؛ فابن السبيل هو المسافر؛ وزاد العلماء قيداً؛ قالوا: المسافر المنقطع به السفر ـ أي انقطع به السفر؛ فليس معه ما يوصله إلى بلده؛ لأنه إذا كان معه ما يوصله إلى بلده فليس بحاجة؛ فهو والمقيم على حدٍّ سواء؛ فلا تتحقق حاجته إلا إذا انقطع به السفر.

قوله تعالى: ﴿**والسائلين**﴾ جمع سائل؛ وهو المستجدي الذي يطلب أن تعطيه مالاً؛ وإنما كان إعطاؤه من البر؛ لأن معطيه يتصف بصفة الكرماء؛ ولذلك كان النبي ﷺ لا يُسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه؛ والسائل نوعان؛ سائل بلسان المقال: وهو الذي يقول للمسؤول: أعطني كذا؛ وسائل بلسان الحال: وهو الذي يُعَرِّض بالسؤال، ولا يصرح به، مثل أن يأتي على حال تستدعي إعطاءه.

قوله تعالى: ﴿**وفي الرقاب**﴾ أي في إعتاق الرقاب، أو فكاكها من الأسر.

قوله تعالى: ﴿**وأقام الصلاة**﴾ هذه معطوفة على ﴿**آمن**﴾ التي هي صلة الموصول؛ فيكون التقدير: ومن أقام الصلاة؛ و﴿**الصلاة**﴾ المراد بها الفرض، والنفل؛ وإقامتها الإتيان بها مستقيمة؛ لأن أقام الشيء يعني جعله قائماً مستقيماً؛ وليس المراد بإقامة الصلاة الإعلام بالقيام إليها؛ واعلم أن «الصلاة» من الكلمات التي نقلها الشارع عن معناها اللغوي إلى معنى شرعي؛ فمعناها في اللغة: الدعاء، كما قال تعالى: ﴿**وصلّ عليهم**﴾ [التوبة: ١٠٣] أي ادْعُ لهم بالصلاة، فقل: صلى الله عليكم؛ ولكنها في الشرع: عبادة ذات أقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير، ومختتمة بالتسليم.

قوله تعالى: ﴿**وآتىٰ الزكاة**﴾ أي أعطى الزكاة مستحقها؛ و«الزكاة» أيضاً من الكلمات التي نقلها الشرع عن معناها اللغوي إلى معنى شرعي؛ فالزكاة في اللغة من زكا يزكو ـ أي نما، وزاد؛ وبمعنى الصلاح؛ ومنه قوله تعالى: ﴿**قد أفلح من زكاها**﴾ [الشمس: ٩] أي أصلحها، وقومها؛ لكن في الشرع «الزكاة» هي التعبد ببذل مال واجب في مال مخصوص لطائفة مخصوصة؛ وسميت زكاة؛ لأنها تنمي الخُلق وتنمي المال، وتنمي الثواب؛ **تنمي الخُلُق** بأن يكون الإنسان بها كريماً من أهل البذل، والجود، والإحسان؛ وهذا لا شك من أفضل الأخلاق شرعاً، وعادة؛ **وتنمي المال** بالبركة، والحماية، والحفظ؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال**»[1]؛ **وتزكي الثواب**، كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم ص١١٣٠، كتاب البر والصلة، باب ١٩: استحباب العفو والتواضع، حديث رقم ٦٥٩٢ [٦٩] ٢٥٨٨.

﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾ [البقرة: ٢٦١]؛ وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب؛ فإن الله تعالى يأخذها بيمنيه، فيربيها، كما يربي الإنسان فلوه حتى تكون مثل الجبل**»(١).

قوله تعالى: **﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾**؛ **﴿إذا﴾** هنا مجردة من الشرطية؛ فهي ظرفية محضة ـ يعني: الموفون بعهدهم وقت العهد؛ أي في الحال التي يعاهدون فيها؛ فإذا عاهدوا وفوا.

قوله تعالى: **﴿والصابرين﴾**: فيه إشكال من حيث الإعراب؛ لأن الذي قبله مرفوع؛ وهو غير مرفوع؛ يقول بعض العلماء؛ إنه منصوب بفعل محذوف، والتقدير: وأخص الصابرين؛ والبلاغة من هذا أنه إذا تغير أسلوب الكلام كان ذلك أدعى للانتباه؛ فإن الإنسان إذا قرأ الكلام على نسق واحد لم يحصل له انتباه، كما يحصل عند تغير السياق.

و«**الصبر**» ليس بذل شيء؛ ولكنه تحمل شيء؛ وما سبق كله بذل شيء؛ فهو مختلف من حيث النوع: **﴿من آمن... وأقام... وآتى...﴾** كل هذه أفعال؛ لكن **﴿الصابرين﴾** ليس فعلاً؛ ولكنه تحمُّل.

و«الصبر» في اللغة الحبس؛ ومنه قولهم: فلان قُتل صبراً

---

(١) أخرجه البخاري ص١١١، كتاب الزكاة، باب ٨: الصدقة من كسب طيب...، حديث رقم ١٤١٠، وأخرجه مسلم ص٨٣٨، كتاب الزكاة، باب ١٩: قبول الصدقة من الكسب الطيب، حديث رقم ٢٣٤٣ [٦٤] ١٠١٤.

ـ أي حبساً؛ وأما في الشرع فإنه حبس النفس على طاعة الله، أو عن معصيته، أو على أقداره المؤلمة.

قوله تعالى: ﴿في البأساء والضراء وحين البأس﴾: ﴿البأساء﴾ شدة الفقر؛ ومنه «البؤس» يعني الفقر؛ و﴿الضراء﴾: المرض؛ و﴿حين البأس﴾: شدة القتل؛ فهم صابرون في أمور لهم فيها طاقة، وأمور لا طاقة لهم بها؛ ﴿في البأساء﴾ يعني: في حال الفقر؛ لا يحملهم فقرهم على الطمع في أموال الناس، ولا يشكون أمرهم لغير الله؛ بل يصبرون عن المعصية: لا يسرقون، ولا يخونون، ولا يكذبون، ولا يغشون؛ ولا تحملهم الضراء ـ المرض، وما يضر أبدانهم ـ على أن يتسخطوا من قضاء الله وقدره؛ بل هم دائماً يقولون بألسنتهم وقلوبهم: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً؛ كذلك حين البأس يصبرون، ولا يولون الأدبار ـ وهذا صبر على الطاعة؛ فتضمنت هذه الآية: ﴿الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾ الصبر بأنواعه الثلاثة: الصبر عن المعصية؛ وعلى الأقدار المؤلمة؛ وعلى الطاعة؛ والترتيب فيها للانتقال من الأسهل إلى الأشد.

قوله تعالى: ﴿أولئك الذين صدقوا﴾؛ هذه شهادة من الله عز وجل؛ وهي أعلى شهادة؛ لأنها شهادة من أعظم شاهد سبحانه وتعالى؛ والمشار إليهم كل من اتصف بهذه الصفات؛ والإشارة بالبعيد لما هو قريب لأجل علو مرتبتهم.

وقوله تعالى: ﴿الذين صدقوا﴾ أي صدقوا الله، وصدقوا عباده بوفائهم بالعهد، وإيتاء الزكاة، وغير ذلك؛ والصدق هو مطابقة الشيء للواقع؛ فالمخبر بشيء إذا كان خبره موافقاً للواقع صار

صادقاً؛ والعامل الذي يعمل بالطاعة إذا كانت صادرة عن إخلاص، واتباع صار عمله صادقاً؛ لأنه ينبئ عما في قلبه إنباءً صادقاً.

قوله تعالى: ﴿**وأولئك هم المتقون**﴾ أي القائمون بالتقوى؛ و«**التقوى**» هي اتخاذ الوقاية من عذاب الله عز وجل بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ وهذا أجمع ما قيل في تعريف التقوى؛ وتأمل كيف جاءت هذه الجملة بالجملة الاسمية المؤكدة؛ الجملة اسمية لدلالتها على الثبوت، والاستمرار؛ لأن الجملة الاسمية تدل على أنها صفة ملازمة للمتصف بها؛ وهذه الجملة مؤكدة بضمير الفصل: ﴿**هم**﴾؛ لأن ضمير الفصل له ثلاث فوائد سبق ذكرها[(١)].

وقوله تعالى: ﴿**وأولئك هم المتقون**﴾: هؤلاء جمعوا بين البر والتقوى؛ البر: بالصدق؛ والتقوى: بهذا الوصف: ﴿**أولئك هم المتقون**﴾؛ وإنما قلنا: إن الصدق بر؛ لقول النبي ﷺ: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر؛ وإن البر يهدي إلى الجنة**»[(٢)]؛ فجمعوا بين البر والتقوى؛ فهذا ما أمر الله به في قوله تعالى: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى**﴾ [المائدة: ٢]؛ وكرر الإشارة مرة ثانية من باب التأكيد، والمدح، والثناء ـ كأن كل جملة من هاتين الجملتين مستقلة.

---

(١) انظر ١/ ٣٢.

(٢) أخرجه البخاري ص٥١٤ ـ ٥١٥، كتاب الأدب، باب ٦٩، قول الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾، وما ينهى عن الكذب، حديث رقم ٦٠٩٤؛ وأخرجه مسلم ص١١٣٣، كتاب البر والصلة، باب ٢٩: قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، حديث رقم ٦٦٣٩ [١٠٥] ٢٦٠٧، واللفظ لمسلم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن البر حقيقة هو الإيمان بالله... إلخ؛ والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور: الإيمان بوجوده؛ والإيمان بربوبيته؛ والإيمان بألوهيته؛ والإيمان بأسمائه، وصفاته:

أما الإيمان بوجوده: فإنه دل عليه الشرع، والحس، والعقل، والفطرة:

أ ـ **دلالة الشرع على وجوده سبحانه وتعالى** واضحة من إرسال الرسل، وإنزال الكتب.

ب ـ **دلالة الحس**: فإن الله سبحانه وتعالى يدعى، ويجيب؛ وهذا دليل حسي على وجوده ـ تبارك وتعالى، كما في سورة الأنبياء، وغيرها من إجابة دعوة الرسل فور دعائهم، كقوله تعالى: ﴿**ونوحاً إذا نادى من قبل فاستجبنا له**﴾ [الأنبياء: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿**وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له**﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

ج ـ **دلالة العقل**: أنّ ما من حادث إلا وله محدث، كما قال عز وجل: ﴿**أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون**﴾ [الطور: ٣٥]؛ هذا الكون العظيم بما فيه من النظام، والتغيرات، والأحداث لا بد أن يكون له موجِد مُحدِث يحدث هذه الأشياء ـ وهو الله عز وجل؛ إذ لا يمكن أن تَحدث بنفسها؛ لأنها قبل الوجود عدم؛ والعدم ـ كاسمه ـ لا وجود له؛ ولا يمكن أن يحدثها مخلوق لِما فيها من العظم والعبر.

د ـ **دلالة الفطرة**: فإن الإنسان لو ترك وفطرته لكان مؤمناً بالله؛ والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿**تسبح له السموات السبع والأرض**

ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ حتى غير الإنسان مفطور على معرفة الرب عز وجل.

وأما الإيمان بربوبيته: فهو الإيمان بأنه وحده الخالق لهذا الكون المالك له المدبر له؛ وقد دل عليه ما سبق من الأدلة على وجوده؛ وقد أقر بذلك المشركون، كما في قوله تعالى: **﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله﴾**؛ إلى غيرها من الآيات الكثيرة.

وأما الإيمان بألوهيته: فهو الإيمان بأنه لا إله في الوجود حق إلا الله عز وجل وكل ما سواه من الآلهة باطلة، كما قال تعالى: **﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير﴾** [الحج: ٦٢]، فالله سبحانه وتعالى هو الإله الحق.

وأما الإيمان بأسمائه، وصفاته: فهو الإيمان بما أثبته الله سبحانه وتعالى لنفسه، أو أثبتته له رسله من الأسماء والصفات إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل على حد قوله تعالى: **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾** [الشورى: ١١]؛ ودليل ذلك قوله تعالى: **﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾** [الأعراف: ١٨٠]؛ وقوله تعالى: **﴿ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم﴾** [النحل: ٦٠] ووجه الدلالة: تقديم الخبر في الآيتين؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** أن طاعة الله عز وجل من البر.

٣ ـ **ومنها:** أن الإيمان باليوم الآخر من البر؛ ويشمل كل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، كفتنة القبر، ونعيمه، وعذابه، وقيام الساعة، والبعث، والحساب، والصراط، والميزان، والكتب باليمين، أو الشمال، والجنة، وما ذُكر من

نعيمها، والنار، وما ذكر من عذابها، وغير ذلك مما جاء في الكتاب، والسنة عن هذه الأمور مفصلاً أحياناً، ومجملاً أحياناً.

والإيمان باليوم الآخر يستلزم الاستعداد له بالعمل الصالح؛ ولهذا يقرن الله سبحانه وتعالى الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به تعالى كثيراً؛ لأن نتيجة هذا الإيمان أن يقوم العبد بطاعته سبحانه وتعالى؛ فالذي يقول: إنه مؤمن باليوم الآخرة، ولكن لا يستعد له فدعواه ناقصة؛ ومقدار نقصها بمقدار ما خالف في الاستعداد؛ كما أنه لو قيل مثلاً لإنسان عنده حَبٌّ: إنه سينزل اليوم مطر، فظلَّل الحَبّ؛ معلوم أن الذي لا يؤمن بهذا الكلام لن يغطيه؛ كذلك لو قيل: سيأتي اليوم عدو، فشدد في الحراسة؛ إذا آمن بأنه سيأتي عدو شدَّد في الحراسة بجميع ما يمكن؛ فإذا لم يشدد في الحراسة علمنا أنه لم يؤمن به.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الإيمان بالملائكة من البر؛ ويشمل الإيمان بذواتهم، وصفاتهم، وأعمالهم إجمالاً فيما علمناه إجمالاً، وتفصيلاً فيما علمناه تفصيلاً؛ واعلم أن الملائكة ـ عليهم الصلاة السلام ـ منهم من عُين لنا، وعرفناه باسمه؛ ومنهم من لم يعين؛ فمن عين لنا وجب علينا أن نؤمن باسمه كما عين، مثل «جبريل» عليه السلام؛ وإسرافيل؛ ومالك ـ خازن النار ـ؛ ومنكر ونكير إن صح الحديث بهذا اللفظ[1] ـ ففيه نظر ـ؛

---

(١) راجع الترمذي ص١٧٥٤، كتاب الجنائز، باب ٧٠: ما جاء في عذاب القبر، حديث رقم ١٠٧١؛ وصحيح ابن حبان ٥/ ٤٧ ـ ٤٨، فصل في أحوال الميت في قبره، ذكر الأخبار عن اسم الملكين اللذين يسألان الناس في قبورهم...، حديث رقم ٣١٠٧؛ وكتاب السنة لابن أبي عاصم ٢/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣، باب ١٧١: في القبر وعذاب القبر، حديث رقم ٨٦٤، ومدار الحديث على عبد الرحمن بن إسحاق المدني؛ قال الحافظ =

وميكائيل؛ وملك الموت ـ ولكننا لا نعرف اسمه؛ بعض الناس يقولون: عزرائيل؛ ولكن لم يصح هذا؛ وهاروت، وماروت؛ ثم كذلك أعمالهم منهم من علمنا أعماله؛ ومنهم من لم نعلم؛ لكن علينا أن نؤمن على سبيل الإطلاق بأنهم عباد مكرمون، وممتثلون لأمر الله عز وجل، لهم نصيب من تدبير الخلق بإذن الله؛ منهم الموكل بالقطر، والبنات؛ والموكل بالنفخ في الصور؛ وفيهم ملائكة موكلة بالأجنة؛ وملائكة موكلة بكتابة أعمال بني آدم؛ وملائكة موكلة بحفظ بني آدم؛ كما قال تعالى: ﴿**له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله**﴾ [الرعد: ١١]؛ لكن كل هذا بأمر الله عز وجل وبإذنه؛ وليس لهم منازعة لله عز وجل، ولا معاونة في أي شيء من الكون؛ قال الله تعالى: ﴿**قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له**﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]؛ فنفى جميع ما يتعلق به المشركون: ﴿**لا يملكون مثقال ذرة**﴾ [سبأ: ٢٢] انفراداً؛ ﴿**وما لهم فيهما من شرك**﴾ [سبأ: ٢٢] مشاركة؛ ﴿**وما له منهم من ظهير**﴾ [سبأ: ٢٢] معاونة؛ ﴿**ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له**﴾ [سبأ: ٢٣]: فنفى الشفاعة، والوساطة إلا بإذنه، ثم قال تعالى: ﴿**حتى إذا فزع عن قلوبهم**﴾ [سبأ: ٢٣]: وهم الملائكة إذا

= في التقريب: «صدوق رُمي بالقدر»؛ والحديث قال الألباني في صحيح الترمذي: «حسن» (١/ ٣١١، حديث رقم ٨٥٦ ـ ١٠٨٣)؛ وقال في السلسلة الصحيحة: «إسناده جيد، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم، وفي ابن إسحاق وهو العامري القرشي مولاهم كلام لا يضر» (المجلد الثالث، ص٣٨٠، حديث رقم ١٣٩١).

سمعوا الوحي صعقوا؛ فليس لهم أي شيء في التصرف في الكون؛ لكنهم يمتثلون أمر الله عز وجل.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الإيمان بالكتب من البر؛ وكيفيته أن نؤمن بأن كل كتاب أنزله الله على أحد من رسله فهو حق: صدق في الأخبار، وعدل في الأحكام؛ ولكننا لا نكلف بالعمل بما فيها فيما جاءت شريعتنا بخلافه؛ واعلم أنه ما من رسول إلا معه كتاب؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان**﴾ [الحديد: ٢٥] أي مع هؤلاء الرسل، وقوله تعالى: ﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه**﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ فما من رسول إلا معه كتاب؛ والكتب المعروفة لدينا هي التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وصحف موسى، والقرآن الكريم؛ وصحف موسى اختلف العلماء أهي التوراة أو غيرها، فمنهم من قال: إنها غيرها؛ ومنهم من قال: إنها هي؛ وأما ما لم نعلم به فنؤمن به إجمالاً؛ فتقول بقلبك، ولسانك: آمنت بكل كتاب أنزله الله على كل رسول؛ ثم إن المراد أن نؤمن بأن الله أنزل على موسى كتاباً يسمى التوراة؛ وعلى عيسى كتاباً يسمى الإنجيل؛ وعلى داود كتاباً يسمى الزبور؛ أما أن تؤمن بالموجود منها الآن فليس بواجب عليك؛ لأنه محرف، ومغير، ومبدل؛ لكن تؤمن بأن له أصلاً نزل على هؤلاء الرسل.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الإيمان بالنبيين من البر؛ فنؤمن بكل نبي أوحى الله إليه؛ فمن علمنا منهم نؤمن به بعينه؛ والباقي إجمالاً؛ وقد ورد في حديث صححه ابن حبان أن عدة الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً؛ وأن عدة الأنبياء مائة وأربعة

وعشرون ألفاً[١]؛ فإن صح الحديث فهو خبر معصوم يجب علينا الإيمان به؛ وإن لم يصح فإن الله تعالى يقول: ﴿**ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك**﴾ [غافر: ٧٨]؛ ونحن لا نكلف الإيمان إلا بما بلغنا؛ فالذين علمناهم من الرسل يجب علينا أن نؤمن بهم بأعيانهم؛ والذين لم

---

(١) راجع صحيح ابن حبان ١/ ٢٨٧ ـ ٢٨٩، باب: ما جاء في الطاعات وثوابها، ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كل خير حظ رجاء التخلص في العقبى بشيء منها، حديث رقم ٣٦٢؛ وفي سنده إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، قال فيه أبو حاتم: «أظنه لم يطلب العلم، وهو كذاب»؛ وقال علي بن الحسين بن الجنيد: «صدق أبو حاتم، ينبغي أن لا يحدث عنه» (كتاب الجرح والتعديل لعبد الرحمن بن أبي حاتم ٢/ ١٤٢ ـ ١٤٣)؛ وقال الذهبي: «والصواب: إبراهيم بن هشام أحد المتروكين الذين مشاهم ابن حبان، فلم يصب» (ميزان الاعتدال ٤/ ٣٧٨)؛ وأخرجه الحاكم من طريق آخر عن أبي ذر، وسكت عنه؛ وقال الذهبي: «السعدي ليس بثقة» (المستدرك ٢/ ٥٩٧، كتاب التاريخ)؛ ففي سنده يحيى بن سعيد القرشي البصري ـ وقيل: الكوفي ـ؛ قال ابن حبان فيه: «شيخ يروي عن ابن جريج المقلوبات، وعن غيره من الثقات الملزقات، لا يحل الاحتجاج به إذا انفرد» (كتاب المجروحين ٣/ ١٢٩)؛ وقال ابن عدي: «وهذا حديث منكر من هذا الطريق» (الكامل في الضعفاء ٩/ ١٠٦)؛ لكن بالنسبة لعدد الرسل فقد أخرجه الحاكم في مستدركه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، ثم قال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه»؛ وأقره الذهبي (المستدرك على الصحيحين ٢/ ٢٦٢، كتاب التفسير، بسم الله الرحمن الرحيم، من سورة البقرة)؛ وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة المجلد السادس، القسم الأول ص٣٥٨ ـ ٣٥٩، حديث رقم ٢٦٦٨؛ وأما بالنسبة لعدد الأنبياء، فقد جاء من عدة طرق كلها فيها مقال؛ وقال الألباني: «فهو صحيح لغيره» (المجلد السادس، القسم الأول، ص٣٦٣).

نعلمهم نؤمن بهم إجمالاً، كما قال تعالى: ﴿**كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله**﴾ [البقرة: ٢٨٥]؛ وقد ذكر في القرآن أربعة وعشرون رسولاً؛ قال تعالى: ﴿**ووهبنا له**﴾ [الأنعام: ٨٤] أي إبراهيم: ﴿**إسحاق ويعقوب كلًّا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلًّا فضلنا على العالمين**﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٨٦]؛ فهؤلاء ثمانية عشر؛ ويبقى شعيب، وصالح، وهود، وإدريس، وذو الكفل، ومحمد ﷺ.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: أن إعطاء المال على حبه من البر؛ وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به وقال: إن الله يقول: ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾ [آل عمران: ٩٢]؛ وعندما سمع أبو طلحة هذه الآية تصدق ببستانه الذي هو أحب شيء إليه من ماله؛ لا لأنه بستانه فقط؛ ولكن لأن الرسول ﷺ كان يأتي إليه، ويشرب فيه من ماء طيب، وكان قريباً من مسجد الرسول ﷺ؛ ولما نزلت الآية: ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾ ذهب إلى الرسول ﷺ وقال: «**يا رسول الله، إن الله أنزل هذه الآية: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾؛ وإن أحب مالي إليّ «بيرُحاء»؛ وإني أضعها صدقة إلى الله ورسوله؛ فقال النبي ﷺ: بخ! بخ! ذاك مال رابح! ذاك مال رابح! أرى أن تجعله في الأقربين**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري ص١١٥، كتاب الزكاة، باب ٤٤: الزكاة على الأقارب، حديث رقم ١٤٦١، وأخرجه مسلم ص٨٣٦، كتاب الزكاة، باب ١٤: فضل النفقة والصدقة على الأقربين...، حديث رقم ٢٣١٥ [٤٢] ٩٩٨.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أن إعطاء ذوي القربى أولى من إعطاء اليتامى، والمساكين؛ لأن الله بدأ بهم، فقال تعالى: ﴿**وآتى المال على حبه ذوي القربى**﴾؛ فلو سأل سائل: هل الأفضل أن أعطي القرابة، أو اليتامى؟ لقلنا: أعطِ القرابة؛ اللهم إلا إن يكون هناك ضرورة في اليتامى ترجح إعطاءهم؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ تقديم صلة الرحم على العتق[1]؛ واعلم أن الحكم إذا علق بوصف تختلف أفراده فيه قوة وضعفاً، فإنه يزداد قوة بقوة ذلك الوصف؛ فإذا كان معلقاً بالقرابة فكل من كان أقرب فهو أولى؛ وأقرب الناس إليك، وأحقهم بالبر: أمك، وأبوك.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: أن لليتامى حقاً؛ لأن الله امتدح من آتاهم المال؛ لقوله تعالى: ﴿**واليتامى**﴾ سواء كانوا فقراء، أم أغنياء.

١٠ ـ **ومنها**: إثبات رحمة الله عز وجل، حيث ندب إلى إتيان المال لليتامى، والمساكين؛ لأن هذا لا شك من الرحمة بهم.

١١ ـ **ومنها**: أن لابن السبيل حقاً ـ ولو كان غنياً في بلده.

١٢ ـ **ومنها**: أن إعطاء السائل من البر ـ وإن كان غنياً؛ لعموم قوله تعالى: ﴿**والسائلين**﴾.

فإذا قال قائل: إذا كان مؤتي المال للسائلين من أهل البر فكيف يتفق، والتحذير من سؤال الناس؟

فالجواب: أنه لا معارضة؛ لأن الجهة منفكة؛ فالممدوح: المعطي؛ والمحذَّر: السائل المعطى؛ فإذا انفكت الجهة فلا تعارض؛ فلو رأيت مبتلى بهذه المهنة ـ وهي مهنة سؤال الناس ـ

---

(١) انظر ٢/٣٠٨.

فأعطه إذا سألك، ثم انصحه، وحذره؛ لتكون مؤتياً للمال، وناصحاً للسائل؛ لأن بعض الناس ـ والعياذ بالله ـ نعلم علم اليقين ـ أو يغلب على الظن المؤكد ـ أنه غني؛ وإنما سأل الناس تكثراً؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أن: «**من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً؛ فليستقل، أو ليستكثر**»[(١)]؛ وأن «**ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وما في وجهه مزعة لحم**»[(٢)].

١٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن إعتاق الرقاب من البر؛ لقوله تعالى: ﴿**وفي الرقاب**﴾؛ والمال المبذول في الرقاب لا يعطى الرقبة؛ وإنما يعطى مالك الرقبة؛ فلهذا أتى بـ ﴿**في**﴾ الدالة على الظرفية؛ والرقاب ذكر أهل العلم أنها ثلاثة أنواع:

أ ـ عبد مملوك تشتريه، وتعتقه.

ب ـ مكاتب اشترى نفسه من سيده، فأعنته في كتابته.

ج ـ أسير مسلم عند الكفار، فافتديته؛ وكذلك لو أسر عند غير الكفار، مثل الذين يختطفون الآن ـ والعياذ بالله؛ إذا طلب المختطفون فدية فإنه يفك من الزكاة؛ لأن فيها فك رقبة من القتل.

١٤ ـ **ومنها**: أن إقامة الصلاة من البر؛ لقوله تعالى: ﴿**وأقام الصلاة**﴾.

---

(١) أخرجه مسلم ص٨٤١، كتاب الزكاة، باب ٣٥: كراهة المسألة للناس، حديث رقم ٢٣٩٩ [١٠٥] ١٠٤١.

(٢) أخرجه البخاري ص١١٦، كتاب الزكاة، باب ٥٢: من سأل الناس تكثراً، حديث رقم ١٤٧٤، وأخرجه مسلم ص٨٤١، كتاب الزكاة، باب ٣٥: كراهة المسألة للناس، حديث رقم ٢٣٩٨ [١٠٤] ١٠٤٠.

١٥ ـ **ومنها**: أن إيتاء الزكاة للمستحقين لها من البر.

١٦ ـ **ومنها**: الثناء على الموفين بالعهد، وأن الوفاء به في البر؛ والعهد عهدان: عهد مع الله عز وجل؛ وعهد مع الخلق.

فالعهد الذي مع الله بينه بقوله تعالى: ﴿**وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقوله تعالى: ﴿**ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ [المائدة: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿**يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم**﴾ [البقرة: ٤٠]؛ فالعهد الذي عهد الله به إلينا أن نؤمن به رباً، فنرضى بشريعته؛ بل بأحكامه الكونية، والشرعية؛ هذا العهد الذي بيننا، وبين ربنا.

أما العهد الذي بيننا، وبين الناس فأنواعه كثيرة جداً غير محصورة؛ منها العقود، مثل عقد البيع، وعقد الإجارة، وعقد الرهن، وعقد النكاح، وغير ذلك؛ لأنك إذا عقدت مع إنسان التزمت بما يقتضيه ذلك العقد؛ إذاً فكل عقد فهو عهد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود**﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿**وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً**﴾ [الإسراء: ٣٤]؛ ومن العهود بين الخلق؛ ما يجري بين المسلمين وبين الكفار؛ وهو ثلاثة أنواع: **مؤبد**؛ **ومقيد**؛ **ومطلق**؛ فأما **المؤبد** فلا يجوز؛ لأنه يؤدي إلى إبطال الجهاد؛ وأما **المقيد** فبحسب الحاجة ـ وإن

طالت المدة على القول الراجح ـ لأنه عهد دعت إليه الحاجة؛ فيتقيد بقدرها؛ وقيل: لا تجوز الزيادة فيه على عشرة سنوات؛ لأن الأصل وجوب قتال الكفار، وأبيح العهد في عشر سنوات تأسياً برسول الله ﷺ في صلح الحديبية؛ والصحيح الأول؛ ويجاب عن عهد الحديبية بأن الحادثة لا تقتضي الزيادة؛ وأما **المطلق** فهو الذي لم يؤبد، ولم يحدد؛ وهو جائز على القول الراجح عند الحاجة إليه؛ فمتى وجد المسلمون الحاجة إليه عقدوه؛ وإذا زالت الحاجة عاملوا الكفار بما تقتضيه الحال؛ ولا حجة للكفار فيه؛ لأنه مطلق.

والمعاهدون من الكفار لهم ثلاث حالات؛ **الحال الأولى**: أن يستقيموا لنا؛ **الحالة الثانية**: أن يخونوا؛ **الحال الثالثة**: أن نخاف منهم الخيانة؛ فإن استقاموا لنا وجب علينا أن نستقيم لهم؛ ولا يمكن أن نخون أبداً؛ لقوله تعالى: ﴿**فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين**﴾ [التوبة: ٧]؛ وإن خانوا انتقض عهدهم، ووجب قتالهم؛ لقوله تعالى: ﴿**وإن نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم**﴾ [التوبة: ١٢]؛ وإن خفنا منهم الخيانة وجب أن ننبذ إليهم عهدهم على سواء؛ لقوله تعالى: ﴿**وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء**﴾ [الأنفال: ٥٨]: نخبرهم أن لا عهد بيننا ليكونوا على بصيرة؛ ومن العهد أيضاً ما يقع بين الإنسان وبين غيره من الالتزامات غير العقود، مثل الوعد؛ فإن الوعد من العهد؛ ولهذا اختلف أهل العلم هل يجب الوفاء بالوعد، أو لا يجب؛ والصحيح الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يجب الوفاء بالوعد؛ لأنه داخل في العهد، ولأن إخلاف الوعد من علامات

النفاق؛ وإذا كان كذلك فلا يجوز للمؤمن أن يتحلى بأخلاق المنافقين.

١٧ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الصبر من البر؛ وهو ثلاثة أنواع:

الأول: الصبر على طاعة الله، بأن يتحمل الصبر على الطاعة من غير ضجر، ولا كراهة.

الثاني: الصبر عن معصية الله، بأن يحمل نفسه على الكف عن معصية الله إذا دعته نفسه إليها.

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة التي لا تلائم الطبيعة بأن لا يتسخط من المقدور، ولا يتضجر؛ بل يحبس نفسه عن ذلك: قال الله تعالى: ﴿**وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمه وأولئك هم المهتدون**﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

وأعلى هذه الأنواع: الصبر على طاعة الله؛ لأن فيه تحملاً، ونوعاً من التعب بفعل الطاعة؛ ثم الصبر عن المعصية؛ لأن فيه تحملاً، وكفاً عن المعصية؛ والكف أهون من الفعل؛ ثم الصبر على أقدار الله المؤلمة، لأنه على شيء لا اختيار للعبد فيه، ولهذا قيل: «إمّا أن تصبر صبر الكرام، وإمّا أن تسلوَ سلوّ البهائم».

١٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أن ما ذُكر هو حقيقة الصدق مع الله، ومع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿**أولئك الذين صدقوا**﴾؛ فصدقهم مع الله، حيث قاموا بهذه الاعتقادات النافعة: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين؛ وأنهم أقاموا

الصلاة، وآتوا الزكاة، وبذلوا المحبوب في هذه الجهات؛ وأما صدقهم مع الخلق يدخل في قوله تعالى: ﴿**والموفون بعهدهم إذا عاهدوا**﴾؛ وهذا من علامات الصدق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**أولئك الذين صدقوا**﴾؛ فصدقوا في اعتقاداتهم، وفي معاملاتهم مع الله، ومع الخلق.

١٩ ـ **ومن فوائد الآية** أن ما ذكر من تقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**وأولئك هم المتقون**﴾؛ وسبق أنها إذا جمعت مع البر صارت التقوى ترك المحرمات، وصار البر فعل المأمورات؛ وإذا افترقا دخل أحدهما في الآخر؛ وفي هذه الآية قال تعالى: ﴿**وأولئك هم المتقون**﴾ مع أنهم قائمون بالبر؛ فدل هذا على أن القيام بالبر من التقوى؛ لأن حقيقة الأمر أن القائم بالبر يرجو ثواب الله، ويخشى عقاب الله.

٢٠ ـ **ومنها**: أن هؤلاء فقط هم المتقون؛ ونفهم ذلك من الحصر وطريقه هنا أمران:

أ ـ تعريف طرفي الجملة.

ب ـ ضمير الفصل.

تنبيه:

ظاهر الآية الكريمة العموم في إتيان المال لهؤلاء المذكورين في الآية: القرابة، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والسائلين، وفي الرقاب؛ فظاهر الآية العموم للمسلمين، والكافرين؛ لكنه غير مراد؛ بل هي خاصة بالمسلم؛ وأما الكافر فلا بأس من بره، والإحسان إليه بشرط أن يكون ممن لا يقاتلوننا في ديننا، ولم يخرجونا من ديارنا؛ لقوله تعالى: ﴿**لا ينهاكم الله**

عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ [الممتحنة: ٨]؛ وعلى هذا فإذا كان الكافر يقاتلنا بنفسه بأن يكون هذا الرجل المعين مقاتلاً، أو يقاتلنا حكماً، مثل أن يكون من دولة تقاتل المسلمين فإنه لا يجوز بره، ولا إعطاؤه المال؛ لأنه مستعد حكماً للقتال: إذا أمرته دولته بقتال فإنه يلبي؛ وما دام حرباً للمسلمين فإنه يريد إعدام المسلمين، وليس أهلاً للإحسان إليه.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾.

التفسير:

﴿١٧٨﴾ قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** سبق الكلام على ذكر فوائد تصدير الخطاب بالنداء بوصف الإيمان للمنادى.

قوله تعالى: **﴿كتب عليكم﴾**؛ أي فُرض، كقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾**؛ وسمي الفرض مكتوباً؛ لأن الكتابة تثبِّت الشيء، وتوثقه؛ قال الله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾** [البقرة: ٢٨٢].

قوله تعالى: **﴿القصاص﴾** هذه نائب فاعل؛ والقصاص يشمل إزهاق النفس، وما دونها؛ قال الله تعالى في سورة المائدة:

﴿**والجروح قصاص**﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال النبي ﷺ في كسر الربيع سن جارية من الأنصار: «**كتاب الله القصاص**»[(١)]؛ ولكنه تعالى هنا قال: ﴿**في القتلى**﴾؛ وفي سورة المائدة: في القتل، وفيما دونه: ﴿**أن النفس بالنفس والعين بالعين...**﴾ [المائدة: ٤٥] إلخ.

و«**قتلى**» جمع قتيل، مثل «جرحى» جمع جريح؛ و«أسرى» جمع أسير؛ وقوله تعالى: ﴿**في القتلى**﴾ أي في شأن القتلى؛ وليس في القتلى أنفسهم؛ لأن القتيل مقتول؛ فلا قصاص؛ لكن في شأنهم؛ والذي يُقتص منه هو القاتل.

وبعد العموم في قوله تعالى: ﴿**القصاص في القتلى**﴾ بدأ بالتفصيل فقال تعالى: ﴿**الحر بالحر**﴾؛ ﴿**الحر**﴾ مبتدأ؛ و﴿**بالحر**﴾ خبر؛ يعني الحر يقتل بالحر؛ والباء هنا إما للبدلية؛ وإما للعوض؛ يعني الحر بدل الحر؛ أو الحر عوض الحر؛ و﴿**الحر**﴾ هو الذي ليس بمملوك.

قوله تعالى: ﴿**والعبد بالعبد**﴾ أي العبد يقتل بالعبد؛ و﴿**العبد**﴾ هو المملوك.

قوله تعالى: ﴿**والأنثى بالأنثى**﴾ أي الأنثى تقتل بالأنثى.

قوله تعالى: ﴿**فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف**﴾؛ «**مَن**» هذه شرطية؛ والفاء عاطفة ومفرِّعة أيضاً، تفيد أن ما بعدها مفرَّع على ما قبلها.

---

(١) أخرجه البخاري ص٢١٥، كتاب الصلح، باب ٨: الصلح في الدية، حديث رقم ٢٧٠٣، وأخرجه مسلم ص٩٧٤، كتاب القسامة، باب ٥: إثبات القصاص في الأسنان وما في معناها، حديث رقم ٤٣٧٤ [٢٤] ١٦٧٥؛ واللفظ للبخاري.

وقوله تعالى: ﴿**فمن عفي له**﴾: المعفو عنه القاتل؛ و﴿**من أخيه**﴾ المراد به المقتول ـ أي من دم أخيه ـ فأيّ قاتل عفي له من دم أخيه شيء سقط القصاص؛ وحينئذ على العافي اتباع بالمعروف عند قبض الدية، بحيث لا يتبع عفوه منًّا، ولا أذًى؛ و﴿**شيء**﴾ نكرة في سياق الشرط؛ فتعم كل شيء قليلاً كان، أو كثيراً.

وقوله تعالى: ﴿**فاتباع**﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ والتقدير: فالواجب اتباع بالمعروف؛ والاتباع بالمعروف يكون على ورثة المقتول؛ يعني إذا عفوا فعليهم أن يَتَّبعوا القاتل بالمعروف.

قوله تعالى: ﴿**وأداء إليه**﴾ أي على القاتل إيصال إلى العافي عن القصاص؛ وهي معطوفة على «**اتباع**»؛ والضمير في ﴿**إليه**﴾ يعود إلى العافي بإحسان؛ والمؤدَّى: ما وقع الاتفاق عليه.

قوله تعالى: ﴿**بإحسان**﴾ أي يكون الأداء بإحسان وافياً بدون مماطلة؛ والباء للمصاحبة ـ يعني أداءً مصحوباً بالإحسان ـ وإنما نص على «**الإحسان**» هنا؛ و«**المعروف**» هناك؛ لأن القاتل المعتدي لا يكفّر عنه إلا الإحسان ليكون في مقابلة إساءته؛ أما أولئك العافون فإنهم لم يجنوا؛ بل أحسنوا حين عدلوا عن القتل إلى الدية.

قوله تعالى: ﴿**ذلك تخفيف من ربكم ورحمة**﴾: المشار إليه كل ما سبق من وجوب القصاص، ومن جواز العفو؛ تخفيف من الله في مقابل وجوب القصاص؛ وقد ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أن بني إسرائيل فرض الله عليهم القصاص فرضاً؛

وهذه الأمة خفف عنها؛ فلم يجب عليها القصاص؛ لأن الإنسان قد يكون لديه رحمة بالقاتل؛ وقد يكون القاتل من أقاربه؛ وقد يكون اعتبارات أخرى فلا يتمكن من تنفيذ القصاص في حقه؛ فخفف على هذه الأمة ـ ولله الحمد.

وقوله تعالى: ﴿من ربكم﴾: «الرب» معناه الخالق المالك المدبر لخلقه كما يشاء على ما تقتضيه حكمته.

وقوله تعالى: ﴿ورحمة﴾ أي بالجميع: بالقاتل ـ حيث سقط عنه القتل، وبأولياء المقتول ـ حيث أبيح لهم أن يأخذوا العوض؛ لأن من الجائز أن يكون الواجب إما القصاص؛ أو العفو مجاناً؛ لكن من رحمة الله أنه أباح هذا، وهذا؛ فهو رحمة بالجميع.

قوله تعالى: ﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾: ﴿من﴾ اسم شرط؛ وفعل الشرط: ﴿اعتدى﴾؛ وجوابه: ﴿فله عذاب أليم﴾؛ المشار إليه في قوله تعالى: ﴿بعد ذلك﴾: التنازل عن القصاص بأخذ الدية، أو قبولها؛ و﴿عذاب﴾ بمعنى عقوبة؛ و﴿أليم﴾ بمعنى مؤلم ـ يعني: موجع؛ والمعنى: أن من اعتدى من أولياء المقتول بعد العفو فله عذاب أليم ـ ويحتمل أن يكون المراد: من اعتدى من أولياء المقتول، ومن القاتل.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أهمية القصاص؛ لأن الله وجه الخطاب به إلى المؤمنين؛ وصدره بالنداء المستلزم للتنبيه؛ وتصدير الخطاب بالنداء فائدته التنبيه، وأهمية الأمر.

٢ ـ **ومنها**: أن تنفيذ القصاص من مقتضى الإيمان؛ لأن الخطاب موجه للمؤمنين.

٣ ـ **ومنها**: أن ترك تنفيذه نقص في الإيمان؛ فما كان من مقتضى الإيمان تنفيذه فإنه يقتضي نقص الإيمان بتركه.

٤ ـ **ومنها**: وجوب التمكين من القصاص؛ لقوله تعالى: ﴿**كتب عليكم القصاص**﴾.

٥ ـ **ومنها**: مراعاة التماثل بين القاتل، والمقتول؛ لقوله تعالى: ﴿**الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن الحر يقتل بالحر ـ ولو اختلفت صفاتهما، كرجل عالم عاقل غني جواد شجاع قتل رجلاً فقيراً أعمى أصم أبكم زمِناً جباناً جاهلاً فإنه يقتل به؛ لعموم قوله تعالى: ﴿**الحر بالحر**﴾.

٧ ـ **ومنها**: أن العبد يقتل بالحر؛ لأنه إذا قُتل الحر بالحر فمن باب أولى أن يقتل العبد بالحر.

٨ ـ **ومنها**: أن العبد يقتل بالعبد ـ ولو اختلفت قيمتهما؛ لعموم قوله تعالى: ﴿**والعبد بالعبد**﴾؛ فلو قتل عبد يساوي مائة ألف عبداً لا يساوي إلا عشرة دراهم فإنه يقتل به؛ لعموم قوله تعالى: ﴿**والعبد بالعبد**﴾.

٩ ـ **ومنها**: أن العبد إذا قتل وكان قاتله حراً فإنه لا يقتل به؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿**الحر بالحر**﴾؛ وهذه المسألة فيها خلاف بين أهل العلم؛ فمنهم من قال: إن الحر يقتل بالعبد؛ لعموم قوله تعالى: ﴿**وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس**﴾ [المائدة: ٤٥]، وقول النبي ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس...**»[1]؛ وهذا القول

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٧٣، كتاب الديات، باب ٦: قول الله تعالى: ﴿**أن** =

هو الصواب؛ **والقول الثاني**: أن الحر يقتل بالعبد إذا كان مالكاً له؛ لقول النبي ﷺ: «**من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه**»[(١)]؛ وفي الاستدلال بهذا الحديث نظر: «**أولاً**»: للاختلاف فيه؛ و«**ثانياً**»: أن يقال: إذا كان السيد يقتل بعبده وهو مالكه فمن باب أولى أن يقتل به من ليس بسيد له؛ وأما حديث: «**لا يقتل حر بعبد**»[(٢)] فضعيف.

١٠ ـ **ومنها**: أن الأنثى تقتل بالأنثى ـ ولو اختلفت

= **النفس بالنفس والعين بالعين**﴾، حديث رقم ٦٨٧٨، وأخرجه مسلم ص٩٧٤، كتاب القسامة، باب ٦: ما يباح به دم المسلم، حديث رقم ٤٣٧٥ [٢٥] ١٦٧٦.

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٠ حديث رقم ٢٠٣٦٤، وأخرجه أبو داود ص١٥٥٤، كتاب الديات، باب ٧: من قتل عبده...، حديث رقم ٤٥١٥، وأخرجه الترمذي ص١٧٩٤، كتاب الديات، باب ١٧: ما جاء في الرجل يقتل عبده، حديث رقم ١٤١٤، وأخرجه النسائي ص٢٣٩٥،، كتاب القسامة والقود والديات، باب ١١: القود من السيد للمولى، حديث رقم ٤٧٤٢؛ وأخرجه ابن ماجه ص٢٦٣٧، كتاب الديات، باب ٢٣: هل يقتل الحر بالعبد، حديث رقم ٢٦٦٣، وأخرجه الدارمي ٢/ ٢٥٠، من كتاب الديات، باب ٧: القود بين العبد وبين سيده، حديث رقم ٢٣٥٨، وفي سنده «الحسن عن سمرة»؛ وسماع الحسن من سمرة مختلف فيه، ففي صحيح البخاري سماع منه لحديث العقيقة، وعند علي بن المديني أن نسخة الحسن عن سمرة كلها سماع؛ وكذا حكى الترمذي عن البخاري، وقال القطان هي كتاب، فلا يقتضي الانقطاع (تهذيب التهذيب).

(٢) أخرجه الدارقطني ٣/ ١٣٣، حديث رقم ١٥٨، وفيه جويبر، وقال الدارقطني، والنسائي وغيرهما متروك الحديث (ميزان الاعتدال (١/ ٤٢٧)، وراجع: التلخيص الحبير (ج٤/ ٢٠) حديث رقم ٧، والإرواء ٧/ ٢٦٧، حديث رقم ٢٢١١.

صفاتهما ـ لعموم قوله تعالى: ﴿**والأنثى بالأنثى**﴾.

١١ ـ **ومنها**: أن الأنثى تقتل بالرجل؛ لأنها إذا قتلت بالأنثى فإنها من باب أولى تقتل بالرجل؛ ودلالة الآية عليه من باب مفهوم الأولوية.

١٢ ـ **ومنها**: أن الرجل لا يقتل بالمرأة؛ لأنه أعلى منها؛ هذا مفهوم الآية؛ والصواب أنه يقتل بها؛ لأن النبي ﷺ قتل يهودياً كان قتل جارية على أوضاح لها ـ رضّ رأسها بين حجرين؛ فرضّ النبي ﷺ رأسه بين حجرين[1]؛ وهذا يدل أن قتله كان قصاصاً؛ لا لنقض العهد ـ كما قيل به.

١٣ ـ **ومنها**: جواز العفو عن القصاص إلى الدية؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف...**﴾ إلخ؛ وهل له أن يعفو مجاناً؟ الجواب: نعم؛ له ذلك؛ لأن الله سبحانه وتعالى ندب إلى العفو فقال: ﴿**وأن تعفوا أقرب للتقوى**﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال تعالى: ﴿**وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم**﴾ [التغابن: ١٤]، وقال في وصف أهل الجنة: ﴿**الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس**﴾ [آل عمران: ١٣٤]؛ لكن العفو المندوب إليه ما كان فيه إصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن عفا وأصلح فأجره على الله**﴾ [الشورى: ٤٠]؛ فإذا كان في العفو إصلاح، مثل أن يكون القاتل معروفاً

---

(١) أخرجه البخاري ص١٨٩، كتاب الخصومات، باب ١: ما يذكر في الأشخاص، والخصومة بين المسلم واليهود، حديث رقم ٢٤١٣؛ وأخرجه مسلم ص٩٧٣، كتاب القسامة...، باب ٣: ثبوت القصاص في القتل بحجر...، حديث رقم ٤٣٦١ [١٥] ١٦٧٢.

بالصلاح؛ ولكن بدرت منه هذه البادرة النادرة؛ ونعلم، أو يغلب على ظننا أنا إذا عفونا عنه استقام، وصلحت حاله، فالعفو أفضل لا سيما إن كان له ذرية ضعفاء، ونحو ذلك؛ وإذا علمنا أن القاتل معروف بالشر، والفساد، وإن عفونا عنه لا يزيده إلا فساداً، وإفساداً فترك العفو عنه أولى؛ بل قد يجب ترك العفو عنه.

١٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه إذا عفا بعض الأولياء عن القصاص سقط القصاص في حق الجميع؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن عفي له من أخيه شيء**﴾؛ وهي نكرة تعم القليل، والكثير؛ لأنها في سياق الشرط؛ وعلى هذا فلو كان لأحد ورثة المقتول جزء من ألف جزء من التركة، ثم عفا عن القصاص انسحب العفو على الجميع؛ لأن الجزء الذي عفا عنه لا قصاص فيه؛ والقصاص لا يتبعض؛ إذ لا يمكن قتل القاتل إلا جزءاً من ألف جزء منه.

١٥ ـ **ومنها**: أن دية العمد على القاتل؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن عفي له من أخيه شيء**﴾؛ ولا شك أن المعفو عنه هو القاتل؛ وقد أمر بالأداء.

١٦ ـ **ومنها**: أن فاعل الكبيرة لا يخرج من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن عفي له من أخيه شيء**﴾؛ فجعل الله المقتول أخاً للقاتل؛ ولو خرج من الإيمان لم يكن أخاً له.

١٧ ـ **ومنها**: الرد على طائفتين مبتدعتين؛ وهما الخوارج، والمعتزلة؛ لأنهم يقولون: إن فاعل الكبيرة خارج من الإيمان؛ لكن الخوارج يصرحون بكفره؛ والمعتزلة يقولون: إنه في منزلة بين المنزلتين: الإيمان، والكفر ـ فلا هو كافر؛ ولا هو بمؤمن؛

لكن اتفق الجميع على أنه مخلد في النار.

١٨ ـ **ومنها**: أنه يجب الاتباع بالمعروف ـ يعني يجب على أولياء المقتول إذا عفوا إلى الدية ألا يتسلطوا على القاتل؛ بل يتبعونه بالمعروف بدون أذية، وبدون منة؛ لقوله تعالى: ﴿**فاتباع بالمعروف**﴾؛ والخطاب لأولياء المقتول.

١٩ ـ **ومنها**: وجوب الأداء على القاتل بالإحسان، لقوله تعالى: ﴿**وأداء إليه بإحسان**﴾.

٢٠ ـ **ومنها**: أن الله خفف عن هذه الأمة بجواز العفو، ورحمهم بجواز أخذ العوض؛ لقوله تعالى: ﴿**ذلك تخفيف من ربكم ورحمة**﴾: تخفيف على القاتل؛ ورحمة بأولياء المقتول، حيث أذن لهم أن يأخذوا عوضاً؛ وإلا لقيل لهم: إما أن تعفوا مجاناً؛ وإما أن تأخذوا بالقصاص.

٢١ ـ **ومنها**: إثبات الرحمة لله؛ وهي رحمة حقيقية تستلزم حصول النعم، واندفاع النقم؛ وأهل التعطيل يفسرونها بـ «الإنعام» الذي هو مفعول الرب؛ أو بـ «إرادة الإنعام»؛ وينكرون حقيقة الرحمة؛ وقد ضلوا في ذلك: فإن الإنعام، أو إرادته من آثار الرحمة، وليسا إياها.

٢٢ ـ **ومنها**: أن المعتدي بعد انتهاء القصاص، أو أخذ الدية متوعد بالعذاب الأليم سواء كان من أولياء المقتول، أو من القاتل؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

التفسير:

﴿١٧٩﴾ قوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾؛ ﴿لكم﴾ خبر مقدم؛ و﴿حياة﴾ مبتدأ مؤخر؛ و﴿القصاص﴾ هو قتل القاتل بمن قتله؛ فـ «أل» فيه للعهد؛ و﴿حياة﴾ نكرة للتعظيم؛ والمعنى: حياة كبرى، أو عظمى.

قوله تعالى: ﴿يا أولي الألباب﴾ أي يا أصحاب العقول؛ وإنما خاطبهم بذلك؛ لأن الحكم يحتاج إلى تعقل، وتدبر حتى يتبين مطابقته للعقل.

قوله تعالى: ﴿لعلكم تتقون﴾؛ «لعل» للتعليل؛ والمعلَّل ثبوت القصاص؛ يعني: أوجبنا القصاص، وكتبناه عليكم من أجل أن تتقوا العدوان بالقتل؛ فإن الإنسان إذا علم أنه مقتول بالقتل سيتقي القتل بلا شك.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: الحكمة العظمى في القصاص؛ وهي الحياة الكاملة؛ لقوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾.

فإن قيل: كيف يكون لنا في القصاص حياة مع أننا قتلنا القاتل؛ فزدنا إزهاق نفس أخرى؟.

فالجواب: نعم؛ يكون لنا في القصاص حياة بأن القتلة إذا علموا أنه سيقتص منهم امتنعوا عن القتل؛ فكان في ذلك تقليل للقتل، وحياة للأمة؛ ولهذا جاءت منكرة للدلالة على عظم هذه الحياة؛ فالتنكير هنا للتعظيم ـ يعني حياة عظيمة شاملة للمجتمع كله؛ أما بالنسبة للقاتل فيقتل؛ لكن قتل القاتل حياة للجميع.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن يُفعل بالجاني كما فَعل؛ لأن بذلك يتم القصاص؛ فإذا قتل بسكين قُتل بمثلها؛ أو بحجر قُتل بمثله؛ أو بسمّ قُتل بمثله؛ وهكذا.

٣ ـ **ومنها**: أن كون القصاص حياة يحتاج إلى تأمل وعقل، لقوله تعالى: ﴿**يا أولي الألباب**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أنه يجب على الإنسان أن يؤمن بأحكام الشريعة دون تردد؛ وإذا رأى ما يستبعده في بادئ الأمر فليتأمل وليتعقل حتى يتبين له أنه عين الحكمة، والمصلحة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**يا أولي الألباب**﴾؛ فأتى بالنداء المقتضي للانتباه.

٥ ـ **ومنها**: أن من فوائد القصاص أن يتقي الجناة القتل؛ لقوله تعالى: ﴿**لعلكم تتقون**﴾ [البقرة: ٢١]؛ واتقاؤهم للقتل من تقوى الله.

تنبيه:

اعلم بأن للقصاص شروطاً لثبوته؛ وشروطاً لاستيفائه مذكورة على التفصيل في كتب الفقه؛ فليرجع إليها.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾.

التفسير:

﴿١٨٠﴾ قوله تعالى: ﴿**كتب**﴾ أي فُرض؛ فهو فعل مبني لما لم يسم فاعله؛ وفاعله معلوم ـ وهو الله عز وجل؛ ونائب

الفاعل قوله تعالى: ﴿الوصية﴾؛ إنما لم يؤنث الفعل لكون نائب الفاعل مؤنثاً تأنيثاً مجازياً؛ وللفصل بينه وبين عامله.

قوله تعالى: ﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾ يريد بذلك ـ والله أعلم ـ إذا مُرض الإنسان مرض الموت؛ أما إذا حضره بمعنى أنه كان في سياق الموت فإن في ذلك تفصيلاً يأتي ـ إن شاء الله ـ في الفوائد.

قوله تعالى: ﴿إن ترك خيراً﴾: قال العلماء: أي مالاً كثيراً؛ و﴿الوصية﴾ هي العهد إلى غيره بشيء هام؛ ﴿للوالدين﴾ يعني بذلك الأم، والأب؛ و﴿الأقربين﴾: من سواهما من القرابة؛ والمراد بهم الأدنون، كالإخوة، والأعمام، ونحوهم؛ ﴿بالمعروف﴾ أي بما عرفه الشرع، وأقره؛ وهو الثلث فأقل؛ ﴿حقاً﴾ أي مؤكداً؛ وهو مصدر حذف عامله؛ والتقدير: أحق ذلك حقاً؛ ﴿على المتقين﴾ أي المتصفين بالتقوى؛ و«التقوى» هي اتخاذ ما يقي من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: وجوب الوصية للوالدين والأقربين لمن ترك مالاً كثيراً؛ لقوله تعالى: ﴿كتب عليكم﴾؛ واختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ هل هذا منسوخ بآيات المواريث؛ أم هو محكم، وآيات المواريث خصصت؟ على قولين؛ فأكثر العلماء على أنه منسوخ؛ ولكن القول الراجح أنه ليس بمنسوخ؛ لإمكان التخصيص؛ فيقال: إن قوله تعالى: ﴿للوالدين والأقربين﴾ مخصوص بما إذا كانوا وارثين؛ بمعنى أنهم إذا كانوا وارثين فلا

وصية لهم اكتفاءً لما فرضه الله لهم من المواريث؛ وتبقى الآية على عمومها فيمن سوى الوارث.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: جواز الوصية للصحيح، والمريض، ومن حضره الموت؛ ولكن النصوص تدل على أن من حضره الموت ينقسم إلى قسمين:

الأول: من بقي معه عقله ووعيه، فوصيته نافذة حسب الشروط الشرعية.

الثاني: من فقد وعيه وعقله، فلا تصح وصيته.

٣ ـ **ومنها**: جواز الوصية بما شاء من المال؛ لكن هذا مقيد بحديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: «**أتصدق بثلثي مالي؟ قال: لا؛ قال: فالشطر؟ قال: لا؛ قال: فالثلث؟ قال: الثلث؛ والثلث كثير**»[1]؛ وعلى هذا فلا يزاد في الوصية على ثلث المال؛ فتكون الآية مقيدة بالحديث.

٤ ـ **ومنها**: أن الوصية الواجبة إنما تكون فيمن خلّف مالاً كثيراً؛ لقوله تعالى: ﴿**إن ترك خيراً**﴾؛ فأما من ترك مالاً قليلاً فالأفضل أن لا يوصي إذا كان له ورثة؛ لقول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «**إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري ص١٠١، كتاب الجنائز، باب ٣٦: رثاء النبي ﷺ سعد بن خَولة، حديث رقم ١٢٩٥، وأخرجه مسلم ص٩٦٢، كتاب الوصية، باب ١: الوصية بالثلث، حديث رقم ٤٢٠٩ [٥] ١٦٢٨.

(٢) المرجع السابق.

٥ ـ **ومنها**: أن الوصية ليست مقيدة بجزء معين من المال؛ بل هي بالمعروف.

٦ ـ **ومنها**: أهمية صلة الرحم، حيث أوجب الله الوصية للوالدين والأقربين بعد الموت؛ لأن صلة الرحم من أفضل الأعمال المقربة إلى الله؛ فهذه إحدى أمهات المؤمنين أخبرت النبي ﷺ: **أنها أعتقت جارية لها؛ فقال: «أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك»**[1]؛ فجعل النبي ﷺ صلة الرحم أعظم أجراً من العتق.

٧ ـ **ومنها**: تأكيد وجوب الوصية على من ترك مالاً كثيراً لمن ذُكر؛ وجه التوكيد قوله تعالى: ﴿**حقاً على المتقين**﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن المتقين هم الذين يراعون فرائض الله؛ ولذلك وجه الخطاب إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿**حقاً على المتقين**﴾.

مسألة:

إذا قال قائل: كيف يكون الوالدان غير وارثين؟.

فالجواب: أن ذلك ممكن، مثل أن يكون الأب، أو الأم مخالفة في الدين؛ فإنه لا يرث فتوصي له.

كذلك بالنسبة للأقربين فإنهم قد لا يرثون لحجبهم بمن هو أولى منهم.

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٠٤، كتاب الهبة، باب ١٥: هبة المرأة لغير زوجها...، حديث رقم ٢٥٩٢، وأخرجه مسلم ص٨٣٦ كتاب الزكاة، باب ١٤: فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج...، حديث رقم ٢٣١٧ [٤٤] ٩٩٩.

مسألة ثانية:

فإن قال قائل: إن الله فرض للأب السدس مثلاً؛ وللأم السدس؛ وللزوجة الربع؛ وللزوج النصف؛ وما أشبه ذلك؛ وهذا يقتضي أن يكون لهم فرضهم كاملاً؛ ومع تنفيذ الوصية ينقص من فرضهم بقدر الوصية؟.

فالجواب: أن الله بين أن حق الورثة من بعد وصية يوصى بها، أو دين؛ وعلى هذا فلا إشكال في الآية في تقدير أنصباء الورثة؛ وهذا القول هو الذي تجتمع به الأدلة.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾.

التفسير:

﴿١٨١﴾ قوله تعالى: ﴿**فمن بدله**﴾؛ الفاء عاطفة؛ و«**مَن**» شرطية؛ و«**بدل**» فعل ماضٍ مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط؛ وجملة: ﴿**فإنما إثمه**﴾ جواب الشرط؛ واقترنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية.

قوله تعالى: ﴿**فمن بدله**﴾ أي بدّل «الإيصاء» المفهوم من ﴿**الوصية**﴾؛ أي غيّره بنقص، أو زيادة، أو منعٍ؛ إن نقص فالضرر على الموصى له؛ وإن زاد فعلى الورثة؛ وإن منع فعلى الموصى له؛ كل هذه الصور الثلاث تدخل في قوله تعالى: ﴿**فمن بدله**﴾.

قوله تعالى: ﴿**بعد ما سمعه**﴾: قال أهل العلم: عبر بالسمع

عن العلم؛ لأن السمع من الحواس الظاهرة؛ والعلم من الإدراكات الباطنة ـ أي فمن بدله بعد أن يعلمه علم اليقين، كما لو سمعه بنفسه؛ ومعلوم أن العلم بالوصية لا يتوقف على السماع؛ قد يكون بالكتابة؛ وقد يكون بالمشافهة، والسماع؛ وقد يكون بشهادة الشهود؛ وما إلى ذلك.

قوله تعالى: ﴿**فإنما إثمه**﴾ الضمير يعود على التبديل.

قوله تعالى: ﴿**على الذين يبدلونه**﴾ أي يغيرونه؛ يعني: فهذا الإثم يعود على المبدِّل؛ لا على الموصي؛ ولا على الورثة؛ وهذا إظهار في موضع الإضمار؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: فإنما إثمه عليه؛ لكن أظهر للإشارة إلى استحقاق الإثم، وأنه بالتبديل.

قوله تعالى: ﴿**إن الله سميع عليم**﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب؛ وفائدتها تحذير الموصي، والموصى إليه من المخالفة؛ وقد سبق الكلام على هذين الاسمين الكريمين، وما تضمناه من الصفات.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن من فعل الخير، ثم غُيِّر بعده كُتب له ما أراد؛ لقوله تعالى: ﴿**فإنما إثمه على الذين يبدلونه**﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن من بدل الوصية جهلاً فلا إثم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿**بعد ما سمعه**﴾؛ ويؤخذ من هذا ـ بل من باب أولى ـ أنه لو تصرف في الوصية تصرفاً خطأً وهو معتقد أنه على صواب فإنه لا ضمان عليه؛ لأنه مُوَلًّى على التصرف فيها؛ فإذا أخطأ فلا ضمان إذا لم يكن هناك تفريط، أو تعدٍّ.

٣ ـ **ومنها**: تحريم تغيير الوصية؛ لقوله تعالى: ﴿**فإنما إثمه على الذين يبدلونه**﴾؛ فيجب العمل بوصية الموصي على حسب ما أوصى إلا أن يكون جنفاً أو إثماً.

٤ ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما «**السميع**» و«**العليم**»؛ وما تضمناه من الصفة؛ والحكم الذي هو الأثر؛ فالسميع اسم؛ والسمع صفة؛ وكونه يسمع هو الأثر ـ أو الحكم؛ والعليم كذلك.

٥ ـ **ومنها**: إحاطة الله عز وجل بكل أعمال الخلق؛ لأن قوله تعالى: ﴿**سميع عليم**﴾ ذكر عقب التهديد في قوله تعالى: ﴿**فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه**﴾؛ وهذا يدل على أن الله يسمع، ويعلم ما يبدله الوصي.

٦ ـ **ومنها**: الرد على الجبرية، وعلى القدرية؛ فالجبرية يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله، ولا قدرة له، ولا اختيار؛ فأنكروا حكمة الله تعالى؛ لأنه إذا قيل بهذا القول الباطل انتفت حكمة الأمر، والنهي، والثواب، والعقاب؛ وصار من فعل ما أمر به، أو ترك ما نُهي عنه ليس أهلاً للمدح؛ لأنه كالآلة ليس عنده قدرة، ولا اختيار؛ وكذلك أبطلوا حكمة الله في الجزاء؛ لأنه ـ على أصلهم ـ يجزي المحسن وهو غير محسن؛ ويعاقب العاصي وهو غير عاصٍ؛ والرد عليهم في قوله تعالى: ﴿**فمن بدله**﴾؛ فأضاف التبديل إلى الإنسان.

وأما القدرية فيقولون: «إن الإنسان مستقل بعمله، ولا تتعلق به إرادة الله، ولا قدرته، ولا خلقه»؛ وغلاتهم ينكرون العلم والكتابة، يقولون: «إن أفعال العبادة غير معلومة لله، ولا مكتوبة

عنده»؛ وقالوا: «إن الأمر أُنُف ـ أي مستأنف ـ لم يكن الله يعلم شيئاً مما نفعله؛ إلا إذا وقع علمه بعد رؤيته، أو سمعه»؛ وجه الرد عليهم إثبات العلم لله.

قال الشافعي، وغيره من السلف: ناظروا القدرية بالعلم؛ فإن أقروا به خُصموا؛ وإن أنكروه كفروا؛ فإما إذا قالوا: إن الله لا يعلم فكفرهم واضح لتكذيبهم القرآن؛ وأما إذا قالوا: إنه يعلم لكن لا يقدرها، ولا يخلقها، قيل لهم: هل وقعت على وفق معلومه، أو على خلاف معلومه؟ سيقولون: «على وفق معلومه»؛ وإذا كان على وفق معلومه لزم أن تكون مرادةً له؛ وإلا لما وقعت.

فالحاصل أن في الآية رداً على القدرية، والجبرية؛ وكل منهم غلا في جانب من جوانب القدر؛ فالجبرية غلو في إثبات القدر، وفرطوا في أفعال العباد؛ والقدرية غلو في إثبات فعل العبد، وفرطوا في علم الله، وإرادته؛ والوسط هو الخير؛ فأهل السنة، والجماعة يثبتون لله العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق؛ كما يثبتون للإنسان إرادة، وقدرة ـ لكن ذلك تابع لإرادة الله؛ وخلقه ـ؛ وتفاصيل ذلك مبسوط في علم العقائد.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾.

التفسير:

﴿١٨٢﴾ قوله تعالى: ﴿فمن خاف﴾: ﴿من﴾ شرطية؛

و﴿خاف﴾ فعل الشرط؛ وقوله تعالى: ﴿فلا إثم عليه﴾ جواب الشرط.

وقوله تعالى: ﴿فمن خاف من موصٍ﴾ أي من توقع، أو اطلع.

قوله تعالى: ﴿جنفاً أو إثماً﴾: «الجنف» الميل عن غير قصد؛ و«الإثم» الميل عن قصد.

قوله تعالى: ﴿فأصلح بينهم﴾ أي فعَل صالحاً؛ أي حول الأمر إلى شيء صالح؛ وليس المعنى: أصلح الشقاق؛ لأنه قد لا يكون هناك شقاق؛ هذا القول وإن كان له وجهة نظر؛ لكن كلمة: ﴿بينهم﴾ تدل على أن المراد إصلاح الشقاق؛ إذ إن البينية لا تكون إلا بين شيئين؛ فعلى الوجه الأول يكون المراد بالإصلاح إزالة الفساد؛ وعلى الوجه الثاني يكون الإصلاح فيها إزالة الشقاق؛ لأن الغالب إذا أراد الوصي أن يغير الوصية بعد موت الموصي أن يحصل شقاق بينه، وبين الورثة؛ أو بينه، وبين الموصى له.

قوله تعالى: ﴿فلا إثم عليه﴾ أي فلا عقوبة؛ وهذا كالمستثنى من قوله تعالى: ﴿فمن بدله بعد ما سمعه﴾؛ و﴿لا﴾ نافية للجنس تعم القليل، والكثير.

قوله تعالى: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ جملة تعليلية للحكم؛ وقد سبق الكلام على هذين الاسمين الكريمين.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن من خاف جوراً أو معصية من موصٍ فإنه يصلح؛ وهذا يشمل ما إذا كان قبل موت الموصي، أو بعده؛

مثاله قبل موت الموصي: أن يستشهد الموصي، أو يستكتب شخصاً لوصيته، فيجد فيها جوراً، أو معصية، فيصلح ذلك؛ ومثاله بعد موته: أن يُطَّلع على وصية له تتضمن ما ذُكر فتُصْلح؛ مثال ذلك أن يوصي لوارث، فيُطَّلع على ذلك بعد موته، فتُصْلح الوصية إما باستحلال الوارث الرشيد؛ وإما بإلغائها إذا لم يمكن.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: رفع الإثم عن الوصي إذا أصلح لخوفه جنفاً، أو إثماً.

٣ ـ **ومنها**: فضيلة الإصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿**فأصلح بينهم**﴾؛ فإن في الإصلاح درء الإثم عن الموصي، وإزالة العداوة، والشحناء بين الموصى إليهم والورثة.

٤ ـ **ومنها**: أنه قد يعبر بنفي الإثم، أو نفي الجناح دفعاً عن توهمه؛ وعليه فلا ينافي المشروعية، كما في قوله تعالى: ﴿**إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوَّف بهما**﴾ [البقرة: ١٥٨]؛ ولما كان تبديل الوصية إثماً نفى الله الإثم عمن أصلح؛ ثم تعود المسألة إلى القواعد العامة التي مقتضاها وجوب الإصلاح، ورفع الجنف، والإثم.

٥ ـ **ومنها**: أن تغيير الوصية لدفع الإثم جائز؛ بل هو واجب بدليل آخر؛ وأما تغيير الوصية لما هو أفضل ففيه خلاف بين أهل العلم؛ فمنهم من قال: إنه لا يجوز؛ لعموم قوله تعالى: ﴿**فمن بدله بعد ما سمعه**﴾ [البقرة: ١٨١]؛ ولم يستثن إلا ما وقع في إثم فيبقى الأمر على ما هو عليه لا يغير؛ ومنهم من قال: بل يجوز تغييرها إلى ما هو أفضل؛ لأن الغرض من الوصية التقرب إلى الله عز وجل، ونفع الموصى له، فكلما كان أقرب إلى الله،

وأنفع للموصى له كان أولى أيضاً؛ والموصي بشر قد يخفى عليه ما هو الأفضل؛ وقد يكون الأفضل في وقت ما غير الأفضل في وقت آخر؛ ولأن النبي ﷺ أجاز تحويل النذر إلى ما هو أفضل مع وجوب الوفاء به؛ فالرجل الذي جاء إليه، وقال: إني نذرت إن فتح الله عليك مكة أن أصلي في بيت المقدس؛ فقال ﷺ: «**صلِّ ها هنا**» فأعاد عليه فقال: «**صل ها هنا**» فأعاد الثالثة فقال ﷺ: «**شأنك إذاً**»[1]؛ والذي أرى في هذه المسألة أنه إذا كانت الوصية لمعين فإنه لا يجوز تغييرها، كما لو كانت الوصية لزيد فقط؛ أو وقف وقفاً على زيد فإنه لا يجوز أن يغير لتعلق حق الغير المعين به؛ أما إذا كانت لغير معين ـ كما لو كانت لمساجد، أو لفقراء ـ فلا حرج أن يصرفها لما هو أفضل.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما «**الغفور**» و«**الرحيم**»؛ وما تضمناه من وصف، وحكم.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/٣٦٣، حديث رقم ١٤٩٨١، وأخرجه أبو داود ص١٤٧٠، كتاب الأيمان والنذور، باب ٢٠: من نذر أن يصلي في بيت المقدس، حديث رقم ٣٣٠٥، وقال الألباني في صحيح أبي داود: «صحيح» ٢/٣٢٦.

التفسير:

﴿١٨٣﴾ قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ سبق الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿**كتب عليكم الصيام**﴾ أي فُرض؛ والذي فَرضه هو الله سبحانه وتعالى؛ و﴿**الصيام**﴾ نائب فاعل مرفوع؛ وهو في اللغة الإمساك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿**إني نذرت للرحمن صوماً**﴾ [مريم: ٢٦] يعني إمساكاً عن الكلام بدليل قولها: ﴿**فلن أكلم اليوم إنسياً**﴾ [مريم: ٢٦]؛ وأما في الشرع فإنه التعبد لله بترك المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

قوله تعالى: ﴿**كما كتب**﴾؛ «**ما**» مصدرية؛ والكاف حرف جر؛ وتفيد التشبيه؛ وهو تشبيه للكتابة بالكتابة، وليس المكتوب بالمكتوب؛ والتشبيه بالفعل دون المفعول أمر مطرد، كما في قوله ﷺ: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر**»[1]: التشبيه هنا للرؤية بالرؤية؛ لا للمرئي بالمرئي؛ لأن الكاف دخلت على الفعل الذي يؤول إلى مصدر.

قوله تعالى: ﴿**على الذين من قبلكم**﴾ ـ أي من الأمم السابقة ـ يعم اليهود، والنصارى، ومن قبلهم؛ كلهم كتب عليهم

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ص١٩٠٨، كتاب صفة الجنة، باب ١٧: منه تفسير قوله تعالى: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة...**﴾، حديث رقم ٢٥٥٤، وأخرجه ابن ماجه ص٢٤٨٨، كتاب السنة، باب ١٣: فيما أنكرت الجهمية، حديث رقم ١٧٨، واللفظ للترمذي؛ وقال الألباني في صحيح الترمذي: «صحيح» ٢/ ٣١٥، حديث رقم ٢٠٦٩، والحديث له طرق أخرى في البخاري ومسلم لكن اللفظ يختلف.

الصيام؛ ولكنه لا يلزم أن يكون كصيامنا في الوقت، والمدة.

وهذا التشبيه فيه فائدتان:

الفائدة الأولى: التسلية لهذه الأمة حتى لا يقال: كلفنا بهذا العمل الشاق دون غيرنا؛ لقوله تعالى: ﴿**ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون**﴾ [الزخرف: ٣٩] يعني لن يخفف عنكم العذابَ اشتراكُكم فيه ـ كما هي الحال في الدنيا: فإن الإنسان إذا شاركه غيره في أمر شاق هان عليه؛ ولهذا قالت الخنساء ترثي أخاها صخراً:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أسلي النفس عنه بالتأسي

الفائدة الثانية: استكمال هذه الأمة للفضائل التي سبقت إليها الأمم السابقة؛ ولا ريب أن الصيام من أعظم الفضائل؛ فالإنسان يصبر عن طعامه، وشرابه، وشهوته لله عز وجل؛ ومن أجل هذا اختصه الله لنفسه، فقال تعالى: «**كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي**»[1].

قوله تعالى: ﴿**لعلكم تتقون**﴾؛ «**لعل**» للتعليل؛ ففيها بيان الحكمة من فرض الصوم؛ أي تتقون الله عز وجل؛ هذه هي الحكمة الشرعية التعبدية للصوم؛ وما جاء سوى ذلك من مصالح بدنية، أو مصالح اجتماعية، فإنها تبع.

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٠٣، كتاب اللباس، باب ٧٨: ما يذكر في المسك، حديث رقم ٥٩٢٧؛ وأخرجه مسلم بتمامه ص٨٦٢، باب ٣٠: فضل الصيام، حديث رقم ٢٧٠٧ [١٦٤] (٠٠٠).

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أهمية الصيام؛ لأن الله تعالى صدره بالنداء؛ وأنه من مقتضيات الإيمان؛ لأنه وجه الخطاب إلى المؤمنين؛ وأنّ تركه مخل بالإيمان.

٢ ـ **ومنها**: فرضية الصيام؛ لقوله تعالى: ﴿**كتب**﴾.

٣ ـ **ومنها**: فرض الصيام على من قبلنا من الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿**كما كتب على الذين من قبلكم**﴾.

٤ ـ **ومنها**: تسلية الإنسان بما ألزم به غيره ليهون عليه القيام به؛ لقوله تعالى: ﴿**كما كتب على الذين من قبلكم**﴾.

٥ ـ **ومنها**: استكمال هذه الأمة لفضائل من سبقها، حيث كتب الله عليها ما كتب على من قبلها لتترقى إلى درجة الكمال كما ترقى إليها من سبقها.

٦ ـ **ومنها**: الحكمة في إيجاب الصيام؛ وهي تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿**لعلكم تتقون**﴾.

٧ ـ **ومنها**: فضل التقوى، وأنه ينبغي سلوك الأسباب الموصلة إليها؛ لأن الله أوجب الصيام لهذه الغاية؛ إذاً هذه الغاية غاية عظيمة؛ ويدل على عظمها أنها وصية الله للأولين، والآخرين؛ لقوله تعالى: ﴿**ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله**﴾ [النساء: ١٣١].

ويتفرع على هذه الفائدة اعتبار الذرائع؛ يعني ما كان ذريعة إلى الشيء فإن له حكم ذلك الشيء؛ فلما كانت التقوى واجبة كانت وسائلها واجبة؛ ولهذا يجب على الإنسان أن يبتعد عن مواطن الفتن: لا ينظر إلى المرأة الأجنبية؛ ولا يكلمها كلاماً

يتمتع به معها؛ لأنه يؤدي إلى الفتنة، ويكون ذريعة إلى الفاحشة؛ فيجب اتقاء ذلك؛ حتى إن الرسول ﷺ أمر من سمع بالدجال أن يبتعد عنه حتى لا يقع في فتنته[1].

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: حكمة الله سبحانه وتعالى بتنويع العبادات؛ لأننا إذا تدبرنا العبادات وجدنا أن العبادات متنوعة؛ منها ما هو مالي محض؛ ومنها ما هو بدني محض؛ ومنها ما هو مركب منهما: بدني، ومالي؛ ومنها ما هو كفّ ـ ليتم اختبار المكلف؛ لأن من الناس من يهون عليه العمل البدني دون بذل المال؛ ومنهم من يكون بالعكس؛ ومن الناس من يهون عليه بذل المحبوب؛ ويشق عليه الكف عن المحبوب ومنهم من يكون بالعكس؛ فمن ثَم نوَّع الله سبحانه وتعالى بحكمته العبادات؛ فالصوم كف عن المحبوب قد يكون عند بعض الناس أشق من بذل المحبوب؛ ومن العجائب في زمننا هذا أن من الناس من يصبر على الصيام، ويعظمه؛ ولكن لا يصبر على الصلاة، ولا يكون في قلبه من تعظيم الصلاة ما في قلبه من تعظيم الصيام؛ تجده يصوم رمضان لكن الصلاة لا يصلي إلا من رمضان إلى رمضان ـ إن صلى في رمضان؛ وهذا لا شك خطأ في التفكير؛ لكن الصلاة حيث إنها تتكرر كل يوم صار هيناً على هذا الإنسان تركها؛ والصوم يكون عنده تركه صعباً؛ ولهذا إذا أرادوا ذم إنسان قالوا: إنه لا يصوم، ولا يصلي ـ يبدؤون بالصوم.

---

(١) راجع أحمد ص١٤٥٧، حديث رقم ٢٠١١٦؛ وأبا داود ص١٥٣٧، كتاب الملاحم، باب ١٤: خروج الدجال، حديث رقم ٤٣١٩؛ ومستدرك الحاكم ٤/ ٥٣١، كتاب الفتن والملاحم، وقال الحاكم: «حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم، ولم يخرجاه»، وأقره الذهبي (المرجع نفسه)؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: «صحيح» (٣/ ٣٠، حديث رقم ٤٣١٩).

القرآن

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾.

التفسير:

﴿١٨٤﴾ قوله تعالى: ﴿أياماً﴾ مفعول لقوله تعالى: ﴿الصيام﴾ [البقرة: ١٨٣]؛ لأن الصيام مصدر يعمل عمل فعله ـ أي كتب عليكم أن تصوموا أياماً معدودات؛ و﴿أياماً﴾: نكرة؛ والنكرة تفيد القلة، وتفيد الكثرة، وتفيد العظمة، وتفيد الهون ـ بحسب السياق؛ لما قرنت هنا بقوله تعالى: ﴿معدودات﴾ أفادت القلة؛ يعني: هذا الصيام ليس أشهراً؛ ليس سنوات؛ ليس أسابيع؛ ولكنه أيام معدودات قليلة؛ و﴿معدودات﴾ من صيغ جمع القلة؛ لأن جمع المذكر السالم، وجمع المؤنث السالم من صيغ جمع القلة؛ يعني: فهي أيام قليلة.

قوله تعالى: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ كالاستثناء من قوله تعالى: ﴿كتب عليكم﴾ [البقرة: ١٨٣]؛ لأن قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم﴾ [البقرة: ١٨٣] يشمل المريض، والمسافر، والقادر، والعاجز.

و﴿من﴾ شرطية؛ و﴿كان﴾ فعل الشرط؛ وجملة: ﴿فعدة من أيام أخر﴾ جواب الشرط؛ و«عدة» مبتدأ، والخبر محذوف؛ والتقدير: فعليه عدة؛ ويجوز أن تكون «عدة» خبراً، والمبتدأ محذوف؛ والتقدير: فالواجب عدة؛ أو فالمكتوب عدة.

وقوله تعالى: ﴿فمن كان منكم مريضاً﴾ يعني مرضاً يشق به الصوم؛ أو يتأخر به البرء؛ أو يفوت به العلاج، كما لو قال له

الطبيب: خذ حبوباً كل أربع ساعات، وما أشبه ذلك؛ ودليل التخصيص بمرض يشق به الصوم ما يُفهم من العلة.

وقوله تعالى: ﴿**أو على سفر**﴾ أي السفر المبيح للفطر؛ والحكمة في التعبير بقوله: ﴿**على سفر**﴾ ـ والله أعلم ـ أن المسافر قد يقيم في بلد أثناء سفره عدة أيام، ويباح له الفطر؛ لأنه على سفر، وليست نيته الإقامة، كما حصل للرسول ﷺ في غزوة الفتح فإنه أقام في مكة تسعة عشر يوماً وهو يقصر الصلاة[1]، وأفطر حتى انسلخ الشهر[2].

وقوله تعالى: ﴿**فعدة من أيام أخر**﴾ أي أيام مغايرة.

قوله تعالى: ﴿**وعلى الذين يطيقونه**﴾ أي يستطيعونه، وقال بعض أهل العلم: ﴿**يطيقونه**﴾ أي يطوَّقونه؛ أي يتكلفونه، ويبلغ الطاقة منهم حتى يصبح شاقاً عليهم؛ وقال آخرون: إن في الآية حذفاً؛ والتقدير: وعلى الذين لا يطيقونه فدية؛ وكلاهما ضعيف؛ والثاني أضعف؛ لأن هذا القول يقتضي تفسير المثبت بالمنفي؛ وتفسير الشيء بضده لا يستقيم؛ وأما القول الأول منهما فله وجه؛ لكن ما ثبت في الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع يدل على ضعفه: «**أنه أول ما كتب الصيام كان الإنسان مخيراً بين أن يصوم؛ أو يفطر، ويفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها: ﴿شهر**

---

(١) راجع البخاري ص٨٥، أبواب التقصير: ١٨، باب ١: ما جاء في التقصير، وكم يقيم حتى يقصر، حديث رقم ١٠٨٠.

(٢) راجع البخاري ص١٥٢، كتاب الصوم، باب ٣٨: من أفطر في السفر ليراه الناس، حديث رقم ١٩٤٨؛ ومسلماً ص٨٥٦، كتاب الصيام، باب ١٥: جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر...، حديث رقم ٢٦٠٨ [٨٨] ١١١٣.

رمضان الذي أنزل فيه القرآن...﴾»[(١)]؛ وكذلك ظاهر الآية يدل على ضعفه؛ لأن قوله بآخرها: ﴿**وأن تصوموا خير لكم**﴾ يدل على أنهم يستطيعون الصيام، وأنه خوطب به من يستطيع فيكون ظاهر الآية مطابقاً لحديث سلمة؛ وهذا هو القول الراجح أن معنى ﴿**يطيقونه**﴾: يستطيعونه.

قوله تعالى: ﴿**فدية**﴾ مبتدأ مؤخر خبره: ﴿**على الذين يطيقونه**﴾؛ و﴿**فدية**﴾ أي فداء يفتدي به عن الصوم؛ والأصل أن الصوم لازم لك، وأنك مكلف به، فتفدي نفسك من هذا التكليف والإلزام بإطعام مسكين.

قوله تعالى: ﴿**طعام مسكين**﴾ عطف بيان لقوله تعالى: ﴿**فدية**﴾ أي عليهم لكل يوم طعام مسكين؛ وليس المعنى طعام مسكين لكل شهر؛ بل لكل يوم؛ ويدل لذلك القراءة الثانية في الآية: ﴿**طعام مساكين**﴾ بالجمع؛ فكما أن الأيام التي عليه جمع، فكذلك المساكين الذين يطعَمون لا بد أن يكونوا جمعاً.

وفي قوله تعالى: ﴿**فدية طعام مساكين**﴾ ثلاث قراءات؛ الأولى: ﴿**فديةُ طعامِ مساكينَ**﴾ بحذف التنوين في ﴿**فديةُ**﴾؛ وبجر الميم في ﴿**طعامِ**﴾؛ و﴿**مساكينَ**﴾ بالجمع، وفتح النون بلا تنوين؛ الثانية: ﴿**فديةٌ طعامُ مسكينٍ**﴾؛ بتنوين ﴿**فديةٌ**﴾ مع الرفع؛ و﴿**طعامُ**﴾ بالرفع؛ و﴿**مسكينٍ**﴾ بالإفراد، وكسر النون المنونة؛

---

(١) أخرجه البخاري ص٣٧٠، كتاب تفسير القرآن، باب ٢٦: ﴿**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾، حديث رقم ٤٥٠٧؛ وأخرجه مسلم ص٨٦١، كتاب الصيام، باب ٢٥: بيان نسخ قول الله تعالى: ﴿**وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين**﴾ بقوله تعالى: ﴿**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾، حديث رقم ٢٦٨٥ [١٤٩] ١١٤٥.

الثالثة: ﴿فديةٌ طعامُ مساكينَ﴾؛ بتنوين ﴿فديةٌ﴾ مع الرفع؛ و﴿طعامُ﴾ بالرفع؛ و﴿مساكينَ﴾ بالجمع، وفتح النون بلا تنوين.

وقوله تعالى: ﴿طعام مسكين﴾؛ المراد بالمسكين من لا يجد شيئاً يكفيه لمدة سنة؛ فيدخل في هذا التعريف الفقير؛ فإذا مر بك المسكين فهو شامل للفقير؛ وإذا مر بك الفقير فإنه شامل للمسكين؛ أما إذا جمعا فقد قال أهل العلم: إن بينهما فرقاً: فالفقير أشد حاجة من المسكين؛ الفقير هو الذي لا يجد نصف كفاية سنة؛ وأما المسكين فيجد النصف فأكثر دون الكفاية لمدة سنة.

وقوله تعالى: ﴿فمن تطوع خيراً﴾؛ ﴿تطوع﴾ فعل الشرط؛ وجوابه جملة: ﴿فهو خير له﴾؛ وقوله تعالى: ﴿خيراً﴾ منصوب على أنه مفعول مطلق؛ والتقدير: فمن تطوع تطوعاً خيراً؛ أي فمن فعل الطاعة على وجه خير فهو خير له؛ ويحتمل أن تكون ﴿خيراً﴾ مفعولاً لأجله؛ والمعنى: فمن تطوع يريد خيراً؛ والمراد على كلا التقديرين واحد؛ يعني: فمن فعل الطاعة يقصد بها الخير فهو خير له؛ ومعلوم أن الفعل لا يكون طاعة إلا إذا كان موافقاً لمرضاة الله عز وجل بأن يكون خالصاً لوجهه موافقاً لشريعته؛ فإن لم يكن خالصاً لم يكن طاعة، ولا يقبل؛ وإن كان خالصاً على غير الشريعة لم يكن طاعة، ولا يقبل؛ لأن الأول شرك؛ والثاني بدعة.

قوله تعالى: ﴿فهو خير له﴾: اختلف في ﴿خير﴾ هل نقول: هي للتفضيل؛ أي خير له من سواه؛ أو نقول: إن ﴿خير﴾ اسم دال على مجرد الخيرية بدون مفضل، ومفضل عليه ـ وهذا هو الأقرب ـ ويكون المراد أن من تطوع بالفدية فهو خير له؛ ومطابقة هذا المعنى لظاهر الآية واضح.

قوله تعالى: ﴿**وأن تصوموا خير لكم**﴾: المراد بالخير هنا التفضيل؛ يعني أن تصوموا خير لكم من الفدية؛ وهذا يمثل به النحويون للمبتدأ المؤول: فإن قوله تعالى: ﴿**أن تصوموا**﴾ فعل مضارع مسبوك مع ﴿**أن**﴾ المصدرية بمصدر؛ والتقدير: صومكم خير لكم ـ يعني من الفدية.

قوله تعالى: ﴿**إن كنتم تعلمون**﴾؛ هذه جملة مستأنفة؛ والمعنى: إن كنتم من ذوي العلم فافهموا؛ و﴿**إن**﴾ ليست شرطية فيما قبلها ـ يعني ليست وصلية ـ كما يقولون؛ لأنه ليس المعنى: خيراً لنا إن علمنا؛ فإن لم نعلم فليس خيراً لنا؛ بل هو مستأنف؛ ولهذا ينبغي أن نقف على قوله تعالى: ﴿**خير لكم**﴾.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الصوم أيامه قليلة؛ لقوله تعالى: ﴿**أياماً معدودات**﴾.

٢ ـ **ومنها**: التعبير بكلمات يكون بها تهوين الأمر على المخاطب؛ لقوله تعالى: ﴿**أياماً معدودات**﴾.

٣ ـ **ومنها**: رحمة الله عز وجل بعباده؛ لقلة الأيام التي فرض عليهم صيامها.

٤ ـ **ومنها**: أن المشقة تجلب التيسير؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر**﴾؛ لأن المرض، والسفر مظنة المشقة.

٥ ـ **ومنها**: جواز الفطر للمرض؛ ولكن هل المراد مطلق المرض ـ وإن لم يكن في الصوم مشقة عليه؛ أو المراد المرض الذي يشق معه الصوم، أو يتأخر معه البرء؟ الظاهر الثاني؛ وهو

مذهب الجمهور؛ لأنه لا وجه لإباحة الفطر بمرض لا يشق معه الصوم، أو لا يتأخر معه البرء؛ هذا وللمريض حالات:

الأولى: أن لا يضره الصوم، ولا يشق عليه؛ فلا رخصة له في الفطر.

الثانية: أن يشق عليه، ولا يضره؛ فالصوم في حقه مكروه؛ لأنه لا ينبغي العدول عن رخصة الله.

الثالثة: أن يضره الصوم؛ فالصوم في حقه محرم؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً**﴾ [النساء: ٢٩].

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: جواز الفطر في السفر؛ لقوله تعالى: ﴿**أو على سفر فعدة من أيام أخر**﴾؛ وللمسافر باعتبار صومه في سفره حالات ثلاث:

الأولى: أن لا يكون فيه مشقة إطلاقاً؛ يعني: ليس فيه مشقة تزيد على صوم الحضر؛ ففي هذه الحال الصوم أفضل؛ وإن أفطر فلا حرج؛ ودليله أن الرسول ﷺ كان يصوم في السفر، كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «**خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره في يوم حار حتى يضع الرجل يده على رأسه من شدة الحرّ؛ وما فينا صائم إلا ما كان من النبي ﷺ وابن رواحة**»[1]؛ ولأن الصوم في السفر أسرع في إبراء ذمته؛ ولأنه أسهل عليه غالباً لكون الناس مشاركين له، وثقلِ القضاء غالباً؛ ولأنه يصادف شهر الصوم ـ وهو رمضان.

---

(١) أخرجه البخاري ص١٥٢، كتاب الصوم، باب ٣٥: حديث رقم ١٩٤٥، وأخرجه مسلم ص٨٥٨، كتاب الصيام، باب ١٧: التخيير في الصوم والفطر في السفر (٢٦٣٠ [١٠٨] ١١٢٢).

الحال الثانية: أن يشق عليه الصوم مشقة غير شديدة؛ فهنا الأفضل الفطر؛ والدليل عليه أن النبي ﷺ كان في سفر، فرأى زحاماً، ورجلاً قد ظُلل عليه، فسأل عنه، فقالوا: صائم؛ فقال ﷺ: «**ليس من البر الصيام في السفر**»[1]؛ فنفى النبي ﷺ البر عن الصوم في السفر.

فإن قيل: إن من المتقرر في أصول الفقه أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ وهذا يقتضي نفي البر عن الصوم في السفر مطلقاً؟.

فالجواب: أن معنى قولنا: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» يعني أن الحكم لا يختص بعين الذي ورد من أجله؛ وإنما يعم من كان مثل حاله؛ وقد نص على هذه القاعدة ابن دقيق العيد في شرح الحديث في العمدة؛ وهو واضح.

الحال الثالثة: أن يشق الصوم على المسافر مشقة شديدة؛ فهنا يتعين الفطر؛ ودليله: ما ثبت في الصحيح **أن الرسول ﷺ كان في سفر، فشُكي إليه أن الناس قد شق عليهم الصيام وإنهم ينتظرون ما يفعل؛ فدعا بماء بعد العصر، فشربه، والناس ينظرون؛ ثم جيء إلى النبي ﷺ، وقيل له: إن بعض الناس قد صام فقال ﷺ: «أولئك العصاة! أولئك العصاة!»**[2]؛

---

(١) أخرجه البخاري ص١٥٢، كتاب الصوم، باب ٣٦: قول النبي ﷺ لمن ظلل عليه واشتد الحر: «ليس من البر الصيام في السفر، حديث رقم ١٩٤٦، أخرجه مسلم ٨٥٦ ـ ٨٥٧، كتاب الصيام، باب ١٥: جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية...، حديث رقم ٢٦١٢ [٩٢] ١١١٥.

(٢) أخرجه ص٨٥٦، كتاب الصيام، باب ١٥: جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية، حديث رقم ٢٦١٠ [٩٠] ١١١٤؛ ٢٦١٠ [٩١] ١١١٤.

والمعصية لا تكون إلا في فعل محرم؛ أو ترك واجب.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: أن السفر الذي يباح فيه الفطر غير مقيد بزمن، ولا مسافة؛ لإطلاق السفر في الآية؛ وعلى هذا يرجع فيه إلى العرف: فما عده الناس سفراً فهو سفر؛ وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأن تحديده بزمن، أو مسافة يحتاج إلى دليل.

٨ ـ **ومنها**: أن المتهيئ للسفر كالخارج فيه ـ وإن كان في بلده؛ فإنه يجوز أن يفطر؛ وكان أنس بن مالك يفعل ذلك، ويقول: «**السنة**»[1]؛ لكن هذا الحديث فيه مقال؛ لكن على رأي من أثبته يقول: الإنسان إذا عزم على سفر أصبح مفطراً، وقالوا: هذا خير من كونه يصوم، ثم يفطر؛ لأنه لم يدخل في العبادة أصلاً؛ لكن جمهور أهل العلم على خلاف هذا القول؛ وعلى

---

(١) أخرجه الترمذي ص١٧٢٦، كتاب الصوم، باب ٧٦: ما جاء فيمن أكل ثم خرج يريد سفراً، حديث رقم ٧٩٩، ٨٠٠، وفي الحديث الأول عبد الله بن جعفر بن نجيح المديني البصري؛ قال الحافظ في التقريب: «ضعيف»؛ لكن تابعه محمد بن جعفر بن أبي كثير في الحديث الثاني؛ قال الترمذي: «وهو مديني ثقة» (جامع الترمذي ص١٧٢٦، كتاب الصوم، باب ٧٦: ما جاء فيمن أكل...، حديث رقم ٨٠٠)؛ وفي الحديثين زيد بن أسلم؛ قال الحافظ في التقريب: «ثقة عالم كان يرسل»، ولكنه صرح بالتحديث في حديث رقم ٨٠٠؛ وقال الألباني في صحيح الترمذي في حديث رقم ٧٩٩: «صحيح» (١/ ٢٤٠، حديث رقم ٦٤١ ـ ٨٠٣)؛ وذكر الحديث الثاني في صحيح الترمذي، ولم يعلق عليه (المرجع السابق، حديث رقم ٦٤٢ ـ ٨٠٤)؛ وقال عبد القادر الأرناؤوط: «إسناده حسن» (جامع الأصول ٦/ ٤١٢، حاشية رقم ١).

خلاف بينهم أيجوز لمن سافر في خلال اليوم أن يفطر؛ والصحيح أنه يجوز لدلالة السنة على ذلك.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الظاهرية استدلوا بها على أن من صام في السفر لم يجزئه؛ لقوله تعالى: ﴿**فعدة من أيام أخر**﴾، فأوجب الله سبحانه وتعالى على المريض، والمسافر عدة من أيام أخر؛ فمن صام وهو مريض، أو مسافر صار كمن صام قبل دخول رمضان، وقالوا: «إن الآية ليست فيها شيء محذوف»؛ وهذا القول لولا أن السنة بينت جواز الصوم لكان له وجه قوي؛ لأن الأصل عدم الحذف؛ لكن أجاب الجمهور عن هذا بأن الحذف متعين، وتقدير الكلام: فمن كان مريضاً، أو على سفر فأفطر فعليه عدة من أيام أخر؛ لأن النبي ﷺ صام في رمضان في السفر والصحابة معه منهم الصائم، ومنهم المفطر، ولم يعب أحد على أحد[1]؛ ولو كان الصوم حراماً ما صامه النبي ﷺ، ولأنكر المفطر على الصائم.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه لو صام عن أيام الصيف أيام الشتاء فإنه يجزئ؛ لقوله تعالى: ﴿**فعدة من أيام أخر**﴾؛ وجهه: أن ﴿**أيام**﴾ نكرة.

١١ ـ **ومنها**: حكمة الله سبحانه وتعالى في التدرج بالتشريع، حيث كان الصيام أول الأمر يخير فيه الإنسان بين أن يصوم، ويطعم؛ ثم تعين الصيام كما يدل على ذلك حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

---

(١) راجع مسلماً ص٨٥٦، كتاب الصيام، باب ١٥: جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر...، حديث رقم ٢٦١٨ [٩٦] ١١١٦.

١٢ ـ **ومنها**: أن من عجز عن الصيام عجزاً لا يرجى زواله فإنه يطعم عن كل يوم مسكيناً؛ ووجه الدلالة أن الله سبحانه وتعالى جعل الإطعام عديلاً للصيام حين التخيير بينهما؛ فإذا تعذر الصيام وجب عديله؛ ولهذا ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية في الشيخ الكبير، والمرأة الكبيرة لا يطيقان الصيام، فيطعمان عن كل يوم مسكيناً[(١)].

١٣ ـ **ومنها**: أنه يرجع في الإطعام في كيفيته ونوعه إلى العرف؛ لأن الله تعالى أطلق ذلك؛ والحكم المطلق إذا لم يكن له حقيقة شرعية يرجع فيه إلى العرف.

١٤ ـ **ومنها**: أنه لا فرق بين أن يملّك الفقير ما يطعمه، أو يجعله غداءً، أو عشاءً؛ لأن الكل إطعام؛ وكان أنس بن مالك حين كبر يطعم أدُماً، وخبزاً[(٢)].

١٥ ـ **ومنها**: أن ظاهر الآية لا يشترط تمليك الفقير ما يطعم؛ وهو القول الراجح؛ وقال بعض أهل العلم: إنه يشترط تمليكه؛ فيعطى مداً من البر؛ أو نصف صاع من غيره؛ وقيل: يعطى نصف صاع من البر، وغيره؛ واستدل القائلون بالفرق بين البر وغيره بما قاله معاوية في زكاة الفطر: «أرى المد من هذه ـ يعني البر ـ يعدل مدين من الشعير»[(٣)] فعدل به الناس، وجعلوا

---

(١) أخرجه البخاري ص٣٦٩، كتاب التفسير، باب ٢٤: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام...**﴾، حديث رقم ٤٥٠٥.

(٢) ذكره البخاري معلقاً بصيغة الجزم ص٣٦٩، كتاب التفسير، باب ٢٦: قوله تعالى: ﴿**أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر..**﴾.

(٣) راجع البخاري ص١١٩، كتاب الزكاة، باب ٧٥: صاع من زبيب، =

الفطرة من البر نصف صاع[١]؛ واستدل القائلون بوجوب نصف صاع من البر، وغيره بحديث كعب بن عجرة رضي الله عنه حين أذن له النبي ﷺ بحلق رأسه وهو محرم أن النبي ﷺ قال له مبيناً المجمل في قوله تعالى: ﴿**ففدية من صيام أو صدقة أو نسك**﴾ [البقرة: ١٩٦]، فقال في الصدقة: «**أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع**»[٢]؛ ولم يفرق النبي ﷺ بين طعام وآخر.

١٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن طاعة الله ـ تبارك وتعالى ـ كلها خير؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن تطوع خيراً فهو خير له**﴾.

١٧ ـ **ومنها**: ثبوت تفاضل الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿**وأن تصوموا خير لكم**﴾؛ وتفاضل الأعمال يستلزم تفاضل العامل؛ فينبني على ذلك أن الناس يتفاضلون في الأعمال؛ وهو ما دل عليه الكتاب، والسنة، وإجماع السلف، والواقع؛ قال الله تعالى: ﴿**لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى**﴾ [الحديد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿**لا يستوي القاعدون من**

= حديث رقم ١٥٠٨؛ ومسلماً ص٨٣٣، كتاب الزكاة، باب ٤: زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير، حديث رقم ٢٢٨٥ [١٩] ٩٨٥، واللفظ للبخاري.

(١) راجع البخاري ص١١٩، كتاب الزكاة، باب ٧٤: صدقة الفطر صاعاً من تمر، حديث رقم ١٥٠٧.

(٢) أخرجه البخاري ص١٤٢، كتاب الحج، باب ٧: الإطعام في الفدية نصف صاع حديث رقم ١٨١٦؛ وأخرجه مسلم ص٨٧٤، كتاب الحج، باب ١٠: جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى...، حديث رقم ٢٨٧٧ [٨٠] ١٢٠١.

المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاًّ وعد الله الحسنى وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً * درجات منه ومغفرة ورحمة﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦]؛ والنصوص في هذا كثيرة.

١٨ ـ **ومن فوائد الآية**: التنبيه على فضل العلم؛ لقوله تعالى: **﴿إن كنتم تعلمون﴾**.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾.

التفسير:

﴿١٨٥﴾ قوله تعالى: **﴿شهر رمضان﴾**؛ الشهر هو مدة ما بين الهلالين؛ وسمي بذلك لاشتهاره؛ ولهذا اختلف العلماء هل الهلال ما هلّ في الأفق ـ وإن لم يُرَ؛ أم الهلال ما رئي واشتهر؛ والصواب الثاني، وأن مجرد طلوعه في الأفق لا يترتب عليه حكم شرعي ـ حتى يرى، ويتبين، ويُشهد إلا أن يكون هناك مانع من غيم، أو نحوه؛ و**﴿شهر﴾** مضاف؛ و**﴿رمضان﴾** مضاف إليه ممنوع من الصرف بسبب العلمية وزيادة الألف، والنون؛ مأخوذ

من الرَّمْض؛ واختلف لماذا سمي برمضان؛ فقيل: لأنه يرمض الذنوب ـ أي يحرقها؛ وقيل: لأنه أول ما سميت الشهور بأسمائها صادف أنه في وقت الحر والرمضاء؛ فسمي شهر رمضان؛ وهذا أقرب؛ لأن هذه التسمية كانت قبل الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿**شهر رمضان**﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: هي ـ أي الأيام المعدودات ـ شهر رمضان.

قوله تعالى: ﴿**الذي أنزل فيه القرآن**﴾؛ ﴿**الذي**﴾ صفة لـ﴿**شهر**﴾؛ فمحلها الرفع؛ و﴿**أُنزل فيه القرآن**﴾ أي أنزله الله سبحانه وتعالى فيه؛ ومعروف أن النزول يكون من فوق؛ لأن القرآن كلام الله عز وجل؛ والله سبحانه وتعالى فوق السموات على العرش؛ و﴿**القرآن**﴾ مصدر مثل الغفران، والشكران؛ كلها مصادر؛ ولكن هل هو بمعنى اسم الفاعل؛ أو بمعنى اسم المفعول؟ قيل: إنه بمعنى اسم المفعول ـ أي المقروء؛ وقيل: بمعنى اسم الفاعل ـ أي القارئ؛ فالمعنى على الأول واضح؛ والمعنى على الثاني: أنه جامع لمعاني الكتب السابقة؛ أو جامع لخيري الدنيا، والآخرة؛ ولا يمتنع أن نقول: إنه بمعنى اسم الفاعل، واسم المفعول؛ وهل المراد بـ﴿**القرآن**﴾ الجنس، فيشمل بعضه؛ أو المراد به العموم، فيشمل كله؟ قال بعض أهل العلم: إن «**أل**» للعموم فيشمل كل القرآن؛ وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين المتأخرين؛ وعلى هذا القول يشكل الواقع؛ لأن الواقع أن القرآن نزل في رمضان، وفي شوال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجة... في جميع الشهور؛ ولكن أجابوا عن ذلك بأنه روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في رمضان،

وصار جبريل يأخذه من هذا البيت، فينزل به على رسول الله ﷺ[(١)]؛ لكن هذا الأثر ضعيف؛ ولهذا الصحيح أن «**أل**» هنا للجنس؛ وليست للعموم؛ وأن معنى: ﴿**أنزل فيه القرآن**﴾ أي ابتدئ فيه إنزاله، كقوله تعالى: ﴿**إنا أنزلناه في ليلة مباركة**﴾ [الدخان: ٣]، وقوله تعالى: ﴿**إنا أنزلناه في ليلة القدر**﴾ [القدر: ١] أي ابتدأنا إنزاله.

قوله تعالى: ﴿**هدًى للناس**﴾؛ ﴿**هدًى**﴾: مفعول من أجله؛ أو حال من ﴿**القرآن**﴾؛ فإذا كانت مفعولاً من أجله فالمعنى: أنزل لهداية الناس؛ وإذا كانت حالاً فالمعنى: أنزل هادياً للناس ـ وهذا أقرب؛ و﴿**هدًى**﴾ من الهداية؛ وهي الدلالة؛ فالقرآن دلالة للناس يستدلون به على ما ينفعهم في دينهم، ودنياهم؛ و﴿**للناس**﴾ أصلها الأناس؛ ومنه قول الشاعر:

وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفر منها الأنامل

لكن لكثرة استعمالها حذفت الهمزة تخفيفاً، كما حذفت من «خير» و«شر» اسمي تفضيل؛ والمراد بهم البشر؛ لأن بعضهم يأنس ببعض، ويستعين به؛ فقوله تعالى: ﴿**هدًى للناس**﴾ أي كل الناس يهتدون به ـ المؤمن، والكافر ـ الهداية العلمية؛ أما الهداية العملية فإنه هدًى للمتقين، كما في أول السورة؛ فهو للمتقين هداية علمية، وعملية؛ وللناس عموماً فهو هداية علمية.

قوله تعالى: ﴿**وبينات**﴾ صفة لموصوف محذوف؛ والتقدير: وآيات بينات، كما قال تعالى: ﴿**بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم**﴾ [العنكبوت: ٤٩]؛ والمعنى: أن القرآن اشتمل

---

(١) أخرجه الحاكم ٢/ ٥٣٠، والبيهقي في دلائل النبوة ٧/ ٣١ والأسماء والصفات ٣٠٣.

على الآيات البينات ـ أي الواضحات؛ فهو جامع بين الهداية، والبراهين الدالة على صدق ما جاء فيه من الأخبار، وعلى عدل ما جاء فيه من الأحكام.

قوله تعالى: ﴿**من الهدى**﴾ صفة لـ﴿**بينات**﴾ يعني أنها بينات من الدلالة والإرشاد.

قوله تعالى: ﴿**والفرقان**﴾: مصدر، أو اسم مصدر؛ والمراد أنه يفرق بين الحق، والباطل؛ وبين الخير، والشر؛ وبين النافع، والضار؛ وبين حزب الله، وحرب الله؛ فرقان في كل شيء؛ ولهذا من وفق لهداية القرآن يجد الفرق العظيم في الأمور المشتبهة؛ وأما من في قلبه زيغ فتشتبه عليه الأمور؛ فلا يفرق بين الأشياء المفترقة الواضحة.

قوله تعالى: ﴿**فمن شهد منكم الشهر**﴾؛ ﴿**شهد**﴾ بمعنى شاهد؛ وقيل: بمعنى حضر؛ فعلى القول الأول يرد إشكال في قوله تعالى: ﴿**الشهر**﴾؛ لأن الشهر مدة ما بين الهلالين؛ والمدة لا تشاهد؛ والجواب أن في الآية محذوفاً؛ والتقدير: فمن شهد منكم هلال الشهر فليصمه؛ والقول الثاني أصح: أن المراد بـ﴿**شهد**﴾ حضر؛ ويرجح هذا قوله تعالى: ﴿**ومن كان مريضاً أو على سفر**﴾؛ لأن قوله تعالى: ﴿**على سفر**﴾ يقابل الحضر.

قوله تعالى: ﴿**فليصمه**﴾ أي فليصم نهاره.

قوله تعالى: ﴿**ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر**﴾؛ هذه الجملة سبقت؛ لكن لما ذكر سبحانه وتعالى: ﴿**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾، وكانت هذه الآية ناسخة لما قبلها قد يظن الظان أنه نسخ حتى فطر المريض والمسافر؛ فأعادها سبحانه وتعالى تأكيداً لبيان الرخصة، وأن الرخصة ـ حتى بعد أن تعين

الصيام ـ باقية؛ وهذا من بلاغة القرآن؛ وعليه فليست هذه الجملة من الآية تكراراً محضاً؛ بل تكرار لفائدة؛ لأنه تعالى لو قال: ﴿**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾ ولم يقل: ﴿**ومن كان....**﴾ إلخ، لكان ناسخاً عاماً.

وقوله تعالى: ﴿**ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر**﴾ تقدم الكلام عليها إعراباً، ومعنًى.

قوله تعالى: ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾ تعليل لقوله تعالى: ﴿**ومن كان مريضاً أو على سفر**﴾ إلخ؛ و﴿**يريد**﴾ أي يحب؛ فالإرادة شرعية؛ والمعنى: يحب لكم اليسر؛ وليست الإرادة الكونية؛ لأن الله سبحانه وتعالى لو أراد بنا اليسر كوناً ما تعسرت الأمور على أحد أبداً؛ فتعين أن يكون المراد بالإرادة هنا الشرعية؛ ولهذا لا تجد ـ والحمد لله ـ في هذه الشريعة عسراً أبداً.

قوله تعالى: ﴿**ولتكملوا العدة**﴾؛ الواو عاطفة؛ واللام لام التعليل؛ لأنها مكسورة؛ ويكون العطف على قوله تعالى: ﴿**اليسر**﴾؛ يعني يريد الله سبحانه وتعالى بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر؛ ويريد لتكملوا العدة؛ و«أراد» إذا تعدت باللام فإن اللام تكون زائدة من حيث المعنى؛ لكن لها فائدة؛ وذلك؛ لأن الفعل «أراد» يتعدى بنفسه، كقوله تعالى: ﴿**والله يريد أن يتوب عليكم**﴾ [النساء: ٢٧]؛ وهنا: ﴿**لتكملوا العدة**﴾ يعني: وأن تكملوا العدة؛ أي: ويريد الله منا شرعاً أن نكمل العدة.

وقوله تعالى: ﴿**لتكملوا**﴾ فيها قراءتان؛ بتخفيف الميم؛ وتشديدها؛ وهما بمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿**ولتكبروا الله**﴾؛ الواو للعطف؛ و﴿**لتكبروا**﴾

معطوفة على ﴿لتكملوا﴾ بإعادة حرف الجر؛ أي: ولتقولوا: الله أكبر؛ والتكبير يتضمن: الكِبَرَ بالعظمة، والكبرياءِ، والأمورِ المعنوية؛ والكِبَر في الأمور الذاتية؛ فإن السموات السبع، والأرض في كف الرحمٰن كحبة خردل في كف أحدنا؛ والله أكبر من كل شيء.

قوله تعالى: ﴿على ما هداكم﴾؛ ﴿على﴾: قيل: إنها للتعليل؛ وليست للاستعلاء؛ أي تكبروه لهدايتكم؛ وعبر بـ﴿على﴾ دون اللام إشارة ـ والله أعلم ـ إلى أن التكبير يكون في آخر الشهر؛ لأن أعلى كل شيء آخره؛ و﴿ما﴾ هنا مصدرية تسبك هي، وما بعدها بمصدر؛ فيكون التقدير: على هدايتكم؛ وهذه الهداية تشمل: هداية العلم؛ وهداية العمل؛ وهي التي يعبر عنها أحياناً بهداية الإرشاد، وهداية التوفيق؛ فالإنسان إذا صام رمضان وأكمله، فقد منّ الله عليه بهدايتين: هداية العلم، وهداية العمل.

قوله تعالى: ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي تقومون بشكر الله عز وجل؛ و«لعل» هنا للتعليل؛ و﴿تشكرون﴾ على أمور أربعة؛ إرادة الله بنا اليسر؛ عدم إرادته العسر؛ إكمال العدة؛ التكبير على ما هدانا؛ هذه الأمور كلها نِعَم تحتاج منا أن نشكر الله عز وجل عليها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ولعلكم تشكرون﴾؛ و«الشكر» هو القيام بطاعة المنعم بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: بيان الأيام المعدودات التي أبهمها الله عز وجل في الآيات السابقة؛ بأنها شهر رمضان.

٢ ـ **ومنها**: فضيلة هذا الشهر، حيث إن الله سبحانه وتعالى فرض على عباده صومه.

٣ ـ **ومنها**: أن الله تعالى أنزل القرآن في هذا الشهر؛ وقد سبق في التفسير هل هو ابتداء إنزاله؛ أو أنه نزل كاملاً؛ والظاهر أن المراد ابتداء إنزاله؛ لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ يتكلم بالقرآن حين إنزاله؛ وقد أنزله جل وعلا مفرقاً؛ فيلزم من ذلك أن لا يكون القرآن كله نزل في هذا الشهر.

٤ ـ **ومنها**: أن القرآن كلام الله عز وجل؛ لأن الذي أنزله هو الله، كما في آيات كثيرة أضاف الله سبحانه وتعالى إنزال القرآن إلى نفسه؛ والقرآن كلام لا يمكن أن يكون إلا بمتكلم؛ وعليه يكون القرآن كلام الله عز وجل؛ وهو كلامه سبحانه وتعالى لفظه، ومعناه.

٥ ـ **ومنها**: ما تضمنه القرآن من الهداية لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿**هدًى للناس**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن القرآن الكريم متضمن لآيات بينات واضحة لا تخفى على أحد إلا على من طمس الله قلبه فلا فائدة في الآيات، كما قال عز وجل: ﴿**وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون**﴾ [يونس: ١٠١].

٧ ـ **ومنها**: أن القرآن الكريم فرقان يفرق بين الحق، والباطل؛ وبين النافع، والضار؛ وبين أولياء الله، وأعداء الله؛ وغير ذلك من الفرقان فيما تقتضي حكمته التفريق فيه.

٨ ـ **ومنها**: وجوب الصوم متى ثبت دخول شهر رمضان؛ وشهر رمضان يثبت دخوله إما بإكمال شعبان ثلاثين يوماً، أو برؤية هلاله؛ وقد جاءت السنة بثبوت دخوله إذا رآه واحد يوثق بقوله[1].

---

(١) راجع أبا داود ص١٣٩٧، كتاب الصيام، باب ١٤: في شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان، حديث رقم ٣٣٤٢؛ والدارمي ٢/ ٩، كتاب الصوم، =

٩ ـ **ومنها**: لا يجب الصوم قبل ثبوت دخول رمضان.

ويتفرع على هذا أنه لو كان في ليلة الثلاثين من شعبان غيم، أو قتر يمنع من رؤية الهلال فإنه لا يصام ذلك اليوم؛ لأنه لم يثبت دخول شهر رمضان؛ وهذا هو القول الراجح من أقوال أهل العلم؛ بل ظاهر حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما أن من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ[(١)]: أي أن صيامه إثم.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: التعبير بـ ﴿**شهر رمضان**﴾؛ قال أهل العلم: «وهذا أولى»؛ ويجوز التعبير بـ «**رمضان**» ـ بإسقاط «**شهر**»؛ لقول النبي ﷺ: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً... ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً**»[(٢)]، وقوله ﷺ: «**إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة**»[(٣)]؛ ولا عبرة بقول من كره ذلك.

= باب ٦: الشهادة على رؤية هلال رمضان، حديث رقم ١٦٩١؛ قال الألباني في صحيح أبي داود: «صحيح» (٢/ ٥٥، حديث رقم ٢٣٤٢).

(١) راجع أبا داود ص١٣٩٦، كتاب الصيام، باب ١٠: كراهية صوم يوم الشك، حديث رقم ٢٣٣٤؛ والترمذي ص١٧١٤، أبواب الصوم، باب ٣: ما جاء في كراهية صوم يوم الشك، حديث رقم ٦٨٦؛ والنسائي ص٢٢٣٠، كتاب الصيام، باب ٣٧: صيام يوم الشك، حديث رقم ٢١٩٠؛ وابن ماجه ص٢٥٧٥، أبواب ما جاء في الصيام، باب ٣: ما جاء في صيام يوم الشك، حديث رقم ١٦٤٥؛ والدارمي ٢/ ٥ من كتاب الصوم، باب ١؛ في النهي عن صيام يوم الشك، حديث رقم ١٦٨٢؛ قال الألباني في صحيح أبي داود: «صحيح» (٢/ ٥٢، حديث رقم ٢٣٣٤).

(٢) أخرجه البخاري ص٥، كتاب الإيمان، باب ٢٨: صوم رمضان احتساباً من الإيمان، رقم ٣٨؛ وأخرجه مسلم ص٧٩٧، كتاب صلاة المسافرين، باب ٢٥، الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح، حديث رقم ١٧٨١ [١٧٥] ٧٦٠.

(٣) أخرجه البخاري ص١٤٨، كتاب الصوم، باب ٥: هل يقال رمضان أو =

١١ ـ **ومن فوائد الآية**: تيسير الله ـ تبارك وتعالى ـ على عباده، حيث رخص للمريض الذي يشق عليه الصوم، وللمسافر مطلقاً أن يفطرا، ويقضيا أياماً أخر.

١٢ ـ **ومنها**: إثبات الإرادة لله عز وجل؛ وإرادة الله تعالى تنقسم إلى قسمين:

إرادة كونية: وهي التي بمعنى المشيئة؛ ويلزم منها وقوع المراد سواء كان مما يحبه الله، أو مما لا يحبه الله؛ ومنها قوله تعالى: **﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾** [الأنعام: ١٢٥]؛ وهذه الآية، كقوله تعالى: **﴿من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾** [الأنعام: ٣٩].

وإرادة شرعية: بمعنى المحبة؛ ولا يلزم منها وقوع المراد؛ ولا تتعلق إلا فيما يحبه الله عز وجل؛ ومنها قول الله ـ تبارك وتعالى: **﴿والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾** [النساء: ٢٧، ٢٨].

١٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن شريعة الله سبحانه وتعالى مبنية على اليسر، والسهولة؛ لأن ذلك مراد الله عز وجل في قوله تعالى: **﴿يريد الله بكم اليسر﴾**؛ وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»**[1]؛ وكان ﷺ يبعث

= شهر رمضان...، حديث رقم ١٨٩٨؛ وأخرجه مسلم ص٨٥٠، كتاب الصيام، باب ١: فضل شهر رمضان، حديث رقم ٢٤٩٥ [١] ١٠٧٩.

(١) سبق تخريجه ١/ ٢٤٣.

البعوث، ويقول: «**يسروا ولا تعسروا؛ وبشروا ولا تنفروا**»[(١)]؛ «**فإنما بعثتم ميسرين؛ ولم تبعثوا معسرين**»[(٢)].

١٤ ـ **ومنها**: انتفاء الحرج والمشقة والعسر في الشريعة؛ لقوله عز وجل: ﴿**ولا يريد بكم العسر**﴾.

١٥ ـ **ومنها**: أنه إذا دار الأمر بين التحليل، والتحريم فيما ليس الأصل فيه التحريم فإنه يغلب جانب التحليل؛ لأنه الأيسر، والأحب إلى الله.

١٦ ـ **ومنها**: الأمر بإكمال العدة؛ أي بالإتيان بعدة أيام الصيام كاملاً.

١٧ ـ **ومنها**: مشروعية التكبير عند تكميل العدة؛ لقوله الله تعالى: ﴿**ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم**﴾؛ والمشروع في هذا التكبير أن يقول الإنسان: «**الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد**»؛ وإن شاء أوتر فقال: «**الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد**»؛ وإن شاء أوتر باعتبار الجميع فقال: «**الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد**»؛ فالأمر في هذا واسع ـ ولله الحمد.

١٨ ـ **من فوائد الآية**: أن الله يشرع الشرائع لحكمة،

---

(١) أخرجه البخاري ص٨، كتاب العلم، باب ١١: ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة، حديث رقم ٦٩، وأخرجه مسلم ص٩٨٥، كتاب الجهاد والسير، باب ٣: في الأمر بالتيسير وترك التنفير، حديث رقم ٤٥٢٨ [٨] ١٧٣٤، واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه البخاري ص٢٠، كتاب الوضوء، باب ٥٨: صب الماء على البول في المسجد، حديث رقم ٢٢٠.

وغاية حميدة؛ لقوله تعالى: ﴿**لعلكم تشكرون**﴾.

١٩ ـ **ومنها**: الإشارة إلى أن القيام بطاعة الله من الشكر؛ ويدل لهذا قول النبي ﷺ: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين**، فقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله**﴾؛ وقال تعالى: ﴿**يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً**﴾»[1]؛ وهذا يدل على أن الشكر هو العمل الصالح.

٢٠ ـ **ومنها**: أن من عصى الله عز وجل فإنه لم يقم بالشكر، ثم قد يكون الإخلال كبيراً؛ وقد يكون الإخلال صغيراً ـ حسب المعصية التي قام بها العبد.

تنبيه:

استنبط بعض الناس أن من كانوا في الأماكن التي ليس عندهم فيها شهور، مثل الذين في الدوائر القطبية، يصومون في وقت رمضان عند غيرهم عدة شهر؛ لأن الشهر غير موجود؛ وقال: إن هذا من آيات القرآن؛ فقد جاء التعبير صالحاً حتى لهذه الحال التي لم تكن معلومة عند الناس حين نزول القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿**ولتكملوا العدة**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٢٤٧.

التفسير:

﴿١٨٦﴾ قوله تعالى: ﴿**وإذا سألك**﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ؛ والمراد بقوله تعالى: ﴿**عبادي**﴾: المؤمنون؛ وقوله تعالى: ﴿**عني**﴾ أي عن قربي، وإجابتي بدليل الجواب: وهو قوله تعالى: ﴿**فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان**﴾.

قوله تعالى: ﴿**فإني قريب**﴾: بعضهم قال: إنه على تقدير «قل» أي إذا سألك عبادي عني فقل: إني قريب؛ فيكون جواب ﴿**إذا**﴾ محذوفاً؛ و﴿**إني قريب**﴾ مقول القول المحذوف؛ ويحتمل أن يكون الجواب جملة: ﴿**فإني قريب**﴾ لوضوح المعنى بدون تقدير؛ والضمير في قوله تعالى: ﴿**فإني قريب**﴾ يعود إلى الله.

قوله تعالى: ﴿**فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان**﴾؛ ﴿**قريب**﴾ خبر «**إن**» ؛ و﴿**أجيب**﴾ خبر ثان لـ«**إن**»؛ فيكون خبرها الأول مفرداً؛ وخبرها الثاني جملة؛ و«**الدعاء**» بمعنى الطلب؛ و﴿**الداعِ**﴾ أصلها «**الداعي**» بالياء، كـ«القاضي» و«الهادي»؛ لكن حذفت الياء للتخفيف نظيرها قوله تعالى: ﴿**الكبير المتعال**﴾؛ وأصلها: «**المتعالي**»؛ فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿**إذا دعان**﴾ بعد قوله تعالى: ﴿**الداع**﴾ ـ لأنه لا يوصف بأنه داع إلا إذا دعا؟ فالجواب أن المراد بقوله تعالى: ﴿**إذا دعان**﴾ أي إذا صدق في دعائه إياي بأن شُعر بأنه في حاجة إلى الله، وأن الله قادر على إجابته، وأخلص الدعاء لله بحيث لا يتعلق قلبه بغيره.

وقوله تعالى: ﴿**دعان**﴾ أصلها دعاني ـ بالياء، فحذفت الياء تخفيفاً.

قوله تعالى: ﴿**فليستجيبوا لي**﴾ أي فليجيبوا لي؛ لأن

«استجاب» بمعنى أجاب، كما قال الله تعالى: ﴿**فاستجاب لهم ربهم**﴾ [آل عمران: ١٩٥] أي أجاب، وكما قال الله تعالى: ﴿**والذين استجابوا لربهم**﴾ [الشورى: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿**فليستجيبوا**﴾ عدَّاها باللام؛ لأنه ضمن معنى الانقياد ـ أي فلينقادوا لي؛ وإلا لكانت «أجاب» تتعدى بنفسها؛ نظيرها قوله ﷺ في حديث معاذ رضي الله عنه: «**فإن هم أجابوا لك بذلك**»[1]؛ فضَمَّن الإجابة معنى الانقياد.

قوله تعالى: ﴿**وليؤمنوا بي**﴾ أي وليؤمنوا بأني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان؛ واللام في الفعلين: ﴿**فليستجيبوا**﴾؛ و﴿**ليؤمنوا**﴾ لام الأمر؛ ولهذا سكنت بعد حرف العطف.

قوله تعالى: ﴿**لعلهم يرشدون**﴾؛ «**لعل**» للتعليل؛ وكلما جاءت «**لعل**» في كتاب الله فإنها للتعليل؛ إذ إن الترجي لا يكون إلا فيمن احتاج، ويؤمل كشف ما نزل به عن قرب؛ أما الرب عز وجل فإنه يستحيل في حقه هذا.

و«**الرشد**» يطلق على معانٍ؛ منها: حُسن التصرف، كما في قوله تعالى: ﴿**وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم**﴾ [النساء: ٦]؛ ولا شك أن من آمن بالله، واستجاب له فإنه أحسن الناس تصرفاً، ويوفّق، ويُهدى، وتُيسر له الأمور، كما قال تعالى: ﴿**ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً**﴾ [الطلاق: ٤]، وقال تعالى: ﴿**فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى**﴾ [الليل: ٥ ـ ٧].

---

(١) سبق تخريجه ١/١٤٨.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الصيام مظنة إجابة الدعاء؛ لأن الله سبحانه وتعالى ذكر هذه الآية في أثناء آيات الصيام؛ ولا سيما أنه ذكرها في آخر الكلام على آيات الصيام.

وقال بعض أهل العلم: **يستفاد منها فائدة أخرى**: أنه ينبغي الدعاء في آخر يوم الصيام ـ أي عند الإفطار.

٢ ـ **ومنها**: رأفة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**وإذا سألك عبادي**﴾، حيث أضافهم إلى نفسه تشريفاً، وتعطفاً عليهم.

٣ ـ **ومنها**: إثبات قرب الله سبحانه وتعالى؛ والمراد قرب نفسه؛ لأن الضمائر في هذه الآية كلها ترجع إلى الله؛ وعليه فلا يصح أن يحمل القرب فيها على قرب رحمته، أو ملائكته؛ لأنه خلاف ظاهر اللفظ، ويقتضي تشتيت الضمائر بدون دليل؛ ثم قرب الله عز وجل هل هو خاص بمن يعبده، أو يدعوه؛ أو هو عام؟ على قولين؛ والراجح أنه خاص بمن يعبده، أو يدعوه؛ لأنه لم يَرد وصف الله به على وجه مطلق؛ وليس كالمعية التي تنقسم إلى عامة، وخاصة.

فإن قال قائل: ما الجواب عن قوله تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد * إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد**﴾ [قَ: ١٦، ١٧] ـ وهذا عام؟ فالجواب أن المراد بالقرب في هذا الآية قرب ملائكته بدليل قوله تعالى: ﴿**إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد**﴾ [قَ: ١٧]، ومثلها قوله تعالى: ﴿**فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون**﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٥]: فإن المراد بها قرب الملائكة الذين يقبضون الروح.

فإن قال قائل: كيف الجمع بين قربه جل وعلا وعلوه؟

فالجواب: أن الله أثبت ذلك لنفسه ـ أعني القرب، والعلو؛ ولا يمكن أن يجمع الله لنفسه بين صفتين متناقضتين؛ ولأن الله ليس كمثله شيء في جميع صفاته؛ فهو قريب في علوه عليٌّ في دنوه.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات سمع الله؛ لقوله تعالى: ﴿**أجيب**﴾؛ لأنه لا يجاب إلا بعد أن يُسمعَ ما دعا به.

٥ ـ **ومنها**: إثبات قدرة الله؛ لأن إجابة الداعي تحتاج إلى قدرة.

٦ ـ **ومنها**: إثبات كرم الله؛ لقوله تعالى: ﴿**أجيب دعوة الداع إذا دعان**﴾.

٧ ـ **ومنها**: أن من شرط إجابة الدعاء أن يكون الداعي صادق الدعوة في دعوة الله عز وجل، بحيث يكون مخلصاً مشعراً نفسه بالافتقار إلى ربه، ومشعراً نفسه بكرم الله، وجوده؛ لقوله تعالى: ﴿**إذا دعان**﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن الله تعالى يجيب دعوة الداع إذا دعاه؛ ولا يلزم من ذلك أن يجيب مسألته؛ لأنه تعالى قد يؤخر إجابة المسألة ليزداد الداعي تضرعاً إلى الله، وإلحاحاً في الدعاء؛ فيقوى بذلك إيمانه، ويزداد ثوابه؛ أو يدخره له يوم القيامة؛ أو يدفع عنه من السوء ما هو أعظم فائدة للداعي؛ وهذا هو السر ـ والله أعلم ـ في قوله تعالى: ﴿**أجيب دعوة الداع**﴾.

٩ ـ **ومنها**: أن الإنابة إلى الله عز وجل، والقيام بطاعته سبب للرشد؛ لقوله تعالى: ﴿**فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: أن الاستجابة لا بد أن يصحبها إيمان؛ لأن الله

قرن بينهما؛ فمن تعبد لله سبحانه وتعالى وهو ضعيف الإيمان بأن يكون عنده تردد ـ والعياذ بالله ـ أو شك فإنه لا ينفعه؛ أو يكون عنده إنكار، كما يفعل المنافقون: فإنهم يتعبدون إلى الله عز وجل ظاهراً؛ لكنهم ليس عندهم إيمان؛ فلا ينفعهم.

١١ ـ **ومنها**: إثبات الأسباب، والعلل؛ ففيه رد على الجهمية، وعلى الأشاعرة؛ لأنهم لا يثبتون الأسباب إلا إثباتاً صورياً، حيث يقولون: إن الأسباب لا تؤثر بنفسها لكن يكون الفعل عندها.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

التفسير:

﴿١٨٧﴾ قوله تعالى: ﴿**أحل لكم**﴾ أي أحل الله لكم؛ ونائب الفاعل فيه: ﴿**الرفث إلى نسائكم**﴾؛ و﴿**الرفث**﴾ هو الجماع، والإفضاء؛ والمراد بـ﴿**ليلة الصيام**﴾ جميع ليالي رمضان؛ ﴿**هن لباس لكم وأنتم لباس لهن**﴾: الجملة استئنافية للتعليل ـ أي تعليل حل الرفث إلى النساء ليلة الصيام ـ لأن الزوج لا يستغني

عن زوجه فهو لها بمنزلة اللباس؛ وكذلك هي له بمنزلة اللباس؛ وعبر سبحانه باللباس لما فيه من ستر العورة، والحماية، والصيانة؛ وإلى هذا يشير قول النبي ﷺ: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج**»(١).

ثم بيَّن الله عز وجل حكمة أخرى موجبة لهذا الحل؛ وهي قوله تعالى: ﴿**علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم**﴾ أي تخادعونها بإتيانهن، بحيث لا تصبرون؛ والظاهر ـ والله أعلم ـ أن هذا الاختيان بكون الإنسان يفتي نفسه بأن هذا الأمر هين؛ أو بأنه صار في حال لا تحرم عليه زوجته؛ وما أشبه ذلك؛ وأصل هذا أنهم كانوا في أول الأمر إذا صلى أحدهم العشاء الآخرة، أو إذا نام قبل العشاء الآخرة فإنه يحرم عليه الاستمتاع بالمرأة والأكل والشرب إلى غروب الشمس من اليوم التالي؛ فشق عليهم ذلك مشقة عظيمة حتى إن بعضهم لم يصبر؛ فبين الله عز وجل حكمته، ورحمته بنا، حيث أحل لنا هذا الأمر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم**﴾.

قوله تعالى: ﴿**فتاب عليكم**﴾: أي تاب عليكم بنسخ الحكم الأول الذي فيه مشقة؛ والنسخ إلى الأسهل توبة كما في قوله تعالى في سورة المزمل: ﴿**علم أن لن تحصوه فتاب عليكم**﴾ [المزمل: ٢٠]؛ فيعبر الله عز وجل عن النسخ بالتوبة إشارة إلى أنه

---

(١) أخرجه البخاري ص٤٣٨، كتاب النكاح، باب ٣: من لم يستطع الباءة فليصم، حديث رقم ٥٠٦٦، وأخرجه مسلم ص٩١٠، كتاب النكاح، باب ١: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة...، حديث رقم ٣٣٩٨ [١] ١٤٠٠.

لولا النسخ لكان الإنسان آثماً إما بفعل محرم؛ أو بترك واجب.

قوله تعالى: ﴿**وعفا عنكم**﴾ أي تجاوز عما وقع منكم من مخالفة.

قوله تعالى: ﴿**فالآن باشروهن**﴾: الفاء حرف عطف تقتضي الترتيب ـ يعني فالآن بعد التحريم، وبعد تحقيق التوبة، والعفو باشروهن؛ وكلمة «**الآن**» اسم إشارة إلى الزمن الحاضر؛ وهي مبنية على الفتح في محل نصب؛ والمراد بالمباشرة الجماع؛ وسمي كذلك لالتقاء البشرتين فيه ـ بشرة المرأة، وبشرة الرجل ـ.

قوله تعالى: ﴿**وابتغوا ما كتب الله لكم**﴾ أي اطلبوا ما قدر الله لكم من الولد؛ وذلك بالجماع الذي يحصل به الإنزال.

قوله تعالى: ﴿**وكلوا واشربوا**﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿**باشروهن**﴾ أي لكم الأكل، والشرب.

قوله تعالى: ﴿**حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود**﴾ أي حتى يظهر ظهوراً جلياً يتميز به ﴿**الخيط الأبيض**﴾ وهو بياض النهار ﴿**من الخيط الأسود**﴾ وهو سواد الليل.

قوله تعالى ﴿**من الفجر**﴾ بيان لمعنى ﴿**الخيط الأبيض**﴾؛ ولم يذكر في الخيط الأسود «من الليل» اكتفاءً بالأول، كما في قوله تعالى: ﴿**وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر**﴾ [النحل: ٨١] يعني: والبرد؛ فهذا من باب الاكتفاء بذكر أحد المتقابلين عن المقابل الآخر.

قوله تعالى: ﴿**ثم أتموا الصيام**﴾ أي أكملوا الصيام على وجه التمام؛ ﴿**إلى الليل**﴾ أي إلى دخول الليل؛ وذلك بغروب الشمس؛ لقول النبي ﷺ: «**إذا أقبل الليل من هاهنا ـ وأدبر النهار**

من هاهنا ـ وغربت الشمس فقد أفطر الصائم»[١]؛ وبمجرد غروب الشمس ـ أي غروب قرصها ـ يكون الإفطار؛ وليس بشرط أن تزول الحمرة، كما يظن بعض العوام؛ إذاً الصوم محدود: من، وإلى؛ فلا يزاد فيه، ولا ينقص؛ وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ في الفوائد حكم الوصال.

قوله تعالى: ﴿**ولا تباشروهن**﴾ أي ولا تجامعوهن؛ وذكرها عقب قوله تعالى: ﴿**فالآن باشروهن**﴾ لئلا يظن أن المباشرة المأذون فيها شاملة حال الاعتكاف؛ والضمير «**هن**» يعود على النساء؛ وجملة: ﴿**وأنتم عاكفون في المساجد**﴾ حال من الواو في قوله تعالى: ﴿**لا تباشروهن**﴾؛ و﴿**عاكفون**﴾ اسم فاعل من عكف يعكف؛ والعكوف على الشيء ملازمته، والمداومة عليه؛ ومنه قول إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿**ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون**﴾ [الأنبياء: ٥٢] أي مديمون ملازمون؛ والاعتكاف في الشرع هو التعبد لله سبحانه وتعالى بلزوم المساجد لطاعة الله.

قوله تعالى: ﴿**تلك حدود الله**﴾؛ «**تي**» اسم إشارة؛ واللام للبعد؛ والكاف حرف خطاب؛ والمشار إليه ما ذُكر من أحكام الأكل، والشرب، والجماع في ليالي رمضان؛ و﴿**حدود**﴾ جمع حد؛ و«الحد» في اللغة المنع؛ ومنه حدود الدار؛ لأنها تمنع من دخول غيرها فيها؛ فمعنى ﴿**حدود الله**﴾ أي موانعه؛ واعلم أن حدود الله نوعان:

---

(١) أخرجه البخاري ص١٥٣، كتاب الصوم، باب ٤٣: متى يحل فطر الصائم، حديث، رقم ١٩٥٤، وأخرجه مسلم ص٨٥٣، كتاب الصيام، باب ١٠ بيان وقت انقضاء الصوم وخروج النهار، حديث رقم ٢٥٥٨ [٥١] ١١٠٠.

١ ـ حدود تمنع من كان خارجها من الدخول فيها؛ وهذه هي المحرمات؛ ويقال فيها: ﴿**فلا تقربوها**﴾.

٢ ـ وحدود تمنع من كان فيها من الخروج منها؛ وهذه هي الواجبات؛ ويقال فيها: ﴿**فلا تعتدوها**﴾.

قوله تعالى: ﴿**فلا تقربوها**﴾ الفاء للتفريع؛ و«**لا**» ناهية؛ وإنما نهى عن قربانها حتى نبعد عن المحرم، وعن وسائل المحرم؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد؛ وكم من إنسان حام حول الحمى فوقع فيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**فلا تقربوها**﴾؛ فالمحرمات ينبغي البعد عنها، وعدم قربها.

قوله تعالى: ﴿**كذلك يبين الله**﴾: هذه الجملة ترد في القرآن كثيراً؛ وإعرابها أن الكاف اسم بمعنى «مثل»؛ وهي في محل نصب على المفعولية المطلقة؛ أي مثلَ ذلك البيان يبين الله؛ وعاملها ما بعدها.

وقوله تعالى: ﴿**كذلك**﴾ المشار إليه ما سبق من البيان؛ والبيان في هذه الآية كثير؛ فبين الله سبحانه وتعالى حكم الأكل، والشرب في الليل، وحكم المباشرة للنساء، وحكم الاعتكاف، وموضعه، وما يحرم فيه.. إلخ، المهم عدة أحكام بينها الله.

قوله تعالى: ﴿**آياته للناس**﴾؛ «**آيات**» جمع آية؛ وهي في اللغة العلامة؛ والمراد بها في الشرع: العلامة المعينة لمدلولها.

قوله تعالى: ﴿**لعلهم يتقون**﴾؛ «**لعل**» للتعليل؛ أي يتقون الله عز وجل وتقوى الله سبحانه وتعالى هي اتخاذ وقاية من عذابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ وهذا أجمع ما قيل في «التقوى».

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: رحمة الله تعالى بعباده؛ لنسخ الحكم الأول إلى التخفيف، حيث كانوا قبل ذلك إذا ناموا، أو صلّوا العشاء في ليالي رمضان حرمت عليهم النساء، والطعام، والشراب إلى غروب الشمس من اليوم التالي؛ ثم خفف عنهم بإباحة ذلك إلى الفجر.

٢ ـ **ومنها**: جواز الكلام بين الزوج وزوجته فيما يستحيا منه؛ لقوله تعالى: ﴿**الرفث إلى نسائكم**﴾؛ لأنه مُضَمن معنى الإفضاء.

٣ ـ **ومنها**: جواز استمتاع الرجل بزوجته من حين العقد؛ لقوله تعالى: ﴿**إلى نسائكم**﴾ ما لم يخالف شرطاً بين الزوجين؛ وقد ظن بعض الناس أنه لا يجوز أن يستمتع بشيء من زوجته حتى يعلن النكاح ـ وليس بصحيح ـ؛ لكن هنا شيء يخشى منه؛ وهو الجماع؛ فإنه ربما يحصل حمل؛ وإذا حصل حمل مع تأخر الدخول ربما يحصل في ذلك ريبة؛ فإذا خشي الإنسان هذا الأمر فليمنع نفسه لئلا يحصل ريبة عند العامة.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الزوجة ستر للزوج؛ وهو ستر لها؛ وأن بينهما من القرب كما بين الثياب، ولابسيها؛ ومن التحصين للفروج ما هو ظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿**هن لباس لكم وأنتم لباس لهن**﴾.

٥ ـ **ومنها**: إثبات العلة في الأحكام؛ لقوله تعالى: ﴿**هن لباس لكم**﴾؛ لأن هذه الجملة لتعليل التحليل.

٦ ـ **ومنها**: ثبوت علم الله بما في النفوس؛ لقوله تعالى: ﴿**علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم**﴾.

٧ ـ **ومنها**: أن الإنسان كما يخون غيره قد يخون نفسه؛ وذلك إذا أوقعها في معاصي الله، فإن هذا خيانة؛ وعلى هذا فنفس الإنسان أمانة عنده؛ لقوله تعالى: ﴿**علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم**﴾.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات التوبة لله؛ لقوله تعالى: ﴿**فتاب عليكم**﴾؛ وهذه من الصفات الفعلية.

٩ ـ **ومنها**: إثبات عفو الله؛ لقوله تعالى: ﴿**وعفا عنكم**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: ثبوت النسخ خلافاً لمن أنكره؛ وهو في هذه الآية صريح؛ لقوله تعالى: ﴿**فالآن باشروهن**﴾ يعني: وقبل الآن لم يكن حلالاً.

١١ ـ **ومنها**: أن النسخ إلى الأخف نوع من التوبة إلا أن يراد بقوله تعالى: ﴿**تاب عليكم وعفا عنكم**﴾ ما حصل من اختيانهم أنفسهم.

١٢ ـ **ومنها**: جواز مباشرة الزوجة على الإطلاق بدون تقييد؛ ويستثنى من ذلك الوطء في الدبر، والوطء حال الحيض، أو النفاس.

١٣ ـ **ومنها**: أنه ينبغي أن يكون الإنسان قاصداً بوطئه طلب الولد؛ لقوله تعالى: ﴿**وابتغوا ما كتب الله لكم**﴾؛ وذكروا عن عمر رضي الله عنه أنه لا يجامع إلا إذا اشتهى الولد؛ ولكن مع ذلك لا يمنع الإنسان أن يفعل لمجرد الشهوة؛ فهذا ليس فيه منع؛ بل فيه أجر؛ لقول النبي ﷺ: «**وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا:**

يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: نعم؛ أرأيتم لو وضعها في حرام أيكون عليه وزر؟ قالوا: نعم؛ قال: فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[(١)].

١٤ ـ **من فوائد الآية**: جواز الأكل، والشرب، والجماع في ليالي الصيام حتى يتبين الفجر؛ لقوله تعالى: ﴿**وكلوا واشربوا حتى يتبين**﴾.

أخذ بعض أهل العلم من هذا استحباب السُّحور، وتأخيره؛ وهذا الاستنباط له غور؛ لأنه يقول: إنما أبيح الأكل والشرب ليلة الصيام رفقاً بالمكلف؛ وكلما تأخر إلى قرب طلوع الفجر كان أرفق به؛ فما دام نسخ التحريم من أجل الرفق بالمكلف فإنه يقتضي أن يكون عند طلوع الفجر أفضل منه قبل ذلك؛ لأنه أرفق؛ وهذا استنباط جيد تعضده الأحاديث ـ مثل قول الرسول ﷺ: «**تسحروا فإن في السَّحور بركة**»[(٢)] ـ؛ ففيه بركة لكونه معيناً على طاعة الله؛ وفيه بركة لأنه امتثال لأمر رسول الله ﷺ؛ وفيه بركة لأنه اقتداء برسول الله ﷺ؛ وفيه بركة لأنه يغني عن عدة أكلات، وشرابات في النهار؛ وفيه بركة لأنه فصل بين صيامنا وصيام أهل الكتاب؛ فهذه خمسة أوجه من بركته.

---

(١) أخرجه مسلم ص٨٣٧، كتاب الزكاة، باب ١٦: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم ٢٣٢٩ [٥٣] ١٠٠٦.

(٢) أخرجه البخاري ص١٥٠، كتاب الصوم، باب ٢٠: بركة السحور من غير إيجاب، حديث رقم ١٩٢٣ وأخرجه مسلم ص٨٥٣، كتاب الصيام، باب ٩: فضل السحور وتأكيد استحباب ه...، حديث رقم ٢٥٤٩ [٤٥] ١٠٩٥.

١٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الإنسان لو طلع عليه الفجر وهو يجامع، ثم نزع في الحال فلا قضاء عليه، ولا كفارة؛ لأن ابتداء جماعه كان مأذوناً فيه؛ ولكن استدامته بعد أن تبين الفجر حرام، وعلى فاعله القضاء والكفارة، إلا أن يكون جاهلاً؛ وقد قيل: إنه إذا نزع في هذه الحال فعليه كفارة؛ لأن النزع جماع؛ لكنه قول ضعيف؛ إذ كيف نلزمه بالقضاء والكفارة مع قيامه بما يجب عليه ـ وهو النزع ـ.

١٦ ـ **ومنها**: جواز أن يصبح الصائم جنباً، لأن الله أباح الجماع حتى يتبين الفجر، ولازم هذا أنه إذا أخر الجماع لم يغتسل إلا بعد طلوع الفجر؛ وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه **كان يصبح جنباً من جماع أهله، ثم يصوم**[1].

١٧ ـ **ومنها**: جواز الأكل، والشرب، والجماع مع الشك في طلوع الفجر؛ لقوله تعالى: ﴿**حتى يتبين**﴾؛ فإن تبين أن أكله، وشربه، وجماعه، كان بعد طلوع الفجر فلا شيء عليه.

١٨ ـ **ومنها**: رد قول من قال: إنه يجوز أن يأكل الصائم، ويشرب إلى طلوع الشمس؛ لقوله تعالى: ﴿**حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر**﴾؛ وكذلك رد قول من قال: إنه يجوز أن يأكل ويشرب إلى الغلس.

١٩ ـ **ومن فوائد الآية**: بيان خطأ بعض جهال المؤذنين

---

(١) أخرجه البخاري ص١٥١، كتاب الصوم، باب ٢٥: اغتسال الصائم، حديث رقم ١٩٣١؛ وأخرجه مسلم ص٨٥٥، كتاب الصيام، باب ١٣: صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، حديث رقم ٢٥٨٩ [٧٥] ١١٠٩.

الذين يؤذنون قبل الفجر احتياطاً ـ على زعمهم ـ؛ لأن الله تعالى أباح الأكل، والشرب، والجماع، حتى يتبين الفجر؛ ولأن النبي ﷺ قال: «**إن بلالاً يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم؛ فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر**»[(١)]؛ وهو أيضاً مخالف للاحتياط؛ لأنه يستلزم أن يمتنع الناس مما أحل الله لهم من الأكل، والشرب، والجماع، وأن يقدِّم الناس صلاة الفجر قبل طلوع الفجر؛ وأيضاً فإنه يفتح باباً للمتهاون، حيث يعلم أنه أذن قبل الفجر فلا يزال يأكل إلى أمد مجهول، فيؤدي إلى الأكل بعد طلوع الفجر من حيث لا يشعر؛ ثم اعلم أن الاحتياط الحقيقي إنما هو في اتباع ما جاء في الكتاب، والسنة ـ لا في التزام التضييق والتشديد ـ.

٢٠ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه لو أكل الإنسان يظن أن الفجر لم يطلع، ثم تبين أنه طلع فصيامه صحيح؛ لأنه قد أذن له بذلك حتى يتبين له الفجر؛ وما كان مأذوناً فيه فإنه لا يرتب عليه إثم، ولا ضمان، ولا شيء؛ ومن القواعد الفقهية المعروفة: «ما ترتب على المأذون فهو غير مضمون»؛ وهذا هو ما تؤيده العمومات، مثل قوله تعالى: ﴿**ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا**﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ وقوله تعالى: ﴿**ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم**﴾ [الأحزاب: ٥]؛ وتؤيده أيضاً نصوص خاصة في هذه المسألة نفسها ـ وهو فعل عدي بن حاتم رضي الله عنه،

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٠، كتاب الأذان، باب ١١، أذان الأعمى إذا كان له من يخبره، حديث رقم ٦١٧، وأخرجه مسلم ص٨٥٢، كتاب الصيام،، باب ٨: بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، حديث رقم ٢٥٣٦ [٣٦] ١٠٩٢.

حيث كان يضع عقالين تحت وسادته أحدهما أبيض، والآخر أسود ـ؛ فيأكل وهو يتسحر حتى يتبين له العقال الأبيض من العقال الأسود، ثم يمسك؛ فأخبر النبي ﷺ، وبين له النبي ﷺ المراد في الآية، ولم يأمره بالقضاء[١].

٢١ ـ **ومن فوائد الآية**: الإيماء إلى كراهة الوصال؛ لقوله تعالى: ﴿**كلوا واشربوا حتى يتبين**﴾؛ والوصال معناه أن يقرن الإنسان صوم يومين جميعاً لا يأكل بينهما؛ وقد كان الوصال مباحاً، ثم نهاهم الرسول ﷺ عنه، وقال: «**أيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر**»[٢]؛ ورغب ﷺ في تعجيل الفطر، فقال: «**لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر**»[٣]؛ وهذا من باب أن الشيء قد يكون مأذوناً فيه، وليس بمشروع؛ فالوصال إلى السَّحَر مأذون فيه، ولكن ليس بمشروع؛ ومثال آخر: الصدقة عن الميت: فهذا أمر مأذون فيه، وليس بمشروع.

٢٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الاعتبار بالفجر الصادق الذي

---

(١) راجع البخاري ص١٤٩ ـ ١٥٠، كتاب الصوم، باب ١٦: قول الله تعالى: ﴿**وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل**﴾، حديث رقم ١٩١٦؛ ومسلماً ص٨٥٢، كتاب الصيام، باب ٨: بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر...، حديث رقم ٢٥٣٣ [٣٣] ١٠٩٠.

(٢) أخرجه البخاري ص١٥٣، كتاب الصوم، باب ٤٨: الوصال، حديث رقم ١٩٦٣.

(٣) أخرجه البخاري ص١٥٣، كتاب الصوم، باب ٤٥: تعجيل الفطر، حديث رقم ١٩٥٧، وأخرجه مسلم ص٨٥٣، كتاب الصيام، باب ٩: فضل السحور وتأكيد استحباب ه، حديث رقم ٢٥٥٤ [٤٨] ١٠٩٨.

يكون كالخيط ممتداً في الأفق؛ وذكر أهل العلم أن بين الفجر الصادق والفجر الكاذب ثلاثة فروق:

الفرق الأول: أن الصادق مستطير معترض من الجنوب إلى الشمال؛ والكاذب مستطيل ممتد من الشرق إلى الغرب.

والفرق الثاني: أن الصادق متصل بالأفق؛ وذاك بينه، وبين الأفق ظلمة.

والفرق الثالث: أن الصادق يمتد نوره، ويزداد؛ والكاذب يزول نوره ويظلم.

٢٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن بياض النهار، وسواد الليل يتعاقبان، فلا يجتمعان؛ لقوله تعالى: ﴿**حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود**﴾.

٢٤ ـ **ومنها**: أن الأفضل المبادرة بالفطر؛ لقوله تعالى: ﴿**إلى الليل**﴾؛ وقد جاءت السنة بذلك صريحاً، كما في قوله ﷺ: «**لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر**».

٢٥ ـ **ومنها**: أن الصيام الشرعي من طلوع الفجر إلى غروب الشمس؛ لقوله تعالى: ﴿**ثم أتموا الصيام إلى الليل**﴾.

٢٦ ـ **ومنها**: أن الصيام الشرعي ينتهي بالليل؛ لقوله تعالى: ﴿**إلى الليل**﴾؛ وقد فسر النبي ﷺ ذلك بقوله ﷺ: «**إذا أقبل الليل من هاهنا ـ، وأدبر النهار من هاهنا ـ وغربت الشمس فقد أفطر الصائم**»[1].

٢٧ ـ **ومنها**: الإشارة إلى مشروعية الاعتكاف؛ لأن الله

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٣٤٩.

أقره، ورتب عليه أحكاماً، وقوله تعالى: ﴿**في المساجد**﴾ بيان للواقع؛ لأن الاعتكاف المشروع لا يكون إلا في المساجد.

٢٨ ـ **ومنها**: أن الاعتكاف مشروع في كل مسجد؛ لعموم قوله تعالى: ﴿**في المساجد**﴾؛ فلا يختص بالمساجد الثلاثة ـ كما قيل به ـ؛ وأما حديث حذيفة: «**لا اعتكاف إلا في المساجد الثلاثة**»[1] ـ يعني المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى ـ فإن صح فالمراد به الاعتكاف الكامل.

٢٩ ـ **ومنها**: أن ظاهر الآية أن الاعتكاف يصح في كل مسجد ـ وإن لم يكن مسجد جماعة ـ؛ وهذا الظاهر غير مراد لوجهين:

الوجه الأول: أن «**أل**» في ﴿**المساجد**﴾ للعهد الذهني؛ فتكون دالة على أن المراد بـ﴿**المساجد**﴾ المساجد المعهودة التي تقام فيها الجماعة.

الوجه الثاني: أنه لو جاز الاعتكاف في المسجد الذي لا تقام فيه الجماعة للزم من ذلك أحد أمرين: إما ترك صلاة الجماعة ـ وهي واجبة ـ؛ وإما كثرة الخروج إليها ـ وهذا ينافي الاعتكاف، أو كماله ـ.

٣٠ ـ **ومن فوائد الآية**: النهي عن مباشرة النساء حال الاعتكاف.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق موقوفاً ٣/٣٤٨، حديث رقم ٨٠١٦؛ وأخرجه الطحاوي مرفوعاً في شرح مشكل الآثار ٧/٢٠١، وقال شعيب في تحقيق مشكل الآثار: ورواية من وقفه على حذيفة أصح وأقوى وأثبت (مشكل الآثار للطحاوي بتحقيق شعيب الأرناؤوط ٧/٢٠٣).

٣١ ـ **ومنها**: أن الجماع مبطل للاعتكاف؛ وجه كونه مبطلاً أنه نهي عنه بخصوصه؛ والشيء إذا نهي عنه بخصوصه في العبادة كان من مبطلاتها.

٣٢ ـ **ومنها**: ما استنبطه بعض أهل العلم أن الاعتكاف يكون في رمضان، وفي آخر الشهر؛ لأن الله ذكر حكمه عقب آية الصيام؛ وهذا هو الذي جاءت به السنة: فإن النبي ﷺ لم يعتكف إلا في العشر الأواخر من رمضان حين قيل له: «**إن ليلة القدر في العشر الأواخر**»؛ وكان اعتكافه في العشر الأول، والأوسط يتحرى ليلة القدر؛ فلما قيل له: «**إنها في العشر الأواخر**» ترك الاعتكاف في العشر الأول، والأوسط[1].

٣٣ ـ **ومنها**: أن أوامر الله حدود له؛ وكذلك نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿**تلك حدود الله**﴾.

٣٤ ـ **ومنها**: أنه ينبغي البعد عن المحارم؛ لقوله تعالى: ﴿**فلا تقربوها**﴾؛ وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه، وعرضه؛ ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه؛ ألا وإن لكل ملِك حمى؛ ألا وإن حمى الله محارمه**»[2].

٣٥ ـ **ومنها**: أن الله سبحانه وتعالى يبين للناس الآيات

---

(١) أخرجه البخاري بدون ذكر اعتكاف النبي ﷺ العشر الأول ص١٥٧، كتاب فضل ليلة القدر، باب ١: فضل ليلة القدر، حديث رقم ٢٠١٦، وأخرجه مسلم تاماً ص٨٦٧، كتاب الصيام، باب ٤٠: فضل ليلة القدر والحث على طلبها...، حديث رقم ٢٧٧١ [٢١٥] ١١٦٧.

(٢) سبق تخريجه ٢/ ٢٤.

الكونية، والشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿**كذلك يبين الله آياته للناس**﴾؛ **والآيات الكونية** هي المخلوقات؛ فكل المخلوقات ذواتها، وصفاتها، وأحوالها من الآيات الكونية، كما قال تعالى: ﴿**ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر**﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً**﴾ [الروم: ٢١]، وقال تعالى: ﴿**ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون**﴾ [الروم: ٢٠]... إلخ؛ وكانت المخلوقات آية لله؛ لأنه لا أحد من المخلوق يصنع مثلها.

والآيات الشرعية: هي ما أنزله الله تعالى على رسله، وأنبيائه من الوحي؛ فإنها آيات شرعية تدل على كمال منزلها سبحانه وتعالى في العلم، والرحمة، والحكمة، وغير ذلك مما تقتضيه أحكامها، وأخبارها؛ وجه ذلك أنك إذا تأملت أخبارها وجدتها في غاية الصدق، والبيان، والمصلحة، كما قال تعالى: ﴿**نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن**﴾ [يوسف: ٣]؛ فأحسن الأخبار أخبار الوحي: القرآن، وغيره؛ وأصلحها للخلق قصصها، كما قال تعالى: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾ [يوسف: ١١١]؛ وإذا تأملت أحكامها وجدتها أحسن الأحكام، وأصلحها للعباد في معاشهم، ومعادهم، كما قال تعالى: ﴿**ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**﴾ [المائدة: ٥٠]؛ ولو اجتمع الخلق على أن يأتوا بمثل الأحكام التي أنزلها الله على رسوله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً؛ بهذا تكون آية على ما تقتضيه من صفات الله سبحانه وتعالى.

٣٦ ـ **ومن فوائد الآية**: الرد على أهل التعطيل، وغيرهم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه في أسماء الله، وصفاته؛ وجه

ذلك أنهم لما قالوا: المراد بـ«اليد» النعمة، أو القوة؛ والمراد بـ«الاستواء» الاستيلاء؛ والمراد بكذا كذا ـ وهو خلاف ظاهر اللفظ، ولا دليل عليه ـ صار القرآن غير بيان للناس؛ لأنه ما دام أن البيان خلاف ما ظهر فلا بيان.

٣٧ ـ **ومنها**: أن العلم سبب للتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿**لعلهم يتقون**﴾؛ ووجهه أنه ذكره عقب قوله تعالى: ﴿**كذلك يبين الله آياته للناس**﴾؛ فدل هذا أنه كلما تبينت الآيات حصلت التقوى؛ ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ [فاطر: ٢٨]؛ فكلما ازداد الإنسان علماً بآيات الله ازداد تقًى؛ ولهذا يقال: من كان بالله أعرف كان منه أخوف.

٣٨ ـ **ومنها**: علو مرتبة التقوى؛ لكون الآيات تبين للناس من أجل الوصول إليها.

مسألة:

لو أذن المؤذن للفجر وفي يد الصائم الإناء يشرب منه فهل يجب عليه أن ينزل الإناء، أو له أن يقضي نهمته منه؟ على مذهب الإمام أحمد يجب أن ينزل الإناء؛ بل يجب لو كان في فمه ماء لفْظه؛ وكذلك الطعام؛ وهذا هو ظاهر القرآن؛ لكن ورد في مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة بإسناد صححه أحمد شاكر بأنه **لو أذن المؤذن والإناء في يدك فلا تضعه حتى تقضي حاجتك منه**[1]؛ فإن كان هذا الحديث صحيحاً فإنه يحمل

---

(١) راجع أحمد ص٧٥٢، حديث رقم ١٠٦٣٧؛ وأبا داود ص١٣٩٨، كتاب الصيام، باب ١٨؛ الرجل يسمع النداء والإناء على يده، حديث رقم ٢٣٥٠؛ والحاكم ١/٤٢٦، كتاب الصوم؛ وتفسير الطبري ٣/٥٢٦، =

على أن المؤذن قد احتاط فيؤذن قبل الفجر ـ أي لا يؤخر الأذان إلى أن يطلع الفجر ـ؛ لأنه قد يؤذن وهو لم يتبين له كثيراً فسُمح للإنسان أن يقضي نهمته من الإناء الذي في يده؛ وإنما حملناه على ذلك لظاهر الآية، ولقول النبي ﷺ: «**إن بلالاً يؤذن بليل، فكلوا، واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم؛ فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر**»[1]، وقد يقال: الحديث على ظاهره؛ ووجهه: أن هذا الشارب شرع في شربه في وقت يسمح له فيه، فكان آخر شربه تبعاً لأوله، كما قال النبي ﷺ:

تفسير سورة البقرة آية رقم ١٨٧، حديث ٣٠١٥؛ وفي سنده حماد بن سلمة: قال الحافظ في التقريب: «ثقة عابد أثبت الناس في ثابت، وتغير حفظه بأخرة»؛ وذكره الذهبي في جملة من ذكرهم من الثقات الذين تكلم فيهم بعض الأئمة بما لا يرد أخبارهم، فحديثهم إن لم يكن في أعلى مراتب الصحيح فلا ينزل عن رتبة الحسن، إلا الأحاديث التي تكلم فيه من أجلها، فينبغي التوقف فيها (راجع كتاب: ذكر أسماء من تكلم فيه وهو موثق ص٢٧، ٧٠ ـ ٧١)، وفي سنده أيضاً محمد بن عمرو بن علقمة؛ قال الذهبي: حسن الحديث (ميزان الاعتدال ٣/ ٦٧٣)؛ ولم ينفرد به محمد بن عمرو، بل تابعه عمار بن أبي عمار (راجع أحمد ص٧٥٣، حديث رقم ١٠٦٣٨)؛ قال أبو حاتم في عمار: ثقة لا بأس به (الجرح والتعديل ٦/ ٣٨٩ رقم ٢١٦٧). وأما الحديث فقد قال الحاكم فيه: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٤٢٦، كتاب الصوم)؛ وقال الألباني: «حسن صحيح» (صحيح أبي داود ٢/ ٥٧، حديث رقم ٢٣٥٠)؛ وذكره في السلسلة الصحيحة (المجلد الثالث، ص٣٨٢، حديث رقم ١٣٩٤)، وقال عبد القادر الأرناؤوط: «إسناده صحيح» (جامع الأصول ٦/ ٣٧١، حاشية رقم ٢).

(١) سبق تخريجه ٢/ ٣٥٥.

«**من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة**»[١]؛ ويكون هذا مما سامح به الشارع.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

التفسير:

مناسبة هذه الآية لما سبق مناسبة واضحة؛ لأن ما سبق في آيات الصيام تحريم لأشياء خاصة في زمان خاص؛ وهذه الآية تحريم عام في زمانه، وفي مكانه؛ هذا وجه المناسبة: أنه لما ذكر التحريم الخاص الذي يحصل في الصيام بيَّن التحريم العام الذي يحصل في الصيام، وفي غير الصيام.

﴿١٨٨﴾ قوله تعالى: ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**﴾؛ المراد بالأكل ما هو أعم منه، فيشمل الانتفاع بغير الأكل من الملبوسات، والمفروشات، والمسكونات، والمركوبات؛ لكنه خَص الأكل؛ لأنه أقوى وجوه الانتفاع؛ الإنسان ينتفع في المال ببناء مسكن له ـ وهو منفصل عنه ـ؛ ويفترش الفراش فينتفع به ـ وهو منفصل عنه ـ؛ إلا أنه ألصق به من البيت؛ ويلبس ثوباً

---

(١) أخرجه البخاري ص٤٧، كتاب مواقيت الصلاة، باب ٢٩: من أدرك من الصلاة ركعة، حديث رقم ٥٨٠، وأخرجه مسلم ص٧٧٢، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ٣٠، من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك تلك الصلاة، حديث رقم ١٣٧١ [١٦١]، ٦٠٧.

فينتفع به ـ وهو منفصل عنه ـ؛ إلا أنه ألصق به من الفراش؛ والإنسان يأكل الأكل فينتفع ـ وهو متصل ممازج لعروقه ـ؛ فكان أخص أنواع الانتفاع، وألصقها بالمنتفع؛ ولهذا ذكر بعض أهل العلم ـ رحمهم الله ـ أن الإنسان إذا كان عنده مال مشتبه ينبغي أن يصرفه في الوقود؛ لا يصرفه في الأكل والشرب يتغذى بهما البدن وهما أخص انتفاع بالمال؛ فإذا كان الله تعالى يقول: ﴿**لا تأكلوا أموالكم**﴾ وهو أخص الانتفاع، والذي قد يكون الإنسان في ضرورة إليه: لو لم يفعل لهلك ـ لو لم يأكل لمات ـ؛ فكيف بغيره!!!

وقوله تعالى: ﴿**أموالكم**﴾: عندنا آكل، ومأكول عنه؛ فإذا كنت أنت أيها الآكل لا ترضى أن يؤكل مالك فكيف ترضى أن تأكل مال غيرك؛ فاعتبر مال غيرك بمنزلة مالك في أنك لا ترضى أن يأكله أحد؛ وبهذا تتبين الحكمة في إضافة الأموال المأكولة للغير إلى آكلها؛ و﴿**بينكم**﴾ أي في العقود من إجارات، وبيوع، ورهون، وغيرها؛ لأن هذه تقع بين اثنين؛ فتصدق البينية فيها.

وقوله تعالى: ﴿**بالباطل**﴾؛ الباء للتعدية؛ أي تتوصلون إليه بالباطل؛ و«**الباطل**» كل ما أخذ بغير حق.

قوله تعالى: ﴿**وتدلوا بها إلى الحكام**﴾؛ الضمير المجرور يعود إما على الأموال؛ وإما على المحاكمة؛ والإدلاء أصلها مأخوذ من: أدلى دلوه؛ ومعلوم أن الذي يدلي دلوه يريد التوصل إلى الماء؛ فمعنى: ﴿**تدلوا بها إلى الحكام**﴾ أي تتوصلوا بها إلى الحكام لتجعلوا الحكام وسيلة لأكلها بأن تجحد الحق الذي

عليك وليس به بينة؛ ثم تخاصمه عند القاضي، فيقول القاضي للمدعي عليك: «هاتِ بينة»؛ وإذا لم يكن للمدعي بينة توجهت عليك اليمين؛ فإذا حلفت برئت؛ فهنا توصلت إلى جحد مال غيرك بالمحاكمة؛ هذا أحد القولين في الآية؛ والقول الثاني: أن معنى: ﴿**تدلوا بها إلى الحكام**﴾ أي توصلوها إليهم بالرشوة ليحكموا لكم؛ وكلا القولين صحيح.

قوله تعالى: ﴿**لتأكلوا**﴾؛ قد يقول قائل: إن فيها إشكالاً؛ لأنه تعالى قال: ﴿**ولا تأكلوا**﴾، ثم قال تعالى: ﴿**لتأكلوا**﴾ كيف يعلل الحكم بنفس الحكم؟ فنقول: إن اللام هنا ليست للتعليل؛ اللام هنا للعاقبة ـ يعني أنكم إذا فعلتم ذلك وقعتم في الأكل ـ أكل فريق من أموال الناس ـ؛ وتأتي اللام للعاقبة، كما في قوله تعالى: ﴿**فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً**﴾ [القصص: ٨]: فآل فرعون لم يلتقطوه لهذا الغرض؛ ولكن كانت هذه العاقبة.

قوله تعالى: ﴿**فريقاً من أموال الناس**﴾؛ الفريق بمعنى الطائفة؛ وسمي فريقاً؛ لأنه يُفْرَق عن غيره؛ فهذا فريق من الناس ـ يعني طائفة منهم افترقت، وانفصلت ـ؛ لو قال قائل: قد يأكل كل مال المدعى عليه لا فريقاً منه؟ فالجواب من وجهين:

الأول: أنه لو أكل جميع مال المدعى عليه لم يأكل جميع أموال الناس؛ لأن مال المدعى عليه فريق من أموال الناس.

الثاني: أنه إذا كان النهي عن أكل فريق من أموال المدعى عليه فهو تنبيه بالأدنى على الأعلى.

قوله تعالى: ﴿**بالإثم**﴾؛ الباء للمصاحبة؛ يعني أكلاً

مصحوباً بالإثم ـ وهو الذنب ـ؛ وذلك لأنه باطل.

قوله تعالى: ﴿**وأنتم تعلمون**﴾: الجملة حالية؛ وهي قيد للحكم على أعلى أنواع بشاعته؛ لأن من أكل أموال الناس بالباطل عالماً أبشع مما لو أكله جاهلاً.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: تحريم أكل المال بالباطل؛ و«الباطل» كل شيء ليس لك به حق شرعاً.

٢ ـ **ومنها**: حرص الشارع على حفظ الأموال؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**﴾؛ ولأن الأموال تقوم بها أمور الدين، وأمور الدنيا، كما قال تعالى: ﴿**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً**﴾ [النساء: ٥].

٣ ـ **ومنها**: تحريم الرشوة؛ لقوله تعالى: ﴿**وتدلوا بها إلى الحكام**﴾ على أحد التفسيرين، كما سبق.

٤ ـ **ومنها**: أن الحاكم يحكم بما ظهر له ـ يعني يقضي بما سمع ـ؛ كما قال الرسول ﷺ: «**إنما أقضي بينكم على نحو ما أسمع**»[1]؛ لقوله تعالى: ﴿**وتدلوا بها إلى الحكام**﴾؛ وهذه فيمن يدعي ما ليس له، ويخاصم، ويقيم بينة كذباً؛ أو يجحد ما عليه، ويخاصم، ويحلف كاذباً؛ كل هذا من الإدلاء بها إلى الحكام؛ لكن إن علم الحاكم أن الحق بخلاف ما سمع فالواجب عليه

---

(١) أخرجه أحمد ٦/٣٠٧، حديث رقم ٢٧١٥٣، واللفظ له؛ وأخرجه البخاري ص٥٨١، كتاب الحيل، باب ١٠: حديث رقم ٦٩٦٧؛ وأخرجه مسلم ص٩٨١، كتاب الأقضية، باب ٣: بيان أن حكم الحاكم لا يغير الباطن، حديث رقم ٤٤٧٣ [٤] ١٧١٣.

التوقف في الحكم، وإحالة القضية إلى حاكم آخر ليكون هو شاهداً بما علم.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: تيسير الله سبحانه وتعالى على الحكام بين الناس، حيث لا يعاقبهم على الأمور الباطنة؛ وإلا لكان الحكام في حرج، ومشقة؛ وجه ذلك من الآية أن الحاكم إذا حكم بما ظهر له ـ وإن كان خلاف الواقع ـ فلا إثم عليه.

٦ ـ **ومنها**: أن من حُكم له بما يعتقد أنه حق فلا إثم عليه؛ لكن لو تبين له بعد الحكم أنه لا حق له وجب عليه الرجوع إلى الحق؛ مثاله: لو فرض أن غريمه أوفاه؛ لكنه ناسٍ، وحلف أنه لم يوفه، وحُكم له فلا إثم عليه؛ لكن متى ذكر أنه قد أوفي وجب عليه رد المال إلى صاحبه.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾.

التفسير:

﴿١٨٩﴾ قوله تعالى: ﴿**يسألونك عن الأهلة**﴾؛ ﴿**الأهلة**﴾ جمع هلال؛ وهو القمر أول ما يكون شهراً؛ وسمي هلالاً لظهوره؛ ومنه: الاستهلال؛ والإهلال هو رفع الصوت، كما في حديث خلاد بن السائب عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «**أتاني جبريل**

فأمرني أن آمر أصحابي أن يرفعوا أصواتهم بالإهلال»[(١)] يعني بالتلبية؛ ومنه قولهم: «استهل المولود» إذا صرخ بعد وضعه.

وقوله تعالى: ﴿**يسألونك عن الأهلة**﴾ يعني: الحكمة فيها بدليل الجواب: ﴿**قل هي مواقيت للناس والحج**﴾؛ وأما ما ذكره أهل البلاغة من أنهم سألوا الرسول ﷺ عن السبب في كون الهلال يبدو صغيراً، ثم يكبر؛ فأجاب الله سبحانه وتعالى ببيان الحكمة؛ وقالوا: إن هذا من أسلوب الحكيم أن يجاب السائل بغير ما يتوقع إشارة إلى أنه كان ينبغي أن يُسأل عن هذا؛ فالصواب أنهم لم يسألوا الرسول عن هذا؛ ولكن سألوه عن الحكمة من الأهلة، وأن الله سبحانه وتعالى خلقها على هذا الوجه؛ والدليل: الجواب؛ لأن الأصل أن الجواب مطابق للسؤال إلا أن يثبت ذلك بنص صحيح.

قوله تعالى: ﴿**قل هي**﴾ أي الأهلة ﴿**مواقيت للناس**﴾ جمع ميقات ـ من الوقت ـ؛ أي يوقتون بها أعمالهم التي تحتاج إلى توقيت بالأشهر، كعدة الوفاة أربعة أشهر وعشر، وعدة المطلقة

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٥٥، حديث رقم ١٦٦٧٢؛ وأخرجه الترمذي ص١٧٢٩، كتاب الحج، باب ١٥: ما جاء في رفع الصوت بالتلبية، حديث رقم ٨٢٩؛ وأخرجه أبو داود ص١٣٥٨، كتاب المناسك، باب ٢٦: كيف التلبية، حديث رقم ١٨١٤، وأخرجه ابن ماجه ص٢٦٥٣، باب ١٦: رفع الصوت بالتلبية، حديث رقم ٢٩٢٢، وأخرجه مالك في الموطأ ١/ ٢٧٢، كتاب الحج، باب ١٠: رفع الصوت بالإهلال حديث ٣٤، وأخرجه الدارمي ٢/ ٥٣، من كتاب المناسك، باب ١٤: في رفع الصوت بالتلبية، حديث رقم ١٨٠٩، قال الألباني في صحيح الترمذي: «صحيح»، ١/ ٢٥٠، حديث رقم ٦٦٣.

بعد الدخول إذا كانت لا تحيض ثلاثة أشهر، وآجال ديونهم، وإجاراتهم، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿**والحج**﴾ يعني مواقيت للحج؛ لأن الحج أشهر معلومات تبتدئ بدخول شوال، وتنتهي بانتهاء ذي الحجة؛ ثلاثة أشهر؛ وكذلك هي مواقيت للصيام، كما قال تعالى: ﴿**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ لكن سياق الآيات توطئة لبيان أشهر الحج؛ فلهذا قال تعالى: ﴿**مواقيت للناس والحج**﴾؛ ولم يذكر الصيام؛ لأنه سبق.

قوله تعالى: ﴿**وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها**﴾؛ ﴿**البر**﴾ هو الخير الكثير؛ وسمي الخير براً لما فيه من السعة؛ ومنه في الاشتقاق «البَرّ» ـ الذي هو الخلاء: وهو ما سوى البنيان ـ لسعته.

وقوله تعالى: ﴿**بأن تأتوا**﴾: الباء حرف جر زائد للتوكيد؛ يعني: وليس البر بإتيانكم البيوت من ظهورها؛ و﴿**البُيوت**﴾ بضم الباء؛ وفي قراءة بكسر الباء.

وقوله تعالى: ﴿**من ظهورها**﴾؛ ﴿**من**﴾ بيانية؛ أي تأتوها من الخلف؛ وكانوا في الجاهلية من سفههم يأتون البيوت من ظهورها إذا أحرموا بحج، أو بعمرة إلا قريشاً؛ فإنهم يأتونها من أبوابها؛ أما غيرهم فيقولون: نحن أحرمنا؛ لا يمكن أن ندخل بيوتنا من أبوابها؛ هذا يبطل الإحرام؛ لا بد أن نأتي من الظهور لئلا يسترنا سقف البيت؛ فكانوا يتسلقون البيوت مع الجدران من الخلف، ويعتقدون أن ذلك بِرّ وقربة إلى الله عز وجل؛ فنفى الله هذا، وأبطله بقوله تعالى: ﴿**وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها**﴾؛

لما فيه من التعسير، ولما فيه من السفه ومخالفة الحكمة، فهو خلاف البر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها**﴾.

قوله تعالى: ﴿**ولكن البر من اتقى**﴾؛ وفي قراءة: ﴿**ولكنِ البرُّ**﴾ بتخفيف النون في ﴿**لكنِ**﴾؛ ورفع ﴿**البرُّ**﴾؛ على أن تكون ﴿**لكن**﴾مخففة من الثقيلة مهملة؛ و﴿**البر**﴾ مبتدأ؛ أما على قراءة التشديد فهي عاملة؛ و﴿**البر**﴾ اسمها؛ وقوله تعالى: ﴿**البر من اتقى**﴾: ﴿**البر**﴾ اسم معنى؛ و﴿**من اتقى**﴾ اسم جثة؛ كيف يخبر بالجثة عن اسم المعنى؟ فالجواب أنه يخرج على واحد من أوجه ثلاثة:

الوجه الأول: أن يكون المصدر هنا بمعنى اسم الفاعل؛ أي: ولكن البار.

الوجه الثاني: أن يكون المصدر على تقدير محذوف؛ أي: ولكن البر بر من اتقى.

الوجه الثالث: أن هذا على سبيل المبالغة أن يجعل ﴿**من اتقى**﴾ نفس البر، كما يصفون المصدر فيقولون: فلان عدل، ورضا.

وقوله تعالى: ﴿**من اتقى**﴾ أي اتقى الله عز وجل؛ لأن الاتقاء في مقام العبادة إنما يراد به اتقاء الله عز وجل؛ البر هو التقوى؛ هذا هو حقيقة البر؛ لا أن تتقي دخول البيت من بابه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وأتوا البيوت من أبوابها**﴾ أي من جهة الباب فإن هذا هو الخير.

قوله تعالى: ﴿**واتقوا الله**﴾ أي اجعلوا لكم وقاية من عذابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

قوله تعالى: ﴿**لعلكم تفلحون**﴾؛ «**لعل**» للتعليل؛ أي لأجل أن تنالوا الفلاح؛ و«**الفلاح**» هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: حرص الصحابة رضي الله عنهم على العلم، وأنهم يسألون عن أمور الدين، وأمور الدنيا؛ لأن هذا مما يتعلق بالدنيا.

٢ ـ **ومنها**: عناية الله سبحانه وتعالى برسوله ﷺ، حيث يجيب عن الأسئلة الموجهة إليه؛ وهذا من معونة الله للرسول ﷺ، وعنايته به.

٣ ـ **ومنها**: بيان علم الله، وسمعه، ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿**يسألونك**﴾؛ علم الله بسؤالهم، وسمعه، ورحمهم بالإجابة.

٤ ـ **ومنها**: أن الحكمة من الأهلة أنها مواقيت للناس في شؤون دينهم، ودنياهم؛ لقوله تعالى: ﴿**مواقيت للناس**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن ميقات الأمم كلها الميقات الذي وضعه الله لهم ـ وهو الأهلة ـ؛ فهو الميقات العالمي؛ لقوله تعالى: ﴿**مواقيت للناس**﴾؛ وأما ما حدث أخيراً من التوقيت بالأشهر الإفرنجية فلا أصل له من محسوس، ولا معقول، ولا مشروع؛ ولهذا تجد بعض الشهور ثمانية وعشرين يوماً، وبعضها ثلاثين يوماً، وبعضها واحداً وثلاثين يوماً من غير أن يكون سبب معلوم أوجب هذا الفرق؛ ثم إنه ليس لهذه الأشهر علامة حسية يرجع الناس إليها في تحديد أوقاتهم ـ بخلاف الأشهر الهلالية فإن لها علامة حسية يعرفها كل أحد ـ.

٦ ـ **ومنها**: أن الحج مقيد بالأشهر؛ لقوله تعالى: ﴿**والحج**﴾.

٧ ـ **ومنها**: أن البر يكون بالتزام ما شرعه الله، والحذر من معصيته؛ لقوله تعالى: ﴿**ولكن البر من اتقى**﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن العادات لا تجعل غير المشروع مشروعاً؛ لقوله تعالى: ﴿**وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها**﴾ مع أنهم اعتادوه، واعتقدوه من البر؛ فمن اعتاد شيئاً يعتقده براً عُرِض على شريعة الله.

٩ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان أن يأتي الأمور من أبوابها؛ لقوله تعالى: ﴿**وأتوا البيوت من أبوابها**﴾؛ فإن هذه الآية كما تناولت البيوت الحسية كذلك أيضاً تناولت الأمور المعنوية؛ فإذا أردت أن تخاطب مثلاً شخصاً كبير المنزلة فلا تخاطبه بما تخاطب سائر الناس؛ ولكن ائت من الأبواب؛ لا تتجشم الأمر تجشماً؛ لأنك قد لا تحصل المقصود؛ بل تأتي من بابه بالحكمة، والموعظة الحسنة حتى تتم لك الأمور.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله سبحانه وتعالى إذا نهى عن شيء فتح لعباده من المأذون ما يقوم مقامه؛ فإنه لما نفى أن يكون إتيان البيوت من ظهورها من البر بيّن ما يقوم مقامه، فقال تعالى: ﴿**وأتوا البيوت من أبوابها**﴾؛ وله نظائر منها قوله تعالى: ﴿**لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا**﴾ [البقرة: ١٠٤]؛ ومنها قول النبي ﷺ لمن قال له: «ما شاء الله وشئت»: «**أجعلتني لله نداً؛ بل ما شاء الله وحده**»[1]؛ والأمثلة في هذا كثيرة.

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٢١٧.

١١ ـ **ومنها**: وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿**واتقوا الله**﴾.

١٢ ـ **ومنها**: أن التقوى تسمى براً.

١٣ ـ **ومنها**: أن التقوى سبب للفلاح؛ لقوله تعالى: ﴿**لعلكم تفلحون**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾.

التفسير:

﴿١٩٠﴾ قوله تعالى: ﴿**قاتلوا**﴾ فعل أمر؛ والمقاتلة مفاعلة من الجانبين؛ يعني اقتلوهم بمقاتلتهم إياكم؛ ولكن قال: ﴿**في سبيل الله**﴾ أي في دينه، وشرعه، ولأجله؛ فسبيل الله سبحانه وتعالى يتناول الدين، وأن يكون القتال في حدود الدين، وعلى الوجه المشروع، ولله وحده؛ فهو يتضمن الإخلاص، والمتابعة؛ ولهذا قدم المقاتَل من أجله قبل المقاتَل إشارة إلى أنه ينبغي الإخلاص في هذا القتال؛ لأنه ليس بالأمر الهين؛ فإن المقاتِل يَعرض رقبته لسيوف الأعداء؛ فإذا لم يكن مخلصاً لله خسر الدنيا والآخرة: قتل، ولم تحصل له الشهادة؛ فنبه بتقديم المراد ﴿**في سبيل الله**﴾ ليكون قتاله مبنياً على الإخلاص.

قوله تعالى: ﴿**الذين يقاتلونكم**﴾ أي ليصدوكم عن دينكم؛ وهذا القيد للإغراء؛ لأن الإنسان إذا قيل له: «قاتل من يقاتلك» اشتدت عزيمته، وقويت شكيمته؛ وعلى هذا فلا مفهوم لهذا القيد.

قوله تعالى: ﴿**ولا تعتدوا**﴾ أي في المقاتلة؛ والاعتداء في المقاتلة يشمل الاعتداء في حق الله، والاعتداء في حق المقاتَلين؛ أما الاعتداء في حق الله فمثل أن نقاتلهم في وقت لا يحل القتال فيه، مثل أن نقاتلهم في الأشهر الحرم ـ على القول بأن تحريم القتال فيها غير منسوخ ـ؛ وأما في حق المقاتَلين فمثل أن نُمَثِّل بهم؛ لأن النبي ﷺ نهى عن المثلة[1].

قوله تعالى: ﴿**إن الله لا يحب المعتدين**﴾: الجملة هنا تعليل للحكم؛ والحكم: النهي عن الاعتداء.

وقوله تعالى: ﴿**المعتدين**﴾ أي في القتال، وغيره؛ و«**الاعتداء**» تجاوز ما يحل له.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: وجوب القتال؛ لقوله تعالى: ﴿**وقاتلوا**﴾؛ ووجوب أن يكون في سبيل الله ـ أي في شرعه، ودينه، ومن أجله ـ؛ لقوله تعالى: ﴿**في سبيل الله**﴾؛ وقد دل الكتاب والسنة على أنه إذا كان العدو من أهل الكتاب ـ اليهود، والنصارى ـ فإنهم يدعون إلى الإسلام؛ فإن أبوا أخذت منهم الجزية؛ فإن أبوا قوتلوا؛ واختلف العلماء فيمن سواهم من الكفار: هل يعاملون معاملتهم؛ أو يقاتلون إلى أن يسلموا؛ والقول الراجح أنهم يعاملون معاملتهم، كما يدل عليه حديث بريدة[2] الثابت في صحيح مسلم؛ وقد ثبت أن النبي ﷺ أخذ

---

(١) راجع مسلم ص٩٨٥، كتاب الجهاد والسير، باب ٢: تأمير الإمام الأمراء على البعوث...، حديث رقم ٤٥٢٢ [٣] ١٧٣١.

(٢) المرجع السابق.

الجزية من مجوس هجر[١] ـ وهو يدل على أن أخذ الجزية ليس خاصاً بأهل الكتاب ـ.

٢ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للمتكلم أن يذْكر للمخاطب ما يهيجه على الامتثال؛ لقوله تعالى: ﴿**الذين يقاتلونكم**﴾؛ هذا إذا قلنا: إنها قيد للتهييج، والإغراء؛ فإن قلنا: «إنها قيد معنوي يراد به إخراج من لا يقاتلوننا»، اختلف الحكم.

٣ ـ **ومنها**: تحريم الاعتداء حتى على الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تعتدوا**﴾؛ وعلى المسلمين من باب أولى؛ ولهذا قال الرسول ﷺ لمن يبعثهم، كالسرايا والجيوش: «**لا تمثلوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً**»[٢]؛ لأن هذا من العدوان.

٤ ـ **ومنها**: إثبات محبة الله ـ أي أن الله يحب ـ؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الله لا يحب المعتدين**﴾؛ وجه الدلالة: أنه لو كان لا يحب أبداً ما صح أن ينفي محبته عن المعتدين فقط؛ فما انتفت محبته عن هؤلاء إلا وهي ثابتة في حق غيرهم.

٥ ـ **ومنها**: حسن تعليم الله عز وجل، حيث يقرن الحكم بالحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**﴾؛ وقد سبق ذكر فوائد قرن الحكم بالعلة.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٥٥، كتاب الجزية والموادعة، باب ١: الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب، حديث رقم ٣١٥٦، ٣١٥٧.

(٢) سبق تخريجه ٢/ ٣٧٤ حاشية (١).

القرآن

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾.

التفسير:

﴿١٩١﴾ قوله تعالى: ﴿**واقتلوهم**﴾: الضمير الهاء يعود على الكفار الذين يقاتلوننا؛ لقوله تعالى: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم**﴾ [البقرة: ١٩٠].

قوله تعالى: ﴿**حيث**﴾: ظرف مكان مبني على الضم في محل نصب ـ أي اقتلوهم في أي مكان ﴿**ثقفتموهم**﴾ أي ظفرتم بهم ـ؛ أولاً قال تعالى: ﴿**قاتلوا**﴾ [آل عمران: ١٦٧]، ثم قال تعالى: ﴿**واقتلوا**﴾؛ والقتل أشد؛ يعني متى وجدنا هذا المحارب الذي يقاتلنا حقيقة أو حكماً، فإننا نقتله في أي مكان؛ لكنه يستثنى من ذلك المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه**﴾.

قوله تعالى: ﴿**أخرجوهم من حيث أخرجوكم**﴾؛ الإخراج يكون من شيء إلى شيء؛ أما القتال فيكون في شيء؛ القتال يكون في مكان؛ والإخراج يكون من المكان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**أخرجوهم من حيث أخرجوكم**﴾ أي من المكان الذي أخرجوكم منه، فمثلاً إذا قدر أن الكفار غلبوا على هذه البلاد، وأخرجوا المسلمين منها فإن المسلمين يجب عليهم أن يقاتلوهم؛ فإذا قاتلوهم يخرجونهم من البلاد من حيث أخرجوهم؛ فهم الذين اعتدوا علينا، واحتلوا بلادنا؛ فنخرجهم من حيث أخرجونا.

قوله تعالى: ﴿**والفتنة أشد من القتل**﴾؛ «**الفتنة**» هي صدّ الناس عن دينهم، كما قال تعالى: ﴿**إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم**﴾ [البروج: ١٠]؛ فصد الناس عن دينهم فتنة أشد من قتلهم؛ لأن قتلهم غاية ما فيه أن نقطعهم من ملذات الدنيا؛ لكن الفتنة تقطعهم من الدنيا، والآخرة، كما قال تعالى: ﴿**وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة**﴾ [الحج: ١١].

قوله تعالى: ﴿**ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام**﴾ أي في مكة؛ لأن ﴿**المسجد الحرام**﴾ هو المسجد نفسه؛ وما «**عنده**» فهو البلد ـ أي لا تقاتلوهم في مكة ﴿**حتى يقاتلوكم فيه**﴾ ـ؛ و«**في**» هنا الظاهر أنها للظرفية.

قوله تعالى: ﴿**فإن قاتلوكم فاقتلوهم**﴾ أي إن قاتلوكم عند المسجد الحرام فاقتلوهم؛ وتأمل كيف قال تعالى: ﴿**فاقتلوهم**﴾؛ لأن مقاتلتهم إياكم عند المسجد الحرام توجب قتلهم على كل حال.

قوله تعالى: ﴿**كذلك جزاء الكافرين**﴾ أي مثلَ هذا الجزاء ـ وهو قتل من قاتل عند المسجد الحرام ـ جزاء الكافرين؛ أي عقوبتهم التي يكافَؤون بها.

وقوله تعالى: ﴿**ولا تقاتلوهم...**﴾؛ ﴿**حتى يقاتلوكم...**﴾؛ ﴿**فإن قاتلوكم**﴾؛ ﴿**فاقتلوهم**﴾: الجمل هنا الأربع كلها بصيغة المفاعلة إلا واحدة ـ وهي الأخيرة ـ؛ وهناك قراءة أخرى؛ وهي: ﴿**ولا تقتلوهم**﴾؛ ﴿**حتى يقتلوكم**﴾؛ ﴿**فإن قتلوكم**﴾؛ ﴿**فاقتلوهم**﴾؛ وعلى هذا فتكون الأربع كلها بغير صيغة المفاعلة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: وجوب قتال الكفار أينما وجِدوا؛ لقوله تعالى: ﴿**واقتلوهم حيث ثقفتموهم**﴾؛ ووجوب قتالهم أينما وجدوا يستلزم وجوب قتالهم في أي زمان؛ لأن عموم المكان يستلزم عموم الزمان؛ ويستثنى من ذلك القتال في الأشهر الحرم: فإنه لا قتال فيها؛ لقوله تعالى: ﴿**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير**﴾؛ وقال بعض أهل العلم: لا استثناء، وأن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ؛ **لكن لوجوب قتالهم شروط؛ من أهمها القدرة على ذلك**.

٢ ـ **ومنها**: أن نخرج هؤلاء الكفار، كما أخرجونا؛ المعاملة بالمثل؛ لقوله تعالى: ﴿**وأخرجوهم من حيث أخرجوكم**﴾؛ ولهذا قال العلماء: إذا مثّلوا بنا مثّلنا بهم؛ وإذا قطعوا نخيلنا قطعنا نخيلهم مثلاً بمثل سواءً بسواء.

٣ ـ **ومنها**: الإشارة إلى أن المسلمين أحق الناس بأرض الله؛ لقوله تعالى: ﴿**وأخرجوهم من حيث أخرجوكم**﴾، وقال تعالى: ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون * إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين**﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦]، وقال موسى لقومه: ﴿**استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين**﴾ [الأعراف: ١٢٨].

٤ ـ **ومنها**: أن الفتنة بالكفر، والصد عن سبيل الله أعظم من القتل.

فيتفرع على هذه الفائدة: أن استعمار الأفكار أعظم من استعمار الديار؛ لأن استعمار الأفكار فتنة؛ واستعمار الديار

أقصى ما فيها إما القتل، أو سلب الخيرات، أو الاقتصاد، أو ما أشبه ذلك؛ فالفتنة أشد؛ لأنها هي القتل الحقيقي الذي به خسارة الدين، والدنيا، والآخرة.

٥ ـ **ومنها**: تعظيم حرمة المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه**﴾.

٦ ـ **ومنها**: جواز القتال عند المسجد الحرام إذا بدأنا بذلك أهله؛ لقوله تعالى: ﴿**حتى يقاتلوكم فيه**﴾؛ ولا يعارض هذا قول رسول الله ﷺ: «**فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم**»[1]؛ الممنوع هو ابتداء القتال لندخل مكة؛ فهذا حرام، ولا يجوز مهما كان الأمر؛ وأما إذا قاتلونا في مكة فإننا نقاتلهم من باب المدافعة.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: المبالغة في قتال الأعداء إذا قاتلونا في المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿**فإن قاتلوكم فاقتلوهم**﴾.

٨ ـ **ومنها**: وجوب مقاتلة الكفار حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين لله؛ وقتال الكفار في الأصل فرض كفاية؛ وقد يكون مستحباً؛ وقد يكون فرض عين ـ وذلك في أربعة مواضع ـ:

الموضع الأول: إذا حضر صف القتال فإنه يكون فرض عين؛ ولا يجوز أن ينصرف؛ لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار * ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير**﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٤٧.

الموضع الثاني: إذا حصر بلده العدو فإنه يتعين القتال من أجل فكّ الحصار عن البلد؛ ولأنه يشبه من حضر صف القتال.

الموضع الثالث: إذا احتيج إليه؛ إذا كان هذا الرجل يحتاج الناس إليه إمّا لرأيه، أو لقوته، أو لأيّ عمل يكون؛ فإنه يتعين عليه.

الموضع الرابع: إذا استنفر الإمام الناس وجب عليهم أن يخرجوا، ولا يتخلف أحد؛ لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة...**﴾ [التوبة: ٣٨] إلى قوله تعالى: ﴿**إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم...**﴾ [التوبة: ٣٩] الآية.

وما سوى هذه المواضع فهو فرض كفاية؛ واعلم أن الفرض سواء قلنا فرض عين، أو فرض كفاية لا يكون فرضاً إلا **إذا كان هناك قدرة؛ أما مع عدم القدرة فلا فرض**؛ لعموم الأدلة الدالة على أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولقوله تعالى: ﴿**ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله**﴾ [التوبة: ٩١]؛ فإذا كنا لا نستطيع أن نقاتل هؤلاء لم يجب علينا؛ وإلا لأثَّمْنا جميع الناس مع عدم القدرة؛ ولكنه مع ذلك يجب أن يكون عندنا العزم على أننا إذا قدرنا فسنقاتل؛ ولهذا قيدها الله عز وجل بقوله تعالى: ﴿**إذا نصحوا لله ورسوله**﴾ [التوبة: ٩١]؛ ليس على هؤلاء الثلاثة حرج بشرط أن ينصحوا لله ورسوله؛ فأما مع عدم النصح لله ورسوله، فعليهم الحرج ـ حتى وإن وجدت الأعذار في حقهم ـ.

فالحاصل أننا نقول إن القتال فرض كفاية؛ ويتعين في مواضع؛ وهذا الفرض ـ كغيره من المفروضات ـ **من شرطه القدرة**؛ أما مع العجز فلا يجب؛ لكن يجب أن يكون العزم معقوداً على أنه إذا حصلت القوة جاهدنا في سبيل الله؛ لقول النبي ﷺ: «**من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من النفاق**»(١).

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات العدل لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**كذلك جزاء الكافرين**﴾؛ والجزاء من جنس العمل.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾.

التفسير:

﴿١٩٢﴾ قوله تعالى: ﴿**فإن انتهوا**﴾ أي كفوا عن قتالكم؛ ويحتمل أن يكون المراد: كفوا عن قتالكم، وعن كفرهم؛ فعلى الأول يكون المراد بقوله تعالى: ﴿**فإن الله غفور رحيم**﴾ طلب مغفرة المسلمين لهم بالكف عنهم؛ وعلى الثاني يكون المراد أن الله غفر لهم؛ لقوله تعالى: ﴿**قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف**﴾ [الأنفال: ٣٨].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: تمام عدل الله سبحانه وتعالى، حيث

---

(١) أخرجه مسلم ص١٠١٩، كتاب الإمارة، باب ٤٧ ذم من مات ولم يغز..، حديث رقم ٤٩٣١ [١٥٨] ١٩١٠.

جعل أحكامه، وعقوبته مبنية على عدوان من يستحق هذه العقوبة فقال تعالى: ﴿**فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم**﴾.

٢ ـ **ومنها**: وجوب الكف عن الكفار إذا انتهوا عما هم عليه من الكفر؛ فلا يؤاخذون بما حصل منهم حال كفرهم؛ ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿**قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف**﴾ [الأنفال: ٣٨].

٣ ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله، وما تضمناه من صفة، أو حكم؛ وهما «**الغفور**»، و«**الرحيم**».

٤ ـ **ومنها**: أخذ الأحكام الشرعية مما تقتضيه الأسماء الحسنى؛ ولها نظائر؛ منها قوله تعالى في المحاربين: ﴿**إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم**﴾ [المائدة: ٣٤].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾.

التفسير:

﴿١٩٣﴾ قوله تعالى: ﴿**وقاتلوهم**﴾ أي قاتلوا الكفار ﴿**حتى لا تكون فتنة**﴾ أي صد عن سبيل الله بأن يكفوا عن المسلمين، ويدخلوا في الإسلام، أو يبذلوا الجزية؛ ﴿**ويكون الدين لله**﴾ أي يكون الدين الظاهر الغالب لله تعالى ـ أي دين الله ـ.

قوله تعالى: ﴿**فإن انتهوا**﴾ أي عن قتالكم، وعن كفرهم،

ورجعوا ﴿**فلا عدوان إلا على الظالمين**﴾؛ وهم قد انتفى عنهم الظلم؛ وحينئذ لا يكون عليهم عدوان.

وقوله هنا: ﴿**فلا عدوان**﴾: قيل: إن معناه فلا سبيل، كما في قوله تعالى في قصة موسى: ﴿**أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل**﴾ [القصص: ٢٨] أي لا سبيل عليّ؛ وقيل: ﴿**فلا عدوان**﴾ أي لا مقاتلة؛ لأنه تعالى قال: ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه**﴾ [البقرة: ١٩٤]؛ وهي من باب مقابلة الشيء بمثله لفظاً؛ لأنه سببه؛ وليس معناه: أن فعلكم هذا عدوان؛ لكن لما صار سببه العدوان صح أن يعبر عنه بلفظه.

وقوله تعالى: ﴿**فلا عدوان إلا على الظالمين**﴾: خبر «**لا**» يجوز أن يكون الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿**على الظالمين**﴾؛ ويجوز أن يكون خبر «**لا**» محذوفاً؛ والتقدير: فلا عدوان حاصل ـ أو كائن ـ إلا على الظالمين.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الأمر بقتالهم مقيد بغايتين؛ غاية عدمية: ﴿**حتى لا تكون فتنة**﴾ أي حتى لا توجد فتنة؛ و«**الفتنة**» هي الشرك، والصد عن سبيل الله؛ والغاية الثانية إيجابية: ﴿**ويكون الدين لله**﴾ بمعنى: أن يكون الدين غالباً ظاهراً لا يعلو إلا الإسلام فقط؛ وما دونه فهو دين معلو عليه يؤخذ على أصحابه الجزية عن يد وهم صاغرون.

٢ ـ **ومنها**: أنه إذا زالت الفتنة، وقيام أهلها ضد الدعوة الإسلامية ـ وذلك ببذل الجزية ـ فإنهم لا يقاتلون.

٣ ـ **ومنها**: أنهم إذا انتهوا ـ إما عن الشرك: بالإسلام؛

وإما عن الفتنة: بالاستسلام ـ فإنه لا يعتدى عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿**فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن الظالم يجازى بمثل عدوانه؛ لقوله تعالى: ﴿**فلا عدوان إلا على الظالمين**﴾؛ وقد قلنا فيما سبق: إن مثل هذا التعبير يراد به المماثلة بالفعل ـ يعني: أن تسمية المجازاة اعتداءً من باب المشاكلة حتى يكون الجزاء من جنس العمل.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾.

التفسير:

﴿١٩٤﴾ قوله تعالى: ﴿**الشهر الحرام بالشهر الحرام**﴾: الجملة مبتدأ، وخبر؛ ومعناها: إذا قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم فيه؛ وهذا في انتهاك الزمن؛ وقوله تعالى فيما سبق: ﴿**ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم**﴾ [البقرة: ١٩١] في انتهاك المكان.

قوله تعالى: ﴿**والحرمات قصاص**﴾؛ ﴿**الحرمات**﴾ جمع حُرُم؛ والمراد بـ«الحرم» كل ما يحترم من زمان، أو مكان، أو منافع، أو أعيان؛ لأن «حُرُم» جمع حرام؛ و«حرمات» جمع حُرُم؛ فالمعنى: أن المحترم يقتص منه بمحترم آخر؛ ومعنى ذلك أن من انتهك حرمة شيء فإنه تنتهك حرمته: فمن انتهك حرمة الشهر انتهكت حرمته في هذا الشهر؛ ومن انتهك عِرض مؤمن

انتهك عِرض مثله؛ ومن انتهك نفس مؤمن فقتله انتهكت حرمة نفسه بقتله؛ وهكذا.

وكل هذا التأكيد من الله عز وجل في هذه الآيات من أجل تسلية المؤمنين؛ لأن المؤمنين لا شك أنهم يحترمون الأشهر الحرم والقتال فيها؛ ولكن الله تعالى سلاهم بذلك بأن الحرمات قصاص؛ فكما أنهم انتهكوا ما يجب احترامه بالنسبة لكم فإن لكم أن تنتهكوا ما يجب احترامه بالنسبة إليهم؛ ولهذا قال تعالى مفرعاً على ذلك: ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم**﴾.

قوله تعالى: ﴿**فمن اعتدى عليكم**﴾ أي من تجاوز الحد في معاملتكم سواء كان ذلك بأخذ المال، أو بقتل النفس، أو بالعرض، أو بما دون ذلك، أو أكثر فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم.

وقوله تعالى هنا: ﴿**فاعتدوا عليه**﴾: ليس أخذنا بالقصاص اعتداء؛ ولكنه سمي اعتداءً؛ لأنه مسبَّب عن الاعتداء؛ فكأنه يقول: أنتم إذا اعتدى عليكم أحد فخذوا حقكم منه؛ ثم فيه نكتة أخرى أن العادي يرى نفسه في مقام أعز من المعتدى عليه، وأرفع منه؛ ولو كان يرى نفسه في مكان دونه لم يعتدِ؛ فكأنه يقول: إن قصاصكم يعتبر أيضاً عزاً لكم؛ كما أنه هو طغى واعتدى، فأنتم الآن يعتبر قصاصكم بمنزلة المرتبة العليا بالنسبة إليهم؛ وإن شئت فقل: أطلق على المجازاة اعتداءً من باب المشاكلة اللفظية.

قوله تعالى: ﴿**بمثل ما اعتدى عليكم**﴾: ادعى بعضهم أن

الباء هنا زائدة، وقال: إن التقدير: فاعتدوا عليه مثل ما اعتدى عليكم؛ على أن تكون «**مثل**» هنا مفعولاً مطلقاً ـ أي عدواناً، أو اعتداءً مثل اعتدائه ـ؛ ولكن الصواب أنها ليست زائدة، وأنّها أصلية؛ وأن المعنى: اعتدوا عليه بمثله؛ فالباء للبدل؛ بحيث يكون المثل مطابقاً لما اعتدى عليكم به في هيئته، وفي كيفيته، وفي زمنه، وفي مكانه؛ فإذا اعتدى عليكم أحد بقتال في الحرم فاقتلوه؛ وإذا اعتدى عليكم أحد بقتال في الأشهر الحرم فقاتلوه؛ فتكون الباء هنا دالة على المقابلة، والعوض.

قوله تعالى: ﴿**واتقوا الله**﴾ أي اتخذوا وقاية من عذابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ وفي هذا المقام اتقوا الله فلا تتعدَّوا ما يجب لكم من القصاص؛ لأن الإنسان إذا ظُلِم فإنه قد يتجاوز، ويتعدى عند القصاص.

قوله تعالى: ﴿**واعلموا أن الله مع المتقين**﴾؛ أمر بالعلم بأن الله مع المتقين؛ وهو أوكد من مجرد الخبر؛ والمراد به العلم مع الاعتقاد.

وقوله تعالى: ﴿**مع المتقين**﴾ أي المتخذين وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: تسلية الله عز وجل للمسلمين بأنهم إذا فاتهم قضاء عمرتهم في الشهر الحرام فيمكنهم أن يقضوها في الشهر الحرام من السنة الثانية، كما حصل في الحديبية.

٢ ـ **ومنها**: أن الحرمات قصاص؛ يعني أن من انتهك حرمتك لك أن تنتهك حرمته مثلاً بمثل؛ ولهذا فرع عليها قوله

تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن المعتدي لا يجازى بأكثر من عدوانه؛ لقوله تعالى: ﴿بمثل ما اعتدى عليكم﴾؛ فلا يقول الإنسان: أنا أريد أن أعتدي بأكثر للتشفي؛ ومن ثم قال العلماء: «إنه لا يقتص من الجاني إلا بحضرة السلطان، أو نائبه» خوفاً من الاعتداء؛ لأن الإنسان يريد أن يتشفى لنفسه، فربما يعتدي بأكثر.

٤ ـ **ومنها**: وجوب تقوى الله عز وجل في معاملة الآخرين؛ بل في كل حال؛ لقوله تعالى: ﴿واتقوا الله﴾.

٥ ـ **ومنها**: إثبات أن الله مع المتقين؛ لقوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾؛ والمعية تنقسم إلى قسمين: عامة، وخاصة؛ فالعامة هي الشاملة للخلق كلهم، وتقتضي الإحاطة بهم علماً، وقدرة، وسلطاناً، وسمعاً، وبصراً، وغير ذلك من معاني الربوبية؛ لقوله تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾ [المجادلة: ٧]؛ وأما الخاصة فهي المقيدة بوصف، أو بشخص؛ مثال المقيدة بوصف قوله تعالى: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ [النحل: ١٢٨]؛ ومثال المقيدة بشخص قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾ [طه: ٤٦]، وقوله تعالى فيما ذكره عن نبيه ﷺ: ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ [التوبة: ٤٠].

تنبيه:

اعلم أن ما أثبته الله لنفسه من المعية لا ينافي ما ذَكر عن نفسه من العلو لأنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، ولا يقاس

بخلقه؛ فمعيته ثابتة مع علوه تبارك وتعالى؛ وإذا كان العلو، والمعية لا يتناقضان في حق المخلوق ـ فإنهم يقولون: «ما زلنا نسير والقمر معنا»، ولا يعدون ذلك تناقضاً مع أن القمر في السماء ـ فثبوت ذلك في حق الخالق من باب أولى ـ؛ وبهذا يبطل قول من زعم أن معية الله تستلزم أن يكون في الأرض مختلطاً بالخلق؛ فإن هذا قول باطل باتفاق السلف المستنِد على الكتاب، والسنة في إثبات علو الله فوق خلقه؛ وتفصيل القول في هذا مدوَّن في كتب العقائد.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: تأكيد هذه المعية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**واعلموا**﴾؛ ولم يقتصر على مجرد أن يخبر بها؛ بل أمرنا أن نعلم بذلك؛ وهذا أمر فوق مجرد الإخبار.

٧ ـ **ومنها**: بيان إحاطة الله عز وجل بالخلق، وتأييده بالمتقين الذين يقومون بتقواه؛ ووجه ذلك: أنه من المعلوم بالكتاب، والسنة، والعقل، والفطرة أن الله فوق جميع الخلق؛ ومع ذلك أثبت أنه مع الخلق.

٨ ـ **ومنها**: فضيلة التقوى، حيث ينال العبد بها معية الله؛ فإنه من المعلوم إذا كان الله معك ينصرك، ويؤيدك، ويثبتك فهذا يدل على فضيلة السبب الذي هو التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿**واعلموا أن الله مع المتقين**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

التفسير:

﴿١٩٥﴾ قوله تعالى: ﴿**وأنفقوا في سبيل الله**﴾ أي ابذلوا الأموال في الجهاد في سبيل الله؛ ويحتمل أن يكون المراد ما هو أعم من الجهاد ليشمل كل ما يقرب إلى الله عز وجل، ويوصل إليه.

قوله تعالى: ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ بعضهم يقول: إن الباء هنا زائدة؛ أي لا تلقوا أيديكم إلى التهلكة؛ والصواب أنها أصلية، وليست بزائدة؛ ولكن ضمنت معنى الفعل «الإفضاء» أي لا تفضوا بأيديكم إلى التهلكة؛ و﴿**التهلكة**﴾: من الهلاك؛ والمعنى لا تلقوها إلى ما يهلككم، ويشمل الهلاك الحسي والمعنوي، فالمعنوي مثل أن يدع الجهاد في سبيل الله، أو الإنفاق فيه؛ والحسي أن يعرض نفسه للمخاطر، مثل أن يلقي نفسه في نار، أو في ماء يغرقه، أو ينام تحت جدار مائل للسقوط، أو ما أشبه ذلك.

قوله تعالى: ﴿**وأحسنوا**﴾ أي افعلوا الإحسان في عبادة الخالق؛ وفي معاملة المخلوق؛ أما الإحسان في عبادة الخالق فقد فسره النبي ﷺ بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1]؛ وأما الإحسان في معاملة الخلق: فأن تعاملهم بما تحب أن يعاملوك به من بذل المعروف، وكفّ الأذى.

قوله تعالى: ﴿**إن الله يحب المحسنين**﴾ تعليل للأمر بالإحسان؛ ولو لم يكن من الإحسان إلا هذا لكان كافياً للمؤمن أن يقوم بالإحسان.

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٢٠١.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: الأمر بالإنفاق في سبيل الله؛ والزكاة تدخل في هذا الإنفاق؛ بل هي أول ما يدخل؛ لأنها أوجب ما يجب من الإنفاق في سبيل الله؛ وهي أوجب من الإنفاق في الجهاد، وفي صلة الرحم، وفي بر الوالدين؛ لأنها أحد أركان الإسلام.

٢ ـ **ومنها**: الإشارة إلى الإخلاص في العمل؛ لقوله تعالى: ﴿**في سبيل الله**﴾؛ ويدخل في هذا: القصد، والتنفيذ ـ أن يكون القصد لله ـ، وأن يكون التنفيذ على حسب شريعة الله، كما قال تعالى: ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً**﴾ [الفرقان: ٦٧].

٣ ـ **ومنها**: تحريم الإلقاء باليد إلى التهلكة؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾؛ والإلقاء باليد إلى التهلكة يشمل التفريط في الواجب، وفعل المحرم؛ أو بعبارة أعم: يتناول كل ما فيه هلاك الإنسان، وخطر في دينه، أو دنياه.

٤ ـ **ومنها**: أن ما كان سبباً للضرر فإنه منهي عنه؛ ومن أجل هذه القاعدة عرفنا أن الدخان حرام؛ لأنه يضر باتفاق الأطباء، كما أن فيه ضياعاً للمال أيضاً؛ وقد نهى ﷺ عن إضاعة المال[1].

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٤٣، كتاب الرقاق، باب ٢٢، ما يكره من قيل وقال، حديث رقم ٦٤٧٣؛ وأخرجه مسلم ص٩٨٢، كتاب الأقضية، باب ٥: النهي عن كثرة السؤال...، حديث رقم ٤٤٨٦ [٤٤] (٥٩٣).

٥ ـ **ومنها**: الأمر بالإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿**وأحسنوا**﴾؛ وهل الأمر للوجوب، أو للاستحباب؟

الجواب: أما الإحسان الذي به تمام الواجب فالأمر فيه للوجوب؛ وأمّا الإحسان الذي به كمال العمل فالأمر فيه للاستحباب.

٦ ـ **ومنها**: فضيلة الإحسان، والحث عليه؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الله يحب المحسنين**﴾.

٧ ـ **ومنها**: إثبات المحبة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الله يحب المحسنين**﴾؛ وهي محبة حقيقية على ظاهرها؛ وليس المراد بها الثواب؛ ولا إرادة الثواب خلافاً للأشاعرة، وغيرهم من أهل التحريف الذين يحرفون هذا المعنى العظيم إلى معنًى لا يكون بمثابته؛ فإن مجرد الإرادة ليست بشيء بالنسبة للمحبة؛ وشبهتهم أن المحبة إنما تكون بين شيئين متناسبين؛ وهذا التعليل باطل، ومخالف للنص، ولإجماع السلف، ومنقوض بما ثبت بالسمع والحس من أن المحبة قد تكون بين شيئين غير متناسبين؛ فقد أثبت النبي ﷺ أن **أُحُداً** ـ وهو حصى ـ **جبل يحبنا ونحبه**[1]؛ والإنسان يجد أن دابته تحبه، وهو يحبها؛ فالبعير إذا سمعت صوت صاحبها حنت إليه، وأتت إليه؛ وكذلك غيره من المواشي؛ والإنسان يجد أنه يحب نوعاً من ماله أكثر من النوع الآخر.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٣٢، كتاب الجهاد والسير، باب ٧١: فضل الخدمة في الغزو، حديث رقم ٢٨٨٩، وأخرجه مسلم ص٩٠٥، كتاب الحج، باب ٨٥ فضل المدينة ٣٣٢١ [٤٦٢] ١٣٦٥.

القرآن

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾.

التفسير:

﴿١٩٦﴾ قوله تعالى: ﴿**وأتموا الحج والعمرة لله**﴾ أي ائتوا بهما تامتين؛ وهذا يشمل كمال الأفعال في الزمن المحدد، وكذلك صفة الحج، والعمرة ـ أن تكون موافقة تمام الموافقة لما كان النبي ﷺ يقوم به ـ؛ واللام في قوله تعالى: ﴿**لله**﴾ تفيد الإخلاص ـ يعني مخلصين لله عز وجل ممتثلين لأمره ـ.

قوله تعالى: ﴿**فإن أحصرتم**﴾ أي منعتم عن إتمامها ﴿**فما استيسر**﴾ أي فعليكم ما تيسر من الهدي؛ وزيادة الهمزة، والسين للمبالغة في تيسر الأمر؛ و﴿**من الهدي**﴾ أي الهدي الشرعي؛ فـ«أل» فيه للعهد الذهني؛ والهدي الشرعي هو ما كان ثنياً مما سوى الضأن؛ لقول النبي ﷺ: «**لا تذبحوا إلا مسنَّة إلا إن تعسر عليكم فتذبحوا جذعة من الضأن**»[1]؛ وهذا النهي يشمل كل ما ذبح تقرباً إلى الله عز وجل من هدي، أو أضحية، أو عقيقة.

قوله تعالى: ﴿**ولا تحلقوا رؤوسكم**﴾ أي لا تزيلوها بالموسى

---

(١) أخرجه مسلم ص١٠٢٨، كتاب الأضاحي، باب ٢: سن الأضحية، حديث رقم ٥٠٨٢ [١٣] ١٩٦٣.

﴿حتى يبلغ الهدي محله﴾: «**محل**» يحتمل أن تكون اسم زمان؛ والمعنى: حتى يصل إلى يوم حلوله ـ وهو يوم العيد ـ؛ وثبتت السنة بأن من قدّم الحلق على النحر فلا حرج عليه[(١)]؛ ويحتمل أن المعنى: حتى يذبح الهدي؛ وتكون الآية فيمن ساق الهدي؛ ويؤيد هذا أن النبي ﷺ سئل ما بال الناس حلوا ولم تحل؟ فقال ﷺ: «**إني لبدت رأسي وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر**»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿**فمن كان منكم مريضاً**﴾ أي واحتاج إلى حلق الرأس؛ ﴿**أو به أذًى من رأسه**﴾ وهو صحيح، كما لو كان الرأس محلاً للأذى، والقمل، وما أشبه ذلك؛ ﴿**ففدية**﴾ أي فعليه فدية يفدي بها نفسه من العذاب ﴿**من صيام أو صدقة أو نسك**﴾؛ ﴿**أو**﴾ هنا للتخيير؛ وقد بين النبي ﷺ أن «**الصيام**» ثلاثة أيام[(٣)]، وأن «**الصدقة**» إطعام ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع[(٣)]؛ وأما «**النسك**» فهو ذبح شاة[(٣)]؛ وهذه الجملة قد حذف منها ما يدل عليه السياق؛ والتقدير: فمن كان منكم مريضاً، أو به أذًى من رأسه، **فحلق رأسه** فعليه فدية.

﴿**فإذا أمنتم**﴾ أي من العدو ـ يعني فأتموا الحج والعمرة ـ.

---

(١) راجع البخاري ص١٠، كتاب العلم، باب ٢٣: الفتيا وهو واقف على الدابة وغيرها، حديث رقم ٨٣؛ ومسلماً ص٨٩٥، كتاب الحج، باب ٥٧: جواز تقديم الذبح على الرمي...، حديث رقم ٣١٥٦ [٣٢٧] ١٣٠٦.

(٢) أخرجه البخاري ص١٢٣ ـ ١٢٤، كتاب الحج، باب ٣٤: التمتع والقران، والإفراد...، حديث رقم ١٥٦٦، وأخرجه مسلم ص٨٨٣، كتاب الحج، باب ٢٥: بيان أن القارن لا يتحلل إلا في وقت تحلل الحاج المفرد، حديث رقم ٢٩٨٤ [١٧٦] ١٢٢٩.

(٣) سبق تخريجه ٢/ ٣٩٢.

ثم فصّل الله عز وجل المناسك فقال: ﴿**فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي**﴾ أي فمن أتى بالعمرة متمتعاً بحله منها بما أحل الله له من محظورات الإحرام ﴿**إلى الحج**﴾ أي إلى ابتداء زمن الحج؛ وهو اليوم الثامن من ذي الحجة ﴿**فما استيسر من الهدي**﴾ أي فعليه ما استيسر من الهدي شكراً لله على نعمة التحلل؛ ويقال في هذه الجملة ما قيل في الجملة التي سبقت في الإحصار.

قوله تعالى: ﴿**فمن لم يجد**﴾ أي فمن لم يجد الهدي، أو ثمنه ﴿**فصيام ثلاثة أيام**﴾ أي فعليه صيام ثلاثة أيام ﴿**في الحج**﴾ أي في أثناء الحج، وفي أشهره.

قوله تعالى: ﴿**وسبعة إذا رجعتم**﴾ أي إذا رجعتم من الحج بإكمال نسكه، أو إذا رجعتم إلى أهليكم.

قوله تعالى: ﴿**تلك عشرة كاملة**﴾ للتأكيد على أن هذه الأيام العشرة وإن كانت مفرقة فهي في حكم المتتابعة.

قوله تعالى: ﴿**ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام**﴾، أي ذلك التمتع الموجب للهدي.

وقوله تعالى: ﴿**أهله**﴾: قيل: المراد به نفسه ـ أي لمن لم يكن حاضراً المسجد الحرام ـ؛ وقيل: المراد بـ«**الأهل**» سكنه الذي يسكن إليه من زوجة، وأب، وأم، وأولاد، وما أشبه ذلك؛ فيكون المعنى: ذلك لمن لم يكن سكنه حاضري المسجد الحرام؛ وهذا أصح؛ لأن التعبير بـ«**الأهل**» عن النفس بعيد؛ ولكن ﴿**أهله**﴾ أي الذين يسكن إليهم من زوجة، وأب، وأم، وأولاد هذا هو الواقع.

وقوله تعالى: ﴿**حاضري المسجد الحرام**﴾ المراد به مسجد مكة؛ و﴿**الحرام**﴾ صفة مشبهة بمعنى ذي الحرمة، وقد قال

النبي ﷺ: «**وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس**»[(١)]؛ وحرمة المسجد الحرام معروفة من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها.

واختلف في المراد بـ﴿**حاضري المسجد الحرام**﴾ فقيل: هم أهل الحرم ـ يعني: من كانوا داخل حدود الحرم ـ؛ فمن كان خارج حدود الحرم فليسوا من حاضري المسجد الحرام؛ وروي هذا عن ابن عباس، وجماعة من السلف، والخلف؛ وقيل: حاضرو المسجد الحرام أهل المواقيت، ومن دونهم؛ وعلى هذا فأهل بدر من حاضري المسجد الحرام؛ لأنهم دون المواقيت؛ وأهل جدة من حاضري المسجد الحرام؛ لأنهم دون المواقيت؛ وقيل: حاضرو المسجد الحرام أهل مكة، ومن بينهم وبين مكة دون مسافة القصر؛ وهي يومان؛ وعلى هذا فأهل جدة، وأهل بدر ليسوا من حاضري المسجد الحرام؛ وأهل بحرة ـ وهي بلدة دون جدة ـ على هذا القول يكون أهلها من حاضري المسجد الحرام؛ لأنهم داخل المسافة؛ وأهل الشرائع من حاضري المسجد الحرام؛ والأقرب القول الأول أن حاضري المسجد الحرام هم أهل الحرم؛ وأما من كان من غير أهل الحرم فليسوا من حاضريه؛ بل هم من محل آخر؛ وهذا هو الذي ينضبط.

قوله تعالى: ﴿**واتقوا الله**﴾ أي الزموا تقوى الله عز وجل؛ وذلك بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

قوله تعالى: ﴿**واعلموا أن الله شديد العقاب**﴾ أي شديد المؤاخذة، والعقوبة لمن لم يتقه تبارك وتعالى؛ وسميت المؤاخذة عقاباً؛ لأنها تأتي عقب الذنب.

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٤٧ حاشية رقم (١).

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: وجوب إتمام الحج، والعمرة؛ وظاهر الآية أنه لا فرق بين الواجب منهما، وغير الواجب؛ ووجه هذا الظاهر: العموم في قوله تعالى: ﴿**وأتموا الحج والعمرة**﴾؛ فيكون شاملاً للفريضة، والنافلة؛ ويؤيده أن هذه الآية نزلت قبل فرض الحج؛ لأن الحج إنما فرض في السنة التاسعة في قوله تعالى: ﴿**ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً**﴾ [آل عمران: ٩٧]؛ السنة التي يسميها العلماء **سنة الوفود**.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن العمرة، والحج سواء في وجوب إتمامهما؛ لقوله تعالى: ﴿**الحج والعمرة**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أنه لا تجوز الاستنابة في شيء من أفعال الحج، والعمرة؛ فلو أن أحداً استناب شخصاً في أن يطوف عنه، أو أن يسعى عنه، أو أن يقف عنه بعرفة، أو أن يقف عنه بمزدلفة، أو أن يرمي عنه الجمار، أو أن يبيت عنه في منى فإنه حرام؛ لأن الأمر بالإتمام للوجوب؛ فيكون في ذلك رد لقول من قال من أهل العلم: إنه تجوز الاستنابة في نفل الحج، وفي بعضه: أما الاستنابة في نفل الحج ـ كل النسك ـ فهذا له موضع آخر؛ وأما في بعضه فالآية تدل على أنها لا تصح.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: الحذر مما يفعله بعض الناس الآن من التساهل في رمي الجمرات، حيث إنهم يوكلون من يرمي عنهم بدون عذر مخالفة لقوله تعالى: ﴿**وأتموا الحج والعمرة لله**﴾؛ وعليه فلا يصح رمي الوكيل حينئذ؛ لقوله ﷺ: «**من عمل عملاً**

ليس عليه أمرنا فهو رد»[١] أي مردود عليه؛ أما إذا كان لعذر كالمريض، والخائف على نفسه من شدة الزحام إذا لم يكن وقت آخر للرمي يخف فيه الزحام فلا بأس أن يستنيب من يرمي عنه؛ ولولا ورود ذلك عن الصحابة لقلنا: إن العاجز عن الرمي بنفسه يسقط عنه الرمي كسائر الواجبات، حيث تسقط بالعجز؛ ويدل لعدم التهاون بالتوكيل في الرمي أن النبي ﷺ لم يأذن لسودة بنت زمعة أن توكل؛ بل أمرها أن تخرج من مزدلفة، وترمي قبل حطمة الناس[٢]؛ ولو كان التوكيل جائزاً لمشقة الزحام لكان الرسول ﷺ يبقيها معه حتى تدرك بقية ليلة المزدلفة، وتدرك صلاة الفجر فيها، وتدرك القيام للدعاء بعد الصلاة؛ ولا تُحْرَم من هذه الأفعال؛ فلما أذن لها في أن تدفع بليل عُلم بأن الاستنابة في الرمي في هذا الأمر لا يجوز؛ وكذلك لو كان جائزاً لأذن للرعاة أن يوكلوا، ولم يأذن لهم بأن يرموا يوماً، ويدعوا يوماً.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: وجوب الإخلاص لله؛ لقوله تعالى: ﴿**وأتموا الحج والعمرة لله**﴾ يعني أتموها لله لا لغيره؛ لا تراعوا في ذلك جاهاً، ولا رتبة، ولا ثناءً من الناس.

٦ ـ **ومنها**: أن الحج، والعمرة يخالفان غيرهما في وجوب إتمام نفلهما؛ لقوله تعالى: ﴿**وأتموا**﴾؛ والأمر للوجوب؛ ويدل على أنه للوجوب قوله تعالى: ﴿**فإن أحصرتم فما استيسر من**

---

(١) سبق تخريجه ص١/ ٩١.

(٢) راجع صحيح البخاري ص١٣٢، كتاب الحج، باب ٩٨: من قدَّم ضعفة أهل بليل...، حديث رقم ١٦٨١، وصحيح مسلم ص٨٩٢، كتاب الحج، باب ٤٩: استحباب تقديم الضعفة من النساء وغيرهن، حديث رقم ٣١١٨ [٢٩٣] ١٢٩٠.

الهدي﴾، حيث أوجب الهدي عند الإحصار؛ أما غيرهما من العبادات فإن النفل لا يجب إتمامه؛ لأن النبي ﷺ دخل على أهله ذات يوم فقال: «**هل عندكم شيء؟ قالوا: نعم، حيس؛ قال: أرينيه؛ فلقد أصبحت صائماً؛ فأكل**»[1]؛ لكن يكره قطع النفل إلا لغرض صحيح ـ كحاجة إلى قطعه، أو انتقال لما هو أفضل منه ـ.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه إذا أحصر الإنسان عن إتمام الحج والعمرة فله أن يتحلل؛ ولكن عليه الهدي؛ لقوله تعالى: ﴿**فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى**﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن الله تعالى أطلق الإحصار، ولم يقيده؛ لقوله تعالى: ﴿**فإن أحصرتم**﴾؛ لأن الفعل لو بُني للفاعل، وذُكر الفاعل اختص الحكم به؛ فإذا قلت مثلاً: «أقام زيد عمراً» صار المقيم زيداً؛ وإذا قلت: «أقيم عمرٌو» صار عاماً؛ فظاهر الآية شمول الإحصار لكل مانع من إتمام النسك؛ فكل ما يمنع من إتمام النسك فإنه يجوز التحلل به، وعليه الهدي؛ أما الإحصار بالعدو فأظنه محل إجماع فيتحلل بالنص، والإجماع؛ النص: تحلل الرسول ﷺ في الحديبية[2]؛ والإجماع: لا نعلم في هذا مخالفاً؛ وأما الحصر بغير عدو، كمرض، أو كسر، أو ضياع نفقة، أو ما أشبه ذلك مما لا يستطيع معه إتمام الحج، والعمرة؛ فإن العلماء اختلفوا في ذلك؛ فمنهم من قال: إنه لا يتحلل، ويبقى محرماً

---

(١) أخرجه مسلم ص٨٦٢، كتاب الصيام، باب ٣٢ جواز صوم النافلة...، حديث رقم ٢٧١٥ [١٧٠] ١١٥٤.

(٢) أخرجه البخاري ص٢١٧ ـ ٢١٩، كتاب الشروط، باب ١٥: الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، حديث رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢.

حتى يزول المانع؛ ومنهم من قال: إنه يتحلل، كالحصر بالعدو؛ حجة الأولين: أن الله تعالى قال: ﴿**فإن أحصرتم**﴾؛ والآية نزلت في شأن قضية الحديبية؛ وهم قد أحصروا بعدو؛ فيكون الحصر هنا خاصاً بالعدو؛ ودليل آخر: يقولون: ضباعة بنت الزبير لما جاءت تشتكي إلى الرسول ﷺ أنها مريضة، وأنها تريد الحج قال لها: «**حجي واشترطي**»[(١)]؛ فلو كان الإحصار بالمرض مبيحاً للتحلل ما احتيج إلى اشتراط؛ فكانت تدخل في النسك، وإذا عجزت تحللت؛ وأجاب القائلون بأن الحصر عام بحصر العدو وغيره بأن الآية مطلقة: ﴿**فإن أحصرتم**﴾؛ لم تقيد بحصر العدو؛ والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ لأن العلة في جواز التحلل بحصر العدو عدم القدرة على إتمام النسك؛ وهذا حاصل بالحصر بغير العدو؛ والشرع لا يفرق بين متماثلين؛ وأجابوا عن حديث ضباعة بأن يقال: إن الفائدة من حديث ضباعة أنه إذا حصل مرض يمنع من إتمام النسك فإنها تتحلل بلا شيء؛ وأما إذا لم تشترط فإنها لا تتحلل إلا بدم؛ وحينئذ تظهر فائدة اشتراط من خاف أن يعوقه مرض، أو نحوه عن إتمام النسك؛ والفائدة هي أنه لا يجب عليه الهدي لو تحلل بهذا الحصر؛ والصواب القول الثاني: أن الإحصار يكون بالعدو، وبغيره.

---

(١) أخرجه البخاري ص٤٤٠، كتاب النكاح، باب ١٦: الأكفاء في الدين وقوله تعالى: ﴿**وهو الذي خلق من الماء بشر فجعله نسباً وصهراً**﴾، حديث رقم ٥٠٨٩، وأخرجه مسلم ص٨٧٦، كتاب الحج، باب ١٥: جواز اشتراط المحرم التحلل بعذر المرض ونحوه، حديث رقم ٢٩٠٢ [١٠٤] ١٢٠٧.

فإن قال قائل: إن قوله تعالى في سياق الآية: ﴿**فإذا أمنتم**﴾ يشير إلى أن الإحصار المذكور بعدو؟

فالجواب: أن ذكر بعض أفراد العام بحكم يوافق العام لا يقتضي التخصيص، كما هو قول المحققين من أهل أصول الفقه، وغيرهم؛ ونظير ذلك حديث جابر رضي الله عنه: «**قضى النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم؛ فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة**»[1]؛ فإن قوله: «**فإذا وقعت الحدود...**» الخ لا يستلزم اختصاص الشفعة بما له حدود، وطرق؛ بل الشفعة ثابتة في كل مشترك على القول الراجح.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: وجوب الهدي على من أحصر؛ لقوله تعالى: ﴿**فما استيسر من الهدي**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: أن من تعذر، أو تعسر عليه الهدي فلا شيء عليه؛ لقوله تعالى: ﴿**فما استيسر من الهدي**﴾؛ ولم يذكر الله بديلاً عند العجز؛ وقال بعض أهل العلم: إنه إذا لم يجد هدياً صام عشرة أيام، ثم حلّ ـ قياساً على هدي التمتع ـ؛ ولكن هذا القياس ليس بصحيح من وجهين:

الوجه الأول: أنه مخالف لظاهر الآية؛ لأن الله لم يذكر بديلاً للهدي.

الوجه الثاني: أن تحلل المتمتع تحلل اختياري؛ وأما المحصر فتحلله اضطراري.

---

(١) أخرجه البخاري ص١٧١، كتاب البيوع، باب ٩٦: بيع الشريك من شريكه، حديث رقم ٢٢١٣، وأخرجه مسلم ص٩٥٧، كتاب المساقاة، باب ٢٨ الشفعة، حديث رقم ٤١٢٨ [١٣٤] ١٦٠٨، واللفظ للبخاري.

١١ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه لا يجب على المحصر الحلق عند التحلل؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يذكره؛ وهو أحد القولين في المسألة؛ والقول الثاني: وجوب الحلق؛ لثبوته بالسنة؛ لأن النبي ﷺ أمر به، وغضب على الصحابة حين تأخروا في تنفيذه[1]؛ ولا يغضب النبي ﷺ لترك مستحب؛ لا يغضب إلا لترك واجب.

١٢ ـ **ومنها**: أن المحصر لا يجب عليه القضاء؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يذكره؛ ولو كان القضاء واجباً لذكره الله عز وجل؛ وهذا يشمل من حصر في فريضة؛ ومن حصر في نافلة؛ لكن الفريضة إذا حصر عن إتمامها يلزمه فعلها بالخطاب الأول؛ لا على أنه بدل عن هذه التي أحصر عنها؛ فمثلاً رجلاً شرع في حج الفريضة، ثم أحصر عن إتمامها، فذبح الهدي، وتحلل؛ فيجب الحج عليه بعد ذلك؛ لكن ليس على أنه قضاء؛ لكن على أنه مخاطب به في الأصل؛ وتسمية العمرة التي وقعت بعد صلح الحديبية عمرة القضاء ليست لأنها قضاء عما فات؛ ولكنها من «المقاضاة» ـ وهي المصالحة ـ؛ ولذلك لم يأت بها كل من تحلل من عمرة الحديبية.

١٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه لا بد أن يكون هذا الهدي مما يصح أن يهدَى: بأن يكون بالغاً للسن المعتبر سالماً من العيوب المانعة من الإجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿من الهدي﴾؛ و«**أل**» هنا للعهد الذهني المعلوم للمخاطب؛ وهو الذي قال فيه الرسول ﷺ: «**لا تذبحوا إلا مسنة إلا إن تعسر عليكم فتذبحوا**

---

(١) راجع حاشية (٢) ٢/٣٩٨.

جذعة من الضأن»[١].

فإن قال قائل: هل يؤكل من هذا الهدي أم لا؟

فالجواب: يؤكل؛ كل شيء فيه: ﴿**فما استيسر**﴾ فهو يؤكل؛ وأما ما فيه: «فعليه» فإنه لا يؤكل؛ فجزاء الصيد لا يؤكل منه؛ وفدية الأذى لا يؤكل منها؛ لأن الله جعلها كفارة؛ أما ما استيسر من الهدي هنا، وفي التمتع فإنه يؤكل منه.

١٤ ـ **ومن فوائد الآية**: تحريم حلق الرأس على المحرم؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تحلقوا رؤوسكم**﴾؛ والنهي عام لكل الرأس، ولبعضه؛ إذاً لو حلق بعضه وقع في الإثم؛ لأن النهي يتناول جميع أجزاء المنهي عنه؛ فإذا قلت لك: «لا تأكل هذه الخبزة» وأكلت منها فإنك لم تمتثل.

١٥ ـ **ومنها**: أنه لا يحرم حلق شعر غير الرأس؛ لأن الله خص النهي بحلق الرأس فقط؛ وأما الشارب، والإبط، والعانة، والساق، والذراع، فلا يدخل في الآية الكريمة؛ لأنه ليس من الرأس؛ والأصل الحل؛ وهذا ما ذهب إليه أهل الظاهر؛ قالوا: لا يحرم على المحرم حلق شيء من الشعر المباح حلقه سوى الرأس؛ لأن الله سبحانه وتعالى خصه فقال: ﴿**ولا تحلقوا رؤوسكم**﴾؛ ولأن حلقه يفوت به نسك بخلاف غيره من الشعور؛ ولكن أكثر أهل العلم ألحقوا به شعر بقية البدن؛ وقالوا: إنه يحرم على المحرم أن يحلق أيّ شعر من بدنه حتى العانة ـ قياساً على شعر الرأس؛ لأن العلة في تحريم حلق شعر الرأس الترفه، وإزالة الأذى؛ وهذا حاصل في حلق غيره من الشعور؛ وهذا القياس غير صحيح لوجهين:

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٣٩٢.

الوجه الأول: أنه مخالف لظاهر النص، أو صريحه.

الوجه الثاني: أن بين شعر الرأس وغيره فرقاً كثيراً: فإن حلق شعر الرأس يتعلق به التحلل من النسك؛ فهو عنوان التحلل؛ بخلاف غيره من الشعور.

وأما التعليل بأنه للترفه، ودفع الأذى ففيه نظر؛ ثم لو سلمنا ذلك فأين دفع الأذى في حلق شعر العانة، وشعر الساق، ونحو ذلك؟! وأين الدليل على منع المحرم من الترفه مع أنه يجوز له التنظف، والاغتسال، والتظلل من الشمس، واستعمال المكيفات؟!

وهل تلحق الأظافر بشعر الرأس؟

الجواب: لا تلحق؛ فالأظافر ليست شعراً؛ وليست في الرأس أيضاً؛ فهي أبعد من إلحاق شعر بقية البدن بشعر الرأس؛ ووجه البعد أنها ليست من نوع الشعر؛ صحيح أنها تشبه الشعر من حيث إنها جزء منفصل؛ لكنها ليست من نوع الشعر؛ ولذلك من لم ير تحريم حلق شعر بقية البدن فإنه لا يرى تحريم قص الأظافر من باب أولى؛ ولكن جمهور أهل العلم على أن تقليم الأظافر محرم على المحرِم قياساً على تحريم حلق شعر الرأس؛ والعلة: ما في ذلك من الترفه، والتنعم؛ ولكن هذه العلة غير مسلمة:

أولاً: لأن العرب في زمنهم لا يترفهون بحلق الرأس؛ بل الرفاهية عندهم إنما هي في إبقاء الرأس، وترجيله، وتسريحه، ودهنه، والعناية به؛ فليست العلة إذاً في حلق شعر الرأس: الترفه.

ثانياً: أن العلة لا بد أن تطَّرد في جميع معلولاتها؛ وإلا كانت باطلة؛ وهذه العلة لا تطرد بدليل أن المحرم لو ترفه، فتنظف، وتغسل، وأزال الوسخ عنه، ولبس إحراماً جديداً غير الذي أحرم به لم يحرم عليه ذلك.

وأقرب شيء للتعليل أن في حلق الرأس حال الإحرام إسقاطاً للنسك الذي هو حلْقُه عند التحلل؛ وهذا لا يساويه حلق بقية الشعر، أو تقليم الأظافر؛ ولكن نظراً لأن جمهور أهل العلم ألحقوا ذلك بشعر الرأس فالاحتياط تجنب ذلك مراعاة لقول الجمهور.

١٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن المحرَّم ما يسمى حلقاً؛ فأما أخذ شعرة، أو شعرتين، أو ثلاث شعرات من رأسه فلا يقال: إنه حلق؛ وهذه المسألة مما تنازع فيها أهل العلم؛ فقال بعضهم: إذا أخذ شعرة واحدة من رأسه فقد حلق؛ فعليه فدية إطعام مسكين؛ وإن أخذ شعرتين فإطعام مسكينين؛ وإذا أخذ ثلاث شعرات فدم؛ أو إطعام ستة مساكين: لكل مسكين نصف صاع؛ أو صيام ثلاثة أيام؛ وقال بعض العلماء: إن الحكم يتعلق بربع الرأس؛ فإن حلق دون الربع فلا شيء عليه؛ وهذا لا شك أنه تحكم لا دليل عليه؛ فلا يكن صحيحاً؛ بل هو ضعيف؛ وقال آخرون: تتعلق الفدية بما يماط به الأذى؛ ومعنى يماط: يزال؛ أي بما يحصل به إزالة الأذى؛ وهذا لا يكون إلا بجزء كبير من الرأس؛ قالوا: لأن الله تعالى قال: ﴿**فمن كان منكم مريضاً أو به أذًى من رأسه ففدية**...﴾؛ فدل هذا على أن المحرَّم الذي تتعلق به الفدية هو ما يماط به الأذى؛ وهذا مذهب مالك؛ وهو صحيح من حيث أنَّ

الفدية لا تجب إلا بما يماط به الأذى فقط؛ لكنه غير صحيح من كون التحريم يتعلق بما يماط به الأذى فقط؛ فالتحريم يتعلق بما يسمى حلقاً؛ والفدية تتعلق بما يماط به الأذى.

فإن قال قائل: ما هو دليلكم على هذا التقسيم؛ فالعلماء لم يقولوا هذا الكلام؟

فالجواب: أن نقول: دليلنا على هذا التقسيم الآية الكريمة، وفعل النبي ﷺ؛ فقوله تعالى: ﴿**ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله**﴾؛ هذا عام لكل حلق؛ فكل ما يسمى حلقاً فإنه منهي عنه لهذه الآية؛ ثم قال تعالى: ﴿**فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية**﴾؛ فأوجب الفدية فيما إذا حلق حلقاً يزول به الأذى؛ لقوله تعالى: ﴿**أو به أذى**﴾؛ فلو قدرنا محرِماً رأسه تؤذيه الهوام، فحلق منه شيئاً يسيراً لا يزول به الأذى فلا فدية عليه؛ لأن الله تعالى إنما أوجب الفدية بحلق ما يزول به الأذى؛ ويدل لذلك فعل الرسول ﷺ: فقد احتجم وهو محرم في يافوخه في أعلى رأسه[1]؛ ومعلوم أن الحجامة تحتاج إلى حلق الشعر الذي يكون في موضع الحجامة؛ ولم ينقل أن الرسول ﷺ افتدى؛ فدل ذلك على أن ما تتعلق به الفدية هو ما يماط به الأذى دون الشيء اليسير.

١٧ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه لا يجوز الحلق إلا بعد النحر؛ لقوله تعالى: ﴿**حتى يبلغ الهدي محله**﴾؛ وإلى هذا ذهب كثير من

---

(١) أخرجه البخاري ص١٤٤، كتاب جزاء الصيد، باب ١١: الحجامة للمحرم، حديث رقم ١٨٣٦، وأخرجه مسلم ص٨٧٥، كتاب الحج، باب ١١: جواز الحجامة للمحرم، حديث رقم ٢٨٨٦ [٨٨] ١٢٠٣.

أهل العلم مستدلين بقوله ﷺ: «**إني لبدت رأسي وقلدت هديي؛ فلا أحل حتى أنحر**»[(١)]؛ وهؤلاء الذين قالوا به عندهم ظاهر الآية الكريمة؛ وفعل الرسول ﷺ حيث قال: «**فلا أحل حتى أنحر**»؛ لكن قد وردت الأحاديث بجواز التقديم، والتأخير تيسيراً على الأمة؛ فإن النبي ﷺ سئل في يوم العيد عن التقديم، والتأخير؛ فما سئل عن شيء قدِّم ولا أخِّر إلا قال ﷺ: «**افعل ولا حرج**»[(٢)].

١٨ ـ **ومن فوائد الآية**: جواز حلق الرأس للمرض، والأذى؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن كان منكم مريضاً أو به أذًى من رأسه...**﴾ إلخ.

١٩ ـ **ومنها**: وجوب الفدية على المحرم إذا حلق رأسه؛ وهي إما صيام ثلاثة أيام؛ وإما إطعام ستة مساكين: لكل مسكين نصف صاع؛ وإما ذبح شاة تفرق على الفقراء ـ كما بينت ذلك السنة ـ؛ والسنة تبين القرآن، كما قال الله تعالى: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم**﴾ [النحل: ٤٤]؛ والتبيين يشمل تبيين اللفظ، وتبيين المعنى.

٢٠ ـ **ومن فوائد الآية**: أن هذه الفدية على التخيير؛ لأن هذا هو الأصل في معاني «أو».

٢١ ـ **ومنها**: التيسير على العباد؛ وذلك بوقوع الفدية على التخيير.

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٣٩٣، حاشية رقم (٢).

(٢) أخرجه البخاري ص١٠، كتاب العلم، باب ٢٣: الفتيا وهو واقف على الدابة وغيرها حديث رقم ٨٣، وأخرجه مسلم ص٨٩٤، كتاب الحج، باب ٥٧: جواز تقديم الذبح على الرمي. حديث رقم ٣١٥٦ [٣٢٧] ١٣٠٦.

٢٢ ـ **ومنها**: أن محل الإطعام والنسك في مكان فعل المحظور؛ لأن الفورية تقتضي ذلك؛ أما الصيام فالظاهر ما قاله العلماء ـ رحمهم الله ـ من كونه يصح في كل مكان؛ لكن الفورية فيه أفضل.

٢٣ ـ **ومنها**: أن كفارات المعاصي فدًى للإنسان من العقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿**ففدية من صيام أو صدقة**...﴾.

٢٤ ـ **ومنها**: أن محظورات الإحرام لا تفسده؛ لأن الله لم يوجب في حلق الرأس ـ مع أنه من محظورات الإحرام ـ إلا الفدية؛ ومقتضى ذلك أن النسك صحيح؛ وهذا مما يخالف الحجُّ، والعمرةُ فيه غيرَهما من العبادات؛ فإن المحظورات في العبادات تبطلها؛ وألحق العلماء بفدية حلق الرأس فدية جميع محظورات الإحرام ما عدا شيئين؛ وهما الجماع في الحج قبل التحلل الأول، وجزاء الصيد؛ فالجماع في الحج قبل التحلل الأول يجب فيه بدنة؛ وجزاء الصيد يجب فيه مثله؛ أو إطعام مساكين؛ أو عدل ذلك صياماً؛ وما عدا ذلك من المحظورات ففديتها كفدية حلق الرأس عند الفقهاء، أو كثير منهم.

٢٥ ـ **ومن فوائد الآية**: جواز التمتع بالعمرة إلى الحج؛ أي أن يأتي الإنسان بالعمرة في أشهر الحج، ويتحلل منها؛ ويبقى حلاً إلى أن يأتي وقت الحج؛ وكانوا في الجاهلية يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور؛ ويقولون: «إذا انسلخ صفر، وبرأ الدَّبَر، وعفا الأثر، حلت العمرة لمن اعتمر»؛ لكن الله سبحانه وتعالى يسَّر وبيَّن أنه يجوز للإنسان القادم في أشهر الحج أن يتحلل بالعمرة متمتعاً بها إلى الحج.

٢٦ ـ **ومنها**: أنه إذا حل من عمرته حل الحل كله؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن تمتع**﴾؛ لأن إطلاق التمتع لا يكون إلا كذلك.

٢٧ ـ **ومنها**: أن من لم يحل من عمرته لا يسمى متمتعاً؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن تمتع بالعمرة إلى الحج**﴾؛ وعلى هذا فالقارن ليس بمتمتع؛ وهو كذلك عند الفقهاء أن القارن غير متمتع؛ لكن ذكر كثير من أهل العلم أن القارن يسمى متمتعاً في لسان الصحابة؛ وذلك؛ لأن بعض الصحابة عبر عن حج النبي ﷺ بالتمتع، فقالوا: تمتع النبي ﷺ بالعمرة إلى الحج[1]؛ ومن المعلوم أن الرسول ﷺ لم يحل من إحرامه؛ ولهذا قال الإمام أحمد: «لا شك أن النبي ﷺ حج قارناً؛ والمتعة أحب إليّ»؛ ولهذا كان وجوب الهدي على المتمتع بالإجماع؛ ووجوب الهدي على القارن فيه خلاف؛ وجمهور أهل العلم على وجوب الهدي عليه؛ وسبب اختلافهم في ذلك اختلافهم في العلة: هل هي حصول النسكين في سفر واحد؛ فيكون قد ترفه بسقوط أحد السفرين؛ أو العلة التمتع بالتحلل بين العمرة، والحج؛ فمن قال بالأول أوجب الهدي على القارن؛ ومن قال بالثاني لم يوجبه؛ لأنه لم يحصل للقارن تحلل بين النسكين.

٢٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه لا يجب على الإنسان أن يقترض للهدي إذا لم يكن معه ما يشتري به الهدي ـ ولو كان غنياً ـ؛ لقوله تعالى: ﴿**فما استيسر من الهدي**﴾.

---

(١) أخرجه البخاري ص١٣٣، كتاب الحج، باب ١٠٤: من ساق البدن معه، حديث رقم ١٦٩٢؛ وأخرجه مسلم ص٨٨٣، كتاب الحج، باب ٢٤، وجوب الدم على المتمتع...، حديث رقم ٢٩٨٣ [١٧٥] ١٢٢٨.

٢٩ ـ **ومنها**: تيسير الله على العباد؛ لقوله تعالى: ﴿**فما استيسر من الهدي**﴾؛ والدين كله من أوله إلى آخره مبني على اليسر.

٣٠ ـ **ومنها**: بلاغة القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن لم يجد**﴾؛ فحُذف المفعول للعموم ليشمل من لم يجد الهدي، أو ثمنه؛ فاستفيد زيادة المعنى مع اختصار اللفظ.

٣١ ـ **ومنها**: أن من لم يجد الهدي، أو ثمنه، فإنه يصوم ثلاثة أيام في الحج: أولها من حين الإحرام بالعمرة؛ وآخرها آخر أيام التشريق؛ لكن لا يصوم يوم العيد؛ لتحريم صومه؛ ولا ينبغي أن يصوم يوم عرفة؛ ليتفرغ للدعاء والذكر وهو نشيط؛ وعلى هذا فيجوز لمن كان عادماً للهدي من متمتع أو قارن أن يصوم من حين إحرامه بالعمرة.

فإن قال قائل: هذا ظاهر في القارن؛ لأنه إذا صام من حين إحرامه فقد صام في الحج؛ لكنه في المتمتع فيه إشكال؛ لأن المتمتع يحل بين العمرة والحج؟

والجواب: عن هذا الإشكال أن نقول: إن النبي ﷺ قال: «**دخلت العمرة في الحج**»[1]؛ ولأن المتمتع من حين إحرامه بالعمرة فقد نوى أن يحج.

٣٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن صيام السبعة لا يجوز في أيام الحج؛ لقوله تعالى: ﴿**وسبعة إذا رجعتم**﴾.

٣٣ ـ **ومنها**: أنه يجوز التتابع، والتفريق بين الأيام الثلاثة،

---

(١) أخرجه مسلم ص٨٨٠ ـ ٨٨١، كتاب الحج، باب ١٩: حجة النبي ﷺ، حديث رقم ٢٩٥٠ [١٤٧] ١٢١٨.

والأيام السبعة؛ لأن الله سبحانه وتعالى أطلق، ولم يشترط التتابع؛ ولو كان التتابع واجباً لذكره الله، كما ذكر وجوب التتابع في صيام كفارة القتل، وصيام كفارة الظهار.

٣٤ ـ **ومنها**: تيسير الله ـ تبارك وتعالى ـ على عباده، حيث جعل الأكثر من الصيام بعد رجوعه؛ لقوله تعالى: ﴿**وسبعة إذا رجعتم**﴾.

٣٥ ـ **ومنها**: أن الهدي، أو بدله من الصيام لا يجب على من كان حاضر المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿**ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام**﴾؛ وقد سبق أن الصحيح أنهم من كانوا داخل حدود الحرم؛ وعلى هذا إذا تمتع أهل جدة، أو الطائف، أو أهل الشرائع فعليهم الهدي؛ ولكن هل لحاضر المسجد الحرام التمتع؟

الجواب: نعم؛ لأن حاضر المسجد الحرام قد تدخل عليه أشهر الحج وهو خارج مكة، ثم يرجع إلى أهله في مكة في أشهر الحج، فيحرم بعمرة يتمتع بها إلى الحج.

فإن كان شخص في مكة للدراسة، لكن وطنه الرياض، أو المدينة، وتمتع فعليه الهدي؛ لأن أهله ليسوا من حاضري المسجد الحرام؛ وإقامته في مكة ليست إقامة استيطان؛ والمراد أن يكون مستوطناً في مكة.

وإذا كان له مَقَرَّان ـ في الطائف، وفي مكة ـ؛ يعني من أهل مكة والطائف، فهنا نقول: إن نظرنا إلى مقره في الطائف قلنا: ليس من حاضري المسجد الحرام؛ وإن نظرنا إلى مقره في مكة قلنا: هو من حاضري المسجد الحرام؛ فنعتبر الأكثر: إذا

كان أكثر إقامته في الطائف فليس من أهل المسجد الحرام؛ وإذا كان أكثر إقامته في مكة فهو من حاضري المسجد الحرام.

٣٦ ـ **ومن فوائد الآية**: فضيلة المسجد الحرام؛ لوصف الله سبحانه وتعالى له بأنه حرام ـ أي ذو حرمة ـ؛ ومن حرمته تحريم القتال فيه، وتحريم صيده، وشجره، وحشيشه، وأن من أراد الإلحاد فيه بظلم أذاقه الله من عذاب أليم؛ وبسط ذلك في المطولات.

٣٧ ـ **ومنها**: وجوب تقوى الله عز وجل، وتهديد من خالف ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿**واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب**﴾.

٣٨ ـ **ومنها**: أن العلم بشدة عقوبة الله من أهم العلوم؛ ولهذا أمر الله سبحانه وتعالى به بخصوصه؛ لأنه يورث الخوف من الله، والهرب من معصيته.

٣٩ ـ **ومنها**: أن العقوبة على الذنب لا تنافي الرحمة؛ إذ من المعلوم أن رحمة الله سبقت غضبه؛ لكن إذا عاقب من يستحق العقاب فإن ذلك من رحمة المعاقب؛ لأن هذه العقوبة إن كانت في الدنيا فهي كفارة له؛ وإن كانت في الآخرة فما دون الشرك أمره إلى الله: إن شاء عذب؛ وإن شاء غفر.

٤٠ ـ **ومنها**: أن شدة العقاب من كمال المعاقِب، وبسط قوته، وسلطانه؛ ولا يوصف الله سبحانه وتعالى إلا بالكمال؛ بل أمَرَنا أن نعلم ذلك في قوله تعالى: ﴿**اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم**﴾ [المائدة: ٩٨]؛ إذاً فإذا عاقبت ولدك بما يستحق، وكانت الجناية كبيرة، فأكبرت العقوبة فإنك تُحمَد، ولا تذم؛ ولهذا قال ﷺ: «**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم**

عليها لعشر»[١]؛ لأنه إذا بلغ عشراً صار تركه إياها، والإخلال بها أعظم.

تنبيه:

كثير من الناس كلما رأوا مخالفة من شخص في الإحرام قالوا: «عليك دم»؛ لو قال: حككت رأسي فسقطت منه شعرة بدون اختيار ولا قصد قالوا: «عليك دم»؛ وهذا غلط:

أولاً: لأنه خلاف ما أمر الله به؛ والله أوجب واحدة من ثلاث: صيام؛ أو صدقة؛ أو نسك؛ فإلزامهم بواحدة معينة فيها تضييق عليهم، وإلزام لهم بما لا يلزمهم.

ثانياً: أن الدم في أوقات النحر في أيام منى غالبه يضيع هدراً؛ لا ينتفع به.

ثالثاً: أن فيه إخفاءً لحكم الله عز وجل؛ لأن الناس إذا كانوا لا يفدون إلا بالدم، كأنه ليس فيه فدية إلا هذا؛ وليس فيه إطعام، أو صيام! فالواجب على طالب العلم أن يختار واحداً من أمرين:

* إما أن يرى الأسهل، ويفتي بالأسهل.

* وإما أن يقول: عليك هذا، أو هذا، أو هذا؛ واختر لنفسك.

---

(١) أخرجه أحمد ج٢/١٨٧، حديث رقم ٦٧٥٦، وأخرجه أبو داود ص١٢٥٩، كتاب الصلاة، باب ٢٦: متى يؤمر الغلام بالصلاة، حديث رقم ٤٩٥، وفيه سوار بن أبي حازم قال الحافظ في التقريب: صدوق له أوهام؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح ١/١٤٥، وله شاهد من حديث سبرة بن معبد (الإرواء ١/٢٦٦).

أما أن يذكر الأشد فقط، ويسكت فهذا خلاف ما ينبغي للمفتين.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾.

التفسير:

﴿١٩٧﴾ قوله تعالى: ﴿**الحج أشهر معلومات**﴾ يعني أن الحج يكون في أشهر معلومات؛ وهي شوال، وذو القعدة، وذو الحجة؛ وقيل: العشر الأول من ذي الحجة؛ والأول أصح؛ وقد استُشكل كون الخبر ﴿**أشهر**﴾؛ ووجه الإشكال: أن الحج عمل، والأشهر زمن؛ فكيف يصح أن يكون الزمن خبراً عن العمل؟ وأجيب بأن هذا على حذف مضاف؛ والتقدير: الحج ذو أشهر معلومات؛ فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه؛ وقيل: التقدير: الحج وقته أشهر معلومات؛ والتقدير الأول أقرب.

قوله تعالى: ﴿**فمن فرض فيهن الحج فلا رفث**﴾؛ «**مَن**» اسم شرط؛ و﴿**فرض**﴾ فعل الشرط؛ ﴿**فيهن**﴾ الضمير يعود إلى أشهر الحج؛ وقد أجمع العلماء على أن الضمير في ﴿**فيهن**﴾ يرجع إلى بعضهن؛ لأنه لا يمكن أن يفرض الحج بعد طلوع الفجر يوم النحر؛ ويفرض الحج من أول ليلة من شوال إلى ما قبل طلوع الفجر يوم النحر بزمن يتمكن فيه من الوقوف بعرفة.

قوله تعالى: ﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ جواب الشرط؛ وفيها قراءتان؛ إحداهما البناء على الفتح في ﴿رفثَ﴾، و﴿فسوقَ﴾؛ والثانية: التنوين فيهما؛ أما ﴿جدالَ﴾ فإنها بالبناء على الفتح على القراءتين.

قوله تعالى: ﴿فلا رفث﴾ نفي بمعنى النهي؛ و«الرفث» الجماع، ومقدماته.

قوله تعالى: ﴿ولا فسوق﴾ أي لا خروج عن طاعة الله بمعاصيه لا سيما ما يختص بالنسك، كمحظورات الإحرام.

قوله تعالى: ﴿ولا جدال في الحج﴾ يشمل الجدال فيه، وفي أحكامه، والمنازعات بين الناس في معاملاتهم؛ مثال الجدال فيه: أن يقال: «ما هو الحج؟»، فيحصل النزاع؛ أو «متى فُرض؟»، فيحصل النزاع فيه؛ ومثاله في أحكامه: النزاع في أركانه، وواجباته، ومحظوراته؛ ومثال النزاع بين الناس في معاملاتهم: أن يتنازع اثنان في العقود، فيقول أحدهما: «بعتك»، والثاني يقول: «لم تبعني»؛ أو يقول: «بعتك بكذا»، ويقول الثاني: «بل بكذا»؛ أو يتنازع اثنان عند أنابيب الماء في الشرب، أو الاستسقاء، أو عند الخباز.

قوله تعالى: ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾: لما نهى عن هذه الشرور انتقل إلى الأمر بالخير؛ وهذه الجملة شرطية: ﴿ما﴾ أداة الشرط؛ وفعل الشرط: ﴿تفعلوا﴾؛ وجواب الشرط: ﴿يعلمه الله﴾؛ ولهذا جزمت؛ و﴿مِن﴾ بيانية تبين المبهم من اللفظ؛ لأن ﴿ما﴾ شرطية مبهمة كالموصول؛ و﴿خير﴾ نكرة في سياق الشرط، فيشمل كل خير سواء كان قليلاً، أو كثيراً.

وقوله تعالى: ﴿يعلمه الله﴾: أي يحيط به علماً.

قوله تعالى: ﴿وتزودوا﴾ أي اتخذوا زاداً لغذاء أجسامكم، وغذاء قلوبكم ـ وهذا أفضل النوعين ـ؛ لقوله تعالى: ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ و«التقوى» اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ هذا أجمع ما قيل في التقوى.

لما رغب الله سبحانه وتعالى في التقوى أمر بها طلباً لخيرها فقال تعالى: ﴿واتقون يا أولي الألباب﴾؛ و﴿اتقونِ﴾ فعل أمر؛ والنون للوقاية؛ والياء المحذوفة للتخفيف مفعول به؛ و﴿يا أولي الألباب﴾ جمع لب؛ أي يا أصحاب العقول؛ ووجه الله تعالى الأمر إلى أصحاب العقول؛ لأنهم هم الذين يدركون فائدة التقوى، وثمرتها؛ أما السفهاء فلا يدركونها.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: تعظيم شأن الحج، حيث جعل الله له أشهراً مع أنه أيام ـ ستة أيام ـ؛ وقد جعل الله له أشهراً ثلاثة حتى يأمن الناس، ويتأهبوا لهذا الحج؛ ولهذا ما بعد الحج أقصر مما قبله؛ الذي قبله: شهران وسبعة أيام؛ والذي بعده: سبعة عشر يوماً فقط؛ لأنه إذا حج انتهى غرضه؛ فطُلب منه العودة؛ بخلاف ما إذا كان قبله.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن أشهر الحج ثلاثة؛ لقوله تعالى: ﴿أشهر﴾؛ وهي جمع قلة؛ والأصل في الجمع أن يكون ثلاثة فأكثر؛ هذا المعروف في اللغة العربية؛ ولا يطلق الجمع على اثنين، أو اثنين وبعض الثالث إلا بقرينة؛ وهنا لا قرينة تدل على ذلك؛ لأنهم إن جعلوا أعمال الحج في الشهرين وعشرة الأيام

يرد عليه أن الحج لا يبدأ فعلاً إلا في اليوم الثامن من ذي الحجة؛ وينتهي في الثالث عشر؛ وليس العاشر؛ فلذلك كان القول الراجح أنه ثلاثة أشهر كاملة؛ وهو مذهب مالك؛ وهو الصحيح؛ لأنه موافق للجمع؛ وفائدته أنه لا يجوز تأخير أعمال الحج إلى ما بعد شهر ذي الحجة إلا لعذر؛ لو أخرت طواف الإفاضة مثلاً إلى شهر المحرم قلنا: هذا لا يجوز؛ لأنه ليس في أشهر الحج والله تعالى يقول: ﴿**الحج أشهر**﴾؛ فلا بد أن يقع في أشهر الحج؛ ولو أخرت الحلق إلى المحرم فهذا لا يجوز؛ لأنه تعدى أشهر الحج.

وهل هذه الأشهر من الأشهر الحرم؟

الجواب: أن اثنين منها من أشهر الحرم، وهما ذو القعدة، وذو الحجة؛ وواحد ليس منها ـ وهو شوال ـ؛ كما أن «المحرم» من الأشهر الحرم، وليس من أشهر الحج؛ فرمضان شهر صيام؛ وشوال شهر حج؛ وذو القعدة شهر حج، ومن الحرم؛ وذو الحجة شهر حج، ومن الحرم؛ والمحرم من الحرم، وليس شهر حج.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: الإحالة على المعلوم بشرط أن يكون معلوماً؛ لقوله تعالى: ﴿معلومات﴾؛ وهذا يستعمله الفقهاء كثيراً يقولون: هذا معلوم بالضرورة من الدين؛ وأمر هذا معلوم؛ وما أشبه ذلك؛ فلا يقال: إنه لم يبين؛ لأنه ما دام الشيء مشهوراً بين الناس معروفاً بينهم يصح أن يعَرِّفه بأنه معلوم؛ ومن ذلك ما يفعله بعض الكتاب في الوثائق: يقول: «باع فلان على فلان كذا، وكذا» ـ وهو معلوم بين الطرفين ـ يجوز وإن لم تفصل ما دام

معلوماً؛ فإضافة الشيء إلى العلم وهو معلوم يعتبر من البيان.

٤ ـ **ومنها**: أن من تلبس بالحج، أو العمرة وجب عليه إتمامه، وصار فرضاً عليه؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن فرض فيهن الحج**﴾؛ ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿**ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم**﴾ [الحج: ٢٩]؛ فسمى الله تعالى أفعال الحج نذوراً؛ ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿**وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي**﴾ [البقرة: ١٩٦]؛ فلم يبح الله تعالى الخروج من النسك إلا بالإحصار.

٥ ـ **ومنها**: وجوب إتمام النفل في الحج؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن فرض**﴾؛ والفرض لا بد من إتمامه.

٦ ـ **ومنها**: أن الإحرام بالحج قبل أشهره لا ينعقد؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن فرض فيهن الحج فلا رفث**﴾؛ فلم يرتب الله أحكام الإحرام إلا لمن فرضه في أشهر الحج؛ ومعلوم أنه إذا انتفت أحكام العمل فمعناه أنه لم يصح العمل، وهذا مذهب الشافعي ـ رحمه الله ـ أنه إذا أحرم بالحج قبل دخول أشهر الحج لم ينعقد إحرامه؛ ولكن هل يلغو، أو ينقلب عمرة؟ في هذا قولان عندهم؛ أما عندنا مذهب الحنابلة؛ فيقولون: إن الإحرام بالحج قبل أشهره ينعقد؛ ولكنه مكروه ـ يكره أن يحرم بالحج قبل أشهره ـ؛ ومذهب الشافعي أقرب إلى ظاهر الآية الكريمة: أنه إذا أحرم بالحج قبل أشهره لا ينعقد حجاً؛ والظاهر أيضاً أنه لا ينعقد، ولا ينقلب عمرة؛ لأن العبادة لم تنعقد؛ وهو إنما دخل على أنها حج؛ فلا ينعقد لا حجاً، ولا عمرة.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: أن المحظورات تحرم بمجرد عقد

الإحرام ـ وإن لم يخلع ثيابه من قميص، وسراويل، وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن فرض فيهن الحج فلا رفث**﴾؛ لأنه جواب الشرط؛ وجواب الشرط يكون تالياً لفعله؛ فبمجرد أن يفرض فريضة الحج تحرم عليه المحظورات.

٨ ـ **ومنها**: أن الإحرام ينعقد بمجرد النية ـ أي نية الدخول إلى النسك؛ وتثبت بها الأحكام ـ وإن لم يلبّ؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن فرض فيهن الحج فلا رفث**﴾.

٩ ـ **ومنها**: تحريم الجماع، ومقدماته بعد عقد الإحرام؛ لقوله تعالى: ﴿**فلا رفث**﴾؛ وجواب الشرط يكون عقب الشرط؛ فبمجرده يحرم الرفث.

١٠ ـ **ومنها**: تحريم الفسوق؛ لقوله تعالى: ﴿**فلا فسوق**﴾.

فإن قال قائل: الفسوق محرم في الإحرام، وغيره.

فالجواب: أنه يتأكد في الإحرام أكثر من غيره.

١١ ـ **ومنها**: تحريم الجدال؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا جدال في الحج**﴾؛ والجدال إن كان لإثبات الحق، أو لإبطال الباطل فإنه واجب، وعلى هذا فيكون مستثنًى من هذا العموم؛ لقوله تعالى: ﴿**وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ [النحل: ١٢٥]؛ وأما الجدال لغير هذا الغرض فإنه محرم حال الإحرام؛ فإن قلت: أليس محرماً في هذا، وفي غيره لما يترتب عليه من العداوة، والبغضاء، وتشويش الفكر؟

فالجواب: أنه في حال الإحرام أوكد.

١٢ ـ **ومنها**: البعد حال الإحرام عن كل ما يشوش الفكر، ويشغل النفس؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا جدال في الحج**﴾؛ ومن ثم

يتبين خطأ أولئك الذين يزاحمون على الحجر عند الطواف؛ لأنه يشوش الفكر، ويشغل النفس عما هو أهم من ذلك.

١٣ ـ **ومنها**: الحث على فعل الخير؛ لأن قوله تعالى: ﴿**وما تفعلوا من خير يعلمه الله**﴾ يدل على أنه سيجازي على ذلك، ولا يضيعه؛ قال تعالى: ﴿**ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً**﴾ [طه: ١١٢].

١٤ ـ **ومنها**: أن الخير سواء قلّ، أو كثر، فإنه معلوم عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿**من خير**﴾؛ وهي نكرة في سياق الشرط؛ والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم.

١٥ ـ **ومنها**: عموم علم الله تعالى بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿**وما تفعلوا من خير يعلمه الله**﴾.

١٦ ـ **ومنها**: الحث على التزود من الخير؛ لقوله تعالى: ﴿**وتزودوا فإن خير الزاد التقوى**﴾.

١٧ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للحاج أن يأخذ معه الزاد الحسيّ من طعام، وشراب، ونفقة، لئلا يحتاج في حجه، فيتكفف الناس؛ لقوله تعالى: ﴿**وتزودوا**﴾.

١٨ ـ **ومنها**: أن التقوى خير زاد، كما أن لباسها خير لباس؛ فهي خير لباس؛ لقوله تعالى: ﴿**ولباس التقوى ذلك خير**﴾ [الأعراف: ٢٦]؛ وهي خير زاد؛ لقوله تعالى: ﴿**فإن خير الزاد التقوى**﴾.

١٩ ـ **ومنها**: وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿**واتقون**﴾.

٢٠ ـ **ومنها**: أن أصحاب العقول هم أهل التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿**واتقون يا أولي الألباب**﴾.

٢١ ـ **ومنها**: أنه كلما نقص الإنسان من تقوى الله كان ذلك دليلاً على نقص عقله ـ عقل الرشد؛ بخلاف قول النبي ﷺ: «**ما رأيت من ناقصات عقل، ودين**»[(١)]؛ فإن المراد بنقص العقل هنا عقل الإدراك؛ فإن مناط التكليف عقل الإدراك؛ ومناط المدح عقل الرشد؛ ولهذا نقول: إن هؤلاء الكفار الأذكياء الذين هم في التصرف من أحسن ما يكون؟ نقول: هم عقلاء عقول إدراك؛ لكنهم ليسوا عقلاء عقول رشد؛ ولهذا دائماً ينعى الله عليهم عدم عقلهم؛ والمراد عقل الرشد الذي به يرشدون.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾.

التفسير:

﴿١٩٨﴾ لما أمر الله بالتزود، وبيَّن أن خير الزاد التقوى، وأمر بالتقوى، قد يقول قائل: إذا اتجرت أثناء حجي صار عليّ في ذلك إثم؛ ولهذا تحرج الصحابة من الاتجار في الحج؛ فبين الله عزّ وجلّ أن ذلك لا يؤثر، وأنه ليس فيه إثم؛ فقال تعالى: ﴿**ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم**﴾ أي أن

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٦، كتاب الحيض، باب ٦: ترك الحائض الصوم، حديث رقم ٣٠٤، وأخرجه مسلم ص٦٩٢، كتاب الإيمان، باب ٣٤: بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، حديث رقم ٢٤١ [١٣٢] ٧٩.

تبتغوا الرزق، وتطلبوه بالتجارة؛ كقوله تعالى: ﴿**وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله**﴾ [المزمل: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿**فإذا أفضتم من عرفات**﴾؛ أصل الإفاضة الاندفاع؛ ومنه إفاضة الماء؛ ومنه الإفاضة في الكلام، والاستمرار فيه؛ ومعنى ﴿**أفضتم**﴾: دفعتم؛ والتعبير بـ﴿**أفضتم**﴾ يصور لك هذا المشهد كأن الناس أودية تندفع؛ و﴿**عرفات**﴾ على صيغ الجمع؛ وهي اسم لمكان واحد؛ وهو معروف؛ وسمي عرفات لعدة مناسبات:

قيل: لأن الناس يعترفون هناك بذنوبهم، ويسألون الله أن يغفرها لهم.

وقيل: لأن الناس يتعارفون بينهم؛ إذ إنه مكان واحد يجتمعون فيه في النهار؛ فيعرف بعضهم بعضاً.

وقيل: لأن جبريل لما علَّم آدم المناسك، ووصل إلى هذا قال: عرفت.

وقيل: لأن آدم لما أهبط إلى الأرض هو وزوجته تعارفا في هذا المكان.

وقيل: لأنها مرتفعة على غيرها؛ والشيء المرتفع يسمى عُرْفاً؛ ومنه: أهل الأعراف، كما قال تعالى: ﴿**ونادى أصحاب الأعراف رجالاً**﴾ [الأعراف: ٤٨]؛ ومنه: عُرْف الديك؛ لأنه مرتفع؛ وكل شيء مرتفع يسمى بهذا الاسم.

وعندي ـ والله أعلم ـ أن هذا القول الأخير أقرب الأقوال؛ وكذلك الأول: أنه سمي عرفات؛ لأن الناس يعترفون فيه لله تعالى بالذنوب؛ ولأنه أعرف الأماكن التي حوله.

و﴿عرفات﴾ مشعر حلال خارج الحرم؛ ومع ذلك فهو الحج، كما قال الرسول ﷺ: «**الحج عرفة**»[(١)]؛ والحكمة من الوقوف فيها أن يجمع الحاج في نسكه بين الحل والحرم؛ ولهذا أمر النبي ﷺ عائشة أن تحرم بالعمرة من التنعيم[(٢)]؛ لتجمع فيها بين الحل والحرم.

قوله تعالى: ﴿**فاذكروا الله عند المشعر الحرام**﴾ الفاء هنا واقعة في جواب الشرط؛ وأداة الشرط: «**إذا**»؛ وقوله تعالى: ﴿**فاذكروا الله**﴾ أي باللسان، والقلب، والجوارح؛ فيشمل كل ما فعل عند المشعر من عبادة؛ ومن ذلك صلاة المغرب، والعشاء، والفجر؛ و﴿**المشعر**﴾ مكان الشعيرة؛ فهي «مَفْعَل» اسم مكان؛ وهو المكان الذي تؤدى فيه شعيرة من شعائر الله عزّ وجلّ؛ و﴿**الحرام**﴾ أي ذي الحرمة؛ لأنه داخل حدود الحرم؛ وقال العلماء: إن هذا الوصف وصف قيدي؛ ليخرج المشعر الحلال

---

(١) أخرجه أبو داود ص١٣٦٧، كتاب المناسك، باب ٦٨: من لم يدرك عرفة، حديث رقم ١٩٤٩، وأخرجه الترمذي ص١٩٥١، كتاب تفسير القرآن، باب ٢: ومن سورة البقرة، حديث رقم ٢٩٧٥، وأخرجه النسائي ص٢٢٨٣، كتاب المناسك، باب ٢١١: فمن لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة، حديث رقم ٣٠٤٧، وأخرجه ابن ماجه ص٢٦٥٩، كتاب المناسك، باب ٥٧: من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع، حديث رقم ٣٠١٥، وأخرجه الدارمي ٢/ ٨٢، كتاب المناسك، باب ٥٤: بما يتم الحج، حديث رقم ١٨٨٧، وقال الألباني في الإرواء (صحيح)، ٤/ ٢٥٦، حديث رقم ١٠٦٤.

(٢) أخرجه البخاري ص٢٧، كتاب الحيض، باب ١٥: امتشاط المرأة...، حديث رقم ٣١٦؛ وأخرجه مسلم ص٨٧٦، كتاب الحج، باب ١٧: بيان وجوه الإحرام...، حديث رقم ٢٩١٠ [١١١] ١٢١١.

ـ وهو عرفة ـ؛ وقالوا: إن المشعر مشعران: حلال ـ وهو عرفة ـ؛ وحرام ـ وهو مزدلفة ـ.

قوله تعالى: ﴿واذكروه كما هداكم﴾؛ أمر بالذكر مرة أخرى؛ لكن لأجل التعليل الذي بعده ـ وهو الهداية ـ؛ لهذا الكاف هنا للتعليل؛ و«ما» مصدرية تسبك، وما بعدها بمصدر؛ فيكون التقدير: واذكروه لهدايتكم؛ والكاف تأتي للتعليل، كما قال ابن مالك في الألفية:

شبه بكاف وبها التعليل قد يعنى وزائداً لتوكيد ورد

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا...**﴾ [البقرة: ١٥١] الآية؛ وكما في التشهد في قوله: «**اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم...**»، أي لأنك صليت على إبراهيم فصل على محمد؛ فهو توسل إلى الله تعالى بفعل سبق منه نظير ما سألته.

ويحتمل أن تكون الكاف للتشبيه؛ وعليه فيكون الأمر بذكره ثانية عائداً على الوصف ـ أي اذكروه على الصفة التي هداكم إليها ـ أي على حسب ما شرع؛ وعليه فلا تكرار؛ لأن الأمر بالذكر أولاً أمر بمطلق الذكر، والأمر به ثانية أمر بكونه على الصفة التي هدانا إليها.

وقوله تعالى: ﴿هداكم﴾ أي دلكم، ووفقكم.

قوله تعالى: ﴿**وإن كنتم من قبله لمن الضالين**﴾؛ ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة؛ فهي للتوكيد بدليل وجود اللام الفارقة؛ والتقدير: وإنكم كنتم من قبله لمن الضالين؛ واسم ﴿إن﴾ ضمير الشأن محذوف؛ وهو مناسب للسياق؛ وبعض النحويين يقدر

ضمير الشأن دائماً بضمير مفرد مذكر غائب فيكون التقدير: وإنه ـ أي الشأن ـ؛ والصواب القول الأول أنه يقدر بما يقتضيه السياق ـ يعني: وإنكم كنتم من قبله لمن الضالين ـ؛ وجملة: ﴿كنتم من قبله لمن الضالين﴾ خبر ﴿إن﴾ المخففة؛ والضمير في قوله تعالى: ﴿من قبله﴾ يعود على القرآن؛ أو يعود على الرسول؛ أو يعود على الهدى؛ كل ذلك محتمل؛ وكل ذلك متلازم؛ فالهدى جاء من القرآن، ومن النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿لمن الضالين﴾: يشمل الضال عن جهل؛ والضال عن علم؛ فالضال عن جهل: الذي لم يعلم بالحق أصلاً؛ والضال عن علم: الذي ترك الطريق الذي ينبغي أن يسلكه ـ وهو الرشد ـ؛ والعرب من قبل هذا الدين ضالون؛ منهم من كان ضالاً عن جهل؛ ومنهم من كان ضالاً عن علم؛ فمثلاً قريش لا تفيض من عرفة؛ وإنما تقف يوم عرفة في مزدلفة؛ قالوا: لأننا نحن أهل الحرم؛ فلا نخرج عنه؛ فكانوا يقفون في يوم عرفة في مزدلفة، ولا يفيضون من حيث أفاض الناس؛ وإذا جاء الناس وباتوا فيها خرجوا جميعاً إلى منى؛ وهذا من جهلهم، أو عنادهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: جواز الاتجار أثناء الحج بالبيع، والشراء، والتأجير ـ كالذي يؤجر سيارته التي يحج عليها في الحج؛ لقوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾.

٢ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان في حال بيعه، وشرائه أن

يكون مترقباً لفضل الله لا معتمداً على قوته، وكسبه؛ لقوله تعالى: ﴿**أن تبتغوا فضلاً من ربكم**﴾.

٣ ـ **ومنها**: ظهور منة الله على عباده بما أباح لهم من المكاسب؛ وأن ذلك من مقتضى ربوبيته سبحانه وتعالى، حيث قال تعالى: ﴿**فضلاً من ربكم**﴾.

٤ ـ **ومنها**: مشروعية الوقوف بعرفة؛ لقوله تعالى: ﴿**فإذا أفضتم من عرفات**﴾؛ وهو ركن من أركان الحج؛ لقول النبي ﷺ: «**الحج عرفة**»[1]؛ لو قال قائل: إن قوله تعالى: ﴿**فإذا أفضتم من عرفات**﴾ ليس أمراً بالوقوف بها.

فالجواب: أنه لم يكن أمراً بها؛ لأنها قضية مسلمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**فإذا أفضتم من عرفات**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أنه يشترط للوقوف بمزدلفة أن يكون بعد الوقوف بعرفة؛ لقوله تعالى: ﴿**فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام**﴾؛ فلو أن أحداً مر بمزدلفة في الليل، ووقف بها يدعو، ثم وقف بعرفة يدعو بها، ثم رجع إلى منى لم يجزئه الوقوف بمزدلفة؛ لأنه في غير محله الآن؛ لأن الله ذكره بعد الوقوف بعرفة.

٦ ـ **ومنها**: أن الصلاة من ذكر الله؛ لقوله تعالى: ﴿**فاذكروا الله عند المشعر الحرام**﴾؛ والنبي ﷺ أول ما بدأ: بالصلاة[2]؛ ولا شك أن الصلاة ذكر لله؛ بل هي روضة من

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٤٢٢، حاشية (١).

(٢) راجع البخاري ص١٣٢، كتاب الحج، باب ٩٥: الجمع بين الصلاتين بالمزدلفة، حديث رقم ١٦٧٢.

رياض الذكر: فيها قراءة، وتكبير، وتسبيح، وقيام، وركوع، وسجود، وقعود؛ كل ذلك من ذكر الله: ذكر بالقلب، وباللسان، وبالجوارح؛ ثم من خاصية الصلاة أن كل عضو من أعضاء البدن له ذكر خاص به، وعبادة تتعلق به.

٧ ـ **ومنها**: بيان أن مزدلفة من الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿**عند المشعر الحرام**﴾.

٨ ـ **ومنها**: جواز المبيت في مزدلفة في جميع نواحيها؛ لقوله تعالى: ﴿**عند المشعر الحرام**﴾.

٩ ـ **ومنها**: أن عرفة مشعر حلال؛ لأنها من الحل؛ ولهذا يجوز للمحرم أن يقطع الأشجار بعرفة.

١٠ ـ **ومنها**: أن مزدلفة مشعر من المشاعر؛ فيكون فيه رد على من قال: إن الوقوف بها سنة؛ والقول الثاني: أنه ركن لا يصح الحج إلا به كالوقوف بعرفة؛ والقول الثالث: أنه واجب يصح الحج بدونه؛ ولكن يجبر بدم؛ وأنا أتوقف بين كونها ركناً، وواجباً؛ أما أنها سنة فهو ضعيف؛ لا يصح.

١١ ـ **ومنها**: أن الإنسان يجب عليه أن يذكر الله تعالى لما أنعم عليه به من الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿**واذكروه كما هداكم**﴾ إذا جعلنا الكاف للتعليل؛ وإن جعلناها للتشبيه فالمعنى: اذكروه على الوجه الذي هداكم له؛ **فيستفاد منها** أن الإنسان يجب أن يكون ذكره لله على حسب ما ورد عن الله عزّ وجلّ.

١٢ ـ **ومنها**: أن الذكر المشروع ما وافق الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿**واذكروه كما هداكم**﴾؛ والهداية نوعان: **هداية دلالة**: وهذه عامة لكل أحد؛ فكل أحد قد بين الله له شريعته سواء وفِّق

لاتباعها، أم لا؛ ودليلها قوله تعالى: ﴿**وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى**﴾ [فصلت: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿**إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً**﴾ [الإنسان: ٣]؛ والثاني: **هداية توفيق** بأن يوفق الله العبد لاتباع الهدى؛ ومنها قوله تعالى حين ذكر من ذكر من الأنبياء: ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿**إنك لا تهدي من أحببت**﴾ [القصص: ٥٦] أي لا توفق للهدى من أحببته، أو من أحببت هدايته.

١٣ ـ **ومن فوائد الآية**: تذكير الإنسان بحاله قبل كماله؛ ليعرف بذلك قدر نعمة الله عليه؛ لقوله تعالى: ﴿**وإن كنتم من قبله لمن الضالين**﴾؛ ومن هذا قول النبي ﷺ للأنصار: «**ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي**»[(١)]؛ ومنه قول الملَك للأبرص والأقرع: «**ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيراً فأغناك الله**»[(٢)] الحديث؛ فالتذكير بالنعم بذكر الحال، وبذكر الكمال بعد النقص مما يوجب للإنسان أن يزداد من شكر نعمة الله عليه.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري ص٣٥٤، كتاب المغازي، باب ٥٧: غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، حديث رقم ٤٣٣٠؛ وأخرجه مسلم ص٨٤٥، كتاب الزكاة، باب ٤٦: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، حديث، رقم ٢٤٤٦ [١٣٩] ١٠٦١.

(٢) أخرجه البخاري ص٢٨٢ ـ ٢٨٣، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٥١: حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، حديث رقم ٣٤٦٤، وأخرجه مسلم ص١١٩١ ـ ١١٩٢، كتاب الزهد والرقائق، باب ١: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، حديث رقم ٧٤٣١ [١٠] ٢٩٦٤.

القرآن

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾.

التفسير:

﴿١٩٩﴾ قوله تعالى: ﴿**ثم أفيضوا**﴾ أي من عرفات.

قوله تعالى: ﴿**من حيث أفاض الناس**﴾ أي من المكان الذي يفيض الناس منه؛ وكانت قريش في الجاهلية لا يقفون مع الناس في عرفة ـ يقولون: نحن أهل الحرم فلا نقف خارج الحرم ـ؛ فأُمر المسلمون أن يفيضوا من حيث أفاض الناس ـ أي من عرفة ـ؛ هذا هو ظاهر الآية الكريمة؛ ولكنه مشكل حيث إنه ذُكر بعد قوله: ﴿**فإذا أفضتم من عرفات**﴾؛ وأجيب عن هذا الإشكال أن الترتيب ذكري ـ لا ترتيب حكمي ـ؛ بمعنى أن الله تعالى لما ذكر إفاضتهم من عرفات أكد هذا بقوله تعالى: ﴿**ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس**﴾ دون أن يكون المراد الترتيب الحكمي؛ ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿**ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس**﴾ أي أفيضوا من المشعر الحرام من حيث أفاض الناس؛ فيكون المراد بالإفاضة هنا الإفاضة من مزدلفة؛ وعلى هذا الاحتمال لا يبقى في الآية إشكال.

قوله تعالى: ﴿**واستغفروا الله**﴾ أي اطلبوا المغفرة منه؛ والمغفرة ستر الذنب، والتجاوز عنه؛ لأنها مأخوذة من المغفر الذي يوضع على الرأس عند القتال لتوقي السهام؛ وليست المغفرة مجرد الستر؛ بل هي ستر، ووقاية.

قوله تعالى: ﴿**إن الله غفور رحيم**﴾؛ هذه الجملة تعليل

للأمر؛ أي استغفروا الله؛ لأنه أهل لأن يُستغفَر؛ فإنه سبحانه وتعالى غفور رحيم.

وإعراب ﴿رحيم﴾: خبر ثانٍ لـ﴿إن﴾؛ والخبر الأول: ﴿غفور﴾.

وقوله تعالى: ﴿غفور﴾ صيغة مبالغة؛ وذلك لكثرة غفرانه تبارك وتعالى، وكثرة من يغفر لهم؛ و«**الغفور**» أي ذو المغفرة، كما قال تعالى: ﴿**وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم**﴾ [الرعد: ٦].

وقوله تعالى: ﴿رحيم﴾ إما صفة مشبهة؛ وإما صيغة مبالغة؛ و«**الرحيم**» أي ذو الرحمة؛ وهي صفة تقتضي جلب النعم، ودفع النقم، كما قال تعالى: ﴿**وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون**﴾ [النحل: ٥٣].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: وجوب المبيت بمزدلفة؛ لقوله تعالى: ﴿**ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس**﴾ على أحد التفسيرين، كما سبق؛ ومتى أفاض الإنسان من حيث أفاض الناس فإنه يلزم من ذلك أن يكون قد بات بمزدلفة.

٢ ـ **ومنها**: أن هذا النسك كان أمراً معلوماً يسير الناس عليه من قديم الزمان؛ لقوله تعالى: ﴿**ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن الناس في أحكام الله تعالى سواء؛ فلا يخص أحد بحكم من الأحكام إلا لمعنًى يقتضي ذلك؛ والمعنى المخصِّص يكون من قِبَل الشرع ـ لا من قبل الهوى، والعادة ـ؛

لقوله تعالى: ﴿**ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس**﴾؛ ولا يشكل على قولنا هذا ما ورد في قصة أبي بردة بن نيار أنه ذبح في عيد الأضحى أضحية قبل الصلاة؛ ولما خطب النبي ﷺ وقال: «**إن من ذبح قبل الصلاة فلا نسك له، وأن شاته شاة لحم**» قام أبو بردة فقال: «**يا رسول الله، إن عندي عناقاً هي أحب إلي من شاتين أفتجزي عني؟ قال: نعم؛ ولن تجزئ عن أحد بعدك**»[(١)]؛ لأن المراد بقوله ﷺ: «**لن تجزئ عن أحد بعدك**» أي بعد حالك؛ بمعنى: أن من جرى له مثله فإنها تجزي عنه؛ هكذا قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ـ وهو ظاهر ـ؛ وكذلك لا يشكل على هذا قصة سالم مولى أبي حذيفة الذي كان قد تبناه؛ فلما أبطل الله التبني جاءت زوجة أبي حذيفة إلى رسول الله ﷺ تستفتيه في سالم أنه كان يدخل عليها؛ يعني: وكأنه أحد أبنائها؛ فقال لها النبي ﷺ: «**أرضعيه تحرمي عليه**»[(٢)]؛ فإنه ليس خاصاً به؛ بل لو جرى لأحد مثل ما جرى لسالم لحكمنا له بمثل ما حكم به النبي ﷺ لسالم؛ لكن هذا لا يمكن بعد نسخ التبني؛ إذ لا يمكن أحداً أن يتبنى؛ وعلى هذا فالصورة التي تلحق بقصة سالم ممتنعة.

٤ ـ **ومنها**: أنه يشرع أن يستغفر الله عزّ وجلّ في آخر العبادات؛ لقوله تعالى: ﴿**واستغفروا الله**﴾.

---

(١) أخرجه البخاري ص٧٥، كتاب العيدين، باب ٥: الأكل يوم النحر، حديث رقم ٩٥٥، وأخرجه مسلم ص١٠٢٧ ـ ١٠٢٨، كتاب الأضاحي، باب ١: وقتها، حديث رقم ٥٠٧٠ [٥] ١٩٦١.

(٢) أخرجه مسلم ص٩٢٣، كتاب الرضاع، باب ٧: رضاعة الكبير، حديث رقم ٣٦٠٢ [٢٨] ١٤٥٣، وأصله في البخاري.

٥ ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: «**الغفور**»، و«**الرحيم**»؛ وإثبات ما تضمناه من الصفة؛ وهي المغفرة، والرحمة؛ وإثبات ما تضمناه من الحكم بمقتضاهما؛ وهو أنه يغفر ويرحم كما قال تعالى: ﴿**يعذب من يشاء ويرحم من يشاء**﴾ [العنكبوت: ٢١]، وقال تعالى: ﴿**ومن يغفر الذنوب إلا الله**﴾ [آل عمران: ١٣٥].

٦ ـ **ومنها**: قرن الحكم بالعلة؛ لقوله تعالى: ﴿**واستغفروا الله إن الله غفور رحيم**﴾؛ وقرن الحكم بالعلة في مثل هذا يفيد الإقدام، والنشاط على استغفار الله عزّ وجلّ.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٠٠﴾ قوله تعالى: ﴿**فإذا قضيتم مناسككم**﴾ أي أنهيتم مناسككم؛ وذلك بالتحلل من النسك.

قوله تعالى: ﴿**فاذكروا الله**﴾ أمر تعالى بذكره بعد فراغ النسك؛ لأن الإنسان إذا فرغ من العبادة قد يغفل عن ذكر الله.

وقوله تعالى: ﴿**مناسككم**﴾ جمع منسك؛ وهو فيما يظهر اسم مصدر ـ يعني مصدراً ميمياً ـ؛ أي قضيتم نسككم؛ و«**النسك**»

بمعنى العبادة؛ وهو كل ما يتعبد به الإنسان لله؛ ولكن كثر استعماله في الحج؛ وفي الذبح؛ ومنه قوله تعالى: ﴿**قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين**﴾ [الأنعام: ١٦٢].

قوله تعالى: ﴿**كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً**﴾؛ «**ذكر**» هنا مصدر مضاف لفاعله؛ و«**آباء**» مفعول به؛ أي كما تذكرون آباءكم، أو أشد ذكراً؛ و﴿**أشد**﴾ يشمل الشدة في الهيئة، وحضور القلب، والإخلاص؛ والشدةَ في الكثرة أيضاً؛ فيذكر الله ذكراً كثيراً، ويذكره ذكراً قوياً مع حضور القلب.

وقوله تعالى: ﴿**كذكركم آباءكم**﴾؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يذكرون أمجاد آبائهم إذا انتهوا من المناسك؛ وكل يفخر بنسبه، وحسبه؛ فأمر الله تعالى أن نذكره سبحانه وتعالى كذكرهم آباءهم، أو أشد ذكراً.

وقوله تعالى: ﴿**أو أشد ذكراً**﴾: قال كثير من النحويين: إن ﴿**أو**﴾ بمعنى: بل؛ أي بل أشد؛ وهو هنا متوجِّه؛ ويشبهها من بعض الوجوه قوله تعالى: ﴿**وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون**﴾ [الصافات: ١٤٧]؛ وقد ذكر ابن القيم في قوله تعالى: ﴿**أو يزيدون**﴾ أن ﴿**أو**﴾ هنا ليست بمعنى «بل»؛ ولكنها لتحقيق ما سبق ـ يعني: إن لم يزيدوا فلن ينقصوا ـ؛ وبناءً على هذا نقول مثله في هذه الآية: أي كذكركم آباءكم ـ إن لم يزد فلا ينقص ـ؛ إلا أنّه هنا إذا جعلناها بمعنى «بل» تكون أبلغ؛ لأن ذكر الله يجب أن يكون أشد من ذكر الآباء.

قوله تعالى: ﴿**فمن الناس**﴾؛ «**من**» للتبعيض؛ والمعنى: بعض الناس؛ بدليل أنها قوبلت بقوله تعالى: ﴿**ومنهم**﴾؛ فيكون

المعنى: بعضهم كذا؛ وبعضهم كذا؛ وهذا من باب التقسيم؛ يعني: ينقسم الناس في أداء العبادة لا سيما الحج إلى قسمين.

قوله تعالى: ﴿**من يقول ربنا آتنا في الدنيا**﴾ أي أعطنا في الدنيا؛ والمفعول محذوف؛ والتقدير: آتنا نصيبنا في الدنيا، بحيث لا يسأل إلا ما يكون في ترف دنياه فقط؛ ولا يسأل ما يتعلق بالدين؛ وربما يكون قوله تعالى: ﴿**ربنا آتنا في الدنيا**﴾ شاملاً للقول باللسان، والقول بالحال ـ أي قد يقول صراحة ـ: ربنا آتنا في الدنيا مثلاً سكناً جميلاً؛ سيارة جميلة؛ وما أشبه ذلك؛ وربما يقوله بلسان الحال لا بلسان المقال؛ لأنه إذا دعا في أمور الدنيا أحضر قلبه، وأظهر فقره؛ وإذا دعا بأمور الآخرة لم يكن على هذه الحال.

قوله تعالى: ﴿**وما له في الآخرة من خلاق**﴾؛ ﴿**ما**﴾ نافية؛ و﴿**مِن خلاق**﴾ مبتدأ؛ وخبره الجار والمجرور: ﴿**له**﴾؛ ودخلت ﴿**مِن**﴾ على المبتدأ من أجل توكيد العموم؛ لأن ﴿**خلاق**﴾ نكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ فإذا دخلت عليها ﴿**مِن**﴾ كان ذلك تأكيداً للعموم؛ و«**الخلاق**» بمعنى النصيب؛ يعني ما له في الآخرة من نصيب؛ لأنه لا يريد إلا الدنيا؛ فلا نصيب له في الآخرة مما دعا به؛ وقد يكون له نصيب من أعمال أخرى.

﴿**٢٠١**﴾ قوله تعالى: ﴿**ومنهم**﴾ أي ومن الناس.

قوله تعالى: ﴿**من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة**﴾؛ ﴿**حسنة**﴾: مفعول «**آتِ**» الثاني؛ وأما ﴿**حسنة**﴾ الثانية فهي معطوفة على الأولى؛ يعني من الناس من تكون همته عليا يريد الخير في الدنيا، والآخرة؛ يقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة

حسنة؛ وحسنة الدنيا كل ما يستحسنه الإنسان منها، مثل الصحة، وسعة الرزق، كثرة البنين، والزوجات، والقصور، والمراكب الفخمة، والأموال؛ وأما حسنة الآخرة فقيل: إنها الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**﴾ [يونس: ٢٦]؛ ولا شك أن الحسنة العظمى في الآخرة هي الجنة؛ لكن في الآخرة حسنات يستحسن المرء وقوعها غير الجنة، مثل أن يبيض وجهه، وأن تثقل موازينه، وأن يعطى كتابه بيمينه؛ فإنه إذا أعطي الكتاب بيمينه يقول: هاؤم اقرؤوا كتابيه فرحاً مسروراً.

قوله تعالى: ﴿**وقنا عذاب النار**﴾ أي اجعل لنا وقاية من عذاب النار؛ وهذا يشمل شيئين:

الأول: العصمة من الأعمال الموجبة لدخول النار.

الثاني: المغفرة للذنوب التي توجب دخول النار.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: أن الإنسان ينبغي له إذا قضى من العبادة أن لا يغفل بعدها عن ذكر الله؛ لقوله تعالى: ﴿**فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله**﴾؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿**فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون**﴾ [الجمعة: ١٠].

٢ ـ **ومنها**: تقديم ذكر الله تعالى على ذكر الوالدين؛ لقوله تعالى: ﴿**أو أشد ذكراً**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن الأجداد داخلون في مسمّى الآباء؛ لأن العرب كانوا يفتخرون بأمجاد آبائهم، وأجدادهم، وقبائلهم.

٤ ـ **ومنها**: بيان انقسام الناس فيما يطلبون من الله، وأن

منهم ذوي الغايات الحميدة، والهمم العالية الذين يقولون: ﴿**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**﴾؛ ومنهم ذوو الغايات الذميمة، والهمم النازلة الذين يقولون: ﴿**ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق**﴾.

٥ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن الإنسان لا يذم إذا طلب حسنة الدنيا مع حسنة الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن الإنسان محتاج إلى حسنات الدنيا، والآخرة.

٧ ـ **ومنها**: إثبات الآخرة.

٨ ـ **ومنها**: إثبات النار، وعذابها.

٩ ـ **ومنها**: إثبات علم الله، وسمعه، وقدرته؛ إذ لا يدعى إلا من اتصف بذلك.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢﴾.

التفسير:

﴿٢٠٢﴾ قوله تعالى: ﴿**أولئك لهم نصيب مما كسبوا**﴾: «**أولاء**» اسم إشارة؛ والمشار إليه فيه خلاف؛ فقال بعض العلماء: إن الإشارة تعود إلى مورد التقسيم كله؛ يعني: أولئك المذكورون الذين يقولون: ﴿**ربنا آتنا في الدنيا**﴾ [البقرة: ٢٠١]؛ والذين يقولون: ﴿**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة**﴾ [البقرة:

٢٠١]؛ ويكون كل له نصيب مما كسب، كقوله تعالى: ﴿**ولكل درجات مما عملوا**﴾ [الأنعام: ١٣٢]؛ ولأنه تعالى قال: ﴿**والله سريع الحساب**﴾؛ وهذا يقتضي أن يكون المشار إليه كلا القسمين؛ وقال آخرون: بل إن الإشارة تعود إلى التقسيم الثاني الذين يقولون: ﴿**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**﴾ [البقرة: ٢٠١]؛ فهؤلاء لهم نصيب مما كسبوا؛ لقوله تعالى: ﴿**من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها**﴾ [النساء: ٨٥]؛ الآية إذاً محتملة للمعنيين؛ والثاني منهما أظهر؛ لأن الإشارة تعود إلى أقرب مذكور.

قوله تعالى: ﴿**والله سريع الحساب**﴾ أي محاسبة الله سبحانه وتعالى الخلائق؛ والسرعة هنا قد تكون سرعة الزمن؛ بمعنى: أن حساب الله قريب، كما في قوله تعالى: ﴿**وما يدريك لعل الساعة قريب**﴾ [الشورى: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿**وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً**﴾ [الأحزاب: ٦٣]؛ وقد يكون المراد سرعة محاسبة الله للخلق ـ أي أن نفس حسابه سريع ـ؛ والثاني أبلغ؛ فإن الله عزّ وجلّ يحاسب الخلائق كلها في يوم واحد، ويعطي كل إنسان ما يستحقه من ذلك الحساب؛ ومحاسبة الله للخلائق على نوعين؛ النوع الأول للمؤمنين؛ والنوع الثاني للكافرين؛ أما حساب المؤمنين فإن الله سبحانه وتعالى يخلو بعبده المؤمن، ويقرره بذنوبه، ويقول له: «**عملت كذا في يوم كذا**» حتى يقر ويعترف، فيقول الله عزّ وجلّ له: «**قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»[1]؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**من نوقش الحساب عذب**؛

(١) سبق تخريجه ١/ ٢٠٠.

فقالت عائشة: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ فقال النبي ﷺ: ذلك العرض»[1]؛ أي تعرض الأعمال على الشخص حتى يقر؛ فإذا أقر بها قال الله تعالى له: «**سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»؛ وأما غير المؤمنين فإنهم لا يحاسبون كذلك؛ وإنما الأمر كما قال شيخ الإسلام: لا يحاسبون حساب من توزن حسناته، وسيئاته؛ لأنهم لا حسنات لهم؛ ولكن تحصى أعمالهم، وتحفظ، فيوقفون عليها، ويقررون بها، ويخزون بها؛ يعني: وينادى عليهم على رؤوس الخلائق: ﴿**هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين**﴾ [هود: ١٨].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الثواب يكون بالعدل؛ لقوله تعالى: ﴿**أولئك لهم نصيب مما كسبوا**﴾؛ لكنه بالعدل في العقوبة؛ وبالفضل في المثوبة.

٢ ـ **ومنها**: الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿**مما كسبوا**﴾.

٣ ـ **ومنها**: إثبات الحساب؛ لقوله تعالى: ﴿**والله سريع الحساب**﴾.

٤ ـ **ومنها**: تمام قدرة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿**والله سريع الحساب**﴾.

٥ ـ **ومنها**: إثبات علم الله؛ لأن المحاسِب لا بد أن يكون لديه علم يقابل به من يحاسبه.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٤٨، كتاب الرقاق، باب ٤٩: من نوقش الحساب عذب، حديث رقم ٦٥٣٦.

القرآن

﴿۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾.

التفسير:

﴿٢٠٣﴾ قوله تعالى: **﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾**؛ لما ذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ أفعال الحج ذكر ما بعد انتهاء أفعال الحج؛ وهو ذكر الله تعالى في أيام معدودات؛ وهي أيام التشريق الثلاثة: الحادي عشر؛ والثاني عشر؛ والثالث عشر من شهر ذي الحجة؛ والذكر هنا يشمل كل ما يتقرب به إلى الله عزّ وجلّ من قول أو فعل في هذه الأيام؛ فيشمل التكبير في تلك الأيام مطلقاً، ومقيداً؛ والنحر من الضحايا، والهدايا؛ ورمي الجمار؛ والطواف، والسعي إذا وقعا في هذه الأيام؛ بل والصلاة المفروضة، والتطوع؛ وقد قال النبي ﷺ: «**إنما جعل الطواف بالبيت، وبالصفا، والمروة، ورمي الجمار لإقامة ذكر الله**»[1]، وقال ﷺ: «**أيام التشريق أيام أكل، وشرب،**

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٦٤، حديث رقم ٢٤٨٥٥، وأخرجه أبو داود ص١٣٦٢، كتاب المناسك، باب ٥٠: في الرمل، حديث رقم ١٨٨٨، وأخرجه الترمذي ص١٧٣٧، كتاب الحج، باب ٦٤: ما جاء كيف ترمي الجمار، حديث رقم ٩٠٢، وأخرجه الدارمي ٢/ ٧١، كتاب المناسك، باب ٣٦: الذكر في الطواف والسعي بين الصفا والمروة، حديث رقم ١٨٥٣، وأخرجه الحاكم في مستدركه ١/ ٤٥٩، كتاب المناسك، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وذكر لله عزّ وجلّ»[(١)].

قوله تعالى: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾ أي من تعجل قبل تمام الأيام الثلاثة، وأنهى حجه فلا إثم عليه.

قوله تعالى: ﴿ومن تأخر فلا إثم عليه﴾، أي من تأخر إلى اليوم الثالث في منى لرمي الجمرات فلا إثم عليه.

قوله تعالى: ﴿لمن اتقى﴾: الظاهر أنها قيد للأمرين جميعاً للتعجل والتأخر، بحيث يحمل الإنسان تقوى الله عزّ وجلّ على التعجل أو التأخر.

قوله تعالى: ﴿واتقوا الله﴾: ما أكثر ما يأمر الله سبحانه وتعالى بالتقوى في كتابه العزيز؛ لأن التقوى اتخاذ وقاية من عذاب الله عزّ وجلّ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه على علم وبصيرة.

قوله تعالى: ﴿واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ أي تجمعون إلى الله ـ تبارك وتعالى؛ وذلك يوم القيامة؛ وصدر هذا بقوله تعالى: ﴿واعلموا﴾ للتنبيه على أنه لا بد من الإيمان بهذا الحشر، والاستعداد له.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: مزية الذكر في هذه الأيام المعدودات؛ لقوله تعالى: ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾؛ لأن ذكر الله على سبيل العموم في كل الوقت؛ لكن هذا على سبيل الخصوص.

---

(١) أخرجه مسلم ص٨٦٠، كتاب الصيام، باب ٢٣: تحريم صوم أيام التشريق...، حديث رقم ٢٦٧٧ [١٤٤] ١١٤١.

٢ ـ **ومنها**: أنه يجوز في هذه الأيام الثلاثة التعجل، والتأخر؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه**﴾.

٣ ـ **ومنها**: سعة فضل الله عزّ وجلّ، وتيسيره في أحكامه، حيث جعل الإنسان مخيراً أن يبقى ثلاثة أيام، أو يتعجل في اليومين.

٤ ـ **ومنها**: أنّه لا بد أن يكون خروجه من منى قبل أن تغرب الشمس؛ لأن ﴿**في**﴾ للظرفية؛ والظرف يحيط بالمظروف؛ فلا بد أن يكون التعجل في خلال اليومين بعد الرمي الواقع بعد الزوال.

٥ ـ **ومنها**: أنه لا يجوز التعجل في اليوم الحادي عشر؛ لأنه لو تعجل في اليوم الحادي عشر لكان تعجل في يوم لا في يومين؛ فكثير من العامة يظنون أن المراد باليومين: يوم العيد، واليوم الحادي عشر؛ وهذا ليس بصحيح؛ لأن الله تعالى قال: ﴿**واذكروا الله في أيام معدودات**﴾؛ وهي أيام التشريق؛ وأيام التشريق إنما تبتدئ من الحادي عشر.

٦ ـ **ومنها**: أن الأعمال المخير فيها إنما ينتفي الإثم عنها إذا فعلها الإنسان على سبيل التقوى لله عزّ وجلّ دون التهاون بأوامره؛ لقوله تعالى: ﴿**لمن اتقى**﴾؛ فمن فعل ما يخير فيه على سبيل التقوى لله عزّ وجلّ والأخذ بتيسيره فهذا لا إثم عليه؛ وأما من فعلها على سبيل التهاون، وعدم المبالاة فإن عليه الإثم بترك التقوى، وتهاونه بأوامر الله.

تنبيه:

لا يستفاد من الآية جواز التأخر إلى اليوم الرابع عشر، والخامس عشر مع أن الله تعالى أطلق: ﴿. . . **ومن تأخر**﴾؛ لأن

أصل الذكر في أيام معدودات؛ وهي ثلاثة أيام؛ فيكون المعنى؛ من تأخر في هذه الأيام المعدودات؛ وهي الأيام الثلاثة.

٧ ـ **ومنها**: وجوب التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿**واتقوا الله**﴾.

٨ ـ **ومنها**: إثبات البعث؛ لقوله تعالى: ﴿**واعلموا أنكم إليه تحشرون**﴾.

٩ ـ **ومنها**: قرن المواعظ بالتخويف؛ لقوله تعالى: ﴿**واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون**﴾؛ لأن الإنسان إذا علم أنه سيحشر إلى الله عزّ وجلّ، وأنه سيجازيه فإنه سوف يتقي الله، ويقوم بما أوجب الله، ويترك ما نهى الله عنه؛ وبهذا عرفنا الحكمة من كون الله عزّ وجلّ يقرن الإيمان باليوم الآخر في كثير من الآيات بالإيمان بالله دون بقية الأركان التي يؤمن بها؛ وذلك؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يستلزم العمل لذلك اليوم؛ وهو القيام بطاعة الله ورسوله.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤﴾.

التفسير:

﴿٢٠٤﴾ فيما سبق من الآيات قسم الناس في الحج إلى قسمين؛ منهم من يقول: ﴿**ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق**﴾ [البقرة: ٢٠٠]؛ ومنهم من يقول: ﴿**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة**﴾ [البقرة: ٢٠١]؛ وهؤلاء لهم نصيب مما كسبوا؛ هنا قسم الناس أيضاً إلى قسمين: إلى مؤمن؛ وإلى

منافق؛ فقال تعالى في المنافق: ﴿**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا**﴾؛ ﴿**من**﴾ هنا للتبعيض؛ وهي بمعنى بعض الناس؛ ولهذا أعربها بعض النحويين على أنها مبتدأ؛ قال: لأنها حرف بمعنى الاسم؛ إذ إنها بمعنى بعض الناس؛ فيكون ﴿**من**﴾ مبتدأ، و﴿**من يعجبك**﴾ خبره؛ لكن المشهور أن ﴿**مِنْ**﴾ حرف جر؛ و﴿**من الناس**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم؛ و﴿**من يعجبك**﴾ مبتدأ مؤخر؛ يعني: ومن الناس الذي يعجبك قوله، والخطاب في قوله تعالى: ﴿**يعجبك**﴾ إما للرسول ﷺ؛ وإما لكل من يتأتى خطابه؛ والأولى الثاني.

وقوله تعالى: ﴿**من يعجبك قوله**﴾ ذكر بعض النحويين أنه إذا قيل: «أعجبني كذا» فهو لما يستحسن؛ وإذا قلت: «عجبت من كذا» فهو لما ينكر؛ فتقول مثلاً: «أعجبني قول فلان» إذا كان قولاً حسناً؛ و«عجبت من قوله» إذا كان قولاً سيئاً منكراً؛ فقوله تعالى: ﴿**من يعجبك قوله**﴾ أي من تستحسن قوله.

قوله تعالى: ﴿**في الحياة الدنيا**﴾ أي إذا تكلم فيما يتعلق بأمور الدنيا كأن يتكلم بشيء، ويتوصل به إلى نجاته من القتل، والسبي؛ لأن هذه الآية في المنافقين؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿**وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم**﴾ [المنافقون: ٤] من حسنه، وفصاحته؛ ولكنهم أهل غرور، وخداع، وكذب؛ فإن آية المنافق ثلاث؛ منها: إذا حدث كذب.

وقوله تعالى: ﴿**في الحياة الدنيا**﴾ متعلق بمحذوف حالاً من ﴿**قوله**﴾؛ والتقدير: قوله حال كونه فيما يتعلق بالدنيا؛ لأنه لا يتكلم في أمور الدين؛ ويحتمل أن المعنى: القول الذي يعجب حتى في

الدين؛ لكن لا ينتفع به في الآخرة؛ إنما ينتفع به في الدنيا فقط.

قوله تعالى: ﴿**ويشهد الله على ما في قلبه**﴾؛ اختلف المفسرون في معناها على قولين: الأول: أن المعنى استمراره في النفاق؛ لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ يعلم ما في قلبه من هذا النفاق؛ فاستمراره عليه إشهاد لله تعالى على ما في قلبه.

والقول الثاني: أن المعنى: أن يُقسم، ويحلف بالله أنه مؤمن مصدق، وأن الذي في قلبه هو هذا؛ فيشهد الله على ما في قلبه من محبة الإيمان، والتمسك به وهو كاذب في ذلك؛ ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿**إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون**﴾ [المنافقون: ١]، أي لكاذبون في دعواهم أنهم يشهدون بذلك؛ وعندي أن المعنيين لا يتنافيان؛ كلاهما حق؛ فهو منطوٍ على الكفر والنفاق؛ وهو أيضاً يُعلم الناس، ويُشهد الله على أنه مؤمن؛ أما حقيقته قال الله تعالى فيه: ﴿**وهو ألد الخصام**﴾ يعني: أعوجهم، وأكذبهم؛ و﴿**الخصام**﴾ يحتمل أن يكون مصدراً؛ ويحتمل أن يكون جمعاً؛ إن كان مصدراً ففعله: خاصم يخاصم، مثل: جادل يجادل؛ وقاتل يقاتل؛ وعلى هذا: ﴿**ألد الخصام**﴾ تكون الإضافة لفظية؛ لأنها صفة مشبهة مضافة إلى موصوفها ـ أي وخصامه ألد الخصام؛ وإن كان جمعاً فمفرده: خَصِم؛ فيكون المعنى أنه ألد الخصوم ـ أي أعوجهم، وأشدهم كذباً؛ ويكون أيضاً من باب إضافة الصفة إلى موصوفها؛ لأنَّ المعنى؛ وهو من الخصوم الأشداء الأقوياء في خصومتهم؛ وهذا الرجل صار ألد الخصام؛ لأن قوله جيد، وبيِّن يعجبك قوله، فتجده لاعتماده على فصاحته، وبيانه ألد الخصام.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أنه لا ينبغي للإنسان أن يغتر بظواهر الأحوال؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يعجبك قوله**﴾؛ وكذلك من الناس من يعجبك فعله؛ ولكنه منطوٍ على الكفر ـ والعياذ بالله؛ ولكن لا شك أنه بالنسبة إلينا ليس لنا أن نحكم إلا بما يقتضيه الظاهر؛ لأن ما في القلوب لا نعلمه؛ ولا يمكن أن نحاسب الناس على ما في القلوب؛ وإنما نحاسبهم على حسب الظاهر.

٢ ـ **ومنها**: أن هذا الصنف من الناس يُشهد الله على ما في قلبه إما مما أظهره؛ وإما مما أبطنه ـ حسب ما سبق.

٣ ـ **ومنها**: الإشارة إلى ذم الجدل، والخصام؛ لقوله تعالى: ﴿**وهو ألد الخصام**﴾؛ لأن الخصومات في الغالب لا يكون فيها بركة؛ وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**»[1] أي الإنسان المخاصم المجادل بالباطل ليدحض به الحق؛ وما من إنسان في الغالب أعطي الجدل إلا حرم بركة العلم؛ لأن غالب من أوتي الجدل يريد بذلك نصرة قوله فقط؛ وبذلك يحرم بركة العلم؛ أما من أراد الحق فإن الحق سهل قريب لا يحتاج إلى مجادلات كبيرة؛ لأنه واضح؛ ولذلك تجد أهل البدع الذين يخاصمون في بدعهم علومهم ناقصة البركة لا خير فيها؛ وتجد أنهم يخاصمون، ويجادلون، وينتهون إلى لا شيء؛ لا ينتهون إلى الحق؛ لأنهم لم

---

(١) أخرجه البخاري ص١٩٣، كتاب المظالم والغصب، باب ١٥: قول الله تعالى: ﴿**وهو ألد الخصام**﴾، حديث رقم ٢٤٥٧، وأخرجه مسلم ص١١٤٢، كتاب العلم، باب ١: في الألد الخصم، حديث رقم ٦٧٨٠ [٥] ٢٦٦٨.

يقصدوا إلا أن ينصروا ما هم عليه؛ فكل إنسان جادل من أجل أن ينتصر قوله فإن الغالب أنه لا يوفق، ولا يجد بركة العلم؛ وأما من جادل ليصل إلى العلم، ولإثبات الحق، وإبطال الباطل فإن هذا مأمور به؛ لقوله تعالى: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ [النحل: ١٢٥].

٤ ـ **ومنها**: إثبات علم الله عزّ وجلّ بما في الصدور؛ لقوله تعالى: ﴿**ويشهد الله على ما في قلبه**﴾؛ لأن ما في القلب لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

التفسير:

﴿**٢٠٥**﴾ قوله تعالى: ﴿**وإذا تولى**﴾ أي عنك، وذهب ﴿**سعى في الأرض**﴾: المراد بالسعي هنا مطلق الحركة؛ وليس المراد بالسعي الركض بالرِّجل؛ ﴿**ليفسد فيها**﴾ أي بالمعاصي، والكفر، والفتنة.

قوله تعالى: ﴿**ويهلك الحرث والنسل**﴾ أي يكون سبباً لإهلاكهما؛ لأن المعاصي سبب لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون**﴾ [الروم: ٤١]، ولقوله تعالى: ﴿**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون**﴾ [الأعراف: ٩٦]؛ والمراد

بـ﴿**الحرث**﴾ المحروث؛ وهو الزروع، كما يقال: «الغرس» يعني المغروس؛ والمراد بـ﴿**النسل**﴾ مثلها أيضاً ـ يعني: المنسول؛ وهو الأولاد؛ يعني: يكون سعيه سبباً لفساد الحرث، والحيوانات.

قوله تعالى: ﴿**والله لا يحب الفساد**﴾ بيان أن عمله هذا مكروه إلى الله؛ لأن الله لا يحب الفساد؛ وإذا كان لا يحب هذا الفعل فإنه لا يحب من اتصف به؛ ولهذا جاء في آية أخرى؛ ﴿**والله لا يحب المفسدين**﴾ [المائدة: ٦٤]؛ فالله لا يحب الفساد، ولا يحب المفسدين؛ فالفساد نفسه مكروه إلى الله؛ والمفسدون أيضاً مَكروهون إليه لا يحبهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن المعاصي سبب لهلاك الحرث، والنسل؛ لقوله تعالى: ﴿**وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل**﴾ [البقرة: ٢٠٥]؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون**﴾ [الأعراف: ٩٦].

٢ ـ **ومنها**: إثبات محبة الله عزّ وجلّ للصلاح؛ لقوله تعالى ﴿**والله لا يحب الفساد**﴾؛ فإن قيل: هذا نفي، وليس بإثبات؛ قلنا: إن نفيه محبة الفساد دليل على ثبوت أصل المحبة؛ ولو كان لا يحب أبداً لم يكن هناك فرق بين الفساد، والصلاح؛ فلما نفى المحبة عن الفساد علم أنه يحب الصلاح.

٣ ـ **ومنها**: التحذير من الفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿**والله لا يحب الفساد**﴾؛ ومعلوم أن كل إنسان يجب أن يكون حذراً من التعرض لأمر لا يحبه الله.

القرآن

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٠٦﴾ قوله تعالى: ﴿**وإذا قيل له اتق الله**﴾ أي إذا قال له أهل العلم، والإيمان اتق الله ـ أي اتخذ وقاية من عذاب الله بترك الكفر، والفساد؛ و﴿**أخذته العزة بالإثم**﴾ أي حملته على الإثم؛ و﴿**العزة**﴾ بمعنى الأنفة، والحمية، والترفع؛ والعزة قد تكون وصفاً محموداً؛ وقد تكون وصفاً مذموماً، فالمعتز بدينه محمود، كما قال تعالى: ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾ [المنافقون: ٨]؛ والمعتز بحسبه ونسبه حتى يكون عنده أنفة إذا أُمر بالدين والإصلاح مذموم.

والمراد بـ﴿**الإثم**﴾ الذنب الموجب للعقوبة؛ فكل ذنب موجب للعقوبة فهو إثم.

قوله تعالى: ﴿**فحسبه جهنم**﴾ أي كافيه؛ وهو وعيد له بها ـ والعياذ بالله؛ و«**الحسْب**» بمعنى الكافي، كما قال الله تعالى: ﴿**فقل حسبي الله**﴾ [التوبة: ١٢٩] أي كافيني؛ وقال تعالى: ﴿**وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾ [آل عمران: ١٧٣] أي كافينا؛ فقوله تعالى؛ ﴿**فحسبه جهنم**﴾ أي كافيته؛ والمعنى: أنه يكون من أهلها ـ والعياذ بالله ـ؛ و﴿**جهنم**﴾ اسم من أسماء النار؛ قيل: إنها كلمة معربة، وأنها ليست من العربية الفصحى؛ وقيل: بل هي من اللغة الفصحى، وأن أصلها من الجهمة؛ وهي الظلمة؛ ولكن زيدت فيها النون للمبالغة؛ وعلى كلٍّ فإن ﴿**جهنم**﴾ اسم للنار التي

أعدها الله سبحانه وتعالى للكافرين؛ وسميت بذلك لبعد قعرها، وظلمتها ـ والعياذ بالله ـ.

قوله تعالى: ﴿**ولبئس المهاد**﴾: اللام هنا للابتداء؛ أو موطئة للقسم ـ أي: ووالله لبئس المهاد ـ وهذا أقرب؛ و«**بئس**» فعل جامد لإنشاء الذم؛ وفاعلها ﴿**المهاد**﴾؛ وهي من الأفعال التي تحتاج إلى مخصوص بالذم؛ والمخصوص محذوف؛ أي: ولبئس المهاد مهاده، حيث كانت جهنم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن هذا الرجل الموصوف بهذه الصفات يأنف أن يؤمر بتقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿**أخذته العزة بالإثم**﴾ فهو يأنف، كأنه يقول في نفسه: أنا أرفع من أن تأمرني بتقوى الله عزّ وجلّ؛ وكأن هذا الجاهل تعامى عن قول الله تعالى لأتقى البشر: ﴿**يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين**﴾ [الأحزاب: ١]؛ وقال تعالى في قصة زينب: ﴿**واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه**﴾ [الأحزاب: ٣٧].

٢ ـ **ومنها**: البلاغة التامة في حذف الفاعل في قوله تعالى: ﴿**وإذا قيل له اتق الله**﴾؛ ليشمل كل من يقول له ذلك؛ فيكون رده لكراهة الحق.

٣ ـ **ومنها**: التحذير من رد الناصحين؛ لأن الله تعالى جعل هذا من أوصاف هؤلاء المنافقين؛ فمن رد آمراً بتقوى الله ففيه شبه من المنافقين؛ والواجب على المرء إذا قيل له: «اتق الله» أن يقول: «سمعنا، وأطعنا» تعظيماً لتقوى الله.

٤ ـ **ومنها**: أن الأنفة قد تحمل صاحبها على الإثم؛ لقوله تعالى: ﴿**أخذته العزة بالإثم**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن هذا العمل موجب لدخول النار؛ لقوله تعالى: ﴿**فحسبه جهنم**﴾.

٦ ـ **ومنها**: القدح في النار، والذم لها؛ لقوله تعالى: ﴿**ولبئس المهاد**﴾؛ ولا شك أن جهنم بئس المهاد.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾.

التفسير:

لما ذكر الله حال المنافقين الذين يعجبك قولهم في الحياة الدنيا وهم ألد الخصام؛ والذين إذا تولوا سعوا في الأرض فساداً ليهلكوا الحرث، والنسل ـ والله لا يحب الفساد ـ ذكر حال قوم على ضدهم؛ وهكذا القرآن مثاني تَثَنَّى فيه الأمور؛ فيؤتى بذكر الجنة مع النار؛ وبذكر المتقين مع الفجار... لأجل أن يبقى الإنسان في روضة متنوعة؛ ثم ليبقى الإنسان بين الخوف، والرجاء ـ لا يغلب عليه الخوف فيقنط من رحمة الله ـ؛ ولا الرجاء فيأمن مكر الله؛ فإذا سمع ذكر النار، ووعيدها، وعقوبتها أوجب له ذلك الخوف؛ وإذا سمع ذكر الجنة، ونعيمها، وثوابها أوجب له ذلك الرجاء؛ فترتيب القرآن من لدن حكيم خبير سبحانه وتعالى؛ وهو الموافق لإصلاح القلوب؛ ولهذا نرى من الخطأ

الفادح أن يؤلف أحد القرآن مرتباً على الأبواب والمسائل كما صنعه بعض الناس؛ فإن هذا مخالف لنظم القرآن، والبلاغة، وعمل السلف؛ فالقرآن ليس كتاب فقه؛ ولكنه كتاب تربية، وتهذيب للأخلاق؛ فلا ترتيب أحسن من ترتيب الله؛ ولهذا كان ترتيب الآيات توقيفياً لا مجال للاجتهاد فيه؛ وكان النبي ﷺ إذا نزلت الآية قال: «**ضعوا هذه الآية في مكان كذا من سورة كذا**»(١).

﴿٢٠٧﴾ قوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يشري نفسه**﴾؛ هذا هو القسيم لقوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يعجبك...**﴾ [البقرة: ٢٠٤]؛ وعلى هذا تكون ﴿مِن﴾ للتبعيض؛ والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم؛ و﴿**من يشري**﴾ مبتدأ مؤخر.

وقوله تعالى: ﴿**من الناس**﴾: قال بعض المفسرين: إنها تعني شخصاً معيناً؛ وهو صهيب الرومي لما أراد أن يهاجر من مكة منعه كفارها، وقالوا: لا يمكنك أن تهاجر أبداً إلا أن تدع لنا جميع ما تملك؛ فوافق على ذلك، وأنقذ نفسه بالهجرة ابتغاء مرضاة الله؛ وقال بعض العلماء ـ وهم أكثر المفسرين ـ: بل هي عامة لكل المؤمنين المجاهدين في سبيل الله؛ قالوا: ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون**﴾ [التوبة: ١١١]؛ وهذا القول أصح؛ وهو أنها للعموم حتى لو صح أن سبب نزولها قصة

---

(١) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار ٣/٤٠٣، باب ٢١٥: بيان مشكل ما اختُلف فيه عن عثمان بن عفان وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما في الأنفال وبراءة وهل هما سورتان أو سورة واحدة.

صهيب؛ فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقوله تعالى: ﴿**من يشري نفسه**﴾ أي يبيعها؛ لأن «شرى» بمعنى باع، كقوله تعالى: ﴿**وشروه بثمن بخس**﴾ [يوسف: ٢٠] أي باعوه بثمن بخس؛ أما «اشترى» فهي بمعنى ابتاع؛ فإذا جاءت التاء فهي للمشتري الآخذ؛ وإذا حذفت التاء فهي للبائع المعطي؛ و﴿**نفسه**﴾ يعني ذاته.

قوله تعالى: ﴿**ابتغاء مرضات الله**﴾ أي طلباً لمرضات الله؛ فهي مفعول لأجله؛ و﴿**مرضات الله**﴾ أي رضوانه ـ أي يبيع نفسه في طلب رضا الله عزّ وجلّ ـ؛ فيكون قد باع نفسه مخلصاً لله في هذا البيع.

قوله تعالى: ﴿**والله رؤوف**﴾ أي ذو رأفة؛ و«الرأفة» قال العلماء: هي أرق الرحمة، وألطفها؛ و﴿**بالعباد**﴾ أي جميعهم.

وفي قوله تعالى: ﴿**رؤوف**﴾ قراءتان؛ إحداهما: مد الهمزة على وزن فعول؛ والثانية قصرها على وزن فعُل.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: تقسيم الناس إلى قسمين؛ القسم الأول: ﴿**ومن الناس من يعجبك قوله**﴾ [البقرة: ٢٠٤]؛ والقسم الثاني: ﴿**ومن الناس من يشري نفسه**﴾.

٢ ـ **ومنها**: بلاغة هذا القرآن حيث يجعل الأمور مثاني؛ إذا جاء الكلام عن شيء جاء الكلام عن ضده.

٣ ـ **ومنها**: فضل من باع نفسه لله؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله**﴾.

٤ ـ **ومنها**: الإشارة إلى إخلاص النية؛ لقوله تعالى: ﴿**ابتغاء مرضات الله**﴾.

٥ ـ **ومنها**: إثبات الرضا لله؛ لقوله تعالى: ﴿**مرضات الله**﴾؛ ورضا الله صفة حقيقية لله عزّ وجلّ متعلقة بمشيئته؛ وينكرها الأشاعرة وأشباههم من أهل التعطيل؛ ويحرفون المعنى إلى أن المراد برضا الله إما إثابته؛ أو إرادة الثواب.

٦ ـ **ومنها**: استحباب تقديم مرضاة الله على النفس؛ لأن الله ذكر ذلك في مقام المدح، والثناء.

٧ ـ **ومنها**: إثبات الرأفة لله؛ لقوله تعالى: ﴿**والله رؤوف بالعباد**﴾.

٨ ـ **ومنها**: عموم رأفة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**بالعباد**﴾؛ هذا إذا كان ﴿**العباد**﴾ بالمعنى العام؛ أما إذا قلنا بالمعنى الخاص فلا يستفاد ذلك؛ واعلم أن العبودية لها معنيان: خاص؛ وعام؛ والخاص له أخص؛ وهو خاص الخاص؛ فمن العام قوله تعالى: ﴿**إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً**﴾ [مريم: ٩٣]؛ وأما الخاص فمثل قوله تعالى: ﴿**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً**﴾ [الفرقان: ٦٣]؛ المراد بهم عباد الرحمن المتصفون بهذه الصفات؛ فيخرج من لم يتصف بها؛ وأما الأخص مثل قوله تعالى: ﴿**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده**﴾ [الفرقان: ١]؛ هذه عبودية الأخص ـ عبودية الرسالة ـ.

❁ ❁ ❁

انتهى المجلد الثاني من التفسير بحمد الله تعالى، ويليه المجلد الثالث بإذن الله تعالى وبدايته تفسير الآية ٢٠٨ من سورة البقرة

الفهرس

الموضوع | الصفحة

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ... ﴿١١٤﴾﴾. ٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ... ﴿١١٥﴾﴾. ١٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ... ﴿١١٦﴾﴾ ١٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ... ﴿١١٧﴾﴾. ١٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ... ﴿١١٨﴾﴾. ٢٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا... ﴿١١٩﴾﴾. ٢٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ... ﴿١٢٠﴾﴾. ٢٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ... ﴿١٢١﴾﴾. ٣٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ... ﴿١٢٢﴾﴾ ٣٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ... ﴿١٢٣﴾﴾. ٣٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ... ﴿١٢٤﴾﴾. ٤٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ... ﴿١٢٥﴾﴾. ٤٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ... ﴿١٢٦﴾﴾ ٥١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ... ﴿١٢٧﴾﴾. ٥٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ... ﴿١٢٨﴾﴾. ٦٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ... ﴿١٢٩﴾﴾. ٦٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ... ﴿١٣٠﴾﴾. ٦٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ... ﴿١٣١﴾﴾. ٧٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىٓ... ﴿١٣٢﴾﴾. ٧٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ... ﴿١٣٣﴾﴾. ٧٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ... ﴿١٣٤﴾﴾. ٨٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا... ﴿١٣٥﴾﴾. ٨٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ... ﴿١٣٦﴾﴾. ٨٦

الموضوع | الصفحة

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ... ﴿١٣٧﴾﴾. ٩١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ... ﴿١٣٨﴾﴾. ٩٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ... ﴿١٣٩﴾﴾. ٩٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ... ﴿١٤٠﴾﴾ ١٠٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ... ﴿١٤١﴾﴾. ١٠٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ... ﴿١٤٢﴾﴾. ١٠٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا... ﴿١٤٣﴾﴾. ١٠٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ... ﴿١٤٤﴾﴾. ١٢٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ... ﴿١٤٥﴾﴾. ١٣٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ... ﴿١٤٦﴾﴾. ١٤٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾. ١٤٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا... ﴿١٤٨﴾﴾. ١٤٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ... ﴿١٤٩﴾﴾. ١٤٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ... ﴿١٥٠﴾﴾. ١٥٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا... ﴿١٥١﴾﴾. ١٦٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى... ﴿١٥٢﴾﴾. ١٦٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ... ﴿١٥٣﴾﴾. ... ١٧١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ... ﴿١٥٤﴾﴾. ١٧٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ... ﴿١٥٥﴾﴾ ١٧٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ... ﴿١٥٦﴾﴾. ١٧٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ... ﴿١٥٧﴾﴾. ١٨٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ... ﴿١٥٨﴾﴾. ١٨٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا... ﴿١٥٩﴾﴾. ١٨٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟... ﴿١٦٠﴾﴾. ١٩٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟... ﴿١٦١﴾﴾ ٢٠١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ... ﴿١٦٢﴾﴾. ٢٠٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ... ﴿١٦٣﴾﴾. ٢٠٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ... ﴿١٦٤﴾﴾. ٢٠٩

الموضوع | الصفحة

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا... ﴿١٦٥﴾﴾. .. ٢٢١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟... ﴿١٦٦﴾﴾. ٢٢٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً... ﴿١٦٧﴾﴾. ٢٣٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ... ﴿١٦٨﴾﴾. ٢٣٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ... ﴿١٦٩﴾﴾. ٢٣٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ... ﴿١٧٠﴾﴾. ٢٤١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟... ﴿١٧١﴾﴾. ٢٤٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ... ﴿١٧٢﴾﴾. ٢٤٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ... ﴿١٧٣﴾﴾. ٢٤٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ... ﴿١٧٤﴾﴾. ٢٦٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ... ﴿١٧٥﴾﴾. ٢٦٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ... ﴿١٧٦﴾﴾. ٢٧١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ... ﴿١٧٧﴾﴾. ٢٧٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ... ﴿١٧٨﴾﴾. ٢٩٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ... ﴿١٧٩﴾﴾. ٣٠٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ... ﴿١٨٠﴾﴾. ٣٠٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ... ﴿١٨١﴾﴾. ٣٠٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا... ﴿١٨٢﴾﴾. ٣١٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ... ﴿١٨٣﴾﴾. ... ٣١٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ... ﴿١٨٤﴾﴾. ٣٢٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ... ﴿١٨٥﴾﴾. ٣٣١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى... ﴿١٨٦﴾﴾. ٣٤١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ... ﴿١٨٧﴾﴾. ٣٤٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم... ﴿١٨٨﴾﴾. ٣٦٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ... ﴿١٨٩﴾﴾. ٣٦٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ... ﴿١٩٠﴾﴾. ٣٧٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ... ﴿١٩١﴾﴾. ٣٧٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾. ٣٨١

الموضوع الصفحة

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ . . . ﴿١٩٣﴾﴾ ٣٨٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ . . . ﴿١٩٤﴾﴾ ٣٨٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ . . . ﴿١٩٥﴾﴾ ٣٨٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ . . . ﴿١٩٦﴾﴾ ٣٩٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ . . . ﴿١٩٧﴾﴾ ٤١٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ . . . ﴿١٩٨﴾﴾ ٤٢٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ . . . ﴿١٩٩﴾﴾ ٤٢٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ . . . ﴿٢٠٠﴾﴾ ٤٣١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ . . . ﴿٢٠١﴾﴾ ٤٣٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ . . . ﴿٢٠٢﴾﴾ ٤٣٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ . . . ﴿٢٠٣﴾﴾ ٤٣٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ . . . ﴿٢٠٤﴾﴾ ٤٤١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا . . . ﴿٢٠٥﴾﴾ ٤٤٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ . . . ﴿٢٠٦﴾﴾ ٤٤٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ . . . ﴿٢٠٧﴾﴾ ٤٤٩
* الفهرس ٤٥٣

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (١)

تفسير القرآن الكريم

سورة البقرة

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الثالث

دار ابن الجوزي
طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير
القرآن الكريم

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد الصالح
تفسير القرآن الكريم.ـ الدمام.
٤٦٤ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك: ٠ ـ ٣١ ـ ٧٦٧ ـ ٩٩٦٠ (مجموعة)
٥ ـ ٣٤ ـ ٧٦٧ ـ ٩٩٦٠ (٣)
١ ـ القرآن ـ تفسير أ ـ العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ٢٣/٠٣٥١

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
إلا لمن أراد طبعه لتوزيعه مجاناً بعد مراجعة
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
رحمه الله تعالى

الطبعة الأولى
صفر ١٤٢٣

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية
الدمام ـ شارع ابن خلدون ـ ت: ٨٤٢٨١٤٦ ـ ٨٤٦٧٥٨٩ ـ ٨٤٦٧٥٩٣
ص.ب: ٢٩٨٢ ـ الرمز البريدي: ٣١٤٦١ ـ فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الإحساء ـ الهفوف ـ شارع الجامعة ـ ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة: ت: ٦٥١٦٥٤٩
الرياض: ت: ٤٢٦٦٣٣٩

القرآن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾.

التفسير:

﴿٢٠٨﴾ قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾: الخطاب للمؤمنين؛ وقد تَقدم أن الله تعالى إذا ابتدأ الحكم بالنداء فهو دليل على العناية به؛ لأن المقصود بالنداء تنبيه المخاطب؛ ولا يتطلب التنبيه إلا ما كان مهماً؛ فعندما أقول: «انتبه» يكون أقل مما لو قلت: «يا فلان انتبه»؛ ثم إذا كان الخطاب للذين آمنوا فإن في ذلك ثلاث فوائد سبق ذكرها[1].

قوله تعالى: ﴿**ادخلوا في السلم كافة**﴾؛ ﴿**السلم**﴾ فيها قراءتان: بفتح السين؛ وبكسرها؛ والمراد به الإسلام؛ وهو الاستسلام لله ـ تعالى ـ ظاهراً، وباطناً.

فإن قال قائل: كيف يقول: ﴿**ادخلوا في السلم**﴾ ونحن قد عرفنا من قبل أن الإيمان أكمل من الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿**قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم**﴾؟ [الحجرات: ١٤]، قلنا: إن هذا الأمر مقيد بما بعد قوله: ﴿**في السلم**﴾؛ وهو قوله تعالى: ﴿**كافة**﴾؛ فيكون الأمر هنا منصباً على قوله تعالى: ﴿**كافة**﴾؛ و﴿**كافة**﴾ اسم فاعل يطلق على من يكف غيره؛ فتكون التاء فيه للمبالغة، مثل: راوية، ساقية،

---

(١) انظر ١/ ٣٣٧.

علامة... وما أشبه ذلك؛ والتاء في هذه الأمثلة للمبالغة؛ فيكون ﴿**كافة**﴾ بمعنى كافاً؛ والتاء للمبالغة؛ قالوا: ومنه قوله تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس**﴾ [سبأ: ٢٨]، أي كافاً لهم عمَّا يضرهم لتخرجهم من الظلمات إلى النور.

وتأتي «كافة» بمعنى جميع، مثل «عامة»، كقوله ﷺ: «**كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة**»[1]؛ ووجه ارتباطها بالمعنى الأصلي ـ الذي هو الكف ـ أن الجماعة لها شوكة ومنعة تكف بجمعيتها من أرادها بسوء؛ وهنا قال تعالى: ﴿**ادخلوا في السلم كافة**﴾ هل المراد ادخلوا في السلم جميعه، فتكون ﴿**كافة**﴾ حالاً من ﴿**السلم**﴾؛ أو ادخلوا أنتم جميعاً في السلم، وتكون ﴿**كافة**﴾ حالاً من الواو في قوله تعالى: ﴿**ادخلوا**﴾؟ الأقرب: المعنى الأول؛ لأننا لو قلنا بالمعنى الثاني: ادخلوا جميعاً في السلم صار معنى ذلك أن بعض المؤمنين لم يدخل في الإسلام؛ وحينئذ فلا يصح أن يوجه إليه النداء بوصف الإيمان؛ فالمعنى الأول هو الصواب أن ﴿**كافة**﴾ حال من ﴿**السلم**﴾ يعني ادخلوا في الإسلام كله؛ أي نفذوا أحكام الإسلام جميعاً، ولا تدعوا شيئاً من شعائره، ولا تفرطوا في شيء منها؛ وهذا مقتضى الإيمان؛ فإن مقتضى الإيمان أن يقوم الإنسان بجميع شرائع الإسلام.

قوله تعالى: ﴿**ولا تتبعوا خطوات الشيطان**﴾؛ نهي بعد أمر؛ لأن اتباع خطوات الشيطان يخالف الدخول في السلم كافة؛ و﴿**خطوات**﴾ جمع خُطوة؛ و«الخطوة» في الأصل هي ما بين القدمين عند مدِّهما في المشي.

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٣٤٤.

قوله تعالى: ﴿**إنه لكم عدو مبين**﴾: الجملة تعليلية مؤكدة بـ«**إن**»؛ فتفيد شدة عداوة الشيطان لبني آدم؛ والعدو من يبتغي لك السوء؛ وهو ضد الوليّ؛ و﴿**مبين**﴾ أي بيِّن العداوة؛ ويجوز أن تكون بمعنى مظهر للعداوة؛ لأن «أبان» الرباعية تصلح للمعنيين؛ ولا شك أن الشيطان بيِّن العداوة؛ ومظهر لعداوته؛ ألا ترى إلى إبائه السجود لأبينا آدم مع أن الله أمره به في جملة الملائكة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: فضل الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾؛ لأن هذا النداء تشريف وتكريم.

٢ ـ **ومنها**: أن الإيمان مقتض لامتثال الأمر؛ لأن الله صدَّر الأمر بهذا النداء؛ والحكم لا يقرن بوصف إلا كان لهذا الوصف أثر فيه؛ وهذه الفائدة مهمة؛ ولا شك أن الإيمان يقتضي امتثال أمر الله عزّ وجلّ.

٣ ـ **ومنها**: وجوب تطبيق الشرع جملة، وتفصيلاً؛ لقوله تعالى: ﴿**ادخلوا في السلم كافة**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن الإنسان يؤمر بالشيء الذي هو متلبس به باعتبار استمراره عليه، وعدم الإخلال بشيء منه؛ لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة**﴾؛ ومثل هذا قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله**﴾ [النساء: ١٣٦] يعني: استمروا على ذلك.

٥ ـ **ومنها**: تحريم اتباع خطوات الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تتبعوا خطوات الشيطان**﴾؛ والمعنى: أن لا نتبع الشيطان في سيره؛ لأن الله بين في آية أخرى أن الشيطان يأمر بالفحشاء،

والمنكر؛ وما كان كذلك فإنه لا يمكن لعاقل أن يتبعه؛ فلا يرضى أحد أن يتبع الفحشاء والمنكر؛ وأيضاً الشيطان لنا عدو، كما قال تعالى: ﴿**إن الشيطان لكم عدو**﴾ [فاطر: ٦]، ثم قال تعالى: ﴿**فاتخذوه عدواً**﴾؛ ولا أحد من العقلاء يتبع عدوه؛ إذا كان الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر، وكان عدواً لنا، فليس من العقل ـ فضلاً عن مقتضى الإيمان ـ أن يتابعه الإنسان في خطواته ـ؛ وخطوات الشيطان بيَّنها الله عزّ وجلّ: يأمر بـ«**الفحشاء**» ـ وهي عظائم الذنوب؛ و«**المنكر**» ـ وهو ما دونها من المعاصي؛ فكل معصية فهي من خطوات الشيطان؛ سواء كانت تلك المعصية من فعل المحظور، أو من ترك المأمور، فإنها من خطوات الشيطان؛ لكن هناك أشياء بين الرسول ﷺ أنها من فعل الشيطان، ونص عليها بعينها، مثل: الأكل بالشمال[١]، والشرب بالشمال[٢]، والأخذ بالشمال، والإعطاء بالشمال[٣]؛ وكذلك الالتفات في الصلاة اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد[٤]؛ فهذه المنصوص عليها بعينها واضحة؛ وغير المنصوص عليها يقال فيها: كل معصية فهي من خطوات الشيطان.

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٢٣٦.

(٢) راجع مسلماً ص١٠٣٩، كتاب الأشربة، باب ١٣: آداب الطعام والشراب وأحكامها، حديث رقم ٥٢٦٥ [١٠٥] ٢٠٢٠.

(٣) راجع ابن ماجه ص٢٦٧٥، كتاب الأطعمة، باب ٨: الأكل باليمين، حديث رقم ٣٢٦٦؛ قال الألباني: «صحيح» (صحيح ابن ماجه ٢/ ٢٢٥، حديث رقم ٢٦٤٣ ـ ٣٢٦٦).

(٤) أخرجه البخاري ص٥٩ ـ ٦٠، كتاب الأذان، باب ٩٣: الالتفات في الصلاة، حديث رقم ٧٥١.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: تحريم التشبه بالكفار؛ لأن أعمال الكفار من خطوات الشيطان؛ لأن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر؛ ولا أنكر من الكفر ـ والعياذ بالله ـ.

٧ ـ **ومنها**: شدة عداوة الشيطان لبني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿**إنه لكم عدو مبين**﴾.

٨ ـ **ومنها**: أنه لا يمكن أن يأمرنا الشيطان بخير أبداً؛ إذ إن عدوك يسره مساءتك، ويغمه سرورك؛ ولهذا قال تعالى في آية أخرى: ﴿**إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً**﴾ [فاطر: ٦].

٩ ـ **ومنها**: قرن الحكم بعلته؛ لقوله تعالى: ﴿**لا تتبعوا خطوات الشيطان**﴾ ثم علل: ﴿**إنه لكم عدو مبين**﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي لمن أتى بالأحكام أن يقرنها بالعلل التي تطمئن إليها النفس؛ فإن كانت ذات دليل من الشرع قرنها بدليل من الشرع؛ وإن كانت ذات دليل من العقل، والقياس قرنها بدليل من العقل، والقياس؛ وفائدة ذكر العلة أنه يبين سمو الشريعة وكمالها؛ وأنه تزيد به الطمأنينة إلى الحكم؛ وأنه يمكن إلحاق ما وافق الحكم في تلك العلة.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٠٩﴾ قوله تعالى: ﴿**فإن زللتم**﴾ قال بعض العلماء: أي

عدلتم؛ وقال آخرون: أي ملتم؛ والمعنى متقارب؛ لأن العادل عن الشيء زال عنه.

قوله تعالى: ﴿**من بعد ما جاءتكم البينات**﴾؛ ﴿**البينات**﴾ صفة لموصوف محذوف ـ أي الآيات البينات ـ؛ وسمى الله ذلك زللاً؛ لأن في الميل، والعدول عن الحق هلكة، مثل لو زلّ الإنسان، وسقط في بئر مثلاً.

قوله تعالى: ﴿**فاعلموا أن الله عزيز حكيم**﴾: هذا جواب الشرط؛ والمراد بالعلم أن نحذر ممن له العزة.

وذكر أهل العلم أن «**العزيز**» له ثلاثة معانٍ: عزة قدْر؛ وعزة قهر؛ وعزة امتناع؛ فعزة القدر ـ أي أنه عزّ وجلّ عظيم القدر ـ؛ لقوله تعالى: ﴿**وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة...**﴾ [الزمر: ٦٧] الآية؛ أما عزة القهر فمعناها الغلبة ـ أي أنه سبحانه وتعالى غالب لا يغلبه شيء ـ؛ وهذا أظهر معانيها؛ وأما عزة الامتناع فمعناها أنه يمتنع أن يناله السوء ـ مأخوذ من قولهم: «أرض عزاز» أي قوية صلبة لا تؤثر فيها الأقدام ـ؛ وأما «**الحكيم**» أي ذو الحكم، والحكمة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: الوعيد على من زلّ بعد قيام الحجة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿**فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات**﴾؛ فإن قيل: من أين يأتي الوعيد؟ قلنا: من قوله تعالى: ﴿**فاعلموا أن الله عزيز حكيم**﴾؛ لأن من معاني «**العزة**» الغلبة، والقهر؛ و«**الحكمة**»: تنزيل الشيء في مواضعه؛ فإذا كان هناك غلبة وحكمة، فالمعنى: أنه سينزِّل بكم ما تتبين به عزته؛ لأن هذا هو مقتضى حكمته.

٢ ـ **ومنها**: أن الله تعالى أقام البينات بالعباد؛ لقوله تعالى: ﴿**من بعد ما جاءتكم البينات**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أنه لا تقوم الحجة على الإنسان، ولا يستحق العقوبة إلا بعد قيام البينة؛ لقوله تعالى: ﴿**من بعد ما جاءتكم البينات**﴾؛ ولهذا شواهد كثيرة من الكتاب والسنة تدل على أن الإنسان لا حجة عليه حتى تقوم عليه البينة.

٤ ـ **ومنها**: وجوب الإيمان بأسماء الله، وما تضمنته من صفات؛ لقوله تعالى: ﴿**فاعلموا**﴾ علم اعتراف، وإقرار، وقبول، وإذعان؛ فمجرد العلم لا يكفي؛ ولهذا فإن أبا طالب كان يعلم أن النبي ﷺ على حق، وأنه رسول الله؛ لكنه لم يقبل، ولم يذعن؛ فلهذا لم ينفعه إقراره؛ فالإيمان ليس مجرد اعتراف بدون قبول وإذعان.

٥ ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله ـ وهما «**العزيز**»، و«**الحكيم**» ـ؛ وإثبات ما تضمناه من صفة ـ وهي العزة، والحُكم، والحكمة.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾.

التفسير:

﴿٢١٠﴾ قوله تعالى: ﴿**هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله**﴾: الاستفهام هنا بمعنى النفي؛ و﴿**ينظرون**﴾ بمعنى ينتظرون؛ أي ما ينتظر هؤلاء المكذبون الذين زلوا بعد ما جاءتهم البينات؛ وتأتي

بمعنى النظر بالعين؛ فإن عديت بـ«إلى» فهي للنظر بالعين؛ وإن لم تعدّ فهي بمعنى الانتظار؛ مثال المعداة بـ«إلى» قوله تعالى: ﴿**لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم**﴾ [آل عمران: ٧٧].

وقوله تعالى: ﴿**إلا أن يأتيهم الله**﴾ أي يأتيهم الله نفسه؛ هذا ظاهر الآية، ويجب المصير إليه؛ لأن كل فعل أضافه الله إليه فهو له نفسه؛ ولا يعدل عن هذا الظاهر إلا بدليل من عند الله.

قوله تعالى: ﴿**في ظلل من الغمام**﴾؛ ﴿**في**﴾ معناها «مع»؛ يعني يأتي مصاحباً لهذه الظلل؛ وإنما أخرجناها عن الأصل الذي هو الظرفية؛ لأنا لو أخذناها على أنها للظرفية صارت هذه الظلل محيطة بالله عزّ وجلّ؛ والله أعظم، وأجلّ من أن يحيط به شيء من مخلوقاته؛ ونظير ذلك أن نقول: جاء فلان في الجماعة الفلانية ـ أي معهم ـ؛ وإن كان هذا التنظير ليس من كل وجه؛ لأن فلاناً يمكن أن تحيط به الجماعة؛ ولكن الله لا يمكن أن يحيط به الظلل؛ وهذا الغمام يأتي مقدمة بين يدي مجيء الله عزّ وجلّ، كما قال تعالى: ﴿**ويوم تشقق السماء بالغمام**﴾ [الفرقان: ٢٥]؛ فالسماء تشقق ـ لا تنشق ـ كأنها تنبعث من كل جانب؛ وقيل إن ﴿**في**﴾ بمعنى الباء؛ فتكون كقوله تعالى: ﴿**ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا**﴾ [التوبة: ٥٢]؛ وهذا قول باطل لمخالفته ظاهر الآية؛ و﴿**الغمام**﴾: قالوا: إنه السحاب الأبيض الرقيق؛ لكن ليس كسحاب الدنيا؛ فالاسم هو الاسم؛ ولكن الحقيقة غير الحقيقة؛ لأن المسميات في الآخرة ـ وإن شاركت المسميات في الدنيا في الاسم ـ إلا أنها تختلف مثلما تختلف الدنيا عن الآخرة.

قوله تعالى: ﴿**والملائكة**﴾ بالرفع عطفاً على لفظ الجلالة؛

يعني: وتأتيهم الملائكة أيضاً محيطة بهم، كما قال الله تعالى: **﴿كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً * وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾** [الفجر: ٢١، ٢٢]؛ وفي حديث الصور الطويل الذي ساقه ابن جرير، وغيره[1] أن السماء تشقق؛ فتشقق السماء الدنيا بالغمام، وتنزل الملائكة، فيحيطون بأهل الأرض، ثم السماء الثانية، والثالثة، والرابعة...؛ كل من وراء الآخر؛ ولهذا قال تعالى: **﴿صفاً صفاً﴾** [الفجر: ٢٢] يعني صفاً بعد صف؛ ثم يأتي الرب عزّ وجلّ للقضاء بين عباده؛ ذلك الإتيان الذي يليق بعظمته وجلاله؛ ولا أحد يحيط علماً بكيفيته؛ لقوله تعالى: **﴿ولا يحيطون به علماً﴾** [طه: ١١٠]؛ وقد تقدم الكلام على الملائكة عند قوله تعالى: **﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾** [البقرة: ١٧٧]؛ وبيَّنا أن الملائكة عالم غيبي مخلوقون من نور

---

(١) راجع تفسير الطبري ٢٤/ ٤١٨ ـ ٤٢٠، تفرد به إسماعيل بن رافع، وقد اختلف فيه (ذكره ابن كثير في تفسيره سورة الأنعام ٢/ ٢٣٩)؛ قال الحافظ في التقريب: «ضعيف الحفظ»؛ وقال الدارقطني وغيره: «متروك الحديث» (ميزان الاعتدال ١/ ٢٢٧)؛ وقال الذهبي: «ومن تلبيس الترمذي قال: ضعفه بعض أهل العلم، قال: وسمعت محمداً ـ يعني البخاري ـ يقول: هو ثقة مقارب الحديث» (المرجع السابق)؛ وقال البخاري في التاريخ الكبير: «محمد بن يزيد بن أبي زياد روى عنه إسماعيل بن رافع حديث الصور مرسل، ولم يصح» ١/ ٢٦٠، رقم ٨٢٩)؛ وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٣٤، تفسير سورة الأنعام آية رقم ٧٣): «وروينا حديث الصور بطوله من طريق الحافظ أبي القاسم الطبراني في كتابه المطولات....»؛ وقال أيضاً (٢/ ٢٣٩): «وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة قد أفردتها في جزء على حدة، وأما سياقه فغريب جداً، ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة، وجعلها سياقاً واحداً، فأنكر عليه بسبب ذلك».

خلقهم الله عزّ وجلّ لعبادته يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

قوله تعالى: ﴿**وقضي الأمر**﴾: اختلف فيها المعربون؛ فمنهم من قال: إنها معطوفة على: ﴿**أن يأتيهم**﴾؛ فتكون في حيّز الأمر المنتظر بمعنى: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله؛ وإلا أن يقضى الأمر؛ ولكنه أتى بصيغة الماضي لتحقق وقوعه؛ وعلى هذا فيكون محل الجملة النصب؛ لأن «**تأتيهم الملائكة**» منصوبة ـ يعني: هل ينظرون إلا إتيانَ الله في ظلل من الغمام، وإتيانَ الملائكة، وانقضاءَ الأمر ـ؛ ومنهم من قال: إنها جملة مستأنفة؛ أي: وقد انتهى الأمر، ولا عذر لهم بعد ذلك، ولا حجة لهم؛ و﴿**الأمر**﴾ بمعنى الشأن؛ أي قضي شأن الخلائق، وانتهى كل شيء، وصار أهل النار إلى النار، وأهل الجنة إلى الجنة؛ ولهذا قال بعده: ﴿**وإلى الله ترجع الأمور**﴾؛ وفي ﴿**ترجع**﴾ قراءتان؛ الأولى: بفتح التاء، وكسر الجيم؛ والثانية: بضم التاء، وفتح الجيم؛ والمتعلِّق هنا مقدم على المتعَلَّق به؛ لأن ﴿**إلى الله**﴾ متعلق بـ﴿**ترجع**﴾؛ وتقديم المعمول يفيد الحصر، والاختصاص؛ أي إلى الله وحده لا إلى غيره ترجع الأمور ـ أمور الدنيا والآخرة ـ أي شؤونهما كلها: الدينية، والدنيوية، والجزائية، وكل شيء، كما قال الله تعالى: ﴿**وإليه يرجع الأمر كله**﴾ [هود: ١٢٣] فالأمور كلها ترجع إلى الله عزّ وجلّ؛ ومنها أن الناس يرجعون يوم القيامة إلى ربهم، فيحاسبهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: وعيد هؤلاء بيوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿**هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام...**﴾ إلخ.

٢ ـ **ومنها**: أن الله تعالى لا يعذب هذه الأمة بعذاب عام؛

لأن الله جعل وعيد المكذبين يوم القيامة؛ ويدل لذلك آيات، وأحاديث؛ منها قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿**بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر**﴾ [القمر: ٤٦]، وقوله ﷺ: «**أنه سأل ربه أن لا يهلك أمته بسنة عامة فأجابه**»(١).

٣ ـ **ومنها**: إثبات إتيان الله عزّ وجلّ يوم القيامة للفصل بين عباده؛ وهو إتيان حقيقي يليق بجلاله لا تُعلَم كيفيته، ولا يسأل عنها ـ كسائر صفاته ـ؛ قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ وقد سئل عن قوله تعالى: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ فقال: «**الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة**»؛ هذا وقد ذهب أهل التعطيل إلى أن المراد بإتيان الله: إتيان أمره؛ وهذا تحريف للكلم عن مواضعه، وصرف للكلام عن ظاهره بلا دليل إلا ما زعموه دليلاً عقلياً وهو في الحقيقة وهمي، وليس عقلياً؛ فنحن نقول: الذي نسب فعل الإتيان إليه هو الله عزّ وجلّ؛ وهو أعلم بنفسه؛ وهو يريد أن يبين لعباده، كما قال تعالى: ﴿**يبين الله لكم أن تضلوا**﴾ [النساء: ١٧٦]؛ وإذا كان يريد أن يبين، وهو أعلم بنفسه، وليس في كلامه عِيٌّ، وعجز عن التعبير بما أراد؛ وليس في كلامه نقص في البلاغة؛ إذاً فكلامه في غاية ما يكون من العلم؛ وغاية ما يكون من إرادة الهدى؛ وغاية ما يكون من الفصاحة، والبلاغة؛ وغاية ما يكون من الصدق؛ فهل بعد ذلك يمكن أن نقول: إنه لا يراد به ظاهره؟! كلا؛ لا يمكن هذا إلا إذا قال الله هو عن نفسه أنه لم يرد ظاهره؛ إذاً المراد إتيان الله

---

(١) أخرجه مسلم ص١١٧٨، كتاب الفتن، باب ٥: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، حديث رقم ٧٢٥٨ [١٩] ٢٨٨٩.

نفسه؛ ولا يعارض ذلك أن الله قد يضيف الإتيان إلى أمره، مثل قوله تعالى: ﴿**أتى أمر الله**﴾ [النحل: ١]، ومثل قوله تعالى: ﴿**أو يأتي أمر ربك**﴾ [النحل: ٣٣]؛ لأننا نقول: إن هذا من أمور الغيب؛ والصفات توقيفية؛ فنتوقف فيها على ما ورد؛ فالإتيان الذي أضافه الله إلى نفسه يكون المراد به إتيانه بنفسه؛ والإتيان الذي أضافه الله إلى أمره يكون المراد به إتيان أمره؛ لأنه ليس لنا أن نقول على الله ما لا نعلم؛ بل علينا أن نتوقف فيما ورد على حسب ما ورد.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات الملائكة.

٥ ـ **ومنها**: إثبات عظمة الله عزّ وجلّ في قوله تعالى: ﴿**في ظلل من الغمام**﴾؛ فـ﴿**ظلل**﴾ نكرة تدل على أنها ظلل عظيمة، وكثيرة؛ ولهذا جاء في سورة الفرقان: ﴿**ويوم تشقق السماء بالغمام**﴾ [الفرقان: ٢٥] يعني تثور ثوراناً بهذا الغمام العظيم من كل جانب؛ كل هذا مقدمة لمجيء الجبار سبحانه وتعالى؛ وهذا يفيد عظمة الباري سبحانه وتعالى.

٦ ـ **ومنها**: أن الملائكة أجسام خلافاً لمن زعم أن الملائكة قوى الخير، وأنهم أرواح بلا أجسام؛ والرد على هذا الزعم في القرآن والسنة كثير.

٧ ـ **ومنها**: أن يوم القيامة به ينقضي كل شيء؛ فليس بعده شيء؛ إما إلى الجنة؛ وإما إلى النار؛ فلا أمل أن يستعتب الإنسان إذا كان من أهل النار ليكون من أهل الجنة؛ لكنه أتى بصيغة ما لم يسم فاعله لعظمة هذا الأمر؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿**وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين**﴾ [هود: ٤٤].

٨ ـ **ومنها**: أن الأمور كلها ترجع إلى الله وحده؛ لقوله تعالى:

﴿**وإلى الله ترجع الأمور**﴾ أي الأمور الكونية، والشرعية؛ قال تعالى: ﴿**وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله**﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿**إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه**﴾ [يوسف: ٤٠]؛ فالأمور كلها مرجعها إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ؛ وما ثبت فيه أنه يرجع فيه إلى الخلق فإنما ذلك بإذن الله؛ فالحكم بين الناس مرجعه القضاة؛ لكن كان القضاة مرجعاً للناس بإذن الله تعالى.

٩ ـ **ومنها**: إثبات الأفعال الاختيارية لله ـ أي أنه يحدث من أفعاله ما شاء ـ؛ لقوله تعالى: ﴿**إلا أن يأتيهم الله**﴾؛ وهذا مذهب السلف الصالح خلافاً لأهل التحريف والتعطيل الذين ينكرون هذا النوع، ويحرفونه إلى معان قديمة لمنعهم قيام الأفعال الاختيارية بالله عزّ وجلّ؛ ومذهبهم باطل بالسمع، والعقل؛ فالنصوص المثبتة لذلك لا تكاد تحصى؛ والعقل يقتضي كمال من يفعل ما يشاء متى شاء، وكيف شاء.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: عظمة الله، وتمام سلطانه، وملكه؛ لقوله تعالى: ﴿**وإلى الله ترجع الأمور**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾.

التفسير:

﴿**٢١١**﴾ قوله تعالى: ﴿**سل**﴾ أصلها اسأل؛ فنقلت حركة الهمزة إلى السين، ثم حذفت تخفيفاً؛ ثم حذفت همزة الوصل

لعدم الحاجة إليها؛ و﴿كم﴾ استفهامية علقت الفعل ﴿سل﴾ عن العمل؛ فصارت هي، وجملتها في محل نصب؛ وأصله سل فلاناً عن كذا، وكذا؛ فعلقت الفعل عن المفعول الثاني؛ و﴿كم﴾ تحتاج إلى مميِّز؛ لأن ﴿كم﴾ اسم مبهم تدل على عدد؛ والمعدود: قوله تعالى: ﴿**من آية بينة**﴾؛ و﴿**آتينا**﴾ أي أعطينا؛ وهي تنصب مفعولين؛ المفعول الأول: الهاء؛ والمفعول الثاني: محذوف؛ والتقدير: كم من آية بينة آتيناهموها؛ وعاد الضمير المحذوف إلى متأخر لفظاً؛ لأنه متقدم رتبة؛ إذ ﴿**من آية**﴾ كان حقها أن تكون بعد ﴿**كم**﴾؛ وجملة: ﴿**ومن يبدل...**﴾ شرطية؛ و﴿مَن﴾ اسم شرط جازم؛ ولهذا جزمت الفعل؛ وجوابه مفهوم من قوله تعالى: ﴿**فإن الله شديد العقاب**﴾؛ فالجملة هنا دالة على الجواب، وليست هي الجواب؛ لأن شدة عقاب الله ثابتة سواء بدلوا، أم لم يبدلوا.

قوله تعالى: ﴿**سل بني إسرائيل**﴾؛ الخطاب هل هو للرسول وحده؛ أو لكل من يتأتى خطابه؟ مثل هذه الخطابات تارة يقوم الدليل على أنها خاصة بالرسول ﷺ، فتكون خاصة به؛ وتارة يقوم الدليل على أنها عامة له، ولغيره، فتكون عامة؛ وتارة لا يقوم الدليل على هذا، ولا على هذا؛ فالظاهر أنها عامة؛ لأن القرآن نزل للأمة إلى يوم القيامة؛ فمن أمثلة ما قام الدليل على أنها للرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿**ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذي أنقض ظهرك * ورفعنا لك ذكرك**﴾ [الشرح: ١ ـ ٤]؛ ومثال الذي قام الدليل على أنها عامة قوله تعالى: ﴿**يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن**﴾ [الطلاق: ١]؛ فقال تعالى: ﴿**يا أيها النبي**﴾؛ ولكن أمر بحكم عام، فقال تعالى: ﴿**إذا طلقتم النساء فطلقوهن**﴾؛ وأما المحتمل فهو كثير في القرآن؛ ومنه هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿سل﴾: أي سؤال توبيخ، وتبكيت؛ لإقامة الحجة عليهم ببيان نعم الله التي كان حقه عليهم أن يشكروها، ولكن بدلوها كفراً؛ وإلا فالظاهر أن الرسول ﷺ كان يعلم بما آتاهم الله من الآيات البينات؛ و﴿بني إسرائيل﴾ أي بني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم؛ والمراد من ينتمي إليه؛ لا أبناء صلبه خاصة.

قوله تعالى: ﴿كم آتيناهم من آية بينة﴾؛ ﴿كم﴾ هذه تكثيرية ـ أي أعطيناهم آيات كثيرة ـ؛ والإيتاء هنا يشمل الإيتاء الشرعي، والإيتاء القدري الكوني؛ لأنهم أوتوا آيات بينات شرعية جاءت بها التوراة؛ وأوتوا آيات بينات كونية، كالعصا، واليد؛ و«الآية» بمعنى العلامة على الشيء؛ و﴿بينة﴾ أي ظاهرة في كونها آية.

قوله تعالى: ﴿ومن يبدل نعمة الله﴾ أي ومن يجعل بدلها؛ والمفعول الثاني محذوف؛ تقديره: كفراً، كما يدل لذلك قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً﴾ [إبراهيم: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ أي قوي الجزاء بالعقوبة؛ وسمي الجزاء عقوبة، وعقاباً؛ لأنه يقع عقب الذنب مؤاخذة به.

وقوله تعالى: ﴿شديد العقاب﴾ هذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، مثل أن تقول: حسن الوجه ـ يعني: ذو الوجه الحسن ـ؛ فهي صفة مشبهة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: بيان كثرة ما أعطاه الله بني إسرائيل من الآيات البينة الدالة على صدق رسله؛ لقوله تعالى: ﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة﴾.

٢ ـ **ومنها**: تقريع بني إسرائيل الذين كفروا بآيات الله، وتوبيخهم؛ لأن المراد بالسؤال هنا سؤال توبيخ.

٣ ـ **ومنها**: أن الآيات من نعم الله؛ لأنها تحمل المرء على الإيمان؛ وفي الإيمان نجاته، وكرامته؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن الآيات مبينة لما أتت دالةً عليه.

٥ ـ **ومنها**: التحذير من تبديل نعمة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته**﴾ [البقرة: ٢١١]؛ والمراد: تبديل الشكر بالكفر؛ لقوله تعالى: ﴿**ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً**﴾.

٦ ـ **ومنها**: إثبات شدة العقاب من الله لمن بدل نعمته بالكفر؛ وهذا من تمام عدله وحكمته.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾.

التفسير:

﴿**٢١٢**﴾ قوله تعالى: ﴿**زين**﴾ مبني لما لم يسم فاعله؛ ونائب الفاعل ﴿**الحياة الدنيا**﴾؛ والتزيين جعل الشيء بهياً في عين الإنسان، أو في سمعه، أو في مذاقه، أو في فكره؛ المهم أن أصل التزيين جعل الشيء بهياً جميلاً جذاباً؛ والمزَيِّن إما أن يكون الله، كما في قوله تعالى: ﴿**إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا**

لهم أعمالهم﴾ [النمل: ٤]؛ وإما أن يكون الشيطان؛ لقوله تعالى: **﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل﴾** [النمل: ٢٤]؛ ولا منافاة بين الأمرين؛ فإن الله زين لهم سوء أعمالهم؛ لأنهم أساءوا، كما يفيده قوله تعالى: **﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾** [الصف: ٥]؛ والتزيين من الله باعتبار التقدير؛ أما الذي باشر التزيين، ووسوس لهم بذلك فهو الشيطان.

قوله تعالى: **﴿للذين كفروا﴾**، وفي آية أخرى: **﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة...﴾** [آل عمران: ١٤] إلخ؛ فإما أن نحمل «**الناس**» على **﴿الذين كفروا﴾**، ونقول: هو عام أريد به الخاص؛ أو نقول: إن ذكر بعض ألفاظ العام لا يقتضي التخصيص؛ فيكون **﴿زين للناس﴾** عموماً؛ وهنا ذكر الله تعالى تزيينه لبعض أفراد هذا الجنس وهم «**الذين كفروا**».

قوله تعالى: **﴿الحياة الدنيا﴾** يعني ما فيها من الشهوات، والملذات؛ وقد بين الله ذلك بقوله تعالى: **﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾** [آل عمران: ١٤]؛ و**﴿الدنيا﴾** فُعلى ـ يعني أنه اسم تفضيل مؤنث مأخوذة من الدنو الذي هو ضد العلو ـ؛ ووصفت هذه الحياة بالدنيا لوجهين: الأول: دنوّ مرتبتها؛ الثاني: سبقها على الآخرة؛ فهي أدنى منها لقربها، ودنوّ منزلتها؛ أما قربها وهو سبقها على الآخرة فظاهر معلوم لكل أحد؛ وأما دنوّ مرتبتها فلقول الرسول ﷺ: «**الموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما**

فيها»[١]؛ وموضع السوط مقدار متر تقريباً.

قوله تعالى: ﴿**ويسخرون من الذين آمنوا**﴾؛ هذه الجملة يقولون: إنها حالية؛ يعني: زينت لهم والحال أنهم يسخرون من الذين آمنوا؛ و﴿**يسخرون**﴾ يعني يجعلونهم محل سخرية، وازدراء، واحتقار؛ إما لِما يقومون به من الأعمال الصالحة؛ وإما لكونهم لم يؤتوا من الدنيا ما أوتي هؤلاء ـ على زعمهم ـ، كما قال تعالى: ﴿**إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين * وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون**﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣٢].

قوله تعالى: ﴿**والذين اتقوا**﴾ أي اتقوا ربهم عزّ وجلّ؛ و«**التقوى**» كثيراً ما ترد في القرآن الكريم؛ وهي اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، عن علم وبصيرة.

قوله تعالى: ﴿**فوقهم يوم القيامة**﴾ أي فوقهم مرتبة، ومنزلة؛ وهذا ما أعاضهم الله به، حيث كان أولئك الذين كفروا يسخرون بهم في الدنيا، فجعلهم الله فوقهم يوم القيامة؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿**فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون**﴾ [المطففين: ٣٤، ٣٥].

قوله تعالى: ﴿**والله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ أي يعطي من يشاء من فضله **بغير محاسبة** على ذلك؛ فهم يأخذون أجرهم يوم القيامة مجاناً؛ لأن العوض قد سبق؛ ويحتمل أن المعنى **بغير تقدير** ـ أي لا يقدَّر لهم ذلك ـ؛ بل يعطون ما تشتهيه أنفسهم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿**إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم**

---

(١) سبق تخريجه ١/٢٥٨.

أجر غير ممنون﴾ [الانشقاق: ٢٥] أي غير مقطوع؛ لأن رزق الله لا نهاية له لا سيما الرزق في الآخرة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: انخداع الكافرين بالحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: **﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾**.

٢ ـ **ومنها**: أن الكفار عاشقون لها، وأنها هي همهم، وغرضهم؛ لأن ما زين للشخص فلا بد أن يكون الشخص مهتماً به طالباً له.

٣ ـ **ومنها**: أن المؤمنين ليست الدنيا في أعينهم شيئاً؛ لقوله تعالى: **﴿للذين كفروا﴾**؛ ولهذا كان الرسول ﷺ إذا رأى ما يعجبه في الدنيا يقول: **«لبيك! إن العيش عيش الآخرة»**[1] لتوجيه النفس إلى إجابة الله؛ لا إلى إجابة رغبتها، ثم يقنع النفس أيضاً: أني ما صددتك وأجبت الرب عزّ وجلّ إلا لخير؛ لأن العيش عيش الآخرة؛ والعجيب أن من طلب عيش الآخرة طاب له عيش الدنيا؛ ومن طلب عيش الدنيا ضاعت عليه الدنيا والآخرة؛ قال الله تعالى: **﴿قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾** [الزمر: ١٥]؛ هذه هي الخسارة: خسروا أنفسهم؛ لأن مآلهم النار ـ والعياذ بالله ـ؛ وأهلوهم أيضاً الذين في النار لا يهتم بعضهم ببعض؛ كل ـ والعياذ بالله ـ شقيّ فيما هو فيه؛

---

(١) أخرجه الشافعي في مسنده ١/ ٣٠٤، حديث رقم ٧٩٢، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٤٨، باب: كان إذا رأى شيئاً يعجبه قال: لبيك إن العيش عيش الآخرة، حديث ١٣١٠٠، أخرجه البيهقي بسنده إلى الشافعي، والحديث مرسل لأنه عن مجاهد أنه قال كان النبي ﷺ...، الحديث.

والحاصل أنا نقول: ينبغي لكل إنسان حين يرى في الدنيا ما يعجبه أن يقول كما قال الرسول ﷺ.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: حقارة الدنيا؛ لوصفها بالدنيا؛ وهي من الدنوّ زمناً، ورتبة؛ زمناً؛ لأنها قبل الآخرة؛ ورتبة؛ لأنها قليل بالنسبة للآخرة؛ ولهذا لا تجد في الدنيا حال سرور إلا مشوباً بتنغيص قبله، وبعده؛ لكن هذا التنغيص بالنسبة للمؤمن خير؛ لأن له فيه أجراً، كما أخبر الرسول ﷺ في قوله: «**عجباً للمؤمن إن أمره كله خير؛ إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له؛ وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له**»[1]؛ والمؤمن إذا ابتلي بالبلاء الجسمي، أو النفسي يقول: هذه نعمة من الله يكفِّر الله بها عني سيئاتي؛ فإذا أحس هذا الإحساس صار هذا الألم نعمة؛ لأن الإنسان خطّاء دائماً؛ وهذه الأشياء لا شك أنها ـ والحمد لله ـ تكفير للسيئات؛ فإن صبر واحتسب صارت رفعة للدرجات؛ فالآلام، والبلايا، والهم، والغم، تكفير بكل حال؛ ولكن مع الصبر والاحتساب يكون عملاً صالحاً يثاب عليه، ويؤجر عليه.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن لا نركن إلى هذه الحياة، ونطمئن إليها؛ بل نجعل همتنا منصرفة إلى الدار الآخرة؛ وهذا لا ينافي أن نتمتع وننعم بما أحل الله لنا مع الاستقامة في ديننا.

٦ ـ **ومنها**: أن الكفار لا يزالون يسلطون أنفسهم على المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿**ويسخرون**﴾ بالفعل المضارع؛ لأن

---

(١) أخرجه مسلم ص١١٩٦، كتاب الزهد والرقائق، باب ١٣: المؤمن أمره كله خير، حديث رقم ٧٥٠٠ [٦٤] ٢٩٩٩.

المضارع يدل على الاستمرار، والحال، والاستقبال؛ فهم دائماً في سخرية من الذين آمنوا.

٧ ـ **ومنها**: أن العبرة بكمال النهاية؛ لقوله تعالى: ﴿**والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة**﴾.

٨ ـ **ومنها**: تثبيت المؤمنين، وترسيخ أقدامهم في إيمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿**ويسخرون من الذين آمنوا**﴾ يعني: اصبروا؛ فإن هذا دأبهم وشأنهم أن يسخروا منكم؛ فما دمتم تعرفون أن هذه عادة الكفار فإن الإنسان يصبر؛ إذا عرف الإنسان أن هذا شيء لا بد منه يكون مستعداً له، وقابلاً له، وغير متأثر.

٩ ـ **ومنها**: البشرى للمؤمنين الذين اتقوا أنهم فوق الكفار يوم القيامة.

١٠ ـ **ومنها**: إثبات أفعال الله سبحانه وتعالى المتعلقة بمشيئته؛ لقوله تعالى: ﴿**والله يرزق من يشاء**﴾ فتسمى هذه الأفعال في كتب العقائد الأفعال الاختيارية ـ يعني المتعلقة بمشيئة الله ـ؛ وهي ثابتة لله عزّ وجلّ على وجه الحقيقة؛ وأمثلتها في القرآن كثيرة.

١١ ـ **ومنها**: إثبات المشيئة لله؛ وكل ما في الكون واقع بمشيئة الله؛ والمشيئة تختلف عن الإرادة بأنها لا تنقسم إلى كونية، وشرعية؛ بل هي كونية محضة؛ فما شاء الله كان؛ وما لم يشأ لم يكن سواء كان مما يحبه، أو مما لا يحبه؛ قوله تعالى: ﴿**من يشأ الله يضلله**﴾ [الأنعام: ٣٩]؛ فهذا لا يحبه؛ وقوله تعالى: ﴿**ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم**﴾ [الأنعام: ٣٩]: فهذا يحبه؛ وكل فعل علقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة؛ ودليل ذلك سمعي،

وعقلي؛ فمن السمع: ﴿**وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً**﴾ [الإنسان: ٣٠]؛ فدل هذا على أن مشيئته مقرونة بالحكمة؛ وأما العقل فلأن الله سبحانه وتعالى سمى نفسه بأنه «**حكيم**»؛ والحكيم لا يصدر منه شيء إلا وهو موافق للحكمة.

١٢ ـ **ومن فوائد الآية**: كثرة رزق الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**بغير حساب**﴾ بمعنى أنه يعطي عطاءً لا يبلغه الحساب، كما قال تعالى: ﴿**والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم**﴾ [البقرة: ٢٦١].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

التفسير:

﴿**٢١٣**﴾ قوله تعالى: ﴿**أمة**﴾ خبر ﴿**كان**﴾؛ و﴿**مبشرين**﴾ حال من المفعول به؛ وهو ﴿**النبيين**﴾.

قوله تعالى: ﴿**كان الناس أمة واحدة**﴾؛ ﴿**أمة**﴾ هنا بمعنى طائفة؛ و﴿**كان**﴾ أي فيما مضى من قبل أن تبعث الرسل إليهم كانوا طائفة واحدة على دين واحد؛ وهذا الدين الواحد هو دين الإسلام؛ لأن آدم نبي موحًى إليه بشريعة يتعبد بها؛ فصار يتعبد بها، واتبعه أبناؤه على ذلك؛ ثم بعد مدة من الزمن كثر الناس،

واختلفت الأهواء، فاختلفوا؛ فحينئذ صاروا بحاجة إلى بعث الرسل؛ فبعث الله الرسل مبشرين، ومنذرين.. إلخ.

قوله تعالى: ﴿**فبعث الله النبيين**﴾: الفاء هنا عاطفة؛ والمعطوف عليه محذوف معلوم من السياق اللاحق، كقوله تعالى: ﴿**وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا**﴾ [يونس: ١٩]؛ وعلى كل حال لا بد أن يكون المعنى أنهم اختلفوا؛ فبُعث الرسل؛ ونظير هذا من المحذوف الذي يعينه السياق قوله تعالى: ﴿**ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة**﴾ [البقرة: ١٨٥]: فالمريض والمسافر ليس عليهما العدة لو صاما؛ إذاً لا بد أن نقدر: فأفطر فعليه عدة؛ و«**بعث**» بمعنى أرسل، كقوله تعالى: ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات**﴾ [الحديد: ٢٥]؛ والمراد بـ﴿**النبيين**﴾ هنا الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿**مبشرين ومنذرين**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**مبشرين ومنذرين**﴾: هذان حالان؛ لأن الرسل يأتون بالبشارة والنذارة في آن واحد؛ يعني: ليس بعض الرسل مبشراً، والآخر منذراً؛ بل كل واحد جامع بين التبشير، والإنذار؛ أي مبشرين بثواب الله عزّ وجلّ لمن استحقه؛ ومنذرين بعقاب الله من خالف أمره؛ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿**لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً**﴾ [الكهف: ٢]؛ فهنا بينت الآية المبشَّر، والمبشَّر به؛ فالمبشَّر: المؤمنون الذين يعملون الصالحات؛ والمبشَّر به: أن لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً؛ ﴿**وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً**﴾ [الكهف: ٤، ٥]؛ فالمنذَر: هم الكفار؛ والمنذر به: العذاب.

قوله تعالى: ﴿**وأنزل معهم الكتاب**﴾؛ المعية هنا للمصاحبة؛ والمعية كلما أطلقت فهي للمصاحبة؛ لكنها في كل موضع بحسبه؛ و﴿**الكتاب**﴾ هنا مفرد يراد به الجنس؛ فيعم كل كتاب؛ إذ لكل رسول كتاب؛ وقد زعم بعض المفسرين أن قوله تعالى: ﴿**أنزل معهم**﴾ أي مع بعضهم؛ وقال: ليس كل الرسل معهم كتاب؛ ولكن هذا خلاف ظاهر القرآن؛ وقد قال الله تعالى في سورة الحديد: ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان**﴾ [الحديد: ٢٥]؛ فظاهر الآية أن مع كل رسول كتاباً؛ وهذا هو مقتضى الحال حتى يكون هذا الكتاب الذي معه يبلغه إلى الناس؛ ولا يرد على هذا أن بعض الشرائع تتفق في مشروعاتها ـ وحتى في منهاجها ـ، ولا يكون فيها إلا اختلاف يسير، كما في شريعة التوراة والإنجيل؛ فإن هذا لا يضر؛ المهم أن كل رسول في ظاهر القرآن معه كتاب؛ و«**كتاب**» بمعنى مكتوب؛ فمنه ما نعلم أن الله كتبه؛ ومنه ما لا نعلم أن الله كتبه لكن تكلم به.

قوله تعالى: ﴿**بالحق**﴾ الباء للمصاحبة متعلقة بـ﴿**أنزل**﴾ أي ما جاءت به الكتب فهو حق؛ ويحتمل أن المعنى أن الكتب نفسها حق من عند الله؛ وليست مفتراة عليه؛ وكلا المعنيين صحيح؛ فهي حق من عند الله؛ وما جاءت به من الشرائع، والأخبار فهو حق؛ و«**الحق**» أي الثابت النافع؛ وضده الباطل الذي يزول، ولا ينفع؛ والحق الثابت في الكتب المنزلة من عند الله: بالنسبة للأخبار هو الصدق المطابق للواقع؛ وبالنسبة للأحكام فإنه العدل المصلح للخلق في معاشهم، ومعادهم، كما

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿**وتمَّت كلمة ربك صدقاً وعدلًا**﴾ [الأنعام: ١١٥].

قوله تعالى: ﴿**ليحكم**﴾ الضمير يعود على الكتاب؛ أو على النبيين؛ أو على الله؛ يعني: ليحكم هو ـ أي الله ـ؛ أو ليحكم الكتاب باعتبار أنه وسيلة الحكم؛ أو ليحكم النبي باعتبار أنه الذي معه الكتاب؛ ولكن هنا إشكال: وهو أن ﴿**ليحكم**﴾ مفرد؛ و﴿**النبيين**﴾ جمع؛ لكن قالوا: لما كان النبيون جمعاً؛ والجمع له أفراد، صار ﴿**ليحكم**﴾ أي كل فرد منهم.

قوله تعالى: ﴿**بين الناس فيما اختلفوا فيه**﴾؛ فبعضهم قال: الحق كذا؛ وبعضهم قال: الحق كذا؛ خصمان لا بد بينهما من حَكَم؛ وهو ما جاءت به الرسل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه**﴾؛ و«**ما**» اسم موصول؛ واسم الموصول من ألفاظ العموم؛ فيشمل كل ما اختلف فيه الناس من الدقيق والجليل، في مسائل الدين والدنيا.

قوله تعالى: ﴿**وما اختلف فيه**﴾ أي في الكتاب؛ ﴿**إلا الذين أوتوه**﴾، ﴿**الذين**﴾ فاعل ﴿**اختلف**﴾؛ لأن الاستثناء مفرغ. ﴿**اوتوه**﴾ أي أعطوه؛ والمراد بهم هنا الأمم؛ ﴿**من بعد ما جاءتهم**﴾ متعلقة بقوله تعالى: ﴿**وما اختلف**﴾ أي وما اختلف فيه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً إلا الذين أوتوه؛ أي من بعد ما جاءت هذه الأمم الذين اختلفوا؛ ﴿**البينات**﴾ أي الآيات البينات الدالة على صدق الرسل؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿**وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة**﴾ [البينة: ٤].

قوله تعالى: ﴿**بغياً بينهم**﴾ مفعول لأجله عامله ﴿**اختلف**﴾؛ و«**البغي**» هو العدوان.

قوله تعالى: ﴿**فهدى الله الذين آمنوا**﴾: المراد بالهداية هنا: هداية التوفيق المسبوقة بهداية العلم، والإرشاد؛ لأن الجميع قد جاءتهم الرسل بالكتب، وبينت لهم؛ لكن لم يوفق منهم إلا من هداهم الله؛ و«**الإيمان**» في اللغة: التصديق؛ ولكنه في الشرع التصديق المستلزم للقبول، والإذعان؛ وليس مجرد التصديق إيماناً؛ إذ لو كان مجرد التصديق إيماناً لكان أبو طالب مؤمناً لأنه كان يقر بأن محمداً ﷺ صادق، ويقول:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يُعنىٰ بقول الأباطل

لكنه لم يَقبل، ولم يُذعن، فلم يكن مؤمناً.

قوله تعالى: ﴿**لما اختلفوا فيه**﴾ أي للذي اختلفوا فيه؛ والضمير في قوله تعالى: ﴿**اختلفوا**﴾ يعود إلى الذين أوتوا الكتاب؛ وعلى هذا فيكون قوله تعالى: ﴿**من الحق**﴾ في موضع نصب على الحال بياناً لـ«**ما**» التي هي اسم موصول؛ ويبين أن الجار والمجرور بيان لها أنك لو قلت: «فهدى الله الذين آمنوا للحق الذي اختلفوا فيه» يستقيم المعنى؛ ومن هنا نعرف أن ﴿**مِن**﴾ في قوله تعالى: ﴿**من الحق**﴾ ليس للتبعيض؛ ولكنها لبيان الإبهام الكائن في «**ما**» الموصولة؛ و﴿**بإذنه**﴾ أي بمشيئته، وإرادته؛ ولكنه سبحانه وتعالى لا يشاء شيئاً إلا لحكمة.

قوله تعالى: ﴿**والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾: الهداية هنا بمعنى الدلالة، والتوفيق؛ فهي شاملة للنوعين؛ وقوله

تعالى: ﴿**من يشاء**﴾ يعني ممن يستحق الهداية؛ لأن كل شيء علق بمشيئة الله فإنه تابع لحكمته؛ فهو سبحانه وتعالى يهدي من يشاء إذا كان أهلاً للهداية؛ كما أنه سبحانه وتعالى يجعل الرسالة في أهلها فإنه يجعل الهداية في أهلها، كما قال تعالى: ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾ [الأنعام: ١٢٤]، كذلك هو أعلم حيث يجعل هدايته.

وقوله تعالى: ﴿**الصراط**﴾ فيها قراءتان: بالصاد، والسين؛ وهما سبعيتان؛ و﴿**الصراط**﴾ في اللغة هو الطريق الواسع؛ وسمي صراطاً ـ وقد يقال ـ: «زراطاً» بالزاي؛ لأنه يبتلع سالكه بسرعة دون ازدحام، ولا مشقة، كما أنك إذا بلعت اللقمة بسرعة يقال: «زرطها»؛ وقال بعضهم: هو الطريق الواسع المستقيم؛ لأن المعوج لا يحصل فيه العبور بسهولة؛ وجعل قوله تعالى: ﴿**مستقيم**﴾ صفة مؤكدة؛ وعلى كل حال «**الصراط المستقيم**» الذي ذكره عزّ وجلّ بينه سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة في قوله تعالى: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم * غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾؛ فهو الصراط الذي يجمع بين العلم، والعمل؛ وإن شئت فقل: بين الهدى، والرشد؛ بخلاف الطريق غير المستقيم الذي يحرم فيه السالك الهدى، كطريق النصارى؛ أو يحرم فيه الرشد، كطريق اليهود.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن دين الإسلام هو الفطرة؛ لقوله تعالى: ﴿**كان الناس أمة واحدة**﴾؛ فقبل أن يحصل ما يفتنهم كانوا على دين واحد ـ دين الإسلام ـ.

٢ ـ **ومنها**: الحكمة في إرسال الرسل؛ وهي التبشير، والإنذار؛ لقوله تعالى: ﴿**فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن النبوة لا تنال بالكسب؛ وإنما هي فضل من الله؛ لقوله تعالى: ﴿**فبعث الله النبيين**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن من يوصف بالتبشير إنما هم الرسل، وأتباعهم؛ وأما ما تسمى به دعاة النصرانية بكونهم مبشرين فهم بذلك كاذبون؛ إلا أن يراد أنهم مبشرون بالعذاب الأليم، كما قال تعالى: ﴿**فبشرهم بعذاب أليم**﴾ [آل عمران: ٢١]؛ وأحق وصف يوصف به هؤلاء الدعاة أن يوصفوا بالمضللين، أو المنَصِّرين؛ وما نظير ذلك إلا نظير من اغتر بتسمية النصارى بالمسيحيين؛ لأن لازم ذلك أنك أقررت أنهم يتبعون المسيح، كما إذا قلت: «فلان تميمي»؛ إذاً هو من بني تميم؛ والمسيح ابن مريم يتبرأ من دينهم الذي هم عليه الآن كما قال تعالى: ﴿**وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق...**﴾ [المائدة: ١١٦] إلى قوله تعالى: ﴿**ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم...**﴾ [المائدة: ١١٧] الآيتين؛ ولأنهم ردوا بشارة عيسى بمحمد ﷺ، وكفروا بها؛ فكيف تصح نسبتهم إليه؟!! والحاصل أنه ينبغي للمؤمن أن يكون حذراً يقظاً لا يغتر بخداع المخادعين، فيجعل لهم من الأسماء، والألقاب ما لا يستحقون.

٥ ـ **ومنها**: أن الشرائع التي جاءت بها الرسل تنقسم إلى أوامر، ونواهي؛ لقوله تعالى: ﴿**مبشرين ومنذرين**﴾؛ لأن الإنذار:

عن الوقوع في المخالفة؛ والبشارة: لمن امتثل، وأطاع.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الكتب نازلة من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿**وأنزل معهم الكتاب**﴾.

٧ ـ **ومنها**: علو الله سبحانه وتعالى؛ لأنه إذا كانت الكتب نازلة من عنده لزم أن يكون هو عالياً؛ لأن النزول يكون من فوق إلى تحت.

٨ ـ **ومنها**: أن الواجب الرجوع إلى الكتب السماوية عند النزاع؛ لقوله تعالى: ﴿**ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه**﴾ وإلا لضاعت فائدة الكتب المنزلة؛ ومن المعلوم أن الكتاب المنزل على محمد ﷺ مصدق لما بين يديه من الكتاب، ومهيمن عليه؛ فيجب الرجوع إليه وحده؛ لأن ما سبقه منسوخ به.

٩ ـ **ومنها**: رحمة الله عزّ وجلّ بالعباد، حيث لم يكلهم إلى عقولهم؛ لأنهم لو وكِلوا إلى عقولهم لفسدت السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿**ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن**﴾ [المؤمنون: ٧١]؛ فكل إنسان يقول: العقل عندي؛ والصواب معي؛ ولكن الله تعالى بعث النبيين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

١٠ ـ **ومنها**: أن الناس لو رجعوا إلى الكتاب المنزل عليهم لحصل بينهم الاجتماع، والائتلاف.

١١ ـ **ومنها**: أن الخلاف بين الناس كائن لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿**ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه**﴾؛ ويدل على ذلك

قوله تعالى: ﴿**ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين**﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وقوله تعالى: ﴿**هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن**﴾ [التغابن: ٢]؛ ولولا هذا ما قامت الدنيا؛ ولا الدين؛ ولا قام الجهاد؛ ولا قام الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ ولم يمتحن الصادق من الكاذب.

١٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن أولئك الذين اختلفوا في الشرع كانوا قد أوتوا الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿**وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم**﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة أن الحجة قد قامت عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿**إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات**﴾.

١٣ ـ **ومن فوائد الآية**: كمال التوبيخ واللوم على هؤلاء ما هو ظاهر؛ لأنه كان الواجب، والأحرى بهؤلاء الذين أوتوه ألا يختلفوا فيه؛ بل يتفقوا عليه؛ لكنهم اختلفوا فيه مع تفضل الله عليهم بإيتائه؛ لقوله تعالى: ﴿**وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه**﴾.

١٤ ـ **ومنها**: بيان ضعف ما يروى عن الرسول ﷺ أنه قال: «**اختلاف أمتي رحمة**»[1]؛ فالاختلاف ليس برحمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك**﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]؛ نعم، دخول المختلفين تحت عفو الله رحمة إذا اجتهدوا، حيث إن الله عزّ وجلّ لم يعذب المخطئ؛ فالمختلفون تسعهم الرحمة إذا كانوا مجتهدين؛ لأن من اجتهد فأصاب فله أجران؛ ومن اجتهد فأخطأ فله أجر؛ أما أن نقول: «إن الخلاف بين الأمة رحمة» فلا.

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٢٧٢.

١٥ ـ **ومنها**: أن فعل الذين اختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات إنما كان ذلك بغياً منهم؛ لقوله تعالى: ﴿**بغياً بينهم**﴾؛ فالذين اختلفوا في محمد ﷺ من اليهود والنصارى إنما كان اختلافهم بغياً وعدواناً؛ لأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم؛ وكذلك الذين اختلفوا في محمد ﷺ من قريش كان كفرهم بغياً وعدواناً.

١٦ ـ **ومنها**: أن كل مخالف للحق بعد ما تبين له فهو باغٍ ضال ـ وإن قال: أنا لا أريد البغي، ولا أريد العدوان ـ.

١٧ ـ **ومنها**: أنه متى تبين الحق وجب اتباعه ـ ولو كان قد قال بخلافه من قبل ـ؛ فيدور مع الحق حيث دار.

١٨ ـ **ومنها**: رحمة الله عزّ وجلّ بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿**فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه**﴾.

١٩ ـ **ومنها**: أن الإيمان سبب للهداية للحق.

٢٠ ـ **ومنها**: أنه كلما قوي إيمان العبد كان أقرب إلى إصابة الحق؛ لقوله تعالى: ﴿**فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا...**﴾؛ لأن الله علق الهداية على وصف الإيمان؛ وما علق على وصف فإنه يقوى بقوته، ويضعف بضعفه؛ ولهذا كان الصحابة أقرب إلى الحق ممن بعدهم لا في التفسير، ولا في أحكام أفعال المكلفين، ولا في العقائد أيضاً؛ لأن الهداية للحق علقت بالإيمان؛ ولا شك أن الصحابة أقوى الناس إيماناً؛ قال الرسول ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[1]، ولهذا ذهب الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ إلى أن قول

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٠٩، كتاب الشهادات، باب ٩: لا يشهد على =

الصحابي حجة ما لم يخالف النص؛ فإن خالف نصاً فليس بحجة؛ أو يخالفه صحابي آخر؛ فإن خالفه صحابي آخر نظر في الترجيح أيهما أقرب إلى الصواب.

٢١ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه يجب على المرء الذي هداه الله ألا يعجب بنفسه، وألا يظن أن ذلك من حوله، وقوته؛ لقوله تعالى: ﴿**فهدى الله**﴾، ثم قال تعالى: ﴿**بإذنه**﴾ أي أمره الكوني القدري؛ ولولا ذلك لكانوا مثل هؤلاء الذين ردوا الحق بغياً وعدواناً.

٢٢ ـ **ومنها**: الإيماء إلى أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الهداية من الله؛ لقوله تعالى: ﴿**فهدى الله الذين آمنوا**﴾.

٢٣ ـ **ومنها**: إثبات الأفعال الاختيارية لله؛ لقوله تعالى: ﴿**فهدى الله**﴾، وكذلك لقوله تعالى: ﴿**بإذنه**﴾.

٢٤ ـ **ومنها**: أن أفعال العباد واقعة بإرادة الله وخلقه.

٢٥ ـ **ومنها**: أن إذن الله نوعان: كوني، وشرعي؛ وسبق بيانهما في قوله تعالى: ﴿**فإنه نزله على قلبك بإذن الله**﴾ [البقرة: ٩٧].

٢٦ ـ **ومنها**: إثبات مشيئة الله في أفعال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿**والله يهدي من يشاء**﴾.

٢٧ ـ **ومنها**: أن كل ما سوى الشرع فهو طريق معوج؛ لقوله تعالى: ﴿**إلى صراط مستقيم**﴾.

٢٨ ـ **ومنها**: أن الشرع لا ضيق فيه، ولا اعوجاج، ولا تعب؛ لأنه صراط واسع، ومستقيم.

= شهادة جور إذا أُشهد، حديث رقم ٢٦٥٢، وأخرجه مسلم ص١١٢٢، كتاب فضائل الصحابة، باب ٥٢: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، حديث رقم ٦٤٧٢ [٢١٢] ٢٥٣٣.

٢٩ ـ **ومنها**: الإشارة إلى الطرق الثلاثة التي ذكرها الله تعالى في سورة الفاتحة؛ وهي طريق الذين أنعم الله عليهم؛ وطريق المغضوب عليهم؛ وطريق الضالين؛ الذين أنعم الله عليهم: هم الرسل، وأتباعهم؛ والمغضوب عليهم: اليهود، وأمثالهم؛ والضالون: النصارى، وأمثالهم؛ وهذا بالنسبة للنصارى قبل أن يبعث الرسول ﷺ؛ أما لما بعث الرسول ﷺ، وكذبوه صاروا من المغضوب عليهم كاليهود بالنسبة لدين المسيح؛ لأن اليهود كانوا مغضوباً عليهم، حيث جاءهم عيسى فكذبوه بعد أن علموا الحق؛ وبعد ما بعث عيسى واتبعه النصارى وطال الأمد، ابتدعوا ما ابتدعوا من الدين، فضلُّوا؛ فصاروا ضالين؛ لكن لما بعث محمد ﷺ كذبوه، وأنكروه؛ فصاروا من المغضوب عليهم؛ لأنهم علموا الحق، وخالفوه.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾.

التفسير:

﴿٢١٤﴾ قوله تعالى: ﴿أم حسبتم﴾؛ ﴿أم﴾ من حروف العطف؛ وهي هنا منقطعة بمعنى «بل»؛ يقدر بعده همزة الاستفهام؛ أي: بل أحسبتم؛ فهي إذاً للإضراب الانتقالي؛ وهو الانتقال من كلام إلى آخر؛ و﴿حسبتم﴾ بمعنى ظننتم؛ وعلى هذا

فتنصب المفعولين؛ قال بعض النحويين: إن ﴿أَنْ﴾، وما دخلت عليه تسد مسد المفعولين؛ وقال آخرون: بل إن ﴿أَنْ﴾، وما دخلت عليه تسد مسد المفعول الأول؛ ويكون المفعول الثاني محذوفاً دل عليه السياق؛ فإذا قلنا بالأول فالأمر واضح لا يحتاج إلى تقدير شيء آخر؛ وإذا قلنا بالثاني يكون التقدير: أم حسبتم دخولكم الجنة حاصلاً...

والخطاب في قوله تعالى: ﴿أم حسبتم﴾ يعود على كل من يتوجه إليه الخطاب: إلى النبي ﷺ، وإلى الصحابة، وإلى من بعدهم.

قوله تعالى: ﴿أن تدخلوا الجنة﴾؛ «الجنة» في اللغة: البستان كثير الأشجار؛ وفي الشرع: هي الدار التي أعدها الله للمتقين فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قوله تعالى: ﴿ولما يأتكم﴾؛ ﴿لما﴾ حرف نفي، وجزم، وقلب؛ والفرق بينها وبين «لم»: أن «لما» للنفي مع توقع وقوع المنفي؛ و«لم» للنفي دون ترقب وقوعه؛ مثاله: إذا قلت: «لم يقم زيد» فقد نفيت قيامه من غير ترقب لوقوعه، ولو قلت: «لما يقم زيد» فقد نفيت قيامه مع ترقب وقوعه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾ [صٓ: ٨].

وقوله تعالى: ﴿مثل الذين خلوا من قبلكم﴾ أي صفة ما وقع لهم؛ و«المثل» يكون بمعنى الصفة، مثل قوله تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ [الرعد: ٣٥] أي صفتها كذا، وكذا؛ ويكون بمعنى الشبه، كقوله تعالى: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾

[البقرة: ١٧] أي شبههم كشبه الذي استوقد ناراً؛ و﴿خلوا﴾ بمعنى مضوا؛ فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿من قبلكم﴾ إذا كانت ﴿خلوا﴾ بمعنى مضوا؟ نقول: هذا من باب التوكيد؛ والتوكيد قد يأتي بالمعنى مع اختلاف اللفظ، كما في قوله تعالى: **﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾** [البقرة: ٦٠]؛ فإن الإفساد هو العثو؛ ومع ذلك جاء حالاً من الواو؛ فهو مؤكد لعامله.

ولما كانت ﴿مثل﴾ مبهمة بيَّنها الله تعالى بقوله تعالى: ﴿مستهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾؛ و«المس» هو مباشرة الشيء؛ تقول: مسسته بيدي، ومس ثوبه الأرض؛ فـ﴿مستهم﴾ يعني أصابتهم إصابة مباشرة؛ وهذه الجملة استئنافية لبيان المثل الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿مثل الذين خلوا من قبلكم﴾.

وقوله تعالى: ﴿مستهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾ هذه ثلاثة أشياء؛ ﴿البأساء﴾: قالوا: إنها شدة الفقر مأخوذة من البؤس؛ وهو الفقر الشديد؛ و﴿الضراء﴾: قالوا: إنها المرض، والمصائب البدنية؛ و﴿زلزلوا﴾: «الزلزلة» هنا ليست زلزلة الأرض؛ لكنها زلزلة القلوب بالمخاوف، والقلق، والفتن العظيمة، والشبهات، والشهوات؛ فتكون الإصابات هنا في ثلاثة مواضع: في المال؛ والبدن؛ والنفس.

قوله تعالى: ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾؛ في ﴿يقول﴾ قراءتان: النصب، والرفع؛ أما على قراءة الرفع فعلى إلغاء ﴿حتى﴾؛ وأما على قراءة النصب فعلى إعمالها؛ وهي لا تعمل إلا في المستقبل؛ فإن قيل: ما وجه نصبها وهي حكاية عن شيء مضى؟

فالجواب: ما قاله المعربون: أنه نصب على حكاية الحال؛ وإذا قدرنا حكاية الحال الماضية صار ﴿**يقول**﴾ مستقبلاً بالنسبة لقوله تعالى: ﴿**مستهم البأساء والضراء وزلزلوا**﴾؛ و﴿**الرسول**﴾: المراد به الجنس ـ أي حتى يقول الرسول من هؤلاء الذين زلزلوا، ومستهم البأساء، والضراء ـ؛ و﴿**معه**﴾ المصاحبة هنا في القول، والإيمان ـ أي يقولون معه وهم مؤمنون به ـ؛ ﴿**متى نصر الله**﴾: الجملة مقول القول؛ والاستفهام فيها للاستعجال ـ أي استعجال النصر ـ؛ وليس للشك فيه.

قوله تعالى: ﴿**ألا إن نصر الله قريب**﴾: يحتمل أن يكون هذا جواباً لقول الرسول، والذين آمنوا معه: متى نصر الله؛ ويحتمل أن يكون جملة استئنافية يخبر الله بها خبراً مؤكداً بمؤكدين: ﴿**ألا**﴾؛ و﴿**إن**﴾؛ وكلاهما صحيح.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: عناية الله عزّ وجلّ بهذه الأمة، حيث يسليها بما وقع بغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم...**﴾ إلخ؛ وهكذا كما جاء في القرآن جاء في السنة؛ فالرسول ﷺ لما جاءه أصحابه يشكون إليه بمكة فأخبرهم: «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه، وعظمه؛ ما يصده ذلك عن دينه**»[1] تثبيتاً للمؤمنين.

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٧٩، كتاب الإكراه، باب ١: من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، حديث رقم ٦٩٤٣.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات الجنة.

٣ ـ **ومنها**: أن الإيمان ليس بالتمني، ولا بالتحلي؛ بل لا بد من نية صالحة، وصبر على ما يناله المؤمن من أذًى في الله عزّ وجلّ.

٤ ـ **ومنها**: حكمة الله عزّ وجلّ، حيث يبتلي المؤمنين بمثل هذه المصائب العظيمة امتحاناً حتى يتبين الصادق من غيره، كما قال تعالى: ﴿**ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم**﴾ [محمد: ٣١]؛ فلا يُعرف زيف الذهب إلا إذا أذبناه بالنار؛ ولا يُعرف طيب العود إلا إذا أحرقناه بالنار؛ أيضاً لا يعرف المؤمن إلا بالابتلاء والامتحان؛ فعليك يا أخي بالصبر؛ قد تؤذى على دينك؛ قد يستهزأ بك؛ وربما تلاحَظ؛ وربما تراقَب؛ ولكن اصبر، واصدق، وانظر إلى ما حصل من أولي العزم من الرسل؛ فالرسول ﷺ كان ساجداً لله في آمن بقعة على الأرض ـ وهو المسجد الحرام ـ؛ فيأتي طغاة البشر بفرث الناقة، ودمها، وسلاها، يضعونها عليه وهو ساجد؛ هذا أمر عظيم لا يصبر عليه إلا أولو العزم من الرسل؛ ويبقى ساجداً حتى تأتي ابنته فاطمة وهي جويرية ـ أي صغيرة ـ تزيله عن ظهره فيبقى القوم يضحكون، ويقهقهون[1]؛ فاصبر، واحتسب؛ واعلم أنه مهما كان الأمر من الإيذاء فإن غاية ذلك الموت؛ وإذا مت على الصبر لله عزّ وجلّ انتقلت من دار إلى خير منها.

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٢، كتاب الوضوء، باب ٦٩: إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته، حديث رقم ٢٤٠، وأخرجه مسلم ص٩٩٧، كتاب الجهاد والسير، باب ٣٩: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، حديث رقم ٤٦٤٩ [١٠٧] ١٧٩٤.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه ينبغي للإنسان ألا يسأل النصر إلا من القادر عليه ـ وهو الله عزّ وجلّ ـ؛ لقوله تعالى: ﴿**متى نصر الله**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن المؤمنين بالرسل منهاجهم منهاج الرسل يقولون ما قالوا؛ لقوله تعالى: ﴿**حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله**﴾؛ يتفقون على هذه الكلمة استعجالاً للنصر.

٧ ـ **ومنها**: تمام قدرة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**ألا إن نصر الله قريب**﴾.

٨ ـ **ومنها**: حكمة الله، حيث يمنع النصر لفترة معينة من الزمن ـ مع أنه قريب ـ.

٩ ـ **ومنها**: أن الصبر على البلاء في ذات الله عزّ وجلّ من أسباب دخول الجنة؛ لأن معنى الآية: اصبروا حتى تدخلوا الجنة.

١٠ ـ **ومنها**: تبشير المؤمنين بالنصر ليتقووا على الاستمرار في الجهاد ترقباً للنصر المبشرين به.

١١ ـ **ومنها**: الإشارة إلى ما جاء في الحديث الصحيح: «**حفت الجنة بالمكاره**»[1]؛ لأن هذه مكاره؛ ولكنها هي الطريق إلى الجنة.

١٢ ـ **ومنها**: أنه لا وصول إلى الكمال إلا بعد تجرع كأس الصبر؛ لقوله تعالى: ﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم...**﴾ إلخ.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه مسلم ص١١٦٩، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ١: صفة الجنة، حديث رقم ٧١٣٠ [١] ٢٨٢٢.

القرآن

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٖ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾﴾.

التفسير:

﴿٢١٥﴾ قوله تعالى: ﴿يسألونك﴾ أي الصحابة رضي الله عنهم؛ والخطاب للنبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ماذا ينفقون﴾؛ ﴿ما﴾ اسم استفهام مبتدأ؛ و﴿ذا﴾ اسم موصول خبره؛ وجملة: ﴿ينفقون﴾ صلة الموصول؛ والعائد محذوف؛ والتقدير: ماذا ينفقونه؛ وهذا إذا لم تُلْغَ ﴿ذا﴾؛ فإذا ألغيت صار الإعراب كالتالي: ﴿ماذا﴾ اسم استفهام مبني على السكون في محل نصب مفعول مقدم لقوله تعالى: ﴿ينفقون﴾؛ و﴿ينفقون﴾ فعل مضارع؛ والفاعل الواو؛ والمفعول ما سبق؛ والمعنى لا يختلف على الإعرابين؛ والسؤال هنا عن المنفَق؛ لا على المنفق عليه؛ أي يسألونك ماذا ينفقون من أموالهم جنساً، وقدراً، وكيفاً.

قوله تعالى: ﴿قل ما أنفقتم من خير فللوالدين﴾؛ ﴿ما﴾ شرطية؛ فعل الشرط: ﴿أنفقتم﴾؛ وجوابه؛ ﴿فللوالدين﴾؛ قد يبدو للإنسان في أول وهلة أن الله إنما أجابهم عن محل الإنفاق ـ لا عن ﴿ماذا ينفقون﴾ ـ؛ لكن من تأمل الآية تبين له أن الله أجابهم عما ينفقون؛ وعما ينفقون فيه؛ لقوله تعالى: ﴿ما أنفقتم من خير﴾؛ ففي هذا بيان ما ينفقون؛ وفي قوله تعالى: ﴿فللوالدين...﴾ بيان ما ينفقون فيه.

وقوله تعالى: ﴿فللوالدين﴾ أي الأب، والأم ـ وإن علوا ـ؛

﴿**والأقربين**﴾ جمع أقرب؛ وهو من كان أدنى من غيره إلى المنفِق؛ فأخ، وابن أخ: فالأقرب الأخ؛ وعم، وابن عم: فالأقرب العم؛ وابن أخ، وعم: فالأقرب ابن الأخ؛ ولهذا اتفق أهل العلم على أنه إذا اجتمع عم، وابن أخ في مسألة فرضية فيقدم ابن الأخ؛ لقول النبي ﷺ: «**فما بقي فلأولى رجل ذكر**»[(١)]؛ والقرابة لهم حق؛ لأنهم من الأرحام؛ لكن الأقرب أولى من الأبعد؛ ويدخل في ﴿**الأقربين**﴾ الأولاد من بنين، وبنات ـ وإن نزلوا ـ.

قوله تعالى: ﴿**واليتامى**﴾ جمع يتيم؛ وهو مشتق من اليتم، والانفراد؛ والمراد به من مات أبوه ولم يبلغ؛ وإنما أوصى الله به في كثير من الآيات جبراً لما حصل له من الانكسار بموت الوالد مع صغره؛ فهذا إذا بلغ استقل بنفسه، فلم يكن يتيماً.

قوله تعالى: ﴿**والمساكين**﴾ جمع مسكين؛ وهو المعدم الذي ليس عنده مال؛ سمي كذلك؛ لأن الفقر قد أسكنه، وأذله؛ والمسكين هنا يدخل فيه الفقير؛ لأنه إذا ذكر المسكين وحده دخل فيه الفقير؛ وإذا ذكر الفقير وحده دخل فيه المسكين؛ وإذا اجتمعا صار الفقير أشد حاجة من المسكين؛ فيفترقان؛ وتجد في القرآن أن الفقير يأتي وحده، والمسكين يأتي وحده؛ والفقير، والمسكين يجتمعان؛ ففي قوله تعالى: ﴿**للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من**

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٦٣، كتاب الفرائض، باب ٩: ميراث الجد مع الأب والإخوة، حديث رقم ٦٧٣٧؛ وأخرجه مسلم ص٩٥٨، كتاب الفرائض، باب ١: ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر، حديث رقم ٤١٤١ [٢] ١٦١٥.

ديارهم وأموالهم﴾ [الحشر: ٨] يشمل المساكين؛ وفي قوله تعالى: **﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾** [النور: ٣٢] يشمل المساكين؛ وفي قوله تعالى: **﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين﴾** [المائدة: ٨٩] يدخل فيه الفقير؛ وكذلك هنا؛ وفي قوله تعالى: **﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾** [التوبة: ٦٠] ذكر الصنفين جميعاً.

قوله تعالى: **﴿وابن السبيل﴾** هو المسافر الذي انقطع به السفر؛ والسبيل هو الطريق؛ وسمي ابناً للسبيل؛ لأنه ملازم له ـ أي للسبيل ـ؛ وكل ما لازم شيئاً فهو ابن له، كما يقال: «ابن الماء» لطير الماء؛ لأنه ملازم له؛ وإنما ذكر الله ابن السبيل؛ لأنه غريب في مكانه: قد يحتاج ولا يُعلَم عن حاجته.

قوله تعالى: **﴿وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾** هذه الجملة شاملة لكل خير: هم سألوا ماذا ينفقون من أجل الخير؛ فعمم الله؛ والجملة شرطية: فعل الشرط فيها: **﴿تفعلوا﴾**؛ وجوابه جملة: **﴿فإن الله به عليم﴾**؛ والغرض منها بيان إحاطة الله علماً بكل ما يفعلونه من خير، فيجازيهم عليه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: حرص الصحابة رضي الله عنهم على السؤال عن العلم؛ وقد وقع سؤالهم لرسول الله ﷺ في القرآن أكثر من اثنتي عشرة مرة.

٢ ـ **ومنها**: أن من حسن الإجابة أن يزيد المسؤول على ما يقتضيه السؤال إذا دعت الحاجة إليه؛ فإنهم سألوا عما ينفقون، وكان الجواب عما ينفقون، وفيما ينفقون؛ ونظير ذلك أن النبي ﷺ

سئل عن الوضوء بماء البحر فقال: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**»[(١)].

٣ ـ **ومنها**: فضل الإنفاق على الوالدين، والأقربين؛ وأنه مقدم على الفقراء، والمساكين؛ لأن الله بدأ بهم؛ ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم.

٤ ـ **ومنها**: أن لليتامى حقاً في الإنفاق ـ ولو كانوا أغنياء ـ؛ لأنه خصهم بالذكر، ثم ذكر بعدهم المساكين؛ فإن كانوا يتامى، ومساكين اجتمع فيهم استحقاقان: اليتم، والمسكنة؛ وإذا كانوا أقارب، ويتامى، ومساكين اجتمع فيهم ثلاثة استحقاقات؛ وإذا كانوا مع ذلك أبناء سبيل اجتمع فيهم أربعة استحقاقات.

٥ ـ **ومنها**: عموم علم الله؛ لقوله تعالى: ﴿**وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن كل فعل خير سواء كان إنفاقاً مالياً، أو عملاً بدنياً، أو تعليم علم، أو جهاداً في سبيل الله، أو غير ذلك فإن الله سبحانه وتعالى يعلمه، وسيجازي عليه؛ لأن ﴿**من خير**﴾ نكرة في سياق الشرط؛ فتكون للعموم.

٧ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان ألا يحقر من المعروف شيئاً؛

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٦١، حديث رقم ٨٧٢١، وأخرجه أبو داود ص١٢٢٨، كتاب الطهارة، باب ٤١، الوضوء بماء البحر، حديث رقم ٨٣، وأخرجه الترمذي ص١٦٣٨، كتاب الطهارة، باب ٥٢: ما جاء في ماء البحر أنه طهور، حديث رقم ٦٩، وأخرجه النسائي ص٢١٠٨، كتاب المياه، باب ٤: الوضوء بماء البحر، حديث رقم ٣٣٣، وأخرجه ابن ماجه ص٢٥٠٠، كتاب الطهارة وسننها، باب ٣٨: الوضوء بماء البحر، حديث رقم ٣٨٦؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: صحيح ١/ ٣٣.

لقوله تعالى: ﴿وما تفعلوا من خير﴾؛ ويقول النبي ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**»[(١)].

مسألة:

هل يعطى ابن السبيل إذا سأل، أو يعطى وإن لم يسأل؟ هذا على أوجه:

١ ـ أن تعلم أنه لا يحتاج، كما لو كان غنياً تعرف أنه غني، ومر بالبلد عابراً؛ فهذا لا حاجة إلى أن تعطيه؛ حتى لو أعطيته لرأى في ذلك نقيصة له.

٢ ـ أن يغلب على ظنك أنه محتاج؛ ولكنه متعفف يستحيي أن يسأل؛ فالأولى إعطاؤه ـ وإن لم يسأل ـ؛ بل قد يجب.

٣ ـ أن تشك في أمره هل يحتاج أم لا؛ فأعرض عليه الإيتاء؛ ثم اعمل بما يقتضيه الحال.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

التفسير:

﴿٢١٦﴾ قوله تعالى: ﴿كتب عليكم القتال﴾ أي فرض؛ فـ«**الكتْب**» هنا بمعنى الفرْض، كما في قوله تعالى: ﴿**كتب عليكم**

(١) سبق تخريجه ١/ ٣٦٥.

الصيام﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقوله تعالى: **﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾** [النساء: ١٠٣].

وقوله تعالى: **﴿القتال﴾** أي قتال أعداء الله الكفار؛ و**﴿القتال﴾** مصدر قاتل.

قوله تعالى: **﴿وهو كره لكم﴾**؛ **﴿كره﴾** مصدر بمعنى اسم المفعول ـ يعني: وهو مكروه لكم ـ؛ والمصدر بمعنى اسم المفعول يأتي كثيراً، مثل: **﴿وإن كن أولات حمل﴾** [الطلاق: ٦] يعني: محمول؛ وقول الرسول ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[1]، أي مردود.

وجملة: **﴿وهو كره لكم﴾** في محل نصب على الحال؛ والضمير **﴿هو﴾** يعود على القتال؛ وليس يعود على الكتابة؛ فإن المسلمين لا يكرهون ما فرضه الله عليهم؛ وإنما يكرهون القتال بمقتضى الطبيعة البشرية؛ وفرق بين أن يقال: إننا نكره ما فرض الله من القتال؛ وبين أن يقال: إننا نكره القتال؛ فكراهة القتال أمر طبيعي؛ فإن الإنسان يكره أن يقاتل أحداً من الناس فيقتله؛ فيصبح مقتولاً؛ لكن إذا كان هذا القتال مفروضاً علينا صار محبوباً إلينا من وجهٍ، ومكروهاً لنا من وجهٍ آخر؛ فباعتبار أن الله فرضه علينا يكون محبوباً إلينا؛ ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يأتون إلى الرسول ﷺ يصرون أن يقاتلوا؛ وباعتبار أن النفس تنفر منه يكون مكروهاً إلينا.

قوله تعالى: **﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾**؛ **﴿عسى﴾** تأتي لأربعة معانٍ: للرجاء؛ والإشفاق؛ والتوقع؛

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٩١.

والتعليل؛ والظاهر أنها هنا للتوقع، أو للترجية ـ لا الترجي ـ؛ فإن الله عزّ وجلّ لا يتَرجى؛ كل شيء عنده هين؛ لكن الترجية بمعنى أنه يريد من المخاطَب أن يرجو هذا؛ أي افعلوا ما آمركم به عسى أن يكون خيراً؛ وهذا الذي ذكره الله هنا واقع حتى في الأمور غير التعبدية، أحياناً يفعل الإنسان شيئاً من الأمور العادية، ويقول: ليتني لم أفعل، أو ليت هذا لم يحصل؛ فإذا العاقبة تكون حميدة؛ فحينئذ يكون كره شيئاً وهو خير له؛ القتال كره لنا ولكن عاقبته خير؛ لأن المقاتل في سبيل الله حاله كما قال عزّ وجلّ آمراً نبيه أن يقول: **﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾** [التوبة: ٥٢] ـ يعني: لا بد من إحدى حسنيين ـ: وهما إما النصر، والظفر؛ وإما الشهادة.

قوله تعالى: **﴿وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾**؛ وذلك أيضاً كثيراً ما يقع: يحب الإنسان شيئاً، ويلح فيه، ثم تكون العاقبة سيئة؛ والإنسان بمثل هذه الآية الكريمة يسلي نفسه في كل ما يفوته مما يحبه، ويصبر نفسه في كل ما يناله مما يكرهه.

قوله تعالى: **﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾**: هذه الجملة كالتعليل لقوله تعالى: **﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾**؛ كأنه قال: إنكم لا تعلمون الخير، والشر فيما قدِّر لكم؛ ولكن الله يعلم ذلك.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: فرضية الجهاد؛ لقوله تعالى: **﴿كتب عليكم القتال﴾**؛ لكن لابد من شروط؛ منها القدرة على قتال العدو بحيث يكون لدى المجاهدين قدرة بشرية، ومالية، وعتادية؛

ومنها أن يكونوا تحت راية إمام يجاهدون بأمره.

٢ ـ **ومنها**: أنه لا حرج على الإنسان إذا كره ما كتب عليه؛ لا كراهته من حيث أمَر الشارع به؛ ولكن كراهته من حيث الطبيعة؛ أما من حيث أمر الشارع به فالواجب الرضا، وانشراح الصدر به.

٣ ـ **ومنها**: أن البشر لا يعلمون الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿**وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن الله قد يحكم حكماً شرعياً، أو كونياً على العبد بما يكره وهو خير له.

٥ ـ **ومنها**: عموم علم الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**والله يعلم**﴾؛ فحذف المفعول يفيد العموم، كما قال تعالى: ﴿**ألم يجدك يتيماً فآوى * ووجدك ضالًّا فهدى * ووجدك عائلًا فأغنى**﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨]: كلها محذوفة المفاعيل: آواك، وآوى بك أيضاً؛ وأغناك، وأغنى بك؛ وهداك، وهدى بك، كما قال النبي ﷺ للأنصار: «**ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؛ وعالة فأغناكم الله بي**»(١).

٦ ـ **ومنها**: ضعف الإنسان، وأن الأصل فيه عدم العلم؛ لقوله تعالى: ﴿**وأنتم لا تعلمون**﴾، كما قال تعالى: ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً**﴾ [النحل: ٧٨]، وقال ممتناً على رسوله ﷺ: ﴿**وعلَّمك ما لم تكن تعلم**﴾ [النساء: ١١٣].

❁ ❁ ❁

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٤٢٧، حاشية رقم (١).

القرآن

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾.

التفسير:

﴿٢١٧﴾ قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾ أي يسألك الناس عن الشهر الحرام؛ والمراد به الجنس؛ فيشمل كل الأشهر الحرم؛ وهي أربعة: ذو القعدة؛ وذو الحجة؛ ومحرم؛ ورجب؛ و ﴿قتال فيه﴾ بدل اشتمال؛ فيكون السؤال عن القتال فيه.

قوله تعالى: ﴿قل﴾ يعني في جوابهم ﴿قتال فيه كبير﴾ أي في الشهر الحرام.

قوله تعالى: ﴿وصد عن سبيل الله﴾: جملة استئنافية لبيان أن ما فعله هؤلاء الكفار من الصد عن سبيل الله، والكفر به، والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه أكبر عند الله؛ فهذه أربعة أشياء يفعلها المشركون الذين اعترضوا على القتال في الشهر الحرام أعظم عند الله من القتال في الشهر الحرام؛ و﴿صد﴾ يجوز أن تكون من الفعل اللازم ـ أي صدهم أنفسَهم عن سبيل الله ـ؛ ويجوز أن تكون من المتعدي ـ أي صدهم غيرهم عن سبيل الله ـ؛ وكلا الأمرين حاصل من هؤلاء المشركين؛ والمراد بـ﴿سبيل الله﴾ طريقه الموصل إليه ـ أي شريعته ـ.

قوله تعالى: ﴿**وكفر به**﴾ أي بالله عزّ وجلّ؛ ﴿**والمسجد الحرام**﴾ بالجر: يحتمل أن تكون معطوفة على الضمير في قوله تعالى: ﴿**به**﴾؛ ويحتمل أن تكون معطوفة على قوله تعالى: ﴿**عن سبيل الله**﴾؛ فعلى الاحتمال الأول يكون المراد بالكفر بالمسجد الحرام: عدم احترامه، والقيامِ بتعظيمه؛ وعلى الاحتمال الثاني يكون المراد: وصد عن المسجد الحرام، كما قال تعالى: ﴿**هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله**﴾ [الفتح: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿**وإخراج أهله منه**﴾ يعني بـ﴿**أهله**﴾ النبي ﷺ، وأصحابه الذين هاجروا من مكة إلى المدينة بسبب إيذاء المشركين لهم، وتضييقهم عليهم حتى خرجوا بإذن الله عزّ وجلّ من مكة إلى المدينة.

قوله تعالى: ﴿**أكبر عند الله**﴾ أي أعظم إثماً، وجرماً من القتال في الشهر الحرام.

قوله تعالى: ﴿**والفتنة أكبر من القتل**﴾ يعني بـ﴿**الفتنة**﴾ الصد عن سبيل الله، ومنع المؤمنين، وإيذاؤهم؛ و«الفتنة» بمعنى: «إيذاء المؤمنين» قد جاءت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق**﴾ [البروج: ١٠].

قوله تعالى: ﴿**ولا يزالون يقاتلونكم...**﴾ إلخ، أي لا يزال هؤلاء الكفار يقاتلونكم ﴿**حتى يردوكم عن دينكم**﴾ أي يرجعوكم عنه إلى الكفر ﴿**إن استطاعوا**﴾ يعني: ولن يستطيعوا ذلك؛ ومثل هذه الجملة الشرطية تأتي لبيان العجز عن الشيء، كقوله تعالى:

﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا﴾ [الرحمٰن: ٣٣]؛ ومن المعلوم أنهم لن يستطيعوا أن ينفذوا من أقطار السموات والأرض.

قوله تعالى: **﴿ومن يرتدد منكم عن دينه﴾** أي من يرجع عن دين الإسلام إلى الكفر **﴿فيمت وهو كافر﴾** أي يموت على الكفر؛ فالجملة في قوله تعالى: **﴿وهو كافر﴾** في موضع نصب على الحال من فاعل **﴿يمت﴾**.

قوله تعالى: **﴿فأولئك﴾** أعاد اسم الإشارة بصيغة الجمع على اسم موصول صالح للمفرد، والجمع؛ لأن اسم الموصول العام يجوز عود الضمير، والإشارة إليه على وجه الإفراد باعتبار لفظه؛ وعلى وجه الجمع باعتبار معناه.

قوله تعالى: **﴿حبطت﴾** أي اضمحلت **﴿أعمالهم﴾** أي ما قدموه من عمل صالح في الدنيا والآخرة؛ فلا يستفيدون بأعمالهم شيئاً في الدنيا من قبول الحق، والانشراح به؛ ولا في الآخرة؛ لأن أعمالهم ضاعت عليهم بكفرهم.

قوله تعالى: **﴿وأولئك أصحاب النار﴾** أي أهلها الملازمون لها؛ **﴿هم فيها خالدون﴾**: كالتأكيد لقوله تعالى: **﴿أولئك أصحاب النار﴾**.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الرسول ﷺ هو مرجع الصحابة في العلم؛ لقوله تعالى: **﴿يسألونك﴾**.

٢ ـ **ومنها**: اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بما يقع منهم من المخالفة؛ وأنهم يندمون، ويسألون عن حالهم في هذه المخالفة؛ لقوله تعالى: **﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾**.

٣ ـ **ومنها**: أن الرسول ﷺ لا يعلم كل الأحكام؛ بل لا يعلم إلا ما علمه الله عزّ وجلّ؛ ولهذا أجاب الله عن هذا السؤال: ﴿**قل قتال فيه كبير...**﴾.

وينبني على هذه المسألة: هل للرسول ﷺ أن يجتهد، أو لا؟ والصواب أن له أن يجتهد؛ ثم إذا اجتهد فأقره الله صار اجتهاده بمنزلة الوحي.

٤ ـ **ومنها**: أن القتال في الشهر الحرام من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿**قل قتال فيه كبير**﴾؛ وهل هذا الحكم منسوخ، أو باق؟ للعلماء في ذلك قولان؛ فذهب أكثر أهل العلم إلى أن الحكم منسوخ؛ وأن القتال في الأشهر الحرم كان محرماً، ثم نسخ؛ **القول الثاني**: أن الحكم باقٍ، وأن القتال في الأشهر الحرم حرام؛ دليل من قال: «إنه منسوخ» قوله تعالى: ﴿**وقاتلوا المشركين كافة**﴾ [التوبة: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿**يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم**﴾ [التوبة: ٧٣]، وأن الرسول ﷺ قاتل ثقيفاً في شهر ذي القعدة[١]؛ وهو شهر حرام؛ وأن غزوة تبوك كانت في رجب[٢]؛ وهو شهر حرام؛ والذي يظهر لي أن القتال في الأشهر الحرم باقٍ على تحريمه؛ ويجاب عن أدلة القائلين بالنسخ بأن الآيات العامة كغيرها من النصوص العامة التي تخصص؛ فهي مخصصة بقوله تعالى: ﴿**قل قتال فيه كبير**﴾؛ وأما قتال الرسول ﷺ أجيب عنه بأنه ليس قتال ابتداء؛ وإنما هو قتال مدافعة؛ وقتال المدافعة لا بأس به حتى في الأشهر الحرم؛ إذا

---

(١) راجع: زاد المعاد ٣/ ٥٠٢.

(٢) راجع: زاد المعاد ٣/ ٥٢٦.

قاتلونا نقاتلهم؛ فثقيف كانوا تجمعوا لرسول الله فخرج إليهم الرسول ﷺ ليغزوهم؛ وكذلك الروم في غزوة تبوك تجمعوا له فخرج إليهم ليدافعهم؛ فالصواب في هذه المسألة أن الحكم باقٍ، وأنه لا يجوز ابتداء الكفار بالقتال في الأشهر الحرم؛ لكن إن اعتدوا علينا نقاتلهم حتى في الشهر الحرام.

٥ ـ **ومنها**: أن الأشهر قسمان: أشهر حرم؛ وأشهر غير حرم.

ويتفرع على هذه الفائدة: أن الله يختص من خلقه ما شاء؛ فهناك أماكن حرام، وأماكن غير حرام؛ وأزمنة حرام، وأزمنة غير حرام؛ وهناك رسل، وهناك مرسَل إليهم؛ وهناك صديقون، وهناك من دونهم؛ والله عزّ وجلّ كما يفاضل بين البشر يفاضل بين الأزمنة، والأمكنة.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الذنوب تنقسم إلى قسمين: صغائر، وكبائر؛ وكل منهما درجات؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**»[1]؛ وحدُّ الكبائر اختلف فيه أقوال الناس؛ فمنهم من قال: إن الكبائر معدودة؛ وذهب يتتبع كل نص قال فيه الرسول ﷺ: هذا من الكبائر؛ وعدّها سرداً؛ ومنهم من قال: إن الكبائر محدودة؛ يعني أن لها حداً ـ أي ضابطاً يجمعها ـ؛ ليست معينة: هذه، وهذه، وهذه؛ ثم اختلفوا في الضابط، فقال بعضهم: كل ذنب لعن فاعله فهو كبيرة؛ وقال بعضهم: كل ذنب

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٠٩، كتاب الشهادات، باب ١٠: ما قيل في شهادة الزور، حديث رقم ٢٦٥٤، وأخرجه مسلم ص٦٩٣، كتاب الإيمان، باب ٣٨: الكبائر وأكبرها، حديث رقم ٢٥٩ [١٤٣] ٨٧.

فيه حدّ في الدنيا فهو كبيرة؛ وقال بعضهم: كل ذنب فيه وعيد في الآخرة فهو كبيرة؛ لكن شيخ الإسلام رحمه الله قال في بعض كلام له: إن الكبيرة كل ما رتب عليه عقوبة خاصة سواء كانت لعنة؛ أو غضباً؛ أو حداً في الدنيا؛ أو نفي إيمان؛ أو تبرؤاً منه؛ أو غير ذلك؛ فالذنب إذا قيل: لا تفعل كذا؛ أو حرم عليك كذا؛ أو ما أشبه ذلك بدون أن يجعل عقوبة خاصة بهذا الذنب فهو صغيرة؛ أما إذا رتب عليه عقوبة ـ أيَّ عقوبة كانت ـ فإنه يكون من الكبائر ـ؛ فالغش مثلاً كبيرة؛ لأنه رتب عليه عقوبة خاصة ـ وهي البراءة منه، كما قال النبي ﷺ: «**من غش فليس مني**»[(١)]؛ كون الإنسان لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه كبيرة؛ لأنه رتب عليه عقوبة خاصة؛ وهي قوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[(٢)]؛ وكون الإنسان لا يكرم جاره كبيرة؛ لقوله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره**»[(٣)]؛ وعدوانه على جاره أكبر؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن،**

---

(١) أخرجه مسلم ص٦٩٥، كتاب الإيمان، باب ٤٣: قول النبي ﷺ من غشنا فليس منا، حديث رقم ٢٨٤ [١٦٤] ١٠٢.

(٢) أخرجه البخاري ص٣، كتاب الإيمان، باب ٧: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم ١٣، وأخرجه مسلم ص٦٨٨، باب ١٧: الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، حديث رقم ١٧٠ [٧١] ٤٥.

(٣) أخرجه البخاري ص٥٠٩، كتاب الأدب، باب ٣١: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، حديث رقم ٦٠١٩، وأخرجه مسلم ص٦٨٨، كتاب الإيمان، باب ١٩: الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير...، حديث رقم ١٧٣ [٧٤] ٤٧.

والله لا يؤمن، قالوا: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه»[١]؛ وهذا الضابط أقرب الضوابط في تعريف الكبيرة؛ ولكن مع هذا لا نقول: إن هذه الكبائر سواء؛ بل من الكبائر ما يقرب أن يكون من الصغائر على حسب ما رتب عليه من العقوبة؛ فقطاع الطريق مثلاً أعظم جرماً من اللصوص.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الصد عن سبيل الله أعظم من القتال في الأشهر الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿**وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله**﴾؛ ويحتمل أن مجموع هذه الأفعال الأربعة أكبر عند الله من القتال؛ لا أن كل واحد منها أكبر عند الله.

٨ ـ **ومنها**: أن أعظم الذنوب أن يصد الإنسان عن الحق؛ فكل من صد عن الخير فهو صاد عن سبيل الله؛ ولكن هذا الصد يختلف باختلاف ما صد عنه؛ من صد عن الإيمان فهو أعظم شيء ـ مثل مشركي قريش؛ ومن صد عن شيء أقل، كمن صد عن تطوع مثلاً فإنه أخف؛ ولكن لا شك أن هذا جرم؛ فالنهي عن المعروف من صفات المنافقين.

٩ ـ **ومنها**: عظم الصد عن المسجد الحرام؛ ولذلك صور متعددة؛ فقد يكون بمنع الناس من الحج؛ ولكن لو قال وليّ الأمر: أنا لا أمنعهم؛ ولكنني أنظمهم؛ لأن الناس يقتل بعضهم

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٠٩، كتاب الأدب، باب ١٢٩: إثم من لا يأمن جاره بوائقه، حديث رقم ٦٠١٦، واللفظ له، وأخرجه مسلم بطريق أخرى ص٦٨٨، كتاب الإيمان باب ١٨: بيان تحريم إيذاء الجار، حديث رقم ١٧٢ [٧٣] ٤٦.

بعضاً لو اجتمعوا جميعاً؛ فهل نقول: إن هذا من باب السياسة الجائزة، كمنع الرسول ﷺ من لا يصلح للجهاد من الجهاد[(١)]؟ أو نقول: إن في هذا نظراً؟ هذه المسألة تحتاج إلى نظر بعيد؛ وهل مراعاة المصالح بالنسبة للعموم تقضي على مراعاة المصالح بالنسبة للخصوص؛ أو لا؟.

وقد يكون الصد بإلهائهم، وإشغالهم عن فعل العبادات؛ وقد يكون بتحقير العبادات في أنفسهم؛ وقد يكون بإلقاء الشبهات في قلوب الناس حتى يشكوا في دينهم، ويدَعوه.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: تقديم ما يفيد العليّة؛ لقوله تعالى: ﴿**عن الشهر الحرام قتال فيه**﴾؛ المسؤول عنه القتال في الشهر الحرام؛ لكنه قدم الشهر الحرام؛ لأنه العلة في تحريم القتال؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**ويسألونك عن المحيض قل هو أذًى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن**﴾ [البقرة: ٢٢٢]؛ فقدم العلة على الحكم لتنفر النفوس من الفعل قبل الحكم به؛ فيقع الحكم وقد تهيأت النفوس للاستعداد له، وقبوله.

١١ ـ **ومن فوائد الآية**: تفاوت الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿**قل قتال فيه كبير**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**أكبر عند الله**﴾؛ وبتفاوت الذنوب يتفاوت الإيمان؛ لأنه كلما كان الذنب أعظم كان نقص الإيمان به أكبر، كما قال النبي ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني**

---

(١) راجع البخاري ص٢١١، كتاب الشهادات، باب ١٨: بلوغ الصبيان وشهادتهم، حديث رقم ٢٦٦٤، وأخرجه مسلم ص١٠١٣، كتاب الإمارة، باب ٢٣: بيان سن البلوغ، حديث رقم ٤٨٣٧ [٩١] ١٨٦٨.

وهو مؤمن»[١]؛ فيكون في ذلك رد على من أنكروا زيادة الإيمان، ونقصانه؛ وللناس في ذلك ثلاثة أقوال؛ منهم من قال: إن الإيمان يزيد، وينقص؛ ومنهم من قال: إن الإيمان لا يزيد، ولا ينقص؛ ومنهم من قال: إن الإيمان يزيد، ولا ينقص؛ وبحث ذلك على وجه التفصيل، والترجيح في كتب العقائد؛ والراجح أن الإيمان يزيد، وينقص.

١٢ ـ **ومن فوائد الآية**: تسلية الله عزّ وجلّ للمؤمنين بما جرى من الكافرين مقابل فعل المؤمنين، حيث قاتلوا في الشهر الحرام.

١٣ ـ **ومنها**: أن من كان أقوم بطاعة الله فهو أحق الناس بالمسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿**وإخراج أهله منه**﴾؛ فمع أن المشركين ساكنون في مكة؛ لكنهم ليسوا أهله، كما قال تعالى: ﴿**وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون**﴾ [الأنفال: ٣٤].

١٤ ـ **ومنها**: التحذير من الفتنة؛ لقوله تعالى: ﴿**والفتنة أكبر من القتل**﴾.

١٥ ـ **ومنها**: أن الفتنة ـ وهي صد الناس عن دينهم ـ أكبر من قتلهم؛ لأن غاية ما في قتلهم أن تفوتهم الحياة الدنيا؛ أما صدهم عن الإيمان لو صدوا عنه لفاتتهم الدنيا والآخرة؛ وكثير من الناس يأتون إلى مواضع الفتن وهم يرون أنهم لن يفتتنوا؛ ولكن لا يزال بهم الأمر حتى يقعوا في فتنة؛ ولهذا قال

---

(١) أخرجه البخاري ص١٩٥، كتاب المظالم والغصب، باب ٣٠: النهي بغير إذن صاحبه، حديث رقم ٢٤٧٥، وأخرجه مسلم ص٦٩٠، باب ٢٤: بيان نقصان الإيمان بالمعاصي...، حديث رقم ١٠٢ [١٠٠] ٥٧.

النبي ﷺ في الدجال: «**من سمع بالدجال فلينأ عنه فإن الرجل يأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فلا يزال به لما معه من الشبه حتى يتبعه**»[1]؛ المهم أن الإنسان لا يعرض نفسه للفتن؛ فكم من إنسان وقع في مواقع الفتن وهو يرى نفسه أنه سيتخلص، ثم لا يتخلص.

١٦ ـ **ومن فوائد الآية**: حرص المشركين على ارتداد المؤمنين بكل وسيلة ولو أدى ذلك إلى القتال؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا**﴾؛ ولهذا كان الغزو الفكري، والغزو الأخلاقي أعظم من الغزو السلاحي؛ لأن هذا يدخل على الأمة من حيث لا تشعر؛ وأما ذاك فصدام مسلح ينفر الناس منه بالطبيعة؛ فلا يمكنون أحداً أن يقاتلهم؛ أما هذا فسلاح فتاك يفتك بالأمة من حيث لا تشعر؛ فانظر كيف أفسد الغزو الفكري والخلقي على الأمة الإسلامية أمور دينها، ودنياها؛ ومن تأمل التاريخ تبين له حقيقة الحال.

١٧ ـ **ومن فوائد الآية**: تيئيس الكافرين أن يردوا المؤمنين كلهم عن الدين؛ لقوله تعالى: ﴿**إن استطاعوا**﴾؛ ولكن لن يستطيعوا حتى يأتي أمر الله، ويكون في آخر الزمان، فتهب ريح تقبض نفس كل مؤمن حتى لا يبقى إلا شرار الخلق.

١٨ ـ **ومنها**: الحذر من الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا**

---

(١) أخرجه أحمد ج٤/ ٤٣١، حديث رقم ٢٠١١٦، وأخرجه أبو داود ص١٥٣٧، كتاب الملاحم، باب ١٤: خروج الدجال، حديث رقم ٤٣١٩، واللفظ لأحمد، وقال الألباني في صحيح أبي داود: صحيح ٣/ ٣٠.

يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم﴾؛ وكلمة: **﴿لا يزالون﴾** تفيد الاستمرار، وأنه ليس في وقت دون وقت، وأن محاولتهم ارتداد المسلمين عن دينهم مستمرة.

١٩ ـ **ومنها**: أن الردة مبطلة للأعمال إذا مات عليها؛ لقوله تعالى: **﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم﴾**.

٢٠ ـ **ومنها**: أن من ارتد عن دينه، ثم عاد إليه لم يبطل عمله السابق؛ لقوله تعالى: **﴿فيمت وهو كافر﴾**.

٢١ ـ **ومنها**: أن المرتد مخلد في النار؛ لقوله تعالى: **﴿أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**.

٢٢ ـ **ومنها**: أن المرتد لا يعامل في الدنيا بأحكام المؤمنين؛ لقوله تعالى: **﴿فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾**؛ فلا يغسل، ولا يكفن، ولا يصلى عليه، ولا يدفن مع المسلمين، ولا يرث؛ وأما أن يورث فقد اختار شيخ الإسلام أنه يرثه أقاربه المسلمون؛ ولكن الصحيح أنه لا توارث؛ لعموم قوله ﷺ في حديث أسامة: «**لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم**»[1].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري ص٥٦٥، كتاب الفرائض، باب ٢٦: لا يرث المسلم الكافر...، حديث رقم ٦٧٦٤؛ وأخرجه مسلم ص٩٥٨، كتاب الفرائض، باب ٢٣: لا يرث المسلم الكافر...، حديث رقم ٤١٤٠ [١] ١٦١٤.

القرآن

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾.

التفسير:

﴿٢١٨﴾ قوله تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا**﴾؛ «الإيمان» في اللغة التصديق: قال تعالى عن إخوة يوسف قائلين لأبيهم: ﴿**وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين**﴾ [البقرة: ١٧]؛ وأما في الشرع فهو التصديق المستلزم للقبول والإذعان.

قوله تعالى: ﴿**والذين هاجروا**﴾ معطوفة على ما سبق من باب عطف الصفات، كقوله تعالى: ﴿**سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى * والذي أخرج المرعى**﴾ [الأعلى: ١ ـ ٤]؛ فهذه المعطوفات من باب عطف الصفات؛ لأن الموصوف بها واحد؛ و«الهجر» في اللغة الترك؛ ومنه: «هجرت فلاناً» إذا لم تكلمه؛ وفي الشرع له معنيان: عام، وخاص؛ فأما العام فهو هجر ما حرم الله عزّ وجلّ، كما قال النبي ﷺ: «**المهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»(١)؛ وأما الخاص فهو أن يهجر الإنسان بلده ووطنه لله ورسوله، بأن يكون هذا البلد بلد كفر لا يقيم فيه الإنسان دينه؛ فيهاجر من أجل إقامة دين الله، وحماية نفسة من الزيغ، كما جاء في الحديث صحيح: «**من كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(٢)؛

---

(١) أخرجه البخاري ص٣، كتاب الإيمان، باب ٤: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، حديث رقم ١٠.

(٢) أخرجه البخاري ص١، كتاب الوحي، باب ١: كيف كان بدء =

والمراد بالهجرة في الآية ما يشمل المعنيين: العام، والخاص.

قوله تعالى: ﴿**وجاهدوا في سبيل الله**﴾ معطوفة على الصلة في ﴿**الذين هاجروا**﴾؛ ولم يعد الموصول؛ لأن الهجرة والجهاد عملان مبنيان على الإيمان؛ و«**الجهاد في سبيل الله**» هو قتال الكفار لتكون كلمة الله هي العليا؛ و«**الجهاد**» هو بَذْلُكَ الجهد لأمر مطلوب؛ والجهد معناه الطاقة، كما قال تعالى: ﴿**والذين لا يجدون إلا جهدهم**﴾ [التوبة: ٧٩] يعني إلا طاقتهم؛ وهو يغلب على بذل الجهد في قتال الأعداء؛ وإلا فكل أمر شاق تبذل فيه الطاقة فإنه جهاد؛ ولهذا كان جهاد النفس يسمى جهاداً؛ ولكن لا صحة للحديث الذي يذكر عن النبي ﷺ أنه لما رجع من تبوك قال: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**»[(١)] يعني: جهاد النفس؛ ولكن لا شك أن النفس تحتاج إلى مجاهدة لحملها على فعل الطاعة، وترك المعصية.

قوله تعالى: ﴿**أولئك يرجون رحمة الله**﴾؛ هذه الجملة خبر ﴿**إن**﴾ في أول الآية؛ واسمها ﴿**الذين**﴾؛ وجملة: ﴿**أولئك يرجون رحمة الله**﴾ الخبر؛ وهي جملة؛ لأن «**أولاء**» مبتدأ؛ و﴿**يرجون**﴾ جملة خبر المبتدأ الثاني؛ والجملة من المبتدأ الثاني، والخبر خبر ﴿**إن**﴾؛ والإشارة بمبتدأ جديد تدل على رفعة مقامهم؛ ولا سيما وقد أتى باسم الإشارة؛ وتصدير خبر ﴿**إن**﴾ باسم الإشارة للبعيد يدل على علو همتهم؛ فيكون في ذلك تنويه بذكرهم من وجهين:

= الوحي...، حديث رقم ١، وأخرجه مسلم ص١٠١٩، كتاب الإمارة، باب ٤٥: قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»، حديث رقم ٤٩٢٧ [١٥٥] ١٩٠٧.

(١) انظر: الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ص١٢٧.

أولاً: الإشارة إليهم بما يدل على الرفعة والعلو.

ثانياً: أن تعدد المبتدأ يجعل الجملة الواحدة كالجملتين؛ فيكون في ذلك توكيد على توكيد.

و«**الرجاء**» الطمع في حصول ما هو قريب؛ ومعلوم أن الطمع بما هو قريب لا يكون قريباً إلا بفعل ما يكون قريباً به؛ وهؤلاء فعلوا ما تكون الرحمة قريبة منهم؛ والذي فعلوه: الإيمان، والهجرة، والجهاد؛ فإذا لم يرْجُ هؤلاء رحمة الله فمن الذي يرجوها؟!! فهؤلاء هم أهل الرجاء؛ فالرجاء لا بد له من أسباب؛ وحسن الظن لا بد له من أسباب.

والمراد بالرحمة هنا يحتمل أن تكون الرحمة التي هي صفته ـ أي أن يرحمهم ـ؛ ويحتمل أن يكون المراد ما كان من آثار رحمته؛ وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى قال للجنة: «**أنت رحمتي أرحم بك من أشاء**»[1]؛ فجعل المخلوق رحمة له؛ لأنه من آثار رحمة الله؛ ولهذا قال: «**أرحم بك**»؛ أما الرحمة التي هي وصفه فهي شيء آخر؛ فالآية محتملة للمعنيين؛ وكلاهما متلازمان؛ لأن الله إذا رحم عبداً أدخله الجنة التي هي رحمته.

قوله تعالى: ﴿**والله غفور رحيم**﴾؛ قد يقول قائل: ما محل ذكر اسم الله «**الغفور**» هنا مع أن هؤلاء قاموا بأعمال صالحة؟

---

(١) أخرجه البخاري ص٤١٤، كتاب التفسير، باب ١: قوله تعالى: ﴿**وتقول هل من مزيد**﴾، حديث رقم ٤٨٥٠، وأخرجه مسلم ص١١٧٢، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ١٣: النار يدخلها الجبارون...، حديث رقم ٧١٧٢ [٣٤] ٢٨٤٦.

الجواب أن القائم بالأعمال الصالحة قد يحصل منه شيء من التفريط، والتقصير؛ ولذلك شرع للمصلي أن يستغفر الله ثلاثاً بعد السلام؛ وأما ذكر «**الرحيم**» فواضح مناسبته؛ لأن كل هذه الأعمال التي عملوها من آثار رحمته؛ وسبق الكلام على هذين الاسمين الكريمين.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: فضيلة الإيمان، والهجرة؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هاجروا**﴾ الآية.

٢ ـ **ومنها**: أن الجهاد دون مرتبة الهجرة؛ لأنه جعل الجهاد معطوفاً على الهجرة؛ ولم يجعل له اسماً موصولاً مستقلاً.

٣ ـ **ومنها**: مراعاة الإخلاص في الهجرة، والجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿**في سبيل الله**﴾؛ وأما بدون الإخلاص فهجرته إلى ما هاجر إليه؛ واعلم أنه يقال: في كذا؛ ولكذا؛ وبكذا؛ تقول مثلاً: جاهدت لله؛ وجاهدت بالله؛ وجاهدت في الله؛ فـ«لله»: اللام لبيان القصد؛ فتدل على الإخلاص؛ و«بالله»: الباء للاستعانة؛ فتدل على أنك جاهدت مستعيناً بالله؛ و«في الله»: «في» للظرفية؛ فتدل على أن ذلك الجهاد على وفق شرع الله ـ لم يتعد فيه الحدود ـ.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه لا ينبغي للإنسان أن يكون جازماً بقبول عمله؛ بل يكون راجياً؛ ولكنه يرجو رجاءً يصل به إلى حسن الظن بالله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**أولئك يرجون رحمة الله**﴾؛ لأنهم لا يغترون بأعمالهم؛ ولا يُدْلُون بها على الله؛ وإنما يفعلونها وهم راجون رحمة الله.

٥ ـ **ومنها**: إثبات اسمي «**الغفور**»، و«**الرحيم**» لله عزّ وجلّ؛ وإثبات ما دلَّا عليه من المغفرة والرحمة؛ وما يترتب على ذلك من غفران الذنوب والرحمة؛ فبالمغفرة يزول المكروه من آثار الذنوب؛ وبالرحمة يحصل المطلوب.

٦ ـ **ومنها**: كمال رحمة الله بالخلق؛ فلله على العامل عملاً صالحاً ثلاث نعم عظيمة:

الأولى: أنه بيّن له العمل الصالح من العمل غير الصالح؛ وذلك بما أنزله من الوحي على رسله؛ بل هي أعظم النعم.

الثانية: توفيقه لهذا العمل الصالح؛ لأن الله قد أضل أمماً عن العمل الصالح.

الثالثة: ثوابه على هذا العمل الصالح ثواباً مضاعفاً: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وهذا مما يدل على كمال رحمة الله بالخلق: أنه ينعم، ثم يشكر المنعمَ عليه، كما قال تعالى: ﴿**إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً**﴾ [الإنسان: ٢٢].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾.

التفسير:

﴿٢١٩﴾ قوله تعالى: **﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾** أي يسألك الناس، أو الصحابة رضي الله عنهم، وسبب سؤالهم هو أن الإنسان العاقل إذا رأى ما يترتب على الخمر، والميسر من المضار التي تخالف الفطرة فلا بد أن يكون عنده إشكال في ذلك؛ ولهذا سألوا النبي ﷺ عن حكمهما ـ لا عن معناهما ـ؛ لأن المعنى معلوم.

والسؤال إذا كان بمعنى طلب مال فإنه ينصب مفعولين؛ وإذا كان سؤال استفهام فإنه ينصب المفعول الأول، ويتعدى للثاني بـ«عن» كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: **﴿يسألونك عن المحيض﴾** [البقرة: ٢٢٢]، وقوله تعالى: **﴿يسألونك عن الساعة﴾** [الأعراف: ١٨٧]؛ وربما يُستغنى عن الثاني بجملة استفهامية، كما في السؤال بعده؛ والفرق بين الصيغتين ـ تعديه إلى جملة استفهامية، وتعديه إلى المفعول الثاني بحرف الجر ـ أنه إذا عدّي إلى الثاني بصيغة الاستفهام صارت هذه الصيغة نفس لفظ السائل بعينها؛ وإذا تعدى بـ«عن» فقد تكون هي لفظ السائل بعينه، وقد تكون غير ذلك.

والمراد بالخمر كل ما أسكر على وجه اللذة، والطرب.

وقد أنزل الله في الخمر أربع آيات: آية تبيحه ـ وهي قوله تعالى: **﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً﴾** [النحل: ٦٧] ـ؛ وآية تعرض بالتحريم ـ وهي هذه الآية ـ؛ وآية تمنعه في وقت دون آخر ـ وهي قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾** [النساء: ٤٣] ـ؛ وآية تمنعه

دائماً مطلقاً ـ وهي آية المائدة التي نزلت في السنة الثامنة من الهجرة ـ؛ وهي قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر**...﴾ [المائدة: ٩٠] الآيات.

وقوله تعالى: ﴿**والميسر**﴾ المراد به القمار؛ وهو كل كسب عن طريق المخاطرة، والمغالبة؛ وضابطه: أن يكون فيه بين غانم، وغارم.

قوله تعالى: ﴿**قل**﴾ أي لمن سأل عن الخمر، والميسر؛ ﴿**فيهما**﴾ خبر مقدم؛ والضمير عائد على الخمر، والميسر؛ ﴿**إثم**﴾ أي عقوبة؛ أو كان سبباً للعقوبة، كما قال تعالى: ﴿**ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾؛ ويقال: «فلان آثم» أي مستحق للعقوبة.

وفي قوله تعالى: ﴿**كبير**﴾ قراءة: ﴿**كثير**﴾؛ والفرق بينهما أن الكبر تعود إلى الكيفية؛ والكثرة تعود إلى الكمية؛ والمعنى أن فيهما إثماً كثيراً بحسب ما يتعامل بهما الإنسان؛ والإنسان المبتلى بذلك لا يكاد يقلع عنه؛ وهذا يستلزم تعدد الفعل منه؛ وتعدد الفعل يستلزم كثرة الإثم؛ أيضاً الإثم فيهما كبير ـ أي عظيم ـ؛ لأنهما يتضمنان مفاسد كثيرة في العقل، والبدن، والاجتماع، والسلوك؛ وقد ذكر محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ في هذا المكان أضراراً كثيرة جداً؛ من قرأ هذه الأضرار عرف كيف عبر الله عن ذلك بقوله تعالى: ﴿**إثم كبير**﴾، أو ﴿**إثم كثير**﴾؛ وهاتان القراءتان لا تتنافيان؛ لأنهما جمعتا وصفين مختلفين جهة؛ فيكون الإثم كثيراً باعتبار آحاده؛ كبيراً باعتبار كيفيته.

قوله تعالى: ﴿ومنافع للناس﴾؛ جمع منفعة؛ وهي من صيغة منتهى الجموع التي تدل على الكثرة؛ ففيهما منافع كثيرة عظيمة؛ فإن قلت: كيف قال الله عزّ وجلّ: ﴿منافع للناس﴾ بهذا الجمع الكثير؟ أليس هذا مما يستلزم أن يُقبل الناس عليهما؛ لأن الإثم ذكره مفرداً ـ وإن كان قد وصف بالكبر، أو بالكثرة ـ؛ لكن المنافع ذكرت بالجمع؟

فالجواب: أن يقال: إنه مع كثرة منافعهما فإن إثمهما أكبر، وأعظم؛ لأنه لو كانت منفعة واحدة لم يستغرب كون الإثم أكبر؛ لكن حتى وإن تعددت المنافع، وكثرت فإن الإثم أكبر، وأعظم؛ وتأمل قوله تعالى: ﴿منافع للناس﴾؛ لأنها منافع مادية بحتة تصلح للناس من حيث هم أناس؛ وليست منافع ذات خير ينتفع بها المؤمنون.

قوله تعالى: ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ يعني: ما يترتب عليهما من العقوبة أكبر من نفعهما؛ لأن العقوبة في الآخرة؛ وأما النفع ففي الدنيا؛ وعذاب الآخرة أشق، وأبقى.

قوله تعالى: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون﴾؛ هذا هو السؤال الثاني في الآية ـ أي أيّ شيء ينفقونه ـ؛ وفي إعرابها وجهان؛ الأول: أن ﴿ماذا﴾ مفعول مقدم لـ﴿ينفقون﴾؛ وعلى هذا فلا يحتاج إلى تقدير ضمير المفعول في: ﴿ينفقون﴾؛ والثاني: أن «ما» اسم استفهام مبتدأ، و«ذا» اسم موصول بمعنى «الذي» خبر؛ وجملة: ﴿ينفقون﴾ صلة الموصول؛ والعائد محذوف؛ والتقدير: ماذا ينفقونه.

قوله تعالى: ﴿قل العفو﴾ فيها قراءتان: النصب، والرفع؛

فالرفع على تقدير «ما» اسمَ استفهام مبتدأ؛ و«ذا» اسمَ موصول خبراً؛ فيكون ﴿العفو﴾ خبراً لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: هو العفو؛ وأما النصب فعلى تقدير ﴿ماذا﴾ مفعولاً مقدماً؛ و﴿العفو﴾ منصوب بفعل محذوف؛ والتقدير: أنفقوا العفوَ؛ وإنما قلنا: الرفع، والنصب مبني على إعراب الجملة التي قبلها؛ لأن الجواب مبني على السؤال؛ فهنا كلمة: «ما» هذه ـ الموصولية، أو الاستفهامية ـ هي التي فُسِّرت بكلمة: ﴿العفو﴾؛ فإذا كانت تفسيراً لها كان لها حكمها في الإعراب؛ إن نصبت ﴿ماذا﴾ فانصِب ﴿العفو﴾؛ وإن رفعت ﴿ماذا﴾ فارفع ﴿العفو﴾.

قوله تعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾؛ المشار إليه ما سبق من بيان حكم الخمر، والميسر، وبيان ما ينفق؛ أي: مثلَ ذلك البيان يبين الله؛ و«البيان» بمعنى الإظهار؛ يقال: بينته، فتبين ـ أي ظهر ـ؛ و﴿الآيات﴾ جمع آية؛ وهي العلامة المعينة لمعلومها؛ والمعنى: أن الله يبين لعباده الأحكام الشرعية بياناً واضحاً.

قوله تعالى: ﴿لعلكم تتفكرون﴾؛ «التفكر» إعمال الفكر للوصول إلى الغاية؛ و«لعل» للتعليل؛ واسمها: الكاف؛ وخبرها: جملة: ﴿تتفكرون﴾.

﴿٢٢٠﴾ قوله تعالى: ﴿في الدنيا والآخرة﴾ متعلق بـ﴿تتفكرون﴾ أي في شؤونهما، وأحوالهما.

قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن اليتامى﴾ معطوفة بالواو، كأنها أسئلة متتابعة؛ سألوا أولاً عن الخمر، والميسر؛ ثم سألوا ماذا ينفقون؛ وجه الارتباط بين السؤالين واضح جداً؛ لأن في الخمر،

والميسر إتلاف المال بدون فائدة؛ وفي الإنفاق بذل المال بفائدة؛ ثم قال تعالى: ﴿**ويسألونك عن اليتامى**﴾؛ ووجه ارتباط السؤال الثالث بالسؤالين قبله أن الله عزّ وجلّ لما أنزل قوله تعالى: ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً**﴾ [النساء: ١٠]، وقولَه تعالى: ﴿**ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن**﴾ [الأنعام: ١٥٢] أشكل على الصحابة رضي الله عنهم، فصاروا يجعلون طعامهم على حدة، وطعام اليتامى على حدة؛ ثم ما جعلوه لليتامى إما أن يفسد، ولا يصلح للأكل؛ وإما أن يصلح للأكل، ولكن ليس على الوجه الأكمل؛ فتحرجوا من ذلك، وأشكل عليهم فيما لو خلطوا طعامهم بطعام اليتامى؛ فأجابهم الله عزّ وجلّ بجواب في غاية ما يكون من البلاغة، والاختصار، والوضوح؛ فقال تعالى: ﴿**قل إصلاح لهم خير**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**اليتامى**﴾ جمع يتيم؛ وهو الذي مات أبوه ولم يبلغ؛ مشتق من اليتم ـ وهو الانفراد ـ؛ واليتيم بما أن أباه قد توفي يحتاج إلى عناية، ورعاية أكثر؛ ولهذا جاء في القرآن الكريم الوصاية به كثيراً.

قوله تعالى: ﴿**قل إصلاح لهم خير**﴾؛ وكلمة: ﴿**إصلاح**﴾ تعني أن الإنسان يتبع ما هو أصلح لهم في جميع الشؤون سواء كان ذلك في التربية، أو في المال؛ وسواء كان ذلك بالإيجاب، أو السلب؛ فأيّ شيء يكون إصلاحاً لهم فهو خير؛ وحذف المفضل عليه للعموم، كقوله تعالى: ﴿**وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير**﴾ [النساء: ١٢٨]؛ هذه الجملة في شمولها، وعمومها، ووضوحها كالجملة الأولى.

قوله تعالى: ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾؛ هذه الجملة الثانية مما تتضمنه الجواب؛ لأن الجواب تضمن جملتين؛ إحداهما: ﴿قل إصلاح لهم خير﴾؛ والثانية: ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾؛ يعني: وإن خالطتموهم في الأكل، والشرب، وجعلتم طعامهم مع طعامكم فإنهم ليسوا أجانب منكم؛ بل هم إخوانكم في الدين؛ أو في النسب؛ أو فيهما جميعاً ـ على حسب حال اليتيم ـ.

قوله تعالى: ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾؛ العلم هنا علم معرفة؛ لأنه لم ينصب إلا مفعولاً واحداً؛ وكأنه ضمن «العلم» معنى التميز؛ يعني يعلمه، فيميز بين هذا، وهذا؛ ويجازي كل إنسان بما يستحق؛ لأن التمييز بين هذا، وهذا يقتضي أن يميز بينهما أيضاً في الثواب، والجزاء؛ ويشمل ذلك الإفساد الديني، والدنيوي؛ والإصلاح الديني، والدنيوي؛ ويشمل الذي وقع منه الإفساد، أو الصلاح.

قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾؛ ﴿لو﴾ شرطية؛ فعل الشرط: ﴿شاء الله﴾؛ وجواب الشرط: ﴿لأعنتكم﴾؛ واللام في جواب ﴿لو﴾ غالبة؛ وليست واجبة الوجود؛ ومن حذفها قوله تعالى: ﴿لو نشاء جعلناه أجاجاً﴾ [الواقعة: ٧٠]؛ وإلا فالأكثر وجود اللام في جوابها.

وقوله تعالى: ﴿لأعنتكم﴾ أي لشق عليكم فيما يشرعه لكم؛ ومن ذلك أن يشق عليكم في أمر اليتامى بأن لا تخالطوهم؛ وأن تقدروا غذاءهم تقديراً بالغاً، حيث لا يزيد عن حاجتهم، ولا ينقص عنها.

قوله تعالى: ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ هذه الجملة تعليل لما سبق من قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾؛ كأنه قال: ولو شاء الله لأعنتكم؛ لأن له العزة، والحكم؛ و«**العزيز**»، و«**الحكيم**» اسمان من أسماء الله تقدم معناهما، وأنواعهما.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: حرص الصحابة رضي الله عنهم على معرفة أحكام الله سبحانه وتعالى فيما يفعلونه، ويأتونه من مآكل، ومشارب، وغيرها.

٢ ـ **ومنها**: أن الدين الإسلامي جاء بتحصيل المصالح، ودرء المفاسد.

٣ ـ **ومنها**: المقارنة في الأمور بين مصالحها، ومفاسدها.

٤ ـ **ومنها**: ترجيح المصالح على المفاسد، أو المفاسد على المصالح حسب ما يترتب عليها.

٥ ـ **ومنها**: أنه مهما كثرت المنافع في الخمر والميسر، فإن الإثم أكبر من منافعهما.

٦ ـ **ومنها**: حرص الصحابة رضي الله عنهم على معرفة ما يُبذل، ويُنفَق؛ لقوله تعالى: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون﴾.

٧ ـ **ومنها**: أن الأفضل في الإنفاق أن ينفق الإنسان ما يزيد على حاجته.

٨ ـ **ومنها**: أن دفع الحاجة أفضل من الإنفاق؛ لقوله تعالى: ﴿قل العفو﴾ أي ما زاد على حاجتكم، كما سبق بيانه.

٩ ـ **ومنها**: أن الله ـ تبارك وتعالى ـ قد بين لعباده البيان التام في آياته الكونية، والشرعية.

١٠ ـ **ومنها**: إثبات الحكمة في أفعال الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**لعلكم تتفكرون**﴾.

١١ ـ **ومنها**: الحث على التفكر في آيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿**لعلكم تتفكرون**﴾.

١٢ ـ **ومنها**: أن التفكر لا يقتصر على أمور الدنيا؛ بل هو في أمور الدنيا، والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿**لعلكم تتفكرون * في الدنيا والآخرة**﴾.

١٣ ـ **ومنها**: سؤال الصحابة رضي الله عنهم عن اليتامى كيف يعاملونهم؛ وهذا السؤال ناتج عن شدة خوف الصحابة رضي الله عنهم فيما يتعلق بأمور اليتامى؛ لأن الله تعالى توعد من يأكلون أموال اليتامى ظلماً، وقال تعالى: ﴿**ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن**﴾.

١٤ ـ **ومنها**: مراعاة الإصلاح فيمن ولاه الله على أحد.

١٥ ـ **ومنها**: أن الإنسان إذا راعى ما يرى أنه أصلح، ثم لم يكن ذلك فإنه لا شيء عليه؛ لأن الإنسان إنما يؤاخذ بما يدركه؛ لا بما لا يدركه.

١٦ ـ **ومنها**: فضيلة الإصلاح في الولايات، وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿**قل إصلاح لهم خير**﴾؛ فإن المقصود بهذه الجملة الحث على الإصلاح.

١٧ ـ **ومنها**: جواز مخالطة الأيتام في أموالهم؛ لقوله تعالى: ﴿**وإن تخالطوهم فإخوانكم**﴾.

١٨ ـ **ومنها**: أنه يجب في المخالطة أن يعاملهم معاملة الإخوان؛ لقوله تعالى: ﴿**وإن تخالطوهم فإخوانكم**﴾؛ ففي هذه الجملة

الحث، والإغراء على ما فيه الخير لهم، كما يسعى لذلك الأخ لأخيه.

١٩ ـ **ومنها**: إطلاق الأخ على من هو دونه؛ لأن اليتيم دون من كان ولياً عليه؛ وهذه الأخوة أخوة الدين.

٢٠ ـ **ومنها**: التحذير من الإفساد؛ لقوله تعالى: ﴿**والله يعلم المفسد من المصلح**﴾.

٢١ ـ **ومنها**: عموم علم الله ـ تبارك وتعالى ـ، حيث يعلم كل دقيق، وجليل.

٢٢ ـ **ومنها**: إثبات المشيئة لله؛ لقوله تعالى: ﴿**ولو شاء الله لأعنتكم**﴾؛ وهذه المشيئة لما يفعله الله تعالى، ولما يفعله العباد؛ لقوله تعالى: ﴿**لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين**﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، ولقوله تعالى: ﴿**ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد**﴾ [البقرة: ٢٥٣].

٢٣ ـ **ومنها**: أن الدين يسر، ولا حرج فيه، ولا مشقة؛ لقوله تعالى: ﴿**ولو شاء الله لأعنتكم**﴾.

٢٤ ـ **ومنها**: إثبات هذين الاسمين الكريمين لله عزّ وجلّ؛ وهما «**العزيز**»، و«**الحكيم**»؛ وإثبات ما دلا عليه من صفة.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٢١﴾ قوله تعالى: ﴿**ولا تنكحوا المشركات**﴾؛ النكاح في الأصل الضم، والجمع؛ ومنه قول الشاعر:

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرُك اللَّهُ كيف يجتمعان

يعني: أيها المريد أن تجمع بين الثريا، وسهيل ـ وهما نجمان معروفان ـ؛ الأول في الشمال؛ والثاني في الجنوب؛ فقوله: «كيف يجتمعان» يدل على أن النكاح في الأصل الجمع، والضم؛ وأما في الشرع فهو عقد على مُحَلَّلة لقصد المصالح المترتبة على النكاح من تحصين الفرج، والولادة، والاستمتاع، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿**ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن**﴾؛ ﴿**تَنكحوا**﴾ بفتح التاء؛ أي لا تتزوجوا بهن حتى يؤمنَّ؛ و﴿**المشركات**﴾ جمع مشركة؛ والمشركة، أو المشرك، هو من جعل لله شريكاً فيما يختص به سواء كان ذلك في الربوبية، أو في الألوهية، أو في الأسماء، والصفات؛ فمن اتخذ إلهاً يعبده فهو مشرك ـ ولو آمن بأن الله خالق للكون ـ؛ ومن اعتقد أن مع الله خالقاً للكون، أو منفرداً بشيء في الكون، أو معيناً لله تعالى في خلق شيء من الكون فهو مشرك.

وقوله تعالى: ﴿**حتى يؤمن**﴾ أي يدخلن في دين الله؛ ودخولهن في دين الله يلزم منه التوحيد.

قوله تعالى: ﴿**ولأمة مؤمنة**﴾ أي امرأة مؤمنة ﴿**خير من مشركة ولو أعجبتكم**﴾؛ هذه الجملة تعليل للنهي عن نكاح المشركات مؤكدة بلام الابتداء؛ وقوله تعالى: ﴿**خير من**

مشركة﴾: أطلق الخيرية ليعم كل ما كان مطلوباً في المرأة؛ **﴿ولو أعجبتكم﴾** أي سرتكم، ونالت إعجابكم في جمالها، وخلقها، ومالها، وحسبها، وغير ذلك من دواعي الإعجاب.

فإن قيل: كيف جاءت الآية بلفظ: **﴿خير من مشركة﴾** مع أن المشركة لا خير فيها؟ فالجواب من أحد وجهين:

الأول: أنه قد يرد اسم التفضيل بين شيئين، ويراد به التفضيل المطلق ـ وإن لم يكن في جانب المفضل عليه شيء منه ـ، كما قال تعالى: **﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾** [الفرقان: ٢٤].

الثاني: أن المشركة قد يكون فيها خير حسي من جمال، ونحوه؛ ولذلك قال تعالى: **﴿ولو أعجبتكم﴾**؛ فبين سبحانه وتعالى أن ما قد يعتقده ناكح المشركة من خير فيها فإن نكاح المؤمنة خير منه.

قوله تعالى: **﴿ولا تُنكحوا المشركين﴾** بضم التاء؛ أي لا تزوجوهم؛ **﴿حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾** سبق بيان ذلك عند قوله تعالى: **﴿حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة﴾**.

قوله تعالى: **﴿أولئك يدعون إلى النار﴾** هذه الجملة تعليل لما سبق؛ والمشار إليه فيها أهل الشرك ـ أي يدعون الناس إلى النار بأقوالهم، وأفعالهم، وأموالهم ـ؛ حتى إنهم يبنون المدارس، والمستشفيات، ويلاطفون الناس في معاملتهم خداعاً، ومكراً؛ ولكن قد بين الله نتيجة عملهم في قوله تعالى: **﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون**

عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ [الأنفال: ٣٦].

قوله تعالى: **﴿والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه﴾**، أي يدعو الناس إلى الجنة بالحث على الأعمال الصالحات؛ ومغفرة الذنوب بالحث على التوبة، والاستغفار؛ و**﴿بإذنه﴾** أي إذن الله؛ والإذن على قسمين: إذن كوني ـ وهو ما يتعلق بالمخلوقات، والتقديرات ـ؛ وإذن شرعي ـ وهو ما يتعلق بالتشريعات ـ؛ فمن الأول قوله تعالى: **﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾** [البقرة: ٢٥٥]؛ ومن الثاني قوله تعالى: **﴿ءآلله أذن لكم أم على الله تفترون﴾** [يونس: ٥٩] يعني شرع لكم؛ والظاهر أن الإذن في هذه الآية ـ والله أعلم ـ يشمل القسمين؛ لأن دخول الإنسان فيما يكون سبباً للجنة، والمغفرة كوني؛ وما يكون سبباً للجنة، والمغفرة هذا مما شرعه الله.

قوله تعالى: **﴿ويبين آياته للناس﴾** أي يظهرها، و**«آيات»** جمع آية؛ وهي العلامة القاطعة التي تستلزم العلم بمدلولها، كما قال تعالى: **﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون﴾** [يس: ٤١].

قوله تعالى: **﴿لعلهم يتذكرون﴾** أي يتعظون؛ والجملة تعليلية.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أنه يحرم على المؤمن نكاح المشركات؛ لقوله تعالى: **﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾**؛ ويستثنى من ذلك أهل الكتاب من اليهود، والنصارى؛ لقوله

تعالى: ﴿**اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان**﴾ [المائدة: ٥]، فإن هذه الآية: ﴿**اليوم أحل لكم الطيبات...**﴾ مخصِّصة لآية البقرة؛ و«**أل**» في قوله تعالى: ﴿**اليوم**﴾ للعهد الحضوري تفيد أن هذا الحكم ثبت في ذلك اليوم نفسه؛ والآية في سورة المائدة، ونزولها بعد نزول سورة البقرة؛ لكن مع كون ذلك مباحاً فإن الأولى أن لا يتزوج منهن؛ لأنها قد تؤثر على أولاده؛ وربما تؤثر عليه هو أيضاً: إذا أعجب بها لجمالها، أو ذكائها، أو علمها، أو خلقها، وسلبت عقله فربما تجره إلى أن يكفر.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الحكم يدور مع علته وجوداً، وعدماً؛ لقوله تعالى: ﴿**حتى يؤمن**﴾؛ فدل ذلك على أنه متى زال الشرك حل النكاح؛ ومتى وجد الشرك حرم النكاح.

٣ ـ **ومنها**: أن الزوج وليّ نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تنكحوا المشركات**﴾؛ فوجه الخطاب للزوج.

٤ ـ **ومنها**: أن المؤمن خير من المشرك؛ ولو كان في المشرك من الأوصاف ما يعجب؛ لقوله تعالى: ﴿**ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم**﴾؛ ومثله قوله تعالى: ﴿**قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث**﴾ [المائدة: ١٠٠]؛ فلا تغتر بالكثرة؛ ولا تغتر بالمهارة؛ ولا بالجودة؛ ولا بالفصاحة؛ ولا بغير ذلك؛ ارجع إلى الأوصاف الشرعية المقصودة شرعاً.

٥ ـ **ومنها**: تفاضل الناس في أحوالهم، وأنهم ليسوا على

حد سواء؛ لقوله تعالى: ﴿**ولعبد مؤمن خير من مشرك**﴾.

٦ ـ **ومنها**: الرد على الذين قالوا: «إن دين الإسلام دين مساواة»؛ لأن التفضيل ينافي المساواة؛ والعجيب أنه لم يأت في الكتاب، ولا في السنة لفظة «المساواة» مثبتاً؛ ولا أن الله أمر بها؛ ولا رغب فيها؛ لأنك إذا قلت بالمساواة استوى الفاسق، والعدل؛ والكافر، والمؤمن؛ والذكر، والأنثى؛ وهذا هو الذي يريده أعداء الإسلام من المسلمين؛ لكن جاء دين الإسلام بكلمة هي خير من كلمة «المساواة»؛ وليس فيها احتمال أبداً، وهي «**العدل**»، كما قال الله تعالى: ﴿**إن الله يأمر بالعدل**﴾ [النحل: ٩٠]؛ وكلمة «**العدل**» تعني أن يسوى بين المتماثلين، ويفرق بين المفترقين؛ لأن «**العدل**» إعطاء كل شيء ما يستحقه؛ والحاصل: أن كلمة «المساواة» أدخلها أعداء الإسلام على المسلمين؛ وأكثر المسلمين ـ ولا سيما ذوو الثقافة العامة ـ ليس عندهم تحقيق، ولا تدقيق في الأمور، ولا تمييز بين العبارات؛ ولهذا تجد الواحد يظن هذه الكلمة كلمة نور تحمل على الرؤوس: «الإسلام دين مساواة»! ونقول: لو قلتم: «**الإسلام دين العدل**» لكان أولى، وأشد مطابقة لواقع الإسلام.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٢٢﴾ قوله تعالى: ﴿يسألونك﴾ أي الناس، أو المسلمون؛ ﴿عن المحيض﴾: يحتمل أن تكون مصدراً ميمياً فتكون بمعنى الحيض؛ أو تكون اسم مكان فيكون المراد به مكان الحيض؛ وهو الفَرْج؛ ولكن الأرجح الاحتمال الأول؛ لقوله تعالى: ﴿قل هو أذًى﴾؛ فإنه لا يحتمل عوده إلى مكان الحيض.

قوله تعالى: ﴿قل هو أذًى﴾: أي لكل من الزوج، والزوجة، وبيان ذلك عند الأطباء.

قوله تعالى: ﴿فاعتزلوا النساء﴾ أي اجتنبوا؛ والفاء هنا للتفريع، أو للسببية؛ أي فيتفرع على كونه أذًى توجيه الأمر إليكم باعتزال النساء؛ أو: فبسبب كونه أذًى اعتزلوا النساء في المحيض؛ والمقصود بـ﴿النساء﴾ هنا الحائضات؛ لقوله تعالى: ﴿في المحيض﴾؛ والمراد بـ﴿المحيض﴾ هنا مكان الحيض ـ وهو الفرج ـ؛ فهي ظرف مكان؛ أي لا تجامعوهن في فروجهن؛ لأنه مكان الحيض.

قوله تعالى: ﴿ولا تقربوهن﴾، أي لا تقربوا جماعهن كما يدل عليه ما قبله.

قوله تعالى: ﴿حتى يطهرن﴾ بسكون الطاء، وتخفيف الهاء ـ أي حتى يطهرن من المحيض بانقطاعه ـ؛ وفي قراءة ﴿حتى يطّهرن﴾ بتشديد الطاء، والهاء ـ أي يتطهرن من المحيض بالاغتسال ـ، كقوله تعالى: ﴿وإن كنتم جنباً فاطهروا﴾ [المائدة: ٦] أي اغتسلوا؛ وعلامة الطهر للمرأة القَصة البيضاء بأن لا تتغير القطنة إذا احتشت بها؛ وهذا هو الغالب في النساء؛ لكن بعض النساء لا ترى ذلك

ـ تعرف الطهر بانقطاع الدم فقط ـ؛ ولا ترى القصة البيضاء.

قوله تعالى: ﴿**فإذا تطهرن**﴾: جمهور أهل العلم على أن المراد اغتسلن؛ فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً؛ فهي كقوله تعالى: ﴿**وإن كنتم جنباً فاطهروا**﴾ [المائدة: ٦]، أي اغتسلوا.

قوله تعالى: ﴿**فأتوهن من حيث أمركم الله**﴾؛ الفاء رابطة لجواب الشرط؛ وهو قوله تعالى: ﴿**فإذا تطهرن**﴾؛ والمراد بالإتيان الجماع ـ كني بالإتيان عن المجامعة ـ؛ والأمر هنا للإباحة؛ وقيل إن ﴿**مِن**﴾ بمعنى «في» أي فأتوهن في المكان الذي أمركم الله بإتيانه؛ وهو الفرج؛ وقيل: إن ﴿**مِن**﴾ للابتداء؛ فهي على بابها؛ أي فأتوهن من هذه الطريق من حيث أمركم الله؛ وهو أن تطؤوهن في الفروج؛ لقوله تعالى في الآية بعدها: ﴿**نساؤكم حرث لكم**﴾ [البقرة: ٢٢٣]؛ والحرث هو موضع الزرع؛ وموضع الزرع هو القبل؛ فيكون معنى قوله تعالى: ﴿**فأتوهن من حيث أمركم الله**﴾ أي من قُبُلهن؛ وليس من الدبر.

وقوله تعالى: ﴿**إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**﴾؛ هذا تعليل لما سبق من الأوامر؛ وهي اعتزال النساء في المحيض، وإتيانهن من حيث أمر الله بعد التطهر.

وقوله تعالى: ﴿**يحب التوابين ويحب المتطهرين**﴾: المحبة معروفة؛ و﴿**التوابين**﴾ صيغة مبالغة تفيد الكثرة؛ فالتوابون كثيرو التوبة؛ و«التوبة» هي الرجوع من معصية الله إلى طاعته؛ و﴿**المتطهرين**﴾ أي الذين يتطهرون من الأحداث، والأخباث؛ وجمع بين ذلك، وبين التوبة؛ لأن «**التوبة**» تطهير الباطن؛ و«**التطهر**» تطهير الظاهر.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: تتابع أسئلة الصحابة رضي الله عنهم على رسول الله ﷺ.

٢ ـ **ومنها**: حرص الصحابة على العلم، حيث يسألون رسول الله ﷺ عن مثل هذه الأمور.

٣ ـ **ومنها**: أنه لا ينبغي أن يستحيي الإنسان من سؤال العلم؛ لقوله تعالى: ﴿**ويسألونك عن المحيض**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن الله عزّ وجلّ قد يتولى الإجابة فيما سئل عنه رسول الله ﷺ، حيث قال تعالى: ﴿**قل هو أذًى**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن المحيض ـ وهو الحيض ـ أذًى؛ لأنه قذر، ونجس؛ ولهذا أمر النبي ﷺ بغسله قليله، وكثيره؛ فقد كان النساء يصيب ثيابهن الحيض، فيسألن النبي ﷺ عن ذلك فيأمرهن بحته، ثم قرصه بالماء، ثم نضحه[1] ـ أي غسله ـ.

٦ ـ **ومنها**: تعليل الأحكام الشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿**هو أذًى فاعتزلوا**﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة: إثبات الحكمة فيما شرعه الله عزّ وجلّ؛ لكن من الحكمة ما هو معلوم للخلق؛ ومنها ما ليس بمعلوم؛ لكننا نعلم أن جميع أحكام الله الشرعية والقدرية مقرونة بالحكمة.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: تقديم علة الحكم عليه حتى تتهيأ النفوس لقبول الحكم، والطمأنينة إليه؛ ويكون قبوله فطرياً؛ لقوله

---

(١) راجع البخاري ص٢١ كتاب الوضوء، باب ٦٣: غسل الدم، حديث رقم ٢٢٧؛ وصحيح مسلم ص٧٢٧، كتاب الطهارة باب ٣٣: نجاسة الدم، وكيفية غسله؛ حديث رقم ٦٧٥ [١١٠] ٢٩١.

تعالى: ﴿**قل هو أذًى فاعتزلوا النساء في المحيض**﴾؛ وقد يتقدم الحكم على العلة ـ وهو الأكثر ـ، كما في قوله تعالى: ﴿**قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس**﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وكما في الحديث الصحيح: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه**»(١).

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: وجوب اعتزال المرأة حال الحيض؛ لقوله تعالى: ﴿**فاعتزلوا النساء في المحيض**﴾؛ وقد بينت السنة ماذا يعتزل منهن ـ وهو الجماع ـ؛ لقول النبي ﷺ: «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**»(٢).

٩ ـ **ومنها**: منة الله على الرجل والمرأة في اعتزالها حال الحيض؛ لأنه أذًى مضر بالمرأة، ومضر بالرجل.

١٠ ـ **ومنها**: تحريم الوطء بعد الطهر قبل الغسل؛ لقوله تعالى: ﴿**فإذا تطهرن فأتوهن**﴾.

١١ ـ **ومنها**: وجوب جماع الزوجة بعد طهرها من الحيض؛ لقوله تعالى: ﴿**فأتوهن**﴾؛ وقد قال به بعض أهل العلم؛ ولكن هذا القول ضعيف جداً؛ والصواب أن الأمر فيه لرفع الحظر؛

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٣٠، كتاب الاستئذان، باب ٤٧: إذا كانوا أكثر من ثلاثة...، حديث رقم ٦٢٩٠، وأخرجه مسلم ص١٠٦٦، كتاب السلام، باب ١٥: تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه، حديث رقم ٥٦٩٦ [٣٧] ٢١٨٤.

(٢) أخرجه مسلم ص٧٢٨، كتاب الحيض، باب ٣: جواز غسل الحائض رأس زوجها...، حديث رقم ٦٩٤ [١٦] ٣٠٢.

لأنه ورد بعد النهي؛ ويبقى الحكم على ما كان عليه قبل النهي.

١٢ ـ **ومنها**: أنه لا يجوز للإنسان أن يتعدى حدود الله لا زماناً ولا مكاناً فيما أباحه الله من إتيان أهله؛ لقوله تعالى: ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾.

١٣ ـ **ومنها**: جواز وطء المرأة في فرجها من ورائها؛ لقوله تعالى: ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾؛ ولم يحدد الجهة التي تؤتى منها المرأة.

١٤ ـ **ومنها**: أنه لا يباح وطؤها في الدبر؛ لقوله تعالى: ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾، ولقوله تعالى في المحيض: ﴿قل هو أذًى فاعتزلوا النساء في المحيض﴾؛ ومن المعلوم أن أذى الغائط أقبح من أذى دم الحيض؛ وهذا ـ أعني تحريم وطء الدبر ـ قد أجمع عليه الأئمة الأربعة؛ ولم يصح عن أحد من السلف جوازه؛ وما روي عن بعضهم مما ظاهره الجواز فمراده إتيانها من الدبر في الفرج.

١٥ ـ **ومنها**: إثبات محبة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿إن الله يحب التوابين﴾؛ والمحبة صفة حقيقية لله عزّ وجلّ على الوجه اللائق به؛ وهكذا جميع ما وصف الله به نفسه من المحبة، والرضا، والكراهة، والغضب، والسخط، وغيرها؛ كلها ثابتة لله على وجه الحقيقة من غير تكييف ولا تمثيل.

١٦ ـ **ومنها**: أن محبة الله من صفاته الفعلية ـ لا الذاتية ـ؛ لأنها علقت بالتوبة؛ والتوبة من فعل العبد تتجدد؛ فكذلك محبة الله عزّ وجلّ تتعلق بأسبابها؛ وكل صفة من صفات الله تتعلق بأسبابها فهي من الصفات الفعلية.

١٧ ـ **ومنها**: فضيلة التوبة، وأنها أمر مطلوب، وأنها من أسباب محبة الله للعبد؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الله يحب التوابين**﴾.

١٨ ـ **ومنها**: محبة الله تعالى للمتطهرين؛ لقوله تعالى: ﴿**ويحب المتطهرين**﴾.

١٩ ـ **ومنها**: حسن أسلوب القرآن؛ لأنه جمع في هذه الآية بين التطهر المعنوي الباطني، والتطهر الحسي الظاهري؛ لقوله تعالى: ﴿**يحب التوابين**﴾ ـ وهي طهارة باطنة ـ؛ وقوله تعالى: ﴿**ويحب المتطهرين**﴾ ـ وهي طهارة ظاهرة ـ.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٢٣﴾ قوله تعالى: ﴿**نساؤكم حرث لكم**﴾ يعني زوجاتكم موضع حرث لكم، كما تكون الأرض حرثاً للزارع يبث فيها الحب؛ فيخرج الحب، وينمو، ويُنتفع به؛ كذلك النساء بالنسبة للرجال حرث يضع فيها الإنسان هذا الماء الدافق، فينزرع في الرحم حتى ينمو، ويخرج بشراً سوياً.

قوله تعالى: ﴿**فأتوا حرثكم**﴾: الفاء للسببية، أو للتفريع؛ والمراد بـ«**الحرث**» هنا موضع الحرث ـ وهو الفرج ـ.

قوله تعالى: ﴿**أنى شئتم**﴾ أي من حيث شئتم؛ فـ﴿**أنى**﴾ ظرف مكان؛ والمعنى: ائتوا هذا الحرث من أي جهة شئتم؛ من

جهة القبل ـ يعني الأمام ـ؛ أو من جهة الخلف؛ أو على جنب؛ المهم أن يكون الإتيان في الحرث؛ وقد زعمت اليهود أن الرجل إذا أتى امرأته من دبرها في قبلها صار الولد أحول؛ وكذبوا في ذلك؛ وقد أنزل الله تكذيبهم في هذه الآية: ﴿**نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم**﴾.

قوله تعالى: ﴿**وقدموا لأنفسكم**﴾ يعني الطاعات، وما ينفعنا عند الله عزّ وجلّ؛ وإنما قال ذلك بعد ذكر إتيان النساء حتى لا ننشغل بهؤلاء النساء عن تقديم ما ينفعنا يوم القيامة؛ ومن التقديم للنفس أن يبتغي الإنسان بإتيان أهله تحصين فرجه، وتحصين فرج امرأته؛ وطلب الولد الصالح، وما أشبه ذلك مما يقارن الجماع من الأعمال الصالحة بالنية.

قوله تعالى: ﴿**واتقوا الله**﴾: لما أمرنا بالتقديم لأنفسنا بالأعمال الصالحة أمرنا بالتقوى ـ وهي فعل أوامره ـ، واجتناب نواهيه.

قوله تعالى: ﴿**واعلموا أنكم ملاقوه**﴾ أي في يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه * فأما من أوتي كتابه بيمينه...**﴾ [الانشقاق: ٦، ٧] الآيات.

قوله تعالى: ﴿**وبشر المؤمنين**﴾ أي أخبرهم بما يسرهم؛ و«**المؤمن**» هنا يتضمن المسلم؛ وعلى هذا فلا بد مع الإيمان من عمل صالح.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن النساء حرث للرجال؛ بمعنى موضع زراعة.

٢ ـ **ومنها**: أن الرجل حرٌّ في الحرث: إن شاء فعل؛ وإن شاء لم يفعل؛ لكن عليه أن يعاشر زوجته بالمعروف في كل ما يعاملها به؛ لقوله تعالى: ﴿**وعاشروهن بالمعروف**﴾ [النساء: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿**ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم**﴾ [البقرة: ٢٢٨].

٣ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان أن يحاول كثرة النسل؛ لقوله تعالى: ﴿حرث لكم﴾؛ وإذا كانت حرثاً فهل الإنسان عندما يحرث أرضاً يقلل من الزرع، أو يكثر من الزرع؟

فالجواب: الإنسان عندما يحرث أرضاً يكثر من الزرع؛ ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: «**تزوجوا الودود الولود**»[1]؛ وأما القول بتحديد النسل فهذا لا شك أنه من دسائس أعداء المسلمين يريدون من المسلمين ألا يكثروا؛ لأنهم إذا كثروا أرعبوهم، واستغنوا بأنفسهم عنهم: حرثوا الأرض، وشغَّلوا التجارة، وحصل بذلك ارتفاع للاقتصاد، وغير ذلك من المصالح؛ فإذا بقوا مستحسرين قليلين صاروا أذلة، وصاروا محتاجين لغيرهم في كل شيء؛ ثم هل الأمر بيد الإنسان في بقاء النسل الذي حدده؟! فقد يموت هؤلاء المحدِّدون؛ فلا يبقى للإنسان نسل.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: جواز إتيان المرأة في محل الحرث من أيّ جهة؛ قوله تعالى: ﴿**فأتوا حرثكم أنى شئتم**﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/١٥٨، حديث رقم ١٢٦٤٠، وأخرجه أبو داود ص١٣٧٤، كتاب النكاح، باب ٣، النهي عن تزوج من لم يلد من النساء، حديث رقم ٢٠٥٠/أ، وأخرجه النسائي ص٢٢٩٦، كتاب النكاح، باب ١١: كراهية تزويج العقيم، حديث رقم ٣٢٢٩.

٥ ـ **ومنها**: مشروعية أن ينوي الإنسان بجماعه الولد؛ لقوله تعالى: ﴿**فأتوا حرثكم**﴾؛ فجعل الإتيان للحرث؛ فكأنه أشار إلى أنه ينبغي للإنسان أن يأتي المرأة من أجل طلب الولد؛ وقد ذكروا عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه ما جامع إلا بقصد الولد؛ وعلى كل حال الناس مختلفون في هذا؛ ولا مانع من أن الإنسان يريد بذلك الولد، ويريد بذلك قضاء الوطر.

٦ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان أن يحافظ على هذه المرأة التي أضيفت له، وسميت حرثاً له كما يحافظ على حرث أرضه.

٧ ـ **ومنها**: أنه يشرع للمرء أن يقدم لنفسه عند الجماع؛ لقوله تعالى: ﴿**وقدموا لأنفسكم**﴾؛ وسبق معنى قوله تعالى: ﴿**وقدموا لأنفسكم**﴾.

٨ ـ **ومنها**: وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿**واتقوا الله**﴾.

٩ ـ **ومنها**: وجوب معاملة الأهل حسب ما شرع الله؛ لأن ذلك من تقوى الله؛ ولقوله تعالى: ﴿**من حيث أمركم الله**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: إثبات البعث؛ لقوله تعالى: ﴿**واعلموا أنكم ملاقوه**﴾.

١١ ـ **ومنها**: إثبات رؤية الله؛ لقوله تعالى: ﴿**ملاقوه**﴾؛ والملاقاة في الأصل المقابلة مع عدم الحاجب.

١٢ ـ **ومنها**: تهديد الإنسان من المخالفة؛ لأنه لما أمر بالتقوى قال تعالى: ﴿**واعلموا أنكم ملاقوه**﴾.

١٣ ـ **ومنها**: أن من البلاغة إذا أخبرت إنساناً بأمر هام أن تقدم بين يدي الخبر ما يقتضي انتباهه؛ لقوله تعالى: ﴿**واعلموا**﴾؛ وهذا مما يزيد الإنسان انتباهاً وتحسباً لهذه الملاقاة.

١٤ ـ **ومنها**: أن المؤمنين ناجون عند ملاقاة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وبشر المؤمنين﴾.

١٥ ـ **ومنها**: أن البشارة للمؤمنين مطلقة، حيث قال تعالى: ﴿وبشر المؤمنين﴾.

١٦ ـ **ومنها**: أن البشارة للمؤمنين في الدنيا، وفي الآخرة؛ ووجهه: عدم التقييد؛ وقد قال الله سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿**لهم البشرى في الحياة وفي الآخرة**﴾ [يونس: ٦٤]؛ وسئل النبي ﷺ عنها فقال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو ترى له»[(١)].

١٧ ـ **ومنها**: تحذير غير المؤمنين من هذه الملاقاة؛ لقوله تعالى: ﴿وبشر المؤمنين﴾؛ فدل ذلك على أن غير المؤمنين لا بشرى لهم.

١٨ ـ **ومنها**: فضيلة الإيمان؛ لأن الله علق البشارة عليه؛ فقال تعالى: ﴿وبشر المؤمنين﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/٣١٥، ٢٣٠٦٢، وأخرجه ابن ماجه ص٢٧٠٩، كتاب تعبير الرؤيا، باب ١: الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، حديث رقم ٣٨٩٨، وأورده الألباني في صحيح ابن ماجه ٢/٣٣٨، حديث رقم ٣١٤٦.

التفسير:

﴿٢٢٤﴾ قوله تعالى: ﴿**ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس**﴾، أي لا تصيروا الحلف بالله معترضاً بينكم، وبين البر، والتقوى، والإصلاح بين الناس؛ فـ«**البر**» فعل الخيرات؛ و«**التقوى**» هنا اجتناب الشرور؛ و«**الإصلاح بين الناس**» التوفيق بين المتنازعين حتى يلتئم بعضهم إلى بعض، ويزول ما في أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿**والله سميع عليم**﴾، أي سميع لما يقال عليم بكل شيء.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: نهي الإنسان عن جعل اليمين مانعة له من فعل البر، والتقوى، والإصلاح بين الناس؛ والنهي للتحريم إذا كانت مانعة له من واجب؛ وقد صح عن النبي ﷺ قوله: «**إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وائت الذي هو خير**»[(١)].

٢ ـ **ومنها**: الحث على البر، والتقوى، والإصلاح بين الناس؛ وجهه: أنه إذا كان الله نهانا أن نجعل اليمين مانعاً من فعل البر فما بالك إذا لم يكن هناك يمين.

٣ ـ **ومنها**: فضيلة الإصلاح بين الناس؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٥٤، كتاب الأيمان والنذور، باب ١: قول الله تعالى: ﴿**لا يؤاخذكم الله في أيمانكم**﴾، حديث رقم ٦٦٢٢، وأخرجه مسلم ص٩٦٧، كتاب الأيمان، باب ٣: ندب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها...، حديث رقم ٤٢٨١ [١٩] ١٦٢٥.

﴿وتصلحوا بين الناس﴾؛ فنص عليه مع أنه من البر؛ والتنصيص على الشيء بعد التعميم يدل على العناية به، والاهتمام به؛ ولا ريب أن الإصلاح بين الناس من الأمور الهامة لما فيه من رأب الصدع، ولمّ الشعث، وجمع الشمل؛ وهذا خلاف من يفعلون ما يوجب القطيعة بين الناس، مثل النميمة ـ فهي توجب القطيعة بين الناس ـ؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنة نمام**»[1].

٤ ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما «**السميع**» و«**العليم**»؛ وما تضمناه من صفة، وما تضمناه من حكم، وأثر.

٥ ـ **ومنها**: تحذير الإنسان من المخالفة؛ وجهه: أنه إذا كان الله سميعاً عليماً فإياك أن تخالف ما أمرك به؛ فإنك إن خالفته بما يُسمَع سَمِعك؛ وبما يُعلَم عَلِمك؛ فاحذر الله عزّ وجلّ.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٢٥﴾ قوله تعالى: ﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو في إيمانكم**﴾؛ «**يؤاخذ**» لها معنيان؛ أحدهما: المؤاخذة بالعقوبة؛ والثاني: المؤاخذة بإلزام الكفارة؛ و«**اللغو**» في اللغة الشيء

---

(١) أخرجه مسلم ٦٩٥ ـ ٦٩٦، كتاب الإيمان، باب ٤٥: بيان غلظ تحريم النميمة، حديث رقم ٢٩٠ [١٦٨] ١٠٥.

الساقط؛ والمراد به هنا اليمين التي لا يقصدها الحالف، كقول: «لا واللَّهِ»؛ «بلى والله» في عرض حديثه؛ ويبين ذلك قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان**﴾ [المائدة: ٨٩] أي نويتم عقده؛ و«**الأيمان**» جمع يمين؛ وهو القسم؛ والقسم: تأكيد الشيء بذكر معظَّم بصيغة مخصوصة ـ هي الواو، والباء، والتاء ـ؛ مثل: «والله»، و«بالله»، و«تالله».

قوله تعالى: ﴿**ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم**﴾، يفسره قوله تعالى: ﴿**بما عقدتم الأيمان**﴾ [المائدة: ٨٩].

قوله تعالى: ﴿**والله غفور حليم**﴾؛ لما ذكر اللغو من اليمين، والمنعقد منهما ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين؛ وسبق معنى «**الغفور**»؛ و«**الحليم**» هو الذي يؤخر العقوبة عن مستحقها.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: عدم مؤاخذة العبد بما لم يقصده في لفظه؛ وهذه الفائدة قاعدة عظيمة يترتب عليها مسائل كثيرة؛ منها لو جرى لفظ الطلاق على لسانه بغير قصد لم تطلق امرأته؛ ولو طلق في حال غضب شديد لم تطلق امرأته؛ ولو قال كفراً في حال فرح شديد لم يكفر، كما في حديث: «**للَّهُ أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم...**»[1] الحديث؛ ولو أكره على كلمة الكفر

(١) أخرجه البخاري ص٥٣١، كتاب الدعوات، باب ٤: التوبة، حديث رقم ٦٣٠٨، وأخرجه مسلم ص١١٥٣، كتاب التوبة، باب ١: في الحض على التوبة...، حديث رقم ٦٩٥٣ [٢] ٢٦٧٥.

فقالها وقلبه مطمئن بالإيمان لم يكفر؛ وأمثلتها كثيرة.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن المدار على ما في القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿**ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن للقلوب كسباً، كما للجوارح؛ فأما ما حدَّث به الإنسان نفسه دون اطمئنان إليه فإنه لا يؤاخذ به؛ لأنه ليس بعمل؛ ولهذا جاء في الحديث قول النبي ﷺ: «**إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم**»(١).

٤ ـ **ومنها**: إثبات هذين الاسمين الكريمين؛ وهما «**الغفور**»، و«**الحليم**»؛ وما تضمناه من وصف، وحكم.

٥ ـ **ومنها**: الإشارة إلى أن من مغفرة الله وحلمه أن أسقط المؤاخذة باللغو في الأيمان.

٦ ـ **ومنها**: أن لا نيأس من رحمة الله؛ لأنه غفور؛ وأن لا نأمن مكر الله؛ لأنه حليم؛ فيكون العبد سائراً إلى الله بين الرجاء والخوف.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في٤٥٥، كتاب الطلاق، باب ١١: الطلاق في الإغلاق والكره...، حديث رقم ٥٢٦٩، وأخرجه مسلم ص٦٩٩، كتاب الإيمان، باب ٥٨: تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر، حديث رقم ٣٣١ [٢٠١] ١٢٧.

التفسير:

﴿٢٢٦﴾ قوله تعالى: ﴿للذين﴾ خبر مقدم؛ و﴿تربص﴾ مبتدأ مؤخر؛ وبعد هذا بين الله الحال بعد هذا التربص.

قوله تعالى: ﴿للذين يؤلون من نسائهم﴾: اللام يحتمل أن تكون للإباحة؛ ويحتمل أن تكون للتوقيت؛ يعني: أنه يباح للمولين أن يتربصوا أربعة أشهر؛ أو أن لهم وقتاً محدداً بأربعة أشهر؛ و﴿يؤلون﴾ أي يحلفون على ترك وطء زوجاتهم؛ و﴿مِن﴾: قيل إنها بمعنى «عن»؛ يعني يحلفون عن وطء نسائهم؛ وقيل: إنها على بابها؛ فهي مبينة لموضع الإيلاء ـ يعني: الحلف ـ؛ و﴿نسائهم﴾ أي زوجاتهم.

قوله تعالى: ﴿تربص﴾ أي انتظار؛ وهو شبيه بـ«الصبر» لموافقته إياه في الحروف ـ وإن خالفه في الترتيب ـ؛ و«الصبر» بمعنى حبس النفس، وانتظارها؛ ﴿أربعة أشهر﴾ أي مدة أربعة أشهر؛ فينتظرون لمدة أربعة أشهر ابتداءً من إيلائهم.

قوله تعالى: ﴿فإن فاءوا﴾ أي رجعوا إلى نسائهم بعد أن آلوا منهن؛ ﴿فإن الله غفور﴾أي يغفر لهم ما تجرؤوا عليه من الحلف على حرمان الزوجات من حقوقهن؛ لأن حلفهم على ألا يطؤوا لمدة أربعة أشهر اعتداء على حق المرأة؛ إذ إن الرجل يجب عليه أن يعاشر زوجته بالمعروف؛ وليس من العشرة بالمعروف أن يحلف الإنسان ألا يطأ زوجته مدة أربعة أشهر؛ فإن فعل فقد عرض نفسه للعقوبة؛ لكنه إذا رجع غفر الله له؛ و﴿غفور﴾ أي ذو مغفرة، كما قال تعالى: **﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾** [الرعد: ٦]؛ والمغفرة هي ستر الذنب مع

التجاوز عنه مأخوذة من «المغفر»؛ وهو ما يوضع على الرأس عند الحرب لاتقاء السهام؛ وفي المغفر تغطية، ووقاية؛ و﴿رحيم﴾ أي ذو رحمة، كما قال تعالى: **﴿وربك الغني ذو الرحمة﴾** [الأنعام: ١٣٣]؛ فهو مشتق من الرحمة المستلزمة للعطف، والحنوّ، والإحسان، ودفع النقم.

﴿٢٢٧﴾ قوله تعالى: **﴿وإن عزموا الطلاق﴾** أي قصدوه بعزيمة تامة؛ ويدل على أن العزم هنا بمعنى القصد أنه تعدى بنفسه إلى الطلاق؛ ولو كان العزم بمعناه الأصلي لتعدى بـ«على»؛ فإنك تقول: «عزم على كذا»؛ ولا تقول: «عزم كذا».

قوله تعالى: **﴿فإن الله سميع عليم﴾** أي سميع لأقوالهم ـ ومنها الطلاق ـ؛ عليم بأحوالهم ـ ومنها مفارقة زوجاتهم ـ.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: ثبوت حكم الإيلاء؛ لأن الله تعالى وقَّت له أربعة أشهر.

٢ ـ **ومنها**: أن الإيلاء لا يصح من غير زوجة؛ لقوله تعالى: **﴿من نسائهم﴾**؛ فلو حلف أن لا يطأ أمته لم يثبت له حكم الإيلاء؛ ولو حلف أن لا يطأ امرأة، ثم تزوجها، لم يكن له حكم الإيلاء ـ لكن لو جامع وجبت عليه كفارة يمين ـ.

٣ ـ **ومنها**: أن المولي يضرب له مدة أربعة أشهر من إيلائه؛ لقوله تعالى: **﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر﴾**؛ فيفيد أن ابتداء المدة من الإيلاء.

٤ ـ **ومنها**: حكمة الله عزّ وجلّ، ورحمته بعباده في مراعاة حقوق الزوجة؛ وكما أنه حق للزوجة فهو من مصلحة الزوج أيضاً

حتى لا يضيع حق المرأة على يده، فيكون ظالماً.

٥ ـ **ومنها**: أن المولي يوقف عند مضي أربعة أشهر، ويقال له: إما أن تفيء؛ وإما أن تطلق؛ لقوله تعالى: ﴿**فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن الطلاق بيد الزوج؛ لقوله تعالى: ﴿**وإن عزموا الطلاق**﴾؛ والضمير يعود على «**الذين يؤلون من نسائهم**».

٧ ـ **ومنها**: صحة الإيلاء من غير المدخول بها؛ لقوله تعالى: ﴿**من نسائهم**﴾؛ والمرأة تكون من نساء الإنسان بمجرد العقد الصحيح.

٨ ـ **ومنها**: أن الإيلاء من أربعة أشهر فما فوق محرم؛ لقوله تعالى: ﴿**فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم**﴾؛ فإن المغفرة لا تكون إلا في مقابلة ذنب.

٩ ـ **ومنها**: أن رجوع الإنسان عما هو عليه من المعصية سبب للمغفرة؛ لقوله تعالى: ﴿**فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: أن الله سبحانه وتعالى لا يحب الطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿**وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم**﴾.

١١ ـ **ومنها**: أن الطلاق لا يقع بمجرد تمام مدة الإيلاء؛ لقوله تعالى: ﴿**وإن عزموا الطلاق**﴾؛ فإن قيل: لو امتنع عن الفيئة، والطلاق فهل يجبر على أحدهما؟

فالجواب: نعم؛ يجبر على أحدهما إذا طالبت الزوجة بذلك؛ لأنه حق لها؛ فإن أبى فللحاكم أن يطلق، أو يفسخ النكاح؛ والفسخ أولى من الطلاق لئلا تحسب عليه طلقة، فيضيق عليه العدد ـ أي عدد الطلاق ـ.

مسألة:

هل يصح الإيلاء من الصغير الذي لم يبلغ؟

الجواب: لا يصح؛ لقوله تعالى: ﴿**للذين يؤلون من نسائهم**﴾؛ والصبي لا تنعقد منه اليمين؛ لأنه غير مكلف.

١٢ ـ **ومنها**: إثبات أربعة أسماء من أسماء الله سبحانه وتعالى؛ وهي «**الغفور**»، و«**الرحيم**»، و«**السميع**»، و«**العليم**»؛ وما تتضمنه هذه الأسماء من الصفات، والأحكام.

١٣ ـ **ومنها**: الإشارة إلى أن الفيئة أحب إلى الله من الطلاق؛ لأن ذلك نوع من التهديد.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٢٨﴾ قوله تعالى: ﴿**والمطلقات**﴾ أي اللاتي طلقهن أزواجهن؛ ﴿**يتربصن بأنفسهن**﴾ أي ينتظرن في العدة، ويَحبسن أنفسهن عن الزواج؛ لأن المرأة بطبيعتها تطلب النكاح؛ فقيل لها: تربصي بنفسك؛ انتظري، مثلما أقول: ارفق بنفسك ـ أي هوِّن على نفسك ـ؛ وما أشبهها؛ وأما قول من قال: إن «**أنفسهن**» توكيد للفاعل في ﴿**يتربصن**﴾ زيدت فيه الباء، وجعل معنى الآية: يتربصن

أنفسُهن؛ فهذا ليس بصحيح؛ لأن الأصل عدم الزيادة؛ ولأن مثل هذا التعبير شاذ في اللغة العربية؛ فلا يحمل كلام الله على الشاذ؛ وعلى هذا فالمعنى الصحيح: أن ينتظرن بأنفسهن فلا يعجلن.

قوله تعالى: ﴿**ثلاثة قروء**﴾ جمع قَرْء بفتح القاف؛ وهو الحيض على أرجح القولين؛ وهو رأي الجمهور؛ لقول النبي ﷺ في المستحاضة: «**تجلس أيام أقرائها**»[1] أي حيضها؛ فقوله تعالى: ﴿**ثلاثة قروء**﴾ أي ثلاث حيض.

قوله تعالى: ﴿**ولا يحل لهن أن يكتمن**﴾ أي يخفين ﴿**ما خلق الله في أرحامهن**﴾ أي من الحمل؛ فلا يحل لها أن تكتم الحمل؛ و﴿**أرحامهن**﴾ جمع رحم؛ وهو مقر الحمل؛ وسمي رحماً؛ لأنه ينضم على الجنين، ويحفظه؛ فهو كذوي الأرحام من انضمامهم على قريبهم، وحنوهم عليه، وعطفهم عليه.

قوله تعالى: ﴿**إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر**﴾ هذه الجملة فيها إغراء لالتزام الحكم السابق؛ وهي تشبه التحدي؛ يعني إن كن صادقات في الإيمان بالله، واليوم الآخر فلا يكتمن حملهن؛ والمراد بـ﴿**اليوم الآخر**﴾ يوم القيامة؛ وإنما سمي اليوم الآخر؛ لأنه لا يوم بعده؛ فالناس إذا بعثوا يوم القيامة فليس هناك موت؛ بل إما خلود في الجنة؛ وإما خلود في النار؛ وذكر اليوم الآخر؛ لأن الإيمان به يحمل الإنسان على فعل الطاعات، واجتناب المنهيات؛ لأنه يعلم أن أمامه يوماً يجازىٰ فيه الإنسان على

---

(١) أخرجه النسائي ص٢١٠٩، كتاب الحيض، باب ٥: جمع المستحاضة بين الصلاتين وغسلها إذا جمعت، حديث رقم ٣٦١، وقال الألباني: صحيح (صحيح النسائي ١/ ١٢٠ ـ ١٢١)، حديث رقم ٣٥٩.

عمله؛ فتجده يحرص على فعل المأمور، وترك المحظور.

قوله تعالى: ﴿وبعولتهن أحق بردهن في ذلك﴾؛ البعل هو الزوج، كما قال الله تعالى عن امرأة إبراهيم: ﴿**قال يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً**﴾ [هود: ٧٢] أي زوجي؛ وسمي بعلاً مع أنه مطلَّق؛ لأن الأحكام الزوجية في الرجعية باقية إلا ما استثني؛ و﴿أحق﴾ اسم تفضيل؛ واسم التفضيل لا بد فيه من مفضل، ومفضل عليه؛ يعني: أن بعولتهن أحق بردهن من أنفسهن؛ و«ذا» اسم إشارة؛ والمشار إليه التربص المفهوم من قوله تعالى: ﴿يتربصن﴾ ـ وهو مدة العدة ـ.

قوله تعالى: ﴿إن أرادوا إصلاحاً﴾ أي إن أراد بعولتهن إصلاحاً في ردهن؛ و﴿إصلاحاً﴾ أي ائتلافاً، والتئاماً بين الزوج، وزوجته، وإزالة لما وقع من الكسر بسبب الطلاق، وما أشبه ذلك.

قوله تعالى: ﴿ولهن﴾ أي للزوجات سواء كن مطلقات، أو ممسكات ﴿**مثل الذي عليهن بالمعروف**﴾: فكما أن على الزوجة أن تتقي الله تعالى في حقوق زوجها، وأن تقوم بما فرض الله عليها؛ فلها أيضاً مثل الذي له في أنه يجب على الزوج أن يعاشرها بالمعروف، وأن يقوم بحقها الذي أوجب الله عليه.

ولما كانت المماثلة تقتضي المساواة أخرج ذلك بقوله تعالى: ﴿**وللرجال عليهن درجة**﴾ أي فضل في العقل، والحقوق؛ وهذا من باب الاحتراس حتى لا يذهب الذهن إلى تساوي المرأة، والرجل من كل وجه.

قوله تعالى: ﴿والله عزيز﴾ أي ذو عزة؛ وأظهر معانيها: الغلبة، كقوله تعالى: ﴿**وعزني في الخطاب**﴾ [ص: ٢٣]؛

و﴿حكيم﴾ أي ذو الحكم التام، والحكمة البالغة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: وجوب اعتداد المطلقة بثلاث حيض؛ لقوله تعالى: ﴿**والمطلقات يتربصن**﴾؛ وهي جملة خبرية بمعنى الأمر؛ قال البلاغيون: إذا جاء الأمر بصيغة الخبر كان ذلك توكيداً له؛ كأنه أمر واقع صح أن يخبر عنه.

٢ ـ **ومنها**: قوة الداعي في المرأة للزواج؛ لقوله تعالى: ﴿**يتربصن بأنفسهن**﴾؛ فكأن النفس تحثها على أن تنهي علاقتها بالأول، وتتزوج؛ فقيل: «تربصي بنفسك» أي انتظري؛ مثل أن تقول: تربصتُ بكذا، وكذا، وكذا.

٣ ـ **ومنها**: وجوب العدة بثلاث حيض على كل مطلقة سواء كان طلاقها بائناً أم لا؛ لعموم قوله تعالى: ﴿**والمطلقات**﴾.

ويستثنى من ذلك: من لا تحيض لصغر، أو إياس: فعدتها ثلاثة أشهر؛ لقوله تعالى: ﴿**واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن**﴾ [الطلاق: ٤].

ويستثنى أيضاً من طلقت قبل الدخول، والخلوة: فليس عليها عدة؛ لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها**﴾ [الأحزاب: ٤٩].

ويستثنى أيضاً الحامل؛ فعدتها إلى وضع الحمل؛ لقوله تعالى: ﴿**وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن**﴾ [الطلاق: ٤].

فهذه ثلاث مسائل مستثناة من عموم قوله تعالى: ﴿**والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء**﴾.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن من فارق الزوجة بغير طلاق فليس عليها أن تعتد بثلاث حيض، كالمختلعة؛ وعليه فيكفي أن تستبرئ بحيضة؛ وهذا هو القول الراجح.

٥ ـ **ومنها**: أنه لو طلقها في أثناء الحيض لم يحتسب بالحيضة التي وقع فيها الطلاق؛ وجهه: أن الحيض لا يتبعض؛ فتلغى بقية الحيضة التي وقع فيها الطلاق؛ ولا بد لها من ثلاث حيض جديدة؛ وإلا يلزم على ذلك أن تكون عدتها ثلاثة قروء وبعض القرء؛ وهو خلاف النص؛ وهذا على القول بأن طلاق الحائض واقع؛ ولكن الصواب أن طلاق الحائض لا يقع؛ لحديث ابن عمر[1]؛ ولقول النبي ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[2]؛ ولنصوص أخرى دلت على عدم وقوع طلاق الحائض.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الطلاق لا يقع قبل النكاح منجزاً كان، أو معلقاً؛ معيناً كان، أو مطلقاً؛ فلو قال لامرأة: «إن تزوجتك فأنت طالق» فتزوجها لم تطلق؛ لقوله تعالى: ﴿**والمطلقات**﴾؛ ولا طلاق إلا بعد قيد ـ وهو عقد النكاح ـ.

٧ ـ **ومنها**: أنه يرجع إلى قول المرأة في عدتها؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن**﴾؛ وجه ذلك أن الله جعل قولها معتبراً؛ ولو لم يكن معتبراً لم يكن لكتمها

---

(١) راجع البخاري ص٤٥٣، كتاب الطلاق، باب ١: وقول الله تعالى: ﴿**يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة**﴾، حديث رقم ٥٢٥١؛ ومسلماً ص٩٢٦ ـ ٩٢٧، كتاب الطلاق، باب ١: تحريم طلاق الحائض بغير رضاها...، حديث رقم ٣٦٥٢ [١] ١٤٧١.

(٢) سبق تخريجه ١/ ٩١.

أيّ تأثير؛ فإذا ادعت أن عدتها انقضت، وكان ذلك في زمن ممكن فإنها تصدق؛ وهي مؤتمنة على ذلك؛ أما إذا ادعت أن عدتها انقضت في زمن لا يمكن فإن قولها مردود؛ لأن من شروط سماع الدعوى أن تكون ممكنة؛ ودعوى المستحيل غير مسموعة أصلاً.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أن المطلقة البائن عدتها ثلاثة قروء؛ لعموم قوله تعالى: ﴿**والمطلقات**﴾؛ فيشمل حتى البوائن؛ وهو قول جمهور العلماء؛ حتى لو كانت بائناً بالثلاث؛ فإنها لا بد أن تعتدّ بثلاثة قروء؛ وقال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: إن كانت المسألة إجماعية فالإجماع معتبر، وهو حجة؛ وإن لم تكن إجماعية فإن القول بأن المبانة تعتد بحيضة واحدة قول وجيه؛ فعلق القول به على وجود مخالف؛ وقد وجد؛ ويؤيد هذا القول قوله تعالى: ﴿**وبعولتهن أحق بردهن في ذلك**﴾؛ فإن هذا الحكم إنما هو للرجعيات؛ فيكون العموم مخصصاً بذكر الحكم المختص ببعض أفراده؛ وهذه المسألة فيها نزاع بين العلماء ـ وهي أنه إذا ورد لفظ عام، ثم فرع عليه حكم يتعلق ببعض أفراده فهل يكون ذلك مخصصاً لعمومه ـ؛ أو يقال: إن ذكر حكم يختص ببعض الأفراد لا يقتضي التخصيص؛ ومن أمثلته حديث جابر: «**قضى النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة**»[1]؛ إذا نظرنا إلى أول الحديث: «**في كل ما يقسم**» وجدنا أن الشفعة تجري في كل شيء؛ وإذا نظرنا إلى آخره: «**فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق**»، قلنا: إن الشفعة لا تجري إلا فيما كان له حدود، وطرق ـ وهو الأرض ـ.

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٤٠٠.

و«الشفعة» أن ينتزع الشريك حصة شريكه التي باعها لطرف ثالث؛ مثال ذلك: زيد شريك لعمرو في أرض؛ فباع عمرو نصيبه لخالد؛ فلزيد أن يأخذ هذا النصيب من خالد بالثمن الذي يستقر عليه العقد؛ فإذا كان لشخصين سيارة واحدة، وباع أحدهما نصيبه من هذه السيارة لشخص ثالث فللشريك أن يأخذ هذا النصيب ممن اشتراه بثمنه على مقتضى أول الحديث العام؛ لكن قوله تعالى: «**فإذا وقعت الحدود، وصرفت الطرق**» يقتضي أن لا شفعة له في نصيب شريكه في السيارة؛ لأنه لا حدود، ولا طرق فيها؛ والمسألة ذات خلاف معروف في كتب الفقه.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه ينبغي ذكر ما يوجب القبول، والعمل؛ لقوله تعالى: ﴿**إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: أنه ينبغي تحذير المؤتمن الذي لا يعلم بأمانته إلا الله عزّ وجلّ من عذاب يوم الآخر إن هو لم يقم بواجب الأمانة؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر**﴾.

١١ ـ **ومنها**: إثبات اليوم الآخر.

١٢ ـ **ومنها**: أن الرجعية في حكم الزوجات؛ لقوله تعالى: ﴿**وبعولتهن أحق**﴾؛ فأثبت أنه بعل.

فإن قال قائل: ألا يمكن أن يقال: ﴿**بعولتهن**﴾ فيما مضى؛ لأن الشيء قد يعبر عنه بعد انتهائه، كقوله تعالى: ﴿**وآتوا اليتامى أموالهم**﴾ [النساء: ٢]؛ وهم لا يؤتونها إلا بعد زوال اليتم؛ كما أنه قد يعبر عن الشيء قبل وجوده، كقوله تعالى: ﴿**إني أراني أعصر خمراً**﴾ [يوسف: ٣٦]؛ وهو إنما يعصر عنباً ليكون خمراً؟

فالجواب: أن الأصل خلاف ذلك؛ ولا يصار إلى خلاف الأصل إلا بدليل؛ لأن الأصل أن الوصف متحقق في الموصوف حتى يتبين زوال الوصف عنه؛ ولهذا قال أهل العلم: إن الرجعية زوجة في حكم الزوجات؛ وينبني على ذلك أن كل ما يترتب على الزوجية فهو ثابت للرجعية إلا أنهم استثنوا بعض المسائل.

١٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه لا حق للزوج في الرجعة إذا لم يرد الإصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿**إن أرادوا إصلاحاً**﴾؛ وقال بعض أهل العلم: «إن هذا ليس على سبيل الشرط؛ ولكنه على سبيل الإرشاد»؛ وهو خلاف ظاهر الآية؛ والواجب إبقاء الآية على ظاهرها؛ فليس له أن يراجع إلا بهذا الشرط.

١٤ ـ **ومنها**: أنه لا رجعة بعد انقضاء العدة؛ لقوله تعالى: ﴿**أحق بردهن في ذلك**﴾.

١٥ ـ **ومنها**: أن للزوجة حقاً كما أن عليها حقاً؛ لقوله تعالى: ﴿**ولهن مثل الذي عليهن**﴾.

١٦ ـ **ومنها**: إثبات الرجوع إلى العرف؛ لقوله تعالى: ﴿**بالمعروف**﴾؛ وهكذا كل ما جاء، ولم يحدد بالشرع فإن مرجعه إلى العرف.

١٧ ـ **ومنها**: استعمال الاحتراس؛ وأنه لا ينبغي الإطلاق في موضع يخشى فيه من التعميم؛ لقوله تعالى: ﴿**وللرجال عليهن درجة**﴾ أي حقوق الرجال أكثر من حقوق النساء؛ ولهذا كان على الزوجة أن تطيع زوجها؛ وليس على الزوج أن يطيع زوجته؛ لقوله تعالى: ﴿**فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً**﴾ [النساء: ٣٤]؛ وهذا من معنى الدرجة؛ ودرجة الرجال على النساء من وجوه متعددة؛

فالدرجة التي فضل بها الرجال على النساء في العقل، والجسم، والدين، والولاية، والإنفاق، والميراث، وعطية الأولاد.

الأمر الأول: العقل؛ فالرجل عقله أكمل من عقل المرأة؛ وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبّ الرجل الحازم من إحداكن؛ قلن: ما نقصان العقل يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة الرجل بشهادة امرأتين؟ فذلك نقصان عقلها**»(١).

الأمر الثاني: الجسم؛ فإن الرجل أكمل من المرأة في الجسم؛ فهو أنشط من المرأة، وأقوى في الجسم.

الأمر الثالث: الدين؛ فإن الرجل أكمل من المرأة في الدين؛ لأن الرسول ﷺ قال في المرأة: «**إنها ناقصة في الدين**»؛ وفَسر ذلك بأنها **إذا حاضت لم تصلّ، ولم تصم**؛ ولهذا يجب على الرجل من الواجبات الدينية ما لا يجب على المرأة، كالجهاد مثلاً.

الأمر الرابع: الولاية؛ فقد فضل الرجل على المرأة في الولاية؛ فإن الله سبحانه وتعالى جعل الرجل قواماً على المرأة؛ فالرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض؛ ولهذا لا يحل أن تتولى المرأة ولاية عامة أبداً ـ لا وزارة، ولا غير وزارة ـ؛ فالولاية العامة ليست من حقوق النساء أبداً، ولا يفلح قوم ولَّوا أمرهم امرأة.

الأمر الخامس: الإنفاق؛ فالزوج هو الذي ينفق على المرأة؛ وقد قال النبي ﷺ: «**اليد العليا خير من اليد**

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٤٢٠.

السفلى»[١]؛ و«**اليد العليا**»: هي المعطية؛ و«**السفلى**»: الآخذة.

الأمر السادس: الميراث، وعطية الأولاد؛ فإن للذكر مثل حظ الأنثيين.

١٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الذين لهم درجة على النساء هم الرجال الذين هم جديرون بهذا الوصف؛ وأما من جعل نفسه بمنزلة النسوة فهذا يكون شراً من المرأة؛ لأنه انتكس من الكمال إلى الدون؛ ومن ثم لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء؛ والمتشبهات من النساء بالرجال[٢]؛ حتى لا يعتدي أحد على حق؛ أو على اختصاصات أحد.

١٩ ـ **ومنها**: إثبات هذين الاسمين من أسماء الله: «**العزيز**»، و«**الحكيم**»؛ وما تضمناه من صفة ـ وهي العزة في «**العزيز**» ـ؛ والحكمة، والحكم في «**الحكيم**»؛ وما يترتب على ذلك من أثر.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾.

---

(١) أخرجه البخاري ص١١٢، كتاب الزكاة، باب ١٨: لا صدقة إلا عن ظهر غنى، حديث رقم ١٤٢٧، وأخرجه مسلم ص٨٤١، كتاب الزكاة، باب ٣٢: بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى...، حديث رقم ٢٣٨٦ [٩٥] ١٠٣٤.

(٢) راجع البخاري ص٥٠١، كتاب اللباس، باب ٦١: المتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال، حديث رقم ٥٨٨٥.

التفسير:

﴿٢٢٩﴾ قوله تعالى: ﴿**الطلاق مرتان**﴾ يعني أن الطلاق الذي فيه الرجعة مرتان: بأن يطلق مرة، ثم يراجع، ثم يطلق مرة، ثم يراجع.

قوله تعالى: ﴿**فإمساك بمعروف**﴾ مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: فعليكم إمساك بمعروف ـ أي بما يتعارفه الناس من العشرة الطيبة الحسنة ـ.

قوله تعالى: ﴿**أو تسريح بإحسان**﴾ أي إطلاق لهن؛ وهو كقوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿**فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف**﴾ [الطلاق: ٢]؛ والمراد بـ«**الإحسان**» هنا أن يمتعها بشيء يجبر كسرها، ويطيب قلبها.

قوله تعالى: ﴿**ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً**﴾ أي أعطيتموهن؛ وهي تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ، والخبر؛ فالمفعول الأول الهاء في قوله تعالى: ﴿**آتيتموهن**﴾؛ والمفعول الثاني: محذوف؛ والتقدير: مما آتيتموهن إياه؛ وهو العائد على الموصول؛ أما ﴿**شيئاً**﴾ فهي مفعول: ﴿**تأخذوا**﴾؛ وهي نكرة في سياق النفي، فتعم كل ما آتاها من مهر، وغيره.

قوله تعالى: ﴿**إلا أن يخافا**﴾ بمعنى يتوقعا، ويخشيا ﴿**ألا يقيما حدود الله**﴾ أي شرائع الله ـ بما يلزمهما لكل واحد على الآخر ـ؛ فإن خافت الزوجة ألا تقوم بحق الزوج؛ أو خاف الزوج إلا يقوم بحق الزوجة ﴿**فلا جناح عليهما فيما افتدت به**﴾؛ هذا على قراءة ﴿**يَخافا**﴾ بالبناء للفاعل؛ وأما على قراءة ﴿**يُخافا**﴾ بالبناء للمفعول فالخائف هنا غير الزوجين؛ أي إلا أن يخشى

غيرُهما ألا يقيما حدود الله؛ فالخوف يرجع هنا على ولي الأمر كالقاضي، أو الأمير؛ أو على أهل الزوجين؛ أو على كل من علم بحالهما ممن يمكنه إصلاح الحال: فله أن يتدخل، ويعرض الخلع؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما**﴾؛ وهذا يؤيد القراءة التي بالبناء للمفعول؛ والخطاب في قوله تعالى: ﴿**فإن خفتم**﴾ وإن كان ظاهره أنه يعم جميع الأمة فالظاهر أن المراد به من له صلة بالزوجين من قرابة، أو غيرها.

قوله تعالى: ﴿**فلا جناح عليهما فيما افتدت به**﴾ أي لا إثم على الزوجين فيما بذلته فداءً لنفسها عن المقام معه؛ فإن قيل: لماذا جاءت الآية بنفي الجناح عليهما؟ فالجواب أن طلب الفداء والطلاق حرام على الزوجة بدون سبب؛ وحرام على الزوج أيضاً أن يأخذ شيئاً مما آتاها بدون سبب.

قوله تعالى: ﴿**تلك حدود الله**﴾؛ المشار إليه ما سبق من الأحكام، والشرائع؛ و﴿**حدود الله**﴾ أي شرائعه.

قوله تعالى: ﴿**فلا تعتدوها**﴾ أي لا تتجاوزوها؛ وقال العلماء: إذا كانت الحدود مما يجب فعله قال تعالى: ﴿**فلا تعتدوها**﴾؛ وأما إذا كانت الحدود من المحرمات فإنه تعالى يقول: ﴿**فلا تقربوها**﴾.

قوله تعالى: ﴿**ومن يتعد**﴾ أي يتجاوز ﴿**حدود الله**﴾ المراد بها هنا أوامره؛ والجملة: اسم الشرط، وفعل الشرط؛ وقوله تعالى: ﴿**فأولئك هم الظالمون**﴾: جواب الشرط؛ ولم يذكر مفعول ﴿**الظالمون**﴾ ليفيد العموم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: حكمة الله عزّ وجلّ ورحمته في حصر الطلاق بالثلاث بأنه لا رجعة بعد الثالثة حتى تنكح زوجاً غيره؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يطلِّق الإنسان زوجته عدة طلقات؛ فإذا قاربت انتهاء العدة راجع، ثم طلق، فتستأنف العدة؛ فإذا شارفت الانقضاء راجع، ثم طلق؛ فإذا شارفت الانقضاء راجع ثم طلق... وهكذا؛ فتبقى المرأة معذبة: لا مزوجة، ولا مطلقة؛ فتبقى معلقة؛ فجعل الله الأمر في ثلاث طلقات فقط.

٢ ـ **ومنها**: اعتبار التكرار بالثلاث؛ وهذه لها نظائر كثيرة؛ فالسلام ثلاث؛ والاستئذان ثلاث؛ ورد الكلام إذا لم يفهم من أول مرة ثلاث؛ وفي الوضوء والعبادات أيضاً تكرار الثلاث كثير؛ فإذاً الثلاث تعتبر تكراراً يكتفى به في كثير من الأمور.

٣ ـ **ومنها**: الإشارة إلى أن الطلاق المكرر بلفظ واحد ليس بطلاق؛ بمعنى أنه لا يتكرر به الطلاق؛ لأن قوله تعالى: ﴿**الطلاق مرتان**﴾ وصف يجب أن يكون معتبراً؛ فإذا طلقت امرأتك؛ فقلت: أنت طالق؛ فقد طلقت؛ فإذا قلت ثانية: «أنت طالق» فكيف تورد طلاقاً على مطلقة؛ لأن الطلاق لا يرد إلا على من كانت غير مطلقة حتى يقال: طلقت؛ وهنا قال تعالى: ﴿**الطلاق مرتان**﴾؛ ولهذا قال الفقهاء ـ رحمهم الله ـ: لو أن الرجل طلق امرأته، وحاضت مرتين، ثم طلقها بعد الحيضة الثانية لا تستأنف عدة جديدة للطلقة الثانية؛ بل تبني على ما مضى؛ وإذا حاضت الثالثة، وطهرت انقضت عدتها؛ لأن الطلاق الثاني ليس له عدة؛ وهذا مما يؤيد اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية: أن الطلاق المكرر لا عبرة به إلا أن يصادف زوجة غير مطلقة؛

ولأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿**فطلقوهن لعدتهن**﴾؛ والفقهاء الذين خالفوا في ذلك يقولون: إنه إذا كرر الطلاق في المرة الثانية لا تستأنف العدة؛ فإذاً هي مطلقة لغير عدة فلا يقع الطلاق؛ لأنه سيكون على خلاف ما أمر الله به؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[1]؛ وقد قال شيخنا عن اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن من تأمله تبين له أنه لا يسوغ القول بخلافه»؛ لأنك إذا تأملت كلامه في أنه لا يقع طلاق على طلاق، وأنه لا يتكرر إلا على زوجة غير مطلقة فلا يمكن أن يتكرر الطلاق إلا إذا راجعها، أو عقد عليها عقداً جديداً؛ وهذا القول هو الراجح؛ وهو الذي أفتي به؛ وهو أنه لا طلاق على طلاق حتى لو قال ألف مرة: أنت طالق؛ فليس إلا مرة واحدة فقط؛ ويدل على هذا قول تعالى: ﴿**الطلاق مرتان**﴾ أي مرة بعد مرة؛ فلا بد أن يقع على زوجة غير مطلقة.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الواجب على المرء الذي طلق زوجته أحد أمرين؛ إما إمساك بمعروف؛ أو تسريح بإحسان؛ وأما أن يردها مع الإيذاء، والمنة، والتقصير، أو يسرحها بجفوة وعدم إحسان فلا يجوز.

٥ ـ **ومنها**: بيان حكمة الله في تشريعه سبحانه وتعالى؛ إذ قال تعالى في الإمساك: ﴿**بمعروف**﴾؛ لأنه إذا ردها جبر قلبها بالرد؛ وقال تعالى في التسريح: ﴿**بإحسان**﴾؛ لأنه سيفارقها، فيحتاج إلى زيادة في معاملتها بالتي هي أحسن حتى ينضم إلى الفراق الإحسانُ ـ والله أعلم ـ.

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٩١.

٦ ـ **ومنها**: تحريم أخذ الزوج شيئاً مما أعطى زوجته من مهر، أو غيره؛ إلا أن يطلقها قبل الدخول والخلوة فله نصف المهر؛ لقوله تعالى: ﴿**وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم**﴾ [البقرة: ٢٣٧].

٧ ـ **ومنها**: جواز افتداء المرأة نفسها من زوجها بعوض؛ لقوله تعالى: ﴿**فلا جناح عليهما فيما افتدت به**﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن ذلك إنما يكون إذا خافا ألا يقيما حدود الله؛ أما مع استقامة الحال فلا يجوز طلب الخلع؛ وفي الحديث: «**أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة**»[1].

٩ ـ **ومنها**: أهمية النكاح، وبيان أنه راجع إلى الأسرة كلها؛ لقوله تعالى: ﴿**فإن خفتم ألا يقيما حدود الله**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: أن للوسائل أحكام المقاصد؛ يؤخذ ذلك من

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٧٧، حديث رقم ٢٢٧٣٨، وأخرجه أبو داود ص١٣٨٧، كتاب الطلاق، باب ١٧: في الخلع، حديث رقم ٢٢٢٦، وأخرجه الترمذي ص١٧٦٩، كتاب الطلاق واللعان، باب ١١: ما جاء في المختلعات، حديث رقم ١١٨٧، وأخرجه ابن ماجه ص٢٦٠٠، كتاب الطلاق، باب ٢١: كراهية الخلع للمرأة، حديث رقم ٢٠٥٥، وأخرجه الدارمي ٢٠/ ٢١٦، كتاب الطلاق، باب ٦: النهي عن أن تسأل المرأة زوجها طلاقها، حديث رقم ٢٢٧٠، وأخرجه ابن حبان ٦/ ١٩١، ذكر تحريم الله الجنة على السائلة طلاقها...، حديث رقم ٤١٧٢، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٠٠ قال: حديث صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود ٢/ ١٧: صحيح.

جواز أخذ الإنسان من امرأته ما آتاها، أو بعضه إذا خيفت المفسدة في البقاء على الزوجية.

١١ ـ **ومنها**: اعتبار المفاسد، وسلوك الأهون لدفع الأشد؛ لأن الأخذ من مال الزوجة محرم بلا شك ـ كما قال تعالى ـ؛ لكن إذا أريد به دفع ما هو أعظم من تضييع حدود الله عزّ وجلّ صار ذلك جائزاً؛ وهذه القاعدة لها أصل في الشريعة؛ منه قوله تعالى: ﴿**ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم**﴾ [الأنعام: ١٠٨]؛ فإنّ سبّ آلهة المشركين واجب؛ ولكن إذا كان يخشى من ذلك أن يسبوا الله عدواً بغير علم صار سبّ آلهتهم ممنوعاً.

١٢ ـ **ومنها**: جواز الخلع بأكثر مما أعطاها؛ لعموم قوله تعالى: ﴿**فيما افتدت به**﴾؛ فهو يشمل ما افتدت به من كثير، أو قليل؛ وقيل: إن هذا العموم عائد على قوله تعالى: ﴿**ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً**﴾؛ فيكون المعنى: فيما افتدت به مما آتيتموهن؛ وعلى هذا فلا يأخذ منها أكثر مما أعطاها؛ ويمكن أن يقال: إن كانت هي التي أساءت، وطلبت الخلع فلا بأس أن يأخذ أكثر مما أعطاها؛ وإلا فلا.

١٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن المخالَعة ليست رجعية؛ بمعنى أن الفراق في الخلع فراق بائن فلا سبيل لإرجاعها إلا بعقد جديد؛ لقوله تعالى: ﴿**افتدت به**﴾؛ فإذا كان فداءً فالفداء فيه عوض عن شيء؛ وإذا استلم الفداء لا يمكن أن يرجع المفدى عنه ـ وهو الزوجة ـ إلا بعقد جديد.

١٤ ـ **ومنها**: جواز تصرف المرأة في مالها بغير إذن

زوجها؛ لقوله تعالى: ﴿**فيما افتدت به**﴾؛ فإن الزوجة تتصرف في مالها كما تشاء في الحدود الشرعية سواء وافق زوجها على هذا التصرف، أم لم يوافق؛ ما دامت امرأة حرة رشيدة فلا اعتراض للزوج عليها؛ وهذه الفائدة قد ينازع فيها.

١٥ ـ **ومنها**: عظم شأن النكاح، وما يتعلق به؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها**﴾؛ فبين أن هذا من حدود الله، ونهى عن تعديه؛ وقد سبق الفرق بين قوله تعالى: ﴿**فلا تعتدوها**﴾، وقوله تعالى: ﴿**فلا تقربوها**﴾.

١٦ ـ **ومنها**: أن لله عزّ وجلّ أن يحكم في عباده بما شاء؛ لقوله تعالى: ﴿**تلك حدود الله**﴾.

١٧ ـ **ومنها**: أنه لا حاكم للخلق، ولا مشرِّع، إلا الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها**﴾؛ ولو كان مشرع غيره لكان يمكن لكل إنسان أن يشرع لنفسه ـ ولو كان في ذلك تعدي حدود الله سبحانه وتعالى ـ.

١٨ ـ **ومنها**: أن الخلع لا بد فيه من رضا الزوجة؛ لقوله تعالى: ﴿**فيما افتدت به**﴾؛ فإذا كانت الفدية منها فلا بد من رضاها؛ وأما إذا كانت الفدية من غيرها فإنه لا يشترط رضاها، كما لو أن أحداً من الناس رأى أن بقاء هذه المرأة مع زوجها فيه ضرر عليه في دينه؛ فذهب إليه، وأعطاه فدية ليخلع هذه المرأة، ويسلم من شرها؛ فهذا جائز ـ حتى وإن لم ترض بذلك ـ.

١٩ ـ **ومنها**: تحريم تعدي حدود الله؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون**﴾؛ والظلم حرام.

٢٠ ـ **ومنها**: أن التعدي لحدود الله ظلم عظيم؛ يؤخذ من

حصر الظلم في تعديها، ومن الإتيان به في الجملة الاسمية الخبرية: ﴿فأولئك هم الظالمون﴾.

٢١ ـ **ومنها**: جواز الطلاق الثلاث المتفرق؛ لقوله تعالى: ﴿الطلاق مرتان﴾ إلى أن قال: ﴿فإن طلقها﴾ يعني الثالثة؛ فهنا لا شك أن الطلاق متفرق؛ لأنه تعالى قال: ﴿الطلاق مرتان﴾؛ ثم أدخل الفداء بينهما، وبين الطلاق الثالث؛ فدل هذا على أنه طلاق متفرق؛ وهذا جائز بالإجماع؛ أما إذا جمع الثلاث جميعاً في دفعة واحدة، مثل أن يقول: «أنت طالق ثلاثاً»، أو «أنت طالق طالق طالق» يريد الثلاث؛ أو «أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق»؛ فقد اختلف أهل العلم في جواز ذلك؛ فمنهم من قال بإباحته، ونفوذه ـ فتبين به المرأة بينونة كبرى ـ؛ ومنهم من قال بتحريمه، ونفوذه؛ ومنهم من قال بتحريمه، ويقع واحدة؛ ومنهم من قال بتحريمه، وأنه لا يقع لا واحدة، ولا أكثر؛ فإذاً الأقوال أربعة؛ والصحيح أنه حرام، وأنه لا يقع إلا واحدة؛ وهذا هو الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية؛ وعليه يدل الكتاب، والسنة؛ لأنه لا تقع البينونة إلا إذا طلقها بعد طلاق مرتين؛ والطلاق مرتين لا يكون إلا إذا كان بينهما رجعة، أو عقد؛ أما أن يرسل طلاقاً بعد طلاق فهذا ليس بشيء.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠﴾.

التفسير:

﴿٢٣٠﴾ قوله تعالى: ﴿فإن طلقها﴾ أي المرة الثالثة بعد المرتين؛ ﴿فلا تحل له﴾ أي فلا تحل المطلقة بعد الثالثة للزوج المطلق ﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾ أي يعقد عليها بنكاح صحيح؛ وقال بعض العلماء: أي حتى تطأ؛ وهذا لا شك لا يصح؛ لأن المرأة لا تطأ.

قوله تعالى: ﴿فإن طلقها﴾ أي الزوج الثاني؛ ﴿فلا جناح عليهما﴾ أي فلا إثم على الزوج الأول، وزوجته المطلقة من الزوج الثاني ﴿أن يتراجعا﴾ أي يرجع أحدهما إلى الآخر بعقد جديد؛ ﴿إن ظنا﴾ أي الزوج الأول، وزوجته؛ ﴿أن يقيما حدود الله﴾ أي ما أوجبه الله على كل منهما من المعاشرة بالمعروف.

قوله تعالى: ﴿وتلك حدود الله﴾: المشار إليه ما سبق من الأحكام؛ و﴿حدود الله﴾ أي أحكامه التي حدها لعباده؛ ﴿يبينها﴾ أي يوضحها الله عزّ وجلّ، ويظهرها؛ فكل الحدود التي يريدها الله من العباد قد بينها بياناً كاملاً؛ والبيان يكون بالكتاب، ويكون بالسنة؛ فما لا يوجد في كلام الله يوجد في سنة الرسول ﷺ؛ وما لا يوجد في كتاب الله، ولا في سنة رسوله ﷺ نصاً بعينه فإنه يوجد بمعناه؛ وذلك بالقياس الصحيح الذي يتساوى فيه الأصل، والفرع في العلة فيلحق هذا بهذا؛ فبيان الله تعالى للحدود متنوع.

قوله تعالى: ﴿لقوم يعلمون﴾ أي لقوم ذوي استعداد، وقبول للعلم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: تحريم المطلقة ثلاثاً على مطلقها حتى تتزوج؛ لقوله تعالى: ﴿**فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره**﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن نكاح الزوج الثاني على وجه لا يصح لا تحل به للأول؛ لقوله تعالى: ﴿**حتى تنكح زوجاً غيره**﴾؛ ولا يكون زوجاً إلا بعقد صحيح؛ ولذلك لو تزوجها الثاني بنية تحليلها للأول فنكاحه غير صحيح؛ فلا تحل به للأول.

٣ ـ **ومنها**: حلها للزوج الأول بعد مفارقة الثاني لها؛ لقوله تعالى: ﴿**فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا**﴾؛ وظاهر الآية الكريمة أنها تحل للأول بمجرد عقد الثاني عليها، ومفارقته لها؛ لكن السنة بينت أنه لا بد من وطء الثاني وطأً تاماً بانتشار؛ وذلك أن امرأة رفاعة القرظي بانت منه بالثلاث؛ فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزَّبِير ـ بفتح الزاي، وكسر الباء ـ؛ ولم يكن يقدر على الجماع؛ فأتت النبي ﷺ، وقالت: يا رسول الله، إن رفاعة طلقني، فَبَتَّ طلاقي، وتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير ولم يكن معه إلا مثل هدبة الثوب، وقالت بثوبها؛ فقال لها النبي ﷺ: «**أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟! لا حتى تذوقي عسيلته، ويذوق عسيلتك**»[(١)].

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الزوجة المطلقة ثلاثاً لو وطئت

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٠٨، كتاب الشهادات، باب ٣: شهادة المختبئ، حديث رقم ٢٦٣٩، وأخرجه مسلم ص٩١٨، كتاب النكاح، باب ١٧: لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى...، حديث رقم ٣٥٢٦ [١١١] ١٤٣٣.

بملك اليمين فإنها لا تحل للزوج الأول؛ لقوله تعالى: ﴿**حتى تنكح زوجاً غيره**﴾؛ مثال ذلك: امرأة مملوكة لشخص وقد تزوجها شخص آخر، فطلقها الزوج الآخر، ثم انقضت عدتها، وجامعها سيدها بحكم ملك اليمين، ثم أراد زوجها الأول أن يتزوجها فلا يمكن أن يتزوجها؛ لقوله تعالى: ﴿**حتى تنكح زوجاً غيره**﴾.

٥ ـ **ومنها**: إطلاق المراجعة على عقد النكاح؛ لقوله تعالى: ﴿**فلا جناح عليهما أن يتراجعا**﴾؛ والمعروف عند الفقهاء أن الرجعة إعادة مطلقة غير بائن إلى عصمة زوجها؛ هذه هي الرجعة عندهم؛ لكن هذا اصطلاح خاص؛ أما في القرآن فتطلق المراجعة على عقد النكاح؛ لقوله تعالى: ﴿**فلا جناح عليهما أن يتراجعا**﴾؛ هذا وقد قسم بعض أهل العلم المراجعة شرعاً إلى ثلاثة أقسام؛ فقالوا: قد يراد بها العقد؛ وقد يراد بها إعادة المطلقة رجعياً إلى عصمة زوجها، كما في اصطلاح الفقهاء؛ وقد يراد بالمراجعة أن تعاد المرأة إلى عصمة زوجها بدون طلاق، كما في حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ حين طلق امرأته وهي حائض؛ فقال النبي ﷺ لعمر: «**مُرْه فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس**»[(١)]؛ فالمراد بقوله ﷺ: «**فليراجعها**» أن يردها إلى عصمته، ويلغي الطلاق، كما لو تبايع رجلان على عقد فاسد، وقلت لهما:

---

(١) أخرجه البخاري ص٤٥٣، كتاب الطلاق، باب ١: وقول الله تعالى: ﴿**يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن**﴾، حديث رقم ٥٢٥١، وأخرجه مسلم ص٩٢٦ ـ ٩٢٧، كتاب الطلاق، باب ١: تحريم طلاق الحائض بغير رضاها...، حديث رقم ٣٦٥٢ [١] ١٤٧١.

«تراجعا» أي راجعا العقد، أو ألغياه؛ فالمراد بالمراجعة في حديث ابن عمر إلغاء الطلاق على القول الصحيح ـ وإن كان الجمهور على أنها مراجعة مطلقة حسب اصطلاح الفقهاء ـ.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه لا يجوز أن يتراجع الزوجان حتى يغلب على ظنهما أن يقيما حدود الله؛ أي أن يقوم كل منهما بمعاشرة الآخر بما يجب عليه؛ لقوله تعالى: ﴿**فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله**﴾ وجه ذلك: أنهما إذا تراجعا بغير هذا الشرط صار هذا العقد عبثاً، وعناءً، وتعباً، وخسارة مالية؛ لأنهما لا يضمنان أن يرجعا إلى الحال الأولى.

٧ ـ **ومنها**: الاكتفاء بالظن في الأمور المستقبلة؛ لأن طلب اليقين في المستقبل من باب التكليف بما لا يطاق؛ لقوله تعالى: ﴿**إن ظنا أن يقيما حدود الله**﴾؛ وقد قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿**ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به**﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فقال: «**قد فعلت**»[(١)].

ويتفرع على هذه الفائدة فائدة مهمة: وهي إذا حلف الإنسان على المستقبل بناءً على غلبة الظن، فتبين بخلافه فلا كفارة فيه؛ لأنه يحلف على ما في نفسه، وعلى ظنه؛ وهذا القول هو الراجح؛ وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: عناية الله سبحانه وتعالى بعباده في بيان ما يجب عليهم في عبادتهم، وفي معاملة بعضهم لبعض حتى لا تحصل الفوضى المؤدية إلى النزاع الذي قد يصل إلى القتال.

---

(١) أخرجه مسلم ص٦٩٩، كتاب الإيمان، باب ٥٧، بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس...، حديث رقم ٣٣٠ [٢٠٠] ١٢٦.

٩ ـ **ومنها**: أنه إذا لزم من فعل المباح شيء محرم صار الشيء المباح حراماً؛ لأن رجوع الزوجة حلال في الأصل؛ فإذا لم يظن الإنسان أنه يقوم بالحدود صار حراماً؛ وهو في الأصل حلال؛ وعلى هذا فنقول: إذا استلزم العقد إبطالاً لواجب، أو وقوعاً في محرم صار ذلك حراماً؛ وهي في مسائل كثيرة؛ منها: لو تبايع رجلان تلزمهما الجمعة بعد ندائها الثاني: فالبيع حرام، والعقد باطل؛ لأنه وقوع فيما حرم الله عزّ وجلّ.

١٠ ـ **ومنها**: أنه لا يعرف هذه الحدود، ويتبينها إلا من كان من ذوي العلم؛ فكلما كان أعلم كانت الحدود في حقه أبين وأظهر؛ فطالب العلم يتعلم من اللفظ مسائل أخرى؛ فالعلم يغذي بعضه بعضاً؛ وطالب العلم رابح بكل حال؛ فهو ليس كطالب المال قد يشتري السلعة وهو يظن الربح، ثم يخسر؛ فطالب العلم أيّ مسألة يعلمها فإنها مفتاح له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**يبينها لقوم يعلمون**﴾.

١١ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه لا شيء في دين الله يكون مجهولاً لكل أحد؛ لا من العبادات، ولا من المعاملات؛ فكل شيء مبيَّن؛ فإن قيل: هناك أشياء تشكل على أهل العلم، ولا يعرفون حكمها؟

فالجواب: أن الخلل هنا ليس في النص؛ ولكنه فيمن يستنبط الأحكام من النص؛ فقد يكون لنقص في علمه، أو قصور في فهمه، أو عدوان في قصده؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «**رُبَّ مبلغ أوعى من سامع**»[1]؛ وقد يكون الخلل في إعراض الإنسان

---

(١) أخرجه البخاري ص١٣٦ كتاب الحج، باب ١٣٢: الخطبة أيام منى، حديث رقم ١٧٤١.

عن التدبر، وبذْل الاجتهاد، وطلبِ الحق؛ وقد يكون عند الإنسان علم، وفهم، وجلد، وتدبر؛ لكن هناك ذنوباً تحول بينه، وبين وصوله للحق، كما في قوله تعالى: ﴿**إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين * كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾ [المطففين: ١٣، ١٤]؛ لأن المعاصي تُظلم القلب؛ وإذا أظلم القلب لا يستنير؛ وكيف يتبين له الحق وهو مظلم؟! ولهذا قال الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً**﴾ [النساء: ١٠٥]، ثم قال تعالى: ﴿**واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً**﴾ [النساء: ١٠٦]؛ أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية أنه ينبغي لمن سئل عن علم أن يستغفر الله عزّ وجلّ حتى تزول عنه الذنوب باستغفاره، ويتبين له الحق؛ وعلى هذا فنقول: إن جميع الأحكام التي تتعلق بالعبادات، أو المعاملات قد بينها الله لكن العيب عيب المستدل؛ فالأدلة واضحة كافية؛ لكن المستدل قد تخفى عليه الأحكام للأسباب التي ذكرناها، وغيرها.

ويتفرع على هذه الفائدة فائدة أخرى: وهي غلط من قال: «إن النصوص لم تستوعب جميع الأحكام، وأننا محتاجون إلى العقول في الأحكام»؛ فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿**يبينها لقوم يعلمون**﴾؛ فالنصوص كافية من كل ناحية.

١٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن كل ما خالف شريعة الله فليس من أحكام الله؛ لقوله تعالى: ﴿**يبينها**﴾.

١٣ ـ **ومنها**: أن الخلع ليس بطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿**الطلاق مرتان**﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ثم قال تعالى: ﴿**فإن خفتم ألا يقيما**

حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ثم قال تعالى: **﴿فإن طلقها فلا تحل له﴾** الآية؛ ولو كان الخلع طلاقاً لكان قوله تعالى: **﴿فإن طلقها﴾** هي الطلقة الرابعة؛ وهذا خلاف إجماع المسلمين؛ لأن المرأة تبين بالطلاق الثلاث بإجماعهم؛ وذهب بعض أهل العلم إلى أن الخلع إذا وقع بلفظ الطلاق صار طلاقاً؛ واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أن الخلع فسخ بأي لفظ كان ـ ولو بلفظ الطلاق ـ، وقال: إن هذا هو ظاهر الآية؛ لأنه تعالى قال: **﴿فلا جناح عليهما فيما افتدت﴾**؛ ولم يذكر صيغة معينة؛ لأنه إنما يعتبر في العقود بمعانيها لا بألفاظها؛ فما دام هذا الطلاق الذي وقع من الزوج إنما وقع بفداء من المرأة ـ افتدت نفسها به ـ فهذا لا يمكن أن نعده طلاقاً ولو وقع بلفظ الطلاق؛ وما ذكره رحمه الله فإنه منظور فيه إلى المعنى؛ وما قاله غيره ـ من أنه إذا وقع بلفظ الطلاق كان طلاقاً ـ فقد نظر فيه إلى اللفظ؛ ولا ريب أن من تأمل الشريعة وجد أنها تعتني بالمعنى أكثر من الاعتناء باللفظ؛ أما الألفاظ فهي قوالب للمعاني؛ وأنت إذا ألبست المرأة ثوب رجل لا تكون رجلاً؛ كما أنك إذا ألبست رجلاً ثوب امرأة لم يكن امرأة؛ فالألفاظ عبارة عن قوالب تدل على ما وراءها؛ فإذا صار المعنى هو التخلص من الزوج بهذا الفداء فكيف يحسب طلاقاً؟!

١٤ ـ **ومن فوائد الآية**: تعظيم شأن النكاح بأن الله ذكر له حدوداً في عقده، وفي حله؛ لأنه يترتب عليه مسائل كثيرة من المحرمية، والنسب، والميراث، وغير ذلك ـ كحقوق الزوجية ـ؛ ولهذا اشترط فيه أن يكون بِوَلي؛ فالمرأة تستطيع أن تبيع كل

مالها؛ لكن لا تستطيع أن تزوج نفسها، كما اشترط فيه الإشهاد على رأي كثير من أهل العلم؛ وكل العقود لا يشترط فيها ذلك؛ وأيضاً اشترط فيه الإعلان على رأي بعض أهل العلم؛ والعقود الأخرى لا يشترط فيها ذلك؛ وأيضاً أنه لا يصلح العقد في بعض الأحوال، والأزمان؛ وهذا يشاركه فيه بعض العقود؛ وكل ذلك من باب الأهمية في هذا العقد العظيم الذي تترتب عليه هذه الأمور الكبيرة.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٣١﴾ قوله تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء﴾: الخطاب هنا لعامة الناس؛ أي إذا طلق الأزواج نساءهم؛ ﴿فبلغن أجلهن﴾: قال بعض العلماء: المراد قاربن بلوغ أجلهن؛ لأنها إذا بلغت الأجل انتهت العدة؛ ولا إمساك حينئذ؛ ولكن الصحيح أن المراد ببلوغ أجلهن حقيقة بلوغ الأجل؛ وذلك بطهرها من الحيضة الثالثة؛ ﴿فأمسكوهن بمعروف﴾ أي ردوهن إلى عصمتكم ـ وهو مراجعة؛ ﴿أو سرحوهن بمعروف﴾ أي اتركوهن بدون مراجعة.

قوله تعالى: ﴿ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا﴾؛ ﴿لا﴾ ناهية؛

والفعل بعدها مجزوم بحذف النون؛ و﴿ضراراً﴾ مفعول لأجله؛ والمعنى: لا تمسكوهن لأجل الإضرار بهن؛ وقد مر أنهم كانوا في الجاهلية يراجعون الزوجات في العدة من أجل المضايقة؛ فحدد الله المراجعة باثنتين، وأنه بعد الثالثة لا رجوع حتى تنكح زوجاً غيره.

وقوله تعالى: ﴿لتعتدوا﴾؛ اللام للعاقبة؛ والمعنى: لتقعوا في الاعتداء؛ أي أن عاقبة أمركم إذا أمسكتموهن ضراراً هي الاعتداء؛ واللام التي تعرف عند بعض النحويين بـ«لام كي» تارة يراد بها التعليل؛ وتارة تكون زائدة؛ وتارة تكون للعاقبة؛ فتكون للتعليل، كما في قوله تعالى: ﴿**ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا**﴾ [العنكبوت: ٦٦]؛ وتكون زائدة، كما في قوله تعالى: ﴿**يريد الله ليبين لكم**﴾ [النساء: ٢٦]؛ فإذا جاءت بعد الإرادة فهي زائدة؛ لأن فعل الإرادة يتعدى بنفسه؛ وتأتي للعاقبة: وهي إذا علم بأن ما بعدها غير مقصود، مثل قوله تعالى: ﴿**فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً**﴾ [القصص: ٨].

قوله تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ جملة شرطية؛ وجوابها: قوله تعالى: ﴿فقد ظلم نفسه﴾؛ وارتبط الجواب بالفاء؛ لأنه لا يصح أن يحل محل الشرط؛ وأضاف الظلم إلى نفسه ـ وإن كان ظلمه واقعاً على غيره ـ؛ لأنه جلب على نفسه الإثم، والعقوبة.

قوله تعالى: ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾ أي لا تجعلوها مهزوءاً بها؛ أي موضع استهزاء بحيث لا تعملون بها استخفافاً بها.

قوله تعالى: ﴿واذكروا نعمت الله عليكم﴾ أي اذكروا باللسان، وبالقلب، وبالجوارح، نعمة الله عليكم حتى تقوموا

بشكرها؛ فإن الغفلة عن ذكر النعم سبب لعدم الشكر، وقوله تعالى: ﴿نعمة الله﴾ مفرد مضاف؛ والمفرد المضاف يدل على العموم، كما في قوله تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [النحل: ١٨]؛ ولو كان المراد بالنعمة مدلولها الإفرادي لكان إحصاؤها ممكناً؛ المهم أن نعمة الله هنا عامة؛ ونعم الله لا تحصى أجناسها فضلاً عن أفرادها؛ فقوله تعالى: ﴿نعمة الله عليكم﴾ يشمل كل النعم ـ وإن دقت؛ لأن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ [النحل: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب﴾؛ الواو حرف عطف؛ والجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿نعمت الله عليكم﴾؛ وخصه بالذكر مع كونه من النعم للعناية به؛ والمراد بـ﴿الكتاب﴾ القرآن؛ ﴿والحكمة﴾ أي السنة النبوية.

قوله تعالى: ﴿يعظكم به﴾ أي يذكِّركم به ترغيباً، وترهيباً؛ والجملة في محل نصب حال من فاعل ﴿أنزل﴾.

قوله تعالى: ﴿واتقوا الله﴾: ما أكثر ما يأمر الله عزّ وجلّ بالتقوى؛ لأن بالتقوى صلاح القلوب، والأعمال؛ و«**التقوى**» فعل أوامر الله، واجتناب نواهيه تقرباً إليه، وخوفاً منه.

قوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾: أمر بالعلم بأن الله بكل شيء عليم؛ فلا يخفى عليه شيء، كما قال تعالى: ﴿**إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء**﴾ [آل عمران: ٥].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن لكل طلاق أجلاً؛ لقوله تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن﴾؛ الأجل هنا مجمل؛ ولكنه

مبين في قوله تعالى: ﴿**والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء**﴾ [البقرة: ٢٢٨]؛ وغيرها من الآيات الدالة على العدة.

ويتفرع على هذه الفائدة: أن القرآن يأتي مجملاً أحياناً، ومفصلاً أحياناً؛ ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿**الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت**﴾ [هود: ١]؛ وفائدة الإتيان بالإجمال، ثم التفصيل: أنه إذا ورد النص مجملاً فإن النفس تتطلع إلى معرفة ذلك المجمل، وبيان ذلك المبهم؛ فيكون في ذلك شدة الاشتياق إلى العلم.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: جواز المراجعة بعد تمام العدة قبل أن تغتسل؛ لقوله تعالى: ﴿**فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن**﴾؛ وجه الدلالة أن قوله تعالى: ﴿**فأمسكوهن**﴾ جواب للشرط في قوله تعالى: ﴿**وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن**﴾؛ وهذا يقتضي أن يكون الإمساك، أو التسريح، بعد بلوغ الأجل ضرورة أن المشروط يقع بعد الشرط؛ وهذه المسألة اختلف فيها أهل العلم؛ فذهب الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ إلى أن للزوج أن يراجع زوجته بعد طهرها من الحيضة الثالثة حتى تغتسل؛ فلو طهرت في الصباح بعد الفجر، ثم لم تغتسل إلا لصلاة الظهر، وراجعها زوجها فيما بين طهارتها، واغتسالها صحت المراجعة؛ وذهب كثير من أهل العلم إلى أنه ينتهي وقت المراجعة بالطهارة من الحيضة الثالثة؛ وأوَّلوا قوله تعالى: ﴿**فبلغن أجلهن**﴾ أن المعنى: قاربن بلوغ أجلهن؛ وأنه لا رجعة بعد الطهر من الثالثة؛ والقول الأول أصح؛ لأنه هو ظاهر الآية؛ وهو الوارد عن الصحابة رضي الله عنهم؛ ويكون هذا من باب التوسعة على الزوج؛ لأنه قد يندم فيرجع؛ وهو نظير ثبوت الخيار بين المتبايعين ما داما في

المجلس؛ وإلا فالعقد قد تم بالإيجاب، والقبول؛ لكن لهما الخيار ما داما في المجلس توسعة عليهما؛ وهذا شيء معلوم في غريزة الإنسان، وطبيعته: إنه إذا منع من الشيء صار في شوق إليه؛ فإذا حصله فقد يزهد فيه.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الإمساك بمعروف، أو التسريح بمعروف واجب؛ لقوله تعالى: ﴿**فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف**﴾.

٤ ـ **ومنها**: وجوب المعاشرة بالمعروف حتى بعد الطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿**فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف**﴾ لئلا يؤذي الإنسان زوجته بالقول؛ أو بالفعل، أو بمنع الحقوق، أو ما أشبه ذلك؛ ومما هو معروف أن ما يجري بين الأزواج أحياناً من المشاحنة، وادعاء الزوج ما يكون لزوجته من الأمتعة التي أعطاها إياها في المهر، أو فيما بعد ذلك حتى يطالبها بالحلي الذي أعطاها؛ خلاف المعروف الذي أمر الله به.

٥ ـ **ومنها**: عناية الله عزّ وجلّ بعباده في أن يتعاملوا بينهم بالمعروف سواء في حال الاتفاق، أو في حال الاختلاف؛ لأن ذلك هو الذي يقيم وحدة الأمة؛ فإن الأمة إذا لم تتعامل بالمعروف ـ بل بالمنكر، والإساءة ـ تفرقت، واختلفت؛ فالأمة الإسلامية أمة واحدة، كما قال الله تعالى: ﴿**واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً**﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٦ ـ **ومنها**: تحريم إمساك المطلقة ـ أي مراجعتها ـ للإضرار بها؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا**﴾.

٧ ـ **ومنها**: أن كل من عامل أخاه ضراراً فهو معتدٍ؛ فلا يحل لأحد أن يعامل أخاه المسلم على وجه المضارة؛ وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**من ضار ضار الله به، ومن شاق شق الله عليه**»[(١)]؛ وجاء في حديث آخر: «**لا ضرر ولا ضرار**»[(٢)]؛ فالمضارة بين المسلمين محرمة؛ لذلك قال تعالى: ﴿**ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا**﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن المضارة عدوان؛ لقوله تعالى: ﴿**لتعتدوا**﴾ سواء كانت اللام للعاقبة، أو للتعليل ـ أي سواء كان المقصود من المضارة الاعتداء؛ أو لم يقصد الاعتداء لكن حصل.

٩ ـ **ومنها**: تحريم ظلم الإنسان لنفسه؛ لأن الله تعالى نهى

---

(١) أخرجه أحمد ٣/٤٥٣، حديث ١٥٨٤٧، وأخرجه الترمذي ص١٨٤٧، كتاب البر والصلة، باب ٢٧: ما جاء في الخيانة والغش، حديث رقم ١٩٤٠؛ وأخرجه أبو داود ص١٤٩٢، كتاب القضاء باب ٣١: في القضاء، حديث رقم ٣٦٣٥، وأخرجه ابن ماجه ص٢٦١٧، كتاب الأحكام، باب ١٧: من بنى في حقه ما يضر جاره، حديث رقم ٢٣٤٢، قال الألباني في صحيح أبي داود ٢/٤٠٤: حسن.

(٢) أخرجه أحمد ١/٣١٣، حديث رقم ٢٨٦٧ من حديث ابن عباس، وأخرجه ابن ماجه ص٢٦١٧، كتاب الأحكام، باب ١٧: من بني في حقه ما يضر جاره، حديث رقم ٢٣٤٠؛ وأخرجه مالك في الموطأ مرسلاً ٢/٥٧١، كتاب الأقضية، باب ٢٦، القضاء في المرفق، وأخرجه الحاكم في المستدرك من طريق أبي سعيد الخدري ٢/٥٧ ـ ٥٨، وقال حديث صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي؛ وقال الألباني في السلسلة الصحيحة ١/٤٤٣، حديث رقم ٢٥٠، صحيح.

عن هذه الأشياء، ثم قال تعالى: ﴿**ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه**﴾.

١١ ـ **ومنها**: أن فعل المعاصي ظلم للنفس؛ فلا يقول الإنسان: «أنا حر أفعل ما أشاء، وأصبر على العذاب»؛ هذا خطأ؛ فأنت لا يحل لك أن تظلم نفسك؛ فظلم الغير عدوان، وحرام؛ وظلم النفس أيضاً عدوان، وحرام؛ وفي الحديث: «**ولنفسك عليك حقاً**»[1].

١٢ ـ **ومنها**: أن من ظلم غيره بعدوانه عليه فقد ظلم نفسه في الحقيقة؛ لأن المظلوم إذا لم يتخلص الظالم من مظلمته في الدنيا فسوف يؤخذ من حسناته للمظلوم في الآخرة؛ فإذا فنيت حسناته أُخذ من سيئات المظلوم؛ فطرحت عليه، ثم طرح في النار؛ ولذلك عبر الله عن الإضرار بالزوجة في إمساكها بقوله تعالى: ﴿**فقد ظلم نفسه**﴾ مع أنه ظالم للزوجة أيضاً.

١٣ ـ **ومنها**: إغراء المخاطب باجتناب ظلم غيره؛ لأن الظالم قد يظن أنه منتصر على المظلوم؛ فإذا علم أنه ظالم لنفسه تهيب ذلك، واستقام على العدل.

١٤ ـ **ومنها**: أن آيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية؛ وهي ما جاءت به الرسل من الشرع؛ وآيات كونية؛ وهي هذه الكائنات التي نشاهدها في السموات، والأرض، والشمس، والقمر؛ أما كون ما جاءت به الرسل من الشرع آية فلأنها أمور لا

---

(١) أخرجه البخاري ص١٥٤، كتاب الصوم، باب ٥١: من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع...، حديث رقم ١٩٦٨.

يمكن أن يأتي البشر بمثلها ـ ولا سيما القرآن الكريم ـ؛ وأما كون هذه الكائنات آيات كونية فإن هذه المخلوقات لا يمكن لأحد أن يخلق مثلها؛ وقد تحدى الله عزّ وجلّ أولئك العابدين أن تخلق معبوداتهم شيئاً من هذه الكائنات، فقال عزّ وجلّ: ﴿**يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب**﴾ [الحج: ٧٣]؛ فهذه المخلوقات في انتظامها وحسنها، كلها آيات تدل على أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق؛ وعلى وحدانيته، وعلى قدرته، وتمام حكمته، كما قيل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

١٥ ـ **ومن فوائد الآية**: تحريم اتخاذ آيات الله هزواً سواء اتخذ الكل أم البعض؛ **فمثال اتخاذ آيات الله الشرعية هزواً** أن يهزأ الإنسان ويسخر من شرع الله عزّ وجلّ، سواء سخر بالشرع كله، أو بجزء منه؛ لأن الاستهزاء ببعض الشريعة استهزاء بجميع الشريعة؛ وهناك فرق بين من يدع العمل مع تعظيمه لشرع الله عزّ وجلّ؛ وبين من يسخر بالشرع، ويستهزئ به، ويرى أنه عبث، وأنه باطل، وما أشبه ذلك؛ فالأول له حكم العصاة؛ فإن كانت معصيته كبيرة تبلغ به الكفر فهو كافر؛ وإلا فهو فاسق؛ وإلا فهو دون الفاسق ـ كما لو كانت من صغائر الذنوب، ولم يصر عليها ـ؛ وأما الثاني المستهزئ الذي يرى أن الشرع عبث، أو أنه لأناس انقرضوا، ومضوا، وأن هذا العصر لا يصلح للعمل بهذا الشرع؛ فهذا لا شك أنه كافر؛ وإذا استهزأ مستهزئ بحامل الشريعة، أو العامل بها من أجل حمله الشريعة، أو عمله بها فهو كافر؛ لأنه استهزأ بشريعة من شرائع الله؛ ولهذا قال عزّ وجلّ في أولئك النفر

الذين قالوا: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء ـ يعنون الرسول، وأصحابه ـ أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء»؛ قال الله سبحانه وتعالى فيهم: **﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾** [التوبة: ٦٥، ٦٦]؛ أما الذين يقولون عن حملة الشرع، والعاملين به: «هؤلاء دراويش لا يعرفون المجتمع ولا الدنيا»، وما أشبه ذلك من الكلمات؛ فهؤلاء أيضاً كفار؛ لأن الله تعالى يقول: **﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين * وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾** [المطففين: ٢٩ ـ ٣٢]؛ وفي معنى ذلك قولهم: «هؤلاء رجعيون»، وقد ذكر الله في آخر الآيات ما يدل على كفرهم في قوله تعالى: **﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾** [المطففين: ٣٤]؛ فدل هذا على أن أولئك الذين يسخرون بالمؤمنين من أجل إيمانهم كفار.

ومثال اتخاذ الآيات الكونية هزواً: لو نزل المطر في أيام الصيف ـ وهذا لم تجر به العادة ـ فقال: «ما هذا التبديل! يوم أن يكون الناس محتاجين إلى المطر في الشتاء لا يجيء؛ والآن يأتي!» وهذا يمكن أن يوجد من بعض الفجرة الذين يقولون مثل هذا الكلام؛ أو مثلاً يُغْلَبُ قوميون من العرب ـ تغلبهم اليهود مثلاً، فيقول المستهزئ بآيات الله الكونية ـ: «ما هذا؟ كيف يكون النصر لليهود على العرب ـ على بني كنعان، وعدنان، وقحطان؛ كيف هذا وهم بنو إسرائيل؟!» وما أشبه ذلك؛ لكن المؤمن يستسلم لأمر الله عزّ وجلّ الكوني كما يستسلم لأمره الشرعي؛

ويرى أنه في غاية الحكمة، وفي غاية الإتقان، وأنه في مكانه، وأن ما حدث فهو واقع موقعه، وأن الحكمة تقتضي ذلك؛ لأن الله عزّ وجلّ حكيم؛ لا يصنع شيئاً إلا لحكمة؛ فالمهم أن الاستهزاء بالآية الكونية يمكن أن يكون؛ وقد نهى الله تعالى أن تتخذ آياته هزواً؛ وهو عام للكونية، والشرعية؛ لكن بما أن الآية في سياق الآية الشرعية تكون أخص بالآيات الشرعية منها بالآيات الكونية.

١٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن المخالفة نوع من الاستهزاء؛ لأنك إذا آمنت بأن الله عزّ وجلّ هو الرب العظيم الذي له الحكم، وإليه الحكم، ثم عصيته فكأنك تستهزئ بهذه العظمة؛ فلو أن ملكاً من الملوك ـ ولله المثل الأعلى ـ نهاك عن شيء، ثم إنك أمامه، وعلى عينه تخالف هذا الأمر، فسيقول لك: «أنت تستهزئ بي؛ لأني نهيتك، ففعلتَ ما نهيتك عنه أمامي»؛ فالمعصية نوع من الاستهزاء بالله عزّ وجلّ ـ وإن كانت ليست من النوع الذي يخرج به الإنسان من الإسلام ـ.

١٧ ـ **ومن فوائد الآية**: وجوب ذكر نعمة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿**واذكروا نعمت الله عليكم**﴾؛ والذكر يكون بالقلب، واللسان، والجوارح؛ **فذكرها باللسان** أن تقول: أنعم الله عليّ بكذا، كما قال تعالى: ﴿**وأما بنعمة ربك فحدث**﴾ [الضحى: ١١]؛ فتثني على الله عزّ وجلّ بها تقول: اللهم لك الحمد على ما أنعمت عليّ به من المال، أو الزوجة، أو الأولاد، أو ما أشبه ذلك؛ **وذكرها بالقلب** أن تستحضرها بقلبك معترفاً بأنها نعمة من الله؛ **وذكرها بالجوارح** أن تعمل بطاعة الله، وأن يُرى أثر نعمته عليك.

١٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أن منة الله علينا بإنزال الكتاب والحكمة أعظم من كل منة؛ يؤخذ ذلك من تخصيصها بعد التعميم؛ لأن التخصيص بعد التعميم يدل على أهميتها.

١٩ ـ **ومنها**: أن القرآن كلام الله؛ لقوله تعالى: ﴿**وما أنزل عليكم من الكتاب**﴾؛ لأن ما أنزل الله إما أن يكون عيناً قائمة بنفسها؛ أو صفة قائمة بموصوفها؛ فأما الأول فمخلوق، كما في قوله تعالى: ﴿**أنزل من السماء ماءً**﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقوله تعالى: ﴿**وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج**﴾ [الزمر: ٦]، وقوله تعالى: ﴿**وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد**﴾ [الحديد: ٢٥]؛ وأما الثاني فكقوله تعالى: ﴿**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده**﴾ [الفرقان: ١]، وكما في هذه الآية: ﴿**وما أنزل عليكم من الكتاب**﴾؛ وهذا يكون صفة لله عزّ وجلّ غير مخلوقة.

٢٠ ـ **ومن فوائد الآية**: أن شريعة الله عزّ وجلّ كلها حكمة؛ لقوله تعالى: ﴿**وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة**﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة فائدة أخرى: وهي أنه لا حاجة إلى أن نتعب أنفسنا في طلب الحكمة، أو أن نتمحل حكمة بعيدة قد تكون مرادة لله، أو غير مرادة؛ لأننا نعلم أن كل ما شرعه الله فهو لحكمة؛ ومن الحكمة امتحان العبد بالامتثال فيما لا يعلم حكمته؛ ولهذا لما سئلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ قالت: «**كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نقضي الصلاة**»[1]؛ فجعلت الحكمة أمر الله، ورسوله؛ أما السؤال عن الحكمة من باب الاسترشاد

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ١٦٤.

فإن هذا لا بأس به؛ ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يسألون الرسول ﷺ عن حكمة بعض الأشياء، كما في قوله تعالى: ﴿**يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج**﴾ [البقرة: ١٨٩]؛ والسؤال على هذا الوجه من باب طلب العلم الذي يزداد به المؤمن إيماناً، وعلماً؛ وأما السؤال عن الحكمة بحيث لا يستسلم الإنسان للحكم، ولا ينقاد إلا بمعرفتها فهذا ضلال، واستكبار عن الحق، واتباع للهوى، وجعل الشريعة تابعة لا متبوعة.

٢١ ـ **ومن فوائد الآية**: أن ما جاء في كتاب الله موعظة يتعظ بها العبد؛ و«الاتعاظ» معناه أن الإنسان يجتنب ما فيه مضرة إلى ما فيه منفعة؛ يقال: وعظته فاتعظ ـ أي انتفع، وترك ما فيه مضرته إلى ما فيه مصلحته؛ لقوله تعالى: ﴿**يعظكم به**﴾ [البقرة: ٢٣١].

٢٢ ـ **ومنها**: ثبوت رحمة الله عزّ وجلّ، وأن الله تعالى ذو رحمة واسعة؛ لقوله تعالى: ﴿**وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به**﴾؛ فرحمة الله تعرف بآثارها.

٢٣ ـ **ومنها**: وجوب التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿**واتقوا الله**﴾.

٢٤ ـ **ومنها**: عموم علم الله لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿**أن الله بكل شيء عليم**﴾.

٢٥ ـ **ومنها**: تحذير المرء من المخالفة؛ لأنه إذا علم أن الله بكل شيء عليم حذر من مخالفته؛ ولهذا أعقبها بعد الأمر بالتقوى، وقال تعالى: ﴿**واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم**﴾.

٢٦ ـ **ومنها**: الرد على غلاة القدرية الذين يقولون: إن الله

لا يعلم أفعال العباد حتى تقع منهم؛ وهذا كان الغلاة يقولونه قديماً؛ قال شيخ الإسلام: «ومنكروه اليوم قليل»؛ والقدرية هم الذين يقولون: إن للعبد مشيئة، وقدرة مستقلتين عن الله عزّ وجلّ.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٣٢﴾ قوله تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء﴾ سبق معنى الطلاق؛ والخطاب للأزواج؛ والمراد بـ﴿النساء﴾ الزوجات.

قوله تعالى: ﴿فبلغن أجلهن﴾ أي انتهت عدتهن؛ ﴿فلا تعضلوهن﴾ أي تمنعوهن؛ والخطاب للأولياء؛ ﴿أن ينكحن أزواجهن﴾ جمع زوج؛ وسمي الزوج زوجاً؛ لأنه يجعل الفرد اثنين بالعقد؛ فالزوج يشفع زوجته؛ وهي كذلك؛ والمراد بـ«**الأزواج**» هنا الخاطبون لهن؛ وعبر عنهم بالأزواج باعتبار ما يكون؛ وقيل: الضمير في قوله تعالى: ﴿ولا تعضلوهن﴾ يعود للأزواج؛ وكانوا في الجاهلية إذا طلق الواحد منهم امرأته يستنكف أن يتزوجها أحد من بعده؛ فيمنعها من أن تتزوج بغيره إن استطاع؛ والأول أقرب؛ لكن لا مانع من حمل الآية على المعنيين.

وأضاف هنا النكاح إلى النساء؛ لأن المراد به العقد؛ والعقد حاصل من الطرفين؛ فيقال: نكحت المرأة الرجل؛ ونكح

الرجل المرأة؛ وأما الوطء فيقال: نكح الرجل زوجته؛ ويقال: نكح بنت فلان ـ أي عقد عليها ـ؛ فإذا كان المراد بالنكاح العقدَ صح أن يطلق على الرجل، وعلى المرأة؛ وإذا كان الجماعَ فهو للرجل خاصة.

قوله تعالى: ﴿**إذا تراضوا**﴾ أي النساء، وأزواجهن؛ و﴿**تراضوا**﴾ صيغة مفاعلة ـ أي حصل الرضا من الطرفين ـ؛ و﴿**بينهم**﴾ أي بين الأزواج، والزوجات؛ و﴿**بالمعروف**﴾ الباء للمصاحبة؛ فالمعنى أن يكون الرضا بينهم مصاحباً للمعروف غير منكر شرعاً، ولا عرفاً.

قوله تعالى: ﴿**ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر**﴾ المشار إليه ما سبق من الأحكام؛ والكاف للمخاطبة؛ والخطاب لكل من يصح خطابه؛ **فإن قال قائل**: لماذا لم يجئ الخطاب جمعاً مع قوله تعالى: ﴿**إذا طلقتم... فلا تعضلوهن**﴾؟ فيقال: إن اسم الإشارة إذا خوطب به جماعة جاز أن يذكر مفرداً، ولو كانوا جماعة؛ وجاز أن يراعى في ذلك المخاطَب؛ فالكاف التي تتصل باسم الإشارة يجوز فيها لغة ثلاثة أوجه كما سبق في قوله تعالى: ﴿**ذلك الكتاب لا ريب فيه**﴾ [البقرة: ٢]؛ و﴿**يوعظ به**﴾ أي يذكَّر به، وينتفع؛ و﴿**اليوم الآخر**﴾ هو يوم القيامة؛ وصف بذلك؛ لأنه آخر مراحل الإنسان.

قوله تعالى: ﴿**ذلكم أزكى لكم وأطهر**﴾: المشار إليه ما سبق من الأحكام؛ وأتى الخطاب مراعياً فيه المخاطب ـ وهم جمع ـ؛ و﴿**أزكى**﴾ اسم تفضيل من الزكاء؛ و«الزكاء» في الأصل

النمو؛ ومنه الزكاة؛ لأنها تنمي المال بإحلال البركة فيه؛ وتنمي الأخلاق بخروج الإنسان عن طائفة البخلاء إلى طائفة الكرام؛ ﴿أزكى لكم﴾ أي في أعمالكم، ونموها، وكثرتها؛ لأنكم إذا اتعظتم بذلك أطعتم الله، ورسوله، فزادت الأعمال، وزاد الإيمان؛ لأن الإيمان يزداد بامتثال الأمر، واجتناب النهي لله عزّ وجلّ؛ و﴿أطهر﴾ أي أشد طهراً ـ يعني من الذنوب ـ.

قوله تعالى: ﴿والله يعلم﴾ أي ما فيه مصلحتكم، ونقاؤكم، وطهركم؛ وحذف المفعول لإفادة العموم؛ لأنه إذا حذف المفعول من الفعل المتعدي صار شاملاً لكل ما يحتمله؛ فهو يعلم الحاضر، والمستقبل، والماضي، وما يصلحكم، وما لا يصلحكم، ومن يمتثل منكم، ومن لا يمتثل؛ ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ أي لا تعلمون ذلك؛ والجملة هنا اسمية في إسناد الله العلم إلى نفسه، وفي نفي العلم عن عباده.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أنه لا يحل عقد النكاح قبل انقضاء العدة؛ لقوله تعالى: ﴿فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن﴾؛ فإن النكاح في العدة باطل إلا ممن كانت العدة له إذا لم يكن طلاقه بينونة كبرى.

٢ ـ **ومنها**: تحريم منع الولي موليته أن تنكح من رضيته؛ لقوله تعالى: ﴿فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن النكاح لا بد فيه من ولي؛ وأن المرأة لا تزوج نفسها؛ وجه ذلك أنه لو كانت تملك العقد لنفسها ما كان

للعضل تأثير؛ فلولا أن عضلهم مؤثر ما قال الله تعالى: ﴿**فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن**﴾؛ لأنهم لو عضلوا، ولم يكن الولي شرطاً لزوجن أنفسهن؛ وربما ينازع منازع في دلالتها على ذلك؛ لأنه قد يقول: إن الله نهى عن منعهن؛ والإنسان قد يمنع بحسب العادة، أو العرف ابنته، أو موليته من أن تنكح زوجاً ـ وإن كان يمكنها أن تتزوج هي بنفسها ـ؛ لأنها لا تريد أن تخالفهم مخافة المعرة، واللوم من الناس؛ بمعنى أن الآية ليست صريحة واضحة في أنه لا يمكن النكاح إلا بولي؛ لأنه ممكن أن يكون لها حق تزويج نفسها لكن يمنعها أبوها، ويقول: إذا زوجتِ نفسك قاطعتك، أو هجرتك؛ وعلى فرض أنها لا تدل على ذلك فهناك أدلة أخرى تدل على اشتراط الولي، مثل قوله تعالى: ﴿**ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا**﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقول النبي ﷺ: «**لا نكاح إلا بولي**»(١).

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: إطلاق الشيء على ما مضى، أو ما يستقبل مع أنه في الحال لا يتصف به؛ وذلك قوله تعالى: ﴿**أن ينكحن أزواجهن**﴾؛ لأنه إذا كان المراد من طلقت، ثم أراد زوجها أن يعود إليها، فهم أزواجهن باعتبار ما مضى؛

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٣٩٤، حديث رقم ١٩٧٤٧، وأخرجه أبو داود ص١٣٧٦، كتاب النكاح، باب ١٨: في الولي، حديث رقم ٢٠٨٥، وأخرجه الترمذي ص١٧٥٧، كتاب النكاح، باب ١٤: ما جاء لا نكاح إلا بولي، حديث رقم ١١٠١، وأخرجه ابن ماجه ص٢٥٨٩، كتاب النكاح، باب ١٥: لا نكاح إلا بولي، حديث رقم ١٨٨١؛ كما أخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ١٦٩ ـ ١٧٠) وأقره الذهبي على تصحيحه؛ وقال الألباني في الإرواء ٦/ ٢٣٥: صحيح.

وإن كان المراد الخطّاب الذين يخطبونهن بعد انقضاء العدة فهم أزواجهن باعتبار المستقبل؛ وقد جاء التعبير عن الماضي، والمستقبل في القرآن، كقوله تعالى: ﴿**وآتوا اليتامى أموالهم**﴾ [النساء: ٢] مع أنهم حين إتيان المال قد بلغوا؛ فهذا تعبير عن الماضي؛ وقوله تعالى: ﴿**إني أراني أعصر خمراً**﴾ [يوسف: ٣٦] وهو لا يعصر الخمر؛ ولكن يعصر عنباً يكون خمراً؛ فهذا تعبير عن المستقبل.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: اعتبار الرضا في عقد النكاح سواء كان من الزوج، أو من الزوجة؛ لقوله تعالى: ﴿**إذا تراضوا بينهم بالمعروف**﴾؛ فالرضا شرط لصحة النكاح سواء أكانت المرأة بكراً، أم ثيباً؛ وسواء أكان الولي أباها، أم غيره ـ على القول الراجح ـ؛ وأنه ليس للأب، ولا لغيره أن يجبر المرأة على النكاح؛ لعموم قول النبي ﷺ: «**لا تنكح الأيم حتى تستأمر؛ ولا تنكح البكر حتى تستأذن، قالوا: كيف إذنها يا رسول الله؟ قال: أن تسكت**»[(١)]؛ وورد في صحيح مسلم: «**البكر يستأذنها أبوها**»[(٢)]؛ وهذا صريح في أنه لا يحل لأحد أن يزوج ابنته وهي كارهة؛ بل لا بد من رضاها؛ والمعنى يقتضيه أيضاً؛ لأنه إذا كان الأب لا يملك أن يبيع شيئاً من مالها إلا برضاها، فكيف يملك أن يزوجها بدون رضاها؟! فلو أن رجلاً أكره ابنته أن تشتري هذا البيت

---

(١) أخرجه البخاري ص٤٤٤، كتاب النكاح، باب ٤٢: لا ينكح الأب وغيره البكر...، حديث رقم ٥١٣٦؛ وأخرجه مسلم ص٩١٤، كتاب النكاح، باب ٩: استئذان الثيب...، حديث رقم ٣٤٧٣ [٦٤] ١٤١٩.

(٢) أخرجه مسلم ص٩١٤، كتاب النكاح، باب ٩: استئذان الثيب...، حديث رقم ٣٤٧٧ [٦٧] ١٤٢١.

فالعقد غير صحيح مع أنه بإمكانها إذا اشترت البيت وهي كارهة أن تبيعه بعد يوم، أو يومين؛ فكيف يملك أن يكرهها على أن تتزوج برجل لا تريده؟! فالشريعة جاءت من لدن حكيم خبير؛ فالصواب بلا شك أنه لا يحل للإنسان أن يجبر ابنته على نكاح من لا تريد مهما كان؛ لكن إذا أرادت إنساناً ليس مرضياً في دينه، وخلقه فللولي أن يأبى ـ ولو بقيت لا تتزوج طوال عمرها ـ؛ فليس عليه شيء؛ لأنه مأمور بذلك؛ وما يترتب على المأمور فغير محظور؛ فإن قيل: يرد على ذلك تزويج أبي بكر عائشة من النبي ﷺ ولها ست سنين؟

فالجواب: أن يقال: لن يرد مثل هذه الصورة؛ لأننا نعلم علم اليقين أن عائشة سترضى برسول الله ﷺ، ولا تبغي به بديلاً؛ ولذلك لما أمره الله عزّ وجلّ أن يخير نساءه فبدأ بها رضي الله عنها، وقال ﷺ: «**لا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك؛ قالت: يا رسول الله، أفي هذا أستأمر أبوي؟! إنني أريد الله ورسوله والدار الآخرة**»[1]؛ وعلى هذا لا يتم الاستدلال بها على تزويج المرأة بغير إذنها.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن المرأة لو رضيت الزوج على وجه غير معروف ـ بل على وجه منكر لا يقره الشرع ـ فإنها لا تمكن من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿**بالمعروف**﴾؛ فلو أن المرأة رضيت هذا

---

(١) أخرجه البخاري ص١٩٤، كتاب المظالم، باب ٢٥: الغرفة والعلية المشرفة...، حديث رقم ٢٤٦٨؛ وأخرجه مسلم ص٩٣٩، كتاب الطلاق، باب ٤: بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية، حديث رقم ٣٦٨١ [٢٢] ١٤٧٥.

الخاطب لفسقه، وانسلاخه من الدين ـ وإن لم يصل إلى حد الكفر ـ فلوليها أن يمنعها؛ لقوله تعالى: ﴿**إذا تراضوا بينهم بالمعروف**﴾.

٧ ـ **ومنها**: إثبات اليوم الآخر ـ وهو يوم القيامة ـ؛ لقوله تعالى: ﴿**من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر**﴾؛ ويدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما ذكر في ذلك اليوم من البعث، والحساب، والصراط، ودنوّ الشمس، والعرق، وغير ذلك مما ذكر في الكتاب والسنة مجملاً أحياناً، ومفصلاً أحياناً؛ بل قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: يدخل فيه الإيمان بكل ما يكون بعد الموت من فتنة القبر، وعذابه، ونعيمه، وغير ذلك.

٨ ـ **ومنها**: أن الاتعاظ بأحكام الله تزكية للنفس؛ لقوله تعالى: ﴿**ذلكم أزكى لكم**﴾؛ فهو ينمي النفس، وينمي الإيمان، وينمي الأخلاق، وينمي الآداب؛ فكلما كان الإنسان أشد تطبيقاً لأحكام الله كان ذلك أزكى له.

٩ ـ **ومنها**: أن تطبيق الأحكام أطهر للإنسان؛ يعني أطهر للقلب؛ لأن الأعمال الصالحة تطهر القلب من أرجاس المعاصي؛ ولذلك تجد عند الإنسان المؤمن من الحيوية، والنشاط، والسرور، والفرح ما ليس عند غيره؛ ويعرف ذلك في وجهه؛ فالإنسان صاحب المعاصي مظلم الوجه كاسف البال؛ ولو فرح بما فرح من زهرة الدنيا فهو فرح خاسر؛ لكن المؤمن الذي شرح الله صدره للإسلام، وامتلأ قلبه بنور الله وهدايته، ليس كذلك؛ وأسعد الناس في الدنيا أطهرهم قلباً.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: الإشارة إلى نقص الإنسان في علمه؛ لقوله تعالى: ﴿**والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ فنفى عن الإنسان العلم ـ والمراد نفي كماله؛ لأن الإنسان له علم، كما قال الله تعالى: ﴿**فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار**﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿**فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً**﴾ [النور: ٣٣]؛ لكن لنقصان علمه نفى الله عنه العلم؛ وهنا قال تعالى: ﴿**والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾؛ فإذا كان الله يعلم، ونحن لا نعلم فإن مقتضى ذلك أن نستسلم غاية الاستسلام لأحكامه سبحانه وتعالى، وأن لا نعارضها بعقولنا مهما كانت؛ ولهذا ينعى الله عزّ وجلّ على الكفار والمشركين عدم العقل؛ وكل ما خالف الشرع فليس بعقل.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾.

التفسير:

﴿**٢٣٣**﴾ قوله تعالى: ﴿**والوالدات**﴾ اسم فاعل ـ أي اللاتي ولدن؛ ﴿**يرضعن أولادهن**﴾: الإرضاع معروف؛ والأولاد يشمل

الذكور، والإناث، كما في قوله تعالى: ﴿**يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين**﴾ [النساء: ١١]؛ والجملة خبرية بمعنى الأمر؛ وإتيان الأمر بصيغة الخبر أبلغ من الأمر المحض؛ كأنه حين يأتي بصيغة الخبر أمر مستقر يتحدث عنه.

قوله تعالى: ﴿**حولين كاملين**﴾: «**الحول**» بمعنى السنة؛ وهو اثنا عشر شهراً هلالياً؛ ثم أكد الله هذين الحولين بقوله تعالى: ﴿**كاملين**﴾ أي بدون نقص.

قوله تعالى: ﴿**لمن أراد أن يتم الرضاعة**﴾؛ الجار، والمجرور متعلق بمحذوف خبر مبتدأ محذوف؛ والتقدير: ذلك لمن أراد؛ فيكون المراد به: الوالدات المرضعات؛ وذَكَّر الضمير في ﴿**أراد**﴾ باعتبار لفظ «**مَن**»؛ ويحتمل أن يكون متعلقاً بقوله تعالى: ﴿**يرضعن أولادهن**﴾؛ فيكون المعنى: الوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة من الأزواج؛ فهنا مرضِع، ومرضَع له؛ ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿**فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن**﴾ [الطلاق: ٦]؛ ولو قيل: إن الآية تشمل هذا وهذا، لم يكن بعيداً.

وقوله تعالى: ﴿**أن يتم الرضاعة**﴾ أي أن يأتي بها على وجه التمام؛ فإنها لا تنقص عن حولين.

قوله تعالى: ﴿**وعلى المولود له**﴾؛ ﴿**المولود**﴾ اسم جنس؛ أو أن «**أل**» اسم موصول؛ لأنها إذا اقترنت بمشتق صارت اسماً من الأسماء الموصولة المشتركة ـ أي الصالحة للواحد، ومن فوقه ـ؛ فحينئذ أفرد الضمير الراجع إليها ـ ﴿**له**﴾ ـ باعتبار اللفظ؛ وجُمع ـ ﴿**وإن أردتم**﴾ ـ باعتبار المعنى؛ وملاحظة المعنى،

واللفظ في هذه الألفاظ المشتركة جاء بها القرآن مثل قوله تعالى: **﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾** [الطلاق: ١١]؛ **﴿يدخله﴾** باعتبار اللفظ: مفرد؛ و**﴿خالدين﴾** باعتبار المعنى: جمع.

قوله تعالى: **﴿وعلى المولود﴾** الجار والمجرور خبر مقدم؛ و**﴿له﴾** متعلقة بـ**﴿المولود﴾**؛ و**﴿رزقهن﴾** مبتدأ مؤخر.

قوله تعالى: **﴿وعلى المولود له﴾** أي على الزوج، أو السيد، أو الواطئ بشبهة **﴿رزقهن﴾** أي نفقتهن؛ **﴿وكسوتهن﴾** أي ما يكسو به الإنسان بدنه؛ **﴿بالمعروف﴾** أي رزقهن، وكسوتهن بما تعارف الناس بينهم عليه.

قوله تعالى: **﴿لا تكلف نفس إلا وسعها﴾**: التكليف معناه إلزام ما فيه مشقة؛ أي لا يلزم الله عزّ وجلّ نفساً إلا ما تقدر عليه.

قوله تعالى: **﴿لا تضار والدة بولدها﴾**: **«المضارة»** طلب ما يضر الغير؛ وفي الآية قراءتان: **﴿لا تضارَّ﴾** بفتح الراء؛ و**﴿لا تضارُّ﴾** بضمها؛ فعلى قراءة الفتح تكون **﴿لا﴾** ناهية؛ و**﴿تضارَّ﴾** فعل مضارع مجزوم بـ**﴿لا﴾** الناهية؛ وحرك بالفتح لالتقاء الساكنين؛ فإذا قيل: لماذا لم يحرك بالكسرة لأن التحريك بالكسرة هو الغالب في التقاء الساكنين، كما قال تعالى: **﴿لم يكنِ الذين كفروا﴾** [البينة: ١]؟ فالجواب أن الفتح أخف؛ أما على قراءة الرفع فإن **﴿لا﴾** نافية، و**﴿تضارُّ﴾** فعل مضارع مرفوع؛ وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.

وقوله تعالى: **﴿تضار﴾** يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل،

وأصله: «**تضارِر**» بكسر الراء الأولى، و﴿**والدة**﴾ فاعل؛ ويحتمل أن يكون مبنياً لما لم يسم فاعله، وأصله: «**تضارَر**» بفتح الراء الأولى، و﴿**والدة**﴾ نائب فاعل؛ وفاعل الإضرار المولود له ـ على هذا الاحتمال ـ.

قوله تعالى: ﴿**ولا مولود له بولده**﴾: الواو حرف عطف؛ و﴿**لا**﴾ نافية؛ و﴿**مولود**﴾ معطوف على والدة.

قوله تعالى: ﴿**وعلى الوارث**﴾ خبر مقدم؛ و﴿**مثل ذلك**﴾ مبتدأ مؤخر؛ والمشار إليه الرزق، والكسوة؛ يعني أن على وارث المولود مثل ما على أبيه من النفقة، والكسوة.

قوله تعالى: ﴿**فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما**﴾؛ «**الفصال**» بمعنى الفطام؛ والفاعل في ﴿**أرادا**﴾ يعود على الوالدة، والمولود له؛ فلا بد من أن يقع هذا الفصال عن تراض منهما؛ لقوله تعالى: ﴿**عن تراض منهما**﴾؛ و«**التراضي**» تفاعل من رضي؛ فلا بد أن يكون من الطرفين؛ فلو رضيت الأم دون الأب امتنع الفصال؛ ولو رضي الأب دون الأم امتنع الفصال؛ و«**التشاور**» تفاعل أيضاً؛ وأصله من: شار العسل ـ إذا استخلصه من الشمع ـ؛ والمراد به: تبادل الرأي بين المتشاورين لاستخلاص الأنفع، والأصوب؛ فلا بد من أن يقع التشاور من أجل مصلحة الطفل؛ فينظر هل من مصلحته أن يفطم قبل الحولين؛ أو من المصلحة أن يبقى حتى يتم الحولين؛ أو من المصلحة أن يبقى بعد الحولين أيضاً ـ فربما يكون محتاجاً إلى الرضاعة حتى بعد الحولين.

وقوله تعالى: ﴿**فلا جناح عليهما**﴾ أي لا إثم على الأبوين في فصاله قبل تمام الحولين.

قوله تعالى: ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم﴾ أي: إن أردتم أن تطلبوا لأولادكم من يرضعهم؛ وتوجيه الخطاب للجماعة من باب الالتفات من الخطاب بالتثنية إلى الخطاب بالجمع؛ فهو موجه للعموم.

قوله تعالى: ﴿فلا جناح عليكم﴾ أي فلا إثم عليكم.

قوله تعالى: ﴿إذا سلمتم ما آتيتم﴾ أي إذا أعطيتم ما اتفقتم عليه في العقد على الإرضاع؛ ﴿بالمعروف﴾ أي بما عرف من حسن القضاء بحيث لا يكون نقص، ولا مماطلة فيما اتفق عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿آتيتم﴾ قراءتان؛ أحدهما بمد الهمزة؛ والثانية بقصرها؛ والفرق بينهما أن «أتيتم» المقصور معناه جئتم؛ و«آتيتم» الممدود معناه أعطيتم.

قوله تعالى: ﴿واتقوا الله﴾ أي اتخذوا وقاية من عذابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، وتصديق أخباره؛ وإن شئنا قلنا: إن «تصديق أخباره» داخل في فعل أوامره؛ لأن تصديق الأخبار من الواجبات.

قوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ جملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿واتقوا الله﴾؛ و﴿بما تعملون﴾ متعلق بـ﴿بصير﴾؛ وقدم على عامله للمبادرة بالتحذير، والتأكيد على علمه بما نعمل؛ والعلم بأن الله بما نعمل بصير من تقوى الله عزّ وجلّ؛ لكن لما كان من تمام التقوى أن تعلم أن الله بما تعمل بصير نص عليه؛ لأنك متى علمت ذلك خفت من هذا الذي هو بصير بعملك أن يجدك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك؛ لأنه بصير بذلك.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: وجوب الإرضاع على الأم؛ لقوله تعالى: ﴿**والوالدات يرضعن**﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن الله عزّ وجلّ أرحم بخلقه من الوالدة بولدها؛ لأنه أمرها أن ترضع مع أن فطرتها، وما جبلت عليه تستلزم الإرضاع؛ وهذا؛ لأن رحمة الله أعظم من رحمة الأم بولدها؛ ومثله قوله تعالى: ﴿**يوصيكم الله في أولادكم**﴾ [النساء: ١١]؛ فلأن الله أرحم بأولادنا منا أوصانا فيهم.

٣ ـ **ومنها**: أن الرضاع التام يكون حولين كاملين؛ لقوله تعالى: ﴿**حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة**﴾.

٤ ـ **ومنها**: توكيد اللفظ لينتفي احتمال النقص؛ لقوله تعالى: ﴿**كاملين**﴾؛ ومثله قوله تعالى: ﴿**فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة**﴾ [البقرة: ١٩٦]: فأكدها بـ ﴿**كاملة**﴾؛ لئلا يتوهم واهم في تلك العشرة الكاملة أن تفريق الثلاثة والسبعة يقتضي أن يكون كل عدد منفرداً عن الآخر.

٥ ـ **ومنها**: أنه ينبغي استعطاف المخاطب بما يقتضي عطفه على الشيء؛ لقوله تعالى: ﴿**يرضعن أولادهن**﴾، حيث أضاف الأولاد إلى المرضعات.

٦ ـ **ومنها**: أنه يجوز النقص عن الحولين؛ لكن ذلك بالتشاور، والتراضي؛ لقوله تعالى: ﴿**لمن أراد أن يتم الرضاعة**﴾؛ لكن يجب أن نعلم أن الإتمام تارة يكون واجباً إذا ترتب على تركه إخلال بواجب، كقوله ﷺ: «**ما أدركتم فصلوا، وما فاتكم**

فأتموا»[١]؛ وتارة يكون من باب الكمال، كما في هذه الآية: ﴿**لمن أراد أن يتم الرضاعة**﴾؛ لأن الله تعالى قال: ﴿**فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما...**﴾ إلخ؛ ولو كان الإتمام إتمام واجب لم يكن فيه خيار؛ فإن قيل: هل تجوز الزيادة على الحولين؟

فالجواب: أنه ينظر في حال الطفل إن بقي محتاجاً إلى اللبن زيد بقدره؛ وإن لم يكن محتاجاً فقد انتهت مدة رضاعته؛ وقوله تعالى: ﴿**الرضاعة**﴾ هي اسم مصدر بمعنى الإرضاع الذي يحتاجه الطفل.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: الرد على الجبرية في قوله تعالى: ﴿**لمن أراد أن يتم الرضاعة**﴾؛ والجبرية يسلبون الإنسان إرادته، وقدرته، واختياره، ويقولون: «الإنسان ليس له إرادة، ولا قدرة؛ إنما هو مجبر على عمله»؛ فلا يرون فرقاً بين الذي يتحرك ارتعاشاً، والذي يتحرك اختياراً.

٨ ـ **ومنها**: أن الولد هبة للوالد؛ لقوله تعالى: ﴿**وعلى المولود له**﴾؛ فبعض العلماء استنبط أن هذه الآية تدل على أن الوالد موهوب له؛ وعلى كل حال هذا شبيه بقول النبي ﷺ: «**أنت ومالك لأبيك**»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري ص٥١: كتاب الأذان، باب ٢٠: قول الرجل فاتتنا الصلاة، حديث رقم ٦٣٥، وأخرجه مسلم ص٧٧١، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ٢٨: استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة...، حديث رقم ١٣٥٩ [١٥١] ٦٠٢.

(٢) أخرجه أحمد ج٢/ ٢٠٤، حديث رقم ٦٩٠٢، وأخرجه ابن ماجه ص٢٦١٤، كتاب التجارات، باب ٦٤، ما للوالد من مال ولده، حديث رقم ٢٢٩١.

٩ ـ **ومنها**: أنه قد يكون للشيء الواحد سببان؛ فالرزق، والكسوة هنا لهما سببان، كفقير غارم؛ وإذا تخلف أحد السببين بقي حكم السبب الآخر؛ فلو فرض أن امرأة ناشز لا تطيع زوجها فيما يجب عليها، وهي ترضع ولده كان لها الرزق، والكسوة لا بالزوجية ـ لأنها ناشز ـ ولكن بالرضاعة.

فإن قيل: إذا كان سبب الرزق، والكسوة الزوجية أصبح الرضاع عديم التأثير.

قلنا: لا؛ لأننا إذا قلنا: إن تخلف الإنفاق بالزوجية، وجب بالرضاع ـ هذه واحدة؛ ثانياً: أنه ربما يترتب لها من الطعام والكسوة إذا كانت ترضع ما لا يترتب لو كانت لا ترضع؛ فالمرضع ربما تحتاج إلى غسل ثيابها دائماً من الرضاعة، وتحتاج إلى زيادة طعام، وشراب.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: اعتبار العرف بين الناس؛ لقوله تعالى: ﴿**بالمعروف**﴾؛ وهذا ما لم يخالف الشرع؛ فإن خالفه رد إلى الشرع.

١١ ـ **ومنها**: أنه يجب على المولود له رزقهن، وكسوتهن بالمعروف؛ فيرجع إلى العرف في نوع الرزق، وكميته، وكيفيته؛ وكذلك الكسوة.

١٢ ـ **ومنها**: وجوب الإنفاق على المولود له من زوج، أو غيره للمرضع؛ وظاهر الآية أنه لا فرق بين أن تكون الزوجة في حباله، أو بائناً منه؛ فإن كانت في حباله فلوجوب الإنفاق عليها سببان: الزوجية، والإرضاع؛ وإن لم تكن في حباله فلها سبب واحد ـ وهو الإرضاع؛ ولا يمتنع أن يكون للحكم الواحد سببان

ـ كما سبق ـ كما في الزوج يكون ابن عم، فيرث بالزوجية، والقرابة.

١٣ ـ **ومنها**: أن المعتبر حال الزوجة؛ لا حال الزوج؛ فيرجع تقدير الرزق والكسوة إلى حال الزوجة، فكأنه قال: الرزق الذي يصلح لمثلها، والكسوة التي تصلح لمثلها؛ وعلى هذا فإذا كان الزوج فقيراً وهي غنية يُلزَم بنفقة غني، وكسوة غني؛ وإلى هذا ذهب بعض أهل العلم؛ وذهب آخرون من أهل العلم إلى أن المعتبر حال الزوج، واستدل بقوله تعالى: ﴿**لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها**﴾ [الطلاق: ٧]؛ وأجيب عن الآية بأن المراد: رزقهن من أمثالكم، وكسوتهن من أمثالكم؛ وبهذا تجتمع الآيتان؛ وقال بعض أهل العلم: بل نعمل بالآيتين جميعاً، فنقول: المعتبر حال الزوج، والزوجة جميعاً: إن كانا موسرين فنفقة الموسر؛ وإن كانا معسرين فنفقة المعسر؛ وإن كان أحدهما فقيراً، والآخر غنياً فنفقة المتوسط؛ والراجح أن المعتبر حال الزوج ـ وهو مذهب الشافعي ـ.

١٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله عزّ وجلّ لا يكلف نفساً ما لا تطيق؛ لقوله تعالى: ﴿**لا تكلف نفس إلا وسعها**﴾، أي طاقتها.

ويتفرع على هذه الفائدة: بيان رحمة الله عزّ وجلّ بعباده، وأن الله سبحانه وتعالى لا يكلفهم إلا ما يطيقون.

١٥ ـ **ومن فوائد الآية**: تحريم المضارة؛ لقوله تعالى: ﴿**لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده**﴾؛ وقال النبي ﷺ: «**لا ضرر ولا ضرار**»[(١)]، وقال ﷺ: «**من ضار ضار الله به**»[(٢)]؛ ولا

---

(١) سبق تخريجه ٣/١٢٨، حاشية (١).

(٢) سبق تخريجه ٣/١٢٨، حاشية (٢).

فرق بين أن تكون المضارة من الوالدة للمولود له، أو بالعكس؛ لأن الآية تحتمل هذا، وهذا.

١٦ ـ **ومنها**: وجوب النفقة للمولود على الوارث؛ لقوله تعالى: ﴿**وعلى الوارث مثل ذلك**﴾؛ وإيجاب النفقة للمرضع من أجل الرضيع دليل على وجوب الإنفاق على الرضيع نفسه.

١٧ ـ **ومنها**: أنه يجوز للأم أن تفطم الولد قبل تمام الحولين؛ لكن بشرط التراضي، والتشاور؛ لقوله تعالى: ﴿**فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما**﴾.

١٨ ـ **ومنها**: عناية الله عزّ وجلّ بالرضَّع؛ لأنه لم يبح فطامهم قبل الحولين إلا بعد التراضي بين الوالدة، والمولود له، والتشاور.

١٩ ـ **ومنها**: أنه لا يكفي المراضاة بين الزوجين في الفطام؛ بل لا بد أن يكون هذا بعد التشاور، والمراجعة في الأمر حتى إذا تبينت مصلحة الطفل جاز ذلك.

٢٠ ـ **ومنها**: جواز استرضاع الإنسان لولده المراضع؛ لقوله تعالى: ﴿**وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم**﴾؛ ولو أن الأم طلبت أن ترضعه، وقال الأب: ترضعه غيرها أجبر الأب على موافقة الأم؛ لقوله تعالى: ﴿**والوالدات يرضعن أولادهن**﴾؛ فبدأ بـ﴿**الوالدات**﴾؛ لأن الأم أشفق، ولبنها لطفلها أطيب؛ ولأن ذلك أدعى إلى التعاطف بين الأم، وولدها.

فإن قيل: لو طلبت عليه أجرة أكثر من غيرها فهل يلزمه إجابتها؟

فالجواب: إن كانت الزيادة يسيرة وجبت إجابتها؛ وإن كانت كثيرة لم تلزم إجابتها.

فإن قيل: هل للأم أن تطلب الأجرة إذا كانت مع المولود له؟

فالجواب: أن في ذلك قولين لأهل العلم؛ والراجح أنه ليس لها ذلك اكتفاءً بإنفاق الزوج عليها بالزوجية.

٢١ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه يجب على الإنسان تسليم العوض بالمعروف ـ أي بدون مماطلة، وبدون نقص ـ؛ لقوله تعالى: ﴿**إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف**﴾.

٢٢ ـ **ومنها**: أنه لا يجب للأجير إلا ما اتفق عليه في العقد؛ لقوله تعالى: ﴿**إذا سلمتم ما آتيتم**﴾؛ فلو أن المستأجر طلب منه أن يزيد في الأجرة فإنه لا يلزمه؛ حتى ولو زادت المؤن فلا يلزمه شيء سوى ما اتفقا عليه.

٢٣ ـ **ومنها**: وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿**واتقوا الله**﴾.

٢٤ ـ **ومنها**: وجوب الإيمان بأسماء الله، وما تضمنته من الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿**واعلموا أن الله بما تعملون بصير**﴾.

٢٥ ـ **ومنها**: التحذير من مخالفة أمر الله؛ لأنه سبحانه وتعالى بعد أن أمر بالتقوى قال: ﴿**واعلموا أن الله بما تعملون بصير**﴾ يحذرنا من مخالفة أمره بذلك.

٢٦ ـ **ومنها**: عموم علم الله بكل ما نعمل؛ لقوله تعالى: ﴿**بما تعملون**﴾؛ و﴿**ما**﴾ اسم موصول عام.

٢٧ ـ **ومنها**: الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿**بما تعملون**﴾، وقوله تعالى: ﴿**آتيتم**﴾، وقوله تعالى: ﴿**وإن أردتم**﴾؛ فهذه عدة شواهد تردّ على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله ليس له إرادة فيه.

٢٨ ـ **ومنها**: إثبات بصر الله، وعلمه بما نعمل؛ لقوله تعالى: ﴿**بما تعملون بصير**﴾.

٢٩ ـ **ومنها**: أن وساوس القلوب لا يؤاخذ بها؛ لأنها ليست من الأعمال؛ لقول النبي ﷺ: «**إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت بها أنفسها ما لم تعمل، أو تتكلم**»(١).

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٣٤﴾ قوله تعالى: ﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن**﴾؛ ﴿**الذين**﴾ اسم موصول مبتدأ في محل رفع؛ وجملة: ﴿**يتوفون**﴾ صلة الموصول؛ وجملة ﴿**يتربصن**﴾ خبر ﴿**الذين**﴾؛ وفيها أشكال، حيث لم يوجد رابط يربطها بالمبتدأ؛ لأن قوله تعالى: ﴿**يتربصن بأنفسهن**﴾ ليس فيها ضمير يعود على ﴿**الذين**﴾؛ فاختلف الناس في كيفية الربط بين المبتدأ، والخبر؛ فقال بعضهم التقدير: والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بعدهم؛ وعلى هذا يكون الضمير: في «بعدهم» هو الرابط الذي يربط بين المبتدأ، والخبر؛ وقال بعضهم: التقدير: وأزواج الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن؛ فقدر المبتدأ؛ هذان وجهان؛ ولكن الأول أيسر من الثاني، وأقرب.

وقوله تعالى: ﴿**يتوفون**﴾ بضم الياء ـ أي يتوفاهم الله ـ؛

---

(١) سبق تخريجه ص٩١٠.

وذلك بقبض أرواحهم عند الموت؛ وقد أضاف الله التوفي إليه تارة، كما في قوله تعالى: ﴿**الله يتوفى الأنفس حين موتها**﴾ [الزمر: ٤٢]؛ وإلى ملك الموت تارة، كما في قوله تعالى: ﴿**قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم**﴾ [السجدة: ١١]؛ وإلى رسله ـ وهم الملائكة ـ تارة، كما في قوله تعالى: ﴿**حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون**﴾ [الأنعام: ٦١]؛ فإضافتها إلى الله؛ لأنها بأمره؛ وإلى ملك الموت؛ لأنه الذي يقبض الروح؛ وإلى الرسل؛ لأنهم يقبضونها من ملك الموت يصعدون بها إلى السماء؛ ولذلك بني الفعل في الآية لما لم يسم فاعله؛ ليشمل كل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿**منكم**﴾: الخطاب للناس جميعاً؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً**﴾ [النساء: ١٧٤]؛ فالخطابات بصيغة الجمع لجميع من نزل إليهم القرآن.

وقوله تعالى: ﴿**ويذرون أزواجاً**﴾ أي يتركون أزواجاً بعدهم؛ و﴿**أزواجاً**﴾ جمع زوج ـ وهو من عقد له النكاح من رجل، أو امرأة ـ؛ إلا أن الفرضيين ـ رحمهم الله ـ اصطلحوا على أن الرجل يقال له: زوج؛ والمرأة يقال لها زوجة من أجل التمييز بينهما في قسمة الميراث.

وقوله تعالى: ﴿**يتربصن بأنفسهن**﴾ أي ينتظرن، ويَحبسن أنفسهن عن الزواج؛ لأن المرأة بطبيعتها تطلب النكاح؛ فقيل لها: تربصي بنفسك؛ انتظري، مثلما أقول: ارفق بنفسك ـ أي هوِّن على نفسك ـ؛ وما أشبهها؛ وأما قول من قال: إن «**أنفسهن**» توكيد

للفاعل في ﴿يتربصن﴾ زيدت فيه الباء، وجعل معنى الآية: يتربصن أنفسُهن؛ فهذا ليس بصحيح؛ لأن الأصل عدم الزيادة؛ ولأن مثل هذا التعبير شاذ في اللغة العربية؛ فلا يحمل كلام الله على الشاذ؛ وعلى هذا فالمعنى الصحيح: أن ينتظرن بأنفسهن فلا يعجلن.

قوله تعالى: ﴿**أربعة أشهر وعشراً**﴾؛ ﴿**أربعة**﴾ نائبة مناب الظرف؛ لأنها مضافة إليه؛ وهي متعلقة بـ﴿يتربصن﴾.

قوله تعالى: ﴿**وعشراً**﴾ أي وعشر ليال؛ والمراد: عشرة أيام لكن يعبر عن الأيام بالليالي، كقوله تعالى: ﴿**إن لبثتم إلا عشراً * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً**﴾ [طه ١٠٣، ١٠٤] ـ فتبين أن المراد بـ«**العشر**» هنا الأيام؛ وهنا قوله تعالى: ﴿**وعشراً**﴾ يعني عشرة أيام؛ ولكن قال أهل اللغة: إن العرب يعبرون بالليالي عن الأيام؛ لأنها قبلها.

قوله تعالى: ﴿**فإذا بلغن**﴾: الضمير يعود على الأزواج المتوفى عنهن أزواجهن؛ و﴿**أجلهن**﴾ أي مدة العدة؛ وأجل كل شيء: غايته؛ أي الغاية التي تنتهي بها العدة؛ وهي هنا أربعة أشهر وعشراً.

قوله تعالى: ﴿**فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف**﴾: الخطاب لأولياء النساء؛ فلو أرادت المرأة أن تعمل شيئاً محرماً عليها في هذه العدة لزم وليها أن يمنعها؛ وإذا تمت العدة فلا جناح على وليها أن يمكنها من أن تفعل في نفسها ما تشاء ـ لكن بالمعروف ـ.

قوله تعالى: ﴿**والله بما تعملون خبير**﴾، أي عليم ببواطن الأمور؛ فالخبير أخص من العليم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: وجوب العدة على المتوفى عنها زوجها؛ لقوله تعالى: ﴿**يتربصن بأنفسهن**﴾؛ لأنها خبر بمعنى الأمر.

٢ ـ **ومنها**: وجوب العدة على المتوفى عنها زوجها سواء كانت صغيرة، أم كبيرة؛ لقوله تعالى: ﴿**أزواجاً**﴾، وأطلق؛ فأما الكبيرة فتقوم بما يلزمها من الإحداد؛ وأما الصغيرة فالمخاطب بذلك وليها يجنبها ما تتجنبه المحادة الكبيرة.

٣ ـ **ومنها**: وجوب العدة على المتوفى عنها زوجها سواء دخل بها، أم لم يدخل؛ لقوله تعالى: ﴿**أزواجاً**﴾؛ لأن الزوجة تكون زوجة بمجرد العقد بخلاف الطلاق؛ فإن الطلاق قبل الدخول، والخلوة لا عدة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها**﴾ [الأحزاب: ٤٩].

٤ ـ **ومنها**: وجوب انتظار المرأة بنفسها مدة العدة بحيث لا تتزوج، ولا تتعرض للزواج؛ لقوله تعالى: ﴿**يتربصن بأنفسهن**﴾، كما تقول: تربص بكذا، وكذا ـ يعني لا تتعجل.

٥ ـ **ومنها**: أن السرية لا تلزمها عدة الوفاة؛ لأنها ليست بزوجة.

٦ ـ **ومنها**: أنه لو تبين عند الوفاة أن النكاح باطل لم تعتد بالوفاة، مثل أن يتبين عند وفاته أنها أخته من الرضاع؛ لأنه تبين أن النكاح باطل ـ وجوده كالعدم ـ.

٧ ـ **ومنها**: أن عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام سواء كانت تحيض، أو لا تحيض؛ ويستثنى من ذلك

الحامل؛ فعدتها إلى وضع الحمل؛ لقوله تعالى: ﴿**وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن**﴾ [الطلاق: ٤]؛ ولا عدة للمتوفى عنها زوجها سوى هاتين.

٨ ـ **ومنها**: حكمة الله بتقدير عدة المتوفى عنها زوجها بأربعة أشهر وعشر؛ وعلق الحكم بهذا العدد، ولم يعلقه بالأقراء ـ كما في المطلقات ـ؛ لأن أقل ما يمكن أن يتحرك فيه الجنين أربعة أشهر؛ وزيدت العشرة للاستثبات؛ هكذا قال بعض أهل العلم؛ ولكن عند التأمل يتبين لك ضعف هذا التعليل؛ لأن المرأة المتوفى عنها زوجها قد لا يدخل بها؛ وقد تكون صغيرة لا يمكن أن تحمل؛ وقد تكون كبيرة آيسة من الحمل؛ ثم الاحتياط بأربعة أشهر وعشر: يمكن العلم ببراءة الرحم قبل هذه المدة؛ فتبين بهذا أن الحكمة شيء آخر؛ وعندي ـ والله أعلم ـ أن الحكمة أنهم لما كانوا في الجاهلية تبقى المرأة حولاً كاملاً في العدة بعد موت زوجها، وتبقى في بيت صغير، كالخباء لها، ولا تمس الماء أبداً؛ تأكل، وتشرب حتى لا تموت؛ وتبقى بعرقها، ورائحتها، وحيضها، ونتنها لمدة سنة كاملة؛ فإذا تمت السنة أتوا لها بفأرة، أو عصفور، فقالوا لها: «امحشي به فرجك»؛ فقلّ ما تتمسح بشيء إلا مات من الرائحة الكريهة؛ مدة سنة ربما يأتيها الحيض اثنتي عشرة مرة وهي في هذا المكان؛ ثم إذا تم الحول أتوا لها ببعرة؛ فأخذت البعرة، ورمت بها، كأنها تقول: كل ما مر عليّ فهو أهون من رمي هذه البعرة؛ فجاء الإسلام، وأبدل الحول بأربعة أشهر؛ لأن أربعة أشهر: ثلث حول؛ وعشرة أيام: ثلث شهر؛ والثلث كثير؛ فأُتي من الحول بثلثه، ومن الشهر بثلثه؛ فإن تبينت هذه الحكمة، وكانت هي مراد الله فهذا من فضل الله؛ وإن

لم تتبين فإننا نقول: الله أعلم بما أراد؛ وهذا كغيرها من العبادات ذوات العدد التي لا نعلم ما الحكمة فيها.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: أن العدة إذا انتهت جاز للمرأة أن تفعل كل ما كان معروفاً من تجمل، وخروج من البيت، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿**فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: أن الأولياء مسؤولون عن مولياتهم؛ لقوله تعالى: ﴿**فلا جناح عليكم**﴾ إشارة إلى أن الرجال لهم ولاية على النساء؛ فيكونون مسؤولين عنهن.

١١ ـ **ومنها**: اعتبار العرف؛ لقوله تعالى: ﴿**بالمعروف**﴾؛ والعرف معتبر إذا لم يخالف الشرع؛ فإن خالف الشرع فلا يعتبر.

١٢ ـ **ومنها**: إثبات علم الله عزّ وجلّ بالظاهر، والخفي؛ لقوله تعالى: ﴿**والله بما تعملون خبير**﴾؛ والخبير هو العليم ببواطن الأمور؛ ومن كان عليماً ببواطن الأمور كان عليماً بظواهرها من باب أولى.

١٣ ـ **ومنها**: التحذير من مخالفة هذا الحكم؛ لقوله تعالى: ﴿**والله بما تعملون خبير**﴾ أي احذروا من مخالفته؛ فإن الله بما تعملون خبير.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۗ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٣٥﴾ قوله تعالى: ﴿ولا جناح عليكم﴾ أي لا إثم عليكم؛ والخطاب في قوله تعالى: ﴿عليكم﴾ لجميع الناس؛ فكل خطاب في القرآن بلفظ الجمع فهو للناس عموماً إلا ما خصه السياق بقرينة فليس للعموم.

قوله تعالى: ﴿فيما﴾ أي في الذي ﴿عرضتم به من خطبة النساء﴾: «**التعريض**» هو أن يأتي الإنسان بكلام لا يصرح فيه بمراده؛ لكنه مقارب، مثل أن يقول للمرأة: «إني في مثلكِ لراغب»؛ «إنكِ امرأة يرغب فيكِ الرجال»؛ «إذا انقضت العدة فأخبريني»؛ وعلى هذا فقس؛ فهذا ليس فيه تصريح أن يخطبها لا لنفسه، ولا لغيره؛ لكنه يسمى تعريضاً؛ والتعريض، والتلويح بمعنًى واحد؛ و«**الخطبة**» معناها أن يعرض الإنسان نفسه على المرأة ليتزوجها، ويطلبها إليه؛ وسميت خطبة إما من الخَطْب بمعنى الشأن؛ لأن هذا شأنه عظيم؛ وإما من الخطابة؛ لأنها مقرونة بالقول ـ حتى إنه كان فيما سلف يأتي الخاطب إلى المرأة، وأهلها، ويخطب فيهم ـ يعني يتكلم بخطبة، ثم يبدي أنه يرغبها؛ ومع ذلك يفرقون بين الخِطبة ـ بالكسر ـ؛ وبين الخُطبة ـ بالضم ـ؛ فيقول: الخُطبة ـ بالضم: هي القول المشتمل على الوعظ، والتذكير، وما أشبه ذلك ـ؛ والخِطبة ـ بالكسر ـ: هي طلب المرأة لتكون زوجة للطالب؛ والمراد بـ﴿النساء﴾ من مات عنهن أزواجهن.

قوله تعالى: ﴿أو أكننتم في أنفسكم﴾ أي أخفيتم، وأضمرتم في أنفسكم.

قوله تعالى: ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾ أي تكلمون فيهن معربين عن رغبتكم في نكاحهن، مثل أن يذكر لأخيه، أو لأبيه، أو لابنه، أو لصديقه بأنه يرغب أن يتزوج فلانة.

قوله تعالى: ﴿ولكن لا تواعدوهن سراً﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولكن لا تواعدوهن سراً﴾: ﴿لا﴾ ناهية؛ لحذف النون؛ و﴿سراً﴾ ذكر كثير من المفسرين أن «السر» من أسماء النكاح ـ أي لا تواعدوهن نكاحاً؛ وقالوا: إن «السر» من أسماء النكاح؛ لأنه يقع بين الرجل وامرأته سراً؛ وقال بعض العلماء: ﴿لا تواعدوهن سراً﴾ أي وعداً سراً فيما بينكم، وبينهن؛ وإذا نهي عن السر فالعلانية من باب أولى؛ ويختلف الإعراب بناءً على القولين؛ فإذا قلنا: إن ﴿سراً﴾ بمعنى النكاح صار مفعولاً ثانياً لـ﴿تواعدوهن﴾؛ وإذا قلنا: إن ﴿سراً﴾ ضد العلانية، وأن المعنى: «لا تواعدوهن وعداً سرياً» صار مفعولاً مطلقاً.

قوله تعالى: ﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾ استثناء منقطع؛ وعلامته أن تكون «إلا» بمعنى «لكن»، وأن لا يكون ما بعدها من جنس ما قبلها؛ فقوله تعالى: ﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾ ليس هو من جنس ما قبله من المواعدة سراً؛ لأن المواعدة سراً ليس من القول المعروف؛ إذ إن القول المعروف هو التعريض دون التصريح.

قوله تعالى: ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح﴾؛ العزم على الشيء إرادة فعله بلا تردد؛ والمراد به هنا الفعل؛ و﴿عقدة النكاح﴾ أي

عقده؛ لأن النكاح عقد بين الزوج، والزوجة؛ فهو كالعقود الأخرى، كعقد البيع، وما أشبه ذلك.

وقوله تعالى: ﴿حتى يبلغ الكتاب أجله﴾؛ ﴿حتى﴾ للغاية، وما بعدها منصوب بها؛ و﴿الكتاب﴾ فعال بمعنى مفعول؛ والمراد بـ﴿الكتاب﴾ هنا ـ كما ذكره المفسرون ـ العدة؛ لأن الله سبحانه وتعالى فرضها؛ فهي مفروضة؛ يعني حتى يبلغ المفروض أجله؛ والمفروض هي العدة؛ ويحتمل أن يكون المراد بـ﴿الكتاب﴾ هنا ما يكتبونه عند ابتداء سبب العدة من موت، أو طلاق، أو نحوه، كأن يقال مثلاً: توفي في يوم كذا؛ ويكون هذا داخلاً في قوله تعالى: ﴿وأحصوا العدة﴾ يعني اضبطوها، وحرروها؛ وعلى هذا فيكون المعنى الكتاب المكتوب الذي فيه بيان متى كان سبب العدة من وفاة، أو طلاق.

وقوله تعالى: ﴿أجله﴾: أجل الشيء منتهاه، وغايته؛ أي حتى يبلغ غايته حسب ما فرض الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿واعلموا﴾ فعل أمر؛ وأتى سبحانه وتعالى به للأهمية، والتحذير من المخالفة؛ وهذه الجملة يؤتى بها من أجل التنبيه؛ فيقال: اعلم كذا، وكذا؛ لكي تنتبه؛ ﴿أن الله يعلم ما في أنفسكم﴾ أي ما استقر في أنفسكم مما تضمرونه من كل شيء؛ ﴿فاحذروه﴾: الفاء هذه للتفريع ـ أي إذا علمتم هذا فاحذروا الله عزّ وجلّ من أن تضمروا في هذه الأنفس ما لا يرضاه سبحانه وتعالى؛ والحذر من الشيء معناه أخذ الحِذْر ـ وهو الاحتياط، وعدم المخالفة.

قوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله غفور حليم﴾؛ فإذا أضمرتم

في أنفسكم ما لا يرضاه فإن لديكم باباً واسعاً ـ وهو المغفرة؛ تعرضوا لمغفرة الله عزّ وجلّ بأن تستغفروه، وتتوبوا إليه؛ وسبق أن «**الغفور**» مأخوذ من: «الغَفْر» وهو الستر مع الوقاية؛ والمراد به ستر الذنب مع التحاوز عنه؛ و«**الحليم**» هو الذي يؤخر العقوبة عن مستحقها، كما قال ابن القيم:

وهو الحليم فلا يعاجل عبده بعقوبة ليتوب من العصيان

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: جواز التعريض في خطبة المتوفى عنها زوجها؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء**﴾.

٢ ـ **ومنها**: تحريم التصريح بخطبة المعتدة من وفاة؛ لقوله تعالى: ﴿**فيما عرضتم به**﴾ فنفي الجناح عن التعريض ـ وهو دون التصريح ـ يدل على تحريم التصريح؛ ويؤيده قوله تعالى: ﴿**ولكن لا تواعدهن سراً**﴾.

تكميلاً لهذه الفائدة نقول: إن خطبة المعتدة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: تحرم تصريحاً وتعريضاً؛ وتباح تصريحاً وتعريضاً؛ وتحرم تصريحاً لا تعريضاً؛ فالأول: في الرجعية لغير زوجها؛ فيحرم على الإنسان أن يخطب الرجعية لا تصريحاً، ولا تعريضاً؛ والرجعية هي المعتدة التي يجوز لزوجها أن يراجعها بغير عقد؛ لأنها زوجة، كما قال تعالى: ﴿**والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء**﴾ [البقرة: ٢٢٨] إلى أن قال: ﴿**وبعولتهن أحق بردهن**﴾ [البقرة: ٢٢٨]؛ والتي تحل تصريحاً وتعريضاً هي البائن من زوجها بغير الثلاث، كالمطلقة على عوض، والمختلعة، والفاسخة

لنكاحها بسبب، وما أشبه ذلك؛ فيجوز لزوجها أن يخطبها تعريضاً، وتصريحاً، وأن يتزوجها؛ والتي تباح تعريضاً لا تصريحاً كل مبانة لغير زوجها؛ فيجوز لغير زوجها أن يعرض بخطبتها بدون تصريح، كالمتوفى عنها زوجها تجوز خطبتها تعريضاً لا تصريحاً.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: جواز إضمار الإنسان في نفسه خطبة امرأة لا يجوز له التصريح بخطبتها؛ لقوله تعالى: ﴿**أو أكننتم في أنفسكم**﴾.

٤ ـ **ومنها**: جواز ذكر الإنسان المرأة المعتدة في نفسه، ولغيره؛ لقوله تعالى: ﴿**علم الله أنكم ستذكرونهن**﴾؛ فلو قال شخص: «إنني أريد أن أتزوج امرأة فلان المتوفى عنها زوجها» يحدث غيره: فلا بأس به.

٥ ـ **ومنها**: أنه لا يجوز للإنسان أن يواعد المعتدة من الوفاة بالنكاح، فيقول: «إذا انتهت عدتك فإنني سأتزوجك»؛ لقوله تعالى: ﴿**ولكن لا تواعدهن سراً**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن التعريض بخطبة المتوفى عنها زوجها من القول المعروف غير المنكر؛ لقوله تعالى: ﴿**إلا أن تقولوا قولاً معروفاً**﴾.

٧ ـ **ومنها**: تحريم عقد النكاح في أثناء العدة إلا من زوجها؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله**﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة فائدة أخرى: وهي أن النكاح باطل؛ لقوله ﷺ: «**فأيما شرط كان ليس في كتاب الله فهو باطل ـ وإن**

كان مائة شرط»[١]، وقوله ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٢]؛ فلو عقد عليها في العدة فالعقد باطل؛ وهل له أن يتزوجها بعد انقضاء العدة؟ اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ هل تحل له لزوال المانع؛ وهو قول الجمهور؛ أو لا تحل له عقوبة له لتعجله الشيء قبل أوانه على وجه محرم؛ في المسألة قولان؛ وينبغي أن يرجع في ذلك إلى حكم الحاكم فيحكم بما يراه أصلح للعباد.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: الإشارة إلى العناية بالعدة، وأنه ينبغي أن تكتب؛ لقوله تعالى: ﴿**حتى يبلغ الكتاب أجله**﴾.

٩ ـ **ومنها**: المخاطبة بالمجمل، وأنها أسلوب من أساليب البلاغة؛ لقوله تعالى: ﴿**حتى يبلغ الكتاب أجله**﴾؛ ومن فوائد الإجمال أن النفس تتطلع إلى بيانه، وتحرص عليه حتى تدركه؛ فإذا أدركت البيان بعد الإجمال كان ذلك أحرى بأن يبقى العلم في نفس الإنسان، ولا ينساه.

١٠ ـ **ومنها**: إحاطة علم الله تعالى بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿**واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه**﴾.

ويتفرع على هذا: أن لا يضمر الإنسان في نفسه ما لا يرضاه الله عزّ وجلّ.

١١ ـ **ومنها**: أن هذا القرآن العظيم مثاني ـ بمعنى تُثَنَّى فيه الأمور، والمواضيع؛ فإذا ذكر أهل الجنة ذكر أهل النار؛ وإذا ذكر الرجاء ذكر معه الخوف... وهكذا؛ وقد نص الله على ذلك فقال تعالى: ﴿**الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني**﴾ [الزمر:

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٢٦٥، حاشية (٣).

(٢) سبق تخريجه ١/ ٩١.

٢٣] ـ وهو هذا القرآن؛ ومثاله في هذه الآية: أن الله سبحانه وتعالى لما حذَّر قال: ﴿واعلموا أن الله غفور حليم﴾.

١٢ ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما «**الغفور**» و«**الحليم**»؛ وقد ذكرنا فيما سبق أن كل اسم من أسماء الله فهو متضمن للصفة؛ فإذا كان متعدياً فهو يتضمن الحكم؛ وإن كان غير متعدٍّ لم يتضمنه؛ وربما يدل على أكثر من صفة بدلالة الالتزام؛ لأن أنواع الدلالة ثلاثة: مطابقة، وتضمن، والتزام؛ فـ«المطابقة» دلالة اللفظ على جميع معناه؛ و«التضمن» دلالته على بعض معناه؛ و«الالتزام» دلالته على لازم خارج؛ مثل «الخالق» من أسماء الله؛ دلالته على الذات، والخلق: مطابقة؛ ودلالته على الذات وحدها، أو على الخلق وحده: تضمن؛ ودلالته على العلم، والقدرة: التزام؛ فلا يمكن أن يكون خالقاً إلا أن يكون عالماً قادراً؛ لأنه لا يخلق من لا يقدر؛ ولا يخلق من لا يعلم؛ فلا بد أن يكون عالماً قادراً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً**﴾ [الطلاق: ١٢]؛ فذكر العلم، والقدرة بعد أن ذكر أنه خلق؛ ولا يمكن أن يكون هناك خلق إلا أن يعلم كيف يخلق، ويقدر على ذلك.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٣٦﴾ قوله تعالى: ﴿**لا جناح عليكم**﴾ أي لا إثم عليكم؛ ﴿**إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن**﴾: اختلف أهل الإعراب في إعراب: ﴿**ما**﴾؛ فقال بعضهم: إن ﴿**ما**﴾ مصدرية ظرفية؛ أي مدة دوام عدم مسكهم لهن؛ وقال بعضهم: إن ﴿**ما**﴾ شرطية؛ فهو من باب دخول الشرط على الشرط؛ أي لا جناح عليكم إن طلقتم النساء إن لم تمسوهن؛ وهذا يأتي في اللغة العربية كثيراً ـ أي كون الشرط الثاني شرطاً في الأول؛ ومنها قوله تعالى: ﴿**فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين**﴾ [الواقعة: ٨٦، ٨٧] فهنا شرط في شرط؛ ومنه قول الشاعر:

إن تستغيثوا بنا إن تُذعَروا تجدوا ... منا معاقلَ عزّ زانها كرمُ

فيكون الثاني شرطاً في الأول؛ وكل شرط دخل على شرط فالسابق الثاني؛ فهنا نقول: إن ﴿**ما**﴾ شرطية؛ وأن تقدير الآية: لا جناح عليكم إن طلقتم النساء إن لم تمسوهن؛ فإذا طلقها بدون مس فلا جناح عليه؛ والمعنى واحد؛ ولكن الاختلاف في الإعراب.

وقوله تعالى: ﴿**تمسوهن**﴾ فيها قراءة ثانية: «**تُماسوهن**»؛ وكلاهما بمعنًى واحد؛ والمراد به الجماع؛ لكن جرت عادة العرب ـ والقرآن بلسان عربي مبين ـ أن يُكَنوا عما يستحيا من ذكره صريحاً بما يدل عليه؛ ولكل من القراءتين وجه؛ فعلى قراءة: «**تماسوهن**» يكون المسيس من الجانبين؛ فكل من الزوج، والزوجة يمس الآخر؛ ومثله قوله تعالى: ﴿**فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا**﴾ [المجادلة: ٣]؛ وأما على قراءة حذف الألف ـ الذي

يفيد وقوع الفعل من جانب واحد ـ فهو أيضاً واقع؛ لأن حقيقة الفاعل هو الرجل؛ فهو ماسّ؛ ومنها قوله تعالى في مريم: ﴿**ولم يمسسني بشر**﴾ [آل عمران: ٤٧]؛ فجعل المسّ من جانب واحد ـ وهو الرجل ـ.

قوله تعالى: ﴿**أو تفرضوا لهن فريضة**﴾ أي تجمعوا بين الأمرين: بين ألا تفرضوا لهن فريضة، وبين ألا تمسوهن؛ فلا جناح عليكم إذا طلقتم المرأة بعد العقد بدون مسيس، وبدون تسمية مهر؛ و﴿أو﴾ هنا على القول الراجح حرف عطف على ﴿**تمسوهن**﴾.

قوله تعالى: ﴿**ومتعوهن**﴾: قال بعض المفسرين: إن هذه الجملة معطوفة على جملة مقدرة؛ والتقدير: فطلقوهن، ومتعوهن؛ وأن تقدير: «فطلقوهن» مستفاد من قوله تعالى: ﴿**لا جناح عليكم إن طلقتم النساء**﴾؛ لأن معنى ذلك: أننا قد أبحنا لكم طلاق النساء، فطلقوهن؛ فيكون المراد بالأمر المقدر ـ كما قالوا ـ الإباحة؛ والمراد بالأمر المذكور الوجوب؛ وقال بعض المعربين: لا حاجة إلى التقدير؛ لأن «فطلقوهن» المراد به الإباحة مفهوم من قوله تعالى: ﴿**لا جناح عليكم إن طلقتم النساء**﴾؛ وما دام المعنى يفهم بدون تقدير فإنه لا يجوز التقدير؛ لأن التقدير نوع من التأويل؛ ولأن الأصل تمام الكلام، وعدم احتياجه إلى تقدير؛ وهذا القول أرجح؛ وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿**ومتعوهن**﴾ يعني إذا طلقتموهن؛ وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿**لا جناح عليكم إن طلقتم النساء**﴾؛ و﴿متعوهن﴾ معناها أن يعطيها ما فيه المتعة والبلاغ، من زاد، أو لباس، أو غير ذلك، مما تقتضيه الحال والعرف.

قوله تعالى: ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾: في ﴿قدره﴾ قراءتان ﴿قدَره﴾ بفتح الدال؛ و﴿قدْره﴾ بسكونها؛ فعلى القراءة الأولى يكون المعنى ما يقدِر عليه؛ وعلى الثانية يكون المعنى بقَدْره ـ أي بقدر سعته ـ؛ و﴿الموسع﴾ هو الغني الكثير المال؛ و﴿المقتر﴾ هو الفقير الذي ليس عنده شيء؛ وقوله تعالى: ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾، أي على الغني ما يناسب حاله؛ وعلى الفقير ما يناسب حاله؛ والجملة هذه قيل: إنها استئنافية لا محل لها من الإعراب تُبين مقدار الواجب الذي أوجبه الله عزّ وجلّ في قوله تعالى: ﴿ومتعوهن﴾؛ وقيل: إنها في موضع نصب على الحال من الواو في ﴿متعوهن﴾؛ يعني متعوهن حال كونكم موسرين، أو معسرين ـ على الموسر قدره، وعلى المقتر قدره ـ.

قوله تعالى: ﴿متاعاً﴾ يحتمل أن يكون اسم مصدر ـ أي مفعولاً مطلقاً عامله ﴿متعوهن﴾ يعني تمتيعاً ﴿بالمعروف﴾؛ فـ«متاع» هنا بمعنى تمتيع، مثل «كلام» بمعنى تكليم، و«سلام» بمعنى تسليم، وما أشبهها؛ ويحتمل أن يكون حالاً؛ أي حال كون القدَر ـ أو القدْر ـ متاعاً ﴿بالمعروف﴾؛ أي بما يقتضيه العرف؛ والباء هنا للمصاحبة.

قوله تعالى: ﴿حقاً﴾ منصوبة على أنه مصدر لفعل محذوف يعني: أحق ذلك حقاً؛ و«الحق» هو الشيء الثابت اللازم؛ و﴿على المحسنين﴾ أي على فاعلي الإحسان؛ و«المحسن» اسم فاعل من: أحسَنَ ـ أي قام بالإحسان، وعمل به ـ؛ و«الإحسان» هنا ما كان موافقاً للشرع؛ فإذا قرن بـ«العدل» صار المراد

بـ«الإحسان» الفضل الزائد على العدل، كما في قوله تعالى: ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان**﴾ [النحل: ٩٠]؛ فـ«الإحسان» تارة يراد به موافقة الشرع ـ ولو كان شيئاً واجباً ـ؛ وتارة يراد به ما زاد على الواجب؛ وهذا إذا قُرن بـ«العدل»، كما سبق.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: جواز طلاق الرجل امرأته قبل أن يمسها؛ لقوله تعالى: ﴿**لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن**﴾؛ وربما يشعر قوله تعالى: ﴿**لا جناح**﴾ أن الأولى عدم ذلك؛ لأن طلاقه إياها قبل أن يمسها وقد خطبها، وقدم إليها الصداق فيه شيء على المرأة، وغضاضة، وإن كان الإنسان قد يتأمل في أمره، وتضطره الأمور إلى الطلاق فإنه لا ينبغي أن يكون متسرعاً متعجلاً.

٢ ـ **ومنها**: إطلاق المس على الجماع؛ لقوله تعالى: ﴿**ما لم تمسوهن**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أنه يجوز للإنسان أن يتزوج المرأة بلا تسمية مهر؛ لقوله تعالى: ﴿**أو تفرضوا**﴾ يعني: ما لم تفرضوا لهن فريضة؛ وقد اختلف العلماء فيما إذا تزوج المرأة، وشرط ألا مهر لها؛ فمنهم من يرى أن النكاح غير صحيح ـ وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية؛ وهو الراجح؛ لأن الله اشترط للحل المال؛ قال تعالى: ﴿**وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم**﴾ [النساء: ٢٤]؛ ولأن النكاح إذا شرط فيه عدم المهر صار بمعنى الهبة؛ والنكاح بالهبة خاص بالنبي ﷺ؛ والحال لا تخلو من ثلاثة أمور: إما أن يشترط المهر ويعيَّن؛ وإما أن يسكت عنه؛ وإما أن

يشترط عدمه؛ ففي الحال الأولى يكون النكاح صحيحاً، ولا نزاع فيه؛ وفي الثانية النكاح صحيح، ولها مهر المثل؛ وفي الثالثة موضع خلاف بين أهل العلم؛ وسبق بيان الراجح.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: وجوب المتعة على من طلق قبل الدخول، ولم يسم لها مهراً؛ لقوله تعالى: ﴿**ومتعوهن**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن ظاهر الآية الكريمة أنه إذا خلا بها، ولم يمسها لم يكن عليه إلا المتعة؛ لكن الصحابة ألحقوا الخلوة بها بالمسيس في وجوب العدة؛ وقياس ذلك وجوب مهر المثل إذا خلا بها، ولم يسم لها صداقاً.

٦ ـ **ومنها**: أن العبرة في المتعة حالُ الزوج: إن كان موسراً فعليه قدره؛ وإن كان معسراً فعليه قدره؛ لقوله تعالى: ﴿**على الموسع قدره وعلى المقتر قدره**﴾.

٧ ـ **ومنها**: امتناع التكليف بما لا يطاق؛ لقوله تعالى: ﴿**على الموسع قدره وعلى المقتر قدره**﴾؛ وهذه القاعدة دل عليها القرآن في عدة مواضع؛ منها قوله تعالى: ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٨ ـ **ومنها**: مراعاة الأحوال في الأحكام؛ فيثبت في كل حال ما يناسبها؛ لقوله تعالى: ﴿**على الموسع قدره وعلى المقتر قدره**﴾.

٩ ـ **ومنها**: أن للعرف اعتباراً شرعياً؛ لقوله تعالى: ﴿**متاعاً بالمعروف**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: أن الحق إما أن يكون في الأخبار، أو يكون في الأحكام؛ فإن كان في الأخبار فهو الصدق؛ وإن كان في

الأحكام فهو العدل؛ وقد يجمع بين العدل وبين الصدق، فيحمل الصدق على الخبر؛ والعدل على الأحكام، مثل قوله تعالى: ﴿**وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً**﴾ [الأنعام: ١١٥].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٣٧﴾ قوله تعالى: ﴿**وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن**﴾؛ وفي قراءة: «**تماسوهن**»، وسبق توجيههما، ومعناهما.

قوله تعالى: ﴿**وقد فرضتم لهن فريضة**﴾ أي قدرتم لهن مهراً، كعشرة آلاف مثلاً؛ والجملة في موضع نصب على الحال؛ وهي في مقابل قوله تعالى فيما سبق: ﴿**ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة**﴾.

قوله تعالى: ﴿**فنصف ما فرضتم**﴾؛ الفاء واقعة في جواب الشرط، وهو قوله تعالى: ﴿**إن طلقتموهن**﴾؛ و«**نصف**» مبتدأ خبره محذوف؛ وتقدير هذا الخبر: «فلهن»؛ أو «فعليكم»؛ ويجوز أن نجعل «**نصف**» خبر المبتدأ المحذوف؛ ويكون التقدير: فالواجب نصف ما فرضتم.

قوله تعالى: ﴿إلا أن يعفون﴾ استثناء من أعم الأحوال ـ أي فنصف ما فرضتم في كل حال إلا في هذه الحال ـ؛ و﴿أن﴾ حرف مصدر ينصب الفعل المضارع؛ لكنه اتصل بنون النسوة، فكان مبنياً على السكون؛ وضمير النسوة يعود على النساء المطلقات.

قوله تعالى: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾؛ قيل: المراد به الزوج؛ وقيل: وليّ المرأة؛ والصواب الأول؛ لأن الزوج هو الذي بيده عقدة النكاح إذا شاء أبقاها؛ وإذا شاء حلها بالطلاق؛ ولأن وليّ المرأة قد لا يملك إسقاط شيء من مهرها، كابن العم مثلاً؛ ولأنه إذا قيل: هو الزوج صار العفو من جانبين؛ إما من الزوجة، كما يفيده قوله تعالى: ﴿إلا أن يعفون﴾؛ أو من الزوج، كما يفيده قوله تعالى: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾؛ وإذا قيل: إنه وليّ المرأة صار العفو من جانب واحد؛ وهو الزوجة، أو وليها؛ ويؤيد الترجيح قوله تعالى: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾؛ ولو كان المراد وليّ المرأة لقال تعالى: «وأن يعفوَ» بالياء، وفتح الواو؛ فإن قيل: كيف يكون الزوج عافياً وهو الباذل؟ فالجواب أن هذا مبني على الغالب؛ وهو أن الزوج قد سلم المهر؛ فإذا طلقها قبل الدخول صار له عند المرأة نصف المهر؛ فإذا عفا عن مطالبتها به صار أقرب للتقوى.

وقوله تعالى: ﴿عقدة النكاح﴾ إشارة إلى أن النكاح ربط بين الزوجين، كما تربط العقدة بين طرفي الحبل.

قوله تعالى: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ أي أن تعفوا أيها الأزواج عما تستحقون من المهر إذا طلقتم قبل الدخول ـ وهو نصف المهر ـ أقرب للتقوى.

قوله تعالى: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾، أي لا تتركوا الفضل ـ أي الإفضال بينكم ـ بالتسامح، والعفو.

قوله تعالى: ﴿إن الله بما تعملون﴾، أي بكل ما تعملون من خير وشر ﴿بصير﴾ أي عليم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أنه إذا طلقها قبل المسيس وقد سمى لها صداقاً وجب لها نصف المهر.

٢ ـ **ومنها**: أنه إذا خلا بها، ولم يمسها لم يكن عليه إلا نصف المهر؛ لكن الصحابة ألحقوا الخلوة بها بالمسيس في وجوب العدة؛ وقياس ذلك وجوب المهر كاملاً إذا خلا بها.

٣ ـ **ومنها**: جواز الطلاق قبل المسيس مع تعيين المهر؛ وجهه أن الله أقر هذه الحال، ورتب عليها أحكاماً؛ ولو كانت حراماً ما أقرها، ولا رتب عليها أحكاماً؛ وعلى هذا فيكون ارتباط الآية بما قبلها ظاهراً؛ لأن الآية قبلها فيما إذا طلِّقت قبل المسيس ولم يسمَّ لها مهر؛ وهذه الآية فيما إذا طلقت قبل المسيس وسُمي لها مهر؛ وإن طلقت بعد المسيس؛ إن سُمي لها مهر فلها المهر كاملاً؛ وإن لم يسمَّ لها مهر فلها مهر المثل.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن تعيين المهر إلى الزوج لا إلى الزوجة؛ لقوله تعالى: ﴿وقد فرضتم﴾.

٥ ـ **ومنها**: جواز إسقاط المرأة ما وجب لها من المهر عن الزوج، أو بعضه؛ لقوله تعالى: ﴿إلا أن يعفون﴾؛ ويشترط لذلك أن تكون حرة بالغة عاقلة رشيدة.

٦ ـ **ومنها**: جواز تصرف المرأة في مالها ـ ولو على سبيل

التبرع ـ لقوله تعالى: ﴿**إلا أن يعفون**﴾؛ وهل نقول: عمومه يقتضي جواز عفوها ـ وإن كان عليها دين يستغرق؛ أو نقول: إن كان عليها دين يستغرق فليس لها أن تعفو؟ يحتمل هذا، وهذا؛ وظاهر الآية العموم؛ لكن تبرع المدين لا ينفذ على القول الراجح إذا كان يضر بالغرماء؛ لكن قد يقال: هذا ليس تبرعاً محضاً؛ وإنما هو إسقاط ما وجب على الغير؛ وليس كالتبرع المحض الذي ينتزع من مال المدين.

٧ ـ **ومنها**: جواز عفو الزوج عما يبقى له من المهر إذا طلق قبل الدخول؛ لقوله تعالى: ﴿**أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح**﴾؛ ويقال فيما إذا كان مديناً كما قيل في عفو الزوجة.

٨ ـ **ومنها**: أن النكاح من العقود؛ لقوله تعالى: ﴿**عقدة النكاح**﴾ ويترتب على هذه الفائدة جواز التوكيل فيه؛ لأن النبي ﷺ وكَّل في العقود؛ فيجوز أن يوكل الإنسان من يعقد النكاح له؛ وحينئذٍ يقول وليّ المرأة لوكيل الزوج: زوجت موكِّلَك فلاناً بنتي فلانة؛ ولا يصح أن يقول: زوجتك بنتي فلانة؛ ويقول وكيل الولي للزوج: زوجتك بنت موكلي فلانٍ فلانة؛ ولا يصح أن يقول: زوجتك فلانة بنت فلان؛ لأن لا بد من النص على الوكالة، حيث إنه لا بد من الشهادة على عقد النكاح؛ وإذا لم يصرح بما يدل على الوكالة أوهم أن العقد للوكيل؛ وقال بعض العلماء: إنه إذا كان معلوماً عند الجميع أن العقد بوكالة لم يحتج إلى ذكر موكل؛ والأول أحوط سداً للباب؛ لئلا يدعي الوكيل أنه فسخ الوكالة، ونوى العقد لنفسه.

وهل يثبت لعقد النكاح ما يثبت لعقد البيع من خيار

المجلس، أو خيار الشرط؟ أما خيار المجلس فلا يثبت؛ لأن النبي ﷺ قال: «**البيعان بالخيار**»[(١)]؛ ولا يصح قياس النكاح على البيع؛ لأن النكاح غالباً إنما يصدر بعد تروٍّ دقيق، ونظر، وبحث؛ بخلاف البيع فقد يصدر عن عجلة، وعن حرص على الربح بدون أن يتروى الإنسان؛ واحتياط الإنسان لعقد النكاح أشد من احتياطه للبيع.

لكن هل يثبت فيه خيار الشرط فالمذهب أنه لا يثبت فيه خيار الشرط؛ واختار شيخ الإسلام أنه يجوز خيار الشرط في النكاح؛ لعموم قول النبي ﷺ: «**إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج**»[(٢)]، وقوله ﷺ: «**المسلمون على شروطهم إلا شرطاً أحل حراماً، أو حرم حلالاً**»[(٣)]؛ وهذا القول قد تحتاج إليه المرأة فيما إذا أراد الزوج أن يسكنها مع أهله؛ فتشترط عليه الخيار؛ وهذا له حالان:

---

(١) أخرجه البخاري ص١٦٢، كتاب البيوع، باب ١٩: إذا بيَّن البيعان ولم يكتما ونصحا، حديث رقم ٢٠٧٩، وأخرجه مسلم ص٩٤٢، كتاب البيوع، باب ١١، الصدق في البيع والبيان، حديث رقم ٣٨٥٨ [٤٧] ١٥٣٢.

(٢) أخرجه البخاري ص٢١٦، كتاب الشروط، باب ٦: الشروط في المهر عند عقدة النكاح، حديث رقم ٢٧٢١، وأخرجه مسلم ص٩١٤، كتاب النكاح، باب ٨: الوفاء بالشروط في النكاح، حديث رقم ٣٤٧٢ [٦٣] ١٤١٨.

(٣) أخرجه أبو داود ص١٤٨٩، كتاب الأقضية، باب ١٢، في الصلح، حديث رقم ٣٥٩٤، وفي سنده كثير بن زيد؛ قال الحافظ فيه: صدوق يخطئ؛ وقال الألباني: فمثله حسن الحديث إن شاء الله ما لم يتبين خطؤه، كيف وهو لم يتفرد به (الإرواء ٥/ ١٤٣)، حديث ١٣٠٣، وقال في صحيح أبي داود: حسن صحيح ٢/ ٣٩٥.

الحال الأولى: أن تشترط عليه الخيار في أصل العقد: فَتَفسَخ النكاح إذا لم يمكن المقام معهم.

الحال الثانية: أن تشترط عليه الخيار في البقاء مع أهله ـ يعني إن استقامت الحال؛ وإلا أنزلها في بيت آخر.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: الترغيب في العفو؛ لقوله تعالى: ﴿**وأن تعفوا أقرب للتقوى**﴾؛ وقد حث الله على العفو، وبيَّن أن أجر العافي على الله عزّ وجلّ؛ ولكنه تعالى قيد ذلك بما إذا كان العفو إصلاحاً فقال تعالى: ﴿**فمن عفا وأصلح فأجره على الله**﴾ [الشورى: ٤٠].

١٠ ـ **ومنها**: أن الأعمال تتفاضل؛ لقوله تعالى: ﴿**أقرب للتقوى**﴾.

١١ ـ **ومنها**: أن الناس يتفاضلون في الإيمان؛ لأن تفاضل الأعمال يستلزم تفاضل العامل؛ والأعمال من الإيمان، كما قد تقرر في غير هذا الموضع.

١٢ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان ألا ينسى الفضل مع إخوانه في معاملته؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تنسوا الفضل بينكم**﴾؛ وقد جاء في الحديث: «**رحم الله عبداً سمحاً إذا باع؛ سمحاً إذا اشترى؛ سمحاً إذا اقتضى**»[1]؛ فإن هذا فيه من حسن المعاملة ما هو ظاهر؛ والدين الإسلامي يحث على حسن المعاملة، وعلى حسن الخلق، وعلى البر كله.

١٣ ـ **ومنها**: إحاطة علم الله سبحانه وتعالى، وبصره بكل

---

(١) أخرجه البخاري ص١٦٢، كتاب البيوع، باب ١٦: السهولة والسماحة في الشراء والبيع...، حديث رقم ٢٠٧٦، وأخرجه ابن ماجه واللفظ له ص٢٦٠٨، باب ٢٨: السماحة في البيع، حديث رقم ٢٢٠٣.

شيء مما نعمله؛ لقوله تعالى: ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾.

١٤ ـ **ومنها**: الترغيب في العمل الصالح، والترهيب من العمل السيء؛ لأن ختم الآية بهذه الجملة مقتضاه: احرصوا على العمل الصالح؛ فإنه لن يضيع؛ واحذروا من العمل السيء؛ فإنكم تجازون عليه؛ لأن كلاً معلوم عند الله سبحانه وتعالى.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

التفسير:

فإن قال قائل: ما وجه ارتباط هاتين الآيتين بما يتعلق بشأن العدة للنساء؟

فالجواب: أن ترتيب الآيات توفيقي ليس للعقل فيه مجال؛ والله أعلم بما أراد؛ وقد التمس بعض المفسرين حكمة لهذا؛ ولكن لما لم يتعين ما ذكره أحجمنا عن ذكرها؛ ونَكِلُ العلم إلى منزل هذا الكتاب العظيم، ونعلم أنه لابد أن يكون هناك حكمة، أو حِكَم؛ لأن الله سبحانه وتعالى حكيم عليم.

﴿٢٣٨﴾ قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات﴾: «**المحافظة**» الاستمرار في حفظ الشيء مع العناية به؛ ولم يبين الله في هذه الآية كيفية المحافظة؛ لكن بينت في مواضع أخرى من

الكتاب، والسنة؛ وهو أبلغ من قولك: «احفظ كذا»؛ بدليل أنك لو أعطيتني وديعة، وقلت: «حافظ عليها»، أو قلت: «هذه وديعة احفظها» لكان الأول أبلغ؛ فلهذا جاءت في الآية: ﴿**حافظوا على الصلوات**﴾؛ و﴿**الصلوات**﴾ جمع صلاة؛ وهي في اللغة: الدعاء؛ وفي الشرع العبادة المعروفة.

قوله تعالى: ﴿**والصلاة الوسطى**﴾ أي الفضلى؛ وهي صلاة العصر، كما صح بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ[(١)]؛ ولا عبرة بما خالفه؛ لأن النبي ﷺ أعلم الناس بمراد الله؛ وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم**﴾ [النحل: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿**وقوموا لله قانتين**﴾: هذا أمر بالقيام؛ ولا إشكال فيه؛ وهل المراد بالقيام هنا المكث على الشيء، أو القيام على القدمين؟ هو المعنيان جميعاً؛ واللام في قوله تعالى: ﴿**لله**﴾ للإخلاص.

قوله تعالى: ﴿**قانتين**﴾ حال من الواو في ﴿**قوموا**﴾ أي حال كونكم قانتين؛ و«**القنوت**» يطلق على عدة معانٍ؛ منها: دوام العبادة، والطاعة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿**وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين**﴾ [التحريم: ١٢]؛ ويطلق «**القنوت**» على «الخشوع» ـ وهو السكوت تعظيماً لمن قنت له؛ وعليه

---

(١) راجع البخاري ص٥٣٧، كتاب الدعوات، باب ٥٨: الدعاء على المشركين، حديث رقم ٦٣٩٦؛ ومسلماً ص٧٧٥، كتاب المساجد، باب ٣٦: الدليل لمن قال: «الصلاة الوسطى» هي صلاة العصر، حديث رقم ١٤٢٥ [٢٠٥] ٦٢٧.

يدل سبب نزول الآية؛ فإنه كان أحدهم يكلم صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ فأمروا بالسكوت، ونهوا عن الكلام[1]؛ إذاً فـ«القنوت» خشوع القلب الذي يظهر فيه خشوع الجوارح؛ ومنها اللسان حتى لا يتكلم الإنسان مع الناس؛ ليتجه إلى صلاته؛ وكذلك لا يفعل إلا ما يتعلق بصلاته.

﴿٢٣٩﴾ قوله تعالى: ﴿فإن خفتم﴾ أي خفتم حصول مكروه بالمحافظة على ما ذُكر بأن أخافكم عدو، أو حريق، أو سيل، أو ما أشبه ذلك مما يخاف منه الإنسان.

قوله تعالى: ﴿فرجالاً﴾ أي على الأرجل؛ وهي جمع راجل؛ و«الراجل» هو الذي يمشي على رجليه؛ لأنه قابله بقوله تعالى: ﴿أو ركباناً﴾ أي راكبين؛ و﴿رجالاً﴾ منصوبة على الحال على تأويل: راجلين؛ وعاملها، وصاحبها محذوفان؛ والتقدير: فصلوا رجالاً.

قوله تعالى: ﴿أو ركباناً﴾ جمع راكب.

قوله تعالى: ﴿فإذا أمنتم﴾ أي زال الخوف عنكم ﴿فاذكروا الله﴾ أي أقيموا الصلاة؛ وسماها ذكراً؛ لأنها هي ذكر، ومشتملة على ذكر؛ قال تعالى: **﴿اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾**

---

(١) راجع البخاري ص٩٣، كتاب العمل في الصلاة، أبواب العمل في الصلاة، باب ٢: ما ينهى من الكلام في الصلاة، حديث رقم ١٢٠٠؛ ومسلماً ص٧٦١، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ٧: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، حديث رقم ١٢٠٣ [٣٥] ٥٣٩.

[العنكبوت: ٤٥] قال بعض المفسرين: أي ولَما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء، والمنكر.

قوله تعالى: ﴿**فاذكروا الله كما علمكم**﴾؛ الكاف هنا يحتمل أن تكون للتعليل، أو التشبيه؛ فعلى الأول يكون المعنى: اذكروا الله لتعليمه إياكم ما لم تكونوا تعلمون؛ وعلى الثاني يكون المعنى: اذكروا الله على الصفة التي بينها لكم ـ وهي أن تكون صلاة أمن لا صلاة خوف؛ والمعنيان لا منافاة بينهما؛ فتحمل الآية عليهما.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: وجوب المحافظة على الصلوات؛ لقوله تعالى: ﴿**حافظوا على الصلوات**﴾؛ والأصل في الأمر الوجوب.

فإن قيل: إن النوافل لا تجب المحافظة عليها؟

فالجواب أنه لا مانع من استعمال المشترك في معنييه؛ فتكون المحافظة على الفرائض واجبة؛ وعلى النوافل سنة.

٢ ـ **ومن فوائد الآيتين**: فضيلة صلاة العصر؛ لأن الله خصها بالذكر بعد التعميم؛ وهي أفضل الصلاتين المفضلتين ـ العصر، والفجر؛ وقد بين النبي ﷺ فضلهما في أحاديث؛ منها قوله ﷺ: «**من صلى البردين دخل الجنة**»[1]، وقوله ﷺ: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته؛ فإن**

---

(١) أخرجه البخاري ص٤٧، كتاب مواقيت الصلاة، باب ٢٦: فضل صلاة الفجر، حديث رقم ٥٧٤، وأخرجه مسلم ص٧٧٦، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ٣٧: فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، حديث رقم ١٤٣٨ [٢١٥] ٦٣٥.

استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»[١].

٣ ـ **ومنها**: وجوب القيام؛ لقوله تعالى: ﴿**وقوموا لله**﴾.

٤ ـ **ومنها**: وجوب الإخلاص لله؛ لقوله تعالى: ﴿**لله**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان إذا تعبد لله أن يستشعر أمر الله؛ لأنه أبلغ في الامتثال، والطاعة؛ وكذلك ينبغي أن يستحضر أنه متأسٍ برسول الله ﷺ كأنما يشاهده رأي عين؛ لقول النبي ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[٢] ـ فتتم له المتابعة.

٦ ـ **ومنها**: الأمر بالقنوت لله عزّ وجلّ؛ وهو خشوع القلب الذي يظهر منه سكون الجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿**قانتين**﴾.

٧ ـ **ومنها**: تحريم الكلام في الصلاة ـ بناءً على سبب النزول؛ وهو أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة حتى نزلت هذه الآية؛ فأمروا بالسكوت، ونهوا عن الكلام.

٨ ـ **ومنها**: وجوب القيام في الصلاة؛ ويستثني من ذلك:

أ ـ صلاة النافلة؛ لدلالة السنة على جوازها من قاعد؛ هذا إذا جعلنا قوله تعالى: ﴿**الصلوات**﴾ عامة؛ وأما إذا جعلناها خاصة بالفرائض فلا استثناء.

---

(١) أخرجه البخاري ص٤٥، كتاب مواقيت الصلاة، باب ١٦: فضل صلاة العصر، حديث رقم ٥٥٤، وأخرجه مسلم ص٧٧٦، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ٣٧: فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، حديث رقم ١٤٣٤ [٢١١] ٦٣٣.

(٢) أخرجه البخاري ص٥١، كتاب الأذان، باب ١٨، الأذان للمسافرين إذا كانوا جماعة...، حديث رقم ٦٣١.

ب ـ **ويستثني أيضاً الخائف**، مثل أن يصلي خلف الجدار إن قام علم به عدوه فمال عليه؛ وإن صلى جالساً سَلِم.

ج ـ **ويستثني أيضاً العاجز**؛ لقوله تعالى: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾ [التغابن: ١٦].

د ـ **ويستثني أيضاً المأموم القادر على القيام إذا صلى إمامه العاجز عنه قاعداً من أول صلاته**؛ لقول النبي ﷺ في الإمام: «**إذا صلى جالساً فصلوا جلوساً أجمعون**»[١]؛ أما إذا طرأ عليه العجز في أثناء الصلاة فإن المأمومين يتمونها قياماً؛ لقصة صلاة أبي بكر بالناس، حيث ابتدأ بهم الصلاة قائماً؛ فلما حضر النبي ﷺ في أثناء الصلاة صلى جالساً، وأتموا خلفه قياماً[٢].

٩ ـ **ومن فوائد الآيتين**: سعة رحمة الله عزّ وجلّ، وأن هذا الدين يسر؛ لقوله تعالى: ﴿**فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً**﴾؛ لأن هذا من التيسير على العباد.

١٠ ـ **ومنها**: جواز الحركة الكثيرة في الصلاة للضرورة؛ لقوله تعالى: ﴿**فرجالاً**﴾؛ لأن الراجل ـ وهو الماشي ـ يتحرك حركة كثيرة.

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٥، كتاب الأذان، باب ٥١، إنما جعل الإمام ليؤتم به، حديث رقم ٦٨٩، وأخرجه مسلم ص٧٤٣، كتاب الصلاة، باب ١٩: ائتمام المأموم بالإمام، حديث رقم ٩٢٦ [٨٢] ٤١٢.

(٢) راجع صحيح البخاري ص٥٥، كتاب الأذان، باب ٥١: إنما جعل الإمام ليؤتم به، حديث رقم ٦٨٧؛ وأخرجه مسلم ص٧٤٤، كتاب الصلاة، باب ٢١: استخلاف الإمام...، حديث رقم ٩٣٦ [٩٠] ٤١٨.

١١ ـ **ومنها**: جواز الصلاة على الراحلة في حال الخوف؛ لقوله تعالى: ﴿**أو ركبانا**﴾؛ أما في حال الأمن فلا تجوز الصلاة على الراحلة إلا النافلة؛ إلا إذا تمكن من الإتيان بالصلاة على وجه التمام فإنه يجوز؛ ولهذا جوزنا الصلاة في السفينة، وفي القطار، وما أشبه ذلك؛ لأنه سيأتي بها على وجه التمام بخلاف الراحلة من بعير، وسيارة، وطائرة إلا أن يكون في الطائرة مكان متسع يتمكن فيه من الإتيان بالصلاة كاملة: فتصح؛ لكن إذا خاف الإنسان خروج الوقت يصلي على أي حال ـ ولو مضطجعاً ـ في أيّ مكان.

١٢ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أنه يجب على المرء القيام بالعبادة على التمام متى زال العذر؛ لقوله تعالى: ﴿**فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾.

١٣ ـ **ومنها**: أن الصلاة من الذكر؛ لقوله تعالى: ﴿**فاذكروا الله**﴾؛ والكلام هنا في الصلاة.

١٤ ـ **ومنها**: بيان منة الله علينا بالعلم؛ لقوله تعالى: ﴿**كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾.

١٥ ـ **ومنها**: بيان نقص الإنسان لكون الأصل فيه الجهل، حيث قال تعالى: ﴿**كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾؛ فالأصل في الإنسان الجهل حتى يُعَلِّمَه الله عزّ وجلّ.

١٦ ـ **ومنها**: الرد على القدرية الذين يقولون: «إن الإنسان مستقل بعمله»؛ لقوله تعالى: ﴿**كما علمكم**﴾؛ والرد على الجبرية أيضاً؛ لتوجيه الأوامر إلى الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿**حافظوا**﴾، وقوله تعالى: ﴿**فاذكروا الله**﴾، وما أشبههما؛ لأننا لو قلنا بأن

العبد مجبر صار توجيه الخطاب إليه نوعاً من العبث؛ لأنه أمر بما لا يطاق، ولا يمكن تطبيقه.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٤٠﴾ قوله تعالى: ﴿وصية﴾ فيها قراءتان: النصب، والرفع؛ وقوله تعالى: ﴿الذين﴾ مبتدأ؛ و﴿وصية﴾ بالرفع مبتدأ خبره محذوف؛ والتقدير: عليهم وصية؛ والجملة: خبر ﴿الذين﴾؛ أما على قراءة النصب فإن خبر ﴿الذين﴾ جملة فعلية محذوفة؛ والتقدير: يوصُون وصيةً؛ أو نوصيهم وصية ـ على خلاف في ذلك: هل هي وصية من الله؛ أو منهم؛ فإن كانت من الله عزّ وجلّ فالتقدير: نوصيهم وصية؛ وإن كانت منهم فالتقدير: يوصُون وصية؛ والجملة المحذوفة خبر ﴿الذين﴾؛ والرابط الضمير في الجملة المحذوفة سواء قلنا: «عليهم وصية»؛ أو قلنا: «نوصيهم وصية»، أو «يوصُون وصية».

قوله تعالى: ﴿متاعاً إلى الحول﴾؛ ﴿متاعاً﴾ مصدر لفعل محذوف؛ والتقدير: يمتعونهن متاعاً إلى الحول؛ و﴿غير إخراج﴾ إما صفة لمصدر محذوف؛ أي متاعاً غير إخراج؛ أي متعة غير مخرجات فيها؛ أو أنها حال من الفاعل في الفعل المحذوف.

قوله تعالى: ﴿فلا جناح عليكم﴾؛ هذه «لا» النافية للجنس، واسمها، وخبرها؛ وقوله تعالى: ﴿من معروف﴾ متعلق بـ﴿فعلْن﴾؛ وباقي الآية إعرابها ظاهر، وواضح.

قوله تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم﴾ أي يُقبَضون؛ والمراد: الموت؛ و﴿منكم﴾ الخطاب لعموم الأمة؛ وليس خاصاً بالصحابة رضي الله عنهم؛ لأن القرآن نزل للجميع إلى يوم القيامة؛ فالخطاب الموجود فيه عام لكل الأمة؛ إلا إذا دل دليل على الخصوصية، كما في قوله تعالى: **﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلًّا وعد الله الحسنى﴾** [الحديد: ١٠].

قوله تعالى: ﴿ويذرون﴾ أي يتركون؛ وهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿يتوفون﴾؛ و﴿أزواجاً﴾ أي زوجات لهم.

قوله تعالى: ﴿وصية لأزواجهم﴾ أي عهداً لأزواجهم؛ ولا تكون الوصية إلا في الأمر الذي له شأن، وبه اهتمام؛ ﴿إلى الحول﴾ أي إلى تمام الحول من موت الزوج؛ و﴿غير إخراج﴾ أي من الورثة الذين يرثون المال بعد الزوج؛ ومنه البيت الذي تسكن فيه الزوجة.

قوله تعالى: ﴿فإن خرجن﴾ أي خرج الزوجات من البيت قبل الحول؛ ﴿فلا جناح عليكم﴾ أي لا إثم عليكم ﴿فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾ أي مما يعرفه الشرع، والعرف، ولا ينكره.

قوله تعالى: ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي ذو عزة، وحُكم، وحِكمة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الزوجة تبقى زوجيتها حتى بعد الموت؛ لقوله تعالى: ﴿**ويذرون أزواجاً**﴾؛ ولا يقول قائل: إن المراد باعتبار ما كان؛ لأن هذا خلاف الأصل.

فإن قال قائل: فإذا كان الأمر كذلك فإنها لا تحل لأحد بعده؟

قلنا: هي مقيدة بمدة العدة؛ ويدل على ذلك أن المرأة إذا مات زوجها جاز أن تغسله؛ ولو كانت أحكام الزوجية منقطعة ما جاز لها أن تغسِّل زوجها.

٢ ـ **ومنها**: أنه يشرع للزوج أن يوصي لزوجته أن تبقى في بيته، وينفق عليها من تركته لمدة حول كامل؛ هذا ما تفيده الآية؛ فهل هذا الحكم منسوخ، أو محكم؟ على قولين للعلماء؛ **أحدهما**: أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً**﴾ [البقرة: ٢٣٤]؛ ويؤيده ما في صحيح البخاري حينما سئل عثمان رضي الله عنه: **لماذا أبقيت هذه الآية وهي منسوخة؛ ولماذا وضعتها بعد الآية الناسخة** ـ وكان الأولى أن تكون المنسوخة قبل الآية الناسخة لمراعاة الترتيب؟ فأجاب عثمان رضي الله عنه **بأنه لا يغير شيئاً من مكانه**[1]؛ وذلك لأن الترتيب بين الآيات توقيفي؛ فهذه الآية توفي رسول الله ﷺ وهي تتلى في القرآن، وفي مكانها؛ ولا يمكن أن تغير؛ وعلى هذا فتكون هذه الآية منسوخة بالآية السابقة بالنسبة للعدة؛ وأما بالنسبة

---

(١) راجع البخاري ص٣٧١، كتاب التفسير، باب ٤٠: ﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن...**﴾، حديث رقم ٤٥٣٠.

لما يوصي به الزوج من المال فهو منسوخ بآية المواريث ـ وهي قوله تعالى: ﴿**ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم**﴾ [النساء: ١٢]، وقول النبي ﷺ: «**إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه؛ فلا وصية لوارث**»(١).

والقول الثاني: أن الآية محكمة؛ فتحمل على معنًى لا يعارض الآية الأخرى؛ فيقال: إن الآية الأخرى يخاطَب بها الزوجة: تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشراً؛ والآية الثانية يخاطَب بها الزوج ليوصي لزوجته بما ذُكر.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله عزّ وجلّ ذو رحمة واسعة حتى أوصى الزوج بأن يوصي لزوجته مع أن الزوج قد جعل الله فيه رحمة لزوجته حين قال لله تعالى: ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة**﴾ [الروم: ٢١]؛ ورحمة الله عزّ وجلّ لهذه الزوجة أعظم من رحمة الزوج لها.

٤ ـ **ومنها**: أن المرأة يحل لها إذا أوصى زوجها أن تبقى في البيت أن تخرج، ولا تنفذ وصيته؛ لقوله تعالى: ﴿**فإن خرجن**

---

(١) أخرجه أحمد ٥/٢٦٧، حديث رقم ٢٢٦٥٠، وأخرجه أبو داود ص١٤٣٧، كتاب الوصايا، باب ٦: ما جاء في الوصية للوارث، حديث، رقم ٢٨٧٠، وأخرجه الترمذي ص١٨٦٤، كتاب الوصايا، باب ٥: ما جاء لا وصية لوارث، حديث رقم ٢١٢٠؛ وأخرجه ابن ماجه ص٢٦٤٠، كتاب الوصايا، باب ٦: لا وصية لوارث، حديث رقم ٢٧١٣، قال الألباني في صحيح أبي داود ٢/٢٠٧، حسن صحيح، راجع الإرواء ٦/٨٧، حديث رقم ١٦٥٥.

فلا جناح عليكم﴾؛ لأن هذا شيء يتعلق بها، وليس لزوجها مصلحة فيه.

ويتفرع عليه لو أوصى الزوج الزوجة ألا تتزوج من بعده لا يلزمها؛ لأنه إذا كان لا يلزمها أن تبقى في البيت مدة الحول فلأن لا يلزمها أن تبقى غير متزوجة من باب أولى.

وكذلك يؤخذ منه قياساً كل من أوصى شخصاً بأمر يتعلق بالشخص الموصى له فإن الحق له في تنفيذ الوصية، وعدم تنفيذها.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن المسؤولين عن النساء هم الرجال؛ لقوله تعالى: ﴿فلا جناح عليكم﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن على الرجال الإثم فيما إذا خرجت المرأة عن المعروف شرعاً؛ لقوله تعالى: ﴿**فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف**﴾.

ويتفرع على هذا أن كل مسؤول عن شخص إذا تمكن من منعه عن المنكر فإنه يمنعه؛ ولا يعارض هذا قوله تعالى: ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾ [الأنعام: ١٦٤]؛ لأن الإنسان ما دام مسؤولاً فإنه إذا فرط في مسؤوليته كان وازراً، ووزره على نفسه.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه لا يجوز للمرأة أن تخرج عن المعروف في جميع أحوالها؛ و«**المعروف**» هو ما أقره الشرع والعرف جميعاً؛ فلو خرجت في لباسها، أو مشيتها، أو صوتها، عن المعروف شرعاً فهي آثمة؛ وعلينا أن نردعها عن الخروج على هذا الوجه.

٨ ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما «**العزيز**»،

و«**الحكيم**»؛ وإثبات ما تضمناه من صفة سواء كان ذلك عن طريق اللزوم، أو المطابقة، أو التضمن؛ وهي العزة، والحكمة، والحُكم؛ وقد سبق تفسير ذلك.

٩ ـ **ومنها**: إثبات العزة، والحكمة على سبيل الإطلاق، لأن الله سبحانه وتعالى أطلق: قال: ﴿عزيز حكيم﴾؛ فيكون عزيزاً في كل حال؛ وحكيماً حاكماً في كل حال.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٤١﴾ قوله تعالى: ﴿**وللمطلقات متاع بالمعروف**﴾؛ الجملة مكونة من مبتدأ، وخبر؛ فالخبر مقدم: ﴿**للمطلقات**﴾؛ والمبتدأ مؤخر؛ وهو قوله تعالى: ﴿**متاع بالمعروف**﴾؛ ومن ثم جاز الابتداء به وهو نكرة؛ لأنه يجوز الابتداء بالنكرة إذا تأخر المبتدأ.

وقوله تعالى: ﴿**وللمطلقات**﴾ من ألفاظ العموم؛ لأن «**أل**» فيها اسم موصول؛ فيشمل كل المطلقات بدون استثناء؛ وهن من فارقهن أزواجهن؛ وسمي طلاقاً؛ لأن الزوجة قبله في قيد النكاح؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان**»[1] أي أسيرات؛ وقال تعالى عن امرأة العزيز: ﴿**وألفيا**

---

(١) أخرجه أحمد ٥/٧٣، حديث رقم ٢٠٩٧١؛ واللفظ له وأخرجه من طريق أبي حرة ٥/٧٢ ـ ٧٣، حديث رقم ٢٠٩٧١، وأخرجه الترمذي ص١٧٦٦، كتاب الرضاع، باب ١١: ما جاء في حق المرأة على زوجها =

سيدها لدى الباب﴾ [يوسف: ٢٥]؛ و**﴿سيدها﴾**: زوجها.

قوله تعالى: **﴿متاع﴾** أي ما تتمتع به من لباس، وغيره؛ وقوله تعالى: **﴿بالمعروف﴾** متعلق بـ**﴿متاع﴾**؛ يعني: هذا المتاع مقيد بالمعروف ـ أي ما يعرفه الناس ـ؛ وهذا قد يكون مفسَّراً بقوله تعالى: **﴿وعلى الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف﴾** [البقرة: ٢٣٦]، أي المتاع على الموسر بقدر إيساره؛ وعلى المعسر بقدر إعساره.

قوله تعالى: **﴿حقًّا﴾** مصدر منصوب على المصدرية عامله محذوف؛ والتقدير: نحقه حقاً؛ و**«الحق»** هنا بمعنى الحتم الثابت؛ و**﴿على المتقين﴾** أي ذوي التقوى؛ و**«التقوى»** هي القيام بطاعة الله على علم وبصيرة؛ وما أحسن ما قاله بعضهم: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى الله على نور من الله تخشى عقاب الله؛ ولا يعني قوله تعالى: **﴿على المتقين﴾** أنه لا يجب على غير المتقين؛ ولكن تقييده بالمتقين من باب الإغراء، والحث على لزومه؛ ويفيد أن التزامه

= حديث رقم ١١٦٣، وأخرجه ابن ماجه ص٢٥٨٨، كتاب النكاح، باب ٣: حق المرأة على الزوج، حديث رقم ١٨٥١، وفي سنده سليمان بن عمرو بن الأحوص؛ قال عبد القادر الأرناؤوط في تخريج جامع الأصول لابن الأثير ٥/٥٠٤، حاشية رقم (١): (لم يوثقه غير ابن حبان، وللحديث شواهد في الصحيحين منها حديث جابر الطويل في حجة النبي ﷺ، فالحديث صحيح. اهـ. وقال الألباني في صحيح ابن ماجه ١/٣١١: حسن، وقال في الإرواء: في إسناده جهالة لكن له شاهد يتقوى به من حديث عم أبي حرة الرقاش، فالحديث بمجموع الطريقين حسن إن شاء الله تعالى ٧/٥٤، ٩٦، ٩٧. اهـ. باختصار.

من تقوى الله عزّ وجلّ؛ وأن من لم يلتزمه فقد نقصت تقواه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: وجوب المتعة لكل مطلقة؛ لعموم قوله تعالى: ﴿**وللمطلقات**﴾؛ ويستثنى من ذلك:

أ ـ من طلقت قبل الدخول وقد فرض لها المهر؛ لقوله تعالى: ﴿**وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم**﴾ [البقرة: ٢٣٧].

ب ـ من طلقت بعد الدخول فلها المهر: إن كان مسمًّى فهو ما سمي؛ وإن لم يكن مسمًّى فمهر المثل؛ واختار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن من طلقت بعد الدخول فلها المتعة على زوجها مطلقاً؛ لعموم الآية.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه ينبغي تأكيد الحقوق التي قد يتهاون الناس بها؛ لقوله تعالى: ﴿**حقًّا على المتقين**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أنه ينبغي ذكر الأوصاف التي تحمل الإنسان على الامتثال فعلاً للمأمور، وتركاً للمحظور؛ لقوله تعالى: ﴿**حقًّا للمتقين**﴾؛ لأن عدم القيام به مخالف للتقوى؛ والقيام به من التقوى.

٤ ـ **ومنها**: اعتبار العرف؛ لقوله تعالى: ﴿**متاعاً بالمعروف**﴾ [البقرة: ٢٣٦]؛ وهذا ما لم يكن العرف مخالفاً للشرع؛ فإن كان مخالفاً له وجب رده إلى الشرع.

٥ ـ **ومنها**: أن التقوى تحمل على طاعة الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٤٢﴾ قوله تعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾، أي مثلَ ذلك البيان السابق يبين الله لكم آياته؛ فالكاف في محل المفعول المطلق؛ ومعنى «**البيان**» التوضيح؛ أي أن الله يوضحه حتى لا يبقى فيه خفاء؛ و﴿لكم﴾ يحتمل أن تكون اللام لتعدية الفعل: ﴿يبين﴾؛ ويحتمل أن تكون اللام للتعليل؛ أي يبين الآيات لأجلكم حتى تتبين لكم، وتتضح؛ و﴿آياته﴾ جمع آية؛ وهي العلامة المعينة لمدلولها؛ وتشمل الآيات الكونية والشرعية؛ فإن الله سبحانه وتعالى بيّن لنا من آياته الكونية والشرعية ما لا يبقى معه أدنى شبهة في أن هذه الآيات علامات واضحة على وجود الله عزّ وجلّ، وعلى ما له من حكمة، ورحمة، وقدرة.

قوله تعالى: ﴿لعلكم تعقلون﴾؛ «**لعل**» هنا للتعليل؛ أي لتكونوا من ذوي العقول الرشيدة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: منة الله على عباده بتبيين الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن مسائل النكاح والطلاق، قد يخفى على الإنسان حكمتها؛ لأن الله جعل بيان ذلك إليه، فقال تعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم﴾.

٣ ـ **ومنها**: الرد على المفوضة ـ أهل التجهيل؛ وعلى أهل التحريف ـ الذين يسمون أنفسهم بأهل التأويل؛ لقوله تعالى: ﴿يبين الله لكم آياته﴾؛ لأن أهل التفويض يقولون: إن الله لم يبين ما أراد في آيات الصفات، وأحاديثها؛ وأنها بمنزلة الحروف الهجائية التي لا يفهم معناها؛ وأهل التحريف يقولون: إن الله لم يبين المعنى المراد في آيات الصفات، وأحاديثها؛ وإنما وكل ذلك إلى عقولنا؛ وإنما البيان بما ندركه نحن بعقولنا؛ فنقول: لو كان الأمر كما ذكرتم لكان الله سبحانه وتعالى يبيّنه؛ فلما لم يبين ما قلتم علم أنه ليس بمراد.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: الثناء على العقل، حيث جعله الله غاية لأمر محمود ـ وهو تبيين الآيات؛ والمراد عقل الرشد السالم من الشبهات، والشهوات ـ أي الإرادات السيئة.

٥ ـ **ومنها**: إثبات العلة لأفعال الله؛ لقوله تعالى: ﴿لعلكم تعقلون﴾.

٦ ـ **ومنها**: أنه لا يمكن أن يوجد في الشرع حكم غير مبين؛ لقوله تعالى: ﴿يبين الله لكم آياته﴾؛ والآيات هنا جمع مضاف؛ فيعم.

فإن قال قائل: إننا نجد بعض النصوص تخفى علينا؟

فالجواب: أن ذلك إما لقصور في فهمنا؛ وإما لتقصير في تدبرنا؛ وإما لنقص في علومنا؛ أما أن النص نفسه لم يبين فهذا شيء مستحيل.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٤٣﴾ قوله تعالى: ﴿ألم﴾: الاستفهام الداخل هنا على النفي يراد به التقرير، والتعجيب أيضاً: ﴿تر﴾ أي تنظر؛ والخطاب هنا إما لرسول الله ﷺ؛ أو لكل من يتأتى خطابه؛ والأخير أحسن؛ لأنه أعم؛ و«**الرؤية**» هنا رؤية الفكر؛ لا رؤية البصر.

قوله تعالى: ﴿**إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت**﴾؛ لم يبين الله عزّ وجلّ من هؤلاء الذين خرجوا؛ فقيل: إنهم من بني إسرائيل؛ وقيل: إنهم من غيرهم؛ والمهم القصة، والقضية التي وقعت؛ و﴿**من ديارهم**﴾ أي من بيوتهم، وأحيائهم التي يأوون إليها؛ ﴿**وهم ألوف**﴾: الجملة في موضع نصب على الحال من الواو في ﴿**خرجوا**﴾؛ وكلمة: ﴿**ألوف**﴾ جمع ألف؛ وهو من صيغ جموع الكثرة؛ فقيل: إنهم ثمانية آلاف؛ وقيل: ثمانون ألفاً؛ وإذا نظرت إلى صيغة اللفظ ـ ﴿**وهم ألوف**﴾ ـ تجد أنها تدل على أنهم أكثر من ثمانية آلاف؛ وأنهم عالم كثير؛ و﴿**حذر الموت**﴾ مفعول لأجله؛ والعامل قوله تعالى: ﴿**خرجوا**﴾ يعني خرجوا خوفاً من الموت؛ وهل هذا الموت طبيعي؛ لأنه نزل في أرضهم وباء؛ أو الموت بالقتال في سبيل الله؟ في ذلك قولان لأهل العلم: فمنهم من يقول ـ وهم أكثر المفسرين ـ: إن

المراد: خرجوا من ديارهم خوفاً من الموت لوباء وقع في البلاد؛ فخرجوا فراراً من قدر الله؛ فأراد الله عزّ وجلّ أن يريهم أنه لا مفر منه إلا إليه؛ وقيل: إن المراد: خرجوا حذر الموت بالقتل؛ لأنهم دهمهم العدو؛ ولكنهم جبنوا، وخرجوا خوفاً من أن يقتلهم العدو؛ فالذين قالوا بالأول قالوا: لأنا إذا أخذنا الآية بظاهرها ـ ﴿حذر الموت﴾ ـ تبين أنه نزل في أرضهم وباء، فخرجوا من ديارهم خوفاً من الوباء؛ والذين قالوا بالثاني قالوا: لأن الله سبحانه وتعالى قال بعدها: **﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾** [البقرة: ١٩٠]؛ فكأن الله عرض قصة هؤلاء الذين جنبوا، وهربوا توطئة لأمرنا بالقتال في سبيل الله، وأن نصبر.

قوله تعالى: **﴿فقال لهم الله موتوا﴾** أي قال لهم قولاً كونياً، كقوله تعالى: **﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾** [يس: ٨٢].

قوله تعالى: **﴿ثم أحياهم﴾**؛ «**ثم**» تدل على التراخي، وأن الله سبحانه وتعالى أحياهم بعد مدة؛ وقيل: إنه أحياهم لسبب؛ وهو أن نبياً من الأنبياء مرّ بهم وهم ألوف مؤلفة جثث هامدة؛ فدعا الله أن يحييهم؛ فأحياهم الله؛ وقال بعض المفسرين: إن الله أحياهم بدون دعوة نبي؛ وهذا هو ظاهر اللفظ؛ وأما الأول فلا دلالة عليه؛ وعليه فنقول: إن الله أحياهم ليُري العباد آياته.

قوله تعالى: **﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾**: اللام هنا للتوكيد؛ و«**ذو**» بمعنى صاحب؛ و«**الفضل**» بمعنى العطاء، والتفضل.

قوله تعالى: **﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾** أي لا يقومون

بشكر الله عزّ وجلّ حين يتفضل عليهم؛ و«**الشكر**» طاعة المتفضل.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أنه لا فرار من قدر الله؛ لقوله تعالى: ﴿**حذر الموت فقال لهم الله موتوا**﴾؛ وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال في الطاعون: «**إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه**»[(١)].

٢ ـ **ومنها**: تمام قدرة الله عزّ وجلّ بإماتة الحيّ، وإحياء الميت؛ لقوله تعالى: ﴿**موتوا**﴾؛ فماتوا بدليل قوله تعالى: ﴿**ثم أحياهم**﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن فيها دلالة على البعث؛ وجهه: أن الله أحياهم بعد أن أماتهم.

٤ ـ **ومنها**: أن بيان الله عزّ وجلّ آياته للناس، وإنقاذهم من الهلاك من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الله لذو فضل على الناس**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن لله نعمة على الكافر؛ لعموم قوله تعالى: ﴿**على الناس**﴾؛ ولكن نعمة الله على الكافر ليست كنعمته على المؤمن؛ لأن نعمته على المؤمن نعمة متصلة بالدنيا والآخرة؛ وأما على الكافر فنعمة في الدنيا فقط.

٦ ـ **ومنها**: أن الشاكر من الناس قليل؛ لقوله تعالى: ﴿**ولكن أكثر الناس لا يشكرون**﴾.

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٨٤، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٥٤: حديث رقم ٣٤٧٣، وأخرجه مسلم ص١٠٧١، كتاب السلام، باب ٣٢: الطاعون والطيرة، والكهانة...، حديث رقم ٥٧٧٢ [٩٢] ٢٢١٨.

٧ ـ **ومنها**: أن العقل يدل على وجوب شكر المنعم؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون**﴾؛ وهذا على سبيل الذم؛ فيكون من لا يشكر مذموماً عقلاً، وشرعاً.

٨ ـ **ومنها**: أن كلام الله سبحانه وتعالى بحروف مرتبة؛ لقوله تعالى: ﴿**موتوا**﴾؛ فيكون فيه رد على من قال: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه.

٩ ـ **ومنها**: أن معنى قوله تعالى: ﴿**إذا أراد شيئاً أن يقول له كن**﴾ [يس: ٨٢] أن الله عزّ وجلّ يتكلم بما أراد؛ لا أن يقول: ﴿**كن**﴾ فقط؛ بل يتكلم بما أراد: كن كذا؛ كن كذا؛ لأن الكلام بكلمة ﴿**كن**﴾ مجمل؛ ولما قال الله للقلم: «**اكتب قال: رب ماذا أكتب؟**»[1]؛ فيصير معنى ﴿**كن**﴾ أي الأمر المستفاد من هذه الصيغة؛ ولكنه يكون أمراً خاصاً؛ فلو كان الله سبحانه وتعالى يريد أن ينزل مطراً؛ لا يقول: ﴿**كن**﴾ فقط؛ بل يكون بالصيغة التي أراد الله عزّ وجلّ.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: جواز حذف ما كان معلوماً، وأنه لا

---

(١) أخرجه الترمذي ص١٨٦٨، كتاب القدر، باب ١٧: إعظام أمر الإيمان بالقدر، حديث رقم ٢١٥٥؛ وأبو داود ص١٥٦٨، كتاب السنة، باب ١٦: في القدر، حديث رقم ٤٧٠٠؛ والحاكم ٢/٤٩٨، كتاب التفسير، تفسير سورة ﴿**ن والقلم**﴾؛ وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي؛ وأخرجه ابن أبي عاصم من عدة طرق في كتاب السنة ١/ ٤٨ ـ ٤٩، باب ذكر القلم، وصححها الألباني، وذكر الحديث في صحيح أبي داود، وقال: «صحيح» (٣/١٤٨، حديث رقم ٤٧٠٠)؛ وقال عبد القادر الأرناؤوط في جامع الأصول: «وهو حديث صحيح بطرقه» (٤/١٨، حاشية رقم ١).

ينافي البلاغة؛ وهو ما يسمى عند البلاغيين بإيجاز الحذف؛ لقوله تعالى: ﴿موتوا ثم أحياهم﴾؛ والتقدير: «فماتوا ثم أحياهم»؛ وهذا كثير في القرآن، وكلام العرب.

١١ ـ **ومنها**: أنه سبحانه وتعالى يمدح نفسه بما أنعم به على عباده؛ لقوله تعالى: ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**لا أحد أحب إليه المدح من الله**»[1]؛ فهو سبحانه وتعالى يحب أن يُمدح، ويُحمد؛ لأن ذلك صدق، وحق؛ فإنه سبحانه وتعالى أحق من يُثنى عليه، وأحق من يُحمَد؛ وهو سبحانه وتعالى يحب الحق.

١٢ ـ **ومنها**: أن من طبيعة البشر الفرار من الموت؛ لقوله تعالى: ﴿خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي للإنسان أن يستعد للذي يحذر منه وهو لا يدري متى يفجؤه.

القرآن

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤﴾.

التفسير:

﴿٢٤٤﴾ قوله تعالى: ﴿وقاتلوا﴾ فعل أمر حذف مفعوله للعلم به؛ والتقدير: قاتلوا في سبيل الله الكفار الذين يقاتلونكم، كما في

---

(١) أخرجه البخاري ص٣٨٣، كتاب تفسير القرآن سورة الأعراف، باب ١: قول الله عز وجل: ﴿**قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن**﴾، حديث رقم ٤٦٧٣، وأخرجه مسلم ص١١٥٦، كتاب التوبة، باب ٦: غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، حديث رقم ٦٩٩٢ [٣٣] ٢٧٦٠.

قوله تعالى: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم**﴾ [البقرة: ١٩٠].

قوله تعالى: ﴿**في سبيل الله**﴾ أي في الطريقة الموصلة إليه ـ وهي شريعته ـ؛ وهذا يشمل النية، والعمل؛ أما النية فأن يكون الإنسان قاصداً بقتاله أن تكون كلمة الله هي العليا، كما جاء في الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ سئل عن الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل ليرى مكانه؛ أيّ ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[1]؛ وأما العمل فأن يكون جهاده على وفق الشرع.

قوله تعالى: ﴿**واعلموا أن الله سميع عليم**﴾ أي سميع لأقوالكم؛ عليم بأحوالكم؛ وختم الله هذه الآية بالأمر بعلمنا بأن الله سميع عليم تحذيراً من المخالفة، وترغيباً في الموافقة؛ فنقوم بما أوجب علينا، ونجتنب ما حرم علينا.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: الأمر بقتال الكافرين؛ وهو إما فرض عين، أو فرض كفاية، أو مستحب على حسب ما قرره العلماء؛ وقد سبق الكلام عليه عند قوله تعالى: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا**﴾ [البقرة: ١٩٠].

٢ ـ **ومنها**: الأمر بالقتال على وجه الإخلاص لله تعالى بأن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا؛ لقوله تعالى: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله**﴾.

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ١٧٦.

٣ ـ **ومنها**: أنه يحرم على الإنسان أن يقاتل حمية، أو أن يقاتل شجاعة، أو أن يقاتل رياءً؛ لأن إيجاب الإخلاص في القتال يقتضي تحريم القتال لغير ذلك؛ اللهم إلا أن يكون دفاعاً عن النفس فهو مباح؛ بل قد يجب.

فإن قيل: لو قاتل دفاعاً عن وطنه لأنه بلد إسلامي؛ فيقاتل دفاعاً عنه لهذا الغرض؛ فهل يكون قتالاً في سبيل الله؟

فالجواب: نعم؛ لأن نيته أن لا يفرق بين وطنه وغيره إذا كان ذلك لحماية الإسلام.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: وجوب التمشي في الجهاد على ما تقتضيه الشريعة من طاعة الأمير، والصبر عند اللقاء، ومعاملة الأسرى، وغير ذلك.

٥ ـ **ومنها**: التحذير من مخالفة الشريعة؛ لقوله تعالى: ﴿**واعلموا أن الله سميع عليم**﴾؛ فإن مقتضى ذلك أن نحذر من مخالفته؛ لأنه سميع لأقوالنا عليم بأحوالنا.

٦ ـ **ومنها**: الترغيب في موافقة الشرع؛ فإن ذلك لا يضيع عند الله؛ لأنه سميع لأقوالنا عليم بأحوالنا.

٧ ـ **ومنها**: إثبات هذين الاسمين لله تعالى؛ وهما «**السميع**»، و«**العليم**»؛ وما تضمناه من صفة، وحُكم؛ وقد سبق تفصيل «**السمع**» الذي وصف الله عزّ وجلّ به نفسه.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٤٥﴾ قوله تعالى: ﴿فيضاعفه﴾ فيها أربع قراءات؛ الأولى: «**يضاعفُه**» بمدّ الضاد مع رفع الفاء؛ والثانية؛ بمدّ الضاد مع فتح الفاء؛ والثالثة: «**يضَعِّفُه**» حذف المد مع تشديد العين، وضم الفاء؛ والرابعة: حذف المد مع تشديد العين، وفتح الفاء؛ ولهذا جاء الرسم صالحاً للقراءات الأربع؛ لأن القرآن أول ما كُتب ليس فيه حركات؛ أما على قراءة فتح الفاء فوجهه أن الفاء السابقة للفعل للسببية؛ والفعل منصوب بـ«أنْ» بعد الفاء السببية؛ لأنه جواب الاستفهام؛ وأما على قراءة الرفع فالفاء السابقة للفعل للاستئناف؛ والفعل مرفوع لتجرده من الناصب والجازم.

قوله تعالى: ﴿من ذا﴾ اسم استفهام؛ أو ﴿من﴾ اسم استفهام، و﴿ذا﴾ ملغاة؛ و﴿الذي﴾ خبر المبتدأ؛ والمبتدأ ﴿من﴾؛ وهذا الاستفهام بمعنى التشويق، والحث؛ يعني: أين الذي يقرض الله، فليتقدم.

قوله تعالى: ﴿يقرض الله﴾؛ «القرض» في اللغة: القطع؛ ومنه: المقراض ـ وهو المقص قاطع الثياب؛ ومعنى «أقرضت فلاناً» اقتطعت له جزءاً من مالي فأعطيته إياه؛ ﴿يقرض الله﴾ أي يعبده؛ وسميت العبادة قرضاً للمجازاة عليها؛ ويحتمل: أن الله أراد بالإقراض إنفاق المال في سبيله؛ لأنه تعالى لما قال: ﴿**قاتلوا في سبيل الله**﴾ [آل عمران: ١٦٧] ـ والقتال يكون بالنفس، والمال ـ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**من ذا الذي يقرض الله**﴾؛ وهذا جهاد بالمال.

قوله تعالى: ﴿**فيضاعفه له أضعافاً كثيرة**﴾؛ ﴿**أضعافاً**﴾

مصدر مبين للنوع؛ لأن مطلق الضعف يكون بواحدة؛ لكن إذا قال تعالى: ﴿أضعافاً﴾ صار أكثر من واحد؛ فيكون مصدراً مبيناً للنوع؛ وقد بيّن الله سبحانه وتعالى هذه الأضعاف بقوله تعالى: **﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾** [البقرة: ٢٦١].

قوله تعالى: **﴿والله يقبض ويبسط﴾**؛ فيها قراءتان: بالسين؛ وبالصاد؛ و«**القبض**» هو التضييق؛ وهو ضد البسط؛ و«**البسط**» هو التوسيع؛ فهو الذي بيده القبض، والبسط؛ ويعم كل شيء؛ فيقبض في الرزق ويبسط؛ وفي العلم؛ وفي العمر؛ وفي كل ما يتعلق في الحياة الدنيا، وفي الحياة الآخرة.

قوله تعالى: **﴿وإليه ترجعون﴾**: تقديم المعمول: «**إليه**» له فائدتان؛ فائدة لفظية؛ وفائدة معنوية؛ **أما الفائدة اللفظية**: فهي توافق رؤوس الآيات؛ **وأما الفائدة المعنوية**: فهي الحصر ـ فالمرجع كله إلى الله عزّ وجلّ ـ؛ لا إلى غيره، كما أن المبدأ كله من الله سبحانه وتعالى.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: الحث على الإنفاق في سبيل الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: **﴿من ذا الذي﴾**؛ والاستفهام هنا للحث، والتشويق.

٢ ـ **ومنها**: أن الجزاء على العمل مضمون كضمان القرض لمقرضه.

٣ ـ **ومنها**: ملاحظة الإخلاص بأن يكون الإنسان منفقاً

ماله لله عزّ وجلّ على سبيل الإخلاص، وطيب النفس، والمال الحلال، ولا يتبع إنفاقه منًّا، ولا أذًى؛ لقوله تعالى: ﴿قرضاً حسناً﴾؛ فالقرض الحسن هو ما وافق الشرع بأن يكون:

أولاً: خالصاً لله؛ فإن كان رياءً وسمعة، فليس قرضاً حسناً؛ لقوله تعالى في الحديث القدسي: «**من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»(١).

ثانياً: من مال حلال؛ فإن كان من مال حرام فليس بقرض حسن؛ لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً.

ثالثاً: نفسه طيبة به؛ لا متكرهاً، ولا معتقداً أنه غُرْم وضريبة، كما يظن بعض الناس أن الزكاة ضريبة ـ حتى إن بعض الكُتّاب يعبرون بقولهم: ضريبة الزكاة ـ والعياذ بالله.

رابعاً: أن يكون في محله؛ بأن يتصدق على فقير، أو مسكين، أو في مصالح عامة؛ أما لو أنفقها فيما يغضب الله فإن ذلك ليس قرضاً حسناً.

خامساً: أن لا يتبع ما أنفق منًّا ولا أذًى؛ فإن أتبعه بذلك بطل ثوابه، لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى**﴾ [البقرة: ٢٦٤].

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن فضل الله وعطاءه واسع؛ وأن جزاءه للمحسن جزاء فضل؛ لقوله تعالى: ﴿**فيضاعفه له أضعافاً كثيرة**﴾ مع أن أصل توفيقه للعمل الصالح فضل منه؛ لقول النبي ﷺ لفقراء الأنصار حين ذكروا له فضل الأغنياء عليهم في

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٩١.

الصدقات، والعتق: «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**»[(١)]؛ وعلى هذا فيكون لله تعالى في توفيق العبد للعمل الصالح فضلان: فضل سابق على العمل الصالح؛ وفضل لاحق ـ وهو الثواب عليه أضعافاً مضاعفة ـ؛ وأما جزؤاه للعصاة فهو دائر بين العدل والفضل؛ إن كانت المعصية كفراً فجزاؤها عدل؛ وإن كانت دون ذلك فجزاؤها دائر بين الفضل، والعدل؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ [النساء: ٤٨].

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: تمام ربوبية الله عزّ وجلّ، وكمالها؛ لقوله تعالى: ﴿**والله يقبض ويبسط**﴾.

٦ ـ **ومنها**: الإشارة إلى أن الإنفاق ليس هو سبب الإقتار، والفقر؛ لأن ذكر هذه الجملة بعد الحث على الإنفاق يشير إلى أن الإنفاق لا يستلزم الإعدام، أو التضييق؛ لأن الأمر بيد الله سبحانه وتعالى؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما نقصت صدقة من مال**»[(٢)]؛ وكم من إنسان أمسك، ولم ينفق في سبيل الله، فسلط الله على ماله آفات في نفس المال، كالضياع، والاحتراق، والسرقة، وما أشبه ذلك؛ أو آفات تلحق هذا الرجل ببدنه، أو بأهله يحتاج معها إلى أموال كثيرة؛ وقد يتصدق الإنسان، وينفق، ويوسع الله له في الرزق.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات المعاد، والبعث؛ لقوله تعالى: ﴿**وإليه ترجعون**﴾.

---

(١) أخرجه مسلم ص٧٧٠، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ٢٦: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، حديث رقم ١٣٤٧ [١٤٢] ٥٩٥.

(٢) سبق تخريجه ٢/٢٧٨.

٨ ـ **ومنها**: ترهيب المرء من المخالفة، وترغيبه في طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وإليه ترجعون﴾؛ لأن الإنسان إذا علم أنه راجع إلى ربه لا محالة فإنه لا بد أن يكون فاعلاً لما أُمِر به تاركاً لما نُهي عنه؛ لأنه يخاف من هذا الرجوع.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٤٦﴾ قوله تعالى: ﴿ألم تر﴾: الخطاب هنا إما للرسول ﷺ؛ وخطاب زعيم الأمة خطاب له، وللأمة؛ لأنها تبع له؛ وإما أنه خطاب لكل من يتوجه له الخطاب؛ فيكون عاماً في أصل وضعه؛ الفرق بين المعنيين أن الأول عام باعتبار التبعية للمخاطب به أولاً ـ وهو الرسول ﷺ؛ والثاني عام باعتبار وضعه ـ يعني: ألم تر أيها المخاطب؛ و﴿تر﴾ : هل المراد تنظر؛ أو تسمع؛ أو تعلم؟ الفعل هنا عدِّي بـ﴿إلى﴾؛ وإذا عدِّي بـ«إلى» تعين أن يكون من رؤية العين؛ ولو عدِّي بنفسه لأمكن أن يكون المراد بالرؤية العلم؛ فإذا كان كذلك فإنه يلزم أن يكون المعنى: ألم تر إلى شأن بني إسرائيل؛ لأن من المعلوم أننا نحن ـ بل

والرسول ﷺ ـ لم نشاهده؛ ويمكن أن نقول: إنها عديت بـ﴿إلى﴾؛ وهي بمعنى النظر؛ لأن الإخبار بها جاء من عند الله؛ وما كان من عند الله فهو كالمرئي بالعين؛ بل أشد، وأبلغ.

والاستفهام هنا الظاهر أنه للتشويق ـ يعني يشوقنا أن ننظر إلى هذه القصة لنعتبر بها ـ؛ لأن التقرير إنما يكون في أمر كان معلوماً للمخاطب؛ فيُقَرَّر به، كقوله تعالى: **﴿ألم نشرح لك صدرك﴾** [الشرح: ١]؛ وأما هذا فهو أمر ليس معلوماً للمخاطب إلا بعد أن يخبر به؛ فيكون هنا للتشويق، مثل قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة﴾** [الصف: ١٠]، وقوله تعالى: **﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾** [الغاشية: ١]، وما أشبهها؛ أما لو كان يخاطب من كان عالماً بها لقلنا: إن الاستفهام للتقرير.

قوله تعالى: **﴿الملأ من بني إسرائيل﴾** أي الأشراف منهم؛ **﴿من بعد موسى﴾**: لما بين قبيلتهم ذكر زمنهم، وأنهم بعد موسى ـ وهو نبي الله موسى بن عمران ﷺ ـ؛ وهو أفضل أنبياء بني إسرائيل.

قوله تعالى: **﴿إذ قالوا لنبي لهم﴾**؛ «**إذ**» ظرف مبني على السكون في محل نصب؛ أي حين قالوا لنبي لهم؛ وفي «**نبي**» قراءتان: بالهمز، وبالياء المشددة؛ وسبق توجيههما؛ ومعنى النبوة.

إذا قال قائل: من هذا النبي؟ قلنا: إن الله سبحانه وتعالى أبهمه؛ ولو كان في معرفة اسمه فائدة لكان الله عزّ وجلّ يبيّن اسمه لنا؛ لكن ليس لنا في ذكر اسمه فائدة؛ المهم أنه نبي من الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿**ابعث لنا ملكاً**﴾ أي مُرْ لنا بملك، أو أقم لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله؛ وكان أمرهم في ذلك الوقت فوضوي ليس عندهم ملك يدبر أمورهم، ويدبر شؤونهم؛ والناس إذا كان ليس لهم ولي أمر صار أمرهم فوضى، كما قيل:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم . . . . . .

ولهذا أمر النبي ﷺ القوم إذا سافروا أن يؤمِّروا أحدهم عليهم[(١)] حتى لا تكون أمورهم فوضى.

قوله تعالى: ﴿**نقاتل في سبيل الله**﴾؛ «**نقاتل**» بالجزم جواباً للأمر «**ابعث**»؛ وهذا يدل على عزمهم على القتال إذا بعَث إليهم ملكاً؛ وسبق معنى «في سبيل الله»، وأن رسول الله ﷺ فسرها بأحسن تفسير؛ وهو «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا**»[(٢)].

فقال لهم نبيهم يريد أن يختبرهم، وينظر عزيمتهم: ﴿**هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا**﴾؛ «**عسيتم**» فيها قراءتان: بفتح السين، وكسرها؛ وهي هنا للتوقع؛ فيكون المعنى: هل يتوقع منكم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا؟

وقوله تعالى: ﴿**إن كتب عليكم**﴾ جملة شرطية معترضة بين اسم «عسى»، وخبرها؛ فاسم «عسى» الضمير: التاء؛ و﴿**ألا**

---

(١) راجع أبا داود ص١٤١٦، كتاب الجهاد، باب ٨٠: في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم، حديث رقم ٢٦٠٨، ٢٦٠٩؛ وقال الشوكاني: رجالهما رجال الصحيح إلا علي بن بحر وهو ثقة (نيل الأوطار ٨/ ٢٥٦)؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح (٢/ ١٢٥، حديث رقم ٢٦٠٨، ٢٦٠٩).

(٢) سبق تخريجه ٢/ ١٧٦.

تقاتلوا﴾ خبرها؛ وجملة ﴿إن كتب عليكم القتال﴾ الشرطية جوابها محذوف؛ وقد نقول: إنها لا تحتاج إلى جواب لعلمه من السياق.

وقوله تعالى: ﴿إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا﴾، أي إن فرض عليكم القتال ألا تقاتلوا؛ فكان جوابهم أن قالوا: ﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾.

قوله تعالى: ﴿وما لنا ألا نقاتل﴾؛ «أن» مصدرية؛ والمعنى: أي مانع لنا يمنعنا من القتال في سبيل الله وقد وجِد مقتضي ذلك؛ وهو قولهم: ﴿وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾؛ والإنسان إذا أُخرج من داره، وبنيه فلا بد أن يقاتل لتحرير البلاد، وفكّ الأسرى.

وقوله تعالى: ﴿وقد أخرجنا . . .﴾ جملة حالية في محل نصب.

قوله تعالى: ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا﴾: هم طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكاً ليقاتلوا في سبيل الله، ولما استثبت نبيهم منهم قالوا: إنا عازمون على ذلك، وثابتون عليه؛ ولكن لما كتب عليهم القتال، وفرض عليهم ﴿تولوا﴾، فصار ما توقعه نبيهم حقاً أنهم لن يقاتلوا؛ و﴿تولوا﴾ أي أعرضوا عن هذا الغرض، ولم يقوموا به.

قوله تعالى: ﴿إلا قليلاً منهم﴾: «القليل» ما دون الثلث؛ لقول الرسول ﷺ: «الثلث كثير»[1]؛ وهي منصوبة على الاستثناء.

قوله تعالى: ﴿والله عليم بالظالمين﴾؛ ومقتضى علمه بهم أن يجازيهم على ظلمهم؛ والظلم هنا ليس لفعل محرم؛ ولكنه لترك واجب؛ لأن ترك الواجب كفعل المحرم؛ فيه ظلم للنفس، ونقص من حقها.

---

(١) راجع حاشية رقم (١) ٢/٣٠٧.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: الحث على النظر، والاعتبار؛ لقوله تعالى: ﴿**ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل**﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن في هذه القصة عبراً لهذه الأمة، حيث إن هؤلاء القوم الذين كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم.

٣ ـ **ومنها**: تحذير هذه الأمة عن التولي عن القتال إذا كتب عليهم.

٤ ـ **ومنها**: أنه لا بد للجيوش من قائد يتولى قيادتها؛ لقولهم: ﴿**ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن مرتبة النبوة أعلى من مرتبة الملك؛ لقولهم: ﴿**ابعث لنا ملكاً**﴾ يخاطبون النبي؛ فالنبي له السلطة أن يبعث لهم ملكاً يتولى أمورهم ويدبرهم.

٦ ـ **ومنها**: إذا طلب الإنسان شيئاً من غيره أن يذكر ما يشجعه على إجابة الطلب؛ لقولهم: ﴿**نقاتل في سبيل الله**﴾؛ فإن هذا يبعث النبي ويشجعه على أن يبعث لهم الملك.

٧ ـ **ومنها**: الإشارة إلى الإخلاص لله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿**في سبيل الله**﴾.

٨ ـ **ومنها**: امتحان المخاطَب بما طلب فعله، أو إيجادَه من غيره: هل يقوم بما يجب عليه نحوه، أم لا؛ لقوله تعالى: ﴿**هل عسيتم إن كتب القتال ألا تقاتلوا**﴾.

٩ ـ **ومنها**: أن الإنسان بفطرته يكون مستعداً لقتال من قاتله؛ لقولهم: ﴿**وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا**﴾؛ ولهذا تجد الجبان إذا حُصر يأتي بما عنده من الشجاعة، ويكون عنده قوة للمدافعة.

١٠ ـ **ومنها**: أن من مبيحات القتال إخراج الإنسان من بلده، وأهله ليرفع ظلم الظالمين؛ لقولهم: ﴿**وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا**﴾؛ لكن لو كان إخراجهم بحق ـ كما فعل النبي ﷺ في بني النضير[(١)] ـ فلا حق لهم في المقاتلة، أو المطالبة ـ ولو أسلموا ـ؛ لأن الله أورث المسلمين أرضهم، وديارهم، وأموالهم؛ والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين؛ قال الله تعالى: ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

١١ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الإنسان قد يظن أنه يستطيع الصبر على ترك المحظور، أو القيام بالمأمور؛ فإذا ابتُلي نكص؛ لقوله تعالى: ﴿**فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم**﴾ مع أنهم كانوا في الأول متشجعين على القتال.

١٢ ـ **ومنها**: الإشارة إلى قول النبي ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية؛ فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**»[(٢)]، وقوله ﷺ: «**من سمع بالدجال فلينأ عنه؛ فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن، فيتبعه مما يبعث به من الشبهات**»[(٣)]؛

---

(١) راجع البخاري ص٣٢٩، كتاب المغازي، باب ١٤: حديث بني النضير...، حديث رقم ٤٠٢٨؛ ومسلماً ص٩٩١، كتاب الجهاد والسير، باب ٢٠: إجلاء اليهود من الحجاز، حديث رقم ٤٥٩٢ [٦٢] ١٧٦٦.

(٢) أخرجه البخاري ص٢٣٨، كتاب الجهاد والسير، باب ١١٢: كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس، حديث رقم ٢٩٦٦، وأخرجه مسلم ص٩٨٦، كتاب الجهاد والسير، باب ٦: كراهة تمني لقاء العدو...، حديث رقم ٤٥٤٢ [٢٠] ١٧٤٢.

(٣) سبق تخريجه ٣/ ٦٠.

ويشبه هذا أن بعض الناس ينذرون النذر وهم يظنون أنهم يوفون به؛ ثم لا يوفون به، كما في قوله تعالى: ﴿**ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين*فلما أتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون**﴾ [التوبة: ٧٥، ٧٦].

١٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن البلاء موكل بالمنطق؛ لأنه قال لهم: ﴿**هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا**﴾؛ فكان ما توقعه نبيهم واقعاً؛ فإنهم لما كتب عليهم القتال تولوا.

١٤ ـ **ومنها**: أن بعض السؤال يكون نكبة على السائل، كما قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم**﴾ [المائدة: ١٠١].

١٥ ـ **ومنها**: وجوب القتال دفاعاً عن النفس؛ لأنهم لما قالوا: ﴿**وقد أخرجنا**﴾ قال تعالى: ﴿**فلما كتب عليهم القتال**﴾ أي فرض عليهم؛ ليدافعوا عن أنفسهم، ويحرروا بلادهم من عدوهم؛ وكذلك أبناءهم من السبي.

١٦ ـ **ومنها**: تحذير الظالم من الظلم ـ أيَّ ظلم كان ـ؛ لقوله تعالى: ﴿**والله عليم بالظالمين**﴾؛ فإن هذه الجملة تفيد الوعيد والتهديد للظالم.

١٧ ـ **ومنها**: تحريم الظلم لوقوع التهديد عليه.

١٨ ـ **ومنها**: أن ترك الواجب من الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿**تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين**﴾ أي المتولين الذين فرض عليهم القتال، ولم يقوموا به؛ فدل ذلك على أن الظلم ينقسم إلى قسمين: إما فعل محرم؛ وإما ترك واجب.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٤٧﴾ قوله تعالى: ﴿وقال لهم نبيهم﴾ بتشديد الياء؛ وفي قراءة: «نبيئهم» بالهمز.

قوله تعالى: ﴿إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً﴾؛ ﴿طالوت﴾ علَم على المبعوث؛ و﴿ملكاً﴾ حال من ﴿طالوت﴾؛ و«الملِك» هو الذي له التدبير الذي لا ينازَع فيه؛ ولكنه بالنسبة للمخلوق بحسب ما تقتضيه الولاية الشرعية، أو العرفية.

قوله تعالى: ﴿قالوا﴾ أي معترضين على هذا ﴿أنى﴾ بمعنى الاستفهام الإنكاري ﴿يكون له الملك علينا﴾.

ثم قالوا معززين لاستبعادهم هذا الشيء: ﴿ونحن أحق بالملك منه﴾؛ كأنهم يرون أن الملِك لا يكون إلا كابراً عن كابر، وأن هذا لم يسبق لأحد من آبائه أنه تولى الملْك بخلافنا نحن؛ فإن الملوك كانوا منا؛ فكيف جاءه الملك؟! أيضاً ﴿ولم يؤت سعة من المال﴾: فهو فقير؛ وقد يقال: إنه ليس بفقير؛ لكن ليس عنده مال واسع؛ وفرق بين الفقير المعدم، وبين من يجد، ولكن ليس ذا سعة ـ يعني ليس غنياً ننتفع بماله ـ، ويدبرنا بماله، ويحصّل الجيوش، والجنود بماله؛ فذكروا علتين؛ إحداهما: من حيث التوسط في مجتمعه؛ والثانية: من حيث المال؛ إذاً فَقَدَ

القوة الحسبية، والقوة المالية؛ قالوا: هذا الرجل ليس عنده حسب؛ فليس من أبناء الملوك؛ وليس عنده مال؛ فليس من الأثرياء الذين يُخضعون الناس بأموالهم.

وجملة: ﴿**ونحن أحق بالملك منه**﴾ في موضع نصب على الحال؛ وتأمل قول نبيهم: ﴿**إن الله قد بعث لكم طالوت**﴾ حيث عبر باللام الدالة على أنه هذا الملِك بُعث لمصلحتهم؛ وبين قولهم: ﴿**أنى يكون له الملك علينا**﴾ حيث أومؤوا إلى أن بعثه للسيطرة عليهم.

جواب نبيهم: ﴿**قال إن الله اصطفاه عليكم**﴾؛ أي اختاره عليكم؛ وأصلها من: الصفوة؛ فيكون أصل «اصطفاه» اصتفاه ـ بتاء الافتعال؛ ولكنها قلبت طاءً لعلة تصريفية.

وقوله هنا: ﴿**اصطفاه عليكم**﴾؛ وفي الأول قال: ﴿**إن الله قد بعث لكم**﴾ إشارة إلى أنه تعالى فضَّله عليهم، فاختاره؛ لأنه أفضل منهم؛ فهو مفضل عليهم لما أعطاه الله مما سيُذكر.

قوله تعالى: ﴿**وزاده بسطة**﴾ أي سعة، كقوله تعالى: ﴿**والله يقبض ويبسط**﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقوله تعالى: ﴿**يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر**﴾ [الرعد: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿**في العلم والجسم**﴾؛ المراد بـ ﴿**العلم**﴾ علم تدبير المُلْك؛ فعنده الحنكة، والرأي ما جعله مختاراً عليهم من قبل الله عزّ وجلّ؛ أيضاً زاده بسطة في الجسم؛ وهي القوة، والضخامة، والشجاعة؛ فاجتمع في حقه القوتان: المعنوية ـ وهي العلم؛ والحسية ـ وهي أن الله زاده بسطة في الجسم.

قوله تعالى: ﴿**والله يؤتي ملكه من يشاء**﴾ أي يعطي ملكه من

يشاء على حسب ما تقتضيه حكمته، كما قال تعالى: ﴿**قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير**﴾ [آل عمران: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿**والله واسع**﴾ أي ذو سعة في جميع صفاته؛ واسع في علمه، وفضله، وكرمه، وقدرته، وقوته، وإحاطته بكل شيء، وجميع صفاته، وأفعاله؛ و﴿**عليم**﴾ أي ذو علم بكل شيء؛ ومنه العلم بمن يستحق أن يكون ملكاً، أو غيرَه من الفضل الذي يؤتيه الله سبحانه وتعالى من يشاء.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن نبيهم وافقهم على أن يبعث إليهم مِلكاً ليقاتلوا في سبيل الله؛ فدعا الله عزّ وجلّ، فاستجاب له.

٢ ـ **ومنها**: كمال تعظيم الأنبياء لله تعالى، وحسن الأدب معه؛ لقول نبيهم: ﴿**إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً**﴾؛ ولم يقل: إني بعثت.

٣ ـ **ومنها**: أن أفعال العباد مخلوقة لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الله قد بعث لكم**﴾.

٤ ـ **ومنها**: إسناد الفضل إلى أهله؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الله قد بعث لكم**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن الله قد يعطي المُلك من لا يترقبه ـ لكونه غير وجيه، ولا من سلالة الملوك.

٦ ـ **ومنها**: اختيار الألفاظ التي يكون بها إقناع المخاطَب، وتسليمه للأمر الواقع؛ لقول نبيهم: ﴿**إن الله قد بعث لكم**﴾؛ فإنه

أبلغ في الإقناع، والتسليم من قوله: إني بعثت لكم.

٧ ـ **ومنها**: أن المعترض يذكر وجه اعتراضه لمخاطبه؛ لقولهم: ﴿**أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال**﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن استفهام هؤلاء القوم يحتمل أن يكون المراد به الاعتراض؛ ويحتمل أن يراد به الاستكشاف، والبحث عن السبب بدون اعتراض: كيف كان ملكاً ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال؟ فإن كان الأول فإن حالهم تقتضي الذم؛ لأنهم كيف يعترضون وهم الذين طلبوا أن يبعث لهم ملكاً!!! وإن كان الثاني فلا اعتراض عليهم، ولا لوم عليهم.

٩ ـ **ومنها**: أن المجيب يختار ما يكون به الإقناع بادئاً بالأهم فالأهم؛ لقول نبيهم في جوابه: ﴿**إن الله اصطفاه عليكم...**﴾ إلخ؛ فبدأ بذكر ما لا جدال فيه ـ وهو اصطفاء الله عليهم ـ؛ ثم ذكر بقية المؤهلات: وهي **أن الله زاده بسطة في العلم**، وتدبير الأمة، والحروب، وغير ذلك، **وأن الله زاده بسطة في الجسم**: ويشمل القوة، والطول...؛ **وأن الله عزّ وجلّ هو الذي يؤتي ملكه من يشاء**، وفعله هذا لابد وأن يكون مقروناً بالحكمة: فلولا أن الحكمة تقتضي أن يكون طالوت هو الملك ما أعطاه الله عزّ وجلّ الملك؛ **وأن الله واسع عليم**: فهو ذو الفضل الذي يمده إلى من يشاء من عباده؛ فله أن يتفضل على من يشاء؛ الله أعلم حيث يجعل رسالته؛ والله أعلم أيضاً حيث يجعل ولايته.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الملك تتوطد أركانه إذا كان للإنسان مزية في حسبه، أو نسبه، أو علمه، أو قوته؛ يؤخذ هذا

أولاً من قولهم: ﴿أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾؛ وثانياً من قوله: ﴿إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم﴾.

١١ ـ **ومنها**: بيان أن تقدير الله عزّ وجلّ فوق كل تصور؛ لقوله تعالى: ﴿إن الله اصطفاه عليكم﴾ مع أنهم قَدَحوا فيه من وجهين: أنهم أحق بالملك منه، وأنه فقير؛ فبيّن نبيهم أن الله اصطفاه عليكم بما تقتضيه الحكمة.

١٢ ـ **ومنها**: أنه كلما كان ولي الأمر ذا بسطة في العلم، وتدبير الأمور، والجسم، والقوة كان أقوَم لملكه، وأتم لإمرته؛ لقوله تعالى: ﴿وزاده بسطة في العلم والجسم﴾.

١٣ ـ **ومنها**: أن ملك بني آدم مُلك لله؛ لقوله تعالى: ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾؛ فهذا المَلِك في مملكته هو في الحقيقة ما مَلَكَ إلا بإذن الله عزّ وجلّ؛ فالمُلْك لله سبحانه وتعالى وحده يؤتيه من يشاء.

١٤ ـ **ومنها**: أن ملكنا لما نملكه ليس ملكاً مطلقاً نتصرف فيه كما نشاء؛ بل هو مقيد بما أذن الله به؛ ولهذا لا نتصرف فيما نملك إلا على حسب ما شرعه الله؛ فلو أراد الإنسان أن يتصرف في ملكه كما يشاء ـ يتلفه ويحرقه، ويعذبه إذا كان حيواناً ـ فليس له ذلك؛ لأن ملكه تابع لملك الله سبحانه وتعالى.

١٥ ـ **ومنها**: إثبات المشيئة لله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿من يشاء﴾؛ ومشيئته تعالى تابعة لحكمته؛ لقوله عزّ وجلّ: ﴿**وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً**﴾ [الإنسان: ٣٠].

١٦ ـ **ومنها**: أن أفعال الله سبحانه وتعالى تقع بمشيئته لا مكره له؛ لأنه المهيمن على كل شيء.

١٧ ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله ـ وهما ﴿واسع﴾، و﴿عليم﴾، وما تضمناه من وصف، أو حكم.

١٨ ـ **ومنها**: إثبات سعة الله عزّ وجلّ في إحاطته، وصفاته، وأفعاله.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٤٨﴾ قوله تعالى: ﴿**وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت**﴾؛ ﴿آية﴾ يعني علامة، كما قال تعالى: ﴿**أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل**﴾ [الشعراء: ١٩٧] يعني علامة تدل على أنه حق.

قوله تعالى: ﴿**أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم**﴾؛ ﴿أنْ﴾، وما دخلت عليه في تأويل مصدر خبر ﴿إنّ﴾؛ و﴿التابوت﴾ شيء من الخشب، أو من العاج يشبه الصندوق؛ ينزل، ويصطحبونه معهم، وفيه السكينة ـ يعني أنه كالشيء الذي يسكنهم، ويطمئنون إليه ـ؛ وهذا من آيات الله.

قوله تعالى: ﴿**وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون**﴾ وهم

الأنبياء تركوا العلم، والحكمة؛ لأن الأنبياء لم يورِّثوا درهماً، ولا ديناراً؛ وإنما ورثوا العلم؛ فهذا التابوت كان مفقوداً، وجاء به هذا المِلك الذي بعثه الله لهم، وصار معهم يصطحبونه في غزواتهم فيه السكينة من الله سبحانه وتعالى: أنهم إذا رأوا هذا التابوت سكنت قلوبهم، وانشرحت صدورهم؛ وفيه أيضاً مما ترك آل موسى، وآل هارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ من العلم، والحكمة.

وقوله تعالى: ﴿آل موسى وآل هارون﴾؛ خص موسى، وهارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، لأنهما جاءا برسالة واحدة.

وقوله تعالى: ﴿تحمله الملائكة﴾: الجملة حال من ﴿التابوت﴾؛ و﴿الملائكة﴾ عالم غيبي خلقوا من نور؛ وسبق الكلام مبسوطاً في أحوالهم[1].

قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية﴾ بالنصب اسم ﴿إن﴾ مؤخراً؛ والمشار إليه: «التابوت تحمله الملائكة، وفيه سكينة من الله، وبقية مما ترك آل موسى، وآل هارون».

قوله تعالى: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي ذوي إيمان.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده، حيث يؤيد الأمور بالآيات لتقوم الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿وقال لهم نبيهم إن آية ملكه﴾؛ ولو شاء الله عزّ وجلّ لفعل ما يفعل بدون آية، وانتقم من المكذبين، والمستكبرين؛ ولكن من رحمته عزّ وجلّ أنه يبعث بالآيات حتى تطمئن القلوب، وحتى تقوم الحجة؛ ولهذا ما

---

(١) انظر ٢/ ٢٧٥.

من رسول أرسل إلا أوتي ما على مثله يؤمن البشر؛ وحصول الآيات حكمة ظاهرة؛ لأنه لو خرج رجل من بيننا، وقال: أنا رسول الله إليكم: «افعلوا ما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه؛ وإلا فإن دماءكم وأموالكم حلال لي»؛ فإنه لا يطاع؛ ولكن من رحمة الله عزّ وجلّ، وحكمته أن جعل للرسل آيات حتى تقوم الحجة، ويستجيب الناس.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: ما في التابوت من الآيات العظيمة، حيث كان هذا التابوت مشتملاً على ما تركه آل موسى، وآل هارون من العلم، والحكمة من وجه؛ وكان أيضاً سكينة للقوم تسكن إليه نفوسهم، وقلوبهم، ويزدادون قوة في مطالبهم.

٣ ـ **ومنها**: أن للسكينة تأثيراً على القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿**فيه سكينة من ربكم**﴾؛ وتأمل كيف أضافه إلى ربوبيته إشارة إلى أن في ذلك عناية خاصة لهؤلاء القوم؛ والسكينة إذا نزلت في القلب اطمأن الإنسان، وارتاح، وانشرح صدره لأوامر الشريعة، وقَبِلها قبولاً تاماً.

٤ ـ **ومنها**: إثبات الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿**تحمله الملائكة**﴾؛ وفي قوله تعالى: ﴿**الملائكة**﴾ دليل على أن التابوت كبير.

٥ ـ **ومنها**: أن الآيات إنما ينتفع بها المؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿**إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين**﴾.

٦ ـ **ومنها**: تأكيد الشيء بأدوات التأكيد، والتكرار؛ وهنا في هذه الآية اجتمع التكرار، والأدوات؛ فقوله تعالى: ﴿**إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت**﴾، ثم قوله تعالى: ﴿**إن في ذلك لآية**

لكم﴾: فهذا أكد بالتكرار؛ وأكد أيضاً بـ﴿إن﴾، واللام: ﴿إن في ذلك لآية لكم﴾: فهذا أكد بالأدوات.

٧ ـ **ومنها**: فضيلة الإيمان، وأن الإيمان أكبر ما يكون تأثيراً في الانتفاع بآيات الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين**﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن الإنسان إذا ازداد إيماناً ازداد فهماً لكتاب الله سبحانه وتعالى، وسنّة رسوله ﷺ؛ لأن الشيء إذا علق على وصف فإنه يزداد بزيادة ذلك الوصف، وينقص بنقصانه؛ فكلما تم الإيمان كان انتفاع الإنسان بآيات الله أكثر، وفهمه لها أعظم.

٩ ـ **ومنها**: أن الملائكة أجسام؛ لقوله تعالى: ﴿**تحمله الملائكة**﴾؛ وأما قول من يقول: إنهم عقول فقط؛ أو أنهم أرواح، وليس لهم أجسام فقول ضعيف؛ بل باطل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة**﴾ [فاطر: ١]؛ والنبي ﷺ رأى جبريل على خلقته ـ أو على صورته ـ التي خلق عليها له ستمائة جناح قد سد الأفق[1].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ

(١) راجع البخاري ص٤١٥، كتاب التفسير، ٥٣ سورة النجم، باب ﴿**لقد رأى من آيات ربه الكبرى**﴾، حديث رقم ٤٨٥٨، وصحيح مسلم ص٧٠٨، كتاب الإيمان، باب ٧٧: معنى قول الله عز وجل: ﴿**ولقد رءاه نزلة أخرى...**﴾، حديث رقم ٤٣٢ [٢٨٠] ١٧٤.

غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٤٩﴾ قوله تعالى: ﴿**فلما فصل طالوت بالجنود**﴾ أي مشى بهم، وانفصل عن مكانه؛ و«**الجنود**» جمع «جند»؛ وهم الجيش المقاتلون؛ وكان طالوت رجلاً ذكياً عاقلاً؛ لأن الله زاده بسطة في العلم، والجسم؛ وكان عنده علم بأحوالهم من قبل؛ وأنه لما كُتب عليهم القتال بين لهم أن الله مبتليهم بنهر؛ والنهر هو الماء الجاري الكثير؛ فابتلاهم الله عزّ وجلّ بهذا النهر؛ **أولاً**: ليعلم من يصبر، ومن لا يصبر؛ لأن الجهاد يحتاج إلى معاناة، وصبر؛ **ثانياً**: ليعلم من يطيع ممن لا يطيع؛ ولهذا قال لهم الملك طالوت: ﴿**إن الله مبتليكم بنهر**﴾ أي مختبركم به.

قوله تعالى: ﴿**فمن شرب منه**﴾ أي كثيراً ﴿**فليس مني**﴾ أي فإني منه بريء؛ لأنه ليس على منهجي؛ ﴿**ومن لم يطعمه**﴾ أي لم يشرب منه شيئاً ﴿**فإنه مني**﴾ أي على طريقي، ومنهجي؛ ﴿**إلا من اغترف غرفة بيده**﴾ أي شرب قليلاً مغترفاً بيده ـ لا بيديه ـ.

قوله تعالى: ﴿**فشربوا منه**﴾ أي شرباً كثيراً ﴿**إلا قليلاً منهم**﴾ فلم يشرب كثيراً؛ وقد قيل: إن عددهم ثمانون ألفاً؛ شرب منهم ستة وسبعون ألفاً؛ فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه**﴾ أي فلما تعداه طالوت، والذين آمنوا معه؛ ولا يلزم أن يكونوا عبروا من

فوقه؛ ﴿قالوا﴾ أي الذين جاوزوه؛ والمراد بعضهم بدليل قوله تعالى: ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله...﴾ إلخ؛ ﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾ أي لا قدرة لنا؛ و«أل» للعهد الحضوري - أي: هذا اليوم -؛ يعنون به اليوم الذي شاهدوا فيه عدوهم؛ ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله﴾ أي يوقنون بذلك؛ لأن «الظن» يراد به اليقين أحياناً، كما في قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين * الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦] أي يوقنون به.

قوله تعالى: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة﴾: ﴿كم﴾ للتكثير، أي ما أكثر ما تغلب الفئة القليلة فئة كثيرة.

قوله تعالى: ﴿بإذن الله﴾ أي بقدره؛ ﴿والله مع الصابرين﴾ أي بالنصر، والتأييد.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية**: أنه ينبغي للقائد أن يتفقد جنوده؛ لقوله تعالى: ﴿فصل طالوت بالجنود﴾ أي مشى بهم، وتدبر أحوالهم، ورتبهم.

٢ - **ومنها**: أنه يجب على القائد أن يمنع من لا يصلح للحرب سواء كان مخذلاً، أو مرجفاً، أو ملحداً؛ لقوله تعالى: ﴿فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده﴾؛ والفرق بين المخذل، والمرجف، أن المخذِّل هو الذي يخذل الجيش، ويقول: ما أنتم بمنتصرين؛ والمرجف هو الذي يخوف من العدو، فيقول: العدو أكثر عدداً، وأقوى استعداداً... وما أشبه ذلك.

٣ ـ **ومنها**: أن من الحكمة اختيار الجند؛ ليظهر من هو أهل للقتال، ومن ليس بأهل؛ ويشبه هذا ما يصنع اليوم، ويسمى بالمناورات الحربية؛ فإنها عبارة عن تدريب، واختيار للجند، والسلاح: كيف ينفذون الخطة التي تعلَّموها؛ فيجب أن نختبر قدرة الجند على التحمل، والثبات، والطاعة؛ والأساليب الحربية مأخوذة من هذا؛ ولكنها متطورة حسب الزمان.

٤ ـ **ومنها**: أن طالوت امتحنهم على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: من شرب من النهر كثيراً؛ فهذا قد تبرأ منه.

الوجه الثاني: من لم يشرب شيئاً؛ فهذا من طالوت ـ أي من جنوده المقربين ـ.

الوجه الثالث: من شرب منه غرفة بيده؛ فهذا لم يتبرأ منه؛ وظاهر الآية أنه مثل الوجه الثاني.

وهذا الابتلاء **أولاً** ليعلم به من يصبر على المشقة ممن لا يصبر؛ فهو كالترويض والتمرين على الصبر؛ **ثانياً**: ليعلم به من يمتثل أوامر القائد، ومن لا يمتثل.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن أكثر عباد الله لا ينفذ أمر الله؛ لقوله تعالى: ﴿**فشربوا منه إلا قليلاً منهم**﴾؛ وهذا أمر يشهد به الحال. قال الله تعالى: ﴿**وقليل من عبادي الشكور**﴾ [سبأ: ١٣]؛ وقال تعالى: ﴿**وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله**﴾ [الأنعام: ١١٦]؛ وثبت عن النبي ﷺ أن **بعث النار من بني آدم تسعُمائة وتسعةٌ وتسعون من الألف**[1]؛ فالطائع قليل، والمعاند كثير.

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٧١، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: ٧، قصة يأجوج ومأجوج، حديث رقم ٣٣٤٨، وأخرجه مسلم ص٧١٨، كتاب =

٦ ـ **ومنها**: جواز إخبار الإنسان بالواقع إذا لم يترتب عليه مفسدة؛ لأنهم قالوا: ﴿**لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده**﴾؛ وقد يقال: إن هذا لا تدل عليه الآية؛ وأن فيها دليلاً على أن الجبان في ذُعر دائم، ورعب؛ لقولهم: ﴿**لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده**﴾.

٧ ـ **ومنها**: أن الإيمان موجب للصبر، والتحمل؛ لقوله تعالى: ﴿**قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن الله سبحانه وتعالى يبتلي عباده إما بفوات محبوب؛ أو حصول مكروه؛ ليعلم سبحانه وتعالى صبرهم؛ ولهذا نظائر؛ منها ما قصه سبحانه عن بني إسرائيل حين حرم عليهم صيد الحوت في يوم السبت؛ فكانت الحيتان تأتي يوم السبت شُرَّعاً؛ وفي غير يوم السبت لا يرون شيئاً؛ فصنعوا حيلة؛ وهي أنهم وضعوا شباكاً في يوم الجمعة؛ فإذا جاءت الحيتان يوم السبت دخلت في هذا الشباك، ثم نشبت فيه؛ فإذا كان يوم الأحد استخرجوها منه؛ فكان في ذلك حيلة على محارم الله؛ ولهذا انتقم الله منهم؛ ووقع ذلك أيضاً للصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وهم في حال الإحرام: فابتلاهم الله بصيد تناله أيديهم، ورماحهم؛ ولكنهم رضي الله عنهم امتنعوا عن ذلك؛ وهؤلاء ـ أعني أصحاب طالوت ـ ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بهذا النهر، وكانوا عطاشاً، فقال لهم نبيهم: ﴿**فمن شرب منه فليس مني**

= الإيمان، باب ٩٦، قوله: «يقول الله لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين»، حديث رقم ٥٣٢ [٣٧٩] ٢٢٢.

ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده﴾.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله عزّ وجلّ عند الابتلاء يرحم الخلق بما يكون فيه بقاء حياتهم؛ لقوله تعالى هنا: **﴿إلا من اغترف غرفة بيده﴾**؛ لأنهم لا بد أن يشربوا للنجاة من الموت.

١٠ ـ **ومنها**: الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: **﴿فمن شرب﴾**، وقوله تعالى: **﴿إلا من اغترف﴾**، حيث أضاف الفعل إليهم.

١١ ـ **ومنها**: أن القليل من الناس هم الذين يصبرون عند البلوى؛ لقوله تعالى: **﴿فشربوا منه إلا قليلاً منهم﴾**.

١٢ ـ **ومنها**: أن من الناس من يكون مرجفاً، أو مخذِّلاً؛ لقوله تعالى: **﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾**؛ هؤلاء مخذِّلون؛ وفي نفس الوقت أيضاً مرجفون.

١٣ ـ **ومنها**: أن اليقين يحمل الإنسان على الصبر، والتحمل، والأمل، والرجاء؛ لقوله تعالى: **﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾**؛ مع اليقين قالوا هذا القول لغيرهم لما قال أولئك: **﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾**؛ فردوا عليهم.

١٤ ـ **ومنها**: إثبات ملاقاة الله؛ لقوله تعالى: **﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله﴾**، كما قال تعالى: **﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾** [الانشقاق: ٦].

١٥ ـ **ومنها**: أن الظن يأتي في محل اليقين؛ بمعنى أنه يستعمل الظن استعمال اليقين؛ لقوله تعالى: **﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله﴾**.

١٦ ـ **ومنها**: أنه قد تغلب الفئة القليلة فئة كثيرة بإذن الله؛ وهذا قد وقع فيما سبق من الأمم، ووقع في هذه الأمة مثل غزوة «بدر»؛ وقد تُغلَب الفئة الكثيرة، وإن كان الحق معها، كما في غزوة «حنين»؛ لكن لسبب.

١٧ ـ **ومنها**: أن الوقائع، والحوادث لا تكون إلا بإذن الله؛ وهذا يشمل ما كان من فعله تعالى؛ وفعل مخلوقاته؛ لقوله تعالى: ﴿**بإذن الله**﴾.

١٨ ـ **ومنها**: إثبات الإذن لله سبحانه وتعالى؛ وهو ينقسم إلى قسمين: إذن كوني؛ وإذن شرعي؛ ففي هذه الآية: إذن كوني؛ وفي قوله تعالى: ﴿**قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون**﴾ [يونس: ٥٩]: هذا شرعي؛ وفي قوله تعالى: ﴿**أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله**﴾ [الشورى: ٢١] هذا شرعي أيضاً.

١٩ ـ **ومنها**: فضيلة الصبر؛ لقوله تعالى: ﴿**والله مع الصابرين**﴾.

٢٠ ـ **ومنها**: إثبات المعية لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ﴿**والله مع الصابرين**﴾؛ فإن قلت: هذه الآية ظاهرها تخصيص معية الله بالصابرين مع أنه في آيات أخرى أثبت معيته لعموم الناس؛ فقال تعالى: ﴿**هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم**﴾ [الحديد: ٤]؛ هذا عام، وقال تعالى: ﴿**ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا**﴾ [المجادلة: ٧]؛ فالجواب: أن هذه المعية خاصة تقتضي الإثابة، والنصر، والتأييد؛ وتلك معية عامة تقتضي

الإحاطة بالخلق علماً، وسمعاً، وبصراً، وسلطاناً، وغير ذلك من معاني ربوبيته؛ والمعية التي أضافها الله إلى نفسه منها ما يقتضي التهديد؛ ومنها ما يقتضي التأييد؛ ومنها ما هو لبيان الإحاطة، والشمول؛ فمثال الذي يقتضي التأييد قوله تعالى: ﴿**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله تعالى لموسى، وهارون: ﴿**إني معكما أسمع وأرى**﴾ [طه: ٤٦]، وقوله تعالى عن نبيه محمد ﷺ: ﴿**لا تحزن إن الله معنا**﴾ [التوبة: ٤٠]؛ ومثال الذي يقتضي التهديد قوله تعالى: ﴿**يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول**﴾ [النساء: ١٠٨]؛ ومثال ما يقتضي الإحاطة قوله تعالى: ﴿**وهو معكم أينما كنتم**﴾ [الحديد: ٤].

فإن قلت: ما الجمع بين إثبات المعية لله عزّ وجلّ، وإثبات العلوّ له؟.

فالجواب: أنه لا تناقض بينهما؛ إذ لا يلزم من كونه معنا أن يكون حالًّا في الأمكنة التي نحن فيها؛ بل هو معنا وهو في السماء، كما نقول: القمر معنا، والقطب معنا، والثريا معنا، وما أشبه ذلك مع أنها في السماء.

٢١ ـ **ومن فوائد الآية**: الترغيب في الصبر؛ لقوله تعالى: ﴿**والله مع الصابرين**﴾؛ والصبر ثلاثة أنواع:

الأول: صبر على طاعة الله: بأن يحبس الإنسان نفسه على الطاعة، فيقوم بها من غير ملل، ولا ضجر.

الثاني: الصبر عن محارم الله: بأن يحبس نفسه عما حرم الله عليه من قول، أو عمل.

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة: بأن يحبس نفسه عن التسخط على ما يقدره الله من المصائب العامة، والخاصة.

وأعلاها الأول، ثم الثاني، ثم الثالث.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٥٠﴾ قوله تعالى: **﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده﴾** أي ظهر طالوت، وجنوده؛ مأخوذ من «البراز» ـ وهي الأرض الواسعة البارزة الظاهرة.

قوله تعالى: **﴿قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً﴾**: إفراغ الشيء على الشيء يدل على عمومه له؛ والمعنى املأ قلوبنا، وأجسادنا صبراً حتى نثبت.

قوله تعالى: **﴿وثبت أقدامنا﴾** يعني اجعلها ثابتة لا تزول: فلا نفر، ولا نهرب؛ وربما يراد بـ**«الأقدام»** ما هو أعم من ذلك؛ وهو تثبيت القلوب أيضاً.

قوله تعالى: **﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾** أي قوِّنا عليهم حتى نغلبهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** أن من تمام العبودية أن يلجأ العبد إلى

ربه عند الشدائد؛ لقوله تعالى: ﴿**ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً**﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن التجاء الإنسان إلى الله عند الشدائد سبب لنجاته، وإجابة دعوته، لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿**فهزموهم بإذن الله**﴾ [البقرة: ٢٥١]؛ وأما اعتماد الإنسان على نفسه، واعتداده بها فسبب لخذلانه، كما قال تعالى: ﴿**ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت**﴾ [التوبة: ٢٥]؛ وهذا مشهد عظيم في الواقع؛ فإن كثيراً من الناس إذا أعطاه الله سبحانه وتعالى نعمة في بدنه، أو ماله، أو أهله يرى أن ذلك من حوله، وقوته، وكسبه؛ وهذا خطأ عظيم؛ بل هو من عند الله؛ هو الذي منّ به عليك؛ فانظر إلى الأصل ـ لا إلى الفرع ـ؛ والنظر إلى الفرع، وإهمال الأصل سفه في العقل، وضلال في الدين؛ ولهذا يجب عليك إذا أنعم الله عليك بنعمة أن تثني على الله بها بلسانك، وتعترف له بها في قلبك، وتقوم بطاعته بجوارحك.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: اضطرار الإنسان إلى ربه في تثبيت قدمه على طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿**وثبت أقدامنا**﴾.

٤ ـ **ومنها**: ذكر ما يكون سبباً للإباحة؛ لقوله تعالى: ﴿**وانصرنا على القوم الكافرين**﴾؛ لم يقولوا: على أعدائنا؛ كأنهم يقولون: انصرنا عليهم من أجل كفرهم؛ وهذا في غاية ما يكون من البعد عن العصبية، والحمية؛ يعني ما طلبنا أن تنصرنا عليهم إلا لأنهم كافرون.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٥١﴾ قوله تعالى: ﴿**فهزموهم**﴾ أي غلبوهم ﴿**بإذن الله**﴾ أي بتقديره؛ فالإذن هنا كوني.

قوله تعالى: ﴿**وقتل داود جالوت**﴾؛ داود كان من جنود طالوت؛ لكنه عليه الصلاة والسلام كان قوياً شجاعاً؛ يقال: إن جالوت طلب البراز؛ لأن جالوت قائد جبار عنيد قوي؛ فخرج إليه داود، فقتله؛ وقد ذكروا في كيفية قتله ما لا حاجة إلى ذكره، ولا سند صحيح في إثباته؛ وليس لنا في كيفية قتله كبير فائدة؛ ولذا لم يصف الله تعالى لنا القتل؛ فالمقصود قتله، وقد حصل؛ وإذا قُتل ـ وهو القائد ـ انهزم الجنود.

قوله تعالى: ﴿**وآتاه الله**﴾ ضمير المفعول به يعود إلى ﴿**داود**﴾؛ أي أعطاه الله ﴿**الملك**﴾ فصار ملكاً؛ وآتاه ﴿**الحكمة**﴾ فصار رسولاً؛ واجتمع له ما به صلاح الدين، والدنيا: الشرع، والإمارة.

قوله تعالى: ﴿**وعلمه مما يشاء**﴾ أي من الذي يشاؤه؛ ومن ذلك ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿**وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم**﴾ [الأنبياء: ٨٠].

قوله تعالى: ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض**﴾؛ ﴿**دفع**﴾ بفتح الدال، وإسكان الفاء؛ وفي قراءة: «**دفاع**» بكسر الدال، وفتح الفاء، وألف بعدها؛ وهما سبعيتان؛ و﴿**دفع**﴾

مصدر مضاف إلى فاعله؛ و﴿الناس﴾ مفعول به؛ و﴿بعضهم﴾ بدل منه؛ و﴿ببعض﴾ متعلق بـ﴿دفع﴾؛ وخبر المبتدأ محذوف تقديره: موجود؛ يعني: لولا أن دفع الله الناس بعضهم ببعض موجود لفسدت الأرض.

وقوله تعالى: ﴿لفسدت الأرض﴾ جواب «**لولا**»؛ و«**الفساد**» ضد «الصلاح»؛ ومن أنواعه ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿**لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً**﴾ [الحج: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ أي صاحب فضل؛ و«**الفضل**» هو العطاء الزائد الواسع الكثير؛ ﴿على العالمين﴾ أي جميع الخلق؛ وسموا عالماً؛ لأنهم عَلَم على خالقهم سبحانه وتعالى.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن مَنْ صَدَق اللجوء إلى الله، وأحسن الظن به أجاب الله دعاءه.

٢ ـ **ومنها**: أنه يجب على المرء إذا اشتدت به الأمور أن يرجع إلى الله عزّ وجلّ.

٣ ـ **ومنها**: إضافة الحوادث إلى الله عزّ وجلّ ـ وإن كان من فعل الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿فهزموهم﴾: هذا فعلهم ـ لكن ﴿بإذن الله﴾؛ فالله هو الذي أذن بانتصار هؤلاء، وخذلان هؤلاء.

٤ ـ **ومنها**: شجاعة داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حيث قتل جالوت حين برز لهم؛ والشجاعة عند المبارزة لها أهمية عظيمة؛ لأنه إذا قُتِل المبارِز أمام جنده فلا شك أنه سيجعل في قلوبهم الوهن، والرعب؛ ويجوز في هذه الحال أن يخدع الإنسان من

بارزه؛ لأن المقام مقام حرب؛ وكل منهما يريد أن يقتل صاحبه؛ فلا حرج أن يخدعه؛ ويُذكر أن عمرو بن ودّ لما خرج لمبارزة علي بن أبي طالب صاح به عليّ، وقال: «ما خرجت لأبارز رجلين»؛ فظن عمرو أن أحداً قد لحقه، فالتفت، فضربه علي[1]؛ هذه خدعة؛ ولكنها جائزة؛ لأن المقام مقام حرب؛ هو يريد أن يقتله بكل وسيلة.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ أوتي الملك، والنبوة؛ لقوله تعالى: ﴿**وآتاه الله الملك والحكمة**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ليس عندهم من العلم إلا ما علمهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿**وعلمه مما يشاء**﴾؛ فالنبي نفسه لا يعلم الغيب، ولا يعلم الشرع إلا ما آتاه الله سبحانه وتعالى؛ ومثل ذلك قول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿**وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً**﴾ [النساء: ١١٣].

٧ ـ **ومنها**: إثبات المشيئة لله؛ لقوله تعالى: ﴿**وعلمه مما**

---

(١) لم أقف على هذا السياق، وإنما وقفت على قول علي رضي الله عنه لعمرو بن عبد ودّ: «يا عمرو إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه، قال له: أجل، قال: فإني أدعوك إلى الله، وإلى رسوله، وإلى الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك، قال علي: فإني أدعوك إلى النزال، فقال: لِمَ يا ابن أخي، فوالله ما أحب أن أقتلك، قال علي: لكني والله أحب أن أقتلك، . . .» فتنازلا، وتجاولا، فقتله علي رضي الله عنه، والواقعة وقعت في غزوة الخندق؛ راجع: سيرة ابن هشام ٣/ ١٣٤ ـ ١٣٥؛ والسيرة النبوية لابن كثير ـ مقتبسة من البداية والنهاية ـ ٣/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣؛ وسير أعلام النبلاء، السيرة النبوية ١/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣.

يشاء﴾؛ ولكن اعلم أن مشيئة الله تابعة لحكمته، كما قال الله تعالى: **﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً * وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾** [الإنسان: ٢٩، ٣٠].

٨ ـ **ومنها**: أن الله عزّ وجلّ يدفع الناس بعضهم ببعض لتصلح الأرض، ومن عليها؛ لقوله تعالى: **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾**؛ وفساد الأرض يكون بالمعاصي، وترك الواجبات؛ لقوله تعالى: **﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾** [الروم: ٤٠]، وقوله تعالى: **﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾** [الشورى: ٣٠].

٩ ـ **ومنها**: إثبات حكمة الله، حيث جعل الناس يدفع بعضهم بعضاً ليقوم دين الله، فدفعَ الكافرين بجهاد المؤمنين؛ لأنه لو جعل السلطة لقوم معينين لأفسدوا الأرض؛ لأنه لا معارض لهم؛ ولكن الله عزّ وجلّ يعارض هذا بهذا.

١٠ ـ **ومنها**: أن من الفساد في الأرض هدم بيوت العبادة؛ لقوله تعالى: **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾** [الحج: ٤٠]؛ وهذا تفسير لقوله تعالى هنا: **﴿لفسدت الأرض﴾**؛ أو هو ذكر لنوع من الفساد.

١١ ـ **ومنها**: إثبات فضل الله تعالى على جميع الخلق؛ لقوله تعالى: **﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾** حتى الكفار؛ لكن فضل الله على الكفار فضل في الدنيا فقط بإعطائهم ما به قوام أبدانهم؛ أما في الآخرة فيعاملهم بعدله بعذابهم في النار أبد

الآبدين؛ وأما بالنسبة للمؤمنين فإن الله يعاملهم بالفضل في الدنيا، والآخرة.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٥٢﴾ قوله تعالى: ﴿تلك﴾ الإشارة إلى ما سبق ذكر؛ أو إلى القرآن كله؛ ﴿آيات الله﴾ جمع آية؛ وهي العلامة المعينة لمدلولها؛ ﴿نتلوها عليك﴾: نقرؤها عليك؛ والمراد تلاوة جبريل، كما قال تعالى: ﴿**نزل به الروح الأمين* على قلبك**﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]؛ و﴿بالحق﴾: الحق في الأخبار: هو الصدق؛ وفي الأحكام: هو العدل؛ والباء إما للمصاحبة؛ أو لبيان ما جاءت به هذه الآيات؛ والمعنى أن هذه الآيات حق؛ وما جاءت به حق.

قوله تعالى: ﴿وإنك لمن المرسلين﴾: الجملة مؤكدة بـ﴿إن﴾، واللام؛ لتحقيق رسالة النبي ﷺ.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إثبات آيات الله سبحانه وتعالى الشرعية؛ لأن المراد بـ«**الآيات**» هنا: الشرعية ـ وهي القرآن ـ.

٢ ـ **ومنها**: أن الله تعالى يتلو على نبيه ما أوحاه إليه؛ لقوله عزّ وجلّ: ﴿نتلوها عليك بالحق﴾؛ ولكن هل الذي يتلو ذلك هو الله، أو جبريل؟ اقرأ في آية القيامة: ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه**﴾

[القيامة: ١٦ ـ ١٨]؛ يعني إذا قرأه جبريل فاتبع قرآنه؛ فجبريل يتلوه على النبي ﷺ وقد تلقاه من الله سبحانه وتعالى.

٣ ـ **ومنها**: أن القرآن كله حق من الله، ونازل بالحق؛ لأن الباء في قوله تعالى: ﴿**بالحق**﴾ للمصاحبة، والملابسة أيضاً؛ فهو نازل من عند الله حقاً؛ وهو كذلك مشتمل على الحق؛ وليس فيه كذب في أخباره، ولا جور في أحكامه؛ بل أحكامه كلها عدل؛ وأخباره كلها صدق.

٤ ـ **ومنها**: إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿**وإنك لمن المرسلين**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن هناك رسلاً آخرين غير الرسول؛ لقوله تعالى: ﴿**لمن المرسلين**﴾؛ ولكنه ﷺ كان خاتم النبيين؛ إذ لا نبي بعده.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٥٣﴾ قوله تعالى: ﴿**تلك**﴾ التاء هنا اسم إشارة؛ وأشار إلى «**الرسل**» بإشارة المؤنث؛ لأنه جمع تكسير؛ وجمع التكسير يعامل معاملة المؤنث في تأنيث فعله، والإشارة إليه، كما قال

تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا﴾ [الحجرات: ١٤]؛ و«الأعراب» مذكر، لكن لما جُمع جَمع تكسير صح تأنيثه؛ وتأنيثه لفظي؛ لأنه مؤول بالجماعة؛ والمشار إليه هم المرسل الذين دلّ عليهم قوله تعالى: ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ [البقرة: ٢٥٢].

قوله تعالى: ﴿فضلنا بعضهم على بعض﴾؛ يعني جعلنا بعضهم أفضل من بعض في الوحي؛ وفي الأتباع؛ وفي الدرجات؛ والمراتب عند الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿منهم﴾ أي من الرسل ﴿من كلم الله﴾ أي من كلمه الله عزّ وجلّ؛ فالعائد محذوف، وذلك مثل موسى، ومحمد صلى الله عليهما وسلم؛ وهذه الجملة استئنافية لبيان وجه من أوجه التفضيل.

قوله تعالى: ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ معطوف على ﴿فضلنا﴾، لكن فيه التفات من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب.

وقوله: ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ أي على بعض؛ فمحمد ﷺ له الوسيلة؛ وهي أعلى درجة في الجنة، ولا تكون إلا لعبد من عباد الله؛ قال النبي ﷺ: «وأرجو أن أكون أنا هو»[(١)]؛ وفي المعراج وجد النبي ﷺ إبراهيم في السماء السابعة؛ وموسى في السادسة؛ وهارون في الخامسة؛ وإدريس في الرابعة[(٢)]؛ وهكذا؛ وهذا من رفع الدرجات.

---

(١) أخرجه مسلم ص٧٣٨، كتاب الصلاة، باب ٧: استحباب القول مثل قول المؤذن...، حديث رقم ٨٤٩ [١١] ٣٨٤.

(٢) راجع البخاري ص٢٦٠، كتاب بدء الخلق، باب ٦: ذكر الملائكة صلوات الله وسلامه عليهم، حديث رقم ٣٢٠٧؛ ومسلماً ص٧٠٥، =

قوله تعالى: ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ أي الآيات البينات الدالة على رسالته، ويراد بها الإنجيل، وما جرى على يديه من إحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم بإذن الله، ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ أي قويناه؛ وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿بروح القدس﴾ ما المراد بها؟ فقيل: المراد بها: ما معه من العلم المطهر الآتي من عند الله؛ والعلم، أو الوحي يسمى روحاً، كما قال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ [الشورى: ٥٢]؛ وقيل: المراد بـ«روح القدس» جبريل، كما قال تعالى: ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾ [النحل: ١٠٢]؛ فـ«روح القدس» هو جبريل؛ أيد الله عيسى به، حيث كان يقويه في مهام أموره عندما يحتاج إلى تقوية؛ والآية صالحة للأمرين، فتفسر بهما كما قررناه غير مرة.

قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعدما جاءتهم البينات﴾؛ «لو» شرطية؛ فعل الشرط فيها ﴿شاء الله﴾؛ وجوابه ﴿ما اقتتل الذين . . .﴾؛ ومفعول ﴿شاء﴾ محذوف دلّ عليه جواب الشرط؛ والتقدير: ولو شاء الله أن لا يقتتل الذين من بعدهم ما اقتتلوا؛ إما لاتفاقهم على الإيمان؛ وإما لاتفاقهم على المهادنة، وإن كفر بعضهم.

وقوله تعالى: ﴿من بعدهم﴾ أي من بعد الرسل؛ ﴿من بعدما جاءتهم البينات﴾ أي هذا القتال حصل بعدما زال اللبس، واتضح الأمر، ووجدت البينات الدالة على صدق الرسل؛ ومع ذلك فإن

= كتاب الإيمان، باب ٧٤: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، حديث رقم ٤١١ [٢٥٩] ١٦٢.

الكفار استمروا على كفرهم، ورخصت عليهم رقابهم، ونفوسهم في نصرة الطاغوت؛ وقاتلوا المؤمنين أولياء الله عزّ وجلّ؛ كل ذلك من أجل العناد، والاستكبار؛ و﴿البينات﴾ أي الآيات البينات؛ وهو الوحي الذي جاءت به الرسل، وغيره من الآيات الدالة على رسالتهم.

قوله تعالى: ﴿ولكن اختلفوا﴾ أي الذين جاءتهم البينات؛ ثم بيّن كيفية اختلافهم فقال تعالى: ﴿فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾ وقوله تعالى: ﴿ولكن اختلفوا﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين...﴾.

قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ هذه الجملة توكيد لما سبق؛ يعني لو شاء الله ألا يقتتلوا ما اقتتلوا؛ وعلى هذا فالمفعول هنا كما سبق.

قوله تعالى: ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾؛ هذا استدراك على قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ ليبين أن ما وقع من الاختلاف والاقتتال كان بإرادته؛ والإرادة في قوله تعالى: ﴿ما يريد﴾ كونية.

تنبيه:

قوله تعالى: ﴿ولكن اختلفوا﴾ بعد قوله عزّ وجلّ: ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ بيان لسبب الاقتتال الواقع منهم؛ وقوله تعالى في الجملة الثانية: ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾ بيان لكونه بإرادته كقوله تعالى: ﴿ولكن الله يفعل ما يشاء﴾.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الرسل عليهم السلام يتفاضلون؛ لقوله تعالى: ﴿فضلنا بعضهم على بعض﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن فضل الله يؤتيه من يشاء؛ حتى خواص عباده يفضل بعضهم على بعض؛ لأن الرسل هم أعلى أصناف بني آدم، ومع ذلك يقع التفاضل بينهم بتفضيل الله.

ويتفرع عليها فائدة أخرى: أن الله يفضل أتباع الرسل بعضهم على بعض، كما قال تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ [آل عمران: ١١٠]، وكما قال النبي ﷺ: «**خير الناس قرني**»[(١)]؛ كما أن من كان من الأمم أخلص لله، وأتبع لرسله فهو أفضل ممن دونه من أمته؛ لأن الرسل إذا كانوا يتفاضلون فأتباعهم كذلك يتفاضلون؛ فإن قلت: كيف نجمع بين هذه الآية المثبتة للتفاضل بين الرسل؛ وبين قوله ﷺ: «**لا تخيروني على موسى**»[(٢)]، ونهيه ﷺ أن يفاضل بين الأنبياء؟

فالجواب: أن يقال: في هذا عدة أوجه من الجمع؛ أحسنها أن النهي فيما إذا كان على سبيل الافتخار والتعلِّي: بأن يفتخر أتباع محمد ﷺ على غيرهم، فيقولوا: «محمد أفضل من موسى» مثلاً؛ أفضل من عيسى؛ وما أشبه ذلك؛ فهذا منهي عنه؛ أما إذا كان على سبيل الخبر فهذا لا بأس به؛ ولهذا قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[(٣)].

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات الكلام لله عزّ وجلّ؛ لقوله

---

(١) سبق تخريجه ٣/ ٣٥.

(٢) أخرجه البخاري ص١٨٩، كتاب الخصومات، باب ١: ما يُذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهودي، حديث رقم ٢٤١١، وأخرجه ص١٠٩٥، كتاب الفضائل، باب ٤٢: من فضائل موسى، حديث رقم ٦١٥٣ [١٦٠] ٢٣٧٣.

(٣) سبق تخريجه ١/ ١١٨.

تعالى: ﴿منهم من كلم الله﴾؛ وكلام الله عزّ وجلّ عند أهل السنة، والجماعة من صفاته الذاتية الفعلية؛ فباعتبار أصله من الصفات الذاتية؛ لأنه صفة كمال؛ والله عزّ وجلّ موصوف بالكمال أزلاً، وأبداً؛ أما باعتبار آحاده ـ أنه يتكلم إذا شاء ـ فهو من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته. قال الله تعالى: ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿**ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه**﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ حصل الكلام بعد مجيئه لميقات الله؛ ولهذا حصل بينهما مناجاة: ﴿**قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني**﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ فقال تعالى: ﴿**لن تراني**﴾ بعد أن قال موسى: ﴿**رب أرني أنظر إليك**﴾؛ هذا هو الحق في هذه المسألة؛ وزعمت الأشاعرة أن كلام الله عزّ وجلّ هو المعنى النفسي ـ أي المعنى القائم بنفسه ـ؛ وأما ما يسمعه المخاطب به فهو أصوات مخلوقة خلقها الله عزّ وجلّ لتعبر عما في نفسه؛ وقد أبطل شيخ الإسلام هذا القول من تسعين وجهاً في كتاب يسمى بـ«**التسعينية**».

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن كلام الله للإنسان يعتبر رفعة له؛ لأن الله تعالى ساق قوله: ﴿منهم من كلم الله﴾ على سبيل الثناء، والمدح.

ومنه يؤخذ علوّ مقام المصلي؛ لأنه يخاطب الله عزّ وجلّ، ويناجيه كما أخبر بذلك النبي ﷺ: **فإذا قال المصلي**: ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾، **قال الله**: «**حمدني عبدي**»؛ **وإذا قال المصلي**: ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ **قال الله**: «**أثنى عليّ عبدي**»[1] إلى آخر

(١) سبق تخريجه ١/ ٧.

الحديث؛ فالله تعالى يناجي المصلي، وإن كان المصلي لا يسمعه؛ لكن أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الفضائل مراتب، ودرجات؛ لقوله تعالى: ﴿**ورفع بعضهم درجات**﴾؛ وهذا يشمل الدرجات الحسية، والدرجات المعنوية؛ فالنبي ﷺ له الوسيلة، وهي أعلى درجة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلا لعبد من عباد الله؛ قال الرسول ﷺ: «**وأرجو أن أكون أنا هو**»[(١)]؛ كذلك مراتب أهل الجنة درجات: قال النبي ﷺ: «**إن أهل الجنة يتراءون أصحاب الغرف من فوقهم** ـ يعني العالية ـ **كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم؛ قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين**»[(٢)].

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات أن عيسى نبي من أنبياء الله؛ لقوله تعالى: ﴿**وآتينا عيسى ابن مريم البينات**﴾؛ والله عزّ وجلّ أعطاه آيات ليؤمن الناس به؛ ومن الآيات الحسية لعيسى ابن مريم إحياء الموتى بإذن الله؛ وإخراجهم من القبور؛ وإبراء الأكمه، والأبرص؛ وأن يخلق من الطين كهيئة الطير فيكون طيراً يطير بالفعل بإذن الله؛ وهناك آيات شرعية مستفادة من قوله تعالى: ﴿**وأيدناه بروح القدس**﴾ على أحد التفسيرين السابقين.

---

(١) سبق تخريجه ٣/ ٢٣٦.

(٢) أخرجه البخاري ص٢٦٣، كتاب بدء الخلق، باب ٨: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، حديث رقم ٣٢٥٦، وأخرجه مسلم ص١١٧٠، كتاب صفة الجنة، باب ٣: ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء، حديث رقم ٧١٤٤ [١١] ٢٨٣١.

٨ ـ **ومنها**: أن البشر مهما كانوا فهم في حاجة إلى من يؤيدهم، ويقويهم؛ لقوله تعالى: ﴿**وأيدناه بروح القدس**﴾.

٩ ـ **ومنها**: الرد على النصارى في زعمهم أن عيسى إله؛ لقوله تعالى: ﴿**وأيدناه بروح القدس**﴾؛ أي قويناه؛ ولازم ذلك أنه يحتاج إلى تقوية؛ والذي يحتاج إلى تقوية لا يصلح أن يكون ربًّا، وإلهاً.

١٠ ـ **ومنها**: الثناء على جبريل عليه السلام حيث وصف بأنه روح القدس؛ ومن وجه آخر: حيث كان مؤيِّداً للرسل بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿**وأيدناه بروح القدس**﴾.

١١ ـ **ومنها**: إثبات المشيئة لله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿**ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم**﴾.

١٢ ـ **ومنها**: الرد على القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿**ولو شاء الله ما اقتتل**﴾؛ لأن القدرية يقولون: إن فعل العبد ليس بمشيئة الله؛ وإنما العبد مستقل بعمله؛ وهذه الآية صريحة في أن أفعال الإنسان بمشيئة الله.

١٣ ـ **ومنها**: أن قتال الكفار للمؤمنين كان عن عناد، واستكبار؛ لا عن جهل؛ لقوله تعالى: ﴿**من بعد ما جاءتهم البينات**﴾.

١٤ ـ **ومنها**: لطف الله بالعباد، حيث كان لا يبعث رسولاً إلا ببينة تشهد بأنه رسول؛ وشهادة الله عزّ وجلّ لأنبيائه بالرسالة تكون بالقول، وبالفعل؛ مثالها بالقول: قوله تعالى: ﴿**لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً**﴾ [النساء: ١٦٦]؛ ومثالها بالفعل: تأييد الله للرسول، ونصره إياه، وتمكينه من قتل أعدائه.

١٥ ـ **ومنها**: بيان حكمة الله عزّ وجلّ في انقسام الناس إلى مؤمن، وكافر؛ لقوله تعالى: ﴿**ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر**﴾؛ ولولا هذا ما استقام الجهاد، ولا حصل الامتحان.

١٦ ـ **ومنها**: الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿**آمن**﴾، و﴿**كفر**﴾، حيث أضاف الفعل إلى العبد؛ وهم يرون أن الإنسان مجبر على عمله، ولا ينسب إليه الفعل إلا على سبيل المجاز كما يقال: أحرقت النار الخشب؛ وهذه الآية ترد عليهم.

١٧ ـ **ومنها**: إثبات أن الله سبحانه وتعالى هو خالق أفعال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿**يفعل ما يريد**﴾؛ مع أن الفعل فعل العبد: فالاقتتال فعل العبد؛ والاختلاف فعل العبد؛ لكن لما كان صادراً بمشيئة الله عزّ وجلّ وبخلقه، أضافه الله عزّ وجلّ إلى نفسه.

١٨ ـ **ومنها**: إثبات الإرادة لله؛ لقوله تعالى: ﴿**ولكن الله يفعل ما يريد**﴾؛ والإرادة التي اتصف الله بها نوعان: كونية، وشرعية؛ والفرق بينهما من حيث المعنى؛ ومن حيث المتعلق؛ ومن حيث الأثر؛ من **حيث المعنى**: «الإرادة الشرعية» بمعنى المحبة؛ و«الإرادة الكونية» بمعنى المشيئة؛ **ومن حيث المتعلق**: «الإرادة الكونية» تتعلق فيما يحبه الله، وفيما لا يحبه؛ فإذا قيل: هل أراد الله الكفر؟ نقول: بالإرادة الكونية: نعم؛ وبالشرعية: لا؛ لأن «الإرادة الكونية» تشمل ما يحبه الله، وما لا يحبه؛ و«الإرادة الشرعية» لا تتعلق إلا فيما يحبه الله؛ **ومن حيث الأثر**: «الإرادة الكونية» لا بد فيها من وقوع المراد؛ و«الإرادة الشرعية» قد يقع المراد، وقد لا يقع؛ فمثلاً: ﴿**والله يريد أن يتوب عليكم**﴾

[النساء: ٢٧]: الإرادة هنا شرعية؛ لو كانت كونية لكان الله يتوب على كل الناس؛ لكن الإرادة شرعية: يحب أن يتوب علينا بأن نفعل أسباب التوبة.

فإن قيل: ما تقولون في إيمان أبي بكر رضي الله عنه؛ هل هو مراد بالإرادة الشرعية، أو بالإرادة الكونية؟ قلنا: مراد بالإرادتين كلتيهما؛ وما تقولون في إيمان أبي طالب؟ قلنا: مراد شرعاً؛ غير مراد كوناً؛ ولذلك لم يقع؛ وما تقولون في فسق الفاسق؟

قلنا: مراد كوناً لا شرعاً؛ إذاً نقول: قد تجتمع الإرادتان، كإيمان أبي بكر رضي الله عنه؛ وقد تنتفيان، مثل كفر المسلم؛ وقد توجد الإرادة الكونية دون الشرعية، مثل كفر الكافر؛ وقد توجد الشرعية دون الكونية، كإيمان الكافر.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾.

التفسير:

تقدم مراراً، وتكراراً أن تصدير الخطاب بالنداء يدل على أهمية المطلوب؛ لأن النداء يقتضي التنبيه؛ ولا يكون التنبيه إلا في الأمور الهامة.

وتوجيه النداء للمؤمنين يدل على أن التزام ما ذكر من مقتضيات الإيمان سواء كان أمراً، أو نهياً؛ وعلى أن عدم امتثاله نقص في الإيمان؛ وعلى الحث، والإغراء، كأنه قال: يا أيها

الذين آمنوا لإيمانكم افعلوا كذا، وكذا، مثل ما تقول للحث، والإغراء: يا رجل افعل كذا، وكذا؛ أي لأن ذلك من مقتضى الرجولة.

﴿٢٥٤﴾ قوله تعالى: ﴿أنفقوا مما رزقناكم﴾ الإنفاق بمعنى البذل؛ والمراد به هنا بذل المال في طاعة الله؛ و﴿مما رزقناكم﴾ أي مما أعطيناكم؛ «من» يحتمل أن تكون بيانية؛ أو تبعيضية؛ والفرق بينهما أن البيانية لا تمنع من إنفاق جميع المال؛ لأنها بيان لموضع الإنفاق؛ والتبعيضية تمنع من إنفاق جميع المال؛ وبناءً على ذلك لا يمكن أن يتوارد المعنيان على شيء واحد لتناقض الحكمين.

قوله تعالى: ﴿من قبل أن يأتي يوم﴾ المراد به يوم القيامة؛ ﴿لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾؛ ثلاثة أشياء منتفية؛ وهي «البيع»؛ وهو تبادل الأشياء؛ و«الخلة»؛ وهي أعلى المحبة؛ و«الشفاعة»؛ وهي الوساطة لدفع الضرر، أو جلب المنفعة؛ وفي الآية قراءتان؛ إحداهما ما في المصحف: بالضم، والتنوين: ﴿لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾؛ و﴿لا﴾ على هذه القراءة ملغاة إعراباً؛ لأنها متكررة؛ والقراءة الثانية البناء على الفتح؛ وعلى هذه القراءة تكون ﴿لا﴾ عاملة عمل «إنّ»؛ لكن بالبناء على الفتح؛ لا بالتنوين.

وإنما قال سبحانه وتعالى: ﴿لا بيع﴾؛ لأن عادة الإنسان أن ينتفع بالشيء عن طريق البيع، والشراء؛ فيشتري ما ينفعه، ويبيع ما يضره؛ لكن يوم القيامة ليس فيه بيع.

وقوله تعالى: ﴿ولا خلة﴾؛ هذا من جهة أخرى: قد ينتفع

الإنسان بالشيء بواسطة الصداقة؛ و«الخُلة» بالضم: أعلى المحبة؛ وهي مشتقة من قول الشاعر:

قد تخللتِ مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلاً

يعني أن حبها دخل إلى مسالك الروح، فامتزج بروحه، فصار له كالحياة؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر**»[1]؛ ولكنه ﷺ اتخذه حبيباً. قيل له: من أحب النساء إليك؟ قال ﷺ: «**عائشة**»؛ قيل: ومن الرجال؟ قال ﷺ: «**أبوها**»[2]؛ فأثبت المحبة؛ وكان أسامة بن زيد يسمى «حِب رسول الله» أي حبيبه؛ إذاً الخلة أعلى من المحبة.

فانتفت المعاوضة في هذا اليوم؛ وانتفت المحاباة بواسطة الصداقة؛ وانتفى شيء آخر: الشفاعة؛ وهي الإحسان المحض من الشافع للمشفوع له ـ وإن لم يكن بينهما صداقة ـ؛ فقال تعالى: ﴿**ولا شفاعة**﴾؛ فنفى الله سبحانه وتعالى كل الوسائل التي يمكن أن ينتفع بها في هذا اليوم.

قوله تعالى: ﴿**والكافرون هم الظالمون**﴾؛ أي أن الكافرين بالله هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم، وحصر الظلم فيهم لعظم ظلمهم، كما قال تعالى: ﴿**إن الشرك لظلم عظيم**﴾ [لقمان: ١٣]؛

---

(١) أخرجه البخاري ص٣٩، كتاب الصلاة، باب ٨٠: الخوخة والممر في المسجد، حديث رقم ٤٦٦؛ وأخرجه مسلم ص١٠٩٧، كتاب فضائل الصحابة، باب ١: من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حديث رقم ٦١٧٠ [٢] ٢٣٨٢.

(٢) أخرجه البخاري ص٢٩٨، كتاب المناقب، باب ، حديث رقم ٣٦٦٢؛ أخرجه مسلم ص١٠٩٨، كتاب فضائل الصحابة، باب ١ من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حديث رقم ٦١٧٧ [٨] ٢٣٨٤.

وأخبر النبي ﷺ: **أن أعظم الظلم أن تجعل لله نداً وهو خلقك**[(١)].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: فضيلة الإنفاق مما أعطانا الله؛ لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾، حيث صدرها بالنداء.

٢ ـ **ومنها**: أن الإنفاق من مقتضى الإيمان، وأن البخل نقص في الإيمان؛ ولهذا لا يكون المؤمن بخيلاً؛ المؤمن جواد بعلمه؛ جواد بجاهه؛ جواد بماله؛ جواد ببدنه.

٣ ـ **ومنها**: بيان منة الله علينا في الرزق؛ لقوله تعالى: ﴿**مما رزقناكم**﴾؛ ثم للأمر بالإنفاق في سبيله، والإثابة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿**أنفقوا مما رزقناكم**﴾.

٤ ـ **ومنها**: التنبيه على أن الإنسان لا يحصل الرزق بمجرد كسبه؛ الكسب سبب؛ لكن المسبِّب هو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**مما رزقناكم**﴾؛ فلا ينبغي أن يعجب الإنسان بنفسه حتى يجعل ما اكتسبه من رزق من كسبه، وعمله، كما في قول القائل: إنما أوتيته على علم عندي.

٥ ـ **ومنها**: الإشارة إلى أنه لا منة للعبد على الله مما أنفقه في سبيله؛ لأن ما أنفقه من رزق الله له.

٦ ـ **ومنها**: أن الميت إذا مات فكأنما قامت القيامة في حقه؛ لقوله تعالى: ﴿**من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه...**﴾ إلخ.

---

(١) أخرجه البخاري ص٣٦٧، كتاب تفسير القرآن، ٢ سورة البقرة، باب ٣: قوله تعالى: ﴿**فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾، حديث رقم ٤٤٧٧، وأخرجه مسلم ص٦٩٣، كتاب الإيمان، باب ٣٧: بيان كون الشرك أقبح الذنوب...، حديث رقم ٢٥٧ [١٤١] ٨٦.

٧ ـ **ومنها**: أن ذلك اليوم ليس فيه إمكان أن يصل إلى مطلوبه بأي سبب من أسباب الوصول إلى المطلوب في الدنيا، كالبيع، والصداقة، والشفاعة؛ وإنما يصل إلى مطلوبه بطاعة الله.

٨ ـ **ومنها**: أن الكافرين لا تنفعهم الشفاعة؛ لأنه تعالى أعقب قوله: ﴿**ولا شفاعة**﴾ بقوله تعالى: ﴿**والكافرون هم الظالمون**﴾؛ ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿**فما تنفعهم شفاعة الشافعين**﴾ [المدثر: ٤٨].

٩ ـ **ومنها**: أن الكفر أعظم الظلم؛ ووجه الدلالة منه: حصر الظلم في الكافرين؛ وطريق الحصر هنا ضمير الفصل: ﴿**هم**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: أن الإنسان لا ينتفع بماله بعد موته؛ لقوله تعالى: ﴿**أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم**﴾؛ لكن هذا مقيد بما صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: من صدقة جارية؛ أو علم ينتفع به؛ أو ولد صالح يدعو له**»[1].

١١ ـ **ومنها**: الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿**أنفقوا**﴾، حيث أضاف الفعل إلى المنفقين؛ والجبرية يقولون: إن الإنسان لا يفعل باختياره؛ وهذا القول يرد عليه السمع، والعقل ـ كما هو مقرر في كتب العقيدة ـ.

١٢ ـ **ومنها**: الرد على القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿**مما رزقناكم**﴾؛ لأننا نعلم أن رزق الله يأتي بالكسب؛ ويأتي بسبب لا كسب للإنسان فيه؛ فإذا أمطرت السماء وأنت عطشان، وشربت

---

(١) أخرجه مسلم ص٩٦٣، كتاب الوصية، باب ٣: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، حديث رقم ٤٢٢٣ [١٥] ١٦٣١.

فهذا رزق لا كسب لك فيه، ولا اختيار، لكن إذا بعت، واشتريت، واكتسبت المال فهذا لك فيه كسب؛ والله عز وجل هو الذي أعطاك إياه؛ لو شاء الله لسلبك القدرة؛ ولو شاء لسلبك الإرادة؛ ولو شاء ما جلب لك الرزق.

١٣ ـ **ومنها**: أن إنفاق جميع المال لا بأس به؛ وهذا على تقدير ﴿من﴾ بيانية؛ بشرط أن يكون الإنسان واثقاً من نفسه بالتكسب، وصِدق التوكل على الله.

مسألة:

ظاهر الآية الكريمة أن الإنفاق مطلق في أي وجه من وجوه الخير؛ ولكن هذا الإطلاق مقيد في آيات أُخر، مثل قوله تعالى: **﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾** [البقرة: ٢٦١]، ومثل قوله تعالى: **﴿وأنفقوا في سبيل الله﴾** [البقرة: ١٩٥]؛ وعلى هذا فيكون إطلاق الآية هنا مقيداً بالآيات الأُخر التي تدل على أن الإنفاق المأمور به ما كان في سبيل الله ـ أي في شرعه ـ.

مسألة ثانية:

ظاهر الآية نفي الشفاعة مطلقاً؛ وحينئذ نحتاج إلى الجمع بين هذه الآية وبين النصوص الأخرى الدالة على إثبات الشفاعة في ذلك اليوم؛ فيقال: الجمع أن يحمل مطلق هذه الآية على المقيد بالنصوص الأخرى، ويقال؛ إن النصوص الأخرى دلت على أن هناك شفاعة؛ لكن لها ثلاثة شروط: رضى الله عن الشافع؛ وعن المشفوع له؛ وإذنه في الشفاعة.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾.

التفسير:

هذه الآية أعظم آية في كتاب الله كما سأل النبي ﷺ أبيّ بن كعب، وقال: «**أي آية أعظم في كتاب الله؟ قال: آية الكرسي؛ فضرب على صدره، وقال: ليهنك العلم يا أبا المنذر**»(١)؛ ولهذا من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح؛ وهي مشتملة على عشر جمل؛ كل جملة لها معنى عظيم جداً.

﴿٢٥٥﴾ قوله تعالى: ﴿**الله لا إله إلا هو**﴾: الاسم الكريم مبتدأ؛ وجملة: ﴿**لا إله إلا هو**﴾ خبر؛ وما بعده: إما أخبار ثانية؛ وإما معطوفة؛ و﴿**إله**﴾ بمعنى مألوه؛ و«المألوه» بمعنى المعبود حباً، وتعظيماً؛ ولا أحد يستحق هذا الوصف إلا الله سبحانه وتعالى؛ والآلهة المعبودة في الأرض، أو المعبودة وهي في السماء ـ كالملائكة ـ كلها لا تستحق العبادة؛ وهي تسمى آلهة؛ لكنها لا تستحق ذلك؛ الذي يستحقه رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم**﴾ [البقرة: ٢١]،

---

(١) أخرجه مسلم ص٨٠٥، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ٤٤: فضل سورة الكهف وآية الكرسي، حديث رقم ١٨٨٥ [٢٥٨] ٨١٠.

وقال تعالى: ﴿**ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل**﴾ [الحج: ٦٢].

و﴿**إله**﴾ اسم لا؛ و﴿**لا**﴾ هنا نافية للجنس؛ ولا النافية للجنس تدل على النفي المطلق العام لجميع أفراده؛ وهي نص في العموم؛ فـ﴿**لا إله**﴾ نفي عام محض شامل لجميع أفراده؛ وقوله تعالى: ﴿**إلا هو**﴾ بدل من خبر ﴿**لا**﴾ المحذوف؛ لأن التقدير: لا إله حق إلا هو؛ والبدل في الحقيقة هو المقصود بالحكم، كما قال ابن مالك:

التابع المقصود بالحكم بلا ... واسطة هو المسمى بدلاً

وهذه الجملة العظيمة تدل على نفي الألوهية الحق نفياً عاماً قاطعاً إلا لله تعالى وحده.

وقوله تعالى: ﴿**الحي القيوم**﴾ هذان اسمان من أسمائه تعالى؛ وهما جامعان لكمال الأوصاف، والأفعال؛ فكمال الأوصاف في ﴿**الحي**﴾؛ وكمال الأفعال في ﴿**القيوم**﴾؛ لأن معنى ﴿**الحي**﴾ ذو الحياة الكاملة؛ ويدل على ذلك «**أل**» المفيدة للاستغراق؛ وكمال حياته تعالى: من حيث الوجود، والعدم؛ ومن حيث الكمال، والنقص؛ فحياته من حيث الوجود، والعدم؛ أزلية أبدية ـ لم يزل، ولا يزال حياً؛ ومن حيث الكمال، والنقص: كاملة من جميع أوصاف الكمال ـ فعلمه كامل؛ وقدرته كاملة؛ وسمعه، وبصره، وسائر صفاته كاملة؛ و﴿**القيوم**﴾: أصلها من القيام؛ ووزن «قيوم» فيعول؛ وهي صيغة مبالغة؛ فهو القائم على نفسه فلا يحتاج إلى أحد من خلقه؛ والقائم على غيره فكل أحد محتاج إليه.

قوله تعالى: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ أي لا يعتريه نعاس، ولا نوم؛ فالنوم معروف؛ والنعاس مقدمته.

قوله تعالى في الجملة الثالثة: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي له وحده؛ ففي الجملة حصر لتقديم الخبر على المبتدأ؛ و﴿السموات﴾ جمعت؛ و﴿الأرض﴾ أفردت؛ لكنها بمعنى الجمع؛ لأن المراد بها الجنس.

قوله تعالى في الجملة الرابعة: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾؛ ﴿من﴾ اسم استفهام مبتدأ؛ و﴿ذا﴾ ملغاة إعراباً؛ ويأتي بها العرب في مثل هذا لتحسين اللفظ؛ و﴿الذي﴾ اسم موصول خبر ﴿من﴾؛ والمراد بالاستفهام هنا النفي بدليل الإثبات بعده، حيث قال تعالى: ﴿إلا بإذنه﴾.

و«الشفاعة» في اللغة: جعل الوتر شفعاً؛ وفي الاصطلاح: التوسط للغير لجلب منفعة، أو دفع مضرة؛ فشفاعة النبي ﷺ في أهل الموقف أن يقضي الله بينهم بعدما يلحقهم من الهمّ، والغمّ ما لا يطيقون[1]: شفاعة لدفع مضرة؛ وشفاعته في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة[2]: شفاعة في جلب منفعة.

وقوله تعالى: ﴿إلا بإذنه﴾ أي الكوني؛ يعني: إلا إذا أذن في هذه الشفاعة ـ حتى أعظم الناس جاهاً عند الله لا يشفع إلا بإذن الله؛ فالنبي ﷺ يوم القيامة ـ وهو أعظم الناس جاهاً عند الله؛ ومع ذلك لا يشفع إلا بإذن الله لكمال سلطانه جلّ وعلا، وهيبته؛ وكلما كمل السلطان صار أهيب للملِك، وأعظم؛ حتى إن الناس

---

(١) سبق تخريجه ٣/ ٢٣٦.

(٢) سبق تخريجه ٣/ ٢٣٦.

لا يتكلمون في مجلسه إلا إذا تكلم؛ وانظر وصف رسولِ قريشٍ النبيَّ ﷺ مع أصحابه، حيث وصفهم بأنه إذا تكلم سكتوا؛ كل ذلك من باب التعظيم.

قوله تعالى: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾؛ هذه هي الجملة السادسة؛ و«العلم» عند الأصوليين: إدراك الشيء إدراكاً جازماً مطابقاً؛ فعدم الإدراك: جهل؛ والإدراك على وجه لا جزم فيه: شك؛ والإدراك على وجه جازم غير مطابق: جهل مركب؛ فلو سئلت: متى كانت غزوة بدر؟ فقلت: «لا أدري» فهذا جهل؛ ولو سئلت: متى كانت غزوة بدر؟ فقلت: «إما في الثانية؛ أو في الثالثة» فهذا شك؛ ولو سئلت: متى كانت غزوة بدر؟ فقلت: «في السنة الخامسة» فهذا جهل مركب؛ والله عز وجل يعلم الأشياء علماً تاماً شاملاً لها جملة، وتفصيلاً؛ وعلمه ليس كعلم العباد؛ ولذلك قال تعالى: ﴿يعلم ما بين أيديهم﴾ أي المستقبل؛ ﴿وما خلفهم﴾ أي الماضي؛ وقد قيل بعكس هذا القول؛ ولكنه بعيد؛ فاللفظ لا يساعد عليه؛ و﴿ما﴾ من صيغ العموم؛ فهي شاملة لكل شيء سواء كان دقيقاً أم جليلاً؛ وسواء كان من أفعال الله أم من أفعال العباد.

قوله تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ لها معنيان؛ **المعنى الأول**: لا يحيطون بشيء من علم نفسه؛ أي لا يعلمون عن الله سبحانه وتعالى من أسمائه، وصفاته، وأفعاله، إلا بما شاء أن يعلمهم إياه، فيعلمونه؛ **المعنى الثاني**: ولا يحيطون بشيء من معلومه ـ أي مما يعلمه في السموات، والأرض ـ إلا بما شاء أن يعلمهم إياه، فيعلمونه؛ وقوله تعالى: ﴿إلا بما شاء﴾ استثناء بدل من قوله تعالى: ﴿شيء﴾؛ لكنه بإعادة العامل؛ وهي

الباء؛ و«ما» يحتمل أن تكون مصدرية؛ أي: إلا بمشيئته؛ ويحتمل أن تكون موصولة؛ أي: إلا بالذي شاء؛ وعلى التقدير الثاني يكون العائد محذوفاً؛ والتقدير: إلا بما شاءه.

قوله تعالى: ﴿وسع كرسيه السماوات والأرض﴾؛ أي شمل، وأحاط، كما يقول القائل: وسعني المكان؛ أي شملني، وأحاط بي؛ و«الكرسي» هو موضع قدمي الله عز وجل؛ وهو بين يدي العرش كالمقدمة له؛ وقد صح ذلك عن ابن عباس موقوفاً[1]، ومثل هذا له حكم الرفع؛ لأنه لا مجال للاجتهاد فيه؛ وما قيل من أن ابن عباس رضي الله عنهما يأخذ عن بني إسرائيل فلا صحة له؛ بل الذي صح عنه في البخاري[2] أنه كان ينهى عن الأخذ عن بني إسرائيل؛ فأهل السنّة والجماعة عامتهم على أن الكرسي موضع قدمي الله عز وجل؛ وبهذا جزم شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وغيرهما من أهل العلم، وأئمة التحقيق؛ وقد قيل: إن «**الكرسي**» هو العرش؛ ولكن ليس بصحيح؛ فإن «العرش» أعظم، وأوسع، وأبلغ إحاطة من الكرسي؛ وروي عن ابن عباس أن ﴿كرسيه﴾: علمه؛ ولكن هذه الرواية أظنها لا تصح عن ابن عباس[3]؛ لأنه لا يعرف هذا

---

(١) راجع المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ٩٣، حديث رقم ١٢٤٠٤؛ وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٦/ ٣٢٦)؛ وراجع مستدرك الحاكم ٢/ ٢٨٢، كتاب التفسير، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

(٢) راجع البخاري ص٦١٢ ـ ٦١٣، كتاب الاعتصام بالسنة، باب ٢٥: قول النبي ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء»، حديث رقم ٧٣٦٣.

(٣) راجع تفسير الطبري ٥/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨، القول في تأويل قوله تعالى: =

المعنى لهذه الكلمة في اللغة العربية، ولا في الحقيقة الشرعية؛ فهو بعيد جداً من أن يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ فالكرسي موضع القدمين؛ وقد جاء الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما السموات السبع والأرضون بالنسبة للكرسي إلا كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة**»(١)؛ وهذا يدل على سعة هذه المخلوقات العظيمة التي هي بالنسبة لنا من عالم الغيب؛ ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿**أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها**﴾ [قٓ: ٦]؛ ولم يقل: أفلم ينظروا إلى الكرسي؛ أو إلى العرش؛ لأن ذلك

= ﴿**وسع كرسيه السموات والأرض**﴾، حديث رقم ٥٧٨٧ ـ ٥٧٨٨؛ ذكر ابن أبي العز أن المحفوظ عن ابن عباس أن الكرسي هو موضع القدمين (شرح العقيدة الطحاوية ص٣٧١) وذكر شعيب الأرناؤوط: أن أثر ابن عباس في تفسير الكرسي بأنه موضع القدمين أصح إسناداً (شرح العقيدة الطحاوية ص٣٧١، حاشية رقم ١)، وذكر محمود شاكر أنه إذا كان أثر ابن عباس في تفسير الكرسي بالعلم صحيح الإسناد فإن الخبر الآخر صحيح على شرط الشيخين (تفسير الطبري ٥/ ٤٠١، حاشية رقم ١).

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١/ ٢٨٧، باب ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كل خير حظ...، حديث رقم ٣٦٢؛ وفي سنده إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني قال أبو حاتم وأبو زرعة: كذاب، وقال علي بن الجنيد: صدق أبو حاتم ينبغي أن لا يحدث عنه (ميزان الاعتدال ١/ ٧٣)؛ وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ٥/ ٣٩٩، تحقيق أحمد شاكر وفي سنده ابن زيد هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي: قال البخاري: ضعفه عليّ جداً، وقال النسائي وأحمد ويحيى: ضعيف (ميزان الاعتدال ٢/ ٥٦٤؛ وقال شعيب في تخريج شرح العقيدة الطحاوية ص٣٧٠، ٣٧١) ضعيف.

ليس مرئياً لنا؛ ولولا أن الله أخبرنا به ما علمنا به.

قوله تعالى: ﴿**ولا يؤوده**﴾؛ أي لا يثقله، ويشق عليه ﴿**حفظهما**﴾؛ أي حفظ السموات، والأرض؛ وهذه الصفة صفة منفية.

قوله تعالى: ﴿**وهو العلي العظيم**﴾: مثل هذه الجملة التي طرفاها معرفتان تفيد الحصر؛ فهو وحده العلي؛ أي ذو العلو المطلق، وهو الارتفاع فوق كل شيء؛ و﴿**العظيم**﴾ أي ذو العظمة في ذاته، وسلطانه، وصفاته.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إثبات هذه الأسماء الخمسة؛ وهي ﴿**الله**﴾؛ ﴿**الحي**﴾؛ ﴿**القيوم**﴾؛ ﴿**العلي**﴾؛ ﴿**العظيم**﴾؛ وما تضمنته من الصفات.

٢ ـ **ومنها**: إثبات انفراد الله تعالى بالألوهية في قوله تعالى: ﴿**لا إله إلا هو**﴾.

٣ ـ **ومنها**: إبطال طريق المشركين الذين أشركوا بالله، وجعلوا معه آلهة.

٤ ـ **ومنها**: إثبات صفة الحياة لله عز وجل؛ وهي حياة كاملة: لم تسبق بعدم، ولا يلحقها زوال، ولا توصف بنقص، كما قال تعالى: ﴿**هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم**﴾ [الحديد: ٣]، وقال تعالى: ﴿**وتوكل على الحي الذي لا يموت**﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿**ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾ [الرحمن: ٢٧].

٥ ـ **ومنها**: إثبات القيومية لله عز وجل؛ لقوله تعالى:

﴿القيوم﴾؛ وهذا الوصف لا يكون لمخلوق؛ لأنه ما من مخلوق إلا وهو محتاج إلى غيره: فنحن محتاجون إلى العمال، والعمال محتاجون إلينا؛ ونحن محتاجون إلى النساء، والنساء محتاجة إلينا؛ ونحن محتاجون إلى الأولاد، والأولاد يحتاجون إلينا؛ ونحن محتاجون إلى المال، والمال محتاج إلينا من جهة حفظه، وتنميته؛ والكل محتاج إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: **﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾** [فاطر: ١٥]؛ وما من أحد يكون قائماً على غيره في جميع الأحوال؛ بل في دائرة ضيقة؛ ولهذا قال الله تعالى: **﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾** [الرعد: ٣٣]؛ يعني الله؛ فلا أحد سواه قائم على كل نفس بما كسبت.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله تعالى غني عما سواه؛ وأن كل شيء مفتقر إليه تعالى؛ فإن قلت: كيف تجمع بين هذا، وبين قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم﴾** [محمد: ٧]، وقوله تعالى: **﴿ولينصرن الله من ينصره﴾** [الحج: ٤٠]؛ فأثبت أنه يُنصر؟

فالجواب: أن المراد بنصره تعالى نصر دينه.

٧ ـ **ومنها**: تضمن الآية لاسم الله الأعظم الثابت في قوله تعالى: **﴿الحي القيوم﴾**؛ وقد ذكر هذان الاسمان الكريمان في ثلاثة مواضع من القرآن: في «البقرة»؛ و«آل عمران»؛ و«طه»؛ في «البقرة»: **﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾** [البقرة: ٢٥٥]؛ وفي «آل عمران»: **﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾**؛ وفي «طه»: **﴿وعنت الوجوه للحي القيوم﴾** [طه: ١١١]؛ قال أهل العلم: وإنما كان الاسم الأعظم في اجتماع هذين الاسمين؛ لأنهما تضمنا جميع

الأسماء الحسنى؛ فصفة الكمال في ﴿الحي﴾؛ وصفة الإحسان، والسلطان في ﴿القيوم﴾.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: امتناع السِّنَة والنوم لله عز وجل؛ وذلك لكمال حياته، وقيوميته، بحيث لا يعتريهما أدنى نقص؛ لقوله تعالى: ﴿**لا تأخذه سنة ولا نوم**﴾؛ وهذه من الصفات المنفية؛ والإيمان بالصفات المنفية يتضمن شيئين؛ أحدهما: الإيمان بانتفاء الصفة المذكورة؛ والثاني: إثبات كمال ضدها؛ لأن الكمال قد يطلق باعتبار الأغلب الأكثر، وإن كان يرد عليه النقص من بعض الوجوه؛ لكن إذا نفي النقص فمعناه أن الكمال كمال مطلق لا يرد عليه نقصٌ أبداً بوجه من الوجوه؛ مثال ذلك: إذا قيل: «فلان كريم» فقد يراد به أنه كريم في الأغلب الأكثر؛ فإذا قيل: «فلان كريم لا يبخل» عُلم أن المراد كمال كرمه، بحيث لا يحصل منه بخل؛ وهنا النفي حصل بقوله تعالى: ﴿**لا تأخذه سنة ولا نوم**﴾؛ فدل على كمال حياته، وقيوميته.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات الصفات المنفية؛ لقوله تعالى: ﴿**لا تأخذه سنة ولا نوم**﴾، وقوله تعالى: ﴿**ولا يؤوده حفظهما**﴾؛ و«الصفات المنفية» ما نفاه الله عن نفسه؛ وهي متضمنة لثبوت كمال ضدها.

١٠ ـ **ومنها**: عموم ملك الله؛ لقوله تعالى: ﴿**له ما في السموات وما في الأرض**﴾.

ويتفرع على كون الملك لله ألا نتصرف في ملكه إلا بما يرضاه.

١١ ـ **ومنها**: أن الحكم الشرعي بين الناس، والفصل بينهم يجب أن يكون مستنداً على حكم الله؛ وأن اعتماد الإنسان على حكم المخلوقين، والقوانين الوضعية نوع من الإشراك بالله عز وجل؛ لأن الملك لله عز وجل.

١٢ ـ **ومنها**: تسلية الإنسان على المصائب، ورضاه بقضاء الله عز وجل، وقدره؛ لأنه متى علم أن الملك لله وحده رضي بقضائه، وسلّم؛ ولهذا كان في تعزية النبي ﷺ لابنته أنه قال: «**إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى**»(١).

١٣ ـ **ومنها**: عدم إعجاب الإنسان بما حصل بفعله؛ لأن هذا من الله؛ والملك له.

١٤ ـ **ومنها**: اختصاص الله تعالى بهذا الملك؛ يؤخذ من تقديم الخبر: ﴿**له ما في السموات**﴾؛ لأن الخبر حقه التأخير؛ فإذا قُدِّم أفاد الحصر.

١٥ ـ **ومنها**: إثبات أن السموات عدد؛ لقوله تعالى: ﴿**السموات**﴾؛ وأما كونها سبعاً، أو أقل، أو أكثر، فمن دليل آخر.

١٦ ـ **ومنها**: كمال سلطان الله لقوله تعالى: ﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه**﴾؛ وهذا غير عموم الملك؛ لكن إذا انضمت

---

(١) أخرجه البخاري ص١٠٠، كتاب الجنائز، باب ٣٢: قول النبي ﷺ: «يعذَّب الميت ببعض بكاء أهله عليه» إذا كان النوح من سنته، حديث رقم ١٢٨٤، وأخرجه مسلم ص٨٢٢، كتاب الجنائز، باب ٦: البكاء على الميت، حديث رقم ٢١٣٥ [١١] ٩٢٣.

قوة السلطان إلى عموم الملك صار ذلك أكمل، وأعلى.

١٧ ـ **ومنها**: إثبات الشفاعة بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿**إلا بإذنه**﴾؛ وإلا لما صح الاستثناء.

١٨ ـ **ومنها**: إثبات الإذن ـ وهو الأمر ـ؛ لقوله تعالى: ﴿**إلا بإذنه**﴾؛ وشروط إذن الله في الشفاعة: رضى الله عن الشافع؛ وعن المشفوع له؛ لقوله تعالى: ﴿**وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى**﴾ [النجم: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿**ولا يشفعون إلا لمن ارتضى**﴾ [الأنبياء: ٢٨].

١٩ ـ **ومنها**: إثبات علم الله، وأنه عام في الماضي، والحاضر، والمستقبل؛ لقوله تعالى: ﴿**يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم**﴾.

٢٠ ـ **ومنها**: الرد على القدرية الغلاة؛ لقوله تعالى: ﴿**يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم**﴾؛ فإثبات عموم العلم يرد عليهم؛ لأن القدرية الغلاة أنكروا علم الله بأفعال خلقه إلا إذا وقعت.

٢١ ـ **ومنها**: الرد على الخوارج والمعتزلة في إثبات الشفاعة؛ لأن الخوارج، والمعتزلة ينكرون الشفاعة في أهل الكبائر؛ لأن مذهبهما أن فاعل الكبيرة مخلد في النار لا تنفع فيه الشفاعة.

٢٢ ـ **ومنها**: أن الله عز وجل لا يحاط به علماً كما لا يحاط به سمعاً، ولا بصراً؛ قال تعالى: ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿**ولا يحيطون به علماً**﴾ [طه: ١١٠].

٢٣ ـ **ومنها**: أننا لا نعلم شيئاً عن معلوماته إلا ما أعلمنا به؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء**﴾ على أحد الوجهين في تفسيرها.

٢٤ ـ **ومنها**: تحريم تكييف صفات الله؛ لأن الله ما أعلمنا بكيفية صفاته؛ فإذا ادعينا علمه فقد قلنا على الله بلا علم.

٢٥ ـ **ومنها**: الرد على الممثلة؛ لأن ذلك قول على الله بلا علم؛ بل بما يعلم خلافه؛ لقوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ [الشورى: ١١].

٢٦ ـ **ومنها**: إثبات مشيئة الله؛ لقوله: ﴿**إلا بما شاء**﴾.

٢٧ ـ **ومنها**: عظم الكرسي؛ لقوله تعالى: ﴿**وسع كرسيه السموات والأرض**﴾.

٢٨ ـ **ومنها**: عظمة خالق الكرسي؛ لأن عظم المخلوق يدل على عظمة الخالق.

٢٩ ـ **ومنها**: كفر من أنكر السموات، والأرض؛ لأنه يستلزم تكذيب خبر الله؛ أما الأرض فلا أظن أحداً ينكرها؛ لكن السماء أنكرها من أنكرها، وقالوا: ما فوقنا فضاء لا نهاية له، ولا حدود؛ وإنما هي سدوم، ونجوم، وما أشبه ذلك؛ وهذا لا شك أنه كفر بالله العظيم سواء اعتقده الإنسان بنفسه، ووهمه؛ أو صدَّق من قال به ممن يعظمهم إذا كان عالماً بما دل عليه الكتاب والسنّة.

٣٠ ـ **ومنها**: إثبات قوة الله؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا يؤوده حفظهما**﴾.

٣١ ـ **ومنها**: أنه سبحانه وتعالى لا يثقل عليه حفظ

السموات، والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا يؤوده حفظهما**﴾؛ وهذه من الصفات المنفية؛ فهي كقوله تعالى: ﴿**وما مسنا من لغوب**﴾ [قَ: ٣٨].

٣٢ ـ **ومنها**: إثبات ما تتضمنه هذه الجملة: ﴿**ولا يؤوده حفظهما**﴾؛ وهي العلم، والقدرة، والحياة، والرحمة، والحكمة، والقوة.

٣٣ ـ **ومنها**: أن السموات، والأرض تحتاج إلى حفظ؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا يؤوده حفظهما**﴾؛ ولولا حفظ الله لفسدتا؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً**﴾ [فاطر: ٤١].

٣٤ ـ **ومنها**: إثبات علو الله سبحانه وتعالى أزلاً، وأبداً؛ لقوله تعالى: ﴿**وهو العلي**﴾؛ و﴿**العلي**﴾ صفة مشبهة تدل على الثبوت، والاستمرار؛ وعلوّ الله عند أهل السنة، والجماعة ينقسم إلى قسمين؛ **الأول: علو الذات**؛ بمعنى أنه سبحانه نفسه فوق كل شيء؛ وقد دل على ذلك الكتاب، والسنة، وإجماع السلف، والعقل، والفطرة؛ وتفصيل هذه الأدلة في كتب العقائد؛ وخالفهم في ذلك طائفتان؛ الأولى: من قالوا: إنه نفسه في كل مكان في السماء، والأرض؛ وهؤلاء حلولية الجهمية، ومن وافقهم؛ وقولهم باطل بالكتاب، والسنّة، وإجماع السلف، والعقل، والفطرة؛ الطائفة الثانية: قالوا: إنه لا يوصف بعلوّ، ولا غيره؛ فهو ليس فوق العالم، ولا تحته، ولا عن يمين، ولا عن شمال، ولا متصل، ولا منفصل؛ وهذا قول يكفي تصوره في رده؛ لأنه يَؤول إلى القول بالعدم المحض؛ إذ ما من موجود إلا وهو فوق،

أو تحت، أو عن يمين، أو شمال، أو متصل، أو منفصل؛ فالحمد لله الذي هدانا للحق؛ ونسأل الله أن يثبتنا عليه؛ **والقسم الثاني: علو الصفة**: وهو أنه كامل الصفات من كل وجه لا يساميه أحد في ذلك؛ وهذا متفق عليه بين فرق الأمة، وإن اختلفوا في تفسير الكمال.

٣٥ ـ **ومن فوائد الآية**: الرد على الحلولية، وعلى المعطلة النفاة؛ فالحلولية قالوا: إنه ليس بعالٍ؛ بل هو في كل مكان؛ والمعطلة النفاة قالوا: لا يوصف بعلو، ولا سفل، ولا يمين، ولا شمال، ولا اتصال، ولا انفصال.

٣٦ ـ **ومنها**: التحذير من الطغيان على الغير؛ لقوله تعالى: ﴿**وهو العلي العظيم**﴾؛ ولهذا قال الله في سورة النساء: ﴿**فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً**﴾ [النساء: ٣٤]؛ فإذا كنت متعالياً في نفسك فاذكر علو الله عز وجل؛ وإذا كنت عظيماً في نفسك فاذكر عظمة الله؛ وإذا كنت كبيراً في نفسك فاذكر كبرياء الله.

٣٧ ـ **ومنها**: إثبات العظمة لله؛ لقوله تعالى: ﴿**العظيم**﴾.

٣٨ ـ **ومنها**: إثبات صفة كمال حصلت باجتماع الوصفين؛ وهما العلوّ، والعظمة.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾.

التفسير:

﴿٢٥٦﴾ قوله تعالى: ﴿**لا إكراه في الدين**﴾؛ هذه الجملة نفي؛ لكن هل هي بمعنى النهي؛ أي لا تكرهوا أحداً على الدين؛ أو بمعنى النفي؛ أي أنه لن يدخل أحد دين الإسلام مكرَهاً؛ بل عن اختيار؛ لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿**قد تبين الرشد من الغي**﴾؟ الجواب: تحتمل وجهين؛ و«**الإكراه**» الإرغام على الشيء.

وقوله تعالى: ﴿**في الدين**﴾؛ «الدين» يطلق على العمل؛ ويطلق على الجزاء؛ أما إطلاقه على العمل ففي مثل قوله تعالى: ﴿**ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ [المائدة: ٣]، وقوله تعالى: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ [آل عمران: ١٩]؛ وأمّا إطلاقه على الجزاء فمثل قوله تعالى: ﴿**وما أدراك ما يوم الدين * ثم ما أدراك ما يوم الدين**﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨] أي يوم الجزاء؛ وقد قيل: «كما تدين تدان»؛ أي كما تعمل تجازى؛ والمراد بـ«**الدين**» هنا العمل؛ والمراد به دين الإسلام بلا شك؛ فـ«**أل**» هنا للعهد الذهني؛ يعني الدين المفهوم عندكم أيها المؤمنون؛ وهو دين الإسلام.

قوله تعالى: ﴿**قد تبين الرشد من الغي**﴾؛ ﴿**تبين**﴾ هنا ضمنت معنى «تميَّز»؛ وكلما جاءت «**مِن**» بعد «**تبين**» فإنها مضمنة معنى التميز؛ أي تميز هذا من هذا.

وقوله تعالى: ﴿**الرشد من الغي**﴾: هناك رشد، وغيّ؛ وهدى، وضلال؛ فـ«**الرشد**» معناه حسن المسلك، وحسن التصرف: بأن يتصرف الإنسان تصرفاً يحمد عليه؛ وذلك بأن يسلك الطريق الذي به النجاة؛ ويقابل بـ«**الغي**» كما هنا؛ والمراد

بـ﴿الرشد﴾ هنا الإسلام؛ وأما «الغي» فهو سوء المسلك: بأن يسلك الإنسان ما لا يحمد عليه لا في الدنيا، ولا في الآخرة؛ والمراد به هنا الكفر.

وتَبَيُّن الرشد من الغي بعدة طرق:

أولاً: بالكتاب؛ فإن الله سبحانه وتعالى فرَّق في هذا الكتاب العظيم بين الحق، والباطل؛ والصلاح، والفساد؛ والرشد، والغي، كما قال تعالى: **﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾** [النحل: ٨٩]؛ فهذا من أقوى طرق البيان.

ثانياً: بسنة النبي ﷺ؛ فإنها بينت القرآن، ووضحته؛ ففسرت ألفاظه التي تشكل، ولا تعرف إلا بنص؛ وكذلك وضحت مجملاته، ومبهماته؛ وكذلك بينت ما فيه من تكميلات يكون القرآن أشار إليها، وتكملها السنة، كما قال تعالى: **﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾** [النحل: ٤٤].

الطريق الثالث: هدي النبي ﷺ، وسلوكه في عبادته، ومعاملته، ودعوته؛ فإنه بهذه الطريقة العظيمة تبين للكفار، وغير الكفار حسن الإسلام؛ وتبين الرشد من الغيّ.

الطريق الرابع: سلوك الخلفاء الراشدين؛ وفي مقدمتهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ؛ فإن بطريقتهم بان الإسلام، واتضح؛ وكذلك من كان في عصرهم من الصحابة على سبيل الجملة لا التفصيل؛ فإنه قد تبين بسلوكهم الرشد من الغي.

هذه الطرق الأربع تبين فيها الرشد من الغي؛ فمن دخل في

الدين في ذلك الوقت فقد دخل من هذا الباب؛ ولم يصب من قال: إن الدين انتشر بالسيف، والرمح.

قوله تعالى: ﴿**فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى**﴾؛ «الكفر» في اللغة مأخوذ من الستر؛ ومنه سمي «الكُفُرَّى» لوعاء طلع النخل؛ لأن الإنسان الكافر ستر نعمة الله عليه، وستر ما تقتضيه الفطرة من توحيد الله عز وجل؛ ﴿**فمن يكفر بالطاغوت**﴾ أي من ينكره، ويتبرأ منه؛ و«**الطاغوت**» فسره ابن القيم بأنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع؛ مشتق من «الطغيان»؛ وهو تجاوز الحد: قال تعالى: ﴿**إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية**﴾ [الحاقة: ١١]؛ لأن الماء الذي أغرق الله به الكفار بنوح تجاوز الحد حتى وصل إلى ما فوق قمم الجبال؛ **فالمعبود** كالأصنام طاغوت؛ لأن الإنسان تجاوز بها حده في العبادة؛ **والمتبوع** كالأحبار، والرهبان الضالين طاغوت؛ لأن الإنسان تجاوز بهم الحد في تحليل ما حرم الله عز وجل، أو تحريم ما أحل الله عز وجل؛ **والمطاع** كالأمراء ذوي الجور والضلال الذين يأمرون بسلطتهم التنفيذية ـ لا التشريعية ـ طاغوت؛ إذاً ﴿**فمن يكفر بالطاغوت**﴾ من كفر بالأصنام؛ ومن كفر بأحبار، ورهبان السوء؛ ومن كفر بأمراء السوء الذين يأمرون بمعصية الله، ويلزمون بخلاف شرع الله عز وجل.

ولا يكفي الكفر بالطاغوت؛ لأن الكفر تخلٍّ، وعدم؛ ولا بد من إيجاد؛ الإيجاد: قوله تعالى: ﴿**ويؤمن بالله**﴾ بالجزم عطفاً على ﴿**يكفر**﴾؛ والإيمان بالله متضمن أربعة أمور: الإيمان بوجوده؛ والإيمان بربوبيته؛ والإيمان بألوهيته؛ والإيمان بأسمائه، وصفاته

إيماناً يستلزم القبول، والإذعان ـ القبول للخبر، والإذعان للطلب سواء كان أمراً، أو نهياً؛ فصار الإيمان بالله مركباً من أربعة أمور مستلزمة لأمرين؛ ثم اعلم أن معنى قولنا: الإيمان بوجود الله، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته المراد الإيمان بانفراده بهذه الأشياء: بالألوهية؛ والربوبية؛ والأسماء، والصفات؛ وبالوجود الواجب ـ فهو سبحانه وتعالى منفرد بهذا بأنه واجب الوجود.

قوله تعالى: ﴿**فقد استمسك بالعروة الوثقى**﴾ جواب ﴿**من**﴾ الشرطية؛ ﴿**استمسك**﴾ أي تمسك تمسكاً بالغاً ﴿**بالعروة الوثقى**﴾ أي المقبض القوي الذي ينجو به؛ والمراد به هنا الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله؛ لأن به النجاة من النار.

قوله تعالى: ﴿**لا انفصام لها**﴾ أي لا انقطاع، ولا انفكاك لها؛ لأنها محكمة قوية.

قوله تعالى: ﴿**والله سميع عليم**﴾: سبق الكلام عليها مفصلاً.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أنه لا يكره أحد على الدين لوضوح الرشد من الغي؛ لقوله تعالى: ﴿**لا إكراه في الدين**﴾؛ هذا على القول بأنها خبرية؛ أما على القول بأنها إنشائية فإنه يستفاد منها أنه لا يجوز أن يكره أحد على الدين؛ وبينت السنة كيف نعامل الكفار؛ وذلك بأن ندعوهم إلى الإسلام؛ فإن أبوا فإلى بذل الجزية؛ فإن أبوا قاتلناهم.

٢ ـ **ومنها**: أنه ليس هناك إلا رشد، أو غي؛ لأنه لو كان هناك ثالث لذُكر؛ لأن المقام مقام حصر؛ ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿**فماذا بعد الحق إلا الضلال**﴾ [يونس: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿**وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين**﴾ [سبأ: ٢٤].

٣ ـ **ومنها**: أنه لا يتم الإخلاص لله إلا بنفي جميع الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله**﴾؛ فمن آمن بالله، ولم يكفر بالطاغوت فليس بمؤمن.

٤ ـ **ومنها**: أن كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله**﴾؛ وجه هذا أنه سبحانه وتعالى جعل الكفر بالطاغوت قسيماً للإيمان بالله؛ وقسيم الشيء غير الشيء؛ بل هو منفصل عنه.

٥ ـ **ومنها**: أنه لا نجاة إلا بالكفر بالطاغوت، والإيمان بالله؛ لقوله تعالى: ﴿**فقد استمسك بالعروة الوثقى**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن الأعمال تتفاضل؛ يؤخذ ذلك من اسم التفضيل: ﴿**الوثقى**﴾؛ لأن التفضيل يقتضي مفضلاً، ومفضلاً عليه؛ ولا شك أن الأعمال تتفاضل بنص القرآن، والسنة؛ قال تعالى: ﴿**ليبلوكم أيكم أحسن عملا**﴾؛ [الملك: ٢] و﴿**أحسن**﴾ اسم تفضيل؛ وهذا دليل على أن الأعمال تتفاضل بالحُسن؛ وسئل النبي ﷺ: «**أي العمل أحب إلى الله قال: الصلاة على وقتها**»[(١)] وقال سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: «**ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه**»[(٢)]؛ ويلزم من تفاضل الأعمال تفاضل العامل: كلما كان العمل أفضل كان العامل أفضل؛

---

(١) أخرجه البخاري ص٤٤، كتاب مواقيت الصلاة، باب ٥: فضل الصلاة لوقتها، حديث رقم ٥٢٧، وأخرجه مسلم ص٦٩٣، كتاب الإيمان، باب ٣٦: بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، حديث رقم ٢٥٣ [١٣٨] ٨٥.

(٢) أخرجه البخاري ص٥٤٥ ـ ٥٤٦، كتاب الرقاق، باب ٣٨: التواضع، حديث رقم ٦٥٠٢.

وتفاضل الأعمال يكون بعدة أمور: بحسب العامل؛ بحسب العمل جنسه، أو نوعه؛ بحسب الزمان؛ بحسب المكان؛ بحسب الكيفية، والمتابعة؛ بحسب الإخلاص لله؛ بحسب الحال.

مثاله **بحسب العامل**: قول النبي ﷺ: «**لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم، ولا نصيفه**»[(١)].

ومثاله **بحسب العمل: جنسه، ونوعه**؛ فالصلاة مثلاً أفضل من الزكاة؛ والزكاة أفضل من الصيام؛ هذا باعتبار الجنس؛ ومثاله **باعتبار النوع**: الفريضة من كل جنس أفضل من النافلة؛ فصلاة الفجر مثلاً أفضل من راتبة الفجر.

ومثاله **بحسب الزمان**: قوله ﷺ: «**ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر**»[(٢)]، وقوله ﷺ: «**من صام يوماً في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً**»[(٣)].

ومثاله **بحسب المكان** قوله ﷺ: «**صلاة في مسجدي هذا خير**

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٩٩، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب ، حديث رقم ٣٦٧٣، وأخرجه مسلم ص١١٢٣، كتاب فضائل الصحابة، باب ٥٤، تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم، حديث رقم ٦٤٨٧ [٢٢١] ٢٥٤٠.

(٢) أخرجه البخاري ص٩٦٩، كتاب العيدين، باب ١١، فضل العمل في أيام التشريق، حديث رقم ٩٦٩؛ وأخرجه الترمذي ص١٧٢٢، كتاب الصوم، باب ٥٢: ما جاء في العمل في أيام العشر، حديث رقم ٧٥٧؛ واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري ص٢٢٩، كتاب الجهاد، باب ٣٦: فضل الصوم في سبيل الله، حديث رقم ٢٨٤٠، وأخرجه مسلم ص٨٦٢، كتاب الصيام، باب ٣١: فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه...، حديث رقم ٢٧١٣ [١٦٨] ١١٥٣.

من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»[(١)].

ومثاله **بحسب الكيفية**؛ بمعنى أن كيفية العبادة تكون أفضل من كيفية أخرى، كالخشوع في الصلاة قال تعالى: ﴿**قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

مثاله **بحسب المتابعة**: قال تعالى: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾ [آل عمران: ٣١]؛ فكلما كان الإنسان للرسول أتبع كان عمله أفضل؛ لأن القاعدة أن الحكم المعلَّق بوصف يقوى بحسب ذلك الوصف.

ومثاله **بحسب الإخلاص** أنه كلما كان العامل أشد إخلاصاً لله كان أكمل ممن خالط عمله شيء من الشرك؛ ومثاله **بحسب الحال**: العبادة بين أهل الغفلة، والإعراض أفضل من العبادة بين أهل الطاعة، والإقبال؛ ولهذا كان العامل في أيام الصبر له أجر خمسين من الصحابة لكثرة الإعراض عن الله عز وجل، وعن دينه؛ فلا يجد أحداً يساعده، ويعينه؛ بل ربما لا يجد إلا من يتهكم به، ويسخر به؛ ومن تفاضلها باعتبار الحال أن العفة من الشاب أفضل من العفة من الشيخ؛ لأن شهوة الشاب أقوى من شهوة الشيخ؛ فالداعي إلى عدم العفة في حقه أقوى من الداعي بالنسبة للشيخ؛ ولهذا كانت عقوبة الشيخ الزاني أشد من عقوبة الشاب؛ لقوله ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم أشيمط زان وعائل مستكبر ورجل جعل الله بضاعة**

---

(١) أخرجه البخاري ص٩٢، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة، باب ١: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، حديث رقم ١١٩٠، وأخرجه مسلم ص٩٠٨، كتاب الحج، باب ٩٤: فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة، حديث رقم ٣٣٧٤ [٥٠٥] ١٣٩٤.

لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه»[(١)].

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات اسمين من أسماء الله ـ هما «**السميع العليم**»، وما تضمناه من صفة.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٥٧﴾ قوله تعالى: ﴿**الله ولي الذين آمنوا**﴾ أي متوليهم؛ والمراد بذلك الولاية الخاصة؛ ومن ثمراتها قوله تعالى: ﴿**يخرجهم من الظلمات إلى النور**﴾؛ وأفرد ﴿**النور**﴾؛ لأنه طريق واحد؛ وجمع ﴿**الظلمات**﴾ باعتبار أنواعها؛ لأنها إما ظلمة جهل؛ وإما ظلمة كفر؛ وإما ظلمة فسق؛ أما **ظلمة الجهل** فظاهرة: فإن الجاهل بمنزلة الأعمى حيران لا يدري أين يذهب كما قال تعالى: ﴿**أَوَمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس**﴾ [الأنعام: ١٢٢] وهذا صاحب العلم؛ ﴿**كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها**﴾ [الأنعام: ١٢٢]: وهذا صاحب الجهل؛ وأما **ظلمة الكفر** فلأن الإيمان نور يهتدي به الإنسان، ويستنير به قلبه، ووجهه؛ فيكون ضده ـ وهو

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ٢/ ٢١؛ وقال المنذري في الترغيب والترهيب رواته محتج بهم في الصحيح ٢/ ٥٨٧، ترغيب التجار في الصدق وترهيبهم من الكذب والحلف وإن كانوا صادقين، حديث رقم ٩.

الكفر ـ على العكس من ذلك؛ **أما ظلمة الفسق** فهي ظلمة جزئية تكبر، وتصغر بحسب ما معه من المعاصي؛ ودليل ذلك أن النبي ﷺ أخبر **أن العبد إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء**[1] ـ والسواد ظلمة، وتزول هذه النكتة بالتوبة، وتزيد بالإصرار على الذنب؛ فالظلمات ثلاث: ظلمة الجهل، والكفر، والمعاصي؛ يقابلها نور العلم، ونور الإيمان، ونور الاستقامة.

قوله تعالى: ﴿**والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت**﴾؛ إذا تأملت هذه الجملة، والتي قبلها تجد فرقاً بين التعبيرين في الترتيب: ففي الجملة الأولى قال تعالى: ﴿**الله ولي الذين آمنوا**﴾ لأمور ثلاثة؛ **أحدها**: أن هذا الاسم الكريم إذا ورد على القلب أولاً استبشر به؛ **ثانياً**: التبرك بتقديم ذكر اسم الله عز وجل؛ **ثالثاً**: إظهار المنة على هؤلاء بأن الله هو الذي امتن عليهم أولاً، فأخرجهم من الظلمات إلى النور؛ أما الجملة الثانية: ﴿**والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت**﴾؛ ولو كانت الجملة على سياق الأولى لقال: «والطاغوت أولياء الذين كفروا»؛ ومن الحكمة في ذلك: **أولاً**: ألّا يكون الطاغوت في مقابلة اسم الله؛ **ثانياً**: أن الطاغوت أهون، وأحقر من أن يُبدأ به، ويُقدّم؛ **ثالثاً**: أن البداءة بقوله تعالى: ﴿**الذين كفروا**﴾ أسرع إلى ذمهم مما لو تأخر ذكره.

وقوله تعالى: ﴿**والذين كفروا**﴾ أي كفروا بكل ما يجب الإيمان به سواءً كان كفرهم بالله، أو برسوله، أو بملائكته، أو باليوم الآخر، أو بالقدر، أو غيرها مما يجب الإيمان به.

---

(١) أخرجه مسلم ص٧٠٢، كتاب الإيمان، باب ٦٤: رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب...، حديث رقم ٣٦٩ [٢٣١] ١٤٤.

وقوله تعالى: ﴿أولياؤهم﴾ جمع «وليّ»؛ وجمعت لكثرة أنواع الشرك، والكفر؛ بخلاف سبيل الحق؛ فإنها واحدة؛ وهذه كقوله تعالى: **﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾** [الأنعام: ١٥٣].

قوله تعالى: ﴿يخرجونهم﴾: أتى بضمير الجمع؛ لأن المراد بالطاغوت اسم الجنس؛ فيعم جميع أنواعه.

وقوله تعالى: **﴿يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾**: استُشكل؛ لأن ظاهره: الذين آمنوا أولاً، فدخلوا في النور، ثم كفروا، فخرجوا منه؛ مع أنه يشمل الكافر الأصلي؛ فالجواب: إما أن يراد بهذا من كانوا على الإيمان أولاً، ثم أُخرجوا كما هو ظاهر اللفظ؛ أو يقال: هذا باعتبار الفطرة؛ فإن كل مولود يولد على الفطرة؛ فكانوا على الفطرة السليمة، والإيمان، ثم أخرجوهم، كقوله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**»[(١)]؛ و﴿من النور إلى الظلمات﴾ سبق الكلام عليها[(٢)].

قوله تعالى: **﴿أولئك أصحاب النار هم فيها﴾**؛ المشار إليه الذين كفروا، ودعاتهم؛ و﴿أصحاب﴾ جمع صحب؛ و«الصاحب» هو الملازم لغيره؛ فلا يسمى صاحباً إلا الملازم إلا صاحباً واحداً ـ وهم أصحاب النبي ﷺ؛ فإن صحبة النبي ﷺ تطلق على من اجتمع به ـ ولو لحظة، ومات على ذلك؛ وهذا من خصائص

---

(١) أخرجه البخاري ص١٠٨، كتاب الجنائز، باب ٩٢: ما قيل في أولاد المشركين، حديث رقم ١٣٨٥، وأخرجه مسلم ص١١٤١، كتاب القدر، باب ٦: معنى كل مولود يولد على الفطرة...، حديث رقم ٦٧٥٥ [٢٢] ٢٦٥٨.

(٢) انظر ٣/ ٢٧١.

النبي ﷺ؛ فأصحاب النار هم أهلها الملازمون لها؛ وقُدم الجار والمجرور لإفادة الحصر، ولمراعاة الفواصل.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: فضيلة الإيمان، وأنه تحصل به ولاية الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**الله ولي الذين آمنوا**﴾.

٢ ـ **ومنها**: إثبات الولاية لله عز وجل؛ أي أنه سبحانه وتعالى يتولى عباده؛ وولايته نوعان؛ **الأول**: **الولاية العامة**؛ بمعنى أن يتولى شؤون عباده؛ وهذه لا تختص بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون**﴾ [يونس: ٣٠] يعني الكافرين؛ **والنوع الثاني**: **ولاية خاصة بالمؤمنين**، كقوله تعالى: ﴿**ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم**﴾ [محمد: ١١]، وكما في قوله تعالى: ﴿**الله ولي الذين آمنوا**﴾؛ ومقتضى النوع الأول أن لله تعالى كمال السلطان، والتدبير في جميع خلقه؛ ومقتضى النوع الثاني: الرأفة، والرحمة، والتوفيق.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن من ثمرات الإيمان هداية الله للمؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿**يخرجهم من الظلمات إلى النور**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن الكافرين أولياؤهم الطواغيت سواء كانوا متبوعين، أو معبودين، أو مطاعين.

٥ ـ **ومنها**: براءة الله عز وجل من الذين كفروا؛ يؤخذ من المنطوق، والمفهوم؛ فالمفهوم في قوله تعالى: ﴿**الله ولي الذين آمنوا**﴾ فمفهومه: لا الذين كفروا؛ المنطوق من قوله تعالى: ﴿**والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت**﴾؛ وهذا مقابل لقوله تعالى: ﴿**الله ولي الذين آمنوا**﴾.

٦ ـ **ومنها**: سوء ثمرات الكفر، وأنه يهدي إلى الضلال ـ والعياذ بالله؛ لقوله تعالى: ﴿**يخرجونهم من النور إلى الظلمات**﴾؛ وهذا الإخراج يشمل ما كان إخراجاً بعد الوقوع في الظلمات، وما كان صدًّا عن النور؛ وعلى الثاني يكون المراد بإخراجهم من الظلمات: استمرارهم على الظلمات.

٧ ـ **ومنها**: أن الكفر مقابل الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿**ولي الذين آمنوا والذين كفروا...**﴾ إلخ؛ ولكن هل معنى ذلك أنه لا يجتمع معه؟ الجواب أنه قد يجتمع معه على القول الراجح الذي هو مذهب أهل السنة، والجماعة؛ لقول النبي ﷺ: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»[1]؛ وهذا الكفر لا يرفع الإيمان لقول الله تعالى: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما...**﴾ [الحجرات: ٩] إلى قوله تعالى: ﴿**إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم**﴾ [الحجرات: ١٠]؛ فأثبت الأخوة الإيمانية مع الاقتتال الذي قال عنه النبي ﷺ: **إنه كفر**؛ وانظر إلى الإنسان يكون فيه كذب ـ وهو من خصال المنافقين؛ ويكون فيه حسد ـ وهو من خصال اليهود؛ ويكون فيه صدق ـ وهو من خصال المؤمنين؛ ويكون فيه إيثار ـ وهو من صفات المؤمنين أيضاً؛ لكن الكفر المطلق ـ وهو الذي يخرج من الإسلام ـ لا يمكن أن يجامع الإيمان.

---

(١) أخرجه البخاري ص٦، كتاب الإيمان، باب ٣٦: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، حديث رقم ٤٨، وأخرجه مسلم ص٦٩١، كتاب الإيمان، باب ٢٨: بيان قول النبي ﷺ: (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)، حديث رقم ٢٢١ [١١٦] ٦٤.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات النار؛ لقوله تعالى: ﴿**أولئك أصحاب النار**﴾؛ والنار موجودة الآن؛ لقوله تعالى: ﴿**واتقوا النار التي أعدت للكافرين**﴾ [آل عمران: ١٣١]؛ فقال تعالى: ﴿**أعدت**﴾ بلفظ الماضي؛ والإعداد هو التهيئة؛ وثبت عن النبي ﷺ في غير حديث أنه رآها: ففي صلاة الكسوف عرضت عليه النار، ورأى فيها عمرو بن لُحيّ يجر قصبه في النار[(١)]؛ ورأى المرأة التي تعذب في هرة؛ ورأى صاحب المحجن يعذب[(٢)]؛ المهم أن النار موجودة أبدية؛ وليست أزلية؛ لأنها مخلوقة بعد أن لم تكن؛ ولكنها أبدية لا تفنى: قال تعالى: ﴿**والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور**﴾ [فاطر: ٣٦]؛ وذكر تأبيد أهلها في ثلاثة مواضع من القرآن؛ وبهذا يعرف بطلان قول من يقول: «إنها تفنى»؛ وأنه قول باطل مخالف للأدلة الشرعية.

٩ ـ **ومنها**: أن الكافرين مخلدون في النار؛ لقوله تعالى: ﴿**أولئك أصحاب النار**﴾؛ والصاحب للشيء: الملازم له.

١٠ ـ **ومنها**: أن الخلود خاص بالكافرين؛ وأن من يدخل النار من المؤمنين لا يخلّد؛ لقوله تعالى: ﴿**هم فيها خالدون**﴾؛ يعني: دون غيرهم.

❁ ❁ ❁

---

(١) راجع البخاري ص٢٨٧، كتاب المناقب، باب ٩: قصة خزاعة، حديث رقم ٣٥٢١؛ ومسلماً ص١١٧٣، كتاب الجنة، باب ١٣: النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، حديث رقم ٧١٩٢ [٥٠] ٣٨٥٦.

(٢) راجع مسلماً ص٨٢٠، كتاب الكسوف، باب ٣: ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، حديث رقم ٢١٠٢ [١٠] ٩٠٤.

القرآن

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٥٨﴾ قوله تعالى: ﴿**ألم تر**﴾ الهمزة للاستفهام؛ والمراد به هنا التقرير، والتعجيب؛ «التقرير» يعني تقرير هذا الأمر، وأنه حاصل؛ و«التعجيب» معناه: دعوة المخاطَب إلى التعجب من هذا الأمر العجيب الغريب الذي فيه المحاجة لله عز وجل؛ ﴿**تر**﴾ أي تنظر نظر قلب؛ لأنه لم يدرك زمنه حتى يراه بعينه؛ والخطاب في قوله تعالى: ﴿**ألم تر**﴾ إما للنبي ﷺ؛ وإما لكل من يتأتى خطابه ممن نزل عليهم القرآن؛ وهذا أعم؛ وقد ذكرنا قبل ذلك أن ما جاء بلفظ الخطاب في القرآن فله ثلاث حالات؛ إما أن يدل الدليل على أنه للرسول ﷺ، وللأمة؛ أو يدل الدليل على أنه خاص بالرسول ﷺ؛ أو لا يكون هذا، ولا هذا: والحكم فيه أنه عام للرسول ﷺ، ولغيره؛ ولكن هل هذا الخطاب المعين يراد به الأمة، وخوطب إمامها لأنهم تبع له؛ أو يراد به النبي ﷺ، وغيره يفعله على سبيل الأسوة؟ قولان لأهل العلم؛ ومؤادهما واحد؛ فمن أمثلة ما دل الدليل على أنه خاص بالرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿**ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك**﴾ [الشرح: ١، ٢]؛ ومن الأمثلة التي دل الدليل على أنه للرسول، ولغيره قوله تعالى: ﴿**يا أيها النبي إذا طلقتم النساء**﴾ [الطلاق: ١]؛ فوجه الخطاب إلى

النبي ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿**إذا طلقتم**﴾ وهو عام؛ فدل على أن المراد به العموم؛ ومما يحتمل، مثل قوله تعالى: ﴿**ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك**﴾ [الزمر: ٦٥]؛ فهذا يحتمل أنه للرسول ﷺ وحده؛ ولكن أمته تبع له؛ وهو ظاهر اللفظ ـ وإن كان هذا الشرك لا يقع منه؛ لأن «إنْ» قد يراد بها فرض الشيء دون وقوعه ـ وهنا ﴿**ألم تر**﴾ يحتمل الأمرين؛ يعني: ألم تنظر يا محمد، أو: ألم تنظر أيها المخاطب.

قوله تعالى: ﴿**إلى الذي حاج إبراهيم في ربه**﴾؛ ذكر «إبراهيم» في الآية ثلاث مرات؛ وفيها قراءتان: ﴿**إبراهيم**﴾، و﴿**إبراهام**﴾؛ وهما سبعيتان؛ و﴿**حاج**﴾: هذه صيغة مفاعلة؛ وصيغة المفاعلة لا تكون غالباً إلا بين اثنين، كـ«قاتل»، و«ناظر»، و«دافع» ـ أقول: غالباً؛ لئلا يرد علينا مثل: «سافر»؛ فإنها من واحد؛ ومعنى «**حاجه**» أي ناظره، وأدلى كل واحد بحجته؛ و«الحجة» هي الدليل، والبرهان؛ و﴿**في ربه**﴾ أي في وجوده، وفي ألوهيته؛ فإبراهيم يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ وهذا ينكر الله رأساً ـ كما أنكره من بعده فرعون ـ وقال: أين الدليل على وجود ربك؟

قوله تعالى: ﴿**أن آتاه الله الملك**﴾: ﴿**أن**﴾ مصدرية دخلت على الفعل الماضي؛ وإذا دخلت على الفعل الماضي لا تنصبه؛ لكنها لا تمنع أن يسبك بمصدر؛ والتقدير هنا: أنه حاج إبراهيم لكونه أُعطي مُلكاً؛ و«**أل**» في قوله تعالى: ﴿**الملك**﴾ الظاهر أنها لاستغراق الكمال ـ أي ملكاً تاماً لا ينازعه أحد في مملكته؛ لأن الله لم يعطه ملك السموات، والأرض؛ بل ولا ملك جميع الأرض؛ وبهذا نعرف أن فيما ذُكر عن بعض التابعين من أنه ملك

الأرض أربعة ـ اثنان مؤمنان؛ واثنان كافران ـ نظراً؛ ولم يُمَلِّك الله جميع الأرض لأيّ واحد من البشر؛ ولكن يُمَلِّك بعضاً لبعض؛ والله عز وجل يقول: ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض**﴾ [البقرة: ٢٥١]؛ أما أن يَملِك واحد من البشر جميع الأرض فهذا مستحيل في سنة الله عز وجل فيما نعلم.

فهذا رجل ملك ـ ولا يعنينا أن نعرف اسمه: أهو «نُمروذ بن كنعان»، أم غيره؛ المهم هو القصة ـ لما آتاه الله ملكاً دام مدة طويلة، وملك أراضي واسعة ملكاً تاماً لا ينازعه أحد ـ وكما قال تعالى: ﴿**إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام...**﴾ [يونس: ٢٤] الآية ـ استطال والعياذ بالله، واستكبر، وعلا، وأنكر وجود العلي الأعلى، فكان يحاج إبراهيم لطغيانه بأن آتاه الله الملك؛ وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى**﴾ [العلق: ٦، ٧]؛ إذا رأى الإنسان نفسه استغنى فقد يطغى، ويزيد عتوه، وعناده.

قوله تعالى: ﴿**إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت**﴾: هذا بيان المحاجة؛ وهذه لا شك ـ كما يُعلم من سياق اللفظ ـ أنها جواب لسؤال؛ كأنه قال: ما ربك؟ أو: من هو؟ أو: ما شأنه؟ أو: ما فعله؟ فقال: ﴿**ربي الذي يحيي ويميت**﴾ كما قال فرعون لموسى: ﴿**وما رب العالمين * قال رب السموات والأرض...**﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤]، ومعنى «**الرب**» الخالق المالك المدبر؛ وهذه الأوصاف لا تثبت على الكمال، والشمول إلا لله عز وجل؛ و﴿**يحيي ويميت**﴾ أي يجعل الجماد حياً؛ ويميت ما كان حياً، فبينما نرى الإنسان ليس شيئاً مذكوراً إذا به يكون شيئاً

مذكوراً، كما قال تعالى: ﴿**هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً**﴾ [الإنسان: ١]؛ ثم يبقى في الأرض؛ ثم يُعدَم ويَفنى، فإذا هو خبر من الأخبار:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامرُ
بينا يرى الإنسان فيها مخبراً حتى يرى خبراً من الأخبار

قال إبراهيم هذا الكلام؛ كأنه يقول له: هو الذي يوجِد، ويعدِم؛ ثم أتى بمثال ـ وهو الإحياء والإماتة التي لا يقدر عليها أحد؛ لكن هذا المعاند المكابر قال: ﴿**أنا أحيي وأميت**﴾؛ قالها إما تلبيساً؛ وإما مكابرة؛ إما تلبيساً كما قاله أكثر المفسرين؛ وقالوا: إنه أتى باثنين، فقتل أحدهما، وأبقى الآخر، فقال: «أمتّ الأول، وأحييت الثاني»؛ هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين؛ وعلى هذا فيكون قوله: ﴿**أنا أحيي وأميت**﴾ تلبيساً؛ والحقيقة أنه ما أحيا، ولا أمات هنا؛ وإنما فعل ما يكون به الموت في دعوى الإماتة؛ واستبقى ما كان حياً في دعواه الإحياء؛ فلم يوجِد حياة من عنده؛ وقال بعضهم: بل قال ذلك مكابرة؛ يعني: هو يعلم أنه لا يحيي، ولا يميت؛ كأنه يقول لإبراهيم: إذا كان ربك يحيي ويميت فأنا أحيي، وأميت؛ ثم إن إبراهيم عليه السلام انتقل إلى أمر لا يمكن الجدال فيه، فقال: ﴿**إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب**﴾.

قوله تعالى؛ ﴿**فبهت الذي كفر**﴾ أي تحير، واندهش، ولم يحرِ جواباً؛ فغلب إبراهيم الذي كفر؛ لأن وقوف الخصم في المناظرة عجز.

قوله تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يوفقهم للهداية.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: بلاغة القرآن الكريم في عرض الأمور العجيبة معرض التقرير، والاستفهام؛ لأن «التقرير» يحمل المخاطَب على الإقرار؛ و«الاستفهام» يثير اهتمام الإنسان؛ فجمع بين الاستفهام، والتقرير.

٢ ـ **ومنها**: بيان كيف تصل الحال بالإنسان إلى هذا المبلغ الذي بلغه هذا الطاغية؛ وهو إنكار الحق لمن هو مختص به، وادعاؤه المشاركة؛ لقوله: ﴿أنا أحيي وأميت﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن المحاجة لإبطال الباطل، ولإحقاق الحق من مقامات الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾.

٤ ـ **ومنها**: الإشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم طرق المناظرة، والمحاجة؛ لأنها سُلَّم، ووسيلة لإحقاق الحق، وإبطال الباطل؛ ومن طالع كتب شيخ الإسلام ونحوها تعلَّم المناظرة ـ ولو لم يدرسها فناً.

٥ ـ **ومنها**: أن النعم قد تكون سبباً للطغيان؛ لأن هذا الرجل ما طغى وأنكر الخالق إلا لأن الله آتاه الملك؛ ولهذا أحياناً تكون الأمراض نعمة من الله على العبد؛ والفقر والمصائب تكون نعمة على العبد؛ لأن الإنسان إذا دام في نعمة، وفي رغد، وفي عيش هنيء فإنه ربما يطغى، وينسى الله عز وجل.

٦ ـ **ومنها**: صحة إضافة الملكية لغير الله؛ لقوله تعالى: ﴿**أن آتاه الله الملك**﴾.

٧ ـ **ومنها**: أن ملك الإنسان ليس ملكاً ذاتياً من عند نفسه؛ ولكنه معطى إياه؛ لقوله تعالى: ﴿**أن آتاه الله الملك**﴾؛ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿**قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء**﴾ [آل عمران: ٢٦].

٨ ـ **ومنها**: فضيلة إبراهيم ﷺ، حيث قال مفتخراً، ومعتزاً أمام هذا الطاغية: ﴿**ربي**﴾؛ فأضافه إلى نفسه، كأنه يفتخر بأن الله سبحانه وتعالى ربه.

٩ ـ **ومنها**: إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**يحيي ويميت**﴾؛ وهذه المسألة أنكرها كثير من علماء الكلام؛ وعللوا ذلك بعلل عليلة؛ بل ميتة لا أصل لها؛ لأنهم قالوا: إن الحوادث لا تقوم إلا بحادث؛ وإن الحوادث إن كانت كمالاً كان فقدها نقصاً؛ وإن كانت نقصاً فكيف يتصف الله بها! إذاً هي ممتنعة؛ لأنها نقص على كل تقدير؛ وحينئذٍ يجب أن ننزه الله عنها، وأن تكون ممتنعة عليه؛ والجواب عن ذلك أن قولكم: «الحوادث لا تقوم إلا بحادث» مجرد دعوى؛ ونحن نعلم أن الحوادث تحدث منا، ولكنها ليست سابقة بسبقنا؛ ولا يعد ذلك فينا نقصاً؛ فالحوادث تحدث بعد مَن أحدثها؛ ولا مانع من ذلك؛ فمن الممكن أن يكون المتصف بها قديماً وهي حادثة؛ وأما قولكم: «إنها إن كانت كمالاً كان فقدها نقصاً؛ وإن كانت نقصاً فكيف يوصف بها»؟ فنقول: هي كمال حال وجودها؛ فإذا اقتضت الحكمة وجودها كان وجودها هو الكمال؛ وإذا اقتضت الحكمة عدمها كان عدمها هو الكمال.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الإحياء والإماتة بيد الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**يحيي ويميت**﴾؛ إذاً فاعتمد على الله عز وجل، ولا تخف، ولا تقدر أسباباً وهمية؛ مثلاً دعيت إلى أيّ عمل صالح فقلت: أخشى إن عملت هذا العمل أن أموت؛ نقول: هذا إذا كان مجرد وهم فإن هذه الخشية لا ينبغي أن يبني عليها حكماً، بحيث تمنعه من أمر فيه مصلحته، وخيره.

١١ ـ **ومنها**: أن الإنسان المجادل قد يكابر فيدعي ما يعلم يقيناً أنه لا يملكه؛ لقول الرجل الطاغية: ﴿**أنا أحيي وأميت**﴾؛ ومعلوم أن هذا إنما قاله في مضايقة المحاجة؛ والإنسان في مضايقة المحاجة ربما يلتزم أشياء هو نفسه لو رجع إلى نفسه لعلم أنها غير صحيحة؛ لكن ضيق المناظرة أوجب له أن يقول هذا إنكاراً، أو إثباتاً.

١٢ ـ **ومنها**: حكمة إبراهيم ﷺ، وجودته في المناظرة سواء قلنا: إن هذا من باب الانتقال من حجة إلى أوضح منها، أو قلنا: إنه من باب تفريع حجة على حجة.

١٣ ـ **ومنها**: الرد على علماء الهيئة الذين يقولون: إن إتيان الشمس ليس إتياناً لها بذاتها؛ ولكن الأرض تدور حتى تأتي هي على الشمس؛ ووجه الرد أن إبراهيم قال: ﴿**فإن الله يأتي بالشمس من المشرق**﴾؛ إذاً الله أتى بها من المشرق؛ وهم يقولون: إن الله لم يأت بها من المشرق؛ ولكن الأرض بدورتها اطلعت عليها؛ ونحن نقول: إن الله لم يقل: إن الله يدير الأرض حتى تُرى الشمس من المشرق؛ فأدرها حتى تُرى من المغرب! ويجب علينا أن نأخذ في هذا الأمر بظاهر القرآن، وألا نلتفت لقول أحد

مخالف لظاهر القرآن؛ لأننا متعبدون بما يدل عليه القرآن؛ هذا من جهة؛ ولأن الذي أنزل القرآن أعلم بما خلق: قال الله تعالى: **﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾** [الملك: ١٤]؛ فإذا كان يقول في كلامه إن الشمس: «تأتي»، و«تطلع»، و«تغرب»، و«تزول»، و«تتوارى»؛ كل هذه الأفعال يضيفها إلى الشمس؛ لماذا نحن نجعلها على العكس من ذلك، ونضيفها إلى الأرض!!! ويوم القيامة سيقول الله لنا: **﴿ماذا أجبتم المرسلين﴾** [القصص: ٦٥]؛ لا يقول: ماذا أجبتم العالم الفلكي الفلاني؛ على أن علماء الفلك قديماً، وحديثاً مختلفون في هذا؛ لم يتفقوا على أن الأرض هي التي بدورانها يكون الليل، والنهار؛ وما دام الأمر موضع خلاف بين الفلكيين أنفسهم؛ فإننا نقول كما نقول لعلماء الشرع إذا اختلفوا: «إن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول»؛ بل نقول: لو جاء علماء الفلك بأجمعهم ما عدلنا عن ظاهر القرآن حتى يتبين لنا أمر محسوس؛ وحينئذ نقول لربنا إذا لاقيناه: إنك قلت ـ وقولك الحق: **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾**، وقلت: **﴿اتقوا الله ما استطعتم﴾** [التغابن: ١٦]؛ ونحن ما وسعنا إلا أن نقول: إن قولك: **﴿وترى الشمس إذا طلعت﴾** [الكهف: ١٧] أي إذا طلعت رأي العين؛ لا في حقيقة الواقع؛ لأننا علمنا بحسنا، وبصرنا بأن الذي يكون به تعاقب الليل، والنهار هو دوران الأرض؛ أما والحس لم يدل على هذا؛ ولكنه مجرد أقيسة ونظريات، فإنني أرى أنه لا يجوز لأحد أن يعدل عن كلام ربه الذي خلق، والذي أنزل القرآن تبياناً لكل شيء لمجرد قول هؤلاء.

١٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الحق لا تمكن المجادلة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿**فبهت الذي كفر**﴾.

١٥ ـ **ومنها**: إثبات أن من جحد الله فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿**فبهت الذي كفر**﴾؛ وهذه هي النكتة في الإظهار مقام الإضمار؛ لأجل أن نقول: كل من جادل كما جادل هذا الرجل فهو كافر.

١٦ ـ **ومنها**: الإشارة إلى أن محاجة هذا الرجل محاجة بباطل؛ لقوله تعالى: ﴿**الذي كفر**﴾؛ لأن الذين كفروا هم الذين يحاجون حجة باطلة؛ قال الله تعالى: ﴿**ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق**﴾ [الكهف: ٥٦].

١٧ ـ **ومنها**: الرد على القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿**والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾؛ لأنهم يقولون: إن الإنسان حرّ: يهتدي بنفسه، ويضل بنفسه؛ وهذه الآية واضحة في أن الهداية بيد الله.

١٨ ـ **ومنها**: التحذير من الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿**والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾؛ ومن الظلم أن يتبين لك الحق فتجادل لنصرة قولك؛ لأن العدل أن تنصاع للحق، وألا تكابر عند وضوحه؛ ولهذا ضل من ضل من أهل الكلام؛ لأنه تبين لهم الحق؛ ولكن جادلوا؛ فبقوا على ما هم عليه من ضلال.

١٩ ـ **ومنها**: أن الله لا يمنع فضله عن أحد إلا إذا كان هذا الممنوع هو السبب؛ لقوله تعالى: ﴿**والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾؛ فلظلمهم لم يهدهم الله؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم**﴾ [الصف: ٥].

٢٠ ـ **ومنها**: أنه كلما كان الإنسان أظلم كان عن الهداية

أبعد؛ لأن الله علق نفي الهداية بالظلم؛ وتعليق الحكم بالظلم يدل على عليته؛ وكلما قويت العلة قوي الحكم المعلق عليه.

٢١ ـ **ومنها**: أن من أخذ بالعدل كان حرياً بالهداية؛ لمفهوم المخالفة في قوله تعالى: ﴿**والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾؛ فإذا كان الظالم لا يهديه الله، فصاحب العدل حري بأن يهديه الله عز وجل؛ فإن الإنسان الذي يريد الحق ويتبع الحق ـ والحق هو العدل ـ غالباً يُهدى، ويوفّق للهداية؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية عبارة من أحسن العبارات؛ قال: «من تدبر القرآن طالباً الهدى منه تبين له طريق الحق»؛ وهذه كلمة مأخوذة من القرآن منطوقاً، ومفهوماً.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٥٩﴾ قوله تعالى: ﴿**أو كالذي مر على قرية**﴾؛ ﴿**أو**﴾: حرف عطف؛ والكاف: قيل إنها زائدة للتوكيد؛ وقيل: إنها اسم بمعنى «مثل»؛ وعلى كلا القولين فهي معطوفة على ﴿**الذي**﴾ في

قوله تعالى: ﴿**ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه**﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ يعني: أو ألم تر إلى مثل الذي مر ـ إذا جعلنا الكاف بمعنى «مثل»؛ فإن جعلنا الكاف زائدة، فالتقدير: أو ألم تر إلى الذي مر على قرية... إلخ.

وفي قوله تعالى: ﴿**أنى يحيي هذه الله بعد موتها**﴾ تقديم المفعول على الفاعل؛ لأن ﴿**هذه**﴾ مفعول مقدم؛ ولفظ الجلالة فاعل مؤخر.

قوله تعالى: ﴿**مائة**﴾ منصوبة على أنها نائبة مناب الظرف؛ لأنها مضافة إليه؛ والظرف هي كلمة ﴿**عام**﴾؛ وهي متعلقة بـ ﴿**أماته**﴾؛ وقيل: متعلقة بفعل محذوف؛ والتقدير: فأبقاه مائة عام؛ قالوا: لأن الموت لا يتأجل؛ الموت موت؛ ولكن الذي تأجل هو بقاؤه ميتاً مائة عام.

قوله تعالى: ﴿**كم لبثتَ قال لبثتُ يوماً أو بعض يوم قال بل لبثتَ**﴾: اختلفت الحركة في التاء باعتبار من ترجع إليه؛ و﴿**كم**﴾ مفعول مقدم لـ ﴿**لبثت**﴾؛ يعني: كم مدة لبثت.

قوله تعالى: ﴿**لم يتسنه**﴾ فيها قراءتان: ﴿**لم يتسنَّه**﴾ بالهاء الساكنة؛ و﴿**لم يتسنَّ**﴾ بحذفها عند الوصل؛ فالقراءتان تختلفان في حال الوصل؛ لا في حال الوقف؛ في حال الوقف: بالهاء الساكنة على القراءتين: ﴿**لم يتسنَّه**﴾؛ وفي حال الوصل: بحذف الهاء في قراءة سبعية: ﴿**لم يتسنَّ وانظر**﴾.

قوله تعالى: ﴿**ولنجعلك آية للناس**﴾؛ الواو حرف عطف؛ والمعطوف عليه محذوف دل عليه السياق؛ والتقدير؛ لتعلم قدرة الله، ولنجعلك آية للناس.

قوله تعالى: ﴿أعلم﴾ بفتح الهمزة على أنه فعل مضارع؛ فالجملة خبرية؛ والقراءة الثانية «اعْلَمْ» بهمزة الوصل على أنه فعل أمر؛ وعلى هاتين القراءتين يختلف عود الضمير في ﴿قال﴾؛ فعلى القراءة الأولى مرجعه ﴿الذي مر على قرية﴾؛ وعلى الثانية يرجع إلى الله.

وقد اختلف المفسرون في تعيين القرية، والذي مر بها؛ وهو اختلاف لا طائل تحته؛ إذ لم يثبت فيه شيء عن معصوم؛ والمقصود العبرة بما في هذه القصة ـ لا تعيين الرجل، ولا القرية ـ ومثل هذا الذي يأتي مبهماً، ولم يعين عن معصوم، طريقنا فيه أن نبهمه كما أبهمه الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿أو كالذي مر على قرية﴾: «القرية» مأخوذة من القَرْي؛ وهي الجمع؛ وتطلق على الناس المجتمعين في البلد؛ وتطلق على البلد نفسها ـ حسب السياق ـ فمثلاً في قوله تعالى: ﴿قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية﴾ [العنكبوت: ٣١] المراد بـ «القرية» هنا المساكن؛ لأنه تعالى قال: ﴿أهل هذه القرية﴾؛ وأما في قوله تعالى: ﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة﴾ فالمراد بـ «القرية» هنا أهلها؛ والدليل قوله تعالى: ﴿أهلكناها﴾، وقوله تعالى: ﴿وهي ظالمة﴾: وهذا لا يوصف به البلد.

فتبين أن القرية يراد بها أحياناً البلد التي هي محل مجتمع الناس؛ ويراد بها القوم المجتمعون ـ على حسب السياق؛ وكما قال أولاد يعقوب لأبيهم: ﴿واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها﴾ [يوسف: ٨٢]: فالمراد بـ «القرية» هنا أهلها؛ والدليل قوله تعالى: ﴿واسأل القرية﴾؛ لأن السؤال لا يمكن أن يوجه إلى

القرية التي هي البناء؛ وإذا كانت «القرية» تطلق على أهل القرية بنص القرآن فلا حاجة إلى أن نقول: هذا مجاز أصله: واسأل أهل القرية؛ لأنا رأينا في القرآن الكريم أن «القرية» يراد بها الساكنون.

قوله تعالى: ﴿وهي خاوية على عروشها﴾ جملة حالية في محل نصب؛ ومعناها أنه ساقط بعضها على بعض ليس فيها ساكن.

قوله تعالى: ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾؛ ﴿أنى﴾ اسم استفهام للاستبعاد؛ وسياق الآية يرجحه؛ أي أنه استبعد حسب تصوره أن الله سبحانه وتعالى يعيد إلى هذه القرية ما كان سابقاً، وقال: كيف يحيي الله هذه القرية بعد موتها؛ وقال بعضهم: إنه للاستعجال، والتمني؛ كأنه يقول: متى يحيي الله هذه القرية بعد موتها وقد كانت بالأمس قرية مزدهرة بالسكان، والتجارة، وغير ذلك؛ فمتى يعود عليها ما كان قبل.

قوله تعالى: ﴿فأماته الله﴾ أي قبض روحه.

قوله تعالى: ﴿مائة﴾ فيها ألف بين الميم، والهمزة؛ والميم مكسورة، والألف عليها دائرة إشارة إلى أن الألف هذه تكتب، ولا ينطق بها؛ وبهذا نعرف خطأ من ينطقون بها: «مَائة» بميم مفتوحة؛ ومن قرأ بها في القرآن فقد لحن لحناً يجب عليه أن يعدله؛ وبعض الكتاب المعاصرين يكتبها بدون ألف كـ «فِئة» يعني: ميم، وهمزة، وتاء؛ وهذا أحسن إلا في رسم المصحف؛ فيتبع الرسم العثماني؛ وإلا إذا أضيف إليها عدد كـ «ثلاثمائة» و«أربعمائة»؛ فتكتب الألف، ولا ينطق بها.

قوله تعالى: ﴿عام﴾ مشتقة من العوم؛ وهو السباحة؛ لأن الشمس تسبح فيه على الفصول الأربعة؛ وهي الربيع؛ الصيف؛ الخريف؛ الشتاء؛ كل واحد من هذه الفصول له ثلاثة من البروج المذكورة في قوله:

حملٌ فثور فجوزاء فسرطان فأسد سنبلة ميزان
فعقرب قوس فجدي فكذا دلو وذي آخرها الحيتان

هذه اثنا عشر برجاً للفصول الأربعة؛ كل واحد من الفصول له ثلاثة؛ وقيل: إن كلمة ﴿عام﴾ غير مشتقة؛ فهي مثل كلمة «باب» و«ساج» و«سنة»؛ وما أشبه ذلك من الكلمات التي ليس لها اشتقاق؛ وأياً كان فالمعنى معروف.

قوله تعالى: ﴿ثم بعثه﴾ أي أحياه؛ ولعل قائلاً يقول: إن المتوقع أن يقول: «ثم أحياه» ليقابل ﴿أماته﴾؛ لكن «**البعث**» أبلغ؛ لأن «**البعث**» فيه سرعة؛ ولهذا نقول: انبعث الغبار بالريح، وما أشبه ذلك من الكلمات الدالة على أن الشيء يأتي بسرعة، واندفاع؛ فهذا الرجل بعثه الله بكلمة واحدة؛ قال مثلاً: «كن حياً»، فكان حياً.

قوله تعالى: ﴿قال كم لبثت﴾؛ القائل هو الله عز وجل؛ يعني كم لبثت من مدة؛ والمدة مائة عام.

قوله تعالى: ﴿قال لبثت يوماً أو بعض يوم﴾؛ ﴿أو﴾ للشك؛ قال العلماء: وإنما قال ذلك؛ لأن الله أماته في أول النهار، وأحياه في آخر النهار؛ فقال: لبثت يوماً إن كان هذا هو اليوم الثاني من موته؛ أو بعض يوم إن كان هو اليوم الذي مات فيه.

قوله تعالى: ﴿بل لبثت مائة عام﴾؛ ﴿بل﴾ هذه للإضراب

الإبطالي؛ يعني لم تلبث يوماً، أو بعض يوم؛ بل لبثت مائة عام.

قوله تعالى: ﴿**فانظر**﴾ أي بعينك ﴿**إلى طعامك**﴾: أبهمه الله عز وجل فلم يبين من أي نوع هو؛ و«**الطعام**» كل ما له طعم من مأكول، ومشروب؛ لكنه إذا قرن بالشراب صار المراد به المأكول.

قوله تعالى: ﴿**وشرابك**﴾: لم يبين نوع الشراب؛ ﴿**لم يتسنه**﴾ أي لم يتغير.

قوله تعالى: ﴿**وانظر إلى حمارك**﴾ أي انظر إليه بعينك؛ فنظر إلى حماره تلوح عظامه ليس فيه لحم، ولا عصب، ولا جلد.

قوله تعالى: ﴿**ولنجعلك آية للناس**﴾ أي لنصيِّرك علامة للناس على قدرتنا.

قوله تعالى: ﴿**وانظر إلى العظام كيف ننشزها**﴾؛ وفي قراءة: «**ننشرها**» بالراء؛ ﴿**ننشزها**﴾ بالزاي يعني: نركب بعضها على بعض؛ من النشَز؛ وهو الارتفاع، كقوله تعالى: ﴿**وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً**﴾ [النساء: ١٢٨]؛ فـ ﴿**ننشزها**﴾ يعني: نعلي بعضها على بعض؛ فنظر إلى العظام يأتي العظم، ويركب على العظم الثاني في مكانه حتى صار الحمار عظاماً؛ كل عظم منها راكب على الآخر في مكانه، ثم بعد ذلك كسا الله العظام لحماً بعد أن أنشز بعضها ببعض بالعصب؛ أما قراءة «**ننشرها**» بالراء فمعناها: نحييها؛ لأن العظام قد يبست، وصارت كالرميم ليس فيها أيّ مادة للحياة، ثم أحييت بحيث صارت قابلة لأن يركب بعضها على بعض.

قوله تعالى: ﴿ثم نكسوها لحماً﴾ أي نسترها باللحم؛ فشاهد ذلك بعينه، فاجتمع عنده آيتان من آيات الله؛ إبقاء ما يتغير على حاله ـ وهو طعامه، وشرابه؛ وإحياء ما كان ميتاً ـ وهو حماره.

قوله تعالى: ﴿فلما تبين له﴾ أي تبين لهذا الرجل ـ الذي مر على القرية، واستبعد أن يحييها الله بعد موتها؛ أو استبطأ أن الله سبحانه وتعالى يحييها بعد موتها، وحصل ما حصل من آيات الله عز وجل بالنسبة له، ولحماره، ولطعامه، وشرابه ـ تبين له الأمر الذي تحقق به قدرة الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾؛ وفي قراءة: ﴿اعلم أن الله على كل شيء قدير﴾؛ والفائدة من القراءتين: كأنه أُمر أن يعلم، فعلم، وأقر؛ و«العلم» ـ كما سبق ـ هو إدراك الشيء إدراكاً جازماً مطابقاً لما هو عليه؛ وعدم الإدراك هو الجهل البسيط؛ وإدراك الشيء على غير ما هو عليه: هو الجهل المركب؛ وعدم الجزم: شك؛ أو ظن؛ أو وهم؛ فإن تساوى الأمران فهو شك؛ وإن ترجح أحدهما فالراجح ظن؛ والمرجوح وهم.

و«القدرة» صفة تقوم بالقادر بحيث يفعل الفعل بلا عجز؛ لقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً﴾ [فاطر: ٤٤]: لما نفى أن يعجزه شيء قال تعالى: ﴿إنه كان عليماً قديراً﴾ فلما نفى العجز، ذكر القدرة، والعلم مقابلها.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: بلاغة القرآن، حيث ينوع الأدلة،

والبراهين على الأمور العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿**أو كالذي مر على قرية**﴾؛ فهذه الآية وما قبلها، وما بعدها كلها في سياق قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى.

٢ ـ **ومنها**: الإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يهتم الإنسان بأعيان أصحاب القصة؛ إذ لو كان هذا من الأمور المهمة لكان الله يبين ذلك: يقول: فلان؛ ويبين القرية.

٣ ـ **ومنها**: أن العبرة بالمعاني والمقاصد دون الأشخاص.

٤ ـ **ومنها**: إطلاق القرية على المساكن؛ لقوله تعالى: ﴿**وهي خاوية على عروشها**﴾ مع أنه يحتمل أن يراد بهذه الآية المساكن، والساكن؛ لأن كونها خاوية على عروشها يدل على أن أهلها أيضاً مفقودون، وأنهم هالكون.

٥ ـ **ومنها**: قصور نظر الإنسان، وأنه ينظر إلى الأمور بمعيار المشاهَد المنظور لديه؛ لقوله هذا الرجل: ﴿**أنى يحيي هذه الله بعد موتها**﴾؛ فكونك ترى أشياء متغيرة لا تستبعد أن الله عز وجل يزيل هذا التغيير؛ وكم من أشياء قدَّر الناس فيها أنها لن تزول، ثم تزول؛ كم من أناس أمَّلوا دوام الغنى، ودوام الأمن، ودوام السرور، ثم أعقبه ضد ذلك؛ وكم من أناس كانوا على شدة من العيش، والخوف، والهموم، والغموم، ثم أبدلهم الله سبحانه وتعالى بضد ذلك.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الإنسان إذا استبعد وقوع الشيء ـ ولكنه لم يشك في قدرة الله ـ لا يكفر بهذا.

٧ ـ **ومنها**: بيان قدرة الله عز وجل في إماتة هذا الرجل

لمدة معينة، ثم إحيائه؛ لقوله تعالى: ﴿**فأماته الله مائة عام ثم بعثه**﴾.

٨ ـ **ومنها**: إثبات الكلام لله عز وجل، والقول، وأنه بحرف، وصوت مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿**قال كم لبثت**﴾؛ والأولى الأخذ بظاهر القرآن، وأن القائل هو الله عز وجل.

٩ ـ **ومنها**: جواز امتحان العبد في معلوماته؛ لقوله تعالى: ﴿**كم لبثت**﴾.

١٠ ـ **ومنها**: الرد على الأشاعرة الذين قالوا: «إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وأن هذه الأصوات التي سمعها موسى، ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وغيرهما ممن كلمه الله هي أصوات خلقها الله عز وجل لتعبر عما في نفسه»؛ وأن هذا القول مقتضاه إنكار القول من الله عز وجل.

١١ ـ **ومنها**: بيان حكمة الله، حيث أمات هذا الرجل، ثم بعثه ليتبين له قدرة الله عز وجل.

١٢ ـ **ومنها**: جواز إخبار الإنسان بما يغلب على ظنه، وأنه إذا خالف الواقع لا يعد مخطئاً؛ لقوله تعالى: ﴿**قال لبثت يوماً أو بعض يوم**﴾ مع أنه لبث مائة عام.

١٣ ـ **ومنها**: أن الله قد يمنّ على عبده بأن يريه من آياته ما يزداد به يقينه؛ لقوله تعالى: ﴿**فانظر إلى طعامك...**﴾ إلخ.

١٤ ـ **ومنها**: أن قدرة الله فوق ما هو معتاد من طبيعة الأمور، حيث بقي هذا الطعام والشراب مائة سنة لم يتغير.

١٥ ـ **ومنها**: الرد على أهل الطبيعة الذين يقولون: إن السنن الكونية لا تتغير؛ لقوله تعالى: ﴿**لم يتسنه**﴾: لكون هذا الطعام،

والشراب لم يتغير لمدة مائة سنة، والرياح تمر به، والشمس، والحر.

١٦ ـ **ومنها**: جواز الانتفاع بالحُمُرِ؛ لقوله تعالى: ﴿**وانظر إلى حمارك**﴾.

١٧ ـ **ومنها**: ثبوت الملكية فيها: لأن الله أضاف الحمار إلى صاحبه؛ فقال تعالى: ﴿**حمارك**﴾؛ فإن قلت: كيف تجمع بين هذا وبين قول النبي ﷺ: «**إن الله عز وجل إذا حرم أكل شيء حرم ثمنه**»[1]؛ وإثبات الملكية يقتضي حل الثمن؟

فالجواب: أنها إذا بيعت للأكل فهو حرام؛ لأنه هو المحرم؛ وأما إذا بيعت للانتفاع فهذا حلال؛ لأن الانتفاع بها حلال؛ إذاً فهذا لا يعارض الحديث؛ فإذا اشترى الحمار للأكل فالثمن حرام؛ وإن اشتراه للمنفعة فالمنفعة حلال، وثمنها حلال.

١٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله يحدث للعبد ما يكون عبرة لغيره؛ لقوله تعالى: ﴿**ولنجعلك آية للناس**﴾؛ ومثل ذلك قوله تعالى في عيسى بن مريم، وأمه: ﴿**والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين**﴾ [الأنبياء: ٩١].

١٩ ـ **ومنها**: أنه ينبغي التفكر فيما خلقه الله عز وجل، وأحدثه في الكون؛ لأن ذلك يزيد الإيمان، حيث إن هذا الشيء آية من آيات الله.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٩٥، حديث رقم ٢٦٧٨، واللفظ له، وأخرجه أبو داود ص١٤٨٣، كتاب البيوع، باب ٦٤: في ثمن الخمر والميتة، حديث رقم ٣٤٨٨، وقال الألباني في صحيح أبي داود ٢/ ٣٧٠: صحيح.

٢٠ ـ **ومنها**: أنه ينبغي النظر إلى الآيات على وجه الإجمال، والتفصيل؛ لقوله تعالى: ﴿**وانظر إلى حمارك**﴾: مطلق؛ ثم قال تعالى: ﴿**وانظر إلى العظام كيف ننشزها...**﴾ إلخ؛ فيقتضي أن نتأمل أولاً في الكون من حيث العموم، ثم من حيث التفصيل؛ فإن ذلك أيضاً يزيدنا في الإيمان.

٢١ ـ **ومنها**: أن الله عز وجل جعل اللحم على العظام كالكسوة؛ بل هو كسوة في الواقع؛ لقوله تعالى: ﴿**ثم نكسوها لحماً**﴾، وقال تعالى: ﴿**فكسونا العظام لحماً**﴾ [المؤمنون: ١٤]؛ ولهذا تجد اللحم يقي العظام من الكسر والضرر؛ لأن الضرر في العظام أشد من الضرر في اللحم.

٢٢ ـ **ومنها**: أن الإنسان بالتدبر، والتأمل، والنظر يتبين له من آيات الله ما لا يتبين لو غفل؛ لقوله تعالى: ﴿**فلما تبين له...**﴾ إلخ.

٢٣ ـ **ومنها**: بيان عموم قدرة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**على كل شيء قدير**﴾.

٢٤ ـ **ومنها**: الرد على القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿**على كل شيء قدير**﴾؛ لأن من الأشياء فعل العبد؛ والله سبحانه وتعالى قادر على فعل العبد؛ وعند القدرية المعتزلة أن الله ليس بقادر على أفعال العبد؛ لأن العبد عندهم مستقل خالق لفعله، وأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق أفعاله.

٢٥ ـ **ومنها**: الرد على منكري قيام الأفعال الاختيارية بالله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**فأماته الله... ثم بعثه**﴾؛ وهذه أفعال متعلقة بمشيئته، واختياره: متى شاء فعل، ومتى شاء لم يفعل؛

متى شاء خلق، ومتى شاء أمات؛ ومتى شاء أذل، متى شاء أعز.

٢٦ ـ **ومنها**: أن كلام الله عز وجل بحروف، وأصوات مسموعة؛ لقوله تعالى: ﴿**كم لبثت**﴾، وقوله تعالى: ﴿**بل لبثت مائة عام**﴾؛ فإن مقول القول حروف بصوت سمعه المخاطَب، وأجاب عليه بقوله: ﴿**لبثت يوماً أو بعض يوم**﴾؛ ولكن الصوت المسموع من كلام الله عز وجل ليس كصوت المخلوقين؛ الحروف هي الحروف التي يعبر بها الناس؛ لكن الصوت: لا؛ لأن الصوت صفة الرب عز وجل؛ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ [الشورى: ١١].

٢٧ ـ **ومنها**: أنه يلزم من النظر في الآيات العلم، واليقين؛ لقوله تعالى: ﴿**فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير**﴾.

٢٨ ـ **ومنها**: أنه يمكن الرد على الجبرية على قراءة: «**اعلم**»؛ لأنه لو كان الإنسان مجبوراً لكان توجه الخطاب إليه بالأمر والتكليف، لغواً وعبثاً.

٢٩ ـ **ومنها**: ثبوت كرامات الأولياء؛ وهي كل أمر خارق للعادة يجريه الله عز وجل على يد أحد أوليائه تكريماً له، وشهادةً بصدق الشريعة التي كان عليها؛ ولهذا قيل: كل كرامة لوليّ فهي آية للنبي الذي اتبعه؛ و«الولي» كل مؤمن تقي؛ لقوله تعالى: ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

٣٠ ـ **ومنها**: وجوب العلم بأن الله على كل شيء قدير.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

التفسير:

في ﴿إبراهيم﴾ قراءتان؛ ﴿إبراهيم﴾ بكسر الهاء، وياء بعدها؛ و﴿**إبراهام**﴾ بفتح الهاء، وألف بعدها؛ وكذلك في ﴿أرني﴾ قراءتان: ﴿أرِني﴾ بكسر الراء؛ و﴿**أرْني**﴾ بسكونها؛ وفي ﴿فصرهن﴾ قراءتان أيضاً: ﴿**فصُرهن**﴾ بضم الصاد؛ و﴿**فصِرهن**﴾ بكسرها؛ وفي ﴿جزءاً﴾ قراءتان أيضاً: ﴿**جزْءاً**﴾ بسكون الزاي؛ و﴿**جزُءاً**﴾ بضمها؛ وكل هذه القراءات سبعية.

﴿٢٦٠﴾ قوله تعالى: ﴿**وإذ قال إبراهيم رب أرني**﴾ ﴿**إذ**﴾: مفعول فعل محذوف؛ والتقدير: اذكر إذ قال؛ و﴿**أرني**﴾: الرؤية هنا بصرية، فتنصب مفعولاً واحد؛ لكن لما دخلت عليها همزة التعدية صارت تنصب مفعولين؛ الأول: الياء؛ والثاني: جملة: ﴿**كيف تحيي الموتى**﴾.

قوله تعالى: ﴿**أو لم تؤمن**﴾ فيها إعرابان مشهوران؛ **أحدهما**: أن الهمزة دخلت على مقدر عُطف عليها قوله تعالى: ﴿**ولم تؤمن**﴾؛ وهذا المقدر يكون بحسب السياق؛ وعلى هذا فالهمزة في محلها؛ **الثاني**: أن الواو حرف عطف على ما سبق؛ والهمزة للاستفهام؛ وأصل محلها بعد الواو؛ والتقدير: «وألم تؤمن»؛ والثاني أسهل، وأسلم؛ لأن الإنسان ربما يقدر فعلاً ليس

هو المراد؛ وأسهل؛ لئلا يُتعب الإنسان نفسه في طلب فعل يكون مناسباً.

قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم﴾؛ إبراهيم ﷺ هو الأب الثالث للأنبياء؛ فالأول: آدم؛ والثاني: نوح؛ والثالث: إبراهيم، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى في نوح: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ [الصافات: ٧٧]؛ وآدم معلوم أنه أبو البشر: قال الله تعالى: ﴿يا بني آدم﴾ [الأعراف: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿رب﴾: منادى منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة؛ وحرف النداء محذوف للعلم به.

قوله تعالى: ﴿أرني كيف تحيي الموتى﴾ أي اجعلني أنظر، وأرى بعيني؛ والسؤال هنا عن الكيفية لا عن الإمكان؛ لأن إبراهيم لم يشك في القدرة؛ ولا عن معنى الإحياء؛ لأن معنى الإحياء عنده معلوم؛ لكن أراد أن يعلم الكيفية: كيف يحيي الله الموتى بعد أن أماتهم، وصاروا تراباً وعظاماً.

وقوله تعالى: ﴿الموتى﴾: هل مراد إبراهيم ﷺ أيّ موتى يكونون؛ أو أن المراد به الموتى من بني آدم، فضرب الله له مثلاً بالطيور الأربعة؟ إذا نظرنا إلى لفظ ﴿الموتى﴾ وجدناه عاماً؛ يعني أيّ شيء يحييه الله أمامه فقد أراه؛ فيترجح الاحتمال الأول.

قوله تعالى: ﴿قال أو لم تؤمن﴾: هذا الاستفهام للتقرير؛ وليس للإنكار، ولا للنفي؛ فهو كقوله تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ [الشرح: ١]؛ يعني: قد شرحنا لك؛ فمعنى ﴿أو لم

تؤمن﴾: ألست قد آمنت؛ لتقرير إيمان إبراهيم ﷺ.

وقد فسر كثير من الناس الإيمان في اللغة بـ«التصديق»؛ وهذا التفسير ليس بدقيق؛ لكنه تفسير بما يقارب؛ كتفسيرهم «الريب» بالشك؛ وتفسيرهم «الرهن» بالحبس؛ وتفسير قوله تعالى: ﴿أن تبسل نفس﴾ [الأنعام: ٧٠] أي تحبس؛ وما أشبه ذلك مما يفسرونه بالمعنى المقارِب الذي يَقرُب للفهم؛ وإلا فإن بين الإيمان، والتصديق فرقاً؛ وقد سبق بيان ذلك.

قوله تعالى: ﴿بلى﴾ حرف يجاب بها النفي المقرون بالاستفهام لإثباته؛ فإذا قلت: ألست حاضراً معنا في الدرس؟ فالجواب: «بلى» ـ إن كنت حاضراً؛ و«نعم» ـ إن لم تكن حاضراً.

قوله تعالى: ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ أي ليزداد طمأنينة؛ وإلا فقد كان مطمئناً؛ و«الطمأنينة» هي الاستقرار، كما قال النبي ﷺ: «**اركع حتى تطمئن راكعاً... اسجد حتى تطمئن ساجداً**»[1]، أي تستقر؛ فأراه الله سبحانه وتعالى الآية: قال تعالى: ﴿**فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً**﴾.

قوله تعالى: ﴿**فخذ أربعة من الطير**﴾: لم يعينها الله عز وجل؛ ولهذا تعتبر محاولة تعيينهن لا فائدة منها؛ لأنه لا يهمنا أكانت هذه الطيور إوَزًّا، أم حماماً، أم غرباناً، أم أيَّ نوع من

---

(١) أخرجه البخاري ص٦٠، كتاب الآداب، باب ٩٥: وجوب القراءة للإمام والمأموم...، حديث رقم ٧٥٧؛ وأخرجه مسلم ص٧٤٠، كتاب الصلاة، باب ١١: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، حديث رقم ٨٨٥ [٤٥] ٣٩٧.

أنواع الطيور؛ لأن الله لم يبينها لنا؛ ولو كان في تبيينها فائدة لبيَّنها الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿فصرهن إليك﴾ بكسر الصاد من صار يصير؛ وبضمها من صار يصور؛ أي أملهن إليك؛ و«الصُّور» الميل؛ ومنه الرجل الأصور ـ التي مالت عينه إلى جانب من جفنه؛ ويسمى «الأحول»؛ فمعنى ﴿صرهن﴾ أي أملهن، واضممهن إليك.

قوله تعالى: ﴿ثم اجعل على كل جبل﴾، أي من الجبال التي حولك ﴿منهن جزءاً﴾ أي من مجموعهن؛ والله أعلم بالحكمة من تعيين العدد، والجبال.

قوله تعالى: ﴿ثم ادعهن﴾؛ ففعل عليه الصلاة والسلام فجمع الأربعة، وذبحهن، وقطعهن أجزاءً، وجعل على كل جبل جزءاً؛ ثم دعاهن فأقبلن.

قوله تعالى: ﴿يأتينك سعياً﴾ قيل: إنها جواب لفعل الأمر في قوله تعالى: ﴿ادعهن﴾؛ وقيل: إنها جواب لفعل شرط مقدر؛ والتقدير: «إن تدعهن يأتينك»؛ فعلى القول الأول يكون جواباً لقوله: ﴿ادعهن﴾؛ لأن من لازم أمر الله إياه بدعائهن أن يدعوَهن؛ فكأن الشرط معلوم من الأمر؛ وعلى القول الثاني لا إشكال إذا جعلت ﴿يأتينك﴾ جواباً لفعل شرط محذوف ـ يعني: إن تدعهن يأتينك؛ و﴿يأتينك﴾ مبنية على السكون في محل جزم؛ وإنما بنيت على السكون لاتصالها بنون النسوة.

وقوله تعالى: ﴿سعياً﴾ مصدر؛ لكن هل هو مصدر عامله محذوف، والتقدير: يسعَين سعياً؛ أو هو مصدر في موضع الحال، فيكون بمعنى: ساعيات؟ يحتمل هذا، وهذا؛ والثاني

أولى؛ لأنه لا يحتاج إلى تقدير؛ والقاعدة أنه إذا دار الأمر بين أن يكون الكلام محذوفاً منه، أو غير محذوف فهو غير محذوف منه.

وقوله تعالى: ﴿سعياً﴾؛ هل نفسر السعي في كل موضع بحسبه؛ أو نقول: سعياً على الأرجل؟ في هذا قولان للمفسرين؛ أحدهما أن السعي هنا بمعنى الطيران؛ فالمعنى: يأتينك طيراناً لا نقص فيهن؛ لأن سعي كل شيء بحسبه؛ وسعي الطيور هو الطيران؛ الثاني: أن المراد بالسعي المشي بسرعة على الأرجل؛ ولكن الأولى ـ فيما يظهر لنا ـ هو الطيران؛ لأن كونهن يمشين على الأرجل لا يدل على كمالهن؛ إذ إن الطائر إذا كُسر جناحه صار يمشي؛ لكن كونهن يطرن أبلغ؛ لأنه كأنهن أتين على أكمل الحياة، والوجوه.

قوله تعالى: ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾: الخطاب لإبراهيم ﷺ؛ فإذا علمت ذلك علمت كمالَ قدرته عز وجل لكمال عزته، وكمالَ حكمته؛ لأنه حكيم؛ والله سبحانه وتعالى يقرن كثيراً بين هذين الاسمين: «**العزيز**» و«**الحكيم**»؛ لأن العزيز من المخلوقين قد تفوته الحكمة لعزته: يرى نفسه عزيزاً غالباً، فيتهور في تصرفاته، ويتصرف بدون حكمة؛ والحكيم من المخلوقين قد لا يكون عزيزاً؛ فإذا اقترنت حكمته بعزة صار له سلطان وقوة، ولم تفته الأمور؛ فجمع الله لنفسه بين العزة، والحكمة؛ وسبق الكلام عليهما مفصلاً.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن التوسل إلى الله بربوبيته من آداب

الدعاء التي يتوسل بها الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿رب﴾؛ لأن إجابة الدعاء من مقتضيات الربوبية؛ إذ إنه فعل؛ وكل ما يتعلق بأفعال الرب فهو من مقتضيات الربوبية؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ حين ذكر الرجل يطيل السفر يمد يديه إلى السماء: «**يقول: يا رب! يا رب!**»[1]؛ ولو تأملت أكثر أدعية القرآن لوجدتها مصدرة بـ«الرب»؛ لأن إجابة الدعاء من مقتضيات الربوبية.

٢ ـ **ومنها**: أنه لا حرج على الإنسان أن يطلب ما يزداد به يقينه، لقوله تعالى: ﴿**أرني كيف تحيي الموتى**﴾؛ لأنه إذا رأى بعينه ازداد يقينه.

٣ ـ **ومنها**: أن عين اليقين أقوى من خبر اليقين؛ لقوله تعالى: ﴿**أرني كيف تحيي الموتى**﴾؛ لأن إبراهيم عليه السلام عنده خبر اليقين بأن الله قادر؛ لكن يريد عين اليقين؛ ولهذا جاء في الحديث: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[2]؛ وقد ذكر العلماء أن اليقين ثلاث درجات: علم؛ وعين؛ وحق؛ كلها موجودة في القرآن؛ مثال «**علم اليقين**» قوله تعالى: ﴿**كلا لو تعلمون علم**

---

(١) أخرجه مسلم ص٨٣٨، كتاب الزكاة، باب ١٩: قبول الصدقة من الكسب الطيب، حديث رقم ٢٣٤٦ [٦٥] ١٠١٥.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٢٥١، حديث رقم ١٨٤٣، وفيه هشيم بن بشير، ثقة ثبت كثير التدليس والإرسال الخفي، وقد عنعن في هذا الحديث، وقال الترمذي: (سمعت إسحاق بن منصور يقول: قال أحمد بن حنبل: لم يسمع هشيم حديث أبي بشر: ليس الخبر كالمعاينة، وأخرج ابن حبان له شاهداً ٨/ ٣٣، باب ، ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن هذا الخبر تفرد به هشيم، حديث رقم ٦١٨١، وأخرج الحاكم الشاهد له، ٢/ ٣٨٠، كتاب التفسير، سورة الأنبياء، وقال صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي وقال: سمعه من أبي بشر ثقتان.

اليقين﴾ [التكاثر: ٥]؛ ومثال «**عين اليقين**» قوله تعالى: **﴿ثم لترونها عين اليقين﴾** [التكاثر: ٧]؛ ومثال «**حق اليقين**» قوله تعالى: **﴿إن هذا لهو حق اليقين﴾** [الواقعة: ٥٦]؛ نضرب مثالاً يوضح الأمر: قلت: إن معي تفاحة حلوة ـ وأنا عندك ثقة؛ فهذا علم اليقين: فإنك علمت الآن أن معي تفاحة حلوة؛ فأخرجتُها من جيبي، وقلت: هذه التفاحة؛ فهذا عين اليقين؛ ثم أعطيتك إياها، وأكلتَها وإذا هي حلوة؛ هذا حق اليقين.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات أفعال الله الاختيارية؛ بمعنى أن الله سبحانه وتعالى له أفعال تتعلق بمشيئته؛ لقوله تعالى: **﴿تحيي الموتى﴾**.

٥ ـ **ومنها**: تمام قدرة الله سبحانه وتعالى بإحياء الموتى؛ وقد قرر الله ذلك في آيات كثيرة.

٦ ـ **ومنها**: إثبات الكلام لله عز وجل؛ لقوله تعالى: **﴿قال أو لم تؤمن﴾**، وقوله تعالى: **﴿قال فخذ أربعة﴾**؛ والله سبحانه وتعالى؛ يتكلم بما شاء متى شاء كيف شاء؛ بما شاء: من القول؛ متى شاء: في الزمن؛ كيف شاء: في الكيفية.

٧ ـ **ومنها**: أن كلام الله سبحانه وتعالى بحروف، وأصوات مسموعة؛ لوقوع التحاور بين الله عز وجل، وإبراهيم ﷺ.

٨ ـ **ومنها**: إثبات أن إبراهيم مؤمن بقدرة الله عز وجل على إحياء الموتى؛ لقوله تعالى: **﴿قال أو لم تؤمن قال بلى﴾**؛ فإن قلت: كيف تجمع بين هذا، وبين ما ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»[1]؛ فأثبت شكاً

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٧٤، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ١١، قوله تعالى: =

فينا، وفي إبراهيم، وأننا أحق بالشك من إبراهيم؟ فالجواب أن الحديث لا يراد به هذا المعنى؛ لأن هذا معنًى يخالف الواقع؛ فليس عند الرسول ﷺ شك في إحياء الموتى؛ وإنما المعنى أن إبراهيم لم يشك؛ فلو قدر أنه يشك فنحن أحق بالشك منه؛ وما دام الشك منتفياً في حقنا فهو في حقه أشد انتفاءً؛ فإذا عُلم أننا الآن نؤمن بأنه تعالى هو القادر، فإبراهيم أولى منا بالإيمان بذلك؛ هذا هو معنى الحديث، ولا يحتمل غيره؛ فإن قلت: لا زال هنا إشكال؛ وهو: هل إبراهيم أكمل إيماناً من محمد ﷺ؟ فالجواب: لا؛ ولكن قاله ﷺ على سبيل التواضع؛ ولهذا قرن بينه وبين قوله ﷺ: «**ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي**»[1]؛ فيوسف بقي في السجن بضع سنين، وجاءه رسول الملك يدعوه؛ فقال له: لا أخرج، ﴿**ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن**﴾ [يوسف: ٥٠]؛ مع أن غيره لو حبس سبع سنين، وقالوا له: «اخرج»، فإنه يخرج؛ هذا مقتضى الطبيعة؛ لكن يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان حليماً حازماً؛ قال: لا أخرج حتى تظهر براءتي كاملة؛ فتبين من هذا أنه لا يلزم من قول الرسول ﷺ هذا أن يكون إبراهيم أقوى إيماناً.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات زيادة الإيمان في القلب؛ لقوله تعالى: ﴿**بلى ولكن ليطمئن قلبي**﴾؛ ففيه رد على من قال: إن

= ﴿**ونبئهم عن ضيف إبراهيم...**﴾...، حديث رقم ٣٣٧٢، وأخرجه مسلم ص٧٠٣، كتاب الإيمان، باب ٦٩: زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، حديث رقم ٣٨٢ [٢٣٨] ١٥١.

(١) التخريج السابق.

الإيمان لا يزيد، ولا ينقص؛ ولا ريب أن هذا القول ضعيف؛ لأن الواقع يكذبه؛ والنصوص تكذبه أيضاً: ففي القرآن قال الله تعالى: ﴿**ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم**﴾ [الفتح: ٤]، وقال تعالى: ﴿**فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون**﴾ [التوبة: ١٢٤]؛ وفي السنة: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن**»[1]؛ فالإيمان يزيد كمية، وكيفية؛ فمثال زيادة الكمية: أن الذي يسبح عشراً أزيد إيماناً من الذي يسبح خمساً؛ والذي يصلي عشر ركعات أزيد إيماناً من الذي يصلي ستاً؛ وأما زيادة الكيفية فمثالها: رجل صلى ركعتين بطمأنينة، وخشوع، وتأمل فإيمانه أزيد ممن صلاهما بسرعة؛ كذلك يزداد الإيمان بحسب إقرار القلب: كلما كثرت الآيات لدى الإنسان فلا شك أن إيمانه يزداد قوة، ورسوخاً؛ اقرأ قوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يعبد الله على حرف**﴾ [الحج: ١١] أي على طرَف ﴿**فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة**﴾ [الحج: ١١]: هذا إيمانه ضعيف مهزوز: إن لم تأته فتنة فهو مستقر؛ وإن أتته فتنة ـ شبهة، أو شهوة ـ انقلب على وجهه؛ فمثلاً نحن الآن في المملكة العربية السعودية ليس عندنا ـ ولله الحمد ـ أحد يعارضنا في العقيدة؛ فليس عندنا معتزلة، ولا جهمية، ولا جبرية...، فنحن ثابتون على الفطرة؛ ولكن لو يبتلى الإنسان، فيأتيه واحد من عفاريت الإنس جيد في المجادلة، والمحاجة من المعتزلة لأوشك أن يؤثر عليه، وينقله إذا لم يكن لديه رسوخ في العلم، والإيمان؛ كذلك لو أن إنساناً عنده إيمان لكن تعرضت له

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٤٢٠.

امرأة ذات منصب، وجمال، وأغرته حتى وقع في الفاحشة؛ وإنسان آخر تعرضت له هذه المرأة فقال: «إني أخاف الله» تجد الفرق بينهما؛ فالمهم أن القول الراجح الذي لا شك فيه، والذي تدل عليه الأدلة السمعية، والواقعية أن الإيمان يزيد، وينقص.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: جواز الاقتصار في الجواب على الحرف الدال عليه؛ لقوله تعالى: ﴿بلى﴾؛ وعليه فلو قيل للرجل: ألم تطلق زوجتك؟ فقال: «بلى»: طلقت؛ ولو قيل للرجل عند عقد النكاح: أقبلت النكاح، وقال: «نعم» انعقد النكاح؛ لأن حرف الجواب يغني عن ذكر الجملة.

١١ ـ **ومنها**: امتنان الله على العبد بما يزداد به إيمانه، لقوله تعالى: ﴿**فخذ أربعة من الطير...**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**يأتينك سعياً**﴾.

١٢ ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: «**العزيز**» و«**الحكيم**»؛ وإثبات ما تضمناه من الصفة؛ وهي العزة، والحكمة؛ لأن كل اسم من أسماء الله فهو متضمن لصفة ولا عكس؛ يعني: ليس كل صفة يؤخذ منها اسم؛ لكن كل اسم يؤخذ منه صفة؛ لأن أسماء الله عز وجل أعلام، وأوصاف؛ فكل اسم من أسمائه متضمن للصفة التي دل عليها اشتقاقه، أو لوازمها.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٦١﴾ قوله تعالى: ﴿**مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة**﴾؛ يطلق المثل على الشبه؛ ويطلق على الصفة؛ فإن ذكر مماثل، فالمراد به الشبه؛ وإلا فالمراد به الصفة؛ ففي قوله تعالى: ﴿**مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن...**﴾ [محمد: ١٥] المراد بالمثل الصفة؛ لأنه لم يذكر المماثل؛ أما إذا قيل: «مثَل هذا كمثَل هذا» فهذا يعني الشبه، كقوله تعالى: ﴿**مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً...**﴾ [البقرة: ١٧]، وكما في هذه الآية: ﴿**مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة**﴾ فهذا المراد به الشبه؛ يعني شبه هؤلاء كشبه هذا الشيء؛ والذي يظهر من الآية أنه لا يوجد فيها مطابقة بين الممثل، والممثل به؛ لأن «الممثل» هو العامل؛ و«الممثل به» هو العمل؛ فالحبة ليست بإزاء المنفِق؛ لكنها بإزاء المنفَق؛ والذي يكون بإزاء المنفِق زارعَ الحبة؛ ولهذا قال بعض العلماء: إن الآية فيها تقدير: إما في المبتدأ؛ وإما في الخبر: فإما أن يقدر: مثل عمل الذين ينفقون أموالهم كمثل حبة؛ أو يقدر: مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل زارع حبة أنبتت سبع سنابل؛ والحكمة من هذا الطيّ أن يكون المثل صالحاً للتمثيل بالعامل، والتمثيل بالعمل؛ وهذا من بلاغة القرآن؛ و«**الإنفاق**» معناه البذل؛ و«**أموال**» جمع مال؛ وهو كل ما يتموله الإنسان من أعيان، أو منافع؛ الأعيان كالدراهم، والدنانير، والسيارات، والدور، وما أشبه ذلك؛ والمنافع كمنافع العين المستأجرة؛ فإن المستأجر مالك للمنفعة.

وقوله تعالى: ﴿**في سبيل الله**﴾؛ «سبيل» بمعنى طريق؛ وسبيل الله سبحانه وتعالى هو شرعه؛ لأنه يهدي إليه، ويوصل

إليه؛ قال الله تعالى: ﴿**وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ وأضيف إلى الله لسببين؛ السبب الأول: أنه هو الذي وضعه لعباده، وشرعه لهم؛ والسبب الثاني: أنه موصل إليه؛ ويضاف «السبيل» أحياناً إلى سالك السبيل؛ فيقال: سبيل المؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿**ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين**﴾ [النساء: ١١٥]؛ ولا تناقض بينهما؛ لأنه يضاف إلى المؤمنين باعتبار أنهم هم الذين سلكوه؛ وإلى الله باعتبار أنه الذي شرعه، وأنه موصل إليه.

قوله تعالى: ﴿**كمثل حبة أنبتت سبع سنابل**﴾؛ حبة بذرها إنسان، فأنبتت سبع سنابل ﴿**في كل سنبلة مائة حبة**﴾؛ فتكون الجميع سبعمائة؛ فالحسنة إذاً في الإنفاق في سبيل الله تكون بسبعمائة؛ وهذا ليس حدّاً.

قوله تعالى: ﴿**والله يضاعف لمن يشاء**﴾ أي يزيد ثواباً لمن يشاء حسب ما تقتضيه حكمته.

قوله تعالى: ﴿**والله واسع**﴾ أي ذو سعة في جميع صفاته؛ فهو واسع العلم، والقدرة، والرحمة، والمغفرة، وغير ذلك من صفاته؛ فإنها صفات واسعة عظيمة عليا؛ و﴿**عليم**﴾ أي ذو علم ـ وهو واسع فيه ـ وعلمه شامل لكل شيء جملة، وتفصيلاً؛ حاضراً، ومستقبلاً، وماضياً.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: ضرب الأمثال؛ وهو تشبيه المعقول بالمحسوس؛ لأن ذلك أقرب إلى الفهم.

٢ ـ **ومنها**: أن القرآن على غاية ما يكون من البلاغة، والفصاحة، لأن الفصاحة هي الإفصاح بالمعنى، وبيانه؛ وضرب الأمثال من أشد ما يكون إفصاحاً، وبياناً: قال تعالى: ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون**﴾ [العنكبوت: ٤٣].

٣ ـ **ومنها**: فضيلة الإنفاق في سبيل الله؛ لأنه ينمو للمنفق حتى تكون الحبة سبعمائة حبة.

٤ ـ **ومنها**: الإشارة إلى الإخلاص لله في العمل؛ لقوله تعالى: ﴿**في سبيل الله**﴾ بأن يقصدوا بذلك وجه الله عز وجل.

٥ ـ **ومنها**: الإشارة إلى موافقة الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿**في سبيل الله**﴾؛ لأن ﴿في﴾ للظرفية؛ والسبيل بمعنى الطريق؛ وطريق الله: شرعه؛ والمعنى: أن هذا الإنفاق لا يخرج عن شريعة الله؛ والإنفاق الذي يكون موافقاً للشرع هو ما ذكره بقوله تعالى: ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً**﴾ [الفرقان: ٦٧].

ومعنى إنفاقهم في شرع الله أن يكون ذلك إخلاصاً لله، واتباعاً لشرعه؛ فمن نوى بإنفاقه غير الله فليس في سبيل الله؛ مثل «المرائي»: رجل أنفق في الجهاد، أو أنفق في الصدقة على المساكين؛ لكنه أنفق ليقال: إن فلاناً جواد؛ أو أنه كريم؛ هذا ليس في سبيل الله، لأنه مراء؛ لم يقصد وجه الله عز وجل؛ إذاً لم يرد السبيل الذي يوصل إلى الله؛ ولا يهمه أن يقبل الله منه، أو لا يقبل؛ المهم عنده أنه يقال عند الناس: إنه رجل كريم، أو جواد.

وأما أن يكون على حسب شريعة الله: فإن أنفق في وجه

لا يرضى به الله فليس في سبيل الله ـ وإن أخلص لله ـ كرجل ينفق على البدع يريد بذلك وجه الله ـ وهذا كثير: كبناء الربط للصوفية المنحرفة، وبناء البيوت للأعياد الميلادية، وبناء القصور للمآتم، وطبع الكتب المشتملة على بدع؛ هذا قد يريد الإنسان بذلك وجه الله لكنه خلاف شريعة الله؛ فلا يكون في سبيل الله.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات الملكية للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿**أموالهم**﴾؛ فإن الإضافة هنا تفيد الملكية.

٧ ـ **ومنها**: وجه الشبه في قوله تعالى: ﴿**كمثل حبة أنبتت سبع سنابل**﴾؛ فإن هذه الحبة أنبتت سبع سنابل؛ وشبهها الله بذلك؛ لأن السنابل غذاء للجسم، والبدن؛ كذلك الإنفاق في سبيل الله غذاء للقلب، والروح.

٨ ـ **ومنها**: أن ثواب الله، وفضله أكثر من عمل العامل؛ لأنه لو عومل العامل بالعدل لكانت الحسنة بمثلها؛ لكن الله يعامله بالفضل، والزيادة؛ فتكون الحبة الواحدة سبعمائة حبة؛ بل أزيد؛ لقوله تعالى: ﴿**والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم**﴾.

٩ ـ **ومنها**: إثبات الصفات الفعلية ـ التي تتعلق بمشيئة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**يضاعف**﴾؛ و«المضاعفة» فعل.

١٠ ـ **ومنها**: إثبات مشيئة الله؛ لقوله تعالى: ﴿**لمن يشاء**﴾؛ ولكن هل هذه المشيئة مشيئة مجردة؛ أي أن الترجيح يكون فيها بدون سبب؛ أو هي مشيئة مقيدة بما تقتضيه المصلحة، والحكمة؟ الجواب أنها مشيئة مقيدة بما تقتضيه المصلحة، والحكمة؛ وعليه

فخذ هذا مقياساً: كل شيء علقه الله على المشيئة فإنه مقيد بالحكمة؛ ودليله قوله تعالى: ﴿**وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً**﴾ [الإنسان: ٣٠].

١١ ـ **ومنها**: أن الله له السلطان المطلق في خلقه؛ ولا أحد يعترض عليه؛ لقوله تعالى: ﴿**يضاعف لمن يشاء**﴾؛ ولهذا لما تناظر رجل من المعتزلة، وآخر من أهل السنة قال له المعتزلي: أرأيت إن منعني الهدى، وقضى علي بالردى أحسن إلي، أم أساء؟ ـ يريد أن يبين أن أفعال العباد لا تدخل في إرادة الله؛ لأنه إذا دخلت في إرادة الله فإن هذا الذي قضى عليه بالشقاء، ومنع الهدى يكون إساءة من الله إليه، فقال له السني: إن منعك ما هو لك فقد أساء؛ وإن منعك فضله فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء؛ فغُلب المعتزلي؛ لأنه ليس لك حق على الله واجب؛ والله سبحانه وتعالى يؤتي فضله من يشاء.

١٢ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات هذين الاسمين من أسماء الله: «**الواسع**»، و«**العليم**»؛ لقوله تعالى: ﴿**واسع عليم**﴾؛ وإثبات ما تضمناه من صفة؛ وهما السعة، والعلم.

١٣ ـ **ومنها**: الحث، والترغيب في الإنفاق في سبيل الله؛ يؤخذ هذا من ذكر فضيلة الإنفاق في سبيل الله، فإن الله لم يذكر هذا إلا من أجل هذا الثواب؛ فلا بد أن يعمل له.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٦٢﴾ قوله تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ ذكره مرة أخرى ليبني عليها ما بعدها؛ وهي قوله تعالى: ﴿ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى﴾.

قوله تعالى: ﴿ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا﴾ أي لا يحصل منهم بعد الصدقة مَنٌّ بأن يظهر المنفِق مظهر المترفع على المنفَق عليه؛ ﴿ولا أذى﴾ أي أذى المنفَق عليه بأن يقول المنفِق: «لقد أنفقت على فلان كذا، وكذا» أمام الناس؛ فإن هذا يؤذي المنفق عليه.

قوله تعالى: ﴿لهم أجرهم﴾؛ «الأجر» ما يعطاه العامل في مقابلة عمله؛ ومنه أجرة الأجير؛ وسمى الله سبحانه وتعالى الثواب أجراً؛ لأنه عز وجل تكفل للعامل بأن يجزيه على هذا العمل؛ فصار كأجر الأجير.

قوله تعالى: ﴿عند ربهم﴾: أصل العندية تكون في المكان؛ وقد يراد بها ما يعم المكان، والالتزام، كما تقول: عندي لفلان كذا، وكذا؛ أي في عهدي، وفي ذمتي له كذا، وكذا ـ حتى وإن لم يكن ذلك عنده في مكانه ـ فالعندية قد يراد بها المكان؛ وقد يراد بها ما يلتزم به الإنسان في ذمته، وعهده؛ وهنا ﴿عند ربهم﴾ يحتمل المعنيين؛ يحتمل أنه عند الله سبحانه وتعالى ملتزم به، ولا بد أن يوفيه؛ ويحتمل معنى آخر ـ وكلاهما صحيح ـ أن الثواب هذا يكون في الجنة التي سقفها عرش الرحمٰن؛ وهذه عندية مكان ـ ولا ينافي ما سبق من عندية العهد، والالتزام بالوفاء؛ فتكون الآية شاملة للمعنيين.

قوله تعالى: ﴿ولا خوف عليهم﴾ أي مما يستقبل ﴿ولا هم

يحزنون﴾ أي على ما مضى ـ لكمال نعيمهم ـ لأن المنعَّم لو أصابه الحزن، أو الخوف لتنغص نعيمه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: الحث على الإنفاق في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾.

٢ ـ **ومنها**: الإشارة إلى الإخلاص لله، ومتابعة الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿في سبيل الله﴾.

٣ ـ **ومنها**: أن من أتبع نفقته منًّا، أو أذى، فإنه لا أجر له؛ لقوله تعالى: ﴿ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم﴾؛ فإذا أتبع منًّا، أو أذًى بطل أجره، كما هو صريح قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾** [البقرة: ٢٦٤].

٤ ـ **ومنها**: أن المن والأذى يبطل الصدقة؛ وعليه فيكون لقبول الصدقة شروط سابقة، ومبطلات لاحقة؛ أما الشروط السابقة فالإخلاص لله، والمتابعة؛ وأما المبطلات اللاحقة فالمن، والأذى.

مسألة:

هل مجرد إخبار المنفِق بأنه أعطى فلاناً دون منّ منه بذلك يعتبر من الأذى؟ الجواب: نعم؛ لأن المعطى تنزل قيمته عند من علم به؛ لكن لو أراد بالخبر أن يقتدي الناس به فيعطوه فليس في هذا أذًى؛ بل هو لمصلحة المعطى؛ أما إن ذكر أنه أعطى، ولم يعيِّن المعطى فهذا ليس فيه أذى؛ ولكن يخشى عليه الإعجاب، أو المراءاة.

مسألة أخرى:

هل المنفق عليه إذا أحس بأن المنفق منّ عليه، أو ربما أذاه هل الأفضل أن يبقى قابلاً للإنفاق أو يرده؟ الجواب الأفضل أن يرده لئلا يكون لأحد عليه منة؛ ولكن إذا رده بعد القبض فهل يلزم المنفِق قبوله؟ الجواب: لا يلزمه قبوله؛ لأنه خرج عن ملكه إلى ملك المنفق عليه؛ فيكون رده إياه ابتداء عطية.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات العندية لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**عند ربهم**﴾؛ والعندية تفيد القرب؛ فيكون الله عز وجل في مكان، وبعض الأشياء عنده، وبعض الأشياء بعيدة عنه؛ ولكن كلها قد أحاط الله بها؛ كلها بالنسبة إليه ـ إلى علمه، وقدرته، وسلطانه، وربوبيته ـ كلها سواء ـ لكن لا شك أن من كان حول العرش ليس كمن حول الفرش؛ ولكن يجب أن نعلم أن المكان ليس محيطاً به، كما قال تعالى: ﴿**وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه**﴾ [الزمر: ٦٧]؛ لأنه سبحانه وتعالى فوق كل شيء؛ لا يحيط به شيء من مخلوقاته.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، ويَسْلَمون من المحبطات لا ينالهم خوف في المستقبل، ولا حزن على الماضي؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٦٣﴾ قوله تعالى: ﴿قول﴾ مبتدأ؛ و﴿خير﴾ خبره؛ وساغ الابتداء به هنا وهو نكرة؛ لأنه وصف؛ وإن شئت فقل: لأنه أفاد؛ وطريق إفادته الوصف؛ وإذا عللت بأنه أفاد صار أحسن؛ لأنه أعم.

قوله تعالى: ﴿قول معروف﴾ أي ما نطق به اللسان معروفاً في الشرع، ومعروفاً في العرف.

قوله تعالى: ﴿ومغفرة﴾ أي: مغفرة الإنسان لمن أساء إليه؛ قال تعالى: **﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾** [الشورى: ٤٣]؛ القول المعروف إحسان؛ والمغفرة إحسان؛ ولكن الفرق بينهما أن «**القول المعروف**» إسداء المعروف القولي إلى الغير؛ و«**المغفرة**» تسامح الإنسان عن حقه في جانب غيره.

قوله تعالى: **﴿خير من صدقة يتبعها أذى﴾**؛ «**الصدقة**» بذل الإحسان المالي؛ الإنسان قد ينتفع بالمال أكثر مما ينتفع بالكلمة؛ وقد ينتفع بالكلمة أكثر مما ينتفع بالمال؛ لكن لا شك أن القول المعروف خير من الصدقة التي يتبعها أذى ـ وإن نفعت؛ لأنك لو تعطي هذا الرجل ما تعطيه من المال صدقة لله عز وجل، ثم تتبعها الأذى؛ فإن هذا الإحسان صار في الحقيقة إساءة ـ وإن كان هذا قد ينتفع به في حاجاته ـ لكن هو في الحقيقة إساءة له.

قوله تعالى: ﴿والله غني﴾ أي عن غيره؛ فهو سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى أحد؛ وكل من في السموات والأرض فإنه محتاج إلى الله تعالى؛ هو غني بذاته عن جميع مخلوقاته؛ فله الغنى المطلق من جميع الوجوه.

قوله تعالى: ﴿حليم﴾؛ «الحلم» تأخير العقوبة عن مستحقها؛ قال ابن القيم في النونية:

وهو الحليم فلا يعاجل عبده بعقوبته ليتوب من عصيان

وجمع الله في هذه الآية بين «**الغِنى**» و«**الحِلم**»؛ لأن الآية في سياق الصدقة، فبين عز وجل أن الصدقات لا تنفع الله؛ وإنما تنفع من يتصدق؛ والآية أيضاً في سياق من أتبع الصدقة أذى ومِنّة؛ وهذا حري بأن يعاجَل بالعقوبة، حيث آذى هذا الرجل الذي أعطاه المال لله؛ ولكن الله حليم يحلم على عبده لعله يتوب من المعصية.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: فضيلة القول المعروف؛ لقوله تعالى: ﴿**قول معروف ومغفرة خير من صدقة...**﴾؛ و«**القول المعروف**» كل ما عرفه الشرع، والعادة؛ مثال ذلك: أن يأتي رجل يسأل مالاً بحاله، أو قاله؛ فكلمه المسؤول، وقال: ليس عندي شيء، وسيرزق الله، وإذا جاء شيء فإننا نجعلك على البال، وما أشبه ذلك؛ فهذا قول معروف ليِّن، وهيِّن.

٢ ـ **ومنها**: الحث على المغفرة لمن أساء إليك؛ لكن هذا الحث مقيد بما إذا كانت المغفرة إصلاحاً؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن عفا وأصلح فأجره على الله**﴾ [الشورى: ٤٠]؛ أما إذا لم تكن المغفرة إصلاحاً، مثل أن أغفر لهذا الجاني، ثم يذهب، ويسيء إلى الآخرين، أو يكرر الإساءة إليَّ، فإن الغفر هنا غير مطلوب.

٣ ـ **ومنها**: أن الأعمال الصالحة تتفاضل، ويلزم من

تفاضلها تفاضل العامل، وزيادة الإيمان، أو نقصانه.

٤ ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما «**الغني**» و«**الحليم**»؛ وإثبات ما دلا عليه من الصفات.

٥ ـ **ومنها**: المناسبة في ختم هذه الآية الكريمة بهذين الاسمين؛ لأن في الآية إنفاقاً؛ وإذا كان الله عز وجل هو الذي يخلِف هذا الإنفاق فإنه لكمال غناه؛ كذلك المغفرة عمن أساء إليك: فإن المغفرة تتضمن الحلم، وزيادة؛ فختم الله الآية بالحلم؛ وقد يقال: إن فيه مناسبة أخرى؛ وهي أن المن بالصدقة كبيرة من كبائر الذنوب؛ والله سبحانه وتعالى حليم على أهل الكبائر؛ إذ لو يؤاخذ الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾.

التفسير:

﴿٢٦٤﴾ قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾: تصدير الخطاب بالنداء يدل على الاهتمام به؛ لأن النداء يحصل به تنبيه المخاطب؛ فيدل على العناية بموضوع الخطاب؛ ولهذا قال ابن مسعود: «**إذا سمعت الله يقول**: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾

فأرعها سمعك: فإنه خير تأمر به؛ أو شر ينهى عنه»[١]؛ وصدق رضي الله عنه.

ثم في توجيه النداء للمؤمنين بوصف الإيمان فيه فوائد؛ **الفائدة الأولى**: الحث على قبول ما يلقى إليهم، وامتثاله؛ وجه ذلك: أنه إذا علق الحكم بوصف كان ذلك الوصف علة للتأثر به؛ كأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا لإيمانكم افعلوا كذا، وكذا؛ أو لا تفعلوا كذا؛ **الفائدة الثانية**: أن ما ذكر يكون من مكملات الإيمان، ومقتضياته؛ **الفائدة الثالثة**: أن مخالفة ما ذكر نقص في الإيمان.

قوله تعالى: ﴿**لا تبطلوا صدقاتكم**﴾: الإبطال للشيء يكون بعد وجوده؛ فالبطلان لا يكون غالباً إلا فيما تم؛ و«**الصدقات**» جمع صدقة؛ وهي ما يبذله الإنسان تقرباً إلى الله.

قوله تعالى: ﴿**بالمن والأذى**﴾؛ الباء للسببية؛ و«**المن**» إظهار أنك مانّ عليه، وأنك فوقه بإعطائك إياه؛ و«**الأذى**» أن تذكر ما تصدقت به عند الناس فيتأذى به.

قوله تعالى: ﴿**كالذي ينفق ماله رئاء الناس**﴾؛ الكاف هنا للتشبيه؛ وهي خبر مبتدأ محذوف؛ والتقدير: مثلكم كالذي ينفق ماله رئاء الناس؛ و﴿**رئاء**﴾ مفعول لأجله؛ وهي مصدر راءى يرائي رئاءً ومراءاة، كقاتل يقاتل قتالاً ومقاتلة؛ وجاهد يجاهد جهاداً ومجاهدة؛ و«الرياء» فِعل العبادة ليراه الناس، فيمدحوه عليها.

قوله تعالى: ﴿**ولا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر**﴾ معطوف على

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٣٣٧.

قوله تعالى: ﴿ينفق﴾؛ وسبق معنى الإيمان بالله، واليوم الآخر؛ وهذا الوصف ينطبق على المنافق؛ فالمنافق ـ والعياذ بالله ـ لا يؤمن بالله، ولا باليوم الآخر؛ ولا ينفق إلا مراءاةً للناس؛ ومع ذلك لا ينفق إلا وهو كاره، كما قال تعالى: ﴿**وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس**﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال في سورة «التوبة»: ﴿**ولا ينفقون إلا وهم كارهون**﴾ [التوبة: ٥٤]؛ هؤلاء لا ينفقون إلا وهم كارهون؛ لأنهم لا يرجون من هذا الإنفاق ثواباً؛ إذ إنه لا إيمان عندهم، و﴿**اليوم الآخر**﴾ هو يوم القيامة؛ وسمي «**اليوم الآخر**»؛ لأنه لا يوم بعده؛ كل يذهب إلى مستقره: أهل الجنة إلى مستقرهم؛ وأهل نار إلى مستقرهم؛ فهو يوم آخر لا يوم بعده؛ ولذلك فهو مؤبد: إما في جنة؛ وإما في نار.

قوله تعالى ﴿**كمثل صفوان**﴾ أي كشِبْه صفوان؛ وهو الحجر الأملس ﴿**عليه تراب**﴾؛ والتراب معروف؛ ﴿**فأصابه وابل**﴾ أي مطر شديد الوقع سريع التتابع؛ فإذا أصاب المطر تراباً على صفوان فسوف يزول التراب؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿**فتركه صلداً**﴾ أي ترك الوابلُ هذا الصفوانَ أملس ليس عليه تراب؛ وجه الشبه بين المرائي والصفوان الذي عليه تراب، أن من رأى المنافق في ظاهر حاله ظن أن عمله نافع له؛ وكذلك من رأى الصفوان الذي عليه تراب ظنه أرضاً خصبة طينية تنبت العشب؛ فإذا أصابها الوابل الذي ينبت العشب سحق التراب الذي عليه، فزال الأمل في نبات العشب عليه من الوابل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**لا يقدرون على شيء مما كسبوا**﴾؛ وصح عود واو الجماعة في ﴿**يقدرون**﴾ على ﴿**الذي**﴾ في قوله تعالى: ﴿**كالذي ينفق ماله**﴾؛ لأن ﴿**الذي**﴾ اسم موصول يفيد العموم؛ فهو بصيغته اللفظية مفرد، وبدلالته

المعنوية جمع؛ لأنه عام؛ وسمى الله عز وجل ما أنفقوا كسباً باعتبار ظنهم أنهم سينتفعون به.

قوله تعالى: ﴿**والله لا يهدي القوم الكافرين**﴾ أي لا يهدي سبحانه الكافرين هداية توفيق؛ أما هداية الدلالة فإنه سبحانه لم يَدَع أمة إلا بعث فيها نبياً؛ لكن الكافر لا يوفقه الله لقبول الحق؛ و﴿**الكافرين**﴾ أي الذين حقت عليهم كلمة الله، كما قال تعالى: ﴿**إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم**﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: تحريم المن، والأذى في الصدقة؛ لقوله تعالى: ﴿**لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى**﴾.

٢ ـ **ومنها**: بلاغة القرآن، حيث جاء النهي عن المنّ، والأذى بالصدقة بهذه الصيغة التي توجب النفور؛ وهي: ﴿**لا تبطلوا صدقاتكم**﴾؛ فإنها أشد وقعاً من «لا تَمُنّوا، ولا تؤذوا بالصدقة».

٣ ـ **ومنها**: أن المن والأذى بالصدقة يبطل ثوابها؛ لقوله تعالى: ﴿**لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن المن والأذى بالصدقة كبيرة من كبائر الذنوب؛ وجه ذلك: ترتيب العقوبة على الذنب يجعله من كبائر الذنوب؛ وقد قال شيخ الإسلام في حد الكبيرة: «كل ذنب رُتب عليه عقوبة خاصة، كالبراءة منه، ونفي الإيمان، واللعنة، والغضب، والحد، وما أشبه ذلك»؛ وهذا فيه عقوبة خاصة؛ وهي إبطال العمل؛ ويؤيد ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث

أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**»(١).

٥ ـ **ومنها**: أن المنّ والأذى بالصدقة مناف لكمال الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى**﴾؛ كأنه يقول: «إن مقتضى إيمانكم ألا تفعلوا ذلك؛ وإذا فعلتموه صار منافياً لهذا الوصف، ومنافياً لكماله».

٦ ـ **ومنها**: تشبيه المعقول بالمحسوس ليقربه إلى الذهن؛ لقوله تعالى: ﴿**فمثله كمثل صفوان...**﴾ إلخ.

٧ ـ **ومنها**: تحريم مراءاة الناس بالعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿**كالذي ينفق ماله رئاء الناس**﴾؛ والتسميع كالمراءاة؛ والفرق بينهما أن المراءاة فيما يُرى ـ كالأفعال ـ والتسميع بما يقال.

٨ ـ **ومنها**: أن من راءى الناس بإنفاقه ففي إيمانه بالله، وباليوم الآخر نقص؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر**﴾؛ لأن الذي يرائي لو كان مؤمناً بالله حق الإيمان لجعل عمله لله خالصاً لله؛ ولو كان يؤمن باليوم الآخر حق الإيمان لم يجعل عمل الآخرة للدنيا؛ لأن مراءاة الناس قد يكسب بها الإنسان جاهاً في الدنيا فقط؛ مع أنه لا بد أن يتبين أمره؛ وإذا تبين أنه مراءٍ نزلت قيمته في أعين الناس؛ يقول الشاعر:

ثوب الرياء يشف عما تحته ... فإذا اكتسيت به فإنك عاري

---

(١) أخرجه مسلم ص٦٩٦، كتاب الإيمان، باب ٤٦: بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية...، حديث رقم ٢٩٣ [١٧١] ١٠٦.

أنت لا تظن أنك إذا راءيت الناس أنك ستبقى مخادعاً لهم؛ بل إن الله سبحانه وتعالى سيظهر ذلك؛ ما أسر إنسان سريرة إلا أظهرها الله سبحانه على صفحات وجهه، وفلتات لسانه.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات اليوم الآخر؛ وهو يوم القيامة.

١٠ ـ **ومنها**: بلاغة القرآن في التشبيه؛ لأنك إذا طابقت بين المشبه، والمشبه به، وجدت بينهما مطابقة تامة.

١١ ـ **ومنها**: إثبات كون القياس دليلاً صحيحاً؛ وجه ذلك: التمثيل، والتشبيه؛ فكل تمثيل في القرآن فإنه دليل على القياس؛ لأن المقصود به نقل حكم هذا المشبه به إلى المشبه.

١٢ ـ **ومنها**: أن الرياء مبطل للعمل؛ وهو نوع من الشرك؛ لقوله تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[(١)]؛ فإن قصد بعمله إذا رآه الناس أن يتأسى الناس به، ويسارعوا فيه فهي نية حسنة لا تنافي الإخلاص؛ لأن النبي ﷺ صلى على المنبر، وقال: «**إنما صنعت هذا لتأتموا بي، ولتعلَّموا صلاتي**»[(٢)]؛ وفي الحج كان ﷺ يقول: «**لتأخذوا مناسككم**»[(٣)]؛ وهو داخل في قول النبي ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة**»[(٤)].

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٩٠.

(٢) سبق تخريجه ٢/ ١٢٧.

(٣) أخرجه مسلم ص٨٩٣، كتاب الحج، باب ٥١: استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً حديث رقم: ٣١٣٧ [٣١٠] ١٢٩٧.

(٤) سبق تخريجه ٢/ ٤٢.

١٣ ـ **ومن فوائد الآية**: الإشارة إلى تحسر هؤلاء عند احتياجهم إلى العمل، وعجزهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿**لا يقدرون على شيء مما كسبوا**﴾؛ وعجز الإنسان عن الشيء بعد محاولة القدرة عليه أشد حسرة من عدمه بالكلية؛ ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿**أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطاماً**﴾ [البقرة: ٦٣ ـ ٦٥]؛ وكونه حطاماً ينظرون إليه أشد حسرة من كونه لم ينبت أصلاً؛ وقوله تعالى: ﴿**أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجاً**﴾ [الواقعة: ٦٨ ـ ٧٠]؛ وكونه بين أيديهم أجاجاً لا يستسيغون شربه أشد مما لو لم يوجد أصلاً؛ والإنسان العاقل يجعل العمل لله: لله؛ والعمل للناس: للناس؛ أنا قد أحب أن أخرج للناس في ثوب جميل: لا بأس أن أتجمل ليراني الناس على هذه الحال؛ لكن أصلي ليراني الناس أصلي: لا يصح؛ لأن العمل لله يجب أن يكون لله لا يشاركه فيه أحد.

١٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن من قضى الله عليه بالكفر لا تمكن هدايته؛ لقوله تعالى: ﴿**والله لا يهدي القوم الكافرين**﴾؛ فإن قلت: كيف تجمع بين هذا وبين الواقع من أن الله سبحانه وتعالى هدى قوماً كافرين كثيرين؟ فالجواب أن من هدى الله لم تكن حقت عليهم كلمة الله؛ فأما من حقت عليه كلمة الله فلن يُهْدى، كما قال تعالى: ﴿**إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم**﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

١٥ ـ **ومنها**: أن المنافق كافر؛ لقوله تعالى: ﴿**والله لا يهدي القوم الكافرين**﴾ بعد أن ذكر ما يتعلق بصفة المنافق؛ وهو الذي

ينفق ماله رئاء الناس، ولا يؤمن بالله، واليوم الآخر؛ وهذا ينطبق تماماً على المنافقين؛ ولا ريب أن المنافقين كفار ـ وإن تظاهروا بالإسلام ـ ولكن هل نعاملهم معاملة الكفار؟ الجواب: لا نعاملهم معاملة الكفار؛ لأن أحكام الدنيا تجري على الظاهر؛ وأحكام الآخرة تجري على الباطن والسرائر، كما قال تعالى: ﴿**أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور * وحصِّل ما في الصدور**﴾ [العاديات: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿**يوم تبلى السرائر**﴾ [الطارق: ٩]؛ ولأنه لو عومل الناس في الدنيا على السرائر لكان في ذلك تكليف ما لا يطاق من وجه؛ وكان في ذلك الفوضى التي لا نهاية لها من وجه آخر؛ أما تكليف ما لا يطاق فلأننا لا نعلم ما في صدور الناس؛ فلا يمكن أن نحكم عليه؛ وأما الفوضى فلأنه يستطيع كل ظالم له ولاية أن يعاقب هذا الرجل، أو يعدم هذا الرجل بحجة أنه مبطن للكفر؛ ولما استؤذن النبي ﷺ في قتل المنافقين قال: «**لا أقتلهم؛ لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»(١).

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري ص٤٢٠، كتاب التفسير، باب ٥: قوله تعالى: ﴿**سواء عليهم أستغفرت لهم**﴾ الآية، حديث رقم ٤٩٠٥، وأخرجه مسلم ص١١٣٠، كتاب البر والصلة، باب ١٦: نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، حديث رقم ٦٥٨٣ [٦٣] ٢٥٨٤.

التفسير:

﴿٢٦٥﴾ قوله تعالى: ﴿مثل﴾: مبتدأ؛ وخبره قوله تعالى: ﴿كمثل جنة﴾؛ وقوله تعالى: ﴿ينفقون﴾ أي يبذلون؛ وقوله تعالى: ﴿ابتغاء مرضات الله﴾ أي طلب رضوان الله.

قوله تعالى: ﴿وتثبيتاً﴾ معطوفة على ﴿ابتغاء﴾؛ وقوله تعالى: ﴿من أنفسهم﴾؛ ﴿من﴾ ابتدائية؛ يعني: تثبيتاً كائناً في أنفسهم لم يحملهم عليه أحد؛ ومعنى يثبتونها: يجعلونها تثبت، وتطمئن؛ أي لا تتردد في الإنفاق، ولا تشك في الثواب؛ وهذا يدل على أنهم ينفقون طيبة نفوسهم بالنفقة.

قوله تعالى: ﴿كمثل جنة بربوة﴾؛ «الجنة» البستان الكثير الأشجار؛ وسميت بذلك؛ لأنها تجن من فيها، وفي قوله تعالى: ﴿بربوة﴾ بفتح الراء قراءة أخرى بضم الراء؛ و«الربوة» المكان المرتفع؛ من ربا الشيء إذا زاد، وارتفع، كما في قوله تعالى: ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ [الحج: ٥].

قوله تعالى: ﴿أصابها وابل﴾ أي نزل عليها وابل؛ و«الوابل» المطر الشديد.

هذه جنة بربوة مرتفعة للهواء بائنة ظاهرة للشمس؛ أصابها وابل؛ ماذا تكون هذه الجنة! ستثمر ثمراً عظيماً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فآتت أكلها ضعفين﴾؛ «الأكل» بمعنى الثمر الذي يؤكل: قال الله تعالى: ﴿أكلها دائم وظلها﴾ [الرعد: ٣٥] يعني ثمرها الذي يؤكل؛ و﴿ضعفين﴾ أي مضاعفاً، وزائداً.

قوله تعالى: ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾: الجملة شرطية؛ الشرط: «إن»؛ وفعل الشرط: ﴿لم يصبها﴾؛ و﴿طل﴾ أي فهو

طل ـ والجملة جواب الشرط؛ والمعنى: فإن لم يصبها المطر الشديد أصابها طل ـ وهو المطر الخفيف، ويكفيها عن المطر الكثير؛ لأنها في أرض خصبة مرتفعة بينة للشمس، والهواء؛ والمثل منطبق: فقد شبه هذا الذي ينفق ماله ابتغاء مرضات الله، وتثبيتاً من نفسه بهذه الجنة.

وهل المشبه نفس الرجل أو النفقة؟ الجواب: المشبه هو النفقة؛ ولهذا قال بعضهم: إن التقدير: «مَثَل إنفاق الذين ينفقون أموالهم كمثل جنة»؛ ويحتمل أن التقدير: «كمثل صاحب جنة»؛ فيكون المشبه «المنفِق» لا «الإنفاق»؛ وقال بعضهم: لا حاجة إلى التقدير للعلم به من السياق، وأن هذا من بلاغة القرآن، حيث طوى ذكر الشيء لدلالة السياق عليه.

قوله تعالى: ﴿**والله بما تعملون بصير**﴾: قدم الجار والمجرور ـ وهو متعلق بـ﴿**بصير**﴾ ـ لإفادة الحصر، ومراعاة الفواصل؛ والحصر هنا إضافي للتهديد؛ لأن الله بصير بما نعمل، وبغيره.

وهل ﴿**بصير**﴾ هنا من البصر بالعين؛ أو من العلم؟ الجواب: كونه من العلم أحسن ليشمل ما نعمله من الأقوال؛ فإن الأقوال تسمع، ولا تُرى؛ وليشمل ما في قلوبنا؛ فإن ما في قلوبنا لا يُسمع، ولا يُرى؛ وإنما يعلم عند الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه**﴾ [قٓ: ١٦].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أنه لا إنفاق نافع إلا ما كان مملوكاً للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿**أموالهم**﴾؛ فلو أنفق مال غيره لم يقبل منه إلا أن يكون بإذن من الشارع، أو المالك.

فإن قال قائل: عندي مال محرم لكسبه، وأريد أن أتصدق به فهل ينفعني ذلك؟

فالجواب: إن أنفقه للتقرب إلى الله به: لم ينفعه، ولم يسلم من وزر الكسب الخبيث؛ والدليل قوله ﷺ: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً**»[1]؛ وإن أراد بالصدقة به التخلص منه، والبراءة من إثمه: نفعه بالسلامة من إثمه، وصار له أجر التوبة منه ـ لا أجر الصدقة.

ولو قال قائل: عندي مال اكتسبته من ربا فهل يصح أن أبني به مسجداً، وتصح الصلاة فيه؟

فالجواب: بالنسبة لصحة الصلاة في هذا المسجد هي صحيحة بكل حال؛ وبالنسبة لثواب بناء المسجد: إن قصد التقرب إلى الله بذلك لم يقبل منه، ولم يسلم من إثمه؛ وإن قصد التخلص سلم من الإثم، وأثيب ـ لا ثواب باني المسجد ـ ولكن ثواب التائب.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: بيان ما للنية من تأثير في قبول الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿**ابتغاء مرضات الله**﴾.

٣ ـ **ومنها**: اشتراط الإخلاص لقبول الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿**ابتغاء مرضات الله**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن الإنفاق لا يفيد إلا إذا كان على وفق الشريعة؛ لقوله تعالى: ﴿**ابتغاء مرضات الله**﴾؛ وجه ذلك أن من ابتغى شيئاً فإنه لا بد أن يسلك الطريق الموصل إليه؛ ولا طريق يوصل إلى مرضات الله إلا ما كان على وفق شريعته في الكم، والنوع، والصفة؛ كما قال تعالى في **الكم**: ﴿**والذين إذا أنفقوا**

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٢٤٧.

لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾ [الفرقان: ٦٧]؛ وقال تعالى في **النوع**: **﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾** [الحج: ٣٤]، وقال النبي ﷺ: **«لا يقبل الله إلا الطيب»**[1]؛ وفي **الصفة** قال الله تعالى: **﴿كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر...﴾** إلخ [البقرة: ٢٦٤].

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات رضا الله؛ لقوله تعالى: **﴿مرضات الله﴾**؛ وهو من الصفات الفعلية.

٦ ـ **ومنها**: بيان أن تثبيت الإنسان لعمله، واطمئنانه به من أسباب قبوله؛ لقوله تعالى: **﴿وتثبيتاً من أنفسهم﴾**؛ لأن الإنسان الذي لا يعمل إلا كارهاً فيه خصلة من خصال المنافقين؛ كما قال تعالى: **﴿ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾** [التوبة: ٥٤].

٧ ـ **ومنها**: فضل الإنفاق على وجه التثبيت من النفس؛ لأنه يندفع بدافع نفسي؛ لا بتوصية من غيره، أو نصيحة.

٨ ـ **ومنها**: إثبات القياس؛ لقوله تعالى: **﴿مثل... كمثل...﴾**؛ وقد ذكرنا قاعدة فيما سبق أن كل مثال في القرآن سواء كان تمثيلياً، أو إفرادياً، فهو دليل على ثبوت القياس.

٩ ـ **ومنها**: أنه يحسن في التعليم أن يبين المعقول بالمحسوس؛ لقوله تعالى: **﴿كمثل جنة بربوة﴾**؛ وهذا من البلاغة؛ لأنه يقرب المعقول إلى أذهان الناس.

١٠ ـ **ومنها**: اختيار المكان الأنفع لمن أراد أن ينشئ بستاناً؛ لقوله تعالى: **﴿كمثل جنة بربوة﴾**.

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٢٤٧.

١١ ـ **ومنها**: بركة آثار المطر؛ لقوله تعالى: ﴿**فآتت أكلها ضعفين**﴾؛ ولهذا وصف الله المطر بأنه مبارك في قوله تعالى: ﴿**ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد**﴾ [قَ: ٩] الآيتين.

١٢ ـ **ومنها**: أنه إذا كان مكان البستان طيباً فإنه يكفي فيه الماء القليل؛ لقوله تعالى: ﴿**فإن لم يصبها وابل فطل**﴾.

١٣ ـ **ومنها**: إثبات علم الله، وعمومه؛ لقوله تعالى: ﴿**بما تعملون بصير**﴾.

١٤ ـ **ومنها**: التحذير من مخالفة الله عز وجل؛ لكونه عالماً بما نعمل.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٦٦﴾ قوله تعالى: ﴿**أيود أحدكم**﴾ الاستفهام هنا بمعنى النفي، كما سيتبين من آخر الآية؛ و«**يود**» أي يحب؛ و«**الود**» خالص المحبة.

قوله تعالى: ﴿**أن تكون له جنة**﴾ أي بستان ﴿**من نخيل وأعناب**﴾؛ وهذه من أفضل المأكولات؛ فالتمر حلوى، وقوت،

وفاكهة؛ والعنب كذلك: حلوى، وقوت، وفاكهة؛ وظاهر كلمة «**أنهار**» أن الماء عذب؛ وجمع ﴿**الأنهار**﴾ باعتبار تفرقها في الجنة، وانتشارها في نواحيها؛ إذاً يعتبر هذا البستان كاملاً من كل النواحي: نخيل، وأعناب، ومياه، وثمرات؛ وهو أيضاً جنة كثيرة الأشجار، والأغصان، والزروع، وغير ذلك ـ هذا هو المشهد الأول من الآية.

والمشهد الثاني قوله تعالى: ﴿**وأصابه الكبر**﴾ أي أصاب صاحب الجنة الكِبَر، فعجز عن تصريفها، والقيام عليها؛ ﴿**وله ذرية ضعفاء**﴾ يعني صغاراً، أو عاجزين؛ فالأب كبير؛ والذرية ضعفاء ـ إما لصغرهم، أو عجزهم.

قوله تعالى: ﴿**فأصابها**﴾ أي أصاب هذه الجنة ﴿**إعصار**﴾ أي ريح شديدة؛ وقيل: ريح منطوية التي ينطوي بعضها على بعض؛ وهذا الإعصار ﴿**فيه نار**﴾ أي حرارة شديدة؛ مر الإعصار على هذه الجنة ﴿**فاحترقت**﴾ حتى تساقطت أوراقها، وثمراتها، ويبست أغصانها، وعروقها؛ فماذا يكون حال هذا الرجل؟! يكون في غاية ما يكون من البؤس؛ لأنه فقد هذه الجنة في حال الكبر، والذرية الضعفاء؛ فهو في نفسه لا يكتسب، وذريته لا يكتسبون له ولا لأنفسهم؛ فتكون عليه الدنيا أضيق ما يكون، ويتحسر على هذه الجنة أشد ما يكون من التحسر.

هذا الأمر الذي بينه الله هنا ضربه الله مثلاً للمنفق المانّ بنفقته؛ انظر كيف يبدئ الله ويعيد في القرآن العظيم للتنفير من المن بالصدقة؛ والذي يشبه الإعصار نفس المنّ؛ فهذا الرجل

تصدق بألف درهم، فهذه الصدقة تنمو له: الألف يكون بسبعمائة ألف إلى أضعاف كثيرة؛ لكنه ـ والعياذ بالله ـ منّ بهذه الصدقة، فصار هذا المنّ بمنزلة الإعصار الذي أصاب تلك الجنة الفيحاء؛ ولا يمكن أن تنزل هذه الصورة على المرائي؛ لأن المرائي لم يغرس شيئاً أصلاً.

قوله تعالى: ﴿**كذلك يبين الله لكم الآيات**﴾ أي مِثل ذلك البيان؛ وهذا التعبير يرد كثيراً في القرآن، وتقديره كما سبق؛ وإذا كان هذا التقدير فإننا نقول: الكاف اسم بمعنى مثل؛ وهي منصوبة على أنها مفعول مطلق؛ وعاملها ﴿**يبين**﴾؛ و﴿**الآيات**﴾ يشمل الآيات الكونية، والشرعية ـ يبينها الله، ويوضحها.

قوله تعالى: ﴿**لعلكم تتفكرون**﴾: «**لعل**» هنا للتعليل؛ و«**التفكر**» إعمال الفكر فيما يراد.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: بيان تثبيت المعاني المعقولة بالأمور المحسوسة؛ لأنه أقرب إلى الفهم؛ وجه ذلك أن الله سبحانه وتعالى ضرب مثلاً للمانّ بالصدقة بصاحب هذه الجنة؛ ووجه الشبه سبقت الإشارة إليه.

٢ ـ **ومنها**: جواز ضرب المثل بالقول؛ فهل يجوز ضرب المثل بالفعل ـ وهو ما يسمى بالتمثيل؟

الجواب: نعم، يجوز لكن بشرط ألا يشتمل على شيء محرم؛ ولنضرب لذلك أمثلة للأشياء المحرمة في التمثيل:

أولاً: أن يكون فيه قيام رجل بدور امرأة، أو قيام امرأة بدور رجل؛ لأن النبي ﷺ **لعن المتشبهين من الرجال بالنساء،**

والمتشبهات من النساء بالرجال[١].

ثانياً: أن يتضمن ازدراء ذوي الفضل من الصحابة، وأئمة المسلمين؛ لأن ازدراءهم واحتقارهم محرم؛ والقيام بتمثيلهم يحط من قدرهم ـ لا سيما إذا عُلم من حال الممثِّل أنه فاسق؛ لأن الغالب إذا كان فاسقاً وقد تقمص شخصية هذا الرجل التَّقي الذي له قدره، وفضله في الأمة، فإن هذا قد يحط من قدره بهذا الذي قام بدور في التمثيلية.

ثالثاً: أن يكون فيه تقليد لأصوات الحيوانات، مثل أن يقوم بدور تمثيل الكلب، أو الحمار؛ لأن الله لم يذكر التشبيه بالحيوانات إلا في مقام الذم، كقوله تعالى: ﴿**مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار**﴾ [الجمعة: ٥]، وقوله: ﴿**واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث...**﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] الآيتين؛ وكذلك السنة لم تأت بالتشبيه بالحيوان إلا في مقام الذم، كقول النبي ﷺ: «**الذي يتكلم والإمام يخطب يوم الجمعة كمثل الحمار يحمل أسفاراً**»[٢]، وقوله: «**العائد**

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٠١، كتاب اللباس، باب ٦١: المتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال، حديث رقم ٥٨٨٦.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٢٣٠، حديث رقم ٢٠٣٣، قال الحافظ في البلوغ: [رواه أحمد بإسناد لا بأس؛ وهو يفسر حديث أبي هريرة في الصحيحين مرفوعاً: «إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت»]، وقال الهيثمي: (رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير؛ وفيه مجالد بن سعيد وقد ضعفه الناس ووثقه النسائي في رواية) (مجمع =

في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه»[(١)].

رابعاً: أن يتضمن تمثيل دَور الكافر، أو الفاسق؛ بمعنى أن يكون أحد القائمين بأدوار هذه التمثيلية يمثل دَور الكافر، أو دَور الفاسق؛ لأنه يخشى أن يؤثر ذلك على قلبه: أن يتذكر يوماً من الدهر أنه قام بدور الكافر، فيؤثر على قلبه، ويدخل عليه الشيطان من هذه الناحية؛ لكن لو فعل هل يكون كافراً؟

الجواب: لا يكون كافراً؛ لأن هذا الرجل لا ينسب الكفر إلى نفسه؛ بل صور نفسه صورة من ينسبه إلى نفسه، كمن قام بتمثيل رجل طلق زوجته؛ فإن زوجة الممثل لا تطلق؛ لأنه لم ينسب الطلاق إلى نفسه؛ بل إلى غيره.

وقد ظن بعض الناس أنه إذا قام بدور الكافر فإنه يكفر، ويخرج من الإسلام، ويجب عليه أن يجدد إسلامه، واستدل بالقرآن، وكلام أهل العلم؛ أما القرآن فاستدل بقوله تعالى: **﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾** [التوبة: ٦٥، ٦٦]: وهؤلاء القوم يدعون أنهم يخوضون، ويلعبون؛ يعني: على سبيل التسلية ليقطعوا بها عناء الطريق؛ ويقول أهل العلم: إن من أتى بكلمة الكفر ـ ولو مازحاً ـ فإنه يكفر؛ قالوا:

= الزوائد ٢/١٨٧)، وقال أحمد شاكر، في تخريج المسند ٣/٣٢٦: إسناده حسن.

(١) أخرجه البخاري ص٢٠٤، كتاب الهبة، باب ١٤: هبة الرجل لامرأته، والمرأة لزوجها، حديث رقم ٢٥٨٩، وأخرجه مسلم ص٩٦٠، كتاب الهبات، باب ٢: تحريم الرجوع في الصدقة بعد القبض...، حديث رقم ٤١٧٠ [٥] ١٦٢٢.

وهذا الرجل مازح ليس جادّاً؛ فالجواب أن نقول: إن النبي ﷺ قال: «**ثلاث جِدّهن جِدّ وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة**»[(١)]: فلو قال الرجل لزوجته: أنت طالق يمزح عليها فإنها تطلق؛ فهل تقولون: إذا قام الممثل بدور رجل طلق امرأته فإنها تطلق امرأته؟ سيقولون: لا؛ وكلنا يقول: لا؛ والفرق ظاهر؛ لأن المازح يضيف الفعل إلى نفسه، والممثل يضيفه إلى غيره؛ ولهذا لا تطلق زوجته لو قام بدور تمثيل المطلِّق؛ ولا يكفر لو قام بدوره تمثيل الكافر؛ لكن أرى أنه لا يجوز من ناحية أخرى؛ وهي أنه لعله يتأثر قلبه في المستقبل، حيث يتذكر أنه كان يوماً من الدهر يمثل دور الكافر؛ ثم إنه ربما يعَيَّر به فيقال مثلاً: أين أبو جهل؟! إذا قام بدوره.

ويمكن أن نأتي بدليل على جواز التمثيل؛ وذلك في قصة الثلاثة من بني إسرائيل: الأقرع، والأعمى، والأبرص؛ فالملك أتى الأبرص، والأقرع، والأعمى، وسألهم ماذا يريدون؛ كل ذكر أمنيته؛ فأعطاه الله سبحانه وتعالى أمنيته؛ ثم عاد إليهم المَلَك مرة

---

(١) أخرجه أبو داود ص١٣٨٤، كتاب الطلاق، باب ٩: في الطلاق على الهزل، حديث رقم ٢١٩٤؛ وأخرجه الترمذي ص١٧٦٩، كتاب الطلاق واللعان، باب ٩: ما جاء في الجد والهزل في الطلاق، حديث رقم ١١٨٤، وأخرجه ابن ماجه ص٢٥٩٩، كتاب الطلاق، باب ١٣: من طلق أو نكح أو راجع لاعباً، حديث رقم ٢٠٣٩، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/١٩٨، كتاب الطلاق، وقال: [حديث صحيح الإسناد وعبد الرحمن بن حبيب هذا هو ابن أردك من ثقات المدنيين]، وعقب الذهبي: [قلت: فيه لين]: وقال الحافظ: [مختلف فيه، قال النسائي: منكر الحديث ووثقه غيره فهو على هذا حسن]. اهـ. (التلخيص الحبير ٣/٢٣٦)، وقال الألباني: حسن (صحيح أبي داود ٢/٩).

أخرى؛ عاد إلى الأبرص بصورته، وهيئته ـ يعني أبرص فقيراً ـ وقال له: «**إني رجل فقير، وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري؛ فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك**»[1]؛ فالملَك يمثل دور رجل فقير ـ وهو ليس بفقير ـ وأبرص ـ وليس بأبرص ـ وكذلك بالنسبة للأقرع، والأعمى؛ فبعض العلماء استدل بهذا الحديث على جواز التمثيل.

فعليه نقول إذا كان التمثيل لا يشتمل على شيء محرم من الأمثلة التي ذكرناها، أو غيرها، فإنه لا بأس به، وليس من الكذب في شيء؛ لأن الكذب يضيف الإنسان الأمر إلى نفسه، فيأتي إليك يقرع الباب؛ تقول: مَن؟ يقول: أنا زيد ـ وليس هو بزيد؛ فهذا كاذب؛ لكن يأتي إنسان يقول: أنا أمثل دور فلان، ويعرف الناس أنه ليس فلاناً؛ فليس بكذب؛ لكنه إذا نسب القول إلى شخص معيَّن فهذا يحتاج إلى ثبوت هذا القول عن هذا الشخص المعين؛ أما إذا حكى قصة رجل بوصفه ـ لا بعينه ـ فليس بكذب.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله سبحانه وتعالى يبين لعباده الآيات الشرعية، والكونية؛ كلها مبينة في كتابه سبحانه وتعالى أتم بيان.

٤ ـ **ومنها**: الحث على التفكر، وأنه غاية مقصودة؛ لقوله تعالى: ﴿**لعلكم تتفكرون**﴾؛ فالإنسان مأمور بالتفكر في الآيات الكونية، والشرعية؛ لأن التفكر يؤدي إلى نتائج طيبة؛ لكن هذا فيما يمكن الوصول إليه بالتفكر فيه؛ أما ما لا يمكن الوصول إليه

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٤٢٧ حاشية (٢).

بالتفكر فيه فإن التفكر فيه ضياع وقت، وربما يوصل إلى محظور، مثل التفكر في كيفية صفات الله عز وجل: هذا لا يجوز؛ لأنك لن تصل إلى نتيجة؛ ولهذا جاء في الأثر: «**تفكروا في آيات الله ولا تفكروا في ذات الله**»(١)؛ لأن هذا أمر لا يمكن الوصول إليه؛ وغاية لا تمكن الإحاطة بها، كما قال تعالى: ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾ [الأنعام: ١٠٣]؛ فلا يجوز لأحد أن يتفكر في كيفية استواء الله عز وجل على العرش؛ بل يجب الكف عنه؛ لأنه سيؤدي إلى نتيجة سيئة؛ إما إلى التكييف، أو التمثيل، أو التعطيل ـ ولا بد؛ وأما التفكر في معاني أسماء الله فمطلوب؛ لأن المعنى كما قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ لما سئل: ﴿**الرحمٰن على العرش استوى**﴾ [طه: ٥]: كيف استوى؟ قال: **الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة**.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر ٦/ ٢٥٠ حديث رقم ٦٣١٩؛ وفي سنده الوازع بن نافع عن سالم عن ابن عمر، وقال: لم يروه عن سالم إلا الوازع بن نافع. اهـ. وقال العراقي في الوازع بن نافع: متروك [تخريج إحياء علوم الدين ٤/ ٤٢٤، حاشية (١)]، وقال: أخرجه أبو نعيم من حديث ابن عباس في الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف، ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه. اهـ. المرجع السابق.

التفسير:

﴿٢٦٧﴾ قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾: سبق مراراً وتكراراً أن تصدير الخطاب بالنداء يدل على أهميته، والعناية به؛ لأن النداء يتضمن التنبيه؛ والتنبيه على الشيء دليل على الاهتمام به، وأن تصديره بـ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ يفيد عدة فوائد:

أولاً: الإغراء؛ و«الإغراء» معناه الحث على قبول ما تخاطَب به؛ ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «**إذا قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهىٰ عنه**»[1]؛ ولهذا لو ناديتك بوصفك، وقلت: يا رجل، يا ذكي، يا كريم. معناه: يا من توصف بهذا اجعل آثار هذا الشيء بادياً عليك.

ثانياً: أن امتثال ما جاء في هذا الخطاب من مقتضيات الإيمان؛ كأنه تعالى قال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ إن إيمانكم يدعوكم إلى كذا وكذا.

ثالثاً: أن مخالفته نقص في الإيمان؛ لأنه لو حقق هذا الوصف لامتثل ما جاء في الخطاب.

قوله تعالى: ﴿**أنفقوا من طيبات ما كسبتم**﴾: بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى فيما سبق فضيلة الإنفاق ابتغاء وجهه، وسوء العاقبة لمن منَّ بصدقته، أو أنفق رياءً، حثَّ على الإنفاق؛ لكن الفرق بين ما هنا، وما سبق: أن ما هنا بيان للذي ينفَق منه؛ وهناك بيان للذي ينَفق عليه.

وقوله تعالى: ﴿**من طيبات ما كسبتم**﴾ أي مما كسبتموه

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٣٣٧.

بطريق حلال؛ و﴿كسبتم﴾ أي ما حصلتموه بالكسب، كالذي يحصل بالبيع والشراء، والتأجير، وغيرها؛ وكل شيء حصل بعمل منك فهو من كسبك.

قوله تعالى: ﴿ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾: قال بعضهم: إنه معطوف على ﴿ما﴾ في قوله تعالى: ﴿ما كسبتم﴾؛ يعني: «ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الأرض»؛ ولكن الصحيح الذي يظهر أنه معطوف على قوله تعالى: ﴿طيبات﴾؛ يعني: «أنفقوا من طيبات ما كسبتم، وأنفقوا مما أخرجنا لكم من الأرض»؛ لأن ما أخرج الله لنا من الأرض كله طيب ملك لنا، كما قال تعالى: ﴿**هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً**﴾ [البقرة: ٢٩].

وقوله: ﴿مما﴾: لو قلنا: إن «مِن» للتبعيض يكون المعنى: أنفقوا بعض طيبات ما كسبتم، وبعض ما أخرجنا لكم من الأرض؛ وهناك احتمال أن «مِن» لبيان الجنس؛ فيشمل ما لو أنفق الإنسان كل ماله؛ وهذا عندي أحسن؛ لأن التي للجنس تعم القليل والكثير.

قوله تعالى: ﴿أخرجنا لكم من الأرض﴾ يشمل ما أخرج من ثمرات النخيل، والأعناب، والزروع، والفاكهة، والمعادن، وغير ذلك مما يجب أن ننفق منه.

قوله تعالى: ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ أي لا تقصدوا الخبيث منه فتنفقونه؛ لأن «التيمم» في اللغة: القصد؛ ومنه قوله تعالى: ﴿**فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه**﴾ [المائدة: ٦]؛ والمراد بـ﴿الخبيث﴾ هنا الرديء؛ يعني: لا تقصدوا الرديء تخرجونه، وتبقون لأنفسكم الطيب؛ فإن

هذا ليس من العدل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**منه تنفقون**﴾ يحتمل في ﴿**منه**﴾ وجهان؛ **أحدهما**: أنها متعلقة بـ﴿**الخبيث**﴾ على أنها حال؛ أي الخبيث حال كونه مما أخرجنا لكم من الأرض؛ وعلى هذا يكون في ﴿**تنفقون**﴾ ضمير محذوف؛ والتقدير: تنفقونه؛ **الوجه الثاني**: أنها متعلقة بقوله تعالى: ﴿**تنفقون**﴾؛ يعني: ولا تقصدوا الخبيث تنفقون منه؛ وقدمت على عاملها للحصر؛ والوجهان من حيث المعنى لا يختلفان؛ فإن معناها أن الله ينهانا أن نقصد الخبيث ـ وهو الرديء ـ لننفق منه.

قوله تعالى: ﴿**ولستم بآخذيه**﴾: أي لستم بآخذي الرديء عن الجيد لو كان الحق لكم ﴿**إلا أن تغمضوا فيه**﴾ أي تأخذوه عن إغماض؛ و«**الإغماض**» أخذ الشيء على كراهيته ـ كأنه أغمض عينيه كراهية أن يراه.

قوله تعالى: ﴿**واعلموا أن الله غني حميد**﴾؛ فهو لم يطلب منكم الإنفاق لفقره واحتياجه؛ ﴿**حميد**﴾: يحتمل أن تكون بمعنى حامد؛ وبمعنى محمود؛ وكلاهما صحيح؛ لأن «فعيلاً» تأتي بمعنى فاعل؛ وبمعنى مفعول؛ إتيانها بمعنى فاعل مثل: «رحيم» بمعنى راحم؛ و«سميع» بمعنى سامع؛ وإتيانها بمعنى مفعول مثل: «قتيل»، و«جريح»، و«ذبيح»، وما أشبه ذلك؛ وهنا ﴿**حميد**﴾ تصح أن تكون بمعنى حامد، وبمعنى محمود؛ أما كون الله محموداً فظاهر؛ وأما كونه حامداً فلأنه سبحانه وتعالى يَحمَد من يستحق الحمد من عباده؛ ولهذا أثنى على أنبيائه، ورسله،

والصالحين من عباده؛ وهذا يدل على أنه عز وجل حامد لمن يستحق الحمد.

ووجه المناسبة في ذكر «الحميد» بعد «الغني» أن غناه عز وجل غِنًى يحمد عليه؛ بخلاف غنى المخلوق؛ فقد يحمد عليه، وقد لا يحمد؛ فلا يحمد المخلوق على غناه إذا كان بخيلاً؛ وإنما يحمد إذا بذله؛ والله عز وجل غني حميد؛ فهو لم يسألكم هذا لحاجته إليه؛ ولكن لمصلحتكم أنتم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: فضيلة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾؛ فإن هذا وصف يقتضي امتثال أمر الله؛ وهذا يدل على فضيلة الإيمان.

٢ ـ **ومنها**: أن من مقتضى الإيمان امتثال أمر الله، واجتناب نهيه؛ ووجهه أن الله تعالى قال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أنفقوا**﴾؛ فلولا أن للإيمان تأثيراً لكان تصدير الأمر بهذا الوصف لغواً لا فائدة منه.

٣ ـ **ومنها**: وجوب الإنفاق من طيبات ما كسبنا؛ لقوله تعالى: ﴿**أنفقوا**﴾؛ والأصل في الأمر الوجوب حتى يقوم دليل صارف عن الوجوب.

٤ ـ **ومنها**: وجوب الزكاة في عروض التجارة؛ لقوله تعالى: ﴿**ما كسبتم**﴾؛ ولا شك أن عروض التجارة كسب؛ فإنها كسب بالمعاملة.

٥ ـ **ومنها**: أن المال الحرام لا يؤمر بالإنفاق منه؛ لأنه خبيث؛ والله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً.

فإذا قال قائل: ماذا أصنع به إذا تبت؟

فالجواب أنه يرده على صاحبه إن أخذه بغير اختياره؛ فإن كان قد مات رده على ورثته؛ فإن لم يكن له ورثة فعلى بيت المال؛ فإن تعذر ذلك تصدق به عمن هو له؛ أما إذا أخذه باختيار صاحبه كالربا، ومهر البغي، وحلوان الكاهن، فإنه لا يرده عليه؛ ولكن يتصدق به[1]؛ هذا إذا كان حين اكتسابه إياه عالماً بالتحريم؛ أما إن كان جاهلاً فإنه لا يجب عليه أن يتصدق به؛ لقوله تعالى: ﴿**فله ما سلف وأمره إلى الله**﴾ [البقرة: ٢٧٥].

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿**أنفقوا من طيبات ما كسبتم**﴾؛ ووجه الدلالة: أنه لو كان الإنسان مجبراً على عمله لم يصح أن يوجه إليه الأمر بالإنفاق؛ لأنه لا يقدر على زعم هؤلاء الجبرية؛ ولأن الله أضاف الكسب إلى المخاطَب في قوله تعالى: ﴿**ما كسبتم**﴾؛ ولو كان مجبراً عليه لم يصح أن يكون من كسبه؛ **وليعلم أن مثل هذا الدليل في الرد على الجبرية كثير في القرآن، وإنما نذكره عند كل آية لينتفع بذلك من يريد إحصاء الأدلة على هؤلاء؛ وإلا فالدليل الواحد كافٍ لمن أراد الحق**.

٧ ـ **ومنها**: وجوب الزكاة في الخارج من الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿**ومما أخرجنا لكم من الأرض**﴾؛ وظاهر الآية وجوب الزكاة في الخارج من الأرض مطلقاً سواء كان قليلاً، أم كثيراً؛ وسواء كان مما يوسَّق، ويكال، أم لا؛ وإلى هذا ذهب بعض أهل العلم؛ وهو أن الزكاة تجب في الخارج من الأرض مطلقاً لعموم الآية؛ ولكن الصواب ما دلت عليه السنة من أن الزكاة لا

---

(١) انظر ٣/ ٣٢٨.

تجب إلا في شيء معين جنساً، وقدراً؛ فلا تجب الزكاة في القليل؛ لقول النبي ﷺ: «**ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة**»[(١)]؛ و«**الوسق**» هو الحِمل؛ ومقدار خمسة أوسق: ثلاثمائة صاع بالصاع النبوي.

ولا تجب الزكاة إلا فيما يكال؛ وذلك من قوله ﷺ: «**ليس فيما دون خمسة أوسق**»؛ و«**الوسق**» كما ذكرت هو الحمل؛ وهو ستون صاعاً؛ وعليه فلا تجب الزكاة في الخضراوات مثل: التفاح، والبرتقال، والأترج، وشبهها، لأن السنة بينت أنه لا بد من أن يكون ذلك الشيء مما يوسق.

تنبيه:

لم يبين في الآية مقدار الواجب إنفاقه من الكسب، والخارج من الأرض؛ ولكن السنة بينت أن مقدار الواجب فيما حصل من الكسب ربع العشر؛ ومقدار الواجب في الخارج من الأرض العشر فيما يسقى بلا مؤونة؛ ونصفه فيما يسقى بمؤونة.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: ما يتبين من اختلاف التعبير في قوله تعالى: ﴿**من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض**﴾؛ فلماذا عبر في الأول تعبيراً يدل على أن ذلك من فعل العبد؛ وفي الثاني عبر تعبيراً يدل على أنه ليس من فعل العبد؟ الأمر في ذلك واضح؛ لأن نمو التجارة بالكسب، وغالبه من فعل العبد: يبيع، ويشتري، ويكسب؛ أما ما خرج من الأرض فليس من فعل العبد

---

(١) أخرجه البخاري ص١١٤، كتاب الزكاة، باب ٣٢، زكاة الورق، حديث رقم ١٤٤٧؛ وأخرجه مسلم ص٨٣١، كتاب الزكاة، باب ١: ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة، حديث رقم ٢٢٦٣ [١] ٩٧٩.

في الواقع، كما قال تعالى: ﴿**أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون**﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

٩ ـ **من فوائد الآية**: وجوب الزكاة في المعادن؛ لدخولها في عموم قوله تعالى: ﴿**ومما أخرجنا لكم من الأرض**﴾ لكن العلماء يقولون: إن كان المعدن ذهباً أو فضة وجبت فيه الزكاة بكل حال؛ وإن كان غير ذهب، ولا فضة، كالنحاس، والرصاص، وما أشبههما ففيه الزكاة إن أعده للتجارة؛ لأن هذه المعادن لا تجب الزكاة فيها بعينها؛ إنما تجب الزكاة فيها إذا نواها للتجارة.

وهل يستفاد من الآية وجوب الزكاة في الركاز ـ والركاز هو ما وجد من دفن الجاهلية ـ أي مدفون الجاهلية؛ يعني ما وجد من النقود القديمة، أو غيرها التي تنسب إلى زمن بعيد بحيث يغلب على الظن أنه ليس لها أهل وقتَ وجودها؟ لا يستفاد؛ لكن السنة دلت على أن الواجب فيه الخمس[1]؛ ثم اختلف العلماء ما المراد بالخمس: هل هو الجزء المشاع ـ وهو واحد من خمسة؛ أو هو الخمس الذي مصرفه الفيء؟ على قولين؛ وبسط ذلك مذكور في كتب الفقه.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: تحريم قصد الرديء في إخراج الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون**﴾.

١١ ـ **ومنها**: إذا ضمت هذه الآية إلى حديث ابن عباس حين بعث النبي معاذاً إلى اليمن، وقال: «**إياك وكرائم أموالهم**»[2]،

---

(١) راجع البخاري ص١١٨، كتاب الزكاة، باب ٦٦: في الركاز الخمس، حديث رقم ١٤٩٩؛ ومسلماً ص٩٨١، كتاب الحدود، باب ١١: جرح العجماء والمعدن والبئر جبار، حديث رقم ٤٤٦٥ [٤٥] ١٧١٠.

(٢) راجع ١/١٤٨.

تبين لك العدل في الشريعة الإسلامية؛ لأن العامل على الزكاة لو قصد الكرائم من الأموال صار في هذا إجحاف على أهل الأموال؛ ولو قصد الرديء صار فيه إجحاف على أهل الزكاة؛ فصار الواجب وسطاً؛ لا نلزم صاحب المال بإخراج الأجود؛ ولا نمكنه من إخراج الأردأ؛ بل يخرج الوسط.

١٢ ـ **ومنها**: الإشارة إلى قاعدة إيمانية عامة؛ وهي قول الرسول ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[(١)]؛ ووجه الدلالة أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿**ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه**﴾؛ فالإنسان لا يرضى بهذا لنفسه فلماذا يرضاه لغيره؟!! فإذا كنت أنت لو أُعطيت الرديء من مال مشترك بينك وبين غيرك ما أخذته إلا على إغماض، وإغضاء عن بعض الشيء؛ فلماذا تختاره لغيرك، ولا تختاره لنفسك؟!! وهذا ينبغي للإنسان أن يتخذه قاعدة فيما يعامل به غيره؛ وهو أن يعامله بما يحب أن يعامله به؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر؛ وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه**»[(٢)]، هذه قاعدة في المعاملة مع الناس؛ ومع الأسف الشديد أن كثيراً من الناس اليوم لا يتعاملون فيما بينهم على هذا الوجه؛ كثير من الناس يرى أن المكر غنيمة، وأن الكذب غنيمة.

١٣ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات القياس؛ وذلك لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري ص٣، كتاب الإيمان، باب ٧: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم ١٣.

(٢) أخرجه مسلم ص١٠٠٩، كتاب الإمارة، باب ١٠: وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول، حديث رقم ٤٧٧٣ [٤٤] ١٨٤٢.

﴿ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه﴾؛ يعني إذا كنت لا ترضاه لنفسك فلا ترضاه لغيرك؛ أي قس هذا بهذا.

١٤ ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله، وما تضمناه من صفة؛ وهما «**غني**» و«**حميد**».

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٦٨﴾ قوله تعالى: ﴿**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء**﴾؛ ﴿**الشيطان**﴾ مبتدأ؛ وخبره جملة: ﴿**يعدكم**﴾؛ و﴿**يأمركم**﴾ فيها قراءتان: الضم، والسكون؛ فأما الضم فواضح؛ لأنه فعل مضارع لم يدخل عليه ناصب، ولا جازم؛ وأما السكون فللتخفيف سماعاً لا قياساً.

قوله تعالى: ﴿**والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً**﴾: هذه الجملة مقابلة لما سبقها: الفضل ضد الفقر؛ والمغفرة ضد الفحشاء؛ لأن الفحشاء تُكسب الذنوب؛ والمغفرة تمحو الذنوب؛ ففرق بين هذا، وهذا؛ والجملة مكونة من مبتدأ، وخبر؛ المبتدأ: لفظ الجلالة: ﴿**الله**﴾؛ والخبر: جملة: ﴿**يعدكم**﴾.

قوله تعالى: ﴿**والله واسع عليم**﴾ جملة خبرية مكونة من مبتدأ، وخبر؛ المبتدأ: لفظ الجلالة: ﴿**الله**﴾؛ والخبر: ﴿**واسع**﴾؛ و﴿**عليم**﴾ خبر ثانٍ.

قوله تعالى: ﴿**الشيطان**﴾ اسم من أسماء إبليس؛ قيل: إنه مشتق من «شطن» إذا بعُد ـ وعلى هذا فالنون أصلية؛ وقيل: إنه مشتق من «شاط» إذا تغيظ، وغضب؛ لأن صفته هو التغيظ، والغضب، والحمق، والجهل؛ ولكن الأول أقرب: أنه من «شطن» إذا بعد؛ بدليل أنه مصروف؛ و«**أل**» فيه للجنس؛ فليس خاصاً بشيطان واحد.

قوله تعالى: ﴿**يعدكم الفقر**﴾ أي يهددكم الفقر إذا تصدقتم؛ وقوله تعالى: ﴿**بالفحشاء**﴾ أي البخل؛ وإنما فُسِّر بالبخل؛ لأن فحش كل شيء بحسب القرينة، والسياق؛ فقد يراد به الزنى، كقوله تعالى: ﴿**ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة**﴾ [الإسراء: ٣٢]؛ وقد يراد به اللواط، كما في قوله تعالى عن لوط إذا قال لقومه: ﴿**أتأتون الفاحشة**﴾ [الأعراف: ٨٠]؛ وقد يراد به ما يستفحش من الذنوب عموماً، كقوله تعالى: ﴿**الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش**﴾ [الشورى: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿**والله يعدكم مغفرة**﴾ أي لذنوبكم إن تصدقتم؛ ﴿**وفضلاً**﴾ أي زيادة؛ فالصدقة تزيد المال؛ لقوله تعالى: ﴿**وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون**﴾ [الروم: ٣٩]، وقوله ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال**»[1].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إثبات إغواء الشياطين لبني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء**﴾.

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٢٧٨.

٢ ـ **ومنها**: أن للشيطان تأثيراً على بني آدم إقداماً، أو إحجاماً؛ أما الإقدام: فيأمره بالزنى مثلاً، ويزين له حتى يُقْدم عليه؛ وأما الإحجام: فيأمره بالبخل، ويعده الفقر لو أنفق؛ وحينئذٍ يحجم عن الإنفاق.

٣ ـ **ومنها**: أن أبواب التشاؤم لا يفتحها إلا الشياطين؛ لقوله تعالى: ﴿**يعدكم الفقر**﴾؛ فالشيطان هو الذي يفتح لك باب التشاؤم يقول: «إذا أنفقت اليوم أصبحت غداً فقيراً؛ لا تنفق»؛ والإنسان بشر: ربما لا ينفق؛ ربما ينسى قول الله تعالى: ﴿**وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين**﴾ [سبأ: ٣٩]، وقول رسوله ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال**».

٤ ـ **ومنها**: بيان عداوة الشيطان للإنسان؛ لأنه في الواقع عدو له في الخبر، وعدو له في الطلب؛ في الخبر: يعده الفقر؛ في الطلب: يأمره بالفحشاء؛ فهو عدو مخبراً، وطالباً ـ والعياذ بالله.

٥ ـ **ومنها**: أن البخل من الفواحش؛ لأن المقام مقام إنفاق؛ فيكون المراد بالفاحشة: البخل، وعدم الإنفاق.

٦ ـ **ومنها**: أن من أمر شخصاً بالإمساك عن الإنفاق المشروع؛ فهو شبيه بالشيطان؛ وكذلك من أمر غيره بالإسراف فالظاهر أنه شيطان؛ لقوله تعالى: ﴿**إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً**﴾ [الإسراء: ٢٧].

٧ ـ **ومنها**: البشرى لمن أنفق بالمغفرة، والزيادة؛ لقوله تعالى: ﴿**والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً**﴾؛ شتان ما بين الوعدين: ﴿**الشيطان يعدكم الفقر**﴾؛ ﴿**والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً**﴾؛ فالله

يعدنا بشيئين: المغفرة، والفضل؛ المغفرة للذنوب؛ والفضل لزيادة المال في بركته، ونمائه.

فإن قال قائل: كيف يزيد الله تعالى المنفِق فضلاً ونحن نشاهد أن الإنفاق ينقص المال حساً؛ فإذا أنفق الإنسان من العشرة درهماً صارت تسعة؛ فما وجه الزيادة؟

فالجواب: أما بالنسبة لزيادة الأجر في الآخرة فالأمر ظاهر؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة؛ ومن تصدق بما يعادل تمرة من طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يربيها له حتى تكون مثل الجبل؛ وأما بالنسبة للزيادة الحسية في الدنيا فمن عدة أوجه:

الوجه الأول: أن الله قد يفتح للإنسان باب رزق لم يخطر له على بال؛ فيزداد ماله.

الوجه الثاني: أن هذا المال ربما يقيه الله سبحانه وتعالى آفات لولا الصدقة لوقعت فيه؛ وهذا مشاهد؛ فالإنفاق يقي المال الآفات.

الوجه الثالث: البركة في الإنفاق بحيث ينفق القليل، وتكون ثمرته أكثر من الكثير؛ وإذا نُزعت البركة من الإنفاق فقد ينفق الإنسان شيئاً كثيراً في أمور لا تنفعه؛ أو تضره؛ وهذا شيء مشاهد.

٨ ـ **ومنها**: أن هذه المغفرة التي يعدنا الله بها مغفرة عظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿منه﴾؛ لأن عظم العطاء من عظم المعطي؛ ولهذا جاء في الحديث الذي وصى به النبي ﷺ أبا بكر: «**فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني**»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري ص٨٣٤، كتاب الأذان، باب ١٤٩: الدعاء قبل السلام، =

٩ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للمنفق أن يتفاءل بما وعد الله؛ لقوله تعالى: ﴿**والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً**﴾؛ فإذا أنفق الإنسان وهو يحسن الظن بالله عز وجل أن الله يغفر له الذنوب، ويزيده من فضله كان هذا من خير ما تنطوي عليه السريرة.

١٠ ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: ﴿**واسع**﴾، و﴿**عليم**﴾؛ وما تضمناه من صفة؛ ويستفاد من الاسمين، والصفتين إثبات صفة ثالثة باجتماعهما؛ لأن الاسم من أسماء الله إذا قرن بغيره تضمن معنًى زائداً على ما إذا كان منفرداً مثل قوله تعالى: ﴿**فإن الله كان عفواً قديراً**﴾ [النساء: ١٤٩]؛ فالجمع بين العفْوِ والقدرة لها ميزة: أن عفوه غير مشوب بعجز إطلاقاً؛ لأن بعض الناس قد يعفو لعجز؛ فقوله تعالى: ﴿**واسع عليم**﴾: فالصفة الثالثة التي تحصل باجتماعهما: أن علمه واسع.

وكل صفاته واسعة؛ وهذا مأخوذ من اسمه «الواسع»؛ فعلمه، وسمعه، وبصره، وقدرته، وكل صفاته واسعة.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٦٩﴾ قوله تعالى: ﴿**يؤتي الحكمة من يشاء**﴾؛ ﴿**يؤتي**﴾

= حديث رقم ٨٣٤؛ وأخرجه مسلم ص١١٤٨، كتاب الذكر والدعاء، باب ١٤: الدعوات والتعوذ، حديث رقم ٦٨٦٩ [٤٨] ٢٧٠٥.

بمعنى يعطي؛ وهي تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ، والخبر؛ فالمفعول الأول هنا: ﴿**الحكمة**﴾؛ والمفعول الثاني: ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿**من يشاء**﴾؛ والمعنى: أن الله يعطي الحكمة من يشاء؛ و﴿**الحكمة**﴾ مِن أحكم بمعنى أتقن؛ وهي وضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، وتستلزم علماً، ورشداً، فالجاهل لا تأتي منه الحكمة إلا مصادفة؛ والسفيه لا تأتي منه الحكمة إلا مصادفة.

قوله تعالى: ﴿**ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً**﴾، أي من يعطه الله سبحانه وتعالى الحكمة فقد أعطاه خيراً كثيراً.

فإن قال قائل: ما وجه اختلاف التعبير بين قوله تعالى: ﴿**يؤتي الحكمة من يشاء**﴾، وقوله تعالى: ﴿**ومن يؤت الحكمة**﴾؟

فالجواب: ـ والله أعلم ـ أن الحكمة قد تكون غريزة؛ وقد تكون مكتسبة؛ بمعنى أن الإنسان قد يحصل له مع المران ومخالطة الناس من الحكمة وحسن التصرف ما لا يحصل له لو كان منعزلاً عن الناس؛ ولهذا أتى بالفعل المضارع المبني للمفعول ليعم كل طرق الحكمة التي تأتي ـ سواء أوتي الحكمة من قبل الله عز وجل، أو من قِبل الممارسة والتجارب؛ على أن ما يحصل من الحكمة بالممارسة والتجارب فهو من الله عز وجل؛ هو الذي قيض لك من يفتح لك أبواب الحكمة، وأبواب الخير.

قوله تعالى: ﴿**وما يذكر إلا أولو الألباب**﴾، أي ما يتعظ بآيات الله إلا أصحاب العقول الذين يتصرفون تصرفاً رشيداً.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إثبات أفعال الله المتعلقة بمشيئته؛ لقوله تعالى: ﴿**يؤتي الحكمة**﴾؛ وهذه من الصفات الفعلية.

٢ ـ **ومنها**: أن ما في الإنسان من العلم والرشد فهو فضل من الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**يؤتي الحكمة من يشاء**﴾؛ فإذا منّ الله سبحانه وتعالى على العبد بعلم، ورشد، وقوة، وقدرة، وسمع، وبصر فلا يترفع؛ لأن هذه الصفات من الله عز وجل؛ ولو شاء الله لحرمه إياها، أو لسلبه إياها بعد أن أعطاه إياها؛ فقد يسلب الله العلم من الإنسان بعد أن أعطاه إياه؛ وربما يسلب منه الحكمة؛ فتكون كل تصرفاته طيشاً، وضلالاً، وهدراً.

٣ ـ **ومنها**: إثبات المشيئة لله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿**من يشاء**﴾؛ واعلم أن كل شيء علقه الله سبحانه وتعالى بمشيئته فإنه تابع لحكمته البالغة؛ وليس لمجرد المشيئة؛ لكن قد نعلم الحكمة؛ وقد لا نعلمها؛ قال الله تعالى: ﴿**وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً**﴾ [الإنسان: ٣٠].

٤ ـ **ومنها**: إثبات الحكمة لله عز وجل؛ لأن الحكمة كمال؛ ومعطي الكمال أولى به؛ فنأخذ من الآية إثبات الحكمة لله بهذا الطريق.

٥ ـ **ومنها**: الفخر العظيم لمن آتاه الله الحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً**﴾.

٦ ـ **ومنها**: وجوب الشكر على من آتاه الله الحكمة؛ لأن هذا الخير الكثير يستوجب الشكر.

٧ ـ **ومنها**: أن بلوغ الحكمة متعدد الطرق؛ فقد يكون غريزياً جبل الله العبد عليه؛ وقد يكون كسبياً يحصل بالمران، ومصاحبة الحكماء.

٨ ـ **ومنها**: منّة الله سبحانه وتعالى على من يشاء من عباده بإيتائه الحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً**﴾.

٩ ـ **ومنها**: فضيلة العقل؛ لقوله تعالى: ﴿**وما يذكر إلا أولو الألباب**﴾؛ لأن التذكر بلا شك يحمد عليه الإنسان؛ فإذا كان لا يقع إلا من صاحب العقل دل ذلك على فضيلة العقل؛ والعقل ليس هو الذكاء لأن العقل نتيجته حسن التصرف ـ وإن لم يكن الإنسان ذكياً؛ والذكاء؛ قوة الفطنة ـ وإن لم يكن الإنسان عاقلاً؛ ولهذا نقول: ليس كل ذكي عاقلاً، ولا كل عاقل ذكياً؛ لكن قد يجتمعان؛ وقد يرتفعان؛ وهناك عقل يسمى عقل إدراك؛ وهو الذي يتعلق به التكليف، وهذا لا يلحقه مدح، ولا ذم؛ لأنه ليس من كسب الإنسان.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: أن عدم التذكر نقص في العقل ـ أي عقل الرشد؛ لقوله تعالى: ﴿**وما يذَّكر إلا أولو الألباب**﴾؛ فإن الحكم إذا علق بوصف ازداد قوة بقوة ذلك الوصف، ونقص بنقص ذلك الوصف.

١١ ـ **ومنها**: أنه لا يتعظ بالمواعظ الكونية أو الشرعية إلا أصحاب العقول الذين يتدبرون ما حصل من الآيات سابقاً، ولاحقاً؛ فيعتبرون بها؛ وأما الغافل فلا تنفعه.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٧٠﴾ قوله تعالى: ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر﴾؛ ﴿ما﴾ هنا شرطية؛ والدليل على أنها شرطية أنها مركبة من شرط، وجواب؛ والشرط هو: ﴿أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر﴾؛ والجواب: ﴿فإن الله يعلمه﴾؛ و﴿مِن﴾ زائدة زائدة؛ أي زائدة إعراباً زائدة معنًى؛ لأنها تفيد النص على العموم؛ وهي حرف جر زائد من حيث الإعراب؛ ولهذا نعرب: ﴿نفقةٍ﴾ على أنها مفعول به ـ أي: ما أنفقتم نفقةً أو نذرتم نذراً فإن الله يعلمه؛ ويجوز أن تكون بياناً لاسم الشرط ﴿ما﴾ في قوله تعالى: ﴿ما أنفقتم﴾؛ لأن «ما» الشرطية مبهمة؛ والمبهم يحتاج إلى بيان.

قوله تعالى: ﴿فإن الله يعلمه﴾ هذه جملة جواب الشرط؛ والفاء هنا واقعة في جواب الشرط وجوباً؛ لأنه جملة اسمية؛ وإذا وقع جواب الشرط جملة اسمية وجب اقترانه بالفاء؛ وفي ذلك يقول الناظم فيما يجب اقترانه بالفاء:

اسمية طلبية وبجامدٍ وبما ... وقد وبلن وبالتنفيس

قوله تعالى: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ جملة منفية؛ والمبتدأ فيها قوله تعالى: ﴿من أنصار﴾؛ و﴿من﴾ فيها زائدة إعراباً زائدة معنًى؛ يعنى تزيد المعنى ـ وهو النص على العموم ـ وإن كانت في الإعراب زائدة؛ ولهذا نعرب ﴿أنصار﴾ على أنها مبتدأ مؤخر مرفوع بالابتداء؛ وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره

منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

وقوله تعالى: ﴿وما أنفقتم من نفقة﴾، أي أيّ شيء تنفقونه من قليل أو كثير فإن الله يعلمه.

وقوله تعالى: ﴿أو نذرتم من نذر﴾، أي أوجبتم على أنفسكم من طاعة، مثل أن يقول القائل: «لله عليّ نذر أن أتصدق بكذا»؛ أو «أن أصوم كذا»؛ ﴿فإن الله يعلمه﴾؛ وذِكر العلم يستلزم أن الله يجازيهم، فلا يضيع عند الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وما للظالمين﴾ أي للمانعين ما يجب إنفاقه، أو الوفاء به من النذور ﴿من أنصار﴾ أي مانعين للعذاب عنهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن الإنفاق قليله وكثيره يثاب عليه المرء؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿وما أنفقتم من نفقة﴾، وكلمة ﴿نفقة﴾ نكرة في سياق الشرط؛ فهي تعم؛ وعلى ذلك تشمل القليل، والكثير؛ لكن الثواب عليها مشروط بأمرين: الإخلاص لله؛ وأن تكون على وفق الشرع.

٢ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان إذا أنفق نفقة أن يحتسب الأجر على الله؛ لقوله تعالى: ﴿فإن الله يعلمه﴾؛ لأنك إذا أنفقت وأنت تشعر أن الله يعلم هذا الإنفاق فسوف تحتسب الأجر على الله.

٣ ـ **ومنها**: أن ما نذره الإنسان من طاعة فهو معلوم عند الله.

٤ ـ هل تدل الآية على جواز النذر؟

الجواب: الآية لا تدل على الجواز، كما لو قال قائل مثلاً: «إن سرَقتَ فإن الله يعلم سرقتك»؛ فإن هذا لا يعني أن السرقة

جائزة؛ وعلى هذا فالآية لا تعارض نهي النبي ﷺ عن النذر[١]؛ لأن النهي عن النذر يعني إنشاءه ابتداءً؛ فأما الوفاء به فواجب إذا كان طاعة؛ لقول النبي ﷺ: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**»[٢].

٥ ـ **ومنها**: عموم علم الله بكل ما ينفقه الإنسان، أو ينذره من قليل، أو كثير.

٦ ـ **ومنها**: الرد على القدرية الذين يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله، وليس لله فيه تدخل إطلاقاً؛ وجه ذلك: أنه إذا كان الله يعلمه فلا بد أن يقع على حسب علمه؛ وإلا لزم أن يكون الله غير عالم؛ ولهذا قال بعض السلف: جادلوهم بالعلم؛ فإن أقروا به خُصِموا؛ وإن أنكروه كفروا.

٧ ـ **ومنها**: أن الله سبحانه وتعالى لا ينصر الظالم؛ لقوله تعالى: ﴿**وما للظالمين من أنصار**﴾؛ ولا يرد على هذا ما وقع في أُحد من انتصار الكافرين لوجهين:

الوجه الأول: أنه نوع عقوبة، حيث حصل من بعض المسلمين عصيانهم لأمر النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿**حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون**﴾ [آل عمران: ١٥٢].

الوجه الثاني: أن هذا الانتصار من أجل أن يمحق الله الكافرين؛ لأن انتصارهم يغريهم بمقاتلة المسلمين؛ حتى تكون

---

(١) راجع البخاري ص٥٥٣، كتاب القدر، باب ٦: إلقاء العبد النذر إلى القدر، حديث رقم ٦٦٠٨؛ ومسلماً ص٩٦٤، كتاب النذر، باب ٢: النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئاً، رقم ٤٢٣٧ [٢] ١٦٣٩.

(٢) أخرجه البخاري ص٥٥٩، كتاب الأيمان والنذور، باب ٢٨: النذر في الطاعة ﴿**وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر**﴾، حديث رقم ٦٦٩٦.

العاقبة للمسلمين، كما قال تعالى: ﴿**وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين**﴾ [آل عمران: ١٤١].

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أن من دعا على أخيه وهو ظالم له فإن الله لا يجيب دعاءه؛ لأنه لو أجيب لكان نصراً له؛ وقد قال تعالى: ﴿**إنه لا يفلح الظالمون**﴾ [الأنعام: ٢١].

٩ ـ **ومنها**: الثواب على القليل، والكثير؛ وفي القرآن ما يشهد لذلك، مثل قوله تعالى: ﴿**ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون**﴾ [التوبة: ١٢١]، وقوله تعالى في آخر سورة الزلزلة: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٧١﴾ قوله تعالى: ﴿**إن تبدوا الصدقات**﴾ أي تظهروها ﴿**فنعمَّا هي**﴾: جملة إنشائية للمدح؛ وقُرنت بالفاء وهي جواب الشرط لكونها فعلاً جامداً ﴿**وإن تخفوها**﴾ أي تصدَّقوا سراً ﴿**وتؤتوها الفقراء**﴾ أي تعطوها المعدمين؛ وذكر ﴿**الفقراء**﴾ هنا على سبيل المثال؛ ﴿**فهو خير لكم**﴾ أي من إظهارها؛ والجملة: جواب الشرط؛ وقرنت بالفاء لكونها اسمية.

قوله تعالى: ﴿**ويكفر عنكم من سيئاتكم**﴾ الجملة استئنافية؛

ولذلك كان الفعل مرفوعاً؛ و«**التكفير**» بمعنى السَّتر؛ ﴿**سيئاتكم**﴾ جمع سيئة؛ وهي ما يسوء المرء عمله، أو ثوابه.

قوله تعالى: ﴿**والله بما تعملون خبير**﴾، أي عليم ببواطن الأمور كظواهرها.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: الحث على الصدقة، والترغيب فيها سواء أبداها، أو أخفاها.

٢ ـ **ومنها**: أن إخفاء الصدقة أفضل من إبدائها؛ لأنه أقرب إلى الإخلاص؛ وأستر للمتصدق عليه؛ لكن إذا كان في إبدائها مصلحة ترجح على إخفائها ـ مثل أن يكون إبداؤها سبباً لاقتداء الناس بعضهم ببعض، أو يكون في إبدائها دفع ملامة عن المتصدق، أو غير ذلك من المصالح ـ فإبداؤها أفضل.

٣ ـ **ومنها**: أن الصدقة لا تعتبر حتى يوصلها إلى الفقير؛ لقوله تعالى: ﴿**وتؤتوها الفقراء**﴾.

ويتفرع على هذا فرعان:

أحدهما: أن مؤونة إيصالها على المتصدق.

الثاني: أنه لو نوى أن يتصدق بماله، ثم بدا له ألا يتصدق فله ذلك؛ لأنه لم يصل إلى الفقير.

٤ ـ **ومنها**: تفاضل الأعمال ـ أي أن بعض الأعمال أفضل من بعض؛ لقوله تعالى: ﴿**فهو خير لكم**﴾؛ وتفاضل الأعمال يكون بأسباب:

أ ـ منها التفاضل في الجنس، كالصلاة ـ مثلاً ـ أفضل من الزكاة، وما دونها.

ب ـ **ومنها التفاضل في النوع**؛ فالواجب من الجنس أفضل من التطوع؛ لقوله تعالى في الحديث القدسي: «**ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه**»[١].

ج ـ **ومنها التفاضل باعتبار العامل** لقوله ﷺ: «**لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه**»[٢].

د ـ **ومنها التفاضل باعتبار الزمان**، كقوله ﷺ في العشر الأول من ذي الحجة: «**ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر**»[٣]، وكقوله تعالى: ﴿**ليلة القدر خير من ألف شهر**﴾ [القدر: ٣].

هـ ـ **ومنها التفاضل بحسب المكان**، كفضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره.

و ـ **ومنها التفاضل بحسب جودة العمل وإتقانه**، كقوله ﷺ: «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة؛ والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران**»[٤].

ز ـ **ومنها التفاضل بحسب الكيفية**، مثل قوله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...**»، وذكر منهم: «**ورجل**

---

(١) سبق تخريجه ٣/ ٢٦٨، حاشية (٢).

(٢) سبق تخريجه ٣/ ٢٦٩، حاشية (١).

(٣) سبق تخريجه ٣/ ٢٦٩، حاشية (٢).

(٤) أخرجه البخاري ص٤٢٥، كتاب تفسير القرآن، باب ٨٠: سورة عبس، حديث رقم ٤٩٣٧؛ وأخرجه مسلم ص٨٠٣، كتاب صلاة المسافرين، باب ٣٨، فضل الماهر بالقرآن...، حديث رقم ١٨٦٢ [٢٤٤] ٧٩٨ واللفظ له.

تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[(١)].

وتفاضل الأعمال يستلزم تفاضل العامل؛ لأن الإنسان يشرف، ويفضل بعمله؛ وتفاضل الأعمال يستلزم زيادة الإيمان؛ لأن الإيمان قول، وعمل؛ فإذا تفاضلت الأعمال تفاضل الإيمان ـ أعني زيادة الإيمان، ونقصانه ـ وهو مذهب أهل السنة، والجماعة.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الصدقة سبب لتكفير السيئات؛ لقوله تعالى: ﴿**ويكفر عنكم من سيئاتكم**﴾؛ ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: «**الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل**»، ثم تلا ﷺ: ﴿**تتجافى جنوبهم عن المضاجع...**﴾[(٢)] [السجدة: ١٦].

٦ ـ **ومنها**: إثبات أفعال الله الاختيارية ـ كما هو مذهب أهل السنة، والجماعة؛ لقوله تعالى: ﴿**ويكفر عنكم من**

---

(١) أخرجه البخاري ص٥٣، كتاب الأذان، باب ٣٦: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة...، حديث رقم ٦٦٠؛ وأخرجه مسلم ص٨٤٠، كتاب الزكاة، باب ٣٠: فضل إخفاء الصدقة، حديث رقم ٢٣٨٠ [٩١] ١٠٣١.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٢٣١، حديث رقم ٢٢٣٦٦، وأخرجه الترمذي ص١٩١٥، كتاب الإيمان، باب ٨: ما جاء في حرمة الصلاة، حديث رقم ٢٦١٦، وأخرجه ابن ماجه ص٢٧١٥، كتاب الفتن، باب ١٢، كف اللسان في الفتنة، حديث رقم ٣٩٧٣، وفيه عاصم بن أبي النجود قال الذهبي فيه: في الحديث دون الثبت صدوق يهم (ميزان الاعتدال ٢/ ٣٥٧)، لكن أخرج الحاكم من طريق الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت والحكم بن عتبة عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ.. مثله (٢/ ٤١٢ ـ ٤١٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، وقال الألباني في صحيح ابن ماجه ٢/ ٣٥٩: صحيح، وقال شعيب في تخريج جامع العلوم والحكم ٢/ ١٣٤ حاشية (١): حديث صحيح بطرقه.

سيئاتكم﴾؛ فإن تكفير السيئات حاصل بعد العمل الذي يحصل به التكفير.

٧ ـ **ومنها**: بيان آثار الذنوب، وأنها تسوء العبد؛ لقوله تعالى: **﴿من سيئاتكم﴾**.

٨ ـ **ومنها**: إثبات اسم الله عز وجل «**الخبير**»؛ وإثبات ما دل عليه من صفة.

٩ ـ **ومنها**: تحذير العبد من المخالفة؛ لقوله تعالى: **﴿والله بما تعملون خبير﴾**؛ فإن إخباره إيانا بذلك يستلزم أن نخشى من خبرته عز وجل فلا يفقدنا حيث أمرنا، ولا يرانا حيث نهانا.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٧٢﴾ قوله تعالى: **﴿ليس عليك هداهم﴾**؛ الخطاب هنا للرسول ﷺ؛ و**﴿هداهم﴾**: الضمير يعود على بني آدم؛ والهدى المنفي هنا هدى التوفيق؛ وأما هدى البيان فهو على الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: **﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾** [المائدة: ٦٧]؛ ولقوله تعالى: **﴿إن عليك إلا البلاغ﴾** [الشورى: ٤٨]، وقوله تعالى: **﴿فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم**

بمسيطر﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، وقوله تعالى: **﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾** [الرعد: ٤٠]... إلى آيات كثيرة تدل أن على الرسول ﷺ أن يهدي الناس هداية الدلالة، والإرشاد؛ أما هداية التوفيق فليست على الرسول، ولا إلى الرسول؛ لا يجب عليه أن يهديهم؛ وليس بقدرته ولا استطاعته أن يهديهم؛ ولو كان بقدرته أن يهديهم لهدى عمه أبا طالب؛ ولكنه لا يستطيع ذلك؛ لأن هذا إلى الله سبحانه وتعالى وحده.

قوله تعالى: **﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾**؛ وهذا كالاستدراك لما سبق؛ أي لمّا نفى كون هدايتهم على الرسول ﷺ بين أن ذلك إلى الله عز وجل وحده؛ فيهدي من يشاء ممن اقتضت حكمته هدايته.

قوله تعالى: **﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾** أي: وليس لله عز وجل؛ فالله سبحانه وتعالى لا ينتفع به؛ بل لأنفسكم تقدمونه؛ وما لا تنفقونه فقد حرمتم أنفسكم؛ و**﴿ما﴾** هذه شرطية بدليل اقتران الجواب بالفاء في قوله تعالى: **﴿فلأنفسكم﴾**؛ وقوله تعالى: **﴿من خير﴾** بيان لـ**﴿ما﴾** الشرطية؛ لأن **﴿ما﴾** الشرطية مبهمة تحتاج إلى بيان؛ يعني: أيَّ خير تنفقونه فلأنفسكم؛ والمراد بـ**«الخير»** كل ما بذل لوجه الله عز وجل من عين، أو منفعة؛ وأغلب ما يكون في الأعيان.

وقوله تعالى: **﴿فلأنفسكم﴾**: الفاء رابطة للجواب؛ والجار والمجرور خبر لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: فهو لأنفسكم؛ يعني: وليس لغيركم.

قوله تعالى: **﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾** يعني: لا

تنفقون إنفاقاً ينفعكم إلا ما ابتغيتم به وجه الله؛ فأما ما ابتغي به سوى الله فلا ينفع صاحبه؛ بل هو خسارة عليه.

وقوله تعالى: ﴿إلا ابتغاء﴾ أي إلا طلب؛ و﴿وجه الله﴾: المراد به الوجه الحقيقي؛ لأن من دخل الجنة نظر إلى وجه الله.

قوله تعالى: ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم﴾؛ ﴿ما﴾ هذه أيضاً شرطية بدليل جزم الجواب: ﴿يوف﴾؛ فإنه مجزوم بحذف حرف العلة؛ وهو الألف؛ يعني: أيَّ خير تنفقونه من الأعيان، والمنافع قليلاً كان أو كثيراً يوف إليكم؛ أي: تعطَونه وافياً من غير نقص؛ بل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وأنتم لا تظلمون﴾، أي: لا تنقصون شيئاً منه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن هداية الخلق لا تلزم الرسل؛ ونعنى بذلك هداية التوفيق؛ أما هداية الدلالة فهي لازمة عليهم؛ لقوله تعالى: **﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾** [المائدة: ٦٧].

٢ ـ **ومنها**: أن الإنسان إذا بلغ شريعة الله برئت ذمته؛ لقوله تعالى: ﴿ليس عليك هداهم﴾؛ ولو كانت ذمته لا تبرأ لكان ملزماً بأن يهتدوا.

٣ ـ **ومنها**: إثبات أن جميع الأمور دقيقها، وجليلها بيد الله؛ لقوله تعالى: ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾.

٤ ـ **ومنها**: الرد على القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾؛ لأنهم يقولون: «إن العبد مستقل بعمله، ولا تعلق لمشيئة الله سبحانه وتعالى فيه».

٥ ـ **ومنها**: إثبات المشيئة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿**من يشاء**﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن هداية الخلق بمشيئة الله؛ ولكن هذه المشيئة تابعة للحكمة؛ فمن كان أهلاً لها هداه الله؛ لقوله تعالى: ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾ [الأنعام: ١٢٤]؛ ومن لم يكن أهلاً للهداية لم يهده؛ لقوله تعالى: ﴿**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم**﴾ [الصف: ٥]، ولقوله تعالى: ﴿**إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم**﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

٧ ـ **ومنها**: أن أعمال الإنسان لا تنصرف إلى غيره؛ لقوله تعالى: ﴿**وما تنفقوا من خير فلأنفسكم**﴾؛ وليس في الآية دليل على منع أن يتصدق الإنسان بعمله على غيره؛ ولكنها تبين أن ما عمله الإنسان فهو حق له؛ ولهذا جاءت السنة صريحة بجواز الصدقة عن الميت، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري في قصة الرجل الذي قال: «**يا رسول الله، إن أمي أفتلتت نفسها وأُراها لو تكلمت تصدقت أفأتصدق عنها؟ قال: نعم تصدق عنها**»[(١)]؛ وكذلك حديث سعد بن عبادة حين تصدق ببستانه لأمه[(٢)]؛ إذاً فالآية لا تدل على منع الصدقة عن الغير؛ وإنما تدل على أن ما عمله الإنسان لا يصرف إلى غيره.

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٢٢، كتاب الوصايا، باب ١٩: ما يستحب لمن توفي فجاءة أن يتصدقوا عنه، حديث رقم ٢٧٦٠؛ وأخرجه مسلم ص٨٣٦، كتاب الزكاة، باب ١٥: وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه، حديث رقم ٢٣٢٦ [٥١] ١٠٠٤؛ واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه البخاري ص٢٢١، كتاب الوصايا، باب ١٦: إذا قال: أرضي وبستاني صدقة لله، حديث رقم ٢٧٥٦.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الإنفاق الذي لا يُبتغى به وجه الله لا ينفع العبد؛ لقوله تعالى: ﴿**وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله**﴾.

٩ ـ **ومنها**: التنبيه على الإخلاص: أن يكون الإنسان مخلصاً لله عز وجل في كل عمله؛ حتى في الإنفاق وبذل المال ينبغي له أن يكون مخلصاً فيه؛ لقوله تعالى: ﴿**وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله**﴾؛ فالإنفاق قد يحمل عليه محبة الظهور، ومحبة الثناء، وأن يقال: فلان كريم، وأن تتجه الأنظار إليه؛ ولكن كل هذا لا ينفع؛ إنما ينفع ما ابتغي به وجه الله.

١٠ ـ **ومنها**: إثبات وجه الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**إلا ابتغاء وجه الله**﴾؛ وأهل السنة والجماعة يقولون: إن لله سبحانه وتعالى وجهاً حقيقياً موصوفاً بالجلال والإكرام لا يماثل أوجه المخلوقين؛ وأنه من الصفات الذاتية الخبرية؛ و«الصفات الذاتية الخبرية» هي التي لم يزل، ولا يزال متصفاً بها، ونظير مسماها أبعاض وأجزاء لنا.

وأهل التعطيل ينكرون أن يكون لله وجه حقيقي، ويقولون: المراد بـ«**الوجه**» الثواب، أو الجهة، أو نحو ذلك؛ وهذا تحريف مخالف لظاهر اللفظ، ولإجماع السلف؛ ولأن الثواب لا يوصف بالجلال والإكرام؛ والله سبحانه وتعالى وصف وجهه بالجلال والإكرام، فقال تعالى: ﴿**ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾ [الرحمن: ٢٧].

١١ ـ **ومنها**: الإشارة إلى نظر وجه الله؛ لقوله تعالى: ﴿**إلا ابتغاء وجه الله**﴾؛ وهذا ـ أعني النظر إلى وجه الله ـ ثابت بالكتاب، والسنة، وإجماع السلف؛ لقوله تعالى: ﴿**وجوه يومئذ**

ناضرة * إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقوله تعالى: **﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾** [يونس: ٢٦]؛ فقد فسر النبي ﷺ **«الزيادة»** بأنها النظر إلى وجه الله[(١)] . . . إلى آيات أخرى؛ وأما السنة فقد تواترت بذلك؛ ومنها قوله ﷺ: **«إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته»**[(٢)]؛ وأما إجماع السلف فقد نقله غير واحد من أهل العلم.

١٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الإنسان لا يُنْقص من عمله شيئاً؛ لقوله تعالى: **﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم﴾**.

١٣ ـ **ومنها**: الإشارة إلى أن الإنفاق من الحرام لا يقبل؛ وذلك لقوله تعالى: **﴿من خير﴾**؛ ووجهه: أن الحرام ليس بخير؛ بل هو شر.

١٤ ـ **ومنها**: نفي الظلم في جزاء الله عز وجل؛ لقوله تعالى: **﴿وأنتم لا تظلمون﴾**؛ وهذا يستلزم كمال عدله؛ فإن الله عز وجل كلما نفى عن نفسه شيئاً من الصفات فإنه مستلزم لكمال ضده.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾.

---

(١) راجع مسلماً ص٧٠٩، كتاب الإيمان، باب ٨٠: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، حديث رقم ٤٤٩ [٢٩٧] ١٨١، ٤٥٠ [٢٩٨] ١٨١.

(٢) سبق تخريجه ٢/٣١٦.

التفسير:

﴿٢٧٣﴾ في هذه الآية بيان لمصرف الإنفاق؛ كأن سائلاً يسأل: إلى أين نصرف هذا الخير؟ فقال تعالى: ﴿**للفقراء...**﴾؛ وعلى هذا فتكون ﴿**للفقراء**﴾ إما متعلقة بقوله تعالى: ﴿**تنفقوا**﴾؛ أو بمحذوف تقديره: الإنفاق، أو الصدقات للفقراء؛ و﴿**الفقراء**﴾ جمع فقير؛ و«**الفقير**» هو المعدم؛ لأن أصل هذه الكلمة مأخوذة من «الفقر» الموافق لـ«القفر» في الاشتقاق الأكبر ـ الذي يتماثل فيه الحروف دون الترتيب؛ و«القفر» الأرض الخالية، كما قال الشاعر:

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفر ... وليس قربَ قبرِ حرب قبر

فـ«**الفقير**» معناه الخالي ذات اليد؛ ويقرن بـ«المسكين» أحياناً؛ فإذا قرن بـ«المسكين» صار لكل منهما معنى؛ وصار «الفقير» من كان خالي ذات اليد؛ أو من لا يجد من النفقة إلا أقل من النصف؛ والمسكين أحسن حالاً منه، لكن لا يجد جميع الكفاية؛ أما إذا انفرد أحدهما عن الآخر صار معناهما واحداً؛ فهو من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت؛ وإذا افترقت اجتمعت.

قوله تعالى: ﴿**الذين أحصروا في سبيل الله**﴾ أي منعوا من الخروج من ديارهم ﴿**في سبيل الله**﴾ أي في شريعته ﴿**لا يستطيعون ضرباً في الأرض**﴾ أي لا يقدرون على السفر لقلة ذات اليد؛ أو لعجزهم عن السفر لما أصابهم من الجراح، أو الكسور، أو نحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿**يحسبهم الجاهل أغنياء**﴾ أي يظنهم الجاهل بأحوالهم أغنياء؛ وفي ﴿**يحسبهم**﴾ قراءتان: فتح السين،

وكسرها؛ و﴿من التعفف﴾ أي بسبب تعففهم عن السؤال، وإظهار المسكنة؛ لأنك إذا رأيتهم ظننتهم أغنياء مع أنهم فقراء، كقول النبي ﷺ: «**ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة، واللقمتان والتمرة، والتمرتان؛ ولكن المسكين الذي لا يجد غِنًى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس**»(١).

قوله تعالى: ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ أي تعرف أحوالهم بعلامتهم؛ والعلامة التي فيهم هي أن الإنسان إذا رآهم ظنهم أغنياء؛ وإذا دقق في حالهم تبين له أنهم فقراء؛ لكنهم متعففون؛ وكم من إنسان يأتيك بمظهر الفقير المدقع: ثياب ممزقة، وشعر منفوش، ووجه كالح، وأنين، وطنين؛ وإذا أمعنت النظر فيه عرفت أنه غني؛ وكم إنسان يأتيك بزي الغني، وبهيئة الإنسان المنتصر على نفسه الذي لا يحتاج إلى أحد؛ لكن إذا دققت في حاله علمت أنه فقير؛ وهذا يعرفه من منّ الله عليه بالفراسة؛ وكثير من الناس يعطيهم الله سبحانه وتعالى علماً بالفراسة يعلمون أحوال الإنسان بملامح وجهه، ونظراته، وكذلك بعض عباراته، كما قال الله عز وجل: ﴿**ولتعرفنهم في لحن القول**﴾ [محمد: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿**لا يسألون الناس إلحافاً**﴾؛ هل النفي للقيد؛ أو للقيد والمقيد؟ إن نظرنا إلى ظاهر اللفظ فإن النفي للقيد؛ أي أنهم لا يلحون في المسألة؛ ولكن يسألون؛ وإن نظرنا إلى مقتضى

---

(١) أخرجه البخاري ص١١٧، كتاب الزكاة، باب ٥٣: قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ وكم الغنى...، حديث رقم ١٤٧٩؛ وأخرجه مسلم ص٨٤١، كتاب الزكاة، باب ٣٤: المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه...، حديث رقم ٢٣٩٣ [١٠١] ١٠٣٩.

السياق ترجح أنهم لا يسألون الناس مطلقاً؛ فيكون النفي نفياً للقيد ـ وهو الإلحاف، والمقيد ـ وهو السؤال؛ والمعنى أنهم لا يسألون مطلقاً؛ ولو كانوا يسألون ما حسبهم الجاهل أغنياء؛ بل لظنهم فقراء بسبب سؤالهم؛ ولكنه ذكر أعلى أنواع السؤال المذموم ـ وهو الإلحاح؛ ولهذا تجد الإنسان إذا ألح ـ وإن كان فقيراً ـ يثقل عليك، وتمل مسألته؛ حتى ربما تأخذك العزة بالإثم ولا تعطيه؛ فتحرمه، أو تنهره مع علمك باستحقاقه؛ وتجد الإنسان الذي يظهر بمظهر الغني المتعفف ترق له، وتعطيه أكثر مما تعطي السائل.

إذاً في قول الله تعالى: ﴿**الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً**﴾ خمس صفات؛ والسادسة أنهم فقراء؛ فهؤلاء هم المستحقون حقاً للصدقة، والإنفاق؛ وإذا تخلفت صفة من الصفات فالاستحقاق باقٍ؛ لكن ليست كما إذا تمت هذه الصفات الست.

قوله تعالى: ﴿**وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم**﴾: هذه الجملة شرطية ذيلت بها الآية المبينة لأهل الاستحقاق حثاً على الإنفاق؛ لأنه إذا كان الله عليماً بأيّ خير ننفقه فسيجازينا عليه الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أنه لا يجوز أن نعطي من يستطيع التكسب؛ لقوله تعالى: ﴿**لا يستطيعون ضرباً في الأرض**﴾؛ لأنه عُلم منه أنهم لو كانوا يستطيعون ضرباً في الأرض، والتكسب

فإنهم لا يعطون؛ ولهذا لما جاء رجلان إلى الرسول ﷺ يسألانه الصدقة صعَّد فيهما النظر وصوَّبه، ثم قال: «**إن شئتما أعطيتكما؛ ولا حظ فيها لغني، ولا لقوي مكتسب**»[(١)]؛ فإذا كان الإنسان يستطيع الضرب في الأرض والتجارة والتكسب، فإنه لا يعطى؛ لأنه وإن كان فقيراً بماله؛ لكنه ليس فقيراً بعمله.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: فضيلة التعفف؛ لقوله تعالى: ﴿**يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف**﴾.

٣ ـ **ومنها**: التنبيه على أنه ينبغي للإنسان أن يكون فطناً ذا حزم، ودقة نظر؛ لأن الله وصف هذا الذي لا يعلم عن حال هؤلاء بأنه جاهل؛ فقال تعالى: ﴿**يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف**﴾؛ فينبغي للإنسان أن يكون ذا فطنة، وحزم، ونظر في الأمور.

٤ ـ **ومنها**: إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿**من التعفف**﴾؛ فإن ﴿**من**﴾ هنا سببية؛ أي بسبب تعففهم يظن الجاهل بحالهم أنهم أغنياء.

٥ ـ **ومنها**: الإشارة إلى الفراسة، والفطنة؛ لقوله تعالى: ﴿**تعرفهم بسيماهم**﴾؛ فإن السيما هي العلامة التي لا يطلع عليها إلا ذوو الفراسة؛ وكم من إنسان سليم القلب ليس عنده فراسة،

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٢٤، حديث رقم ١٨١٣٥، أخرجه أبو داود ص١٣٤٤، كتاب الزكاة، باب ٢٤: من يعطى من الصدقة وحد الغنى، حديث رقم ١٦٣٣؛ وأخرجه النسائي ص٢٢٥٦، كتاب الزكاة، باب ٩١: مسألة القوي المكتسب، حديث رقم ٢٥٩٩، وقال الألباني في صحيح النسائي: صحيح ٢/ ٢٢٨، والإرواء ٣/ ٣٨١، حديث رقم ٨٧٦.

ولا بُعد نظر يخدع بأدنى سبب؛ وكم من إنسان عنده قوة فراسة، وحزم، ونظر في العواقب يحميه الله سبحانه وتعالى بفراسته عن أشياء كثيرة.

٦ ـ **ومنها**: الثناء على من لا يسأل الناس؛ لقوله تعالى: ﴿**لا يسألون الناس إلحافاً**﴾؛ وقد كان من جملة ما بايع النبي ﷺ أصحابه: ألا يسألوا الناس شيئاً؛ حتى إن الرجل ليسقط سوطه من على بعيره، فينزل، فيأخذه ولا يقول لأخيه: أعطني إياه[(١)]؛ كل هذا بعداً عن سؤال الناس.

والسؤال ـ أي سؤال المال ـ لغير ضرورة محرم إلا إذا علمنا أن المسؤول يفرح بذلك ويُسَر؛ فإنه لا بأس به؛ بل قد يكون السائل مثاباً مأجوراً لإدخاله السرور على أخيه؛ كما لو سأل إنسان صديقاً له يعرف أنه يكون ممتناً بهذا السؤال؛ وقد قال النبي ﷺ في اللحم الذي على البرمة: «**هو على بريرة صدقة؛ ولنا هدية**»[(٢)].

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: بيان عموم علم الله؛ لقوله تعالى: ﴿**وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم**﴾؛ فأيّ خير يفعله العبد فإن الله به عليم.

❁ ❁ ❁

---

(١) راجع صحيح مسلم ص٨٤٢، كتاب الزكاة، باب ٣٥: كراهة المسألة، حديث رقم ٢٤٠٣ [١٠٨] ١٠٤٣.

(٢) أخرجه البخاري ص١١٨، كتاب الزكاة، باب ٦١: الصدقة على موالي أزواج النبي ﷺ، حديث رقم ١٤٩٣، وأخرجه مسلم ص٨٤٩، كتاب الزكاة، باب ٥٢، إباحة الهدية للنبي ﷺ ولبني هاشم وبني المطلب...، حديث رقم ٢٤٨٥ [١٧٠] ١٠٧٤.

القرآن

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٧٤﴾ قوله تعالى: ﴿**الذين**﴾ مبتدأ؛ وجملة: ﴿**فلهم أجرهم**﴾ خبر المبتدأ؛ واقترنت بالفاء لمشابهة المبتدأ بالشرط في العموم؛ لأن المبتدأ هنا اسم موصول؛ واسم الموصول يشبه الشرط في العموم.

قوله تعالى: ﴿**الذين ينفقون أموالهم**﴾ يحتمل أن يراد بـ«**الأموال**» هنا كل الأموال؛ ويحتمل أن يراد الجنس فيشمل الكل، والبعض.

قوله تعالى: ﴿**بالليل والنهار**﴾؛ الباء هنا للظرفية، وفيه عموم الزمن؛ وقوله تعالى: ﴿**سراً وعلانية**﴾ فيه عموم الأحوال؛ أي على كل حال، وفي كل زمان؛ و﴿**سراً**﴾ أي خفاءً؛ وهو مفعول مطلق لـ﴿**ينفقون**﴾؛ يعني إنفاقاً سراً، و﴿**علانية**﴾ أي جهراً.

قوله تعالى: ﴿**فلهم أجرهم عند ربهم**﴾ أي ثوابهم عند الله؛ وسمي أجراً؛ لأنه يشبه عقد الإجارة التي يعوَّض فيه العامل على عمله؛ وهذا الأجر قد بُين فيما سبق بأن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله: ﴿**كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء**﴾ [البقرة: ٢٦١].

قوله تعالى: ﴿**ولا خوف عليهم**﴾ أي فيما يستقبل؛ ﴿**ولا هم يحزنون**﴾ أي فيما مضى؛ فهم لا يحزنون على ما سبق؛ ولا يخافون من المستقبل؛ لأنهم يرجون ثواب الله عز وجل؛ ولا يحزنون على ما مضى؛ لأنهم أنفقوه عن طيب نفس.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: الثناء على الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله سواء كان ليلاً، أو نهاراً، أو سراً، أو جهاراً.

٢ ـ **ومنها**: كثرة ثوابهم؛ لأنه سبحانه وتعالى أضاف أجرهم إلى نفسه، فقال تعالى: ﴿**فلهم أجرهم عند ربهم**﴾؛ والثواب عند العظيم يكون عظيماً.

٣ ـ **ومنها**: أن الإنفاق يكون سبباً لشرح الصدر، وطرد الهم، والغم؛ لقوله تعالى: ﴿**لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾؛ وهذا أمر مجرب مشاهد أن الإنسان إذا أنفق يبتغي بها وجه الله انشرح صدره، وسرت نفسه، واطمأن قلبه؛ وقد ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ في زاد المعاد أن ذلك من أسباب انشراح الصدر.

٤ ـ **ومنها**: كرم الله عز وجل حيث جعل هذا الثواب الذي سببه منه وإليه، أجراً لفاعله؛ كالأجير إذا استأجرته فإن أجره ثابت لازم.

٥ ـ **ومنها**: كمال الأمن لمن أنفق في سبيل الله؛ وذلك لانتفاء الخوف، والحزن عنهم.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٧٥﴾ قوله تعالى: ﴿**الذين**﴾ مبتدأ؛ و﴿**لا يقومون**﴾ خبره؛ و﴿**الذين يأكلون الربا**﴾ أي الذين يأخذون الربا فينتفعون به بأكل، أو شرب، أو لباس، أو سكن، أو غير ذلك؛ لكنه ذكر الأكل؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع، وأكثرها إلحاحاً؛ و﴿**الربا**﴾ في اللغة: الزيادة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿**فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت**﴾ [الحج: ٥] أي زادت؛ وفي الشرع: زيادة في شيئين منع الشارع من التفاضل بينهما.

قوله تعالى: ﴿**لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس**﴾؛ اختلف المفسرون في هذا القيام، ومتى يكون؛ فقال بعضهم ـ وهم الأكثر: إنهم لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس؛ يعني: كالمصروع الذي يتخبطه الشيطان؛ و«**التخبط**» هو الضرب العشوائي؛ فالشيطان يتسلّط على ابن آدم تسلطاً عشوائياً، فيصرعه؛ فيقوم هؤلاء من قبورهم يوم القيامة كقيام المصروعين ـ والعياذ بالله ـ يشهدهم الناس كلهم؛ وهذا القول هو قول جمهور المفسرين؛ وهو مروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

القول الثاني: إنهم لا يقومون عند التعامل بالربا إلا كما يقوم المصروع؛ لأنهم ـ والعياذ بالله ـ لشدة شغفهم بالربا كأنما يتصرفون تصرف المتخبط الذي لا يشعر؛ لأنهم سكارى بمحبة الربا، وسكارى بما يربحونه ـ وهم الخاسرون؛ فيكون القيام هنا في الدنيا؛ شبَّه تصرفاتهم العشوائية الجنونية المبنية على الربا العظيم ـ الذي يتضخم المال من أجل الربا ـ بالإنسان المصروع

الذي لا يعرف كيف يتصرف؛ وهذا قول كثير من المتأخرين؛ وقالوا: إن يوم القيامة هنا ليس له ذكر؛ ولكن الله شبَّه حالهم حين طلبهم الربا بحال المصروع من سوء التصرف؛ وكلما كان الإنسان أشد فقراً كانوا له أشد ظلماً؛ فيكثرون عليه الظلم لفقره؛ بينما حاله تقتضي الرأفة، والتخفيف؛ لكن هؤلاء ظلمة ليس همهم إلا أكل أموال الناس.

فاختلف المفسرون في معنى «**القيام**»، ومتى يكون؛ لكنهم لم يختلفوا في قوله تعالى: ﴿**يتخبطه الشيطان من المس**﴾؛ يعني متفقين على أن الشيطان يتخبط الإنسان؛ و﴿**من المس**﴾ أي بالمس بالجنون؛ وهذا أمر مشاهد: أن الشيطان يصرع بني آدم؛ وربما يقتله ـ نسأل الله العافية ـ؛ يصرعه، ويبدأ يتخبط، ويتكلم، والإنسان نفسه لا يتكلم ـ يتكلم الشيطان الذي صرعه.

قوله تعالى: ﴿**ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا**﴾: المشار إليه قيامهم كقيام المصروع؛ ﴿**بأنهم قالوا...**﴾ إلخ: الباء للسببية؛ يعني أنهم عُمّي عليهم الفرق بين البيع، والربا؛ أو أنهم كابروا فألحقوا الربا بالبيع؛ ولذلك عكسوا التشبيه، فقالوا: إنما البيع مثل الربا، ولم يقولوا: «إنما الربا مثل البيع»، كما هو مقتضى الحال.

قوله تعالى: ﴿**وأحل الله البيع وحرم الربا**﴾ أي أباح البيع، ومنع الربا؛ وهذا رد لقولهم: ﴿**إنما البيع مثل الربا**﴾؛ فأبطل الله هذه الشبهة بما ذكر.

قوله تعالى: ﴿**فمن جاءه موعظة من ربه**﴾ أي من بلغه حكم الربا بعد أن تعامل به ﴿**فانتهى**﴾ أي كف عن الربا بالتوبة منه

﴿فله ما سلف﴾، أي ما أخذه من الربا قبل العلم بالحكم.

قوله تعالى: ﴿وأمره إلى الله﴾ أي شأنه إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ في الآخرة؛ ﴿ومن عاد﴾ أي ومن رجع إلى الربا بعد أن أتته الموعظة ﴿فأولئك﴾: أتى باسم الإشارة الدال على البعد؛ وذلك لسفوله ـ أي هوى بعيداً؛ ﴿أصحاب النار﴾ أي أهلها الملازمون لها؛ وأكد ذلك بقوله تعالى: ﴿هم فيها خالدون﴾.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: التحذير من الربا، حيث شبه آكله بمن يتخبطه الشيطان من المس.

٢ ـ **ومنها**: أن من تعامل بالربا فإنه يصاب بالنهمة العظيمة في طلبه.

٣ ـ **ومنها**: أن الشيطان يتخبط بني آدم فيصرعه؛ ولا عبرة بقول من أنكر ذلك من المعتزلة، وغيرهم؛ وقد جاءت السنة بإثبات ذلك؛ والواقع شاهد به؛ وقد قسم ابن القيم ـ رحمه الله ـ في زاد المعاد الصرع إلى قسمين: صرع بتشنج الأعصاب؛ وهذا يدركه الأطباء، ويقرونه، ويعالجونه بما عندهم من الأدوية، والثاني: صرع من الشيطان؛ وذلك لا علم للأطباء به؛ ولا يعالج إلا بالأدوية الشرعية كقراءة القرآن، والأدعية النبوية الواردة في ذلك.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: بيان علة قيام المرابين كقيام الذي يتخبطه الشيطان من المس؛ وهي: ﴿أنهم قالوا إنما البيع مثل الربا﴾ يعني: فإذا كان مثله فلا حرج علينا في طلبه.

٥ ـ **ومنها**: مبالغة أهل الباطل في ترويج باطلهم؛ لأنهم

جعلوا المقيس هو المقيس عليه؛ لقولهم: ﴿**إنما البيع مثل الربا**﴾؛ وكان مقتضى الحال أن يقولوا: إنما الربا مثل البيع.

٦ ـ **ومنها**: أن الحكم لله ـ تبارك وتعالى ـ وحده؛ فما أحله فهو حلال؛ وما حرمه فهو حرام سواء علمنا الحكمة في ذلك، أم لم نعلم؛ لأنه تعالى رد قولهم: ﴿**إنما البيع مثل الربا**﴾ بقوله تعالى: ﴿**وأحل الله البيع وحرم الربا**﴾؛ فكأنه قال: ليس الأمر إليكم؛ وإنما هو إلى الله.

٧ ـ **ومنها**: أن بين الربا والبيع فرقاً أوجب اختلافهما في الحكم؛ فإنا نعلم أن الله تعالى لا يفرق بين شيئين في الحكم إلا وبينهما فرق في العلة، والسبب المقتضي لاختلافهما؛ لقوله تعالى: ﴿**أليس الله بأحكم الحاكمين**﴾ [التين: ٨]، وقوله تعالى: ﴿**ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**﴾ [المائدة: ٥٠].

٨ ـ **ومنها**: أن ما أخذه الإنسان من الربا قبل العلم فهو حلال له بشرط أن يتوب، وينتهي؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف**﴾.

٩ ـ **ومنها**: أنه لو تاب من الربا قبل أن يقبضه فإنه يجب إسقاطه؛ لقوله تعالى: ﴿**فانتهى**﴾؛ ومن أخذه بعد العلم فإنه لم ينته؛ ولهذا قال النبي ﷺ في عرفة في حجة الوداع: «**ألا وإن ربا الجاهلية موضوع؛ وأول رباً أضعه ربانا ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله**»[1]؛ فبين ﷺ أن ما لم يؤخذ من الربا فإنه موضوع.

---

(١) أخرجه مسلم ص٨٨٠ ـ ٨٨١، كتاب الحج، باب ١٩: حجة النبي ﷺ، حديث رقم ٢٩٥٠ [١٤٧] ١٢١٨.

١٠ ـ **ومنها**: رأفة الله تعالى بمن شاء من عباده؛ لقوله تعالى: ﴿**فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى**﴾؛ وهذه ربوبية خاصة تستلزم توفيق العبد للتوبة حتى ينتهي عما حرم الله عليه.

١١ ـ **ومنها**: التحذير من الرجوع إلى الربا بعد الموعظة؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾.

١٢ ـ **ومنها**: التخويف من التفاؤل البعيد لمن تاب من الربا؛ لأنه تعالى قال: ﴿**فله ما سلف وأمره إلى الله**﴾؛ يعني أن الإنسان يتفاءل، ويؤمل؛ لأن الأمر قد لا يكون على حسب تفاؤله.

١٣ ـ **ومنها**: بيان عظم الربا؛ لقوله تعالى: ﴿**ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٧٦﴾ قوله تعالى: ﴿**يمحق الله الربا**﴾؛ «**المحق**» بمعنى الإزالة؛ أي يزيل الربا؛ والإزالة يحتمل أن تكون إزالة حسية، أو إزالة معنوية، **فالإزالة الحسية**: أن يسلط الله على مال المرابي ما يتلفه؛ **والمعنوية**: أن يَنزع منه البركة.

قوله تعالى: ﴿**ويربي الصدقات**﴾ أي يزيدها: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

قوله تعالى: ﴿**والله لا يحب كل كفار أثيم**﴾؛ إذا نفى الله

تعالى المحبة فالمراد إثبات ضدها ـ وهي الكراهة؛ و«**الكَفّار**» كثير الكفر، أو عظيم الكفر؛ و«**الأثيم**» بمعنى الآثم، كالسميع بمعنى السامع، والبصير بمعنى الباصر، وما أشبه ذلك.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: محق الربا: إما حساً، وإما معنًى، كما سبق.

٢ ـ **ومنها**: التحذير من الربا، وسد أبواب الطمع أمام المرابين.

٣ ـ **ومنها**: أن الله يرْبي الصدقات ـ أي يزيدها؛ والزيادة إما أن تكون حسية؛ وإما أن تكون معنوية؛ فإن كانت حسية فبالكمية، مثل أن ينفق عشرة، فيخلف الله عليه عشرين؛ وأما المعنوية فأن يُنْزل الله البركة في ماله.

٤ ـ **ومنها**: مقابلة الضد بالضد؛ فكما أن الربا يُمحَق، ويزال؛ فالصدقة تزيد المال، وتنميه؛ لأن الربا ظلم، والصدقة إحسان.

٥ ـ **ومنها**: إثبات المحبة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**والله لا يحب كل كفار أثيم**﴾؛ ووجه الدلالة أن نفي المحبة عن الموصوف بالكفر، والإثم يدل على إثباتها لمن لم يتصف بذلك ـ أي لمن كان مؤمناً مطيعاً؛ ولولا ذلك لكان نفي المحبة عن «**الكفار الأثيم**» لغواً من القول لا فائدة منه؛ ولهذا استدل الشافعي ـ رحمه الله ـ بقوله تعالى: ﴿**كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون**﴾ [المطففين: ١٥] على أن الأبرار يرون الله عز وجل؛ لأنه لما حجب الفجار عن رؤيته في حال الغضب دل على ثبوتها

للأبرار في حال الرضا؛ وهذا استدلال خفي جيد؛ والمحبة الثابتة لله عز وجل هي محبة حقيقية تليق بجلاله، وعظمته؛ وليست ـ كما قال أهل التعطيل ـ إرادة الثواب، أو الثواب؛ لأن إرادة الثواب ناشئة عن المحبة؛ وليست هي المحبة؛ وهذه القاعدة ـ أعني إجراء النصوص على ظاهرها في باب صفات الله ـ اتفق عليها علماء السلف، وأهل السنة والجماعة؛ لأن ما يتحدث الله به عن نفسه أمور غيبية يجب علينا الاقتصار فيها على ما ورد.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٧٧﴾ قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا﴾ أي آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به؛ ﴿وعملوا الصالحات﴾ أي عملوا الأعمال الصالحات؛ وهي المبنية على الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ؛ ﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي أتوا بها قويمة بشروطها، وأركانها، وواجباتها، ومكملاتها؛ وعطْفها على العمل الصالح من باب عطف الخاص على العام؛ لأن إقامة الصلاة من الأعمال الصالحة، ونُص عليها لأهميتها؛ ﴿وآتوا الزكاة﴾ أي أعطوا الزكاة مستحقها؛ وعلى هذا فتكون ﴿الزكاة﴾ مفعولاً أولاً بـ﴿آتوا﴾؛ والمفعول الثاني محذوف ـ أي آتوا الزكاة مستحقها؛ و«**الزكاة**» هي النصيب الذي أوجبه الله عز وجل في الأموال الزكوية؛ وهو معروف في كتب الفقه.

قوله تعالى: ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ أي لهم ثوابهم عند الله؛ والجملة هذه خبر ﴿إن﴾ في قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا. . .﴾.

قوله تعالى: ﴿ولا خوف عليهم﴾ أي فيما يستقبل من أمرهم؛ ﴿ولا هم يحزنون﴾ أي فيما مضى من أمرهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: الحث على الإيمان، والعمل الصالح؛ لأن ذكر الثواب يستلزم التشجيع، والحث، والإغراء.

٢ ـ **ومنها**: أنه لابد مع الإيمان من العمل الصالح؛ فمجرد الإيمان لا ينفع العبد حتى يقوم بواجبه ـ أي واجب الإيمان: وهو العمل الصالح.

٣ ـ **ومنها**: أن العمل لا يفيد حتى يكون صالحاً؛ والصلاح أن ينبني العمل على أمرين: الإخلاص لله عز وجل ـ وضده الشرك؛ والمتابعة ـ وضدها البدعة؛ فمن أخلص لله في شيء، ولكنه أتى بعمل مبتدع لم يقبل منه؛ ومن أتى بعمل مشروع لكن خلطه بالشرك لم يقبل منه؛ وأدلة هذا معروفة.

٤ ـ **ومنها**: بيان أهمية إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.

٥ ـ **ومنها**: أن هذين الركنين ـ أعني إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة ـ أعلى أركان الإسلام بعد الشهادتين؛ للنص عليهما من بين سائر الأعمال الصالحة.

٦ ـ **ومنها**: أن الله سبحانه وتعالى ضمن الأجر لمن آمن، وعمل صالحاً، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾.

٧ ـ **ومنها**: الإشارة إلى عظمة هذا الثواب؛ لأنه أضافه إلى نفسه ـ تبارك وتعالى ـ والمضاف إلى العظيم يكون عظيماً.

٨ ـ **ومنها**: أن هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع ـ الإيمان، والعمل الصالح، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ـ ليس عليهم خوف من مستقبل أمرهم؛ ولا حزن فيما مضى من أمرهم؛ لأنهم فعلوا ما به الأمن التام، كما قال الله تعالى: ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾ [الأنعام: ٨٢].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٧٨﴾ قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾: الجملة ندائية؛ فائدتها: تنبيه المخاطب.

قوله تعالى: ﴿**اتقوا الله**﴾ أي اتخذوا وقاية من عذابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

قوله تعالى: ﴿**وذروا ما بقي من الربا**﴾ أي اتركوا ما بقي من الربا.

قوله تعالى: ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾: هذا من باب الإغراء، والحث على الامتثال؛ يعني: إن كنتم مؤمنين حقاً فدعوا ما بقي من

الربا؛ وهذه الجملة يقصد بها الإغراء، والإثارة ـ أعني إثارة الهمة.

فإن قلت: كيف يوجِّه الخطاب للمؤمنين، ويقول: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾؛ أفلا يكون في هذا تناقض؟ فالجواب: ليس هنا تناقض؛ لأن معنى الثانية التحدي؛ أي إن كنتم صادقين في إيمانكم فاتقوا الله، وذروا ما بقي من الربا.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: بلوغ القرآن أكمل البلاغة؛ لأن الكلام في القرآن يأتي دائماً مطابقاً لمقتضى الحال؛ فإذا كان الشيء مهماً أحاطه بالكلمات التي تجعل النفوس قابلة له؛ وهذا أكمل ما يكون من البلاغة.

٢ ـ **ومنها**: أنه إذا كان الشيء هاماً فإنه ينبغي أن يصَدَّر بما يفيد التنبيه من نداء، أو غيره.

٣ ـ **ومنها**: وجوب تقوى الله، لقوله تعالى: ﴿**اتقوا الله**﴾؛ و«**التقوى**» وصية الله لعباده الأولين، والآخرين؛ قال الله تعالى: ﴿**ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله**﴾ [النساء: ١٣١].

٤ ـ **ومنها**: وجوب ترك الربا ـ وإن كان قد تم العقد عليه؛ لقوله تعالى: ﴿**وذروا ما بقي من الربا**﴾؛ وهذا في عقد استوفي بعضه، وبقي بعضه.

٥ ـ **ومنها**: أنه لا يجوز تنفيذ العقود المحرمة في الإسلام ـ وإن عقدت في حال الشرك؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وذروا ما بقي من الربا﴾، ولقول النبي ﷺ في خطبته في عرفة عام حجة الوداع: «**وربا الجاهلية موضوع؛ وأول ربا أضعه ربانا ربا العباس بن**

عبد المطلب فإنه موضوع كله»[١]؛ ولكن يجب أن نعلم أن العقود التي مضت في الكفر على وجه باطل، وزال سبب البطلان قبل الإسلام فإنها تبقى على ما كانت عليه؛ مثال ذلك: لو تبايع رجلان حال كفرهما بيعاً محرماً في الإسلام، ثم أسلما فالعقد يبقى بحاله؛ ومثال آخر: لو تزوج الكافر امرأة في عدتها، ثم أسلما بعد انقضاء عدتها فالنكاح باق؛ ولهذا أمثلة كثيرة.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: تحريم أخذ ما يسمى بالفوائد من البنوك؛ لقوله تعالى: ﴿**وذروا ما بقي من الربا**﴾؛ وزعم بعض الناس أن الفوائد من البنوك تؤخذ لئلا يستعين بها على الربا؛ وإذا كان البنك بنك كفار فلئلا يستعين بها على الكفر؛ فنقول: أأنتم أعلم أم الله!!! وقد قال الله تعالى: ﴿**ذروا ما بقي من الربا**﴾؛ والاستحسان في مقابلة النص باطل.

فإن قال قائل: إذا كان البنك بنكاً غير إسلامي، ولو تركناه لهم صرفوه إلى الكنائس، وإلى السلاح الذي يقاتَل به المسلمون، أو أبقوه عندهم، ونما به رباهم؛ فنقول: إننا مخاطبون بشيء، فالواجب علينا أن نقوم بما خوطبنا به؛ والنتائج ليست إلينا؛ ثم إننا نقول: هذه الفائدة التي يسمونها فائدة هل هي قد دخلت في أموالنا حتى نقول: إننا أخرجنا من أموالنا ما يستعين به أعداؤنا على كفرهم، أو قتالنا؟

والجواب: أن الأمر ليس كذلك؛ فإن هذه الزيادة التي يسمونها فائدة ليست نماءَ أموالنا؛ فلم تدخل في ملكنا؛ ثم إننا نقول له: إذا أخذته فأين تصرفه؟ قال: أصرفه في صدقة؛ في

---

(١) سبق تخريجه ٣/ ٢٧٧.

إصلاح طرق؛ في بناء مساجد تخلصاً منه، أو تقرباً به؛ نقول له: إن فعلت ذلك تقرباً لم يقبل منك، ولم تسلم من إثمه؛ لأنك صرفته في هذه الحال على أنه ملكك؛ وإذا صرفته على أنه ملكك لم يقبل منك؛ لأنه صدقة من مال خبيث؛ ومن اكتسب مالاً خبيثاً فتصدق به لم يقبل منه؛ لقول النبي ﷺ: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً**»[1]؛ وإن أخرجته تخلصاً منه فأي فائدة من أن تلطخ مالك بالخبيث، ثم تحاول التخلص منه؛ ثم نقول أيضاً: هل كل إنسان يضمن من نفسه أن يخرج هذا تخلصاً منه؟! فربما إذا رأى الزيادة الكبيرة تغلبه نفسه، ولا يخرجها؛ أيضاً إذا أخذت الربا، وقال الناس: إن فلاناً أخذ هذه الأموال التي يسمونها الفائدة؛ أفلا تخشى أن يقتدي الناس بك؟! لأنه ليس كل إنسان يعلم أنك سوف تخرج هذا المال، وتتخلص منه.

ولهذا أرى أنه لا يجوز أخذ شيء من الربا مطلقاً؛ لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا**﴾؛ ولم يوجه العباد إلى شيء آخر.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أن ممارسة الربا تنافي الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾؛ ولكن هل يُخرج الإنسانَ من الإيمان إلى الكفر؟ مذهب الخوارج أنه يخرجه من الإيمان إلى الكفر؛ فهو عند الخوارج كافر، كفرعون، وهامان، وقارون؛ لأنه فعل كبيرة من كبائر الذنوب؛ ومذهب أهل السنة والجماعة أنه مؤمن ناقص الإيمان؛ لكنه يُخشى عليه من الكفر لا سيما آكل الربا؛ لأنه غذي بحرام؛ وقد قال النبي ﷺ حين ذكر الرجل يطيل السفر

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٢٤٧.

أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام: «**فأنى يستجاب لذلك**»[(١)] ـ نسأل الله العافية.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده، حيث حرم عليهم ما يتضمن الظلم؛ وأكد هذا التحريم، وأنزل القرآن فيه بلفظ يحمل على ترك هذا المحرم؛ لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾، وقوله تعالى: ﴿**اتقوا الله**﴾، وقوله تعالى: ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾؛ والحكم: ﴿**ذروا ما بقي من الربا**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٧٩﴾ قوله تعالى: ﴿**فإن لم تفعلوا**﴾ يعني: فإن لم تتركوا ما بقي من ربا؛ ﴿**فأذنوا**﴾ بالقصر وفتح الذال، بمعنى أعلنوا؛ وفي قراءة ﴿**فآذنوا**﴾ بالمد، وكسر الذال؛ والمعنى: أن من لم ينته عن الربا فقد أعلن الحرب على الله ورسوله.

قوله تعالى: ﴿**وإن تبتم**﴾ أي رجعتم إلى الله سبحانه وتعالى من معصيته إلى طاعته؛ وذلك هنا بترك الربا؛ والتوبة من الربا، كالتوبة من غيره ـ لابد فيها من توافر الشروط الخمسة المعروفة.

---

(١) أخرجه مسلم ص٨٣٨، كتاب الزكاة، باب ١٩: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، حديث رقم ٢٣٤٦ [٦٥] ١٠١٥.

قوله تعالى: ﴿**فلكم رؤوس أموالكم**﴾؛ ﴿**رؤوس**﴾ جمع رأس؛ و«**الرأس**» هنا بمعنى الأصل؛ أي لكم أصول الأموال؛ وأما الربا فليس لكم، ثم علل الله عز وجل هذا الحكم بقوله تعالى: ﴿**لا تظلمون**﴾؛ لأنكم لم تأخذوا الزيادة؛ ﴿**ولا تُظلمون**﴾؛ لأنها لم تنقص رؤوس أموالكم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿**فإن لم تفعلوا**﴾؛ لأن الجبرية يقولون: إن الإنسان لا يستطيع الفعل، ولا الترك؛ لأنه مجبر؛ وحقيقة قولهم تعطيل الأمر والنهي؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يفعل ما أمر به، ولا ترك ما نهي عنه.

٢ ـ **ومنها**: أن المصِرّ على الربا معلن الحرب على الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿**فأذنوا بحرب من الله ورسوله**﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة أنه إذا كان معلناً الحرب على الله، ورسوله فهو معلن الحرب على أولياء الله، ورسوله ـ وهم المؤمنون؛ وذلك بدلالة الالتزام؛ لأن كل مؤمن يجب أن ينتصر لله، ورسوله؛ فالمؤمنون هم حزب الله عز وجل ورسوله.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: عظم الربا لعظم عقوبته؛ وإنما كان بهذه المثابة ردعاً لمتعاطيه عن الاستمرار فيه؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إنه جاء في الوعيد على الربا ما لم يأت على ذنب دون الشرك؛ ولهذا جاء في الحديث الذي طرقه متعددة: «**إن الربا ثلاثة وسبعون باباً أيسرها مثل أن يأتي الرجل أمه**»[1]؛ وهذا كلٌّ

---

(١) أخرجه ابن ماجه بلفظ: (الربا ثلاثة وسبعون باب اً) بدون (أيسرها...) =

يستبشعه؛ فالربا ليس بالأمر الهين؛ والمؤمن ترتعد فرائصه إذا سمع مثل هذه الآية.

٤ ـ **ومنها**: أنه يجب على كل من تاب إلى الله عز وجل من الربا ألا يأخذ شيئاً مما استفاده من الربا؛ لقوله تعالى: ﴿**وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم**﴾.

٥ ـ **ومنها**: أنه لا يجوز أخذ ما زاد على رأس المال من الربا لأيّ غرض كان؛ سواء أخذه ليتصدق به، أو ليصرفه في وجوه البر تخلصاً منه، أو لغير ذلك؛ لأن الله أمر بتركه؛ ولو كان هنا طريق يمكن صرفه فيه لبينه الله عز وجل.

٦ ـ **ومنها**: الإشارة إلى الحكمة من تحريم الربا ـ وهي الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿**لا تظلمون ولا تظلمون**﴾.

فإن قال قائل: إن بعض صور الربا ليس فيه ظلم، مثل أن يشتري صاعاً من البر الجيد بصاعين من الرديء يساويانه في القيمة؛ فإنه لا ظلم في هذه الصورة؛ قلنا: إن العلة إذا كانت منتشرة لا يمكن ضبطها فإن الحكم لا ينتقض بفقدها؛ ولهذا ثبت عن النبي ﷺ أنه **أتي إليه بتمر جيد فسأل: «من أين هذا؟ فقال بلال: تمر كان عندنا رديّ فبعت منه صاعين بصاع، فقال النبي ﷺ: أوّه أوّه! عين الربا عين الربا لا تفعل»**[1]؛ ثم أرشدهم إلى أن

= ص٢٦١٣، كتاب التجارات، باب ٥٨: التغليظ في الربا، حديث رقم ٢٢٧٥؛ وقال الألباني في صحيح ابن ماجه: (صحيح) ٢/ ٢٧ ـ ٢٨، وأخرجه الحاكم بتمامه ٢/ ٣٧، كتاب البيوع، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي.

(١) أخرجه البخاري ص١٨١، كتاب الوكالة، باب ١١: إذا باع الوكيل شيئاً =

يبيعوا التمر الرديء بالدراهم؛ ويشتروا بالدراهم تمراً جيداً؛ فدل هذا على أن تخلف الظلم في بعض صور الربا لا يخرجه عن الحكم العام للربا؛ لأن هذه العلة منتشرة لا يمكن ضبطها؛ ولهذا أمثلة كثيرة؛ ودائماً نجد في كلام أهل العلم أن العلة إذا كانت منتشرة غير منضبطة فإن الحكم يعم، ولا ينظر للعلة.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿**ورسوله**﴾.

٨ ـ **ومنها**: رحمة الله سبحانه وتعالى بالعباد، حيث أرسل إليهم الرسل؛ لأن العقول لا يمكن أن تستقل بمعرفة ما ينفعها، ويضرها على وجه التفصيل لقصورها؛ إنما تعرفه على سبيل الجملة؛ لقوله تعالى: ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾ [الإسراء: ٨٥]؛ فمن أجل ذلك أرسل الله الرسل؛ فكان في هذا رحمة عظيمة للخلق.

٩ ـ **ومنها**: مراعاة العدل في معاملة الناس بعضهم مع بعض؛ لقوله تعالى: ﴿**فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون**﴾.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾.

= فاسداً فبيعه مردود، حديث رقم ٢٣١٢، وأخرجه مسلم ص٩٥٤، كتاب المساقاة، باب ١٨: بيع الطعام مثلاً بمثل، حديث رقم ٤٠٨٣ [٩٦] ١٥٩٤.

التفسير:

﴿٢٨٠﴾ قوله تعالى: ﴿وإن كان ذو عسرة﴾ ﴿كان﴾ تامة تكتفي بمرفوعها؛ و﴿ذو﴾ فاعل رفعت بالواو؛ لأنها من الأسماء الستة؛ والجملة شرطية؛ والجواب: جملة: ﴿فنظرة إلى ميسرة﴾.

قوله تعالى: ﴿إن كنتم تعلمون﴾ جملة شرطية نقول في إعرابها ما سبق في قوله تعالى: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾.

أما القراءات في هذه الآية: قوله تعالى: ﴿ميسرة﴾ فيها قراءتان: ﴿ميسَرة﴾ بفتح السين؛ و﴿ميسُرة﴾ بضمها؛ و﴿تصدقوا﴾ فيها قراءتان: ﴿تصَدَّقوا﴾ بتخفيف الصاد؛ و﴿تَصَّدَّقوا﴾ بتشديدها؛ أي تتصدقوا؛ لكن أدغمت التاء في الصاد.

قوله تعالى: ﴿وإن كان ذو عسرة﴾ أي إن وجِد ذو عسرة؛ أي صاحب إعسار لا يستطيع الوفاء؛ والجملة شرطية؛ وجواب الشرط قوله تعالى: ﴿فنظرة إلى ميسرة﴾؛ ويجوز في «نظرة» في إعرابها وجهان؛ **أحدهما**: أن تكون مبتدأ، والخبر محذوف؛ والتقدير: فعليكم نظرة؛ أو فله نظرة؛ وأما أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: فالواجب عليه نظرة؛ أي إنظار إلى ميسرة؛ أي: إيسار.

قوله تعالى: ﴿وأن تصدقوا خير لكم﴾ أي تُبرءوا المعسر في دينه؛ و﴿أن﴾ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿خير لكم﴾ أي من إنظاره.

قوله تعالى: ﴿إن كنتم تعلمون﴾ هذه الجملة الشرطية مستقلة يراد بها الحث على العلم؛ «مستقلة» أي أنها لا توصل بما قبلها؛ لأنها لو وصلت بما قبلها لأوهم معنًى فاسداً: أوهم أن التصدق

خير لنا إن كنا نعلم؛ فإن لم نكن نعلم فليس خيراً لنا؛ ولا شك أن هذا معنًى فاسد لا يراد بالآية؛ لكن المعنى: إن كنتم من ذوي العلم فافعلوا ـ أي تصدقوا.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: ثبوت رحمة الله عز وجل؛ وجه ذلك أنه أوجب على الدائن إنظار المدين؛ وهذا رحمة بالمعسر.

٢ ـ **ومنها**: حكمة الله عز وجل بانقسام الناس إلى موسر، ومعسر؛ الموسر في الآية: الدائن؛ والمعسر: المدين؛ وحكمة الله عز وجل هذه لا يمكن أن تستقيم أمور العباد إلا بها، ولذلك بدأ الشيوعيون ـ الذين يريدون أن يساووا بين الناس ـ يتراجعون الآن؛ لأنهم عرفوا أنه لا يمكن أن يصلح العباد إلا هذا الخلاف؛ قال عز وجل: ﴿**أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً**﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ ولولا هذا الاختلاف لم يمكن أن يسخر لنا أحد ليعمل ما نريد؛ لأن كل واحد ندّ للآخر؛ فلا يمكن إصلاح الخلق إلا بما تقتضيه حكمة الله عز وجل، وشرعه من التفاوت بينهم: فهذا موسر؛ وهذا فقير؛ حتى يتبين بذلك حكمة الله عز وجل، وتقوم أحوال العباد.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: وجوب إنظار المعسر ـ أي إمهاله حتى يوسر؛ لقوله تعالى: ﴿**فنظرة إلى ميسرة**﴾؛ فلا تجوز مطالبته بالدَّين؛ ولا طلب الدَّين منه.

٤ ـ **ومنها**: أن الحكم يدور مع علته وجوداً، وعدماً؛ لأنه لما كان وجوب الإنظار معللًا بالإعسار صار مستمراً إلى أن

تزول العلة ـ وهي العسرة ـ حتى تجوز مطالبته.

ولو أن الناس مشوا على تقوى الله عز وجل في هذا الباب لسلمت أحوال الناس من المشاكل؛ لكن نجد الغني يماطل: يأتيه صاحب الحق يقول: اقضني حقي؛ فيقول: غداً؛ ويأتيه غداً فيقول: بعد غد؛ وهكذا؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**مطل الغني ظلم**»[1]؛ ونجد أولئك القوم الأشحاء ذوي الطمع لا يُنظرون المعسر، ولا يرحمونه؛ يقول له: أعطني؛ وإلا فالحبس؛ ويحبس فعلاً ـ وإن كان لا يجوز حبسه إذا تيقنا أنه معسر، ولا مطالبته، ولا طلب الدين؛ بل يعزر الدائن إذا ألح عليه في الطلب وهو معسر؛ لأن طلبه مع الإعسار معصية؛ والتعزير عند أهل العلم واجب في كل معصية لا حدّ فيها، ولا كفارة.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: فضيلة الإبراء من الدَّين، وأنه صدقة؛ لقوله تعالى: ﴿**وأن تصدقوا خير لكم**﴾؛ والإبراء سنة؛ والإنظار واجب؛ وهنا السنة أفضل من الواجب بنص القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿**وأن تصدقوا خير لكم**﴾؛ ووجه ذلك أن الواجب ينتظم في السنة؛ لأن إبراء المعسر من الدَّين إنظار، وزيادة؛ وعلى هذا فيبطل إلغاز من ألغز بهذه المسألة، وقال: «لنا سنة أفضل من الواجب»، ومثل ذلك قول بعضهم في الوضوء ثلاثاً: «إنه أفضل من الوضوء واحدة مع أن الواحدة واجب، والثلاث سنة»؛ فيُلغِز

---

(١) أخرجه البخاري ص١٧٨، كتاب الحوالات، باب ١: الحوالة وهل يرجع في الحوالة، حديث رقم ٢٢٨٧؛ وأخرجه مسلم ص٩٥٠، كتاب المساقاة، باب ٧: تحريم مطل الغني وصحة الحوالة...، حديث رقم ٤٠٠٢ [٣٣] ١٥٦٤.

بذلك، ويقول: «هنا سنة أفضل من واجب»؛ فيقال له: هذا إلغاز باطل؛ لأن هذه السنة مشتملة على الواجب؛ فهي واجب، وزيادة؛ وصدق الله، حيث قال في الحديث القدسي: «**ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه**»[1]؛ وهذا الحديث يبطل مثل هذه الألغاز التافهة.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: تفاضل الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿**وأن تصدقوا خير لكم**﴾؛ وتفاضل الأعمال يستلزم تفاضل العامل، وأن العاملين بعضهم أفضل من بعض؛ وهذا أمر معلوم بالضرورة الشرعية والعقلية أن العمال يختلفون، كما قال تعالى: ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم**﴾ [النساء: ٩٥]، وكما قال تعالى: ﴿**لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى**﴾ [الحديد: ١٠].

ويتفرع على تفاضل العمال بتفاضل الأعمال: تفاضل الإيمان، لأن الأعمال من الإيمان عند أهل السنة، والجماعة؛ فإذا تفاضلت لزم من ذلك تفاضل الإيمان؛ ولهذا كان مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: فضيلة العلم، وأن العلم يهدي صاحبه إلى الخير؛ لقوله تعالى: ﴿**إن كنتم تعلمون**﴾.

٨ ـ **وهل يستفاد من الآية الكريمة**: أن إبراء الغريم يجزئ من الزكاة: فلو أن إنساناً أبرأ فقيراً، ثم قال: أبرأته عن زكاتي؛

---

(١) ٣/ ٢٦٨ حاشية (٢).

لأن الله سمى الزكاة صدقة؛ فقال تعالى: ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين...**﴾؟

فالصحيح من أقوال أهل العلم أنه لا يجزئ؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه**﴾ [البقرة: ٢٦٧]؛ وجعْل الدَّين زكاة للعين هذا من تيمم الخبيث لإخراجه عن الطيب؛ والمراد بالخبيث هنا الرديء ـ وليس الحرام؛ لأن العين مُلك قائم بيد المالك يتصرف فيه كيف يشاء؛ والدَّين الذي على معسر مال تالف؛ لأن الأصل بقاء الإعسار؛ وحينئذٍ يكون هذا الدَّين بمنزلة المال التالف؛ فلا يصح أن يجعل هذا المال التالف زكاة عن العين؛ ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله: إن إبراء الغريم المعسر لا يجزئ من الزكاة بلا نزاع؛ ولو قلنا: يجزئ لكان كل إنسان له غرماء لا يستطيعون الوفاء يقول: أبرأتكم ونويتها من الزكاة؛ فتبقى الأموال عنده، والديون التالفة الهالكة التي لا يرجى حصولها تكون هي الزكاة؛ وهذا لا يجوز؛ ولهذا لو خيرت شخصاً، وقلت له: أنا أعطيك عشرة ريالات نقداً، أو أحولك على إنسان فقير معسر عنده العشرة فإنه يختار العشرة نقداً؛ ولا يتردد؛ بل لو خيرته بين عشرة نقداً، وعشرين في ذمة معسر لاختار العشرة؛ فصارت العشرة المنقودة بالنسبة للدَّين من باب الطيب؛ وذاك من باب الرديء؛ وبهذا يتبين أنه لا يجزئ إبراء المدين المعسر عن زكاة مال بيد مالكه؛ لأنه من باب تيمم الخبيث؛ إذاً نقول: لا يجوز إبراء الفقير، واحتساب ذلك من الزكاة؛ نعم لو فرض أنه سيجعلها زكاة عن الدَّين الذي في ذمة

المعسر ـ إذا قلنا بوجوب الزكاة في الدَّين ـ لكان ذلك مجزئاً؛ لأن هذا صار من جنس المال الذي أديت الزكاة عنه.

الخلاصة:

تبين مما ذكر من الآيتين أن المعاملة بالدَّين ثلاثة أقسام:

الأول: أن يأخذ به رباً؛ وهذا محرم؛ لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربا إن كنتم مؤمنين**﴾ [البقرة: ٢٧٨].

الثاني: أن يكون المدين معسراً؛ فلا تجوز مطالبته، ولا طلب الدّين منه حتى يوسر؛ لقوله تعالى: ﴿**وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة**﴾.

الثالث: أن يبرئ المعسر من دينه؛ وهذا أعلى الأقسام؛ لقوله تعالى: ﴿**وأن تصدقوا خير لكم**﴾.

تتمة:

في هذه الآية وجوب الإنظار إلى ميسرة؛ ومن المعلوم أن حصول الميسرة مجهول؛ وهذا لا يضر؛ لأنه ليس من باب المعاوضة؛ ولكن لو اشترى فقير من شخص، وجعل الوفاء مقيداً بالميسرة فهل يجوز ذلك؟ فيه قولان؛ فأكثر العلماء على عدم الجواز لأن الأجل مجهول؛ فيكون من باب الغرر المنهي عنه؛ **والقول الثاني**: أن ذلك جائز لحديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: «**قدم لفلان اليهودي بزّ من الشأم لو أرسلت إليه فاشتريت منه ثوبين إلى الميسرة؛ فأرسل إليه فامتنع**»[1]؛ ولأن هذا

(١) أخرجه أحمد ٦/١٤٧ حديث رقم ٢٥٦٥٦، وأخرجه الترمذي ص١٧٧٢، =

مقتضى العقد إذا علم البائع بإعسار المشتري؛ إذ لا يحلّ له حينئذٍ أن يطلب منه الثمن حتى يوسر؛ وهذا القول هو الراجح.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾.

التفسير:

﴿٢٨١﴾ قوله تعالى: ﴿واتقوا يوماً﴾ أي اتقوا عذاب يوم؛ أي احذروه؛ والمراد به يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ترجعون فيه إلى الله﴾؛ وعلى هذا تكون ﴿يوماً﴾ منصوبة على المفعولية؛ لأن الفعل وقع عليها ـ لا فيها.

قوله تعالى: ﴿ترجعون﴾ صفة لـ ﴿يوماً﴾؛ لأنه نكرة؛ والجمل بعد النكرات صفات؛ وهي بضم التاء، وفتح الجيم على أنه مبني لما لم يسم فاعله؛ وفي قراءة بفتح التاء، وكسر الجيم على أنه مبني للفاعل.

قوله تعالى: ﴿ثم توفى كل نفس﴾ أي تعطى؛ والتوفية بمعنى الاستيفاء؛ وهو أخذ الحق ممن هو عليه؛ فـ ﴿توفى كل

= كتاب البيوع، باب ٧: ما جاء في الرخصة في الشراء إلى أجل، حديث رقم ١٢١٣، وأخرجه النسائي ص٢٣٨٦، كتاب البيوع، باب ٧٠: البيع إلى الأجل المعلوم، حديث رقم ٤٦٣٢؛ وأخرجه الحاكم ٢/ ٢٣ ـ ٢٤، كتاب البيوع، وقال: صحيح على شرط البخاري وأقره الذهبي؛ وقال الألباني في صحيح الترمذي ٢/ ٤ ـ ٥: صحيح.

نفس﴾ أي تعطى ثوابها، وأجرها المكتوب لها ـ إن كان عملها صالحاً؛ أو تعطى العقاب على عملها ـ إن كان عملها سيئاً.

قوله تعالى: ﴿ما كسبت﴾ أي ما حصلت عليه من ثواب الحسنات، وعقوبة السيئات.

قوله تعالى: ﴿وهم لا يظلمون﴾ جملة استئنافية؛ ويحتمل أن تكون جملة حالية؛ لكن الأول أظهر؛ والمعنى: لا ينقصون شيئاً من ثواب الحسنات، ولا يزاد عليهم شيئاً من عقوبة السيئات.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: وجوب اتقاء هذا اليوم الذي هو يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾؛ واتقاؤه يكون بفعل أوامر الله، واجتناب نواهيه.

٢ ـ **ومنها**: أن التقوى قد تضاف لغير الله ـ لكن إذا لم تكن على وجه العبادة؛ فيقال: اتق فلاناً، أو: اتق كذا؛ وهذا في القرآن والسنة كثير؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**واتقوا الله لعلكم تفلحون * واتقوا النار التي أعدت للكافرين**﴾ [آل عمران: ١٣٠، ١٣١]؛ لكن فرق بين التقويين؛ التقوى الأولى تقوى عبادة، وتذلل، وخضوع؛ والثانية تقوى وقاية فقط: يأخذ ما يتقي به عذاب هذا اليوم، أو عذاب النار؛ وفي السنة قال النبي ﷺ: «**اتق دعوة المظلوم**»[1]؛ **فأضاف «التقوى»** هنا إلى «**دعوة المظلوم**»؛ واشتهر بين الناس: اتق شر من أحسنت إليه؛ لكن هذه التقوى المضافة إلى المخلوق ليست تقوى العبادة الخاصة بالله عز وجل؛ بل هي بمعنى الحذر.

---

(١) سبق تخريجه ١/١٤٨.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات البعث؛ لقوله تعالى: ﴿**ترجعون فيه إلى الله**﴾.

٤ ـ **ومنها**: أن مرجع الخلائق كلها إلى الله حكماً، وتقديراً، وجزاءً؛ فالمرجع كله إلى الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿**وأن إلى ربك المنتهى**﴾ [النجم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿**إن إلى ربك الرجعى**﴾ [العلق: ٨]، أي في كل شيء.

٥ ـ **ومنها**: إثبات قدرة الله عز وجل؛ وذلك بالبعث؛ فإن الله سبحانه وتعالى يبعث الخلائق بعد أن كانوا رميماً، وتراباً.

٦ ـ **ومنها**: الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿**واتقوا يوماً**﴾؛ لأن توجيه الأمر إلى العبد إذا كان مجبراً من تكليف ما لا يطاق.

٧ ـ **ومنها**: أن الإنسان لا يوفى يوم القيامة إلا عمله؛ لقوله تعالى: ﴿**ثم توفى كل نفس ما كسبت**﴾؛ واستدل بعض العلماء على أنه لا يجوز إهداء القرب من الإنسان إلى غيره؛ أي أنك لو عملت عملاً صالحاً لشخص معين؛ فإن ذلك لا ينفعه، ولا يستفيد منه؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿**توفى كل نفس ما كسبت**﴾؛ لا ما كسب غيرها؛ فما كسبه غيره فهو له؛ واستثني من ذلك ما دلت **السنة** على الانتفاع به من الغير **كالصوم**؛ لقول النبي ﷺ: «**من مات وعليه صيام صام عنه وليه**»[1]؛ **والحج**؛ لقول النبي ﷺ للمرأة التي استفتته أن تحج عن أبيها وكان شيخاً كبيراً

---

(١) أخرجه البخاري ص١٥٢، كتاب الصوم، باب ٤٢: من مات وعليه صوم، حديث رقم ١٩٥٢؛ وأخرجه مسلم ص٨٦١، كتاب الصيام، باب ٢٧: قضاء الصوم عن الميت حديث رقم ٢٦٩٢ [١٥٣] ١١٤٧.

لا يثبت على الراحلة قالت: أفأحج عنه قال: «**نعم**»[١]؛ وكذلك المرأة التي استفتته أن تحج عن أمها التي نذرت أن تحج، ولم تحج حتى ماتت قالت: أفأحج عنها قال ﷺ: «**نعم**»[٢]؛ **وكذلك الصدقة**؛ لقول النبي ﷺ لمن استفتاه أن يتصدق عن أمه: «**نعم**»[٣]؛ وأذن لسعد بن عبادة أن يتصدق بمخرافه عن أمه[٤]؛ **وأما الدعاء** للغير إذا كان المدعو له مسلماً فإنه ينتفع به بالنص، والإجماع؛ **أما النص** ففي الكتاب، والسنة؛ أما **الكتاب** ففي قوله تعالى: ﴿**والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان**﴾ [الحشر: ١٠]؛ وأما السنة ففي قوله ﷺ: «**ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم الله فيه**»[٥]، وكان ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، وقال: «**استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت؛ فإنه الآن يُسأل**»[٦]؛ **وأما الإجماع**: فإن المسلمين كلهم

---

(١) أخرجه البخاري ص١٢٠، كتاب الحج، باب ١، وجوب الحج وفضله...، حديث رقم ١٥١٣؛ وأخرجه مسلم ص٩٠٠، كتاب الحج، باب ٧١: الحج عن العاجز لزمانة وهرم...، حديث رقم ٣٢٥١ [٤٠٧] ١٣٣٤.

(٢) أخرجه البخاري ص١٤٥، كتاب الحج، باب ٢٢: الحج والنذور عن الميت، حديث رقم ١٨٥٢.

(٣) سبق تخريجه ٣/ ٣٦٤ حاشية (١).

(٤) أخرجه البخاري ص٢٢١، كتاب الوصايا، باب ١٦: إذا قال: أرضي أو بستاني صدقة لله، حديث رقم ٢٧٥٦.

(٥) أخرجه مسلم ٨٢٧، كتاب الجنائز، باب ١٩: من صلى عليه أربعون شفعوا فيه، حديث رقم ٢١٩٩ [٥٩] ٩٤٨.

(٦) أخرجه أبو داود ص١٤٦٥، كتاب الجنائز، باب: ٦٧ الاستغفار عند =

يصلون على الأموات، ويقولون في الصلاة: «اللهم اغفر له، وارحمه»؛ فهم مجمعون على أنه ينتفع بذلك.

والخلاف في انتفاع الميت بالعمل الصالح من غيره فيما عدا ما جاءت به السنة معروف؛ وقد ذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أن أيّ قربة فعلها، وجعل ثوابها لميت مسلم قريب، أو بعيد نفعه ذلك؛ ومع هذا فالدعاء للميت أفضل من إهداء القرب إليه؛ لأنه الذي أرشد إليه النبي ﷺ في قوله: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[1]؛ ولم يذكر العمل مع أن الحديث في سياق العمل.

وأما ما استدل به المانعون من إهداء القرب من مثل قوله تعالى: ﴿**وأن ليس للإنسان إلا ما سعى**﴾ [النجم: ٣٩] فإنه لا يدل على المنع؛ بل على أن سعي الإنسان ثابت له؛ وليس له من سعي غيره شيء إلا أن يجعل ذلك له؛ ونظير هذا أن تقول: «ليس لك إلا مالك»، فإنه لا يمنع أن يقبل ما تبرع به غيره من المال.

= القبر للميت، حديث رقم ٣٢٢١، وأخرجه الحاكم ١/ ٣٧٠، كتاب الجنائز، وقال: صحيح، وقال الذهبي: صحيح (المرجع السابق ١/ ٣٧١) وقال: عبد الله بن بحير ليس بالعمدة، ومنهم من يقويه، وهانئ روى عنه جماعة، وليس له ذكر في الكتب الستة (المرجع السابق)، وقال النسائي: ليس به بأس (ت التهذيب ٩/ ٢٣)، أخرج له أبو داود هذا الحديث، وأخرج الترمذي وابن ماجه حديثاً آخر: كان عثمان إذا وقف على قبر بكى...)، وقال الألباني في صحيح أبي داود ٢/ ٣٠٥: صحيح؛ وقال عبد القادر في تخريج جامع الأصول ١١/ ١٤٩، حديث رقم ٨٦٥٨ حاشية (١): إسناده حسن.

(١) سبق تخريجه ٣/ ٢٤٨.

وأما الاقتصار على ما ورد فيقال: إن ما وردت قضايا أعيان؛ لو كانت أقوالاً من الرسول ﷺ قلنا: نعم، نتقيد بها؛ لكنها قضايا أعيان: جاءوا يسألون قالوا: فعلت كذا، قال: نعم، يجزئ؛ وهذا مما يدل على أن العمل الصالح من الغير يصل إلى من أُهدي له؛ لأننا لا ندري لو جاء رجل وقال: يا رسول الله، صليت ركعتين لأمي، أو لأبي، أو لأخي أفيجزئ ذلك عنه، أو يصل إليه ثوابه لا ندري ماذا يكون الجواب؛ ونتوقع أن يكون الجواب: «نعم»؛ أما لو كانت هذه أقوال بأن قال: «من تصدق لأمه أو لأبيه فإنه ينفعه»، أو ما أشبه ذلك لقلنا: إن هذا قول، ونقتصر عليه.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الصغير يكتب له الثواب؛ وذلك لعموم قوله تعالى: ﴿**ثم توفى كل نفس**﴾.

فإن قال قائل: وهل يعاقب على السيئات.

فالجواب: «لا»؛ لقول النبي ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاثة...**»، وذكر منها: «**الصغير حتى يحتلم**»[1]؛ ولأنه ليس له

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ١٠٠ ـ ١٠١: حديث رقم ٢٥٢٠١؛ وأخرجه أبو داود ص١٥٤٤، كتاب الحدود، باب ١٧: في المجنون يسرق أو يصيب حداً، حديث رقم ٤٣٩٨؛ وأخرجه النسائي ص٢٣١٢، كتاب الطلاق باب ٢١: من لا يقع طلاقه من الأزواج، حديث رقم ٣٤٦٢؛ وأخرجه ابن ماجه ص٢٥٩٩، كتاب الطلاق، باب ١٥: طلاق المعتوه والصغير والنائم، حديث رقم ٢٠٤١، وأخرجه الدارمي ٢/ ٢٢٥، كتاب الحدود، باب ١: رفع القلم عن ثلاثة، حديث رقم ٢٢٩٦، وأخرجه الحاكم ٢/ ٥٩، كتاب البيوع، وقال: صحيح على شرط مسلم؛ وأقره الذهبي، ومدار الحديث على حماد بن أبي سليمان: اختلفوا فيه؛ وقال الذهبي: وثقه =

قصد تام لعدم رشده؛ فيشبه البالغ إذا أخطأ، أو نسي.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾.

التفسير:

هذه الآية الكريمة أطول آية في كتاب الله؛ وهي في المعاملات بين الخلق؛ وأقصر آية في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ثم

= ابن معين وغيره (الميزان ١/ ٥٩٥)؛ فهو حسن الحديث (تحرير التقريب ١/ ٣١٩)، وقال الألباني في صحيح أبي داود ٣/ ٥٥: صحيح، وقال عبد القادر في تخريج جامع الأصول ٣/ ٦١١، حاشية (٣): إسناده حسن.

نظر﴾ [المدثر: ٢١]؛ لأنها ستة أحرف؛ وأجمع آية للحروف الهجائية كلها آيتان في القرآن فقط؛ إحداهما: قوله تعالى: **﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً﴾** [آل عمران: ١٥٤] الآية؛ والثانية قوله تعالى: **﴿محمد رسول الله والذين معه...﴾** [الفتح: ٢٩] الآية؛ فقد اشتملت كل واحدة منهما على جميع الحروف الهجائية.

﴿٢٨٢﴾ قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾**؛ سبق الكلام على مثل هذه العبارة.

قوله تعالى: **﴿إذا تداينتم بدين﴾** أي إذا داين بعضكم بعضاً؛ و«**الدين**» كل ما ثبت في الذمة من ثمن بيع، أو أجرة، أو صداق، أو قرض، أو غير ذلك.

قوله تعالى: **﴿إلى أجل مسمى﴾** أي إلى مدة محدودة **﴿فاكتبوه﴾** أي اكتبوا الدين المؤجل إلى أجله؛ والفاء هنا رابطة لجواب الشرط في **﴿إذا﴾**.

قوله تعالى: **﴿وليكتب﴾** للام للأمر؛ وسكنت لوقوعها بعد الواو؛ وهي تسكن إذا وقعت بعد الواو، كما هنا؛ وبعد «ثم». والفاء، كما في قوله تعالى: **﴿ثم ليقطع فلينظر﴾** [الحج: ١٥] بخلاف لام التعليل؛ فإنها مكسورة بكل حال؛ و**﴿بينكم﴾** أي في قضيتكم؛ و**﴿كاتب﴾** نكرة يشمل أيّ كاتب؛ **﴿بالعدل﴾** أي بالاستقامة ـ وهو ضد الجور؛ والمراد به ما طابق الشرع؛ وهو متعلق بقوله تعالى: **﴿ليكتب﴾**.

قوله تعالى: **﴿ولا يأب كاتب أن يكتب﴾**، أي لا يمتنع كاتب الكتابة إذا طلب منه ذلك.

قوله تعالى: ﴿كما علمه الله﴾ يحتمل أن تكون الكاف للتشبيه؛ فالمعنى حينئذ: أن يكتب كتابة حسب علمه بحيث تكون مستوفية لما ينبغي أن تكون عليه؛ ويحتمل أن تكون الكاف للتعليل؛ فالمعنى: أنه لما علمه الله فليشكر نعمته عليه، ولا يمتنع من الكتابة.

قوله تعالى: ﴿فليكتب﴾؛ الفاء للتفريع: واللام لام الأمر؛ ولكنها سكنت؛ لأنها وقعت بعد الفاء؛ وموضع: ﴿فليكتب﴾ مما قبلها في المعنى قال بعض العلماء: إنها من التوكيد؛ لأن النهي عن إباء الكتابة يستلزم الأمر بالكتابة؛ فهي توكيد معنوي؛ وقيل: بل هي تأسيس تفيد الأمر بالمبادرة إلى الكتابة، أو هي تأسيس توطئة لما بعدها؛ والقاعدة: أنه إذا احتمل أن يكون الكلام توكيداً، أو تأسيساً، حمل على التأسيس؛ لأنه فيه زيادة معنى؛ وبناءً على هذه القاعدة يكون القول بأنها تأسيس أرجح.

قوله تعالى: ﴿وليملل الذي عليه الحق﴾ أي يملي؛ وهما لغتان فصيحتان؛ فـ «الإملال» و«الإملاء» بمعنًى واحد؛ فتقول: «أمليت عليه»؛ و«أمللت عليه» لغة عربية فصحى ـ وهي في القرآن.

قوله تعالى: ﴿وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً﴾؛ لما أمر الله عز وجل بأن الذي يملي هو الذي عليه الحق دون غيره وجه إليه أمراً، ونهياً؛ الأمر: ﴿وليتق الله ربه﴾ يعني يتخذ وقاية من عذاب الله، فيقول الصدق؛ والنهي: ﴿ولا يبخس منه شيئاً﴾ أي لا ينقص لا في كميته، ولا كيفيته، ولا نوعه.

قوله تعالى: ﴿فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً﴾، أي لا

يحسن التصرف؛ ﴿أو ضعيفاً﴾؛ الضعف هنا ضعف الجسم، وضعف العقل؛ وضعف الجسم لصغره؛ وضعف العقل لجنونه؛ كأن يكون الذي عليه الحق صغيراً لم يبلغ؛ أو كان كبيراً لكنه مجنون، أو معتوه؛ فهذا لا يملل؛ وإنما يملل وليه؛ ﴿أو لا يستطيع أن يمل هو﴾ أي لا يقدر أن يملي لخرس، أو غيره؛ وقوله تعالى: ﴿أن يمل﴾ مؤولة بمصدر على أنه مفعول به؛ والضمير: ﴿هو﴾ للتوكيد؛ وليست هي الفاعل؛ بل الفاعل مستتر في ﴿يمل﴾.

قوله تعالى: ﴿فليملل﴾: اللام هنا لام الأمر؛ وسكنت لوقوعها بعد الفاء؛ ﴿وليه﴾ أي الذي يتولى شؤونه من أب، أو جد، أو أخ، أو أم، أو غيرهم.

قوله تعالى: ﴿بالعدل﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿فليملل﴾ يعني إملاءً بالعدل بحيث لا يجور على من له الحق لمحاباة قريبه، ولا يجور على قريبه خوفاً من صاحب الحق؛ بل يجب أن يكون إملاؤه بالعدل؛ و«**العدل**» هنا هو الصدق المطابق للواقع؛ فلا يزيد، ولا ينقص.

قوله تعالى: ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾، أي اطلبوا شهيدين من رجالكم.

وقوله تعالى: ﴿من رجالكم﴾ الخطاب للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان﴾، أي إن لم يكن الشاهدان رجلين فرجل وامرأتان؛ وهذا يدل على التخيير مع ترجيح الرجلين على الرجل والمرأتين.

وقوله تعالى: ﴿فرجل وامرأتان﴾: الجملة جواب الشرط في

قوله تعالى: ﴿فإن لم يكونا...﴾؛ والفاء هنا رابطة للجواب؛ و«رجل» خبر مبتدأ محذوف؛ والتقدير: فالشاهد رجل، وامرأتان.

وقوله تعالى: ﴿فرجل﴾ أي فذَكَر بالغ؛ و﴿امرأتان﴾ أي أنثيان بالغتان؛ لأن الرجل والمرأة إنما يطلقان على البالغ.

قوله تعالى: ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾: الجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة؛ أي رجل وامرأتان كائنون ممن ترضون من الشهداء؛ والخطاب في قوله تعالى: ﴿ترضون﴾ موجه للأمة؛ يعني بحيث يكون الرجل والمرأتان مرضيين عند الناس؛ لأنه قد يُرضى شخص عند شخص ولا يُرضى عند آخر؛ فلا بد أن يكون هذان الشاهدان؛ أو هؤلاء الشهود ـ أي الرجل والمرأتان ـ ممن عرف عند الناس أنهم مرضيون؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: **«شهد عندي رجال مرضيون، وأرضاهم عندي عمر أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة بعد الصبح حتى تشرق الشمس وبعد العصر حتى تغرب»**[1]؛ إذاً العبرة بالرضى عند عموم الناس؛ لا برضى المشهود له؛ لأنه قد يرضى بمن ليس بمرضي.

وقوله تعالى: ﴿من الشهداء﴾: بيان لـ «مَنْ» الموصولة؛ لأن الاسم الموصول من المبهمات؛ فيحتاج إلى بيان؛ فإذا قلت: «يعجبني من كان ذكياً» فهذا مبهم؛ فإذا قلت: «يعجبني من كان ذكياً من الطلاب» صار مبيناً.

قوله تعالى: ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾ فيها قراءات؛ القراءة الأولى بفتح همزة ﴿أنْ﴾؛ وعلى هذا يجوز

---

(١) أخرجه البخاري ص٤٧، كتاب مواقيت الصلاة، باب ٣٠: الصلاة بعد الفجر حتى ترتفع الشمس، حديث رقم ٥٨١.

قراءتان في قوله تعالى: ﴿فتذكر﴾: تخفيف الكاف: ﴿فتذْكِرَ﴾، وتشديدها: ﴿فتذَكِّرَ﴾؛ مع فتح الراء فيهما؛ والقراءة الثالثة: بكسر همزة ﴿إن﴾ مع ضم الراء في قوله تعالى: ﴿فتذكِّرُ﴾، وتشديد الكاف.

وقوله تعالى: ﴿فتذكر إحداهما الأخرى﴾ من التذكير؛ وهو تنبيه الإنسان الناسي على ما نسي؛ ومن غرائب التفسير أن بعضهم قال: ﴿فتذكر﴾ معناه تجعلها بمنزلة الذَّكَر ـ لا سيما على قراءة التخفيف؛ أي تكون المرأتان كالذَّكَر؛ وهذا غريب؛ لأنه لا يستقيم مع قوله تعالى: ﴿أن تضل إحداهما﴾ فالذي يقابل الضلال بمعنى النسيان: التذكير ـ أي تنبيه الإنسان على نسيانه.

وفي قوله تعالى: ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾ من البلاغة: إظهار في موضع الإضمار؛ لأنه لم يقل: فتذكرها الآخرى؛ لأن النسيان قد يكون متفاوتاً، فتنسى هذه جملة، وتنسى الأخرى جملة؛ فهذه تذكر هذه بما نسيت؛ وهذه تذكر هذه بما نسيت؛ فلهذا قال تعالى: ﴿فتذكر إحداهما الأخرى﴾: لئلا يكون المعنى قاصراً على واحدة هي الناسية، والأخرى تذكرها.

قوله تعالى: ﴿ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا﴾ أي لا يمتنع الشهداء إذا ما دعوا لتحمل الشهادة، أو أدائها؛ و﴿ما﴾ هذه زائدة لوقوعها بعد ﴿إذا﴾؛ وفيها بيت مشهور يقول فيه:

يا طالباً خذ فائدة ... ما بعد إذا زائدة

واستعمالات «ما» عشر؛ هي كما جاءت في بيت من الشعر:

محامل «ما» عشر إذا رمت عدّها فحافظ على بيت سليم من الشعر
ستفهم شرط الوصل فاعجب لنكرها بكفّ ونفي زيد تعظيم مصدر

ولكن يجب أن نعلم أنه ليس في القرآن شيء زائد بمعنى أنه لا معنى له؛ بل زائد إعراباً فقط؛ أما في المعنى فليس بزائد.

قوله تعالى: ﴿**ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله**﴾، أي لا تمَلّوا أن تكتبوا الدَّين صغيراً كان أو كبيراً إلى أجله المسمى.

قوله تعالى: ﴿**ذلكم**﴾ المشار إليه كل ما سبق من الأحكام؛ ﴿**أقسط عند الله**﴾ أي أقوم، وأعدل؛ ﴿**وأقوم للشهادة**﴾ أي أقرب إلى إقامتها؛ ﴿**وأدنى ألا ترتابوا**﴾ أي أقرب إلى انتفاء الريبة عندكم.

قوله تعالى: ﴿**إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم**﴾: فيها قراءتان؛ إحداهما بنصب ﴿**تجارةً**﴾، و﴿**حاضرةً**﴾؛ والثانية برفعهما؛ على الأول اسم ﴿**تكون**﴾ مستتر؛ والتقدير: إلا أن تكون الصفقة تجارة حاضرة؛ وجملة: ﴿**تديرونها**﴾ صفة ثانية لـ ﴿**تجارة**﴾؛ أما على قراءة الرفع فإن ﴿**تجارة**﴾ اسم ﴿**تكون**﴾؛ و﴿**حاضرة**﴾ صفة؛ وجملة: ﴿**تديرونها**﴾ خبر ﴿**تكون**﴾.

والتجارة هي كل صفقة يراد بها الربح؛ فتشمل البيع، والشراء، وعقود الإجارات؛ ولهذا سمى الله سبحانه وتعالى الإيمان، والجهاد في سبيله تجارة، كما في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم**﴾ [الصف: ١٠].

وأما قوله تعالى: ﴿**حاضرة**﴾ فهي ضد قوله تعالى: ﴿**إذا تداينتم بدين**﴾؛ فالحاضر ما سوى الدَّين.

و قوله تعالى: ﴿تديرونها﴾ أي تتعاطونها بينكم بحيث يأخذ هذا سلعته، والآخر يأخذ الثمن، وهكذا.

قوله تعالى: ﴿فليس عليكم جناح﴾: الفاء عاطفة، أو للتفريع؛ يعني ففي هذه الحال ليس عليكم إثم في عدم كتابتها؛ والضمير في قوله تعالى: ﴿تكتبوه﴾ يعود على التجارة؛ فهذه التجارة المتداولة بين الناس ليس على الإنسان جناح إذا لم يكتبها؛ لأن الخطأ فيها، والنسيان بعيد؛ إذ إنها حاضرة تدار، ويتعاطاها الناس بخلاف المؤجلة.

قوله تعالى: ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ أي باع بعضكم على بعض.

قوله تعالى: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾؛ مأخوذة من: الإضرار؛ يحتمل أن تكون مبنية للفاعل؛ فيكون أصلها «**يضارِر**» بكسر الراء الأولى؛ أو للمفعول؛ فيكون أصلها «**يضارَر**» بفتحها؛ ويختلف إعراب ﴿كاتب﴾، و﴿شهيد﴾ بحسب بناء الفعل؛ فإن كانت مبنية للفاعل فـ ﴿كاتب﴾ فاعل؛ وإن كانت للمفعول فـ ﴿كاتب﴾ نائب فاعل؛ وهذا من بلاغة القرآن تأتي الكلمة صالحة لوجهين لا ينافي أحدهما الآخر.

قوله تعالى: ﴿وإن تفعلوا﴾ أي يضار الكاتب، أو الشهيد ـ على الوجهين ﴿فإنه﴾ أي الفعل ـ وهو المضارة؛ ﴿فسوق بكم﴾ أي خروج بكم عن طاعة الله إلى معصيته؛ وأصل «الفسق» في اللغة الخروج؛ ومنه قولهم: فسقت الثمرة إذا خرجت من قشرها.

قوله تعالى: ﴿واتقوا الله﴾ أي اتخذوا وقاية من عذاب الله؛ وذلك بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

قوله تعالى: ﴿ويعلمكم الله﴾؛ الواو هنا للاستئناف؛ ولا يصح أن تكون معطوفة على ﴿اتقوا الله﴾؛ لأن تعليم الله لنا حاصل مع التقوى، وعدمها ـ وإن كان العلم يزداد بتقوى الله، لكن هذا يؤخذ من أدلة أخرى.

قوله تعالى: ﴿والله بكل شيء عليم﴾ يشمل كل ما في السماء، والأرض.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: العناية بما ذُكر من الأحكام؛ وذلك لتصدير الحكم بالنداء، ثم توجيه النداء إلى المؤمنين؛ لأنه هذا يدل على العناية بهذه الأحكام، وأنها جديرة بالاهتمام بها.

٢ ـ **ومنها**: أن التزام هذه الأحكام من مقتضى الإيمان؛ لأنه لا يوجه الخطاب بوصف إلا لمن كان هذا الوصف سبباً لقبوله ذلك الحكمَ.

٣ ـ **ومنها**: أن مخالفة هذه الأحكام نقص في الإيمان كأنه قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لإيمانكم افعلوا كذا؛ فإن لم تفعلوا فإيمانكم ناقص؛ لأن كل من يدَّعي الإيمان، ثم يخالف ما يقتضيه هذا الإيمان فإن دعواه ناقصة إما نقصاً كلياً، أو نقصاً جزئياً.

٤ ـ **ومنها**: بيان أن الدين الإسلامي كما يعتني بالعبادات ـ التي هي معاملة الخالق ـ فإنه يعتني بالمعاملات الدائرة بين المخلوقين.

٥ ـ **ومنها**: دحر أولئك الذين يقولون: إن الإسلام ما هو إلا أعمال خاصة بعبادة الله عز وجل، وبالأحوال الشخصية، كالمواريث، وما أشبهها؛ وأما المعاملات فيجب أن تكون

خاضعة للعصر، والحال؛ وعلى هذا فينسلخون من أحكام الإسلام فيما يتعلق بالبيوع، والإجارات وغيرها، إلى الأحكام الوضعية المبنية على الظلم، والجهل.

فإن قال قائل: لهم في ذلك شبهة؛ وهو أن الرسول ﷺ حين قدم المدينة، ورآهم يلقحون الثمار قال: «لو لم تفعلوا لصلح» فخرج شيصاً ـ أي فاسداً ـ؛ فمر بهم فقال: «ما لنخلكم؛ قالوا: قلت كذا، وكذا؛ قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم»[1]؛ قالوا: «والمعاملات من أمور الدنيا، وليست من أمور الآخرة».

فالجواب: أنه لا دليل في هذا الحديث لما ذهبوا إليه؛ لأن الحادثة المذكورة من أمور الصنائع التي من يمارسها فهو أدرى بها، وتدرك بالتجارِب؛ وإلا لكان علينا أن نقول: لا بد أن يعلمنا الإسلام كيف نصنع السيارات والمسجلات، والطوب، وكل شيء!!! أما الأحكام ـ الحلال، والحرام ـ فهذا مرجعه إلى الشرع؛ وقد وفى بكل ما يحتاج الإنسان إليه.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: جواز الدَّين؛ لقوله تعالى: ﴿**تداينتم بدين**﴾ سواء كان هذا الدَّين ثمن مبيع، أو قرضاً، أو أجرة، أو صداقاً، أو عوض خلع، أو أي دين يكون؛ المهم أن في الآية إثبات الدَّين شرعاً.

٧ ـ **ومنها**: أن الدَّين ينقسم إلى ثلاثة أقسام: مؤجل بأجل مسمى؛ ومؤجل بأجل مجهول؛ وغير مؤجل؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم ص١٠٩٣، كتاب الفضائل، باب ٣٨: وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي، حديث رقم ٦١٢٨ [١٤١] ٢٣٦٣.

﴿بدين إلى أجل مسمى﴾؛ والدَّين إلى غير أجل جائز مثل أن أشتري منك هذه السلعة، ولا أعطيك ثمنها، ولا أعينه لك؛ فهذا دَين غير مؤجل؛ وفي هذه الحال لك أن تطالبني بمجرد ما ينتهي العقد؛ وأما الدَّين إلى أجل غير مسمى فلا يصح؛ وأُخذ هذا القسم من قوله تعالى: ﴿مسمى﴾ ـ مثل أن أقول لك: «اشتريت منك هذه السلعة إلى قدوم زيد» ـ وقدومه مجهول؛ لأن فيه غرراً؛ وقد قال النبي ﷺ: «**من أسلف في شيء فليسلف في كيل معلوم، ووزن معلوم إلى أجل معلوم**»[1]؛ والدين إلى أجل غير مسمى لا يكتب؛ لأنه عقد فاسد، والدَّين إلى أجل مسمى جائز بنص الآية.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: جواز السلم ـ وهو تعجيل الثمن، وتأخير المثمن، مثل أن أشتري مائة صاع من البر إلى سنة، وأعطيك الدراهم؛ فيسمى هذا سلماً؛ لأن المشتري أسلم الثمن، وقدمه.

٩ ـ **ومنها**: وجوب كتابة الدَّين المؤجل؛ لقوله تعالى: ﴿فاكتبوه﴾؛ ويؤيد ذلك قوله تعالى في آخر الآية: ﴿**إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها**﴾؛ وذهب الجمهور إلى عدم وجوب الكتابة ـ أعني كتابة الدين المؤجل؛ لقوله تعالى في الآية التي تليها: ﴿**فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته**﴾ [البقرة: ٢٨٣]؛ وينبغي على هذا القول أن يستثنى من ذلك ما إذا كان الدائن متصرفاً لغيره، كوليّ

---

(١) أخرجه البخاري ص١٧٤، كتاب السلم، باب ٢: السلم في وزن معلوم، حديث رقم ٢٢٤١، وأخرجه مسلم ص٩٥٧، كتاب المساقاة، باب ٢٥: السلم، حديث رقم ٤١١٨ [١٢٧] ١٦٠٤.

اليتيم فإنه يجب عليه أن يكتب الدَّين الذي له لئلا يضيع حقه.

١٠ ـ **ومنها**: حضور كل من الدائن، والمدين عند كتابة الدَّين؛ لقوله تعالى: ﴿بينكم﴾؛ ولا تتحقق البينية إلا بحضورهما.

١١ ـ **ومنها**: أنه لابد أن يكون الكاتب محسناً للكتابة في أسلوبه، وحروفه؛ لقوله تعالى: ﴿وليكتب بينكم كاتب﴾.

١٢ ـ **ومنها**: أنه يجب على الكاتب أن يكتب بالعدل بحيث لا يجحف مع الدائن، ولا مع المدين؛ و«العدل» هو ما طابق الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿**وتمت كلمت ربك صدقاً وعدلًا**﴾ [الأنعام: ١١٥].

ويتفرع على ذلك أن يكون الكاتب ذا علم بالحكم الشرعي فيما يكتب.

١٣ ـ **ومنها**: أنه لا يشترط تعيين كاتب للناس بشخصه، وأن أيّ كاتب يتصف بإحسان الكتابة والعدل، فكتابته ماضية نافذة؛ لقوله تعالى: ﴿**كاتب بالعدل**﴾؛ وهي نكرة لا تفيد التعيين.

١٤ ـ **ومنها**: تحريم امتناع الكاتب أن يكتب كما علمه الله؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله**﴾؛ ولهذا أكد هذا النهي بالأمر بالكتابة في قوله تعالىٰ ﴿فليكتب﴾ ـ هذا ظاهر الآية ـ ويحتمل أن يقال: إنْ توقف ثبوت الحق على الكتابة كانت الكتابة واجبة على من طلبت منه؛ وإلا لم تجب، كما قلنا بوجوب تحمل الشهادة إذا توقف ثبوت الحق عليها.

١٥ ـ **ومنها**: أنه يجب على الكاتب أن يكتب على حسب علمه من الشريعة؛ لقوله تعالى: ﴿**ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله**﴾.

١٦ ـ **ومنها**: تذكير هؤلاء الكتبة بنعمة الله، وأن مِن شُكر نعمة الله عليهم أن يكتبوا؛ لقوله تعالى: ﴿**كما علمه الله**﴾؛ وهذا مبني على أن الكاف هنا للتعليل.

فإن قيل: «إنها للتشبيه» صار المعنى: أنه مأمور أن يكتب على الوجه الذي علمه الله من إحسان الخط، وتحرير الكتابة.

١٧ ـ **ومنها**: أن الإنسان لا يستقل بالعلم؛ لقوله تعالى: ﴿**كما علمه الله**﴾؛ حتى في الأمور الحسية التي تدرك عن طريق النظر، أو السمع، أو الشم، لا يستطيع الإنسان أن يعلمها إلا بتعليم الله عز وجل.

١٨ ـ **ومنها**: مبادرة الكاتب إلى الكتابة بدون مماطلة؛ لقوله تعالى: ﴿**فليكتب**﴾.

١٩ ـ **ومنها**: أن الرجوع في مقدار الدَّين، أو نوعه، أو كيفيته؛ بل في كل ما يتعلق به إلى المدين الذي عليه الحق ـ لا إلى الدائن؛ لقوله تعالى: ﴿**وليملل الذي عليه الحق**﴾؛ لأنه لو أملل الذي له الحق فربما يزيد.

لكن **إذا قال قائل**: وإذا أملى الذي عليه الحق فربما ينقص؟!

فالجواب: أن الله حذره من ذلك في قوله تعالى: ﴿**وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً**﴾.

٢٠ ـ **ومنها**: أن من عليه الحق لا يكتب؛ وإنما يكتب كاتب بين الطرفين؛ لأن الذي عليه الحق وظيفته الإملال؛ ولكن لو كتب صحت كتابته؛ إلا أن ذلك لا يؤخذ من هذه الآية؛ يؤخذ من أدلة أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا**

قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم﴾ [النساء: ١٣٥]؛ وكتابة الإنسان على نفسه إقرار؛ وإقرار الإنسان على نفسه مقبول.

٢١ ـ **ومن فوائد الآية**: وجوب تقوى الله عز وجل على من عليه الحق، وأن يتحرى العدل؛ لقوله تعالى: **﴿وليتق الله ربه﴾**.

٢٢ ـ **ومنها**: أنه ينبغي في مقام التحذير أن يُذْكَر كلُّ ما يكون به التحذير؛ لقوله تعالى: **﴿وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً﴾**؛ ففي مقام الألوهية يتخذ التقوى عبادة؛ لأن الألوهية هي توحيد العبادة؛ وفي مقام الخوف من الانتقام يكون مشهده الربوبية؛ لأن الرب عز وجل خالق مالك مدبر.

٢٣ ـ **ومنها**: أنه يحرم على من عليه الدَّين أن يبخس منه شيئاً لا كمية، ولا نوعاً، ولا صفة؛ لقوله تعالى: **﴿ولا يبخس منه شيئاً﴾**.

٢٤ ـ **ومنها**: أن الوليّ يقوم مقام المولَّى عليه في الإملال؛ لقوله تعالى: **﴿فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل﴾**.

٢٥ ـ **ومنها**: أن أسباب القصور ثلاثة: السفه؛ والضعف؛ وعدم الاستطاعة؛ **السفه**: ألا يحسن التصرف؛ **والضعيف** يشمل الصغير، والمجنون؛ **ومن لا يستطيع** يشمل من لا يقدر على الإملال لخرس، أو عيّ، أو نحو ذلك.

٢٦ ـ **ومنها**: قبول قول الوليّ فيما يقر به على مولّاه؛ لقوله تعالى: **﴿فليملل وليه﴾**.

٢٧ ـ **ومنها**: وجوب مراعاة العدل على الوليّ؛ لقوله

تعالى: ﴿**بالعدل**﴾؛ فلا يبخس من له الحق؛ ولا يبخس من عليه الحق ممن هو مولى عليه.

٢٨ ـ **ومنها**: طلب الإشهاد على الحق.

٢٩ ـ **ومنها**: أن البينة إما رجلان؛ وإما رجل، وامرأتان؛ وجاءت السنة بزيادة بينة ثالثة ـ وهي الرجل، ويمين المدّعي؛ وأنواع طرق الإثبات مبسوطة في كتب الفقهاء.

٣٠ ـ **ومنها**: أنه لابد في الشاهدين من كونهما مرضيين عند المشهود له، والمشهود عليه.

٣١ ـ **ومنها**: قصر حفظ المرأة وإدراكها عن حفظ الرجل، وهذا باعتبار الجنس؛ فلا يرد على ذلك من نبوغ بعض النساء، وغفلة بعض الرجال.

٣٢ ـ **ومنها**: جواز شهادة الإنسان فيما نسيه إذا ذُكِّر به، فذكر؛ لقوله تعالى: ﴿**أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى**﴾؛ فإن ذُكِّر ولم يذكر لم يشهد.

٣٣ ـ **ومنها**: تحريم امتناع الشاهد إذا دُعي للشهادة؛ وهذا تحته أمران:

الأمر الأول: أن يُدعى لتحمل الشهادة؛ وقد قال العلماء في هذا: إنه فرض كفاية؛ وظاهر الآية الكريمة أنه فرض عين على من طلبت منه الشهادة بعينه؛ وهو الحق؛ لأنه قد لا يتسنى لطالب الشهادة أن يشهد له من تُرضى شهادته.

الأمر الثاني: أن يُدعى لأداء الشهادة؛ فيجب عليه الاستجابة؛ لهذه الآية، ولقوله تعالى: ﴿**ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه**﴾ [البقرة: ٢٨٣].

٣٤ ـ **ومن فوائد الآية**: النهي عن السأم في كتابة الدَّين سواء كان صغيراً، أو كبيراً؛ والظاهر أن النهي هنا للكراهة.

٣٥ ـ **ومنها**: أنه إذا كان الدَّين مؤجلاً فإنه يبيَّن الأجل؛ لقوله تعالى: ﴿**إلى أجله**﴾.

٣٦ ـ **ومنها**: أن ما ذُكر من التوجيهات الإلهية في هذه الآية فيه ثلاثة فوائد:

الأولى: أنه أقسط عند الله ـ أي أعدل عنده لما فيه من حفظ الحق لمن هو له، أو عليه.

الثانية: أنه أقوم للشهادة؛ لأنه إذا كتب لم يحصل النسيان.

الثالثة: أنه أقرب لعدم الارتياب.

٣٧ ـ **ومن فوائد الآية**: العمل بالكتابة، واعتمادها حجةً شرعية إذا كانت من ثقة معروف خطه؛ ويؤيد هذا قوله ﷺ: «**ما حق امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده**»[1].

٣٨ ـ **ومنها**: أن الشهادات تتفاوت؛ فمنها الأقوم؛ ومنها القيم؛ ومنها ما ليس بقيم؛ فالذي ليس بقيم هو الذي لم تتم فيه شروط القبول؛ والقيم هو الذي صار فيه أدنى الواجب؛ والأقوم ما كان أكمل من ذلك؛ بدليل قوله تعالى: ﴿**وأقوم للشهادة**﴾. فإذا قيل: ما مثال القيم؟ فنقول: مثل شاهد، ويمين؛ لكن أقوم منه الشاهدان؛ لأن الشاهدين أقرب إلى الصواب من الشاهد

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٢٠، كتاب الوصايا، باب ١: الوصايا، حديث رقم ٢٧٣٨، وأخرجه مسلم ص٩٦٢، كتاب الوصية، باب ١: وصية الرجل مكتوبة عنده، حديث رقم ٤٢٠٤ [١] ١٦٢٧، واللفظ لمسلم.

الواحد؛ ولأن الشاهدين لا يحتاج معهما إلى يمين المدعي؛ فكانت شهادة الشاهدين أقوم للشهادة.

٣٩ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه ينبغي للإنسان أن يتجنب كل ما يكون له فيه ارتياب، وشك؛ لقوله تعالى: ﴿**وأدنى ألا ترتابوا**﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة: أن دين الإسلام يريد من معتنقيه أن يكونوا دائماً على اطمئنان، وسكون.

ويتفرع أيضاً منها: أن دين الإسلام يحارب ما يكون فيه القلق الفكري، أو النفسي؛ لأن الارتياب يوجب قلق الإنسان، واضطرابه.

ويتفرع عليه أيضاً: أنه ينبغي للإنسان إذا وقع في محلّ قد يستراب منه أن ينفي عن نفسه ذلك؛ وربما يؤيد هذا الأثرُ المشهور: «**رحم الله امرئ كفّ الغيبة عن نفسه**»[1]؛ لا تقل: إن الناس يحسنون الظن بي، ولن يرتابوا في أمري؛ لا تقل هكذا؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم؛ فربما لا يزال يوسوس في صدور الناس حتى يتهموك بما أنت منه بريء.

٤٠ ـ **ومن فوائد الآية**: جواز الاتجار؛ لقوله تعالى: ﴿**إلا أن تكون تجارة حاضرة**﴾؛ ولكن هذا الإطلاق مقيد بالشروط التي دلت عليها النصوص؛ فلو اتجر الإنسان بأمر محرم فهذا لا يجوز من نصوص أخرى؛ ولو رابى الإنسان يريد التجارة والربح قلنا: هذا حرام من نصوص أخرى؛ إذاً هذا المطلق الذي هو التجارة

---

(١) ذكره العجلوني في كتاب «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس» بلفظ: «رحم الله امرءاً جَبّ الغيبة عن نفسه» ١/٥١٣، حديث رقم ١٣٦٧، ولم يذكر أصلاً لهذا الأثر.

مقيد بالنصوص الدالة على أن التجارة لا بد فيها من شروط.

٤١ ـ **ومنها**: أن التجارة نوعان: تجارة حاضرة، وتجارة غير حاضرة؛ فأما الحاضرة فهي التي تدار بين الناس بدون أجل؛ وأما غير الحاضرة فهي التي تكون بأجل، أو على مسمى موصوف غير حاضر.

٤٢ ـ **ومنها**: أن الأصل في التجارة الدوران؛ لقوله تعالى: ﴿**تديرونها بينكم**﴾؛ فأما الشيء الراكد الذي لا يدار فهل يسمى تجارة؟ يرى بعض العلماء أنه ليس تجارة؛ ولذلك يقولون: ليس فيه زكاة، وأن الزكاة إنما هي في المال الذي يدار ـ يعني يتداول؛ ويرى آخرون أنها تجارة؛ ولكنها تجارة راكدة؛ وهذا يقع كثيراً فيما إذا فسدت التجارة، وكسد البيع؛ فربما تبقى السلع عند أصحابها مدة طويلة لا يحركونها؛ لكن هي في حكم المدارة؛ لأن أصحابها ينتظرون أيّ إنسان يأتي، فيبيعون عليه.

٤٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه لا يجب كتابة التجارة الحاضرة المدارة ـ ولو كان ثمنها غير منقود؛ بخلاف ما إذا تداين بدين إلى أجل مسمى؛ فإنه تجب كتابة الدَّين على ما سبق من الخلاف في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿**فليس عليكم جناح ألا تكتبوها**﴾.

٤٤ ـ **ومنها**: الأمر بالإشهاد عند التبايع؛ وهل الأمر للوجوب؛ أو للاستحباب؛ أو للإرشاد؟ فيه خلاف؛ والراجح أنه ليس للوجوب؛ لأن النبي ﷺ اشترى، ولم يُشهِد[1]؛

---

(١) راجع أحمد ص١٦١٤ ـ ١٦١٥، حديث رقم ٢٢٢٢٨؛ وأبا داود ص١٤٩٠ ـ ١٤٩١، كتاب القضاء، باب ٢٠: إذا علم الحاكم صدق شهادة الواحد يجوز له أن يقضي به، حديث رقم ٣٦٠٧؛ والنسائي =

والأصل عدم الخصوصية؛ ولأن إيجابه فيه شيء من الحرج، والمشقة؛ لكثرة تداول التجارة؛ اللهم إلا أن يكون التصرف للغير، كالوكيل، والوليّ؛ فربما يقال بوجوب الإشهاد في المبايعات الخطيرة.

٤٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الإشهاد ينبغي أن يكون حين التبايع؛ بمعنى أنه لا يتقدم، ولا يتأخر؛ لقوله تعالى: ﴿**إذا تبايعتم**﴾؛ لأن العقد لم يتم إذا كان الإشهاد قبله؛ وإذا كان بعده فربما يكون المبيع قد تغير.

٤٦ ـ **ومنها**: تحريم مضارة الكاتب، أو الشهيد: سواء وقع الإضرار منهما، أو عليهما.

٤٧ ـ **ومنها**: أن المضارة سواء وقعت من الكاتب، أو الشاهد، أو عليهما، فسوق؛ والفسق يترتب عليه زوال الولايات العامة والخاصة إلا ما استثني؛ والفاسق يُهجر إما جوازاً؛ أو استحباباً، أو وجوباً ـ على حسب الحال ـ إن كان في الهجر إصلاح له.

فإن قال قائل: أفلا يشكل هذا على القاعدة المعروفة أن الفسق لا يتصف به الفاعل إلا إذا تكرر منه، أو كان كبيرة؟.

فالجواب: أن الله سبحانه وتعالى حكم على المضارة بأنها فسوق؛ والقرآن يَحكم، ولا يُحكَم عليه.

= ص٢٣٨٨، كتاب البيوع، باب ٨١: التسهيل في ترك الإشهاد على البيع، حديث رقم ٤٦٥١؛ ومستدرك الحاكم ٢/١٧ ـ ١٨، كتاب البيوع؛ وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ورجاله باتفاق الشيخين ثقات، ولم يخرجاه، وأقره الذهبي (المرجع السابق)؛ وقال الألباني: صحيح (صحيح أبي داود ٢/٣٩٩، حديث رقم ٣٦٠٧).

٤٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أن هذا الفعل فسوق لا يخرج من الإيمان؛ لأنه لم يصف الفاعل بالكفر؛ بل قال تعالى: ﴿**فإنه فسوق بكم**﴾؛ ومجرد الفسق لا يخرج من الإيمان؛ ولكن الفسق المطلق يخرج من الإيمان؛ لأن الخروج عن الطاعة خروجاً عاماً يخرج من الإيمان، ويوجب الخلود في النار، كما قال الله تعالى: ﴿**أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون * أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون * وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون**﴾ [السجدة: ١٨ ـ ٢٠].

٤٩ ـ **ومن فوائد الآية**: وجوب تقوى الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿**واتقوا الله**﴾.

٥٠ ـ **ومنها**: امتنان الله عز وجل على عباده بالتعليم، حيث قال تعالى: ﴿**ويعلمكم الله**﴾.

٥١ ـ **ومنها**: أن الدِّين الإسلامي شامل للأحكام المتعلقة بعبادة الله عز وجل، والمتعلقة بمعاملة عباد الله؛ لأنه بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى هذه التوجيهات قال تعالى: ﴿**ويعلمكم الله**﴾؛ فيكون في ذلك إبطال لزعم من زعم أن الدين الاسلامي في إصلاح ما بين العبد وبين ربه؛ ولا علاقة له بالمعاملة بين الناس.

٥٢ ـ **ومنها**: أن الأصل في الإنسان الجهل؛ لقوله تعالى: ﴿**ويعلمكم الله**﴾؛ قال الله عز وجل: ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾ [النحل: ٧٨].

٥٣ ـ **ومنها**: ثبوت صفة العلم لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**ويعلمكم الله**﴾؛ لأن المعلم عالم.

٥٤ ـ **ومنها**: أن العلم من منة الله عز وجل على عباده؛ لقوله تعالى: ﴿**ويعلمكم الله**﴾، وكما قال تعالى: ﴿**لقد منّ الله على المؤمنين إذا بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾ [آل عمران: ١٦٤]؛ ولا شك أن العلم من أكبر النعم، حيث قال الله عز وجل: ﴿**يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات**﴾ [المجادلة: ١١]؛ والعلماء كذلك ورثة الأنبياء؛ فالعلم أفضل من المال ـ ولا مقارنة؛ وهو كالجهاد في سبيل الله؛ لأن الدِّين الإسلامي لم ينتشر إلا بالعلم، والسلاح؛ فالسلاح يذلل العدو؛ والعلم ينير له الطريق؛ ولهذا إذا ذلّ العدو للإسلام، وخضع لأحكامه، وبذل الجزية وجب الكف عنه، ولا يقاتَل؛ لكن العلم جهاد يجب أن يكون لكل أحد؛ ثم الجهاد بالسلاح لا يكون إلا للكافر المعلن كفره، ولا يكون للمنافق؛ والجهاد بالعلم يكون لهذا، ولهذا ـ للمنافق، وللكافر المعلن بكفره؛ والعلم أفضل بكثير من المال؛ والعلم جهاد في سبيل الله ـ ولا سيما في وقتنا الحاضر؛ فإن الناس قد انفتح بعضهم على بعض، واختلط بعضهم ببعض، وصاروا يأخذون الثقافات من يمين ويسار، واحتاج الناس الآن للعلم الراسخ المبني على الكتاب والسنة حتى لا يقع الناس في ظلمات بعضها فوق بعض؛ لذلك تجد رجلاً يمر به حديث، أو حديثان، ثم يقال: أنا ابن جلا، وطلاع الثنايا! من ينال مرتبتي! أنا الذي أفتي بعشرة مذاهب! ثم مع ذلك يندد بمن خالفه ـ ولو كان من كبار العلماء؛ وربما يضخم الخطأ

الذي يقع منه ـ ولو كان ممن يشار إليه بالفضل، والعلم، والدِّين؛ وهذه خطيرة جداً؛ لأن العامي وإن كان وثق بشخص لا يهمه هذا الكلام؛ لكن كلما كرر الضرب على الحديد لابد أن يتأثر؛ لذلك نرى أن طلب العلم من أهم الأمور خصوصاً في هذا الوقت.

٥٥ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات هذا الاسم من أسماء الله ـ وهو ﴿عليم﴾؛ وإثبات ما دلّ عليه من الصفة ـ وهي العلم.

٥٦ ـ **ومنها**: إثبات عموم علم الله؛ لقوله تعالى: ﴿**وهو بكل شيء عليم**﴾.

٥٧ ـ **ومنها**: الرد على القدرية سواء الغلاة منهم، أو غيرهم؛ فإن غلاتهم يقولون: إن الله لا يعلم شيئاً من أفعال العباد حتى يقع؛ يقول شيخ الإسلام في العقيدة الواسطية: إن هؤلاء قليل ـ وهذا في عهده؛ ولا ندري الآن هل زادوا، أم نقصوا؛ لكن في الآية ردّ حتى على غير الغالية منهم ـ وهم الذين يقولون: إن الله يعلم؛ لكنه لم يُرد أفعال الإنسان، وأن الإنسان مستقل بإرادته، وفعله؛ وجه ذلك ما قاله الشافعي ـ رحمه الله: «ناظروهم بالعلم؛ فإن أقروا به خُصموا، وإن أنكروه كفروا»؛ وعلى هذا نقول: في هذه الآية الكريمة دليل على أن أفعال العباد مرادة لله عز وجل؛ لأنها إن لم تكن مرادة فهي إما أن تقع على وفق علمه، أو على خلافه؛ فإن كان على خلافه فهو إنكار لعلمه؛ وإن كان على وفقه فلا بد أن تكون مرادة له؛ لأنه أراد أن تقع على حسب علمه.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٨٣﴾ قوله تعالى: ﴿**وإن كنتم على سفر**﴾ أي مسافرين؛ وذلك كقوله تعالى في آية الصيام: ﴿**ومن كان مريضاً أو على سفر**﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ وأتى بكلمة: ﴿**على**﴾ لتحقق هذا الأمر ـ وهو السفر؛ لأن ﴿**على**﴾ تدل على الاستعلاء؛ فكأنه متمكن من السفر، كالراكب على الراحلة؛ و«**السفر**» مفارقة الوطن؛ وبعضهم قال: مفارقة محل الإقامة؛ لأن الإنسان قد لا يستوطن؛ ولكن يقيم دائماً؛ والمفارقة قد تكون طويلة ـ ويسمى سفراً طويلاً؛ وقد تكون قصيرة ـ ويسمى سفراً قصيراً.

قوله تعالى: ﴿**ولم تجدوا كاتباً**﴾ أي يكتب بينكم؛ وهذا كما سبق يحتاج إليه فيما إذا تداينا بدين إلى أجل مسمى؛ فيكون المعنى: إن كنتم على سفر، وتداينتم بدَين إلى أجل مسمى ولم تجدوا كاتباً ﴿**فرهان مقبوضة**﴾.

قوله تعالى: ﴿**فرهان مقبوضة**﴾ فيها قراءاتان؛ لقراءة الأولى: ﴿**فرِهان**﴾ بكسر الراء، ومدّ الهاء؛ والثانية: ﴿**فرُهُن**﴾ بضم الراء، والهاء بدون مدّ؛ ولهذا تكتب بالألف في خط المصحف لكي تصلح للقراءتين؛ ومعنى ﴿**فرهان**﴾ أي فعليكم رهن؛ أو فالوثيقة رهن ـ أو رهان؛ وعلى هذا فتكون إما مبتدأ خبره محذوف؛ وإما خبر مبتدأ محذوف؛ والجملة في محل

جزم على أنها جواب الشرط؛ وقرنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية؛ وإذا كان جواب الشرط جملة اسمية فإنه يقترن بالفاء وجوباً؛ ولا تحذف إلا شذوذاً، أو اضطراراً؛ ومن حذفها قول الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها .....

ولم يقل: **فالله يشكرها**؛ ولكن هذا على سبيل الضرورة، أو الندرة، والشذوذ.

و «**الرهان**» جمع رهْن؛ و«الرهن» في اللغة الحبس؛ ومنه قوله تعالى: ﴿**كل نفس بما كسبت رهينة**﴾ [المدثر: ٣٨] أي محبوسة بما عملت؛ ولكنه في اصطلاح الفقهاء: توثقة دَين بعين يمكن استيفاؤه، أو بعضِهِ منها، أو من بعضها، مثل ذلك: زيد مدين لعمرو بعشرة آلاف ريال، فأرهنه سيارة تساوي عشرين ألف ريال؛ هنا يمكن استيفاء الدَّين من بعضه؛ لأن الرهن أكثر من الدَّين؛ مثال آخر: زيد مدين لعمرو بعشرين ألف ريال؛ فأرهنه سيارة تساوي عشرة آلاف ريال؛ فهنا يمكن استيفاء بعضه منها؛ لأن الدَّين أكثر من الرهن؛ فإذا كان الدَّين مساوياً للرهن، كما لو كان دينه عشرة آلاف ريال؛ فأرهنه سيارة تساوي عشرة آلاف ريال؛ فهنا يمكن استيفاء الدَّين كله من كل الرهن.

وقوله تعالى: ﴿مقبوضة﴾ أي يقبضها من يتوثق بها ـ وهو الطالب ـ من المطلوب الذي هو الراهن؛ والطالب الذي قبض الرهن يسمى مرتهناً؛ فهنا راهن، ومرتهن، ورهن، ومرهون به؛ فالرهن: العين؛ والراهن: معطي الرهن؛ والمرتهن؛ آخذ الرهن؛ والمرهون به: الدين؛ فأركان الرهن أربعة.

ولم يبين سبحانه وتعالى كيف القبض؛ فيرجع في ذلك إلى العرف؛ ومعناه: أن يكون الشيء في قبضة الإنسان، وتحت سيطرته.

قوله تعالى: ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً﴾ أي اتخذه أميناً؛ بمعنى أنه وثق منه أن لا ينكر، ولا يبخس، ولا يغير؛ والجملة شرطية جوابها قوله تعالى: ﴿فليؤد الذي اؤتمن أمانته﴾؛ والفاء في ﴿فليؤد﴾ رابطة لجواب الشرط؛ وهو قوله تعالى: ﴿إن أمن...﴾؛ وجاءت الفاء رابطة مع أن جواب الشرط فعل مضارع؛ لأنه مقترن بلام الأمر الدالة على الطلب؛ ومتى كانت الجملة الجزائية طلبية وجب اقترانها بالفاء؛ واللام هنا جاءت ساكنة لوقوعها بعد الفاء؛ ولام الأمر تقع ساكنة إذا وقعت بعد الفاء، أو الواو، أو «ثم»؛ بخلاف لام التعليل فإنها تكون مكسورة على كل حال؛ و﴿اؤتمن﴾ فعل ماض مبني لما لم يسم فاعله؛ و﴿أمانته﴾ أي ما ائتمن عليه.

قوله تعالى: ﴿وليتق الله ربه﴾؛ «يتق» مجزومة بحذف حرف العلة ـ وهو الياء؛ والكسرة دليل عليها ـ وهنا أردف الاسم الأعظم: ﴿الله﴾ بقوله تعالى: ﴿ربه﴾ تحذيراً من المخالفة؛ لأن «الرب» هو الخالق المالك المدبر؛ فاخشَ هذا الرب الذي هو إلهك أن تخالف تقواه.

قوله تعالى: ﴿ولا تكتموا الشهادة﴾؛ ﴿لا﴾ ناهية؛ و«الكتمان» الإخفاء؛ و«الشهادة» ما شهد به الإنسان؛ أي لا تخفوا ما شهدتم به لا في أصله، ولا في وصفه؛ في أصله بأن ينكر الشهادة رأساً؛ وفي وصفه بأن يزيد فيها، أو ينقص.

قوله تعالى: ﴿**ومن يكتمها فإنه آثم قلبه**﴾ أي من يخفيها أصلاً، أو وصفاً، فقد وقع قلبه في الإثم؛ وإنما أضاف الإثم إلى القلب؛ لأن الشهادة أمر خفيّ؛ فالإنسان قد يكتمها، ولا يُعْلَم بها؛ فالأمر هنا راجع إلى القلب؛ ولأن القلب عليه مدار الصلاح، كما قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت الجسد كله؛ وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب**»[(١)].

قوله تعالى: ﴿**والله بما تعملون عليم**﴾؛ «**ما**» هذه موصولة تفيد العموم، وتشمل كل ما يعمله الإنسان من خير أو شر في القلب، أو في الجوارح؛ وقَدّم ﴿**بما تعملون**﴾ على متعلّقها لقوة التحذير، وشدته؛ فكأنه حصر علمه فيما نعمل؛ فيكون هذا أشد في بيان إحاطته بما نعمل؛ فيتضمن قوة التحذير؛ وليس مقتضاه حصر العلم على ما نعمل فقط.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أنه إذا لم يجد كاتباً في السفر فإنه يوثق الحق بالرهن المقبوض.

٢ ـ **ومنها**: عناية الله عز وجل بحفظ أموال عباده؛ يعني أنه سبحانه وتعالى ذكر حتى هذه الصورة: أن الإنسان إذا داين غيره، ولم يجد كاتباً فإنه يرتهن رهناً حفظاً لماله، وخوفاً من النزاع، والشقاق في المستقبل.

٣ ـ **ومنها**: جواز الرهن؛ لقوله تعالى: ﴿**فرهان**﴾؛ ولكن

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٢٥.

ذلك مشروط ـ حسبما في الآية ـ بالسفر سواء كان قصيراً، أو طويلًا؛ وبألا نجد كاتباً؛ فهل هذا الشرط معتبر؟ الجواب: دلت السنة على عدم اعتباره: فقد اشترى النبي ﷺ ثلاثين صاعاً من الشعير لأهله، ورهن درعه عند يهودي حتى مات[1]؛ وهذا يدل على جواز الرهن في الحضر حتى مع وجود الكاتب.

فإذا قال قائل: إذا كان الأمر هكذا فما الجواب عن الآية؟ فالجواب عن الآية أن الله عز وجل ذكر صورة إذا تعذر فيها الكاتب فإن صاحب الحق يتوثق لحقه بالرهن المقبوض؛ فذكر هذه الصورة لا على أنها شرط للحكم؛ يعني كأنه قال: إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه؛ وإن كنتم في السفر، وليس عندكم كاتب فرهان مقبوضة.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن بعض العلماء استدل بهذه الآية على لزوم القبض في الرهن؛ وفي هذه المسألة ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن قبض الرهن شرط لصحته؛ لأن الله جعل القبض وصفاً في الرهن؛ والوصف لازم للموصوف.

والقول الثاني: أن القبض شرط للزوم الرهن ـ لا لصحته؛ وعلى هذا القول يكون الرهن صحيحاً ـ وإن لم يُقبَض ـ لكنه ليس بلازم؛ فللراهن أن يتصرف فيه بما شاء.

والقول الثالث: أن القبض ـ أعني قبض الرهن ـ ليس بشرط لا للصحة، ولا للزوم؛ وإنما ذكر الله القبض في هذه الحال؛ لأن التوثق التام لا يحصل إلا به لكون المتعاقدين في سفر؛

---

(١) راجع البخاري ص٢٣٤، كتاب الجهاد، باب ٨٩: ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب، حديث رقم ٢٩١٦.

وليس ثمة كاتب، فلا يحصل تمام التوثقة بالرهن إلا بقبضه؛ وهذا القول هو الراجح؛ وعليه فالرهن لازم صحيح بمجرد عقده - وإن لم يقبض؛ لقول الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود**﴾ [المائدة: ١]، وقوله تعالى: ﴿**وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً**﴾ [الإسراء: ٣٤]؛ وعلى هذا القول عمل الناس: فترى الرجل يكون راهناً بيته وهو ساكن فيه، أو راهناً سيارته وهو يستعملها؛ ولا تستقيم حال الناس إلا بذلك.

٥ - **ومن فوائد الآية**: أنه إذا حصل الائتمان من بعضنا لبعض لم يجب رهن، ولا إشهاد، ولا كتابة؛ لقوله تعالى: ﴿**فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته**﴾؛ ولهذ قال كثير من العلماء: إن هذه ناسخة لما سبق في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه**﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: ﴿**وأشهدوا إذا تبايعتم**﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: ﴿**وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة**﴾؛ والصحيح أنها ليست ناسخة؛ بل مخصِّصة لما سبق.

٦ - **ومنها**: وجوب أداء الأمانة على من اؤتمن؛ لقوله تعالى: ﴿**فليؤد الذي اؤتمن أمانته**﴾؛ فإذا وجب أداء الأمانة حرمت الخيانة.

٧ - **ومنها**: أنه لو تلفت العين بيد الأمين فإنه لا ضمان عليه ما لم يتعد، أو يفرط؛ لقوله تعالى: ﴿**فليؤد الذي اؤتمن أمانته**﴾؛ فسماها الله سبحانه وتعالى أمانة؛ والأمين يده غير متعدية؛ فلا يضمن إلا إذا حصل تعدٍّ، أو تفريط؛ ومن التعدي إذا أعطي الإنسانُ أمانة للحفظ تصرف فيها - كما يفعل بعض الناس - ببيع،

أو شراء، أو نحو ذلك؛ وهذا حرام لا يجوز؛ وإذا أردت أن تفعل فاستأذِن من صاحبها؛ فإن أذن لك صارت عندك قرضاً.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه يجب على هذا الذي اؤتمن ألا يغتر بثقة الناس به، فيفرط فيما يجب عليه من أداء الأمانة؛ لقوله تعالى: ﴿**وليتق الله ربه**﴾؛ فأمره الله سبحانه وتعالى بأن يتقي الله: قال تعالى: ﴿**وليتق الله**﴾، وأردفها بقوله تعالى: ﴿**ربه**﴾؛ ففيه فائدة ـ وهي أن الإنسان في هذه المقامات ينظر إلى مقام الربوبية كما ينظر إلى مقام الألوهية؛ فبنظره إلى مقام الألوهية يفعل هذا تعبداً لله سبحانه وتعالى، وتقرباً له؛ وبنظره إلى مقام الربوبية يحذر المخالفة؛ لأن الرب هو الذي له الخلق، والملك، والتدبير؛ فلا بد أن يقرن الإنسان بين مقام الألوهية، ومقام الربوبية.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات ما دلّ عليه هذان الاسمان؛ وهما «**الله**»، و«**الرب**»؛ فالأول فيه إثبات الألوهية؛ والثاني فيه إثبات الربوبية؛ لأن المعبود لابد أن يكون أهلاً للعبادة؛ والرب لابد أن يكون أهلاً للربوبية؛ ولا يتحقق ذلك إلا بكمال الصفات؛ ولهذا نقول: توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ والتوحيدان يستلزمان كمال الأسماء، والصفات؛ ولهذا قال إبراهيم ﷺ لأبيه: ﴿**يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً**﴾ [مريم: ٤٢].

١٠ ـ **ومن فوائد الآية** تحريم كتمان الشهادة؛ يعني إخفاءها سواء كان كتمان أصلها، أو وصفها؛ وسواء كان الحامل لها القرابة، والغنىٰ؛ أو البعد، والفقر؛ لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين**

والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما...﴾ [النساء: ١٣٥] الآية.

١١ ـ **ومنها**: أن كتْم الشهادة من الكبائر؛ لوجود العقوبة الخاصة بها ـ وهي قوله تعالى: **﴿فإنه آثم قلبه﴾**.

١٢ ـ **ومنها**: عظم كتم الشهادة؛ لأنه أضاف الإثم فيها إلى القلب؛ وإذا أثم القلب أثمت الجوارح؛ لقول النبي ﷺ: **«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله»**[1]؛ وقوله ﷺ: **«التقوى هاهنا»**[2] وأشار إلى صدره؛ فالتقوى في القلب، وليست في اللسان، ولا في الأفعال، ولا في الأحوال؛ فقد يكون الإنسان متقياً بفعله متقياً بقوله غير متقٍ بقلبه: تجده بفعله يتزيّ بزي المسلم الخالص ـ من إعفاء اللحية، والوقار، والسكينة، وكذلك يقول قول المسلم الخالص: «أستغفر الله»، «اللهم اغفر لي»، ويذكر الله، ويكبر؛ هذه لا شك تقوى في الظاهر؛ والغالب أنها دليل على تقوى الباطن.

١٣ ـ **ومن فوائد الآية**: عموم علم الله سبحانه وتعالى بكل ما نعمل؛ لقوله تعالى: **﴿بما تعملون عليم﴾**؛ فإن **﴿ما﴾** اسم موصول؛ والاسم الموصول يفيد العموم، فيشمل كل ما نعمل من أعمال القلب، وأعمال الجوارح.

إذا قال قائل: ما فائدة التقديم هنا ـ إن قيل: لمراعاة الفواصل قلنا: فالنون تأتي في الفواصل كثيراً، مثل قوله تعالى: **﴿إنه خبير بما تفعلون﴾** [النمل: ٨٨]؛ وإن قيل: للحصر قلنا: لا

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٢٥.

(٢) سبق تخريجه ١/ ٣٣٥.

يصح؛ لأن الله يعلم كل شيء؛ لا يختص علمه بما نعمل فقط؛ فلا وجه للحصر؛ إذاً ما الفائدة؟.

فالجواب: الفائدة شدة التحذير، والتنبيه، كأنه يقول: لو لم يعلم شيئاً ـ وحاشاه من ذلك ـ لكان عالماً بعملنا؛ فمن قوة التحذير والإنذار جاء الكلام على وجه الحصر الإضافي.

١٤ ـ **إذا قال قائل**: هل نستفيد من هذا أن من أسماء الله «العليم»؟ قلنا: ربما نقول ذلك؛ وقد لا نقوله؛ قد نقول: إن الاسم إذا قيد بمتعلِّق فإنه ينقلب إلى وصف، فيكون «عليم بكذا» ليس كقوله تعالى: ﴿**وهو السميع العليم**﴾ [البقرة: ١٣٧]؛ لأن هذا قُيد: «عليم بـ...»، فكان وصفاً، وليس اسماً؛ أما لو قال تعالى: ﴿**وهو العليم الحكيم**﴾ [الزخرف: ٨٤] لكان هذا اسماً بلا شك.

١٥ ـ **ومن فوائد الآية**: التحذير من المخالفة بكون الله سبحانه وتعالى عالماً بما نعمل؛ وجه التحذير: تقديم المعمول.

١٦ ـ **ومنها**: الرد على غلاة القدرية الذين يقولون: إن الله لا يعلم بأفعال العباد إلا إذا وقعت؛ فإن قوله تعالى: ﴿**بما تعملون عليم**﴾ يتضمن ما قد عملناه بالفعل، وما سنعمله.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾.

التفسير:

﴿٢٨٤﴾ قوله تعالى: ﴿**لله ما في السموات وما في الأرض**﴾ جملة خبرية قُدِّم فيها الخبر لإفادة الحصر؛ يعني: أن كل شيء في السموات أو في الأرض فهو لله خلقاً، وملكاً، وتدبيراً؛ وليس لأحد غيره فيه ملك.

قوله تعالى: ﴿**وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه**﴾؛ جملة شرطية جوابها: ﴿**يحاسبكم به الله**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**وإن تبدوا**﴾ أي وإن تظهروا؛ ﴿**ما في أنفسكم**﴾ أي ما في قلوبكم؛ ﴿**أو تخفوه**﴾ يعني تسرُّوه، فلا يطلع عليه أحد.

قوله تعالى: ﴿**يحاسبكم به الله**﴾ أي يُطْلِعكم عليه على وجه المحاسبة؛ ولا يلزم من المحاسبة العقوبة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء**﴾.

قوله تعالى: ﴿**فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء**﴾ فيها قراءتان؛ قراءة بالسكون؛ وقراءة بالرفع؛ وجه قراءة السكون أنه معطوف على ﴿**يحاسبكم**﴾ الذي هو جواب الشرط؛ والمعطوف على المجزوم مجزوم؛ ووجه قراءة الرفع أنه على سبيل الاستئناف؛ فالفاء استئنافية تفيد قطع الجملة التي بعدها عما قبلها؛ و«**المغفرة**» ستر الذنب مع التجاوز عنه؛ لأن مادة «غفر» مأخوذة من المغفر ـ وهو ما يلبسه المقاتل على رأسه ليتقي بها السهام؛ وهو جامع بين ستر الرأس، والوقاية؛ و﴿**يعذب من يشاء**﴾ أي يعاقب.

قوله تعالى: ﴿**والله على كل شيء قدير**﴾ أي يوجد المعدوم، ويعدم الموجود بدون عجز؛ لقوله تعالى: ﴿**وما كان الله**

ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً﴾ [فاطر: ٤٤].

ولما نزلت على رسول الله ﷺ: **﴿لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾** اشتد ذلك على الصحابة، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها؛ قال رسول الله ﷺ: «**أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا! بل قولوا: ﴿سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾**»، قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير؛ فلما اقترأها القوم ذَلَّت بها ألسنتهم فأنزل الله في إثرها: **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾** [البقرة: ٢٨٥]؛ فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾** قال تعالى: «نعم»؛ **﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾** قال تعالى: «نعم»؛ **﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾** قال تعالى: «نعم»؛ **﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾** قال تعالى: «نعم»[1].

---

(١) أخرجه مسلم ص٦٩٩، كتاب الإيمان، باب ٥٧: بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس...، حديث رقم ٣٢٩ [١٩٩] ١٢٥.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: عموم ملك الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿**لله ما في السموات وما في الأرض**﴾؛ وليس معلوماً لنا سوى السموات والأرض؛ ويدخل في السموات الكرسي، والعرش، والملائكة، وأرواح بني آدم التي تكون في السماء، كأرواح المؤمنين في الجنة؛ لأن المراد بذلك كل ما علا؛ بل ويشمل ما بين السماء والأرض من الأفلاك، والنجوم، وغير ذلك؛ لأنها داخلة في السموات؛ لأنها في جهتها؛ ويدخل في الأرض العاقل، وغير العاقل؛ فيشمل بني آدم، والجن، ويشمل الحيوانات الأخرى، ويشمل الأشجار، والبحار، والأنهار، وغير ذلك.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله عز وجل هو القائم على هذه السموات والأرض يدبرها كما يشاء؛ لأنها ملكه.

٣ ـ **ومنها**: أن الله لا شريك له في ذلك الملك؛ يستفاد ذلك من تقديم الخبر الذي حقه التأخير؛ وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر؛ و«الحصر» إثبات الحكم في المذكور، ونفيه عما سواه.

٤ ـ **ومنها**: وجوب إفراد الله سبحانه وتعالى بالألوهية؛ لأن الإقرار بالربوبية يستلزم الإقرار بالألوهية ـ ولابد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم**﴾ [البقرة: ٢١]؛ فجعل الربوبية موجباً لعبادته؛ وفي سورة النمل قال تعالى: ﴿**أمن خلق السموات والأرض...**﴾ [النمل: ٦٠] إلى آخر الآيات التي فيها تختم كل آية بقوله تعالى: ﴿**أإله مع الله**﴾ [النمل: ٦٠] يعني:

فإذا كان هو المنفرد بما ذُكِر فإنه المنفرد بالألوهية.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات صفات الكمال لله عز وجل؛ لأننا إذا تأملنا في هذا الملك الواسع العظيم، وأنه يدبَّر بانتظام لا مثيل له علمنا بأن الذي يدبره كامل الصفات؛ فيؤخذ منه كل صفة كمال لله، كالعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، والعزة، والحكمة، وغير ذلك من صفاته عز وجل؛ لأنه لا يمكن أن يقوم بملك هذه الأشياء العظيمة إلا من هو متصف بصفات الكمال.

٦ ـ **ومنها**: إثبات أن السموات أكثر من واحدة؛ وهي سبع بنص القرآن، والسنة، والإجماع؛ أما القرآن فمثل قوله تعالى: ﴿**قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم**﴾ [المؤمنون: ٨٦]، وقوله تعالى: ﴿**الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن**﴾ [الطلاق: ١٢]؛ وأما السنة فمثل قوله ﷺ: «**اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الرياح وما ذرين...**»[1] الحديث؛ وأما الأرض فإنها جاءت بلفظ الإفراد في القرآن، وجاءت في السنة بلفظ الجمع؛ وعددها سبع: جاء ذلك في صريح السنة، وفي ظاهر القرآن؛ ففي ظاهر القرآن: ﴿**الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن**﴾ [الطلاق: ١٢]؛ لأن المماثلة في الوصف

---

(١) أخرجه ابن حبان ٤/ ١٧٠، ذكر ما يقول المسافر إذا رأى قرية يريد دخولها، حديث رقم ٢٦٩٨، وأخرجه ابن خزيمة ٤/ ١٥٠، حديث رقم ٢٥٦٥؛ وأخرجه الحاكم ١/ ٤٤٦، كتاب المناسك، وقال: حديث صحيح الإسناد؛ وأقره الذهبي.

متعذرة؛ فلم يبق إلا العدد؛ وأما في السنة لمثل قوله ﷺ: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين**»(١).

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: عموم علم الله وسعته؛ لقوله تعالى: ﴿**وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله**﴾؛ ولا محاسبة إلا من بعد علم.

٨ ـ **ومنها**: تحذير العبد من أن يخفي في قلبه ما لا يرضاه الله عز وجل؛ لأن الإنسان إذا علم بأن الله عالم بما يبدي وبما يخفي فسوف يراقب الله سبحانه وتعالى خوفاً من أن يحاسَب على ما أخفاه كما يحاسَب على ما أبداه.

٩ ـ **ومنها**: إثبات أن العبد يحاسب على ما في نفسه؛ وظاهره العموم؛ لقوله تعالى: ﴿**ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله**﴾؛ ولكن جاءت النصوص الأخرى بالتفصيل في ذلك على النحو التالي:

الأول: أن يكون ما يطرأ على النفس وساوس لا قرار لها، ولا ركون إليها؛ فهذه لا تضر؛ بل هي دليل على كمال الإيمان؛ لأن الشيطان إذا رأى من قلب الإنسان إيماناً ويقيناً حاول أن يفسد ذلك عليه؛ ولهذا لما شكا الصحابة إلى رسول الله ﷺ ما يجدونه في أنفسهم من هذا قال ﷺ: «**وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم؛ قال: ذاك صريح الإيمان**»(٢)؛ وفي حديث آخر: «**الحمد لله الذي**

---

(١) سبق تخريجه ٢/ ٢٠.

(٢) أخرجه مسلم ص٧٠٠، كتاب الإيمان، باب ٦٠: بيان الوسوسة في الإيمان...، حديث رقم ٣٤٠ [٢٠٩] ١٣٢.

رد كيده إلى الوسوسة»[١].

الثاني: أن يهمّ بالشيء المحرم، أو يعزم عليه، ثم يتركه؛ وهذا أنواع:

النوع الأول: أن يتركه لله؛ فيثاب على ذلك، كما جاءت به السنة فيمن همّ بسيئة فلم يعملها أنها تكتب حسنةً كاملة؛ قال الله تعالى: «**لأنه تركها من جرّائي**»[٢]، أي من أجلي.

النوع الثاني: أن يهمّ بها، ثم يتركها عزوفاً عنها؛ فهذا لا له، ولا عليه؛ لقول النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات؛ وإنما لكل امرئ ما نوى**»[٣].

النوع الثالث: أن يتمناها، ويحرص عليها؛ ولكن لا يعمل الأسباب التي يحصِّلها بها؛ فهذا يعاقب على نيته دون العقاب الكامل، كما جاء في الحديث في فقير تمنى أن يكون له مثل مال غني كان ينفقه في غير مرضاة الله؛ فقال النبي ﷺ: «**فهو بنيته؛ فهما في الوزر سواء**»[٤].

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٣٥، حديث رقم ٢٠٩٧، وأخرجه أبو داود ص١٥٩٧، كتاب الأدب، باب ١٠٨، في رد الوسوسة، حديث رقم ٥١١٢، قال الألباني في صحيح أبي داود: صحيح ٣/ ٢٥٦.

(٢) أخرجه مسلم ص٦٩٩ ـ ٧٠٠، كتاب الإيمان، باب ٥٩: إذا هم العبد بحسنة...، حديث رقم ٣٣٦ [٢٠٥] ١٢٩.

(٣) أخرجه البخاري ص١، كتاب بدء الوحي، باب ١: كيف كان بدء الوحي، حديث رقم ١، وأخرجه مسلم ص١٠١٩، كتاب الإمارة، باب قوله: إنما الأعمال بالنية حديث رقم ٤٩٢٧ [١٥٥] ١٩٠٧.

(٤) أخرجه أحمد ٤/ ٢٣٠، حديث رقم ١٨١٨٧، وأخرجه الترمذي ص١٨٨٥ ـ ١٨٨٦، كتاب الزهد، باب ١٦: ما جاء أن الدنيا سجن =

النوع الرابع: أن يعزم على فعل المعصية، ويعمل الأسباب التي توصل إليها؛ ولكن يعجز عنها؛ فعليه إثم فاعلها؛ لقول النبي ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: يا رسول الله هذا القاتل؛ فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه**»(١).

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات محاسبة العبد؛ لقوله تعالى: ﴿**يحاسبكم به الله**﴾؛ ولهذا يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا**»(٢)؛ فينبغي للإنسان أن يكون كيساً يحاسب نفسه قبل أن يحاسَب؛ وإني لأعجب أن كثيراً من الناس إذا كان له تجارة دنيوية فإنه لا ينام حتى ينظر في الدفاتر: ما الذي خرج؟ وما الذي دخل؟ وما الذي بقي في ذمم الناس؟ وما الذي بيع؟ وما الذي اشتري؟ إما بنفسه؛ وإما بمن يجعلهم على هذا؛ ولكننا في أعمالنا الأخروية عندنا تفريط ـ يعني يندر يوماً من الأيام أن تقول: ماذا عملت اليوم؟ وتستغفر

= المؤمن، حديث رقم ٢٣٢٥؛ وأخرجه ابن ماجه ص٢٧٣٣ كتاب الزهد، باب ٢٦: النية، حديث رقم ٤٢٢٨، وقال الألباني في صحيح الترمذي ٢/ ٢٧٠ حديث رقم ١٨٩٤: صحيح.

(١) أخرجه البخاري ص٤، كتاب الإيمان، باب ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا**...﴾، حديث رقم ٣١، وأخرجه مسلم ص١١٧٨، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ٤: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، حديث رقم ٧٢٥٢ [١٤] ٢٨٨٨.

(٢) نقله الترمذي عن عمر بن الخطاب ص٨٩٩، كتاب صفة القيامة، باب ٣٥: حديث الكيّس من دان نفسه، في سياق حديث رقم ٢٤٥٩، وأخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ١١٥، كتاب الزهد، كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حديث رقم ٣٤٤٤٨؛ وفيه راوٍ لم يسمه.

مما أسأت فيه، أو فرطت؛ وتحمد الله على ما قمت به من طاعته.

١١ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله سبحانه وتعالى لم يصرح بالمعاقبة؛ ولا يلزم من المحاسبة المؤاخذة؛ لقوله تعالى: ﴿**فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء**﴾؛ ويؤيده ما ثبت في الصحيح **أن الله عز وجل يخلو بعبده المؤمن، فيقرره بذنوبه، ويقول: «عملت كذا في يوم كذا» حتى يقر؛ فإذا رأى أنه قد هلك يقول الله عز وجل: «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»**[1].

١٢ ـ **ومنها**: سعة علم الله عز وجل، وكان من أسمائه: «**الواسع**» أي ذو السعة في جميع صفاته.

١٣ ـ **ومنها**: إثبات المشيئة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿**فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء**﴾؛ ومشيئته تعالى مقرونة بالحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿**وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً**﴾ [الإنسان: ٣٠]؛ كل شيء أضافه الله إلى مشيئته فاعلم أنه مقرون بحكمة؛ لا يشاء شيئاً إلا لحكمة ـ أياً كان هذا الشيء.

١٤ ـ **ومنها**: أنه بعد المحاسبة إما أن يغفر للإنسان؛ وإما أن يعذبه؛ لقوله تعالى: ﴿**فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء**﴾ فإن كان كافراً عذب؛ وإن كان مسلماً كان تحت المشيئة، كما قال تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ [النساء: ٤٨].

١٥ ـ **ومنها**: إثبات القدرة لله، وعمومها في كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿**والله على كل شيء قدير**﴾؛ فلا أحد يقدر على كل

---

(١) سبق تخريجه ١/ ٢٠٠.

شيء إلا الله عز وجل؛ وأما المخلوق فقدرته محدودة.

فإن قيل: لماذا ختم الآية بالقدرة من بعد قوله تعالى: ﴿**فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء**﴾؛ ولم يختمها بالرحمة، ولا بالعقوبة؟

فالجواب: أن المحاسبة تكون بعد البعث؛ والبعث يدل على القدرة؛ كما قال تعالى: ﴿**أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير**﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿**إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير**﴾ [فصلت: ٣٩].

وجه آخر: لو ختمت الآية بما يقتضي الرحمة وفيها التعذيب لم يكن هناك تناسب؛ ولو ختمت بما يقتضي التعذيب وفيها مغفرة لم يكن هناك تناسب؛ والقدرة تناسب الأمرين: تناسب المغفرة، وتناسب التعذيب؛ لأن المغفرة، والتعذيب كلٌّ لا يكون إلا بقدرة الله عز وجل.

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾.

التفسير:

﴿٢٨٥﴾ قوله تعالى: ﴿آمن﴾؛ سبق مراراً، وتكراراً بأنه الإقرار المستلزم للقبول، والإذعان ـ لقبول الخبر، والإذعان للحكم، أو لما يقتضيه؛ أما مجرد التصديق، والإقرار فلا ينفع؛

ولهذا كان أبو طالب مقراً ببعثة الرسول ﷺ، وأنه على حق؛ لكن لما لم يكن منه قبول وإذعان لم ينفعه هذا الإقرار؛ فالإيمان شرعاً هو الإقرار المستلزم للقبول، والإذعان.

قوله تعالى: ﴿**الرسول**﴾؛ «**أل**» هنا للعهد؛ والمراد به محمد ﷺ؛ ﴿**الرسول**﴾ بمعنى مرسَل؛ و«**الرسول**» ـ كما قال العلماء ـ هو من أوحي إليه بشرع، وأُمِر بتبليغه؛ هذا الذي عليه أكثر أهل العلم؛ و«**النبي**» هو الذي لم يؤمر بتبليغه ما لم يدل الدليل على أن المراد به الرسول؛ ففي القرآن الكريم كل من وصف بالنبوة فهو رسول؛ لقوله تعالى: ﴿**إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيين من بعده...**﴾ [النساء: ١٦٣] إلى قوله تعالى: ﴿**رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**﴾ [النساء: ١٦٥]؛ ولقوله تعالى: ﴿**ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله**﴾ [غافر: ٧٨].

قوله تعالى: ﴿**بما أنزل إليه من ربه**﴾ أي بالذي أنزل إليه من ربه؛ والذي أنزل إلى الرسول ﷺ بيَّنه الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿**وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة**﴾ [النساء: ١١٣] ـ فهو القرآن، والسنة؛ والرسول ﷺ كيف آمن بهما؟ الرسول آمن بأن القرآن من عند الله أنزله إليه ليبلغه إلى الناس، وآمن بأن ما أوحي إليه من السنة هو من الله عز وجل؛ أوحي به ليبلغه إلى الناس؛ ثم هو أيضاً آمن بما يقتضيه هذا المنزل من قبول، وإذعان؛ ولهذا كان الرسول ﷺ أشد الناس تصديقاً بما أنزل إليه، وأقواهم إيماناً بلا شك، وكان أيضاً أعظمهم تعبداً لله عز وجل حتى إنه كان يقوم في الليل حتى تتورم قدماه مع أنه قد غُفر له ما تقدم من

ذنبه، وما تأخر[١]؛ وقام معه ابن مسعود رضي الله عنه ذات ليلة يقول: فقام فأطال حتى هممت بأمر سوء؛ قالوا: بم هممت يا أبا عبد الرحمٰن؟ قال: «هممت أن أجلس، وأدعه»[٢]؛ لأن الرسول كان يقوم قياماً طويلاً ـ صلوات الله وسلامه عليه؛ إذاً فهو أقوى الناس إيماناً، وأشدهم رغبة في الخير، وأكثرهم عبادة.

وقوله تعالى: ﴿**من ربه**﴾ يراد بها الربوبية أخص الخاصة؛ لأن ربوبية الله عز وجل عامة؛ وخاصة؛ وأخص الخاصة؛ **فالعامة** الشاملة لكل الخلق، مثل: ﴿**رب العالمين**﴾ [الفاتحة: ١]؛ **والخاصة** للمؤمنين؛ **وخاصة الخاصة** للرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ؛ فالذين يقولون: ﴿**ربنا إننا آمنا فاغفر لنا**﴾ [آل عمران: ١٦] هذه ربوبية خاصة لكل المؤمنين؛ ومثل: ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه**﴾ هذه أخص الخاصة، ومثلها: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون**﴾ [النساء: ٦٥]؛ يقابل ذلك «العبودية»: عبودية عامة؛ وخاصة؛ وأخص الخاصة؛ **العامة** مثل قوله تعالى: ﴿**إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمٰن عبداً**﴾ [مريم: ٩٣]؛ **والخاصة** مثل قوله تعالى: ﴿**وعباد الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هوناً**﴾

---

(١) راجع البخاري ص٤١٣، كتاب تفسير القرآن، باب ٢: قوله تعالى: ﴿**ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ...**﴾، حديث رقم ٤٨٣٦، وأخرجه مسلم ص١١٦٩، كتاب صفات المنافقين، باب ١٨: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم ٧١٢٤ [٧٩] ٢٨١٩.

(٢) راجع البخاري ص٨٨، كتاب التهجد، باب ٩: طول القيام في صلاة الليل، حديث رقم ١١٣٥؛ وصحيح مسلم ص٨٠٠، كتاب صلاة المسافرين، باب ٢٧: استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، حديث رقم ١٨١٥ [٢٠٤] ٧٧٣.

[الفرقان: ٦٣]؛ **وخاصة الخاصة** مثل قوله تعالى: ﴿**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده**﴾ [الفرقان: ١]، وقوله تعالى: ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا**﴾ [البقرة: ٢٣]؛ ولا شك أن الربوبية الخاصة تقتضي تربية خاصة لا يماثلها تربية أحد من العالمين.

قوله تعالى: ﴿**والمؤمنون**﴾ بالرفع عطفاً على ﴿**الرسول**﴾ يعني: المؤمنون كذلك آمنوا بما أنزل إلى النبي ﷺ من الله؛ فيؤمنون بثلاثة أشياء: **بالمرسِل** ـ وهو الله عز وجل؛ **والمرسَل** ـ وهو الرسول ﷺ؛ **والمرسَل به** ـ وهو الوحي: الكتاب، والسنة.

فإن قال قائل: كيف قال تعالى: ﴿**والمؤمنون**﴾: فوصفهم بالإيمان مع أنهم مؤمنون؟ فنقول: هذا من باب التحقيق؛ يعني: أن المؤمنين حققوا الإيمان، وليس إيمانهم إيماناً ظاهراً فقط ـ كما يكون من المنافق الذي يُظهر الإيمان، ولكنه مبطن للكفر.

قوله تعالى: ﴿**كل**﴾ يعني: من الرسول، والمؤمنين؛ ﴿**آمن بالله**﴾: أي بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته ـ كما تقدم ذلك مبسوطاً.

قوله تعالى: ﴿**وملائكته**﴾ معطوف على الاسم الكريم: «**الله**»؛ والملائكة عالم غيبي خلقهم الله عز وجل من نور، وأعطاهم قوة، وقدرة على تنفيذ ما يريد منهم؛ قال الله تعالى في ملائكة النار: ﴿**لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾ [التحريم: ٦].

قوله تعالى: ﴿**وكتبه**﴾؛ وفي قراءة: «**وكتابه**»؛ ولا منافاة؛ لأن المفرد المضاف يعم؛ والكتب المنزلة على الأنبياء الذي يظهر من نصوص الكتاب والسنة أنها بعدد الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان**﴾

[الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه**﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ ولكن مع ذلك فنحن لا نعرف على التعيين إلا عدداً قليلاً منها: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وصحف موسى ـ إن كانت غير التوراة؛ وإن كانت هي التوراة فالأمر ظاهر؛ نعرف هذه الكتب، ونؤمن بها على أعيانها؛ والباقي نؤمن بها على سبيل الإجمال؛ ولكن كيف الإيمان بهذه الكتب؟ نقول: الإيمان بالقرآن هو الإيمان بأنه كلام الله منزل على محمد ﷺ بلسان عربي مبين؛ ونصدق بكل أخباره؛ ونلتزم بكل أحكامه؛ وأما الإيمان بالكتب السابقة فهو أن نؤمن بأن الله أنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، وآتى داود الزبور، وأنزل صحفاً على إبراهيم، وموسى؛ وأن كل ما جاء فيها من خبر فهو حق صدق؛ وأما الأحكام فما جاءت شريعتنا بخلافه فالعمل على ما جاءت به شريعتنا؛ لأنه منسوخ؛ وأما ما لا يخالف شريعتنا فاختلف العلماء في العمل به؛ والصحيح أنه يعمل به؛ وبسط ذلك في أصول الفقه؛ وليعلم أن التوراة التي بأيدي اليهود اليوم، والإنجيل الذي بأيدي النصارى لا يوثق بهما؛ لأنهم حَرَّفوا، وبدلوا، وكتموا الحق.

قوله تعالى: ﴿**ورسله**﴾ جمع رسول.

قوله تعالى: ﴿**لا نفرق بين أحد من رسله**﴾؛ هنا التفات من الغيبة إلى التكلم؛ ومقتضى السياق لو كان على نهج واحد لقال: «لا يفرقون بين أحد من رسله»؛ ولكنه تعالى قال: ﴿**لا نفرق**﴾؛ وفائدة الالتفات هي التنبيه؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد فإن الإنسان ينسجم معه، وربما يغيب فكره؛ وأما إذا جاء الالتفات فكأنه يقرع

الذهن يقول: انتبه! فالالتفات هنا من الغيبة إلى التكلم له فائدة زائدة على التنبيه ـ وهي أن يقول هؤلاء المؤمنون: ﴿**لا نفرق**﴾ بقلوبنا، وألسنتنا ﴿**بين أحد من رسله**﴾؛ فالكل عندنا حق؛ فمحمد ﷺ صادق فيما جاء به من الرسالة، وعيسى بن مريم ﷺ صادق، وموسى ﷺ صادق، وصالح ﷺ صادق، ولوط ﷺ صادق، وإبراهيم ﷺ صادق... وهكذا؛ لا نفرق بينهم في هذا الأمر ـ أي في صدق رسالتهم، والإيمان بهم؛ ولكن نفرق بينهم فيما كلفنا به: فنعمل بشريعة محمد ﷺ؛ وأما شريعة أولئك فعلى ما ذكرنا من الخلاف.

قوله تعالى: ﴿**سمعنا وأطعنا**﴾ أي سمعنا ما أمرتنا به، أو نهيتنا عنه؛ وأطعنا فعلاً للمأمور، وتركاً للمحظور.

قوله تعالى: ﴿**غفرانك**﴾ مفعول لفعل محذوف؛ والتقدير: نسألك غفرانك؛ والمغفرة ستر الذنب، والتجاوز عنه.

قوله تعالى: ﴿**ربنا**﴾ أي يا ربنا؛ وحذفت «يا» النداء للبداءة باسم الله.

قوله تعالى: ﴿**وإليك المصير**﴾ أي المرجع في أمور الدنيا، والآخرة؛ ومن المصير إليه: يوم القيامة؛ وقدم الخبر لإفادة الحصر.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن محمداً ﷺ مكلف بالإيمان بما أنزل إليه؛ ولهذا قال ﷺ: «**أشهد أني رسول الله**»[1]، في قصة دين جابر رضي الله عنه ـ كما في صحيح البخاري.

---

(١) أخرجه البخاري ص٤٦٩، كتاب الأطعمة، باب ٤١: الرطب والتمر وقول الله تعالى: ﴿**وهزي إليك بجزع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً**﴾، حديث رقم ٥٤٤٣.

٢ ـ **ومنها**: أن القرآن كلام الله؛ لقوله تعالى: ﴿**بما أنزل إليه من ربه**﴾؛ والمنزل هو الوحي؛ والكلام وصف لا يقوم إلا بمتكلم؛ لا يمكن أن يقوم بنفسه؛ وعلى هذا يكون في الآية دليل على أن القرآن كلام الله ـ الوحي الذي أنزل على محمد ﷺ.

٣ ـ **ومنها**: إثبات علوّ الله عز وجل؛ لأن النزول لا يكون إلا من أعلى؛ لقوله تعالى: ﴿**بما أنزل إليه**﴾.

٤ ـ **ومنها**: إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿**الرسول**﴾، وقوله تعالى: ﴿**بما أنزل إليه من ربه**﴾.

٥ ـ **ومنها**: عظم ربوبية الله، وأخصيتها بالنسبة إلى الرسول ﷺ، حيث قال تعالى: ﴿**بما أنزل إليه من ربه**﴾.

ويتفرع على ذلك أن الله سبحانه وتعالى سينصره؛ لأن الربوبية الخاصة تقتضي ذلك ـ لا سيما وأنه سوف يبلِّغ ما أنزل إليه من ربه.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن المؤمنين تبع للرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون**﴾؛ وجه التبعية أنه ذكر ما آمن به قبل أن يذكر التابع ـ يعني ما قال: «آمن الرسول والمؤمنون بما أنزل إليه»، وهذا يدل على أنهم أتباع للرسول ﷺ لا يستقلون بشريعة دونه.

٧ ـ **ومنها**: أنه كلما كان الإنسان أقوى إيماناً بالرسول ﷺ كان أشد اتباعاً له؛ وجهه أنه تعالى قال: ﴿**بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون**﴾ يعني: والمؤمنون آمنوا بما أنزل على محمد ﷺ من ربه؛ وعليه فكل من كان أقوى إيماناً كان أشد اتباعاً.

٨ ـ **ومنها**: أن إيمان الرسول ﷺ والمؤمنين شامل لكل

أصول الدين؛ لقوله تعالى: ﴿**كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله**﴾؛ ويبقى عندنا إشكال؛ وهو أنه ليس في الآية ذكر الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر؟ والجواب من أحد وجهين:

أحدهما: أن يقال: إن هذا داخل في عموم قوله تعالى: ﴿**بما أنزل إليه من ربه**﴾.

والوجه الثاني: أن يقال: إن الإيمان بالكتب، والرسل متضمن للإيمان باليوم الآخر، والقدر.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات الملائكة.

١٠ ـ **ومنها**: أن الإيمان بالرسل ليس فيه تفريق؛ لا تقول مثلاً: نؤمن بمحمد ﷺ، ولا نؤمن بعيسى لأن عيسى من بني إسرائيل؛ نحن لا نفرق بين الرسل؛ وقد سبق لنا معنى قوله تعالى: ﴿**لا نفرق**﴾.

١١ ـ **ومن فوائد الآية**: أن من صفات المؤمنين السمع، والطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿**وقالوا سمعنا وأطعنا**﴾؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿**إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون * ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون**﴾ [النور: ٥١، ٥٢]، وكقوله تعالى: ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم**﴾ [الأحزاب: ٣٦]؛ والناس في هذا الباب على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من لا يسمع، ولا يطيع؛ بل هو معرض؛ لم يرفع لأمر الله، ورسوله رأساً.

القسم الثاني: من يسمع، ولا يطيع؛ بل هو مستكبر؛ اتخذ آيات الله هزواً، كقوله تعالى: ﴿**وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً**

كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم﴾ [لقمان: ٧]، وكقوله تعالى: **﴿وقالوا سمعنا وعصينا﴾** [البقرة: ٩٣]؛ وهذا أعظم جرماً من الأول.

القسم الثالث: من يسمع، ويطيع؛ وهؤلاء هم المؤمنون الذين قالوا سمعنا وأطعنا، وقال الله سبحانه وتعالى فيهم: **﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾** [الأحزاب: ٧١].

١٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن كل أحد محتاج إلى مغفرة الله؛ لقوله تعالى: **﴿غفرانك﴾**؛ فكل إنسان محتاج إلى مغفرة ـ حتى النبي ﷺ محتاج إلى مغفرة؛ ولهذا لما قال ﷺ: «**لن يُدخل الجنة أحداً عملُه قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة**»[1]؛ وقال الله سبحانه وتعالى: **﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾** [الفتح: ١، ٢]، وقال تعالى: **﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾** [محمد: ١٩]؛ واعلم أن الإنسان قد يكون بعد الذنب أعلى مقاماً منه قبل الذنب؛ لأنه قبل الذنب قد يكون مستمرئاً للحال التي كان عليها، وماشياً على ما هو عليه معتقداً أنه كامل، وأن ليس عليه ذنوب؛ فإذا أذنب، وأحس بذنبه رجع إلى الله، وأناب إليه، وأخبت إليه، فيزداد إيماناً، ويزداد مقاماً ـ يرتفع مقامه عند الله عز وجل؛ ولهذا قال الله تعالى في آدم: **﴿وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه﴾** [طه: ١٢١، ١٢٢] ـ فجعل الاجتباء بعد هذه المعصية ـ **﴿فتاب عليه وهدى﴾** [طه: ١٢٢]؛

---

(١) أخرجه مسلم ص١١٦٩، كتاب صفات المنافقين، باب ١٧: لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، حديث رقم ٧١٢٢ [٧٨] ٢٨١٨.

وهذا كثيراً ما يقع: إذا أذنب الإنسان عرف قدر نفسه، وأنه محتاج إلى الله، ورجع إلى الله، وأحس بالخطيئة، وأكثر من الاستغفار، وصار مقامه بعد الذنب أعلى من مقامه قبل الذنب.

١٣ ـ **ومن فوائد الآية**: تواضع المؤمنين، حيث قالوا: ﴿**سمعنا وأطعنا**﴾، ثم سألوا المغفرة خشية التقصير.

١٤ ـ **ومنها**: إثبات أن المصير إلى الله عز وجل في كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿**وإليك المصير**﴾؛ وقد سبق في التفسير أن المراد بذلك المصير إلى الله في الآخرة، والمصير إلى الله في الدنيا أيضاً؛ فهو الذي يحكم بين الناس في الدنيا والآخرة ـ كما قال تعالى: ﴿**وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله**﴾ [الشورى: ١٠]: هذا في الدنيا؛ والآخرة: كما قال تعالى: ﴿**لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم**﴾ [الممتحنة: ٣]، وقال تعالى: ﴿**فالله يحكم بينكم يوم القيامة**﴾ [النساء: ١٤١].

❁ ❁ ❁

القرآن

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

التفسير:

هذه الآية، والتي قبلها وردت فيها نصوص تدل على الفضل العظيم؛ منها:

١ ـ أنها من كنز تحت العرش[(١)].

٢ ـ أنها فتحت لها أبواب السماء عند نزولها[(٢)].

٣ ـ أنها لم يعطها أحد من الأنبياء قبل رسول الله ﷺ[(٣)].

٤ ـ أن من قرأهما في ليلة كفتاه[(٤)].

﴿٢٨٦﴾ قوله تعالى: ﴿**لا يكلف الله**﴾؛ «**التكليف**» الإلزام بما فيه مشقة؛ يعني لا يلزم الله؛ ﴿**نفساً إلا وسعها**﴾ أي إلا طاقتها؛ فلا يلزمها أكثر من الطاقة.

قوله تعالى: ﴿**لها ما كسبت**﴾ أي ما عملت من خير لا

---

(١) راجع أحمد ص١٥٧١، حديث رقم ٢١٦٧٢، وص١٥٩٠، حديث رقم ٢١٨٩٧، من حديث أبي ذر؛ قال الهيثمي: رواه أحمد بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٦/ ٣١٥)؛ وقال الساعاتي: «وهو الذي أثبته هنا» (الفتح الرباني ١٨/ ٩٩ ـ ١٠١)؛ وقال الألباني: «إسناده صحيح على شرط مسلم» (السلسلة الصحيحة ٣/ ٤٧١، حديث رقم ١٤٨٢)؛ ومن حديث حذيفة راجع أحمد ص١٧٢٦، حديث رقم ٢٣٦٤٠؛ والمعجم الكبير للطبراني ٣/ ١٦٩، حديث رقم ٣٠٢٥؛ مسند أبي داود الطيالسي ص٥٦، حديث رقم ٤١٨؛ قال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٦/ ٣٢٧، ٣١٥)؛ وقال الألباني: «إسناده صحيح على شرط مسلم» (السلسلة الصحيحة ٣/ ٤٧١، حديث رقم ١٤٨٢).

(٢) راجع مسلماً ص٨٠٤، كتاب صلاة المسافرين، باب ٤٣: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة...، حديث رقم ١٨٧٧[٢٥٤] ٨٠٦؛ لكن فيه: «هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم...».

(٣) راجع حاشية رقم ١.

(٤) راجع البخاري ص٣٢٧، كتاب المغازي، باب ١٢: حديث رقم ٤٠٠٨؛ ومسلماً ص٨٠٤، كتاب صلاة المسافرين، باب ٤٣: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة...، حديث رقم ١٨٧٨ [٢٥٥] ٨٠٧.

ينقص منه شيء؛ ﴿**وعليها ما اكتسبت**﴾ أي ما اقترفت من إثم لا يحمله عنها أحد؛ و«**الكسب**»، و«**الاكتساب**» بمعنًى واحد؛ وقيل بينهما فرق؛ وهو أن «**الكسب**» في الخير، وطرقه أكثر؛ و«**الاكتساب**» في الشر، وطرقه أضيق ـ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**ربنا لا تؤاخذنا**﴾: هذه الجملة مقول لقول محذوف ـ أي «قولوا ربنا»؛ أو: «قالوا ربنا» عوداً على ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون**﴾ ـ أي: و﴿**قالوا سمعنا وأطعنا**﴾، وقالوا: ﴿**ربنا لا تؤاخذنا..**﴾؛ و﴿**ربنا**﴾ منادى حذفت منه «يا» النداء اختصاراً، وتيمناً بالبداءة باسم الله عز وجل؛ و﴿**لا تؤاخذنا**﴾ أي لا تعاقبنا بما أخطأنا فيه.

قوله تعالى: ﴿**إن نسينا أو أخطأنا**﴾: «**النسيان**» هو ذهول القلب عن معلوم؛ يكون الإنسان يعلم الشيء، ثم يغيب عنه؛ ويسمى هذا نسياناً، كما لو سألتك: ماذا صنعت بالأمس؟ تقول: «نسيت»؛ فأنت فاعل؛ ولكن غاب عنك فعله؛ و«**الخطأ**»: المخالفة بلا قصد للمخالفة؛ فيشمل ذلك الجهل؛ فإن الجاهل إذا ارتكب ما نهي عنه فإنه قد ارتكب المخالفة بغير قصد للمخالفة.

قوله تعالى: ﴿**ربنا ولا تحمل علينا إصراً**﴾: أتى بالواو ليفيد أن هذه الجملة معطوفة على التي قبلها؛ وكرر النداء تبركاً بهذا الاسم الكريم، وتعطفاً على الله سبحانه وتعالى؛ لأن هذا من أسباب إجابة الدعاء؛ و«**الإصر**» هو الشيء الثقيل الذي يثقل على الإنسان من التكاليف، أو العقوبات.

قوله تعالى: ﴿**كما حملته على الذين من قبلنا**﴾ أي اليهود، والنصارى، وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿**ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به**﴾ أي لا قدرة لنا على تحمله من الأمور الشرعية، والكونية.

قوله تعالى: ﴿**واعف عنا**﴾ أي تجاوز عما قصرنا فيه من الواجبات؛ ﴿**واغفر لنا**﴾ أي تجاوز عما اقترفناه من السيئات؛ ﴿**وارحمنا**﴾ أي تفضل علينا بالرحمة حتى لا نقع في فعل محظور، أو في تهاون في مأمور.

قوله تعالى: ﴿**أنت مولانا**﴾: الجملة هنا خبرية مكونة من مبتدأ، وخبر كلاهما معرفة؛ وقد قال علماء البلاغة: إن الجملة المكونة من مبتدأ، وخبر كلاهما معرفة تفيد الحصر؛ والمراد: متولي أمورنا.

قوله تعالى: ﴿**فانصرنا على القوم الكافرين**﴾ الفاء هنا للتفريع؛ يعني فبولايتك الخاصة انصرنا على القوم الكافرين ـ أي اجعل لنا النصر عليهم؛ وهو عام في كل كافر.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: بيان رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده، حيث لا يكلفهم إلا ما استطاعوه؛ ولو شاء أن يكلفهم ما لم يستطيعوا لفعل.

فإذا قال قائل: كيف يفعل وهم لا يستطيعون؟ وما الفائدة بأن يأمرهم بشيء لا يستطيعونه؟

فالجواب: أن الفائدة أنه لو كلفهم بما لا يستطيعون، وعجزوا عاقبهم على ذلك؛ وهذه قاعدة عظيمة من أصول الشريعة؛ ولها نظائر في القرآن، وكذلك في السنة.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات القاعدة المشهورة عند أهل

العلم؛ وهي: **لا واجب مع العجز؛ ولا محرم مع الضرورة**؛ لكن إن كان الواجب المعجوز عنه له بدل وجب الانتقال إلى بدله؛ فإن لم يكن له بدل سقط؛ وإن عجز عن بدله سقط؛ **مثال ذلك**: إذا عجز عن الطهارة بالماء سقط عنه وجوب التطهر بالماء؛ لكن ينتقل إلى التيمم؛ فإن عجز سقط التيمم أيضاً ـ مثال ذلك: شخص محبوس مكبل لا يستطيع أن يتوضأ، ولا أن يتيمم: فإنه يصلي بلا وضوء، ولا تيمم؛ **مثال آخر**: رجل قتل نفساً معصومة خطأً: فعليه أن يعتق رقبة؛ فإن لم يجد فعليه أن يصوم شهرين متتابعين؛ فإن لم يستطع سقطت الكفارة؛ مثال ثالث: رجل جامع زوجته في نهار رمضان: فعليه أن يعتق رقبة؛ فإن لم يجد فعليه صيام شهرين؛ فإن لم يستطع فعليه إطعام ستين مسكيناً؛ فإن لم يجد فلا شيء عليه.

ومثال سقوط التحريم مع الضرورة: رجل اضطر إلى أكل الميتة بحيث لا يجد ما يسد رمقه سوى هذه الميتة: فإنه يحل له أكلها؛ وهل له أن يشبع؛ أو يقتصر على ما تبْقى به حياته؟

والجواب: إن كان يرجو أن يجد حلالاً عن قرب فيجب أن يقتصر على ما يسد رمقه؛ وإن كان لا يرجو ذلك فله أن يشبع، وأن يتزود منها ـ وأن يحمل معه منها ـ خشية أن لا يجد حلالاً عن قرب.

ومعنى الضرورة أنه لا يمكن الاستغناء عن هذا المحرم؛ وأن ضرورته تندفع به ـ فإن لم تندفع فلا فائدة؛ **مثال ذلك**: رجل ظن أنه في ضرورة إلى التداوي بمحرم؛ فأراد أن يتناوله: فإنه لا يحل له ذلك لوجوه:

الأول: أن الله حرمه؛ ولا يمكن أن يكون ما حرمه شافياً لعباده، ولا نافعاً لهم.

الثاني: أنه ليس به ضرورة إلى هذا الدواء المحرم؛ لأنه قد يكون الشفاء في غيره، أو يشفى بلا دواء.

الثالث: أننا لا نعلم أن يحصل الشفاء في تناوله؛ فكم من دواء حلال تداوىٰ به المريض ولم ينتفع به؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الحبة السوداء: «**إنها شفاء من كل داء إلا السام ـ يعني الموت**»[1]؛ فهذه مع كونها شفاءً لا تمنع الموت؛ ولذلك لو اضطر إلى شرب خمر لدفع لقمة غص بها جاز له ذلك، لأن الضرورة محققة، واندفاعها بهذا الشرب محقق.

الخلاصة الآن: أخذنا من هذه الآية الكريمة: ﴿**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**﴾ قاعدتين متفقاً عليهما؛ وهما:

أ ـ لا واجب مع العجز.

ب ـ ولا محرم مع الضرورة.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الإنسان لا يحمل وزر غيره؛ لقوله تعالى: ﴿**وعليها ما اكتسبت**﴾.

إذا قال قائل: ما تقولون في قول النبي ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»[2]؟

فالجواب: أن هذا لا يرد؛ لأن الذي فعلها أولاً اقتدى الناس به؛ فكان اقتداؤهم به من آثار فعله؛ ولما كان هو

---

(١) أخرجه البخاري ص٤٨٧، كتاب الطب، باب ٧: الحبة السوداء، حديث رقم ٥٦٨٧؛ وأخرجه مسلم ص١٠٧٠، كتاب السلام، باب ٢٩: التداوي بالحبة السوداء، حديث رقم ٥٧٦٦ [٨٨] ٢٢١٥.

(٢) سبق تخريجه ٢/ ٤٢.

المتسبِّب، وهو الدال على هذا الفعل كان مكتسباً له.

٤ ـ **ومنها**: يسر الدين الإسلامي؛ لقوله تعالى: ﴿**لا يكلف الله نفسها إلا وسعها**﴾.

ويتفرع على هذا أن يختلف الناس فيما يلزمون به؛ فالقادر على القيام في الفريضة يلزمه القيام؛ والعاجز عن القيام يصلي قاعداً؛ والعاجز عن القعود يصلي على جنب؛ وكذلك القادر على الجهاد ببدنه يلزمه الجهاد ببدنه إذا كان الجهاد فرضاً؛ والعاجز لا يلزمه؛ وكذلك القادر على الحج ببدنه وماله يلزمه أداء الحج ببدنه، والعاجز عنه ببدنه عجزاً لا يرجى زواله القادر بماله يلزمه أن ينيب من يحج عنه؛ والعاجز بماله وبدنه لا يلزمه الحج.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن للإنسان طاقة محدودة؛ لقوله تعالى: ﴿**إلا وسعها**﴾؛ فالإنسان له طاقة محدودة في كل شيء: في العلم، والفهم، والحفظ، فيكلف بحسب طاقته.

٦ ـ **ومنها**: أن للإنسان ما كسب دون أن ينقص منه شيء، كما قال تعالى: ﴿**ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً**﴾ [طه: ١١٢].

٧ ـ **ومنها**: أن الأعمال الصالحة كسب؛ وأن الأعمال السيئة غُرْم؛ وذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿**لها**﴾، ومن قوله تعالى: ﴿**عليها**﴾؛ فإن «**على**» ظاهرة في أنها غُرم؛ واللام ظاهرة في أنها كسب.

٨ ـ **ومنها**: رحمة الله سبحانه وتعالى بالخلق، حيث علمهم دعاءً يدعونه به، واستجاب لهم إياه في قوله تعالى: ﴿**ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا**﴾.

٩ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان أن يتوسل في الدعاء بالوصف المناسب، مثل الربوبية ـ التي بها الخلق، والتدبير؛ ولهذا كان أكثر الأدعية في القرآن مصدرة بوصف الربوبية، مثل: «**ربنا**»، ومثل: «**ربِّ**».

١٠ ـ **ومنها**: رفع المؤاخذة بالنسيان، والجهل؛ لقوله تعالى: ﴿**ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا**﴾، فقال الله تعالى: «**قد فعلت**»[(١)]؛ ولا يلزم من رفع المؤاخذة سقوط الطلب؛ فمن ترك الواجب نسياناً، أو جهلاً، وجب عليه قضاؤه، ولم يسقط الطلب به؛ ولهذا قال النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه: «**من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها**»[(٢)]؛ ولما صلى الرجل الذي لا يطمئن في صلاته قال له: «**ارجع فصلِّ؛ فإنك لم تصلِّ**»[(٣)]؛ ولم يعذره بالجهل مع أنه لا يحسن غير هذا؛ إذاً فعدم المؤاخذة بالنسيان، والجهل لا يسقط الطلب؛ وهذا في المأمورات ظاهر؛ أما المنهيات فإن من فعلها جاهلاً، أو ناسياً فلا إثم عليه، ولا كفارة؛ مثال ذلك: لو أكل وهو صائم ناسياً فلا إثم عليه؛ لقول النبي ﷺ: «**من نسي وهو صائم فأكل، أو شرب، فليتم صومه**»[(٤)]؛ وكذلك لو

---

(١) سبق تخريجه ٣/ ١١٩.

(٢) أخرجه البخاري ص٤٨، كتاب مواقيت الصلاة، باب ٣٧: من نسي صلاة فليصلها...، حديث رقم ٥٩٧، وأخرجه مسلم ص٧٨٥، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ٥٥: قضاء الصلاة الفائتة...، حديث رقم ١٥٦٦ [٣١٤] ٦٨٤.

(٣) أخرجه البخاري ص٦٠، كتاب الأذان، باب ٩٥: وجوب القراءة للإمام والمأموم...، حديث رقم ٧٥٧؛ وأخرجه مسلم ص٧٤٠، كتاب الصلاة، باب ١١؛ وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، حديث رقم ٨٨٥ [٤٥] ٣٩٧.

(٤) أخرجه مسلم ص٨٦٣، كتاب الصيام، باب ٣٣: أكل الناسي وشربه وجماعه لا يفطر، حديث رقم ٣٧١٦ [١٧١] ١١٥٥.

أكل وهو صائم جاهلاً فإن صومه صحيح سواء كان جاهلاً بالحكم، أو بالوقت؛ لأن أسماء بنت أبي بكر قالت: «**أفطرنا على عهد رسول الله ﷺ يومَ غيم، ثم طلعت الشمس**»[(١)]؛ ولم يؤمروا بالقضاء؛ ولكن لو فعل المحرم عالماً بتحريمه جاهلاً بما يترتب عليه لم يسقط عنه الإثم، ولا ما يترتب على فعله؛ مثل أن يجامع الصائم في نهار رمضان وهو يجب عليه الصوم عالماً بالتحريم - لكن لا يعلم أن عليه الكفارة: فإنه آثم، وتجب عليه الكفارة؛ لما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن **رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، هلكت قال: ما أهلكك؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم»**[(٢)]؛ فألزمه النبي ﷺ بالكفارة[(٢)]؛ لأنه كان عالماً بالحكم بدليل قوله: «**هلكت**».

فإن قال قائل: «قد ذكرتم أن المأمور لا يسقط بالجهل والنسيان»، فما الفائدة من عذره الجهل؟

فالجواب: أن الفائدة عدم المؤاخذة؛ لأنه لو فعل المأمور على وجه محرم يعلم به لكان آثماً؛ لأنه كالمستهزئ بالله عز وجل وآياته، حيث يعلم أن هذا محرم، فيتقرب به إلى الله.

١١ - **ومن فوائد الآية**: أن فعل الإنسان واقع باختياره؛ لقوله تعالى: ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾؛ فيكون فيها رد على الجبرية الذين يقولون: «إنه لا اختيار للعبد فيما فعل»؛ وبيان

---

(١) أخرجه البخاري ص١٥٣، كتاب الصوم، باب ٤٦: إذا أفطر في رمضان ثم طلعت الشمس، حديث رقم ١٩٥٩.

(٢) أخرجه البخاري ص١٥١، كتاب الصوم، باب ٣٠: إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء...، حديث رقم ١٩٣٦.

مذهبهم، والرد عليهم بالتفصيل مذكور في كتب العقائد.

١٢ ـ **ومنها**: أن النسيان وارد على البشر؛ والخطأ وارد على البشر؛ وجهه: قوله تعالى: ﴿**ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا**﴾، فقال الله تعالى: «**قد فعلت**»[1]؛ وهذا إقرار من الله سبحانه وتعالى على وقوع النسيان، والخطأ من البشر.

فإذا قال قائل: ما الحكمة من أن الله سبحانه وتعالى يجعل البشر ينسى، ويخطئ؟

فالجواب: ليتبين للإنسان ضعفه، وقصوره: ضعفه في الإدراك، وضعفه في الإبقاء، وفي كل حال؛ وليتبين بذلك فضل الله عليه بالعلم، والذاكرة، وما أشبه ذلك؛ وليعرف الإنسان افتقاره إلى الله عز وجل في دعائه في رفع النسيان، والجهل عنه؛ فيلجأ إلى الله عز وجل، فيقول: «رب علمني ما جهلت، وذكرني ما نسيت»، وما أشبه ذلك.

١٣ ـ **ومن فوائد الآية**: امتنان الله على هذه الأمة برفع الآصار التي حملها مَنْ قبلنا؛ لقوله تعالى: ﴿**ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا**﴾، فقال الله تعالى: «**قد فعلت**»[2].

١٤ ـ **ومنها**: أن من كان قبلنا مكلفون بأعظم مما كلفنا به؛ لقوله تعالى: ﴿**ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا**﴾؛ مثال ذلك: قيل لبني إسرائيل الذين عبدوا العجل: لن تقبل توبتكم حتى تقتلوا أنفسكم ـ أي يقتل بعضكم بعضاً؛ قيل: أنهم أمروا أن يكونوا في ظلمة، وأن يأخذ كل واحد منهم

---

(١) سبق تخريجه ٣/ ١١٩.

(٢) المرجع السابق.

سكيناً، أو خنجراً، وأن يطعن من أمامه سواء كان ابنه، أو أباه، أو عمه، أو أخاه، أو غيرهم؛ وهذا لا شك تكليف عظيم، وعبء ثقيل؛ أما نحن فقيل لنا ـ حتى في الشرك: **﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهاناً * إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾** [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

١٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن ينبغي للإنسان أن يسأل الله سبحانه وتعالى العافية، فلا يُحَمِّلُه ما لا طاقة له به؛ ففيه رد على الصوفية الذين قالوا: نحن لا نسأل الله تعالى أن يقينا ما يشق علينا؛ لأننا عبيده؛ وإذا حصل لنا ما يشق فإننا نصبر عليه لنكسب أجراً.

١٦ ـ **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان سؤال الله العفو؛ لأن الإنسان لا يخلو من تقصير في المأمورات؛ فيسأل الله العفو عن تقصيره؛ لقوله تعالى: **﴿واعف عنا﴾**؛ وسؤالُ الله المغفرة من ذنوبه التي فعلها؛ لقوله تعالى: **﴿واغفر لنا﴾**؛ لأن الإنسان إن لم يُغفر له تراكمت عليه الذنوب، ورانت على قلبه، وربما توبقه، وتهلكه.

١٧ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله أن يرحمه في مستقبل أمره؛ فيعفو عما مضى، ويغفر؛ ويرحم في المستقبل؛ لقوله تعالى: **﴿وارحمنا﴾**؛ وبه نعرف اختلاف هذه الكلمات الثلاث: طلب العفو عن التفريط في الطاعات؛ والاستغفار عن فعل المحرمات؛ والرحمة فيما يستقبله الإنسان من زمنه ـ أن الله يرحمه، ويوفقه لما فيه مصلحته.

١٨ ـ **ومنها**: أن المؤمن لا وليّ له إلا ربه؛ لقوله تعالى:

﴿**أنت مولانا**﴾؛ وولاية الله نوعان: خاصة، وعامة؛ **فالولاية الخاصة** ولاية الله للمؤمنين، كقوله تعالى: ﴿**الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور**﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقوله تعالى: ﴿**والله ولي المؤمنين**﴾، وقوله تعالى: ﴿**إن وليّ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين**﴾ [الأعراف: ١٩٦]؛ **والعامة**: ولايته لكل أحد؛ فالله سبحانه وتعالى ولي لكل أحد بمعنى أنه يتولى جميع أمور الخلق؛ مثاله قوله تعالى: ﴿**ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون**﴾ [يونس: ٣٠].

١٩ ـ **ومن فوائد الآية**: التوسل إلى الله تعالى في الدعاء بما يقتضي الإجابة؛ لقوله تعالى: ﴿**أنت مولانا**﴾ بعد أن ذكر الدعاء في قوله تعالى: ﴿**واعف عنا واغفر لنا وارحمنا**﴾.

٢٠ ـ **ومنها**: أنه يجب على الإنسان اللجوء إلى الله عز وجل في النصرة على القوم الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿**فانصرنا على القوم الكافرين**﴾؛ والنصر على الكافرين يكون بأمرين: بالحجة، والبيان؛ وكذلك بالسيف، والسلاح؛ وأما السيف، والسلاح فظاهر؛ وأما الحجة، والبيان فقد يجتمع كافر، ومسلم، ويتناظران في أمر من أمور العقيدة فإن لم ينصر الله المسلم خُذل، وكان في ذلك خُذلان له، وللدين الذي هو عليه؛ وهذا النوع من النصر يتعين في المنافقين؛ لأن المنافق لا يجاهَد بالسيف، والسلاح؛ لأنه يُظهر أنه معك؛ ولهذا لما استؤذن الرسول ﷺ في قتل المنافقين قال: «**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»[1].

❁ ❁ ❁

(١) سبق تخريجه ٣/ ٣٢٥.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ... ﴿٢٠٨﴾﴾.	٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ... ﴿٢٠٩﴾﴾. ...	٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ... ﴿٢١٠﴾﴾.	١١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةٖ بَيِّنَةٖۗ... ﴿٢١١﴾﴾. .	١٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا... ﴿٢١٢﴾﴾.	٢٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ... ﴿٢١٣﴾﴾.	٢٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ... ﴿٢١٤﴾﴾.	٣٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ... ﴿٢١٥﴾﴾.	٤٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ... ﴿٢١٦﴾﴾.	٤٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ... ﴿٢١٧﴾﴾.	٥١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ... ﴿٢١٨﴾﴾.	٦٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ ﴿٢١٩﴾﴾	٦٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ... ﴿٢٢٠﴾﴾.	٧٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ... ﴿٢٢١﴾﴾.	٧٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِ... ﴿٢٢٢﴾﴾.	٨٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ... ﴿٢٢٣﴾﴾.	٨٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ... ﴿٢٢٤﴾﴾.	٩٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ... ﴿٢٢٥﴾﴾.	٩٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ... ﴿٢٢٦﴾﴾	٩٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ... ﴿٢٢٧﴾﴾.	٩٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ... ﴿٢٢٨﴾﴾.	٩٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ... ﴿٢٢٩﴾﴾.	١٠٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ... ﴿٢٣٠﴾﴾.	١١٥

الموضوع | الصفحة

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ... ﴿٢٣١﴾﴾. ١٢٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ... ﴿٢٣٢﴾﴾. ١٣٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ... ﴿٢٣٣﴾﴾. ١٤٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا... ﴿٢٣٤﴾﴾. ١٥٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ... ﴿٢٣٥﴾﴾. ١٥٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ... ﴿٢٣٦﴾﴾. ... ١٦٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ... ﴿٢٣٧﴾﴾. ١٧١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ... ﴿٢٣٨﴾﴾ ١٧٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا... ﴿٢٣٩﴾﴾. ١٧٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا... ﴿٢٤٠﴾﴾. ١٨٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ... ﴿٢٤١﴾﴾. ١٨٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ... ﴿٢٤٢﴾﴾. ١٩٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ... ﴿٢٤٣﴾﴾. ١٩٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ... ﴿٢٤٤﴾﴾. ١٩٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا... ﴿٢٤٥﴾﴾. ٢٠٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ... ﴿٢٤٦﴾﴾. ٢٠٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ... ﴿٢٤٧﴾﴾. ٢١٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ... ﴿٢٤٨﴾﴾. ٢١٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ... ﴿٢٤٩﴾﴾. ٢٢٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ... ﴿٢٥٠﴾﴾. ٢٢٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ... ﴿٢٥١﴾﴾. .. ٢٣٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ... ﴿٢٥٢﴾﴾. . ٢٣٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ... ﴿٢٥٣﴾﴾. ٢٣٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم... ﴿٢٥٤﴾﴾. ٢٤٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ... ﴿٢٥٥﴾﴾. ٢٥٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ... ﴿٢٥٦﴾﴾. ٢٦٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟... ﴿٢٥٧﴾﴾. ٢٧١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ... ﴿٢٥٨﴾﴾. ٢٧٧

الموضوع | الصفحة

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ... ﴿٢٥٩﴾﴾. ٢٨٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى... ﴿٢٦٠﴾﴾. ٢٩٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ... ﴿٢٦١﴾﴾. ... ٣٠٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ... ﴿٢٦٢﴾﴾. ٣١٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ... ﴿٢٦٣﴾﴾. ٣١٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟... ﴿٢٦٤﴾﴾. ٣١٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ... ﴿٢٦٥﴾﴾. ٣٢٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ... ﴿٢٦٦﴾﴾. ... ٣٣٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟... ﴿٢٦٧﴾﴾. ٣٣٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ... ﴿٢٦٨﴾﴾. ٣٤٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ... ﴿٢٦٩﴾﴾. ٣٥٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ... ﴿٢٧٠﴾﴾. ٣٥٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ... ﴿٢٧١﴾﴾. ٣٥٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ... ﴿٢٧٢﴾﴾. ٣٦١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟... ﴿٢٧٣﴾﴾. ٣٦٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم... ﴿٢٧٤﴾﴾. ٣٧٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ... ٱلرِّبَوٰا۟ ﴿٢٧٥﴾﴾. ٣٧٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ... ﴿٢٧٦﴾﴾. ٣٧٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ... ﴿٢٧٧﴾﴾. ٣٨٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ... ﴿٢٧٩﴾﴾. ... ٣٨٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ... ﴿٢٨٠﴾﴾. ... ٣٨٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ... ﴿٢٨١﴾﴾. ٣٩٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم... ﴿٢٨٢﴾﴾. ٤٠٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا... ﴿٢٨٣﴾﴾. ٤٢٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ... ﴿٢٨٤﴾﴾. ٤٣٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ... ﴿٢٨٥﴾﴾. ٤٤١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا... ﴿٢٨٦﴾﴾. ٤٥١
* الفهرس ٤٦٢

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ

١

تفسير القرآن الكريم

سورة آل عمران

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

طبع بإشراف مؤسسة

الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

دار ابن الجوزي

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (٧٣)

تفسير القرآن الكريم

سورة آل عمران

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الأول

دار ابن الجوزي

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ١٤٢٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير القرآن الكريم (سورة آل عمران). /محمد بن صالح العثيمين.- الرياض، ١٤٢٦هـ.
٢ مج
ردمك: ٧ ـ ٢١١ ـ ٤٩ ـ ٩٩٦٠ (مجموعة)
٥ ـ ٢١٢ ـ ٤٩ ـ ٩٩٦٠ (ج١)
١ ـ القرآن ـ التفسير الحديث أ ـ العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٢٦/٤٢٨٦

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
إلا لمن أراد طبعه لتوزيعه مجاناً بعد مراجعة
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
عنيزة ـ ص ب ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
www.binothaimeen.com
info@binothaimeen.com
الطبعة الثالثة
١٤٣٥هـ

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٥٧
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٣ - الرقم الإضافي: ٨٤٠٦ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ - الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٨١٣٧٠٦ - ٠٥٦٣٤٧٦٣٨٨ - بيروت
هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨
تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:
aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فقد جلس فضيلة شيخنا محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ للتدريس ـ بفضل الله تعالىٰ ـ فترة طيبة مباركة تجاوزت خمسين عاماً، تناول فيها الشيخ مختلف علوم الشريعة واللغة العربية.

ولقد أولى ـ رحمه الله ـ تفسير القرآن الكريم عناية خاصة، فوفّقه الله تعالى لاتّباع منهج متميّز في بيان المعاني، وعرض المسائل العلمية وتأصيلها، وانتقاء القول الراجح المبني على الدليل ووجاهة التعليل، واستنباط الأحكام والفوائد من آيات القرآن الكريم.

وإنَّ من الدروس المسجلة صوتياً لفضيلته، تفسيره سورة آل عمران، وقد كان ضمن سائر الدروس العلمية الأخرى التي عقدها ـ رحمه الله ـ في الجامع الكبير بمدينة عنيزة، ابتداءً من شهر رجب عام ١٤٠٩هـ وحتى شهر شوال عام ١٤١٢هـ.

وإنفاذاً للقواعد والتوجيهات التي قررها ـ رحمه الله ـ لإخراج مؤلفاته ودروسه، أُعِدَّ تفسير هذه السورة للطباعة والنشر.

وفي هذا المقام تود «**مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية**» أن تخص بالشكر أولئك الذين شاركوا في إخراج هذا الكتاب، وهم من طلبة الشيخ ـ رحمه الله ـ فجزاهم الله خيراً وأجزل لهم المثوبة والأجر.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، موافقاً لمرضاته، نافعاً لعباده، وأن يجزي فضيلة شيخنا عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ويضاعف له المثوبة والأجر، ويعلي درجته في المهديين، إنه سميع قريب.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله، خاتم النبيّين، وإمام المتقين، وسيّد الأولين والآخرين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللجنة العلمية
في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
٢٠/٣/١٤٢٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

□ قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٤].

قوله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿الٓمٓ﴾:

تقدَّم الكلام على ما يتعلق بالبسملة، وتقدَّم الكلام أيضاً على الحروف الهجائية التي ابتدأت بها بعض السور[1].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾:

هذه جملة مكونة من مبتدأ وخبر. فـ ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر المبتدأ. وجملة الخبر تسمى عند النحويين جملة صغرى؛ لأن الخبر إذا وقع جملة فهو جملة صغرى، والجملة الكبرى هي مجموع المبتدأ وجملة الخبر.

وقوله: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ خبران آخران؛ ﴿ٱلۡحَيُّ﴾ خبر لـ ﴿ٱللَّهُ﴾ ثانٍ، و﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ خبر ثالث.

و﴿ٱللَّهُ﴾ عَلَمٌ على الذات المقدسة، علمٌ على الربِّ عزّ وجل، وأصله الإله بمعنى المألوه، وحذفت الهمزة تخفيفاً كما حذفت الهمزة من (خير) و(شر) في مثل قول الرسول ﷺ: «خير

(١) ينظر تفسير سورة الفاتحة والبقرة (ص١٦).

صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها»[(١)]، أي: أخيرها وأشرها. وكما حذفت الهمزة من (الناس)، وأصلها أناس.

وهو أعرف المعارف على الإطلاق. ومعناه: المعبود حبًّا وتعظيماً، فهو فِعال بمعنى مفعول، وما أكثر ما يأتي فعال بمعنى مفعول، كغِراس بمعنى مغروس، وبناء بمعنى مبني.

وقوله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي لا معبود حقٌّ إلا هو. فـ(إله): اسم لَا النافية للجنس، وخبرها محذوف، تقديره: حق، وهناك آلهة باطلة ولكنها آلهة وُضِعَت عليها الأسماء بدون حق، كما قال الله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٣]. وبهذا التقدير للخبر في ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، يزول الإشكال، وهو أنه كيف يُنفى الإله في مثل هذه الجملة، ويُثْبَتُ في مثل قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود: ١٠١]؟.

والجمع بينهما: أن تلك الآلهة باطلة، والإله في قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إله حق، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقوله: ﴿هُوَ﴾، (هو) ضمير وليس اسماً لله تعالى، بخلاف قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]. فلفظ ﴿ٱللَّهُ﴾ هنا عَلَم، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها، رقم (٤٤٠).

مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. فـ (أنا) هنا ضمير.

فعلى هذا نقول: (أنا) و(هو) في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كلاهما ضمير رفع منفصل. فكما أن الذاكر لا يجعل (أنا) اسماً لله، فلا يجوز أن يجعل (هو) اسماً لله، وبهذا نعرف بطلان ذكر الصوفية الذين يذكرون الله بلفظ: هُوْ هُوْ. ويرون أن هذا الذكر أفضل الأذكار، وهو ذكر باطل.

وقوله: ﴿ٱلۡحَيُّ﴾: (أل) هنا للاستغراق، أي الكامل الحياة، وحياة الله عزّ وجل كاملة في وجودها، وكاملة في زمنها، فهو حي لا أول له، ولا نهاية له. حياته لم تُسْبَقْ بِعَدَم، ولا يلحقها زوال، وهي أيضاً كاملة حال وجودها، لا يدخلها نقص بوجه من الوجوه، فهو كامل في سمعه وعلمه وقدرته وجميع صفاته، إذا رأينا الآدمي بل إذا رأينا غير الله عزّ وجل وجدنا أنه ناقص في حياته زمناً ووجوداً. حياته مسبوقة بعدم، ملحوقة بزوال وفناء، وهي أيضاً ناقصة في وجودها، ليس كامل السمع ولا البصر ولا العلم ولا القدرة، فكلٌّ حي سوى الله ناقص.

وقوله: ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ على وزن فَيْعُول، وهو مأخوذ من القيام، ومعناه: القائم بنفسه، القائم على غيره، القائم بنفسه فلا يحتاج إلى أحد، والقائم على غيره فكل أحد محتاج إليه.

وفي الجمع بين الاسمين الكريمين ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ استغراق لجميع ما يوصف الله به بجميع الكمالات. ففي «الحي» كمال الصفات، وفي «القيوم» كمال الأفعال، وفيهما جميعاً كمال الذات، فهو كامل الصفات والأفعال والذات.

وقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾:

﴿نَزَّلَ﴾: التنزيل يكون من أعلى إلى أسفل، ويكون بالتدريج شيئاً فشيئاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]. وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢].

فقوله: ﴿نَزَّلَ﴾ يفيد أن هذا القرآن من عند الله، وأنه نزل بالتدريج ليس مرة واحدة.

وقوله: ﴿عَلَيْكَ﴾ الضمير يعود على الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد بيّن الله تعالى في آية أخرى أنه نزل على قلب الرسول ﷺ؛ ليكون أدل على وعيه لهذا القرآن الذي نزل عليه؛ كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤].

وأما التعبير بـ ﴿إِلَيْكَ﴾ في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٢] فهو يفيد الغاية، يعني نهاية الإنزال إلى الرسول.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو هذا القرآن، وهو فِعال بمعنى مفعول، فهو كتاب؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧ ـ ٧٨] أي اللوح المحفوظ، وهو كتاب في الصحف التي بأيدي الملائكة: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ [عبس: ١٢ ـ ١٥]، وهو كتاب في الصحف التي بأيدينا، فهو مكتوب بأيدينا، ونقرؤه من هذه الكتب.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء يجوز أن تكون بمعنى أنه متلبس

بالحق أي مشتمل على الحق، فهو نازل بحق لا بباطل، ويحتمل أن تكون متعلقة بالتنزيل، يعني أنه نزول حقّ ليس بباطل. قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١١] بعد: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٣]، فيكون ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يعني أنه نازل عليك نزولاً حقاً ليس بباطل، فهو لم يكذب عليه الصلاة والسلام بهذا القرآن. ويحتمل أن يكون نازلاً بالحق يعني مشتملاً عليه ومتلبساً به، والمعنيان صحيحان لا يتنافيان. **والقاعدة: أن النص إذا دلَّ على معنيين صحيحين لا يتنافيان حُمل عليهما جميعاً.**

وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾:

﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من الكتاب، ولا يصح أن نجعلها صفة، لأنَّ مصدقاً نكرة، والكتاب معرفة، والصفة يجب أن تتبع الموصوف في التعريف والتنكير.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني للذي بين يديه من الكتب السابقة، وتصديقه لما بين يديه له وجهان:

الوجه الأول: أنه صدقها لأنها أخبرت به فوقع مصدقاً لها.

الوجه الثاني: مصدقاً لما بين يديه أي حاكماً عليها بالصدق.

فهو مصدق لما سبق من الكتب بالوجهين المذكورين؛ لأن الكتب أخبرت به فوقع، وإذا وقع صار تصديقاً لها. الوجه الثاني: أنه حكم بأنها صدق من عند الله عزّ وجل، وهذا التصديق لما بين يديه يشمل الوجهين جميعاً. فالقرآن شاهد بأن التوراة حق، والإنجيل حق، والزبور حق، وصحف إبراهيم حق، وأن الله أنزل على كل رسول كتاباً، كذلك مصدقاً للكتب التي

أخبرت به، فإن الكتب السابقة أخبرت بهذا القرآن، أنه سينزل، ووصفت النبي ﷺ الذي سينزل عليه بأوصافه التي كانوا يعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم.

وقوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي لما سبقه؛ لأنَّ الذي بين يديك سابق عليك، لأنه أمامك فهو متقدم عليك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾:

قال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ اختلاف التعبير يدل على اختلاف المعنى.

قال أهل العلم: إن التوراة والإنجيل نزلتا دفعة واحدة بدون تدريج بخلاف القرآن، فإنه نزل بالتدريج، وهذا من رحمة الله عزّ وجل على هذه الأمة، لأنه إذا نزل بالتدريج صارت أحكامه أيضاً بالتدريج، لكن لو نزل دفعة واحدة لزم الأمة أن تعمل به جميعاً بدون تدريج، وهذه من الآصار التي كتبت على من سبقنا، إذا نزلت عليهم الكتب مرة واحدة ألزموا بالعمل بها من حين أن تنزل فيما ألفوه وفيما لم يألفوه، بخلاف القرآن الكريم.

وقوله: ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

التوراة: هي الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه الصلاة والسلام.

والإنجيل: هو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى عليه الصلاة والسلام.

وهذان اسمان، قيل: إنهما غير عربيين، وقيل: بل هما عربيان، ولكن الذي يظهر أنهما ليسا بعربيين، ولكنه إذا نزل القرآن بشيء صار اللفظ الذي نزل به القرآن عربياً بالتعريب.

قال تعالى: ﴿مِن قَبۡلُ﴾:

بضم اللام مبنياً، على القاعدة المعروفة فيها وفي أخواتها: أنه إذا حذف المضاف، وَنُوي معناه بُنيت على الضم.

وقوله تعالى: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾:

﴿هُدٗى﴾: مفعول لأجله متعلق بـ (نزل) و(أنزل)، أي: نزَّل عليك الكتاب هدى للناس، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس، فهي مفعول من أجله، أي: من أجل هداية الناس. والمراد بالهداية هنا هداية الدلالة التي يترتب عليها هداية التوفيق.

لكن الأصل في هذه الكتب أنها هداية دلالة، ولهذا قال: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ عموماً، حتى الكفار تهديهم وتدلهم، وتبيِّن لهم الحق من الباطل، لكن قد يُوفَّقون لقبول الحق والعمل به، وقد لا يُوفَّقون.

والهدى ضد الضلال، واهتدى بمعنى سار على الطريق الصواب، وضلَّ بمعنى انحرف وتاهَ وضاع، ومنه سميت (الضالة) يعني البعير التائه الضائع.

وقوله: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ والمراد بالناس: البشر وهم بنو آدم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾:

ليس المراد بالفرقان هنا القرآن، بل المراد: أنزل ما يبيِّن به الفرق بين الحق والباطل. وإنما قلنا ذلك لأننا لو خصصناه بالقرآن لكان في ذلك تكرار مع قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، مع أن التوراة والإنجيل فيهما أيضاً فرقان، أي: فيهما تفريق بين الحق والباطل. إذن أنزل الفرقان الذي تضمنته هذه الكتب الثلاث وهي القرآن والتوراة والإنجيل.

وكلمة «الفرقان» كلمة واسعة تشمل كل ما به الفرق من جميع الوجوه بين أهل الحق وأهل الباطل، وبين النافع والضار، وبين الأنفع والنافع، وبين الأضر والضار وغير ذلك.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالىٰ منَّته على عباده بإنزال هذه الكتب العظيمة قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني بعد إنزال هذه الكتب الواضحة الهادية المفرقة انقسم الناس إلى قسمين: قسم آمن، وقسم كفر. فَذَكر الله حكم الكافر، وبذكره يتبين حكم المؤمن.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾:

كفروا: يقال: إن أصل الكفر من الستر، ويطلق على الجحود؛ لأن الجاحد ساتر، و﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي جحدوها وأنكروها، وقلنا: إن الكفر من الستر لأن منه الكُفُرَّى. والكُفُرَّى: وعاء طلع النخل؛ لأنه يستر الطلع. فالكافر في الحقيقة ساتر، أي: جاحد للحق مخفٍ له.

﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾: الآيات جمع آية. والآيات هي العلامات الدالة على وجود الله عزّ وجل، وعلى كماله الذاتي، وعلى كماله الفعلي، والآيات نوعان:

١ ـ آيات كونية:

ومنها السموات والأرض، والشمس والقمر والنجوم، والجبال والشجر والدواب والإنسان، واختلاف اللغات، واختلاف الألوان، والنوم واليقظة، وأشياء كثيرة.

٢ ـ آيات شرعية:

وهي الوحي المنزَّل على الرسل.

ووجه كون الآيات الكونية آية: أنه لا يستطيع أحد أن يفعل مثل فعل الله عزّ وجل أبداً. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣].

ووجه كون الآيات الشرعية من آيات الله: أنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثل شرع الله في هداية الخلق وإصلاحهم أبداً، لو اجتمع جميع مفكري العالم ليأتوا بدستور يُصلح الخلق كما يُصلحه الوحي، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

لكن الآيات الكونية قد يعقلها كثير من الناس؛ لأنها آيات محسوسة مشهودة، حتى الكافر تقول له: هل تستطيع أن تخلق الذباب، يقول: لا أستطيع. أما الآيات الشرعية فليس كل أحد يدركها، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ٧ ـ ١٤]، فالإنسان إذا اجتمعت الذنوب على قلبه ـ نسأل الله أن يطهرنا وإياكم منها ـ صار لا يرى الحق حقًّا ولا الباطل باطلاً، عمي ـ والعياذ بالله ـ يُتلى عليه القرآن فيقول: هذه أساطير الأولين ليس كلام رب العالمين. ولهذا نقول: إن الآيات الشرعية هي التي فيها الامتحان والابتلاء، ومن ثَمَّ لم ينكر أحد ربوبية الله، كلٌّ مُقِرٌّ بأن اللهَ ربُّ العالمين، وأنه الذي خلق السموات والأرض، لكن الآيات الشرعية أُنْكِرَتْ.

فقريش كانوا إذا سُئلوا: مَنْ خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله. لكن قالوا في القرآن: إنه كهانة وشعر وسحر وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾:

والعذاب هنا بمعنى العقوبة، والشديد: القوي. يعني العقوبة قوية ـ والعياذ بالله ـ وقد ذكر الله تعالى في القرآن، وذكر نبي الله ﷺ في السنّة أصنافاً وأنواعاً من هذا العذاب تقشعر منه الجلود، وتوجل منه القلوب. قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ﴾ [الكهف: ٢٩] إن يستغيثوا، ولا يستغيثون إلا لشدة الحر والظمأ، فإذا أغيثوا يؤتون بماء يشوي الوجوه، إذا أقبلوا به إلى أفواههم ليشربوه شوى وجوههم والعياذ بالله.

قال تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩] هذا شرابهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٦] هذا طعامهم.

وأما لباسهم فقال تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

ومقرهم: قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

ولأهل هذا العذاب الصراخ والعويل. قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾

فيقال لهم توبيخاً: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

والسنّة مملوءة بذكر أصناف العقاب الذي يعاقب به هؤلاء، فهو عذاب شديد.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾:

عزيز: أي: ذو العزة، وهي ثلاثة أصناف:

١ ـ عزة القَدْر. ٢ ـ عزة القهر. ٣ ـ عزة الامتناع.

عزة القدر:

بمعنى أن الله ذو قَدْرٍ شريف عظيم، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**السيد الله**»[(١)]. هذه عزة القدر.

وعزة القهر:

بمعنى أنه القاهر لكل شيء، لا يُغْلَب، بل هو الغالب. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨٧].

وقال الشاعر الجاهلي:

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

فالله سبحانه غالب على كل شيء.

وعزة الامتناع:

أي: أنه عزّ وجل يمتنع أن يناله سوء أو نقص، ومن هذا

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٤ ـ ٢٥). والبخاري في الأدب المفرد (٢١١). وأبو داود، كتاب الأدب، باب في كراهية التمادح، رقم (٤٨٠٦). والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٤٧). قال الحافظ في الفتح (٥/ ١٧٩): ورجاله ثقات، وقد صححه غير واحد.

المعنى قولهم: هذه أرض عَزَاز، أي: صلبة قوية لا تؤثر فيها المعاول.

وقوله: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: أي صاحب انتقام، والانتقام أخذ المجرم بإجرامه. تقول: انتقمت من زيد. يعني: أخذت بحقي منه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

وهنا قال: «ذو انتقام» ولم يقل «ذو الانتقام». وفي الرحمة قال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨] ولم يقل: «ذو رحمة». وإن كان قد قال في آية أخرى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]؛ لأن الانتقام ليس من أوصاف الله المطلقة، وليس من أسماء الله المنتقم. فـ (المنتقم) لا يوصف الله به إلا مقيداً؛ فيقال: المنتقم من المجرمين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]. أما ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ فهي لا تعطي معنى الانتقام المطلق؛ لأن (انتقام) نكرة، فلا تعطي المعنى على الإطلاق، بل له انتقام مقيد بالمجرمين، ونحوهم.

وبهذا نعرف أن الأسماء المسرودة في الحديث الذي رواه الترمذي لا تصح عن النبي ﷺ[1]، لأنها ذُكِرَ فيها من أسماء الله المنتقم، وهذا لا يصح، وحُذِفَ من أسماء الله ما ثبتت به الأحاديث فلم يُذكر فيها مثل: الشافي، والرب.

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم (٣٥٠٧)، وقال: «غريب». وابن حبان (٢٣٨٤)، وقال ابن حزم في المحلى (٨/ ٣١): وقد جاءت أحاديث في إحصاء التسعة والتسعين اسماً مضطربة لا يصح منها شيء أصلاً، فإنما تؤخذ من نص القرآن، ومما صح عن النبي ﷺ.

من فوائد الآيات الكريمة:

١ ـ إثبات ألوهية الله عزّ وجل، لقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ انفراده بهذه الألوهية، لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٣ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾. وقد ورد أنهما اسم الله الأعظم، لاشتمالهما على كمال الذات والصفات والأفعال.

٤ ـ إثبات حياته وقيوميته؛ لأنَّ كل اسم فإنه متضمن للصفة، وقد يتضمن أمراً زائداً وهو الحكم الذي يسمى الأثر.

٥ ـ أن كل شيء مفتقر إلى الله، وأن الله غني عما سواه، ووجه ذلك: أنّ كمال حياته يستلزم غناه عن كل أحد، وكمال قيوميته يستلزم افتقار كل شيء إليه، وهو كذلك. قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

٦ ـ إثبات علو الله؛ لقوله: ﴿نَزَّلَ﴾، ﴿وَأَنزَلَ﴾. والنزول لا يكون إلا من أعلى.

٧ ـ أن القرآن الكريم منزل؛ لقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾، ومجرد كونه منزلاً لا يستلزم ألا يكون مخلوقاً؛ لأن الله قد ينزل المخلوق. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩]، وقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الرعد: ١٧] والماء مخلوق. لكن بالنظر لكون القرآن كلاماً يستلزم ألا يكون مخلوقاً؛ لأن الكلام صفة المتكلم، وصفة الخالق غير مخلوقة.

إذن فيؤخذ أن القرآن غير مخلوق لكونه نزل من عند الله وهو كلام، والكلام صفة المتكلم، والصفة تابعة للموصوف.

٨ ـ فضل رسول الله ﷺ وميزته؛ لقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ

ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾، والله سبحانه وتعالىٰ قد يضيف الإنزال إلى الناس كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، وفي سورة آل عمران: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [آل عمران: ٨٤]، لكنه أنزل إلى الرسول مباشرة وإلينا بواسطة الرسول ﷺ، وهو الذي بلغه إلينا، ومعلوم أن الأصل أشرف من الفرع.

٩ ـ أن هذا الكتاب الذي أنزله الله على محمد ﷺ مشتمل على الحق، لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾. فقد جاء بالحق، ونزل به. قال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، فالحق في الأخبار الصدق، والحق في الأحكام العدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

١٠ ـ أن القرآن نفسه حق. يؤخذ من قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: أنه نزل نزولاً بحق ليس نزولاً كذباً باطلاً.

١١ ـ فضيلة القرآن لوصفه بالحق نزولاً وتضمناً، ولوصفه بالتصديق لما بين يديه.

١٢ ـ الإشارة إلى أن هذا القرآن قد أخبرت عنه الكتب السابقة.

١٣ ـ جواز التعبير بما يخالف الظاهر إذا دلّ عليه السياق كما في قوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، لأن الكلمة دلت على معناها في سياقها، وإن كان يخالف أصل الوضع.

١٤ ـ أن التوراة النازلة على موسى، والإنجيل النازل على عيسى عليهما الصلاة والسلام حق؛ لقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

١٥ ـ الإشارة إلى أن التوراة والإنجيل قد نسخا بالقرآن، وقد صرح بذلك في سورة المائدة. قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

مسألة: المعروف عند السلف أن التوراة والإنجيل من كلام الله، لكن لا أذكر حتى الآن دليلاً على وصفهما بأنهما من كلام الله، إنما وصفهما الله بأنها منزَّلة، وأنها كتب، والله تعالى يقول: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وجاء في الحديث: «**إن الله كتب التوراة بيده**»(١). فأنا أتوقف في هذا، لكن السلف كلامهم واضح يقولون: إن التوراة والإنجيل من كلام الله. ويكفي أن نؤمن بأنها نازلة من عند الله.

١٦ ـ رحمة الله عزّ وجل بعباده، وعنايته بهم حيث كان ينزل الكتب على رسله هدى للناس.

١٧ ـ إثبات الحكمة لله تعالى في أحكامه الشرعية كما تثبت في أحكامه الكونية، لقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾.

ومن أسماء الله تعالى الحكيم، وهو ذو الحكمة. والحكمة هي إصابة الصواب، وإن شئت فقل: وضع الشيء في موضعه، وإن شئت فقل: إتقان الشيء وإحكامه. فإذا وقع من أفعال الله أو من شرع الله ما لا نعلم له حكمة فليس ذلك إلا لقصور فهمنا، وعجزنا عن إدراك الحكمة. وإذا وقع ما نظن أنه على خلاف الحكمة فما ذاك إلا لسوء فهمنا، فالذي يظن أنه ليس له حكمة قاصر الفهم،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم (٢٦٥٢).

والذي يظن أنه على خلاف الحكمة سيئ الفهم، أما سليم الفهم الذي يعطيه الله تعالى فهماً فستتبين له الحكمة، ومع ذلك لا يمكن أن ندرك كل وجوه الحكمة؛ لأن حكمة الله عزّ وجل لا تدرك غايتها، والإنسان بشر ناقص، وكم من أحكام شرعية تظن أن حكمتها كذا وكذا ثم يتبين لك أن لها حِكَماً أخرى، أو ربما يتبين لك أن هذه ليست الحكمة بل الحكمة شيء آخر، إنما يجب عليك أن تؤمن بأنه ما من حكم لله كوني أو شرعي إلا وله حكمة.

ولا يلزم على هذا أن تذهب مذهب المعتزلة في وجوب فعل الصلاح، أو وجوب فعل الأصلح، على الله لأمرين:

الأول: قد تظن أن هذا هو الأصلح، وليس الأصلح. ولنضرب لهذا مثلاً: نحن نظن أن الأصلح نزول الغيث، وخصب الأرض، فإذا امتنع المطر وأجدبت الأرض فقد يكون هذا هو المصلحة! ونحن لا نعلم.

إذن لا يمكن أن نقول: يجب على الله كذا لأنه أصلح، إذ قد يكون ما قلنا إنه الأصلح هو الأفسد!.

الثاني: إذا تحققنا أنه الأصلح فإنه يجب بمقتضى الحكمة لا بمقتضى العقل. فنحن لا نوجب على الله بعقولنا، والعقل لا يوجب على الله شيئاً؛ لأن العقل مخلوق ناقص، فلا يوجب على الكامل الأزلي الأبدي شيئاً، فإذا وجب فعل الأصلح فإنما الذي أوجبه على نفسه الله. قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢]. فأوجب على نفسه أن يهدي الناس ويدلهم، فإذا ثبت أن هذا هو الأصلح فقد وجب على الله بمقتضى حكمته وإيجابه على

نفسه، لا بمقتضى عقولنا وإيجابنا عليه، وبهذا ننفك عن قول المعتزلة الذين يرون أن العقل هو الذي يوجب الشيء أو الذي يمنع الشيء، أو الذي يقبح الشيء أو الذي يحسِّن الشيء. ومن ذلك مثلاً: البيان للخلق، بيان الشرائع للخلق وما يجب عليهم نحو ربهم، وما يجب عليهم نحو عباد الله، واجب على الله بمقتضى الحكمة، ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢].

١٨ ـ أن هداية القرآن نوعان: عامة، وخاصة. فالعامة مثل هذه الآية: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾. والخاصة مثل قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] والفرق بينهما أن الهداية التي بمعنى الدلالة عامة؛ لقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، والهداية التي بمعنى التوفيق والاهتداء خاصة بالمتقين.

١٩ ـ أن الكتب كلها فرقان تتضمن الفرق بين الحق والباطل، وبين الصدق والكذب، وبين المؤمن والكافر، وبين الضار والنافع، كل ما يمكن أن يكون فيه فرق فإن الكتب تفرقه.

٢٠ ـ أنه يمتنع أن تجمع الكتب السماوية بين مختلفين، أو أن تفرق بين متماثلين أبداً؛ لأن الفرقانَ هو الذي يفرق بين شيئين مختلفين. أما شيئان لا يختلفان فلا تفريق بينهما، ويتفرع على هذه الفائدة إثبات القياس؛ لأن القياس إلحاق فرع بأصل في حكم لعلة جامعة، فهو جمع بين متماثلين، وعدم الأخذ بالقياس تفريق بين متماثلين.

٢١ ـ أنه كلما اهتدى الإنسان للفروق كان أعظم اهتداء بالكتب المنزلة من الله؛ لأن الكتب كلها فرقان. فمثلاً: إذا كان

الإنسان يفرق بين الشرك الأصغر والأكبر، وبين النفاق الاعتقادي والعملي، وبين الكفر الأكبر والأصغر، وبين الحلال والحرام، كان أشد اهتداء بالكتب ممن لا يفرق.

وربما يؤخذ من هذا أيضاً الإشارة إلى أنه ينبغي الاعتناء بمعرفة الفروق بين الأشياء المتشابهة، وهذا فن أخذ به بعض أهل العلم ولا سيما في كتب الفقه، فيذكرون مثلاً: الفروق بين البيع والإجارة، بين الإجارة والجعالة، بين الرهن والضمان، بين الضمان والكفالة، بين الفرض والتطوع، وهذه من فنون العلم الشريفة التي ينبغي لطالب العلم أن يعتني بها، كذلك في العقائد والتوحيد يفرق بين الشرك الأكبر والأصغر، فرجل حلف بغير الله نقول: هو مشرك. ورجل عبد صنماً نقول ـ أيضاً ـ: هو مشرك، لكن بينهما فرق عظيم. العابد للصنم شركه أكبر، والحالف بغير الله شركه أصغر إلا أن يضاف إلى حلفه بغير الله جَعْله المحلوف به كالله تعالى في التعظيم، فحينئذ يكون شركاً أكبر لا من حيث القسم، ولكن من حيث إنه جعل رتبة المحلوف به كرتبة الخالق.

٢٢ ـ بيان عقوبة الكفار وهي العذاب الشديد، وذكر عقوبة الكافر تستلزم التحذير من الكفر.

٢٣ ـ الإشارة إلى أن الناس ينقسمون إلى قسمين:

كافر له العذاب الشديد، ومؤمن له الثواب الجزيل؛ لأنه إذا ذكر عقوبة الضد، فإن ضده تثبت له ضد تلك العقوبة، ولهذا لما قال رسول الله ﷺ: «**وفي بضع أحدكم صدقة**»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر، قال: «**أرأيتم لو وضعها في الحرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في**

الحلال كان له أجر»[١]. وقد يكون هذا من جملة الفرقان الذي يحصل حيث نفرق بين الكفار وبين المؤمنين، فكما اختلفوا وتفرقوا في أعمالهم فإنه يلزم أن يفترقوا في ثواب تلك الأعمال.

٢٤ ـ إثبات اسم من أسماء الله وهو: (العزيز) بالمعاني الثلاثة السابقة.

٢٥ ـ أن الله تعالى موصوف بالانتقام؛ لقوله: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ولكنه ليس على سبيل الإطلاق كما تقدم بل هو منتقم ممن يستحق ذلك وهم المجرمون كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

❁ ❁ ❁

□ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

هذه جملة خبرية مؤكدة بـ ﴿إِنَّ﴾، وخبرها منفي ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، والخفاء ضد الظهور. و﴿شَىْءٌ﴾ نكرة في سياق النفي فتعم كل شيء في الأرض والسماء، وقوله: ﴿وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلقة بـ«يخفى» يعني لا يخفى عليه شيء لا في هذا ولا في هذا. والمراد بالأرض والسماء الجنس، فيشمل الأرضين والسموات جميعاً. وإنما خصَّ الأرض والسماء لأنهما مشهودان لنا، وما عدا ذلك لا نعلمه إلا عن طريق الغيب.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٦).

وفي هذه الآية الكريمة يخبر الله عزّ وجل أنَّه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهي صفة سلبية المراد بها بيان كمال علمه؛ لأن الصفات المنفية لا يراد بها مجرد النفي، وإنما يراد بها بيان كمال ضد ذلك المنفي.

والغرض من هذه الجملة تربية الإنسان نفسه في امتثال أمر الله واجتناب نهيه، وأنك لا تظن أن عملك يخفى على الله، بل هو معلوم له، فعليك أن تقوم بطاعته وتجتنب معصيته. لا تقل: أنا في بيتي أو في غرفتي لا يطلع عليّ أحد، فالله تعالى مطلع عليك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ التحذير من مخالفة الله؛ لأنَّ الله يعلم بمخالفتك إياه.

٢ ـ الرد على غلاة القدرية الذين يقولون: إن الله لا يعلم الشيء الذي يفعله العبد إلا بعد وقوعه.

٣ ـ أن الله تعالى عالم بالكليات والجزئيات؛ لقوله: ﴿شَيۡءٞ﴾، لأنَّ النكرة في سياق النفي تعم كل شيء.

٤ ـ أن صفات الله عزّ وجل إما مثبتة وإما منفية، فالمثبتة يسمونها ثبوتية، والمنفية يسمونها سلبية، والسلبية متضمنة لثبوت كمال الضد، فلكمال علمه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال الله عزّ وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦].

وهذا من جملة معلوماته التي تخفى على كثير من الناس وهي معلومة له.

وقوله: ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: يجعلكم على صورة معينة يختارها ويريدها.

وقوله: ﴿فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ حال من الضمير «الكاف» في يصوركم، يعني حال كونكم في الأرحام.

﴿ٱلْأَرْحَامِ﴾: جمع رحم، وهو وعاء الجنين في بطن أمه. وقد بيّن الله تعالى في آية ثانية أن الجنين في بطن أمه في ظلمات ثلاث، وهي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وهو الوعاء المائي الذي يكون فيه الجنين.

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ هذه حال من فاعل ﴿يَشَآءُ﴾ يعني أنه يصورنا على أي كيفية شاء، فلا خيار لنا في اختيار الصورة المعينة للجنين الذي في البطن.

وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾:

هذه الجملة خبرية فيها الحصر الذي طريقه النفي والإثبات.

والـ ﴿إِلَٰهَ﴾: بمعنى مألوه. وقوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الضمير ﴿هُوَ﴾ بدل من الخبر المحذوف، أي لا إله حق إلا هو.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: سبق لنا قريباً معناه.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: فعيل بمعنى مُفْعِل، وفعيل بمعنى فاعل، أما فعيل بمعنى فاعل فهو كثير في اللغة العربية، مثل: قدير بمعنى قادر، وسميع بمعنى سامع، وأما سميع بمعنى مُسْمِع فهي واردة في اللغة العربية. قال الشاعر:

أمن ريحانة الداعي السميعُ يؤرقني وأصحابي هجوع[1]

---

(١) قاله عمرو بن معديكرب.

فالسميع: بمعنى المُسمع الذي يُسمعني.

فتكون (**حكيم**) هنا بمعنى مُحكِم وبمعنى حاكم، فالله عزّ وجل حاكم محكم لما حكم. وحكم الله تعالى ينقسم إلى قسمين:

١ ـ حكم كوني:

وهو ما قضاه الله على عباده كوناً، وهذا يخضع له كل أحد من مؤمن وكافر، وبَرٍ وفاجرٍ، ولا يستطيع أحد أن يهرب منه أبداً.

٢ ـ حكم شرعي:

وهو ما قضاه الله على عباده شرعاً، وهذا هو الذي اختلف فيه الناس، فمنهم كافر ومنهم مؤمن، منهم من خضع لهذا الحكم الشرعي وقام بما يجب عليه نحوه، ومنهم من استكبر عنه، وكذب به، ولم يرفع به رأساً.

وفي الآية هنا يكون (**حكيم**) بمعنى ذي الحكمة أي متقن لكل ما حكم به. فكل ما حكم الله به من حكم كوني أو شرعي فهو على أتم وجه وأتقنه وأحسنه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣ ـ ٤]. وقال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

والحكمة سواء في الحكم الكوني أو في الحكم الشرعي إما صورية؛ بأن يكون الشيء على صورة مطابقة للحكمة، أو غائية بأن تكون الغاية منه غاية حميدة، فإذا نظرنا إلى الشرع فإن جميع

ما شرعه على الصورة المطابقة للحكمة كالصلاة والزكاة والصيام والحج، ثم الغرض منها ـ وهو إصلاح القلوب وإصلاح الأعمال وإصلاح الفرد وإصلاح المجتمع ـ أيضاً موافق للحكمة.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان قدرة الله عزّ وجل حيث يصور المخلوقات في الأرحام.

٢ ـ أن صور المخلوقات يكون تصويرها بأمر الله وإذنه كيف يشاء، هذا أبيض وهذا أسود، وهذا جميل وهذا قبيح، وهذا طويل وهذا قصير، وهذا غليظ وهذا دقيق وهكذا، بل ويشمل أن هذا ذكر وهذا أنثى؛ لأن صورة الذكر تختلف عن صورة الأنثى.

٣ ـ بيان رحمة الله عزّ وجل حيث يتولى شؤون الجنين ويصوره، لا يخرج غير مصور. لو شاء الله لخرج الجنين غير مصور ثم يصور شيئاً فشيئاً، كما ينمو عقله، ولكن من حكمة الله ورحمته أنه لا يخرج إلا على الصورة التي أرادها الله عزّ وجل.

فإذا قال قائل: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ يستفاد منها أن هذا التصوير لا يرجع إلى فعل العبد وإنما يرجع لمشيئة الله عزّ وجل وهو كذلك، ولكن هذا لا ينافي أن تكون الصورة قريبة من صورة الأب أو من صورة الأم أو الجد أو الجدة، يعني أن يكون هذا الجنين قد نزعه عرق من آبائه وأمهاته وأقاربه، هذا لا يمنع، لأن الله عزّ وجل قد جعل لكل شيء سبباً، ويدل لهذا قصة الرجل الذي جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلاماً أسود ـ وكان الرجل وزوجته أبيضين ـ كأنه يعرِّض بزوجته

ما الذي أتى بالأسود لها؟ فقال له النبي ﷺ: «**هل لك من إبل؟**»، قال: نعم، قال: «**فما ألوانها؟**» قال: حمر، قال: «**هل فيها من أورق؟** (الأورق: الفضي بين البياض والسواد)»، قال: نعم، قال: «**أنّى لها ذلك؟**»، قال: لعله نزعه عرق، فقال الرسول ﷺ: «**فابنك هذا لعله نزعه عرق**»[1]. فاقتنع الرجل، لأن هذا قياس جلي واضح.

الشاهد قوله: «**لعله نزعه عرق**»، فيستفاد من ذلك أن هذه الكيفية التي يريدها الله عزّ وجل في الأرحام لا يمنع أن يكون قد نزعها عرق من آبائه أو أمهاته أو أجداده أو جداته.

٤ ـ إثبات المشيئة لله تعالى؛ لقوله: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾، وقد سبق لنا أن المشيئة إذا أطلقت فهي مقرونة بالحكمة، فما من شيء يشاؤه الله إلا لحكمة.

فإن قال قائل: هل في الآية دليل على أنه لا يجوز للإنسان أن يعمل عملية تجميل لقوله: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾، حيث جعل التصوير راجعاً إلى مشيئته وحده. قد يقال ذلك، وقد لا يقال؛ لأن الله تعالى أخبر في آيات كثيرة بأنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، يعني يضيق، ولا نقول: إن الإنسان ممنوع من أن يفعل الأسباب التي يكون بها بسط الرزق؛ لأن البسط راجع إلى مشيئة الله! ولكن هناك فرق بين مسألة بسط الرزق وطلب البسط وهذه المسألة؛ لأن النصوص وردت بمنع التجميل، فقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام، أنه «**لعن النَّامصة**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الطلاق، باب إذا عرض بِنَفي الولد رقم (٥٣٠٥). ومسلم، كتاب اللعان، رقم (١٥٠٠).

والمتنمصة، والواشرة والمستوشرة، والواشمة والمستوشمة»[١].
وهذا يدل على أن الإنسان ممنوع من التجميل، والمراد التجميل الذي يكون دائماً. أما التجميل الطارئ كتجمل المرأة بالحناء وشبهه فلا بأس به.

فإذا قال قائل: هل في الآية ما يدل على منع إزالة العيوب لقوله: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾، كما إذا خرج صبي له ستة أصابع في كل يد فهل يجوز أن نقطع الإصبع الزائد؟

فهذا ليس من باب التجميل ولكنه من باب إزالة العيب. وإزالة العيب جاءت السنّة بجوازه، فإن الرجل الذي قطع أنفه أذن له الرسول عليه الصلاة والسلام أن يتخذ أنفاً من وَرِق - يعني من فضة - فأنتن! **فأذن له أن يتخذ أنفاً من ذهب**[٢]. فهذا يدل على أن إزالة العيب ليست كجلب الجمال. وعلى هذا فيجوز قطع الإصبع الزائدة، ولكن بعض أهل العلم صرح بالتحريم إلا أنهم علّلوا ذلك بأنه يُخشى على من قطعت إصبعه أن يموت بنزيف

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب المتفلّجات للحسن، رقم (٥٩٣١). ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة، والنامصة والمتنمصة، والمتفلجات والمغيرات خلق الله، رقم (٢١٢٥).
وليس عندهما لعن الواشرة والمستوشرة. وقد أخرج أحمد (١/ ٤١٥) لعن الواشرة. وسنده صحيح على شرط مسلم.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٤٢). وأبو داود، كتاب الخاتم، باب ما جاء في ربط الأسنان بالذهب، رقم (٤٢٣٢). والترمذي، كتاب اللباس، باب ما جاء في شد الأسنان بالذهب، رقم (١٧٧٠)، وقال عنه: هذا حديث حسن غريب.

الدم! وهذه العلة منتفية في الزمن الحاضر، وعليه فيجوز قطع الإصبع الزائدة، ومثله لو فرض أن هناك لحمة زائدة في الأذن أو في الرأس أو في الرقبة فتجوز إزالتها.

٥ ـ إثبات انفراد الله عزّ وجل بالألوهية؛ لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٦ ـ إثبات الاسمين الكريمين العزيز والحكيم، وما تضمناه من صفة.

وكل اسم من أسماء الله دال على الذات وعلى الوصف المشتق منه، فإن كان متعدياً ففيه دلالة ثالثة وهي الأثر المترتب على ذلك.

فـ ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ مثلاً: فيه إثبات الاسم وهو السميع، والصفة وهي السمع، والأثر وهو أنه يسمع، وهكذا العليم. أما ما لا يتعدى للغير ففيه إثبات الاسم والصفة فقط، مثل: الحي، العظيم، العلي.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

الضمير ﴿هُوَ﴾ يعود على الله، وتأمل هنا ترابط الآيات مع بعضها البعض، لما ذكر الله عزّ وجل أنه هو المصور ـ والتصوير ابتداء الخلق ـ ذكر بعده إنزال الكتاب الذي به الهداية كقوله:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]، فأحياناً يبيِّن الله النعمة الدينية قبل، وأحياناً يبيِّن الله النعمة الدنيوية قبل، فبدأ الله هنا بالتصوير ثم ذكر إنزال القرآن، وفي سورة الرحمن ذكر تعليم القرآن قبل خلق الإنسان.

﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: هو القرآن، ثم قسّم الله هذا الكتاب فقال: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾، يعني: ومنه أُخر متشابهات. وهنا يتعين أن نقول: ومنه أُخر ليتم التقسيم.

فـ(أُخَر) مبتدأ خبره محذوف يعني: ومنه أخر متشابهات، نظير قوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ [هود: ١٠٥] فـ(سعيد) هنا ليست معطوفة على (شقي) لأنها لو كانت معطوفة عليها لفسد التقسيم، ولكن التقدير: منهم شقي ومنهم سعيد.

والاشتباه قد يكون اشتباه في المعنى، بحيث يكون المعنى غير واضح، أو اشتباه في التعارض، بحيث يظن الظان أن القرآن يعارض بعضه بعضاً، وهذا لا يمكن أن يكون؛ لأن الله عزّ وجل قال: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]. والقرآن يصدق بعضه بعضاً.

والتعارض الذي يفهمه من قد يفهمه من الناس يكون للأسباب التالية:

١ ـ إما لقصور في العلم. ٢ ـ أو قصور في الفهم. ٣ ـ أو تقصير في التدبر. ٤ ـ أو سوء في القصد، بحيث يظن أن القرآن يتعارض، فإذا ظن هذا الظن لم يوفق للجمع بين النصوص، فيحرم الخير لأنه ظن ما لا يليق بالقرآن.

قال تعالى: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٞ﴾:

(الآيات): جمع آية وهي العلامة، وكل آية في القرآن فهي علامة على مُنْزِلها لما فيها من الإعجاز والتحدي، وقوله: ﴿مُّحْكَمَٰتٌ﴾ أي: متقنات في الدلالة والحكم والخبر، فأخبارها وأحكامها متقنة معلومة ليس فيها إشكال.

وقوله تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾:

يعني: أن أحكامها غير معلومة، وأخبارها غير معلومة، فصار المحكم هو المتقن في الدلالة سواء كان خبراً أو حكماً، والمتشابه هو الذي دلالته غير واضحة سواء كان خبراً أو حكماً.

ولهذا نجد أن بعض الآيات لا تدل دلالة صريحة على الحكم الذي اسْتُدِلَّ بها عليه، وبعض الآيات الخبرية أيضاً لا تدل دلالة صريحة على الخبر الذي استدل بها عليه.

قال تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

قدَّم وصف هذه المحكمات وبيان حالها ليتبادر إلى الذهن أول ما يتبادر أنه يرد المتشابهات إلى المحكمات لأنها أمٌّ، وأمُّ الشيء مرجعه وأصله. كما قال الله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]: أي المرجع وهو اللوح المحفوظ الذي ترجع الكتابات كلها إليه، ومنه سميت الفاتحة أم الكتاب، لأن مرجع القرآن إليها. فهذه المحكمات يجب أن ترد إليها المتشابهات.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾:

ينقسم الناس بالنسبة إلى هذه المتشابهات إلى قسمين:

١ ـ قسم يتبعون المتشابه ويضعونه أمام الناس ويعرضونه عليهم. فيقولون: كيف كذا وكيف كذا؟

٢ ـ وقسم آخر يقولون: آمنا به كل من عند ربنا، فإذا كان من عند ربنا فلا يمكن أن يتناقض، ولا يمكن أن يتخالف، بل هو متحد متفق، فيرد المتشابه منه إلى المحكم، ويكون جميعه محكماً.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ الزيغ: بمعنى الميل، من قولهم: زاغت الشمس إذا مالت عن كبد السماء.

أي: في قلوبهم ميل عن الحق، فهم لا يريدون الحق، وإنما يتبعون المتشابه، فتجدهم ـ والعياذ بالله ـ يأخذون آيات القرآن التي فيها اشتباه حتى يضربوا بعضها ببعض وما أكثر هؤلاء!! ليصدوا عن سبيل الله ويشككوا الناس في كلام الله عزّ وجل، وأما الذين ليس في قلوبهم زيغ وهم الراسخون في العلم الذين عندهم من العلم ما يتمكنون به أن يجمعوا بين الآيات المتشابهة، وأن يعرفوا معناها، فهؤلاء لا يكون عندهم هذا التشابه بل يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فلا يرون في القرآن شيئاً متعارضاً متناقضاً.

وكل أهل البدع من الرافضة والخوارج والمعتزلة والجهمية وغيرهم كلهم اتبعوا ما تشابه منه، لكن مستقل ومستكثر، فهؤلاء يتبعون ما تشابه لهذين الغرضين أو لأحدهما:

١ ـ ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي: صد الناس عن دين الله، لأن الفتنة بمعنى الصد عن دين الله، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ

﴿ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]. فتنوهم: يعني صدُّوهم عن دين الله.

٢ - ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾، أي: طلب تأويله لما يريدون، فهم يفسِّرونه على مرادهم لا على مراد الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾:

اختلف السلف في الوقف عليها، فأكثر السلف وقف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ثم نبتدئ فنقول: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وعلى هذا تكون الواو في ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ للاستئناف، ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ خبر المبتدأ، ويصبح المعنى أن هذا المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله عزّ وجل، وأما الراسخون في العلم الذين لم يعلموا تأويله يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، وليس في كلام ربنا تناقض ولا تضارب، فيسلِّمون الأمر إلى الله عزّ وجل؛ لأنه هو العالم بما أراد، وينقسم الناس إذن إلى قسمين:

١ - ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

٢ - ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾.

ووصل بعض السلف ولم يقف، فقرأ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ فتكون الواو للعطف، والراسخون: معطوفة على لفظ الجلالة، أي: لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، بخلاف الذين في قلوبهم زيغ فهؤلاء لا يعلمون. والحقيقة أن ظاهر القراءتين التعارض لأن:

القراءة الأولى: تقتضي أنه لا يعلم تأويل هذا المتشابه إلا الله.

والقراءة الثانية: تقتضي أن هذا المتشابه يعلم تأويله الله والراسخون في العلم.

فيكون ظاهر القولين التعارض، ولكن الصحيح أنه لا تعارض بينهما، وأن هذا الخلاف مبني على الاختلاف في معنى التأويل في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فإن كان المراد بالتأويل التفسير فقراءة الوصل أولى، لأن الراسخين في العلم يعلمون تفسير القرآن المتشابه، ولا يخفى عليهم؛ لرسوخهم في العلم، وبلوغهم عمقه؛ لأن الراسخ في الشيء هو الثابت فيه المتمكن منه، فهم لتمكنهم وثبوت أقدامهم في العلم وتعمقهم فيه يعلمون ما يخفى على غيرهم.

أما إذا جعلنا التأويل بمعنى العاقبة والغاية المجهولة، فالوقف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أولى؛ لأن عاقبة هذا المتشابه وما يؤول إليه أمره مجهول لكل الخلق.

والتأويل يكون بمعنى التفسير، وبمعنى العاقبة المجهولة التي لا يعلمها إلا الله، وكلا المعنيين موجود في القرآن، فمن الأول: قول أحد صاحبي السجن ليوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

أي: بتفسير هذه الرؤية ما معناها؟ ففسرها، ومن ذلك قول الرسول ﷺ في ابن عباس: «**اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل**»[1] أي تفسير الكلام ومعرفة معناه.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٦٦) بهذا اللفظ، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٢٣٩٧): إسناده صحيح اهـ. =

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣].

فقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ يعني: عاقبته وهو ما يؤول إليه، ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾ بمعنى: تأتي عاقبته التي وعدوا بها. ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] يعني: أحسن عاقبة ومآلاً.

واعلم أن كثيراً من الناس الذين يتكلمون في العقائد فسروا المتشابه بآيات الصفات. قالوا: إن المتشابهات هن آيات الصفات. ولكن لا شك أن تفسير المتشابهات بآيات الصفات على الإطلاق ليس بسديد، لأن آيات الصفات معلومة مجهولة؛ فهي من حيث المعنى معلومة، ولا يمكن أن يخاطبنا الله عزّ وجل ويحدثنا عن نفسه بأمر مجهول لا نستفيد منه، وليس هو بالنسبة إلينا إلا كنسبة الحروف الهجائية التي ليس فيها معنى، هذا غير ممكن إطلاقاً.

نعم، هي مجهولة من جهة أخرى وهي الحقيقة والكيفية التي هي عليها، فهذا مجهول لنا، لا نعلم كيف يد الله، ولا ندرك حقيقتها، ولا نعلم وجه الله، ولا ندرك حقيقته، ولا ندرك حقيقة علم الله عزّ وجل، ولا ندرك كل صفاته ولا ندرك

= والجملة الأولى منه أخرجها البخاري، كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، رقم (١٤٣). ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، رقم (٢٤٧٧). لكن لم يقع عند مسلم: «في الدين».

حقائقها، لأن الله يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، فمن زعم أن آيات الصفات من المتشابه على سبيل الإطلاق فقد أخطأ، والواجب التفصيل فنقول: إن أردت بكونها من المتشابه تشابه الحقيقة التي هي عليها فأنت مصيب، وإن أردت بالمتشابه تشابه المعنى وأن معناها مجهول لنا فأنت مخطئ غاية الخطأ، وقد ذهب إلى هذا من قال: إن آيات الصفات وأحاديثها مجهولة لا نعلمها، لا يعلمها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا ابن مسعود ولا ابن عباس ولا فقهاء الصحابة ولا فقهاء التابعين ولا أئمة الإسلام، كلهم لا يدرون معناها، نقول لهم: ما معنى استوى على العرش؟ فيقول: الله أعلم، ما معنى ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾؟ [المائدة: ٦٤] يقول: الله أعلم، ما معنى ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾؟ [الرحمن: ٢٧] يقول: الله أعلم. فكل ما يتعلق بصفات الله يقول: الله أعلم. والغريب أن هذا القول في غاية ما يكون من السقوط، وإن كان بعض الناس يظن أنه مذهب أهل السنّة أو أنه مذهب السلف، حتى أدّى بهم الأمر إلى هذه الكلمة الكاذبة: (طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم). وهذه القضية من أكذب القضايا؛ أن تكون طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم، لكن نقول: طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم.

فمن الناس من يظن أن مذهب السلف هو التفويض، أي: عدم معرفة المعنى وعدم الكلام به، حتى رسول الله ﷺ على زعمهم يقول: «**يضحك الله إلى رجلين أحدهما يقتل الآخر،**

كلاهما يدخل الجنة»[١]، لو سألته وقلت: يا رسول الله، ما معنى يضحك؟ قال: لا أدري!! وقوله: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر**»[٢]، لو سألته: ما معنى ينزل؟ قال: لا أدري!!.

هكذا زعموا!! وهو أمر يدعو للعجب، وزَعْمٌ بعيدٌ عن الصواب.

إذن نقول: آيات الصفات من المتشابه في الحقيقة والكيفية التي هي عليها؛ لأن الإنسان بشر لا يمكن أن يدرك هذه الصفات العظيمة، لكن في المعنى محكمة معلومة لا تخفى على كل أحد، كلنا يعرف ما معنى العلم، كلنا يعرف ما معنى الاستواء، كلنا يعرف ما معنى الوجه، وما معنى اليد.

لهذا قال الإمام مالك رحمه الله قوله المشهور الذي روي عن شيخه أيضاً قال:

(الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)[٣]، فمثلاً: نحن نعلم معنى (العين)،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥). ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر من آخر الليل، رقم (٧٥٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء نصف الليل، رقم (٦٣٢١). ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر من آخر الليل والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

(٣) رواه اللالكائي في شرح السنة (٦٦٤). والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٧). وقال الحافظ في الفتح (١٣/٤٠٧): إسناده جيد.

لكن حقيقة عين الله وكيفيتها غير معلومة، عين المخلوق معروفة مكونة من طبقات متعددة، ومن عروق، ومن كذا... لكن عين الله لا يمكن أن نقول فيها هكذا لأنها مجهولة لنا. إذن حقيقتها غير معلومة، لكن معنى العين وهي التي يحصل بها النظر والرؤية أمر معلوم.

وكذا يد الله عزّ وجل، فاليد معروفة، والأصابع معروفة، والقبض باليد معروف، والأخذ باليد معروف؛ لكن حقيقة هذه اليد وكيفيتها لا نستطيع أن نتكلم فيها، ومن ادَّعى العلم بها فهو كاذب.

هذه معنى الحقائق، فالحقائق شيء والمعنى شيء آخر، وثقوا بأننا لو نقول: إننا لا نعلم معاني آيات الصفات أنه سيفوتنا ثلاثون في المائة من معاني القرآن أو أكثر؛ لأننا ما نكاد نجد آية إلا وفيها اسم من أسماء الله أو صفة من صفاته.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، أي: صدَّقنا به، بالمحكم وبالمتشابه، أما المحكم: فظاهر، وأنهم عرفوا معناه واطمأنوا إليه، وأما المتشابه: فإيمانهم به هو التسليم، ولهذا قال فيه: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، ولا يمكن أبداً أن يكون فيه تعارض أو تناقض.

في هذه الآية قسَّم الله القرآن إلى قسمين، ولكنه في موضع آخر جعله قسماً واحداً، فقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال في آية أخرى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١].

وقال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]. ولم يذكر التشابه، وهذا أيضاً من المتشابه، فكيف يوصف القرآن بأوصاف ظاهرها التعارض؟!

فالراسخون في العلم يعلمون أنه لا تعارض، فيقولون: المتشابه الذي وصف به القرآن غير مقرون بالمحكم، فيراد به التشابه في الكمال والجودة والهداية.

فهو متشابه أي: كل آياته متشابهة، كلها كاملة البلاغة، كلها كاملة في الخبر، كاملة في الأمر والنهي، فهي متشابهة من حيث الكمال والجودة والإحكام والإخبار وغير ذلك.

وإذا ذكر محكم بغير ذكر المتشابه فالمعنى: أنه واضح متقن، ليس فيه تناقض ولا تعارض، ولا كذب في خبر، ولا جور في حكم، فيحمل الإحكام على معنىً، والتشابه على معنى آخر.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:

﴿وَمَا﴾: نافية، ﴿يَذَّكَّرُ﴾: أصلها يتذكر، لكن قلبت التاء ذالاً وأدغمت في الذال الأخرى، فصارت ﴿يَذَّكَّرُ﴾ أي: لا يتعظ وينتفع بالقرآن إلا أولو الألباب، أي: إلا أصحاب العقول؛ لأن الألباب جمع لب، واللب هو العقل، والمراد بالعقل هنا عقل الإدراك الذي ضده الجنون، وعقل التصرف الذي ضده السَّفه. فالذي يتذكر بالقرآن هو الإنسان الذي أعطاه الله عقلاً يدرك به الأشياء، وأعطاه الله رشداً يحسن به التصرف. وأما من أعطاه الله

عقلاً يدرك به الأشياء وهو العقل المضاد للجنون ولم يعطه عقلاً يحسن به التصرف وهو العقل المضاد للسفه، فهو لا ينتفع بالقرآن.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن هذا القرآن كلام الله؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ولا يَرِدُ مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام: ٩٩] لأن الكلام صفة لا تقوم بذاتها، لا تقوم إلا بمتكلم، بخلاف الحديد والماء فإنهما عين قائمة بنفسها؛ فتكون مخلوقة، وأما القرآن فليس بمخلوق؛ لأنه صفة الخالق عزّ وجل، والمخلوق شيء بائن عن الخالق منفصل عنه.

٢ ـ إثبات علو الله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿أَنزَلَ﴾ والإنزال لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل، فإذا كان القرآن كلامه ونزل فالله تعالى فوق، وهو كذلك. ومذهب أهل السنّة والجماعة بل مذهب الرسل كلهم أن الله تعالى فوق كل شيء، ألم تروا إلى فرعون قال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧]، وهذا يدل على أن موسى قال له: إن الله فوق. فالعلو لله عزّ وجل ثابت بخمسة أنواع من الأدلة: الكتاب والسنّة والإجماع والعقل والفطرة.

أما الكتاب فأدلته أكثر من أن تحصى، أدلة متنوعة تارة بذكر العلو، وتارة بالفوقية، وتارة بنزول الأشياء، وتارة بصعود الأشياء، وتارة بذكر كونه في السماء.

والسنّة كذلك متواترة في علو الله، ومتنوعة. فتارة بقول الرسول عليه الصلاة والسلام، وتارة بفعله، وتارة بإقراره.

أما قوله: فكان يقول في كل صلاة: «**سبحان ربي الأعلى**»[١].

وأما فعله: **فقد أشار إلى السماء غير مرة، يشير إلى السماء في الدعاء، يرفع يديه إلى السماء**[٢]**، وأشار إلى السماء حين أشهد ربه على أمته أنهم أقروا بإبلاغه الرسالة في حجة الوداع في يوم عرفة**[٣]**، في أكبر مجمع للمسلمين في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام.**

وأما إقراره: **فسأل الجارية: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «أعتقها فإنها مؤمنة»**[٤].

وأما الإجماع: فقد أجمع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى بعدهم على أن الله تعالى فوق كل شيء، ولم يُنقل عن واحد منهم أنه قال: إنَّ الله في كل مكان، ولا أنه قال:

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفاراً**»، رقم (٧٠٧٨). ومسلم، كتاب القيامة، باب تغليظ تحريم الدماء، رقم (١٦٧٩).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، وهو حديث جابر الطويل، رقم (١٢١٨).

(٤) قصة الجارية أخرجها مسلم، كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٧).

إن الله لا يوصف بأنه فوق العالم ولا تحته، ولا داخله ولا خارجه، ولا متصل ولا منفصل، ولا مباين ولا محايث.

وأما العقل: فإننا لو سألنا أي إنسان: ماذا تقول في العلو؟ أهو صفة كمال أو نقص؟ لقال: هو صفة كمال، والعقل يقول: كل صفة كمال فهي ثابتة لله عزّ وجل، فيثبت العلو لله بدلالة العقل من هذه الناحية.

وأما الفطرة: فحدِّث ولا حرج، الإنسان الذي لم يتعلم ولا يدري عن كلام العلماء في هذا إذا سأل الله يرفع يديه إلى السماء، وما رأينا أحداً لما أراد أن يدعو ركز يديه إلى الأرض، ولا ذهب يميناً ولا يساراً، بل يرفعهما إلى السماء. ولهذا استدل أبو العلاء الهمداني على أبي المعالي الجويني بهذا الدليل الفطري، حتى إن الجويني لم يتمالك أن صرخ وضرب على رأسه وقال: حيرني؛ لأن أبا المعالي الجويني غفر الله لنا وله كان يحدث الناس، ويقول: كان الله ولا شيء ـ وهذا صحيح؛ لأن الله هو الأول الذي ليس قبله شيء ـ، ويقول: وهو الآن على ما كان عليه!! وهذه الكلمة موهمة.

يعني: غير مستوٍ على العرش؛ لأن العرش لم يكن وقد كان الله ولا شيء، وهو الآن على ما كان عليه، إذن فلم يستو على العرش.

فقال له أبو العلاء الهمداني: يا أستاذ، دعنا من ذكر العرش ـ لأن الاستواء على العرش دليله غير عقلي بل دليله سمعي، فلولا أن الله أخبرنا أنه استوى على العرش ما علمنا ذلك ـ أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في نفوسنا، ما قال

عارف قط: يا الله، إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو!!

فصرخ أبو المعالي، وضرب على رأسه، وقال: حيّرني!! لأنه لا يجد جواباً عن هذه الفطرة.

فعلوُّ الله ـ ولله الحمد ـ دلَّ عليه الكتاب والسنّة والإجماع والعقل والفطرة. ولولا قول من اجتالتهم الشياطين ما كان يفكر الإنسان أن الله تعالى في كل مكان أبداً!! ولا يطرأ على باله، ولا يفكر أننا نسلب عنه كل صفة، فنقول: لا فوق العالم ولا تحته، ولا يمين العالم ولا شمال العالم، ولا داخل العالم ولا خارج العالم، ولا متصل بالعالم ولا منفصل عن العالم!! أين يكون!؟ فهذا هو العدم والعياذ بالله. والغريب أن هؤلاء يرون أنهم نزهوا الله! وهم لو قيل لهم: صفوا لنا العدم ما وجدوا أحسن من هذا الوصف. نسأل الله أن لا يزيغ قلوبنا.

٣ ـ أن هذا القرآن ينقسم إلى محكم ومتشابه؛ لقوله: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾.

٤ ـ وجوب الرجوع إلى المحكم إزاء المتشابه؛ لقوله: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: مرجعه، وهذا لا يختص بالقرآن، بل حتى في السنّة، إذا وجدت أحاديث متشابهة وأحاديث واضحة محكمة، فالواجب رد المتشابه إلى المحكم ليكون الجميع محكماً، سواء كان التشابه في مدلولات الألفاظ، أو كان التشابه في ثبوت الخبر، وهذا الأخير يختص بالسنّة، لأن القرآن ليس فيه اشتباه بالنسبة إلى ثبوته، أو كان الاشتباه بأقوال أهل العلم، بمعنى أن العلماء يكون أكثرهم على قول وهو يكون مشتبه عليك. وأمَّا بالنسبة للأدلة فإن الغالب أن الحق يكون مع من هو أوثق

وأقرب إلى الكتاب والسنّة إما بالعلم أو بالأمانة أو بالكثرة.

٥ ـ حكمة الله عزّ وجل في جعل القرآن ينقسم إلى قسمين، ووجه الحكمة أنه بهذا يحصل الابتلاء والامتحان، فالمؤمن لا يضل بهذا الانقسام، والذي في قلبه زيغ يضل، فكما أن الله يمتحن العباد بالأوامر والنواهي فهو يمتحنهم أيضاً بالأدلة؛ فيجعل هذا محكماً وهذا متشابهاً، ليتبين المؤمن من غير المؤمن، ولو كان القرآن كله محكماً لم يحصل الابتلاء، ولو كان كله متشابهاً لم يحصل البيان، والله سبحانه وتعالىٰ جعل القرآن بياناً، وجعله محكماً متشابهاً للاختبار والامتحان.

٦ ـ أن من علامة الزيغ أن يتبع الإنسان المتشابه من القرآن سواء تبعه بالنسبة لتصوره فيما بينه وبين نفسه، وصار يورد على نفسه آيات متشابهات، أو كان يتبع ذلك بالنسبة لعرض القرآن على غيره، فيقول للناس مثلاً: ماذا تقولون في كذا وكذا، ويأتي بالآيات المتشابهات بدون أن يحلها. ولهذا من الخطر العظيم أن تورد ـ سواء للطلبة أو للعامة ـ آيات متشابهة دون أن تبين حل إشكالها، لأنك إذا فعلت هذا أوقعتهم في الحيرة والشك، وصرت كمن ألقى إنساناً في بحر لا يستطيع الخلاص منه ولم يخلصه، وهذا يقع من بعض المتحذلقين من طلبة العلم أنه يورد الآيات المتشابهات ثم يقف ولا يبين للناس وجه هذا التشابه، فيوقع الناس في حيرة وهو لا يشعر.

٧ ـ أن هؤلاء الذين يتبعون المتشابه تارة يبتغون الفتنة، وصدّ الناس عن دينهم، ونزع الثقة من قلوبهم بالنسبة للقرآن، لقوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾. وتارة يريدون بذلك أن يحرفوه إلى المعنى

الذي يريدون، وذلك لأنهم لو أرادوا أن يحرفوا المحكم، ما قُبِل، لكن يأتون بالمتشابه ليتمكنوا من تحريفه على ما يريدون، لأنه إذا كان متشابهاً فإن المخاطب الذي يخاطبونه يكون قد اشتبه عليه الأمر، فيقبل ما جاءوا به من التحريف، وبهذا يزول الإشكال الذي قد يعرض للإنسان في قوله: ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾، لأن ابتغاء التأويل على الوجه المراد أمر مطلوب، وليس من شأن ذوي الزيغ، بل هو من شأن أهل الإيمان، لكن ذوي الزيغ يأتون بهذا المتشابه من أجل أن يحرّفوه على ما يريدون، لأنه ليس محكماً واضحاً حتى يعارضهم الناس، بل متشابه، فيحصل بذلك ما يريدون من التحريف.

وهنا مسألة: وهي أن كثيراً من المتكلمين قالوا: إن آيات الصفات من المتشابه، وقالوا: إن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله، فصارت النتيجة أن آيات الصفات لا يُعرف معناها، ولهذا قالوا: إن القول الحق في آيات الصفات هو التفويض. فقولهم: إن الحق هو التفويض وأن لا تتكلم فيها بشيء ناتج عن هذين الأمرين:

الأول: أن آيات الصفات من المتشابه.

والثاني: أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله.

فتكون النتيجة أن لا نخوض في معاني آيات الصفات، لأنها من المتشابه، ولا يعلم تأويله إلا الله، وما لا يمكن الوصول إلى علمه لا يجوز الخوض فيه.

ولكن نقول: إن هذا القول قول باطل، فماذا تعنون بالتشابه في آيات الصفات؟ إن قالوا: نريد اشتباه المعنى ـ وهو الذي

يريدونه ـ قلنا: هذا خطأ، لأن معاني آيات الصفات واضحة ومعلومة، وليس فيها اشتباه إطلاقاً. كما قال الإمام مالك رحمه الله: (الاستواء غير مجهول)، أي: هو معلوم لكل أحد. ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، يعني علا عليه. وإن أرادوا بالتشابه اشتباه الحقيقة والكيفية، فهم صادقون، ولكنهم لا يريدون هذا، لأنهم لو قالوا: نحن نعلم المعنى ونجهل الكيفية والحقيقة، قلنا: هذا مذهب صحيح. لكنهم يقولون: نحن نجهل المعنى والكيفية والحقيقة، لهذا سموا أهل التفويض، وأهل التجهيل، لأنهم يقولون: كل آيات الصفات وأحاديثها غير معلومة لأحد، وقراءتنا لها بمنزلة قراءة الأعجمي للخطاب العربي، أو بمنزلة قراءة العربي للخطاب العجمي، أو بمنزلة قراءة الحروف الهجائية: أ، ب، ت... إلخ، هذا نظرهم بالنسبة لآيات الصفات، وهو نظر ـ بلا شك ـ خاطئ. كيف نعلم معنى آيات الوضوء والصلاة والبيع وما أشبهه مما لا تعد شيئاً بالنسبة لصفات الله عزّ وجل، ونجهل معاني آيات الصفات؟! هي أولى بالعلم من غيرها، ولا تكمل العبادة حقاً إلا بمعرفة صفات الله عزّ وجل.

٨ ـ فضيلة الرسوخ في العلم، وهو الثبات فيه والتعمق فيه، حتى نصل إلى جذوره؛ لقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وضد الرسوخ في العلم السطحية في العلم، وما أكثر السطحية اليوم فينا!! أكثر الناس اليوم علومهم سطحية. ولهذا تجدهم إذا أَلَّفوا أو كتبوا يكثرون من النقول، بسبب أنه ليس عندهم حصيلة علمية، فيجعل نفسه في حل من الكلام. وأما أهل العلم حقاً

فتجدهم يتكلمون بالعلم من صدورهم بدون نقل، ولهذا عباراتهم أحياناً تخالف عبارات العلماء الآخرين، ومن أوضح ما يكون كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، تجد أنهما يتكلمان عن علم راسخ، وأمثالهما كثير.

٩ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يحرص أن يكون راسخاً في العلم، لا جامعاً كثيراً منه، لأن العبرة بالرسوخ في العلم، لأن الإنسان إذا كان عنده رسوخ في العلم صار عنده ملكة يستطيع أن يقرب العلم بعضه من بعض، ويقيس ما لم يُنَصَّ عليه على ما نُصَّ عليه، ويكون العلم لديه كالطبيعة الراسخة.

١٠ ـ أن الراسخين في العلم يعلمون أن الذي يكون من عند الله لا يكون فيه تناقض، لقوله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

١١ ـ أن مقتضى الربوبية أن الله ينزل على عباده كتاباً لا يكون فيه اختلاف يوقعهم في الشك والاشتباه، لقوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ وما كان من عند الرب المعتني بعباده بربوبيته، فلن يكون فيه شيء يتناقض ويختلف.

١٢ ـ أنه لا يتذكر بهذا القرآن ولا بغيره إلا أصحاب العقول، لقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

١٣ ـ أنه كلما ازداد الإنسان عقلاً ازداد تذكراً بكلام الله عزّ وجل. وكلما نقص تذكره بالقرآن دلَّ على نقص عقله، لأنه إذا كان الله حصر التذكر بأولي الألباب، فإنه يقتضي انتفاء هذا التذكر عَمَّن ليس عنده لبٌّ.

١٤ ـ أن العقل غير الذكاء، لأننا نجد كثيراً من الناس

أذكياء، ولكن لا يتذكرون بالقرآن، وهؤلاء لا نسميهم عقلاء، لكن الذي انتفى عنهم من العقل هو عقل التصرف والرشد، أما الإدراك فهم يدركون، ولهذا تقوم عليهم الحجة.

١٥ ـ أن من القرآن ما لا يعلم تأويله إلا الله، على قراءة الوقف: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، والفائدة امتحان العباد بتأدبهم مع الله عزّ وجل. هل يحاولون أن يصلوا إلى شيء لا تدركه عقولهم، أو يقفون على حدود ما تدركه عقولهم، لأن من الناس من يذهب ويتجرأ على محاولة إدراك ما لا يصل إليه العقل، ومن الناس من يتأدب، فإذا وصل إلى ما لا يبلغه العقل وقف.

١٦ ـ سعة علم الله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، على قراءة الوقف.

١٧ ـ أن كلام الله عزّ وجل يختلف؛ منه محكم، ومنه متشابه، ومنه أمر، ومنه نهي، ومنه خبر، ومنه استخبار، إلى أنواع لا يحصيها إلا الله، خلافاً لمن قال: إن كلام الله نوع واحد، وأن اختلاف الصور أو الصيغ لا يدل على تنوعه واختلافه، مثل الأشاعرة الذين يرون أن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس، وأنه شيء واحد، إن عُبِّرَ عنه بالعربية صار قرآناً، وإن عُبِّرَ عنه بالعبرية صار توراة، وإن عُبِّرَ عنه بالسريانية صار إنجيلاً، وإن عُبِّرَ عنه بصيغة النهي صار نهياً، وإن عُبِّرَ عنه بصيغة الأمر صار أمراً، وإلا فهو شيء واحد، ولا شك أن هذا قول يبطله العقل والسمع.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال عزّ وجل: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

الظاهر أن هذا من جملة قول الراسخين في العلم. يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾. ويقولون أيضاً: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾. والدعاء غالباً يُصَدَّر بالربِّ، لأن الدعاء يتطلب الإجابة، والإجابة من الأفعال، والأفعال علاقتها بالربوبية أكثر من علاقتها بالألوهية، ولهذا غالب الأدعية يأتي مُصَدَّراً بالربِّ ﴿رَبَّنَا﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا﴾: منصوبة بيا النداء المحذوفة. وأصل الكلام (يا ربنا) لكن حذفت يا النداء تخفيفاً، وتيمناً بالبداءة باسم الله عزّ وجل.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾:

﴿لَا تُزِغْ﴾: هذه جملة دعائية وإن كانت بصيغة النهي؛ لأن النهي لا يمكن أن يرد من المخلوق للخالق. إذ النهي طلب الكف على وجه الاستعلاء، ولا يمكن للمخلوق أن يطلب من ربه أن يكف على وجه الاستعلاء أبداً. وإذا وُجِّهَ الطلبُ من أدنى إلى أعلى سُمِّيَ دعاءً، فلهذا نقول: (لا): دعائية، ولا نقول: (لا): ناهية، لأنه لا نهي من المخلوق للخالق.

وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾:

أي: لا تزغها عن الهداية، بل اهدها هداية دلالة وهداية توفيق.

وقوله: ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ سلط الفعل على القلب؛ لأن القلب عليه مدار العمل، لقول النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا**

صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[١]، والقلب هو هذا الجزء المستقر في الصدر، لقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وبهذا القلب يكون العقل؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]، وبناء على هذه الأدلة يتبين أن العقل في القلب وليس في الدماغ، والعلماء اختلفوا قديماً وحديثاً، هل العقل في الدماغ أو العقل في القلب؟ والذي دلَّ عليه القرآن أنه في القلب، والقرآن كلام الخالق، والخالق عزّ وجل أعلم بما خلق. فالعقل بالقلب لكن عقل القلب هو عقل التصرف والتدبير، ليس عقل الإدراك والتصور، فإن عقل الإدراك والتصور يكون في المخ. فالمخ يتصور ويعقل، وهو بمنزلة المترجم للقلب يشرح ما يريد رفعه إلى القلب، ثم يرفعه إلى القلب، ثم يصدر القلب الأوامر، والذي يبلغ الأوامر الدماغ. ولهذا تنشط العضلات كلها بنشاط الدماغ، فصارت المسألة سلسلة، والذي يتصور ويدرك وفيه عقل الإدراك هو الدماغ، وأما عقل التصرف والتدبير والرشاد والفساد فهو عقل القلب.

وحينئذ يزول الإشكال، وتجتمع الأدلة الحسية والشرعية، فالعقل الإدراكي محله هو الدماغ، والعقل التصرفي الإرشادي الذي به الرشاد والفساد هو القلب.

يقول الله عزّ وجل: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ وإذا استقامت

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢).
ومسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الحرام، رقم (٤٠٩٤).

القلوب ولم تمل، استقامت الجوارح عقيدةً وقولاً وعملاً.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾: هذه الجملة لا يراد بها الافتخار، وإنما يراد بها التوسل بالنعم السابقة إلى النعم اللاحقة، فكأنهم يقولون: ربنا إنك مننت علينا بالهداية أولاً، فنسألك أن تمن علينا بثبوت هذه الهداية فلا تزغها، فيكون في هذا الدعاء ثناء على الله عزّ وجل بالهداية السابقة، وأنه عزّ وجل أهل للفضل والإنعام.

وقوله: ﴿هَدَيْتَنَا﴾: هداية دلالة وتوفيق. فهداية الدلالة أن بيّن لهم الحق، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]. وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وهداية التوفيق أن وفَّقهم لسلوك الحق، فمن الناس من يحرم الهدايتين كالنصارى، فهم ضالون لم يعرفوا الحق، ولم يعملوا به. ومن الناس من يحرم الهداية الثانية، هداية التوفيق كاليهود؛ فاليهود علموا لكن لم يعملوا به. ومن الناس من يرزق الهدايتين كالمؤمنين الذين أنعم الله عليهم، فهم هدوا إلى الحق بالدلالة عليه، واهتدوا إلى الحق بالتوفيق.

وقوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾:

(هب): بمعنى أعط، والهبة: هي العطاء بلا عوض، وكمالها بلا منة. والله سبحانه وتعالىٰ له المنة علينا، كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]. والصيغة هنا للدعاء.

﴿وَهَبْ لَنَا﴾: يعني أعطنا ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أي من عندك،

وأضافوا هذه الهبة إلى الله لئلا يكون لأحد عليهم منّة سواه، هذا من وجه، ولأنها إذا كانت من عند الله وهو أكرم الأكرمين صارت هبة عظيمة، لأن العطاء على قدر المعطي، ولهذا قال النبي ﷺ لأبي بكر حين سأله أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته قال: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني**»(١).

﴿رَحْمَةً﴾: الرحمة صفة من صفات الله عزّ وجل، وتطلق على نِعَمِه، لأنها من آثار رحمته، كما قال الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

وقال الله تعالى للجنة: «**أنت رحمتي أرحم بك من أشاء**»(٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧]، فتطلق الرحمة على هذا وهذا. وفي هذه الآية: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ هي النعم وهي من آثار رحمته.

والرحمة يحصل بها المطلوب، وينجو بها الإنسان من المرهوب، فإن جمعت مع المغفرة صار بالرحمة حصول المطلوب، وبالمغفرة النجاة من المرهوب.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤). ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥).

(٢) حديث قدسي، أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، رقم (٤٨٥٠). ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٦).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾:

الجملة هنا استئنافية للتعليل والتوسل. يعني إننا إنما طلبنا منك هبة الرحمة لأنك أنت الوهاب، وأُتي بالضمير (أنت) ويسمى ضمير الفصل لثلاث فوائد:

١ ـ الفصل بين الصفة والخبر.

٢ ـ التوكيد.

٣ ـ الحصر.

و﴿ٱلْوَهَّابُ﴾ يعني الكثير العطاء، وهذه صفة لازمة له، والذين يعطيهم الله كثيرون لا يحصون.

قال النبي ﷺ: «**يد الله ملأى، سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه**»(١).

وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنَّكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا غُمس في البحر**»(٢). وهذا لا ينقص البحر شيئاً! فالله عزّ وجل لا يحصي أحد هباته أبداً حتى بالنسبة لك أنت بنفسك لا تحصي هبات الله لك، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، رقم (٧٤١١). ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، رقم (٩٩٣).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٦٥٧٢).

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ مشروعية الدعاء بهذه الصيغة، لأنه دعاء الراسخين في العلم وأولي الألباب.

٢ ـ مشروعية تصدير الدعاء باسم الرب ﴿رَبَّنَا﴾.

٣ ـ أن الإنسان لا يملك قلبه، ولهذا تسأل الله أن لا يزيغ قلبك، فلا تغتر بنفسك أنك مؤمن، فكم من إنسان مؤمن زلَّ والعياذ بالله. ولكن اسأل الله دائماً أن يثبتك، وأن لا يزيغ قلبك. وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام: «**أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أزاغه وإن شاء هداه، يصرفها كيف يشاء**»[(١)].

٤ ـ الدلالة على أن في صلاح القلب صلاح جميع الجسد، لأنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾.

٥ ـ أن للقلب حالين: حال استقامة، وحال زيغ. والإنسان مضطر إلى أن يسأل الله سبحانه وتعالىٰ أن لا يزيغ قلبه، حتى يكون مستقيماً.

٦ ـ التوسل إلى الله تعالى بنعمه؛ لقولهم: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

٧ ـ الثناء على هؤلاء الراسخين حيث اعترفوا لله تعالى بالنعمة في قولهم: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ وهذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

٨ ـ أن التخلية تكون قبل التحلية، يعني يُفرغ المكان من

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب تصريف الله القلوب حيث شاء، رقم (٩٦٠٢).

الشوائب والأذى ثم يطهر، من قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ ثم قال: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾.

٩ ـ أن الإنسان مضطر إلى ربه في الدفع والرفع، وإن شئت فقل في الجلب والدفع، لأنهم سألوا أن لا يزيغ قلوبهم بعد إذ هداهم، وسألوا أن يهب لهم منه رحمة. فدعاؤهم أن لا يزيغ قلوبهم دعاء بالرفع، ودعاؤهم بـ ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ دعاء بالدفع، يعني هب لنا من لدنك رحمة ندفع بها السوء، ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ لا ترفع عنا الهداية بعد أن اهتدينا.

١٠ ـ أن العطاء يكون على قدر المعطي، لقوله: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ هذا من باب التوسل بحال المدعو، ومن باب التوسل بصفات الله عزّ وجل.

١١ ـ التوسل بأسماء الله؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ فإنه من مقتضى كونه وهاباً أن يهب لنا من لدنه رحمة.

١٢ ـ أن الإنسان مفتقر إلى رحمة الله عزّ وجل، ولهذا سأل الله أن يهب له من لدنه رحمة.

❁ ❁ ❁

❑ قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

﴿جَامِعُ﴾: اسم فاعل. وهنا لم يعمل لأنه أضيف، ولولا الإضافة لكان يقول: ربنا إنك جامعٌ الناسَ، لكن بالإضافة لا يعمل إلا الجر. وقوله: ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ المعنى: أنه يجمعهم لهذا الوقت. فاللام هنا للتوقيت، فهي كقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] أي: وقت دلوكها. أو

كقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] أي: وقت عدتهن.

فالله تعالى جامع الناس لهذا الوقت، ليوم لا ريب فيه، أي لا شك. ولكن الريب أبلغ من الشك، وإن كان معناهما متقارباً، لأن الريب فيه زيادة قلق واضطراب مع الشك، والشك خال من ذلك. ولهذا جاءت كلمة (ريب) الدالة بمفهومها اللفظي على أن هناك نوعاً من القلق والاضطراب الحاصل بالشك، لأن من الشكوك ما لا يولد هماً، ولا غماً، ولا اضطراباً، ولا يهتم به الإنسان، ومن الشكوك ما يهتم به الإنسان، ويضطرب، ويقلق، مثل هذه الأمور العظيمة الواردة في الأخبار باليوم الآخر، فإن الإنسان لا بد أن يطمئن اطمئناناً كاملاً.

و﴿لَا﴾: نافية للجنس، و﴿رَيْبَ﴾ اسمها. و﴿فِيهِۚ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبرها، وجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ تأكيد لما سبق من كونه تعالى جامع الناس ليوم لا ريب فيه.

في هذه الآية يقول الله تعالى عن هؤلاء الراسخين: إنهم بعد أن يدعوا الله بما سبق يخبروا هذا الخبر المعبر عن إيمانهم ويقينهم بأنهم يؤمنون بأن الله جامع الناس ليوم لا ريب فيه، ومن ثَمَّ دعوا الله أن لا يزيغ قلوبهم، وأن يهب لهم منه رحمة، لأنهم يؤمنون بأن هناك يوماً يجمع الله فيه الناس، فيجازيهم بعملهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩ ـ ٥٠]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]. ما أكثر الناس الذين سبقونا! وما أكثر الناس الذين يلحقون بنا! والله أعلم.

ومع هذا كل هؤلاء الناس سوف يجمعون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، يسمعهم الداعي؛ لأنه لا يحول بينهم وبين صوته لا شجر ولا جدر ولا جبال ولا أودية، وكذلك ينفذهم البصر؛ لأنهم في أرض مبسوطة غير كروية، فيكون البصر يرى أقصاهم مثلما يرى أدناهم، وهذا ظاهر، فالأرض كلها مبسوطة بسط الأديم كما أخبر بذلك النبي ﷺ[1]، وأخبر الله تعالى أنه يجمع الناس كلهم في ذلك اليوم من أولهم إلى آخرهم، ويجمع الجن، بل ويجمع الوحوش والبهائم: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ [التكوير: ٤ ـ ٥]، ويجمع الملائكة: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

وهذا اليوم العظيم دلَّ عليه السمع، ودلَّ عليه العقل، ودلَّت عليه الفطرة، ودلَّ عليه إجماع المسلمين واليهود والنصارى وكل متدين بدين. فالأدلة مجتمعة على وجوب الإيمان باليوم الآخر؛ ولهذا قال: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أما دلالة الكتاب فهي دلالة واضحة في عدة آيات لا تحصى، ودلالة السنّة أيضاً بأحاديث كثيرة لا تحصى.

وأما دلالة العقل فهي ليست على إمكانه فحسب، بل دلَّ العقل على وجوبه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، إن الذي فرض عليك القرآن، وأوجبه

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٥). وابن ماجه، تصريف أبواب الفتن، باب فتنة الدجال، رقم (٤٠٨١).

عليك، لا بد أن يردك إلى معاد، فلا يمكن أن يدعك سدى. إذ لا فائدة في قرآن ينزل، ورسل ترسل، ودماء تراق للمخالفين، والنتيجة لا شيء!! فالعقل يدل على أنه لا بد من أن نحشر إلى الله عزّ وجل، وأن نجازى بعملنا، وأنه لا يمكن أن تخلق السموات والأرض، ويرسل الرسل، وتنزل الكتب، وتكون النتيجة والغاية أن نُرْمَسَ[1] في الأرض ولا نعود، لا بد من عودة. ولهذا نقول: إن العقل دلَّ على وجود اليوم الآخر ووقوعه.

ودلَّت عليه الفطرة: فإن الإنسان لو ترك وفطرته لعَلِمَ أن له ربًّا يجازيه، وأن الجزاء يكون في الآخرة، ويكون في الدنيا.

ودلَّ عليه الإجماع، فإجماع المسلمين أمر متواتر معلوم بالضرورة من الدين، بل وإجماع اليهود والنصارى؛ ولهذا إلى يومنا هذا إذا مات منهم ميت يصلون عليه ويدعون له بالرحمة والمغفرة؛ لأنهم يؤمنون بيوم الحساب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾:

هذه الجملة موقعها مما قبلها لتأكيد وقوع ذلك اليوم. ووجه ذلك: أن الله وعد به وهو لا يخلف الميعاد، أي: لا يخلف ما وعد به عزّ وجل من وقوع هذا اليوم.

وهذه الجملة أيضاً إذا تأملتها وجدتها أنها تخالف ما قبلها في السياق؛ لأن ما قبلها السياق فيه للمخاطب: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾، وأما السياق هنا فهو للغائب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾، ولم يقل: (إنك لا تخلف الميعاد)، فهل هذا

---

(١) أي: ندفن.

من باب الالتفات والكلام من متكلم واحد، أو هذا من باب الاستئناف وهو من الله لا من قول الراسخين في العلم؟ على قولين للمفسرين:

١ - منهم من قال: إن قوله: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ من كلام الله، وليس فيه التفات على هذا التقدير.

٢ - ومنهم من قال: إنه من كلام الراسخين في العلم، وعلى هذا التقدير يكون فيه التفات.

ولكل منهما مرجح، فمن رجَّح الأول قال: إن الالتفات خروج بالكلام عن المألوف، والأصل عدمه، وعليه فيكون الكلام من كلام الله.

ومن قال: إنه من كلام الراسخين وفيه التفات قال: لأن الأصل أن الكلام من متكلم واحد، لا سيما وأن بعضهم مرتبط ببعض ﴿إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾، ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ فهو مرتبط بعضه ببعض، وهذا القول عند التأمل أرجح، وتكون فائدة الالتفات:

أولاً: تنبيه المخاطب، لأنه إذا كان الكلام على نسق واحد بقي الإنسان منسجماً معه لا يتفطن، وتمرُّ به الأشياء، فإذا اختلف أسلوب الكلام وتغيَّر عليه الأسلوب فحينئذ ينتبه.

ثانياً: أما من حيث المعنى فلأن مجيئه بصيغة الغائب أبلغ في التعظيم، كأنَّ الربَّ عزّ وجل الذي هو الله، وهو ملك عظيم سبحانه وتعالىٰ يتحدث عنه بصيغة الغائب تعظيماً وتفخيماً، كما يقول الملك الذي يعظم نفسه للجنود: إن الملك يأمركم بكذا وكذا، أو يقول القائد: إن القائد يأمركم بكذا وكذا، بدل أن

يقول: إني آمركم. وعلى كل تقدير فالصفة هنا من باب الصفات السلبية، لأنها صفة نفي، ولا يوجد في صفات الله صفة سلبية محضة، والنفي الموجود في صفات الله متضمن لثبوت كمال ضده، وأنه لكمال ضده لا يوجد هذا الشيء، فهنا ﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ لأنَّ إخلاف الميعاد إما أن يكون لكذب الواعد أو لعجزه، والله لا يخلف الميعاد لكمال صدقه، وكمال قدرته عزّ وجل.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن يوم القيامة آت لا ريب فيه؛ لقوله: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِۚ﴾.

٢ ـ تمام قدرة الله سبحانه وتعالىٰ بجمع الناس كلهم في هذا اليوم، ومع هذا فإن هذا الجمع لا يحتاج إلى مدة ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣ ـ ١٤].

٣ ـ حكمة الله في جمع الناس لهذا اليوم؛ لأن هذا الجمع له ما بعده، وهو جزاء كل عامل بما عمل، إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٩ ـ ١٠].

٤ ـ أنه يجب علينا أن نؤمن إيماناً لا شك فيه بهذا اليوم، فإن شكَّ أحدٌ، أو أنكر، فليس بمؤمن بل هو كافر، والناس في هذا المقام أربعة أقسام: مؤمن إيماناً لا ريب فيه، وشاك، وكافر منكر، وكافر مجادل، كما هي حال كفار قريش.

٥ ـ انتفاء صفة خلف الوعد عن الله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾، لكمال صدق الله عزّ وجل، وكمال قدرته.

❁ ❁ ❁

□ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠].

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: كفروا بما يجب الإيمان به؛ فكفروا بالله أو باليوم الآخر أو بالملائكة أو بالكتاب أو بالنبيين أو بالقدر، إذا كفروا بأي واحد من هذه الأشياء الستة فهم كفار؛ لأن الإيمان لا يتبعض، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١]. وقال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥].

فالذين كفروا بما يجب الإيمان به، وهي الأركان الستة التي بيَّنها الرسول ﷺ جواباً لجبريل[١] حين سأله عن الإيمان فقال: **«أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره»** إذا كفر بواحد منها فهو كافر.

الكفار لهم أموال ولهم أولاد، وربما يعطيهم الله من

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالىٰ، رقم (٨).

الأولاد والأموال أكثر مما يعطي المؤمنين، لكن لا ينتفعون بهذا. يقول الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾.

﴿تُغْنِيَ﴾: لها معنيان: تمنع أو تدفع. فهذه الأموال والأولاد لا تمنع عن هؤلاء الكفار شيئاً، ولا تدفع عنهم شيئاً، فهم إن وقع بهم شيء من عذاب الله ما استطاع هؤلاء الأولاد أو هذه الأموال أن ترفعه، وإن قضى الله عليهم بشيء لم يستطيعوا أن يمنعوه ويدفعوه.

ولهذا تجد الواحد منهم عنده من الأموال الشيء الكثير، ولكن لو جاءه ملك الموت ما منعته هذه الأموال، وعنده من الأولاد والحشم والخدم الشيء الكثير ولا تغني عنهم شيئاً، والولد شامل للذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾ [النساء: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾:

(أولاء): مبتدأ، و﴿هُمْ﴾: مبتدأ ثانٍ أو ضمير فصل، ﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾، وقود: خبر إما للمبتدأ الثاني وإما للمبتدأ الأول، فإن جعلت (هم) مبتدأً ثانياً فـ(وقود) خبر للمبتدأ الثاني، وإن جعلت (هم) ضمير فصل، فـ(وقود): خبر للمبتدأ الأول.

والوَقود بفتح الواو، ما يُوقد به كالطَّهور ما يُتطهر به، والسَّحور ما يُتسحر به، والفَطور ما يُفطر به، بخلاف الضم فُطُور، وسُحُور، وطُهُور، ووُضُوء؛ فهذه يراد بها نفس الفعل.

فهؤلاء الكفار هم وقود النار، وللنار وقود آخر وهي الحجارة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ

نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]. فهؤلاء وقود النار، وإذا كانوا ـ والعياذ بالله ـ وقودها فإنها تسعر بهم، وفي نفس الوقت تحرقهم.

و﴿ٱلنَّارِ﴾: اسم من أسماء جهنم، وهي الدار التي أعدها الله تعالى للمكذبين برسله، وحرها شديد، وفيها زمهرير برده شديد، قال النبي ﷺ: «**إنما فُضِّلت على ناركم هذه بتسعة وستين جزءاً**»(١).

❁ ❁ ❁

❑ قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١].

قوله: ﴿كَدَأْبِ﴾: الكاف للتشبيه، والجار والمجرور: خبر لمبتدأ مقدر، أي: دأب هؤلاء كدأب آل فرعون. والدأب: يطلق على الشأن مثل هذه الآية، أي: كشأن، ويطلق على العادة، فإذا قلت: فلان هذا دأبه أي: هذه عادته.

وقوله: ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: أتباعه. وفرعون: اسم علم لكل من ملك مصر كافراً، كما أن كل من ملك الروم يسمى قيصراً، ومن ملك الفرس يسمى كسرى.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: وكان قبل آل فرعون أمم، مثل: قوم نوح، وقوم عاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، ثم بيّن الله شأن آل فرعون والذين من قبلهم، بقوله: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: كذبوا بالآيات الكونية، والآيات الشرعية. وأكثر ما يكون

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنة، باب جهنم، رقم (٢٨٤٣).

أن يكذبوا بالآيات الشرعية؛ لأن الآيات الكونية قلَّ من يكذب بها.

فالآيات الكونية مخلوقات الله، وقلَّ من ينكر أن يكون الخالق هو الله، ولكن الآيات الشرعية التي هي الوحي الذي جاءت به الرسل هي التي يقع فيها التكذيب، فآل فرعون كذبوا بآيات الله، قال فرعون عن موسى: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]. وقال: إنه ساحر، ووصفه بأوصاف بالغة، وهدده: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]. وكان يذبح أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم، ويقول لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. ويقول: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٢ ـ ٥٣]. وقد ذكر الله سبحانه وتعالىٰ قصته في كتابه كثيراً من أجل اليهود الذين كانوا في المدينة، ومن أجل الأنصار الذين تلقوا من علوم اليهود شيئاً كثيراً.

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾:

(أخذهم): يعني أهلكهم بذنوبهم: أي بسبب ذنوبهم، والذنب: هو المعصية، ومعاصي هؤلاء كلها كفر والعياذ بالله. ولهذا أخذوا بالغرق، فأهلك بما كان يفتخر به، كان يقول لقومه: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١] فأهلك بالماء الذي كان يجري جنسه من تحته، وكان مفخرة له. فأهلكه الله عزّ وجل بالماء، والقصة معروفة، فإن فرعون جمع جميع أهل المدائن من أجل الكيد لموسى، فخرج موسى من

مصر هو وقومه، واتجهوا بأمر الله إلى جهة بحر القُلزم، وهو البحر الأحمر المعروف الذي يفصل بين قارة إفريقيا وآسيا من ناحية جدة، فلما وصلوا إلى البحر ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] لأن البحر أمامهم، وفرعون وقومه خلفهم. فهم هالكون على كل حال، إن ذهبوا إلى البحر هلكوا في البحر، وإن بقوا هلكوا بفرعون وجنوده، فقال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿كَلَّآ﴾ يعني لستم بمدركين، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، الله أكبر! انظر إلى الإيمان عند الشدائد كيف يكون؟ فأوحى الله إليه: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، فضرب البحر بعصاه فانفلق في الحال، في لحظة، بدليل قوله: ﴿فَٱنفَلَقَ﴾، وانظر كيف حذف الله الفعل الذي حصل به الانفلاق؟ لأن هذا البحر لما أمر الله تعالى موسى أن يضربه تهيأ للانفلاق بمجرد هذه الضربة التي وقعت عليه، فكان اثني عشر طريقاً يبساً، وصاروا يمشون عليه على أقدامهم، وكانت المياه ككتل الجبال، وذكر بعض المفسرين من خبر بني إسرائيل أن الله جعل في هذه الكتل نوافذ يرى بعضهم بعضاً ليطمئن بعضهم على بعض، فلما تكامل موسى وقومه خارجين، وإذا فرعون قد دخل هو وقومه، أمر الرب عزّ وجل البحر فانطبق عليهم في الحال، فغرقوا عن آخرهم، ولما أدرك فرعون الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، ولكن لم ينفعه ذلك كما قال الله تعالى في أمثاله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤ ـ ٨٥]. ولهذا قيل لفرعون: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، وهذا الاستفهام

للإنكار عليه، ونفي انتفاعه بذلك الإيمان. ولكن قال الله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: ٩٢]، لا لمصلحتك لكن ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢]، والذين خلفه بنو إسرائيل، لأن بني إسرائيل قد أرعبهم فرعون، ولو لم يظهر لهم بدنه على سطح الماء لكانوا يَشُكُّون؛ لعله ما دخل في قومه، أو لعله سَلِمَ، فأبقى الله جسده فقط، لا روحه، حتى يعلموا أنه قد مات.

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾:

والباء هنا للسببية من وجه، وللعوض من وجه آخر، للسببية يعني أنه بسبب ذنوبهم، لأن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون، ولم يأخذ الله أحداً إلا بذنب. وللعوض من جهة أخرى أنه لم يظلمهم، بل جعل جزاءهم من جنس العمل ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾:

خَتْم الآية بهذا الوصف مناسب جداً؛ لأن هؤلاء الذين أخذوا بذنوبهم أخذوا بالعقاب الشديد الذي لا أشد منه.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ أن الكفار لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً.

٢ ـ أن المؤمنين ينتفعون بأموالهم وأولادهم، فالمؤمن يتصدق بماله فينتفع، ويدعو له ولده في حياته وبعد موته فينتفع. أما الكافر فلا ينتفع ولو دعا له ولده، ولا يحل لولده أن يدعو له إلا إذا كان حيًّا، فيحل له أن يدعو له بالهداية.

٣ ـ أن الكافر يملك؛ لقوله: ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾ فأضاف المال إليهم وهو دليل على أن الكافر يملك ماله.

واختلف العلماء في المرتد الذي يكفر بعد إسلامه هل يزول ملكه عمّا تحت يده أو لا؟

فمن العلماء من قال: إنه إذا ارتد الإنسان زال ملكه عمَّا تحت يده، وعلى هذا لا يصح أن يتصرف فيه، ولكن القول الراجح أنه لا يزول ملكه إلا إذا مات على ردته، فإن ملكه لا ينتقل إلى ورثته بل إلى بيت المال. ومن المعلوم أننا لو قلنا: إن المرتد يزول ملكه لحصل إشكال عظيم في عصرنا هذا، وهو أن بعض الناس لا يصلي، والذي لا يصلي مرتد. فإذا قلنا بزوال ملك المرتد لزم من ذلك أن كل تصرف يتصرف به في ماله فهو تصرف غير صحيح، إن باع شيئاً لم يصح البيع، وإن اشترى شيئاً لم يصح الشراء، وإن استأجر شيئاً لم يصح الاستئجار، وإن أجَّر شيئاً لم يصح التأجير. وهذا وإن قال به بعض العلماء: لكن الراجح أن ملكه باق على ماله حتى يموت، فإذا مات فإننا نصرف ماله إلى بيت المال، ولا يرثه أحد من ورثته؛ لقول النبي ﷺ: «**لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم**»[1].

٤ ـ بيان قدرة الله عزّ وجل وأنه لا ينفع مال ولا بنون من الله شيئاً؛ لقوله: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ وأما من غير الله فقد تغني، فيمكن أن يدفع شيئاً من ماله

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح، رقم (٤٢٨٣). ومسلم، كتاب الفرائض، رقم (١٦١٤).

ويسلم من القتل. ويمكن أن يكون عنده أولاد شجعان إذا أراده أحد بسوء دافعوا عنه، لكن من الله لا يغني عنهم لا مال ولا ولد.

٥ ـ تشجيع قلوب المؤمنين على الكافرين. ووجهه: أن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم من الله شيئاً، فإذا انتصرنا بالله فإنَّ ما عندهم من الأسلحة والذخائر والأموال والأولاد لا يغنيهم من الله شيئاً. ولهذا لو شاء الله عزّ وجل أن يبطل جميع ما فعلوا لأبطله، وما يحصل من الزلازل التي تدمر كثيراً مما صنعوا أكبر دليل، وكذلك ما صنعوه قد يفسد بأيديهم. فكم من انفجارات حصلت في مخازن القنابل الذرية والنووية وحصل بذلك شر عليهم وعلى من حولهم، لو شاء الله لأعتم عليهم الجو فقط إعتاماً بالضباب ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ لا يقهر قدرتَه وقوتَه شيءٌ، ولهذا قال: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

٦ ـ إثبات النار؛ لقوله: ﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾.

٧ ـ أن الكفار في النار؛ لقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ ولكن لا نشهد لكل كافر بعينه أنه في النار، ولكن نشهد على سبيل العموم، فنقول: كل كافر في النار، كما نقول: كل مؤمن في الجنة، ولا نشهد لواحد معين بالجنة، ففرق بين العموم وبين الخصوص.

٨ ـ أن الكافرين قد يرزقون الأموال والأولاد.

٩ ـ أن الكفار المتأخرين كالكفار السابقين؛ لأن سنّة الله تعالى في الخلق واحدة، فليس بينه وبين الخلق نسب يراعيه

ويحابي من يتصل به، فالناس عنده تعالى سواء، أكرمُهم عند الله أتقاهم؛ لقوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾.

١٠ ـ أن فرعون وآله قد عُذِّبوا في الدنيا كما سيعذبون في الآخرة؛ لقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

١١ ـ الردُّ على من زعم أن فرعون أسلم فنفعه إسلامه؛ لأن الله تعالى ذكر ذلك على وجه المؤاخذة والمعاقبة. ولو كان تائباً توبة تنفعه ما ذكر ذنبه بدون ذكر توبته؛ لأن الله تعالى عدل لا يذكر أحداً بذنب تاب منه، إلا أن يبين توبته، فآدم عليه الصلاة والسلام لما أكل من الشجرة، وحصل له ما حصل، وتاب إلى الله ذكر الله تعالى معصيته، وذكر أنه تاب، فقال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، بل ذكر أنه بعد التوبة كان خيراً منه قبلها ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

١٢ ـ إثبات الآيات لله، وهي العلامات الدالة على الله عزّ وجل، على وجوده، وعلى ما تتضمنه هذه الآيات من صفاته، فمثلاً: نزول الغيث آية على وجود الله وعلى رحمته. ونزول العقوبات دليل على وجود الله وعلى غضبه. وهكذا كل آية تدل على وجود الله سبحانه وتعالىٰ وعلى ما تقتضيه تلك الآية من الصفات، سواء كانت آية رحمة أو آية عذاب.

١٣ ـ أن الله لا يظلم الناس شيئاً، وإنما يؤاخذهم بالذنوب ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

١٤ ـ الرد على الجبرية الذين لا ينسبون فعل العبد إليه،

لقوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ فأضاف الذنوب إليهم. والفعل لا ينسب إلا لمن قام به حقيقة، والجبرية يقولون: إن الفعل لا ينسب إلى الإنسان على وجه الحقيقة.

١٥ ـ إثبات صفة شدة العقاب لله؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢].

هذه الآية مصدرة بـ﴿قُل﴾ تدل على أن الله أمر رسوله ﷺ بإبلاغها إلى الكفار، فيدل على أهميته، وأنه أمر أن يبلغه أمراً خاصاً، مع أن الرسول ﷺ أُمر أن يبلغ القرآن كله، لكن هذا يدل على أنه معتنى به، مثل قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣١]، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، والخطاب هنا للنبي ﷺ.

واعلم أن الخطاب الموجه للنبي ﷺ تارة يكون شاملاً له وللأمة بالنص المقترن بذلك الخطاب، وتارة يكون خاصاً به، وتارة يكون عاماً له وللأمة بمقتضى كونه إماماً للأمة. يعني ليس في الخطاب ما يدل على العموم، لكن باعتبار أنه إمام الأمة يكون الخطاب له، وحكمُه يشمله ويشمل الأمة.

مثال الأول: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ ثم قال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ ولم يقل إذا طلقت، فدلَّ هذا على أن هذا الخطاب موجه له ولأمته.

ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: ١]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى: ٦]، هذا خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام.

ومثال الثالث: أكثر الخطابات الموجهة للرسول عليه الصلاة والسلام من هذا القسم، مثل هذه الآية: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، هذا شامل له وللأمة، حتى نحن نقول للذين كفروا: ستغلبون وتحشرون إلى جهنم. على وجه الاقتداء به والتأسي به.

وقوله: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾، في قراءة: (سيُغلبون ويُحشرون) قراءة سبعية.

﴿سَتُغْلَبُونَ﴾: يغلبهم المؤمنون، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، المؤمن الغالب هو الذي آمن حقًّا، وقام بالعمل الصالح، ليس الإيمان هو مجرد القول باللسان. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، لا بد من إيمان صادق يشهد له العمل، فيكون صالحاً، والله عزّ وجل يقول: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، فالذين آمنوا إيماناً حقيقياً مصدقاً بالعمل سوف يغلبون بلا شك الكفار.

ولكن إذا قال قائل: ماذا تقول في الأمة الإسلامية اليوم، فإنها مغلوبة على أمرها، والكفار يستذلونها غاية الذل، ويحاربونها من كل وجه بكل أنواع السلاح؟

فجوابنا أن نقول: إنَّ الأمة الإسلامية ليس لهم من

الإسلام إلا اسمه فقط، ولا من القرآن إلا رسمه، ولذلك تجد الواحد منهم يعظِّم القرآن تعظيماً متعدياً لحدود الشرع، ولكنه تعظيم رسم؛ يُقَبِّل القرآن، يضعه على جبهته، لكن لا يعمل بما فيه إلا نادراً، حتى إنه ربما يفعل ذلك وهو يشرك بالله ويدعو غير الله.

أين العمل بالقرآن؟!

وإذا نظرت نظرة فاحصة في العالم الإسلامي اليوم وجدت أنه لا يمثل الإسلام حقيقة، وجدت في العبادة أنواعاً كثيرة من الشرك بالأموات وبالأحياء، ووجدت أنواعاً كثيرة من البدع العقدية والعملية، وجدت أنواعاً كثيرة من نقض العهد والغدر والخيانة والكذب والغش؛ فأين الإسلام؟ ليس هو إلا اسم، ومن ثَمَّ لم نغلب الذين كفروا، بل الذين كفروا هم الذين غلبونا في الواقع، وهم الذين لهم الآن السيطرة على العالم اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً، فنحن اليوم لم نُصْدِقِ الله حتى يكون لنا النصر: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾: في الدنيا تغلبون، وفي الآخرة تحشرون إلى جهنم ـ والعياذ بالله ـ يجمعون إليها، ويدخلونها، ويخلدون فيها، فيكون هؤلاء الكفار قد خسروا الدنيا والآخرة؛ خسروا الدنيا بالغلبة والذل، وخسروا الآخرة، بأنهم يحشرون إلى جهنم، وهذا كقوله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: هذا ذمّ للنار والعياذ بالله، وأنها بئس المهاد، يعني بئس ما يتمهد به الإنسان، كالذي يتمهد في فراشه، ويلتحف بلحافه، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت: ٥٥]، وقال: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، أي شيء يغشيهم ويغطيهم من العذاب، فهم في حال لا يمكن أن يتصورها الإنسان لعظمها ولشدتها، وهم خالدون فيها أبداً.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن رسول الله ﷺ عبدٌ توجَّه إليه الأوامر؛ لقوله: ﴿قُل﴾ فهو عبدٌ لا يُعْبَد، ورسولٌ لا يُكَذَّب.

٢ ـ أهمية هذا الخبر الذي أمر الله نبيه أن يبلغه للكافرين.

٣ ـ تقوية المؤمنين حيث يقال لأعدائنا الكفار: ستغلبون في الدنيا، وليس لكم عاقبة في الآخرة، فإنكم ستحشرون إلى جهنم.

٤ ـ إرعاب الكفار وتحذيرهم؛ لقوله: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

٥ ـ أن الله عزّ وجل يجمع للكفار بين العقوبتين؛ عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة، أما عقوبة الدنيا ففي قوله: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ حتى وإن بذلوا أموالاً كثيرة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]. وأما العقوبة الثانية فهي قوله: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾. أما المؤمن فإن الله تعالى إذا عاقبه في

الدنيا لم يعاقبه في الآخرة، لن يجمع الله له بين عقوبتين ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

٦ ـ البشرى لنا نحن في هذا الزمن؛ وهي أننا لو صدقنا الله تعالى بالإيمان لكان الكفار مغلوبين ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ﴾، والذي يَغْلِبُ هم مَنْ قال الله فيهم: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [غافر: ٥١].

فلو أننا رجعنا إلى الإيمان حقاً في العقيدة والقول والعمل والأخلاق والآداب وجميع ما يتعلق بالشريعة الإسلامية لكان الكفار أمامنا مغلوبين، ويشهد لهذا الواقع الذي حصل في سلف هذه الأمة حيث ملكوا مشارق الأرض ومغاربها.

٧ ـ إثبات عذاب النار؛ لقوله: ﴿وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ﴾ وهذا أمر ثابت بالكتاب والسنّة وإجماع المسلمين، ومن أنكره فقد كفر.

٨ ـ إنشاء الذم بل غاية الذم للنار؛ لقوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال تعالى: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

﴿قَدۡ كَانَ﴾: يحتمل أن تكون هذه من جملة مقول القول

السابق، يعني: قل لهم اعتبروا بمَثَلٍ أضربه لكم ﴿ءَايَةٌ﴾، أي علامة علي أنكم ستغلبون، لأن الآية في اللغة: العلامة، ﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾: يعني: لقي بعضهما بعضاً للقتال بينهما، والفئة بمعنى الطائفة. وهل المراد بالفئتين فئتان حقيقيتان واقعتان أو هو على سبيل المثال؟ أكثر المفسرين على أنهما حقيقيتان في أمر واقع.

وقال بعض المفسرين: إن ذلك على ضرب المثل، يعني: ولنفرض أن هناك فئتين على هذا الوجه؛ فئة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة. وإذا قلنا: إنهما فئتان في قضية واقعة، فقد قال هؤلاء القائلون بهذا القول: إن المراد بهما فئة الكفار والمؤمنين في بدر، فهما فئتان: فئة تقاتل في سبيل الله، وهم النبي ﷺ ومن معه، وفئة كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ۖ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، والخطاب في الآية للمؤمنين، سبحان الله! لو أخذنا بهذه الآية ونحن مؤمنون حقيقة، نقاتل في سبيل الله، لكان هؤلاء بين أيدينا كالفراش!

فئة: مبتدأ، وتقاتل: خبره، وجاز كون المبتدأ نكرة لأنه للتقسيم، فجاز الابتداء بالنكرة. ومنه قول الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نُساء ويوم نسر

فبدأ بالنكرة لأن المقام مقام تفصيل.

﴿تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في طريقه، والقتال في سبيل الله يتضمن أموراً:

الأول: إخلاص النية لله.

الثاني: أن يكون موافقاً فيه أمر الله.

الثالث: أن تتجنب فيه محارم الله.

فالأول: أن يكون مراداً به وجه الله، وأن تكون كلمته العليا، وهذا الإخلاص، فلا يقاتل للقومية، وللشجاعة. ولهذا سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعةً، ويقاتل حميةً، ويقاتل ليرى مكانه، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ قال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[(١)].

الثاني: أن يكون القتال في حدود شريعته، بحيث لا يكون فيه عدوان على أحد، فإن كان فيه عدوان على أحد فإنه ليس في سبيل الله. ومثاله: أن يكون بيننا وبين المشركين عهد، ثم ننقضه ونقاتل، فهذا حرام، وليس هذا قتالاً في سبيل الله، بل هو معصية لله عزّ وجل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧]. ونهى أن نقاتل في حال العهد، وقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، يعني: إذا عاهدت قوماً من الكفار، وخفت أن يخونوا، فلا يجوز أن تنقض العهد، ولكن انبذ إليهم على سواء، يعني قل لهم: لا عهد بيننا وبينكم، حتى تكون أنت وهم على سواء، يعني على علم بأن العهد قد نُقض. أما أن تقاتل مع العهد فهذا ليس في سبيل الله.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب من قاتل للمغنم هل ينقص من أجره، رقم (٣١٢٦). ومسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، رقم (١٩٠٤).

الثالث: أن تجتنب فيه محارم الله، فإن لم تجتنب فيه محارم الله، فإنه وإن كان أصله في سبيل الله لكن لا تتحقق فيه الغلبة والنصر. بدليل ما وقع للمسلمين في غزوة أُحد؛ فإن المسلمين في غزوة أُحد كان الأمر في أول النهار بأيديهم، والغلبة لهم، ولكنهم عصوا الرسول عليه الصلاة والسلام، فخذلوا، فكانت الدائرة للمشركين. يقول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾: يعني حصلت الهزيمة للمشركين ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي: صرف الله عزّ وجل المسلمين عنهم فلم يقاتلوهم.

﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ﴾: بعد هذا التقريع والتوبيخ الذي يتعظ به من يأتي بعدهم قال بعده: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ﴾ ونحن لو فعلنا كما فعلوا، هل نحن ضامنون أن يعفو الله عنا؟ لكن الصحابة عفا الله عنهم، وصار ما فعلوه كأن لم يكن.

وقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾:

ولم يقل الله عزّ وجل تقاتل في سبيل كذا. وهذا من باب الاكتفاء بأحد الوصفين عن الآخر، الأولى: قال: ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: فئة (مؤمنة) تقاتل في سبيل الله. والأخرى قال: ﴿كَافِرَةٌ﴾ ولم يقل: تقاتل في سبيل الطاغوت. فحذف من الأولى مقابل ما ذكر في الثانية. حذف من الأولى

(مؤمنة) التي تقابلها ﴿كَافِرَةٌ﴾، وحذف من الثانية ضد ما ذكر في الأولى؛ فحذف (في سبيل الطاغوت)، وقد ذكر في الأولى ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وهذا من باب الاكتفاء بذكر أحد الوصفين عن الآخر، وهو من البلاغة الإيجازية.

وقوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾:

وفي قراءة سبعية: (ترونهم) والرائي هم المقاتلون في سبيل الله، أو الكفار. فالضمير يصلح لهذا وهذا، لكن (ترونهم) واضح أنها تعود إلى الكفار؛ ترون الفئة التي تقاتل في سبيل الله مثلي الكفار، لكن رؤيا فقط ليست حقيقية كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٤].

﴿يَرَوْنَهُم﴾: يعني يشاهدونهم بأعينهم أنهم مثليهم سواء كانوا مؤمنين أم كفاراً، فإن كانوا مؤمنين يرون الكفار مثليهم. فواضح أن الفئة القليلة هي المؤمنة وإن كان الكفار يرونهم مثليهم رأي العين، ففيها إشكال؛ لأن الكفار إذا كانوا يرون المؤمنين رأي العين مثليهم صارت الغلبة للأكثر! لكنهم قالوا: إن رؤيتهم إياهم مثليهم من باب إراءة الله إياهم كذلك، وإن كانوا في الواقع دون ذلك. والأقرب أن الرائي هم الطائفة المؤمنة، وأن المثلين الطائفة الكافرة، يعني: أنَّ الطائفة المؤمنة ترى الطائفة الكافرة مثليهم، وتحقق أن هؤلاء الكفار يبلغون ضعفيهم، إذا كان المؤمنون مائة فالكفار يكونون مائتين، فإذا قلنا: إن هذه الآية في قضية واقعة وهي في يوم بدر، صار عندنا إشكال كبير في قوله

﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ لأن عدد المؤمنين في بدر ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وعدد الكفار ما بين تسعمائة إلى الألف، ثلاثة أمثال أو أكثر. فذهب بعض العلماء إلى أنهم يرونهم مثليهم وإن كانوا في الحقيقة أكثر، وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالمثل هنا: الزائد وجعل معنى قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ أي يرونهم أكثر منهم. أما إذا قلنا: إنها ضرب مثل فلا إشكال فيه، وهذا هو المطابق لقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦].

ويوجد رأي ثالث وهو أن المراد بمثلين: أي ضعفين، وعليه يكون مطابقاً للواقع؛ لأن ضعف الشيء مثله مرتين، فإذا كان ضعفين صار ضعفه ثلاث مرات، والمشركون ما بين تسعمائة إلى ألف والمسلمون ثلاثمائة وبضعة عشر.

وقوله: ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾:

﴿رَأْىَ﴾: مصدر مؤكد لقوله: ﴿يَرَوْنَهُم﴾ إذا جعلنا الرؤية بصرية. وأما إذا جعلناها علمية، أي: يعلمونهم ﴿مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾، فهي أيضاً من باب التوكيد المعنوي، يعني: يعلمونهم علماً يقينياً كما يرونهم بأعينهم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾:

﴿يُؤَيِّدُ﴾: يقوي، والباء هنا باء الوسيلة، أي: يؤيد بسبب نصره من يشاء، كما يقال: ذبحت بالسكين وضربت بالعصا، فالنصر إذن وسيلة التأييد، فهو يقوي عزّ وجل بنصره من يشاء.

﴿مَن يَشَآءُ﴾: ممن تقتضي الحكمة نصره أو تأييده. ويجب أن نقرن كل آية جاءت بلفظ المشيئة، أو جاءت معلقة بالمشيئة بالحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: المشار إليه ما سبق من ذكر هذه القضية أي: إن في ذلك المذكور لعبرة، يعني: لاعتباراً، والاعتبار: مأخوذ من العبور من شيء إلى شيء، يعني: كأن الإنسان يعبر بعقله من المذكور إلى المعقول، فهنا ذكرت لنا قصة نأخذ منها عبرة بأن الفئة القليلة تغلب الفئة الكثيرة فيكون تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ﴾ [آل عمران: ١٢]. فإذا افتخر الكفار بكثرتهم، نقول لهم: إن كثرتكم لا تغني عنكم شيئاً، فهذه فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة، ومع ذلك صارت الغلبة للتي تقاتل في سبيل الله.

﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾: جمع بصر، كأسباب جمع سبب، ويشمل بصر الرؤية الحسية وبصر العقل ما دام أنهم يرونهم رأي العين، فيكون فيه عبرة لأولي الأبصار الذين رأوا بأعينهم، وكذلك هو عبرة لأولي الأبصار بعقولهم، ولو كانوا لم يروا ذلك رأي العين، لأنهم إذا سمعوا اعتبروا؛ فكان في ذلك عبرة لهم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ ضرب الأمثال بالأمور الواقعة؛ لأن ذلك أبلغ في التصديق والطمأنينة، ويتفرع على ذلك أنه ينبغي للواعظ والداعي

إلى الله عزّ وجل أن يضرب المثل للمدعوين بالأمور الواقعة؛ لأن ذلك أبلغ.

٢ ـ أن الإنسان مهما بلغ من الصدق فإنّ عَرْضَه الأمثال الواقعة تجعل كلامه حق اليقين.

والمراتب ثلاثة: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

علم اليقين: هو خبره الصادق.

وعين اليقين: ما تراه بعينك مشاهداً.

وحق اليقين: ما تدركه بحسك.

فإذا قال لك قائل: في جيبي تفاحة، وهو رجل صادق، فالذي أدركت من وجود التفاحة علم اليقين، فإذا أخرجها ونظرت إليها فهذا عين اليقين، فإذا أكلتها فهو حق اليقين، لأن هذا هو الواقع.

٣ ـ أن النصر ليس بكثرة العدد، ولا بقوة العُدد، ولكنه من الله؛ لأن الله لما ضرب هذا المثل قال: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ والوسيلة الحقيقية لنصر الله الذي به التأييد ما ذكره الله عزّ وجل بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ ـ إلى الآن لم يأت سبب النصر ـ ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]. هذا واحد، إخلاص العبادة لله عزّ وجل، هذا من أسباب النصر. وهناك أسباب أخرى ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤٠ ـ ٤١].

٤ ـ أن القتال لا يكون سبباً للنصر إلا إذا كان في سبيل الله، إخلاصاً، وموافقةً للشرع، واجتناباً للمحارم، فإذا تمت هذه الأمور الثلاثة فهذا هو الذي في سبيل الله.

٥ ـ أنه لا ألفة بين المؤمنين والكافرين؛ لقوله: ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ فمن حاول أن يجمع بين المؤمنين والكافرين فقد حاول الجمع بين النار والماء. وهذا شيء غير ممكن؛ لا يمكن لأولياء الله أن يكونوا متآلفين مع أعداء الله، ومن حاول أن يؤلف بين أولياء الله وأعداء الله فمعنى ذلك أنه سوف يقضي على ولاية الله؛ لقول الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١] واتخاذهم أولياء معناه: أن يتولاهم وينصرهم، لا أن يتقرب إليهم لدعوتهم، وكيف يمكن لشخص يقول إنه من أولياء الله، وإنه مؤمن بالله أن يوالي أعداء الله الكافرين بالله؟! هذا لا يمكن. ولهذا نجد أن الصراع بين أتباع الرسل وأعداء الرسل قائم دائم، إما بالقول، وإما بالفعل؛ إما بالقول: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢]. وإما بالصراع المسلح كما هو معروف.

٦ ـ أن الله تعالى قد يري المجاهدين الأمر على الواقع، أو على خلاف الواقع؛ لحكمة. كما تشهد بذلك آية الأنفال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤] لأن الإنسان إذا رأى عدوه قليلاً نشط على القتال، وإذا رآه كثيراً تخاذل، فالله سبحانه وتعالىٰ أرى المؤمنين الكفار

قليلاً، وأرى الكافرين المؤمنين قليلاً، لأجل أن يتقدم كل واحد على القتال.

٧ ـ إثبات أفعال الله؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

٨ ـ الرد على الجبرية في قوله: ﴿تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. فأضاف الفعل إليها، والجبرية يقولون: إنه لا يضاف الفعل إلى الفاعل إلا على سبيل المجاز، كما نقول: أكلت النار الحطب.

٩ ـ إثبات المشيئة لله؛ لقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

١٠ ـ أنه لا يعتبر بالأمور إلا أولو البصائر؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

١١ ـ أنك إذا وجدت من نفسك عدم اعتبار واتعاظ بما يجري، فاعلم أنك ضعيف البصيرة؛ لأن الله إذا أثبت العبرة لأولي الأبصار، فإن انتفاء العبرة يدل على ضعف البصيرة أو عدمها بالكلية.

١٢ ـ الثناء على أهل البصيرة؛ لأن السياق فيهم، ويتضمن القدح في عُمْي القلوب.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

هذه سبعة: النساء، والبنون، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾: أي جعلت هذه الأشياء مزيَّنة في قلوبهم.

والمزيِّن هو الله، وقد أضاف الله التزيين إلى نفسه في عدة آيات: قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤].

وأضاف التزيين إلى الشيطان، فقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤]. لكن تزيين الشيطان إنما كان بالنسبة لأعمال هؤلاء، يعني: زين لهم الأعمال، أما الأشياء المخلوقة فالذي يزينها هو الله عزّ وجل ابتلاء واختباراً، لأنه لولا تزيين هذه الأشياء في قلوب الناس ما عرف المؤمن حقاً. لو كان الإنسان لا يهتم بمثل هذه الأمور، لم يكن هناك ما يصده عن دين الله. فإذا ألقي في قلبه حب هذه الشهوات، فإن قَوِيَّ الإيمان لا يقدمها على محبة الله عزّ وجل. ألم تروا إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله**»[1]. هذا ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، والمرأة ذات المنصب والجمال هي من أشد ما يتعلق به الإنسان في النساء، ودعته في موضع خال ليس فيه أحد، لكن قال: إني أخاف الله، فالموانع منتفية، وأسباب الفاحشة موجودة متوفرة، ومع ذلك قال: إني أخاف الله. إذن فهذا التزيين ابتلاء واختبار من الله عزّ وجل.

قال الله تعالى: ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ولم يقل حب

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب فضل من ترك الفواحش، رقم (٦٨٠٦). ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١).

النساء، يعني: أن يتزوج الإنسان المرأة لمجرد الشهوة، لا لأمر آخر، ولهذا لا يدخل في هذا رسول الله ﷺ، ولا يقال: إنه ممن زين له حب الشهوات، لأنه عليه الصلاة والسلام لم يتزوج امرأة بكراً سوى عائشة رضي الله عنها، ولو كان يريد الشهوة لاختار الأبكار الجميلات، ولا يمنعه مانع من ذلك. ولكنه قال: «**حبّب إليّ من دنياكم النساء والطيب**»[1] لما في اختيار النساء من قِبَلِه عليه الصلاة والسلام من المصالح العظيمة، كاتصاله بالناس وقبائل العرب، وكذلك نشر العلم عن طريق النساء، لا سيما العلوم البيتية التي لا يطلع عليها إلا النساء، إلى غير ذلك من المصالح، لأن تزيين حب النساء إذا كان لغير مجرد الشهوة قد يحمد عليه الإنسان، لكن إذا كان لمجرد الشهوة فهذا من الفتنة، ولهذا قال: ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

وقوله: ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾: يحب البنين لا ليكونوا عوناً له على طاعة الله، ولكن ليفتخر بهم، وكانوا في الجاهلية يفتخرون بالبنين، ويتشاءمون بالبنات. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ [النحل: ٥٨ ـ ٥٩] يختفي منهم مخافة المسبة، ثم يفكر ويقدر ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ يعني: أيمسك هذا المولود وهو أنثى على هون وذل وهضم لحقها أم يدسه في التراب، أي: يدفنها حية في التراب؟ قال تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٩].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨). والنسائي، كتاب النساء، باب عشرة النساء، رقم (٣٩٣٩). والحاكم (٢/ ١٦٠) في الصلاة وصححه، وأبو يعلى (٦/ ١٩٩). وحسَّن الحافظ في التلخيص (٣/ ١٣٤) رواية النسائي.

ولا شك أن كثيراً من الناس زيّن لهم حب البنين شهوةً، وليس الشهوة الجنسية، ولكن شهوة الفخر والشرف.

وقال تعالى: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾:

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾: جمع قنطار، قيل: المراد به ألف مثقال ذهب، فإذا صارت قناطير تكون آلافاً، و﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ أي: المعتنى بها، وقيل: إن القنطار ما يملأ مسك الثور ـ يعني: جلد الثور ـ من الذهب، وهذا أكثر من ألف مثقال، وقد ذكر الله تعالى هذه المبالغ من الذهب والفضة لأنه كلما كثر المال في الغالب افتتن به الإنسان، فإذا كانت قناطير مقنطرة من الذهب صارت الفتنة بها أشد.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ نصَّ عليهما لأنهما أغلى ما يكون من الأموال، ولذلك تتعلق الرغبات بهذين الجوهرين الذهب والفضة، حتى لو وجدت جواهر نفيسة لا تجد تعلق القلوب بهذه الجواهر كتعلقها بالذهب والفضة.

وقوله: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾:

﴿وَٱلْخَيْلِ﴾: هي هذه الحيوانات المعروفة، وسميت خيلاً لأن صاحبها غالباً يبتلى بالخيلاء، لأنها أفخر المراكب، فالراكب لها يكون في قلبه خيلاء، أو لأنها هي تختال في مشيتها، ولهذا ترى الخيل عند مشيتها ليست كغيرها، تشعر بأن فيها ترفعاً واختيالاً. قال بعضهم: أو لأنها يخيل إليها أنه لا شيء يساميها، وهذا لا ندري عنه، اللهم إلا ما يظهر من أثر ذلك مثل اختيالها في مشيتها، وأصحابها لا شك أنهم يرون أنهم فوق الناس، لأنها أفخر المراكب في ذلك الوقت وإلى الآن، قال النبي عليه الصلاة

والسلام: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**»[١].

ومن المعلوم أن الآية هنا في سياق مَنْ أحب شهوة الخيل، يعني: اتخذها شهوة. فهذا هو محل التزيين المذموم، أما من اتخذها ليجاهد بها في سبيل الله فهذا لا شك أنه خير له، كما أن من أحب الذهب والفضة لا للشهوة وجمع المال، ولكن لما يترتب على المال من المصالح فهذا محمود. **والخيل قسَّمها الرسول ﷺ إلى أقسام ثلاثة**[٢]:

الأول: من اتخذها فخراً وخيلاء وليناوئ بها المسلمين، فهذا عليه وزر.

الثاني: من اتخذها ليجاهد عليها في سبيل الله، فهذا له أجر.

الثالث: من اتخذها للركوب والتنمية والاستفادة من ورائها، فهي له ستر.

وقوله: ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ قيل: معنى المسومة هي التي تسوم، أي: تطلق لترعى كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠] وقيل: المسومة المعلمة التي جعل عليها أعلام للزينة والفخر مثل أن يجعل عليها ريش النعام أو أشياء أخرى تحسنها.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، رقم (٢٨٥٠). ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الخيل وأن الخير معقود بنواصيها، رقم (١٨٧٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، رقم (٣٦٤٦). ومسلم، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم (٩٨٧).

وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾:

قوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: جمع نَعم، كأسباب جمع سبب، وهي الإبل والبقر والغنم، وهذه الأنواع من الحيوانات هي محل رغبة الناس أيضاً، أكثر الناس يقتنون الإبل والبقر والغنم، لا تجدهم يقتنون الظباء أو ما أشبهها من الحيوانات، وإنما يعتنون باقتناء هذه الأنواع الثلاثة في البادية وفي الحاضرة، لكنها في البادية أكثر، وأغلى هذه الأنواع هي: الحُمْر من الإبل، ولذلك يضرب بها المثل في الغلاء والمحبة، قال عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي طالب وقد وجّهه إلى خيبر قال: «**انفذ على رسلك، ثم ادعهم إلى الإسلام، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النَّعَم**»(١).

وقوله: ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾: يعني حرث الأرض للزراعة.

فهذه سبعة أشياء: النساء، والبنون، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث، ولو فتشت عامة رغبات الناس في هذه الدنيا لوجدتها لا تخرج عن هذه الأشياء السبعة في الغالب، وإلا فهناك أشياء أخرى محل رغبة عند الناس مثل: القصور المشيدة، والمنازل الفاخرة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: أعاد اسم الإشارة على مفرد مذكر على تقدير:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم (٣٧٠٢). ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم (٢٤٠٦).

ذلك المذكور، فطوى ذكر هذه السبعة كلها، وكنَّى عنها بالمذكور، وذلك لاحتقارها بالنسبة لنعيم الآخرة.

وقوله: ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: المتعة التي يتمتع بها الناس في الحياة الدنيا، وغايتها الزوال، فإما أن تزول عنها، وإما أن تزول عنك، أما أن تخلد لك أو تخلد لها، فذلك مستحيل، لا بد أن تفارقها أو أن تفارقك هي، وهذا أمر لا يحتاج إلى إقامة برهان، فهذه الأشياء لو اجتمعت كلها للمرء فما هي إلا متاع الحياة الدنيا، يتمتع بها الإنسان ثم يفارقها أو تفارقه هي.

وقوله: ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بخلاف الحياة الأخرى، وهي الحياة الحقيقية، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، أما الدنيا فهي حياة بسيطة ليست بشيء، قال النبي ﷺ: «**لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[1]، وموضع السوط حوالي متر، و(**خير من الدنيا وما فيها**) الدنيا منذ خلقت إلى يوم القيامة بكل ما فيها من نعيم، وذلك لأن نعيم الدنيا في الحقيقة كأحلامنا، واعتبر الأمر بما مضى من عمرك.

و(**دنيا**): مؤنث أدنى، ووصفت بهذا الوصف لدنو مرتبتها بالنسبة للآخرة، فليست بشيء بالنسبة للآخرة. ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]، وكذلك سميت دنيا لأنها أدنى من الآخرة باعتبار الترتيب الزمني، فهي دنيا، أي: قريبة للناس.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).

إذن ما دمنا نعرف أن هذا متاع الحياة الدنيا فلننظر إلى هذه الأشياء نظرة جدٍّ لا نظرة شهوة، فإذا كان ذلك ينفعنا في الآخرة فالنظر إليه طيب ونافع، ويكون من حسنة الدنيا والآخرة. أما إذا نظرنا إليه مجرد نظر الشهوة فإنه يخشى على المرء أن يغلب جانب الشهوة على جانب الحق، ولهذا أدنى الله مرتبة هذه الأشياء ووضعها حيث قال: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾:

يعني: حسن المرجع في الدار الآخرة؛ لأن مرجع كل إنسان إلى الآخرة، إما إلى جنة، وإما إلى نار، وليس ثمة دار أخرى ثالثة، كل الناس، بل كل الجن والإنس مآلهم في الآخرة إلى الجنة أو إلى النار، وليس ثمة دار أخرى.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ حكمة الله عزّ وجل في ابتلاء الناس بتزيين حب الشهوات لهم في هذه الأمور السبعة.

ووجه الحكمة: أنه لولا هذه الشهوات التي تنازع الإنسان في اتجاهه إلى ربه لم يكن للاختبار في الدين فائدة. فلو كان الإنسان لم يغرس في قلبه أو في فطرته هذا الحب لم يكن في الابتلاء في الدين فائدة؛ لأن الانقياد إلى الدين إذا لم يكن له منازع يكون سهلاً ميسراً، ولهذا أول من يستجيب إلى الرسل الفقراء الذين ـ غالباً ـ حرموا من الدنيا، لأنه ليس لديهم شيء ينازعهم لا مال ولا رئاسة ولا غير ذلك.

٢ ـ أنه لا يذم من أحب هذه الأمور على غير هذا الوجه، وهو محبة الشهوة، وذلك لأنه إذا زينت له محبة هذه الأمور لا

لأجل الشهوة لم يكن ذلك سبباً لصده عن دين الله، لأن أكثر ما يفتن الإنسان الشهوة إذا لم يكن هناك شبهة، فإن كان هناك شبهة واجتمع عليه شبهة وشهوة حصلت له الفتنتان. ويدل لذلك أن النبي ﷺ قال: «**حبّب إليّ من دنياكم النساء والطيب**»[١]، ويدل لذلك أيضاً أن النبي ﷺ **رغّب في النكاح وحثّ عليه وأمر به الشباب**[٢]، والنبي ﷺ **حثّ على تزوج المرأة الولود**[٣]، والولود كثيرة الولادة، وإذا كانت ولوداً كثر نسلها، ومن نسلها البنون. فالمهم أن محبة هذه الأشياء لا من أجل الشهوة أمر لا يذم عليه الإنسان.

٣ ـ قوة التعبير القرآني، وأنه أعلى أنواع الكلام في الكمال، ولهذا قال: ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ ولم يقل: حبّ النساء، أو حبّ البنين، أو حبّ القناطير المقنطرة، بل قال: حبّ الشهوات من هذه الأشياء، فسلّط الحب على الشهوات، لا على هذه الأشياء، لأن هذه الأشياء حبها قد يكون محموداً.

٤ ـ تقديم الأشد فالأشد، ولهذا قدَّم النساء، ففتنة شهوة النساء أعظم فتنة، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**ما**

---

(١) تقدم تخريجه (ص٨٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب قول النبي ﷺ: «من استطاع...»، رقم (٥٠٦٥). ومسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، رقم (١٤٠٠).

(٣) أخرجه أحمد (٣/١٥٨). وأبو داود، كتاب النكاح، باب النهي من تزوج من لم يلد من النساء، رقم (٢٠٥٠). والنسائي، كتاب النكاح، باب كراهية تزويج العقيم، رقم (٣٢٢٧).

تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»[١]. ولهذا بدأ بها فقال: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

٥ ـ أن البنين قد يكونون فتنة، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، والأولاد أعم من البنين.

٦ ـ أن الذهب والفضة من أشد الأموال خطراً على الإنسان، ولهذا قدَّمها على بقية الأموال، فقال: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ لأنها أعظم المال فتنة، لا سيما الموصوفة بهذه الصفة، أنها قناطير مقنطرة.

٧ ـ أنه كلما كَثُرَ المال ازدادت الفتنة في شهوته؛ لقوله: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾.

ولهذا نجد بعض الفقراء يجود بكل ماله، والغني لا يجود بكل ماله، بل بعض الأغنياء ـ نسأل الله العافية ـ يبتلون كلما كَثُر مالهم اشتد بخلهم ومَنْعهم.

٨ ـ أن الخيل أعظم المركوبات فخراً، ولا سيما إذا كانت مسومة أي: معلمة معتنى بها، أو مسومة مطلقة في المراعي معتنى بها في رعيها، فإنها تكون أعظم المركوبات فتنة.

٩ ـ أنَّ فتنة الأنعام ـ الإبل والبقر والغنم ـ دون فتنة الخيل بناءً

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾، رقم (٥٠٩٦). ومسلم، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، وبيان فتنة النساء، رقم (٢٧٤٠).

على الترتيب، والترتيب في هذه الآية يكون من الأعلى إلى الأدنى.

١٠ ـ أن من الناس من يفتن في الحرث بالزراعة، فيفتن بها ويزرع على الوجه المشروع وغير المشروع.

١١ ـ أن هذه الأشياء كلها لا تعدو أن تكون متاع الحياة الدنيا؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٢ ـ التزهيد في التعلق بهذه الأشياء؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وكل ما كان للدنيا فلا ينبغي للإنسان أن يتبعه نفسه لأنه زائل، فلا تتبع نفسك شيئاً من الدنيا إلا شيئاً تستعين به على طاعة الله. وأنت سوف تنال منه ما يناله من أتبع نفسه متاع الحياة الدنيا للدنيا، فمثلاً: الطعام، من الناس من يأكله لأجل أن يحفظ بدنه امتثالاً لأمر الله، واستعانة به على طاعة الله، فيؤجر على ذلك، ومن الناس من يأكله لمجرد شهوة ليملأ بطنه فيحرم هذا الأجر، لأنه نوى به مجرد الشهوة فقط.

١٣ ـ تنقيص هذه الحياة؛ لقوله: ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فوالله إنها لناقصة، إن داراً لا يدري الإنسان مدة إقامته فيها، وإن داراً لا يكون صفوها إلا منغصاً بكدرٍ، وإن داراً فيها الشحناء والعداوة والبغضاء بين الناس وغير ذلك من المنغصات؛ إنها لدنيا.

١٤ ـ أن ما عند الله خير من هذه الدنيا؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾.

١٥ ـ ما أشار إليه بعضهم من أن من تعلق بهذه الأشياء تعلُّق شهوةٍ فإن عاقبته لا تكون حميدة؛ لأن الله عندما ذكر التعلق على وجه الشهوة بهذه الأشياء قال: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ فكأنه

يقول: ولا حسن مآب لهذا المتعلِّق بهذه الأشياء أي: إن عاقبته ليست حميدة، هكذا ذكره بعضهم، ولكن في النفس منه شيء.

والذي يظهر لي أن الآية ختمت بهذا: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ من أجل ترغيب الإنسان فيما عند الله عزّ وجل، وأن لا يتعلق بمتاع الحياة الدنيا، ويدل لما ذكرتُ قوله: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ﴾ [آل عمران: ١٥].

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال الله تعالى: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

قوله: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ﴾ يعني: أأُخبركم بخير من ذلكم؛ يعني: المشار إليه في الآية السابقة. والاستفهام يفيد تنبيه المخاطب وحضور قلبه لما سيلقَى إليه، فهو كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الصف: ١٠]، ثم إن في هذا الاستفهام معنى غير التنبيه وهو: التشويق، يعني: بعد أن قصّ الله علينا متاع الحياة الدنيا أمر نبيَّه أن يقول للناس: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ﴾؛ ليشوقهم إلى ذلك الخير.

وقال: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾ ولم يقل: «أأخبركم»، لأن النبأ إنما يقال في الأمور الهامة، كقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ: ١ ـ ٢]، ولهذا قيل للنبي: «نبي»، ولم يُقَل: «مخبِر». فهذا أمر هام يحتاج إلى الإنباء عنه.

وقوله: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾ فيها قراءة (أؤنبئكم) بتحقيق الهمزتين

بدون مدٍّ، وفيها قراءة ثانية (آؤنبئكم) أي: بتحقيق الهمزتين بالمد.

وقوله: ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾، ولم يقل: «من ذلك»، لأن المخاطب جميع الناس، والمشار إليه ما سبق من متاع الحياة الدنيا بأنواعها السبعة، وأشير إليها بلفظ المفرد المذكر من أجل طي ذكره بشيء واحد، كأنه قال: بخير من ذلكم المذكور حتى لا يشار إلى التفصيل فيه؛ لأن الدنيا كلها في الواقع ينبغي أن يزهد فيها الإنسان ولا يحتسبها شيئاً، كقوله ﷺ: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[1] ولم يذكرها تحقيراً لها.

وجواب الاستفهام هو مضمون قوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي﴾، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ خبر مقدم، و﴿جَنَّاتٌ﴾: مبتدأ مؤخر، وتقديم الخبر يفيد الحصر؛ لأن من القواعد المعروفة في البلاغة: أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

والتقوى أحياناً توجه لله عزّ وجل كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]. وأحياناً نؤمر باتقاء يوم القيامة كما في قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]. وأحياناً نؤمر باتقاء النار: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

ولكن المعاني وإن اتفقت في أصل الوقاية، فإنها تختلف؛

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف بدء الوحي إلى الرسول ﷺ، رقم (١). ومسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»، رقم (١٩٠٧).

لأن تقوى الله عزّ وجل تستلزم الخوف منه وتعظيمه. أما النار فإن تقواها تستلزم الخوف منها فقط، لكنها ليست تقوى عبادة وإنابة وتعلق بها، بل تقوى فرار منها، وكذلك تقوى اليوم الذي نرجع فيه إلى الله، وهو يوم القيامة.

فقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ ينبغي أن نحملها على أعلى أنواع التقوى وأفضلها، وهي تقوى الله عزّ وجل، لا تقوى اليوم الآخر، ولا تقوى النار؛ لأن تقوى الله تحمِل على تقوى اليوم الآخر، وعلى تقوى النار.

قال بعض العلماء في تقوى الله: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى الله، على نور من الله، تخشى عقاب الله. وهذا يتضمن الإخلاص والعلم.

(العلم) من قوله: على نور من الله. و(الإخلاص) من قوله: ترجو ثواب الله، وتخشى عقاب الله. يعني: لا يحملك على هذا حب الدنيا أو الجاه أو الرئاسة، أو ما أشبه ذلك.

وقال بعض العلماء: إن تقوى الله أن يخلي الإنسان جميع الذنوب صغيرها وكبيرها. وعلى هذا قول الشاعر[1]:

خلِّ الذنوب صغيرها ... وكبيرها ذاك التقى
واعمل كماشٍ فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى

وقال بعض العلماء: تقوى الله عزّ وجل: اتخاذ وقاية من عذاب الله، بفعل أوامره واجتناب نواهيه. وهذا أجمع ما قيل في التقوى.

---

(١) هو عبد الله بن المعتز ـ في ديوانه.

ثم اعلم أن التقوى أحياناً تقرن بالبر، وأحياناً تفرد. فإن قرنت بالبر صار معناها: اجتناب المعاصي. والبر: فعل الطاعات، وإن أفردت عنه صارت شاملة لفعل الأوامر واجتناب النواهي، ولهذا الاستعمال في الكلمات نظائر كثيرة، كالفقير والمسكين، الفقير والمسكين إن ذكرا جميعاً صار لكل واحد منهما معنى، وإن أُفرد أحدهما صارا بمعنى واحد.

كذلك الإيمان والإسلام؛ عند الإفراد يدخل أحدهما في الآخر، وعند الجمع يكون لكل واحد منهما معنى غير الآخر.

قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: العندية هنا: تفيد فضلاً عظيماً؛ لأنها هي القرب من الله عزّ وجل. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦] وكما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠].

فثواب المتقين عند الله، والعندية تفيد القرب، ولا أقرب من شيء يكون سقفه عرش الله عزّ وجل، كالفردوس الأعلى. ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥]. أسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهلها.

وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: الرب كما سبق هو الخالق المالك المدبر، وسبق أيضاً أن ربوبية الله سبحانه وتعالىٰ تنقسم إلى عامة وخاصة، والربوبية هنا: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ربوبية خاصة؛ لأن الله وفقهم لما حرمه كثيراً من عباده.

وقوله: ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

﴿جَنَّٰتٌ﴾: كثيرة ومتنوعة ذكر الله تعالى في سورة الرحمن أن أجنانها أربعة، فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢].

وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام: **أنها جنتان من ذهب وجنتان من فضة**(١)، وهذا باعتبار الجنس. أما الأنواع فكثيرة؛ لأن لكل أمة ما يختص بها من الثواب، ولكل فرد من الأمة ما يختص به من الثواب.

ونحن نعرف الآن أن الفواكه في الدنيا اسمها واحد، ولكنها تختلف؛ فالرمان مثلاً في هذا البستان يكون جيداً، وفي هذا البستان يكون رديئاً، وكذلك بقية الفواكه.

كذلك الجنة تختلف حتى وإن اشتركت في أن أكلها رمان، وأكلها فواكه وما أشبه ذلك، فإنها تختلف من شخص لآخر، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢]. وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام **أن أهل الجنة يتراءون أصحاب الغرف العالية كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق**(٢).

فهي درجات عظيمة، فهنا قال: ﴿جَنَّٰتٌ﴾ بالجمع لتعدد أجناسها وأنواعها وأفرادها.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، رقم (٤٨٧٨). ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالىٰ، رقم (٤٤٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٥٦). ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكواكب في السماء، رقم (٧١٤٤).

والجنة في الأصل: البستان الكثير الأشجار، ولكن المراد بالجنات التي وعد الله بها المتقين: هي دار النعيم المقيم التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ليس من تحت أرضها، بل من فوق أرضها، لكن من تحت أشجارها وقصورها، أنهار مطردة، وأنهار مختلفة الأنواع، أربعة أنواع: أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى.

هذا الماء لم يخرج من الآبار، ولم يذب من الجليد، وهذا العسل لم يخرج من نحل، وهذا اللبن لم يخرج من بهيمة، ولكن الذي خلق هذا في الدنيا من هذه الأشياء المعلومة قادر على أن يخلقه عزّ وجل في الآخرة ابتداء.

فهذه الأنواع الأربعة تجري من تحت هذه القصور، والأشجار اليانعة التي تبهج الناظرين وتسر القلب لا يتصور الإنسان ما فيها من النعيم.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

هذا أيضاً من كمال النعيم (الخلد)، لا يذوقون فيها الموت، بل يقال لهم: «**خلود ولا موت**»[1]، فيسرون، بل يقال لهم: «**إن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، وأن تصحوا فلا تسقموا**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾، رقم (٤٧٣٠). ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٩).

أبداً، وأن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وأن تحيوا فلا تموتوا أبداً»[١].

كل الآفات المنغصة للنعيم في الدنيا، كلها تنفى عنه ولهذا قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

وقوله: ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾:

معطوفة على جنات، وعطفها عليها لاختلاف في نوع التلذذ؛ فالتلذذ بالجنات تلذذ شهوة بطن، والتلذذ بالأزواج تلذذ من نوع آخر، والإنسان الذي له زوجة في الدنيا، تبقى زوجةً له في الآخرة، وإذا كانت ذات زوجين، فإنها تخيَّر بينهما، وإذا لم يكن للرجل زوجة، ولا للمرأة زوج في الدنيا، فإنه في الجنة يزوَّج هذا من هذه.

وهناك أزواج أيضاً من نوع آخر، وهن الحور العين، داخلة في قوله: ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: من كل رجس حسي أو معنوي.

فالحسي: مثل البول والغائط والحيض والعرق المنتن والمخاط وما أشبه ذلك.

والمعنوي: مثل الغل والحقد والفجور وكراهية الزوج وما أشبه ذلك.

وذلك لأن الله أطلق فقال: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ ولم يقل من كذا وكذا، فَدَلَّ على العموم؛ لأن من القواعد المعروفة أن حذف المعمول يؤذن بعموم العامل.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، رقم (٢٨٣٧).

ولهذا أمثلة كثيرة منها قوله تعالى للرسول ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨]. قال: ألم يجدك يتيماً ولم يقل: فآواك، ووجدك ضالاً ولم يقل: فهداك، مع أن الخطاب له، ووجدك عائلاً ولم يقل: فأغناك، بل حذف المفعول ليؤذن بعموم العامل. فالرسول عليه الصلاة والسلام: وجده ربه يتيماً فآواه، وآوى به، حتى جعله مأوى لكل مؤمن، ووجده ضالاً فهداه وهدى به، وكذا وجده عائلاً فأغناه وأغنى به.

وقال: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ ولم يقل: مطهرات؛ لأن نعت الجمع يجوز أن يكون مجموعاً ويجوز أن يكون مفرداً، إلا جمع المؤنث السالم فإنه يكون مجموعاً؛ فتقول مثلاً: مررت بنساء مؤمنات، ولا تقول: بنساء مؤمنة، ومررت بمسلمات صالحات، ولا تقول: بمسلمات صالحة.

وقوله: ﴿وَأَزْوَاجٌ﴾ جمع تكسير؛ فيجوز في وصفه الإفراد والجمع، يجوز أزواج مطهرات، وأزواج مطهرة. قال ابن مالك: (والله يقضي بهبات وافرة)، ولو قال: وافرات لصحَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

هذا من أعظم شيء؛ أن الله سبحانه وتعالىٰ يحل عليهم رضاه فلا يسخط عليهم بعده أبداً، كما قال الله تعالى لما عدد نعيم أهل الجنة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وأعظم من ذلك النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالىٰ، كما قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] فلا ألذ ولا أمتع ولا أحسن لأهل الجنة من النظر إلى وجه الله

سبحانه وتعالىٰ، فأعلى شيء هو النظر إلى وجه الله عزّ وجل، والرضوان يليه، ثم المتع الجسدية في الجنة تلي هذا، ولهذا قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فأفرده بالذكر؛ لأنه نعيم قلب، وما سبقه نعيم بدن وجسد، ولهذا يقول الله عزّ وجل: «**إني أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً**»(١).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾:

أي: الذين يريدون الدنيا، والذين يريدون الآخرة، فهو بصير بهم بصر نظر وبصر علم، أما بصر النظر فلا يغيب عن نظره شيء، وأما بصر العلم فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

وقوله: ﴿بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: العبودية العامة، فهو بصير بكل العباد، مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، متقيهم وعاصيهم، وهو سبحانه وتعالىٰ بصير بمن يستحق أن يكون من المتقين، وبصير بمن يستحق أن يكون من العاصين، المعصية بحكمته وعدله، والطاعة برحمته وفضله.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أهمية هذا النبأ، وذلك من وجهين: **الأول**: تصديره بـ﴿قُلْ﴾، فهو أمر بتبليغه على وجه الخصوص، وهذا يدل على العناية به، وإلا فكل القرآن قد أمر النبي ﷺ أن يقوله للأمة. **والثاني**: إتيانه بصيغة الاستفهام الدالة على التشويق.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٤٩). ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، رقم (٢٨٢٩).

٢ ـ أن النبي ﷺ عبدٌ يُؤمر ويُنهى؛ لقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم﴾ وليس له حقٌّ في الربوبية أبداً، فهو لا يحيي ولا يميت، ولا يرزق ولا يدفع الضر عن نفسه ولا عن غيره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

٣ ـ عناية الله سبحانه وتعالىٰ بخلقه؛ فإنه لما ذكر ما زُيِّن لهم من الشهوات في الأمور السبعة، أمر الله رسوله ﷺ أن ينبئهم بما هو خير من ذلك.

٤ ـ حسن أسلوب التعليم والدعوة، وأنه ينبغي للإنسان في مقام الدعوة أن يأتي بالألفاظ التي توجب الانتباه؛ لأن الإنسان إذا قيل له: ألا أنبئك بكذا وكذا، سوف يتشوق وينتبه، بخلاف ما لو جاء الكلام مرسلاً.

٥ ـ جواز المفاضلة بين شيئين بينهما فرق عظيم؛ لقوله: ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾؛ ومعلوم أن كل ما ذكر من الشهوات السبع لا يساوي شيئاً أبداً بالنسبة لثواب الآخرة. ومن ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[1]. ومنه قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، وفي مقام موافقة الخصم بدعواه قال الله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

٦ ـ أن هذا الخير الذي شوَّق الله العباد إليه ثابت للمتقين؛ لقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وفي ذلك الحث على تقوى الله.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).

٧ ـ أن هذا الخير لهؤلاء المؤمنين في أكرم جوار، وهو جوار رب العالمين؛ لقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾.

٨ ـ عظم هذه الجنات لكونها عند الله بجواره سبحانه وتعالىٰ.

٩ ـ عناية الله سبحانه وتعالىٰ بهؤلاء القوم، حيث أضافهم إليه بالربوبية الخاصة في قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

١٠ ـ أن هؤلاء المتقين يتنعمون في ثواب الله بكل أنواع النعيم، بالأكل والشرب والنكاح، وهذه أصول لذائذ البدن.

١١ ـ فضيلة الأزواج في الجنة بكونهن مطهرات حسًّا ومعنى.

١٢ـ أن تمام نعيم هؤلاء برضوان الله؛ لقوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقد بيّن الله سبحانه في سورة التوبة أن هذا الرضوان أكبر النعيم فقال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

١٣ ـ إثبات صفة الرضا لله تعالى، وهو من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته؛ متى وجد سبب الرضا وجد الرضا، وكل صفة تكون معلقة بسبب فإنها من الصفات الفعلية.

١٤ ـ إحاطة الله سبحانه وتعالىٰ بالعباد علماً ورؤية؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

١٥ ـ بيان حكمة الله عزّ وجل؛ حيث قسَّم الناس قسمين: متقين وعصاة، أخذاً من قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، بعد قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: ١٤].

١٦ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ حكيم؛ حيث جعل التقوى في

أهلها؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فمن بصره بعباده أن جعل هؤلاء متقين والآخرين عصاة، وهؤلاء ثوابهم الجنة، وأولئك ثوابهم النار.

١٧ ـ أن كل الخلق عباد لله، المتقي منهم وغير المتقي؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، بعد قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾.

١٨ ـ التحذير من مخالفة أمره؛ لأنه متى علم الإنسان أن الله بصير به، فسوف يردع نفسه عن مخالفة ربه؛ لأنه إذا خالف ربه فالله بصير به، وسوف يجازيه بحسب مخالفته.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٦ ـ ١٧].

قوله عزّ وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾:

هذا بيان للذين اتقوا ربهم، لا للعباد؛ لأن العباد كلَّهم لا يتصفون بهذه الصفات، لكن المتقين منهم هم الذين يتصفون بهذه الصفات.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ يريد بذلك القول باللسان والاعتقاد بالجنان؛ لأن الله تعالى إذا أطلق القول بالإيمان ولم يتعقبه، كان المراد به القول باللسان، والعقد بالجنان. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]. لما كان المراد بهذا القول، القول باللسان فقط، قال: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾. أما إذا أطلق الله قول اللسان

﴿ءَامَنتُ﴾ فإنه يريد به القول باللسان والعقد بالجنان؛ ولهذا قال الله عزّ وجل: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، فلا يريد منا أن نقول ذلك بألسنتنا فقط، بل بألسنتنا وقلوبنا.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ﴾ توسلوا إلى الله بربوبيته، للإخبار بحالهم في الإيمان به، كأنهم يقولون: ربنا آمنا، ولكننا لم نصل إلى الإيمان إلا بربوبيتك لنا، تلك الربوبية الخاصة المقتضية للعناية التامة.

وقوله: ﴿إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ مؤكد بـ (إنَّ) وقد سأل جبريل النبي ﷺ: ما الإيمان؟

قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**»[1].

وقال الله تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. فالإيمان هنا يشمل الإيمان بكل ما يجب الإيمان به، وهو ستة أنواع: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره. والإيمان ليس هو مجرد التصديق؛ ولهذا يقال: (آمنا به) ويقال: (آمنا له) وبينهما فرق، والإيمان لا بد أن يكون مقروناً بقبول وإذعان؛ يعني: يصدق، ثم يقبل، ثم يذعن، فهذا هو الإيمان، ولهذا يقال: (آمنت به) ولا يقال: (آمنته).

ولو كان الإيمان مرادفاً للتصديق لصحَّ أن يقال: (آمنته) كما يقال: (صدقته).

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٢).

ولهذا كلنا يعلم أن أبا طالب مصدق لرسول الله ﷺ، ويرى أن ما أخبر به مثل الشمس، حتى إنه يقر بذلك في قصائده ويقول:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

ويقول:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لرأيتني سمحاً بذاك مبينا

إذن هو مصدق، لكن لم يكن تصديقه هذا متضمناً للقبول والإذعان، فلم يقبل منه.

وقوله: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾:

الفاء هنا للسببية، أي: بسبب إيماننا فاغفر لنا؛ لأن الإيمان لا شك أنه وسيلة للمغفرة، وكلما قوي الإيمان قويت أسباب المغفرة، حتى إنه إذا أخلص الإنسان إيمانه صارت حسناته تذهب سيئاته، ولهذا قال: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾، أي: بسبب الإيمان اغفر لنا، وهذا من باب التوسل بالطاعة لقبول الدعاء.

وقوله: **(اغفر)**: فعل دعاء وليس فعل أمر؛ لأن العبد لا يأمر الله لكنه يدعوه. إذن كل فعل بصيغة الأمر موجَّه إلى الله، يسمى فعل دعاء، ولا يسمى فعل أمر.

والمغفرة: مأخوذة من الغفر، وهو الستر مع الوقاية، ومنه (المِغْفَر) الذي يلبسه المقاتل في رأسه ليستر الرأس ويقيه السهام، فليست المغفرة مجرد الستر، بل هي ستر ووقاية، ولهذا نقول: مغفرة الذنوب سترها عن الناس، والعفو عن عقوباتها.

ويدل لهذا أن الله سبحانه وتعالىٰ يخلو يوم القيامة بعبده

المؤمن، ويقرره بذنوبه؛ يقول: عملت كذا، وعملت كذا وكذا، وعملت كذا حتى يقر، فيقول الله عزّ وجل: «**قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»(١). يعني: لا أجازيك عليها.

ويقال: إن بني إسرائيل كان الواحد منهم إذا أذنب ذنباً أصبح وذنبه مكتوب على بابه ـ والعياذ بالله ـ فضيحة. أما هذه الأمة فستر الله عليها ولله الحمد، ولكن فتح لها أبواب التوبة كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

والله عزّ وجل يمهل الإنسان ويحلم عليه، وإذا وفق اتعظ من نفسه بنفسه؛ فيستحي من الله عزّ وجل، ويخشى أن يفضحه الله؛ لأن الإنسان إذا تجرأ على ربِّه في السر، فربما يفضحه في العلانية إذا لم يتب إلى الله عزّ وجل، فإن تاب تاب الله عليه، وأبدل سيئاته حسنات.

وقوله: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾:

الذنوب: هي المعاصي، وهي إما كبائر، وإما دون ذلك وهي الصغائر، وكلها تحتاج إلى مغفرة. والصغائر إما أن تكفر بالحسنات أو بالتوبة؛ فإذا كفرت بالحسنات فإنها تمحى فقط، ولا تبدل بحسنات، وإذا كفرت بتوبة أبدلت بحسنات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [هود: ١١٤]، وقال: ﴿إِلَّا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١). ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨).

مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾:

من الوقاية، والمراد: قنا العذاب عند استحقاقنا له، وقنا العذاب حتى لا نعمل العمل الذي يوصلنا إلى العذاب.

ثم هؤلاء إذا هم عملوا عمل أهل النار، فالله تعالى يقيهم ذلك بأمور متعددة.

وقد ذكر العلماء أسباب مغفرة الذنب فبلغت نحو عشرة أسباب؛ منها: أن يوفّق الإنسان للتوبة، فإن تاب الإنسان من الذنب، وقاه الله تعالى عقاب ذلك الذنب كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣]. ومنها الأعمال الصالحة، والصدقة، ودعاء المؤمنين، ومشيئة الله عزّ وجل كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

نعت لقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥] والصابر: اسم فاعل من الصبر، وهو في الأصل: الحبس، والمراد به شرعاً: حبس النفس عن محارم الله، وأنواعه ثلاثة:

١ ـ صبر على طاعة الله عزّ وجل.

٢ ـ صبر عن معصية الله.

٣ ـ صبر على أقدار الله المؤلمة.

أما الصبر على الطاعة: فإن الإنسان يجد منه معاناة عظيمة عندما يهمُّ بالطاعة؛ لأنه يجد نفسه الأمّارة بالسوء والشيطان

يحاولان أن يصداه عن طاعة الله، حتى إذا أعانه الله على ذلك تغلب على هذين العدوين، وفعل ما أمر الله به.

وأما الصبر عن المعصية، لا سيما مع قوة الداعي لها، وعدم المعارض؛ فإنه لا ينجو منها إلا من عصمه الله؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام في جملة من يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله قال: «**رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله**»[1]. ومن ذلك صبر يوسف عليه الصلاة والسلام، عندما دعته امرأة العزيز، وهي سيدته، لكنه عليه الصلاة والسلام رأى برهان ربه، فعصمه الله عزّ وجل.

ومن ذلك الرجل الإسرائيلي الذي كان يراود ابنة عمه عن نفسها، وتأبى عليه. فلما ألمّت بها سَنَةٌ جاءت إليه، ومكَّنته من نفسها، فلما جلس منها مجلس الرجل من امرأته، قالت له: **اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقام عنها وهي أحب الناس إليه، لكن لما ذكرته بالله عزّ وجل اتقى الله**[2].

وأما الصبر على أقدار الله المؤلمة، وهذا كثير، ومن ذلك صبر أيوب عليه الصلاة والسلام، فإنه صبر صبراً عظيماً، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] ومن ذلك أيضاً: الصبر على أقدار الله المؤلمة المترتبة على طاعة الله، كصبر الرسل على أذية الناس من أجل الدعوة إلى الله. فهؤلاء

---

(١) تقدم تخريجه (ص٨٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيراً فترك أجره، رقم (٢٢٧٢). ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، والتوسل بصالح الأعمال، رقم (٢٧٤٣).

صبروا على الأقدار المؤلمة المترتبة على فعل اختياري منهم وهو طاعة الله بتبليغ رسالته.

ونضرب مثلاً بصبر سيد الخلق عليه الصلاة والسلام، مع الحلم والأناة والعفو والتسامح، كما حصل له مع أهل الطائف[١]، وقبل ذلك مع أهل مكة؛ فقد كان ذات يوم عليه الصلاة والسلام يصلي حول الكعبة في آمَنِ مكانٍ على وجه الأرض، ساجداً لله عزّ وجل، فجاءه سفهاء قومه، فوضعوا سلا جزور على ظهره ﷺ وهو ساجد، حتى جاءته ابنته فاطمة رضي الله عنها فأزالت الأذى عن ظهره[٢]. ومع ذلك صبر وصابر، ولم يخرج من مكة إلا بعد أن أذن الله له.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

الصدق: هو المطابقة للواقع، والصادق هو الذي يكون خبره مطابقاً للواقع. والكاذب خلاف ذلك.

والصدق: يكون بالقول ويكون بالفعل، ويكون مع الله ويكون مع عباد الله. أما الصدق بالقول: فهو مطابقة القول للواقع؛ فإذا قيل لك: جاء زيد، وكان قد جاء، فهو مطابق للواقع، فيكون صدقاً.

والصدق من صفات المؤمنين، والكذب من صفات المنافقين، وقد حثّ النبي عليه الصلاة والسلام على الصدق،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المسلم قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته، رقم (٢٤٠). ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤).

وقال: «**عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً**»(١).

والصديقية مرتبة تلي مرتبة النبوة، فهي في المرتبة الثانية ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

وأما صدق الفعل: فهو أن لا يظهر خلاف الباطن، فمن يظهر لك المودة وقلبه يبغضك، أو يظهر أنه مؤمن ويصلي ويتصدق ويحضر مجالس العلم، لكن قلبه منطوٍ على الكفر ـ والعياذ بالله ـ فهذا كاذب كذباً فعلياً، حيث أظهر خلاف ما يبطن.

فالأول كاذب مع عباد الله. والثاني كاذب مع الله.

والحاصل: أنَّ الصدق خُلُقٌ عظيم، لا يناله إلا من وفَّقه الله ممن أنعم الله عليهم، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾:

القانتون: اسم فاعل من القنوت، والقنوت يطلق على عدة معان، وأنسبها لهذه الآية أن المراد بالقنوت: دوام الطاعة مع الخشوع والخضوع لله عزّ وجل، بحيث يكون الإنسان مديماً

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وما ينهى عن الكذب، رقم (٦٠٩٤). ومسلم، كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧).

لطاعة الله مقبلاً على الله سبحانه وتعالىٰ في طاعته. قال الله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، أي: خاشعين، ولهذا لما نزلت هذه الآية أمروا بالسكوت ونهوا عن الكلام(١).

وقوله: ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾:

المنفقون من أنفق أي: بذل النفقة، والنفقة هي إخراج المال، وبيّن سبحانه وتعالىٰ في آيات أخرى الميزان للإنفاق، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، فلا يكون الإنسان مقتراً ولا مسرفاً، وهذا الميزان يختلف باختلاف الأحوال والأزمان والبلدان، فقد يكون الإنفاق إسرافاً بالنسبة لشخصٍ وليس بإسراف بالنسبة لآخر. فإنفاق الفقير ليس كإنفاق الغني، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧].

وأما مَنِ الذين يُنْفَقُ فيهم؟ فبيّنه الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥]، فجهات الإنفاق كل جهة محتاجة، أو يحتاج المسلمون إليها، فالإنفاق في سبيل الله

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب ما يُنهى عنه من الكلام في الصلاة، رقم (١٢٠٠). ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٩).

لحاجة المسلمين إلى الجهاد في سبيل الله؛ لأن الجهاد في سبيل الله إعلاء لكلمة الله عزّ وجل وحفظ لشريعته، والإنفاق على الفقير لحاجة الفقير، وليس لحاجة المسلمين.

وقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾:

المستغفرون: هم السائلون لمغفرة الله، والمغفرة: هي ستر الذنب والتجاوز عنه.

وقوله: ﴿بِٱلْأَسْحَارِ﴾ الباء: هنا للظرفية، أي: فيها، والأسحار جمع سحر، وهو آخر الليل، أي: يسألون المغفرة في هذا الوقت من الزمن في آخر الليل؛ لأنه وقت نزول الله عزّ وجل إلى السماء الدنيا، فإن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا حين يتبقى ثلث الليل الآخر فيقول: «**من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟**»[1].

ولأنه وقت فراغهم من التهجد، والإنسان مطلوب منه إذا فرغ من العبادة أن يستغفر الله، **ولهذا يشرع لنا أن نستغفر الله تعالى ثلاثاً بعد الصلاة**[2]. وأمر الله سبحانه وتعالىٰ أن نستغفر في الحج: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]، وسؤال المغفرة بعد الانتهاء من العبادة فيه كمال الذل لله عزّ وجل، وأن الإنسان لا يعجب بعمله بل يخشى من التقصير فيه.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٨).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩١).

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ أن من صفات المتقين إعلانهم الإيمان بالله، واعترافهم بالعبودية؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾، والقول هنا يكون باللسان ويكون بالقلب.

٢ ـ أن من صفات المتقين عدم الإعجاب بالنفس، وأنهم يرون أنهم مقصرون لطلبهم المغفرة من الله؛ لقولهم: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾.

٣ ـ أن التقوى لا تعصم العبد من الذنوب، بل قد يكون له ذنوب، لكن المتقي يبادر بالتوبة إلى الله عزّ وجل.

٤ ـ جواز التوسل بالإيمان؛ لقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ فإن الفاء هنا للسببية، تدل على أن ما بعدها مسبب عما قبلها.

٥ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله المغفرة والوقاية من النار؛ لقوله: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

وسؤال المغفرة يغني عن سؤال الوقاية من النار، إلا أنه في باب الدعاء ينبغي البسط لأربعة أسباب:

السبب الأول: أن يستحضر الإنسان جميع ما يدعو به بأنواعه.

السبب الثاني: أن الدعاء مخاطبة لله عزّ وجل، وكلما تبسط الإنسان مع الله في المخاطبة كان ذلك أشوق وأحبّ إليه مما لو دعا على سبيل الاختصار.

السبب الثالث: أنه كلما ازداد دعاءً، ازداد قربه إلى الله عزّ وجل.

السبب الرابع: أنه كلما ازداد دعاء، كان فيه إظهار لافتقار الإنسان إلى ربِّه؛ ولهذا جاء: «**اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقَّه وجلَّه، علانيته وسره، وأوله وآخره**»[1]، وهذا يغني عنه قوله: «اللهم اغفر لي ذنبي»، بل لو قال: «اللهم اغفر لي» لكان صحيحاً لكن مقام الدعاء ينبغي فيه البسط.

٦ ـ إثبات عذاب النار؛ لقوله: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾. وعذاب النار إما دائم مستمر، وهذا لأصحاب النار الذين هم أصحابها، وإما مؤقت، وهذا لأصحاب المعاصي؛ فإنهم يعذبون بحسب معاصيهم، إذا لم يغفر الله لهم.

٧ ـ فضيلة هذه الصفات التي أثنى الله عليها، وهي: الصبر، والصدق، والقنوت، والإنفاق، والاستغفار في الأسحار، والحثُّ على الاتصاف بها.

٨ ـ أن الصبر أفضل هذه الصفات؛ لأن الإنسان إذا حقق الصبر حقق جميع هذه الصفات؛ لأن من أقسام الصبر: الصبر على طاعة الله وعن معصيته.

٩ ـ ذمُّ الاتصاف بضدِّ هذه الصفات، وهي: الجزع، والكذب، وقلة الطاعة، والبخل والشح، والاستكبار عن الاستغفار.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء...، رقم (١٤٩٦). ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٢١).

□ ثم قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾:

الشهادة قد تكون بالقول، وقد تكون بالفعل. وشهادة الله سبحانه وتعالىٰ لنفسه بانفراده بالألوهية هنا، كشهادته لرسوله ﷺ بأنه أنزل عليه الكتاب بقوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ﴾ [النساء: ١٦٦]؛ فقد شهد عزّ وجل هو وملائكته لنفسه بالوحدانية، ولنبيه ﷺ بالرسالة، والشهادة في الموضعين قولية.

وأما الشهادة الفعلية ففيما يظهره الله سبحانه وتعالىٰ من آياته؛ فكل الكائنات تشهد لله عزّ وجل بالوحدانية بلسان الحال، وكذلك تأييده لنبيه ﷺ بالنصر، وجعل العاقبة له، هو شهادة له بأنه رسول الله حقًّا.

وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

أي: لا معبود حق إلا الله، فكل ما عُبد من دون الله فهو باطل، وإن سمي إلهاً؛ فإن ألوهيته مجرد تسمية. كما قال الله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ [يوسف: ٤٠]، فلا معبود حق إلا الله. وأما المعبود باطلاً فهو موجود؛ كما سمَّى الله تعالى الأصنام آلهة في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ﴾ [هود: ١٠١]، وقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]،

وقـــال: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

معطوفة على اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾؛ يعني: وشهدت الملائكة أنه لا إله إلا الله.

وقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾:

أصحاب العلم الذين رزقهم الله سبحانه وتعالىٰ العلم، يشهدون أيضاً أنه لا إله إلا الله. والمراد بالعلم: العلم بالله عزّ وجل.

وقوله تعالى: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾:

﴿قَآئِمَۢا﴾: حال من لفظ الجلالة، يعني: حال كونه قائماً بالقسط، أي بالعدل. وذلك في أحكامه التكليفية، وأحكامه القضائية والجزائية، فليس فيها جور، وتتضمن الفضل والعفو والإحسان. ولهذا قال الله عزّ وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال الله عزّ وجل: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، هذا أمر زائد على العدل. ومن ذلك أنه يجزي الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بمثلها أو يعفو، إلا من كان كافراً فليس أهلاً للعفو، فلا يعفى عنه.

والله سبحانه وتعالىٰ يقتص للمظلوم من الظالم، إما بإجابة دعوة المظلوم إن دعا على ظالمه في الدنيا، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل، وقد بعثه إلى اليمن: «**إياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله**

حجاب»[١]. وإما بالأخذ من حسناته يوم القيامة. كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**من تعدون المفلس فيكم؟**» قالوا: من لا درهم عنده ولا متاع، أو قالوا: ولا دينار. قال: «**المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد ظلم هذا، وضرب هذا، وشتم هذا، وأخذ مال هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن بقي من حسناته شيء وإلا أخذ من سيئاتهم فطرح عليه وطرح في النار**»[٢].

فلا بد من العدل بين العباد. ولهذا قال العلماء رحمهم الله: إن الحقوق التي بين العباد من الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً، فلا بد أن يقتص للمظلوم من الظالم.

فإن قال قائل: إنَّ الناس يصابون بالنكبات من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات؛ ألا يكون هذا ظلماً؟

فالجواب: كلا، ليس بظلم؛ لأن هذا بما كسبت أيدي الناس، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

إذن فهذه المصائب فضل؛ لأن المقصود بها تأديب الخلق وردعهم حتى يرجعوا إلى الله عزّ وجل، فليس هذا من باب الظلم في شيء، بل هو من باب الجزاء بالعمل لغاية حميدة، وهي رجوع الناس عن ظلمهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، رقم (٤٣٤٧). ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين، رقم (١٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١).

ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: ٦١].

وقوله: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

هذا حكم بعد الشهادة. فشهد الله لنفسه أنه لا إله إلا هو، وحكم لنفسه أيضاً بأنْ لا إله إلا هو، فاجتمع في كلامه عزّ وجل الشهادة والحكم، فكان شاهداً لنفسه، حاكماً لها بالألوهية؛ لأن المعروف في المحاكمات والمرافعات أن تؤدى الشهادة أولاً، ثم يأتي الحكم. فالله تعالى شهد أولاً، وأخبر بمن شهد معه، ثم حكم ثانياً.

والمتكلمون يفسرون هذه الجملة العظيمة بأن المراد بها القادر على الاختراع، ففسروها بما يقر به المشركون، ولم يكونوا موحدين. فالمشركون يقرون بأن الله هو القادر على كل شيء، وأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر للأمر، ومع ذلك هم مشركون قاتلهم الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنهم لم يحققوا معنى (لا إله إلا الله). وأنت إذا قرأت كتب هؤلاء المتكلمين وجدت كلامهم في الألوهية يدور على تحقيق الربوبية فقط، وهذا نقص عظيم، ومن مات على ذلك دون أن يؤمن بأنه لا معبود حق إلا الله، فإنه لم يمت على التوحيد.

وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾:

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: أي ذو العزة، و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ مأخوذ من الحكم ومن الإحكام، فهو ذو الحكم وذو الإحكام، وسبق الكلام عليهما مفصلاً في أول السورة.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان فضيلة التوحيد؛ حيث أخبر الله به عباده بلفظ الشهادة.

٢ ـ فضيلة الملائكة؛ حيث جعلهم الله تعالى في المرتبة الأولى في الشهادة بالتوحيد بعده سبحانه وتعالى.

٣ ـ فضيلة العلم وأهله؛ لقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾.

٤ ـ تأكيد الشيء الهام، وإن كان المخبِر به من أهل الصدق، حيث صدر الله تعالى وحدانيته بالشهادة، وبيّن أن هذه الشهادة ليست له وحده بل له وللملائكة ولأولي العلم.

٥ ـ وصف الله تعالى بتمام العدل؛ لقوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾.

٦ ـ أن الله عزّ وجل لما شهد لنفسه بانفراده بالألوهية، أكد ذلك بالحكم به لنفسه، فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٧ ـ انفراد الله سبحانه وتعالىٰ بالألوهية؛ فيتفرع على ذلك أن من أشرك مع الله أحداً في العبادة، فَعَبَدَه كما يعبد الله فإنه مشرك، وعمله مناف للتوحيد.

٨ ـ إثبات العزة والحكمة لله؛ لقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وأن عزة الله مبنية على الحكمة، وتنزيل الأشياء في منازلها، وهذا مأخوذ من ضم الاسمين الكريمين بعضهما إلى بعض؛ لأن العزيز من المخلوقين قد تأخذه العزة بالإثم فلا يقول الحق، أما الله عزّ وجل فإنه يقول الحق مع كمال عزته.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩].

﴿إِنَّ﴾ فيها قراءتان: القراءة الأولى: فتح الهمزة، والثانية: كسر الهمزة؛ فعلى قراءة فتح الهمزة تكون عطف بيان لقوله: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]، يعني: وشهد أنه لا إله إلا هو، وأن الدين عند الله الإسلام.

و﴿ٱلدِّينَ﴾: يراد به العمل، كما في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، أي: لكم عملكم ولي عملي، وكما في قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، ويراد به الجزاء كما في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

والمراد به في هذه الآية العمل، يعني: إن الدين الذي هو عبادة الله والعمل له، هو الإسلام.

و﴿ٱلْإِسْلَٰمُ﴾: مصدر أسلم يسلم. والإسلام هو التعبد لله تعالى بما شرع، حال قيام الشريعة. وهذا الإسلام بالمعنى العام. أما الإسلام بالمعنى الخاص ـ وهو المراد هنا ـ فهو التعبد لله بشرع محمد ﷺ.

والدليل على هذا التقسيم من القرآن أنَّ الله تعالى وصف إبراهيم بأنه كان حنيفاً مسلماً. وقال عن ملكة سبأ: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]. وقال يعقوب لبنيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]. وقال عن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ

وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤]. والآيات في هذا كثيرة.

ولهذا لو سألنا سائل: هل اليهود والنصارى مسلمون؟ فنقول: أما بالمعنى العام فهم مسلمون، يعني: أنه لما كانت شريعة التوراة قائمة، وكانوا يتبعونها، فهم مسلمون بلا شك. وأما بالمعنى الخاص الذي لا يراد سواه بعد بعثة محمد عليه الصلاة والسلام، فليسوا بمسلمين، بل هم كفار بمحمد ﷺ.

وهنا ننبِّه أن كثيراً من الكُتَّاب اليوم إذا تكلموا عن اليهودية والنصرانية والإسلام، يقولون: هذه الأديان السماوية. فيظن السامع أن دين اليهود قائم، وأن دين النصارى قائم، كقيام دين الإسلام. وهذا لا يصح، فإن هذه الأديان أديان سماوية بلا شك، لكنها حرِّفت، وبُدِّلت، وغُيِّرت ونسخت ببعثة محمد ﷺ، فليست ديناً يرتضيه الله اليوم، بل المتمسكون بها كفار، لا يعدون من المسلمين.

وربما توهم بعض العامة أن اختلاف هذه الأديان كاختلاف المذاهب الإسلامية، يعني: كاختلاف مذهب الشافعي، ومالك، والإمام أحمد، وأبي حنيفة، وهذا خطأ عظيم؛ لأنه من زعم أن هناك ديناً قائماً بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام فهو كافر، فإن دينه نسخ جميع الأديان، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾.

والمراد بالإسلام هنا الدين كله بجميع شرائعه الظاهرة والباطنة، فليس قَسِيم الإيمان المذكور في حديث جبريل عليه السلام[1]، بل المراد به ما يعمُّ جميع شرائع

(١) تقدم تخريجه (ص٦٢).

الإسلام فالصلاة من الإسلام، والزكاة من الإسلام، والتوكل على الله من الإسلام، والخوف منه من الإسلام، وهكذا جميع شرائع الدين من الإسلام. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ يعني: إن المرجع في كون هذا الشيء ديناً أو غير دين، هو الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾:

يعني: أن الإسلام قد اتفقت عليه الأمة، ولم تختلف فيه، لكن الأمم السابقة جرى منهم الاختلاف، ومع ذلك لم يختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم، وعلموا الحق لكنهم اختلفوا فيه بغياً وعدواناً، كل واحد منهم يبغي على الآخر؛ كل واحد منهم يقول: إن دينك باطل، فتفرقوا وتمزقوا. وهذا كما وجد في الأمم السابقة، وُجِدَ في هذه الأمة؛ نجد بعض العلماء يخالف الآخرين، ثم يجعل من هذا الخلاف خلاف قَلْبٍ؛ فتتنافر القلوب وتتشتت، فمن كان على ذلك ففيه شبه من اليهود والنصارى.

وقوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: العلم بالشريعة، فبعد أن عرفوا الشريعة وفهموها تنازعوا فيها. وقوله: ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ يعني أن الحامل لهم على هذا الاختلاف هو البغي، حيث إن بعضهم يبغي على بعض؛ ولهذا جرى بين اليهود وبين النصارى من الحروب ما هو معلوم.

وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾:

﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾ الجملة هذه شرطية. فعل الشرط: يكفر،

وجوابه جملة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾. وارتبطت جملة الجواب بالفاء لأنها جملة اسمية، كما قيل:

اسمية طلبية وبجامد وبما ولن وبقد وبالتنفيس

والكفر بآيات الله يدور على أمرين: الجحد والتكذيب، والاستكبار والعناد.

فالجحد والتكذيب: كما فعل المشركون مع النبي ﷺ، وكما فعل أعداء الرسل من قبل.

والاستكبار والعناد: بحيث يعلم الحق ثم يستكبر عنه ويعاند، كما هو كفر إبليس، وبين الكفرين تلازم، فإن المكذب مستكبر، والمستكبر وإن لم يكذب بلسانه، فهو مكذب بعمله؛ لأنه لم ينقد لأمر الله.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآيات نوعان: كونية، وشرعية.

فالكفر بالآيات الكونية: أن ينكر أن الله عزّ وجل هو الذي خلقها، أو أن يعتقد بأن لله تعالى شريكاً فيها، أو أن يعتقد بأن لله تعالى معيناً فيها. كل هذا كفر بالآيات الكونية، كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

فنفى الله في الآية ثلاثة أشياء:

١ ـ لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض على سبيل الاستقلال.

٢ ـ ما لهم فيهما من شرك على سبيل المشاركة.

٣ ـ ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي: لله ﴿مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: من معين.

ثم قال في الرابع: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، لكمال سلطانه، لا أحد يشفع إلا من أذن الله له.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾:

وهذه الجملة خبرية يقصد بها التهديد، أي: سيحاسبه، وهو سريع الحساب عزّ وجل.

والسرعة في الزمن والتقرير. أما في الزمن فإن الدنيا مهما طالت فهي سريعة الزوال، وكذلك أيضاً سريع الحساب يوم القيامة فإن الله تعالى يفرغ من الخلائق كلهم في مقدار نصف يوم، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، والقيلولة تكون في نصف النهار. وهذه سرعة الحساب. وقد سأل أبو رزين العقيلي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يحاسبنا الله في يوم القيامة وهو واحد ونحن جميع ـ الجماعة الكثيرة ـ؟، فقال: «**ألا أخبرك** ـ أو **أنبئك** ـ **على شيء من آلاء الله؟**» ـ يعني تستدل به على إمكان ذلك ـ، قال: بلى، قال: «**هذا القمر واحد، والذي يشاهده كل من على وجه الأرض**»[1].

أما السرعة في التقرير في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾:

الحساب: أن يحاسب الإنسان ويناقش، لكن لكلٍّ صفة، فالمؤمن لا يناقشه الله عزّ وجل، ولكنه سبحانه وتعالىٰ يقرره بذنوبه، ويقول: عملت كذا في يوم كذا في يوم كذا فيقر[2]. وأما

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند، رقم (١٥٧٧٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٠٩).

حساب الكفار: يحاسبون فيقفون على أعمالهم، ويخزون بها والعياذ بالله، ويقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أنَّ الدين الذي يُعتد به، ويكون مقبولاً عند الله هو الإسلام، وكل دين يخالف الإسلام في أي زمان فليس بمقبول ولا مرضي عند الله. والإسلام بعد بعثة الرسول ﷺ هو ما جاء به الرسول، وعلى هذا فدين اليهودية والنصرانية دين باطل غير مقبول عند الله، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنه «**ما من يهودي ولا نصراني من هذه الأمة** ـ يعني أمة الدعوة ـ **يسمع به** ـ يعني بالرسول ﷺ ـ **ثم لا يتبع ما جاء به إلا كان من أهل النار، أو من أصحاب النار**»[1]، فمن ادعى أن دين اليهودية أو النصرانية أو غيرهما من الأديان مقبول عند الله الآن فهو كافر؛ لأنه مكذب بالقرآن: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾.

٢ ـ بيان ضلال أولئك القوم الذين إذا تكلموا عن الديانات، قرنوا بين دين الإسلام، واليهودية، والنصرانية، وقالوا: هذه هي الأديان السماوية؛ حتى إن الجاهل ليظن أن اختلاف الأديان الثلاثة كاختلاف المذاهب الفقهية في الأمة الإسلامية. وهذا ضلال عظيم ومداهنة لليهود والنصارى، بل نقول: إن الأديان السماوية، اليهودية والنصرانية، كانت أدياناً

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا ﷺ إلى جميع الناس، رقم (٣٨٦).

مقبولة عند الله. أما الآن فقد نسخها الله عزّ وجل، وصار الدين السماوي المقبول الذي لا يمكن أن يشركه دين آخر، هو ما جاء به محمد ﷺ.

٣ ـ أن اختلاف اليهود والنصارى كان عن علم، وبعد أن جاءهم العلم اختلفوا، ولهذا قال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾.

٤ ـ أن اختلاف هؤلاء ليس لقصد الحق، بل لقصد البغي والعدوان، بعضهم على بعض، حتى يضلل بعضهم بعضاً، بل ويكفر بعضهم بعضاً.

٥ ـ الإشارة إلى التحذير مما وقع فيه هؤلاء الكفار الذين أوتوا الكتاب. ووجه ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾، والبغي معلوم أنه محذر منه، غير مرغوب فيه.

٦ ـ الإشارة إلى أنه يجب على الإنسان إذا خالفه غيره، ألا يتطاول عليه، وألا يقصد بسوق الأدلة المؤيدة لقوله البغي على غيره، والتطاول عليه، بل يقصد إظهار الحق، لينتفع هو وينفع غيره. أما أن يأتي بالأدلة من أجل أن يعلو على أخيه، ويكون قوله هو الأعلى، فهذا خطأ عظيم.

٧ ـ التحذير من الكفر بآيات الله؛ لقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

٨ ـ أنه إذا كان التحذير من الكفر بآيات الله؛ فعلى العكس من ذلك الحثُّ على الإيمان بآيات الله؛ لأن القدح في الشيء مدح لضده.

٩ ـ بيان قدرة الله عزّ وجل بكونه سريع الحساب.

١٠ ـ أنه لا بد أن يحاسب الإنسان على عمله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. والحكمة تقتضي ذلك، وإلا فما الفائدة أن تُخْلَق هذه الخليقة العظيمة، وتُنَزَّل عليها الكتبُ، وتُرسل إليها الرسلُ، وتؤمر وتُنهى، ثم في النهاية ينتهون إلى تراب!!

١١ ـ بيان أنه ينبغي للعاقل أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب. كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا. فكون الإنسان يحاسب نفسه ليصلح ما عساه فسد، أولى من سكوته وإهماله وعدم حساب نفسه؛ لأن الذنوب تتراكم عليه ثم يهلك.

١٢ ـ يستفاد من الآية الرد على الجبرية. ووجه ذلك: أن الله عزّ وجل أسند هذه الأفعال إلى فاعليها ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾، وما أشبه ذلك. كل ذلك يفيد أن للإنسان إرادة وفعلاً اختيارياً، خلافاً للجبرية الذين قالوا: إن أفعال العباد يجبر عليها الإنسان.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾: الخطاب للرسول ﷺ، والضمير في ﴿حَآجُّوكَ﴾ وهو الواو، قيل: لليهود، وقيل: للنصارى؛ لأن الآيات التي نزلت في أول سورة آل عمران كلها في النصارى،

وقيل: للمشركين؛ لأنهم كانوا يحاجون الرسول عليه الصلاة والسلام لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ويقولون: يا محمد، إنك تزعم أن الذي يدعو أحداً غير الله يكون هو ومن يدعوه في النار، إذن عيسى في النار، لأنه يعبد من دون الله، فأنزل الله تعالى بعد الآية مباشرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾[1] [الأنبياء: ١٠١ ـ ١٠٢].

والمهم أنَّ الله عزّ وجل يقول: إن حاجُّوك فقل لهم قولاً تخلص به منهم: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾، وإذا أسلم الإنسان وجهه لله، قبل كل ما يخبر الله به، وامتثل كل ما يأمر به، وانتهى عن كل ما نهى عنه؛ فهو مسلِّم وجهه لله.

والمراد بالوجه هنا ليس الوجه الذي هو الجارحة التي في الرأس، وإنما المراد: القصد، ووجهة القلب، كما قيل:

رب العباد إليه الوجه والعمل

وربما نقول: إنه يشمل هذا وهذا؛ لأن الإنسان يسلم وجهه لله، فتجده يضع وجهه الذي هو أشرف أعضائه على التراب ذلًّا لله، واستسلاماً له.

وإذا قلت: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ يترتب عليه تصديق خبر الله، وامتثال أمره، واجتناب نهيه، فهذه طريقتي، وأمرت أن أبلغكم، وقد بلغتكم، وليس عليَّ أكثر من ذلك: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

---

(١) انظر: ابن كثير (٣/ ١٩٩)، والدر المنثور (٥/ ٦٧٩).

وبهذا نعرف وجه مطابقة الجواب للشرط، وإلا فإن الإنسان قد يتوقع جواباً غير هذا. كأنْ يقال مثلاً: فإن حاجوك فحاججهم.

وقوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾:

(من) معطوفة على الضمير في (أسلمت)، ولا يجوز أن تكون معطوفة على لفظ الجلالة؛ لأن الرسول لا يسلم وجهه لمن اتبعه، وإنما يسلم وجهه لله. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، فإن بعض المعربين قالوا: إن (مَنْ) معطوفة على لفظ الجلالة يعني: حسبك الله وحسبك من اتبعك من المؤمنين، وهذا غلط؛ لأن النبي ﷺ حسبه الله وحده، وحسب من اتبعه من المؤمنين.

وكأن الذين قالوا: إن «من اتبعك من المؤمنين» معطوف على (الله) استندوا إلى قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]، وبينهما فرق عظيم؛ لأن ﴿أَيَّدَكَ﴾ أسند التأييد إلى الله، فالمؤيِّدُ هو الله، وجعل النصر والمؤمنين وسيلة.

وقوله: ﴿وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ فيها قراءتان، بسكون الياء وفتحها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ أي: على ما جئتُ به، من العقيدة والقول والعمل؛ وعلامة المتبع للرسول عليه الصلاة والسلام حقًّا، هو الذي إذا قيل له: قال رسول الله، صار كقول من يقال له: قال الله. وإذا قيل له: فعل رسول الله، لم يعدل بفعله فعل أحد من الناس. هذه حقيقة الاتباع. أما من قال شيئاً، أو فعل شيئاً، أو اعتقد شيئاً، ثم حاول أن يصرف كلام الرسول

عليه الصلاة والسلام إليه، فهذا حقيقةً ليس بمتبع؛ لأنه لم يذعن لما جاء به الرسول، إنما اتبع هواه، ثم حاول أن يلوي أعناق النصوص إلى ما يوافق هواه.

وهذه مسألة خطيرة، ومحنة عظيمة، أن تجعل الهدى تابعاً لهواك. والواجب أن يكون الهوى تابعاً للهدى!! تتعجب إذا قرأت في بعض الأحيان في كتب العلماء الأجلّاء في باب المناقشة، كيف يبنون الأدلة على ما يعتقدون من الأحكام أو من العقائد القلبية، ويحاولون أن يعطفوا هذه النصوص إلى ما يعتقدون؟!

وقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾:

هذا مما يدل على أن الواو في ﴿حَآجُّوكَ﴾ يشمل: اليهود، والنصارى، والمشركين. يعني: وقل هل أنتم تفعلون مثل فعلي؟

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ وهم العرب، وسموا أميين نسبة إلى الأم؛ لأن عامتهم جهال، إذ لم يأتهم رسول بعد إسماعيل عليه الصلاة والسلام، ومنهم من أخذ العلم ـ أي علم الرسالات الإلهية ـ عن النصارى مثل ورقة بن نوفل.

﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ فيها قراءتان، آأسلمتم، وأأسلمتم، أي: بتحقيق الهمزتين وإدخال ألف بينهما. والاستفهام هنا يراد به الأمر، يعني: قل للذين أوتوا الكتاب والأميين أسلموا، فهو مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨] يعني: فأسلموا.

وقيل: بل المراد أنه ينادي عليهم بالبلاهة، يعني: أأسلمتم

بعد هذا البيان وهذا الوضوح، أم أنكم بلهاء لم تفقهوا حتى الآن، ولم تسلموا مع ظهور المعنى ووضوحه، وهذا المعنى أبلغ من المعنى الأول.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾:

إن أسلموا بالإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ فقد اهتدوا هداية التوفيق، وسلكوا طريق الهداية؛ لأن الهداية نوعان: هداية دلالة، وهذه شاملة لكل أحد. قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] لا بد أن يهدي الله سبحانه وتعالىٰ كل أمة. وهداية التوفيق: وهذه خاصة بمن هدي بالإسلام في كل زمان ومكان بحسبه. فمن اهتدى هداية التوفيق فهو محل المدح والثناء، وأما الأول الذي اهتدى هداية الدلالة فمعناه علم الحق، فهذا إذا خالف الحق كان أشد ذمًّا ممن لم يعلم الحق

وقوله: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾: يعني استسلموا لله ظاهراً وباطناً.

أما باطناً: فالإيمان بما يجب الإيمان به، وهي الأركان الستة التي بيّنها الرسول ﷺ.

وظاهراً: بعمل الجوارح، وهو الإسلام المبني على خمسة أركان: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت.

﴿فَقَدِ اهْتَدَوا﴾: اهتدوا هداية توفيق، كما قد هدوا هداية دلالة.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ يعني: أعرضوا عن الإسلام فلم ينقادوا بظواهرهم ولا ببواطنهم، فقد أديت ما عليك، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾. وهذه الجملة جواب الشرط في قوله:

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ وهي تفيد الحصر، يعني: ما عليك نحوهم إلا البلاغ، وقد بلغ البلاغ المبين عليه الصلاة والسلام، أما الهداية فهي بيد الله سبحانه وتعالىٰ، ولو كان بيد النبي ﷺ شيء من الهداية ـ هداية التوفيق ـ لكان أول من يهتدي على يديه عمه أبو طالب.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾:

بصير بهم: أي عليم بأحوالهم، وعليم بأهلية من يصلح للهداية ومن لا يصلح.

والبصر هنا: بصر الرؤية، وبصر العلم. فالله تعالى بصير بالعباد (بالرؤية)، لا يخفى عليه شيء منهم. و(بالعلم): لا يخفى عليه شيء من أحوالهم.

والعباد هنا: يشمل جميع الخلق؛ لأنه ما من أحد في السموات ولا في الأرض إلا آتي الرحمن عبداً: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

فإذا كان الله بصيراً بالعباد، وأنت قد أديت ما عليك من البلاغ فالحساب على الله، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ في هذه الآية دليل على أن النبي ﷺ له من يحاجه من أعدائه، وهو كذلك فإنهم حاجوه في أصل الدين، وفي فروع الدين، وسخروا منه، وأوجدوا الشبهات الكثيرة.

٢ ـ أن هؤلاء الذين يحاجون الرسول عليه الصلاة والسلام لا يحتاجون إلى كبير عناء؛ لأنهم يحاجون على أمر واضح،

ولهذا أمره الله أن يقول: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾، فإن أسلمتم فهو لكم، وإن لم تسلموا فعليكم.

ويتفرع على ذلك أنَّ من علمت أنه إنما يحاجك لقصد نصر قول، ولو كان باطلاً، فلك أن تعرض عنه؛ ولتقل: هذا ما أدين الله به، وهذا ما أستسلم له وتدعه؛ لأنه معاند مكابر، وليس أهلاً لأن تدخل معه في محاجة أو خصومة.

٣ ـ أن أتباع رسول الله ﷺ يحذون حذوه في إسلامهم لله، وتفويض الأمر إليه؛ لقوله: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾.

٤ ـ أن الوجه أشرف الأعضاء، وهو الذي يكون به الانقياد وعدمه؛ لقوله: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾. ولهذا كان أقرب ما يكون العبد من ربِّه إذا كان ساجداً؛ لأنه يضع أشرف أعضائه على موطئ الأقدام.

٥ ـ أن النبي ﷺ متبوع لا تابع؛ لقوله: ﴿... وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾، ويتفرع على ذلك أن الواجب على من تبين له الحق أن يأخذ به، إذا كان يريد أن يكون من أتباع الرسول ﷺ، أما من يلوي أعناق النصوص إلى قوله، فهذا ليس بمتبع حقيقة؛ لأن بعض الناس إذا قال قولاً، وجاء في النص القرآني أو النبوي ما يخالف قوله، حاول أن يلوي عنق النص، ويحرف النص من أجل أن يكون موافقاً لقوله، وهذا حرام؛ لأنك أنت تابع، ولست بمتبوع.

٦ ـ أنه لا يمكن أن يكون قول أحد من أهل العلم حجة على الآخرين؛ لأن الكل تابعون لا متبوعون.

٧ ـ النداء بالسفه والبلاهة على من جادل وعارض دون أن

يستسلم لله؛ لقوله: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾، وإن جعلناها أمراً فالأمر واضح.

٨ ـ بيان عظيم منة الله عزّ وجل على العرب ببعثة الرسول ﷺ، ووجه ذلك: أنه قال ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾ وفرق بين الوصفين، بين من أوتي الكتاب، وبين الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، لكنهم ببعثة الرسول عليه الصلاة والسلام كانوا هم أهل الكتاب حقًّا؛ لأن هذا الكتاب الذي نزل على رسول الله ﷺ وصفه الله بأنه: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

٩ ـ وجوب الإسلام لله سواء قلنا إن الاستفهام للإنكار على هؤلاء، أو قلنا إنه للأمر؛ فإنه يدل على وجوب الإسلام والاستسلام لله عزّ وجل.

١٠ ـ أن أهل الهدى هم المسلمون؛ لقوله: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾.

١١ ـ أن من لم يسلم فهو ضال؛ فإن كان قد علم بالحق كان من الضالين المغضوب عليهم؛ لأن كل من علم الحق ولم يتبعه فهو مغضوب عليه.

قال الله عزّ وجل: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

١٢ ـ في هذه الجملة تحذير من تولى بعد أن دعي؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

١٣ ـ أنه لا يجب على الداعية إلا البلاغ، أما الهداية فإلى الله ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾.

١٤ ـ وجوب البلاغ على رسول الله ﷺ؛ لقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾، وكذا من آتاه الله علماً بهذا الوحي وجب عليه البلاغ، خلفاً لرسول الله ﷺ.

١٥ ـ الإشارة إلى أن الإنسان لا يُسْأَلُ عن عمل غيره، فيقوم بما يجب عليه، وأما غيره فأمره إلى الله؛ لقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾، ولم يقل: فإنما عليك إثمهم. وقد أشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى ذلك حين قال له قوم: يا رسول الله، إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال لهم: «**سموا أنتم وكلوا**»(١)، تنبيه إلى أنك إنما تطالب بفعلك، أما فعل غيرك فلست منه في شيء.

١٦ ـ عموم علم الله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: بجميع أحوالهم، ويتضمن التحذير من مخالفة الله.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

في هذه الآية قراءتان في كلمتين:

الأولى: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فيها قراءة: النبيئين.

الثانية: ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ فيها قراءة: ويقاتلون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب ذبيحة الأعرابي ونحوهم، رقم (٥٥٠٧).

الآيات: جمع آية، وهي في اللغة العلامة، وهي كونية وشرعية، فالآيات الكونية هي التي نشاهدها مما لا يستطيع البشر أن يخلقوا مثلها. وهي تدل على أن الخالق واحد لا شريك له، وعلىٰ أنه لا يشبهه شيء.

والآيات الشرعية أيضاً لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثلها: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وهي دالة على أن الذي أنزل هذه الآيات إله واحد وأنه كامل الحكمة.

والكفر بالآيات الكونية أن يجحد أن الخالق سبحانه وتعالىٰ خلقها، فيدَّعي أنَّ الذي خلقها غير الله، أو أن له شريكاً في خلقه، أو أن له معيناً في خلقه.

والكفر بالآيات الشرعية إما بجحودها وبتكذيبها، أو بالاستكبار والعناد، ومن تكذيبها أو الاستكبار عنها: تحريف النصوص، فإن تحريف النصوص نوع من الكفر بلا شك.

وقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾:

يقتلون النبيين الذين أرسلهم الله إليهم بغير حق. والنبيون هنا تشمل: الرسل ومن لم يرسل من النبيين، وما أكثر ما توجد هذه الصفة في اليهود؛ لأن اليهود هم أعتى المخالفين للرسل وأشدهم غلظة والعياذ بالله، فصار منهم من قتل الأنبياء بغير حق، وعبد الطاغوت.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ هذه الصفة لا يراد بها إخراج ما

خالفها، وإنما يراد بها بيان الواقع. والدلالة على أن هذا القتل كان عدواناً وظلماً.

وقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

والذين يأمرون بالقسط من الناس يشمل الرسل وغير الرسل من أهل العلم والخلفاء الراشدين، فحينئذ عطفه على النبيين من باب عطف العام على الخاص، ولكنه خصَّ الأنبياء؛ لأن قتلهم أعظم من قتل غيرهم.

وذكر الخاص بعد العام من باب ذكره مرتين: مرة بطريقة العموم، ومرة بطريقة الخصوص. ولكن خصّ من بين سائر الأفراد، وأعيد الحكم عليه من بين سائر الأفراد للاعتناء به والاهتمام به.

﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: أي بالعدل.

وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾:

الخطاب إما للرسول ﷺ، أو لكل من يتأتى خطابه.

وبشرهم: أي أخبرهم بعذاب أليم.

والعذاب: العقوبة.

والأليم: بمعنى المؤلم، وهذه البشارة هل هي على سبيل التهكم بهؤلاء أو هي من باب تشبيه البشارة بما يسوء بالبشارة بما يسر، بجامع أن كلاً منهما تتأثر فيه البشرة وتتغير؟

يحتمل هذا وهذا، ولكن إذا قلنا إنها من باب التهكم، استفيد بذلك زيادة الألم على هؤلاء المبشرين؛ كقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ

ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٧ ـ ٤٩].

﴿ذُقْ﴾: يعني قولوا له: ذق، إنك أنت العزيز الكريم. وهذه الجملة لا شك أنها ستبلغ في قلبه كل مبلغ، لأنه سيتذكر: أين العزة وأين الكرم، أين العزة التي بها أغلب، وأين الكرم الذي به أجود، فيكون أشد وقعاً وأشد تحسراً.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أنه ينبغي أن يعلن لهؤلاء الكفار بما أمر الله تعالى أن نبشرهم به: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، والنبي عليه الصلاة والسلام لا شك أنه كلما كانت الحكمة في تبشير هؤلاء بالعذاب الأليم بشرهم. وهكذا من ورث النبي ﷺ في العلم والدعوة، ينبغي أن يبشر كل كافر بآيات الله بالعذاب الأليم، لكن يجب أن يكون هذا تابعاً للحكمة.

٢ ـ وجوب الإيمان بآيات الله الشرعية والكونية؛ لأن الله تعالى توعد هؤلاء الكافرين بالعذاب الأليم.

٣ ـ تحريم قتل النبيين وأنه بغير حق وهو من جملة الكفر، لكن نصّ عليه لشدة شناعته.

٤ ـ شناعة كل من يقتل أو يقاتل من يأمر بالقسط من الناس.

٥ ـ ثبوت العذاب على هؤلاء المتصفين بهذه الصفات؛ لقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٦ ـ أن العذاب الذي يبشرون به ليس عذاباً هيناً يتحمل، ولكنه عذاب مؤلم.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٢٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: المشار إليهم هؤلاء الذين يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس؛ فهؤلاء الذين قامت بهم هذه الصفات، هم الذين حبطت أعمالهم.

وحبوط الشيء: يعني ذهابه وزواله وعدم الاستفادة منه. فهؤلاء حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة؛ فأما في الآخرة فظاهر؛ لأنهم لن يستفيدوا من أعمالهم، وإن كانت خيراً كالإحسان إلى الناس، فإن ذلك لا ينفعه في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وأما في الدنيا فلأنهم لما لم يستفيدوا منها، صاروا كأنهم لم يعملوها، فأعمالهم لم تنفعهم. وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

وقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾:

يعني: هؤلاء الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، ليس لهم أحد ينصرهم. وأكد سبحانه وتعالىٰ النفي هنا بـ ﴿مِّن﴾ الزائدة، يعني: ما لهم أحد ينصرهم، لا على سبيل الاجتماع، ولا على سبيل الانفراد، لأن (مِن) الزائدة إذا دخلت تجعل النفي نصًّا في العموم، كـ (لا) النافية للجنس.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ حبوط عمل هؤلاء الذين كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياءه، وقتلوا الآمرين بالقسط من الناس.

٢ ـ أن الكفر محبط للأعمال؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، ويدل لذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

٣ ـ أن هؤلاء الكفار ليس لهم ناصر في الآخرة، أما في الدنيا فقد ينصرهم من كان على شاكلتهم، ولكن هم ومن نصرهم مآلهم إلى الذل والخذلان؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢١].

❁ ❁ ❁

□ ثم قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣].

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾: الاستفهام هنا للتعجب، فإن هذه الحال يتعجب منها كل عاقل.

«وترى»: يحتمل أن يكون رؤية عين، ويحتمل أن يكون رؤية علم. والثاني أولى؛ لأنه أشمل، ولأنه يتعلق بالحال، والحال تُعْلَم وليست ترى بالعين؛ يعني: ألم تعلم إلى هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، أي: العلم، والذي آتاهم النصيب هو الله عزّ وجل، وحذف لفظ الجلالة للعلم به؛ لأن الله تعالى

هو الذي يؤتي العلم. قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وقوله: ﴿نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: يحتمل أنه يفيد التقليل، أو التكثير، فيكون المراد أنهم أوتوا نصيباً كبيراً من الكتاب، بحيث يكون حاملاً لهم على الاهتداء، ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ استكبروا. ويحتمل أنه ليس عندهم إلا علم قليل، وأنه لو فرض أن عندهم علماً كثيراً، فإن هذا العلم لم ينفعهم، فصاروا كالذي أوتي نصيباً قليلاً من العلم.

وقوله: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: هذا محل التعجب؛ يعني: أنهم مع ما عندهم من العلم يدعون إلى كتاب الله. والداعي لهم: هو رسول الله ﷺ ومن دعا بدعوته إلى يوم القيامة، هؤلاء يدعون إلى كتاب الله.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾: إسناد الحكم هنا يحتمل أن يكون إلى الله عزّ وجل ليحكم الله بينهم بكتابه، ويحتمل أن يكون إلى الكتاب، وأسند الحكم إليه لأن الحكم صار به، ويضاف الشيء إلى سببه كثيراً. ولكنهم لا يقبلون هذا؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

يتولى فريق منهم لا كلهم؛ لأن بعضهم قد هدي. بعض هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب قد هداهم الله، وهم كثير. لكن تولى فريق منهم، ومع توليهم فإنهم معرضون، والعياذ بالله، ليس عندهم إقبال، لا في الظاهر ولا في الباطن، بل هم متولون معرضون. وإنما قال: ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ الآية ـ وهي جملة حالية

من ﴿فَرِيقٌ﴾ وصحَّ مجيء الحال منها لأنها وصفت ـ إنما قال ذلك لأن الإنسان قد يتولى لسبب طارئ، لكن في قلبه شيء من الإقبال. أما هؤلاء فإنهم متولون، وهم قد امتلؤوا إعراضاً عن كتاب الله.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أنه ليس كل من أعطي علماً يوفَّق للعمل به؛ لقوله: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾.

٢ ـ التعجب من حال هؤلاء؛ حيث إنَّ عندهم العلم، ثم بعد ذلك لا يُقبلون على كتاب الله عزّ وجل.

٣ ـ أن هؤلاء قد قامت عليهم الحجة، لكونهم دُعوا، وهذا هو محط الذم، أما لو لم يدعوا، ولم يعلموا بالحق، فإنهم لا يذمون على ذلك إذا لم يفرطوا بطلب الحق.

٤ ـ أن الواجب التحاكم إلى كتاب الله؛ لقوله: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾.

٥ ـ أنه لا حكم إلا لله، بما جاء في كتابه، فلا أحد من الحكام يستطيع أن يشرِّع أحكاماً مخالفة لأحكام الله، بل من شرَّع أحكاماً مخالفة لأحكام الله، وألزم العباد بها فهو كافر بالله عزّ وجل. اللهم إلا أن يعذر بتأويل سائغ، فهذا قد يخرجه من الكفر، لكن فِعْلُه من حيث هو فعلٌ يؤدي إلى كفره.

٦ ـ أن الحكم في كتاب الله يكون في كل شيء؛ في العبادات والمعاملات والأخلاق والأعمال؛ لأنه لم يخصص منها شيء.

ويتفرع على هذه الفائدة: الردُّ على من قال: إن الشرع إنما

جاء في تنظيم العبادات فقط. أما المعاملات فهي إلى الخلق، واستدلوا لذلك بأن النبي ﷺ قدم المدينة ورأى الناس يؤبرون النخل ـ أي يلقحونها ـ فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**ما أرى ذلك يغني شيئاً**» هذا أو معناه، فتركوا التأبير، ففسد الثمر؛ لأن النخل إذا لم يؤبر فسد، فلما حصلت الثمار جاءوا إلى النبي ﷺ يخبرونه، فقال: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**»(١).

قالوا: فوكَّل علم أمور الدنيا إليهم، بل جعلهم أعلم منه بهذا؛ وعلى هذا فأمور الدنيا لا يتدخل فيها الشرع. ولكن هذا فهم خاطئ، بل باطل؛ وذلك لأن أمور الدنيا إما أحكام شرعية، كالتحليل والتحريم، فهذه مرجعها إلى الشرع، وإما أمور فنية تدرك بالتجارب والتعلم، فهذه مرجعها إلى أهل الخبرة. فكم من عالم عنده علم واسع غزير في أمور الشرع لا يستطيع أن يصنع باباً ولا إبرة، ويأتي رجل جاهل من أجهل الناس ويستطيع أن يصنع باباً من أحسن الأبواب، وإبرة من أحسن الإبر.

ومسألة الصحابة رضي الله عنهم في التأبير مسألة فنية بلا شك، تدرك بالتجارب. والنبي عليه الصلاة والسلام كما نعلم ولد بمكة، ومكة ليست ذات نخل، ولا يعلم عن هذا شيئاً، فأهل المدينة الذين مارسوا التجارب في هذه الأمور، كانوا أعلم منه بذلك.

ولا يعارض هذا أننا نرجع إلى العرف في أمور كثيرة؛ لأنَّ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي، رقم (٢٣٦٣).

وقوله: «**ما أرى ذلك يغني شيئاً**» ليس في رواية مسلم، وإنما ورد عند ابن ماجه، رقم (٢٤٧٠) بلفظ: «**ما أظن...**».

الشرع هو الذي ردَّنا إلى العرف، كما قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢].

٧ ـ أن هؤلاء الذين دعوا إلى كتاب الله، ممن أوتوا نصيباً من الكتاب، لم يتولوا جميعاً، بل تولى فريق منهم. والأمر كذلك فإن كثيراً من اليهود والنصارى أسلموا وحسن إسلامهم، وكان لهم قدم صدق في الإسلام.

٨ ـ ذَمُّ من يتولى بإعراض؛ لقوله: ﴿يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ لأن التولي كما ذكرنا في التفسير، قد يكون عن إعراض وقد يكون عن غير إعراض. والتولي مذموم كله، ولكن إذا كان عن إعراض وعدم مبالاة كان أشد.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤].

﴿ذَٰلِكَ﴾: المشار إليه التولي والإعراض بأنهم خدعوا أنفسهم وقالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا﴾ أي: لن تصيبنا إلا أياماً معدودات، أياماً قلائل؛ لأن كل معدود فهو قليل. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]، وقال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]. فكل شيء معدود فهو قليل؛ لأن شيئاً يمضي بالعدد واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة، لا بد أن ينتهي.

فهؤلاء يقولون: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾. ثم يدعون أن الذي يخلفهم النبي ﷺ وأصحابه.

وقوله: ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾:

غرهم: الغرور والخداع بمعنى واحد متقارب، يعني: أن هؤلاء خدعوا، أو انخدعوا في دينهم؛ حيث ظنوا أنهم على حق، وبعضهم عاند الحق عالماً به مفترياً كاذباً، ومما كانوا يفترونه قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بطلان الأماني وأن النفس قد تُمني الإنسان ما لا يكون؛ لأن هؤلاء منتهم أنفسهم حيث قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾.

٢ ـ تحذير الإنسان أن يتكل على الأماني؛ لأن هذا من صنع اليهود والنصارى. وكثير من العامة الآن يقعون في المعاصي، ويمنون أنفسهم بالمغفرة إذا وقعوا في المعصية.

صحيح أن الله غفور رحيم، لكن الله قال أيضاً: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]. وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨].

فلما أمر نبيه أن ينبئ بدأ بالمغفرة، ولما أخبر عن نفسه بدأ بالعقوبة؛ لأن المقام مقام سلطان وعلو.

يتمنى بعض العاصين الأماني ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فهو يريد أن يزني ويسرق ويشرب الخمر ويعمل كل شيء دون الشرك، ثم يقول: إن الله يقول: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وهذا خبر من الله عزّ وجل وهو أصدق القائلين!!

فنقول: اقرأ الآية، لا تكن أعمى، أو أعور لا تنظر إلا

بعين واحدة. فالله يغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن لا يشاء لا يغفر له، وأنت لا تجزم بأنك ممن شاء الله أن يغفر له، إذن أنت على خطر. على أن الذي يستخف بالمعصية، ويُلَبِّس على نفسه وعلى الناس، قد يكون ممن لا يشاء الله أن يغفر له ـ والعياذ بالله ـ لأن هذا مستهتر مستهين.

٣ ـ أن هؤلاء يؤمنون بالبعث، ولكن لم ينفعهم الإيمان؛ لقوله: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾. ويتفرع على هذا أنه لا يكفي في الإيمان أن يؤمن الإنسان بوجود الله، وباليوم الآخر، دون أن يستلزم هذا الإيمان قبولاً وإذعاناً، فمجرد التصديق لا يعتبر إيماناً، ودليل هذا نصوص كثيرة، منها: أن أبا طالب عم رسول الله ﷺ كان يقر بأن رسول الله ﷺ حق، ويقول:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

ويقول:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

ومع ذلك: لم ينفعه هذا الإقرار؛ لأنه لم يصحبه قبول وإذعان. وختم له في الآخر ـ والعياذ بالله ـ بأنه قال: **هو على ملة عبد المطلب**[1]، ولكن نظراً لما حصل منه من دفاع عن النبي ﷺ أذن الله لنبيه محمد ﷺ أن يشفع له، فشفع، فكان في ضحضاحٍ من نار، وعليه نعلان يغلي منهما دماغه أبد

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، رقم (٤٧٧٢). ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، رقم (٢٤).

الآبدين[١]، وهذا أهون أهل النار عذاباً ـ أجارني الله وإياكم منها ـ ولم نعلم أن كافراً نفعت فيه الشفاعة على الإطلاق، بمعنى أنه سلم من العذاب أبداً، ولم نعلم أن كافراً خفف عنه العذاب بالشفاعة إلا أبا طالب.

٤ ـ أن الإنسان قد يغره ما هو عليه من الدين؛ لقوله: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، فيغتر بأنه يصلي ويزكي ويصوم ويحج، ثم يقول في نفسه: لن أعذب. وهذا قصور في النظر؛ لأنه ليس الشأن أن تصلي أو تزكي أو تصوم أو تحج، الشأن كل الشأن أن يقبل منك هذ العمل. كم من عامل ليس له من عمله إلا التعب لوجود مبطل سابق أو لاحق.

فالسابق كعدم الإخلاص مثلاً، واللاحق: كالإعجاب بالعمل، والإدلال به على الله عزّ وجل، وأن يرى الإنسان لنفسه حقًّا على ربِّه.

وقد يبتلى الإنسان بالبدعة!! كم من أناس يحبون الخير وعندهم رغبة ومحبة لله ورسوله، ولكن لجهلهم يبتدعون في دين الله ما ليس منه، فيكون عملهم مردوداً؛ لأن من شرط قبول العمل أن يكون موافقاً لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لقوله ﷺ: **«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»**[٢].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣). ومسلم، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، رقم (٢٠٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ومحدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

□ قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥].

أي: كيف تكون حالهم في هذا الوقت ﴿إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾؟ والاستفهام للتعظيم؛ أي: ما أعظم ما تكون حالهم في ذلك اليوم، وما أشد حسرتهم إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه، أي: جمعناهم في يوم لا ريب فيه. واللام تأتي بمعنى في، ويسمونها لام التوقيت. ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] أي: في قبل عدتهن، أي: في استقبال عدتهن ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: جمعوا لهذا اليوم، أي: فيه، وهو يوم القيامة.

وقوله: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ إما أنه خبر بمعنى النهي؛ والمعنى: لا ترتابوا فيه، أو أنه خبر على حقيقته، والمعنى أن الله عزّ وجل يخبر عن هذا اليوم بأنه لا ريب فيه، أي: لا ريب في وقوعه. وهذا اليوم قد دلَّ عليه الكتاب والسنّة والعقل.

أما الكتاب فما أكثر الآيات التي فيها إثبات اليوم الآخر، وما أكثر الأمثال التي يضربها الله عزّ وجل لإثبات هذا اليوم ببعث الخلائق، وأما في السنّة فكثير أيضاً إثبات هذا اليوم.

وأما في العقل، فلأن العقل يدل بالضرورة على أن هذه الخليقة لا بد أن يكون لها معاد تحاسب فيه على ما أمرت به؛ لأنه ليس من المعقول أن ينشئ الله الخليقة، يأمرها وينهاها، ويبعث إليها الرسل، وينزل عليها الكتب، وتستباح دماء من لم ينفذ هذه الكتب، ويتبع هؤلاء الرسل، ثم تكون النتيجة أن تموت هذه البشرية ولا تبعث، وتكون تراباً. لو

وقع هذا الفعل من أي أحد لقيل هذا سفه، من أسفه السفه. ولو أن الإنسان صنع ثوباً وخاطه وأتقنه، ثم في النهاية أحرقه، فتلف ولم يبق له أثر، لعدَّ الناس كلهم هذا سفهاً، فكيف بهذه الخليقة التي خلقها الله عزّ وجل وأنزل عليها الكتب وأرسل إليها الرسل؟!

وقوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾:

﴿وَوُفِّيَتْ﴾: يعني أعطيت. ومنه قولهم: وفَّاه حقَّه، أي: أعطاه حقَّه وافياً. وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ كل نفس من البشر والجن، يعني: من المكلفين الذين أمروا ونهوا، فهم الذين يوفون أجورهم. أما من لم يتوجه إليه أمر ولا نهي، فإنهم يجمعون يوم القيامة، ولكن ليس لهم أعمال يجازون عليها، فلا يشملهم قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾.

وقوله: ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾، يعني: من خير أو شر، بدليل العموم في كلمة ﴿مَّا﴾.

وتُوَفى الخير: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وأما في الشر فتوفىٰ السيئة بمثلها إن لم يعف الله، أو تكن لها أعمالٌ صالحة تكفر عنها هذه السيئات. فجزاء الله عزّ وجل وتوفيته للأعمال دائر بين الفضل والعدل، فالفضل لأهل الخير، والعدل لأهل السوء.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾:

أي: لا ينقص أحد من حسناته، ولا يزاد في سيئاته. ونحن نعلم أن من أوفى غيره حقَّه فإما أن يوفيه بالفضل أو بالعدل أو بالجور، والجور ـ وهو الظلم ـ ممتنع على الله؛ لقوله تعالى:

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

وفي الحديث القدسي أن الله تعالى قال: «**يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا**»[(١)].

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ في هذه الآية دليل على عِظَم ذلك اليوم؛ لقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾.

٢ ـ وفيها دليل أيضاً على النداء بالنعي على هؤلاء الذين ليس لهم في ذلك اليوم إلا الخيبة والخسران، حيث خسروا دينهم ودنياهم.

٣ ـ إثبات اليوم الآخر؛ لقوله: ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٤ ـ أن من كفر باليوم الآخر أو شكَّ فيه فهو كافر؛ لأنه مكذب لقوله تعالى: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٥ ـ أن يوم التوفية الكاملة هو يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾. والإنسان قد يوفى شيئاً من عمله في الدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] مخرجاً من كل ضيق، وسعة في الرزق، ويرزقه من حيث لا يحتسب، هذا في الدنيا، وهذا جزاء. وهناك جزاء آخر أعظم وأنفع وهو الهدى. قال الله

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]. الهدى والعمل الصالح أفضل من المال؛ لأن الهدى إذا زاد الله الإنسان منه انشرح صدره، واستنار قلبه، واطمأن، ثم صارت التقوى عنده أسهل من كل شيء، وصارت الأعمال الصالحة رياض قلبه، وسرور نفسه، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**جعلت قرة عيني في الصلاة**»[1]، والمؤمن كل الأعمال الصالحة قرة عينه؛ لأنه يشعر في كل عمل صالح بأمرين عظيمين:

الأمر الأول: أنه يتعبد لله بالعمل الصالح، فيزداد ذلًّا لربه ومحبة له، وإنابة إليه.

الأمر الثاني: أنه بذلك متبع لرسول الله ﷺ، فهو يشعر حين فعل العبادة أن إمامه محمد ﷺ، فيزداد محبة لرسول الله ﷺ وتعظيماً لقوله، وتعظيماً لهديه وسنته. وهذا أعظم كسب؛ أن يحصل لك هذا الأمر في العبادة والتقوى.

٦ ـ انتفاء الظلم عن الله عزّ وجل؛ لأن قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ﴾ وقوله: ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ فاعلهما معروف، فالموفي الله، والذي لا يظلم الله، وانتفاء الظلم عن الله سبحانه وتعالىٰ هو من الصفات التي يسمونها بالسلبية، ويكون نفي الظلم لكمال العدل، فنأخذ من هذا قاعدة مفيدة في باب الصفات، وهي: **(أن كل صفة نفاها الله عن نفسه فإنما يراد بها ثبوت كمال الضد)**.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه أحمد، رقم (١١٨٨٤). والنسائي، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم (٣٩٣٩).

□ ثم قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

الخطاب للرسول ﷺ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الذين أوتوا نصيباً من الكتاب إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم تولوا، يريدون أن تكون السيادة لهم، لا لغيرهم. فأمر الله نبيه أن يبتهل إلى الله بهذا الدعاء المتضمن قدرة الله على نقل النبوة التي يَتْبعُها المُلك من بني إسرائيل إلى العرب.

فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾:

﴿ٱللَّهُمَّ﴾: أصلها (يا الله)، منادى حذفت منه ياء النداء، وعوض عنها الميم، ولهذا لا يجمع بينهما إلا في حال الشذوذ. كما قال ابن مالك:

وشذ يا اللهم في قريض - أي في النظم -

وقوله: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾. مالك: اسم فاعل، والملك: يحتمل أن يكون بمعنى المملوك؛ أي: مالك المملوكات كلها. ويحتمل أن يكون المراد به: التدبير؛ أي مالك تدبير الخلائق كلها. والأمران ثابتان لله عزّ وجل، فهو مالك المملوكات كلها بأعيانها، وهو مالك التصرف فيها، لا يشاركه في ذلك أحد، هو الذي يدبر الأمر ويملك المأمور، وقوله: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ قيل: إنه بدل من الله، ولكنه نصب لأنه مضاف، والبدل: يكون على نية إعادة العامل. وقيل: إنها منادى حذف منه حرف النداء.

﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾، والأصح أن ﴿تُؤْتِي﴾ هذه جملة استئنافية لبيان كيف يكون ملك الله عزّ وجل لهذا المملوك فقال:

﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾، وقال: ﴿تُؤْتِي﴾ أي: تعطي، ولم يقل: تُمَلِّك؛ لأن ما يكون للعبد من الملك إنما هو من إعطاء الله تعالى إياه، وتسليطه عليه، ولهذا لا يتصرف المالك من المخلوقين فيما ملك، إلا على حسب الشريعة التي شرعها الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾:

الفعل تؤتي من الأفعال التي تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، ومفعوله الأول: الملك، ومفعوله الثاني: مَنْ تشاء.

وكل شيء له سبب إما شرعي، وإما كوني؛ لأن هذا مقتضى حكمة الله سبحانه وتعالىٰ، وإذا كان كذلك فإن إتيان الله الملك لمن يشاء مقيد بسببه، فلا بد أن يكون له سبب. فالملك قد يكون مستقلاً عن الرسالة، وقد يكون تابعاً للرسالة. فإذا كان مبنياً على الشريعة صار تابعاً للرسالة، وإذا كان غير مبنيٍّ على الشريعة كان مستقلاً. قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فهذا ملك مستقل عن الرسالة؛ لأن الذي حاج إبراهيم كافر. وأما قول النبي ﷺ: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها**»[1]. فالمراد بذلك هنا: ملك تابع للرسالة.

والمشيئة هنا ككثير من الآيات معلقة بالحكمة.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم (٢٨٨٩).

وقوله: ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾:

قوله: ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ﴾: يحتمل وجهين:

الوجه الأول: نزع بعد ثبوت.

والوجه الثاني: نزع بمعنى المنع.

فعلى الأول: يكون فيه إشارة إلى أن الله تعالى يملك من شاء من خلقه، ثم ينزع عنه الملك. وكم من مَلِكٍ مَلَكَ ثم زال ملكه، إما بالغلبة له، أو بموته أو بغير ذلك. ويحتمل أن تكون بمعنى المنع؛ أي: تُمَلِّك من شئت، ولا تُمَلِّك من شئت. وكلا المعنيين صحيح.

وقوله: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾:

والإعزاز هنا: يعني التقوية، أي: تجعله عزيزاً قوياً غالباً على غيره، وكذلك تذل من تشاء. وهذا عام، قد يعز الله الإنسان بدينه وعلمه وإيمانه، وإن لم يكن ملكاً، وقد يعزه بملكه. وكذلك في الذل قد يذله بالمعصية، وبالغلبة؛ فالذل بالمعصية في مقابل العز بالإيمان، والذل بالغلبة في مقابل العز بالملك، والذين يعزهم الله هم من ذكرهم الله بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. فالله يعز الرسل وأتباعهم، كما قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

ومن أسباب العزة: الإيمان، سواء كان الإنسان ملكاً أم غير ملك. ومن أسباب العزة: الاستعداد والحذر والحزم والقوة والنشاط.

ومن أسباب الذل: أن يُعجب الإنسان بنفسه، وأن يتعرض لما

لا يمكنه دفعه. ولهذا جاء في الأثر: «**لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه**» قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: «**يتعرض من البلاء لما لا يطيق**»(١).

وقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾:

﴿ٱلْخَيْرُ﴾: بيد الله عزّ وجل، والخير كل ما فيه مصلحة ومنفعة للعبد، سواء كان ذلك في أمور الدنيا أو في أمور الآخرة. فالرزق والصحة والعلم خير، والعمل الصالح أيضاً خير. وهذا كله بيد الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وهنا قد يقال: لماذا ذكر أن الخير بيده، ولم يذكر الشر، مع أن الخير من الله والشر من الله؟! فقال بعض المفسرين: إن هذا من باب حذف المقابل المعلوم. كقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]. وزعموا أن تقدير الآية: بيده الخير والشر.

ولكن هذا وَهْمٌ باطل، وليس المقام مقام حذف واقتصار، بل المقام مقام ثناء، والثناء ينبغي فيه البسط والتوسع في الكلام. فالحذف غير مناسب لفظاً، وهو باطل معنى؛ لأن الله لا يضاف إليه الشر، ولا يجوز أن نقول: بيده الشر؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**والشر ليس إليك**»(٢) فلا ينسب إلى الله الشر قولاً ولا

---

(١) أخرجه أحمد، رقم (٢٢٩٣٤). والترمذي، كتاب الفتن، رقم (٢٢٥٤)، وقال عنه: هذا حديث حسن غريب. وابن ماجه، كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، رقم (٤٠١٦).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل، رقم (١٨١٢).

فعلاً. فالله يقول الحق وهو يهدي السبيل، ويفعل الخير ولا يفعل الشر، وإذا وجد شر في المفعولات فهو شر من وجه، وخير من وجه آخر، لكن إيجاد الله لهذه الأشياء الشريرة ليس شرًّا، بل هو خير محض. والشر إنما هو في المفعولات لا في الأفعال. أما الخير فهو في المفعولات والأفعال، ولهذا ينسب إلى الله فيقال: بيده الخير. ولنضرب لهذا مثلاً بالسباع والهوام، فالسباع: فيها شر، والهوام اللاسعة واللاذعة فيها شرٌّ بلا شك، والشياطين كلها شر، لكن إيجاد الله لهذه الأشياء خير، والحكمة توجبه؛ لأنه لا يمكن أن تعرف تمام قدرة الله إلا بخلق الأشياء المتضادة، ثم في خلق هذه الأشياء من إصلاح العبد، واللجوء إلى ربه، والاستعاذة به من هذه الأمور الشريرة، خير كثير، والخير لا يعرف إلا بضده.

إذن يجب أن نبقي الآية على ظاهرها بدون تقدير.

وقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

ومن قدرتك تغيير هذه الأشياء العظيمة: إيتاء الملك ونزعه، والإعزاز والإذلال، كل هذه أمور عظيمة لا يقوم بها إلا القادر عليها، سبحانه وتعالىٰ.

والآية عامة؛ فهو قدير على كل شيء، على ما شاءه وما لم يشأه. وبهذا نعرف أن تقييد بعض الناس القدرة بالمشيئة خطأ؛ لأن الله قادر على ما يشاء وعلى ما لا يشاء. وأما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]. فالمشيئة هنا ليست عائدة على القدرة، ولكنها عائدة على الجمع؛ يعني: إذا أراد جمعهم، وشاء جمعهم، فهو قدير عليه، لا يعجز عنه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تعليم الله عزّ وجل نبيه محمداً ﷺ أن يفوض الأمر إليه في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾، والخطاب الموجه للرسول ﷺ موجه لأمته، إما عن طريق التأسي، وإما لأنه الإمام، والخطاب للإمام خطاب له ولمن اتبعه، إلا إذا دلَّ الدليل على أنه خاص به، فيكون خاصًّا به.

٢ ـ بيان تمام ملك الله سبحانه وتعالى وسلطانه؛ لقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾.

٣ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ يؤتي الملك من يشاء؛ لقوله: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ﴾.

٤ ـ أن ملك المخلوقين ليس ملكاً استقلالياً، بل هو بإعطاء؛ لقوله: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ﴾، والملك الذي بإعطاء لا شك أنه ناقص عن ملك المعطي. وقد جاء في الحديث الصحيح: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**»[1].

٥ ـ إثبات المشيئة لله في قوله: ﴿مَن تَشَآءُ﴾، وكل أمر قرنه الله بالمشيئة، فإنه مبني على الحكمة؛ متى اقتضته شاءه الله. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

٦ ـ تمام ملك الله وسلطانه أيضاً، في كونه يحرم الملك من يشاء، وينزعه بعد ثبوته ممن يشاء؛ لقوله: ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلّا عن ظهر غنى، رقم (١٤٢٧). ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، رقم (٢٣٨٦).

٧ ـ بيان تمام ملك الله وسلطانه، لكون العزة من عنده ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾.

٨ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ تام الملك والسلطان لكونه يذل من يشاء، ولو بلغ ما بلغ من العزة البشرية، فإن يد الله فوقه مهما بلغ الإنسان من العز. فالله قادر على إذلاله. ولذلك أمثلة كثيرة، منها: قصة فرعون، فإن فرعون طغى وقال: أنا ربكم الأعلى، وافتخر بما عنده من الأنهار، فأهلكه الله بمثل ما افتخر به، فأغرقه بالماء. وعاد استكبروا في الأرض وقالوا: من أشد منا قوة، فأهلكهم الله تعالى بالريح، وهي من ألطف الأشياء، لكنها من أشد الأشياء مع لطافتها، فالله عزّ وجل يذل من يشاء.

ويتفرع على هذه الفائدة: أننا متى علمنا أن الإعزاز والإذلال بيد الله، فإننا لا نطلب العزة إلا به عزّ وجل. ولهذا نقول: من ابتغى العزة من غير الله فهو ذليل.

وكذلك يتفرع على هذا: أنه ينبغي للإنسان أن يستعيذ بالله دائماً من الذل الحسي والمعنوي؛ لأن الله تعالى هو الذي بيده الإذلال؛ من شاء أذله، ومن شاء أعزه.

٩ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ بيده الخير.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنه إذا كان الخير بيده، فلا يطلب الخير إلا منه؛ لأنه لا أحد بيده الخير إلا الله سبحانه وتعالىٰ، فهو الذي يطلب منه الخير.

١٠ ـ أن الشر لا يضاف إلى الله، وإن كان عزّ وجل هو الذي خلق كل شيء؛ لأن أفعاله كلها خير، والشر في

المفعولات. ثم هذا الشر في المفعولات قد يكون خيراً؛ فكم من مرض صار سبباً لصحة الجسم، وكم من آفات في الزروع وغيرها، صارت أسباباً للنمو الاقتصادي من جهة أخرى.

١١ ـ عموم قدرة الله؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهذا يشمل ما كان من أفعاله، وما كان من أفعال الخلق، فيكون في ذلك رد على القدرية الذين يقولون: إن الله لا يخلق أعمال العباد ولا يريدها، وأن الإنسان مستقل بإرادته وعمله، فإذا كانت بقدرة الله قلنا: يلزم أن يكون مراداً ومخلوقاً لله؛ لأنه ما دام الأمر بقدرته، فلا بد أن يكون مخلوقاً له، ومراداً له.

١٢ ـ الرد على كلمة وقعت من بعض المفسرين، ومنهم الجلال السيوطي رحمه الله، في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠]، حيث قال: خص العقل ذاته فليس عليها بقادر، فإن هذه كلمة باطلة؛ هو أراد معنى حقًّا والله أعلم، لكن التعبير بهذا خطأ. فنقول: إن الله قادر على كل شيء يتعلق بفعله أو بفعل عباده، فكل شيء يفعله الله فهو بقدرته سبحانه وتعالىٰ، وكل شيء يفعله العباد فهو أيضاً بقدرته. وهذا التخصيص غير صحيح بل العقل يشهد لله تعالى بكمال القدرة وعمومها، وأنه على كل شيء قدير.

١٣ ـ الاستغناء بالثناء عن الدعاء؛ لأنك إذا تأملت الآية هذه لم تجد فيها دعاء أي طلباً، لكن الثناء مما يتوسل به إلى الله. فهنا الثناء يتضمن ما تدل عليه هذه الجملة؛ فإذا قلت: أنت الذي تعز، وأنت الذي تذل؛ فمعنى هذا، أو فمقتضى هذا: أنك تسأل الله أن يعزك ولا يذلك، ولهذا قال الشاعر:

إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء

أي: ثناؤه عليك يكفي عن تعرضه وسؤاله.

❁ ❁ ❁

❑ قال تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧].

أي: تدخل الليل في النهار، وتدخل النهار في الليل، بمعنى: أن الليل يدخل على النهار، فيزيد الليل وينقص النهار.

وقوله: ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾:

بالعكس؛ يدخل النهار على الليل، فيطول النهار ويقصر الليل، وهذا الفعل من الأفعال التي لا يقدر عليها إلا الله وحده. هو الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ومع هذا فإن هذا الإيلاج إيلاج بحكمة؛ بتدرج، يأتي قليلاً قليلاً حتى ينتهي ثم يعود، ولو أن الليل قفز من أقصر الليل إلى أطوله لاختلَّ نظام العالم، وفسدت مواقيته، ولكن الله عزّ وجل يجعله بالتدريج ليعرف الناس أوقاتهم، وينبني أيضاً على هذا الإيلاج تغير الفصول؛ فإنه إذا طال النهار طال زمن وجود الشمس على سطح الأرض فاحترَّ الجو، وأيضاً يكون شعاع الشمس عمودياً فيكون أشد تأثيراً في الحرارة مما إذا كان غير عمودي، والعكس بالعكس بالنسبة للشتاء، فيترتب على هذا الإيلاج زمن الفصول.

ومن رحمة الله عزّ وجل أن هذا الزمن الفصلي لا يأتي أيضاً دفعة واحدة، ولو انتقل الناس من أحر يوم في السنة إلى

أبرد يوم، لحصل ضرر عظيم، وبالعكس كذلك، لكن الربَّ الرحيم عزّ وجل الحكيم يأتي بهذا الشيء بتدرج. فمن الذي يستطيع أن يزيد في الليل ساعة، أو في النهار ساعة، لا أحد يستطيع، لو اجتمعت كل الخلائق على أن يزيدوا ساعة في الليل أو ساعة في النهار، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وقوله: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾:

الميت في الموضعين فيها قراءتان: الميْت والميِّت يعني: بالتشديد والتخفيف.

والمراد بالحيِّ: الحي حياة حسية ومعنوية، وذلك لأن اللفظ صالح للمعنيين، وإذا صلح اللفظ للمعنيين بدون تنافٍ بينهما، فالواجب حمله عليهما.

الحي حياة حسية أمثلته كثيرة، فالإنسان مخلوق من نطفة، وهي ميتة بالمعنى اللغوي، فصار حيًّا من ميت. ولهذا قال الله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، كنتم في أرحام أمهاتكم أمواتاً، ليس فيكم أرواح، ثم نفخ في الإنسان الروح فصار حيًّا. إذن يخرج الحي من الميت؛ أي: يجعل الميت حيًّا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، أو يخرج حيًّا نامياً متحركاً من شيء لا ينمو، فهو ميت؛ كإخراج الفرخ من البيضة؛ فإن البيضة ميتة يخرج منها فرخ حي. هذا الموت الحسي.

أما المعنوي: يخرج الحي من الميت أي: المؤمن من الكافر؛ لأن المؤمن حي حياة قلبية والكافر ميت، يخرج الحي العالم من الميت الجاهل، كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا

﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. الأول: هو العالم، والثاني: هو الجاهل. هذه الحياة المعنوية والحسية.

وقوله: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾:

الميت من الحي: بالنسبة للحياة الحسية، مثل: البيضة من الدجاجة، وربما يتناول الميت إذا سقط من حي، أعني: المرأة إذا أجهضت جنيناً ميتاً.

وقوله: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾:

ترزق: أي تعطي. بغير حساب: أي بغير عوض؛ لأن المحاسبة إنما تكون مع المعاوضة؛ فإن من لا يريد العوض لا يحاسب، لكن من يريد العوض هو الذي يحاسب، حتى يعلم هل ما أخذه مقابل لما أعطاه أو لا. وما أكثر النعم التي أنعم الله بها علينا، لكن لا يحاسبنا، يعطينا منه سبحانه وتعالىٰ تفضلاً وكرماً، وإن أمرنا بالشكر فشكرناه، فهذا عطاء ثانٍ، فشكر الإنسان ربَّه على نعمته هو من نعمته أيضاً. ولهذا يقول الشاعر:

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةٌ ... عليَّ له في مثلها يجب الشكرُ
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمرُ

والمعنى: أن الله إذا وفَّقك لشكر نعمته، فهذه نعمة تحتاج إلى شكر، فإذا شكرتها يحتاج الشكر إلى شكر آخر، وإذا شكرت الثالث يحتاج إلى رابع وهكذا، ولهذا قال:

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر

واعلم أن رزق الله عزّ وجل نوعان: رزق به قوام البدن، ورزق به قوام القلب والروح.

أما الأول: فيشمل المؤمن والكافر، والبَرَّ والفاجر، والمطيع والفاسق، حتى البهائم. ويدخل فيه الحرام؛ فالذي لا يأكل ولا يشرب إلا حراماً، فهو برزقٍ من الله رزق، لكنه رزق يقوم به البدن.

والثاني: ما يقوم به القلب والروح، وهذا خاص بأهل الإيمان والعلم. فالعلم والإيمان للقلب بمنزلة الماء للشجرة، لا يمكن أن تنمو بدونه

وكلمة ﴿مَن تَشَآءُ﴾ أي: من اقتضت حكمتك أن ترزقه. وأسباب الرزق كثيرة؛ إما حركة من الإنسان، وإما إمداد من الله. والحركة أيضاً لا تنفع إلا بإمداد من الله، لكن أحياناً يرزق الإنسان بدون كسب، وبدون عمل؛ مثل أن يموت له قريب فيرث منه.

ومن أسباب الرزق: تقوى الله، وليس معنى التقوى أن تعكف في المسجد وتتعبد، بل التقوى أعم من ذلك؛ فالساعي على الأرملة والمسكين، الذي يذهب ويطلب لهم الرزق ويقوم عليهم «**كالمجاهد في سبيل الله**» كما ورد عن النبي ﷺ[1]. والمسكين: كل من لا يكتسب، حتى ولو كان من أولادك؛ فلو أنت غني، وولدك لا يكتسب فهو مسكين، فأنت إذا سعيت عليه كالمجاهد في سبيل الله، قال: وأحسبه قال: «**كالصائم لا يفطر، وكالقائم لا يفتر**».

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل، رقم (٥٣٥٣). ومسلم، كتاب الزهد، باب الإحسان إلى الأرملة، رقم (٢٩٨٢).

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تمام قدرة الله عزّ وجل وسلطانه في كونه يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل.

٢ ـ إثبات حكمة الله؛ لأن هذا الإيلاج له حكمة عظيمة لا تقوم مصالح الخلق إلا بها؛ لأنه يترتب على هذا الإيلاج كما قلنا اختلاف فصول السنة التي يترتب على اختلافها نمو الأجساد والنبات، من النبات ما يكون شتوياً، ومن النبات ما يكون صيفياً.

٣ ـ أن الإنسان يعرف به ضَعفه وافتقاره إلى ربِّه، إن جاء البرد صار يتطلب ما يدفئه، وإن جاء الحر صار يتطلب ما يبرده، فهو محتاج إلى ربِّه في الحالين. وهذا من فوائد اختلاف الحر والبرد.

٤ ـ أن هناك أشياء مؤذية، وهي ما يُعَبَّر عنه في علم الطب بالجراثيم، لا يقتلها إلا شدة البرد، وأخرى لا يقتلها إلا شدة الحر، وهذا شيء مشاهد. وهو أيضاً من حكمة الله عزّ وجل المترتبة على إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل.

٥ ـ أن هذا الإيلاج يدل على كمال القدرة كما أسلفنا أولاً، إذ إنه لا أحد يستطيع أن يزيد ساعة من الليل في النهار أو بالعكس، ولكن الله تعالى هو الذي يقدر على هذا.

٦ ـ تمام قدرة الله وسلطانه بإخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي.

ووجه ذلك ظاهر: فإن إخراج الشيء من ضده دليل على أن قدرته تامة، وسلطانه نافذ سبحانه وتعالىٰ.

٧ ـ أن الرزق بيد الله؛ لقوله: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ﴾، ويترتب على هذا أنه ينبغي للعاقل فضلاً عن المؤمن، ألا يطلب الرزق من أيدي الناس، وإنما يطلبه من الله عزّ وجل.

ولهذا جاءت النصوص بفضيلة العفة عمَّا في أيدي الناس، وكان من جملة ما بايع الصحابة رضي الله عنهم عليه رسول الله ﷺ، ألا يسألوا الناس شيئاً. فكان سوط أحدهم يسقط من يده وهو على بعيره، فينزل إلى الأرض ليأخذه ولا يقول: **ناولني إياه؛ لأنهم بايعوا على أن لا يسألوا الناس شيئاً**[1]. وهذا لا شك يجعل الإنسان يلجأ إلى الله سبحانه وتعالىٰ. ولكن لا بأس أن يسأل الإنسان ما يباح له سؤاله، إنما تمام العفة أن لا يسأل الناس شيئاً، بل يجعل الأمر موكولاً إلى الله سبحانه وتعالىٰ.

٨ ـ أن عطاء الله بلا عوض؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

٩ ـ إثبات المشيئة لله عزّ وجل في قوله: ﴿مَن تَشَآءُ﴾.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال الله عزّ وجل: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ﴾: لا: ناهية، والفعل بعدها مجزوم، وَكُسِرَ لالتقاء الساكنين. وكلمة (اتخذ) تدل على اصطناع الشيء،

---

(١) كما في حديث عوف بن مالك الأشجعي، أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة مسألة الناس، رقم (١٠٤٣).

والركون إليه والالتجاء إليه. مثل قولك: اتخذت هذا صاحبي أي: جعلته واصطنعته واخترته. فالمعنى: لا يختار المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: مفعول (اتخذ) الأول. و﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول ثانٍ. وقوله: (أولياء) أي: لا ينصروهم، ولا ينتصروا بهم؛ فلا يتولون الكفار، ولا يجعلون الولاية للكفار عليهم. فالنهي عن الأمرين، فإذا كان الأمر في سعة والمؤمنون في قوة، فإنهم لا يجوز لهم أن يتخذوا من الكفار من ينصرهم؛ لأن الكفار مهما كانوا أعداءُ المسلمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

فليس لنا حق أن نستعين بالكفار، إلا إذا دعت الحاجة، فلنا أن ننتصر بهم بأخذ السلاح، وما أشبه ذلك، بل وبالعهد معهم أيضاً؛ فإن النبي ﷺ استعار من صفوان بن أمية دروعاً فقال له: أغصباً يا محمد؟ قال: «**بل عارية مضمونة**»[(١)]، فدلَّ هذا على جواز الاستعانة بالمشرك بأخذ سلاحه.

كذلك حالف النبي ﷺ خزاعة في صلح الحديبية[(٢)]، والناس

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠١). وأبو داود، كتاب البيوع، باب تضمين العارية، رقم (٣٥٦٢).

(٢) رواه أحمد (١/ ٣٥٣)، وابن أبي شيبة (٨/ ٥١٧)، وابن ماجه، رقم (٣٠٤٥)، والبيهقي في الدلائل (٤/ ١٥١) من طريق ابن إسحاق، وهذا سند حسن وشاهده في الصحيح من حديث المسور ومروان الذي ساقه ابن إسحاق.

في ذلك الوقت ليسوا على قوة. فيجوز أيضاً أن يحالف المسلمون الكفار إذا دعت الحاجة إلى ذلك؛ لأنه قد يكون هذا من مصلحة المسلمين. فإن المسلمين إذا كانوا ضعفاء تسلط عليهم كفار آخرون، فإذا حالفوا كفاراً أقوياء انتصروا بهم؛ فصار في ذلك مصلحة.

ولكن مع ذلك لا يجوز أن نجعل هذا الانتصار بهم على حساب ديننا؛ يعني: أن نداهنهم ونمكِّنهم من أفعالهم القبيحة في بلادنا، بلاد الإسلام؛ لأنَّ المداهنة في دين الله حرام.

وأصل النهي عن ولاية الكفار، هو من أجل أن لا يذل الإسلام بين أيديهم؛ فإذا كان في مثل هذه الأمور مصلحة للمسلمين وقوة، صار ذلك جائزاً. هذا بالنسبة للانتصار بهم.

أما بالنسبة للانتصار لهم فهذا لا يجوز أبداً. لا يجوز أن ننصر كافراً على مؤمن بأي حال من الأحوال، ولكن هل يجوز أن ننصر كافراً على كافر إذا اقتضت المصلحة ذلك؟

نقول: إن المؤمنين فرحوا حين غلبت الروم الفرس، وهم كفار على كفار؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤ ـ ٥]. فإذا كان هناك عدو مشترك لنا ولهذهِ الطائفة من الكفار، ونحن نعلم أننا إن لم ننصر الكفار على هذا الكافر غلبه ثم استأصلنا، فحينئذ يكون عونه للحاجة جائزاً؛ لأننا نعينه لا لذاته، ولكن لمصلحة المسلمين، وهذا كله يعود إلى المصلحة. أما لو رأينا كافراً يطلب منا العون على مسلم، فهذا لا يجوز بأي حال من الأحوال. ولهذا قال: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، يعني: مِنْ سوى

المؤمنين؛ يعادون المؤمنين، ويوالون الكفار. وجاءت هذه الآية: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. ولم يقل: «لا تتخذوا»؛ لأن الله فرق بين قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وبين ما إذا اتخذ المؤمنون الكافرين أولياء لا من دون المؤمنين، فوجَّه الخطاب إلى المؤمنين مباشرة في الثانية دون الأولى؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]. فخاطبهم خطاباً مباشراً.

قال بعض العلماء المعاصرين: إن الله لم يخاطب المؤمنين خطاباً مباشراً؛ لأن هذا أمر مُشين. والأمر المشين تكون المخاطبة المباشرة فيه صدمة عظيمة، ولهذا قال الله تعالى لرسوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١ ـ ٢]، ولم يقل: عَبِست.

وهذا القول أول ما يطالعه الإنسان يظنه جيداً؛ لكن يشكل على هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]، فهنا واجههم بالخطاب مباشرة، مع أنه قال: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وعلى هذا فيكون التوجيه الذي ذكره بعض المعاصرين فيه نظر. ونقول: إن الله عبَّر بصيغة الغائب هنا: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ دون الخطاب، لبلاغة يعلمها الله عزّ وجل، قد نعلمها وقد لا نعلمها.

ثم قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾، المشار إليه: الاتخاذ، وعادت

الإشارة هنا على المفهوم من الفعل؛ لأن الفعل يدل على حدث وفاعله. فعاد الضمير هنا على الاتخاذ المفهوم من ﴿يَتَّخِذِ﴾، مثل قوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، فعاد الضمير إلى العدل المفهوم من كلمة ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾:

أي: يتخذهم أولياء من دون المؤمنين ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ يعني: فالله بريء منه؛ لأن الله تعالى لا يرضى أن يتولى أحدٌ من المؤمنين أحداً من الكافرين؛ لأن الكافر عدو لله بل هو عدو لك أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]، مهما كان، فإن الكافر لا يمكن أن يضمر لك المحبة أو الولاية أبداً، ولا يمكن أبداً أن يناصرك إلا لمصلحته هو؛ لأنه عدو، والعدو لا يمكن أن يريد منفعة عدوه.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾:

و﴿إِلَّآ﴾: هنا حرف استثناء. والصواب أنه منقطع، بل يتعين؛ لأنه في حال التقاة لا نتخذهم أولياء، ولكن نوافقهم في الظاهر، ونخالفهم في الباطن. والمعنى: أن هؤلاء الكفار لهم سيطرة وقوة وقدرة نخشاهم، فنتقي منهم؛ أي: نتخذ وقاية من بطشهم وتنكيلهم بنا. لكن في الظاهر دون الباطن، ولا يجوز إلا في حال الخوف على النفس لضعف المسلمين وقوة الكفار.

ولا بد أن تكون هذه الموالاة في الظاهر، باللسان فقط. أما في الباطن فيجب أن نضمر لهم العداوة والبغضاء وعدم الولاية.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾، في هذا التفات

من الغيبة إلى الحضور. ولولا الالتفات لقال: «إلا أن يتقوا منهم تقاة».

وقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ﴾: فيها فعل ومفعول به، ولفظ الجلالة (الله) فاعل. و﴿نَفْسَهُۥ﴾: مفعول ثانٍ.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾: أي: يخوفكم من نفسه عزّ وجل، ويحذركم من عقابه إذا اتخذتموهم أولياء، إلا في الحال التي تكون موالاتهم تقاة، وليس عن قصد واختيار.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾: أي: المرجع. والجملة اسمية قُدِّم فيها الخبر لفائدة الحصر؛ يعني: إلى الله لا إلى غيره المصير. والمراد المرجع في جميع الأمور، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تحريم اتخاذ الكفار أولياء؛ لقوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢ ـ أن مقتضى الإيمان الحقيقي أن يتخذ الإنسان الكافرين أعداء؛ لقوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، فعلَّق هذا الحكم بالمؤمنين، وهو دليل على أن مقتضى إيمانهم أن لا يتخذوهم أولياء، بل أن يتخذوهم أعداء؛ لأن هؤلاء الكفار شيعة الشيطان وأولياؤه. فقد قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

٣ ـ أن اتخاذ الكافرين أولياء ينافي أصل الإيمان، أو كمال الإيمان؛ لأن الحكم إذا عُلِّق بوصف، فإنه يتبع ذلك الوصف قوة

وضعفاً. فكلما كمل الإيمان كملت المعاداة وانتفت الموالاة، وإذا وجدت الموالاة ضعف الإيمان، وإذا ضعف الإيمان أيضاً وجدت الموالاة.

٤ ـ الإشارة إلى أنه يجب أن يتخذ المؤمنون أولياء من المؤمنين، وهذا هو مقتضى الإيمان. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]، فالواجب على المؤمن أن يتخذ له أولياء من المؤمنين.

٥ ـ أن اتخاذ الكافرين أولياء من كبائر الذنوب.

ووجه الدلالة: أن الله تبرأ منهم؛ وتعليق الحكم، أو تعليق البراءة بحكم من الأحكام يدل على أنه من كبائر الذنوب.

٦ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ ولي المؤمنين؛ ووجهه: أن الذي يتخذ الكافرين أولياء ويدع المؤمنين يتبرأ الله منه؛ لأنه ليس من المؤمنين في شيء، فلم يكن الله منه في شيء. وهذا له شاهد من القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المائدة: ٥٥]. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]. وقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧]. والآيات في هذا المعنى كثيرة. وقد صحَّ في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربِّه أن الله سبحانه وتعالىٰ قال: «**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب**»[1].

٧ ـ سهولة الإسلام ويسره حيث رفع الحرج عن الأمة؛

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢).

وذلك بما أباح من اتخاذ التقاة عند الضرورة إليها؛ لقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾.

٨ ـ أنه لا تجوز المداهنة لأعداء الله، وإظهار الرضا بما هم عليه؛ لقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾. ومعلوم أن التقاة لا تجوز إلا عند الضرورة، ومع ذلك ينوي بها الإنسان أنها وقاية مما يخاف منهم، لا رضى بما فعلوا، أو اطمئناناً إليه.

٩ ـ أن الله عزّ وجل مع كمال رحمته ومحبته للتوبة، إلا أنه في مقام الوعيد يذكر الآيات والكلمات الشديدةَ القويةَ؛ لأن المقام يقتضي ذلك؛ فإنه من أعظم الأشياء أن يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ولهذا قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾.

١٠ ـ إطلاق النفس على الذات؛ لأن المراد بقوله ﴿نَفْسَهُۥ﴾ أي ذاته. يحذركم الله نفسه: أي ذاته. والتعبير بالنفس أولى من التعبير بالذات، وإن كان التعبير بالذات هو المشهور عند العلماء. لكن التعبير بالذات عن النفس ليس من اللغة العربية الفصحى كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وإنما هو متلقى من اصطلاح عرفي. وأصله: أن «ذات» تستعمل مضافة فيقال: ذات جمال، ذات دين، ذات مال، وما أشبه ذلك؛ فيعبرون بالذات عن العين المتصفة بصفات، ثم سلبوها من الإضافة وعبروا بكلمة ذات مجردة عن الإضافة.

١١ ـ وجوب رد الأشياء إلى الله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

١٢ ـ تكرار التحذير إذا كان المقام يقتضي ذلك من أعلى

أنواع البلاغة؛ لأن قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، تحذير ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، هذا أيضاً تحذير آخر؛ لأنه تهديد ووعيد لمن خالف ما حذر الله منه.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].

﴿قُلْ﴾: الخطاب للرسول ﷺ. ولكن لا بأس أن يقوله من يحتاج إليه، وإن كان غير الرسول عليه الصلاة والسلام.

قوله: ﴿تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾:

والذي في الصدور هو ما تُكِنُّه القلوب، وجعله في الصدور لأن القلوب في الصدور، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقوله: ﴿إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ عام في كل شيء، من الخير أو من الشر، أو العداوة أو الولاية، أو غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾:

﴿يَعْلَمْهُ﴾: بالجزم؛ جواباً للشرط في قوله: ﴿إِن تُخْفُوا۟﴾ يعلمه الله عزّ وجل، وهو سبحانه وتعالىٰ عالم به قبل أن تخلق الصدور وما فيها، ولكن يعلمه أيضاً بعد أن يقع في الصدور عِلمَ وقوع، وأما علمه السابق فهو علم بما سيكون. وأما بعد وقوع الشيء فهو علم بالشيء بعد كونه. فلله سبحانه وتعالىٰ فيما يكون بالنسبة للعلم اعتباران:

الاعتبار الأول: باعتبار ما سيكون.

والاعتبار الثاني: باعتبار ما كان. وبهذا التقرير يزول الإشكال الذي يرد على النفس، ويورده كثير من الناس، في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١]. فيقول: أليس الله عزّ وجل قد علم المجاهدين والصابرين من غيرهم في الأزل؟ **فالجواب**: بلى؛ لكن علمه في الأزل علم بما سيكون، وعلمه بعد كون الشيء علم به كائناً، وفرق بين الأمرين. هذا من وجه.

ومن وجه آخر: أن علمه الأزلي لا يترتب عليه عقاب ولا ثواب، وعلمه بالشيء بعد كونه هو الذي يترتب عليه الثواب والعقاب؛ فيكون معنى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ أي: علماً يترتب عليه الثواب والعقاب.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

﴿يَعْلَمُ﴾: بالرفع على الاستئناف؛ والتقدير: وهو يعلمُ. ولا يجوز في مثل هذا الجزمُ عطفاً على ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فإنه يجوز، (فيغفرْ) لمن يشاء، ويجوز: (فيغْفِرُ)، ويجوز (فيغفرَ)، ثلاثة أوجه. لكن في هذه الآية لا يجوز سوى الرفع؛ لأننا لو جعلناه بالجزم، صار علم الله بما في السموات وما في الأرض مقيداً بقوله: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾، لأن المعطوف على جواب الشرط له حكم جواب الشرط، وجواب الشرط معلق بفعل الشرط. وعلى هذا فيتعين في قوله: ﴿وَيَعْلَمُ﴾ الاستئناف والرفع، ولا يجوز الجزم.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

﴿مَا﴾: من الأسماء الموصولة، وكل اسم موصول فإنه يفيد العموم، سواء كان من صيغ الجمع كالذين واللائي، أو من صيغ المفرد كالذي والتي، أو من الصيغ المشتركة كـ(ما)، و(من) وعليه فجميع الأسماء الموصولة بأصنافها الثلاثة كلها تفيد العموم. ألم تروا إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]، أين الخبر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ فجعل الخبر جمعاً، مع أن المبتدأ مفرد؛ لأنه مفرد في اللفظ، لكنه عام في المعنى. فكل ما في السموات فهو معلوم لله عزّ وجل، وكل ما في الأرض فهو معلوم لله عزّ وجل، بعلمه الأزلي القديم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥]، وأخبر النبي ﷺ: «**أن الله كتب مقادير كل شيء قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**»[(١)]، ولا يكتب إلا ما كان معلوماً عنده عزّ وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

ختم الآية ببيان عموم قدرته، إشارة إلى أن الله تعالى قد وسع كل شيء علماً وقدرة، وأنه قادر على الانتقام منكم فيما إذا أخفيتم ما لا يرضاه، ولكنه لحكمته قد يؤخر الانتقام.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، الصيغة عامة في القدرة، فنقول: هو قادر على كل شيء. فكل ما شاءه الله فهو

---

(١) رواه البيهقي (١/ ١٠١ رقم ١٧) في كتاب القدر.

قادر عليه، كما جاء في الحديث القدسي: «**إني على ما أشاء قادر**»[١].

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ وجوب إبلاغ الناس بعلم الله تعالى بما في صدورهم؛ لقوله: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ عموم علم الله عزّ وجل بما أخفاه الإنسان وما أبداه.

٣ ـ أن العقل في القلب، والتدبير في القلب، والإرادة في القلب؛ لأنه قال: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾. وهذه المسألة اختلف فيها أهل الكلام. هل العقل في القلب أو في الدماغ؟ ولكن من تأمل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وجد أن العقل في القلب.

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وهذه الآية نصٌّ صريح على أن العقل في القلب، ونصٌّ صريح على أنه ليس المراد بالعقل القوة المعنوية التي في المخ، وإنما المراد بالقلب القلب الحقيقي، قطعة اللحم التي في الصدر؛ ولهذا قال: ﴿ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ والخالق أعلم بما خلق. ولكن الدماغ لا شك أن له تأثيراً؛ لأن الدماغ يتصور الشيء ويرتبه ويجهزه، ثم يرسله إلى القلب، وينتظر الأوامر، ثم يصدر القلب الأوامر إلى المخ، والمخ يوجه الأوامر إلى الجوارح. ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**ألا وإن في**

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجاً، رقم (١٨٧).

الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[١].

وأما ما اشتهر عند الأطباء الآن أن القلب مضخة فقط، مضخة يصفي الدم ويرسل، ويستقبل الدم الفاسد وينظفه ويرسله إلى العروق والشرايين، فهذا ليس بصحيح. نوافقهم على أن للدماغ تأثيراً، ولكن وجه التأثير فيه أنه ـ بإذن الله ـ قابل لكل ما يأمر به القلب.

٤ ـ في هذه الآية أيضاً ردٌّ على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله وليس له فيه إرادة. ووجه الرد عليهم: أن الله أضاف الفعل إلى الإنسان فقال: ﴿إِن تُخْفُواْ﴾، إن تبدوا.

٥ ـ أن الله محيط بكل شيء علماً، حتى ما بين جوانح الإنسان؛ لقوله: ﴿إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾، فلا يخفى عليه شيء مما في نفس الإنسان؛ بل زد على ذلك أنه يعلم ما لم يحدث به الإنسان نفسه، بأنه سيحدث به نفسه، في الوقت والمكان المعين.

٦ ـ التحذير من أن يُسِرَّ الإنسان في نفسه ما لا يرضي الله؛ لأن الله إنما أخبرنا عن علمه بذلك تحذيراً لنا من أن نخفي في صدورنا ما لا يَرضَى.

٧ ـ عموم علم الله في قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والآيات في العلم متنوعة؛ تارة تكون مجملة، وتارة

---

(١) تقدم تخريجه (ص٥١).

تكون مفصلة، وتارة تكون فيما يتعلق بفعل الإنسان، وتارة تكون فيما يتعلق بفعل الله عزّ وجل؛ لأن صفة العلم متى آمن بها الإنسان أوجب له ذلك أمرين:

الأمر الأول: الهروب من معصية الله، فلا يجده الله عزّ وجل حيث نهاه.

الأمر الثاني: الرغبة في طاعة الله، فلا يفقده حيث أمره؛ لأنه يؤمن بأن الله تعالى يعلمه.

٨ ـ إثبات السموات، وأنها جمع، وقد صرح الله في كتابه أنها سبع؛ فقال: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]. وأما الأرض فإنها تأتي مفردة، ولم تأت في القرآن مجموعة، لكن جاءت في السنة مجموعة، وفي القرآن إشارة إلى أنها سبع في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، فإن المثلية هنا بالكيفية متعذرة، وإذا تعذرت المثلية في الكيفية، لزم أن تكون المثلية في العدد؛ كما نقول: «سبحان الله عدد خلقه، والحمد لله مثل ذلك» يعني عدد خلقه.

٩ ـ إثبات قدرة الله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وعموم هذه القدرة لقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

١٠ ـ إرشاد الإنسان إلى أن يتعلق بربِّه؛ لأنك متى علمت أن الله على كل شيء قدير، فإنه لن يمنعك مانع من أن تلتجئ إليه سبحانه وتعالىٰ بسؤال ما تريد. لا يستبعد شيئاً، ولهذا قال الله تعالى منبهاً على هذا الأمر: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ [الممتحنة: ٧]، ومعلوم أن العداوة بين المؤمنين

والكافرين أمر ثابت، وأن الإنسان قد يستبعد أن يجعل الله في قلبه مودة لهذا الكافر؛ فقال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧]، ﴿قَدِيرٌ﴾: بالنسبة لتقليب القلوب. ﴿غَفُورٌ﴾: بأن ييسر هؤلاء الكفار إلى الإسلام، فيغفر لهم. وقد وقع؛ فإنه أسلم عام الفتح، وقبل عام الفتح، أمة من الكفار، وصارت العداوة في قلوب المؤمنين لهم مودة.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال الله عزّ وجل: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان. تقديره: «اذكر يوم تجد» اذكر للناس وذكرهم بهذا اليوم العظيم.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ والمراد بالكلية هنا: كلية النفوس المكلفة، وهم الإنس والجن؛ فإن هؤلاء مكلفون بعبادة الله؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أما البهائم فإنها لا تجد ما عملت، لكن يوفى لها الظلم إن ظلمت، كما أخبر النبي ﷺ: «**بأنه يقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء يوم القيامة**»(١).

و﴿مَّا﴾: هنا اسم موصول مفعول أول. و﴿مُّحْضَرًا﴾: مفعول ثانٍ. و﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: جار ومجرور بيان لـ ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٢).

وجملة ﴿عَمِلَتْ﴾ صلة الموصول، وعائد الموصول محذوف، والتقدير: ما عملته من خير محضراً.

وقوله: ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ يشمل كل ما عملت، قلّ أو كَثُرَ. قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]. وقوله: ﴿مُّحْضَرًا﴾ الذي يحضره الله عزّ وجل، إما بقوله، وإما بملائكته، أو هو عزّ وجل يأمر فيحكم.

وقوله: ﴿مُّحْضَرًا﴾ قد يتبادر للذهن أن هذا العمل يكون جسماً، فيحضر كما تحضر الدراهم لمن يستوفيها، وإذا كان هذا مراد الله عزّ وجل، فليس بغريب أن تجعل الأعمال وهي أمر معنوي أجساماً. وهذا هو ظاهر القرآن الكريم أن الأعمال توزن، والوزن لا يكون إلا لجسم كثيف، فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة، وليس هذا بغريب على قدرة الله سبحانه وتعالىٰ. فها هو الموت ـ وهو زوال الحياة ـ يمثل يوم القيامة بكبش، ويوقف بين الجنة والنار، ويقال: يا أهل النار، ويا أهل الجنة، فيطلعون فيقال لهم: تعرفون هذا؟ فيقال: **هذا الموت، فيذبح ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت**[1]، وحينئذ يزداد أهل الجنة سروراً إلى سرورهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم، والعياذ بالله.

وقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ﴾:

الواو: هذه يحتمل أن تكون استئنافية؛ فتكون (ما) مبتدأ،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٤٨). ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٩).

ويحتمل أن تكون عاطفة، فتكون (ما) معطوفة على (ما) الأولى، يعني: ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء محضراً كذلك.

فعلى **الأول**: تكون جملة ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾، خبر (ما).

وعلى **الثاني**: يكون في الكلام حذف، تقديره: (وما عملت من سوء محضراً).

ولكن المعنى الأول أظهر؛ لأن الأصل عدم الحذف. والاستئناف كثير وارد في اللغة العربية، وهو هنا أبلغ؛ لأن ما عملت من سوء قد يحضر، وقد يقرر به الإنسان ولا يحضر. والكلام هنا عام يشمل المؤمنين والكافرين، والمؤمن في حسابه لا يحضر له عمله السيئ، إنما يقرر بذنوبه؛ يخلو به الله عزّ وجل فيقرره، ويقول: عملت كذا، عملت كذا، عملت كذا، فيقول: نعم، فيقول الله له: قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. أما الكفار فيحضر عملهم.

قال الله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. لأن سيئات الكفار لا تمحى، بل تحضر ويحاسبون عليها.

وبهذا يتبين أن إعراب الواو استئنافية و(ما) مبتدأ، أظهر من أن تكون عاطفة و(ما) معطوفة على ما سبق.

وقوله: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾:

يعني: زمناً طويلاً أو مكاناً بعيداً، وتود أنها لم تعمله،

وتَذْكُره، ولم يحضر لها، إن كانت ممن يحضر لها العمل السيئ.

والودُّ: خالص المحبة، أي: تحب محبة شديدة من كل قلبها، لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً.

و﴿لَوْ﴾: مصدرية لأنها إذا وقعت بعد (ودَّ) تكون مصدرية، كما في قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، يعني: ودوا أن تدهن، وقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ [البقرة: ١٠٩]، أي: أن يردوكم.

و﴿لَوْ﴾ داخلة على فعل محذوف، تقديره: تود لو حصل أن بينها وبينه أمداً بعيداً. ويصح أن نقول ﴿لَوْ﴾ زائدة. والتقدير: تود أن بينها وبينه أمداً بعيداً.

وقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾:

كرر ذلك لأن المقام يقتضيه، يقتضي التحذير؛ أي: احذر الله عزّ وجل، احذر الله أن يصيبك بعقابه إذا عصيته وخالفت أمره.

والأول: يحذركم الله نفسه في العمل في موالاة الكفار. والثاني: في الجزاء؛ لأنه ذكره بعد أن ذكر الجزاء الذي يكون يوم القيامة.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾:

فيها قراءتان: القراءة الأولى: رؤوف، والقراءة الثانية: رؤف بدون واو. والرؤوف: مفعول من الرأفة وهي أشد الرحمة، وأرق الرحمة؛ لأن الرأفة فيها شيء من الرقة واللين أكثر مما في الرحمة. وقوله: ﴿بِٱلْعِبَادِ﴾، جمع عبد، والمراد بهم: الخلق، فهو من العبودية العامة.

استشكل بعض العلماء إتيان قوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾،

بعد قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾. وقال: كان مقتضى الحال أن يقال: (ويحذركم الله نفسه والله شديد العقاب) لأن مقام التحذير يقتضي الوعيد.

فأجيب عن ذلك: بأن من رأفته عزّ وجل بالعباد أن حذرهم نفسه، وأخبرهم بأن الأمر عظيم؛ لأن إخبار الإنسان بحقيقة الحال لا شك أنه من الرأفة به.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ التحذير والتذكير لهذا اليوم العظيم الذي يجد فيه الإنسان ما عمل من خير أو سوء.

٢ ـ وجوب أو على الأقل استحباب تذكر الإنسان لهذا اليوم؛ لأن التقدير بـ(اذكر) يشمل الذكر الخبري والذكر الفكري؛ يعني: التدبر في القلب.

٣ ـ ثبوت الجزاء لكل نفس. وهل هذا على عمومه، أو مستثنى منه من لا يكلف؟ يحتمل؛ إن نظرنا إلى عموم اللفظ قلنا: إنه شامل، وغير المكلف يكتب له ولا يكتب عليه؛ فيكون ما عمل من خير محضراً، وما عمل من سوء فهو مرفوع عنه. ويحتمل أن يراد بها النفوس التي يلحقها الجزاء عقوبة وكرامة، وهي الأنفس المكلفة. ولا شك أنه ليس على عمومه فيما يتعلق بالبهائم، فإن البهائم لا تجد هذا.

٤ ـ كمال قدرة الله عزّ وجل بإحضار ما عمله الإنسان من قليل وكثير؛ لقوله: ﴿مَّا﴾ الموصولة التي تفيد العموم.

٥ ـ كمال رقابته عزّ وجل، وأنه لا يفوته شيء، فما عمل الإنسان فسوف يجده.

٦ ـ إثبات اليوم الآخر الذي هو يوم الجزاء.

٧ ـ أن الشر يسوء صاحبه؛ لقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾.

٨ ـ إثبات الشعور في ذلك اليوم، لقوله: ﴿تَوَدُّ﴾ لأن المودة خالص المحبة، وهي فرع عن الشعور بالشيء.

٩ ـ كراهة المسيء لما عمله في ذلك اليوم، وأنه يحب أن يكون بينه وبينه كما بين المشرق والمغرب؛ لقوله: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾.

وهكذا يود الإنسان أن يكون بينه وبين عمله السيئ الأمدُ البعيد، وبينه وبين قرين السوء الأمد البعيد. قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٦ ـ ٣٨] فهم في الدنيا أصدقاء، لكن في الآخرة أعداء.

١٠ ـ رحمة الله تعالى بعباده بتحذيرهم نفسه، لئلا يقعوا في عقوبته ونقمته؛ لقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾.

١١ ـ أنه ينبغي استعمال الأسلوب المناسب للحال. فالله عزّ وجل قال في هذه الآية: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، وفي آيات كثيرة يتحبب إلى عباده عزّ وجل ويتودد إليهم؛ لأن هذا المقام الذي نحن فيه مقام تحذير وتهديد.

١٢ ـ إثبات الرأفة لله عزّ وجل، بل إثبات الاسم والصفة في قوله: ﴿رَءُوفٌۢ﴾ والرأفة أشد الرحمة وأرقها. وتأمل قول الله تعالى عن نفسه: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾. وقوله عن نبيه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فإن رأفة الله عامة، أما رأفة

النبي ﷺ فهي خاصة بالمؤمنين. أما الكفار والمنافقون فلا يرأف بهم. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، هذه وصية الله لنبيه في الكفار والمنافقين، وفي جلد الزاني قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]. لكن الرب عزّ وجل رءوف بعباده، يسعهم حلمه ورحمته وعافيته ورزقه.

١٣ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يعرف قدر نفسه بالنسبة إلى ربِّه أنه عبد، والعبد يجب أن يكون منقاداً لأمر الربِّ، وأن يكون ذليلاً له سبحانه وتعالىٰ شرعاً كما أنه ذليل له قدراً. فكل الناس أذلاء لله قدراً، لا يستطيعون أن يخالفوا قَدَرَهُ. وأكبر واحد في الدنيا، وأشدهم عتواً، يمرض ويموت، وهذا خضوع للربوبية القدرية. لكن من ليس بمؤمن ليس بخاضع للربوبية الشرعية.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

هذه الآية يسميها بعض السلف آية المحنة، يعني: آية الاختبار والامتحان؛ وذلك أن قوماً ادعوا أنهم يحبون الله، فأمر الله نبيه أن يتحداهم بهذا الميزان، وهو: إن كانوا صادقين فليتبعوا الرسول ﷺ، سواء كانوا من اليهود أو من النصارى أو من المنافقين. المهم: أي واحد يدعي أنه يحب الله فهذا الميزان ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، إذا كانوا صادقين فليتبعوا الرسول. أما مجرد دعوى:

فكل يدعي وصلاً لليلى وليلى لا تقر لهم بذاكَ

كل يدعي أنه يحب الله؛ لأن الدعوى سهلة. لكن الكلام على البينة، والبينة على المدعي، فإذا كانوا يحبون الله حقًّا فليتبعوا النبي ﷺ، لينالوا ما هو أعظم من دعواهم، وهو محبة الله لهم. ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، فالشأن ليس أن تُحِب بل الشأن أن تُحَب، أما أن تُحِب ولا تُحَب، فهذا عذاب. انظروا إلى بريرة ومغيث: بريرة تبغض مغيثاً، ومغيثٌ يحبها، فعذِّب بحبها لما عتقت، خيَّرها النبي ﷺ قال: «**اختاري لنفسك**»، قالت: لا أريد الرجل، تعني: زوجها، فطلبت الخيار لنفسها والشرع يمكِّنها من ذلك، فكان زوجها يبكي وراءها في السوق، في أزقة المدينة، يطلب ألا تختار نفسها، فجاء إلى النبي ﷺ وقال له: اشفع لي يا رسول الله عندها. فكلَّمها النبي ﷺ، قال لها: «**ارجعي إلى مغيث**». قالت: يا رسول الله! إن كنت تأمرني، فسمعاً وطاعة، وإن كنت تشير علي فلا حاجة لي فيه».

قال: بل أشير، قالت: لا حاجة لي فيه[1]. يعني أنها لم تقبل شفاعة النبي ﷺ ولم ترحم الرجل الذي يمشي وراءها يبكي في الأسواق، والخطاب في الآية للرسول ﷺ، إذا وجه إليه بـ﴿قُلْ﴾ في القرآن فهو دليل على العناية بهذا القول الذي أمر أن يقوله؛ لأن هذا أمر بالتبليغ الخاص لهذا القول. أما القرآن كله فقد أمر أن يقوله كله لكن بعض الأشياء يُخص بـ(قل) مثل: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي ﷺ في زوج بريرة، رقم (٥٢٨٣).

يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] و﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وما أشبه ذلك، فهذا أمر بتبليغ هذا الشيء الخاص بعينه فيكون في ذلك توكيد ودليل على العناية به، وهذه لا شك يجب الاعتناء بها. فلا يكفي أن يأتي إنسان ويقول: أنا أحب الله، أنا حبيب الله. كما يدعي أناس أنهم أولياء لله. ولكن الذي يزعم أنه من أولياء الله نمتحنه، ننظر هل هو مؤمن تقي فهو صادق، أو هو عاصٍ فاسق دجال يريد أن يُشرَك به مع الله في المحبة والطاعة، فهو عدو وليس بولي؛ لأن الله قال في ميزان الأولياء: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾، إن الخطاب هنا غير معلوم بالشخص المخاطب، لكنه معلوم بالمعنى. يستفاد من معناه مما بعد؛ أي قل لمن ادعى أنه يحب الله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ والجملة هنا شرطية، وفعل الشرط: ﴿كُنتُمْ﴾ وجوابه ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾. وجاءت الفاء في الجواب لأن الجملة طلبية؛ وإذا كانت جملة الجواب طلبية وجب اقترانها بالفاء.

وقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ أي: على ما أنا عليه من الشريعة، عقيدة وقولاً وفعلاً وتركاً، فمن اتبع الرسول ﷺ بهذه الأربعة صدق في اتباعه، ومن خالف فهو غير صادق.

عقيدةً: بحيث تكون عقيدته على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه لا تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، ولا شك ولا تردد؛ بل إيمان كامل خال من جميع الشوائب.

وقولاً: لا يزيد ولا ينقص عمَّا جاءت به الشريعة من الأقوال.

وفعلاً: كذلك لا يزيد ولا ينقص.

وتركاً: بحيث يترك ما لم يعمله الرسول عليه الصلاة والسلام، فكل ما لم يتعبد به الرسول يجب عليه أن لا يتعبد به. فإن تعبد به ولو أنه يقول إنه يحب الرسول فإن دعواه كاذبة، لو كنت تحبه حقًّا لاتبعته حقًّا، ولذا نجد الإنسان من بني آدم إذا أحب شخصاً غير الرسول. تجده يترسم خطاه، يعجب به وينظر ماذا يفعل ويفعله.

وقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ﴾: هذه فُك إدغامها، ولذلك ظهر السكون فيها، وفي غير القرآن لو قيل يحبكم الله لكان صحيحاً؛ لأن الإدغام هنا وفكه يجوز.

قال تعالى: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

هذه الثمرة الأولى، والنتيجة التي يسعى إليها كل إنسان، أن يكون محبوباً لدى الله سبحانه وتعالىٰ، والثانية: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، فائدتان عظيمتان: محبة الله لك ومغفرة ذنوبك. وقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي كل ما عملتم من الذنوب يغفرها لكم، ولكن هل نقول: إنه يغفر وإن لم يستغفر الإنسان منه؛ لأن حسنة الاتباع تمحو هذا الذنب، ومحبة الله للإنسان توجب عدم عقوبته. أو نقول: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ بأن ييسر لكم أسباب المغفرة إن لم يغفر لكم بدون سبب، يحتمل أنه سبحانه وتعالىٰ أراد أنه يغفر الذنوب بسبب هذا الاتباع والمحبة، أو أنه وإن فعل الإنسان ما فعل فإنه ييسر له أسباب المغفرة بأن يعود من معصية الله إلى

طاعته. والله أعلم. لكن على كل حال الوعد هنا محقق، وهو مغفرة الذنوب إما بسبب من العبد أو لمجرد فضل الله.

وقوله: ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾: الذنب هو المعصية، وهو كما ترون جمع مضاف لمعرفة، والجمع المضاف إلى معرفة يفيد العموم.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الجملة اسمية اشتملت على ثلاثة أسماء من أسماء الله: الله، والغفور، والرحيم، فأما معنى «الله» فقد سبق بأنه: المألوه أي المعبود حبًّا وتعظيماً، وأن أصل (الله) الإله، فحذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة الاستعمال كما حذفت من الناس ومن شر وخير.

وأما الغفور: فالغفور هنا يَحتمل أن تكون صيغة مبالغة، ويحتمل أن تكون صفة مشبهة، والمعنيان لا يتنافيان فتكون صفة مشبهة وصيغة مبالغة، صفة مشبهة؛ لأن الله لم يزل ولا يزال غفوراً، وصيغة مبالغة لكثرة من يغفر له وكثرة ما يغفره من الذنوب.

والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، وليست مجرد الستر، لوجهين: لُغوي وسمعي.

أما اللُّغوي: فلأن المغفرة مأخوذة من المِغْفَر الذي يستر به المقاتل رأسه ويتقي به السهام، والمغفر جامع للستر والوقاية. وأما السمعي فلما ورد في كيفية محاسبة الله لعبده المؤمن أنه يخلو به ويقرره بذنوبه، فيقول: «**قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»[1].

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٠٩).

وأما الرحيم: فهو ذو الرحمة وهو صالح أيضاً لأن يكون صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، والرحمة: صفة تقتضي العطف والإحسان على المرحوم، والجمع بينهما، بين الغفور والرحيم، لفائدة عظيمة: وهي الجمع بين الوقاية والعناية، بين الوقاية بالمغفرة يقيك الله سبحانه وتعالىٰ شر الذنوب، والعناية بالرحمة، يعتني الله بك فييسرك لليسرى ويجنبك العسرى.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الله أمر نبيه محمداً ﷺ أن يتحدى هؤلاء المدعين لمحبته بهذا الميزان القسط، وهو اتباعهم للرسول عليه الصلاة والسلام.

٢ ـ جواز مخاطبة المدعي بالتحدي لأن هذا هو الحق، لأنه لو كان يعرف نفسه ما ادعى اتصافه بشيء لم يتصف به، فهو الذي أذل نفسه في الواقع، فلا تخش من تحديه ليقم الدليل والبرهان على دعواه.

٣ ـ أنها مصداق لقول النبي ﷺ: «**البينة على المدعي**»[1]، وهذه وإن كانت في دعوى الناس بعضهم مع بعض لكنها في الحقيقة قاعدة عامة، فكل مدَّعٍ لا بد أن يقيم بينة على دعواه.

٤ ـ أن محبة الله تعالى غاية لكل الناس حتى من غير المؤمن؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الأحكام، باب ما جاء في أن البينة علىٰ المدعي واليمين علىٰ المدعى عليه، رقم (١٣٤١، ١٣٤٢).

٥ ـ أن رسول الله ﷺ رسول الله حقًّا، وجه ذلك: أن الله جعل اتباعه سبباً لمحبة الله للعبد.

٦ ـ أنه كلما قوي اتباع الإنسان للرسول ﷺ كان أقوى برهاناً على صدق محبته لله، فهذه من علامة محبة الإنسان لربه، فإذا رأيت الإنسان شديد الاتباع لرسول الله ﷺ فاعلم أنه شديد المحبة لله.

٧ ـ أن اتباع النبي ﷺ سبب لمحبة الله للعبد؛ لقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٨ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يجيب غيره بما هو أكثر من سؤاله إذا دعت إليه الحاجة؛ لأنه لم يقل: فاتبعوني تحبوا الله، بل قال: يحببكم، ولا أحد يحبه الله إلا وهو يحب الله، لأنك إذا أحببت الله عملت فأحبك الله. فلهذا أتى بالثمرة المهمة وهي محبة الله للعبد.

٩ ـ إثبات المحبة بين العبد والرب من الجانبين؛ لأنه قال: ﴿تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ فأثبت أن الإنسان يحب الله، وقال: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ فأثبت أن الله يحب الإنسان، وهي محبة حقيقية خلافاً لمن أوَّلها. قال: تحبون الله: أي تحبون ثوابه، يحببكم الله: أي يثيبكم الله، فإن هذا تحريف. وسبب هذا التحريف القاعدة الباطلة للسمع والعقل؛ وهي تحكيم العقل فيما يثبت وينفي عن الله عزّ وجل، فإن قوماً ادعوا العقلية قالوا: نحن الذين نحكم على الله بما يجب له أو يجوز أو يمتنع، وليس ما أخبر الله هو الذي يحكم بيننا، هذا لازم قولهم وإن كانوا لا يصرحون بهذا. والله إن الإنسان يجد طعماً لا شيء يشبهه في محبة الله، ومحبة الله

غير محبة الثواب، فإذا وقع في قلبك محبة الله نسيت كل شيء حتى الجنة، فتحبه حتى إنك ترى أن كل شيء يضمحل ويكون عبداً لله أمامك. ولهذا جاء في الحديث ـ وإن كان فيه ما فيه ـ «**أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم**»[1]، وكل النعم من الله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وأكبر نعمة على الإنسان هي أن يهديه للإسلام كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣]، الإنسان الذي هداه الله للإسلام ليس أحد من الناس مثله في النعمة إلا من أنعم عليه بها، فأنت في الحقيقة تحب الله نفسه لذاته ولما أنعم عليك به من النعم، وليست محبة الله كمحبة الزوجة أو كمحبة الطعام، أو كمحبة الشراب، أو كمحبة اللباس، أو كمحبة السكن، أو كمحبة السيارة؛ كلا فإن محبة الله لا يشبهها شيء، وجرِّب تجد، اجعل قلبك صافياً يوماً من الدهر وصلِّ وكن متصلاً بالله في صلاتك تجد شيئاً لا يخطر بالبال. وتجد شيئاً يبقى أثره مدة طويلة وأنت تتذكر تلك اللحظة التي كنت فيها متصلاً بربك عزّ وجل.

فالحاصل: أننا نقول: لا أحد ينكر محبة الله نفسِه إلا من حُرمها، والله لو نعتقد أننا نحب ثواب الله دون الله ما حرصنا كل الحرص على الأعمال الصالحة، مع أننا مقصرون لم نعمل شيئاً، لكننا نقول: إن الإنسان يعمل العمل الصالح لله، لا يعني ذلك أننا لا نلاحظ ونحتسب الثواب. لسنا صوفية يقولون: من عمل للثواب فهو للتراب، بل نقول: نحن نحب الله ونحب ثوابه. لكن الأصل

---

(١) رواه الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ، رقم (٣٧٨٩).

هو محبة الله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، والحسنى: الجنة كلها بما فيها من نعيم، والزيادة: هي النظر لوجه الله. فجعل النظر لوجه الله أمراً زائداً على النعيم؛ لأن الإنسان ـ جعلني الله وإياكم ممن ينظر إليه ـ إذا نظر إلى ربه جل وعلا فهذا أكمل ما يجد من النعيم واللذة. فلهذا نقول: إن محبة الله عزّ وجل حقيقة ولا مانع منها.

أما قولهم: إن المحبة لا تكون إلا بين متلائمين ولا ملاءمة بين الخالق والمخلوق.

فالجواب عنها أن نقول لهم: إن هذه دعوى باطلة يبطلها الواقع، ألستم تحبون منازلكم وثيابكم ومركوباتكم، ولو أن إنساناً عنده بعير صلف شديد لا يحجزه اللجام، وبعير سهل الانقياد سلس المشي فأيهما أحب إليه؟ الثاني أحب إليه، ثم على فرض أن هذا يكون بين المخلوقات، وليس بين الخالق والمخلوق، فيقال: إن الله أثبت وهو أعلم أنه يُحِب ويُحَب. إذن في هذه الآية رد على من ينكر محبة الله، المحبة بين الإنسان وبين الرب. والناس في هذا ثلاثة أقسام:

قسم قال: لا محبة بين العبد والرب من الجانبين، وقسم قال: لا، بل تثبت المحبة بين العبد والرب من الجانبين. والثالث قال: إن الله يُحَب ولا يُحِب. والقرآن والسنة يرد على طائفتين ويؤيد طائفة، من نفى المحبة بين الطرفين فقوله باطل، ومن تناقض فأثبتها من جانب العبد دون الرب فقوله باطل أيضاً، فالأول قوله باطل وإن كان قوله مطرداً، فقوله مطرد لكنه باطل. والثاني قوله متناقض وهو باطل أيضاً، ومن أثبتها بين العبد

والرب فهذا هو الذي على الحق؛ لأن الله أثبت ذلك.

١٠ ـ الثمرة الجليلة باتباع رسول الله ﷺ وذلك بمحبة الله للعبد.

١١ ـ أنه ينبغي للإنسان إذا عمل العمل أن يستشعر أنه متبع بذلك لرسول الله ﷺ.

١٢ ـ أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾، حيث جعل الاتباع برهاناً على صدق دعوى المحبة، وجعل الجزاء من جنسها، أن الله يحب العبد.

١٣ ـ أن اتباع رسول الله ﷺ سبب لمغفرة الله للذنب؛ لقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

١٤ ـ كمال إحسان الله سبحانه وتعالىٰ لجزائه على العمل أكثر منه؛ لأن الذي يتبع الرسول يحصل له محبة الله ومغفرة الذنوب.

١٥ ـ إثبات هذين الاسمين وما تضمناه من صفة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ففيهما إثبات الاسمية لله في هذين الاسمين، والثاني إثبات الصفة التي تضمناها. ومن المعلوم أن كل اسم من أسماء الله يدل على معناه الخاص به، لكن اجتماع الاسمين يدل على معنى ثالث؛ وهو: الجمع بين مغفرة المعائب والرحمة بالعناية بالفضائل؛ لأن المغفرة مقابل الذنوب، والرحمة مقابل العناية بالإنسان، إن الله تعالى يرحم الإنسان، فيحصل من اجتماع هذين الاسمين صفة ثالثة، وهي جمع الرب سبحانه وتعالىٰ بين الإحسان والوقاية من الذنوب وآثارها بالمغفرة.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ﴾ الخطاب في قوله: ﴿قُلْ﴾ للرسول ﷺ.

والطاعة هي عبارة عن الانقياد والموافقة سواء كانت في فعل أو في ترك؛ فإن كانت أمراً فالطاعة فعل المأمور به، وإن كانت نهياً فالطاعة اجتناب المنهي عنه.

وقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ﴾، أتى بالواو الدالة على التشريك لأن طاعة الرسول ﷺ فيما يأمر به من الشريعة من طاعة الله، وأما فيما لا يأمر به من الشريعة فلا شك أنه أعظم الناس حقًّا علينا. ولكن قد يشير بالشيء أو قد يشفع بالشيء ولا يلزم طاعته في الشفاعة، كما في قصة بريرة.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩]. ولم يقل: ثم رسوله؛ لأن هذا إتيان شرعي لا قدري؛ لأن الأمور القدرية لا يمكن أن يشرك فيها الرسول مع الله بـ(الواو).

وقوله ﴿وَالرَّسُولَ ۖ﴾: (أل) فيها للعهد وليست للاستغراق، والمعهود رسول الله ﷺ محمد بن عبد الله.

والرسول: عند عامة العلماء من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، **والنبي**: من أوحي إليه بشرع يتعبد به ولكن لم يكلف بتبليغه.

فآدم ـ عليه السلام ـ نبي؛ لأنه أوحي إليه بشرع لكنه ليس برسول لأنه لم يلزم بتبليغه، لكن ذريته في ذلك الوقت كانوا

يتبعونه، لأنهم قلة ولم يكثروا فيحصل النزاع بينهم ولم تفتنهم الدنيا، كانوا يتبعون أباهم فيما يتعبد به من شريعة الله. فلما كثر الناس واختلفوا بعث الله النبيين، كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فصار الرسول أخص من النبي. وعليه فنقول: كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، لكن الأنبياء الذين ذكروا في القرآن بلفظ النبوة هم أنبياء ورسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، فأفادت الآية الكريمة أن كل من قصَّه الله في القرآن فهو رسول وإن كان لم يرد ذكره إلا بلفظ النبوة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني فإن أعرضوا عن الطاعة ولم يمتثلوا لها ولم ينقادوا، وهذا كفر منهم، ولكنه قد يكون مخرجاً من الإسلام وقد لا يكون مخرجاً، فإنْ كان كفراً مطلقاً بكل ما أمروا به فهو كفر مخرج عن الإسلام، وإن كان كفراً مقيداً ببعض الأوامر فهو كفر دون كفر لا يخرج من الإسلام، والميزان في ذلك النصوص، فما دلَّت النصوص على أنه كفر كان التولي عنه كفراً مخرجاً عن الملة، وما دلَّت النصوص على أنه معصية فهو كفر لا يخرج من الملة.

وفي قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فسَّر بعضهم نفي المحبة بأن المعنى لا يثيبهم ولكن هذا تحريف، والصواب أنه لا يحبهم، وهو إذا لم يحبهم لن يثيبهم، فهذا انتفاء محبة الله عنهم. وقوله: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هو إظهار في محل الإضمار. ومقتضى السياق أن يقال: (فإن تولوا فإن الله لا يحبهم)، ولكنه أظهر في موضع

الإضمار لفائدتين: إحداهما لفظية، والثانية: معنوية. والمعنوية، تتضمن ثلاث فوائد:

الفائدة اللفظية: مراعاة الفواصل، فواصل الآيات، فإن قال: (فإن تولوا فإن الله لا يحبهم) لم تتناسب هذه الفاصلة مع الفواصل التي قبلها وبعدها. ومراعاة الفواصل من البلاغة؛ ألم تروا إلى قوله تعالى من سورة طه: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]، مع أنه في الآية الأخرى يقدم موسى، وموسى أفضل من هارون ـ لا شك ـ، وأحق بالتقديم، لكنه قدم هارون على موسى في هذه الآية من سورة طه من أجل مراعاة الفواصل، ولا شك أن القرآن في قمة البلاغة، فمراعاة الفواصل من البلاغة.

أما الفائدة المعنوية: فنقول: إن قوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إظهار في موضع الإضمار، وله ثلاث فوائد معنوية:

الأولى: التسجيل على هؤلاء بالكفر؛ يعني الحكم عليهم بأنهم كفار، ولو قال: فإنه لا يحبهم لم تحصل هذه الفائدة أنهم كفار.

الثانية: التعميم، بحيث تكون محبة الله منتفية عن كل كافر، ولو قال: لا يحبهم لاختصَّ نفي المحبة بهؤلاء فقط.

الثالثة: التعليل، وذلك لأن الحكم إذا عُلِّق بوصف دلَّ على عِلِّيَّةِ ذلك الوصف فيه، فإذا قلت: أكرِم المجتهد، أي: لاجتهاده، فدلَّ ذلك على أن الاجتهاد هو العلة.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ عناية الله سبحانه وتعالىٰ بطاعته وطاعة رسوله؛ لأن الآية صدرت بـ﴿قُلْ﴾، والقرآن كله قد أمر الرسول ﷺ أن يقوله.

٢ ـ وجوب طاعة رسول الله ﷺ؛ لقوله: ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ وهذا مكرر في آيات متعددة.

٣ ـ الرد على من قال: إن السنة لا يعمل بها إلا ما وافق القرآن. وجهه أن الله قال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، ومن المعلوم لو قلنا: إن الرسول ﷺ لا يطاع إلا فيما أمر الله به لم يكن للأمر بطاعته فائدة؛ لأن كل من أمر بما أمر الله به فإنه مطاع لا لأمره ولكن لأمر الله، فطاعة أمر الرسول طاعة مستقلة. على أننا نقول: إن الذي يقول إنه لا يعمل بالسنة إلا ما وافق القرآن متناقض، وجهه أن قوله: إلا ما وافق القرآن يرد عليه بأنه ليس في السنة ما يخالف القرآن؛ لأن القرآن أمر بالعمل بالسنة، فالعمل بها موافقة للقرآن وليس بمخالفة، سمعت أن بعض الناس أنكر على من استدل بقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وقال: إن هذا في قسم الفيء وهذا صحيح، ولكن إذا كان يجب علينا أن نقبل ما قسمه الرسول عليه الصلاة والسلام في الفيء، وأن ننتهي عما نهى عنه؛ فما بالك بالأمور الشرعية، فقبولنا لما جاء به شرعاً أولى من قبولنا بما قسمه مالاً.

٤ ـ إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾.

٥ ـ وجوب الطاعة؛ لقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، واعلم أن ترك امتثال الطاعة إن كان سببه كراهة ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، فهذا كفر مخرج عن الملة كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، وإن كان تكاسلاً وكراهة لهذا العمل نفسه لا لأن الرسول جاء به، فهذا لا يخرج من الملة، وهذه مسألة يجب التفطن لها

والتنبه؛ لأن بعض الناس إذا رأى أن شخصاً كره فلاناً لتطبيقه السنة قال: هذا كره ما أنزل الله، فهذا كافر، وهذا خطأ عظيم. والكفر ليس نقداً سهلاً تعطيه من شئت وتمنعه عمن شئت، الكفر أمره صعب جداً، لا يجوز أن نكفر إلا من تيقَّنا أنه صدق عليه أنه كافر. ولهذا ربما يكره الإنسان هذا العمل من شخص ولا يكرهه من شخص آخر، إذن هو لا يكره العمل لأنه سنة، لكن قد يكره هذا الرجل نفسه لأنه عمل به، لو أن أحداً من الناس الموثوقين عند العامة فعل هذا الفعل لوجدتهم يأخذون به، أو على الأقل لا ينكرونه، لكن لو فعله واحد غير موثوق به ينتقدونه ويكرهونه، والنبي ﷺ يقول: «**ومن دعا رجلاً بالكفر أو قال يا عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه**»[1]، ومعنى (حار عليه) أي: أنه سيكفر إلا أن يمن الله عليه بتوبة؛ لأنه قال: (إلا حار عليه) ولم يقل: إلا أوشك أن يحور عليه. كل هذا من أجل حماية أديان الناس، فإذا كان الشرع يحمي أعراض الناس بأن من قذف شخصاً وجب عليه الحد ثمانين جلدة، فأديان الناس حماها أيضاً. فالواجب ألا نتسرع في هذه الأمور، وأن نعلم أن الأمر عظيم، ويسعك ما دلَّ عليه شرع الله عزّ وجل، فمن كفَّره الله ورسوله فكفِّره. ومع ذلك إذا جاء نصٌّ يقول: من فعل كذا فهو كافر، فلا نطبق هذا الحكم على كل من فعله بعينه، كما أننا لا نشهد بالجنة لكل مؤمن بعينه إلا لمن شهد له الرسول ﷺ. فكذلك أحكام الكفر كأحكام الإيمان تماماً، واعلم أنك إذا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم، رقم (٦١).

حكمت عليه بالكفر فقد أبحت دمه وماله، وحرمته الجنة وأوجبت له النار، وأوجبت فسخ نكاح زوجاته منه، وألا يرثه أحد من أقاربه، وألا يصلى عليه، وألا يدفن مع المسلمين. فأحكام الكفر ليست هينة حتى تكون على ألسنة كل أحد.

❁ ❁ ❁

❑ قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤].

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾ هذه الجملة مؤكدة (بإن) لأن المقام يقتضي ذلك، إذ إن المقصود بيان أن الله تعالى يصطفي من الناس من شاء: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، يعني ومن الناس رسلاً.

وآدم عليه السلام هو أبو البشر، خلقه الله تعالى خلقاً مستقلاً وليس متطوراً من جنس آخر أو من نوع آخر قبله كما يقول أهل الإلحاد. ومن ادعى ذلك فقد كفر بالله؛ لأن الله تعالى أخبر في كتابه في عدة مواضع أن الله خلق آدم من تراب، من صلصال كالفخار، من طين، خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته. فمن زعم غير ذلك فهو كافر مصدق لغير الله مكذب لله ـ والعياذ بالله ـ مع العلم بأنه لن يأتي أحد بكلام عن آدم وابتداء خلقه وكيفية خلقه غير مستند في ذلك إلى الوحي فإن قوله غير مقبول، لأنه لم يشاهده، قال الله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١]، وقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ

﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [إبراهيم: ٩]، فمن ادعى علم شيء ممن سبق فهو كاذب إلا ببرهان، وآدم كما نعلم بيننا وبينه أزمنة طويلة جدًّا، فلا يمكن أن نقبل قولاً فيه إلا عن طريق الوحي الصحيح.

وسمي آدم: قيل لأُدمته، يعني لونه ليس الأبيض الباهق ولا الأسود الحالك، لكنه بين ذلك. وخلقه الله عزّ وجل على صورته أي على صورة الله عزّ وجل تكريماً له، ولا يلزم من كونه على صورة الله أن يكون مماثلاً له؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فعلينا أن نؤمن بالنصوص كلها، نؤمن بأنه خلقه على صورته، ونؤمن بأنه ليس كمثله.

فإن قلت: كيف يكون على صورته وليس مثله؟

فالجواب: يمكن هذا في المخلوق فما بالك في الخالق، فلقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام: «**أن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر**»[1]. ومن المعلوم أنه لا يلزم التماثل؛ يعني ليس صورتهم كصورة البدر تماماً، بل من حيث الجمال والبهاء والنور كالقمر ليلة البدر. ثم إن القرآن والسنة لا يكذب بعضهما بعضاً. وآدم عليه الصلاة والسلام أوحي إليه كما في القرآن الكريم. ولا شك أنه أوحي إليه أيضاً من الناحية العقلية، وذلك لأنه لا يستقل بعبادة الله؛ أي لا يمكن أن يعرف كيف يعبد الله إلا بوحي من الله وهو مخلوق للعبادة. ﴿وَمَا خَلَقۡتُ

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٤٦).

﴿ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فدلَّ السمع والعقل على أنه موحىً إليه، ولكن هل كان رسولاً؟ لا، ليس برسول بدلالة الكتاب والسنة. أما الكتاب ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، فجعل النبيين من بعد نوح. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وفي الحديث الصحيح حديث الشفاعة الطويل: **أن الناس يأتون إلى نوح ويقولون له: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض**(١).

وعليه فآدم نبي أوحي إليه بشرع وتعبد الله به، وبقي الناس على هذا الشرع لأنهم قلة، ولم يحصل منهم اختلاف، فلما اختلفوا بعث الله النبيين كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقوله: ﴿وَنُوحًا﴾، ذكره الله عزّ وجل بعد ذكر آدم؛ لأنه الأب الثاني للبشرية، فإن نوحاً لما كذبه قومه إلا القليل أهلكهم الله تعالى بالغرق، فجعل الله ذريته هم الباقين كما في سورة الصافات: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، فصار الأب الثاني للبشرية.

وقوله: ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

آل إبراهيم: لا شك أنه يدخل فيهم إبراهيم بالأولى، لكن

---

(١) رواه البخاري، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، رقم (٣٣٤٠). ورواه مسلم، في كتاب الإيمان، باب أول أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤).

نصَّ على آله لكثرة الرسل فيهم ولا سيما أن فيهم أفضل الرسل محمداً ﷺ؛ فإن محمداً ﷺ من آل إبراهيم.

وآل عمران: آل عمران اختلفوا في المراد بهم، فقيل: آل عمران أبو موسى؛ لأن موسى أفضل أنبياء بني إسرائيل. وقيل: آل عمران أبو مريم، ومريم ابنة عمران، فذكر آل عمران لأن فيهم آخر الرسل قبل محمد ﷺ وهو: عيسى ابن مريم الذي ينتمي إليه النصارى، وخص آل عمران بذلك لأن المقام يقتضيه أيضاً، فإن هذه السورة نزل أولها في وفد نجران وهم من النصارى. وسواء كان هذا أم ذاك فإنه يدل على أن الله اصطفى هذه القبيلة، قبيلة إبراهيم، فهو مصطفى من مصطفى. اصطفى آدم، وهذا الاصطفاء الأول، ونوحاً، وهذا الاصطفاء الثاني، وآل إبراهيم الثالث، وآل عمران الرابع. فكان هؤلاء السادة من البشر هم الذين اصطفاهم. ومعنى الاصطفاء: أن الله اختارهم وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً، كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، ليس على كل من خلقنا، بل على كثير ممن خلقنا تفضيلاً. والاصطفاء بمعنى الاختيار؛ لأن أصله مأخوذ من الصفوة، وصفوة الشيء خياره، واصطفى أي أخذ صفوته.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، المراد بالعالمين مَنْ سِوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

وقوله: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾.

ذريةً: بالنصب بدل من ﴿ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ

عِمْرَانَ﴾، يعني هؤلاء الأربعة الأصناف ذرية بعضها من بعض، وذرية: مأخوذة من (ذرأ) بمعنى خلق؛ لقوله تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١] أي يخلقكم. وقيل: من (وذر) بمعنى ترك، فعلى الأول: تكون الذرية شاملة للأصول والفروع؛ لأن الأصول مخلوقون والفروع كذلك مخلوقون، أما إذا جعلناها من (وذر): بمعنى ترك فهي للفروع فقط، وهذا هو المعروف عند عامة الناس أن الذرية هم الفروع، يعني من نشؤوا عن الإنسان وتركهم بعده. ومما يدل على إطلاق الذرية على الأصول قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١]، فإن الذين حملوا في الفلك هم الذين آمنوا مع نوح وهم سابقون.

وقوله: ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾.

بعضُها من بعض في جنس الخلقة، أو بعضها من بعض في الآداب والأخلاق والديانات، والظاهر الشمول، يعني أن الآدميين كلهم من جنس واحد، ليس فيه آدمي كان بالأول قرداً كما يقوله إخوان القردة ومن أقروا على أنفسهم بأنهم قردة، فالآدمي أصله آدمي، خلق الله أباه بيده ابتداء، لكن هؤلاء أبوا إلا أن يجعلوا أنفسهم من القرود. فبعضها من بعض في الخلقة من آدم إلى يومنا هذا، لم تتغير الخلقة إلا في قوة الجسم؛ لأن آدم عليه السلام خلق طوله في السماء ستون ذراعاً وعرضه أيضاً ـ على ما في أحاديث كثيرة حسان ـ سبعة أذرع[1]، وهذا الخلق

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، رقم (٣٣٢٦). ورواه مسلم، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر، رقم (٢٨٣٤).

قد نقص حتى وصل إلى هذه الأمة وانتهى؛ لأن هذه الأمة هي آخر الأمم. ولا يرد على ذلك أنه في بعض المناطق يكون الجنس البشري ضخماً وفي بعض المناطق يكون دون ذلك؛ لأن هذا من تغير المناخ والوراثة. كذلك بعضها من بعض: في الآداب والأخلاق والديانات إلا من كان منهم ظالماً خارجاً عن هذا الأصل؛ فإنه يكون خارجاً بما خرج به.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ختمها بالسمع والعلم، إشارة إلى أن كل ما يقوله هؤلاء المصطفون أو يفعلونه فإنه معلوم عند الله، فهو يسمع ما يقولون، ويعلم ما يفعلون، بل هو يعلم ما لا يفعلون مما يكون في قلوبهم، بل يعلم ما سيفعلونه وإن لم يكن في قلوبهم؛ لأن الله يعلم ما كان وما يكون لو كان كيف يكون.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ بيان أن الله اصطفى هؤلاء المخلوقات على بقية المخلوقات.

٢ ـ أن الله يختار من خلقه ما شاء كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

٣ ـ أن التفاضل كما يكون في الأعمال يكون في الأعيان، وكما يكون في الأعمال والأوصاف يكون كذلك في الأشخاص، ولهذا نقول: إن جنس العرب أفضل من غيرهم من الأجناس، لكن هذا الجنس الفاضل إذا اجتمع معه التقوى صار له الفضل المطلق، وإن تخلفت التقوى صار معدنه طيباً وعمله خبيثاً؛ فيزداد

خبثاً لكون أصله طيباً ثم ارتد بنفسه إلى الخبث؛ لأن من كان أصله طيباً ثم نزل بنفسه إلى المستوى الأدنى صار أكثر لوماً ممن لم يكن كذلك. ولذلك لو زنت الحرة لجلدت مائة جلدة إن كانت غير محصنة، ورجمت إن كانت محصنة، ولو زنت الأمة لم ترجم ولو كانت متزوجة، ولم تجلد مائة جلدة بل تجلد خمسين؛ لأن هناك فرقاً بين إنسان أصله كريم وشريف ثم يضع نفسه موضع الوضيع، وبين شخص كان في الأصل على خلاف ذلك، ويدل لهذا أي: أن الناس يختلفون في أجناسهم قول الله في كتابه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقد جعلها الله تعالى في العرب؛ في محمد ﷺ، فإذا كان محمد أطيب الخلق وأشرفهم لزم أن يكون جنس العرب أطيب الأجناس وأفضلها وأشرفها، وهو كذلك. وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**»[(١)].

فإن قال قائل: ما الجواب عن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالجواب: أن نقول: إن الله تعالى أراد أن يمحو ما كان أهل الجاهلية يعتادونه من الفخر بالأحساب، حيث يقول: أنا من القبيلة الفلانية، أنا من القبيلة الفلانية. فبيَّن الله أن هذه الشعوب والقبائل جعلها الله من أجل التعارف لا التفاخر، وأن فخركم لا يقربكم إلى الله، فالذي يقربكم إلى الله هو التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾، رقم (٣٣٧٤).

عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، وهذا لا ينافي أن يكون جنس العرب أفضل من غيرهم كما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ، في كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم) وأدلته ما سبق.

٤ ـ ما ذكره بعض أهل العلم من أن الصالحين من البشر أفضل من الملائكة، لقوله: ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. والملائكة عالم فيكون المصطفون من هؤلاء أفضل من الملائكة، واستدلوا بأدلة أخرى، كأمر الله للملائكة بالسجود لآدم وغير ذلك. وعندي أن البحث في هذه المسألة من فضول العلم؛ لأنه أيُّ فائدة لنا إذا قلنا: إن فلاناً أفضل من جبريل أو جبريل أفضل من فلان، أو إن الصالحين من بني آدم أفضل من الملائكة أو الملائكة أفضل من الصالحين؟ نحن نعلم أن الملائكة مقربون عند الله ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وأنهم كرام ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١]، ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١ ـ ١٦]، أما أنهم أفضل من الصالحين من بني آدم أو الصالحون من بني آدم أفضل منهم فهذا شيء لم نكلف به. ولذلك لم تأتِ السنة بالتمييز بين هؤلاء وهؤلاء أو بالتفضيل، أعطت لهؤلاء فضلهم ولهؤلاء فضلهم، ولو كان هذا من الأمور التي لا بد من اعتقادها ولا يتم الإيمان إلا بها لكان الله ورسوله قد بيَّناه. ولكن إذا ابتلينا بمن يقول: بيِّن أيهما أفضل؟ فنقول: العلماء في ذلك اختلفوا، وجمع شيخ الإسلام رحمه الله بين هذين القولين؛ فقال: إن الملائكة أفضل باعتبار البداية، وصالح

البشر أفضل باعتبار النهاية. كيف هذا؟ نقول: نعم لأن النور أفضل من الطين، والملائكة خلقوا من النور من مادة مشعة مضيئة محبوبة بخلاف الطين، وأما في النهاية فإن الجنة تكون للصالحين من بني آدم ومن الجن على القول الراجح، وقد ذكر الله عزّ وجل أن الملائكة يدخلون على أهل الجنة من كل باب ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ [الرعد: ٢٤]، يهنئونهم ويبشرونهم. ومع ذلك فإني أرى أن الإمساك عن هذا أولى.

٥ ـ بيان أن البشر جنس واحد بعضه من بعض؛ لقوله: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾.

٦ ـ الرد على من زعم أن البشر متطور من جنس لآخر، من القردة إلى الآدميين إلى البشر، وجدير بأن نسمي هذا القائل قرداً؛ لأنه رضي لنفسه أن يكون أصله القرد، أما نحن فنقول: إن أصلنا آدم عليه الصلاة والسلام الذي خلقه الله بيده من تراب، وأنه جنس مستقل بنفسه لا متطور.

٧ ـ إثبات اسمين من أسماء الله وهما: السميع، والعليم، فالسميع يتعلق بالأصوات، والعليم يتعلق بكل شيء بالأصوات والأحوال والأعيان. وأسماء الله عزّ وجل يتضمن الإيمان بها ثلاثة أشياء إن كانت متعدية، وشيئين إن كانت لازمة. إن كانت متعدية يتضمن الإيمان بها:

الأول: إثباتها اسماً من أسماء الله.

الثاني: إثبات ما تضمنته من صفة أو استلزمته.

الثالث: إثبات الحكم الناتج عن هذه الصفة.

فمثلاً: الاسم (الخالق)، والصفة المتضمنة: (الخلق)

والمستلزمة: العلم والقدرة، والحكم: أنه يخلق، فهو خالق بخلق.

وكذلك اسم (الرحمن): تضمن الرحمة: صفة، وكونه يرحم: حكم أو أثر.

أما إذا كان لازماً فإنه لا يتم الإيمان به إلا بإثباته اسماً من أسماء الله، وإثبات ما تضمنه من صفة، فالحي مثلاً: لا يتعدى لغير الله نثبته اسماً من أسماء الله، ونثبت ما تضمنه من الصفة وهي: الحياة. هذه هي القاعدة في إثبات أسماء الله وصفاته، إذا طبقنا هذه القاعدة على الاسمين الموجودين معنا. فالسميع يتضمن الإيمان به على أنه اسم من أسماء الله، والإيمان بالصفة التي يدل عليها وهي السمع، والأثر أو الحكم أنه يسمع. وكذلك نقول في (العليم).

❁ ❁ ❁

❑ قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٥ ـ ٣٧].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾.

يعني: اذكر إذ قالت، وهذا التركيب موجود في القرآن كثيراً، وإنما حذف العامل لدلالة السياق عليه، وتلك قاعدة

مشهورة عند النحويين أشار إليها ابن مالك ـ رحمه الله ـ في الألفية فقال:

وحذف ما يُعلمُ جائز كما تقول زيد بعد مَنْ عندكما؟

فهنا العامل المحذوف معلوم بالسياق. (اذكر إذ قالت)، اذكر هذه الحال التي صدر فيها هذا القول من امرأة عمران. ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾، وهي أم مريم يعني جدة عيسى ابن مريم.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾.

﴿رَبِّ﴾: منادى حذفت منه ياء النداء، وأصله: يا رب، ولكن تحذف ياء النداء في مثل هذا التركيب اختصاراً لكثرة استعماله، وحذف منه ضمير المتكلم (الياء) تخفيفاً، وأصله: (ربي).

قولها: ﴿نَذَرْتُ﴾: بمعنى التزمت أن يكون ما في بطني محرراً من خدمتي ليكون خادماً للمسجد الأقصى، وكان من عادتهم أن يفعلوا ذلك؛ أي أن الإنسان منهم ينذر ولده ليكون قائماً بخدمة المسجد الأقصى تعظيماً له.

وقولها: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾، (ما) اسم موصول يفيد العموم، فيشمل ما لو وضعت واحداً أو اثنين، ذكراً أو أنثى.

فإذا قال قائل: كيف تقول: إنه يشمل ما لو وضعت اثنين وهي تقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾، ومحرراً واحد، ولم تقل: محررَيْن.

فالجواب: أن الأسماء الموصولة المشتركة: أي التي تصلح للمفرد وغيره يجوز فيها مراعاة لفظها بالإفراد، ومراعاة معناها بالإفراد إن كان المراد بها المفرد، والتثنية إن كان المراد بها

المثنى، والجمع إن كان المراد بها الجمع، مذكراً كان أو مؤنثاً. وعليه فلا يمنع أن يكون قولها: ﴿مُحَرَّرًا﴾، شاملاً لما تضعه ولو كانوا أكثر من واحد؛ لأنه أفرد باعتبار اللفظ.

وقولها: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾، يعني تقبل مني هذا التقرب إليك، بنذر هذا الحمل الذي نذرته ليقوم بخدمة بيتك.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

هذه الجملة استئنافية للتعليل؛ يعني أني سألتك أن تتقبل مني لأنك السميع العليم.

﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ يشمل هنا سمع الإدراك وسمع الإجابة؛ يعني أنك تسمع دعائي وتستجيبه، و(سمع) تأتي بمعنى استجاب كما في قول المصلي: «سمع الله لمن حمده» أي استجاب.

وقولها: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يعني السامع لدعائي المستجيب له، العليم بما يكون صالحاً، وبكل شيء. لكن ذكر العلم هنا لأن الإنسان قد يسأل الشيء وليس من صالحه حصوله، فيسند الأمر إلى علم الله عزّ وجل. ومن المعلوم أن الداعي إذا دعا فإنه يحصل له واحد من أمور ثلاثة: إما أن يستجيب الله له الدعاء، وإما أن يدَّخر ذلك له يوم القيامة فيعطيه مثل ما دعا به، وإما أن يصرف عنه من السوء ما هو أعظم. هذا بالإضافة إلى أن الدعاء نفسه عبادة يثاب عليها الإنسان.

وقوله: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾.

ولم يقل: فلما وضعته؛ مراعاة للمعنى؛ لأنها وضعت أنثى، فلما وضعتها وكانت قد نذرته محرراً بناءً على أنه ذكر، لما وضعتها اعتذرت لربها.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾.

وهذا اعتذار منها إلى الله أنها وضعتها أنثى، والأنثى ليس من العادة أن تخدم المسجد، فكأنها تعتذر إلى الله عزّ وجل من هذا النذر.

قال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾.

وفي قراءة سبعية: (والله أعلم بما وَضَعْتُ).

فعلى قراءة (والله أعلم بما وَضَعْتُ) بضم التاء تكون الجملة من باب الاحتراس، حتى لا يظن بها أنها تعتقد أن الله لم يعلم. فقالت: «ربِّ إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وَضَعْتُ»، فلستُ أخبر الله بأمر يخفى عنه، بل إني أومن بأنه عالم بما وضعتُ، أما على قراءة (السكون) ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ فالكلام من الله، وفيه دفاع عن هذه المرأة بأن الله تعالى يعلم أنها لم تقل: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ إخباراً منها لله؛ لأنه سبحانه وتعالىٰ زكاها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، هذا من وجه، ومن وجه آخر ليبيِّن عزّ وجل أن قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ لا يعني أن الله لا يعلم بما وضعت بل هو عالم.

و﴿أَعْلَمُ﴾ اسم تفضيل يدل على أن المفضل زائد على المفضل عليه في هذا الوصف، كما لو قلت: فلان أكرم من فلان؛ معناه أن هذا المفضل وهو فلان زائد في الكرم على المفضل عليه. فـ(أعلم) هنا يعني: أعلم من كل أحد بما وضعت، ففيه إثبات العلم لله عزّ وجل مع الزيادة، وبهذا التقرير نعلم ضعف قول من قال: إن اسم التفضيل هنا بمعنى اسم الفاعل، وأن معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي: (والله عالم بما

وضعت)، فإن هذا القول لا شك قصور في تفسير كلام الله؛ لأن إثبات العلم بلا تفضيل أنقص من إثبات العلم مع التفضيل؛ لأنك إذا قلت: فلان عالم لا يمنع أن يكون غيره مساوياً له في العلم. لكن إذا قلت: فلان أعلم من فلان صار فاضلاً غيره في العلم وغيره مفضول. ولا أعلم ـ سبحان الله ـ كيف يفر بعض العلماء من إثبات المفاضلة بين الله سبحانه وتعالىٰ وبين خلقه، مع أن المفاضلة لا تدل على أي نقص، بل اللفظ الذي يقتضي المشاركة هو الذي قد يحتمل النقص والمماثلة، لكن اللفظ الدال على المفاضلة ليس فيه نقص بوجه من الوجوه، فالله أعلم من كل أحد سواء كان هذا العلم مقيداً أو مطلقاً.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ (ما): اسم موصول، والعائد ضمير مفعول به محذوف، أي: بما وَضَعَتْهُ أو بما وَضَعْتُهُ على القراءتين.

قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾.

ليس الذكر كالأنثى، هل هذا من كلامها أو من كلام الله؟ أما على قراءة ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ فالظاهر أن كونه من كلام الله أرجح؛ لأن قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ من كلام الله، أما على قراءة (والله أعلم بما وَضَعْتُ) فإن كونه من كلامها أرجح لئلا تتشتت الجمل.

وفي هذه الجملة بيان أن الذكر لا يماثل الأنثى، وكأن الإنسان يحدث نفسه ويقول: إن مقتضى الحال أن تكون العبارة: (وليس الأنثى كالذكر)؛ لأن العادة أن الأدنى هو الذي يشبه بالأعلى، فهنا: (ليس الأنثى كالذكر) أقرب إلى بادي الرأي من

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾، ولهذا ادعى بعض العلماء أن في التشبيه قلباً؛ والتشبيه المقلوب أسلوب من أساليب اللغة العربية، ولا سيما عند الشعراء في العصور الوسطى، حتى بالغ بعضهم في التشبيه المقلوب فيقول:

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

فالصباح الذي يملأ الأفق ويضيء الدنيا، كأنَّ غرته ـ بياضه ـ وجه الخليفة إذا امتدح، هذا من المبالغة الكريهة في الواقع. وقال بعضهم: إنه تشبيه على أصله ووضعه: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ وشرف الذكر على الأنثى يعلم من أدلة أخرى، ومن قرائن أخرى، ولكن ليس الذكر في خدمته لبيت المقدس كالأنثى.

وإذا انتفت مساواة الذكر للأنثى انتفت مساواة الأنثى للذكر؛ لأن التساوي يكون بين شيئين، فإذا انتفت المساواة في أحدهما لزم أن تكون منتفية في الآخر. فلا مساواة بين الذكر والأنثى بل لكل واحد منهما ميزاته وخصائصه، فالأنثى تفوق الرجل في شيء، والرجل يفوق الأنثى في شيء. لكن الغالب أن الصالح لخدمة المساجد هو الرجل؛ لأنه أقوى وأذكى وأعقل وأدوم في العمل. والأنثى إذا حاضت مثلاً لا تستطيع أن تخدم المسجد؛ لأنها سوف تخرج منه ولا تجلس، هذا إذا كانت شريعتهم كشريعتنا، وأيضاً الأنثى لا تتحمل من الأعمال ما هو شاق بل هي أضعف من الرجل، وإن كانت قد يكون عندها من الجلد والصبر أكثر مما عند الرجل في معاناة الأشغال لا في معاناة المصائب، فإن المرأة في معاناة المصائب أدنى بكثير من الرجل كما هو معروف.

وقوله: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾.

تقولها أمها، وهذا الاسم إما أن يكون مشهوراً عندهم أو أنها اختارته لأمر يريده الله عزّ وجل، وهذه قضية عين، والله أعلم ما هو السبب أنها اختارت هذا الاسم.

قالت: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾.

﴿أُعِيذُهَا﴾: أي أستجير بك لها؛ لأن الاستعاذة معناها الاستجارة من أمر مكروه، ولهذا نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ونستعيذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال. قالوا ـ أي أهل اللغة ـ: (العياذ من المكروه، واللياذ في رجاء المحبوب) وأنشدوا على ذلك قول الشاعر:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره

وهو يخاطب ملكاً من الملوك، وهذا الوصف لا يليق إلا بالله عزّ وجل. لكن الشعراء يتبعهم الغاوون.

إذن ﴿أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، يعني أستجير بك لها من الشيطان الرجيم؛ والشيطان هو أبو الجن كما قال الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: ٥٠]، وهنا نقول: شيطان من شطن أو من شاط، قولان: فمنهم من قال: إنه من شطن أي بَعُدَ، ومنهم من قال: من شاط أي غضب؛ لأن طبيعة الشيطان الغضب والسرعة وعدم التأني، وهو أيضاً قد بَعُدَ من رحمة الله، ولكن الظاهر أنه من شطن، وأن النون أصلية، ولذلك لا يمنع من الصرف.

وقولها: ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، الرجيم: بمعنى المرجوم، وأصل الرجم القذف بالحجارة؛ ومنه: رجم الزاني، وعلى هذا فيكون في الكلام استعارة، أي أننا استعرنا الرجم بالحجارة الدال على إبعاد المرجوم للمُبْعَد المطرود. فالرجيم هنا: فعيل بمعنى مفعول؛ أي مطرود مبعد عن رحمة الله عزّ وجل، ومن العلماء من قال: إن الرجم يأتي بمعنى الطرد حقيقة لا استعارة، وإنما استعاذت بالله لها من الشيطان الرجيم؛ لأن الشيطان الرجيم مبعد عن رحمة الله، والمبعد عن الرحمة يريد أن يبعد كل إنسان عن الرحمة لا سيما بنو آدم؛ لأن بني آدم أعداء للشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] فهو عدو، والعدو لا يريد من عدوه إلا ما فيه هلاكه، ولهذا استعاذت بربها عزّ وجل لهذه الأنثى من الشيطان الرجيم لئلا يغويها ويضلها، قال الله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾.

لم يكن لها ذرية إلا عيسى ابن مريم، وهل لعيسى ذرية؟ الله أعلم، قد يكون له ذرية، وقد لا يكون، لكن مهما كان هي قالت: ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ بناءً على الأصل والغالب أن الأنثى تتزوج ويكون لها ذرية، ولكن الله عزّ وجل أراد لهذه المرأة شيئاً آخر.

قال الله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

تقبل: قال أهل اللغة: بمعنى قَبِل، ولهذا قال: (قبول)

والمصدر الموافق لـ«تَقَبَّلَ» (تقبلاً)، أما (قبول) فهو في هذا الموضع اسم مصدر وليس بمصدر كقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]. ولم يقل: إنباتاً، لكن هل تَقَبَّلَ وقَبِل بمعنى واحد أو أن في تقبَّل شدة عناية ومبالغة؟ قولان: قيل: إن تَقَبَّل بمعنى قَبِل كتعجَّب بمعنى عجب، وتبرَّأ بمعنى برئ، تقول: تبرأ من فلان بمعنى برئ منه، والقول الثاني: أن تَقَبّل أبلغ من قَبل، وذلك أن الغالب أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، ففيها شدة العناية والمبالغة.

وقوله تعالى: ﴿رَبُّهَا﴾، الربُّ: بمعنى الخالق، المالك، المدبر، فإذا أضيفت الربوبية لله فهذا معناها، أنه الخالق فلا خالق غيره، والمالك فلا مالك غيره، والمدبر فلا مدبر غيره، وهذا النفي باعتبار الإطلاق فلا خالق على سبيل الإطلاق إلا الله، وإذا أضيف الخلق إلى غيره فإنما هو باعتبار التغيير والتصيير لا باعتبار الأصل. فخلق الباب من الخشبة ليس أصلياً بل هو تغيير وتصيير، صيَّر الخشبة باباً فقال: خلقهُ، لكن أصل هذا الخشب إنما خلقه الله عزّ وجل، ولا يستطيع أحد من الخلق أن يخلق خشبة واحدة بل ولا غصن شجرة. فالمالك على الإطلاق هو الله، وإضافة الملك لغير الله إضافة جزئية، وإلا فقد قال الله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦]، فأضاف الملك إلى الإنسان، وقال تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١]، فأضافه أيضاً إلى الإنسان؛ لكن هذا ملك مقيد غاية التقييد. والمدبر كذلك، فالتدبير على إطلاقه هو لله عزّ وجل، أما الإنسان فإنه وإن أضيف إليه التدبير فهو تدبير خاص محصور على

كل حال. وربوبية الله نوعان: عامة، وخاصة ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم: ٦٥] هذه عامة، والخاصة مثل: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٢]، وهنا ﴿رَبُّهَا﴾ من الخاصة. واعلم أن كل خاص من الربوبية والمعية والسمع والبصر وما أشبه ذلك مما قال العلماء إنه ينقسم إلى عام وخاص، أن الخاص يتضمن العام ولا عكس. فكل من كان الله ربه على وجه الخصوص فهو ربه على وجه العموم، وكل من كان الله معه على وجه الخصوص فهو معه على وجه العموم، وكل من سمعه الله على وجه الخصوص فقد سمعه على وجه العموم، وهلم جرًّا. وهنا أضاف الربوبية إلى مريم؛ لأنه عزّ وجل تقبلها هذا القبول الحسن.

وقوله تعالى: ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

والقبول الحسن من الله أنه سبحانه وتعالىٰ يسَّرها لليسرى وسهَّل أمرها وجعلها من خيرة نساء العالمين، حتى ألحقها بالرجال في صلاحها، فقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، وتأمل أنه قال: من القانتين، ولم يقل: من القانتات؛ لأنه كما جاء في الحديث: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا قليل**»(١).

وقوله: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، قد يعود إلى المعنى، وقد يعود إلى الحس، فالمعنى: أنبتها نباتاً حسناً يعني في كمال

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . .﴾، رقم (٣٤١١). ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم (٢٤٣١).

الآداب والعفة والحشمة وغير ذلك، وقد يكون أنبتها نباتاً حسناً باعتبار الجسم؛ يعني أنه نماها تنمية جيدة، لم يتعثر فيها جسمها، حتى إن بعضهم ـ ولعلها من الإسرائيليات ـ قال: إنها تنمو في العام ما ينموه غيرها في عامين، والله أعلم.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

هذا أيضاً من التيسير أن الله يسَّر لها من يكفلها من الرسل، ولا شك أن الإنسان إذا كان عنده كافل مستقيم صالح كان هذا من أسباب صلاحه واستقامته، وإذا كان عند فاسق كان بالعكس. ولهذا قال العلماء: لا يجوز أن يترك الطفل المحضون بيد شخص لا يصونه ولا يصلحه.

وقوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، هذه القراءة المعروفة التي في المصحف. وتكون (كفَّل) ناصبة لمفعولين. أحدهما: هاء، والثاني: زكريا، وهذا الفعل من أخوات (كسا).

وفيه قراءة ثانية (كَفَّلَها زكرياءَ) والفرق بينهما أن القراءة الأولى بألف مقصورة، والثانية: بألف ممدودة. وفيها قراءة ثالثة (وكَفَلَهَا زكريا)، (كَفَلَهَا) على أن زكريا فاعل، وفيه قراءة رابعة (وكَفَلَهَا زكرياءُ) على أنه فاعل أيضاً، لكن الفرق بين هذه والتي قبلها القصر والمد، فصارت زكريا تمد وتقصر، وكَفَل تخفف وتشدد، والإعراب على حسب الوضع.

ومعنى (كَفَلَها) أي صار كافلاً لها؛ وكَفَّلها: أي جعل كفيلها زكريا.

وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ فيها القراءتان في زكريا.

و﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾ المحراب مِفْعال من الحرب، وهو مكان العبادة، وليس المحراب هو طاق القبلة كما هو عند الناس، ورأيت في بعض المساجد مكتوب على طاق القبلة على القوس ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾، يجعلون الإمام مريم وهم لا يشعرون، ويخطئون أيضاً في المعنى؛ لأن المحراب مكان العبادة سواء كان طاقاً أو مربعاً أو حجرة، ولهذا قال الله تعالى في قصة داود: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] وسمّي بذلك لأن المتعبد فيه يحارب الشيطان.

﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾.

وهي امرأة منقطعة للعبادة دائماً في محرابها ويجد عندها رزقاً؛ والرزق هنا ما يقوم به البدن، يعني رزقاً تأكله ليقوم بدنها وتحفظ حياتها. قال بعض المفسرين ـ وهو من الإسرائيليات ـ يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، وهذا لا داعي له، فإنه إذا وجد عندها فاكهة الصيف في الصيف، وفاكهة الشتاء في الشتاء وهي امرأة متعبدة منقطعة للعبادة؛ فهو آية.

﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾.

أي: من أين لك هذا؟ وخاطبها بقوله: يا مريم، إشارة إلى أنها في حال لا تقتضي أن يكون عندها ذلك؛ لأنها امرأة لا تكتسب منقطعة للعبادة، والمنقطع للعبادة ولو كان ذكراً لا يتيسر له الرزق. ولهذا ناداها باسمها قال: يا مريم؛ يعني انتبهي أيتها الأنثى كيف يجيئك هذا الرزق ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾، فكان جوابها جواباً عجيباً ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وكلمة ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا

يلزم أن يكون الله تعالى ينزلها من السماء إليها، بل قد يكون ذلك بتسخير الله لها من يأتي لها بذلك الرزق، ولا يلزم أن يكون ينزل من السماء أو يأتي به جبريل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

الرزق: بمعنى العطاء؛ والعطاء ينقسم إلى قسمين: عطاء كوني، وعطاء شرعي.

فالعطاء الكوني: ما يرزق الله به الإنسان والحيوان، الحلال والحرام، لا يختص بالمؤمنين ولا بالطيب من الرزق.

والعطاء الشرعي: وهو ما يعطاه المؤمن من الرزق الحلال، فهو الرزق الخاص الذي ليس فيه تبعة، ويشمل أيضاً العطاء الشرعي ما ثبت إعطاؤه بمقتضى الشرع كإعطاء الفقراء من الزكاة مثلاً، وإعطاء الغانمين من الغنيمة، فهذا عطاء وإيتاء شرعي، ودليله قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ [التوبة: ٥٩، ٦٠].

وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، فالرزق لا يكون إلا بمشيئة الله، وهي مربوطة بالحكمة، يعطي من يشاء لحكمة، ويمنع من يشاء لحكمة، والدليل على أن كل ما أثبت الله فيه المشيئة فهو مقرون بحكمة، قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

وقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أي بغير مكافأة، يُطعِم ولا يُطْعَم، يَـرزُق ولا يُـرْزَق، ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٧، ٥٨]، بخلاف غيره، فإنه قد يُعْطي ليُعْطى، أما الله عزّ وجل فإنه يعطي لا ليعطى بل يرزق بغير حساب. وأما الحساب على ما أعطاه الله من الرزق من أين اكتسبه وفيم أنفقه وما أشبه ذلك، فإن هذا سوف يكون، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، يعني لا يحاسب خلقه ليكافئوه، ولكن يحاسبهم لينظر أو ليعلم عزّ وجل ماذا أنفقوا فيما أعطاهم.

من فوائد الآيات الكريمة:

من فوائد قوله عزّ وجل: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

١ ـ تعظيم هذه القصة؛ لأن الله أمر رسوله أن يبيِّنها للناس إذ إن التقدير (اذكر إذ قالت امرأة عمران).

٢ ـ جواز النذر في الأمر المجهول؛ لقولها: ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾، ينبني على ذلك أن يقول القائل: لله علي نذر أن أتصدق بما في بطن هذه الشاة أو هذه الناقة، وينفذ النذر.

٣ ـ جواز تصدق المرأة بدون إذن زوجها، ووجهه: أنها نذرت تحرير هذا الولد بدون إذن الزوج.

فإن قال قائل: ما دليلكم على أنه بدون إذن زوجها، أفلا يمكن أن تكون استأذنت؟

الجواب: بلى، لكنه لم يذكر.

فإن قال قائل: عدم الذكر ليس ذكراً للعدم، فرق بين أن أسكت عن الشيء وبين أن أنفي الشيء، نفي الشيء ذكر لعدمه، لكن السكوت عنه ليس ذكراً لعدمه.

قلنا: نقول: هذا ليس في كل مكان، بل نقول: هذا فيما إذا كان هناك نصوص عامة ثم ادعى أحدٌ إخراجها أو تقييدها أو ما أشبه ذلك. هذا هو الذي نقول له: عدم الذكر ليس ذكراً للعدم، وأما إذا جاءت قصة مرسلة ولم يذكر فيها قيود فالأصل عدم القيد. وقد جاءت الشريعة الإسلامية مؤيدة لهذا؛ أي أن المرأة تتصرف في مالها، فالرسول ﷺ لما خطب النساء يوم العيد وقال: «**يا معشر النساء، تصدقن**»، **فجعلن يلقين من الخواتم والخروص في ثوب بلال**[1]. ومن القرآن قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ [النساء: ٤]، طبن: أي: النساء. إذن المرأة حرة تتصرف وليس لزوجها أن يمنعها من أي تصرف شاءت، اللهم إلا في مسألة واحدة قد يقال إنه يمنعها من التصرف مثل أن يشتري لها حليًّا وثياب زينة تتجمل بها له، فهنا ربما نقول: إن له أن يمنعها من التصرف في هذه الثياب وهذا الحلي من بيع أو هبة؛ لأن ذلك يضر بمقصوده.

٤ ـ أن الولد يخدم والده من أم أو أب؛ لأنها قالت: ﴿مُحَرَّرٗا﴾ يعني محرراً من الخدمة بحيث لا أستخدمه ولا أستغل حياته.

---

(١) رواه البخاري، في كتاب الزكاة، باب الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر، رقم (١٤٦٦).

٥ ـ طرد الإعجاب بالنفس؛ وذلك بأن الإنسان إذا عمل عملاً لا يُدِلُّ به على الله يقول: أنا عملت وأنا عملت، بل يعمل ويشعر أنه مفتقر إلى الله عزّ وجل في قبول ذلك العمل، ولهذا قالت: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾، وقال إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، والإنسان إذا علم أنه مفتقر إلى ربه عزّ وجل في العمل وفي قبول العمل زال عنه الإعجاب، وإذا زال عنه الإعجاب صار حريًّا بأن الله تعالى يقبل منه ويثيبه.

٦ ـ إثبات اسمين من أسماء الله وهما: السميع، والعليم، والسميع يكون بمعنى استجابة الدعاء وبمعنى إدراك المسموع، والعليم هو: إدراك الشيء على ما هو عليه.

ومن فوائد قوله عزّ وجل: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

١ ـ أن الأم تتكلف الحمل كما يشعر به كلمة (وضعتها) أنها حاملة لها، وهو كذلك لا شك أنها تتكلف الحمل، وإذا قدَّرنا أن هذا الطفل الذي في بطنها سيبقى تسعة شهور وهي حاملة له في بطنها، في أرق ما يكون من البدن، قائمة وقاعدة ومستيقظة ونائمة، فماذا نتصور من التعب؟ ولهذا قال الله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]، ثم مع ذلك هذا الطفل في البطن يتحرك وهي تحس به، ولولا لطف الله بعباده ما استطاعت أن تحمل هذا ولكن الله عزّ وجل يعينها. فيتفرع على هذه الفائدة فائدة أخرى وهي:

٢ ـ عظم حق الأم على ولدها؛ لأن من أحسن إليك وأتعبته كان أحق الناس ببِرك، ولهذا جعلها النبي عليه الصلاة والسلام أحق الناس بحسن الصحبة.

٣ ـ اعتذار الإنسان عند ربِّه إذا وقع الأمر خلاف ما أراد؛ لقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، فإن هذا شبه اعتذار لقولها: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾، والأنثى لا تخدم المساجد عندهم فلهذا اعتذرت.

٤ ـ التوسل إلى الله تعالى بربوبيته.

٥ ـ أنه من تمام البلاغة الاحتراز عن كل موهم لأمر خطأ، سواء كان في المقال أو في الفعل؛ لقوله: ﴿والله أعلم بما وَضَعْتُ﴾ على قراءة الضم.

والمقال كما هنا، وفي الفعال: لما خرج النبي ﷺ بصفية رضي الله عنها يقابلها حين جاءت إليه وهو معتكف وتحدثت معه، فقامت لتخرج بالليل فخرج بها عليه الصلاة والسلام وإذا برجلين من الأنصار يمران فأسرعا، فقال لهما عليه الصلاة والسلام: «**على رسلكما إنها صفية بنت حيي**»، فقالا: سبحان الله، ثم قال: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خفت أن يقذف في قلوبكما شرًّا** ـ أو قال: **شيئاً** ـ»[1]. لا شك أن أبعد الناس عن سوء الظن هو الرسول ﷺ ولا سيما من أصحابه، لا يمكن أن يظنوا به سوء الظن، ومع ذلك خاف

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتكاف، باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد، رقم (٢٠٣٥). ورواه مسلم، كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رُئي خالياً بامرأة، رقم (٢١٧٥).

أن الشيطان يلقي في قلوبهما شرًّا أو شيئاً. ولهذا ينبغي للإنسان أيضاً أن يدرأ الغيبة عن نفسه ما استطاع، لا يقول: أنا لا أبالي بالناس «حسبنا الله ونعم الوكيل» هذا طيب، لكن افعل الأسباب التي تدرأ عنك الشر حتى لا يظن الناس بك سوءاً.

٦ ـ إثبات التفضيل في أوصاف الله من قوله: ﴿أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ خلافاً لمن منع ذلك وفسَّر أعلم بـ(عالم).

٧ ـ أنه لا يستوي الذكور والإناث ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ لا في الطبيعة ولا في الأخلاق ولا في المعاملة، بل ولا في الأحكام في بعض الأحيان؛ فالذكر ليس كالأنثى، وإذا كان الذكر ليس كالأنثى، فالأنثى أيضاً ليست كالذكر.

٨ ـ تسمية المولود حين يولد؛ لقولها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ وهذا هو السنة، أن يسمّى الإنسان حين يولد إلا إذا لم يتهيأ الاسم فإنه يسمى في اليوم السابع، وبهذا تجتمع الأدلة، فإن النبي ﷺ لما ولد إبراهيم قال: «**ولد لي الليلة ولد وسميته إبراهيم**»[1]. وفي حديث العقيقة قال: «**تذبح يوم سابعه، ويحلق ويسمى**»[2] فيكون الجمع أن من كان مهيأ الاسم قبل الولادة فالأفضل أن يسميه حال الولادة، ومن لم يهيأ فالأفضل أن يؤجله إلى اليوم السابع.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ بالصبيان والعيال، رقم (٢٣١٥).

(٢) رواه أبو داود، كتاب الضحايا، باب في العقيقة، رقم (٢٨٣٧، ٢٨٣٨). ورواه الترمذي، كتاب الأضاحي، باب العقيقة بشاة، رقم (١٥٢٢). ورواه النسائي، كتاب العقيقة، باب متى يعق، رقم (٤٢٢٠).

٩ ـ في قوله: ﴿سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ دليل على التصدق الفضولي.

١٠ ـ مشروعية إعاذة الإنسان أبناءه بالله عزّ وجل من الشيطان الرجيم ومن شر الخلق؛ لقولها: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

١١ ـ جواز الدعاء للمعدوم من قوله: ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾؛ لأن ذريتها لم تأتِ بعد، فيجوز أن يقول: (أصلحك الله وذريتك) (وغفر الله لك ولذريتك) وما أشبه ذلك.

١٢ ـ أن الشيطان عدو لبني آدم حيث يطلب الإنسان من الله عزّ وجل أن يعيذه منه.

١٣ ـ بيان قدرة الله سبحانه وتعالىٰ على كل شيء، ومن ذلك الإجارة من الشيطان وإلا لكان الاستعاذة به من الشيطان عبثاً.

ومن فوائد قوله عزّ وجل: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾.

١ ـ أن الله عزّ وجل سميع، قريب، مجيب؛ لأنها دعت فسمعها الله، ولأنها دعت فأجابها الله، وفي القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

٢ ـ أن الله عزّ وجل منَّ على هذه الطفلة بشيئين: بالقبول

الحسن، والنبات الحسن؛ فصار في ذلك تنمية لأخلاقها ولجسمها وبدنها.

٣ ـ أن تطور الإنسان في حياته بأمر الله؛ لقوله: ﴿وَأَنۢبَتَهَا﴾، وما الغذاء والعناية بالطفل إلا سبب، والله تعالى هو المسبب، وهو المكوِّن للإنسان والمُنبت له.

٤ ـ أن الله عزّ وجل قد ييسر للإنسان من يكفله من أهل الخير، فيكون ذلك من أسباب إعاذته من الشيطان الرجيم، لقوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

٥ ـ إثبات الحضانة للطفل؛ لقوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

٦ ـ أن هذه الطفلة صارت من العابدات القانتات؛ لقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗا﴾.

٧ ـ أن الله عزّ وجل قد ييسر للإنسان من الرزق ما لا يكون في حسبانه؛ لقوله: ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾.

٨ ـ أن لكل ضعف لطفاً، فهذه المرأة الضعيفة التي منَّ الله عليها بالاشتغال بالعبادة يسَّر الله لها من يأتيها بالرزق.

٩ ـ أن الأشياء تضاف إلى الله وإن كان لها سبب؛ لقوله: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾.

١٠ ـ أن الأنبياء لا يعلمون الغيب؛ لقوله: ﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾.

١١ ـ إثبات أن الله عزّ وجل يرزق بغير مكافأة ولا انتظار لمكافأة؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال عزّ وجل: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٨ ـ ٣٩].

﴿هُنَالِكَ﴾: هذا اسم إشارة إلى المكان. واللام للبعد، والكاف حرف خطاب؛ يعني في ذلك الزمن، والإشارة هنا يحتمل أن تكون للزمن أي في ذلك الزمن، ويحتمل أن تكون للمكان، أي في المكان الذي هو محراب مريم.

﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾، وزكريا: فيها قراءتان، المد والقصر على ما سبق.

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

﴿هَبْ لِي﴾: أي أعطني، والهبة: هي التبرع بالشيء بلا عوض، لكن قال العلماء: إن هناك هبة، وهدية، وصدقة.

فالصدقة: ما أريد به ثواب الآخرة.

والهدية: ما أريد به التودد والتقرب بين المهدي والمهدى إليه.

والهبة: ما قصد به مجرد انتفاع الموهوب له.

وهنا قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾، أي أعطني عطاء بلا ثمن.

﴿مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

﴿مِن لَّدُنكَ﴾: أي من عندك، وأضاف العندية إلى الله عزّ وجل ليكون أبلغ وأعظم؛ لأن هدية الكريم أكرم. وقوله: ﴿ذُرِّيَّةً﴾ بمعنى مذروءة، أي: مخلوقة، وقوله: ﴿طَيِّبَةً﴾ أي طيبة في أقوالها وأفعالها، وكذلك في أجسامها، فهو متناول للطيب الحسي والطيب المعنوي.

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

أي مجيبه، والدعاء: هو سؤال العبد ربَّه حاجته إما بجلب منفعة وإما بدفع مضرة.

قال: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

وفي قراءة: فناداه الملائكة؛ لأن الملائكة جمع تكسير، وجمع التكسير يجوز فيه التذكير والتأنيث.

ويمكن أن يراد بالملائكة واحد وهو جبريل (ناداه)، وعبر عنه بالجمع باعتبار الجنس؛ لأنه واحد منهم.

وقوله: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ﴾.

جملة في محل نصب على الحال، من الضمير: (الهاء) في قوله: (نادته)، وقوله: ﴿يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾، المحراب: مكان الصلاة أو مكان العبادة، وسمي بذلك؛ لأنه مكان حرب الشياطين، فإن العبادة حرب للشياطين كما سبق.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾.

﴿أَنَّ﴾ فيها قراءتان: قراءة بالفتح، وقراءة بالكسر، فأما على قراءة الكسر (إن الله). فلأن النداء قول، ومقول القول إذا صُدّر (بإن) يجب فيه كسر إن، كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]. وأما على قراءة الفتح فهي على تقدير حرف الجر: (فنادته الملائكة بأن الله يبشرك)، ببشرى الله تعالى بهذا الابن (يحيى).

أيضاً في قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ قراءتان: يبْشُرُك، يُبَشِّرُك. وكلاهما سبعيتان. والبشارة هي الإخبار بما يسر، وسميت بذلك لتأثر البشرة بالخبر؛ لأن الإنسان إذا بُشِّر بما يسره يفرح ويظهر

ذلك على وجهه، **ألم تر إلى وجه النبي ﷺ حين دخل مجزز المدلجي على أسامة بن زيد وزيد بن حارثة وعليهما كساء لم يبد منه إلا أقدامهما، فنظر إلى أقدامهما وقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض، فدخل النبي عليه الصلاة والسلام على عائشة تبرق أسارير وجهه، تأثر بالخبر السار**[1]. ولهذا الإخبار بما يسوء بشرى؛ لأن البشرة تتأثر بذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨].

قال الله تعالى: ﴿بِيَحْيَىٰ﴾.

(بيحيى) هذا المبشر به، ويحيى: قيل إنه من الحياة والله سماه بذلك إشارة إلى أنه سيحيا ويبقى، وعلى هذا فهو ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا﴾.

﴿مُصَدِّقًۢا﴾: حال من يحيى. ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: هو عيسى ابن مريم يعني مصدقاً بعيسى؛ لأن عيسى كلمة من الله، وسمي بذلك لأنه كان بكلمة الله ولم يكن من أب كما يكون البشر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. خلقه: أي آدم من تراب، ثم قال له: كن فيكون، ولهذا سمي عيسى بالكلمة؛ لأنه كان بكلمة الله وليس هو كلمةَ الله؛ لأن كلمة الله وصف لله عزّ وجل، فالكلام وصف للموصوف، ولا يمكن أن يكون

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم (٣٥٥٥). ورواه مسلم، كتاب الرضاع، باب العمل بإلحاق القائف الولد، رقم (١٤٥٩).

وصفُ الله عيناً بائنة منه[١].

وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، بيان لابتداء الأمر وليست للتبعيض، فالكلمة هنا ليست بعضاً من الله بل منشؤها منه.

﴿وَسَيِّدًا﴾ معطوفة على ﴿مُصَدِّقًا﴾ فتكون منصوبة على الحال، والسيد مَنْ ساد غيره وشرف عليه بالعلم والدين والخلُق والمعاملة، وقولنا الخلق: يشمل كل خلق يسود به الإنسان غيره من الجود والشجاعة والإيثار وغير ذلك، فيكون جامعاً لصفات الكمال الممكنة في المخلوق. وكذلك أيضاً قال في وصفه ﴿وَحَصُورًا﴾ حصوراً معطوفة على ﴿مُصَدِّقًا﴾ فهي منصوبة على الحال، (حصوراً) فعول بمعنى فاعل أي حاصراً نفسه عن أراذل الأخلاق، فيكون هذا المبشر به موصوفاً بصفات الكمال الدال عليها قوله: (سيداً) ومبرَّأً من النقص وسوء الأخلاق الدال عليه قوله: (حصوراً)، فيكون جمع له بين النفي والإثبات، وذلك لأن الإنسان لا يكمل إلا بوجود صفات الكمال وانتفاء صفات النقص، وهو أمر نسبي.

وأما من قال من المفسرين: إن الحصور هو الممنوع عن إتيان النساء يعني لا يستطيع على النساء؛ فإن في هذا نظراً واضحاً؛ لأن عدم قدرة الإنسان على النساء ليس كمالاً إذ إن ذلك ليس منه بتخلق ولكنه عيب. وفيها قول آخر: أنه لا يأتي من النساء من لا تحل له فيكون وصفاً له بكمال العفة، وهذا يمدح عليه الإنسان. لكن ما قلناه أشمل من هذا القول. ومعلوم أنه إذا وجد معنى أشمل فهو مقدم على المعنى الأقل؛ لأن الأقل داخل في الأشمل لا العكس.

---

(١) انظر كتاب: القول المفيد على كتاب التوحيد ١/ ٧٣.

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

هذه معطوفة أيضاً على ﴿مُصَدِّقًا﴾، فهو مصدق ونبي، ولا يلزم من تصديقه بعيسى أن يكون تابعاً له، فها هو محمد عليه الصلاة والسلام مصدق بجميع الأنبياء وهم يتبعونه ولا يتبعهم، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**لو كان أخي موسى حيًّا ما وسعه إلا اتِّباعي**»[1]، ولهذا صار إماماً لهم ليلة المعراج، وإذا نزل عيسى في آخر الزمان يحكم بشريعة النبي عليه الصلاة والسلام. المهم أن تصديقه لعيسى ابن مريم لا ينافي أن يكون نبيًّا، فهو نبي مصدق بالأنبياء، ولهذا قال: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: من جملتهم، وإنما قلنا ذلك لأن النبوة وصف أعلى من الصلاح، لكن هو في جملة الصالحين، فالنبوة صلاح وزيادة. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، فالصالحون في المرتبة الرابعة.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

من فوائد قوله عزّ وجل: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

١ ـ أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله، حتى الأنبياء لا يستغنون عن دعاء الله؛ لقوله: ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٤٢٢٠) بلفظ: «**لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني**».

٢ ـ إثبات القياس؛ لأنه لما رأى أن الله يرزق هذه المرأة بدون سبب معلوم علم أن الذي يسوق لها الرزق وهي امرأة منقطعة عن التكسب في محرابها قادر أن يرزقه، فيكون الانتقال من الشيء إلى نظيره، وهذا هو نفس القياس؛ إذن هو استدل أو أخذ من هذه القصة عبرة وهو أن يسأل الله أمراً وإن كان مستبعداً.

٣ ـ أن الصيغة التي يتوسل بها غالباً في الدعاء هي اسم الرب لقوله (ربه)، ولم يقل: (الله)، ولهذا تجدون أكثر الأدعية مصدرة بالرب؛ لأن إجابة الداعي من مقتضى الربوبية لأنها فِعل، وكل الأفعال من مقتضى الربوبية، فلهذا يتوسل الداعي دائماً باسم الرب، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**يمد يديه إلى السماء يا رب، يا رب، يا رب**»[(١)].

٤ ـ أن زكريا عليه الصلاة والسلام بلغ سنًّا بعيداً دون أن يأتيه الولد، يؤخذ من قوله: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ [آل عمران: ٤٠].

٥ ـ يستفاد من قوله: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ أن الشيء من الكريم يكون عظيماً، حيث أضاف الهبة إلى الله عزّ وجل، وهبة الكريم تكون كبيرة، ونظير هذا قوله ﷺ فيما علمه أبا بكر، الدعاء الذي يدعو به في صلاته، قال: «**فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني**»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم (١٠١٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤). ورواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥).

٦ ـ أنه لا ينبغي للإنسان أن يسأل مطلق الذرية؛ لأن الذرية قد يكونون نكداً وفتنة، وإنما يسأل الذرية الطيبة.

٧ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يفعل الأسباب التي تكون بها ذريته طيبة، ومنها الدعاء؛ دعاء الله، وهو من أكبر الأسباب، وقد ذكر الله سبحانه وتعالىٰ عن الرجل يبلغ أشده أنه يقول: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٣٦]، ولا شك أن صلاح الذرية أمر مطلوب؛ لأن الذرية الصالحة تنفعك في الحياة وفي الممات؛ لقول النبي ﷺ: **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**[1].

٨ ـ التوسل إلى الله تعالى بأسمائه المناسبة للحاجة؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، أي مجيبه، وهكذا ينبغي أن تكون الأسماء التي يتوسل بها الإنسان في دعائه مناسبة للمدعو به، فالداعي بالمغفرة يتوسل باسم الغفور وبالرحمة، والداعي بالرزق يتوسل باسم الرزاق وهكذا، ويدل لهذا أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقوله: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، يتناول دعاء المسألة ودعاء العبادة؛ دعاء المسألة أن تجعلها وسيلة لدعائك، ودعاء العبادة أن تتعبد لله تعالى بمقتضاها، فإذا علمت أنه سبحانه (غفور) فتعرَّض لمغفرته، وإذا علمت أنه (رحيم) كذلك وهكذا.

٩ ـ إثبات سمع الله وكرم الله وقدرته.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الأحكام، باب في الوقف، رقم (١٣٧٦). ورواه النسائي، كتاب الوصايا، باب فضل الصدقة عن الميت، رقم (٣٦٥١).

وجه ذلك: أنه يسمع الدعاء، ويجيب من دعاه، وقادر على الإجابة.

فإن قال قائل: أحياناً يدعو المرء ولا يستجيب الله دعاءه، وهنا زكريا ﷺ يقول: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، وقال إبراهيم: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

فالجواب: أن يقال: إن عدم إجابة الله الدعاء؛ إما أن تكون لوجود مانع، وإما أن تكون لمصلحة الداعي أو لفوات شرط، فأما إذا تمت الشروط وانتفت الموانع ولم تقتضِ المصلحة خلاف ما دعا به الداعي، فإن الله تعالى يستجيب الدعاء قطعاً؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. فإذا دعا الإنسان ربَّه وقلبه لاهٍ يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول وعمل، لكن قلبه مشغول بشيء آخر، فهذا فيه سوء أدب مع الله، فهنا قد تتخلف إجابة الدعوة لعدم وجود الشرط.

ومن الموانع: أن يكون الإنسان آكلاً للحرام والعياذ بالله، فإن أكل الحرام من أكبر موانع إجابة الدعاء؛ لأن النبي ﷺ قال: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾** [المؤمنون: ٥١]، **وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾** [البقرة: ١٧٢]، **ثم ذكر النبي ﷺ الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب، يا رب** ـ أربعة أسباب من أسباب إجابة الدعاء ـ **ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك**»[1] ـ والعياذ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٣٧).

بالله ـ أستبعد أن الله يجيب هذا الداعي، فهنا قد تخلفت إجابة الدعاء لوجود مانع. وقد تكون لمصلحة الداعي يدخر الله له عنده أعظم مما سأل، أو يعلم الله سبحانه وتعالىٰ أنه لو أجابه لحصل عليه مضرة في دينه مثل أن تكون إجابته سبب لفتنته عن دينه، فبرحمة الله وحكمته لا يستجيب له هذا الدعاء لمصلحة الداعي، ولهذا ينبغي للإنسان أن لا يضجر إذا دعا الله فلم يستجب له، وأن لا يسأم ويستحسر؛ فيقول: دعوت ثم دعوت فلم يستجب لي، فإنه إذا قال ذلك: لم يستجب له، فزال الإشكال الذي قد يرد على قوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

وبقي أيضاً إشكال آخر: وهو أن يقال: لا فائدة من الدعاء؛ لأن المدعو به إن كان قد كتب لك فسوف يأتيك بلا دعاء، وإن لم يكتب لك فلن يأتيك ولو دعوت، فنجيب أولاً: أن هذا قول باطل من أصله، لأنه يقتضي تسفيه الرسل والأنبياء والصالحين، بل يقتضي أن الله عزّ وجل يأمر بما لا فائدة فيه، فإن الله قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾ [غافر: ٦٠]، فكيف يأمر الله عزّ وجل بأمر لا فائدة منه؟ هذا مستحيل! ثم نقول: الشيء يكتب لك لكن بسبب، فإذا كان الله قد كتب لك ذرية طيبة بسبب دعائك فإنه إذا انتفى الدعاء انتفت الذرية الطيبة؛ لأن الله قدرها ـ أي الذرية الطيبة ـ مقرونة بالدعاء.

وهل يقول عاقل: أنا لا أتزوج إن كان الله قد أراد لي ولداً جاء بلا نكاح، وإن لم يرد لي ولداً لم يأت ولو تزوجت، هذا لا يقوله عاقل، بل نقول: إن الله قدر الولد بالنكاح، فتزوج يأتك الولد، وهكذا الدعاء. إذن فالدعاء لا شك أنه من أقوى الأسباب في حصول المطلوب وزوال المكروه، وهذا أمر معلوم، ويكون الله

تعالى قد قدر هذا الشيء الذي هو حصول مطلوبك أو زوال مكروهك مقروناً بهذا السبب ـ أي بالدعاء ـ فيكون الدعاء مقدراً والمدعو به مقدراً من عند الله عزّ وجل، لكن أنت لا تدري فعليك فعل السبب، ثم إننا نقول: إن الدعاء نفسه عبادة، فإذا رفعت يديك إلى ربك يا رب، هذا ذلٌّ وخضوع لله عزّ وجل، وهو من أجلِّ العبادات.

ومن فوائد قوله عزّ وجل: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

١ ـ إثبات الملائكة، وأنهم عالم غيبي مخلوقون من نور، خلقهم الله عزّ وجل لما أعدَّهم له، فقاموا به على حسب ما أراد خالقهم عزّ وجل، يسبحون الليل والنهار لا يفترون. وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «**أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئط** ـ الأطيط: ما يسمع من صرير الرحل على البعير المحمل حملاً ثقيلاً ـ **ما من موضع أربع أصابع إلا وفيه مَلَك قائم لله أو راكع أو ساجد**»[1]. وإنكارُ الملائكةِ حُكْمُهُ الكفر؛ لأنه تكذيب للقرآن.

لو قال قائل: أنا لا أنكرهم وأقول فيهم ملائكة، لكن الملائكة هي قوى الخير، والشياطين هي قوى الشر، فأجعلهم معانٍ لا ذوات.

نقول: هذا أيضاً إنكار لهم؛ لأن الله قال: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم**»، رقم (٢٣١٢). ورواه أحمد، في مسنده، رقم (٢١٠٠٥).

رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر: ١] كيف تكون قوى ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾؟!

٢ ـ أن الملائكة تتكلم بصوت مسموع؛ لقوله: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

٣ ـ جواز تكليم المصلي من قوله: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾، لكن المكلَّم وهو يصلي لا يخاطب الآخر وإنما يجيبه بالإشارة.

والأفضل تركه إلا لحاجة، وذلك لأنك إذا كلمته وهو يصلي فإنك تشوش عليه وربما ينسى ويخاطبك.

٤ ـ مشروعية تبشير الإنسان بما يسره؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾، وهذا أمر مشروع في نوعه وجنسه؛ ففي النوع سبق أن الله تعالى أخبر عن الملائكة أنها بشرت إبراهيم بإسماعيل وبإسحاق، قال الله في إسماعيل: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] وفي إسحاق ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣].

٥ ـ يستفاد من هذا أيضاً جواز تقديم التسمية على اليوم السابع، وهذا إذا كان الاسم مُهيَّأ، أما إذا كان غير مهيأ فإنه ينبغي أن يؤخر إلى اليوم السابع.

٦ ـ الثناء على من صدَّق المرسلين؛ لقوله: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فإن الله قال ذلك على سبيل الثناء على يحيى، ولا شك أن من صدَّق من قامت البينات على صدقه فإنه محمود حتى في الأمور الدنيوية، وأما إذا صدقت من لم تقم البينة على صدقه فهذا استعجال، وأما إذا صدقت من قامت البينة على كذبه فهذا خبال وسفه في العقل وضلال في الدين.

٧ ـ أن يحيى عليه الصلاة والسلام سيكون سيداً، وذلك لأنه أحد الأنبياء، والأنبياء هم سادة الخلق وأفضل الخلق.

٨ ـ أن يحيى عليه الصلاة والسلام مع توافر صفات الكمال في حقه بالسيادة فإنه كان ممنوعاً من مساوئ الأخلاق؛ لقوله: ﴿وَحَصُورًا﴾ فإن أصح وأعم ما قيل فيه أنه ممنوع عن مساوئ الأخلاق.

٩ ـ أن يحيى من الأنبياء؛ لقوله: ﴿وَنَبِيًّا﴾ وكل من وصف بالنبوة في القرآن الكريم فإنه رسول، قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [النساء: ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ﴾ [غافر: ٧٨] وما قصهم الله علينا يقصه بلفظ النبوة في الأكثر، فيكون كل من ذكر في القرآن بوصف النبوة فهو رسول.

١٠ ـ أن الأنبياء من الصالحين بل هم في أعلى مراتب الصلاح، فإن مراتب الصلاح أربعة: وهي النبوة، والصديقية، والشهادة، والصلاح، هذا إذا ذكرت جميعاً صارت مراتب، وإن لم تذكر جميعاً صار الصلاح عاماً؛ لقول النبي ﷺ: «**إذا قلتم: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فقد سلمتم على كل عبد صالح في السماء والأرض**»[1].

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة، رقم (٨٣١، ٨٣٥).
ورواه مسلم، كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢).

□ ثم قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤٠ ـ ٤١].

قال لما بشره الله عزّ وجل: أنى يكون لي غلام وقد بلغني؛ يعني كيف؟ ليس استبعاداً ولا استنكاراً ولكن تثبتاً، وإلا فإنا نعلم أن زكريا عليه الصلاة والسلام قد آمن بما بشره الله به ولا يمكن أن يستبعده، ولكنه قال ذلك من أجل التثبت، ذلك أن الإنسان ناقص في الإدراك والعلم، يحتاج إلى شيء يثبت له الأمور.

وإبراهيم عليه الصلاة والسلام لا شك أنَّه يؤمن إيماناً كاملاً بأن الله يحيي الموتى ومع ذلك قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، لأنه ليس الخبر كالمعاينة.

وقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾.

قال: ﴿غُلَٰمٌ﴾ مع أنه لم يولد بعد، لكن هذا باعتبار ما سيكون، والتعبير بما سيكون أمر سائغ في اللغة وارد في القرآن ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦]، يعني أعصر عنباً يكون خمراً؛ لأن الخمر لا يعصر، فعبَّر عن الشيء بما يؤول إليه.

ثم قال: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾.

الواو هذه يسميها العلماء واو الحال؛ يعني أنها تدل على أن الجملة التي بعدها في موضع نصب على الحال، يعني والحال أنه قد بلغني الكبر، فهي حال من الياء في قوله: (لي).

﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾، يعني وصل إلي الكبر، والحقيقة أنه قد يتراءى للإنسان أن في المعنى قلباً، هل الكبر بلغك أو أنت بلغت الكبر؟

قال الله تعالى: ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ [مريم: ٨]، فصار هو الذي بلغ الكبر.

وهنا يقول: ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾، إذن فالتعبير صحيح في هذا وهذا، فأنت إن بلغت الكبر فقد بلغك الكبر، وإذا بلغك الكبر فقد بلغته، ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾؛ يعني أصابني. وعادةً أن الكبير إذا لم يولد له في سن الشباب فإنه لن يرى الأولاد؛ لأن الإنجاب والإخصاب إنما يكون في حال الشباب، وكلما تقدمت السن بالإنسان من رجل أو امرأة قلَّ إنجابه؛ فيقول: كيف لما كنت شاباً لا يأتيني ولد والآن يأتيني الولد.

قوله: ﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾.

امرأته عاقر؛ عاقر يعني لا تحمل، وعاقر لفظة مذكر لكن معناها هنا مؤنث، وتطلق على الذكر والأنثى، يقال: رجل عاقر، وامرأة عاقر، وهو الذي لا يولد له، فالآن كل من الزوجين ليس بصدد الولادة، ولكن الله على كل شيء قدير، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ﴾.

يجوز عندي فيها وجهان:

الوجه الأول: أنها خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: الأمر كذلك؛ يعني أنك بلغك الكبر وامرأتك عاقر ولكن الله يفعل ما يشاء.

والوجه الثاني: أن تكون في موضع نصب على المفعولية المطلقة؛ أي: مثل ذلك الفعل ليفعله الله، لأنه يفعل ما يشاء، وكلا الوجهين صحيح، فإنه سيكون له ولد ولو كان بلغه الكبر ولو كانت امرأته عاقراً؛ لأن الله يفعل ما يشاء. فكل ما شاءه فعله؛ لأنه عزّ وجل لا يمنعه مانع كما نقول نحن في دبر كل صلاة: «**اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت**»[1]، فالله عزّ وجل يفعل ما يشاء؛ لأن له الملك المطلق في خلقه، فلا أحد يمنعه ولا أحد يسأله لِمَ فعلت؟ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

فلما أيقن بأن الله تعالى سيهب له الولد ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾، أي صيّر لي علامة تدل على هذا الولد، وأنه بدأ ينشأ ليزداد طمأنينة فيما بشره الله به. والآية في اللغة: العلامة، وآيات الله عزّ وجل كونية وشرعية، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أيدوا بالآيات الدالة على صدقهم، الآيات الكونية والآيات الشرعية. وكثير من الناس يسمي آيات الأنبياء معجزات، وهذه التسمية وإن اشتهرت على الألسن لكنَّ فيها قصوراً، والتعبير الصحيح السليم أن نسميها آيات كما سمَّاها الله، نسمي ما يحصل من خوارق العادات على أيدي الأنبياء؛ نسميها آيات، ولهذا لا تجد آية في القرآن سمى الله فيها هذه الخوارق معجزات أبداً، بل كان يسميها آيات.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤). ورواه مسلم، كتاب الصلاة، باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام، رقم (٤٧١).

والمعجزات لو أخذناها على ظاهرها لشملت ما يأتي به السحرة وما تأتي به الجن؛ لأن ما يأتي به السحرة أو الجن معجز.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾.

يعني الآية التي تدلك، فأضافها إلى زكريا مع أنه ليس هو الذي أوجدها، لكن لأنها علامة له.

﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾.

آيتك: يعني العلامة التي أعطيك إياها ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً، يعني لا تخاطبهم إلا رمزاً ثلاثة أيام بلياليها، بدليل قوله تعالى في سورة مريم: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠]، وقوله: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾، إلا: هذه أداة استثناء.

والمفسرون قد اختلفوا، فبعضهم قال: الاستثناء هنا متصل فتكون الإشارة من الكلام؛ لأن الكلام هو ما يعبر عما في النفس من قول أو إشارة أو كتابة، وبعض المفسرين يقول: إن الاستثناء منقطع؛ لأن الرمز ليس بكلام، ولذلك لو رمز الإنسان في الصلاة لم تبطل صلاته، ولو كانت كلاماً لبطلت؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن هذه الصلاة لا يصح فيها شيء من كلام الناس**»[1]. فمن نظر إلى المعنى قال: إن الرمز كلام؛ لأنه ينبئ عما في النفس، وقد اعتبر الشارع الإشارة، **أليس النبي عليه الصلاة والسلام قتل اليهودي بإشارة الجارية الأنصارية التي قالت حينما قالوا لها: من قتلك؟ فلان؟ فلان؟ فلان؟ فأشارت:**

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٧).

نعم[١]، **فاعتبر الإشارة**. ولا شك أن الإشارة تعبر عما في النفس لكنها ليست القول الذي هو الصوت، فمن لاحظ المعنى قال: الاستثناء متصل، ومن لاحظ اللفظ وأن الكلام هو الصوت قال: الاستثناء منقطع، ولكن على القولين المعنى واحد، لن يستطيع أن ينطق بلسانه مع الناس ولكن يشير إليهم إشارة، ووجه كون هذه آية: أنه عجز عن النطق مع أنه سليم، وأنه عجز عن النطق مع الناس لا مع الله، وهذا الشيء غريب، يعني إنسان يتكلم يقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لم تأته آفة ولا علة في لسانه، ثم لا يستطيع أن يكلم الناس، هذه آية.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾.

أمره الله تعالى بأن يذكر ربَّه كثيراً؛ لأنه بذكر الله تطمئن القلوب ويزداد الإيمان ويستنير القلب، فلهذا أمره الله أن يذكر ربه كثيراً، وفائدة الأمر بالذكر كثيراً أن الله لما أخبره بأنه سيمنعه من مكالمة الناس، بشَّره بأنه لن يَمْتنع من ذكر الله الذي هو أجل وأشرف من مخاطبة الناس وكلامهم. فأراد الله تعالى أن يسري عنه وأن يذهب عنه ما قد يقع في قلبه، فقال له: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾، وهنا لم يقل له: وإنك ستذكر ربك، بل قال: واذكر ربك، فأمره بذكر الله ليكون ذكره لله تعالى في حال امتناع مكالمة الناس عبادة خاصة مأموراً بها.

وقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ هل (كثيراً) صفة لزمن محذوف، أي زماناً كثيراً، أو لمصدر محذوف أي ذكراً كثيراً؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب الإشارة في الطلاق والأمور، رقم (٥٢٩٥).

الثاني كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]، وهنا قال: ﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، العشي: آخر النهار، والإبكار: أول النهار، وهذان الوقتان قد أمر الله بذكره فيهما فقال: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ [ص: ١٨]، وهنا قال: ﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ والآيات في هذا كثيرة؛ لأن في الإشراق مستقبل النهار، وفي العشي مستدبر النهار، فيكون الإنسان شاغلاً وقته ـ أوله وآخره ـ بذكر الله.

والعشي يبتدئ من زوال الشمس بدليل حديث أبي هريرة رضي الله عنه **صلى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشي**[(١)] **وهي: إما الظهر وإما العصر؛ وقيل: العشي ما بعد صلاة العصر إلى منتصف الليل، ولكن الأول أصح**. نعم المساء يطلق من صلاة العصر إلى منتصف الليل. وأما العشي فهو آخر النهار.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ الإبكار ليست جمعاً لبكر؛ لأن جمع بكر أبكار كسبب وأسباب، لكنها مصدر أو اسم لهذا الوقت المعين الذي هو أول النهار، وقوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ يشمل تنزيه الله عزّ وجل عن كل ما لا يليق به. وتسبيح الله يكون عن أمور ثلاثة: عن صفة الغيب، وعن نقص في كمال، وعن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم (٤٨٢). ورواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٣).

مماثلة المخلوقين؛ والمماثلة: هو اللفظ الذي جاء به القرآن، فالنقص كقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، والنقص في الكمال مثل قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، ومماثلة المخلوقين مثل قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

والتسبيح: يكون بالقول ويكون بالفعل؛ فكل من عبد الله فقد سبَّحه بالقول وبالفعل وإن لم يكن فيها كلمة: «سبحان» إلا أن العابد تستلزم عبادته المعبود أن يكون كاملاً؛ لأن الناقص لا يمكن للعاقل أن يعبده، فكونه يعبد الله يستلزم أن يكون مقرًّا له بالكمال مسبحاً له عن النقص.

﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

الباء في قوله: ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾ يحتمل أن تكون للاستيعاب؛ يعني في كل الوقت، وأن تكون للظرفية أي في العشي، فإن جعلناها للظرفية لم يلزم أن يستوعب الوقت بالتسبيح؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، فهم لا يمرون عليهم كل الليل بل يمرون في أوله أو في آخره أو في وسطه، وإذا كانت للاستيعاب فالمعنى أن الله أمره أن يستوعب هذين الوقتين كليهما بالتسبيح.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

من فوائد قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ

ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

١ ـ أنه لا حرج على الإنسان في طلب ما تطمئن به نفسه؛ لأن زكريا عليه الصلاة والسلام لم يشك في خبر الله، لكن أراد أن يتقدم إليه الفرح والاستبشار بقوة البراهين، وخبر الله لا شك أنه برهان، لكن كلما ازدادت البراهين ازدادت قوة اليقين.

٢ ـ جواز وصف الإنسان بما يكره إذا كان المراد مجرد البيان لا القدح والعيب؛ لقوله: ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

ونظيره أن رسول ﷺ قال: «**أما أبو جهم فلا يضع العصى عن عاتقه**»[1]، وهذا من باب المشورة، ولكن لم يقصد الرسول ﷺ أن يعيب الرجل، بل قصد أن يبين حاله ليكون الإنسان على بصيرة.

٣ ـ إثبات فعل الله؛ لقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ ومذهب أهل السنة والجماعة: إثبات أفعال الله الاختيارية المتعلقة به والمتعدية إلى غيره؛ أفعال الله الاختيارية: يعني التي تقع باختياره، ولا شيء يقع من أفعال الله إلا باختياره، لكن منها شيء متعلق به مثل الاستواء والنزول والضحك والفرح، وأشياء متعلقة بغيره مثل الخلق، فإن الخلق يتعدى إلى الغير، فأهل السنة والجماعة يثبتون النوعين، ويقولون بلا شك: إنَّ الرب الذي يفعل ما يشاء أكمل من الرب الذي لا يستطيع الفعل، وغالبُ الأشاعرة إن لم أقل كل الأشاعرة والمعتزلة ومن ضاهاهم يقولون: إن الله ليس له أفعال اختيارية؛ لا يستوي، ولا ينزل، ولا يجيء، ولا يضحك، ولا يفرح، ولا يحب، ولا يكره، إلى آخر ما يقولون في

---

(١) رواه مسلم، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها، رقم (١٤٨٠).

نفي الأفعال الاختيارية، وعلتهم أوهىٰ من أي علة حيث قالوا: إن الحوادث لا تقوم إلا بحادث، والله عزّ وجل أزلي أبدي.

فيقال لهم: أولاً: من قال لكم أن الحوادث لا تقوم إلا بحادث، فهذا قياس عقلي فاسد، فإن الحوادث لا يلزم أن لا تقوم إلا بحادث؛ لأنه من المعلوم أن المحدِث سابق عن الحدث، وإذا كان المحدِث سابقاً على الحدث لم يلزم أن يكون المحدِث حادثاً، أنت الآن تأكل الغداء اليوم، والغداء اليوم بالنسبة لك حادث وقت حدوثه وأنت موجود من قبل، فالرب عزّ وجل يفعل الأفعال هذه في وقت فعلها وهو لم يزل موجوداً. لكن على زعمكم أنتم وعلى مذهبكم الباطل يلزم أن يكون الله سبحانه وتعالىٰ لا يفعل أي فعل، معطل عن الأفعال، وهذا عيب؛ لأن من يفعلُ أكملُ ممن لا يفعلُ باتفاق الناس، وليس يعتري الله عزّ وجل من إثبات الفعل في حقه أي نقص بأي وجه من الوجوه، والآيات كثيرة في إثبات فعل الله ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. والنصوص في هذا كثيرة، والحمد لله أن أهل السنة والجماعة يؤمنون بها.

٤ ـ إطلاق الجمع على الواحد، على أن قوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ يدل على أن القائل واحد، وأن قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني واحداً منهم، وقد سبق في التفسير الخلاف في ذلك.

٥ ـ إثبات المشيئة لله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾. وهي مقرونة بالحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

١ ـ جواز البحث عما يزيد به الإيمان، وإن كان الإيمان موجوداً، بل قد نقول: وجوب البحث عما يزيد به الإيمان؛ لأن الإنسان مطلوب منه أن يقوي إيمانه بكل وسيلة.

٢ ـ تمام قدرة الله سبحانه وتعالىٰ بخوارق العادات، فإن كون زكريا عليه الصلاة والسلام لا يكلم الناس إلا رمزاً، لكن في باب التسبيح ينطلق لسانه، هذا من آيات الله، ولهذا قال: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾.

٣ ـ أن الآية قد تكون على عكس ما طلبت له، فهي قد طلبت لتحقق الوجود فيما بشِّر به، والآية كانت على العكس؛ كانت إعدام موجود وهو الكلام.

٤ ـ أن الإشارة تقوم مقام العبارة؛ لقوله: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ وهذه الفائدة مبنية على أن الإشارة تقوم مقام العبارة عند العجز عن التعبير، ووجه المأخذ: أن الاستثناء هنا منقطع، فلا يكون كلاماً لكنه يقوم مقامه عند العجز، وكلا الأمرين حق، فالإشارة تقوم مقام العبارة في الإفهام ولا سيما عند العجز.

٥ ـ أن الإنسان ينبغي له إذا انقطع عن الناس أن يشغل وقته بذكر الله عزّ وجل؛ لأنه لما منع من الكلام مع الناس وصار لا يكلمهم إلا رمزاً، ومعلوم أن الإنسان الذي لا يكلم الناس إلا رمزاً سوف لا يكون حريصاً على مكالمتهم لئلا

يَتعب أو يُتعب، لذا أمره الله فقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

٦ ـ فضيلة التسبيح والذكر في هذين الوقتين العشي آخر النهار والإبكار أول النهار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

٧ ـ أن الذكر ينبغي أن يكون مقروناً بالتسبيح إلا ما ورد النص بإفراد أحدهما عن الآخر، يعني قال: اذكر ربك وسبح، ولكن في الذكر قال: كثيراً، وفي التسبيح قال: بالعشي والإبكار، فهل نقول: إن الذكر لا يتقيد بالعشي والإبكار؟ أو نقول: إنه متقيد لكن نكثر منه؟ يحتمل هذا وهذا، لكن الآيات الأخرى تدل على أن الإنسان مأمور بأن يذكر الله كثيراً، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]، وقال تعالى في وصف أهل الصلاح: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥] وعلى هذا فالذكر يكون أكثر من التسبيح، لكن القرن بينهما أيضاً فيه فائدة، وهي أنه يجمع بين الثناء على الله وتنزيهه من النقائص.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣].

الواو حرف عطف، و(إذ) نقول فيها مثل ما قلنا في السابق، في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ [آل عمران: ٣٥]، يعني أنها منصوبة بفعل محذوف تقديره: اذكر، وتضمين الجملة لهذا يدل

على العناية بها، وأنه ينبغي إشهارها وإظهارها حتى تتبين وتتضح للناس، وإنما ذكر الله قصة زكريا ومريم هنا وعيسى فيما بعد؛ لأنها نزلت في وفد نجران الذين قدموا على النبي ﷺ وهم من النصارى، فأراد الله أن يبيِّن لنبيه ﷺ قصة المسيح ومن حوله كاملة، حتى يتبين له الأمر تماماً، فإذا احتاج إلى محاجة النصارى كان عنده علم أفضل مما عندهم.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾.

الملائكة: المراد بهم الجنس، إذ ليس المراد كل الملائكة بل واحد منهم، وهو في الغالب جبريل.

﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾.

ونداؤها باسمها نوع من التكريم، إذ لم يقل: يا هذه باسم الإشارة، بل أتى باسمها ـ الاسم العلَم ـ تكريماً لها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أي اختارك، وذلك لأن «اصطفى» أصلها «اصتفى» بالتاء، لكن لعلة تصريفية قلبت التاء طاءً، وهي مأخوذة من الصفوة، أي جعلك من صفوة الخلق، واصطفاؤه إياها سبحانه وتعالىٰ من عدة وجوه:

منها: أنه تقبلها بقبول حسن حين قالت أمها: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥]، مع أن المعروف عندهم أنه لا يخدم المساجد إلا الرجال، لكن هي قبلت. ومنه أي مِن اصطفائه لها أنه أنبتها نباتاً حسناً، وقد سبق الكلام على معنى الكلمتين، وأنهما تتضمنان التربيتين الروحية والجسدية. ومن اصطفائه لها أيضاً أن الله تعالى اختار أن تكون عند نبي من الأنبياء، حتى تتربى في بيت نبوة.

وقوله: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ الظاهر أنه طهرها من الأرجاس المعنوية، وأنها بالنسبة للأرجاس الحسية كالبول والغائط والحيض كغيرها من النساء، لكنه طهرها من الأرجاس المعنوية، فبرأها الله تعالى مما رماها به اليهود، وكذلك طهرها من سفاسف الأخلاق حتى كانت دائماً في عبادة الله سبحانه وتعالىٰ كما سيتبين إن شاء الله.

ثم قال: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

الواو حرف عطف، ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ميَّزك من بينهن، فالاصطفاء الأول اصطفاء عام، وهذا اصطفاء خاص بالنساء، اصطفاها الله تعالى من بين سائر النساء حيث جعلها من النساء الكمَّل، **وقد أخبر النبي ﷺ أن مريم عليها الصلاة والسلام خير نساء البشر، هي وخديجة بنت خويلد وآسيا امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**[1].

فهي من النساء الكمَّل رضي الله عنها، ولها قال: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهل المراد نساء العالمين في زمنها؟ لأن النساء اللاتي في زمن النبي ﷺ لا شك أنهن في أمة هي خير الأمم، أو المراد العموم؟ فيه قولان للعلماء، منهم من قال: إنه خاص بنساء زمانها، كما ذكر الله عن بني إسرائيل أنه فضلهم على العالمين، فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]، وهذه الأمة أفضل.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب فضل عائشة رضي الله عنها، رقم (٣٧٦٩). ورواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، رقم (٢٤٣١).

ثم قال تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

هذا من خطاب الملائكة أيضاً، تقول لها: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾، والقنوت هو دوام الطاعة، واللام في قوله (لربك) للاختصاص: أي قنوتاً خالصاً لله، أي طاعة خالصة له؛ لأن من شرط الطاعة أن تكون خالصة لله سبحانه وتعالىٰ.

وقوله: ﴿لِرَبِّكِ﴾ الربوبية هنا ربوبية خاصة، تختص بمن خصَّها الله به، وتفيد تربية وأكثر اعتناء واختصاصاً من الربوبية العامة.

وقوله: ﴿وَٱسۡجُدِي﴾ الواو حرف عطف، واسجدي: يعني السجود المعروف، **وقد ثبت عن النبي ﷺ أن هذه الأمة أمرت أن تسجد على سبعة أعضاء**[1]، وعطف السجود على القنوت من باب عطف الخاص على العام.

وذكر الخاص بعد العام يدل على فضله ومزيته، ولا شك أن السجود من أفضل أنواع الطاعة، لذلك كان أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

وقوله: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ الركوع معروف وهو انحناء الظهر، وقوله: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي في جملتهم، وليس المراد أنها تصلي مع الجماعة؛ لأن المرأة لا تخاطب بالصلاة مع الجماعة، لكن: كوني في جملة الراكعين الذين يركعون لله عزّ وجل، وفي قوله: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ولم يقل مع الراكعات مع

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب السجود على سبعة أعظم، رقم (٨٠٩، ٨١٠). ورواه مسلم، كتاب الصلاة، باب أعضاء السجود والنهي عن كف الشعر والثوب، رقم (٤٩٠).

أنها امرأة؛ لأنَّ الكُمَّل من الرجال أكثر من الكمَّل من النساء، ولهذا لم يكمل من النساء إلا ثلاث.

وقوله: ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى﴾ قدَّم السجود على الركوع؛ لأن هيئة السجود أفضل وأبلغ في الخضوع، فقدَّمها على الركوع، أما من حيث الترتيب الفعلي بالنسبة للصلاة فإن الركوع قبل السجود.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ تعظيم شأن مريم عليها الصلاة والسلام حيث أمر الله نبيه أن يذكر قصتها لهذه الأمة؛ لأنه قلنا: ﴿وَإِذْ قَالَتِ﴾ مفعول لفعل محذوف تقديره (واذكر إذ قالت).

٢ ـ فضيلة مريم حيث خاطبتها الملائكة بقولها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٣ ـ دليل على ما ذهب إليه بعض أهل العلم أن مريم نبية؛ لأن الملائكة أوحت إليها وقالت: إن الله اصطفاك... إلخ، ولكن في هذا الاستدلال نظر؛ لأنه ليس بصريح في أنها نبئت، ومجرد خطاب الملائكة لها لا يثبت نبوتها؛ لأن النبوة إنما هي لمن أوحي إليه بشرع لا لمن أوحي إليه بثناء أو بتهيئته لما سيكون، بل لمن أوحي إليه بشرع وهي لم يوحَ إليها بشرع، فالأمر ليس بصريح، ولدينا آية تدل على أنه لا يبعث من النساء نبية، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ وإلا تفيد الحصر، فتدل على أنه لا يمكن أن تكون امرأة من النساء نبية، وكذلك أيضاً قول النبي عليه الصلاة والسلام حين بلغه أن الفرس أمروا عليهم بنت كسرىٰ قال: «**لن يفلح قوم ولوا أمرهم**

امرأة»[١]، فكيف يمكن أن يرسل الله تعالى امرأة ليفلح الناس على يديها. صحيح أن المرأة تكون عالمة، وتكون داعية كما هو الواقع، أما أن تكون نبية يوحى إليها لتتولى السلطة كما يقولون التشريعية والتنفيذية فهذا بعيد، فالصواب أن مريم من الصالحات القانتات، وليست من الأنبياء والرسل.

٤ ـ أن الله تعالى يصطفي من الناس من يشاء؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾، أي اختارك اختياراً لم يشاركها فيه أحد؛ لأنها صارت خادمة لبيت المقدس مع أنه لا يخدمه عندهم إلا الرجال، فهذا نوع من الاصطفاء.

٥ ـ براءة مريم مما ادعاه اليهود من كونها بغياً؛ لقوله: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾، واليهود ـ قبَّحهم الله ـ اعتدوا على مريم وابنها فقالوا في مريم: إنها بغي، وقالوا في ابنها عيسى: إنه ولد زنا وكذبوه وقتلوه إثماً لا حقيقة، كيف قتلوه إثماً لا حقيقة؟ لأنهم أمضوا هذا الأمر الذي يظنون أنهم قتلوا به عيسى وصلبوه ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧]، قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، فكانوا قتلة إثماً لا حقيقة؛ لأن عيسى باقٍ إلى الآن.

٦ ـ أن مريم مفضلة ومصطفاة على نساء العالمين، ولكن هل هذا يتناول نساء العالمين إلى يوم القيامة، أو نساء العالمين في زمنها؟ يحتمل معنيين: إما أن المراد نساء العالمين في زمنها ويكون قول الرسول ﷺ: «**كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من**

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى، رقم (٤٤٢٥).

النساء إلا آسيا امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد»[(١)]، يكون هذا مما أطلع الله عليه نبيه ولم تطلع الملائكة على هذا، والملائكة بلَّغت مريم ما بُلِّغت به.

٧ ـ جواز تكرار المناقب؛ لأن أوصاف الكمال كلما كررت ظهر من كمال الموصوف ما لم يكن معلوماً من قبل، ننطلق من هذه الفائدة إلى فائدة تتعلق بصفات الله عزّ وجل، وهي أن أكثر ما وصف الله به نفسه الصفات الثبوتية التي يثبتها لنفسه، أما الصفات التي ينفيها عن نفسه فوصفه بها قليل بالنسبة لوصفه بصفات الإثبات؛ لأن صفات الإثبات كمالات، وصفات النفي نقائص تُنفى لا لذاتها ولكن لإثبات كمال ضدها مع أنها هي منفية أيضاً حقيقة.

٨ ـ بيان أنه كلما منَّ الله سبحانه وتعالىٰ على إنسان بشيء كانت مطالبته بالعبادة أكثر؛ لأن الملائكة لما قالت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أمرتها بالقنوت والسجود والركوع، فدلَّ هذا على أنه ينبغي للإنسان كلما ازدادت عليه نعم الله أن يزداد على ذلك شكراً بالقنوت لله والركوع والسجود وسائر العبادات.

٩ ـ فضيلة القنوت لله، ولكن ما هو القنوت؟ دوام الطاعة، والخشوع، والاشتغال بالطاعة عما سواها. ولهذا لما نزلت هذه الآية: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، أمروا بالسكوت ونهوا عن الكلام ليشتغلوا بالطاعة عما سواها، فالقنوت دوام الطاعة مع الاشتغال بها عن غيرها.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٢١).

١٠ ـ فضيلة السجود والركوع؛ لقوله: ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، مع أنه من القنوت لكن لفضيلتهما نصَّ عليهما.

١١ ـ جواز ترك الترتيب للمصلحة أو لمراعاة شيء آخر؛ لقوله: ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى﴾، ولا يقول قائل: لعل الصلاة في عهدهم يقدّم فيها السجود، وفي هذه الشريعة يقدم فيها الركوع، نقول: الأصل خلاف ذلك، لكن نصَّ على السجود وبدأ به؛ لأنه أبلغ في القنوت من الركوع كما ذكرناه في أثناء التفسير.

١٢ ـ أن العُبَّاد من الرجال أكثر من العباد من النساء؛ لقوله ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، ولم يقل: مع الراكعات إشارة إلى أن الكمال في الرجال، وكثرة العمل في الرجال أظهر منها في النساء، ولهذا كانت النساء أكثر أهل النار كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ(١).

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال الله عزّ وجل: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

﴿ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه كل ما سبق من ذكر قصة زكريا وقصة مريم.

وقوله: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: من أخبار الغيب، أي: من أخبار الشيء الغائب الذي لا يعلم، وليس المراد من وقع في زمنه؛ لأن من وقع في زمنه يعلمونه لكن المراد لا يعلمه النبي ﷺ

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب كفران العشير، رقم (٥١١٧). ومسلم، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء، رقم (٢٧٣٧).

ولا قومه، كما قال الله تعالى في سورة هود: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩] إذن هي غيب نسبي بالنسبة لمن لم تكن في زمنه، أما من كانت في زمنه فهي مشاهد، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام وقومه كانوا أميين لا يعلمون شيئاً عن الأمم السابقة، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ ما أوحى من أخبار السابقين، التي ما كان يعلمها لا هو ولا قومه، وهو دليل على أنه رسول الله حقًّا، وأن الوحي يأتيه من الله.

وقوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ الوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء، فإذا أعلمك إنسان بسرعة على وجه خفي يسمى في اللغة وحياً، ولكنه في الشرع: إخبار الله سبحانه وتعالىٰ لنبي من أنبيائه بما يشاءه من شرعه، هذا الوحي، ثم إنْ كلَّفه بتبليغه كان رسولاً، وإلا كان نبياً.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: ما كنت عندهم، يعني عند زكريا وقومه.

﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ إذ: أي حين، وهي متعلقة بقوله: ﴿كُنتَ﴾ يعني: ما كنت في ذلك الوقت عندهم، إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم، وقوله: ﴿أَقْلَٰمَهُمْ﴾ اختلف العلماء في تفسيرها، فقيل: إنها على ظاهرها أنهم ألقوا أقلامهم التي يكتبون بها، وقيل: إن المراد بها سهامهم التي تكون في النصل يرمون بها، وسميت قلماً لأنها تشبهه في الاستطالة، ودقة الرأس، وظاهر القرآن أن المراد بالأقلام الأقلامُ حقيقةً التي يكتب بها، ولا نعدل عن ظاهر القرآن إلا بدليل، هذه هي القاعدة

الشرعية في تفسير القرآن، بل وفي تفسير الحديث النبوي، بل وفي كلام الغير حتى كلام الناس يجب أن نعمل بظاهره إلا بدليل، ولكن ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ كيف ألقوا هذه الأقلام، المعروف أنهم ألقوها في النهر، في الماء الذي يمشي، فما انحبس منها فصاحبه الذي يكفل مريم، وما جرى فهو الذي لا يكفلها، والقرآن ليس فيه بيان ذلك، يعني ليس فيه أنهم وضعوا هذه الأقلام في النهر، إنما ألقوا أقلامهم على وجهٍ الله أعلم بكيفيته، من باب الاقتراع ـ يعني قرعة ـ، أيهم يكفل مريم، فخرجت القرعة لزكريا كما قال تعالى في أول القصة ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

يعني ما كنت عندهم أيضاً في حال اختصامهم، أيهم يكفل مريم، هذا الاختصام الظاهر أنه قبل إلقاء الأقلام، لكن أُخِّر في الذكر لمناسبة رؤوس الآيات ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ على أنه قد يقال: إن الله سبحانه وتعالىٰ ذكر النتيجة قبل المقدمة وقبل السبب؛ لأنها هي الغاية، فإن إلقاء الأقلام والسهام هو غاية الاختصام، فاختصموا أيهم يكفلها، فقالوا: لنُسْهِم بإلقاء الأقلام، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ هذا كالدليل في قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يعني فأنت ما قلتها لأنك شاهد، ولكن قلتها لأنها أوحيت إليك، وأيضاً فيه إشارة إلى أن هذا الذي أنبئ به كأنما يراه بعينه، وكأنه حاضر وهو كذلك؛ لأن أخبار الله عزّ وجل أشد ثبوتاً وحقيقة مما يُرى في العين.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ﴾ يعني اذكر إذ قالت الملائكة: يا مريم، والمراد جنس الملائكة، والمشهور أنه جبريل.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ سبق أن معنى البشارة في الأصل الإخبار بما يسر، وأنها قد تطلق على الإخبار بما يسوء، بجامع أن كل ما يسر وما يسوء يغير البشرة ويؤثر فيها.

وقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ﴾ تحتمل وجهين:

الوجه الأول: أن الكلمة هي المبشر به كما تقول: بشرته بولد، فتكون الكلمة هي المبشر به.

والوجه الثاني: أن المراد بالكلمة هنا الصيغة التي حصلت بها البشارة، أي يبشرك بشارة عن طريق النطق بها، كما تقول: بشرته بالقول لا بالكتابة، أي: أن الوسيلة التي حصلت بها البشارة هي الكلمة، يعني أن الله سبحانه وتعالىٰ قال كلمة فيها البشرى بالمسيح عيسى ابن مريم، فالوجهان محتملان.

أما على الاحتمال الثاني فلا إشكال أن تقع البشارة بالنطق. لكن على الوجه الأول أن الكلمة هي المبشر به، فكيف يكون المبشر به كلمة مع أنه إنسان؟ أجاب العلماء عن ذلك بأنه أطلق عليه الكلمة؛ لأنه كان بالكلمة لا بالوسائل الحسية المعلومة؛ لأن الولد في العادة يأتي بواسطة النكاح، لكنه لم يأتِ بالنكاح بل أتى بالكلمة، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ

خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فلهذا صح أن يطلق عليه الكلمة، وفي هذه الآية إشكال آخر إذا قلنا إن الكلمة تعني المبشَّر به، فما معنى (منه)، فإن (مِنْ) لها معان منها التبعيض، كما قال ابن مالك رحمه الله في الخلاصة.

بَعِّض وبيِّن وابتدأ في الأمكنة بمن وقد تأتي لبدء الأزمنة

الشاهد قوله: (بَعِّض) فإن مِنْ تفيد التبعيض، فهل معنى ذلك أن عيسى بعض من الله كما قالت النصارى، الجواب: لا، ليس بعضاً من الله؛ لأن الله واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ولا يتبع أحد هذه الآية ويدعي البعضية إلا من في قلبه زيغ، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، والنصراني كما اتبع المتشابه في هذه الآية، اتبع المتشابه في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] قال: هذا كلام الله يقول: ﴿إِنَّا﴾، و﴿إِنَّا﴾ تفيد الجمع، فاتبع المتشابه، انتصاراً لرأيه الفاسد، ولا يخفى على كل ذي لب أن المراد بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وما أشبهها التعظيم لا التعدد، كذلك هنا ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾: لا يقتضي أن يكون عيسى بعضاً من الله عزّ وجل؛ لأنَّك إن ادعيت أنه بعض من الله، فلتدَّع أنه كلمة الله، ومعلوم أنه لا أحد يدعي أن عيسى كلمة، بل هو بشر له جسم وروح يأكل ويشرب، وهل الكلمة كذلك؟! لا. إذن فيتعين أن تكون (مِنْ) إما ابتدائية وإما بيانية؛ يعني بكلمة صادرة من الله عزّ وجل بأن قال: كن فكان، نظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] هل يدعي أحد أن ما في السموات وما في

الأرض بعض من الله، لا، حتى النصراني لا يدعي ذلك لكن هنا (مِنْ)، إما للابتداء يعني ابتداء التسخير من الله أو للبيان، بيان مَن المسخِّر، أو مَنْ جاء بهذا التسخير.

قال: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، اسم: مبتدأ، والمسيح: خبر، وعيسى: خبر ثاني، وابن مريم: خبر ثالث، وإنما قلنا ذلك لأنك لو أفردت كل واحد عن الآخر لاستقام الكلام، لو قلت: اسمه ابن مريم صحَّ، اسمه عيسى صحَّ، اسمه المسيح، صح، وعلى هذا فكل واحد منها خبر، وقيل: بل الثلاثة خبر واحد، كقولك: البرتقال حلو حامض، هنا لا يصح أن تقول: حلو خبر وحامض خبر؛ لأنك لو أفردت أحدهما عن الآخر لفسد المعنى، لو قلت: البرتقال حلو، لم يصح، ولو قلت: البرتقال حامض، لم يصح، ولم يؤدِ المعنى الذي يؤديه قوله: البرتقال حلو حامض يعني: جامع بينهما، فلهذا نقول في قول القائل: البرتقال حلو حامض: حلو حامض جميعها خبر، لكن في الآية التي معنا ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ لا يستقيم هذا المعنى فيها، وبناء على ذلك نقول: إن كل واحد منها خبر، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٤ - ١٦] فهذه خمسة أخبار، هذه الأخبار الثلاثة جمعت أنواع العلم، التي أشار إليها ابن مالك بقوله:

واسمًا أتى وكنية ولقبا وأخِّرن ذا إن سواه صحبا

أي: الاسم عيسى، واللقب: المسيح، والكنية: ابن مريم.

هذه الكلمات الثلاثة قد جمعت أنواع العلم الثلاثة:

الاسم، واللقب، والكنية، لكن يبقى عندنا إشكال في قول ابن مالك: (وأخرن ذا) يعني اللقب إن سواه صحبا، فإنه في الآية الكريمة قدَّم اللقب فيبقى إشكال إذن: كيف نجمع بين هذا الكلام من هذا العالم في النحو وبين الآية؟ من المعروف أن علماء النحو رحمهم الله لا تضيق عليهم أبداً، يقولون: حجج النحاة كبيوت اليرابيع، قالوا: الجواب عن الآية: أن اللقب إذا اشتهر به الإنسان حتى صار كالعلم أو كالاسم جاز أن يقدم، ولهذا نجد في كلام العلماء: الإمام أحمد بن حنبل، المسيح عيسى ابن مريم على وزن المسيح ابن مريم، الإمام محمد بن إدريس الشافعي، فيقدم الإمام مع أنه لقب، للاشتهار، إذن لا إشكال فيه، قال: إنما ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾ واختار الله تعالى له اسم المسيح؛ لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برأ، أو لكثرة مسحه الأرض وسيره فيها، أو من المسحة وهي الجمال، والمعنى الأول أشهر، يعني أنه لا يمسح ذا عاهة إلا برأ، فهو يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى ويخرجهم من قبورهم، وهذه الأمور لا تتم لكل أحد، بل لا تتم لأحد أبداً إلا بإذن الله عزّ وجل.

والمسيح فعيل بمعنى فاعل، إلا على قول من يقول: إن المراد بذلك المسح من الجمال، فهذا يكون بمعنى مفعول.

﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ ولم ينسبه إلى أب، لأنه لا أب له، لكن لماذا نسبه إلى أمه؟ الجواب: إشارة إلى أن لا يقول قائل إنه ينسب إلى كافله زكريا، فبدأت الملائكة وبينت أن هذا الرجل ينسب إلى أمه، عيسى ابن مريم.

﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾.

قوله: ﴿وَجِيهًا﴾ هذه منصوبة على الحال، حال من المسيح أي: حال كونه وجيهاً في الدنيا، والوجيه هو ذو الجاه؛ وهو الشرف والمكانة والسيادة، وقد كان كذلك عليه الصلاة والسلام، أما وجاهته في الدنيا فلأنه كان أحد الرسل الكرام، بل هو من أولي العزم، وأولو العزم هم أعظم الناس جاهاً في الدنيا والآخرة، كما قال الله تبارك وتعالى عن موسى ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [آل عمران: ٦٩]، وأما وجاهته في الآخرة فلأنه من أولي العزم من الرسل الذين هم بأعلى درجات الجنة، ولهم بالآخرة مقامات لا تكون لغيرهم.

فإن قيل: من هم أولو العزم من الرسل؟ **فالجواب**: أنهم أولو الحزم في الأمور والصبر عليها.

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] والمشهور في (من) في هذه الآية أنها للتبعيض، وأن أولو العزم هم الخمسة الذين ذكروا في آيتين من القرآن الكريم، وبعضهم جعل (مِنْ) بيانية، وعلى هذا يكون جميع الرسل من أولي العزم، لكن المشهور الأول.

وهم مذكورون في آيتين من القرآن.

الأولى: في سورة الشورى قوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

والثانية: في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ

ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، هذا وصف ثالث، أنه من المقربين إلى الله عزّ وجل في الدنيا والآخرة؛ لأن المقرب يكون مقرباً في الدنيا ويكون كذلك مقرباً في الآخرة، فعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام كان وجيهاً في الدنيا والآخرة، وكان من المقربين إلى الله عزّ وجل. وهل هذا الوصف حاصل لغيره من الأنبياء؟ الجواب: نعم، أولو العزم من الرسل لا شك أن لهم وجاهة في الدنيا والآخرة وأنهم مقربون إلى الله.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٦ ـ ٤٩].

قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾.

الواو حرف عطف، والجملة معطوفة على ما سبق ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ أي: في حال الصغر، وأصل المهد أو المهاد الفراش يوضع للإنسان فيطؤه ويستريح عليه، وقوله: ﴿فِى ٱلْمَهْدِ﴾ أي: في الفراش وهو صغير، وهذا من آيات الله عزّ وجل؛ لأن

العادة التي أجرى الله سبحانه وتعالىٰ البشر عليها أن لا يتكلم أحد إلا في سن معين، أما في المهد فلم يتكلم إلا ثلاثة، منهم المسيح عيسى ابن مريم، وتكلم بكلام من أبلغ الكلام لما جاءت به قومها تحمله: ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٢٧ ـ ٣٣]، كلام من أفصح الكلام وأعظمه، وهو في المهد، وهذا من آيات الله عزّ وجل الدالة على قدرته، ولهذا كانت آيات عيسى كلها تدور حول هذا الأمر حول خوارق العادات في الأمور الكونية؛ فهو نفسه آية خُلِقَ بلا أب، وكلم الناس في المهد، وهذا من الآيات، يصنع من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً، ويبرئ الأكمه والأبرص ولا أحد يبرئهما من الأطباء، ويحيي الموتى ويخرجهم من القبور، قال أهل العلم: لأنه بعث في زمن ترقَّىٰ فيه الطب ترقياً عظيماً، فجاء بآيات من جنس الآيات التي فيها إعجازهم، ومن جنس الأعمال التي يعملونها؛ ليكون ذلك أبلغ في الإعجاز، كما جاء موسى عليه الصلاة والسلام بالعصا واليد التي تبطل سحر السحرة، وكان السحر في وقته قد زاد وانتشر، وكما أتى محمد ﷺ بكلام هو أبلغ الكلام وأفصحه لانتشار الفصاحة في زمنه وعهده، حتى يعجز هؤلاء البلغاء ويتبين أنه ليس من كلام البشر.

قال: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

يعني ويكلمهم وهو كهل من الحادية والثلاثين إلى الأربعين، وفي هذه الحال ليس غريباً أن يكلم الناس، ولكنه أتى بها لفائدة، وهي أن كلامه في المهد ككلامه وهو كهل؛ يعني ليس ككلام الصبي الذي يتكلم في المهد كلام أطفال، بل كلامه فصيح من أبلغ الكلام كما يتكلم به وهو كهل.

قال: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وهو من الصالحين، وسبق لنا أن الصالح من صلحت سريرته وعلانيته، يعني ظاهره وباطنه، باطنه: بالإخلاص لله والطهارة من كل شرك ونفاق وشك وأحقاد وبغضاء للمؤمنين وما أشبه ذلك.

وظاهره: بالمتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام وعدم الابتداع، فهو عليه الصلاة والسلام من الصالحين الذين صلحت ظواهرهم وبواطنهم، وإن شئت فقل: سرائرهم وعلانيتهم.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ هي الآن تخاطب الله، والذي كان يخاطبها الملائكة أو جبريل، لكنها لما قالوا إن الله يبشرك وعلمت أن الأمر من الله وجهت الخطاب إليه سبحانه وتعالىٰ فقالت: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ﴾، وتأمَّل هذا الاستعطاف منها حيث قالت: ﴿رَبِّ﴾ ومعلوم أن كلمة رب هنا مضافة إلى ياء المتكلم التي حذفت للتخفيف وأصلها (ربِّي أنَّى يكون لي ولد).

وقولها: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ﴾ هذا استفهام يعني: من أين يكون لي الولد ولم يمسسني بشر، وهذا الاستفهام ليس على

سبيل الشك، وليس على سبيل الاستبعاد، ولكنه على سبيل الاستثبات وزيادة الطمأنينة كقول إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ولم يكن ذلك عن شك.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ الجملة حالية؛ يعني والحال أنه لم يمسسني بشر، أي: لم يجامعني؛ لأن المس يطلق على الجماع؛ ويكنى به عنه كما قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، أي: تجامعوهن، ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، فمن أين يكون الولد؟

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾، قال الله عزّ وجل لأنها نادت الله ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ ﴿... قَالَ كَذَٰلِكَ﴾، يعني الأمر كذلك، فالجار والمجرور خبر لمبتدأ محذوف تقديره (الأمر) وعلى هذا فيحسن الوقوف هنا، أي يحسن أن تقف فتقول: كذلك، ثم تبتدئ فتقول: ﴿ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، وهذا التركيب له نظائر في القرآن، مثل قوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤]، وإنما تأتي هذه الصيغة للتقرير والتثبيت، يعني الأمر مثلما وقع تماماً.

وقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، وجملة يخلق خبر؛ أي: أن الله سبحانه يخلق ما يشاء سواء كان على وفق العادة أو على خلاف العادة، فعيسى عليه الصلاة والسلام جاء على خلاف العادة، لكن مثله عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ـ أي خلق آدم من تراب ـ ثم قال له كن فيكون، فالله على كل شيء قدير.

وقد ذكر أهل العلم أن البشر منهم من خلق بلا أم ولا

أب، ومنهم من خلق من أم بلا أب، ومنهم من خلق من أب بلا أم، وأكثر الخلق من أم وأب.

فالذي خلق من غير أم ولا أب (آدم)، ومن أب بلا أم (حواء) امرأة آدم، ومن أم بلا أب (عيسى)، وسائر الناس من أب وأم.

﴿ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، أي: الذي يشاء كمًّا وكيفاً وعلى سبب معلوم وعلى سبب غير معلوم، فالله سبحانه لا معقب لحكمه، يخلق ما يشاء، قلنا: بالكمية والكيفية والسبب المعلوم والسبب غير المعلوم وأيضاً النوعية؛ والنوعية ما أكثر أنواع الخلق لا يحصيها الإنسان فضلاً عن أفرادها، وما أكثر الخلق، لو أردت أن تحصي الخلائق ما استطعت، والله تعالى قد أحصاهم ورزقهم وأمدهم وأعدَّ كل مخلوق لما خُلق له، قال فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠]، كل شيء أعطاه الله خلقه المناسب له ثم هداه لما خلق له. انظر أحياناً تفتش الكتاب للمراجعة فتجد فيه حيواناً لا يدركه البصر إلا بكلفة! مَنْ خلقه؟ الله، ومَنْ أعده للرزق؟ الله. ومن أمده برزقه المناسب له؟ هو الله عزّ وجل، فما بالك بالخلق الكثير الذي هو أكبر من هذا بكثير؟! فالحاصل أن الله يخلق ما يشاء كمًّا وكيفاً ونوعاً، وبسبب معتاد وبسبب غير معتاد، لا حَجْرَ على الله عزّ وجل، يخلق ما يشاء ويفعل ما يشاء.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿إِذَا قَضَىٰٓ﴾، قضى: أي قضاءً كونياً؛ لأن القضاء له معنيان

كوني وشرعي، فمن أمثلة الشرعي قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ومن أمثلة الكوني قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤]، قضينا شرعاً أو كوناً؟ الجواب: كوناً، ولا يصح شرعاً؛ لأن الله لا يقضي شرعاً بالفساد أبداً، فهو لا يحب الفساد لكنه قضاء كوني.

والفرق بين القضاءين الكوني والشرعي:

القضاء الشرعي:

١ ـ أن القضاء الشرعي متعلق بما يحبه الله من فعل المأمور أو ترك المحظور.

٢ ـ القضاء الشرعي قد يقع وقد لا يقع، قد يقع من المقضي عليه وقد لا يقع.

القضاء الكوني:

١ ـ القضاء الكوني يتعلق فيما أحبه الله وفيما لا يحبه الله.

٢ ـ القضاء الكوني لا بد أن يقع من المقضي عليه.

فصار الفرق أول شيء وجهين، وعندما نذكر الشيء وضده تكون أربعاً.

ومن أمثلة القضاء الكوني: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ [سبأ: ١٤]. وقوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ [هود: ٤٤].

أما قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ﴾ [غافر: ٢٠] فهو شامل للكوني والشرعي. حتى الكوني الذي يقضيه الله وإن كان شرًّا لكنه في المفعولات، أما في نفس القضاء فهو حق.

يقول الله عزّ وجل: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ «أمراً» مفرد جمعه أمور أم أوامر؟.

الجواب: أمور؛ لأن المراد بالأمر هنا الشأن يعني: إذا قضى شأناً ـ أي شأن من الشؤون ـ فإنما يقول له كن فيكون، لا يحتاج إلى عمل ولا إلى آلات ولا إلى أي سبب، كل الخلائق مسلمة لله عزّ وجل: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣]، تنتظر الأوامر، إذا صدر الأمر من الله عزّ وجل كان المأمور.

الأمر الكوني: يقول كن فقط فيكون. قال الله تعالى عن البعث؛ بعث الخلائق كلها: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣ ـ ١٤]، وبيَّن الله تعالى في سورة القمر كيف هذا الأمر هل يكرر؟ هل يتأخر المأمور؟ فقال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ [القمر: ٥٠]، لا يوجد تكرار ـ واحدة ـ ولا يتأخر المأمور ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، يعني لو شاء ربنا عزّ وجل لأمر هذه الأرض أن تزول ومن فيها بلحظة ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ هذه القدرة التامة العظيمة التي لا تنسب قُدرة الخلق إليها. ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، الفاء هذه تفيد الترتيب وإن شئت فقل: تفيد السببية، فإن قلت: إنها تفيد السببية فاقرأها بالنصب، وإن قلت: إنها تفيد الترتيب فاقرأها بالرفع، وكلتا القراءتين سبعية صحيحة (أن يقول له كن فيكونَ)، ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، فعلى قراءة الرفع تكون استئنافية، والفاء عاطفة تفيد الترتيب والتعقيب (كن فهو يكونُ) في الحال، وعلى قراءة النصب تكون الفاء للسببية، فكأن الكون مسبب عن

القول، ومعلوم أن المسبب يأتي مقارناً للسبب.. على قراءة النصب (كن) سبب، و(فيكون) مسبب، ومن المعلوم أن المسبب يأتي عقب السبب فوراً؛ لأنه سببه، والسبب مقارن للمسبب، وعلى هذا فتكون كل من القراءتين مفيدة لمعنى غير المعنى الثاني، لكنهما متلازمان.

هنا مسألة: إذا قال الله: ﴿كُن﴾ فهل يقول: ﴿كُن﴾ فقط فيقع الشيء على مراد الله، أو لا بد أن يقول كن ويبين ما يكون؟ لننظر في حديث القلم، لما خلق الله القلم قال له: اكتب. هل كتب أم لم يكتب؟ لم يكتب، بل قال: ربِّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة[1]، فالظاهر ـ والله أعلم ـ أن الشيء إذا قال الله له كن فلا بد أن يعين ماذا يكون، بدليل حديث القلم، ولكنه إذا عين ما يكون فلا بد أن يكون الشيء على ما عيِّن، فالقلم لا يعلم الغيب، لكن لما قال له الرب عزّ وجل: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة فكتب، يعني أن الله أعلمه فكتب. فهذا هو الظاهر، وإذا كان الله عزّ وجل إذا أمر فقال كن كان على مراد الله، فليس هذا بغريب على قدرة الله، إن الله تعالى يجعل هذا الشيء يخضع لأمر الله الذي أراده عزّ وجل، وإن كان لم يطلعه عليه، لكن الذي يترجح عندي بناءً على حديث القلم أن الله عزّ وجل يأمره أن يكون ويبين ما يكون عليه.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾، رقم (٣٣١٩). ورواه أحمد، في مسنده، رقم (٢٢١٩٧).

﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾: الضمير يعود على عيسى، والفاعل هو الله عزّ وجل يعلمه الكتاب؛ لأن عيسى كغيره من البشر لا يعلم إلا ما علمه الله، قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بمعنى المكتوب، وهل المراد أنه يعلمه الكتابة، يعني يحسن الخط، أو المراد أنه يعلمه الكتب السابقة؟

الجواب: كلاهما لا يتنافيان، علمه الكتابة فكتب، وعلّمه الكتب السابقة وعلّمه التوراة والإنجيل، والتوراة من باب عطف الخاص على العام لشرفه، وأما الإنجيل فإنه لم ينزل على أحد قبل عيسى.

وقوله: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني الشريعة؛ لأن الشريعة من الله، وكل ما كان من الله فهو متضمن للحكمة، قال الله تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، فالحكمة: هي الشرع، وهو موافق لمن فسر ذلك بالسنة؛ لأن سنة النبي ﷺ هي شرعه الذي جاء به من الله، فعلمه الله عزّ وجل الحكمة، و(ال) في (الحكمة) للعهد الذهني، يعني الشرع الذي شرعه الله لعيسى وليس كل الحكمة بل الحكمة التي شرعت له.

﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

التوراة: الكتاب الذي أنزله الله على موسى، والإنجيل الكتاب الذي أنزله الله على عيسى، التوراة كتبها الله تعالى كتابة ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾

[الأعراف: ١٤٥]، ولهذا قال أهل العلم من علماء السلف: إن الله تعالى غرس جنة عدن بيده، وخلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده سبحانه وتعالىٰ، ونزلت ألواحاً على موسى وفيها ما تقتضيه المصلحة والحاجة والضرورة في ذلك الوقت.

وأما الإنجيل: فهو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على عيسى، وهو بالنسبة للتوراة كالمكمل لها كما قال تعالى فيما يأتي من الآيات: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، فهو كالمتمم للتوراة؛ لأنه في الحقيقة نزل على بني إسرائيل الذين أنزلت عليهم التوراة؛ ومن المعلوم أن حال بني إسرائيل تغيرت من وقت موسى إلى عيسى، فكان في الإنجيل أشياء فيها تعديل أو زيادة، فهو متمم للتوراة.

ثم قال: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

﴿وَرَسُولًا﴾: الواو حرف عطف، (ورسولاً) منصوب بفعل محذوف تقديره (ويرسله رسولاً) ولا يصح أن يكون معطوفاً على ما قبله، أي: ويرسله رسولاً إلى بني إسرائيل وهم أبناء يعقوب الاثنى عشر، والرسول: هو الذي أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، فإن لم يؤمر بتبليغه فهو نبي. هذا هو المشهور عند عامة العلماء رحمهم الله، وقيل: إن النبي لم يوحَ إليه بشرع وإنما كان مؤيداً لشريعة قبله، يعني يوحى إليه بتأييد الشريعة التي قبله، فكانت الأنبياء فيما سبق كالعلماء في هذه الأمة، وهذا وإن كان له وجه كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، لكن هذا القول يعكر عليه قضية آدم، فإن آدم نبي ومع ذلك لم يكن مجدداً لشريعة

سابقة، إذ لم تنزل شريعة على البشر قبل آدم عليه الصلاة والسلام، فلهذا يترجح تعريف الجمهور في النبي والرسول. وإذا قلنا: إن النبي من أوحي إليه بشرع فلا يمنع أن يكون هذا الشرع الذي أوحي إلى النبي هو شرع من قبله يوحى إليه تأكيداً وتثبيتاً.

فإن قال قائل: ورد في صحيح مسلم: «**إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم**»[1]، فهل يدل ذلك على أن النبي يبين لأمته ما يبينه الرسول، وعليه فلا فرق بين النبي والرسول؟.

الجواب: لا يدل؛ لأن هذا الحديث إن قلنا إنه يبين بأمر الله فهو رسول، وإن قلنا يبين تطوعاً من غير أن يلزم بذلك لكن لمحبته الخير فهو نبي، مع أن المراد بهذا الحديث الذي ذكرته أن النبي الذي هو الرسول، ولهذا يذكر الله كثيراً النبيين دون الرسل، ويذكر الرسل دون النبيين، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]. وفي آية آخرى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٥٢].

قال: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (بني إسرائيل)، وهل هذه اسم قبيلة أو اسم أشخاص معينين؟

الجواب: أنه اسم قبيلة، كما يقال: بنو تميم، والعلماء ـ رحمهم الله ـ يفرقون بين ابن وبني إذا كان اسماً لقبيلة أو اسماً لشخص معين. وذكروا ذلك في باب الوقف وفرَّعوا عليه مسائل؛ فإذا قلت: هذا وقف على بني فلان وهم قبيلة كبني تميم مثلاً،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، رقم (١٨٤٤).

فهل يعم الجميع؟ وهل يشمل الذكور والإناث؟ قالوا: نعم. يعم الجميع ويشمل الذكور والإناث، ولكن لا يجب التعميم. فيجوز أن يوزع هذا الوقف على ثلاثة من بني تميم فقط، ويجوز أن يعطى ثلاثة نساء فقط؛ لأنه لا يختص بالرجال بل يشمل الذكور والإناث، ولأنه لا يستلزم التعميم. أما لو قلت: هذا وقف على بني فلان، (واحد معين من الناس) فإنه يجب للذكور دون الإناث؛ لأن الابن غير البنت؛ ولأن بني فلان المعين يمكن حصرهم فيجب تعميمهم، والتساوي بينهم وإخراج النساء منهم. فبنو إسرائيل من أي الصنفين؟ الجواب: من الأول، من القبيلة. وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهم بنو عم لبني إسماعيل، ولهذا لما بُعِثَ النبي ﷺ في بني عمهم - بني إسماعيل - غارت اليهود من ذلك، وأنكروه وكانوا بالأول يستفتحون على الذين كفروا، ويقولون: سيبعث نبي ونتبعه ونكتسحكم ونغلبكم ظنًّا منهم أنه سيكون من بني إسرائيل وليس ظنًّا حقيقياً، بل هو وَهْمٌ؛ لأنهم يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ويعلمون أنه سيبعث في مكة لكن توهموا ذلك، أوهمتهم أنفسهم الكاذبة، فلما بعث في بني إسماعيل أنكروه وكذبوه. ومعنى إسرائيل في السريانية أو في العبرية: عبد الله، والآن تسمى الدولة اليهودية إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾.

الله يخلق ما يشاء، عبَّر هنا بالخلق وفي قصة زكريا بالفعل (يفعل)، وهنا قال: (يخلق) فهل هناك نكتة أو أنه اختلاف تعبير؟

الجواب: أن هناك نكتة، وهي من وجهين:

الوجه الأول: مما قاله العلماء وهو صحيح أن عيسى عليه الصلاة والسلام خلق من غير ما جرت العادة به، خلق على وجه لم تجرِ العادة بمثله إطلاقاً، فناسب التعبير بالخلق الدال على الإبداع، ولهذا يقال: خلق الله السموات ولا يقال: فعل الله السموات، مع أن الخلق فعله لكن الخلق فيه نوع من الإبداع ولذلك قال: (خلق).

الوجه الثاني: الرد على شبه النصارى الذين يقولون: إن عيسى هو الله، والله ثالث ثلاثة، فيكون فيه التصريح بأنه مخلوق، ويكون هذا قطعاً لدابر قولهم فيه، إذن نكتة كونية ونكتة شرعية، يعني حكمة كونية شرعية.

﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾.

فيها قراءتان: قراءة بكسر الهمزة وفتحها، وبفتح الياء مع فتح الهمزة ثلاث قراءات... (أَنِّيَ) (أَنِّي) (إِنِّي).

﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾، يكون هذا الشيء طيراً.

وقوله: ﴿أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ أي: كمثله وصورته، فينفخ فيه فيكون طيراً، وفي قراءة سبعية (فيكون طائراً بإذن الله)، والقراءتان لكل واحدة منهما معنى يكمل الأخرى، فقوله: (يكون طيراً) الآية، أي طيراً حيًّا بعد أن كان على صورة الطير وليس فيه روح، وقوله: (يكون طائراً) أي: يطير، تشاهدونه يطير بالفعل، فعندنا ثلاث مراتب:

١ ـ تصوير على هيئة الطير.

٢ ـ طير فيه روح على قراءة (فيكون طيراً).

٣ ـ طير يطير بالفعل على قراءة (طائراً). بإذن الله.

وعلى هذا فيكون: يخلق شيئاً على هيئة الطير فينفخ فيه فيكون فيه روح ثم يطير.

وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، أي: بإذنه الكوني والشرعي؛ لأن كونه يصور مضاهياً لخلق الله يحتاج إلى إذن شرعي؛ لأن الأصل أنه لا يجوز لأحد أن يصور على تصوير الله عزّ وجل، قال تعالى في الحديث القدسي: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**»[1]، لكن الله تعالى أذن لعيسى عليه الصلاة والسلام لحكمة، هذا على تفسير ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، الإذن الشرعي، كذلك الإذن الكوني، يعني بإذن الله الإذن الكوني؛ لأن خلق هذا الطير حتى يطير يكون بإذن الله الكوني، فيطير بإذن الله إذناً كونياً، فعيسى عليه الصلاة والسلام يخلق كهيئة الطير بإذن الله الشرعي فيكون طيراً إذا نفخ فيه، ويطير بإذن الله الكوني.

وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ هذا من أجل تحقيق التوحيد حتى لا يظن ظان أنه يخلق استقلالاً، لأنه لولا هذا التقييد ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لتوهم النصراني وغير النصراني أن عيسى عليه الصلاة والسلام يخلق كما خلق الله آدم من طين على صورته، ثم نفخ فيه الروح فصار بشراً، فيظن الظان أن عيسى يخلق كخلق الله، فلهذا كان يقول عليه الصلاة والسلام: بإذن الله.

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾.

أبرئ: بمعنى أشفي، والبرء في الأصل من البراءة، والبراءة من الشيء السلامة منه، ومنه برأ من دَينه أي سلم من غائلته أي:

---

(١) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب نقض الصور، رقم (٥٩٥٣).

من غائلة الدين وضيق الدين، فالبرء من المرض يعني السلامة والشفاء منه.

وقوله: ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ الأكمه قيل: إنه الذي لا يبصر ليلاً ويبصر نهاراً، وقيل: هو الذي يبصر ليلاً ولا يبصر نهاراً، وقيل: هو الذي لا يبصر إلا بمشقة، وقيل: الذي وُلِد بلا عين. فإن كان الأكمه في اللغة العربية يحتمل هذه المعاني كلها، فهو للمعاني كلها، وإن كان لا يحتمل إلا معنى واحداً، فأقرب الأقوال في ذلك أن الأكمه من وُلِدَ بلا عين؛ لأن هذا أبلغ في القدرة؛ لأنه كلما كان أبلغ في القدرة كان أعظم في الآية، فنحن نقول: إن كانت اللغة العربية تطلق الأكمه على كل ما قيل فلتكن الآية شاملة، وإن لم تحتمل إلا معنى واحداً، فأقربها أن الأكمه من ولد بلا عين؛ لأن هذا أبلغ في القدرة.

﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ من به برص، والبرص عيب يخرج في الإنسان من العيوب الجلدية، وهو قد يؤثر على الصحة العامة في البدن وقد لا يؤثر، لكن البرص ليس له دواء، ولهذا قال: أبرئ الأبرص بإذن الله.

وقوله: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

أحيي الموتى الذين ماتوا، أحييهم بإذن الله، وليس المراد بالموتى هنا موتى معينين بل هو للجنس، فأي واحد من الأموات يمكن أن يقع عليه هذا الأمر، أما قول من قال: إنه أحيا سام بن نوح أو أحيا فلاناً أو أحيا فلاناً، فهذا من الإسرائيليات، لكن الآية أنه يحيي الموتى، أي ميت يقف عليه وهو ميت يأمره فيحيا بإذن الله.

﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

(أنبئكم): أي أخبركم بما تأكلونه اليوم وما تدخرونه للغد في بيوتكم من غير أن يأتي أحد يخبره بذلك، وهذا فيه شيء من علم الغيب، فأخبرهم أن من جملة آياته أنه يخبر الإنسان يقول: أكلت اليوم كذا وكذا وكذا، وادخرت لغدٍ أو بعد غدٍ كذا وكذا، مع أنه لم يبعث أحداً يطَّلع على ما في البيت، وهذا لا يكون إلا بوحي من الله، فإذا لم يكن هناك بشر يطلعه على ما في البيوت، فإنه يكون من وحي الله. وقد يكون بواسطة الجن، فإن الجن ربما تخدم الإنس فتذهب إلى الأمكنة البعيدة أو تتسور الجدران وتخبر بما في البيوت، لكن الجن الذي على هذا الوصف لا يجوز الاستمتاع به أو الاتصال به لماذا؟ لأن إطلاعه على أحوال الناس ظلم وعدوان، ولا يجوز للإنسان أن يستعين بظالم على ظلمه، ولهذا يمتنع هذا التقدير في حقِّ عيسى عليه الصلاة والسلام، يعني لو قال قائل: إن الذين يستعينون بالجن ربما يطلعون على ما يؤكل ويدخر في البيوت، قلنا: لكن هذا لا يرد بالنسبة إلى عيسى، لأن الاستمتاع بالجن على هذا الوجه محرم لما فيه من العدوان والظلم، وعيسى لا يمكن أن يفعل هذا، فتبين أنه يأتيه عن طريق الوحي، والحكمة من إخبارهم بهذا هي:

١ ـ إطلاعهم على أنه عليه الصلاة والسلام يأتيه الوحي من الله في أمور خاصة في البيوت.

٢ ـ تحذيرهم ـ والله أعلم ـ من أن يأكلوا شيئاً محرماً عليهم، ولهذا سيأتي أنه قال لهم: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، لأنهم إذا كانوا يعلمون أنه يعلم بما يأكلون وما

يدخرون في بيوتهم؛ فسوف يتوقفون عن الشيء المحرم، وهم إذا توقفوا عن الشيء المحرم ربما ييسر الله لهم فيحله لهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: إن في ذلك المشار إليه ما سبق من عدة أمور قوله: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾، هذه ثلاث آيات كل آية تدل على صدق عيسى عليه الصلاة والسلام، وأنه رسول الله حقًّا؛ لأن مثل هذا لا يستطيعه البشر، وآيات الأنبياء التي جاءت هي علامات على صدقهم لا يستطيع أن يأتي بمثلها البشر؛ لأن الآية لو أمكن للبشر أن يأتوا بمثلها لم تكن آية، إذ إن كل إنسان يستطيع أن يفعل مثل هذا.

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. يعني أنها آية بهذا القيد؛ أي إن كنتم مؤمنين، وأما غير المؤمن فإنه لا ينتفع بالآيات ولا تكون الآية آية له، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، لأن قلوبهم قاسية مطبوع عليها ـ والعياذ بالله ـ لا يصل إليها الخير، ولا تلين من أجل العقوبات والنذر؛ لأنها قاسية، فالمؤمن هو الذي ينتفع بالآيات، بل إن غير المؤمن يرى أن هذه الآيات العظيمة أساطير الأولين ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥]، وذلك بسبب ما كان على قلبه من ظلمات المعاصي والعياذ بالله؛ لقوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

والإيمان سبق لنا معناه كثيراً بأنه التصديق المستلزم للقبول والإذعان، وليس مجرد التصديق، ودليل ذلك أنه لا يتعدى بما

يتعدى به التصديق، فإنه لا يقال: آمنته، ويقال: صدقته. بل إنه يتضمن الإقرار والاعتراف والانقياد والتسليم، ومن صدَّق ولم يقبل ولم يذعن فليس بمؤمن، فأبو طالب عمٌّ النبي ﷺ كان مصدقاً برسالته لكنه لم يقبل ولم يذعن فلم يكن مؤمناً، وإلا فإنه مصدق كما يقول بأشعاره وفي أحواله لكنه ـ والعياذ بالله ـ ليس بمؤمن، إذن الإيمان معنى زائد على التصديق وليس هو مجرد التصديق.

من فوائد الآية الكريمة:

قال تعالى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١ ـ أن عيسى ابن مريم قد جاء بالبينة من الله؛ لأن كل رسول يرسله الله إلى البشر لا بد أن يأتي بآية، يؤخذ من قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٢ ـ الإشارة إلى وجوب قبول رسالته؛ لقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ يعني فإذا كان ربكم وجب أن تكونوا له عبيداً فتتقبلوا ما جاءت به رسله.

٣ ـ قدرة الله عزّ وجل حيث جعل عيسى ابن مريم يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله في الحال، بينما في الأحوال العادية لا يكون طيراً إلا بعد مدة، بعد أن يفقس من البيضة ويترعرع فيطير.

٤ ـ أن ما فعل بأمر الله فهو حلال مباح وإن كان نظيره بدون أمر حراماً كقوله: ﴿أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾،

فلو أن أحداً أراد أن يصنع تمثالاً من الطين على هيئة الطير لكان ذلك حراماً، لكن لما كان بأمر الله صار هذا حلالاً، ولهذا نظائر، السجود لغير الله شرك، والسجود لغير الله بأمر الله طاعة، ولهذا سجد الملائكة لآدم فكانوا طائعين، واستكبر عن ذلك إبليس فكان من الكافرين. قتل النفس المحرمة ولا سيما ذو الرحم من كبائر الذنوب، وإذا كان بأمر الله كان مما يقرب إلى الله، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام أمر بذبح ابنه إسماعيل فامتثل، وكان امتثاله لذلك طاعة لله عزّ وجل. هكذا خلق عيسى كهيئة الطير لينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، هذا من الأمور التي أبيحت له بأمر الله عزّ وجل.

٥ ـ إطلاق وصف الخلق على المخلوق، أي أن المخلوق يكون خالقاً؛ لقوله: ﴿أَخْلُقُ لَكُم﴾ وهذا له نظائر، قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقال النبي ﷺ في المصورين: «**يقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»[1]، لكن خلق غير الخالق جل وعلا ليس خلقاً في الحقيقة، ولكنه تغيير أو تحويل، فالإنسان مثلاً يخلق من الطين صورة لكن الذي خلق الطين هو الله عزّ وجل، لا يمكن أن يخلق جميع الخلق شيئاً على وجه الاستقلال، وإنما خلقهم الأشياء يعني تغيير صور الأشياء أو تحويلها من شيء إلى شيء أو ما أشبه ذلك.

٦ ـ هذه المعجزة العظيمة لعيسى ابن مريم وهو أنه ينفخ في هذا التمثال حتى يكون طيراً، وفي قراءة طائراً، والفرق بينهما هو أن الطير قد يطير وقد لا يطير، ولكنه يصير طيراً يطير بإذن الله في الحال.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٩٨).

٧ ـ أنَّ من آيات عيسى عليه الصلاة والسلام أنه يبرئ الأكمه والأبرص لكن لا استقلالاً بل بإذن الله، وإلا فلا أحد يشفي من المرض ـ أي مرض كان ـ إلا بإذن الله عزّ وجل حتى الأشياء التي جعلها الله تعالى بطبيعتها شفاء للأمراض لا تشفي إلا بإذن الله، وكم من دواء كان مفيداً ونافعاً لهذا المرض المعين ثم يستعمله المريض فلا ينتفع به.

٨ ـ الآية العظيمة وهي إحياء الموتى، وهذا من آيات الله، وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠]، في الآيتين إحياء الموتى وإن كانوا على ظهر الأرض، وإحياء الموتى وإن كانوا في القبور وإخراجهم منها أحياء، يعني إذا ضممت هذه إلى هذه استفدت فائدتين، أنه يحيي الموتى وهم على ظهر الأرض ويحييهم وهم في بطن الأرض فيخرجون ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠]، وفي هذه الآية الكريمة إثبات الحكمة لله عزّ وجل، ووجهه أن الله جعل لعيسى من الآيات ما يكون مناسباً لزمنه وعصره، حيث أوتي من الآيات ما يعجز عنه من كانوا محل تعظيم للناس في ذلك الوقت وهم الأطباء، ففي عهد عيسى عليه السلام ترقَّى الطب ترقياً عظيماً ولكن مع ترقي الطب فإنه لم يصل إلى ما وصل إليه عيسى، فإن الأطباء لا يبرئون الأكمه ولا الأبرص ولا يحيون الموتى ولا يخرجونهم من القبور، لكن عيسى يأتي بهذه الآيات بإذن الله عزّ وجل، قال أهل العلم: وفي عهد موسى عليه السلام ترقى السحر ترقياً عظيماً فكانت آياته معجزة تقهر السحرة وذلك بالعصا واليد. ومحمد ﷺ أتى وبُعث في قوم يفخرون بالبلاغة والفصاحة ويرونها هي محل التقدير

والاحترام، فكانت آياته أن جاء بكلام يعجز عن مثله البشر في بلاغته وفي معانيه وأحكامه... إلى آخر وجوه الإعجاز في القرآن.

وفي هذه إشكال، وهو أن الله تعالى قال لعبد الله بن حرام: **(إني قضيت إنهم إليها لا يرجعون)**[1]، وهنا ذكر أنه أحيا الموتى لعيسى في الدنيا، الظاهر والله أعلم أن يقال: إن عبد الله بن حرام طلب الرجوع من أجل العمل، وأما ما وقع آية لعيسى فليسوا يرجعون على أنهم يعملون، على أن المسألة فيها أيضاً نظر من جهة أخرى؛ لأن الله تعالى لما أخذت الصاعقة أصحاب موسى الذين كانوا معه دعا الله عزّ وجل فبعثهم من بعد موتهم وبقوا وعملوا. فيكون المراد ـ والله أعلم ـ أنه إذا لم يكن هناك سبب مثل أن تكون آية فهذا لا مانع، أما عبد الله بن حرام فليس هناك سبب.

٩ ـ إثبات الإذن لله، لا الأُذُن، الأُذُن هي الجارحة أو العضو الذي يكون في الإنسان لتلقي الأصوات، وأما الإِذْن فهو الإباحة والترخيص وما أشبه ذلك، أما الأُذُن فلا يجوز أن نثبتها لله ولا أن ننفيها عنه؛ لأن الصفات توقيفية، والله عزّ وجل لم يثبت لنفسه أذناً ولم ينفِ عنه الأذن، وإنما أثبت لنفسه السمع، والسمع ليس بشرط أن يكون من ذي أذن، فها هي الأرض تسمع وتحدث أخبارها وليس لها آذان، المهم أن الإِذْن هنا غير الأُذُن. وإذن الله

---

(١) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمران، رقم (٣٠١٠). ورواه ابن ماجه، في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٩٠).

عزّ وجل ينقسم إلى قسمين: إذن شرعي، وإذن كوني، فما تعلق بالخلق فهو إذن كوني، وما تعلق بالشرع فهو إذن شرعي، هذا هو الضابط، ففي قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١]، الإذن هنا شرعياً وليس كونياً؛ لأنه قد أذن الله فيه كوناً لكن لم يأذن به شرعاً، وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] إذن كوني، وكذلك هنا ﴿فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ﴾.

١٠ ـ أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يملكون شيئاً من الربوبية، وذلك لتقييد فعل عيسى بإذن الله.

١١ ـ الردُّ على النصارى في زعمهم أن عيسى عليه الصلاة والسلام له حق في الربوبية، وكذبوا في ذلك فعيسى عبدٌ، عبد الله ورسوله، قال لقومه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ﴾ [آل عمران: ٥١]، وقال الله تعالى عنه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]، فهو عبد لا يملك من الربوبية شيئاً أبداً؛ لأن الربوبية من حق الله الخاص الذي لا يشركه فيه أحد.

١٢ ـ أن الله تعالى أطلع نبيه عيسى ابن مريم على ما يأكل قومه وما يدخرون مما يخفى على غيره؛ لقوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْۚ﴾.

١٣ ـ إثبات الحكمة لله سبحانه وتعالىٰ في أن الله أطلع نبيه عيسى على ذلك حتى يخافوا أن يخفوا شيئاً لا يرضاه الله ورسوله. يعني إذا كان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم معناه أنه يطلع على أسرارهم البيتية، وهذا يلزمهم أن لا يبيتوا شيئاً لا يرضاه.

١٤ ـ أنه ينبغي التكرار في المقام الهام؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾، مع أنه قال في الأول: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾، وذلك لأن الأمور الهامة ينبغي تكرارها أولاً من أجل أن يتبين للمخاطب أهميتها عند المتكلم وأنه ذو عناية بها، والثاني من أجل أن ترسخ في الذهن؛ لأنه كلما تكرر الشيء ازداد رسوخاً.

١٥ ـ أن الإيمان يحمل صاحبه على قبول الآيات التي جاءت بها الرسل؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وهذا شيء كثير، قد تعلق الأحكام بالأوصاف إما بأدوات الشرط المعروفة، وإما بغير ذلك، المهم أن تعليق الأحكام بالأوصاف سواء عن طريق الشرط أو عن طريق الصفة المعروفة في النحو أو المبدل أو غير ذلك جار في القرآن والسنة.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥٠ ـ ٥١].

قوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾:

هذه معطوفة على ما سبق، يعني أنها تكون منصوبة على الحال؛ يعني وجئتكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة (وما بين يدي)، هو ما سبقه، ويطلق ما بين اليدين على ما سيأتي، فما بين اليدين يطلق على ما مضى، ويطلق على ما يستقبل، فإن قرن بالخلف فهو للمستقبل، وإلا فإنه صالح للمستقبل والماضي، ففي قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]،

المراد المستقبل لقوله: «وما خلفهم»، وفي هذه الآية: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾، أي: لما سبقني من التوراة. وتصديقه للتوراة له وجهان:

الوجه الأول: أنه يقرر صدقها ويقول: إنها كتاب حق.

والوجه الثاني: أنه يصدق ما أخبرت به، فإذا كانت أخبرت به ثم بعث كان مصدقاً لما فيها.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، هي الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه الصلاة والسلام، وهي أصل الكتب المنزلة على بني إسرائيل وأعظمها، بل هي أعظم الكتب فيما نعلم بعد القرآن.

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾.

أي: وجئتكم أيضاً لأحل لكم بعض الذي حرم عليكم. وقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، ولم يقل: (كل) والمحرم عليهم ذكره الله في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، فلما حرمت عليهم هذه الطيبات لظلمهم وعدوانهم، وبعث الله عيسى ﷺ أحل لهم بعض ما حرم عليهم، ولم يُذكر في القرآن بيان هذا البعض فيكون باقياً على إطلاقه، ولو كان لنا مصلحة في تعيين ذلك لبيَّنه الله.

وقوله: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، الفعل هنا مبني للمجهول، ولكن فاعله معلوم وهو الله عزّ وجل كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، كرَّر هذا مرة أخرى بعد قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩]، تقتصر على تصديقه لما بين يديه من التوراة وعلى إحلاله بعض الذي حرم عليهم، وحينئذٍ لا يكون في الآية تكرار، وإما أن يقال: إن قوله: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾، يشمل كل ما جاء به من الآيات، ويكون هذا من باب التأكيد وإقامة الحجة عليهم، فكرر مجيئه بالآيات احتجاجاً عليهم بما كذبوا.

قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

(اتقوا الله): يعني اتخذوا وقاية من عذابه؛ لأن التقوى مأخوذة من الوقاية، فبماذا تكون الوقاية من عذابه؟ تكون بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وهذا هو المعنى الشامل للتقوى عند الإطلاق، وإذا قرنت التقوى بالبرِّ صار المراد بها اجتناب المحارم، مثل قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، وقد عرَّف أهل العلم التقوى بعدة تعريفات؛ لكن يجمعها ما ذكرناه من أنها اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

قال: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ أي: وأطيعوني فيما أمرتكم به وفيما نهيتكم عنه، وطاعته من التقوى بلا شك لكن نصَّ عليها لأنها تقوى خاصة فيما جاء به عيسى؛ لأن التقوى يؤمر بها كل إنسان، فإذا قيل: (أطيعون) صارت تقوى خاصة في طاعة هذا الرسول الذي بعث إلى قومه، والطاعة قال العلماء في تفسيرها: إنها موافقة الأمر تجنباً للنهي وفعلاً للمأمور، فمن تجنب النهي ناوياً بذلك امتثال الأمر فهو مطيع، ومن فعل الأمر ناوياً بذلك امتثال الأمر أيضاً فهو مطيع، أما من ترك النهي أو بعبارة أصح المنهي عنه عجزاً عنه،

فإن هذا ليس بمطيع، بل إذا سعى في أسبابه حتى عجز كان كمن فعله؛ لقول النبي ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**، قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: **لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه**»(١).

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾.

لما أمرهم بتقوى الله ذكر ما هو كالسبب في ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾، والربُّ هو الخالق المالك المتصرف. وتوحيد الله بالربوبية أن نؤمن بأنه لا خالق ولا مالك ولا مدبر إلا الله سبحانه وتعالىٰ، وما يضاف من الخلق أو الملك أو التدبير لغير الله فإنه على وجه ناقص من حيث الشمول ومن حيث التصرف، فمثلاً الخلق يضاف إلى غير الله وقد مرَّ علينا قريباً أن عيسى قال: ﴿أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وقال الله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقال الله في الحديث القدسي: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**»(٢)، وقال النبي ﷺ: «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله**»(٣)، وقال عليه الصلاة والسلام: «**يقال لهم: أحيوا ما**

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟﴾، رقم (٣١). ورواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، رقم (٢٨٨٨).

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٨٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب ما وطئ من التصاوير، رقم (٥٩٥٤). ورواه مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١٠٧).

خلقتم»[١]، ولكن الخلق المضاف إلى غير الله عزّ وجل ناقص ليس إيجاداً حقيقة ولكنه تغيير لصورة، فمثلاً الإنسان يخلق من الخشب باباً، هل هو خَلَق الخشب؟ ومن الحديد سيارة، هل خَلَق الحديد؟ كلا، ولكن حوَّله من حال إلى حال فصار هذا خلقه، لكنه ليس هو الذي أوجد الحديد أو الخشب حتى يقال: إن خلقه كخلق الله. أيضاً: خلق الإنسان أو البشر عموماً ليس عاماً شاملاً؛ لأن كل إنسان يخلق ما صنع فقط، وما لم يصنعه فليس من خلقه. كذلك الملك ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ١٢٠]، ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، والآيات في إثبات الملك لله وحده كثيرة، ومع ذلك أضاف الله إلى غيره الملك في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١]، فهل نقول: إن هذا الملك كملك الله؟ كلا. لا من حيث الشمول ولا من حيث التصرف؛ أما من حيث الشمول فلأن كل إنسان لا يملك أكثر مما تحت يديه، ولذلك لا تملك كتابي ولا أملك كتابك، أما ملك الله فهو عام شامل. وأما من حيث التصرف فملك غير الله قاصر؛ لأن الإنسان لا يملك التصرف المطلق كما يريد، وإنما يتصرف حسب ما تقتضيه شريعة الله وحسب ما يأذن به الله، ولو أراد الإنسان أن يمزِّق كتابه هل يملك ذلك؟ لا يملك ذلك بل هو حرام عليه ويأثم بذلك، ولو أراد أن يمزق كتاب غيره كان حراماً من وجهين: من وجه إفساد

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء، رقم (٢١٠٥). ورواه مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١٠٨).

المال، ومن وجه العدوان على الغير، فالحاصل أن ملك الإنسان قاصر من ناحيتين.

فأما التدبير الذي هو المعنى الثالث للربوبية، فهو أيضاً يكون لغير الله، لكنه تدبير ناقص من حيث الشمول ومن حيث التصرف أيضاً، فالإنسان لا يدبر كل شيء، لا يدبر إلا ما يملك تدبيره، ومع ذلك فتدبيره له تدبير ناقص على حسب ما يقتضيه الشرع. لو أراد أن يدبِّر بعيره على وجه يشق عليه كأن يمشي به على الوحل أو على النار وما أشبه ذلك، فهذا لا يجوز فهو إذن تدبير ناقص. لكن الله عزّ وجل يملك هذا كله بلا معارض له. المهم أن الربوبية هي انفراد الله بالخلق والملك والتدبير، ولا يعني ذلك أن لا أحد يشاركه في خلقٍ أو ملك أو تدبير، لكن على وجه لا يماثل ما يثبت للخالق من ذلك. فالإنسان قد يخلق، فيقال خلق، ويقال ملك، ويقال دبر، لكنه كما سبق ناقص.

وقوله: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾، بدأ بنفسه ليكون أول مذعن لهذا الربِّ عزّ وجل؛ لأن الربَّ خالق مالك مدبر، فبدأ بنفسه ليكون هو أول من يذعن وينقاد لهذا الرب، قال: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾: الفاء هنا عاطفة وتفيد السببية أيضاً أي: بسبب كونه ربًّا اعبدوه، ولهذا نقول: إن الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم الإقرار بتوحيد الألوهية، وأن من أقر بتوحيد الربوبية وأنكر توحيد الألوهية فقد تناقض، ولذلك سفَّه الله المشركين الذين كانوا يقرون بتوحيد الربوبية ثم ينكرون توحيد الألوهية فيقول: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩]، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وما أشبه ذلك مما يدل على أنه من السفه أن يقرَّ الإنسان بأن الله وحده هو الخالق المالك المدبر ثم يعبد غيره. فنقول مثلاً للمشرك: ألست

تؤمن بالله؟ سيقول: بلى، إنه الخالق، بلى، إنه المالك، بلى، إنه المدبر، بلى، إنه لا خالق معه ولا مالك ولا مدبر، بلى أومن بذلك كله، إذن كيف تجعل معه إلهاً تعبده؟ ومن كان غير الله فهو عابد وليس بمعبود، عابد مربوب، هو عبد مربوب لله عزّ وجل فكيف تجعله معبوداً مع الله، ولهذا قال الله: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ فالفاء هنا عاطفة تفيد السببية أي: بسبب كونه ربي وربكم اعبدوه وحده. وما هي العبادة؟.

العبادة:

مأخوذة من الذل، عَبَدَ بمعنى ذَلَّ. ومنه قولهم: طريق معبد أي: مذلل لسالكيه، فأصلها الذل لكنها بالنسبة لله عزّ وجل ذلٌّ مقرون بمحبة وتعظيم. فكل من تعبد لله فإن تعبده هذا مقرون بهذين الأمرين المحبة والتعظيم. فبالمحبة يكون الطلب، وبالتعظيم يكون الهرب، فالإنسان إذا أحب شيئاً طلبه، وإذا عظَّم شيئاً هابه وهرب منه وخاف منه. ولهذا كانت العبادة مبنية على الرجاء والخوف. والعبادة تطلق أحياناً على هذا المعنى الذي ذكرنا باعتبارها مصدراً، وهو أي التذلل لله مع المحبة والتعظيم، وتطلق أحياناً على اسم المفعول أو على الشيء المتعبد به وحينئذٍ نقول: إنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة. فالصلاة مثلاً عبادة، والزكاة عبادة، والصوم عبادة، والحج عبادة، وبر الوالدين عبادة، وصلة الأرحام عبادة، وهكذا، فأحياناً تطلق على الفعل، وأحياناً تطلق على المفعول.

قال: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٌ﴾.

هذا المشار إليه إما أقرب مذكور أو كل ما سبق في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾، هـذا: أي تقوى الله وطاعة رسوله وتحقيق العبادة له.

﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، أي طريق، ولا يسمى الطريق صراطاً إلا إذا اجتمع فيه السعة والاعتدال؛ لأنه مأخوذ من (السَّرْط)، وهو الابتلاع بسرعة، وإن شئت فقل: من (الزرط) وهو الابتلاع بسرعة، والطريق الواسع المستقيم يبتلع سالكيه بسرعة؛ لأن الضيق لا يمشي الناس فيه إلا رويداً رويداً ببطء، وغير المستقيم لا يوصل للغاية إلا ببطء سواء كان انحرافه على اليمين أو الشمال أو من حيث الصعود والنزول، فإنه إذا كان صاعداً نازلاً أتعب السالك.

فإن كان الصراط مستقيماً في الانحرافات يميناً وشمالاً وكذلك في الصعود والنزول اختصر الطريق، فإذا قدرنا أن هناك غاية تصل إليها بالطريق المستقيم في ثلاثين متراً، إلا أن فيه تعاريج، كل تعريجة عشرة أمتار، وفيها عشرة تعاريج، فإنك ستصل إلى الغاية بمائة متر، فالحاصل أن الصراط قال العلماء لا يكون صراطاً إلا إذا كان واسعاً مستقيماً، وهو مأخوذ من السرط أو الزرط.

إذن، هو ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾ يعني لا اعوجاج فيه، ووصفه بالاستقامة بعد أن قلنا إن الصراط هو الطريق الواسع المستقيم الذي ليس فيه اعوجاج من باب التوكيد، كما تقول: هو رجل رجل. ما معنى رجل رجل؟. يعني جامع لمعاني الرجولة، كذلك (طريق مستقيم) يعني جامع لكل معنى الطريق ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ أن عيسى ابن مريم قد جاء بما يصدق به التوراة؛ لقوله ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾، وقد سبق لنا أن معنى (مصدقاً) أو أن كلمة ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾ كلمة ذات وجهين: الوجه الأول: أنه شاهد بصدق التوراة، وأنها حق، والثاني: أنه مطابق لما أخبرت به، وإذا جاء الشيء مطابقاً لما أخبر به، فهذا تصديق شاهد بالصدق.

٢ ـ جواز النسخ في الشرائع؛ لقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، وهذا نسخ، والنسخ في الشرائع ثابت منذ نوح إلى محمد عليه الصلاة والسلام، وأنكرت اليهود وجود النسخ، وقالت: لا يمكن أن ينسخ الله الحكم؛ لأن هذا يستلزم نقصاً في حق الله، فيقال لهم: ومتى وصفتم الله بالكمال ـ أنقصكم الله وأذلكم ـ ألم تقولوا: إن يد الله مغلولة؟ ألم تقولوا: إن الله فقير؟ ألم تقولوا: إن الله استراح حين خلق السموات والأرض وتعب؟ فكيف تقولون: إن النسخ يستلزم النقص على الله؟ يقولون لأنه يستلزم العلم بعد الجهل، كأن الله إذا نسخ الحكم الأول تبين له أن الصواب في الحكم الثاني، وهذا نقص.

فنقول لهم: نحن نرد عليكم بشريعتكم، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ [آل عمران: ٩٣]، وقال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، وأنتم تعتقدون أن التوراة ناسخة للكتب السابقة المنزلة على بني

إسرائيل، وأنه يجب على كل واحد من بني إسرائيل أن يؤمن بها ويتبعها، وهل هذا إلا نسخ؛ ثم إن النسخ في الحقيقة من مقتضى الحكمة لا منافي للحكمة؛ لأن الله عزّ وجل يشرع الأحكام مناسبة للواقع أو ملائمة لمن شرعت له، فقد يكون هذا الحكم ملائماً في زمن غير ملائم في زمن آخر، أو ملائماً لقوم غير ملائم لآخرين. وكون الأحكام تتبع الحِكمة هذا هو الكمال وليس النقص، وهنا عيسى ابن مريم قال: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

٣ ـ جواز نسبة الحكم إلى من بلَّغه؛ لأنه قال: (أحل لكم) وأصل التحليل والتحريم من عند الله عزّ وجل، لكن إضافته إلى من أبانه وأظهره لا بأس بها، ولهذا أضاف الله القرآن إلى نفسه وإلى جبريل وإلى محمد، أما إلى نفسه فقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وأما إلى جبريل فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠]، وأما إلى محمد ﷺ فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١] لكن الكلام يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً، وأما من قاله مبلغاً مؤدياً فإنما يضاف إليه لكونه أظهره وأبانه.

٤ ـ تكرار الأمور الهامة؛ لقوله في المرة الثالثة: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٥ ـ أن الطاعة أمر مشترك بين الرسل وبين الله عزّ وجل، وأما التقوى فهي خاصة بالله؛ لقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، وطاعة الله هي الأصل، لكن طاعة الرسول طاعة للمرسِل الذي أرسله.

٦ ـ أن التقوى واجبة في كل شريعة لقوله هنا: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾

ولكن المتقىٰ به قد يختلف باختلاف الشرائع؛ لقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، يعني هذا الذي يتقى الله به قد يختلف باختلاف الشرائع.

٧ ـ عموم ربوبية الله للبشر؛ لقوله: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾، وربوبية الله ثابتة لكل السموات والأرض ومن فيهن ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾ [المؤمنون: ٨٤]، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]. فالربوبية، ربوبية الله سبحانه وتعالىٰ لكل شيء، لكن عيسى قال: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ ليقيم عليهم الحجة؛ لأنه إذا كان ربهم سبحانه وتعالىٰ فإنه يشرع فيهم وعليهم ما يشاء ولا أحد يعقب حكمه.

٨ ـ أنَّ عيسى مربوب وليس ربًّا؛ لقوله: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾.

٩ ـ الرد على النصارى في دعواهم أن الله ثالث ثلاثة، وقد كفَّرهم الله بذلك فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، كفَّرهم بهذا، وهم بلا شك كافرون مخلدون في نار جهنم أبد الآبدين.

١٠ ـ وجوب العبادة؛ لقوله: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾.

١١ ـ أن الإقرار بالربوبية مستلزم للإقرار بالعبودية، يعني أن من أقر بربوبية الله لزمه أن يقر بعبوديته، ولهذا قال: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾، فأتى بالفاء الدالة على السببية، أي: فبسبب اختصاصه بالربوبية يجب أن تخصوه بالعبادة، ومن ثَمَّ نجد الله سبحانه وتعالىٰ في كتابه يقيم الحجة على المشركين الذين يقرون بربوبيته لا بألوهيته، يقولون إنه منفرد بالربوبية لكن في الألوهية لا يفردونه، يتخذون معه آلهة وليس إلهاً واحداً، كل قوم لهم

رب يعبدونه، وهذا لا شك بالغ في السفه، فإذا كنت تعلم وتعتقد بأن الله وحده هو الرب لزمك أن تعتقد بأنه وحده الإله المعبود وأنه لا إله غيره.

١٢ ـ أن الصراط المستقيم عبادة الله؛ لقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، ولا شك أن أهدى السبل وأقومها عبادة الله، وعبادة الله كما نعلم هي اتباع شرعه المرسل سبحانه وتعالىٰ.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [يونس: ٥٢، ٥٣].

وفي قراءة (من أنصارِيَ إلى الله) لأن ياء المتكلم يجوز فيها ثلاث لغات: الفتح بناءً، والسكون بناءً، والحذف تخفيفاً. فتقول: هذا غُلامي، هذا غلامِيَ، هذا غلام، لكن تبين أنه مضاف، يقول هنا: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾، أحس بمعنى أدرك بحاسته وتيقن أنهم كفروا، مع هذه الآيات العظيمة التي يشاهدونها ولم يؤمنوا ـ والعياذ بالله ـ لأن الله إذا ختم على القلب لا يؤمن صاحبه أبداً: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]، ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، وقال عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، فهم مع هذه الآيات لم يؤمنوا، فلما أحس منهم الكفر وأدركه وتبين له، لجأ إلى الاختيار وانتخاب الأكفاء، فقال: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، يعني إذا

كان الإيمان تعذر منكم جميعاً فمن الذي يكون ناصري؟!.

وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، (إلى) هنا للغاية، ولم يقل: من أنصاري في الله؛ ليكون النصر مبنياً على الإخلاص؛ لأن (إلى) للغاية فيريد أن يكون نصراً موصلاً إلى الله عزّ وجل.

وقوله: (مَن) هذه مبتدأ (وأنصاري) خبر (وإلى الله) متعلق بأنصار.

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

الحواريون جمع حواريّ ـ بتشديد الياء ـ وهو من الحَوَر وهو البياض، وسموا حواريين لسلامة قلوبهم من أثر المعاصي؛ لأن المعاصي ـ نسأل الله العافية ـ نكت سوداء تكون في القلب، كلما عصى الإنسان نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب صقل وعاد إلى الاستنارة، وإن لم يتب وأحدث معصية أخرى زادت نكتة أخرى، وهكذا حتى يُطبع على القلب.

وقوله: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، يعني لا غيرنا، ووجه قولنا «لا غيرنا» أن الجملة هنا مكونة من مبتدأ وخبر، فهي جملة اسمية طرفاها مَعْرِفة، والجملة الاسمية التي يكون طرفاها معرفة تفيد الحصر، لكن لا شك أن إفادة الحصر فيها ضعيف ليس كإفادة إنما أو النفي والإثبات.

وقوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾.

﴿ءَامَنَّا﴾: الإيمان في اللغة أخص من التصديق؛ لأنه تصديق بإقرار، ولهذا عُدي بالباء فيقال: آمنت به، ولا يمكن أن نجعله بمعنى التصديق؛ وذلك لأن الشيء إذا كان مرادفاً للشيء أي بمعناه تعدى بتعديته ولزم بلزومه، ومعلوم أن (آمن) تتعدى بما

لا تتعدى به (صدق)، فيقال: صدق بالخبر، ولا يقال: صدق له، ويقال: صدق زيداً، ولا يقال: آمن زيداً، بل آمن به ـ وآمن له ـ فلما اختلفا في المتعلق وجوداً وعدماً علم أنهما ليسا بمعنى واحد، مع أن كثيراً ممن يعرِّفون الإيمان في اللغة يقولون: الإيمان في اللغة: التصديق، وهذا فيه نظر، بل هو أخص من التصديق، أما الإيمان في الشرع فهو: الإقرار المستلزم للقبول والإذعان. لا يكفي التصديق فقط بل لا بد من قبول ما جاء به الرسول والإذعان له، وأنتم تعلمون أن أبا طالب كان مصدقاً لرسول الله ﷺ ويعلن ذلك على الملأ فيقول في لاميته المشهورة:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

لا مكذب لدينا، وأنه لا يعنى بقول الأباطل ولا يهتم له، ويقول:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

وهذا تصديق، لكن لم يحصل منه القبول والإذعان والعياذ بالله، بل كان آخر كلامه أن قال: إنه على ملة عبد المطلب على الكفر، فشفع له النبي ﷺ لأنه أبلى بلاء حسناً في الدفاع عن الرسول ﷺ، لا لأنه عمه، بل لأنه لو كانت العلة الحاملة لشفاعة الرسول هي القرابة، لشفع لأبي لهب، يقول عليه الصلاة والسلام: «**فكان في ضحضاح من نار وعليه نعلان يغلي منهما دماغه، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣). ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢٠٩).

قالوا: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

أشهدوا نبيهم عيسى عليه الصلاة والسلام على إسلامهم، مع أنه شهيد عليهم سواء استشهدوه أم لم يستشهدوه، كما قال الله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فكل رسول فهو شهيد على أمته؛ لأن الله تعالى أرسله إليهم وأنه بلغهم الرسالة.

فقولهم: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، من باب التوكيد وإعلان الإسلام.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَآ﴾ منادى حذفت منه ياء النداء لسببين:

١ ـ كثرة استعمال هذا الاسم الكريم في الدعاء.

٢ ـ التبرك بالبداءة باسم الله عزّ وجل؛ لأن الرب من أسماء الله.

هذا أيضاً من قولهم رضي الله عنهم ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ وهو الإنجيل الذي جاء به عيسى عليه الصلاة والسلام، وما قبله وهي التوراة التي أنزلت على موسى، بل أعم من ذلك تتناول كل ما أخبرهم به نبيهم مما أنزل الله. ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾، (ال) هنا في الرسول للعهد الذهني، وهو عيسى عليه الصلاة والسلام؛ لأنه لا رسول لهؤلاء القوم من بني إسرائيل إلا عيسى، فالذي عيّن أن يراد بالرسول عيسى هو العهد الذهني الذي كان معلوماً عندهم، ويحتمل أن (ال) للعهد الذكري لقوله فيما سبق ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٩]، ويحتمل أيضاً أن المراد بالرسول الجنس أي: واتبعنا كل من كان رسولاً من عندك، فيكون هذا

إقراراً بأنهم آمنوا بجميع الرسل، وذلك أنه يجب على كل أمة متأخرة أن تؤمن بجميع الرسل السابقة. فنحن مثلاً آخر الأمم يجب علينا أن نؤمن بجميع الرسل ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، في أصل الإيمان، وإن كنا نفرق بين الرسل من جهة الاتباع، فإننا لا نتبع إلا محمداً ﷺ وما أذن لنا فيه مِن شرع من سبق، أما الإيمان فيجب الإيمان بجميعهم.

وقوله: ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، (مع) هنا للمصاحبة، والمصاحبة لا تقتضي المخالطة أو الموافقة في الزمن، فقد تكون المصاحبة مع قوم سبقوك لكن في النهاية يكونون معك إلى الله.

وقولهم: ﴿وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ﴾، هذا في الحقيقة هو ثمرة الإيمان؛ الاتباع، وكلما كان الإنسان أقوى إيماناً كان أشد اتباعاً لمن آمن به، وكلما قلَّ الإيمان قلَّ الاتباع، هكذا، ويصح أن نقول: كلما قلَّ الاتباع قلَّ الإيمان، أو نقول: كان علامة على نقص الإيمان؛ لأن المؤمن حقًّا لا بد أن يطلب الوصول إلى ما آمن به، وهذا يقتضي أن يَجِدَّ كل الجدِّ في العمل الذي يوصله.

وقوله: ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

قال بعض العلماء: المراد بالشاهدين أمة محمد ﷺ؛ لأن الشهادة المطلقة ليست إلا لهم؛ لأنهم آخر الأمم، فهم شهداء على جميع الرسل وعلى جميع الأمم، والشهداء الذين كانوا من قبلهم ليسوا شهداء إلا على من سبقهم فقط، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

والمعنى: اكتبنا مع أمة محمد ﷺ، ولا يرد على هذا التفسير أنهم سبقوا أمة محمد فكيف يطلبون أن يكتبوا معهم؟ والجواب: أن نقول: إن عيسى عليه الصلاة والسلام قد بشرهم بمحمد ﷺ فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف: ٦]، فكان عندهم علم بهذه الأمة بواسطة البشارة التي ألقاها إليهم عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

والقول الثاني: أن المراد (بالشاهدين) الذين شهدوا لرسلك بالحق، وهذا يتناول من سبقهم بلا شك، ويتناول أمة محمد إذا كان بعد أن أخبرهم بذلك وبشرهم به، وهذا القول الثاني أعم من القول الأول وأقل إشكالاً منه.

فالقول الصحيح هو كل من شهد للرسل بالحق.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ عتو بني إسرائيل وأنهم مع هذه الآيات العظيمة التي جاء بها عيسى لم يؤمن منهم أحد؛ لقوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾.

٢ ـ أنه إذا اشتبه الأمر فينبغي أن ينادي الداعية بالإخلاص فيقول: من المخلص؟ أي: أن ينتدب الصفوة من القوم؛ لقوله: ﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾، فهو لما رأى أن القوم تمردوا وأحس منهم الكفر وظهر؛ انتدب من يرى أنه من صفوتهم.

٣ ـ أن الرسل صلى الله عليهم وسلم دعوتهم إلى الله لا إلى أنفسهم؛ لقوله: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾.

٤ ـ أن الرسل محتاجون لمن ينصرهم؛ لقوله: ﴿مَنۡ

أَنصَارِىٓ﴾، وقال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

٥ ـ فضيلة الحواريين رضي الله عنهم حيث أعلنوا أنهم أنصار الله مع كفر قومهم؛ لقوله: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، وهكذا ينبغي للإنسان أن يعلن اتِّباعه للرسول بين أئمة الكفر حتى لا يداهن في دين الله؛ لأن المداهنة في دين الله والتقية نفاق في الواقع، والفرق بين المداهنة والمداراة:

أن المداهنة: أن يقرهم على ما هم عليه من الباطل.

والمداراة: أن ينكر عليهم ولكن يداريهم لئلا يمنعوه من الحق.

٦ ـ في هذه الآية دليل على أن النصارى مسلمون بقولهم: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ إلا أنهم مسلمون بالمعنى العام، وذلك أن كل إنسان متبع لرسول شَرْعُه قائمٌ فهو مسلم، وأما إذا وجد ما ينسخه فمن بقي على الدين الأول فهو كافر إذا كان الرسول مرسل إليه. وبناء على ذلك فإنه لا مسلم بعد بعثة الرسول ﷺ إلا من اتبعه فقط، ومن سواه فهو كافر. وعلى هذا فالنصارى كفار واليهود كفار من أهل النار، ومن قال إنهم مسلمون بالمعنى الخاص الذي يدخلون به الجنة اليوم فهو كافر؛ لأنه مكذب لقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، ولقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾.

٧ ـ أن إشهاد الإنسان على نفسه بالإيمان أو بالإسلام أو ما أشبه ذلك لا يعد من الرياء لا سيما في الاتباع؛ لأن في ذلك فائدة وهي تقوية المتبوع، إذا قال: أشهد بأني مسلم أو مؤمن أو

ممن اتبعك أو مما أشبه ذلك، لا شك أن في ذلك فائدة، وهي تقوية المتبوع، ولا يعد هذا من الرياء.

٨ ـ أن الرسل لا يعلمون الغيب؛ لقولهم: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، لأنه لو كان عنده علم من ذلك لما احتاج إلى إشهاد، اللهم إلا على سبيل إقرارهم الظاهري.

وهل يؤخذ من الآية الكريمة جواز قول الإنسان: أنا مؤمن؟ لقولهم: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، ربما يؤخذ جواز قول الإنسان أنا مؤمن، ولا شك أن هذا جائز، ولكن الذي وقع فيه الخلاف بين أهل العلم: هل يجوز أن يستثني في الإيمان فيقول: أنا مؤمن إن شاء الله أم لا؟.

في هذا خلاف بين العلماء؛ منهم من قال: إنه لا يجوز، ومنهم من قال: إنه يجب، ومنهم من قال: إنه يجوز باعتبارين.

أما الذين قالوا إنه لا يجوز، فقالوا: إن هذا الاستثناء يوحي بالشك، أنه شاك وإلا كيف يقول إن شاء الله، فما دام الإيمان قد وقر في قلبه لا يقول إن شاء الله، ثم قالوا مؤيدين لتعليلهم: أرأيت لو صلى شخصاً فقيل له: أصليتَ؟ قال: إن شاء الله لعدَّ ذلك قريباً من اللغو، ولو قيل له: لبست ثوبك؟ فقال: لبسته إن شاء الله وهو عليه، هذا لغو من القول. فإذا كان جازماً بإيمانه فلماذا يقول إن شاء الله؟ فالاستثناء على هذا حرام؛ لأنه يؤذن بالشك، وإن لم يكن فهو لغو من القول.

والقول الثاني: أنه يجب أن يقول: إن شاء الله، يجب وجوباً، فلو قال: إنه مؤمن وسكت، كان ذلك حراماً عليه، وعللوا لذلك بأن الإيمان النافع هو الذي يموت الإنسان عليه،

والإنسان لا يدري ماذا يموت عليه، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب؛ فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**»(١)، وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يقول: إن شاء الله.

وهذا الوجه ليس بصحيح وليس بعلة؛ لأن الإنسان إنما يتكلم عن حاضره، وحاضره يعلم أنه مؤمن، والمستقبل علمه عند الله، نعم لو قال: سأموت على الإيمان، قلنا له: قل إن شاء الله، لكن المأخذ الصحيح أنه إذا قال: أنا مؤمن وجزم فإن في ذلك نوعاً من تزكية النفس، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [النجم: ٣٢]، ولهذا نقول له: مقتضى جزمك بالإيمان، أنك جازم بأنك من أهل الجنة فشهدت لنفسك بأنك من أهل الجنة، ولا يشهد بالجنة لأحد بعينه إلا من شهد له الرسول ﷺ، وحينئذٍ لا بد أن تقول: إن شاء الله، وليس لأجل أنك لا تدري ماذا تموت عليه، لكن من أجل أن لا تزكي نفسك فيلزم من تزكيتك إياها أن تشهد لها بالجنة وهذا ممنوع.

وفصَّل بعض العلماء في هذه المسألة فقال: قد يكون الاستثناء حراماً، وقد يكون واجباً، وقد يكون جائزاً باعتبارات، فإذا كان الإنسان يقول أنا مؤمن إن شاء الله يريد بذلك التبرك أو بيان أن ما حصل من الإيمان كان بمشيئة الله فهذا جائز.

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٨). ورواه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابه، رقم (٢٦٤٣).

والاستثناء بالمشيئة في الأمر الواقع جائز شرعاً، قال الله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧]، فقال: إن شاء الله مع أنهم سيدخلونها كما قال النبي عليه الصلاة والسلام لعمر بن الخطاب: «**إنك آتيه، ومطوف به**»[١] في صلح الحديبية، وفي زيارة المقابر يقول الإنسان: «**وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**» مع أن لحوقنا بهم مؤكد لكن هذا من باب بيان أن لحوقنا بهم مقرون بمشيئة الله.

وإن كان الحامل على الاستثناء الشك، حرم أن يستثني، إذا قال: إن شاء الله لأنه متردد، فهذا حرام؛ لأن الشك في الإيمان منافٍ للإيمان، إذ أن الإيمان لا بد أن يكون جزماً، ولكن الحذر الحذر أن يتلاعب الشيطان بالمؤمن في مسألة الوساوس التي كثر الشَّاكُون منها من الذين منَّ الله عليهم بالإقبال إلى الله، فلما أقبل الشباب إلى الله صار الشيطان يأتيهم بالوساوس وبالشكوك؛ لأجل أن يخلخل إيمانهم، ولكن هذا ـ والحمد لله ـ كيد كائد لمن كاد به كما جاء في الحديث: «**الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة**»[٢]، وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن هذا صريح الإيمان، هذا صريح الإيمان: يعني خالصه الذي ليس فيه شبهة، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بعلاج ذلك فقال: «**لا يزال الناس يتساءلون: من خلق كذا، من خلق كذا، حتى يقولوا: من**

---

(١) رواه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، رقم (٢٧٣٤).

(٢) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في رد الوسوسة، رقم (٥١١٢). ورواه أحمد في مسنده، رقم (٢٠٩٨).

خلق الله؟ فإذا بلغوا ذلك فليستعذ بالله ولينته»[١]، فهذا من جملة ما يوسوس به الشيطان وهذا علاجه.

وإذا كان الإنسان يخشى من تزكية نفسه إذا قال أنا مؤمن، أو يخشى أن يوكل إلى نفسه إن ظهر فيه الإعجاب؛ لأن الإنسان ـ أعوذ بالله ـ إذا أعجب بعمله وكل إلى نفسه ونزعت بركته، فإذا كان يخشى من ذلك كان الاستثناء واجباً.

٩ ـ فضيلة الحواريين في لجوئهم إلى الله عزّ وجل حيث قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾، فإنهم بعد أن أشهدوا نبيهم لجأوا إلى ربهم عزّ وجل.

١٠ ـ التوسل إلى الله تعالى بربوبيته؛ لأن الربوبية تدور على ثلاثة أشياء وهي: الخلق، والملك، والتدبير. وإجابة الدعاء داخل في هذه الثلاثة، فلذلك كان كثيراً ما يتوسل الدعاة ـ دعاة الله ـ بالربوبية كما جاء في الحديث الصحيح: «**يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب**»[٢].

١١ ـ أنه يجب أن يكون الإيمان شاملاً لكل ما أنزل الله ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾.

١٢ ـ حسن الاحتراز في قول الحواريين ﴿بِمَآ أَنزَلْتَ﴾، ولم يطلقوا الإيمان مثلاً بالتوراة؛ لأن التوراة التي بأيدي اليهود محرفة مبدلة، يبدون شيئاً ويخفون أشياء، فلهذا قالوا: ﴿بِمَآ أَنزَلْتَ﴾،

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنده، رقم (٣٢٧٦). ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤).

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٣٧).

ونحن نقول: آمنا بما أنزل الله من التوراة والإنجيل؛ لا بالتوراة المحرفة التي بأيدي اليهود، ولا بالإنجيل المحرف الذي بأيدي النصارى.

١٣ ـ أن الإيمان لا بد له من اتباع ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾، ولهذا يقرن الله عزّ وجل بين الإيمان والعمل الصالح في آيات كثيرة؛ لأن الإيمان المجرد لا ينفع، والعمل الصالح بمنزلة سقي الشجرة، إن لم تسقها ماتت، ولهذا ينبغي لنا عندما نتكلم عن الإسلام أن لا نحاول جعل الإسلام عقيدة فحسب، بل هو عقيدة وعمل. العقيدة لا تكفي؛ لأن العقيدة الآن كل يدعي أنه معتقد، اليهود والنصارى يقولون: نحن نؤمن بالله واليوم الآخر، ونؤمن بأن هناك ربًّا مدبراً للخلق، وأنه عزّ وجل خالق، ونؤمن بالبعث، ولكن هذا ليس بإيمان، وإن كان عندهم هذه العقيدة، فهذه عقيدة فاسدة، فلا بد من قرن العقيدة بالعمل الصالح، حتى لا يتكل الناس على ما عندهم من العقيدة ويقولون لا حاجة للعمل، ولهذا قال: (آمنا... واتبعنا الرسول) لا بد من هذا، وتأمل قوله: ﴿ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾، هل يؤخذ منها وجوب الإيمان بكل ما أنزل الله من كتاب؟ وأما الاتباع فيكون للرسول الخاص؟

الجواب: يمكن هذا لأنهم قالوا: آمنا بما أنزلت، وهذا عام، واتبعنا الرسول، وهذا خاص، وهو كذلك. فالإيمان واجب بجميع ما أنزل الله: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]، ولكن الاتباع خاص بالرسول الذي أرسل إليك، أما الرسول الذي لم يرسل إليك فلست مأموراً باتباعه إلا إن دلت شريعتك على اتباعه.

١٤ ـ أنه إذا كان هناك وصفان، وكان أحد الوصفين أخص من الآخر بالعمل أو بالحال التي أنت فيها؛ فإن الأولى أن تأخذ بالأخص لقوله (الرسول)، لأنه رسول مرسل إلينا، ولم يقولوا: (واتبعنا النبي)، اتبعنا الرسول؛ لأن الرسول مرسل إلينا مبعوث، لكن النبي لا يؤمر بالتبليغ على قول جمهور العلماء، وهنا الاتباع الألصق به الرسالة. فلهذا اختاروا وصف الرسول.

فإن قال قائل: في حديث البراء بن عازب في ذكر النوم لما قرأ النبي ﷺ عليه ذكر النوم الذي يكون آخر ما يقول الإنسان قال من جملة ما قال: «**آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت**[1]»، فلما أعادها البراء قال: **وبرسولك الذي أرسلت. فقال: قل: وبنبيك الذي أرسلت**». ومعلوم أن المقام مقام اتباع، فلماذا لما قال البراء: ورسولك الذي أرسلت، والرسالة تتضمن النبوة، قال: قل: ونبيك؟.

فالجواب على هذا من وجهين:

الوجه الأول: أن دلالة الرسالة على النبوة من باب دلالة الالتزام، ودلالة النبوة على النبوة من باب دلالة المطابقة؛ ودلالة المطابقة أقوى بلا شك؛ لأن دلالة الالتزام قد يمانع فيها الخصم، قد يقول: هذا ليس بلازم، فلهذا اختار وصف النبوة مع أن الرسالة جاءت بعده (... الذي أرسلت) ولو قال: رسولك الذي أرسلت لدلَّ على النبوة بطريق الالتزام؛ لأن كل رسول

---

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب إذا بات طاهراً وفضله، رقم (٦٣١١). ورواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقال عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٠).

نبي، لكن إذا قال: بنبيك الذي أرسلت دلَّ على النبوة بطريق المطابقة؛ لأنه صرح بها بلفظها، ومعلوم أن الدلالة بالمطابقة أقوى من الدلالة بالالتزام لجواز منع الملازمة.

الوجه الثاني: أنه إذا قال: برسولك الذي أرسلت لم يكن وصفاً مخصصاً لمحمد ﷺ إذ قد يراد بذلك جبريل مثلاً، جبريل رسول مرسل كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠]، فجبريل مرسل، فلو قال: برسولك الذي أرسلت لم يحدد أن هذا الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام، أما إذا قال: بنبيك الذي أرسلت تحدد الوصف بالرسول محمد ﷺ؛ لأن جبريل لا يسمى نبياً وإنما يسمى رسولاً، وبهذا يزول الإشكال الذي أشرنا إليه، وهو أنه ينبغي أن يذكر الوصف المطابق للحال التي عليها المتكلم؛ لأن الحديث ـ حديث البراء ـ اختير فيه النبوة على الرسالة من أجل هذين الوجهين.

١٥ ـ الحرص على صحبة الأخيار، نأخذه من قوله: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، ولا شك أن صحبة الأخيار خير، حتى إن الرسول ﷺ مثَّلها بحامل المسك قال: «**مثل الجليس الصالح والجليس السَّوءِ كحامل المسك ونافخِ الكير؛ فحامل المسكِ، إما أن يُحْذِيَكَ** ـ يعني يعطيك مجاناً هبة ـ، **وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحاً طيبة** ـ كل هذا طيب ـ **ونافِخُ الكيرِ**..»[1]، والكير

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك، رقم (٢١٠١). ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، رقم (٢٦٢٨).

عبارة عن جلد مثل الغَرْب، والغرب دلو للبعير يرفع به الماء فهو يشبه الغرب وفيه طرف مفتوح، وفيه طرف متصل بأنبوب يتصل بمكان النار فيفتحه ثم يضمه ويكون قد حمل هواء عن طريق هذا الأنبوب يدفعه جهة النار، فتلتهب بشدة، وغالباً ما يكون اثنين، واحد عن يمين الرجل وآخر عن يساره، فتكون النار دائماً تلتهب.

«ونافخ الكير إما أن يُحْرِق ثيابَكَ، وَإِمّا أن تجد منه ريحاً خبيثة»، ولهذا ينبغي للإنسان أن يختار من الجلساء أصلحهم؛ لأن الجليس الصالح كله خير، والجليس السوء كله شر.

❁ ❁ ❁

❑ قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٤ ـ ٥٨].

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾.

مكروا: الضمير يعود على الذين كفروا بعيسى، والمكر هو أن يتوصل إلى الانتقام من خصمه بأسباب غير متوقعة، يعني بأسباب خفية ينتقم من خصمه والمضاد له بأسباب خفية، ويشبهه الخداع، فإن الإنسان يتوصل إلى أن ينتقم من خصمه من حيث لا يشعر بأسباب خفية. وقوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾، يعني أن الله سبحانه وتعالىٰ مكر بهم حينما مكروا بعيسى، ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ

﴿ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، يعني أقواهم في المكر وأشدهم وأعلمهم بالأسباب التي تحيط بأعدائه.

فإذا قال قائل: ما الذي دلنا على أن الضمير في قوله: (مكروا) يعود على الذين كفروا بعيسى؟

فالجواب على هذا سهل؛ لأن قوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ لا يمكن أن يصدر من قوم قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٥٣]، لا يمكن هذا بل لا يصدر إلا من قوم كفروا، وهو قوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

فإن قيل: ما هذا المكر الذي مكروه؟.

فالجواب على هذا: أنهم مكروا بعيسى حيث تمالأوا على قتله فأنجاه الله منهم ومكر الله بهم، فجعل شبهه في رجل، إما منهم من الذين جاءوا لقتله، وإما من أصحاب عيسى، ألقى الله شبهه على واحدٍ منهم فقتل. المهم أن هؤلاء تمالأوا على القتل وجاءوا إلى عيسى عليه الصلاة والسلام فدخلوا عليه ولم يشعروه أنهم يريدون قتله لئلا يستنجد بأحدٍ أو يدافع عن نفسه، وما أشبه ذلك، ولكن الله عزّ وجل ألقى شبهه على واحد منهم أو على واحد من أصحابه الحواريين، في هذا قولان للمفسرين:

القول الأول: منهم من قال: إن الله ألقى شبهه على واحد منهم وهو زعيمهم، جعل الله شبه عيسى في هذا الرجل، فلما أرادوا أن يقتلوه قال: أنا صاحبكم، قالوا: كذبت لست صاحبنا بل أنت عيسى فقتلوه وصلبوه، وهذا بلا شك مكر عظيم أعظم من مكرهم؛ لأن هذا الرجل الذي جاء متزعماً هؤلاء القوم ليقتل

عيسى صار هو القتيل، وهذا القول أقوى من حيث إن فيه مكراً بهؤلاء عظيماً.

أما القول الثاني: فيقولون: إن عيسى عليه الصلاة والسلام لما أحسّ بأنهم دخلوا عليه ليقتلوه قال لأحد أصحابه: من يقبل أن يلقي الله عليه شبهي فأضمن له الجنة، فانتدب واحداً منهم لذلك، وألقى الله شبهه عليه، وقيل: بل ألقى الله شبهه على جميع من كانوا مع عيسى حتى إن هؤلاء القوم لما دخلوا كان كل واحد يقول: أيكم عيسى، أيكم عيسى، أيكم عيسى، لم يعلموه.

هذان قولان رئيسيان، القول الأول: أن الشبه ألقي على زعيم القوم الذين جاءوا ليقتلوه فقتل، والقول الثاني: أنه على رجل من أصحاب عيسى، ثم هل ألقي الشبه على الجمع فاشتبه على الذين دخلوا، أو أنه أُلقي على واحد منهم؟ فيه أيضاً قولان، والمسألة ليست فيها نصٌّ عن النبي المعصوم عليه الصلاة والسلام فالله أعلم، لكن قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، قد يؤيد القول الأخير أنه صار كل واحد مِن الذين مع عيسى يشبه عيسى، فاشتبه عليهم من هو عيسى.

المهم أن هذا هو مكرهم أنهم جاءوا إلى عيسى عليه الصلاة والسلام ليقتلوه على وجه لا يشعر بذلك؛ أما مكر الله بهم فهو أنه ألقى الشبه إما على واحد منهم أو من أتباع عيسى فقتلوه، فظنوا أنهم قتلوا عيسى وصاروا يعلنون: قَتَلْنا عيسى وصلبناه، وهم لم يقتلوه ولم يصلبوه.

وفي قول الله عزّ وجل: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾، فيها من صفات الله إثبات المكر لله عزّ وجل، والبحث في هذا أولاً: هل

المكر على حقيقته؟ أو هو عبارة عن المجازاة على مكر، فسميت المجازاة على المكر مكراً من باب المقابلة اللفظية لا المعنوية، فهو كقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤]، والمقتص لنفسه لا يسمى معتدياً لكنه يشبهه في اللفظ من باب المقابلة اللفظية لا المعنوية، أو أنه مكر حقيقي؛ لأن صنيع الله بهم مكر حيث كان القتيل منهم على أحد الأقوال أو اشتبه عليهم الأمر على القول الثاني، والصحيح في هذا أن الله تعالى يوصف بما وصف به نفسه، ولسنا أعلم بالله من نفسه، هو أعلم بنفسه وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً، ولكنه يجب أن ينزه عن كل نقص، فالمكر هل هو من صفات النقص على سبيل الإطلاق يعني ليس فيه مدح إطلاقاً أو هو نقص في حال دون حال؟

الجواب: الثاني هو الحقيقة، أن المكر في مقام المكر مدح وصفة كمال، والمكر في غير موضعه صفة نقص؛ لأن المكر في غير موضعه خيانة، والخيانة صفة ذم، ولهذا لم يصف الله بها نفسه حتى في باب المقابلة، ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١]، ولم يقل: فخانه؛ لأن الخيانة صفة ذم مطلقاً بخلاف ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ فقابل الله مكرهم بمكر ولم يقابل خيانتهم بخيانة.

إذن نقول: يجب أن نصف الله بما وصف به نفسه من المكر في الحال التي وصف الله نفسه فيها بالمكر، وذلك في مقابلة مكر أعدائه.

فنقول: إن الله يمكر بمن يمكرون به وبرسله وبآياته، أما أن نصف الله بالمكر على الإطلاق فنقول: إن الله ماكر ونطلق،

فهذا لا يجوز، لماذا؟ لاحتمال النقص؛ لأن المكر كما قلنا: ليس كمالاً في كل حال، ولا نقصاً في كل حال، فإذا أطلق صار قابلاً لأن يكون نقصاً، فإذا قيدت بالحال التي يكون فيها كمالاً لم يحتمل أن يكون نقصاً. إذن نقول: المكر يوصف الله به لا على سبيل الإطلاق، ولكن في الحال التي وصف الله نفسه فيها به، ولهذا جاء في الحديث: «**الحرب خدعة**»[1]، وكلٌّ يعرف أن الخدعة في الحرب كمال وليست بنقص، ويذكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه لما خرج إليه عمرو بن ود ليبارزه، ومعروفة هي المبارزة إذا التقى الصفان طلب المتقاتلون المبارزة، من يبرز لفلان؟ والمبارزة سبب للفتح والنصر أو للهزيمة؛ لأنه إذا تبارز الرجلان وانتصر أحدهما قويت نفوس أصحابه وضعفت نفوس الآخرين، لما خرج إلى مبارزة عمرو بن ود صاح علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال: ما خرجت لمبارزة رجلين، فظن عمرو بن ود أنه قد تبعه أحد من قومه، فالتفت لينظر هل لحقه أحد، فلما التفت ضربه عليٌّ بالسيف حتى طن رأسه، هذه خدعة أم لا؟ محمودة أو غير محمودة؟ محمودة، لأنه جاء ليقتل عليًّا، فتخلص منه بهذه الخدعة، هذا يعدُّ منقبة لعلي بن أبي طالب وصفة كمال، وحينئذٍ نقول: المكر في موضعه مدح وكمال.

يقول: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحرب خدعة، رقم (٣٠٢٩). ورواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز الخِداع في الحرب، رقم (١٧٣٩).

هذه صفة ثابتة مطلقة، يعني لا تحتاج إلى قيد؛ لأنها وصفت بكمال، ما هو الكمال؟ خير، فالله خير الماكرين، يعني ما من أحد يمكر إلا ومكر الله فوقه وخير منه.

والمكر من الصفات الذاتية أو الفعلية؟ الفعلية؛ لأنها تتعلق بمشيئته، وكل صفة من صفات الله لها سبب فهي متعلقة بالمشيئة؛ لأن مقدّر السبب هو الله، فإذا قدّر السبب فقد شاءه، ويترتب عليه ما يترتب من الصفات.

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾.

يحتمل أن تكون (إذ) متعلقة (بمكر الله) يعني ومكر الله (إذ قال الله: يا عيسى إني متوفيك)، ومحتمل أنها متعلقة بمحذوف تقديره: اذكر يا محمد منوّهاً بفضل عيسى إذ قال الله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾.

أي: إني قابضك، مأخوذة من قولهم: توفى الدائن دَيْنه أي: قبضه، وعيسى قد قبضه الله إليه في السماء ورفعه حتى ينزل في آخر الزمان، هذا قول.

والقول الثاني: متوفيك وفاة نوم، يعني منيّمك؛ لأن النائم متوفى، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

والقول الثالث: أنها وفاة حقيقية، توفاه الله وفاة حقيقية وسيحييه في آخر الزمان وينزل إلى الدنيا، والصحيح أنها وفاة

نوم؛ لأن الله عزّ وجل لما أراد أن يرفعه إلى السماء أنامه ليسهل عليه الانتقال من الأرض إلى السماء؛ لأن الانتقال من الأرض إلى السماء ليس بالأمر الهين لطول المسافة وبعدها ورؤية الأهوال فيما بين السماء والأرض وفي السموات أيضاً، فأنامه الله ثم رفعه نائماً حتى وصل إلى السماء، لكن هذا القول لا ينافي القول الأول الذي معناه قابضك؛ لأن نهايتهما واحدة. أما القول الثالث: أنها وفاة موت، فقول ضعيف يضعفه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]، قبل موته أي: عيسى، وهذا يدل على أنه لم يمت، ولأن الله تعالى لم يبعث أحداً بعد الموت فيبقى كما في نزول عيسى عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان؛ ولأنه ـ أعني إطلاق الوفاة على النوم ـ كثير في القرآن، يعني ليس بمعنى غريب حتى نقول: لا يصح حملها عليه، بل هو معنى له كثرة في القرآن.

وقوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

(إليّ) إلى أي مكان؟ إلى السماء؛ لأن الرفع يكون من نازل بمعنى رافعك إليّ يعني في السماء، رفعه الله سبحانه وتعالىٰ إلى السماء إلى الله.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

مطهرك منهم: التطهير هنا تطهير معنوي لا تطهير حسّي، وذلك لأن الذين كفروا ليسوا يلطخون عيسى بالقاذورات الحسّية لكنهم يلطخونه بالقاذورات المعنوية، قالوا: إنه كذّاب، وإنه ابن زنا والعياذ باللهِ، وأن أمه زانية، واتهموه بأشياء كثيرة، فطهره الله منهم وذلك بما أنزل من براءته في عهده وفيما بعد عهده.

وقوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كفروا بمن؟ كفروا بعيسى؛ لأن الحواريين آمنوا به كما سبق.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

هذا أيضاً من جملة ما قاله الله له: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾، جاعل هنا مضافة إلى الفاعل أو إلى المفعول؟ إلى المفعول. (فوق) محلها النصب، هي ظرف متعلق بمحذوف على أنه مفعول ثانٍ؛ لأن جاعل اسم فاعل من جعل، وجعل تنصب مفعولين، إذن (فوق): ظرف متعلق بمحذوف وهو المفعول الثاني.

وقوله: ﴿ٱتَّبَعُوكَ﴾: أي الذين اتبعوا شريعتك ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، فوق الكفار إلى يوم القيامة، هذه الآية يطبل بها النصارى ويقولون: نحن لنا العلو إلى يوم القيامة، ليس إلى أن بُعث محمد، ولكن إلى يوم القيامة. فنقول: نعم صدق الله العظيم، إن الذين يتبعون عيسى لهم النصر على الكافرين إلى يوم القيامة، ولكن مَنِ الذين اتبعوا عيسى؟ هم الذين ردُّوا بشارته وكذبوا من بشّر به؟ لا أبداً أنتم لم تتبعوا عيسى ووالله لو خرج عيسى لقاتلكم حتى ترجعوا إلى الإسلام، ولهذا في آخر الزمان لا يقبل إلا الإسلام، لا يقبل الجزية ويكسر الصليب ويقتل الخنزير، في آخر الزمان لا يقبل حتى الجزية التي كانت تقبل قبل نزوله، لا تقبل من شدة كراهته لما عليه النصارى واليهود الآن، نحن نقرّ لليهود والنصارى بالجزية، نقول: ابقوا على دينكم لكن أعطوا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون، لكن إذا نزل عيسى لا يقبل، يقول: أسلم وإلا فالقتل، لكراهيته لما هم عليه، لا يريد أن يقرهم ولا على هذا. المهم أن نقول: إن الذين اتبعوا عيسى هم

الذين آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام بعد بعثة محمد، أما قبل بعثة محمد نعم لا شك أن أتباع عيسى هم المسلمون، وأنهم على الحق قبل أن يحرّفوا ويبدّلوا. فإذا قالوا: كيف تجيبون عن قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؟ قلنا: نعم آمِنُوا بمحمد ولكم النصرة إلى يوم القيامة. فإن قال قائل: أفلا يمكن أن يراد بالذين اتبعوه أي: الذين انتسبوا إليه وتكون لهم الغلبة على الكافرين لا على المسلمين، يعني مثلاً أن النصارى يغلبون اليهود والوثنيين وما أشبه ذلك، ويخرج من هذا المسلمون. ويكون الله تعالى قد وعد عيسى بأن يكون من انتسب إليه فوق الذين كفروا به.

الجواب: لا يمكن هذا، ليس بعيداً متعذراً؛ لأن هؤلاء لم يتبعوا عيسى، ألم تسمعوا أن الله يقول يوم القيامة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧]، وهل النصارى يقولون بهذا؟ أبداً، إذن لم يتبعوه، فالآية وإن كان قد يتراءى لبعض الناس أن يقول: إن النصارى يغلبون غيرهم من الكفار لهذه الآية فإنا نقول: لا لأن الله يقول: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ والنصارى الآن لم يتبعوه، ثم إن الآية يعني لو فسرت بهذا التفسير لكان الواقع يخالفه، فالأمة الصليبية لم تظهر على الأمة الشيوعية بل هي خائفة منها فأين الفوقية؟ ليست هناك فوقية الآن، كل دول أوروبا الغربية بأسطولها وحلفها الأطلسي عجزت أن تكون فوق الشيوعية

وحلفها، كل واحدة منهم تخاف الآن من الأخرى، وقد يكون أتى في يوم من الأيام أن أوروبا تخاف من الشيوعية أكثر مما تخاف منها هذا اليوم، فالحاصل أن الآية لا يمكن أن تحمل على النصارى الموجودين اليوم بأي حال من الأحوال.

ثم قال: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: يعني بعد يوم القيامة إليّ مرجعهم، ويوم القيامة هو اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين يجازون على أعمالهم، وسمّي يوم القيامة لثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أن الناس فيه يقومون لله رب العالمين كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

الوجه الثاني: أنه يقوم فيه الأشهاد، فالرسل يشهدون على أممهم، وهذه الأمة تشهد على الأمم السابقة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

الوجه الثالث: أنه يقام فيه العدل، قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء: ٤٧]، فهو يقام فيه العدل، ولهذا أقسم النبي ﷺ وهو الصادق البار المصدوق عليه الصلاة والسلام قال: «**والله لتؤدين الحقوق إلى أهلها حتى إنه ليقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»[1] هذا عدل، أكبر العدل، فلهذا سمي يوم القيامة للوجوه الثلاثة.

ثم قال عزّ وجل: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾، يعني ثم بعد هذه

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٢).

الغلبة في الدنيا أو المغالبة في الدنيا حتى يكون بعضكم فوق بعض، بعد ذلك إليّ مرجعكم أي: مصيركم، وكل المصير إلى الله عزّ وجل في الدنيا وفي الآخرة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، الأمر إلى الله أولاً وآخراً لكن ظهور هذا الرجوع لا يكون إلا يوم القيامة حيث يتبين فيه للناس جميعاً أن الرجوع إلى الله سبحانه وتعالىٰ يجازي كل نفس بما عملت، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

الله أكبر، وما أعدل هذا الحكم، أحكم بينكم، بين مَنْ؟ بين الخلائق فيما كانوا فيه يختلفون، وهل الناس يختلفون في شيء؟ نعم، فمنكم كافر ومنكم مؤمن، اختلاف عظيم، فيحكم الله عزّ وجل بين هؤلاء وهؤلاء، ويحكم كذلك بين الرسل وأتباعهم، فتقيم الرسل البينة على أنها بلغت الرسالة وقد ينكر ذلك أتباع الرسل لكن لا يتم لهم مقصودهم، فالحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه إلى الله.

وقوله: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾، أحكم فعل مضارع فهل يشتق منه اسم من أسماء الله؟ القاعدة: أن الفعل لا يشتق منه، لكن قد وُجِدَ اسم من دون الرجوع إلى هذا الفعل وهو «الحكيم»، فإن الحكيم مأخوذ من **الحُكْم والحِكْمة**، ومن أسماء الله (الحَكَم) كما قال النبي ﷺ: «**إن الله هو الحَكَم وإليه الحُكْم**»[1]

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في تغيير الاسم القبيح، رقم (٤٩٥٥). ورواه النسائي، كتاب آداب القضاة، باب إذا حكموا رجلاً فقضى بينهم، رقم (٥٣٨٧).

وهذا من الحكم، فالله هو الحكم الذي يرجع الناس إليه في تحاكمهم.

﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾: الحكم لله عزّ وجل كوناً وشرعاً، فهو الحاكم كوناً وهو الحاكم شرعاً، أما حكمه الكوني فهو نافذ على كل أحد، ولا يستطيع أحد أن يتخلص منه ولا أن يعانده، وأما الحكم الشرعي فإنه باختيار المحكوم عليه، فمن شاء فليؤمن: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، إذن حكم الله ينقسم إلى قسمين: كوني وشرعي.

فالحكم الكوني ما يقدّره الله على عباده، ولا يمكن التخلف عنه، ويتعلق فيما يحبه وما لا يحبه، فيحكم كوناً بوقوع الطاعات وهذا مما يحبه، ويحكم كوناً بوقوع السيئات والمعاصي وهذا لا يحبه، لكنه عزّ وجل يحكم به كوناً لحكمة ومصالح عظيمة.

وأما الحكم الشرعي فهو ما قضاه بين العباد شرعاً، وهو الذي جاءت به الرسل، وأصله أوامر ونواهٍ، افعلوا كذا، لا تفعلوا كذا، ولا يلزم من الحكم الشرعي وقوع المحكوم به، بل قد يتخلف عنه كثير من الناس، وها هم الرسل يرسلهم الله عزّ وجل يتبعهم أناس قليلون وأناس كثيرون، بل قد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**ورأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد**»[1] فيتخلف الحكم الشرعي.

---

(١) رواه أحمد، في مسنده، رقم (٢٤٤٤).

وقال بعض العلماء: إن هناك قسماً ثالثاً للحكم وهو الحكم الجزائي الذي يحكم الله فيه بالجزاء على من عمل إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر، وعليه يتنزل قوله هنا: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

الفاء هذه عاطفة على ما سبق عطف تفريق، أي: أن ما بعدها فرع عمَّا قبلها، يعني هذا الحكم يكون على هذا الوجه. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ﴾، و(أما) هنا شرطية تفصيلية، يعني أنها تفيد التفصيل كما في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾ [الليل: ٥]، ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ [الليل: ٨]، وهنا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ٥٧]. وقوله: فأما الذين كفروا فأعذبهم، كفروا بمن؟ كفروا بالله ورسله. والكفر في اللغة: الستر، ومنه سمي الكُفُرَّى الذي هو غطاء طلع النخل، الذين كفروا ستروا ما أنعم الله به عليهم من نعمة العقل ونعمة المال والصحة وغير ذلك، حيث لم تظهر عليهم آثار هذه الأشياء، فآثار العقل أن الإنسان يفعل ما ينفعه ويدع ما يضره، ومنه سمي العقل حِجْراً؛ لأنه يحجر صاحبه عما يضره، لكن الذين كفروا ستروا ما يقتضيه العقل من حسن التصرف وذلك بالإيمان بالله ورسله، فلذلك سموا كفاراً، أي: ساترين لما أنعم الله به عليهم من نعمة العقل التي مقتضاها الإيمان بالله ورسله.

قال: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

العذاب: فعل ما به مشقة أو حصول ما به مشقة سواء كان عن ذنب أو غير ذنب، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن**

السفر قطعة من العذاب»[١]، وقال: «**إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه**»[٢]، يعني هذا عذاب مشقة، ومن عذاب المشقة عذاب العقوبة لأنه شاق على المعاقب، والمراد بالعذاب هنا عذاب مشقة العقوبة.

﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، الشديد يعني القوي العظيم في الدنيا والآخرة، في الدنيا قال العلماء: إن العذاب في الدنيا ما يحصل لقلوبهم من الضيق والضنك والقلق والحسرة وغير ذلك، وما يحصل لهم على أيدي المؤمنين من القتل والأسر والجزية وغير ذلك، فعذابهم يكون بالألم القلبي والألم البدني، ولهذا قال: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا﴾، أما عذابهم في الآخرة فظاهر يعذبون في الآخرة بماذا؟ بالنار، يعذبون في الآخرة بالنار وهم لا تتخطاهم العقوبتان أو إحداهما، يعني إما أن يحصل لهم هذا وهذا وهو الغالب، وإما أن يحصل لهم عذاب الآخرة ولا بد، ولكن ظاهر الآية الكريمة في الدنيا والآخرة أنه يحصل لهم العذاب في الدارين، قال: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، الدنيا هي هذه الحياة التي نحياها ووصفت بذلك لوجهين:

١ ـ لدنوّها لأنها سابقة على الآخرة، فهي دانية.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحج، باب السفر قطعة من العذاب، رقم (١٨٠٤). ورواه مسلم، كتاب الإمارة، باب السفر قطعة من العذاب واستحباب تعجيل المسافر، رقم (١٩٢٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «**يعذب...**»، رقم (١٢٨٨). ورواه مسلم، كتاب الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه، رقم (٩٢٧).

٢ ـ لنزول مرتبتها كما يقال: دنيا وعليا، فالدنيا نازلة في المرتبة عن الآخرة، مهما بلغ نعيمها فإنها نازلة عن الآخرة؛ لأن نعيم الدنيا إذا حصل فهو مشوب بالكدر كما قال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نُسَاءُ ويوم نسرّ

وقال الثاني:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة ... لذّاته بادّكار الموت والهرم

فمهما نعم الإنسان في هذه الدنيا فنعيمها دانٍ، ولهذا وصفت بالدنيا، أما نعيم الآخرة فقد قال الله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

قال: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

(ما) نافية، يعني هذا العذاب الشديد الذي يوقعه الله فيهم لا يجدون مَنْ ينصرهم منه أي: مَنْ يدفع عنهم هذا العذاب لا أهل ولا مال ولا صديق ولا قريب ولا أحد من الناس: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ﴾ [المعارج: ١١ ـ ١٥].

ثم جاء بالقسم الثاني قال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، والرب عزّ وجل يكرر هذا دائماً في القرآن، يجمع بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأنه لا إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان، بل لا بد من الأمرين.

﴿ءَامَنُوا۟﴾: آمنوا بما يجب الإيمان به، وذلك بالإيمان بالله

وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: عملوا الأعمال الصالحات، والأعمال الصالحات هي التي تكون لله وفي الله، أي: أنها خالصة لله وفي حدود شريعة الله، يعني خالصة صواباً كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله، خالصة لله صواباً يعني على السنة، هذا هو العمل الصالح، فإن لم تكن خالصة فليست عملاً صالحاً بل هي مردودة على صاحبها؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وفي الحديث القدسي: «**قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»(١)، وأما الموافقة أو الصواب كما قال الفضيل فلقوله ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»(٢)، فلا يقبل العمل إلا بموافقة الشرع.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: جزاء أعمالهم، (اللهم لك الحمد)، انظر إلى هذه المنة، كأن هؤلاء عمال يستحقون الأجر ولا بد، حيث سمَّى الله جزاءهم أجراً، والأجر من المستأجَر حق يجب له، ولكن هذا من فضل الله عزّ وجل وكرمه؛ لأن

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧). ورواه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

الذي أوجب الأجر على نفسه مَنْ؟ الله عزّ وجل هو الذي أوجب ذلك على نفسه، لم يوجبه أحد عليه، لو شاء لأمرنا ونهانا ولزمنا أن نطيعه بدون عوض؛ لأنه ربنا وخالقنا وما نعمله من الطاعات فإنه لا يقابل واحدة من نعمه التي لا تحصى سبحانه وتعالى، ولهذا قال النبي ﷺ: «**لن يدخل الجنة أحدٌ بعمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته**»[1] ﷺ، فهذه الأجور التي هي جزاء الأعمال التي سماها الله أجراً كالأجرة المفروضة على المستأجر لم يوجبها أحد على الله بل هو الذي أوجب على نفسه هذا الأجر، قال ابن القيم رحمه الله:

ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجب الأجر العظيم الشان
كلا ولا عمل لديه ضائع ... إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عذبوا فبعدله أو نُعِّموا ... فبفضله والفضلُ للمنان

والحاصل: أننا ليس لنا حق على الله واجب ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، اللهم لك الحمد.

قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

خَتْمُ الآية بهذا مناسب؛ لأنه لما بيّن أن هؤلاء آمنوا وعملوا الصالحات فيوفون أجورهم بيَّن أن هؤلاء قد قاموا بما يلزمهم وأنهم لم يظلموا أنفسهم، ولذلك أثابهم الله عزّ وجل هذا

---

(١) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣). ورواه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله، رقم (٢٨١٨).

الثواب العظيم، وأن الله سبحانه وتعالىٰ لا يحب الظالمين، فلو ظلموا أنفسهم ما استحقوا هذا الثواب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، فلو أشركوا بالله لحبط عنهم ما كانوا يعملون، وبطل عملهم؛ لكنهم أخلصوا لله، ولو ابتدعوا في دين الله ما قبله الله منهم، ولكنهم اتبعوا شريعة الله، فانتفى عنهم الظلم في الإخلاص وفي العمل فكانوا أهلاً لإكرام الله عزّ وجل. أما الذين كفروا واستحقوا العذاب فإنهم ظلموا أنفسهم فحصلوا على مقت الله وعقابه ـ والعياذ بالله ـ وعدم محبته.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: المشار إليه كل ما سبق من ذكر آل عمران رحمهم الله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، فكل هذا مما تلاه الله تعالى على رسوله محمد ﷺ. وقوله: ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ أي: نقرؤه عليك متتالياً يتلو بعضه بعضاً، ولكنه بواسطة جبريل عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥].

وقوله: ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾.

﴿مِنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾: «من»، قال بعضهم: إنها بيانية تبيِّن المشار إليه في قوله: «ذلك»، وقال بعضهم: إنها تبعيضية، أي: بعض الآيات، ولكن الصواب الأول، وهو أن ما تلاه الله على رسوله محمد ﷺ كله الآيات، والآيات جمع آية وهي في اللغة العلامة، العلامة على شيء تسمَّى آية كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن

يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، يعني علامة على قدرتنا، وما أشبه ذلك من الآيات، ولما أرسل النبي ﷺ رجلاً إلى عامله في خيبر أن يعطيه ساقاً من التمر قال: «**فإن طلب منك آية ـ أو قال: أمارة ـ فضع يدك على ترقوته**»[1]، كأن النبي ﷺ قد قال للعامل: **إذا بعثت إليك مبعوثاً فإن علامة صدقه أن يضع يده على ترقوتك.**

قال: ﴿مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ﴾.

الذكر: يطلق على معانٍ: منها الشرف كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، أي: شرف عظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، أي: شرفك، ويطلق الذكر على ما يحصل به التذكر، فيسمى الكلام الجيد المشتمل على الموعظة ذكرى، قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩]، أي: التذكرة، ويطلق الذكر على ذكر الله عزّ وجل كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ [النساء: ١٠٣]، والمراد به في هذه الآية المعنيان الأولان الشرف وما يحصل به التذكير، فإن هذا القرآن ـ لا شك ـ أنه شرف لمن تمسك به وقام بحقه، فإنه ينال شرف الدنيا والآخرة وسعادة الدنيا والآخرة، ولم يشرّف العرب ولم ينالوا السعادة والنصر والظهور إلا حين تمسكوا به، ولذلك لما تخلوا عنه زال عنهم وصف الشرف والظهور والنصر وصاروا إلى ما ترون. ولن يعود لهم مجدهم السابق مهما طنطنوا بالعروبة والقومية وما أشبه ذلك إلا إذا رجعوا إلى الإسلام، فمهما بلغوا في الدعاية فيما يتعلق

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأقضية، باب في الوكالة، رقم (٣٦٣٢).

بالقومية والعروبة وما أشبه ذلك فإنها لن تنفعهم ولن تزيدهم إلا دماراً كالذين يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً، لن تزيدهم إلا ذلاً إلا إذا رجعوا إلى دين الله الذي انتصروا به من قبل.

والقرآن أيضاً ذكر من جهة التذكير؛ لأن كل إنسان يقرأ القرآن بحضور قلب فلا بد أن يتأثر به: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] لا بد أن نتذكر به فهو موعظة عظيمة حتى لغير المؤمنين إذا سمعوه وهم يعرفون آياته أي: معانيها فسوف يتعظون به، وما وقع لبعض العرب في ذلك أمر مشهور في التاريخ، حتى إنه ذُكِر أن النبي ﷺ لما قرأ عليهم: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، قالوا: أمسك. أو هم أمسكوا ووضعوا أيديهم على فمه من شدة ما يعلمون من هذه المعاني العظيمة.

وقوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: يعني ذا الحكمة، فالقرآن كله حكمة، وهو فعيل بمعنى مُفعَل، وفعيل بمعنى فاعل، فهو فعيل بمعنى مُفعل أي: محكم متقن، وهو فعيل بمعنى فاعل أي: حاكم لأن القرآن بلا شك حاكم بين الناس: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

من فوائد الآيات الكريمة:

من فوائد قوله عزّ وجل: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

١ ـ أن أعداء الرسل يكيدون لهم ويمكرون لهم؛ لقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ وننتقل من هذا إلى:

أ ـ أن أعداء الرسل أيضاً يمكرون لأتباع الرسل؛ لأن أعداء

الرسل ليسوا يمكرون للرسل أو يمكرون بالرسل من أجل أنهم فلان وفلان لكن من أجل دعوتهم، ودعوتهم إذا ورثها العلماء من بعدهم فإن الذين يمكرون للرسل سيمكرون بأتباع الرسل وورثة الرسل، وينبني على هذه الفائدة:

ب ـ أنه يجب على أهل العلم أن يتحفظوا تحفظاً كاملاً من أعداء الرسل الذين يتربصون بهم الدوائر، وأن يتقوا شرَّهم بما استطاعوا لئلا يمكروا بهم، والمكر وسائله وطرقه كثيرة، لكن العاقل الذكي ينتبه، ولهذا قال الله عزّ وجل للرسول عليه الصلاة والسلام في المنافقين، قال: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، فبيّن أنهم هم العدو حقيقة، وأمر بالحذر منهم.

٢ ـ لا يوصف الله بالمكر على سبيل الإطلاق بل يقال: إن الله ماكر بمن يمكر به؛ ليعود المكر صفة كمال؛ لأن المكر إذا ذكر مطلقاً صار محتملاً للنقص، فإذا ذكر مقيداً بأن قيل: إن الله ماكر بمن يمكر به وبأوليائه، صار صفة كمال تدل على قوة الله عزّ وجل وإحاطة علمه، وأن علمه أدق من علم هؤلاء الماكرين الذين يأتون بالأسباب الخفية والطرق الملتوية ليوقعوا عباد الله في الشر، فيكون الله سبحانه وتعالىٰ أقوى منهم في ذلك، فإذا مكروا مكر الله عزّ وجل، ولا يجوز أن يسمى الله بالماكر مطلقاً، ولا يوصف بالماكر على سبيل الإطلاق، وقد سبق أن الله وصف نفسه بالمكر والكيد والسخرية والخداع والاستهزاء ولم يصف نفسه بالخيانة أبداً؛ لأن الخيانة صفة ذم بكل حال ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾

[الأنفال: ٧١]، ولم يقل: فخانهم؛ لأن الخيانة خديعة في مقام الائتمان، والخديعة في مقام الائتمان صفة ذم ونقص.

٣ ـ جواز المفاضلة بين الخالق والمخلوق في الوصف كما قال: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، و(خير) اسم تفضيل، فيجوز أن يفاضل بين الخالق والمخلوق؛ لأن هذا مطابق للواقع تماماً، فالله تعالى أكمل من كل ذي كمال، ومنه تتفرع قاعدة وهي خطأ بعض أهل العلم رحمهم الله حيث يفسرون اسم التفضيل المنسوب إلى الله باسم الفاعل، فيقولون مثلاً في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، يقولون: الله عالم حيث يجعل رسالته، ولم يتفطنوا أنهم إذا قالوا: الله عالم، لم يمنع مشاركة غيره في العلم مع المساواة، لكن إذا قالوا: الله أعلم، امتنع مشاركة غيره له في العلم الذي هو أعلم به من غيره.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

١ ـ التنبيه على أنه ينبغي أن نذكّر الناس بأحوال الأنبياء السابقين، وجه ذلك: أننا قدرنا ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ بـ(اذكر إذ قال الله). فينبغي أن يذكّر الإنسان الناس بأحوال الأنبياء السابقين لما في ذلك من محبتهم والثناء عليهم ومعرفة أحوالهم وإبقاء ذكراهم، وغير ذلك من المصالح العظيمة.

٢ ـ إثبات القول لله وأنه بحروف وبأصوات مسموعة؛ لقوله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾، وهذا خطاب من يسمع، ثم هو كلمات من

حروف أو من غير حروف؟ من حروف، ولهذا كان مذهب أهل السنة والجماعة أن الله يتكلم كلاماً مسموعاً بحرف وصوت.

٣ ـ الرد على من قال: إن كلام الله هو المعنى النفسي القائم بنفسه، فإن هذا لا يسمى قولاً وإن أطلق عليه القول فلا بد أن يقيد كما في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ [المجادلة: ٨]، فلما أراد القول النفسي قيَّده (يقولون في أنفسهم) أما إذا جاء القول غير مقيد فالمراد به ما يسمع، ففيه الرد على الأشاعرة الذين يقولون: إن كلام الله هو الكلام النفسي القائم بنفسه، وأنه أزلي لا يحدث ولا يصدق بعضه بعضاً؛ لأنه معنى قائم بالنفس. والحقيقة أن هذا القول مضمونه إنكار كلام الله، ولهذا قال بعض منصفيهم: ليست بيننا وبين المعتزلة فرق؛ لأننا نقول جميعاً: إن هذا القرآن الذي في المصحف مخلوق؛ لأن الأشاعرة يقولون: إن الله تعالى لا يتكلم (بما يسمع) بنفسه لكن يخلق كلاماً يعبر به عما في نفسه، وعلى هذا فالمسموع والمقروء والمكتوب مخلوق، فيتفق المعتزلة والأشاعرة، بل إن المعتزلة خير منهم من جهة النسبة؛ لأنهم يقولون: هذا كلام الله، وأولئك يقولون: هذا عبارة عن كلام الله وليس كلام الله، المهم أن هذه الآية وأمثالها فيها الرد على الأشاعرة.

٤ ـ فضيلة عيسى ومنقبته بخطاب الله إياه، فإن من خاطبه الله فذلك فخر له بلا شك خصوصاً أنه قال له: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾... إلخ.

٥ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ رفع عيسى بجسمه؛ لقوله: ﴿وَرَافِعُكَ﴾، والخطاب لعيسى المكون من بدن وروح فيكون رفعه ببدنه.

٦ ـ إثبات منقبة لرسول الله ﷺ، وذلك أن النبي ﷺ أسري به إلى السموات السبع حتى اخترقها كلها وهو يقظان، وعيسى لم يُرفع إلا وهو نائم؛ لأن قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: منيمك على أحد الأقوال وهو أقربها، ومعلوم أن ثبات قلب من يباشر الشيء وهو يقظان أقوى من ثبات من يباشره وهو نائم. ولهذا تجد بعض الناس إذا سمع الرعد الشديد والبرق الخاطف يغمض ويضع إصبعيه في أذنيه حتى لا يسمع ويقول: ليتني نمت قبل هذا، والإنسان الثابت الذي يقول: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، تجده لا يهتم.

المهم أن النبي ﷺ أسري به يقظة بروحه وبدنه، وعيسى عندما أراد الله أن يرفعه أنامه.

٧ ـ منقبة لعيسى أخرى حيث قال: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، فأضاف رفعه إلى نفسه عزّ وجل، وهذا لا شك أنه منقبة أن الله ضمَّه إليه ورفعه إليه، ليكون أقرب إليه مما لو كان في الأرض.

٨ ـ أن الله عزّ وجل منع الأذى عن عيسى الذي يمكن أن يلحقه من الكفار حيث قال: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وذلك بالدفاع عنه، فإن الذين كفروا قالوا: إنه ولد زنا، قاتلهم الله، فطهره الله لما قالوا: ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨]، من أين جاءك الزنا؟! لأن هذا تعريض، يقولون: أبوك ما كان امرأ سوء بل هو نزيه وأمك كذلك فمن أين جاءك الزنا؟ أعوذ بالله. لم تجاوبهم بل أشارت إليه: اسألوا الطفل، قالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩] فأجابهم قبل أن يسألوه، ماذا

قال؟ قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] هذا تطهير عظيم له ولأمه رضي الله عنها.

٩ ـ أن كلَّ من رمى عيسى بهذا السوء فهو كافر؛ لأنه لم يقل مطهرك من الذين قدحوا فيك، قال: من الذين كفروا، فيستفاد من هذا أولاً كفر هؤلاء، وثانياً: أن كل من رماه بذلك فهو كافر.

١٠ ـ أن نصرة الأتباع نصرة للمتبوع.

١١ ـ أن أتباع عيسى منصورون إلى يوم القيامة؛ لقوله: ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وسبق لنا أن أتباعه بعد بعثة الرسول ﷺ هم أمة محمد، ومن كفر بمحمد فإنه لم يتبع عيسى، وذكرنا وجهاً آخر أن النصارى سيكونون فوق غيرهم من ملل الكفر، لكن الإسلام فوق الجميع، ولكن متى يكون الإسلام فوق الجميع؟ إذا رجع المسلمون إلى الإسلام حقيقة، أما إذا لم يرجعوا إلى الإسلام حقيقة فيخشى أن يكون النصارى فوقهم، والواقع الآن مع الأسف الشديد هو هذا.

١٢ ـ إثبات يوم القيامة؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، ويوم القيامة هو اليوم الذي يبعث فيه الناس للجزاء إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر.

١٣ ـ إطلاق الفوقية على الفوقية المعنوية، يعني معناه أنهم يكونون فوق رؤوسهم فوقية معنوية، لا حسية، وفي هذا إثبات للفوقية المعنوية كالفوقية الحسية.

١٤ ـ أن مرجع الخلائق إلى ربهم عزّ وجل الذي ابتدأ خلقهم وستكون النهاية إليه؛ لقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾، ولا بد.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ [الانشقاق: ٦]، الإنسان ـ كل إنسان ـ مخاطب وليس فقط المؤمن: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ و(إلى) للغاية، أي النهاية إلى الله، ثم أكد هذه النهاية بقوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ يعني فاستعد لهذا اللقاء.

١٥ ـ إثبات حكم الله في الدنيا والآخرة ﴿فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾، هذا في الآخرة، وفي الدنيا: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ١٠]، فالحكم كله راجع إلى الله عزّ وجل، والله تعالى هو الحكم في الدنيا وفي الآخرة.

١٦ ـ بشارة المؤمنين بأن خلافهم مع الكفار سوف يجري فيه الحكم على يد الواحد القهار ﴿فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾، وقد أخبرنا الله عزّ وجل أن الخاصم الغالب هم المؤمنون، قال الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، الحمد لله، انظر (سبيلاً) نكرة في سياق النفي.

١٧ ـ ثبوت علو الله تعالى بذاته؛ لقوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، لأن الرفع معروف أنه الصعود إلى أعلى، فإذا قال: (إلي) علم يقيناً أن الله عزّ وجل فوق وهو كذلك، هو فوق كل شيء بذاته، ولا ينافي هذا ما ثبت من أنه **عزّ وجل ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر**[1]، هو النازل وهو عالٍ، ولا ينافي هذا أيضاً أنه مع الخلق كما قال عزّ وجل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥). ورواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).

مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، فهو مع الخلق وهو عالٍ عليهم كما قال شيخ الإسلام في الواسطية: «عليٌّ في دنوه، قريب في علوه». ولا ينافي هذا أيضاً أنه يأتي يوم القيامة للفصل بين العباد، فهو يأتي ولكنه فوق كل شيء، ولا ينافي هذا أنه **يدنو عشية يوم عرفة يباهي بأهل الموقف الملائكة**[1].

فإذا قال قائل: كيف لا ينافي هذا، أنا لا أتصور أن شيئاً يكون عالياً نازلاً أبداً.

قلنا: تبًّا لك، أنت لا تتصور هذا بالنسبة للمخلوق، أما بالنسبة للخالق فكل ما أخبر الله به عن نفسه فهو حق، حق لا يتناقض وليس فيه غير ممكن أبداً، إذا قلت: لا يمكن، معناه أنك لن تصدق أخبار الله ورسوله إلا إذا وافقت هواك وإلا فلا، ولهذا ضلَّ مَنْ ضلَّ من الناس في مثل هذه الأمور حيث قالوا: هذا غير ممكن، وهذا غير ممكن، وبنوا عقيدتهم على أهوائهم. إذا كنت تريد أن تبني عقيدتك على هواك فما الفائدة من الرسل؟ لا فائدة من الرسل، إذا كنت أنت تريد أن تبني العقيدة على ما تهوى أنت وإذا جاءت الرسل بكلام يخالف ما عندك ذهبت تحرِّفه، إذن لا فائدة من الرسل. ولهذا أنصح دائماً وأبداً وأكرر أن يقبل المسلم كل ما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله عزّ وجل.

ومن صفات اليوم الآخر أيضاً ـ لأنه في اليوم الآخر أشياء لا تكون في الدنيا ـ دُنُوُّ الشمس من الناس قدر ميل يوم القيامة، ولو كان في الدنيا لاحترقت الأرض ومن عليها، لكن أحوال

---

(١) رواه أحمد في مسنده، رقم (٧٠٤٩).

الآخرة شيء آخر، وأحوال الناس مختلفة، هذا في نور وهذا في ظلمة والموقف واحد. أما في الدنيا فغير ممكن لو أتيت بأدنى سراج معك لانتفع به مَنْ إلى جانبك، وفي الآخرة الناس يُعرفون على قدر أعمالهم، فمنهم من يلجمه العرق، ومنهم من إلى كعبيه والمقام واحد، فأمور الآخرة وأمور الغيب كلها لا يجوز لك أن تقيسها بما تشاهده في الدنيا؛ لأن القياس هنا ممتنع، فهو قياس مع الفارق لا سيما في صفات الخالق عزّ وجل، فإن الفارق بعيد بين صفات الخالق وصفات المخلوق، ولذلك حذار أن تقيسَ ما أثبت الله لنفسه من صفات جل وعلا بما تعرفه من صفات المخلوقين؛ فإنك ستضل لا محالة.

١٨ ـ أن مرجع الخلائق إلى الله نهايةً وحكماً، فإن الناس يبعثون يوم القيامة إلى ربهم حكماً يحكم بينهم.

١٩ ـ إثبات الجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾، وهذا حكم جزائي.

٢٠ ـ أن الخصومة تقع بين المؤمنين والكافرين في يوم القيامة؛ لقوله: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾، ويحتمل أن يقال: إن هذا حكم سبقت الخصومة فيه في الدنيا حيث كان الكفار والمنافقون يختصمون، ولكن الأول أقرب ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١].

٢١ ـ أن الاختلاف بين المسلمين والكفار اختلاف جوهري يحكم الله فيه بين هؤلاء وهؤلاء يوم القيامة، وأما الاختلاف بين المسلمين فيما مصدره الاجتهاد، فإنه لا يحكم بينهم؛ لأن المجتهدين وإن اختلفوا في الحكم فإنهم لم يختلفوا

في الحقيقة؛ لأن كل واحد منهم يعذر الآخر ولا يرى أنه مخالف له، وإن خالفه في القول والرأي لكنه لم يخالفه في المنهج والطريقة، كل واحد منهم يريد الحق ولكن اختلفوا في كيفية الوصول إليه.

٢٢ ـ إثبات علم الله؛ لقوله: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ إذ لا حكم إلا بعد علم، ولهذا قال النبي ﷺ: «**إنما أقضي بنحو ما أسمع**»(١).

ومن فوائد قول الله عزّ وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١ ـ إثبات العذاب للكافرين؛ لقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

٢ ـ ومن فوائدها: أن العذاب في الدنيا قد لا يكفي عن العذاب في الآخرة بالنسبة للكفار، أو نقول: إن العذاب في الدنيا لا يغني عن العذاب في الآخرة بالنسبة للكفار؛ لقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾، ولهذا يعذب الكفار في الدنيا ويهزمون ويؤسرون، وتسبى ذريتهم ونساؤهم، وتغنم أموالهم، وهذا عذاب عظيم ومع ذلك لا ينجون من عذاب النار.

٣ ـ إثبات الجزاء؛ لقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ﴾.

٤ ـ أن الجزاء من جنس العمل، فكلما كان العمل أسوأ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب موعظة الإمام للخصوم، رقم (٧١٦٩).

كان الجزاء أشد، ولهذا قال: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

٥ ـ أن العذاب ـ عذاب الكافرين ـ يكون في الدنيا ويكون في الآخرة، فأما عذاب الدنيا فبالأسر والقتل والزلازل والفيضانات وما أشبه ذلك، قال الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، وهذا يكون بالقتل والأسر، وأما العذاب بالزلازل وشبهها فكقوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠، ١١]، هذا عذاب من الله عزّ وجل، والأول عذاب بأيدي المؤمنين.

٦ ـ أن الكفار لا ناصر لهم من عذاب الله، لا أحد يمنعهم؛ لقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، أما في الآخرة فظاهر؛ لأن الشفاعة لا تنفع فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وأما في الدنيا فكذلك لأن هؤلاء الكفار إذا عذبوا بأيدي المؤمنين فالمقاتلة منهم يقتلون، والنساء والذرية يسبون، والأموال والأراضي تغنم، وهذا لا ناصر لهم فيه.

فإذا قال قائل: أليس الإمام يخير في الأسرى بين أمور أربعة: إما القتل أو الفداء بمال أو بأسير مسلم، أو بالاسترقاق يجعله رقيقاً يباع ويشترى، أو بالمنّ مجاناً، ولا إشكال في الأشياء الثلاثة الأولى، وإنما الإشكال في الأخير وهو المن وهذا ليس بعذاب.

فالجواب على ذلك نقول: إنه لا يجوز للإمام أن يختار واحدة من هذه الأربع إلا حيث يرى للمسلمين فيها مصلحة. فالتخيير هنا تخيير مصلحة وليس تخيير تشهٍ واختيار، وإذا كان للمسلمين مصلحة فلا بد أن يكون هذا عذاباً على الكافرين، فلأن

كل شيء فيه مصلحة للمسلمين ففيه عذاب للكافرين، وعلى هذا فلا ناصر لهم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

٧ ـ بلاغة القرآن وحكمة القرآن، بلاغته في الإتيان بالمعاني متقابلة؛ لأن الإتيان بالمعاني المتقابلة توجب نشاط الإنسان حيث ينتقل الذهن من معنى إلى ما يقابله، فيزداد نشاطاً وشغفاً. وأما من جهة كمال البلاغة فلأن المعاني إذا تنوعت على وجوه التقابل ازداد اللفظ حسناً، وهذا معروف عند علماء البلاغة باسم علم البديع، وفيه أيضاً تربية للنفس؛ لأن النفس إذا سمعت عقاب الكافرين خافت ووجلت وربما يستولي عليها اليأس، فإذا جاء ثواب المؤمنين طمعت ورجت فصار سيرها إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء.

٨ ـ أن وفاء الأجر مرتبط بوصفين: الإيمان، والعمل الصالح.

فالإيمان وحده لا يكفي، بل لا بد من عملٍ صالحٍ ينمّي هذا الإيمان ويشهد بصحته، أما مجرد العقيدة فإنها لا تكفي، على أن العقيدة إذا كانت سليمة استلزمت العمل الصالح؛ لقول الرسول ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[1].

٩ ـ أن العمل لا ينفع إلا إذا كان صالحاً، والعمل الصالح ما جمع وصفين:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢). ورواه مسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩).

أ ـ الإخلاص لله. ب ـ المتابعة لرسول الله ﷺ.

أي: ما كان خالصاً صواباً كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله.

١٠ ـ منّة الله سبحانه وتعالىٰ على عباده حيث جعل هذا الجزاء كالأجور اللازم وفاؤها؛ لقوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾، والفرق بين التعبيرين ظاهر، هناك قال: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، وهنا قال: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

١١ ـ إثبات المحبة لله؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، فإن قال قائل: كيف تستدلون على إثبات المحبة بنفي المحبة لأنه قال: ﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، فالجواب: أن نفي المحبة عن الظالمين دليل على ثبوتها لغيرهم، ولو كانت منتفية عن الجميع لم يكن لتخصيصها بالظالمين فائدة، ولهذا استدل الشافعي رحمه الله على ثبوت رؤية المؤمنين لله بقول الله تعالى عن الفجار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وقال في وجه الاستدلال: ما حجب أعداءه عن رؤيته في الغضب إلا لثبوت رؤية أوليائه له في الرضا، وهذا واضح.

١٢ ـ شؤم الظلم على الإنسان، وأنه سبب لانتفاء محبة الله له، وإذا انتفت محبة الله للعبد فقد هلك.

١٣ ـ أن الظلم من كبائر الذنوب؛ لأنه رتّب عليه وعيد وهو انتفاء محبة الله سبحانه وتعالىٰ، ولكن الظاهر أن هذا ليس على سبيل الإطلاق بل الظلم يكون كبيرة ويكون صغيرة؛ لأن جميع المعاصي ظلم، ومن المعاصي ما هو كبير ومنها ما هو صغير.

١٤ ـ ومن فوائد الآية مع التي قبلها: التنوع في الأسلوب وهو الانتقال من ضمير التكلم إلى ضمير الغيبة ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ﴾ وهنا قال: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ فهل هناك فرق من حيث المعنى؟.

الجواب: نعم هناك فرق من حيث المعنى، أما اللفظ فظاهر، ففيه التفات من ضمير التكلم إلى ضمير الغيبة، لكن نريد الفرق في المعنى.

الفرق في المعنى أن العذاب عقوبة تستدعي سلطة وقهراً وعزة، فكان الأنسب التعبير بـ (أُعذِّب) الدالة على قوة السلطان، أما هذه فكأن الله سبحانه وتعالىٰ للتودد مع هؤلاء وبيان فضلهم قال: (فيوفيهم أجورهم) ولم يسند الإيفاء إلى نفسه ليعطيهم شيئاً من الشكر على عملهم؛ لأن هناك فرقاً بين أن تخاطب الإنسان بالتعبير عن فعلك به بضمير التكلم وأن تعبر بضمير الغيبة؛ لأن المواجهة أشد من الغيبة، وتأمل قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ١ ـ ٣]، فقال: (عبس) ولم يقل: (عبست) وقال: (وما يدريك) ولم يقل: (وما أدراه) أو (وما يدريه) فهذه ـ والله أعلم ـ الحكمة من أنه جاء التعبير بالعذاب بالفعل مسنداً إلى ضمير المتكلم بخلافه الجزاء، ويدل لهذا الاعتبار قوله تعالى في سورة الرحمٰن: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فجعل فعلهم إحساناً يشكرون عليه ويحسن إليهم بسببه مع أن الإحسان كله من الله، فإن التوفيق للعمل الصالح من إحسان الله إلى العبد، لكن هذا من كمال رحمة الله عزّ وجل وثوابه وجزائه، قال تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]، فصار في تغيير الأسلوب في الآيتين فائدتان: لفظية ومعنوية، اللفظية هو

الالتفات الذي يوجب الانتباه، والمعنوية هو إظهار السلطة والعظمة والعزة في باب التعذيب، وإظهار الفضل والإحسان للعاملين في باب المثوبة.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

١ ـ أن الله عزّ وجل تكلم في القرآن فقال: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾، إذ كانت التلاوة لله حقيقة ونقلها جبريل إلى الرسول ﷺ، ويحتمل أن تكون التلاوة لجبريل لكن لما كان جبريل رسولاً لله نسب فعله إلى الله فهو كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٨]، ومعلوم أن الذي يقرؤه جبريل.

٢ ـ أن القرآن الكريم آية بل آيات كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، آيات عظيمة، فآياته كثيرة كل آية فيها عدة آيات، ولكن لا يفهم هذه الآيات إلا من فتح الله له قلبه بالإيمان والعمل، واعتقد أن هذا القرآن كلام الله وأن فيه آيات بينات، أما الذي تمر عليه مثل هذه الجملة من الآيات مرَّ الكرام، ولا يتحرك بها قلبه، ولا يتأمل هذه الآيات؛ فإنه لا ينتفع بما في القرآن من الآيات، لا بد أن تؤمن بأن فيه آيات وأن تحاول استخراج هذه الآيات بالتدبر، والإنسان إذا تدبر القرآن وجد فيه آيات عظيمة لا يحصيها البشر.

٣ ـ أن القرآن ذِكْرٌ، لكن هل هو ذكر يتقرب إلى الله به أو هو ذكر يتذكر به الإنسان؟ ذكرنا أن المعنى شامل لهذا وهذا، فهو ذكر يقرب إلى الله لأن من تلاه فله بكل حرف عشر حسنات،

وهو ذكر يتذكر به الإنسان.. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، قيل: هو ذكر رفع الله به شأن الذين تمسكوا به كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وكقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، أي: شأنك أعليناه، وعلى هذا فيكون للذكر ثلاثة معان:

أ ـ ذكر يتقرب به إلى الله بتلاوته.

ب ـ وذكر يتذكر به الإنسان.

ج ـ وذكر يعني شرفاً لمن تمسك به.

٤ ـ وصف القرآن العظيم بهذا الوصف العظيم وهو الحكمة والذكر الحكيم، والحكيم هنا بمعنى الحاكم والمُحْكم؛ لأن القرآن حكم بين الناس ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، أي: إلى كتابه، فهو حَكَم، وهو أيضاً محكم متقن ليس فيه اختلاف ولا اضطراب ولا تناقض.

٥ ـ أنه لا يوجد حكم دلَّ عليه القرآن إلا وهو في موضعه اللائق به، من أين يؤخذ؟ من الحكيم؛ لأن الحكيم هو الذي يضع الشيء في مواضعه، فكل حُكم حَكم به القرآن فإنه في موضعه لا يقول العاقل: ليته لم يحكم به، أبداً سواء كان ثبوتياً أو سلبياً.

٦ ـ فضيلة الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾، فخصه ﷺ بالتلاوة عليه لأنه ﷺ أشرف من يتلقى القرآن، وأقوم الناس عملاً به، فكأنه هو المخصوص بالتلاوة عليه ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾.

❁ ❁ ❁

□ قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦١].

لقد مرَّ علينا أن هذه الآيات نزلت حين قدم وفد نجران إلى رسول الله ﷺ وكانوا نصارى، وكان قدومهم في سنة تسعة من الهجرة؛ لأن تلك السنة كثر فيها الوافدون إلى رسول الله ﷺ، ولهذا تسمى سنة الوفود، وهذا أحد الأسباب التي منعت النبي ﷺ أن يحج في العام التاسع مع أن مكة قد فتحت.

قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾، يعني شأنه ـ أي شأن عيسى ـ عند الله كشأن آدم لا يختلف عنه، فكما أننا متفقون على أن آدم خلقه الله عزّ وجل من غير أب ولا أم ـ والنصارى يؤمنون بهذا ـ فما بال النصارى يقولون: كيف خلق الله عيسى بلا أب ما هو إلا ابنه، نعوذ بالله.. فقالوا: إنه ابن الله جزء منه، ولم يقولوا: إن آدم ابن الله مع أنه لو كان أحد يدعي البنوة في أحد من البشر لكان الأحق بها آدم؛ لأنه ليس له أم ولا أب.. أما عيسى فله أم، والأم أحد الوالدين، فإذا كنا نقول: لا يمكن أن يوجد أحد من أب بلا أم، أو من أم بلا أب فلنقل: ولا أحد يوجد بدون أم ولا أب، فأنتم أيها النصارى أقررتم بأن آدم ليس ابناً لله فيلزمكم أن تقروا بأن عيسى ليس ابناً لله؛ لأن مثل عيسى كمثل آدم. ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾، خلقه يعني ابتدأ خلقه من تراب، وضمير المفعول في خلقه يعود على آدم؛

لأنه هو المخلوق من التراب، خلقه أي: خلق آدم من تراب ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

نحن قلنا: ابتدأ خلقه ثم قال: كن، والأمر هذا لتمام الخلق، وإنما قلنا ذلك لئلا يقول قائل: كيف تكون كلمة (كن) بعد الخلق؟ لأن الترتيب العقلي يقتضي أن تكون كلمة (كن) قبل الخلق، كن فكان؟ فنقول: إن معنى خلقه أي: ابتدأ خلقه من تراب ثم قال له: كن بشراً فكان بشراً، وهل هذا القول (كن) قول قدري أو شرعي؟ قول قدري، والقول القدري لا يتخلف عنه المقول؛ لأنه أمر حتمي بخلاف القول الشرعي، فإن من الناس من يستكبر عنه، يقول الله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] فيقول: لا، لا أقيم الصلاة. أما القول الكوني فإنه لا مرد له ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ولم يقل: فكان، على حكاية الحال يعني لمّا قال: كن فعلاً شرع بالكينونة حتى تمت.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ في هذه الآية بيان إقامة الحجة بمثل ما يحتج به الخصم؛ لأنه أقام الحجة على النصارى بمثل ما احتجوا به، فقال: إذا قلتم: إن عيسى ابن الله؛ لأنه خلق بلا أب، فقولوا: إن آدم ابن الله، وإلا فأنتم متناقضون.

٢ ـ بيان قدرة الله سبحانه وتعالىٰ حيث خلق آدم من غير أم ولا أب، وخلق عيسى من أم بلا أب، وهناك أيضاً صنفان آخران: من خلق من أب بلا أم وهي حواء، ومن خلق بين أب وأم وهم سائر البشر.

٣ ـ إثبات القياس، من أين يؤخذ؟ ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾، وكل

مثل مضروب في القرآن فإنه دليل على ثبوت القياس؛ لأنه إلحاق المورد بالمضروب، يعني أنك ألحقت الممثل بالممثل به.

٤ ـ إثبات القول للرب عزّ وجل؛ لقوله: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ﴾.

٥ ـ أن قول الله بصوت مسموع وبحروف مرتبة؛ لقوله: ﴿قَالَ لَهُۥ كُن﴾، فسيسمع هذا القول بحرف مرتب.

٦ ـ إثبات صفة الخلق لله (خلقه) والخلق صفة ذاتية أو فعلية؟ فعلية، من الصفات الفعلية لكن قد مرَّ علينا أن جنس الصفات الفعلية ذاتية؛ لأن الله لم يزل ولا يزال فعّالاً.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال الله عزّ وجل: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠].

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، الحق: خبر المبتدأ المحذوف والتقدير (ذلك الحق) أي: هذا الذي قصَّ عليك هو الحق، وعلى هذا تكون شبه الجملة وهي ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تكون في موضع نصب على الحال من الحق، ويحتمل على بُعدٍ أن يكون ﴿ٱلْحَقُّ﴾ مبتدأ و﴿مِن رَّبِّكَ﴾ خبره. وفائدة هذا التركيب على هذا الإعراب: أنك لا تطلب الحق من غير الله، فكأنه يقول: مصدر الحق من الله فلا تطلبه من غيره، الحق يوصف به الحكم ويوصف به الخبر، فإن وصف به الحكم صار معناه العدل، وإن وصف به الخبر صار معناه الصدق، والصدق والعدل كلاهما ثابت، ولهذا وصفا بالحق، وأصل الحق من حقَّ الشيء إذا ثبت كما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣]، حقت: يعني ثبتت، إذن في إعرابها وجهان.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الله تعالى لا يصدر منه إلا الحق ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

٢ ـ فضيلة رسول الله ﷺ بإضافة الربوبية إليه، وذلك لأن الربوبية هذه خاصة، والربوبية الخاصة تفيد معنى أخص من الربوبية العامة.

٣ ـ النهي عن الشك فيما أخبر الله به؛ لقوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

٤ ـ أن الممترين كثيرون؛ لقوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، وإن كان يحتمل أن يراد به الجنس فيصدق بواحد، لكن الظاهر الأول، ولا شك أن الممترين من بني آدم كثيرون؛ لأن ذرية بني آدم منهم تسعمائة وتسع وتسعون كلهم من أهل النار.

٥ ـ جواز التعريض، أو جواز المخاطبة بالتعريض؛ لأن قوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، لا يعني أن الرسول يمكن أن يكون منهم، بل هو تعريض بهؤلاء وأنهم ذوو خلق سيئ، فلا تكن منهم وإن كان هو ليس منهم لا باعتبار الواقع ولا المستقبل.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

﴿حَآجَّكَ﴾ أي: جادلك، وسميت المجادلة محاجة؛ لأن كل واحد من المتجادلين يدلي بحجته من أجل أن يخصم الآخر ويحجه، ومنه الحديث: «**تحاجَّ آدم وموسى**»[1]، أي: طلب كل

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد، =

واحد منهما أن يَحُجَّ الآخر، وأيهما الذي حجَّ؟ آدم، حاجك إذن بمعنى جادلك، وسميت المجادلة محاجة؛ لأن كل واحد من المتجادلين يدلي بحجته ليغلب الآخر.

وقوله: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾، (مَنْ) هذه شرطية، وجواب الشرط ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ﴾.

وقوله: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾، الضمير يعود على عيسى والمراد بالمحاجة في عيسى ليس في ذاته؛ لأن عيسى معلوم أنه بشر لكن في شأنه وقضيته.

وقوله: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ مَنْ الذي يمكن أن يحاجَّ النبي ﷺ في عيسى؟ هم النصارى، وهذه الآية وما قبلها كلها نزلت في وفد نجران من النصارى.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: يعني بعد أن علمت قضيته وشأنه وتيقنت، فالذي يحاجك فيه ادعه للمباهلة.

وفي قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، أتى بـ(من) الدالة على أن النبي ﷺ أمر بالمباهلة بعد أن تروى من العلم؛ لأن ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ تدل على أن هناك مهلة بين العلم الذي جاءه وبين المحاجة التي وقعت، بخلاف لو قال: (فمن حاجك فيه بعدما جاءك)، فإنها تفيد البعدية لكن لا تدل على التراخي والمباعدة، ومعلوم أن الإنسان كلما تمعن في النظر فيما علم ازداد به علماً ويقيناً.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، عن أي طريق؟ عن

= رقم (٣٤٠٩). ورواه مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسىٰ عليهما السلام، رقم (٢٦٥٢).

طريق الله عزّ وجل، فإن الله تعالى أوحى إلى نبيه محمد ﷺ في شأن عيسى من العلم ما لم يكن عند غيره، فقال تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا﴾، قلنا: إن (قل) جواب الشرط. (وتعالوا) فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل. وفيه إشكال؛ لأن (تعالوا) جمع و(من حاجك) مفرد فكيف صحَّ أن يكون الجمع عائداً على مفرد؟

الجواب: أن الأسماء الموصولة وأسماء الشرط المشتركة التي تصلح للمفرد وغيره يجوز في العائد إليها أن يعود إليها باعتبار اللفظ، وأن يعود إليها باعتبار المعنى، فإن عاد إليها باعتبار اللفظ صار مفرداً، وباعتبار المعنى صار جمعاً، ولا فرق بين أن يكون هذا الجائز في كلام واحد أو في كلامين، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الطلاق: ١١].

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾.

كيف قال: ندع، ولم يقل: أدع؟ نعم لم يقل ذلك لأنهم إذا جاءوا معه صاروا جماعة.

﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾.

هذه الآية كما ترون بصيغة الجمع ﴿أَبْنَآءَنَا﴾ والرسول واحد عليه الصلاة والسلام ﴿وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ هم جماعة لا بأس ﴿وَنِسَآءَنَا﴾، الرسول واحد ولم يقل: نسائي ﴿وَنِسَآءَكُمْ﴾ جماعة واضح. ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ الرسول واحد وهم عدة أنفس؟

اختلف المفسرون في ذلك، فقال بعض المفسرين: المراد بقوله: ﴿أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾، المراد بأبنائنا الحسن والحسين، ﴿وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ﴾، المراد بنسائنا فاطمة بنت الرسول ﷺ ﴿وَأَنفُسَنَا﴾ المراد بالأنفس علي بن أبي طالب، فيكون العدد أربعة

﴿أَبْنَآءَنَا﴾ الحسن والحسين، ﴿وَنِسَآءَنَا﴾ فاطمة، ﴿وَأَنفُسَنَا﴾ علي بن أبي طالب، أما هؤلاء النفر الوافدون فليس معهم نساء وليس معهم أولاد، كلهم رجال بالغون عاقلون، إما أربعة عشر أو اثنان، المهم أنهم رجال ليس معهم أحد. وقال بعض أهل العلم: المراد ندع نحن المسلمين أبناءنا، يعني أبناء المسلمين، يعني ننتخب طائفة منا تأتي هي وأبناؤها ونساؤها وأنتم كذلك تنتخبون جماعة يأتون بأبنائهم ونسائهم وأنفسهم نجتمع ونبتهل. وهذا القول لا شك أنه موافق تماماً لظاهر الآية؛ لأن الآية بصيغة الجمع، والعادة جرت بأن التباهل وكذلك التفاخر وغيره يكون بين جماعات. وقد ذهب إلى هذا محمد رشيد رضا في «تفسيره» وهو لا شك تفسير مطابق لظاهر الآية تماماً، لكن أكثر المفسرين يختارون القول الأول أن المراد بأبنائنا الحسن والحسين، ونسائنا فاطمة، وأنفسنا علي بن أبي طالب؛ لحديث ورد في ذلك، والمسألة لا توافق ظاهر الآية، يعني هذا القول لا يوافق ظاهر الآية، أولاً: أن أبناء جمع ونساء جمع، وإذا قلنا: الحسن والحسين صار اثنين، ابنان لجمع أو لواحد؟ لواحد، أيضاً النساء لم يرد في اللغة العربية أن المراد بالنساء: البنات، المراد بالنساء في اللغة العربية الزوجات، وأيضاً أنفسنا كيف يعبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن علي بن أبي طالب بنفسه ولا يعبر عن الحسن والحسين بنفسه، أيهما أقرب؟ الحسن والحسين حتى إن الحسن سماه الرسول ابنه فقال: «**إن ابني هذا سيد**»[1] ولهذا ظاهر الآية لا يطابق هذا التفسير، وقد زعم محمد رشيد رضا أن تفسيرها

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلح، باب قول النبي ﷺ للحسن، رقم (٢٧٠٤).

بالأربعة من تفسير الرافضة، وقال: إن الآية لا تنطبق عليهم، لكن الحديث الوارد في ذلك يدل على أن لها أصلاً، ولا شك أن آل البيت يدخل فيهم هؤلاء الأربعة، لكن انطباقه على الآية في النفس منه شيء.

على كل حال المسألة انتهت، لكن ما المراد بالأنفس والأبناء والنساء؟ المراد أنهم يريدون أن يجمعوا جماعة معهم أبناؤهم ونساؤهم وأنفسهم، وهذا أعز ما يكون عند الإنسان في الدنيا، هذا أعز ما يكون، نفسه، أبناؤه، زوجاته يحضرون، ويحضر الخصم أيضاً نفسه وأبناؤه ونساؤه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ إثبات أن ما جاء به الرسول ﷺ حق، لأن الله أمره أن يلتعن مع هؤلاء.

٢ ـ أنه لا تجوز المباهلة إلا بعلم يقيني، أما إذا كان الإنسان شاكًّا فلا يجوز له؛ لقوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾.

٣ ـ جواز طلب المباهلة عند عناد الخصم؛ لقوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ﴾ [آل عمران: ٦٤].

٤ ـ أن من آداب الالتعان إحضار النساء والأولاد؛ لأنه أشد خوفاً للنساء في المباهلة.

٥ ـ جواز الدعاء بالله على من خالف الحق لكن بالوصف لا بالشخص؛ لأن الكاذبين وصف، أما الشخص فلا يجوز الدعاء عليه حتى لو كان كافراً؛ لأن النبي ﷺ لما دعا على أبي جهل وغيره من كبار قريش نهاه الله عن ذلك.

٦ ـ جواز المباهلة لكن اشترط العلماء لجواز المباهلة شرطين: الشرط الأول: العلم، والثاني: أن تكون في أمر هام، أما الأمور التي ليست بهامة فلا ينبغي للإنسان أن يعرّض نفسه للخطر.

٧ ـ هل يستفاد من الآية الكريمة جواز انغمار الشخص في العدو في باب المقاتلة؛ لأن هذا الإنسان الذي علم أن الحق معه وجاز أن يلتعن فيما قد يكون سبباً لهلاكه، فلما كان على حق وأجزنا له أن يدخل في هذا الأمر لأنه يخشى أن يكون كاذباً فتنطبق عليه اللعنة، ربما يؤخذ لكن مأخذه بعيد.

❁ ❁ ❁

❑ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦٢].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ﴾.

هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: المؤكد الأول: (إنَّ)، لأن إنَّ للتوكيد، والمؤكد الثاني: (اللام)، والمؤكد الثالث: (هو)، لأن هو ضمير فصل، وضمير الفصل له ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: الحصر.

الفائدة الثانية: التوكيد.

الفائدة الثالثة: الفرق بين الصفة والخبر.

يتضح ذلك بالمثال، فإذا قلت: (زيد هو الفاضل) هنا (هو) ضميرُ فصل أفادت الفوائد الثلاث، أفادت الحصر، حصر الفضل في زيد، وأفادت التوكيد؛ لأن قولك: زيد الفاضل أقل من

قولك: زيد هو الفاضل في توكيد الأفضلية، وأفادت الفرق بين الصفة والخبر لأنك لو قلت: (زيد الفاضل) تَشَوَّفَ المخاطب إلى خبر، وإذا قلت: زيد هو الفاضل علم أن كلمة الفاضل هي الخبر وهنا لو كانت: (هذا القصص الحق) لاستقام الكلام ولكن تفوت هذه المؤكدات الثلاث.

وقوله عزّ وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المشار إليه ما ذكره الله في شأن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، وتعرفون أن الله تعالى تحدث عن عيسى ابن مريم في هذه الآيات حديثاً مسهباً طويلاً عنه وعن أمه.

وقوله: ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾، القصص: مصدر قصَّ يقصُّ قصًّا وقصصاً، ولكنه هنا يحتمل أن يكون مصدراً بمعنى الفعل، ويحتمل أن يكون مصدراً بمعنى اسم المفعول أي: إن هذا لهو المقصوص الحق، وسواء قلنا بهذا أو بهذا فالمؤدى واحد، فإن هذا القصص الحق، والحق هنا صفة للقصص، والحق إن قيل في مقابلة الحكم فهو بمعنى العدل، وإن قيل في مقابلة الخبر فهو بمعنى الصدق؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

هذه الجملة أيضاً كما نرى فيها حصر وفيها توكيد، أما الحصر فطريقه النفي والإثبات، النفي في قوله: (ما) والإثبات في قوله: ﴿إِلَّا﴾ وأما التوكيد ففي قوله: ﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾ لأن (من) حرف جر زائد من حيث الإعراب لكنه يزيد المعنى، ماذا يزيد المعنى؟

يزيد المعنى توكيداً، ولهذا نقول: إن الحروف الزائدة في

القرآن الكريم هي زائدة، زائدة من حيث الإعراب، زائدة من حيث المعنى، أي: أنها تفيد معنى زائداً على ما لو لم تكن موجودة.

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، إله بمعنى: مألوه، والمألوه هو المعبود محبة وتعظيماً، ولا يصدق هذا حقًّا إلّا على الله عزّ وجل، وكلمة (إله) هنا على وزن فعال ولكنها بمعنى مفعول، والكلمة هذه ـ يعني إله بمعنى مألوه أو فعال بمعنى مفعول ـ كثيرة في اللغة العربية؛ كالغراس والبناء والفراش والوطاء وما أشبه ذلك، غراس بمعنى: مغروس، وبناء بمعنى: مبني، وفراش بمعنى: مفروش، وإله بمعنى: مألوه، فما معنى المألوه؟ قلنا: هو المعبود محبة وتعظيماً.

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، (إلا) هذه أداة استثناء، والجملة التي قبلها فيها شيء محذوف تقديره: وما من إلهٍ حقّ إلا الله، وعلى هذا فنعرب كلمة (الله) بدلاً من الخبر المحذوف الذي تقديره (وما من إله حق إلا الله) إلا الله يعني: خالق السموات والأرض عزّ وجل، فعيسى ليس بإله، وأمه ليست بإله، وجبريل ليس بإله، وميكائيل ليس بإله، ولا أحد يستحق هذا الوصف إلا خالق السموات والأرض عزّ وجل، ولهذا قال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

الحكيم مشتقة من الحكم والإحكام، وكل عزيز إذا اقترن في عزته الحكمة والحكم كملت عزته، وذلك لأن العزيز إذا غلب ولم يكن له حكمة أدته غلبته إلى الطيش وعدم ضبط النفس، فإذا

اجتمعت العزة والحكمة كمل الموصوف بهما. إذن أقول: الحكيم من الحكم والإحكام، فهو سبحانه وتعالىٰ الحاكم ولا حاكم غيره، وهو المحكم أي المتقن لما حكم به سواء كان الحكم كونياً أو شرعياً، والحكمة أو الإحكام الذي بمعنى الإتقان هو وضع الشيء في موضعه اللائق به بحيث لا يقال: إن هذا غير لائق أو هذا غير موافق، بل يكون موافقاً مطابقاً لما تقتضيه المصلحة، إذن الحكيم مشتق من الحكم والإحكام. ثم نقول: الحكم نوعان: حكم كوني، وحكم شرعي.

فالحكم الكوني: ما قضى به الله قدراً.

والحكم الشرعي: ما قضى به شرعاً.

والفرق بينهما ظاهر؛ الحكم الشرعي يتعلق فيما يحبه الله عزّ وجل فعلاً أو تركاً، فإن نهى عن شيء فهو يحب تركه، وإن أمر بشيء فهو يحب فعله. ويمكن أن يتخلف الحكم الذي حكم الله به، هذا الحكم الشرعي.

أما الحكم الكوني فيتعلق فيما يحبه وما لا يحبه، ولا يمكن أن يتخلف، لا بد أن يكون.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تأكيد أن ما أخبر الله به عن عيسى ابن مريم هو الحق، ويتفرع من هذه القاعدة أن كل ما خالفه مما تكلمت به النصارى في شأن عيسى فهو كذب باطل لا يوافق الواقع.

٢ ـ أن من بلاغة الكلام أن يكون مطابقاً للواقع أو موافقاً لمقتضى الحال، وجه ذلك أن هذه الجملة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾، أكدت بثلاثة مؤكدات؛ لأن المقام يقتضي هذا، إذ إن

دعاية النصارى قوية لا يبطلها إلا كلام مؤكد، إما باللفظ وإما بالحال، يعني إما بالمقال وإما بالحال، وهكذا ينبغي لكل إنسان أن يتكلم بكلام تقتضيه الحال، فإن كانت الحال تقتضي أن يكون الكلام مؤكداً فإن مقتضى البلاغة أن يؤكد.

٣ ـ أن القصص قد يكون حقًّا وقد يكون باطلاً، القصص من حيث هو، بِغَضِّ النظر عن القاص، قد يكون حقًّا وقد يكون باطلاً كذباً، ويؤخذ هذا من وصف القصص بالحق؛ لأن الأصل في الصفة أن تكون لِما عدا الموصوف، هذا هو الأصل، ولهذا لو جاءت صفة غير مخرجة لما سوى الموصوف يسمونها صفة كاشفة لا مانعة.

٤ ـ أنه لا إله في الوجود إلا الله، ولكن يراد لا إله حق، ويتعين أن يكون ذلك هو المراد لأن هناك آلهة باطلة موجودة تعبد من دون الله وتسمى آلهة، وينكر حصر الآلهة بواحد، قالت قريش في مخاطبتها للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٤، ٥]، الله أكبر، العُجاب أن تكون الآلهة إلهاً واحداً أو تكون آلهة متعددة؟!

٥ ـ أن في سلامة العقيدة الراحة التامة؛ لأنك إذا سلمت عقيدتك وآمنت بأنه ما من إله إلا الله، فإنك لن تتجه إلى من سوى الله، ولا شك أن هذا راحة، انحصار الهدف والمقصود من أكبر أسباب راحة الإنسان، وإذا تعددت الأهداف والمقاصد تبلبل الإنسان، ولهذا يذكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: **(من بورك له في شيء فليلزمه)**[1]، أي شيء يبارك لك فيه، وترى

---

(١) رواه ابن ماجه من حديث أنس وعائشة رضي الله عنهما.

أنك مطمئن إليه سواء كان سيارة أو بيتاً أو زوجةً أو صاحباً فالزمه، فإنه خيرٌ مِنْ أن تنتقل إلى غيره، بعض الناس يقول: أقرأ اليوم زاد المستقنع، وغداً المنتهى، وبعده الإقناع، وبعده المهذب، وبعده المدونة لمالك، كل يوم له كتاب، فهذا يفوت عليه الوقت ولا يستفيد شيئاً لماذا؟ لأن الهدف لم يتحدد، وهكذا هؤلاء المشركون أيضاً، هذا يعبد اللات، فإذا لم تنفع راح للعزى، وإذا لم تنفع لمناة، وإذا لم ينفع عجن عبيطاً من التمر وجعله إلهاً، وإذا لم تنفع راح للشمس أو القمر.

وعلى كل حال إذا كانت العقيدة سليمة بأن لا يتجه الإنسان إلا إلى الله، ولا يعبد إلا الله، فإنه يجد الراحة التامة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وفي هذا ردّ على النصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، لأنه قال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، والعجيب أنه من سفه النصارى وضلالهم أنهم يقولون: الآلهة ثلاث لكنها واحد، كيف ثلاث وواحد؟ هل يمكن أن يكون الثلاثة واحداً؟ إذا جعلت الثلاثة واحداً صار الإله الأول ثُلُثاً، والإله الثاني ثُلُثاً، والإله الثالث ثُلُثاً، أما أن يكون كل واحد مستقلاً ثم نقول: هم واحد، فهذه مكابرة وضلال.

٦ ـ إثبات العزة بل تمام العزة لله؛ لقوله: ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، و(ال) هنا تفيد الاستغراق، أي: جميع أنواع العزة ثابتة لله سبحانه وتعالىٰ، وفيه إثبات الحكمة لله في قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ وإثبات الحكم أيضاً، فيتفرع على هذا أنه لا حاكم إلا الله، الحكومة السلطانية القدرية والحكومة الشرعية هي لله وحده، فمن سيطر على الخلق بالحكم السلطاني ولم يراقب الرب فقد

شارك الله أو فقد جعل نفسه شريكاً مع الله في هذا الحكم، ومن شرع للناس قوانين مخالفة لشرعه فقد جعل نفسه شريكاً مع الله، واتخذ لنفسه منصباً لا يستحقه؛ لأن الذي يشرع ويحكم هو الله عزّ وجل: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ﴾، لا سواه، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ويتفرع على هذا أيضاً أن واجبنا نحو أحكام الله الكونية والشرعية التسليم والرضا والقناعة وأن لا نطلب سواها؛ لأننا نعلم أنها مبنية على الحكمة، ولهذا كان السلف الصالح رضي الله عنهم بل كل مؤمن إذا قضى الله ورسوله أمراً لم يكن لهم الخيرة من أمرهم، حتى إنهم يجيبون إذا سئلوا عن الحكمة بقال الله وقال رسوله، **عائشة رضي الله عنها لما سألتها المرأة: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ قالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة**[1]، والمؤمن حقًّا، والعابد حقًّا هو الذي يقتنع بما لا يعرف حكمته كما يقتنع بما يعرف حكمته، هذا هو المؤمن حقًّا، أما الذي لا يقتنع بحكم الله إلا إذا عرف حكمته فهو في الحقيقة ليس عابداً لله على وجه الكمال، بل هو عابد لهواه، إن تبينت له الحكمة اقتنع، وإن لم تتبين لم يقتنع، ولهذا نرى أن في إيجاب رمي الجمرات ـ وهي الحصى ـ في مكان معين نرى أن فيها مع إقامة ذكر الله عزّ وجل الذي نصَّ عليه الرسول ﷺ تمام العبودية وكمالها؛ لأن كون الإنسان يحمل حصى يرميها في مكان معين تعبداً لله هو من كمال العبودية، أما كون الإنسان ـ مثلاً ـ يصلي أو يتجنب الزنى خوفاً من الله،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥).

ورجاءً لثوابه في الصلاة فهذا واضح الحكمة فيها، لكن كونه يرمي حجرات ـ حصيات ـ في مكان معين قد لا تتضح الحكمة فيها لولا أن الرسول ﷺ بيّن أنها لإقامة ذكر الله وفيها تمام العبودية.

فالمهم أنك متى آمنت أن الله له الحكمة في حكمه الكوني والشرعي، ازددت قناعة وحكمة بما حكم به. أما الحكم الكوني فسترضى به أو سينفذ عليك سواء رضيت أو لم ترضَ، لكن الشأن كل الشأن في الحكم الشرعي الذي هو باختيارك، أما الكوني فليس باختيارك، سيكون عليك مهما كان الأمر.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: ٦٣].

قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، الضمير يعود على هؤلاء النصارى الذين طلب منهم الرسول ﷺ المباهلة يقول: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦٢]، وسبق أنهم ابتعدوا عن المباهلة؛ لأنهم يعلمون أنهم لو باهلوا لأخذهم العذاب؛ لأن الرسول ﷺ حق وهم على باطل، يقول الله عزّ وجل: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، يعني عن المباهلة وعن اتباعك يا محمد فإنما هم مفسدون، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾، ولم يقل: عليم بهم، بل أظهر في موضع الإضمار، والإظهار في مواضع الإضمار له فوائد:

الفائدة الأولى: التسجيل أو انطباق الوصف في هذا المظهر على من يعود عليه، يعني هذا الوصف الذي جعل في موضع الضمير ينطبق على مرجع الضمير، فكأنه قال: فإن تولوا فإن الله عليم بهم، لكن وصفهم بالفساد.

الفائدة الثانية: العموم؛ لأنه لو جاء الضمير هنا حسب السياق، فإن الله عليم بهم، لاختص العلم بهم وحدهم، لكن إذا قال: ﴿بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ صار عاماً فيهم وفي غيرهم.

الفائدة الثالثة: أن هذا الفعل الذي حصل من هؤلاء الذين جاء الإظهار في موضع الإضمار عنهم مرفوع من هذا الوصف الذي عبر به في موضع الضمير، يعني أن فعلهم فساد وهو التولي والإعراض عن دين الله، ففي هذه الآية الكريمة تهديد من تولى.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تهديد من تولى عن دين الله عزّ وجل، ووجه ذلك قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾، لأن المقصود من ذكر علمه بهم تهديدهم، وأنه لا يخفى عليه حالهم، وسيعاقبهم بما تقتضيه حالهم.

٢ ـ أن التولي عن دين الله فساد كما قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وهل التولي نفسه فساد أو أنه يسبب الفساد؟ الجواب عن هذا أن نقول: هو فساد وسبب للفساد، ووجه كونه فساداً أنه إذا تولى عن دين الله حلَّ محله ما سواه، ومعلوم أن دين الله صلاح وما سواه فساد، ولهذا نجد القوانين المحكّمة في عباد الله لا تصلح الخلق، لا يصلح الخلق منه إلا ما وافق الشرع، وأما ما خالف

الشرع، فإنه فساد مهما كان وضع القوانين في الذكاء والفهم لأحوال الناس، فإنهم إذا وضعوا من القوانين ما يخالف شرع الله فإنه فساد بكل حال، إذن نفس التولي فساد، ثم هو أيضاً سبب للفساد؛ لأن الجدب والقحط وضيق الرزق والفتن كلها سببها المعاصي، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، إذن التولي عن دين الله فساد وسبب للفساد.

٣ ـ أن كل من تولى عن دين الله فهو مفسد، ولو زعم أنه مصلح؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾، ولهذا قال كثير من المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، قال: أي لا تفسدوها بالمعاصي، فكل عاصٍ فهو مفسد شاء أم أبى، وكل مطيع فهو مصلح؛ لأن بضدها تتبين الأشياء، فإذا كان العاصي مفسداً فالطائع مصلحاً، لكن الطائع في الحقيقة قد يكون صالحاً بنفسه غير مصلح لغيره، وقد يكون صالحاً في نفسه مصلحاً لغيره، فإذا كان عابداً داعياً إلى الله صار صالحاً مصلحاً، وإذا كان عابداً غير داعٍ لله صار صالحاً غير مصلح لكنه ليس على وجه التمام في صلاحه؛ لأنه من تمام الصلاح أن تدعو إلى الله عزّ وجل.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

الخطاب في قوله: ﴿قُلْ﴾ للرسول ﷺ. وقد مرّ بنا قاعدة أن الله تعالى إذا صدر الشيء بقل الموجه للرسول ﷺ فإنه يقتضي زيادة العناية به؛ لأنه أمر بأن يبلغ هذا الشيء بخصوصه وإلا فإن جميع القرآن مأمور النبي ﷺ أن يقوله.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أهل الكتاب يعني بهم اليهود والنصارى، وعلى هذا فالمراد بالكتاب الجنس ليكون شاملاً للتوراة والإنجيل.

وإنما وصفوا بأهل الكتاب لأنه لا يوجد كتب منزلة باقية آثارها ـ وإن كان بها تحريف وتغيير ـ إلا التوراة والإنجيل وإلا فإنه ما من رسول إلا ومعه كتاب يدعو به كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿تَعَالَوْاْ﴾ «تعال» فعل أمر بمعنى أقبل. ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ فسرها بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وقد وصفت هذه الكلمة بأنها ﴿سَوَآءٍۭ﴾ يعني أنها عدل (وسواء) مصدر بمعنى اسم الفاعل أي مستوية بيننا وبينكم، ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي لا نخضع ولا نذل الذل المطلق والخضوع المطلق إلا لله وحده عزّ وجل لأن العبادة يراد بها الذل والخضوع الكامل المطلق، ويراد بها المتعبد به أي العبادات التي يقوم بها العبد، فهي تشمل هذين المعنيين، ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ تعتبر من حيث المعنى توكيداً للتوحيد في قوله تعالى ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ﴾ وهذا هو تمام العدل والإنصاف في المحاجة والمناظرة أن تكون الكلمة

سواء لا جنف ولا ميل، ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ ولم يأتوا إلى هذه الكلمة السواء فأعلنوها أنتم من أجل أن يبوؤا بالإثم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ يعني منقادون لله تمام الانقياد ولن نعبأ بكم. فصارت هذه الآية تدعوا اليهود والنصارى إلى التوحيد وإلى الإسلام وإلى العدل.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يدعو أهل الكتاب إلى هذه الكلمة السواء؛ لقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهنا سؤال: هل الرسول قال بذلك؟ نعم قالها حتى كان يكتب بها إلى الملوك، لم يكتب إلى كسرى ولكنه كتب إلى غيره: يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، لكنه يقول: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، من كمال أدبه، إذا قال: قل يا أهل الكتاب، فكأنه يقول: إنما كتبت لكم هذه الآية بأمر الله، لكن لو قال: يا أهل الكتاب بدون (قل)، لكان فيها احتمال أنه كتبها من عند نفسه، فالمهم أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال ذلك، ودعاهم إلى هذه الكلمة، لكنهم أبوا وامتنعوا لأنهم مصرُّون معاندون إلا من هدى الله، فقد هدى الله من النصارى أقواماً، ومن اليهود أقواماً، ومن المشركين أقواماً.

٢ ـ التنزُّل مع الخصم لإلزامه بالحق، كيف ذلك؟ لأنه قال: ﴿سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ والحق بلا شك مع الرسول ﷺ، لكن من أجل إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه تنزَّل معه.

٣ ـ وجوب استعمال العدل في المناظرة حتى مع العدو؛ لأن الرسول أمر بأن يعلن هذا، وإذا كان هذا واجباً في مناظرة المسلمين مع الكفار، فهو في مناظرة المسلمين بعضهم مع بعض أوجب وأوكد، ولهذا نقول: من الخطأ العظيم أن بعض الناس إذا رأى رأياً قال عما سواه: خطأ، وخطّأ غيره، هو قد يكون

خطأ باعتبار اعتقاده لا ننكر عليه، لأنه من المعلوم إذا اختار ضده فهو عندهم خطأ ولا ينكر عليه، لكن الإنكار أن يُخَطِّئ من قال به، وهذا فرق دقيق، فرق بين أن أعتقد أن هذا القول خطأ ولا آخذ به، وبين أن أخطّئ من قال به؛ لأني إذا خطّأته ادعيت العصمة لي والزلل له وهذا خطأ، ولهذا يجب في المناظرة بين المسلمين كما يجب في المناظرة بين المسلمين والكفار أن تكون بالعدل، ومن المعلوم أن الميزان العدل في ذلك كتاب الله وسنة الرسول ﷺ، لكن المشكل أنه ليس كل أحد يفهم الكتاب والسنة كما ينبغي، يعني من الناس من يكون ظاهرياً محضاً لا ينظر إلى مقاصد الشريعة ومعانيها العظيمة التي يقصد بها إصلاح الخلق، فتجده مثلاً يريد أن ينفذ شيئاً من المسائل التي لا تعتبر ذات شأن كبير في الإسلام وإن فات بذلك مصلحة عظيمة كبيرة، منها مسائل الخلاف التي يظهر فيها النزاع والمباينة بين المسلمين.

ولهذا أمثلة كثيرة، تجد مثلاً بعض الناس يقول: لا بد أن ننفذ هذا الشيء وإن كان سنة، وإن كان يلزم على تنفيذه تفرق المسلمين وعدوانهم وحدوث البغضاء بينهم، لا ينظر إلى أن الشرع في الحقيقة مبني على الألفة وائتلاف القلوب، فالشرع حرَّم البيع على بيع المسلم لأن ذلك يؤدي إلى العداوة والبغضاء، وحرَّم النجش، والخطبة على خطبة أخيه، أشياء كثيرة إذا تأملتها وجدت أن هذا الشرع يرمي إلى أن يأتلف الناس وتتفق القلوب وتتحد الأهداف. وأن المسائل الجزئية إذا خيف منها فتنة تترك والحمد لله، أنت هل عليك لوم إذا تركت الأدنى للأعلى؟ ليس عليك لوم بل لك مدح، اللوم أن تفعل الأدنى لتفرط في الأعلى، ولهذا نعلم علم اليقين أن الصحابة أفقه منا بكثير، وأقوم منا في أعمالهم، وأشد منا حبًّا لشريعة الإسلام، ومع ذلك يتوافق

بعضهم مع بعض في أمور لا يرونها ولكن من أجل المصلحة وائتلاف الناس واتفاق القلوب، ولا يخفى عليكم أن رسول الله ﷺ امتنع عن هدم الكعبة وبنائها على قواعد إبراهيم مع أن هذا هو الذي يتمناه، وهو الذي همّ به؛ خوفاً من الفتنة؛ لأن قريشاً كانوا حديثي عهد بكفر[١].

وكان عليه الصلاة والسلام يترك ما يحب لمصلحة الناس، كان يصوم في السفر، فلما قيل: إن الناس قد شق عليهم، أفطر بعد العصر ورفع الماء وهو على بعيره على فخذه وشربه والناس ينظرون[٢]، لم يقل: لم يبق إلا جزء يسير من النهار فأريد أن أكمل.

والصحابة رضي الله عنهم في خلافة عثمان، حيث بقي رضي الله عنه سبع أو ثمان سنوات في خلافته يقصر الصلاة في منى وبعد مضي أكثر خلافته رأى رضي الله عنه لسبب من الأسباب أن يتم الصلاة فأتم، فبلغ ذلك من بلغ من الصحابة فأنكروا عليه قالوا: كيف يقصر الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر وأنت في أول خلافتك والآن تتم، حتى إن ابن مسعود رضي الله عنه لما بلغه ذلك استرجع، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون[٣]، كأنه أمر كبير، ومع ذلك يصلون خلفه، يصلون أربعاً مع اعتقادهم أنها خلاف السنة، وذلك من أجل اتحاد الكلمة وعدم التفرق، ولما سئل ابن مسعود قيل: كيف تنكر فعل عثمان وتصلي خلفه أربعاً، قال: (الخلاف شر). هذا والله هو الفقه، وهذه هي الشريعة.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، رقم (١٣٣٣).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الصوم، باب ما جاء في كراهية الصوم في السفر، رقم (٧١٠). والنسائي، كتاب الصيام، باب ذكر اسم الرجل، رقم (٢٢٦٣).

(٣) رواه أبو داود، كتاب المناسك، باب الصلاة بمنى، رقم (١٩٦٠).

أما أن يتفرق الناس، ويتخاصمون، ولا يتعاملون بالعدل، ويقول كل واحد للآخر: قولي هو الحق، وقولك الخطأ، وأنت مخطئ، فهذا ليس من طريق الشرع، بل هذا خلاف الشرع، وإن زعم من تمسك به أنه على الشرع، وأنه هو الذي يصدع بالحق، وأنه هو المعصوم، فإن دعواه هذه هي التي جعلته مخطئاً، من ادعى العصمة فأول زلل زل به ادعاؤه العصمة، وأنه هو الصواب وغيره على خطأ.

٤ ـ أن جميع الرسل متفقون على هذه الكلمة ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ لأنه ما دام أنها كلمة سواء بيننا وبينهم، معناه أنها عندهم كما هي عندنا، وهذا هو الواقع، أن جميع الرسل متفقون على هذه الكلمة، لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، بل إن الله تعالى قال في كتابه العظيم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، الخلق الذين خلقوا من آدم، ومن قبل آدم الجن، ما خلقوا إلا لهذا الأمر العظيم، لعبادة الله. لم يخلقوا ليتمتعوا في الدنيا، ولينالوا الشهوات، لا والله ولكن لعبادة الله وحده لا شريك له. ومع هذا فإنهم إذا عبدوا الله صلحت دنياهم، والغريب ـ لكن ابن آدم نظره قاصر ـ أنه إذا صلح الدين صلحت الدنيا، لكن لا يلزم من صلاح الدنيا صلاح الدين. بل إنها ربما إذا اعتني بها أكثر من الدين فسد الدين، كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: **«والله ما الفقر أخشى عليكم وإنما أخشى عليكم أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم»**[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً، رقم (٤٠١٥). ورواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦١).

٥ ـ أن الحكم لله بين الناس، وأنه ليس لأحد أن يشرع من دون الله؛ لقوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٦ ـ أن الحكم بين الناس والعبادة مقترنان؛ لأن الله قرن بينهما، ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، لأنك لن تعبد الله إلا بشريعته، إذن يلزم أن يكون المشرع هو المعبود. ما دمت تعبد الله فلن تعبده إلا بشريعته. فالمشرع هو المعبود الذي يعبد، لأنه سنَّ طريقاً أو وضع طريقاً وقال: اسلكوا هذا لتصلوا إلي، إذن كل طريق يخالفه فلن يوصل إلى الله، وهذا وجه التلازم بين قوله: (أن لا نعبد) وقوله: (ولا يتخذ)، فإن من اتخذ ربًّا من دون الله يتبعه في التحليل والتحريم فإنه لم يعبد الله؛ لأن عبادة الله لا تكون إلا بموافقة الشرع.

٧ ـ أن من دعا الناس إلى حل أو حرام، لكن بإذن الله وشرعه، فهو على حق، تؤخذ من قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فهو سبحانه وتعالى لم يقل: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾ فحسب بل قال: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

فائدة:

بعض الناس إذا زلَّ بعض العلماء مثلاً ووقعوا في أخطاء أخذ هؤلاء يكتبون في المجلات والصحف أخطاءهم بحجة أنهم يبينون الحق. وهذا من الغلط، والحقيقة أن هذا الفعل فيه مضرة من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أنها مضرة على الكاتب؛ لأن الذين يثقون بالشخص الآخر يرون أن هذا مخطئ ويقل وزنه عندهم.

الوجه الثاني: أن فيه أيضاً إضعافاً للثاني المردود عليه،

ومعلوم أنه إذا ضعفت منازل العلماء في الأمة ضاعت الأمة؛ لأن العلماء هم القادة، فإذا ضعفت منازلهم عند العامة ضاعوا وصاروا كالإبل التي ليس لها راعٍ، أو كالغنم التي ليس لها راعٍ.

الوجه الثالث: أن فيها أيضاً إضعافاً للشرع؛ لأن العالم الذي ردَّ أو المردود عليه إذا قال قولاً غير هذه المسألة شكَّ الناس فيه وقالوا: لعل هذه من خطأ فلان، فصار فيه مضرة من ثلاثة وجوه، والواجب على العلماء فيما بينهم إذا أخطأ أحدهم أن يتصلوا به فيناقشوه، فإن كان الصواب معه تبعوه، وإن كان الصواب معهم يتبعهم، ثم لو فرض أنه أصرَّ على ما هو عليه وله وجه ـ لأن المسألة مسألة اجتهاد ـ فلا أرى أن يرد عليه أبداً؛ لأن الرد والأخذ والمناقشة في مسائل الاجتهاد بين العامة ـ لا شك ـ أنه ضرر، خصوصاً في هذا الوقت حيث يوجد أناس يدعون إلى التقليل من شأن العلماء، والكلام فيهم في المجالس؛ لأنهم فقدوا الزعامة التي يريدونها فصاروا مثل الزعماء الآخرين الذين عارضوا دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام لما فقدوا الزعامة التي يريدونها، ليس لهم سبيل إلى ما يريدون إلا أن يضعفوا الجانب الآخر. وهذا على خطر عظيم جداً، فأنا أرى أنه إذا وجد خطأ من أي عالم ـ والإنسان غير معصوم، فقد يخطئ ولا يتبين له الخطأ إلا بالمناقشة ـ أن يتصل به ويبحث معه، فإن تبين الحق وجب على من تبين له الحق أن يتبعه، وإن لم يتبين وصارت المسألة فيها مساغ للاجتهاد فالواجب عَدم الرَّدِّ عليه.

٨ ـ أنه إذا تولى الخصم بعد إقامة الحجة عليه فإنه يعلن له بالبراءة منه، والتزام الحق؛ لقوله: ﴿ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

٩ ـ أنه ينبغي للمسلم أن يعتز بدينه، وأن يعلنه، ويشهره،

خلافاً للضعفاء الذين عندهم ضعف في الشخصية، وقلة الدين، الذين يتسترون بدينهم مخافة أن يعيروا به، حتى إن بعضهم كما قيل لي يخجل أن يصلي بين الناس، يقول: أخشى أن أنسب إلى الدين، والعياذ بالله. وهذا يدل على قلة الإيمان، وعلى ضعف الشخصية، وأن الإنسان ليس عنده رصيد يفتخر به ويعتز به.

١٠ ـ إشهاد الخصم على الحال التي يكون عليها خصمه؛ لقوله: ﴿ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. لما في ذلك من الغضاضة عليه، وكسر جبروته، وعدم انقياده للحق.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥].

الظاهر أن هذه الآية منفصلة عما قبلها يقول الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ويعني بهم اليهود والنصارى. ووصفوا وحْدَهم بذلك لأنهم هم الذين بقيت كتبهم قائمة يهتدى بها إلى أن بعث النبي ﷺ.

قوله: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ. فقولُه: ﴿لِمَ﴾ «ما» اسم استفهام مجرور باللام، و«ما» الاستفهامية إذا جرت بالحرف فإنها تحذف ألفها كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ: ١]، ومنه قولهم: [علام تفعل؟]، فهذه أيضاً ليس فيها ألف وتغيرت (عَلَى) من أجلها؛ لأن على تكتب ألفها ياءً لكنها إذا دخلت على (ما) الاستفهامية كتبت ألفها ألفاً. علامَ مثل (علّام).

قوله: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ﴾ أي: تخاصمون، وسميت المخاصمة

محاجة؛ لأن كل واحد من المتخاصمين يدلي بحجته يريد أن يخصم صاحبه.

وقوله: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي: في شأنه، وفي حاله، وفي دينه. وليس المراد في ذاته؛ لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بشر متفق عليه، ولا محاجة فيه، لكن المحاجة في شأنه وحاله (لم تحاجون فيه)، وكيفية هذه المحاجة اختلف فيها أهل العلم على قولين:

القول الأول: ادعاؤهم أنهم على ملة إبراهيم. اليهود يقولون: نحن على ملة إبراهيم، والنصارى يقولون: نحن على ملة إبراهيم.

القول الثاني: أن اليهود يقولون: إن إبراهيم يهودي على دين اليهود، والنصارى يقولون: إن إبراهيم نصراني على دين النصارى. وهذا الوجه عكس الوجه الذي قبله؛ لأن الوجه الذي قبله يدعون فيه أنهم على دين إبراهيم، وفي هذا الوجه يدَّعون أن إبراهيم على دينهم.

كيف تحاجون فيه وتقولون إن إبراهيم على ديننا أو تقولون إنكم على دين إبراهيم، كيف المحاجة وكيف يكون إبراهيم على دينكم والتوراة لم تنزل بعد أيها اليهود؟! وكيف يكون إبراهيم على دينكم والإنجيل لم ينزل بعد أيها النصارى؟! أو تقولون إنكم على دينه وأنتم على الإنجيل والإنجيل ليس هو دين إبراهيم، أو على دين التوراة والتوراة ليست هي دين إبراهيم؟. إبراهيم له شرعة خاصة: ﴿لِكُلٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٨]، فكيف تحاجون في هذا؟! تدعون أن إبراهيم على التوراة أو على الإنجيل، أو تدعون أنكم أيها المتمسكون بالتوراة أو المتمسكون بالإنجيل على دين إبراهيم مع أن التوراة والإنجيل لم تنزل إلا من بعده، هذا

هوس وسخافة كيف يكون إبراهيم على دين كتاب لم ينزل بعد، التوراة نزلت على موسى، والإنجيل نزل على عيسى، وهما بعد إبراهيم بأزمنة كثيرة، فكيف يكون إبراهيم على هذا؟ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ والاستفهام هنا للتوبيخ يعني أفلا يكون لكم عقول تعقلون بها ما تقولون؟ وهذا فيه غاية اللوم والتوبيخ. قيل في إعراب: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾:

١ ـ أن الهمزة للاستفهام والفاء للعطف، لكن قدِّمت همزة الاستفهام لأن لها الصدارة، وعلى هذا فلا حاجة إلى تقدير؛ لأن الجملة تكون معطوفة على الجملة التي قبلها.

٢ ـ أن الفاء حرف عطف، وأن المعطوف محذوف يقدر بما يناسب السياق، والمناسب هنا أن يقدر أسفهتم مثلاً؛ لأن العقل ضده السفه أفلا تعقلون.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ المراد بالعقل هنا عقل الرشد وليس عقل الإدراك؛ لأن هؤلاء عندهم عقل إدراك، والفرق بينهما أن عقل الإدراك مناط التكليف، وعقل الرشد مناط التصرف، يعني أن عقل الرشد يكون به حسن التصرف من العاقل، وعقل الإدراك يكون به توجيه التكليف إلى العقل، ولهذا يقال للرجل العاقل الذكي إذا أساء في تصرفه، يقال: هذا مجنون، هذا غير عاقل مع أنه من حيث عقل الإدراك عاقل.

المنفي هنا في حق هؤلاء عقل الرشد، أي أفلا يكون لكم عقل ترشدون به.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ توبيخ أهل الكتاب بكونهم يحاجون ويجادلون في إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

٢ ـ علو شأن إبراهيم ومنزلته بين جميع الطوائف.. اليهود والنصارى والمسلمين.

٣ ـ بيان الاحتجاج بالعقل؛ لقوله: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾، فكيف تحاجون به مع أن التوراة والإنجيل لم تنزل إلا من بعده. وهذا خلاف العقل. ويتفرع على هذه الفائدة:

٤ ـ أنه لا ينبغي إهمال العقل في الاستدلال، كما لا ينبغي الاعتماد عليه وترك النص. فالناس في الاستدلال بالعقل طرفان ووسط: طرف غَلا فيه حتى قدَّمه على السمع، وذلك بالنسبة للفقهاء من أصحاب الرأي والقياسيين الذين يعتمدون على الرأي وإن خالف النص.. وفي باب العقائد جميع أهل البدع يعتمدون على العقل ويدعون السمع. مع أن العقل الذي يعتمدون عليه ليس إلا شبهات، وليس براهين ودلالات. لكنهم ينظرون أن العقل يقتضي كذا فيثبتونه، ويقتضي نفي كذا فينفونه، ولا يرجعون في هذا إلى السمع، ومن ذلك الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم. كل من نفى صفة أثبتها الله لنفسه بشبهة عقلية فإنه داخل فيمن يغالي في الاستدلال بالعقل..

الطرف الثاني: من أنكر الاعتماد على العقل بالكلية، وقال: ليس للعقل مدخل في إثبات أي حكم أو أي خبر. فأنكروا القياس. وهذا مثل أهل الظاهر، أنكروا نهائياً، وقالوا: لا يمكن أن نرجع للعقل في شيء..

ومن الناس من هم وسط: رجعوا إلى العقل فيما لا يخالف الشرع؛ لأن العقل إذا لم يخالف الشرع فإن الله تعالى يحيل عليه في مسائل كثيرة مثل: ﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، ومثل هذه الآية: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، واستدلال الله

تعالى على إحياء الموتى بإحياء الأرض بعد موتها استدلال عقلي حسي، فهو حسي لأنه مشاهد، وهو عقلي لأنه يستدل به على نظيره الذي لا يخالفه تماماً.

فالحاصل أن في هذه الآية اعتبار العقل دليلاً؛ ولكن بشرط أن لا يخالف الشرع، فإن خالف الشرع فالأصح أن نقول: إنه ليس بعقل؛ لأن صحيح المنقول لا يعارض صريح المعقول أبداً. لكن إذا ظن أن العقل يخالفه فإما أن تكون لا مخالفة، وإما أن يكون السمع غير ثابت، وإما أن يكون العقل غير صحيح، ملوث بالشبهات والشهوات.

٥ ـ إثبات أن التوراة والإنجيل منزلة من عند الله؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾، فإن قال قائل: كيف تستدلون بهذه الآية على أن التوراة والإنجيل منزل من عند الله؟ مع أن الفعل هنا ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ﴾، يعني كيف يستقيم الاستدلال بهذه الآية على أن التوراة والإنجيل نازلة من عند الله مع أن الفعل مبني للمجهول؟.

الجواب: أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وفي هذه السورة نفسها، وفي أولها ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣] فالمنزل للتوراة والإنجيل هو الله، وحينئذٍ نقول: بني الفعل للمجهول للعلم بالمنزل وهو الله، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: ٢٨] الخالق هو الله عزّ وجل لكن حذف للعلم به، ولكن لما كان الضعف صفة نقص بني الفعل هنا للمجهول كما بني للمجهول في قوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٠] الشر لم يضيفوه إلى الله مباشرة قال: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾، والرشد أضافوه إلى الله مباشرة ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾.

٦ ـ إثبات علو الله؛ لأن النزول لا يكون إلا من أعلى.

ولا شك أن التوراة منزلة من عند الله، لكن الله كتب التوراة. ولهذا قال بعض أهل العلم: لا نستطيع أن نثبت بأن التوراة من كلام الله، لكن الله كتبها بلا شك، وهي نازلة من عنده، أما الإنجيل فهو كالقرآن، ليس فيه أن الله تعالى كتبه، وإنما قال أنزله وهو كلام فيكون كلامه. أما التوراة فقد قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

٧ ـ النداء على بني إسرائيل بالسفه، وأن تصرفاتهم كما هي مخالفة للمنقول فهي مخالفة للمعقول. ومن أراد أن يعرف سفاهة هؤلاء القوم فليرجع إلى كتاب [إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان] لابن القيم رحمه الله، ذكر أشياء عجيبة من سفه الأمة الغضبية والأمة الضالة. الأمة الغضبية هم اليهود، والأمة الضالة هم النصارى. ولو لم يكن إلا أن الله تعالى نعى عليهم عقولهم في هذه الآية، وفي آية: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، فاليهود أمة غضبية جاهلية في أبعد ما يكون عن الرشد.

٨ ـ الإشادة بالعقل، وأن العقل لا يحمل صاحبه إلا على السداد والصواب؛ لقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، والمراد بالعقل هنا عقل الرشد يعني عقل التصرف الذي به الرشد، لا عقل الإدراك الذي هو مناط التكليف؛ لأن هؤلاء اليهود والنصارى عندهم عقل، العقل الذي هو عقل الإدراك الذي هو مناط التكليف، هذا ثابت عند اليهود والنصارى، ولولا ذلك ما كلفوا.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦].

قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الهاء للتنبيه، وأنتم ضمير منفصل مبتدأ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الهاء للتنبيه، و(أولاء) منادى، والتقدير: هأنتم يا هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم. ونقول في قوله: ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ﴾ ما قلناه في قوله: (لم تحاجون) من حيث الإعراب.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أولاً التنبيه هنا حسن، وذلك لأنه يخاطب قوماً لمزهم بعدم العقل، والذي ليس عنده عقل ينبغي أن يصدر الخطاب له بما يقتضي تنبيهه لأنه غافل، والغافل يتصرف تصرف مجنون فاحتيج إلى أن ينبه، فلذلك أتى بهاء التنبيه.

إذن المشار إليه قريب ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ومع قربهم أتى (بهاء) التنبيه للدلالة على بلادتهم، فإنهم مع قربهم وقرب الإشارة إليهم على بلادة عظيمة يحتاجون إلى تنبيه.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ﴾.

يعني خاصمتم غيركم فيما لكم به علم، وهو التوراة بالنسبة لليهود، والإنجيل بالنسبة للنصارى، يعني أنكم إذا حاججتم في التوراة والإنجيل وكانت المحاجة في التوراة من اليهود وفي الإنجيل من النصارى فهذه محاجة فيما فيه علم لكم، لكن لم تحاجون فيما ليس لكم به علم؟ وهو إبراهيم وما هو عليه من الدين. وقيل: المراد بقوله: ﴿حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾، أي: في دين الإسلام، يعني حاججتم فيه وخاصمتم، تقولون: ليس

على دين إبراهيم، دين إبراهيم دين اليهود والنصارى، وأنتم تعلمون أن الإسلام دين الله الحق؛ لأن اليهود والنصارى يعلمون أن دين محمد ﷺ هو الدين الحق، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فصارت المحاجة الآن إما في الكتابين وإما في دين الإسلام وما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ والمحاجة التي يراد بها إثبات الباطل وإبطال الحق مذمومة، حتى وإن كانت عن علم، بل هي إن كانت عن علم أشد ذماً، فكيف تحاجون فيما ليس لكم به علم وهو إبراهيم عليه الصلاة والسلام؟

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

والله يعلم الأمر على ما هو عليه في شأن إبراهيم، وفي شأن محمد ﷺ، وفي شأن موسى وعيسى، وأنتم لا تعلمون ما يعلمه الله تعالى من هذا وغيره. ولكن نفي العلم عنهم هنا ليس رفعاً للإثم عنهم، ولكنه إيذان بجهلهم وجهالتهم، وأن تصرفهم كتصرف الجاهل. فهو في الأول قال: لا تعقلون، وفي الثاني قال: لا تعلمون، فجمعوا بين السفه في الرأي والتدبير، وبين الجهل في العلم والتصور، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ التنزل مع الخصم يعني لو فرضنا أن المحاجة قبلت منكم فيما لكم به علم، فإنها لا تقبل منكم فيما ليس لكم به علم.

٢ ـ ذم المحاجة بغير علم؛ لقوله: ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ

لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾ وما أكثر هذا الواقع المؤسف المر في زمننا هذا، كثير من الناس اليوم يحاجون فيما ليس لهم به علم، بل بما تقتضيه عقولهم القاصرة، فيقول مثلاً: لم صار كذا؟ ولم صار كذا؟ لماذا كان هذا حراماً وكان هذا حلالاً؟ لماذا كان هذا واجباً وكان هذا غير واجب؟ وما أشبه ذلك، فيحاجون فيما ليس لهم به علم. وكثير من العامة الذين عندهم لَسَن وبيان، ـ وإن من البيان لسحراً ـ يجادل طالب العلم في أمر لا يعلمه هو، بل مجرد مجادلة ومراء.

٣ ـ إقرار الإنسان على المحاجة بالعلم، ولكن بشرط أن يكون قصده حسناً، بحيث يريد من المجادلة الوصول إلى الحق، فيثبت الحق ويبطل الباطل. أما الذي يجادل ولو فيما له فيه علم إذا كان قصده إبطال الحق وإثبات الباطل فلا شك أنه مذموم ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

٤ ـ إثبات العلم لله عزّ وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

٥ ـ أن المحاج فيما ليس له به علم ليس عنده علم؛ لقوله: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ بل ليس عنده عقل أيضاً؛ لأن المحاجة فرع من العلم، فمن حاج بغير علم فلا عقل له كما أنه لا علم عنده.

٦ ـ إثبات علم الله في الحاضر؛ لأن قوله: ﴿يَعۡلَمُ﴾ فعل مضارع. والأصل في المضارع أنه موضوع للحاضر والمستقبل وربما يتمحض للماضي وربما يتمحض للمستقبل. فيتمحض للماضي إذا دخلت عليه (لَمْ). ويتمحض للمستقبل مع السين

وسوف. وإذا خلا فهو صالح للحاضر والمستقبل. فهنا يقول: ﴿يَعْلَمُ﴾ يعني أن علمه عزّ وجل مستمر دائماً.

❁ ❁ ❁

❑ ثم ذكر الله عزّ وجل حال إبراهيم ذكراً صادراً عن علم، لا عن جهل، فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

يعني ليس على ملتكم أيها اليهود ولا على ملتكم أيها النصارى. وهذا على قول من يقول: إن محاجتهم في إبراهيم أن اليهود يقولون: هو منا، والنصارى يقولون: هو منا، فنفى الله ذلك.

وعلى القول الثاني يعني ما كان إبراهيم على ما أنتم عليه من التعصب والتمسك بدينكم وإن كان منسوخاً باطلاً بدين الإسلام ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ۖ﴾، فلو أن إبراهيم كان حيًّا لاتبع محمداً ﷺ، ولم يكن كحالكم يبقى على ما هو عليه في دينه، كما بقيتم أنتم. فالآية تحتمل الوجهين بناءً على القولين السابقين، أي ما كان إبراهيم يسير سير اليهود فيتعصب، أو يسير سير النصارى فيتعصب، وليس المعنى على القول الثاني، أنه ما كان يهودياً أي على دين اليهود، أو على دين النصارى، بل ما كان على طريقتهم في التعصب لما هم عليه، وإن تبين أن الحق في خلافه، ولكن كان حنيفاً مسلماً عليه الصلاة والسلام.

﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن الشرك؛ لأن الحنف في الأصل الميل، فهو مائل عن الشرك، مثبت للتوحيد، ولهذا قال: ﴿مُّسْلِمًا ۖ﴾ فهو جامع عليه الصلاة والسلام بين البراءة من الشرك

براءة كاملة، وبين تحقيق الإسلام تحقيقاً كاملاً.

وقوله: ﴿مُّسْلِمًا﴾ يعني: مسلماً لله ظاهراً وباطناً، فيشمل الإسلام الذي هو عمل بالجوارح والإيمان الذي هو اعتقاد القلوب وأعمال القلوب. وهذه قاعدة مهمة وهي أنه إذا أطلق الإسلام وأفرد شمل الإيمان، وإذا أطلق الإيمان وأفرد شمل الإسلام.. وإذا اقترنا صار الإسلام في الظاهر، والإيمان في الباطن. وهذه هي قاعدة أهل السنة والجماعة، وعليها يدل الكتاب والسنة، **فقد وصف النبي ﷺ الإيمان لوفد عبد قيس بالإسلام بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة**[1]. ووصف الله الصلاة بالإيمان في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: صلاتكم إلى بيت المقدس. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وهو يشمل كل الدين؛ الإيمان وأفعال الجوارح. فمسلماً هنا: مسلماً لله ظاهراً وباطناً، فيشمل الإيمان والإسلام: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هذا تأكيد لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ وإن كانت معطوفة بالواو، ولكنها في المعنى مؤكدة لما سبق. يعني ما كان من الذين يشركون بالله، لا شركاً خفياً ولا شركاً ظاهراً، بل كان يحارب الشرك، وصبر على الدعوة إلى التوحيد، إلى أن ألقي في النار عليه الصلاة والسلام. ولكن كان جزاؤه على ذلك أن قيل للنار: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب وفد عبد القيس، رقم (٤٣٦٨).
ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، رقم (١٧).

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تبرئة إبراهيم من دين اليهود والنصارى، أو من طريق اليهود والنصارى. فقد ذكرنا أن الآية لها معنيان؛ فإبراهيم عليه الصلاة والسلام ليس يتدين بدين اليهود؛ لأن دين اليهود من بعده. ولا بدين النصارى؛ لأن دين النصارى من بعده. كذلك أيضاً إبراهيم عليه الصلاة والسلام ليس كالنصارى واليهود يتعصبون لما هم عليه بحق أو بباطل، بل كان حنيفاً مسلماً، منقاداً لأمر الله، يأتمر بأمر الله، وينتهي بنهي الله.

٢ ـ أنه ينبغي لمن لم يتصف بوصف أن يُبيِّن براءته منه، ولو كان هذا الوصف في أصله محموداً. لكن إذا كان لم يتصف به فالواجب أن يُبَيَّن؛ لأن الله نفى أن يكون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً. مع أن اليهودية بعد بعثة موسى والنصرانية بعد بعثة عيسى كانتا حقًّا قبل أن تنسخا.

٣ ـ الثناء على إبراهيم؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وجه الثناء عليه: بأنه وصفه بالتوحيد الخالص الذي لا يشوبه أي نوع من الشرك.

٤ ـ الإشارة إلى ما اشتهر عند الناس من أن (التخلية قبل التحلية). يعني البداءة بالنفي قبل الإثبات؛ لأن النفي تخلية والإثبات تحلية. فهنا بدأ بالنفي وهو ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ ثم أثبت بقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ۖ﴾ والظاهر أن هذا الترتيب موافق للطبيعة؛ لأنك تخلي الشيء مما يشينه أولاً، ثم تضيف ما يكون به الكمال ثانياً، وفي حديث الاستفتاح: **«اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق**

والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد»[١] فالمباعدة أن لا أمارس الذنوب والخطايا، والتنقية أن تزال، أن يزال هذا الأذى، والغسل أن يطهر وينظف. وأضرب مثلاً يتبين به المعنى: إنسان معه أذى يريد أن يضعه على بساط الصلاة فأقول: لا تضعه. هذه مباعدة. وآخر جاء به فوضعه فقلت: انزعه. هذه تنقية. المرتبة الثالثة: لما نزعه قد يكون في مكانه أثر أقول: اغسله.

٥ ـ أنه لا بد في التوحيد من شيئين: نفي وإثبات، النفي في قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ والإثبات في قوله: ﴿مُّسْلِمًا﴾ لأن الحنيف هو المائل عن الشرك وعن كل دين يخالف الإسلام. والإسلام هو إثبات الاستسلام لله عزّ وجل، وأكد ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، والتوحيد لا يتم إلا بإثبات ونفي.. والتعليل ظاهر جدًّا؛ لأن النفي تعطيل، والإثبات بدون نفي لا يمنع المشاركة، والجمع بينهما إثبات مع نفي المشاركة. نضرب مثلاً: إذا قلت: ليس هنا أحد قائم، هذا نفي، هذا تعطيل. يعني صفة القيام الآن معطلة لم يتصف بها أحد. وإذا قلت: زيد قائم، هذا إثبات أن زيداً قائم، فأثبت القيام الآن لواحد من الناس. لكن هل هذه العبارة تمنع أن يكون غير زيد قائماً؟ الجواب: لا تمنع، قد يكون واحد آخر غير زيد قائماً. ولهذا إذا قلت أنا:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب ما يقال بعد التكبير، رقم (٧٤٤). ورواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة، رقم (٥٩٨).

زيد قائم. فقلت أنت: وعمرو قائم، لا يعتبر قولك هذا ردًّا على كلامي. بل إضافة إلى الكلام.

فإذا قلت: لا قائم إلا زيد. هذا فيه نفي وإثبات. حينئذٍ حصل التوحيد. صار المتفرد بالقيام زيدٌ. فتبين أنه لا توحيد إلا بنفي وإثبات. ولهذا قال الله سبحانه وتعالىٰ عن وصف إبراهيم: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٦ ـ أن الإسلام إذا أطلق أو أفرد دخل فيه الإيمان. وجهه أن الله وصف إبراهيم بالإسلام، وهو كذلك. فالإسلام إذا أفرد دخل فيه الإيمان، والإيمان إذا أفرد دخل فيه الإسلام، وإذا اقترنا افترقا صار الإسلام علانية والإيمان في القلب.. **ففي حديث جبريل**[1] اجتمعا فافترقا.. ولهذا فسر النبي ﷺ الإسلام بشيء وفسر الإيمان بشيء آخر.. وفي قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، اجتمعا فافترقا.. فصار الإيمان الذي ادعوه غير الإسلام الذي أثبته الله لهم قال: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، وفي قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦] اجتمعا فافترقا. الإخراج لم يكن إلا للمؤمنين، لوط وأهله إلا زوجته. فصار الذين أخرجوا هم المؤمنين الخلص. البيت يشتمل على أهله الذين آمنوا إيماناً خالصاً وعلى امرأته التي خانته فهي مسلمة، وليست مؤمنة. فالبيت كله باعتبار الكل مسلم. ولهذا قال: ﴿فَمَا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ، رقم (٥٠).
ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٨).

﴿وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، وأما من زعم أن الإسلام هو الإيمان، واستدل بالآية فقد أبعد النجعة للفرق بين التعبيرين ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل: من المسلمين.. قال: من المؤمنين ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. فالإسلام الذي هنا في الآية الكريمة: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ يشمل الإيمان؛ لأنه أفرد.

٧ ـ الثناء على إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأنه لم يكن فيه صفة من صفات المشركين ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ولم يقل: لم يكن مشركاً. فليس فيه صفة من صفات المشركين أبداً، لا الشرك ولا غيره. وهكذا ينبغي لكل مؤمن أن لا يتصف بأي صفة من صفات المشركين. فمثلاً من صفات المشركين كراهتهم للتوحيد، وينكرونه ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] فمن كره التوحيد وإن لم يكن مشركاً ففيه من صفات المشركين، بل قد يكون كافراً.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

هذا حكم بين هؤلاء الخصوم. الخصوم ثلاثة: اليهود، والنصارى، والمسلمون. من الحكم العدل ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾، قدم هنا ما كان ينبغي أن يكون خبراً وجعله هو المبتدأ الذي هو ركن الجملة الذي يسند إليه الخبر، فقال ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ ولم يقل: إن الذين اتبعوه أولى به؛ لأجل أن يحكم بأن الأولوية لهؤلاء لا لغيرهم ﴿أَوْلَى

ٱلنَّاسِ﴾ من اليهود، والنصارى، والمشركين، وأصحاب الأوثان، وغيرهم للذين اتبعوه.

فتكون الجملة مؤكدة بمؤكدين بإن واللام.

قال: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

للذين اتبعوه من بني إسرائيل ممن سبق النبي ﷺ. ولا شك أنه تبعه كثير من المؤمنين الذين آمنوا به في حياته، والذين اتبعوا طريقته بعد مماته.

﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ المشار إليه محمد عليه الصلاة والسلام، وكفى به فخراً أن يشير إليه رب العالمين، هذا شرف عظيم لرسول الله ﷺ أن يكون الله يشير إليه بهذه الإشارة المفيدة للقرب، ولم يقل: وذلك النبي، بل قال: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ إشارة إلى قربه لأنه ﷺ أقرب الناس منزلة إلى الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ فيها قراءة النبيء أيضاً.. وعلى هذه القراءة النبيء مشتق من النبأ، فهو فعيل بمعنى فاعل وبمعنى مفعول.. بمعنى فاعل لأنه مُنبِئ مُخْبِر، وبمعنى فعيل لأنه مُخْبَر، ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه ـ في وصف الرسول ـ: **[وهو الصادق المصدوق]**[1].. فهو فعيل بمعنى مفعول، وفعيل بمعنى مُفْعِل، وقد جاءت في القرآن، والقرآن حجة، وإذا أردت أن نأتي بحجة من كلام العرب فاسمع إلى قول الشاعر:

أمن ريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٨). ورواه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابه...، رقم (٢٦٤٣).

السميع بمعنى المُسْمِع.. فهذه سميع بمعنى مُسْمِع في لغة العرب، على أننا في الحقيقة لا نحتاج إلى استشهاد للقرآن لإثبات أن هذا لغة بل القرآن يُستشهد به، ولا يستشهد عليه، لكن من المعلوم أنه كلما زادت البينات ازداد الإنسان طمأنينة.. أما على قراءة النبي بدون همزة ففيها وجهان:

الوجه الأول: أنها مسهلة من النبيء بالهمز يعني أن الهمزة جعلت ياءً للتسهيل. وهذا موجود في اللغة العربية. «أئمة» يقال فيها في اللغة العربية: أيمة.. وعلى هذا الوجه يكون النبي في النبأ.

الوجه الثاني: إن الياء أصلية وليست مسهلة من النبيء، وعلى هذا فيكون مشتقاً من النَّبْوَة.. وهي الشيء المرتفع الناتئ. يقال: نبا ينبو. يعني ارتفع. وذلك لارتفاع مرتبة النبي، لأن الرسل ومنهم خاتم الرسل محمد ﷺ أرفع الناس قدراً عند الله، ولهذا بدأ الله بهم في صدر من أنعم عليهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [النساء: ٦٩].. والقول الراجح أنه إذا احتمل اللفظ معنيين بدون تضاد حمل عليهما؛ لأن ذلك أوثق في المعنى. أما مع التضاد فإنه ينظر للراجح ويحمل عليه. لكن مع إمكان الجمع يجب أن يحمل على المعنيين جميعاً.

فإذا قال قائل: **هذا استعمال لمشترك في معنييه**[1].

---

(١) اللفظ المشترك: ما اتحد لفظه وتعدد معناه.. العين تقال للباصرة.. وتقال للعين الجارية، وتقال للعين التي هي الذهب والورِق، ولهذا يقال: عين موروده، وعين منقودة، وعين مكحولة.. العين المنقودة الذهب، والعين الموروده الماء، والعين المكحولة الباصرة.

يقول بعض العلماء: إن المشترك لا يمكن أن يحمل على معنييه؛ لأن كل معنى منهما يضاد الآخر. ولكن الصحيح الذي عليه أكثر أهل العلم أنه يجوز أن يحمل على معنييه بشرط عدم التعارض. فإن تعارض وجب طلب المرجح.

قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ معطوف على قوله: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ فهو في محل رفع بل هو مرفوع.. النبي بدل من اسم الإشارة، واسم الإشارة كما نعلم مبني على السكون. قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ آمنوا بهذا النبي. والإيمان بالنبي ﷺ يتضمن الإيمان بكل شريعته. وهذا الإيمان أيضاً يستلزم القبول والإذعان. أن يقبل ما جاء به النبي ﷺ وأن يذعن له.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولي كل مؤمن من هؤلاء وغيرهم، كل مؤمن فالله سبحانه وتعالىٰ وليه. كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وهذه الولاية ولاية خاصة تقتضي أن ييسر المؤمن لليسرى، ويجنب العسرى. وهناك ولاية عامة شاملة لكل أحد. فالله تعالى ولي كل أحد ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢]، فجعل الله تعالى مولى لهؤلاء وهم كفار لكن هذا بالولاية العامة، والولاية العامة هي ولاية التصرف.. التصرف في الكون والتدبير، والولاية الخاصة ولاية العناية بالمولى، وعليه فإن الله تعالى يعتني به فييسره لليسرى ويجنبه العسرى.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ في الآية دليل على أن الأولويات تختلف، أي أن الناس يتفاضلون بالأولوية والولاية؛ لقوله: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ﴾ و﴿أَوْلَى﴾ اسم تفضيل، والتفضيل يدل على المفضل والمفضل عليه. ولا شك أن الولاية درجات.. فأحق الناس بالولاية لإبراهيم من اتبعه، يعني القوم الذي اتبعوه في عهده؛ لأن القوم الذين اتبعوه في عهده اتبعوه في أصل الدين، وفي فروع الدين، يعني في جليل الدين ودقيقه. ولهذا قدم الذين اتبعوه على النبي والذين آمنوا؛ لأن النبي ﷺ والذين آمنوا لم يتبعوا إبراهيم في فروع الشريعة بل ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] لكن اتبعوه في أصل الدين والاستسلام لله عزّ وجل. وإلا فلا شك أن النبي محمداً ﷺ أفضل من الذين اتبعوا إبراهيم، بل وأتباع الرسول أفضل من أتباع إبراهيم.

٢ ـ شرف النبي ﷺ ومن آمن معه، لكونهم أولى الناس بإبراهيم الذي تتنازعه الأمم، كل أمة تقول أنا أولى به.

٣ ـ الرد على اليهود والنصارى حيث ادعوا أنهم أولى الناس بإبراهيم فكذبهم الله.

٤ ـ تشريف النبي ﷺ بالإشارة إليه من رب العالمين في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

٥ ـ إثبات نبوة الرسول ﷺ. وهذا أمر لا شك فيه، وكل من وصف بالنبوة في القرآن فهو رسول. قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، ثم قال في هؤلاء النبيين: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾

[النساء: ١٦٥]، فكل من وصف بالنبوة في القرآن فإنه رسول بدليل آية النساء ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥].

٦ ـ إثبات ولاية الله للمؤمنين في قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذه الولاية كما قلنا آنفاً ولاية خاصة تقتضي عناية تامة.

٧ ـ كل من كان أكمل إيماناً فولاية الله له أكمل، هذه فائدة أخذناها من قاعدة معروفة عند أهل العلم وهي: [أن الحكم المعلق بوصف يزداد قوة بقوة هذا الوصف فيه] هذه قاعدة مفيدة.. كل حكم معلق بوصف فإن هذا الحكم يزداد قوة بقوة الوصف الذي علق عليه الحكم. فإذا قلت مثلاً: أنا أحب الصالحين معناه كل من كان أصلح فهو أحب إليَّ؛ لأن المحبة علقت بالصلاح، فكلما ازداد الصلاح ازدادت المحبة ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ علقت الولاية بالإيمان، فكلما كان الإنسان أقوى إيماناً، كانت ولاية الله له أتم وأخص.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي للإنسان أن يحقق إيمانه ويكمله بقدر استطاعته، من أجل أن ينال ولاية الله؛ لأن كل إنسان عاقل يسعى في الحقيقة إلى أن يكون الله له وليًّا، نقول: الأمر سهل.. حقق الإيمان يكون الله لك وليًّا، وكلما ازداد تحقيقك الإيمان ازدادت ولاية الله لك. وإلا فكلنا يطلب ذلك.. ونسأل الله عزّ وجل أن يجعلنا وإياكم من أوليائه. كلنا يطلب هذا، لكن فقط حقق الإيمان. **من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك**[1].. هذه من أسباب الولاية أن يكون

---

(١) رواه الطبراني في معجم الأوسط (٩/ ٤١)، رقم (٩٠٨٣).

حبك وبغضك وكراهتك وعداوتك وولايتك لله عزّ وجل لا للدنيا.

٨ ـ إثبات الأسباب.. وجه ذلك: أن الإيمان جعله الله سبباً لولاية الله، ولا شك أن الأسباب ثابتة، والأسباب شرعية وعقلية وحسية؛ فالأسباب الشرعية: ما جعلها الله تعالى سبباً في القرآن، فمثلاً: الإيمان سبب لدخول الجنة. هذا سبب شرعي، ودخول الوقت سبب لوجوب الصلاة، هذا سبب شرعي.. والعسل سبب للشفاء[1]، هذا سبب قدري علمنا به من طريق الشرع يعني من طريق الوحي.. كذلك كون الماء سبباً لنبات الأرض سبب حسي. فما شاهدناه بأنفسنا فهو سبب حسي، الأدوية الطبيعية التي تستخرج بالتجارب أسباب حسية.

أما الأسباب العقلية: فهي كثيرة جدًّا، كل شيء يترتب على شيء عقلاً فهو سبب عقلي، والأسباب الشرعية والحسية والعقلية كلها مؤثرة بذاتها، حيث أودع الله فيها التأثير. وإنما قلت ذلك لأن بعض الناس غالى في التنزيه فقال: إن الأسباب لا تؤثر بذاتها وإنما يكون الأثر عندها لا بها، فقالوا مثلاً: إن الاحتراق بالنار ليس بالنار لكن حصل الاحتراق عند تماس النار بما يقبل الاحتراق فحصل الاحتراق. أما النار فلا

---

(١) قال تعالى في سورة النحل: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ...﴾ [آية ٦٩]. وقال ﷺ: «**الشفاء في ثلاثة: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنهى أمتي عن الكي**». هذا الحديث رواه البخاري، كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث، رقم (٥٦٨٠).

تحرق! لو جعلت النار تحرق وتقلب الشيء عما كان عليه لأثبت مع الله خالقاً وصرت مشركاً!!.

لكننا نقول: الأسباب مؤثرة. وقد أودع الله فيها هذا التأثير، ولولا أن الله أودع فيها هذا التأثير ما أثرت، ولهذا لما ألقي إبراهيم في النار فقال الله لها: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] ما أثرت؟

إذن عرفنا الآن أن الأسباب جعلها الله مؤثرة وليست هي التي تخلق، أو خلقت بذاتها، ولكن الله أودع فيها هذه القوة التي يكون بها المسبب، هذا هو المعقول فنحن لا نغالي في إثبات الأسباب فنقول: إن هذا يكون بدون الله، ولا نغالي في التنزيه فنقول: إن الأسباب لا تؤثر وإنما يحصل الأثر عندها لا بها، كلا الأمرين خطأ، والوسط في الغالب هو الحق لأنك تجد كلا الطرفين أخذ بجانب من الحق وترك جانباً، والوسط يأخذ بالجانبين فيكون وسطاً.

❁ ❁ ❁

❑ قال تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡۖ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩].

﴿وَدَّت﴾ أي: أحبت. والود خالص المحبة. ومن أسماء الله تعالى (الودود) بمعنى الواد، والمودود. فهو سبحانه وادٌ لأوليائه وأصفيائه، وهو أيضاً مودود من أوليائه وأصفيائه، فالوُد إذن خالص المحبة، يعني أحب هؤلاء أو هذه الطائفة بكل خالص المحبة.

وقوله: ﴿طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الطائفة يعني الجماعة،

والمراد بأهل الكتاب هنا اليهود والنصارى. ولكن الأغلب هم اليهود؛ لأنهم أكثر ممارسة للعرب من النصارى. فإن اليهود كانوا في المدينة، قدموا من أذرعات، ومن الشام، ينتظرون النبي الذي بشرت به التوراة. قدموا من بلاد الشام لأنهم علموا أن مهاجر هذا النبي المدينة حسب ما في التوراة من البشارات به، فقالوا: نذهب إلى هناك لنكون معه ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩].

﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ .. ﴿لَوْ﴾ مصدرية بمعنى أَنْ. والقاعدة في (لو) أنها إذا أتت بعد ما يفيد الود والمحبة تكون مصدرية ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] أي: ودوا أن تدهن ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩] أي: ودوا أن يردوكم، فهي هنا مصدرية. وقد علم أنها تأتي شرطية؛ حرف امتناع لامتناع. مثل: لو جاء زيد لأكرمتك. فهنا امتنع إكرامي إياك لامتناع مجيء زيد.

يقول الله عزّ وجل: ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ يعني ودوا أن يضلوكم. والإضلال: بمعنى الإتاهة عن الحق. يعني ودوا أن يخرجوكم من الهدى إلى الضلال. وهذا الضلال الذي أرادوه بالمسلمين يمكن أن يفسر بالآية الثانية التي في سورة البقرة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩] .

يقول عزّ وجل: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ يعني بمحاولتهم وودهم هذا لا يضلون إلا أنفسهم، المعروف عند

أكثر المفسرين أن المعنى: وما يهلكون إلا أنفسهم، وذلك لأنهم إذا تمنوا لكم الضلال أثموا على ذلك فصاروا هم كالضالين. وقيل: بل المعنى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أنهم إذا اشتغلوا بمحاولة إضلالكم اشتغلوا عما فيه هداهم. كما هو الواقع أن الإنسان إذا أراد أن يرد الحق، وأن يضل غيره اشتغل بمحاولة إضلال غيره عن محاولة هداية نفسه، فيكون المعنى: وما يضلون إلا أنفسهم لأنهم اشتغلوا بمحاولة إضلالهم إياكم عن طلب هدايتهم؛ لأن العادة أن الإنسان إذا اشتغل بمحاولة إضلال غيره تجده يطرق كل باب ويسلك كل طريق يحاول به إضلال الغير وينسى نفسه. وهذا واقع كثيراً، حتى بين طلبة العلم أحياناً، يريد الإنسان أن ينتصر لنفسه ولقوله، ولو كان على خطأ، فتجده يحاول أن يلتمس الأعذار والتحريفات والتأويلات وصرف النصوص عن ظاهرها من أجل أن توافق قوله، وينسى أن يكون الواجب عليه إذا عورض أن يطلب الحق، وأن يراجع نفسه، لعل الصواب مع غيره. كما يقع كثيراً عندما يختار الإنسان قولاً أو يقول قولاً ثم يراجع فيه فيتبين له أن الصواب خلاف ما كان يعتقده أولاً.

إذن ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ فيها رأيان:

الرأي الأول: ما يضلون إلا أنفسهم بالإهلاك وكثرة العقاب حيث حاولوا صد الناس عن دين الله.

الرأي الثاني: ما يضلون إلا أنفسهم بانشغالهم بمحاولة إضلالكم عن طلب هداية أنفسهم. قال بعض المفسرين: وهذا

أولى؛ وذلك لأن الوعيد عليهم بما يكون في الآخرة غير مُجد في هذا المقام؛ لأنهم أصلاً لا يؤمنون بمن أنذر بهذا حتى يقال إنهم لا يهلكون إلا أنفسهم. ولكن الواقع أن هذا غير وارد، يعني بمعنى أن الله يتكلم عن الأمر الواقع، فالآية محتملة للمعنيين.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: يعني ما يشعرون أنهم أضاعوا الوقت في محاولة إضلالكم، ونسوا أنفسهم؛ لأن الإنسان في غمرة الغلبة، أو حب الغلبة، وسكرة حب الظهور ينسى، ولا يشعر بالوقت إذا ضاع عليه. فهؤلاء لا يشعرون بأن الوقت ضاع عليهم بانشغالهم بطلب أو بمحاولة إضلالكم. والشعور هو المعنى النفسي الذي يشعر به الإنسان في نفسه توبيخاً وتنديماً أحياناً، أو عكس ذلك تفريحاً وتفاعلاً.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان عداوة أهل الكتاب للمسلمين حيث يودون لهم الإضلال، والطائفة من القوم، والغالب أن مشرب بقية القوم مشربها، فإذا كانت هذه الطائفة تود هذا فغيرها كذلك.

٢ ـ التحذير من أهل الكتاب وأنهم يحاولون صد المسلمين عن دينهم كالمشركين، وكل من الطائفتين تودان من المسلمين الضلال، يقول تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]، وقال تعالى عن المشركين من قريش: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢]، فكل المشركين، وكل الملحدين، وكل من ادعى أنه صاحب كتاب، كلهم يودون من المسلمين أن يكفروا ويضلوا بعد هدايتهم وإيمانهم. وإذا كان كذلك فيجب علينا

الحذر منهم، واعتقاد أنهم أعداء ألداء، ويودون أن يقضوا علينا، وعلى ديننا بين عشية وضحاها.

٣ ـ أن المعتدي يجازى بمثل عدوانه، ويبتلىٰ بمثل ما ابتلى غيره به؛ لقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾.

٤ ـ تعزية المسلمين بما يريده بهم هؤلاء من الإضلال. فكأن الله قال: لا تخافوا منهم فإن الإضلال إنما يعود عليهم، ولكن هذا في حق المؤمنين حقًّا الذين يؤمنون بدينهم تماماً ويفخرون به، ويعتزون به، دون الذين يجعلون دينهم أقوالاً باللسان، أو حروفاً على الأوراق، وهم في الحقيقة يتبعون غيرهم، ويعظمون غيرهم في نفوسهم، فإن هؤلاء ربما يصابون برجس هؤلاء الكفار الذين يريدون إضلالهم.

٥ ـ أن الإنسان قد يعمى عن الباطل مع ممارسته له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

٦ ـ إحاطة علم الله بما في قلوب الخلق؛ لقوله: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ﴾ فإن الود محله القلب، ولا يعلم ما في القلوب إلا الله.

٧ ـ أننا نرد على كل شخص يدعي أو يتوهم أن الكفار يريدون الخير بالمسلمين بهذه الآية؛ لأننا نقول له: إنك لا تعلم ما في قلوبهم، واسمع إلىٰ علام الغيوب يقول: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ فأنت لا تعلم، فلا تغتر بمصانعتهم ومخادعتهم ومكرهم.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠ ـ ٧١].

خطاب من الله لأهل الكتاب على سبيل التوبيخ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ اليهود والنصارى وبالأخص اليهود.

﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ﴾، (ما) اسم استفهام حذفت ألفها لدخول حرف الجر عليها، والاستفهام هنا للتوبيخ.

﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ آيات الله جمع آية وهي العلامة الدَّالة على الله عزّ وجل. وكل آية من آيات الله تدل على صفة من صفاته؛ فالانتقام آية تدل على الغضب. وبسط الرزق، إذا لم يكن الإنسان على معصية الله، آية تدل على الرضا والرحمة، فالآيات تتنوع بحسب متعلقها، فهؤلاء كفروا بآيات الله الشرعية التي نزلت على رسلهم وعلى محمد ﷺ، فاليهود كفروا بآيات الله وهي: التوراة. والنصارى كفروا بآيات الله وهي الإنجيل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ [البقرة: ١٤٦]، لم يقل: أبناءَهم وبناتهم؛ لأن معرفة الإنسان لابنه أقوى من معرفته لبنته لشدة تعلقه به فهو لا يجهل شيئاً عنه، فهم يعرفون الرسول ﷺ كما يعرفون أبناءهم؛ لأن نعته موجود عندهم في التوراة والإنجيل ولكنهم كفروا بآيات الله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾

إذن آيات الله تشمل: التوراة والإنجيل والقرآن، كفروا بهذه الثلاثة كلها ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ لم يقل: وأنتم تعلمون؛ لأن الشهادة أقوى لكونها تقتضي أن يكون العالم كالمشاهد للشيء بحسه، والمشاهدة بالحس أقوى من المشاهدة بالذهن، أو من العلم بالذهن. فهم يشهدون الآيات ويعلمونها ومع ذلك يكفرون بهذه الآيات.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

وهم في كفرهم مخادعون يلبسون الحق بالباطل. ومعنى لبس الحق بالباطل خلط الحق بالباطل، فهم يأتون بالباطل ويموهونه بحق. ووجه ذلك أنهم لو جاءوا بالباطل صراحاً ما قبل منهم لكنهم يأتون به مخلوطاً بحق من أجل أن يكون في ذلك تمويه على من لا يعرف الحقائق. وهذا من المكر والخداع لكل مبطل يموه الحق بالباطل، ومن ذلك أن يأتي بعبارات مجملة تحتمل حقًّا وباطلاً، ولكن هو يريد بها الباطل، ومن سمعها قد يحملها على إرادة الحق، وهذا أيضاً من لبس الحق بالباطل.

﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾.

تكتمون الحق: أي تخفونه. وهنا قد يقول قائل: كيف قال: تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق، أليس في هذا تناقض؟

الجواب: لا. ليس في هذا تناقض؛ لأنهم يكتمون الحق الصريح ويأتون به مخلوطاً مموهاً بالباطل. وليس قصدهم أيضاً الحق إذا جاءوا بالحق مخلوطاً مع الباطل بل قصدهم الباطل، وهذا الحق الذي جاءوا به كالثوب الذي يخفي العيب.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تعلمون الحق، بل وتعلمون حالكم أنكم

لابسو الحق بالباطل. فهم يعلمون الأمرين: يعلمون الحق الصريح، ويعلمون أنهم قد خلطوا الحق بالباطل. ولا سيما اليهود؛ لأن اليهود عصوا الله وهم يعلمون أنهم عصوه، عصوا الله على بصيرة.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ توبيخ أهل الكتاب على كفرهم بآيات الله.

٢ ـ ومن فوائد الآية الأولى أن هذا التوبيخ واقع موقعه أنهم كفروا بآيات الله وهم يشهدون.

٣ ـ الحكم الصريح الذي لا يقبل التأويل على أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ بالكفر ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ولا يوبخ إلا على أمر واقع، والكفر بآيات الله كفر بالله. وبه نعلم أنهم وإن زعموا أنهم مؤمنون بالله فهم كافرون به كفراً صريحاً خالصاً.

٤ ـ أن هؤلاء الكفار كفروا عن علم وشهادة؛ لقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

٥ ـ أن هؤلاء الكفار من أهل الكتاب كانوا يخادعون ويمكرون بلبس الحق بالباطل. وما أكثر ما يموّهون بالقرآن الكريم على بطلان ما ذهبوا إليه، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩]، فيقول إن الذين آمنوا: أي المسلمين، والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله منهم واليوم الآخر فلهم أجرهم عند ربهم. فجعلنا نحن وأنتم في صف واحد، المؤمن منا بالله واليوم الآخر له الأجر، ولو كنا مخالفين لكم ما كان لنا أجر! ويقولون: عيسى

ابن مريم بشَّر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ولم يأتِ بعد! فالذي جاء اسمه محمد. ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩]، فنحن ننتظر أحمد! فهم يلبسون الحق بالباطل ويمكرون. ولكن من أعطاه الله علماً وفهماً تبين له أنهم ملبسون. وقد ألف علماء المسلمين ـ ولله الحمد ـ في بيان باطلهم ودحض حججهم ما هو كالشمس إضاءةً ونوراً يخفي ضوؤه كل ساطع.

والجواب عن هاتين الشبهتين أن يقال: في الآيات الأولى قيد الله عزّ وجل من له الأجر من هؤلاء الأصناف بقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [المائدة: ٦٩] فأنتم ما آمنتم بالله واليوم الآخر بنص هذه الآية: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾. أنتم مؤمنون لما كانت رسالة النبي الذي أرسل إليكم قائمةً، أما وقد نسخت، فإذا بقيتم عليها فأنتم كفار.

وقوله: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] إذن فأحمد جاءكم ولا نعلم أن نبياً جاء بعد عيسى إلا محمد ﷺ. وعلى هذا فيكون هذا التمويه لا يخفى على الإنسان الذي يعطيه الله تعالى علماً وبصيرة، وقد ألف شيخ الإسلام رحمه الله كتاباً سماه: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» والرد على النصارى من أئمة المسلمين كثير.

٦ ـ أنه يجب الحذر من أهل الباطل إذا لبسوا الحق بالباطل، وألا نغتر بهم لأنهم يأتون بزخرف القول غروراً. ومن هذا ما حصل للمبتدعة من هذه الأمة، فإنك إذا سمعت كلامهم قلت: لا أعدل بذلك شيئاً، هذا هو الحق ولن أتجاوزه، ولكنه كما قيل:

حجج تهافت كالزجاج تخالها حقًّا وكل كاسر مكسور

حججهم كلها متهافتة ليس لها ما يقيمها على قدميها فضلاً عن أن تكون مهاجمة، هي لا تدافع عن نفسها فضلاً عن أن تهاجم غيرها، لكن مع ذلك يموهون. فعلى الإنسان أن يحترز من هؤلاء الذين يلبسون الحق بالباطل.

٧ ـ التوبيخ لمن سلك هذا المسلك. ووجه ذلك: أن تخصيص التوبيخ لأهل الكتاب ليس تخصيصاً للشخص والعين، ولكنه بالجنس والنوع والوصف، فكل من كان على شاكلتهم فإنه يستحق هذا التوبيخ.

٨ ـ وجوب بيان الحق على من عَلِمَه؛ لقوله: ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أما من لم يعلم فعذره ظاهر، ثم اعلم أن بيان الحق يجب عند السؤال عنه إما بلسان الحال وإما بلسان المقال. السؤال بلسان المقال أن يأتيك شخص ويقول: ما حكم كذا وكذا؟ والسؤال بلسان الحال أن يقع الناس في معصية يحتاجون إلى أن تبيَّن لهم، لا تقل: إن الناس لما لم يأتوا إليَّ ويسألوني فأنا لست بملزم. أنت ملزم لا بد أن تبين لهم الحق ولا تكتم.

❁ ❁ ❁

□ لما ذكر الله تعالى مكرهم بالقول ذكر مكرهم بالحيل الفعلية فقال: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني القرآن، وإن شئت فقل الشريعة كلها، آمنوا به ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: أوله. والدليل على أن المراد بوجه النهار أوله قوله: ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾.

وهذه إحدى الطرق التي يعلم بها معنى الكلمات في القرآن الكريم، أن يعلم معنى الكلمة بذكر مقابلها كقوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١] ثباتٍ يعني وحداناً متفرقين.

﴿لَعَلَّهُمْ﴾ الضمير يعود على المؤمنين.

﴿يَرْجِعُونَ﴾ أي: يرجعون عن دينهم؛ لأنكم أنتم أهل كتاب، فإذا آمنتم أول النهار ثم رجعتم قال الناس: لولا أنهم علموا أن هذا دين باطل لم يرجعوا.

أرأيتم كيف المكر، ادخلوا معهم في أول النهار وصلوا كما يصلون، واحضروا مجالس الذكر وإن وجد بكاء فابكوا، كونوا معهم تماماً، فإذا كان في آخر النهار اكفروا، قولوا: كفرنا بهذا الدين؛ لأن الناس إذا فعلتم هكذا قالوا لولا أن هذا الدين باطل ما كفر به هؤلاء بعد إيمانهم؛ لأن الإنسان إذا آمن بدين وكان الدين حقًّا ثبت عليه ولم يرجع.. والدليل على هذا أن هرقل سأل أبا سفيان حينما لاقاه في الشام عن أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام: هل يرجع أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه؟.

قال: لا، لا يرجع أحد.. قال: **وَكَذَلِكَ الإيمانُ إذا خَالَطَ بَشَاشَةَ القُلوبِ**... أو كلمة نحوها[1].

❑ قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران: ٧٣].

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾، رقم (٤٥٥٣). ورواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، رقم (١٧٧٣).

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾:

هذا من قول الطائفة أي: لا تظهروا ما أنتم عليه إلا لمن تبع دينكم؛ لأنكم لو أظهرتم للمسلمين أنكم آمنتم ثم رجعتم من أجل إفساد دينهم ما قبلوا منكم هذا، ولا رجعوا. لكن إذا أخبرتم بهذا المكر والخديعة من تبع دينكم سلم لكم الأمر.. كأنهم يقولون: اخفوا هذه الطريقة إلا على من تبع دينكم، فمن تبع دينكم أخبروه، أما غيرهم فلا تخبروهم.

قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾.

وهذه الجملة معترضة، لكنها في محل موافق تماماً؛ لأنه لما كان الغرض من هذا العمل الماكر أن يضلوا الناس عن دينهم صار من المناسب تماماً أن يفسد هذا المكر ببيان أن الهدى هدى الله، والتوفيق بيد الله بأن يقول: لن ينفعكم هذا المكر والخداع، فإن الهدى هدى الله حتى لو عملتم هذه الطريقة الماكرة الخادعة، فإن ذلك لن يضر المسلمين شيئاً؛ لأن الهدى هدى الله.

ثم قال: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾:

هذه أشكلت على المفسرين والمعربين كثيراً، وأظهر ما نقول فيها أنها متعلقة بقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ يعني ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، يعني لا تخبروا أحداً أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم لأنكم لو قلتم للناس إنكم ستؤتون مثل ما أوتينا من الكتاب والفضائل وغيرها؛ لأن الله آتى بَني إسرائيل كتباً بل آتاهم التوراة التي فيها الهدى والنور، وآتاهم فضائل: ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، وقتل عدوهم اللدود حتى شاهدوه. يقول: لا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل

ما أوتيتم إلا لمن تبع دينكم؛ لأنكم لو قلتم للناس: إن هذه الأمة الإسلامية ستؤتى مثل ما أوتينا من الفضائل والشرائع لكان في ذلك حثٌّ على تمسكهم بدينهم.

وقيل المعنى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي: لا تخبروا بهذا المكر والخداع أنكم تؤمنون أول النهار وتكفرون آخره من أجل أن يرجع المسلمون عن دينهم، لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم يعني لا تخبروا أحداً إلا لمن تبع دينكم بأن يؤتى مثل ما أوتيتم من هذا المكر وهذا الخداع.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يعني ولا تؤمنوا أيضاً أن يحاجوكم عند الله؛ لأنكم لو آمنتم بذلك وأنكم يوم القيامة سيحاجكم هؤلاء عند الله ما قبل أحد منكم هذه الحيلة. كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الحج: ١٧]. فأنتم لا تخبرون الناس بهذا إلا لمن تبع دينكم.. فهم إذن يؤمنون بأنهم سوف يحاجهم المسلمون يوم القيامة عند الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ كما قالوا لا تؤمنوا لأحد أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ حتى لو حاولتم أن تخفوا ما يمنُّ الله به من الفضائل على هذه الأمة، فإن ذلك لن يمنع الأمر الواقع؛ لأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، وقد آتى الله هذه الأمة ـ ولله الحمد ـ ما يربو بكثير على الفضائل التي أوتيها بنو إسرائيل.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع في كل صفاته، واسع العلم،

واسع الرحمة، واسع الحكمة، واسع القدرة، في كل الصفات. عليم بمن يستحق الفضل سبحانه وتعالىٰ، فهو يؤتي فضله من يشاء عن علم وحكمة.

❁ ❁ ❁

□ قال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٧٤].

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: يختص بمعنى يخص بالرحمة من يشاء. ولكنه عزّ وجل يختص برحمته من هو أهل للرحمة كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] كل فعل من أفعال الله قرن بالمشيئة فهو تابع للحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠] فهو سبحانه عليم حكيم يؤتي فضله من يشاء ممن يستحق ذلك الفضل.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

﴿ذُو ٱلْفَضْلِ﴾: أي صاحب الفضل. ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾: أي الواسع الكثير، فلا فضل أعظم من فضل الله عزّ وجل، وانظر إلى ما أنعم الله به على العباد من أول الدنيا إلى آخرها، وكل ذلك لم ينقص مما عند الله شيئاً. قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنَّكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر**»[1].. اغمس المخيط في البحر وأخرجه، هذا البلل الذي حمله المخيط هل ينقص

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

البحر شيئاً..؟ أبداً فهكذا كل فضل أعطاه الله عزّ وجل لو فرض أنه خارج عن ملكه، فإنه لن ينقص ملكَ الله شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر، وهذا لا ينقص البحر شيئاً.

من فوائد الآيات الكريمة:

من فوائد قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٢ ـ ٧٣]:

١ ـ بيان كيد الكفار للمسلمين، وذلك بسلوك طرق الحيل المتنوعة؛ لأنهم قالوا: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

٢ ـ أن أهل الكتاب قد يكون فيهم منافقون؛ لقوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾، فإن المؤمن حقًّا لا بد أن يستقر الإيمان في قلبه ولا يكفر ويرجع.

٣ ـ أن المؤمن قد يخدع بمثل هذه الخديعة، فيتظاهر عدوه بأنه موافق له ثم يتبرأ منه في النهاية كقوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فيريدون أن يرجع المسلمون عن دينهم من أجل أن هؤلاء رجعوا.

٤ ـ تعصب أهل الكتاب لدينهم على ضلالهم؛ لقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.

٥ ـ أن المسلم يرد كيد هؤلاء بإعلان أن الهدى هدى الله، وأنهم مهما حاولوا أن يصدونا عن ديننا وقد أراد الله هدايتنا؛ فإن

ذلك لا يضرنا، ويتفرع على هذه الفائدة أنه ينبغي للعبد أن يعتمد على ربِّه في طلب الهدى، وأن لا يعتمد على نفسه؛ لأنه إذا اعتمد على نفسه خذل مهما كان من الذكاء والحيلة.

٦ ـ أن هؤلاء الذين صنعوا هذه الخديعة بينوا وأظهروا أن الذي حملهم على ذلك هو الحسد؛ لقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾؛ لأن اليهود من أبرز صفاتهم الحسد: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤]، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩].

٧ ـ أن أهل الكتاب يؤمنون بالبعث والحساب؛ لقوله: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾، ولذلك اتفقت اليهودية والنصرانية والدين الإسلامي على الإيمان بالبعث. لكن ليس كل من آمن بالبعث يعمل له، فاليهود والنصارى ما داموا على كفرهم بمحمد ﷺ فإنهم لم يعملوا لهذا البعث، إذ لو عملوا له لآمنوا بالرسول ﷺ.

٨ ـ إثبات أن العطاء عطاء الله، وأن الله إذا منّ على أحد بفضل فلن يستطيع أحد منعه؛ لقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

٩ ـ إثبات اليد لله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ وهذه اليد يد حقيقية يقبضها الله ويقبض بها ويأخذ بها كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] وأخبر النبي ﷺ: «**أن الله تعالى يبسط يده في الليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل**»[1]، وأخبر

---

(١) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب، وإن تكررت الذنوب، رقم (٢٧٥٩).

النبي ﷺ أن «**من تصدق بعدل تمرة ـ أي بما يعادل التمرة ـ من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلُوَّه**»(١).. الحديث.

أهل السنة والجماعة يؤمنون بأن ذلك حق على حقيقته؛ لأن الله أخبر به عن نفسه وهو أعلم بنفسه وأعلم بغيره، وأخبر به عن نفسه بكلام فصيح بيِّن لا يحتمل الشك، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٦٧]، وأخبر به عن نفسه بخبر هو أصدق الأخبار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، فخبر الله أصدق الأخبار، وأخبر به عن نفسه ليهتدي الناس به كما قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]، ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦].

فهذه أربعة أوصاف اتصف بها خبر الله تعالى عن نفسه:

الوصف الأول: أنه خبر صادر عن علم.

الوصف الثاني: أن كلام الله أحسن حديث في الفصاحة والبيان والوضوح.

الوصف الثالث: أن خبر الله عن نفسه أصدق خبر.

الوصف الرابع: أن الله يريد بما أخبر به عن نفسه أن يهتدي الناس به لئلا يضلوا.

فإذا اجتمعت هذه الأوصاف الأربعة في كلام لم يبقَ فيه

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، رقم (٧٤٢٩). ورواه مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم (١٠١٤).

أدنى شك، ولا يمكن أن نقول إنه من المتشابه خلافاً لمن زعم أن آيات الصفات من المتشابه، ولهذا قالوا: إنها من المتشابه وإن فَرْضَنا نحوها أن نمرها دون أن نتعرض لمعناها، وهذا خطأ، بل نقرأ آيات الصفات ونتعرض لمعناها، ونسأل عن معناها، لكن لا نسأل عن الكيفية. نسأل ما معنى ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] لكن لا نسأل كيف استوى.. فهنا (يد الله) هذه اليد حسية يأخذ بها ويقبض عزّ وجل. ولكن لا نسأل عن كيفيتها.

فإن قال قائل: إنه جاء في حديث عن النبي ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورته**»[1]، وفي رواية: «**على صورة الرحمن**»[2]، وهذا يقتضي أن تكون صفات الله كصفات المخلوق، فوجهه كوجه المخلوق، ويده كيد المخلوق، وعينه كعين المخلوق، وساقه كساق المخلوق، وقدمه كقدم المخلوق، فما الجواب؟

الجواب على ذلك: أن هذا لا يمكن أن يكون مراد الحديث؛ لأنه لو كان هذا مراد الحديث لكان تكذيباً لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وخبر الله ورسوله لا يتكاذب بل يصدق بعضه بعضاً، فإذا كان كذلك فالجواب أن نقول:

أ ـ لا يلزم من كون آدم على صورة الله أن يماثله، فقد يكون الشيء على صورة الشيء من حيث العموم لا من حيث التفصيل. **ويدل لهذا أن النبي ﷺ أخبر أن أول زمرة تدخل الجنة**

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن ضرب الوجه، رقم (٢٦١٢).

(٢) أخرجه الهيثمي، في الزوائد، باب النهي عن تقبيح الوجه (٢/ ٨٣١)، رقم (٨٧٢). ورواه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٣٠)، رقم (١٣٥٨٠).

على صورة القمر ليلة البدر[١]. وهل يلزم من ذلك أن يكونوا مثل القمر؟. أبداً لكن من حيث الإجمال على صورة القمر وإلا فليس للقمر أنف، وليس له عين، وليس له فم، وأهل الجنة لهم أنوف وأعين وأفواه. وهذا وجه قوي جدًّا ويبقي النص على ظاهره.

ب ـ والوجه الثاني أن نقول: إن الله خلق آدم على صورة الرحمن أي على الصورة التي اختارها الله عزّ وجل كما لو قلت: هذا الباب صنعه فلان يعني هو الذي صنعه. فالله هو الذي صور آدم، وإضافة صورة آدم إلى الله تقتضي التشريف، ولذلك جاءت هذه الجملة في بعض الأحاديث تعليلاً للنهي عن ضرب الوجه وتقبيح الوجه لأن آدم خلق على صورة الرحمن[٢]. فإذا ضربت الوجه الذي خلقه الله عزّ وجل واختار هذه الصورة له؛ فإن ذلك الضرب قد يخدشه ويغيره، وإذا قبحت الوجه فقلت: ما أقبح هذا الوجه، فإن هذا أيضاً قدح في الصورة التي خلقها الله عزّ وجل واختارها لهذا الوجه. وعلى هذا فيكون إضافة الصورة إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه كقوله: ناقة الله، وبيت الله، ومساجد الله وما شابه ذلك.. فحينئذٍ تبقى النصوص ـ ولله الحمد ـ سليمة لا تتناقض ولا تتعارض. فاليد ثابتة لله على الوجه اللائق به من غير مماثلة، نجزم ونعلم علم اليقين أنه لا مماثلة بين صفات الخالق وصفات المخلوق.

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٤٦). ورواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر، رقم (٢٨٣٤).

(٢) تقدم تخريجه (ص٤١٤).

١٠ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يعلق الرجاء بالله خوفاً وطمعاً؛ لقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾. فإذا علمت أن الفضل بيد الله، تسأل الفضل من الله، وإذا علمت أن الفضل بيد الله فالذي تخاف أن يمنع الفضل عنك هو الله. إذن فينبغي بل يجب على المؤمن أن يعلق قلبه بالله تعالى رجاءً وخوفاً.

١١ ـ إثبات قيام الأفعال الاختيارية بالله عزّ وجل، وأن الله يوصف بصفات الأفعال المتعلقة بمشيئته؛ لقوله: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ فالإيتاء فعل عُلِّق بالمشيئة. فنؤمن بأن الله له أفعال يفعلها، ويحدثها تتعلق بمشيئته. ففيه ردٌّ على المعطلة الذين قالوا: إن الله تعالى لا يوصف بالصفات الفعلية الاختيارية؛ لأنه لا يوجد عندهم صفة لله تتعلق بالمشيئة، كل الصفات أزلية، فليس هناك صفات تحدث بمشيئة الله. وهذه الآية ترد عليهم؛ لأنهم يقولون: إن الله لا يفعل. يقولون: إن الله لا يستوي على العرش استواء فعلياً، ولا ينزل للسماء الدنيا، ولا يأتي للفصل بين عباده، قالوا: لأن الحوادث لا تقوم إلا بحادث، والله تعالى ليس بحادث، الله أزلي أبدي سبحانه وتعالىٰ، فإذا أُثبتت له الأفعال الاختيارية المتعلقة بالمشيئة أثبت قيام فعل حادث به، ولا يقوم الحادث إلا بحادث!.

والجواب:

أ ـ أن هذه القضية أو هذا الحكم حكم عقلي معارض للنص؛ لأنه يتضمن رد كل نص يدل على قيام الأفعال الاختيارية بالله، وما تضمن رد النصوص فهو باطل؛ لأن ما تضمن رد الحق فهو باطل.

ب ـ أن هذه القضية أو القاعدة التي ذكرتم قاعدة باطلة، فإن الأفعال تأتي بعد الفاعل، ولا يلزم أن تكون قديمة بقدمه، ولا يلزم أن يكون حادثاً بحدوثها، ولذلك نحن نأكل اليوم، وأكلنا بالأمس، وما قبل أمس. فهل يلزم إذا أكلنا اليوم أننا لم نوجد إلا اليوم؟!، إن وجودنا يسبق أفعالنا. فكذلك أفعال الله اختيارية، وجود الله سابق عليها، ولا يلزم أن نقول: إذا أثبتنا الأفعال الحادثة فقد أثبتنا حدوث الفاعل أبداً. فهذه الملازمة العقلية ملازمة باطلة لذاتها. وهي أيضاً ملازمة باطلة لمصادمتها للنصوص.

١٢ ـ إثبات المشيئة لله؛ لقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾. ولا أحد ينكر إثبات المشيئة لله فيما يتعلق بفعله أنه تابع لمشيئته، ولا يكون إلا بمشيئته، ولكن اختلفت الأمة في فعل العبد هل يكون بمشيئة الله أو لا يكون؟ فأهل السنة والجماعة قالوا: إنه يكون بمشيئة الله مع إثبات إرادة العبد، أي فعل العبد بمشيئة الله مع إثبات إرادة العبد له. وذهبت القدرية مجوس هذه الأمة إلى أن فعل العبد لا يقع بمشيئة الله، وأن العبد حر يفعل ما يشاء، ولا تعلق لإرادة الله ومشيئته بفعله، وبهذا سُمّوا مجوس هذه الأمة؛ لأنهم اعتقدوا أن العبد مستقل بما يحدثه، فجعلوا للحوادث خالقين: الله عزّ وجل فيما يتعلق بفعل نفسه، والإنسان فيما يتعلق بفعل نفسه أيضاً. فالله خالق لأفعاله والإنسان خالق لأفعاله. والله شاءٍ لأفعاله والإنسان شاءٍ لأفعاله، ولا تعلق لمشيئة الله بفعل العبد.

وهناك طائفة أخرى وهم الجبرية قابلتهم فقالت: أفعال العبد بمشيئة الله ولا إرادة للعبد فيها. إن قام فهو مجبر، وإن جلس فهو مجبر، وإن نزل من السطح على الدرج فهو مجبر، وإن

تدحرج رغماً عنه فهو مجبر، وإن مات فهو مجبر، وإن شرب فهو مجبر.. كله إجبار ما له اختيار. وهؤلاء أيضاً خالفوا المعقول والمنقول والمحسوس. لو أن أحداً منهم وقف أمامنا وقال: الإنسان مجبر على فعله فقام أحدنا وضربه كفًّا وقال: أنا مجبر على أن أضربك كفًّا فلن يرضى. ولهذا يذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رُفع إليه سارق فأمر بقطع يده، فقال: مهلاً يا أمير المؤمنين، والله ما سرقت إلا بقدر الله ـ يعني غصباً علي ـ فقال: ونحن لا نقطع يدك إلا بقدر الله. فردَّ عليه بحجته. مع أن أمير المؤمنين يقطع يد السارق بقدر الله وشرع الله.

ومشيئة الله مقيدة بالحكمة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، يدل على أن مشيئة الله مقرونة بالعلم والحكمة وهو كذلك، فلا يشاء سبحانه وتعالىٰ شيئاً إلا لحكمة. ولكن الحكمة قد تبين لنا وقد تخفى علينا؛ لأن عقولنا قاصرة. قد نظن مثلاً أن نزول المطر في هذا الوقت ضرر وليس بضرر. وقد نظن أن حبس المطر عنا ضرر وليس بضرر.

١٣ ـ إثبات اسمين من أسماء الله وهما ﴿وَٰسِعٌ﴾ والثاني ﴿عَلِيمٌ﴾ واسع في كل صفاته. كل صفاته سبحانه واسعة، رحمته وسعت كل شيء، وعلمه وسع كل شيء، وسلطانه شمل كل شيء، وقدرته على كل شيء ﴿وَٰسِعٌ﴾ بكل معناه حتى إن الله قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، أي مكان تولي وجهك له فالله أمامك، إذا كنت في الصلاة فإن الله تعالى يراك وهو أمامك كما قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا كان**

أحدكم يصلي فلا يبصق قِبَلَ وجهه؛ فإن الله قِبَلَ وجهه إذا صلىٰ»[1]، الذين يستقبلون المشرق كالذين يقعون غرباً عن مكة، والذين يستقبلون المغرب كالذين يقعون شرقاً عن مكة، والذين يستقبلون الجنوب كالذين يقعون عنها شمالاً، والذين يستقبلون الشمال كالذين يقعون عنها جنوباً، كل هؤلاء أينما تولوا فثم وجه الله؛ لأن الله واسع عليم. ولكن لا تظن أن الله في الأرض قبل وجهك وأنت تصلي، فإنه قبل وجهك وهو في السماء؛ لأن الله ليس كمثله شيء في جميع صفاته. وإذا كان المخلوق وهو مخلوق يمكن أن يكون في السماء وقبل وجهك فما بالك بالخالق، لو استقبلت الشمس حين شروقها لكانت قبل وجهك وهي في السماء، وكذلك عند الغروب تكون قبل وجهك وهي في السماء. فالحاصل أن الله تعالى واسع بجميع صفاته وبكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى.

١٤ ـ إثبات علم الله سبحانه وتعالىٰ في قوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ العلم هو إدراك الشيء على ما هو عليه، فمن لم يدرك الشيء فليس بعالم، وإن أدركه على خلاف ما هو عليه فليس بعالم. والأول جاهل بسيط، والثاني جاهل مركب. فلو سألنا سائل: متى كانت غزوة الفتح؟ فقيل له: كانت في السنة الثالثة من الهجرة، فالقائل جاهل جهلاً مركباً، ولو سألنا سائل: متى كانت غزوة الفتح؟ فقيل له: الله أعلم، فالقائل جاهل لكن جهله بسيط،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب حك البزاق باليد من المسجد، رقم (٤٠٦). ورواه مسلم، كتاب المساجد، باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها، رقم (٥٤٧).

والأول أشدهما عمىٰ؛ لأنه جاهل وهو جاهل أنه جاهل. ولهذا قيل: إن الجهل المركب أشد قبحاً من الجهل البسيط، فعالم لم ينتفع بعلمه أشد إثماً من الجاهل؛ لأن العالم الذي لم ينتفع بعلمه علم ولكنه ـ والعياذ بالله ـ لم يعمل بعلمه.

ولو سأل سائل: متى كانت غزوة الفتح؟ فقيل له: في السنة الثامنة في رمضان لكان عالماً. إذن الله تعالى عالم، مدرك للأشياء على ما هي عليه، وعلمه تعالى تام من كل وجه أزلاً وأبداً، فلم يزل عالماً يعلم ما سيكون. وإذا علم وهو عالم عزّ وجل فلن ينسى، كما قال موسى عليه السلام: ﴿فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

قال أهل العلم: لا يوصف الله بأنه عارف؛ لأن المعرفة انكشاف بعد لبس وخفاء. ولهذا إذا علمت الصبي تقول له: هل عرفت؟ فيقول: نعم. يعني بعد أن كان خافياً عليه صار الآن معلوماً له، فمن أجل أنها انكشاف بعد خفاء لم يصح إطلاقها على الله؛ لأن الله لم يزل ولا يزال عالماً.

ثانياً: أن المعرفة تطلق على العلم والظن، ولهذا إذا قلنا: العلم معرفة الحق بدليله شمل قولنا: (معرفة الحق بدليله) العلم والظن؛ لأن المعلومات إما علمية وإما ظنية، لهذا لا يصح أن يطلق على الله أنه عارف.

فإن قال قائل: كيف تقولون هذا وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»[1]. (يعرفك) وهذا فعل.

---

(١) رواه أحمد في مسنده، بلفظ: «**تعرّف إليه...**»، رقم (٢٨٠٠).

فالجواب عن ذلك: أن هذه معرفة خاصة تستلزم العناية بالذي تعرّف إلى الله من قبل. والدليل على أنها ليست معرفة العلم بل هي معرفة العناية قوله: «**تعرف إلى الله**» مع أن الله يعرفك سواء قمت بعبادته أم لم تقم. لكن إذا قمت بعبادته فقد تعرفت إليه، فإذا تعرفت إليه في الرخاء عرفك في الشدة.

ومن فوائد قوله عزّ وجل: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

١ ـ أن الله عزّ وجل قد يرحم بعض العباد رحمة خاصة؛ لقوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾، وقد بيَّن الله في آية أخرى أن الله يرحم من يستحق أن يرحم، وهو الذي تعرض لأسباب الرحمة، قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]. وأن من كان على العكس لم يأت بما يقتضي الرحمة، فإنه ليس أهلاً لها، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. وقال عزّ وجل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

٢ ـ أنه لا اعتراض على الله في كونه يختص برحمته زيداً ويمنع رحمته عن عمرو؛ لأن الأمر إليه وهو فضل إن شاء منعه وإن شاء أعطاه. ويتفرع على هذه الفائدة أن من مُنِعوا فضل الله لم يكونوا قد ظُلموا شيئاً؛ لأن فضل الله يؤتيه من يشاء، ويختص برحمته من يشاء. أرأيت لو كان أمامك عشرة رجال فأعطيت واحداً عشرة، وواحداً تسعة، وواحداً ثمانية، وواحداً سبعة، وواحداً ستة، وواحداً خمسة، وواحداً أربعة، وواحداً ثلاثة، وواحداً اثنين، وواحداً واحداً. هل ظلمت من لم تعطه إلا درهماً

واحداً؟ لا، ما ظلمته لأن هذا فضل منك فلا يقال إنك ظلمت من أعطيته درهماً واحداً لأنك أعطيت الأول عشرة دراهم، ولو استأجرت عشرة أجراء على عشرة دراهم كل يوم، فقاموا بالعمل، فأعطيت واحداً عشرة دراهم؛ والثاني تسعة، والثالث ثمانية، وهكذا تنقص، لعددت ظالماً؛ لأن هذا ليس من العدل أن يقوم الجميع بما استأجرتهم عليه ثم تعطي بعضهم وتحرم بعضاً. والفرق بين هذه والتي قبلها أن الأولى فضل وإحسان، والثانية عدل. والعدل يجب أن يعطى فيه كل ذي حق حقه.

٣ ـ جواز وصف غير الله بالعِظَم؛ لقوله: ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، لأن الفضل هنا يحتمل: أن يُراد بها الفضل الذي هو فضل الله أي عطاؤه، أو أن المراد بها المُتفضَّل به وهو المُعطى، فعلى الثاني لا إشكال في استنباط الفائدة التي ذكرناها (أن العِظَم يوصف به غير الله) وعلى الأول إذا قلنا: إن الفضل هو نفس فعل الله فوصفه بالعِظم لا إشكال فيه؛ لأنه من صفات الله، وصفات الله كذاته عظيمة.

فإن قال قائل: ما دام الاحتمالان قائمين فلا دلالة على أنه يوصف بالعِظم من سوى الله. ما دمنا نقول يحتمل أن يكون الفضل هنا صفة لله، وصفة الله عظيمة كذات الله.

فالجواب عن هذا أن يُقال: اقرأ قول الله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] فوصف العرش بالعِظم مع أن عرشها مخلوق.. إذن يصح أن نقول: هذا الفعل عظيم، وهذا رجل عظيم، هذه سيارة عظيمة، هذا بيت عظيم، وما أشبه ذلك، ولا يضر، كما أنه يصح أن نقول: فلان عزيز، فلان قوي، ولا حرج

في ذلك، ولكن يجب أن نعلم أن ما نصف به المخلوق من صفات الله لا يماثل صفات الله ولا يُدانيها أيضاً؛ لأن الصفة تكون لموصوف تُناسبه.

❁ ❁ ❁

□ قال تعالى: ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٥ ـ ٧٦].

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾.

لما ذكر الله سبحانه وتعالىٰ خيانة أهل الكتاب في الأمور الدينية ولبسهم الحق بالباطل، وعُتوَّهم وعنادهم ونفاقهم وتغريرهم للمؤمنين، ذكر حالهم في الأمور الدنيوية في المال، فقسَّمهم الله تعالى إلى قسمين:

فقال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فهذا يشمل اليهود والنصارى، وسُموا أهل كتاب لأنهم هم الذين عندهم بقايا من الدين النازل على الأنبياء. فاليهود عندهم بقايا من التوراة، والنصارى عندهم بقايا من الإنجيل.

﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ﴾ هنا يجب الإظهار؛ لأن الهمزة همزة قطع، فيقال: ﴿مَنْ إِن﴾ خلاف لما يصدر من بعض الناس، حتى من أئمة المساجد، بقول: (من ان تأمنه)! وهذا خطأ، لأنه إذا قال: (من ان تأمنه) جعل الهمزة همزة وصل، وهي همزة قطع؛ لأنها (إن) الشرطية ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ﴾.

والخطاب في قوله: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ﴾ يعود على المُخاطب، يعني ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ﴾ أيها المخاطَب ﴿بِقِنطَارٍ﴾ يعني على قنطار ﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾.

والقنطار عبارة عن المال الكثير من الذهب، حدَّه بعضهم بألف دينار، وبعضهم بملء مسك الثور، يعني جلد الثور، من الدنانير، ﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ أي: يرُدُّه إليك من غير تغيير ولا نقص. والأداء هو إبلاغ الشيء، ومنه أداء الحديث، ومنه أداء الأمانات: أي إبلاغها إلى مستحقها، فمن يؤده إليك: أي يُعطه إياك سالماً من كل نقص، وهذا أمين.

وفي قوله: ﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ قراءتان: قراءة بكسر الهاء ﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ وأخرى بالسكون «يُؤدِّهْ إِلَيْكَ».

ومنهم القسم الثاني: الخائن الذي لا يؤتمن: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾.

والدينار هو الوحدة من النقد الذهبي، وهو ما يُسمى عندنا بالجنيه.

﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ أي: لا يرده إليك سالماً بل يُنقِصه ويخون فيه.

﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ بمعنى إلا إذا بقيت قائماً عليه، مراقباً له، ناظراً في أحواله. فحينئذٍ تَسلَم من خيانته، أما إذا غفلت أدنى غفلة فإنه سوف يخونك. فقسَّم الله عزّ وجل أهل الكتاب الآن إلى قسمين:

القسم الأول: أمين إذا ائتمنته على المال الكثير لم يُنقصه شيئاً، وإن ائتمنته على المال القليل لم يُنقص من باب أولى؛ لأنه

إذا كان لا يُنقص المال الكثير شيئاً مع أن المال الكثير إذا أخذ منه الشيء القليل لا يتبين، فائتمانه بالمال القليل من باب أولى.

والقسم الثاني: من هو خائن لو ائتمنته على أقل القليل، على وحدة من النقود، فإنه لا يؤديها إليك إلا إن كنت قائماً عليه مراقباً له، فحينئذٍ تسلم من شره، وإلا فإنه يمكن أن ينقص الواحد من الدنانير، وإن ائتمنته على أقل من دينار فكذلك لا يؤده، وعلى أكثر من باب أولى.

ثم قال الله عزّ وجل معلِّلاً خيانتهم للأمانة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذُكر من خيانتهم.

﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا﴾ الباء هنا للسببية، أي أن عدم أمانتهم بأنهم قالوا، أي بسبب قولهم: ليس علينا في الأُمِّيّين سبيل.. (الأميون) هم العرب وسُمُّوا أميين نسبة إلى الأم. والإنسان الأمِّي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: ٧٨] يعني لا يعلمونه إلا قراءة، أما الأمي في الأصل فهو الذي لا يقرأ ولا يكتب. وبهذا كان العرب لا يقرؤون ولا يكتبون إلا بعد أن بعث الرسول ﷺ.. فكانت لهم القراءة والكتابة.. الأمية عيب ذكرها الله بصفة القدح، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: ٧٨] وأشار إليها أيضاً في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

والضلال لا أحد يرى أنه مدح، ولكنها بالنسبة للنبي ﷺ تزكية؛ لأن كونه أميًّا ويأتي بهذا الكتاب العظيم يدل على أنه

صادق؛ لأن الأمي لا يمكن أن يأتي بمثل هذا الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] ونحن أمة أمية كما قال النبي عليه الصلاة والسلام[1]، ولكن بعد أن فتح الله علينا، وآتانا العلم والحكمة صرنا أمة علمية لا أمة أمية.

وإذا قال قائل: هذا ينتقض عليك؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**إنا أمة أمية**» في المدينة بعد أن نزل عليه الكتاب.. نقول: نعم هو قاله باعتبار الهلال.. ونحن باعتبار الهلال حتى بعد الفتوحات أمة أمية لا ندري عن حساب الأهلة ولا نعرفها.

وقال بعض المفسرين: المراد بالأميين من سوى أهل الكتاب. فيكون المراد بالأمي من ليس له كتاب، ويكون هؤلاء اليهود والنصارى يقولون: كل الناس سوى أهل الكتاب ليس علينا فيهم سبيل؛ لنا أن نظلمهم، نأخذ أموالهم، نقتلهم، نسبي نساءهم، لأننا نحن المختارون عند الله وغيرنا عبيدٌ لنا، والإنسان يفعل في عبيده ما شاء، ولهذا تقول اليهود: إنهم شعب الله المختار. ولكن الله اختارهم على عالَمِي زمانهم، ولم يشكروا هذه النعمة.

﴿فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ من نظر إلى الآية وأنها في سياق الائتمان على المال قيَّد هذا بأنه ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ فيما يتعلق بالمال. ومن نظر إلى العموم قال إنها تشمل أنهم يدعون أنهم لا سبيل عليهم في الأميين في أموالهم ودمائهم.. وهذا المعنى

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ: «**لا نكتب...**»، رقم (١٩١٣). ورواه مسلم، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال، رقم (١٠٨٠).

أعم. وإذا كان المعنى أعم واللفظ لا يُنافيه فالاختيار أن تأخذ بالأعم؛ لأن الأعم يشمل الأخص، ولا عكس.

وقولهم: ﴿سَبِيلٌ﴾ السبيل في الأصل الطريق، والمراد به هنا اللوم، أي ليس علينا سبيل في اللوم أو سبيل إلى اللوم أي أننا لا نُلام ولا نذم ولا نأثم فيما يتعلق بالأميين.

هذا القول الذي يقولونه لا ينسبونه لأنفسهم، وأنهم هم الذين أباحوا لأنفسهم الاعتداء على الأميين، وإنما يجعلون هذا شرعاً من عند الله، يقولون: إن الله أباح لنا ذلك ولم يجعل علينا سبيلاً فيما يتعلق بالأميين.

ولهذا قال الله عزّ وجل: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: أنهم يكذبون على الله، ويفترون على الله، ويدَّعون هذا شرعاً من الله، وهم يعلمون أن الله حرم عليهم أكل أموال الناس بالباطل ودماء الناس وأعراضهم، يعلمون هذا لكنهم يكذبون على الله.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ هنا مضمَّنَةٌ معنى يفترون.. فـ(يقولون) أي: يفترون على الله الكذب. والتضمين مختلف فيه، هل تضمِّن الفعل معنى يناسب المعمول، أو أننا نجعل التضمين في الحرف. والقول الراجح أننا نُضمِّن الفعل معنى يناسب الحرف. ومن أبرز الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦].

﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ الباء بمعنى (مِن): أي يشرب منها. وعلى هذا القول تكون يشرب على ظاهرها من الشرب. وبعضهم قال: بل إن يشرب بمعنى يروَى، وعلى هذا فالباء للسببية وليست

بمعنى (من) أي يروَى بها عباد الله. وهذا المعنى أصح لأنه إذا ضُمِّنت يشرب معنى يروى فإنه لا ري إلا بعد شرب، وعلى هذا يكون الفعل (يروى) دالاً على معنى الشرب وزيادة. لكن إذا قلت يشرب على ظاهرها والباء بمعنى (من) لم نستفد هذه الفائدة، وهي الرِّيُّ.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الجملة حال من الواو في قوله: (يقولون) يعني يقولون وهم يعلمون أنهم كاذبون، فيكون قولهم أشد من قول من يقول الكذب وهو لا يعلم أنه كذب.

ثم قال الله عزّ وجل: ﴿بَلَىٰ﴾ و«بلى» حرف إبطال ـ في هذا المقام أو في هذا السياق ـ لِما قالوه وهو ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ أي: بلى عليهم سبيل؛ لأنهم إذا خانوا الأمانة فإن عليهم السبيل، وكل من خان أمانته فعليه السبيل هم أو غيرهم، فتكون (بلى) حرف جيء به لإبطال ما ادَّعوه في قولهم: ليس علينا في الأميين سبيل.

ثم قال: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ الجملة هذه استئنافية، و﴿أَوْفَىٰ﴾ بمعنى أتم، فهي فعل ماض، وليست اسم تفضيل من ﴿أَوْفَىٰ﴾ يعني أتم بعهده أي بما عاهد عليه غيره ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ الله في هذا الإيفاء، فإن الله يحب المتقين.

والعقد عهد، فإن كلاً من المتعاقدين يُعاهد الآخر على إتمام ما تمَّ العقد عليه، وإن لم يذكرا العهد باللفظ، لكن هذا مقتضى العقد. أني إذا تعاقدت معك أن أفي لك بما تم العقد عليه، فيكون كل عقد عهداً.

(اتقى) الله بوفائه بالعهد. ومن اتقائه الله أن لا يخون،

والتقوى مأخوذة من الوقاية، وهي اسم جامع لفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه، فإن ذُكرَت مع البر اختصت بالمناهي، واختص البر بالأوامر، كقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] أي: فعل الأوامر واجتناب النواهي، أما إذا ذُكرت التقوى وحدها فهي شاملة لفعل الأوامر واجتناب النواهي، ولفظها يدل على هذا، لأنها مأخوذة من الوقاية، ولا وقاية من عذاب الله إلا بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، هذه هي التقوى، وقال بعض العلماء: (التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله)، فجمع بين العلم والعمل والاحتساب.

أن تعمل بطاعة الله: هذا هو العمل، على نور من الله: وهذا هو العلم، ترجو ثواب الله: وهذا هو الاحتساب.

وأن تترك ما نهى الله عنه على نور من الله، تخشى عقاب الله، أيضاً جمع بين العلم والعمل والاحتساب.

وقال آخرون في تعريف التقوى:

خلِّ الذنوب صغيرها ... وكبيرها ذاك التقى
واعمل كماشٍ فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرَنَّ صغيرةً ... إن الجبال من الحصى

وهذا أيضاً لا يُنافي ما سبق، لكن اختلاف في التعبير.

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

هنا قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ولم يقل: (فإن الله يحبه)، ومثل هذا التعبير يُسمى الإظهار في موضع الإضمار. والإظهار في موضع الإضمار له فوائد، منها:

أولاً: تنبيه المخاطب. ووجه ذلك أن الكلام إذا كان على

نسق واحد لم يكن فيه ما يستدعي الانتباه. ولهذا يمشي المخاطب أو المتكلم ولا يوجد في كلامه ما يستدعي الانتباه، فإذا تغير الأسلوب وجاء الاسم مظهراً بموضع الإضمار فإن الإنسان ينتبه.

ثانياً: أن في الإظهار في موضع الإضمار التعليل للحكم الذي جاء فيه الإظهار في موضع الإضمار، وذلك أن قوله: (فإن الله يحبه) ليس فيه إظهار العلة، كقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لأنه إذا قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لتقواهم فأفاد العلة.

ثالثاً: أنها تفيد التعميم أي: كل من يَعُمُّه هذا المظهر، واقرأ قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]. ولم يقل: (فإن الله عدو له) لأجل أن يشمل كل كافر سواء كان كفره بهذه العداوة، أو بغيرها، فيكون في هذا تعميم الحكم.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ بيان انقسام أهل الكتاب إلى قسمين: أمين وخائن، كما انقسموا إلى قسمين: مؤمن وكافر، فمثلاً عبد الله بن سلام رضي الله عنه كان من أحبار اليهود فمنَّ الله عليه بالإسلام فأسلم. وكعب بن أشرف من أشراف اليهود ولكنه بقي على كفره فلم يؤمن، فهم كما انقسموا إلى كافر ومؤمن انقسموا أيضاً إلى خائن وأمين، ولقد عامل النبي ﷺ اليهود، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي[1]،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي ﷺ، رقم (٢٩١٦).

وهذا يدل على أن من اليهود من هو أمين وإلا كيف يرهن الرسول ﷺ الدرع وهو من آلات الحرب عند هذا الرجل اليهودي؟

٢ ـ أنه يجب الحذر من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) لأنهم ما داموا ينقسمون إلى قسمين، فإننا لا ندري حين نعاملهم من أي القسمين هؤلاء، فيجب علينا الحذر لا سيما إذا تبيَّن لنا أنهم خونة، وأهل غدر، وأنهم لا يسعون لمصالحنا أبداً كما هو الواقع، فإن الواقع في الوقت الحاضر أن اليهود والنصارى لا يسعون أبداً لمصالح المسلمين، بل يسعون للإضرار بالمسلمين والإفساد عليهم، حتى إنهم إذا رأوا الدولة متجهة إلى الإسلام من دول المسلمين فإنهم يحاولون إسقاطها، والتضييق عليها من الناحية الاقتصادية، والعسكرية، والسياسية، وهذا شيء يعرفه كل من تدبر وتأمل في الحوادث اليوم. إذن يجب علينا أن نحذر غاية الحذر من اليهود والنصارى، وأن نعلم أن اليهود والنصارى كل واحد منهم وليٌّ للآخر، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]، مهما طال الأمد فهم أولياء ضد عدو مشترك وهم المسلمون.

لكن أعمال الدولة لا ينبغي أن يؤتمنوا فيها، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ولهذا لما كتب أبو موسى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن عندنا رجلاً نصرانياً جيداً في الكتابة والحساب أريد أن أجعله على بيت المال، قال: لا تجعله، كيف تأتمن من خوَّنه الله، فكتب إليه مرة ثانية وقال: يا أمير المؤمنين، إن الرجل جيد،

نحن في حاجة إليه. فردَّ عليه عمر: من عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب السلام عليكم، مات النصراني. والسلام. إذا مات تحييه لأجل أن يكتب لك؟ لا تحييه. قدِّر أنه مات وانتهى. ولهذا ذكر شيخ الإسلام في عدة مواضع من كتبه أنه لا يجوز أن يؤتمن غير المسلمين على أسرار المسلمين، وأن ذلك من الخيانة، وأن ذلك خطر على الدولة الإسلامية، وذكر أشياء عجيبة رحمه الله في خطر هؤلاء على الأمة الإسلامية إذا ولوا أشياء من أسرار الدولة. وهو صادق لا شك في هذا، لا شك أنهم أعداء مهما كان.

٣ ـ جواز الاقتصار على المثال ليقاس عليه ما يشبهه؛ لأنه قال قنطار ودينار، ولو ائتمنه على سيارة أو لعبة صبي. فكذلك. لكن ذكر الله الدينار والقنطار على سبيل التمثيل.

٤ ـ إعجاب أهل الكتاب بأنفسهم واحتقارهم لغيرهم؛ لأنهم قالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾. وهذا يدل على العُجب بالنفس واحتقار الغير.

٥ ـ أن أهل الكتاب لا يقتصرون على الظلم والعدوان، ويجعلون ذلك من تلقاء أنفسهم بل ينسبونه إلى شريعة الله. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ فهم يقولون على الله الكذب في هذا وفي غيره.

٦ ـ أن من افترى الكذب على الله فيما يُفتي به أو يحكم به بين الناس ففيه شَبَهٌ باليهود والنصارى. وقد وُجِدَ في هذه الأمة من يفتري الكذب على الله سواء في الحكم بين الناس أو في الفتوى التي ليست بحكم ولكنها إخبار عن الشرع.

٧ ـ أن من افترى على الله الكذب وهو يعلم، أشد إثماً وعدواناً ممن لا يعلم، وإن كان كلٌ منهم على خطأ، لكن ليس المتعمِّد كغير المتعمد. لذلك قال النبي ﷺ: «**من كذب علي متعمِّداً فليتبوأ مقعده من النار**»(١).

٨ ـ الإشارة إلى أن الجهل المركب أقبح من الجهل البسيط؛ لأن الذي يكذب وهو يعلم أقبح من الذي يكذب ولا يعلم. فالجاهل المركب الذي يتقدم بالشيء وهو يعلم أنه ليس عنده علم، أقبح من الشخص الذي يرى أن هذا هو العلم.

٩ ـ الثناء على الموفين بالعهد؛ لقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

١٠ ـ أن الوفاء بالعهد من أسباب محبة الله؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

١١ ـ أن تقوى الله عموماً سببٌ لمحبته.

١٢ ـ الرد على الأشاعرة وغيرهم من أهل التعطيل الذين أنكروا محبة الله وقالوا: (إنه لا يجوز أن تثبت أن الله (يُحب) قالوا: إذا أثبتَّ أن الله يحب فقد وصفته بالنقص والعيب؛ لأن هذا من خصائص المحدثات، ولأن المحبة لا تكون إلا بين شيئين متناسبين.

وقالوا: (ليس المراد بإثبات المحبة نفس المحبة، بل المراد بذلك لازِمُها وهو الإثابة، فمعنى (يحب المتقين) يعني يثيب المتقين أما أن يكون يحبهم فكلا.

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ، رقم (١١٠). ورواه مسلم، في المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، رقم (٢).

ولكن نقول: هذا تحريف للكلم عن مواضعه؛ لأن النصوص لا تكاد تحصر في إثبات محبة الله وأنه يُحِب ويُحَب ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] والمحبة غير الثواب، إذا أحب الله العبد أثابه، فالإثابة من لازم المحبة، وقولهم: (إنها لا تكون إلا بين متناسبين) هذا غير صحيح، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في أُحُد: «**جبل يحبنا ونحبه**»[1]، ولا مناسبة بين البشر والجبل؟.

وثبت بالواقع المحسوس أن بعض الحيوان يحب البشر، فالناقة تحب صاحبها، وتأتي إليه من بين الناس، تبرك عنده، ولو جاء أحد غير صاحبها لنفحته برجلها، أو عضته بفمها، لكن صاحبها تحنُّ إليه وتجلس عنده، وإذا سمعت صوته وإن لم تره حنت، وكذلك بقية الحيوانات، شيء مشاهد، وهذه محبة.

الهرة تحب بعض أهل البيت دون بعض، إذا جاء أحد من أهل البيت الذين لا تحبهم هربت، وإذا جاء الذي تحب دنت منه، وجعلت تتمسح به. وهذا الشيء مشاهد، ما الذي جعلها تتمسح بهذا وتهاديه وتجلب ودَّه والثاني تهرب منه وتعاتبه؟ إنها المحبة، فدعواهم بأن المحبة لا تكون إلا بين شيئين متناسبين يكذبها السمع والواقع. السمع، لقول النبي ﷺ في أُحد «**جبل يحبنا ونحبه**» والواقع لا يحتاج إلى إقامة بينة؛ لأن كل واحد يعرفه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب خرص الثمر، رقم (١٤٨٢). ورواه مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ، رقم (١٣٦٥).

١٣ ـ ينبغي مراقبة الخائن والقيام عليه. فإذا أعطيت مالك من ليس بأمين فإنه ليس من الحزم ولا من العزم أن تدعه، بل احترز منه، وإذا كان هذا في الائتمان على الأموال، فالائتمان على الأعراض من باب أولى. ولهذا حذر النبي ﷺ من الدخول على النساء فقال: «**إياكم والدخول على النساء**»، قالوا: يا رسول الله، أرأيت الحمو؟ قال: «**الحمو الموت**»[(١)].

فكل شيء تخشى منه تضييع الأمانة فاحرص على أن تكون مراقباً له وقائماً عليه، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾.

١٤ ـ أن هؤلاء الخونة من اليهود عندهم ما يُلَبِّسون به باطلهم في قولهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾.

١٥ ـ أن اليهود وغيرهم سواء في أن كل من اعتدى على أحد فعليه السبيل، ولهذا قال الله عزّ وجل: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾، وهو يدل على أن الأميين وغيرهم سواء في تحريم الاعتداء عليهم.

١٦ ـ أن هؤلاء اليهود عليهم السبيل في الأميين سواء اعتدوا على دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ أي عليهم السبيل في الأميين كما أن عليهم سبيلاً فيما لو اعتدى بعضهم على بعض.

١٧ ـ الحث على تقوى الله؛ لأن كل إنسان يحب أن يحبه الله؛ فإذا أردت ذلك فما عليك إلا أن تقوم بتقوى الله؛ لأن

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، رقم (٥٢٣٢). ورواه مسلم، كتاب السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها، رقم (٢١٧٢).

محبة الله متعلقة بالعامل، ومتعلقة بالعمل، ومتعلقة بالزمن، ومتعلقة بالمكان.

فهي متعلقة بالعامل كما في هذه الآية: ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف: ٤]. وكما في قوله: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

ومتعلقة بالعمل: «**أحب الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها**»(١).

ومتعلقة بالزمن: «**ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر**»(٢)، وقد يقال: إن هذا متعلق بالعمل لا بالزمن.

ومتعلقة بالمكان كمحبة الله لمكة كما جاء عن النبي ﷺ أنه قال فيها: «**إنك لأحبُّ البقاع إلى الله**»(٣). فمحبة الله إذن متعلقة بالعامل والعمل والزمان والمكان.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٢٧). ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (٨٥).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الصوم، باب ما جاء في العمل في أيام العشر، رقم (٧٥٧). ورواه أحمد في مسنده، رقم (٥٤٢٣).

(٣) رواه الترمذي، كتاب المناقب، باب في فضل مكة بلفظ: «**وأحب أرض الله إلى الله**»، رقم (٣٩٢٥). ورواه ابن ماجه، كتاب المناسك، باب فضل مكة، رقم (٣١٠٨). ورواه أحمد، رقم (١٨٢٤٠).

□ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

هذه الآية لها صلة بما قبلها، وهي أن هذا العمل من جنس العمل السابق ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦]، فهذه الآية فيها أيضاً نوع من أكل أموال الناس بالباطل.

قوله: ﴿يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقال: ﴿يَشْتَرُونَ﴾ ويقال: (يشرون).

البائع مُعطي والمشتري آخذ. الشاهد لهذا من القرآن قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤]. يعني يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، أي يبيع نفسه، وأما الاشتراء الذي بمعنى الأخذ ففي مثل هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، يعني يأخذون ثمناً قليلاً بعهد الله، فينكثون عهد الله من بعد ميثاقه، ويحلفون على الكذب بالأيمان من أجل الدنيا.

وقوله: ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يكون المراد بما عاهدوا الله عليه، ويحتمل أن يكون المراد بما عاهدوا الخلق عليه، فأما على الأول أي بما عاهدوا الله عليه، فهو ظاهر من الآية؛ لأن الله أضاف العهد إليه، ومثاله: أن يكتم العالم علمه من أجل عرَض من الدنيا، فإن الله عهد إلى العلماء أن يُبيِّنوا العلم

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

فإن قال قائلٌ: كيف أخذ الله العهد على العلماء ونحن لم نعلم أن أحداً من العلماء أجرى صفقة عهدٍ مع الله؟.

فالجواب: لمّا أعطى الله العلماء العلم كان إعطاؤهم إياه عهداً بأن يقوموا بنشره وإعلانه بين الخلق، فإذا لم يقوموا بذلك فإنهم لم يَفُوا بعهد الله.

القول الثاني: يشترون بعهد الله أي بعهدهم مع الناس، وأضافَهُ الله لنفسه ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ لأنه أمر بالوفاء به، قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]، فسمَّى الله معاهدة المؤمنين لغيرهم، سمَّاها عهداً له ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ مع أنهم ما عاهدوا الله وإنما عاهدوا الخلق، لكنه أضافه إلى نفسه لأنه أمر بالوفاء به، فصحَّ أن يُقال أوفوا بعهد الله.

فقوله: ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ يشمل المعنيين جميعاً؛ أي بما عاهدوا الله عليه أو بما عاهدوا الخلق عليه، فعلى الوجه الأول المعنى ظاهر وواضح ليس فيه إشكال. وعلى الوجه الثاني فيه شيء من الإشكال حيث سمَّى عهد المخلوقين عهداً لله. ولكن الجواب عنه أن يقال: أضافه الله لنفسه لأنه أمر بوفائه.

وقوله: ﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾ يعني ويشترون أيضاً بأيمانهم ثمناً قليلاً، والأيمان جمع يمين، وهي الحلفُ بالله عزّ وجل، فيشترون باليمين ثمناً قليلاً مثل أن يحلف على جَحْد حقٍّ واجبٍ عليه، أو

يحلف على دعوى حقٍّ له وهو كاذب، وهذه هي اليمين الغموس التي قال عنها النبي ﷺ: «**من حلف على يمين هو فيها فاجر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان**»[(١)]. والعياذ بالله.

وقوله: «**هو فيها فاجر**» يعني كاذب، فهذا اشترى باليمين ثمناً قليلاً.

مثال: اليمين في دعوى ما ليس له: أن يدّعي على شخص أن في ذمته له مائة ريال، فيقول الشخص: ليس في ذمتي شيء، فيقول القاضي للمدَّعي: هل لك بينّة؟ فيقول المدعي: لا، فيقول القاضي للمنكِر: احلف. فيقول: لا أحلف. حلِّفه هو، وإذا حلف هو سأُعطيه. فيحلف المُدَّعي بأن في ذمة فلان له مائة ريال وهو يكذب.

فهذا اشترى باليمين ثمناً قليلاً.

ومثال الحلف على إنكار ما يجب عليه، مثل أن يدعي على شخص بأن في ذمته له مائة درهم فينكر المُدَّعى عليه وهو يعلم أن في ذمته مائة درهم لفلان، ويحلف على أنه ليس في ذمته له شيء. فهذا حلف على إنكار ما يجب عليه. فالقاضي في مثل هذه الحال يُبرئ المُدَّعى عليه ويُخلي سبيله؛ لأنه حلف، فكلا الرجلين اشترى بيمينه ثمناً قليلاً.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض، رقم (٢٤١٧). ورواه مسلم، كتاب الأيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، رقم (١٣٨).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المشار إليهم الذين اشتروا بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً.

وقوله: ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب لهم في الآخرة كما قال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، أي من نصيب، ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ﴾ [البقرة: ٢٠١ ـ ٢٠٢]. قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ﴾ في مقابل قوله: ﴿لَا خَلَٰقَ﴾ فدلَّ ذلك على أن الخلاق هو النصيب.

﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: في الدار الآخرة وذلك يوم القيامة، وسُمِّي يوم القيامة داراً آخرة؛ لأنه آخر مراحل البشر بل الخلق، فالإنسان له مراحل في هذه الدنيا: في بطن الأم، وفي الدنيا، وفي البرزخ، وفي الآخرة.

أربعة دور. وفي الدار الأولى له حالان: حال حياة، وحال موت، فهو قبل أن تُنفخ فيه الروح ميت، وبعد أن تنفخ فيه الروح حي، وآخِرُ مرحلة هي الآخرة، إما إلى الجنة وإما إلى النار، ولهذا قال: ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وفي الدنيا يمكن أن يكون لهم خلاق، أي نصيب من هذا الثمن القليل الذي اشتروه، أرأيت لو حلف على دعوى مليون ريال لجاءه مليون ريال ـ هذا نصيب في الدنيا، لكنه والله بئس النصيب. كل الدنيا ليست بشيء.

لو ساوت الدنيا جناح بعوضةٍ ... لم يسق منها الرب ذا الكفرانِ
لكنها والله أحقر عنده ... من ذا الجناح القاصر الطيرانِ

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾:

أولئك أيضاً لا يكلِّمهم الله تكليم رضا، ولكنه قد يكلمهم تكليم إهانة. فإن الله سبحانه وتعالىٰ يقول لأهل النار: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وهذا كلام من الله، ولكنه كلام تقريع وتوبيخ وإهانة، والمنفي هو تكليم الرضا.

﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾:

يعني ولا ينظر إليهم نظر رحمة وعطف ورأفة: وذلك لأنهم ليسوا أهلاً للرحمة. قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وأما غيرهم فليس لهم من رحمة الله نصيب في الآخرة.

وقوله: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ فيها قراءة «إليهُم» ولا ينظر إليهُم، وعندي قاعدة في هذا مكتوبة عندي في المصحف، تقول: هذه ضوابط في القراءات عامة في جميع القرآن: ضمير «هو وهي» الأولى بضم الهاء «هُو» والثانية بكسرها «هِي» عند جمهور القراء مطلقاً، وسكَّن الهاء فيهما الكسائي وقالون وأبو عمرو بعد الواو والفاء واللام.. مثل: فَهْو، فَهْي، وَهْو، لَهْي «لهو الغني» «لهي الحيوان» ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، يجوز القراءة السبعية ونقول على رأي الجمهور (لهي) بكسر الهاء وسكنها الكسائي وقالون أيضاً في قوله: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١].

وضمير (عليهِم) (لديهِم) (إليهِم) مكسور الهاء. وقرأه حمزة بضم الهاء (عليهُم) (إليهُم) (لديهُم)، مكسور الهاء ﴿غَيْرِ

ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٤٤]، ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ يقول: وقرأه حمزة بضم الهاء ومنه قوله هنا: ﴿وَلاَ يَنظُرُ إِلَيهُمْ﴾، ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهُم﴾ [الفاتحة: ٧]، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾:

يوم القيامة هو يوم البعث، وسُمِّي يوم القيامة لأمور ثلاثة:

الأول: قيام الناس من قبورهم.. **والثاني**: يوم يقوم الأشهاد، **والثالث**: يقام فيه العدل. ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾:

يعني: ولا يطهرهم من آثار رجسهم التي تلوثوا بها في الدنيا. فآثامهم باقية لا تغفر ـ والعياذ بالله ـ فلا زكاء لهم عند الله لأنهم ليسوا أهلاً للتزكية.

ولهذا ينادىٰ يوم القيامة على الظالمين ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] يعني طردهم وإبعادهم عن رحمته.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

(العذاب) معناه النكال والعقوبة و(أليم) بمعنى مؤلم، لأن فعيلاً في اللغة العربية تأتي على عدة أوجه: تأتي بمعنى فاعل، وتأتي بمعنى مفعول، وتأتي بمعنى مفعل. مثالها بمعنى فاعل

سميعٌ بصيرٌ رحيمٌ، كلها بمعنى فاعل. ومثالها بمعنى مفعول: قتيلٌ جريحٌ ذبيحٌ وما أشبهها. ومثالها بمعنى مفعِل: هنا في هذه الآية أليمٌ بمعنى مؤلم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تهديد هؤلاء الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً، وينصبُّ هذا على العلماء الذين يكتمون ما أنزل الله مداهنة أو مراعاة أو من أجل مال، فإنهم اشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً؛ لأن الله عهد إلى العلماء أن يبيِّنوا العلم. وقد مرَّ بنا أن العلماء ثلاثة أقسام:

عالم أمة، وعالم دولة، وعالم ملة، فعالم الملة لا يشتري بعهد الله ثمناً قليلاً، بل يبين الملة ولا يبالي. وعالم الدولة يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً ليكون له جاه عند الدولة، وربما ليعطى مالاً، وعالم الأمة هو الذي يراعي الأمة، ينظر ماذا تشتهي الأمة «أي عامة الناس» فيُفتي به أو يقول به، وما لا تشتهيه الأمة يسكت عنه، فإذا رأىٰ الأمة على شيء غير سائغ في الشرع سكت عنه، وإذا طلبوا منه شيئاً غير سائغ في الشرع ولكنه يرى أنه يرضيهم وافقهم عليه.

٢ ـ تحريم اليمين الغموس؛ لقوله: ﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾.

٣ ـ أن اليمين الغموس، وعدم القيام بعهد الله، من كبائر الذنوب. وكون ذلك من كبائر الذنوب أمر زائد على كونه محرماً؛ لأن الكبيرة أعظم من مطلق التحريم، ووجه كونها كبيرة لأن فيها وعيداً، وكل ذنب رتِّب عليه وعيد فهو من كبائر الذنوب.

٤ ـ أن مَنْ وفىٰ بعهد الله، وحلف على صدق، فإنه لا يحرم النصيب في الآخرة. ووجهه أنه إذا كان من اشترى بعهد الله ثمناً قليلاً أو بيمينه لا خلاق له في الآخرة، فإن ضده له خلاق. وهذا الطريق من الاستدلال أخذناه من قول الشافعي رحمه الله على قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] قال: في هذه الآية دليل على رؤية المؤمنين لله؛ لأنه لما حجب هؤلاء في الغضب كان دليلاً على رؤية الآخرين في حال الرضا.

٥ ـ إثبات الآخرة؛ لقوله: ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ﴾.

٦ ـ أنه ينبغي للإنسان أن تكون الآخرة هي هدفه، ومغزاه، ومراده. ولهذا قال: ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ ولم يقل في الدنيا؛ لأنه قد يكون لهم نصيب في الدنيا ولكن لا خير فيه.

٧ ـ إثبات الكلام لله؛ لقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ ووجه ذلك أنه لو كان الله لا يتكلم لم يكن لنفي الكلام مع هؤلاء فائدة. فلولا أنه يكلم ما صار عدم تكليمه لهؤلاء عقوبة.

٨ ـ أنَّ كلام الله من أفعاله الاختيارية التي يفعلها متى شاء؛ لأن هذا الكلام الذي نفى الله عنهم نفاه في وقت معين، وهو يوم القيامة، فدلَّ ذلك على أن الكلام من أفعال الله الاختيارية التي تكون بمشيئته سبحانه وتعالىٰ.

٩ ـ أن من عقوبة هؤلاء مع حرمانهم من النصيب في الآخرة أن الله لا يكلمهم. وهذا من أعظم العقوبات ـ والعياذ بالله ـ ولهذا كان النظر إلى وجه الله من أفضل

الثواب، وأعظمه، وأعلاه، بل هو غاية الثواب والفضل.

١٠ ـ إثبات نظر الله؛ لقوله: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ وهل فيه دليل على إثبات العين لله؟ لا لأنه لا يلزم من إثبات النظر إثبات العين كما قلنا، إننا نثبت سمع الله ولا يلزم أن نثبت الأذن. وهذه مسألة يجب أن نتفطن لها؛ لأنه لا يلزم من الكلام وجود اللسان والشفتين، ولا يلزم من السمع وجود الأذنين، ولا يلزم من النظر وجود العينين.

وهنا مسألة: يوم القيامة تحدث الأرض أخبارها فهل لها لسان وشفتان؟

الجواب: لا. وكان الحصى يسبح بين يدي رسول الله ﷺ فهل له لسان وشفتان؟ لا.

وهنا مسألة أخرى: هل تسمع الأرض أو لا تسمع؟

الجواب: تسمع؛ لأنها تحدث أخبارها. فلولا أنها تسمع ما حدثت، ولما قال الله تعالى للسموات والأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١] خاطبهما فسمعتا أولًا؟ فقالتا: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

فقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]، أي ما عُمل عليها كما قال السلف، ما عُمل عليها من خير وشر. والذي يُعمل على الأرض إما قول يسمع وإما فعل ينظر، إذن فهي ترى ومع ذلك لا نقول لها عينان. فإذن لا يلزم من ثبوت نظر الله ثبوت العين. ولكن العين ثابتة بنصوص أخرى. فإن لله تعالى عينين اثنتين لا تماثلان أعين الخلق؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]، وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، إلا أن إثبات العينين ليس من هذه الآيات ولكن من أدلة أخرى كقول النبي ﷺ: «**إن ربكم ليس بأعور**»(١).

الجمع في الآيات من أجل التعظيم كقوله تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: ٧١]، مع أن الله ليس له إلا يدان اثنتان.

١١ ـ أن هؤلاء الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، والمراد به النظر الخاص، أما النظر العام فإن الله تعالى لا يحجب عن بصره شيء.

١٢ ـ إثبات يوم القيامة وأنه حق؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

١٣ ـ إثبات ما تضمنه هذا الوصف، وهو أنه يقام فيه العدل، ويقوم فيه الناس من قبورهم لرب العالمين، ويقام فيه الأشهاد.

١٤ ـ أن هؤلاء المشترين بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً لا يزكيهم الله لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا جاءت الكلمة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ بعد قوله: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فهؤلاء لا يزكيهم الله في الدنيا بل يظهر عُوارهم ويفضحهم في الدنيا حتى يعرفهم العباد ويعرفوا سقوط عدالتهم وزوال زكائهم، كذلك لا يزكيهم الله يوم القيامة، فلا يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، رقم (٤٤٠٣). ورواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، رقم (٢٩٣٣).

١٥ ـ إثبات العذاب؛ لقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والعذاب قد يكون في الدنيا، وقد يكون في الآخرة، والكائن في الدنيا قد يكون بفعل الله، وقد يكون بفعل عباد الله الذين هم حزبه، فمن أمثلة ما يكون على يد عباد الله قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] وما حصل على الكفار في غزوة بدر وغيرها. ومما يكون من فعل الله ما حصل يوم الأحزاب، فإن الأحزاب تفرقوا عن المدينة لا بفعل الرسول ﷺ وأصحابه ولكن بما أرسل الله عليهم من الريح والجنود.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ الضمير يعود على أهل الكتاب؛ لأن الآيات سياقها واحد، وفي أول الآيات قال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ﴾ [آل عمران: ٧٥]، وهنا قال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾، اللّي معناه: العطف، ومنه ليّ الحبل. فمعنى يلوون ألسنتهم: أي يعطفونها. و«اللي» هنا يشمل «اللي» اللفظي و«اللي» المعنوي. واللي اللفظي تارة يأتون بكلام من عندهم ويقرأونه قراءة الكتاب المنزل فيتوهم مَن يسمعه من الناس أنه من الكتاب المنزل، يعني يلحن الكلام كما يلحن القرآن، فيظنه السامع أنه من عند الله، هذا نوع. والنوع الثاني من اللي اللفظي التحريف، تحريف الكلم بلفظه كما حرف بعض المبتدعة قول الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] إلى قوله: «وكلَّم اللهَ موسى تكليماً» يريد بذلك أن يكون التكليم من موسى إلى الله.

أما التحريف المعنوي فهو تفسير الكلام بغير ما أراد الله، فيقول: معنى الآية كذا وكذا على خلاف ما أرادها الله به، فصار اللي ثلاث أقسام:

الأول: لي باللفظ، لكنه لا يتعلق بنفس الكتاب المنزل، إنما يأتي بكلام من عنده فيأتي به يتغنى به كما يتغنى بالكتاب المنزل، فيظن السامع أنه من عند الله.

والثاني من اللي: ليٌّ لفظي يتعلق بتغيير هيئة الكتاب المنزل وذلك ما يسمى بالتحريف اللفظي.

والثالث: اللي المعنوي، فيقول: معنى الآية كذا وكذا، وهذا لا شك أنه لي باللسان يلوون ألسنتهم بالكتاب؛ لأن الكتاب يريد كذا وهم يقولون المراد كذا.

هؤلاء المحرِّفة الذين يحرِّفون الكلم عن مواضعه.

﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

اللام هذه يحتمل أن تكون للتعليل، ويحتمل أن تكون للعاقبة. والفرق بينهما أن لام التعليل تحمل على الشيء، ولام العاقبة تكون غاية للشيء. فمثلاً إذا قلت: حضرت لأقرأ، اللام للتعليل، يعني أن الذي حملني على الحضور هو القراءة. وإذا قلت: اصطدت هذا الصيد ليكون غداءً لي، هذه للعاقبة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، فإن آل فرعون لم يلتقطوه لهذا السبب أبداً، ولو علموا أنه يكون عدواً وحزناً لهم ما التقطوه. هنا ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ هل المعنى أنهم يلوون ألسنتهم بالكتاب من أجل أن يضلوكم فتظنوا أنه من عند الله، أو أنهم يلوون ألسنتهم بالكتاب من غير قصد فتظنونه من عند الله؟

الظاهر الأول. أنهم يفعلون هذا ليوهموا الناس أنه من عند الله. ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي لتظنوه من الكتاب المنزل، وهو من الكتاب الملوي الذي حصل به اللي والتبديل.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

هذا إبطال لما أرادوه من ليِّهم ألسنتهم بالكتاب فيظن الظان أنه من الكتاب فقال الله: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ والكتاب الذي أشير إليه هنا التوراة إذا كان هذا اللي واقعاً من اليهود، والإنجيل إذا كان هذا اللي واقعاً من النصارى، و«الكتاب» اسم جنس صالح لهذا وهذا.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

الضمير يعود على مَنْ لووا ألسنتهم بالكتاب يقولون: هو من عند الله. فأبطل الله هذه الدعوى بقوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ولهذا يحسن بالقارئ أن يقف فيقول مثلاً: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ثم يقول: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ويقف، ثم يقول: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾:

أيضاً هم يقولون على الله الكذب سواء بالتحريف اللفظي أو بالتحريف المعنوي.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ يقولون هنا مضمنة معنى يفترون، ولهذا تعدت بعلى «يقولون على الله الكذب» في أحكامه وفي أفعاله وفي أسمائه وفي صفاته، وفي كل ما يتعلق به سبحانه وتعالىٰ، فهم مثلاً قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وكذبوا، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وكذبوا،

وقالوا: إن الله تعب واستراح، وكذبوا. وكل ما وصفوا الله به مما لا يليق به فهم كاذبون فيه.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

الجملة حالية حال من الواو في يقولون، يعني يقولون الكذب وهم عالمون بأنه كذب. فيكون هذا أشد إثماً ممن قال الكذب وهو لا يعلم أنه كذب.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ كلمة «ما كان» تستعمل في الشيء الممتنع شرعاً أو قدراً.

فقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ﴾. هذا ممتنع شرعاً وقدراً. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] ممتنع قدراً، بل ممتنع وصفاً؛ لأنه لا يتصور أن يأتي به القدر، مستحيل أن يكون الله تعالى ناسياً أو منسياً. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] ممتنع شرعاً، ولو شاء أن يعذبهم وهو فيهم لعذبهم، ولكنه ممتنع شرعاً.

﴿لِبَشَرٍ﴾ البشر هو الإنسان من بني آدم، وسمي بشراً لظهور بشرته. فإن بشرة الإنسان ظاهرة بارزة ليس عليها شعر ولا صوف ولا وبر ولا ريش ولا زعانف بادية. وقيل: سمي بشراً لظهور أثر البشارة عليه فيما إذا أخبر بما يسره، ولا مانع من أن يكون سمي بشراً لهذا ولهذا، والحكمة من أن الله تعالى جعل الآدمي بارز

البشرة ليعلم الآدمي أنه مفتقر إلى اللباس الحسي، فينتقل من ذلك إلى العلم بأنه مفتقر إلى اللباس المعنوي وهو التقوى. وأنه بحاجة إلى أن يعمل الأسباب التي تستره معنى كما هو يعمل الأسباب التي تستره حسًّا، وهذا من حكمة الله عزّ وجل. يقول: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي واحد من البشر، أي إنسان، أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي يعطيه إياه إيتاءً شرعياً، وكذلك إيتاءً قدرياً.

﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ الحكم أي بما أوحي من الكتاب، كما قال الله تعالى للنبي محمد ﷺ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩].

﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ يعني الإخبار بالوحي، وإنما قال: «والنبوة» مع قوله: ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، قال ذلك لأنه قد يطلق إيتاء الكتاب على من أرسل إليهم به، لا من أرسل به، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١]، فالذين أوتوا الكتاب هنا ليسوا أنبياء. إذن لا يلزم ممن أوتي الكتاب أن يكون نبيًّا، ولهذا قال: ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ لئلا يتوهم واهم أن الذين أوتوا الكتاب هم الذين أرسل إليهم بالكتاب، والمراد بالذين أوتوا الكتاب هنا الذي أرسل بالكتاب لا الذي أرسل إليهم به، بل الذي أرسل بالكتاب إلى غيره.

وقوله: ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ النبوة بتشديد الواو: إما أنها من النَّبْوَة وهي الارتفاع، وعلى هذا فتكون الواو أصلية؛ لأن رتبة النبي أعلى طبقات الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النساء: ٦٩] وإما أن تكون الواو مسهلة وأصلها النبوءة فتكون مأخوذة من النبأ، وهو الخبر، وذلك لأن الرسول مُنَبأ ومنبِئ، منبأ من قبل الله عزّ وجل، ومنبئ لمن أرسل إليهم يخبرهم ويبشرهم وينذرهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، هذا هو الممتنع، وهو الذي انصب عليه النفي، أي ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب بالرسالة والحكم بين الناس بهذا الكتاب والنبوة أي الرفعة ثم بعد ذلك يقول للناس: كونوا عباداً لي من دون الله. أي: كونوا متعبدين لي، اعبدوني من دون الله، اعبدوني بالطاعة، اسجدوا لي، اركعوا لي، انذروا لي، وما أشبه ذلك، هذا لا يمكن؛ لأن من آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة إنما جاء لضد هذه الأشياء، ليمحق هذا الشيء، لا ليدعو الناس إليه.

وقوله: ﴿كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، إذا قال قائل: هل المراد اعبدوني ولا تعبدوا الله؟ أو المراد اعبدوني وإن عبدتم الله؟ المسألة إما أن يكون الإنسان عابداً لله وحده أو عابداً لغيره، أو عابداً معه غيره.. أما العابد لله وحده، فهذا مخلص، والعابد لغير الله دون الله هذا مشرك، أو نقول: مستكبر عن عبادة الله ومتعبد لغيره.. والعابد لله ولغيره هذا مشرك، فتقول: من دعا الناس إلى عبادته وحده دون الله فهذا قد دعاهم إلى عبادته دون الله، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه ولم ينههم عن عبادة الله فإن حقيقة دعوته أنه دعا الناس ليعبدوه دون الله؛ لأن الله غني عن عبادة هؤلاء. فإذا أشركوا بالله غيره تمحضت العبادة لغير الله؛ لقول الله تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن**

الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[(١)]، وبهذا يزول الإشكال في قوله: ﴿كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فنقول: هل أحد قال للناس: اعبدوني ولا تعبدوا الله، أو هل أن المراد بالآية هذه هذا المعنى؟ فنقول: لا، لا يتعين، فالآية تشمل الوجهين جميعاً، تشمل من دعا إلى عبادة نفسه وأن لا يعبد الله، ومن دعا إلى عبادة نفسه وإن عبد معه الله؛ لأن الأول واضح أن يقول: اعبدوني ولا تعبدوا الله.. والثاني من لازم الإشراك أن لا تكون العبادة لله؛ لأن الإنسان إذا أشرك مع الله أحداً فإن عبادته لله باطلة، يعني سواء وجدت أم لم توجد. ويحتمل أن يكون المراد بالدون هنا معنى سوى، [من دون الله] أي من سواه. وليس المراد منع الجمع بل من سواه أي معه، فإن صحَّ هذا التفسير فلا إشكال، وإن لم يصح فقد تقدم الإشكال وجوابه.

﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ هذا الاستدراك استدراك واقع في مقابلة النفي الذي صدرت به الآية: «ما كان لبشر أن يؤتيه الله ثم يقول.. ولكن». إذن لا بد أن يكون هناك حذف وتقديره: ولكن (يقول) كونوا ربانيين، أي (يقول للناس) كونوا ربانيين، كوناً شرعياً، لا يملك أن يقول لهم كونوا كوناً قدرياً. لكن يملك أن يأمرهم شرعاً بأن يكونوا ربانيين، ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ نسبة إلى الربِّ، ونسبة إلى التربية، فالرباني هو من كان عبداً للرب عزّ وجل، الرباني هو الذي يربي الناس على شريعة الله بالعلم والدعوة والعبادة والمعاملة، فالرباني منسوب إلى التربية وإلى الربوبية، فباعتباره

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

مضافاً إلى الله ربوبية، وباعتباره مضافاً إلى الإصلاح تربية.

﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ أي مخلصين للرب متعبدين له.

﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ أي مربين للخلق على ما تقتضيه الشريعة.

﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

الباء هنا للسببية، أي بسبب تعليمكم الكتاب ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لأن الذي يعلم الكتاب مربٍّ. ولهذا كلما كثر الطلبة عند شخص كثرت تربيته للناس؛ لأن المفروض في المعلم أن لا يكون معلماً للناس تعليماً نظرياً جدلياً؛ لأن هذا يمكن أن يدركوه بالكتب، لكنه ينبغي أن يعلمهم تعليماً نظرياً وتعليماً تربوياً. وهذا هو هدي النبي عليه أفضل الصلاة والسلام وأصحابه، إذا نظرنا إلى السيرة النبوية وجدنا كيف كان الرسول ﷺ يعلم الناس تعليماً مقروناً بالتربية مصحوباً بها، وإذا تأملنا سيرة الخلفاء الراشدين وجدناها كذلك، فلننظر مثلاً إلى سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد رفع عقوبة الخمر إلى ثمانين ليردع الناس، ومنع المطلق ثلاثاً من الرجوع إلى زوجته من أجل أن يردع الناس. فالحقيقة أن المعلم ليس هو الذي يملأ أذهان الناس علماً فحسب، ولكن الذي يملأ أفكارهم أو أذهانهم علماً وأخلاقهم تربية.

قال: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ﴾ الباء هذه للسببية و«ما» مصدرية أي بكونكم، وعلامة (ما) المصدرية أن يحول ما بعدها إلى مصدر، فقوله: بما كنتم أي بكونكم تعلمون. وقوله: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ فيها قراءتان: إحداهما (تعلِّمون) أي تعلمون غيركم، من التعليم، وقراءة أخرى بما كنتم (تعلَمون) أي تعلمون أنتم بأنفسكم.

وقوله: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ أعم، لأنه لن يعلِّم إلا من عَلِم. ولكن مع ذلك نقول: إن القراءتين كل واحدة منهما تدل على معنى لازم للآخر، فيكون المعنى بما كنتم تعلِّمون وتعلَمون.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هذا مفعول أول على التشديد، أي: تعلِّمون، لكنه مفعول واحد وحذف المفعول الثاني أي بما كنتم تعلمون الناسَ الكتابَ. وأما على قراءة (تعلَمون) فالكتاب مفعول واحد فقط ولا تتعدى إلى مفعولين.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ المراد بالكتاب الجنس، يشمل التوراة والإنجيل والبعض منها والكل.

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾:

أي: بما كنتم تقرأون أنتم، بما كنتم تعلمون وتدرسون تقرأونه، فيكون عندكم للكتاب علم لفظي وعلم معنوي. فالعلم اللفظي يكون بالدراسة، والمعنوي يكون بالعلم والتعليم، وقوله: «وبما كنتم تدرسون»، نقول فيها ما قلنا فيما سبقها بأن الباء للسببية و«ما» مصدرية.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾:

فيها قراءتان: قراءة (ولا يأمرْكم) وقراءة ولا (يأمرَكم)، أما عن قراءة النصب (ولا يأمرَكم) فهي معطوفة على قوله: (ثم يقولَ للناس) يعني وما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يأمركم أن تتخذوا الملائكة.. فتكون معطوفة على قوله: (ثم

يقول للناس). وأما على قراءة التسكين فإن الفتحة تقدر عليها؛ لأن التسكين هنا ليس تسكين إعراب ولكنه تسكين تخفيف، تخفيف اللفظ؛ لأن قول القائل: (ولا يأمرْكم) أخف من قوله: (ولا يأمرَكم) ولهذا نقول هو منصوب على القراءتين لكنه منصوب على قراءة الفتح بالفتحة على الأصل، ومنصوب على قراءة التسكين بفتحة مقدرة على آخره، وسكن للتخفيف.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾:

يعني وما كان له أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً، كما أنه لا يقول لكم: كونوا عباداً لي، فإن هذا مستحيل غاية الاستحالة أن يمنَّ الله على شخص بالكتاب والحكمة، ثم يأمر الناس بعبادته أو يقول: اعبدوا الملائكة والنبيين واتخذوهم أرباباً. هذا شيء مستحيل.

وقوله: ﴿الْمَلَائِكَةَ﴾ الملائكة جمع ملك، وأصله: مألك من الألوكة، وهي الرسالة، فصار قلب على وجه الإعلال الصرفي إلى ملأك، فزحزحت الهمزة إلى مكان اللام، وقدمت اللام إلى مكان الهمزة. وأصل الألوكة الرسالة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١].

والملائكة هم عالم غيبي خلقهم الله عزّ وجل من نور، لا يأكلون، ولا يشربون، ولا يتناسلون، وإنما هم عباد لله مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، ولهم أعمال وأوصاف.

ثم قال: ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ فيها قراءة (والنبيئين) على تحقيق الهمزة.

﴿أَرْبَابًا﴾ جمع ربٍّ يعني أرباباً تعبد من دون الله، وتقصد

من دون الله. فإن هذا مستحيل أن يقع ممن آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة.

قال الله تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾:

الاستفهام هنا للنفي، يعني لا يمكن أن يأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون، وفي قوله: (يَأْمُرُكُم) قراءتان (يأمرْكم) تخفيفاً (ويأمرُكم) على الأصل.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ يعني بعد أن تقرر إسلامكم وثبت، فإنه لا يمكن أن يأمركم بالكفر.

من فوائد الآيات الكريمة:

من فوائد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

١ ـ أن فريقاً من أهل الكتاب يحرِّفون الكلم، إما لفظاً، وإما معنى.

٢ ـ سوء مقصد هؤلاء الذين يلوون ألسنتهم بالكتاب، وهو إضلال الناس ليحسبوه من الكتاب.

٣ ـ أن الله عزّ وجل يحب لعباده الهدى، وأن يهتدوا، ولهذا قال: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ حتى لا يغتر الناس بهذا الذي حصل من هؤلاء.

٤ ـ الحذر من الكفار ومن زخارف القول التي تصدر منهم؛ لأنهم يلبسون الحق بالباطل، ويريدون أن يضلوا الناس.

٥ ـ الحذر ممن اتصف بصفاتهم من هذه الأمة فصاروا يلوون ألسنتهم بالكتاب. وإنما قلنا ذلك؛ لأن الرسول ﷺ قال:

«**لتركبن سنن من كان قبلكم**»[١]، فإذا كان في أهل الكتاب من يلوون ألسنتهم بالكتاب فسيوجد في هذه الأمة أيضاً من يلوي لسانه بالكتاب.

٦ ـ أن أهل الكتاب منهم من يفتري الكذب على الله، ومن ذلك كذبهم في عقوبة الزاني المحصن. فإن عقوبة الزاني المحصن عندهم الرجم، أن يرجم حتى يموت، ولكن لما كثر الزنا في أشرافهم عدلوا عن هذا، وقالوا: نسوِّد وجهه، ونطوف به هو والمرأة التي زنى بها على حمار، يكون دبر أحدهما إلى دبر الآخر. وهما راكبان على الحمار، ونطوف بهم في العشائر بين الناس. فحرَّفوا وكتموا، حرَّفوا حيث ادعوا أن هذا هو حد الزنى للمحصن، وكتموا حيث قالوا: ليس في التوراة الرجم. ولهذا لما أنكروا أن يكون في التوراة الرجم طلب النبي ﷺ منهم أن يأتوا بالتوراة فأتوا بها، فجعل القارئ يقرأ، ووضع يده على آية الرجم لأجل أن يخفيها. ولكن أُمِر أن يرفع يده، فلما رفع يده وإذا بآية الرجم تلوح بيّنة واضحة، فأمر النبي ﷺ برجمهما[٢]، أي رجم الزاني والزانية. فالحاصل أنه من طريق أهل الكتاب أنهم يقولون على الله الكذب وهم يعلمون.

٧ ـ الرد على النصارى الذين زعموا أن عيسى عليه الصلاة والسلام له الحق في أن يعبد من دون الله، ولهذا يقول الله له

---

(١) رواه أحمد في مسنده، رقم (٢١٣٩٠، ٢٢٣٧١).

(٢) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب الرجم في البلاط، رقم (٦٨١٩). ورواه مسلم، كتاب الحدود، باب رجم اليهود وأهل الذمة في الزنا، رقم (١٦٩٩).

يوم القيامة: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] فيقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ يعني لا يمكن أن أقول هذا، والنصارى يدعون أنَّ من دينهم التثليث، أي أن الله ثالث ثلاثة.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾:

١ ـ أن مَن مَنَّ الله عليه بالعلم النافع فإنه لا يمكن أن يدعو الناس إلى عبادة نفسه: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ أن من ألزم الناس أو أراد منهم أن يتبعوا قوله مهما كان فإنه قد جعلهم عباداً له؛ لأن طاعة الشخص من العبادة، كما قال الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، فقال له عدي بن حاتم: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم، قال: «**أليس يحلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونه، ويحرِّمون ما أحل الله فتحرِّمونه؟** قال: نعم، قال: **فتلك عبادتهم**»[1]، فقد لا يقول الإنسان للناس: اعبدوني، اركعوا لي، واسجدوا، لكنه قد يقول: التزموا بما أقول، وهذا نوع من العبادة.

٣ ـ أن من منَّ الله عليه بالكتاب والحكمة والنبوة فإنه لا يأمر إلا بخير؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾.

٤ ـ الإشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يكون معلماً ربانياً؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾، أما ما يحصل من بعض الناس وهو أن

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٩٢). ورواه النسائي في السنن الكبرى (١٠/ ١١٦).

يكون معلماً لا ربانياً؛ فإن علمه قاصر جدًّا؛ لأن فائدة العلم وثمرته هي العمل والتأدب بآداب العلم. فإذا كان هذا الرجل يملأ أدمغة الطلاب علماً ولكن ليس هناك سلوك وأخلاق وأعمال وعبادة، فإن تعليمه ناقص جداً، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾.

٥ ـ الرد على منكري الأسباب؛ لقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ والباء للسببية، ولا شك أن الأسباب ثابتة، ولكنها ليست مستقلة بالإيجاد أو العدم، بل هي مؤثرة بما أودع الله فيها من قوة التأثير. وبهذا ندفع شبهة من قالوا بنفي الأسباب محتجين بأن إثبات الأسباب يستلزم إثبات خالق مع الله. ونحن نقول لهم: إننا نثبت الأسباب، لكنها لا تؤثر بنفسها بل بما أودع الله فيها من القوة. والدليل على هذا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما ألقي في النار قال الله للنار: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فكانت برداً وسلاماً عليه، لم يتأثر بها مع أنها محرقة. قال أهل العلم: ولو قال الله تعالى: ﴿كُونِى بَرْدًا﴾ ولم يقل: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لأهلكته من البرد؛ لأنها تمتثل أمر الله عزّ وجل.

٦ ـ أن المعلم للناس يصح أن نسميه ربانياً؛ لأنه قال: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ولهذا نجد في تراجم العلماء رحمهم الله نجد كثيراً ما يصفون العالم بأنه العالم الرباني.

ومن فوائد قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

١ ـ إثبات الملائكة، والإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة، فلا يتم إيمان العبد حتى يؤمن بالملائكة.

٢ ـ أن الذي مَنَّ الله عليه بالكتاب والحكم والنبوة لا يمكن أن يأمر غيره باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً، كما أنه لا يدعو الناس إلى عبادة نفسه.

٣ ـ أن من أمر غيره أن يكون عبداً له فقد أمر بالكفر، ومن أمر أن تتخذ الملائكة والنبيون أرباباً فقد أمر بالكفر؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

٤ ـ أن هذا الكفر مخرج عن الملة؛ لقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

(إذ) مفعول لفعل محذوف تقديره: (اذكر)، ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ يعني: اذكر يا محمد لمن أرسلناك إليهم، اذكر هذا العهد والميثاق. (والميثاق) هو العهد، وسمي الميثاق عهداً؛ لأن كلًّا من المتعاهدين يتوثق به مع الآخر (كالوثاق) الحبل الذي يشد به الإنسان.

وقوله: ﴿مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ يشمل الرسل؛ لأن كل رسول فهو نبي.

وقوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ فيها ثلاث قراءت (لَمَا آتيتكم)، (لِما أتيتكم)، (لَمَا آتيناكم).

وعلى كل القراءات ففيها التفات من الغيبة إلى الحضور.

وقوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾ في اللام قراءتان الكسر والثانية الفتح.

وقوله: ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾ يعني أعطيتكم. والإيتاء هنا يراد به ما آتاه الله النبيين من أمور الشريعة، ولهذا قال ﴿مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ الكتاب: معروف كالتوراة والإنجيل. والحكمة: الحكم بين الناس، وإصابة الصواب؛ لأن الحكم بين الناس وإصابة الصواب من تنزيل الأشياء منازلها، وهذا هو الحكمة.

﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾: يعني ما آتيتكم من الكتاب والحكمة إذا جاءكم رسول مصدق لما معكم فإنكم تؤمنون به وتنصرونه. وقوله: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ له معنيان:

المعنى الأول: أنه يصدق ما سبقه من الكتب، ويقول مثلاً: إن التوراة حق، والإنجيل حق، وما أشبه ذلك.

والمعنى الثاني: أنه يقع مصداقاً لما سبقه من الكتاب؛ لأن الكتب أخبرت به. فإذا جاء مطابقاً لما أخبرت به صار مصدقاً لها. فيكون على هذا الوجه شهادة لهذا الكتاب بأنه حق، ويكون مع الوجه الأول شهادة بأن الكتب السابقة حق؛ لأن الله تعالى يقول في النبي ﷺ: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فإذا جاء على الوصف الذي جاءت به التوراة والإنجيل وقع مصدقاً لهما؛ لأنهما أخبرا بشيء فجاء هذا الشيء كما أخبرا فيكون مصدقاً. أرأيت لو أن أحداً من الناس قال: إن فلاناً سيقدم اليوم بعد الظهر فقدم، صار هذا الذي قدم مصدقاً لما أخبر به. إذن لما قالت الرسل: إن محمداً رسول الله يبعث على الوجه الذي ذكر الله يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فجاء مطابقاً لما أخبرت به صار مصدقاً لها ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي للذي معكم من الكتب السابقة التي جاؤوا بها.

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ هذا محل الميثاق يعني إذا جاءكم هذا الرسول المصدق لما معكم فإن ميثاقي عليكم لتؤمنن به ولتنصرنه (تؤمنن به) أي تؤمنن بأنه حق (وتنصرنه) أي تعينونه على نشر رسالته، وعلى قتال أعدائه؛ لأن النصر هنا يشمل النصر بالعلم وبالسلاح.

﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ﴾:

لما أخبر أنه أخذ عليهم العهد والميثاق قررهم في هذا: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ﴾.

وقوله: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ أي اعترفتم والتزمتم بذلك.

وقوله: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ﴾ أي أخذتم العهد الثقيل؛ لأن الإصر الذي جمعه آصار بمعنى الأشياء الثقيلة. فإصري أي العهد الثقيل.

﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ﴾ فيها قراءة (آقررتم) بمد الألف الأولى.

﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ﴾ أي اعترفنا والتزمنا بأن نؤمن به وننصره.

﴿قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: اشهدوا يعني ليشهد بعضكم على بعض، ولتشهدوا كلكم على الميثاق الذي بيني وبينكم وأنا معكم من الشاهدين، وكفى بالله شهيداً، فاستشهدهم على أنفسهم، وشهد عليهم عزّ وجل بما حصل.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٢ ـ ٨٣].

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾:

أي بعدما ذكر من هذا البيان والإيضاح، وأن محمداً ﷺ قد

أُخذ على جميع الأنبياء أن يؤمنوا به، وأن ينصروه، وما أخذ على المتبوع مأخوذ على التابع؛ يعني ما أخذ على الأنبياء مأخوذ على أتباعهم أيضاً. فإذا كان واجباً على الأنبياء أن يؤمنوا به وينصروه كان واجباً على أتباعهم أن يؤمنوا به وينصروه. ولهذا لما رأى الرسول ﷺ مع عمر بن الخطاب شيئاً من التوراة غضب وقال: «**ألم آت بها بيضاء نقية؟ لو كان أخي موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي**»(١). كيف تأتي بالتوراة؟ القرآن فيه غنى عن كل كتاب، كل ما في الدنيا من الكتب فالنافع منها موجود في القرآن لا حاجة إليها. لا سيما وأنها الآن ليست من الكتب المنزلة من السماء بل فيها من التحريف والتبديل والإخفاء ما الله به عليم.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ يعني من أُمَم هؤلاء الأنبياء، ولا ترد هذه الشرطية على الأنبياء؛ لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شهدوا على أنفسهم وشهد الله معهم، لكن إنما ترد هذه الشرطية على أتباعهم، يعني: فمن تولى من أتباع الأنبياء بعد ما ذكر من هذا الميثاق العظيم فهو فاسق.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل. والفاسقون هم الذين خرجوا عن مستوى العدل، وعن مستوى الرجولة، وعن مستوى الإيمان. خرجوا عن الطاعة، تولوا وأعرضوا، هؤلاء هم الفاسقون. والمراد بالفسق هنا فسق الكفر؛ لأن الفسق يطلق على فسق المعاصي وعلى فسق الكفر؛ فمن الأول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]. هذا فسق

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣١٢)، باب من كره النظر في كتب أهل الكتاب، رقم (٢٦٤٢١).

المعصية. ومن الثاني قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا﴾ [السجدة: ١٨ ـ ٢٠] المراد بالفسق: فسق الكفر؛ لأنه جاء في مقابل الإيمان، جاء قسيماً للإيمان. وقسيم الشيء غير الشيء، فأما قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] فهل هو فسق كفر أو فسق معصية؟ قيل: معصية، وقيل: كفر، وقيل بالتفصيل.

ثم قال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾:

الدين يطلق على الجزاء وعلى الشرط، يعني على العمل وجزائه.

فمن إطلاقه على الجزاء قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٩].

وقال تعالى في سورة الفاتحة: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٤] الدين هنا بمعنى الجزاء.

ومن إتيان الدين بمعنى العمل والشريعة قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ٦] وقوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] أي شريعة. وهنا ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ دين الله يعني شريعته التي شرعها لعباده، وأضافها الله لنفسه، بياناً لأهميتها، وأنها الشريعة العادلة النافعة التي لا يقوم الخلق إلا بها؛ لأنها شريعة الله، فهي أكمل الشرائع. وأضافها

لنفسه أيضاً لأنه الذي شرعها. أحياناً يضاف الدين إلى العامل مثل قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] أصلها (ولي ديني) فيضاف إلى العامل باعتبار أنه أخذ به وتمسك به، ويضاف إلى الله باعتبار أنه هو الذي شرعه ووضعه لعباده.

وقوله: ﴿يَبْغُونَ﴾ أي يطلبون. وهذا الاستفهام للإنكار والتوبيخ. ينكر على من يطلب غير دين الله ويوبخه. وفيها قراءة «تبغون» (أفغير دين الله تبغون) قراءة سبعية، وعلى هذا يحسن أن نقرأ أحياناً (أفغير دين الله تبغون) وأحياناً نقول: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ إلا إذا كنا بحضرة عوام فلا نقرأ القراءتين وإنما نقرأ عندهم ما يعرفون؛ لأنك لو قرأت عند العامة بالقراءتين لتسلطوا عليك من جهة، ولَانْحَطَّ قدر القرآن في أعينهم من جهة أخرى، ولأجلبوا عليك بالخيل والرجل، وقالوا: ما بقي عليك إلا أن تغير القرآن، ولتحسَّبوا عليك ليلاً ونهاراً. فإذن لا تقرأ بغير ما يعرفون. أما فيما بينك وبين الله فاقرأ هذا أحياناً، وهذا أحياناً، بشرط أن تكون متيقناً لهذه القراءة؛ لأن هذا كلام الله فلا بد أن تتيقن.

قال: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

الواو هذه للحال، يعني والحال أنه أسلم له من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً «أسلم» إسلاماً كونياً ليس إسلاماً شرعياً؛ لأن الإسلام الشرعي ليس فيه إكراه؛ ولأن الإسلام الشرعي لا يعم من في السماء والأرض بل يعم من في السماء، ولا يعم من في الأرض وقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾ أي انقاد انقياداً كونياً، وإنما قال: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾ بعد قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ لإقامة الحجة على من لم يسلم لله شرعاً ولم يتبع دينه.

كأنما يقال: لقد أسلمت لله كوناً، فيجب أن تسلم له شرعاً؛ لأن الربَّ الذي يدبر الخلق كما يشاء، شاءوا أم كرهوا، هو الذي يجب أن نتمشى على شرعه. فيكون هذا كالدليل لما سبق.

وقوله: ﴿أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿مَن﴾ أتى بمن الدالة على العاقل تغليباً لجانب العقلاء؛ لأننا لو قسنا من في السموات والأرض لكان الأكثر العقلاء؛ لأن السموات ما من موضع أربعة أصابع إلا وملكٌ قائم لله أو راكع أو ساجد[1]، والسماء واسعة جدًّا، ما يعلم سعتها إلا الله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، السماء الدنيا أوسع بكثير من الأرض، والسماء الثانية أوسع بكثير من السماء الدنيا، وهلُمَّ جرًّا.. كل سماء أوسع مما تحتها.

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ الأرض مفرد لكن المراد بها الجنس فيشمل الأرضين، والأرضون سبع بظاهر القرآن وصريح السنة. ظاهر القرآن قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، فإن المثلية هنا ليست بالكيفية، وليست بالكمية يعني بالثقل، السماء أعظم من الدنيا، لكنها بالعدد مثلهن في العدد.

وصريح السنة قوله ﷺ: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين**»[2]، وفي هذا الحديث

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم**»، رقم (٢٣١٢). ورواه أحمد في مسنده، رقم (٢١٠٠٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠).

دليل على أن السبع متطابقة يعني بعضها داخل بعض؛ لأنه يقول طوقه يوم القيامة من سبع أرضين، وهو إنما غصبه من الأرض العليا الظاهرة. فتكون الثانية في جوفها، والثالثة في جوف الثانية، وهلم جرا، تكون متطابقة. وبه نعرف أن من قال: إن المراد بالسبع سبع القارات فقد أخطأ؛ لأنها لو كانت سبع قارات فما هي صلة الأرض الثانية والثالثة وما بعدها بالأرض التي حصل فيها الغصب.

وقوله: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ طوعاً يحتمل أن يكون مصدراً منصوباً على أنه صفة لمصدر محذوف، والتقدير إسلاماً طوعاً. ويحتمل أنه مصدر منصوب على الحال مؤول باسم الفاعل. حال من قوله: ﴿أَسْلَمَ مَن﴾ يعني التقدير: وله أسلم من في السموات والأرض طائعين ومكرهين.

والطوع ما فعل بالاختيار، والإكراه ما فعل بغير الاختيار.

قال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾:

وفي قراءة (ترجعون) بناءً على القراءة في (تبغون). يعني هؤلاء الذين هم مسلمون لله سوف يرجعون إلى الله سبحانه وتعالىٰ، وينبئهم بما عملوا، ويحاسبهم على ما أرسل إليهم من الرسل.

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة قالوا مثلاً: لو اختلفت القراءة في آية فهل لك أن تقرأ في أولها بقراءة واحدة وفي آخرها بقراءة أخرى.

أ ـ فمن العلماء من قال: نعم يصح؛ لأن الكل وارد ولكن الراوي أو القارئ الذي رواها هو الذي يبقي على ما روى، أما

أنا فمنقول إلي، وقد ثبت أن الرسول ﷺ قرأ أول الآية على هذا الوجه وآخر الآية على هذا الوجه، فلي أن أقرأها بالوجهين، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو الصحيح.

ب ـ وبعضهم قال: لا، إذا قرأت بقراءة واحدة لا تقرأ بقراءة الثاني في آخر الآية، فمثلاً في الآية التي معنا: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يصح، ويكون المراد ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ من في السموات والأرض.

أما في الإعراب فنقول: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ فيها استفهام يليه حرف عطف، وقد ذكرنا في مثل هذا التركيب للعلماء قولين:

القول الأول: أن الهمزة للاستفهام، وحرف العطف الذي بعدها عاطف لما بعده على مقدر بينه وبين الهمزة يعينه السياق.

والقول الثاني: أن الهمزة للاستفهام، والفاء حرف عطف على ما سبق، لكنها أخرت لتكون الصدارة للاستفهام، وتقدير الكلام على هذا الوجه (فأغير دين الله يبغون)، وهذا الوجه أحسن من الوجه الأول؛ لأنه لا يحتاج إلى تقدير؛ ولأن الأول الذي يحتاج إلى تقدير قد يعييك في بعض الأحيان أن تجد شيئاً تقدره يناسب المقام، مثلاً: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ١٠٩]، إذا قلنا إنها معطوف على محذوف قد تقدر أغفلوا فلم يسيروا في الأرض. هنا ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ أضلوا فغير دين الله يبغون؛ لأن من بغى غير دين الله فهو ضال.

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يعني كما أنه له السلطان الكامل عليهم في الدنيا فإنهم أيضاً يرجعون إليه في الآخرة. وتقديم المتعلق يدل على العموم أو يدل على التخصيص؛ لأن المتعلق هو مفعول الفعل، وتقديم المفعول يفيد الحصر يعني يرجعون إلى الله لا إلى غيره، وسوف ينبئهم بما عملوا إذا رجعوا إليه.

من فوائد الآيات الكريمة:

من فوائد قوله عزّ وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]:

١ ـ أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مربوبون، متعبدون لله عزّ وجل، كما أن غيرهم كذلك. ووجهه من الآية: أن الله أخذ عليهم الميثاق بالتكليف.

٢ ـ إثبات أن الميثاق يكون بما أعطاهم الله من الكتاب والحكمة، بناء على القراءة الثانية (لِمَا آتيتكم من كتاب). أما القراءة التي في المصحف «لَمَا» فإنه يستفاد منها فائدة وهي: أن الله عزّ وجل أعطاهم العهد أو أخذ منهم العهد والميثاق بما آتاهم من الكتاب والحكمة. يعني لكونهم أوتوا الكتاب والحكمة صاروا أهلاً لهذا الميثاق العظيم، وأنهم مهما أوتوا فلا بد أن يؤمنوا بهذا الرسول.

٣ ـ ما مَنَّ الله به على النبيين من الكتاب والحكمة. ويتفرع على هذه الفائدة أن من ورث هذا الكتاب والحكمة فإنه قد أخذ بحظ وافر مما أنعم الله به على النبيين. ولهذا جاء في الحديث

عن النبي ﷺ: «**إن العلماء ورثة الأنبياء**»[(١)]، فيجب عليهم إذ ورثهم الله علم الأنبياء أن يقوموا مقام الأنبياء في الدعوة إلى الله، ونشر العلم، والجهاد في سبيله، ومن توانى منهم عن ذلك فقد قصر.

٤ ـ فضيلة نبينا محمد ﷺ، لكون الله أخذ على جميع الأنبياء الميثاق والعهد أن يؤمنوا به.

فإن قال قائل: كلمة ﴿رَسُولٌ﴾ نكرة، فما الذي جعلك تجعلها للنبي ﷺ والأصل في النكرة أنها اسم جنس شائع لا يختص به واحد دون آخر؟

فالجواب عن ذلك أن يقال: إن هذا الوصف الذي وصف به هذا الرسول ينطبق تماماً على النبي ﷺ. ويدل لذلك أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «**لو كان أخي موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي**»[(٢)]، ويدل لذلك أيضاً أن النبي ﷺ لما جمع الله له الأنبياء ليلة المعراج صار هو إمامهم فصار هو المتبوع، لا التابع عليه الصلاة والسلام.

٥ ـ أن رسالة النبي ﷺ جامعة للتصديق بجميع الرسالات؛ لقوله: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾، ولهذا كانت هذه الأمة ـ ولله الحمد ـ وأسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم ـ هي المصدقة تماماً لجميع الرسل، وهذه ميزة ليست لغيرها.

---

(١) رواه أحمد في مسنده، رقم (٢١٢٠٨). ورواه أبو داود، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم (٣٦٤١). ورواه الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٢). ورواه ابن ماجه، في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص٤٦٤).

٦ ـ أنه يجب على الأنبياء أن يؤمنوا بهذا الرسول الذي يأتيهم مصدقاً لما معهم، وأن ينصروه؛ لقوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾. وإذا كان هذا واجباً على الأنبياء، كان واجباً على أممهم؛ لأن ما وجب على الإمام وجب على تابعه. فيجب على جميع الأمم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينصروه. ومن لم يكن كذلك فقد كفر برسوله؛ لأن رسوله قد أعطى الله هذا الميثاق. ومعلوم أنهم إذا كانوا صادقين في اتباع رسولهم أن يتبعوا ما التزم به رسولهم.

٧ ـ أنه يجوز بل يشرع في الأمور الهامة أن يقرر من أخذ عليه العهد حتى يقر ويعترف زيادة على العقد الأول الذي جرى بينه وبين معاهده؛ لقوله: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ وهذا يرد في الأمور العظيمة العامة، ونظيره من بعض الوجه أن النبي ﷺ لما قرر من اعترف بالزنا سأله: أفعلت كذا، أفعلت كذا حتى قال له: أنكتها ولم يُكَنِّ. قال: نعم، قال: **كما يغيب الرشأ في البئر والمرود في المكحلة**[1]، قال: نعم. كل ذلك من أجل التثبيت.

٨ ـ إثبات كلام الله عزّ وجل، وأنه متعلق بمشيئته؛ لقوله: قال: أأقررتم، قالوا: أقررنا، قال: فاشهدوا. وكل هذا يدل على أن كلامه سبحانه وتعالىٰ بصوت مسموع، وأنه متعلق بمشيئته. فيكون فيه الرد على الأشاعرة الذين قالوا: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وأنه لا يتعلق بمشيئته؛ لأنه وصف لازم له لزوم العلم والحياة.

٩ ـ جواز إشهاد الإنسان على نفسه إذا قلنا: إن قوله: ﴿قَالَ

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الحدود، باب رجم ماعز بن مالك، رقم (٤٤٢٨).

﴿فَٱشْهَدُوا۟﴾، خطاب لكل إنسان على حدة. وأما إذا قلنا: (اشهدوا) أي بعضكم على بعض، فليس في الآية دليل على ذلك. لكن الإشهاد على النفس أمر جاءت به الشريعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥].

١٠ ـ تقوية هذا العهد بهذه التقريرات والإشهادات المختومة بقوله: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، وما أعظم شهادة الله عزّ وجل في أمر من الأمور. وهذا كله مما يزيد فضيلةً لرسول الله ﷺ، أن يؤخذ مثل هذا العهد المؤكد بهذه المؤكدات من أجل الإيمان به ﷺ ونصرته.

١١ ـ أنه إذا كان واجباً على الأنبياء والأمم السابقين أن يؤمنوا برسول الله ﷺ وينصرونه، كان إيماننا نحن به ونصرته من باب أولى؛ لأننا ننتسب إليه، وننتمي إليه، ونعتقده إمامنا، عليه الصلاة والسلام، فكان واجباً علينا أن ننصره. ومن المعلوم أن نصره في حياته هو الجهاد معه جنباً إلى جنب، وأما نصره بعد وفاته فهو نصر سنته ونشرها، وبيانها للناس، والدفاع عنها، والجهاد في نصرتها، كل هذا واجب على الأمة الإسلامية. وبناء على ذلك يجب على الأمة الإسلامية أن ترفض كل وارد إليها من أعداء الله إذا كان مخالفاً للسنة؛ كل شيء يرد علينا من الكفار من عقائد وأخلاق وأعمال ومعاملات وغيرها إذا كان مخالفاً لسنة الرسول ﷺ، فإن أقل ما يقال في النصرة أن يرفض هذا الشيء، وأن يضرب به وجه مورده، وأن لا يكون له مكان بين الأمة الإسلامية؛ لأنه كيف يكون نصره ونحن نستورد من أعداء هذه النصرة ما يخالف هذه النصرة؟ من ادعى ذلك فهو كاذب. فإن

فعله يكذب قوله، ولو كان قوله صادقاً لكان أول ما يقوم به من نصرة شريعة الله أن يرفض كل ما خالف شريعة الله.

ومن فوائد قوله عزّ وجل: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨٢]:

١ ـ أن الفسق يطلق على الكفر. ومن شواهد ذلك قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ١٨ ـ ٢٠].

٢ ـ أن من تولى قبل قيام الحجة عليه، لم يحكم عليه بالفسق؛ لقوله: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ ويتفرع على هذا فائدة مهمة وهي: أن الشرائع لا تلزم قبل العلم. وهذه مسألة عظيمة جدًّا، اختلف فيها العلماء اختلافاً طويلاً عريضاً، لكن من تأمل نصوص الكتاب والسنة، وتأمل أيضاً ما لله من صفات عظيمة، تبين له أن الشرائع لا تلزم قبل العلم؛ لأن الله كتب على نفسه أن رحمته سبقت غضبه. ولو قلنا بوجوب الشرائع قبل العلم لكان الغضب سابقاً على الرحمة؛ لأننا نلزم الإنسان بشيء لم يعلمه. لكن ربما يكون من الإنسان تفريط في السؤال، أي لا يسأل، فحينئذٍ قد نلزمه قبل أن يعلم من أجل تفريطه. أما لو لم يكن مفرطاً كإنسان نشأ في بادية، ولا يعلم شيئاً عن الدين، وليس عنده عالم، ولا طرأ على باله، فكان يصلي على جنابة بدون اغتسال، وبقي على ذلك عشر سنوات أو أكثر، فجاء يسأل نقول له: ليس عليك شيء؛ لأنك لم تعلم بوجوب الغسل من الجنابة. لكن لو كان في البلد، ويسمع ويستطيع أن يسأل، فربما نلزمه

بقضاء ما مضى. ومن ذلك ما يحدث لكثير من النساء التي تبلغ بالحيض وهي صغيرة، ولكنها لا تصوم بناء على أنها صغيرة، وأن الصوم لا يلزم إلا من تمَّ لها خمس عشر سنة، ثم تأتي تسأل، فإذا علمنا من حالها أنها معذورة بالجهل فإننا لا نلزمها بقضاء ما فات من الصيام لأنها معذورة. وهذا في الذي ينتسب إلى الإسلام نعذره، ونحكم بإسلامه، ونصلي عليه إذا مات، أمَّا من لا ينتسب إلى الإسلام فهذا كافر، كافر في الدنيا، وأما في الآخرة فعلمه عند الله، فالقوم الذين لم تبلغهم الدعوة وهم كفار، هؤلاء كفار في الدنيا لو ماتوا لا نصلي عليهم، ولا ندعو لهم. لكن في الآخرة، الصحيح أن أمرهم إلى الله، وأن الله تعالى يمتحنهم بما يشاء من تكليف. فمن أطاع منهم دخل الجنة، ومن عصى دخل النار، وهذه مسألة يجب الانتباه إليها.

أما من ينتسب إلى الإسلام ولكنه على حال تكفره؛ من تَرْكِ واجب، أو فِعْلِ محرم، وهو لم يبلغه الشرع فإن القول الراجح أنه لا يحكم بكفره؛ لأنه معذور. ولهذا تجد في نصوص الكتاب والسنة كلها أو غالبها مقيداً ببلاغ الرسالة بالعلم، أو بالتبين وما أشبه ذلك. وهذا كما ـ تقدم ـ هو مقتضى صفة الله عزّ وجل وهي أن رحمته سبقت غضبه، والحمد لله رب العالمين. ولهذا يقول ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾. وأما من قال: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ إن هذا القيد من أجل عظم الشناعة عليهم، وأن من تولى وإن لم يتبين له الأمر فهو فاسق، لكن قيده بالبعدية من أجل عظم الشناعة عليهم، فهذا خلاف الأصل؛ لأن الأصل أن ما قيد بوصف فالوصف عائد له نفسه، لا إلى شيء آخر. وهنا الذي قيِّد بالبعدية التولي، فإذا تولى بعد أن بلغه العلم فهو فاسق.

ومن فوائد قوله عزّ وجل: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]:

١ ـ أن من ابتغى غير دين الله، ولو في التنظيم، وما يسمى بالقانون، فإنه مستحق لهذا التوبيخ العظيم. ويدل لذلك قوله تعالى في سورة المائدة، وهي من آخر ما نزل: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وحكم الجاهلية: كل ما خالف حكم الشرع، فهو حكم جاهلية؛ لأن حكم الشرع مبني على علم، وما سواه مبني على جهل. وهذا في غاية ما يكون من التوبيخ والتقريع أن تبتغي حكماً جاهلياً وتدع حكم العليم الخبير، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وبه نعرف أن من ابتغى حكماً غير حكم الله فهو من أضل عباد الله، وأسفه عباد الله، وأخسر عباد الله، وأنه لن تصلح له أمور دينه ولا دنياه والعياذ بالله.

٢ ـ أن من شرط صحة العمل وقبوله أن يكون موافقاً لشرع الله، وجهه أن الله أنكر على من بغى ديناً غير دين الله، ولهذا كان من شرط العبادة الإخلاص لله، وموافقة شريعة الله.

٣ ـ تشريف هذا الدين الذي شرعه الله؛ لأن الله أضافهُ إلى نفسه فقال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾.

٤ ـ إقامة الحجة على أنه لا يليق بالإنسان أن يبغيَ ديناً غير دين الله وهو مربوب مملوك لله؛ لقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾. وقد تقدم أن هذه الجملة يحتمل أن تكون حالية، ويحتمل أن تكون استئنافية.

٥ ـ عموم ملك الله وسلطانه. ويؤخذ من قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾، وهذا تمام السلطان والملك أن كل من في السموات والأرض فهو مستسلم لله، طائعاً كان أم مكرهاً.

ولذلك لا أحد يمكنه أن يشذ أو يقاوم قدر الله. لو جاء أعتى خلق الله يريد أن يقاوم ما أراد الله تعالى قدراً لا يمكنه ذلك أبداً. فرعون جبار عنيد أغرق بما كان يفتخر به: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١] أُهلك بالماء الذي كان يفتخر به. وعادٌ استكبروا في الأرض وقالوا: من أشد منا قوة، فأهلكوا بالريح، هواء سخره الله عليهم حتى دمرهم، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم. هذا تمام القوة والقدرة. وضعفاء الإيمان اليوم إذا قيل لهم: ارجعوا إلى دينكم، تُنصَروا على أعدائكم، قالوا: كيف ونحن لا نعرف أن نصنع الإبرة، كيف نقاوم أهل الصواريخ، والمدافع، وأهل القنابل الموجهة؟! لم يعلموا أن الأمر بيد الله عزّ وجل، وأنه سبحانه وتعالىٰ إذا شاء أطبق عليهم الأرض تطبيقاً وخسف بهم إلى السابعة بكلمة واحدة. لو صدقنا الله لصدقنا الله، ولكننا في الحقيقة ضيعنا أمر الله، فلما نسينا الله نسينا الله عزّ وجل وتركنا.

سمعت أنا قبل سنوات أن الله أرسل على واشنطن، عاصمة أمريكا، أرسل عليها صواعق من هذا الغمام الذي هو مثل القطن، صواعق دمرتها تقريباً، حتى قطعت أسلاك الكهرباء، وسكتت المكائن، وصارت هذه العاصمة التي هي من أكبر عواصم الدنيا صارت دامسة، وحصل سطو ونهب عظيم على

الفنادق ومحلات التجارة، وهذه الصواعق من أدنى شيء. الزلزال يضرب الأرض، وفي لحظة واحدة يدمر مئات المدن والقرى. قد حصل هذا الزلزال بكلمة واحدة (كن) انقلب أعلى الأرض أسفلها، وتغيرت معالم الأرض كلها.

فنحن إذا صدقنا الله صدقنا الله. يذكر أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وهو يطارد الفرس من مدينة إلى مدينة، حتى وصل إلى دجلة، فانتقل الفرس إلى المدائن من وراء دجلة من الشرق، وأغرقوا السفن، وكسروا الجسور، من أجل أن لا يعبر إليهم المسلمون. وقف سعد ليس معه إلا الإبل والخيول والراجلة، لا يستطيع أن يجاوز مكانه، فنادى سلمان الفارسي رضي الله عنه وقال له: يا سلمان، أعطنا من تصميمك للحرب؛ لأنه هو الذي أشار على الرسول ﷺ بحفر الخندق. قال: والله يا سعد لا حيلة إلا ما كان من تقوى الله، ولكن دعني أنظر في القوم ـ يعني الجند ـ إن كانوا على تقوى من الله، فإن الذي فلق البحر لموسى سييسر لنا العبور على هذا البحر؛ لأن هذه الأمة خير من أمة موسى ـ الله أكبر، إنه الإيمان ـ.

فذهب سلمان فنظر في الجند فوجدهم في الليل يبيتون لربهم سجداً وقياماً، وفي النهار في شأن الحرب، وما يصلح الحرب. فرجع إليه بعد ثلاث وقال: هم على خير ما يرام، ولكن استعن بالله واعبر، فنادى سعد بن أبي وقاص في القوم وقال: إنا عابرون إن شاء الله، ولكن سأقف، وأقول: باسم الله، وأكبر الله ثلاثاً، فإذا كبرت الثالثة فاعبروا. ففعل فقال: بسم الله، ثم كبر، ولما كبر الثالثة عبر الناس يمشون على الماء، والنهر يسير ويقذف بزبده، وليس مثل البحر واقفاً، ولكنه يجري، يقول أهل التاريخ:

حتى إن الفَرَس إذا تعب أنشأ الله له ربوة من الأرض، فوقف الفرس عليها يستريح، حتى عبروا دجلة. فلما رآهم الفرس ضجوا وصاحوا وقالوا: إنكم إنما تقاتلون جنًّا، لا طاقة لكم بهؤلاء، فِرُّوا، ففروا وخرجوا من المدائن، وانكسروا ولله الحمد براية التوحيد والجهاد الذي أنشئ على التقوى؛ لتكون كلمة الله هي العليا وليس طلباً للشهرة، وليس من أجل القومية، أو العصبية، أو الوطن، ليس على بالهم إلا أن تكون كلمة الله هي العليا، يكون هذا القرآن هو القانون لأهل الأرض.

أهل المدائن هربوا منها، عاصمة الفرس، فجاء المسلمون وفتحوها، وكسبوا من الأموال ما لا يعلمه إلا رب العباد مثل ما قال النبي ﷺ: «**لتنفقن كنوزهما** ـ كنوز كسرى وقيصر ـ **في سبيل الله**»[1]، وأخذوا التاج ـ تاج كسرى ـ وهو الذي يجلس تحته، ويضعه فوق رأسه، مرصع باللآلئ والذهب، وما شاء الله من حلي الدنيا، فأرادوا أن ينقلوه، فلم يجدوا إلا جملين كبيرين يحملانه من المدائن إلى المدينة، فحملوه على جملين، من المدائن إلى المدينة ثم وضعوه بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ وما أدراك ما عمر ـ الذي عدل فعدلوا، وأمن فأمنوا، قال وهو ينظر إليه: والله إن قوماً أدوا هذا لأمناء. قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: نعم يا أمير المؤمنين إنهم أمناء لأنك كنت أميناً، ولو أنك رتعت لرتعوا؛ ـ الله أكبر ـ فهذا تاج كسرى من المدائن يوزع بين المسلمين في المدينة. من الذي

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٨).

نصرهم حتى عبروا النهر بخيلهم ورجلهم إلا الله عزّ وجل. لماذا لا نؤمن بهذا؟ والله إننا ضعفاء الإيمان. أليس الرب عزّ وجل وهو أصدق القائلين وأقدر الفاعلين يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١] تأكيدات لفظية ومعنوية في الآيتين من الله عزّ وجل، توجب علينا الأخذ بما جاء في هذه الآية الكريمة.

بأي شيء ننصر الله؟ لأن الله شرط: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ﴾ [الحج: ٤٠].

نرى الآن النكبات تأتي على المسلمين متنوعة وما رأينا أحداً إلا القليل النادر يقول: يا جماعة، ارجعوا إلى دينكم، البلاء منكم. من الذي يتكلم ويقول: إن الخطأ خطؤنا، والظلم ظلمنا، فلنرجع إلى ربنا، حتى لا يسلط علينا هؤلاء الظالمين؛ لأن الله يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، تأتي النكبات وكأنها حوادث مادية، لا علاقة لها بالدين مع أننا مسلمون. هذه الحوادث ما تكون إلا بفعلنا. الكافر ربما يعطى في الدنيا ما يريد لأنهُ عجلت له طيباته في الحياة الدنيا، ينعم في الدنيا أكثر مما ينعم المسلم، حتى إذا انتقل إلى الآخرة صار العذاب عليه أشد؛ لأنه ينتقل من نعيم إلى عذاب. فيفقد هذا الذي يدركه في الدنيا فيكون عليه أشد وأعظم. لهذا وصيتي للمخلصين في مثل هذه الظروف أن يدعُوا الناس ويقولوا: ليس ما أصابنا هو حدث مادي أو خلاف من أجل المال أو الاقتصاد أو الحدود أو الأرض أو ما أشبه ذلك، وإنما هو قدر

إلٰهي سلط بعضنا على بعض لأننا أضعنا أمر الله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠]، أما أن نبقى هكذا، كأن شيئاً لم يجرِ، التاجر في كذبه وغشه، والموظف في خيانته وعدم القيام بالعمل، كل إنسان في الذي هو فيه، فهذا لا شك يدل على موت القلوب وقسوتها، وأنها لا تتعظ، وأن الأمور والحوادث يوشك أن تتطور وتتغير إلى أسوأ؛ لأن الله عزّ وجل يقدر مثل هذه الأمور لعلنا نحدث توبة، كما قال الرسول ﷺ في الكسوف: «... **ولكنها آيات من آيات الله تبارك وتعالى يعتبر بها عباده، فينظر من يحدث له منهم توبة**»[1]، ولكن أين القلوب الواعية؟! نسأل الله تعالى أن يعيذنا من قسوة القلوب وغفلتها.

الحاصل أن الله ينكر على هؤلاء الذين يبغون ديناً غير دين الله، ويقول: كيف تبغون غير دين الله، والأمر كله لله، وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً.

٦ ـ إثبات السموات، وأنها عدد، وقد جاءت الأدلة بأنها سبع، وكذلك الأرضين هي سبع، لكن لم يفصح الله تعالى بها في القرآن، بل قال: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، وجاء الإفصاح بها في السنة.

٧ ـ أن الرجوع إلى الله ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ يرجعون في الدنيا، ويرجعون في الآخرة. أما في الدنيا فإن المرجع إلى الله في الأحكام؛ الحكم لله، العبادة لله، والأمر كله لله، والنهي كله لله. نرجع إليه، وإلى شرعه، لا إلى رأي فلان وفلان، ولا

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، رقم (٢٠٤٤٠).

إلى قانون فلان وفلان، ولا إلى نظام فلان وفلان، إنما نرجع إلى الله. كذلك نرجع إليه في الآخرة، وسوف يحاسب كل إنسان على ما عمل. فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره.

٨ ـ إثبات البقاء لله؛ لأنه إذا كان مرجع كل الخلق لزم من ذلك أنه سيبقى عزّ وجل ليكون مرجعاً لجميع الخلق.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ. والخطاب للنبي ﷺ خطاب له وللأمة، ما لم يقم دليل على أنه خاص به. والمتأمل في الخطاب الموجه للنبي ﷺ يتبين له أنه على ثلاثة أقسام:

قسم دلَّ الدليل على أنه خاص به، وقسم دلَّ الدليل على أنه له وللأمة، وقسم ليس فيه دليل.

أما ما دلَّ الدليل على أنه خاص به فهو له، يختص به، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣]، وقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١].

وأما ما دلَّ الدليل على العموم، فهو على العموم، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، وما سوى ذلك فإنه يكون عامًّا له وللأمة، لكن وُجِّه الخطاب إليه باعتباره الإمام لأمته عليه الصلاة والسلام. والخطاب

الموجه للإمام موجه له ولمن كان مؤتماً به. ولهذا لو وجه الضابط أمراً إلى القائد لكان هذا الأمر للقائد، ولمن كان تبعاً له. فهنا يقول الله عزّ وجل: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ فالخطاب للنبي ﷺ، والمراد هو وأمته. بيان أن هذا هو المراد قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]. فقال: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ والإيمان بالله يتضمن أموراً: الأمر الأول: الإيمان بوجوده، الثاني: الإيمان بربوبيته، الثالث: الإيمان بألوهيته، الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته. لكن الثلاثة الأخيرة لا بد من توحيده بذلك أي توحيده بالربوبية، وبالألوهية، وبالأسماء والصفات. أما الوجود فشامل له ولغيره، وإن كان وجود الخالق يختلف عن وجود المخلوق. فمن لم يؤمن بوجود الله فهو ليس بمؤمن. ومن آمن بوجوده ولم يؤمن بربوبيته على وجه عام شامل، فهو لم يؤمن بالله. ومن آمن بالله وربوبيته ولكن لم يؤمن بالألوهية فليس بمؤمن. ومن آمن بذلك كله ولم يؤمن بأسمائه وصفاته فليس بمؤمن. لكن الأخير فيه تفصيل، قد يخرج من الإيمان بالكلية وقد لا يخرج.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾:

وهو القرآن الكريم، والسنة النبوية، كلاهما منزل. قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] فيشمل القرآن والسنة.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾:

وما أنزل على إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وهو أبو الأنبياء. والذي نعرف مما أنزل إليه الصحف كما ذكر الله ذلك في موضعين من القرآن؛ في سورة النجم، وسورة الأعلى،

فقال تعالى في سورة النجم: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾، وقال في سورة الأعلى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

وإسماعيل، لم يصل إلينا كتابه الذي نزل إليه، ولم نعرف إلا أنه أُنزل إليه، ولكن مع هذا يجب علينا أن نؤمن بما أُنزل على إسماعيل.

وإسماعيل هو الولد الأول لإبراهيم، وهو أبو العرب، وهو الذي صبر ذلك الصبر العظيم حين قال له أبوه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فقال هذا الابن الحليم: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

ولله درُّه من ابن، ابن لم يبلغ، ولكنه بلغ مع أبيه السعي، وهو أشد ما تكون النفس تَعلُّقاً به؛ لأن الكبير من الأولاد قد زلت النفس عنه، والصغير لم تتعلق به بعدُ ذلك التعلُّق. ومع ذلك فإن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام نفَّذ ما أمره الله به، قال الله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥]. لكن أرحم الراحمين سبحانه وتعالىٰ نسخ هذا الأمر حين أسلما وتلَّه للجبين.

(أسلما): يعني استسلما وانقادا لأمر الله، وتلَّه للجبين كابّاً له على الأرض، لئلا يرى وجهه حين يذبحه، فلما قارب أن يذبحه جاء الفرج من الله عزّ وجل. وهكذا يكون الفرج، كلما اشتدت الكرب، فانتظر الفرج. كما قال النبي ﷺ: «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر**

يُسراً»[1] ولن يغلب عسر يُسرين كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦].

والحاصل أن إسماعيل هو الولد الأكبر لإبراهيم، وهو الذبيح بلا شك؛ لأن الله لما ذكر قصَّة الذبح في سورة الصافات قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ [الصافات: ١١٢] بعد هذا.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾. «وإسحاق» ذكر بعده للترتيب الزمني، والظاهر ـ والله أعلم ـ للترتيب المنزلي أيضاً؛ لأن إسماعيل أفضل من إسحاق؛ لأن إسماعيل أبٌ لأشرف الخلق محمد ﷺ، وإن كان إسحاق أباً لأكثر الأنبياء، فالأنبياء من ولد إسحاق أكثر من الأنبياء من ولد إسماعيل، لكن العبرة بالأفضلية. محمد ﷺ أشرف الخلق من ذرية إسماعيل، فالظاهر ـ والعلم عند الله ـ أنه أخره ذِكراً؛ لأن إسماعيل أفضل منه وأسبق. أفضل منه قدراً، وأسبق زمناً.. ومع ذلك فكل منهم في المرتبة الأولى من مراتب الخلق ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] أسأل الله أن يجعلنا من رفقائهم.

قال عزّ وجل: ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ويعقوب بن إسحاق وهو الملقب بإسرائيل، والذي ينسب إليه بنو إسرائيل. وأخره عن الاثنين؛ لأنه متأخر عنهما زمناً.

﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾: جمع سبط. وأصل السبط في اللغة ابن البنت، ولهذا يقال في الحسن والحسين رضي الله عنهما سبطا

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، رقم (٢٨٠٠)، بدون لفظ «**واعلم**». ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ١٢٣)، رقم (١١٢٤٣) بلفظه.

رسول الله ﷺ. وابن الابن يسمى حفيداً ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢] أي أبناء ابن، وفي المراد بهم قولان:

القول الأول: أن المراد بالأسباط أولاد يعقوب وأنهم أنبياء.

القول الثاني: أن المراد بهم شعوب بني إسرائيل الذين فيهم الأنبياء، وعلى هذا فيكون في الآية على هذا المعنى، تقدير: أي وما أنزل على أنبياء الأسباط. ويؤيد القول الأول أنه لا يحتاج إلى تقدير؛ لأن الثاني يحتاج إلى تقدير، وتقديره أنبياء الأسباط. وإذا دار الكلام بين أن يكون ذا تقدير أو خالياً منه حُمِل على الخالي منه لأنه الأصل، والأصل عدم التقدير. لكن يضعفه أن الأسباط هم أبناء البنات، وهنا لا يتناسب مع الآية؛ لأن أولاد يعقوب أحفادٌ لإسحاق أو أحفادٌ لإبراهيم وليسوا أسباطاً، والقرآن نزل باللغة العربية فيجب أن تحمل الكلمة في القرآن على المعنى اللغوي ما لم تكن حقيقة شرعية تمنع من حمله على المعنى اللغوي، فإذا وجد حقيقة شرعية تمنع من حمله على المعنى اللغوي اتبعنا الحقيقة الشرعية، كالصلاة مثلاً في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: هي التعبد لله تعالى بذات الأقوال والأفعال المعلومة؛ المفتتحة بالتكبير، المختتمة بالتسليم.

يضعفه كذلك أنه لم يقم دليل على نبوة أولاد يعقوب إلا يوسف، ويوسف من الأنبياء لا شك، أما أولاده الآخرون الأحد عشر فإنه لم يقم دليلٌ على كل واحدٍ منهم بخصوصه أنه نبي، والنبوة وصف عظيم يحتاج إلى بينة ودليل وبرهان تدل على أن هذا الشخص متصف بها.

ثم يضعفه أمرٌ ثالث وهو فعل أبناء يعقوب بأخيهم يوسف، وما حصل منهم من الكذب حيث جاءوا على قميصه بدم كذب، وقالوا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧]، ثم اتهامهم لأبيه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، المهم أن هناك قرائن تدل على ضعف أن يكون المراد بالأسباط أولاد يعقوب، ويخرج منهم يوسف بدلالة الكتاب والسنة على أنه نبي.

إذن يترجح القول الثاني أن المراد بالأسباط الشعوب، يعني وما أنزل على الأسباط بواسطة أنبيائهم؛ لأن المنزل على أنبيائهم منزلٌ عليهم: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ العدول عن التعبير بالإنزال إلى الإيتاء.

فقال بعضهم: لأن ما أوتيه موسى وعيسى نوعان: وحي، وآيات كونية محسوسة بقي ذكرها إلى نزول القرآن الكريم، ومعلوم أن الوحي يُسمَّى إيتاءً؛ لقول الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢].. والآيات المؤيِّدة للرسالة هي أيضاً إيتاء. فقوله: ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ يشمل ما نزل من الوحي، وما حصل من الآيات، وذكر هذا لأن ذكر الآيات والعلم بها بقي إلى نزول القرآن الكريم.

﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾: وحي وآيات، أما الوحي فالتوراة التي هي أفضل كتابٍ بعد القرآن، وأشمل كتاب وأعم كتاب وأهدى كتاب بعد القرآن: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ

أَتَّبِعْهُ﴾ [القصص: ٤٩]. فقرنها الله مع القرآن. هذه التوراة نزلت على موسى، وهذا إيتاء الوحي، وأما إيتاء الآيات، فمن أعظم ما حصل له العصى واليد، وقد حصل في العصا ثلاث آيات عظيمة:

ألقاها على سحرة آل فرعون فالتهم جميع حبالهم وعصيِّهم، فالتهمها التهاماً، وهي ثعبان، والحبال والعصي قد ملأت الأرض، ومع ذلك هذا الثعبان يأكلها، ولا يُدرى أين تذهب؛ لأنها أكبر منه حجماً، ولكن مع ذلك ـ قدرة الله فوق كل شيء ـ ولم يتماسك السحرة لما رأوا هذه الآية العظيمة، حتى خرُّوا ساجدين. ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠]. في كلمة ﴿أُلْقِيَ﴾ انظر كلمة ألقي كأنهم جاءوا وسجدوا من غير عقل، لقوة ما ورد على قلوبهم من الآيات التي يعرفون أنها ليست سحراً.

والآية الثانية في العصى: أنه ضرب بها البحر فانفلق، صار اثني عشر طريقاً، بين كل طريق وآخر كُتَلٌ من الماء كأنها جبال، كل جبل كالطود العظيم. وقد ذكر بعض العلماء أن الله جعل في هذا الماء فُرجاً من أجل أن يطمئن الناس بعضهم إلى بعض، يُشاهد بعضهم بعضاً من هذه الفرج.. هذا الماء الذائب المائع كأنه مسلح، وبلحظة ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧].

لو اجتمعت نيران الدنيا كلها لتيبس أرض البحر في هذه اللحظة ما تمكنت، أو رياح الأرض كلها، أو المخترعات، ما تمكَّنت، ولكن قدرة من يقول للشيء «كن» فيكون، جعلت هذا أمراً ممكناً واقعاً.

الثالث من الآيات العظيمة للعصى: أنهم إذ استسقوا، يعني حصل عليهم نقص في الماء، ضرب موسى الحجر بهذه العصا

فتفجَّر اثنتا عشرة عيناً، كل عين لسبطٍ من أسباط بني إسرائيل حتى لا يقع النزاع بينهم والمزاحمة والمشاقة. هذه من الآيات التي أوتيها موسى.

أما عيسى فأوتي أيضاً وحياً، وآيات؛ الوحي: الإنجيل الذي كان متمِّماً للتوراة مبنياً عليها. وآياتٌ حسيَّة منها: أنه يُبرئ الأكمه والأبرص، ويُحيي الموتى، ويُخرجهم من القبور، ويخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً يطير.

قال تعالى: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ [آل عمران: ٤٩]، وفي قراءة «طائراً».. والفائدة من القراءتين أنه يكون طيراً ويطير، وقد يكون الشيء على هيئة طير ولكن ما يطير، وقد يطير وليس بطير، كالطائرة ـ مثلاً ـ لكن هذا يكون طيراً يطير، يخلق بإذن الله شيئاً على صورة الطير، والتصوير هنا جائز؛ لأنه بأمر الله، والأصل في الطاعة أمر الله. أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا، فكان سجودهم طاعةً لله، وأمر إبراهيم أن يقتل ابنه فامتثل، فكان امتثاله لهذا الأمر طاعة، المهم من الطاعة طاعة الله إذا أمر بأي شيء، فامتثال هذا الأمر طاعة وإن كان في آنٍ آخر يكون شركاً ـ مثلاً ـ أو كبيرة من كبائر الإثم.

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ [آل عمران: ٤٩] الأكمه: الذي خُلق بلا عينٍ، ممسوح العين، يُبرئه.

﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [آل عمران: ٤٩] يقف على الميت جثة فيُحييه؛ يقول له كلمة فيحيا.

أبلغ من هذا: يُخرج الموتى من القبور، يقف على القبر، ويُكلِّم صاحب القبر، ويقوم صاحب القبر حيّاً من القبر!! هذه آية

من أعظم الآيات الدالة على كمال قدرة الله، وعلى إمكان البعث، كالبعث يوم القيامة يخرج الناس من قبورهم بزجرة واحدة ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]. هذه الزجرة بلا تريّث ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ (إذا) فجائية، تدل على المفاجأة في الحال، قال تعالى في سورة القمر كلمة عامة في كل مأموراته. ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]. (لمح البصر): يُضرب به المثل في السرعة. واحدة فقط، إذا أمر الله بالشيء أمراً واحداً. «كن فيكون» كلمح البصر. سبحان الله. فإذن هذه الآيات التي أُعطيها عيسى فيها دليل على إمكان البعث.

﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾:

لما جاء الجمع والنبيون دون التخصيص، جاء بالإيتاء دون الإنزال، من أجل أن يشمل الآيات التي قد يكون أُعطيها بعض النبيِّين فجاءت ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ عطفاً على ﴿مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾، كما جاء ذلك في سورة البقرة: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]. ﴿وَالنَّبِيُّونَ﴾ المراد بهم هنا الرسل. وكل من وُصف بالنبوة في القرآن فإنه رسول، وكل من ذُكر في القرآن فإنه رسول؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. إذن فكل من قصَّ الله علينا في القرآن فهو رسول، وإن كان لم يوصف في القرآن إلا بالنبوة، لكنه رسول بدليل هذه الآية.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾:

كل هؤلاء نؤمن بهم على سبيل السواء، بدون تفريق،

والإيمان بهؤلاء إيمان مجمل، ولكن كل ما صحَّ عنهم أنهم أخبروا به وجب علينا الإيمان به، ولو تفصيلاً.. هذا في الأخبار، لكن في الأحكام لا نتَّبع إلا ما حكمت به شريعة محمد ﷺ، فهو الذي كُلِّفنا به، ووجب علينا اتِّباعه، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. فالاتِّباع لمحمد ﷺ، أما الإيمان فهو عام لجميع الرسل بدون تفريق. فإذا صحَّ عن موسى أنه أخبر بخبرٍ يتعلَّق بالله، أو بخبرٍ يتعلَّق بيوم القيامة، أو بالجنة، أو بالنار، وجب علينا أن نؤمن به إذا صحَّ. أمَّا ما يُروى من الإسرائيليات فقد يكون صحيحاً وقد لا يكون. واعلم أن شريعتنا في الأحكام بالنسبة لمن سبق على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما وردت شريعتنا بخلافه فهذا لا نعمل به؛ لأن شريعتنا ناسخة لجميع الأديان، مثال ذلك: القصاص في النفس والأطراف كان في التوراة واجباً مفروضاً، ولا عفو، لكن في الشريعة الإسلامية كان مخيَّراً فيه، فَنتْبَع القرآن.

القسم الثاني: ما ورد شرعنا بوفاقه فإننا نعمل به اتِّباعاً لشريعتنا المصدِّقة لما سبق من الشرائع، ولا نخالفه، وهذا كثير، مثل الطيبات، أحل الله الطيبات لنا ولغيرنا، لكن حَرَّم على بني إسرائيل بعض الطيِّبات بسبب ظلمهم.

القسم الثالث: ما لم يرد في شرعنا له وفاق ولا خلاف. هذا محل نزاع بين أهل العلم، وبحثه موجودٌ في أصول الفقه،

فمن العلماء من قال: إنه شرعٌ لنا، ومنهم من قال: إنه ليس بشرع، والصحيح أنه شرعٌ لنا، لدلالة شرعنا عليه. قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف: ١١١].. وكذلك النبي ﷺ أحياناً كان يُسند الحكم إلى أنه فعله أخي فلان من الأنبياء، وما أشبه ذلك، والمعنى يقتضي ذلك أيضاً، لأنه لولا أن لنا فائدة من قصص الأنبياء السابقين ـ ومن الفوائد أن نعتبر ونعمل بما عملوا ـ لم يكن لذكر هذه القصص شيء من الفائدة كثير.

وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ في الإيمان؛ لأنهم رسلٌ صادقون فيما أخبروا به، واجبٌ اتباعهم فيما أمروا به أو نهوا عنه، لكن بالنسبة لنا لا يجب علينا متابعتهم في الأحكام على التفصيل الذي سمعتم.

قال: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾:

الضمير يعود على الله ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ لأنه الأصل في سياق هذا الكلام، وكل ما بعدها معطوف عليها، فلو قال قائل: لماذا لا تجعل الضمير يعود على (أحد) في قوله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ لأنه أقرب مذكور، أي ونحن لهذا الأحد مسلمون؟ قلنا: لا يستقيم الكلام؛ لأن أصل الكلام مداره على أول جملة فيه ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ فيكون مرجع الضمير ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ﴾ إلى الله عزّ وجل. يعني: ونحن لله مسلمون، أي: مستسلمون ظاهراً وباطناً،

بالقلب، واللسان، والجوارح. فهو المستحق لذلك وحده لا شريك له، لأن من لم يستسلم لله استسلم لغيره، ولا بد أن ننتبه لهذه القاعدة المفيدة: من لم يستسلم لله استسلم لغيره ولا بد. إما أن نستسلم لله، وننقاد لأمره، وإلا فإنك سوف تستسلم لهواك وتنقاد لهواك، وهواك تابعٌ للشيطان، فتكون مستسلماً للشيطان؛ لأن كل إنسان لا بد له من إرادة وهمة، ولا يوجد أحد يخلو من إرادة أبداً، كلٌّ له إرادة، فإما أن يكون مرادك مرضاة الله عزّ وجل، فتستسلم له، أو مرضاة نفسك فتستسلم للهوى والشيطان.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ قدم المُتعلِّق على المتعلَّق لإفادة الحصر، يعني ونحن له لا لغيره مسلمون. ولهذا نقول: إن المؤمن إذا تعارض عنده أمر الله وأمر الخلق قدم أمر الله مهما كان الآمر، حتى أبوك وأمك، لو أمراك بخلاف أمر الله فقدِّم أمر الله.

لو قالت لك أمك: يا بني لا تخرج لصلاة الفجر، فالمسجد بعيد، ويُخشى عليك من كلب، لا تذهب للمسجد.. فلا تُطاع.

ولو قال أبوك: يا بُني لا تطلب العلم، فهل الإنسان يمتثل أمر أبيه في هذه الحال؟. لا.

ومن أحسن ما رأيتُ في هذا الموضوع ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله: «إنه لا تجب طاعة الوالدين في ترك أمرٍ ينفعك ولا يضرُّهما».. هذا كلام جيد يُكتب بماء الذهب، فكل شيءٍ ينفعك ولا يضُرُّ والديك فإنه لا تجب طاعتهما فيه. كما لو طلبتَ العلم.

ولا يرد على هذا مسألة الجهاد ـ أن بر الوالدين أفضل من الجهاد ـ لأن الجهاد فيه تعريض للنفس بالقتل، والقتل يُقلق راحة الوالدين.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ مستسلمون شرعاً وقدَراً، لكن الاستسلام القدري لا مدح فيه، لأنه سيكون سواء قلته أم لم تقله، لكن يُحمد على الصبر عليها؛ لأن الصبر على المصائب استسلامٌ شرعي.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ وجوب الإقرار بالإيمان باللسان، كما هو واجب بالقلب؛ لأن قوله: ﴿قُلْ﴾ يعني باللسان المعبر عما في القلب، وإن الخطاب الموجَّه للرسول ﷺ خطابٌ له وللأمة في قوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا﴾ ولم يقل: (قل آمنت) فهذا له وللأمة.

٢ ـ أن الإيمان بالله هو أصل كل شيء، مقدّم على كل شيء؛ لقوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وجعل ما بعده معطوفاً عليه.

٣ ـ وجوب الإيمان بما أنزل علينا، وهو القرآن، يجب الإيمان به تصديقاً بالخبر، وامتثالاً للأمر، واجتناباً للنهي؛ لأنه شريعة ومنهاج لنا.

٤ ـ وجوب الإيمان بما أنزل على الرسل السابقين؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إلى آخره. ولكن الإيمان بما أُنزل إليهم هو التصديق بما جاءت به هذه الكتب من الأخبار، وأما الأحكام فإن ما خالف شرعنا ليس شرعاً لنا بالاتِّفاق، وما وافق شرعنا هو شرع لنا بالاتفاق، لثبوته بشرعنا، وما لا هذا ولا هذا، ففيه خلاف بين العلماء، والصواب أنه شرع لنا.

٥ ـ ثبوت نبوَّة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾.

٦ ـ وجوب الإيمان بالأسباط، وقد سبق لنا أن القول الراجح أن المراد بهم شعوب بني إسرائيل، أي ما أُنزل عليهم بواسطة رسلهم.

٧ ـ وجوب الإيمان بما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم، من الآيات الكونية التي يُسميها بعض العلماء (المعجزات)، ومن الآيات الشرعية التي هي الشريعة التي يمشي عليها هؤلاء، فنؤمن بما أوتوا، لكن العمل بالشرائع السابقة تقدم حكمها.

٨ ـ ثبوت نبوَّة موسى وعيسى؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾.

٩ ـ أنه يجب علينا أن نؤمن بكل الأنبياء إجمالاً؛ لأنه خصَّص ثم عمَّم.

١٠ ـ أن هذا الدين الإسلامي ليس فيه عصبية، ولا يجوز أن يتخذ الإسلام منه عصبية؛ لقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾.. بخلاف ما يسلكه بنو إسرائيل حيث لا يؤمنون إلا بما جاء عن أنبيائهم فقط. أما هذا الدين الإسلامي فـ ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾، كلهم عندنا رسل الله، لكن نفرِّق في العبادات، لا نتعبَّد إلا بما أُمرنا بالتعبد به، ويُذكر أن شخصاً حاجَّ عالماً من علماء المسلمين، فقال له: لماذا تُجيزون لأنفسكم أن تتزوَّجوا ببناتنا، ولا تُجيزون لنا أن نتزوَّج ببناتكم، فقال له العالم: لأننا نؤمن برسولكم ولا تؤمنون برسولنا، فألقمه حجراً.

١١ ـ وجوب الاستسلام لله عزّ وجل وحده؛ لقوله: ﴿وَنَحۡنُ

لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾. ووجه التخصيص تقديم المتعلِّق على المتعلَّق. والمتعلِّق معمول للمتعلَّق، وتقديم المعمول يُفيد الحصر. إذن في قوله: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩] فائدتان: إخلاص الإسلام لله، ووجوب الإسلام له.

١٢ ـ أن لا نستسلم لأحد استسلاماً يُخالف الاستسلام لله. ووجه الدلالة أن هذا هو فائدة الاختصاص؛ أن لا نستسلم لأحد إلا لله. فإذا جاءنا أمر من مخلوق يخالف أمر الله فإننا لا نستسلم له؛ لأننا لو استسلمنا له لم نكن أخلصنا الاستسلام لله عزّ وجل.

١٣ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يشعر في كل حياته العملية ـ قولاً كان أو فعلاً أو تركاً ـ أنه مستسلم لله حتى يستفيد من العمل. عندما أتوضَّأ أشعر بأنني أُنفِّذ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [البقرة: ١٣٩] هل أنت أيها المسلم تستشعر هذا؟ الله أعلم لكن يغيب عن كثير من الناس هذا الأمر، لا يشعر الإنسان حينما يتوضَّأ، ويغسل وجهه ويديه، ويمسح رأسه، ويغسل رجليه، أنه يمتثل لأمر الله أبداً.

ولذلك ينبغي أن نستشعر في هذه الحال أمرين: امتثال أمر الله، واتِّباع رسول الله ﷺ. يعني تشعر وأنت تغسل وجهك كأن الرسول ﷺ أمامك يغسل وجهه، لتكون متَّبعاً له، وكذلك نقول في الصلاة والزكاة والصيام والحج، وغيرها. المهم أن نستشعر أو نُشعر أنفسنا أننا نفعل ذلك امتثالاً لأمر الله، واتِّباعاً لرسوله ﷺ، حتى نحقِّق شرطي العبادة في كل عمل.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

(من) شرطية، و﴿يَبْتَغِ﴾ مكسورة، مجزومة بحذف حرف الياء؛ لأن أصلها (يبتغي).

وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾:

﴿غَيْرَ﴾: مفعول يبتغ، و﴿دِينًا﴾: يصح أن تكون مفعولاً ثانياً، أي: (من يطلبه ديناً)، أو تكون تمييزاً (لغير) المبهمة؛ لأن (غير) اسم مبهم. و(يبتغي): بمعنى يطلب.

وقوله: ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ المراد بالإسلام هنا: الإسلام الخاص وهو الذي جاء به محمد ﷺ، وإن كان الإسلام في الأصل يُطلق على: الاستسلام لله في كل زمانٍ ومكان، كما ذُكِر عن الأنبياء السابقين أنهم يُطلقون الإسلام: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، والآيات في هذا كثيرة، أن الرسل وأتباعهم مسلمون، ولكن هذا هو الإسلام العام، أما بعد بعثة الرسول ﷺ، فكل ما يُسمَّى إسلاماً فهو ما جاء به الرسول ﷺ فقط.

إذن ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: غير شريعة محمد ﷺ؛ لأننا نقول: المراد بالإسلام هنا الإسلام الخاص الذي هو شريعة محمد ﷺ.

﴿دِينًا﴾: أي عملاً يَدين به الله، ويرجو أن يُدان به بالثواب من عند الله؛ لأن الدين يُطلق على الجزاء والعمل. ففي قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون] المراد به العمل، وفي قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨] المراد به الجزاء، وفي قوله هنا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ المراد به العمل.

لكن الدين لا يكون إلّا في عملٍ يرجو الإنسان ثوابه، أي يرجو أن يُدان به، ولهذا يُقال: «كما تُدين تُدان».

وقوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾:

الفاء رابطة للجواب ﴿فَلَن يُقْبَلَ﴾: أي ذلك الدين.

لم يقل: (فلن يقبل الله منه)، ليعم الرفض والرد من الله عزّ وجل، ومن الرسول، ومن المسلمين، ولهذا لا يجوز للمسلمين أن يُقِرُّوا أحداً على دين خلاف شريعة الرسول ﷺ.

والمراد بالقبول هنا قبول الصحة، ودليل ذلك قوله ﷺ فيما أخرجه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[1]، أي: مردود.

فمن دان بغير الإسلام، سواء في الأصل أو في الفرع، فإن دينه هذا مرفوض، ومردود، ولن يُقبل منه، ولا يُعطى ثواباً في الآخرة على عمله.

ولهذا قال: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: وهذه والله هي الخسارة العظيمة، أن يعيش الإنسان في الدنيا ما شاء الله أن يعيش ثم لا يكتسب ما ينفعه في الآخرة، فإذا قدم إلى ربه لم يجد شيئاً كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩]، (القيعة) يعني: الأرض المستوية الواسعة، هذه الأرض إذا كانت في شدة الحر يتراءى للإنسان من بعيد أن فيها ماء يسمى (السراب)، فإذا جاء الإنسان ظمآناً رأى هذا السراب

---

(١) رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد المحدثات من الأمور، رقم (١٧١٨).

الذي كأنه ماء بحر، فرح، وأسرع إليه، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، فصارت خيبة الأمل بعد قوة الرجاء. وهذا أشد ما يكون حسرة على الإنسان، أن تكون خيبة أمله عند قوة رجائه؛ لأن الإنسان لو لم يرجُ من الأصل لهان عليه الأمر، لكن المشكلة كونه يرجو ثم ينتكس، هذا يكون أشد. نسأل الله العافية. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].. كل من لم يَدِن بالإسلام فإنه في الآخرة خاسر.. ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقوله: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ يشمل خسارة النفس، وخسارة المال، وخسارة الأهل.

أما خسارة النفس فإنه لن يستفيد من عمله شيئاً، وأما خسارة المال فإنه لو أنفق ماله كله فيما ينفع الخلق، لم ينتفع به في الآخرة، أي لو أصلح الطرق، وبنى المساجد، وبنى المدارس، فإنه لا ينفعه، وأظنكم لا تتوقَّعون أن يكون هذا من الكافر الصريح أن يبني المساجد والمدارس، لكن يكون من الكافر المرتد، فرجلٌ مثلاً لا يُصلِّي لكنه صاحب خير، يبني المساجد، ويبني المدارس، ويُصلح الطرق، ويُطعم المساكين، لكنه لا يُصلِّي، لا ينتفع بشيء من هذا العمل لأنه كافر، والكافر لن ينفعه عمله يوم القيامة أبداً.

وخسارة الأهل أنهم لا ينتفع بهم في الدنيا، لو دعَوا له لم ينتفع بذلك؛ لأن الله يقول: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] ولا ينتفعون بالدعاء. كذلك في

الآخرة لا ينتفعون بأهليهم؛ لأن كل واحدٍ منفصلٌ عن الآخر، في نار جهنم، بخلاف المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِيءٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].. لو كان لك ذرية وتكون في الدرجة الخامسة، وأنت في الدرجة السابعة، تُرَقَّى الذرية من الخامسة إلى السابعة، ولا تُنقَصُ أنت شيئاً، لا يُقال: انزل درجة وهم يرقون درجة وتكونون في السادسة.

فالله يعامل بالفضل عزّ وجل، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾، لأنه ربما يتوهم متوهم أنه إذا رُقِيت الذرية نقص ثواب الآباء، فقال: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِيءٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] ولو أننا نزَّلنا الآباء ما صار العامل رهيناً بما كسب.

قوله: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.. الواو معطوفة على جواب الشرط، يعني: ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فإنه يترتَّب عليه شيئان: الأول الرد وعدم القبول، والثاني أنه خاسر في الآخرة، لأنه يعمل عملاً لن ينفعه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بطلان كل عمل ليس على دين الإسلام؛ لقوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

٢ ـ أن جميع الأديان غير دين الإسلام غير مقبولة عند الله، ولا نافعة للمتدين بها؛ لعموم قوله: ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾، فيشمل دين المسيحية، ودين اليهودية، ودين البوذية، ودين المجوسية، وكل دين، فإن الله لا يقبل غير الإسلام.

٣ ـ الثناء على دين الإسلام، وأنه هو المقبول المحبوب

إلى الله، ويؤخذ هذا من المفهوم؛ لأن المفهوم من قوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، أن من ابتغى الإسلام ديناً يقبل منه.

٤ ـ أن هؤلاء الذين يدينون بدين غير الإسلام يُتعبون أبدانهم، ويهلكون أموالهم، وربما يموتون جوعاً وعطشاً وحراً وبرداً في الدعوة إلى غير دين الإسلام، كالذين يسمونهم المبشرين، وهم في الحقيقة منصِّرون مضلِّلون، هؤلاء ينفقون أموالاً كثيرة، ويتعبون تعباً عظيماً، ويتعرضون للهلاك، وكل هذه الأعمال نتيجتها هباء: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، لا يستفيدون منها إطلاقاً لأنها على غير شريعة الله، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، يغلبون إذا قام المسلمون بما يجب عليهم من نصرة دين الإسلام، ولهذا نأسف أن النصارى لهم هذا النشاط في دعوتهم إلى الضلال، والمسلمون نشاطهم لا يبلغ ولا عشر معشاره مع أنهم على حق. ولكن الحق لا بد أن ينتصر ولو بعد حين.

٥ ـ إثبات الآخرة؛ لقوله: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وفيها أن الآخرة فيها خسارة وربح أعظم من خسارة الدنيا وربحها، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ﴾ [التغابن: ٩]، ليس التغابن في الدنيا أن يكون عند الرجل قصور، وسيارات، ونساء، وأولاد، وحشم، وخدم، والآخر ليس له إلا

ثوب يكسو عورته. هذا ليس بغبن في الحقيقة، الغبن يوم القيامة حينما يُحشَر المتقون إلى الرحمن وفداً ويُساقُ المجرمون إلى جهنم ورداً، هذا الغبن العظيم، وهذه الخسارة العظيمة. ولهذا يجب أن نعلم أن الخسران المبين هو خسارة يوم القيامة: ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

❁ ❁ ❁

❑ قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٦ ـ ٨٩].

قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٦]:

﴿كَيْفَ﴾ استفهام بمعنى الاستبعاد، أي: يَبعُد جدّاً ـ إن لم يمتنع ـ أن يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم، يعني: ارتدُّوا بعد أن آمنوا، وعرفوا الحق، فإن هدايتهم بعيدة، وذلك لأن من عرف الحق ثم ارتد عنه، فهو أعظم جرماً ممن لم يعرف الحق، ولم يدخل فيه وبقي على كفره، ولهذا نقول: الكافر المرتد أعظم من الكافر الأصلي في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا يترك الكافر الأصلي على دينه، ولا يُجبر على تركه، لكن المرتد لا يُقرُّ على ردته، بل يُجبر على أن يعود إلى الإسلام أو يُقتل؛ لقول

النبي ﷺ: «**من بدَّل دينه فاقتلوه**»[(١)].

فالله عزّ وجل يقول: يبعد أن يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم، أما من كانوا على الكفر أصلاً فما أكثر الذين اهتدوا بعد أن كانوا على الكفر وشهدوا أن الرسول حق.

﴿ٱلرَّسُولَ﴾ (ال) للعهد الذهني؛ لأنه لم يسبق له ذكر لكنه معلوم ذهناً، وبالمناسبة نقول: إن (العهدية) تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

فالعهد الذكري: أن تكون داخلة على ما سبق ذكره.

والعهد الحضوري: أن تكون داخلة على شيء حاضر.

والعهد الذهني: أن تكون داخلة على شيء معلوم في الذهن.

فمثلاً: قوله تعالى: ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ المراد به رسول الله محمد ﷺ؛ لأن قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ معناه: أن يتوقع أن يُهدون، وهذا لا يمكن بعد نزول القرآن إلا أن يكون الرسول محمد ﷺ. ونقول مثلاً: وأنت في البلد جاء القاضي، أي قاضٍ هو؟ قاضي البلد المعروف.

العهد الذكري: أن تدخل على شيء قد سبق ذكره، مثل: قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥، ١٦]. المراد بالرسول: الرسول الأول الذي أُرسل إلى فرعون وهو موسى. وهنا العهد ذكريّ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله، رقم (٣٠١٧).

والعهد الحضوري: أن تكون داخلة على شيء حاضر، وهذه أكثر ما تكون في (ال) الواقعة بعد اسم الإشارة للحضور، للعهد الحضوري؛ لأن الإشارة تدل على المشار إليه. والمشار إليه يكون حاضراً، فنقول: (هذا اليوم شديد الحر) أي اليوم الحاضر.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] اليوم يعني اليوم الحاضر. وقسيمة لـ«أل» العهدية هي (ال) الجنسية. (ال) الجنسية تكون لبيان الحقيقة، ولبيان استغراق الحقيقة. فإذا قلت: الرجال أكمل من النساء، هذه لبيان الحقيقة (الجنس)؛ جنس الرجال أفضل من جنس النساء. ولا يعني أن كل واحدٍ من الرجال أكمل من كل امرأة من النساء. ففي النساء من هي خير من كثير الرجال.

وتكون للعموم مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] يعني كل إنسانٍ، وهذه علامتها أن يحل محلها (كل) بتشديد اللام.

﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾:

حق ثابتٌ صادقٌ فيما أخبر، عادلٌ فيما حكم به ﷺ.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾:

يعني: الآيات البينات التي تُبيِّن صدق ما جاء به الرسول ﷺ، والبينات مؤنث، ولم يؤنَّث فعله لوجهين:

الوجه الأول: أن تأنيثه غير حقيقي.

الوجه الثاني: أنه فصل بينه وبين الفعل.

وقد جاء في القرآن مؤنثاً: ﴿جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [البقرة: ٢١٣]، لأنه يجوز هذا وهذا.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الجملة استئنافية، وهي كالتعليل لما قبلها من حيث المعنى، كأنه يقول: إنما لا يهديهم الله لأنهم ظلمة. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. الذين ظلموا أنفسهم حيث بان لهم الحق، واتَّضح وجهه، ومع ذلك كفروا.

«وشهدوا» معطوفة على كفروا، ولكن يُحتمل معنى آخر، وهو أن تكون للحال، يعني: وقد شهدوا أن الرسول حق، وكفروا بعد إيمانهم.

ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [آل عمران: ٨٧]:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أي المشار إليهم، وهم الذين كفروا بعد إيمانهم، وشهدوا أن الرسول حق، وجاءهم البينات، وأتى بصيغة الإشارة على وجه البعد إشارة إلى انحطاط مرتبتهم؛ لأن الإشارة إلى القريب بصيغة البعد قد تكون إشارة إلى علو المرتبة، وقد تكون إشارة إلى انحطاط المرتبة، وهنا إشارة إلى انحطاط مرتبتهم، فهم لانحطاط مرتبتهم بعيدون، يُشار إليهم إشارة البعد.

﴿جَزَآؤُهُمۡ﴾: مكافأتهم على عملهم. ﴿أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾: (على) تُفيد أن اللعنة أتتهم على وجه الاستحقاق، ومن أمر عالٍ؛ لأنها لعنة الله، ولعنة الله هي طرده وإبعاده عن رحمته، أي: أنه سبحانه وتعالىٰ طردهم وأبعدهم عن رحمة الله.

و(لعنة الملائكة) الملائكة: جمع مَلَك وأصله (مألك) وهي من (الألوكة) وهي الرسالة، لكن صار فيه إعلال بالقلب، يعني قلب المكان وليس قلب الحرف، وذلك بأن قُدِّمت اللام وأُخرت

الهمزة، وصار (ملأك).. وجمع (ملأك) ملائكة، ثم سُهِّل وقيل (ملك) بدل (ملأك).

والملائكة هم: جنس من المخلوقات، عالم غيبي، خلقهم الله تعالى من نور وجعلهم صُمْداً، لا يأكلون ولا يشربون. وإذا لم يأكلوا، ولم يشربوا، فهم لا يبولون ولا يتغوَّطون، ولهذا وصفهم الله بأنهم مطهَّرون، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩].

﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ الناس هم بنو آدم وأصلها (أناس) فحُذِفت الهمزة تخفيفاً لكثرة الاستعمال، وقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ توكيد لما قبلها مباشرة، أو لما قبلها وما قبل الذي قبلها؟ للجميع، الملائكة أجمعين، والناس أجمعين.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: حال يعني: خالدين في هذه اللعنة، ماكثين فيها، إما على سبيل الأبد، وإما على سبيل المكث الطويل؛ لأن الخلود كما قال أهل اللغة يُستعمل في المكث الطويل ويستعمل في المكث الدائم، ولكن هنا يُراد به (الدائم)، لأن هؤلاء كفرة، والكفرة خالدون خلوداً دائماً في العذاب «لا يُخفَّف عنهم العذاب» يعني. التخفيف ضد التثقيل، أي: لا يمكن أن يُهوَّن عليهم العذاب يوماً واحداً، ولهذا قال الذين في النار لخزنة جهنم: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]. طلبوا دعاء الملائكة ليكونوا واسطة بينهم وبين الله، ثم مع ذلك لم يقولوا: (ادعوا ربنا)، قالوا: (ادعوا ربكم) من شدة خجلهم وانكسارهم أمام الله، ثم قالوا: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩] ولم يطلبوا الإنقاذ من العذاب مطلقاً، ولم يطلبوا أن

يخفف عنهم العذاب دائماً؛ لأنهم عارفون أنهم مخطئون بل خاطئون، ولذلك طلبوا أن يُخفف عنهم العذاب يوماً واحداً، ولكن لن يكون ذلك.

ولهذا قال: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ العذاب: العقوبة.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: أي يُمهلون ويؤخرون، بل يُبادرون بالعذاب.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الزمر: ٧١]. وقال في أهل الجنة: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] (جاءوها وفتحت) فصار هناك فرق بين هؤلاء وهؤلاء؛ لأن أهل النار يُبادرون لفتحها فيقابلهم العذاب أول ما يقدمون عليها.

وأما أهل الجنة فإنهم إذا وصلوا إلى الجنة وقفوا على قنطرة بين الجنة وبين النار، فيُقتص لبعضهم من بعض، اقتصاصاً خاصًّا، غير الاقتصاص الأول الذي يكون في عرصات القيامة من أجل أن يزال ما في قلوبهم من الغل والحقد، حتى يدخلوا الجنة وهم على أصفى ما يكونون من المودة، إخواناً على سررٍ متقابلين.

ولهذا نقول في الواو هنا: إنها (عاطفة على جواب الشرط المحذوف) حتى إذا جاءوها حصل كيت وكيت، وفُتحت أبوابها. وليست زائدة كما قيل به، بل هي واو عاطفة على الوجه المعتاد والمعطوف عليه محذوف.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يُمهلون ويؤخر عنهم العذاب،

بل يُبادرون به، بل إنهم يُبادرون به قبل أن تقوم الساعة. كما قال الله تعالى في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

بل إنهم يُبادرون بالعذاب قبل أن يموتوا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].. ويوبَّخون قبل أن يموتوا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]. وتأمل قوله: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ إنهم والله لأشحاء في هذه الأنفس، أشحاء؛ لأن النفس إذا بُشرت بالعذاب نكصت واشمأزَّت ورجعت في الجسد (أخرجوا أنفسكم) أعطونا إياها إلى العذاب: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣].. فما بالكم والعياذ بالله بهذه البشارة السيئة القبيحة في حال الخروج من الدنيا، ومفارقة الأهل، والأموال، والأوطان، إنها لساعة حرجة نعوذ بالله، ونسأل الله أن يحسن لنا ولكم الخاتمة، فهم لا يُمهلون، ولا يُنظرون في العذاب من حين أن يأتيهم الأجل إلى أبد الآبدين. نسأل الله لنا ولكم العافية.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩]:

اللهم لك الحمد، رحمة الله سبقت غضبه. هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق، وجاءتهم البيِّنات،

وقامت عليهم الحجة من كل وجه، إذا تابوا إلى الله تاب الله عليهم. ﴿ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾.

﴿تَابُوا۟﴾ أي: رجعوا إلى الله. فالتوبة هي الرجوع إلى الله من معصيته إلى طاعته. ومن الهرب عنه إلى اللجوء إلى بابه، وللتوبة خمسة شروط:

الشرط الأول: الإخلاص لله، بأن يقصد الإنسان بتوبته وجه الله، وأن يتوب عليه ويتجاوز عنه، لا أن يقصد بتوبته مراءاة الخلق أو شيئاً من أمور الدنيا؛ لأن التائب قد يريد مراءاة الخلق، ليعلم الناس أنه تاب ورجع، فيمدحوه على ذلك. هذا لا تنفعه التوبة ولا تُقبل منه. أو يقصد بتوبته شيئاً من أمور الدنيا، يسمع أن الله يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤] وهو يريد زوجة، يقول: لعلي أتَّقي الله حتى يُيسِّر الله لي زوجة، هذه التقوى أو التوبة ضعيفة جدًّا، ولهذا قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب التوحيد ـ باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا ـ: «فهذه إرادة نازلة، لكنها ليست كالأول. الأول يريد أن يتقرَّب إلى الناس بما يتقرب به إلى الله، وهذا شيء عظيم أن يجعل ما لله للخلق، أما هذا فأراد أن يتقرب إلى الله من أجل أن ييسِّر له شيئاً من أمور الدنيا، والآخرة هو في غفلة عنها». إذن هذا الذي أراد بالتوبة أحد الأمرين: توبته مردودة عليه بالنسبة للأول الذي أراد الرياء، وضعيفة جدًّا بالنسبة للثاني.

الشرط الثاني: الندم على ما فعل من الذنب، والندم أشكل على بعض الناس، ولكنه في الحقيقة لا إشكال فيه إطلاقاً؛ لأن

معنى الندم أن يشعر الإنسان بالحسرة على ما فعل، لا أن يكون الفعل أو عدمه عنده سواءً.

الشرط الثالث: أن يقلع عن المعصية في الحال، فإن كانت لله، فإمَّا أن تكون ترك واجب أو فعل محرم، فإن كانت فعل محرم أقلع عنه، أي فارقه حتى لو كانت شربة الخمر في فمه، وجب عليه أن يمجَّه، وإن كانت للمخلوق فلا بد أن يُعطيه حقه أو يتحلله منه إن كان مالياً أو بدنياً أو عرضاً علم صاحبه.

بدنياً: مثل الضرب، **ماليًّا**: مثل أخذ المال أو جحد مال يجب عليه لشخص، **عرضاً**: مثل الغيبة.

هذه إن كان الذي جُنِيَ عليه قد علم بالغيبة، فلا بد من استحلاله، وإن لم يعلم فلا حاجة إلى إخباره، ثم استحلاله؛ لأنه ربما إذا علم لا يُحِل، ولكن بدل أن دنَّس سمعته في مجلس من المجالس، يمدحه بما فيه في نفس ذلك المجلس؛ لأن الحسنات يُذهبن السيئات.

وإذا كان لله، إن كان فِعْلَ محرَّم فلا بد أن يُقلع عنه، وإن كان ترك واجب وجب عليه أن يتلافاه إن كان يمكن تلافيه، وإن كان لا يمكن سقط.

مثال: رجل غصب أرضاً وجعل فيها زرعاً، وفي أثناء وجوده فيها تاب إلى الله، فمشيه داخلها مشي في معصية، وبقاؤه إن بقي معصية، فماذا يفعل؟

قال العلماء: إن مشيه خارجاً منها ليس بمعصية؛ لأنه خروج للتخلص من المعصية. والتخلص من الشيء لا يعطى حكم الشيء، ولهذا لو أن المُحرم تلطَّخ بطيب وأراد أن يغسله فلا بد

أن يُباشره، ومباشرته للطيب عند غسله جائزة؛ لأنه يريد أن يتخلص منه.

كذلك الاستنجاء، الإنسان إذا أراد أن يستنجي يُباشر النجاسة بيده، وهذه المباشَرة مباشرة جائزة؛ لأنها من أجل التخلص من هذه النجاسة وإزالتها.

وكذلك الذي تاب من الأرض المغصوبة وكان في وسط الأرض، ومشى، فنقول: هذا المشي طاعة؛ لأنك إنما مشيت من أجل التخلُّص.

الشرط الرابع: أن يعزم على ألا يعود. فإن تاب وهو لم يعزم على عدم العود فإن توبته لا تصح، كرجل من عادته أن يسهر في شرب الخمر في أماكنها ـ والعياذ بالله ـ. وفي ليلة من الليالي صارت السماء ممطرة وجاء إلى المكان، فوجده مغلقاً فقال: «تبت»، لكن من نيته أنه إذا كانت القابلة صحواً، وفتح المكان، فسيحضر ويشرب الخمر. هذا ليس بتائب، هذا أقرب أن تكون توبته سخرية.

ورجل أراد أن يتوب من الغيبة وهو مع أصحابه الذين يأكلون لحوم عباد الله ـ والعياذ بالله ـ، فقال أحدهم: «أستغفر الله وأتوب إليه، ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» يا فلان ما تقول بفلان؟ فهذا توبته غير صحيحة لأنه لم يقلع، ولو أقلع في حال قوله: أستغفر الله وأتوب إليه، فهو لم يعزم على ألا يعود بدليل أنه من حين قال هذا الكلام قال: ما تقولون في فلان؟ هذا الرجل لم يتب توبة حقيقية؛ لأنه لم يعزم ألا يعود.

ولو تاب حقاً ثم سوَّلت له نفسه فيما بعد فعاد، هل تبطل التوبة الأولى أو لا؟ لا تبطل التوبة الأولى، لكن يحتاج إلى توبة جديدة للعودة الأخيرة، أما التوبة الأولى فقد تمت. ولهذا نقول الشرط: العزم أن لا يعود، لا أن لا يعود، لو أنه عاد وتاب توبة نصوحاً ثم عاد، يتوب، ثم عاد، يتوب. وقد أخبر النبي ﷺ أن رجلاً كان يذنب ذنباً فتاب منه، ثم أذنب ذنباً فتاب منه، ثم أذنب فتاب، فقال الله تعالى: «**علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ به، قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء**»[1] لأن هذا الرجل كان مخلصاً، ولكن هذا كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: لا ينطبق على كل تائب، إنما أخبرنا الرسول عليه الصلاة والسلام عن رجل حصل منه هذا الشيء ولكن لا يحصل لكل تائب.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقت القبول. فإن انقطع وقت القبول فلا توبة. وانقطاع وقت القبول نوعان: عام، وخاص. فالخاص: حضور الأجل لكل إنسان بعينه. والعام: طلوع الشمس من مغربها، فإذا حضر الأجل فإن التوبة لا تنفع؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨] وإذا كان هذا الشرط محققاً، دلَّ هذا على أن التوبة واجبة على الفور؛ لأن أحداً لا يعلم متى يأتيه الموت. فإذا كنت لا تعلم متى يأتيك الموت، لزم من ذلك أن تبادر بالتوبة، وأن يكون دائماً على بالك

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ...﴾، رقم (٧٥٠٧). ورواه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم (٢٧٥٨).

أنك تائب إلى ربك، وراجع إليه، حتى إذا قدر أن الأجل أتاك بغتة، إذا أنت على أتم الاستعداد. نسأل الله أن يقينا من غفلة القلوب.

القلوب غافلة لا تحسب لهذا الشيء حساباً. والواجب أن الإنسان يحسب لهذا الشيء حسابه، يكون دائماً على ذكر التوبة، ولهذا **كان نبينا ﷺ يستغفر الله أكثر من سبعين مرة، ويتوب إليه أكثر من سبعين مرة**[(١)].

أما العام فهو طلوع الشمس من مغربها؛ لأن الشمس هذه تدور بإذن الله منذ خلقها الله إلى أن يأذن الله بوقوفها. والعجيب أنها لا تتقدم ولا تتأخر. انظر إلى طلوعها مثلاً اليوم الثاني من برج السنبلة؛ تطلع في الساعة كذا، الدقيقة كذا، هذا اليوم نفسه من مئات السنين السابقة وهي تطلع عليه على هذا القدر من الساعات والدقائق، لو أحصيت منذ علم الناس التاريخ لوجدت أنها لم تختلف إلى يوم القيامة، وهي إذا غربت كما قال النبي ﷺ وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى: «**إذا غربت تسجد تحت العرش تعظيماً لله عزّ وجل، وتستأذن هل تخرج وإلا ترجع، إما أن يؤذن لها وإما أن يقال: ارجعي من حيث جئت، فترجع من حيث جاءت وتخرج من مغربها فإذا رآها الناس آمنوا كلهم**»[(٢)] كلهم يؤمنون، لأنهم حينئذ يعلمون أن لها ربًّا مدبراً سبحانه وتعالىٰ وكانوا قبل ذلك يظن بعضهم أن هذا طبيعة تسير العالم على هذا النظام، ولكن كما قال الله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة، رقم (٦٣٠٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر، رقم (٣١٩٩).

رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، لا ينفعهم الإيمان؛ لأن هؤلاء آمنوا كإيمان الذين نزل بهم العذاب، والله تعالى يقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

فتبين أن شروط التوبة إذن خمسة، وقد قال بعض العلماء إنها ثلاثة، فأسقطوا الإخلاص، وأسقطوا أن تكون في وقت القبول، ولكن لا بد من هذين الشرطين.

قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ (إلا) أداء استثناء، والذين مستثنى. والأصل في المستثنى أن يكون من جنس المستثنى منه. وإن خرج عن جنسه فهو على خلاف الأصل. ولا بد من دليل يدل على أنه ليس من الجنس، ويسمى المستثنى الذي من غير الجنس استثناء منقطعاً. لكن الاستثناء هنا متصل قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ هذا مستثنى من قوله: ﴿كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يعني إلا الذين تابوا من بعد الكفر بعد الإيمان، يعني فإن الحكم يختلف فيهم. والتوبة كما أسلفنا الرجوع من معصية الله إلى طاعته.

قال: ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه ما سبق من الكفر. وأتي بإشارة البعيد لانحطاط مرتبته؛ لأن البعد قد يكون من عال وقد يكون من نازل، فإن كان البعد من عال، أشير إليه إشارة البعيد لعلوه فهو ثناء، وإن كان أشير إليه إشارة البعيد لدنوه وسفوله فهو قدح.

قال: ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾: يعني أصلحوا ما جرى، أو ما كان فعلهم سبباً في فساده، يعني أصلحوا ما أفسدوه مباشرة أو

تسبباً. فمثلاً إذا كان هؤلاء أئمة قادة، لمَّا كفروا كفر من يتبعهم، فإن توبتهم لا تكفي حتى يصلحوا ما فسد على أيديهم، وذلك بمحاولة إرجاع الذين كفروا تبعاً لهم إلى الإيمان. إذا كان الإنسان كفر بكتابة ما يخالف الدين، فلا يكفي أن يقول: أستغفر الله وأتوب إليه، ولن أعود إلى كتابة ما يخالف الدين، حتى يصلح ما أفسد بأن يكتب ردًّا على ما كتب أولاً؛ لأن المفاسد المتعدية لا بد فيها من إصلاح، ولهذا قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، والجواب هنا قد يبدو غير مطابق لما سبق؛ لأنه قد يتوقع السامع أن يكون الجواب فإن الله يتوب عليهم، ولكن الجواب كان ثناءً على الله باسمين من أسمائه وهما الغفور والرحيم، قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ ولكن يؤخذ من هذين الاسمين أن هؤلاء الذين تابوا وأصلحوا يغفر الله لهم؛ لأن مقتضى هذين الاسمين يعمهم فيغفر الله لهم ويرحمهم، الغفور هو من يغفر الذنوب. ومغفرة الذنوب هو سترها والتجاوز عنها. والرحيم هو من يرحم العباد. والرحمة صفة تقتضي الإحسان والإنعام. وفي الجمع بين الغفور والرحيم زيادة معنى على ما يتضمنه الاسمان، وهو أن الله تعالى قد جمع بين المغفرة التي بها زوال المكروه، وآثار الذنب، والرحمة التي بها حصول المطلوب وهو النعمة والإحسان. إذن إذا تابوا وأصلحوا غفر الله لهم.

من فوائد الآيات الكريمة:

من فوائد قوله عزّ وجل: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

١ ـ أن من ضلَّ عن بصيرة فإنه يبعد أن يُهَدَىٰ ـ نعوذ بالله ـ لقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾.

٢ ـ أن من فسق عن بصيرة فإنه يبعد أن يكون من العدول. فإذا قيل لشخص: هذا حرام وهو مسلم، وبُيِّن له الحق، ثم عصى واستمر على فسقه، فإنه يبعد أن يهدى والعياذ بالله.

٣ ـ أن الهداية والإضلال بيد الله؛ لقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ﴾ فنسب الهداية إليه.

وفي آيات أخرى أن الله نسب الإضلال إليه مثل ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. ولكن يجب أن تعلموا أن هداية الله وإضلاله لحكمة؛ فمن كان أهلاً للهداية هداه الله، ومن كان أهلاً للضلال أضله الله. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥] والله عزّ وجل يعلم، إذا علم من المرء أنه لا يريد الهداية أضله الله. وإذا علم أنه يريد الهداية، وأنه حريص عليها يطلبها أينما كانت، ويسلك ما دل عليه الدليل، فإن الله تعالى يهديه ويعينه ويوفقه ويفتح بصيرته حتى يرى الحق كأنما يتلقاه عن فِيِّ رسول الله ﷺ.

٤ ـ أن الإنسان قد يستكبر ويعاند بعد أن تبين له الحق؛ لقوله: ﴿كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ﴾.

٥ ـ أن الكفر بعد الإيمان أغلظ من الكفر الأصلي؛ لأن الله تعالى استبعد أن يهتدي هؤلاء. وأما الكافرون فإن الله سبحانه وتعالىٰ ذكر في سورة الممتحنة أن الله تعالى قد يهديهم فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ﴾

وذلك بالإيمان، ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧].

٦ ـ أن النبي ﷺ حقٌّ؛ لأن الله لَامَ هؤلاء على الكفر بعد أن شهدوا أن الرسول حق، ولا شك أن رسول الله ﷺ حق من عند الله، صادق فيما قال وفيما أخبر به عن ربِّه.

٧ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ لم يدع الخلق هملاً، بل أقام لهم الحجج، وأقام البينات، حتى لا يكون للناس على الله حجة؛ لقوله: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾. هذه البينات تنقسم إلى أقسام: شرعية، وعقلية، وحسية؛ أما السمعية: فهي القرآن، وأما العقلية فهي أن كل عاقل يتدبر ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام يعلم أنه حق، فإنه ما أمر بشيء فقال العقل ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقال العقل ليته لم ينه عنه. وأما الحسية فظاهرة، انتصاراته العظيمة في هذه المدة الوجيزة، وانتصار أصحابه حتى فتحوا مشارق الأرض ومغاربها مع أنهم كانوا أذلة مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس. هذا من أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقًّا. إذن فالآيات شرعية وعقلية وحسية.

٨ ـ أن من أضله الله فإنما ذلك لظلم منه، لقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وأما من طلبوا الحق وتحرّوه وتشوَّفوا له فإنهم جديرون بالهداية.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾:

١ ـ إثبات الجزاء، وفيها أن الجزاء من جنس العمل. فإن هؤلاء لما ارتكبوا ثلاث جرائم، أو ثلاثة أمور في كفرهم، كان عليهم لعنة الله والملائكة والناس، ثلاث بثلاث.

٢ ـ أن الملائكة ذو عقول، يفهمون، ويفعلون. وليس كما قال بعضهم: إنهم ليس لهم عقول. وما أغرب هذا القول، وما أبعده عن الصواب؛ لأننا إذا قلنا: إن الملائكة ليس لهم عقول فإننا نطعن في القرآن؛ لأن الوسيط الذي بين محمد ﷺ وبين الله ملك، فإذا قلنا: لا عقل له، ما نأمن؛ لأن غير العاقل لا يمكن أن يحتمل قوله ولا نقضه، ونأخذ «أن لهم عقولاً» من إثبات أنهم تصدر منهم اللعنة.

٣ ـ أن أمثال هؤلاء يلعنهم الناس جميعاً؛ لقوله: ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. لكن هذا فيه إشكال، وهو أنه يوجد من الناس من يُزَمِّر وراء الكافرين، ويصفق وراءهم ويفزع معهم، فكيف قال: ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؟ نقول: لأنه إذا صفق معهم وزمَّر وراءهم فهو منهم، فيكون هو ملعوناً من الناس أجمعين، من الآخرين؛ لأن من أعان ضالاً فهو ضال، ومن أعان كافراً فهو كافر. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

١ ـ إثبات أن هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم، وشهدوا أن الرسول حق، وجاءهم البينات، خالدون في لعنة الله، أي في الطرد والإبعاد عن رحمته. وليس ثمة إلا النار بعد الجنة، وليس بعد الهدى إلا الضلال.

٢ ـ ومن فوائدها أنهم والعياذ بالله دائماً في عذاب، لا يخفف أبداً، ولا ينتظرون الفرج، لا بالتخلص منه، ولا بتخفيفه؛ لقوله: ﴿لَا يُخَفَّفُ﴾ وهذه جملة خبرية، وخبر الله تعالى لا يخلف.

٣ ـ أن هؤلاء يبادرون بالعذاب، فهم يبادرون بالعذاب إما في الدنيا، أو عند الموت، وعند دخول النار. ففي الدنيا قال الله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]. وعند الموت تتوفاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، وفي يوم القيامة حدِّث ولا حرج.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١ ـ أن التوبة تجبُّ ما قبلها؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢ ـ أنه لا بد مع التوبة من الإصلاح؛ لقوله: ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾. وهذا واجب في كل من يتعدى جرمه إلى غيره، أن يقوم بإصلاح ما ترتب على هذا الجرم.

٣ ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: الغفور والرحيم، وإثبات ما تضمناه من الصفة وهي المغفرة والرحمة. ولهذا نقول: كل اسم من أسماء الله فإنه دال على ثلاثة أشياء: على ذات الله، وعلى الصفة، وعلى الأثر الذي يترتب على هذه الصفة. لكن هذا الثالث لا يطرد في كل اسم من أسماء الله؛ لأن الأسماء غير المتعدية لا يدخل فيها إثبات الأثر. فالعلي مثلاً فيه إثبات الاسم، والصفة، والعظيم كذلك، والكبير كذلك، لكن السميع فيه إثبات الاسم والصفة والأثر؛ الاسم: السميع، والصفة: السمع، والأثر: أنه يسمع. ومن هنا نعلم أن كل اسم فلا بد أن

يكون متضمناً لصفة بدون استثناء، وليس كل صفة مستلزمة لاسم. قد يوصف الله بالشيء ولا يسمى بما دلت عليه هذه الصفة. ولهذا نقول: الصفات أوسع من الأسماء، أوسع لأن كل اسم متضمن لصفة، ولا عكس.

٤ ـ الثناء على المصلحين. ويستلزم الإصلاح أن يكون المصلح صالحاً. هذا هو الأصل: أن كل مصلح فهو صالح. وقد يكون المصلح غير صالح. فإن من الناس مثلاً من ينهى عن المنكر وهو يفعله، ويأمر بالمعروف وهو لا يفعله، لكن الغالب أن المصلح حقًّا يكون صالحاً؛ لأنه لا يمكن أن يسعى لإصلاح غيره وهو مضيع لإصلاح نفسه.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ وهؤلاء المرتدون، لأنهم آمنوا أولاً ثم كفروا.

﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا﴾ يعني أنهم صاروا والعياذ بالله ينحدرون في دركات الكفر.

﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ إذا تابوا قبل الموت عند حضور الأجل. فإن توبتهم لن تقبل لقول الله تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]. إذن يكون قوله: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ إذا حضرهم الموت، أما إذا تابوا من قبل فقد سبق أنهم إذا تابوا وأصلحوا فإن الله غفور رحيم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن المرتد إذا بقي على ردته فإنه لا تقبل توبته عند الموت؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾، وهذا لا يكون إلا بالردة.

٢ ـ أنه كلما تمادى الإنسان في الكفر، ولم يتب، فإنه يزداد؛ لأن كل وقت يمر عليه يزداد وزراً إلى وزره، كما أن المؤمن يزداد أيضاً بزيادة الأيام إيماناً؛ لأن كل يوم يمرُّ عليه وهو مؤمن فإنه يضيف إيماناً إلى إيمانه.

٣ ـ أن من تاب قبل أن يحضر أجله فإن الله تعالى يتوب عليه، كما في الآيات السابقة وهي قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾.

٤ ـ أن من استمر على كفره فهو ضال، وذلك لأنه اجتنب طريق الحق. وكل من اجتنب طريق الحق فهو ضال؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢] فالطرق: إما حق، وإما ضلال. فمن لزم الشريعة فهو مع الحق، ومن خالف الشريعة فهو مع الضلالة.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

وهذه المرتبة الثالثة: كفروا وبقوا على الكفر إلى الموت، فهؤلاء قال: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۚ﴾ ولم يقل: فلن تقبل توبتهم؛ لأنهم لم يتوبوا، بل ماتوا على الكفر، فلم يبق أمامهم إلا الفداء، أن يفتدوا أنفسهم بشيء. يعني

لو جاءوا بملءِ الأرض ذهباً، وطلبوا أن يكون فداء لهم، فإن ذلك لن يقبل منهم. وحينئذ تكون هذه الآيات قسمت الكفار الذين ارتدوا إلى ثلاثة أقسام:

قسم تاب وأصلح فتقبل توبتهم.

وقسم تاب عند حضور الأجل فلا تقبل توبتهم.

وقسم ثالث مات على الكفر فلن تقبل فديته، ولا نقول: فلا تقبل توبته؛ لأنه لم يتب. وهذا كالذي في سورة النساء تماماً حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النساء: ١٧] يعني قبل حضور الأجل: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٧، ١٨] هذا القسم الثاني، ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ﴾ [النساء: ١٨] هذا القسم الثالث. فتكون هذه الآيات كالآيات التي في سورة النساء.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المشار إليه من مات على الكفر، ومن لم تقبل توبته، وهو من تاب عند حضور الأجل. ﴿أَلِيمٞۖ﴾ بمعنى مؤلم؛ لأن أليماً تأتي بمعنى الفاعل، وتأتي بمعنى المُفعِل، وتأتي بمعنى المفعول، فعيل تأتي بمعنى فاعل مثل سميع يعني سامع ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] وبمعنى مفعول مثل جريح وكسير، وبمعنى مُفعِل مثل أليم بمعنى مؤلِم، ومنه قول الشاعر:

أمن ريحانة الداع السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يعني ما لهؤلاء أحد

ينصرهم، ويمنع العذاب عنهم، أو يرفعه عنهم؛ لأنهم حقّ عليهم العذاب، ولا يجدون لهم ناصراً.

قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ هل الواو زائدة؟ يعني فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً لو افتدى به؟ أو إن الواو مؤسسة، يعني غير زائدة؟ نقول: الأصل عدم الزيادة، ولا موجب لقولنا إنها زائدة؛ لأن الكلام مستقيم ولو كانت أصلية. والتقدير: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً إذا بذله من غير أن يصرح بأنه افتداء. وقوله: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ يعني ولو صرح بأنه افتداء. والفرق بينهما أنه قد يعطي الأول تزلفاً لا معاوضة، وأما إذا أعطاه ابتداء فهو معاوضة. هذا هو الفرق بينهما، إذن: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ﴾ سواء أعطاه من باب التودد والتحبب، أو أعطاه على أنه فداء ومعاوضة، لن يقبل منه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن من مات على الكفر فلن يقبل منه شيء يمنعه من عذاب الله، ولهذا قال: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾.

٢ ـ أن الأمر يسير على المؤمن؛ لأنه يفتدي من عذاب الله بما هو أقل من ملء الأرض ذهباً. فإذا آمن وقام بالعمل الصالح، وأدى ما يجب عليه من الحقوق المالية نجا من هذا العذاب مع أنه أقل بكثير من ملء الأرض ذهباً.

٣ ـ إثبات العذاب لهؤلاء الكفار؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٤ ـ أن هذا العذاب عذاب شديد مؤلم؛ لقوله: ﴿أَلِيمٌ﴾.

٥ ـ أن هذا الألم ألم بدني، وألم نفسي؛ لأنهم مع العذاب الشديد العظيم على البدن يعذبون عذاباً نفسياً، وذلك بالتوبيخ والإهانة.

٦ ـ أن هؤلاء الكفار الذين ماتوا على الكفر لن يجدوا أحداً ينصرهم، حتى آلهتهم التي يعبدونها من دون الله، تلقى في نار جهنم إهانةً لها، وإذلالاً لها، وإهانة لعابديها، وإذلالاً لهم؛ لأنهم إذا كانوا يتعلقون بهذه الآلهة وألقيت في النار صار هذا أشد عليهم حسرة.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

«لن» تفيد النفي، وتحول الفعل من الحال إلى الاستقبال وتعمل، تغير الفعل ظاهراً وهو النصب، فتغير الفعل شكلاً ومعنى. أما شكلاً فلأنها تنقله من الرفع إلى النصب. وأما معنى فتنقله من الحال إلى الاستقبال. وهناك أيضاً وجه آخر في المعنى وهو أنها تنقله من الإثبات إلى النفي، يقول الله عزّ وجل: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ أي لن تدركوه. والبر في الأصل هو الخير والعطاء. ومنه بر الوالدين، وذلك بالإحسان إليهما. فالبر في الأصل هو الخير والعطاء، ويقرن أحياناً بالتقوى. فإذا قرن بالتقوى صار معناه: فعل الطاعات، والتقوى: اجتناب المحرمات؛ لأن الإنسان يتقيها، ويحذرها، ويبتعد عنها، إذن البر هو الخير الكثير والعطاء، فلن تنالوا ذلك ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ «حتى» هذه للغاية، وهي من أدوات النصب، فالفعل بعدها منصوب.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا﴾، «من» يحتمل أن تكون لبيان الجنس، ويحتمل أن تكون للتبعيض. والفرق بينهما: أننا إذا جعلناها لبيان الجنس شمل المدح مَنْ تصدق بجميع ماله، وإذا جعلناها للتبعيض صار مختصاً بمن تصدق ببعض ماله. ويمكن أن نقول إنها صالحة للأمرين، فأحياناً يكون التصدق ببعض المال أفضل من التصدق بكله، وأحياناً يكون العكس.

وقوله: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي من المال؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، ولكن كلما كان المال أحب كان إنفاقه أقوى إيماناً، وأدل على محبة الإنسان للخير؛ لأن الشيء الذي تكون الرغبة فيه قليلة يسهل على الإنسان أن ينفقه، لكن الشيء الذي تتعلق به النفس كثيراً هو الذي تشح النفس في إنفاقه، فإذا أنفقه الإنسان مع قوة تعلق نفسه به كان ذلك دليلاً على قوة إيمانه؛ لأنه لا يدفع القوي إلا بما هو أقوى منه.

لما نزلت هذه الآية قام أبو طلحة رضي الله عنه، فجاء إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إن الله تعالى أنزل: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب مالي إلي «بيرحاء»، وكانت نخلاً مستقبلة المسجد، يعني قريبة من مسجد النبي ﷺ، وكان فيها ماء عذب طيب، يأتي إليه النبي ﷺ ويشرب منه ويتطهر به، وهذا مما يزيده رغبة أن الرسول ﷺ يأتي إليه ويشرب منه، ويتطهر به، قال: فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ: **«بخ بخ، ذاك مال رابح، ذاك مال رابح»**، ثم قال: **«أرى أن تجعلها في الأقربين»**[1]. فجعلها أبو طلحة في أقاربه،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب من تصدق إلى وكيله ثم رد الوكيل =

في بني عمه، وأقاربه. وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به، يتأول قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. أما نحن فإذا أعجبنا شيء من مالنا جعلناه في الصناديق، واستعملنا الرديء، وتركنا الباقي لورثتنا، فلا يكون لنا، ولكن هكذا الشح ـ نعوذ بالله ـ.

أما الذين يريدون الآخرة فهم يرون أن مالهم هو الذي يقدمونه. ولهذا لما سأل النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه ذات يوم قال: «**أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟**»، قالوا: يا رسول الله، ما منَّا أحد إلا وماله أحب إليه من مال وارثه، قال: «**فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر**»[1]، يعني معناه أنك إذا بخلت بالمال وأبقيته فإنك سوف تذهب عنه وسوف يورث من بعدك. لكن إذا تصدقت به وأمضيته تجده أمامك. ولهذا ينبغي للإنسان أن يتأول هذه الآية ولو مرة واحدة، إذا أعجبه شيء من ماله فليتصدق به لعله ينال هذا البر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾:

يعني أي شيء تنفقونه مما تحبون ومما لا تحبون، من قليل أو كثير، من نفائس الأموال أو صغائرها، فإن الله به عليم. وقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ «من» هذه بيان لـ«ما» وهي نكرة و«ما» اسم شرط، واسم الشرط يدل على العموم، فهو عموم مبين بعموم العموم في «ما» الشرطية والذي بينها «شيء»، وهي أيضاً

= إليه، رقم (٢٦٥٨). ورواه مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين، رقم (٩٩٨).

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما قدم من ماله فهو له، رقم (٦٤٤٢).

عامة؛ لأنها نكرة في سياق الشرط. وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ «الفاء» هذه في جواب الشرط رابطة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾. وقوله: ﴿بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ قدم الجار والمجرور على متعلقه. والمعروف أن تقديم المعمول يفيد الحصر. فهنا نقول: إنه قدم المعمول لفائدتين: الفائدة الأولى: لفظية، وهي مراعاة فواصل الآيات. والفائدة الثانية: معنوية، وهي بيان الاعتناء بهذا المقدم حتى كأن الله تعالى حصر علمه به. فتقديم المعمول هنا يدل على العناية والاهتمام بهذا الشيء الذي قدمه الإنسان لنفسه وأن الله به عليم.

إن الله تعالى لم يذكر هذا العلم إلا لما يترتب عليه من المجازاة. فإن الله إذا علمه لا يمكن أبداً أن يضيعه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] والله تعالى عليم بكل شيء.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ الحث على الإنفاق مما يحبه الإنسان. وفيه أيضاً أن بالإنفاق مما يحب نيل البر الذي يطلبه كل إنسان.

٢ ـ إثبات الأسباب، حيث إن الله أثبت للبر سبباً وهو الإنفاق مما نحب.

٣ ـ أنه كلما أنفق الإنسان مما هو أحب إليه، كان أكثر لبره، وذلك لأن من قواعد الأصول أن ما علّق بوصف فإنه يزداد وينقص بحسب ذلك الوصف.

٤ ـ عموم علم الله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

٥ ـ إثبات الجزاء، وأن كل إنسان سيجازى بعمله، إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر، يؤخذ من قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ لأن المراد من إثبات العلم إثبات ما يترتب عليه.

٦ ـ جواز إنفاق المرء جميع ماله، بناء على أن (مِن) للجنس. وهذه المسألة اختلف فيها العلماء: هل يثاب الإنسان إذا تصدق بجميع ماله ويمدح، أو نقول: الأفضل أن لا تتصدق بجميع المال؛ لأن النبي ﷺ قال: «**إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»[(١)]، فجعل إبقاء المال للورثة لئلا يتكففوا الناس خيراً من أن يحرموا من المال فيتكففوا الناس. وإذا كان هذا بالنسبة للورثة فهو بالنسبة للنفس من باب أولى. ولما نذر أبو لبابة أن يتصدق بجميع ماله قال له النبي ﷺ: «**أمسك عليك بعض مالك**»[(٢)]، فأمره أن يمسك بعض ماله وأن يتصدق بالثلث.

ومن العلماء من قال: بل يمدح الإنسان إذا تصدق بجميع ماله؛ لأن النبي ﷺ لما حثَّ على الصدقة ذات يوم جاء أبو بكر رضي الله عنه بجميع ماله، وجاء عمر بشطر ماله، بنصفه. وأثنى النبي ﷺ على أبي بكر، قال له: «**ماذا تركت لأهلك؟**»، **قال: تركت لهم الله ورسوله**[(٣)]، والصحيح في هذه المسألة أن ذلك

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة، رقم (١٢٩٥). وكذلك رواه في كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي ﷺ: «**اللهم أمض لأصحابي هجرتهم**»، رقم (٣٩٣٦).

(٢) رواه النسائي، كتاب الأيمان والنذور، باب فيمن نذر أن يتصدق بماله، رقم (٣٣١٨).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب الرخصة في ذلك، رقم (١٦٧٨). ورواه =

يختلف، فمن علم من نفسه أنه إذا تصدق بماله لم يخنع لأحد، ولم يذل لأحد، وكان عنده من قوة التوكل على الله والعمل ما يغنيه عن السؤال فهنا يمدح على الصدقة بجميع ماله. وكذلك لو فرض أن الحال تحتاج إلى الصدقة بجميع المال، لكون الناس في ضرورة إلى ذلك، كانت الصدقة بجميع المال أفضل. وأما إذا كان الإنسان يخشى على نفسه أن يتصدق بماله، ويتكفف الناس، فلا يتصدق؛ لأنه لا يمكن أن يفعل شيئاً مستحباً، ويدع شيئاً واجباً؛ لأن إعفاف نفسه وأهله واجب، فكونه يتصدق ثم يسأل الناس، لا شك أن هذا إذلال لنفسه. فالصحيح أن المسألة تختلف باختلاف الأحوال واختلاف الأشخاص.

❁ ❁ ❁

□ قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

قوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾: ﴿كُلُّ﴾: مبتدأ، و﴿كَانَ حِلًّا﴾ الجملة من (كان) واسمها وخبرها في محل رفع خبر المبتدأ.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ مستثنى من كلام تام موجب، إذن يتعين فيه النصب.

وقوله: ﴿فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: جملة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ شرطية، واختلف المعربون في مثل هذا التركيب، هل

= الترمذي، كتاب المناقب، باب رجاؤه ﷺ أن يكون أبو بكر ممن يدعى من جميع أبواب الجنة، رقم (٣٦٧٥).

يحتاج الشرط إلى جواب أو لا؟ فمنهم من قال: لا يحتاج إلى جواب؛ لأن المعلوم عقلاً أو حساً كالمذكور، ومنهم من قال: إن الجواب محذوف يدل عليه ما سبق.

وترتيبه على هذا القول: (فاتلوها إن كنتم صادقين فاتلوها)، فيكون الجواب محذوفاً دلَّ عليه ما قبله، ويحتمل أن يُقال: إن الجواب ما سبق.

وقوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾: الطعام: ما يطعم. فإن قرن بالشراب صار المراد به ما يحتاج إلى مضغ، والشراب ما لا يحتاج إلى مضغ، إذا قيل طعام وشراب. وأما إذا أطلق وقيل طعام صار شاملاً لما يؤكل وما يشرب، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ [البقرة: ٢٤٩] فسمىٰ شرب الماء طعماً أو طعاماً.

﴿كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾:

حلًّا بمعنى حلالاً لبني إسرائيل، سواء كان من النبات، أو من الحيوان، أو من أي شيء كان، يعني أن كل شيء حلال لهم في أول الأمر، وقوله: ﴿لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بنو إسرائيل هم أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وإسرائيل بمعنى عبد الله، وبنو عمهم هم بنو إسماعيل بن إبراهيم، فإسماعيل وإسحاق أخوان أبوهما إبراهيم، ويعقوب هو ابن إسحاق، وقد بشر الله به جدته على لسان الملائكة: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وقوله: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾:

﴿مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ يعني فكان حراماً. إذن فهناك حلال في أول الأمر، وهناك حرام في ثاني الأمر: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

أكثر المفسرين على أن المراد بإسرائيل يعقوب. فهو عَلَمٌ على شخص معين، لا على قبيلة معينة. يعني إلا ما حرم إسرائيل نفسُه على نفسه. وقد حرم شيئاً من الطعام، وأبهمه الله سبحانه وتعالىٰ علينا؛ لأن (ما) اسم موصول، والاسم الموصول مبهم يحتاج إلى بيان ولم يبين، لم يقل الله عزّ وجل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من كذا وكذا، فما حرمه مبهمٌ. وقال بعض أهل العلم: إنه حرم على نفسه أكل الإبل؛ لأنه أصيب بعرق النسا، وهو عرق يمتد من القدم إلى الورك في الرِّجل، ويؤلم كثيراً ويتعب. ولكن هذا من أخبار بني إسرائيل، لا تصدق ولا تكذب. وحينئذٍ لا نجزم بالذي حرم إسرائيل على نفسه، بل نقول هو معلوم عند اليهود، ولكننا لا ندري ما هو؛ لأن الله أبهمه. هذا على القول بأن المراد بإسرائيل علم الشخص، يعني إسرائيل نفسه.

وقيل: المراد بإسرائيل القبيلة كما تقول: قريش، فإن قريشاً كان اسماً لشخص معين، ثم انتقل من اسم الشخص إلى اسم ذريته القبيلة التي تنسب إليه، فيكون المراد بإسرائيل على هذا القول بني إسرائيل. وإلى هذا ذهب صاحب المنار[1]، أن المراد بإسرائيل بنو إسرائيل. وعلى هذا القول الذي حرم بنو إسرائيل على أنفسهم هذا مبين في القرآن: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ

(١) هو الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى.

﴿ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] هذا ما اختاره صاحب المنار، لكن هذا الرأي ضعيف؛ لأن الله فرَّق بين بني إسرائيل وإسرائيل فقال: ﴿حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ﴾ [آل عمران: ٩٣] ولم يقل: إلا ما حرموا على أنفسهم. ثم إنه يرد عليه إشكال آخر، بأن بني إسرائيل لم يحرموا على أنفسهم شيئاً، وإنما حرم عليهم شيء بسبب ظلمهم. والأصل أن الشيء إذا أضيف فهو لما أضيف إليه مباشرة لا تسبباً، فالصحيح أن المراد بإسرائيل علم الشخص. لكن ما الذي حرم؟ هذا الذي نتوقف فيه؛ لأن الله تعالى أبهمه، والواجب أن نبهم ما أبهمه الله، ونقول: إن إسرائيل عليه الصلاة والسلام حرم على نفسه شيئاً أو أشياء ولكن لا نعلمها، حتى يأتينا خبرها عن طريق معصوم.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ معناه أن هذا أمر متقرر من قديم الزمان، وبين إسرائيل وبين نزول التوراة دهور طويلة، وأزمان كثيرة. لكن الله أراد أن يقرر بأن التحريم ـ أي تحريم ما أحل ـ كان سابقاً متقدماً بكثير على التوراة.

وقوله ﴿تُنَزَّلَ﴾ فيها قراءتان: (تُنَزَّل) بتشديد الزاي و(تُنْزَل) بالتخفيف، وكلتا القراءتين سبعيتان، يعني أنه يجوز أن نقرأ بهذه وهذه. والقاعدة في القراءتين أن السنة أن تقرأ بهذه مرة، وبهذه مرة؛ لأن كلتا القراءتين ثبتت عن رسول الله ﷺ، فإذا قرأت بواحدة، وهجرت الأخرى، لم تأت بالسنة كاملة. بل اقرأ بهذا مرة، وهذا مرة، لكن بشرط أن تكون متأكداً من القراءة؛ لأن القرآن كلام الله. فلو قرأت شيئاً لم تتأكد، وكان على خلاف ما

أنزل الله، كنت مفترياً على الله كذباً. الشرط الثاني: أن لا يحصل في ذلك تشويش. فإن حصل في ذلك تشويش، كما لو قرأت بقراءة ثانية عند العامة الذين لا يعرفون إلا ما في مصاحفهم، فإن ذلك حرام، لا يجوز، لأنه يؤدي إلى تشكك العامة، وإلى رميك أنت بالسوء، تقول: هذا الرجل يحرف كلام الله، يقرأ بغير ما أنزل الله، فتكون عرضة لسبِّ الناس، واغتيابهم، فإياك، ورحم الله امرأ كفَّ الغيبة عن نفسه. أما فيما بينك وبين نفسك فاقرأ بها، اقرأ بالقراءة الثانية إذا كنت متقناً لها وعارفاً بها. وكذلك إذا كنت بين طلبة علم، حتى يعرفوا القراءات وينتفعوا بها.

أما بالنسبة للفرق بين «تُنَزَّل» و«تُنْزَل» فلا فرق، لأن التوراة نزلت جملة واحدة، سواء قيل تُنَزَّل أو تُنْزَل أما القرآن فإنه نزل مفرقاً، فإذا جاء «نَزَّلْنا عليك» فالمراد نزوله شيئاً فشيئاً، وإذا قيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] فالمراد: يعني ابتدأنا إنزاله. وإذا قيل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ [النحل: ٤٤] فباعتبار أنه سيكون تاماً، وبتمامه يكون قد نزل كله.

﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾. ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: هي الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى. وقد نزلت التوراة مكتوبة، كتب الله تعالى التوراة في الألواح، فأخذها موسى، وتلاها على الناس، وعلَّمهم إياها، وبقيت التوراة إلى أن جاء محمد ﷺ لكن صار فيها تحريف، كما قال الله تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

هذا من باب التحدي. فالأمر هنا ﴿قُلْ فَأْتُوا﴾ للتحدي وإقامة الحجة على ما ادَّعوه. (ائتوا بالتوراة) يعني هاتوها فاتلوها وانظروا أن ما قلته فهو حق، أي أن الطعام كان حلّاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه، ثم نسخ ما بقي الحل، بل نسخ حل أشياء كثيرة، كما قال عيسى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ﴾: يعني هناك أشياء كثيرة حُرِّمت فأحل لهم عيسى بعض ما حرِّم.

﴿فَٱتْلُوهَآ﴾ أنتم أيضاً لا نحن حتى لا تتهمونا بأننا حذفنا شيئاً وأضفنا شيئاً، اتلوها أنتم بأنفسكم حتى يتبين لكم أن ما جئت به هو الحق.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يعني فيما تدَّعونه من كذب ما جئتُ به، فأتوا بالتوراة فاتلوها. ﴿إِن كُنتُمْ﴾ هذه الشرطية لتمام التحدي، كما أقول لك في الكلام العابر: إن كنت صادقاً فافعل كذا، فهذا من كمال التحدي وتمامه، وكان سبب هذا أن اليهود كانوا ينكرون ما جاء به النبي ﷺ، ويقولون: إنك أحللت شيئاً، وحرَّمتَ شيئاً، والشرائع لا تتبدل، ولا تتغيَّر؛ لأنها من عند الله، ولهذا كانوا يُنكرون النسخ، ويقولون: إن النسخ في أحكام الله مستحيل؛ لأن النسخ إما أن يكون لحكمة أو عبثاً، فإن كان عبثاً فالله منزَّه عنه، وإن كان لحكمة لزم منه أن الله تعالى تظهر له الحكمة بعد أن كانت خافية عليه، وهذا يلزم منه الظهور بعد الجهل، وهو أيضاً مستحيل على الله، ولهذا كذَّبوا عيسى، وكذَّبوا محمداً ﷺ، لأن هذا نسخ، والنسخ على الله مستحيل، لا يمكن أن تنسخ الشرائع، فقيل لهم: هاتوا التوراة، والتوراة

تُثبت وتُقرِّر أن الطعام كان حلّاً لبني إسرائيل - كل ما يُطعم - ثم حرَّم إسرائيل على نفسه أشياء، وبقي هذا التحريم في ذريته حرام عليهم. إذن هذا نسخ لكنه في الحقيقة ليس النسخ الكامل الذي يأخذ الحكم كله، ولكنه نسخ لبعض أفراده، وهو ما يُسمَّى عند بعض الأصوليين بالتخصيص، ويُسمَّى عند السلف بالنسخ.

إذن في هذا إقامة الحجة عليهم بما ادَّعوه من أنه لا يمكن أن تُنسخ الشرائع، وأنكَ يا محمد كاذب، وأن عيسى كاذب. فأراد الله أن يُبيِّن كذبهم من كتبهم.

❁ ❁ ❁

❑ قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٤].

﴿فَمَنِ﴾. (من) عامة، يعني أي إنسان يفتري على الله الكذب، والافتراء معناه: التقوُّل بغير حق، يعني أن تنسب إلى الشخص ما لم يقله، هذا الافتراء.

وقوله: ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ أي: الإخبار بخلاف الواقع؛ لأن الإخبار بالواقع يُسمَّى صدقاً، وبما يخالف الواقع يُسمى كذباً، فمن قال بعد هذا البيان أنه لا يمكن أن تنسخ الشرائع بعضها ببعض فهو ظالم.

يقول الله عز وجل: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: المشار إليه من افترى، و﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: الجملة اسمية، و﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، وليس له محل من الإعراب، وإنما جيء به للفصل بين الخبر والصفة، وقد ذكرنا أنه يُفيد ثلاثة أمور: (التوكيد، والحصر، والفصل بين الخبر

والصفة)، فإذا قُلت: (محمد هو الفاضل) فأنت ترى أن (هو) أكَّدت الجملة، وترى أيضاً أنها حصرت الفضل فيه، ومعلوم أن محمداً ﷺ أفضل الخلق، وثالثاً أنها فرَّقت بين الخبر والصفة؛ لأنه لو قيل: (محمد الفاضل) لاحتُمِل أن يكون (الفاضل) صفة لمحمد، وأن الخبر لم يأتِ بعد فإذا قيل: (هو الفاضل) تعيَّن أن تكون (الفاضل) خبراً.

﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يعني: المتصفين بالظلم، والظلم في الأصل النقص، كما قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: لم تُنقص منه شيئاً، وهو في الحقيقة إما تفريط في واجب، وإما انتهاك لمُحرَّم، وكلاهما نقص؛ لأن المنتهك للمحرَّم، أو المفرِّط في الواجب قد نقَص الأمانة والرعاية؛ لأنه أمين على نفسه، وراعٍ عليها، فإذا أقدم على فعل المحرم، فقد أخلَّ بما يجب عليه من الرعاية، وخان الأمانة. فإذا فرَّط في الواجب فكذلك.

أما قوله: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾:

فهذا جملة شرطية، وجواب الشرط: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ واقترن بالفاء لأنه جملة اسمية، وفيه أن (من) روعي فيها اللفظ والمعنى، وفي الشرط روعي اللفظ، وفي الجواب روعي المعنى. ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: مصوغ للواحد، روعي فيه اللفظ. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ للجماعة، روعي فيه المعنى.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ أن لله تعالى أن يُحلَّ ما يشاء، ويحرم ما يشاء؛ لقوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ

نَفْسِهِۦ﴾ ومعلوم أن الله أقره على ذلك، وهذا تشريع من الله.

٢ ـ الرد على اليهود الذين زعموا أنه لا نسخ في الشرائع.

فإن قال قائلٌ: هم يقولون لا نسخ في الشرائع، ويعللون بعلة تبدو وكأنها صحيحة، يقولون: إن كان لغير حكمة فهو عبثٌ وسفَه منزه الله عنه، وإن كان لحكمة لزم أن تكون هذه الحكمة مجهولة لله في الناسخ أو في المنسوخ، وهذا يستلزم أن يكون الله جاهلاً، ظهر له العلم من بعد أن كان خفيّاً عليه.

وجوابنا عن ذلك: أن نقول: إن النسخ لا يستلزم لا هذا ولا هذا، بل إن النسخ لحكمة، لكن هذه الحكمة تَتْبع مصالح العباد، والعباد مصالحهم تختلف، قد يكون من المصلحة أن يُشرِّع لهم الحل في هذا الزمن، والتحريم في زمن آخر، قد تكون هذه الأمة من المصلحة أن يُشرَّع لها الحل، والأمة الأخرى من المصلحة أن يُشرَّع لها التحريم، فهنا الحكمة لا تتعلق بفعل الله، ولكن تتعلق بالمخلوق الذي شُرِّع له هذا الحكم، وهذا أمر يختلف بلا شك.

فمثلاً: الناس في بدء الإسلام لا يتحملون جميع شرائع الإسلام، ولهذا جاءت الشرائع بالتدريج، بقي النبي عليه الصلاة والسلام عشر سنوات لا يجب على الناس لا صلاة، ولا زكاة، ولا صوم، ولا حج، عشر سنوات بعد البعثة كل هذا لتقرير التوحيد؛ لأن قلوب الناس في ذلك الوقت لا تحتمل أن يُضاف إلى تحقيق التوحيد شيء آخر، ثم شُرعت الصلاة، ثم شُرعت الزكاة، ثم شُرع الصوم، ثم شُرع الحج في آخر الأمر، كل هذا من أجل مراعاة أحوال الناس، وكذلك في الخمر، كان حلاً، ثم

عُرِّض بتحريمه، ثم حرم في أوقات معينة، ثم حرم إلى الأبد، أربع مراحل؛ لأن الناس كانوا قد ألفوه، قال الله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، وهذه الآية في سورة النحل، وقد نزلت في مكة، ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾: العنب والرطب هما مادة الخمر، ثم قال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، والعاقل إذا علم أن إثمهما أكبر من نفعهما يهديه عقله إلى تركهما، ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، إذن نجتنب الخمر وقت الصلاة؛ لأنه إن لم نجتنبه لزم أن نقرب الصلاة ونحن سكارى، وهذا منهي عنه، إذن نجتنب الخمر خمس أوقات في اليوم والليلة، وهذا يُضعف شربها، ثم جاءت آية المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] انتهى. إذن إن ما ادَّعاه اليهود من أن النسخ يستلزم وصف الله بالنقص إما في الحكمة وإما في العلم فهو كذب.

٣ ـ إقامة الحجة على الشخص فيما يعتقد صحته أو مما يعتقد صحته، يعني: أن تُقيم الحجة على خصمك من شيء يؤمن به ويعتقد صحته؛ لأن الله تعالى قال: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، التوراة التي أنتم تُقرون بأن ما فيها حق، ائتوا بها اتلوها، يتبين أن النسخ كان موجوداً فيها، ومن قديم الزمان.

٤ ـ أن التوراة منزلة كالقرآن، وهذا يدل على علو الله جل وعلا، وأنه فوق كل شيء، وهذا هو عقيدة أهل السنة والجماعة،

يقولون: إن الله سبحانه وتعالىٰ ـ نفسه ـ فوق كل شيء، ليس الله فوق كل شيء في القدرة والسلطان والقهر فحسب، بل في هذا وفي نفسه فوق كل شيء.

وجه دلالتها على علو الله: أن التوراة من عند الله، والنازل يكون من أعلى إلى أسفل.

٥ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يُقابل الخصم بشيء يقطع نزاعه بالكُلِّية، حيث قال: ﴿فَأْتُوهَآ﴾ ولم يقل (نتلوها)، قال: ﴿فَأْتُوهَآ﴾ أنتم بأنفسكم، حتى تُقيم الحجة على نفسك من نفسك، لو أنا أخذناها نحن وتلوناها ربما تقول: أسقطت آية، أو زدت آية، فإذا تلوتها أنت بنفسك انقطعت حجتك.

٦ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يتحدَّى خصمه بما تَبِينُ به الحجة على وجه لا مفر له منه؛ لقوله: ﴿فَأْتُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وهكذا ينبغي في المناظرة أن الإنسان لا يأتي بحجة واهية؛ لأنه إذا أتى بحجة واهية، ثم كسِّرت أمامه ضعفت عزيمته وبان خلله، وإذا أتى بحجة لا يمكن أن يلحقها نقص، صار هذا أقوى لعزيمته وأنكى لخصمه، أرأيت محاجة إبراهيم عليه السلام للذي حاجه في ربِّه، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فقال المحاج الخصم: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥]، لكن هل هذه دعوىٰ أو منزلة على شيء معيَّن؟ فيها خلاف، بعضهم قال: إنها دعوى وهو كاذب، لكن فيها إيهام، وبعضهم قال: إنها منزَّلة على شيء معين، وأن قوله: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ﴾ يعني أُوتىٰ بالرجل يستحق القتل، فأرفع القتل عنه فيكون في هذا

إحياء، ﴿وَأُمِيتُ﴾ يعني أُوتى بالشخص البريء فآمر بقتله ويقتل.

لكن إبراهيم عليه السلام لم يجادله مجادلة تحتاج إلى طول منازعة، قال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أي: انقطع، لأنه عاجز عن أن يدَّعي الإتيان بقمر أو بنجم. وهكذا ينبغي أن تكون المخاصمة بحجة دافعة بعيدة عن الأشياء المشتبهة، فإذا أتيت بالشيء المشتبه فقد تكون خاذلاً للحق والحق معك. فلا بد أن تأتي بشيء قوي لا يستطيع الخصم أن يقف أمامه. وقد أكَّد ذلك المعنى كثير من العلماء رحمهم الله، حتى ذكر الحافظ ابن القيم رحمه الله في النونية بأن المطلوب أن تورد الحجة ضد أهل الباطل والبدع بقوة وحزم يضعف الخصم كما يصرخ الفارس بعدوِّه إذا التقى الصفَّان. وتأتي بالحجج الدامغة بقوة وعزيمة، وكل مقام له مقال. ولهذا نبَّه الله على ذلك فقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥]، زد أيضاً: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].. سبحان الله، أنت فوقه والله معك، أين يكون هو؟ لا شك معه الشيطان.

وفي مقام النزاع والمخاصمة بالحق ينبغي للإنسان أن يكون قوي الحجة، وقوي القول، ليس من أجل أن تنتصر لنفسك، ولكن لأجل أن تنتصر للحق.

﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾، إذا أتوا بالتوراة وتلوها وصارت موافقة لما جاء به محمد ﷺ صاروا يقدمون الحجة لك على أنفسهم.

٧ ـ أنه متى ظهر الحق فحاد الإنسان عنه صار أشد ظلماً؛ لقوله: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كأنه لا ظالم سواه، كأنهم هم الذين أخذوا الظلم كله؛ لأنه إذا قامت الحجة لم يبق للإنسان محجَّة، يعني لم يبق له أي طريق يمكن أن يتوصل إليه، أو أن يفر منه.

٨ ـ أن من عباد الله من يفتري الكذب على الله، والذي يفتري الكذب على الله سبحانه وتعالىٰ يفتري الكذب على الرسول ﷺ من باب أولى، والذي يفتري على الرسول ﷺ يفتري على الناس من باب أولى، إذن: إذا افترى عليك إنسان شيئاً فلا تستغرب، افترى الناس على الله الكذب، وافتروا على الرسول الكذب، أفلا يفترون عليك؟.

٩ ـ أنه لا إثم مع الجهل؛ لقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد أن يتبين الحق فهذا هو الظالم، أما من ارتكب محرماً قبل أن يتبين له الحق فإنه لا يلحقه إثم ذلك المحرم، لا في الواجبات ولا في المحرمات، من ارتكب شيئاً بغير علم فإنه لا إثم عليه، ما لم يفرِّط في الواجبات، ولا في المحرمات، ولكن بالنسبة للمحرمات لا يترتب عليه شيء من آثارها أبداً، لا إثم ولا كفارة. فلو أن رجلاً فعل محظوراً من محظورات الإحرام وهو جاهل أنه محظور، فلا شيء عليه، بل لو أن الإنسان جامعَ وهو مُحرم، يظن أنه لا شيء عليه في الجماع، فلا شيء عليه، لا كفارة، ولا فساد حج، ولا غير ذلك.

أما في الواجبات إذا فعل شيئاً محرماً عليه في الواجب، يعني بأن ترك واجباً أو فعل ما يُبطل ذلك الواجب وهو جاهل، فلا

إثم عليه، لكن يجب أن يتدارك هذا الواجب ما دام في وقته، مثال ذلك: رجل جاءنا وقال: إنه صلى صلاة الظهر، ولكنه لم يقرأ الفاتحة، لم يعلم أن الفاتحة واجبة، نقول: لا إثم عليك، مع أنك لو تركت الفاتحة وأنت تعلم أنها واجبة لأثمت بلا شك؛ لأن هذا من اتخاذ آيات الله هزواً، لكن يجب عليه أن يعيد الصلاة؛ لأن ذمته الآن مشغولة بهذه الصلاة.. فلا بد أن يُعيدها. أما الصلوات الماضية، فإنه لا يجب عليه إعادتها، ولو كان قد ترك الفاتحة فيها، لأنه جاهل، ودليل ذلك حديث المسيء في صلاته، حيث قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ**»[1] ولم يأمره بإعادة أو بقضاء ما سبق من الصلوات.

❁ ❁ ❁

□ قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ﴾.

﴿قُلْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، ويحتمل أن يكون الخطاب لكل من يصح توجه الخطاب إليه، أي للرسول ﷺ ولغيره. فعلى القول الثاني: لا إشكال فيه، إذا قلنا: إن كل واحد من الناس يجب عليه أن يصدق الله، فيقول: صدق الله. وعلى القول الأول يكون الخطاب للرسول ﷺ مراداً به الخطاب مباشرة للرسول وللأمة بالتبع؛ لأن الخطاب الموجه لإمام القوم خطاب للجميع،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسياً في اليمين، رقم (٦٦٦٧). ورواه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧).

فإنك لو قلت للقائد مثلاً: اذهب إلى الجبهة الفلانية، وتحته جنود يمشون بأمره، صار هذا الأمر له ولمن كان تابعاً به. والرسول ﷺ قائد الأمة، وإمام الأمة، فإذا وجِّه إليه الخطاب كان موجهاً له ولأمته ما لم يقم دليل على التخصيص.

وقوله: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُۗ﴾ جملة تتضمن الثناء على الله بالصدق. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] فلا أحد أصدق من الله. والصدق مطابقة الخبر للواقع، والكذب مخالفة الخبر للواقع. فإذا قلت: غربت الشمس وقد غربت فعلاً فهذا صدق. وإذا لم تغرب فهذا كذب.

هل يضاف إلى ذلك مع اعتقاد الوقوع، بمعنى أنه لو أن شخصاً أخبر بما يطابق الواقع، ولكنه يعتقد في نفسه أنه كاذب؟ نقول: إن خبره هذا صدق لأنه موافق للواقع، لكن عليه إثم الكاذب إذا كان يعتقد هو أنه كاذب في ذلك. الكذب مخالفة الخبر للواقع، سواء كان موافقاً لاعتقاد المتكلم أو لا، حتى لو اعتقد أنه صدق وقد خالف الواقع فهو كذب. ولهذا نقول: إن اليهود الذين زعموا أنهم صلبوا المسيح ابن مريم عليه السلام، وإن كانوا يعتقدون الصدق، فهم كاذبون. والنصارى الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] هم أيضاً كاذبون، وإن كانوا قد اعتقدوا الصدق. إذن لا يشترط اعتقاد القائل موافقة ما أخبر به للواقع أو مخالفته للواقع. المهم أن هذا الخبر إن وافق الواقع فهو صدق، وإن اعتقد قائله أنه كاذب، وإن خالف الواقع فهو كذب، وإن اعتقد قائله أنه صادق.

﴿صَدَقَ ٱللَّهُۗ﴾ جملة خبرية تتضمن الثناء على الله، وإذا كانت

تتضمن الثناء على الله فهي عبادة. فقول القائل: صدق الله، ثناء على الله بالصدق، لأن كل ثناء على الله فهو ذكر لله وتعبد له. ولم يذكر الخبر الذي حكم عليه بالصدق فيكون ذلك عاماً شاملاً، أي صدق الله في كل شيء، كل ما أخبر الله به فهو صدق، ومن ذلك ما أخبر به مما أحل لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه.

﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾.

﴿فَٱتَّبِعُواْ﴾ الخطاب للأمة، كما أن الله أمر نبيه ﷺ بذلك في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، فالنبي ﷺ مأمور بأن يتبع ملة إبراهيم حنيفاً، وكذلك نحن مأمورون بأن نتبع ملة إبراهيم حنيفاً. والملة هي الشريعة التي يكون عليها الإنسان، فكل شريعة يكون عليها الإنسان فهي ملة؛ فالإسلام ملة، واليهودية ملة، والنصرانية ملة، وقد جاء في الحديث: «**لا يتوارث أهل ملتين شتى**»[(١)]، أي: مفترقتين.

وقوله: ﴿مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾. المراد هنا اتبعوا ملة إبراهيم في التوحيد، وعدم الشرك، ولهذا قال: ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿حَنِيفًا﴾: أي مائلاً عن كل شرك.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: هذه الجملة معطوفة على ما سبق من باب عطف المترادفين، أو المرادف على مرادفه، فالحنيف

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الفرائض، باب هل يرث المسلم الكافر؟ رقم (٢٩١١). وقال الألباني: حسن صحيح. وكذلك رواه الترمذي، كتاب الفرائض، باب لا يتوارث أهل ملتين، رقم (٢١٠٨). وقال عنه الألباني: صحيح.

معناه: المائل عن كل شرك، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تأكيد لذلك. وإذا انتفى الشرك في ملة إبراهيم لزم من ذلك أن يكون مخلصاً في التوحيد، وهو كذلك. ولذلك يسمى إبراهيم عليه الصلاة والسلام إمام الحنفاء. وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ يعني مائلاً عن كل شرك. ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: الذين يدخلون الشرك في عبادتهم. ﴿حَنِيفًا﴾ منصوبة على الحال من إبراهيم، يعني حال كونه حنيفاً، وهي حال لازمة وإلا لما صحَّ أن نؤمر باتباعها.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ وجوب تصديق الله عزّ وجل في كل ما أخبر به؛ لقوله: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ وجوب الإيمان بما أخبر الله به عن نفسه من الأسماء والصفات. وهذا يستلزم تحريم تغييرها عن المراد بها، أي تغيير النصوص التي أخبر الله بها عن نفسه من الأسماء أو الصفات.

٣ ـ وجوب اتباع ملة إبراهيم، لكن في أصل الشرائع. فإن قال قائل: ما الدليل على تقييدكم إياها بأصل الشرائع مع أن الآية عامة؟ قلنا: الدليل قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. فدلَّ ذلك على أن الشرائع تختلف بحسب حاجات الناس ومصالحهم، أما أصلها وهو التوحيد فإن جميع الشرائع تتفق فيه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٤ ـ الثناء على إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأنه حنيف وإمام، ولهذا أمرنا باتباعه.

٥ ـ أنه يجب على الإنسان أن يتبع الحق أينما كان سواء كان من الرسول الذي أرسل إليه مباشرة أو من الرسل السابقين.

٦ ـ انتفاء الشرك عن إبراهيم انتفاءً كاملاً؛ لقوله: ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ويؤخذ من هذا ذم الشرك والنهي عن اتباعه؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده، فإذا أمرنا بالإخلاص فهذا يستلزم أننا منهيون عن الإشراك.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧].

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾:

أي: وضع لعبادة الناس، وليس أول بيت وضع في الأرض، يعني مما يبنى، ولكنه أول بيت وضع للناس للعبادة والتعبد.

﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾:

وهو الكعبة، زاده الله تعالى تشريفاً وتعظيماً (وبكة) اسم من أسماء مكة، وسميت بذلك قالوا: لأنها تَبُكُّ أعناق الجبابرة أي تقطعها. وقيل: لأنه لا يوصل إليها إلا بمشقة وتعب. وقيل غير ذلك. والمهم أن المراد ببكة مكة. وقد ذكرها الله تعالى في هذه السورة بهذا الاسم، وذكرها في سورة الفتح باسم مكة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤] فمكة إذن لها اسمان مذكوران في القرآن، وأما القرية فهي اسم

جامع لمكة وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

يقول عزّ وجل: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾:

مباركاً أي أن فيه البركة. وبركاته متعددة، فمن ذلك:

١ ـ أن مَنْ حَجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه.

٢ ـ ومن ذلك أن الحسنات فيه مضاعفة، ولهذا قال أهل العلم: إن العبادة فيه أفضل من العبادة في غيره، سواءً كانت صلاة، أم صدقة، أم صياماً، أم غير ذلك.

٣ ـ ومن بركاته أيضاً أنه تجبى إليه ثمرات كل شيء. فإن مكة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان.

٤ ـ ومن بركته أيضاً أن فيها ماءً من شربه لأي شيء بنية صادقة فإنه يكون له، وهو ماء زمزم، فقد قال النبي ﷺ: **«ماء زمزم لما شرب له»**[1].

٥ ـ ومن بركته ما يحصل من المكاسب التي تكون فيه في أيام المواسم، وغير أيام المواسم.

٦ ـ ومن بركته أنه بعث فيه محمد ﷺ الذي جعل الله تعالى شريعته أفضل شريعة كانت إلى الخلق.

وقوله: ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾:

هدى أي مناراً يهتدى به؛ لأنه يجتمع فيه المسلمون من

---

(١) رواه ابن ماجه، كتاب المناسك، باب الشرب من زمزم، رقم (٣٠٦٢).
وقال عنه الألباني: صحيح. ورواه الإمام أحمد في مسنده، رقم (١٤٣٢٠).

كل جانب، يأوون إليه من كل فج عميق، فيهتدي الضال منهم بالمهتدي، ويحصل به التعليم والأسوة الحسنة، وكذلك أيضاً هدى للعالمين؛ لأن الأمة الإسلامية كلها تهوي إليه، وتتجه إليه في كل يوم خمس مرات وجوباً، يعني يجب أن نولي وجوهنا كل يوم خمس مرات على الأقل، ولهذا قال: ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

ومن هدايته للعالمين: أن فيه إقامة الحج، وإقامة العمرة وذلك هدى؛ لأن الأمة تزداد إيماناً وهدى بالحج والعمرة.

وقوله: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ المراد بهم الإنس، فهو عام أريد به خاص، وليس المراد بهم من سوى الله. العالمين في بعض المواضع يراد بها من سوى الله، وفي بعض المواضع يراد بها الإنس فقط. وقد يراد بها الإنس والجن مثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وسموا (عالمين) من العلامة؛ لأنهم علم على خالقهم، فإن هؤلاء البشر، بل وهذه المخلوقات كلها تدل على خالقها. ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾:

﴿فِيهِ﴾: الضمير يعود على قوله: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ يعني على البيت الذي بمكة.

﴿ءَايَٰتٌۢ﴾: أي علامات بينات واضحات. هذه الآيات البينات هي ما يشرع فيه من المناسك، والمواضع لهذه المناسك، وهي قائمة لم تزل من عهد إبراهيم إلى يومنا هذا، كلها آيات وعلامات. فعرفة هي عرفة، ومزدلفة هي مزدلفة، ومنى هي منى،

لم تزل بهذا من عهد إبراهيم إلى اليوم. والكعبة هي الكعبة ليس هذا البيت خفياً لا يعلم الناس به، بل لم يزل مشهوراً بيِّناً واضحاً من عهد إبراهيم إلى يومنا هذا.

وقوله: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾:

بدل من آيات أو عطف بيان. ومقام إبراهيم مكان قيامه، فهل المراد بذلك الحجر المسمى بالمقام؟ لقوله ﷺ: «**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**»[1] حين تقدم إليه بعد انتهاء الطواف، أو المراد بالمقام مقامه في المناسك؟.

على قولين لأهل العلم. فمنهم من قال: إن المراد به المقام الخاص، وهو الحجر الذي صار يرتفع عليه حين ارتفع بناء الكعبة. ومنهم من قال: إن المراد به كل مقام قامه في مناسك الحج. وإذا دار الأمر بين العموم والخصوص، فالأولى الأخذ بالعموم؛ لأن الأخذ بالعموم يتناول الخاص ولا عكس. وعلى هذا فيقال: مقام إبراهيم مكان قيامه في مناسك الحج. وهذا المقام موجود من عهد إبراهيم إلى أن بعث الرسول ﷺ، وإلى يومنا هذا، ولم يتغير إلا بحمية الجاهلية، حمية قريش فإنهم غيروا الوقوف بعرفة، وجعلوه في مزدلفة. فغيروا هذا المقام، وقالوا: نحن أهل الحرم، ولا يمكن أن نخرج إلى الحل. والخروج إلى الحل إنما يكون من أهل الحل، ولهذا كانت قريش في يوم عرفة لا تقف بعرفة، تقف في مزدلفة، حتى يأتي الناس إليها. فأمر الله تعالى أن يفيضوا من حيث أفاض الناس، يعني أن

---

(١) رواه أبو داود، في كتاب الحروف والقرآن، رقم (٣٩٦٩)، وقال الألباني: صحيح.

يفيضوا من عرفة. ودلَّ على ذلك حديث جابر رضي الله عنه قال: فأجاز حتى أتى عرفة، قال: **ولم تشك قريش أنه واقف بمزدلفة كما كانت قريش تصنع في الجاهلية**[1]، لكنه ﷺ أجاز حتى أتى عرفة فوقف بها؛ لأنها هي التي كانت على زمن إبراهيم.

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾:

(من دخله) أي: من دخل هذا البيت كان آمناً. والمراد بالضمير في قوله: (من دخله) جميع الحرم. وإن كان ظاهره أن المراد به نفس البناء الذي هو الكعبة، لكن السنة دلَّت على أن الحكم عام في جميع الحرم.

وقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ على قولين لأهل العلم:

فمنهم من قال: إن هذه جملة تابعة لما سبق، أي تابعة لقوله: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾، فتكون من الآيات البينات، وهي أمن من دخله حتى في زمن الجاهلية.

ومن العلماء من قال: إنها جملة مستأنفة. وهي خبرية لفظاً، إنشائية معنى، أي: من دخله فليكن آمناً، ولا يُتعرض له. وعلى كل حال فإن المعنيين يتفقان في وجوب تأمين من دخله؛ لأنه إن كان خبراً عما كان عليه البيت فإنه خبرٌ أقره الله عزّ وجل، وأتى به للاستدلال على الآيات البينات التي في هذا البيت، وإن كان إنشاء فالأمر واضح.

وقوله: ﴿كَانَ ءَامِنًا﴾ يعني آمناً من أبناء جنسه، وليس آمناً من عذاب الله، ولا آمناً مما يريه الله منه. لكنه آمن من بني جنسه

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

حتى لو رأى الإنسان قاتل أبيه في مكة فإنه لا يتعرض له حتى يخرج، هكذا كانت محترمة.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾:

فيها قراءتان (حِج) و(حَج) وهما بمعنى واحد.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ اللام للاستحقاق في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ و﴿عَلَى﴾ للوجوب، أي يجب على الناس حقًّا لله أن يحجوا البيت. وحج البيت أي قصده؛ لأن الحج في اللغة القصد. والمراد به قصده على الوجه الذي شرعه الله، بأن يأتي الإنسان بالمناسك المشروعة.

وقوله: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ﴾:

﴿مَنِ﴾ هذه بدل من الناس، بدل بعض من كل؛ وذلك لأن الناس قسمان: مستطيع، وغير مستطيع. فالمستطيع بعض من الناس. ولهذا قلنا: إن هذا البدل بدل بعض من كل، وبدل البعض من الكل كثير في اللغة العربية، تقول مثلاً: أكلت الرغيف ثلثه، وقال تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ [المزمل: ٢ ـ ٤]. إذا جعلنا نصفه بدلاً من الليل فهو بدل بعض من كل. وقد يبدل الكل من البعض، لكنه قليل في اللغة، ومنه قول الشاعر:

رحم الله أعظماً دفنوها بسجستان طلحة الطلحات[1]

الشاهد هنا قوله: (طلحة) بدل من الأعظم، والأعظم بعض من الإنسان.

---

(١) عبيد الله بن قيس الرقيات في ديوانه.

قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾:

﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ﴾ طريقاً إلى البيت، ووصولاً إليه. والاستطاعة: يعني بذلك القدرة، فمن لم يستطع فلا حج عليه.

فإن قال قائل: هذا الشرط ثابت في كل عبادة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ فلماذا قيَّد وجوب الحج بالاستطاعة مع أنه شرط مفهوم معلوم؟

فالجواب عن ذلك: أنه لما كان الوصول إلى البيت شاقًّا، أشق بكثير من سائر العبادات، نصَّ على اشتراط الاستطاعة، وإلا فلا شك أن كل العبادات لا تجب إلا بالاستطاعة ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، «**فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»[1].

وهل المراد بالاستطاعة الاستطاعة بالمال أو بالبدن أو بهما؟.

نقول: الآية مطلقة، فمن استطاع الوصول ببدنه وجب عليه وإن لم يكن عنده مال، كما لو استطاع أن يمشي إلى مكة ويأتي بأفعال المناسك.

ومن استطاع بماله دون بدنه وجب عليه الحج، لكن عن طريق الاستنابة، ومن كان عنده مال وهو قادر بالبدن، فالحج واجب عليه ولا إشكال.

إذن الاستطاعة لا نقيدها بالبدن أو بالمال، نقول: سواء قدر بماله أو ببدنه أو بهما. فإن عجز بماله وبدنه بأن كان فقيراً،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن الرسول، رقم (٧٢٨٨). ورواه مسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، رقم (١٣٣٧).

ولا يمكنه أن يحج، لضعف في بدنه، فهنا ينتفي عنه الوجوب؛ لأنه غير قادر. إذن القادر هو القادر بماله أو بدنه أو بهما. والقدرة هي القدرة الحسية. أما القدرة الشرعية ففيها خلاف؛ فمنهم من قال إنه يشترط أيضاً القدرة الشرعية، الاستطاعة الشرعية، فلو كان هناك امرأة غنية قادرة ببدنها، لكن ليس لها محرم فإن الحج لا يجب عليها؛ لأنها عاجزة شرعاً عن الحج، لعدم وجود المحرم، وسفر المرأة بلا محرم ولو للحج غير جائز؛ لأن النبي ﷺ لما خطب وقال: **«لا تسافر امرأة إلا مع ذي محرم»** سأله رجل وقال: إن امرأتي خرجت حاجة وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، فقال: **«انطلق فحجَّ مع امرأتك»**[1].

واختلف العلماء في مسألة الاستطاعة الشرعية، هل هي شرط للوجوب أو شرط للأداء؟ ويختلف الحكم باختلاف القولين، فإذا قلنا: إنها شرط للأداء فقط لزم المرأة أن تنيب من يحج عنها إذا كانت قادرة بمالها أو بمالها وبدنها.

وإذا قلنا: إنها ـ أي الاستطاعة الشرعية ـ شرط للوجوب، فإن هذه المرأة لا يلزمها أن تنيب من يحج عنها. هذا فرق. الفرق الثاني: لو ماتت هذه المرأة القادرة بمالها وبدنها على الحج لكن ليس لها محرم، فهل يكون الحج دَيناً في تركتها فيلزم الورثة أن يقيموا من يحج عنها أو لا؟.

إن قلنا بأن الاستطاعة الشرعية شرط للوجوب فإنه لا يلزم

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من اكتتب في جيش فخرجت امرأته حاجة، رقم (٣٠٠٦). ورواه مسلم، كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى الحج وغيره، رقم (١٣٤١).

الورثة أن يقيموا من يحج عنها؛ لأن هذه المرأة كالمرأة الفقيرة سواء، ليس عليها حج.

وإن قلنا إنه شرط للأداء لزم الورثة أن ينيبوا من يحج عنها، أو أن يحجوا هم بأنفسهم عنها.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

يعني أن من حجَّ البيت عند الاستطاعة فقد أدى فريضته، ومن كفر يعني فلم يحج، فكفر هذه الفريضة، ولم يقم بها، فإن الله غني عن العالمين، أي عن كل أحد؛ لأن المراد بالعالمين هنا من سوى الله، فهي كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وقد يطلق العالم على بعض الأفراد مثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، فإن المراد بالعالمين هنا الإنس والجن؛ لأن الرسول ﷺ إنما أرسل إلى الإنس والجن.

فالعالمون تارة يراد بها ما سوى الله، وتارة يراد بها البعض منهم حسب ما يقتضيه السياق والمعنى.

وقوله ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ (مَنْ) هنا يحتمل أن تكون اسماً موصولاً، ويحتمل أن تكون شرطية. أما على كونها شرطية فالفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ رابطة وإنما احتيج إليها لأن جواب الشرط جملة اسمية. وأما على كون (مَنْ) اسماً موصولاً فإنما وقعت الفاء في خبرها؛ لأن الاسم الموصول مُشْبِه للشرط في العموم، فيعطى حكمه، يعني والذين كفروا فإن الله غني عن العالمين.

وفي قوله: ﴿غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إظهار في موضع الإضمار؛

لأن مقتضى السياق أن يقول: ومن كفر فإن الله غني عنه، كما في قوله تعالى في آية أخرى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] فهنا قال: ﴿غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والإظهار في موضع الإضمار ذكرنا أنه يفيد عدة فوائد منها:

١ ـ إرادة العموم؛ لأنه لو قال: فإن الله غني عنه لم تفد في العموم ما أفاده قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

٢ ـ الإشارة إلى أن هذا الذي وضع فيه الظاهر موضع المضمر من هؤلاء العالمين، يعني أن الله غني عنه كما أنه غني عن جميع العالمين.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ أن أول بيت وضع للعبادة هو الكعبة التي في مكة فيكون سابقاً على بيت المقدس، وآخر بيت وضع للعبادة المسجد النبوي. وهذه هي المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**لا تشد الرحالُ** ـ إذا قلنا لا تشُدوا الرحالَ فهي بالفتح، وإن قلنا لا تُشدُ الرحالُ فهي بالضم ـ **إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**»(١).

٢ ـ أن تقدم المكان في العبادة له أثر في تفضيله؛ لقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾. وهذا يراد به التفضيل، ولهذا قال العلماء: إن المسجد الأسبق في إقامة الجماعة فيه

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم (١١٨٩). ورواه مسلم، في كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، رقم (١٣٩٧) .

أفضل من المسجد الحديث. فإذا كان حول الإنسان مسجدان الأول قديم، والآخر جديد، ولم يتميز أحدهما عن الآخر بفضيلة أخرى، فإن القديم أفضل من الجديد لسبقه من العبادة فيه.

٣ ـ الرد على بني إسرائيل وهو أن محمداً ﷺ بعث من البلد الذي فيه أول مسجد وضع للناس، وأنبياء بني إسرائيل بعثوا في بيت المقدس. فيكون في هذا رد على اليهود الذين يقدسون بيت المقدس، وكذلك النصارى الذين يقدسونه، فقيل لهم: إن الكعبة التي بعث منها الرسول ﷺ أفضل من بيت المقدس.

٤ ـ أن هذا البيت هدى للعالمين، يعني أن الناس يهتدون به بما يقيمونه من الشعائر، أو يهتدون به حيث يتوجهون إليه في صلواتهم.

٥ ـ فضيلة هذا البيت بكونه أول بيت وضع للناس.

٦ ـ أن الكعبة معظمة عند جميع الخلق؛ لأنه إذا كان أول بيت وضع للناس فسوف يعظمه الناس. ولهذا ذهب كثير من أهل العلم إلى أن القبلة هي الكعبة لليهود والنصارى والمسلمين وجميع أهل الأديان، كما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. ولكن اليهود صاروا يتجهون إلى بيت المقدس، والنصارى صاروا يتجهون إلى المشرق، وهو من جملة ما حرفوه من دينهم، وإلا فالأصل أن الكعبة قبلة لجميع الناس.

٧ ـ أن الناس لا بد لهم من بيت يجتمعون عليه، وتهوي قلوبهم إليه، ولهذا وضع الله لهم ما كان بمكة.

٨ ـ أن من أسماء مكة (بكة). ولها أسماء عديدة أكثر من هذا. ومن أراد الإطلاع عليها فليرجع إلى (الجامع اللطيف في

فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف) لابن ظهيرة، أو يرجع إلى (أخبار مكة) للأزرقي.

٩ ـ أن هذا البيت مبارك؛ مبارك قَدَراً، ومبارك شرعاً، وقد مرَّ علينا في التفسير بيان وجوه بركته.

١٠ ـ أنه هدى ومنار للعالمين، يهتدون به، ويهتدون إليه، ويؤمونه في عباداتهم. وقد جاء في الحديث: «**البيت الحرام قبلتكم أحياءً وأمواتاً**»[(١)].

١١ ـ أن في هذا البيت آيات بينات ظاهرة لكل أحد، منها ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾، ومنها أن من دخله كان آمناً، ومنها فريضة حجه على جميع الناس. فإن هذه كلها آيات تدل على أن هذا البيت أشرف البيوت كما أنه أول بيت وضع للناس.

١٢ ـ أن الآيات كما تكون شرعية، تكون كذلك حسية كونية، كما في هذه الآيات التي ذكرت للبيت العتيق.

١٣ ـ التنويه بفضل إبراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾، لأن القول الراجح أنه ليس المراد بمقامه الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء الكعبة فحسب، بل كل مقاماته في مكة وما حولها من المناسك.

١٤ ـ وجوب تأمين من دخل المسجد الحرام؛ لقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾. **وقد حرم النبي عليه الصلاة والسلام أن يسفك في مكة دم، وأن يقطع فيها شجرة، وأن ينفر صيدها**[(٢)] فضلاً عن

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الوصايا، باب ما جاء في التشديد في أكل مال اليتيم، رقم (٢٨٧٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب جزاء الصيد، باب لا يحل القتال بمكة، رقم (١٨٣٤). =

قتله، إذا رأيت الصيد في مكة على شجرة، أو في فرجة، فإنه لا يجوز لك أن تنفره منها؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**لا ينفر**» كل ذلك من باب توطيد الأمن في مكة.

فإن قال قائل: ما تقولون في قتال النبي ﷺ لأهل مكة؟.

فالجواب: أن قتال الرسول ﷺ لأهل مكة من أجل توطيد أمنها؛ لأن أهل مكة صاروا يتحكمون في البيت، ولهذا منعوا الرسول عليه الصلاة والسلام من أداء العمرة في غزوة الحديبية، فكان في هذا الإحلال الذي أحله الله لرسوله ﷺ في ذلك النهار مصلحة لتوطيد الأمن في البيت، وحمايته من الظلمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وأيضاً فإن هذا الإحلال ليس إحلالاً مطلقاً، بل هو إحلال مقيد، كان ساعة من نهار، كما قال النبي ﷺ: «**إنما أحلت لي ساعة من نهار وإنها لن تحل لأحد بعدي**»[1]، فقد كان القتال فيها محرماً ثم أحل، ثم عاد تحريمه إلى يوم القيامة.

١٥ ـ أن حرمة المسلم أعظم من حرمة البيت. فالذين ينتهكون دماء المسلمين وأموال المسلمين أشد من الذين ينتهكون حرمة البيت عند الله؛ لأن حرمة المسلم أعظم عند الله تعالى. ودليل ذلك أن القتال في مكة محرم ولكن الله قال: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ﴾ [البقرة: ١٩١]، فلما أرادوا سفك دماء المسلمين، وقاتلوا

= ورواه مسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٣).

(١) تقدم تخريجه في الحديث السابق.

المسلمين، أمر الله بقتلهم مع أن في قتلهم انتهاكاً لأمن البيت. لكن لما أرادوا الاعتداء على حرمة المسلم أبيحت دماؤهم. ولهذا نجد الآيات الكريمة على القراءة المشهورة (فاقتلوهم) ولم يقل: (فقاتلوهم) وإن كان فيها قراءة (فقاتلوهم). لكن المراد قاتلوهم حتى تقتلوهم، والقتل أبلغ من المقاتلة، اقتلوهم لأنهم هم الذين انتهكوا حرمة البيت فلم يبق لهم حرمة.

١٦ ـ وجوب حج البيت على من استطاع إليه سبيلاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ووجه الوجوب أن (على) كما قال الأصوليون ظاهرة في الوجوب.

١٧ ـ أن الحج لا يجب على غير المستطيع؛ لقوله: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. والاستطاعة تكون بالمال أو البدن، أو بهما جميعاً.

١٨ ـ بيان رحمة الله عزّ وجل حيث لم يفرض على عباده ما كان شاقاً عليهم ولا يستطيعونه؛ لقوله: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

١٩ ـ أن من لم يحج فهو كافر؛ لقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. واختلف العلماء رحمهم الله في هذا الكفر، هل هو نوع من الكفر، أو هو الكفر المطلق؟ على قولين لأهل العلم، وهما روايتان عن الإمام أحمد:

الأولى: فعلى القول بأنه الكفر المطلق، يكون من ترك الحج وهو مستطيع مرتداً خارجاً عن الإسلام، يستتاب، فإن تاب وإلا قتل.

الثانية: وعلى القول الثاني، أن المراد بالكفر هنا نوع منه، فإنه

لا يكفر. وهذا القول هو الذي عليه جمهور أهل العلم، وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد، وهو ظاهر ما روي عن الصحابة. قال عبد الله بن شقيق: كان أصحاب النبي ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة[١]، وعلى هذا فيكون الكفر هنا نوعاً من الكفر، كقوله ﷺ: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»[٢]، مع أن قتال المسلم لا يُخرج من الإيمان، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

٢٠ ـ بيان غنى الله عزّ وجل عن كل أحد. فهو لم يأمر عباده بالعبادة من أجل أن ينتفع بها، كما جاء في الحديث القدسي، حديث أبي ذر الغفاري الطويل: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي، إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني**»[٣]. فالله عزّ وجل غني عنا، إنما أمرنا ونهانا لتستقيم أمورنا، وتصلح أحوالنا، ونسعد في الدنيا والآخرة. أما لو كنا على أفجر قلب رجل من الناس فإن ذلك لا يضر الله شيئاً، لكن لما كان بنو آدم قد أعطوا من

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم (٢٦٢٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم (٤٨). ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»، رقم (٦٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

العقل ما استحقوا به أن توجه إليهم التكاليف بالأمر والنهي، صاروا أهلاً للأمر والنهي، ولهذا لا يوجه الأمر والنهي إلى البهائم؛ لأنها لم تعط عقولاً، فكان إعطاء العقل لبني آدم معناه أو مقتضاه إلزامهم بالتكاليف، حتى ينالوا السعادة في الدنيا والآخرة، أما البهائم فآخر أمرها أن تكون تراباً، تبعث يوم القيامة، ويقتص من بعضها لبعض، ثم يقال: كوني تراباً فتكون تراباً.

٢١ ـ أنه إذا كان الله غنياً عن العالمين، لزم أن يكون العالمون مفتقرين إليه، وليس بهم غنى عن الله. وهو كذلك، فإن الخلق مفتقرون إلى الله تعالى غاية الافتقار، ولهذا ينبغي لك أن تسأل ربك بلسان الحال أو لسان المقال، في كل أمورك، واستعن بالله في كل أمورك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] لا يغفل عن بالك تعلقك بالله سبحانه وتعالىٰ في كل شيء، وقد جاء في الحديث: «**ليسأل أحدكم ربَّه حاجته كلها حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع**»[1]، أي شراك النعل الزهيد الذي لا يساوي شيئاً، لا تغفل عن سؤال الله إياه، إما بلسان الحال، وإما بلسان المقال.

❁ ❁ ❁

□ قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨].

هنا أمر الله رسوله ﷺ أن يوبخ هؤلاء الذين من أهل

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب ليسأل الحاجة مهما صغرت، رقم (٣٩٧٣، ٣٩٧٤).

الكتاب، وفي آية سبقت كان الخطاب من الله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠] وهنا أَمْرٌ من الله للرسول ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ «لِمَ»: الاستفهام هنا للتوبيخ، واللام حرف جر، و(ما) استفهامية، لكن حذفت ألفها لأن (ما) الاستفهامية إذا دخل عليها حرف الجر حذفت ألفها مثل: (لِمَ، عَمَّ، فيمَ، علامَ) وما أشبه ذلك.

يقول الله عزّ وجل: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تكفرون؛ أي تجحدونها، وتتغافلون عنها، وتتعامون عنها. والمراد بالآيات هنا الكونية والشرعية، الكفر بالآيات الكونية يتضمن ثلاثة أمور:

الأول: أن ينكر أن الله خلقها.

الثاني: أن يعتقد أن لله تعالى شريكاً في إيجادها.

الثالث: أن يعتقد أن لله معيناً فيها.

أما الكفر بالآيات الشرعية فيتضمن أمرين:

الأول: تكذيبها، بأن يكذب بأنها من عند الله، أو يكذب بأخبارها، والتكذيب إما أن يكون في أصلها بأن يقول: هذه لم تنزل من عند الله، أو يكذب أخبارها، أي خبر فيها إذا كذبه فهو تكذيب بالجميع؛ لأنه لا يمكن أن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض.

الثاني: مخالفتها، ثم إن كانت مخالفة تامة فهو كفر أكبر، وإن كانت غير تامة فهو كفر أصغر. وهو ما يعبر عنه بكفر دون كفر أو بالفسوق.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾، شهيد: أي شاهد. وأتى

بصيغة المبالغة أو بالصفة المشبهة؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ شهيد على أعمالهم. وأعمالهم كثيرة، وإذا كثُر المشهود عليه كثرت الشهادة.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ يحتمل أنه داخل في ضمن التوبيخ في قوله: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ﴾ فيكون المعنى: لم تكفرون بآيات الله مع علمكم بأن الله شهيد على ما تعملون. ويحتمل أن تكون الواو للاستئناف، ويكونُ التوبيخ انتهى عند قوله: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ﴾، ثم استأنف فقال: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ فيكون في ذلك تهديد لهؤلاء الذين يكفرون بآيات الله، تهديدٌ بكون الله شهيداً على ما يعملون. وإذا كان شهيداً على ما يعملون فسوف يجازيهم عليه في الدنيا وفي الآخرة بما يستحقون.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أمر النبي ﷺ أن يوبخ أهل الكتاب على كفرهم بآيات الله، ويتعدى هذا الحكم إلى غيرهم، فيتفرع من هذه الفائدة أن كل من كفر بآيات الله فهو مستحق للتوبيخ.

٢ ـ إثبات شهادة الله سبحانه وتعالىٰ على كل ما يعمل بنو آدم؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾: و(ما) اسم موصول يفيد العموم.

٣ ـ تهديد من يكفر بآيات الله؛ لأن مثل هذه الصيغة: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ يراد بها توبيخ من فعل ما لا يرضي الله عزّ وجل بأن الله شهيد عليه، وسوف يحصي عمله ثم يجازيه على ذلك.

٤ ـ إحاطة الله تعالى بكل شيء، وأنه وسع كل شيء؛

لقوله: ﴿عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ فمن يحصي بني آدم من أهل الكتاب وغيرهم؟ ومن يحصي أعمالهم؟ الله عزّ وجل، واسع عليم، يحصي كل شيء، ولا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم.

وربما يستفاد من هذه الآية من قوله: ﴿شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ أنه لا يحاسب العبد على ما حدّث به نفسه، كما صحَّ ذلك عن رسول الله ﷺ في قوله: «**إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم**»(١).

فحديث النفس ـ أي الوساوس التي تكون في الصدر ـ لا يؤاخذ عليها الإنسان إلا إذا عمل، وركن إليها، واعتقدها، وجعلها من أعمال القلب. فحينئذٍ يحاسب عليها، وكذلك إذا نطق بها لسانه، أو عمل بمقتضاها بجوارحه، فحينئذٍ يحاسب عليها.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩].

هذا أمر آخر للنبي ﷺ من ربِّه أن يوبخ أهل الكتاب على عدوانهم على غيرهم؛ لأن التوبيخ الأول: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٩٨] توبيخ على عملهم القاصر عليهم، والثاني: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ توبيخ على عدوانهم على الغير حيث يصدون عن سبيل الله.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والإكراه، رقم (٥٢٦٩). ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر، رقم (١٢٧).

قال: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني لأي شيء وبأي حجة تصدون؟ أي تصرفون ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي عن دينه وشريعته، وسمي الدين سبيلاً لله لأنه موصل إليه، وأضيف إلى الله لوجهين:

الوجه الأول: أن الله هو الذي وضعه سبيلاً للخلق يمشون عليه.

الوجه الثاني: أنه موصل إلى الله، فمن سلك السبيل الذي وضعه الله للعباد فسيصل إلى الله عزّ وجل. فالمراد بسبيل الله دينه؛ لأنه الطريق الموصل إليه.

وقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾.

﴿مَنْ﴾ مفعول تصدون، يعني تصرفون الذي آمن عن سبيل الله، وهذا شأن بني إسرائيل من اليهود والنصارى، يصدون عن سبيل الله من آمن. وإنما ذكر مَنْ آمن مع أنهم يصدون من آمن حتى يرتد عن إيمانه، ويصدون مَنْ لم يؤمن حتى لا يدخل في الإيمان؛ لأن صدَّ من آمن أشد عدواناً من صدِّ من لم يؤمن؛ لأن من آمن يصدونه ليكون مرتداً، ومن لم يؤمن يصدونه عن سبيل الله من أجل أن يبقى على كفره. والبقاء على الكفر أهون من الردة كما هو ظاهر. وقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ يشمل الرجال والنساء، ولكن خطابات القرآن غالبها للرجال؛ لأن الرجل هو الأصل، وهو الأمير على المرأة: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤].

﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾:

﴿تَبْغُونَهَا﴾ الجملة حال من الواو في قوله: ﴿تَصُدُّونَ﴾، يعني حال كونكم تبغون سبيل الله، أي تطلبونها ﴿عِوَجًا﴾ أي

لأجل العوج، فتكون مفعولاً من أجله، ويجوز أن تكون مفعولاً به، أي تطلبونها عوجاً أي تصيرونها عِوَجاً. والعوج ضد المستقيم. ويقال عِوَج في المعاني، وعَوَج في الأعيان. فتقول مثلاً: هذه العصا عَوَج؛ لأنه عين. وتقول: هذا القول عِوَج؛ لأنه معنى، ففي المعاني بكسر العين، وفي المحسوسات بفتحها. وأصل العوج: الميل، وضده الاستقامة. والعوج عن شريعة الله يشمل معنيين: المعنى الأول: في الأوامر، والثاني: في النواهي. أما في الأوامر فاعوجاجها إما بالتهاون بها والتفريط، وإما بالإفراط فيها والغلو، فالناس بالنسبة لأوامر الله ثلاثة أقسام: قسم وسط، وقسم مُفرِّط، وقسم مُفرِط، يعني غالٍ متجاوز للحد. فالوسط هو المستقيم. والمفرط عَوج، والزائد عَوج أيضاً. هذا في الأوامر. أما في النواهي فالعوج هو انتهاكها وارتكابها، هذا عوج؛ لأن الصراط المستقيم في النواهي أن تدعها، وأن تتجاوزها. فإذا أنت فعلتها وانتهكتها فهذا هو العوج فيها. فهؤلاء اليهود والنصارى، أهل الكتاب، يريدون من الناس العوج في الأوامر وفي النواهي، في الأوامر بالتفريط، والتهاون، أو بالغلو والإفراط. وفي النواهي بانتهاكها، والتهاون بها.

﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ الواو هذه للحال. يعني والحال أنكم شهداء على ما تفعلون. فأنتم تعلمون أنكم بفعلكم هذا تصدون عن سبيل الله. تعلمون هذا وتشهدون به. ووجه ذلك أنه يوجد في كتبهم أن محمدَ بن عبد الله ﷺ سوف يُبعث، وأنه رسول الله، وأنه الذي بشَّر به عيسى، لكنهم يحرفون الكلم عن مواضعه من أجل صدِّ الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ. فصاروا

يصدون عن سبيل الله وهم شهداء، يشهدون بالحق. لكن والعياذ بالله استكبروا عنه، وأنتم شهداء على أنكم تصدون عن سبيل الله؛ لأنكم تعلمون أن ما جاء به محمد ﷺ هو سبيل الله.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، نفَى الله أن يكون غافلاً عن عملهم القليل والكثير. وهنا نجد أن هذه الصفة من الصفات السلبية؛ لأن صفات الله قسمان: ثبوتية، وسلبية؛ يعني شيء ثابت لله، وشيء منفي عنه. فهنا الصفة سلبية. الذي نفي عن الله: الغفلة. والقاعدة عند أهل السنة: أن الصفات السلبية تتضمن شيئين:

الأول: انتفاء هذه الصفة التي نفاها الله عن نفسه.

والثاني: ثبوت الكمال في ضدها؛ لأنها ما نفيت عنه إلا لأنه كامل، فيكون قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ متضمناً لنفي الغفلة عن الله، والثاني ثبوت كمال المراقبة؛ لأن من كان كامل المراقبة فإنه ليس عنده غفلة، فتكون هذه الآية مثبتة لله تعالى كمال المراقبة كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب: ٥٢] وانتفاء الغفلة عنه.

والجملة تفيد التهديد لهؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله من آمن ويبغونها عوجاً.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أمر رسول الله ﷺ أن يوبخ أهل الكتاب على عدوانهم على الغير، وذلك بالصدِّ عن سبيل الله.

٢ ـ أن من صدَّ عن سبيل الله من المسلمين ففيه شبه من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) فإذا وجد أحد يثبطك عن فعل

الخير أو يرغبك في فعل الشر، ففيه شبه من اليهود والنصارى؛ لأن هذا سبيلهم.

٣ ـ إثبات أن الشياطين ليست شياطين الجن فقط، فكما أن للجن شياطين يصدون عن سبيل الله، ففي الإنس أيضاً شياطين يصدون عن سبيل الله، وإلى هذا يقول الله تبارك وتعالى في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

٤ ـ الحث على لزوم الشرع؛ لأنه سبيل الله، وكل إنسان عاقل فإنه يسعى إلى الوصول إلى الله عزّ وجل؛ لأنه غاية المطالب، ولا وصول إلى الله إلا بسلوك شرعه وسبيله الذي يوصل إليه.

٥ ـ أن من صدَّ عن سبيل الله من آمن به فإنه في غاية ما يكون من العدوان، وهو أعظم ممن صدَّ عن سبيل الله من لم يؤمن؛ لأن هذا منع، والأول رفع. والرفع أشد، رفع الخير أشد عقوبة من منعه، وأشد جناية.

٦ ـ ومن فوائد هذه الآية سوء القصد من أهل الكتاب، حيث يبغون أن تكون سبيل الله عوجاً.

وهذا الوصف لأهل الكتاب لا يزال منطبقاً عليهم إلى اليوم، فللنصارى دعاة يُنَصِّرون الناس ويسعون بكل جهدهم إلى أن يصدوا عن سبيل الله من آمن؛ لأنهم يريدون أن يسلك الناس السبيل العَوَج، لا يريدون أن يسلكوا السبيل السوي، وما زالوا إلى اليوم، ولهم إذاعات خاصة تدعو الناس إلى النصرانية، والعياذ بالله، النصرانية الباطلة التي يحاربها عيسى عليه الصلاة

والسلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧] فهم الآن يَدَّعون أن دين عيسىٰ عليه الصلاة والسلام القولُ بالتثليث، ويقولون: إن الله ثالث ثلاثة، ثم يضحكون على أنفسهم وعلى الناس، ويقولون: إنه ثلاثة في واحد، فهل هذا معقول؟!

لكن هذا من ضلال النصارى؛ لأن النصارى ضالون. حتى الأمور العقلية لا يهتدون إليها فكيف يكون ثلاثة في واحد؟! هذا لا يمكن.

على كل حال: هم يريدون أن يضلوا الناس منذ عهد الرسول ﷺ وإلى يومنا هذا. ومن ثَمَّ يجب على المسلمين الحذر منهم، والتشهير بهم، حتى ينفر الناس منهم، وأن يقابلوا دعوتهم الإلحادية الكفرية بدعوة التوحيد والإخلاص.

والتوحيد والإخلاص موافقان للفطرة السليمة، لو وجد من يعرضهما عرضاً حقيقياً شيِّقاً. لكن ـ مع الأسف ـ أن المسلمين في غفلة، فالمسلمون الذين هم على الحق لا تجد منهم الدعاة الذين يدعون إلى الحق إلا قليلاً في بلادهم، أما أولئك النصارى المنصِّرون، فإنهم يجوبون مشارق الأرض ومغاربها، ويغرون الناس بالمال، وبحسن الخلق، حتى ينخدع الناس بهم.

٧ ـ أن أهل الكتاب الذين يصدون عن سبيل الله يعلمون

أنهم على باطل، وأن الحق في خلافهم؛ لقوله: ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ لكن الذي يمنعهم هو الاستكبار.

٨ ـ إثبات إحاطة الله سبحانه وتعالىٰ بكل شيء علماً ورقابة؛ لقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٩ ـ أن من صفات الله ما هو سلبي أي منفي، وهذا كثير في القرآن، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٥٦٥].

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

أولاً: هذا الحكم مصدر بالنداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ﴾ وتصدير الحكم بالنداء يدل على الاهتمام به، والعناية به، وذلك لأن النداء يتضمن تنبيه المخاطب، والتنبيه لا يكون إلا لأمر هام تجب العناية به. ثم صار النداء موجهاً للذين آمنوا من باب الإغراء لقبول ما يأتي تصديقاً به إن كان خبراً، وامتثالاً له إن كان طلباً أمراً ونهياً، لأن وصفهم بالإيمان يقتضي أن يقوموا بمقتضى هذا الخطاب الموجه لهم. كما لو قلت لشخص: يا رجل افعل كذا، يعني أن مقتضى رجولتك أن تفعل هذا. فإذا قلت: يا مؤمن افعل هذا، فالمعنى أنه من مقتضى إيمانك أن تفعل هذا، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ﴾ يعني من مقتضى إيمانكم أن تنتبهوا لما سيلقى عليكم. ولهذا قال ابن مسعود[1] رضي الله عنه: إذا

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه ١/ ٢١١، وابن أبي حاتم في تفسيره ١/ ١٩٦، وابن كثير في تفسيره ١/ ٦١.

سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأرعها سمعك، فإما خير تُؤمر به، وإما شر تُنهى عنه. ثم إن الخطاب بوصف الإيمان يقتضي أن امتثال ذلك من مقتضيات الإيمان، ويقتضي أيضاً أن مخالفته نقص في الإيمان؛ لأن المؤمن يقتضي إيمانُه أن يقوم بما أمر به، وأن يدع ما نهي عنه. فالخلاصة أنه يقتضي أموراً:

الأمر الأول: إذا صدر الخطاب بالنداء فهو دليل على الاعتناء به، وأهميته.

الأمر الثاني: اختيار النداء بوصف الإيمان موجب.

الأمر الثالث: اختيار وصف الإيمان.

الأمر الرابع: الإعراض عنه ورفضه من منقصات الإيمان.

الامتثال إن كان أمراً، والاجتناب إن كان نهياً، والتصديق إن كان خبراً من مقتضيات الإيمان.

يقول الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

﴿فَرِيقًا﴾ يعني طائفة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهم اليهود والنصارى، فالكتاب لليهود هو التوراة، والكتاب للنصارى هو الإنجيل، وقوله: ﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني لا جميعهم؛ لأن بعض أهل الكتاب ليسوا على هذا الوصف، فإن منهم من آمن. فآمن من النصارى النجاشي، وآمن من اليهود عبد الله بن سلام. وهؤلاء من خيار المؤمنين، لكن فريقاً منهم يقول عنهم: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ يعني يوجبوا لكم أن ترتدوا بعد الإيمان، سواء كان ذلك بالقتال فيما بينكم، كما يذكر أن رجلاً من اليهود وشىٰ بين الأوس والخزرج، وذكَّرهم أيام الجاهلية،

فثاروا، أي ثار بعضهم على بعض، وغضبوا، وقد يكون هذا السبب أو هذا المعنى الذي ذكر ضعيفاً، لكن مهما كان الأمر فإن أهل الكتاب يريدون منا أن نرتد عن الإيمان. وقد صرح الله بذلك في آيات أُخَر: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]، ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٩].

فأهل الكتاب يودون هذا. وتعلمون أن من ودَّ شيئاً سعى في تحصيله. إذن فنحن نعلم أن أهل الكتاب يسعون بكل ما يستطيعون أن يردوا المسلمين عن دينهم، سواء منعوا الناس عن الدخول في دين الإسلام، أو أخرجوهم من دين الإسلام بعد دخولهم فيه. وسيأتي إن شاء الله الكلام على هذا مطولاً في ذكر الفوائد.

قوله: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾:

والردَّة بعد الإيمان أعظم من منع الإيمان من أصله؛ لأنها إخراج من الإيمان إلى الكفر، ومن المعلوم أن الإنسان لن يخرج من الإيمان إلى الكفر إلا بمحاولات شديدة، إذ إن إبعاد من لم يدخل في الشيء أهون ممن دخل فيه، وآمن به، ولهذا قال: ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

وقوله: ﴿كَٰفِرِينَ﴾ المراد به: الكفر المخرج عن الملة، لكنهم قد لا يستطيعون أن يُخرجونا من الإيمان بالكلية، لكن بالتدريج مما يُلقونه أمامنا من معوِّقات كمال الإيمان، حتى ينحل الإيمان شيئاً فشيئاً، ولا يبقى في القلوب شيء، وحينئذٍ يكون الكفر المحض.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

(كيف) استفهامية، لكن تحتمل وجهين:

الوجه الأول: الاستبعاد.

الوجه الثاني: التعجب.

فإذا نظرنا إلى حالهم أنهم تُتلى عليهم آيات الله وفيهم رسوله، قلنا: إن ارتدادهم بعيد عن أن يرتدُّوا على أدبارهم وهم يتلى عليهم كتاب الله وفيهم رسوله، ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ يُشاهدون النبي ﷺ، مساءً وصباحاً، ويسمعون الآيات التي تُنزَّل عليه، فردَّتهم بعيدة، ولهذا لم تكن الردة إلا بعد موت الرسول عليه الصلاة والسلام. والردَّة في حياته قليلة جدًّا.

والوجه الثاني: أن تكون للتعجب، فيكون هذا تعجباً من حال من يمكن أن يرتد، فإن الذي يرتد وهو تُتلى عليه آيات الله ويشاهد رسوله، لا شك أن حاله عجيبة؛ لأن الإنسان لو ارتد وهو لم يُشاهد الرسول ﷺ، ولم يسمع الآيات تنزل يوماً فيوماً، لكان له شيءٌ من العذر، ولكن في الحال التي يسمع فيها آيات الله، ويُشاهد فيها الرسول ﷺ، ليس له عذر إطلاقاً، فيكون الاستفهام للتعجب. يعني: ما أعجب حالكم لو كفرتم.

إذن يكون في الآية على الوجهين تأييس للذين أوتوا الكتاب أن ينالوا مرادهم من المؤمنين بمحاولة ردتهم.

الأول: على الاستبعاد يعني: مهما حاولوا لا يمكن. وعلى الوجه الثاني: يكون توبيخاً لمن حاولوا أن يرتدوا كيف تفعلون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله؟

قال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾.

﴿تُتْلَىٰ﴾: أي تُقرأ عليكم، والتلاوة تأتي بمعنى القراءة، أي: تقرأ عليكم، وإذا وقعت من الفاعل فقيل (تلا) صار لها معنيان:

المعنى الأول: القراءة.

والمعنى الثاني: الاتباع.

ففي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١]، يتلونه يعني يقرؤونه، ويتَّبعونه، فهنا تُتلى عليهم آيات الله، أي تُقرأ.. والذي يقرؤها عليهم رسول الله ﷺ، السند: رسول الله ﷺ، عن جبريل عن الله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤] فهم يُتلى عليهم بواسطة الرسول ﷺ.

وقوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ جمع آية، وهي العلامة، والمراد بها هنا القرآن، والقرآن آيات، كل آية منه دليلٌ على المتكلم بها وهو الله سبحانه وتعالىٰ، على ما له من الصفات المقتضية لتلك الآيات، ولهذا كل آية من القرآن فإنها معجزة، كما قال الله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤] (حديث) آية، أو عشر آيات، أو سورة، أو عشر سور، أو القرآن كله.. معجزة.

والمراد بآيات الله هنا الآيات الشرعية؛ لأن الآيات الكونية لا تُتلى لكن يُتلى عنها، أي يُخبر عنها: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾. (في): للظرفية ﴿فِيكُمْ﴾ أي: في مجتمعكم، وليس حالًّا فيهم عليه الصلاة والسلام، لكنه في مجتمعهم كما قال حسان بن ثابت:

وفينا رسول الله يتلو كتابه

فالرسول ﷺ كان في مجتمعهم، يُشاهدونه صباحاً ومساءً، ويغشاهم في مجالسهم، ويعودهم إذا مرضوا، ويزورهم ﷺ في بيوتهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فمن كان في هذه الحال هل يمكن لشرذمة من أهل الكتاب أن يردُّوه عن دينه؟ لا.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَمَن يَعْتَصِم﴾: أي يستمسك، ويطلب العصمة بالله عزّ وجل فقد هُدِي إلى صراط مستقيم.

وقوله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ يشمل الاعتصام به توكلاً عليه، والاعتصام به تعبُّداً له؛ لأن في كل منهما عصمة. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].. فمن اعتصم بالله تعبُّداً واستعانة، فقد هُدي إلى صراطٍ مستقيم.. وأتى هنا بالفعل الماضي (هُدي): إشارة إلى أن هذا قد ثبت له الهدى سابقاً وواقعاً، سابقاً في اللوح المحفوظ، وفي الكتابة حينما تُنفخ فيه الروح في بطن أمه، وواقعاً؛ لأنه اعتصم بالله.

وقوله: ﴿هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ حذف الفاعل وذلك لتعدُّد طرق الهداية، فأعلى الهُداة الله عزّ وجل، ثم الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم ورثة الرسول ﷺ وهم العلماء، فهنا حذف الفاعل؛ ليشمل كل الهداة، وأولهم الله عزّ وجل: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]، ثم الرسول ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ثم ورثة الرسول وهم العلماء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

إذن هُدِي الهداية الأولى من الله، ثم الرسول، ثم أولو العلم، لكن هداية التوفيق خاصة بالله عزّ وجل، لو اجتمع جميع الخلق على أن يهدوا أحداً هداية توفيق ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولكنهم يدُلُّون ويحثُّون ويُرغِّبون.

وقوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فيها قراءتان: بالسين والصاد، (سراط، وصراط)، لأن الصاد والسين تتناوبان دائماً.

وقوله: ﴿صِرَٰطٍ﴾ هو الطريق الواسع، يسمى سراطاً وأصله من (الزرط) بالزاي الابتلاع بسرعة؛ لأن الطريق الواسع يلجه الناس، ويخرجون منه بسرعة، بخلاف الضيِّق، فإن الناس يزدحمون فيه ولا يكادون يخرجون منه إلا بمشقة.

وقوله: ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي غير معوج، بل هو مستقيم، وهو يشمل الاستقامة نزولاً وارتفاعاً، والاستقامة انحرافاً واعتدالاً. إذن هو معتدل وليس فيه نزول ولا ارتفاع؛ لأن الصراط وهو الطريق إذا كان فيه انحراف واعتدال لم يكن مستقيماً، ويُبطئ الوصول إلى الغاية. كذلك إذا كان مختلفاً نزولاً وارتفاعاً، فإنه ليس بمستقيم؛ لأنه تطول المسافة، ويحصل مشقة عند الارتفاع وعند النزول.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

من فوائد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾:

١ ـ تحذير المؤمنين من طاعة الكفار؛ لقوله: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم﴾.

٢ ـ أن الكفار ولو كانوا أهل كتاب يحاولون غاية المحاولة أن يردُّوا المؤمنين عن إيمانهم إلى الكفر. وقائل هذا هو الله

العالم بما في صدورهم. قد يتظاهرون لنا بالمسالمة والمداهنة، وأنهم أولياء، وأنهم أصدقاء، ولكن في قلوبهم الحقد، والغل، ومحبة أن نرتد على أعقابنا كافرين، من أين نعلم هذا الذي في قلوبهم وهم يبدون لنا الود والصداقة والمحبة؟ نعلم هذا من القرآن الكريم.

فإن قال قائل: إن الله يقول: ﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، والفريق مبهم ما ندري، ربما بعضهم على خلاف ذلك، وإذا وُجد الاحتمال بَطَل الاستدلال، فلا يمكن أن تعين طائفة من أهل الكتاب تقول: هؤلاء يُحبُّون أن نرتد على أعقابنا كافرين، لا يمكن أن تُعيِّن ما دام الله يقول: «فريقاً»، الفريق مبهم، فإذا قلت: إنهم هؤلاء، قلنا لك: بل هؤلاء، بل أولئك، فما هو الميزان إذن؟ لنا على هذا جوابان:

الجواب الأول: أن الله ذكر في آيات أخرى أن جميع الكفَّار يودُّون منا أن نكفر، وهو شامل لأهل الكتاب وغيرهم: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩] ﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢]. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩].

إذن هناك آيات تدل على أن جميع الكفار، ومن ضمنهم أهل الكتاب يودُّون منا ذلك.

الجواب الثاني: أن نقول هذا الفريق المبهم، يُبيِّنه الواقع، وهو أن من أهل الكتاب من آمن، ومن آمن لا يمكن أن يُحب من غيره أن يكفر، وحينئذٍ نقول: المراد بالفريق هنا من لم يؤمن منهم، فكل من لم يؤمن فهو داخلٌ في هذا الفريق.

٣ ـ أن هؤلاء الفريق من أهل الكتاب لا يرضون منا بما دون الكفر، إلا أن يكون وسيلة إلى الكفر؛ لأنه الغاية، قال: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾.

وأساليب أهل الكتاب في إضلال المسلمين كثيرة جداً ومتنوعة، منها: أن يفتحوا عليهم باب الشهوات. فإن باب الشهوات باب واسع، والضيّق من أبواب الشهوات يتَّسع بسرعة، ودليل ذلك قول النبي ﷺ: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**»[1]، ولهذا هم ـ قبَّحهم الله، ولعنة الله على اليهود والنصارى جميعاً ـ يسعون جادين على أن يُعطوا المرأة ما يُسمَّى بالحرِّية، وهي في الحقيقة الرق وليست حرِّية؛ لأن المرأة ـ ومثلها الرجل ـ إذا خرجت عن حدود الله، خرجت من رقِّ الدين إلى رقِّ الشيطان، تخرج من رقِّ الدين وهو الرق الحقيقي؛ لأنه عبودية لله، إلى رقِّ الشيطان، وإذا خرجت إلى رقِّ الشيطان واسترقَّها الشيطان صارت عبداً له، هلكت وأهلكت، قال ابن القيم رحمه الله:

هربوا من الرق الذي خلقوا له فبلوا برق النفس والشيطان

(هربوا من الرق الذي خُلقوا له): الرق الذي خُلقنا له هو عبادة الله عزّ وجل.

(وبُلوا): يعني ابتلاهم الله برقِّ النفس والشيطان، ولهذا

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، رقم (٥٠٩٦). ورواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء، رقم (٢٧٤٠).

تجدهم يُركِّزون على المرأة على أن تتدهور، وتتحرر من عبودية الله لتقع في عبودية الشيطان؛ لأنهم يعلمون أن أشد فتنة على الرجال هي المرأة، فيسعون بكل جهدهم على أن تختلط بالرجال، وتُشاركهم في الأعمال، ويلصق منكبها بمنكبه، وساقها بساقه، ويشم رائحتها، وتشم رائحته، وتُصافحه، وربما تُعانقه؛ لأنهم يعلمون أن الإنسان إذا وصل إلى هذه الدرجة بقي حيوانياً بهيميًّا ليس له أي غرض إلا أن يُشبع غريزته ـ والعياذ بالله ـ وحينئذٍ ينسى الدين وما وراء الدين، ويرجع بعد ذلك إلى الكفر.

لا يستطيعون أن يقولوا للمسلمين: اكفروا؛ لأنهم لو قالوا: اكفروا، ما كفروا بل لقالوا: نعم نكفر بالطاغوت، ونؤمن بالله، ونضرب هامك، لكنهم يأتون بهذه الأساليب التي توجب أن ينزلق الناس بالفسوق، والفسوق بريد الكفر.

ثانياً: يلقون الأفكار الرديئة الإلحادية الكفرية بين المسلمين باسم (الناس أحرار ـ دعوا كل أحد يعتنق ما شاء ـ دعوا كل أحد يقول ما شاء ـ لا تستعبدوا الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً)، وما أشبه ذلك من الكلمات الرنَّانة التي إذا سمعها الإنسان قال: هذا هو الدين، ثم تحلَّل الناس وصار كلٌّ يعمل على ما يُريد، ولكن ما هي الطريق التي يتوصَّلون بها إلى هذا؟ الطريق: أن يضربوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويجعلوا الناس لا يأمرون بمعروف، ولا ينهون عن منكر؛ لأنهم يعرفون أنه إذا أُمر بالمعروف قام المعروف، وإذا نُهي عن المنكر غاب المنكر، فيحاولون أن يُقلِّلوا ويُضعفوا هذه الناحية، حتى يبقى الناس لا آمر ولا ناهي، كلٌ يركب ما شاء.

وهناك شيءٌ آخر يضربون عليه وهو مسألة الحدود والتعزيرات، يشوِّهون الإسلام بأنه يقطع اليد ـ يد السارق ـ ويرجم الزاني، يشوِّهون هذا حتى يُضعفوا هذه الناحية، ومن المعلوم أنه إذا ضعف الإيمان فلا بد من رادع السلطان، فإن ضعف الإيمان وعُدم رادع السلطان، صارت المسألة فوضى، كل يفعل ما شاء، يكفر، يزني، يسرق، يشرب الخمر..؛ لأنه لا توجد حدود رادعة، والإيمان ضعيف بناء على أنهم يقولون: اجعلوا كل إنسان حرًّا في نفسه، ويتحلل الناس من الدين بمثل هذه الطرق، إلقاء الأفكار الرديئة في المسلمين. هذه من أساليب اليهود والنصارى التي يُضللون بها الناس، ويردونهم بعد إيمانهم كافرين.

كذلك أيضاً من أساليبهم التي يردون بها الناس عن الإيمان أن يزيِّنوا للناس محبة المال، وجباية المال، بكل ما يكون بحلال أو حرام، فيزينوا لهم المكاسب الربوية بشتى أنواعها، والمكاسب الميسرية بشتى أنواعها التي تتمثَّل في التأمينات وما أشبهها، فإن التأمينات لا شك أنها من الميسر؛ لأن المؤَمِّن والمؤمَّن له عقدهما دائرٌ بين الغنم والغرم، وهذا هو الميسر تماماً، والنفس إذا اعتادت ذلك نسيت كل شيء. صار أكبر همِّها أن تكتسب هذا المال بالربا؛ لأن الربا يوجب زيادة المال باطِّراد، وزيادة الظلم باطِّراد، زيادة المال لآخذ الربا، والظلم لموكل الربا، فتأخذ النفس على الجشع، والشح، وحب المال، وتنسى ما خُلقت له. كذلك الميسر وعلى رأسه القمار، يجلس المتقامران في مجلس، كل واحد عنده خمسة ملايين من الأموال مثلاً فتحصل لعبة القمار فإذا بأحدهما يكتسح مال الآخر كله، خمسة ملايين فيصبح هذا

عنده عشرة ملايين، والثاني ما عنده إلا ثيابه يخرج من قاعة المقامرة ليس عليه إلا ثيابه، على كل حال مثل هذه الأساليب التي يُلقيها اليهود والنصارى وأشباههم بين المسلمين يجب على المسلمين الحذر منها؛ لأن الله يقول: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾.

يجب على المسلمين أن يستمدُّوا حياتهم ومنهاجهم من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وأنا واثق كل الثقة، أنهم إذا اعتمدوا في ذلك على الكتاب والسنة، فسيطؤون أعناق هؤلاء الكفار؛ لأن الله يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] هذا كلام الله عزّ وجل، كلام الله الذي يقدر على كل شيء، هو وعدٌ من الله، من قادر صادق في وعده، فإذا كان كذلك فلماذا لا نتمسَّك بدينه؟ لماذا لا نتمسَّك تمسُّكاً تاماً، ونُظهر الأمة الإسلامية من جديد، تتمسَّك بدينها نصًّا وروحاً، لا نصًّا فقط؛ لأن التمسك بالدين نصًّا فقط لا روحاً، ليس بشيء. هو تمسُّك ظاهري يتلاشى عند حدوث النوازل، وأما التمسُّك نصًّا وروحاً فهو الذي ينتفع به الإنسان في دنياه وآخرته. إذن علينا أن نحذر كيد الذين أوتوا الكتاب وكيد كل كافر، لأن الله يقول في الكافرين: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩]. وقال في سورة الممتحنة: ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ فعلينا أن نأخذ بهذه الإرشادات التي أرشدنا الله إليها، وأن نسير في طريقنا مهتدين بهدي الله، مقتدين برسول الله ﷺ حتى يحصل لنا النصر والسعادة، والعز والكرامة في الدنيا والآخرة.

وأقول رأيي في هذا: إن كل واحد مقصِّر، لم يقم كل واحد بالواجب عليه. كل واحد في الشعوب الإسلامية، وولاة المسلمين مقصِّر لم يقم بالواجب، ولا ينبغي أن نقْصِر التقصير على طائفة معيَّنة، أو هيئة معيَّنة، بل كلنا مقصِّرون. هل الإنسان إذا رأى منكراً من أخيه يقول: يا أخي تعال هذا حرام، لا يجوز، اتَّق الله؟ لا. مع أن هذا لم يُمنع منه أحد، ومع ذلك لا تجد من يقوم بهذا إلا النادر. لو أن الناس عُوّدوا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا شأن المسلمين كلهم «**لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر**»[1] لتغيَّر الأمر. والمعروف لا يُشترط له أن يكون له طائفة معينة من قبل الولاة، كلٌ يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، لكن بالحكمة، وأنا أقول دائماً: إن الأمر بالمعروف غير تغيير المنكر. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس هو تغيير المنكر.

تغيير المنكر يحتاج إلى سلطة، لكن الأمر لا يحتاج إلى سلطة، كلٌ يأمر وينهى، وقد ذكرنا أن هناك ثلاثة أشياء تشتبه على بعض الناس وهي مختلفة:

١ ـ الدعوة.

٢ ـ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ ـ والتغيير.

قال الله عزّ وجل: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٣٦). ورواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم (٢١٦٩). ورواه أحمد في مسنده، رقم (٢٢٧٩٠).

ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢]. فهنا قسَّم الله تعالى الناس غير المسلمين إلى ثلاثة أقسام: اليهود والمشركين والنصارى.. وهنا قال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾، ولم يقل: (والنصارى).. ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾، فلاحظ الفرق، ثم نجد أنَّ الله قال في آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال في آية أخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. وهذا أعم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]..

فهذه ثلاث آيات، فالذين قالوا: إنا نصارى، ليسوا هم النصارى الذين هم أولياء لليهود وللكافرين.. هؤلاء قوم معيَّنون، وصفهم الله بوصفٍ لا يوجد في بقية النصارى، فقال: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]. فهذه الطائفة من النصارى هي التي تكون أقرب مودَّة للذين آمنوا، أما الطائفة التي إذا سمعت ما أُنزل إلى الرسول نفرت، وسعت بكل ما تستطيع أن لا يقبل الناس هذا الذي أُنزل، فوالله ليست أقرب مودَّة من اليهود والمشركين، هم على حدٍ سواء.

٤ ـ أن طاعة الكفار مخالفة للإيمان؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، فتكون طاعتهم مخالفة لكمال الإيمان، وقد تصل إلى انتفاء الإيمان بالكلية.

٥ ـ أن حرص الكفار على ذلك من أجل إيماننا، وبناء عليه فإننا نُنزل القاعدة السابقة: (أن ما عُلِّق على وصف فإنه يزداد بزيادة ذلك الوصف وقوته) وعلى هذا فثقوا أنه كلما ازداد المؤمنون تمسُّكاً بدينهم ستزداد شراسة الكفار في صدهم عن دينهم. ما دام الوصف هو الإيمان، فإنه كلما ازددنا تمسكاً بالإيمان، ازداد الكفار شراسة في صدنا عن الإيمان، ومثل ذلك أيضاً: الطاعة والمعصية، كلما ازداد الناس في الإقبال على الله والتمسك بهديه، ازداد أهل الفسوق شراسة في القضاء على هذه القوة في الطاعة.

٦ ـ أن من أهل الكتاب من لا يُحاول إضلالنا عن ديننا، يؤخذ هذا من قوله: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

ومن فوائد قوله عزّ وجل: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

١ ـ استبعاد أن يرتد المؤمن كافراً، وهو يُتلى عليه كتاب الله وفيهم رسوله، والواقع شاهد بذلك، ولم تحصل الردة إلا بعد موت الرسول ﷺ.

٢ ـ أن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والإقبال عليهما أعظم مانع يمنع من الكفر؛ يؤخذ من قوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ يعني بعيد منكم الكفر إذا كانت تُتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله، آيات الله تُتلى علينا الآن، ورسوله ليس فينا ولكن فينا سنته، فنأخذ من هذا أنه كلما تمسَّكنا بكتاب الله وسنة رسوله، فإن ذلك سيكون حصناً منيعاً دون الكفر.

٣ ـ إثبات أن القرآن الكريم آية من آيات الله؛ لقوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾. ويتفرع على هذه الفائدة أنه إذا كان آية من آيات الله، فإنه لا يمكن أن يأتي أحد بمثله، إذ إن الآية هي العلامة التي تعيّن معلومها، ولو أمكن أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن ما كانت آيات الله.

٤ ـ أنه ربما نقول: إن القرآن آية شرعية، وكذلك يتضمن آيات كونية بما أودع الله فيه من الإشارات العظيمة إلى ما في الكون من الآيات، من أجل أن نجعل ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ تشمل الشرعية وما دلَّت عليه هذه الشرعية من الآيات الكونية. وإلا فلا شك أن الذي يتلى هو الشرعية، لكنها قد تضمنت آيات كونية دلت عليها، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨ ـ ٤٠]، ومثل قوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]، فإن هذه الآية آخر جملة فيها تشمل كل ما يمكن الركوب عليه إلى يوم القيامة، ومثل قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] عند بعض العلماء، فإن قوله ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ يخرج الذي يطير بالقوة مثل الطائرات الحديدية هذه فإنها ليست من الأمم التي هي أمثالنا.

٥ ـ الحث على الاعتصام بالله؛ لقوله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ﴾.

٦ ـ بشارة من وفق للاعتصام بالله بأنه مهدي، وهذه فرد من

أفراد البشارات الكثيرة التي إذا تدبرها الإنسان حمد الله سبحانه وتعالىٰ على نعمته أنه قد هداه وأنعم عليه.

٧ ـ أن دين الله عزّ وجل دين مستقيم؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والمراد به صراط الله، وهو مستقيم في كل شيء، إن نظرت إلى الحقوق وجدته مستقيماً فيها ليس فيه جور، فللّه علينا حقوق، ولأنفسنا علينا حقوق، ولأهلنا علينا حقوق، ولزائرنا علينا حقوق، ولكل أحد حق على الآخر، قال النبي عليه الصلاة والسلام لأبي الدرداء: «**فأعط كل ذي حق حقه**»[1]. إذن هذا عدل، ليس فيه جنف، وهذا من استقامة هذا الدين. ولكن نبهنا فيما سبق على مسألة، وهي أن بعض الناس يقول: إن دين الإسلام دين المساواة، وبيّنا أن هذا خطأ، بل إن دين الإسلام هو دين العدل؛ لأن أكثر ما في القرآن نفي المساواة، لا إثبات المساواة، ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [الأنعام: ٥٠] ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦] وآيات كثيرة فيها نفي الاستواء؛ لكنه العدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠] وذكرنا أن هذه العبارة دخل فيها من قال إنه يسوي بين الرجل والمرأة، وبين العالم والجاهل، وبين كل إنسان وآخر، مع الاختلاف في الصفات، وتميز كل واحد عن الآخر بصفاته. وهذا لا شك أنه خطأ، ولا يأتي الإسلام به. الإسلام يأتي بالعدل «أن تعطي كل ذي حقٍّ حقَّه».

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب صنع الطعام والتكلف للضيف، رقم (٦١٣٩).

❑ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

يقول الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وما أكثر ما أمر الله بالتقوى في كتابه في آيات كثيرة، بل جعلها الله وصية لجميع الخلق: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [النساء: ١٣١] والتقوى مأخوذة من الوقاية، ولهذا يقال: إن أصلها (وَقْوَىٰ) مؤنث من الوقاية. والوقاية اتخاذ الإنسان ما يقيه الذي يضره. ولهذا نقول: إن أجمع تفسير للتقوى أن يقال: التقوى اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه. هذا أجمع ما يقال.

وقوله عزّ وجل: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ ﴿حَقَّ﴾ مفعول مطلق مبيِّن لنوع التقوى التي أمرنا بها. أي اتقوا الله على هذا الوجه حق تقاته. ومعنى ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أن تتقوا الله ما استطعتم؛ لأن هذه هي التقوى التي أمرنا بها في آية أخرى ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦] أي ابذلوا كل ما تستطيعون في تقوى الله. ولهذا لا تظنوا أن هذه الآية ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أنها تهوِّن التقوى؛ لأن بعض الناس يتخذ من هذه الآية تهويناً لأمر التقوى ويقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ والحقيقة أنها بالعكس، يعني اتقوا الله بقدر ما تستطيعون، ابذلوا كل الجهد في تقوى الله عزّ وجل. فيكون قوله: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ موازياً لقوله: ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾. وبناء على هذا تكون الآية محكمة أي غير منسوخة. وهذا القول هو الراجح. ومقابله أن الآية منسوخة، وأنها أمر بما فيه مشقة، وأن المراد بتقوى الله أن يذكر فلا ينسى، ويطاع

فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر. ولكن لدينا قاعدة مهمة جدًّا توجب أن لا يتسرع الإنسان في دعوى النسخ؛ لأن دعوى النسخ ليست دعوى بسيطة، فإن النسخ يتضمن إبطال حكم من الأحكام الشرعية، وإبطال الحكم من الأحكام الشرعية ليس بالأمر السهل؛ وإن كان بعض الناس وبعض العلماء يتساهل، وإذا عجز أن يوفِّق بين النصوص، أو يرجح ادَّعى النسخ. وهذا غلط؛ لأنه يترتب عليه إلغاء حكم شرعي. فنحن نقول: ما دام النص من القرآن أو السنة يمكن أن يحمل على وجه صحيح لا يعارض النصوص الأخرى، فهذا هو الواجب؛ لأننا إذا سلكنا هذا المسلك عملنا بكل النصوص. أما إذا قلنا: إن أحدهما منسوخ فإننا نلغي نصًّا جاء به الوحي. وهذا ليس بالأمر الهين، فالصحيح أن هذه الآية غير منسوخة؛ لأنها لا تخالف الآيات، هي مثل قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] والغريب أن الذين قالوا بالنسخ قالوا: إنها نسختها هذه الآية ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا ...﴾ إلخ لكن لا وجه لهذا. فالصحيح أن معنى ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، أي بقدر ما تستطيعون و﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ ما أمرنا به عزّ وجل في قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ هذا مما يدخل تحت الخطاب، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، يعني إلا وأنتم مسلمون لله ظاهراً وباطناً. والإسلام هنا يدخل فيه الإيمان، وكما مرَّ في آيات كثيرة الدعاء بأن يموت الإنسان مسلماً: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وفي سورة يوسف

قال: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. لكن جاء في السنة أن الرسول ﷺ كان يقول في دعاء الميت: «**اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته فتوفه على الإيمان**»(١)، ففرَّق بين حال الحياة وحال الموت.

والجواب عن ذلك أن نقول: إنما غاير النبي ﷺ بينهما لأن صلاح الأمة على سبيل العموم بالإسلام؛ إذا حيت الأمة مسلمة انتظم أمرها؛ لأن الإسلام معناه الاستسلام، ولم يكن فيها ما يوجب العناد والاستكبار. ولما قال: «**أحييته منا فأحيه على الإسلام**»، قال: «**ومن توفيته فتوفه على الإيمان**»، لأن المدار عند الموت على ما في القلب. لكن في هذه الآية وكذلك في الآيات الأخرى التي أشرنا إليها لم يذكر الإيمان معها فيكون الإسلام هنا شاملاً للإيمان.

وقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: لا تمت إلا وأنت مسلم. وهذا يقتضي أن تكون مسلماً من الآن، لا تنتظر وتقول: سأسلم إذا جاء الموت، بل تكون مسلماً من الآن؛ لأنك لا تدري متى يفاجئك الموت. فالآية لا تعني أن تؤخر الإسلام إلى عند الموت لأنك لا تدري، بل فيها الأمر بالمبادرة بالإسلام، وبالثبات عليه إلى الموت.

وفي هذه الآية إشكال في قوله ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾ (لا) ناهية

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الجنائز، باب الدعاء للميت، رقم (٣٢٠١). ورواه الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما يقول في الصلاة على الميت، رقم (١٠٢٤). ورواه ابن ماجه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في الدعاء في الصلاة على الجنازة، رقم (١٤٩٨). ورواه أحمد في مسنده، رقم (٨٥٩١).

وليست نافية؛ لأن عطف الطلب على الطلب أولى من عطف الخبر على الطلب. ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا طلب أمر ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾ هذا طلب نهي، وإذا كانت ناهية يشكل علينا أن الفعل بعدها مرفوع، فكيف كانت ناهية والفعل بعدها مرفوع؟

الجواب: أن (تموتن) أصلها بدون نهي (تموتونن) ولما جاءت لا الناهية حذفت نون الإعراب فالتقت الواو بالنون والنون المشددة، نونان أولهما ساكن والساكن لا يمكن أن يقابل ساكناً آخر كما قال ابن مالك:

إن ساكنان التقيا اكسر ما سبق وإن يكن ليناً فحذفه استحق

إذن نحذف الواو هنا لأنه من حروف اللين. وبقيت الميم التي تليها الواو مضمومة، ونون التوكيد تبقى على حالها. فصار الإعراب واضحاً الآن: فـ(لا) ناهية، (تموتن): فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل، والنون للتوكيد.

وجملة ﴿وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ حال من الواو المحذوفة في قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ وجوب تقوى الله حقَّ تقاته للأمر بذلك بقوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

٢ ـ العناية والاهتمام بالتقوى، يؤخذ من تصديره بالنداء.

٣ ـ أن التقوى من مقتضيات الإيمان لتوجيه النداء إلى المؤمنين.

٤ ـ أن ترك التقوى من نواقص الإيمان؛ لأنه إذا نودي

الإنسان بوصف فإنه يزداد وصفه هذا بحسب زيادته فيما وجِّه إليه.

٥ ـ وجوب البقاء على الإسلام والمبادرة به؛ لقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

٦ ـ أن المدار على الخاتمة، نسأل الله حسن الخاتمة؛ لقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ومصداق ذلك حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**)[1]. لكن الأول ورد فيه قيد ـ والحمد لله ـ يريح البال، ويزيل الخوف (**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار**). ورد هذا الحديث في قصة الرجل الذي كان مع النبي عليه الصلاة والسلام في غزوة وكان شجاعاً مقداماً لا يدع شاذة ولا فاذة، فقال النبي ﷺ: «**هذا من أهل النار**» ـ نسأل الله العافية ـ فَعَظُمَ ذلك على الصحابة وشقَّ عليهم كيف يكون هذا الرجل من أهل النار وهو بهذه المثابة في جهاده، فقال رجل: والله لألزمنَّه، يعني لأصاحبنّه حتى أنظر ما عاقبته؟ فأصاب هذا الرجل الشجاع سهم فجزع فأخذ سيفه واتكأ عليه حتى خرج من ظهره ـ أعوذ بالله ـ، جعله في صدره حتى

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله وسلامه عليه وذريته، رقم (٣٣٣٢). ورواه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابته، رقم (٢٦٤٣).

خرج من ظهره ومات، فلما أصبح الرجل غدا إلى رسول الله ﷺ وقال: أشهد أنك رسول الله، قال: **وبم؟** قال: إن الرجل الذي قلت إنه من أهل النار فعل كيت وكيت، ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار**»[1]، يعني يكون في قلبه ـ نسأل الله العافية ـ سرٌّ خبيث ليطيح به في مواضع الشدة والضيق. يعنى أنه تخونه سريرته عند الموت؛ لأن قلبه فيه شيء، ولهذا يجب علينا **أن نطهر قلوبنا دائماً وأبداً** ونغسلها فليس العبرة أن يصلي الإنسان أو أن يصوم إذا كان قلبه خرباً؛ لأن كل إنسان يستطيع أن يصلي أحسن صلاة لأنه عمل جوارح، ولكن الكلام على عمل القلب، أسأل الله أن يطهر قلوبنا جميعاً.

لذا علينا أن نحرص على ملاحظة القلوب وإصلاحها، وإخراج النفاق منها، وإخراج الشك وإبعاده، وإخراج الحسد والغل والحقد على المسلمين؛ لأن كل هذا من خصال اليهود، أحسد الناس وأشدهم غلاً اليهود، هل ترضى أن يكون في قلبك خلق من أخلاق اليهود؟ لا أحد يرضى بهذا النفاق من أخلاق المنافقين، لا أحد يرضى أن يكون منافقاً. فالمهم أن نحرص حرصاً شديداً على إصلاح القلوب.

لما جيء برجل كان يشرب الخمر في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، ويكرر شرب الخمر، فدعا عليه رجل من الصحابة وسبَّه، وقال: ما أكثر ما يؤتى به إلى رسول الله ﷺ

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم (٤٢٠٢). ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١١٢).

ليعاقبه على شرب الخمر قال: «**لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا إنه يحب الله ورسوله**»[١] ـ سبحان الله ـ، انظر إلى طهارة قلبه، نفسه الأمارة بالسوء تحدوه إلى أن يشرب الخمر، لكن قلبه مملوء بمحبة الله ورسوله. فالمدار كله على القلب، ولذلك يجب علينا أن نحرص حرصاً كثيراً على صلاح القلب؛ لأن هذا يوجب حسن الخاتمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

٧ ـ أن الإسلام يدخل فيه الإيمان عند الإطلاق، وهو كذلك. والدليل قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان**»[٢]، فالإسلام عند الإطلاق يدخل فيه الإيمان، وأما عند الجمع فالإسلام عمل الجوارح، والإيمان عمل القلب كما قال بعض السلف: (**الإيمان سر، والإسلام علانية**).

فإن قال قائل: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، فهذا ظاهره أن الإيمان والإسلام شيء واحد مع أنهما ذكرا جميعاً في موضع واحد؟

فالجواب: أن يقال: البيت لم يخرج كله، إنما الذي خرج المؤمنون من أهل البيت، والقصة في لوط، امرأته كافرة لم يخرج بها لكنها في بيت إسلام، ولم تظهر أنها كافرة. والدليل على أنها لم تظهر أنها كافرة أن الله تعالى قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ

---

(١) رواه البخاري، في كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وإنه ليس بخارج، رقم (٦٧٨٠).

(٢) تقدم تخريجه (ص٥٨٩).

كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، فهي لم تظهر أنها كافرة، فالبيت بيت إسلام، ولهذا قال: ﴿غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لكن الإيمان ليس لأهل البيت كلهم، ولهذا بقيت الزوجة، وخرج الأهل، فالقاعدة الصحيحة: أن الإسلام والإيمان يكونان مترادفين، ويكونان متباينين، يكونان مترادفين إذا افترقا، ويكونان متباينين إذا اجتمعا: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، هذا واضح على أن هناك فرقاً بين الإيمان والإسلام.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

هذا داخل تحت قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٢] فهي معطوفة على ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾. وقوله ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ وفيما سبق قال: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠١]، والاعتصام بالله الاعتماد عليه، والتوكل عليه، والاستعانة به، والاعتصام بحبله أي بشرعه. فحبل الله هو شرعه. وسمي شرعه حبلاً لأنه موصل إليه، والحبل كما تعلمون يوصل إلى المقصود. فإن الإنسان إذا أراد أن يشرب من البئر أدلى الدلو بالحبل، بالرشاء. فحبل الله هو شرعه الموصل إليه كما يقال: حبل البئر الرشاء الموصل إلى الماء ليستقي منه الساقي. وأضيف إلى الله عزّ وجل

لأمرين: الأمر الأول: أنه هو الذي وضعه سبحانه وتعالىٰ، والأمر الثاني: أنه موصل إليه.

وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ حال من الواو في اعتصموا، يعني اعتصموا كلكم، لا يشذ أحد عن هذا الاعتصام.

﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ في حبل الله، كونوا جميعاً تحت المظلة الشرعية، لا يشذ أحد منكم ولا تفرقوا أحزاباً ولا أفراداً.

﴿وَٱذْكُرُوا۟﴾: اذكروا بألسنتكم، واذكروا بقلوبكم، والذكر بالقلب هو التذكر، يتذكر الإنسان حتى ولو كان وحده، في بيته يتذكر الحال التي أشار الله سبحانه وتعالىٰ إليها، اذكروا أيضاً بألسنتكم ثناءً على الله بذلك وتحدثاً بنعمته.

﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ والنعمة بمعنى العطاء والرزق. وهذه النعمة التي ذكر الله هنا، وأمرنا أن نذكرها، هي من أكبر النعم ولهذا قال: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾ هذا بيان هذه النعمة، أي أن بعضكم عدو لبعض. ولا شك أنه مع العداوة لا يمكن أن تستقيم الأمة. فالعداوة التي كانت بينهم قبل الإسلام أزالها الله تعالى بالإسلام. ومن ذلك ما كان بين قبائل العرب من قريش وهوازن وغيرهم، وما كان بين قبائل الأنصار بين الأوس والخزرج، حروب، وفتن، وعداوات، وثارات. شيء إذا قرأه الإنسان في التاريخ يقول: إن من أكبر نعم الله على العرب أن جاء بهذا الإسلام. ولهذا ذكَّر النبي ﷺ الأنصار بذلك حين قسم غنائم حنين. وكان رسول الله ﷺ حكيماً، أعطى المؤلفة قلوبهم عطاءً كثيراً، حتى إنه يعطي الإنسان مائة ناقة. فصار في قلوب بعض الأنصار شيء، حتى إنهم قالوا: وجد أصحابه فأعطاهم، أو كلمة

نحوها. فبلغ ذلك النبي ﷺ فأمرهم أن يجتمعوا، وأن لا يدخل معهم أحد. اجتمعوا فجاء إليهم، وذكَّرهم بنعمة الله عزّ وجل عليهم، وقال لهم: «**ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بي؟**»، قالوا: «الله ورسوله أَمَنّ؟ قال: «**ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بي؟**» قالوا: الله ورسوله أَمَنّ؟ قال: «**ألم أجدكم متفرقين فجمعكم الله بي؟**»، قالوا: الله ورسوله أَمَنّ؟ كلما قال شيئاً، وذكَّرهم به، اعترفوا بأن الله ورسوله أَمَنّ. ولكنه عليه الصلاة والسلام لما ذكرهم بفضله عليهم قال: لو شئتم لقلتم: جئتنا طريداً فآويناك، وذكر عليه الصلاة والسلام فضلهم عليه ثم قال: «**أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، الأنصار شعار والناس دثار**»[1]، حتى جعلوا يبكون، وخضبوا لحاهم بدموعهم رضي الله عنهم، واقتنعوا اقتناعاً كاملاً، الشاهد من هذا أنه ذكَّرهم صلوات الله وسلامه عليه أنهم كانوا متفرقين فجمعهم الله به، وألفهم به، ولهذا يذكر الله سبحانه وتعالىٰ هؤلاء بقوله: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ ألَّف يعني جمع. ومنه قولنا: ألَّف فلان كتاباً يعني جمعه.

وقوله: ﴿بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ ولم يقل بينكم؛ لأن الائتلاف في القلوب. وهذا هو الذي عليه المدار، ليس المدار الائتلاف بالأجسام. كم من أمة ائتلفت بأجسامها ولكن قلوبها متفرقة كما

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، رقم (٤٣٣٠). ورواه مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، رقم (١٠٦١).

قال الله تعالى عن اليهود: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤] ولا فائدة من اجتماع الأبدان مع تفرق القلوب. الفائدة باجتماع القلوب، وتآلف القلوب، ولو تباعدت الأبدان. وكم من إنسان يكون بينك وبينه مودة وصداقة وهو بعيد منك، وبعيد عنك. وكم من إنسان بالعكس تشعر بأنه ينافقك وأنه لا يكنُّ لك المحبة ولا الصداقة، ومع ذلك هو ملازم لك كملازمة الظل. فالشأن كل الشأن بالقلوب.

ولهذا قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ ومن الذي يستطيع أن يؤلف بين قلوب الناس؟ الله عزّ وجل. لا أحد يستطيع أبداً سواه. يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] صحيح أن المال يؤلف، ولهذا جعل الله تعالى للمؤلفة قلوبهم نصيباً من الزكاة، وكان النبي يعطي المؤلفة قلوبهم. لكن ثقوا أن ما كان مؤلفاً لشيء فإنه سوف ينعدم تأليفه بزوال هذا الشيء وفَقْدِه لكن التأليف الذي يكون على الإيمان، ومن الرحمٰن عزّ وجل، هذا لا ينفصل؛ ولهذا قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.

قوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ أصل الإصباح الدخول في الصباح الذي هو أول النهار. لكنه يطلق أحياناً مجرداً من الزمان ويراد به الصيرورة، أي صرتم إخواناً وهذا هو المراد هنا (أصبحتم إخواناً) يعني صرتم إخواناً في الصباح والمساء.

وقوله: ﴿بِنِعْمَتِهِ﴾ الباء هنا للسببية، أي بسبب إنعامه عليكم بعد العداوة، أصبحتم إخواناً يعني إخوة، والأخوة في الأصل

المقارنة أو القران بين الشيئين، وكل شيئين اتفقا في شيء واقترنا به فهما أَخَوان. فمعنى ﴿إِخْوَٰنًا﴾ أي مقترنين، مؤتلفين، كأنما بينكم رابطة النسب، بل أعظم من رابطة النسب؛ لأن أخوة الدين أعظم من أخوة النسب، بل إن أخوة النسب تتلاشى إذا لم توجد أخوة الدين، ودليل هذا أن نوحاً عليه الصلاة والسلام قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦] ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ مع أنه ابنه بضعة منه، لكنه ليس من أهله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ يعني أنه عمل عملاً غير صالح، فهو كافر، وأنت رسول، فليس بينكما نسب يعني قرابة، فالأخوة الإيمانية أقوى رابطة من الأخوة النسبية، فإذا اجتمعا قوَّى بعضهما بعضاً، إذا كان أخاك من النسب وهو أيضاً أخوك في الدين صار هذا أقوى وأقوى.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ وقد ظهرت هذه الأخوة، فإن الأنصار رضي الله عنهم لما قدم إليهم المهاجرون صاروا يؤثرونهم في أموالهم، يتنازل الإنسان عن ماله لأخيه المهاجر، بل ربما يتنازل عن إحدى زوجتيه له من شدة الأخوة والمحبة بينهما.

وقوله: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾:

﴿وَكُنتُمْ﴾ أي قبل الإسلام. ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ أي: على طرف، وشفا الشيء طرفه كشفا البئر أي طرفها.

وقوله: ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: من نار جهنم؛ لأنهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام والأوثان، فهم على شفا حفرة، لو ماتوا على تلك الحال لسقطوا في الحفرة. لكن قبل أن

يسقطوا في الحفرة أنقذهم الله بالإسلام، ولله الحمد والمنة. فبيَّن الله عزّ وجل هنا حالهم الاجتماعية، وحالهم الدينية، حالهم الاجتماعية كانوا أعداء مختلفين، متفرقين، فألف بين قلوبهم. وحالهم الدينية أنهم على شفا حفرة من النار، لم يبق عليهم أن يتساقطوا في النار إلا أن يموتوا على الكفر، ولكن الله تعالى أنقذهم بنعمته بهذا الدين الذي قال الله فيه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

﴿عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ كلمة (أنقذ) تدل على أن هذا الشفا كان هلكة، وهو كذلك، فإنه لا هلكة أعظم من هلكة من كان في النار فأنقذه الله منها إنقاذاً.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

﴿كَذَٰلِكَ﴾ يذكرها الله سبحانه وتعالىٰ كثيراً في كتابه العزيز، وهي على تقدير مثل ذلك، فكذلك أي: مثل ذلك. ثم هي تختلف باختلاف السياق، ففي مثل هذا السياق الذي نحن فيه تكون مفعولاً مطلقاً، وإن شئتم فقولوا نائبة مناب المصدر؛ لأن التقدير مثل ذلك البيان: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي أن الله سبحانه وتعالىٰ أظهر آياته لنا ـ آياته الكونية وآياته الشرعية ـ بياناً واضحاً ظاهراً ليس فيه لبس؛ لأنه هنا لما ذكرهم حالهم الاجتماعية والدينية وهي حال ظاهرة لا تشكل عليهم جعل ذلك بياناً فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: العلامات الدالة عليه وعلى وحدانيته، وربوبيته، وسلطانه، وعلمه، وقدرته، وغير ذلك مما تقتضيه تلك الآية؛ لأن كل آية من آيات الله تدل على معنى من معاني ربوبيته سبحانه وتعالىٰ.

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾:

(لعل) هنا للتعليل، أي لأجل أن تهتدوا، والهداية هنا شاملة لهداية التوفيق، وهداية الإرشاد والدلالة. أي لتهتدوا اهتداءً علمياً، وتهتدوا اهتداءً عملياً، الاهتداء العلمي هو هداية الإرشاد والدلالة، والاهتداء العملي هداية التوفيق؛ لأن الإنسان بفطرته كلما تبين له شيء من آيات الله ازداد إيماناً ويقيناً وعملاً. وقد ذكرنا أن (لعل) للتعليل وهي كثيرة في القرآن بهذا المعنى. وتأتي للرجاء، وتأتي للإشفاق، الرجاء ضد الإشفاق، «الإشفاق»: الخوف، و«الرجاء»: الأمل، فإذا قلت لشخص: استغفر الله لعل الله أن يغفر لك، هذا رجاء، وإذا قلت: لا تمش في هذا الطريق فلعلك تهلك، هذا إشفاق، والتعليل أيضاً معروف من السياق.

من فوائد الآية الكريمة:

من فوائد قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾:

١ ـ وجوب الاجتماع على شرع الله؛ لقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾.

٢ ـ وجوب التحاكم إلى شرع الله؛ لأن الاعتصام به يقتضي أن يكون هو المحكَّم.

٣ ـ أن الاجتماع عصمة؛ لقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ﴾ فاجتماع الأمة الإسلامية عصمة لها داخلياً، وعصمة لها خارجياً، أما خارجياً فإن الأمة الإسلامية إذا اجتمعت هابها الأعداء ورأوا أنها أمامهم كالجبال الصم التي لا يستطيعون لها صعوداً. وإذا تفرقت تمزقت فدخل الأعداء. أيضاً عصمة داخلية لأنهم إذا اجتمعوا على

شرع الله تآمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، ودعوا إلى الخير وصاروا أمة واحدة، كل إنسان يخشى الله في أخيه لا يعتدي عليه لا على ماله ولا على عرضه ولا على دمه، لماذا؟ لأنهم أمة واحدة جميعاً، ففي الاجتماع عصمة في الداخل وعصمة في الخارج.

٤ ـ تحريم التفرق في القلوب، لأن المدار على التفرق في القلوب، أما التفرق في الأبدان فضروري أن يتفرق الناس، كل الآن في بيته، وفي الأقوال أيضاً يتفرقون، وما أكثر الخلاف بين أهل العلم قديماً وحديثاً في المسائل العلمية، لكن الذي يجب على المسلمين أن يبعدوا عنه، هو التفرق بينهم في القلوب لأنه هو الذي عليه المدار، ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**لا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»[1] فالمدار على القلوب. إذن في هذه الآية دليل على تحريم التفرق في القلوب حتى لو تفرقت الأبدان أو تفرقت الأقوال، فالواجب أن القلوب لا تتفرق، وكان اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في الاجتهاد المؤدي إلى التفرق في الأقوال لكن القلوب واحدة، لا يكره بعضهم بعضاً إذا خالفه في الرأي. بل إني أؤكد ما ذكرت سابقاً: إنه ينبغي للإنسان العاقل أنه إذا خالفه أخوه في رأيه بمقتضى الدليل عنده أن يكون ذلك أدعى إلى قوة المحبة له لأنه خالفه للدليل، والثاني أيضاً خالفه للدليل، فكان ينبغي عليه أن تكون محبته أقوى؛ لأن الرجل لم يحابني في ذات الله،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول، رقم (٤٣٢).

وإنما قدَّم محبة الله. وأنا حينما أخالفه تقديماً لمحبة الله عزّ وجل، فالإنسان العاقل المؤمن هو الذي لا تزيده مخالفة أخيه له في الرأي تلك المخالفة المبنية على الاجتهاد إلا محبة له وتمسكاً به. خلافاً لما يفعله بعض الناس الآن ومع الأسف أنهم طلبة علم إذا خالفه أخوه في الرأي، مع أنه لا يعلم الصواب عنده أو عند أخيه أبغضه وكرهه وهجره، وربما يلاقيه فاسق فيسلم عليه، ويلاقيه أخوه الذي خالفه في الرأي ولا يسلم عليه، وما ذاك إلا من الشيطان، الشيطان هو الذي يريد أن يوقع العداوة بين المسلمين ولا سيما بين طلبة العلم حتى ينبذ بعضهم بعضاً؛ لأن الشيطان يعلم أن الشريعة لا تقوم إلا بالعلم وبالعلماء، فإذا تنابذوا وتقاطعوا فيما بينهم، وصار بَعضهم يكره بعضاً؛ ارتكبوا مخالفة لنصوص الكتاب والسنّة التي تأمر العباد بالاجتماع والألفة، وتنهاهم عن الاختلاف والفرقة. ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾.

٥ ـ وجوب تذكر نعمة الله، وهذه مسألة مهمة؛ لأن الغفلة عن تذكر النعمة يستلزم الغفلة عن الشكر، والشكر واجب: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] فالغفلة عن تذكر النعمة موجب أو مستلزم للغفلة عن الشكر بحيث إن الإنسان لا يعترف بنعمة الله، يجب أن تتذكر نعمة الله عليك في كل شيء في الأمور الدينية وفي الأمور الدنيوية، المالية والجاهية والخلقية والأهل، كل شيء، مثلاً اذكر نعمة الله عليك بالعلم لأنك تعرف أن في الناس من هو جاهل، لا تقل: والله إنعام الله على شيخ الإسلام ابن تيمية أكبر من نعمته عليّ، لا، قل: نعمة الله عليَّ

أكبر من نعمته علىٰ من هو دوني في العلم، اذكر نعمة الله عليك في الصحة، فإن من الناس بل إن كثيراً من الناس يئن من المرض وأنت في صحة، اذكر هذه النعمة حتى لو فيك مثلاً مرض أو عيب في عضو من أعضائك فاذكر من هو أشد، من هو مريض بعضوين ومعيب بعيبين وهكذا، أيضاً اذكر نعمة الله عليك بالدين، إذ أنعم الله عليك بالدين وهذه أكبر نعمة لأنه هو الربح في الدنيا والآخرة، اذكر نعمة الله عليك بالدين في مقابلة الكفر، هذا في أصل الإيمان، ثم اذكر نعمة الله عليك بالثبات على الإسلام وتطبيق أحكام الإسلام حيث إنه يوجد من هو مسلم ولكن مخالف عاصٍ عنده فسوق. إذن ذكر نعمة الله علينا واجب حتى نعرف قدر نعمة الله ونشكر ربنا سبحانه وتعالىٰ على نعمه التي حرُم منها كثير من الناس.

٦ ـ أن من أكبر نعم الله على الأمة أن يؤلف بين قلوبها؛ لقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ ولا شك أن هذا من أكبر النعم أن يؤلف الله بين القلوب ويجمع بينها؛ لأنه إذا تفرقت القلوب فسد كل شيء؛ فتأليف القلوب من أكبر نعم الله سبحانه وتعالىٰ على الأمة، ومن تحتها القبيلة، ومن تحتها الفخذ، ومن تحتها الأخوة، فإذا ألف الله تعالى بين القلوب ـ ابدأ من الأولاد والآباء إلى ما شاء الله ـ فهذه من أكبر النعم، أما إذا تعادت القلوب فبئس المجتمع، مجتمع تعادت قلوبه وتنافرت. وقد ذكَّر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بهذه النعمة فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣] لو أنفقت كل ما في الأرض من ذهب وفضة وثمار وزروع ومواشٍ وغيرها لو أنفقته

عليهم ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم، والحاصل: إن من أكبر نعم الله على الأمة التأليف بين القلوب.

٧ ـ أن نتيجة التأليف أن يصبح الناس إخواناً كالأخ مع أخيه تماماً، بل كما ذكرت سابقاً: إن الروابط الدينية أقوى من الروابط النسبية.

٨ ـ أنك إذا رأيت الناس متفرقين فإن هذا عنوان على شقائهم، وأن النعمة سُلبت منهم؛ لأنه قال: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ فإذا لم تتحقق الأخوة والتأليف بين القلوب فإن ذلك دليل على أن النعمة في هذا الأمر سلبت منهم.

٩ ـ منَّة الله سبحانه وتعالىٰ على الصحابة بالذات، حيث ألّف بين قلوبهم بعد أن كانوا أعداء فأصبحوا إخواناً رضي الله عنهم وهم الذين طبقوا مقتضى الأخوة الحقيقية الصادقة التي بُنيت على الإيمان، لا الأخوة المبنية على القومية أو الوطنية، فهذه أخوة فاشلة باطلة. ولا أدل على فشلها مما عليه العرب اليوم حيث كانوا يعتزون بالقومية العربية، ومع ذلك فشلوا فشلاً ذريعاً، وكذلك الوطنية، اعتزاز الإنسان بوطنيته فشل، لا يمكن أن يكون هناك أخوة إلا بالإيمان والإسلام.

الأنصار من الأوس والخزرج، والعرب طائفة أخرى مقابلة، هؤلاء قحطانيون وهؤلاء عدنانيون، ومع ذلك اجتمعوا على قلب واحد، بل جاءهم أناس من غيرهم، جاء صهيب من الروم، وسلمان من فارس، وبلال من الحبشة، وصاروا إخواناً لهؤلاء، فإذن نقول: إن الأخوة الحقيقية هي أخوة الإيمان، ولن يقوم للعرب قائمة حتى يرجعوا إلى الأخوة الإيمانية، وإلا فهم

فاشلون مهما كان ولا يمكن أن يسعدوا بظفرٍ أو نصرٍ ما دام هتافهم بالقومية وما أشبهه.

١٠ ـ منَّة الله سبحانه وتعالىٰ على أهل الخطاب الذين خوطبوا بهذه الآيات حيث كانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها، يعني أن الله بعث فيهم محمداً ﷺ فاهتدوا به قبل أن يموتوا، وإذا كان هذا نعمة على هؤلاء فهو أيضاً نعمة على من بعدهم إلى يوم القيامة، فأكبر نعمة يُنعم الله بها على الإنسان أن ينقذه من النار.

١١ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ خالق لعمل العبد، تؤخذ من قوله: ﴿فَأَنقَذَكُم﴾، لأن الله أنقذهم بعملهم فأضاف هذا الإنقاذ المبني على العمل إلى نفسه، وهو كذلك، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة أن الله تعالى خالق العبد، وخالق عمل العبد، فالعبد ليس مستقلاً بل هو مخلوق في ذاته وفي إرادته وفي عمله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، أي وعملكم على قول، أو والذي تعملونه على قول آخر، وإذا خلق المعمول فهو خالق للعمل؛ لأن المعمول نتيجة العمل، فالآية دالة على أن الله خالق لأعمال العباد سواء جاءت «ما» مصدرية أو موصولة.

١٢ ـ إثبات العقوبة بالنار؛ لقوله: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ...﴾ إلخ.

ومن فوائد قوله عزّ وجل: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾:

١ ـ أن الله عزّ وجل بيَّن لنا الآيات الكونية والشرعية، وجه هذا أن آيات جمع مضاف، والجمع المضاف يفيد العموم، وبيان آياته الكونية ظاهرة، الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار

والأنهار وغير ذلك، والشرعية كذلك ظاهرة لمن فتح الله عليه معرفة ما أنزل الله عزّ وجل على رسله، ثم إن بيان الآيات الكونية ليس مجرد أن تعرف أن هذه الآية لا يقدر على خلقها وتصريفها إلا الله فقط، لكن أن تستدل بالسنن الماضية على السنن الحاضرة مثلاً: إهلاك الله الأمم السابقة نستدل به على أن سنة الله في الخلق واحدة، فالذي أهلك الأمم السابقة بذنوبهم يهلك بعض هذه الأمة أيضاً بذنوبهم كما قال الله تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

٢ ـ الرد على أهل البدع الذين حرَّفوا نصوص الكتاب والسنة إلى معان لا يدل عليها ظاهرها، ووجه ذلك أننا إذا قلنا: إن المراد بهذه الآيات والأحاديث خلاف الظاهر بدون بيان من الله ورسوله صارت هذه الآيات مبهمة. مثلاً: إذا قالوا: المراد باستواء الله على عرشه استيلاؤه عليه بدون بيان من الله ورسوله نقول: كون الله يعبر باستوى على العرش بدل استولى إيهام. وإذا قالوا: المراد باليد النعمة والقوة قلنا: سبحان الله كيف يعبر الله باليد عن النعمة والقوة وهو يريد النعمة والقوة بدون بيان، ما هذا إلا إيهام. فالمهم أنه على طريقة ومنهاج أهل البدع وغيرهم أيضاً ممن يحرفون الكلم عن مواضعه بدون بيان من الله ورسوله يكون القرآن ليس هدىً ولا بياناً للناس وكذلك السنة، وهو خلاف هذه الآية وغيرها.

٣ ـ محبة الله عزّ وجل لهداية الخلق لأنه يبيِّن ليهتدي الناس، إذن فهو يحب من العباد أن يهتدوا.

٤ ـ إثبات العلل في أفعال الله سبحانه وتعالىٰ، تؤخذ من قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ لأن «لعل» للتعليل، والحكمة من مقتضى كماله عزّ وجل؛ فهو الحكيم العليم في أحكامه الكونية والشرعية كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

❁ ❁ ❁

تمّ بعون الله وتوفيقه المجلد الأول من تفسير سورة آل عمران
ويليه المجلد الثاني
وأوله تفسير قوله تعالى:
﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [١٠٤] إلى آخر السورة

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ... ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا... ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۚ... ۝٤﴾	٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ .	٢٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ... ۝٦﴾ ...	٢٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ... ۝٧﴾ .	٣٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا ... ۝٨﴾	٥٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ... ۝٩﴾	٥٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ... ۝١٠﴾ ..	٦٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ ... ۝١١﴾ ..	٦٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ ... ۝١٢﴾	٧١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ... ۝١٣﴾	٧٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ... ۝١٤﴾	٨٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ... ۝١٥﴾	٩٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا... ۝١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ ... ۝١٧﴾	١٠٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ... ۝١٨﴾	١١٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ... ۝١٩﴾	١٢٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ... ۝٢٠﴾ ...	١٣٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ... ۝٢١﴾	١٣٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا ... ۝٢٢﴾	١٤٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ... ۝٢٣﴾ ...	١٤٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ... ۝٢٤﴾	١٤٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ... ۝٢٥﴾	١٥١

الموضوع الصفحة

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ... ﴿٢٦﴾﴾ .. ١٥٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ... ﴿٢٧﴾﴾ ١٦٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ... ﴿٢٨﴾﴾ . ١٦٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ... ﴿٢٩﴾﴾ ١٧٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا... ﴿٣٠﴾﴾ . ١٨٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ... ﴿٣١﴾﴾ ١٨٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ ١٩٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ... ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ... ﴿٣٤﴾﴾ ٢٠٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا... ﴿٣٥﴾﴾ .. ٢١٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ... ﴿٣٦﴾﴾ ٢١٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا... ﴿٣٧﴾﴾ ٢١٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ... ﴿٣٨﴾﴾ . ٢٣٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ... ﴿٣٩﴾﴾ .. ٢٣٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى... ﴿٤٠﴾﴾ ٢٤٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ... ﴿٤١﴾﴾ ٢٤٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ ٢٥٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ... ﴿٤٤﴾﴾ . ٢٦١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ... ﴿٤٥﴾﴾ ٢٦٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ... ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ... ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ... ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم... ﴿٤٩﴾﴾ ٢٦٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ... ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ... ﴿٥١﴾﴾ ٢٩١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ... ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا... ﴿٥٣﴾﴾ ٣٠٢

الموضوع | الصفحة

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ... ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ ... ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا ... ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ... ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ ... ﴿٥٨﴾﴾ ٣١٦

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ... ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ... ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ... ﴿٦١﴾﴾ ٣٥١

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ... ﴿٦٢﴾﴾ . ٣٥٩

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ ٣٦٦

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ... ﴿٦٤﴾﴾ ٣٦٩

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ ... ﴿٦٥﴾﴾ ٣٧٦

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ ... ﴿٦٦﴾﴾ ٣٨٢

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ... ﴿٦٧﴾﴾ ٣٨٥

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ... ﴿٦٨﴾﴾ ٣٩٠

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ... ﴿٦٩﴾﴾ ... ٣٩٧

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ... ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ... ﴿٧١﴾﴾ ٤٠٢

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ ... ﴿٧٢﴾﴾ ٤٠٦

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ ... ﴿٧٣﴾﴾ ٤٠٧

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ... ﴿٧٤﴾﴾ ٤١٠

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ... ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ ... ﴿٧٦﴾﴾ ٤٢٣

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ ... ﴿٧٧﴾﴾ ٤٣٧

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ ... ﴿٧٨﴾﴾ ٤٤٧

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ ... ﴿٧٩﴾﴾ ٤٥٠

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ... ﴿٨٠﴾﴾ .. ٤٥٥

الموضوع | الصفحة

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ ... ﴿٨١﴾﴾ ٤٦١

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ ... ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ ... ﴿٨٣﴾﴾ ٤٦٣

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ ... ﴿٨٤﴾﴾ . ٤٨٢

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ... ﴿٨٥﴾﴾ ٤٩٧

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ... ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ ... ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ... ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ... ﴿٨٩﴾﴾ ٥٠٢

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ... ﴿٩٠﴾﴾ ٥٢٠

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ ... ﴿٩١﴾﴾ ... ٥٢١

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ... ﴿٩٢﴾﴾ ٥٢٤

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا ... ﴿٩٣﴾﴾ ٥٢٩

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ... ﴿٩٤﴾﴾ ٥٣٥

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ... ﴿٩٥﴾﴾ ٥٤٢

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى ... ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ ... ﴿٩٧﴾﴾ ٥٤٦

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ... ﴿٩٨﴾﴾ ٥٦١

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ... ﴿٩٩﴾﴾ ... ٥٦٤

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ ... ﴿١٠٠﴾﴾ . ٥٧٠

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ... ﴿١٠١﴾﴾ ٥٧٣

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ ... ﴿١٠٢﴾﴾ ٥٨٧

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ... ﴿١٠٣﴾﴾ .. ٥٩٤

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (٧٣)

تفسير القرآن الكريم

سورة آل عمران

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الثاني

دار ابن الجوزي

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير

القرآن الكريم

سورة آل عمران

٢

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ١٤٢٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير القرآن الكريم (سورة آل عمران). / محمد بن صالح العثيمين .- الرياض، ١٤٢٦هـ.
٢ مج
ردمك: ٧ ـ ٢١١ ـ ٤٩ ـ ٩٩٦٠ (مجموعة)
٣ ـ ٢١٣ ـ ٤٩ ـ ٩٩٦٠ (ج٢)
١ ـ القرآن ـ التفسير الحديث أ ـ العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٢٦/٤٢٨٦

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
إلا لمن أراد طبعه لتوزيعه مجاناً بعد مراجعة
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
عنيزة ـ ص ب ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
www.binothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الطبعة الثالثة
١٤٣٥هـ

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٥٧
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٣ - الرقم الإضافي: ٨٤٠٦ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ - الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٨١٣٧٠٦ - ٠٥٦٣٤٧٦٣٨٨ - بيروت
هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨
تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:
aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

□ ثم قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤ ـ ١٠٥]:

قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ اللام في قوله: ﴿وَلْتَكُن﴾ لام الأمر، ودليل ذلك جزم الفعل بها ﴿وَلْتَكُن﴾ ولام الأمر تجزم الفعل المضارع ﴿أُمَّةٌ﴾ طائفة يدعون إلى الخير، والأمة في القرآن الكريم وردت على معان متعددة، منها الطائفة، ومنها الزمن، ومنها الإمامة، ومنها الملة، فمثالها في الطائفة هذه الآية ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾، ومثالها في الملة قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، أي على ملة، ومثالها في الإمامة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] ومثالها في الزمن: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، أي بعد زمن.

﴿مِّنكُمْ﴾ (مِنْ) يحتمل أن تكون للتبعيض، ويحتمل أن تكون لبيان الجنس، فعلى الأول يكون المعنى: وليكن بعضكم يدعو إلى الخير، وعلى الثاني: ولتكونوا جميعاً دعاة إلى الخير؛ لأننا إذا جعلناها لبيان الجنس صار المعنى أن كل الأمة يجب أن تكون من هذا الطراز، يعني: ولتكونوا أمة تدعون إلى الخير، وإذا جعلناها للتبعيض صار المعنى: وليكن بعضكم يدعو إلى الخير.

قال: ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ كل من تتوجه الدعوة إليه، أي إنسان تتوجه الدعوة إليه فليدعوه حتىٰ الجن، ولهذا كان المفعول محذوفاً من أجل العموم ﴿ٱلْخَيْرِ﴾ كل ما جاء به الشرع فهو خير، ويشمل ما كان خيراً في الدين وما كان خيراً في الدنيا، أما ما كان خيراً في الدين فأمره ظاهر ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] وأما ما كان من أمر الدنيا فلأن ما كان من مصالح الدنيا التي لا تعارض الدين فهو من الأمور الخيرية المطلوبة، فيكون الخير هنا يشمل خير الدين وخير الدنيا، فمثلاً يدعون إلى فعل الطاعات، صَلِّ، زكِّ، صُم، حُج، بر والديك، صِلْ أرحامك، انصح في البيع والشراء، بيِّن، وما أشبه ذلك، كل هذا دعوة إلى الخير. لا تزنِ، لا تسرق، لا تشرب الخمر، لا تقتل النفس بغير حق، لا تعق والديك، لا تقطع أرحامك، لا تغش الناس، هذا أيضاً دعوة إلى الخير؛ لأن النهي طلب كفٍّ فهو في الحقيقة دعوة إلى الخير؛ لأن ترك الشر خير.

﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾:

جعل الأمر بالمعروف بعد الدعوة؛ لأن الدعوة سابقة على الأمر، فأنت تدعو أولاً ثم تأمر ثانياً ثم تغير ثالثاً، وهذا يلتبس على كثير من الطلبة، يظنون أن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتغيير المنكر شيء واحد، والأمر ليس كذلك، فالدعوة إلى الخير عامة. الخطيب إذا خطب الناس في الجمعة وأمر ونهى، يقال: داع إلى الخير، الرجل إذا قال: يا أخي صلِّ، اتق الله يا أخي، لا تغش الناس، اتق الله، فهذا أمر بمعروف ونهي عن منكر. ولي الأمر إذا رأى آلة عزف وكسرها

هذا تغيير منكر، ولكلٍّ درجات. وكلمة (يأمرون) تدل على أنهم يتكلمون مع الناس على وجه الاستعلاء لا على وجه العلو، يعني على وجه أنني آمر، والآمر بالخير أعلى مرتبة من المأمور.

وقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ المعروف كل ما عرفه الشرع وأقره من العبادات فعلاً؛ لأنه قال: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، جمع بينهما، فصار المراد بالمعروف كل ما عرفه الشرع وأقره من العبادات المأمور بها، فالأمر بالتوحيد أمر بالمعروف، والأمر باتباع السلف في العقيدة أمر بمعروف، والأمر بالصلاة أمر بمعروف، والأمر ببر الوالدين أمر بالمعروف، وهلم جرا.

ثالثاً: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾:

النهي طلب الكف على وجه الاستعلاء، يعني يطلبون من الناس أن يكفوا عن المنكر، والمنكر ما أنكره الشرع من الأعمال والأخلاق، فالزنا، والسرقة، وشرب الخمر، وقتل النفس، والعدوان على الناس بأخذ أموالهم وانتهاك أعراضهم، كل هذه منكرات، فهم ينهون عن المنكر.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾:

(أولئك) المشار إليه الأمة الداعية إلى الخير، الآمرة بالمعروف، الناهية عن المنكر، وهي مبتدأ، و«**هم**» ضمير فصل لا محل له من الإعراب، والمفلحون خبر المبتدأ، فلو قال قائل: لماذا لا تجعلون «هم» مبتدأ ثانياً، و«**المفلحون**» خبر المبتدأ الثاني، والجملة خبر المبتدأ الأول؟ قلنا: لا نقول ذلك، لأننا لو قلنا ذلك لفاتتنا فوائد ضمير الفصل، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠] ووجه الدلالة أنه لم

يجعل ضمير الفصل مبتدأ، فلو جعل مبتدأ لقال (إن كانوا هم الغالبون) حتى تكون الغالبون خبر لـ«هم». و﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ هم الناجون من الكربات، الحاصلون على المطلوبات، فالفلاح هو النجاة من المكروبات أو من المكروهات والحصول على المطلوبات، ففيه أمران:

١ ـ سلامة.

٢ ـ وكسب.

ولهذا تعتبر كلمة الفلاح من أجمع الكلمات، فالمفلح هو الفائز بمطلوبه، الناجي من مرهوبه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾:

نهى الله أن نكون مثل هؤلاء الذين جمعوا بين وصفين ذميمين: التفرق والاختلاف، ورتَّب على هذا الجزاء المشين وهو قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟﴾ أي لا تصيروا مثل الذين، وعلى هذا فنعرب الكاف هنا اسماً لتكون خبر (تكون): تكونوا مثل الذين تفرقوا، قال ابن مالك:

شبه بكاف وبها التعليل قد ... يعنىٰ وزائداً لتوكيد ورد

واستعمل اسماً. فالكاف هنا اسم بمعنى مثل، وهي خبر «تكون».

وقوله: ﴿كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟﴾: أتى بها بعد قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ لأن الأمة إذا تركت الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

فلا بد أن تتفرق؛ لأنه لا يكون لهم في هذه الحال كلمة جامعة، كل واحد يعمل على هواه لأنه ما يُدعى إلى الخير، والنفوس لها نزعات متباينة مختلفة، وكذلك أيضاً إذا لم يكن أمر بمعروف ولا نهي عن منكر تفرق الناس ولا بد؛ لأن هذا يريد الزنا، وهذا يريد شرب الخمر، وهذا يريد السرقة، وهذا يريد أشياء غير الأولى فيحصل التفرق، فإذا أمروا بالمعروف صاروا كلهم على المعروف، وإذا نهوا عن المنكر صاروا كلهم على ترك المنكر.

قال: ﴿كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ﴾ مثل من قال فيهم: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] وأول من مثّل بهم أهل الكتاب [اليهود والنصارى] حيث اختلفوا اختلافاً عظيماً من بعد ما جاءتهم البينات، فنهانا الله تعالى أن نكون مثلهم في التفرق والاختلاف.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ وإذا نُهينا عن ذلك فهو أمر بضده، يعني إذا نُهينا عن التفرق والاختلاف فهو أمر بالاجتماع والائتلاف، الاجتماع ضد التفرق، والائتلاف ضد الاختلاف، كأن الله يقول: اجتمعوا وائتلفوا، ولا يكن فيكم افتراق ولا اختلاف فتكونوا مثل اليهود والنصارى.

﴿تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ﴾ تفرقوا في أبدانهم ولم يجتمعوا، وصاروا أحزاباً، واختلفوا في قلوبهم وفي مناهجهم، فصار لكل حزب منهجٌ معين يفرح به ولا يتزحزح عنه، ويرى أن من سواه على ضلال.

قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أشار إليهم بصيغة البعد لأن أولاء اسم إشارة للبعيد، وذلك لانحطاط مرتبتهم،

يعني كأنهم لانحطاط مرتبتهم أنزلهم المتكلم منزلة البعيد منه لأنه يتبرأ منهم ومن أعمالهم.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ العذاب هو العقوبة ـ والعياذ بالله ـ لأنه يؤلم صاحبه ويعذبه، والعظيم هو الشيء المستعظم في كيفيته وفي كميته؛ لأن عذابهم ـ نسأل الله العافية ـ شديد متنوع، يسقون من ماء حميم ـ والعياذ بالله ـ إلى برودة كذلك، كما أنه عظيم في دوامه مستمر أبدي، نسأل الله العافية.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ في الأولى وجوب الدعوة إلى الخير، تؤخذ من لام الأمر ﴿وَلْتَكُن﴾ والأصل في الأمر الوجوب.

٢ ـ أن ذلك على الكفاية؛ لقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ وهذا على القول بأن (مِن) للتبعيض، أما إذا قيل إن (مِن) لبيان الجنس فإنه يدل على أنه يجب على الأمة كلها أن تكون أمة داعية إلى الخير، بمعنى أنه لا ينتظر بعضهم بعضاً هل يأمر أو لا يأمر، بل كلهم يكونون مستعدين لذلك. كلهم دعاة، فمثلاً: إذا قيل لشخص: قُم وادع إلى الخير قال: فلان يدعو إلى الخير وفيه كفاية، هذا لا ينبغي، بل ينبغي أن يدعو إلى الخير ما استطاع؛ لأنه قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ تكن أمة بمجموعها تدعو إلى الخير.

٣ ـ ملاحظة الإخلاص؛ لقوله ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ لا إلى أنفسهم؛ لأن بعض الناس يدعو إلى نفسه، وبعض الناس يدعو إلى الخير، وعلامة الداعي إلى نفسه أنه لا يريد من الناس أن يخالفوه ولو كان على خطأ، وهذا لا شك أنه داع إلى نفسه، ثانياً: من علامة ذلك أنه يكره أن يقوم غيره بذلك، أي بالدعوة إلى

الخير يريد أن يستبدَّ به من بين سائر الناس، هذا أيضاً داع إلى نفسه ليصرف وجوه الناس إليه، نسأل الله الحماية والعافية. أما إذا كان يودُّ أن يقوم هو بالأمر لينال الأجر لا ليحرم غيره أو ليصرف الناس إلى نفسه فهذا ليس عليه شيء، يعني كل واحد يحب أن يكون داعية إلى الخير.

٤ ـ أن اتباع الخير في كل شيء مطلوب للشرع.

والخير قسمان:

خير بنفسه وخير لغيره، يعني خير يكون وسيلة لغيره، فمثلاً: لو أنك سألت شخصاً عن المجريات اليومية من أجل إدخال السرور عليه، وأنت ما تستفيد من هذا، فهذا من الخير لغيره؛ لأنك ما تستفيد من هذا وهو ربما لا يستفيد لكن تريد أن تدخل السرور عليه، ومن ثَمَّ صار الناس يتساءلون: هل يسن للإنسان أن يتحدث على الأكل أو لا يسن؟ نقول: يُنظر إن كان الإنسان يتحدث ليشغلهم عن الأكل فهذا غير حسن، وإن كان يتحدث من أجل أن يشحذ نفوسهم على الأكل حتى ينبسطوا ويستأنسوا ويأكلوا، فهذا خير لغيره بشرط أن يكون الأكل بالقدر الشرعي. والقدر الشرعي بيَّنه الرسول ﷺ بقوله: «**بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»[1]. لكن الخير لغيره يختلف، فلو أراد الإنسان أن يتوصل إلى خير بشرٍّ كأن يصانع

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم (٢٣٨٠). ورواه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، رقم (٣٣٤٩). ورواه أحمد في مسنده، رقم (١٦٧٣٥).

إنساناً بمعصية يقول لعله يهتدي، مثل أن يغتاب زيداً أو عمراً ليتقرب إلى هذا الرجل، فهذا ليس بجائز، لا يمكن أن تكون الدعوة إلى الخير بوسيلة محرمة إطلاقاً؛ لأن الوسيلة المحرمة خبث في ذاتها، كيف تكون وسيلة إلى خير، لكن إذا كان من المباح صار خيراً لغيره، وإن كان هو بنفسه خيراً صار خيراً على خير.

٥ ـ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لقوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهل هو فرض كفاية أو فرض عين؟ ينبني على الخلاف في (مِنْ) هل هي تبعيضية أو لا؟ ولا شك أننا إذا رأينا منكراً وجب علينا أن ننكره وننهى عنه، لكن لا يجب على كل واحد أن ينهى عن منكر معين، مثلاً لو أن شخصاً اغتاب عندنا ونحن عشرة هل نقول: كلنا ننهى عنه أو إذا نهى واحد وحصلت به الكفاية كفى؟ لكن لو أنه نهاه ولم ينته وجب على الآخرين أن يكونوا معه، وهذا عكس ما يفعله بعض الناس الآن ـ نسأل الله العافية ـ إذا نهى الناهي عن المنكر قاموا ضده، هؤلاء يخشى عليهم أن يطبع الله على قلوبهم؛ لأنهم خذلوا من يجب نصره، وهذا خطر عظيم جدًّا.

٦ ـ أنه لا بد من العلم يعني الحث على العلم؛ لأنه لا يمكن أن يدعو إلى الخير من لا يعلم الخير، ولا يمكن أن يأمر بالمعروف من لا يعرف المعروف، ولا يمكن أن ينهى عن المنكر من لا يعرف المنكر، فلا بد من العلم، فيستفاد من هذه الآية الكريمة الحث على العلم؛ لأنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ويشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يلي: -

الشرط الأول: العلم بالشرع، والعلم بالحال، العلم بالشرع بأن أعرف أن هذا مما أمر الله به حتى آمر به، أما إذا كنت لا أدري هل هو مأمور به أو لا؛ فلا يحل لي أن آمر به؛ لأن الله يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ويقول عزّ وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

والعلم بالحال بأن أعلم أن هذا الرجل ترك المعروف أو فعل المنكر، أما أن آمره بالمعروف وأنا لا أدري هل فعله أو لا، فهذا لا يجوز؛ لأن هذا من قَفْوِ ما ليس لي به علم، وكذلك لو نهيته عن منكر وأنا لا أدري هل ارتكب المنكر أو لا، فإن ذلك لا يجوز؛ لأنه من قَفْوِ ما ليس لي به علم، مثال ذلك: دخل المسجد رجل فجلس وأنا لم أره من حين دخل، فهل أقول له: قُمْ فصلِّ ركعتين أو أسأله هل صلَّى أو لم يصلِ؟ الثاني لأن الرسول ﷺ كان يخطب الناس يوم الجمعة فدخل رجل فجلس، فقال: «**أصليت؟**» قال: لا، قال: «**قُمْ فصلِّ**»[1] ولم يأمره: قم صلِّ، لماذا تجلس حتى استفهمَ، وهذا مثال على الأمر بالمعروف، أما المثال عن النهي عن المنكر: وجدت شخصاً

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب من جاء والإمام يخطب صلى ركعتين خفيفتين، رقم (٩٣١). ورواه مسلم، كتاب الجمعة، باب التحية والإمام يخطب، رقم (٨٧٥).

يمشي وإلى جانبه امرأة قلت: يا أخي اتق الله كيف تمشي مع المرأة؟ هذا لا يجوز؛ لأنه من الممكن أن تكون هذه المرأة من محارمه، فكيف تنهى عن شيء على أنه منكر وأنت لا تعلم أنه منكر. إذن لابد من العلم بالحال حال المأمور وحال المنهي، كما أنه لا بد من العلم بالشرع: أن أعلم بأن هذا من المعروف الذي أمر به الشرع أو من المنكر الذي نهى عنه الشرع.

أما ما ينتشر عند بعض الناس من قولهم: يعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه، ويعين بعضنا بعضاً فيما اتفقنا فيه، هل لهذه الكلمة أصل في الشرع؟

هذا غلط في الجملتين جميعاً، الجملة الأولى (يعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه) فهي كقول بعض الفقهاء: لا إنكار في مسائل الاجتهاد؛ لأن هذه العبارة معروفة عند الفقهاء، وهذا على إطلاقه ليس بصحيح، فما اختلفنا فيه إن كان الحق لم يتبيَّن فيه تبيناً لا يعذر فيه المخالف فهنا نعم نعذره لأنه له رأي ولنا رأي، أما إذا كان الحق واضحاً فإن من خالفنا لا نعذره في ذلك، فهي على إطلاقها غير صحيحة.

وأما الثانية وهي قوله: (يعين بعضنا بعضاً فيما اتفقنا فيه) فهذا غير صحيح أيضاً؛ لأننا لو اتفقنا على باطل لم يحلّ أن يعين بعضنا بعضاً بل وجب أن ينهى بعضنا بعضاً عن هذا الباطل، فهو أيضاً على إطلاقه لا يصح، ولعلَّ الذي قاله يقصد ما ليس بباطل ولا يخالف الشريعة، لكن الجملة الأولى دخل فيها أناس عندهم انحراف في العقيدة وفي المنهج والإسلام يسعهم وقالوا: نحن يجب أن نستظل بظل الإسلام وإن اختلفنا، ولذلك تجدهم

يُدخلون في حزبهم الفاسق حالق اللحية، شارب الدخان، المتهاون بالصلاة وما أشبه ذلك، وهذا خطأ، وفي المقابل الذي يريد من الناس أن يكونوا صلّاحاً في كل دقيق وجليل وإلا فليسوا إخواناً لنا، وهذا أيضاً خطأ.

على كل حال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] فانظر للحكمة، أحياناً يكون الإنسان المدعو غضبان بسبب مؤثرات خارجية، فلا تتحمل نفسه أن يقبل منك حتى ولو كان كلاماً عادياً، وأحياناً يكون راضياً ومنبسطاً تقدر أن تضرب له الأمثلة حتى يهديه الله، ولهذا يخطئ بعض الناس ـ مثلاً ـ إذا قابل شخصاً ولم يعامله المعاملة اللائقة به، نفر منه، فمثل هذه الأمور لا ينبغي للإنسان أن يحكم على الشخص بمجرد أنه دعاه مرة ونفر. انظر للوقت الذي تراه فيه متقبلاً وادعه إلى الحق.

فإن قيل: أيهما أولى، دعوة العاصين في هذه البلاد أو دعوة الكفار في الخارج؟

فالجواب: يقول الله عزّ وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤، ٢١٥] فالواجب أن تصلح الأحوال التي عندك، ثم بعد ذلك تحاول إصلاح الخارج، لكن إذا كان في الداخل من يقوم بالدعوة وأردت أن تخرج للدعوة في الخارج فلا مانع من ذلك.

الشرط الثاني: أن لا يتغير المنكر إلى ما هو أنكر منه؛ لأن النهي عن المنكر يراد به تقليل المنكر، فإذا كان يترتب عليه أن يقع المنهي عن المنكر في منكر أعظم؛ فإنه لا ينهى عنه، فلو فرضنا أن شخصاً يشرب الدخان. ولا شك أن شربه منكر لكن

لو نهيناه لذهب يشرب الخمر؛ فلا ننهاه عن هذا، لأننا نعلم أنه سينتقل إلى منكر أكبر نكارة مما هو عليه، ومن ذلك ما يذكر عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنه مرَّ ومعه صاحب له بطائفة من التتار يشربون الخمر فلم يقل لهم شيئاً. فسأله صاحبه: لماذا لا ننكر عليهم؟ قال: هؤلاء لو أنكرنا عليهم لذهبوا ينهبون أموال الناس ويستحلون حرماتهم فيتعدى ضررهم، أما شربهم الخمر فهو على أنفسهم، ودليل هذا الشرط قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] فهنا نهى الله المسلمين أن يسبوا أصنام الكفار مع أن هذه الأصنام جديرة بأن تسبّ وسبّها قربة، لكن لما كان يترتب على سبِّها مفسدة أكبر نهى الله عن سبِّها، مع أن السكوت عن سب آلهة المشركين حُكمهُ أنه منكر. لكن نسكت على هذا المنكر الأخف درءاً لمنكر أعظم، إذن لا بد من هذا الشرط.

الشرط الثالث: أن يعلم أن هذا مفيد، بمعنى أنه يحتمل عنده أن هذا الفاعل للمنكر أو التارك للواجب كان على جهل، وأنه قريب الرجوع إلى الحق، فإن كان يعلم أن صاحبه عالم بالحكم لكنه متمرد مستكبر فإنه لا يجب حينئذٍ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مثلاً حلق اللحية اليوم معروف عند عامة الناس وأكثر الناس أنه حرام، لكنه يمرّ بك عشرة قد حلقوا لحاهم وعشرة قد أعفوا لحاهم، يعني نصف الناس تقريباً قد حلقوا لحاهم، فهل يلزمك كلما رأيت شخصاً حالقاً لحيته في الشارع أن توقفه وتقول له: اتق الله لا تحلق لحيتك؟

نقول: ننظر قد يكون هذا الرجل تتراءىٰ فيه الخير، وأنك

إذا نصحته امتثل، وقد يغلب على ظنك أنه رجل عارف بالحكم لكنه مستكبر عنه أو متهاون به، المهم أن بعض أهل العلم يرى أن هذا من شرط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وربما يستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩] ذكّر إن نفعت يعني فإن لم تنفع فلا تذكّر، قال: فإذا كان التذكير وهو دعوة للخير لا يجب إلا إذا نفع؛ فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من باب أولى؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أشد من الدعوة إلى الخير، فكل إنسان يستطيع أن يدعو وليس فيه شيء عليه، لكن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر هو الذي قد يجد أذية من المأمور أو المنهي.

وهذه المسألة في النفس منها شيء، قد نقول: إن عليه أن يأمر وينهى وأن ذلك لا يخلو من فائدة لو لم يكن من فائدته إلا علم الناس بأنه معروف أو بأنه منكر لكفى، لأننا إذا سكتنا بحجة أن الأمر لا ينفع أو أن النهي لا ينفع؛ بقيت المنكرات على ما هي عليه، وبقي التهاون بالواجبات على ما هو عليه، وصار الشباب الذين يخرجون من جديد يظنون أن هذا المنكر معروف، وأن المعروف ليس بمعروف، ولهذا في هذا الشرط نظر، بل نقول: يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سواء ظننت أنه مفيد أم لم يفد. لكن في حدود الاستطاعة؛ لأن جميع الواجبات إنما تجب بالاستطاعة ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] فإذا كان يشق على الإنسان أن يمسك كل واحد يمرّ به في السوق على منكر من حلق لحية أو غيره فإنه لا يلزمه، لا يلزمه إلا ما يقدر عليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

الشرط الرابع: أن يكون الآمر بالمعروف فاعلاً له، والناهي عن المنكر تاركاً له. يعني لا تأمر بالمعروف وأنت لا تفعله، ولا تنه عن منكر وأنت تفعله. فإذا كان هذا الرجل مثلاً يتعامل بالربا ووجد إنساناً يتعامل بالربا فإنه لا يلزمه ولا يجب عليه أن يقول للثاني: يا فلان اترك الربا، فإن الربا حرام ملعون فاعله، لأنه هو يفعله، فكيف ينهى عن شيء يفعله هو؟

مثال آخر: شخص رأى رجلاً يمشي بعد الأذان عند المسجد، وقد ترك المسجد، فقال: يا فلان حرام عليك أن تترك صلاة الجماعة، ثم إنَّ هذا الآمر فتح بابه وذهب إلى أهله بعد أن أمر الرجل أن يصلي، أما هو فلم يصلِّ، فينبغي عليك إذا كنت قد نويت أن تدخل بيتك عند أهلك ولو فاتتك الجماعة، فلا تأمر غيرك أن يصلي مع الجماعة، واستُدل لذلك بقوله تعالى: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] فوبّخ الله هؤلاء على أمرهم بالبر، ونسيان أنفسهم. وبيَّن أن هذا خلاف العقل، كيف تأمر الناس وتترك نفسك؟ هذا ليس بمعقول! فأنتم خالفتم الشرع وأنكرتم العقل، واستُدل أيضاً بما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه «**يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار حتى تندلق أقتاب بطنه (يعني أمعاءه) فيدور عليها كما يدور الحمار على رحاه، فيجتمع عليه أهل النار ويقولون: ما لك يا فلان؟ ألست تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»[1]. قالوا: وهذا يدل على شدة عقابه إذا أمر

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٦٧).

بالمعروف ولم يأته أو نهىٰ عن منكر وأتاه. فلا يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على من لا يفعل المعروف ولا يترك المنكر، وأبى هذا أكثر أهل العلم وقالوا: إن هذا خلاف الأدب لكنه محرم، يعني كونه يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله، وخلاف العقل لكنه حرام عليه، فيجب أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويبدأ بنفسه، فإذا فَرَّط في حق نفسه فليس له الحق في أن يُفَرِّط في حق غيره. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب عليه ولو كان هو لا يفعل المعروف ولا ينتهي عن المنكر، لأنه لو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع كونه لا يفعل المعروف ولا ينتهي عن منكر فقد أتى محذورين: ترك الواجب على نفسه لنفسه، وترك الواجب على نفسه لغيره، الواجب عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولو كان هو لا يأتمر بالمعروف ولا ينتهي عن المنكر، وهذا القول هو الصحيح، وعليه أن يوبخ نفسه ويقول: كيف آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه؟ هذا خلاف المعقول والمنقول، وخلاف الأدب مع الله، وخلاف الأدب عند عباد الله، ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام من أوصافه الذي وصفه بها ملك غسان قال: (**إنه ما أمر بشيء إلا كان أول فاعل له، ولا نهى عن شيء إلا كان أول تارك له**) عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال الله له: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، ليس معنى (أول المسلمين) زمناً لأن هناك أمماً مسلمة قبله لكن أول المسلمين فعلاً، يعني أنا أول المستسلمين لله والمنقادين

لأمره، فهي أولية مرتبة وليست أولية زمن، ويذكر عن عبد الرحمٰن بن الجوزي رحمه الله الواعظ المشهور صاحب كتاب التبصرة، وكان له مجلس كل يوم جمعة وفيه يعظ الناس ويحضره آلاف، حتى إنه لا ينفك يوم من الأيام إلا وقد مات في مجلسه عدد من الناس من شدة وقع الموعظة في نفوسهم، فأتاه يوماً من الأيام رجلٌ عبد فقال له: يا سيدي إن لي سيداً يؤذيني ويتعبني ويحملني ما لا أطيق، ويضربني عليه، فأرجو منك أن تحث الناس على العتق لعل الله أن يهديه فيعتقني، فلما جاءت الجمعة انتظر هذا العبد كلام الشيخ فلم يتكلم عن العتق، ثم جاءت الجمعة الثانية والثالثة ولم يتكلم، وبعد عدة جُمَعٍ تكلم عن العتق وإذا سيد العبد حاضر فأعتقه فوراً، فذهب العبد إلى عبد الرحمٰن بن الجوزي رحمه الله وقال: لماذا تأخرت؟ قال: لم يكن عندي دراهم أشتري بها عبداً فأعتقه قبل أن آمر الناس بالعتق. سبحان الله يقول: لا أحث الناس على العتق وأنا لم أعتق، إذا أعتقت مملوكاً أمرت الناس أو حثثت الناس على العتق، وهذا أمر مشاهد أن فاعل المعروف ينقاد الناس لأمره، وتارك المنكر ينقاد الناس لنهيه؛ لأن الناس يبصرون بأعينهم وبصائرهم ويقولون للذي يأمر بالمعروف وهو لا يفعله: هذا يضحك علينا، وهذا يلعب بعقولنا لو كان الأمر معروفاً عنده لماذا لا يكون هو أول فاعل له، ولو كان المنكر عنده منكراً لماذا لا يكون أول تاركٍ له، فلذلك لا شك أنه من الأدب أن يكون الآمر فاعلاً لما أمر به، والناهي تاركاً لما نهى عنه، أما أن يُجعل ذلك شرطاً في الوجوب ونقول لهذا الذي لا يفعل المعروف ولا ينتهي عن

المنكر: لا يجب عليك الأمر بالمعروف ولا النهي عن المنكر، ولا تأثم بتركه، فهذا بعيد جدًّا؛ لأن الذين يقولون: من شرط الوجوب أن يكون فاعلاً لما أمر به تاركاً لما نهى عنه يقولون: إنه إذا لم يأمر بالمعروف ولم ينهَ عن المنكر في هذه الحال فإنه لا إثم عليه؛ لأن من شرط الوجوب أن يكون هو ممتثلاً. وبهذا يتبين ضعف هذا القول، وأن الواجب عليه أن يأمر بالمعروف ولو كان لا يفعله، وأن ينهى عن المنكر ولو كان يفعله، لكن يجب أن يوبخ نفسه أيضاً وتكون نفسه هي أول من يأمره بالمعروف وأول من ينهاه عن المنكر، فالشروط إذن خمسة.

ومن آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا الواجب، أن يكون ليناً في أمره ليناً في نهيه؛ لأن اللين خلق كريم يعطي الله سبحانه وتعالىٰ به ما لا يعطي على العنف كما قال النبي عليه الصلاة والسلام ذلك[1]، وكما أرشد الله إليه موسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون، فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] يتذكر فيما تأمرانه به، أو يخشى فيما تنهيانه عنه. مع أنه مِن أعتى أهل الأرض، إن لم يكن أعتى أهل الأرض، فعلى كل حال من الآداب أن يكون الإنسان ليناً في أمره ونهيه. ومن الآداب أيضاً أن يكون مقنعاً في حجته؛ لأنه إذا أمر بالمعروف قد يقول المأمور: ما دليلك على هذا؟ وإذا نهى عن منكر قد يقول: ما دليلك على هذا؟ فلا بد أن يكون عنده إقناع،

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب من الرفق، رقم (٤٨٠٨)، وابن ماجه، كتاب الأدب، باب الرفق، رقم (٣٦٨٨).

وليعلم أن مسألة الإقناع غير مسألة العلم، بعض الناس يكون عنده علم لكن لا يستطيع أن يقنع غيره، ليس عنده قوة حجة وبيان، وبعض الناس يكون أقل علماً منه لكن عنده قوة إقناع، فلا بد أن تتمرن على قوة الإقناع ولو بضرب الأمثال؛ لأن ضرب الأمثال يقرّب.

يوجد الآن مثلاً طائفة معروفة تدعو إلى الله وتخرج للدعوة إلى الله، وعندهم من الإقناع للعامة ما لا يوجد عند بعض أكابر العلماء، ولهذا تجدونهم يؤثرون تأثيراً عظيماً؛ لأن عندهم أسلوب في الإقناع، والإنسان إذا كان عنده أسلوب وأمر غيره وقال له: ما دليلك؟ قال: هذا الدليل ثم ضرب له أمثلة معقولة، فهذا لا شك أنه من آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويذكر عن رسول الله ﷺ في حديث رواه الإمام أحمد أن رجلاً استأذن النبي ﷺ في الزنا، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: **«أترضى أن يفعل هذا بأمك وأختك وذات رحمك؟** قال: لا ما أرضى، قال: **إذا كنت لا ترضى أن يفعل ذلك بمحارمك، فكيف ترضى أن تفعله أنت بمحارم الناس»**[1]. هذا أسلوب مقنع، يعني مجرد أن يتصور الإنسان هذه المسألة يبتعد، أنت لو ترى شخصاً يغازل أختك أو زوجتك أو بنتك ماذا تفعل؟ لا شك أنك لا ترضى بذلك. فكيف أنت ترضى لنفسك أن تغازل بنات الناس، أو أشد من ذلك تزني والعياذ بالله. هذه من الأساليب التي ينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون على دراية بها وإجادة.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢١٧٠٨).

ومن الآداب أيضاً أن يصبر على الأذى والمحاجة والمخاصمة لا سيما إذا كثر الجدل في الناس فليصبر؛ لأن الله تعالى حكى عن لقمان أنه قال لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] لا بد لكل آمر من أن يصاب بأذى، وبعض الناس ربما يثقل عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن لم يصب بأذى لكن لم تتقبل دعوته أو لم يتقبل أمره أو نهيه فيضيق صدره ولا يأمر ولا ينهى، هذا ليس بصحيح، مُرْ بالمعروف، وانه عن المنكر، واصبر على ما أصابك، وانظر إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ماذا أصابهم من الأذى، أصابهم أذى عظيم، طعن في أجسادهم، وطعن في عقولهم، وطعن في أهدافهم، كل شيء طعن فيه ومع ذلك هم صابرون، أوذي موسى عليه الصلاة والسلام بأنواع من الأذى، وأوذي أول الأنبياء نوح كلما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه: ﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ [هود: ٣٨، ٣٩] وأوذي خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، أوذي أذى عظيماً من أقرب الناس إليه، هل قريش فعلت بأي واحد من الناس دخل المسجد الحرام وجعل يصلي تحت الكعبة وسجد لله عزّ وجل، هل آذوا أحداً من الناس بأن أتوا بسلا الجزور ووضعوه عليه وهو ساجد؟ أبداً، لكن الرسول فعلوا به هذا وصبر. هل كانوا يأتون بالأذى والقذر والأنتان يضعونها على أبواب الناس في مكة؟ لا، لكن الرسول فعلوا به هذا وصبر.

فالواجب أن يصبر الإنسان وأن يحتسب هذا الصبر على الله، وهذا الصبر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أعظم أجراً

من الصبر على أعظم مصيبة تنال الإنسان في أقرب الناس إليه؛ لأن هذا صبر على أذى في الله ليس صبراً على أقدار الله، هذا صبر على أذى في الله عزّ وجل فاحتسب الأجر من الله واصبر على ما أصابك. ومما يصيب الإنسان الأذى بالقول، الأذى الجدلي مثل أن تأمره بالمعروف فيقول: علِّم نفسك، أو يقول: رُح أدِّب أبناءك. وما أشبه ذلك. بعض الناس يفور دمه ويغضب غضباً شديداً فنقول: يا أخي اصبر هذه مسألة بسيطة، إذا قال لك: علِّم أبناءك. قل: يا أخي لا بأس جزاك الله خيراً لكن أنا أعلّمهم وأعلمك أنت الآن. إذا احتدم هذا الرجل وأخذته العزة بالإثم فلِن أنت، لأن المشكل أن تقابل الحدة بمثلها، أما إذا قوبلت بهدوء صارت المسألة طبيعية، لذلك أقول: إنه يجب علينا أن نصبر، وإذا رأينا الناس قد شدوا الحبل أرخيناه، وإذا رأينا ليناً جذبناه.

هذه إذن ثلاثة آداب ينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يتأدب بها، وإذا أضفنا الشرط الخامس أن من الآداب أن يكون هو أول فاعل لما يأمر به وأول تارك لما ينهى عنه، صارت الآداب أربعة، وشروط الوجوب أربعة.

٧ ـ فضيلة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففي الآية دليل على فضيلة هذه الخصال قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ إذا خسر الناس فهؤلاء هم المفلحون الرابحون.

٨ ـ النهي عن التفرق؛ لقوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ﴾ وقد ذكرنا في التفسير أن المراد بذلك تفرق القلوب لا الآراء؛ لأن تفرق الآراء أمر لا بد منه؛ لأن الناس يختلفون في العلم

والحفظ والفهم والإيمان والعمل، وكل هذه الأمور الخمسة كلها من أسباب اختلاف الناس، لا يمكن أن يتفق الناس في الرأي لكن الواجب اتفاق القلوب.

٩ ـ أن ترك الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للتفرق؛ لأنه أعقب الآية السابقة بهذه الآية مما يدل أن ترك الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للتفرق.

١٠ ـ أن التفرق بعد أن تبيّن الحق أشد قبحاً من التفرق حين خفاء الحق، يؤخذ من قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾. وذلك لأنه إذا جاءت البينات واتضح الحق فلا وجه للتفرق، لكن إذا كان الحق خفياً فقد يحصل التفرق، والحق ـ ولله الحمد ـ في هذه الشريعة واضح بيِّن لأنه في كتاب الله المحفوظ إلى يوم القيامة.

١١ ـ الوعيد الشديد على الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

١٢ ـ أن العقاب يختلف باختلاف الجرم؛ لأنه لما كان فعل هؤلاء عظيماً كان عذابهم عظيماً.

❁ ❁ ❁

❑ قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦]:

قوله: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ﴾ يحتمل أنها جملة استئنافية متعلقة بمحذوف تقديره: اذكر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه،

يعني اذكر هذا اليوم الذي ينقسم فيه الناس إلى هذين القسمين، ويحتمل أنها متعلقة بالخبر؛ لقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [آل عمران: ١٠٥] يعني لهم عذاب عظيم في ذلك اليوم.

وقوله: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ﴾ الابيضاض معروف أي تكون بيضاء، وهذه الوجوه التي تكون بيضاء هي وجوه المؤمنين، وتختص هذه الأمة بأنها يكون لابيضاضها نور تُعرف به يوم القيامة كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**سيما ليست لغيركم، تدعون يوم القيامة غراً محجلين من أثر الوضوء**»(١).

وقوله: ﴿تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾:

قد يبدو للإنسان من أول وهلة أن هذين القسمين متساويان، ولكن هذا غير مراد، وذلك لأن أكثر بني آدم من أهل النار، وجوههم مسودة ـ والعياذ بالله ـ فإن من بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعين كلهم في النار وواحداً من الألف في الجنة كما صحَّ بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ(٢).

وقوله: ﴿وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ أي تكون سوداء، وسبب هذا الابيضاض والاسوداد ـ والله أعلم ـ أنه مما يبشّر به هؤلاء ويوبخ به هؤلاء، فإن المؤمنين يبشّرون إذا بعثوا من قبورهم برحمة الله عزّ وجل وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون، وأما

---

(١) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب فضل الوضوء والغر المحجلون من أثر الوضوء، رقم (١٣٦). ورواه مسلم، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء بلفظه، رقم (٢٤٧).

(٢) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحج، رقم (٣١٦٩). ورواه أحمد في مسنده، رقم (١٩٤٠٠).

الكافرون فبالعكس، ومن المعلوم أن الإنسان إذا بُشِّر بما يسره يستنير وجهه، وتظهر عليه علامة السرور.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ (الفاء) للتفريع و(أما) للتفصيل؛ لأنه قال بعدها: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾.

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ بدأ بذكر الذين اسودت وجوههم مع أنه أخَّر ذكرها فيما قبل لأنه قال ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، وكان من المتوقع أن يقول: فأما الذين ابيضت وجوههم؛ لأن هذا هو الترتيب، ولكن كان الأمر بخلاف المتوقع، ويسمي علماء البلاغة هذا النوع من السياق لفاً ونشراً غير مرتب. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ جواب «أما» محذوف، والتقدير: فيقال: أكفرتم، وأما الجملة «أكفرتم بعد إيمانكم» فهي مقول للقول المحذوف أي: فيقال: أكفرتم.

ويحتمل أن القائل هو الله عزّ وجل، ويحتمل أن يكون القائل الملائكة، وعلى كل تقدير فالمراد بالاستفهام هنا هو التوبيخ والتنديم يقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ فهذا الاستفهام للتوبيخ أي أن هؤلاء يوبخون، فيجمع لهم بين الألم البدني والألم القلبي النفسي وذلك لأن العذاب قد يكون على البدن، وقد يكون على النفس، وقد يكون عليهما جميعاً، من الناس مثلاً من تضربه ولا توبخه، فهذا العذاب على البدن، ومن الناس من توبخه في مقام يرى فيه الإكرام والاحترام فتهينه، فهذا عذاب نفسي قلبي. ومن الناس من يجمع له بين الأمرين كالكفار، فإن الكفار يوبخون في عرصات القيامة ويوبخون عند دخول النار: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ

يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٨، ٩]، ويوبخون أيضاً بعد ذلك كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فإنهم يوبخون أيضاً في حال دخولهم النار ومكثهم فيها ما شاء الله وطلبهم أن ينجوا منها.

قوله: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ المراد بالإيمان هنا إيمان الفطرة؛ لأن كل مولود يولد على الفطرة كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»(١). ويحتمل أن يكون المراد بالإيمان الإيمان الفطري الاختياري، وتكون الآية في سياق من يرتد بعد إيمانه، لكن الأول أولى لأنه أعم.

قال: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾:

(العذاب) أي البدني والنفسي، أي مسّه، والذوق هنا ليس ذوقاً باللسان بل هو ذوق بالبدن كله؛ لأن الذوق قد يكون باللسان، وقد يكون بالقلب، وقد يكون بالبدن، فقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا**»(٢) المراد به ذوق القلب لا ذوق اللسان، وإذا قيل: ذاق الثمرة،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم (١٣٨٥). ورواه مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم (٢٦٥٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله ربًّا وبالإسلام ديناً فهو مؤمن وإن ارتكب المعاصي الكبائر، رقم (٢٤).

فهذا ذوق اللسان، ذاق العذاب: هذا ذوق البدن، فلكل مقام مقال.

قوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: يقال لهم أيضاً (ذوقوا العذاب) وهو العقوبة على الذنب (ذوقوا العذاب) بسبب كفركم، الباء هنا سببية وَ (ما) مصدرية أي بكونكم تكفرون بالله.

وقوله: ﴿كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ تكفرون بالله وبما يجب الإيمان به.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ وجوب التذكير بهذا اليوم العظيم الذي ينقسم فيه الناس إلى قسمين؛ لقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وهذا على تقدير قولنا: «اذكر يوم»، أما إذا جعلناه متصلاً بما قبله فإنه لا يستفاد منه هذه الفائدة، ولكن يستفاد منه التذكير بهذا اليوم أي أن الله يذكرنا بهذا اليوم.

٢ ـ إثبات البعث والجزاء، وهو أحد أركان الإيمان الستة. فأحد أركان الإيمان أن تؤمن باليوم الآخر، والإيمان باليوم الآخر ليس معناه أن الإنسان يؤمن بأن الناس يبعثون فقط، بل قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في العقيدة الواسطية: (ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت) فالإيمان بفتنة القبر ونعيمه وعذابه من الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالصراط والميزان والشفاعة، كل من الإيمان باليوم الآخر.

٣ ـ أن الناس ينقسمون في ذلك اليوم إلى قسمين: قسم

مبيضة وجوههم وهم أهل الإيمان والطاعة، وقسم مسودة وجوههم وهم أهل الكفر والعصيان، فإذا قال قائل: الآيات هنا بيّنت أن الوجوه تسود وفي آية أخرى كذلك: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] وفي آية أخرى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] فكيف نجمع بين الآيتين اللتين تثبتان اسوداد الوجوه والآية التي تثبت أنهم يحشرون زرقاً؟ قال أهل العلم في الجمع بين هذا وأمثاله: إن يوم القيامة ليس زمناً متحداً قصيراً تتعارض فيه الأحوال، لكنه زمن طويل مقداره خمسون ألف سنة، فيمكن أن تكون الوجوه في وقت من هذا اليوم مسودة، وفي وقت آخر مزرقة، هذا جمع.

الجمع الثاني: أن المراد بالسواد الزرقة؛ لأن الزرقة كلما اشتدت مالت إلى السواد، وحينئذٍ يكون زرقاً واسودت بمعنى واحد.

الجمع الثالث: أن الناس يختلفون في الجرم والكفر، فتسود وجوههم أو تزرق بحسب كفرهم وجرمهم، فمنهم من يكون جرمه شديداً عظيماً فتسود وجوههم، ومنهم من يكون أخف فتكون زرقاء.

الجمع الرابع: قالوا: إنهم سود البشرة زرق العيون، وهذا أعظم في القبح، إذا كان الوجه أسود والعين زرقاء، صار هذا أقبح منظراً.

على كل حال هذه أوجه جمع العلماء بها بين هذا الظاهر الذي يظهر أنه متعارض، وهنا نقف لنقول: ليس في القرآن شيء متعارض لا يمكن الجمع بينه وبين الآخر؛ لأن التعارض يقتضي

أن يكون أحد المتعارضين حقًّا والثاني باطلاً؛ لأنه ليس معنا إلا حق وضلال: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، ولا يمكن أن يكون شيء في كتاب الله باطلاً ضلالاً كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] نعم يمكن أن يتعارض النصان ولكن يكون أحدهما ناسخاً للآخر كقوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥] ثم قال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦] والنسخ يكون به إبطال المنسوخ من عند الله، فلا يكون هناك تعارض، فإن وجد من القرآن ما ظاهره التعارض فلا بد أن يكون هناك انفكاك بين النصين ينتفي به التعارض، وأما أن يبقى متعارض فهذا شيء ممتنع، ومن أحسن ما أُلِّف في الجمع بين الآيات المتعارضة كتاب محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله المسمى «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» وهو كتاب جيد ومفيد لطالب العلم.

٤ ـ أنه يجمع لهؤلاء الكافرين بين العذاب البدني والعذاب النفسي، نأخذه من قوله: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: قيل: إن التقدير: يقال لهم ﴿أَكَفَرْتُم﴾ فهذا العذاب النفسي.

٥ ـ شدة التنكيل بهؤلاء المكذبين حيث يجمع لهم بين العذابين البدني والنفسي، ثم يقال: (ذوقوا العذاب) فهذا لا شك أنه من أشد ما يكون تنكيلاً بهم.

٦ ـ إثبات الأسباب، يؤخذ من قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ لأن الباء للسببية. والناس في إثبات الأسباب طرفان ووسط، منهم من أنكر الأسباب رأساً، وقال: إن الأسباب ليس لها تأثير إطلاقاً، ومنهم من أثبت تأثير الأسباب بنفسها، ومنهم من توسَّط وقال: إن الأسباب مؤثرة لا بنفسها ولكن بما أودع الله فيها من القوى المؤثرة، وهذا القول هو الصحيح وهو الحق، مثال ذلك: لو أن شيئاً ألقي في النار فاحترق بها، فالذين أنكروا الأسباب قالوا: إن هذا الاحتراق لم يحصل بالنار إنما حصل عندها حين ملامسة النار احترق، أما النار نفسها فإنها لا تحرق. ومنهم من قال: بل النار أحرقت بطبيعتها فهذه هي الطبيعة، ومنهم من قال: بل أحرقت النار ما يلقى فيها بما أودعها الله تعالى من القوى المحرقة. وهذا الأخير هو الحق بلا شك. ويدل على هذا أن النار التي ألقي فيها إبراهيم لم تحرقه بل كانت برداً وسلاماً عليه، ولو كانت الأسباب مؤثرة بطبيعتها لأحرقته بكل حال، والذين أنكروا الأسباب هم في الحقيقة طاعنون في حكمة الله تعالى مدَّعون أن الله ليس له حكمة؛ لأن ربط المسببات بأسبابها هو عنوان الحكمة، فإذا قيل: ليس هناك سبب يؤثر، فهذا طعن في حكمة الله تعالى، والعجيب أن هؤلاء أنكروا الأسباب ظنًّا منهم أن إثباتها يستلزم الإشراك بالله تعالى، يقول: إنك إذا أثبتّ أن السبب فاعل أو أن السبب مؤثر فقد جعلت مع الله خالقاً، وهذا شرك لأنك مثلاً إذا قلت: إن النار هي التي أحرقت، معناه أن النار فاعلة للإحراق فيكون هذا شركاً بالله عزّ وجل، فيقال: نحن لا نقول: إن النار مستقلة في الإحراق، بل هي محرقة بما أودع الله فيها من قوة الإحراق، لا أنها بنفسها المحرقة. وكذلك

قالوا: لو أنك رميت زجاجة بحجر فانكسرت الزجاجة فلا تقل: إن الحجر كسر الزجاجة لأنك لو قلت هذا صرت مشركاً بالله، بل قل: حصل الكسر عندها لا بها!! سبحان الله! عندها، لو تضع حجراً من أكبر الأحجار عند زجاجة لم يكسرها إلا بالصدمة، إذن فالسبب معلوم، ليس فيه إشراك، وإنما المشرك هو الذي يقول: إن الأسباب تؤثر بطبيعتها أي بمقتضى طبيعتها ويقطع صلتها بالله، هذا لا شك أنه مشرك، ولكن الذي يقول: إنها تؤثر بما أودع الله تعالى بها من القوى هو الموافق للمعقول والمنقول.

ويمكن أن يؤخذ من هذه الآية أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفركم؛ لأن المسبب يتقدر بقدر السبب.

٧ ـ أن من فيه خصلة من خصال الكفر فله من عذاب الكافرين بقدرها؛ لأن لدينا قاعدة وهي أن الحكم المعلق بوصف يقوى ويضعف بحسب ذلك الوصف، إن وُجِدَ فيه جملة كبيرة من الوصف استحق من الحكم الذي رتِّب عليه بقدر هذه الجملة الكبيرة وإلا فبحسبها.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [آل عمران: ١٠٧ ـ ١٠٩].

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

(الواو) حرف عطف، ﴿وَأَمَّا﴾ تفصيلية كما في الأولى، ﴿ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ وهم المؤمنون. وهذا البياض يكون على قسمين: بياض عام لكل مؤمن، وبياض خاص لهذه الأمة حيث قال ﷺ: «**سيما ليست لأحد من الأمم (يعني فيكم) تردون عليَّ غرًّا محجَّلين من أثر الوضوء**»(١). فهذه الأمة تكون وجوهها بيضاء ولكن لها نور بخلاف غيرها، وأيضاً هذه الأمة يكون النور لها حيث يبلغ الوضوء، أي يكون في اليدين وفي الرجلين، ولهذا قال: (غرًّا محجَّلين)، وأما من سواها لا نعلم إلا أن وجوههم فقط هي التي تكون بيضاء، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ هم المؤمنون ﴿فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ﴾، «في» للظرفية، ورحمة الله هنا ليست الرحمة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ [الكهف: ٥٨] لأن هذه صفة الله، أمَّا هنا ﴿فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ﴾ فهي مخلوق الله والمراد بها الجنة كما جاءت في الحديث الصحيح: «**إن الله قال لها ـ أي الجنة ـ أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء**»(٢)، ويمتنع أن يكون المراد بها الصفة؛ لأن الصفة لا تكون ظرفاً للبشر، وإذا امتنع أن تكون ظرفاً للبشر امتنع أن يراد بالرحمة هنا الرحمة التي هي صفةٌ لله تعالى، بل هي الرحمة المخلوقة لله، وأطلق عليها اسم الرحمة لأنها كانت برحمة الله يرحم الله بها من يشاء من عباده.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾، رقم (٤٨٥٠). ورواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٦).

وقوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾:

(هم) مبتدأ وليست ضمير فصل بل لها محل من الإعراب، و﴿خَالِدُونَ﴾ خبر المبتدأ و(فيها) جار ومجرور متعلق بـ(خالدون) أي ماكثون، وقد دلَّت الآيات على أن هذا الخلود مؤبَّد. فذكر الله التأبيد في عدة آيات من كتابه، فالخلود خلود أبدي.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾:

﴿تِلْكَ﴾ المشار إليه ما سبق من الآيات التي ذكر الله سبحانه وتعالىٰ، ويحتمل أن يكون المراد بها كل القرآن، وربما يُرشِّح هذا، أي يُقوى بالإشارة حيث جاءت بصيغة البعد، فتكون الإشارة هنا شاملة لجميع القرآن.

وقوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: العلامات الدالة على الله عزّ وجل على وجوده وعلى ما تضمنته من الأسماء والصفات والأفعال، وهنا المراد بالآيات الآيات الشرعية.

وقوله: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: نقرؤها عليك، وهل المراد أن الله تعالى يقرؤها على النبي ﷺ مباشرة أو بواسطة جبريل؟ بواسطة جبريل وربما يقع الأول أيضاً، ربما يُلقى في قلب النبي ﷺ إلقاءً، ولكن الثاني هو الأكثر، بل قد يكون بالنسبة للقرآن هو المتعين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤] وظاهر الآية أن جميع القرآن نزل به جبريل، وعلى هذا فتكون إضافة التلاوة إلى الله في هذه الآية يراد بها تلاوة جبريل، ونُسِبَت إلى الله تعالى لأن جبريل أُرسل بها من عنده، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ

بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩] (فإذا قرأناه) والقارئ هو جبريل كما ثَبُتَ به الحديث، أن الرسول ﷺ إذا سمع قراءة جبريل تعجَّل في القراءة خوفاً من أن ينسى شيئاً، فكان يتعجل فقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ حتى لو نزلت آيات كثيرة في آنٍ واحد فلن تنساه، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ أي: أنه سيبقى ولا تنسى منه شيئاً، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ لا بد أن نبيِّنه للناس بلفظه ومعناه، يقول: ﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾ هل الباء هنا للمصاحبة؟ يعني أنها مصحوبة بالحق ونازلة بالحق، صدق في الأخبار وعدل في الأحكام؟ أو أن المعنى أنها نزلت من عند الله حقًّا، فالباء هنا للملابسة يعني متلبسة بالحق أي أنها نزلت من عند الله نزولاً حقًّا لا شبهة فيه ولا باطل وهو يشمل المعنيين جميعاً، فهي نازلة من عند الله حقًّا بلا شك، وهي أيضاً نازلة بالحق، والقاعدة في علم التفسير أن الآية إذا تضمنت معنيين لا يتنافيان فالواجب حملها على المعنيين، فإن كانا يتنافيان طُلب المرجّح، فما ترجَّح منهما فهو المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾:

(ما) نافية وهي حجازية؛ لأن الشروط تامة، لكن اسمها مفرد كما هو العادة في المبتدأ أن يكون المبتدأ مفرداً، وخبرها جملة (يريد) والترتيب موجود، ولم ينتقض النفي، ولم تقترن (بإن) فالشروط تامة، إذن هي حجازية. وليس مرادنا بقولنا حجازية أنه لا يتكلم بها إلا أهل الحجاز بل يتكلم بها جميع

العرب لكن أهل الحجاز يُعملونها عمل «ليس» وبنو تميم يهملونها، مثلاً إذا خاطبك شخص وقال: «ما زيدٌ موجوداً» تعرف أنه حجازي، وإذا خاطبك شخص آخر وقال: «ما زيدٌ موجودٌ» عرفت أنه تميمي.

يقول الشاعر:

ومهفهف الأعطاف قلت له انتسب فأجاب ما قتل المحبِ حرامُ

هذا تميمي أو حجازي؟ تميمي لأنه قال: «ما قتل المحبِ حرامُ» لو كان حجازياً لقال: «حراماً».

وفي الآية الكريمة: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾:

(ما) لا شك أنها حجازية، والاسم الكريم اسمها، وجملة «يريد» خبرها، يقول الله تعالى وينفي عن نفسه سبحانه وتعالىٰ أن يريد ظلماً للعالمين كهؤلاء الذين ابيضت وجوههم أو اسودت وجوههم لم يُظلموا، الذين ابيضت وجوههم نالوا هذا بعملهم أي بسببه، والذين اسودت وجوههم نالوه أيضاً بعملهم، فالأولون عملوا صالحاً فأثيبوا هذا الثواب، والآخرون عملوا سيئاً فأثيبوا هذا الثواب؛ لأن الله تعالى لا يمكن أن يظلمهم.

وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ العالمين المراد بهم كل من سوى الله، فإن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾:

الخبر هنا مقدم لفائدة وهي الحصر، يعني التخصيص؛ لأنك إذا قدمت ما حقه التأخير كان بذلك حصر، كلما قدَّمت

شيئاً حقُّه التأخير فهذا حصر سواءً كان خبراً أو مفعولاً به أو جاراً ومجروراً. فمثلاً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] قدّم المفعول به لإفادة الحصر، أي لا نعبد إلا إيَّاك، ولا نستعين إلا إيّاك، وهنا ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا لغيره. فقدّم الخبر لأجل الحصر.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

(ما): اسم موصول، يشمل كل ما في السموات والأرض، يشمل كل هذا، ما فيها من الملائكة، وما في الأرض من البشر والجن والأشجار والأحجار وكل شيء.

﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وأتى «بما» تغليباً لغير العاقل؛ لأنهم الأكثر فغلّبوا، هذا من وجه، ومن وجه آخر أنه إذا أريدت الصفة فإنه يعبر «بما» بدل «من» ولو في العاقل، ومثَّلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] ولم يقل: (من طاب) لأنه لم يقصد عين الشخص العاقل بل قصد الوصف والجنس والكم، انكح ما طاب من جميل وقبيح وواحد ومتعدد من النساء.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ صِلَة الموصول تأتي جملة وتأتي شبه جملة، تأتي جملة اسمية وجملة فعلية، وجاراً ومجروراً وظرفاً، أربعة أنواع، فالجملة الاسمية والفعلية ظاهرة، تقول: «يعجبني الذي خلقه حسن» هذه جملة اسمية، وتقول في الجملة الفعلية: «يعجبني الذي كان شجاعاً»، وتقول في الظرف: «يعجبني الذي فوق السطح»، وتقول في الجار والمجرور: «يعجبني الذي في المسجد»، في هذه الآية الجار والمجرور،

يقولون: إن الجار والمجرور بنفسه ليس جملة؛ لأنه يحتاج إلى عامل فكيف يكون جملة؟.

قالوا: لأنه متضمن لشيء محذوف، ولهذا نقول في الإعراب: جار ومجرور متعلق بمحذوف، قَدِّر المحذوف في الاسم الموصول فعلاً، وقَدِّره في خبر المبتدأ اسماً، فإذا قلت: «يعجبني الذي عندك» فالتقدير: الذي استقرَّ عندك، وإذا قلت: «زيدٌ عندك» التقدير: زيد مستقر عندك؛ لأن الأصل في خبر المبتدأ أن يكون مفرداً غير جملة، والأصل في صلة الموصول أن تكون جملة، فنقدِّرها فعلاً في صلة الموصول، ونقدِّرها اسماً في خبر المبتدأ، هذه هي القاعدة.

وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾:

هذه الآية مفيدة للحصر بتقديم الجار والمجرور على المتعلق وهي «تُرجع».

وقوله: ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ يَعمّ كل أمر، والأمور هنا جمع أمر بمعنى الشأن؛ لأن كلمة أمر يراد بها الشأن كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧] أي: ما شأنه، ويراد بالأمر الخطاب الموجه على وجه طلب الفعل على وجه الاستعلاء، وجمع أمر الأول أمور، وجمع أمر الثاني أوامر، وعلى هذا تكون الأمور جمع أمر، وهي الشؤون، كل الشؤون تعود إلى الله تعالى وترجع إليه؛ لأنه الخالق الذي ابتدأها فيجب أن ترجع إليه.

من فوائد الآيات الكريمة:

من فوائد قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

١ ـ الذين ابيضت وجوههم في الجنة؛ لقوله: ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ أن الرحمة تطلق على غير صفة الله بل على مخلوقاته كما أسلفنا في التفسير أن المراد بالرحمة هنا الجنة، وأمَّا قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨] فالمراد الصفة، رحمة الله التي هي صفته غير مخلوقة، كل صفات الله غير مخلوقة، ورحمة الله التي هي الجنة مخلوقة، قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٥٠] عندما ذكر نزول المطر وأنه يُحيي به الأرض قال: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ ما المراد بالرحمة هنا المخلوقة التي هي المطر أو الصفة؟ يحتمل أن يكون المراد بـ (آثار رحمة الله) المطر فيكون مخلوقاً، ويحتمل أن يراد بـ (رحمة الله) صفته والتي من آثارها وما ينشأ عنها هو المطر ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨] الرحمة مخلوقة لأنها هي التي تنشر، إذن الرحمة قسمان: قسم مخلوق وهو ما كان بائناً عن الله، وقسم غير مخلوق وهو ما كان صفة له.

٣ ـ أن الله تعالى أكرم من الخلق؛ لأن عمل الذين ابيضت وجوههم لو نسب إلى الثواب لم يكن شيئاً ومع ذلك يجزون بالرحمة التي يخلدون فيها أبد الآبدين، وهذا تصديق قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

٤ ـ أن أهل الجنة مخلدون فيها؛ لقوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ والخلود فيها أبدي لأنه جاء بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار. كما ذكره تعالى في آيات كثيرة، فإن قال قائل: إذا

قلت إنه أبدي فما جوابك عن قوله تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] فاستثنى فقال: إلا ما شاء ربك؟ فالجواب: لا تعارضُ الآيات الدالة على الأبدية هذه الآية؛ لأنها من المشكل الذي يجب رده إلى المحكم، والعلماء لهم في هذه الآية أقوال.

ولكن القول الذي يريح الإنسان أن يجعل هذا القيد والقيد الذي في أهل النار (خالدين فيها إلا ما شاء ربك) من الأمور المتشابهة، ويحمل على النصوص المحكمة فنقول: إن الله قال (إلا ما شاء ربك) مع أنه قد شاء أن يبقى هذا أبد الآبدين وهو كقول الرسول ﷺ في زيارة القبور: **«إنا إن شاء الله بكم لاحقون»** فعلَّقه بالمشيئة مع أن اللحوق بهم لا بد منه، وهذا القول يستريح به الإنسان، ولا يعترض عليه معترض كما اعترض ابن القيم رحمه الله بأن الله قال في أهل النار: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] وقال في أهل الجنة: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

قال: فاختلاف ختم الآيتين يدل على أن أهل النار ليس خلودهم أبدياً بخلاف أهل الجنة؛ لأنه قال في أهل الجنة: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] وقال في أهل النار: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] وهذا في الحقيقة يدلك أن الإنسان مهما بلغ في العلم والذكاء فلن يسلم من الغلط، والفرق بين الآيتين ظاهر؛ لأن آية (السعادة) فصل فقال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] وآية النار (الشقاء) عدل فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] وهذا

من فعله الذي أراد وليس المعنى أنه (فعال لما يريد) سيفعل في المستقبل خلاف ذلك كما فهمه ابن القيم رحمه الله، فإن هذا فَهْم غير سليم بلا شك، بل إن مناسبة ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ هو أنه لما كان الشقاء غير محمود قال: هذا من فعل الله، والله يفعل ما يريد مع أنه لم يظلمهم.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾:

١ ـ أن القرآن كلام الله تعالى؛ لأن الله تعالى أضافه إلى نفسه فقال: ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ وما أضيف إلى الله ولم يكن عيناً قائمة بنفسها فهو من صفاته؛ لأنه لا بد أن يكون هذا المضاف قائماً بشيءٍ، فإذا كان صفة فلن يكون إلَّا صفة الله عزّ وجل، فإذا قلنا: كلام الله فهذا إضافة صفة، وإذا قلنا: هذا مخلوق الله فهذا ليس إضافة صفة؛ لأن المخلوق عينٌ قائمة بنفسها، فـ(ناقة الله) غير صفة لأنها عين قائمة بنفسها. و(بيت الله) كذلك غير صفة لأنه عين قائمة بنفسها ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] ﴿رُّوحِى﴾ ليست صفة بل هي مخلوقة لأنها لو كانت صفة الله ما بانت منه، وهنا بانت من الله وحلَّت في جسد آدم، وليست صفة من صفات الله لأنها بائنة منه، فإضافة الروح إلى الله هنا من باب إضافة المخلوق إلى الخالق، ولهذا لا يمكن أن نقول: إن هذه جزء من روح الله التي هي صفته، هذا شيء مستحيل إذ لو قلنا بهذا لحلَّ شيء من الله في مخلوقاته.

٢ ـ أن من كان وكيلاً عن الغير فله حكم ذلك الذي وكله؛ لأن الله أضاف التلاوة إليه مع أن التالي رسوله، فدلَّ هذا على أن

حكم ما نفذه الرسول بما أرسل به حكم ما قاله المرسِل.

٣ ـ أن كتاب الله تعالى كله حق ليس فيه باطل، وإذا أخذنا هذه الكلمة على عمومها قلنا: جميع أحكامه حق، وجميع أخباره حق، وليس فيه تناقض ولا اختلاف، لأنه لو كان فيه تناقض أو اختلاف لكان أحد المتناقضين باطلاً، والقرآن ليس فيه شيء باطل بل كله حق.

٤ ـ إثبات رسالة النبي ﷺ حيث قال: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ فيكون المتلو عليه هذه الآيات قطعاً رسولاً لله رب العالمين.

٥ ـ إثبات إرادة الله تعالى؛ لقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن قال قائل: الآية هنا نفي ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ﴾ فكيف تقول إنها دالة على إثبات؟.

نقول: إن هذا النفي ليس مطلقاً بل هو نفي لإرادة شيء معين وهو الظلم، إذن فغير الظلم يريده.

٦ ـ أن الظلم ممكن في حق الله تعالى ولكنه لا يريده لكمال عدله، ووجهه أنه قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ولم يقل: (لا يمكن أن يريد الله ظلماً) على أنه لو قال: «لا يمكن» لم يدل على انتفاء الظلم لو أراده، وحينئذٍ يكون فيه رد على القائلين بأن الظلم في حق الله محال لذاته، وهم الجهمية حيث يقولون: إن الظلم في حق الله مستحيل لذاته لا لأنه غير مراد الله تعالى بل لذاته، وعلى قولهم يكون تمدح الله تعالى بنفي الظلم عنه لغواً لا فائدة منه؛ لأن ما لم يمكن لا يصح أن يكون مدحاً أو أن يتمدح به من كان ممتنعاً عليه، فالظلم في حق الله ممكن عقلاً ولكنه ممتنع شرعاً وعدلاً. ولو شاء الله تعالى أن يعذب

المطيع لأمكن ولكنه لكمال عدله لا يمكن أن يعذبه لأنه ظلم، وهم يقولون: لا يمكن أن يظلم الله تعالى أبداً، الظلم مستحيل لماذا؟ أليس يمكن أن الله يعذب المطيع الذي أمضى طول عمره في طاعة الله؟ قالوا: نعم، يمكن، لكن هذا ليس بظلم لأنه فعله فيما يملكه، فالعبد ملك لله، فإن فعل به أي شيء فليس بظالم له. هذا وجهة نظرهم لكنها وجهة فاسدة؛ لأنه لو قال لك قائل: افعل كذا سأثيبك، ولا تفعل كذا فإن فعلت عاقبتك، ثم فعلت ما أمرك به وما وعدك الإثابة عليه، ثم عذبك أشد العذاب، هل هذا ظلم عقلاً أو غير ظلم؟ هذا ظلم ولو كان مالكاً لك، لو أن السيد قال لعبده: يا عبد أعِدَّ الغداء واجعل فيه كذا وكذا وقدِّمه لي، ففعل على الوصف الذي أُمِرَ به، وأتى به في الزمن المطلوب، ثم أخذ السيد خشبة وجعل يضربه بها فإنه يكون ظالماً ولو كان عبده. عقلاً يكون ظالماً، هم يقولون: يجوز أن يمضي الإنسان عمره كله في طاعة الله امتثالاً لأمر الله وإذا مات يخلده في النار، وإذا فعل هذا ليس بظالم لأنه فعله في ملكه. نقول: إذا كان الأمر كذلك وكان الظلم على زعمكم محالاً فإن الله تعالى لا يصح أن يقال إنه ينفي الظلم عن نفسه تمدحاً بذلك.

٧ ـ أنه إذا انتفت إرادة الظلم انتفى الظلم. وجه ذلك: أن الله لا مكره له، فإذا كان لا يريد الظلم سبحانه وتعالى فنفي إرادة الظلم نفي للظلم، وحينئذٍ لا يكون بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] تعارض؛ لأن نفي إرادة الظلم تستلزم نفي الظلم، ونفي الظلم يستلزم نفي إرادة الظلم؛ لأنه لو أراد أن يظلم لظلم،

إذن لو أن أحداً من الناس قال لي: كيف تجمع بين هذه الآية: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؟ أقول لهم: لا منافاة لأنه إذا انتفت إرادة الظلم لزم نفي الظلم، وإذا انتفى الظلم لزم انتفاء إرادته؛ لأن الله تعالى قادر لو أراد أن يظلم لظلم.

٨ ـ إثبات الصفات السلبية؛ لأن ما وصف الله به نفسه ينقسم إلى قسمين: ثبوتي وانتفائي، أو إن شئت قل: سلبي، فالثبوتي كله صفات كمال، كل صفة أثبتها الله لنفسه فهي صفة كمال، والانتفائي كله صفات نقص ولكنه متضمن لثبوت كمال، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤] نفي الغفلة لكمال علمه ومراقبته. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] لكمال عدله، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] لكمال قوته، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤] لكمال قدرته وعلمه، وهلم جرا.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾:

١ ـ عموم ملك الله تعالى؛ لقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ و«ما»: موصولة تفيد العموم.

٢ ـ انفراد ملك الله تعالى بذلك أي أن الله وحده هو المالك لها، وهذا يؤخذ من تقديم الخبر؛ لأن القاعدة المقررة عند البلاغيين وأصحاب الأصول أن تقديم المعمول يفيد الحصر.

٣ ـ إثبات السموات والأرض، وهو أمر معلوم ولا ينكر، ولكن الفائدة من هذه الفائدة بيان عظمة الله تعالى بخلق هذه

المخلوقات العظيمة التي قال الله عنها: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

٤ ـ أن مرجع الأمور إلى الله وحده؛ لقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

٥ ـ أن من حاول أن يشرع للخلق شيئاً سوى ما شرعه الله فقد شارك الله أو فقد جعل نفسه شريكاً مع الله. وجه ذلك: أن الله حصر مرجع الأمور إليه فقال ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾، فمن حاول أن يشرع للناس أموراً لم يشرعها الله فقد جعل نفسه شريكاً مع الله تعالى.

٦ ـ بيان سعة الله تعالى حيث كانت جميع الأمور ترجع إليه؛ لأن الأمور جمع أمر وهو محلى (بأل) فيفيد العموم، فكل الأمور ترجع إليه، الدقيقة والجليلة، قال الله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦] كل الدواب صغيرها وكبيرها فالله تعالى آخذ بناصيتها فهو الذي يوجهها ويدبرها، العاقل منها وغير العاقل.

٧ ـ إثبات أن السموات جمع، وقد بيَّنت آية أخرى أن عددها سبع سموات، أما الأرض فجاءت في القرآن مفردة ولكن الله أشار إلى عددها في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] وجاءت السنة صريحة في ذلك في قول النبي ﷺ: **«من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوّقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين»**[1].

❁ ❁ ❁

(١) رواه مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠).

□ قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

الخطاب لهذه الأمة، وقوله: ﴿كُنتُمْ﴾ قيل: في علم الله وذلك لأن «كان» للمضي، ومعلوم أن هذه الأمة آخر الأمم فلا يمكن أن يتحدث عنها على أنها أمة بائدة، فمن ثَمَّ قال بعض العلماء: إن فعل المضي هنا باعتبار علم الله أي كنتم في علم الله خير أمة، وعلم الله سابق على وجود الأمم. وقيل وهو الصحيح: إن «كان» هنا ليست دالة على زمان، وإنما هي مبيِّنة لاتِّصاف المبتدأ بالخبر وتحقق وجوده فيه، وهذا هو الأصح، ولهذا أمثلة منها:

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨].

لا نقول: إن (كان) هنا تدل على المضي، وإن هذه صفة زالت عن الله تعالى، لا، لكنها مسلوبة الزمن تدل على تحقق اتصاف اسمها بما دل عليه خبرها.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾:

﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ أي طائفة، وسبق لنا أن كلمة أمة تطلق في القرآن على أربعة معانٍ[1].

﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ يعني أخرجها الله تعالى وبيَّنها

---

(١) انظر (ص٥).

وأبرزها، خير أمة أخرجت ولم يقل خلقت؛ لأن هذه الأمة من وصفها الخروج والبروز، فخير أمة ظهرت وبرزت هي هذه الأمة، هناك أمم أخرجت للناس وظهرت وبانت لكنها لم تحصل لها الخيرية التي كانت لهذه الأمة.

ثم بيَّن الله تعالى وجه هذه الخيرية بقوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾:

﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ سبق معنى الأمر بالمعروف ومعنى المعروف ومعنى النهي ومعنى المنكر في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ هذا يشمل الإيمان بكل ما أمر الله الإيمان به، وتشمل أيضاً تطبيق كل ما أمر الله به فعلاً وكل ما نهى الله عنه تركاً؛ لأن من مقتضى الإيمان بالله أن تؤمن بما أخبر به؛ وعلى هذا فيكون جميع ما أخبر الله به من أمور الغيب داخلاً في الإيمان بالله، ومن تحقيق الإيمان بالله أن تذعن له وتقبل حكمه، وهذا يشمل جميع الإسلام، جميع الأعمال الصالحة، ولذلك كان من مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وتأمل كيف أخَّر الإيمان بالله عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن شأن الأمة أن تكون قاهرة غالبة آمرة ناهية، فقدَّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله، وإن كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدون الإيمان بالله لا ينفع، ولكن لما كانت الأمة بمظهرها، كان عنوان قوتها أن تكون آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر.

يقول الله عزّ وجل: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الإيمان بالله: دائماً

نسمع كثيراً من المؤلفين ـ يرحمهم الله ـ يقولون: إن الإيمان هو الإقرار، وبعضهم يقول: إن الإيمان هو التصديق، ولكن هذا على إطلاقه لا يصح باعتبار الإيمان الشرعي، فالإيمان الشرعي هو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان، فمن صدق وأقر ولكن لم يقبل ويذعن فليس بمؤمن، ودليل ذلك أن أبا طالب عم رسول الله ﷺ كان مقرًّا ومعترفاً بصدق رسول ﷺ، ومع ذلك لم يكن مؤمناً؛ لأنه لم يقبل ما جاء به ولم يذعن له، وإلا فإنه يقول في قصائده:

لقد علموا أن ابننا لا مُكذبٌ لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل

لقد علموا يعني قريشاً أن ابننا وهو محمد ﷺ لا مُكذبٌ لدينا أي نصدقه، ولا يُعنى بقول الأباطل، أي لا يهتم بقول الكذب الباطل، ويقول:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البريةِ دينا
لولا الملامةُ أو حذار مسبة لرأيتني سمحاً بذاك مبينا

أعوذ بالله! مع ذلك لم ينفعه هذا الإيمان بل مات على الكفر. فالإيمان شرعاً هو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾:

(لو) هذه شرطية، وفعل الشرط فيها «آمن» وجوابه «لكان خيراً لهم».

(ولو) الشرطية إذا كان جوابها إثباتاً فالأفصح أن يقرن باللام، كما في هذه الآية: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ وكما في قوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٥] وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ

يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] والأمثلة على هذا كثيرة، وربما حذفت اللام ومنها قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠] ولم يقل: لجعلناه أجاجاً، أما إذا كان الخبر منفياً فإن الغالب حذف اللام، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢] ولم يقل: (لما فعلوه)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣] ولا تقترن بها اللام إلا نادراً، يعني قولك: لو شئت لما فعلت، هذا نادر ولكنه قد يرد، ووجه كونه نادراً أن اللام تفيد التوكيد و(ما) تفيد النفي وبينهما شبه تضاد، ولا يجمع بين الشيء وضده.

وتأتي (لو) مصدرية مثل «أن» وذلك إذا جاءت بعد «ودَّ» ونحوها فإنها تكون مصدرية، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ [البقرة: ١٠٩] أي ودوا ردَّكم، ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] أي: إدهانك وهكذا، فهنا «لو» مصدرية فصارت تأتي مصدرية إذا جاءت بعد «ودَّ» وما أشبهها مما دلَّ على المحبة وتقول: أحب لو تذهب، أحب لو تفهم، أي أحب ذهابك، وأحب فهمك.

قال تعالى: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ خيراً لهم من الكفر لو آمنوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ١٠٣] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠، ١١] إذن لكان خيراً لهم من بقائهم على كفرهم، ويحتمل أن يقال لكان خيراً لهم، أي لكان خيراً مضاعفاً كما أخبر النبي ﷺ: «**أيما رجل من**

أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران»[١].

ثم قال: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: منهم أي من أهل الكتاب المؤمنون أي الذين آمنوا مثل «النجاشي» من النصارى، و«عبد الله بن سلام» من اليهود، هؤلاء آمنوا إيماناً وقر في قلوبهم.

﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: الفسق هنا المراد به الخروج عن طاعة الله خروجاً مطلقاً وهو الكفر؛ لأن الفسق يراد به الخروج عن الطاعة خروجاً مقيداً، ويراد به الخروج عن الطاعة خروجاً مطلقاً، فالخروج عن الطاعة خروجاً مقيداً، كما قال الفقهاء رحمهم الله: إن فاعل الكبيرة فاسق؛ لأنه خرج عن الطاعة خروجاً مقيداً بهذه المعصية التي فسق بها، والخروج عن الطاعة خروجاً مطلقاً يكون بالفسق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن هذه الأمة خير الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذه الخيرية وبين ما جاء في بني إسرائيل أن الله فضّلهم على العالمين، ومعلوم أن المفضل خير من المفضل عليه؟ فنقول: لدينا آيتان أو لدينا نصّان متعارضان كلاهما على سبيل العموم كهذه الآية ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (للناس) هذه عامة تشمل بني إسرائيل وغيرهم،

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب اتخاذ السراري ومن أعتق جارية ثم تزوجها، رقم (٥٠٨٣). ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٤).

وقوله في بني إسرائيل: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧] تقتضي التفضيل العام على هذه الأمة وعلى غيرها، فبين النصين الآن عموم متعارض، فإن ادعيت تخصيص عموم آية بني إسرائيل بخصوص هذه الآية قال لك الإسرائيلي: وأنا أدعي تخصيص عموم هذه الآية بخصوص بني إسرائيل، فأقول: أنتم خير أمة أخرجت للناس ما عدا بني إسرائيل، فيقال: إن النبي ﷺ بيَّن لنا أي العمومين مراداً بقوله: «**توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله**»[1] فبيَّن الرسول ﷺ أن هذه الأمة خير الأمم التي أوفتها وختمت بها، وهذا من الرسول ﷺ نص فيكون عموم قوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ مقدماً على عموم قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧] وحينئذٍ يكون قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مخصوصاً بقوله في هذه الأمة: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾، بنصِّ كلام الرسول ﷺ.

وقال بعض العلماء: إن المراد بالعالمين العام خصوص عالمي زمانهم، يعني العالمين في هذا الزمن أي في زمن بني إسرائيل، فيكون من باب العام الذي يراد به الخاص، فلم يرد به العموم من الأصل، والعام الذي يراد به الخاص كثير في القرآن والسنة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٧٣] فإن (الناس) في قوله:

---

(١) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمران، رقم (٣٠٠١). ورواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ، رقم (٤٢٨٨). ورواه الإمام أحمد في مسنده، رقم (١٩٥١٣) بلفظه.

﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ لا يراد به عموم الناس بل القائل واحد، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ أيضاً لا يراد به جميع الناس؛ لأنه لم يجمع لهم إلا قريش، عامة البشر لم يجمعوا للرسول ﷺ وأصحابه، فيكون قوله: ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧] عاماً أريد به الخاص، وعلى هذا فلا يكون في الآية عموم إطلاقاً، وحينئذٍ لا تعارض هذه الآية.

٢ ـ أن هذه الأمة فَضَلَت غيرها بالخيرية لوصفٍ ليس في غيرها، وهي أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وأما من سبقها فلا، يقول الله تعالى في بني إسرائيل: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

٣ ـ أنه متى زال هذا الوصف الذي به فُضِّلت هذه الأمة وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر زال كونها خير أمة أخرجت للناس، وذلك لأن الحكم المعلل بعلة يوجد بوجودها وينتفي بانتفائها، ويقوى بقوّتها ويضعف بضعفها.

٤ ـ أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن ترتب الخيرية عليه يدل على أهميته.

٥ ـ أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلما وجد في الأمة وجد الخير فيها، وكلما ضعف فيها ضعف الخير، ولهذا لما كانت الأمة قوية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بلادنا كانت البلاد على خير ما يرام، ولما ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فات هذه البلاد من الخير بقدر ما فاتها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٦ ـ أنه كلما ازداد الإنسان أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر كان خيراً من غيره؛ لأن المعلق على وصف يقوى بقوّته ويضعف بضعفه.

٧ ـ أن العامل أو أن العاملين يتفاضلون، من قوله: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ وهذا واضح، وتفاضل العمال بتفاضل الأعمال، وتفاضل الأعمال ثابت بالكتاب والسنة: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥] فهذا تفضيل العامل لفضل العمل، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص، وأن العامل يزيد وصفه بالطاعة وينقص بحسب ما معه من العمل.

٨ ـ أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٩ ـ التنديد بأهل الكتاب حيث كفروا بالرسول ﷺ مع أنهم يدَّعون أنهم يريدون الخير، ولو كانوا صادقين في إرادة الخير لكانوا يؤمنون بالرسول ﷺ.

١٠ ـ أن من أهل الكتاب من هو مؤمن ومنهم من هو فاسق وهم الأكثرون. فإن قال قائل: هل معنى ذلك أن أهل الكتاب الموجودين اليوم مؤمنون؟ لا، ولهذا قال: «منهم المؤمنون» و(أل) هنا للعهد الذهني يعني المعروف وهو الإيمان بمحمد ﷺ ولم يقل: منهم مؤمنون قال: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني الإيمان المعهود عندكم أيها المسلمون وهو الإيمان برسول الله ﷺ.

١١ ـ أن أكثر أهل الكتاب فاسق مارق خارج عن الدين وهو كذلك، والقليل منهم آمن ويؤمن، وحتى الآن يوجد أناس من أهل الكتاب يؤمنون بالله.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۖ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١].

الخطاب للنبي ﷺ وأصحابه المتمسكين بهديهِ، والفاعل في (يضروكم)، يعود على أهل الكتاب أي لن يضركم أهل الكتاب إلَّا أذىً، وقوله: ﴿إِلَّآ أَذًى ۖ﴾ اختلف المفسرون فيها: هل هذا الاستثناء منقطع أم متصل؟ فمنهم من قال: إنه استثناء متصل؛ لأن هذا هو الأصل في الاستثناء.

وعلى هذا الرأي يكون في الآية شيء من الحذف تقديره: (لن يضروكم إلَّا ضررَ أذىً) ليس ضرر عدوان حسِّي ببتر عضو أو أخذ مال، وإنما هو أذى، وذلك بأن يُسمِعُوكم ما تكرهون بالتوبيخ والاستهزاء وما أشبه ذلك. ولا شك أن الأذى نوع من الضرر لكنه ليس الضرر الذي يطلق عليه اسم ضرر.

والقول الثاني: أن الاستثناء هنا منقطع، وعلى هذا القول يكون المعنى: «لن يضروكم ولكن يؤذونكم» والأذية لا يلزم منها الضرر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧] فأثبت أنهم يؤذون الله ورسوله. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦]. وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني**»(١) فالضرر منتفٍ عن الله، والأذية حاصلة، ومن أمثلتها قوله تعالى في الحديث القدسي: «**يؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدهر وأنا الدهر**»(٢)، ويوضح هذا أنه لو صلى إلى جانبك رجل قد أكل

---

(١) تقدم تخريجه في المجلد الأول (ص٥٦٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، رقم =

بصلاً أو ثوماً فإنك تتأذى برائحته ولكن هل يضرك؟ لا يضرك، وهذا القول أصح وهو أن الاستثناء منقطع، وهو وإن كان خلاف الأصل لكنه أعلى في البلاغة، لن يضروكم ولكن الأذى ستصبرون عليه والأذى ليس بضرر.

فإن قال قائل: هل هذه الآيةُ محكمةٌ عامة إلى يوم القيامة أو هي منسوخة خاصة بما كان قبل النصر؟.

فالجواب: الأول.

فإن قال قائل: يرد على دعواكم أن المراد الأول أن اليهود يعملون بنا اليوم ما هو من أشد الأضرار، ومعلوم أن خبر الله تعالى لا يخلف؟.

فالجواب أن نقول: الخطاب للنبي ﷺ وأصحابه، ومن كان على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه فلن يضره اليهود ولا النصارى، أما من يعتقد أن الدين الإسلامي دينَ رجعية وتخلف ويُبدله بغيره من القوانين الرجعية الوضعية فهؤلاء لا يكتب لهم النصر، ويضرونهم بالأذى القولي والفعلي والاقتصادي وفي كل شيء، وإلا فإن كلام الله تعالى لا يخلف أبداً. فقوم يقاتلون قتالاً جاهلياً مبنياً على القومية المتمزقة وعلى أسس باطلة مضادة لدين الله فهؤلاء لا يستحقون النصر، ولذلك كانت اليهود الآن يفعلون الأفاعيل بنا، من يقدرون على الفعل ببدنه فعلوا، ومن لا يقدرون فإنهم يفعلون به ما يفعلون من المضار الاقتصادية

= (٤٨٢٦). ورواه مسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦).

العالمية. وحينئذٍ تبقى الآية محكمة غير منسوخة باقية إلى يوم القيامة، لكن المشروط يتوقف على الشرط، فانتفاء الضرر موقوف على وجود شرطه وهو أن نطبق سيرة من وعدوا بهذا الوعد وهم الرسول ﷺ وأصحابه.

وقوله: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾:

يعني لو فُرض وحصل بين المسلمين وبين أهل الكتاب قتال ولَّـــووا الأدبـــار ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: ١٤] ولكن الخطاب لرسول الله ﷺ وأصحابه ومن كان على مثل هدي الرسول ﷺ وأصحابه. ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ﴾ عندنا شرط وجوابه، الشرط المقاتلة، والجواب تولي الأدبار، فهم بمجرد ما يحصل بيننا وبينهم لقاء وقبل أن يصل أول سهم إليهم ـ والله أعلم ـ يفرون ويولون الأدبار، وهنا يقول: ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ أي: يجعلون الأدبار تليكم وهو كناية عن الانهزام؛ لأن المنهزم يولي ظهره المنهزمَ منه، ولهذا قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه حينما حُوصر في مكة قال منشداً:

ولسنا على الأعقاب تُدمى كلومُنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

الذي تقطر الدماء أقدامه مقبل، والذي تُدمى أعقابه مدبر.

وقوله: ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ حذفت منها النون لأنها وقعت جواب الشرط.

قال: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾:

(ثم) للمهلة والتراخي، و(لا ينصرون) فيها النون وهو محل إشكال؛ لأن (ثم) حرف عطف و﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ معطوف عليه، والمعطوف على المجزوم يكون مجزوماً، ولكن نقول: (ثم) هنا

ليست للعطف ولكنها للاستئناف والتقدير: (ثم هم لا ينصرون) ولا بد من هذا التقدير؛ لأنها لو كانت عطفاً على قوله: ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ لجزمت ولقيل: «ثم لا ينصروا» وحينئذٍ يفسد المعنى؛ لأنه لو كان انتفاء النصر عنهم حين يقاتلوننا لأمكن لقائلٍ أن يقول: إنهم ينتصرون بعد ذلك، ولصار انتفاء النصر مقيداً بما إذا قاتلونا، ولكن الأمر ليس كذلك، إنهم لا ينصرون أبداً سواء قاتلونا أم لم يقاتلونا، ولهذا قال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ فتبين الآن أن «ثم» هنا ليست عاطفة ولكنها استئنافية، والفعل بعدها مرفوع لأنها جملة مبتدأ بها لم تعطف على منصوب ولا مجزوم.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ النصر هو المنعة والقوة والصرف وما أشبه ذلك. فمعنى «نَصَرْتُهُ» أي: صرفت عنه عدوه، وأيَّدتُهُ وقوَّيتُهُ، هذا معنى النصر، فهؤلاء لا ينصرون أبداً. ولكن قد يقول قائل: إنه جرت حروب بين المسلمين وبين النصارى، وبين المسلمين وبين اليهود؛ فنُصِر النصارى على المسلمين، واليهود على المسلمين والجملة ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ جملة خبرية، وخبر الله عزّ وجل لا يمكن إخلافه فما هو الجواب؟

من العلماء من قال: إن هذا في اليهود وإن اليهود ما انتصروا يوماً من الدهر على المسلمين أبداً، بل من هزيمة إلى هزيمة، هزموا في المدينة بني قينقاعٍ وبني النضير وبني قريظة، وهزموا في خيبر بني النضير ولم يقمْ لهم قائمة أمام المسلمين، وبناءً على هذا نقول: إن الآية خاصة باليهود أما النصارى فلم تتعرض لهم الآية. ولكننا نجيب بجواب أصح من هذا فنقول: الخطاب للمسلمين حين كانوا يمثلون الإسلام بالعقيدة والقول

والفعل، وهم في هذه الحال سينتصرون على اليهود والنصارى والمجوس وسائر الكفار، وحينئذٍ لا يشكل علينا تغلب النصارى الصليبيين على المسلمين، ولا يشكل علينا تسلط اليهود على العرب؛ لأن القتال مع اليهود في راية العروبة قتالُ جاهلية وقتال طائفة لطائفة، لا لدين، بل ربما اعتقد اليهود أنهم يقاتلون للدين، وهم على باطل وأن الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم مكتوبة لهم إلى يوم القيامة: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٢١] ويذكر أنه لما كانت هزيمة عام ١٣٨٧هـ لما دخلوا سيناء وما استولوا عليه من بلاد العرب صار الواحد من الجنود يأخذ التراب ويقبِّله ثم يسجد عليه.

إذن الجواب عندنا على وجهين:

الوجه الأول: أن ذلك خاص باليهود، وأن اليهود لم تقم لهم قائمة بعد أن أجلاهم الرسول ﷺ من المدينة، ثم بعد ذلك أُجلوا من خيبر.

والقول الثاني: أن المراد اليهود والنصارى ولكن بشرط أن يكون المقابل لهم يقاتل للإسلام لتكون كلمة الله هي العليا.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ فيه دليل على أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لن يضروا المسلمين، والواقع شاهد لذلك لما كان المؤمنون على الإيمان حقاً، أمّا لما تفرقوا وتمزقوا واختلفوا في دين الله فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ [الأنعام: ١٥٩] لم يحصل ولم يتحقق لهم هذا الضمان من الله ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ﴾.

٢ ـ أنه لو تقابل المسلمون وأهل الكتاب في قتال فالمنتصر هم المسلمون: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ وهذا الخبر صدق مَخبَرُهُ لما كان المؤمنون على الإيمان الحق، ولكن لما اختلفوا وتفرقوا من بعد ما جاءهم البينات رفع الله عنهم هذا الالتزام ولم يلتزم لهم، وكانوا فريسة لأعدائهم من اليهود والنصارى. وكلما بعدنا عن الإسلام زاد افتراس هؤلاء الأعداء لنا، ووجه ذلك أن المسلمين إذا تخلوا عن الإسلام بقيت الموازنة بين قوىً مادية وأخرى، ومعلوم أن هؤلاء بالنسبة للقوى المادية سيكونون أقوى منا؛ لأننا إذا أضعنا أمر الله أضعنا القوى المادية، فإن من جملة أمر الله أن يكون لدينا قوة مادية. إذن فكلما أضعنا أمر الله حصل لهم من القوة علينا بقدر ما أضعنا من أمر الله، وكل درجة بدرجة، كلما نزلنا درجة ارتَقَوا درجة، وهذا الآن هو الواقع، تكاد أن تقول: إن السيطرة على البسيطة ليست للمسلمين ولكنها لغيرهم، حتى في بلاد المسلمين ليست السيطرة للمسلمين مع الأسف، لا نقول: إنهم مغلوبون عسكرياً، وقد يكونون غير مغلوبين عسكرياً ولكن مغلوبون فكرياً؛ لأن الذين يقودون المسلمين فكرياً هم الكفار من أتباع الهوى والصد عن سبيل الله وفتح أبواب الكفر على اختلاف مسمياتها حتى ضاع المسلمون وصاروا يدبرون من الخارج، وليس من شرط التدبير أن تحتل العساكر بلاد الإسلام، إذا استعمرت الأفكار بالنسبة للقادة فسد الناس، ولهذا يجب أن نكون منهم على حذر، فقوله تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ نقول: إن هذا الخبر صدق مَخْبَرُهُ حين كان المسلمون متمسكين بالإسلام كان عدوهم مرعوباً منهم مسيرة شهر «**نصرت بالرعب**

مسيرة شهر»[١] لأنهم متمسكون بدين الله، منصورون بنصر الله.

٣ ـ أن أهل الكتاب إذا قاتلونا لا يكتفون بوضع السلاح بل يولون الأدبار ويهربون، لا يمكن أن يقفوا حيال المسلمين، لذلك قال تعالى: ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ وهذا أشد ما يكون من الانهزام، عدوك إذا هرب منك وولاك دبره حينئذ تسيطر عليه تماماً.

٤ ـ أن هؤلاء لا ينصرون، وهل المراد لا ينصرون علينا أم المراد لا ينصرون نصراً مطلقاً؟ نقول: لا ينصرون علينا وهو أيضاً مشروط بأن نتمسك بديننا عقيدة وقولاً وعملاً وإلا فسينصرون علينا بقدر ما أهملنا من ديننا.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال الله عزّ وجل: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢]:

الهاء فيها ثلاث قراءات:

الأولى: (عليهِمُ).

الثانية: (عليهُمُ).

الثالثة: (عليهِم). بدل من عليهمُ.

فصارت الهاء فيها قراءتان: الضم والكسر، والميم فيها قراءتان: الضم والكسر.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التيمم، باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾، رقم (٣٣٥). ورواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢١).

وقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ لم يبين الضارب ولكنه معلوم وهو الله عزّ وجل، فأبهمه للعلم به كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] مع أن الله هو الذي خلقه، ولكن من طريقة القرآن أن الأشياء غير المرغوبة يعبر الله عنها بصيغة الفعل المبني للمجهول، بخلاف الأشياء المرغوبة فيعبر عنها باسم الفاعل كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، وقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ الذي ضربها هو الله عزّ وجل، وسمَّى ذلك ضرباً كالضرب على النقود الذي يبقى منطبعاً لا يزول بمسح الأيدي، فكأن هذه الذلة مطبوعة عليهم لا يمكن أن تتغير. وهنا يقول: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ الضمير يعود على أهل الكتاب، ولكن هل المراد أهل الكتاب من اليهود والنصارى أم أنه خاص باليهود؟ اختلف في هذا أهل العلم فقال بعضهم: إنه خاص باليهود. وقال بعض العلماء: بل هو عام، والأصل العموم؛ لأن الضمير عليهم يعود على أهل الكتاب المذكورين في قوله: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فنقول: الضمير يعود على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وإذا قُدِّر أنه صار لهم عز في وقت من الأوقات فإنما ذلك لسبب يقتضيه، فهو خلاف الأصل وإلا فالأصل أن الذلة مضروبة عليهم.

وقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ الذلة هنا بمعنى الإهانة، أي: أن الله تعالى أهانهم.

وقوله: ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ على وزن (فِعْلَة) وهي تختلف عن الذُّل لأنها تدل على ذِلة معينة مخصوصة، قال ابن مالك:

وفَعْلَة لمرة كجَلسه وفِعْلَة لهيئةٍ كجِلْسه

فـ«ذِلة» على وزن فِعْلة أي: ذلة مخصوصة كما تقول: جلس فلان جِلْسة الأسد يعني جِلْسَة معروفة، هذه الذِلة ذلة ـ والعياذ بالله ـ لا تخرج من قلوبهم؛ لأنه قال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ فكما أن النقش في السكة المضروبة لا يتحول ولا يزول فكذلك هذه الذلة.

﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أين: ظرف مكان تدل أيضاً على عموم الأمكنة، ويؤكد عمومها «ما» الزائدة، أينما و«ثقفوا» بمعنى وجدوا، يعني في أي مكان وجدوا فإن الذلة مضروبة عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] يعني حيث وجدتموهم، فهؤلاء اليهود والنصارى من بني إسرائيل ضربت عليهم الذلة في أي مكان كانوا من الأرض فهم أذلاء؛ لأن الله ضرب عليهم الذلة.

قال تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

الحبل: هو السبب، وسمي السبب حبلاً لأنه يوصل إلى المقصود كما يوصل الحبل إلى المقصود فيما لو أدلى الإنسان دلوه إلى بئر مثلاً، فإنه يتوصل به إلى المقصود، قال بعض أهل العلم: إن الحبل من الله هو الإسلام؛ لأن الإسلام فيه العزة وفيه النصر وفيه الظهور، فهم أذلاء إلا أن يسلموا فيكون المراد بالحبل من الله هو الإسلام، فإذا أسلموا ارتفعت عنهم الذلة، وقيل: المراد بالحبل من الله الذمة، يعني أن يكونوا من أهل الذمة وذلك أن الإسلام يحمي أهل الذمة ويدافع عنهم، ولهذا يجب علينا بالنسبة لأهل الذمة حمايتُهم ممن يعتدي عليهم في

مالٍ أو دمٍ أو عرضٍ؛ لأنهم تحت رعايتنا وهم يبذلون لنا الجزية ما لم ينقضوا الذمة، فإن نقضوا الذمة فإنهم يعودون كالحربيين يُقْتَلون لانتقاض عهدهم، فصار المراد بالحبل من الله على قولين:

القول الأول: أنه الإسلام.

والقول الثاني: أنه الذمة.

وأمّا قوله: ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإن ظاهره العموم، يعني بسبب من الناس أي الناس يدافعون عنهم ويرفعون معنوياتهم ويعزِّزونهم، ولكن ما هو الحبل من الناس؟ قيل: إنه العهد والأمان، فالعهد كالذي يجري بين المسلمين وبين الكفار يحصل بينهم عهد أن لا يعتدي أحدٌ على أحد وأن تبقى هدنة كما حصل في غزوة الحديبية، والأمان أن يدخل رجل من المشركين أو من اليهود والنصارى بأمان من أحد من المسلمين يؤمّنه، والفرق بين العهد والأمان: أن الأمان يصح من كل واحد من المسلمين؛ لقول النبي ﷺ: «**قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ**»[1]، والعهد لا يكون إلا بين أهل الحل والعقد يعني بين الإمام أو قائد الجيش أو ما أشبه ذلك. والفرق بين العهد والأمان والذمة أن الذمة تثبت لأهل الذمة حقوقاً تجب على المسلمين يدافعون بها عنهم، ولهذا يأخذ المسلمون الجزية منهم عوضاً عن ذلك، فالحبل من الناس هو العهد والأمان، ويحتمل أن الحبل من الناس أعم من ذلك أي بأن يكون المراد به العهد والأمان والنصرة والإعزاز كما حصل

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في الثوب الواحد متلحفاً به، رقم (٣٥٧). ورواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى وأن أقلّها ركعتين، رقم (٣٣٦).

لليهود الآن من النصارى من الأمريكان وغيرهم، فإن اليهود أذلة قد ضرب الله عليهم الذلة والهوان لكن الأمم النصرانية الآن تساعدها وتعززها لا محبة لها ولكن من أجل أنها ضد المسلمين، فيكون المراد بالحبل من الناس هنا ما هو أعم من العهد والأمان، ومعلوم أنه إذا صلح اللفظ للعموم فإن الأولى أن يبقى على عمومه، فيكون المراد بالحبل من الناس أي مساعدة منهم وحماية كالعهد والأمان والنصرة والولاية وما أشبهها.

قال: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

(باؤوا): أي رجعوا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الحشر: ٩] أي سكنوها، فهذه المادّة (الباء، والألف والهمزة) تدل على الرجوع والاستقرار، والمعنى أنهم رجعوا بغضب من الله أي مصطحبين للغضب، والغضب: صفة انفعالية لا فعلية، والفرق بين الانفعالي والفعلي، أن الفعلي يكون باختيار الإنسان وبالجوارح الظاهرة كالبطش مثلاً، والانفعالي يكون بغير اختيار الإنسان وهو من القوى الباطنة؛ فالغضب: صفة انفعالية وليست فعلية، ولهذا تأتي للإنسان بغير اختياره، يستثيره أحد من الناس فيغضب، ويحمر وجهه، وتنتفخ أوداجه، ويقف شعره وربما يقتل مَنْ أمامه، وربما يطلق نساءه، وربما ينتحر أيضاً، نسأل الله العافية. فالغضب إذن صفة انفعالية وهو كما قال النبي ﷺ: «**جمرة في قلب ابن آدم**»[1] فيفور ويغضب، هذا

(١) رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة، رقم (٢١٩١). ورواه أحمد في مسنده، رقم (١١٠٧٥٩).

بالنسبة لغضب الإنسان الآدمي البشر، أما غضب الله عزّ وجل فهو صفة من صفاته التي يجب إثباتها له على الوجه اللائق به جل وعلا، فهو سبحانه وتعالى يغضب ويرضى ويسخط ويكره ويحب، وكل هذه الصفات ثابتة لله تعالى على الوجه الذي يليق به، جل وعلا.

وقوله: ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

هذه الجملة مما يؤيد القول بأن المراد بقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ اليهود لأنهم هم المغضوب عليهم، و(مِنْ) للابتداء أي بغضب صادر منه، وربما يقول قائل: إنها أعم من أن يكون الغضب صادر من الله، بل بغضب من تقدير الله، وعلى هذا تكون «مِن» للسببية ويكون المراد بالغضب غضب الله وغضب غيره، وهذا هو السر في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] ولم يقل: (غير الذين غضبتَ عليهم) لأن هؤلاء مغضوب عليهم من قِبَل الله ومن قبل أولياء الله.

وقوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾:

الضارب هو الله تعالى، والمسكنة هي الفقر، فهم أذلاء ليس عندهم شجاعة، فقراء ليس عندهم غنى، ولكن يجب أن نعلم أن الغنى ليس كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس والقلب، فهؤلاء قد ضربت عليهم المسكنة، فهم دائماً في فقر حتى لو حصّل الإنسان منهم ملايين الملايين فهم في فقر، ولذلك حتى الآن نجد أن اليهود أحرص الناس على المال، وأنهم لا يمكن أن يبذلوا فلساً إلا وهم يؤملون أن يحصلوا درهماً، ولا يبذلون درهماً إلا ويؤملون أن يحصلوا ديناراً، وهذه حالهم ومن ثم

صاروا من أغنى العالم إن لم نقل هم أغنى العالم، لكنهم أغنى العالم بكثرة العرض لا بالقلب والنفس، فهم أشد الناس فقراً.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾:

(ذلك) المشار إليه ما سبق من ضرب الذلة والغضب والمسكنة، والمشار إليه: مفرد مذكر وإن كان ثلاثة أشياء؛ لأن الإشارة عادت إليها باعتبار أنها مذكورة، فيكون تقدير الإشارة ذلك المذكور ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ (الباء) معناها السببية أي ذلك بسبب أنهم كانوا يكفرون بآيات الله. وكلمة ﴿كَانُوا۟﴾ تدل على اتصاف اسمها بخبرها، ﴿يَكْفُرُونَ﴾ فعل مضارع يدل على استمرار الكفر منهم وهو كذلك، فإنهم كانوا يكفرون بآيات الله مع ظهورها وبيانها حتى إنهم قالوا لنبيهم عليه الصلاة والسلام: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. مع أنه قد قال لهم: إن الله إله واحد، فهم يكفرون بآيات الله، ومن جملة كفرهم أنهم كفروا بمحمد ﷺ مع أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ولا أشد معرفةً من معرفة الإنسان لابنه ومع ذلك كفروا به عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآيات جمع آية وهي العلامة على الشيء التي إذا وجدت كان الشيء موجوداً لأنها علامته، كما لو قلت مثلاً: علامة طلوع الشمس أن ترى ضوءها على رأس الجبل، فهنا متى رأيت ضوءها على رأس الجبل فهي طالعة.

وآيات الله تنقسم عند أهل العلم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية، وكلها علامات على الله عزّ وجل، أما الآيات الكونية فهي المخلوقات كالشمس والقمر والأرض والنجوم

والجبال والدواب وغيرها، وكل مخلوق لله فهو آية من آياته سبحانه وتعالىٰ، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

أما الآيات الشرعية: فهي ما جاءت به الكتب التي أنزلها الله على الرسل، وإن شئت فقل: ما جاءت به الرسل ليعم الكتب والسنن، ومعنى كون الشيء آية أن غير الله لا يمكن أن يحصل له ذلك أو أن يأتي به لأنه لو أمكن أن يأتي به لم يكن آية.

يقول الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ﴾ [الحج: ٧٣] هذا تحدٍّ بالآيات الكونية، تحدَّى الله عزّ وجل هؤلاء بأصغر آية من آياته الكونية: الذباب ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ﴾، وفي الآيات الشرعية يقول الله عزّ وجل: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] ولهذا صار آية لا يمكن لأحد أن يأتي بمثل القرآن أبداً لا من جهة صدق الأخبار ونفع القصص وعدالة الأحكام وبلاغة الكلام إلى غير ذلك، ولو لم يكن منه إلا أنك لو تردده صباحاً ومساءً ما مللته وغيره من الكلام لو قرأته عدة مرات مللته وتركته، أما القرآن فسبحان الله لا تمل، الفاتحة تقرؤها في اليوم على الأقل سبع عشرة مرة ومع ذلك تقرؤها في الركعة الثانية كأنك لم تقرأها في الركعة الأولى من إشفاقك عليها ومحبتك لها، وهذا لا شك أنه من آيات الله. إذن الآيات الكونية هي المخلوقات، والآيات الشرعية ما جاءت به الرسل. كل الشرائع آيات شرعية، وسميت آية لأنها تُعْجِز الغير، فلا يمكن أن تأتي بمثلها.

والآيات الكونية تتعلق بالربوبية، والآيات الشرعية تتعلق بالربوبية والألوهية، ولهذا فهي منهج عبادة للخلق كما أنها من حيث كونها حكماً تتعلق بالربوبية، فإن لها علاقة وصلة بالربوبية لأنها حكم، والحكم يتعلق بالربوبية؛ لأن الرب هو الخالق المالك المدبر.

﴿يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ هذا أيضاً من أفعالهم الشنيعة أنهم يقتلون الأنبياء، وهذا أعلى ما يكون من الجناية على البشر. الضرب، الحبس، الإهانة، الأذى كله دون القتل، فأعلى أنواع الأذية القتل، هؤلاء يقتلون الأنبياء ـ والعياذ بالله ـ قتلاً إما ذبحاً بالسكين أو رمياً بالحجر أو بالسهم أو غير ذلك، المهم أنهم يقتلون الأنبياء فأخلّ هؤلاء بالتوحيد والرسالة، بالتوحيد بكفرهم بآيات الله، وبالرسالة بقتلهم الأنبياء.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ هذه الصفة ليست قيداً ولكنها كشف وإيضاح، لو قلنا إنها قيد لزم من ذلك أن ينقسم قتل الأنبياء إلى قسمين: قسم بحق وقسم بغير حق، وهذا لا يكون؛ لأن قتل الأنبياء كله يكون بغير حق. ولو قلنا إنها للإيضاح والكشف صار المعنى يختلف فلا تكون قيداً بل تكون لبيان الواقع أي أن قتل الأنبياء بغير حق، فيكون المقصود بذلك شدة التوبيخ لهؤلاء، وأنهم يقتلون أشرف الخلق بغير حق، هذه لها نظائر منها قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ صفة للإيضاح والكشف والبيان وليست للقيد. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] فقوله:

﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ليس قيداً ولكنه كشف وبيان لأنك لو جعلته قيداً لكان دعاء النبي ﷺ للمؤمنين ينقسم إلى قسمين:

قسم يراد به الإحياء، وقسم يراد به الإماتة، وهذا غير صحيح، إذن فقوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ بيان وكشف لما يدعو إليه وأنه ﷺ لا يدعو الناس إلا لشيء يحييهم.

يقول: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا﴾ هذا من باب التوكيد: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾؛ لأن الكفر عصيان لكن كأن الجملة هذه ـ والله أعلم ـ تعليل لذلك. فكان الكفر سبباً لضرب الذلة عليهم والمسكنة والغضب لأنه عصيان ومخالفة.

﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ تعود إلى قتل الأنبياء. فقتل الأنبياء عدوان، والكفر بالله معصية مع العلم بأنه كله معصية، ولكن هذا للعدوان أقرب، وهذا للمعصية أقرب.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن هؤلاء الذين ينتسبون للكتاب ولا سيما اليهود منهم قد ضربت عليهم الذلة، فهم أذل الناس حتى إنه قيل: إن اليهودي لا يمكن أن يشهر السلاح على من عدا عليه بغير سلاح، يعني لو كان مع اليهودي سلاح وعدا عليه شخص بغير سلاح سقط السلاح من يده من شدة ما ضرب عليه من الذلة.

٢ ـ أن هؤلاء اليهود قد يكون لهم عزة بحبل من الله أو حبل من الناس. نحن قلنا: إن المراد بالحبل من الله إمّا الإسلام أو الذمة، إن كان هو الإسلام فإن الاستثناء منقطع؛ لأنهم إذا أسلموا لم يكونوا من أهل الكتاب بل صاروا من المسلمين، وإن كانت الذمة فالاستثناء متصل.

٣ ـ أن أهل الكتاب قد ترتفع عنهم الذلة بحبل من الله أو حبل من الناس.

٤ ـ أن الناس قد ينصر بعضهم بعضاً بالباطل، وهذا عائد إلى قوله: ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهذا الواقع المحسوس أن من الناس من ينصر غيره بالباطل؛ لأن الناس ليسوا كلهم أهل عدل بل فيهم أهل الجَوْر وأهل العدوان الذين يساعدون أهل العدوان.

٥ ـ إثبات الغضب لله تعالى؛ لقوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ومنهج أهل السنة والجماعة في مثل هذه الصفة إثباتها لله على الوجه اللائق به، وأن الله يغضب وينتقم، ولكن أهل البدع يقولون: إن الله لا يغضب وحاشاه من الغضب، فقدّموا الرأي على النص قالوا: لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، والله عزّ وجل منزه عن ذلك، أحدٌ صمد ليس له قلب بمعنى أنه لا يحتاج إلى ذلك لأنه أحد صمد. قال ابن عباس: الصمد الذي ليس له جوف. فعلى هذا يقولون: إن الغضب الذي وصف الله به نفسه ليس بثابت له لأنه منزه عنه، ولهذا لا يكون الغضب إلا في مقام القوة ويقابله الحزن ويكون في مقام الضعف، ولكن أهل السنة والجماعة قالوا: لسنا أعلمَ بالله من نفسه، وقد وصف نفسه بالغضب فنحن نؤمن بأن الله يغضب، وأن جميع الصفات التي أثبتها الله لنفسه بابها واحد، يجب إثباتها بدون تمثيل، ولا يلزم إذا كان غضب المخلوق هو غليان دم القلب لطلب الانتقام أن يكون هذا المعنى هو الذي يوصف الله به، بل نعلم أن بين غضب الخالق والمخلوق فرقاً كما أن بين ذواتهما فرقاً، فالغضب ثابت لله ولكننا لا نعلم كيفيته، كيفيته موكولة إليه سبحانه وتعالىٰ، فإن

قالوا: الغضب لغة: هو غليان دم القلب نقول: هذا غضب المخلوق، أمّا غضب الخالق فيختص به جل وعلا كما أنكم أنتم تثبتون الإرادة لله وتقولون: إن الله مريد مع أن إرادة المخلوق هي ميل القلب إلى ما ينفعه أو يضره، أي لطلب منفعة أو دفع مضرة، فهل الإرادة التي أثبتموها لله تعالى بهذا المعنى؟ سيقولون: (لا) نحن نثبت لله إرادة تليق به وتخالف إرادة المخلوق. نقول: يجب عليكم إذن أن تثبتوا لله غضباً يليق به مخالفاً لغضب المخلوق، فالباب واحد، فإما أن تنفوا ما أثبتم، وإمّا أن تُثبِتُوا ما نفيتم، فإن أثبتوا ما نفوا وافقوا السلف، وإن نفوا ما أثبتوا وافقوا المعتزلة، وهم يرون أنهم في حرب مع السلف وفي حرب مع المعتزلة يحاربون المعتزلة، ولا أدل على ذلك من فعل أبي الحسن الأشعري رحمه الله الذي كان معتزلياً وبقي على الاعتزال أربعين سنة، ثم هداه الله وأنكر على المعتزلة إنكاراً عظيماً وبيَّن زيفهم وخطأهم وتبرأ منهم ومن الذين قالوا إننا لا نثبت الغضب لله لأنهم يقولون: إن السلف مجسمة ممثلة إذ يعتقدون أن مَنْ أثبت لله الصفات على وجه الحقيقة فهو مجسم وممثل، ولهذا صاروا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فنحن نقول لهم: كما أثبتم لله إرادة تليق به فأثبتوا له غضباً يليق به، وإلا فانفوا الجميع لتوافقوا المعتزلة، وهم لا يثبتون الجميع ولا ينفون الجميع كما هو المعروف من مذهبهم، وأعني بذلك الأشعريين.

فسّروا غضب الله بالانتقام، فقالوا: الغضب: الانتقام. وهذا تحريف وليس بتأويل؛ لأن الانتقام شيء منفصل عن الله عزّ وجل، يعني هم فسروه بالعذاب، ويدل على بطلانه قوله تعالى

في آل فرعون: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] فلما آسفونا بمعنى أغضبونا، ومن المعلوم أن السبب غير المسبب، وأن فعل الشرط غير جواب الشرط، وهذا أكبر دليل على بطلان تفسيرهم الغضب بأنه الانتقام أو إرادة الانتقام.

٦ ـ أن الله ضرب على هؤلاء من أهل الكتاب المسكنة، وسبق أن المراد بها مسكنة القلب فقد يكونون كثيري المال لكن لا يزالون في شح وبخل وطلب للمال.

٧ ـ إثبات العلة أي أن أفعال الله تعالى معللة أي مقرونة بالحكمة، ودليل ذلك قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ وقد نفى الجبرية حكمة الله وتعليل أفعاله، وشبهتهم في هذا أنهم يقولون: إن العلة غرض يريده الفاعل، والله تعالى منزه عن الأغراض، ومن كلماتهم الدارجة يقولون: إن الله منزه عن الأغراض والأعراض والأبعاض، ثلاثة أشياء: الأغراض: يعني الحكمة، ولهذا ينكرون الأسباب كلها، الأسباب الشرعية والكونية. الأعراض: الصفات الفعلية كالمجيء والضحك وما أشبه ذلك. الأبعاض: الصفات الخبرية كالوجه واليدين والعينين وما أشبه ذلك.

٨ ـ أن أفعال الله عزّ وجل وعقوباته لا بد أن يكون لها حكمة؛ لأن هذا الغضب الذي باءوا به وضرب المسكنة والذلة بيَّن الله له حكمة وهي أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ويكفرون بآيات الله ويعصون الله.

٩ ـ أن الكفر بآيات الله سبب للعقوبات؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وقد دلَّ على هذا عدة آيات من القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً

مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

١٠ ـ عُتُوّ بني إسرائيل بالكفر وقتل الأنبياء والمعصية والعدوان؛ لقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

١١ ـ أن قتل الأنبياء موجب للعقوبة؛ لأن الله ذكر لهذه العقوبة عدة أسباب منها قتل الأنبياء.

١٢ ـ أن قتل الأنبياء لا يمكن أن يكون بحق؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وقد سبق توجيه ذلك أثناء التفسير.

١٣ ـ جواز تعدد العلل لمعلول واحد، وهذا متفق عليه وذلك لأن العقوبات التي ذكرت متعددة والسبب واحد لكنه متعدد النوع، ويجوز أيضاً أن تتحد العلة، أي أن تكون واحدة والمعلول متعدد، مثل أن يفعل الإنسان فعلاً واحداً يترتب عليه عدة أشياء.

١٤ ـ أن بني إسرائيل عندهم عدوان على حق الله وحق الأنبياء وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

وهذه الأوصاف وما ينتج عنها من العقوبات يجب أن نتخذ منها عبرة، والفائدة المهمة المسلكية أن لا نقرأها على أنها أمر جرى وقصص تاريخية مضت بل يجب أن نقرأها من أجل أن نعتبر، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ ـ ١١٥]:

﴿لَيْسُوا﴾ الضمير يعود على أهل الكتاب، ﴿سَوَاءً﴾ بمعنى مستوين أي ليسوا متساوين في هذه الأوصاف، بل منهم أمة قائمة يتلون آيات الله إلى آخره، ومنهم أمة فاسقة غير قائمة على أمر الله، ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي لا يستوون في المعصية والأحوال والأوصاف.

ثم بيَّن ذلك فقال: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾.

قوله: ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ هم اليهود والنصارى كما مرَّ علينا كثيراً، وأظهر هنا في موضع الإضمار إما لطول الفصل بين الظاهر الذي ترجع إليه الضمائر، وإما لاستئناف الجملة؛ لأن قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ جملة مستأنفة.

﴿أُمَّةٌ﴾ أي طائفة، ﴿قَائِمَةٌ﴾ أي ثابتة مستقيمة على أمر الله، فالقيام هنا بمعنى: الثبات والاستقامة على أمر الله، وليس المراد به القيام الذي هو ضد القعود؛ لأن المسلم قائم على أمر الله سواء كان جالساً أو واقفاً أو مضطجعاً.

قوله: ﴿أُمَّةٌ﴾ مبتدأ، ويجوز الابتداء بالنكرة إذا أفادت، وهي إذا تأخرت فهي مفيدة. لو قلت: في الدار رجلٌ فهي مفيدة، وإذا قلت: رجلٌ كريم في الدار فهي أيضاً مفيدة، فإذا وُصفَت أو أُخّرت فهي مفيدة.

﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾:

كلمة ﴿قَآئِمَةٌ﴾ صفة و﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الجملة أيضاً صفة أخرى، ويجوز أن تكون حالاً لأن لدينا قاعدة نحوية وهي: أنه إذا وصفت النكرة جاز في الصفة الثانية أن تكون حالاً وأن تكون صفة، هذه القاعدة سواءً كانت الصفة الثانية جملة أم مفرداً، فإذا قلت: جاءني رجُل كريم راكبٌ. صحَّ لأنه وصف، وإذا قلت: جاءني رجلٌ كريمٌ راكباً. صحَّ أيضاً، هنا في الآية الكريمة ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ «أمة» نكرة، و«قائمة» صفة لها و«يتلون» يجوز أن تكون حالاً فتكون الجملة في موضع نصب على الحال، ويجوز أن تكون صفة.

﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التلاوة تارة يراد بها القراءة، وتارة يراد بها الاتباع، فإن صلح المقام للمعنيين جميعاً حُمل عليهما، وإن اختص بأحدهما اختص به، فإذا قلت: تلا عليَّ آية من القرآن، فالمراد القراءة. وإذا قلت: هذا الرجل يتلو آيات الله إخلاصاً وتعبداً، فهذا يحتمل القراءة ويحتمل الاتباع، وإذا كان يحتمل المعنيين وهما لا يتنافيان حُمل عليهما. إذن قوله: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يشمل تلاوة اللفظ وتلاوة العمل بآيات الله.

وقوله: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ آناء بمعنى أوقات، ومنه النوء لوقت ظهور النجم أو للنجم، فـ﴿ءَانَآءَ﴾ بمعنى أوقات، آناء الليل بمعنى أوقات الليل وساعاته.

﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾:

هذه الجملة يجوز فيها وجهان: أن تكون استئنافية، وأن تكون حالية من الواو في قوله ﴿يَتْلُونَ﴾ أي يتلون آيات الله

والحال أنهم يسجدون، فوصفهم بتلاوة آيات الله وهي أفضل الذكر، وبالسجود وهو أفضل الحالات؛ لأن السجود أفضل من القيام، وأفضل من الركوع حيث إن الساجد أقرب ما يكون من ربه، لكن تلاوة الآيات أفضل الأذكار فلهذا اختصت بالقيام، فقوله: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ذكر لأعلى أوصاف القول ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ ذكر لأعلى أوصاف الفعل وهو السجود.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾:

الجملة استئنافية لبيان حال هؤلاء، ويجوز أن تكون صفة لقوله: «أمة» وأن تكون حالاً.

قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾:

والإيمان بالله يتناول أربعة أشياء لا بد منها: الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، فمن أنكر وجود الله فهو لم يؤمن به، ومن آمن بوجوده وأنكر توحيده بالربوبية فإنه لم يؤمن بوجوده، ومن آمن به وبربوبيته ولكنه أنكر انفراده بالألوهية فإنه لم يؤمن به، ومن آمن بذلك كله ولكن أنكر شيئاً من صفاته فإنه لم يؤمن به، فلا إيمان بالله إلا بهذه الأمور الأربعة.

أما الإيمان باليوم الآخر فالمراد باليوم الآخر يوم القيامة، وسمّي اليوم الآخر لأنه لا يوم بعده إذ هو منتهى الخلائق، ولا يوجد فيه ليل ولا نهار، كله يوم واحد لا شمس ولا قمر ولا نجوم، كل في مكانه إما في الجنة أو النار، فهو آخر شيء يكون فيه العباد، ومعلوم أن للعباد أربع دور: الدار الأولى في بطون أمهاتهم، والثانية في هذه الدنيا، والثالثة في البرزخ، والرابعة في

اليوم الآخر وهي الأخيرة، ولهذا سمي اليوم الآخر، واليوم الآخر يدخل في الإيمان به كل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، فسؤال الميت في قبره داخل في الإيمان باليوم الآخر، وعذاب القبر أو نعيمه داخل في الإيمان باليوم الآخر، ووجه ذلك أن كل من مات فقد قامت قيامته، فما يجده في قبره كالذي يجده بعد حشره، كله من أمور الغيب، كله في دار الجزاء، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ويدخل في الإيمان باليوم الآخر كل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، والإيمان به أن تؤمن بكل ما جاء في الكتاب والسنة مما يكون بعد الموت جملة وتفصيلاً. ولكن اعلم أنه يوجد في كتب الوعظ من الأحاديث الضعيفة بل الموضوعة في أحوال القبر والقيامة ما ينبغي للقارئ أن يحترز منها، ولا أحسن من الرجوع إلى الكتب الصحيحة في هذا الباب لئلا نضل الناس؛ لأن بعض الوعاظ يختار مثل هذه الأحاديث من أجل الترغيب أو الترهيب، وفي الحقيقة أن هذا مسلك ليس بجيد؛ لأن كوننا نملأ أدمغة الناس بأحاديث ضعيفة أو موضوعة خطأ حتى لو كان فيها ترغيب وترهيب، وفيما صحَّ عن النبي ﷺ كفاية، والناس سوف يأخذون كل ما ذكر على أنه صحيح، يقولون: ما قيل في المحراب فهو صواب، والواجب على من ألّف في الترغيب والترهيب أن لا يذكر إلا ما كان حجة من صحيح أو حسن، أما الضعيف فلا حاجة لذكره لأننا في غنى عن الضعيف الذي لم يثبت عن النبي ﷺ.

بعض الكتب تذكر أنه لا بأس بذكر الحديث الضعيف في

فضائل الأعمال؟ نعم أجاز بعض العلماء ذكر الحديث الضعيف في فضائل الأعمال لكن بشروط ثلاثة:

الأول: أن يكون أصل العمل ثابتاً.

والثاني: أن لا يكون الضعف شديداً.

والثالث: أن لا يعتقد أن النبي ﷺ قاله.

وقوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾:

سبق ذكره في هذه السورة مرتين، وذكرنا في أول ما مرَّ علينا شروطه وآدابه.

وقوله تعالى: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾:

أي مع كونهم مؤمنين وكونهم مصلحين هم أيضاً مسارعون في الخيرات، يعني أنهم يتسارعون في الخيرات كما يتسارع الناس في الغنائم، قال: ﴿فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ولم يقل: «إلى الخيرات» مع أن سارَعَ تتعدى «بإلى» كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣] لأن المراد بذلك مسارعتهم إليها وفيها أثناء القيام بها، فالمراد المسارعة إليها، وإذا وصلوا إليها لم يقفوا عن المسارعة فيها، وهذا هو السبب والعلم عند الله في قوله: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ولم يقل: إليها.

وقوله: ﴿فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ الخيرات جمع خير أو خيرة، وهي كل ما انتفع به العبد أو نفع غيره، فالصلاة خير، وتعليم الناس كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ خير، والدعوة إلى الله خير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو خير أيضاً، وكل ما يقرب إلى الله تعالى هو خير، والمسارعة فيه هي المسارعة إليه والمسارعة فيه أثناء العمل.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، المشار إليه: هذه الأمة القائمة من أهل الكتاب، قال أهل العلم: و«الصالح» من قام بحق الله وحق العباد، وضده الفاسق، والصلاح يدور على شيئين: علم، وعمل، وضده الجهل والكفر والتمرد، فمن كان جاهلاً فإنه ليس بصالح، والمراد ليس بصالح الصلاح الذي يكون في قمة الصلاح وإلا فإن معه من الصلاح بمقدار ما عنده من العلم، ومن لم يكن عاملاً فليس بصالح وعنده من فَقْد الصلاح بقدر ما فَقَدَ من العمل.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾.

(ما) شَرْطِيَّة، وجملة ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ جواب الشرط، وفي هذه الآية قراءتان: «وما تفعلوا من خير فلن تُكْفَروه» بالتاء، والثانية «وما يفعلوا من خير فلن يُكْفَروه» بالياء، فعلى القراءة الثانية بالياء لا يكون في الآية التفات لأنها جرت على ضمير الغيبة كما في الآية التي قبلها، وعلى قراءة التاء «ما تفعلوا» يكون فيها التفات من الغيبة إلى الخطاب، وأيضاً يكون الخطاب فيها موجهاً إلى النبي ﷺ وإلى هذه الأمة.

وقوله: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ هذه للبيان، بيانية لوقوعها بعد اسم الشرط، واسم الشرط اسم مبهم يحتاج إلى بيان، ولهذا كلما أتتك «من» بعد اسم الشرط فهي بيانية.

وقوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ سبق آنفاً أن الخير كل ما يقرب إلى الله.

وقوله: ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ يعني لن يحرموا ثوابه، والكفر أصله السَّتر ومنه (الكُفُرَّى) وهو غلاف طلع النخل، وهذا الكُفُرى

يستر ولهذا قالوا: إن الكفر أصله الستر؛ لأن الإنسان يستر نعمة الله عليه لا يظهرها عليه، والنعمة تقتضي الشكر، فإذا لم تشكر فهذا هو الكفر. إذن ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ معناه: فلن يحرموا ثوابه لأنهم إذا حرموا ثوابه كان فعلهم لهذا الخير خفياً (أي ليس له أثر).

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾:

فيجازيهم على تقواهم، والتقوى لها فوائد كثيرة، وتخصيص العلم بالمتقين من أجل الحث على التقوى والحذر من مخالفتها وعدم القيام بها وإلا فإن الله عليم بكل شيء.

من فوائد الآيات الكريمة:

١ ـ أن أهل الكتاب ليسوا بسواء، فإن منهم أمة ضالة ومنهم أمة قائمة بأمر الله، وهو صريح في هذه الآية: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٢ ـ بيان عدل الله تعالى وأنه يعطي كل ذي حقٍّ حقَّه، فلما ذكر الذم ـ ذم أهل الكتاب ـ في الآيات السابقة فقد يتوجه الفهم إلى أن جميع أهل الكتاب على هذا الوصف أنهم يكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء بغير حق، ويعصون الله ويعتدون على حقِّه وحقِّ عباده، فقال: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ﴾ أي منهم من ليس كذلك.

٣ ـ أن من أهل الكتاب أمة، والأمة تقتضي الجمع والعدد الكثير بهذا الوصف المحمود المطلوب، وقد ذكروا أنه أسلم من اليهود نحو عشرين رجلاً، ومن النصارى عدد كثير أيضاً، ولذلك عبّر بقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ﴾ وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالأمة هنا أمة الإسلام؛ ولكن هذا بعيدٌ جدًّا؛ لأن ﴿أُمَّةٌ﴾

مبتدأ وخبرها ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ولم يعبر الله عزّ وجل عن هذه الأمة بأهل الكتاب بل قال: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨] كما أنه لم يعبر عن أهل الكتاب بالمؤمنين، فكل آية فيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فهي للمؤمنين بمحمد ﷺ، وكل آية فيها ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فالمراد بهم بنو إسرائيل الذين أرسل إليهم موسى وعيسى.

٤ ـ الثناء على القيام بطاعة الله والثبات عليها، تؤخذ هذه الفائدة من قوله: ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ هذا وجه الثناء عليهم.

٥ ـ الثناء على من يتلون كتاب الله قراءة وعملاً، تؤخذ من قوله: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ ثم ذكر الفرق.

٦ ـ فضيلة السجود، تؤخذ من الآية ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

٧ ـ الثناء على من آمن بالله واليوم الآخر، يؤخذ من ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

لكن هل إذا أثنى الله على شخص بصفة يكون مذموماً إذا لم يتصف بها، ينتفي عنه الحمد وقد يستحق الذم وقد لا يستحق؟

لا شك أنه إذا انتفى الإيمان باليوم الآخر هو مذموم لأنه كافر، لكن في غير هذا لو أثنينا على شخص بأنه يصلي صلاة الضحى هل معنى ذلك أنه لو لم يصل فهو مذموم؟ لا، إذن نأخذ قاعدة: لا يلزم من ترك المستحب الوقوع في المكروه، فلو أن رجلاً صلى ولم يرفع يديه عند تكبيرة الإحرام هل نقول إن هذا مكروه؟ لا. وهذه قاعدة مفيدة، لا يلزم من ترك المسنون أن يقع الإنسان في مكروه ولكنه ينقص أجره لا شك، لكن لا يذم ولا يقال إنه وقع في مكروه أو أمر منهي عنه.

٨ ـ الثناء على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتؤخذ من الآية ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ لو قال قائل: لماذا ذكر الله الإيمان بالله واليوم الآخر بين ذكر تلاوة الآيات وذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ بدأ بتلاوة آيات الله والسجود، وثنَّى بالإيمان بالله واليوم الآخر، وثلَّث بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فلماذا جعل الإيمان وهو الأصل بين تلاوة الكتاب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

الجواب: أن تلاوة الآيات تُذكِّر باليوم الآخر وتثبت الإيمان به، أي أنه لا يمكن الإيمان بالشيء إلا بعد العلم به، فهم إذا تلوا آيات الله علموا باليوم الآخر ثم آمنوا به، يعني أنه غاية.

٩ ـ الثناء على المسارعة في الخيرات من قوله: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فإن قال قائل: كيف يجمع بين هذه الآية التي فيها الثناء على المسارعة في الخير وبين قول النبي ﷺ: «**إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا**»[1]؟

الجواب أن نقول: إن المسارعة في الخيرات هي المسارعة في موافقة الشرع.

١٠ ـ الثناء على هؤلاء بالصلاح؛ لقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إذن فينبغي لنا أن نلتزم أو أن نقوم بهذه الأعمال التي مدح الله بها هؤلاء القوم من أهل الكتاب وأثنى عليهم بها.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب لا يسعى إلى الصلاة وليأت بالسكينة، رقم (٦٣٦). ورواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، رقم (٦٠٢).

فإذا قال قائل: هل الصلاح أمر كسبي أو أمر فطري؟ إذا قلت: إنه أمر فطري فكيف يكون الإنسان نفسه ليكون صالحاً؟ وإذا قلت أمر كسبي فهذا أمر ممكن.

فالجواب: أن الأصل أنه فطري ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] لكنه في النهاية والغاية يكون كسبياً، ولهذا قال النبي عليه أفضل الصلاة والسلام: «**فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»(١).

وللصلاح أسباب: منها ما ذكر الله في كتابه مثل: تلاوة آيات الله، وكثرة الصلاة، والإيمان بالله واليوم الآخر، وتحقيقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولهذا يشكو كثير من الناس اليوم أنه قد يجد في قلبه شيئاً من الفساد فكيف يصلحه؟ فنقول: أصلحه بما ذكر الله من هذه الأحوال لأهل الكتاب، فإن هذا من أسباب الصلاح، ولذلك قال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، صحبة الأخيار من أسباب الصلاح. فهل في الآية ما يدل عليها؟ الجواب: نعم؛ لأنهم إذا كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لا يمكن أن يصحبوا أحداً من أهل المنكر والشر، فيكون في الآية الكريمة إشارة إلى صحبة الأخيار، ولا شك أن صحبة الأخيار من أسباب الصلاح؛ ولهذا ثبت عن النبي ﷺ **أنه مثّل الجليس الصالح بحامل المسك**(٢)، ويروى عنه ﷺ أنه قال:

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك، رقم (٢١٠١). ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، رقم (٢٦٢٨).

«المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[(١)]. وأخذ الشاعر هذا المعنى وقال:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

١١ ـ التحذير من طاعة أهل الكتاب، تؤخذ من ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٠] أخبرنا الله تعالى بذلك من أجل أن نحذر منهم، وأن لا نطيعهم؛ لأنهم يحرصون غاية الحرص على أن يردونا بعد إيماننا كافرين.

١٢ ـ أنه من فعل خيراً أثيب عليه؛ لأن المراد بالنفي هنا تمام الإثبات، أي أنهم يُعطون أجرهم كاملاً بلا نقص.

١٣ ـ كمال عدل الله عزّ وجل لكون العامل إذا عمل عملاً أثيب عليه، ولو حوسب على ما أعطاه الله من النعم لهلك، لكن يثاب وتكون نعم الله عليه مجرد فضل من الله.

١٤ ـ إثبات علم الله تعالى؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾.

١٥ ـ الثناء على أهل التقوى، والتقوى ذكرت في القرآن الكريم على وجوه متنوعة ومتعددة أمراً وثناءً على أهلها وبياناً لثمراتها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩].

١٦ ـ ثبوت الثواب على عمل الخير قليلاً كان أم كثيراً؛ لقوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ وهي في سياق الشرط فتكون عامة.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، رقم (٨٢١٢).

□ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦ ـ ١١٧]:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يشمل كل من كفر بالله من يهودي أو نصراني أو شيوعي أو دهري أو مسلماً ارتد، المهم أن كل من كفر بالله فهذا حكمه، والكفر ذكر أهل العلم أنه قسمان: كفر مخرج عن الملة، وكفر غير مخرج عن الملة. وعليه يتنزل قول ابن عباس في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] قال: كفر دون كفر، ومن أمثلة هذا النوع أعني الكفر الذي لا يخرج عن الملة قول النبي ﷺ: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»(١)، فإن قتال المسلم ليس بكفر أي ليس بكفر مخرج عن الملة ولكنه كفر دون كفر؛ لأنه لا أحد يقدم على قتل المسلم إلا الكافر، فإذا قدم المسلم على قتل أخيه المسلم فقد أتى بخصلة من خصال الكفر، والدليل على أن قتال المسلم ليس بكفر مخرج عن الملة قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الحجرات: ٩]. ثم قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٠] ومن ذلك قوله ﷺ: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت**»(٢) ولها

---

(١) تقدم تخريجه في المجلد الأول (ص٥٦٠).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة، رقم (٦٧).

أمثلة. المهم أن هذا كفر أصغر لا يخرج من الإسلام.

أما الكفر الأكبر فهو الكفر الذي يخرج من الإسلام مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]، وهنا يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد به الكفر الأكبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لأن أصحاب النار لن يكونوا إلا الكفار كفراً أكبر؛ لأن صاحب الشيء هو الملازم له، ومن كفر كفراً أصغر فإنه لن يلازم النار بل لا بد له من الخروج منها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي لن تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله إذا أراد الله بهم سوءًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرعد: ١١] وحينئذ نقول: إن قوله: ﴿لَن تُغْنِىَ﴾ أي لن تمنع ولن تدفع، فهي عاجزة عن منع ما أراد الله وعن رفعه.

وقوله: ﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ ذكر الأموال لأن الأموال يفتدي بها الإنسان نفسه في مواطن الحرج، لو أن أحداً أمسك شخصاً وأراد أن يحبسه أو أن يقتله أو يعتدي على عرضه وقال له: دعني أنا أعطيك ما شئت من المال أو خُذ ما شئت من مالي، حينئذ أغنى عنه المال. والأولاد كيف يغنون عن الإنسان شيئاً؟ لأن الأولاد يدافعون عن آبائهم وأمهاتهم، وهم ـ أي الأولاد ـ أشد الناس حماساً في الدفاع عن آبائهم وأمهاتهم، فالإنسان لا يمكن أن يدع عدوه يبطش بأبيه أو أمه أبداً وهو على قيد الحياة، فلهذا قال: ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ لأن الأولاد هم الذين يدافعون عن آبائهم وأمهاتهم. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، شيئاً: نكرة في

سياق النفي ﴿لَن تُغْنِيَ﴾، قال الأصوليون: والنكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي شيء كان سواءً كان هذا الشيء شديداً أم كان ضعيفاً.

قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

ففي الدنيا لا يغني عنهم مالهم ولا أولادهم، وفي الآخرة كذلك هم أصحاب النار هم فيها خالدون، والنار معروفة هي ذلك الجسم الحار، ولكن حرارة النار في الآخرة ليست كحرارة النار في الدنيا حيث فُضّلت على حرارة النار في الدنيا بتسعة وستين جزءاً ـ نسأل الله السلامة ـ إذن فإن قدرت الآن أعظم ما في الدنيا من النيران في الحرارة فإن نار جهنم أشد منها، تزيد عليها بتسعة وستين جزءاً، فإذا أخذنا الأصل والزيادة صارت سبعين عن حرارة الدنيا.

وقوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ أي أهلها الملازمون لها.

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي ماكثون.

ثم قال الله عزّ وجل في بيان أن أموالهم لا تغني عنهم شيئاً ولا تنفعهم ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ﴾:

هذا تشبيه تمثيلي؛ لأن التشبيه يقولون إنه نوعان: تشبيه إفرادي مثل أن نقول: فلان كالبحر، فلان كالأسد. وتشبيه تمثيلي بمعنى أن تشبّه الهيئة بالهيئة، يكون المشبه شيئاً مؤلفاً من عدة أمور، والمشبه به كذلك يكون شيئاً مؤلفاً من عدة أمور، فيسمَّى عند البلاغيين تشبيهاً تمثيلياً، والأول تشبيهاً إفرادياً ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ الصورة الآن: ريح شديدة

فيها برودة عظيمة ولها صرير من شدتها أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم، فالتشبيه مركب الآن من ريح شديدة باردة أصابت حرث قوم يعني مصيبٌ ومُصاب، أي زرعهم، ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي استحقوا أن يعذبهم الله عزّ وجل بهذه الريح فأهلكته، فإذا هبت الريح العاصفة الباردة القوية انتقاماً من بني آدم فإنها سوف تهلك هذا الحرث، ووجه الشبه ظاهر؛ لأنهم سُلطوا على أموالهم تسليطاً عظيماً لكن لم ينتفعوا بهذا التسليط وعادت هباءً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾ [الأنفال: ٣٦] هذه حال الكفار إذا أنفقوا أموالهم لن ينتفعوا بها إطلاقاً، كمثل ريح فيها صِرٌّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته، ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ أي أنها مشتملة على الصرِّ، وفسرنا الصرَّ بأمرين: البرودة وشدة الصوت، لها صرير من شدتها وباردة، هذه لا تبقي على الزرع ولا تذر، فأهلكتهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

يعني ما ظلمهم الله عزّ وجل حين سلطهم على إهلاك أموالهم بدون أن ينتفعوا بها؛ لأن الله تعالى لا يظلم الناس شيئاً.

﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾:

هم الذين يظلمون أنفسهم بكفرهم بآيات الله، ولا أحد أجبرهم على هذا الكفر، وإذا فعل الإنسان الشيء من نفسه فلا يلومن إلا نفسه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾:

يظلمون أنفسهم هذه مفعول مقدم، وعلامة ذلك أنه لو كان

في غير القرآن وحولت الجملة بالتقديم والتأخير فقلت: ولكن يظلمون أنفسهم لاستقام الكلام.

إذن فأنفس هذه مفعول به مقدم، وفائدة التقديم الحصر، يعني أنهم ما ظلموا الله عزّ وجل، والله أيضاً ما ظلمهم ولكنهم ظلموا أنفسهم، أما كونهم ما ظلموا الله لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وأما كونهم لم يُظلموا فلأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فالله تعالى لم يظلمهم وهم لم يظلموا الله، لم ينقصوه شيئاً وإنما نقصوا أنفسهم ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ بيان أن الكفار مهما بلغوا في القوة عدداً ومدداً فإن قوتهم لن تغنيهم من الله شيئاً، عدداً لقوله: «أولاد» ومدداً لقوله: «أموال»، مهما كثرت قوتهم عدداً ومدداً فإنها لن تغني عنهم من الله شيئاً.

٢ ـ تمام قدرة الله وسلطته على العباد حيث إن الكفار العتاة لا يستطيعون أن يدفعوا شيئاً بأموالهم وأولادهم مما قضاه الله عزّ وجل، فإن قال قائل: مفهوم الآية أن المؤمنين تغني عنهم أموالهم وأولادهم من الله شيئاً، قلنا: هذا غير مراد؛ لأن الآية سيقت في الرد على الكفار الذين يفتخرون بأموالهم وأولادهم، فبيَّن الله أن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم من الله شيئاً، أما المؤمنون فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩] ولا أحد ينفعه ماله وولده إلا أن يكون عوناً له على طاعة الله.

٣ ـ أن الكفار في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾.

٤ ـ أنهم مخلدون فيها؛ لقوله: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ والجملة اسمية تدل على الدوام والثبوت، فإن قال قائل: هل هذا الخلود أبدي أم له غاية؟

فالجواب: أنه أبدي وليس له غاية، ودليل ذلك في كتاب الله في ثلاث آيات منه في النساء والأحزاب والجن، ففي النساء يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩] وفي سورة الأحزاب يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥] وفي سورة الجن: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣] وليس بعد هذه الآيات قول يُقال، بل لو قاله قائل فقوله مردود عليه؛ لأن هذا أمر غيبي لا يُعلم إلا من قبل الشرع والوحي، والوحي كما ترون نزل بأنهم خالدون فيها أبداً، وإذا جاء النص فلا قياس، فمن ادَّعى أنهم يخلدون فيها إلى أمد فإنه لولا تأويله لكان أمره خطيراً جداً، لكنه تأوّل واشتبهت عليه بعض الآيات وقال بعدم التخليد الأبدي وإلا لكان أمره خطيراً جداً؛ لأن ظاهر هذا القول تكذيب القرآن، والأمر خطير جداً، ولكنه صدر من أناس نعلم نصحهم لكتاب الله ولسنة نبيه ولأئمة المسلمين وعامتهم على وجه تأولوا فيه، والله يغفر لهم تأويلهم، لكن بالنسبة للعقيدة التي بين الإنسان وبين ربِّه إذا تبين له خطأ عالم من العلماء وجب عليه مخالفته، أمّا بالنسبة للعالم فنرجو له

المغفرة والرحمة إذا علم بالنصح للأمة لأنه غير معصوم، والعصمة في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

٥ ـ إثبات القياس؛ لقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ ووجه ذلك: أن المثل إلحاق للأصل بالفرع، إلحاق للمشبه بالمشبه به، وهذا هو أصل القياس، إلحاق فرع بأصل في حكم لعلة جامعة، فكل مثال ضربه الله في القرآن ففيه دليل على القياس إذ إنه إلحاق المشبه بالمشبه به، وعليه يكون في هذه الآية إثبات القياس.

٦ ـ حسن أو تمام بلاغة القرآن، وذلك بقياس الغائب على الشاهد، ووجهه أن الريح التي فيها صِرٌّ وأصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم كل يعرف أنها مدمرة ومهلكة، فكذلك أعمال الكافرين هالكة لا خير فيها؛ لأن الكفر مدمر لها، ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤].

٧ ـ أن الكافر لن ينتفع بما عمل في الآخرة، ووجهه أنه إذا هلك ما عمله وزال فإنه لن ينفعه لكن قد ينفعه في الدنيا، فيدفع الله عنه به من البلاء ما يدفع، أو يحصل من الخير الذي يرجوه ما يحصل بسبب الإنفاق الذي أنفقه من ماله.

٨ ـ انتفاء الظلم عن الله؛ لقوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وهل هو محال لذاته أو لغيره؟

قيل: إنه محال لذاته، وذلك لأن الخلق كلهم عبيد الله ومهما فعل السيد بعبيده فليس بظالم، وعلى هذا فإن الظلم في حق الله مستحيل لذاته، وهذا القول يتضمن أن الله غير قادر على الظلم؛ لأنه مستحيل لذاته عندهم. **والقول الثاني**: أن الظلم

بالنسبة لله مستحيل لغيره، يعني لو شاء الله أن يظلم لظلم، ولكنه مستحيل لغيره. والغير كمال عدل الله، وهو الذي منع أن يقع الظلم من الله سبحانه وتعالىٰ، ولهذا نقول: لو شاء الله لظلم العباد فأهدر أعمالهم الصالحة، وأضاف إليهم أعمالاً سيئة لم يعملوها، لكن لكمال عدله لا يمكن أن يقع منه ذلك سبحانه وتعالىٰ.

وأيهما أدل على الكمال؟

الجواب: أن يكون الظلم بالنسبة لله مستحيلاً لغيره؛ لأنه لو كان محالاً لذاته لم يكن فيه مدح لله عزّ وجل، فالمدح أن يكون قادراً عليه ولكنه تركه لكمال عدله. وأضرب لكم مثالاً يبيِّن الأمر: لو أن رجلاً عنيناً ـ أي لا يقدر على الجماع ـ دعته امرأة إلى نفسها فقال: ما لي رغبة، فهل نمدحه؟ لا، لا نمدحه لأنه غير قادر على ذلك، لكن لو كان رجلاً شاباً وعنده قدرة، ودعته امرأة لنفسها فقال: إني أخاف الله ولو شاء لأجابها وفعل، فإنه يمدح لأنه قادر، فلو قلنا: إن الظلم بالنسبة لله مستحيل لذاته، وأنه لا يمكن أن يقع منه، صار عدم ظلمه ليس فيه مدح، وصار تمدّح الله به لا فائدة منه، إذن فالله تعالى نفى عن نفسه الظلم لكمال عدله، فلعدله لا يمكن أن يقع منه الظلم.

فإن قيل: نفي السِّنة والنوم هل هي مثل نفي الظلم؟

السِّنة والنوم ليست فعلاً بل هي حال وانفعال يطرأ على النائم والناعس، فقد يقال: إنها محال لغيره ولو شاء لنام وأخذته السنة، وقد يقال: محال لذاته؛ لأن في ذلك نفي لكماله، ولأن هذا ليس فعلاً بل هو انفعال، فبينه وبين نفي الظلم فرق.

٩ ـ إثبات أن الله تعالى موصوف بالنفي كما هو موصوف بالإثبات. وصف الله بالإثبات كثير في القرآن، ووصفه بالنفي أقل لكنه موجود، هذا النفي الذي وصف الله به نفسه هل هو نفي محض مجرد؟ لا، بل هو نفي متضمن لثبوت، وهو كمال ضد ذلك الشيء، فإذا قال الله عن نفسه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] قلنا: لكمال عدله. وإذا قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤] قلنا: لكمال مراقبته. وإذا قال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] قلنا: لكمال قوته وقدرته، وهلمَّ جرا، لا يمكن أن يوجد في صفات الله نفي محض بل هو نفي متضمن لثبوت ضده على وجه الكمال، يقول العلماء رحمهم الله: ولا بد من هذا التقدير إثبات كمال الضد؛ لأن مجرد النفي إن كان لعدم القابلية فلا مدح فيه، وإن كان للعجز المنفي فهو نقص.

إن كان لعدم القابلية فلا مدح فيه، مثلاً لو قلنا: الجدار لا يظلم، الجدار لا يغدر بالوعد، هذا لغو، كل الناس يعرفون هذا، فما مثلك إلا مثل الذي قال: السماء فوقنا والأرض تحتنا، أو قال: كأننا حول المدرس طلبة يدرسون، فما الفائدة من هذا؟ فإذا كان غير قابل لهذا المنفي عنه فإن وصفَه به لغو لا فائدة منه، وإن كان هذا النفي لعجزه عن تحقيقه صار نقصاً، لو قلنا: إن الله لا يظلم لأنه لا يستطيع أن يظلم، لا شك أنه نقص، إذن فالقاعدة فيما وصف الله به من النفي أنه ليس نفياً محضاً بل هو متضمن لإثبات الكمال، الكمال ضد ذلك المنفي.

١٠ ـ أن نفس الإنسان عنده أمانة يلحقها ظلمُه وغشمُه، ويلحقها بره وإحسانه، فيجب أن يرعى هذه الأمانة حقَّها، وإذا

كان يجب على الإنسان أن يرعى الأمانة في ولده وأهله ففي نفسه من باب أولى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] هذه وصية منه تعالى لنا بأنفسنا وقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١] فأوصانا الله بأولادنا وصية منه لنا بأولادنا، والولد بضعة من أبيه.

❁ ❁ ❁

❑ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨ ـ ١٢٢]:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾:

الخطاب بمثل هذا:

أولاً: تصديره بالنداء يدل على أهميته والتنبه له.

ثانياً: توجيهه إلى المؤمنين له ثلاث فوائد:

الأولى: الإغراء على الامتثال كأنه يقول: إن كنت مؤمناً فافعل كذا وكذا، إن كنت مؤمناً فلا تفعل كذا وكذا، إن كنت مؤمناً فصدق بالخبر، ففيه توجيه للمؤمنين وإغراء بالامتثال.

الثانية: أن امتثاله من مقتضيات الإيمان؛ لأنه لا يخاطب الشخص بوصف ثم يوجه إليه حكم متعلق بهذا الوصف إلا كان ذلك دليلاً على أن امتثال هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ لأنه لا يصح أن توجه لفاسق كلمة تتعلق بالمؤمن.

الثالثة: أن الإخلال به نقص في الإيمان، إذا وجّه الله الخطاب للمؤمنين فهذا دليل على أن الإخلال به نقص في الإيمان، ثم إنه لا بد أن يكون هناك فائدة عظيمة إذا وجه الله الخطاب للمؤمنين كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرعها سمعك يعني استمع إليها، فإما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه[1].

يقول: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ هذا نهي ﴿لَا﴾ ناهية ولهذا جزمت الفعل فقال: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ والمراد (بالبطانة) القوم المقربون إلى الشخص، مأخوذ من بطانة الثوب؛ لأنها أقرب إلى البدن من ظهارته، فالثوب له بطانة وله ظهارة، البطانة أقرب، فالمعنى: لا تتخذوا قوماً مقربين إليكم تفضون إليهم بالأسرار وتخبرونهم بالأحوال وبما تريدون أن تقوموا به. وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أي من غيركم كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤] أي من غيره. المراد بذلك كل من يغايرك في أمر من الأمور، وهذا يختلف، قد يكون في الدين مثلاً، وقد يكون في الدنيا، فإذا كان الأمر يتعلق بالدين فحينئذٍ لا نتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، لا نتخذ

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (١/ ٢١١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٩٦)، وابن كثير في تفسيره (١/ ٦١).

المنافقين أولياء من دون المؤمنين لأنهم غيرنا، إذا كان يتعلق بتجارة فلا نتخذ أحداً بطانة يخدعنا في تجارتنا لأنه مغاير لنا في هذا الاتجاه، وهذه في الحقيقة قاعدة موجهة لكل مؤمن، وهي صالحة حتى للكفار مثلاً: لا يتخذ بطانة من دونه أي من غيره ممن يضره اتخاذه بطانة.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾:

هذه أربع جمل ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ هذه واحدة ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ هذه الثانية ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ هذه الثالثة ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ هذه الرابعة. هذه الجمل هل هي أوصاف لبطانة يعني بطانة متصفة بهذه الصفات، أو هي جُمل تعليلية للبطانة أي لا تتخذوا بطانة من دونكم فإنهم لا يألونكم خبالاً ويودون ما عنتم... إلخ؟، في هذا احتمالان: يحتمل أن هذه الجمل أوصاف، ويحتمل أنها جمل استئنافية معللة، لبيان التعليل أي لا تتخذوا بطانة من دونكم لأنهم لا يألونكم خبالاً ويودون ما عَنتُم... إلى آخره، وعلى القول الأول يكون معنى الآية: لا تتخذوا بطانة من دونكم على هذا الوصف أي بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً وودّوا ما عنتم... إلى آخره.

فإن قلنا بأن هذه الجمل أوصاف فإن قوله ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ يعتبر وصفاً خامساً؛ لأن (من دونكم) الجار والمجرور صفة لبطانة، وعليه فيكون نهى الله أن نتخذ بطانة من اتصفوا بهذه الصفات الخمس: أنهم من دوننا، أنهم لا يألوننا خبالاً، يودون ما عنتنا، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر.

قوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ «الأُلِيُّ»: بمعنى بذل الجهد، أي: لا يألون جهداً في خبالكم يعني أنهم يبذلون كل جهد في خبالكم، والخبال هو الفساد في الرأي والعقل، ولهذا يقول الناس لرجل فاسد عقله ورأيه: إنه خِبْل، فمعنى لا يألونكم خبالاً أي لا يألون جهداً في خبالكم يبذلون كل جهد لفساد أموركم؛ لأنهم قوم ليسوا منكم وهم بعيدون عنكم، بطانة من دونكم.

وقوله: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ الود: خالص المحبة أي أنهم يحبون بكل قلوبهم ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ أي الذي شقَّ عليكم، ويحتمل أن تكون (ما) مصدرية، أي: ودُّوا عنتكم، والعنت المشقة والشدة كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] أي ألحق بكم المشقة، وقال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] أي ما شقَّ عليكم، فالمعنى أن هؤلاء البطانة لا يألون جهداً في إفساد أمورنا، ويودون بكل قلوبهم العنت علينا والإشقاق والإتعاب، العنت الفكري والبدني والمالي، وكل شيء يمكن أن يلحقنا فيه مشقة فهؤلاء يودونه.

الوصف الثالث: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ بدت: أي ظهرت و﴿مِنْ﴾ لبيان محل البدو، فهي ابتدائية يعني ظهرت من أفواههم كأنما يريدون أن يكتموا هذه العداوة والبغضاء ولكنها تبدو لا بد أن تفهم من أقوالهم وإن كانوا لا يريدون هذا، ولهذا لم يقل: قد أبدوا البغضاء من أفواههم بل قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ﴾ وهو دليل أنها جاءت فلتة من أفواههم وإلا فهم يتكتمون في البغضاء من أجل أن يتوصلوا إلى مآربهم في اتخاذهم بطانة، لكن لا بد أن تبدو البغضاء من أفواههم.

﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾، أي أكبر مما يبدو من

أفواههم، أي عندهم من البغضاء في القلوب أكثر بكثير مما تبديه الألسن، هؤلاء القوم المتصفون بهذه الصفات نهانا الله عزّ وجل أن نتخذهم بطانة، والنهي عن اتخاذهم بطانة يستلزم إبعادهم والحذر منهم وأن لا نركن إليهم.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾:

أي أظهرناها حتى صارت بينة مثل فلق الصبح، والآيات العلامات، وهل المراد العلامات التي وصف بها هؤلاء أو هي أعم فتشمل جميع ما بيَّنه الله لنا؟ الأَوْلَى أن نجعلها عامة، نقول: بيَّن الله لنا العلامات الدالة على الحق وعلى الباطل في هذه المسألة وفي غيرها، وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ يدل على أن الله تعالى له عناية خاصة في المؤمنين يبين لهم الآيات التي قد تخفى عليهم، بل هي خافية عليهم.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

يعني أنه لا يظهر بياننا للآيات إلا لمن كان له عقل يعقل به نفسه وهواه، أما غير العاقل فإنه لا ينتفع ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] ويحتمل أن الشرط ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عائد على قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ والمعنى على هذا التقدير: إن كنتم تعقلون فلا تتخذوا بطانة من دونكم، أما على الأول فيكون التقدير: إن كنتم تعقلون فقد بيَّنا لكم الآيات فاعقلوها، ومرَّ علينا أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين لا يتنافيان فالأولى أن تحمل عليهما فيكون من العقل أن لا نتخذهم بطانة، ومن العقل أن نتبين ما بيَّنه الله لنا من الآيات.

وقوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾:

في قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾ قراءتان: المد ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾ أو القصر (هأنتم) وكلاهما قراءتان سبعيتان ينبغي للقارئ أن يقرأ بهذه مرة وبهذه مرة، يعني بهذه أحياناً وبهذه أحياناً إلَّا أمام العامة، فأمام العامة لا ينبغي أن تقرأها إلا بقراءة المصحف الذي بين أيديهم؛ لأنك لو قرأت بغير قراءة المصحف الذي بين أيديهم اتهموك بالخطأ أو شككوا في القرآن. وربما ـ إن كانوا عامة دهماء ـ يضربونك يقولون: أنت غيَّرت كتاب الله؛ لأن العامة الدهماء لا يميزون.

و(ها): قيل: إنها منقولة عن مكانها، وأن الأصل (أنتم هؤلاء) وقيل: بل هي للتنبيه وأنها في مكانها، ولأن التنبيه ينبغي أن يكون في أول الكلمات، فهي في مكانها. وقوله: ﴿أُوْلَآءِ﴾ منادى وأصله (يا هؤلاء) ﴿تُحِبُّونَهُمۡ﴾ أي تحبون هذه البطانة الذين لا يألونكم خبالاً، والذين ودُّوا ما عنتم، والذين قد بدت البغضاء من أفواههم، والذين ما تخفيه صدورهم أكبر، تحبونهم وذلك لأن المؤمنين يغلب عليهم سلامة القلب وطهارته وعدم ظن السوء في غيرهم، وكان هؤلاء يتوددون إليهم ويدّعون أنهم يصلونهم فيحبهم المؤمنون بناء على تغريرهم بهم. ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ يعني: وهم لا يحبونكم مع أنكم تحبونهم وكيف يحبوننا وقد بدت البغضاء من أفواههم؟ وقوله: ﴿تُحِبُّونَهُمۡ﴾ هذا معلوم لنا لكن ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ هذا غير معلوم، ولكن الله أعطانا له قرائن وهي ما تبديه أفواههم، فإذا كانوا لا يحبونكم فكيف تحبونهم؟ الإنسان العاقل الحازم هو الذي يعامل من كانت هذه صفته بمثل ما كان عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾:

الكتاب هنا اسم جنس يشمل جميع الكتب، تؤمنون بالكتاب القرآن، بالكتاب التوراة، بالكتاب الإنجيل، بالكتاب الزبور، بالكتاب صحف إبراهيم، تؤمنون بهذا كله وهم لا يؤمنون بذلك، مَنْ هؤلاء؟ يصدق هذا على اليهود والنصارى والمنافقين كلهم بهذا الوصف، لكن اليهود يدَّعون أنهم مؤمنون بالتوراة، والنصارى يدَّعون أنهم مؤمنون بالإنجيل، والمنافقون لا يؤمنون بشيء.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ نفاقاً ومداهنة ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] ولهذا قال: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ أي وحدهم أو إلى شياطينهم.

﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾:

أي من شدة الغيظ، لكن من شدة الغيظ لما يرون من نعمة الله عليكم، أو من شدة الغيظ لعدم اتباعكم لهم، أو من الأمرين جميعاً؟

الجواب: من الأمرين جميعاً بل ربما نقول: يشمل ما ادعوه في أنهم أمضوا مع المسلمين وقتاً ولم يتمكنوا من نيل مآربهم.

وقوله: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ﴾ الأنامل أطراف الأصابع، وعضُّها يعبر به عن شدة الندم والحزن، ويعبر به عن شدة الغيظ أحياناً، فالذي يتوعد غيره تجده يعض أنامله ويومئ برأسه، من الغيظ، والثاني انكسرت سيارته فعضَّ أنملته من شدة الندم، ولكن هنا بيَّن الله أنهم يعضون الأنامل من شدة الغيظ، يتمنى أن تكون

أنت الذي بين أسنانه حتى يقضمك ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ وهل الأنامل التي تعض طرف الأصابع أو وسط الأصابع؟ الظاهر أنها تختلف بحسب أعراف الناس. بعض الناس يعض الأعلى والآخر يعض الوسط، المهم كلها تنبئ عن شدة، إما شدة حزن أو شدة غيظ.

قال تعالى: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾:

﴿قُلْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أو لمن يتأتى خطابه وهو الأقرب؛ لأنه كان يخاطب المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾ يعني: قل يا أيها المؤمن لهؤلاء: موتوا بغيظكم، هذا الأمر بالإهانة وبيان عدم المبالاة بهم.

﴿بِغَيْظِكُمْ﴾ الباء: قيل: إنها للغاية والمصاحبة أي ابقوا على غيظكم إلى أن تموتوا، وقيل: إنها للسببية أي موتوا بسبب غيظكم فإنه لا يهمنا، والثاني أقرب، فالأول دعاء عليهم ببقاء الغيظ إلى الموت، والثاني دعاء عليهم بتعجيل الموت بسبب الغيظ، فيكون هذا أقرب للصواب وأشد في التحدي والبعد عنهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

الجملة استئنافية يبيِّن الله تعالى فيها أنه عليم بذات الصدور أي بصاحبة الصدور وهي القلوب؛ لأن القلوب هي محل العقل والإدراك والتدبير للجسد. وإنما قلنا: إن (ذات الصدور) هي القلوب لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. والقلب هو محل العقل ومحل التدبير، ولهذا قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت**

صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله»[١]. وهي محل النية والإرادة؛ لأن النبي ﷺ قال: «**إنما الأعمال بالنيات**»[٢] إذن عليم بذات الصدور أي بالقلوب، بصاحبة الصدور، هذا تفسير لفظي والمراد القلوب.

قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾:

الخطاب للمؤمنين، وهنا أتى بصيغة الجمع، وأتى بصيغة المفرد في قوله: ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾ وسبق أن جاء بصيغة الجمع، وهذا من التفنن في الخطاب، ومن فوائده الانتباه، إن الإنسان إذا اختلف الأسلوب عنده انتبه وليس كما إذا كان الأسلوب على وتيرة واحدة. ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ الحسنة أيما حسنة دنيوية أو دينية أو مالية أو أهلية بدنية شاملة، ووجه الشمول أن حسنة نكرة، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم، فأي حسنة تصيب المؤمنين فإنها تسوؤهم؛ لأنهم أعداء سواء كانت هذه الحسنة في المال أو البدن أو الأهل أو للنصرة أو أي حسنة كانت، فإن هؤلاء تسوؤهم الحسنة إذا مستكم.

وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾:

السيئة ما يسوؤكم، أي أصابكم ما يسوؤكم في البدن أو الأهل أو المال أو الدين ﴿يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾، أي يلحقهم الفرح بسببها،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢). ورواه مسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١).

في الحسنة قال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ﴾ وهنا يقول: ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ﴾ في السيئة، فهل هذا من باب اختلاف التعبير أو هناك فرق معنوي؟ قال بعض العلماء: إن هذا من باب اختلاف التعبير، وأن المعنى في قوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ أي إن تصبكم حسنة، قالوا: ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]. وقال بعض العلماء: بل بينهما فرق لأن المسَّ أخف من الإصابة، وبنى على ذلك أنهم يساؤون من الحسنة وإن كانت قليلة جداً ويفرحون بالسيئة إذا أصابت وأوجعت، وهذا الفرق بالنسبة لقوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ وجيه، لكن بالنسبة لقوله: ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ لو قلنا بهذا الفرق لكان فرحهم بالسيئة لا يكون إلا إذا كانت شديدة، وهذا فيما يظهر خلاف حالهم، وبناءً على ذلك يترجح القول بأن «مسَّ وأصاب» بمعنى واحد، لكن اختلف التعبير لفائدة وهي التنبيه؛ لأنه إذا اختلف الأسلوب لا بد أن يحدث للإنسان المخاطب انتباه بخلاف ما إذا كان على وتيرة واحدة، وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ هل يدخل في ذلك هزيمتهم في الجهاد؟

نعم يدخل، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٢، ٧٣].

وقوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾:

إن تصبروا على ما ينالكم منهم، ومعلوم أن الصابر ينتظر

الفرج. وتتقوا فيما تعاملونهم به؛ لأن الإنسان مطالب بالنسبة لهؤلاء الكفار بأمرين: الأول: الصبر على ما فعلوا، والثاني: أن يتقي الله فيما يفعل بهم.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ يعني ولو آذوكم فلا يضركم، والكيد هو التوصل إلى الإيقاع بالخصم بالأسباب الخفية، وهو بمعنى المكر وبمعنى الخداع، وهو ثابت لله عزّ وجل أي أن الله يوصف بالمكر والخداع والكيد في مواطنها بخلاف الخيانة، فإن الله عزّ وجل لا يوصف بها لأنها صفة ذم في كل حال، وفي قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ قراءتان: إحداهما (لا يَضُرُّكم) والثانية (لا يَضِرْكم) من الضَّير، والضَّير بمعنى الضرر وبمعنى الضيم فهو ضرر بضيم، ومنه ما جاء في حديث رؤية الله تعالى حيث قال ﷺ: **«إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تَضَارون ولا تُضَارون»**[1] أي لا يلحقكم ضير، فتكون القراءتان كل واحدة منهما أفادت معنى غير الأخرى؛ لأن مطلق الضرر دون مطلق الضير، فالضير أشد، فهم لا يلحقونا بضرر ولا بضير.

وقوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي فتكون عامة، يعني أي شيء يكون. ولكن يلحقهم من ذلك أذى؛ لقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦] ولكن لا

---

(١) رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر، رقم (٥٧٣). ورواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣). ورواه الترمذي، كتاب صفة الجنة بلفظه، رقم (٢٥٥٤).

يلزم من الأذى الضرر، ولهذا قال تعالى في الحديث القدسي: **(يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني)**[١]، وأثبت أن بني آدم يؤذونه فقال: **(يؤذيني ابن آدم يسب الدهر)**[٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾:

الإحاطة هنا: إحاطة العلم والقدرة والسلطان، فهو محيط بهم كإحاطة السور بمن في داخله، أي لا يتمكنوا أن يفروا من قضاء الله عزّ وجل وعلمه وسلطانه وقدرته، وقوله: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (ما) هذه موصولة فتفيد العموم، والعائد: محذوف أي بما يعملونه محيط.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

من هذه الآية إلى قريب آخر السورة كله في غزوة أُحد وما يتعلق بها، فقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ إذ: ظرف، عاملها محذوف تقديره: اذكر إذ غدوت، «وغدوت»: بمعنى خرجت غُدوة أي في أول النهار كما كان الأمر كذلك، فإن النبي ﷺ خرج إلى غزوة أُحد في أول يوم السبت الحادي عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة. وفي هذا اليوم غدا الرسول الكريم من أهله.

وقوله: ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ من: ابتدائية أي أن مبتدأ هذه الغدوة من أهله، من المدينة خرج النبي ﷺ غادياً إلى أُحد بعد أن استشار الصحابة رضي الله عنهم هل يخرج أو لا؟

---

(١) تقدم تخريجه في المجلد الأول (ص٥٦٠).

(٢) تقدم تخريجه (ص٥٥).

وسبب هذه الغزوة أن قريشاً لما قُتل من صناديدهم من قتل في بدر، سبعون رجلاً من كبرائهم، وأُسر منهم سبعون رجلاً، أرادوا أن يأخذوا بالثأر من النبي ﷺ، فخرجوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام يريدون قتاله، وكانوا ثلاثة آلاف معهم العدة الكثيرة يريدون النبي ﷺ ليقضوا عليه، فعسكروا حول المدينة، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ استشار الصحابة هل يخرج إليهم أو لا؟ أما شباب الصحابة الذين لم يحضروا بدراً فأشاروا على النبي ﷺ أن يخرج وقالوا: نخرج نقاتلهم، وأما بعض الصحابة فسكتوا، وأما المنافقون فقالوا: لا نخرج إليهم بل ندعهم فإن بقوا بقوا على شر حال، وإن ملوا رجعوا إلى مكة، وإن دخلوا المدينة نقاتلهم نحن بالسيوف ويقاتلهم النساء والصبيان بالحجارة من على السطوح، كذلك قال المنافقون لا نصحاً لله ورسوله ولكن جبناً وخوراً وخداعاً وغشاً، فدخل النبي ﷺ بيته ولبس لأمة الحرب وتهيأ عليه الصلاة والسلام، فقال بعض الصحابة: لعلنا استكرهنا رسول الله ﷺ على الخروج يعني ندموا، قالوا: ليتنا لم نتكلم بهذا، فلما خرج ولبس لأمة الحرب ـ وهو ما يوضع على الرأس ـ وتهيأ قالوا: يا رسول الله، إن شئت أن لا نخرج فعلنا، فقال عليه الصلاة والسلام: **«ما كان ينبغي لنبي لبس لأمة الحرب أن يضعها حتى يفتح الله بينه وبين عدوه»**[1]. فمضى وخرج من المدينة ومعه ألف مقاتل، وفي أثناء الطريق رجع عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين بنحو ثلث الجيش وقالوا: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم،

---

(١) انظر: مسند أحمد، رقم (١٤٣٧٣).

قال الله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران: ١٦٧] فانخذلوا ولكن الصحابة رضوان الله عليهم بثباتهم وإيمانهم لم يضرهم ذلك شيئاً، واستمروا حتى نزلوا أُحداً، ولما نزلوا عبَّأهم النبي ﷺ أحسن تعبئة ورتَّبهم واختار منهم خمسين رجلاً من الرُّماة، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وقال لهم: لا تبرحوا مكانكم، جعلهم في سفح الجبل على شعبة منه قال: لا تبرحوا مكانكم سواء كانت لنا أم علينا، فبقوا يحمون ظهور المسلمين، فحصل القتال في أول النهار وكانت الدائرة على المشركين فتولوا الأدبار فجعل المسلمون يجمعون الغنائم، فلما رأى أهل الجبل حال المسلمين وأن المشركين قد ولّوا الأدبار وصار المسلمون يجمعون الغنائم قالوا: ننزل لنساعد إخواننا في جمع الغنائم فقد انتهت الحرب، فذكَّرهم أميرهم بقول رسول الله ﷺ: لا تبرحوا مكانكم سواء كانت لنا أم علينا، ولكنهم أصروا إلا أن ينزلوا فنزلوا، فلما رأى فرسان قريش أن الثغر خالٍ وليس هناك أحد يحمي المسلمين من ورائهم كروا عليهم بخيولهم من خلفهم ودخلوا، وكان على رأسهم قائدان عظيمان هما خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل قبل إسلامهما رضي الله عنهما، فاختلط الناس بالمسلمين من ورائهم وحصل ما قضى الله وأراد لحكمة عظيمة، وقُتل من المسلمين سبعون رجلاً وجُرح النبي عليه السلام، وكُسرت رباعيته، وشجَّ وجهه حتى كانت ابنته فاطمة تأتي بالحصير تحرقه وتذر رماده على جُرح النبي ﷺ ولكن الدم يندفع، وحصل من الابتلاء والامتحان ما الله قد قضاه وقدّره لحكمة عظيمة حتى يعلم الناس أن الله تعالى له الحكم وإليه المنتهى، وحتى يعلم الناس أنه لا نصر مع

المعاصي أبداً. هم عصوا النبي عليه السلام شرعاً وفرَّطوا فيما يلزمهم قدراً، كيف ذلك؟ عصوا النبي ﷺ لأنه قال لهم: لا تبرحوا مكانكم، وتركوا ما يلزمهم قدراً وهو حماية المسلمين من خلفهم؛ لأن هذا من الأسباب النافعة، وترك الأسباب النافعة سفه في العقل ونقص في الدين؛ لأن الله تعالى أمر بأن نأخذ بالأسباب وأعظمها التوكل على الله، ولكن لا بد من أن نفعل الأسباب الحسية المادية، فهم رضي الله عنهم وعفا الله عنهم حصل منهم ما حصل فصارت النكبة العظيمة، الشهداء رضي الله عنهم حملهم أهلهم إلى المدينة ليدفنوهم في البقيع، ولكن النبي ﷺ أمر أن يردوا إلى مصارعهم، ويدفنوا هناك في أُحد ففعلوا، والحكمة من ذلك ـ والله أعلم ـ أن المقتول في سبيل الله يبعث يوم القيامة وجرحه يثعب دماً، اللون لون الدم، والريح ريح المسك، ولا يغسل لئلا يزول هذا الدم من على جسده، ولا يكفن وإنما يدفن في ثيابه التي قُتل فيها، كل هذا من أجل أن يتحقق خروجه يوم القيامة من المكان الذي صُرع فيه وعلى الهيئة التي صُرع عليها.

المهم أن الله تعالى يذكّر نبيّه عليه الصلاة والسلام بهذه الغزوة العظيمة التي فيها من الأسرار والحكم ما يتبين به أن ذلك هو عين الصواب وعين الخيرة للمؤمنين، وقد ذكر الحافظ ابن القيم ـ رحمة الله عليه ـ في كتابه «زاد المعاد»[1] من الحكم في هذه الغزوة ما لا تجده في أي كتاب آخر، فتحسن مراجعته فإنه مفيد.

---

(١) زاد المعاد، لابن القيم (٣/ ١٩٦).

يقول: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾:

«تبوئ» هذه الجملة حالية يعني حال كونك تبوئ، ومعنى تبوئ يعني تنزل، **والتبوؤ**: معناه النزول كما جاء في الحديث الصحيح: «**من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[1] أي فلينزل نفسه مقعداً من النار، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الحشر: ٩] أي نزلوها.

قال: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾:

المؤمن هو المُقر بما يجب الإيمان به مع القبول والإذعان، وفي هذه شهادة من الله عزّ وجل أيما شهادة على أن هؤلاء الذين شهدوا هذه المعركة مؤمنون. ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ الله أكبر، مقاعد للقتال أي يثبتون ويقعدون كثبوت القاعد، ولهذا قال: ﴿مَقَٰعِدَ﴾ ولم يقل منازل من أجل أن تكون هذه الأماكن التي بوؤوها مكاناً ثابتاً كثبات القاعد في مجلسه، وليس المعنى أن الرسول ﷺ جعل لهم هذه المنازل وقال اجلسوا. بل هم يتكيفون كما يناسب مصلحة الحرب لكنها سُميت مقاعد من أجل الثبات فيها. ﴿لِلْقِتَالِ﴾: يعني لقتال الأعداء، وتعلمون أن المقاتل لن يبقى في مكانه دائماً إنما يكرُّ ويفرُّ حسب ما تقتضيه المصلحة.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

أي سميع لما تقول لهم، «عليم» بأحوالهم. وقد نقول: إنَّ

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦١). ورواه مسلم، في المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، رقم (٣).

كلمة «سميع» أعم من كونها لما يقول لهم حين ترتيبهم وتبوئهم، فتكون أشمل، وهذا هو الأحسن لأنه كلما كان اللفظ شاملاً كان أحسن وأعم، «عليم» أي عليم بما يحدث من قول وفعل وحال وحاضر ومستقبل.

ثم قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾:

﴿إِذْ﴾ قال المفسرون أو المعربون: إنها بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى، يعني يكون التقدير على هذا: (اذكر إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا).

﴿هَمَّت﴾: الهَمُّ يطلق على مجرد حديث النفس، ويطلق الهَمُّ على العزم، يعني أن الإنسان قد يهم ويحدث نفسه هل يفعل أو لا يفعل، يقال هذا «هَمَّ» ويطلق على العزم المصمم الذي ينفذ إن لم يوجد مانع، وهنا الطائفتان وهما بنو سلمة وبنو حارثة همّوا أن يفشلوا، والفشل هنا بمعنى الجبن والخوف، يعني أن هاتين الطائفتين وقع في قلوبهما الهم بالانهزام، وسببه ما جرى من المنافق عبد الله بن أبي بن سلول الذي انخزل بنحو ثلث الجيش، وتعرفون أنه إذا انخزل ثلث الجيش فإن هذه ثُلمة كبيرة في الجيش، فهاتان القبيلتان همّتا أن تفشلا، أن تجبنا وترجعا ولكن الله تعالى ثبَّتهما، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ فثبّتهما سبحانه وتعالىٰ فلم تفعلا ما عزمتا عليه.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ هذه ولاية خاصة، وولاية الله تعالى تنقسم إلى عامة وخاصة، فالولاية بمعنى التدبير للشؤون ولاية عامة، والتي بمعنى العناية أي تقتضي العناية ولاية خاصة، لأن

الإنسان إذا همَّ بالمعصية أو بالذنب ثم حصل له من عند الله ما يمنعه منه فهذه ولاية خاصة من الله لا شك، فكثيراً ما يهمُّ الإنسان بالذنب أو بترك الواجب يعني بالذنب من فعل المعصية أو ترك واجب فيجد في قلبه إذا هَمَّ بالمحرم انحلالاً عن هذه الهمة وعدولاً عنها، هذه ولاية من الله، وأحياناً يهم بترك الواجب فيقيِّض الله له من يعينه عليه حتى يفعل، هذه أيضاً ولاية خاصة، فهاتان القبيلتان لمّا همتا تولاهما الله عزّ وجل بعنايته فلم تفشلا وبقيتا مع الجيش، وكان بعض هاتين الطائفتين يقول فرحاً لقد كان من حظهم أن الله أخبر عنهم بهذا الخبر لأنه أخبر بأنهما همَّتا أن تفشلا، وأخبر بخبر آخر سارٌّ ومنقبة لهما وهو أن الله وليهما.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾:

«على الله» متعلقة بـ«يتوكل» وقدّمت لإفادة الحصر أي على الله لا على غيره فليتوكل، والتوكل: قال أهل العلم: هو صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به وفعل الأسباب التي أمر بها، هذا التعريف طويل ولكنه جامع، إذن لا يكفي أن تصدق الاعتماد على الله حتى يكون في قلبك ثقة بأن الله سيعينك ويكفيك كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. ولا يكفي أيضاً أن تعتمد على الله وتثق به حتى تفعل الأسباب التي أمر بها؛ لأنك إن لم تفعل الأسباب التي أمر بها كنت متواكلاً لا متوكلاً، ويذكر أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قيل له: إن قوماً من أهل اليمن جاؤوا حجاجاً وليس معهم زاد فقالوا: نحن المتوكلون. فقال:

إنهم ليسوا بمتوكلين ولكنهم متواكلون، بمعنى أنهم مفرطون مهملون، فلو أن أحداً قال: سأعتمد على الله تعالى في جلب الرزق وهو قادر على فعل الأسباب ولكن لم يفعل قلنا: أنت مهمل متواكل، افعل السبب: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، قد يقول: ربما يموت قريب لي فأرثه فهذا من رزق الله، فنقول: فإذا لم يمت تقتله؟ نعوذ بالله ولو قتله ليأخذ ماله حُرِمَ من الميراث؛ لأن القاتل عمداً لا يرث، فالحاصل أنه لا بد لصحة التوكل من فعل الأسباب التي أمر الله بها، أما الأسباب التي لم يأمر الله بها فإنه لا يجوز للإنسان أن يتعاطاها.

وقوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أمر المؤمنين أن يتوكلوا على الله؛ لأنه لا يمكن أن يحقق التوكل إلا المؤمن، فالتوكل من مقتضيات الإيمان، والإيمان الحقيقي من أسباب التوكل على الله.

من فوائد الآيات الكريمة:

من فوائد قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا . . .﴾:

١ ـ تحريم اتخاذ البطانة التي ليست مِنَّا؛ لقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾ والأصل في النهي التحريم.

٢ ـ أن هذا التحذير ليس خاصًّا بولاة الأمور، بل كل إنسان لا يجوز له أن يتخذ بطانة من دونه حتى الواحد الفرد، بمعنى أنها ليست على طريقه ولا على منهاجه، فلو أن رجلاً مسلماً صَادَقَ كافراً واتخذه بطانة يسرُّ إليه بالأمور لقلنا: إن هذا حرام عليه، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟

عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ [الممتحنة: ١].

٣ ـ أن تجنب البطانة السيئة من مقتضيات الإيمان؛ لأن الخطاب وُجِّه إلى المؤمنين.

٤ ـ أن اتخاذ بطانة السوء من نواقص الإيمان بناءً على القاعدة التي أصَّلناها فيما سبق وهي: أن ما كان الإيمان مقتضياً له فإن فواته يكون نقصاً في الإيمان، ولكن هل يكون من نواقض الإيمان؟ ربما يكون، لو اتخذ هذه البطانة فيما يخرج من الإسلام.

٥ ـ أن الذين من دوننا لا يألوننا خبالاً، وهذا بناء على أن الجملة استئنافية للتعليل، وقد مرَّ بنا في التفسير أن من العلماء من قال: إنها صفة لما قبلها، وأن الذين من دوننا إذا كانوا لا يألوننا خبالاً فلا بأس أن نتخذهم بطانة، ولكن الظاهر الأول، أن الجملة استئنافية للتعليل يعني أن الذين من دوننا لا يألوننا خبالاً. ولنضرب لذلك مثلاً بالمؤمنين يتخذون البطانة من الكافرين، فإن الكفار لا شك أنهم لا يقصرون في طلب الخبال لنا. يذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل إليه أبو موسى رضي الله عنه يريد منه أن يولي كاتباً نصرانياً على بيت المال لأنه ـ أي هذا الكاتب النصراني ـ كان جيداً في الحساب، فكتب إليه عمر أن لا تفعل وأمره بعزله، فأعاد عليه مرة ثانية يطلب منه أن يبقيه كاتباً، فكتب إليه عمر (مات النصراني والسلام) المعنى إذا مات هل معناه أن يتعطل بيت المال أو حساب بيت المال، أي قدِّر أنه

مات. أما أن نأتمنه على بيت مال المسلمين وقد خان الله ورسوله فلا يمكن. وبه نعرف أنه لا يجوز أن يولىٰ أعداؤنا من الكفار أو غير الكفار أسرار أمورنا؛ لأننا إذا ولّيناهم أسرار أمورنا فقد اتخذناهم بطانة.

٦ ـ بيان عناية الله تعالى بعباده المؤمنين حيث حذَّرهم إلى أمور قد تخفى عليهم وذلك باتخاذ البطانات السيئة.

٧ ـ أن أعداءنا يودون لنا ما يشق علينا؛ لقوله: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ وهنا سؤال: هل يودون ما يشق علينا في الدنيا أو الدين؟

الجواب: يشمل الأمرين فيودون ما يدمِّر جيوشنا، ويودون ما يدمِّر اقتصادنا، ويودون ما يدمِّر معارفنا، ويودون ما يدمر ديننا. والظاهر عندي ـ والله أعلم ـ أن أهم شيء لديهم هو تدمير الدين؛ لأنهم يعلمون أن ديننا إذا قوي صار فيه تدمير لهم، لكن اقتصادنا إذا قوي لا يكون فيه تدمير لهم؛ لأنهم هم أقوى منا اقتصاداً وأقوى منا جيوشاً، وأقوى منا عدة في الوقت الحاضر، لكن الدين هو الذي يدمرهم؛ ولذلك نقول: إن كل ما يشق علينا في أمر الدين والدنيا يتطلبونه، يريدون أن يضايقونا في الدين بقدر ما يستطيعون، يودون أن يضايقونا في الاقتصاد بقدر ما يستطيعون، يودون أن يضايقونا في السلاح بقدر ما يستطيعون، يرسلون لنا من الأسلحة ما عفا عليها الزمن، من الأسلحة التي زالت منفعتها في الوقت الحاضر، وصارت بالنسبة لأسلحة الوقت الحاضر كالسكين أو الهراوة بالنسبة للأسلحة، يعني ليس فيها فائدة، هم يريدون أن يكملوا اقتصادهم وأن يشغلوا مصانعهم ولا يهمهم أن ننتفع.

٨ ـ أن أعداءنا إذا تأمل الإنسان أحوالهم وجد من أفواههم ريح البغضاء؛ لقوله: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ بما يتكلمون به، وربما تبدو البغضاء من أفعالهم أحياناً بالمضايقة، فهم أحياناً يبدونها من أفواههم، وأحياناً من أفعالهم بالتهديد الفعلي لا القولي ونحو ذلك.

٩ ـ أن ما في قلوب الأعداء من العداوة والبغضاء والحقد والحنق أكثر مما يبدو، وهذا أمر لا يطلع عليه إلا الله وهو الذي أخبرنا بذلك، ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أكبر مما تبديه أفواههم.

١٠ ـ بيان أن الأوصاف الذاتية أو الفعلية تتفاضل؛ لقوله (أكبر) وهو قد تكلم عن البغضاء، والبغضاء وصف في القلب ذاتي لا يمكن للإنسان أن يعرفه إلا بآثاره، فهنا بيَّن أن البغضاء متفاوتة وكذلك المحبة متفاوتة، ولا شك في المحبة أنها متفاوتة لأنها جاءت في القرآن والسنة ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقال النبي ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»**(١). والبغضاء أيضاً تتفاوت بعضها أعظم من بعض.

١١ ـ مِنَّة الله تعالى علينا ببيان آياته؛ لقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ والآيات التي بيَّنها الله قسمان: آيات كونية وآيات

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول من الإيمان، رقم (١٥). ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة الرسول ﷺ، رقم (٤٤).

شرعية، وبيانه لها إمّا بالمشاهدات الحسية وإما بالتأملات العقلية، فالآيات الشرعية تكون بالتأملات العقلية، والآيات الكونية تكون بالمشاهدات الحسية التي قد تكون طريقاً إلى التأملات العقلية أيضاً.

١٢ ـ أنه كلما كان الإنسان أشد عقلاً أو أقوى عقلاً كان أفهم لآيات الله، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي أنه كلما كان الإنسان أعقل كانت الآيات له أبين وأظهر.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾:

١ ـ بيان علم الله تعالى بما في القلوب؛ لقوله: ﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ لأن المحبة والكراهة من أعمال القلوب، ولا يطلع عليها إلا الله تعالى لكن لها آثار تدل عليها.

٢ ـ التحذير ممن يبدي أنه ناصح لك وقلبه كاره لك؛ لأن المقصود من هذا قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾ إلى آخر التحذير من هؤلاء، فلا تغتر بمن ظاهر حاله النصح بل قس الأمور بالأفعال؛ لأن الأفعال هي التي تبين حقيقة الأمر، فكم من إنسان يقول لك قولاً وهو على خلاف ما يقول لك ولكن الأفعال هي التي تبيّن.

٣ ـ أن هذه الأمة الإسلامية تؤمن بجميع الكتب؛ لقوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أما اليهود فيكفرون بالإنجيل ويكفرون بالقرآن، وأما النصارى فيكفرون بالقرآن، ومع ذلك هم كفار؛ لأن من كفر بكتاب مما أنزله الله فهو كافر بجميع الكتب، وقد مرَّ

علينا تقرير هذا مراراً، وأن من آمن ببعض الرسل دون بعض فقد كفر بالجميع، وأن من كفر ببعض الرسل دون بعض فقد كفر بالجميع، وكذلك من كفر ببعض الشريعة فقد كفر بالشريعة كلها؛ لأن الشريعة واحدة ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

٤ ـ أن هؤلاء يخادعون المؤمنين؛ لقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾.

٥ ـ أن العبرة بالأفعال لا بالأقوال؛ لقوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي أنهم من شدة غيظهم يعضون أناملهم كأنكم أنتم الذين بين أضراسهم ليمضغوكم مضغاً من شدة الغيظ والحنق، ولهذا تجد الناس حتى الآن إذا أراد شخص أن يتوعد إنساناً أخذ يهز برأسه وهو عاض إصبعه لشدة غيظه.

٦ ـ إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ لأن (من) للسببية أي بسبب الغيظ، وإثبات الأسباب شيء معلوم ظاهر، ولو تأملت لوجدت أن كل مسبب له سبب قطعاً، وأن جميع الأشياء يجعل الله لها أسباباً تحصل بها.

٧ ـ أنه ينبغي للمسلم أن يكون قويًّا صارماً أمام أعدائه؛ لقوله: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾.

٨ ـ إثبات علم الله لما في القلوب على وجه صريح؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ودلالة هذه الجملة على علم الله بما في القلوب دلالة مطابقة، ودلالة قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ دلالة التزام.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾:

١ ـ أن العدو إذا أصابت عدوه حسنة ساءته، وإذا أصابته سيئة فرح بها، وقد جعل الفقهاء رحمهم الله هذا ضابطاً في العداوة حينما تكلموا في باب الشهادات على أن العدو لا تقبل شهادته على عدوه، قالوا في ضابط العدو: هو من سرَّه مساءتك وساءه مسرتك، مأخوذ من هذه الآية.

٢ ـ بيان أن العدو مهما أظهر لك من الصداقة فإنه كاذب؛ لأن الذي يسوؤه حسنتك لا شك أنه ليس بصديق، والذي يفرح بمصيبتك لا شك أيضاً أنه ليس بصديق وإن تظاهر بالصداقة.

٣ ـ بيان شدة عداوة هؤلاء للمؤمنين الذين اتخذوهم بطانة؛ فكيف تتخذونهم بطانة وهم يساؤون بما يسركم، ويسرون بما يسؤوكم؟

٤ ـ التحذير من تولية اليهود والنصارى لأمور المسلمين القيادية كأن يجعلوهم مدراء أو وزراء أو ما أشبه ذلك؛ لأنهم لا يألوننا خبالاً ويسرون بما يسوؤنا، ويساؤون بما يسرنا، فكيف نتخذهم بطانة نوليهم أمورنا القيادية من إدارة أو رئاسة أو غيرها؟

٥ ـ أن أعداءنا لا يألون جهداً في الكيد لنا، ولكن نداوي هذا بالصبر والتقوى، بالصبر على كل ما يجب الصبر عليه من أمور فنقوم بها، أو نواهٍ فنتركها، أو سياسات فنتبعها، ونكون ثابتين على مبدأ وليس كل يوم لنا سياسة بل نكون ثابتين على مبدأ معين نصبر عليه.

٦ ـ أن الصبر والتقوى يدفع الأعداء؛ لقوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ وما فعلوه علناً إن صبرنا واتقينا لا يضرنا من باب أولى؛ لأن الكيد الذي يكون بالمكر والخديعة إذا كان لا يضرنا مع الصبر والتقوى فما كان ظاهراً بيِّناً فهو من باب أولى.

٧ ـ إحاطة الله سبحانه وتعالىٰ بعمل هؤلاء في كل شيء، في العلم والتدبير وإحباط أعمالهم وتدميرهم وغير ذلك، فالله محيط بهم من كل وجه، ولكن قد يبتلي الله بهؤلاء الأعداء ويحصل من كيدهم ما يضر لفوائد كثيرة، منها أن ينال المسلمون الصبر على المؤذي، وأن يرجعوا إلى الله عزّ وجل فيقيموا الدين.

٨ ـ أن العدو يطغى ويرتفع ويعلو، فإذا بلغ القمة في العلو رمى به الله سبحانه وتعالىٰ إلى السفل؛ فيكون نزوله من العلو إلى السفل أشد من نزوله أثناء الطريق، ولهذا الذي يسقط من السقف يكون أشد ممن لو سقط من أثناء الدرج، فالله سبحانه وتعالىٰ قد يملي للظالم حتى يتمادى في ظلمه وطغيانه، حتى إذا ظن أنه بلغ القمة حطَّ به إلى أسفل السافلين، فصار ذلك أشد وأعظم، وقد نبَّه الله تعالى على ذلك في سورة آل عمران فقال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١] مع أنه في ذلك الوقت كان الظفر للمشركين في أُحد لكن جعل الله ذلك سبباً لمحقهم؛ لأنهم إذا شموا رائحة النصر ازدادوا في طغيانهم وقووا، ثم تكون النكبة.

٩ ـ أنه يجب على الإنسان أن ينتظر نصر الله عزّ وجل،

وأن يثق بوعده؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ يعني فلا تظنوا أن أمرهم هذا كائن بدون قدرة الله عليه، ولكن الله تعالى قادر عليه ومحيط به.

ومن فوائد قوله عزّ وجل: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

١ ـ أن الرسول ﷺ خرج من المدينة في أول النهار؛ لقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ أي: خرجت في الغداة وهي أول النهار.

٢ ـ حسن تدبير رسول الله ﷺ في الحرب؛ لقوله: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾.

٣ ـ أنه ينبغي للقائد أن يبوئ أمكنة المقاتلين ويعرّف كل واحد منهم مكانه وعمله حتى لا يحصل ازدواج يضر بالجيش، كل واحد يرتبه على حسب ما يليق به ويقول: اجلس مكانك، وهذا عملك واستمر عليه؛ لأن في النظام ولا سيما في مثل هذه المواقف فائدة كبيرة، بل إن النظام مطلوب حتى في أعمالك اليومية في نفسك، فكيف بهذه الأعمال الكبيرة؟!.

٤ ـ شهادة الله سبحانه وتعالىٰ للذين خرجوا في أُحد بأنهم مؤمنون؛ لقوله: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾، لأن المنافقين انخزلوا قبل أن يصلوا إلى مكان القتال فقد رجعوا في أثناء السير.

٥ ـ إثبات هذين الاسمين لله وهما السميع والعليم، فالسميع يتعلق بالأصوات، والعليم يتعلق بما هو أعم، بما يدرك بالسمع وما يدرك بالبصر وغير ذلك، فالعليم هو من أوسع الأسماء دلالة.

ومن فوائد قوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾:

١ ـ في هذه الآية دليل على أن طائفتين من المؤمنين همّتا بالفشل ولكن الله ثبّتهما، همّتا بالفشل أن يرجعا كما رجع المنافقون.

٢ ـ أن الدعاية ولو كانت باطلة ربما تؤثر حتى على المؤمن.

٣ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ قد يلطف بالمؤمن حتى يثبته على الحق؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

٤ ـ منّة الله على هاتين الطائفتين حيث إن الله كان ولياً لهما؛ ولهذا فرحت الطائفتان بهذه الولاية.

٥ ـ وجوب التوكل على الله وأنه من مقتضى الإيمان؛ لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

٦ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يتوكل على الله ولا سيما في هذه المواطن التي يشتد فيها الأمر على المسلم، بل على المؤمن أن لا ينظر إلى الأمور نظراً مادياً؛ لأن وراء الأمور المادية ما هو أعظم منها، وهي قدرة الله سبحانه وتعالىٰ التي تقضي على كل هذه الأمور المادية ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

٧ ـ أنه إذا قوي الإيمان قوي التوكل على الله؛ لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بناء على قاعدة معروفة وهي أن ما عُلِّق على وصف يقوى بقوّته، ويضعف بضعفه.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]:

يقول الله عزّ وجل مبيناً نعمته على النبي ﷺ وأصحابه بل وعلى الأمة جمعاء؛ لأن انتصار النبي ﷺ وأصحابه انتصار لجميع الأمة إلى يوم القيامة، بل إن انتصار الرسل السابقين انتصار للمؤمنين إلى يوم القيامة، ولهذا صام النبي ﷺ عاشوراء شكراً لله على نعمته بإنقاذ موسى وقومه وإهلاك فرعون وقومه، وقال لليهود: «**نحن أولى بموسى منكم**»(١).

يقول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ والجملة هذه مؤكدة بأمور ثلاثة:

الأول: القسم المقدر.

الثاني: اللام.

والثالث: قد. لأن التقدير (والله لقد نصركم الله) والنصر هو أن يجعل الغلبة لهؤلاء على هؤلاء، فمن جعل الله لهم الغلبة فقد نصرهم، وللنصر أسباب خمسة:

أولاً: الإخلاص لله؛ لقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

والثاني: إقامة الصلاة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ...﴾، رقم (٣٣٩٧). ورواه مسلم، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، رقم (١١٣٠).

والثالث: إيتاء الزكاة.

والرابع: الأمر بالمعروف.

والخامس: النهي عن المنكر؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

يقول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ الباء هنا بمعنى (في) فهي للظرفية، ولا غرابة أن تأتي الباء للظرفية كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨] يعني (في الليل).

و(بدر) مكان معروف، ولا يزال حتى الآن معروفاً بين مكة والمدينة، وسبب هذه الغزوة أن النبي ﷺ لما سمع بِعير لقريش قدمت من الشام ندب أصحابه إلى الخروج إليها لأخذها؛ لأن قريشاً أخرجوا النبي ﷺ وأصحابه من ديارهم وأموالهم وهم حرب على رسول الله ﷺ؛ فكانت أموالهم حلاً للرسول ﷺ، فندب أصحابه أن يخرجوا إليهم فخرجوا في عدد قليل وعدة ضعيفة، خرجوا نحو ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلاً على سبعين بعيراً وفرسين فقط يتعاقبونها، الرجلان على بعير والثلاثة على بعير، على أنهم يريدون العير، ولكنَّ أبا سفيان وهو أمير العير أخذ نحو الساحل، ساحل البحر لا على الطريق المعروف، وأرسل صارخاً إلى أهل مكة يستنجدهم لحماية عيرهم، ثم لما نجا أرسل إليهم أنه نجت العير ولكنهم كانوا قد تأهبوا للخروج لمحاربة النبي ﷺ فخرجوا بكبرائهم وزعمائهم على الوصف الذي

ذكره الله عزّ وجل، خرجوا بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله وقال لهم الشيطان: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، ولكنه خانهم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه، خرجوا ما بين ألف وتسعمائة ومعهم النساء لأجل أن يشتد قتالهم خوفاً على نسائهم؛ وجعلوهن بالخلف فحصلت المعركة بين النبي ﷺ وبين هؤلاء المشركين، وكان النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه في قلة عَدَد وعُدَد ولكن الله تعالى نصرهم، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾.

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أذلة جمع ذليل كأعزة جمع عزيز، أذلة من ناحية العَدَد ومن ناحية العُدَد، فثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً بالنسبة لتسعمائة إلى ألف يعني أقل من الثلث، والذي معهم من العدة ليس بشيء، سبعون بعيراً وفَرسان ولكن الله نصرهم سبحانه وتعالىٰ.

وقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اتقوا الله، هذه الفاء للتفريع يعني بهذا النصر الذي نصركم الله يجب عليكم أن تتقوا الله، وألا تجعلوا النصر سبباً للأشر والبطر كما يفعله من ليس عنده إيمان إذا انتصر على عدوه جعل هذا سبباً للأشر والبطر، ودخل البلد وهو يغني ويطرب، كما ذكر عن بعض مذيعي العرب أيام حربهم مع اليهود يقول: غداً تُغنَّى الأغاني في تل أبيب! فهل هذا جزاء وشكر النعمة؟

أما الرسول ﷺ فإنه دخل مكة عام الفتح وهو من أعظم الانتصارات مطأطئاً رأسه خاضعاً لله سبحانه وتعالىٰ متقياً الله، ولهذا قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ والتقوى: اتخاذ وقاية من عذاب الله

بفعل الأوامر واجتناب النواهي؛ لأنك إذا فعلت الأوامر وتركت النواهي فقد أخذت بالوقاية من عذاب الله تعالى.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (لعلَّ) هنا: للتعليل أي: لأجل أن تنالوا شكر الله، فالتقوى في الحقيقة هي الشكر لله عزّ وجل أي من أجل أن تنالوا درجة الشاكرين. وشكر النعمة يكون بالقلب واللسان والجوارح:

أما شكر القلب: فبأن تعتقد أن هذه النعم من الله فضلاً منه ومنة، وأنه ليس لك منها إلا فعل السبب الذي أذن لك فيه، وأما حقيقتها فهي من الله، تؤمن بذلك ولا تكون كما قال القائل: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨] بل قل: أوتيته بفضل الله ورحمته حتى وإن كان من عملك، أما إن كان من فعل الله فهو واضح بأن كل إنسان ينسبه إلى الله، ومع ذلك من الناس من لا ينسب ما كان من فعل الله إلى الله، إذا حصل المطر يقول: مطرنا بنوء كذا وكذا، ولهذا قال زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه: صلى بنا رسول الله ﷺ في الحديبية على إثر سماء كانت من الليل أي على إثر مطر، فلما انصرف أقبل إلينا فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»[1]. إذن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، رقم (٨٤٦). ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مُطرنا بالنوء، رقم (٧١).

لا بد أن تعتقد في قلبك أن النعمة من الله تعالى، وأن ما يحصل منك في جلب هذه النعمة إنما هو سبب مأذون فيه من الله عزّ وجل.

وأما شكر اللسان: فهو أن تثني بها على الله لا أن تقولها فخراً على عباد الله، بل تثني فتقول: الحمد لله الذي أعطاني كذا وكذا؛ لقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وأما شكر الجوارح: فهو أن تعمل بجوارحك بطاعة الله ولا سيما فيما يتعلق بهذه النعمة بخصوصها، فليس من الشكر إذا رزقك الله مالاً أن تشتري به محرَّماً من المحرمات؛ لأن هذا استعانة بنعمة الله على معصية الله، وليس من الشكر، بل الشكر أن تجعل النعمة معينة لك على طاعة الله عزّ وجل، وقد قال أحد الشعراء:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

يدي: الجوارح، ولساني: القول بالثناء على الله بالنعمة، والضمير المحجبا: الاعتقاد.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ امتنان الله سبحانه وتعالىٰ على رسول الله ﷺ وأصحابه بنصرهم في بدر، والنصر لهم نصر للأمة إلى يوم القيامة.

٢ ـ أن الإنسان بغير نصر الله لا يستطيع أن ينتصر؛ لأنه إذا كان جند الله الذين هم أعظم جند كان على وجه الأرض وهم رسول الله ﷺ ومن معه لم ينتصروا بأنفسهم وإنما انتصروا بنصر الله؛ فمن سواهم من باب أولى، ويتفرع على هذه الفائدة: أننا لا نعلق النصر إلا بالله سبحانه وتعالىٰ، لا نعلق النصر بقوتنا

ولا بقوة مساندة لنا، وإنما نعلق النصر بالله وحده، ونجعل هذه الأشياء المادية التي يكون بها النصر نجعلها أسباباً قد تتخلف عنها مسبباتها؛ لأن النصر يكون من عند الله وحده.

٣ ـ أنه كلما كان الإنسان أذل لله كان أقرب إلى نصر الله، وكلما كان الإنسان مستغنياً عن الله كان أبعد عن النصر؛ لقوله: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ والإنسان إذا رأى من نفسه العزة وعلا وشمخ فإنه يخذل، قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

٤ ـ أن النصر لا يكون بكثرة العَدَد ولا بقوة العُدَد بل هو من عند الله سبحانه وتعالى، لكن كثرة العَدَد وقوة العُدَد مما أمرنا الله به وجعله سبباً للنصر كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ يعني من ورائهم ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] ولهذا يجب على ولاة الأمة الإسلامية أن يعدوا أعظم سلاح يفتك بالأعداء من أجل إذا احتاجوا إليه يستطيعون مهاجمة العدو أو المدافعة إذا اعتدى عليهم أحد، وأما الأسلحة التقليدية التي تعتبر في وقتنا الحاضر مثل الحمير بالنسبة للخيل في الوقت السابق فهذه لا تكفي إلا إذا كان الإنسان لا يستطيع فإنه معذور، لكن إذا كان يستطيع فالواجب أن يجهز نفسه بكل ما يستطيع من قوة؛ لأن أعداء الإسلام يتربصون به الدوائر ويريدون أن يقضوا عليه بكل وسيلة، فإذا لم يكن عندنا سلاح نكبتهم به ونخزيهم به ونذلهم به فإننا لم نقم بما أوجب الله علينا: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٥ ـ أن مَنْ مَنَّ الله عليه بنعمة كان ذلك موجباً لتقوى الله، فالنصر سبب للتقوى والذل لله والخضوع له والانطراح بين يديه، كما فعل النبي عليه السلام حين فتح مكة دخل مطأطأ الرأس يتلو كتاب الله عزّ وجل، خلافاً لما يفعله الناس اليوم أو بعض الناس إذا انتصر جعل هذا النصر سبباً للأشر والبطر والملاهي والأغاني وغير ذلك من المعاصي، بل قد يكون بعد النصر أكثر منه فسوقاً مما قبل الحرب، وهذا خلاف ما أمر الله به؛ لأنه قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فأمر بالتقوى بعد النصر لئلا يشمخ الإنسان بأنفه ويتطاول على ربِّه بانتصاره فيعود إلى ما كان عليه من الفرح والبطر والأشر.

٦ ـ أن تقوى الله تعالى من الشكر لله؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وهذا أمر لا شك فيه أن التقوى من الشكر بل هي الشكر حقيقةً؛ لأن التقوى اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والشكر هو القيام بطاعة المنعم بالقلب واللسان والجوارح.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤، ١٢٥]:

قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وهذا من الخطابات التي تختص برسول الله ﷺ. فالخطابات الموجهة لرسول الله ﷺ تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما دلَّ الدليل على أنه خاص به.

والثاني: ما دلَّ الدليل على أنه عام للأمة.

والثالث: ما لم يدل الدليل لا علىٰ هذا ولا هذا.

الأول: ما دلَّ الدليل على أنه خاص به فهو خاص به مثل هذه الآية: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] هذا خاص. ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] هذا خاص. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] هذا أيضاً خاص وإن كانت الأمة يجب عليها التبليغ من جهة أخرى.

الثاني: ما دلَّ الدليل فيه على العموم كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] هذا واضح أنه عام؛ لأنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ فوجَّه الخطاب أولاً للنبي ﷺ ثم عمَّم في الحكم فقال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾.

الثالث: ما لم يدل الدليل على هذا ولا هذا فهو عام بلا شك، حكمه عام، ولكن هل الخطاب عام من حيث اللفظ أو لا؟ الذي يظهر أنه عام حتى من حيث اللفظ، وذلك لأن الخطاب للإمام خطاب لمن تبعه، ولهذا لو قال الوزير مثلاً للقائد: اذهب إلى الجهة الفلانية كان ذلك الخطاب له ولمن كان تحت إمرته، كذلك الخطاب إذا وجِّه للرسول عليه الصلاة والسلام ولم يدل الدليل على أنه خاص به فهو شامل له وللأمة جميعاً، وقال بعض العلماء: إنه لا يشمل الأمة، وأن الخطاب له وحده ولكن على الأمة الاتباع، والمتأمل يجد أن الخلاف قريب من اللفظي؛ لأننا متفقون على أن الحكم عام لكن هل الأمة تدخل في ضمن هذا

الخطاب أو تدخل بخطاب آخر لأنها مأمورة بالاتباع؟.

وقوله: ﴿إِذْ﴾ هذه ظرف، والقاعدة في اللغة العربية أن الظرف والجار والمجرور لا بد له من متعلق، وذلك لأن الظرف والجار والمجرور يقعان موقع المفعول به، وما كان واقعاً موقع المفعول به فلا بد له من عامل يكون واقعاً عليه. قيل: إن متعلقها قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ [آل عمران: ١٢٣] نصركم إذ تقول للمؤمنين، ولكن هذا قول ضعيف، والقول الثاني أنها بدل من قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] والتقدير: إذ غدوت إذ تقول للمؤمنين، وهذا أقرب، ثم إن قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الخطاب فيه للنبي ﷺ، وهذا من الخطاب الخاص به الذي لا يتعدى إلى الأمة.

وقوله: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المراد بهم الصحابة رضي الله عنهم ووصفهم بالإيمان دون الصحبة لأنه ـ أعني الوصف بالإيمان ـ هو مناط النصر في كل وقت حتى فيما بعد الصحابة، فإن الله ينصر الذين آمنوا.

﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ هذه مقول القول، أي إذ تقول لهم هذا الكلام.

﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ قال أهل العلم: إن الصحابة رضي الله عنهم بلغهم أن المشركين صار بعضهم يُمِد بعضاً على قتال النبي ﷺ وأصحابه، فقال لهم الرسول ﷺ: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ أي يكون كافياً لكم هذا الأمر: ﴿أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾، الملائكة هم عالم الغيب خلقهم الله تعالى من نور، ووجَّه لهم عبادات وأعمالاً

يقومون بها لا يعصون الله فيها ويفعلون ما يؤمرون، فليس عندهم استكبار تكون به المعصية، وليس عندهم عجز يكون به تخلف الفعل، بل هم سامعون مطيعون قادرون على تنفيذ أمر الله بخلاف البشر، فإنه يكون عندهم استكبار فيعصون الله، ويكون عندهم عجز فلا يقدرون على تنفيذ أمر الله، أما الملائكة فعندهم قوة لا يعجزون عن امتثال أمر الله، وعندهم انقياد تام فلا يعصون الله سبحانه وتعالىٰ.

وقوله: ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ منزلين من السماء؛ لأن الأصل أن مكان الملائكة السماء، ولكن هناك ملائكة يكونون مع الإنسان كالكرام الكاتبين والحفظة الذين يتعاقبون على الإنسان ملائكة بالليل وملائكة بالنهار. وقوله: (منزلين) بالتخفيف تكون من أنزل، وعلى قراءة التشديد تكون من نزل، والمعنى واحد، والذي ينزلهم هو الله سبحانه وتعالىٰ لأنهم ينزلون بأمره.

وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ﴾ هذه للإثبات أو التقرير للاستفهام ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ بلى يعني يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، يقول: بلى يعني يكفيكم هذا الإمداد لكن بشرط أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا، يمددكم ربكم بأكثر مما قلتَ لهم. فالنبي ﷺ قال: ألن يكفيكم أن يمدكم بثلاثة لكن إن صبرتم واتقيتم أمدكم الله بأكثر، ولهذا قال: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ﴾ فهاهنا شيء: ثلاثة آلاف من الملائكة وعد بها الرسول ﷺ، وخمسة آلاف من الملائكة زائد على الثلاثة تكفل الله به ولكن بشرط الصبر والتقوى.

وقوله: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: يأتوكم من الجهة التي

جاءوكم منها في وقت مبادر؛ لأن الفور معناه المبادرة بالشيء، فالمعنى أنهم إذا باغتوكم وأتوكم من فورهم، فإنه يمددكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، فالشروط إذن ثلاثة: الصبر، والتقوى، وأن يأتوهم من فورهم هذا؛ فإن الله يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة ليسوا منزلين فقط بل مسومين أي معلمين عَلَم الجهاد وعَلَم القتال، وهذا أبلغ من مجرد الإنزال، فالله تعالى تكفل بالزيادة وهذا يعود إلى الكمية، وتكفل بالقوة والشجاعة وهذا يعود إلى الكيفية.

وقوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أي: معلمين بعلامات القتال؛ لأن العادة أن الشجعان يجعلون لهم علامات فوق لأمة الحرب حتى يعرف بها الشجاع من غيره، وهذه الآية أو هذا الإمداد اختلف أهل العلم هل كان هذا في بدر أو في أُحد؟ فإن كان في بدر ففيه إشكال حيث إن الله تعالى ذكر أن الله أمدهم في بدر بألف من الملائكة فقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] وهنا قال: ثلاثة آلاف وخمسة آلاف لكن جمعوا بينهما بأنه لا مانع أن الله استجاب لهم فأمدهم بألف من الملائكة ثم زيد فيها إلى ثلاثة آلاف، ثم زيد فيها إلى خمسة آلاف إذا تمّت الشروط، وبناء على هذا القول يكون قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ متعلق (بنصر).

والقول الثاني: أن هذه الآية في أُحد وليست في بدر؛ لأن الذي في بدر كان الأمر فيها غير مشروط: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ وفي هذه مشروط ولم يحصل الشرط فلم يحصل المشروط، أي أن

المسلمين في غزوة أُحد لم يحصل منهم الشرط الذي شرطه الله وهو التقوى والصبر، وذلك لأنهم حصل منهم تنازع وفشل ومعصية، فلم يكونوا على الحال التي يستحقون بها ما شرط الله لهم، وهذا القول أصح وأقرب أن يكون المراد بذلك غزوة أُحد، وأنه لم يحصل الإمداد؛ لأن الإمداد كان مشروطاً بشرط ولم يتحقق، وعلى هذا فلا يبقى إشكال بين الآيتين؛ لأن كل آية نزلت في غزوة، ثم إنه يجب أن نعلم أن الذي وعدهم به الرسول ﷺ غير الذي وعدهم الله به، فليس الكلام من متكلم واحد بل من النبي ﷺ ومن الله تعالى، فالرسول قال: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ والله قال: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

من فوائد قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾:

١ ـ ما كان عليه النبي ﷺ في معاملة أصحابه من إدخال الأمل في قلوبهم عند اشتداد الأزمات، وهذه هي الطريقة السليمة، لأنك إذا أدخلت الأمل على الناس نشطوا ونسوا ما هم فيه من الهم والغم، أما بعض الناس فيكون على العكس تجده يدخل على الناس التشاؤم والمروعات والمخيفات، كلما قلنا انتهت هذه المروعات جاءنا بما هو أشد ترويعاً، هذا لا شك أنه خلاف السياسة الشرعية بل وخلاف العقل، نعم الشيء الذي تدعو الضرورة إليه مما يروع هذا لا بد منه، أما الذي لا تدعو الحاجة إليه ولا الضرورة فافتح للناس باب الأمل، فالرسول ﷺ

قال لهم لما خافوا من إمداد المشركين بعضهم بعضاً: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ ولما أُخبر بأن بني قريظة نكثوا العهد في عام الأحزاب أرسل إليهم من يقص الخبر وقال للرسول: إذا أتيتم فالحنوا لي لحناً يعني أخبروني بهذا إشارة، وهي تسمى عندنا الآن الشفرة شفرة خاصة أخبرهم بها؛ لأنهم إذا جاؤوا ووجدوا أن اليهود قد نقضوا العهد ثم أخبر الرسول أمام الناس يلحقهم الرعب والخوف، فقال: الحنوا لي لحناً، فلما رجعوا إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وأخبروه أن بني قريظة نقضوا العهد ولكن ليس باللفظ الصريح بل باللحن الذي أرشدهم إليه قال: أبشروا أبشروا. أما بعض القادة في الوقت الحاضر فالمتوقع أن يقول: والله هذه مصيبة، جاءنا عدو جديد، ثم ملأت القلوب رعباً، لكن الرسول عليه السلام قال: أبشروا.

ولما كانوا يحفرون الخندق واعترضتهم صخرة شديدة عجزوا عنها جاؤوا إلى النبي ﷺ وأخبروه، فجاء ونزل في الخندق وأخذ المعول فضربها ضربةً انقدح منها شعاع، قال في الأولى أضاءت منه قصور كسرى أو قيصر، وفي الثانية قصور كسرى أو قيصر، وفي الثالثة قصور اليمن «صنعاء» فقال: أبشروا، مع أن الله تعالى قال عنهم في ذلك الحال: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠] ولهذا ينبغي لنا أن ندخل على الناس باب الأمل الذي ينشطهم ويدخل عليهم السرور وينسيهم الهموم، لا أن ندخل عليهم باب المروعات والمقدرات حتى إن الإنسان تيبس أمعاؤه على بطنه، فليس هذا بصحيح، بل أدخل الأمل وما

أراد الله سوف يكون، ولكن مع ذلك أنا أقول: إنما يكون إدخال الأمل حينما يتعلق القلب بالله عزّ وجل وتنقطع الحيل إلا من عند الله عزّ وجل.

٢ ـ إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله: ﴿أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ والربوبية نوعان: عامة، وخاصة، ففي قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه عامة، وفي قوله: ﴿أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ هنا خاصة، وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى عن سحرة فرعون الذين مَنَّ الله عليهم بالإيمان ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١ ـ ١٢٢] الأولى عامة والثانية خاصة.

والربوبية الخاصة في قوله: ﴿أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ تقتضي ـ مع المعنى العام وهو التدبير والملك ـ التثبيتَ والإعانةَ والكفَّ عن الشرور وما أشبه ذلك لأنها خاصة.

٣ ـ أن الملائكة أجسام يحصون بالعدد؛ لقوله: ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

٤ ـ أن موطن الملائكة هو السماء، هذا هو الأصل؛ لقوله ﴿مُنزَلِينَ﴾ لأن النزول إنما يكون من أعلى إلى أسفل، فإذا كان هؤلاء الملائكة منزلين دلَّ على أن مكانهم في السماء، هذا هو الأصل لكن ينزلون الأرض كثيراً حسب أمر الله تعالى.

٥ ـ أن الملائكة لم تقاتل بلا شك، ولكن هل أمدوا؟ ذكرنا أن المسألة فيها قولان للعلماء:

الأول: إن كان في بدر فقد أمدوا.

والثاني: إن كان في أُحد فإنهم لم يمدوا؛ لأن ذلك شرط بالصبر والتقوى.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾:

١ ـ أن الصبر والتقوى سببان للنصر؛ لقوله: ﴿إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ أي تصبروا على الأوامر وتتقوا المحارم.

٢ ـ أن الله تعالى زادهم على ما بشّرهم به الرسول عليه الصلاة والسلام ألفين إذا صبروا واتقوا.

٣ ـ أن هؤلاء الملائكة الذين يمدون بهم لو صبروا واتقوا مُسَوِّمِين أو مُسَوَّمين على قراءتين، فمُسَوَّمين قد جعل فيها علامة تختص بهم كما سبق. ومُسَوِّمين أي هم جعلوا علامة على ما جعل لهم من الخيول على حسب ما جاءت به الروايات.

٤ ـ أن من نعمة الله على العبد أن يكون الذي يتولاه الملائكة؛ لأن الملائكة تثبت على الخير بخلاف الشياطين فإنها تثبت على الشر، ويتفرع على هذه الفائدة أنه إذا امتنعت الملائكة عن بيت فإنه نوع من العقوبة كما في قوله عليه الصلاة والسلام: **«إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة»**[(١)].

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]:

﴿جَعَلَهُ﴾ قيل في الضمير: إنه يعود إلى الإمداد أو إلى

---

(١) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب من كره القعود على الصورة، رقم (٥٩٥٧). ورواه مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١٠٦).

الوعد به بالشروط الثلاثة، وقيل: إنه يعود إلى قول النبي ﷺ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤] يعني أن الله لم يجعل قول الرسول ﷺ إلا بشرى لكم، و«البشرى» هي الخبر بما يسرّ، وهذه ولا شك بشرى إذ إن المقاتل إذا علم أن الله سبحانه وتعالىٰ سيمده بالملائكة فإنه سوف ينشط ويقوى ويؤمل النصر بخلاف ما إذا كان لم يحصل له هذا الشيء.

وقوله: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ «بشرى» مفعول ثانٍ لـ«جعل»، إذا كان «جعل» بمعنى صيّر، وإذا كان (جعل) ليست بمعنى صيّر فتكون مفعولاً لأجله، ولا تصلح أن تكون منصوبة على الاستثناء؛ لأن الأداة هنا للحصر؛ لأن العامل لم يستكمل معموله.

وقال: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ الاطمئنان معناه الاستقرار وعدم القلق، ولا شك أن طمأنينة القلب فيها راحة للنفس وفيها فتح للتفاؤل والأمل، وفيها ثبات على الأمر بخلاف الإنسان الذي لم يطمئن قلبه فتجده دائماً في قلق وضيق، أما إذا اطمأن قلبه فإن ذلك مما يعينه على التحمل والثبات والصبر، ولهذا قال: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ وفي آية الأنفال يختلف السياق هناك قال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠] وحذف قوله: «لكم» وقدم الجار والمجرور على الفاعل ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ أما هنا ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ وهذا مما يؤيد أن الآيتين ليستا في غزوة بدر، بل آية الأنفال في غزوة بدر وهذه في غزوة أحد، ولم يحصل الإمداد لما عرفتم من تخلف الشرط.

ثم قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ حتى

وإن أُمددتم بالملائكة، ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف فليس النصر بهم، ولكن النصر من عند الله وهو الذي يهيئ أسباب النصر فلا تعتمد على غير الله تعالى مما جعله الله سبباً في النصر.

وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾:

العزيز يعني ذي العزة، وعزة الله تعالى ثلاثة أنواع: عزة قدر، وعزة قهر، وعزة امتناع، عزة القدر يعني الشرف والسيادة والفضل مثل أن نقول: هذا الشيء عزيز وجوده يعني أنه منفرد في الصفات الكاملة عن غيره، وعزة القهر يعني الغلبة، يعني أنه غالب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]. أي: غلبني فيه، فالله سبحانه وتعالىٰ له الغلبة كما قال تعالى ﴿يَقُولُونَ ـ يعني المنافقون ـ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] فسلَّم الله لهم ذلك أن الأعز يخرج الأذل ولكن لمن العزة؟ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] إذن عزة القهر يعني الغلبة أنه غالب، غالب لكل شيء، ومن الشعر الجاهلي:

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

الثالث: عزة الامتناع: يعني أنه يمتنع أن يناله السوء سبحانه وتعالىٰ أو النقص، وهو مأخوذٌ من قولهم: أرض عزاز يعني صلبة قوية لا تؤثر فيها المعاول.

وأما قوله: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ فمأخوذ من الحُكْم ومن الإحكام، والحكم: القضاء، والإحكام يعني الاتقان، وحكم الله ينقسم إلى قسمين:

حكم كوني: لا يتخلف المحكوم فيه.

وحكم شرعي: قد يتخلف.

فالحكم الكوني لا يتخلف أبداً، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠] يعني حكماً كونياً.

وأما الحكم الشرعي فمثل قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠] ومنه قوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ثم إن في كل منهما حِكْمة، يعني ما من حكم شرعي أو كوني إلا وهو مقترن بالحكمة لأنا قلنا مأخوذ من الحكم والإحكام.

ثم إن الحكمة قد يكون المراد بها أن وقوع الشيء على هذا الوجه حِكمة، والغاية منه حكمة أيضاً، فتكون الحكمة في صورة الشيء، والحكمة الثانية في الغاية منه.

فكون الصلوات على هذا الوجه هذا حكمة تتعلق بصورة العمل، والغاية منها حكمة تتعلق بالمراد من هذا العمل.

وربط العزة بالحكمة يفيد معنًى ثالثاً غير المعنى المستفاد من العزة على انفراد أو الحكمة على انفراد، وذلك لأن العزيز قد تغلبه العزة حتى يتصرف تصرف الطيش والسفه كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦] لكن عزة الله تبارك وتعالى لا تخرج عن الحكمة مع أن له العزة المطلقة، فإن هذه العزة لا تخرج عن الحكمة، وكل شيء يفعله سبحانه وتعالى إنما يفعله على وجه الحكمة جل وعلا.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن هذا الوعد بشرى من الله أو من الرسول عليه الصلاة والسلام على خلاف بين العلماء، والخلاف في هذا يسير الخطب سواء كان ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: قول الرسول أو ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي قول الله لهم: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ .

٢ ـ أن إمداد الشخص بما يعينه سببٌ لسروره وبشارته؛ لقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾.

٣ ـ أنه مهما عظمت الأسباب إذا لم يؤيد الله الإنسان بنصر فإنه لن ينتصر؛ لقوله بعد ذكر هذا الإمداد ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ يجب على المرء مع فعل السبب أن يعتمد على ربه، وأن يؤمل النصر منه سبحانه وتعالىٰ.

٥ ـ أن النصر من مقتضى اسمه العزيز الحكيم.

٦ ـ أن الله لن ينصر إلا من اقتضت الحكمة نصره؛ لقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ولا يرد على هذا أن الله سبحانه وتعالىٰ جعل للمشركين نصراً في غزوة أحد؛ لأننا نقول: إن هذا النصر فيه فائدة أو فوائد عظيمة للمسلمين فهو حكمة. انتصار المشركين في أُحد لا شك أنه حكمة تترتب عليه فوائد عظيمة تذكر إن شاء الله في الآيات التالية:

❁ ❁ ❁

❑ قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٧]:

اللام هنا للتعليل، والفاعل في قوله: ﴿لِيَقْطَعَ﴾ يعود إلى الله

سبحانه وتعالىٰ، والمراد بالقطع هنا الإهلاك أي ليهلك طرفاً، اللام هذه إما متعلقة بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ [آل عمران: ١٢٣] ولكن هذا ضعيف؛ لأنه بعيد، يعني أنه جاءت آيات كثيرة تفصل بين العامل والمعمول، وهذا لا نظير له، وإما أن يكون متعلقاً بمحذوف تقديره: فعل ذلك ليقطع طرفاً، وهذا القول أصح، فتكون اللام متعلقة بفعل محذوف يقدر على وجه مناسب.

وقوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: ليهلكهم، ولكن هل هذا فيما إذا انتصروا على المسلمين أو فيما إذا انتصر المسلمون عليهم أو على الوجهين جميعاً؟ الصواب أنه على الوجهين جميعاً؛ لأنه إن انتصر المسلمون وهزموهم فقد هلك طرف منهم، وإن انتصروا هم على المسلمين فإنهم سوف يلحقهم الغرور ونشوة النصر ثم يعيدون الكرة مرة ثانية، وحينئذٍ يقضى عليهم، فيكون الوجهان حاصلين سواء غَلبوا أو غُلِبوا.

وقوله: ﴿طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ الطرف: طرف الشيء هو منتهاه من أسفل أو من أعلى، والمراد الطرف الذي يلي المسلمين؛ وذلك لأن المسلمين مطالبون بقتال من يليهم من الكفار حتى يفتحوا بلاد الكفار بلداً بلداً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] فهذا كما أنه سنة الله الشرعية فهو أيضاً موافق للفطرة؛ لأنه ليس من الحكمة أن تذهب إلى البعيد تقاتله وتترك القريب، إذ إن القريب في هذه الحال ربما يكون كميناً يعني يحول بينك وبين رجوعك إلى بلدك.

وقوله: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ يعني يخذلهم ويذلهم وإن لم يحصل فيهم قتل.

﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾: ينقلبوا إلى بلادهم خائبين أي لم يحوزوا خيراً، وذلك كما حصل في غزوة الأحزاب فإنهم في غزوة الأحزاب رجعوا خائبين بدون قتال كما قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، فقد ردَّهم الله بالريح والجنود التي لم نرها.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ إثبات الحكمة لله عزّ وجل في أفعاله وتشريعاته، وذلك لأن اللام للتعليل، والتعليل هو الحكمة.

٢ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ يسلط المؤمنين على الكفار ليقطع طرفاً من الذين كفروا، وليس كل الذين كفروا؛ لأن من حكمة الله أن يبقى الإيمان والكفر متصارعين دائماً حتى يتبين المؤمن الخالص من غيره.

٣ ـ أن مآل الكفار واحد من هذه الأمور: إهلاكهم أو خذلانهم، لقوله: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ والكبت هو الإذلال، والخذلان هو الخيبة، لقوله: ﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾ مثل قصة الأحزاب فإن الله سبحانه وتعالىٰ ردهم على أعقابهم خائبين.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]:

﴿لَيْسَ لَكَ﴾ قال بعض العلماء: إن المعنى ليس إليك من الأمر شيء مثل قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى

﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران: ١٩٣] يعني ينادي إلى الإيمان، ولكن الظاهر أن اللام على بابها وليست بمعنى (إلى) والمعنى: أنك لا تملك شيئاً، وليس المعنى أنه لا يرد إليك شيء، بل المعنى أنك لا تملك شيئاً، فاللام على ما هي عليه. والخطاب في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ يعني الأمر الكوني، أما الأمر الشرعي فإن الرسول عليه الصلاة والسلام له منه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] أما الأمر الكوني فلا.

واختلفت الروايات في سبب نزول هذه الآية، ففي بعض الروايات أن سببها أن النبي ﷺ دعا على قوم من الكفار مثل أبي سفيان وسهيل بن عمرو وصفوان بن أمية والحارث بن هاشم، هؤلاء الأربعة كان الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو عليهم، يلعنهم إذا صلى الفجر في الركعة الأخيرة، يدعو عليهم: اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً بأسمائهم، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[1] فالأمر إلى الله. وفي رواية أخرى صحيحة أن النبي ﷺ لما شجوا وجهه في أُحد جعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: **«كيف يفلح قومٌ شجوا نبيهم وهو يدعوهم إلى الله»** فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[2]. والقاعدة في أسباب النزول أنه إذا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ...﴾، رقم (٧٣٤٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم. ورواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، رقم (١٧٩١).

لم يكن الترجيح فلا مانع من أن يتعدد السبب، فيكون لنزول الآية سببان، الأول: إنكاره عليه الصلاة والسلام على هؤلاء القوم وقوله: «كيف يفلح؟» استبعاده فلاحهم، والثاني: لعنه هؤلاء الأربعة، ولا محظور في ذلك فإن الآية قد يكون لنزولها سببان.

وقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ قيل: إنها معطوفة على يقطع، وقيل: (أو) بمعنى إلى أن يتوب عليهم، فعلى القول الأول لا إشكال في الآية، ويكون الله عزّ وجل ذكر في عاقبة هؤلاء الكفار أربعة أمور:

١ ـ يقطع طرفاً من الذين كفروا.

٢ ـ أو يكبتهم.

٣ ـ أو يتوب عليهم.

٤ ـ أو يعذبهم.

وهذا الوجه كما ترون وجه حسن ليس فيه إلا الجملة المعترضة في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ وهذا لا يضر، ففي القرآن جمل معترضة بين أشياء متقاربة في المعنى، بل فيه آيات، فمثل قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] ذكرت هذه في أثناء آيات العدد ولا يظهر للإنسان وجه مناسبة، لكن الله عزّ وجل أعلم منا، كذلك أيضاً هنا نقول: لا يضر أن توجد جملة معترضة مع أننا سنبين إن شاء الله المناسبة فيها.

أما القول الثاني الذي يقول إن ﴿أَوْ﴾ بمعنى (إلى) فيقولون: إن في الآية حذفاً والتقدير: «ليس لك من الأمر شيء فاصبر أو يتوب الله عليهم» فيقدرون فعلاً هو (اصبر) يعني لا تدعُ عليهم

اصبر أو يتوب عليهم، وتعلمون أن (أو) تأتي بمعنى (إلى) وتأتي بمعنى (إلا أن)، فإذا قال القائل: لأقتلن الكافر أو يسلم فهي بمعنى (إلا أن) ولا يصلح أن نقول بمعنى (إلى أن)، وإذا قال: لألزمن الغريم أو يقضيني ديني، فهي بمعنى (إلى أن).

وقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾:

أي: على الكافرين، وتوبة الله على الكافر أن يهديه للإسلام، وتوبته على الفاسق أن يرده عن الفسق إلى الطاعة، وتوبة الله على العبد قسمان: توبة سابقة، وتوبة لاحقة، وتوبة العبد متوسطة بينهما، وهذا مذكور في سورة التوبة، قال الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨] تاب عليهم ليتوبوا، هذه التوبة السابقة، والتوبة السابقة معناها التوفيق للتوبة، والتوبة اللاحقة معناها قبول التوبة، وتوبة العبد تكون بينهما.

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي ييسرهم للإسلام من الكفر.

وموقع هذه الجملة مما قبلها أنها تعليل لها يعني أنهم يستحقون أحد هذه الأمور؛ لأنهم ظالمون إلا التوبة، فإن الله إذا تاب عليهم زال وصفهم بالظلم، والأربعة الذين كان الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو عليهم كلهم تاب الله عليهم فأسلموا، وفي هذا إشارة كما سبق إلى أنه لا ينبغي للإنسان أن يدعو على

شخص مهما بلغ في الكفر والطغيان باللعنة، بل لا يجوز أن يدعو عليه باللعنة؛ لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ولا يحل لك أن تتحجر رحمة الله، فقد يمنُّ الله على هذا الكافر المجرم فيتوب، كما أنه سبحانه وتعالىٰ قد يمن على الفاسق الذي لم يصل إلى حد الكفر فيستقيم وتصلح حاله.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن النبي ﷺ لا يملك شيئاً من الأمر الكوني. وفي هذه الجملة ردٌّ على الذين يتعلقون بالرسول عليه الصلاة والسلام في الدعاء والاستعانة به والاستغاثة به حتى بعد موته، فتجدهم عند قبره الشريف يدعون الرسول عليه الصلاة والسلام صراحة، بل إنهم عند الدعاء ولو كانوا بعيدين يتجهون إلى القبر لا إلى القبلة، وهذا من سفههم.

٢ ـ أن النبي ﷺ مكلف يأمره الله سبحانه وتعالىٰ وينهاه، وعليه فيكون في هذا إبطال لدعوى من يقولون: إن الإنسان إذا وصل إلى حالة معينة من العبودية سقطت عنه التكاليف، وهذا قول طائفة من الصوفية الذين يقولون: إن الإنسان يترقى في اليقين حتى إذا وصل إلى الدرجة العليا سقط عنه التكليف، وصار كل شيء حرام حلالاً له، وكل شيء واجب ليس بواجب عليه، فلا يوجبون عليه الصلاة، ولا يحرمون عليه الزنى ولا شرب الخمر؛ فيقال لهم: إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وهو أشرف الخلق لا يصل إلى هذه المرتبة فما بالك بمن دونه؟!.

٣ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ قد يتوب على أعتى الناس وأشدهم كفراً لعموم قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

٤ ـ أن الله سبحانه قد يعذب الكافرين عذاباً ليس للمسلمين فيه يد، بل هو من عند الله وحده؛ لقوله: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾.

٥ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ لا يعذب إلا بذنب؛ لقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ والظالم مستحق لأن ينكل الله به؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ لا يحب الظلم، بل إنه قال في الحديث القدسي: **«إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»**[1].

❁ ❁ ❁

□ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢٩]:

لما ذكر أن النبي عليه الصلاة والسلام ليس له من الأمر شيء فمن دونه من الخلق من باب أولى، بيَّن لمن يكون له الأمر فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، واللام هنا للاستحقاق والاختصاص والملك، يعني لله ملكاً واستحقاقاً واختصاصاً، والخبر «الجار والمجرور» مقدم على المبتدأ لإفادة الحصر، يعني لله لا لغيره.

وقوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (ما) اسم موصول يشمل كل ما في السموات وما في الأرض من إنس وجن وحيوان وجماد وغير ذلك، وعبر بـ (ما) إما لأن غير العاقل أكثر من العاقل فصار هذا من باب التغليب، وإما لأن المقصود الأعيان والأوصاف، وإذا كان المقصود الأعيان والأوصاف يؤتى بـ (ما)

---

(١) تقدم تخريجه في المجلد الأول (ص١٥٣).

لا بـ (مَنْ) ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] ولم يقل (مَنْ) لأنه ليس المقصود العين، وإنما المقصود الوصف يعني الذي يطيب لكم وتركنون إليه. على كل حال سواء كانت (ما) من باب التغليب أو المقصود به الأعيان والأوصاف فإنها تدل على العموم، وأن جميع ما في السموات والأرض لله.

وقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هذه جمع قد صرح الله سبحانه في القرآن بأن السموات سبع كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦] أما الأرض فليس في القرآن نصٌّ على أنها سبع، وإنما فيه ظاهر، يعني ما يدل ظاهراً على أن الأرضين سبع، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] فإن المثلية هنا لا يمكن أن تكون مثلية الجنس والنوع والصفة؛ لأن الأرض مختلفة عن السماء اختلافاً ظاهراً؛ فتعيَّن أن يكون مراد المثلية بالعدد.

وقد جاءت السنة مصرحة بأن عدد الأرضين سبع ولكن هذه الأرضين السبع هل هي متجاورة أو متطابقة كالسموات؟

ظَنَّ بعض العلماء أنها متجاورة، وأن المراد بها القارات السبع، ولكن هذا ليس بصحيح، والصحيح أنها متطابقة أي بعضها فوق بعض، ودليل ذلك قول النبي ﷺ: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوّقه يوم القيامة من سبع أرضين**»[1]، فإن هذا يدل على أنها متطابقة إذ لو لم تكن كذلك لم يعذب هذا الذي

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠).

اقتطع شبراً من الأرض إلا بأرض واحدة فقط، ثم هل هي متلاصقة أو متباينة؟ قال بعض العلماء: إنها متلاصقة.

وقال آخرون: بل هي متباينة أي بين كل أرض والأخرى فاصل هواء، والله أعلم بذلك، وربما نطلع عن طريق العلم الحديث على الراجح من هذين القولين.

وقوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ (يغفر) مضارع من المغفرة، والمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر الذي يوضع على الرأس عند القتال، فإنه ساتر للرأس وواقٍ له، والمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه.

وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ هذه الآية مقيدة بالحكمة أي من اقتضت حكمته أن يغفر له غفر له، هذا واحد، والثاني مقيدة بما عدا الشرك، فإن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] لكن المشرك لو أسلم لغفر الله له لقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ يعني ممن يستحق التعذيب. وقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ لا يستثنى منها المشرك؛ لأن المشرك قد أعلمنا الله أنه لا يشاء أن يغفر له فلا يكون داخلاً في المشيئة بل هو يعذب المشرك قطعاً؛ لأن وعده لا يخلف سبحانه وتعالىٰ، فالمشرك لا بد أن يعذب: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] لكن لو تاب فإن الله يغفر له ويتوب عليه.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

خَتْمُ الآية بهذين الاسمين الكريمين مناسب جداً؛ لقوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ فلكونه غفوراً صار يغفر لمن يشاء، والغفور اسم من أسماء الله المتعدية إذ لا يتم الإيمان به إلا بثلاثة أمور:

١ ـ الإيمان بأنه اسم من أسماء الله.

٢ ـ الإيمان بما تضمَّنه من صفة.

٣ ـ الحكم المترتب على هذه الصفة وهو أنه يغفر.

فنستفيد إذن من هذه الآية إثبات الاسم (الغفور) وإثبات الصفة (المغفرة) وإثبات الحكم المترتب على هذا أنه يغفر بهذه المغفرة.

و(الرحيم) أيضاً اسم من أسماء الله، والرحيم معناه ذو الرحمة المقتضية للإحسان والإنعام، فالإحسان والإنعام من مقتضى الرحمة وليس هو الرحمة، وقد فسَّر من ينكرون الرحمة بأنها الإحسان أو إرادة الإحسان، وهؤلاء هم الأشاعرة ـ عفا الله عنا وعنهم ـ يقولون: إن الله ليس له رحمة؛ لأن الرحمة رقة ولين وخضوع للأمر الواقع فيقال لهم: هذه رحمة المخلوق؟ أما رحمة الخالق فلا تتضمن نقصاً أبداً بل هي كمال محض، ثم إن قولكم إنها رقة ولين فنقول: إن الرقة واللين صفة مدح لأنها خير من الغلظة، ولهذا قال الله سبحانه وتعالىٰ: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»[1]. وقولهم: إنما توجب أن الإنسان يخضع للأمر الواقع وما أشبه ذلك حتى يرحم نقول: هذا بالنسبة لرحمة المخلوق أما رحمة الخالق فليس فيها خضوع إطلاقاً، ثم إنه منقوض عليكم

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم، رقم (٧٤٢٢).

لأنه يوجد ملك من الملوك الذي لا أحد ينابذه فيما يتكلم به ويكون عنده من الرحمة الشيء العظيم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان عموم ملك الله سبحانه وتعالىٰ؛ لقوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ (وما) من صيغ العموم كما هو معروف.

٢ ـ انفراد الله بذلك لتقديم الخبر، والخبر حقه التأخير، ومن طرق الحصر تقديم ما حقه التأخير.

٣ ـ إثبات تعدد السموات، وقد بيَّن الله سبحانه في كتابه أنها سبع سموات، وأما الأرض فذكرت بصيغة الإفراد والمراد الجنس فيشمل جميع الأرضين، وقد بينت السنة أنها سبع.

٤ ـ إثبات المغفرة لله؛ لقوله: ﴿يَغْفِرُ﴾ وإثبات التعذيب لقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ﴾ ويتفرع لهاتين الفائدتين إثبات تمام سلطانه في ملكه، وأن الأمر له في التعذيب والمغفرة.

٥ ـ إثبات المشيئة لقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ والمشيئة تأتي كثيراً في القرآن الكريم ولكنها مقرونة بالحكمة أي من اقتضت الحكمة أن المغفرة له، ومن اقتضت الحكمة أن يعذب.

٦ ـ إثبات الاسمين الكريمين من أسماء الله وهما (الغفور الرحيم) وإثبات ما تضمناه من صفة وهي المغفرة والرحمة.

٧ ـ إثبات الحكم المترتب على ذلك وهو ما يعرف عند بعض العلماء بالأثر وهو أنه يغفر ويرحم، والقاعدة في أسماء الله أنه إذا كان الاسم متعدياً فإن الإيمان به يتضمن ثلاثة أمور: الإيمان بكونه اسم من أسماء الله، وبما دلَّ عليه من صفة،

وبالحكم الذي يترتب على ذلك، وإذا كان لازماً غير متعدٍ فإن الإيمان به يتضمن أمرين: الإيمان بأنه اسم من أسماء الله، والإيمان بما دلَّ عليه من الصفة.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠]:

تصدير الخطاب بالنداء يدل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب يقظة المخاطب وانتباهه، والخطاب الذي يعتنى به يُسبق بما يفيد الانتباه والاستيقاظ، وتوجيهه إلى المؤمنين يدل على فوائد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أولاً: الإغراء والحث على ما تضمنه الخطاب؛ لأن مناداة هؤلاء باسم الإيمان يدل على أن ذلك من أجل أن يثير هممهم كما تقول للرجل تخاطبه: يا كريم أكرم ضيفك. فإنك إذا قلت: يا كريم فإن هذا من باب الإغراء والحث، يعني من أجل كرمك أكرم. وتقول: يا رجل اترك السفلة، أو يا حليم اترك السفه وما أشبه ذلك، فالمقصود بمثل هذا الإغراء والحث. ويفيد أيضاً أن الالتزام بما دلَّ عليه الخطاب من مقتضيات الإيمان، فمثلاً ترك أكل الربا من مقتضيات الإيمان؛ لأن الخطاب وُجِّه للمؤمنين، ويستفاد أمر ثالث وهو أن المخالفة في هذا منقصة للإيمان وسبب لنقصانه.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تأتي هكذا مطلقة في القرآن الكريم لكن معناها مقيد بما يجب الإيمان به، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وبيَّن الرسول ﷺ أن الإيمان يتضمن الإيمان بستة أشياء: بالله،

وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره. ثم إن المراد بالإيمان ليس مجرد التصديق فقط بل الإقرار المتضمن أو المستلزم للقبول والإذعان، أما مجرد أن يصدق الإنسان بالشيء فإنه ليس بمؤمن، فأبو طالب مثلاً مصدق بأن محمداً رسول الله ﷺ ومع ذلك لم ينفعه لأنه لم يقبل ولم يذعن، فلا بد من قبول وإذعان يعني انقياداً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ آمنوا بما يجب الإيمان به وهي الأمور الستة التي بيَّنها الرسول عليه الصلاة والسلام: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ لا تأكلوا الربا، الأكل معروف، وخلافه الشرب واللبس والسكنى والانتفاعات الأخرى، لكنه عبر بالأكل لأنه أخص ما يكون في ملابسة الإنسان، فالذي يدخل إلى جوفك ليس كالذي تلبسه ظاهر جسدك، وليس كالبيت الذي تسكنه، فإن أبلغ ما يكون في ملامسة الإنسان هو الأكل، ولهذا نهى عنه، والإنسان عندما لا يكون لديه شيء وهو جائع عارٍ وليس عنده سكن يقدم الأكل فهو أشد ما يكون ضرورة للإنسان، ولهذا قال: ﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾، والربا في اللغة الزيادة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥] يعني علت ومنه «الرُّبى» جمع رابية للمكان المرتفع من الأرض، والمراد بالربا هنا الربا الشرعي وهو زيادة ونسأ، زيادة ويسمى ربا الفضل، ونسأ ويسمى ربا النسيئة، ويكون الربا في أموال خاصة بيَّنها النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «**الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والتمر بالتمر، والشعير**

بالشعير، والملح بالملح»[١]. هذه الأشياء الستة متفق على جريان الربا فيها، فإذا أبدل جنس بمثله لزم فيه شيئان: التساوي، والتقابض في مجلس العقد، وإذا بيع بغير جنسه لزم فيه أمر واحد وهو التقابض في مجلس العقد إلا بين الذهب والفضة وسواهما فإنه لا يشترط التقابض في مجلس العقد.

لكن قد يقول قائل: إن قوله: «**إذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد»**[٢] يشمل ما إذا باع برّاً بفضة فإن الجنس مختلف، وإذا طبقنا هذا على الحديث قلنا: لا بد أن يكون يداً بيد؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قال: «**إذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد»**. نقول: نعم هذا هو مقتضى هذا الحديث لكن يخصصه ما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم الرسول ﷺ المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين فقال: «**من أسلف في تمرٍ فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم»**[٣]. ومعنى يسلفون يعني يقدمون الدراهم ـ الثمن ـ ويؤخرون المثمن، يعني يأتي الرجل ويشتري من صاحب البستان تمراً لمدة سنة أو سنتين بدراهم يعطيه إياها نقداً، فهنا اشترى تمراً بدراهم مع تأخر القبض، والسلم جائز بالإجماع، وهذا هو الدليل لتخصيص قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد»**.

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساقاة، باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقداً، رقم (١٥٨٧).

(٢) تقدم تخريجه في الحديث السابق.

(٣) رواه أبو داود، أول كتاب الإجارة، باب في السلف، رقم (٣٤٦٣).

أما ما عدا هذه الستة فإن من أهل العلم من قال: ليس فيها ربا، كل شيء سوى هذه الستة لا ربا فيه، ومنهم من قال: إن ما كان بمعناها فله حكمها؛ فالأوراق النقدية المستعملة الآن بدل النقد يكون لها حكم ذلك النقد، فإذا كانت أوراق جعلت عوضاً عن فضة فلها حكم الفضة، لكن إذا اختلف جنسها دخلت في عموم قوله: «**إذا اختلفت هذه الأجناس فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد**». كذلك الذرة والأرز ليس من الأصناف الستة لكنهما بمعنى الأصناف الستة، فإنك لا تجد فرقاً بين البر والأرز أو بين الشعير والذرة، كل منهما طعام يقتات، أما الفواكه كالبرتقال والعنب فليس فيها ربا، فيجوز أن تعطيني كيلوين بكيلوين ونصف أو بثلاثة من العنب، يعني كيلوين عنب بكيلوين ونصف عنب لا بأس؛ لأن هذا لا يجري فيه الربا. كذلك سيارة بسيارتين يجوز لأنه ليس من الأصناف الستة، وبعير ببعيرين يجوز لأنها ليست من الأصناف الستة، وطن من حديد بطن ونصف يجوز لأنه ليس من الأصناف الستة، وعلى هذا فقس. فأنت إذا عرفت الأصناف الستة وما كان بمعناها تماماً فما عدا ذلك فقد قال الله فيه: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. لو باع ثوباً بثوبين يجوز ولو مع عدم التقابض؛ لأن هذا لا يجري فيه الربا.

وقوله تعالى: ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ ضعف الشيء مثله بمعنى أنك تكرره مرتين فيكون ضعفاً كالدرهم بدرهمين ﴿مُّضَٰعَفَةً﴾ يعني مزيدة على الضعف الأول مثلاً كدرهم بدرهمين، وبعد سنة نجعله بثلاثة دراهم، وبعد سنة نجعله بأربعة دراهم، هذا هو فعل الجاهلية، وربا الجاهلية أن يستدين الرجل من الشخص، فإذا حلَّ

الأجل قال: إما أن توفي وإما أن تربي، فإذا أوفى برئت ذمته، وإذا لم يوفِ يربي بمعنى أنه يزيد فيقول مثلاً إذا حلَّ وقدره ألف: إما أن توفيني الألف وإلا فهو عليك إلى السنة القادمة بألفين، فإذا جاءت السنة القادمة ولم يوفِ قال: إما أن توفي وإما أن تربي، فإذا أوفى برئت ذمته، وإن لم يوفِ قال: نجعله للثالثة لكن يكون بثلاثة آلاف، هذه أضعاف مضاعفة، ولا شك أنها ظلم عظيم لأنه إذا حلَّ الدَّين على الإنسان وليس عنده شيء فالواجب إنظاره كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]. وقال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧] فالممتنع عن الوفاء ليس بآثم مع العجز، والمطالب بالوفاء مع العجز آثم؛ لأن الله أوجب الإنظار.

ولا شك أن هذا ظلم عظيم؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يربي إلا لأحد أمرين: إما أنه عاجز، وإما أنه كاسب أكثر مما جعل عليه من الربا، بمعنى أنه يقول: أنا لا أوفي؛ لأن مائة ألف أكسب بها في السنة ثلاثمائة ألف ولا يهمني أن يزيد عليَّ مثلاً مائة ألف لأنني سأكسب، أما أن يكون الإنسان قادراً وليس له فائدة من بقاء الدين في ذمته فإنه لا يمكن أن يفعل.

وقوله: ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ فيها قراءة (مُضَعَّفَة)، والمعنى واحد، وقوله ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ ليس له مفهوم لأنه جاء على وفق العادة الغالبة، وما جاء على وفق العادة الغالبة فإنه لا مفهوم له، هذه قاعدة من قواعد أصول الفقه، أن القيد إذا كان من أجل أنه الأمر الغالب فإنه لا مفهوم له، وله أمثلة منها قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾

[النساء: ٢٣] فإن قوله: ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ قيد على وفق العادة والغالب، ولهذا تحرم الربيبة وإن لم تكن في حَجْره، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣] فإن هذا لا يدل على أن الأمة إذا امتنعت من الزنا لأن الرجل الذي طلب منها أن تزني به لا يعجبها أنه يجوز إكراهها عليه.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: نهى عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة ثم أمر بالتقوى، وهذا من باب التوكيد يعني أن أكلكم مجانب للتقوى، وتقوى الله عزّ وجل هي اتخاذ وقاية من عذابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وقد قيل في تعريفها:

خلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واعمل كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

نعم، ولكن ما ذكرناه أعم، وهي أن التقوى أن يتخذ الإنسان وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: (لعلَّ) هنا للتعليل؛ لأن الكلام صادر من الله، والترجي في حق الله مستحيل؛ لأن الترجي طلب ما فيه مشقة، والله سبحانه وتعالىٰ لا يشق عليه شيء، كل شيء عليه هين، فتكون (لعل) للتعليل يعني من أجل أن تفلحوا، والفلاح قال أهل العلم: إنه كلمة جامعة لحصول المطلوب وزوال المكروه، فمن حصل له المكروه فهو ناقص الفلاح، ومن زال عنه المكروه ولكن لم يحصل مطلوبه فهو ناقص الفلاح، ومن لم يحصل مطلوبه ولم ينجُ من مرهوبه فلا فلاح عنده، ومن حصل له المطلوب ونجا من المكروه فهو المفلح، إذن تقوى الله عزّ وجل

من أسباب الفلاح، وكل واحد من الناس ينشد الفلاح، كل واحد يحب أن ينال مطلوبه وأن ينجو من مرهوبه، فأين نجد هذا؟ نجده في تقوى الله عزّ وجل في القيام بطاعته واجتناب نهيه، وهو أمر يسير على من يسَّره الله عليه، افعل ما أُمرتَ به واترك ما نُهيتَ عنه وبذلك يحصل لك الفلاح.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تعظيم شأن الرّبا وخطره، ووجهه أنه صدر الخطاب في شأنه بالنداء.

٢ ـ أن اجتناب الربا من مقتضيات الإيمان، وأن كل مؤمن صادق الإيمان فلا بد أن يتجنب أكل الربا.

٣ ـ أن أكل الربا منقص للإيمان، وهذا أمر لا شك فيه عند أهل السنة والجماعة؛ لأنه كبيرة من كبائر الذنوب، وفعل الكبائر عند أهل السنة ينقص الإيمان، وعند الخوارج يخرج من الإيمان ويدخل الكفر، وعند المعتزلة يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر؛ لأنهم يقولون: إن فاعل الكبيرة لا مؤمن ولا كافر، فهو خارج من الإيمان غير داخل في الكفر. وعند المرجئة مؤمن كامل الإيمان، لو يأكل الربا ليلاً ونهاراً فهو مؤمن كامل الإيمان، لكن نحن نقول: هو مؤمن ناقص الإيمان.

٤ ـ تحريم أكل الربا؛ لقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ والأصل في النهي التحريم، لا سيما وأنه أكِّد بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ويقاس على الأكل بقية الإتلافات بالشرب واللباس وبناء المساكن وما أشبهها. لكن عبّر بالأكل لأنه أخص وجوه الانتفاع وغيره مثله.

٥ ـ أن الربا لا يحرم إلا إذا كان أضعافاً مضاعفة. وهذا فيه نظر، فالصحيح أن هذا القيد لا مفهوم له؛ لأن هذا بناء على الواقع الغالب، وما كان كذلك فإنه لا مفهوم له. ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الذي أشرنا إليه أولاً قال: «**من زاد أو استزاد فقد أربى**»[١] أي وقع في الربا مع أنه لم يأكل أضعافاً مضاعفة، وقال في أَخْذِ صاع بصاعين من التمر: «**عين الربا، لا تَفْعَل**»[٢]، إذن هذا القيد لا مفهوم له خلافاً لمن قال إنه قيد شرطي، وأن الربا لا يحرم إلا إذا كان في هذه الصورة، وأجازوا الربا إذا كان ليس فيه ظلم وإنما هو استثماري تزداد به أموال الدولة وينشط به الاقتصاد، فإن من العلماء ولا سيما المتأخرون من زعم ذلك ولكنه زعم باطل، الربا محرم بأي نوع من أنواعه سواء كان أضعافاً مضاعفة أو ضعفاً واحداً أو دون الضعف، من زاد أو استزاد فقد أربى، والصاع بالصاعين وصفهُ النبي عليه الصلاة والسلام بأنه عين الربا، وليس فيه ظلم، وليس فيه أضعافاً مضاعفة، ومع ذلك سماه رباً بل عين الربا.

٦ ـ أنه لا يجوز أن أبيع عليك سلعة توفيني بها بأكثر من ثمنها ويبقى ثمنها في ذمتك، يعني لما حلَّ الأجل وهو عشرة آلاف ريال، قلت: أنا أبيع عليك سلعة تساوي عشرة آلاف ريال

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساقاة، باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقداً، رقم (١٥٨٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب الوكالة، باب إذا باع الوكيل شيئاً فاسداً فبيعه مردود، رقم (٢٣١٢). ورواه مسلم، كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلاً بمثل، رقم (١٥٩٤).

باثني عشر ألفاً ثم توفيني بقيمتها، هذا لا يجوز؛ لأنه حيلة، ومع الأسف أن بعض المسلمين يفعلون هذا، فيكونون سواءً مع اليهود في التحيل على محارم الله، ويكونون سواء مع اليهود في أكل الربا؛ لأن هؤلاء أكلوا الربا وتحيلوا على أكله؛ فيزداد الربا قبحاً إلى قبحه؛ لأنه بعد أن كان صريحاً ربما تؤنبك نفسك عليه في يوم من الدهر صار خداعاً زيَّنه لك الشيطان، والذي يفعل هذا يعتقد أنه لا شيء فيه، ولا شك أن هذا أخبث مما لو قال سنجعل العشرة اثني عشر إلى سنة، هذا لا شك أنه حرام، لكن الحيلة الأولى أخبث لأنها تضمنت مع مفسدة الربا الخداع لله عزّ وجل، والله سبحانه وتعالىٰ لا يخفى عليه شيء «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»[(١)].

وهذه غير مسألة العينة، فمسألة العينة: أن يبيع عليه السلعة بثمن مؤجل ثم يشتريها بأقل منها نقداً، أما هذا فدين ثابت في ذمته تحيَّل عليه إذ قال: أبيع عليك هذه السيارة بعشرة من أجل أن تبيعها وتأخذ دراهماً وتوفيني، وبعد سنة أطالبك بقيمة السيارة اثني عشر.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال الله عزّ وجل: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]:

اتقوا الله واتقوا النار، تقوى الله عزّ وجل سبق الكلام عليها

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم (١). ورواه مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»، رقم (١٩٠٧).

بأن معناها فعل الأوامر وترك النواهي لكن تعبداً لله، تفعل الأوامر تعبداً لله، وتترك النواهي تعبداً لله وتذللاً له، أما قوله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ فهي تقوى من نوع آخر، وهي أن تتخذ ما يقيك منها كما تتخذ ما يقيك من الحر في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١] فليست تقوانا للنار تقوى عبادة وتذلل كتقوانا لله، فاللفظ واحد والمعنى مختلف. فتقوى النار معناها أن نتخذ حجاباً دونها حتى لا يصيبنا لفحها. هذه هي تقوى النار وليست كتقوى الله التي هي تقوى تذلل وعبادة.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ هذه النار ورد في الكتاب والسنة مِنْ أوصافها وأوصاف عذابها ما تنخلع له القلوب، وبَسْط هذا معروف، ﴿ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ﴾ أي هيئت لهم. والمعِد لها هو الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أصل الكفر في اللغة الستر ومنه الكُفُرَّى الذي نسميه الكافور، وهو وعاء طلع النخل، هذا أصله في اللغة، أما في الشرع فإنه جحد الإنسان لنعمة الله عزّ وجل. وأعظمه الكفر المخرج عن الملة، وهناك كفر دونه كما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: **كفر دون كفر**[1]، وقوله ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني الكافرين بما يجب الإيمان به، وأركان الإيمان وأصوله الستة بيَّنها الرسول ﷺ في قوله: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره**».

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء سباب المؤمن فسوق، رقم (٢٦٣٥).

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ وجوب اتخاذ ما يقي من النار؛ لقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ والأصل في الأمر الوجوب.

٢ ـ أن النار موجودة الآن؛ لقوله: ﴿ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ﴾.

٣ ـ أن أهل النار هم الكافرون؛ لقوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أما الفساق الذين يعذبون بالنار على قدر أعمالهم ثم يخرجون منها؛ فإن النار لم تعد لهم حتى إن بعض العلماء قال: إن النار ناران: نار الكافرين، ونار العصاة، لكن ظاهر النصوص خلاف ذلك، وأن النار واحدة لكن عذابها يخفف ويثقل بحسب عمل الإنسان.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]:

الجملة هنا معطوفة على ما سبق، وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ الطاعة هي موافقة الأمر، فعلاً للمأمور وتركاً للمحظور، فمن ترك مأموراً به فليس بطائع، ومن فعل منهياً عنه فليس بطائع، وأصلها من الطوع وهو الانقياد، ومنه قولهم: هذه ناقة طوع أي منقادة لقائدها لا تستعصي عليه.

﴿وَٱلرَّسُولَ﴾، «ال» فيه للعهد؛ لأن هذا الخطاب موجَّه لهذه الأمة. وهذه الأمة رسولها واحد وهو محمد ﷺ. فتكون «ال» هنا للعهد الذهني. وذلك أن العهد ثلاثة أنواع: ذهني، وذكري، وحضوري، فإن كانت «ال» تشير إلى شيء مذكور فهي للعهد الذكري مثل قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥، ١٦]، وإن كانت تشير إلى شيء

حاضر فهي للعهد الحضوري مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وهكذا كل «ال» تأتي بعد اسم الإشارة فهي للعهد الحضوري مثل: هذا الرجل، هذا الإنسان وما أشبهه. والثالث العهد الذهني الذي يكون معلوماً بالذهن، فهنا الرسول هو محمد ﷺ، وهو معهود ذهناً.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾:

(لعل) هنا للتعليل وليست للترجي، ولعلَّ تأتي كما مرَّ علينا كثيراً للتعليل وللإشفاق، وللترجي وللتمني أحياناً، والفرق بين التمني والترجي أن الترجي فيما يرجى حصوله، والتمني فيما لا يرجى حصوله إما لعسره وإما لتعذره، وهنا للتعليل يعني: إذا أطعتم الله والرسول حصلت لكم الرحمة، والرحمة يكون بها حصول المطلوب وزوال المكروه، وإذا قرنت بالمغفرة صارت المغفرة لزوال المكروه، والرحمة لحصول المطلوب، أي لعلكم تكونون في رحمة الله التي بها النجاة وحصول الثواب والأجر الكثير.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أولاً وجوب طاعة الله ورسوله، من قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾. والأصل في الأمر الوجوب.

٢ ـ جواز اقتران اسم الرسول باسم الله في الأمر الذي يكون مشتركاً بينهما؛ لقوله: ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ أما الأمر الذي لا يكون مشتركاً بينهما، وهو الأمر الكوني القدري، فهذا لا يذكر فيه الرسول مع الله إلا بحرف يدل على الترتيب، وبهذا نعرف الفرق بين إسناد الشيء الشرعي إلى الله ورسوله، وبين إسناد الكوني إلى الله ورسوله، فإسناد الشيء الشرعي يجوز

بالواو، وأما الكوني فلا يجوز إلا بـ«ثم» الدالة على الترتيب والمهلة، فإذا قلت في أمر شرعي: الله ورسوله أعلم فهذا صحيح وجائز، وقد أقره النبي ﷺ نفسه فإنه في حديث زيد بن خالد الجهني أن النبي ﷺ صلى بهم صلاة الصبح على إثر سماء كانت من الليل فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟** قالوا: الله ورسوله أعلم»[1] فأقرهم لأن المراد هنا العلم الشرعي، لكن في المسائل الكونية لما قال له رجل: «**ما شاء الله وشئت**» أنكر عليه وقال: «**أجعلتني لله عدلاً؟ بل ما شاء الله وحده**»[2].

٣ ـ أن طاعة الله ورسوله سبب للرحمة؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ولكن هل المراد الرحمة العامة أو الخاصة؟ المراد الخاصة؛ لأن العامة حاصلة لنا على كل حال حتى الكفار لهم رحمة من الله لكن رحمة عامة، فالمراد بالرحمة هنا الرحمة الخاصة التي بها سعادة الدنيا والآخرة.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤]:

قال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ ولم يقل: أسرعوا؛ لأن المفاعلة تكون

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، رقم (٨٤٦). ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب كفر من قال مطرنا بالنوء، رقم (٧١).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (١٨٤٢، ١٩٦٥).

مِن اثنين في الغالب. والمعنى: ليسبق بعضكم بعضاً أو ليسابق بعضكم بعضاً إلى هذا الأمر، المغفرة والجنة، وهذا كقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢١].

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ المغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه، وليست هي مجرد التجاوز عن الذنب؛ لأن أصلها من المِغفَر، والمغفر ما يوضع على الرأس حال الحرب يتوقى به السهام، وهو مفيد فائدتين وهما: السَّتر والوقاية، ويدل لهذا قوله تعالى حينما يحاسب عبده في الآخرة ويقر العبد بذنوبه فيقول: «**قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»[1]، فمن ستر الله عليه ذنبه في الدنيا فقد غفره له، ولكن لا تتم المغفرة إلا بالتجاوز عن الذنب وعدم العقوبة عليه، وإلا فإن الستر نوع من المغفرة بلا شك، فإن الإنسان لو فضح بذنبه ـ والعياذ بالله ـ لم يكن هذا مغفرة، لكن إذا ستر عليه فإن هذا فيه مهلة أن يجعل الله تعالى الأمر بينه وبين عبده لعله يتوب ولا يعلم بذنبه.

والمسارعة إلى المغفرة إما استغفار، وإما عمل صالح، الاستغفار أن يقول: اللهم اغفر لي، أستغفر الله وما أشبه ذلك، وإما عمل صالح؛ لأن من الأعمال الصالحة ما يكفّر الله به الخطايا مثل الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، والعمرة إلى العمرة، والعمل الصالح يذهب العمل السيئ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ...﴾، رقم (٢٤٤١). ورواه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨).

وقوله: ﴿وَجَنَّةٍ﴾، مغفرة وجنة، لأن الإنسان لا تتم سعادته إلا بأمرين: زوال المكروه، وحصول المطلوب.

والجنة هنا هي الدار التي أعدها الله عزّ وجل لأوليائه، أعدها الله للمتقين. والمتقون المؤمنون هم أولياء الله، هذه هي الجنة. أما الجنة في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥] فهي البستان، ففرق بين الجنتين جنة الدنيا وهي البساتين، وجنة الآخرة وهي الدار التي أعدها الله لأوليائه، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولا يمكن للإنسان أن يتصور ما في الجنة من النعيم، أما جنات الدنيا فكل إنسان يتصور ذلك.

وقوله: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ في الآية الأخرى ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، والفرق بينهما أن التشبيه هنا بليغ، وأما التشبيه هناك فليس ببليغ، يعني من حيث الاصطلاح. وإلا فكل القرآن بليغ؛ لأنهم يقولون: التشبيه بليغ مؤكد، وغير مؤكد، وبليغ غير بليغ إذا ذكرت الكاف، فإذا ذكرت أداة التشبيه فهو غير بليغ، وإذا حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه صار بليغاً، وهنا حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه، أما إذا ذكرت أداة التشبيه فإنه يسمى تشبيهاً مرسلاً، وإذا ذكر وجه الشبه صار مرسلاً غير مؤكد.

نقول: فلان كالبحر كرماً، وإن شئت فقل: في الكرم، هذا التشبيه فيه كل الأركان الأربعة؛ لأن التشبيه له أركان أربعة مثل القياس، مشبه، ومشبه به، وأداة التشبيه، ووجه الشبه، باعتبار ذكر أداة التشبيه يسمى مرسلاً، وباعتبار ذكر وجه الشبه يسمى غير

بليغ، يعني أن هذا أدنى أنواع التشبيه إذا ذكر المشبه والمشبه به وأداة التشبيه ووجه الشبه، فهذا أدنى أنواع التشبيه.

وإذا حذفت أداة التشبيه وذكر وجه الشبه صار مؤكداً لكن غير بليغ؛ لأنك إذا قلت: «فلان بحر في الكرم» أكدت أنه بحر في الكرم لكن نقصت قليلاً، فإذا حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه صار تشبيهاً بليغاً، إذا قلت: «فلان بحر»، فإذا قلت: رأيت بحراً يعطي الدراهم بلا عدٍّ، صار هذا أبلغ من الأول، ويسمى هذا استعارة.

على كل حال ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ هذا التشبيه بليغ؛ لأنه حذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه، فيكون بليغاً.

ومعنى ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ يعني كعرض السماء والأرض، لكن هل يلزم من هذا أن تكون مالئة للسماء والأرض، أو أنها كعرض السماء والأرض وإن كانت هي في محل آخر؟

الجواب: الثاني، ولذلك شكك بعض العلماء في الأحاديث التي فيها أن رجلاً من اليهود سأل النبي ﷺ قال: كيف يكون عرضها السموات والأرض؟ أين السموات والأرض إذا كانت هي عرضها عرض السموات والأرض؟ فقال الرسول ﷺ: «**أين يكون الليل إذا جاء النهار؟**»[1]، فهذا الحديث في رفعه نظر؛ لأن الآية لا تدل على أن الجنة ملأت السموات والأرض وصارت في محلهما، بل تدل على أن عرضها عرض السموات والأرض وإن كانت هي فوقهم، ولذلك نقول: إن الجنة فوق السموات والأرض كلها، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ: «**إذا سألتم الله**

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٥٢٢٨).

فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقَها أو وفوقُها ـ روي بالوجهين ـ عرش الرحمٰن»[(١)] وهذا يدل على أن الجنة فوق السموات. وأما النار فهي في أسفل السافلين، وعلى هذا فلا يكون في الآية إشكال إطلاقاً، ويحتمل أن نقول: إن هذا اليهودي أراد أن يلبس ويشبّه في القرآن ويتبع ما تشابه، وإن النبي ﷺ إذا صحَّ الحديث أجابه على وجه يبهت فيه ولا يتكلم على مقتضى عقله، فقال: **«أين الليل إذا جاء النهار؟»**

على كل حال فإن معنى الآية الكريمة أن هذه الجنة عرضها عرض السموات والأرض، أما طولها فقال بعض أهل العلم: إنه إذا كان عرضها السموات والأرض فطولها أعظم وأعظم؛ لأن العادة أن العرض دون الطول، ولكن الصحيح أن عرضها وطولها واحد إذ ليس لها عرض وطول وذلك لأنها مستديرة، وليست مربعة، وإذا كانت كذلك فإن عرضها يكون طولها. هذا هو الصحيح الذي صحَّحه جماعة من أهل العلم.

وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾: في محل جر صفة للجنة، ويجوز أن تكون في محل نصب حالاً. والنكرة إذا وصفت جاز أن تأتي منها الحال.

أعدها الله عزّ وجل، وقد بيَّن الله ذلك في آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠] فالمُعِدُّ هو الله ولكنه ذكر بصيغة المجهول ليوافق قوله فيما سبق ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم (٢٧٩٠).

(والمتقون) هم الذين اتخذوا وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

ثم ذكر الله تعالى من صفاتهم:

فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾. هذه أوصافهم.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وحينئذ قد يسأل سائل: كيف بدأ بالإنفاق دون ذكر الصلاة مثلاً، والصلاة أهم من الإنفاق؟

الجواب: لأنه لما نهى عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة بدأ بضده ـ ضد أكل الربا ـ وهو الإنفاق، وهذا كقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩] فإنه لما قال: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ﴾ [آل عمران: ١٣٠] بدأ بذكر الإنفاق في صفات المتقين ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، ينفقون ماذا؟ حذف المفعول ليكون دالاً على العموم. أي ينفقون كلَّ ما يمكن إنفاقه من أعيان ومنافع وجاه وغير ذلك، فإن الإنسان قد ينفق أعياناً كالثياب، ودراهم كالنقود مثلاً. وكذلك قد ينفق منافع، بأن يعير شخصاً ما ينتفع به هذا المستعير، وجاهاً بأن يتوسط لشخص أو يشفع له، فالإنفاق هنا عام،

السراء ما يسر، والضراء ما يضر، يعني في حال الرخاء وفي حال الشدة ينفقون، ولم يبيِّن على مَنْ ينفقون ولكن الله قد بيَّن في سورة البقرة فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٖ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥] فينفق في جهات الخير، لا في جهات الشر؛ لأنه لو أنفق في جهات الشر لخرج عن وصف المتقين، والله سبحانه وتعالىٰ ذكر الإنفاق هنا وصفاً للمتقين فلا بد أن يكون إنفاقهم فيما يرضي الله.

فإذا قال قائل: ﴿فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أما في السراء والسعة والرخاء فالإنفاق وجيه، وأما في الضراء فكيف يكون الإنفاق؟

فالجواب: أنه يجب أن نعلم أن الإنفاق ليس خاصاً بالإنفاق على البعيد عنك، بل هو عام. يشمل حتى الإنفاق على ابنك وبنتك وأمك وأبيك وزوجتك بل ونفسك، حتى الإنفاق على النفس يؤجر الإنسان عليه ويكون صدقة، قال النبي عليه الصلاة والسلام لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كلمة جامعة نافعة مانعة قال: «**واعلم أنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعله في فم امرأتك**»[(١)]. وهل يكون الإنفاق في الضراء؟ الجواب: نعم، قد يكون الإنسان في أشد العسر وينفق على أهله وزوجته بل وعلى نفسه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾، الكظم معناه: المنع مع ألم وتأثر، والغيظ قيل: إنه أشد الغضب، يعني أنهم إذا غضبوا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة، رقم (١٢٩٦). ورواه مسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم (١٦٢٨).

وثاروا حبسوا غيظهم، ومعلوم أن من أشد ما يكون على الإنسان أن يحبس غيظه، ويعرف ذلك من يكون سريع الغضب، فإنه إذا أراد أن يكظم الغيظ يجد شدة عظيمة، كأن أحداً يصرعه صرعاً، ولهذا قال النبي ﷺ: «**من تعدّون الصرعة فيكم؟** قالوا: الذي لا يصرع ـ والصرعة والصرع معناه الطرح ـ قال: **إن الصرعة من يملك نفسه عند الغضب**»[1]، هذا هو الصرعة الذي إذا ثارت نفسه ملكها، فلهذا قال: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ يعني إذا فعل بهم إنسان ما يغيظهم فإنهم يكظمون على شدة ومعاناة وألم، ويدل على أن الكظم فيه شدة ومعاناة قول النبي ﷺ: «**إذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع**»[2]. ولهذا يجد بعض الناس إذا أراد التثاؤب شدة عظيمة في منع فتح فمه، مع أن المشروع أن تكظم ولا تفتح الفم، وقد ذكر بعض العلماء شيئاً ييسر لك الكظم، قال: إذا أصابك التثاؤب فعضَّ شفتك السفلى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ يعني الذين يكظمون أشد الغضب. وإذا كانوا يكظمون أشد الغضب فأسهل الغضب من باب أولى، كم من إنسان لا يملك نفسه عند الغضب فتجده مثلاً يكسر ما له، أو يطلق زوجته، أو ربما يلطم نفسه، أو ربما يسقط نفسه من علو، المهم أن الغضب الشديد جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم حتى لا يدري ما يقول؛ ولهذا كان أصح أقوال أهل

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء؟، رقم (٢٦٠٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب تشميت العاطس وكراهة التثاؤب، رقم (٢٩٩٤).

العلم أن من غضب غضباً لا يملك نفسه به فإنه لا عبرة بقوله، أيًّا كان هذا القول، سواء كان طلاقاً أو خلعاً أو لعناً أو قذفاً أو غير ذلك، فإنه لا عبرة به؛ لأنه ليس له قصد. وبعض الناس ـ نسأل الله العافية ـ إذا غضب تغيَّب عن الدنيا لا يرى مَنْ أمامه أبداً، ولا يسمع قول من يتكلم، وربما يتكلم بكلام مكروه ويصيحون به وهو لا يسمعهم من شدة غضبه، لهذا نقول: إن الغضب ثلاثة أقسام: بداية، وغاية، ووسط، البداية لا تؤثر؛ لأن كل إنسان يغضب، والغاية لا حكم لها، بمعنى أن كل ما صدر عن الغاضب فإنه لا حكم له. وذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه «إغاثة اللهفان في بيان عدم وقوع طلاق الغضبان» أن ذلك بالاتفاق، والثالث: الوسط، هذا محل خلاف بين العلماء، والصحيح أنه لا حكم لقوله، وأن طلاقه لا يقع.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾، العفو ترك المؤاخذة على الذنب، والمعنى هم الذين إذا أساء إليهم أحد قابلوا إساءته بالعفو، وخير من ذلك أن يقابلوه بالإحسان لكن بشرط أن يكون لديهم قدرة على الانتقام، أما من عفا لعدم القدرة على الانتقام فهذا عفو العاجز الذي لا يحمد عليه، بل يكون عفوه هذا عجزاً مذموماً، ولهذا قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، فأنتم إن عفوتم عن السوء قد تعفون عن قدرة وقد تعفون عن عجز. أما الله عزّ وجل فإنه يعفو عن قدرة، وهذا هو محل المدح، أما مجرد العفو فليس بمدح حتى يكون عفواً عن قدرة. فترك المؤاخذة على الذنب عفو وهو محمود، وخير منه الإحسان، ولكن يشترط في

الأمرين أن يكون ذلك عن قدرة لا عن عجز، أما عن العجز فإنه مذمة، ولهذا قال الشاعر يذم قبيلته:

لكن قومي وإن كانوا ذوي حسب ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا

لماذا؟ لضعفهم وعجزهم ولهذا قال:

فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا شنوا الإغارة فرساناً وركبانا

فالحاصل: أن قوله: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ يعني الذين لا يؤاخذون الناس بما أساؤوا به إليهم، بل ربما يحسنون إليهم ولكن عن قدرة، أما العفو عن عجز فليس بعفو حقيقة، بل هو عجز لا يمدح عليه الإنسان.

وقوله: ﴿عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ عام، شامل، ولكنه ليس على عمومه بالاتفاق، فإن الإساءة إذا كانت في حق الله فهي لله وليس لأحد أن يعفو عنها، فلو زنا رجل بمحرم رجل وأراد أن يعفو عنه قلنا: لا يمكن، الحق ليس إليك، والله عزّ وجل يقول: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] أما إذا كان حقًّا للإنسان ليس فيه شائبةُ حق لله فهذا يُنظر فيه، أي ليس على عمومه بل ينظر فيه، إن اقتضت المصلحة العفو فالعفو خير، وإن اقتضت المصلحة المؤاخذة فالمؤاخذة خير. وإن لم تقتضِ لا هذا ولا هذا بأن تساوى الأمران فالعفو خير؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧] والدليل على هذا أن الله سبحانه وتعالىٰ قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] فَعُلِم منه أن من عفا بدون إصلاح فلا أجر له، بل قد يأثم على عفوه، مثال ذلك: رجل اعتدى عليه شخص شرير،

كلما عفا الناس عنه ازداد شرًّا، فهنا المؤاخذة خير بل قد تجب. وإنسان آخر اعتدى على شخص ولكنه رجل معروف بالاستقامة ـ أعني المعتدي ـ وعدم الاعتداء لكن بدرت منه بادرة فحصلت منه إساءة، فهنا العفو أولى، ولا سيما إذا جاء هذا المعتدي يعتذر ويتعهد أن لا يعود أو ما أشبه ذلك. ورجل ثالث اعتدى على آخر وهو شرير لكنه لم يبلغ في الشر غايته، يعني أحيانًا وأحياناً، فهنا العفو أفضل لأنه يتساوى الأمران، فالعفو هنا أفضل.

وقوله: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ يشمل حتى عن الكفار إذا لم يكونوا حربيين، فإن الإنسان إذا عفا عنهم فيما يتعلق بحق خاص، وكان في العفو إصلاح؛ فإنه يدخل تحت الآية الكريمة.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني الذين يحسنون إلى الناس، ولكن هل المراد بذلك المحسنين فيما سبق أو المحسنين فيما يستقبل؟ بمعنى هل قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ عائد على قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وأن هؤلاء من المحسنين؟ أو أنه لما ذكر العفو وهو إسقاط الإنسان حقه عن المؤاخذة ذكر حالاً أخرى أكمل منها وهي الإحسان فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني فإذا أحسنوا مع العفو كان ذلك سبباً لمحبة الله؟ الثاني له وجه، والأول أعم؛ لأننا إذا قلنا: (المتقين) هل هم محسنون؟ نعم، لا شك أن المتقي محسن إذا كان كما وصف النبي ﷺ: «**تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ، رقم (٥٠).
ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٨).

فالإنفاق إحسان، وكظم الغيظ إحسان، والعفو عن الناس إحسان، فيكون هذا أشمل، فعليه نقول: هذه الجملة فيها الترغيب والحث على فعل الخصال السابقة، وأنها من الإحسان، وإذا فعل الإنسان خصلة أعلى مما سبق كانت داخلة في هذا من باب أولى كما لو عفا وأحسن فإنني أقول: هذه خصلة زائدة على مجرد العفو فتكون أولى بالدخول في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

من فوائد قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾:

١ ـ فيها الأمر بالمسارعة إلى المغفرة والرحمة والجنة. وهل الأمر للوجوب؟ نقول: أما فيما يجب فواجب، وأما فيما لا يجب فليس بواجب، ولكن الإنسان يؤمر بأن يسارع، وفيه دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يؤثر غيره بالقربات؛ لأنه إذا آثر غيره بالقربات فهذا يعني التأخر، ومن أمثلة ذلك أن يؤثر غيره بمكانه الفاضل في الصف بأن يتأخر عن مكانه في الصف الأول لرجل آخر، فإن هذا خلاف المسارعة إلى الخيرات.

ولكن إذا ترتب على إيثار غيره بهذا المكان مصلحة أكبر من مصلحة التقدم لم يكن إيثاره من باب التأخر عن الخيرات؛ لأنه تنازل عن فضيلة إلى فضيلة أعلى، فلا يكون هذا إيثاراً في الحقيقة، ولا يدل على هذا زهد الإنسان في فعل الخير، بل هو انتقال من خير إلى ما هو خير منه. والإيثار بالقرب، إما: إيثار بواجب فهو حرام، وإيثار بمستحب فهو مكروه. مثال الإيثار بالواجب: رجل عنده مال لا يكفي إلا لحج رجل واحد، فيعطي

غيره ليحج به ويدع نفسه. ومثال الإيثار بمستحب: أن يؤثره بالمكان الفاضل في الصف.

٢ ـ أن التخلية قبل التحلية؛ لأنه قال: ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ فبالمغفرة الزحزحة عن النار التي أوجبتها الذنوب، وبالجنة دخول الجنة، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز.

٣ ـ أن المغفرة لا تكون إلا من الله ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لأن مغفرة غير الله لا تفيد، إنما تفيد في حق الإنسان الخاص إذا سمح عنك وغفر لك فهذا يفيد كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

٤ ـ بيان سعة الجنة؛ لقوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

٥ ـ أن الجنة موجودة الآن؛ لقوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾ والإعداد التهيئة، وقد تضافرت النصوص الكثيرة على أن الجنة موجودة الآن.

٦ ـ أن أصحاب الجنة هم المتقون؛ لقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ كما قال في النار: ﴿الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] فالمتقون هم أهل الجنة.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾:

١ ـ فضيلة الإنفاق على كل حال؛ لقوله: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ فإن قال قائل: إذا كان الإنسان في ضرورة هو وعائلته فهل ينفق؟ نقول: لا ينفق على أجنبي بل ينفق على نفسه وعائلته، وهو داخل في الآية؛ لأن إنفاقه على نفسه وعلى أهله صدقة.

٢ ـ الثناء على من أنفق في السراء والضراء، وذلك لأن الإنفاق في السراء ليس بغريب، كل إنسان يهون عليه أن ينفق إذا كان في سراء، لكن الإنفاق في الضراء هو الذي يدل على أن الإنسان ينفق طلباً للأجر لا زهداً في المال.

٣ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يكظم الغيظ؛ لأن ذلك من صفات أهل الجنة؛ لقوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾.

فإن قال قائل: هل يمدح من لا يبالي بما أصابه من خير وشر، أو يمدح من كظم الغيظ عند وجود الشر؟.

الثاني؛ لأن الأول لا يبالي سواء وجد ما يثيره أم لم يوجد، لكن من يعرف الخير والشر ولكنه يكظم الغيظ عند وجود الشر هذا هو الذي يُمدح.

٤ ـ الحث على العفو عن الناس لكنه مقيد بما إذا كان أصلح.

٥ ـ إثبات المحبة لله عزّ وجل وأنه يحب، وهل المحبة هنا صفة ثابتة لله أو يراد بها إرادة الإحسان أو الإحسان نفسه؟ الصحيح أنها صفة لله عزّ وجل، وأن إرادة الإحسان أو الإثابة غير المحبة.

فإن قال قائل: المحبة لا تكون إلا بين متجانسين، ولا مجانسة بين الخالق والمخلوق.

نقول: هذا غير صحيح أصلاً، فلا يلزم من المحبة تجانس المتحابين، الإنسان يحب بعض السيارات، بعض الإبل، بعض الدور، يحبها محبة حقيقية بقلبه، ويكون عنده قلم سائل نظيف فيحبه. فهذه الدعوى دعوى باطلة يكذبها الحس والواقع، وإذا

قالوا: إن المحبة هي ميل الإنسان إلى ما يجلب له المنفعة أو يدفع عنه المضرة.

نقول: هذا أيضاً غير صحيح. وهذا إن قدر أنه لازم المحبة في المخلوق فليس بلازم المحبة بالنسبة للخالق؛ لأن الله لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين.

فإن قالوا: العقل لا يدل عليها فلا يجوز إثباتها.

فالجواب عن هذا:

أولاً: أن العقل ليس دليلاً في إثبات صفات الله أو نفيها، فنحن نمنع الاعتماد على العقل في إثبات الصفات أو نفيها ونقول: من أين لكم أن المدار في إثبات الصفات أو نفيها هو العقل؟

ثانياً: أن نقول: هب أن العقل لم يدل عليها فإنه لا ينفيها؛ لأن دعواكم النفي بأنه لا تكون المحبة إلا بين متجانسين دعوى باطلة والشرع قد أثبتها، وانتفاء الدليل المعين الذي هو العقل على زعمكم لا يمنع انتفاء المدلول؛ لأن المدلول قد يثبت بدليل آخر غير ما ذكرتم، فهب أن العقل لم يدل عليه فقد دلَّ عليه السمع (الكتاب والسنة) فوجب ثبوته، ثبوت المحبة.

ثالثاً: أن نقول: إن العقل قد دلَّ على ثبوت المحبة لله. فإثابة الطائعين تدل على أن الله أحبهم إذ لا يمكن أن يثيب أحداً عقلاً إلا وهو يحبه، فتكون إثابة الطائعين دليلاً عقلياً على ثبوت المحبة كما جعلتم أنتم التخصيص دليلاً عقلياً على ثبوت الإرادة ولا فرق بينهما، بل إن إثابة الطائعين أدل على المحبة من دلالة التخصيص على الإرادة، ولكن يجب أن نعلم أن محبة الله

سبحانه وتعالىٰ للإنسان ليست محبة لجماله أو لحسن ثيابه أو ما أشبه ذلك كما تكون بين المخلوقين، بل هي محبة لإيمانه وعمله، ولهذا جاء في الحديث: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(١). فالمدار على القلب والعمل، فكلما كان الإنسان أقوى إيماناً بالله وأكثر عبادة له كان أحب إليه.

٦ ـ الحث على الإحسان من قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فإن كل إنسان يعلم أن الله يحب الإحسان سوف يحسن ويتقدم إلى الإحسان ويحرص عليه؛ لأن محبة الله للعبد هي غاية ما يريد، نسأل الله أن يجعلنا من أحبابه ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] الغاية أن الله يحبك. حتى الذين قالوا: إنا نحب الله قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ لأن الشأن كل الشأن أن يحبك الله، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أحبابه.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]:

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: الواو هذه حرف عطف، والأصل في المعطوف أن يكون مغايراً للمعطوف عليه، وليس المراد إذا قلنا إن العطف يقتضي المغايرة أن تكون المغايرة في الذات فقط، بل قد يكون

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه، رقم (٢٥٦٤).

التغاير في الصفة وفي اللفظ وفي المعنى، فإذا قلنا: قدم زيدٌ وعمرٌو، فهنا عطف يقتضي المغايرة في الذات؛ لأن هذا غير هذا بلا شك. وفي هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ المغايرة في الصفة، فهي كقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى: ١ ـ ٤] فالذي قدر فهدى، والذي أخرج المرعى هو الله، لكن هذا عطف صفة على صفة. والتغاير في اللفظ مثل قول الشاعر:

فألفى قولها كذباً ومَيْنا

المَيْنُ هو الكذب، ولكنه عطف عليه من باب عطف المترادفين، ولهذا لا يأتي في اللغة العربية كذباً وكذباً، إنما يأتي كذباً وميناً، فلا بد من التغاير في اللفظ. والتغاير في المعنى قريب من التغاير في الصفة. والذي معنا الآن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ من باب تغاير الصفة.

والفاحشة ما يستفحش شرعاً أو عرفاً مثل الزنا، فإن الزنا فاحشة شرعية وفاحشة عرفية. كذلك اللواط فاحشة شرعية وعرفية. قال لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠] كذلك نكاح ما نكح الآباء هو أيضاً فاحشة ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢] أو عادة، ولكن في باب الثواب والعقاب المرجع إلى الشرع، ولهذا قال بعض العلماء: المراد بالفاحشة الكبيرة.

وقوله: ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ المراد به ما دون الفاحشة وهي الصغائر، وعلى هذا فالعطف بين قوله: ﴿فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟

أَنفُسَهُمْ﴾ عطف بين متغايرين، وليس من باب عطف العام على الخاص، وإن كانت الفاحشة لا شك أنها داخلة في ظلم النفس، لكن المراد هنا التنويع، وإذا كان المراد التنويع لزم أن يكون كل نوع سوى النوع الآخر.

وقوله: ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ قد يقول قائل: كيف يتصور أن الإنسان يظلم نفسه، الإنسان يدفع عن نفسه الظلم فكيف يظلم نفسه؟

والجواب على ذلك أن نقول: كل من خالف أمر الله بفعل محرم أو ترك واجب فقد ظلم نفسه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١] لماذا؟ لأن النفس عندك أمانة تجب عليك رعايتها، وقد أوصاك الله بها فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. وقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] فنهى عن قتل النفس وعن ظلم النفس لأنها أمانة عندك.

ومن المناسب أن نورد قول العلماء: إن الله أرحم بك من أبيك وولدك ونفسك، أما كونه أرحم بك من أبيك فإن الله قال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١] فأوصى الآباء والأمهات بالأولاد، إذن فهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم، وأما بالعكس أن يكون أرحم بك من أبنائك، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [العنكبوت: ٨] وأما أرحم بك من نفسك فلأن الله قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] وقال: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

إذن نقول: وجه كون الإنسان ظالم لنفسه أن نفسك عندك أمانة، فإذا فرطت في هذه الأمانة بأن أقحمت نفسك فيما حرم الله

عليك أو تأخرت عما أوجب الله عليك فقد ظلمت نفسك.

وظلم النفس هو في الواقع ظلم في حق الغير؛ لأن ظلم النفس إما في حق يتعلق بالله عزّ وجل، وإما في حق يتعلق بالمخلوق، فإن كان في حق الله فإنك ظالم في حق الله، وإن كان في حق المخلوق فإنك ظالم في حق المخلوق، قال رسول الله ﷺ: «**مطل الغني ظلم**»[1]. ولهذا نعرف أن من ظلم نفسه فقد ظلم ثلاثة: ظلم نفسه، وظلم حق الله عزّ وجل، وظلم المخلوق؛ لأن هذه كلها تتعلق بأوامر الله ونواهيه.

وقوله تعالى: ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: ذكروا الله باللسان وبالجوارح وبالقلب.

أما ذكر الله بالقلب فإنه إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا عظمة الله وما أعد للمخالفين من العقاب، وذكروا كذلك رحمة الله وما أعد للطائعين من الثواب، هذا ذكر بالقلب، فإذا ذكروا الله بالمعنى الأول ذكروا عظمته فخافوا من عقابه واستقاموا على دينه هرباً من عقابه، وإذا ذكروا الله بالمعنى الثاني وهو ذكر رحمته وثوابه فإنهم يستقيمون على شرعه طلباً للوصول إليه، فذكر الأول من باب الهرب، وذكر الثاني من باب الطلب، والعابد بمقتضى الطلب أعلى حالاً من العابد بمقتضى الهرب، قالوا: لأن الطالب ناصح في غيبة المطلوب وفي حضوره، والهارب ناصح في حضور المخوف لكن في غير حضوره لا يهتم، ويمكن أن يؤخذ هذا من قول الرسول ﷺ:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحوالات، باب الحوالة وهل يرجع في الحوالة؟ رقم (٢٢٨٧). ورواه مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم مطل الغني وصحة الحوالة، رقم (١٥٦٤).

«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١].

وذكر الله باللسان يمكن أن يكون المراد به الذكر الخاص مثل: لا إله إلا الله كما يروى عن الشيطان أنه قال: **(أهلكت بني آدم بالمعاصي، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار)**[٢]. فذكر الله لا شك أنه من أسباب مغفرة الذنوب، فيذكرون الله بألسنتهم يقولون: لا إله إلا الله ـ كلمة الإخلاص ـ وهذه إذا قالها الإنسان مخلصاً غفر الله له، وكذلك أيضاً ذكر الله باللسان يكون بالاستغفار: اللهم اغفر لي أو أستغفر الله أو ما أشبه ذلك.

والذكر بالفعل هو أنهم يفعلون ما يكفر هذه الذنوب والخطايا، ومن ذلك الصدقة فإن النبي ﷺ قال: **«الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار»**[٣]. وكذلك أيضاً الصلاة، فإن الإنسان إذا توضأ وأسبغ الوضوء ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر الله له ما تقدم من ذنبه.

وقوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ الفاء: للترتيب والتعقيب، يعني فإذا ذكروا الله استغفروا لذنوبهم، أي طلبوا المغفرة من الله سبحانه وتعالىٰ لذنوبهم، وتقدم لنا مراراً أن المغفرة تعني ستر الذنب والتجاوز عنه، وقوله: ﴿لِذُنُوبِهِمْ﴾ الذنوب هي المعاصي

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٨٥).

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٤٢). فقد أوردها عن ابن الجوزي قال: إن إبليس قال: «أهلكت بني آدم بالذنوب وأهلكوني بالاستغفار وبلا إلٰه إلّا الله، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء، فهم يذنبون ولا يتوبون، لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً».

(٣) رواه الترمذي، كتاب الجمعة، باب ما ذكر في فضل الصلاة، رقم (٦١٤). ورواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الحسد، رقم (٤٢١٠).

والآثام، فيسألون الله تعالى أن يغفر لهم هذه المعاصي والآثام، وإذا استغفر الإنسان ربَّه بنية صادقة وافتقار إليه فإن الله تعالى يغفر له، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. (مَنْ) اسم استفهام وليست اسم شرط، والدليل على أنها اسم استفهام لا اسم شرط أن الفعل بعدها وقع مرفوعاً ﴿وَمَن يَغْفِرُ﴾. ثم إن أداة الإثبات جاءت بعدها وهي ﴿إِلَّا﴾، وعلى هذا نقول: (مَنْ) اسم استفهام بمعنى النفي. ويدل أنها بمعنى النفي إتيان الإثبات بعدها وهي ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

فإذا قال قائل: ما الفائدة من أن يأتي النفي بصيغة الاستفهام؟ فلماذا لم تكن الآية كما في حديث أبي بكر رضي الله عنه الذي علَّمه النبي ﷺ حيث قال: «**اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت**» وهذه الآية جاءت بقوله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؟ فنقول: لأن النفي بصيغة الاستفهام أبلغ من النفي المجرد؛ لأنه إذا جاء النفي بصيغة الاستفهام صار مشرباً بالتحدي كأن المستفهم يقول: ائت لي بكذا وكذا، ائت لي بأحد يغفر الذنوب إلا الله عزّ وجل، فيكون الاستفهام هنا دالاً على النفي مشرباً بالتحدي.

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بالرفع مع أنه وقع بعد ﴿إِلَّا﴾ لأن الكلام مفرغ، والمفرغ: هو الذي لم يذكر فيه المستثنى منه. فإذا قلت: ما قام إلا زيد، فهنا الاستثناء مفرغ لم يذكر فيه المستثنى منه. وإذا قلت: ما قام أحد إلا زيد، فهذا غير مفرغ؛ لأنه ذكر المستثنى منه. وإذا قلت: ما رأيت إلا زيداً، مفرغ لأنه لم يذكر فيه المستثنى منه. وإذا قلت: ما رأيت أحداً إلا زيداً، فهذا غير مفرغ.

هنا ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يعني لا أحد يغفر الذنوب إلا الله. لو تستغفر كل الخلق من ذنبك ما نفعوك، لو أنك مثلاً أتيت إلى كل الذين في المسجد وقلتَ: أستغفركم من الذنب الذي فعلت، فهل تنفع مغفرتهم؟

لنفرض أن رجلاً أساء في المسجد إساءة محرمة تؤذي المصلين، فجاء فقال: أيها المصلون أستغفركم مما فعلت هل يمكن أن يغفروا له؟ يقال: يمكن أن يغفروا له ما يتعلق بهم، لكن أصل الذنب لا يمكن أن يغفروا له؛ لأنه يقول: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

قال: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

قوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟﴾ معطوفة على قوله: ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾.

ويصروا: أي يستمروا على ما فعلوا ويبقوا عليه؛ لأن طالب المغفرة لا يمكن أن يصر على اقتراف الذنب، يقول اللهم اغفر لي وهو مصرٌّ على معصيته، هذا سخرية واستهزاء، ولهذا قال: ﴿مَا فَعَلُوا۟﴾ من الفاحشة وظلم النفس.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يحتمل أن تكون استئنائية ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟﴾ يعني أتى بجملة مستأنفة فقال: وهؤلاء يعلمون عظم الذنوب، ويعلمون عظم مَنْ عصوه، ولذلك لا يصرون على ما فعلوا، ويحتمل أن تكون الواو للحال يعني: ولم يصروا على ما فعلوا حال كونهم عالمين بأن الإصرار على الذنب لا تحصل معه المغفرة، أو وهم يعلمون بأن هذا ذنب، فإذا وقع منهم ذنب أصروا عليه فإنهم لا يعلمون أنه ذنب، والآية ما دامت تحتمل هذه الأوجه

الثلاثة فإننا نقول على القاعدة أنها تحمل عليها كلها، كل ما تحتمله الآية من معنى ولا تناقض بين المعاني فإنه يجب أن تحمل عليها كلها، فإن كانت المعاني تتناقض أو تتعارض فإنه يطلب المرجح، لأنه لا يمكن أن يحمل الكلام على الشيء وضده.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن المتقي لا يكون معصوماً من فعل الفاحشة أو ظلم النفس؛ لأن الله لم يقل: وهم لا يفعلون الفواحش أو لا يظلمون أنفسهم، بل قال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ ففعل الفاحشة لا يخدش التقوى إذا استغفر الإنسان وتاب، وقد جاء في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»[1]، وصحَّ عنه أنه قال عليه الصلاة والسلام: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**»[2]. إذن ليس الشأن في أن لا يفعل الإنسان المعصية، كل إنسان لا بد أن يعصي، لكن الشأن في أنه إذا فعل المعصية رجع إلى الله.

٢ ـ أن الذنوب تنقسم إلى قسمين: فواحش ودونها؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، و(أو) هنا للتنويع، وهذا متفق عليه بين العلماء أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، ولكن ما هو الضابط للكبائر والصغائر؟ بعض العلماء يقول: إن

---

(١) رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥١). ورواه الدارمي، كتاب الرقاق، باب في التوبة، رقم (٢٧٢٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار والتوبة، رقم (٢٧٤٩).

الكبائر معدودة فجعل يعددها ويقول الكبيرة الأولى، الكبيرة الثانية، الكبيرة العاشرة، إلى أن انتهى إلى ما بلغه علمه من الكبائر. وبعضهم يقول: إن الكبائر محدودة وليست معدودة، ومعنى محدودة يعني معلقة بوصف لا بعدد، فقالوا مثلاً: ما فيه حدٌّ في الدنيا فهو كبيرة مثل الزنا والسرقة والقذف، كل ما فيه حد في الدنيا فهو كبيرة، وكل ما رتّب عليه اللعنة فهو كبيرة مثل: «**لعن الله من آوى محدثاً**»[١]. ومثل: «**لعن الله الراشي والمرتشي**»[٢] وما أشبهه، وكل ما رتب عليه غضب فهو كبيرة، مثل قوله تعالى في القاتل: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [النساء: ٩٣] وكل ما رتّب عليه وعيد في الآخرة بأن قيل: من فعل كذا فهو في النار أو ما أشبه ذلك، مثل: «**ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار**»[٣].

ورأيت لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: كل ما رتّب عليه عقوبة خاصة، دنيوية أو أخروية فهو كبيرة، وما جاء النهي عنه بدون ذكر عقوبة فهو صغيرة، فقال مثلاً: الغش من كبائر الذنوب؛ لأن الشارع جعل له عقوبة خاصة: «**من غشنا فليس منا**»[٤]. وإيذاء الجار من كبائر الذنوب؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**من**

---

(١) رواه مسلم، كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، رقم (١٩٨٧).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٧٤٧٧).

(٣) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب ما أسفل من الكعبين فهو في النار، رقم (٥٧٧٨).

(٤) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «ومن غشنا...»، رقم (١٠١).

كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره»[١]. وهذا الذي حدَّه رحمه الله يدخل فيه من الذنوب شيء كثير، ولكن لا شك أن ما قاله رحمه الله ليس معناه أن هذه الكبائر تكون على مرتبة واحدة بل حتى الكبائر فيها ما هو أكبر، وفيها ما هو أصغر، كما في الحديث الصحيح: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»**[٢]. وعلى هذا فنقول: الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، تؤخذ من الآية هذه. ثم إنَّ الكبائر تختلف مراتبها بحسب ما يترتب عليها من المفاسد والآثام.

٣ ـ سرعة انتباه هؤلاء عند فعل الذنوب؛ لقوله: ﴿إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيبادرون بالتوبة، والمبادرة بالتوبة من صفات المتقين وهل هي واجبة؟ الجواب: نعم، تجب المبادرة بالتوبة؛ لأن التوبة إذا نزل الأجل لا تقبل، والإنسان لا يدري متى ينزل أجله، وعلى هذا فيجب أن يتوب الإنسان من ذنوبه فوراً بدون تأخير.

٤ ـ أن ذكر الله عزّ وجل سبب للتوبة والرجوع إلى الله؛ لقوله: ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٥ ـ أنهم يبادرون بالتوبة وسبق استغفار هؤلاء المتقين لذنوبهم؛ لقوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ ويتفرع على هذه الفائدة عجز

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الوصاية بالنساء، رقم (٥١٨٦). ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت، رقم (٤٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، رقم (٢٦٥٤). ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الكبائر وأكبرها، رقم (٨٧).

أولئك القوم الذين يقولون: إن الله غفور رحيم ولا يستغفرون الله، فإن بعض المذنبين إذا نهيته عن الذنب قال: الله غفور رحيم ولكن هو نفسه لا يستغفر، وإذا كان هؤلاء السادة يستغفرون ربهم بل إذا كان الله أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يستغفر فما بالك بمن دونهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥] ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦].

٦ ـ أنه لا أحد يستطيع أن يغفر الذنوب إلا الله؛ لقوله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ويتفرع عليها أن لا تعتمد على أحد في مغفرة الذنوب أو طلب المغفرة، وإنما يكون اتجاهك إلى الله عزّ وجل.

٧ ـ أن هؤلاء السادة المتقين لا يصرون على ما فعلوا من الفاحشة أو ظلم النفس وهم يعلمون.

٨ ـ أن الرجل إذا أذنب فاستغفر ثم أذنب فاستغفر ثم أذنب فاستغفر، فإنه يغفر له وإن تكرر الذنب منه؛ لأن الله قال هنا: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ولم يقل: (ولم يعيدوا ما فعلوا)، والإنسان إذا كان كلما أذنب استغفر فإنه يغفر له؛ لقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] ويجب أن لا يكون استغفاره بلسانه، وقلبُه منطوٍ على الرجوع، فإن كان كذلك فإن هذا الاستغفار لا يفيده، لكن يكون استغفاره حقيقة بقلبه ولسانه، والإنسان بشر ربما تغلبه نفسه في المستقبل فيفعل المعصية مع أنه قد استغفر منها فنقول: مهما عملت ومهما تكرر منك الذنب ما دمت تستغفر فإن الله تعالى يغفر لك.

٩ ـ توبيخ من أصرَّ على الذنب وهو عالم به؛ لقوله: ﴿وَلَمْ

يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا قال العلماء: إن الإصرار على المعصية الصغيرة يجعلها كبيرة؛ لأن إصراره عليها يدل على تهاونه بمَنْ عصاه.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦]:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: هنا إشارة وخطاب، الإشارة مأخوذة من قوله «أولاء»، والخطاب من «الكاف» في قوله: «أولئك»، ويجب أن نعلم من حيث اللغة العربية أن اسم الإشارة يكون بحسب المشار إليه، وأما كاف الخطاب فبحسب المخاطب، ثم إذا كانت بحسب المخاطب فهل تبقى مفردة مفتوحة مبنية على الفتح، أو تكون بحسب المخاطب تذكيراً وتأنيثاً وتثنية وجمعاً وإفراداً، أو تكون بالفتح للمذكر مطلقاً ولو جمعاً أو مثنى، وبالكسر للمؤنث مطلقاً ولو جمعاً أو مثنى؟ في هذا ثلاث لغات للعرب:

اللغة الأولى: أنها لازمة للفتح باعتبار أن المخاطب اسم جنس، فإذا قلت: (ذلك) تخاطب اثنين فالمعنى أنك تخاطبهما باعتبار جنس الذكور أو باعتبار جنس الشخص.

اللغة الثانية: أنها بالفتح للمذكر مطلقاً، وبالكسر للمؤنث مطلقاً. ومعنى الإطلاق أي في حالة التثنية والجمع والإفراد.

اللغة الثالثة: هي الأفصح أنها بحسب المخاطب مطلقاً، فإذا كان مفرداً مذكراً فهي بالفتح مفردة. وإذا كان مثنى فهي بالتثنية، وإذا كان جماعة ذكور فهي تقترن بالميم، وإذا كان جماعة إناث فهي تقترن بالنون، قالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ [يوسف: ٣٢]

لأنها تخاطب جماعة نسوة، وقال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٣٧] لأنه يخاطب اثنين، وقال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] لأنه يخاطب جماعة ذكور، هذا هو الأفصح، فهنا يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم﴾ الخطاب لواحد يعني أولئك أيها المخاطب، والإشارة لجمع يعني أولئك المتقون أيها المخاطب.

﴿جَزَآؤُهُم﴾ أي ثوابهم ومكافأتهم على عملهم مغفرة من ربهم يكون بها النجاة من النار ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ يكون بها حصول المطلوب في جنات النعيم.

﴿مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي عفو وتجاوز عن الذنوب وستر عن الخلق.

﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ جنات جمع؛ لأن الجنة درجات كثيرة ومنازل متنوعة يختلف الناس فيها بحسب أعمالهم، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن أهل الجنة يتراءون الغرف كما نتراءى الكوكب الدري الغابر في الأفق، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم؟ قال: «**بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**»[1]. فهذه منازلهم، نسألك اللهم من فضلك، اللهم اجعلنا منهم.

هذه المنازل يختلف الناس فيها. أهل الجنة يتراءونها مثل ما نرى الكوكب الدري المضيء الغابر في الأفق بعيداً جدًّا، ليس فوق

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٥٦). ورواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب، رقم (٢٨٣١).

مسافة الرؤوس بل هو بعيد، فهي درجات، ولهذا تجمع، وأعلى ما فيها الفردوس؛ لأن فوقه عرش الله جل جلاله، وهو وسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة، ووصفها الله بأنها جنات لأن فيها من أنواع النعيم ما لا يخطر على البال، فهي دار لا يمكن أن يدرك الإنسان كنهها وحقيقتها؛ لأنها أعظم من أن تدركها مخيلتنا، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وقال تعالى في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»(١).

وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

﴿مِن تَحْتِهَا﴾ قال العلماء: أي من تحت قصورها وأشجارها لا من تحت أرضها؛ لأنه لو كان من تحت أرضها لكانت في الأسفل في قعر، ولكنها تمشي على سطح أرض الجنة تحت القصور والأشجار، وقد ورد في الأثر أن هذه الأنهار تجري بلا أخدود وبلا حفر(٢). وفي ذلك يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في النونية:

أنهارها في غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان

تجري على الأرض بدون أن يكون لها أخدود يعني سواقٍ أو حفر، ومع هذا تجري حيث أراد الإنسان.

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٤٤). ورواه مسلم، كتاب صفة الجنة ونعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يُرى الكوكب، رقم (٢٨٢٤).

(٢) رواه الطبراني (١/ ٣٨٤ رقم ٥٠٩ ـ ٥١٠ ـ ٥١١) في تفسيره عن مسروق، ورجاله ثقات.

وقوله: ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جمع نهر، وقد بيَّن الله تعالى في سورة محمد أنها أربعة أنواع: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]. ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ يعني لا يقبل أن يكون آسناً بخلاف ماء الدنيا فإنه يكون آسناً أي متغيراً، فإنه إذا تأخر وأبطأ تغير، أما ماء الجنة فلا يتغير ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ بخلاف ألبان الدنيا فإنها تتغير إذا زادت عن المدة تغيرت وفسدت. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لذة ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧] لا توجع الرأس، ولا تغتال العقول، وأشد ما يكون من اللذة. الرابعة ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أنهار من العسل ليس من عسل النحل الذي يكون نصفها أو أكثر شمعاً ولكنه من عسل مصفى.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: أي ماكثين فيها مكثاً طويلاً، وقد جاءت آيات أخرى تدل على أن هذا الخلود خلود تأبيد، وقد أجمع علماء أهل السنة على أنها ـ أي الجنة ـ مؤبدة بما فيها من النعيم.

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾: الجملة هنا إنشائية للمدح والثناء. الثناء على هذا الأجر العظيم و﴿أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي ثوابهم، وجعله ذو الفضل والإحسان أجراً ليكون الإنسان مطمئناً على الحصول عليه إذا قدَّم العوض وإلا فالمنة لله عزّ وجل أولاً وآخراً، لكن يمنّ علينا والحمد لله بالعمل ثم يمنُّ علينا ثانياً بالجزاء، ويقول: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمٰن: ٦٠] كأننا نحن محسنون استقلالاً وابتداءً، فإذا أحسنّا فجزاؤنا أن يحسن إلينا

مع أنه سبحانه وتعالى هو الذي أحسن إلينا أولاً وآخراً، كذلك يقول جل وعلا: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢] سبحان الله، يمنّ علينا بالسعي ويوفقنا له ويعيننا عليه ثم يشكرنا عليه، هذا والله هو غاية الفضل والإحسان فله الحمد والشكر. ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ الذين يعملون لهذا الأجر العظيم، وقوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ نقول في إعرابها: إن ﴿أَجْرُ﴾ فاعل، والمخصوص محذوف تقديره: (نعم أجر العاملين هو) أو الجنة كما قال الشاعر:

نعمت جزاء المتقين الجنة فيها الأماني والمُنا والمِنَّة

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان جزاء المتقين وأنه جزاء لا يدركه الإنسان بتصوره؛ لأنه أعظم مما يتصور.

٢ ـ أن جزاءهم متضمن لحصول المطلوب ودرء المكروه، يؤخذ من قوله (المغفرة) (وجنة) فبالمغفرة درء المكروه، وبالجنة حصول المطلوب.

٣ ـ أن مغفرة الله عزّ وجل للمرء من أعظم الثواب، فلا تغفل أن تكثر من سؤال المغفرة، كان النبي ﷺ حينما نزلت عليه سورة النصر يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي**»[(١)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب التسبيح والدعاء في السجود، رقم (٨١٧). ورواه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٤).

٤ ـ بيان حال الجنات التي وعدها المتقون وما يصوره قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ من النعيم العظيم.

٥ ـ أن أهل الجنة خالدون فيها؛ لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وقد دلَّت النصوص على أن هذا التخليد أبدي.

٦ ـ عظم هذا الأجر؛ لأن العظيم إذا أثنى على شيء دلَّ على عظمه، والله سبحانه وتعالى هو العظيم جل وعلا وقد أثنى على هذا النعيم.

٧ ـ بيان فضل الله عزّ وجل على عباده حيث جعل هذا الجزاء أجراً بمنزلة الأجر المحتم الذي لا بد من أن يناله العبد.

فإذا قال قائل: كيف نجمع بين هذه الآية وبين قوله ﷺ: «**لن يُدخل أحداً عمله الجنة**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **لا، ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة...**»[1]، وظاهر الآية التي معنا أن هذه الجنة التي أعدت لهم هي أجرٌ وعوض على ما قاموا به من العمل؟

والجواب عن هذا أن نقول: إن قول الرسول ﷺ: «**لن يدخل الجنة أحد بعمله**» أي على سبيل المكافأة أي أن الجزاء يكافئ العمل ويكون عوضاً عنه، وأما على أنه سبب من الأسباب ولكن الله بفضله جعله بمنزلة العوض فهذا ثابت، فأعمالنا سبب ولو قوبلت بنعم الله لم تكن شيئاً. لو أنك جمعت نعم الله عليك وقارنت بينها وبين عملك لكان العمل ضئيلاً جداً ولا يساوي شيئاً. لو أصيب الإنسان بضيق في نَفَسه لكان يبذل لك ما يملك من أجل زوال هذه

---

(١) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣). ورواه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله، رقم (٢٨١٦).

المحنة، كذلك البول، الغائط، السمع، البصر إلى غير ذلك، نعمٌ كثيرة لا يقابلها العمل، وقد قال بعض الشعراء:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة عليَّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله وإن طالت الأيام واتصل العمر(١)

فإذا وفقت للشكر وشكرت الله فهي نعمة؛ لأن الله قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وما أكثر الذين كفروا نعمة الله، ثم إذا شكرت الله قلنا إنها نعمة تحتاج أيضاً إلى شكر آخر، فإذا وفقت لشكر الشكر فهو نعمة ثالثة تحتاج إلى شكر وهلم جرا، ولهذا قال:

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله وإن طالت الأيام واتصل العُمْرُ

والمصرُّ هو الذي يبقى على الذنب وكأنه ليس بذنب، أما الإنسان الذي يتوب ثم تغلبه نفسه في المستقبل ويفعل المعصية فهذا ليس مصرًّا، ولهذا ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام: «**أن رجلاً أذنب فاستغفر الله، ثم أذنب فاستغفر الله، ثم أذنب فاستغفر، ثم أذنب فاستغفر، فقال الله تعالى: علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء**»(٢). فكون الإنسان كلما أذنب استغفر، وكلما استغفر عاد فأذنب لا يبطل توبته الأولى.

وهل إذا تاب من ذنب وهو مصرٌّ على آخر تقبل توبته من هذا الذنب أو لا؟

---

(١) البيتان للشاعر محمود الوراق. انظر: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر (١/ ٢٣٢)، وكتاب المستظرف (١/ ٥٠٣)، وكتاب تاريخ دمشق (٥/ ١٩٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ...﴾، رقم (٧٥٠٧). ورواه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم (٢٧٥٨).

ذكرنا أن في هذا خلافاً للعلماء رحمهم الله، فمنهم من قال: لا تقبل، ومنهم من قال: تقبل مطلقاً، ومنهم من قال: إن كان الذنب الذي هو مصرٌّ عليه من جنس الذنب الذي تاب منه فإنها لا تقبل، وإن كان من غير جنسه قبلت، فمثلاً إذا تاب من غش الناس في البيع لكن غشَّهم في الإيجار لم تقبل توبته؛ لأن هذين الذنبين من جنس واحد وإن اختلف محل الغش، والصحيح أنها تقبل إذا تاب من ذنب ولو أصرَّ على مثله أو على جنسه، ولكنه لا يستحق الوصف المطلق في مدح التوابين يعني لا يدخل في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] إنما يقال: هذه توبة مقيدة.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]:

قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ جملة محققة (بقد) لأن ﴿قَدْ﴾ إذا دخلت على الفعل الماضي تفيد التحقيق، وإذا دخلت على الفعل المضارع تفيد التقليل، وقد تفيد التحقيق بالقرائن، فقول القائل: قد يجود البخيل، هذه للتقليل. وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٨] هذه تفيد التحقيق. أما إذا دخلت على الماضي فإنها تكون للتحقيق كقول المقيم: قد قامت الصلاة.

﴿قَدْ خَلَتْ﴾: أي مضت.

﴿مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾: الخطاب لهذه الأمة، والسنن جمع سنة وهي الطريقة، والمراد بها سنن الله عزّ وجل في المكذبين حيث يأخذهم ويدمرهم كما قال تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟

كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]. قال: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني أهلكهم وأبادهم ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ من هذه الأمة. إذن سنن جمع سنة وهي الطريقة، والمراد بها طريق الله تعالى في المكذبين للرسل حيث تكون عاقبتهم الهلاك والدمار.

وقوله: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الفاء هنا للترتيب وهي عاطفة، عطف جملة على جملة. ﴿فَسِيرُواْ﴾ فعل أمر من السير وهو المشي، والمراد به هنا سير القلوب وسير الأقدام، أما سير القلوب فهو بالتفكير، أن يتفكر الإنسان في الأمم السابقة عليه زمناً، وكذلك يتفكر في الأمم السابقة عليه مكاناً كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] فالإنسان يسير بقلبه ويسير بقدمه، أما سيره بقلبه فهو أن يتفكر في عاقبة من مضى زمناً وفي عاقبة من مضى مكاناً، فمثلاً ديار ثمود موجودة الآن يفكر الإنسان فيها زمناً أو مكاناً، فينظر كيف كان عاقبتهم، والسير بالقدم قد يكون أشد وقعاً من السير بالقلب؛ لأن الإنسان يصل به إلى حق اليقين، والمشاهدة بالعين والسير بالقلب أعم وأشمل؛ لأن الإنسان يصل به إلى ما لا يمكنه الوصول إليه بالسير قدماً.

وقوله: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: (في) ظرفية ولكنها عند المفسرين هنا بمعنى (على) أي سيروا على الأرض؛ لأن السير في جوف الأرض غير ممكن وغير مفيد أيضاً، وإنما يفيد السير على ظهر الأرض.

وقوله: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض من سبق فـ (أل) هنا للعهد

المفهوم من قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾: أي سيروا في أرضهم وانظروا كيف كانت عاقبتهم.

وقوله: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: انظروا بعين البصر وبعين البصيرة جميعاً، فإن وصل إلى مكان هؤلاء الأمم فالنظر يكون بعين البصر وبعين البصيرة، وإن لم يصل ولكنه فكَّر بقلبه فالنظر يكون بعين البصيرة؛ لأن البصر لا يمكن أن يصل إليه وهو ينظر في قلبه.

«وانظروا»: فعل أمر، وهي تنصب المفعول به لكنها عُلِّقت عن العمل لأنه وليها جملة استفهامية، والجملة الاستفهامية إذا وليت الفعل المتعدي علقته عن العمل. وعلى هذا تكون الجملة في قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ في محل نصب مفعول (انظروا)، أما إعراب ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ تفصيلاً:

﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب خبر (كان) مقدماً، وتقديمه هنا واجب؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام، فإذا وقع خبراً وجب تقديمه، و﴿عَٰقِبَةُ﴾ اسمها و﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ معروف أنه مضاف إليه.

﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي مآل أمرهم، وعاقبة الشيء ما يعقبه ويعود إليه الشيء. و﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ هنا المراد بهم: المكذبين لله ورسله فماذا كان عاقبتهم؟ كان عاقبتهم الهلاك والدمار، وعقوبتهم على حسب ذنوبهم كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٠] الذين أرسل الله عليهم حاصباً مثل قوم لوط ﴿إِنَّآ

أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤] ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ كثمود قوم صالح. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كقارون. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كفرعون وقوم نوح، أغرقهم الله عزّ وجل حسبما تقتضيه الحكمة.

والعقول قاصرة غالباً عن معرفة تناسب العقوبة والعمل. وأقول غالباً، لأنها أحياناً قد تعرف المناسبة، فمثلاً: نحن نعرف مناسبة إهلاك عاد بالريح، وهي أنهم كانوا يقولون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فأراد الله عزّ وجل أن يريهم أنه يهلكهم بما هو من ألطف الأشياء وهو الريح (الهواء)، الهواء لطيف ومع ذلك دمَّر الله به هذه الأمة التي تفخر بقوتها.

في آل فرعون؛ كان فرعون يعتز بالأنهار التي تجري من تحته، ويقول لقومه: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢]، فأهلكه الله عزّ وجل بجنس ما افتخر به وهو الماء.

وأما الباقي فلا أستطيع أن أحدد التناسب بين العمل وبين العقوبة، لكن قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠] يدل على أن العقوبة تناسب العمل، ومن الأمثال المشهورة عند الناس: (كما تدين تدان)[1].

---

(١) انظر: «مجمع الأمثال» (٣٠٩٣) لأبي الفضل الميداني، ط. دار المعرفة، بيروت. ت. محمد محيي الدين عبد الحميد.

«أي: كما تجازي تجازى. أي: تجازَى بفعلك، وبحسب ما عملت، وقيل: كما تَفْعل يُفعل بك». لسان العرب (١٣/ ١٦٩) ط. دار صادر بيروت. =

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الله سبحانه قد أهلك أمماً قبل هذه الأمة؛ لقوله سبحانه ﴿سُنَنٌ﴾ وسنن جمع كثرة لا جمع قلة.

قال ابن مالك رحمه الله:

أَفْعِلَةٌ أَفْعُلُ ثم فِعْلَةٌ ثُمَّتَ أَفْعَالٌ جموعُ قِلَّة

يعني أنَّ جمع القلة محصور بهذه الأوزان الأربعة فقط: أفعِلة، أفعل، ثم فِعلة، ثمت أفعال، جموع قلة.

٢ ـ تسلية هذه الأمة من وجه، وتحذيرها من وجه آخر.

تسليتها بأن الله سبحانه وتعالىٰ قد عاقب من قبلها، فعقوبته لها في غزوة أُحُد من سنن الله عزّ وجل؛ لأنه لا شك أن ما حصل في أُحد عقوبة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وفيها أيضاً تحذير من جهة أخرى من عقوبة أشد؛ لأن الأمم السابقة أهلكوا ودمروا عن آخرهم.

٣ ـ إثبات القياس؛ لأن المقصود بقوله: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ النظر والاعتبار، وأن يقاس ما حضر على ما مضى وسلف.

٤ ـ الأمر بالسير في الأرض، ولكن هل هو على إطلاقه أو من أجل الاعتبار فقط؟

لننظر ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾ إذن السير في الأرض

= وهو لفظ حديث، رواه البيهقي، في «الأسماء والصفات»، رقم (٧٩).
وذكره العلامة الألباني، في سلسلة الأحاديث الضعيفة، رقم (١٥٧٦).

لغير غرض شرعي مذموم، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[١] وغيره من أهل العلم؛ لأن السير في الأرض من غير غرض شرعي فيه إتعاب للنفس، وتعريضها للهلاك، وإضاعة المال، وإضاعة الوقت، أما إذا كان لغرض شرعي فهو على حسب هذا الغرض.

وعلى هذا فإن السير في الأرض ينقسم إلى أقسام:

قسم لأغراض محرمة، وهذا لا شك في تحريمه. وقسم آخر لأغراض مشروعة مطلوبة، وهذا لا شك في طلبه. وقسم ثالث لمجرد الفرجة والنزهة، وهذا ينظر فيه، فالأصل فيه الإباحة، ولكن إن توصل به الإنسان إلى محرم كان حراماً، وإن توصل به إلى مشروع كان مشروعاً.

فمثال الأول وهو السير في الأرض من أجل الحرام: ما يفعله بعض الناس المترفون الذين يسيحون في أرض الكفر وأرض المجون من أجل أن يحصلوا على مآربهم التي لا يستطيعون الحصول عليها في بلادهم، وهذا لا شك أنه حرام، فالسفر لهذا الغرض حرام، ونفس هذا الغرض حرام، وإضاعة المال حرام، فهو حرام مركب، ظلمات بعضها فوق بعض، والعياذ بالله.

ومثال الثاني الذي يكون لغرض مشروع: السير في الأرض لطلب الرزق الواجب، كإنسان ليس عنده ما يقوته وأهله، فسار في الأرض من أجل الحصول على الرزق، وكذلك أيضاً السير في الأرض لطلب العلم، وقد كان السلف رحمهم الله يسيرون في الأرض لطلب العلم مسيرة شهر من أجل مسألة واحدة، يرحلون

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٣٢٧).

ارتحالاً في الأرض من أجل مسألة واحدة، والسفر في ذلك الوقت ليس كالسفر في وقتنا هذا، كان فيه مشقة، وفيه أخطار كبيرة.

أما السفر لا لهذا ولا لهذا مثل سفر بعض الناس للاستجمام والنزهة في أيام الإجازة ـ إجازة الأعياد وما أشبهها ـ وهذا نقول: ليس فيه بأس في الأصل، لكن قد يكون مفضياً إلى خير فيكون خيراً، كما لو كان في هذا السير صلة رحم، أو بر الوالدين أو ما أشبه ذلك، فإنه يكون في هذا الحال أمراً مطلوباً.

وهنا مسألة: وهي إذا سار في الأرض لأمر شرعي كالعلاج لكن صاحبه أمر محرم فهل يمنع من هذا السير؟

الجواب: أنه إذا كان لا يمكن أن يسير للعلاج إلا بارتكاب هذا المحرم صار هذا حراماً، وذلك لأن العلاج بالمحرم حرام؛ لأن ارتكاب المحرم ضرر محقق، والشفاء من المرض مصلحة متوقعة غير متيقنة، ولولا هذا لقلنا: إن من احتاج إلى أكل لحم الخنزير للعلاج جاز له أن يأكله مع أنه لا يجوز، وهذا هو الفرق بين جواز أكل لحم الخنزير للجوع، وأكل لحم الخنزير للاستشفاء. الثاني حرام، والأول جائز؛ لأن أكل اللحم عند الجوع يفيد قطعاً، فإنه يدفع الجوع، ويسد رمق الإنسان، لكن علاجه بالمحرم قد ينجع وقد لا ينجع، فهو يرتكب مفسدة محققة لتوقع مصلحة موهومة، وإن شئت فقل راجحة أيضاً، لكن ليس الراجح كالمتيقن، ولهذا جاء في الأثر من قول ابن مسعود: «إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم»[1].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأشربة، باب شراب الحلواء والعسل.

السير في الأرض التي أُهلك أهلها هل هو من الأمور المطلوبة؟

نقول: نعم، إذا كان المقصود بهذا الاتعاظ، أما إذا كان المقصود بهذا التفرج على قوة القوم، وما أشبه ذلك، فإنه لا يجوز؛ لأن النبي ﷺ لما مرَّ بديار ثمود في ذهابه إلى تبوك مرَّ مسرعاً مقنعاً رأسه عليه الصلاة والسلام خائفاً، وقال عليه الصلاة والسلام: «**لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلَّا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم**»[1]. وهذا خلاف ما يفعله بعض الناس الذين ماتت قلوبهم، يذهبون إلى ديار ثمود من أجل الاطلاع على مآثرهم وآثارهم وقدرتهم، فهذا لا شك أنه حرام؛ لأن الرسول ﷺ نهى عنه، فقال: «**لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم**».

٥ ـ أن عاقبة المكذب لله ورسله وخيمة؛ لقوله: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]:

﴿هَٰذَا﴾ المشار إليه هل هو القرآن أو ما ذكر من قوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣] إلى آخر الآية؟

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، رقم (٤٧٠٢). ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، رقم (٢٩٨٠).

في هذا قولان للمفسرين:

أ - فمنهم من قال: إنه عائد إلى القرآن، لجريان ذلك كثيراً في كتاب الله، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] وما أشبه ذلك من الآيات التي فيها الإشارة التي تعود إلى القرآن نفسه. فتكون (هذا) أي القرآن بياناً للناس.

ب - ومنهم من قال: إنه عائد إلى أقرب ما ذكر؛ لأن اسم الإشارة والضمير كلاهما يعودان على أقرب مذكور، ولكن الأول أولى أن يكون عائداً إلى القرآن كله، ومنه هذه الآية؛ لأن هذه الآية من القرآن، فإذا جعلنا ﴿هَٰذَا﴾ يعود على القرآن كله صار من ضمنه ما ذكر في قوله: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقوله: ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾. ﴿بَيَانٌ﴾ اسم مصدر، بيَّن، يبيِّن تبييناً، مثل بدَّل يبدّل تبديلاً ومثل: كلَّم يكلِّم تكليماً، واسم المصدر: كلام.

وقوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ﴾ إذا قلنا إنه اسم مصدر فقد عبَّر باسم المصدر الذي هو البيان عن الموصوف بالبيان. وهذا من باب المبالغة أن يجعل الموصوف هو الصفة نفسها، كأننا سلبنا اتصافه بها حتى جعلناه هو نفس الصفة، ولهذا يقولون: إن قول القائل (فلان عدل) أبلغ من قولهم: (فلان ذو عدل) كأنه جعل هذا الموصوف هو الصفة. إذن القرآن ليس فيه البيان، بل هو نفسه البيان ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾.

كيف كان القرآن وهو عربي بياناً للناس كلهم وفيهم العجم الذين لا يعرفون لغة العرب؟

نقول: لأن هؤلاء سيقيض لهم من يبلغهم إياه، ولهذا كثير من علماء المسلمين الآن الذين لهم قدم صدق في العلم والدين، كثير منهم عجم. وإن شئتم فاعجبوا! إن مرجع أكثر الناس في اللغة العربية الآن كتاب «القاموس المحيط» الذي ألفه أعجمي: الفيروزآبادي رحمه الله. وفي النحو مَن إمام البصريين؟ سيبويه رحمه الله.

فالحاصل: أن العجم ـ والحمد لله ـ بلغهم القرآن بواسطة، وليس لازماً أن يأخذوه بأنفسهم، وبعضهم تَعَرَّب وصار لسانه عربياً.

كل الناس، كل من قرأ القرآن تبيّن له ما دلَّ عليه القرآن، ولكن هل كل من بان له ذلك يهتدي؟

الجواب: لا. ولهذا قال: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، هدى بمعنى دلالة يستدل بها المتقي. وموعظة بمعنى امتثال؛ لأن الموعظة هي تليين القلوب بذكر ما يخاف منه، أو ذكر ما يرغب فيه، فهو هدى يعني دلالة، وموعظة يعني امتثالاً.

فوصف الله القرآن بثلاثة أوصاف، وصف عام، ووصفان خاصان، الوصف العام هو (بيان للناس)، والخاصان (هدى) (وموعظة). فإنه لا يهتدي به إلا المتقون، ولا يتعظ به إلا المتقون. أما مَن ليس كذلك فهو عليهم عمى والعياذ بالله، ولا يزدادون به اتعاظاً، بل يقول الله عزّ وجل: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي نجاسة إلى نجاستهم، ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥].

فسبحان الله، كلام واحد يكون له هذا التأثير المتباين؛ في

قوم هدى وموعظة، وعلى قوم عمَى ورجس؛ لأن القلوب بمنزلة الأراضي، الأراضي منها أرضٌ طيبة تقبل الماء، وتنبت الكلأ، وينتفع بها الناس، ومنها أرض صلبة، لا تشرب الماء، ولكن تحفظ الماء، فينتفع به الناس، ومنها أرض سَبِخَة قِيعَان، تشرب الماء ولكنها لا تنبت، فيزيدها الماء ضرراً؛ لأنها إذا كانت يابسة أمكن السير عليها، وإذا كانت رطبة لا يمكن السير عليها، تكون زلقاً وحراً، ومع ذلك لا ينتفع بها الناس، لا بماء تحبسه، ولا بنبات تخرجه، فهكذا القرآن بالنسبة للناس؛ منهم من ينتفع به ويزداد هدى وتقوى، ومنهم من لا ينتفع به، بل لا يزداد إلا عمى وضلالة، لأنه كلما كذب بآية ازداد إثماً وعقوبة.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن القرآن بيان للناس في كل شيء، فهو عام من حيث التبيين، وعام من حيث المبيَّن له، المبيَّن له نأخذ العموم من قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾، والتبيين من كونه حذف المتعلق، وحذف المتعلق يدل على العموم ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ لكل شيء، ويؤيد هذا الآيات التي ذكرناها آنفاً كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

٢ ـ أن القرآن صالح لهداية المؤمن والكافر؛ لقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ فهو يشمل المؤمن والكافر.

٣ ـ أنه عِلْمٌ لكن للمتقين، يعني لا ينتفع به إلا المتقون؛ لقوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

٤ ـ أن من لم يتعظ بالقرآن فليتهم نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فإذا لم تتعظ بالقرآن فاتهم نفسك، فإن فيك

بلاء، كما أن من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليتهم نفسه، فإن صلاته قاصرة؛ لأن الذي أخبر بأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر هو الله عزّ وجل، وخبره صدق مطابق للواقع، فإذا علم الإنسان من واقع نفسه أن صلاته لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر فليتهم نفسه؛ لأن خبر الله لا يُتَّهم، ولهذا قال بعض السلف: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فإنها لا تزيده من الله إلا بُعداً ـ نسأل الله العافية ونسأل الله أن يعيننا ـ فإذا لم تتعظ فاتهم نفسك بأنك غير متقٍ؛ لأن المتقي لا بد بأن يتعظ بالقرآن.

٥ ـ فضيلة التقوى، وأنها سبب للاهتداء والاتعاظ بالقرآن.

٦ ـ أنه كلما ازداد الإنسان تقوى ازداد هدى وموعظة؛ لأن الحكم المعلق بوصف يقوى بقوّته، ويضعف بضعفه، فإذا كان الهدى والموعظة معلقاً بالتقوى فإنه لا بد أن يزداد ويقوى بالتقوى، ويضعف وينقص بعدم التقوى.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]

في هذه الآية نهي المؤمنين عن الوهن.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾:

(لا) ناهية، والفعل بعدها مجزوم بها بحذف النون (تهنوا) وأصله (تهنون) فحذفت النون من أجل الجزم.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾، الخطاب لهذه الأمة، وعلى رأسها نبينا محمد ﷺ وأصحابه، والوهن: الضعف؛ يعني لا تضعفوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ [النساء: ١٠٤]. أي: لا

تضعفوا وتجبنوا، ولا تحزنوا على ما أصابكم وأنتم الأعلون. فذكر الله سبحانه وتعالىٰ حال إقدامهم وحال إدبارهم، حال إقدامهم نهاهم عن الضعف، وهذا يعطيهم قوة وإقداماً، وحال إدبارهم نهاهم عن الحزن، وهذا يعطيهم إعراضاً عما وراءهم وعدم الالتفات إليه. ومعلوم أن الحزن يكون فيما يسوء، والحزن على ما مضى لا يفيد الإنسان، بل يفتر عزيمته، ويقلق راحته، ولا يستفيد منه بشيء، فلهذا نهاهم الله سبحانه وتعالىٰ عما يعوقهم حال الإقبال، وعما يعوقهم حال الإدبار.

(لا تهنوا) عما يكون سبباً لتوقفهم في حال الإدبار؛ لأن الإنسان إذا حزن على ما مضى بقي قلقاً لا يحسن التصرف فنهاهم عن هذا وهذا.

ثم قال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ وقد اختلف المفسرون في الواو هنا هل هي حالية أو استئنافية؟.

إذا قلنا: إنها حال يعنى: والحال أنكم أنتم الأعلون، صار هذا النهي منحطاً على الأمة ما دامت هي العليا؛ لأن الأعلى لا يليق به أن يضعف أو يحزن. يعني فإذا انخفضت فلها أن تهن، ولها أن تحزن؛ لأنها ضعيفة لا يمكنها أن تتقدم، ولا يمكنها أن تتسلى عما مضى، لأنها كيف تتسلى وبأي شيء؟

وإذا جعلنا (الواو) استئنافية ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ يقرر الله فيها علو المؤمنين، وإذا تقرر علوهم فإن حالهم تقتضي أن لا يهنوا ولا يحزنوا، فيصير فيها تشجيع للأمة بأن لا يضعفوا ولا يحزنوا، لأنهم هم الأعلون حتى لو أصيبوا بما يصابون به فيما تقتضيه حكمة الله بمداولة الأيام بين الناس فإن العاقبة لهم،

وعلى هذا فيكون هذا الوجه الثاني هو أقرب إلى الصواب، وإن كان الوجه الأول محتملاً.

والمعنيان متلازمان؛ لأن من اعتقد أنه الأعلى فسوف لا يجبن ولا يحزن، ومن كانت حاله العلو فإنه كذلك لن يضعف ولن يحزن.

وفي قوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ إشكال من جهة الإعراب؛ لأن المعروف أن واو جمع المذكر السالم يضم ما قبلها، فيقال: مسلمُون، ولا يقال مسلمَون وهنا قال: وأنتم الأعلَون، ولم يقل: وأنتم الأعلُون.

الأعلون مفردها الأعلى، حذف الألف لالتقاء الساكنين، الألف ساكنة، والواو ساكنة، وإذا حذفت الألف لالتقاء الساكنين، يجب أن تبقى الحركة التي قبلها وهي الفتحة على ما هي عليه؛ لأنك لو ضممتها لم يتبين أن هناك ألفاً محذوفة، فأبقيت الفتحة لتكون دالة على الألف المحذوفة.

والإنسان في الحقيقة بين زمن ماضٍ وزمن مستقبل، فإذا فاته الخير أو حصل له الشر في الزمن الماضي فحاله الحزن، يحزن على ما مضى، وإذا ضعف وجبن فاته من الخير في المستقبل بقدر ضعفه وجبنه، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾ يعني عن العمل في المستقبل، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما جرى عليكم في الماضي لأنكم أنتم الأعلون، ومن كان الأعلى فستكون العاقبة له.

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

هذا شرط للعلو؛ يعني أنتم الأعلون في حال كونكم

مؤمنين، والإيمان أخص من الإسلام؛ لأن الإسلام يقع من المنافق وضعيف الإيمان، والإيمان لا يكون إلا من كامل الإيمان، من المؤمن حقًّا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ الأعراب البادية ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ لماذا؟ قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، حتى الآن لم يدخل الإيمان في القلب، عندكم إسلام لكن ليس عندكم إيمان، إلا أن الإيمان قريب منكم؛ لأن قوله: (لما) حرف نفي يدل على قرب المنفي؛ يعني أن الإيمان قريب ما يدخل قلوبكم أما الآن فلا.

إذن هذه الأمة هي العليا بشرط الإيمان، أما إذا لم يكن لديها إيمان فليس لها عهد عند الله بالنصر؛ لأن العهد الموثق بين الله وبين عباده بالنصر، هو أن يكون النصر متبادلاً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، أما إذا لم يكن منا نصرٌ لله عزّ وجل فإن نصر الله قد يتخلف، يعني ليس بمضمون.

إذن ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. وعلامات الإيمان كثيرة، منها:

أن لا يخاف الإنسان في تنفيذ حكم الله أحداً من الخلق، فإن خاف أحداً من الخلق فليس بمؤمن، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] يخوّف أولياءه: يعني يخوفكم أولياءه، أي من أوليائه. ويوقع الخوف على أوليائه؟

ولهذا نقول: إن قوله (أولياءه) مفعول ثان لـ(يخوف)، والمفعول الأول محذوف، وتقدير الكلام (يخوفكم أولياءه) يعني يوقع الخوف في قلوبكم من أوليائه.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فماذا قالوا؟ قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فإذا خوَّف الشيطان أولياءه وهم الكفار، فإنه لا يجوز لنا أن نخافهم، بل نفعل ما أمرنا الله به.

غير أَنّ أمره سبحانه وتعالىٰ لنا بقتل الكفار إنما يكون حين نمتلك القوة التي نستطيع أن نقاتلهم بها، أما أن نقاتلهم بسلاح دون سلاحهم، وأقل من سلاحهم بكثير فإن هذا يعتبر تهوراً، ولهذا لم يؤمر المؤمنون بالجهاد إلا حين صار لهم شوكة وقوة، فأما إذا لم يكن فلا، لكن هذا يستلزم أنه يجب علينا أن نتسلح لقتالهم حتى يكون الدين لله جل وعلا.

والخطاب هنا في إيجاب التسلح لولاة الأمر لا للأفراد؛ لأن أفراد الناس لا يستطيعون القيام بهذا، ويجب على ولاة الأمور من المسلمين أن يكوِّنوا جيشاً عرمرماً مسلحاً بأحدث الأسلحة من أجل أن يقاتل الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. لكن مع الأسف أننا اليوم فقدنا حتى السلاح الدعوي، حتى الدعوة لدين الإسلام، لا نجد أحداً يدعو كما ينبغي، بينما نجد النصارى على قدم وساق في الدعوة إلى ما هم عليه من الباطل،

يبذلون الأموال الكثيرة ويغامرون بأنفسهم في المجاهل، في الطرقات، في البراري، يحمل القسيس منهم كسرة خبز وجرة ماء، ويضرب الفلاوات من أجل أن يدعو واحداً من المسلمين إلى أن يكون نصرانياً، أما نحن مع الأسف الشديد فإننا لا نحمل هذه القوة المعنوية في نفوسنا، مع أننا نحن إذا دعونا فإنا ندعو إلى الحق، فإن ديننا ـ ولله الحمد ـ إذا عُرِضَ عرضاً صحيحاً في الدعوة، وعرضاً صحيحاً في التطبيق، فإن ذلك كفيل بأن يدخل الناس في دين الله أفواجاً.

أما إذا كنا ندعو إلى الصدق مثلاً ونحن من أكذب عباد الله، أو ندعو إلى الوفاء بالعهد ونحن من أغدر الناس، أو ندعو إلى حفظ الأمانة ونحن من أخون الناس. فهذا ليس بصحيح، بل هو تلاعب.

إذا كان ديننا ينهىٰ عن الربا ومنا من يرابي، كيف تكون الدعوة؟! أين الدعوة؟!

إذا لم تمثل الدعوة بحال الداعي تطبيقاً تاماً بقدر المستطاع، فإنه سينقص من قبول الناس بقدر ما نقص من تطبيقه، ولهذا نقول: إن الله شرط فقال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وصدق الله ورسوله.

هل الأمة الإسلامية اليوم هي العليا؟

الجواب: لا؛ لأن الإيمان ناقص، وشرط أن تكون الأمة عليا هو الإيمان، فإذا لم يوجد الإيمان فسنتأخر، وسيكون من سوانا ممن لديه قوة مادية هو الأعلى.

إن الإنسان إذا كان عنده الإيمان، وفعل ما يجب عليه من

الاستعداد المادي، كما فعل الرسول وأصحابه عليه الصلاة والسلام، فسينصرون على عدوهم بقوة لا طاقة لعدوهم بها، لكن بشرط أن يبذلوا الجهد بالسلاحين: سلاح الإيمان، والسلاح المادي بقدر المستطاع. وإذا شئتم مثلاً على ذلك فانظروا إلى غزوة الخندق، اجتمع على رسول الله ﷺ وهو في المدينة عشرة آلاف مقاتل من مختلف العرب، وبأقوى السلاح، ومعهم القوة العظيمة التي لا تقابلها قوة المسلمين من حيث القوة المادية، ففعل المسلمون كلَّ ما يستطيعون من الدفاع عن أنفسهم إلى حد أنهم حفروا خندقاً، قاموا بالواجب ولكن مع ذلك حوصروا نحواً من شهر.

فما الذي حصل؟ أتى الله عزّ وجل بقوة لا قبل للكفار بها، ولا للمسلمين أيضاً، ليس لهم فيها حول، وهي الريح، ريح شديدة باردة وهي الريح الشرقية، التي قال عنها النبي ﷺ: «**نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور**»[1]، ريح شديدة باردة، وجنودٌ من الملائكة تلقي الرعب في قلوب هؤلاء، حتى رحلوا بين غروب شمس وشروقها. كانت الريح تكفئ قدورهم، وتهدم خيامهم، وتقلقهم إقلاقاً عظيماً، حتى إن أبا سفيان وكان قائد الجيش في ذلك الوقت، كان يتصلى على النار مع أن النار غير مستقرة من شدة الهواء، وكان حذيفة بن اليمان قريباً منه يقول: لو شئت لرميته بالسهم حتى يموت، ولكن النبي ﷺ قال: «**لا تحدث شيئاً**»، ولو كان من بعض شباب عصرنا لقال: هذا قد

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، رقم (٤١٠٥). ورواه مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور، رقم (٩٠٠).

أتى الله به ورماه، لكن منعه من ذلك امتثال أمر النبي عليه الصلاة والسلام الذي هو الحكمة، وإلا كان قتله سهلاً. فقال أبو سفيان: لينظر كل واحد منكم جليسه من هو؟ خاف أن يكون أحد من الناس من غير الجيش، يقول حذيفة: فأمسكت بيد رجل قريب مني قلت: من أنت؟ وهذا من ذكائه رضي الله عنه لئلا يسبقه أحد فيقول لحذيفة: من أنت[1]؟

وعلى كل حال فالمسلمون إذا بذلوا ما يستطيعون من القوة المعنوية وهي الإيمان، والقوى المادية وهي ما أمروا أن يعدوه للكفار، فإنهم سينصرون بقوة لا قبل لهؤلاء بها.

سمع رجل شخصاً يقرأ: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]، فقال له: هذه الأوصاف الأربع: أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، هذه الأوصاف كيف تقابل القنابل الذرية والهيدروجينية والكيميائية وغير ذلك؟

فماذا نجيب؟

نجيبه بخاتمة الآية ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]. فالذي يملك عواقب الأمور هو الله عزّ وجل، ولهذا قدّم الخبر ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾، إذا كان الذي يملك عاقبة الأمور هو الله

---

(١) رواه أحمد في مسنده، رقم (٢٢٨٢٣).

فما أيسر هذه الأسلحة على الله عزّ وجل. فإن الله تعالى قادر أن يزلزل أرضهم بهم وبسلاحهم رجفة تفنيهم عن آخرهم، من فيضانات تدمرهم، ورياح تحملهم مثل ما حملت قوم هود. فيجب على الإنسان أن يعلم أنه إذا بذل ما يجب بذله من الإيمان والقوة المادية حسب ما أُمر، فإنه سينتصر مهما كان. لكن مع الأسف فاليقين عندنا ضعيف، بل الإيمان ضعيف، فقد فَقَدْنا الإيمان والعمل الصالح والحكمة، فتأخرنا كل هذا التأخر.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ ينهى الله سبحانه وتعالىٰ عباده المؤمنين عن الوهن عن العمل في المستقبل، وعن الحزن على ما مضى؛ لأن هذا في الحقيقة كما أنه خلاف الشرع فهو خلاف العقل؛ لأن الحزن على ما فات لا يرد الفائت.

لو تحزن ليلاً ونهاراً على ما مضى لن تغير شيئاً، الذي مضى وقع كما هو لن يتغير، ولهذا كان من الحزم أن لا يحزن الإنسان على شيء مضى، بل يقول: قَدَرُ الله، وما شاء فعل.

كذلك الضعف عن العمل في المستقبل والوهن والخور كما أنه خلاف الشرع فهو خلاف العقل؛ لأن العقل يقتضي أن تقابل الأمور بجدٍّ وحزم، وفي الحديث: «**الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**»[1].

٢ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يكون قوي العزيمة لا يضعف ولا

---

(١) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم (٢٤٥٩). ورواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم (٤٢٦٠). ورواه أحمد في مسنده، رقم (١٦٦٧٤).

يجبن، وكم من إنسان ضعف وجبن ففاته خير كثير، ولو أقدم لحصل على خير كثير؛ لأن المستقبل لا تدري ما النتيجة فيه.

٣ ـ أن هذه الأمة هي العليا بشرط أن تؤمن؛ لقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٤ ـ التلميح بالتوبيخ إذا حصل الوهن أو الحزن لا سيما إذا قلنا: إنَّ الواو هنا واو الحال؛ يعني: كيف يليق بكم أن تهنوا وتحزنوا وأنتم الأعلون؟ لأن الأعلى لا يليق به أن يهن أو يحزن.

٥ ـ أنه كلما ازداد إيمان الأمة ازدادت علوًّا؛ لأنه رتَّب العلو على الإيمان، والمرتب على شيء يزيد بزيادته وينقص بنقصه، وهذه الآية قريب منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] ليظهره يعني: يبينه ويعليه، ومنه قولهم: (ظهر على الجبل) يعني علا عليه، ومنه ظَهْرُ الحيوان وهو أعلى الحيوان.

إذن ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] يعليه، فإذا أردت أن تعلو على البشر فخذ بهذا الدين؛ لأن هذا الدين لا بد أن يكون هو الدين العالي على كل شيء.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال تعالى مسلياً الصحابة رضي الله عنهم بقوله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]:

إن يمسسكم (قَرحٌ) وفي قراءة (قُرْحٌ) في الموضعين ﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ فقيل: معناهما واحد، وأن القَرْح والقُرْح

هو الجرح، وقيل: إن القُرْح الجرح، والقَرْح ألم الجرح، والقولان إن قلنا باختلافهما متلازمان؛ لأن القَرْح من لازم الجرح الذي هو القُرح، فالإنسان المقروح لا بد أن يكون متألماً.

يعني: إن يمسسكم جراح وألم فقد مسَّ القوم قرح مثله يعني جرح وألم.

بل قال الله تعالى في نفس سياق الآيات: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فإذا كان قد أصابتكم مصيبة فقد أصبتم مثليها، ففي أُحد قُتل منكم سبعون، لكن في بدر قُتل من عدوكم سبعون وأسر سبعون، ضعف.

هنا يقول: ﴿فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ وفي هذا تسلية للمؤمنين؛ لأن الإنسان إذا علم أن عدوه أصابه مثل ما أصابه فإنه تهون عليه المصيبة.

تقول الخنساء وهي ترثي أخاها صخراً:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أسلي النفس عنه بالتأسي

ولهذا أشار في القرآن: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩] فاشتراككم في العذاب لم ينفعكم ولم يخفف عنكم الألم، لكن الله عزّ وجل يقول للمؤمنين: إن كنتم قد أصبتم بقرح فقد أصيب عدوكم بقرح مثله، بل في آية أخرى يقول الله عزّ وجل: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾ أي في طلبهم، يعني لا تضعفوا في طلبهم، اطلبوهم، اقتلوهم ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ﴾ صدق الله،

وأيضاً ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] هذه الفائدة العظيمة، هم لا يرجون شيئاً إنما يريدون علواً واستكباراً، خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس وأنتم ترجون الجنة، ترجون الشهادة، ولهذا قال: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، والصحابة ماذا قالوا لأبي سفيان في أُحد، لما قال: يوم بيوم والحرب سجال؟ يقصد بدراً، يعني مرة لنا ومرة علينا.

قالوا: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار[1] والعياذ بالله. إذن فالمؤمنون لا يظنون أن عدوهم لا يصيبه ألم ولا يصيبه قرح، يصيبهم، لا يهولهم دعايته الكاذبة أنه سيفعل ويفعل ويفعل، لا يهولهم هذا. إذا قتل منهم واحداً ذاقوا ألم هذا المقتول، كما لو أنه قتل منا واحداً ذقنا ألمه، لكن نحن نرجو من الله ما لا يرجون، ولهذا قال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ هذه بهذه.

ثم قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ﴾ المشار إليه هنا بعيد، ولكنه في الحقيقة قريب، لأن الأيام هي الزمن فهي قريبة، لكن لما كانت الأيام منها ما هو بعيد ومنها ما هو قريب غلَّب جانب البعد ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: نجعلها بينهم دولاً: فمرة تكون الدولة لهؤلاء على هؤلاء، ومرة تكون الدولة لهؤلاء على هؤلاء. ففي بدر كانت الدولة على المشركين، وفي أُحد كانت الدولة على المؤمنين، فهذا مرة وهذا مرة، لحِكَمٍ عظيمة بيَّنها الله سبحانه وتعالىٰ فيما بعد.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، رقم (٢٦٠٤).

وقوله: ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ يشمل مداولتها بين أمة وأمة، ويشمل كذلك مداولتها في الإنسان الواحد، فالإنسان يجد يوماً سروراً ويجد يوماً آخر حزناً. كما قال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نُساء ويوم نُسر

فالدنيا هكذا لا تبقى على حال واحدة، ولهذا يقال: دوام الحال من المحال، فالأيام دول.

وانظر إلى قوله: ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ حيث أتت بصيغة نون العظمة إشارة إلى أن الله عزّ وجل لكمال سلطانه وكبريائه يديل الناس بعضهم على بعض، فتارة تكون أياماً لهؤلاء وتارة تكون أياماً لهؤلاء.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الواو هنا حرف عطف، فما هو المعطوف عليه؟ هل هي الجملة التي سبقت الأيام ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾؟ نقول: لا؛ لأن ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ تعليل للجملة التي قبلها وهي ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، والعلة غير المعلول ولا يصح عطفها عليه؛ لأن العلة هي السبب في وجود المعلول، إذن فهناك شيء معطوف عليه فيقدر بما يناسب الحال، فالذي يناسب هنا هو أن نقول: إنَّ التقدير ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ ليتبين بذلك تمام سلطان الله عزّ وجل، وأن الله عزّ وجل هو الذي له الحكم يحكم في عباده بما يشاء؛ فيخذل أقواماً وينصر آخرين، ويأتي بالعسر ويأتي باليسر حتى يتبين بهذا تمام سلطانه سبحانه وتعالىٰ. حتى المخلوقات بعضها فيها خير وبعضها فيها شر، كل هذا ليظهر للناس تمام السلطان للعلي الكبير سبحانه. إذن فالواو هنا حرف عطف.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ علم وجود وعلمٌ يترتب عليه الجزاء، وإنما قلنا بذلك لأن الله تعالى قد علم الذين آمنوا قبل أن يؤمنوا، فإن علم الله بالأشياء علم أزلي قديم يعلم سبحانه وتعالىٰ ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، لكن يعلمه علم وجود، أي: يعلمه موجوداً، أما العلم السابق فإنه يعلمه أنه سيوجد، وهناك فرق بين علمه الشيء موجوداً حال وجوده وبين علمه الشيء بأنه سيوجد، فهذا هو الأول.

والثاني: يعلمه علماً يترتب عليه الجزاء، وذلك حين يوجد الإيمان أو يُفقد، أما علم الله السابق فإنه لا يترتب عليه الجزاء، وذلك لأن المؤمن لم يكن موجوداً بعد حتى يجازىٰ أو لا يجازىٰ، وبهذا يزول الإشكال الوارد على مثل هذه الجملة، ويحصل به الجواب عن الإشكال، وهو أن يقال: إن الله عزّ وجل قد علم الذين آمنوا من قبل، فإنه سبحانه وتعالىٰ كتب في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء إلى يوم القيامة، وقد علم المؤمن من غيره من قبل، فكيف يقول: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾؟ فالجواب أن نقول: ليعلم علم وجود أي بأن الشيء وجد، وتعلق العلم بالموجود غير تعلقه بالمعدوم الذي سيوجد. الثاني: أن يعلمه علماً يترتب عليه الجزاء؛ لأن علمه السابق بأنه سيوجد لا يترتب عليه الجزاء.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كيف ذلك؟ لأن المؤمن يرضى بهذه المداولة، بمداولة الله الأيام بين الناس، يرضى بها رضاً تاماً؛ إن أصابته ضراء صبر، وإن أصابته سراء شكر، ويعلم أن ذلك بتقدير الله فيرضى ويسلم، لكن غير

المؤمن بالعكس إن أصيب بالسراء أشر وبطر، وإن أصيب بضراء ضجر وتسخط، يقول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي: على طرف ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾، والفتنة المراد بها هنا ضد الخير ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١] وكم من إنسان ارتد لأنه أصيب بمصيبة والعياذ بالله.

الحكمة الثالثة قال: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ انظر إلى هذا التعبير! لم يقل: وليوجد بل قال: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ فهؤلاء الشهداء اتخذهم الله واصطفاهم لنفسه جل وعلا، ولولا مثل هذه الهزيمة لم يكن شهداء، ولكن من أجل أن يتخذ منكم شهداء أي: يتخذ منكم أناساً قتلوا في سبيل الله، وكم شهيد اتخذهم في غزوة أُحد؟ سبعون رجلاً. لولا هذا لم يكن هناك شهداء.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الظالمون هم الذين نقصوا حقَّ الله وحقَّ عباده؛ لأن الأصل أن معنى الظلم النقص؛ لقوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: لم تنقص. الظالم هو الذي نقص في حق الله وحق عباده بل وحق نفسه ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، فالظالم لا يحبه الله، فإن كان ظلمه ظلم كفر فلا حظَّ له في محبة الله، وإن كان ظلمه دون ذلك فله من محبة الله بقدر ما معه من العدل، ومن كراهة الله بقدر ما معه من الظلم.

وقوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قد يبدو غريباً على القارئ مناسبة هذه الجملة لما قبلها ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كيف هذا؟ فيقال: الجواب من وجهين:

الوجه الأول: أن المراد بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بيان أن الذين تخلفوا عن غزوة أحد، وهم مقدار ثلث الجيش لم يكن منهم شهيد؛ لأنهم نجوا بأنفسهم، فلكونهم ظلمة لم يتخذ الله منهم شهداء، فيكون ذلك تنديداً بالذين تخلفوا ورجعوا من أثناء الطريق، وهم عبد الله بن أبي ومن تبعه من المنافقين، فكأنه قال: اتخذ منكم أيها الصفوة شهداء ولم يتخذ من أولئك الذين نكصوا على أعقابهم؛ لأن هؤلاء ظلمة والله لا يحبهم.

الوجه الثاني: أن الذين قتلوا في أُحد؛ قتلوا على أيدي المشركين، والمشركون هم الظالمون كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، فهل انتصار الظالمين في أُحد واستشهاد من استشهد من المسلمين في أُحد لأن الله يحب الظالمين ويكره المؤمنين؟ لا!

إذن ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لئلا يظن ظان أن انتصار المشركين في تلك الغزوة من محبة الله لهم، فبيَّن الله عزّ وجل أنه لا يحب الظالمين.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان رأفة الله سبحانه وتعالىٰ برسول الله ﷺ وأصحابه بهذه التسلية العظيمة ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾.

٢ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يعزي المصاب بمثل هذه التعزية فيقول مثلاً: يا أخي لست أول من أصيب، كم من أناس أصيبوا بهذه المصيبة أو أكثر، ويقول له مثلاً: قدّر أن المصيبة أعظم من هذا؛ لأن كل شيء ممكن، فإذا أصبت بفَقْدِ ألف فقدِّر أنك

أصبت بفَقْد ألفين؛ لأن هذا ممكن، فإذا قدرت أنك أصبت بألفين والمفقود ألف هان عليك فَقْدُ الألف، إذن فالله علَّمنا كيف نعزي المصاب بأن نسليه بذكر النظائر أو بذكر ما هو أعظم.

٣ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ جعل هذه الدنيا دولاً تتقلب لئلا يركن الإنسان إليها؛ لأن الدنيا لو كانت دائماً راحة ونعمة ركن الإنسان إليها ونسي الآخرة، ولو كانت دائماً محنة ونقمة لكانت عذاباً مستمراً، ولكن الله جعلها دولاً يدال فيها الناس بعضهم على بعض، وتتداول الأحداث على الإنسان ما بين خير وشر.

٤ ـ تمام سلطان الله سبحانه وتعالىٰ في خلقه، وأن له التدبير المطلق؛ ليظهر أو يتبين بذلك تمام سلطان الله.

٥ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ قد يمتحن العبد ليعلم إيمانه من عدمه، يمتحنه بأنواع من الامتحانات: تارة بالمصائب وتارة بالمعايب، فهنا ابتلاء بالمصائب، وإذا يسَّر الله للإنسان أسباب المعصية فهذا ابتلاء بتيسير المعائب مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤].

٦ ـ أن علم الله سبحانه وتعالىٰ بالأشياء على قسمين: علم بأنها ستوجد وهذا أزلي، وعلم بأنها وجدت، وهذا يكون عند الوجود، ولهذا قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٧ ـ أن الله تعالى قد يقدر المكروه لحِكَم بالغة كثيرة؛ لقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾.

٨ ـ فضيلة الشهادة، تؤخذ من قوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ﴾ فكأنه سبحانه اصطفى هؤلاء الشهداء واتخذهم لنفسه.

٩ ـ فضيلة شهداء أُحد؛ لأن قوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾، أول من يدخل فيها شهداء أحد رضي الله عنهم.

١٠ ـ إثبات المحبة لله، أن الله يحب، وجه ذلك أن نفيها عن الظالمين يدل على ثبوتها لغيرهم أو لضدهم، لأنها لو انتفت عن هؤلاء وهؤلاء لم يكن في نفيها عن الظالمين فائدة، ولهذا استدل الشافعي رحمه الله وغيره من أهل العلم على ثبوت رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة بقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] يعني الفجار، قال: فلما حجب هؤلاء عن رؤيته في السخط دلَّ على رؤية الآخرين في حال الرضا. وهذا لا شك استدلال جيد، فهنا نقول: لما نفى المحبة عن الظالمين دلَّ على ثبوتها لمن كان ضدهم، لأنها لو كانت منتفية عن هؤلاء وهؤلاء لم يكن لتخصيص الظالمين فائدة.

والمحبة تعني كون الله يحب الشخص، فهل فيها نقص بالنسبة لله؟ لا. ولهذا كان أهل السنة من السلف يثبتون أن الله تعالى يُحب وأنه يُحَب أيضاً. كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، ومحبة الله سبحانه وتعالىٰ إذا وفِّق العبد لها لا يعادلها شيء ولا تماثلها لذة. يجد الإنسان في محبة الله لذة لا توصف أبداً، حتى إن بعض السلف يقول: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف! الله أكبر، الملوك هم في قمة النعيم الدنيوي وأبناؤهم كذلك، لكن أحباب الله وأولياء الله أعظم منهم في هذا النعيم، وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

إذن نقول: من مذهب أهل السنة والجماعة إثبات المحبة لله،

وأن الله يُحِب وأنه يُحَب ولكن من الناس من أنكر محبة الله ليس إنكار تكذيب بل إنكار تأويل، فقال: المراد بالمحبة الإرادة أو الثواب، فمعنى يحبهم أي يريد أن يثيبهم أو يثيبهم، وهؤلاء هم الأشاعرة، ومن كان أشد منهم في التعطيل، وقد مرَّ علينا مثل هذا كثيراً وبيَّنا بطلان مذهبهم، وأن ما ذهبوا إليه يعتبر تحريفاً لكتاب الله وليس تأويلاً له.

١١ ـ التحذير من الظلم؛ لقوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وكل إنسان يهرب من كل فعل يؤدي إلى عدم محبة الله له.

والظلم أقسام: إما في حق الله وإما في حق الآدمي. والظلم في حق الآدمي إما في المال، وإما في النفس، وإما في العرض، وكل ظلم فإن الله لا يحبه.

١٢ ـ أن محبة الله قد تتبعض بمعنى أنه يحب هذا أقوى من هذا، ويكره هذا أقوى من هذا، وجهه: أن الحكم إذا عُلِّق بوصف فإنه يزداد بزيادته ويقوى بقوته، وينقص بنقصه ويضعف بضعفه، فإذا كان انتفاء المحبة من أجل الظلم؛ فكلما كان الإنسان أظلم كان أبعد عن محبة الله عزّ وجل.

❁ ❁ ❁

□ ثم ذكر الله فائدة أخرى فقال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]:

(يمحص) بمعنى ينقِّي، وهل المراد تنقيتهم من غيرهم؛ بحيث يتبيَّن المؤمن النقي الصافي الإيمان، أو تنقيتهم من الذنوب بما أصابهم من القرح أو الأمران جميعاً؟

الجواب: الأمران جميعاً؛ لأنَّ لدينا قاعدة سبقت وهي: أن

اللفظ إذا كان يحتمل معنيين لا ينافي أحدهما الآخر فإنه يحمل عليهما جميعاً، إذن فهو يمحصهم وينقيهم من الذنوب بما أصابهم من القرح، وينقيهم أيضاً باعتبار الخلاصة؛ يعني يتبين بذلك خلاصة المؤمنين مِمَّن في إيمانهم شيء من الشك أو الكفر، وهذا أمر ظاهر، وهو كما أشار الله في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٤٠]، إذن من الحكمة فيما حصل للمسلمين من القرح أن الله يمحص الذين آمنوا: ينقيهم من الذنوب بما أصابهم من هذه المصيبة، وينقيهم ببيان الخلّص، أهل الصفوة.

وقوله: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ سبحان الله، إذا نصرهم يكون سبباً لمحقهم، لأنهم إذا انتصروا علوا واستكبروا وانتفخوا في أنفسهم، وظنوا أن لهم السيطرة دائماً، فحينئذ يعيدون الكرة مرة أخرى لقتال المسلمين، وبذلك يكون محقهم، هذا هو وجه الآية، وقال بعض أهل العلم: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي يهلكهم بما جنوه على المسلمين من القرح، فجعل المحق يعني العذاب والهلاك في الآخرة، ولكن المعنى الأول أوجه، أنه يمحقهم محقاً حسياً وذلك لأنهم إذا انتصروا في هذه المرة، حاولوا أن يعيدوا الكرة مرة ثانية لأجل الانتصار مرة أخرى، وبذلك يكون محقهم والقضاء عليهم.

وقوله: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مأخوذ من الكفر، وأصل الكفر في اللغة: الستر، ومنه سمي الكُفُرَّى يعني وعاء طلع النخل لأنه يستر ما كان فيه.

والحاصل أن الله سبحانه وتعالىٰ ذكر في هاتين الآيتين لمسِّ القرح خمس فوائد.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ قد يبتلي المؤمن من أجل تمحيصه، وقد ذكرنا أن التمحيص من وجهين:

الوجه الأول: بيان منْ إيمانه صادق يصبر على الضراء، ومَنْ إيمانه مهتز لا يصبر.

الوجه الثاني: أن هذه المصائب فيها تمحيص للمؤمنين بتكفير السيئات.

٢ ـ محق الكافرين، فيستفاد من هذا فائدة وهي أن النعمة قد تكون سبباً للنقمة، فإن انتصار الكفار يوجب فرحهم وبطرهم حتى إذا بطروا محقوا.

٣ ـ أن الكافر مآله المحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وهذا كقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١] وأمثال ذلك كثير.

٤ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ له التدبير الكامل في عباده؛ لقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ فإن هذا الفعل كان فيه خير للمؤمنين وشر للكافرين.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]:

﴿أَمْ﴾ هنا منقطعة، فتكون بمعنى (بل) وهمزة الاستفهام، أي: بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة، وقولنا منقطعة احترازاً من المتصلة، فما هو الفرق بين المتصلة والمنفصلة؟.

المنقطعة بمعنى (بل)، والهمزة المتصلة بمعنى (أو). و(أم) المتصلة يذكر معها المعادل، و(أم) المنقطعة ليس لها معادل،

الفرق إذن يتضح بالمثال؛ إذا قلت: قال الله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦] متصلة لأنها ذكر فيها المعادل، ولأنها بمعنى (أو).

وإذا قلت: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢] فهي منقطعة بمعنى (بل)، لأن أمر أحلامهم - يعني عقولهم - بهذا ليس معادلاً لكونهم طغاة، بل قال: أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم لم تأمرهم؟ الجواب: لم تأمرهم، ولكنهم قوم طاغون، هنا ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ منقطعة لأنه لم يذكر المعادل، ولأنها بمعنى بل والهمزة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي أظننتم أن تدخلوا الجنة، والاستفهام هنا للتوبيخ، يعني: هل تظنون أن تدخلوا الجنة بلا اختبار، ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، (الجنة) هي مأوى المتقين ودار الخلد جعلنا الله وإياكم من أهلها.

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ (لمَّا) هنا جازمة، والدليل على جزمها أن الفعل جزم بعدها، لكن لما كان ما بعده ساكناً كسر؛ لأنه على القاعدة التي أشار إليها ابن مالك في الكافية:

إن ساكنان التقيا اكسر ما سبق وإن يكن لَيْناً فحذفه استحق

وقوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ﴾: الواو هنا حالية يعني والحال أن الله لا يعلم الذين جاهدوا منكم. و(لما) تأتي على أربعة أوجه في اللغة العربية وقد ذكرناها فيما سبق، وهي هنا حرف نفي وجزم، ويفرق بينها وبين (لم) بأن مدخولها يترقب الحصول كقوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص: ٨] أي لم

يذوقوه ولكنه قريب، وهنا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ﴾ أي أن الله لم يعلم ولكن علمه بذلك قريب.

وقوله: ﴿جَٰهَدُواْ﴾ أي بذلوا جهدهم في إعلاء كلمته بالقتال في سبيله. والعلم هنا ليس كالعلم الأول، فإن علم الله عزّ وجل نوعان: أزلي سابق لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وعلم بما حصل بعد حصوله، وهذا هو الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، ويسميه بعض العلماء علم ظهور، أي: يعلمه ظاهراً بعد أن لم يكن، فالمراد بالعلم هنا علم الشيء بعد كونه ووجوده؛ لأنه هو العلم الذي يترتب عليه الثواب والعقاب.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي الذين يصبرون على ما أصابهم، والصبر هنا في هذا المقام يشمل الصبر بأنواعه الثلاثة، وذلك لأن الجهاد فيه صبر على طاعة الله، وفيه صبر عن معصية الله، وفيه صبر على الأقدار المؤلمة.

ففيه الصبر على طاعة الله؛ لأن الإنسان يصبر نفسه ويحبسها، قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] فلا بد من أن يصبر الإنسان نفسه ويحبسها حتى يخرج في الجهاد. وفيه صبر عن معصية الله، عن الفرار حين يتلاقى الصفان، فإن هذا يحتاج إلى صبر وتحمل؛ لأن صبر الإنسان قبل الدخول في المعركة قد يكون محتملاً لكن بعد الدخول وإذ يرى السيوف أمام وجهه فإنه قد يفر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٦]. وصبر على أقدار الله المؤلمة؛ لأن الجهاد لا يخلو من جراح ومن تعب ومن عناء ومشقة، ففيه أنواع الصبر الثلاثة.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان أن التمني رأس مال المفاليس. يعني يكون الإنسان يتمنى بدون أن يفعل السبب، هذا خسران، وذلك رأس مال المفلس الذي لن يحصل له شيئاً؛ لقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٢ ـ أن الجنة لا تدرك بالتمني كما قال الحسن البصري رحمه الله: ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي؛ ليس بالتمني بالقلب، ولا بالتحلي بالمظهر، وإنما الإيمان ما وقر في القلب وصدقته الأعمال.

٣ ـ أن الجنة غالية رخيصة؛ غالية لكون ثمنها غالياً؛ لأنه بذل النفوس في طاعة الله والجهاد لإعلاء كلمته، ورخيصة لأن هذا الأمر على من سهله الله له يسير جداً، ولهذا تجد الموفق يسابق إلى أن يكون ممن يكتب اسمه في الجهاد حتى يخرج فيجاهد في سبيل الله.

٤ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ يمتحن العبد بما يدل على صبره أو ضجره بقوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٥ ـ أن جزاء الله سواء كان عقوبة أو مثوبة لا بد أن يسبقه ما يمتحن فيه العبد؛ لقوله ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ﴾ فلا بد من امتحان أولاً لينظر.

٦ ـ أن علم الله عزّ وجل الأزلي لا يترتب عليه الثواب والعقاب، وإنما يترتب الثواب والعقاب على علم الله المقرون بالفعل، الذي يكون علماً بالشيء بعد وجوده.

٧ ـ أن الجهاد سبب لدخول الجنة؛ لقوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ ولا فرق بين الجهاد بالسلاح والجهاد بالعلم فكلاهما جهاد، بل قد تحتاج الأمة الإسلامية إلى جهاد العلم أكثر مما تحتاج إلى جهاد السلاح، وقد يكون بالعكس، وقد يتساويان. ولكن لا بد من وجودهما في الأمة الإسلامية، لا بد من وجود علماء، ولا بد من وجود طلبة علم، ولا بد من وجود مسلحين يقاتلون الكفار بالسلاح؛ لأن الجهاد لا ينزل عَلَمه إلى يوم القيامة، لا بد أن يكون قائماً.

٨ ـ أن الصبر سبب لدخول الجنة أيضاً؛ لقوله: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، واعلم أن الجزاء يكون على قدر العمل، فإذا كان ثواب الجهاد الجنة وثواب الصبر الجنة دلَّ على عظم مرتبتهما في دين الله عزّ وجل.

٩ ـ أن الصبر درجة عالية لكنه يحتاج إلى مصبور عليه؛ لأن الصبر على ما يلائم الطبيعة ليس بصبر، ولهذا لا يقال للإنسان الذي وقف تحت (الدش) يصب عليه ماءً بارداً في اليوم الحار، لا يقال إنه صابر؛ لأن هذا يلائم طبيعته. الصبر لا بد له من شيء يعانيه الإنسان لا يلائم الطبيعة.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣]:

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ﴾ أكد الله هذه الجملة لإقامة الحجة عليهم، (لقد كنتم) الجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكدات: بالقسم المقدر، وباللام الواقعة في جوابه، وبقد. كنتم فيما مضى تمنون الموت

من قبل أن تلقوه، وكانوا يتمنون الموت في سبيل الله لا الموت على الفراش، وذلك أنه كما يعلم الكثير من الناس تخلف عن بدر جماعات كثيرة من الصحابة، فإن غزوة بدر لم يكن الخروج فيها للغزو، ولكن لأخذ العير، ولهذا لم يخرج من أهل المدينة كلهم إلا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً على أنهم يريدون العير، ولكن الله جمع بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد فاستشهد من استشهد من المسلمين نحو ثلاثة عشر رجلاً، وتمنى الذين لم يدركوا هذه الغزوة أن يكونوا قد خرجوا فيها ولا سيما الشباب منهم، ولهذا لما استشارهم النبي ﷺ في غزوة أحد؛ أيخرج إلى العدو أم يبقى في المدينة؟ كلهم قالوا: نخرج. ولا سيما الذين تخلفوا في بدر حيث كانوا يتمنون بذلك الشهادة كما استشهد إخوانهم في بدر، نعم فهم كانوا يتمنون الموت يقولون: يا ليتنا خرجنا، يا ليتنا قتلنا في بدر، يتمنون الموت. والتمني هو أن الإنسان يطلب تقديراً ما يصعب حصوله، هذا التمني أن يتمنى تقديراً ما في قلبه يصعب حصوله سواء كان يصعب ثم يحصل أو يصعب ولا يحصل، ولهذا يقع التمني على الأشياء المستحيلة، كقول الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

ولا يمكن أن يعود، ويكون في الشيء الذي فيه العسر، ولكنه قليل، إذن يتمنون الموت، يعني في نفوسهم يتمنون أنهم كانوا مع أهل بدر فاستشهدوا فقتلوا في سبيل الله ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾، يعني فقد حصل لكم ما تمنون ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ يعني رأيتموه وأنتم على أشد ما يكون إحساساً. وتأمل قوله:

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، هل هي مؤكدة أو مؤسسة؟ لأن الإنسان قد يرى ولكن لا يحقق ما يرى، قد يرى الشيء وهو غافل عنه لكن إذا رآه وهو ينظر إليه تماماً قد ركز، فهذا نظر خاص أخص من النظر العام. نحملها على ذلك؛ لأن الأصل في الكلام التأسيس؛ لأن التوكيد نوع زيادة ليس فيه إلا توكيد ما مضى، وقد لا يحتاج إليه لكن التأسيس هو الأصل.

إذن يقول الله عزّ وجل: ﴿كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ﴾ ويقيم على ذلك الشهادة بالتوكيد ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ فلماذا يحصل منكم هذا التخاذل؟ ولهذا قال: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أي: الموت أو من استشهد في غزوة أُحد رأوه بأعينهم، وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد رأوه أي رأوا أسبابه وهو القتال؛ لأن من لم يقتل لم ير الموت، ولكن هذا تفسير فيه نظر؛ لأن رؤية الموت يراها الإنسان في نفسه وفي غيره، فقد رأيتموه فيما بينكم وأنتم تنظرون.

وفي هذه الآية من المسائل النحوية قوله: ﴿تَمَنَّوْنَ﴾ حيث إن صورته صورة الماضي، ولكنه صيغ بصيغة المضارع أصلها: تتمنون الموت.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ إقامة الحجة على من كانوا يتمنون الموت وقد رأوه، ومع ذلك حصل منهم تخاذل؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ يعني فيها، أنتم الآن رأيتموه فما موقفكم؟.

٢ ـ وفيه أنه لا ينبغي للإنسان أن يتمنى المكروه؛ لأنه إذا

تمناه ووقع ربما ينكص ولا يصبر، وقد قال النبي ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**»[1]. وهكذا الإنسان قد يشعر في نفسه أنه يقوى على الشيء ولكن يعجز عنه، وقد ذكروا أن سحنون صاحب مالك رحمه الله كان من العُبَّاد فقال يوماً من الأيام كلاماً معناه: يا رب إني صابر فكيفما شئت فامتحني، ابن آدم فقير مسكين، يعني أصبر على كل بلاء فامتحني يا رب، فأصيب بعسر البول، صار لا يبول إلا بمشقة شديدة، قالوا: فكان يدور على مدارس الصبيان فيقول: ادعوا لعمكم الكذاب. وذهب إلى الصبيان، لأنهم أقرب إلى الإجابة لطهارة قلوبهم وسلامتها ولا ذنوب عليهم، الكذاب! لأنه قال: إني أصبر فكيفما شئت فامتحني. ولم يصبر، وهكذا الإنسان ينبغي له أن يسأل الله العافية لكن إذا ابتلي فليصبر.

٣ ـ أنه لا بأس أن يوبِّخ الإنسان من تحدى واتخذ لنفسه مكاناً عالياً إذا وجده قد تخاذل في هذا المكان، مثل لو كان رجل من الناس يزعم أنه صبور وأنه جَلْد وما أشبه ذلك، فإذا ألمّت به الأمور صار جباناً هلوعاً لا يتحمل فيذكِّره. أظن أن أحد الشعراء كان يقول في شعره:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

شجاعة، وعلم، وكتابة وكل شيء، فحصلت غزوة كان فيها

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا تمنوا لقاء العدو، رقم (٣٠٢٤). ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو، رقم (٤٥٤٢).

هذا الشاعر، فأراد أن ينهزم ويولي الدبر، وإذا حوله أناس قد حفظوا هذا البيت من شعره فقالوا: ما لك يا فلان ألست القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فعتب على نفسه ورجع وأظن أنه قتل في تلك المعركة.

فالإنسان قبل أن يصاب بالبلاء قد يشعر في نفسه أنه قوي يصبر، لكن يعجز، فإذا ذكَّرت أحداً بشيء كان يفتخر به كأن يقول: أنا أفعل، وأنا أقول، وأنا أصبر، فهذا لا بأس به، ولكن هل هذا محمود إذا كان الأمر ضاراً، أو ينظر للمصلحة؟

الجواب: أنه ينظر للمصلحة فقد يكون هذا المسكين يفتخر فيما لا فخر فيه، فإذا وقع فيه وأراد أن يتأخر عنه ثم أغريته قد يقع في ضرر. فالمسألة يرجع فيها إلى المصلحة.

٤ ـ جواز التأكيد على رأي من يرى أن قوله: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ فيها توكيد أي: جواز تأكيد اللفظ إذا دعت الحاجة إليه، وكان ذلك مقتضى البلاغة، بل قد يكون مطلوباً كما في هذه الآية، فهذه الآية على قول بأن قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ توكيد وأنها لم تأت بمعنى جديد، أما على القول الراجح الذي رجحناه أنها أتت بمعنى جديد فإننا لا نأخذ هذه الفائدة من هذه الآية، لكن نأخذها من آيات أخرى مثل: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨] وقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣، ٤]، وقوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٤، ٣٥]، كثير من القرآن تأكيدات للأهمية.

تنبيه: ذكرنا في التفسير أنهم يتمنون الشهادة، الموت في سبيل الله، وليس الموت المطلق؟ لكن يؤخذ منه أنه يجوز أن يتمنى

الإنسان الشهادة، بل لو قيل بمشروعية هذا لم يكن بعيداً، وقد قال عمر رضي الله عنه: اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك والموت في بلد رسولك ﷺ، فكان الناس يقولون: كيف هذا الدعاء وكيف يجاب والمدينة بلد إسلامي؟ ولكن الله أجاب دعاءه فقد قُتل ظلماً وهو يصلي، ولم يقتل لأنه عمر بن الخطاب بل قتل لأنه قائم بأمر الله، منفذ لشريعة الله، قتله مجوسي مضاد للمسلمين، حرب على المسلمين، قتل في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ومات فيها، وقد تتمنى الشهادة، لكن ذكر بعض المتأخرين أنه لا يجوز أن تتمنى الشهادة، قال: لأن تمنيك الشهادة يستلزم أن الأعداء يغلبون المسلمين، فليتأمل هذا الكلام هل هو حق أم باطل؟

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ﴾: محمد يعني محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي الهاشمي خاتم الأنبياء كونه (رسولاً) فهذا أمر معلوم، لكن محط الفائدة قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ﴾ توطئة لما بعده وهو قوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ﴾ يعني أن رسول الله ﷺ رسول قد خلت من قبله الرسل فماتوا من قبله ومنهم من قُتل كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، فإذا كان كذلك فهل أقوامهم لما ماتت أنبياؤهم أو قتلوا هل تركوا أديانهم؟ الجواب: لا، لم يتركوا الأديان، وذلك لأن الأمم إنما تعبد الله

وتتبع الرسل، والرسل لا تنقطع رسالتهم بموتهم، بل رسالتهم باقية ما بقيت الرسالة حتى تأتي رسالة تنسخها، أما رسالة النبي ﷺ فإنه لا ناسخ لها لأنها آخر الرسالات. وهذه الآية نزلت حينما صاح الشيطان في يوم أحد، يقول: إن محمداً قد قُتل، فلما قال هذا فتَّ ذلك في أعضاد الصحابة رضي الله عنهم.

أولاً: لأن موت النبي ﷺ مصيبة عظيمة تحزن القلب وتضعف النفس.

ثانياً: لأن محمداً ﷺ كان قائدهم، وإذا مات القائد فإنه لا شك سيكون له أثر على الذين ينقادون بقيادته، فلما شاع الخبر بأن محمداً ﷺ قُتل حصل ما حصل على المسلمين فأثابهم غمًّا بِغَمٍّ وصار عند بعضهم بعض الشك، ولكن الله عزّ وجل وبَّخهم فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾، فإذا كان كذلك فهل الرسل الذين سبقوا وماتوا أو قتلوا هل ارتد أقوامهم من بعدهم؟ لا، ولكن بقيت الرسالات وبقي الاتباع، وهنا قال: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ الهمزة هنا للاستفهام التوبيخي يعني: أفتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قتل؟ هذا لا يليق بكم ولا ينبغي لكم، بل ما دامت شريعته باقية فاتباعه باق، ولا يليق بأي مؤمن أن يرتد على عقبه إذا مات الرسول ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ﴾ هذه جملة شرطية، (إن) أداة الشرط، و﴿مَّاتَ﴾ فعل الشرط و﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ جواب الشرط، ولكن محل التوبيخ هو جواب الشرط حقيقة، لأنه يوبِّخهم على انقلابهم على تقدير أن يكون مات أو قتل، أي: أتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قتل؟ لا يليق بكم.

وقوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ أي بغير فعل بشر ﴿أَوْ قُتِلَ﴾ بفعل البشر.

وقوله: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ أي رجعتم إلى الوراء، والأعقاب: جمع عقب وهو العرقوب، والمنقلب على عقبيه يكون ماشياً على غير هدى كالذي يمشي مكباً على وجهه، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، والانقلاب على العقبين أعظم وأبلغ؛ لأن الانقلاب على العقب يمشي الإنسان فيه على غير الهيئة المعتادة. على أنه يحتمل أن يكون المراد بالانقلاب على العقب أي: أنه يسقط على قفاه ولا يستطيع أن يتقدم أو يستقيم.

وقوله: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾:

هنا قال: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ﴾ فعدل من جملة الخطاب إلى العموم دون أن يقول: وإن انقلبتم على أعقابكم فلن تضروا الله شيئاً من أجل أن يكون الحكم عاماً شاملاً، فقوله: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ﴾ (من) شرطية تعم كل منقلب على عقبيه، والفعل هنا بعدها مجزوم، فعل الشرط. أما جواب الشرط فهو ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ وشيئاً نكرة، والنكرة في سياق النفي تعم، يعني: الذي ينقلب على عقبيه ويرتد عن الإيمان لن يضر الله؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ لن ينتفع بطاعة الطائعين، ولن يتضرر بمعصية العاصين، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ فيرجع بعد أن كان مسلماً فلن يضر الله شيئاً وإنما يضر في الحقيقة نفسه.

﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

السين للتنفيس، وهي تحوّل الفعل المضارع من كونه صالحاً للحال والاستقبال إلى كونه للاستقبال، (وسوف) مثلها إلا

أن سوف تدل على المهلة والسين تدل على الفورية ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: سيكافئهم، والشاكرون هم الذين قاموا بشكر نعمة الله، وقد مرَّ علينا أن الشكر هو القيام بطاعة المنعم بالقلب واللسان والجوارح؛ فالاعتراف بالقلب أن النعم من الله شكر، والثناء على الله بها باللسان شكر، والقيام بالطاعة بما يناسب تلك النعمة شكر، فشكر العلم مثلاً العمل به ونشره، وشكر المال صرفه في طاعة الله، وشكر القوة البدنية استعمال البدن في طاعة الله، وهلم جرا. واعلم أن بين الشكر والحمد عموماً وخصوصاً من وجهين أي أن أحدهما أعم من الآخر من وجهٍ، فباعتبار أن الحمد يكون لكمال المحمود ولإنعام المحمود يكون أعم من الشكر، وباعتبار أن الحمد يكون باللسان يكون أخص من الشكر، والشكر باعتبار كونه متعلِّقاً بالقلب واللسان والجوارح أعم من الحمد، وباعتبار أنه في مقابلة نعمة أخص من الحمد. يقول الشاعر:

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً يدي ولساني والضمير المحجبا

وبهذا التقرير نعرف أنه ليس بين الحمد وبين الشكر ترادف، بل هما متباينان، يتفقان فيما إذا حمد الله سبحانه وتعالىٰ على نعمته كما لو أكل أو شرب فقال: الحمد لله، فهذا يعتبر شكراً وحمداً، ويختلفان فيما إذا حمد الله على كماله فهنا لا يكون هذا من باب الشكر، وإذا شكر الله بجوارحه فليس هذا من باب الحمد.

قال: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

يبيِّن الله سبحانه وتعالىٰ هذا المجمل في قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾

[الأنعام: ١٦٠] هذا الجزاء، وصحَّ عن النبي ﷺ أن الله يضاعف الحسنة إلى عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف[١].

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان أن رسول الله ﷺ بشر يلحقه الموت كما يلحق جميع الرسل؛ لقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ . . .﴾.

٢ ـ أن النبي ﷺ ليس ربًّا فيدعى ولا إلهاً فيعبد؛ لقوله: ﴿إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾.

٣ ـ أنه ينبغي الدليل بذكر النظائر ليقتنع الإنسان بما سمع؛ لقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ فإن من سمع هذا اقتنع وقال: ما دام الرسل السابقون قد ماتوا أو قتلوا فإن ذلك يكون تسلية له.

٤ ـ إثبات أن محمداً ﷺ خاتم الرسل؛ لقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ و(ال) هنا للعموم ولم يقل: قد خلت من قبله رسل بل قال: الرسل، وإذا كان الرسل كلهم قد خلوا من قبله لزم من ذلك أن يكون هو آخرهم.

٥ ـ جواز موت الرسول ﷺ وإمكان قتله؛ لقوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾.

فإن قال قائل: يشكل على هذا أن الله قد قال في الشهداء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. وقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]. فإذا كان هذا في الشهداء فكيف يكون الرسول ﷺ ميتاً مع أنه أفضل من الشهداء؟

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم (١١٥١).

والجواب عن ذلك أن نقول: إن الحياة حياتان: حياة دنيوية جسدية وهي حياة الدنيا، وحياة برزخية ليست كحياة الدنيا، فهذه هي التي تثبت للشهداء. والأنبياء أفضل من الشهداء حيث حرم الله على الأرض أن تأكل أجسادهم، وأما الشهداء فقد تأكل الأرض أجسادهم، فالأنبياء أجسادهم باقية وحياتهم البرزخية أكمل من حياة الشهداء بلا شك.

٦ ـ الرد على من توهم أو زعم أن الرسول ﷺ حي في قبره؛ لقوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ ونحن نعلم بالضرورة من النقل المتواتر أن النبي ﷺ لم يقتل، فإنه ما قتل لا بسيف ولا برمح بل مات على فراشه، ولكن ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**ما زالت أكلة خيبر تعاودني، وهذا أوان انقطاع الأَبْهَر مني**»[1]. الأبهر عرق عُرف عند أهل اللغة على أنه عرق في الظهر إذا انقطع مات الإنسان، فهذا يدل على أن أكلة الشاة المسمومة في خيبر كان لها أثر في موته، ولهذا قال بعض التابعين وأظنه الزهري قال: إن النبي ﷺ مات شهيداً؛ لأن اليهود قتلوه، ولكن الله تعالى أمد في عمره حتى تأخر، وهذا ليس ببعيد؛ لأن أكلة خيبر كما ثبت عن النبي ﷺ ما زال أثرها في لهواته، يرى في لهواته أثر السم، والسم كان شديداً، ولذا مات واحد من الصحابة الذين أكلوا معه، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يبلع اللحم الذي أكل.

٧ ـ أن الارتداد عن الإسلام انقلاب على العقب، ولا يخفى علينا ماذا يكون أثر الانقلاب على العقب ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الدِّيات، باب فيمن سقى رجلاً سمًّا أو أطعمه فمات أيقاد منه؟، رقم (٤٥١٣).

أَعْقَٰبِكُمْ﴾ وهو كذلك؛ لأن الذي على الإسلام يمشي على برهان ونور، يمشي على صراط مستقيم.

٨ ـ الرد على الملحدين الذين يقولون: إن الإسلام رجعية ورجوع إلى الوراء، فإننا نقول لهم: أنتم الرجعيون، أنتم الذين انقلبتم على أعقابكم، أما من تمسك بالإسلام فإنه التقدمي؛ لأن الإسلام يحث على التقدم لكل فضيلة وأن يسارعوا إلى المغفرة ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨] ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]، والآيات كلها تدل على أن الإسلام يأمر بالتقدم لكن ليس التقدم إلى الكفر الذي قال الله عن زعيمه: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، ولكن التقدم إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. المهم أن هذه الآية فيها ردٌّ على الملحدين الذين زعموا أن التمسك بالإسلام رجعية، فنقول لهم: إن التمسك بالإسلام هو التقدم، والتخلف عن الإسلام هو الرجعية.

٩ ـ أن الله عزّ وجل غني عن طاعة الطائعين؛ لقوله: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾.

١٠ ـ انتفاء الضرر عن الله، وأنه لن يضره شيء، ولكن إذا قال قائل: أليس الله تعالى قد قال في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وفي الحديث القدسي: «**يؤذيني ابن آدم يسبُّ الدهر**»[1] فأثبت الأذية لله؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ الآية، رقم (٤٨٢٦). ورواه مسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦).

فالجواب: أنه لا يلزم من الأذية الضرر. فالله تعالى قد يتأذى ولكن لا يتضرر، وأضرب لك مثلاً: لو أن شخصاً جلس إلى جنبك وقد أكل بصلاً أو شرب دخاناً ألست تتأذى برائحته؟ بلى، ولكن هل تتضرر؟ لا تتضرر، إذا رأيت شيئاً مكروهاً فإنك تتأذى ولكن لا تتضرر، إذن لا يلزم من كون الله تعالى يتأذى أن يتضرر.

١١ ـ الحث على الشكر؛ لقوله: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، ووجهه أن الجزاء أضيف إلى الله فدلَّ على عظمه؛ لأن الثواب من العظيم عظيم، ولهذا كانت الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

١٢ ـ جواز الإطلاق في الكلام إذا جاء مفسَّراً في موضع آخر؛ لقوله: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فإن هذه الآية مجملة لم يبين الله تعالى كيف هذا الجزاء، ولكنه قد بيّن في نصوص أخرى، والشريعة يفسر بعضها بعضاً، ويقيد بعضها بعضاً، ويخصص بعضها بعضاً، وما تجده مجملاً في مكان تجده مبيناً في مكان آخر، وهذا من تمام الشريعة؛ لأن الشيء إذا أتاك مجملاً فإن نفسك تتطلع إلى بيان هذا المجمل، فتحرص وتبحث وتقرن بين الأدلة، تقارن بعضها إلى بعض حتى يتبين لك الأمر، وحتى تكون ملماً في كل وقت بجميع النصوص.

١٣ ـ أن الخلق لو كانوا كلهم على الردة فإن الله تعالى لن يتضرر بذلك؛ لقوله: ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾، وهذا عام يشمل أي ضرر كان من فرد أو جماعة.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۖ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]:

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ﴾ أي: يمتنع غاية الامتناع لأي نفس من الأنفس أن تموت إلا بإذن الله، مهما حاول الناس أن يميتوا أحداً بدون إذن الله، فإنهم لن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً. وإذا جاءت (ما كان) فإنها للممتنع إما شرعاً أو قدراً، فهذه الآية ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما كان قدراً لنفس أن تموت إلا بإذن الله.

وقوله: ﴿لِنَفْسٍ﴾ نكرة في سياق النفي فتعم كل نفس من الآدميين وغير الآدميين، لا يمكن لأي نفس أن تموت إلا بإذن الله.

وقوله: ﴿أَن تَمُوتَ﴾ الموت هو مفارقة الحياة، ويحصل هذا بانفصال الروح عن الجسد انفصالاً تاماً، وذلك لأن الروح تتصل بالبدن اتصالاً تاماً، وتنفصل منه انفصالاً ناقصاً، وتنفصل منه انفصالاً تاماً؛ فإذا كان الإنسان يقظاً فالاتصال تام، وإذا كان نائماً فهو انفصال ناقص، وإذا مات الإنسان فهو انفصال تام، لكن هذا لا يمنع أن تعود إليه في قبره عوداً ليس على الوجه الذي عليه في الدنيا؛ لأن حياة البرزخ تخالف حياة الدنيا، فالإنسان في قبره تعاد إليه روحه ويجلس ويخاطب ويتكلم ويفهم، ولكن ليست هذه الحياة كحياة الدنيا؛ لأنها لو كانت كحياة الدنيا

لهلك فوراً؛ لأنه مغمور بالتراب الذي فوقه، وربما يكون غرقاً في ماء أو محترقاً في نار.

وقوله: ﴿أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ «إِذْن» هنا يراد بها الإذن الكوني؛ لأن إذن الله ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، وإذن شرعي، فالإذن الشرعي ما قضى به شرعاً وأذن فيه شرعاً، وهو تحت المشيئة قد يقع وقد لا يقع، فمثلاً: يقول الله عزّ وجل: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] الإذن هنا شرعي وليس بكوني؛ لأن الله قد أذن به كوناً لكنه لم يأذن به شرعاً، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩] الإذن هنا إذن شرعي، أما في مثل هذه الآية: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فهو إذن كوني يعني لا يمكن أن تموت إلا إذا أذن الله بذلك كوناً.

وقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بقضائه وقدره ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ (كتاباً) هذه مصدر مؤكد للجملة التي قبله، أي أن الموت مكتوب كتاباً مؤجلاً محدداً بحدٍّ معلوم لا يتجاوزه ولا يقصر عنه، هذا الكتاب يكتب في عدة كتب؛ يكتب في ليلة القدر بأنه سيموت في اليوم الفلاني في الساعة الفلانية من الشهر الفلاني، وهذه كتابة سنوية، ويكتب أيضاً إذا كان الإنسان في بطن أمه حين يبعث إليه الملك ويؤمر بِكَتْبِ رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد. ويكتب في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، فهذه كتب لا تتغير.

﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ لا يزيد ولا ينقص.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾:

(من) شرطية، وفعل الشرط ﴿يُرِدْ﴾ وجواب الشرط ﴿نُؤْتِهِۦ﴾، وفي كل من فعل الشرط وجوابه حذف، أما في فعل الشرط فالحذف من وسط الكلمة، وأما في جوابه فالحذف من آخر الكلمة؛ لأن قوله (يرد): أصلها يريد فحذفت الياء لالتقاء الساكنين، (ونؤته) أصلها نؤتيه فحذفت الياء للجازم؛ لأن الفعل المعتل يجزم بحذف حرف العلة.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي من يرد الجزاء في الدنيا من الدنيا فإن الله تعالى يؤتيه منها، ﴿نُؤْتِهِۦ﴾: أي نعطه منها وليس نعطيه كل الدنيا، فالإنسان قد يريد شيئاً كثيراً من الدنيا، ولكن لا يحصل له وإنما يؤتى منها، مثلاً منا من يريد القصور والأموال الكثيرة والزوجات والمراكب الوثيرة وما أشبه ذلك. ومن يرد هذا يؤته الله منها؛ لأن من يرد هذا لا بد أن يسعى له. فإذا كان لا بد أن يسعى له فالغالب أن السعي التام يحصل به الموجب، ولهذا قال: نؤته منها، فقدّر الله الأسباب لحصول ما أراده من الدنيا.

وقوله: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ واضح في أن الله لا يؤتيه كل الدنيا وإنما يؤتىٰ منها، وهذا يحتمل أن يكون عائداً إلى ما أراده، بمعنى: أن الله لا يعطيه كل ما يريد. ويحتمل أن يكون عائداً إلى الدنيا من حيث هي على سبيل العموم فيعطيه الله كل ما أراد، وعلى كل تقدير فهذه الآية مقيدة بآية الإسراء، وهي قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾، يعني الدنيا ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] ولم يقل: عجّلنا له ما يريد، قال: ﴿مَا نَشَآءُ﴾، وهذا يؤيده الواقع فإن كثيراً من الناس يريدون الدنيا

ويسعون لها بأيديهم وأرجلهم وألسنتهم وأعينهم ولكن لا يحصِّلونها؛ لأن الله قيَّد هذا العموم في سورة الإسراء بقوله: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ لا ما يشاء هو ﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ فقيَّد المعجل، والمعجل له، ﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ هنا هذا الإطلاق مقيد بذلك.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾: ولا نعطيه الآخرة كلها؛ لأن الآخرة درجات يختلف فيها الناس، ولا يمكن أن يعطى الإنسان جميع درجات الناس ولكن يعطى من الآخرة، ولهذا قال: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ ولكنها تختلف عن عطية الدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧] عطية الآخرة ليست كعطية الدنيا بل هي أعظم، ولهذا قال في آية الإسراء: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] وهنا قال: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فدلَّ ذلك على أن من أراد الآخرة فهو من الشاكرين وسيجزي الله الشاكرين بفضله الواسع. من أتى بحسنة أعطي حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وتأمل هذا الفضل العظيم: يتطهر الإنسان في بيته فيسبغ الوضوء فتكفر عنه سيئاته مع آخر قطرة من قطرات الماء، فإذا تشهد فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء، فإذا خرج من بيته بعد التطهر يريد المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعه الله بها درجة، وحطَّ عنه بها خطيئة. هذا أيضاً ثواب كثير، كل خطوة لك فيها فائدتان: الأولى رفع الدرجة، والثانية حط الخطيئة، ثواب كثير عظيم في عمل قليل،

فإذا دخل المسجد فصلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه تقول: اللهم صلِّ عليه، اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، دعاء من الملائكة سخرهم الله عزّ وجل، فأنت ترى أن من أراد الآخرة فهو من الشاكرين وسيجزي الله الشاكرين، سيجزيهم على شكرهم أكثر بأضعاف مضاعفة من أعمالهم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن آجال الأنفس محددة؛ لقوله: ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾.

٢ ـ تسلية أصحاب الرسول ﷺ حين قيل لهم إن محمداً قد قُتل، فأصابهم ما أصابهم من الغمِّ، فقال الله لهم: لا يمكن أن يقتل محمدٌ قبل أجله ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾. إن كان الله قد أنهى أجله فإنه ينتهي، وإن لم ينته أجله بقي إلى الأجل المحدد. فلماذا تجزعون إذا قيل: إن محمداً قد مات أو قد قتل، وهذا الشيء مؤجل عند الله عزّ وجل وبإذنه، وما كان مؤجلاً عند الله وبإذنه فإن الإنسان يجب عليه أن يستسلم له ويصبر عليه ويرضى به.

٣ ـ إثبات أن كل شيء حتى الموت مخلوق لله في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وما كان صادراً عن إذن فهو مخلوق، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢].

٤ ـ أنه لا يمكن أن يتقدم الإنسان أو يتأخر عن الأجل الذي قدره الله له؛ لقوله: ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾، ويؤيد هذا آيات منها قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]. ومنها: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

فإن قال قائل: يشكل على هذا قول النبي ﷺ: «**من أراد أن**

يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره؛ فليصل رحمه»[١]، فإن هذا يفيد بأن الإنسان إذا وصل رحمه زِيد في عمره.

فالجواب عن ذلك أن يقال: مد الأجل كبسط الرزق، والحديث يقول: **«أن ينسأ له في أثره، وأن يبسط له في رزقه»**. والرزق مكتوب، فقد بيَّن الرسول ﷺ أن الرزق يبسط ويوسع إذا وصل الإنسان رحمه، فكذلك الأجل يمدد إذا وصل الإنسان رحمه، ولا فرق، وهذا كقولنا: من أراد أن يولد له فليتزوج، والحديث: **(من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في إثره)** لا يعدو أن يكون بياناً لسبب طول العمر، وليس معناه أن الإنسان له عمران، عمر عند قطيعة الرحم وعمر عند صلة الرحم؛ لأن المعلوم عند الله والمكتوب عنده عمر واحد مقرون بسبب، وهو صلة الرحم، فإذا وصل الإنسان رحمه علمنا أن له عمراً واحداً زائداً مقروناً بالسبب. يوضح ذلك أنك تقول: إذا أكل الجائع سلم من الموت، فهذا الإنسان على آخر رمق في الحياة، أتينا له بطعام فأكل وعاش، هل نقول: إنه كان له عمران مع أننا لو تأخرنا عن إسعافه بالطعام لمدة دقيقة واحدة لمات، فهذا لا نقول له عمران، نقول: له عمر واحد، لكن هذا الطعام سبب لاندفاع الموت عنه الذي حصل من الجوع، فالمسألة ليس فيها إشكال، إذا تأملها الإنسان وجد أن سبب زيادة العمر الذي هو صلة الرحم كغيره من الأسباب التي يحث الشارع عليها. أيضاً نقول: من أراد الجنة

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم بلفظ: «من سرَّه»، رقم (٥٩٨٥). ورواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها بلفظ: «من أحب»، رقم (٢٥٥٧).

فليعمل عملاً صالحاً وهو مؤمن بالله، هل نقول: إن الإنسان له حالان: حال يكفر وحال يؤمن؟ أو نقول: هذا قد قدّره الله بقضائه السابق أن يكون مؤمناً من أهل الجنة؟ فالجواب: الثاني.

هكذا الذي وصل رحمه نقول: هذا من الأول لم يكن له إلا عمر واحد مبني على سبب وهو صلة الرحم، إذن فالمراد بيِّنٌ، الحديث حثَّ الناس على صلة الرحم التي هي سبب لطول العمر.

وهناك قول آخر وهو أنه ظن بعضهم أنه ليس المراد امتداد الأجل فقال: إن المراد بذلك بركة العمر، يعني يبارك له في عمره أو ينسأ له في أجله أي: أن ذكره بعد موته يطول، والإنسان إذا ذكر بعد موته فكأنه حي، قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ويقول المتنبي:

والذكر للإنسان عمر ثانِ

فهذه ثلاثة آراء: إما أن يكون المراد بذلك ذكره بعد وفاته بالخير، وإما المراد بذلك البركة في عمره، والصحيح أنها الزيادة الفعلية في عمره، وأن المكتوب عند الله المعلوم عنده هو أن هذا الرجل سوف يصل رحمه ويمتد عمره.

٥ ـ أن الناس لهم مشارب ولكلٍّ مسلك؛ لقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهو كذلك.

٦ ـ أن الإخبار عن الشيء أو عن وقوع الشيء لا يدل على حلّه، فقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ لا يدل على حلِّ إرادة الإنسان الدنيا بعمله، إنما هو خبر عن أمر وقع، والحل والحرمة يؤخذ من دليل آخر

من الشرع. ومن ثم يتبين خطأ من قال: إنه لا يشترط للمرأة محرم في السفر؛ لأن الرسول ﷺ أخبر أن «**الظعينة تخرج من صنعاء إلى عدن لا تخشى إلا الله ولا تخاف على نفسها**»[1]، لأن هذا إخبار عن الواقع وليس إقراراً له شرعاً، ألم يقل الرسول ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**. قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: **فمن؟!**»[2]. بلى قال ذلك، فهل يعني هذا أنه يجوز أن نتبع سنن اليهود والنصارى لأن الرسول أخبر بأننا سنتبعهما؟ أبداً.. فالإخبار عن الشيء وقوعاً لا يدل على جوازه شرعاً، إنما يؤخذ جوازه أو عدم جوازه من أدلة أخرى.

٧ ـ الرد على الجبرية؛ لقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ حيث أثبت للإنسان إرادة، والجبرية يقولون: إن الإنسان ليس له إرادة، وأنه يفعل بدون اختيار ولا إرادة، ولكن كل النصوص السمعية والعقلية ترد على قولهم.

٨ ـ أن الإنسان قد يريد بعمله أن يُمدح عند الناس، وهذا لا يكون له من عمله إلا ما ناله من الدنيا فقط، نسأل الله السلامة. يعني مثلاً: الإنسان يصلي ليقال مجتهد في العبادة. يقرأ

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام بلفظ: «**فإن طالت بك حياة لترين الظعينة قد حلَّ من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف أحداً إلا الله...**»، رقم (٣٥٩٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة، باب قول النبي ﷺ «لتتبعن» بلفظ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**. قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: **فمن؟**»، رقم (٧٣٢٠).

ليقال قارئ، يتصدق ليقال كريم، يقاتل ليقال شجاع وما أشبه ذلك، فالذي يريد بعمله الصالح هذه الأمور الدنيوية ليس له حظ في الآخرة، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

٩ ـ إيثار إرادة الآخرة على الدنيا؛ لقوله: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فإن هذا يدل على أن من أراد الآخرة فإنه من الشاكرين الذين يجزيهم الله عزّ وجل.

١٠ ـ إثبات الجزاء على العمل، وهذا أعني الجزاء على العمل دائر بين أمرين، بين عدل وفضل، ويمتنع الأمر الثالث وهو الظلم بالنسبة لله عزّ وجل، والذين يجازون العمال على أعمالهم ينقسمون في جزائهم إلى ثلاثة أقسام: عدل وفضل وظلم.

ولهذا نجد أن منهم مَنْ يظلم عماله، ومنهم من يعطيهم حقهم كاملاً، ومنهم من يزيد، أما بالنسبة لجزاء الله تعالى فإن الظلم ممتنع عن الله، لا عجزاً عنه ولكن لكمال عدله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

١١ ـ الحث على الشكر؛ لأن الإخبار بأن الله يجزي الشاكرين يراد به الحث على الشكر. قال العلماء: الشكر يتعلق بالقلب واللسان والجوارح؛ فبالقلب بحيث يشعر الإنسان بنفسه أن هذه النعمة من الله عزّ وجل لا من حول الإنسان وقوته ولكنها بفضل الله. وباللسان يشكر الله يعني: يتحدث بنعمة الله، يتحدث بلسان الحال وبلسان المقال، فلسان المقال أن يقول: أحمد الله الذي فضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً، أحمد الله الذي أعطاني الولد، أحمد الله الذي أعطاني المال، أحمد الله الذي يسَّر لي

بيتاً وما أشبه ذلك، وبلسان الحال أن يظهر أثر النعمة على العبد، فإن الله يحب من عبده إذا أنعم عليه نعمة أن يرى أثر نعمته عليه، وعلى هذا فإذا آتى الله الإنسان مالاً وخرج إلى الناس بالثياب الخلقة أو بثياب رثة أو ما أشبه ذلك هل يعد شاكراً؟ أليس هذا زهداً؟ لا، ليس بزهدٍ، هذا من رآه قال: هذا فقير ما أنعم الله عليه بشيء، فيكون هذا المظهر منبئاً عن أن الله لم ينعم على هذا الشخص. والشكر بالفعل وهو الثالث: أن يقوم الإنسان بطاعة الله، إذا أنعم الله عليه بمال يتصدق منه، بعلم ينشره، بجاه يتوسط للناس ويشفع لهم وما أشبه ذلك. هذا من الشكر بالفعل، وعلى هذا يقول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

وابن القيم ذكر أن الله يسَّر له شيخ الإسلام ابن تيمية، وأخبر أنه لا يستطيع أن يجزيه بيده ولا لسانه. ولقد مرَّت علينا هذه في شرحنا على نونيته رحمه الله تعالى حيث قال:

حتى أتاح لي الإله بفضله ... من ليس تجزيه يدي ولساني
حبرٌ أتى من أرض حران فيا ... أهلاً بمن قد جاء من حرانِ
فالله يجزيه الذي هو أهله ... من جنة المأوى مع الرضوانِ

❁ ❁ ❁

□ ثم قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

أولاً: القراءات في هذه الآية كما يلي:

﴿وَكَأَيِّن﴾ فيها قراءتان: ﴿وَكَأَيِّن﴾ و(كَائِنْ من نبي).

﴿نَّبِيٍّ﴾ فيها قراءتان: ﴿نَّبِيٍّ﴾ ونبيء بالهمزة.

﴿قَٰتَلَ﴾ فيها قراءتانِ (قُتِل) و﴿قَٰتَلَ﴾.

والذي معنا في المصحف ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾.

(كأين) الصحيح أنها كلمة غير مركبة يعني بسيطة. البسيطة عند النحويين يعنون بها غير المركب، وقال بعضهم: إنها مركبة من كاف التشبيه وأي الاستفهامية، ولكن الصحيح خلاف ذلك، الصحيح أنها كلمة بسيطة نطق بها العرب هكذا، كما نطقوا بـ(كم)، وأن معنى ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ كم من نبي. فهي إذن للتكثير، وهي مبنية على السكون (كأين أو كائن) على اللغتين، هي مبنية على سكون النون، أما محلها من الإعراب فهي مبتدأ، والجملة التي بعدها خبرها.

وقوله: ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ جار ومجرور مميز لكأين؛ لأن (كأين) من الألفاظ المبهمة، والألفاظ المبهمة تحتاج إلى تمييز، من ذلك مثلاً ألفاظ العدد، ألفاظ العدد من الأشياء المبهمة؛ قولك مثلاً: عندي عشرون، فكلمة عشرون مبهمة تحتاج إلى تمييز فتقول: عشرون رجلاً، عشرون كتاباً، عشرون بيتاً، عشرون سيارة، وما أشبه ذلك، وتمييزها ـ أي كلمة (كأين) ـ يأتي بعدها مجروراً (بمن) كأين من نبي.

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ﴾ يعني كثير من الأنبياء.

وقوله: ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ كلمة قاتل أو قُتِلَ اختلف المفسرون فيها، فبعضهم وقف عليها، وقال في قراءته: (وكأين من نبي قتل)، أو ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ﴾ ثم استأنف فقال: ﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ وتكون جملة ﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ جملة مكونة من مبتدأ

وخبر ﴿رِبِّيُّونَ﴾ مبتدأ و﴿مَعَهُۥ﴾ خبر مقدم، والجملة في موضع نصب على الحال من الضمير في قتل أو قاتل يعني: قاتل أو قتل والحال أن معه ربيين كثير.

وقيل: إن قوله (وكأين من نبي) جملة مستقلة يوقف عليها، ثم يستأنف فيقال: (قتل معه ربيون كثير) يعني: وكأين من نبي وُجد وأُرسل وبُعث وأُيد بالآيات واتبعه ناس فقتل معه وفي صحبته ربيون كثير، وعلى هذا القول تكون ربيون نائب فاعل على قراءة قُتِل، وفاعل على قراءة قَاتَل، ويكون النبي سالماً على هذا التقدير الثاني. أما على الأول فيكون مقتولاً.

وقوله: ﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾:

(مع) ظرف وهي خبر مقدم و﴿رِبِّيُّونَ﴾ مبتدأ مؤخر على تقدير أن الضمير في قاتل أو قتل يعود على النبي، (وكأين من نبي قتل أو قاتل)، لكن فيه وجه آخر يقول: إن (ربيون) فاعل قاتل أو نائب فاعل على قراءة قتل، وبناء على هذا يختلف الإعراب، فتكون (مع) ظرف مكان متعلق بقاتل أو بقتل، ويكون (ربيون) فاعلاً على قراءة قاتل، ونائب فاعل على قراءة قُتل، وعلى هذا التقدير يكون القتال أو القتل واقعاً على الربيين وليس على النبي، ويختلف الحكم بالنسبة للصحابة، فإذا كان قاتل أو قتل فيه ضمير يعود على نبي صار فيه تسلية للصحابة؛ أي أن الأنبياء قد قتلوا قبل محمد وقاتلوا. وعلى الاحتمال الثاني أن (ربيون) فاعل أو نائب فاعل يكون فيه إشارة إلى أن الصحابة لم يكن الابتلاء بالقتال أو القتل خاصاً فيهم بل هو سابق في الأمم المتقدمين، فيكون المراد من الآية شيئاً من التوبيخ واللوم للصحابة الذين

جزعوا لما أصابهم في أُحد، ولهذا قال: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ﴾ إلى آخره.

هذا من حيث تركيب الجملة، أما من حيث الإفراد فقوله: ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ المراد بالنبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، ولكن ليس في القرآن لفظ نبي إلا ويراد به الرسول ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النساء: ١٦٣]. ونوح من المعلوم أنه من الرسل، بل هو من أولي العزم من الرسل. على كل حال: النبي عند أهل العلم من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، والرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، ولهذا سمي رسولاً من الرسالة. ولكن كل من ذكر في القرآن من الأنبياء فهو رسول.

وقد أشكل على بعض الناس فقالوا: كيف يوحى إليه بالشرع ولا يؤمر بالتبليغ؟ ولكن هذا في الحقيقة ليس محل إشكال؛ لأنه يمكن الجواب عنه بأنه أوحي إليه بالشرع ليتعبد به، ويكون هذا من باب التذكير له إذا كان نبياً بعد الرسل، ومن باب البيان له إذا كان نبياً لم يسبق بالرسل. مثال الثاني آدم، فآدم نبي ولم يسبق بالرسل. ومثال الأول ما وجد من أنبياء بني إسرائيل الذين لهم أتباع ولم يؤمروا بالتبليغ، فيكون إنباء الله لهم من باب التفضل عليهم بذكر الشريعة السابقة وإحيائها وإن كانوا لم يلزموا بأن يبلغوا الناس، وبهذا يزول الإشكال. فيمكن أن الله ينبئ أحداً ولا يأمره ولا يكلفه بالإبلاغ.

وقوله: ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ قاتل أو قُتل، المقاتلة مفاعلة تقتضي وجود مدافعة بالقتل من الجانبين؛ وهي أعم من القتل، ولهذا

قد تجوز المقاتلة ولا يجوز القتل، فلو وجدنا أهل قرية لا يؤذنون مثلاً فإنه يجب قتالهم ولكن لا يجوز قتلهم، يعني أننا إذا قدرنا على المعيَّن لا نقتله، ولكن نقاتلهم حتى يؤذنوا. مثلاً لو وجدنا قرية لا يصلون العيد فإنه يجب علينا قتالهم حتى يصلوا العيد ولكن لا يجوز قتلهم، فالقتل أخص من القتال بمعنى أنه يمكن أن يجوز القتال لقوم ولا يجوز قتلهم، ومن ذلك على رأي بعض العلماء الرجل الذي يريد المرور بين يديك أو بينك وبين سترتك فتدافعه فيأبى، فقد قال النبي ﷺ: «**فإن أبى فليقاتله..**»[1] ولكن لا يجوز أن يقتله. والفرق ظاهر؛ لأنه لو قلنا إنه يجوز أن يقتله لجاز لهذا المصلي أن يضرب هذا الذي أراد المرور في مكان مميت، ويسقط ميتاً، ولكن هذا ليس بجائز، وإنما يقاتله مقاتلة دفاع، فإن اندفع كفَّ عنه.

وقوله: ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ ربيون، قال بعضهم: إن الربيين نسبة إلى الربِّ ولكن كسرت الراء لأنها تغيرت عند النسب، وكم من حركة تغيرت عند النسب، مثلاً بنو أمية نقول فيهم: الأَمويين، تختلف الحركة عند وجود النسبة، فالربيون أصلها رَبيّون من الرب أو من التربية وهي مفتوحة الراء، ولكنها لما تحولت إلى نسبة كسرت الراء، وعلى هذا فالربيون هم الذين قاموا بعبادة الرب فَنَالوا منه سبحانه وتعالىٰ تربية خاصة.

ونظير ذلك قول العلماء: هذا عالم رباني نسبة إلى الرب والتربية، وقيل: إنها مضافة إلى رِبَّة بالكسر يعني منسوبة إلى

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب يرد المصلي من مرَّ بين يديه، رقم (٥٠٩). ورواه مسلم، كتاب الصلاة، باب منع المار بين يدي المصلي، رقم (٥٠٥).

(ربة)، وهي الطائفة فيكون معنى ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي طوائف كثيرون. وعلى كل حال فالله تعالى يبين أن كثيراً من الأنبياء قاتلوا أو قتلوا ومعهم ربيون كثير، أو كثير من الأنبياء قاتل معه ربيون أو قتل معه ربيون.

وقوله: ﴿كَثِيرٌ﴾ صفة «لربيون» وهي لا تقتضي الأكثر، مثلاً: إذا كان عندنا مائة وسلم منهم خمسون نقول: هؤلاء كثير. سلم منهم عشرون نقول: هذا كثير، سلم منهم ستون نقول: هذا كثير، لكن ما قبل الخمسين لا نقول فيها أكثر، وإنما نقول أكثر فيما تجاوز النصف. المهم أن ﴿كَثِيرٌ﴾ هنا يعني طوائف كثيرة قاتلوا أو قتلوا.

﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أي: ما جبنوا من أجل ما أصابهم في سبيل الله بل لم يزدهم ما أصابهم في سبيل الله إلا شجاعة وإقداماً؛ لأن عندهم من الإيمان ما يدفعهم إلى ما يصيبهم في سبيل الله، كما أن من طبيعة البشر أن الإنسان إذا اعتُدِيَ عليه احتمى أو حمى وزاد إقداماً، فكذلك هؤلاء ما جبنوا لما أصابهم في سبيل الله.

وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في طريقه وشريعته لأنهم مؤمنون بأن كل ما أصابهم فهو على خير، ولما دميت إصبع النبي ﷺ في إحدى الغزوات قال:

«هل أنتِ إلا أصبعٌ دَمِيتِ وفي سبيلِ الله ما لقيتِ»[1]

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من ينكب في سبيل الله، رقم (٢٨٠٢). ورواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى، رقم (١٧٩٦).

﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾ أي ما ضعفت عزيمتهم حتى لو قتل الكثير منهم، فإنها لا تضعف عزيمتهم خلافاً لمن كان عنده جبن فإنه تضعف عزيمته إذا قُتل أحد من قومه.

﴿وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾: من الاستكانة وهي الذل، أي: ما ذلوا لعدوهم مع أنه قُتل منهم كثير لكن كانوا على عزة؛ لأن الذي يعلم أن من قتل من قومه في سبيل الله لا يهتم إذ إنه مؤمن بأنه لو قتل هو لكان مقتولاً في سبيل الله، فلا يذل لأعداء الله.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

يحب الصابرين الذين يصبرون على كل ما يجب عليه الصبر، والصبر ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، يعني أن الإنسان يصبر نفسه على الطاعة ولا يضجر منها ولا يدعها، وصبر عن معصية الله، يعني أن الإنسان يصبر نفسه عن المعصية فلا يقدم عليها، وصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يتسخط بما يقضيه الله عليه من الأشياء المؤلمة.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ له عناية خاصة بهذه الأمة، حيث يسليهم بما حصل للأمم السابقة؛ لقوله: (وكأين من نبي قُتِلَ) على قراءة الوقف.

٢ ـ أن الجهاد مشروع في غير هذه الأمة؛ لقوله: ﴿قَٰتَلَ﴾ والقتال من الأنبياء وأتباعهم لا يكون إلا عن جهاد وهو كذلك.

٣ ـ الثناء على من سبق ممن يستحق الثناء، ولهذا قال: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾.

٤ ـ أن من طرق التشجيع على الشيء والإغراء به، أن يُذكر للإنسان سلف يقتدي به ويتشجع للحاق به؛ لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾.

٥ ـ الإشارة إلى انحطاط مرتبة الذين يذلون لأعداء الله، يؤخذ من قوله: ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ وذلك أن الإنسان المؤمن يجب أن يكون أشم كالطود العظيم بالنسبة لأعداء الله حتى إنه يجوز للإنسان الخيلاء وجر الثوب في مقابلة الأعداء، كما قال النبي ﷺ: «**إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن**»(١)، حتى إن بعض العلماء قال: يجوز للجيش الإسلامي أن يصبغ بالسواد رأسه ولحيته أمام الأعداء من أجل إرهابهم لأنهم يظنون أن المقابل لهم شباب، على كل حال سواء قلنا بهذا القول أم لم نقل، ينبغي للإنسان ألا يذل أمام عدوه بل يظهر له العزة بالقول وبالفعل؛ لأن إذلال الكافرين محبوب إلى الله، قال الله تبارك وتعالى في وصف النبي ﷺ وأصحابه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]. وقال الله تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠]، فكل شيء تغيظ به

---

(١) أخرجه الطبراني من المعجم الكبير (٧/ ١٠٥)، والهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب المغازي، باب غزوة أُحد، رقم(١٠٠٧١)، وهو في كنز العمال (٤/ رقم ١٠٦٨٥).

الكفار فهو قربة لك عند الله، وكل شيء تنال به الكفار من أذى أو قتل أو غير ذلك فإنه قربة تقربك إلى الله عزّ وجل، إلا إذا كان بيننا وبينهم عهد، فإن الواجب الوفاء بعهدهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

٦ ـ إثبات المحبة لله؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ والمحبة صفة من صفات الله تعالى المتعلقة بمشيئته؛ فهي من الصفات الفعلية لأنها تتعلق بالمشيئة، ووجه كونها تتعلق بالمشيئة أنها مربوطة بسبب، وكل صفة مربوطة أو مُعَلقة بسبب فإنها من الصفات الفعلية، وبناءً على هذه القاعدة المفيدة نقول: الرضا والفرح والضحك صفات فعلية.

فالله تعالى يحب، ولا ألذ للإنسان من محبة الله، من كونه يحب الله عزّ وجل، ولذلك إذا قمت تصلي وأنت صافي القلب بعيداً عن الدنيا، مقبلاً على الله، تجد في هذه الصلاة محبة الله ولذة عظيمة تنسيك الدنيا كلها، لأنك لا تجد شيئاً ألذ من محبة الله سبحانه وتعالىٰ.

ومرَّ علينا كثيراً ولا حاجة إلى التكرار أن أهل التعطيل ينكرون حقيقة المحبة يقولون: إن المراد بالمحبة الإثابة أو إرادة الإثابة. يعني أنها الشيء المخلوق المنفصل عن الله، وهو الثواب أو الإرادة؛ لأنهم يثبتون صفة الإرادة، فمعنى ﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على قولهم: أي يثيبهم أو يريد أن يثيبهم.

٧ ـ الحثُّ على الصبر؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ لأننا لا نعلم فائدة أجلّ وأعظم من الحث على الصبر في مثل هذا التعبير.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

لما ذكر الله سبحانه وتعالىٰ حسن فعل هؤلاء الربيين الذين قاتلوا مع الأنبياء وقتلوا، وأنهم ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، وهذا حسنُ فِعْل ذَكَرَ حسنَ قولهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾: (أن) وما دخلت عليه في تأويل مصدر، فهي تساوي المصدر أي: وما كان قولهم إلا قولهم: ربنا اغفر لنا ذنوبنا.

وهذه جملة مفيدة للحصر، يعني حصرت أقوالهم عند هذه المصائب أنهم سألوا الله المغفرة؛ مغفرة الذنوب والإسراف، وسألوه الثبات، وذلك لأن ما أصابهم إنما أصابهم بالذنوب كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] إذن علاقة هذه الآية بما قبلها أنه لما ذكر الله حسنَ فعالهم ذكر حسنَ مقالهم.

أما من حيث الإعراب فيقول المعربون: إن (قول) خبر كان مقدم، و(أن) وما دخلت عليه (أن قالوا) اسمها مؤخر، وعلى هذا فهو من باب تقديم خبر كان.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ يعني عند حدوث القتل ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ الضمير يعود على الباقين منهم الذين لم يقتلوا؛ لأن الذين قتلوا لا يمكن أن يقولوا هذا. ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾، (ربنا) يعني يا ربنا، فهو منادى حذفت منه ياء النداء تخفيفاً وتيمناً بالبداءة باسم الله. فحذف ياء النداء هنا له وجهان:

الأول: للتخفيف، **والثاني**: التيمن بالبداءة باسم الله.

نادوا الله تعالى عند الدعاء باسم الربوبية؛ لأن الربوبية هي التي فيها التصرف، وإجابة الدعاء من باب الربوبية، فتوسلوا باسم الله الذي يناسب ما يطلبون وهو إجابة الدعاء.

﴿ٱغْفِرْ﴾ يعني استر وتجاوز؛ لأنه مأخوذ من المغفر وهو ما يقي به المقاتل رأسه من السهام، في المغفر الستر والوقاية، ولهذا لو أن الله سبحانه وتعالىٰ هتك ستر المذنب لم تكن مغفرة تامة، ولو عذبه به وأخفاه عن الناس لم تكن مغفرة تامة، فإذا ستره وعفا عنه صارت المغفرة تامة.

﴿ذُنُوبَنَا﴾ أصل مادة «الذال والنون والباء» تدور حول معانٍ متعددة منها النصيب كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ [الذاريات: ٥٩] أي نصيباً. ومنه سمي ذنوب الماء، أي: الدلو؛ لأنه شيء مقدر من الماء، ويطلق الذنب على الإثم؛ لأنه نصيب العامل ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿وَإِسْرَافَنَا﴾:

الإسراف: مجاوزة الحد، ومجاوزة الحد هي إما في غلو وإما في تقصير، أما مجاوزة الحد في الغلو فظاهر، وأما في التقصير فلأن المطلوب من المكلف ألا يتعدى حدود الله تجاوزاً ولا يقربها أيضاً، فإذا كان الإنسان فاعلاً للمحرم فهو مسرف؛ لأنه تجاوز حد العبودية إذ مقتضى العبودية أن يكون مجتنباً لما حرّم الله. وإذا فرَّط في الواجب كان مسرفاً أيضاً فيما تقتضيه العبودية؛ لأن مقتضى العبودية أن يكون قائماً بالواجب، فالإنسان

قد يسرف في الواجب وفي المحرم وفي المباح أيضاً، كما لو أسرف في الإنفاق على نفسه وعلى أهله فإنه داخل في الإسراف.

وقوله: ﴿فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ المراد بالأمر هنا الشأن أي في شأننا، وهو مفرد مضاف فيعم جميع الأمور.

﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾:

ثبّت أقدامنا عند ملاقاة الأعداء وعند حلول الشبهات وعند ورود الشهوات، والإنسان محتاج إلى أن يثبِّته الله في مواطن القتال، إذ لو لم يثبته الله لفرَّ. ومحتاج إلى أن يثبِّته الله عند الشبهات، إذ لو لم يثبته الله لزاغ. ومحتاج إلى أن يثبته الله عند الشهوات، إذ لو لم يثبته الله لهلك. وكثير من الناس ينزلقون عند وجود الشبهات فتجده ذا يقين، ولكنه إذا وردت عليه أدنى شبهة تأثر لأنه لم يثبت. كثير من الناس أيضاً يكون عنده علم ويقين، وليس عنده شك ولكن الشهوة قد تغلبه فلا يثبت. فالمطلوب تثبيت الأقدام في كل موضع يمكن أن تزل فيه، فيدخل في ذلك كما قلت تثبيت الأقدام عند القتال كما هو سياق الآيات، وتثبيت الأقدام عند الشبهات، وتثبيت الأقدام عند الشهوات.

﴿وَٱنصُرۡنَا﴾:

انصرنا يعني اجعل النصر لنا، وهو الغلبة ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يعني الكافرين بالله، فيدخل في ذلك أن ينصرك الله عزّ وجل على نفسك؛ لأن نفسك إن لم ينصرك الله عليها فإنها تأمرك بالسوء ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فإذا لم ينصرك الله عليها أهلكتك، وإذا نصرك الله عليها

وجعل الغلبة للنفس المطمئنة سلمت منها، ويدخل في النصر على القوم الكافرين النصر على الشيطان، فإن الشيطان كافر، قال الله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] ويدخل في ذلك النصر على كفار الإنس، وذلك حين قتالهم فإن الإنسان إذا لم ينصره الله عليهم فإنه لا ناصر له كما قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن هؤلاء الربيين الذين قاتلوا مع النبي كملت منهم الأفعال والأقوال، من الأفعال قوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ﴾ [آل عمران: ١٤٦] ومن الأقوال: أنهم لجأوا إلى الله عزّ وجل بسؤال المغفرة، مغفرة الذنوب والإسراف في الأمر، لأنهم يعلمون أن ما أصابهم إنما هو بسبب الذنوب.

٢ ـ أنه ينبغي على الإنسان أن يدعو الله تعالى بهذا الدعاء لا سيما عند ملاقاة الكفار حتى ينتصر عليهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٣ ـ أن الإنسان مفتقر إلى مغفرة الله؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، ولو كان غنياً عنها ما سألها ولكنه مفتقر إليها غاية الافتقار، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام لمّا حدّث أصحابه أنه لن يدخل الجنة أحد بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**»[1].

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٩٦).

٤ ـ أن الإنسان لا يخلو من الإسراف على نفسه إما في غلو وإما في تقصير، وجه ذلك أن سؤالهم الله أن يغفر لهم الإسراف يدل على وجود هذا الشيء، وأنت إذا تأملت نفسك وجدت أنك لن تخلو من الإسراف.

٥ ـ أن الإنسان مفتقر إلى تثبيت القدم من الله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾، وقد ذكرنا أن هذا يشمل ثلاثة مواطن: عند مواجهة الأعداء، وعند الشبهات، وعند الشهوات.

٦ ـ أن الله إذا لم ينصرك على عدوك، فإنك لن تنتصر؛ لقوله: ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإن قلت: هل هذا يعارض أمر الله عزّ وجل باتخاذ ما نستطيع أو بإعداد ما نستطيع للأعداء من القوة؟ فالجواب: لا، لأنك إذا سألت الله شيئاً فإن المطلوب منك أن تسعى في حصوله وإيجاده، ولهذا لو سألت الله الجنة، فالمطلوب منك أن تعمل لها لا أن تقول: اللهم إني أسألك الجنة وتترك العمل، كذلك إذا سألنا الله أن ينصرنا على القوم الكافرين فإن علينا أن نفعل من الأسباب ما نستطيع، سواء كانت هذه الأسباب معنوية أو مادية.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال الله تعالى مبيناً ما ترتب على حسن حالهم ومقالهم: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨]:

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ آتاهم: أي أعطاهم الله. و«أتى»: تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر؛ لأنها من باب كسا وأعطى.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ المفعول الأول هنا: الهاء في آتاهم، والثاني: ثواب ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي جزاءها وذلك بالنصر على أعدائهم والغنيمة فيمن تحل له الغنيمة. ومعلوم أنه لا تحل الغنيمة إلا لهذه الأمة، لكن المراد النصر على الأعداء والعزة والغلبة عليهم، وحُسْن ثواب الآخرة، ولم يقل: ثواب الآخرة، بل قال: حسن؛ لأن ثواب الآخرة الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وليس ثواب مكافأة فقط، إذ لو كان ثواب مكافأة فقط لكان الحسنة بمثلها، لكنه ثواب حُسْن وفضل، ولهذا قال: ﴿وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ هذا وجه، والوجه الثاني أنه لم يعبر عن ثواب الدنيا بالحسن؛ لأن الدنيا مهما كانت فهي دار شقاء وعناء وكدر، لا يمكن أن يخلو صفوها من كدر، ولهذا لم يقل: حسن ثواب الدنيا، إذ إنه في الحقيقة ليس له حسن، وهو إن كان حسناً فهو حسن نسبي وإلا ففيه حسن لا شك ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾ [البقرة: ٢٠١] لكنه أمر نسبي حتى المنعمون بالنعمة تجدهم أحياناً يأتيهم ما ينغص عليهم هذه النعمة.

وقوله: ﴿وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ يعني يوم القيامة، وذلك برفعة الدرجات في جنات النعيم، والنجاة من دركات الجحيم.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يعني أنهم هم محسنون فأحبهم الله عزّ وجل، وكان من مقتضى محبته لهم هذا الثواب الحاصل في الدنيا وفي الآخرة.

وقوله: ﴿يُحِبُّ﴾ المحبة صفة من صفات الله حقيقة، فهو عزّ وجل يحب حقيقة، وليست محبته بمعنى الثواب أو الجزاء

كما قاله بعض أهل التحريف الذين ينكرون من الصفات ما ينكرون ومنها المحبة، فإنهم ينكرونها؛ ويقولون: إن الله لا يحب بل ولا يُحب، وتعليلهم أن الحب لا يكون إلا بين متجانسين، مخلوق ومخلوق، ولكن نقول لهم: هذا باطل. فالحب قد يكون بين شيئين متباعدين ومنه قول الرسول ﷺ: «**أُحد جبل يحبنا ونحبه**»[(١)] وهو جماد، ومن الأشياء المحسوسة الملموسة أن الإنسان يحب أثاثه وأمتعته ورواحله وسياراته ودوره؛ يحبها محبة ظاهرة ملموسة محسوسة وهي ليست من جنسه فهي من جنس آخر، بل هي أيضاً دونه؛ لأنها ملكه، فهذا التعليل الذي نفوا به صفة المحبة لله تعليل باطل.

وقوله: ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يشمل المحسنين في عبادة الله والمحسنين إلى عباد الله؛ أما المحسنون في عبادة الله فقد بيَّن الرسول ﷺ كيف يكون الإحسان فقال حين سأله جبريل عن الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(٢)]، يعني أن تعبد الله تعالى طلباً مع اليقين التام، فإن لم تصل إلى هذه الدرجة فلا أقل من الدرجة الثانية، وهي أن تعبد الله هرباً، تعبده كأنه يراك فتهرب من عقابه بالقيام بطاعته، فالإحسان حقيقة يشير فيه الرسول ﷺ إلى أنه نوعان: إحسان بطلب، وإحسان بهرب.

الأول: أن تعبد الله كأنك تراه، فتطلبه طلب الوصول إليه.

والثاني: كأنه يراك فتخافه وتخشاه وتعظمه، والأول أكمل من الثاني. هذا هو القول الراجح في معنى الحديث، وإن كان بعضهم

---

(١) تقدم تخريجه في المجلد الأول (ص٤٣٤).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٧٥).

يقول: إنه مرتبة واحدة، وأن المعنى: إن لم تكن تراه فإنه يراك قريب من المعنى الأول، فالجملتان قريبتان من الترادف، والصواب ما قلناه أولاً، وإذا كان يحب المحسنين؛ فإنه يترتب على محبة الله سبحانه وتعالىٰ أشياء كثيرة، منها ما يكون في الدنيا ومنها ما يكون في الآخرة؛ فما يكون في الدنيا فإن الله إذا أحب الإنسان سدد أعماله وخطواته وأقواله وأفعاله، كما جاء في الحديث الصحيح: **«من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه..»**[1] هذا من فوائد محبة الله.

ومن فوائد محبة الله عزّ وجل تيسير فعل الطاعة وترك المعصية، وذلك لأن الإنسان إذا أحب شيئاً طلب الوصول إليه؛ فإذا كان يحب المال طلب الوصول إلى المال بالبيع والشراء والتأجير وغير ذلك، وإذا أحب شخصاً طلب الوصول إليه بمصاحبته ومصادقته، وإذا أحب أي شيء فإنه يطلب الوصول إليه، فإذا أحب الله العبد أحبه العبد فطلب الوصول إليه.

ومن فوائد محبة الله للعبد أن الله تعالى يلقي في قلوب العباد محبته، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]. وجاء في الحديث: **«أن الله إذا أحب عبداً نادى جبريل: إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه**

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢).

أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»[١] فيكون مقبولاً عند الناس.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ أثاب هؤلاء الذين أحسنوا في مقالهم وفعالهم بثواب الدنيا وثواب الآخرة.

٢ ـ أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه؛ فهو يثيب الطائع بثوابين: ثواب في الدنيا وثواب في الآخرة، بخلاف العقوبة: فإن الله تعالى لا يجمع بين عقوبتين، فإذا شرَّع عقوبة في الدنيا على ذنب فإنه لا يعاقب به في الآخرة، كما جاء في الحديث: **«إن الحدود كفارة»**[٢]. الحدود يعني العقوبات كحد الزنا والسرقة إنها كفارة لأصحابها، وقال النبي ﷺ للمتلاعنين: **«عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»**[٣]، بل إن الله تعالى قال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠]، فلن يجمع الله للإنسان عقوبتين على معصية، عقوبة في الدنيا وعقوبة في الآخرة، لكن يجمع بين ثوابين في الطاعة ثواباً في الدنيا وثواباً في الآخرة؛ لأن رحمة الله سبقت غضبه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب المِقَة من الله تعالىٰ، رقم (٦٠٤٠). ومسلم، رقم (٢٦٣٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ﴾ بلفظ: **«من أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له...»**، رقم (٤٨٩٤). ورواه مسلم بنفس اللفظ، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، رقم (١٧٠٩).

(٣) رواه مسلم، كتاب اللعان، رقم (١٤٩٣).

فإن قال قائل: في بعض الآيات رتَّب الله عزّ وجل على بعض الأعمال ـ مثل من حارب الله عزّ وجل أو سعى في الأرض فساداً ـ عذابين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ ثم ذكر في النهاية ﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

فالجواب: صحيح أن هذا الخزي ينالهم في الدنيا، ولكن لعل هذا لعظم أفعالهم صار لهم الحد في الدنيا، والعذاب في الآخرة، وإلا فقد ثبت في الصحيحين وغيرهما: «**أن من أصاب شيئاً من هذه الذنوب والمعاصي فأقيم عليه في الدنيا، فإنه كفارة له**». ولقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠] وأن الله لا يجمع للإنسان عقوبتين على المعصية. وقد يقال: لشدة جرمهم وذنبهم يجمع لهم بين هذا وهذا.

٣ ـ الإشارة إلى خفة شأن الدنيا بالنسبة للآخرة، تؤخذ من قول الله تعالى: ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ كأن الدنيا ليست بشيء حتى يكون فيها حسن كما قررنا. ففيه إشارة إلى أن العاقل ينبغي له أن يعتني بثواب الآخرة الذي هو حسن.

٤ ـ إثبات البعث والجزاء؛ لقوله: ﴿ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾.

٥ ـ إثبات المحبة لله، وهي صفة حقيقية ثابتة لله على الوجه اللائق به.

وهكذا جميع الصفات التي جاءت في الكتاب والسنة، كالرضا والفرح والعجب، يجب علينا أن نؤمن بها على أنها حق على حقيقتها؛ لأن الله خاطبنا بالقرآن بلسان عربي مبين. ولم

يأتِ عن الصحابة ولا عن الأئمة أنهم حرَّفوا هذه النصوص عن ظواهرها، وهذا يدل على أنهم أقرُّوا بها كما جاءت على ما هي عليه، وهذا مذهب السلف ومذهب أهل السنة والجماعة وفيه الراحة والطمأنينة؛ لأن الإنسان إذا لاقى ربه وقد أثبت له الصفة التي دلَّ عليها القرآن والسنة فإنه يوافيه بحجة؛ لكن إذا وافى ربه وقد حرَّف وقال: معنى ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي يثيبهم فليس له حجة عند الله. ونحن نتكلم دائماً على أن الذين أنكروا شيئاً من صفات الله بحجة عقلية نجيبهم على سبيل الإجمال بأن نقول:

أولاً: أن هذا خلاف طريقة السلف؛ لأن السلف لم يستدلوا بالعقل على إثبات الصفات أو نفيها.

ثانياً: أن العقل لا مجال له في باب صفات الله؛ لأن صفات الله خبر محض، والأخبار المحضة ليس للعقول فيها مجال إطلاقاً، ثم لو قال قائل: ألا يمكن أن نقيس الغائب على الشاهد؟ قلنا: لا يمكن القياس؛ لأن الله نفى هذا القياس ونهى عنه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] نعم ربما أقيس شخصاً لم أعلم به على شخص أعلم به وأشاهده، ولكني لا يمكن أن أقيس الخالق على المخلوق؛ لأن الله نفى ذلك بل نهى عنه.

ثالثاً: أن نقول لهم: إن نفيكم لما نفيتم بحجة أن العقل لا يدل عليه غير صحيح في الاستدلال عند العقلاء، وذلك لأننا لو قدرنا أن العقل لا يدل عليه فقد دلَّ عليه السمع، وانتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول.

يعني إذا قلنا: هذا لا يدل على كذا، قلنا: لكن عندنا دليل

آخر، هب أن العقل لا يدل على ما نفيتم من الصفات لكن السمع دلَّ عليه، وهذا كما أنه في الأمور المعقولات فهو أيضاً في الأمور المحسوسات، لو قلت: إن هذا الطريق لا يؤدي إلى مكة، هل معناه أنه لا يمكن أن نصل إلى مكة؟ يمكن أن نصل عن طريق آخر، فهب أن العقل لا يدل على ثبوت ما نفيتم فإننا نستدل عليه بالسمع.

رابعاً: أن نقول: بل إن العقل يدل عليه وأولى مما ذكرتم، يعني أن نثبت ما نفيتم بدليل العقل، نثبته بدلالة العقل إثباتاً على وجه يكون أظهر مما ذكرتم، فمثلاً: هم يقولون والكلام هنا مع الأشعرية: إن الإرادة ثابتة لله عزّ وجل؛ لأن العقل دلَّ عليها بالتخصيص، يعني كون السماء سماء والأرض أرضاً هذا تخصيص.

ما الذي خصَّص أن تكون السماء سماء والأرض أرضاً؟ الإرادة: أراد الله أن تكون السماء سماء فكانت، وأن تكون الأرض أرضاً فكانت، إذن فهذا دليل عقلي على ثبوت الإرادة لله. ونقول: أنتم نفيتم الرحمة ونحن نستدل لها بالعقل! ألم تكن نعم الله عليكم لا تحصى؟ سيقولون: بلى لا تحصى. وهي آثار رحمة، ولهذا حتى العامة إذا جاء المطر وانتشر الخصب يقولون: هذه من رحمة الله أن أنزل علينا المطر وانتشر الخصب، بل يقولون: مطرنا بفضل الله ورحمته، يثبتون الرحمة لله بدليل عقلي. كذلك أيضاً الرضا يمكن أن نثبته بدليل العقل. فإثابة الطائعين تدل على رضا الله عنهم، إذ لو غضب لانتقم لكنه رضي فأثاب. فهذا دليل عقلي، فصار الذين ينكرون ما ينكرون من الصفات بحجة أن العقل لا يدل عليها محجوجين من أربعة أوجه كما ذكرناها سابقاً.

٦ ـ الحث على الإحسان؛ لأنَّ الإحسان سبب لغاية هي غاية كل إنسان وهي محبة الله، فإذا كان سبباً لهذه الغاية العظيمة كان مأموراً به محثوثاً عليه. ويدلكم على أن محبة الله هي الغاية أن الله قال في كتابه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ولم يقل: فاتبعوني تصدقوا فيما ادعيتم بل قال: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، لأن الثمرة العظيمة هي أن الله يحبك، مع أننا نضمن أنه من أحب الله حقًّا فسيحبه الله؛ لأن الله يقول: «**من أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن تقرب إلي شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً**»(١). فإذا كانت محبتك لله صادقة فإن محبة الله لك مضمونة. لكن البلاء كل البلاء أن تدَّعي المحبة وليست محبتك صادقة، يكون قلبك مشغولاً بمحابَّ أخرى كمحبة المال ومحبة الأولاد ومحبة القصور ومحبة المراكب ومحبة النساء وهكذا، هذه المحاب تضايق محبة الله في القلب، إلا إذا كانت تابعة لمحبته سبحانه وتعالىٰ، ولا يقال عنا: أننا نوصد باب محبة جبلت النفوس عليها، وإنما نقول: محبة هذه الأشياء إذا كانت تابعة لمحبة الله صارت من محبة الله. لو أحب المال من أجل أن ينفقه في سبيل الله، كانت هذه المحبة لا تزاحم محبة الله بل تزيدها. ولو أحب النساء من أجل تكثير الأمة ومن أجل تحصين فرجه ومن أجل الفوائد التي رتبت على النكاح، كان هذا من محبة الله، لكن لمجرد قضاء الوطر تجده يتعلق

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، رقم (٧٤٠٥). ورواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالىٰ، رقم (٢٦٧٥).

قلبه بكل امرأة، ما يستقر على شيء، حينئذ تكون هناك مزاحمة فتضعف محبة الله سبحانه وتعالىٰ في القلب، المهم أن الشأن كل الشأن هو أن الله يحبك، هذا هو المهم.

٧ ـ إثبات الصفات الاختيارية لله عزّ وجل يعني التي تتعلق بمشيئته، فإذا علّق الله الصفة على فعل علمنا أنها من الصفات الاختيارية المتعلقة بمشيئته. فإذا كان الإحسان سبباً لمحبة الله وهو فعل العبد وهو حادث، لزم من ذلك ثبوت المحبة المعلقة بالإحسان. والصفات الاختيارية أيضاً أنكرها الأشاعرة ونحوهم، وقالوا: لا يمكن أن يكون لله صفات حادثة اختيارية، لماذا؟

قالوا: لأننا لو أثبتنا لله صفات حادثة لزم قيام الحوادث به، والحوادث لا تقوم إلا بحادث، والله عزّ وجل أزلي أبدي. فيقال: ويلكم هذا كذب أن الحوادث لا تقوم إلا بحادث! أليس الله يقول: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ويقول: ﴿ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] أليس الإنسان منا إرادته ليست تابعة لوجوده، بل للإنسان إرادات تتجدد ولا يلزم أن يكون هذا المريد لم يوجد إلا عند وجود الإرادة بل هو سابق عليها. نحن سابقون على إرادتنا يعني أن الإنسان موجود قبل أن يريد، فلا يلزم تساوي الإرادة مثلاً أو الأفعال الاختيارية مع الوجود، فالإنسان يفعل أفعالاً كثيرة متجددة لم تكن معه حين وجوده، فكذلك الرب عزّ وجل يفعل ما يريد أفعالاً لم تكن معه سبحانه وتعالىٰ أزلية بل هي حادثة، لكن قد تكون حادثة النوع وقد تكون حادثة الآحاد، ويكون نوعها قديماً أزلياً.

فالكلام مثلاً قديم أزلي لم يزل الله سبحانه وتعالىٰ متكلماً لكن آحاده حادثة لا شك ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ونحن نعلم أن مرادات الله عزّ وجل تقع ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] يحيي ويميت، يعز ويذل، يرزق ويمنع، وكل هذه الأشياء بإرادة مقرونة بالقول: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ومع ذلك لا يلزم منه أن يكون سبحانه وتعالىٰ حادثاً. فتعليلهم هذا النفي الذي سلكوه تعليل عليل يوجب الوصف بالنقص. فانظر كيف كان أهل الباطل يفرون مما يعتقدونه باطلاً، فيقعون في شيء هو أبطل منه وأشر منه، مع تطاولهم على تحريف النصوص وتعطيل الله عزّ وجل عما وصف به نفسه، فهم محرفة ومعطلة واقعون في شر مما فروا منه.

فإن قال قائل: وهل يؤثر أخذ المغنم على الثواب الأخروي لحديث: «**ما من غازية أو سرية تغزو فتغنم وتسلم إلا كانوا قد تعجلوا ثلثي أجورهم...**»[1]؟

الجواب: أن أخذ المغنم لا يؤثر على الثواب الأخروي إذا خلصت النية أن تكون كلمة الله هي العليا، لكن قد يكون بعض المجاهدين يغلِّب جانب الغنيمة؛ فمن هنا ينقص الأجر كثيراً حسب التغليب الذي قام في قلبه، فالحديث يحتاج إلى نظر في سببه، فلربما يكون سببه يدل على أن لهم إرادة في الدنيا.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان قدر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم، رقم (١٩٠٦).

❑ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩ ـ ١٥٠].

صدَّر الله هذه الآية بالنداء، والتصدير بالنداء يدل على العناية بما سيوجه للمخاطب، وذلك لأن النداء يفيد التنبيه، ولا ينبه الإنسان إلا لشيء مهتم به. فإذا وجَّه الله الخطاب، أو إذا صدَّر الخطاب بالنداء فهو دليل على العناية به لأهميته، ثم وجّه إلى العباد باسم الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ والغرض من ذلك هو:

أولاً: الإغراء والتشجيع على قبول ما يلقىٰ؛ لأن الإيمان هو الذي يحمل الإنسان على قبول ما أمره الله به وعلى ترك ما نهى الله عنه. ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأرعها سمعك، فإما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه».

ويفيد أيضاً فائدة ثانية، وهي: أن قبول المذكور من مقتضيات الإيمان. كما أنك لو وجهت إلى شخص كريم وقلت له: يا أيها الكريم، أعط الفقير وأعن المحتاج، فهو يدل على أن إعطاء الفقير وإعانة المحتاج من مقتضى كرمه، إذن قبول ما يأتي بعد هذا الخطاب يكون من مقتضى الإيمان.

الفائدة الثالثة أو الغرض الثالث: أن عدم قبوله نقص في الإيمان؛ لأنه إذا وجَّه الخطاب إلى إنسان بلفظ الإيمان ولكن لم يمتثل فهذا نقص في إيمانه؛ لأن ما يأتي بعد النداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إما مأمور به أو منهي عنه أو مخبر به، فترك المأمور به نقص في الإيمان، والوقوع في المحظور نقص في الإيمان، والتكذيب بالخبر نقص في الإيمان.

استمع إلى هذا الخبر من الله عزّ وجل، خبر من العليم بكل شيء سبحانه وتعالىٰ:

﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

(إن) هنا شرطية، وفعل الشرط (تطيعوا) مجزوم بحذف النون والواو فاعل؛ لأنه من الأفعال الخمسة.

أما جواب الشرط فهو قوله: ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ وهو مجزوم بحذف النون والواو فاعل.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إذن هناك أمر موجه من الكفار إلى المؤمنين؛ لأن الطاعة تقابل الأمر، أو نهي موجه من الكافرين إلى المؤمنين يأمرونهم بالفحشاء وينهونهم عن المعروف، فإن أطعتموهم في ذلك فالجواب: يردوكم على أعقابكم.

وقوله: ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عامة تشمل اليهود والنصارى والمشركين والملاحدة الذين ليس لهم دين ولا يتعبدون بشيء، أي واحد من الكفرة إذا أمرك بشيء فأطعته فإنه يردك على أعقابك فتنقلب خاسراً.

وقوله: ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي فيما يتعبد به الله، أما في المسائل الأخرى كمسائل الصناعة مثلاً فإنه لا يدخل في الآية بلا شك، فلو أن مهندساً من الكفار أمرك أن تصنع كذا لتكون النتيجة كذا فإنه لا يدخل في الآية، إنما يقصد به ما يكون

على سبيل التعبد كأن يأمرك بالفحشاء مثل شرب الخمر والسرقة وسوء الأخلاق، أو ينهاك عن المعروف؛ ينهاك عن الصلاة، أو ينهاك عن الإخلاص لله وما أشبه ذلك.

﴿أَعْقَـٰبِكُمْ﴾:

الأعقاب جمع عقب، وهو مؤخرة القدم، ويقال له: العرقوب يعني يجعلونكم تمشون على الخلف، ومعلوم أن الذي يمشي على الخلف سوف يقع في الحفر ويطأ الشوك والحصى، وهذا قريب من قوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

﴿فَتَنقَلِبُوا۟﴾ الانقلاب يقتضي التحول من حال إلى حال، ولهذا يقال: انقلب في فراشه من الجنب الأيمن إلى الجنب الأيسر. إذن هناك تحول من حال إلى أخرى إذا أطعنا هؤلاء الكفار.

وقوله: ﴿خَـٰسِرِينَ﴾ هذه حال من الواو في قوله: (فتنقلبوا) أي تكونوا في خسارة بعد أن كنتم في ربح؛ لأن الإيمان ربح كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١، ٢] كل إنسان، ولهذا «ال» هنا للعموم أي أن كل إنسان في خسر. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع هم الرابحون، ومن سواهم فهو خاسر عصره.

وهذه الحكمة من أن الله أقسم بالعصر دون غيره؛ لأن العصر هو خزائن الأعمال. فإذا لم يقم الإنسان بهذه الصفات الأربع خسر عصره وكان عمره خسارة.

﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾ لأنكم تحولتم من الإسلام إلى الكفر،

وفي آية أخرى سبقت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، فهنا قال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهناك قال: ﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾. لأن الذين أوتوا الكتاب بعضهم فيه خير، كما قال تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ [آل عمران: ١١٣]. وهذا من بلاغة القرآن لما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠] فريقاً منهم.

أما الكفار فكل الكافرين يريدون منا أن نكفر، وأن ننقلب على أعقابنا خاسرين.

فإن قال قائل: لمَ لا نحمل قوله ﴿فَرِيقًا﴾ على العموم فيشمل كل أهل الكتاب لقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١] أي: كل يهودي وكل نصراني؟

فالجواب: أن يقال: الآية صريحة ﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، لأن بعض أهل الكتاب معهم نصح لكن ليس كلهم، ثم إن أهل الكتاب في الحقيقة في الوقت الحاضر ليس فيهم نصح؛ لأن الذين فيهم مودة للذين آمنوا أو أقرب الناس مودة هم الذين إذا ﴿سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، هؤلاء قريبون من المؤمنين، يتأثرون بأدنى دعوة ويدخلون في الإسلام، أما نصارى اليوم فالظاهر أنهم كيهود الأمس معاندون ضد الإسلام، ولا يريدون أن تقوم للإسلام قائمة. ولكن الإسلام دين الفطرة تتقبله النفوس وتطمئن إليه، وهو أمر يحث الدعاة المخلصين من المسلمين، والقلوب بيد الله عزّ وجل.

ثم قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾:

(بل) هنا للإضراب الإبطالي، لكنه إبطال شيء مقدر؛ لأن طاعتنا للكفار تكون لرجاء أو خوف، يعني نحن لو أطعنا الكفار فإما أن نطيعهم رجاء، وإما أن نطيعهم خوفاً؛ رجاء أن ينصرونا أو يمدونا بالمال وما أشبه ذلك، أو خوفاً من أن يسطوا علينا وأن يحاربونا ويقاتلونا.

هنا حسن الإضراب تماماً فقال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ يعني لا تطيعوهم وتتولوهم فإن لكم مَنْ هو خير من ولايتهم وهو الله.

ولهذا يعتبر هذا الإضراب إضراباً إبطالياً لشيء مقدر ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أجل أن يكونوا لكم أولياء فإنهم سوف ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾. ثم قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ إذا كان الله مولانا سبحانه وتعالىٰ فإنه لا يهمنا أحد من الخلق ما دمنا نؤمن بأن الله هو مولانا بما معنا من الأوصاف التي نستحق بها الولاية، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولن يهمونا أبداً مهما كانوا من القوة، ومهما كانوا من الصناعة، ومهما كانوا من المال؛ لأن معنا الله عزّ وجل وهو الذي يقول للشيء كن فيكون، ولكن الله عزّ وجل يأمرنا أن نقاتل بأيدينا، فإذا أعيتنا القدرة مع القيام بما يجب حينئذ جاءنا نصر من الله لا قِبَل للبشر به، وهذه حقيقة يجب أن نفهمها.

نحن مأمورون بأن نعدَّ العدة وأن نقاتل، لكن إذا جاءنا من لا طاقة لنا به حينئذ يأتي نصر من الله ليس لنا به طاقة ولا لغيرنا، وله شواهد في التاريخ.

فموسى عليه السلام لما خرج من مصر وكان فرعون قد

جمع له جميع أهل المدائن، كل المدن جميعهم من أجل القضاء على موسى وقومه وقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤] ليخفف شأنهم عند قومه حتى يستعدوا ويهموا بالقضاء عليهم، ووصلوا إلى البحر.

هل للإنسان طاقة بالبحر؟ ليس له طاقة، ولهذا قال قومه: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] لأن البحر أمامهم وفرعون وجنوده خلفهم فكيف ينجون منهم؟ قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]. فأمره سبحانه أن يضرب البحر فضربه مرة واحدة بعصا تحمل باليد، مرة واحدة فقط، فانفلق اثني عشر طريقاً يبساً بلحظة، هذه الأرض الرطبة التي هي وحل وطين صارت بلحظة يبساً، وها هو الماء السيال صار كل فرق منه كالطود العظيم كالجبل، جبال واقفة ليست سيالة.

حتى إن بعض العلماء يقول: إن الله تعالى جعل في هذه الكتل المائية فرجاً حتى ينظر بنو إسرائيل بعضهم إلى بعض؛ لأن الإنسان في وسط الماء، المياه عن يمينه ويساره يخشى أن أصحابه قد غرقوا فجعل الله لهم فُرَجاً في هذه الأطواد ينظر بعضهم إلى بعض، بلحظة لا طاقة للبشر بها. فمن كان الله مولاه فهو منصور.

خرجوا من البحر ناجين، ثم دخل فرعون وقومه في البحر، ولمَّا تكاملوا داخلين، أمر الله البحر أن ينطبق فانطبق بلحظة فأغرق فرعون وجنوده، وكان فرعون قد أرعب بني إسرائيل فأخرجه الله جل وعلا لهم جسداً ينظرون إليه ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ [يونس: ٩٢] فاطمأنوا أنه هلك.

وفيما يذكر من تاريخ هذه الأمة الإسلامية أن العلاء بن الحضرمي لما وصل إلى البحرين وجد البحر أمامه وليس معه سفن، فدعا الله عزّ وجل فعبر الماء على أقدامه والخيول والإبل كلها تمشي على الماء كأنما تمشي على صفا من حجر، هذه ليس لنا بها طاقة.

وكذلك أيضاً ما يذكر عن سعد بن أبي وقاص عند فتح المدائن أنه وصل إلى دِجْلة وهي تقذف زبداً من قوة الجريان، وقد عبرها الفرس بسفنهم وجسورهم وكسروا الجسور وأغرقوا السفن، ولم يبق للمسلمين شيء يعبرون به، فقال سعد بن أبي وقاص لسلمان الفارسي: أعطنا من آرائك؛ لأنه رضي الله عنه كان ذا رأي في الحرب، وهو الذي أشار بحفر الخندق على المدينة في عام الأحزاب فقال: والله لا أرى حيلة في هذا، البحر بين أيدينا وليس معنا سفن ولا جسور ولكن دعني أنظر في القوم، إن كانوا على ما ينبغي وهم أهل للنصرة فليس بنو إسرائيل بأولى منا من النصرة، والله عزّ وجل قد فلق البحر لهم فعبروا. فذهب فوجد القوم فرساناً في النهار رهباناً بالليل؛ في الليل ركوعاً وسجوداً، وفي النهار يصلحون معدات الحرب ويستعدون. فرجع إليه بعد ثلاث وقال: إني وجدت القوم على أحسن ما يرام، ولكن توكل على الله، فنادى سعد بالرحيل وأنه سوف ينفذ البحر وقال: إني مكبر ثلاثاً، فإذا كبّرت الثالثة فخوضوا البحر باسم الله ففعلوا، فيقال ـ سبحان الله ـ إنهم عبروا كلهم بخيلهم ورجلهم وإبلهم. حتى إن بعض المؤرخين ذكر أن الخيل إذا تعبت أنشأ الله لها ربوة تقف عليها وتستريح، هذا نصر ليس لنا به طاقة لكنه من الله عزّ وجل. ولهذا قال هنا: لا تراءوا الكافرين ولا

تطيعوهم استجلاباً للنصر أو خوفاً منهم؛ لأن لكم وليًّا أعظم منهم وهو الله عزّ وجل.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾:

يعني خير من ينصر، بل هو خير الناصرين، وأعظم الناصرين وأقدرهم وأقواهم عزّ وجل: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠] لا أحد.

فالإضراب هنا من أحسن ما يكون في هذا الموضع ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ أي خير مَنْ ينصر.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ فضيلة الإيمان حيث يوجه الخطاب إلى الناس بوصف الإيمان في مقام الإرشاد والتنبيه، وأن الإيمان مقتضٍ للامتثال.

٢ ـ أنه لا يجوز لنا أن نطيع الكافرين؛ لأن طاعتهم وسيلة إلى الكفر ﴿إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

٣ ـ وجوب الحذر من الكفار، وأنهم لا يمكن أن يدبروا أمراً فيه مصلحة للمسلمين والإسلام أبداً، إن ذلك مستحيل، حتى الحلفاء الذين يكون بينهم وبين المسلمين حلف فإنه لا يمكن أن يحالفوا المسلمين إلا لمصلحتهم قطعاً. فخزاعة كان بينها وبين الرسول ﷺ حلف في صلح الحديبية لكن لمصلحتهم.

٤ ـ أن طاعة الكفار نتيجتها الحتمية الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

الكفار يأخذوننا شيئاً فشيئاً، يوردون علينا أشياء نطيعهم فيها، وهل يقفون عند هذا الحد؟ لا، لا يقفون، يدخلون أشياء

حتى ننقلب على أعقابنا، وليس معنى ذلك أن نسجد لهم ونركع لهم. كلا، بل إذا خرج الإنسان من دينه كفى، ولهذا يذكر عن بعض رؤسائهم أنه قال: نحن نسعى للتنصير لا من أجل أن نخرج المسلم من دينه إلى النصرانية؛ لأن دين النصرانية معروف بعيد عن الفطرة، وأعني بدين النصرانية الذي هم عليه الآن، أما ما جاء به المسيح فهو حق، لكن ما جاء به المسيح قد انتهى ونسخ بالدين الإسلامي. يقول: (نحن لا نريد أن نخرج المسلم من دينه إلى النصرانية لكن يكفينا أحد أمرين: إما أن نخرجه من دينه إلى (لا دين) ويكون بهيمياً ليس همه إلا بطنه وفرجه ومتعه، وإما أن نشككه في الدين)، ومعلوم أن الإيمان لا يصح مع الشك، الإيمان يقين إذا كان عند الإنسان أدنى تردد فليس بمؤمن، لا إيمان مع التردد. هم يقولون: يكفي أن نخرجه إلى أن يكون بهيمياً أو متردداً شاكاً حائراً، هذه نتيجة كفرية.

٥ ـ أن الكفر خسارة؛ لقوله: ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ وإذا كان الكفر خسارة فالإيمان ربح، ولهذا لا نجد أحداً أربح من المؤمن في هذه الدنيا، حتى لو كان فقيراً ولو كان وحيداً ليس عنده أموال ولا بنون، فإنه أربح من الكافر؛ لأن الكافر قد خسر الدنيا والآخرة، ولم يستفد من دنياه حقيقة وإنما يعيش كما تعيش البهائم كما قال أعلم العالمين: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾، سبحان الله مثال منطبق تماماً ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾ [محمد: ١٢] نتيجة سيئة (النار مثوى لهم) يخرجون من الدنيا والعياذ بالله التي نعموا فيها إلى نار جهنم، وحينئذ يكون خروجهم أشد وأصعب بخلاف المؤمن ـ عسى الله أن يجعلنا من المؤمنين ـ المؤمن يخرج من الدنيا ونكدها وتنغيصها إلى دار النعيم كما قال

تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ عند موتهم ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، وهذه الآية تدل على نعيم القبر؛ لأنه قال: ادخلوا الجنة الآن من موتكم. وقد ثبت في الحديث الصحيح: «**يفسح له في قبره مد البصر، ويفتح له باب إلى الجنة ويأتيه من رَوْحِها ونعيمها**»[1] كما هو معروف.

٦ ـ التحذير الشديد من طاعة الكفار وولايتهم، ومع الأسف الشديد إننا اليوم قد هان علينا الولاء والبراء، الولاء والبراء الذي يجب أن يكون من المؤمن وهو الذي به يذوق حلاوة الإيمان مفقود إلا مِمَّن شاء الله.

كان الناس ـ وقد أدركناهم ـ إذا ذكر النصراني عند أحدهم اقشعر جلده وقال: أعوذ بالله، نصراني أو يهودي. أما الآن فيقال: إن بعض الناس من المسلمين يصف النصراني بالأخوة ـ أخونا فلان ـ كيف أخونا فلان؟! ماذا قال إبراهيم عليه السلام هو وقومه؟: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾، تبرؤوا منهم قبل أن يتبرؤوا من الأصنام ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ إلى متى؟ ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

والله عزّ وجل يقول: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] هذه الأسوة الحسنة أن نتبرأ من

---

(١) رواه أحمد (١٨٠٦٣). ورواه أبو داود، كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣).

الكافرين، وأن نبغضهم، ونعتقد أنهم أعداء مهما ألانوا لنا القول وزخرفوه لنا، فهم أعداؤنا، ووالله لن تعود هذه العداوة ولايةً أبداً إلى يوم القيامة.

يجب علينا أن نحذر، وهنا نوجه الخطاب إلى ولاة الأمور وإلى عامة الناس بالتحذير من الكفار وولايتهم، وننصحهم بأن يتخذوهم أعداء حقيقيين كما هو الواقع، كذلك أيضاً الرعية يجب عليهم أن يبتعدوا عن الكفار ولا سيما في هذه الجزيرة؛ لأن هذه الجزيرة لها شأن خاص في إبعاد الكفار عنها. قال النبي ﷺ في مرض موته عند فراقه الدنيا يوصي أمته يقول: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**»[(١)]. ويقول: «**لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدعَ إلا مسلماً**»[(٢)]. الأول في الصحيحين والثاني في مسلم. ويقول فيما صحَّ عنه أيضاً: «**أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب**»[(٣)]. وننصح إخواننا العامة بأن يأخذوا بعين الاعتبار هذه الوصية من الرسول ﷺ وأن لا يُحضِرُوا إلى هذه البلاد أحداً من اليهود أو النصارى أو غيرهم من الكفار إلا للضرورة القصوى في حدود معينة. بمعنى أن لا يحضروهم على سبيل الاستيطان المؤبد، بل يحضرونهم عند الضرورة، وتقدر الضرورة بمدة معينة لا على سبيل الاستيطان المؤبد.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب هل يستشفع إلى أهل الذمة ومعاملتهم، رقم (٣٠٥٣). ورواه مسلم، كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه، رقم (١٦٣٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، رقم (١٧٦٧).

(٣) انظر الآحاد والمثاني (١/ ١٨٤) ح (٢٣٤).

٧ ـ إثبات الولاية لله عزّ وجل، إثبات ولاية الله تعالى للمؤمنين لأنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ثم قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ وهذه ولاية خاصة؛ لأن ولاية الله للخلق نوعان:

عامة لكل أحد، وهذه معناها تولي الأمور سواء بنصر أو بخذلان أو غير ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢].

أما الولاية الخاصة فهي خاصة بالمؤمنين ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨] وهو عزّ وجل ولي المتقين، فالولاية هذه خاصة ومعناها أو مقتضاها أن الله سبحانه وتعالىٰ يتولى هذا الذي استحقها باللطف والعناية ويوفقه، ويفسر هذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه عزّ وجل: **«من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»**[1] يعني أن الله يسدده في جميع تصرفاته، إذن هذه ولاية خاصة تختص بمن يستحقها من المؤمنين المتقين.

هنا ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ والمراد بها الولاية الخاصة.

٨ ـ أن الله عزّ وجل ناصر لأوليائه؛ لقوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ وهذا من ولايته.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٧١).

فإن قال قائل: كيف نجيب عما أخبر الله به في كتابه أن من الناس من قتل الأنبياء بغير حق؟

فالجواب عن هذا من أحد وجهين:

الوجه الأول: أن المراد بالنصر أو الوعد بالنصر لمن أمر بالجهاد، فإن الله ينصره؛ لأن الله لا يكلفه بشيء إلا والعاقبة له فيه، وأما الذين قتلوا من الأنبياء فلم يؤمروا بالجهاد.

الوجه الثاني: أن نقول: إن النصر نوعان:

أ ـ نصر شخصٍ معين بمعنى أن الإنسان يدركه بشخصه.

ب ـ نصر معنوي بمعنى أن الله ينصر من جاء بهذا ولو بعد موته.

ولهذا نجد أقوال الأئمة ـ أئمة المسلمين ـ كأنهم أحياء بيننا، أقوالهم حية فكأنهم أحياء، إذا أخذت كتاباً لعالم من العلماء وقرأته وانتفعت به فكأنما درّسك هذا العالم، إذن هذا نصر، نصر لمبدئه وهدفه ودعوته.

وجه ثالث أيضاً: أن نوزع النصر على الزمن، فنقول: إن النصر قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة، والذين قتلوا من الأنبياء سوف يكون نصرهم في الآخرة عندما يختصمون مع أقوامهم، فإنَّ أهل الحق وأهل الباطل يوم القيامة يختصمون عند الله؛ يختصمون فيقضى بينهم فيما هم فيه يختلفون.

فلا تظنوا أن الخلاف الذي يقع بين أهل الحق وأهل الباطل ينتهي بالدنيا، كلا، سوف يحكم الله بينهم يوم القيامة وينصر أهل الحق ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الممتحنة: ٣]، ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]، والآيات متعددة تدل على هذا ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١]، إذن إذا حكم الله لأهل الحق على أهل الباطل يوم القيامة فهذا نصر. فصار الجواب على هذه الآية من ثلاثة أوجه:

ـ إما أن نقول: إن الذين وُعدوا بالنصر هم الذين أُمروا بالجهاد.

ـ أو نقول: إن النصر نوعان: نصر لشخص منصور يدركه في حياته، ونصر لدعوته وما جاء به، وهذا يكون ولو بعد مماته.

ـ أو نقول: إن المراد بالنصر هو النصر يوم القيامة عندما يختصمون عند الله عزّ وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

٩ ـ ومن الفوائد أيضاً أنه يوجد أحد ينصر غير الله عزّ وجل، وهذا صحيح ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]، لكن الله هو خير الناصرين، كما أنه يوجد خالق غير الله لكن الله أحسن الخالقين. وكما ذكرت فيما سبق أن الخلق المضاف إلى غير الله ليس هو الخلق المضاف لله؛ لأن الخلق المضاف لله هو الإبداع، والخلق المضاف إلى غيره ما هو إلا تحويل وتغيير الشيء من شيء إلى شيء، ومن صورة إلى صورة مثله.

١٠ ـ وهنا فائدة وهي أنه يجب أن يعلم أن ما لم يكن في القرآن وصحيح السنة من الأخبار فإنه لا يصدق ولا يكذب؛

لأن الله تعالى قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩]، إذن لا نتلقى أخبارهم إلا من الله عزّ وجل؛ إما من كتابه أو صحيح السنة وما عدا ذلك فإنه يتوقف فيه.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال الله تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

﴿سَنُلْقِى﴾ الفاعل هو الله عزّ وجل، وعبَّر عن نفسه تعالى بفعل يقتضي الجمع مريداً بذلك التعظيم (أي سنلقي نحن)، ولا يمكن أن يراد به إلا ذلك؛ لأن الله واحد ليس متعدداً، فلا يمكن أن يكون معه أحد بخلاف غيره، فإنك إذا قلت لشخص: سنأتيك يحتمل أنك أردت التعظيم، ويحتمل أنك أردت الجمع، أما بالنسبة لله عزّ وجل فلا يمكن أن يراد الجمع الذي هو التعدد، وإنما يراد به التعظيم، ويدل لهذا قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]، فالله سبحانه وتعالىٰ هو الملقي لكنه يذكر نفسه تعالى أحياناً بصيغة الإفراد لأنه واحد، وأحياناً بصيغة الجمع لأنه عظيم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ويحتمل أنه يذكر نفسه بصيغة الجمع لما له من الجنود العظيمة التي لا يعلمها إلا هو، فيكون هذا إشارة إلى أنه ذو عظمة وسلطان وجنود تفعل ما يأمر به جل وعلا.

وقوله: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ السين

تدخل على الفعل المضارع وتفيد أمرين: القرب، والتحقيق. وهي تفيد التحقيق من وجه وتفيد القرب من وجه آخر بخلاف (سوف) فإنها تفيد التحقيق وتفيد الإمهال، ولهذا تكون (سوف) للتسويف، والسين للتنفيس أي القرب.

﴿ٱلرُّعْبَ﴾ فيها قراءتان: الرُّعُب والرُّعْب، وهذا يوجد في اللغة العربية كثيراً يعني التسكين للتخفيف، والحركة على الأصل مثل: النهْر والنهَر، والمعنى واحد.

والرعب أشد الخوف، وإنما يذكر الله عزّ وجل أنه يلقي الرعب في القلب؛ لأن القلب إذا دخله الرعب فإنه لا يمكن أن يثبت البدن، ولو ثبت البدن أو حاول الإنسان الثبات فإن قلبه من شدة الرعب سوف يحمله عن الأرض حملاً ويفر ولا يمكن أن يبقى، ولهذا نجد بني النضير لما ألقى الله في قلوبهم الرعب ماذا صنعوا؟ الواحد منهم ينجو بنفسه حتى إنهم كانوا من شدة خوفهم يحملون الأمتعة ويكسرون البيوت، يعني: لا يقلعون الأبواب بتؤدة وطمأنينة من شدة الرعب الذي أصابهم. والرعب أقوى سلاح يكون على العدو، فإذا ألقى الله الرعب في قلوب العدو؛ فإنه لن يبقى.

﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ الباء هنا للسببية أي بسبب شركهم بالله. و(ما) يسميها العلماء مصدرية أي: بشركهم، وعلامة (ما) المصدرية أن يصح تحويل ما بعدها إلى مصدر، فإذا صحَّ تحويل ما بعدها إلى مصدر فهي مصدرية، وقد ذكروا أن لِـ(ما) معانِيَ عشرة مجموعة ـ أو مشاراً إليها ـ في بيت من الشعر:

ستفهم شرط الوصل فاعجب لنكرها ... بكف ونفي زيد تعظيم مصدر

والأخير هو المثال الذي معنا.

و﴿بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾أي بشركهم بالله، وحيث جعلوا لله تعالى شركاء، ولكن هؤلاء الشركاء الذين جعلوهم مع الله إنما جعلوهم شركاء في العبادة لا في الربوبية، ولهذا كان شرك العرب شركاً في الألوهية لا في الربوبية ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩] ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف: ٨٧] ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٥]، فهم يقرون بأن الله هو الخالق، وأن ما في الكون ملكه، لا ينكرون هذا لكنهم يشركون في العبادة، فيعبدون مع الله غيره، ومع ذلك يدَّعون أنهم يعبدون هذه الأصنام لتكون شفعاء لهم عند الله، فهم يقرون أيضاً أنها دون مرتبة الله لكن يعبدونها ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] أي يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى.

يقول: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۚ﴾:

(ما) تحتمل أن تكون اسماً موصولاً أي الذي لم ينزل به سلطاناً، وتحتمل أن تكون نكرة موصوفة أي شيئاً لم ينزل به سلطاناً، والمعنى لا يختلف على التقديرين، فقوله: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ﴾ فيها قراءتان: يُنَزِّل، ويُنزِل، أي بالتشديد والتخفيف.

وقوله: ﴿سُلۡطَٰنٗاۚ﴾ أي حجة وبرهاناً فيجعلون لله شركاء لم ينزل الله بهم سلطاناً أي ليس لهم بهم حجة.

وقوله: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۚ﴾ القيد هنا لبيان الواقع وليس للاحتراز، أي أن واقع هؤلاء الشركاء أنه لا سلطان لشركهم ولا دليل، وليس المعنى أنهم يشركون ما لم ينزل به ولو

أشركوا ما نزل به لكانوا على صواب، لا؛ لأنه لا يمكن أن يأتي سلطان أي «حجة» على أن الله له شركاء.

فإذا قال قائل: ما الفائدة من ذكره هذا الوصف الذي يبيّن الواقع؟

قلنا: الفائدة في ذلك إقامة الحجة على أنه ليس لهم دليل في إشراكهم به؛ لأنهم بنوا على غير سلطان وعلى غير حجة، إذا كان كذلك فالغرض من هذا التنفير عن هذا الإشراك، عكس ذلك أن يأتي وصف لبيان الواقع من أجل الحث والإغراء على لزوم الحكم كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] فإن الرسول ﷺ لا يدعو الخلق إلى ما يميتهم، وإنما يدعوهم إلى ما يحييهم. فالقيد إذن لبيان الواقع ولكن جيء به للحث والإغراء على إجابة دعوته، كما أن القيد الذي في الآية هذه ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ لبيان بطلان هذا الإشراك وأنه ليس له دليل.

قال: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ واعلم أن السلطان ما كان له سلطة، فالدليل يسمى سلطاناً، والأمير على القوم يسمى سلطاناً، وولاية الرجل على أهله سلطان، وهكذا كل من كانت له سلطة فإنه يسمى سلطاناً. قد يكون السلطان بمعنى القدرة على الشيء مثل قوله تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمٰن: ٣٣] أي بقدرة، ولا قدرة لكم على نفوذ أقطار السموات والأرض.

قال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾ أي: مرجعهم النار، فهم ـ والعياذ بالله ـ مغلوبون في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا يلقي الله في قلوبهم

الرعب فلا يقرون ولا يستقرون، وفي الآخرة مأواهم النار، والنار هي الدار التي أعدها الله عزّ وجل لأعدائه يعذبهم بها، وهي موجودة الآن عرضت على النبي ﷺ في صلاة الكسوف حتى إنه تأخر مخافة أن يصيبه من وهجها عليه الصلاة والسلام[1] ورأى فيها من يعذب.

﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (بئس) فعل جامد لإنشاء الذم، ويقابله (نِعْمَ)، وهذا الفعل يحتاج إلى فاعل وإلى مخصوص فاعله مثوى، والمخصوص محذوف والتقدير: هي أو النار.

وقوله: ﴿مَثْوَى﴾ المثوى: المستقر الذي يثوي إليه الإنسان ويستقر فيه كالمسكن مثلاً.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ إثبات الأفعال الاختيارية لله؛ لقوله: ﴿سَنُلْقِى﴾.

٢ ـ من كمال الله عزّ وجل تجدد أفعاله التي تكون تابعة لإرادته وحكمته؛ لأن إلقاء الرعب في قلوب هؤلاء حادث، ﴿سَنُلْقِى﴾ أي في المستقبل. ثم هؤلاء متى وجدوا؟ هل هم أزليون؟ لا، هم حادثون وقلوبهم حادثة والرعب الذي يلقى فيها حادث. وبه نرد على من أنكروا أفعال الله الاختيارية وقالوا: إن الله سبحانه وتعالىٰ ليس له أفعال حادثة، زعماً منهم أن الفعل الحادث لا يقوم إلا بحادث، فيلزم من هذا إنكار صفة القدم

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب ما يقال بعد التكبير بمعناه، رقم (٧٤٥).

عن الله، هذا على زعمهم، ونحن نقول: هذه دعوى باطلة، دعوى من يقول: إن الفعل الحادث لا يقوم إلا بحادث، نحن نشاهد أفعالاً لنا لم تكن قديمة كقدمنا، فالإنسان يتعشى اليوم غير عشائه بالأمس، فهذا فعل حادث في محدث فلا يلزم أن يكون الفعل مقارناً للفاعل أبداً (لوجود الفاعل).

إذن نقول: في هذه الآية ردٌّ على هؤلاء الذين ينكرون قيام الأفعال الاختيارية بالله عزّ وجل.

٣ ـ بيان عظمة الله، من قوله: ﴿سَنُلْقِي﴾. فإن هذه الصيغة تدل على العظمة أو التعدد. والتعدد في حق الله محال فتعيَّن أن تكون للتعظيم.

٤ ـ أن محل الإرادة والتدبير للبدن هو القلب؛ لقوله: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾، وليس المحل هو الدماغ خلافاً للمشهور عند فلاسفة اليوم، فإن الدماغ في الحقيقة لا يدبر، بل يتصور ثم يرسل الصورة إلى القلب، والقلب يحكم، الدماغ بمنزلة ما نسميه «بالسكرتير» يجهز الأوراق ويرتبها ثم يرسلها إلى الملك ويقول له: ماذا تأمر؟ والدليل على هذا قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] نصٌّ واضح أن العقل يكون في القلب، وأن محل هذا القلب هو الصدر، وبهذا نرد على من قالوا: إن المراد بقوله: ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦] القلوب المعنوية هي الدماغ، والله يقول: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وهذا نص صريح، ثم إن السنة أيدت هذا فقال النبي ﷺ: **«ألا وإن في الجسد مضغة، إذا**

صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[١] فالتدبير للقلب، والتصور للدماغ.

قال الإمام أحمد رحمه الله: العقل في القلب وله اتصال بالدماغ، واتصاله هو ما ذكرنا أن الدماغ يتصور ثم يرسل إلى القلب، والقلب يأمر بواسطة الدماغ، والدماغ يحرك الأعصاب، وبهذا التقرير يتبين لنا أن ما جاء به القرآن والسنة في هذه المسألة لا يخالف ما هو معروفٌ عند الأطباء اليوم. فإن القلب الصناعي لا بد أن يدخله مثلاً العروق ويحصل منه حركة، هذه الحركة يمكن أن نفسرها بأنها أمر من القلب يصدر سواء بشيء ثابت بخلقة الله عزّ وجل أو بالصناعة.

٥ ـ أن إلقاء الرعب في قلب الأعداء من أكبر النصر؛ لقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠] ثم قال: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ فالرعب من أقوى أسباب النصر وهو أمر معروف، هذا الرعب هل هو خاص في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، أو يشمل ما يحصل لأعداء أتباعه إلى يوم القيامة؟

الثاني هو الثابت، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام فيما صحَّ عنه: **«نصرت بالرعب مسيرة شهر»**[٢].

٦ ـ إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿بِمَآ أَشْرَكُوا۟﴾ لأن الباء للسببية وهو الحق.

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٠٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب التعبير، باب رؤيا الليل، رقم (٦٩٩٨). ورواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢١).

والأسباب إما شرعية وإما حسية، وإنكارها سفه في العقل وضلال في الدين؛ لأن النصوص قد تكاثرت وتجمعت على إثبات الأسباب. دخول الجنة لا يحصل إلا بسبب، والنجاة من النار لا تحصل إلا بسبب. والولد لا يحصل إلا بسبب، والرزق لا يحصل إلا بسبب، كل شيء لا بد له من سبب، فإنكار الأسباب ضلال في الدين وسفه في العقل.

ومن العجب أن الأشاعرة ومن نحا نحوهم في هذا الباب يقولون: إن الله تعالى يوجد الأشياء بلا واسطة، وتقع الأشياء بتدبيره مباشرة بلا واسطة؛ لأنَّهم يقولون: لو أثبتنا الواسطة وجعلنا لها تأثيراً لكان هذا نوعاً من الشرك بالله. فمثلاً يقولون: لا أثر للسكين في قطع اللحم، ولا أثر للحجر في كسر الزجاجة، فلو أتى إنسان بلحم وجعل يقطعه بالسكين فلا أثر للسكين في قطع اللحم، ولو رمى زجاجة بحجر وانكسرت، فلا أثر للحجر في كسر الزجاجة، فالأسباب لا تؤثر عندهم، وهذا سفه في العقل، لكنني أقول: هذه الأسباب لا يوجد بها المسبَّب بذاتها وإنما يوجد بما أودع الله فيها من القوى التي خلقها الله عزّ وجل، ومن ذلك الرعب الذي يلقى في قلوب الذين كفروا بسببٍ وهو الإشراك.

٧ ـ أنه إذا كان الرعب يلقى في قلوب الذين كفروا لإشراكهم، فإن الأمن يلقى في قلوب الذين آمنوا لتوحيدهم؛ لأن ما ثبت للشيء ثبت ضده لضده، فإذا ثبت الرعب للكفار بسبب إشراكهم ثبت الأمن للمؤمنين بتوحيدهم، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، والظلم هو

الشرك كما فسره النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية. قالوا: يا رسول الله، أيّنا لم يظلم نفسه قال: «**إنما ذلكم الشرك، ألم تسمعوا إلى قول الرجل الصالح**: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»(١) [لقمان: ١٣].

إذن كلما كان الإنسان أشد إيماناً بالله وأشد توحيداً له كان أشد أمناً واستقراراً، وهذا شيء مجرب؛ لأنه من كان أشد إيماناً بالله وأشد توحيداً لله كان أقوى توكلاً عليه، ومن أقوى أسباب الأمن ومصابرة الأعداء التوكل على الله عزّ وجل حتى إن من الناس من يقوم توكله على الله مقام الدواء في الشفاء، وهذا ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وهو واقع.

وبعض الناس يكون عنده قوة توكل على الله ويشفى بدون علاج بسبب قوة توكله على الله، وقد أشار إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حينما ذكر أن الدواء بالمحرم ليس ضرورياً، حتى يقال: إن الدواء بالمحرم جائز للضرورة، قال: هذا ليس للضرورة؛ لأن المريض قد يشفى بدواء آخر وقد يشفى بالقراءة، قال: وقد يشفى بقوة التوكل على الله.

وقد مرض أبو بكر رضي الله عنه فقيل له: أَلَا ندعو لك الطبيب؟ قال: إنه قد رآني، وقال: «إني أفعل ما أريد». من يعني به؟ الله عزّ وجل، فالحاصل أن نقول: إن الإنسان كلما قوي إيمانه بالله وقوي توحيده ازداد أمناً وطمأنينة واستقراراً، وهذا أمر مشاهد مدرك بالحس.

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، رقم (٤٧٧٦). ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، رقم (١٢٤).

٨ ـ أنه لا دليل لأحد على شركه؛ لقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾.

٩ ـ النداء والإعلان عن سفه هؤلاء المشركين لكونهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، لو كان لهم دليل لعذروا لكن لا دليل لهم، وهذا نداء عليهم وإعلان بسفههم.

١٠ ـ إثبات الجزاء؛ لقوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

١١ ـ إثبات أن النار مأوى الكافرين الذين أشركوا بالله، فنحن نشهد بأن كل كافر مشرك فمأواه النار ولكن هل نشهد بهذا على شخص بعينه؟.

الجواب: لا، لا نشهد عليه ولكننا نقول: إننا نعامله في الدنيا معاملة الكافر، فمثلاً لو مات زعيم من زعماء الكفرة كزعيم الروس أو زعيم أمريكا أو ما أشبه ذلك نحكم بأنه كافر، وأن كل كافر في النار، فلا نصلي عليه ولا نكفنه ولا ندفنه مع المسلمين، ولا ندعو له بالرحمة، لكن مسألة الجزاء هذا ندخله في العموم، نقول: كل كافر فإنه في النار.

فالمعين غير العموم، وكذا لو مات واحد من المسلمين ومات على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله هل نشهد له بالجنة؟

الجواب: لا، بل نقول: إن كل مسلم يدخل الجنة، ونقول أيضاً: كل كافر سيدخل النار، ولهذا كان من عقيدة أهل السنة والجماعة أننا لا نشهد لمعين بجنة ولا نار إلا من شهد له رسول الله ﷺ.

وزاد شيخ الإسلام رحمه الله أنه لو اتفقت الأمة على الثناء عليه كالأئمة الأربعة مثلاً نشهد لهم بالجنة، لا لأن الرسول ﷺ

شهد لهم، ولكن لأن الأمة أثنت عليهم وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ولما مرت جنازة من عند الرسول عليه الصلاة والسلام وهو جالس في أصحابه فأثنوا عليها خيراً، قال: «**وجبت**» ثم مرت أخرى فأثنوا عليها شرًّا، قال: «**وجبت**» قالوا: ما وجبت؟ قال: «**أما الأول فوجبت له الجنة، وأما الثاني فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض**»(١).

وقال ﷺ: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار**»(٢).

والمقصود أننا لا نشهد لأحد معين بجنة ولا نار، لكن يكفي أن نقول: الأصل في هذا أنه من أهل النار، هذا هو الأصل لكن لا نجزم بالأصل فيجوز أنه في آخر لحظة من حياته ألقى الله في قلبه الإيمان. فإنه إذا كان قد تاب ولم يحضره الموت فإن الله يتوب عليه. وعلى كل حال شهادتنا له بالنار لا توجب له النار، وعدم شهادتنا له بالنار لا تمنعه عن النار، إذن: لا فائدة من أن نلزم أنفسنا بالشهادة لهذا الشخص المعين بالنار.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت، رقم (١٣٦٧). ورواه مسلم، كتاب الجنائز، باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتى، رقم (٩٤٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، رقم (٣٣٣٢). ورواه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٣).

١٢ ـ ذم النار ومثواها والعياذ بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وصدق الله عزّ وجل فإن أبأس دار وأقبح دار وأخبث دار هي النار، ولهذا استحقت هذا الوصف من الله عزّ وجل وهو قوله: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾:

هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات:

الأول: القسم المقدر؛ لأن التقدير: (والله لقد).

والثاني: اللام.

والثالث: قد، فهذه ثلاثة مؤكدات في هذه الجملة.

﴿صَدَقَكُمُ﴾:

أي أنجزه لكم. وقوله: ﴿وَعْدَهُۥٓ﴾ منصوب بنزع الخافض أي: صدقكم الله في وعده، يقال: صدقه، ويقال: صدَّقه، وبينهما فرق، فإذا قيل: صَدَقه يعني أخبره بالصدق، وإذا قال صدَّقه أي قال: إنَّ ما أخبرت به صدق، فالتصديق من المخاطب للمتكلم، والصدق من المتكلم للمخاطب، فمعنى قوله تعالى: ﴿صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ أي أنجز لكم الوعد فصار ما أخبركم به صدقاً.

﴿وَعْدَهُۥٓ﴾:

أي ما وعدكم به من النصر، ثم بيَّن موضع هذا الصدق فقال: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ فـ «إذ» هنا ظرف متعلق بصدق، أي صدقكم وعده حين حسستموهم بإذنه. وقوله: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ مضارع عبَّر به عن شيء ماضٍ على تقدير حكاية الحال؛ لأن القاعدة أن يعبر عن الماضي بصيغة الماضي، فيقال: قال زيد، لكنه عبَّر هنا عن الماضي بصيغة الحاضر لحكاية الحال لتقريب تصور الماضي في الذهن؛ لأن الماضي قد انقضى فربما يكون الإنسان ناسياً له، فإذا صيغ بصيغة المضارع صار الماضي كأنه حاضر، وهذا ما يعبر عنه النحويون بحكاية الحال، حكاية الحال الماضي كأنها الآن واقعة من أجل أن يكون ذلك أقرب لحضورها في الذهن.

وقوله: ﴿تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ الحس القتل أو أشد القتل، ﴿تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ أي تقتلونهم أشد قتلة بإذن الله الكوني والشرعي، بإذنه الكوني لأنه قد وقع، وكل شيء قد وقع فإن الله قد أذن به كوناً، وبإذنه الشرعي لأن الله تعالى قد شرع لنا أن نقاتل الكفار فيكون قتلنا لهم مأذوناً فيه شرعاً، إذن في هذه الآية اجتمع الإذنان: الكوني والشرعي.

وقوله: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ أي تقتلونهم بإذنه، هذا نصر.

فإن قال قائل: وهل قُتل أَحدٌ من الكفار في يوم أُحد؟.

فالجواب: نعم، قُتل منهم أكثر من تسعة رجال وانهزموا وفروا حتى رُئي النساء ينطلقن يصعدن في الجبل مذعورات

كاشفات الرؤوس حاسرات السيقان؛ لأنهن قد هربن حيث أيقنّ بالأسر وكانت الغلبة والعزة في أول النهار للمسلمين.

ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾:

﴿حَتَّىٰٓ﴾ قيل: إنها ابتدائية، وقيل: إنها للغاية.

فالوجه الأول: أن (حتى) للغاية، أي صدقكم وعده إذ تحسّونهم بإذنه إلى أن فشلتم، وعلى هذا فتكون (إذا) غير شرطية، حتى وقت فشلكم، هذا وجه كون (حتى) للغاية.

﴿إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي حتى حين فشلتم، أي أن صدق الوعد والحس استمر إلى أن فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون.

والوجه الثاني: أن (حتى) ابتدائية، فالجملة مستأنفة وتكون (إذا) على هذا الوجه شرطية وجوابها يُذكر إن شاء الله.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ الفشل معناه الجبن والخور أي: حتى إذا جبنتم وخِرتم وعجزتم عن الانتصار.

﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ المنازعة: المخاصمة والاختلاف.

وقوله: ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾ هل المراد بالأمر الشأن أو المراد بالأمر واحد الأوامر؟ على القول الأول يكون الأمر واحد الأمور، وعلى الثاني يكون الأمر واحد الأوامر، ومعنى ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي في الشأن على القول الأول أو في الأمر أي: أمر الرسول عليه الصلاة والسلام، على القول الثاني، ويكون الخطاب موجهاً إلى الرماة وكانوا خمسين رجلاً أَمَّر عليهم النبي ﷺ عبد الله بن جبير، وقال لهم: «لا تبرحوا مكانكم، ابقوا في الجبل سواء كانت لنا أو علينا»، ولما رَأَوْا المسلمين قد

انتصروا وانهزم المشركون وصار المسلمون يجمعون الغنائم أرادوا النزول من الجبل فنازعهم أميرهم وقال لهم: امكثوا، ولكنهم أصروا على النزول فنزل أكثرهم. إذن: يكون الأمر هنا واحد الأوامر أي تنازعتم في أمر الرسول ﷺ فمنكم من قال: نبقى امتثالاً لأمره، ومنكم من نزل اغتناماً لكسب الغنيمة[1]. والمعنيان متلازمان لأنه لما اختلفوا في أمر الرسول تنازعوا في شأنهم أي في أمرهم.

﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾:

أي: وعصيتم الرسول لكن لم يذكر المفعول به كراهة لذكره حيث إنه يكون أشد وقعاً وتوبيخاً، وكأن الله عزّ وجل أراد أن يوبِّخهم بطريق لين، قال: ﴿وَعَصَيْتُم﴾ ولم يقل: عصيتم الرسول؛ لأن هذا أهون مما لو صرح به وقال: (وعصيتم الرسول) فإذا قيل: عصيتم الرسول صار أشد وقعاً في التوبيخ.

وقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم﴾:

﴿أَرَىٰكُم﴾ يعني من بعد ما أراكم رؤيا عين ما تحبون من النصر وهزيمة أعدائكم، وجواب الشرط على الوجه الثاني في ﴿إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ قال بعضهم: إن جواب الشرط (تنازعتم) والتقدير: حتى إذا فشلتم تنازعتم في الأمر وعصيتم، وعلى هذا الوجه تكون الواو زائدة.

وقال بعضهم: جواب الشرط (عصيتم) والتقدير: حتى إذا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، رقم (٣٠٣٩).

فشلتم وتنازعتم في الأمر عصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون. وعلى هذا الوجه تكون الواو زائدة أيضاً.

وقال بعضهم: جواب الشرط محذوف تقديره: انقسمتم قسمين: منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة.

وقال بعضهم: محذوف تقديره: حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون فاتكم النصر.

وقال بعضهم: الجواب محذوف قطعاً، والقول بأن الواو زائدة في (تنازعتم)، وأنه جواب الشرط، أو في (عصيتم) وأنه جواب الشرط قول ضعيف؛ لأن الحرف هنا حرف جاء لمعنى يفوت بفواته ما جاء من أجله، فالجواب إذن محذوف وفائدة حذفه: أن يذهب الذهن كل مذهب في تقديره، وكل شيء يقدر جواباً لـ«إذا» لا ينافي المقدر الآخر، فإنه صالح، وعلى هذا ممكن أن نقول: «وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون فاتكم ما تحبون، أو فاتكم النصر، أو خُذِلتم، أو انقسمتم إلى قسمين» كل هذه الاحتمالات صحيحة ولا تتنافى، فقد فاتهم النصر وانقسموا إلى قسمين، وخذلوا، وهذا من بلاغة القرآن؛ فالحذف من أجل أن يكون أشمل للمعنى وأكثر.

ثم قال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾:

(مِنْ) هنا تبعيضية أي: بعضكم يريد الدنيا، وبعضكم الآخر يريد الآخرة، فالذين نزلوا لجمع الغنائم ظاهر عليهم أنهم يريدون الدنيا، والذين ثبتوا ظاهر عليهم أنهم يريدون الآخرة، وهذا على سبيل المثال، وإلا فالأمثلة كثيرة في الذين يريدون

الدنيا والذين يريدون الآخرة، حتى في طلب العلم، من الناس من يريد الدنيا، ومن الناس من يريد الآخرة، ومن الناس من يريد الجاه والرفعة والسيادة؛ لأن العلم يرفع بيوتاً لا عماد لها، والجهل يهدم بيوت العز والشرف، ومنهم من يريد الآخرة: أن يحفظ شريعة الله، وأن يعلِّم عباد الله، وأن يتعبد لله على بصيرة، وما أشبه ذلك، فهذا حال الناس كلهم، منهم من يريد الدنيا ومنهم من يريد الآخرة.

وقوله عزّ وجل: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ أي بعد أن صدقكم الله وعده بحَسِّهم - أي بقتلهم - صرفكم عنهم، يعني: بعد أن فشلتم وتنازعتم في الأمر، وعصيتم صرفكم عنهم، وتأمل قوله: ﴿صَرَفَكُمْ﴾ فإن الصرف يقتضي إقبالاً شديداً يُعاني فيه المقبل حتى يصرف، كما تقول: صرفت الدابة عن العلف وما أشبه ذلك، فيفيد بأن المسلمين كانوا مقبلين جدًّا على هؤلاء الأعداء لكن صرفوا عنهم مع شدة رغبتهم في القضاء عليهم؛ لأنه كان لهم النصر في أول الأمر لكن صرفوا عنهم.

وقوله: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي ليختبركم؛ والابتلاء في الأصل الاختبار والامتحان، ويكون في الخير ويكون في الشر، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال سليمان عليه السلام لما رأى عرش بلقيس حاضراً عنده مستقراً أمامه قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠] فالخير ابتلاء، والشر ابتلاء، الشر يُبتلى به الإنسان ليصبر، والخير يُبتلى به ليشكر؛ فكله ابتلاء، ولهذا قال: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا

عَنكُمۡۗ﴾ هذه الجملة أيضاً مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم المقدر لأن الأصل: والله لقد، واللام، وقد، وإنما أكدت الجملة هنا والجملة هناك في قوله: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ﴾ لأنه قد يتبادر من الوقائع خلاف ذلك، فمثلاً في الجملة الأولى ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ﴾ قد يتبادر من كون الهزيمة في آخر الأمر على المسلمين أن الله لم يصدقهم وعده، فأكد ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ﴾، هذا النصر. والثانية لما ابتلوا بهذه البلوى قد يتبادر إلى الذهن بأن الله سوف يعاقبهم على معصيتهم وتنازعهم وجبنهم فقال: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ فكان التأكيد هنا وفي أول الآية في غاية ما يكون من البلاغة؛ لأن المقام يقتضي التأكيد.

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ العفو بمعنى التجاوز، ويكون للإنسان محموداً ويكون مذموماً، فإذا كان مع القدرة فهو محمود، ويكون مذموماً إذا كان مصدره العجز، فلا يُحمد عليه الإنسان؛ لأن هذا يدل على ضعفه وعدم أخذه لنفسه بالحق. أما عفو الله فهو بلا شك كائن مع القدرة؛ لأن الله عزّ وجل قادر على أن يعاقب لكنه يعفو سبحانه وتعالىٰ مع القدرة كما قال تعالى: ﴿كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرٗا﴾ [النساء: ١٤٩].

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ يشمل كل من وقعت منهم المخالفة، وهذا من فضل الله عليهم، ويجدر بنا هنا أن نذكر قصة عجيبة: جاء رجل من الخوارج إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وهو مستظل بالكعبة، فوقف عليه بعد أن سأل عنه فقال: من هذا؟ فقالوا: هذا عبد الله بن عمر. فسأله عن أمير المؤمنين عثمان، قال

له: أما علمت أن عثمان بن عفان تخلَّف عن غزوة بدر؟ قال: بلى تخلف، قال: أما علمت أنه فرَّ يوم أُحد؟ قال: بلى فرَّ. قال: أما علمت أنه لم يبايع بيعة الرضوان؟ قال: بلى. قال الخارجي: الله أكبر ـ يعني أنه انتصر ـ لأنه إنما سأل هذه الأسئلة الثلاثة ليقدح في عثمان رضي الله عنه فكبَّر الخارجي، فلما كبَّر قال له: أما وقد قلت فسأحدثك: أما تخلفه عن غزوة بدر فإن النبي ﷺ أمره أن يبقى ليمرّض ابنته ـ أي: ابنة الرسول ﷺ كانت مريضة ـ رقية ـ زوجة عثمان ـ فتخلَّف ليمرضها بأمر النبي ﷺ وضرب له النبي ﷺ بسهمه وأجره، إذن لا يلام. أما فراره في أُحد فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ وبعد العفو لا يبقى أثر الذنب. وأما تخلّفه عن بيعة الرضوان فإنه لا يوجد أحد من بطون قريش أعز من البطن الذي منه عثمان؛ لأنه بطن قوي في قريش، فلم ير النبي ﷺ أحداً أحق بأن يبعثه إلى قريش من عثمان فبعثه إلى قريش ليفاوضهم؛ لأن له مكانة، ثم إن الرسول ﷺ لما بايع المؤمنين تحت الشجرة أخذ بيده الكريمة ووضعها على اليد الأخرى، وقال: هذه عن يد عثمان ـ الله أكبر ـ فكانت يد النبي عليه السلام خير من يد عثمان لعثمان، أليس كذلك؟ سبحان الله! ثم قال: اذهب بها إلى قومك أو كلمة نحوها، يعني أنت جئت تريد أن تقدح في أمير المؤمنين وصار الآن القدح ـ ولله الحمد ـ مدحاً.

فمثل هذه المسائل ينبغي للإنسان أن ينتبه لها ويكون حذراً، فبعض الناس ربما يسأل سؤالاً ظاهره الاسترشاد ولكن يكون معناه النقد، فإذا جاء به على هذا الوجه ألقم الناقد حجراً، وصار هذا من سوء فهمه.

وعلى كل حال فلكل مقام مقال، وليس معنى هذا أن نسيء

الظن في كل واحد. فابن عمر رضي الله عنه فَهِمَ من هذا الخارجي أنه يريد الطعن والقدح في عثمان فأجابه.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ﴾ أي: صاحب فضل ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. وأنتم منهم ولذلك عفا عنكم، وهنا في الجملة إظهار في موضع الإضمار، إذ مقتضى السياق أن يقول: «والله ذو فضل عليكم» وفائدته (أي فائدة الإظهار في مقام الإضمار) تقدمت لنا وقلنا: فيه ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: التسجيل على محل الإضمار أو على مرجع الضمير بأنه من أهل هذا الوصف، يعني إثبات هذا الوصف لمرجع الضمير، مثلاً: (والله ذو فضل عليكم) إذا قال: «على المؤمنين» بدل «عليكم» أفاد بأنهم مؤمنون.

الفائدة الثانية: العموم؛ لأنه لو قال: (والله ذو فضل عليكم) اختص الفضل بمرجع الضمير، وإذا قال: «على المؤمنين» تشملهم وغيرهم.

الفائدة الثالثة: العلة (علة الحكم)، الحكم كون الله ذو فضل، والعلة ـ وهي الإيمان ـ في هذه الآية، وهي تختلف باختلاف السياق، هذه فائدة الإظهار في موضع الإضمار هنا، فهنا مناسبة لفظية في الإظهار، وهي تناسبُ رؤوس الآيات، لأنه لو قال: (والله ذو فضل عليكم) لم تتناسب مع ما بعدها ومع ما قبلها.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ قد نصر المؤمنين في أُحد كما نصرهم في بدر؛ ودليله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾.

٢ ـ أن من البلاغة أن يؤكد الخبر إذا كان الحال تقتضي ذلك، يؤخذ من قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ حيث كان فيه قسم وتوكيد باللام وقد.

٣ ـ شدة عزيمة الصحابة رضي الله عنهم في طلب العدو؛ لأنه قال: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ والحس: القتل أو أشده كأنه يسمع له صوت عند القتل، وهكذا ينبغي للمسلمين أن يأتوا أعداءهم الحربيين على شدة وغلظة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ [النساء: ١٠٤] يعني: لا تضعفوا في طلبهم، وانظر إلى هذه التعزية للصحابة: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

٤ ـ أن النزاع والمعصية سبب لفوات كمال النصر؛ لأن المسلمين في أول الأمر انتصروا وقتلوا المشركين، لكن لما حدث هذا المانع امتنع أو انتفى كمال النصر.

٥ ـ أن مثل هذا الأمر ـ النزاع والمعصية ـ سبب للخذلان؛ تؤخذ من واقع الأمر؛ لأن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جواب الشرط فيه محذوف، والمعنى أنكم خسرتم هذا النصر وخذلتم، ومن قرأ الغزوة تبين له ما حصل للصحابة من الأمور العظيمة التي ستأتي إن شاء الله عند قوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

٦ ـ المعصية بعد النعمة أشد من المعصية قبل النعمة؛ لقوله: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ وإلا لكان يقول: ﴿وَعَصَيْتُم﴾ فقط، لكن كون المعصية تقع بعد أن أراهم الله ما يحبون هذه أعظم، أعظم مما إذا لم يكن الله قد أراهم ما يحبون.

٧ ـ الحثُّ على اجتماع الكلمة، وجهه أن النزاع سبب

للخذلان، فيكون الاتفاق سبب للنصر وهو كذلك، الاجتماع اجتماع الناس على كلمة واحدة لا شك أنه سبب للنصر، ولهذا ينبغي لطلبة العلم وللعلماء أن لا يظهر خلافهم ونزاعهم أمام العامة، اختلاف الآراء لا بد أن يكون، لكن كون كل واحد منهم يعيب على الآخر إن خالفه، هذا خطر عظيم جدًّا؛ لأن العامة ترى هذا النزاع فلا تثق بواحد منهم، على أن العامة أيضاً سوف يتفرقون، فالنزاع لا شك أنه سبب للخذلان والفشل وتمزق الأمة.

٨ ـ أن المدار كله على ما في القلب؛ لقوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ وكأن هذا ـ والله أعلم ـ فيه إشارة إلى أن سبب الجبن والنزاع والمعصية سوء النية من بعض مَنْ كان فيهم، ويمكن أن نجعل قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ جملة استئنافية تعليلية لما حصل، ولا شك أن المدار كله على ما في القلب، وأنه متى كان القلب صالحاً صلح العمل، ومتى كان فاسداً فسد العمل.

٩ ـ أنه قد يكون في خير القرون من يعاب عليه الفعل؛ لقوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ ولكن الصحابة رضي الله عنهم بخاصة لهم من الفضائل والسوابق والصحبة ما يكفّر ما حصل منهم من الآفات وغيرها، ولهذا للصحابة مزية على غيرهم، يعني المكفّرات العامة لكل أحد مثل **(ما يصيب المؤمن من همٍّ ولا غمٍّ ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله بها عنه)**[1]. هذه عامة

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٧٩٦٧) بلفظ: «**ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب، ولا همٍّ ولا حزن، ولا أذى ولا غمٍّ حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله من خطاياه**».

لكل أحد، لكن للصحابة أشياء خاصة توجب محو ما حصل منهم من السيئات، ويدلك على هذا أن من أعظم المصائب وأكبر المعايب التجسس لحساب المشركين، ووقعت من حاطب رضي الله عنه، ولما استأذن عمر النبي ﷺ في قتله قال له النبي ﷺ: «**وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع علىٰ أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[1]، مع أن هذه مصيبة عظيمة، التجسس لحساب الكفار يوجب القتل ولو كان الإنسان مسلماً؛ لأن هذا من السعي في الأرض فساداً، ولهذا لم يقل الرسول ﷺ لا تقتله لأنه مسلم، بل قال: لا تقتله لأنه شهد بدراً. وقد قال الله تعالى: «**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»، ولهذا كان القول الصحيح الذي لا شك فيه أن الجاسوس يقتل ولو كان مسلماً، ولو كان يصلي ليلاً ونهاراً فإنه يقتل.

١٠ ـ إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾، فإن سبب صرف الله هؤلاء عن الكفار هو ما حصل منهم من الفشل والتنازع والمعصية.

١١ ـ إثبات الحكمة في أفعال الله، فيكون في هذا ردٌّ على الجهمية ونحوهم ممن ينكرون حكمة الله عزّ وجل، ويقولون: إن الله يفعل لا لحكمة ولكن لمجرد مشيئة، ونحن نؤمن بأن الله سبحانه وتعالىٰ لا يفعل شيئاً ولا يشرع شيئاً إلا لحكمة، لكن من الحِكم ما هو معلوم للبشر وما هو مجهول لا تبلغه العقول.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، رقم (٣٠٠٧). ورواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم، رقم (٢٤٩٤).

١٢ ـ أن ما حصل من المؤمنين من التنازع والفشل والمعصية وإرادة الدنيا كله محاه الله عزّ وجل، يؤخذ من قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ إذن لا أثر له وكما سبق في قصة الخارجي الذي جاء إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

١٣ ـ إثبات الفضل لله عزّ وجل عليهم وعلى غيرهم من المؤمنين؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإن قال قائل: وهل لله فضل على غير المؤمنين؟

فالجواب: نعم، إن الله لذو فضل على الناس و﴿ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] على كل أحد.

لكن الفضل نوعان: فضل خاص، وفضل عام، فالخاص للمؤمنين، والعام للجميع، وإلا فكل أحد قد تفضل الله عليه بالصحة والعافية والطعام والشراب واللباس والأزواج والبنين وغير ذلك، أما الفضل الخاص الذي يتصل بفضل الآخرة فهو للمؤمنين فقط.

❁ ❁ ❁

□ قال تعالى: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

﴿إِذْ﴾ هذه ظرف، والظرف لا بد له من متعلق، ومتعلق «إذ» على أرجح الأقوال محذوف، والتقدير: (اذكروا إذ تصعدون) هذا أحسن ما قيل فيها وإلا بعضهم قال: إن متعلق «إذ» ما قبلها (ولقد عفا عنكم حين تصعدون). وبعضهم قال: «ثم صرفكم عنهم حين تصعدون» ولكن الأقرب أن المتعلق محذوف،

والتقدير: (اذكروا إذ تصعدون) حتى تكون هذه الحال دائماً على أذهانكم.

وقوله: ﴿تُصْعِدُونَ﴾ بضم التاء وهي غير (تَصعدون) بفتحها؛ لأن الصعود الرقي إلى أعلى كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] أما الإصعاد فهو السير هرباً في أرض مستوية يقال: (أصعد) أي ذهب هارباً أو مسرعاً في الأرض، وهذا هو الذي حصل للصحابة رضي الله عنهم ومنهم من صعد الجبل لكن المراد بقوله ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ أي تهربون سراعاً في أرض مستوية؛ لأن أصعد مأخوذ من الصعيد و(الصعيد) وجه الأرض كما قال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣].

قال: ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾: أي لا تعكفون أو تلتفتون إلى أحد، ولم يقل: لم تلتفتوا؛ لأن (الليَّ) أبلغ، و(اللي) هو الانعطاف على الشيء، هم لا يلوون على أحد هرباً أو خوفاً من قتل الكفار إياهم، وتصور المشهد كيف كان، حوالي سبعمائة نفر من خيار المؤمنين يهربون لا يبقى مع الرسول ﷺ إلا نفر قليل، وانظر أيضاً قوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ الرسول ﷺ في أخريات القوم هو الذي يلي الأعداء في الآخر يدعوكم يا عباد الله، كروا، ارجعوا، ولكن لشدة الأمر لا يلوون على أحد، وهذه قضية عظيمة ولكن الله قد عفا عنهم ولم يؤاخذهم بما جرى.

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾:

﴿أُخْرَىٰكُمْ﴾ يعني الآخر منكم؛ لأن من عادة النبي صلوات الله وسلامه عليه أن يكون في أخريات القوم، ليس

كالملوك يأخذون الصدر بل هو كالراعي يكون في الآخِر يتفقد الرعية، فقد يحتاجه أحد عندما يتخلف بعيره أو فرسه، فيساعده. كما في قصة جابر رضي الله عنه لما رجعوا في سيرهم وكان على جمل قد تعب ولا يقدر على السير قال: فلحقني رسول الله عليه الصلاة والسلام، ودعا للجمل وضربه، ضرب الجمل ضرباً عادياً، ودعا له فسار سيراً لم يسر مثله قط، سبحان الله! كان لا يمشي إلا قليلاً، ثم أصبح جابر يرده في خطامه لئلا يسبق القوم ـ الله أكبر ـ هذه آية من آيات الله وآيات الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم قال له: «**بعنيه**» طلب الرسول ﷺ من جابر أن يبيعه عليه (**بعنيه بِوَقِيَّةٍ**) والأوقية أربعون أو خمسون درهماً ولكنه أبى، قال: لا أبيعه، والآن يساومه النبي ﷺ قال: «**بعنيه**»، فباعه على النبي عليه السلام لكنه استثنى أن يحمله إلى المدينة فأعطاه النبي ﷺ شرطه، ثم لما وصل المدينة وأتى إلى النبي ﷺ عند باب المسجد، قال له: «**أصليت؟**» قال: لا، قال: «**ادخل فصلِّ ركعتين**»؛ لأن السنة للمسافر إذا قدم بلده أن يبدأ قبل كل شيء بالمسجد يصلي فيه ركعتين، ثبت هذا من فِعْل الرسول ﷺ وأَمْرِه[1]، وهذه سنة تفوت كثيراً من الناس، ثم أعطاه الدراهم وجابر يريد أن يعطيه الجمل، فقال النبي ﷺ: «**أتراني ماكستك لآخذ جملك؟ خذ جملك ودراهمك فهو لك**»[2].

---

(١) رواه أحمد في مسنده، رقم (٢٦٦٢٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الشروط، باب إذا اشترط البائع ظهر الدابة إلى مكان مسمىٰ، رقم (٢٧١٨). ورواه مسلم، كتاب المساقاة، باب بيع البعير واستثناء ركوبه، رقم (٧١٥).

حقًّا هذا غاية ما يكون من الكرم، والنبي ﷺ لم يقصد بأن يتصدق عليه. بعض العلماء رحمهم الله قالوا: إن الرسول ﷺ أراد أن يتصدق عليه بثمن الجمل ففعل هذه الحيلة، هذا غلط. لكن الرسول عليه الصلاة والسلام أراد أن يعرف كيف كان غلاء هذا الجمل في قلب جابر بعد أن كان عنده رخيصاً يريد أن يتركه، فطلب منه البيع، وإلا فالذي يظهر من قوله: «**أتراني ماكستك لآخذ جملك**» أن الرسول ﷺ لم يرد الشراء من الأصل ولكنه أراد أن يعلم ما عند جابر رضي الله عنه.

قال تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ «أثابكم» الفاعل هو الله، ومعنى ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ أي: أعطاكم و﴿غَمًّا﴾ هو الثواب الذي أعطاهم الله، فهو المفعول الثاني لأثابكم، والثواب هو المجازاة على العمل إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر، حتى الإثابة على الشر تسمى ثواباً، قال تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٦] لكن إذا قرن الثواب بالعقاب صار العقاب الجزاء على السيئات، وصار الثواب الجزاء على الحسنات، وأمثال هذا في اللغة كثير، تكون الكلمة لها معنى إذا أفردت، ولها معنى إذا قُرنت بغيرها.

وقوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾:

غمًّا: مفعول ثانٍ لأثابكم، بغمٍّ: الباء هنا قيل: إنها للمصاحبة، وقيل: إنها للمبادلة، وقيل: إنها بمعنى على، ولكل وجهة نظر، فأما الذين قالوا للمصاحبة، فقالوا: إن معناها أثابكم غماً مصحوباً بغم يعني مقترناً به لم يفصل بينهما فاصل، غموم متتابعة، والذين قالوا إنها بمعنى «على»، يقولون: إن معناها

أصابكم غماً على غمٍّ، ولا يلزم أن تكون متتابعة، والذين قالوا إنها للبدل والعوض يقولون: إن معناها أصابكم غماً (بغم) بدلاً عن الغم الذي حصل منكم، وإذا تأملنا وجدنا أن الآية الكريمة تحتمل كل المعاني الثلاثة كما سيتبين إن شاء الله من تفسير الغم ما هو؟ والقاعدة في التفسير: أن الآية إذا كانت تحتمل أكثر من معنى وليس بينهما منافاة فإنها تحمل على ما تحتمله من المعاني؛ لأن هذا من بلاغة القرآن. فما هي الغموم التي أصابتهم؟

نحن نعلم أن المسلمين في أُحد أصيبوا بمصائب عظيمة:

أولاً: كان النصر لهم في أول النهار ثم كان عليهم في آخر النهار، وهذا لا شك أنه يحدث غماً عظيماً؛ لأنه بعد أن تفرح النفوس بالنصر ثم تنتكس يكون هذا أشد عليها مما لو كانت الانتكاسة لم تسبق بنصر.

ثانياً: قُتل منهم شهداء من شجعانهم مثل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وهذا لا شك أنه يفت في أعضادهم.

ثالثاً: تأخر ثلث الجيش تقريباً من أثناء الطريق وهم المنافقون الذين انخذل بهم عبد الله بن أبيّ المنافق.

رابعاً: أُشيع أن النبي ﷺ قُتل، كيف تكون نفوس المؤمنين إذا أشيع أن إمامهم وقائدهم ﷺ قد قتل؟

خامساً: أن الرسول ﷺ أصيب يوم أحد، فكسرت رباعيته وشجَّ وجهه، وأصابه من الضعف والوهن ما لم يصبه من قبل، فالغموم كثيرة.

وهذه الغموم إذا قلنا: إن الباء بدلية يكون معناها أنكم أصابكم غم بسبب ما أصبتم الرسول ﷺ به من الغم؛ لأن نزولهم

من الجبل الذي جعلهم النبي ﷺ فيه لا شك أنه يحزن الرسول عليه الصلاة والسلام، ذلك القائد الذي رتَّب الجيش وأمرهم بأن لا يدعوا المكان مهما كان الأمر ثم خالفوه، وطاعة النبي ﷺ في هذا الباب واجبة من وجهين:

الأول: أن أمره شرع يجب اتباعه.

والثاني: من وجهة أنه قائد وولي أمر، ومخالفة القائد ولو لم يكن رسولاً تعتبر شديدة في نفسه، فكما أنه حصل للنبي ﷺ منهم غم أصابهم الله بغموم.

أما على القول بأنها للمصاحبة فالأمر ظاهر؛ لأنها غموم متلاحقة في غزوة واحدة.

وأما كونه غماً على غم فكذلك أيضاً، كلما فات غم أتى غم آخر، ولهذا قال: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾، اللام هنا للتعليل، والمعلل قوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ أي: أثابكم غماً بغم من أجل أن لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم كيف ذلك؟ لأن الغم الأكبر ينسي الغم الأصغر فمثلاً:

إذا فاتهم النصر فهذا غم بلا شك، لكن إذا قُتل نبيهم عليه الصلاة والسلام هذا أشد غمًّا، فلما أشيع أنه قتل نسوا الغم الأول ولم يحزنوا عليه لأنهم أصيبوا بغم أكبر. فإذا جاء الفرج وتبين أن الرسول ﷺ قد بقي زالت الغشاوة كلها، فيكون هذا من لطف الله بهم أنه يصيبهم بمصائب تنسيهم المصائب الأولى، ثم بعد ذلك تنفرج، وهذا من رحمته عزّ وجل وعنايته بالصحابة والنبي ﷺ، ولهذا قال: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾

يعني: من النصر والغنيمة ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ من الخذلان وفَقْد الغنيمة، فهذه من حكمة الله عزّ وجل، هذا هو الصواب في معنى الآية الذي لا يحتمل غيره. وأما قول صاحب الجلالين رحمه الله: إنَّ «لا» زائدة هنا والمعنى لكي تحزنوا على ما فاتكم وما أصابكم، فهذا قول بعيد جدًّا، بل إن الله عزّ وجل يحب من المؤمنين ألا يحزنوا بل ويسلّيهم إذا وجدت أسباب الحزن. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [المجادلة: ١٠] هذا تسلية، فكيف يفعل الله شيئاً من أجل أن يحزنوا؟ لكن المعنى كما سبق أن هذه الغموم التي أصابتهم من أجل أن ينسي بعضها بعضاً فلا يحزنوا على ما أصابهم ولا ما فاتهم، وحينئذٍ إذا انكشف الكل صار له طعم لذيذ في النفوس.

ونصبُ الفعل «تحزنوا» في قوله: ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ﴾ هل هو بـ «كي» أم باللام؟

يقولون: إذا ذكرت «اللام» و«كي» فالنصب بـ«كي»، وإذا ذكرت «كي» وحدها أو «اللام» وحدها فالكوفيون يقولون: الحرف هو الناصب، والبصريون يقولون: الناصب (أن مضمرة) يعني إذا اجتمعا صار النصب (بكي) مباشرة.

يقول عزّ وجل: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾. خبير مأخوذ من الخُبْرِ وهو العلم ببواطن الأمور، ومنه سمي الزارع خبيراً لأنه يدفن الحب ويخفيه. فالأصل أن هذه المادة تدل على الخفاء، فالخبير هو العليم ببواطن الأمور، والعليم ببواطن الأمور عليم بظواهر الأمور من باب أولى.

وقوله: ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾:

﴿بِمَا﴾ أي (بالذي) تعملون من خير وشر، من فعل وقول ووسوسة في النفوس، لكن هنا قال: «بما تعملون» لأن المراد بالخبرة هنا ما يترتب عليها من الحساب، فهي جملة خبرية تفيد التهديد؛ لأن الله عزّ وجل لا يحاسب إلا على العمل. أما حديث النفس فلا يحاسب عليه، ولو حدّث الإنسان نفسه بفعل المعاصي أو ترك الواجبات ثم لم ينفذ فإنه لا يحاسب، ولهذا قال: ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تذكير المؤمنين بما جرى منهم من المخالفة حيث قال: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ﴾ هذا على القول بأن (إذ) متعلقة بمحذوف تقديره (اذكر)، أما على القول بأنها متعلقة بـ(عفا) فيستفاد منها تذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم في عفوه عنهم حين أَصْعَدوا.

٢ ـ التوبيخ اللطيف في قوله: ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ فإن الشجاعة تمنع أن يقع من الإنسان مثل هذه الحال، يهرب ولا يلوي على أحد، والرسول يدعوه يقول: (إليَّ عباد الله) ففيها توبيخ لطيف للصحابة مما جرى منهم.

٣ ـ حسن رعاية النبي ﷺ لأمته في قيادته العظيمة حيث يكون في أخريات القوم، وهذا شأنه صلوات الله وسلامه عليه، أن يكون في أخريات القوم من أجل أن يتفقدهم، وليس كالملوك الذين يتقدمون الناس، بل هو يتأخر، كما حصل في قصة جمل جابر رضي الله عنه حيث كان النبي ﷺ في أخريات القوم وقد

أعيا جمل جابر، فلحقه النبي ﷺ وضربه ودعا له فمشى الجمل. مما يدل على أنه من أهداف النبي ﷺ للتأخر مثل هذه الحالة.

٤ ـ أنه ينبغي للقائد أن يكون ذا شجاعة في قيادته بحيث يثبت ويدعو إلى الثبات بقوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ لأنه لو لم يثبت وهرب معهم لم يكن صالحاً للقيادة.

٥ ـ إثبات رسالة النبي ﷺ في قوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾.

٦ ـ حكمة الله عزّ وجل وعدله في إثابته عباده؛ لقوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾، فالعدل ظاهر جدًّا إذا جعلنا الباء للبدل، والحكمة ظاهرة إذا جعلناها للمصاحبة أو بمعنى على؛ لأن هذه الغموم التي يتلو بعضها بعضاً يخفف بعضها بعضاً.

٧ ـ إثبات الحكمة، إثبات حكمة الله عزّ وجل في أفعاله من قوله (لكيلا)، فإن اللام هنا للتعليل، وهذه المسألة ـ أعني إثبات الحكمة لله في أفعاله وأحكامه الشرعية ـ ينفيها الجهمية بل والأشعرية أيضاً ينفونها ويقولون: إن أفعال الله لا تعلل لأنها لو عللت لكان يفعل لغرض، ولأنها لو عللت لصح أن يتوجه السؤال إليه عنها. فيقال: لم فعلت؟ والله سبحانه وتعالىٰ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقد بيّنا فيما سبق أن نفي العلة أو نفي الحكمة لأفعال الله يعد تنقصاً لله عزّ وجل؛ لأنه إذا انتفت الحكمة في أحكامه الشرعية أو القدرية صارت أحكامه عبثاً ولعباً، وقد أبطل الله سبحانه وتعالىٰ ذلك في عدة آيات من أشهرها قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

٨ ـ أن الله عزّ وجل يحب من عباده ألا يحزنوا؛ لأنه قدّر الغم بالغم من أجل ألا يحزنوا، وذلك لأن الحزن يحدث للإنسان انقباضاً ربما يمنعه عن كثير من المصالح، وربما يحدث له عقداً نفسية، والإنسان ينبغي أن يعوِّد نفسه على انشراح الصدر وانبساط النفس بقدر ما يستطيع؛ لأنه لا شك أن الإنسان إذا كان صدره منشرحاً ونفسه منبسطة أن يكون مستريحاً قابلاً للتفهم والتفهيم.

٩ ـ التربية العظيمة للعباد، وهي ألا يحزنوا على ما فاتهم، إذا فاتك خير تظنه خيراً لنفسك فقل: قَدَّرَ الله وما شاء فعل، وكذلك إذا أصابك ما تكره قل: قدر الله وما شاء فعل، واعلم أن الحزن لا يرد الغائب أبداً، وإنما يزيد الإنسان بلاءً.

١٠ ـ إثبات علم الله عزّ وجل الواسع بكل معلوم؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

١١ ـ وجوب الحذر من المخالفة، مخالفة الله عزّ وجل. ووجهه: أنه إذا كان خبيراً بعملنا فإن ذلك يوجب لنا ألا نخالفه؛ لأننا إن خالفناه علم، وإذا علم فسوف يحاسبنا.

١٢ ـ الرد على الجبرية من قوله: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ ووجه ذلك: أنه أضاف العمل إليهم. والجبرية يقولون: إن الإنسان لا يعمل، لا يفعل شيئاً باختياره.

١٣ ـ الرد على غلاة القدرية من قوله: ﴿خَبِيرُۢ﴾ لأن غلاة القدرية ينكرون علم الله بفعل العبد، ويقولون: إن الله عزّ وجل لا يعلم أفعال العبد لكن إذا فعلها علم بها.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال عزّ وجل: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]:

﴿ثُمَّ﴾ للترتيب بمهلة، ﴿أَنزَلَ﴾ أي الله عزّ وجل ﴿مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ كل الغموم السابقة، فالمراد بالغم هنا جنس الغم فشمل الغم بعد الغم. ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ أمنة يجوز في إعرابها وجهان:

الوجه الأول: أن تكون مفعولاً لأجله.

الوجه الثاني: أن تكون مفعولاً به لأنزل، فعلى الوجه الأول يكون «نعاساً» مفعول أنزل، وعلى الثاني يكون «نعاساً» بدلاً أو عطف بيان من أمنة، وأمنة بمعنى أَمن، يعني أنزل لكم من بعد الغم أمناً، وأمنة وأمن بمعنى واحد، وقال بعض المفسرين: إن هناك فرقاً بين الأمن وبين الأمنة، وهو أن الأمنة أمن مؤقت يكون بعده خوف كما في الآية، والأمن يكون أمناً مطرداً كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] في الجنة.

وهذا ليس بصحيح؛ لأن الأمن مصدرٌ، والمصدر مطلق يشمل القليل والكثير أما ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ فإن فيها (أل) الدالة على الكمال والاستغراق، لكن لو قلت: أَمِن أمناً لا يدل على أنه دائم أو أمنة لا يدل على أنه دائم، فالظاهر القول الأول، أنه لا فرق بينهما، لهذا فسره كثير من المفسرين قالوا: أمنة يعني أمناً.

فما المراد بهذا الأمن؟ قال: (نعاساً) والنعاس: مقدمة النوم، وهو دليل على طمأنينة القلب؛ لأن الخائف لا يمكن أن يَنْعَس، لِأَنَّ قلبه مضطرب، لكن الآمن المطمئن ينعس، ولهذا قال: ﴿نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ وفي قراءة: (تغشى طائفة منكم) فإذا كانت القراءة (تغشى) فالضمير يعود على أمنة. وإذا كانت القراءة (يغشى) فالضمير يعود على نعاساً.

﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾:

أي يصيب طائفة، والغشيان في الأصل: التغطية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧] وقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، لكن قد يراد به مجرد الإصابة وقد يراد به مع الإصابة أنه شملهم جميعاً. ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين.

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾:

يعني فلم يغشهم النعاس لماذا؟ لأن أنفسهم قد أهمتهم، وأوقعتهم في الهم؛ وهم من شدة قلقهم يقولون: لا ندري ما يكون، والذي هكذا حاله لا يأتيه النوم ولا يقربه النعاس، ولهذا قال: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ وطوى ذكر ترك عدم النعاس لأنه يعلم من حَار منهم فإنه لا يمكن أن ينعس إذا كانت قد أهمتهم أنفسهم.

يقول: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾:

جملة ﴿يَظُنُّونَ﴾ يجوز أن تكون خبراً ثانياً لقوله: ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ والخبر الأول جملة (قد أهمتهم أنفسهم)، يعني: وطائفة أهمتهم أنفسهم وكذلك يظنون بالله غير الحق، ويجوز أن

تكون ﴿يَظُنُّونَ﴾ في موضع نصب على الحال من الضمير في ﴿أَهَمَّتْهُمْ﴾ يعني: أهمتهم حال كونهم يظنون بالله غير الحق، يعني: يظنون بالله سبحانه وتعالىٰ ظناً غير ظن الحق، فما هو هذا الظن؟

يظنون أشياء كثيرة يقولون مثلاً: هل لنا من الأمر من شيء؟ وظنهم مثلاً أن الرسول عليه الصلاة والسلام قُتل حقيقة، وأنه لا نصر للإسلام بعده، وأن الدولة ستكون للكافرين، وما أشبه ذلك من الظنون الفاسدة، ولا شك أن هذا ظن مبني على الجهل، ولهذا قال: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ فبدأ ببطلان هذا الظن أولاً، ثم بيَّن أنه صادر عن جهل ولهذا قال: ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي ظن أهل الجهل؛ لأن من عرف الله عزّ وجل بأسمائه وصفاته وأحكامه لا يمكن أبداً أن يظن به هذا الظن، أن الله يديل الباطل على الحق، وأن الله لا ينصر رسوله، لا يظن هذا الظن إلا من لا يعرف الله عزّ وجل.

قال: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾:

جملة (يقولون) يصح أن تكون خبراً ثانياً أو ثالثاً لطائفة، ويصح أن تكون حالاً من الواو في (يظنون)، يظنون حال كونهم قائلين.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ بألسنتهم أو بقلوبهم؟

يحتمل الأمرين، يحتمل أنهم يقولون في أنفسهم، ويحتمل أنهم يقولون في قلوبهم بألسنتهم، يعني يقول بعضهم لبعض: هل لنا من الأمر من شيء؟.

والأصل في القول إذا أطلق فهو قول اللسان، وإذا كان

قول النفس فلا بد أن يقيد، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ [المجادلة: ٨]، فإذن تكون الآية دالة على أن هذا القول صادر منهم بألسنتهم.

إذا قال قائل: أنتم تقولون: إن القول إذا أطلق فهو قول اللّسان فكيف تجيبون عن قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ [الفتح: ١١]؟ يقال: هذا من باب التأكيد، وليقابل قول ما ليس في قلوبهم.

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾:

﴿هَل﴾ هنا للاستفهام لكن المراد من الاستفهام هنا الإنكار، كأنهم يقولون: هل نحن روجعنا، هل أخذت مشورتنا، أو أنهم ينفون فيكون الاستفهام للنفي يعني يقول: ليس لنا من الأمر من شيء.

وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾:

هذا يؤيد أن ﴿هَل﴾ بمعنى الإنكار أي أنهم ينكرون أنهم لم يرجع إليهم بشيء، فسياق الآية يدل على هذا، وأن هؤلاء أخذوا على القيادة في هذه الغزوة أنها لم تراجعهم. وقالوا: هل لنا من الأمر من شيء؟ فقال الله عزّ وجل: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾. ويؤيد هذا أيضاً قوله: يقولون ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾ يعني لو كان لنا من الأمر شيء ما حصلت هذه الهزيمة إلى آخر الآيات. فالظاهر أن الاستفهام هنا ليس للنفي كما ذهب إليه بعض المفسرين، ولكن معناه الإنكار على القيادة أنها لم تراجعهم في هذا الأمر.

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾، الأمر هنا واحد

الأمور أو واحد الأوامر؟ الأول: يعني: هل لنا من أمور الحرب شيء؟ لم يوجّه إلينا من أمر الحرب شيء، فكأنهم يريدون أن يتنصلوا مما حصل ويقولون: ما روجعنا ولا رُجِع إلينا ولا أُخِذ رأينا.

قال الله عزّ وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾:

فيها قراءتان: (كُلُّه) و(كُلَّه) فأيهما أرجح؟

يقال: إن كليهما راجح؛ لأنهما قراءتان سبعيتان، فإذا كانت (كلَّه) صارت كل: منصوبة على التوكيد؛ توكيد الأمر ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ وعلى قراءة الرفع تكون (الأمر) اسم إن، و(كل) مبتدأ و(لله) خبره، والجملة من المبتدأ والخبر: خبر إن، على كل حال هنا (الأمرَ كلَّه لله) يشمل الأمر الكوني والأمر الشرعي، فالأمر لله عزّ وجل كله هو الذي يتصرف في عباده كما يشاء حسب ما تقتضيه الحكمة، سواء كان هذا الأمر كونياً وهو الذي يقول الله له: كن فيكون، أو شرعياً وهو الأمر الموجه للعباد افعلوا أو لا تفعلوا، كله لله، كما أن الحكم كله لله.

قال الله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾:

﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ أي يضمرون في نفوسهم ما لا يبدونه للرسول ﷺ، ولكن الله يعلمه، وهذا يعد بلا شك مما جرى من بعض الصحابة رضي الله عنهم، وهو أمر لو تركوه لكان أفضل، فلو كانوا يصارحون الرسول ﷺ ويصالحونه لكان خيراً من كونهم يتكلمون فيما بينهم ويخفونه عن رسول الله ﷺ، وهذا ليس لجميع الصحابة بل لطائفة منهم؛ لأن المنافقين كلهم رجعوا قبل أن يصلوا إلى أُحد، فإن بقي فقد بقي ناس قليلون، لكن ظاهر الآية

حين قال: ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أن هذه الطائفة من المؤمنين مع أنه ربما يقول قائل: بل إن الآية تدل على أن هذه الطائفة ليست من المؤمنين؛ لأنه قال: ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ ولم يقل: وطائفة منكم لكن الذي يرجح التقسيم الأول؛ لأنه قال: يغشى طائفة وطائفة قد أهمتهم، والمفسرون مختلفون في ذلك على قولين:

القول الأول: أن هذه الطائفة طائفة من المنافقين.

القول الثاني: أنها طائفة من المؤمنين لكنهم ضعاف الإيمان.

وقوله: ﴿يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ﴾:

جملة (يقولون) تفسير للذي يخفونه، والقول هنا قول باللسان؛ لأن القول إذا أطلق فهو قول اللسان.

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾:

الأمر هنا واحد الأمور، يعني لو كان لنا من الشأن في هذه الغزوة شيء وردّ الأمر إلينا ما قتلنا هاهنا، يعني ما خرجنا ولا قتلنا، وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام استشار الصحابة حين الخروج إلى أُحد هل يخرج أم لا؟

فأشار عليه الشبان بأن يخرج لأنهم أو كثيراً منهم لم يخرجوا في غزوة بدر، فأرادوا أن يعوضوا عن تخلفهم عن غزوة بدر بهذه الغزوة، وقال بعض الصحابة: بل نبقى يا رسول الله في المدينة فإن دخلوا علينا قاتلناهم من على السطوح، وكان رأي النبي ﷺ يميل إلى هذا، ولكنه دخل بيته عليه الصلاة والسلام ثم عزم على أن يخرج ولبس لأمة الحرب وخرج.

فكأنهم أرادوا أن يرجع عن عزيمته وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ فقالوا له فقال: «**ما كان لنبي لبس لأمة الحرب أن يضعها حتى يفتح الله بينه وبين عدوه**»[1] فخرج، فالذين قالوا نبقى في المدينة هم الذين قالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ يعني لبقينا في المدينة ولم نقتل.

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾:

يعني قل يا محمد لهؤلاء الذين قالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾: لو كنتم في بيوتكم أي لو بقيتم فيها ولم تخرجوا ليس في مدينتكم فحسب بل في بيوتكم في قعر البيت لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، يعني اختفاءكم وبقاءكم في بيوتكم لا يمنع أن تبرزوا إلى مضاجعكم حيث كتب عليكم القتل.

وقوله: ﴿فِى بُيُوتِكُمْ﴾ فيها قراءتان سبعيتان: ضم الباء وكسرها في (بِيُوتكم).

وفي ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ﴾ ثلاث قراءات سبعيات: كسر الهاء والميم، وضم الهاء مع ضم الميم، وكسر الهاء مع ضم الميم (عليهِمِ القتل) (عليهُمُ القتل) (عليهِمُ القتل).

وقوله: ﴿لَوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ﴾:

(لو) هذه شرطية، وفعل الشرط: (كنتم) وجوابه (لبرز)، وقد مرَّ علينا أن (لو) تأتي شرطية وتأتي مصدرية للتمني، مثل

---

(١) انظر: مسند أحمد، رقم (١٤٣٧٣).

قوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] يعني ودوا أن تدهن، فتكون مصدرية.

﴿لَوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾:

كتب عليهم القتل كتابة قدرية لا كتابة شرعية، فهي كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] هذه كتابة قدرية. أما قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] فهي كتابة شرعية بمعنى فرض.

وقوله: ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾:

أي مكان الاضطجاع؛ لأن الميت يضطجع في قبره ولكنه اضطجاع إلى أمدٍ، إلى أن يبعث يوم القيامة، فإن الاضطجاع في القبور ليس هو آخر شيء، ولما سمع أعرابي رجلاً يقرأ قول الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢] قال: والله ما الزائر بمقيم، فاستدل بهذه الآية على أنه لا بد من مفارقة لهذه المقابر وذلك في البعث.

وقوله: ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي محل اضطجاعهم الذي يدفنون فيه.

﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾:

الواو حرف عطف، واللام: لام التعليل، ولهذا يجب كسرها ولا يجوز أن تسكنها، يعني لا يجوز أن تقرأ (ولْيبتلي) بل يجب أن تقول (ولِيبتلي) لأن لام التعليل مكسورة في كل حال بخلاف لام الأمر، فإن لام الأمر تسكن إذا وقعت بعد حرف العطف الواو والفاء وثم، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ

وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩] ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨] أما لام التعليل فإنها مكسورة دائماً ولو بعد الواو أو ثم أو الفاء.

يقول: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ﴾:

الواو حرف عطف فأين المعطوف عليه؟

يقولون: إن المعطوف عليه مقدر، والتقدير: فعل ما فعل ليتبين لكم ما حصل بسبب عصيانكم وليبتلي، فالمقدر الآن علة ومعلول لأجل أن يصح عطف العلة الثانية على العلة التي حذفت مع معلولها.

وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾:

(يبتلي) بمعنى يختبر ويمتحن، و(ما في صدوركم) هي القلوب؛ لقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾:

قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ معطوفة على يبتلي، والتمحيص بمعنى التخليص، محَّصه أي خلّصه، يخلّص ما في قلوبكم من كل ما يكون فيها من إرادات سيئة كقوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] أو فيه شيء من التسخط على القدر أو غير ذلك مما يفسد ما في القلب.

وقوله: ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ إذا قال قائل: ذكرتم أن ما في الصدور هي القلوب، وأن التمحيص أيضاً للقلوب، فكيف كان ذلك؟

نقول: كان ذلك لأن الابتلاء غير التمحيص، الابتلاء:

اختبار، والتمحيص: تنقية، ولهذا اختلف التعبير فقال: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ولم يقل: ما في صدوركم بل قال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من الأذى الذي يضركم في دينكم؛ لأن كراهة ما وقع أو إرادة ما لا ينبغي إرادته أين تكون؟ تكون في القلب، ولهذا كان التمحيص على ما في القلب أو كان التمحيص لما في القلب لا للقلب نفسه، والابتلاء للقلب نفسه، ويبتلي ما في صدوركم ويمحص ما في القلوب أي ينقي، فاختلف المورد. المورد في الأول: القلب، وفي الثاني: ما في القلب.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

الجملة هذه استئنافية لبيان إحاطة علم الله بما في القلب ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٦، ١٧].

وفائدة ختم الآية بها أنه لما بيَّن أن الله تعالى قدّر ما قدّر لهاتين الحكمتين الابتلاء والتمحيص، بيَّن أنه بعد ذلك سيعلم ماذا يكون في القلب بعد هذا الابتلاء وهذا التمحيص.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الله عزّ وجل هو الذي يجلب للمرء النوم أو يرفعه عنه؛ لقوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾، ولكن الله بحكمته جعل للنوم أسباباً، فالإنسان مثلاً إذا اضطجع واسترخى أتاه النوم، وإذا انشغل قلبه واهتم لأمر ما فإنه لا يأتيه النوم، وهذا كغيره من الأشياء التي تكون بإرادة الله ولكن لها سبب.

٢ ـ أنك إذا أرقت ولم يأتك النوم في الليل؛ فالجأ إلى الله عزّ وجل واسأله أن يذهب عنك الأرق، وادع بما وردت به السنة من دعاء الأرق المشهور[١].

٣ ـ أن النعاس قد يكون محموداً ويعتبر من النعم؛ لقوله: ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾. قال العلماء: النعاس في الحرب نعمة، والنعاس في العلم لا يكون نقمة ولكن يكون مذموماً، يعني محموداً في الحرب ونعمة، أما في العلم فإنه مذموم، وكذلك أيضاً في الصلاة. ولكنه إذا غلب على الإنسان فإنه لا يؤاخذ به إلا أن النبي ﷺ أمر الإنسان إذا أصابه النعاس في الصلاة أن يضطجع، وأن يستريح قال: فلعله يذهب ليدعو لنفسه فيكون الأمر بالعكس[٢].

٤ ـ أن النعاس الذي أصابهم إنما أصاب المؤمنين الخلّص؛ لقوله: ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾.

٥ ـ أنه قد يوجد في الكمّل من المؤمنين شيء من العيوب كالأنانية، فإن قوله: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يدل على أنانيتهم وأنهم ليس لهم همٌّ إلا أنفسهم، والذي يليق بالمؤمن أن يكون همّه في مثل هذه المواطن نصرة الإسلام وعزة الإسلام، وأن يبيع نفسه لله.

---

(١) انظر كتاب الأذكار للحافظ أبي زكريا يحيى بن شرف النووي رحمه الله.

(٢) راجع صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب الوضوء من النوم ومن لم ير من النعسة والنعستين، رقم (٢١٢). وكذلك انظر صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن، رقم (٧٨٦).

٦ ـ أن الإنسان الذي لا يكون له همٌّ إلا نفسه في هذه المواطن قد يبتلى ـ والعياذ بالله ـ بهذه البلوى العظيمة، وهي أن يظن بالله غير الحق ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾. وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد» أنواعاً كثيرة من الظن بالله غير الحق منها:

أنهم ظنوا أن هذه الهزيمة لا انتصار بعدها، وهذا ظن سوء؛ فكل من ظنَّ أن الله يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة فقد ظنَّ بالله ظن السوء، ومن أراد أن يرجع إلى كلام ابن القيم في زاد المعاد فهو كلام جيد لم يوجد لا في كتب التفسير ولا في كتب التاريخ.

٧ ـ ذم من ظنَّ بالله غير الحق؛ لأن الله ذكر ذلك في سياق ذم هؤلاء الذين ليس لهم همٌّ إلا أنفسهم، فإذا كان من ظنَّ بالله غير الحق مذموماً كان من ظنَّ به ظنَّ الحق محموداً.

٨ ـ أنه لا يظن أحدٌ بالله ظناً غير الحق إلا وهو جاهل؛ لقوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ فكل من ظنَّ بالله غير الحق فإنه بلا شك جاهل لم يقدر الله حقَّ قدره.

٩ ـ أن هؤلاء أنكروا ما فعله الرسول ﷺ من الخروج إلى أحد، لكنه على وجه خفي؛ لقولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ لأنه على زعمهم لو كان لهم شيء من الأمر ما قتلوا.

١٠ ـ بيان أن الأمر كله لله، الأمر الشرعي، والأمر الكوني، ليس لأحد مع الله أمر، فكل الأمر لله؛ لقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾.

١١ ـ أنه يجب على الإنسان أن ينكر المنكر بذكر الحق؛ لأن الله قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾، والأمر في قوله ﴿قُلْ﴾ أدنى أحواله أن يكون للاستحباب.

١٢ ـ أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ لأنه لو كان يعلم الغيب لكان يعلم ما يخفون وإن لم يبدوه، ولكن النبي ﷺ لا يعلم الغيب لا في حياته ولا بعد مماته، وإذا كان لا يعلم الغيب في حياته فعدم علمه الغيب في مماته من باب أولى، وقد صرح الله بذلك حيث أمره أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠] أمر الله أن يعلن هذا وقد أعلنه عليه الصلاة والسلام على الملأ، لم يكتم شيئاً مما أوحاه الله إليه ومنه هذا.

١٣ ـ التنديد بمن يعترضون على القدر؛ لقوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ إلخ.

١٤ ـ أن ﴿لَوْ﴾ بعد القدر لا تفيد شيئاً؛ لقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ فقضاء الله لا مفر منه.

١٥ ـ أنه قد يكون فيها إشارة إلى أن الشهداء يدفنون في مكان استشهادهم؛ لقوله: ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي في أماكن قتلهم. وهذا إن لم تفده هذه الآية فقد استفيد من السنة، فإن قوماً من الصحابة حملوا قتلاهم في أحد لدفنهم في المدينة فأمر النبي ﷺ بردِّهم إلى مصارعهم يدفنون هناك فدفنوا في أحد[1].

---

(١) رواه أحمد في مسنده، رقم (١٣٨٩٣). ورواه النسائي، كتاب الجنائز، باب أين يدفن الشهيد، رقم (٢٠٠٤). ورواه ابن ماجه، كتاب ما جاء في الجنائز، باب ما جاء في الصلاة على الشهداء ودفنهم، رقم (١٥١٦).

١٦ ـ إثبات الحكمة في أفعال الله بقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ والنصوص في إثبات حكمة الله لا تعد ولا تحصى، بل حتى الأمور الكونية التي لا حصر لها كلها تفيد إثبات حكمة الله عزّ وجل.

١٧ ـ أن العبرة والمدار على القلوب التي في الصدور؛ لقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ وقد بيَّنا فيما مضى أن أحكام الدنيا على الظواهر، وأحكام الآخرة على البواطن، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٨، ٩]، ولأن النبي ﷺ كان لا يقتل المنافقين وهو يعلم ببعضهم ويقول: «**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»[1] إجراءً على ظاهرهم، ولأنه لو رُجِع إلى الباطن في أحكام الدنيا لسادت الفوضى بين الأمة؛ لأن كل إنسان قد يقتل الشخص أو يؤدبه أو يعزِّره ويقول: إن قلبه منطو على الكفر والنفاق، ويحصل في هذا من الشر ما لا يمكن أن تعيش الأمة به، ولكن الله بحكمته ورحمته جعل أحكام الدنيا على الظواهر.

١٨ ـ أن الله تعالى قد يبتلي عباده بما ينقي قلوبهم ويخلصها من الشوائب؛ لقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ والتمحيص كما قلنا التنقية.

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، رقم (٤٩٠٥). ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، رقم (٢٥٨٤).

١٩ ـ إثبات علم الله بما في القلوب؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة: التحذير من إضمار ما لا يرضى به الله؛ لأنك إذا أضمرت ما لم يرض به الله فسوف يحاسبك عليه وإن كان لا يبدو للناس، فعلى المرء أن يحاسب نفسه دائماً وينظر ما في قلبه، هل في قلبه الخير وإرادة ما يرضي الله أو أن الأمر بالعكس؟ فليصحح الوضع.

❁ ❁ ❁

□ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ﴾ هذه جملة مؤكدة بـ(إنّ)، و(الذين) اسمها، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ جملة خبر إن.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾:

جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات. وهي: القسَم، واللام، وقد.

يقول الله عزّ وجل خبراً عن هؤلاء الذين تولوا يوم أحد وانهزموا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾:

الجمعان: مثنى جمع، والمراد بهم جمع الرسول ﷺ وجمع الكفار، المسلمون بقيادة الرسول ﷺ، والكفار بقيادة أبي سفيان.

يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ﴾:

تولوا: يعني أدبروا وهربوا وهم أكثر الجيش حتى إنه لم يبق مع النبي ﷺ إلا نحو ثلاثة عشر رجلاً منهم أبو بكر وعمر وعلي

رضي الله عنهم[١]، هؤلاء الذين تولوا يوم التقى الجمعان أي تلاقوا وجهاً لوجه. ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾: استزل: في الأصل طلب الزلة، يعني إنما صدهم الشيطان من أجل أن يطلب زلتهم، وقيل: استزل بمعنى أزل يعني إنما أزلهم. والمراد بـ «أزل» أي: أوقعهم في الزلل، والزلل هو الخطأ والانحراف عن الصواب.

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾:

الشيطان: اسم جنس، ولكل إنسان شيطان قرين له يأمره بالشر وينهاه عن الخير، والشيطان هنا يقولون: إنه مشتق من شَطَن إذا بَعُدَ؛ لبعده عن رحمة الله، ومن أجل ذلك كان منصرفاً كما قال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧]. وقال بعضهم: إنه من شَاطَ، ولو كان كذلك لكان غير منصرف إذا قصد به العَلم؛ لأنه إذا كان من شاط صارت النون والألف زائدتين، وإذا كانت النون والألف زائدتين في عَلَمٍ أو في وَصْفٍ امتنع من الصرف.

﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾:

الباء هنا للسببية، أي ببعض الذي كسبوه، وما هو الذي يكون سبباً لإغواء الشيطان من المكاسب؟ هو المعاصي أي: أن لديهم ذنوباً كانت سابقة، ثم إن الشيطان استزلهم بها أي أوقعهم في الزلل لسبب هذه الذنوب؛ لأن الذنوب تكون سبباً للذنوب الأخرى، ولهذا قال بعض السلف: إن من علامة قبول الحسنة الحسنة بعدها، ومن علامة ردها السيئة بعدها.

---

(١) زاد المعاد لابن القيم (٣/ ٢١٣).

فالإنسان إذا أذنب ذنباً فإنه إن لم يتب فإن الشيطان يوقعه في ذنب آخر، وهكذا حتى يصبح قد أحاطت به خطيئته، ولهذا قال العلماء: إن المعاصي بريد الكفر، يعني تنتقل بالإنسان مرحلة بعد أخرى حتى يصل إلى قمة المعاصي وهي الكفر.

ثم قال الله عزّ وجل لما بيَّن خطأهم وأنهم هم السبب في هذا الخطأ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾. وهذه كالتي سبقت في قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢] فكرر الله العفو مرتين.

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾: أي عن الذين تولوا، والعفو: ترك المؤاخذة على الذنب، ويكون في الغالب في ترك الواجبات، يعني أن الله عفا عمن ترك الواجب، والمغفرة وتكون فيمن فعل المحرم.

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾:

الغفور من أسماء الله، والحليم من أسمائه سبحانه، والغفور معناه ذو المغفرة وهي ستر الذنب والتجاوز عنه؛ لأن أصلها من المِغْفَر وهو ما يلبس على الرأس ليتقىٰ به السهام، وهو جامع بين الستر والوقاية، أما الحلم فهو التأني وعدم السرعة، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله:

وهو الحليم فلا يعاجل عبده بعقوبة ليتوب من عصيان

فالحليم معناها: الممهل للعباد المتأني في عقوبتهم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان سبب انهزام من انهزم من الصحابة، وهو استزلال الشيطان لهم، ثم بيان هذا السبب الذي بُني عليه هذا السبب،

وهو بعض ما كسبوا من المعاصي، فيستفاد من هذا أو يتفرع من هذه الفائدة فائدتان:

الفائدة الأولى: أن كل ترك للواجب أو فعل للمحرم فإنما هو من استزلال الشيطان؛ لأنه هو الذي يأمر بالفحشاء وينهى عن المعروف، فكل ما حصل من تفريط في واجب، أو وقوع في محرم فإنه من الشيطان.

والفائدة الثانية: أن الإنسان قد يعاقب بالمعصية لمعصية أخرى، أي أنه تكون عقوبته أن يعصي الله مرة ثانية.

ويتفرع على هذا أيضاً فائدة وهي: أن العقوبة لا تختص بالألم البدني أو فوات الشهوات، بل قد تكون العقوبة بخذلان المرء عن الطاعات، ويذكر عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: إن الرجل ليحرم قيام الليل بما فعل من المعصية أو بالذنب يصيبه.

ولا شك أن المعاصي سبب للخذلان، ويؤيد ما قلنا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾، وهي التي بنينا عليها هذه الفائدة، لكن يؤيدها أيضاً قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ هذه عقوبة بدنية، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ وهذه عقوبة دينية، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ وهذه أيضاً عقوبة دينية ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] كذلك، فالمعاصي لها أسباب سيئة وعواقب وخيمة نسأل الله العفو والعافية.

٢ ـ تحريم الفرار إذا التقى الجمعان، وجهه أن الله بيَّن أن هذا من استزلال الشيطان وأنه عفا عنهم، ولولا أنهم يستحقون

العقوبة لم يكن لقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ فائدة، نستثني من ذلك ـ أي من تحريم الفرار عند التقاء الجمعان ـ مسائل:

المسألة الأولى: إذا كانوا أكثر مثليهم فلهم الفرار ولكن الثبات أفضل.

المسألة الثانية: إذا كان متحرفاً لقتال، يعني من أجل أن يأتي بأسلحة أو يستحث قوماً على الجهاد، أو ذهب من أجل أن يكرّ عليهم من الجهة الأخرى، المهم أنه متحرف لقتال.

المسألة الثالثة: أو متحيزاً إلى فئة، يعني أن الجبهة التي هو فيها ضعفت ففرَّ من أجل أن يتحيز إلى فئة أقوى، أو تكون الجبهتان ضعيفتين فتتحيز إحداهما إلى الأخرى، فهذا لا بأس به، وما عدا ذلك فإن الفرار يوم الزحف من كبائر الذنوب والعياذ بالله كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

٣ ـ إثبات أن للشيطان تأثيراً على العبد حتى في عمله الصالح وحتى في الجهاد؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، ولكن بماذا تحصل العصمة من هذا الشيطان؟ تحصل العصمة بما ذكره الله عزّ وجل في قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، هذه العصمة كلما أحسست بشيء في داخلك ينهاك عن معروف ويأمرك بمنكر فقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

٤ ـ الردُّ على الجبرية وذلك من قوله: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾، ومن قوله: ﴿تَوَلَّوْا مِنكُمْ﴾.

٥ ـ بيان أن الله عزّ وجل قد عفا عن هؤلاء؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾.

٦ ـ أنه ينبغي التأكيد من أجل زيادة طمأنينة المخاطب؛ لأنه أكَّد هذه الجملة الخبرية التي تفيد العفو عنهم؛ أكدها بقسَم، ولام، وقد، من أجل أن تزداد طمأنينتهم في هذا العفو.

٧ ـ بيان فضل الله على عباده وإلا فإن الفرار الذي حصل من الصحابة عظيم، لكن رحمة الله أوسع، فمن أجل سعة رحمة الله عفا الله عنهم.

٨ ـ إثبات اسمين من أسماء الله وهما الغفور والحليم وما تضمناه من صفة، فالغفور تضمن المغفرة، والحليم تضمن الحلم.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال عزّ وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٥٦]:

قوله: ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ اللام هل هي للتعدية أي: تعدية القول أم لها معنى آخر؟ نقول: إن لها معنى آخر، وليس لتعدية القول؛ لأن إخوانهم قد ماتوا وقتلوا، فلا يمكن أن يوجَّه القول لهم لكنها بمعنى (في) أي: قالوا في إخوانهم. أو بمعنى (عَنْ) أي: قالوا عن إخوانهم أيضاً.

يقول: ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ غزًّى: جمع غازٍ على وزن فُعَّل، قال ابن مالك:

وفُعَّلٌ لفاعل وفاعلة وصفين نحو عاذل وعاذلة

عاذلة يقال: عُذَّل، وغازٍ يقال: غُزَّى، ويقال أيضاً: غزاة كقاضي وقضاة، ولكن هنا نجعل غُزَّى جمع غازٍ، ووزنها الصرفي فُعَّل.

وكذلك أيضاً قوله: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ اللام هل هي للتعليل أو للعاقبة؟ يقال: إنها للعاقبة، يعني يقال هذا القول ليجعل الله هذا القول حسرة في قلوبهم.

وقوله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾:

الخطاب أو النداء موجَّه للمؤمنين، وفائدة توجيه النداء للمؤمنين في هذا الخطاب:

أولاً: الحث والإغراء على قبول ما يوجَّه إليهم وامتثاله؛ لأن وصف الإيمان يزيد الإنسان قوة وشجاعة كما لو قلت لشخص: يا أيها الرجل افعل كذا وكذا، أي (لرجولتك) افعل، وهذا سيعطيه قوة واندفاعاً في قبول ما توجه إليه.

الفائدة الثانية: أن ما يأتي بعدها من مقتضيات الإيمان.

الفائدة الثالثة: أن مخالفة ذلك نقص في الإيمان، لأنه إذا كان قبوله والإتيان به من مقتضيات الإيمان، كان مخالفته من نواقص الإيمان.

أما بدء الخطاب بالنداء فإنه يفيد التنبه والعناية بما يذكر، ولهذا قال ابن مسعود: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأرعها سمعك، فإما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾:

الإيمان شرعاً: هو الإقرار المتضمن للقبول والإذعان،

فالإقرار المجرد لا يسمى شرعاً إيماناً، بل لا بد من قبول وإذعان. القبول ضد الرفض، والإذعان ضد الاستكبار.

يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: يعني مثل الذين كفروا.

ثم قال: ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾: وهذا لا شك أنه من جملة كفرهم؛ لأنه دال على ضعف الإيمان.

وقوله: ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾:

قال بعض المفسرين: إخوانهم في النسب، وقال بعض المفسرين: إخوانهم في الكفر، والثاني أقرب، أي: قالوا في شأن إخوانهم إذا ضربوا في الأرض.

﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا﴾:

يعني لو لم يضربوا في الأرض ما ماتوا، ولو كانوا عندنا ولم يغزوا ما قتلوا، فقوله: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ هذا فيه ما يسمى عند البلاغيين لفاً ونشراً مرتباً، (ما ماتوا) مقابل (إذا ضربوا)، (وما قتلوا) مقابل (أو كانوا غزى)، و(إذا ضربوا) قبل (كانوا غزى)، إذن فهو مرتب، فلو كانوا عندنا ولم يضربوا في الأرض ما ماتوا، ولو كانوا عندنا ولم يغزوا ما قتلوا. يقول هؤلاء: لو أنهم لم يسافروا ما ماتوا، ولو أنهم لم يغزوا ما قتلوا، هكذا يقولون.

لكن الله يقول: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾:

أي ليجعل الله هذا القول الذي قالوه وهو لا يغني عنهم شيئاً، يجعله الله حسرة في قلوبهم، حسرة: يعني تحسراً وندماً يستحسر به القلب ولا ينبسط ولا يفرح، وإلا فإن هذا القول لا يغني شيئاً.

واللام في قوله ﴿لِيَجْعَلَ﴾ سبق أن بيَّنا أنها للعاقبة، وبيَّنا أن اللام الداخلة على الفعل في مثل هذا التركيب، تكون إما للعاقبة وإما للتعليل وإما زائدة، فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ [الأحزاب: ٣٣] هذه زائدة، وقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٨] اللام زائدة، ودليل هذا أنه في الآية الثانية قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟﴾ [التوبة: ٣٢]. واللام في قوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] للعاقبة، ولو ظنوا أنه يكون عدواً وحزناً لقتلوه. هذه الآية ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أيضاً للعاقبة، لأنهم لو ظنوا أن هذا حسرة وأنه لا فائدة منه إلا التحسر والندم وتكرار المصيبة ما قالوا هذا، ولكن الواقع أنه يكون حسرة في قلوبهم وإلا فإنه لا يغني شيئاً لماذا؟ لأن الأمر بيد الله، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ الإحياء والإماتة بيد الله عزّ وجل أي: إذا قدّر الله إماتة شخص على سبب من الأسباب يسَّر له هذا السبب، وصار هو نفسه يفعل ذلك السبب، فالإحياء والإماتة بإذن الله عزّ وجل.

﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

يعني ومن جملة ما هو بصير به عملهم، والبصير هنا يحتمل بصر الرؤية، ويحتمل بصر العلم، يحتمل المعنيين جميعاً، فهو بصير بما نعمل بمعنى عليم، وهذا بصر العلم، وبصير بما نعمل بمعنى راء لما نعمل، وهذا بصر الرؤية.

فإذا قال قائل: هل تثبتون لله بصر الرؤية؟ قلنا: نعم، قال النبي ﷺ: «**حجابه النور ـ أي الله عزّ وجل ـ لو كشفه لأحرقت**

سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[(١)]. هذا لإثبات البصر لله، أما بصر العلم فواضح وكثير، إذن في هذه الآية إثبات إحاطة علم الله بكل ما نعمل لقوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، و(ما) هنا اسم موصول، واسم الموصول يفيد العموم ولو كان واحداً. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

(فالذي) اسم مفرد وعاد عليه الإشارة والضمير جمعاً؛ لأنه عام، فإن اسم الموصول ـ وإن كان لفظه لفظ المفرد ـ يكون للعموم، فالقاعدة: أن (كل اسم موصول فهو للعموم).

﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

فيها قراءة ثانية، فهل في الآية التفات؟ الواقع ليس فيها التفات حقيقة؛ لأنه إذا قال ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فالخطاب في أول الآية موجه للمؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ﴾ مخاطبة، لا تكونوا، فإن كنتم فالله بما تعملون بصير، إذن لا التفات، إذا جعلنا (بما يعملون) عائداً على (الذين كفروا) و(قالوا لإخوانهم) أيضاً، فليس فيه التفات، فالحقيقة أنه ليس في الآية التفات سواء جاءت بالتاء أو بالياء؛ لأنها إن جاءت بالتاء فقد روعي فيها صدر الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ... وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وإن كانت بالياء فقد روعي فيها آخر الآية.

وفي هذه الآية إشكال وهو أن قوله: (قالوا) ماض و(إذا ضربوا) مستقبل، ويجاب عنه بأن بعض العلماء قال: إن (إذا) هنا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إن الله لا ينام...»، رقم (١٧٩).

لا يراد بها الاستقبال، وأنها سلبت الدلالة على المستقبل، وأن المراد بها مجرد الظرف، وهذا يشبه قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ قالوا: والدلالة على المعنى قد تسلب الكلمة كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] هل معناه كان في الأزل ثم لم يكن الله غفوراً رحيماً؟ لا، سلبت الدلالة على الزمان، لذلك سلبت «إذا» الدلالة على المستقبل، وصار المراد بهذا مجرد الزمان فقط.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تعلية شأن المؤمنين بإيمانهم من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأن المخاطب لا ينادى إلا بأحب الأوصاف إليه، ولهذا لو ناديت أحداً بأقبح الأوصاف لسابَّك وشاتمك، ففيه تعلية شأن المؤمنين بإيمانهم. ومنها فضيلة الإيمان وأنه مقتضٍ لكل الأخلاق الفاضلة.

٢ ـ الإشارة إلى النهي عن التشبه بالكفار؛ لقوله: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

والتشبه بالكفار اختلف فيه العلماء، فذهب أصحاب الإمام أحمد رحمه الله في المشهور عنهم إلى أن التشبه بالكفار مكروه، والمكروه عند الفقهاء كراهة تنزيه، أي يثاب تاركه امتثالاً، ولا يعاقب فاعله، لكن قولهم هذا ضعيف. والصواب أن التشبه بالكفار حرام، ولما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حديث: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[1] في كتابه القيم الذي أشير به

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، رقم (٥٠٩٣). ورواه أبو داود، كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، رقم (٤٠٣١).

على كل طالب علم وهو (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) لما ذكر هذا الحديث قال: وأقل أحوال هذا الحديث التحريم؛ وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم؛ لأن قوله: «**من تشبه بقوم فهو منهم**» ظاهره أنه كافر، فالاقتصار على الكراهة التي يراد بها كراهة التنزيه عند الفقهاء فيه نظر ظاهر.

المهم أن في هذه الآية إشارة إلى النهي عن التشبه بالكفار، لا سيما إذا كان الفعل نفسه محرماً، فإن قولهم هذا فيه اعتراض على القدر كما سيتبين إن شاء الله.

فإن قال قائل: ما هو ضابط التشبه؟ وهل يشترط فيه القصد؟

فالجواب: أن ضابط التشبه أن يأتي بما يختص بالكفار من لباس أو تحلية جسم أو غيره، بحيث يقول من رآه: هذا من الكفار؛ لأنه لا يمكن أن يقول هذا من الكفار إلا إذا كان الشيء مختصاً بهم، أما إذا كان عاماً فإنه لا يمكن أن يقال هذا من الكفار. فمثلاً الذي يلبس البنطلون عند الناس مع أنه في بعض البلاد الإسلامية هو لباس الناس، هل نقول: إن البنطلون تشبه؟ الجواب: لا، لأنه ليس خاصًّا بالكفار.

مسألة: وهل يشترط في التشبه القصد أو لا يشترط؟ الجواب: لا يشترط؛ لأن الإنسان لو قصد التشبه لكان الخطر عظيماً؛ لأنه لا يقصد التشبه بهم إلا من ملئ قلبه ـ أو كاد يملأ ـ بمحبتهم وتعظيمهم، بل إن التشبه حاصل بصورة التشبه سواء قصد أم لم يقصد. هذا نقوله باعتبار الشخص نفسه، أما باعتبار إنكارنا عليه فإننا ننكر عليه مطلقاً، لأننا لو سكتنا عن الإنكار عليه لأمكن كل واحد أن يقول إنني لم أقصد التشبه، فنحن نقول: الإنكار

على المتشبه مطلقاً سواء قصد أم لم يقصد، لكن الكلام على المتشبه نفسه هل يشترط لكونه متشبهاً أن يقصد التشبه أم لا يشترط؟

مسألة: التشبه في الأمور الدينية بالكفار أعظم بكثير من التشبه في الأمور العادية؛ لأن التشبه بهم في الأمور الدينية يعني تعظيم الباطل لذاته لا لكونه من خصائصهم. ولهذا ذكر ابن القيم رحمه الله في أحكام أهل الذمة أنه حرام بالاتفاق، وقال: هذا إن سلم فاعله من الكفر فقد أتى محرماً لا شك فيه؛ لأن التشبه بهم في الأمور الدينية يعني تعظيم دينهم، ودينهم منسوخ بدين محمد ﷺ بإجماع المسلمين، ومن زعم أن اليهود أو النصارى أو غيرهم على دين صحيح مقبول عند الله فهو كافر، يُعلَّم حتى يرجع؛ لأن الله يقول عزّ وجل: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] ويقول: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] وصحَّ عن النبي ﷺ فيما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به؛ إلا كان من أصحاب النار**»[1]، وإذا قيل أصحاب النار فهم أصحابها الذين لا يخرجون منها وهم الكفار.

٣ ـ أن الندم على ما وقع لا يرفع الواقع، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٣).

٤ ـ أن هذا الدين رحمة؛ لأن نهي الله عن الندم على ما مضى مصلحة للإنسان، لأنه يطمئن قلبه ولا يتحسر ولا يحزن، فإنه يقول لنفسه: هذا الأمر لا بد أن يقع كما وقع، فلا حاجة لأن تقول: لو أني فعلت لما حصل؛ إنما تقول: لو أني فعلت في أمر تكون فرطت فيه، أما شيء لم يكن بتفريطك فهذا لا يحل لك أن تندم عليه.

٥ ـ أنه لو أن شخصاً سافر ثم صار عليه حادث، ثم قال أهله: لو أنه لم يسافر لما حصل له حادث. نقول: هذا من قول الكفار: ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ﴾، هذا قول الكفار، والمؤمن لا يقول هذا، المؤمن يقول: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ويقول: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، ويقول: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أن الأمر بيد الله ولا يمكن أن يتغير المقدور عما وقع أبداً.

٦ ـ أن هؤلاء المعترضين على القدر يكون اعتراضهم حسرة في قلوبهم، ولا ينسون المصيبة، وتجد الشيطان يلعب بهم (ليته ما راح، ليته ما غزا، ليته ما فعل...)، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام مشيراً إلى هذا المعنى: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**»[1]، وهل المراد القوي في بدنه يحمل الحجر الكبير ولا يبالي ولكن صلاته ضعيفة، أو المؤمن الذي لا يحمل إلا عشر كيلو أو ما شابه ولكنه يتهجد

---

(١) رواه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة، رقم (٢٦٦٤).

بالليل ويصوم ما شاء الله ويصلي الواجبات؟. المراد الثاني، المؤمن القوي في إيمانه؛ لأن القوي وصف عائد على ما سبق، والمؤمن مشتق من الإيمان. إذن المؤمن القوي في إيمانه ولا بد، وليس المؤمن القوي في بدنه، فلو قال: البدين القوي، قلنا: معناه القوي في بدنه، ولو قال: الرجل القوي، قلنا: في رجولته، لكنه قال: المؤمن القوي أي في إيمانه، وقوة البدن لا تمدح إلا إذا كان فيها زيادة قوة في الإيمان، وكثرة المال لا تمدح إلا إذا كان فيها زيادة في الإيمان، يقول الرسول ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**». ولما كان هذا الكلام من الصادق المصدوق قد يؤدي إلى انحطاط رتبة المؤمن الضعيف، لذلك قال: (**وفي كل خير**) جبراً لما يتوهم من نقص الضعيف، وهذا الأدب من الرسول عليه الصلاة والسلام هو مما أدّبه الله به، قال الله عزّ وجل: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]، وقال: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [النساء: ٩٥] فالنبي عليه الصلاة والسلام قال: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير**» ثم قال: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**» يعني لا تكسل أو تضعف عن الاهتمام بالعمل، وإن أصابك شيء بعد الحرص والاستعانة بالله والقوة في العمل فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان.

إذن من قال: (لو) معترضاً على القدر فقد شابه الكفار، وقد فتح على نفسه باب عمل الشيطان.

٧ ـ الرد على القدرية؛ لقوله: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني أن الله قدّر أن يقولوا هذا القول ليجعله حسرة في قلوبهم.

٨ ـ إثبات أن الإحياء والإماتة بيد الله ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ وهذا أيضاً مؤجل، الإحياء والإماتة مؤجلة بأجل لا يزيد ولا ينقص أبداً ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

٩ ـ إثبات عموم علم الله عزّ وجل بكل ما نعمل؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أو (بما يعملون) ويترتب على هذه الفائدة فائدة مسلكية ينتفع بها الإنسان في سلوكه وعمله، وهي أنه إذا آمن بأن الله بصير بما يعمل لزم من ذلك أن يستقيم على أمره، فعندما تريد أن تفعل معصية تذكر أن الله بصير بعملك، وإذا أردت أن تعمل طاعة تذكر أن الله بصير بعملك فأحسن الطاعة، فهذه تفيد الإنسان في سيره إلى الله عزّ وجل، إذا آمن بأن الله بصير بما يعمل حسن سيره إلى الله، واستعان بذلك على إحسان العبادات وعلى ترك المحرمات.

١٠ ـ الرد على الجبرية حيث أضاف العمل إليهم، والجبرية لا يضيفون العمل إلى الإنسان يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله، فالإنسان الذي يحرك يده اختياراً كالإنسان الذي فيه رعشة كلاهما سواء لا يستطيعان أن يمنعا أنفسهما.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧]:

في هذه الآية كلمتان فيهما قراءتان: الأولى: (مُتُّم) مأخوذة من مات يموت، وتكون (مُتُّم) بضم الميم، وإذا أخذت من مات يَمَات تكون: (مِتُّم) بكسر الميم، تقول: مات الرجل يَمَات الرجل، ومات الرجل يَمُوت الرجل، ويمات كيخاف، وأصلها: مَوِتَ يَمْوَتُ، كخَافَ يَخَاف أصلها خَوِفَ يَخْوَفُ، إذن هي من باب فَرِح يَفْرَح، خَوِف يَخْوَف. ففيها قراءتان: قراءة بكسر الميم (مِتم) وقراءة بضم الميم (مُتم).

الكلمة الثانية: قوله: ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فيها قراءتان: قراءة بالياء (يجمعون) وقراءة بالتاء (تجمعون).

هل في الآية التفات؟

يقال: نعم، وهذا على قراءة الياء، أما على قراءة التاء فليس فيها التفات؛ لأن الآية كلها للخطاب، وفي الآية أيضاً من جهة اللغة العربية ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أنه اجتمع في الجملة قسَم وشرط، والسابق هنا القسم، وإذا تقدم القسم أيهما يحذف جواب الشرط أم جواب القسم؟ الجواب: أن الذي يحذف هو جواب المتأخر وهو هنا الشرط.

قال ابن مالك:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

يعني عند اجتماع شرط وقسم في الجملة احذف جواب ما أخرت فهو ملتزم، وهنا المتقدم القسَم. إذن الذي يحذف جواب الشرط، ولهذا جاء الجواب ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ وهو جواب قسم، فاللام

هنا واقعة في جواب القسم، واللام في لئن موطئة للقسم، وجواب الشرط محذوف. فإن قال قائل: كيف يحذف وهو ركن في الجملة؟ قلنا: لأنه وجد ما يسد مسده وهو جواب القسم.

يقول الله عزّ وجل: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في الجهاد في سبيله، ويحتمل أن يكون أعم من ذلك بمعنى قتلتم في سبيل الله في الجهاد، أو قتلتم في سبيل الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو قتلتم في سبيل الله في الدعوة إليه، أو قتلتم في سبيل الله في بيان الحق، كل هذا داخل في سبيل الله؛ لأن الجامع بينها أن هذا قتل وهو يدافع عن دين الله عزّ وجل.

يقول الله عزّ وجل: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾: خير من الدنيا وما فيها.

وقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ هل نقول: إن المعنى أو مُتُّم في سبيل الله فيكون المراد به من مات في الجهاد؟ أو متُّم مطلقاً؟ الظاهر الثاني؛ لأن الله عزّ وجل لو أراد الأول لقال: (ولئن قتلتم أو متم في سبيل الله) فلما أخَّر (متم) عن القيد علم أنه غير مراد في الجملة الثانية، ولهذا يقول العلماء قاعدة، وهي: (أن كل قيد بشرط أو صفة أو استثناء أو غيره، إذا تعقب جملاً ـ أي: صار في آخرها ـ فهو عائد على الكل، وإن توسط عاد على ما سبق فقط دون ما تأخر عنه إلا ما دلَّ عليه الدليل)، وعلى هذا نطبق قول الله عزّ وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[النور: ٤، ٥] هذه الآية فيها قيد بالاستثناء تعقب الجمل الثلاث، فهل يعود إلى الثلاث؟ نقول: أما الأولى فلا يعود إليها بالإجماع، وأما الثالثة فيعود إليها بالإجماع، وأما الوسطى ففيه خلاف. ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور: ٤] الجملة الأولى: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ والثانية ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ والثالثة: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الاستثناء لا يعود إلى الأولى بالاتفاق، فلو تاب القاذف، فإن حق المقذوف لا يسقط ويجلد القاذف ثمانين جلدةً، ولو تاب القاذف زال عنه وصف الفسق بالاتفاق، وإذا تاب القاذف فهل تقبل شهادته أم لا؟ في هذا خلاف، فمنهم من قال تقبل، ومنهم من قال لا تقبل.

يقول عزّ وجل: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾:

يقول الله عزّ وجل مبيّناً ومسلياً لعباده المؤمنين أنهم إذا خرجوا من ديارهم وقتلوا أو ماتوا، فإن ما يقبلون عليه خير مما يرحلون عنه، وهذا بما قبله ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٦] يعني: لو متم أو قتلتم فإن هذا ليس حسرة، بل هذا خير ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في الجهاد في سبيل الله، ويحتمل أن يكون المعنى أعم من الجهاد في سبيل الله بالسلاح ليشمل الجهاد في سبيل الله بالدعوة إلى الله عزّ وجل والعلم، فمن قتل لكونه داعية فإنه مقتول في سبيل الله؛ لأنه كالمجاهد بسلاحه، وقوله: ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ يعني دون أن تقتلوا في سبيل الله ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الدنيا كلها أي: (المغفرة) لكم من الله ورحمة لكم أيضاً، والفرق بين المغفرة والرحمة أن

المغفرة بها زوال المكروه، والرحمة بها حصول المطلوب، أي أنكم يحصل لكم مطلوبكم وتنجون من مرهوبكم، والمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه، والرحمة تقتضي الإحسان إلى المرحوم والإنعام عليه.

وفي قوله ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إضافة المغفرة إلى الله تدل على عظمة هذه المغفرة، وذلك لأن الشيء يعظم بعظم باذله، فمثلاً: إذا قلت: أعطاني الملك عطية، وقلت: أعطاني الصعلوك عطية، والصعلوك هو الفقير، إذا قلت: أعطاني الملك عطية يتصور الناس أنها كثيرة. وإذا قلت: أعطاني الصعلوك عطية يتصورون أنها قليلة، فالشيء يعظم بحسب ما يضاف إليه؛ فلهذا قال ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي ابتداؤها منه فهو الذي يبتدئها عزّ وجل ويتفضل بها.

﴿وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يعني خير مما يجمعون أو خير مما تجمعون من الدنيا كلها، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن من قتل في سبيل الله أو مات من المؤمنين فقد انتقل إلى خير من الدنيا كلها؛ لقوله: ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

٢ ـ مِنَّةُ الله عزّ وجل على عباده بتسليتهم في الأمور التي يهمهم فواتها، فالإنسان يهمه فوات الدنيا، فكلٌ يحب أن يبقى في الدنيا، فإذا جاءت التسلية من الله وقيل: إنك إذا مت أو قتلت انتقلت إلى ما هو خير، فإن الإنسان يتسلى بهذه ويقول: الحمد لله أنني إذا انتقلت إلى الآخرة فأنا أنتقل إلى خير من الدنيا.

٣ ـ الجمع بين المغفرة والرحمة ليكمل للإنسان سعادته، إذ بالمغفرة زوال المكروه، وبالرحمة حصول المطلوب.

٤ ـ جواز إيقاع التفضيل بين شيئين بينهما بُعدٌ تام؛ لأنك إذا نسبت ما في الدنيا للآخرة فليس بشيء، قال الرسول ﷺ: **«لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها»**[1]، وأبين من ذلك قول الله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨]:

نقول في ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ﴾ من حيث الإعراب ما قلنا في الآية التي قبلها أي: أنه اجتمع فيها جواب القسم وجواب الشرط، فحذف جواب الشرط ونقول: في (متم) قراءتان كما في الآية التي قبلها بكسر الميم على أنها من مات يمات، وبضم الميم على أنها من مات يموت.

يقول الله عزّ وجل: إن متم أو قتلتم فإن مرجعكم إلى الله مهما طالت بكم الأيام أو قصرت فالمرجع إلى الله، وإذا كان المرجع إلى الله فإن الإنسان سوف يبقى مطمئناً، إذ إن من كان مرجعه إلى الله عزّ وجل فإنه لا يخاف ظلماً ولا هضماً، بل إنه إذا كان مؤمناً فإنه يستبشر؛ لقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣] ولما حدَّث النبي عليه الصلاة والسلام عائشة فقال: **«من أحب لقاء الله أحب الله**

---

(١) تقدم تخريجه في المجلد الأول (ص٩٠).

لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»، قالت: يا رسول الله، كلنا يكره الموت ولقاء الله يكون بالموت، قال: «**ليس الأمر كذلك ولكن المؤمن إذا حضره الأجل فبشِّر بالجنة اشتاق إلى ربِّه وأحب لقاء الله، والكافر ـ والعياذ بالله ـ إذا حضره الأجل بُشِّر بالنار فكره لقاء الله فكره الله لقاءه**»[1]. ففي هذه الآية أن المرجع إلى الله عزّ وجل مهما طالت بالإنسان الحياة، وعلى أي صفة كان موته سواء كان بالقتل أو بغيره فالمرجع إلى الله.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ زيادة التسلية للمؤمنين؛ لأن المؤمن إذا علم أن مرجعه إلى الله فإنه سوف يطمئن وسوف يستبشر وينشرح صدره بذلك.

٢ ـ إثبات لقاء الله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

٣ ـ إثبات الحشر يوم القيامة، فإن الناس يقومون من قبورهم ويحشرون إلى الله عزّ وجل ليجازيهم.

❁ ❁ ❁

□ قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]:

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾:

الفاء عاطفة، والباء حرف جر، وما زائدة ولكنها زائدة لفظاً

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم (٦٥٠٧). ورواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم (١٥٧).

ومعنى، أي تفيد زيادة المعنى، وقد كره بعض العلماء أن نقول زائدة، أو أن نقول عن أي حرف في القرآن أنه زائد، قال: لأن القرآن لا زيادة فيه، ولكن نقول: إن المراد بقولنا زائدة: أي من حيث الإعراب لا من حيث المعنى، وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ إذا جعلنا (ما) زائدة تكون رحمة مجرورة بالباء، وهذا في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥] أي فبنقضهم ميثاقهم، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠] أي عن قليل.

وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾: الجار والمجرور متعلق بالفعل (لنت).

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ﴾ «لو» هذه شرطية وفعل الشرط ﴿كُنتَ﴾ وجوابه ﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

يقول الله عزّ وجل مخاطباً نبيه ﷺ ومبيناً نعمته عليه وعلى أمته يقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أي فبسبب رحمة الله لك ولأمتك ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ أي كنت ليناً لهم، ليناً في مقالك، ليناً في جلوسك، ليناً في مقابلتك، في كل أحوالك، فالرسول عليه الصلاة والسلام من أسهل الناس خُلُقاً وأكرمهم نُزُلاً، وقد قال الله عنه وكفى به قولاً: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أسند الرحمة إلى الله عزّ وجل لأنه المتفضل بها، ولأن إسنادها إليه يفيد عظمتها وأنها رحمة عظيمة.

وقوله: ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ الضمير يعود على الصحابة رضي الله عنهم وعلى من بعدهم أيضاً؛ لأن التشريع الذي يقع في

عهد الصحابة تشريع لهم وللأمة إلى يوم القيامة، وكونه رحمة له واضح، وكذلك كونه رحمة لهم واضح أيضاً من أجل أن يألفوه وأن يستأنسوا به وتتسهل معاملته إياهم، ولهذا كان النبي عليه الصلاة والسلام: **لا يخير بين شيئين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً**(١).

قال الله عزّ وجل: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾:

هذه عطف على قوله ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ اللين يقابله الشدة، والشدة تكون في الهيئة وفي القول وفي القلب، قال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ (الفظ) الجافي الشديد في مقاله الذي يصعِّر خده للناس، جافياً أيضاً في قوله عنيفاً شديداً لا يلين، والغِلَظ يكون في القلب؛ تجد قلبه قاسياً لا يرحم، ولا يُنزل الناس منازلهم، ولا ينظر إلى الأحوال المقترنة بالأفعال، فأحياناً تكون هناك أحوال تقترن بفعل الشخص يعذر بفعله من أجلها، فتجد غليظ القلب ـ والعياذ بالله ـ يعامل الناس معاملة واحدة لا ينظر إلى أحوالهم، ولا ينظر إلى ظروفهم ـ كما يقولون ـ، وإنما تجده غليظ القلب قاسياً لا يلين. ومن أعظم ما يدل على ذلك ما يبدر من بعض الناس في معاملة الصغار، تجده في معاملة الصغار عنيفاً يريد من الصغير أن يكون أدبه كأدب الكبير، وهذا لا شك أنه خطأ عظيم، وهذا من غلظ القلب، ولما رأى الأقرع بن حابس

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله، رقم (٦٧٨٦). ورواه مسلم، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام، رقم (٢٣٢٧).

النبي ﷺ يقبِّل الحسن والحسين قال: أتقبّلون أولادكم؟ قال: «**نعم**»، قال: إن لي عشرة من الولد ما قبَّلتهم، قال: (**أَوَ أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك**)[1]. فالإنسان ينبغي له أن يكون رحيماً، وأن يكون لين القلب.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾:

الفظ: الجافي الشديد القول.

غليظ القلب: القاسي القلب الذي لا يلين قلبه لأي سبب من الأسباب.

يقول تعالى: ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾:

انفضوا: أي تفرقوا وخرجوا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١] أي تفرقوا إليها وخرجوا.

وقوله: ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ ولم يقل منك؛ لأن من حولك أبلغ من قوله منك، يعني انفضوا وبعدوا حتى لا يقربوا إلى مكان قريب منك، أي يبعدون حتى عما قارب مكانك.

يقول الله عزّ وجل: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾:

هذا تفريع على قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ فاعف عنهم إذا قصروا في حقك. والعفو: هو التسامح وعدم المؤاخذة.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾:

في حق الله عزّ وجل إذا قصروا فيه، فالصحابة قد يقصرون في حق الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد يقصرون في حق الله،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم (٥٩٩٨).

أما في حق الرسول ﷺ فقال: (اعف عنهم) وما أكثر ما يحصل من جفاة الأعراب أو غيرهم من الكلام المسيء إلى رسول الله ﷺ، ولكنه يصبر ويتحمل ويعفو عنهم إلى حد أن رجلاً من الأنصار قال له لما حكم فيه في خصومة بينه وبين الزبير بن العوام قال له: أن كان ابن عمتك يا رسول الله؟ وهذا اتهام، اتهام فظيع. فالزبير بن العوام أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله عليه الصلاة والسلام[١]. فقال هذا الرجل الأنصاري عفا الله عنه قال: أن كان ابن عمتك يا رسول الله؟ وقال له رجل وهو يقسم فيئاً قال: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، وقال له: اعدل[٢]. كل هذه الكلمات كان النبي عليه الصلاة والسلام يصبر ويحتسب الأجر من الله ويعفو حتى أحياناً يأتيه من زوجاته ما يأتيه مما يحصل بسبب الغيرة بين النساء وهو يعفو عنهن[٣].

قال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾:

الضمير في (شاورهم) يعود على الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أي شاور أصحابك في الأمر. والمشورة هي استطلاع الرأي بحيث يعرض الشيء على المستشار ليستطلع الرأي وينظر ما رأيه فيه، والمستشار مؤتمن يجب عليه أن يؤدي الأمانة على الوجه الذي يرى أنه أصلح لمستشيره.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المساقاة، باب سكر الأنهار، رقم (٢٣٦٠). ورواه مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب اتباعه ﷺ، رقم (٢٣٥٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي، رقم (٣١٥٠).

(٣) انظر مسند الإمام أحمد، رقم (٢٤٦٤٨).

وقوله عزّ وجل: ﴿فِي ٱلْأَمْرِ﴾ كلمة الأمر: المراد بها واحد الأمور لا واحد الأوامر؛ لأن الأوامر لا يستشير فيها أحداً، الأوامر يؤمر بها شرعاً، لكن في الأمر أي في الشأن وهو مفرد محلى بـ(ال) فهل (ال) هذه للعموم؟ أي شاورهم في كل أمر أو هو عام أريد به الخاص؟ أي شاورهم في الأمر الذي يكون مشتركاً أو مشتبهاً عليك وجهه؟ الجواب: الثاني بلا شك؛ لأنه لا يمكن أن الرسول ﷺ يأمره الله بأن يشاورهم في كل شيء، إنما يشاورهم في الأمر العام المشترك بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] أمرهم الذي يجمعهم جميعاً شورى بينهم، أما الأمر الخاص فإنه تطلب الاستشارة عند اشتباه الأمر، كما فعل النبي عليه الصلاة والسلام حين استشار أسامة بن زيد وعلي بن أبي طالب في شأن عائشة لما حصلت قصة الإفك، وكثر فيها القيل والقال، وغير هذا من الأمور الخاصة التي قد تشْكل على الرسول عليه الصلاة والسلام فيستشير فيها[1]، إذن (شاورهم): استطلع رأيهم (في الأمر) أي في الأمر المشترك أو في الأمر الخاص إذا اشتبه عليك؛ وذلك لأن الشورى يحصل فيها فوائد نذكرها إن شاء الله في الفوائد.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾:

إذا عزمت أي صممت على الفعل، هل بعد المشورة أو قبل المشورة؟ الظاهر بعد المشورة؛ لأن الفاء تدل على أن ما بعدها مفرع على ما قبلها، أي ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ بعد الاستشارة واستطلاع

---

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، رقم (٢٦٦١).

الرأي، فلا تعتمد على مشورتهم بل اعتمد على الله ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فهنا أمر بالأسباب والاعتماد على الله عزّ وجل، الأسباب هي المشورة، والاعتماد على الله هو التوكل عليه، فما معنى التوكل؟ معنى التوكل هو الاعتماد على الله عزّ وجل في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله وشعور النفس بأنها محتاجة إلى الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾:

لما أمره بالتوكل بيَّن الثمرة العظيمة من هذا التوكل، وله ثمرات كثيرة منها هذه الثمرة التي ذكرها الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي: إن الله يحب المتوكلين عليه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان رحمة الله عزّ وجل بنبيه ﷺ وبأمته، وذلك بجعله ليناً لهم، فهذه رحمة به وبهم.

٢ ـ أنه ينبغي لمن له سيادة في قومه أن يكون ليناً ليتعرض لرحمة الله عزّ وجل، دليل ذلك واضح، أن رسول الله ﷺ سيد قومه بل سيد الأمة جميعاً فألانه الله لهم.

٣ ـ أن اللين أولى بكثير من الفظاظة والشدة؛ لأن الله جعله من الرحمة، ولكن الفقهاء رحمهم الله لما ذكروا ما ينبغي للقاضي أن يتأدب به قالوا: ينبغي أن يكون ليناً من غير ضعف؛ لأن بعض الناس قد يكون ليناً ويكون بسبب لينه ضعيفاً غير حازم، وهذا نقص في اللين، لكن ينبغي أن يكون ليناً مع الحزم والقوة في موضعها؛ لأن القوة في موضعها حكمة، فاللين إن ضاعت منه الحكمة فهو مذموم، وإن اجتمع مع الحكمة فهو محمود.

٤ ـ بيان مضار الفظاظة والغلظة، وأن من أعظم مضارها نفور الناس عن الإنسان إذا كان فظاً غليظ القلب؛ لقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾. هذا مع أنهم يرجون من قربهم من الرسول عليه الصلاة والسلام ما يرجون، فكيف إذا كان الإنسان لا يرجى منه ما يرجى من الرسول إذا كان فظاً غليظ القلب؟ فالظاهر أنه لا يكفي أن ينفضوا من حوله، فربما رموه بالحجارة؛ لأن الصحابة يرجون من الرسول الخير بقربهم منه، فإذا قدّر أنه غليظ القلب ينفضون من حوله فمن سواه من باب أولى.

٥ ـ الإشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يستعمل مع الناس كل ما يجلبهم إليه، ووجهه: أن الله جعل الفظاظة والغلظة سبباً للتنفير على سبيل الذم لا على سبيل المدح، فينبغي للإنسان أن يستعمل في معاملة الناس كل ما يقربهم إليه بشرط ألا يضيع شيئاً من الواجبات.

٦ ـ أن الإنسان قد يعذر في الابتعاد عن أهل الخير إذا كانوا جفاة غلاظ القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ ويعني بهم الصحابة رضوان الله عليهم، ويعني بالمنفض عنه، الرسول عليه الصلاة والسلام، فإذا كان الصحابة لا يلامون على الانفضاض عن الرسول إذا كان فظاً غليظاً فما بالك بمَنْ دونه بمراحل، فلهذا إذا كان الإنسان فظاً غليظاً ولم ير الناس حوله فلا يلومن إلا نفسه، ونحن نرى الآن أن الإنسان ربما يكون كافراً فإذا كان يعامل الناس باللين والرفق والبشاشة والسماحة ربما يفضلونه على مسلم فظ غليظ القلب.

٧ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يعفو عن حقِّه في معاملة إخوانه؛ لقوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ ولكن هذه الآية مقيدة بما إذا كان العفو إصلاحاً، قيَّدها قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠]. ، أما إذا كان في العفو زيادة إفساد وطغيان فإن هذه مصلحة تضمنت مفسدة أعظم، مثل: لو كان الجاني معروفاً بالشر والفساد فهل الأولى أن نعفو عنه أو أن نؤاخذه بالذنب؟ الأولى أن نؤاخذه بالذنب، ولهذا ينبغي في حوادث السيارات ألا يتعجل الإنسان بالعفو عمن تسبب في الحادث، بل ينظر إذا كان من الرجال المتهورين الذين إذا عفونا عنه اليوم أحدث حادثاً غداً، فهنا الأولى أن لا نعفو، أما إذا علمنا أن الرجل شديد الحرص على سلامة الأنفس والأموال، ولكن هذا أمر لم يستطع التحرز منه ونعلم أنه سوف يتحرز غاية التحرز في المستقبل، فإن الأولى في هذا العفو، إذن فالعفو مقيد بالإصلاح ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾.

وهل العفو واجب؟ الجواب: أنه ليس بواجب؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]. فمن انتصر لنفسه بعد أن ظلم فليس عليه سبيل، لكن الأفضل أن يعفو إذا كان في العفو إصلاح.

٨ ـ أن التفريط في حقِّ النبي عليه الصلاة والسلام قد يكون ذنباً؛ لأن الله لما أمر نبيه بالعفو عن حقِّه الخاص قال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ وهو كذلك، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام ليس كغيره؛ لأن له حق الإسلام وحق الرسالة، ولأنه أعظم الناس حقوقاً علينا، فالاعتداء في حقه أشد من غيره بل يكسب الإثم، ولهذا

قال: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾، أما غير الرسول ﷺ إذا عفا عن حقِّه الخاص انتهى، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام لما كان الأمر الذي يتعلق به متعلقاً بحق الله عزّ وجل قال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ ولهذا إذا سبَّ أحد شخصاً من الناس لم يكفر ولو سبَّ النبي ﷺ كفر لعظم حقه.

٩ ـ الأمر بالشورى؛ لقوله: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ وهذا الأمر قد يكون للوجوب وقد يكون للاستحباب حسب الأمر المشاور فيه، وحسب الإشكال الواقع فيه، فالأمور الكبيرة مع الإشكال الكبير تكون المشاورة فيها واجبة، والأمور الصغيرة مع الإشكال اليسير تكون المشورة فيها مستحبة، فإذن الأمر هنا شاورهم مشترك بين الوجوب والاستحباب حسب ما تقتضيه الحال، وهنا مسألتان:

الأولى: هل معنى هذا أن النبي ﷺ يكوِّن مجلساً للشورى يرجع إليه؟

الجواب: لا، بل شاورهم عند وجود سبب الاستشارة لا أن يُكوَّن مجلس يُرجع إليه، لأنه إذا كُوِّن مجلس يُرجع إليه ربما يبقى هذا المجلس دائماً مع تغيُّر أحوال أهله، ومع وجود أناسٍ جُددٍ خيرٍ منهم، فإذا قلنا: إن ولي الأمر إذا نزلت به نازلة حينئذٍ يستشير من يرى أنه مؤهلٌ للشورى، يبقى وليُّ الأمر تتجدد له الرجال الذين يستشيرهم، ولا يبقى المجلس الاستشاري هذا، ولا يبقى رافعاً رأسه، وإليه يُرجع الأمر، ولا شك أن هذا هو طريق النبي ﷺ، لكنه قد يكون لولي الأمر أصحاب خاصُّون يستشيرهم، مثل أبي بكر وعمر، كان النبي ﷺ يرجع إلى رأيهما

دائماً ويستشيرهما، ويرى أنه في رأيهما السداد والرشد، ولكن ليس في كل شيء يرجع إليهما، أحياناً يستشير بقيَّة الصحابة عموماً.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ هل إذا صدر من المستشارين أمر هل هو مُلزِمٌ أو كاشف للرأي؟ الجواب: أنه كاشف للرأي، وليس بمُلزِم؛ لأنه لو كان مُلزماً لكان الحكم بأيدي جماعة، والحكم بيد واحد، لكن يجب على المستشير أن يتبع ما يرى أنه أصلح، ولا يجوز أن ينتصر لرأيه لأنه رأيه، بل الواجب عليه ـ لحق الله ولحق من ولاهم الله عليه ـ أن يتبع ما هو أصلح حتى لو خالفوه، والأصلح في رأيهم يجب عليه أن يتبع رأيهم، لكنه ليس بمُلزِم. بمعنى أننا لا نقول: إن هؤلاء لهم سلطة على الحاكم، بل الحاكم له السلطة، ولهذا قال هنا: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: إذا أشاروا عليك فخذ به إذا عزمت، وهو قد يعزم على ما أشاروا به، وقد يعزم على غيره.

١٠ ـ الحكمة من الأمر بالمشاورة ما يترتب عليها من فوائد، فللمشاورة فوائد منها:

أولاً: ألا يستبد الرئيس أو ولي الأمر برأيه، هذه فائدة مهمة جداً.

ثانياً: تعويد أفراد الأمة على النظر في شؤونهم حتى يتمرنوا ويمارسوا هذا الأمر.

ثالثاً: التواضع ممن شاور، فلا شك أنه إذا شاور فهو متواضع.

رابعاً: تنشيط الأمة حيث ترى أنه يُرجَع إليها في الرأي،

فتنشط وتعمل ما فيه الخير العام، بخلاف ما إذا استبد ولي الأمر في رأيه، فإنه وإن كان صواباً ربما تشمئز النفوس منه فيقولون مثلاً: لم يرجع إلينا، لم يشاورنا في هذا الأمر الكبير وما أشبه ذلك.

خامساً: أنه إذا اجتمعت الآراء مع حسن النية فإن الغالب أن الله يوفقهم للصواب.

سادساً: أن الإنسان ربما يرى في هذا الأمر مصلحة ويفوته ما يترتب عليه من مفسدة لا سيما إذا كان له هوى، فإن الهوى كما قيل: يُعمي ويُصِم، أحياناً يكون للإنسان هوى فيرى المصلحة ولا يرى المفسدة في الشيء، فإذا حصل التشاور تبينت المصالح من المفاسد.

سابعاً: ومن فوائد المشورة أيضاً: أن الأمة إذا اجتمعت على رأيها لم يكن للناس اعتراض، ومعلوم أن الذي يُشاوَر هم أهل الأمانة وأهل الحل والعقد والمعرفة، فإن ولي الأمر إذا أشكلت عليه المسألة الشرعية يشاور علماء الشرع، وإذا أشكلت عليه مسألة سياسية يشاور علماء السياسة، وإذا أشكلت عليه مشكلة اجتماعية يشاور علماء الاجتماع، وإذا أشكلت عليه مسألة جيولوجية يشاور علماء الجيولوجيا، وإذا أشكلت عليه مسألة طبية يشاور علماء الطب. والمراد أن يجعل مستشارين لكل حال ما يناسبها؛ لأن من شرط الاستشارة أن يكون المستشار ذا رأي سديد وأمانة، ومعلوم أنك لو استشرت عالماً من علماء الشرع من أحسن العلماء في مسألة طبية لم يقدر أن يقول لك شيئاً.

إذن الاستشارة تكون في كل إنسان بحسب ما يناسبه؛ لأن المستشار مؤتمن.

ثامناً: ومن فوائد الشورى أيضاً: أنه إذا أخطأ الإمام أو ولي الأمر لم يُنسب الخطأ له بل يُنسب إلى المستشارين، ولهذا يقول بعضهم في المشورة: إن الشورى ستر لعيبي، إذا أخطأت قالوا: هذا من المستشارين، وإن أصبت مدحوني وإياهم.

تاسعاً: أنها طاعة لله ورسوله؛ لأن الله أمر بها.

١١ ـ أنه يجب على الإنسان أن يكون اعتماده على الله عزّ وجل مع فعل الأسباب؛ لقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

١٢ ـ أن النبي ﷺ يعتريه ما يعتري البشر من التردد في الأمور، ووجه الدلالة: أولاً في قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ وثانياً في قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فإن العزيمة قد يسبقها تردد كما هو الواقع.

١٣ ـ أنه ينبغي على الإنسان إذا عزم على الأمر ألا يتردَّد؛ لأن التردد يُحيِّر الإنسان ويوقعه في القلق، ولهذا قال الشاعر:

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكن ذا عزيمةٍ فإن فساد الرأي أن تتردَّدا

وكثير من الناس يرى المصلحة في شيء ويعزم عليه ثم يتردد فيكون مذبذباً، أحياناً كذا وأحياناً كذا، ويُؤْثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كلمة نافعة جداً، وهي قوله: (من بورك له في شيء فليلزمه).. كلمة عجيبةٌ لو توزن بالذهب لوزنته.

(من بورك له في شيء فليلزمه) يعني إذا عمل الإنسان عملاً ورأى فيه البركة والثمرة فليلزمه، ولنضرب لهذا مثلاً بحال طالب العلم الذي شرع في دراسة كتاب أو مراجعته، ووجد فيه خيراً، ووجد أنه يستفيد وينتفع، فنقول له: الزم هذا وأكمله، ولا تقل: هذا كتاب مختصر قليل، كمن شرع في مطالعة كتاب «زاد

المستقنع»، ورأى فيه بركة، وانتفع به، إلا أنه لم يكمله وقال لا يكفي هذا، أريد أن أطالع «الإنصاف»، ثم قال: لا يكفي هذا، أريد أن أطالع «المُغني»، هذه طريقة غير مجدية، بل إذا بارك الله لك في شيء فالزمه حتى لا يضيع عليك الوقت.

وهنا مسألة أيضاً قد ترد وهي: أنه يريد أن يطالع مسألة في الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، فيُراجع الفهرس حتى يقع عليها، ثم يُلاحظ مسألة ثانية، فيذهب ينظر فيها فيضيع عليه الوقت، ولهذا كان من حكمة الرسول عليه الصلاة والسلام، أن يبدأ بالشيء الذي يريده، لما دعاه عتبان بن مالك رضي الله عنه، ليُصلي في مكان في بيته يتخذه مصلى، خرج النبي ﷺ مع بعض أصحابه، فلما دخل البيت قال: يا رسول الله، قد صنعت لكم طعاماً. قال: «**أين تحب أن أصلي من بيتك؟**»[1]، سأله قبل الطعام، لماذا؟. لأنه جاء لهذا الغرض. فابدأ بالغرض الذي أتيت إليه، فهذه المسألة ينبغي للإنسان أن يجعلها على باله في تصرفاته في العلم وفي الدنيا أيضاً. وهذه نأخذها من قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

١٤ ـ إثبات المحبة لله عزّ وجل، أن الله يحب، وهل محبة الله حقيقية؟ نعم، حقيقية؛ لأن لدى أهل السنة والجماعة قاعدة أن كل ما وصف الله به نفسه فهو حقيقة، لكن مذهبهم مُبرَّأ من التمثيل والتكييف، والتحريف والتعطيل، فلا يُمثِّلون صفات الله بصفات خلقه، ولا يُكيِّفونها، فما هي المحبة؟ المحبة هي المحبة، لا يمكن أن تعرف المحبة بأوضح منها. من لفظها، لأننا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب صلاة النوافل جماعة، رقم (١١٨٦).

كما قلنا فيما سبق: الانفعالات النفسية لا يمكن تحديدها بغير ألفاظها أبداً، فلو قال قائل: ما معنى البُغض؟ الجواب: الكراهة، وما معنى الكراهة؟ الجواب: البغض، فكل هذه لا يمكن تحديدها إلا بآثارها.

وأما إثبات المحبة لله أي: صفة المحبة، فإن أهل القِبلة الذين ينتسبون للإسلام اختلفوا فيها على ثلاثة أقوال:

القول الأول: نفي حقيقتها عن الله وعن المخلوق، فيقولون: إن الله لا يُحِب ولا يُحَب. أعوذ بالله، عِلَّتُهم: أن المحبة إنما تكون بين شيئين من جنس واحد، ومعلوم الفرق بين الخالق والمخلوق.

القول الثاني: يقولون: إن الله يُحَب ولا يُحِب.

القول الثالث: أن الله يُحِب ويُحَب، قال الله عزّ وجل: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. وفي القرآن الكريم كثير من الأوصاف علَّق الله بها المحبة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وأمثلةٌ كثيرة.

نحن نرى أن المحبة صفة حقيقية ثابتة لله، وأن من آثارها الثواب والرضا وغير ذلك مما يترتب عليه، والذين يُنكرونها يقولون: المراد بمحبة الله الثواب، فيقولون مثلاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ يعني يُثيب المتوكلين، وهذا خطأ.

١٥ ـ فضيلة التوكل، ووجهه أن الله علَّق المحبة عليه، وهذا يدل على فضيلته وعلى الحث عليه، فإن قال قائل: هل التوكل خاص بالله؟ فنقول: أما توكُّل العبادة الذي يعتمد الإنسان فيه على ربه، ويُفوِّض الأمر إليه فهذا خاص بالله، وأما توكُّل

الاستنابة، بمعنى أن الإنسان يُنيب غيره عنه في شيء من الأشياء، فهذا جائز، والفرق بينهما ظاهر:

التوكل على الله: يقطع الإنسان العلائق مما سوى الله عزّ وجل حتى من نفسه، ويُفوِّض أمره إلى الله تفويضاً كاملاً، لكن الاستنابة يرى فيه أنه فوق الوكيل، أنا وكَّلت إنساناً يشتري لي حاجة، فأنا متوكِّل عليه ولكن هل توكُّلي عليه كتوكُّلي على الله؟ أبداً؛ لأن توكُّلي على الله تفويض إلى الله تفويضاً مُطلقاً، وأعتقد أنه هو حسبي، لكن هذا الرجل توكُّلي عليه على أنه نائبٌ عنِّي، لا على أني طريح عليه، أفوِّض الأمر إليه، على أنه نائب عني أستطيع أن أعزله، وأستطيع أن أوبِّخه إذا خالف مرادي. وأستطيع أن أحبسه إذا تسبَّب علي بضررٍ بخلاف التوكل على الله.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ﴾:

هذه الجملة جملة شرطية، فعل الشرط فيها مضارع مجزوم (إن ينصرك)، وجواب الشرط فيها جملة اسمية مصدَّرة بلا، واقترنت بالفاء لأنها جملة اسمية.

كما في قول الناظم:

اسمية طلبية وبجامدٍ ... وبما لن وبقد وبالتنفيسِ

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾:

أيضاً الجملة هذه جملة شرطية، فعل الشرط فيها فعل مضارع مجزوم، وجواب الشرط فيها جملة استفهامية مرتبطة بالفاء وجوباً؛ لأن الجملة اسمية.

وقوله: ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾، فيها (من) و(ذا) و(الذي)، فهل (ذا) التي بعد (من) اسم موصول أو مُلغاة؟ الجواب: أنها مُلغاة؛ لأن ما بعدها اسم موصول، و(ذا) التي بعد (مَنْ) تكون اسماً موصولاً بشرط ألا يأتي بعدها اسم موصول، فإن أتى بعدها اسم موصول تعيَّن أن تكون ملغاة.

وقال بعض النحويين: لا يتعيَّن أن تكون ملغاة، ويكون الاسم الموصول الثاني توكيداً للاسم الموصول الأول، كأنه يُقال: من الذي الذي ينصركم من بعده، هذا ما يتعلَّق بالآية من حيث الإعراب.

أما قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾:

فقد سبق الكلام على مثلها.

يقول الله عزّ وجل في هذه الآية: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ يعني إذا قدَّر الله نصركم فإنه لن يغلبكم أحد، وإنما قلت: (إن يُقدِّر الله نصركم) لأنه لو كان المراد النصر بالفعل لم يكن لقوله: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فائدة؛ لأن النصر قد حصل. وعلى هذا يكون المعنى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ﴾ أي إن يُقدِّر نصركم، وهذا نظير قول الرسول ﷺ: «**واعلم أن ما أصابك لم يكن ليُخطِئك**»[1]. قال بعض العلماء: أن ما أصابك أي: ما قُدِّر أن يُصيبك، لأن ما أصابك بالفعل قد حصل، فلا يستقيم قوله: «لم يكن ليُخطئك».

---

(١) تقدم تخريجه في المجلد الأول (ص٤٨٥).

ولكن الصحيح أن الحديث على ظاهره: «أن ما أصابك لم يكن ليُخطئك». يعني أن الأمر لا يمكن أن يقع على خلاف الواقع. فما أصابك لم يكن ليُخطئك أبداً فلا حاجة إلى الندم.

هنا يقول: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، و(لا) هذه نافية للجنس، والنافية للجنس نصٌّ في العموم؛ لأن النفي قد يكون للعموم نصًّا وقد يكون للعموم ظاهراً، والفرق بين النص والظاهر: أن النصَّ لا يحتمل التخصيص، والظاهر يحتمل أن يكون عاماً أُريدَ به الخصوص.

قال أهل العلم في النحو: و(لا) النافية نصٌّ في العموم، كما أن (مِن) الزائدة إذا جاءت بعد النفي، صار النفي نصًّا في العموم، كما لو قلت: (ما في الدار من رجلٍ) هذه نص في العموم كقولكَ: (لا رجلَ في الدار).

الحاصل: أن قوله: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ عام، يعني: لا أحد يغلبكم مهما كانت قوته ومهما كان عدده، وإنما قال الله عزّ وجل ذلك من أجل أن نعلِّق النصر بالله عزّ وجل لا بغيره.

قال: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾. معنى ﴿يَخْذُلْكُمْ﴾ مقابل ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ فالخذلان ضد النصر، وهذه من القواعد التي تُفيدك في تفسير القرآن، أن الكلمة قد يظهر معناها بما قُرِن معها من الضد.

لو قال قائل: في قوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]، ما معنى ثُبات؟

الجواب: فُرادى؛ لمقابلتها لقوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

قوله: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ أي إن يُقدِّر لكم الخذلان، وهو عدم النصر ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

ويمكن أيضاً أن نستدل على معنى الخذلان بقوله: ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾، فـ (مَن): استفهام جاء بمعنى النفي؛ لأنه مُشْرَب بمعنى التَّحدِّي، يعني كأن الله يقول: نتحدَّاكم إذا أراد الله خذلانكم أن ينصركم أحدٌ من بعده، حتى لو اجتمعت قوى الأرض كلها على أن تنصركم، والله تعالى لم ينصركم فإنه لا يمكن أن تنتصروا، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده؟ الجواب: لا أحد.

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (على الله): جار ومجرور مقدَّم على عامله وهو (يتوكل)، وتقديم ما حقه التأخير يُفيد الحصر، أي على الله لا غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾، والفاء هنا قال النحويون: إنها زائدة لتحسين اللفظ، ولا يمكن أن تكون عاطفة؛ لأن الواو في قوله ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ تُغني عنها، ولهذا لو قيل: (وعلى الله ليتوكل) صحَّ، فهي زائدة لتحسين اللفظ، ووجه كونها لتحسين اللفظ: أن اللفظ لو جاء (وعلى الله ليتوكل المؤمنون) لم يكن بذاك بلاغة، فإذا قيل: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ أي: فليعتمد، ولكن التوكل على الله عزّ وجل ليس كالتوكل على الآدمي، التوكل على الله فيه إنابةٌ وخضوع وذل وتفويض واعتمادٌ تام على الله، بخلاف ما إذا توكل الإنسان على شخص وكيل له، فإنه لا شك يعتمد عليه فيما وكله فيه، لكن لا يجد من قلبه أنه مفوَّض تفويضاً تامّاً، فالتوكل على الله عبادة، فلهذا قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ يعني وحده فليتوكل المؤمنون أي: المؤمنون به.

والإيمان بالله إذا أُطلق شمل جميع ما يجب الإيمان به من الأركان الستة التي بيَّنها الرسول ﷺ في قوله لجبريل: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره**»(١).

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان كمال قدرة الله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾.

٢ ـ وجوب تعلّق القلب بالله وحده في طلب الانتصار؛ لقوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، إذن يُطلب النصر بناءً على هذه القاعدة من الله عزّ وجل.

٣ ـ أن الله إذا قدَّر خذلان أحدٍ فلا ناصر له؛ لقوله: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

٤ ـ أنه إذا آمن الإنسان بهذا فإنه لا بد أن يفعل الأسباب التي يكون بها النصر، ومنها:

الأول: الإخلاص لله عزّ وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]. الإخلاص لله في العبادة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ، رقم (٥٠). ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٨).

ثانياً: إقامة الصلاة.

ثالثاً: إيتاء الزكاة.

رابعاً: الأمر بالمعروف.

خامساً: النهي عن المنكر.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] يتبيَّن لك أن هذا النصر محقَّق؛ لأنه إذا كان الله قوياً عزيزاً فكل من أمامه ضعيفٌ ذليل، ثم تأمل مرة أخرى قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١] يتبيَّن لك أن القوى الظاهرة المادية مهما عظمت فإن عاقبتها بيد الله عزّ وجل، هو الذي يجعل العاقبة لمن يشاء والعاقبة للمتقين، وإذا أردت أن تعرف هذا من الناحية التاريخية فانظر ما جرى للأمة الإسلامية في أول عهدها، أسقطت الدول الكبرى العظمى، دولة الروم ودولة الفرس ودولة القبط في مصر، ملكوا مشارق الأرض ومغاربها، هذا من الناحية التاريخية، ومن الناحية الواقعية زلزلة واحدة في لحظات من رب العرش تدمر كل شيء، ولا يستطيع أحد أن يمنع هذه الزلزلة، فلهذا نقول: إن من ضعف الإيمان أن ينظر الإنسان إلى الأمر المادي، ولا ينظر إلى قدرة الله عزّ وجل وقوته، إذن لا بد أن

نسلك أسباب النصر، ونحن إذا سلكنا أسباب النصر بإيمان ويقين تحقق لنا.

٥ ـ التحذير من فعل أسباب الخذلان؛ لقوله: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾. ومن أسباب الخذلان: تولي الكفار ومناصرتهم ومعاضدتهم، فإن هذا من أسباب الخذلان، فالاعتماد يكون على الله عزّ وجل؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ قال: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

٦ ـ وجوب التوكل على الله وحده؛ لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وإفراده بالتوكل يؤخذ من تقديم المعمول على عامله؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، وهذه قاعدة، حتى للمبتدأ والخبر، فلو قلت: لله ملك السموات والأرض يعني لا لغيره.

٧ ـ أن التوكل من مقتضيات الإيمان؛ لأنه علق الحكم على وصف، وهو الإيمان، فدلَّ ذلك على أنه كلما قوي الإيمان قوي التوكل على الله، وكلما ضعُف الإيمان ضعف التوكل على الله.

فإن قال قائل: هل إفراد الله بالتوكل يُنافي فعل الأسباب؟

فالجواب: لا، بل فعل الأسباب من التوكل على الله؛ لأنك إذا توكَّلت على الله فمن مقتضيات التوكل عليه أن تفعل ما أمرك به.

لو قال قائل: أنا سأدخل النار متوكلاً على الله، نقول: هذا غير صحيح، اللهمَّ إلَّا أن يقع ذلك على سبيل التحدي، فيمكن لهذا أن يكون آية من آيات الله، وينصر الله هذا الفاعل لنصرة دينه، ويكون هذا الذي حصل من دخوله في النار كرامة، ولهذا

ذُكر أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لما ناظر رئيس البطائحية الذي جاء يُناظره في مسائل من أصول الدين قال له رئيس البطائحية: أنا أصوب منك؛ لأني أنا أستطيع أن أدخل في النار ولا يُصيبني منها شيء، فهل تستطيع أن تدخل في النار ولا يُصيبك شيء؟ قال شيخ الإسلام: نعم، أنا أستطيع بشرط أن أنزل أنا وإياك في هذا النهر، ونغتسل تماماً ثم ندخل النار؛ وذلك لأن الرجل قد طلى جسمه بشيء يُضاد النار، فيريد أن يموِّه على الناس بدخول النار، وعلى كل حال أقول: إن فعل الأسباب لا يُنافي التوكل، ولهذا شواهد:

نعلم علم اليقين أن نبينا محمداً ﷺ سيد المتوكلين، ومع ذلك كان يتوقَّى الحرَّ، ويتوقَّى البرد، ويأكل لدفع الجوع، ويشرب لدفع الظمأ، وفي الغزوات كان يلبس الدرع يتوقَّى به السهام، وفي غزوة أحد لبس درعين، وفي غزوة الخندق لما أحاط الأعداء بالمدينة حفر الخندق بمشورة سلمان الفارسي رضي الله عنه، ولم يقل نتوكل على الله، والوقائع على هذا كثيرة تدل على أن فعل الأسباب لا يُنافي التوكل، ولكن يجب أن نلاحظ شرطاً مهماً، وهو أن تكون الأسباب أسباباً شرعية أو كونية، لا أسباباً وهمية.

أسباب شرعية يعني ثبت بالشرع أنها سبب، أو أسباب كونية أي ثَبت بالتجارب أنها سبب.

أما السبب الوهمي كتعليق التمائم غير الشرعية والتطير وما أشبه ذلك، فهذا لا يجوز الاعتماد عليه.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال الله عزّ وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١]:

القراءات: يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ فيها قراءة أخرى (لنبيءٍ) بالهمز (أن يَغُل) فيها قراءة (يُغَل)، والفرق بين القراءتين في (نبي) و(نبيء) أن قراءة (لنبيء) على وزن فَعِيل من (النبأ) بالهمزة، وهل هو بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول، أو بمعناهما جميعاً؟ الجواب: يشملهما، فإن (النبيء) فَعِيل بمعنى فاعل، لأنه منبِّئ، وفَعِيل بمعنى مفعول، لأنه مُنبأ. فالرسول ﷺ مُنبَّأ، مُنبِّئ.. أما على قراءة (لنبي) بالياء، فقيل: إنه مسهَّل وأن أصله (لنبيء) فسُهِّلت الهمزة إلى ياء، وقيل: بل هو مشتق من (النَبْوَة) وهي الارتفاع، وعلى هذا يكون (لنبي) أصله (لنبيو) لكن لعلَّةٍ تصريفية صارت الواو ياء، فالقاعدة في هذا أن تُجعل الواو ياء، وذلك أنه إذا اجتمعت الواو والياء في كلمة، وسُبقت إحداهما بالسكون قُلبت الواو ياء، إذا قلنا: (لنبيو) فقد اجتمعت الواو والياء في كلمة وسُبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء، فصار (لنبيٍ)، هل يمكن أن نقول على هذه القراءة: إنه مُشتق من الوجهين، من النبأ ومن النبوة؟ الجواب: يمكن ذلك بناءً على ما سبق من أن الكلمة في القرآن إذا احتملت معنيين لا يتنافيان تحمل عليهما جميعاً؛ لأن معاني القرآن واسعة.

أما قوله: (أَنْ يَغُل) ففيها قراءة: (أن يُغَل)، والفرق بينهما ظاهر. (أَنْ يَغُل) مبنية للفاعل، و(أن يُغَل) مبنية للمفعول، أما على وجه (أن يَغُل) فالمعنى أن الله نفى أن النبي ﷺ يغل،

وغلول النبي يحتمل معنيين، غلول المال، وغلول العلم، فغلول العلم: كتمه، وغلول المال: إخفاؤه وأخذه، وكل هذا منتفٍ عن النبي شرعاً، ولم نعلم أنه واقع قَدَراً، ولا يمكن أن يقع قدَراً فيما نعلم، فالنبي لا يمكن أن يكتم ما أنزل الله إليه، ولا يمكن أن يسرق من مال المسلمين.

أما على (أن يُغَل) فمعناه أن النبي يغُلُّه غيره، يعني ما كان لنبيٍّ أن يُغَل شرعاً، أما قدراً فقد يُغَل كما وقع هذا في عهد النبي عليه الصلاة والسلام.

ثم قال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾:

الإعراب: قوله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾ إشكال، وهو أن ﴿يَأْتِ﴾، مجزوم لجواب الشرط، فلماذا صارت مكسورة، وجواب الشرط يكون مجزوماً؟

الجواب: أن الكسرة بقيت قبل الياء دليل على أن المحذوف ياء، إذن يأتي مجزوم على هذا الحال، جواب الشرط مجزوم بحذف الياء، والكسرة قبلها دليلٌ عليها.

و﴿يَوْمَ﴾ مفعول فيه، أو منصوب على الظرفية، كلها واحد، متعلِّق بـ﴿يَأْتِ﴾.

قال الله عزّ وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ إذا جاء (ما كان) في القرآن فإن معناها نفي محقَّق مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] ومثل قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. والشواهد في هذا كثيرة. يعني أن هذا مُنْتفٍ قطعاً، ولا يمكن أن يكون.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ على هذه القراءة يقول الله: إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يمكن أن يَغُلُّوا؛ لأن (نبي) نكرة و(ما) نافية، والنكرة في سياق النفي تُفيد العموم. فالله تعالى ينفي أن يَغُلَّ النبي شرعاً، وقَدَراً أيضاً؛ لأننا لا نعلم أن الله قدَّر على نبيٍّ الغلول.

أما على قراءة (أن يُغَل)، فإن الله تعالى ينفي شرعاً أن يُغَلَّ النبيُّ، يعني ما كان شرعاً أن يُغلَّ النبي، يعني أن النبي إذا كسب المال فإن ماله للمسلمين جميعاً، وإذا كان للمسلمين جميعاً فإنه لا يجوز لأحدٍ أن يَغُلَّ منه شيئاً؛ لأنه لو غَلَّ منه شيئاً لكان هذا متعلِّقاً بجميع المسلمين، فإذا أخذت منه شيئاً فقد خُنت جميع المسلمين لا سيما المشتركون في هذه الغنيمة.

ثم يقول الله عزّ وجل: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾:

﴿وَمَن يَغْلُلْ﴾ هنا عموم، ولم يقل: من يغلُل من الأنبياء، لو فُرِض أن يَغُل. قال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ﴾ يعني من أتباع الأنبياء.

﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: يأت به يوم القيامة حاملاً له أمام الناس، في هذا الموقف العظيم الذي تشهده الخلائق كلُّها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٢، ٣].

وقوله: ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾:

هل يأتي بنفس الذي غلَّ أم يأتي بالعقاب المرتَّب عليه؟

نقول: إن ظاهر الآية يدل على أنه يأتي بنفس الذي غلَّ، إن كانت شاة أو بعيراً أو أي شيء يغُلُّه يأتي به يوم القيامة، وكذا لو غلَّ ثياباً أتى بها يوم القيامة، لكن هل يأتي بها مكتسياً بها؟

الجواب: لا، بل يأتي بها حاملاً لها وهو عارٍ. البعير الذي غلَّه وركبه، يأتي به يوم القيامة حاملاً له تعذيباً له.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ أي: بعد أن يُبعث الناس يوم القيامة ويأتي كل إنسان بما غلَّ ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾.

﴿تُوَفَّىٰ﴾: من التوفية، يُقال: وفَّاه حقّه أي أعطاه إياه.

وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ يشمل حتى الرسل، والمُرسل إليهم ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]. كلٌّ يُعطى ما كسب.

وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾، يحتمل أن يكون المراد بالعموم هنا كل من كان مكلَّفاً؛ لأن غير المكلَّف لا يُعاقب؛ لأنه مرفوع عنه القلم، وقد يُقال: إنه يشمل حتى غير المكلَّف؛ لأن التوفية لا يلزم منها عقوبة، فقد يوفَّى حقَّه بالأجر، ومعلوم أن غير المكلَّف يؤجر، ويُكتب له ولا يُكتب عليه.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الجملة (حال) من قوله ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، ومعناها العموم.

﴿وَهُمْ﴾: أي الأنفس ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يُنقصون من الحسنات، ولا يُزَادون في السيئات؛ لأن الظلم في الأصل هو النقص، كما قال الله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] أي لم تنقص، وهو يشمل ـ أي الظلم ـ شيئين:

الأول: الزيادة في السيئات.

والثاني: النقص من الحسنات.

وكلاهما ممتنعٌ في حقِّ الله عزّ وجل كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩].

وإنما انتفى الظلم عنه لكمال عدله، لا لعجزه عن الظلم، هو قادرٌ على أن يظلم عزّ وجل ولكنه لكمال عدله لا يظلم، ولدينا قاعدة في العقيدة وهي: أن جميع الصفات التي نفاها الله عن نفسه لا يُراد بها مجرد النفي، وإنما يُراد بها إثبات كمال الضد.

فمثلاً: الظلم ضده العدل، فإذا نفى الله عن نفسه الظلم، فالمراد بذلك أنه لكمال عدله لا يظلم، وإنما قلنا ذلك لأن النفي المحض لا يوجد في صفات الله أبداً، إذ إن النفي المحض عدم محض، والعدم المحض ليس بشيءٍ فضلاً عن أن يكون كمالاً.

وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ [ق: ٣٨] يعني من تعب، فالمراد به إثبات القوة يعني: وما مسَّنا من لغوب لكمال قوَّتنا، وهلُمَّ جرّا.

قال العلماء: النفي قد يكون للعجز عن الشيء، وقد يكون لعدم قابلية الشيء، فإذا قلت: (إن جدارنا لا يظلم) هذا لعدم القابلية؛ لأن الجدار لا يقبل الظلم، ولا العدل.

وإذا قلنا عن رجل ضعيف يضربه الناس ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه، نقول: (هذا الرجل لا يظلم) هذا ذم، ولهذا يقول الشاعر في ذم قبيلة:

قُبَيِّلةٌ لا يغدرون بذمَّةٍ ولا يظلمون الناس حبة خردلِ

الذي يقرأ البيت هذا يقول: هؤلاء الناس جيِّدون، لا يغدرون بذمة، أي يوفون بالعهد، ولا يظلمون الناس حبة خردل،

يعني أنهم عاجزون لا يقدرون أن يغدروا بالذمم؛ لأنهم يخافون أن يُعاقبوا، ولا يظلمون الناس؛ لأنهم لا يستطيعون أن يظلموا الناس، ومن ذلك قول الشاعر:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عددٍ ليسوا من الشر في شيءٍ وإن هانا

يعني هم بعيدون عن الشر وإن كان هيِّناً.

يجيزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا

عندما يسمع السامع هذا البيت يظن أنهم في قمة الأخلاق العالية، ولكنه العكس، ولذلك قال:

فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا شنُّوا الإغارة فرساناً وركبانا

(فليت لي بهم): أي ليت لي بدلهم.

إذن فهمنا الآن أن الكلام الأول ذم، أما صفات الله عزّ وجل إذا وجدت فيها النفي فهي مدح، فإذا وجدت نفي الظلم فلكمال العدل، وإذا وجدت نفي اللغوب فلكمال القوة، وإذا وجدت نفي العِي ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣] فلكمال القوة أيضاً، وإذا وَجدت نفي الغفلة ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤] فلكمال العلم والمراقبة، وهكذا.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يجوز في حقِّهم كتمان ما أنزل الله عليهم؛ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾.

٢ ـ أنه لا يجوز لأتباع النبي الغلول ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ إذن فأتباعه ليس لهم أن يَغُلُّوا، ولهذا كان الغلول من كبائر الذنوب، حتى إن العلماء يقولون: إن الغالَّ يُحرَّق رحله، إلا المصحف وما فيه روح والسلاح، وتحريق الرحل من أجل التنكيل

به وإلا فمن الممكن أن يقول القائل: لماذا تحرقون رحله؟ لماذا لا تضعونه في بيت المال ينتفع المسلمون منه؟

لكن نقول: إن إحراقه خيرٌ من إدخاله لبيت المال، لأجل التنكيل به ليكون ردعاً له ولغيره أن يعود إلى الغلول.

٣ ـ أن الأنبياء لا يُغلُّون شرعاً، وأن النبي لا يَحل لأحد أن يَغُلَّهُ، أن يَغُل من الغنيمة التي اكتسبها بِحَربِه.

٤ ـ أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وهذا على سبيل العقوبة، ولهذا نعرف ضعف قول من قال من السلف: (غُلّ المصحف لتأتي به يوم القيامة). هذا خطأ؛ لأنه يأتي به يوم القيامة على سبيل العقوبة لا على سبيل الثواب، وربما يأتي به يوم القيامة لا على الوجه الذي غله في الدنيا.

٥ ـ إثبات البعث؛ لقوله: ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

٦ ـ إثبات قدرة الله عزّ وجل، وأنه سبحانه وتعالىٰ قادر على أن يأتي الإنسان بما غلّ مع أنه قد فني وزال، وإن كان طعاماً قد أكل، ولكن الله على كل شيء قدير ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

٧ ـ جزاء كل نفس بما كسبت؛ لقوله: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ لا زيادة ولا نقص، واستدل بعض العلماء بهذه الآية على أن إهداء ثواب القرب لا يجدي شيئاً؛ لأنه ليس من كسب المهْدَىٰ إليه، مثاله رجل صلى ركعتين ينويهما لفلان أو فلانة، وأن ثوابه إما أن يضيع وإما أن يكون للعامل، وذلك لأن المهدي للقرب ليس له ثواب إلا الإحسان إلى الغير فقط، أما ثواب العمل المخصوص المرتب عليه، فإنه إن قيل بصحة إهداء القُرَب

يكون للمُهدى له، وإن قلنا بعدم صحته فإنه يذهب هدراً؛ لقول النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»[١]. وعلى هذا فيقولون: إن ما جاءت به السنة من العمل للغير مستثنى من هذا العموم مثل قوله ﷺ: «**من مات وعليه صيام صام عنه وليه**»[٢]، وكذلك الحج وكذلك في الصدقة، كلها جاءت بها السنة، ولكن الإمام أحمد رحمه الله يرى التعميم، أي: يرى أن الإنسان إذا عمل عملاً ونواه لشخص وهو أهل لأن يثاب، والأهل لأن يثاب هو (المسلم) فإنه يصل إليه الثواب، واستدل بعموم قول النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**».

والحقيقة أنك إذا تأملت الأدلة وجدت أن بعضها بينه وبين الأدلة الأخرى عموم وخصوص من وجه، فبعضها عام في أنه لا ينفع النفس إلا ما كسبت، وبعضها عام في أن الإنسان له ما نوى، والقاعدة فيما إذا تعارض نصَّان عامان أحدهما أعم من الآخر من وجه فإنه يطلب المرجح؛ لأنه لا يمكن أن ترجح عموم أحدهما على الثاني، فهنا سؤال: هل لعموم قوله: «**إنما الأعمال بالنيات**» ما يرجحه؟

نقول: نعم، ورد أن الصدقة تجزئ عن الميت، وأن الحج يجزئ عن الميت، وأن الصيام يجزئ عن الميت، إذن فَعُموم قوله: ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ خصص بمقتضى السنة، والعام إذا خصص ضعفت دلالته على العموم، حتى إن بعض العلماء قال: إن العام إذا خصص سقطت دلالته على العموم؛ لأن تخصيصه يدل على أنه

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٠٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب من مات وعليه صوم، رقم (١٩٥٢)، ورواه مسلم، كتاب الصيام، باب قضاء الصوم عن الميت، رقم (١١٤٧).

لا يراد به العام، لكن الصحيح أن العام إذا خصص بقي على عمومه في غير ما خصص به، فالصحيح في هذه المسألة أننا نرجح عموم قوله: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»، لكن بشرط أن يكون المنوي له العمل مسلماً أهلاً لذلك، لو أن شخصاً تصدق عن أبيه الذي مات وهو لا يصلي فإن الصدقة لا تصح لأبيه، وهل يشمل قولنا على الراجح أن جميع القرب يصح إهداؤها لمن هو أهل لذلك العمل؟ وهل يشمل النبي ﷺ؟ بمعنى: هل الإنسان إذا أراد أن يهدي للرسول ﷺ قربة من الصلوات أو غيرها يقول: اللهم إن صلاتي هذه التي سأصليها ثوابها للرسول، أو هذه الدراهم التي أتصدق بها ثوابها للرسول ﷺ؟

نقول: إن هذا فعله بعض العلماء ولكن لم يفعله السلف الصالح، فالصحابة ما أهدوا للرسول ﷺ شيئاً من القرب، وكذلك التابعون وتابعوهم، وقد ذكر أن أول ما حدث هذا الأمر في القرن الرابع أي بعد القرون المفضلة، وذلك لأن القرون المفضلة أعمق علماً ممن بعدهم، يقول أهل القرون الأولى: إننا إذا عملنا أي عمل صالح فإن للنبي ﷺ مثل ثوابنا، وإذا كان كذلك فلا حاجة أن أقول: اللهم اجعل ثوابه للرسول ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ قد استحق الثواب فلا فائدة من ذلك إلا أني حرمت نفسي الأجر.

٨ ـ إثبات نفي الظلم عن الله؛ لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ويتفرع على هذا ـ بناء على القاعدة التي ذكرناها في الصفات ـ إثبات كمال عدله سبحانه وتعالىٰ.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ١٦٢].

الهمزة هنا للاستفهام ويليها حرف عطف، وقد ذكرنا فيما سبق أنه إذا جاءت همزة الاستفهام وبعدها حرف عطف فإن لعلماء النحو في ذلك رأيين:

الرأي الأول: أن الهمزة داخلة على جملة مقدرة تناسب المقام، والفاء عاطفة على تلك الجملة.

الرأي الثاني: أن الهمزة داخلة على الجملة الموجودة ولم يحذف شيء، ولكنها مقدمة عن موضعها؛ لأن لها الصدارة، وأن الفاء في مثل قوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ﴾ محلها في الأصل قبل الهمزة، والتعديل «فأمن اتبع» ولكن لما كان الاستفهام له الصدارة قُدِّمت على حرف العطف، وهذا الرأي أسهل، ووجه سهولته أنه لا يحتاج إلى تكلف تقدير المحذوف؛ لأنه أحياناً يصعب عليك أن تقدِّر المحذوف، وربما تقدِّر محذوفاً ويُقدِّر غيرك غيره. إذن نعتمد أن الهمزة للاستفهام، وأن الفاء عاطفة على ما قبلها.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ﴾:

(مَن) هنا اسم استفهام أو اسم موصول، التقدير (أفالذي اتَّبع). إذن هي اسم موصول لئلا نجعل أداة الاستفهام داخلة على اسم استفهام أو على جملة استفهامية.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي يتبع ما يُرضي الله عزّ وجل، فكل ما يُرضي الله يقوم به.

﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: أي: كالذي باء أي رجع بسخطٍ من الله، والسخط ضد الرضوان، فمن هو الذي يتعرَّض للرضوان؟ ومن هو الذي يتعرض للسخط؟

المطيع يتعرض للرضوان، والعاصي يتعرض للسخط.

﴿كَمَنْ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾:

الواو يحتمل أن تكون للاستئناف، ويكون المراد بها الإخبار عن مآل هذا الذي باء بسخطٍ من الله، ويُحتمل أن تكون عاطفةً على جملة صلة الموصول، وهي (باء). أي: كمن باء كمن مأواه جهنم.

﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾: أي مرجعه، يأوي إليه إيواءً لا مغادرة بعده، وجهنم اسمٌ من أسماء النار ـ أعاذنا الله منها ـ وسُمِّيت بهذا الاسم المشتق من الجُهْمَة، وهي تتضمَّن السواد واللّبس؛ لأن جهنم سوداء عميقة بعيدة العمق، وقيل: إن جهنم لفظ معرَّب من (كهنَّام) فارسية ثم عرِّبت إلى (جهنم).

وقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾:

(بئس) جملة إنشائية لإفادة الذم، و(نِعم) جملة إنشائية لإفادة المدح، و(بئس) و(نِعم) يحتاجان إلى شيئين: إلى فاعل ومخصوص. كلما جاءت (نِعم) أو (بئس) فإنهما تحتاجان إلى فاعل ومخصوص.

فهنا ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾. ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ فاعل، والمخصوص محذوفٌ تقديره (وبئس المصير هي) أي: جهنم، أو (وبئس المصير مصيره) فيجوز الوجهان.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان أنه لا يستوي من يتبع رضوان الله، ومن يبوء بسخطه؛ لقوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنْ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والاستفهام للنفي.

٢ ـ إثبات أن الرضا صفة من صفات الله؛ لقوله: ﴿رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾، ومن قاعدة أهل السنة والجماعة (أن كل وصفٍ وصف الله به نفسه فإنه يجب علينا أن نؤمن به ونصف الله به) فنقول: إن لله رضواناً وأنه يرضى، والرضا صفة فعلٍ؛ لأن الرضا له سبب، وكل صفة من صفات الله لها سبب فإنها من الصفات الفعلية.

وأنكر بعض الناس الصفات الفعلية لله متعللين بعلتين:

العلة الأولى: أن صفات الأفعال حادثة، والحوادث لا تقوم إلا بحادث؛ لأن حدوث الصفة يدل على حدوث الموصوف، فالحوادث لا تقوم إلا بحادث.

العلة الثانية: قالوا: إن كانت هذه الصفة كمالاً لزم أن يكون متَّصفاً بها دواماً، وإن كانت نقصاً لزم أن لا يتَّصف بها دواماً؛ لأن النقص لا يمكن أن يتصف الله به.

فنقول: إن قولكم إن الحوادث لا تقوم إلا بحادث غير صحيح؛ لأن الحوادث فعل الفاعل، والفعل عقلاً يتأخر عن الفاعل بلا شك؛ لأن الفعل يكون بإرادة الفاعل وقدرته، وهو متأخر عن وجوده، فالفاعل سابق للمفعول وسابق للفعل أيضاً، فكيف نقول: إن الحادث لا يقوم إلا بحادث؟

الثاني: قولكم: أنها إن كانت هذه الصفة كمالاً وجب أن يتصف بها دواماً، وإن كانت نقصاً لزم ألا يتصف بها دواماً. الجواب عنه: هي كمالٌ حال فعلها ولا شك، وحال عدمها ليست كمالاً، والكمال في عدمها.

خذ الرضا مثالاً: الرضا على من يستحق الرضا كمال، ولا يستحق الرضا إلا بعد فعل ما يوجبه، والرضا عمن لا يستحق

نقص يُنافي الحكمة، فإذا اتصف بالرضا فإنه يتصف بها في الحال التي يكون بها كمالاً.

والرضا يُفسِّره الذين يقتصرون على إثبات سبع صفات بأنه الثواب أو إرادة الثواب، والصحيح أن الرضا صفةٌ حقيقية ثابتة لله عزّ وجل، وليست هي الثواب؛ لأن الإثابة خَلْقُ ما يُثَابُ به غير الرضا، وهي ـ أي الإثابة ـ من مقتضيات الرضا وآثاره، وليست هي الرضا بلا شك.

وعليه فلا يصح أن نُفسِّر الملزوم باللازم؛ لأنهما شيئان متباينان، فحينئذٍ يتبيَّن أن الصواب ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة ـ جعلنا الله منهم ـ.

٣ ـ إثبات السخط لله؛ لقوله: ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، والسخط والغضب معناهما متقارب، وأهل السنة يقولون: إن السخط صفةٌ حقيقية ثابتة لله عزّ وجل، وأهل البدع يقولون: لا يمكن أن يسخط الله عزّ وجل، بل المراد بالسخط الانتقام أو إرادة الانتقام. فيقولون: إن سخطه ليس وصفاً في نفسه، بل معناه انتقم وعاقب المسخوط عليه أو أراد أن ينتقم منه، وهذا بناءً على أن صفات الأفعال لا تقوم بالله، والتعليل هو ما سبق، ونحن نقول: إن الانتقام من آثار السخط، وإرادة الانتقام أيضاً من آثار السخط، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]. ﴿ءَاسَفُونَا﴾ بمعنى أغضبونا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، فجعل الانتقام بعد وجود الغضب، وهذا يدل على أن هذا ليس هو هذا.

٤ ـ التحذير من التعرض لسخط الله؛ لقوله: ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ إثبات النار؛ لقوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ وهي ثابتة الآن وموجودة، ولا تفنى أبداً؛ لأن الله ذكر التأبيد في ثلاثة مواضع من كلامه: في سورة النساء، وفي سورة الأحزاب، وفي سورة الجن، فقال في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وقال في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]، وقال في سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣] ولا قول بعد قول الله عزّ وجل؛ لأن قوله أصدق الكلام وأبين الكلام، وهو الخالق عزّ وجل.

٦ ـ ذم النار والثناء عليها بالقدح؛ لقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

٧ ـ التنبه لأمرٍ يتكلم فيه الناس كثيراً الآن، يقولون: إذا مات الرجل فإنه يرجع إلى مثواه الأخير، وهذا لو أخذنا بظاهره، لكان يتضمَّن إنكار البعث، مع أن القبر ليس المثوى الأخير، وإنما المثوى الأخير الآخرة، الجنة أو النار، والقبر مزار.

سمع أعرابي رجلاً يقرأ قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢] فقال: والله إن الزائر ليس بمقيم، فَهِمَ هذا من قوله: ﴿زُرْتُمُ﴾ وهذا مفهوم فهماً فطريّاً لا يحتاج إلى دراسة، وهذا كالذي سمع قارئاً يقرأ: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم). قال الأعرابي: اقرأ الآية صواباً، فقال: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم). قال: اقرأها صواباً ما هكذا، فقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا

جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]. قال: الآن عزَّ وحكم فقطع، ولو غفر ورحم ما قطع، ولهذا قال في الذين يُحاربون الله ورسوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣، ٣٤]. قال العلماء: في هذا دليل على أنهم إذا تابوا قبل القدرة عليهم خُلِّي سبيلهم، يعني: أن الله قد غفر لهم ورحمهم، فمن أين أخذ أن الله قد غفر لهم ورحمهم؟ الجواب: من ختم الآية: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأن مقتضى علمنا بهذا أن نفهم أن الله قد غفر لهم ورحمهم.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال الله عزّ وجل: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

قوله: ﴿هُمْ﴾ يعود الضمير على من اتبع رضوان الله وعلى من باء بسخط من الله، ولكن هنا يشكل علينا أنه أعاد الضمير بصيغة الجمع (هم) مع أن (مَن) وصِلَتها بصيغة الإفراد (أفمن اتَّبع... كمن باء).

والجواب عن ذلك: أن الاسم الموصول يُفيد العموم، فيجوز أن يعود الضمير إليه باعتبار لفظه، ويجوز أن يعود عليه باعتبار معناه، ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]؟ لم يقل: (هو

المتَّقي) بل قال: (هم المتَّقون)، فأعاد الضمير على معنى اسم الموصول وهو الجمع.

قال: ﴿هُمْ﴾ أي: الذين اتَّبعوا رضوان الله، والذين باءوا بسخط من الله ﴿دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: منازل عند الله، يختلفون، فكل من كان أتبعَ لرضا الله كان أرفع عند الله، وكل من كان أبعد من الله كان أنزل، فالمراد أنهم درجات عند الله، أي في المراتب، وميزان هذه الدرجات أن كل من كان أتبع لرضا الله كان أرفع درجات عند الله، والعكس بالعكس. والدرجات إذا جاءت عامة دخل فيها المؤمن وغير المؤمن كما قال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٣٢] أما إذا خُصت بأهل النار فإنه يقال: دركات كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾:

(بصير): اسم فاعل، يجوز أن يكون من الإبصار بالعين، ويجوز أن يكون من الإبصار بالعلم، فيكون (بصير) بمعنى: عليم، أو (بصير) بمعنى: راءٍ. وهل لله بصرٌ؟.

الجواب: نعم، قال النبي ﷺ: **«حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»**[1].

وقوله: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بالذي يعملونه من ظاهر وباطن، وخير وشر.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الناس عند الله منازل مختلفة، ويتفرَّع على هذه الفائدة:

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٤٩).

أن الإيمان يزيد وينقص؛ لأن زيادة الدرجات بعد زيادة الإيمان باليقين والعمل الصالح، وهل هي زيادة اليقين أم زيادة الأقوال أم زيادة الأفعال أم الجميع؟ الجواب: الجميع، فاليقين يتفاضل، والأقوال تتفاضل، ليس من قال: لا إله إلا الله عشراً كمن قالها عشرين مثلاً، والأفعال كذلك تتفاضل، ليس من صلى ستَّ ركعات كمن صلى عشر ركعات، وهذا ما جرى عليه أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد باليقين والقول والفعل، كيف يزيد باليقين؟ هل اليقين يتفاضل؟ الجواب: نعم يتفاضل بنص القرآن. قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لربه عزّ وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠] هذا دليل من القرآن، والدليل من الواقع هو أن الإنسان كلما كثر المُخبرون بالخبر ازداد يقيناً، وإذا شاهد ازداد أكثر، ولهذا جاء في الحديث: «**ليس الخبر كالمعاينة**»(١). أما زيادة الأقوال والأفعال فهذا شيءٌ واضح ولا إشكال فيه.

٢ ـ إثبات العلو لله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ ۗ﴾ والعندية تعني: عندية المكان، وإذا كانوا درجات فالدرجات ترتفع شيئاً فشيئاً، فيؤخذ منها إثبات علو الله، فهذا أمر متفق عليه، ومجمع عليه بين السلف، وقد دلَّت عليه الأدلة الخمسة كلها: الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة، يعني علو الله عزّ وجل دلَّت عليه هذه الأدلة الخمسة: الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة.

الكتاب والسنة مملوءان من ذلك، والإجماع، يقول شيخ الإسلام: والله يعلم أني بعد البحث التام، ومطالعة ما أمكن من

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، رقم (١٨٤٥، ٢٤٤٣).

كلام السلف ما رأيت أحداً منهم قال: إن الله ليس في السماء. وأما العقل فقد دلَّ على علو الله. كيف دلَّ؟ لا شك أن العلو (علو المكان) كعلو المكانة، أي أنه كمال، وإذا كان كذلك فلله كل صفة كمال. أما الفطرة فإن كل إنسان لم يقرأ كتب أهل البدع يتجه قلبه إذا ذُكر الله إلى العلو، ولهذا يُقال: إن أبا المعالي الجويني كان يُقرر في العلو ويقول: إن الله تعالى كان ولم يكن شيءٌ قبله، وهو الآن على ما كان عليه.

وهذا الكلام قد لا يفهمه الإنسان، لكنه يُريد أن يُنكر استواء الله على العرش، فقال له الهمذاني رحمه الله: يا شيخ دعني من ذكر العرش، أخبرنا عن هذه الضرورة التي يجدها الإنسان، فما قال عارف قط (يا الله) إلا وجد من قلبه ضرورة طلب العلو؟. فجعل يضرب على رأسه، ويقول: حيَّرني الهمذاني، حيَّرني الهمذاني. فلم يجد له جواباً.

إذن نقول: علو الله ثابت بالأدلة الخمسة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة، وابن القيم رحمه الله يكرِّر هذا المعنى في النونية كثيراً؛ لأنه من أعلى صفات الكمال.

٣ ـ إثبات إحاطة الله عزّ وجل بما نعمل؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾، ويترتب على هذا، الأدب السلوكي، وهو أن نحذر من مخالفته، لأننا إذا كنا نعلم أنه بصير بما نعمل، فسوف نتجنَّب كل ما يُسخطه جل وعلا، ونأتي بكل ما يُرضيه، لا سيما وأن الآية جاءت بعد قوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٢].

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

لقد ذكرنا فيما سبق ضوابط عامة في القراءات وهي:

أولاً: ضمير (هُوَ) و(هِي) الأول بضم الهاء، والثاني بكسر الهاء عند جمهور القراء مطلقاً، وسكَّن الهاء فيهما الكسائي وقالون وأبو عمرو بعد الواو والفاء واللام مثل: (وهْو، وهْي، فهْو، فهْي، لَهْي، لَهْو). فإذا جاءت في القرآن فلك أن تُسكِّنها أو تضُمها، وسكّنها الكسائي وقالون في قوله: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١] في هذا الموضع فقط، لأنها وقعت بعد (ثم).

ثانياً: ضمير (عليهِم، إليهِم، ولديهِم) مكسور الهاء، وقرأه حمزة بضم الهاء في كل القرآن (غير المغضوب عليهُم، إليهُم، لديهُم).

ثالثاً: ميم الجمع في مثل (عليهم) ساكنة إذا وقع بعدها متحرِّك غير ضمير، وضَمَّها موصولاً ابن كثير، فيقرأ (عليهِمُو)، وضمَّه موصولاً ورش إن وقع بعد همزة قطع، فيقرأ «عَلَيْهِمُو أأنذرتهم». وإن وقع بعده ساكن فهو مضموم بدون وصل عند جميع القراء، مثل: (آتيناهمُ الكتاب) وإن وقع بعد ضمير ضُم موصولاً للجميع مثل: (أَنُلْزِمُكُمُوهَا)، فلا يصح أن تقول: أنلزمكمُهَا، لا بد من الواو.

ويستثنى من ذلك ميم الجمع إذا وقعت بعد (هاء) قبلها كسر أو ياء وبعده ساكن؛ ففيه في حال الوصل ثلاث قراءات: ضم الهاء والميم وهي لحمزة والكسائي، وكسرهما وهي لأبي عمرو،

وكسر الهاء وضم الميم وهي للباقين، وأما حال الوقف فكلهم كسر الهاء وسكَّنوا الميم مثل: ﴿بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]. ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [البقرة: ١٦٧].

رابعاً: إذا لم يقع بعد هاء الضمير ساكن، وكان قبله متحرك فهو موصول عند جميع القراء، مثل: ﴿أَمَاتَهُۥ﴾ [عبس: ٢١]، وإن وقع بعده ساكن، فهو غير موصول عند الجميع مثل: ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وإن كان ما قبله ساكن فهو موصول عند ابن كثير وحده مثل: (اجتباه ـ عقلوه ـ عليْهِ) ووافقه حفص في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٩].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾:

(لقد): كلما وجدت في القرآن (لقد) فإنها جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، وهي القسم المقدر، واللام، وقد. وتقدير الكلام: (والله لقد منَّ الله على المؤمنين).

فإن قال قائل: القسم إنما يُقال للشاك أو المنكر، فلماذا أقسم الله في هذه الآية على أنه مانٌّ على المؤمنين ببعث محمد ﷺ، مع كون الأمر ظاهراً، ولم يقل: لقد منَّ الله على الناس، بل قال على المؤمنين الذين يعرفون أن ذلك منَّة؟.

فالجواب: أن الداعي للقسم ليس هو الإنكار أو الشك من المخاطب، بل قد يكون الداعي للقسم أهميَّة المُقسم عليه، وإن لم يكن هناك شك، وهذه الآية من هذا النوع؛ فالمقصود بذلك بيان أهمية هذه المنَّة العظيمة التي لا يُعادلها شيء.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥] فأكَّد مع أن الموت محقَّق، ولكن يُقال لمَّا كان بعض الناس غافلاً كأنه لن يموت، أُكِّد.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: على المؤمنين خاصة دون غيرهم؛ لأن الكفار لم يعرفوا هذه المنَّة ولم يرفعوا بها رأساً، ولم يروا في مخالفتها بأساً، فتركوها وأعرضوا عنها، وحُرموا خيرها، أما المؤمنون فهم الذين تبيَّنت لهم هذه المنَّة واستمسكوا بها.

وقوله: ﴿إِذْ بَعَثَ﴾ هذه إما أن تكون ظرفاً لـ(مَنَّ)، وإما أن تكون للتعليل، أي: لأنه بعث، وكلاهما لا يتنافيان، فهي بيان لمحل المنَّة، وهي البعثة، وهي كذلك تعليل للمنَّة.

وقوله: (بعث) أصل البعث الإنشاء، وسُمِّيت الرسالة بعثاً؛ لأنها إخراج للناس من حالٍ إلى حال، فكأنهم بُعثوا خلقاً جديداً، وأُنشئوا خلقاً جديداً.

وقوله: ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾:

(في): للظرفية؛ لأن النبي ﷺ بُعِث في (سِطَة) المؤمنين، وكان هو عليه الصلاة والسلام أشرف من بُعث فيهم نسباً.

وقوله: ﴿رَسُولًا﴾ أي: مُرسلاً من عند الله.

وقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾. أي: من جنسهم، وفي سورة الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ١، ٢] لأن النبي ﷺ من الأميين، وأما عامة الناس فليس منهم، ولكن من أنفسهم، أي من جنسهم كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ

لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]. ومعنى «من أنفسهم» أي: من جنسهم، ولا شك أن كونه من جنسنا أتم في النعمة؛ لأنه لو كان من الملائكة ما أَلِفَه الناس، ولا ركنوا إليه، وربما لا يقبلون منه، فإذا كان من جنسهم يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، وينام كما ينامون، ويكون معهم في أسواقهم وفي بيوتهم، كان ذلك أبلغ في المنَّة.

وقوله: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

جملة (يتلو) صفة ثانية لـ(رسولاً) أي: رسولاً من أنفسهم تالياً عليهم آياته.

والتلاوة هنا تشمل التلاوة لفظاً، والتلاوة معنًى، والتلاوة حكماً؛ فالتلاوة لفظاً: أن يقرأ الكتاب بينهم، والتلاوة معنًى أن يُعلِّمهم معانيه، والتلاوة حكماً أن يعمل بأحكامه عليه الصلاة والسلام. ولا شك أن هذه الثلاثة كلها تحتملها كلمة (يتلو)؛ فهو عليه الصلاة والسلام يتلوه لفظاً ويتلوه معنًى. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] ويتلوه عليهم كذلك حكماً. قالت عائشة: (كان النبي ﷺ يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، يتأول القرآن)[1] يعني: يطبقه.

﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ هل هي الآيات الكونية أو الشرعية؟ الظاهر المراد آياته الشرعية، وهي الوحي الذي أنزله على رسوله ﷺ.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يُطهِّرهم حسّاً ومعنى. أما الطهارة حسًّا

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٩٥).

فقد أمرهم بالوضوء عند الصلاة، وأمرهم بالغسل من الجنابة، وأمرهم بإزالة النجاسة، بل حثَّ على النظافة عموماً. وأما التزكية معنىً فهي أنه طهّر قلوبهم من الشرك والشك والنفاق وسوء الأخلاق، وهذّب أخلاقهم عليه الصلاة والسلام، حتى زكت نفوسهم وأخلاقهم.

وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾:

ليست تكراراً مع قوله: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ لأن الأول تلاوة والثاني تعليم، والتعليم أخص من التلاوة؛ لأن الإنسان إذا تلا عندك القرآن لا يُعد معلماً لك يُعلمك. إنما يكون معلماً إذا أقرأك إياه ولقنك إياه.

فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يُعلمهم الكتاب، والتعليم هنا شاملٌ لتعليم اللفظ، وتعليم المعنى، وتعليم الحكم، أي العمل به.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن، وسُمِّي كتاباً لأنه مكتوب، فهو فِعَالٌ بمعنى مفعول، وقد تكرَّر علينا كثيراً أن فِعَال تأتي بمعنى مفعول، ومن أمثلته: فِراش بمعنى مفروش، وغراس بمعنى مغروس، وبناء بمعنى مبني؛ فالقرآن كتاب، يعني: مكتوب؛ كُتب في اللوح المحفوظ، وفي الكتب التي بأيدي السفرة، والكتب التي بأيدينا.

قال بعض أهل العلم: إن المراد بالكتاب هنا الكتابة؛ لأن العرب كانوا أميين، فلما نزل هذا الكتاب العظيم تعلموا الكتاب؛ فصاروا يكتبونه للرسول ﷺ ثم صاروا يكتبون بعض الأحاديث، ثم انتشرت الكتابة فيهم.

ومعلوم أن من جملة الفداء الذي أُخذ من أسرى بدر أن يُعلِّموا صبيان أهل المدينة القراءة والكتابة.

وأيَّد هذا القائل قولَه بأن تعليمهم الكتاب مستفاد من قوله: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ولكن في هذا نظر؛ وإن كنا لا نمنع أن يكون المراد بالكتاب هنا الكتابة والقرآن جميعاً؛ لأن القاعدة عندنا في التفسير: أنه متى احتملت الكلمة معنيين فأكثر، ولا منافاة بينهما، فإن الواجب حملُها عليهما؛ لأن كتاب الله عزّ وجل واسع المعنى. فعلى هذا يكون المراد بالكتاب: القرآن والكتابة.

وقوله: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قال بعض العلماء: أي السنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]. وقيل: المراد بالحكمة أنه علّمهم كيف يضعون الأشياء مواضعها؛ لأن الشريعة الإسلامية تُعلّم الإنسان كيف يضع الشيء في موضعه.

وأيضاً علَّمهم الحكمة التي هي أسرار التشريع؛ لأن الشرع كما نعلم أحكام وحِكَم، فالأحكام ظاهرة. والحِكَم هي الأسرار والمعاني التي تُناط بها هذه الأحكام، والإنسان إذا عرف هذه الحكم والأسرار، تبين له أن الشريعة ليست لهواً ولا لعباً، وأن الشريعة ذات معانٍ سامية، لا يدركها إلا من فتح الله عليه.

ويمكن أن نقول: إن الحكمة تشمل هذا وهذا؛ أي علَّمهم السنة التي يطلق عليها الحكمة، وعلَّمهم وضع الأشياء مواضعَها، وأسرار الشريعة وحِكَمها ليزدادوا بصيرة في دين الله.

قال: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾:

«إِنْ» تأتي في اللغة العربية لعدة معانٍ، والسياق هو الذي

يعين المعنى. فتأتي (إِنْ) شرطية، ومثالها ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، وتأتي (إِنْ) نافية؛ وعلامة «إِن» النافية أن تأتي بعدها (إِلَّا) ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣]، ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]، ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ [يوسف: ٣١]، وتأتي مخففة من الثقيلة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ هذه (إن) المُخففة من الثقيلة، وأصلها (وإنهم كانوا من قبل) وعلامة (إن) المخففة من الثقيلة: أن تأتي اللام في خبرها؛ فإذا أتت بعدها اللام فهي المخففة من الثقيلة، ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي﴾.

قال ابن مالك:

وخففت (إن) فقل العمل ... وتلزم اللام إذا ما تهمل

وتأتي (إِنْ) زائدة:

بنو غدانة ما إن أنتم ذهب ... .

أي: (ما أنتم ذهب).

والتي في الآية الكريمة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ (إن) المخففة من الثقيلة وعلامتها أن تأتي اللام في خبرها أو في اسمها إن تأخر، بمعنى أن تأتي بعدها اللام، وأين اسمها؟ قيل: إنه محذوف مقدر باسم ظاهر، والتقدير: (وإن الشأن كانوا من قبل في ضلال مبين).

وقال بعضهم: بل هو محذوف مقدر بضمير مناسب. وهذا هو الصحيح؛ فإذا كان الخبر جمعاً كان الضمير المقدر جمعاً. وعلى هذا يكون التقدير هنا: (إنهم كانوا من قبل لفي ضلال مبين)؛ فيقدر ضمير الشأن بما يناسب المقام، (وإن كانوا) الضمير يعود على المؤمنين الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بعث هذا الرسول ﷺ.

﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: «في» للظرفية، يعني أن الضلال محيط بهم، كإحاطة الظرف بمظروفه.

﴿مُّبِينٍ﴾: بمعنى بيِّن.

وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ نقول (مِن) حرف جر، و(قبلُ) هنا غير مجرورة، بل هي مبنية؛ والمبني لا تظهر عليه علامة الإعراب كما في قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]، ولم يقل: (من حيثِ) وهنا قال: (من قبلُ)، ولم يقل (من قبلِ)، ولكن في بعض الأحيان تُجر (قبل)، فيُقال: (من قبلِهم) ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وإنما تُبنى على الضم إذا حُذف المضاف إليه ونُوِيَ معناه، هذا كلام النحويِّين.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ عظيم منَّة الله عزّ وجل على المؤمنين ببعث النبي ﷺ، وذلك لتأكيد هذه المنَّة بالقسم.

٢ ـ أن المنة ببعث الرسول ﷺ إنما كانت على المؤمنين؛ لأنهم هم الذين انتفعوا بها لقوله: ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٣ ـ أن من لم يعترف بالمنة فهو كالمسلوب منها، أو هو كالمسلوبة منه؛ لأنه خصَّ المنة بالمؤمنين.

٤ ـ وجوب شكر نعمة الله على مَن مَنَّ الله عليه بالإيمان؛ لقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ﴾ لأن المراد بهذا الخبر هو شكر نعمة الله تعالى على هذه المنة، وأن لا يتعاظم الإنسان في نفسه.

٥ ـ الرد على الأعراب الذين منّوا بإيمانهم وإسلامهم على الرسول ﷺ، قال الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ

إِسْلَٰمَكُمْ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

٦ ـ اللجوء إلى الله تعالى بأن يثبتك على الإيمان؛ لأنه إذا كان هو المانُّ به فهو الذي يملك ثبوته وزواله؛ فارجع إليه.

٧ ـ فضيلة الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث كان مبعوثاً من قِبَل الله، والرسول يَشْرف ويَعْظُم بحسب مَنْ أرسله، ولهذا يفرق الناس بين رسول السلطان ورسول الرجل العادي، رسول السلطان يرونه أعظم من رسول الرجل العادي.

٨ ـ ثبوت رسالة النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

٩ ـ إثبات منّة الله تعالى بكون الرسول من جنسنا؛ لقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾. ويتفرع على هذه الفائدة:

الردّ على أولئك السفهاء المعاندين الذين قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الفرقان: ٧]، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]؛ لأنه لا يمكن أن يعيش الملك بين البشر، ولا يمكن أيضاً للبشر أن يتقبلوا منه كما يتقبلون ممن كان مِن جنسهم.

١٠ ـ الثناء العظيم على رسول الله ﷺ حيث كان يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

١١ ـ حرص النبي ﷺ على إبلاغ الرسالة، حيث كان يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة.

١٢ ـ أن القرآن معجز؛ لقوله: (آيات)؛ لأن الآيات بمعنى العلامات، والعلامة على الشيء هي المُعَيِّنَة له، والتي لا تصلح لغيره، فهي آية لله لا تصلح لغيره.

١٣ ـ جواز إضافة الشيء إلى سببه ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، مع أن الله

قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، لكنه ﷺ سبب للتزكية. ففي الآية جواز إضافة الشيء إلى سببه، لكن بشرط أن يكون معلوماً أنه سبب إما عن طريق الشرع، أو عن طريق العقل أو الحس.

❁ ❁ ❁

قال تعالى: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

قوله: ﴿أَوَ لَمَّآ﴾ الهمزة هنا تلاها حرف عطف، وقد مرَّ علينا كثيراً أن الهمزة إذا وليها حرف عطف، فلعلماء النحو في ذلك قولان:

أحدهما: أن العطف على شيء مقدر يناسب المقام.

والثاني: أن العطف على ما سبق. وعلى هذا الوجه تكون الهمزة مقدمة عن موضعها، وموضعها بعد حرف العطف، وهذا أسهل على المعرب؛ لأنه لا يحتاج إلى تكلف المقدر، وأحياناً قد يصعب على الإنسان أن يقدر شيئاً مناسباً.

وقوله: ﴿لَمَّآ﴾: شرطية؛ ودليل كونها شرطية أنها تحملت فعل الشرط وجوابه؛ فعل الشرط في قوله: ﴿أَصَٰبَتْكُم﴾ وجوابه في قوله: ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾.

(ولمّا) تأتي على عدة وجوه: فتأتي بمعنى (إلا) وتأتي بمعنى (حين) وتأتي بمعنى (لم) وتأتي شرطية؛ ففي قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] بمعنى: إلَّا، وفي قوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص: ٨] بمعنى: لم، وإن كان بين «لم» و«لما» فروق لكن هي هنا بمعنى «لم» النافية. وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾ [يونس: ٩٨] قال

بعض العلماء: (لما) هنا بمعنى حين. فهذه وجوه أربعة لـ«لَمَّا» الواردة في كتاب الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾: أصابتكم يعني: حلَّت بكم مصيبة قد أصبتم مثليها، أي حلَّ بكم مثلاها. وهذه المصيبة هي ما حلَّ بهم في أُحد؛ فإنه قتل منهم سبعون رجلاً، وعلى رأسهم أسد الله وأسد رسوله وعم النبي ﷺ: حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

وقوله: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ يشير سبحانه وتعالىٰ إلى ما حصل في يوم بدر؛ حيث قُتل سبعون رجلاً من المشركين، وأُسر منهم سبعون رجلاً، فسبعون مع سبعين ضعفان، ولهذا قال: ﴿أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾، وأما قول من قال: إن في الآية إشارة إلى موقعة الأحزاب، وأن النصر سيكون للمسلمين فإنه غير صحيح؛ أولاً: لأنه خلاف الظاهر حيث قال: ﴿قَدْ أَصَبْتُم﴾ وهذا فعل ماضٍ، ولم يقل: قد تصيبون. والشيء الثاني: أنهم في غزوة الأحزاب لم يصيبوا مثليها في الواقع؛ لأن غزوة الأحزاب لم يحصل فيها إلا قتل يسير جداً، وانتصارهم في الأحزاب كان بما أرسل الله عليهم من الريح والجنود.

فإن قال قائل: كيف قال: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ مع أن المقتول سبعون، والمأسور سبعون، والأسر ليس كالقتل؟.

قلنا: إن الأسر يحصل به من الإذلال مثل ما يحصل بالقتل، وربما يكون أكثر؛ لأن المقتول يقتل ويستريح، ولكن المأسور يستذل، ولهذا يخير الإمام في المأسورين بين أربعة أمور: الفداء بمال أو بأسير مسلم، أو الرق، أو القتل، أو المنّ

بـدون شـيء: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ [محمد: ٤]، فالحاصل أن الأسر في الإذلال كالقتل إن لم يكن أشد منه.

وقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾: قلتم جواب «لمَّا» أي: إذا أصابتكم مصيبة قلتم: كيف أصابنا هذا؟! وكيف تأتينا الهزيمة ونحن جنود الله، ومع رسول الله ﷺ؟!

وقوله عزّ وجل: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ (أنَّى) هذه استفهامية، وتأتي شرطية؛ ففي قولك: أنى تقم أقم، هذه شرطية.

وفي مثل هذه الآية استفهامية، وهذا الاستفهام للتعجب، ولا أظن أن يكون للإنكار؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم لا ينكرون من قدر الله شيئاً، ولكنهم يتعجبون: كيف يصيبنا هذا، ونحن جند الله، ومع رسول الله؟! قال تعالى: ﴿قُلۡ﴾ أي: قل يا محمد ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾، وهنا أَمَرَ الله نبيَّه أن يقول ولم يقل عزّ وجل: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾، بل أمر نبيه أن يبلغهم. وهذا الأمر للتبليغ الخاص، وقد قلنا: إن القرآن كلَّه قد أُمر رسول الله ﷺ أن يبلغه جميعاً للناس.

وتوجد بعض الأحكام والأخبار التي يؤمر بها النبي ﷺ ليبلغها تبليغاً خاصاً، أي: قل لهؤلاء الذين قالوا: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾: ﴿هُوَ﴾ أي: ما أصابكم ﴿مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ أي: منكم، (ومِنْ) هنا للسببية؛ أي: فأنتم السبب.

والسبب الذي يظهر لنا هو ما حصل من النزاع والمعصية للنبي عليه الصلاة والسلام؛ حيث أمرهم أن يبقوا في المكان الذي عيَّنه لهم، سواء كانت الغلبة للمسلمين، أو كانت الغلبة

للكافرين، ولكنهم رضي الله عنهم، وعفا عنهم، لما رأوا المشركين قد انهزموا، ورأوا أن المسلمين بدأوا يجمعون الغنائم، ظنوا أن الحرب انتهت، فنزلوا من المكان الذي عيَّنه النبي ﷺ، وحصل ما حصل؛ فإن الفرسان من المشركين لما رأوا الثغر الذي يحمي المسلمين من ورائهم خالياً، كروا من وراء المسلمين واختلطوا بهم، وحصل ما أراد الله عزّ وجل. هذا معنى قوله: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وخَتْمُ الآية بهذه الجملة في غاية ما يكون من المناسبة؛ فهو قدير على أن ينتصر من هؤلاء المشركين، ولكنه لم يفعل ذلك لحكمة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] لأن الله لو شاء لأماتهم، أو خسف بهم، أو أنزل عليهم صواعق، أو ما أشبه ذلك ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ «كل شيء» عامة تشمل كل شيء؛ تشمل ما كان موجوداً؛ فهو قادر على إعدامه، وما كان معدوماً؛ فهو قادر على إيجاده، ولا استثناء في هذا العموم. وأما قول بعض المفسرين رحمهم الله في سورة المائدة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠]: وخصّ العقل ذاته فليس عليه بقادر؛ فهذا تخصيص في غير محله.

أولاً: لأن العقل ليس له تدخل في صفات الله عزّ وجل.

وثانياً: نقول: ما تريد بقولك: وخص العقل ذاته؟ هل تريد

أن الله سبحانه وتعالىٰ لا يقدر أن يفعل، لا يقدر أن ينزل، لا يقدر أن يستوي، لا يقدر أن يأتي يوم القيامة للفصل بين عباده؟ أم ماذا تريد؟

إن أردت هذا، فهذا خطأ؛ فالله قادر على أن يفعل، على أن يستوي على العرش، على أن ينزل إلى السماء الدنيا، على أن يأتي للفصل بين عباده، كما صحَّ بذلك النقل.

أم تريد بقولك: خصَّ العقل ذاته، أنه لا يقدر على أن يفعل بنفسه ما لا يليق به؛ كالموت مثلاً؟ إن أردت ذلك فهذا خطأ منك أيضاً، وذلك لأن القدرة إنما تتعلق بالممكنات، أما المستحيلات فهي مستحيلة غير واقعة؛ هل يمكن أن نقول: إن الشيء يكون متحركاً ساكناً في آن واحد؟ لا يمكن؛ لأن هذا لا تتعلق به القدرة أصلاً، والله عزّ وجل لا يمكن أن يتصف بالنقص، ولله المثل الأعلى، فكونك تفرض أن الله تعالى يمكن أن يتصف بالنقص، ولكنه غير قادر عليه، فهذا خطأ عظيم. فنقول: هذا أصلاً غير وارد على القدرة، كما قال السفاريني رحمه الله: [«بقدرةٍ تعلقت بممكن»].

فالشيء المستحيل مستحيل، لا تتعلق به القدرة أصلاً؛ لأنه إذا كان الشيء ساكناً لا يمكن أن يكون متحركاً، وإذا كان متحركاً لا يمكن أن يكون ساكناً، والله قادر على كل شيء، لكن إذا قدر أن يجعله متحركاً صار غير ساكن، وإذا قدر أن يكون ساكناً صار غير متحرك، فهذا أصلاً لا يرد على العقل، فإذن نقول: إن الله على كل شيء قدير عموماً مطلقاً لا استثناء فيه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الله وبَّخ الذين قالوا: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَآ﴾، ويتفرع على هذا جواز توبيخ من كان كامل الإيمان إذا فعل ما يستحق التوبيخ عليه؛ يعني أننا لا نقول: إن كمال إيمانه يمنع أن نوبخه إذا فعل ما يقتضي التوبيخ.

٢ ـ من المستحسن أن يُذَكَّر الإنسان بما يهون المصيبة عليه؛ لقوله: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾.

٣ ـ أنه ينبغي لمن أجاب غيره أن يجيبه بما يمنع احتجاجه؛ لقوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: أنتم السبب.

٤ ـ إثبات الأسباب في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

٥ ـ منَّة الله على الصحابة رضي الله عنهم؛ لأن الله قد جعل على أيديهم مصيبة أكبر مما أصابهم، بل هي مِثْلَا ما أصابهم في قوله: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾.

٦ ـ إثبات اسم القدير من أسماء الله؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. والقدرة صفة يتصف بها القادر، تمنعه من وصف العجز. وذكرنا فيما سبق ما تستلزم.

٧ ـ أنه ينبغي إذا وصفنا الله بالقدرة أن نصفه كما وصف نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، خلافاً لِمَن قال: إن الله على ما يشاء قدير؛ لأنه إذا قال: إن الله على ما يشاء قدير، فقد يكون مفهوم العبارة: أن ما لا يشاؤه لا يقدر عليه. والله قادر على ما يشاء، وعلى ما لم يشأ.

وأيضاً إذا قلنا: «إنه على ما يشاء قدير» فإنه يدخل علينا

مذهب القدرية الذين قالوا: إن الله لا يشاء أفعال العباد، فإذا كان لا يشاء أفعال العباد، وقلنا: إنه لا يقدر إلا على ما يشاء، لزم أن لا يكون قادراً على أفعال العباد.

ثالثاً: أننا إذا قلنا: على ما يشاء قدير، فقد خرجنا عما وصف الله به نفسه؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فإن قال قائل: ماذا تقولون في قصة الرجل الذي أخبر عنه النبي ﷺ بأنه يكون آخر أهل الجنة دخولاً، وأن الله يقول له: إني على ما أشاء قادر[1]؟

فالجواب عن ذلك: أن هذا حديث عن مسألة وقعت، فإذا وقع شيء من الأشياء وكان الإنسان يستغرب وقوع هذا الشيء فقال: كيف يقع هذا الشيء؟ فنقول له: «إن الله على ما يشاء قادر» يعني أن الله لمَّا شاءه وقع.

أما إذا أردنا أن نصف الله بالوصف المطلق غير المقيد بفعل فإن الأولى أن نقول: «إن الله على كل شيء قدير».

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦ ـ ١٦٧].

قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ (ما) هذه شرطية، ودليل أنها شرطية

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، رقم (٣٨٨٩).

أنه وجد في الجملة فعل شرط وجوابه. فعل الشرط قوله: ﴿أَصَٰبَكُمۡ﴾ وجوابه قوله: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، وقرن بالفاء لأنه جملة اسمية، وتقدير الكلام: فهو بإذن الله.

قال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾:

يعني بالتقاء الجمعين التقاؤهما يوم أُحد، فإنه لما التقى الجمعان، وصارت النهاية أن هزم المسلمون واستشهد منهم سبعون رجلاً، وهذه تعتبر نكبة أمام الكفار؛ لأن الكفار سيكون لهم في هذا الحال سيطرة وعلو واستكبار كما وقع؛ فإن أبا سفيان قال في ذلك اليوم: (أُعْلُ هبل) فافتخر بعلو صنمه على المسلمين الذين يعبدون الله. وهذا الذي حصل يوم التقى الجمعان يقول الله عزّ وجل فيه: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾. بإذن الله القدري؛ لأن الله هو الذي قدّره، وإذن الله ينقسم إلى قسمين: إذن شرعي، وإذن كوني.

فما تعلق بالتكوين والخلق فهو إذن كوني؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، وما تعلق بالشرع فهو إذن شرعي، مثل قوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩] وقوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١] أي: إذن شرعي.

فإن قال قائل: فما الفرق بينهما؟

فالجواب: أن الفرق بينهما: **أولاً**: أن الإذن الشرعي يكون فيما يحبه الله، والإذن الكوني يكون فيما يحبه وما لا يحبه.

ثانياً: أن الإذن الكوني يقع فيه المأذون به، والإذن الشرعي قد يقع وقد لا يقع.

وقوله: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: فهو كائن بإذن الله؛ والباء للسببية، ولذلك صحَّ أن يعطف عليه قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ اللام للتعليل، ولا يجوز أن تسكن اللام، فتقول: «وَلْيَعْلم» لأن التي تسكن بعد حروف العطف هي لام الأمر، أما لام التعليل فهي مكسورة دائماً.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني الذين صدقوا الله في إيمانهم، وقالوا فيما أصابهم: إنه بقدر الله، ورضوا به، وتابوا إلى الله من أسبابه، وهي المعاصي والتنازع.

والعلم هنا علم ظهور وليس علم إدراك أي: وليعلمه بعد ظهوره، أما علمه قبل ظهوره فهو ثابت لله عزّ وجل؛ لأن الله علم كل شيء إلى يوم القيامة.

وأيضاً هذا العلم علم يترتب عليه الثواب، أما علم الله السابق فإنه لا يترتب عليه الثواب، ولا يترتب عليه العقاب. هذان فرقان.

والفرق الثالث: أن هذا العلم علم بالشيء بعد أن يقع، فهو علم بأنه وقع، وأما العلم الأزلي فهو علم بأنه سيقع، وهناك فرق بين العلم بأنه وقع، وبين العلم بأنه سيقع.

هذه ثلاثة أوجه، وإلا فإن كثيراً من الناس يقول: كيف ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؟ أليس الله قد علمهم من قبل؟.

فنقول: بلى، علمهم؛ لكن العلم يختلف من هذه الوجوه الثلاثة.

ثم قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ يعني: يعلم المؤمنين، ويعلم الذين نافقوا، فيميز هذا من هذا.

وقال في المؤمنين: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالوصف، وأما في المنافقين فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ﴾ إلى آخره فأتى بالفعل، وذلك لأن النفاق طارئ عليهم، فلأنَّ كثيراً من المنافقين كان آمن ثم كفر ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ [المنافقون: ٣]، ولهذا أتىٰ بالفعل الذي يدل على التجدد، وأيضاً ليناسب قوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟﴾.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ﴾:

النفاق في الأصل هو إظهار خلاف الواقع، ومنه سمي نفق الجربوع أو اليربوع؛ فإنه من ذكائه إذا حفر له جحْراً جعل له باباً ظاهراً يدخل منه ويخرج منه، ويجعل في أقصى ذلك الجحْر طبقة خفيفة؛ يعني: يخرق إلى أن يصل إلى قريب من الانفتاح، فتبقى طبقة خفيفة جداً من أجل أنه إذا فوجئ من باب الجحر، خرج من هذه القشرة الرقيقة، لأنها تكون سهلة عليه، فيكون هذا مخادعة؛ لأن الصائد إذا أراد صيده وهجم عليه من الباب، لا يدري أن هناك نفقاً يخرج منه.

واليربوع حلال، وهو يشبه الفأر إلى حدٍّ كبير، لكن له أرجلاً طويلةً وأيادِيَ قصيرة، وذيلاً طويلاً في طرفه هدب.

فنقول: إن النفاق أصله من هذا؛ لأن فيه مكراً ومخادعة.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ﴾ مثل عبد الله بن أُبي، فإن عبد الله بن أُبي كان من المعارضين للخروج إلى أحد، ولكن النبي ﷺ عزم على الخروج بمشورة الصحابة، ولا سيما الذين لم يدركوا بدراً، فهم الذين أشاروا على الرسول ﷺ، وأكدوا عليه المشورة أن يخرج إلى أحد، فخرج الناس مؤمنهم ومنافقُهم، وفي أثناء

الطريق انخذل عبد الله بن أبيّ بنحو ثلث الجند، ولحقهم من لحقهم من المؤمنين، يوبخونهم ويأمرونهم بالرجوع[١].

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ يعني: فإما قتال في سبيل الله، أو دفاع عن أوطانكم. فالقتال في سبيل الله قتالٌ يعتبر جهاداً، يثاب عليه المقاتل ثواب المجاهد، وقتال الدفاع بحسب نية المقاتل، فهم قيل لهم: تعالوا قاتلوا في سبيل الله جهاداً، أو ادفعوا عن أوطانكم. ولو رجعوا لما قاتلوا إلا دفاعاً، لعدم إيمانهم بما في سبيل الله.

وجملة ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ إما أنها معطوفة على (نافقوا)، أو أنها جملة حالية على تقدير (قد)؛ أي: وقد قيل لهم.

وقوله: ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾: (لو) سبق الكلام عليها، وأنها في مثل هذا السياق تكون شرطية.

ومرادهم من هذه المقولة تبرير رجوعهم من الجيش، فهم يقولون: نحن معكم، لكن ما نعلم أنه يكون قتال. وهذه قولة رجل مخذول جبان، والإنسان الشجاع هو الذي يقول: نعم نأتي لنقاتل أو ندفع، ثم إن حصل قتال فنحن مستعدون، وإن لم يحصل رجعنا من حيث جئنا.

وقوله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ (يومئذٍ): أي: في هذا الوقت أو في هذا اليوم الذي انصرفوا فيه، وانخذلوا عن المسلمين، هم للكفر أقرب منهم للإيمان، وإن كان فيهم شيء من الإيمان، ولعل هذا في بعضهم، لكن هم للكفر أقرب.

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٠٧).

وقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: كما أنهم يأتون إلى النبي ﷺ ويقولون: نشهد إنك لرسول الله، ويذكرون الله فيقولون: لا إله إلا الله، ويحضرون بعض الصلوات على أنهم مسلمون، فهم ـ والعياذ بالله ـ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم؛ فالذي في قلوبهم الكفر، والذي في أفواههم الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ يعني: هو أعلم من غيره بما يكتم هؤلاء، ولهذا أبدى الله ما يكتمونه، وأنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ خلاف بين المفسرين، فمنهم من قال: إن ﴿أَعْلَمُ﴾ بمعنى عالم، عالم بما يكتمون، خوفاً من أن تقع المفاضلة بين علم المخلوق وعلم الخالق؛ لأنك إذا جئت بأفعل التفضيل فإن مقتضى ذلك أن يكون بين المفضل والمفضل عليه اشتراك في الأصل، ولكن المفضل زاد على المفضل عليه، ولهذا تجدهم في مثل هذه الآية ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾؛ يفسرون أعلم بعالم؛ أي: والله عالم بما يكتمون. وقوله: ﴿أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾: أي: بما يخفون في نفوسهم من الكفر، وأما ما يظهرون من الإسلام فهو معروف للمسلمين وغير المسلمين. والله عالم بما يكتمون.

ولكن هذا القول ضعيف.

أولاً: لأنهم صرفوا اللفظ عن ظاهره؛ لأن اللفظ باسم التفضيل، والمعنى الذي أثبتوه باسم الفاعل، وبينهما فرق، ولا يجوز أن نصرف القرآن عن ظاهره إلا بدليل.

والثاني: أنهم إذا قالوا عالم، لم يمنع المشاركة على وجه المماثلة؛ لأنه يقال: فلان عالم وفلان عالم، لكن إذا قيل: فلان أعلم من فلان، امتنعت المشاركة على وجه المماثلة لظهور التفضيل. فهم الآن فروا من شيء ووقعوا في شر منه، ففروا من أن يطلقوا أعلم على الله لأنها تقتضي اشتراك المفضل والمفضل عليه في أصل المعنى، لكن وقعوا في معنى لا يمنع المشاركة على وجه المماثلة، وهذا شر.

إذن نقول: إن أعلم اسم تفضيل على ظاهرها، ولا يستلزم ذلك شيئاً مما ينزه الله عنه، ونحن نعلم أن هناك اشتراكاً في العلم بين الخالق والمخلوق، لكن يمتاز الخالق بما يختص به، والمخلوق بما يختص به، فمثلاً الله يعلم أن هذا عمود من الحديد، والإنسان يعلم، لكن علم الله أشد إحاطة من علم الإنسان وأسبق، وهو علم لا يزول، فعلم الإنسان ليس كإحاطة علم الله، وليس أزلياً، وليس أبدياً، فيختص الخالق بعلمه والمخلوق بعلمه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

من فوائد الآيتين الكريمتين:

من فوائد قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

١ ـ تسلية المؤمن بقضاء الله وقدره؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، لأن المؤمن إذا علم أنه من عند الله رضي وسلَّم.

فإن قال قائل: ما الجمع بين هذا وبين قوله فيما سبق: ﴿أَوَ

لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥]؟

قلنا: الجمع بينهما: أنّ إضافتها إلى الأنفس من باب إضافة الشيء إلى سببه؛ يعني أنتم السبب، وأما إضافتها إلى إذن الله فهي من باب إضافة الشيء إلى فاعله؛ فالذي قضى هذا هو الله، لكن السبب أنتم، وإذا انفكت الجهة زال التعارض، فالجهة في الآية الأولى سبب، والثانية: فعل وتقدير.

٢ ـ أن الله قد يقدّر على عبده المؤمن ما يكرهه لحكم عظيمة؛ لقوله: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ وفي الحديث الصحيح أن الله قال: «**ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته، ولا بد له منه**»(١). فتأمل الآن أن الله عزّ وجل يفعل ما يكره المؤمن لكن لحكمة، وهو أنه قضى عزّ وجل بحكمته بالفناء على كل الخلق ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ [الرحمن: ٢٦]، ويتفرع على هذه الفائدة: أن المقضي المكروه محنة للعبد، فعليه أن يعتبر وأن يصبر، حتى يكون من المؤمنين الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

ومن فوائد قوله عزّ وجل: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾:

١ ـ إثبات النفاق في هذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢).

نَافَقُواْۚ﴾ أي: بعد إيمانهم، ولم يبرز النفاق إلا بعد غزوة بدر، وغزوة بدر كانت في السنة الثانية في رمضان، وحصل بها للمسلمين من العز ما جعل المنافقين يظهرون نفاقهم؛ لأنهم صاروا يخافون من المؤمنين فصاروا ينافقون، أي: يظهرون أنهم مؤمنون وما هم بمؤمنين.

٢ ـ التحذير من النفاق، وفي الآية الأولى: الترغيب في الإيمان، والذي يميز بين هذه وهذه هي قرينة الحال، فإن المنافقين سيأتي من أفعالهم أنهم في غاية الذم.

٣ ـ أن المنافقين من أكذب الناس؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۗ﴾، ويقولون: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ﴾ وهم كاذبون في هذا؛ لأنهم يعلمون أنه سيكون قتال؛ لأن أعداء المسلمين جاءوا من بلادهم، وتركوا أهليهم، وتركوا بلادهم، وتركوا أموالهم، وهم في غاية الحنق على الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي غاية الاستعداد، فهل يعقل أن قوماً جاءوا على هذه الصفة يرجعون دون قتال؟!.

فقول المنافقين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ﴾ هم كاذبون فيه، ولهذا قال: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۗ﴾.

٤ ـ أن القول عند الإطلاق ما تواطأ عليه القلب واللسان؛ لقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۗ﴾ لأنه لو قال: (يقولون)، لكان القول في الأصل ما تواطأ عليه القلب واللسان، لكن لما كان هذا القول يختلف فيه القلب عن اللسان قيّده بالأفواه، قال: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۗ﴾، وبهذا التقدير يندفع عنا قولان: القول الأول: أن بعض المفسرين قالوا:

إن قوله بأفواههم من باب التأكيد، فهو كقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، قالوا: لأن القول لا يكون إلا بالأفواه، ويندفع به أيضاً قول آخر أشد منه، وهو القول بالكلام النفسي، قالوا: إنه لما قيّد هذا القول بالأفواه، دلَّ على أن هناك قولاً نفسياً، وهو ما كان في القلب، وهذا أخطر من الأول؛ لأن هذا مبني على بدعة الأشاعرة ومن وافقهم في أن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس، وقد أبطل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذا القول من تسعين وجهاً في كتاب سماه (التسعينية)، وأشار إليه ابن القيم في النونية.

إذن الفائدة من قوله: ﴿بِأَفْوَٰهِهِم﴾ أن هذا القول ليس قولاً مطلقاً؛ لأن القول المطلق ما تواطأ عليه القلب واللسان.

ويمكن أن نفرع على هذا فائدة مهمة؛ وهي أن من نطق بقول دون أن يكون له قصد في قلبه، فإنه لاغ؛ يعني أن أثر هذا النطق لاغ، كما يشهد لِذلك قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩] وهذا يفيد في مثل طلاق السكران؛ أنه لا يقع، لأنه باللسان فقط، والموسوس ـ نسأل الله العافية ـ يوسوس دائماً أنه طلق زوجته، ربما حتى في الصلاة يقول هذا، ويعجز عن كبح نفسه، نقول: هذا الرجل لو طلق بلسانه ألف مرة فليس بشيء.

٤ ـ أن المنافقين يحرصون غاية الحرص على كتم نفاقهم، ولكن الله يعلم بذلك، وقد كشفهم الله بقوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

٦ ـ أن المنافقين لا خير فيهم، لا في الجهاد في سبيل الله، ولا في الدفاع عن المسلمين، يستفاد ذلك من قوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ﴾.

٧ ـ أن الإنسان تتغير أحواله، فيكون في حال أقرب إلى الإيمان من الكفر، وفي حال أخرى بالعكس؛ لقوله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ﴾ واستدل بعض العلماء بهذه الآية على زيادة الإيمان ونقصانه، فما وجه الاستدلال؟ الجواب: أنه كلما قرب الإنسان من الإيمان ازداد إيماناً، وكلما بعُد سوف ينقص، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة: أن الإيمان يزيد وينقص، ولكن هل يزيد بالعمل الظاهر أو يزيد حتى بالعمل الباطن؟ الجواب: أنه يزيد بهذا وهذا؛ فالعمل الظاهر كأن يكثر الإنسان من الأعمال الصالحة فيزداد إيماناً، وأما في الباطن فكذلك يزداد إيمان الإنسان في الباطن بحسب ما يكون عنده من البينات، فهذا إبراهيم قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠] والإنسان يدرك بحسِّه أنه إذا أخبره ثقة بخبر ثم أخبره ثقة بنفس الخبر ثم ثقة ثم ثقة يحس بنفسه أنه كلما زاد المخبرون ازداد إيماناً، وهذا شيء مشاهد ليس فيه إشكال.

٨ ـ أن الكفر ضد الإيمان؛ لقوله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ﴾، ولكن هل يجتمع الإيمان والكفر في قلب رجل، نقول: أما الإيمان المطلق والكفر المطلق فلا يمكن أن يجتمعا أبداً، وأما الإيمان الناقص أو الكفر دون الكفر فيمكن أن يجتمعا على مذهب أهل السنة والجماعة. فإن الإنسان يكون فيه خصال إيمان وخصال كفر، فيُحَب على ما معه من الإيمان، ويُكره على ما معه من الكفر.

٩ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يحترس في الحكم، وألا يطلق الحكم بل يحترس فيه؛ لقوله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ﴾، ربما في المستقبل أيضاً يغير الله حالهم فيكون الإيمان أقرب، فأنت إذا حكمت على شخص فينبغي لك أن تقيّد؛ لأن الإطلاق ربما يأخذ المحكوم عليه هذا الحكم مطلقاً.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]:

يقول عزّ وجل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟﴾ (الذين) هنا بدل من (الذين) السابقة في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ أو صفة، وكونها صفة أولى بل هو المتعين، وذلك لأن البدل يكون هو المقصود من الحكم دون المبدل منه، فإذا قلت: أكرم زيداً عمراً، عمراً بدل من زيد، فالذي يُكرم عمرو. وإذا قلت: كُلِ الرغيفَ ثُلُثَه، يأكل الثلث، فلو أكل النصف لأكل السدس بغير حق، فإذا قال: أنت قلت لي: كُلِ الرغيف، قلت: لكني أبدلت وقلت: ثلثه، فالسدس الذي أكلته زائد فتكون آثماً، ولصاحب الرغيف أن يطالبك بقيمة السدس، على كل حال البدل هو المقصود بالحكم كما قال ابن مالك رحمه الله في الألفية:

التابع المقصود بالحكم بلا واسطة هو المسمى بدلا

وعلى هذا فيتعين أن تكون (الذين) الثانية صفة لـ (الذين) الأولى، واسم الموصول يصح أن يكون صفة؛ لأنه بصلته يكون بمعنى المشتق.

وقوله: ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أي: إخوانهم ظاهراً، هذا هو الصحيح،

وقال بعضهم: لإخوانهم في النسب، والمعنى الأول أصح؛ لأنهم لا يخاطبون إخوانهم في النسب فقط بل يخاطبون كل من استشهد في غزوة أحد، وليس كل من استشهد أخاً لواحد من المنافقين، فيكون المراد بإخوانهم أي: ظاهراً؛ لأن المنافقين مع المؤمنين كأنهم مؤمنون، ولهذا لما استئذن النبي في قتلهم، قال: «**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»[1]، إذن فهم ظاهراً إخوان وأصحاب، فلهذا نقول في ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ الصواب لإخوانهم ظاهراً لأنهم يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

وقوله: ﴿وَقَعَدُواْ﴾ أي: قعدوا عن القتال، والله يسمي المتخلفين عن القتال قعوداً، فقال: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥] فسمى المتخلفين عن القتال قعدة. وقال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

إذن «وقعدوا» يعني عن القتال، والجملة في قوله: (وقعدوا) في محل نصب على الحال بتقديم «قد» أي: (وقد قعدوا) وهذا أولى من أن نجعل الجملة معطوفة على الصلة، يعني قالوا وقعدوا؛ لأن قولهم حال كونهم قعوداً أشد، فهم جمعوا بين أمرين، بين السوء في القول والسوء في الفعل. حيث قالوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ أي: لو أطاعوهم بعدم الخروج؛ لأن المنافقين أشاروا بعدم الخروج ولكنَّ النبي ﷺ والصادقين من المؤمنين أبوا إلّا أن يخرجوا، وفي أثناء الطريق انخذل عبد الله بن أُبي ومن

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية، رقم (٤٦٢٢). ومسلم في كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، رقم (٢٥٨٤).

معه بثلث العسكر فتخلفوا والعياذ بالله، ولهذا قال: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ وفي قراءة (ما قُتِّلوا) بالتشديد على سبيل المبالغة؛ لأنه حصل في الذين استشهدوا، حصل فيهم تمثيل مثل حمزة رضي الله عنه، فإنه مثِّل به، حتى إن هنداً بنت عتبة أخذت كبدَهُ ومضغتها، ولكنها لم تستطع أن تهضمها، فلم تبلعها.

فنقول: (قُتِّلوا) بناءً على أن هذا التقتيل مبالغ فيه لما فيه من المثلة، أما (قُتِلوا) بالتخفيف فأمرها ظاهر.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يعني يا محمد لهؤلاء: ﴿فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿فَادْرَءُوا﴾ بمعنى: ادفعوا، يعني لما تخلفتم هل أنتم نجوتم من الموت؟. الجواب: لا.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ هذا من باب التحدي، يعني إن كنتم صادقين في أن من تخلف لا يموت فادفعوا عن أنفسكم الموت، والجواب أنهم لا يستطيعون ذلك. وفي ختم هذا التحدي (ادرءوا) بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ تأكيد لكذبهم في قولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ يعني هم لو تخلَّفوا فالموت سيأتيهم، والله أعلم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ التنديد بهؤلاء الذين جمعوا بين قبح الفعل وقبح القول، يؤخذ من قوله: (قالوا)، (وقعدوا) قبح الفعل من كونهم قعدوا، والقول من قولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

٢ ـ أن هؤلاء مع قبح قولهم وإدخال الندم على قومهم اعترضوا على القَدَر؛ لقولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

٣ ـ الإشارة إلى أن مثل هذا القول عند حلول القدر لا يجوز؛ لأنه سيق في سياق الذم، وهو كذلك، ولهذا قال النبي ﷺ: «**وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا**»[1]، أما لو قاله الإنسان خبراً لا اعتراضاً على القدر ولا ندماً على ما وقع؛ فإن هذا لا بأس به، ومنه قول النبي ﷺ: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولحللت مع الناس حين حلوا**»[2]، وليس هذا من باب التمني مثل ما ذهب إليه بعض العلماء، وأن (لو) هناك استخدمت في تمني الخير، بل نقول: هي خبر، وهذا يقع كثيراً. وقد تقول للشخص: لو زرتني بالأمس لأكرمتك وما أشبه ذلك، تريد بذلك الخبر، وعلى هذا فنقول: إن استعمال (لو) يكون على وجوه:

الوجه الأول: أن يكون اعتراضاً على المقدر، فهذا لا يجوز، وهو منازعة للرب عزّ وجل في قضائه وقدره.

الوجه الثاني: أن يكون مثاراً للندم والتحسر، فهذا لا يجوز أيضاً؛ لأن النبي ﷺ نهى عنه فقال: «**إن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا**».

والوجه الثالث: أن يكون خبراً عن الواقع، فهذا لا بأس به؛ لأنه لا يحمل الإنسان على الندم، وليس فيه منازعة لقدر الله عزّ وجل، وهو يقع كثيراً في كلام الناس.

---

(١) تقدم تخريجه في حديث: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله**»، (ص٣٥٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب التمني، باب قول النبي ﷺ: «**لو استقبلت...**»، رقم (٧٢٢٩). ورواه مسلم، كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج، رقم (١٢٢٦).

٤ ـ تحدي هؤلاء الذين قالوا هذا الكلام بدفع الموت عنهم؛ لقوله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾.

٥ ـ أنه لا يمكن درء الموت؛ لأن ما وقع التحدي به فإنه لا يمكن وقوعه، إذ لو أمكن وقوعه لم يكن للتحدي به فائدة، ومن هنا نعرف أن قول الله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] لا يصح تنزيله على وصول الناس الآن إلى أعماق الفضاء وإلى الكواكب كما زعم بعضهم عندما وصل الناس إلى القمر وحلوا به قالوا: إن هذا دَلَّ عليه القرآن؛ لِأَنَّ الله قال: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾، والسلطان هو العلم، فهؤلاء أوتوا علماً حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه، فالقرآن شاهد لذلك، ولكن هذا في الحقيقة تحريف للقرآن، فالقرآن في الآيات هذه إنما هو للتحدي بدليل أن الله تعالى قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ [الرحمن: ٣٣] ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥] ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]. وهذا كله يدل على أن المراد بذلك التحدي، ويكون يوم القيامة وليس هو في الدنيا، ولهذا نقول: هؤلاء لو نفذوا من أقطار الأرض لم ينفذوا من أقطار السموات، والآية فيها تحدٍّ في هذا وهذا، المهم أنه لا ينبغي أن نخضع نصوص القرآن من أجل أن نقول إنها دالة على ما حدث أو ما يحدث، بل نقول: ما حدث أو يحدث إذا قامت البراهين على صدقه فإنه لا يحتاج إلى أن نقحمه في دلالة القرآن، نقول: هذا شيء وقع،

وهذا شيء شهد به كل الناس فهو صحيح، ولو كنا نقحم كل ما حدث من العلوم في الوقت الحاضر في القرآن، لكنا نحمل القرآن ما لا يحتمل، وليعلم أن تفسير القرآن تعبير عن مراد الله، فمن فسَّره في غير ما يظهر من مراده فهو كاذب على الله مفتر عليه، وليس الكذب على الله كالكذب على الناس، فليحذر من هذه المسألة.

٦ ـ تكليف النبي ﷺ تكليفاً خاصاً بإبلاغ شيء من القرآن أو مجادلة أحد من الناس؛ لقوله: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟﴾ يعني: أنت جادلهم وقل: فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.

٧ ـ معاملة الناس بما يظهر من حالهم؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟﴾ فإنه سبق لنا أن قلنا: إن الصواب في الأخوة هنا أخوة الظاهر لا أخوة النسب؛ لأنه ليس كل من قتل في أحد يكون له قرابة لهؤلاء المنافقين.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١].

قوله عزّ وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ فيها قراءتان: (قتَّلوا) و(قُتِلوا) وكذلك (تحسَب) و(تحسِب) وكلاهما سبعيتان.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ الخطاب هنا إما للرسول ﷺ أو لكل

من يصح توجيه الخطاب إليه، فإن كان لكل من يصح توجيه الخطاب إليه دخل فيه النبي ﷺ وغيره، وإن كان خطاباً للنبي ﷺ دخل فيه غيره بالتبع، فيكون المقصود قصداً أولياً بهذا الخطاب النبي ﷺ وغيره تبعاً له، أما إذا قلنا: إن الخطاب موجه لكل من يصح توجيه الخطاب إليه فهو عام، يعني: (فلا تحسبن أيها المخاطب) هذا على الثاني أو (لا تحسبن أيها النبي)، هذا على الأول (والحسبان) هنا بمعنى الظن أي: لا تظن أن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً.

وقوله: ﴿قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يشمل من قتله العدو ومن قُتِل حِرْفةً للعدو، كما لو ارتد السهم على حامله فقتله، فإنه يكون مقتولاً في سبيل الله.

وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بيَّنها الرسول عليه الصلاة والسلام، بأن المراد بذلك من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وذلك حين سُئل عن الرجل يقاتل شجاعة، ويُقاتل حمية، ويقاتل رياءً، وفي لفظ: «**يُقاتل ليُرى مكانه، أي ذلك في سبيل الله؟**».

فقال ﷺ كلمةً جامعة مانعة: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[1].

إذن ما المراد بالذين (قُتلوا) في سبيل الله؟.

الجواب: هم الذين قاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا، لا شجاعة ولا حمية ولا رياء.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، رقم (٢٨١٠). ورواه مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، رقم (١٩٠).

والشجاعة معناها: الإنسان تحمله شجاعته على أن يُقاتل؛ لأن الشجاع يُحب القتال، وكذا من قاتل حمية وطنية أو قومية فليس في سبيل الله، ومن قاتل لأجل الدفاع عن الديار فقط، فقتاله مساوٍ لقتال الكافر، حتى الكفار يُقاتلون دفاعاً عن بلادهم، لكن من قاتل دفاعاً عن بلده من أجل أنه بلدٌ إسلامي، ليحمي الإسلام في هذا القتال فهو في سبيل الله، ولذلك يجب إذا وجَّهنا جندنا للدفاع عن الوطن أن نقول: لاحظوا أنكم تُدافعون عن وطنكم باعتباره وطناً إسلامياً لا لمجرد الوطنية.

الثالث: من قاتل رياءً ليُرى أنه رجل يُقاتل في سبيل الله، هذا ليس في سبيل الله، وكذا من قاتل لمجرد طاعة أمير فقط، فليس في سبيل الله.

فالرسول ﷺ سُئل عن ثلاثة ولم يُجب عن كل واحدة بعينها، بل أجاب بكلمة جامعة مانعة، لأجل أن تشمل حتى النيات الأخرى سوى هذه الثلاث: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١).

وهؤلاء الذين قُتلوا في سبيل الله هل هم أهل بدر، أو أهل أحد، أو هو عام؟.

الجواب: أنه عام، لكن أول من يدخل فيه الشهداء في بدرٍ وفي أحد.

وقوله: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: طريقه، وقد يطلق ويُضاف أحياناً إلى المؤمن، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٣٤).

ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥].

فهو يُضاف إلى الله باعتبارين: باعتبار أنه واضعه، فالله تعالى هو الذي شرع هذا الطريق، وباعتبار أنه موصِلٌ إليه، أي: أن هذا الطريق موصل إلى الله تعالى. ويُضاف إلى المؤمنين باعتبار واحد وهو أنهم هم الذين سلكوه.

هنا المضاف إلى الله باعتبار أن الله تعالى هو الذي شرع هذا الدين، وأن هذا الدين موصل إليه.

﴿أَمْوَٰتًا﴾ هذا مفعول ثانٍ لـ(تحسب)؛ لأن (حسب) تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر، بخلاف (كسا ـ وأعطى) فإنهما تنصبان مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر.

يقول: ﴿أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ﴾:

والمعروف أنه إذا قُتل مات، فكيف يقال: إنهم أحياء؟ المراد أي: لا تحسبن أنهم إذا ماتوا انتهوا، بل هم إذا ماتوا انتقلوا إلى حياة أخرى أفضل مما فارقوه، فيكون المعنى لا تحسبهم ماتوا وانتهوا، ليس الأمر كذلك بل هم أحياء ماتوا مِيتة الدنيا، لكنهم هم أحياء حياة أخرى تتميز عن الحياة الدنيا، وهي خير وأفضل.

وقوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾:

(عند): تُفيد القرب من الله عزّ وجل وهو كذلك، فإن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم ترجع إلى قناديل معلَّقة تحت العرش، فهذه عندية خاصة يمتاز فيها بالقرب من الله تعالى، فقوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ المراد بذلك حياة أرواحهم، أما أبدانهم فقد ماتت بلا شك لكن أرواحهم حية حياة برزخية، ولهذا قال: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وليست

الحياة المطلقة التي هي كالحياة الدنيا؛ لأنها لو كانت الحياة الدنيا لم يصيروا قُتِلوا في سبيل الله بل كانوا باقين، ولما صحَّ أن يُدفنوا، وهم فارقوا الدنيا ودُفِنوا، ولكنهم أحياء عند الله عزّ وجل حياة لا تُشبه حياة الدنيا.

وقوله: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ أي: يُعطون؛ لأن الرزق في اللغة العطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم﴾ [النساء: ٨] أي: أعطوهم، يعني يعطون من رزق الله في الجنة حيث شاءوا، ولكن هذا العطاء عطاء ناقص بالنسبة للعطاء الأكمل الذي يكون بعد البعث؛ لأن العطاء قبل القيامة عطاء للبدن وعطاء للروح، وكلاهما ناقص بالنسبة لما بعده. فهو عطاء للبدن؛ لأنه في القبر يُفسح له مد البصر، ويُفتح له باب إلى الجنة، ويأتيه من رَوحها ونعيمها لكنه لا يتمتَّع التمتُّع الكامل، كذلك الأرواح لا تتمتَّع التمتع الكامل في وجودها في الجنة، إنما يكون التمتُّع الكامل بعد البعث حين تلتقي الأرواح بالأجساد اللقاء الذي لا مفارقة بعده؛ لأنه إذا التقت الأرواح في البعث فلا مفارقة، تبقى أبد الآبدين، وحينئذٍ يحصل كمال النعيم.

ثم قال: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾:

الفرح ضد الحزن، وهو قريب من معنى السرور، والمعنى أنهم مسرورون بما آتاهم الله من فضله.

وقوله: ﴿فَرِحِينَ﴾ منصوبة على الحال. ولكن هل هي حال من الضمير المستتر في (أحياء) ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ أي حال كونهم فرحين، أو حال من الظرف ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: من متعلق

الظرف، أو حال من نائب الفاعل في ﴿يُرْزَقُونَ﴾؟ كل هذا جائز، والمعنى لا يختلف فيه اختلافاً كثيراً.

وقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾: أي: بالذي أعطاهم من فضله ولم يُبيِّنه سبحانه وتعالىٰ، بل أتى به مجملاً؛ لأنه ذكر مفصلاً في آياتٍ أخرى بعد دخول الجنة يوم القيامة.

و﴿ءَاتَىٰهُمُ﴾: بمعنى أعطاهم، وأما (أتاهم) فبمعنى جاءهم.

وقوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾:

(الفضل) في اللغة الزيادة، والمراد بالفضل هنا ما تفضَّل الله به عليهم من النعيم الذي لم يكن يخطر على بالهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم﴾:

الواو هنا حرف عطف، وهل هي معطوفة على (فرحين) من باب عطف الفعل على الاسم، أو معطوفة على ﴿يُرْزَقُونَ﴾؟.

نقول: يحتمل هذا وهذا، ولا يختلف المعنى كثيراً.

قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يبشر بعضهم بعضاً بما سيُذكر، فمعنى (استبشر): أي بشَّر غيره، أو دخلت عليه البشرى بفعل غيره.

وقوله: ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾:

يعني بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم ولم يُقْتَلوا حتى الآن في سبيل الله. ﴿أَلَّا خَوْفٌ﴾ (أن) المصدرية أدغمت بـ(لا)، والقاعدة الأخيرة في الكتابة أن تكتب (أن) فتكون (أن لا) لكن القاعدة القديمة أن لا تكتب، وهنا لم تكتب ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، وأصل الكلمة: أن لا خوف، وأن هنا بدل من قوله: ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم﴾ وكأنه قال: (يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم بأن لا خوف عليهم)، ونوع البدل هنا بدل اشتمال؛ لأن

الخوف ليس بعض الإنسان وإنما يشتمل عليه الإنسان، يعني (يستبشرون بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أي: لا خوف عليهم فيما يستقبل من أمرهم، ولا هم يحزنون على ما قضى من أمرهم؛ لأن الأصل أن الخوف للمستقبل والحزن للماضي.

وقوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾:

الجملة استئنافية تُبين استبشاراً آخر سببه غير السبب الأول، الأول سببه أنهم ينتظرون إخواناً لهم لم يلحقوا بهم، والسبب الثاني للاستبشار ما أنعم الله عليهم من النعمة والفضل.

وهنا قال: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾، وقبلُ بقليل قال: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ﴾ ولا منافاة بينهما، فهم فرحون بما حصل، ويستبشرون بالذي سيحصل، فهم فرحون بما آتاهم الله مغتبطون به مسرورون به، ومع ذلك يستبشرون بفضلٍ زائد، ولهذا قال: ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾، ومن ذلك أنهم يُؤمِّلون النظر إلى وجه الله، وأنهم بُشّروا بالخلود الذي لا موت بعده، ويستبشرون أيضاً بما وعدهم الله تعالى في الدنيا وما زالوا يذكرونه؛ لأن في الجنة ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

فيها قراءتان: (وإنَّ الله) بالكسر، (وأَنَّ الله) بالفتح، فعلى قراءة الفتح تكون معطوفة على نعمة، أي: وبـ(أن الله)، وعلى قراءة الكسر تكون استئنافية من كلام الله عزّ وجل، لا من كلامهم، أي: يستبشرون بنعمة من الله وفضل. والله قد جازاهم على عملهم وبـ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا يتركه هملاً وسدًى بل لا بد أن يُثيبهم عليه.

من فوائد الآيات الكريمة:

١ ـ فضيلة من قُتل في سبيل الله لكونهم أحياء عند الله عزّ وجل.

٢ ـ الترغيب في الجهاد ليحصل الإنسان على الشهادة، ولكن هنا مسألة: هل يُشرع للإنسان أن يُجاهد ليُقتل في سبيل الله، أو الذي يُجاهد لتكون كلمة الله هي العليا؟ الجواب: الثاني، ولهذا ينبغي للإنسان إذا ذهب للجهاد في سبيل الله أن ينوي القتال لتكون كلمة الله هي العليا، لا لمجرد أن يُقتل في سبيل الله؛ لأن كونه (في سبيل) مفرَّعٌ على كونه يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حتى إن بعض العلماء يقول: إذا قاتل من أجل أن يُقتل فقط، فهذا قاتل ليموت، ولكن القتال الحقيقي هو أن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وإذا قتل فهو في سبيل الله، وبعض العلماء يقول: لا بأس أن ينوي بالجهاد أن يُقتل في سبيل الله؛ لأنه لن يتم له أن يُقتل في سبيل الله إلا إذا قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ولكن حتى لو قيل بهذا فإن النية الأولى والرتبة الأولى (هي العليا) أن يخرج ليقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ثم يتمنى الشهادة بناءً على هذا.

٣ ـ أنه يصح نفي الشيء باعتبار، لا نفياً مطلقاً؛ لقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ فإن نفي كونهم أمواتاً هنا يُراد به الموت الذي حصل فيه العدم بلا فائدة، وبدون ثواب.

٤ ـ فضيلة الشهداء لكونهم عند الله؛ لقوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

أما الحديث الذي في المسند أن النبي ﷺ قال: «**نسمة المؤمن طير يعلق في شجر الجنة حتى يرجعها الله تعالىٰ إلى جسده يوم يبعثه**»[(١)].

فإن بعض العلماء يرى أن المراد بالمؤمن هنا المؤمن المجاهد الذي قُتل في سبيل الله، ويرى آخرون أنه عام، وهو الصحيح، وأن الفرق هو أن نسمة المؤمن في الجنة طائر يعلق فيها، يعني يأكل منها، أما أرواح الشهداء في حواصل أجواف طير خضر تأوي إلى قناديل معلَّقة، فهي كما أنها تمزّق بدنها في الدنيا أبدلها الله بأبدان أخرى، وهي هذه الطيور الخضر، فتمتاز أرواح الشهداء عن بقية المؤمنين بهذا، وهذا هو الأقرب، أن أرواح المؤمنين في الجنة، ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى: قد تُحبس بعض الأرواح بسبب، مثل الدَين قد يمنع صاحبه من دخول النسمة الجنة، وقد سُئل النبي ﷺ عن الشهادة هل تُكفِّر الذنوب؟ قال: «**تكفّر كل شيء**». ثم جاءه جبريل فقال: إلا الدَّين، فقال: «**إلا الدَّين**»[(٢)].

وهذا يدل على أنه قد يُحبس ثواب المجاهد عنه إذا كان عليه دَين، فقد يكون هناك عوائق لكن الأصل أن أرواح المؤمنين في الجنة.

٥ ـ إبطال حجة من قال: إن الرسول ﷺ حيٌّ في قبره يُرزق، وقال: إن مقام النبوة أعلى من مقام الشهادة، ولا شك في

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، رقم (١٥٣٦٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفّرت خطاياه إلا الدَّين، رقم (١٨٨٥).

هذا أن مقام النبوة أعلى من مقام الشهادة، لكن قولهم: أنه حيٌّ في قبره يُرزق، إن أرادوا أنها حياة برزخية فهذه حقيقة، وإن أرادوا أنها حياة دنيويَّة فهذا كذب ولا شك، لأنها لو كانت حياة دنيوية، ما غُسِّل ولا كُفِّن، ولا صُلِّي عليه، ولا دُفن، ولكان الصحابة رضي الله عنهم وَأدوا النبي ﷺ، ودفنوه حيّاً، ولا يَردُ على هذا أنها تُرَدُّ عليه روحه، فيرد السلام على من سلَّم عليه[1]، لأن ردّ الروح في البدن في القبر ليس كردّها في الحياة الدنيا، بل هو رد خاص، ولذلك لا يحتاج الميت في قبره إلى طعام وشراب وهواء، وإن رُدت إليه روحه.

٦ ـ أن الشهداء يُرزقون وهم أموات؛ لقوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ولكن هذا الرزق هل يحتاج إلى ما يحتاجه الناس في الدنيا؟ الجواب: لا، لأن هذا رزق أخروي، والرزق الأخروي لا يحتاج إلى ذلك، بل إن أهل الجنة باقون فيها أبد الآبدين، ولا يحتاجون إلى هذا، وإنما يخرج الطعام والشراب بصفة عرق، ولكنه ليس كعرق الدنيا أيضاً، عرق منتن كريه الرائحة، بل هو أطيب من رائحة المسك. اللهم اجعلنا منهم. هذا معنى قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

٧ ـ أن الذين قُتلوا في سبيل الله ليسوا أمواتاً بل أحياء، ووجه الدلالة قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾، ولكن هذه الحياة ليست كالحياة الدنيا بل هي حياة برزخية.

٨ ـ أنه إذا ثبت هذا للشهداء فإنه يثبت للأنبياء من باب أولى، فالأنبياء أحياء، ويمتاز الأنبياء عن الشهداء، بأن الله حرم

---

(١) رواه أبو داود، كتاب المناسك، باب زيارة القبور، رقم (٢٠٤١).

على الأرض أن تأكل أجسادهم بخلاف الشهداء، فإن الأرض تأكلهم، وقد لا تأكل بعضهم إكراماً لهم، وإلا في الأصل أنهم كغيرهم تأكلهم الأرض.

٩ ـ إثبات العندية لله عزّ وجل أي: أن يكون أحد من الخلق عند الله؛ لقوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وهذه عندية خاصة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

١٠ ـ أن هؤلاء الشهداء لهم شعور؛ لقوله: ﴿فَرِحِينَ﴾، لأن الفرح من الشعور النفسي، وهل يحزنون؟ ذُكر في بعض الآثار أن الميت تُعرض عليه أعمال أقاربه، فإذا كانت سيئة حزن، وإن كانت حسنة فرح، لكنها آثار يشك في صحتها.

١١ ـ قوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أن هذا الثواب الذي يناله هؤلاء الشهداء، ثواب عظيم، وجه الدلالة أنه من عند إلهٍ عظيم ذي إفضال، والثواب يعظم بعِظم المُثِيب، لا سيما وقد قال: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾.

١٢ ـ أن الفضل لله على عباده في الدنيا والآخرة؛ لقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فكما أن لله فضلاً في الدنيا فله فضل في الآخرة، فمن أمثلة فضله في الدنيا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩] فهذا فضلٌ دنيوي.

١٣ ـ أن هؤلاء الشهداء يستبشرون، أي: يُبشِّر بعضهم بعضاً بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أي: من بعدهم، يعني: يستبشرون بأن سيلحقهم أناسٌ شهداء يكونون في منازلهم.

١٤ ـ أن هؤلاء الشهداء ليس عليهم خوفٌ ولا حزن، لا خوف يتعلق بالمستقبل، ولا حزن يتعلق بالماضي؛ أما كونهم لا خوف عليهم في المستقبل، فلأنهم قد أحلّهم الله الجنات، والجنة من يدخلها ينعم فلا يبأس، ويصح فلا يسقم، ويحيى فلا يموت، وفيها من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وأهل الجنة في الآخرة هم أهل الجنة في الدنيا، ولهذا لا تجد أحداً أنعم بالاً وأسرّ حالاً من المؤمن، إن أُعطي شكر، وإن ابتُلي صبر، وإن أذنب استغفر، ودائماً مع الله عزّ وجل في حكمه الكوني، وفي حكمه الشرعي، راضٍ بقضاء الله؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**»(١). وقد ذكر بعض العلماء أن قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦] ذكروا أنه قال: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ﴾ [الدخان: ٥٦] مع أن الموتة الأولى قد انتهت؛ لأن نعيم أهل الجنة مستمر من الحياة الدنيا إلى دخول الجنة. وأما كونهم لا يحزنون على ما مضى ـ أعني الشهداء ـ فلأنهم استكملوا عملاً من أفضل الأعمال، وهو الجهاد في سبيل الله، الذي أدى بهم إلى الشهادة، فلا يحزنون على الماضي، فمن خرج من الدنيا شهيداً فقد خرج أكمل خروج وهو في الطبقة الثانية من طبقات الذين أنعم الله عليهم.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩).

١٥ ـ استبشار الشهداء مرة ثانية بما أنعم الله عليهم من الفضل؛ لأن الاستبشار الأول فيما يكون لإخوانهم، والثاني فيما أنعم الله به عليهم، فهم لهم استبشارات متعدِّدة، حسب ما يجدون من النعيم.

١٦ ـ إسناد النعمة إلى مسديها، وهو الله جلّ جلاله، فهم لا يرون لأنفسهم فضلاً بل يرون المنَّة والفضل لله عليهم، ولهذا قال: ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾.

١٧ ـ عظم النعمة التي يُعطونها، ووجهه أن الله أضافها إليه، وإضافة العطاء إلى الله يدل على عظمته.

١٨ ـ أن كل مؤمن فلن يُضيع الله أجره؛ لقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أو على القراءة الثانية: (وإنَّ)، فالله عزّ وجل لا يُضيِّع أجر المؤمنين، كل إنسان يعمل وهو مؤمن فإن أجره لن يضيع.

١٩ ـ إثبات عدل الله عزّ وجل، وذلك بعدم إضاعته أجر المؤمنين، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

٢٠ ـ فضيلة الإيمان، وأنه سبب للحصول على الثواب والأجر.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٣].

﴿ٱلَّذِينَ﴾: يحتمل أن تكون بدلاً مما سبق، أو نعتاً،

ويحتمل أن تكون مبتدأ، فعلى الثاني يكون خبرها جملة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾:

﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾ بمعنى أجابوا وانقادوا لله والرسول حينما دعاهم النبي عليه الصلاة والسلام إلى الغزوة مرة أخرى بعد أحد، لما قيل: إن المشركين أرادوا الكرَّة على المسلمين لما علموا بالجراح التي أصابت المسلمين والوهن والضعف، وقفوا في حمراء الأسد، وقالوا: لماذا لا نرجع ونقضي على محمد وأصحابه؟ فأمرهم النبي ﷺ أن يستعدوا للقتال فاستجابوا لله والرسول مع ما أصابهم من الجراح والتعب النفسي والتعب البدني، فقد جُرح النبي ﷺ وكُسرت رباعيته، وحصل ما حصل من الأمور التي قد لا نشعر بها الآن ونحن نصورها بأفكارنا، لكن لو كنا نشاهدها عين اليقين لكان الأمر فظيعاً جداً، فهؤلاء الذين أصابهم القَرْح، وفي قراءة (القُرْح) هم الذين استجابوا لله وللرسول ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ﴾ بالاتباع (واتقوا) بترك المخالفة، فلهم ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي كثير واسع.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾:

هذه أيضاً بدل مما سبق، أو عطف بيان، أو صفة، وهي الأقرب، وذلك لأن البدل لا يراد به البدل والمبدل منه، وإنما يراد به البدل الثاني، بخلاف النعت فإنه يراد به المنعوت والنعت، ولهذا نقول هنا: إن البدل ضعيف؛ لأنه لو كان المراد

البدل لسقط الوصف السابق كما قال ابن مالك في الألفية:

التابع المقصود بالحكم بلا واسطةٍ هو المسمى بدَلا

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾:

القائل: رجل جاء إلى النبي ﷺ وقال: إن أبا سفيان قد جمع لك يريد الكرَّة عليك.

﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ أي: احذروهم، اتقوهم، وما أشبه ذلك.

﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾:

وذلك أن المؤمن عند المصائب يزداد إيماناً، ومن أمثلة ذلك أنه لما أحاط الأحزاب بالمدينة قال المؤمنون: ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢] فازدادوا إيماناً، هنا أيضاً لمَّا قيل لهم: إن الناس قد جمعوا لكم ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ بالله واعتماداً عليه وتوكُّلاً عليه.

﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾:

﴿حَسْبُنَا﴾: يعني كافينا الله جل جلاله، وهذه الجملة ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ فيها مبتدأ وخبر، لكن الخبر فيها مقدم، والتقدير (الله حسبنا)، ويجوز أن يكون (حسبنا) مبتدأ، و(الله) خبر، لكن المعروف أن المحكوم عليه هو المبتدأ، والمحكوم به هو الخبر، وعلى هذا فيكون (حسبنا) خبر مقدم، و(الله) مبتدأ مؤخر.

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: كافينا، ولو جمع لنا الناس فإننا لا نخشاهم إنما نخشى الله عزّ وجل.

﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ (نعم): فعل إنشاء يقصد به المدح، وفاعله لا بد أن يكون مُحلَّى بـ (ال) أو مضاف إلى محلى بـ(ال) مثل ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]، فهذه مضافة إلى محلى

بـ(ال)، وهنا (نعم الوكيل)، الفاعل فيها محلَّى بـ(ال)، وهي تحتاج إلى فاعل وإلى مخصوص، والغالب أن المخصوص يكون محذوفاً، والتقدير في هذه الآية: (ونعم الوكيل هو).

و﴿ٱلْوَكِيلُ﴾ ليس المراد به المتوكل عن غيره، ولكن المراد المدافع عن غيره؛ لأن الله عزّ وجل لا يتوكل عن أحد، بل بيده الأمر كله، فيكون المراد بالوكيل هنا (المدافع).

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ بيان فضيلة الصحابة رضي الله عنهم وأنهم بما معهم من الأعمال نالوا خيرية هذه الأمة؛ لأنهم استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، وقد بيَّنَّا في التفسير أن أهل مكة المشركين لما انصرفوا من أحد ندموا على ما حصل، وقالوا: لماذا لا نرجع ونقضي على محمد، ونسبي ذراريهم، ثم تركوا ذلك وعدلوا عنه إلى العام القادم.

٢ ـ أن أمر الرسول ﷺ أمر لله؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ومعلوم أنه لم ينزل الوحي بأمرهم بالخروج إلى المشركين، إنما الذي أمرهم الرسول ﷺ.

٣ ـ أن المصائب محك لمعرفة الرجال، وذلك أن هذه المصيبة التي حصلت في أحد كانت محكاً للصحابة رضي الله عنهم، لولا فضلهم وميزتهم عن الخلق ما خرجوا بعد أن أصابهم القرح.

٤ ـ أن هذا الذي عملوه من الإحسان؛ لقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ولم يقل: (لهم أجر عظيم) بل قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ ويحتمل أن يكون هذا القيد قيداً تخصيصياً، يعني

الذين استجابوا لله والرسول منهم من أحسن واتقى، ومنهم من حصل منه بعض الخلاف، مثل الرماة الذين جعلهم النبي عليه الصلاة والسلام على الجبل فإنهم عفا الله عنهم لم يحصل منهم إحسان كما ينبغي ولا تقوى كما ينبغي.

٥ ـ فضيلة الإحسان والتقوى؛ لقوله: ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وقد بيَّن الله تعالى شيئاً من أجر الإحسان والتقوى وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

٦ ـ أن الجزاء من جنس العمل؛ لأنه لا شك أن التقوى والإحسان من أعظم عمل العبد فكان ثوابها عظيماً.

٧ ـ بيان أن المؤمن كلما ضاقت عليه المصائب فإنه يلجأ إلى ربه ويزداد إيماناً به؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، فالمؤمن كلما أصابته النكبات والمصائب ازداد إيماناً بالله ومعرفة به.

٨ ـ جواز إرادة الخصوص بلفظ العموم، وأن هذا أسلوب لغوي لا يخرج به الإنسان عن قواعد اللغة العربية؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ والقائل واحد. ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ والجامع لهم بعضٌ من الناس.

٩ ـ أن المؤمن حقاً لا يهمه أن يجمع له أعداء الله؛ لقوله: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾.

١٠ ـ أن الحسب هو الله وحده ولا أحد معه؛ لقوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله، بل قالوا: حسبنا الله وحده، فالله وحده هو الحسب كما أنه وحده المتوكل عليه، وبهذا نعرف أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] أن (مَنْ) في قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ معطوفة على الكاف في قوله «حسبك» وليست معطوفة على لفظ الجلالة ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾، لأنها لو عطفت على لفظ الجلالة لكان المعنى أن الله حسبك ومن اتبعك من المؤمنين حسبك، وليس الأمر كذلك وإنما حسبه وحسب من اتبعه هو الله عزّ وجل.

١١ ـ الثناء على الله عزّ وجل لكونه وكيلاً لعباده أي حسيباً لهم وعمدة لهم؛ لقوله: ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

١٢ ـ إثبات اسم ﴿ٱلْوَكِيلُ﴾ لله لأن تقدير الآية: ونعم الوكيل هو، وقد ذكر الله تعالى في آية أخرى أنه على كل شيء وكيل، (فالوكيل) من أسماء الله تعالى، ومعناه المتكفل بشؤون عباده، وليس معناه القائم بالأمر نيابة عنهم.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

قوله: ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾ أي: انقلب هؤلاء الذين استجابوا لله والرسول وخرجوا بأمر النبي ﷺ لقتال هؤلاء الكفار الذين بلغهم عنهم أنهم مجمعون على الكرة على المسلمين ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ . .﴾ فإنه لما خرجوا بلغوا ما بلغوا من الطريق؛ بلغوا حمراء

الأسد وجدوا المشركين قد ذهبوا، صرفهم الله وقالوا: نرجع في العام القادم.

يقول الله عزّ وجل: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾:

انقلبوا يعني عائدين إلى المدينة بعد أن وصلوا إلى حمراء الأسد.

﴿بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ما هي هذه النعمة؟ النعمة أنهم سلموا من ملاقاة العدو ولم يحصل حرب؛ لأن العدو مضى في سبيله ولم يرجع.

وأما قوله: ﴿وَفَضۡلٖ﴾ ففسرت بأن المراد به فضل الجهاد، وأن الله كتب لهم بهذا الخروج أجر غزوة كاملة، فسلموا من الحرب ونالوا ثواب المجاهدين.

وقوله: ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ أي: لم يصبهم ما يسوؤهم لا من جهة عدوهم ولا من جهة أحوالهم، بل كانوا على أحسن ما يرام ذهاباً ورجوعاً.

وقوله: ﴿رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۚ﴾ فيها قراءتان: (رُضوان) (رِضوان) بضم الراء وكسرها، ومعنى (اتبعوا رضوان الله) أي: اتبعوا ما يرضي الله عزّ وجل وذلك بالاستجابة لله ورسوله، فإن الاستجابة لله ورسوله سبب رضاء الله عزّ وجل، أسأل الله أن يجعلنا ممن يرضى الله عنهم.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾:

﴿ذُو فَضۡلٍ﴾: بمعنى صاحب فضل عظيم على العباد في الدنيا والآخرة، ومنه أن تفضل على هؤلاء بأن انقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ فضيلة هؤلاء الذين استجابوا لله والرسول لما أصابهم من الثواب.

٢ ـ ومنها أن الإنسان إذا عمل العمل وسعى فيه ولم يكمله كتب له أجر كامل، ولهذا شواهد منها قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، ومنها قول النبي ﷺ: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً**»(١)، فالإنسان إذا سعى في العمل ولكنه لم يدركه فإنه يكتب له أجره كاملاً، حتى طالب العلم لو مات قبل أن يدرك ما يريد من العلم فإنه يكتب له ما نوى؛ لأنه شرع فيه وعمل ما يقدر عليه فينال الأجر.

٣ ـ إثبات الرضا لله؛ لقوله: ﴿رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ والرضا: صفة من صفات الله الحقيقية، وهي من الصفات الفعلية لماذا؟ لأن القاعدة عند السلف أن كل ما يتعلق بمشيئة الله من الصفات فهو صفة فعلية، والرضا يتعلق بمشيئة الله، كل صفة متعلقة بسبب فإنها بلا شك تتعلق بالمشيئة، فرضوان الله معلق بفعل ما يرضيه، وعلى هذا فتكون هذه الصفة متعلقة بمشيئته.

أما أهل التعطيل فإنهم يفسرون رضا الله بالثواب؛ لأن الثواب شيء منفصل بائن عن الله، وليس من صفاته مخلوق مفعول، أو يفسرونه بإرادة الثواب؛ لأنهم يثبتون الإرادة، أما الرضا نفسه فإنهم لا يثبتونه، ولا شك أن هذا التفسير للرضا بإرادة الثواب

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، رقم (٢٩٩٦).

أو بالثواب نفسه أنه تحريف للكلم عن مواضعه، ويا سبحان الله كيف يثبت الله لنفسه أنه رضي ونحن نقول: (لا) بل رضي يعني أثاب أو رضي يعني أراد أن يثيب، أنحن أعلم بالله من نفسه؟!.

إذن نحن نثبت الرضا لله حقيقة، وأنه صفة من صفاته الفعلية التي تتعلق بمشيئته، ولكن هل رضاه كرضانا؟ الجواب: (لا) لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فكما أن سمعه وبصره وحياته وعلمه وقدرته لا تماثلها صفات المخلوقين، فكذلك هو لا يماثل المخلوقين، وكذلك الرضا والفرح والعجب وغيره.

٤ ـ إثبات اتصاف الله عزّ وجل بالفضل العظيم في كميته، العظيم في كيفيته، أما في كميته فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وجعل جزاء الحسنة عشراً إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، وأما في كيفيته فقد قال الله عزّ وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ۖ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]:

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، والحصر عند العلماء إثبات الحكم للمحصور فيه، ونفيه عما سواه، إذن فهو بمنزلة نفي وإثبات، وله طرق: منها ﴿إِنَّمَا﴾، ومنها تقديم ما حقُّه التأخير، ومنها النفي والإثبات مثل (لا قائم إلا زيد)، ومنها إذا كانت الجملة اسمية معرّفاً طرفاها، وهذا معروف في كتب البلاغة.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾:

يعني ما الشيطان إلا مخوف لأوليائه، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ تضمّن إشارة أي مشاراً إليه ومخاطباً، فالإشارة (ذا) والمخاطب (الكاف). الإشارة بحسب المشار إليه، والكاف بحسب المخاطَب، فإذا كنت مشيراً إلى جماعة من الذكور أو مخاطباً جماعة من الذكور قلت: (أولئكم)، لأن المشار إليه جماعة، والمخاطب جماعة فتأتي بالميم، وإذا كنت مشيراً إلى جماعة من الذكور مخاطباً جماعة من الإناث قلت: (أولئكن) أولاء لأن المشار إليه جماعة ذكور، (كُنّ) النون للنسوة، أولئكن، وإذا كنت مشيراً إلى اثنين مخاطباً اثنتين، قلت: (ذانكما) (ذان) للمثنى و(كما) للمثنى، وإذا كنت مشيراً إلى جماعة نسوة مخاطباً جماعة نسوة قلت: (أولائكن)، وإذا كنت مشيراً إلى مثنى مؤنث مخاطباً جماعة ذكور قلت: (تانكم)، على كل حال اسم الإشارة يراعى فيه المشار إليه، وكاف الخطاب يراعى فيها المخاطب، ولهذه المسألة في اللغة العربية بالنسبة إلى الكاف ثلاث لغات:

اللغة الأولى: أن يراعى المخاطب إفراداً وتثنية وجمعاً مذكراً ومؤنثاً، فنقول (ذلكَ) بفتح الكاف مخاطباً رجلاً واحداً. و(ذلكِ) بالكسر مخاطباً امرأة واحدة و(ذلكما) مخاطباً اثنين ذكوراً وإناثاً و(ذلكن) مخاطباً جماعة نسوة و(ذلكم) مخاطباً جماعة ذكور، فالكاف تتبع المخاطَب وتتحول حسب المخاطب. واسم الإشارة يتبع المشار إليه.

واللغة الثانية: أن تكون الكاف مفردة مفتوحة للمذكر، ومفردة مكسورة في المؤنث، فنقول مخاطباً جماعة ذكور:

(ذلكَ)، ومخاطباً اثنين: (ذلكَ)، ومخاطباً واحداً (ذلكَ) و(للنسوة) تقول: (ذلكِ) مخاطباً امرأة واحدة، و(ذلكِ) مخاطباً امرأتين، و(ذلكِ) مخاطباً جماعة نسوة.

واللغة الثالثة: فتح الكاف مطلقاً وتقول لكل واحد تخاطبه: (ذلكَ) وهذا باعتبار المبتدئين أسهل. وفي هذه الآية يقول الله عزّ وجل: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ راعى في اسم الإشارة المشار إليه وهو الشيطان واحد، وراعى في الكاف الجماعة المخاطبين.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾:

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: يجوز في إعرابها وجهان:

الوجه الأول: أن تكون خبراً للمبتدأ (ذا).

الوجه الثاني: أن تكون بدلاً من المبتدأ (ذا) أو عطف بيان عليه.

فعلى الأول: تكون جملة ﴿يُخَوِّفُ﴾ في موضع نصب على الحال.

وعلى الثاني: تكون جملة ﴿يُخَوِّفُ﴾ خبر المبتدأ، وكلاهما صحيح، فالشيطان يخوف أولياءه.

وقوله: ﴿يُخَوِّفُ﴾ معروف أنها تنصب مفعولين بالتحويل؛ فالمفعول الأول محذوف وتقديره (يخوفكم أولياءَه)، وأولياء هنا هي المفعول الثاني، وليس المعنى ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾، فإن المعنى أنه يخوف الناس من أوليائه فيكون على هذا المفعول الأول محذوف، والثاني هو الموجود والتقدير (يخوفكم أولياءه) أي: يعظمهم في صدوركم حتى تخافوهم وتتركوا الجهاد وتتركوا الدعوة؛ لأنكم تخافون منهم بسبب تخويف الشيطان.

قوله: ﴿أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أولياء الشيطان كل مجرم وفاسق وملحد وكافر، هؤلاء هم أولياء الشيطان، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩] فكل كافر ملحد فاجر فهو من أولياء الشيطان.

وقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أي: لا يؤثر فيكم تخويفه فتخافوا منهم، فيؤثروا عليكم بهذا في ترك الجهاد. ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: فلا تتأثروا بهم وجاهدوا.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: (إن) شرطية، ولعلماء العربية في مثل هذه الجملة وجهان:

الوجه الأول: أنها جملة شرطية لا تحتاج إلى جواب؛ لأنه مفهوم مما سبق، وهذا اختيار ابن القيم رحمه الله.

الوجه الثاني: أنها تحتاج إلى جواب، وأن جوابها محذوف معلوم مما سبق أي: فلا تخافوهم إن كنتم مؤمنين فلا تخافوهم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان شدة عداوة الشيطان لبني آدم حيث يرعبهم ويخوفهم بأوليائه.

٢ ـ أن الشيطان يدافع عن أوليائه بل يهاجم بهم؛ لقوله: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي: يخوفكم أولياءه.

٣ ـ أنه يجب على المؤمن أن لا يخاف من أولياء الشيطان؛ لقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

فإن قال قائل: الخوف أمر طبيعي يعتري الإنسان عندما يرى ما يخافه أو يسمع به ولا يستطيع مدافعته، فالجواب عن ذلك أن يقال: بل يستطيع مدافعته بأن يشق طريقه الذي أوجب الله عليه

ولا يهتم بأحد، وإلا فمن المعلوم أن طبيعة الإنسان الخوف مما يكره، لكن نقول: امضِ لسبيلك ولا تلتفت، فقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ أي: لا يؤثر خوفهم فيكم شيئاً ﴿وَخَافُونِ﴾ لأنكم إن تركتم الجهاد عذبتكم.

٤ ـ أنه كلما قوي إيمان الإنسان بالله قوي خوفه منه؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٥ ـ أيضاً أنه كلما قوي الإيمان بالله قوي الخوف منه، وضعف الخوف من أولياء الشيطان؛ لقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ثم اعلم أن العلماء رحمهم الله قالوا: إن الخوف ينقسم إلى أقسام:

الأول: خوف العبادة، وهو خوف السر الذي يخاف فيه الإنسان شيئاً خفياً؛ كخوفه من الولي الميت أو من الشيطان أو ما أشبه ذلك، وهذا عبادة ولا يجوز إلا لله عزّ وجل.

الثاني: خوف طبيعي يعتري الإنسان بسبب وجود ما يخاف منه، وهذا لا يلام عليه العبد إلا أن يكون سبباً في ترك واجب أو وقوع في محرم، وإلا: فإن العبد لا يلام عليه وقد وقع من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قال الله عن موسى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨]، وقال سبحانه وتعالىٰ يخاطب موسى حينما ألقى عصاه فإذا هي حية تسعى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه: ٢١]، وقال عن موسى حينما اجتمع السحرة له قال: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧]، وقال عن إبراهيم لما جاءته الملائكة ولم يأكلوا: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ

وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ [هود: ٧٠]، والآيات في هذا كثيرة، فالخوف الطبيعي من طبيعة الإنسان ولا يلام عليه العبد إلا إذا تضمن ترك واجب أو فعل محرم.

الثالث: خوف الجبناء، وهذا هو السيئ، فالجبان يخاف من كل شيء حتى لو حركت الريح سَعْفَةً لقال: هذا صوت مدافع لأنه جبان، ولهذا لا يأتيه النوم كما قال الله تعالى فيما سبق: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، هذا القسم الثالث يجب على المؤمن أن يطارده ما أمكن؛ لأن المؤمن ليس بجبان، المؤمن قوي، ومن أكبر أسباب دفعه أن يذكر الإنسان ربه عزّ وجل، فإنه بذكر الله تطمئن القلوب، وتزول الكروب، وينشرح صدر المرء، ويزول عنه الخوف والرعب والذعر. فهذه أقسام الخوف: خوف عبادة، وخوف طبيعة، وخوف جبن.

٦ ـ أن الخوف من الله هو من مقتضيات الإيمان ومستلزماته؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

في قوله: ﴿يَحْزُنكَ﴾ قراءتان: القراءة الأولى (يَحْزُنك) من الثلاثي (حَزَنَ) والقراءة الثانية (يُحزِنك) من الرباعي (أحزنه).

﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ أي: يدخلون فيه بسرعة. وذلك أنه من المعلوم أن المسارعة تتعدى بـ «إلى» كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران:

١٣٣] وهنا جاءت (في) مكان (إلى) وهذا من باب التضمين، وقد اختلف علماء النحو في مثل هذا التركيب إذا عُدي الفعل بغير الحرفِ المعتاد هل التجوز بحرف الجر أو بالفعل الذي تعدى بحرف الجر؟ على قولين:

الأول: أن التجوز في حرف الجر يعني أن نقدر حرفاً مناسباً للفعل فنقول: (في) بمعنى (إلى).

الثاني: أن التجوز في الفعل؛ بمعنى أن نضمن الفعل معنى يتعدى بـ(في).

والفرق بين القولين أنه على القول الأول: نُحوّل معنى الحرف الموجود إلى الحرف المناسب للفعل، وعلى الثاني: نُحوّل الفعل إلى المعنى المناسب للحرف، وأوضح مثال لذلك قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] المعروف أن يشرب تتعدى بـ(مِن) وهنا تعدت بالباء، فقال بعض النحويين: الباء بمعنى (مِن) والتقدير (يشرب منها عباد الله).

وقال بعض العلماء: يشرب بمعنى يَروَى، ومعلوم أن الرِّيَّ يستلزم الشرب، فيكون: يشرب دالة على معنى الشرب باللزوم وعلى الري، ويكون هذا أبلغ مما لو قلنا يشرب منها؛ لأن الإنسان قد يشرب ولا يروى، وهذا الأخير هو مذهب نحاة البصرة أي: أنهم يحوّلون الفعل إلى معنى مناسب للحرف ليكون الفعل دالاً على معناه اللفظي وعلى معناه التضميني أو المعنى اللزومي. وعليه فيكون معنى الآية ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ أي: يدخلون في الكفر مسرعين.

وهذا المعنى الثاني أولى وأدق وأعمق، فإذا فسرنا

﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾ بقول: (يدخلون فيه بسرعة) تضمن المسارعة والدخول في الشيء.

وقوله: ﴿فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾ أصل الكفر في اللغة: الستر، ومنه الكُفُرَّىٰ وهو وعاء طلع النخل وهو معروف لدى الجميع. أما في الاصطلاح فإنه جَحْدُ ما جاء به النبي ﷺ أو جحد بعضه أو ترك ما يستلزم الكفر بتركه مثل الصلاة، فتركها كفر وإن لم يجحد وجوبها.

﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ﴾:

الجملة هنا محلها مما قبلها تعليل، أي: مهما سارعوا في الكفر فإنهم لن يضروا الله شيئاً.

وقوله: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ﴾ أي: لن يلحقوا الضرر به جل وعلا وتقدس عن أن ينال بضرر، وفي الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن الله تعالى قال: **«يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني»**[1].

وقوله: ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾ نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي: لن يضروا الله أي شيء في ذاته ولا في ملكه ولا في أسمائه وصفاته ولا في غير ذلك، وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي الذي أشرنا إليه آنفاً: **«يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً»**[2].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾:

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

(٢) تقدم تخريجه في الحديث السابق.

أي: يريد الله سبحانه وتعالىٰ بكفرهم أن لا يجعل لهم حظاً، أي: نصيباً في الآخرة، والإرادة هنا إرادة كونية، أي يشاء الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة؛ لا قليلاً ولا كثيراً. وهكذا كل كافر ليس له نصيب في الآخرة، والمؤمن له نصيب في الآخرة.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾:

أي لهؤلاء الذين يسارعون في الكفر (عذاب) أي عقوبة (عظيم) أي: ذو عظمة، وعظمة كل شيء بحسبه؛ فقد يكون مدحاً وقد يكون ذماً، ففي مقام المدح تكون العظمة مدحاً، وفي مقام الذم تكون العظمة ذماً، فقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] كلمة عظيم هنا من باب الذم، وقوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] من باب المدح، وفي هذا الموضع نقول: إن العقوبة لا شك أنها مكروهة عند الإنسان فهي بالنسبة لفعل الله عدل، وبالنسبة للمخلوق المعذب قبح وذم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تهديد هؤلاء الذين يسارعون في الكفر؛ لقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ﴾ أي: لا يهمنك أمرهم فسوف يعذبون.

٢ ـ حرص النبي ﷺ على هداية الخلق؛ لأنه يحزنهُ هؤلاء الذين يسارعون في الكفر، ولولا حرصه عليه الصلاة والسلام ما حزن لكفرهم.

٣ ـ بيان ما يلحق النبي ﷺ من الهمِّ ومن الحزن لعدم إسلام الأمة، وذلك لمحبته للخير عليه الصلاة والسلام حتى الذين

يسارعون في الكفر يحزن عليهم لأنه يود أن يسلموا.

٤ ـ بيان ما يقع فيه سفهاء بني آدم من الخطأ والخطل كما في فعل هؤلاء، يسارعون في الكفر مع أنه ضرر عليهم وهلاك.

٥ ـ انتفاء الضرر عن الله وأنه لا تضره معصية العاصين كما لا تنفعه طاعة الطائعين؛ لقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ فإن قيل: إن الله قد أثبت أن بعض عباده يؤذيه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وفي قوله في الحديث القدسي: «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر**»[1] فكيف نجمع بين نفي الضرر وإثبات الأذية؟

الجواب: أن يقال: لا يلزم من الأذية الضرر، فقد يتأذى الإنسان بالشيء ولا يتضرر به، أرأيت لو صلى إلى جانبك أو جلس إلى جانبك رجل قد أكل بصلاً وثوماً فإنك تتأذى برائحته ولكن لا تتضرر، فلا يلزم من الأذية الضرر، وحينئذٍ لا معارضة بين نفي الضرر عن الله عزّ وجل وإثبات الأذية.

٦ ـ بيان غنى الله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾.

٧ ـ إثبات الإرادة لله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وقد قسم العلماء إرادة الله تعالى إلى قسمين: إرادة كونية، وإرادة شرعية؛ فالكونية هي ما يتعلق بفعله، والشرعية ما يلزم فيها وقوع المراد، فالفروق ثلاثة:

الأول: أن الإرادة الكونية تتعلق بفعله والثانية بشرعه.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٥٥).

الثاني: الكونية بمعنى المشيئة، والشرعية بمعنى المحبة.

الثالث: الكونية يلزم فيها وقوع المراد، والشرعية لا يلزم.

فإذا قال قائل: ما تقولون في إيمان أبي بكر؟ أهو مراد بالإرادة الكونية أو الشرعية؟.

الجواب: إرادة كونية وشرعية؛ لأنه وقع بالإرادة الكونية، ولأنه متعلق بالشرع، فهو مما يحبه الله.

وما تقولون في إيمان أبي لهب؟ الجواب: أنه مراد شرعاً لا كوناً؛ لأن الله لو أراده كوناً لكان، وما تقولون في كفر المسلم؟ الجواب: أنه ليس مراداً لا كوناً ولا شرعاً؛ لأنه الآن مسلم ولو أراد الله أن يكفر لكفر، وهل هو مراد شرعاً أن يكفر؟ الجواب: لا، إذن انتفت في هذا الإرادتان، وإيمان المؤمن اجتمعت فيه الإرادتان، وإيمان الكافر وجدت فيه الإرادة الكونية. فإيمان الكافر مراد شرعاً وغير مراد كوناً، وإسلام المسلم مراد كوناً وشرعاً، وكفر الكفار مراد كوناً لا شرعاً، فهناك ما تجتمع فيه الإرادتان، وما تنتفي فيه الإرادتان، وما فيه الإرادة الشرعية فقط، وما فيه الإرادة الكونية فقط، وهذا التقسيم مهم؛ لأن من الناس من قال: إن المعاصي غير مرادة لله لا كوناً ولا شرعاً مع أنها واقعة، فنوافقهم بأنها غير مرادةٍ شرعاً لكنها مرادة كوناً.

٨ ـ أنه لا حظَّ للكافر في الآخرة؛ لأنه مخلد في النار؛ لقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

٩ ـ ومن فوائدها بالمفهوم أن الكافر قد يكون له حظ في الدنيا، وكفره لا يمنعه من الحظ في الدنيا.

فإن قال قائل: إن الله قال في كتابه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ

ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦] فهذا يدل على أن الكافر لا يحصل له نعيم في الدنيا، قلنا: نعم، الأصل ألا يحصل له نعيم في الدنيا ولكنه قد ينعم استدراجاً كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢ ـ ١٨٣].

١٠ ـ إثبات الآخرة، وأنها حق، وأن الناس ينقسمون فيها إلى قسمين: منهم من له نصيب، ومنهم من لا نصيب له؛ لقوله: ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

١١ ـ إثبات العقوبة لهؤلاء الكفار، فليس حظهم ألا يجدوا حظاً في الآخرة فقط بل مع ذلك يعذبون، ولهذا يقولون: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] أي: فنستريح ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩] نسأل الله العافية.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٧].

هذه الآية صلتها بما قبلها أنها كالتوكيد لها.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ﴾:

أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وإلا فإن الكفر ليس سلعة يباع ويشترى، فالاشتراء هنا بمعنى الاختيار وترك الطرف الآخر. يقول بعض علماء البلاغة: في هذه الجملة مجاز بالاستعارة المكنية أو الاستعارة التصريحية التبعية، فإنه شبَّه الكفر بالسلعة التي تباع

وتشترى، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الشراء، هذا على أنها مكنية، وتصريحية تبعية معناها: أنها تجري مجرى الاستعارة بالفعل أو اسم الفاعل، يعني بالشيء المشتق، فهنا ﴿ٱشْتَرَوُا۟﴾ بمعنى اختاروا، فشبَّه الاختيار بالشراء ثم اشتق من لفظ الشراء (اشتروا) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

وقوله: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ فإذا قال قائل: هم لم يؤمنوا؟ قلنا: لكن اختيارهم للكفر أخرجهم من الفطرة التي كانوا عليها، وهي التوحيد فهم اشتروا الكفر بعد الإيمان وقد سبق معنى الكفر.

أما الإيمان فإنه في اللغة قيل: التصديق، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] وقيل: الإقرار، والإقرار أخص من التصديق، واستدل هؤلاء بأن الكلمة إذا كانت بمعنى الكلمة فلا بد أن تتعدى بما تتعدى به، ومن المعلوم أن الإيمان لا يتعدى كما يتعدى التصديق، فإنك تقول: صدقته ولا تقول: آمنته. إذن فليس معناهما واحداً، فمعنى الإيمان الإقرار، هذا في اللغة. أما في الشرع فهو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان، فليس مجرد الإقرار إيمان، بل لا بد أن يقبل ما جاء به الرسول ﷺ، ويذعن له، ولهذا لم يكن أبو طالب مؤمناً مع أنه مقر بما جاء به الرسول ﷺ ولكنه لم يقبله ولم يذعن له فلم يكن مؤمناً، وإذا كان هذا هو الإيمان أي الإقرار المستلزم للقبول والإذعان، فإنه يتضمن جميع شرائع الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة: أن الإيمان شامل للاعتقاد وقول اللسان وعمل الجوارح وعمل القلب، أربعة أشياء كلها من الإيمان.

﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ كالآية السابقة تماماً.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هنا قال: إنه أليم، وهناك قال: إنه عظيم، فيجتمع في عذابهم ـ والعياذ بالله ـ العظيم والأليم، وأليم هنا بمعنى مؤلم، وليس بمعنى شديد، فهو بمعنى اسم الفاعل من الرباعي آلمه يؤلمه إيلاماً فهو مؤلم، وهل يأتي فَعِيل بمعنى مُفْعِل؟ الجواب: نعم، مثاله:

أمن الريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

(الداعي السميع) يعني المسمع.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان شدة رغبة الكفار في الكفر؛ لأنهم اشتروا الكفر اشتراء، والمشتري طالب للسلعة، فهم يأخذون الكفر عن رغبة.

٢ ـ بيان خسران هؤلاء حيث أخذوا الكفر بدلاً عن الإيمان، وهذه أَخْسَرُ صفقة على وجه الأرض أن يأخذ الإنسان الكفر بالإيمان طائعاً طيبة به نفسه والعياذ بالله.

٣ ـ بيان كمال الله عزّ وجل، وأنه لا تضره معصية العاصي ولا تنفعه طاعة الطائعين، لقوله: ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾.

٤ ـ كمال سلطان الله حيث إن هؤلاء الذين اختاروا الكفر على الإيمان لن يضروا الله شيئاً، مع أن المعروف أن الملك كلما قلّت جنوده ضعفت قوته إلا الله عزّ وجل فإنه لا يضره شيء.

٥ ـ عذاب هؤلاء الذين اختاروا الكفر على الإيمان عذاب مؤلم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فينادون توبيخاً ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

أي: لا يظن الذين كفروا، وفيه قراءة ثانية سبعية (ولا تحسبن الذين كفروا).

وقوله: ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ﴾:

أي: نمهلهم عن الأخذ بالعقوبة ﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ﴾ وهنا يقع تساؤل: لماذا كانت ﴿خَيْرٌ﴾ بالرفع مع أنه قال: نملي، والفعل المضارع ينصب المفعول به؟ والجواب: أن يقال: (ما) اسم موصول وليس حرف حصر، فتكون اسم (أنَّ) وعليه يكون التقدير (أن الذي نملي لهم خيرٌ) وإن كانت في المصحف مرسومة متصلة (بأن) وصورتها صورة الحصر، ولكن هذا لا يمنع أن تكون اسماً موصولاً؛ لأن العلماء اتبعوا في رسم المصحف الرسم العثماني، وإلا فهي على القاعدة الإملائية الموجودة الآن تكتب (أنَّ) وحدها و(ما) وحدها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ هنا للحصر. أي: نمهلهم ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾:

وقوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ اللام للتعليل باعتبار فعل الله، يعني أنه عزّ وجل يملي من أجل زيادة الإثم، وللعاقبة باعتبار حال المشركين أو الكافرين؛ لأنهم لم يكفروا لأجل أن يزدادوا إثماً، ولكن كفرهم كان سبباً في زيادة الإثم.

وقوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ أي: إلى إثمهم؛ لأن الرجل إذا كفر عشرة أيام وزاد يوماً زاد كفراً، وإذا زاد عشرة أيام أخرى زاد أكثر، فهم والعياذ بالله لا يستفيدون من دنياهم وإنما يزدادون فيها كفراً.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾:

أي: مهين مذل من الإهانة، وذلك لأنهم إنما كفروا استكباراً وعلواً، فعوقبوا بعذاب يُذلهم ويهينهم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أنه يجب على الإنسان أن لا يظن أن إمهال الله له خيراً له، تؤخذ من النهي، فإن الأصل في النهي التحريم، فلا يجوز للإنسان أن يغتر بإمهال الله له.

٢ ـ أن الله عزّ وجل بحكمته قد يستدرج بعض الخلق، فيعطيه النعم تتراً وهو متجاوز لحدوده؛ ليبلغ في الطغيان غايته حتى إذا أخذه لم يفلته كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**» وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1] [هود: ١٠٢].

فإن قال قائل: هل تقيسون العاصي على الكافر بمعنى أنه قد يمهل له وهو مقيم على المعصية؟.

الجواب: نعم، قد نقول بالقياس بجامع أن كل واحد منهما

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌۚ﴾، رقم (٤٦٨٦).

أمهله الله ولم يعاقبه، وقد نقول بعدم القياس؛ وذلك لأن الكفر أعظم من الفسوق، ولكن من رجع إلى ظاهر القرآن تبيَّن له أنه حتى الفاسق ربما يمهل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

٣ ـ أنه يجب على الإنسان أن يعتبر في عمره هل أمضاه في طاعة الله فليبشر بالخير، أو أمضاه في معصية الله، والله تعالى يدرُّ عليه النعم فليعلم أن هذا استدراج.

٤ ـ الإشارة إلى أن الإنسان قد يغتر بظواهر الحال ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ﴾ فالإنسان قد يغتر بظاهر الحال ويقول: إن الله لم يُنعم عليَّ نعمة إلا لأنني أهلٌ لها كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ [القصص: ٧٨].

٥ ـ إثبات زيادة الآثام؛ لقوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ﴾ فتدل بالمفهوم على زيادة الإيمان؛ لأنه إذا ازداد إثماً، فما نقص عن الإثم كان زيادة في الإيمان، ولهذا قال أهل السنة: إن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

٦ ـ إثبات العقوبة المذلة لهؤلاء؛ لقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

٧ ـ أن الجزاء من جنس العمل؛ لأن هؤلاء لما استكبروا على الخلق وعلوا عليهم أذلهم الله.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ﴾: (ما): نافية. و(كان): فعل ماضٍ ناقص، واللام هنا لام الجحود، يعني لام النفي، وهي التي تأتي بعد كونٍ منفي إما: (ما كان)، وإما: (لم يكن). ومثالها في (ما كان) هذه الآية: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ﴾ ومثالها في (لم يكن): ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٣٧].

وسُمِّيت لام الجحود؛ لأنها واقعة في سياق النفي، والجحود هو النفي، وهو (لم يكن) أو (ما كان). وهي تنصب الفعل المضارع، إما بنفسها كما هو اختيار الكوفيين، أو بـ(أن) مضمرة بعدها وجوباً كما هو اختيار البصريين.

قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ﴾ أي: أن هذا ممتنع غاية الامتناع، وإذا جاء مثل هذا التعبير في القرآن، فإنه يعني الامتناع، أي: أنه ممتنع على الله عزّ وجل غاية الامتناع أن يفعل كذا، وهذا الامتناع ليس امتناعاً لعدم المقدرة عليه، فهو قادر، لكنه امتناعٌ شرعي، أي: يمتنع بحسب ما تقتضيه حكمته أن يترك المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب.

وقوله: ﴿لِيَذَرَ﴾ أي: ليترك.

وقوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين آمنوا بالله. وقد تقدم تعريف الإيمان.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: على ما هم عليه من غير بيان ولا تمييز بين الخبيث والطيب، هذا مستحيل على الله، وذلك لأن المجتمع النبوي في عهد النبي ﷺ خليط بين المؤمنين الخُلَّص والكافرين الخُلَّص، والمنافقين، أما الكافرون الخُلَّص فهم متميزون بإعلانهم للكفر وتصريحهم به، ولا تخفى حالهم على أحد، وأما المؤمنون الخُلَّص فكذلك أمرهم واضحٌ ظاهر، يبقى الاشتباه بين المؤمن الخالص وبين المنافق؛ لأن المنافقين يُظهرون الإيمان، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ١٤] فالأمر يحتاج أن يُميِّز الله عزّ وجل بين الخبيث والطيب، ولهذا قال: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾. يعني من الخفاء والإشكال.

﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾:

﴿يَمِيزَ﴾ بمعنى: يفصل، يعني يفصل بين الخبيث والطيب بما يُخبر به عزّ وجل.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾:

يعني: وما كان الله ليطلعكم على الغيب في تمييز الطيب من الخبيث، فأنتم لا تعلمون ما في صدورهم، أي: ما في صدور هؤلاء الخبثاء المنافقين؛ لأنكم لا تعلمون الغيب، والله عزّ وجل ما كان ليطلعكم على الغيب، وهذه الآية تشبه آية الجن: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧]، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾:

هذا استدراك على قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾،

وأن هذا الخطاب عام حتى النبي ﷺ، ولهذا جاء الاستدراك فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

﴿يَجْتَبِى﴾: يعني يختار من رسله من يشاء فيُطلعه على الغيب الذي يُريد أن يُطلعه عليه، كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾:

هذه الجملة من الآية تُصوِّر لنا حال المجتمع النبوي في عهد النبي ﷺ، أن فيهم أناساً يخفى أمرهم، فبيَّن الله عزّ وجل أن هؤلاء الناس الذين يخفى أمرهم، لا بد أن يفصل الله بينهم وبين المؤمنين بالعلامات التي يُظهرها، ولا يكون هذا باطلاعهم على الغيب؛ لأن الله عزّ وجل لا يُطلع أحداً على الغيب إلا من ارتضى من رسول، ويكون هذا عن طريق اطلاعنا على ما في قلوب هؤلاء عن طريق الوحي، ولهذا سمَّى النبي ﷺ عدداً من المنافقين لحذيفة بن اليمان الذي كان يُلقَّب بصاحب السر، سرّ النبي ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ أسرَّ إلى حذيفة بأسماء رجال من المنافقين ولم يُسِرّ إلى أبي بكر ولا عمر، ولا إلى من هو أفضل من حذيفة، وهذه تذكِّرنا بقاعدةٍ ذكرها ابن القيم في النونية، وهي أن الخصيصة بفضيلة معيَّنة لا تستلزم الفضل المطلق، وأن الفضل نوعان: مطلق، ومقيد، فهنا لا شك أن حذيفة رضي الله عنه امتاز عن الصحابة بما أخبره به النبي ﷺ من أسماء هؤلاء المنافقين، لكنه لا يلزم من هذا أن يكون أفضل ممن له فضلٌ مطلق عليه، كأبي بكرٍ وعمر ومن أشبههما، وعليه فإننا لا نعلم عما في قلوب هؤلاء ولكن الله يُميِّزهم بما يُطلع عليه نبيه ﷺ، ولهذا قال:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾ والذي اجتباه الله من الرسل في عهد النبوة المحمدية هو محمد ﷺ، ولا نبي غيره.

ثم قال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾:

يعني: حقِّقوا إيمانكم بالله ورسله، وذلك بالتصديق التام، والانقياد والإذعان بدون اعتراض، لا على القضاء والقدر، ولا على الحكم الشرعي. وهكذا حال المؤمن حقًّا وهو الانقياد لأمر الله الكوني فيرضى به، والانقياد لأمر الله الشرعي فينفِّذه ويُذعن له، مع أن الانقياد للحكم الكوني يعمُّ كل أحدٍ سواء طوعاً أو كرهاً.

قوله: ﴿وَرُسُلِهِۦۚ﴾:

جمع رسول، والرسل هم الذين كلَّفهم الله تعالى بما أوحى إليهم أن يعملوا به ويدعوا إليه، ويُبلِّغوا الناس، ولهذا قال جمهور العلماء في تعريف الرسول: أنه مَنْ أوحي إليه بشرعٍ، وأُمر بتبليغه، والنبي من أوحي إليه بشرعٍ يتعبَّد به ولم يُكلَّف أن يُبلِّغه الناس، فآدم عليه الصلاة والسلام نبي، ولكنه ليس رسولاً، فإنه نُبِّئ ليس عنده أحدٌ وصار يعمل بما يوحى إليه واتبعه على ذلك ذريته، ولما طال الزمن واختلف الناس، احتاجوا للرسالة، فأرسل الله إليهم، وأول من أرسل إليهم نوح عليه السلام.

وقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ الإيمان بالله يتضمَّن أربعة أمور:

الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته. لا بد من هذا كله، فمن نقص شيئاً منها فإنه لم يؤمن بالله حقيقة.

والإيمان بالرسل يتضمن تصديقهم فيما جاءوا به من الوحي، ويتضمن التعبُّد لله بشريعتهم على من أُلزموا باتباعه، وبعد بعثة النبي ﷺ لم يُلزم الخلق إلا باتباع النبي محمد ﷺ، فإنَّ شريعته نسخت جميع الأديان. إذن كيف نؤمن بعيسى مثلاً؟ نؤمن بأنه رسول الله حقًّا، وأن الله أنزل إليه الكتاب، وأنه صادق بما جاء به من الرسالة، وأما شرعه فلسنا مأمورين باتباعه، فنحن مأمورون بالإيمان به فقط.

قال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾:

إن تؤمنوا بقلوبكم وتتقوا بجوارحكم، فلكم أجر عظيم، (الإيمان بالقلب) هو الإقرار المتضمِّن للقبول والإذعان. و(التقوى) هي اتخاذ وقاية من عذاب الله عزّ وجل، وذلك بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، وهذا أجمع ما قيل في التقوى، ولكن ليعلم أن التقوى قد تقرن بالبِّر، وقد تُقرن بالإحسان ﴿وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقد تُقرن بالإصلاح، فإذا قُرنتْ بمثل هذا تُفسَّر بأن المراد بها تقوى المحارم، يعني اجتناب محارم الله، أما إذا أُطلقت فإنها تشمل الأوامر والنواهي، وهذا كثير، فإن من الأسماء ما إذا قُرِن مع غيره صار له معنى، وإذا وحِّد صار له معنى، لكن أيهما أشمل أو أعم إذا قُرِن أو إذا أُفرد؟.

الجواب: إذا أُفرد لأنه إذا قُرِن مع غيره فهذا الذي قُرن معه سيأخذ جانباً كبيراً من المعنى.

قال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾:

الفاء هنا واقعة في جواب الشرط، لربط الجملة الجوابية بالجملة الشرطية الفعلية، وإنما قُرنت بالفاء؛ لأن الجواب وقع

جملة اسمية، وهناك بيت جمع المواضع التي يقترن فيها جواب الشرط بالفاء وهو:

اسميَّةٌ طلبيةٌ وبجامد وبما وقد وبلن وبالتنفيسِ

معناه: أن هذه الجمل السبع إذا وقعت جواباً للشرط فيجب أن تقترن بها الفاء.

وقوله: (أجرٌ) يعني ثواباً، وسمّى الله الثواب أجراً من باب التكرُّم والتفضُّل كأننا نحن مستأجَرين أدَّيْنا العمل، فنطالب بالأُجرة، مع أن الحقَّ لله علينا لكنه عزّ وجل أوجب على نفسه أنه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ...﴾ [النساء: ١٢٣ ـ ١٢٤].

وهذا كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ [البقرة: ٢٤٥] فهل الله فقيرٌ حتى نُقرضه؟ كلا، ولكن هذا من باب إظهار التزام الله عزّ وجل بالوفاء لعبده إذا أوفى بعهده: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ هذا وصف من الله عزّ وجل لهذا الأجر، والوصف بالعظم من العظيم يدلُّ على عظمه، ولهذا قال النبي ﷺ في حديث الدعاء الذي علَّمه أبا بكر رضي الله عنه: «**فاغفر لي مغفرةً من عندك**»[1] أضافها إلى عندية الله عزّ وجل.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤). ورواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥).

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الله عزّ وجل لا بد أن يُميِّز الخبيث من الطيب؛ لقوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، فإن قال قائل: بماذا يحصل التمييز؟.

قلنا: يحصل بالوحي في عهد النبوَّة، ويحصل بالقرائن في غير عهد النبوة وفي عهد النبوة أيضاً، فإن القرائن قد تُبيِّن الخبيث من الطيب بحيث نلاحظ أعماله وننظر كيف يسير وكيف يعمل، فيتبيَّن لنا خبثه من طيبه.

٢ ـ بيان رحمة الله عزّ وجل بعباده حيث لا يتركهم هكذا يشتبه بعضهم ببعض، بل لا بد من ميْز هذا عن هذا.

٣ ـ بيان حكمة الله عزّ وجل في أفعاله وشرعه أيضاً؛ لقوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

٤ ـ انقسام الناس إلى خبيث وطيب؛ لقوله: ﴿يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، وهذا كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، ولم يذكر قسماً ثالثاً، وكقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥] ففي العمل قسَّم الله الناس إلى قسمين، وفي الجزاء أيضاً قسَّمهم إلى قسمين.

فإذا قال قائل: أليس في هذا دليل على مذهب الخوارج الذين يقولون: إن الناس إما مؤمن أو كافر. ولا يمكن لأحد أن يجمع بين الإيمان والكفر؟

الجواب: أن يُقال: ليس فيه دليل على مذهبهم؛ لأن المؤمن إذا لم يفعل ما يخرج به من الإيمان فإنه لا يصدق عليه

وصف الخبيث على سبيل الإطلاق، بل هو من قسم الطيب، لكنَّ فيه خُبثاً، وهذا الطيب غلب على خبثه، كما أن الكافر وإن فعل ما يُحمد عليه، كالبر والجود والشجاعة، وطلاقة الوجه، وما أشبه ذلك، هذه خصال إيمان، لكن خُبثه أعظم من هذه الخصال فهو من قسم الخبثاء، وليس من قسم الطيبين، إذن نقول: هؤلاء المؤمنون الذين عندهم صفات كفر من قسم الطيب الذي فيه خبث، لكن طيبه يغلب على خبثه، والكفار الذين فيهم خصال من الطيب من قسم الخبيث، لكن الطيب الذي فيهم قد انغمر في جانب الخبث، وعلى هذا فليس هناك قسم ثالثٌ بل هما قسمان.

٥ ـ أن من ادَّعى علم الغيب فهو كاذب، وتؤخذ من: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ بل هو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، ولأنه إذا ادَّعى علم الغيب فقد كذَّب بمضمونها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾، ولكن ما المراد بالغيب؟.

المراد بالغيب هنا ما غاب غيباً مُطلقاً، وذلك الذي يكون في المستقبل، أما الشيء الحاضر، ولكنه غائبٌ من أناسٍ دون أناس؛ فهذا قد يطَّلع عليه الإنسان، وإن لم يُشاهده بِخبر الجن يسيحون في الأرض، يذهبون شمالاً ويميناً، وهم سريعو التصرف فربما يسعون في الأرض ثم يُخبرون أولياءهم بما شاهدوا في أراضٍ بعيدة، فيكون هذا غيباً إضافياً.

ومعنى الغيب الإضافي: أي بالإضافة إلى قوم دون قوم، فالذين شاهدوه ليس غيباً عندهم، أما البعيدون عنه فإنه غيب عندهم، ويقال: المغيب النسبي.

فالمراد بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله، هو الغيب المطلق، هو الذي يكون في المستقبل، فهذا لا يطلع عليه إلا الله، فإن قال قائل: ألسنا إذا رأينا السماء مدلهمَّة والرعد قاصفاً، والبرق خاطفاً، أننا نتوقَّع المطر؟!.

الجواب: بلى، فإذا قلنا ستمطر، فليس هذا من علم الغيب، بل هذا ظن مبنيٌّ على القرائن، وقد يخطئ ظننا وقد يأمر الله هذا السحاب فيتمزَّق ولا يُمطر، ولكن حسب ما نتوقَّع، ولسنا نقول هذا علم، والخلاصة أن الغيب هنا هو المطلق، وهو الذي يكون في المستقبل، أما الغيب الإضافي النسبي فهذا قد يُطلع الله عليه من يشاء من عباده، بواسطةٍ كالجن مثلاً، فالجن يعلمون ما حصل في الأرض، ويُخبرون به أولياءهم، وأولياء الجن قد يكونون متقين وقد يكونون مجرمين، فإن كانت ولاية الجن لهم بسبب الشرك فيهم، كالذبائح للجن وما أشبه ذلك، فهذه ولاية إجرام، لكن يقول شيخ الإسلام رحمه الله: إن الجن قد يتولون المؤمن لإيمانه، يحبونه في الله، ويخدمونه في أمره، قال: وهذا جائز بشرطين: ألا تكون وسيلة استخدامهم محرَّمة، وألا يستخدمهم في محرَّم، فمثلاً إذا قالوا: لا نخدمك حتى تسجد لنا، فهذا حرام وشرك، وإذا قالوا: لا نخدمك حتى تُدخل فلاناً السجن، فهذا حرام لكنه ليس بشرك، يعني خدموه بدون شرك، لكن استخدمهم في شيء محرَّم. فلو قال قائل: إن استخدامهم حرام بكل حال؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]،

وهذا يدل على أن استمتاع الإنسي بالجني محرم بكل حال، فالجواب عن ذلك أن نقول: اقرأ الآية التي بعدها حيث قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩] فهذا الاستمتاع استمتاع في ظلم، ولا شك أنه حرام، أما إذا كان استمتاعاً بما ينفع وخلا من المحرم في طريقه أو في استخدامه فإن هذا لا بأس به.

٦ ـ أن الله قد يُطلع الخلق على الغيب بواسطة الرسل؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

٧ ـ أن الرسل ممن اجتباهم الله واصطفاهم على الخلق، وهذا موجود في القرآن، بأن الأنبياء هم الصفوة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٧].

٨ ـ إثبات المشيئة لله عزّ وجل، في قوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، ولكننا نقول: كل شيء علَّقه الله بالمشيئة، فإنه لا بد أن يكون مقروناً بالحكمة، ليست مشيئةً مجرَّدة، بل لا بد أن تكون مقرونة بحكمة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠] أشار إلى أن مشيئته تتبع علمه وحكمته.

٩ ـ وجوب الإيمان بالله ورسله عموماً؛ لقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، وقد بيَّنا في التفسير كيفية الإيمان بالرسل، وأنه يؤمن بأنهم حقٌّ، وجاءوا من عند الله وهم صادقون، أما الاتباع فهو خاصٌ بالنبي ﷺ.

١٠ ـ فضيلة الإيمان والتقوى، وأنه يترتب عليهما الأجر العظيم.

١١ ـ بيان منة الله على العباد، حيث جعل إثابتهم على العمل بمنزلة الأجر المتقرَّر لهم، كأن شخصاً استأجر أُجراء وأعطاهم أجرهم فرضاً إلا أنه تعالى هو الذي فرض ذلك على نفسه.

١٢ ـ إثبات الجزاء، وأنه من جنس العمل، فكما أن الإيمان والتقوى يُعتبر أمراً عظيماً ظاهراً وباطناً، فكذلك الأجر، كان أجراً عظيماً.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال الله عزّ وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠]:

﴿يَحْسَبَنَّ﴾: فيها ثلاث قراءات:

الأولى: ولا يحسِبنّ.

الثانية: ولا يحسَبنّ.

والثالثة: ولا تَحسَبنّ بالخطاب.

وكلها قراءات سبعيَّة، يُسنُّ للإنسان أن يقرأ بهذه أحياناً، وبهذه أحياناً، إلا أنه لا ينبغي أن يقرأ بالقراءة الخارجة عن المصحف أمام العامة؛ لأن ذلك قد يُوجد فتنة.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ أي: لا يظن الذين يبخلون بما آتاهم الله. والبخل هو المنع مع شحٍّ، ولهذا عُدِّي بالباء، ولم يقل: (يبخلون ما آتاهم) بل قال: يبخلون به، أي: يمنعونه مع شح يعني: يشِحُّون به.

وقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ﴾ أي: بما أعطاهم الله من فضله، وفيه إشارة إلى أن هذا البخل في غير موضعه؛ لأنهم بخلوا بشيءٍ ليس من كسبهم، ولا من كدِّهم، وهذا من الحمق البالغ، إذ إن الأمر يقتضي أن الذي أعطاك إذا أمرك أن تصرفه في شيء، أن تصرفه فيه كما أمرك، لأنه فضله.

وقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾:

أي: من خيره؛ لأن الفضل في الأصل هو الزيادة، فالإنسان قد يعمل عملاً يؤمِّل أن يكسب فيه ألفاً، فيكسب ألفين أو أكثر من فضل الله عزّ وجل.

قوله: ﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾:

﴿خَيْرًا﴾ مفعول ثانٍ لـ(يحسب) والمفعول الأول محذوف تقديره: بخلهم هو خيراً لهم. يعني: (ولا يحسبن الذين يبخلون بخلهم خيراً لهم بل هو شر لهم) كما ذكر الله عزّ وجل.

وقوله: (هو خيراً لهم) (خير) هنا اسم تفضيل، فلا بد فيه من مفضَّل، ومفضَّل عليه، فالمفضَّل عليه هو البخل، هو خير لهم من العطاء. يعني لا يظنُّوا أن البخل خيرٌ لهم من العطاء، فهم يظنُّون أن البخل أفضل لهم من العطاء، وهذا الظن خطأ؛ لأن النبي ﷺ قال: «**ما نقصت صدقة من مال**»[1]. وكم من إنسان يزداد ماله بالصدقة، ولا تُنقِص الصدقة مالاً مع الاحتساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩].

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨).

ومعنى ﴿يُخْلِفُهُۥ﴾ أي: يأتي بخلَفِه.

يقول الله عزّ وجل: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾:

أي: شرٌ لهم من العطاء، والعطاء ليس فيه شر، ولكن الله خاطب هؤلاء بحسب اعتقادهم، حيث يظنُّون أنهم إذا أنفقوا ضاق عليهم الرزق، فيقول القائل منهم: أنا عندي ألف، إذا أنفقتُ منه مائةً نقص، وصار تسعمائة، فيظنون أن هذا شر، فيقول الله عزّ وجل: إن المنع هو الشر، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾. شرٌ من العطاء، فالعطاء خيرٌ، والمنع شر.

وقوله: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ إضراب إبطالي، وقد يأتي الإضراب في القرآن انتقالياً كما في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦] فالثاني لا يبطل الأول بل يؤكده.

ثم قال: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾:

(السين) يقول علماء النحو: إنها للتنفيس، وتُفيد التحقيق. والتنفيس معناه: حصول الشيء عن قرب، والتحقيق واضح، يعني: أن كلمة (سيطوَّقون) أبلغ في التحقيق من كلمة (يطوَّقون) لأن السين تُفيد التحقيق وتُفيد أيضاً التنفيس، فتفيد (سيطوَّقون) أن هؤلاء سوف يُعاقبون هذه العقوبة حتماً وعن قرب، ومن أين أخذنا الحتمية؟.

الجواب: من السين الدالة على تحقق وقوع العذاب، وأخذنا القرب لأن التنفيس الذي تدلُّ عليه السين معناه القرب، فإذا قال قائل: إن تحققه معلوم، ولكن كيف يكون قريباً؟ قلنا: إن يوم القيامة قريب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ

قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧] فيوم القيامة وإن كان بعيداً في نظر الناس، لكنه في الحقيقة قريب، وانظر إلى الأيام كيف تنطوي بسرعة حتى تنتهي، لتعرف أن يوم القيامة وإن بعُد أمده فهو في الحقيقة قريب.

وقوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾:

أي: سيُجعل ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم. والطوق معروف مثل طوق القميص يحيط بالعنق، وقد بيَّن النبي ﷺ كيف يكون هذا التطويق فقال: «**من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه فيقول: أنا كنزك، أنا مالك**»[1]. قال العلماء: الشجاع الأقرع هو: الذكر من الحيات. والأقرع: كثير السُّم؛ لأن رأسه من كثرة سمِّه قد تمزّق شعره، فهو أقرع.

«وله زبيبتان»: أي غدَّتان تُشبهان الزبيب، قد امتلأتا من السُّم.

«فيأخذ بلهزمتيه»: أي شدقيه كما جاء مفسَّراً في الحديث. ويقول: أنا كنزك، أنا مالك: يقول ذلك توبيخاً له فيزداد بذلك حسرة.

هذا هو تفسير الآية الكريمة كما فسَّرها النبي عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ﴾:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم (١٤٠٣).

يُعبِّر الله تعالى عن الجزاء بالعمل نفسه، وهو كثير في القرآن مثل: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهنا ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وذلك لأن الجزاء من جنس العمل، فكأنه هو العمل نفسه، فلهذا يُعبِّر الله عن الجزاء بالعمل كثيراً.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾:

(يوم القيامة): هو يوم يبعث الناس، وسمِّي يوم القيامة لوجوه ثلاثة: يقوم فيه الناس لرب العالمين، ويقوم فيه الأشهاد، ويقوم فيه العدل.

فالوجه الأول: يقوم فيه الناس لربِّ العالمين، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ ـ ٦].

والثاني: يقام فيه القسط؛ لقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والثالث: يُقام فيه الأشهاد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] فلهذا سُمِّي يوم القيامة.

يقول الله عزّ وجل: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾:

(لله): اللام هذه للاختصاص، والجار والمجرور خبر مقدم، وتقديمه يفيد الحصر، أي: أنه له وحده عزّ وجل.

وَ(الميراث): انتقال المال من سابقٍ إلى لاحق، كانتقاله من الميت إلى الحي. فالذي يرث السموات والأرض ويبقى بعدها هو الله سبحانه، ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولا يتحوَّل ميراثها إلا إليه وحده عزّ وجل، ومناسبة هذه الجملة لما

قبلها واضحة، وذلك أن الذي يبخل بماله إنما يبخل به ليبقى له، فبيَّن الله أنه لن يبقى له، لا بد أن يموت ويرثه ورثته ثم يموتون ويرثهم ورثتهم وهكذا إلى أن ينتهي الإرث إلى الله عزّ وجل. فالمناسبة إذن بين هذه الجملة وما قبلها ظاهرةٌ جداً.

وقال الله عزّ وجل: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾:

فيها قراءتان (تعملون) و(يعملون). وخَتْمُ الآية هذه بهذا الاسم وهو الخبير واضح المناسبة؛ لأن هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله قد لا يطَّلع عليهم الخلق، فالإنسان قد يكون عنده ملايين ولا يعلم الناس عنه، ويبخل بزكاتها ولا يُعْلَم عنه، فبيَّن الله تعالى أنه خبير بعملهم، والغالب أن من منع الحق في ماله سُلِّط على هلكته في الباطل، يعني: فتح له أبواباً من الباطل يَصرف فيها ماله فيكون مانعاً لما يجب، واقعاً فيما يحرم، ولهذا هدَّدهم الله بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تهديد من بخل بما آتاه الله من فضله، وسبق لنا أن البخل المتوعد عليه هو منع الواجب في المال.

٢ ـ أن الشيطان قد يُغِرّ الإنسان فيقول: لا تنفق فيهلك مالك؛ لقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾، ولا شك أن هذا هو الواقع، ودليل ذلك أن الله يُحذِّرنا دائماً من هذا الشيطان ويقول: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، وأول من يغُرُّنا بالله هو الشيطان.

٣ ـ إقامة اللوم والتوبيخ على هؤلاء الذين بخلوا؛ لقوله:

﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: كيف يبخلون بشيءٍ ليس من كسبهم ولا مِن كدِّهم، بل هو من فضل الله، فيبخلون به في طاعة الله.

٤ ـ أن ما أوتيه الإنسان من علم أو مال أو ولد، فإنه من الله عزّ وجل، فالولد لا يقول الإنسان: أوتيته بسبب أني تزوَّجت، وأتيتُ أهلي، والعلم لا يقول: أوتيته لأني سعيت فيه، والمال كذلك لا يقول: أوتيته لأني سعيت فيه؛ لأن الجميع من فضل الله، فتوفيقكَ للسعي في هذا الأمر من فضل الله، ثم حصول النتيجة التي كنت ترجوها من فضل الله، فكم مِن إنسانٍ خُذل فلم يسعَ، وكم مِن إنسانٍ سعى ولم يحصل على ثمرة، فأصل السعي والثمرة كلها من الله، ولهذا قال: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

٥ ـ تحذير الباخلين من البخل؛ لقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ﴾.

٦ ـ أن الإنسان قد يُزيَّن له سوء عمله فيظنه حسناً، فالبخل خلق سيئ وعمل سيئ، قد يُزيَّن للإنسان فيبخل مع أنه من الأعمال السيئة، والأخلاق السيئة.

٧ ـ إثبات الجزاء، بل إثبات العقوبة العظيمة على هؤلاء الباخلين، وهي أنهم يطوَّقون به يوم القيامة، حين لا ينفعهم الندم ولا يمكنهم الخلاص.

٨ ـ تحقُّق وقوع الجزاء؛ لقوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ وذلك بواسطة السين.

٩ ـ إقامة الحجة على أن هذا البخل ليس بنافعٍ أصحابه،

مأخوذ من قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فبخلهم لن يُخلِّدهم في الدنيا، ولن يخلَّد المال لهم، بل هم سوف يجازون عليه، وسوف ينتقل المال منهم إلى ورثتهم، ومن ورثتهم إلى الآخرين حتى ينتهي الأمر إلى الله عزّ وجل.

١٠ ـ إثبات علم الله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، (بِمَا يَعْمَلونَ)، و﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قراءتان. (خبير) لأن الخِبرة كما قال العلماء: هي العلم ببواطن الأمور، ومن المعلوم أن العليم ببواطن الأمور عليم بظواهرها من باب أولى.

١١ ـ الإشارة إلى اسم الله «الآخر»، فإن الله هو الأول والآخر، وذلك من قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فإذا ثبت إرثه لهما لزم منه أن يكون هو الآخر عزّ وجل.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]:

القراءات في هذه الآية:

(سنكتب) و(قتل) و(الأنبياء) و(نقول).

كل واحدة منها فيها قراءتان: فقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ . . .﴾ تقرأ: ﴿سَنَكْتُبُ﴾، ﴿وَنَقُولُ﴾: بالنون، وبناءً على هذه القراءة تكون (ما) مبنية على السكون في محل نصب مفعولاً به، وتكون (قتلَ) معطوفة على المفعول به (ما)، والمعطوف على المنصوب منصوب.

وعلى القراءة الثانية (سيُكتب ما قالوا) تكون (ما) مبنية على

السكون في محل رفع نائب فاعل، وتكون (قتلُ) معطوفاً على نائب فاعل فتكون بالرفع، وعليه فلا يجوز أن تقرأ (وسنكتب ما قالوا وقتلُهم الأنبياء بغير حق) برفع (قتل) لأنه لا يُرفع إلا إذا قرأنا (سيُكتب ما قالوا وقتلُهم الأنبياء بغير حق ويقول). (يقول) بالياء توافق قراءة (سيُكتب).

أما الأنبياء ففيها قراءتان: «الأنبئاء» و«الأنبياء».. بالياء كما في «النبيين» وبالهمزة كما في «النبئين».

فعلى قراءة (الأنبئاء) تكون من (النبأ) بالهمز، وهو الخبر. وعلى قراءة الياء تكون من (النَّبْوة) وهي الارتفاع.

يقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾:

أكد الله هذا الخبر بثلاثة مؤكدات:

الأول: القَسم المقدَّر؛ لأن اللام هنا واقعة في جواب قسم.

والثاني: (قد).

والثالث: اللام في قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ﴾.

وإنما أكده سبحانه وتعالىٰ للمبالغة في تهديد هؤلاء، وأما نحن المؤمنين فإننا نعلم أنه بمجرد ما يُخبرنا عن شيء فهو مؤكد، لكن من أجل تهديد هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾:

﴿سَمِعَ﴾ هنا بمعنى: أدرك هذا القول جل وعلا، أي سمعه سماعاً، ولا نقول بأذنه لأنه لم يثبت لنفسه ذلك جل وعلا، ولأنه لا يلزم من السماع الأذن، بخلاف قولنا: (استوى على العرش).

فنقول: بذاته سبحانه وتعالىٰ؛ لأن الله أضاف الفعل إلى نفسه، أما هنا فلا نقول سمع بأذنه؛ لأنه لا يلزم من السماع ثبوت الأذن، فها هي الأرض يوم القيامة تُحدِّث أخبارها، أي تُخبر عما فعل الناس عليها، أو عما قالوا عليها، مع أنه ليس لها أذن، والجلود والأيدي والأرجل تشهد يوم القيامة على الإنسان بما عمل، وهي ليس لها آذان، إذن لا يجوز أن نقول: إن الله له أذن بناءً على أن الله أثبت له السمع، ليس كمثله شيء وهو السميع العليم سبحانه وتعالىٰ.

فإذا قال قائل: ألستم أثبتم لله عيناً؟ نقول: بلى. ولكن كيف أثبتنا؟ أهو من طريق أنه يرى أو من طريق أنه أثبت لنفسه عينين؟ الجواب: الثاني، فلولا أن الله أثبت لنفسه سبحانه وتعالىٰ عينين ما جاز لنا أن نثبت العين، ولهذا نحن نؤمن أن الله يتكلم، ولكن لا نقول باللسان، لأن الله لم يُثبت ذلك لنفسه، ولا يلزم من الكلام ثبوت اللسان، بدليل أن الأرض تُحدِّث أخبارها، والجلود تشهد، ويقول صاحب الجلد لجلده: لِمَ شهدت عليَّ؟ فتقول: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] ولا تقول: لي لسان وشفتان.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾:

وهم أناس من اليهود منهم رجلٌ يسمى (فِنحاص) ولكن الله عزّ وجل في كتابه لا يذكر شيئاً خاصاً إلّا لسبب، لا بد من تعيين الشخص، ولهذا لم يذكر الله عزّ وجل أحداً باسمه في القرآن من هذه الأمة إلا رجلاً مؤمناً ورجلاً كافراً فقط. الرجل المؤمن زيد بن حارثة ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب:

٣٧]، والرجل الكافر من هذه الأمة أبو لهب؛ لأن الوصف أكثر فائدة لوجهين:

الأول: أنه قد تتغير حال المعيَّن، يكون بالأول فاسقاً مارداً كافراً، ثم يسلم ويتوب الله عليه، فإذا تاب ولم يذكر اسمه في القرآن كان أحسن مما لو ذكر، فإنه لو ذكر اسمه لبقي العار عليه ولو تاب.

الثاني: أنه أعمُّ؛ لأن تعليق الحكم بالوصف أعَمُّ من تعليقه بالشخص، ولهذا إذا عُلِّق الحكم بالشخص احتمل الخصوصية، وإذا قلنا بعمومهِ ـ بعموم الحكم المعلق بالشخص ـ فإنه ليس عموماً شمولياً، ولكنه عمومٌ تمثيلي، يعني بالقياس، إذن ينبغي لنا في مثل هذه الأمور أن لا نعيِّن الشخص بعينه، فإذا أردنا مثلاً أن نتكلم على صحيفةٍ خبيثةٍ فالأولى ألا نعينها بل نقول: قالت بعض الصحف، وإذا ذكرنا الكلام عُرف. أولاً: لأن الصحيفة قد تتغير، والثاني: أنه إذا حصرنا وعينَّا فقد يفهم السامع أنه لا يوجد سوى هذه الصحيفة، ولكن إذا عمَّمنا وجعلنا الحكم معلقاً بالوصف شمل غيرها، وصار هذا أنفع، وهذه مسألة دلَّ عليها القرآن وكذلك السنة أيضاً تدل عليها، كان الرسول ﷺ لا يقول: ما بال فلان يقول كذا؟ بل كان يقول: ما بال أقوام، من أجل الفائدتين اللتين أشرنا إليهما.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾:

هؤلاء هم اليهود، وسبب قولهم هذا أن الله قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ [البقرة: ٢٤٥] فرحت اليهود بهذا وجاءت إلى النبي ﷺ وقالت: يا محمد، إن ربك

قد افتقر لأنه يطلب القرض منا ـ نسأل الله العافية ـ ولم يعلم هؤلاء البلهاء إن كانوا صادقين فيما ادّعوا وهم كاذبون في هذا، لكن تنزلاً معهم نقول: إن الله عزّ وجل جعل الإنفاق في سبيله له بمنزلة القرض إشعاراً للمنفق بأنه سوف يجازى عليه، كما أن المقترض يجب عليه أن يوفي مقرضه، فهكذا جعل الله العمل له بمنزلة القرض تفضلاً منه عزّ وجل وإحساناً للعباد، واليهود لا يُستغربُ منهم أن يصفوا الله بمثل هذا، فهم قالوا: يد الله مغلولة، فوصفوه بالبخل، وهم قالوا: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم تعب واستراح يوم السبت، ولهذا يجعلون يوم السبت هو يوم الراحة عندهم ـ قاتلهم الله ـ وهم كاذبون في هذا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ وليتهم اقتصروا على هذا القول ـ مع كونه من أعظم المناكر ـ لكنهم قالوا: (ونحن أغنياء) فجعلوا أنفسهم أكمل من الله، وهذا غاية ما يكون من الوقاحة.

قال تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾:

وإضافة الكتابة إليه لأن جنوده يكتبون ذلك، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ٩ ـ ١١]، وقوله تعالى وهي أصرح: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، إذن الكتابة هنا كتابة الله عزّ وجل بملائكته؛ لأنهم يكتبون

بأمره وهم جنده، كما يقول القائد: فعلت كذا، والفاعل الجنود، فالملك والسلطان يتكلم بالشيء مضيفاً إياه إلى نفسه لأنه حصل بأمره وسلطته، إذن سنكتب ما قالوا بملائكتنا، والله عزّ وجل أحياناً يضيف الشيء إلى نفسه مريداً به الملائكة مثل قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٥]، أقرب إليه بالملائكة ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ مما يدل على أنه أي: القريب في نفس المكان لكننا لا نبصره، وهم الملائكة. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] الراجح فيها أن المراد أقرب إليه بملائكتنا بدليل قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، وهذا ما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مواضع من كلامه، منها كلامه في شرح حديث النزول وهو مشهور ومتداول.

يقول: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾:

هل هو لمجرد الاطلاع عليه أو للمجازاة؟ الجواب: للمجازاة بدليل ما يأتي في آخر الآية قال: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ذكر قتل الأنبياء بغير حق مع أنهم لم يقولوا: إنا قتلنا الأنبياء، لكن ليبين أن هؤلاء اعتدوا على حق الله وعلى حق رسله وأنبيائه، فقتلوا الأنبياء بغير حق، وهو شامل لقتل الأنبياء والرسل؛ لأن كل رسول نبي.

قاعدة: وهي أن الأنبياء المذكورين في القرآن رسلٌ، فما نجد نبيًّا ذُكر في القرآن إلا وهو رسول، والدليل على ذلك من

القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، فإن استقام هذا فالأمر واضح، وإن لم يستقم فنقُل: إن المقصود بهم الأنبياء الذين لم يوحَ إليهم بشرع جديد يُبلِّغونه الناس.

وقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: (بغير حق) هذا قيد كاشف وليس احترازي، يعني أن قتلهم للأنبياء بغير حق، وليس المعنى أن الأنبياء ينقسم قَتْلهم إلى قَتْلٍ بحق وقَتْلٍ بغير حق، فكل قَتْلٍ للأنبياء إنما هو بغير حق، ومع ذلك لا يقتلون النبي لشخصه، وإنما يقتلونه لما جاء به من الحق أي أنهم يقتلونهم لكونهم أنبياء. ففي هذا القيد فائدتان: الأولى: بيان الواقع، فهي صفة كاشفة. والثانية: المبالغة في التشنيع عليهم، فإنهم يقتلونهم بغير حق.

وقوله: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾:

وذلك يوم القيامة أو في القبر أيضاً، والقول هنا: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ يقصد به الإهانة والإذلال وإلا فإنهم سيذوقون عذاب الحريق، قيل لهم ذلك أم لم يُقل، فهو حق.

ومن هذا الباب قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]. يقال له: وهو يعذب في النار: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ إهانة له، أي: أن عزك وكرمك لم ينفعك.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ إثبات سمع الله عزّ وجل: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾، والسمع هنا بمعنى إدراك الصوت وإن خفي.

والمراد به هنا (التهديد)، والعلماء رحمهم الله قسَّموا سمع الله عزّ وجل إلى قسمين:

الأول: بمعنى الاستجابة.

والثاني: بمعنى إدراك الأصوات.

أما السمع بمعنى الاستجابة فهو كثير في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] ﴿سَمِعْنَا﴾: يعني بآذانهم، ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾: أي لا يستجيبون.

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا﴾ [التغابن: ١٦] «اسمعوا» يعني سمعَ استجابةٍ. ومنه قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] أي لمستجيب الدعاء.

وهذا القسم من السمع معلوم أنه من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلَّق بمشيئة الله.

والقسم الثاني من السمع: سمع الإدراك، قالوا: إنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

قسم يُراد به التهديد، وقسم يُراد به التأييد، وقسم يُراد به بيان الإحاطة والشمول لسمع الله، فأما الذي يراد به التأييد كقوله تعالى لموسى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، والمراد بالسمع هنا التأييد، وقد يقول قائل: والتهديد بالنسبة إلى فرعون. وأما ما يراد به التهديد فمثل هذه الآية: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

وأما الذي يراد به بيان شمول علم الله وسمعه فمثل قوله

تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١] قالت عائشة: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد كنت في طرف الحجرة، وإنه ليخفى عليَّ بعض حديثها، والله عزّ وجل فوق عرشه فوق سبع سموات يسمع كلام هذه المرأة[1]، ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: ١] أي تحاور الرسول والمرأة سمعه الله.

٢ ـ بيان ما عليه اليهود من الوقاحة والعدوان حيث اعتدوا على الربِّ عزّ وجل بوصفهم إياه بأنه فقير.

٣ ـ أنهم لشدة عتوِّهم وبغيهم لم يقتصروا على أن وصفوا الله بأنه فقير، بل قالوا: ونحن أغنياء، فهم بذلك أثبتوا الكمال لأنفسهم والنقص لله عزّ وجل.

٤ ـ إثبات الكتابة لله عزّ وجل في قوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾، ولكننا ذكرنا أن المراد هنا الملائكة التي تكتب بأمره، وذكرنا لهذا دليلاً: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

٥ ـ أن اليهود كما اعتدوا على الله اعتدوا أيضاً على رسل الله، فقتلوا الأنبياء بغير حق، فصار منهم عدوان على مقام التوحيد ومقام الرسالة، فلم يحققوا شهادة أن لا إله إلا الله ولا أنَّ رسلَ الله رسلُ الله.

٦ ـ إثبات القول لله عزّ وجل في قوله: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ

---

(١) انظر: سنن النسائي، كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠). ورواه ابن ماجه، في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨). ورواه أحمد في مسنده، رقم (٢٣٦٧٥).

عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ والله سبحانه وتعالىٰ قد ثبت له القول بإجماع السلف أن يقول ويتكلم بكلام حقيقي بحرف وصوت مسموع، وهذا الكلام صفة من صفات الله ليس بمخلوق.

وقالت المعتزلة والجهمية: أنه خَلْقٌ من مخلوقاته، هو كلامه لكنه خلق من مخلوقاته.

وقالت الأشاعرة ومن ضاهاهم: إنه لا يتكلم بكلام مسموع، وكلامه هو الكلام القائم بنفسه والذي يسمع عبارة عنه أو حكاية، وهو مخلوق فالمسموع مخلوق.

وقد ذكر ابن القيم أن شيخ الإسلام رحمهما الله أبطل هذا القول من تسعين وجهاً في رسالة تسمى «التسعينية».

٧ ـ أن هؤلاء سوف يذوقون العذاب بالألم البدني والألم النفسي في قوله: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، ففي الحريق: ألم بدني وفي قوله (ذوقوا): ألم نفسي؛ لأن هذا توبيخ وإهانة، فالأمر هنا للتوبيخ والإهانة.

٨ ـ الردُّ على من قال: إن أهل النار لا يذوقون العذاب؛ لأن أجسامهم تأخذ على النار وتتكيف بها، فيصبحون لا يذوقون ألماً؛ لقوله: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

٩ ـ بيان قدرة الله عزّ وجل حيث يحترق هؤلاء وتنضج جلودهم، وكلما نضجت جلودهم بُدِّلوا جلوداً غيرها، ومع ذلك لا يموتون مع أن مثل هذا الحريق لو أصاب أحداً في الدنيا لهلك كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٣] فلا يموت ويستريح ولا يحيا حياة هنيئة.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢]:

هذا من تمام قوله: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: يقال لهم زيادةً في التوبيخ والندم والحسرة ذلك، أي ما أصابهم من العذاب والتوبيخ، فالمشار إليه ما سبق في قوله: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، وهنا قال: (ذلك) مع أنه يتحدَّث عن جماعة وأتى بكاف الخطاب المفردة؛ لأنه مرَّ علينا قريباً أن اسم الإشارة بحسب المشار إليه، وأن الكاف بحسب المخاطب على اللغة الفصحى، أو هي بفتح الكاف مفردة للمذكر وبكسرها مفردةً للمؤنث، أو هي بفتح الكاف المطلقة، وكلها لغات، لكن الأكثر أنها بحسب المخاطب.

قال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾:

أي بسبب، فالباء هنا للسببية. و(ما) اسم موصول بمعنى الذي، أي بالَّذي، وقوله: ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾: أي في الدنيا. والمراد بالأيدي هنا أنفسهم، لكن أُضيف العمل أو المقدَّم بالأيدي؛ لأن الغالب أن الأيدي هي محل البطش والعمل، وإلا فمن المعلوم أنه قد قدَّمت أيديهم وألسنتهم وأرجلهم، فكلها عملت بالشرك.

قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾:

﴿وَأَنَّ﴾ هنا بالفتح عطفاً على (ما) في قوله ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ أي: وذلك بأن الله ليس بظلّام للعبيد.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ﴾، (ظلّام) على صيغة المبالغة، ولكنها في نفس الوقت على صيغة النسبة، والفرق بينهما:

أن صيغة المبالغة تدلُّ على الكثرة، والنسبة تشمل الكثرة والقلَّة، فهل المراد هنا صيغة المبالغة أم النسبة؟ المراد النسبة، لأننا لو قلنا: إن المراد بذلك صيغة المبالغة لكان المنفي كثرة الظلم، مع أن الله لا يظلم مثقال ذرَّة، وعلى هذا فنقول: (ظلَّام) هنا نسبة، أي: ليس بذي ظلم، كما نقول: فلان ليس نجاراً، يعني: ليس بذي نجارة، أي ليس منسوباً إلى النجارين.

وقوله: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ جمع عبد، وعبد: اسم مفرد، وهو من أكثر المفردات جموعاً، وله جموعٌ متعدِّدة كثيرة، مثل: (شيخ) اسم مفرد له جموع كثيرة تصل إلى عشرة جموع.

و(العبيد) هنا: المراد بهم: العبيد كوناً. فهو لا يظلم أحداً من العبيد كوناً، وإنما قلنا كوناً لندفع أن المراد بذلك العبيد شرعاً، وهم المتعبِّدون لله، فالعبودية في هذه الآية هي العبودية العامة والشاملة للكافر والمؤمن، فالله لا يظلم كافراً، ولا يظلم مؤمناً، بل يُجازي كل إنسان بعمله.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ إثبات الأسباب، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

٢ ـ نفي الظلم عن الله عزّ وجل في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وهنا نقف لنبيِّن أن الله سبحانه وتعالىٰ موصوف بالإثبات وموصوفٌ بالنفي، أما الإثبات: فإن الله عزّ وجل وصف نفسه بإثبات كل صفة كمال، فكل صفة كمال فهي ثابتة لله عزّ وجل، وميزان الكمال نصوص الكتاب والسنة، ولهذا نحن لا نحكم على الله فنقول: هذه صفة لائقة بالله عزّ وجل، وهذه صفة

غير لائقة به، بل المرجع في هذا إلى الكتاب والسنة في التفصيل، أما في الإجمال، فالعقل يدل على أن الربَّ لا بد أن يكون كاملاً.

أما الصفات المنفية: فإنه لا يُراد بها مجرد النفي، بل المراد انتفاء هذه الصفة لثبوت كمال الضد، فإذا نفى أن يكون ظلّاماً للعبيد فذلك لكمال عدله، وإذا نفى أن تأخذه سِنةٌ ولا نوم فذلك لكمال حياته وقيوميته، وإذا نفى أن يصيبه لغوب فذلك لكمال قوته، وهكذا، ويجب أن نعلم أنه لا يمكن أن يوجد في صفات الله نفيٌ مجرَّد، وهذه قاعدة: (لا يوجد في صفات الله نفي مجرَّد) والدليل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] والنفي المجرد ليس مثلاً أعلى، المثل الأعلى أي: الوصف الأعلى والأكمل، والنفي المجرد عدم، والعدم ليس بشيء فضلاً عن أن يكون وصفاً أعلى.

ثانياً: أن النفي المحض قد يكون لعجزِ الموصوف عنه، وقد يكون لعدم قابليته لهذا المنفي، أي معناه: نفينا عنه هذا الشيء لأنه عاجز لا يستطيع أن يفعل هذا الشيء الذي نفيناه عنه، وقد يكون لعدم قابليته لهذا الشيء، فمثلاً: إذا قال قائل: فلان رجل حُبَيِّب لا يظلم الناس ولا يعتدي عليهم، نعرف من هذا الكلام عجزه، ولهذا قلنا: (حُبيب)، و(حبيب) عند الناس كلمة تصغير وتحقير، وهذا كقول الشاعر:

قُبَيِّلة لا يغدرون بذمَّةٍ ولا يظلمون الناس حبَّة خردلِ

وقد يكون النفي لا يتضمن كمالاً، كأن يكون لعدم القابلية، يعني أن ما نفي عنه هذا الوصف ليس لكماله ولكنه لا يقبل هذا

الوصف ولا يقدر عليه، وقد مثَّل العلماء لذلك بأن تقول: إن جداري لا يظلم، فقولك: الجدار لا يظلم ليس بمدح؛ لأنه لو أراد أن يظلم لم يقدر.

فالقاعدة: أنه (لا يوجد في صفات الله نفي محض، بل كل ما نفى الله عن نفسه فهو متضمِّنٌ لكمالٍ).

٣ ـ أن الله يخبر عما يخبر من صفاته لتطمين الخلق؛ لقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ حتى يطمئن الإنسان أنه لن يجازى إلا بعمله، إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر.

٤ ـ جواز إطلاق البعض على الكل إذا وجدت قرينة تدل عليه؛ لقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ فاليد بعض من الإنسان لكن (القرينة) تدل على أن المراد الكل يعني (بما قدمتم)، ونظيرها في صفات الله قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس: ٧١] هل نقول: إن الله خلق الإبل مثلاً بيده كما خلق آدم؟ الجواب: لا، فيكون المراد: (مما عملت أيدينا) أي: مِمَّا عملنا؛ لأن الله لم يخلق الإبل بيده كما خلق آدم، ولكن لا يعني هذا أن الآية ليس فيها دلالة على ثبوت اليد لله، بل فيها دلالة على ثبوت اليد لله تعالى؛ لأنه لولا أن له يداً ما صحَّ أن يضيفها إلى نفسه.

٥ ـ ومن فوائدها: إمكان الظلم من الله لولا أن الله نفاه عن نفسه في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، لأنه لو كان الظلم غير ممكن في حقِّه، لم يصح أن يمتدح بتركه عزّ وجل، إذ لا يتمدَّح بترك شيء إلا إذا كان تَرَكه اختياراً، أما لو كان مستحيلاً في حقِّه، لم يكن للتمدُّح به فائدة، وبناءً على هذه

الفائدة يكون فيها ردٌّ على الجهمية الذين يقولون: (إن الظلم محالٌ على الله، محالٌ لذاته، لا لأن الله نفاه عن نفسه)، لأنهم يقولون: (إنه مهما تصرَّف فقد تصرف في ملكه، والمتصرِّف في ملكه يفعل ما يشاء، فالظلم عنده المحال لذاته). كما قال ابن القيِّم في النونية: «والظلم عندهم المحال لذاته».

ونحن نقول: الظلم ليس محالاً على الله لذاته، لو شاء الله أن يظلم لظلم، لكنه نفاه عن نفسه تمدُّحاً بذلك، ولذلك قال في الحديث القدسي: «**إني حرَّمتُ الظلم على نفسي**»[(١)]، وهذا يدلُّ على إمكانه منه، لكنه لا يفعله.

فإن قال قائل: قد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**لو أن الله عذَّب أهل سمواته وأرضه، لعذَّبهم وهو غير ظالمٍ لهم**»[(٢)].

فالجواب: أن نقول: لا معارضة بين هذا الحديث وبين الآية؛ لأن الله لو عذَّبهم لم يمكن أن يُعذِّبهم وهو ظالمٌ لهم، إذن لا يُعذِّبهم إلا وهم مُستحقُّون للعذاب، وعلى هذا فيكون الحديث مُطابقاً للآية. أو يُقال من وجهٍ آخر: «**لو أن الله عذَّب أهل سمواته وأرضه، لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم**» أي: إذا أراد أن يُناقش العباد فإن من نوقش الحساب عُذِّب؛ لأنه لو ناقشهم لكانتْ نعمةٌ واحدةٌ من نعمه تُقابل جميع أعمالهم، فحينئذٍ يستحقُّون أن يُعذَّبوا.

---

(١) تقدم تخريجه في المجلد الأول (ص١٥٣).

(٢) رواه ابن ماجه، في المقدمة، باب في القدر، رقم (٧٧). ورواه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٦٩٩). ورواه أحمد في مسنده، رقم (٢١١٠١).

فلنا في هذا الحديث مخرجان:

الأول: أنه يُعذِّبهم وهو غير ظالمٍ لهم، أي لا يُعذِّبهم إلا لذنب، فيكون الحديث مطابقاً للآية.

والثاني: أن المراد بذلك مناقشة الحساب؛ لأن الله لو ناقشهم لكانتْ نعمة واحدة من نعمه سبحانه وتعالىٰ تُحيط بجميع أعمالهم، فيبقون وليس لهم رصيد.

فإن قال قائل: هذه صفةٌ سلبية كما يقولون، فهل توجد الصفات السلبية في صفات الله؟

فالجواب: نعم، ولكن المراد بالصفات السلبية: ثبوت كمال ضدِّها، فهو لا يظلم لا لعجزه عن الظلم، ولكن لكمال عدله.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣]:

هذا أيضاً من كذب هؤلاء اليهود، أنهم قالوا: إن الله عهد إلينا أي: أوصانا وصيةً موثقةً بالعهد. يُقال: عهِد إليه: أي أوصى إليه وصيَّةً موثقةً بالعهد، ومنه العهد بالولاية، أي: ولاية الحاكم إلى من بعده، فإنه يُوصي بالحكم إلى من بعده، مثل عهد أبي بكر رضي الله عنه إلى عمر.

فمعنى عهِد إلينا، أي: أوصانا وصيَّةً مُثبَّتة بالعهد ﴿أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ هكذا قالوا، وهذا من كذبهم كما سيأتي.

يقول: ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾ أي: لرسول من عند الله.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾:

وذلك بأن نُقرِّب قُرباناً من طعام أو بهائم أو لحم أو ثياب، ثم تنزل نار من السماء فتأكل هذا القربان، يعني أنهم حصروا الآيات التي يطلبونها من الرسول، بأن يأتي بنارٍ تأكل هذا القربان، وكانوا فيما سبق إذا غنموا غنائم من الكفار جمعوها ثم نزلت نارٌ من السماء فأكلتها حتى أُحلَّت الغنائم لهذه الأمة، فهؤلاء يقولون: لا نؤمن لرسول إلا إذا أتانا بهذه الآية فقط، وهي: أننا إذا قرَّبنا قرباناً أكلته النار.

فقال تعالى لرسوله: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾:

أي: قد جاءتكم رسلٌ بأكثر مما تدّعون الآن.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: أي بالآيات البيِّنات التي تُبيِّن صدق رسالتهم.

﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾: أي بالقربان الذي تأكله النار.

﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾: أي ومع ذلك كذَّبتموهم وقتلتموهم.

فإن قال قائل: لماذا عَدَل الله عزّ وجل عن المطالبة بصدق ما ادَّعوه؟

قلنا: هذا من باب موافقة الخصم، يعني على فرض أن الأمر كما قلتم فقد اعتديْتم حتى فيما جيء به من مطلوبكم، فاعتديتم على الرسل. وهنا فائدة وهي: أن من ادَّعى دعوةً فإننا نُعامله بمراتب:

المرتبة الأولى: صحة ما قال.

المرتبة الثانية: مخالفته لما قال.

فهنا لم يُطالبهم الله بصحة ما قالوا من باب موافقة الخصم، وقولنا من باب موافقة الخصم أحسن من قولنا من باب التنزّل؛ لأن الذي معنا قرآن وإن قلنا: تنزّل فإنه بناء على العبارة المعروفة عند العلماء.

والمعنى أن يقول: هب أن الأمر كما قُلتم وأنه عهد إليكم ألا تؤمنوا لرسول حتى يأتيكم بقربانٍ تأكله النار، فقد جاءكم رسولٌ بقربانٍ تأكله النار ومع ذلك قتلتموه، إذن فطلبكم هذه الآية المعيَّنة ليس عن صدق؛ لأنها قد جاءتكم ومع ذلك فقد كذَّبتم الرسل وقتلتموهم، فهنا عَدَل عن المطالبة بصحة الدعوى، من باب موافقة الخصم، أي أنكم لا تُريدون أن تُصدِّقوا الرسل، وإنما تُريدون تكذيبهم.

وقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾:

أي الآيات البينات الدالة على رسالتهم وصدقهم ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ يعني: والذي قلتم دون البينات التي جاؤوا بها، بدليل أنه قدَّم قوله «بالبينات» فدلَّ هذا على أن ما قالوه وإن كان آية، لكنه دون البينات التي جاؤوا بها؛ لأنهم جاؤوا بأعظم من هذا، فمثلاً موسى عليه الصلاة والسلام جاء ببينة أعظم من ذلك: كان يلقي العصا فتكون حية، ويحملها فتكون عصا، وكان يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء لكن من غير عيب أو من غير برص، كذلك عيسى كان يخرج الأموات من القبور أحياء، أو يقف على الميت قبل أن يدفن فيحيا بإذن الله، ويخلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله

فينفخ فيه (فيكون طيراً) أو (فيكون طائراً) فيه قراءتان. يعني: يكون طيراً طائراً أيضاً بالفعل. أيهما أعظم: هذا أم أن تنزل من السماء نار تأكل القربان؟ الجواب: الأولى أعظم ولهذا قدَّمها.

﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾: قوله: ﴿فَلِمَ﴾ الفاء: عاطف، و(لِمَ): اللام حرف جر و«ما» استفهامية، ومن قواعد الإملاء أن «ما» الاستفهامية إن دخل عليها حرف جر فإنها تحذف ألفها مثل: عَمّ - بِمَ - لِمَ. ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: في أنكم تقبلون الرسل إذا جاؤوا بهذه الآية.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ الجملة شرطية، وهل تحتاج إلى جواب أم لا؟ ذهب بعض العلماء إلى أنها لا تحتاج إلى جواب؛ لأن المعنى مفهوم بدونه، والجواب إنما يؤتى به ليتمم المعنى. وقال بعضهم: بل جوابها محذوف دلَّ عليه ما قبله، وعلى هذا الرأي يكون التقدير: إن كنتم صادقين فلم قتلتموهم، وإلى القول الأول ذهب ابن القيم رحمه الله في أن مثل هذا التركيب لا يحتاج إلى جواب.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان تعنت اليهود الذين ردُّوا ما جاء به النبي ﷺ من البينات بناءً على ما ادَّعوه من هذه الآية.

٢ ـ أنه ينبغي عند المخاصمة إفحام الخصم بما يدعيه؛ ليكون ذلك أبلغ في دحض حجَّته، ويؤخذ من قوله: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ لأنه إذا خوصم بما يقوله لم يبق له حجة، ومن ذلك مخاصمة شيخ الإسلام ابن تيمية

رحمه الله للرافضة وأهل التعطيل حيث يخاصمهم بما يقرّون به، فمثلاً: الأشاعرة أو المعتزلة ـ أهل التعطيل عموماً ـ قالوا: إن المراد بآيات الصفات خلاف الظاهر؛ لأن العقل يمنع من الأخذ بظاهرها، فقالت الفلاسفة ـ أهل التخييل ـ: المراد بنصوص المعاد خلاف الظاهر لامتناع القول بظاهرها، أي: أنه لا يوجد بعثٌ ولا ربٌّ ولا جنةٌ ولا نارٌ، فبماذا ردَّ عليهم أهل التعطيل، وأهل التعطيل يقرون بالبعث واليوم الآخر؟ قالوا: إن كلامكم هذا غير مقبول، بل البعث حق واقع، وذلك لأننا علمنا أن الرسل جاءت به، وأن الشبهة المانعة منه فاسدة، الشبهة المانعة هي قول القائل: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، فلزم القول بثبوته.

ونحن نقول لهم أيضاً: آيات الصفات علمنا بأن الرسل جاؤوا بها، وقد علمنا فساد الشبهة المانعة منه فوجب إثباتها، بل قال شيخ الإسلام رحمه الله: إن نصوص الصفات في الكتاب والسنة أكثر بكثير من نصوص المعاد؛ لأنك لا تكاد تجد آية في كتاب الله عزّ وجل إلا وتجد فيها اسماً من أسماء الله أو صفة من صفاته، لذلك فإن إفحام الخصم بحجته أنكى وأقوى في خصمه، أي في أننا نخصمه ولا يستطيع أن يجادل بعد ذلك.

٣ ـ أن الرسل عليهم الصلاة والسلام جاءوا بالبينات الدالة على رسالتهم ولا بد من هذا عقلاً كما هو واقع شرعاً، وذلك أنه لو جاء رسول من البشر يقول: أنا رسول الله إليكم أدعوكم إلى كذا وأمنعكم من كذا ومن خالفني قاتلته، فإنه لا يقبل ذلك إلا ببينة تشهد لما قال، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «ما

من نبي من الأنبياء إلا أُعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[1]، فقال: ما من رسول إلا آتاه الله ما على مثله يؤمن البشر، وهذا لا بد منه.

٤ ـ إقامة الحجة على هؤلاء الذين ادعوا هذه الدعوى؛ لأنهم قتلوا الأنبياء الذين جاؤوا بما قالوه.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى مسلياً لرسوله ﷺ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]:

وفيها قراءة (وبالزبر والكتاب) أي زيادة الباء.

يقول الله عزّ وجل: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، والفاعل قريش وأهل الكتاب وكل من كذَّب الرسل.

﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾:

﴿فَقَدْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط؛ لأنه مقرون بقد.

﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ وفي آية أخرى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤] فلماذا جاء التذكير والتأنيث؟

نقول: لأن رسل جمع تكسير، وجمع التكسير يجوز فيه ثبوت التاء وحذفها، قال ابن مالك:

والتاء مع جمعٍ سوى السالم ... من مذكر كالتاء مع إحدى اللَّبن

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، رقم (٤٩٨١).

مع إحدى اللَّبِن: اللّبن إحداها لبنة، فاللبنة تذكر وتؤنث، وجميع الجموع تؤنث وتذكر ما عدا جمع المذكر السالم على رأي ابن مالك، ويضاف إليها على رأي ابن هشام جمع المؤنث السالم، ويقابله من قال بأن جميع الجموع يجوز تذكيرها وتأنيثها حتى السالم من مذكر أو مؤنث، ومنه قول الزمخشري رحمه الله يردُّ به على أعدائه يقول: لا أبالي بجمعكم كل جمع مؤنث. فالمؤنث لا يقابل الرجال، الشاهد قوله: كل جمع مؤنث. والذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن الرأي الصحيح رأي ابن هشام؛ أن السالم من جمع المذكر يجب تذكيره، ومن الجمع المؤنث يجب تأنيثه، وأما جمع التكسير فيجوز فيه التذكير والتأنيث، لذا قال هنا ﴿فَقَدْ كُذِّبَ﴾ وفي آية أخرى ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ﴾.

وقوله: ﴿رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ الرسول كما مرَّ علينا كثيراً هو الذي أوحي إليه بالشرع وأُمر بالتبليغ.

وجملة: ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يجوز أن تكون صفة للرسل، ويجوز أن تكون حالاً، أما جواز أن تكون صفة فظاهر؛ لأن (رسل) منكَّر، فالذي يأتي بعده يكون صفة، وأما جواز كونه حالاً مع أن الذي قبلها منكر فلأن هذه النكرة وُصفت، وإذا وُصفت النكرة جاز وقوع الحال منها؛ لأنها إذا وُصفت تخصَّصت.

﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ (البينات) هي: الآيات البيِّنات الشرعية والكونية، فالآيات الشرعية هي الكتب التي جاءوا بها، والآيات الكونية هي ما يُسمَّى بالمعجزات الحسِّية.

﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ جمع زبور، والمراد به ما اشتمل على المواعظ

والزواجر، ولهذا كان الزبور الذي أوتيه داود أكثره مواعظ وزواجر.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾: (الكتاب) بمعنى المكتوب، و(المنير) بمعنى المنير للظلمات.

وهذا العطف الذي في قوله: ﴿وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ هذا من باب عطف الصفة على الصفة الأخرى؛ لأن الزبر تتضمَّن الكتاب المنير، وعطف الصفات بعضها على بعض موجود في القرآن، ومنه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى: ١ ـ ٤]. فقوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾ هذا من باب عطف الصفات، و(الذي أخرج المرعى) أيضاً من باب عطف الصفات، فالتغاير تغاير صفة وليس تغاير ذات.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، ويتفرَّع عليها أن يتسلى الإنسان في كل ما أصاب غيره، فمثلاً: الآمر بالمعروف أو الناهي عن المنكر قد يؤذىٰ فليتسلى بأذيَّة غيره؛ لأن الإنسان إذا علم أن غيره أُصيب بما أُصيب به لا شك أنه ينسى الحزن، كما قالت الخنساء ترثي أخاها صخراً:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أسُلِّي النفس عنه بالتأسي

الشاهد هنا قولها: «أُسلِّي النفس عنه بالتأسي»، فالإنسان إذا نظر يميناً وشمالاً، وإذا هذا مصاب بعقله، وهذا مصاب ببدنه، وهذا مصاب بأهله، وهذا مصاب بماله؛ يتسلَّى.

كذلك الرسول ﷺ إذا قال الله له: ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن

قَبْلِكَ﴾، لا شك أنه تهون عليه المصيبة وأنه يتسلى بذلك؛ لأنه بشر يلحقه من أحكام البشرية ما يلحق غيره.

٢ ـ أن الرسل يؤذون بالتكذيب، ولا أظن أن شيئاً أشق على النفس من التكذيب فيمن جاء بالصدق. والإنسان يكاد يتقطَّع إذا أَخبر بشيء صدقٍ ثم قيل له: كذبت، فكيف وهُم من عند الله عزّ وجل مؤيدون بآياته، لا شك أنها شديدة عليهم ولكنهم يصبرون عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ [الأنعام: ٣٤]، يعني: وعلى ما أوذوا، أو معطوفة على كذبت أي: وحصل لهم الأذية أيضاً، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم النصر.

٣ ـ أن الرسل لا بد أن يؤيدوا بالبينات؛ لقوله: ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٤ ـ أن الرسل السابقين كلهم جاؤوا بكتاب، ما من رسولٍ إلا ومعه كتاب، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وذلك لأنه لا بد لكل رسولٍ من شريعة، والشريعة إنما تكون بما يكتب سواءً نزلت وحياً ثم كتبت، أو نزلت مكتوبة كالتوراة، فإن الله كتبها بيده وأنزلها عزّ وجل.

٥ ـ أن الكتب السابقة ككتابنا كلها تنير الطريق لمن أراد المسير، ولكن أعظمها إنارة هو هذا القرآن الكريم، ولهذا كان مهيمناً على ما سبق من الكتب، فكل الكتب التي سبقت منسوخة به.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]:

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: «كلّ» من صيغ العموم، والنفس قد يراد بها الروح، وقد يراد بها البدن بالروح، وكلاهما صحيح، فالموت يذوقه البدن وتذوقه الروح.

وقوله: ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ أي ذائقة طعمه أي: لا بد أن تموت، ولكن الله عبَّر بالذوق لأنه أبلغ في الحصول؛ لأن الذوق يحصل به حق اليقين، وقد قسَّم العلماء اليقين إلى ثلاث درجات: علم، وعين، وحق، فالعلم بالخبر، والعين بالمشاهدة، والحق بالذوق.

فإن قال قائلٌ: هذه تفاحة وقد أخفاها في كيس، والقائل صدوق، فهذا تسميه: علم اليقين، فإذا كشفها فهو عين اليقين، فإذا أكلها المُخبر فهو حقُّ اليقين، ولهذا عبر بالذائقة؛ لأن الموت حق لا بد لكل حيٍّ من موت، إلا الحي القيوم عزّ وجل.

قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: هل المراد من بني آدم ومن الجن ممن على الأرض، بحيث نقول: إن الملائكة لا يموتون؟

الجواب: لا. كل أحدٍ يموت، ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ [الزمر: ٦٨] ذكر العلماء أنه يستثنى من هذا من لا يموت ممن خُلقوا للبقاء كالولدان الذين في الجنة والحور اللّاتي في الجنة، فإنهم خلقوا للبقاء فلا يموتون. أما الملائكة وجميع الخلق فإنهم يموتون.

وقوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ﴾:

هذه حصر، يعني: لا توفَّون أجوركم إلا يوم القيامة، والمراد بالتوفية هنا: توفيَة الكمال، وإلا فإن الإنسان قد يوفَّى أجره في الدنيا ويُدَّخر له أيضاً زيادة على ذلك، والكافر أيضاً يوفَّى أجره في الدنيا، مثل ما عمل من خير فإنه يُطعم به في الدنيا، لكن في الآخرة ليس له خلاق.

وقوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بعد قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ قد يُشعر بأن المراد بيوم القيامة هنا ما هو أعم من القيامة الكبرى، فيشمل القيامة الصغرى التي تكون لكل موجود من ذوات النفوس.

وقال: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾:

﴿زُحْزِحَ﴾: أي دُفع ببطء، وذلك لأن النار ـ أعاذنا الله وإياكم منها ـ محفوفةٌ بالشهوات، والشهوات تميلُ إليها النفوس، فلا يكاد الإنسان ينصرف عن هذه الشهوات إلا بزحزحة؛ لأنه يُقبل عليها بقوَّة، لهذا قال: ﴿زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ أي دُفع عنها بمشقَّةٍ وشدَّة.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾: لأنه نجا من المرهوب وحصل على المطلوب.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾:

(ما) هذه نافية، ولم تعمل عمل (ليس) لأن النفي انتقض، وإذا انتقض النفي بطُل عمله كما قال ابن مالك: «مع بقا النفي...»، فإن انتقض فهي مهملة.

وقوله: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ وصفُ هذه بالدنيا لوجهين:

الوجه الأول: لدنوِّها زمناً، **والوجه الثاني**: لدنوِّها قدراً.

أما دنوها زمناً فظاهر؛ لأنها قبل الآخرة، وأما دنوها قدراً فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[١].

(**موضع السوط**): لعله يقارب المتر، (**خير من الدنيا وما فيها**)، من الدنيا: ليست دنياك التي أنت فيها، وليست دنياك الخاصة بك أنت، بل الدنيا من أولها إلى آخرها. إذن فالحياة هذه بالنسبة للآخرة دانية، من الدنو وهو الانحطاط.

وقوله: ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾: أي إلا متعة تغر صاحبها وتخدعه، وكم من أناس زُيِّنت لهم الدنيا فانخدعوا بها، وكان مآلهم إلى وادٍ سحيق ـ والعياذ بالله ـ لأنهم اغتروا بها.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الموت حقٌّ لا بد منه؛ لقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

٢ ـ حث الإنسان على المبادرة للعمل الصالح؛ لأنه إذا كان ميتاً ولا محالة وهو لا يدري متى يموت، فإن العقل كالشرع يقتضي أن يُبادر ولا سيَّما في قضاء الواجبات والتخلي عن المظالم. فلا تُهْمِلْ ولا تؤخِّر، فإن التأخير له آفات، كثيراً ما يقول الإنسان: أنا سأفعل هذا غداً ولكن يتهاون، ثم يأتي غد وما بعده، ويضيع عليه الوقت.

٣ ـ أن كمال الأجر إنما يكون يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَإِنَّمَا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).

تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾. والتوفية تقتضي أن هناك شيئاً سابقاً يُزاد، وهو كذلك، فإن الإنسان قد يُثاب في الدنيا على عمله، ولا سيَّما الإحسان إلى الخلق، وقضاء حوائجهم؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**»(١) وقال: «**من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته**»(٢).

٤ ـ إثبات يوم القيامة؛ لقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، وسُمِّي يوم القيامة لأنه يقوم الناس فيه لربِّ العالمين، ويقوم الأشهاد، ويُقام فيه القسط، وأدلة هذا معروفة: قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١]. وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

٥ ـ أنه لا يكمل الفوز إلا بأمرين: أن يُزحزح الإنسان عن النار، وأن يُدخل الجنة، ومعلوم أن من زُحزح عن النار فلا بد أن يُدخل الجنة؛ لأنه ليس في الآخرة إلا داران فقط: إما النار وإما الجنة، وقد بيَّن النبي في الحديث الصحيح ما يحصل به هذا الثواب العظيم مِن الزحزحة عن النار وإدخال الجنة، فقال: «**من أحب أن يُزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيَّته وهو يؤمن بالله**

---

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (٢٦٩٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم (٢٤٤٢). ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٠).

واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يُؤتى إليه»[١] . . فذكرَ حقَّ الله وحقَّ العباد، فمن وجد من نفسه هذين الوصفين: الإيمان بالله واليوم الآخر، وأنه يأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه، فليبشر بهذا.

٦ ـ هل تدلُّ على أن الله لا يُرى في الجنة؟ الجواب: أنه لا يوجد نفي ولا إثبات، ولكن الزمخشري رحمه الله في تفسيره قال: (أي فوزٍ أعظم من أن يُزحزح الإنسان عن النار ويُدخل الجنة). . يُريد بذلك نفي الرؤيا، فنقول له: إذا دخل الإنسان الجنة فإنه سيرى ربَّه، وتكون رؤيته لربه أعظم النعيم، فليس في الآية ما يدل على نفي الرؤية إطلاقاً، وإذا لم يكن فيها دليل على نفي الرؤية، فإن هناك نصوصاً من القرآن والسنة تدلُّ على ثبوت الرؤية، والمؤمن هو الذي لا يتتبع المتشابه من القرآن بل يتَّبع المحكم، ويحمل عليه المتشابه. والمحكم مثل الآيات الواضحات، والمتشابه مثل الآيات التي وقع فيها الخلاف بين العلماء.

٧ ـ التزهيد في الدنيا؛ لقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

٨ ـ أنه يجب على الإنسان الحذر من مغبَّة الدنيا وغرورها، ولهذا ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**والله ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتُنافسوها كما تنَافسها مَن قبلكم، فتهلككم كما أهلكتهم..**»[٢] .

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول، رقم (١٨٤٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً، رقم (٤٠١٥).

وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام فإن هذا هو الخوف، وانظروا الآن لمَّا فُتِحت الدنيا على الناس حصل الهلاك، بل حتى الذين لم تُفتح عليهم إذا سمعوا من فُتحت عليهم هلكوا.

❁ ❁ ❁

❑ قال تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]:

قوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾: هذه الجملة مؤكَّدة كما هو معلوم بثلاثة مؤكدات:

لام التوكيد، واللام، والقسم المقدر؛ لأن اللام هذه موطأة للقسم أي (والله لتبلون).

والابتلاء: الاختبار، والله سبحانه أحياناً يختبر بخير وأحياناً يختبر بِشَرٍّ كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وكما قال تعالى عن سليمان: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، وذلك أن الإنسان دائر بين حالين إما شيء يسر به ويفرح به، فهذا وظيفته الشكر، وإما شيء يسوؤه ويحزنه فهذا وظيفته الصبر، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له**» وقال: «**ذلك لا يكون إلا للمؤمن**»[1].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٤٤).

هنا يقول عزّ وجل: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾:

(في أموالكم): إما من قِبَل الله عزّ وجل كالجوائح، وإما من قِبل المخلوقين كتسلط المشركين على أموال المسلمين، وكل ذلك من البلاء الذي يبتلي الله به العباد.

وقوله: ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ يشمل أيضاً البلوى المتصلة والمنفصلة.

البلوى المتصلة: ما يحصل على الإنسان من بلوى من الله عزّ وجل في بدنه مثل: المرض والعجز وما أشبه ذلك.

والبلوى المنفصلة: ما تكون في الأولاد؛ لأن الأولاد من أنفسنا، يبتلى الإنسان في ولده، أو في أهله، أو في زوجته، أو في غير ذلك، وهذا أيضاً من الابتلاء، ثم إن الابتلاء الذي يكون إما من الله وإما من المخلوق، فيبتلى الإنسان في نفسه من المخلوقين يؤذونه أحياناً بالضرب، وأحياناً بالقول، وأحياناً بالقتل، كما قتلوا الأنبياء بغير حق.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾:

قوله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ فعل مضارع متصل بنون التوكيد، ومع ذلك كان مرفوعاً، والمعروف أن الفعل المضارع إذا اتصل بنون التوكيد يبنى على الفتح، وذلك أن الاتصال يجب أن يكون لفظاً وتقديراً، وهذه متصلة لفظاً لا تقديراً؛ لأن الأصل فيها (لتسمعونن) فهنا واو ونون محذوفتان.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: وهم اليهود والنصارى.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾: وهم الوثنيون كقريش وغيرهم.

تسمعن منهم أذىً كثيراً بالقول، لأنه هو الذي يُسمع، مثل أن يعيّروكم أو يسبّوا دينكم، أو يسبّوا نبيكم، وقد قالوا عن النبي ﷺ إنه ساحر كذاب ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وقالوا: إنه مجنون ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٦] وقالوا: إنه كاهن، ووصفوه بكل عيب، ولا شك أن هذا يؤذي المؤمنين، ويؤذي النبي ﷺ ولكن وظيفتنا نحو هذا الأمر الصبر، ولهذا قال: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

وقوله: ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ يعني: وأذى قليلاً، لكن الأذى الكثير أشد على الإنسان من الأذى القليل، ومع ذلك فإنه مأمور بالصبر فيه، ولهذا قال: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

وتأمّل (ولتسمعن أذىً) ولم يقل ضرراً؛ لأن هذا الذي نسمع يؤذينا ولكن لا يضرنا.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ وهنا فرق بين الأذية وبين الضرر، قد يتأذى الإنسان بالشيء ولا يتضرر منه، ولهذا أثبت الله سبحانه وتعالىٰ أن عباده يؤذونه، أي من عباده من يؤذيه، ونفى أن يكون أحدٌ يضره، فقال الله عزّ وجل في الحديث القدسي: «**يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**»[1]، وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]

---

(١) تقدم تخريجه في الحديث القدسي الطويل: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي...» في المجلد الأول (ص٥٦٠).

فأثبت الأذية، وقال تعالى في الحديث القدسي: «**يؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدهر وأنا الدهر**»[١] فأثبت الأذية أيضاً، أما الضرر فلا. فهنا يسمع المؤمنون من أهل الكتاب ومن المشركين ما يؤذيهم ولكنه لا يضرهم.

ثم قال: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾:

تصبروا على ما سمعتم، وعلى ما ابتليتم به في أموالكم وأنفسكم. والصبر بمعنى الحبس، ومنه قولهم: (قتل صبراً) أي حبساً، يوقف ويحبس ويقتل.

وهو في الشرع: حبس القلب واللسان والجوارح عمَّا يغضب الله عزّ وجل.

قال أهل العلم: والصبر على ثلاثة أقسام:

١ ـ صبرٌ على طاعة الله، وهو أعلى الأقسام.

٢ ـ صبرٌ عن معصية الله، وهو دونه.

٣ ـ وصبرٌ على أقدار الله المؤلمة، وهو دون الاثنين الأوليين؛ لأن الاثنين الأوليين: صبرٌ على شرع الله، والثالث صبرٌ على قدر الله، والصبر على قدر الله يكون من المؤمن والكافر، ومن الناطق والبهيم، لكن الصبر على شرع الله لا يكون إلا من المؤمن، ثم الصبر على المأمور أعلى من الصبر عن المحظور؛ لأن الصبر عن المحظور كفٌّ فقط، والصبر على المأمور فعل؛ فهو إيجاد وعمل، ففيه نوع من الكلفة بخلاف الصبر عن فعل المحظور، فإنه ليس إلا مجرد كفّ، على أنه قد

---

(١) تقدم تخريجه (ص٥٥).

يكون أحياناً بالنسبة للنفس أشد من الصبر على فعل المأمور، فيسهل على بعض الناس مثلاً أن يصلي، لكن يصعب عليه أن يدع ما حرّم الله عليه من الأمور التي تحثه نفسه إليها حثًّا.

صبر الصائم على الصيام، من الأول، وصبره على ألمه الذي يحصل بالجوع والعطش، من الثالث، وصبره عمّا حرم عليه بالصوم من الثاني، ولهذا يسمى شهر رمضان شهر الصبر؛ لأن جميع أنواع الصبر الثلاثة تحصل للصائم، ففيه ـ أي في الصيام ـ صبرٌ على الطاعة، وصبرٌ عن المعصية، وصبرٌ على الأقدار.

ومن الأمثلة: صبر يوسف على إلقاء إخوته إياه في البئر من الثالث، وصبره عن إجابة امرأة العزيز من الثاني، صبرٌ عن المعصية، وصبره على الدعوة إلى الله وهو في السجن من الأول.

يقول: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾:

تتقوا الله عزّ وجل بأن لا تتجاوزوا أو تعتدوا على غيركم، وذلك لأن النفس مجبولة على محبة الانتقام من الغير، فربما إذا سمعت أذى أن تأخذ أكثر من نصيبها، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي تتقوا الله عزّ وجل فلا تعتدوا على الذين أسمعوكم الأذى.

﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾:

أي من معزومات الأمور، فعزم هنا: مصدر بمعنى اسم المفعول، أي من الأمور المعزومة التي تحتاج إلى عزم وإلى همة وإلى مكابدة لأنها شاقة على النفس، والعزم في الأمور من الصفات الحميدة التي وصف بها الكُمّل من الخلق، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فالعزم

لا شك أنه خُلق عالٍ يهبه الله عزّ وجل لمن يشاء، فإذا كان الإنسان عنده عزم في أموره فهذا هو الموفق، أما الإنسان الذي ليس عنده عزم فتجده دائماً في ملل، وفي كسل، وفي تهاون، فإن هذا لا شك خاسر، فالإنسان العازم في أموره هو الرابح دنيا وديناً: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن من البلاغة تأكيد الشيء بما يوجب الاطمئنان فيه؛ لقوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾. والتأكيد يقول علماء البلاغة: «إنه قد يكون حسناً، وقد يكون واجباً، وقد يكون لغواً».

يكون لغواً: إذا لم تدعُ الحاجة إليه، وذلك لأن التأكيد لا بد فيه من زيادة؛ وهي زيادة الحروف التي حصل بها التأكيد، فإذا لم يكن حاجة إليه صار لغواً، ثم إنه أيضاً لغو من حيث المعنى، ولهذا لو أنك أكدت لشخص شيئاً شاهده لعتب عليك، كما لو قلت: والله لقد صليت ركعتين حين دخلت المسجد، وهو يراك ويشاهدك، فإنه سيقول لك: كيف تقسم لي وأنا أشاهدك، هذا لغو من القول.

ويكون حسناً: ـ أي التوكيد ـ إذا كان عند المخاطب شيء مِن التردد، فيحسن أن تؤكِّد له الكلام ليطمئن.

ويكون واجباً: إذا كان المخاطب مُنْكِراً أو فاعلاً فعل المُنْكِر، والمُنْكِر: هو الذي إذا ألقيت إليه الخبر أنكره، وقال: أبداً ما يصح، فهنا يجب أن تؤكد له الكلام، وفاعل فعل المُنْكِر: هو الذي يفعل فعلاً لو كان مصدقاً ما فعله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥] هنا فيه تأكيد

بإن واللام، وهل الموت يحتاج إلى توكيد؟! فكلٌ يعلم أنه سيموت، لكن لما كان فعل أكثر بني الإنسان فعل المُنْكِر حسن التوكيد.

٢ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يتفطن لما فيه من خير وشر ليعلم أنه ابتلاء من الله، ففي الخير يبتلى ليشكر، وفي ضده يبتلى ليصبر.

٣ ـ التأكيد على الحذر من أهل الكتاب اليهود والنصارى والمشركين أيضاً؛ وجهه: أن الله أكَّد لنا أننا سنسمع منهم ما يؤذينا، هذا بالقول، وهم يمكرون بنا بالقول وبالفعل، ولهذا يجب التحرز من اليهود والنصارى، وأن لا نتخذهم أولياء، وأن نعلم أنهم لن يعطونا قرشاً إلا في مقابلة درهم أو أكثر، ولن ينفعونا بشيء إلا وقد ضرّونا بأكثر منه؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ في القرآن الكريم بيَّن عداوة هؤلاء، وأنه لا يجوز اتخاذهم أولياء، وقد ذكر أن اليهود والمشركين أشد الناس عداوة للذين آمنوا. أما قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾، فإن الخطاب هنا في نصارى معينين وصفهم الله بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣] فهل في نصارى اليوم من يكون هذا وصفهم؟ بالعكس بل نجد أنهم يحاربون الدين الإسلامي ربما أكثر من محاربة اليهود؛ لأنه صارت بينهم وبين المسلمين معارك أدمت قلوبهم وأيتمت أولادهم ولن ينسوها، وهي المعروفة بالمعارك الصليبية التي لن ينسوها أبداً، فهم في الحقيقة إذا سمعنا ما ينشرونه من دينهم المنسوخ الذي لا يقبل

عند الله وحرصهم على ذلك، وكونهم يجمعون حتى من العجائز من الأموال ما يقضون به على الإسلام ليدخلوا الناس في النصرانية عرفنا أنهم يسعون بكل وسيلة إلى القضاء على الإسلام، ولهذا يأملون أنه في حدود الألفين من تاريخهم الميلادي ستكون أفريقيا كلها على زعمهم نصرانية، لكن بحول الله الأمر سيكون منقلباً عليهم، وستكون إن شاء الله إسلامية، وسيدحرهم الله عزّ وجل ويردهم على أعقابهم خائبين.

٤ ـ في هذه الآية الكريمة الثناء على الصبر أمام ما نسمعه من أذية الأعداء، وأن لا يردنا ذلك على أعقابنا، وأن نحذر منهم.

وقد اختلف العلماء رحمهم الله: هل هذه الآية منسوخة وأننا نصبر ونتقي إذا كنا عاجزين عن الرد بالمثل، أو هي محكمة؟ والصحيح أنها محكمة، وأنها إنما تكون في حال يكون الصبر فيه على الأذى خيراً، أما إذا كان الأمر بالعكس فالخير مطلوب في جميع الأحوال.

٥ ـ التنبيه على فضيلة العزم في الأمور؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ وكل ما كان الإنسان عازماً في أموره كان ذلك أنجح له وأحسن.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]:

(إذ): ظرف لما مضى، وتأتي في القرآن كثيراً محذوفة

العامل، ويقدره العلماء بقولهم: (اذكر إذ)، أي: واذكر إذ أخذ الله، يعني: اذكر هذا للناس مبيناً ما حصل.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ﴾:

الميثاق: هو العهد الثقيل، وسمي العهد الثقيل ميثاقاً من الوِثاق، وهو الحبل الذي يشد به الإنسان ويربط، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤] يعني الحبل الذي تربطونهم به، وتأسرونهم به، فالميثاق: بمعنى العهد الثقيل، وسمي العهد الثقيل ميثاقاً؛ لأنه كالرباط للمعاهد.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

المراد بهم اليهود والنصارى، أخذ الله عليهم العهد والميثاق، بما أعطاهم من الكتاب أن يبيِّنوه للناس، ولهذا قال: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ اللام موطأة للقسم، أي أخذ عليهم عهداً بهذا.

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾:

هنا قال: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ فكيف يصح قول: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ مع أنه قال: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾؟ الجواب: لأن البيان ضد الكتمان، ولكن نقول: المعنى: لتبيننه بياناً لا كتمان فيه.

والكتمان نوعان: إما إخفاء لبعض الآيات كما قال تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]، وإما تحريف للآيات إلى معانٍ أخرى، فإن هذا يعدُّ كتماً؛ لأن الذي يحرّف الآيات إلى معانٍ أخرى لم يبين الآيات على ما هي عليه بل كتم المعنى الحقيقي المراد إلى معنىً آخر.

ومن ذلك مثلاً: أن النصارى قالوا: إن محمد بن عبد الله

عليه الصلاة والسلام ليس هو الذي بشَّر به عيسى؛ لأن الذي بشَّر به عيسى اسمه أحمد، وهذا اسمه محمد، وهذا كتمان، كتمان معنى.

فإن قال قائل: هل يشعر العالِم بهذا الميثاق وأنه جرى بينه وبين الله عزّ وجل صفقة عهد؟

الجواب: أنه لا يشعر به، لكن إيتاء الله العلم له يعتبر ميثاقاً، فالله تعالى لم يهبه هذا العلم إلا من أجل أن يبيِّنه وإن كان الإنسان لا يستحضر أنه جرى بينه وبين الله عهد.

قال: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾:

نبذوه: أي نبذوا الميثاق، أي طرحوه، ومع ذلك لم يطرحوه بين أيديهم بل طرحوه وراء ظهورهم، وهو كناية عن شدة إعراضهم عما آتاهم الله من الكتاب حيث نبذوه نبذاً ولم ينبذونه أمامهم بل وراء ظهورهم، فيكون هذا أشد في كراهية ما أنزل الله وفي الاستكبار عنه والإعراض عنه.

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

اشتروا به؛ أي: استبدلوا به ثمناً قليلاً، أي بهذا العهد والميثاق ثمناً قليلاً، وما هو الثمن القليل الذي اشتروه؟ هو إبقاء رئاستهم وجاههم وسلطانهم على قومهم؛ لأن هؤلاء الأحبار والقسيسين لو تبعوا محمداً زالت رئاستهم ووجاهتهم وصاروا كعامة الناس، فقالوا: نكذب محمداً ونبقى على ما كنا عليه من الرئاسة والجاه والتقديم، إذن ما هو المبيع، وما هو الثمن؟

المبيع: العهد. والثمن: الجاه والرئاسة وما أشبه ذلك.

ووصف الله هذا بأنه قليل؛ لأن جميع ما في الدنيا قليل،

قال تعالى: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، فهذا الذي استبدلوه هو ثمن قليل زهيد لا يدوم للإنسان، ولا يدوم الإنسان له، بل لا بد من زواله، إما زوال الإنسان وإما زوال الثمن الذي اشتراه.

قوله: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾:

(بئس): فعل ماضٍ جامد، جامد يعني لا يتصرف، والنحويون يسمون الفعل الذي لا يتصرف جامداً؛ لأنه باقٍ على حالٍ واحدة، والمتصرف يسمونه متصرفاً؛ لأنه يشبه المائع الذي يسيل ويسيح، لكن هذا جامد لا يتصرف.

وقوله: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾:

كلمة بئس ونعم وما أشبههما تحتاجان إلى شيئين إلى فاعل ومخصوص بالذم أو بالمدح، فقوله: ﴿مَا يَشْتَرُونَ﴾ هذا هو الفاعل، والمخصوص محذوف والتقدير: فبئس ما يشترون هذا الثمن أو هذا الشراء.

وفي هذه الآية قراءات:

قوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ فيها قراءة: (ليبيننه للناس ولا يكتمونه) يعني بالياء، بدلاً عن التاء.

فعلى القراءة الأولى بالتاء يكون في الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب، وعلى القراءة الثانية يكون الكلام نسقاً واحداً ليس فيه التفات.

والالتفات ذكرنا أن فيه فوائد منها:

التنبيه على هذه الجملة؛ لأن الكلام إذا صار على نسق واحد شرد الذهن، فإذا جاء التفات تنبه.

ومنها: تشويق السامع.

ومنها: أن العدول عن الغيبة إلى الخطاب أشد وقعاً من الغيبة، يعني أن المشافهة بالخطاب أشد وقعاً من المشافهة بالغيبة، ولهذا قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١ ـ ٢] ولم يقل: عبست وهو يريد سبحانه وتعالىٰ النبي ﷺ، لكن أسلوب الغيبة أهون وقعاً من أسلوب الخطاب، وتأملوه في قصة الخضر مع موسى في الجملة الأولى قال له: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢] ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ﴾ وفي الثانية ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ فكانت الثانية أشد وقعاً من الأولى.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الله عزّ وجل أخذ على أهل العلم العهد ببيان العلم وعدم كتمانه؛ لقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ﴾.

٢ ـ التحذير من كتمان العلم؛ لأن الله ذكر ذلك على سبيل الذم لا على سبيل المدح، وقد جاء عن النبي ﷺ: «**من سئل عن علم عَلِمَه ثم كتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار**»[1] نعوذ بالله منه، أي: أنه مَنْ كتم العلم ولم ينطق به فإنه يجعل له يوم القيامة لجام يُلجم به على فمه لسكوته عن بيان العلم.

٣ ـ وجوب بيان العلم على أهل العلم فيبينوا العلم الذي آتاهم الله، ولم يذكر الله عزّ وجل الوسيلة التي يحصل بها البيان، فتكون على هذا مطلقة راجعة إلى ما تقتضيه الحال، قد يكون البيان بالقول، وقد يكون بالكتابة، وقد يكون في المجالس العامة، وقد يكون في المجالس الخاصة، على حسب الحال؛ لأن الله أطلق البيان ولم يفصّل ولم يعيّن.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، رقم (٢٦٤٩).

٤ ـ أنه في الأمور الهامة ينبغي أن يُقرن النفي بالإثبات ليتحقق الكمال؛ لقوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾، ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ ووجه ذلك ما أشرنا إليه قبل، أن البيان عدم الكتمان، لكن لما قال: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ أكد البيان بأن يكون بياناً كاملاً ليس فيه كتمان.

٥ ـ الذم القبيح لأهل الكتاب اليهود والنصارى؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وأنتم تجدون شدة القذف في قوله: (نبذوه) ثم شدة الاستكبار لقوله: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾.

٦ ـ أن هؤلاء الذين نبذوا العهد والميثاق وراء ظهورهم أخذوا بدله ثمناً قليلاً، أي لم يأخذوا مقابله ولا مماثله ولا ما فوقه، لكنهم أخذوا بدله ثمناً قليلاً، مما يدل على خسة هممهم، وأن هممهم دنيئة حيث أخذوا الأدنى بدلاً عن الأعلى.

٧ ـ القدح في هذه الطريقة؛ لقوله: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ ويتفرع على هذه الفائدة تحذير أولئك الذين يحابون الرؤساء والأُمراء والوجهاء والأعيان في ترك بيان العلم؛ لأن الله تعالى أثنى بالقدح واللوم والتوبيخ على من كانت هذه حاله، والواجب البيان حتى عند الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء، بل إن بيان الحق عندهم يكون أوجب، وكلمة الحق عند السلطان الجائر من أفضل الجهاد.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨]:

قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ فيها قراءات: (لا تَحسَبن) بفتح السين،

و(لا تحسِبن) بكسر السين، وفيها قراءة (لا يحسَبن) بالياء بدل التاء، فالقراءات ثلاث: (لا تحسَبن)، (لا تحسِبن) (لا يحسَبن الذين يفرحون)، فعلى قراءة التاء يكون الخطاب موجهاً إما للنبي ﷺ، وإما لكل من يصح أن يتوجه إليه الخطاب، والمعنى الثاني أعم وأشمل، يعني: لا تحسبن أيها المخاطب.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾:

(الذين): محلها من الإعراب أنها مفعول أول لتحسبن، والمفعول الثاني إما أن نقول: إنه محذوف قبل الجملة ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم﴾ ويكون المعنى: لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ناجين، ثم فرَّع عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾، ويحتمل أن قوله: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم﴾ جملة مؤكدة لقوله: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾ وعلى هذا فيكون قوله: ﴿بِمَفَازَةٖ﴾ هو المفعول الثاني، والأول أقرب، أي: لا تسحبنهم ناجين، فلا تحسبنهم بمفازة.

وقوله: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم﴾ فيها قراءتان أيضاً بل ثلاث قراءات: (فلا تَحسِبَنَّهم) و(فلا تَحسَبَنَّهم) و(فلا يَحسِبُنَّهم) أي لا يحسبون أنفسهم بمفازة من العذاب.

يقول الله عزّ وجل: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾:

أي يفرحون فرح أشرٍ وبطرٍ ومنةٍ على الله وعلى رسول الله ﷺ ﴿بِمَآ أَتَوا۟﴾، أي بما أتوا من الأعمال التي يتقربون بها إلى الله على زعمهم.

وقوله: ﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُوا۟ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُوا۟﴾:

أي يحبون أن الناس يحمدونهم على شيء لم يفعلوه مثل:

أن يتظاهروا للناس بالصلاح من أجل أن يثني الناس عليهم ولو لم يفعلوا الصلاح، مثل ما فعل أهل الكتاب كتموا صفة النبي ﷺ ولم يبينوها؛ فقالوا: الآن غلبنا محمداً حين قلنا: إنه ليس هو المبشر به، ففرحوا بما أتوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، كذلك المنافقون يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فأما المسلم إذا فرح بما أنعم الله عليه من العمل وأحب أن يُحمد بما يفعل لا رياء ولكن من طبيعة البشر أنه يحب أن يحمده الناس، فإن هذا لا يدخل في الآية، فالذي يدخل في الآية صنفان:

الصنف الأول: أهل الكتاب الذين فرحوا بما أتوا من كتمان صفة النبي ﷺ وعدم الإيمان به، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا حيث يتظاهرون للناس بأنه لو جاء الرسول الذي بشَّر به عيسى لآمنا به.

والصنف الثاني: المنافقون، فإن المنافقين يفرحون بما أتوا ويقولون: نحن أسلمنا أمام محمد وأصحابه وهم على العكس من ذلك، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من الإخلاص والمحبة لله ورسوله واتباع رسوله ﷺ.

قال: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾:

المفازة: مكان الفوز، أي لا تحسبنهم بمكان يفوزون به وينجون به من العذاب، بل هم منغمسون في العذاب والعياذ بالله.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

الجملة هذه استئنافية، لمّا بيَّن أنهم ليسوا بمفازة من

العذاب وليسوا ناجين أكَّد هذا بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أليم بمعنى مؤلم، فهي فعيل بمعنى مُفعل، وفعيل بمعنى مُفعِل تأتي في اللغة العربية كثيراً، ومنه قول الشاعر:

أمن ريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

بمعنى: المُسْمِع!!

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تحذير من يفرح بما أتى فرح منةٍ أو فرحَ غدرٍ وخيانةٍ كالمنافقين.

٢ ـ التحذير من محبة الإنسان أن يُحمد بما لم يفعل، وهذا يقع كثيراً، أحياناً يصرح الإنسان بأنه عمل عملاً وهو كاذب، وأحياناً يورّي فيظن السامع أنه فاعل وهو لم يفعل، أما الأول كأن يقول مثلاً: صليت البارحة آخر الليل ودعوت الله وهو كاذب، لكن من أجل أن يُحمد على ذلك، أو يقول: رأيت فقيراً فتصدقت عليه، أو يقول: طبعت كتاباً، أو أنقذت غريقاً، أو ما أشبه ذلك وهو كاذب، هذا قسم صرّح بما لم يفعل، وأحياناً يورّي فيتظاهر أمام الناس أنه فعل وهو لم يفعل، فالذي يسمع كلامه يقول: هذا هو الفاعل وهو لم يفعل. وكلاهما مذموم، أما من أحب أن يُحمد بما لم يفعل ولكنه لم يتظاهر أمام الناس بالشيء ليُحمد عليه فهذا لا يضر؛ لأن كل واحد يحب أن يحمد وإن لم يفعل، ولكن إذا حُمد على فعل وهو متظاهر للناس بأنه فعل فهذا مذموم.

٣ ـ أن من كان على هذا الحال فلن ينجو من العذاب؛ لقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

٤ ـ إثبات العذاب الأليم لمن هذه حاله، وقد عرفتم أنها منطبقة على صنفين من الناس: أهل الكتاب الذين كتموا صفة الرسول عليه الصلاة والسلام، والثاني: المنافقون.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩]:

قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ الجار والمجرور خبر مقدم.

﴿مُلْكُ﴾: مبتدأ مؤخر.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: جملة استئنافية.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

ملك السموات أي ملك الأعيان وملك التصرف، فهو مالك لأعيانها، وهو مالك للتصرف فيها. قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]:

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ يعني على سبيل الاستقلال، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ على سبيل المشاركة، ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي ما لله، ﴿مِنْهُم﴾ أي من هؤلاء الآلهة التي تدعونها، ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي من معين، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أي لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه.

هذه الآيات يقولون: إنها قَطَّعت علائق المشركين الذين يعبدون الأصنام والأوثان؛ لأنه يقول: هذه الأصنام هل لها ملك مستقل في السموات والأرض؟ هل شاركت الله؟ هل أعانته؟ هل

تنفع شفاعتها بدون إذنه؟ الجواب بالنفي، وعلى هذا فلا تنفعهم عبادة هذه الأصنام.

وقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني السبع، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ للجنس فتشمل الأرضين السبع.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾:

والقدرة هي التمكن من الفعل بلا عجز، فالتمكن من الفعل بلا عجز يسمى قدرة، والتمكن من الفعل بلا ضعف يسمى قوة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤] فقابل الضعف بالقوة، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، فقابل القدرة بـ ﴿لِيُعْجِزَهُۥ﴾ بالعجز، فالقدرة ضدها العجز، والقوة ضدها الضعف.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾:

عام في كل شيء، فما من موجود إلا والله قادر على إعدامه، وما من معدوم إلا والله قادر على إيجاده، وما من موجود إلا والله قادر على تغييره وتحويله من شيء إلى آخر، إذن هو على كل شيء قدير، وهو قادر على أفعاله يفعل ما يشاء، وهو قادر على ذاته.

يقولون: إن ذات الله عزّ وجل إذا قصدْتَ أن الله قادر على إعدامها مثلاً، فإن هذا لا تتعلق به القدرة أصلاً؛ لأنه من المستحيل، ولهذا قال السفاريني رحمه الله في عقيدته:

له الحياة والكلام والبصر ... سمعٌ إرادةٌ وعلمٌ واقتدر
بقدرةٍ تعلقت بممكن ... كذا إرادةٌ فعي واسْتَبِن

ولكن مع ذلك فإن من الأدب أن نقول: إن الله على كل شيء قدير ونسكت ولا نفصل؛ لأن الآيات التي جاءت بهذا عامة، ولا تقل: إن الله لا يقدر على الشيء المستحيل؛ لأن المستحيل أصلاً لا يتعلق به الفعل، يعني مثلاً: السكون والحركة هل يمكن أن يجتمعا؟ لا يمكن؛ لأنه إن تحرك لم يكن ساكناً، وإن سكن لم يكن متحركاً، إذن، الله سبحانه وتعالىٰ قادر على أن يجعل الساكن متحركاً، والمتحرك ساكناً، فإذا قال قائل: هل يمكن أن يجعل الله المتحرك ساكناً؟ الجواب: نعم يحول المتحرك إلى ساكن أو يجعل الساكن متحركاً، لكن أن يجعل الشيء متحركاً وساكناً في آنٍ واحد فهذا لا يمكن أصلاً؛ لأنه ما دام متحركاً فيساوي عدم سكون، وما دام ساكناً فيساوي عدم حركة، فبمجرد ما يتحرك انتفى عنه السكون، وبمجرد ما يسكن انتفت عنه الحركة.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن ملك السموات والأرض خاص بالله عزّ وجل، ووجه تقديم الخبر القاعدة التي تقول: «أنه إذا قدّم ما حقّه التأخير كان ذلك دليلاً على الحصر».

٢ ـ أن الملك المطلق لله وحده؛ لأنه قدَّم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ﴾، وتقييدنا الملك «بالمطلق» ينفي توهم التعارض بين قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ حيث حصر الملك له وحده، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦] وقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١]. ووجه ذلك: أن الملك المضاف إلى المخلوق ملك مقيد «ليس ملكاً مطلقاً».

ودليل هذا: أن هذا المالك المخلوق لو أراد أن يتصرف بماله على خلاف ما جاءت به الشريعة كان ممنوعاً من هذا ولا يملكه، والله جل وعلا يملك ملكاً عاماً شاملاً يستغني به عن غيره.

٣ ـ الإشارة إلى أنه لا يجوز للإنسان أن يتصرف في ملكه إلا على حسب إذن الشارع؛ لأن كون الملك لله يدل على أن تصرفنا فيه إنما يكون بطريق الوكالة، يتقيد بما أُذِن له فيه، ولهذا لو وكلت شخصاً على بيع بيت لا يملك أن يؤجره؛ لأنه إنما وُكِّل على البيع فقط. والمالك الذي يملك البيت لم يأذن له في التأجير، إنما أذن له في البيع. فنحن باعتبار ما ملكت أيماننا لا نملكها ملكاً مطلقاً نتصرف فيها كيف شئنا، وإنما تملّكنا لها تملك مقيد.

٤ ـ أن الشيء العام للخلق ليس ملكاً لأحد؛ وهو الذي أخرجه الله عزّ وجل، وليس من صنع إنسان، فهو ليس بملكٍ لأحد إلا مَنْ سبق إليه بمقتضى النصوص الشرعية، ووجه ذلك أن الله جعل ملك السموات والأرض له، فإذا كان له، فإنك لا تملك شيئاً من أرضه إلا على الوجه الذي أذن فيه.

٥ ـ عموم قدرة الله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وأنت إذا قرأت هذه الآية وطبقتها على ما يريده بعض أهل الباطل من التشكيك في الشريعة فإنك تستريح؛ مثلاً يقول بعض الملحدين الذين لا يؤمنون باليوم الآخر: كيف يعود الإنسان إنساناً بعد أن كان تراباً؟.

وجوابنا على هذا سهل أن نقول: إن هذا من قدرة الله ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٦ ـ أن من آمن بهذا ـ أي بأن الله على كل شيء قدير ـ فإنه يطرد عنه اليأس؛ لأن الإنسان قد يصاب بمرض مثلاً فييأس من برئه بعد العلاج، فيقال له: لا تيأس إن الله على كل شيء قدير، وأنت إذا أراد الله أن يبقي المرض بك فقد يكون خيراً لك؛ لأنك تكسب من ورائه الثواب من الله عزّ وجل. فإنه لا يصيب المؤمن من همٍّ ولا غمٍّ ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله به ـ يعني من ذنوبه ـ. فأنت لا تيأس إذا أصابك مرض لا يرجى زواله مثلاً، فإن الله على كل شيء قدير.

٧ ـ أن ما أخبر الله به عن نفسه من الأمور والآيات فإنها حق؛ لأن الله على كل شيء قدير، فلو قيل: كيف ينزل إلى السماء الدنيا وهو على العرش؟! فنقول: الله على كل شيء قدير، وليس لك أن تعارض ما أخبر به رسول الله ﷺ عن ربِّه في أحاديث متواترة بمجرد وَهْمٍ.

❁ ❁ ❁

□ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١]:

قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

هذه الجملة مؤكدة (بإن)، وفيها اختلاف في ترتيب الجزأين أعني: «جزأي المبتدأ والخبر» وهو تقديم الخبر في قوله: ﴿فِي

خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هذا الخبر، ثم إن فيها مؤكداً آخر غير ﴿إِنَّ﴾ وهو (اللام) في قوله: ﴿لَأَيَٰتٍ﴾.

يقول الله عزّ وجل مؤكداً مضمون هذه الجملة الخبرية: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

الخلق: «هو الابتداع على غير مثال سبق». يعني: إيجاد الشيء على غير مثال سبق يسمى خلقاً. وفي خلق السموات والأرض آيات من عدة أوجه:

الوجه الأول: من جهة الكبر والسعة.

الوجه الثاني: ما فيهما من الحسن والبهاء والجمال، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]. والذي يطّلع على ما صوَّره العلماء من هذه الآيات العظيمة يتبين له عظمة الله عزّ وجل في هذا الخلق.

الوجه الثالث: في خلق السموات من جهة إتقانها وعدم تخلخلها، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣ ـ ٤].

الوجه الرابع: في خلق السموات والأرض مما أودع الله فيهما من المواد المتعددة المختلفة الأنواع والأشكال والمنافع، كما قال الله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد: ٤] يعني متجاورات بعضها إلى جوار بعض ولكن بينهما من الاختلاف ما لا يعلمه إلا الله.

فيهما أيضاً ما فيهما من المنافع العظيمة للخلق. فالشمس فيها خير عظيم، والقمر كذلك، والأشجار وغيرها كلها فيها خيرات عظيمة من آيات الله عزّ وجل.

فأنت ترى النخيل على أرض واحدة، وتسقى بماء واحد، ويفضل الله بعضها على بعض في الحجم واللون والمذاق والادخار، وهي جنس واحد لكنها مختلفة، والآيات في هذا كثيرة. لو أن الإنسان جلس يتدبر ويتأمل ويكتب كل ما يعبر على خاطره لجمع آيات كثيرة في هذا، ونحن مأمورون أن نتدبر ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مأمورون بأن نتدبر ما في السموات والأرض من الآيات، لنستدل بها على كمال قدرة الله عزّ وجل وما في ذلك من الحكم العظيمة والرحمة.

وقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

هذا هو التعبير القرآني الغالب: وهو أن الله تعالى يذكر السموات مجموعة والأرض مفردة، ولم يأت في القرآن الكريم التصريح بعدد الأرض، بخلاف السماء فقد جاء التصريح بأنها سبع سموات، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦].

أما الأرضون فجاءت مشاراً إليها بأنها سبع؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] أي في العدد لا في الكيفية ولا في الماهية.

وجاءت السنة صريحة في هذا في قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**من اقتطع شبراً من الأرض طوّقه الله به يوم القيامة من سبع أرضين**»(١).

---

(١) تقدم تخريجه في المجلد الأول (ص٤٦٧).

وقوله: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾:

أيضاً هذا فيه آيات. اختلاف الليل والنهار على أي وجه من الاختلاف يراد؟!.

الجواب: أنه يراد اختلافهما من وجوه شتى:

أولاً: من جهة أن الليل ظلمة والنهار نور، وهذا من آيات الله. قال الله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٣].

فهذا من آيات الله: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾ [الإسراء: ١٢].

ثانياً: كذلك أيضاً اختلافهما من جهة الطول والقصر. أحياناً يطول الليل، وأحياناً يطول النهار، وأحياناً يتساويان. ولا أحد يستطيع أن يقوم بهذا، فهو من آيات الله. ولو أن أهل الأرض كلهم اجتمعوا على أن يدخلوا من الليل جزءاً في النهار ما استطاعوا ولا العكس. فهذا من آيات الله.

ثالثاً: اختلاف الليل والنهار يدخل فيه اختلافهما حَرًّا وبرداً، أحياناً يكون هذا حاراً وهذا بارداً، وأحياناً يتساويان.

رابعاً: ومن ذلك أيضاً اختلافهما في الرخاء والشدة. أحياناً تمرُّ بك الأيام رخاء، وأحياناً تمر بك الأيام شدة.

خامساً: من هذه الآيات: اختلافهما في العز والذل والنصر والخذلان. ينصر أحياناً أقواماً ويخذل هؤلاء الأقوام في آنٍ آخر،

وهكذا فإن الليل والنهار فيهما آيات، تختلف باختلافهما في ذاتهما وفيما يقع فيهما، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ولو تأمل الإنسان لوجد أكثر مما ذكرنا من اختلاف الليل والنهار.

وقوله: ﴿لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:

آيات: جمع؛ لأنها متنوعة ومتعددة ولكنها لا يفهمها ولا يتخذها آيات إلا أولو الألباب، ولهذا قال: ﴿لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: لأصحاب العقول.

وسمي العقل لبًّا: لأنه «خالص الإنسان»، كما أن «اللب خالص الحبة»، فالإنسان بعقله، والعقل ليس هو الذكاء كما قد يتبادر بأذهان كثير من الناس، ولكن العقل هو: «الرشد في التصرف». فكلما كان الإنسان أشد رشداً وتصرفاً كان أعقل. وليس كلما كان أذكى فهو أعقل؛ لأنه قد يكون من الأذكياء من هو أبعد الناس عن العقل، ولهذا يمكن أن نقول لصناديد الكفرة الممتلئين ذكاءً نقول: إنهم غير عقلاء وإن كانوا أذكياء.

قال الله لبني إسرائيل: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] مع أنهم عندهم ذكاء.

فأصحاب الألباب: هم الذين يعرفون ما في هذه الأشياء الأربعة من الآيات العظيمة، خلق السموات، خلق الأرض، اختلاف الليل، اختلاف النهار.

ثم بيَّن الله تعالى ما يتصف به هؤلاء فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾، وهذه صفة مبينة، وعليه فإن لنا أن نجعلها «عطف بيان» ولنا أن نجعلها «صفة مبينة لحالها».

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾:

يعني: يذكرون الله على كل حال قياماً «وهي أعلى ما يكون الجسد عليه»، وقعوداً «وهي مرتبة بين القيام والاضطجاع». والثالثة: على جنوبهم.

يذكرون الله سبحانه وتعالىٰ بالتأمل في هذه المخلوقات، كلما رأوا شيئاً استدلوا به على كمال حكمة الله وقدرته وعلمه، وهذا ذكر.

يذكرون الله بألسنتهم بالتهليل والتسبيح والتكبير وقراءة القرآن وغير ذلك.

يذكرون الله بجوارحهم بالقيام والقعود والركوع والسجود في الصلاة وبالطواف بالبيت، وبالوقوف بمزدلفة، وبالوقوف بعرفة. وبالوقوف بمنى لرمي الجمار. كل عبادة تتعبد لله تعالى بها هي عبادة فعلية وهي من ذكر الله؛ لأنك تريد بها وجه الله. وبذلك تكون ذاكراً له.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾. نعم يذكرون الله على جنوبهم بالقلوب والجوارح؛ لقول النبي ﷺ لعمران بن حصين: «**صلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب**»[(١)].

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

يتفكرون: التفكر: «إعمال الفكر». وذلك بأن يفكر في خلق السموات والأرض، لأي شيء خلقت؟! وكيف خلقت؟! وكيف رفعت السماء؟! وكيف سطحت الأرض؟! وما أشبه ذلك، فهم

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب تقصير الصلاة، رقم (١٠٦٦)، وهو في سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب صلاة القاعد، رقم (٩٥٣)، وفي سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في صلاة المريض، رقم (١٢٢٣).

يعملون أفكارهم، ثم يتفكرون هل هذه السموات والأرض خلقت نفسها أم كانت مخلوقة؟

يستنتجون بهذا التفكير أن السموات والأرض كانتا غير مخلوقتين؛ لأنهم بالتفكير يطلعون على ما لا يطلع عليه غيرهم.

وقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾:

هذه الجملة مقول لقول محذوف. يعني: (يقولون ربنا ما خلقت هذا باطلاً).

يعني: بعد أن يتفكروا في خلق السموات والأرض تحصل لهم هذه النتيجة المباركة ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾.

قوله: ﴿مَا خَلَقْتَ﴾ هذه نافية.

وقوله: ﴿بَٰطِلًا﴾ حال لازمة لو حذفت لفسد الكلام. وعلى هذا فتكون لازمة، والقاعدة في الحال اللازمة «هي التي لو حذفت لفسد الكلام». لأنه لو حذفت ﴿بَٰطِلًا﴾ لكان اللفظ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا﴾ مع أنه خلق، وكم من «جملة حالية» أو «مفرد حال» صار لا بد منه في الكلام، وتسمى هذه «حال لازمة».

وقوله: ﴿بَٰطِلًا﴾ حال من ﴿هَٰذَا﴾ ﴿هَٰذَا بَٰطِلًا﴾، ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف أي: خلقاً باطلاً.

وقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾:

يعني: يا ربنا، فهو منادى منصوب بياء النداء المحذوفة.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ سبحان اسم مصدر منصوب على المفعولية المطلقة، وعامله محذوف، والتقدير من حيث المعنى: «نسبحك تسبيحك» أي: «ننزهك تنزيهك اللائق بك». وأصل التسبيح:

التنزيه والإبعاد عن السوء؛ ومنه قولهم: «تسبح فلان»، يعني بَعُد ونزل في الماء يسبح.

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك أن تخلق هذه السموات والأرض باطلاً، وقد بيَّن الله في آيات أخرى أن من ظن أن الله خلق شيئاً باطلاً فقد أخذ بظن الكفار.

الدليل قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]. ولهذا قال: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ «الفاء» هذه مفرِّعة للجملة الثانية عن الأولى، و«قِ» فعل أمر مكون من حرف واحد لأنه فعل ناقص، وأوله حرف علة. والفعل الثلاثي الناقص الذي أوله حرف علة يكون عند الأمر أو الجزم على حرف واحد فتقول: «قِ» مأخوذ من «وقى»، «عِ» من «وعى»، «دِ» من الدية من «ودىٰ» ولها أمثلة كثيرة ذكرها الخضري رحمه الله في حاشيته على شرح «ابن عقيل على الألفية».

وهذه الحاشية أعني حاشية الخضري على شرح ابن عقيل من أحسن الحواشي التي كتبت على شروح ألفية «ابن مالك»، لأنه متأخر وجمع أقوال من سبقه، وله تحرير جيد في بعض الأشياء التي يحررها، فأشير بها على كل من أراد أن يقرأ ألفية «ابن مالك» وشرحها «لابن عقيل». فإن هذه الحاشية مفيدة، وقد ذكر عدة أمثلة للفعل الثلاثي المبدوء بحرف علة المختوم بحرف علة بأنه تحذف منه العلتان.

والنحويون يقولون: ما أوله حرف علة فهو «مثال». وما وسطه حرف علة فهو «أجوف». وما آخره حرف علة فهو «ناقص» أو «مقصور».

﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾:

«قنا» مأخوذ من الوقاية. أي: قنا عذاب النار بما تشاء؛ إما بعدم إدخالنا فيها، يعني: أن لا ندخلها أصلاً، أو بإخراجنا منها بالشفاعة؛ لأن المؤمن الفاسق يستحق دخول النار على فسقه ثم بعد ذلك يخرج منها، وقد يعفو الله عنه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ الحث على التأمل في خلق السموات والأرض؛ لأن الله ذكر أن فيهما آيات. والآيات هي: العلامات، وكلما ازدادت الآيات وضوحاً ازداد الإيمان قوة.

٢ ـ النظر إلى خلق السموات والأرض على الوجه التي ذُكرَ في التفسير، من حيث ذواتهما ومنافعهما وما فيهما من الخير والمصالح حتى لا يذهب ذاهب إلى أنها خلقت عبثاً.

٣ ـ الإشارة إلى اختلاف الليل والنهار من رخاء إلى شدة وبالعكس، ومن حرب إلى سلم، ومن عزٍّ إلى ذلٍّ، ومن فقر إلى غنى وبالعكس في هذه الأمور.

٤ ـ الثناء على أصحاب العقول؛ لأن الله جعل هذا الاختلاف لذوي العقول. أما من لا عقل له فإنه لا ينتفع بهذه الآيات، ولا يعتبر بها وتمرُّ عليه وكأنها مظاهر طبيعية لا علاقة لفعل الله تعالى بها، وهذا ـ والعياذ بالله ـ من الطمس على القلوب وعمي الأبصار؛ لأن هذا الكون على هذا النظام البديع لا يمكن أبداً أن يقع إلا من رب حكيم عزّ وجل، ولا يمكن أن يقع من فاعل على وجه السفه أبداً.

٥ ـ أن الربَّ عزّ وجل أظهر آياته لخلقه مع أن مجرد الإيمان بأن الله تعالى حي موجود يكفي؛ لكن كلما تعددت الأدلة والآيات ازداد الشيء يقيناً، ودليل هذا أن إبراهيم قال لله عزّ وجل: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. فالإنسان قد يكون مؤمناً ولا إشكال عنده في الأمر لكن يحتاج إلى من يطمئنه.

٦ ـ الثناء على العقل، وهو عقل الرشد لا عقل التكليف؛ لقوله عزّ وجل: ﴿لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٧ ـ أنه كلما كان الإنسان أعقل كان بالله وآياته أعلم؛ لقوله: ﴿لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ والحكم المعلق على وصف يثبت لثبوته ويعدم لعدمه، فإذا كان أصحاب العقول هم الذين ينتفعون بهذه المخلوقات ويستدلون بها على الخالق عزّ وجل وعلى ما له من صفات الكمال، فإن مَن عقله عقل بهيمي لا ينتفع بهذه الآيات؛ لأنه ليس من ذوي الألباب.

فإن قال قائل: العقول هبة من الله عزّ وجل فكيف يذم الإنسان على فقدها أو يمدح على وجودها؟!

فالجواب: أن العقل ـ أعني عقل الرشد ـ نوعان: عقل غريزي وعقل اكتسابي؛ فالعقل الغريزي لا يحتاج إلى تأمل وتفكر، وأما العقل المكتسب فإنه يحتاج إلى تأمل ونظر وتفكر، لأنه كلما ازداد تفكره ازداد إيمانه ويقينه ورشده.

٨ ـ الثناء على ذوي العقول؛ لأن الله جعل هذه الآيات نافعة لأولي العقول، وعلى هذا فينبغي لك أن تكرس جهودك

على التأمل المبني على العقل، حتى يكون عندك عقل غريزي وعقل مكتسب.

٩ ـ أن ذكر الله عزّ وجل من لوازم العقل ومقتضياته؛ لقوله: ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾.

١٠ ـ فضيلة إدامة الذكر؛ ذكر الله عزّ وجل على كل حال؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ وكان أبلغ مَنْ وفَّى بهذا حقه عزّ وجل رسول الله ﷺ، قالت عائشة رضي الله عنها: «**كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه**»[1].

١١ ـ جواز ذكر الله تعالى للجنب: أي أنه يجوز للجنب أن يذكر الله لدخوله في العموم ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

١٢ ـ أن ذكر الله في حال كون الإنسان على جنب لا يعد استهانة بالذكر، وكذلك قراءة القرآن، (**وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن متكئاً في حجر عائشة وهي حائض رضي الله عنها**)[2].

١٣ ـ فضيلة التفكر في خلق السموات والأرض؛ لقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولكن التفكر المقرون بقول: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ لا التفكر الذي يراد به الاطلاع على العلم المادي فقط في خلق السموات؛ لأن هذا التفكر وإن كان

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها، رقم (٣٧٣).

(٢) انظر سنن النسائي، كتاب الطهارة، باب في الذي يقرأ القرآن ورأسه في حجر امرأته، رقم (٢٧٤).

يفيد الإنسان في الدنيا، لكنه لا يفيده في الآخرة. لا بد أن يكون التفكر هذا منتجاً هذا القول والإقرار: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾.

١٤ ـ أنه إذا أثنى على المتفكرين في الخلق، فالمتفكرون في الشرع من باب أولى؛ لأن الشرع ليس أمراً محسوساً، فالتفكر فيه أبلغ في الإيمان من التفكر في الخلق. الخلق أمر محسوس كل إنسان يدركه، لكن حِكم وأسرار الشرائع ليس لكل أحد أن يدركها.

١٥ ـ التوسل إلى الله تعالى بالربوبية حال الدعاء، وأكثر ما يكون التوسل به من أسماء الله بالدعاء هو الربوبية؛ لأن الربوبية بها الخلق والملك والتدبير، فلهذا نجد أن أكثر ما يدعى به الربوبية؛ اسم الربوبية، أو وصف الربوبية.

١٦ ـ انتفاء الباطل في خلق الله نفياً مطلقاً، وذلك من قوله: ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾، وإذا انتفى الباطل نفياً مطلقاً ثبت الحق كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٣٩].

١٧ ـ إثبات ما أثبته أهل السنة من أن من صفات الله ما هو منفي أو ما هو سلبي؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾.

والقاعدة عند أهل السنة: «أن الصفات المنفية لا يراد بها مجرد النفي وإنما يراد بها النفي مع إثبات كمال الضد»؛ لأنه لثبوت كمال الضد انتفى هذا الوصف.

١٨ ـ الإقرار من هؤلاء العقلاء بأن الله هو الخالق: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ وهو من تقرير توحيد الربوبية.

١٩ ـ إثبات الحكمة في أفعال الله؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾؛ لأنه لو خلقها باطلاً لانتفت الحكمة، فإذا انتفى الباطل ثبتت الحكمة، وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة من أن أفعال الله وشرائعه كلها لحكمة ليس فيها شيء عبث إطلاقاً، وما خفيت علينا حكمته فهو لقصور أفهامنا وليس لانتفاء الحكمة فيه؛ لأن الله قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. ونحن نؤمن بأن الله عزّ وجل لا يحكم بشيء حكماً كونياً ولا قدرياً إلا لحكمة.

٢٠ ـ تنزيه الله عزّ وجل عن كل عيب ونقص، مأخوذ من قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾. والذي ينزّه الله عنه شيئان: «النقص»، «ومماثلة المخلوقات»، حتى فيما هو كمال في المخلوقين، فإن الله منزه عن مماثلتهم، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] فكل نقص قد تعالى الله عنه.

٢١ ـ أن صفوة الخلق محتاجون إلى الدعاء للوقاية من النار؛ لقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

٢٢ ـ إثبات التوسل في الدعاء بصفات الله من قوله: ﴿فَقِنَا﴾ لأنهم بنوا ﴿فَقِنَا﴾ على قولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا﴾ يعني: أننا نتوسل إلى الله عزّ وجل بتنزُّهه عن النقص أن يقينا عذاب النار؛ لأننا مؤمنون؛ لقوله: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ويقرون بأنها خلقت بالحق وللحق، وينزهون الله عزّ وجل عن كل نقص وعيب.

وينبني على ذلك أنهم جعلوا ذلك وسيلة لوقاية الله تعالى

إياهم من النار ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا﴾؛ لأنه من المعروف في اللغة العربية أن «الفاء» تدل على تفرع ما بعدها على ما قبلها.

٢٣ ـ إثبات النار وهي دار المجرمين والعصاة والظالمين والكفرة؛ لقوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

٢٤ ـ في الآية الكريمة كلمتان لا يجوز فصل إحداهما عن الأخرى، وهي قوله: ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ فلو قلت: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا﴾ وسكتَّ أوهم معنىً فاسداً، ولهذا يجب الوصل ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾. وهذا مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣] لا بد أن تصل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣] لو قلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٤٣] فقط لفسد المعنى.

ومثل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥] لا بد أن تصل فتقول: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، وذلك لأنك لو سكت لأوهم أن الوعيد لمن يصلي.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال الله عزّ وجل: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران ١٩٢]:

هذه الآية كالتعليل للدعاء السابق ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ لأن من أدخلته النار فقد أخزيته.

﴿رَبَّنَآ﴾ هذه منادى حذفت منها «ياء النداء»، والتقدير: «يا ربنا».

﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ﴾:

إن واسمها في «إنك»، والجملة الشرطية ﴿مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ في محل رفع خبر «إن».

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾:

مبتدأ وخبر، الخبر مقدم، و«الأنصار» مبتدأ مؤخر وهو مجرور بـ «من» الزائدة «من أنصارٍ»، والتقدير: (وما للظالمين أنصار). هذا إعراب الآية.

يقول هؤلاء السادة العقلاء: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾.

«مَن» تشمل العصاة والكفار؛ فالعصاة مستحقون لدخول النار، وإذا أُدخلوا النار فإنهم غير مظلومين؛ لأنهم مستحقون لذلك، والكفار مستحقون لدخولها على وجه التأبيد والتخليد، وكل منهم إذا أُدخل النار فقد أخزاه الله أمام العالم، أي: فضحه وهتك سره.

وقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾:

هنا إظهار في موضع الإضمار، فإن مقتضى السياق أن يقول: (وما لهم من أنصار)، ولكنه أظهر في موضع الإضمار لثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: أن هؤلاء الذين يدخلون النار مستحقون لهذا الوصف، أي: وصفهم بالظلم.

الفائدة الثانية: العموم؛ أن كل ظالم حتى وإن لم يدخل النار إذا أراد الله أن يعاقبه فإنه لن يجد من ينصره.

الفائدة الثالثة: إثبات العلة في الحكم، فلو قال: (وما لهم من أنصار) لم يتبين لنا أن السبب لأنهم ظلموا أنفسهم، فإذا وصفهم بهذا فكأنه بيَّن الحكم بعلته.

وقوله: ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ يعني: من أعوان؛ لأن الناصر بمعنى المعين. وسواء كان العون في دفع العذاب عنهم أو في تخليصهم منه، فلا أحد ينصرهم عند إدخالهم فيمنعهم، ولا أحد ينصرهم إذا سقطوا فيها فيخرجهم. قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقد يستدل بعض الخوارج بهذه الآية: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ على أن من دخل النار فهو منزوع الإيمان؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [التحريم: ٨]، فالرد عليهم: أنه ليس فيه دليل على هذا؛ لأن الخزي قد يكون عاماً دائماً، وهذا لأهل النار الذين يستحقون الدوام فيها، وقد يكون خزياً جزئياً يفضح به ثم يزول عنه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ فقه هؤلاء السادة أولي الألباب حيث بيَّنوا سبب دعائهم أن يقيهم الله من النار، وأن سبب ذلك هو أن النار دار الخزي والعياذ بالله ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾.

٢ ـ إثبات النار؛ لقوله: ﴿مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ﴾.

٣ ـ أنه لا نصير للظالم وذلك في الآخرة، أما في الدنيا فقد ينصر الظالم، ولكن تدور عليه الدوائر، أما في الآخرة فلا أحد ينصره.

٤ ـ أن الظلم سبب دخول النار؛ لقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ بعد قولهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]:

نقول في: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا﴾ مثل ما قلنا في: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ﴾ أو ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أي: أنها منادى حذف منها «ياء النداء».

﴿إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾:

سمعوا منادياً ينادي للإيمان، جملة (ينادي للإيمان) صفة لقوله: (منادياً) لكن فائدتها أنها بيَّنت ماذا ينادي له؛ وذلك أن المنادى قد ينادي لكذا ولكذا، فبيّنت ماذا ينادي له. فهي إذن صفة لـ«منادياً».

وقوله: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾:

«أن» هذه تفسيرية؛ لأنها جاءت بعد جملة تتضمن معنى القول دون حروفه، وكل «أَنْ» تقع بعد جملة تتضمن معنى القول دون حروفه فإنها تسمى تفسيرية، فهي بمعنى «أي» ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧] يعني: «أي اصنع الفلك». «فأَنْ» هنا تفسيرية.

وقوله: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾:

«الفاء» هذه عاطفة ولكنها تفيد السببية؛ لأنها عطفت جملة على جملة.

وقوله: ﴿سَيِّـَٔاتِنَا﴾: بالكسر مع أنه مفعول به؛ لأنها «جمع مؤنث سالم».

وقوله: ﴿مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ ظرف، ولكن هنا المراد بالمعية المعية الحكمية لا الزمنية؛ لأن ميتات الأبرار تختلف.

يقولون: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾: قالوا ذلك تحدثاً بنعمة الله على ما أنعم به من إرسال هذا المنادي.

وقولهم: ﴿سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾: المنادي أصله: «المصوِّت» لأن النداء هو رفع الصوت، ولكن المراد به محمد ﷺ، وسماعهم له يقع على وجهين: أحدهما: أن يسمعوا صوته مباشرة بدون واسطة.

والثاني: أن يسمعوا من ورثته ما جاء به، وهم العلماء، وكل هذا داخل في الآية؛ يعني السماع المباشر الذي سمعوه من صوته، والسماع غير المباشر الذي سمعوه بالواسطة من ورثته وهم العلماء.

وقوله: ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾:

قد يقول قائل: إن المتوقع أن يقال: إلى الإيمان، فيقال إليه، ولكنه أتى باللام؛ لأن اللام ألصق من «إلى»، إذ إن «إلى» تفيد الغاية، والغاية لا بد لها من مغيَّى، والمغيَّى طرف فهو مؤمن بالبعد. أما «للإيمان» فهي للإلصاق فتكون ألصق من «إلى».

وقوله: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ هذا بيان للإيمان الذي دعا إليه الرسول عليه الصلاة والسلام، ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾:

الإيمان بالله عزّ وجل: هو الإقرار المتضمن للقبول والإذعان وليس مجرد الإقرار، ولو كان الإيمان مجرد الإقرار لكان أبو طالب مؤمناً لأنه مقر، ولكنه لا يكون إيماناً حتى

يتضمن القبول والإذعان، يعني الانقياد، فأما إذا لم يقبل أو قبل ولم يذعن فإنه ليس بمؤمن.

وقوله هنا: ﴿أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ قد يقول قائل: هل الإيمان يقتصر على ركن واحد؟ وهو الإيمان بالله.

فالجواب: أن من آمن بالله آمن بكل ما أخبر الله به ومنه بقية الأصول الستة: «ملائكة الله، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خير وشره».

فعلى هذا يكون الإيمان بالله متضمناً للإيمان ببقية أركان الإيمان، ويكون ذكرها أحياناً مفصلة من باب التفصيل والبيان وليس من باب التخصيص، فإن الإيمان بالله يتضمن هذا كله.

﴿أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾: يعني أقررنا بذلك مع الانقياد والقبول والإذعان.

﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا﴾: أي: بسبب إيماننا اغفر لنا ذنوبنا. و«المغفرة»: هي ستر الذنب والتجاوز عنه، وإنما نقول: إنها ستر وتجاوز لأنها مأخوذة من «المِغْفَر» وهو ما يلبس على الرأس من الحديد الذي يقي السهام، ومعلوم أن هذا «المِغْفَر» فيه ستر وفيه وقاية، فمن قال من العلماء: المغفرة هي الستر فإن تفسيره لها ناقص، لا بد أن يقال: الستر مع الوقاية.

وقوله: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾:

الذنوب: هي المعاصي، وأصلها «النصيب» كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ [الذاريات: ٥٩] أي: نصيباً مثل نصيب أصحابهم، ولكنها خصت بالنصيب من الآثام والعياذ بالله.

وقوله: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾:

السيئات طلبوا تكفيرها، والذنوب طلبوا مغفرتها؛ لأن السيئات: هي «الصغائر» وهي تكفّر بالأعمال الصالحة؛ بالطاعات، ولا يمكن أن تكفر بالطاعات إلا بعد أن تكون الطاعات على الوجه الأكمل؛ لأن الطاعات إذا نقصت لم تقوَ على تكفير السيئات. إذ إن الإنسان قد يفعل الطاعة ولا يحصل له منها إلا إبراء الذمة، لكن لا تقوى على التكفير حتى تكون «تامة» بقدر المستطاع، ولهذا قالوا: ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ بما نفعله من الأعمال الصالحة.

ثم اعلم أن تكفير السيئات قد يكون معيَّناً من قبل الشرع، أي: ما يكفَّر به قد يكون معيناً من قبل الشرع مثل كفارة الظهار، وكفارة القتل، وكفارة الجماع في نهار رمضان. فهذا مقيد بالشرع، وقد يكون عاماً كتكفير السيئات عموماً بالصلاة، وبالوضوء، وبالجمعة إلى الجمعة، وبرمضان إلى رمضان، وبالعمرة إلى العمرة. فالتكفير إما مقيد وإما مطلق عام.

وهناك فرق بين الكبائر والصغائر؛ فإن الكبيرة أحسن ما قيل فيها: هي ما رتب عليه عقوبة خاصة، سواء كانت العقوبة دنيوية أو دينية في الدنيا أو في الآخرة، هذا أحسن ما قيل فيها، وهو الذي ذكره شيخ الإسلام رحمه الله. وقال بعضهم: إن الكبيرة ما رتب عليه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة، أو لعنة أو غضب أو نفي إيمان، أو تبرؤ منه، وصاروا يعدّون مثل هذا.

فإذا قلنا: ما رتب عليه عقوبة خاصة صار أشمل، ومن المعلوم أن الكبائر بعضها أهون من بعض أو أعظم من بعض؛

لقول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث أبي بكرة: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**»[١].

وهم طلبوا من الله تكفير الكبائر والصغائر؛ لأن الكبائر لا تكفَّر، وإنما تحتاج إلى مغفرة من الله عزّ وجل، إما مجرد فضل منه سبحانه وتعالىٰ، وإما بعمل أسباب كالاستغفار والتوبة حتى ترفع حكم هذه الكبائر.

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾:

«توفنا» يعني «اقبضنا إليك» «والتوفية» بمعنى «القبض»، ومنه قولهم: تَوَفَّى فلان حقّه أي قبضه وافياً.

وقولهم: ﴿مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ المعية هنا ليست معية زمنية لتعذر اجتماع وفاة الأبرار في آنٍ واحد، لكنها معية حكمية ومصاحبة حكمية. يعني: أن نكون معهم، أي: في جملتهم ولو كنا بعدهم.

و(الأبرار) جمع بَرْ؛ والبَرُّ هو: كثير الخيرات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨]، وأهل الحق والأعمال الصالحة لا شك أنهم مكثرون لفعل الخيرات، وعليه فإنهم أبرار.

فإن قال قائل: هل في هذا الدعاء جواز الدعاء بالموت؟

الجواب: ليس كذلك، فمعلوم أن الله سبحانه وتعالىٰ لن يتوفاهم إلا إذا جاء أجلهم، وليس فيها أنهم يتمنون تقديم الوفاة،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، رقم (٢٦٥٤). ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الكبائر وأكبرها، رقم (٨٧).

وهذا نظير قول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. ليس المعنى أنه يسأل الله أن يتوفاه الآن، بل أن يتوفاه على الإسلام متى جاء أجله، وكذلك قول مريم: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ [مريم: ٢٣] ليس معناه أنها تمنت الموت بل تمنت أن هذا لم يقع، يعني معناه نقول: «يا ليتني مت وأنا ما رأيته».

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يعترف بنعمة الله عليه غير مانٍّ بها على ربه؛ لقولهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾.

٢ ـ أن دعوة النبي ﷺ دعوة إلى الإيمان: ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ﴾.

٣ ـ بيان أن رسول الله ﷺ بذل الجهد في دعوة الخلق إلى الحق؛ لأن النداء يكون برفع الصوت، فكأن الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو الناس بأعلى صوته يناديهم للإيمان.

٤ ـ أن الكلمات قد يستغنى بمضمونها عن تفصيلها؛ لقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أي: بكل شيء يجب الإيمان به، فكل ما أخبر الله به وصدقنا به وأقررنا به فهو داخل في الإيمان بالله عزّ وجل.

٥ ـ الإشارة إلى بيان علة الإيمان؛ لقوله: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ فالرب أهل لأن يؤمن به الإنسان لأنه رب خالق، مالك، مدبر، فهو جدير بأن يؤمن به العبد.

٦ ـ أن ذكر الإنسان لعمله الصالح لا يحبطه، فإذا قال: أمرني ربي بالصلاة فصليت، أو بالزكاة فزكيت، أو بالحج

فحججت، فإن هذا لا يبطل العمل؛ لأنهم قالوا: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾.

٧ - جواز التوسل في الدعاء بالأعمال الصالحة؛ لقولهم: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ عطفاً على قولهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ والتوسل بالأعمال الصالحة مما ثبت بالسنة أيضاً.

ففي قصة الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار بصخرة عظيمة لم يستطيعوا زحزحتها فقال بعضهم لبعض: إنه لا ينجيكم من ذلك إلا أن تتوسلوا إلى الله بصالح أعمالكم؛ فتوسل كل منهم بصالح عمله، فلما دعا الأول وتوسل بصالح عمله انفرجت الصخرة قليلاً، ثم الثاني قليلاً لكن لا يستطيعون الخروج، ثم الثالث انفرجت كلها فخرجوا يمشون.

هنا يحسن أن نذكر أنواع التوسل:

التوسل ينقسم إلى قسمين: ممنوع، وجائز.

فالممنوع: ما لم يرد به الشرع.

والجائز: ما ورد به الشرع، **هذا هو الضابط**.

فما لم يرد به الشرع من أنواع التوسل فهو ممنوع، مثل التوسل بجاه الرسول ﷺ يقول أحدهم: أتوسل إليك بجاه نبيك، فالتوسل هنا غير مشروع فيكون ممنوعاً؛ لأن التوسل «جعل الشيء وسيلة» وكون الشيء وسيلة لا يثبت إلا بدليل من الشرع، وجاه النبي ﷺ ليس سبباً لقبول دعائنا؛ لأن جاهه عليه الصلاة والسلام مما يختص هو نفسه بفضله، أما نحن فليس لنا تعلق فيه.

أما الجائز فهو ما جاء به الشرع وهو أنواع منها:

الأول: التوسل بأسماء الله، أن تقول: اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى، ودليله حديث ابن مسعود رضي الله عنه في دعاء الكرب والغم: «**أسألك بكل اسم هو لك، سمَّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي.. إلخ**»[(١)]. فهذا توسل بأسماء الله: «بكل اسم هو لك».

الثاني: التوسل بصفات الله عزّ وجل، ومن ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي**»[(٢)]. فقوله: «بعلمك الغيب» هذا توسل لله بصفته، ومن ذلك: (**اللهم برحمتك أستغيث**)[(٣)]، فإن هذا ليس استغاثة بالرحمة ولكن استغاثة بالله لصفته وهي الرحمة، فإن الرحيم يغيث.

الثالث: التوسل إلى الله بأفعاله وإن كان من الصفات، لكن هو صفة ليست أزلية أبدية، ومنه قولنا في التشهد: «**اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد**»[(٤)].

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، رقم (٣٧٠٤، ٤٣٠٦).

(٢) رواه النسائي، كتاب السهو، رقم (١٣٠٥). ورواه أحمد في مسنده، رقم (١٧٨٦١).

(٣) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، رقم (٣٥٢٤).

(٤) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا...﴾، رقم (٣٣٧٠). ورواه مسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٤٠٥).

فقوله: «كما صليت على إبراهيم» المراد بذلك التوسل إلى الله، يعني: مثل ما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فصلِّ على محمد، فإذا قلنا بهذا صارت الكاف للتعليل.

وبهذا التقرير يرتفع الإشكال الذي أورده بعض العلماء وقالوا: من المعلوم أن محمداً ﷺ أفضل من إبراهيم، والقاعدة: «أن المشبه دون مرتبة المشبه به» وهنا قال: «صلِّ على محمد كما صليت على إبراهيم»، وإذا قلنا: بأن الكاف ليست للتشبيه ولكنها للتعليل، وأن هذا من باب التوسل؛ يعني: أننا لا نسألك أمراً غريباً، بل نسألك أمراً فعلته من قبل، فإن الإشكال هنا يرتفع ولا يبقى في هذا إشكال.

الرابع: التوسل إلى الله تعالى بالإيمان به وبرسله، ومنه هذه الآية: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾، فجعلوا إيمانهم بذلك وسيلة لسؤال المغفرة ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾.

الخامس: التوسل إلى الله عزّ وجل بالأعمال الصالحة، وليس بالإيمان بالأعمال الصالحة، ومن ذلك قصة أصحاب الغار الثلاثة حين انطبقت عليهم صخرة فتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم، توسل أحدهم بكمال برِّه لوالديه، وتوسل الثاني بكمال عفته، وتوسل الثالث بكمال أمانته، ففرّج الله عنهم.

فإذا قال قائل: التوسل بهذا والذي قبله فيه إشكال؛ لأنه قد يقول قائل: أليس هذا إدلالاً على الله عزّ وجل، وإعجاباً وفخراً بالعمل؟ كأنه يقول: يا رب إني فعلت كذا وفعلت كذا، فاغفر لي مثلاً.

فالجواب: لا، بل هذا من باب التذلل له عزّ وجل وأنني يا رب قد ذللت لك وعلمت أنك الملجأ فعبدتك وآمنت بك، فأسألك أن تغفر لي مثلاً.

السادس: التوسل إلى الله عزّ وجل بذكر حال الداعي، أن تذكر حالك، فتقول: اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي.

الأول توسل بالعمل الصالح، وهنا على العكس بالحال، ومن ذلك قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ما ذكر إلا هذا، وهذا توسل بذكر الحال؛ لأن الإنسان إذا ذكر حاله وأنه مفتقر إلى الله أوجب ذلك له أن يلجأ إلى ربه عزّ وجل، ويكون هذا من أسباب إجابة الدعاء.

السابع: التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح، ومنه قول عكاشة بن محصن للنبي ﷺ لما قال: «**إن من أمته سبعين ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، قال: ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: أنت منهم**»[(١)].

ومنه قول الأعرابي: **يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادعُ الله يغيثنا فدعا**[(٢)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب البرود والحبرة والشملة، رقم (٥٨١١). ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة، رقم (٢١٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الاستسقاء في المسجد الجامع، رقم (١٠١٣). ورواه مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

ومنه قول عمر للعباس: **قم فادعُ الله، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمِّ نبينا**[١].

وهذا النوع السابع ينبغي أن يُلاحَظ منه ما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنه إذا طلب منه أن يدعو له فإنما يقصد بهذا منفعة الداعي وأجره؛ لأن الداعي يؤجر إذا دعا لأخيه، وإنما قال ذلك احترازاً مما إذا أراد الطالب نفع نفسه فقط. قال: فإن هذا من المسألة المذمومة، أن تقول: ادعُ الله لي. وقصدك منفعة نفسك.

بل قل: ادعُ الله لي، وتقصد أن ينتفع هو أيضاً بدعائه لك؛ لأنه يؤجر على الإحسان إليك؛ لأنه إذا دعا لك بظهر الغيب، قال الملك: آمين ولك بمثله. هذا إذا أردت أن تطلب من شخص أن يدعو لك أنت خاصة، أما إذا طلبت منه أن يدعو للمسلمين عموماً فهذا ليس من المسألة المذمومة، حتى وإن لم تلاحظ نفعه هو. ونظيره: لو أنك سألت رجلاً درهماً لنفسك، أو قلت: أعطني درهماً لفلان الفقير، كان الأول من السؤال المذموم، والثاني من الإحسان إلى المعطي وإلى المعطى؛ لأنك تنفع المعطي في الآخرة، وتنفع المعطى في الدنيا.

فهذه سبعة أنواع من التوسل كلها جاءت بها السنة وهي جائزة، لأنها حقيقة سبب من الأسباب، والوسيلة هي أصلاً تشبه الوصيلة، والسين والصاد يتناوبان كثيراً. كما في قوله تعالى:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، رقم (١٠١٠).

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ و(اهدنا السراط المستقيم)، كلاهما قراءتان سبعيتان. إذن نأخذ من هذه الآية جواز التوسل بالإيمان، واستطردنا بذكر أقسام التوسل.

وهنا مسألة: هل شرك المشركين بآلهتهم من باب التوسل الممنوع أم ماذا؟

الجواب: ليس من التوسل، بل هو عبادة؛ لأنهم يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فهم يقصدون العبادة، يدعون هذه الأصنام ويركعون لها ويسجدون لها، وينذرون لها ويذبحون لها، فهذا ليس من باب التوسل، بل من باب القصد والغاية أن هذه الأصنام تعبد.

٨ ـ أن كل أحد محتاج لمغفرة الذنوب؛ لقوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾. فلا تغرنك كثرة الطاعات، فالإنسان كلما كثرت طاعاته ينبغي أن يكون أخوف على نفسه من أن تُرد هذه الطاعات ويذهب عمله سدىً.

٩ ـ التفريق بين المعاصي؛ بعضها ذنوب، وبعضها سيئات، وهو كقولنا: إنها تنقسم إلى كبائر وصغائر، والكبائر والصغائر تختلف في ذاتها وتختلف فيما بينها، فالكبائر منها كبرى، ومنها صغرى. والصغائر منها ما يقرب من الكبائر، ومنها ما هو دون ذلك.

١٠ ـ جواز سؤال الموت على طريق أهل الخير؛ لقولهم: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾، وقد ذكرنا فيما سبق أن هذا ليس من باب الدعاء بالموت العاجل، وإنما من باب الدعاء بالموت على صفة مطلوبة، وهي أن يموت على ما مات عليه الأبرار، وذكرنا لهذا

نظائر، مثل قول مريم: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٣]. والمعنى: يا ليتني مت قبل المصاب، وكذلك قول يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

١١ ـ الثناء على أهل البر والإحسان؛ لقوله: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]:

انظر إلى التكرار في قوله: «ربنا»، لأنهم يتلذذون بهذا التعبير أن يكون الله ربهم، وإذا كان الله ربهم فهم عبيده، وتلذذ الإنسان بعبوديته لله عزّ وجل دليل على كمال إيمانه؛ لأنه كلما كان الإنسان أذل لله كان أكمل إيماناً، ولهذا يكررون «ربنا» تلذذاً بهذا الاسم الكريم.

وقوله: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾.

آتنا: بمعنى أعطنا، بخلاف ائتنا: بمعنى جئنا، آتِ بمعنى أعطِ، وأتى بمعنى جاء.

والمصدر من آتى: إيتاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]. أما المصدر من أتىٰ فهو إتيان.

يقول: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾:

«ما»: هذه موصولة ومحلها من الإعراب مفعول ثانٍ لآتِ، لأن «آتِ» تنصب مفعولين وهي من أخوات أعطى، بمعنى ليس أصلهما من المبتدأ والخبر، فالذي ينصب مفعولين ينظر فيه: إن

كان أصلهما المبتدأ والخبر فهو من أخوات ظن، وإن لم يكن أصلهما المبتدأ والخبر فهو من أخوات أعطى وكسا، وهذه من أخوات أعطى وكسا.

قوله: ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي عهدت به إلينا من الثواب الجزيل على أعمالنا، وقوله: ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ تحتمل معنيين:

أحدهما: على الإيمان برسلك.

والثاني: على أيدي رسلك.

فعبَّر بالرسل عن أيدي الرسل؛ لأن الذين وعدوهم هم الرسل أنفسهم، وعدوا المؤمنين بما وعدهم الله به، ووعدوا المخالفين بما توعدهم الله به.

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾:

«تخزنا»: أي تفضحنا وتذلنا يوم القيامة، أي يوم يقوم الناس من قبورهم لله عزّ وجل، وسمِّي هذا اليوم يوم القيامة لأمور ثلاثة:

الأول: أنه يقوم الناس فيه من قبورهم لله.

الثاني: أنه يقام فيه العدل.

الثالث: أنه يقوم فيه الأشهاد.

وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾:

تعليل لسؤالهم، يعني: سألناك يا ربنا أن تعطينا هذا لأنك لا تخلف الميعاد، وإنما انتفى عنه إخلاف الوعد لكمال صدقه وكمال قدرته؛ لأن إخلاف الوعد، إما أن يكون لكذِب الواعد، كميعاد أهل النفاق، وإما أن يكون لعجز الواعد أي أنه يفي لكنه عجز، والله عزّ وجل قد انتفى في حقِّه الأمران، أعني الكذب

والعجز، فهو لكمال صدقه وكمال قدرته لا يخلف الميعاد، وهذه الصفة من الصفات السلبية، والسلب بمعنى النفي. وقد قررنا غير مرة أن الصفات السلبية يراد بها شيئان:

الأول: انتفاء الصفة التي نفيت.

الثاني: إثبات كمال ضدها، يعني: انتفى عنه هذا لكمال ضده، هذا هو المعنى. فإذا قلت: فلان لا يكذب، فالمعنى أنه كامل الصدق لا يوجد في كلامه كذب، ولهذا نقول: إن الصفات المنفية عن الله سبحانه لا يراد بها مجرد النفي، وإنما يراد بها إثبات كمال الضد.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أنه ينبغي للداعي أن يكثر من الثناء على الله تعالى بأسمائه وصفاته؛ لأن هذا من وسائل إجابة الدعاء.

٢ ـ كمال إيمان هؤلاء بوعد الله؛ لقوله: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾ إذ لو كان عندهم شك ما سألوا هذا السؤال.

٣ ـ أن الرسل هم الواسطة بين الله وبين خلقه؛ لقوله: ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ ولا شك أن الرسل هم الواسطة بين الله وبين خلقه؛ ومن حكمة الله أن جعلهم من البشر؛ لأنه لا يمكن التلاؤم بينهم وبين البشر إذا لم يكونوا من جنسهم، ولهذا قال الله تعالى راداً على الكفار الذين قالوا: لو كان محمدٌ ملكاً لآمنا به، قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٨، ٩] وحينئذ تعود المشكلة على زعمهم ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

٤ ـ إثبات أن الخلق لهم أكثر من رسول ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ لأن رسل جمع رسول، وهذا أمر معلوم باليقين القطعي، فالقرآن كله مملوء بقصص الأنبياء، فإذا قال قائل: قد ورد الجمع ويراد به الواحد، كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] ومعلوم أن قوم نوح لم يكذبوا إلا نوحاً، فالجواب عن ذلك أن نقول: إن هذه الآية قد دلت على أن المرسل إليهم واحد، ولكن لما كان تكذيب الرسول الواحد تكذيب لجميع الرسل، قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] لأن المقصود التكذيب بالجنس لا بالواحد، فكأنهم كذبوا بجنس الرسالة وقالوا: لا يمكن أن يبعث الله الرسل كما قال تعالى في بيان تكذيب الأمم أنهم يقولون لرسلهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥].

٥ ـ أن هؤلاء الأبرار يؤمنون بيوم القيامة وبما يلحق الناس به من الذل والخزي؛ لقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

٦ ـ أن الخوف من عذاب الله لا ينافي البر؛ لقولهم: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بل إن الخوف من عذاب الله يزيد البر؛ لأنه يزيد تصديقاً بما أخبر الله به.

٧ ـ كمال صدق الله وقدرته، تؤخذ من قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

٨ ـ أن الله تعالى لا يخلف الميعاد أبداً.

فإن قال قائل: يرد على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وقد توعد الله عزّ وجل العصاة بما يستحقون من الذنوب مثل قوله: **(لا يدخل**

الجنة قتات)[١] أي: نمام.

فالجواب: أن نقول: إن النفي يراد به بيان كمال الله في الصدق والقدرة، فإن عفوه عمن استحق العقاب لا يعد إخلافاً للوعد لأنه قادر، ولكنه كمال فوق كمال، فإن العفو عن الانتقام مع القدرة كمال، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

❁ ❁ ❁

□ قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥]:

استجاب بمعنى أجاب كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقوله: ﴿رَبُّهُمْ﴾ ولم يقل (الله) لأنهم كانوا يدعون بقولهم: (ربنا) فالموقع هنا يقتضي الربوبية، وهي هنا ربوبية خاصة؛ لأن ربوبية الله تنقسم إلى قسمين: عامة وخاصة، وقد اجتمع القسمان في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١ ـ ١٢٢].

ومقتضى الربوبية العامة مطلق التصرف، ومقتضى الربوبية

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة، رقم (٦٠٥٦).
ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم النميمة، رقم (١٠٥).

الخاصة النصر والتأييد واللطف، وغير ذلك مما يقتضي عناية خاصة. الربوبية هنا من الخاصة.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ﴾ هذا بيان المستجاب.

فما الذي استجاب لهم؟ قال: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾؛ ﴿لَآ أُضِيعُ﴾ يعني لا أهدره بل أحتسبه.

وقوله: ﴿عَمَلَ عَٰمِلٍ﴾ (عمل) هنا مضاف فيقتضي العموم يعني: أي عمل قلَّ أو كثر فإن الله لا يضيعه، وهذا كقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ﴾:

هذه بيان لـ«عاملٍ» فـ«مِن» هنا بيانية؛ بيان للعامل، يعني سواء أكان العامل ذكراً أم أنثى، ثم قال: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾ يعني في الدعاء واستجابته، أما في المناصرة فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: ٧١] لكن في باب العمل والاستجابة له والثواب بعضهم من بعض لا فرق بين الذكر والأنثى.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾:

هذه خمسة أوصاف: «هاجروا» يعني هجروا بلادهم وخرجوا منها إلى بلاد الإسلام.

﴿وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾:

إما مباشرة بأن طردوا من البلاد، أو بالتضييق عليهم حتى يخرجوا؛ لأن الإخراج من البلاد، إما أن يكون مباشرة بالطرد، وإما أن يكون بالتضييق عليه حتى يخرج، فأيهما أشد؟

الجواب: الأول أشد؛ لأن الثاني يمكنه أن يصبر ويتحمل ولا يخرج، يختفي أحياناً ويهرب أحياناً، ويبقى في بلده، لكن الطرد بأن يمسك ويطرد لا شك أنه أشد، ولهذا قال أهل العلم خصوصاً الحنابلة فيمن فعل ما يوجب الحد من زنا أو غيره، ثم لجأ إلى مكة إلى الحرم فإنه لا يخرج من الحرم ولا يقام عليه الحد في الحرم، لأنه لجأ إليه، ومن دخله كان آمناً، ولكنه يضيق عليه فلا يؤاكل ولا يشارب ولا يبايع ولا يكلّم، حتى تضيق عليه الأرض ويخرج، أما أن يخرج بالقوة ليقام عليه الحد فلا.

إذن هناك فرق بين من أُخرج بالفعل أي بالقوة مباشرة ومن أُخرج بواسطة التضييق عليه.

﴿وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾:

ديارهم: يعني التي يسكنونها سواء بأجرة أو بغير أجرة، فإن الدار المستأجرة مثلاً تسمى دار الإنسان.

وقال عزّ وجل: ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾:

مع أنهم أخرجوا حصل لهم أذية في سبيل الله، أي في دين الله كما حصل للنبي ﷺ حين كان ساجداً تحت الكعبة، فذهب قوم من قريش وأتوا بسلا الجزور ووضعوه على ظهره[1]،

---

(١) انظر صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ، رقم (١٧٩٤).

هذا إيذاء ولم يضره ولكنه أذية له، وفعل أيضاً في كثير من الصحابة من الأذى ما هو معروف بالسيرة.

وقال تعالى: ﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾:

وفي قراءة: (قَاتَلوا وَقُتِّلوا) وقراءة ثالثة: (وقُتِلُوا وقَاتَلوا) فالقراءات هنا ثلاث: الأولى: قَاتَلُوا وقُتِلوا، والثانية: قَاتَلُوا وقُتِّلُوا، والثالثة: قُتِلُوا وقَاتَلُوا. والمعنى لا يختلف اختلافاً كبيراً؛ أما قوله: (قَاتَلُوا) فهذا يعني الجهاد، هم قاتَلُوا الكفار. وأما قوله: (قُتِلُوا) فهذا يعني الاستشهاد، قتلهم الكفار في سبيل الله.

وأما قوله: (قُتِلُوا وقَاتَلُوا) فهي هي ولكن فيها تقديم وتأخير، وأما قوله: (قَاتَلوا وقُتِّلُوا) فهي أشد. كما قال تعالى: ﴿وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦١]؛ فالتقتيل أشد من مجرد القتل.

وقوله تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾:

الجملة في قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ خبر المبتدأ في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ ولكنها جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام، والقسم، ونون التوكيد.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾:

أي بما حصل لهم من هذه الأشياء من هجرة، وإخراج من ديار، والإيذاء في سبيل الله، والمقاتلة في سبيل الله والقتل ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾، وقد مرَّ علينا أن الفرق بين مغفرة الذنوب وتكفير السيئات عند الجمع بينهما: أن المغفرة في الكبائر، والتكفير في الصغائر؛ تكفّرها الأعمال الصالحة وتكفّرها المصائب.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾:

أي صغائر ذنوبهم، ويجوز أن يراد بالسيئات هنا ما هو أعم؛ لأنها لم تقرن بالذنوب حتى نقول: كل واحدة لها معنى، وهذا له نظائر كثيرة؛ تجد بعض الكلمات يكون لها معنى وحدها ولها معنى إذا اقترنت بغيرها.

﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾ الجملة أيضاً فيها تأكيد باللام، والقسم، والنون، وهي معطوفة على قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ فمحلها الرفع على أنها خبر المبتدأ كالأولى.

﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾:

﴿جَنَّاتٍ﴾ بالجمع، وأحياناً يقال: بالإفراد، فإذا كانت بالإفراد فالمراد بها مطلق الجنس، وإذا قيلت بالجمع فالمراد بها أنواع الجنات، وفي القرآن في سورة الرحمٰن أن أنواع الجنات أربع، وربما يكون هناك أنواع أخرى لا نعلم بها. المهم أن الجمع باعتبار الأنواع، والإفراد باعتبار الجنس. فما هذه الجنات؟!.

أصل الجنة البستان الكثير الأشجار، وسُمِّيَ بذلك لأنه يجنّ مَنْ فيه؛ أي يستره، والمادة هذه «ج ن ن» كلها دالة على الستر والخفاء، ومنه الْجُنَّة للمقاتل يأخذها يستتر بها عن السهام، ومنها الجَنَان يعني القلب لاختفائه، ومنه الجِنَّة أي: (الجن) لاستتارهم.

يقول عزّ وجل: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾:

الجريان معروف، والأنهار جمع نهر، وجمعت لأنها أربعة أنواع مذكورة في سورة محمد: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن

لَبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، وهذه الأنهار لا تنضب ولا تنقص، ولا تحتاج إلى حفر ولا إلى إقامة جدر.

قال ابن القيم في النونية:

أنهارها في غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان

وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

هل المراد من تحت الأرض أم من تحت الأشجار الساترة؟ الجواب: الثاني من تحت الأشجار الساترة والقصور، فهي أنهار مطردة، لكنها لا تؤذي لأنها تنقاد لأمر مالكها، إذا أمر هذا النهر أن ينصرف يميناً أو شمالاً فعل بأمر الله عزّ وجل، وإذا أمره أن يقف وقف.

وقوله: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

قوله: ﴿ثَوَابًا﴾ في نصبه ثلاثة أوجه:

الأول: أنه نصب على المصدرية، فيكون مصدراً مؤكداً لعامل محذوف؛ لأن معنى الجملة قبله يقتضيه، والتقدير: (لأثيبنهم إثابة أو تثويباً) فوضع ثواباً موضع أحد هذين المصدرين؛ لأن الثواب في الأصل اسم لما يثاب به كالعطاء اسم لما يعطى، ثم قد يقعان في موقع مصدر، وهو نظير قوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ و﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ في كونهما مؤكدين.

الثاني: أن يكون منصوباً على الحال من جنات أي: مثاباً بها، وجاز ذلك وإن كانت نكرة لتخصصها بصفة.

الثالث: أنه حال من الضمير المفعول به، أي حال كونه مثاباً. يعني مع الحال أو مصدر، لكنه مصدر غريب، يكون

العامل فيه لأكفرن ولأدخلن على اعتبار أن التكفير والإدخال ثواب، وفي النفس من هذا شيء، فالظاهر أنه مصدر لعامل محذوف.

وقوله: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

الثواب يطلق على العطاء الذي يعطاه الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٦] أي هل أعطي؟ ويطلق على الإثابة التي هي فعل المثيب. والأصل الأول، أن الثواب اسم لما يثاب به، كالعطاء اسم لما يعطى، وقد يراد به الإثابة.

وقوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

العندية هنا تقتضي تعظيم هذا الثواب؛ لأن الثواب من العظيم يكون عظيماً، كقول النبي ﷺ في الدعاء الذي علمه أبا بكر: «**اغفر لي مغفرة من عندك وارحمني**»[1].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾:

الجملة هذه مؤكدة لما سبق، أي أن الله سبحانه وتعالىٰ يثيبهم الثواب الحسن؛ لأن هذا هو الذي عند الله، ولهذا يجازي المحسن بحسنته عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان فضل الله عزّ وجل بإجابة هؤلاء الذين دعوا بما سبق؛ لقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ﴾.

---

(١) تقدم تخريجه في المجلد الأول (ص٥٣).

٢ ـ بيان ثبوت سمع الله لأنه لم يثبهم إلا حين سمع دعاءهم.

٣ ـ أن تكرار الدعاء من أسباب الإجابة، ونأخذ منها بناء على ما سبق أن الدعاء باسم الربوبية أقرب إلى الإجابة من الدعاء باسم آخر؛ لأن أكثر الأدعية الواردة في القرآن جاءت باسم الربوبية.

٤ ـ عناية الله عزّ وجل بهؤلاء الأبرار؛ لقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ لأن هذه الربوبية، قلنا: إنها ربوبية خاصة.

٥ ـ أن الله يعطي الأجر كاملاً؛ لقوله: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ﴾، وهذا النفي يتضمن إثباتاً، فإذا كان لا يضيع عمل عامل فمقتضاه أنه يعطي العامل كل ما عمل، أي أجر كل ما عمل.

٦ ـ استواء الذكر والأنثى في الجزاء على الحسنات وإجابة الدعوات؛ لقوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾.

فمعناه أنهم إذا دعوا الله عزّ وجل استجاب للذكر والأنثى، يعني لا يستجيب للذكر فقط دون الأنثى، وكذلك في ثواب الأعمال الصالحة يشتركان فيه؛ لا يفضل الذكر على الأنثى في الثواب على عمل عمله.

فإن قال قائل: أليس النبي ﷺ قد قال: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبِّ الرجل الحازم من إحداكن**»[1] وذكر من نقصان دينها أنها إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟.

فالجواب: بلى. ولكنها إذا صلت في الوقت الذي

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤). ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب نقصان الإيمان بنقص الطاعات، رقم (٨٠).

تطالب بالصلاة فيه، فإن أجرها وأجر الرجل سواء، فإذا صلت امرأة صلاة الظهر، وصلى الرجل صلاة الظهر، فهما في الأجر سواء.

٧ ـ فضيلة الهجرة في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ وقد قال العلماء: إن الهجرة تنقسم إلى أقسام:

القسم الأول: هجر ما حرم الله، فإن المهاجر من هجر ما نهى الله عنه، وهذا يعني أن المهاجر هو الذي قام بفعل الواجبات وترك المحرمات.

القسم الثاني: الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، كما فعل المهاجرون من مكة إلى المدينة، وهذه هي التي يكون فيها المدح الذي جاء في القرآن.

القسم الثالث: الهجرة من بلد الفسق إلى بلد الاستقامة، فإن بعض البلاد تكون بلاداً إسلامية تقام فيها الشعائر الإسلامية، وينادى فيها بالأذان، وتقام الجماعات، وتقام الجُمُعات، فهي بلاد إسلامية، ولكنها بلاد فسق من جهة أخرى لكثرة المعاصي والفواحش وغيرها في هذا البلد، فيهاجر الإنسان منها إلى بلد الاستقامة، فلننظر ما هو الواجب من هذه الأنواع الثلاثة؟!

نقول:

أما الأول: (وهو هجر ما حرم الله) فهو واجب على كل إنسان، حتى في بلاد الإسلام المستقيمة يجب عليه أن يهجر ما حرم الله.

وأما الثاني: (المهاجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام) فإن العلماء رحمهم الله يقولون: إن كان قادراً على إظهار دينه لم

تجب الهجرة، وإن كان عاجزاً وجبت عليه الهجرة، فإذا كان في بلاد يحبسون الحريات ويمنعون المسلمين من إقامة شعائر دينهم كالصلوات في الجماعة مثلاً؛ فالهجرة هنا واجبة؛ لأن المسلم لا يقدر على إظهار دينه. وإن كان في بلد تعتبر نفسها بلد حرية فإن الهجرة ليست بواجبة، لكن مع هذا نقول: هي أكمل وأحسن مما لو بقي. وعليه فإذا كان يمنع من إظهار الدين وجب عليه الهجرة حتى لو كان من أهل البلد أصلاً، أما إذا كان في بلد الحرية فالهجرة أكمل، خوفاً من الفتنة.

وأما الثالث: (الهجرة من بلد الفسق إلى بلد الاستقامة) هذه فيها تفصيل أيضاً: إن كان يخشى على نفسه من الفتنة وجبت عليه الهجرة، وإن كان لا يخشى لم تجب عليه الهجرة، وربما يكون بقاؤه أحسن في هذه البلاد إذا كان يدعو إلى الله.

٨ ـ الإخراج من الديار سبب لتكفير السيئات؛ لقوله: ﴿وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ وكذلك أيضاً قوله: ﴿وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾.

لكن لو قال قائل: إن التكفير للسيئات مرتب على كل الأوصاف الخمسة؟

فالجواب عن ذلك أن نقول: إن تعليق التكفير بهذه الأوصاف الخمسة دليل على أن لكل وصف منها تأثيرٌ في الحكم، ولولا التأثير لكل واحد منها ما صحَّ أن تكون تكفيراً للسيئات، وهذه فائدة مهمة؛ لأن بعض المجادلين قد يقولون: إن الحكم مرتب على أسباب خمسة أو أكثر فنقول: نعم إذا رتب على أسباب أكثر من واحد فإن هذه الأسباب تدل على أن لكل

واحد منها تأثيراً، ولولا أن له تأثيراً ما ترتب الحكم أصلاً، لو أننا قلنا: رقم واحد ليس له تأثير، ورقم اثنين ليس له تأثير، ورقم ثلاثة ليس له تأثير، ورقم أربعة ليس له تأثير، لم يثبت الحكم. لكن نقول: كل واحد له تأثير بنفسه، لكن قد يقوى على حصول الحكم وقد لا يقوى إلا على حصول بعضه.

٩ ـ أن الإيذاء في سبيل الله يزداد الإنسان فيه أجراً، ويتفرع على هذه القاعدة أنه ينبغي للإنسان أن يصبر على الإيذاء في سبيل الله ما دام ينتظر الأجر به؛ لأن الإنسان كلما علم أنه ينال أجراً وثواباً بإيذائه، فإنه لا بد أن يصبر عليه.

١٠ ـ فضيلة القتال في سبيل الله؛ لقوله: (وقاتَلوا).

١١ ـ فضيلة القتل في سبيل الله وذلك أن القتل في سبيل الله من الشهادة.

١٢ ـ أن الأعمال الصالحة تكفر بها السيئات، أي: تستر؛ لأن التكفير مأخوذ من الكفر وهو من الستر، ومنه الكُفُرَّى: الغلاف الذي يكون على طلع النخل لأنه يستره، لهذا سمي ستر السيئات بالحسنات تكفيراً.

١٣ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ ضمن ضماناً مؤكداً لهؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات الخمس، ضمن لهم ضمانين:

الضمان الأول: تكفير السيئات.

والضمان الثاني: إدخال الجنات.

وهذا الضمان مؤكد بثلاثة مؤكدات: اللام، والقسم، ونون التوكيد.

١٤ ـ التشويق إلى الجنة ليزداد الإنسان قوة في العمل لها؛

لقوله: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ والجنات في الأصل البساتين الكثيرة، لأنها أي البساتين الكثيرة الأشجار تجن مَنْ فيها، أي تستره وتغطيه، فيستفاد منها التشويق إلى هذا الثواب العظيم.

١٥ ـ أن في الجنة قصوراً؛ لقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ والتحت لا يكون إلا في مقابل الفوق العالي، وهو كذلك.

١٦ ـ أن الجنة فيها عدة أنهار وهي مجملة هنا، مفصلة في سورة محمد على أنها أربعة أنهار، قال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

١٧ ـ أن هذا الجزاء مثوبة لهم من الله، فلله فيه المنة عليهم، وليس لهم المنة على الله بعملهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ولو شاء الله لم يثبهم، ولو شاء لأثابهم دون ذلك، ولكنه بفضله جعل الثواب لهم، هذا الثواب العظيم ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

١٨ ـ الإشارة إلى عظم هذا الثواب من قوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وذلك لأن العطية تعظُم بحسب معطيها، والهبة تعظُم بحسب واهبها، وإذا كان ذلك من عند الله كان هذا دليلاً على أنه ثواب عظيم؛ لأن الثواب من العظيم عظيم.

١٩ ـ أنه لا يتلقى حصول الثواب إلا من الله؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ ـ أي: وحده ـ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ فلا تذهب تتلقى الثواب إلا من عنده؛ لأنه مهما آتاك الخلق من ثواب، فإنه لن يكون مثل ثواب الله تعالى.

فحسن الثواب إنما هو عند الله وحده، وفي هذه الجملة ما سبق بيانه من أن فيها تأكيداً لعظم هذا الثواب، لأنه لما قال من عند الله استفدنا منه عظم الثواب.

٢٠ ـ وفيها فائدة أخرى وهي تأكيد لما سبق أن هذا الثواب ثواب عظيم، وأنه أحسن مثوبة يثاب بها الإنسان ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

وهل يستفاد من هذه الآية الكريمة علو الله؟.

الجواب: أن هناك من العلماء من يقرر: أنه كلما جاءت العندية في القرآن فإنها دليل على العلو، ولكنها في بعض المواضع ليست واضحة وفي بعض المواضع واضحة مثل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] ومثل قوله: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩] فهنا الفوقية واضحة، لكن في مثل هذه الآية ليست ظاهرة جداً.

❁ ❁ ❁

□ قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٧].

لا يخفى أن ﴿لَا﴾ أي في قوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ ناهية، ولكن سيقول قائل: كيف تكون ناهية والفعل مفتوح ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ لأن النون هي آخر الفعل؟!.

والجواب عن هذا: أنه إذا اتصلت نون التوكيد بالفعل المضارع لفظاً وتقديراً صار مبنياً على الفتح. فإن اتصلت به لفظاً لا تقديراً لم يكن مبنياً مثل ﴿لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، فهي نون التوكيد متصلة بالمضارع لفظاً لا تقديراً،

لهذا نقول عند الإعراب: (يغرن) فعل مضارع مبني على الفتح في محل جزم لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة.

وقوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ الخطاب هنا يحتمل أن يكون للرسول ﷺ، ويحتمل أن يكون لكل من يتأتى خطابه، والقاعدة في التفسير: أنه إذا كانت الآية تحتمل معنيين متباينين لكن لا يتناقضان حملت عليهما جميعاً، وإذا احتملت معنيين أحدهما أعم حملت على الأعم؛ لأن الأخص يدخل في الأعم ولا عكس، فهنا إذا قلنا: إن الخطاب خاص بالنبي ﷺ أخرجنا عنه بقية الأمة، وإذا قلنا: إن الخطاب عام لكل من يتأتى خطابه صار شاملاً للرسول ﷺ ولغيره، وعلى هذا فيكون الخطاب هنا عام يعني ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ أيها الرائي الذي ترى تقلب الكفار في البلاد، لا يغرنك هذا.

وقوله: ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ التقلب يعني التردد، أي ترددهم في البلاد وتقلبهم من بلد إلى آخر، وتقلبهم في التجارات وفي أنواع الصناعات وفي غيرها مما فتح الله عليهم، فهذا لا يغرك، ووجه الغرور الذي قد يحصل هو أن الإنسان قد يغتر بهذا الذي أعطاهم الله عزّ وجل، فيصنع مثل صنيعهم، أو يظن أن إعطاء الله إياهم هذا الشيء دال على أنه لا ينكر ما هم عليه، ولو أنكر ما هم عليه لم يمكّنهم مِن التقلب في البلاد. وعلى هذا فيكون وجه الغرور من وجهين:

الوجه الأول: ظن أن ما هم عليه حق؛ لأنه يقول: لو كان باطلاً ما مكّنهم الله تعالى من هذا التقلب.

الوجه الثاني: أن يفعل مثل فعلهم، كما انخدع كثير من

الناس اليوم حيث ظنوا أن الكفار وصلوا إلى ما وصلوا إليه من أجل تحللهم من دينهم، فصار يرى أن الالتزام بالدين ـ ولو كان هو الدين الحق وهو الإسلام ـ سبب للتأخر والتقهقر ـ والعياذ بالله ـ.

إذن الغرور له وجهان:

الأول: أن الله مكّنهم من هذا التقلب، ولو كان ما هم عليهم باطلاً لم يمكنهم.

والثاني: أن يفعل مثل فعلهم ظناً منه أن ما فعلوه سبب لهذا التقلب والاتساع في التجارات وغيرها. والحقيقة أن هذا لا يغر المؤمن؛ لأن الله قال في كتابه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] ويقول تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤ ـ ٤٥]، فلا تغتر، هذا ليس إلا زيادة حسرة فيما عليهم.

وقوله: ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾:

البلاد: جمع؛ والمفرد بلد، ويجمع البلد أيضاً على بلدان، وكيف التقلب في البلاد؟ الجواب: يذهبون من هذا البلد إلى هذا البلد يتنقلون ويحملون تجارتهم في أمن وطمأنينة يتاجرون ويربحون، فيغتر الإنسان بذلك.

وقوله: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾:

خبر مبتدأ محذوف والتقدير: هو متاع، هو: أي تقلبهم ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ والمتاع ما تقوم به المتعة سواء كانت متعة نفسية أو متعة جسدية، وكل متعة أضيفت إلى الدنيا أو إلى الكفار فهي

متعة جسدية، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢]، والمتاع ما تحصل به المتعة، والمتعة نوعان:

الأولى: متعة قلبية روحية، وهذه لا تكون إلا للمؤمن؛ يتمتع بذكر الله وبما أنعم الله عليه من الإيمان.

والثانية: متعة جسدية يشترك فيها الإنسان والبهائم، وهي ما يحصل للجسد من اللذة والنعيم وغير ذلك.

يقول تعالى: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ فهو قليل في زمنه، قليل في كميته، قليل في كيفيته، قليل في كل شيء، فالزمن قليل محدود وهو عمر الإنسان؛ ذلك العمر المجهول الذي لا يدري الإنسان متى ينتهي.

قليل أيضاً في الكمية؛ لأن الإنسان لا يملك كل شيء، قليل في الكيفية، لأن الإنسان قد يحرم التمتع في هذه الدنيا بأمراض تعتريه ولا يتمتع بها، قد يحرم بفَقْدِ بعض الأشياء والله أعلم.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ يعني ثم بعد هذا المتاع القليل مأواهم جهنم، وأتى بـ «ثم» وإن كانت دالة على التراخي للإشارة إلى أنه مهما طالت بهم المدة في هذه الحياة فإن مآلهم هذا المآل الخبيث والعياذ بالله.

والمأوى بمعنى: ما يأوي إليه الإنسان، فهو اسم مكان، أي: المصير الذي يصيرون إليه وهو جهنم؛ وجهنم اسم من أسماء النار ـ أعاذنا الله منها ـ وسميت بذلك؛ لأنها مشتقة من التجهم، أو من الجهمة وهي السواد، وقيل: إنه اسم أعجمي

وأصله «كهنام» لكن عرِّب إلى جهنم، وهو اسم من أسماء النار فهو غير مشتق، وأيًّا كان فهو اسم من أسماء النار.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ «بئس» فعل من أفعال الذم له فاعل وله مخصوص، فالفاعل هو «المهاد» والمخصوص محذوف والتقدير: وبئس المهاد هي، وإنما احتاج النحويون إلى هذا التقدير لأن المهاد غير النار، والذم للنار، فكان لا بد من ذكر مخصوص بالذم غير فاعل الفعل، والمخصوص بالذم هو الضمير المحذوف، أي: وبئس المهاد هي، هذا ما قدره النحاة. و«المهاد» ما يكون مهداً للإنسان، أي: مقراً له، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦] «مهاداً» أي مقراً تستقرون فيه.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ نهي الإنسان أن يغتر بما أُوتي الكفار من النعم والرفاهية؛ لقوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾.

٢ ـ أن ما يعطيه الله العبد من الرخاء وسعة الرزق والانطلاق في الأرض يميناً وشمالاً ليس دليلاً على رضاه عن العبد، وإنما المقياس لرضا الله عن العبد هو اتباع العبد لشرع الله.

٣ ـ أن الله عزّ وجل قد يستدرج المرء بإغداق النعم عليه فتنة له، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ووجه ذلك أن الله مكَّن هؤلاء الكفار من التقلب في البلاد كما يشاؤون فتنة لهم، ليستمروا على ما هم عليه فيكون ذلك شرًّا ـ والعياذ بالله ـ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

٤ ـ أن المؤمن قد يضيِّق الله عليه في الرزق أحياناً ليرجع إليه بخلاف الكافر، وإنما قلت ذلك لئلا يقول قائل: أفليس قد قال الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، نقول: إن المؤمنين هم الذين يبتلون بالضراء من أجل أن يرجعوا إلى الله عزّ وجل: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، أما الكفار فقد تمهد لهم الدنيا ويعطون ما يريدون وتكون جنتهم دنياهم بخلاف المؤمنين.

٥ ـ أن الدنيا مهما أعطي الإنسان فيها من النعيم فإنها متاع قليل، قليل في زمنه، وفي كميته، وفي كيفيته، لكن الآخرة خلاف ذلك، قال النبي ﷺ: «**لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[1]، «السوط» متر أو أقل، خير من الدنيا وما فيها، وليست الدنيا الحاضرة فقط بل خير من كل الدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها. وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٩].

٦ ـ الحذر من لعب أعداء المسلمين بالمسلمين حيث يغرونهم بوسائل الترفيه، ويفتحون لهم وسائل الترفيه ليلهوهم عما خلقوا له من عبادة الله، وعما ينبغي أن يكونوا عليه من العزة والكرامة، فإن هذه الوسائل «الترفيهية» هي في الحقيقة حَبٌّ مسموم للدجاج، والحب المسموم للدجاج تغتر به؛ تجده حبًّا

---

(١) تقدم تخريجه (ص٥١٣).

منتفخاً ليناً فتفرح به وتأخذه بطرف مناقيرها وتبتلعه بسرعة ولكنه يقطع أمعاءها، فهكذا أعداؤنا فتحوا علينا أبواب الترفيه من كل ناحية، من أجل أن ننغمس فيها ولا يكون لنا هَمٌّ إلا الرفاهية، وننسى ما خلقنا له من عبادة الله، وننسى ما ينبغي لنا أن نكون عليه من العزة والكرامة، قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾.

٧ ـ أنه لا يمكن للكافر أن يدخل الجنة؛ لقوله: ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، لا يمكن أن تكون مأواهم الجنة أبداً لأنهم كفار.

٨ ـ الإشارة إلى أن هذا النعيم الذي يدركونه في الدنيا سوف ينسى بهذا المأوى السيئ، فإذا كان المأوى هو النار نسوا كل شيء كما جاء في الحديث: «**أنه يؤتى بالرجل يوم القيامة من أهل النار من أنعم أهل الدنيا ـ يعني أكثرهم نعمة ورفاهية ـ فيغمس في النار غمسة واحدة فيقال: هل رأيت خيراً قط؟ فيقول: لا، ما رأيت خيراً قط**». لأنه نسيه بهذه الغمسة الواحدة، فقد نسي كل ما حصل له في الدنيا من نعيم.

«**ويؤتى بأبئس أهل الدنيا من أهل الجنة ـ أي أشدهم بؤساً ـ فيغمس في الجنة غمسة واحدة، فيقال: هل رأيت شرًّا قط؟ فيقول: ما رأيت شرًّا قط**»[1]، لأنه نسيه بهذا النعيم الذي هو لحظة، فقد نسي كل ما حصل له في الدنيا من بؤس وفقر وأذى، وهذه الحقائق نحن نؤمن بها لكن الغفلة تستولي علينا، نسأل الله العافية، وأن يوقظ قلوبنا بذكره.

---

(١) رواه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، رقم (٢٨٠٧).

٩ ـ بيان قبح هذا المأوى؛ لأن الله أثنى عليه بأسوأ الثناء فقال: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ وهذا يدل على قبح مأوى أهل النار، نسأل الله السلامة منها.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]:

وهنا قد يقول قائل: ما وجه مجيء الاستدراك في هذه الآية: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾، لأن الاستدراك إنما يكون فيما يتوقع دخوله فيما سبق، (قام القوم لكن فلان لم يقم) ممن يتوقع أن يكون فيهم قائم، فهنا ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ ما وجه الاستدراك؟

وجه الاستدراك أن الذين اتقوا ربهم لو حصل لهم في الدنيا مثل ما حصل لهؤلاء الكفار لم يكن ذلك حائلاً بينهم وبين ما عند الله، يعني قد يحصل تقلب المؤمنين في البلاد كتقلب الكفار، فهل يكون مأوى المتقين كمأوى الكافرين؟

الجواب: لا، ولهذا قال: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ فالاستدراك هنا من ألطف ما يكون لئلَّا يظن الظان أن الله لو مكَّن للمؤمنين أن يتقلبوا في البلاد تقلب الكفار لفاتهم ما عند الله، فبيَّن أنه لن يفوتهم فقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾. والتقوى تمرُّ بنا كثيراً، وأحسن ما فسِّرت به أنها: (اتخاذ ما يقي من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه)، هذا أجمع ما قيل في التقوى: اتخاذ الوقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾:

ولم يقل: (اتقوا الله) إشارة إلى أن ربوبية الله لهم ربوبية خاصة أعانهم فيها على التقوى، ووفَّقهم لها، فكانت ربوبيته لهم ربوبية خاصة بهم كربوبيته لبعض الأنبياء مثل ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٢]، فهي ربوبية خاصة لا يشركهم فيها أحد.

﴿ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾:

إذا رجعنا إلى الإعراب بعد معرفة المعنى نقول: (لكن): حرف استدراك غير عاملة، و﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، و﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾: مبتدأ وخبر، والمبتدأ والخبر خبر المبتدأ الأول.

﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

جنات: جمع جنة، وأصلها: البستان الكثير الأشجار، سمي بذلك لأنه يجن مَنْ كان فيه أي يستره، ولكننا لا نفسر «جنات» أو «جنة» التي في القرآن، والتي يريد الله بها جنة الخلد، بهذا التفسير (عند العامة)، لأنك لو فسرتها هذا التفسير عندهم لنزلت رغبتهم في الجنة نزولاً كثيراً. بل نقول ـ وهو المراد ـ: الجنة هي: الدار التي أعدَّها الله تعالى للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

لهذا أقول: ينبغي لطالب العلم أن يفسر القرآن بمعناه، ولكن إذا خاف فتنة فليفسره بما يوافق العقول ولا يخالف النصوص.

فإذا قلت عند العامة: الجنة هي الدار التي أعدها الله تعالى للمتقين وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فالتفسير هذا صحيح. لكن عندما تتكلم مع طالب علم يقول: ما معنى الجنة؟ ولماذا سميت بهذا؟

نأتي إلى المادة (الجيم والنون) نجد أنها كلها تدل على الاستتار، فتقول: هي في الأصل البستان الكثير الأشجار، ولنا أن نقول: إن الجنة في الأصل هي هذا المعنى، لكن نقلت شرعاً إلى الدار التي أعدها الله للمتقين كما نقلت الصلاة والزكاة والحج والعمرة إلى معناها الشرعي.

﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

سبق لنا أن قوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ يدل على علو قصورها وأشجارها، وأن الأنهار أربعة، وأنها تجري بلا أخدود وبلا شق ساق، بل تجري حيث شاء صاحبها، يقول ابن القيم رحمه الله في (النونية):

أنهارها من غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهلها.

يقول: ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

الخلود: هو البقاء، باقون فيها أبداً كما قال الله تعالى في آيات أخرى متعددة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

نزلاً: هذه منصوبة على الحال، أي: حال كون هذه الجنات نزلاً.

فإذا قال قائل: كيف تكون حالاً وصاحبها نكرة؛ لأن «جنات» نكرة والحال لا تأتي من النكرة، بل لا بد أن يكون صاحبها معرفة؟

فالجواب عن ذلك أن نقول: وإن كان صاحبها نكرة إلا أنه خصص بالنعت: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ والنكرة المخصصة تأتي

منها الحال كما تأتي من المعرفة، والنزل اسم جامد وليس بمشتق، فإن قيل: إن الحال لا يكون جامداً بل لا بد أن يكون مشتقاً.

فالجواب أن يقال: إنه قد تأتي الحال جامدة، لكنها مؤولة بالمشتق، يعني: أنهم مكرمين بهذا النزل.

والنزل اسم لأول ما يقدم للضيف من الطعام، ومعلوم أن أول يوم للضيف يقدم له أطيب وأحسن شيء، فجعل الله هذه الجنة كلها نزلاً لا يختلف آخرها عن أولها بخلاف نُزل الضيافة في الدنيا، فإنه يكون أول يوم من أطيب ما يكون ثم يقل في اليوم الثاني وهكذا.

وقوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

أي: أن هذا النُزل ليس من فلان أو فلان بل من عند أكرم الأكرمين وأجود الأجودين وهو الله، والنُزل من الأكبر يكون عظيماً وكريماً وكثيراً.

قال: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾:

(ما) اسم موصول، ولا يمكن أن تكون نافية؛ لأن المعنى يفسد كثيراً، لو قلت (ما) نافية صار المعنى: ليس عند الله خير للأبرار، وهذا كذب، فهي (ما) الموصولة، يعني والذي عند الله خير فتكون مبتدأ «وخير» خبره.

يعني: وما عند الله خير مما ذكر من وصف الجنات، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] ففي الجنة أكثر مما يتمناه الإنسان وأكثر مما يتصوره؛ وهو النظر إلى وجه الله عزّ وجل، فإن النظر إلى وجه الله أعظم ما يكون من النعيم،

ولهذا سماه الله «زيادة» في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فقد فسَّر أعلم الخلق بالله وهو النبي ﷺ «الزيادة» بأنها النظر إلى وجه الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾:

الأبرار: جمع بَر، والبَرُّ كثير الخير، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨] أي كثير الخيرات، فالأبرار جمع بر، وهم كثيرو الخيرات، وذلك بفعلهم ما أمر الله به وتركهم ما نهى الله عنه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن المتقين وإن تقلبوا في البلاد فليس مآلهم كمآل الكافرين؛ لقوله: ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾.

٢ ـ فيه بيان فوائد التقوى، وأن من فوائدها ما حصل لهؤلاء المتقين من النزل العظيم عند الله عزّ وجل، وهي هذه الجنات التي تجري من تحتها الأنهار.

٣ ـ أن هؤلاء المتقين ثوابهم عند الله عزّ وجل أكثر بكثير مما يعطى هؤلاء الذين يتقلبون في البلاد؛ لأن الله قال في المتقلبين: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾، أما هؤلاء فقال: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ دائماً وأبداً.

٤ ـ عظم هذا الجزاء والثواب الذي يحصل لهم؛ لأنه نُزل من عند أكرم الأكرمين وهو الله عزّ وجل؛ لقوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

٥ ـ ما استنبطه بعض أهل العلم من أن قوله: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ يفيد العلو، وذلك لأنه لا يمكن أن يفيد السفلى؛ لأن ذلك

نقص ينزه الله عنه، فتعيَّن أن يكون ذلك في العلو ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾.

٦ ـ أن الجزاء من جنس العمل، فإن هؤلاء لما كانوا بررة كثيري الخيرات كان لهم عند الله هذا النزل العظيم.

٧ ـ أن في الجنات أنهار عظيمة تجري من تحت غرفها وأشجارها؛ لقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾.

٨ ـ أن مَنْ مَنَّ الله عليه بالتقوى فإن ذلك من مقتضى ربوبية الله تعالى الخاصة، حيث قال: ﴿ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ فتخصيص الربوبية هنا بهؤلاء المتقين هو من باب الربوبية الخاصة، وقد مرَّ علينا كثيراً أن ربوبية الله عزّ وجل لخلقه نوعان: «عامة، وخاصة»، فالعامة هي الشاملة لجميع الخلق. والخاصة هي الخاصة بالمؤمنين، كما أن «العبودية لله عزّ وجل» أيضاً نوعان:

عامة: وهي التي لجميع الخلق كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

وخاصة: وهي للمؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وهذه الخاصة منها ما هو أخص كما في عبودية الرسول فهي أخص من العبودية العامة للمؤمنين المتقين، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، وعلى هذا ففي العبودية عموم مطلق وعموم نسبي.

فالعموم المطلق: هو الذي يشمل جميع من في السموات والأرض.

والنسبي: هو عموم عبودية المؤمنين، فإنه عام بالنسبة لعبودية الرسول، خاص بالنسبة للعبودية المطلقة.

٩ ـ أن هذه الجنات التي تجري من تحتها الأنهار إذا كانت نزلاً، وهو ما يقدم للضيف من الكرامة، فما بالك بما يكون بعد هذا؟ لا شك أنه سيكون خيراً كثيراً.

❁ ❁ ❁

□ ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]:

قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن﴾:

«إن» للتوكيد و«اللام» أيضاً للتوكيد، ففي الآية مؤكدان «إنَّ» و«اللام»، وهنا لا يخفى أن في الجملة تقديماً وتأخيراً، فإن ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبر مقدم و﴿لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾: أي للذي يؤمن بالله وما أنزل إليكم.

وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هم اليهود والنصارى.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾:

وهؤلاء كثير في النصارى؛ لأن من آمن منهم كثير بمحمد ﷺ، أما في اليهود فلم يبلغوا العشرة الذين آمنوا بمحمد ﷺ في حال حياته.

فمن اليهود الذين أسلموا (عبد الله بن سلام رضي الله عنه) فإنه كان حبراً من أحبارهم فأسلم، ومن النصارى كثير مثل النجاشي ملك الحبشة.

وقوله: ﴿لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾:

ومن جملة ما أنزل إلينا، أي: يؤمنوا بعموم الرسالة رسالة النبي ﷺ وأنه مرسل إليهم كما أنه مرسل إلى العرب، فأما من قال: أنا أُومن برسالة محمد ﷺ لكن للعرب خاصة فإنه لم يؤمن بما أنزل إلينا، لا يمكن أن يتم إيمانه بما أنزل إلينا حتى يؤمن بمحمد ﷺ على أنه رسول لجميع الخلق، وأنه رسول إليهم يجب عليهم أن يتبعوه.

ولهذا أقسم النبي عليه الصلاة والسلام أنه لا يسمع به أحد من هذه الأمة يعني (أمة الدعوة) يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بما جاء به إلا كان من أصحاب النار، إذا مات وهو لم يؤمن بما جاء به محمد ﷺ كان من أصحاب النار(١).

وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾:

أما ما أنزل إليهم فظاهر أنهم سيؤمنون به، اليهود يؤمنون بالتوراة، والنصارى يؤمنون بالإنجيل، ولكن إذا لم يؤمنوا بمحمد ﷺ فإنهم لم يؤمنوا بالتوراة ولا بالإنجيل؛ لأن عيسى عليه الصلاة والسلام قد بشَّرهم بمحمد ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦] فقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ يعني محمداً ﷺ بعد أن جاءهم بالبينات وأنه الرسول الذي بشَّر به عيسى قالوا: هذا سحر مبين، ولم يؤمنوا به ولم يتبعوه، إذن الذين يؤمنون بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، يقول: لا يتم إيمانه بأن محمداً أرسل إلى

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٣).

العرب، وأن القرآن كلام الله مثلاً، بل لا يتم إيمانه حتى يؤمن بمحمد ﷺ على أنه رسول الله إلى جميع البشر، وأنه ملزم باتباعه؛ يتبعه كما يتبعه غيره.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾:

قوله: ﴿خَٰشِعِينَ﴾ يحتمل أن تكون حالاً مِن (مَن) في قوله: ﴿لَمَن يُؤۡمِنُ﴾ وبناء على ذلك يكون مراعاً بها المعنى؛ لأن (مَن) لفظها مفرد ومعناها الجمع؛ لأن اسم الموصول وإن كان مفرداً يصح للعموم مع أن (مَنْ) مِن الأسماء الموصولة للمفرد وللجماعة.

أقول: إن ﴿خَٰشِعِينَ﴾ تحتمل أن تكون حالاً من (مَنْ) أي: للذي يؤمن حال كونه خاشعاً، أو من فاعل ﴿يُؤۡمِنُ﴾ لمن يؤمن حال كونه خاشعاً، والمعنى لا يتغير.

والخشوع هو: الذل، أي: متذللاً لله عزّ وجل، يؤمن بالله متذللاً له خاشعاً له.

﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾:

﴿لَا يَشۡتَرُونَ﴾ أي: لا يأخذون ويطلبون بآيات الله ثمناً قليلاً، فالشراء هنا بمعنى الأخذ؛ لأنه ليس هناك عقد بيع وشراء، لكن لما كان المشتري يأخذ السلعة طالباً لها حريصاً عليها صار الذين يأخذون الحياة الدنيا بالآخرة بمنزلة المشترين، ولهذا قال: ﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ وهي الدنيا أو بمالها أو بجاهها أو بغير ذلك، وفيه إشارة إلى أن من أهل الكتاب وغير أهل الكتاب من يبقى على رئاسته وعلى جاهه وماله ليكفر بالرسل. فمثلاً (أبو جهل) وغيره من زعماء العرب (قريش) ما الذي صدَّهم عن اتباع محمد ﷺ غير الكبر والإبقاء على الجاه

وعلى الرئاسة؟!. ولهذا يقولون: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، يعني هلا أنزل على رجل عظيم حتى نتبعه وهم يقولون ذلك وهم يعلمون أن محمداً ﷺ من خيرهم، بل هو خيرهم نسباً، وأنه أعظمهم وأشرفهم، وهم يسمونه قبل الرسالة (الأمين والصادق)، لكن لما جاءت الرسالة شرقوا بها والعياذ بالله وأنكروها وقالوا: هذه من رجل مهين، كما قال فرعون لموسى: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]، فهؤلاء قالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

والمراد بآيات الله هنا: الآيات الشرعية؛ لأن مِن الناس من يشتري ثمناً قليلاً بالآيات الشرعية، ومعنى (يشتري ثمناً قليلاً) أي يأخذ الجاه والرئاسة والمال وغير ذلك بدلاً عن آيات الله الشرعية واتباعها.

ووصف الله ذلك بأنه قليل؛ لأنه بالنسبة لما في الآخرة ليس بشيء كما صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»(١).

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾:

أولئك الذين عدلوا عن الدنيا ولم يأخذوها بدلاً عن طاعة الله والإيمان به:

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾:

---

(١) تقدم تخريجه (ص٥١٣).

أجر، أي: ثواب، وإضافته إلى الله ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يدل على عظمهِ وأنه عظيم جداً، فإن الشيء من العظيم عظيم، ومن الكريم كثير، ولهذا قال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

وقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: فيه إشارة كما سيأتي إن شاء الله في الفوائد أنه باقٍ؛ لأن ما عند الله يبقى، ولهذا يخلد أهل الجنة فيها أبداً، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾:

﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ السرعة: عدم التباطؤ في الشيء، فالله تعالى سريع الحساب من وجهين، الوجه الأول: أن الدنيا قليلة وفانية وسريعة وما هي إلا لحظات ثم تنقضي بسرعة، فاليوم الجمعة مثلاً، أو السبت أو الأحد أو أحد أيام الأسبوع ما تأخذ إلا شيئاً قليلاً حتى يصل الإنسان إلى نهايته ويموت، فيجد الحساب أمامه، فهذه سرعة، والسرعة الثانية: يوم القيامة فإن الله تعالى يحاسب الخلائق كلها في نصف يوم؛ لقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] والقيلولة إنما تكون في نصف النهار، ويلزم من هذا أن الله يحاسب الخلائق كلهم في نصف يوم حتى إن كل واحد منهم يقيل في منزله ومستقره.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ الثناء على بعض أهل الكتاب؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (ومِنْ) هنا للتبعيض، وهم قليل.

٢ ـ كمال عدل الله عزّ وجل بإسناد الفضل إلى أهله، فإن الله عزّ وجل لما ذكر عقاب الكافرين وثواب المؤمنين قال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ﴾ فأسند الفضل إلى أهله عزّ وجل.

٣ ـ أن هؤلاء الذين يؤمنون بما أنزل الله على رسوله عليه الصلاة والسلام مع إيمانهم بكتبهم إنما يفعلون ذلك تعظيماً لله وذلاً له، لا طلباً للدنيا، أو المدح أو ما أشبه ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾.

٤ ـ بيان إخلاص هؤلاء حيث لم يؤمنوا بالله وما أنزل إلينا من أجل الدنيا، فهم لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً؛ لقوله: ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ فإنه يدل على أنهم مخلصون في إيمانهم بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليهم، يعني: لا يقصدون شيئاً من الدنيا أو جاهاً أو رئاسة أو رياء.

٥ ـ أن هؤلاء الذين آمنوا من أهل الكتاب عن إخلاص سوف يكون لهم الأجر، يعني: الثواب من الله، وإن فاتهم ما يفوتهم من الدنيا بسبب إسلامهم؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾.

٦ ـ بيان قدرة الله عزّ وجل في سرعة حسابه حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾، وقد أورد بعض الصحابة على الرسول ﷺ إشكالاً في هذا المعنى وقال: كيف يحاسبنا في ساعة ونحن جمع ـ يعني كثير ـ، فقال: «**ألا أخبرك بشيء من آلاء الله** ـ أي من آياته ـ **يقرب لك هذا؟**» وذكر له القمر[1].

القمر مخلوق من مخلوقات الله، وكل الناس يرونه في ساعة واحدة لا يضامون في رؤيته، فإذا كان هذا في مخلوق من مخلوقات الله يضيء نوره على كل من رآه، ويشترك فيه من العالم ما لا يحصيه إلا الله، فما بالك بالخالق جلَّ وعلا؟!

٧ ـ إثبات الحساب، وأن الإنسان سوف يحاسب على عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد، رقم (١٥٧٧٣).

وليعلم أن «الحقوق» نوعان:

(حق لله عزّ وجل) فهو مبني على المسامحة وعلى العفو والإحسان.

(وحق للخلق) بالاعتداء عليهم وعلى أعراضهم، فهذا لا يغفره الله عزّ وجل، بل قد قال النبي عليه الصلاة والسلام حين بعث معاذاً إلى اليمن قال: «**إياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»(١).

فالمظلوم يلجأ إلى الله عزّ وجل، فإذا لجأ إلى ربِّه فهو سيلجأ بصدق لأنه قد ضيم من الخلق، فإذا رجع إلى الله عزّ وجل بهذا الصدق فإن الله سبحانه وتعالىٰ يجيب دعوته، يقول عزّ وجل: «**وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين**»(٢)، فلذلك يجب على الإنسان أن يحذر من ظلم نفسه بحق الله عزّ وجل، ومن ظلم غيره بالعدوان عليه بالقول أو الفعل، فإن الدنيا لن تدوم، لا بد لها من زوال، ولا بد من رجوع إلى الله عزّ وجل.

❁ ❁ ❁

❑ ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]:

---

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم، رقم (٢٤٤٨). ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

(٢) رواه الترمذي، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها، رقم (٢٥٢٥). ورواه ابن ماجه، كتاب الصيام، باب في الصائم لا تُرد دعوته، رقم (١٧٥٢).

دائماً نتكلم على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ونستشهد بقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأرعها سمعك ـ يعني استمع لها ـ فإما خيراً تؤمر به، وإما شرّاً تنهى عنه». وقلنا: إن الله تعالى إذا صدَّر الخطاب بهذا فهو دليل على العناية به.

ووجهه: أنه صدّره النداء الذي يفيد تنبيه المخاطب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ثم إذا كان النداء بوصف الإيمان كان دليلاً على أنَّ ما يأتي بعده من مقتضى الإيمان؛ لأنه لولا أنه من مقتضاه ما صدّر الخطاب لمن يوجه إليه بلفظ الإيمان. فكأنه قال: (يا أيها الذين آمنوا بإيمانكم افعلوا كذا وكذا)، أو: (لإيمانكم لا تفعلوا كذا وكذا).

ثانياً: يدل على أن مخالفة ذلك من «نواقض الإيمان» أو من «نواقص الإيمان»، إن كان الشيء من «أصول الدين» مثل (يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا بالله ورسوله) فإن مخالفته من «نواقض الإيمان».

وإن كان في «فرع من فروع الدين» فإن مخالفته من «نواقص الإيمان»، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١١] لو لم يتفسح الإنسان لم نقل: إنه كافر، بل نقول: إنه مخالف للأمر، وإيمانه ناقص؛ لأن مقتضى الإيمان أن يفعل ما أمر الله به حيث وجّه الله له هذا الأمر بوصف الإيمان.

ثالثاً: أنه يفيد الإغراء، يعني: إغراء الإنسان وحثّه على أن يفعل ما وجِّه إليه من الأمر أو النهي؛ لأن الإنسان إذا وصف بوصف فإنه يغريه هذا الوصف، فإذا قيل لشخص: يا أيها الكريم «جُد» على هذا، فمعناه: أنك تغريه وأنه لكرمه لا بد أن يجود، ولهذا لما قيل للمتنبي حين أحجم في مجال القتال: ألست القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم؟

قال: الآن قتلتني ثم أقدم حتى قُتل.

وذلك لأن الوصف الذي يتصف به الإنسان ويفخر به إذا لم يطبقه فعلاً فإنه كاذب في دعواه، فكأن الله يقول: (يا أيها الذين آمنوا بإيمانكم افعلوا كذا).

﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾:

﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ على كل ما يحتاج إلى صبر، ومعلوم أن الذي يحتاج إلى الصبر هو الذي يخالف هوى النفس؛ فالذي يخالف هواك هو الذي يحتاج إلى الصبر؛ لأنه يشق عليك تحمله، فطاعة الله عزّ وجل ثقيلة على النفوس فاصبر عليها، والمعاصي ثقيل تركها على النفوس فاصبر على الترك، والآلام والمصائب التي تصيب الإنسان ثقيلة على النفس فاصبر عليها.

فالمصائب التي تصيب الإنسان هي بنفسها مكفرة للذنوب، فإذا احتسب الإنسان أجرها على الله وانتظر بذلك ثواب الله كانت مع التكفير زيادة حسنات، والإنسان في الدنيا لا بد أن يبتلى كما قال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُساء ويوم نُسر

لم تبقَ الدنيا لأحد زاهية مطلقاً أبداً، وهذه من حكمة الله عزّ وجل يبتلي الإنسان بالنعم ويبتليه بالمصائب، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فعلى الإنسان أن يصبر على كل ما يخالف هواه، والصبر ثقيل على النفس متعب لها، ولكن الإنسان ينظر إذا صبر إلى ما أمامه، فإن النتيجة خير. ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] إذا صبر فليبشر بالخير، وفي المثل (من صبر ظفر)، وفي الشعر:

والصبر مثل اسمه مرٌّ مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل

وهذا شيء مجرب دائماً، إذا صبر الإنسان ظفر، ولا سيما إذا قرن صبره باحتساب الأجر على الله عزّ وجل، فإنه يكون في ذلك الثواب والعاقبة الحميدة.

وقوله: ﴿وَصَابِرُواْ﴾ المصابرة تكون من اثنين، ولهذا جاءت على وزن فاعل، كقاتل وجاهد، فصابر أيضاً لا بد من شخص آخر يضادك فصابِرْه.

«الصبر الأول»: لا أحد يضادك في الشيء إنما هو شيء بينك وبين نفسك تصبر.

«الصبر الثاني»: إنسان يضادك ويثيرك ويعتدي عليك فصَابِرْه.. بمعنى غالبه بالصبر، وهذا يكون في ملاقاة الأعداء. فالعدو يصابرك وأنت تصابره، ولكن الله تعالى قد سلا عباده المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَۖ﴾ [النساء: ١٠٤]، أنت إذا جُرِحت تتألم وهو إذا جرح يتألم بلا شك، ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَۗ﴾ [النساء: ١٠٤] فرق عظيم، فالذي يرجو من الله عزّ وجل هذا الثواب على ما حصل له يهون عليه هذا الشيء، حتى إنه أحياناً لا يشعر به من شدة احتسابه الأجر على الله عزّ وجل.

إذن الصبر: حبس النفس مع غير مصابر، وتكون على ما لا يلائم الإنسان وما يشق عليه. والمصابرة: مع شخص مضاد يصابِرُك ويصبر عليك على معاندتك وعلى مضادتك فأنت تصبر، وقد قال الله عزّ وجل: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

أما قوله: ﴿وَرَابِطُواْ﴾ المرابطة: أخص من المصابرة، يعني

رابطوا على الطاعات، ومن ذلك ما بيَّنه النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد**»[١]، إسباغ الوضوء على المكاره، يعني: في أيام البرودة، فإن الإنسان إذا أسبغ الوضوء، يعني: أتمه وأكمله دلَّ هذا على إيمانه بالله عزّ وجل وعلى شدة تصديقه ورجائه لثواب الله.

ثم قال ﷺ: (كثرة الخطا إلى المساجد) فإن الإنسان إذا ذهب إلى المسجد البعيد الذي يحتاج إلى كثرة الخطا دلَّ هذا على مرابطته في الخير ومثابرته عليه، وعلى صدق الإيمان في قلبه، ولهذا يذهب إلى المسجد ولو كان بعيداً، ويتردد إليه على الأقل في اليوم والليلة خمس مرات، هذا أيضاً يدل على المرابطة على الخير.

ومن المرابطة: المرابطة في الثغور، لكنها غير موجودة في عهد النبي عليه الصلاة والسلام؛ لأنه في عهد النبي عليه الصلاة والسلام «لم توجد مرابطة»، يخرج النبي عليه الصلاة والسلام إلى العدو ويغزو ويرجع، لكن بعد ذلك لما فتحت الفتوحات وانتشر الإسلام في أقطار الأرض بعد ذلك صارت المرابطة، واحتاج المسلمون إلى مرابطة، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة إلى الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط ثلاثاً**»[٢]، لأن الرباط على الحدود الإسلامية غير موجود في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام.

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي من أجل أن تفلحوا.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، رقم (٢٥١).

(٢) تقدم تخريجه في الحديث السابق.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا أمر بتقوى الله عزّ وجل، وسبق لنا مرات كثيرة أن المراد «بالتقوى» اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، هذا أحسن ما قيل في التقوى، هذه هي التقوى، وعطفها على ما سبق إما أن يقال من باب عطف العام على الخاص، وهو كثير في القرآن. وإما أن يقال: إن ما سبق أوامر والتقوى للنواهي كما نقول في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾، إن «البر» فعل الخير، و«التقوى» اجتناب الشر، وإذا ذكرت «التقوى» وحدها شملت فعل الخير وترك الشر.

والمعنيان لا يتنافيان؛ فهذه الأوصاف أو الأوامر الأربعة: ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ كلها تشتمل على شيء واحد وهو فعل الأوامر واجتناب النواهي.

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾:

لعل: هنا للتعليل وليست للرجاء؛ لأن كلام الله عزّ وجل ليس فيه رجاء، فإنه على كل شيء قدير، ولا يصعب عليه شيء ولا يعسره شيء، لكنها للتعليل أي: لأجل أن تفلحوا.

و(الفلاح) قالوا: إنها كلمة جامعة للفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، الفلاح: أن يفوز الإنسان بمطلوبه، وأن ينجو من مرهوبه، ولا شك أن كل واحد من الخلق يتمنى هذا.

من فوائد الآية الكريمة:

في هذه الآية الكريمة يوجِّه الله النداء إلى المؤمنين فيستفاد منه:

١ ـ فضيلة الإيمان، وأن أهل الإيمان هم أجدر الناس بتوجيه الخطاب إليهم؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يأتي في أسلوبه بما يحمل

الإنسان على فعل ما طلب منه أو ترك ما نهي عنه؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ﴾.

٣ ـ الحث على الصبر بل الأمر بالصبر؛ لقوله: ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾ وهو في الحقيقة مشترك، قد يكون «واجباً» وهو الصبر على الواجب وعلى ترك المحرم وعلى الأقدار المؤلمة.

وقد يكون «مستحباً» وهو: الصبر على المستحبات أو على ترك المكروهات، فإن الصبر هنا ليس بواجب لكنه أكمل وأفضل.

٤ ـ الأمر بالمصابرة، وأن الإنسان يصابر من يضاده ويعد له، فإن العاقبة ستكون له عليه إذا صابره امتثالاً لأمر الله عزّ وجل ورجاءً لثوابه، وتحسباً للعاقبة الحميدة التي تكون فيها الدائرة على مَنْ ضاده.

٥ ـ الأمر بالمرابطة، والمرابطة إن كانت على واجب فهي واجبة، وإن كانت على مستحب فهي مستحبة، حسب الأمر المرابط عليه.

٦ ـ الأمر بالتقوى، و«التقوى» واجبة لأنها اتقاء الوقوع في المحرم إما بترك الواجب وإما بفعل المحرم.

٧ ـ النتائج الحميدة لمن قام بأوامر الله من الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى وهي ـ أي: العاقبة الحميدة ـ الفلاح؛ لقول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

وبذلك انتهت الدروس العلمية المسجلة التي كان يلقيها فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين في تفسير سورة آل عمران. تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ ... ﴿١٠٤﴾﴾	٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا ... ﴿١٠٥﴾﴾	٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ ... ﴿١٠٦﴾﴾	٢٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ .	٣٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ ... ﴿١٠٨﴾﴾	٣٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾ .	٣٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ ... ﴿١١٠﴾﴾	٤٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ... ﴿١١١﴾﴾	٥٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ ... ﴿١١٢﴾﴾	٦١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ... ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ... ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ... ﴿١١٥﴾﴾	٧٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ ... ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ ...﴾	٨٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ... ﴿١١٧﴾ هَاأَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ... ﴿١١٩﴾﴾	٩٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ ... ﴿١٢٠﴾﴾	١٠٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ ... ﴿١٢١﴾﴾	١٠٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ... ﴿١٢٢﴾﴾	١١١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ ... ﴿١٢٣﴾﴾	١٢٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم ... ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ ... ﴿١٢٥﴾﴾	١٢٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ... ﴿١٢٦﴾﴾ .	١٣٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ ... ﴿١٢٧﴾﴾	١٤١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾	١٤٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ ... ﴿١٢٩﴾﴾	١٤٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا ... ﴿١٣٠﴾﴾	١٥٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾	١٦١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ... ﴿١٣٢﴾﴾	١٦٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ... ﴿١٣٣﴾﴾	١٦٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ... ﴿١٣٤﴾﴾	١٧٠

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا... ﴿١٣٥﴾﴾ ١٨٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ... ﴿١٣٦﴾﴾ ١٩١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا... ﴿١٣٧﴾﴾ ١٩٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ... ﴿١٣٨﴾﴾ ٢٠٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا... ﴿١٣٩﴾﴾ ٢٠٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ... ﴿١٤٠﴾﴾ ٢١٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا... ﴿١٤١﴾﴾ ٢٢٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا... ﴿١٤٢﴾﴾ ٢٢٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن... ﴿١٤٣﴾﴾ ٢٣٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ... ﴿١٤٤﴾﴾ ٢٣٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ... ﴿١٤٥﴾﴾ ٢٤٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ... ﴿١٤٦﴾﴾ ٢٥٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ... ﴿١٤٧﴾﴾ ٢٦٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ... ﴿١٤٨﴾﴾ ٢٦٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا... ﴿١٤٩﴾
بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ ٢٧٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ... ﴿١٥١﴾﴾ ٢٩٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم... ﴿١٥٢﴾﴾ ٣٠٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ... ﴿١٥٣﴾﴾ ٣١٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً... ﴿١٥٤﴾﴾ ٣٢٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ... ﴿١٥٥﴾﴾ ٣٤٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ... ﴿١٥٦﴾﴾ ٣٤٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ... ﴿١٥٧﴾﴾ ٣٥٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ ٣٦٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ... ﴿١٥٩﴾﴾ ٣٦١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ... ﴿١٦٠﴾﴾ ٣٧٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ... ﴿١٦١﴾﴾ ٣٨٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ... ﴿١٦٢﴾﴾ ٣٩٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ ٣٩٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ... ﴿١٦٤﴾﴾ ٤٠٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا... ﴿١٦٥﴾﴾ ٤١١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ... ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ... ﴿١٦٧﴾﴾ ٤١٧

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ ٤٢٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ... ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ... ﴿١٧٠﴾﴾ ٤٣٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ ... ﴿١٧١﴾﴾ ٤٣٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ ... ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ ... ﴿١٧٣﴾﴾ ٤٤٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ ... ﴿١٧٤﴾﴾ ٤٥٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ ... ﴿١٧٥﴾﴾ ٤٥٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ... ﴿١٧٦﴾﴾ ٤٥٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ ... ﴿١٧٧﴾﴾ ٤٦٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى ... ﴿١٧٨﴾﴾ ٤٦٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ ... ﴿١٧٩﴾﴾ ٤٧٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ... ﴿١٨٠﴾﴾ ٤٨٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ ... ﴿١٨١﴾﴾ ٤٨٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ... ﴿١٨٢﴾﴾ ٤٩٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ ... ﴿١٨٣﴾﴾ ٥٠٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ ... ﴿١٨٤﴾﴾ ٥٠٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ ... ﴿١٨٥﴾﴾ ٥١١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ... ﴿١٨٦﴾﴾ ٥١٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ ... ﴿١٨٧﴾﴾ ٥٢٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ ... ﴿١٨٨﴾﴾ ٥٢٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴿١٨٩﴾﴾ ٥٣٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا ... ﴿١٩١﴾﴾ ٥٣٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ... ﴿١٩٢﴾﴾ ٥٤٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ ... ﴿١٩٣﴾﴾ ٥٥٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ... ﴿١٩٤﴾﴾ ٥٦٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ ... ﴿١٩٥﴾﴾ ٥٦٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ ... ﴿١٩٧﴾﴾ ٥٨٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ ... ﴿١٩٨﴾﴾ ٥٨٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ ... ﴿١٩٩﴾﴾ ٥٩٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ ... ﴿٢٠٠﴾﴾ ٥٩٩

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ

١

تفسير القرآن الكريم

سورة النساء

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

طبع بإشراف مؤسسة

الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

دار ابن الجوزي

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١)

تفسير القرآن الكريم

سورة النساء

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الأول

دار ابن الجوزي

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير
القرآن الكريم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٠هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير القرآن الكريم: سورة النساء. / محمد بن صالح العثيمين.
- الرياض، ١٤٣٠هـ
٢مج.- (سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ ابن عثيمين؛ ٩)
ردمك: ٥ - ٠٧ - ٨٠٣٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)
٢ - ٠٨ - ٨٠٣٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج١)
١ - القرآن - سورة النساء - تفسير أ - العنوان ب - السلسلة
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٠/٢٤١٨

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
إلا لمن أراد طبعه لتوزيعه مجاناً بعد مراجعة
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
عنيزة - ص ب ١٩٢٩
هاتف: ٠٦/٣٦٤٢١٠٧ - ٠٦/٣٦٤٢٠٠٩
www.binothaimeen.com
info@binothaimeen.com
الطبعة الأولى
رمضان ١٤٣٠

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ - الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - **الرياض** - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - **جدة** - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - **بيروت** - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - **القاهرة** - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
البريد الإلكتروني: **aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com**

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، خاتم النبيين، وإمام المتقين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد؛

فلقد أولى صاحب الفضيلة شيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ تفسير القرآن الكريم، وبيان معانيه، واستنباط الأحكام والفوائد من آياته، عناية كبيرة، فعقد لهذا الهدف دروساً عديدة تميزت بخصائص جليَّة جليلة وذلك ضمن جهوده المباركة التي تجاوزت خمسين عاماً في مجال التعليم والتربية والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

وقد كان من الدروس المسجلة صوتياً لفضيلته ـ رحمه الله تعالى ـ: تفسير سورة النساء خلال الفترة من شهر ربيع الآخر عام ١٤١٣هـ إلى شهر محرم ١٤١٧هـ وذلك في حلقته العلمية التي كان يعقدها في جامعه بمدينة عنيزة، للتدريس في مختلف العلوم الشرعية واللغوية.

وسعياً لتعميم النفع بهذا التفسير ـ بإذن الله تعالى ـ وإنفاذاً للقواعد والتوجيهات التي قررها فضيلته ـ رحمه الله تعالى ـ لإخراج تراثه العلمي عهدت مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية إلى الدكتور الشيخ إبراهيم بن محمد قاسم الميمن ـ أثابه الله ـ بالعمل لإعداد تلك الدروس الخاصة بتفسير سورة النساء للطباعة والنشر فجزاه الله خيراً.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، موافقاً لمرضاته، نافعاً لعباده، وأن يجزي فضيلة شيخنا عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ويضاعف له المثوبة والأجر، ويُعلي درجته في المهديين، إنه سميع قريب.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللجنة العلمية
في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
غرة محرم ١٤٣٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

❑ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

هذه السورة هي سورة النساء، وهي مدنية، والمدني عند الجمهور: ما نزل بعد الهجرة، والمكي: ما نزل قبل الهجرة، فالمدني ما نزل بعد الهجرة ولو في غير المدينة، والمكي ما نزل قبل الهجرة ولو في غير مكة، وعلى هذا فالمدار في تعيين المكي والمدني على الزمان لا على المكان، وقد ذكر العلماء - رحمهم الله - ضوابط ومميزات للمكي والمدني، وهي معروفة في علم أصول التفسير.

ومن ذلك: أن الغالب في الآيات المكية القصر، وقوة الأسلوب، وموضوعها في الغالب التوحيد وما يتعلق به. وأما الآيات المدنية فالغالب عليها السهولة، وطول الآيات، وموضوعها في الأمور الفرعية؛ كالبيوع، وآداب المجالس، وآداب الاستئذان، وغير ذلك.

والغالب أن النداء في المكي يكون لعموم الناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ لأن أكثر المخاطبين بها ليسوا بمؤمنين، والمدني يكون الخطاب فيه بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ١٠٤] هذا هو الغالب؛ لأن المخاطبين فيها مؤمنون كلهم أو أكثرهم.

وقد سميت هذه السورة بـ(سورة النساء) لذكر النساء فيها، وقد ابتدئت بأصل خلقة بني آدم، من ماذا خلقوا؟ ثم ذكرت الأرحام وما يتصل بها من المواريث وغير ذلك، ثم ذكرت ما يتعلق بالنكاح؛ لأن النكاح صلة بين الناس، كما أن القرابة صلة بين الناس، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: ٥٤]، ثم ما يتعلق بمخاطبة اليهود والمنافقين، ثم ما يتعلق بأحوال النزاع بين الزوجين، كما سيمر بنا إن شاء الله تعالى.

وهذه السورة هي السورة الرابعة بعد الفاتحة والبقرة، وآل عمران، وقد ورد في صحيح مسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ قرأ البقرة ثم النساء ثم آل عمران»[1]، وهذا الترتيب كان في أول الأمر، ثم رتبت في الأخير هكذا: البقرة، ثم آل عمران، ثم النساء، واستقر على ذلك المصحف الذي جمعه أبو بكر رضي الله عنه ثم عثمان بن عفان رضي الله عنه.

يقول الله عزّ وجل: «**بسم الله**»، البسملة آية مستقلة، يؤتى بها في أوائل السور، إلا سورة واحدة وهي سورة براءة، فإنه لم تنزل لها بسملة، ولو نزل لها بسملة لكانت محفوظة موضوعة في مكانها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، ولكن الصحابة رضي الله عنهم أشكل عليهم هل هي مستقلة أو من سورة الأنفال؟ فوضعوا فاصلاً بينهما لأجل هذا الإشكال فقط، وليس هناك شك في نزول البسملة أولاً؛ لأن

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، حديث رقم (٧٧٢).

البسملة لو نزلت لحفظت كما تحفظ آيات القرآن الأخرى.

والصحيح أن البسملة ليست من السورة التي قبلها ولا من السورة التي بعدها، ولا تحسب من آياتها؛ لا في الفاتحة، ولا في غيرها، خلافاً لبعض أهل العلم الذين قالوا: إنها آية من الفاتحة لا من غيرها، وعلى هذا جرت طباعة المصاحف، فقد جعلت البسملة في الطباعة آية من الفاتحة دون غيرها.

والصحيح أن البسملة ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، ودليل ذلك: ما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله: حمدني عبدي...**»[1] إلخ الحديث، ولم يذكر البسملة.

ويدل لذلك أيضاً: أنه إذا كانت الفاتحة بين الله وبين العبد نصفين، فإنه لا يستقيم أن تكون البسملة منها؛ لأننا إذا عددنا الآيات وجدناها كما يلي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الفاتحة] آية ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة] آية ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝﴾ [الفاتحة] آية، فهذه ثلاث آيات.. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة] آية، وهذه هي الرابعة، وهي الوسط، وهي التي بين الله وبين العبد، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ [الفاتحة] آية ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة] آية، فتكون الآيات متناسقة، ويكون حق

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، حديث رقم (٣٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الخالق عزّ وجل ثلاث آيات مستقلة، وهي الأولى، وحق العبد ثلاث آيات مستقلة، وهي الآيات الأخيرة، والسابعة بينهما، وبهذا يعرف أن البسملة ليست من الفاتحة.

وأما الجار والمجرور فإنه متعلق بمحذوف، وهذا المحذوف فعل مؤخر يقدر بحسب المسمى عليه، فإذا كنت تريد أن تقرأ فالتقدير: باسم الله أقرأ، وإذا كنت تريد أن تذبح فالتقدير: باسم الله أذبح، وإذا كنت تريد أن تتوضأ فالتقدير: باسم الله أتوضأ، وهلم جرا.

وإنما اختير أن يكون الفعل متأخراً تيمناً بالبداءة باسم الله من وجه، ولإفادة الحصر من وجه آخر؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، فكأنك تقول: لا أقرأ إلا باسم الله، وإنما اختير أن يكون فعلاً لا اسماً ـ أي: لا يقدر باسم الله قراءتي، أو باسم الله ابتدائي ـ ؛ لأن الأصل في العمل الأفعال دون الأسماء، ولذلك لا يوجد اسم عامل إلا بشروط، بخلاف الأفعال. وإنما قدر مناسباً لما يسمى عليه؛ لأنه أنسب، ولأن النبي ﷺ قال: «**ومن لم يذبح فليذبح باسم الله**»[1]، فقدر فعلاً خاصاً وهو الذبح.

أما لفظ الجلالة فهو علم خاص بالله عزّ وجل وحده، لا

---

(١) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد..، حديث رقم (٩٤٢)؛ ومسلم، كتاب الأضاحي، باب وقتها، حديث رقم (١٩٦٠) عن جندب البجلي.

يسمى به غيره بالإجماع، وكذلك ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ علم خاص بالله، لا يسمى به غيره.

وأما الرحيم فهو اسم من أسماء الله عزّ وجل، فهو علم عليه، لكن يوصف به غيره، كما قال الله تعالى في النبي ﷺ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

ويفسر أهل السنة ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بأنه ذو الرحمة، وهي صفة لازمة تتعلق بذات الله عزّ وجل، ومن آثارها: الإنعام والإحسان، ويفسرها أهل التعطيل بالإحسان فيقولون: الرحمٰن: المحسن، أو المنعم، أو بإرادة الإحسان أو الإنعام؛ أي: المريد للإحسان، والمريد للإنعام؛ لأنهم لا يصفون الله بصفة الرحمة، وكذلك يقال في الرحيم.

فإن قال قائل: هل الرحمٰن والرحيم مترادفان؟

فالجواب: إن ذكر أحدهما منفرداً عن الآخر فهو متضمن له، وإن ذكرا جميعاً؛ فالرحمٰن باعتبار الوصف، والرحيم باعتبار الفعل؛ لأن الرحمٰن على وزن فَعْلان، وهو يدل على الوصف؛ كغضبان وسكران ونشوان وما أشبهها، والرحيم يدل على الفعل، فيكون الرحمٰن باعتبار وصف الله عزّ وجل بالرحمة، والرحيم باعتبار فعله؛ أي: باعتبار رحمته لمن رحم، قال الله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ [العنكبوت: ٢١].

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ هذه جملة ندائية مصدَّرة بيا، والمنادى: أي، وهو مبني على الضم في محل

نصب، والهاء للتنبيه، والناس: نعت لـ«أي»، أو عطف بيان، فهي مبنية على الضم في محل نصب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وجّه الله الخطاب للناس، مع أن السورة مدنية؛ وذلك لبيان أن رسالة النبي ﷺ عامة لجميع الناس، و﴿ٱلنَّاسُ﴾ قيل: إن أصلها أناس، وقد حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال تخفيفاً، كما حذفت الهمزة من «شر» و«خير»، وأصلها: أشر وأخير، تقول: هذا خير من هذا؛ أي: أخير منه، وهذا شر من هذا؛ أي: أشر منه، لكن حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة الاستعمال.

وهو مشتق من الأُنس؛ لأن البشر كما يقال عنهم: مدنيون بالطبع، يحتاجون إلى أن يأنس بعضهم ببعض، ولهذا لا يوجد أحد تحبب إليه الخلوة إلا لسبب خارج عما جبل الله عليه الناس.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ التقوى مأخوذة من الوقاية، وهي أن يتخذ الإنسان وقاية من عذاب الله، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والرب في قوله: ﴿رَبَّكُمُ﴾ هو الخالق المالك المدبر، فهو متضمن لهذه المعاني الثلاثة: خالق؛ أي: موجد من العدم، ومالك؛ أي: لا يشركه أحد في ملكه، ومدبر؛ أي: للأمور على ما تقتضيه حكمته.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ الذي: صفة للرب، ولكنها صفة كاشفة، ومعنى قولنا: (كاشفة)؛ أي: موضحة لهذه الربوبية أو لبعض معانيها، واحترزنا بكلمة (كاشفة) عن كونها مقيدة؛ لأننا لو جعلناها مقيدة، لكان هناك ربان: رب خلقنا من نفس واحدة، ورب لم يخلقنا من نفس واحدة، وليس الأمر كذلك، بل الذي

خلقنا من نفس واحدة رب واحد، فتكون الصفة هنا صفة كاشفة.

وقوله: ﴿خَلَقَكُم﴾ أي: أوجدكم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ هذه النفس هل يراد بها نفس بعينها، أو المراد بالنفس الجنس؟

الظاهر الأول، وهو أن المراد بالنفس نفس بعينها، وهو آدم عليه الصلاة والسلام الذي هو أبو البشر، فقد خلقه الله تعالى من طين بيده الكريمة، وعلمه أسماء كل شيء يحتاج إليه؛ لأنه خلق من غير أن يكون هناك أحد يتعلم منه اللغة، فعلمه الله تعالى اللغات التي يحتاج إليها، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] أي: مما يحتاج إليه.

وقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: خلق من هذه النفس زوجها، وقد جاء في الآثار أنها خلقت من ضلَعه الأيمن ـ والله أعلم ـ لكن ثبت في السنة أن المرأة خلقت من ضلَع.

وقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ولم يقل: زوجته؛ لأن اللغة الفصحى أن الزوج يطلق على الرجل والمرأة، وأصله ضد الوتر؛ لأن الزوجة إذا انضمت إلى زوجها صارت شافعة له بعد أن كان منفرداً، ولهذا يقال: الزوجة شريكة زوجها في الحياة؛ لأن بعضهما انضم إلى بعض. والمراد بها هنا حواء.

وقوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ بث بمعنى: نشر وأخرج ﴿مِنْهُمَا﴾ أي: من النفس وزوجها ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ وهذان القسمان لا يخرج عنهما بنو آدم، وما جاء في الخنثى فإن الخنثى: إما ذكر وإما أنثى، أو مركب منهما، لكنه لا يخرج عن الذكورة والأنوثة.

وقوله تعالى: ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ ولم يقل: نساءً كثيرات؛ لأن الكثرة في الرجال عز، بخلاف الكثرة في الإناث، وإن كان الواقع أن النساء من بني آدم أكثر من الرجال، كما استنبط ذلك شيخ الإسلام رحمه الله من قول النبي ﷺ: «**إنكن أكثر أهل النار**»[1]، «**وإن أهل النار من بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون**» فإذا كن أكثر أهل النار، وأهل النار من بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون؛ لزم من هذا أن يكن أكثر من الرجال، وهذا هو الواقع، لكن الكثرة في الرجال عز وفخر يفتخر الناس به، بخلاف النساء، فإن الكثرة منهن عالة وتعب وعناء.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾، كرر الأمر بتقواه عزّ وجل لما لها من الأهمية؛ لأن الإنسان إذا وفق لتقوى الله صلحت أموره الدينية والدنيوية.

وقوله: ﴿تَسَآءَلُونَ﴾ فيها قراءتان: الأولى «تَسَاءلون» كما في المصحف، والثانية: «تسَّاءلون»، وأصل «تسَّاءلون» تتساءلون، وقوله: ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ أي: يسأل بعضكم بعضاً به للحماية، فيقول: أسألك بالله أن تنقذني، أسألك بالله أن لا تؤذيني، وغير ذلك مما يسأل، فالله تعالى هو الذي يتساءل به الناس.

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ فيها قراءتان: بالجر، وبالفتح، فإذا كانت بالفتح فهي معطوفة على قوله: «الله»، فيكون المعنى: واتقوا الأرحام فلا تضيعوها، ولا تفرطوا في حقها، والأرحام: جمع رحم، وهم القرابة، فيكون في الآية أمر بصلة الأرحام والقيام

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه (٢٦١٣) عن أبي هريرة ورواه أحمد في مسنده (٣٥٥٩) عن ابن مسعود.

بحقهم، وأما على قراءة الجر: «والأرحامِ» فهي معطوفة على الضمير في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ أي: تساءلون به وبالأرحام، والتساؤل بالأرحام مما جرت العادة به عند العرب أن يقال: أسألك بالله وبالرحم، أو يقال: أسألك بالرحم التي بيني وبينك، فهم لعصبيتهم يقدرون الرحم تقديراً بالغاً ويحترمونها، ويرون حمايتها؛ ولهذا ذكَّرهم الله تعالى بها فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾.

فإذا قال قائل: هل بين القراءتين منافاة؟

فالجواب: لا، والقراءتان في الحقيقة تصيِّر الكلمة كلمتين، فإما أن تكون كل قراءة تبياناً للأخرى، وإما أن تكون القراءة الثانية جاءت بمعنى جديد، وهنا القراءتان كل واحدة جاءت بمعنى جديد، فقراءة النصب فيها الأمر باتقاء الأرحام؛ أي: اتقاء التفريط في حقهم، والقراءة الثانية فيها التذكير بأن الناس يتساءلون بالأرحام، ولم يتساءلوا بها إلا لعظم حقها بينهم.

وهنا إشكال على قراءة الجر من حيث القواعد النحوية؛ لأن النحويين يقولون: إذا عطفت على ضمير متصل فأت بالضمير المنفصل، أو أعد حرف الجر، فقل: تساءلون به وبالأرحام.

فهل نقول: إن في القرآن ما خرج عن القواعد؟

الجواب: لا، بل إن القرآن حاكم وليس محكوماً عليه، وكون النحويين يقولون: هذا شاذ، نقول: الشذوذ منكم، فليس في القرآن ما هو شاذ أبداً، والقرآن نزل بلسان عربي مبين، وإذا كان يقل استعمال هذا عند العرب، فإنه بنزول القرآن به يكون كثيراً، يقرؤه الناس في كل وقت وفي كل حين؛ ولهذا أنكر الرازي ومحمد رشيد رضا وغيرهم من العلماء على النحويين إنكاراً بالغاً في هذا، وقالوا: كيف يقولون: إن في القرآن ما هو

شاذ؟ فإن القرآن يَحْكم ولا يُحكم عليه، بل إذا جاء في القرآن تركيب لم يُعهد في اللغة العربية؛ فإن الفضل للقرآن بإحياء هذا التركيب.

وقد ذكر ابن مالك رحمه الله أنه ليس بلازم أن يُعاد حرف الجر، فقال:

وليس عندي لازماً إذ قد أتى في النظم والنثر الصحيح مثبتا

وهذا هو الصحيح، وعلى هذا فنقول في كل آية زعم النحاة أنها شاذة: إنه ليس في القرآن شيء شاذ، بل كل ما في القرآن فهو على اللغة الفصحى بلسان عربي مبين، ويجب أن تؤخذ القواعد من القرآن ليحكم بها وعليها، لا أن تؤخذ القواعد مؤصلة باصطلاحات حادثة ثم يقال: إن القرآن شاذ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، لما أمر بتقواه عزّ وجل مرتين في الآية قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أي: يراقبكم في جميع أحوالكم.. هل اتقيتم الله أم لم تتقوه؟ هل اتقيتم الأرحام وقمتم بواجبها أم لم تتقوها؟

وختمُ الآية بهذه الجملة يراد به التهديد من المخالفة، كما لو قلت لأحد أبنائك: افعل كذا فأنا رقيب عليك، فهذا يعني: أنك تهدده بأن لا يخالف، وأنه إن خالف فسيجد عقوبته.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ وجوب تقوى الله تعالى على جميع الناس، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾، حيث وجه الخطاب لجميع الناس.

٢ ـ بيان أن الناس أُوجدوا من العدم، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

٣ ـ الرد على الفكرة الملحدة أن الناس تطوروا من القرود إلى البشرية، فنحن لا نعرف النفس إلا آدم الذين نحن من نسله، ولكن من ادعى أن أصل بني آدم قرد، قلنا له: إقرارك على نفسك مقبول، وعلى غيرك غير مقبول.

٤ ـ التذكير بنعمة الله عزّ وجل بما خلق لنا من الأزواج، لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، و(من) هنا للتبعيض، ويجوز أن تكون بيانية للجنس؛ أي: من جنسها، وهذا من النعم الكبيرة، فلو كانت أزواجنا من غير جنسنا فلا يمكن أن نركن إليها أبداً؛ لأنه لا يركن الإنسان إلا إلى من كان من جنسه، فلو كانت من جنس غير آدمي، فلن يركن إليها الإنسان أبداً، بل ينفر منها نفوراً شديداً.

٥ ـ أن أصل هذه البشرية ـ التي لا يحصيها إلا الله ـ واحد، وإن شئت فقل: أصلها اثنان، زوج وزوج، خلق منهما هؤلاء الرجال الكثير والنساء، بشر لا يحصيهم إلا الله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾.

٦ ـ أن كثرة الرجال أهم من كثرة النساء؛ لقوله: ﴿رِجَالًا كَثِيرًا﴾، فإن التنصيص على كثرة الرجال يدل على أهمية هذه الكثرة.

٧ ـ أهمية التقوى، ولهذا كرر الله الأمر بها مرتين.

٨ ـ الإشارة إلى أن التقوى واجبة بمقتضى الربوبية وبمقتضى الألوهية.

٩ ـ أن التساؤل بالله أمر واقع معروف عند العرب؛ لقوله: ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾، ولكن هل يجوز للإنسان أن يسأل غيره بالله؟

نقول: إن كان المقصود بذلك التذكير فلا حرج، وإن كان المقصود بذلك الإلزام ففيه نظر، فإذا قال: أسألك بالله؛ أي: أذكرك به حتى تراعي عظمة الله وحقه، فهذا لا بأس به، أما إذا كان القصد الإلزام، فهذا إحراج، ومن ذلك ما يقع أحياناً من بعض الذين يقدمون أسئلتهم في المحاضرات فيقول بعضهم: أسألك بالله إلا رددت علي، أو يقول لمقدم السؤال: أسألك بالله إلا قدمته، فهذا فيه إحراج؛ لأنه قد يرى المجيب أو المقدم أن من المصلحة أن لا يقدم هذا السؤال، أو أن لا يجاب عليه.

وإذا سأل بالله فهل تجب إجابته؟

نقول: إن سأل بالله شيئاً محرماً فلا كرامة له، ولا تجوز إجابته، كما لو قال: أسألك بالله أن تدخل بستان فلان وتأتي لنا منه ببرتقال وتفاح، فهذا لا يجوز، ولا كرامة، وإذا سأل بالله شيئاً يضر كأن يقول: أسألك بالله أن تعطيني نصف مالك، فهذا لا تجب إجابته؛ لأن فيه ضرراً، وإذا قال: أسألك بالله أن تعطيني حقي الواجب عليك، فهنا تجب إجابته من وجهين: الأول: أنه حق واجب، والثاني: أنه سأل بالله.

وقد قال بعض أهل العلم: إن معنى قول النبي ﷺ: «**من سألكم بالله**» أي: من سألكم حقاً أوجبه الله على المسئول، فكأن معنى قوله: «**من سألكم بالله**» أي: من سألكم بشرع الله، أو: من سألكم سؤالاً يقتضي الشرع إجابته، فأجيبوه، وليس المعنى: من قال: «أسألك بالله»؛ لأن من قال: أسألك بالله، فقد يراد بها معنى لا يصح إطلاقاً، كأن يريد بذلك أن يجعل الله شفيعاً إلى

هذا المسئول، فإن هذا حرام؛ لأنه لا يجوز أن يستشفع بالله على خلقه، فإن مقام الله أعظم من أن يكون واسطة بينك وبين الخلق.

١٠ ـ وجوب احترام الأرحام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ على قراءة النصب، وكذلك الإشارة إلى احترام الأرحام على قراءة الجر، والمعنى: كما أنكم تحترمونها وتسألون بها، فعظموها وآتوها حقها.

١١ ـ التحذير من مخالفة الله عزّ وجل، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، ومن آمن بأن الله رقيب عليه فسوف يحذر من مخالفة الله عزّ وجل.

ويؤخذ من هذه الآية: إثبات اسم الرقيب لله عزّ وجل.

ولا يراد بهذه الآية معناها الزمني؛ لأنه لو أريد بها المعنى الزمني؛ لكانت الرقابة قد مضت، ولكنه يراد بها تحقيق اتصاف الموصوف بالصفة التي كانت خبراً في هذه الجملة، فالمراد هنا تحقيق أن الله رقيب علينا، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، ليس المراد أنه كان فزال، بل المراد تحقيق اتصافه بالمغفرة والرحمة.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء: ٢].

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ ﴿وَءَاتُوا۟﴾، بمعنى: أعطوا، وأتوا بمعنى: جاءوا، وقوله: ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾ مفعول أول، و﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ مفعول ثانٍ، وهذا الفعل «آتوا» ينصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر.

و﴿ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾ جمع يتيم، وهو مأخوذ من اليتم، وهو الانفراد، والمراد به اصطلاحاً: من مات أبوه وهو صغير لم يبلغ، سواء كان ذكراً أو أنثى، أما إذا بلغ فإنه يزول يتمه بحسب الاصطلاح والحكم الشرعي، ولهذا جاء في الحديث: «**لا يتم بعد احتلام**»(١) أي: بعد البلوغ؛ لأنه إذا بلغ استقل بنفسه.

وقوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ أي: أموالهم التي لهم، سواء كانت عندكم بصفتكم أولياء، أو لم تكن عندكم، ولكن أخذتموها بغير حق، وقوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ أي: فلا تخونوا منها شيئاً، ولا تكتموا منها شيئاً، ولا تفسدوها، بل أعطوها كما كانت، ولا يلزم من قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ أن نعطيهم المال وهم أيتام؛ لأن اليتيم لا يعطى ماله إلا إذا اختبر، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

وهناك فرق بين الإيتاء وبين الدفع؛ لأن الدفع معناه: لا تعطه المال حتى يبلغ ويرشد، لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، وإما إيتاء المال، فالمراد أن نحفظ المال لهم بحيث نعطيهم إياه كاملاً عند وجوب الدفع.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ أي: لا تأخذوا الخبيث بدلاً عن الطيب.

والمعنى: أننا لا نعطيهم الخبيث من أموالنا ونأخذ بدله الطيب، وقيل: معناها: لا تأخذوا أموالهم وتستغنوا بها عن الطيب؛ لأن أخذ أموالهم حرام، والحرام خبيث. ففيها وجهان:

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الوصايا، باب ما جاء متى ينقطع اليتم (٢٨٧٢).

الوجه الأول: أن لا تأخذوا الطيب من أموالهم وتعطوهم الخبيث، ومثاله: أن يكون لليتيم غنم سمينة جيدة، وعند وليه غنم هزيلة رديئة، فيأخذ من غنم اليتيم الطيب ويعطيه الرديء، فإن هذا حرام، أو يكون عنده بر طيب نقي، فيأخذه ويعطيه براً رديئاً مخلوطاً.. وما أشبه ذلك.

فيكون معنى الآية على هذا الوجه: لا تأخذوا الطيب وتعطوهم الخبيث.

الوجه الثاني: لا تأخذوا من أموالهم شيئاً؛ لأن أموالهم حرام عليكم، والحرام خبيث، فيكون معنى الآية على هذا الوجه: لا تأخذوا أموالهم فتستغنوا بها عن الطيب الذي تكتسبونه بوجه حلال.

وكلا الأمرين محرم، سواء أخذ ماله بدون أن يعطيه عنه شيئاً، أو أخذ ماله الطيب وأعطاه عنه مالاً رديئاً.

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ﴾ قال العلماء: إن ﴿إِلَىٰٓ﴾ بمعنى «مع»؛ أي: لا تأكلوا أموالهم مع أموالكم، وقيل: بل إن ﴿إِلَىٰٓ﴾ على بابها، ولكن قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ﴾ ضمنت معنى «تضموا»؛ أي: لا تضموا أموالهم إلى أموالكم فتأكلوها، وهذا المعنى أصح؛ لأن تضمين الفعل معنى فعل آخر في القرآن كثير، وإتيان «إلى» بمعنى «مع» قليل، وحمل الآية على المعنى الكثير في القرآن أولى من حملها على المعنى القليل، وهذا من قواعد التفسير: «أن حمل الآية على المعنى الكثير في القرآن أولى من حملها على المعنى القليل»؛ لأنها إذا كانت هي الكثيرة في القرآن صارت هي اصطلاح القرآن، وهي حقيقة القرآن.

والفائدة من تخصيص ذكر الأكل فقط؛ لأنه أكثر ما يكون،

وأعم ما يكون من الانتفاعات، ولأنه هو الذي ينتفع به البدن انتفاعاً مباشراً، فإن اللباس ينتفع به لكن من الخارج، ولهذا فإن الآيات كلها تعبر في الغالب بالأكل.. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠].. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]، وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾، الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعود على الفعل المفهوم مما سبق المكون من شيئين: تبديل الخبيث بالطيب، وأكل الأموال إلى أموالنا، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: هذا الفعل.

وقوله: ﴿كَانَ﴾ أي: كان عند الله ﴿حُوبًا﴾ أي: إثماً أو ذنباً، ﴿كَبِيرًا﴾ الكبير ضد الصغير؛ لأن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، فهذا من الذنب الكبير.

وقد قال بعض العلماء: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وهذا خطأ عظيم؛ لأن قوله: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ ليس هو الأكل الذي نهى الله عنه هنا حتى نقول: إن بين الآيتين تعارضاً، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي: لا تخلطوها لأجل أن تأكلوها، أما إذا خلطها للإصلاح أو لمصلحة، فإن هذا لا بأس به، لكن بعض العلماء ـ عفا الله عنا وعنهم ـ إذا عجزوا عن الجمع بين النصين قالوا: إن هذا منسوخ، وأقول: إذا عجزوا؛ لأنه قد لا يكون بين النصين تعارض، فقد يكون كل نص محمولاً على معنى، وهذه مسألة خطيرة جداً؛ لأن معنى النسخ إنكار المنسوخ، وعدم جعله حكماً شرعياً، فالمسألة خطيرة، ولهذا لا يجوز ادعاء النسخ مع إمكان الجمع أبداً.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان رحمة الله عزّ وجل، حيث أوصى بهؤلاء اليتامى؛ لأن اليتيم محل الرحمة، فهو مكسور الخاطر، ليس له أب، وربما لا تكون له أم أيضاً، فلهذا أوصى الله بالعناية به وبماله.

٢ ـ وجوب حفظ أموال اليتامى؛ لأنه يلزم من إيتائهم أموالهم الحفظ، إذ لو فرّط الولي وأهمل وضاعت الأموال؛ لم يكن قد آتاهم أموالهم.

٣ ـ أن اليتيم يملك، وملكه تام، لقوله تعالى: ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾، ويتفرع على هذه الفائدة: أن الزكاة واجبة عليه؛ لأن الزكاة تبع للملك، قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: «**أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم**»[(١)]، فإذا ثبتت الملكية ثبت وجوب الزكاة.

وفي هذا رد على قول بعض أهل العلم القائلين بأنه لا تجب الزكاة في أموال اليتامى؛ لأن اليتيم صغير غير مكلف، فنقول في الجواب عن هذا: إن الزكاة ليست تكليفاً محضاً، بل هي تكليف لحق الغير، وهم الفقراء، فهي شبيهة بالدين؛ ولهذا وجبت في أموال اليتامى والمجانين وإن كانوا غير مكلفين.

٤ ـ أن اليتيم تجب النفقة في ماله على من تجب عليه نفقته، وتؤخذ من إثبات المالية، والنفقة واجبة على كل غني لكل فقير، فإذا تمت شروط النفقة ولم يبق إلا البلوغ قلنا: إن البلوغ ليس بشرط؛ لأن الله أثبت المالية لليتامى، وإذا ثبتت المالية؛ ترتب عليها ما يترتب على ذوي الأموال.

---

(١) اللفظ للبخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، حديث رقم (١٣٣١).

٥ ـ وجوب أداء الأمانة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾.

٦ ـ أن إطلاق اسم الخبيث على الرديء صحيح، على أحد الوجهين في تفسير الآية، وقد صرح الله عزّ وجل بأن الرديء يسمى خبيثاً، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، فسمى الرديء خبيثاً، وأطلق النبي ﷺ على البصل ونحوه وصف الخبيث، فقال: «**من أكل من هذه الشجرة الخبيثة شيئاً فلا يقربنا في المسجد**» فقال الناس: حُرمت، حُرمت فبلغ ذاك النبي ﷺ فقال: «**أيها الناس إنه ليس بي تحريم ما أحل الله لي ولكنها شجرة أكره ريحها**»(١).

٧ ـ تحريم ضم مال اليتيم إلى مال الولي إذا كان لقصد إتلافه، وهذا مأخوذ من قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾، أما إذا ضم ماله إلى ماله لا لقصد الأكل والإتلاف، ولكن لقصد الحفظ والتجارة، فإن هذا لا بأس به، بل قد يتعين على الإنسان، فإذا ضم مال اليتيم إلى ماله لقصد الحفظ، أو لقصد التجارة، فإنه إحسان إليه، ولا يدخل في النهي؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾، ولم يقل: لا تخلطوها، ولهذا قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

لكن في حال ضم المال إلى المال لقصد الحفظ أو

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة نهىٰ من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها (٥٦٥).

التكسب، يجب أن يحتاط الإنسان في كتابة مال اليتيم الذي أدخله مع ماله، وتمام الاحتياط أن يُشهد على ذلك، فيقول مثلاً: أدخلت كذا وكذا من مال اليتيم ضمن مالي الذي اشتريت به الأرض، أو اشتريت به السيارات، وما أشبه ذلك مما يتكسب به.

٨ ـ أن العدوان على مال الأيتام بأخذ الطيب وإعطاء الخبيث، أو أكل مالهم، من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.

فإن قال قائل: لماذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾، ولم يقتصر على قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ﴾؟

فالجواب: أنه لو قال: «ولا تأكلوا أموالهم إنه كان حوباً كبيراً» لكفى، ولكنه قال: ﴿أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾؛ لأن ولي اليتيم قد يتستر ويدخل مال اليتيم في ماله، ولا يعلم به أحد، فلهذا قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾، وعلى هذا فليس قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ قيداً، بحيث نقول: لو أكل ماله من غير أن يضمه إلى ماله فهو جائز! بل نقول: إنما ذكر الله هذا لأن بعض الأولياء يتستر فيدخل مال اليتيم في ماله، ولا يعلم به أحد.

مسألة: إذا ضَم مال اليتيم إلى ماله فخسر ماله، فهل يضمن لليتيم أم لا؟

نقول: إذا كان حين فعله يعتقد أن هذا هو الأصلح، ولكن اختلفت الأمور، فليس عليه شيء، لا إثم ولا ضمان؛ لأن الله يقول: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وهذه قاعدة: «أن كل إنسان له ولاية في التصرف حتى لو تبين خطؤه فلا ضمان عليه، فضلاً عن أن تأتي الأمور بغير اختياره، وبغير ما يتوقع».

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾ [النساء: ٣].

الآية الأولى في أموال اليتامى، وهذه الآية في أبضاع اليتامى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ اليتامى: جمع يتيم، والمراد به هنا: اليتامى من النساء.

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ قال بعضهم: الخوف هنا بمعنى العلم؛ أي: وإن علمتم أن لا تقسطوا، واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٨٢]، فإن معنى: ﴿فَمَنْ خَافَ﴾ أي: فمن علم. ولكن الصحيح في هذه الآية ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ أن المراد بها الخوف وإن لم يعلم، فمتى خاف الإنسان أن لا يقسط في اليتامى؛ فليفعل ما ذكر الله.

وقوله: ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ أي: أن لا تعدلوا في اليتامى، وهناك فرق بين أَقْسَط وقَسَط:

فقَسَط بمعنى: جار، وأَقْسَط بمعنى: عدل؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، وقال: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١٥].

إذاً فقوله: ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ أي: ألا تعدلوا في اليتامى، وقد كانوا في الجاهلية إذا تولى الإنسان على ابنة عمه اليتيمة جار عليها بأن يتزوجها وهي كارهة، أو يتزوجها بدون مهر، أو بمهر قليل، أو يتزوجها وهو كاره لها، لكنه يريد أن يتحجرها، أو غير ذلك من أنواع الظلم والجور، فقال الله عزّ وجل مرشداً عباده:

إن خفتم عدم العدل فالباب مفتوح، ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، فليست النساء معدومات إلا هؤلاء اليتيمات، بل الأمر واسع، فاعدلوا عنهن وجوباً، فإذا خاف ألا يعدل في اليتيمة وجب عليه أن يعدل عنها، لقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، يعني: اتركوهن وانكحوا ما طاب لكم من النساء.

و﴿مَا﴾ فسرها بعضهم بمن؛ أي: فانكحوا من طاب، وقالوا: لأن المرأة من ذوات العقل، والعاقل يستخدم له «مَن»، وغير العاقل يستخدم له «ما»، فقالوا: إن «ما» بمعنى «من»، ولكن هذا القول ضعيف، بل نقول: إذا كان الأمر يراد به الوصف، فالوصف ليس من العقلاء، فيؤتى بما، وهنا المرأة تطيب للرجل لوصفها؛ لأن اختيار المرأة لما قام بها من الأوصاف التي توجب اختيارها، ولهذا عبر بما، فالصحيح أن «ما» هنا في موضعها، وليست بمعنى مَنْ.

وقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ أي: ما حسن، ورأيتموه طيباً، وطابت به نفوسكم، ولا تكرهوا أنفسكم على نكاح من لا تريدون ومن لا تطيب لكم؛ لأن إكراه الإنسان نفسه على من لا تطيب له كإكراه الرجل نفسه على طعام لا يشتهيه، وإذا أكره الإنسان نفسه على طعام لا يشتهيه؛ فإنه لا يستسيغه أبداً.

وبماذا تطيب النفس؟

جاء في الحديث: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها**»[1]، ومن المال: الوظيفة، فتنكح المرأة الآن

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين (٥٠٩٠)؛ ورواه مسلم، كتاب الرضاع، باب استحباب ذات الدين (١٤٦٦).

لوظيفتها؛ لأن الوظيفة تحصيل للمال، إذاً: المرأة تطيب للرجل بأحد هذه الأوصاف الأربعة، وهذه أوصاف أغلبية، وإلا فقد تنكح المرأة لا لهذه الأوصاف، بل لأسباب أخرى، لكن هذا هو الغالب.

و﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يسميها العلماء بيانية؛ لأنها جاءت بعد اسم مبهم وهو الاسم الموصول، فتكون مبينة لهذا المبهم، وكلما جاءت «من» بعد أسماء الشرط أو الأسماء الموصولة؛ فهي بيانية؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وكذلك هنا.

وقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بيان لما في قوله: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾؛ أي: انكحوا الذي يطيب لكم من النساء، ويجوز أن يكون متعلقاً بـ«انكحوا» أي: انكحوا من النساء ما طاب لكم، لكن الأول أقرب.

وقوله: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ يقول النحويون: إن هذه الكلمات لا تنصرف، والمانع لها من الصرف الوصفية والعدل؛ لأن معنى ﴿مَثْنَىٰ﴾: اثنتين اثنتين، ﴿وَثُلَٰثَ﴾: ثلاثاً ثلاثاً، ﴿وَرُبَٰعَ﴾: أربعاً أربعاً، فالمانع لها من الصرف الوصفية والعدل، وعلى هذا نقول: ﴿مَثْنَىٰ﴾ حال من النساء؛ أي: حال كونهن مثنى وثلاث ورباع؛ أي: انكحوا على اثنتين اثنتين، أو على ثلاث ثلاث، أو على أربع أربع، وليس المعنى: انكحوا اثنتين وثلاثاً وأربعاً، خلافاً لمن زعم ذلك، وقال: إن الآية تدل على جواز نكاح التسع؛ لأن اثنتين وثلاث: خمس، ورباع: أربع، فالجميع تسع، وهذا بعيد من هذا الأسلوب في اللغة العربية، فإن هذا الأسلوب للتقسيم، والمعنى: منكم من ينكح اثنتين اثنتين، ومنكم من ينكح ثلاثاً ثلاثاً، ومنكم من ينكح أربعاً أربعاً؛ لأن الخطاب

في قوله: «انكحوا» خطاب للجماعة وليس لواحد، فإذا كان الخطاب للجماعة فإن المعنى: ينكح بعضكم اثنتين، وبعضكم ثلاثاً، وبعضكم أربعاً.

ويدل لهذا الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ أن الرجل لا يتزوج أكثر من أربع، أما النبي ﷺ فإنه مخصوص بخصائص متعددة في النكاح:

منها: أنه يتزوج بأكثر من أربع.

ومنها: أنه يتزوج بالهبة.

ومنها: أنه لا يجب عليه القسم على أحد الأقوال.

ومنها: أنه بعد أن خيرهن فاخترن الله ورسوله، حرم عليه أن يتزوج غيرهن إلى أن مات.

ومنها: أن زوجاته لا يحل لأحد بعده أن يتزوجهن.

وهذه الآية من حيث الدلالة كقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١]، ولو أراد الله عزّ وجل أن يبين لعباده حل النساء إلى التسع لقال: فانكحوا ما طاب لكم من النساء اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً أو ستاً إلى التسع، ولا يأتي بهذا الأسلوب المشتبه؛ لأن القرآن نزل تبياناً لكل شيء.

وقوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ ولم يذكر الواحدة؛ لأن المقام مقام تخيير، ومقام إعطاء النفس حظها، فإذا خفت أن لا تقسط في اليتيمة فأمامك النساء كمية وكيفية، فالكمية من اثنتين فصاعداً، والكيفية قوله: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾، فالباب أمامك مفتوح فيما تريد من النساء كيفية وكمية، ومعلوم أن الواحدة ليس فيها كمية.

وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ ﴿خِفْتُمْ﴾ أي: خشيتم وتوقعتم أن لا تعدلوا، وقيل: المعنى: إن علمتم، والصواب أنها على المعنى الأول؛ أي: خشيتم، ﴿فَوَاحِدَةً﴾ أي: فانكحوا واحدة ولا تزيدوا عليها.

وقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فما ملكت اليمين لا تنكح، وتوطأ بالملك ولا توطأ بالنكاح، ولهذا يحرم على الرجل أن يتزوج أمته؛ لأنها تحل له بعقد أقوى من النكاح وهو ملك اليمين، والأضعف لا يرد على الأقوى، بخلاف العكس، فإنه يرد الأقوى على الأضعف، فلو اشترى الرجل زوجته انفسخ النكاح وحلت له بملك اليمين، أما لو كان عنده أمة، فإنه لا يمكن أن يتزوجها؛ لأنه ملكها بعقد أقوى من النكاح، فإن السيد يملك الرقبة والمنفعة، بخلاف الزوج فإنه لا يملك إلا المنفعة.

إذاً: لا يصح أن نقول: إن قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَوَاحِدَةً﴾؛ لأنه يختل المعنى، بل المعنى: فانكحوا واحدة، أو استمتعوا بما ملكت أيمانكم، أو كلمة نحوها، فليست معطوفة على ما سبق إلا من باب عطف الجمل، فيقدر فعل مناسب لقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى نكاح الواحدة عند خوف عدم العدل، وإلى أن يتزوج الإنسان اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً عند خوف عدم العدل في اليتامى؛ أي: إشارة إلى الأمرين: نكاحكم مثنى وثلاث ورباع إذا خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى، أو نكاحكم واحدة إذا خفتم ألا تعدلوا. ﴿أَدْنَىٰ﴾ أي: أقرب. ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ أي: ألا تجوروا، هذا هو معنى الآية

المتعين، وأما ما يروى عن الشافعي رحمه الله من أن المعنى: ألا تكثر عيالكم، فهو قول ضعيف جداً؛ لأن كثرة العيال مرغوبة عند الله تعالى؛ ولأن العيال يكثرون إذا جامع الإنسان ما ملكت يمينه، والله عزّ وجل يقول: ﴿فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾، فإذا كان عند الإنسان مائة جارية وجامع كل واحدة، فسيأتيه في السنة مائة ولد، فإذا كان الأمر كذلك فكيف نقول: إن الإنسان إن جامع ما ملكت يمينه يكون أدنى إلى عدم العيال؟ ولهذا فإن هذا القول ضعيف جداً؛ لمنافاته مقصود الشارع في كثرة الأولاد، ولأن قلة الأولاد لا تكون فيما إذا جامع الإنسان مملوكاته.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أنه يجب على الإنسان الاحتياط إذا خاف الوقوع في المحرم، لقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني: ولا تعرضوا أنفسكم للجور.

٢ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يتزوج من تطيب نفسه بها؛ لأن ذلك أدنى أن يؤدم بينهما، ولهذا شرع للإنسان أن ينظر إلى مخطوبته حتى تطيب نفسه بها.

٣ ـ ويتفرع عن هذه الفائدة تبين خطأ ما يستعمله بعض البادية من إجبار الإنسان على نكاح ابنة عمه مع أنه لا يريدها؛ لأن الله يقول: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُمۡ﴾، فإذا كان الرجل لا تطيب نفسه بهذه المرأة فكيف يتزوجها؟ فما يفعله بعض البادية لا شك أنه خطأ مخالف للشرع، فإن ابنة عمه إذا لم يتزوجها تزوجها غيره من الناس.

٤ ـ أن الله عزّ وجل إذا سد باب حرام فتح أبواب الحلال؛ لأن قوله: ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ يعني: فلا تتزوجوهن، ولكن ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم﴾، وهذا من طريقة القرآن والسنة، أنه إذا سد باب الحرام فإنه يفتح باب الحلال؛ لئلا يوصد أمام الإنسان العمل والحركة، وقد تقدم لهذا نظائر؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]، ومن ذلك: إرشاد النبي ﷺ إلى بيع التمر الرديء بالدراهم، ثم يشترى بالدراهم تمر طيب.

٥ ـ جواز التعدد؛ لأن عرض العدد هنا في مقابلة المنع من نكاح اليتامى اللاتي يخاف الإنسان أن لا يقسط فيهن، فكأنه قال: إذا تركت نكاح واحدة من اليتامى، فلك أن تنكح اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً، وهذا هو الأقرب، لكن يؤخذ مشروعية التعدد من أدلة أخرى، منها: أن النبي ﷺ أراد من أمته تكثير النسل، وهذا يحصل بالتعدد أكثر مما يحصل بالإفراد، وقد قرأت في جريدة، أن بعض الناس بدؤوا يعملون عملاً طيباً في الحقيقة، وهو الحفل الجماعي في الأنكحة، حتى إنهم جمعوا في ليلة واحدة في وليمة واحدة خمسة وستين عرساً، وهذا لا شك أنه يوفر نفقات، ويوفر تعباً على الناس، وهو سنة حسنة؛ لأن هذا من باب تخفيف المؤونة، وأعظم النكاح بركة أيسره مؤونة.

٦ ـ أنه لا يجوز تجاوز الأربع؛ لقوله: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾، مع أن المقام مقام فتح باب للناس، وتكثير، ومنة، ومثل هذا الباب يذكر فيه أقصى ما يكون من المنة التي ليس وراءها شيء.

٧ ـ تحريم الوسائل المؤدية إلى المحرم؛ لقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ

أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، فأوجب الاقتصار على الواحدة إذا خاف الإنسان عدم العدل، وهذه قاعدة عظيمة في أصول الفقه: «أن للوسائل أحكام المقاصد»، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يتم المندوب إلا به فهو مندوب، وما يحصل به المحرم فهو حرام.

٨ ـ وجوب العدل بين الزوجات؛ لقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، والجور بين الزوجات من كبائر الذنوب؛ لقول النبي ﷺ: **«من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما؛ جاء يوم القيامة وشقه مائل»**[1].

٩ ـ أنه لا يجب العدل بين الإماء في الجماع ولا في غيره؛ لقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

١٠ ـ إثبات ملك اليمين، لقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، ولا يمكن رفع هذا الحكم الشرعي مخافة ذم الناس أو شماتتهم، بل الواجب بقاء ملك اليمين إذا وجد سبب هذا الملك، وهو الكفر، وذلك إذا قاتل المسلمون الكفار وسبوا نساءهم وذريتهم.

١١ ـ إثبات الملكية للإنسان، وأن الإنسان يملك، ولا ينافي هذا أن نقول: إن الملك لله؛ وذلك لأن الملك ملكان: ملك شامل كامل لا يسأل فيه المالك عن أي تصرف، وهذا لله، وملك دون ذلك في الشمول والتصرف، فهذا ثابت، ثم هو أنواع: فتارة يملك الإنسان الرقبة؛ كعبد موصى به لشخص وبمنفعته لشخص آخر، وتارة يملك المنفعة؛ كالمستأجر، وتارة يملك المنفعة والرقبة؛ كالمالك المعتاد الذي يملك مطلق التصرف.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء (٢١٣٣)؛ ورواه الدارمي، كتاب النكاح، باب في العدل بين النساء (٢٢٠٦).

١٢ ـ أن اليمين أفضل من اليسار؛ لأنه أضاف الملك إليها، ولا شك أن اليمين أفضل من اليسار، ولهذا تعد اليمين للإكرام واليسار للإهانة، فالشيء الطيب يتناول باليمين، والشيء الخبيث يزال باليسار.

١٣ ـ تفاضل الأعمال، فبعضها أعلى من بعض في السوء، وأدنى من بعض في الحسن، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾؛ لأن الأدنى اسم تفضيل، فلا بد أن يكون هناك فاضل ومفضول.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾ [النساء: ٤].

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ «آتوا» أي: أعطوا، والفرق بين «أتوا» و«آتوا»: أن «آتوا» بمعنى أعطوا، و«أتوا» بمعنى جاءوا.

والخطاب في قوله: «آتوا» هل هو للأزواج أم للأولياء؟

في الآية قولان:

القول الأول: أنه للأولياء، فيكون المعنى: أن الله أمر الأولياء أن يعطوا النساء صدقاتهن دون أن يأخذوا منهن شيئاً؛ لأن العرب في الجاهلية كانوا إذا زوج الرجل ابنته أخذ المهر، ولم يعطها إلا ما تلبسه ليلة الزفاف، والباقي يأخذه ويسلبه إياها، فأمرهم الله أن يؤتوا النساء صدقاتهن نحلة.

القول الثاني: أن الخطاب للأزواج، فقد أمرهم الله عزّ وجل أن يؤتوا النساء صدقاتهن عن طيب نفس بدون مماطلة وبدون تكره. وإذا كانت الآية تحتمل المعنيين بدون تناقض، فالواجب حملها على الوجهين، فنقول: الخطاب للأزواج وللأولياء.

قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ النساء أي: المتزوجات، بدليل قوله: ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ وصدقات: جمع صَدُقَة، وهي المهر، وسمي بهذا الاسم لأن بذله دليل على صدق الطالب للمرأة.

وقوله: ﴿نِحْلَةً﴾ أي: عطية طيبة بها نفوسكم، يقال: نحله؛ أي: أهداه هدية طيبة بها نفسه، وعلى هذا فقد زعم بعضهم أنها مفعول مطلق؛ لقوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾، فهي مثل قول القائل: وقفت قياماً، أو جلست قعوداً؛ لأن «آتى» بمعنى نحل، و«آتوا» بمعنى انحلوا، والنحلة: هي العطية عن طيب نفس.

وقوله: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ﴾ «إن طبن» أي: النساء، وقوله: ﴿نَفْسًا﴾ مصدر محول عن الفاعل، والمصدر المحول تارة يحول عن الفاعل كما في هذه الآية، وتارة يحول عن المفعول به، كما في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢]؛ أي: فجرنا عيون الأرض.

و«من» في قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ قيل: إنها تبعيضية، وقيل: إنها بيانية، فعلى الأول يكون المعنى: إن طبن لكم عن بعضه، وعلى الثاني يكون المعنى: إن طبن لكم عن كله أو بعضه؛ لأن «من» بيان لمحل الحكم، بقطع النظر عن كونه كله أو بعضه.

وقوله: ﴿فَكُلُوهُ﴾ عبر هنا بالأكل؛ لأنه أخص وجوه الانتفاع؛ إذ أن الأكل يغذي البدن، وينمو به البدن، بخلاف اللباس، والمساكن، والمراكب، فإن منفعتها خارجية، فاللباس كسوة خارجية، ولكن الأكل منفعة وكسوة داخلية، ولذلك يقول تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: ١١٨ ـ ١١٩] والتناسب بين الظمأ والضحى

ـ الذي هو حرارة الشمس ـ واضح، وبين الجوع والعري واضح؛ لأن الشبع كسوة الباطن، فإن المعدة إذا لم يكن فيها شيء فإنها عارية، فإذا دخل الطعام فيها غطاها وكساها، فهو كسوة باطنية.

وقوله: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أي: حين الأكل ﴿مَّرِيٓـًٔا﴾ أي: بعد الأكل، فالمريء محمود العاقبة، والهنيء سهل المساغ.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ وجوب إعطاء النساء مهورهن؛ لقوله: ﴿وَءَاتُواْ﴾.

٢ ـ أنه لا يجوز للولي أن يأخذ شيئاً من صداق النساء، لوجهين:

الوجه الأول: أنه أضاف الصداق إليهن، فهو ملكهن.

الوجه الثاني: أنا أمرنا بإيتائهن صداقهن ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾، وقد اختلف العلماء في هذه المسألة: فمنهم من قال: يجوز للأب خاصة أن يشترط لنفسه من مهر ابنته ما شاء، وقال بعض العلماء: لا يجوز لا للأب ولا لغيره أن يشترط لنفسه شيئاً من المهر.

والذي تؤيده السنة أنه لا يجوز أن يشترط الولي لنفسه شيئاً من المهر، سواء كان الأب أم غيره، لكن إذا تم العقد وأراد الزوج أن يعطي الأب أو غيره من الأولياء، أو الأم، أو الخالة، أو ما أشبه ذلك شيئاً من باب الإكرام، فلا بأس به، كما دلت على ذلك السنة، أما ما كان قبل العقد فكله للمرأة، ولا يحل لأحد أن يشترط منه شيئاً لنفسه.

٣ ـ أنه يجب إعطاؤهن الصداق على وجه النحلة؛ أي: الهدية التامة، فلا يكون فيه منة في المستقبل.

٤ ـ جواز إسقاط المرأة شيئاً من المهر، أو رده إن كانت قد قبضته، لقوله: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾.

٥ ـ أنه لو أسقطت شيئاً خجلاً أو حياءً، فإنه لا يحل قبوله، لقوله: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ﴾؛ ولهذا قال العلماء: إذا أهدى إليك شخص هدية وأنت تعلم أنه إنما أهدى حياءً وخجلاً، فإنه لا يجوز أن تقبلها منه؛ لأن هذا كالإكراه.

٦ ـ أن من تملك شيئاً عن طيب نفس فإنه يحل له حاضراً ومستقبلاً؛ لقوله: ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ أي: هنيئاً حين الأكل، مريئاً بعد الأكل.

٧ ـ أنه لا يحل أخذ شيء من مال الغير بغير طيب نفس منه؛ لأن الله اشترط لحل أكله أن يكون عن طيب نفس، وقد جاءت بذلك السنة صريحة، قال عليه الصلاة والسلام: «**لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه**»[1]، وكذلك جاء في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾ [النساء: ٥].

﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾، هذه الآية فيها قراءتان:

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٧٢)؛ والدارقطني (٣/ ٢٦)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٨٧)، عن أبي حرة الرقاشي عن عمه، وهو عند الدارقطني (٣/ ٢٥، ٢٦) عن أنس.

القراءة الأولى: بهمزتين محققتين ﴿ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾.

القراءة الثانية: بحذف إحدى الهمزتين: «السفها أموالكم» الأولى على الأصل، والثانية للتخفيف، وكذلك قوله: «قياماً» فيها قراءتان: «قِيَامًا» و«قِيَمًا»، والمعنى واحد.

يقول الله عزّ وجل: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ أي: لا تعطوهم، والسفهاء جمع سفيه، وهو من لا يحسن التصرف، إما لصغر في سنه، وإما لقصور في عقله ورشده، فإن هذا هو السفيه، والسفه يكون في الأموال ويكون في الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، فمن رغب عن ملة إبراهيم الحنيفية السمحة فهو سفيه، وإن كان من أرشد الناس في تصرفه في ماله.

وقوله: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ فأضاف الأموال إلينا، وقد اختلف العلماء في معنى هذه الآية، فقال بعضهم: لا تؤتوا السفهاء أموالكم الخاصة بكم؛ لأنهم سوف يضيعونها بغير فائدة، فتفوت عليكم وتفوت عليهم، وقال بعض العلماء: بل المراد بذلك أموالهم هم، لكنه أضافها إلينا من أجل الولاية، فكأننا بولايتنا على هذا المال نملك هذا المال.

والآية صالحة للوجهين، ومن قواعد التفسير: «أن الآية إذا كانت صالحة لوجهين لا يتنافيان، فإنها تحمل عليهما».

وقوله: ﴿ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ ﴿جَعَلَ﴾ هنا بمعنى: صيّر؛ أي: الأموال التي جعلها الله لنا قياماً، تقوم بها مصالح ديننا ومصالح دنيانا، فكم من أسير فك بالمال، وكم من ضرورة أزيلت بالمال، وكم من يتيم جبر قلبه بالمال، فالأموال في

الحقيقة قيام للناس في أمور دينهم ودنياهم، حتى إن الله سبحانه يقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس؛ لأن ضرورة الجهاد بالمال أكثر من ضرورتها بالنفس، حتى إن الذي يجاهد بنفسه محتاج إلى المال، فما الذي يوصله إلى ميدان القتال إلا الأموال، ولهذا نجد الله سبحانه يقدم ذكر الأموال في الجهاد على ذكر النفوس.

وقوله: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ أي: أعطوهم رزقاً، والرزق هو العطاء، وقوله: ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأموال، ولم يقل منها، إشارة إلى أنه لا بد أن يكتسب الولي بمال هؤلاء السفهاء، حتى يكون الرزق فيها لا منها، وفرق بين الرزق فيها والرزق منها؛ لأنه لو لم يتجر فيها ويكتسب صار العطاء منها، فإذا قدرنا أنها مائة ريال فأعطاهم نفقة عشرة ريالات، فإنها تنقص كلما أعطاهم، لكن حينما قال: ﴿فِيهَا﴾ فإن المعنى: أن الرزق يكون فيها، فيكون المال أوسع من الرزق المعطى، وهذا يتضمن أن يتجر فيها ثم يعطيهم من الربح.

وقوله: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ﴾ أي: أعطوهم طعاماً وشراباً، أما الكسوة فقال: ﴿وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ أي: اكسوهم ما يحتاجون إليه من القمص والسراويلات وغيرها، والفرش والسكن يدخل في قوله: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾.

وقوله: ﴿وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ أي: حين إعطائكم إياهم وكسوتكم إياهم قولوا لهم قولاً معروفاً؛ أي: قولاً هيناً ليناً، ولا تشمخوا بآنافكم عليهم وتمنَّوا عليهم؛ لأن ذلك خلاف الولاية الحقيقية، فمثلاً: إذا جاء السفيه وقال: أعطني، أو

اكسني، فلا تقل له قولاً غليظاً، كأن تقول: لماذا قطعت ثيابك؟ وما أشبه ذلك من الكلمات النابية؛ لأن المال مالهم، وإن كان مالكم، فإنه لا ينبغي لكم أن تمنوا بما أعطيتم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تحريم إعطاء السفهاء الأموال، سواء كانت الأموال لهم أو لنا على الوجهين؛ لقوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ﴾، والنهي للتحريم، لا سيما إذا قرن النهي بما يفيد العلة، وهي «السفهاء» فكأنه قال: لا تؤتوهم لسفههم؛ لأنهم إذا أعطيتموهم وهم سفهاء أضاعوا المال.

٢ ـ ذم السفه، وأنه سبب للحيلولة بين الإنسان وبين ماله.

٣ ـ أن السفه موجب للحجر على الإنسان في ماله، وقد قسم العلماء رحمهم الله الحجر إلى قسمين: قسم لحظ الغير، وقسم لحظ النفس.

أما القسم الأول: فمثل أن تستغرق ديون الإنسان ماله، ففي هذه الحال يحجر عليه لحظ الغير، فإذا كان الإنسان عليه ديون أكثر من ماله، وطلب الغرماء أن يحجر عليه، فإنه يحجر عليه، وإن لم يطلبوا؛ فإنه يحرم عليه أن يتصرف تصرفاً يضر بالغريم، وإن فعل لم ينفذ التصرف، فلو أوقف شيئاً من ماله لم ينفذ الوقف؛ لأنه تعلق به حق الغير، هذا هو القول الراجح في هذه المسألة، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، أما المشهور من المذهب فإن تصرفه نافذ ما لم يطلب الغرماء أو بعضهم الحجر عليه، فإن طلبوا الحجر عليه حجر عليه ومنع من التصرف في ماله.

القسم الثاني: الحجر لحظ النفس، وهو ما كان سببه السفه، أو الصغر، أو الجنون، فالمجنون يحجر عليه في ماله، والصغير يحجر عليه في ماله، والسفيه ـ الذي لا يحسن التصرف ـ يحجر عليه في ماله، وهذا الحجر لحظ المحجور عليه وليس لحظ الغير، فإذا قال المحجور عليه: هذا مالي دعوني أتصرف فيه بما شئت، قلنا: لا يمكن؛ لأنك سفيه، وإذا لم نحجر عليك فسوف تفسد المال.

٤ ـ أنه لا يجوز أن يُسلط أحد على شيء يحصل به الفساد، ـ أي: بتسليطنا إياه ـ فلو أن أحداً أعطى مجنوناً عصا فنقول: إن هذا حرام عليك؛ لأنك إذا أعطيته عصا فسوف يضرب بها الناس، وإذا كان السفيه ينهى عن إعطائه المال، فكيف بالمجنون؟!

وما هو ضابط السفه الذي يحصل به الحجر؟

الجواب: يقول أهل العلم: إن السفيه هو الذي يبذل ماله في الحرام أو في غير فائدة، فالأول كالذي يبذل ماله في الخمر والمخدرات وما أشبهها، فإن هذا سفيه يحجر عليه، والثاني كالذي يصرف ماله في المفرقعات، أو في الفقاعات، أو ما أشبه ذلك، أو يشتري زيتاً أو بنزيناً ويوقد فيه النار ويتفرج عليه فقط، فهذا سفيه يحجر عليه.

٥ ـ حكمة الله عزّ وجل في المال الذي أعطاه لعباده، وهو أنه قيام للناس في مصالح دينهم ودنياهم.

٦ ـ أنه إذا كان المال قياماً للناس في مصالح دينهم ودنياهم، فإنه يحرم أن يصرف في غير ما فيه قيام دينه ودنياه؛ لأن الله جعله قياماً تقوم به مصالح الدين والدنيا.

٧ ـ أنه يجب على ولي السفيه أن يتصرف في ماله بما تحصل به الفائدة؛ لقوله: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾.

٨ ـ أنه يجب أن يرزقوا ما يحتاجون إليه من طعام وشراب وغير ذلك؛ لأن الأمر يقتضي الوجوب، لاسيما وأنه متعلق بحق الغير.

٩ ـ أنه يجب على من ولّاه الله على أحد أن لا يغلظ له القول، بل يقول له القول المعروف، حتى يجمع بين الإحسان القولي والفعلي.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾ [النساء: ٦].

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ «ابتلوا» أي: اختبروا، و﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم، وهو كل من مات أبوه قبل بلوغه؛ أي: قبل بلوغ الطفل ذكراً كان أو أنثى، لكن المرأة لا تختبر بالبيع والشراء؛ لأنها ليست من أهله، لكن تختبر بحاجات البيت فإذا عرف ضبطها لحاجات البيت فهي رشيدة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾: هنا ابتدائية؛ أي: اختبروهم واستمروا في الاختبار، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾، ﴿إِذَا﴾ شرطية، وقوله: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم﴾ شرطية أيضاً، وقوله: ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ جواب الشرط، فيكون هذا شرطاً في ضمن شرط آخر، وهو سائغ في اللغة العربية، ومنه قول الشاعر:

إن تستغيثوا بنا إن تذعروا تجدوا منا معاقل عزٍّ زانها كرم

فقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ شرط في ضمن شرط، وقوله: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم﴾ أي: أبصرتم، ومنه قوله: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩] أي: أبصر.

وقوله: ﴿رُشْدًا﴾ الرشد في كل موضع بحسبه، ويجمع جميع معانيه كلمة واحدة، وهي حسن التصرف، فإن كان في المال فبأن يبيع الإنسان ويشتري مراراً ولا يُغبن إلا بما جرت به العادة، وإن كان في التصرف للغير فأن يكون حسن الولاية، ومنه الرشد في ولاية النكاح، وهو أن يكون عالماً بالكفء ومصالح النكاح.

إذاً: الرشد في كل موضع بحسبه، والمراد بقوله هنا: ﴿رُشْدًا﴾؛ أي: تصرفاً صحيحاً في أموالهم.

وقوله: ﴿فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ أي: أعطوهم إياها، وأوصلوها إليهم، ولا تقولوا: ائتوا خذوا أموالكم، بل ادفعوها إليهم، وسيأتي أن الولي له الأجرة أو الأكل بالمعروف حسب ما تقتضيه حالهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ﴾ أي: أموالهم ﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ ﴿إِسْرَافًا﴾ يجوز[1] أن تكون مفعولاً مطلقاً؛ أي: أكل إسراف، والإسراف هو مجاوزة الحد، وهو أيضاً في كل موضع بحسبه، وقوله: ﴿وَبِدَارًا﴾ أي: مبادرة، فهي من بادر بمعنى استعجل الشيء، وقوله: ﴿أَن يَكْبَرُوا۟﴾ أي: بداراً لكبرهم، يعني: تبادروا كبرهم؛ لأنهم إذا كبروا زالت الولاية عليهم وصاروا

(١) كأن الشيخ رحمه الله يشير إلى الوجه الثاني وهو: أن تكون مفعولاً لأجله.

راشدين، فربما يأكل بعض الأولياء أموالهم على وجه الإسراف، أو على وجه الاقتصاد ولكن يبادر، ولهذا لا يقول قائل: إن الكلمتين مترادفتان، بل نقول: إن الإسراف مجاوزة الحد، فمثلاً: إذا كان يكفيه عشرة أخذ خمسة عشر، ﴿وَبِدَارًا﴾ أي: أن يأكل بلا إسراف، لكنه يبادر بالأكل قبل أن يكبروا.

وقوله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أي: من كان من الأولياء غنياً لا يحتاج إلى مال اليتيم ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أي: فليكف عن الأكل. ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ واللام في قوله: ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ للأمر، وفي قوله: ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾ للإباحة.

فإذا قال قائل: ما الذي أخرج اللام في قوله: ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾ عن الأمر؟

فالجواب: لأنها أعقبت النهي، وهو قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾، والأمر بعد النهي إما للإباحة على قول بعض العلماء، أو لرفع الحظر، وهنا إذا رفع الحظر فهو مباح.

وقوله: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: فليأكل أكلاً بالمعروف؛ أي: بما جرى به العرف، فلا يأكل أكل الأغنياء، وإنما يأكل أكل مثله.

مثال ذلك: إذا كان فقيراً فقال: أنا سآكل أكل الأغنياء؛ لأنني ولي عليه ـ ومن المعلوم أن أكل الفقير ليس كأكل الغني ـ قلنا: هذا لا يجوز، بل كل بالمعروف.

وقوله: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي: إذا بلغوا ورشدوا.

وقوله: ﴿فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أشهدوا أنكم دفعتموها.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ «كفى» من الكفاية؛ أي: أنه جل

وعلا يكفي عن كل أحد، والباء في قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾ زائدة لتحسين اللفظ، وكل شيء في القرآن زائد إعراباً فهو زائد معنى؛ أي: أنه جاء لفائدة ولا بد، وهي هنا لتحسين اللفظ، والأصل وكفى الله حسيباً، والحسيب بمعنى الرقيب المحاسب، فهذه الآية ختمها الله بهذه الجملة تهديداً لأولياء اليتامى من أن يتجرؤوا على أكل أموالهم إسرافاً وبداراً أن يكبروا.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ وجوب اختبار اليتامى، لقوله: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾.

٢ ـ العمل بالتجربة؛ لأن الابتلاء يعني: الاختبار عدة تجارب.

٣ ـ أنه يجوز لولي اليتيم أن يستعمل معه ما يكون سبباً لاختباره، فإذا رأى منه تمرداً على الاختبار؛ فله أن يؤدبه حتى يختبره، ليتم ما أمر الله به.

٤ ـ أنه إذا بلغ اليتيم ورشد؛ وجب دفع المال إليه، لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾.

٥ ـ أن الحجر على اليتامى لا يحتاج إلى حكم الحاكم، لا ابتداءً ولا انتهاءً؛ لأنه وكل الأمر إلى أوليائهم.

٦ ـ عناية الله سبحانه بالأيتام، لقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾.

فإن قال قائل: لو أكلها لغير هذا الغرض ليستمتع بها مثلاً فهل يجوز؟

فالجواب: لا يجوز. لكن ذكر الإسراف والبدار؛ لأنه هو الذي يحمل على أكلها غالباً، وقد قال العلماء: إن القيد إذا ذكر

لكونه أغلبياً فإنه لا مفهوم له، وعلى هذا فلا يجوز أكل مال اليتيم لا إسرافاً ولا مبادرة أن يكبروا، ولا لغير ذلك من الأسباب.

٧ ـ وجوب استعفاف الغني عن أموال اليتامى، لقوله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾.

فإذا قال الولي: لا يمكن أن أعمل في مال اليتيم إلا بمثل ما يعمل به غيري، وكيف أعمل بدون فائدة؟

فنقول: إذا كان الأمر كذلك، فلا بد من مراجعة القاضي الذي هو الولي العام؛ لأن من الناس من يدعي هذه الدعوى ويقول: أنا لا أستطيع أن أعمل إلا بجزء من الربح، أو بأجرة، أو ما أشبه ذلك، فلا بد إذاً أن يُرجع إلى القاضي.

٨ ـ جواز أكل ولي اليتيم من مال اليتيم بالمعروف إذا كان فقيراً، وظاهر الآية أنه يأكل بالمعروف ولو زاد على قدر الأجرة، فمثلاً: إذا كان أجيراً فله في الشهر مائة، وإذا أكل بالمعروف لم يكفه إلا مائتان، فإنه يحل له الأكل بالمعروف ولو زاد على الأجرة؛ لأن الولي محبوس على التصرف لليتيم، فلا بد له من مأكل ومشرب، فليأكل بالمعروف، وأيضاً فإن هذا الولي ليس كالأجير الأجنبي في مراعاة مال اليتيم، فلا ينبغي أن نلحقه بالأجير الأجنبي، لكن المعروف عند الفقهاء أنه يأخذ الأقل من أجرته أو كفايته.

٩ ـ أنه إذا كان فقيراً فأكل، فلا يلزمه إذا أغناه الله أن يرد ما أكل؛ لأن المباح لا ينقلب حراماً، ولو قلنا بوجوب الرد إذا أغناه الله، لم يكن هناك فائدة لإباحة الأكل، وقد ذهب بعض

أهل العلم إلى وجوب رد ما أكله إذا أغناه الله، فكأنه استقرض من مال اليتيم ولم يأكل أكلاً مباحاً، ولكن الصحيح هو الأول: أن الأكل مباح له، ولا يجب عليه رده إذا أغناه الله.

١٠ ـ اعتبار الحال، وأن الأحكام تختلف بحسب الأحوال، وهذا من حكمة الشريعة، وهو مأخوذ من التفريق بين الغني ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ والفقير ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾.

١١ ـ الرجوع إلى العرف، لقوله: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

١٢ ـ أنه إذا دفع المال إلى اليتامى بعد أن بلغوا ورشدوا فلْيُشهد؛ لقوله: ﴿فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾، والأصل في الأمر الوجوب، وإنما أمر بالإشهاد قطعاً للنزاع ودفعاً للتهمة.

١٣ ـ أنه لو ادعى الولي أنه دفع المال، فإن دعواه لا تقبل؛ لأنه لو قبلت دعواه لم نحتج إلى إيجاب الإشهاد، وهذا هو الصواب، وللعلماء في هذه المسألة ثلاثة أقوال:

القول الأول: لا تقبل دعواه الدفع؛ لظاهر الآية.

القول الثاني: تقبل دعواه الدفع، فلو طالبه اليتيم فيما بعد وقال: أين مالي؟ وقال: دفعته لك، قبل منه، واستدل هؤلاء بقول الله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١].

القول الثالث: الوسط، وهو أنه إن كان بأجرة لم تقبل دعواه الدفع، وإن كان يعمل له مجاناً قبلت دعواه الدفع، وعللوا ذلك بأنه إذا كان يأخذ الأجرة لم يكن إحسانه إحساناً محضاً؛ لأنه أبقى المال عنده لحظ نفسه، فلا يدخل في قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١].

والأخذ بظاهر الآية أولى، وهو أنه لا تقبل دعواه الدفع إلا

بشهود، إلا إذا وجدت قرائن قوية تؤيد هذه الدعوى، مثل أن يكون الولي معروفاً بالصدق والأمانة، ويكون المولى عليه ـ وهو اليتيم ـ معروفاً بالطمع والجشع، فحينئذ نقبل قول الولي بالقرينة، وبقوة الظاهر؛ ولأننا لو لم نقبل قوله لكان في هذا منع من التولي على أموال اليتامى؛ لأن الإنسان قد لا يتسنى له الإشهاد عند الدفع.

١٤ ـ تحذير الولي من أن يخون في ولايته، وتحذير اليتيم من أن ينكر ما وقع، وتؤخذ من قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾، فإذا كان الله عزّ وجل هو الكافي على حساب عباده، فإن الإنسان سوف يخشى هذه المحاسبة ويتوب إلى الله.

١٥ ـ العناية باليتامى وأموالهم؛ لأن اليتامى محل الرحمة، حيث إن آباءهم قد ماتوا وليس لهم ولي يقوم بحاجتهم.

ويتفرع عن هذه الفائدة بيان رحمة الله عزّ وجل، وأن رحمة الله عند المنكسرين وعند الضعفاء.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾ [النساء: ٧].

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾، قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ﴾ خبر مقدم، و﴿نَصِيبٌ﴾ مبتدأ مؤخر، وكذلك قوله: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾، وقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾ متعلق بمحذوف صفة لـ﴿نَصِيبٌ﴾، ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: وذلك مما قل منه، وقوله: ﴿نَصِيبًا﴾ حال من

«ما» في قوله: ﴿مِمَّا قَلَّ﴾ وقوله: ﴿مَّفْرُوضًا﴾ صفة لـ﴿نَصِيبٌ﴾ وهو أولى، ويجوز أن تكون حالاً أخرى، وهو مرجوح.

يقول الله عزّ وجل: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ «نصيب»: أي: حظ، ولم يبينه هنا، لكن بينه في آيات تأتي، والإجمال ثم التفصيل من البلاغة التامة؛ لأن الشيء إذا أجمل بقيت النفوس تتطلع إلى تفصيله، فيأتي التفصيل والنفوس متطلعة إليه، بخلاف ما لو جاء الشيء مفصلاً مباشرة، فإنه قد يرد على نفس ليست متشوقة إليه، فلا يرسخ في الذهن، ولا يصير له قوة في القبول.

وقوله: ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ أي: الأم والأب، أما الأم فظاهر أنها والدة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وأما الأب فكذلك، قال النبي ﷺ: «**إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم**»[(١)]، والولد لا بد له من والد، وكذلك جاء في الحديث: «**لا يحل لواهب أن يرجع فيما وهبه، إلا الوالد فيما وهبه لابنه**»[(٢)]، فالوالد إذاً يطلق على الأم والأب.

وقوله: ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ ولم يقل: والأقارب، والأقرب: اسم تفضيل؛ وذلك لأن الميراث لا يتناول جميع الأقارب، بل الأقرب فالأقرب، ويدل لذلك قول النبي ﷺ: «**ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر**»[(٣)]، وهناك خمسة من الورثة لا

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الأحكام، باب ما جاء أن الوالد ياخذ مال ولده (١٣٥٨)؛ ورواه ابن ماجه، كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده (٢٢٩٠)؛ ورواه الإمام أحمد في مسنده (٦٦٤٠).

(٢) انظر: التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي، كتاب الهبة (٤/ ٣١) وهو حديث مرسل.

(٣) رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب ميراث الولد من أبيه وأمه، حديث =

يمكن أن يحجبوا، وهم الذين يتصلون بالميت مباشرة، وهم: الأب، والأم، والابن، والبنت، وأحد الزوجين، فهؤلاء لا يمكن أن يحجبوا؛ لأنهم يرثون من الميت مباشرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ وإنما نص على نصيب النساء بهذه الصيغة المساوية لنصيب الرجال؛ تأكيداً لحقهن، وإلا فمن المعلوم أن نصيب النساء دون نصيب الرجال، قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١٧٦]، لكنه جاء بهذه الصيغة تأكيداً لنصيب النساء؛ لأنهم كانوا في الجاهلية في أحكامهم الجائرة لا يورثون النساء، ويقولون: إنما الميراث لمن حمل السلاح وخاض المعارك، وهم الرجال، وأما النساء فلا حق لهن في الميراث، ولا شك أن هذا حكم مبني على الجور، ولو نظرنا ببادئ الرأي لقلنا: إن النساء أحق بالميراث من الرجال؛ لأنهن أعجز وأضعف عن التكسب من الرجال، لكن حكم الله سبحانه أحسن الأحكام، فقد جعل لهن نصيباً وللرجال نصيباً، ولكن لكثرة المسؤولية على الرجال جعل للذكر مثل حظ الأنثيين.

وقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ أي: لكل منهما نصيب من القليل أو الكثير، سواء خلَّف الميت أموالاً كثيرة، أو أموالاً قليلة، فلو خلف درهماً واحداً كان للرجال نصيب وللنساء نصيب، ولو خلف ملايين الملايين كان للرجال نصيب وللنساء

= رقم (٦٣٥١)؛ ومسلم، كتاب الفرائض، باب ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر، حديث رقم (١٦١٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

نصيب، فلا يقال: إنه إذا قل المال فلا نصيب للنساء، أو إذا كثر المال فلا نصيب للنساء، بل نقول: لا فرق بين القليل والكثير.

وقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ هذه الجملة ينبغي الوقوف عليها؛ لأن ما بعدها وهو قوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ لا يتعلق بالفاعل في قوله: ﴿قَلَّ﴾ و﴿كَثُرَ﴾، بل هو متعلق بمقدر، والمعنى: جُعل هذا نصيباً مفروضاً، أو حال كونه نصيباً مفروضاً.

وقوله: ﴿مَّفْرُوضًا﴾ المراد أنه مُحتّم، وليس المراد أنه مُقدّر؛ لأن ميراث الأولاد ـ إذا اجتمعوا بنينَ وبناتٍ ـ ليس مقدراً؛ أي: ليس بفريضة، بل هو تعصيب، ولكن المراد بالفرض هنا الحتم، كما تقول: فُرضت الصلوات الخمس؛ أي: حُتمت وأُلزم بها.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تقديم الرجال على النساء حتى في الأمر الذي يشتركون في الاستحقاق فيه، ووجه الدلالة قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾، وهذا هو المشروع والمعقول والفطري، أن يكون الرجال هم المقدمون على النساء، وقد عَكَس ذلك من عكس الله قلوبهم من الكفرة والمبهورين بهم، حيث قدموا النساء على الرجال، فيقولون مثلاً: أيها الأخوات والإخوة! أيها السيدات والسادة! وهذا خطأ عظيم؛ لأن الرجال مقدمون على النساء، وهم قوامون عليهن، ولكن ليس بعد الكفر ذنب.

وهؤلاء الكفار يرون أن النساء لُعَب، فيقدمونهن جلباً لقلوبهن، وتعطفاً عليهن ليعطفن عليهم؛ لأنهم كما وصفهم الله عزّ وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢]، فليس لهم همَّ إلا الدنيا، فجاء

قليلو البصيرة ضعيفو الدين، فأخذوا هذه الحقارة منهم والتهموها من غير أن يقدروا النتائج، وأنهم بذلك مخالفون لطريقة الشريعة، وللفطر السليمة، وللعقول الحكيمة.

٢ ـ بيان أن الدين الإسلامي هو الذي انتصر للمرأة وأعطاها حقها بعد أن كانت مهضومة في الجاهلية، لقوله: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾، ولكن الدين الإسلامي لم يعط المرأة أكثر من حقها، ولم ينزلها أكثر من منزلتها، بل أعطاها الحق اللائق بها، وهو معروف ـ ولله الحمد ـ بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٣ ـ أن الرجال والنساء المستحقين للميراث يستحقون منه، سواء خلف الميت كثيراً أم قليلاً، لقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾.

٤ ـ التحذير مما يتهاون به بعض الناس اليوم، فيموت الميت عن زوجته وبناته، وله أبناء عم عصبة ليسوا في البيت، فتجد أهل الميت يأكلون من طعام البيت، وينتفعون بأجهزته كالثلاجات وغيرها، دون أن يستأذنوا من لهم حق في الميراث، وهذا لا يجوز؛ لأنه إذا مات الميت فبعد أن كان ماله له شخصياً، صار موزعاً بين ورثته، فكل وارث يستحق من هذا الميراث قل المال أو كثر، وهذه مسألة ينبغي لطلبة العلم أن ينبهوا العامة إليها؛ لأن العامة قد لا يفهمون، وإلا فعندهم ـ ولله الحمد ـ ورع يردعهم عن هذا ولكنهم لا يفهمون.

٥ ـ أن هذا النصيب واجب، لقوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

٦ ـ جواز حذف ما يُعلم، وتؤخذ من قوله: ﴿مَّفْرُوضًا﴾، فالفارض هو الله، لكن حذف وبُني الوصف للمفعول للعلم به،

فهو كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، والذي خلقه هو الله عزّ وجل.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [النساء: ٨].

الذي يظهر لي ـ والعلم عند الله ـ من هذه الآية والتي قبلها: أن الناس فيما سبق كانوا إذا أرادوا قسم مال الميت، فإنهم يقسمونه علناً ظاهراً، سواء كان ظاهراً للناس عموماً، أو ظاهراً لمن حولهم، لقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ﴿ٱلْقِسْمَةَ﴾: مفعول مقدم، و﴿أُوْلُواْ﴾: فاعل مؤخر، ورفع بالواو لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون منه للإضافة، ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ معطوف على أولو، وكذلك ﴿وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾، وقوله: ﴿فَٱرْزُقُوهُم﴾ الجملة جواب الشرط وهو «إذا»، واقترنت الفاء بها لأنها طلبية، والجواب الذي يقترن بالفاء سبعة أنواع، جمعت في بيت من الشعر:

اسمية طلبية وبجامد وبما وقد ولن وبالتنفيس

قوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ أي: قسمة المال الموروث ﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: أصحاب القرابة الذين لا يرثون؛ لأن الذين يرثون لهم نصيب من هذا المقسوم، والقربى هنا بمعنى القرابة.

وقوله: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم، وهو من مات أبوه قبل بلوغه، سواء كان ذكراً أو أنثى.

وقوله: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ هم الفقراء، وسموا مساكين لأن الفقر

أسكنهم، فإن الفقر ـ أعاذنا الله منه ـ يوجب الذل، وأن لا يتكلم الإنسان؛ لأنه يشعر بأنه غير مسموع، وغير مقبول، فتجده ساكناً لا يتكلم؛ لأنه لا يُسمع له، ولكن قد يكون هذا الفقير المسكين عند الله مسموعاً، قال عليه الصلاة والسلام: «**رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره**»[1]، والشأن كل الشأن أن تكون وجيهاً عند الله، وإذا كنت وجيهاً عند الله فستكون وجيهاً عند العباد، ولكن لا تطلب أن تكون وجيهاً عند الله؛ لتكون وجيهاً عند العباد، بل اطلب أن تكون وجيهاً عند الله؛ لتنال رضاه، وإذا رضي الله عنك أرضى عنك الناس.

وقوله: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم﴾ أي: أعطوهم؛ لأن الرزق بمعنى العطاء.

وقوله: ﴿مِّنۡهُ﴾ ولم يقل: فيه؛ لأن هؤلاء يعطون من رأس المال، ومن أصله، وأما أموال اليتامى فقال الله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ [النساء: ٥]، وقد سبق أن ذكرنا أنه قال: «فيها» ولم يقل: «منها»؛ لأنهم يرزقون بعد الاتجار بها، فيعطون من الربح، وهو ـ أي: ما سبق ـ إشارة إلى أنه ينبغي لولي اليتيم أن يتجر في ماله حتى يحصل على ما يرزقه فيه، أما هنا فقال: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾ أي: من هذا المال الذي يقسم أمامهم، وهذا إحسان إليهم بالفعل.

وقوله: ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ هذا إحسان إليهم بالقول؛ أي: قولاً طيباً تطيب به نفوسهم.

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الضعفاء والخاملين، حديث رقم (٢٦٢٢) عن أبي هريرة رضي الله عنهما.

ولنفرض أن المال كثير، وأن كل وارث سيحصل على مليون ريال مثلاً، فإذا أعطيت الفقير مائة ريال، فإن الحاضر ربما يقول: مائة من مليون! فقل له قولاً معروفاً تطيب به نفسه، حتى تجمع له بين الإحسان القولي والإحسان الفعلي.

وبالعكس ـ والعياذ بالله ـ من كان قلبه كالحجر، فإذا وجد اليتيم حوله قال له: ما الذي أتى بك؟ اذهب واطلب الرزق من الله!! فهذا قلبه ليس ليناً لعباد الله، ولا راحماً لهم، والإنسان يجب أن يقدر أنه لو كان هو بهذه الحال ماذا سيفعل؟ إنه سوف يتشوف إلى شيء من هذا المال، وسوف يرى أن من أشد الأشياء عليه أن يُصرف، ولا سيما إذا صُرف بقول منكر غير معروف.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أمر من قسم مالاً وحضره هؤلاء الأصناف الثلاثة ـ الأقارب، واليتامى، والمساكين ـ أن يعطيهم منه، وهذا الأمر يحتمل أن يكون للوجوب، ويحتمل أن يكون للاستحباب؛ لأنه أمر بأدب. وقد قال بعض العلماء: كل الأوامر المتعلقة بالآداب وحسن الأخلاق فهي للاستحباب.

فعلى كل حال نقول: الأمر بإعطاء من حضر القسمة.

٢ ـ جواز قسمة المال المشترك بحضور غير الشركاء، ويؤخذ من قوله: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾ لأن الشركاء لهم نصيب بدون أن يؤمر بإعطائهم.

٣ ـ ما جاء به الإسلام من الآداب العالية، والأخلاق الفاضلة، حيث أمرنا بأن نعطي هؤلاء الذي حضروا القسمة؛ لأن قلوبهم تتعلق بالمال، وتتشوف للنوال، فلهذا أمر الشرع بإعطائهم.

٤ ـ أن الأوامر قد تكون موكلة إلى المأمور غير مقدرة،

لقوله: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾، ولم يقل: الثلث، ولا الربع، ولا العشر، بل جعل هذا مطلقاً، فهو يرجع إلى كرم المعطي من وجه، وإلى كثرة المال من وجه آخر.

٥ ـ أن الإحسان إلى القرابة أفضل من الإحسان إلى اليتيم والمسكين، ووجه ذلك: أنه قدمه، ولهذا لما أخبرت أحدى أمهات المؤمنين رسول الله ﷺ أنها أعتقت جارية لها، قال لها رسول الله ﷺ: «**أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك**»[1]، فدل هذا على أن صلة الرحم أفضل من إعطاء البعيد.

٦ ـ عناية الله عزّ وجل بالضعفاء المستحقين للعناية، وتؤخذ من قوله: ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ﴾؛ لأن اليتيم صغير منكسر القلب بفقد أبيه، يحتاج إلى رعاية وعناية، والمسكين كذلك فقير ذليل يحتاج إلى من يجبر ذله، ويسقي ظمأه، ويكسو عورته.

٧ ـ أنه ينبغي لمن أعطى أحداً شيئاً أن يقول له قولاً معروفاً يطيب قلبه، ويبعده من المن بالعطاء؛ لأن المن بالصدقة من كبائر الذنوب، وهو مبطل للأجر، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

٨ ـ الجمع بين الإحسان القولي والفعلي، فالفعلي من قوله: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾، والقولي من قوله: ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري، كتاب الهبة وفضلها، باب هبة المرأة لغير زوجها وعتيقها إذا كان لها زوج فهو جائز إذا لم تكن سفيهة، حديث رقم (٢٤٥٢)؛ ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين، حديث رقم (٩٩٩).

□ قال الله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء: ٩].

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟﴾ اللام في قوله: ﴿وَلْيَخْشَ﴾ لام الأمر، والفعل مجزوم بها بحذف الألف، وأصلها «يخشى» بالألف، وسكنت لام الأمر هنا لأنها تسكن إذا وقعت بعد الواو والفاء وثم، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [الحج: ١٥]، بخلاف لام التعليل فإنها تكون مكسورة إذا وقعت بعد الواو أو ثم أو الفاء، مثل قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ [العنكبوت: ٦٦]، فلا تُقرأ «وَلْيَتمتعوا» إلا إذا ثبت أن فيها قراءة بسكون اللام، فحينئذ تكون اللام لام الأمر ولا تكون لام التعليل.

وقوله: ﴿لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ «لو» هنا شرطية، وفعل الشرط قوله: ﴿تَرَكُوا۟﴾، وجوابه قوله: ﴿خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾، وقد خرجت الآية الكريمة هنا عن الأكثر في جواب ﴿لَوْ﴾، فإن الأكثر في جواب ﴿لَوْ﴾ إذا كان مثبتاً أن تقترن به اللام، فيقال: لو جاء زيد لجاء عمرو، ولكن اللام تحذف أحياناً في جواب ﴿لَوْ﴾ في الإثبات، ومنه هذه الآية، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]، وفي نفس السياق قال في الزرع: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٥]، أما إذا جاء جواب ﴿لَوْ﴾ منفياً بـ«ما»، فالأفصح أن لا تذكر اللام، فإذا قلت: لو جاء زيد ما قلت شيئاً، فإن هذا أفصح من أن تقول: لما قلت شيئاً، لكن

قد تقترن اللام بـ«ما» النافية في جواب «لو»، ومنه قول الشاعر:

ولو نعطى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الليالي

وتكميلاً للفائدة فإن «لو» تأتي على أوجه: الأول: أن تكون شرطية، والثاني: أن تكون مصدرية؛ كقوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩] أي: ودوا إدهانكم فيدهنون.

و﴿لَوْ﴾ من أدوات الشرط غير الجازمة.

وقوله: ﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا أمر بالتقوى، وهو تأكيد للأمر بالخشية في قوله: ﴿وَلْيَخْشَ﴾.

يقول الله عزّ وجل مذكراً هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ويضيعونها، يقول: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾ والخشية أشد الخوف، ولا تكون إلا مع العلم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فيقول: ليخش هؤلاء الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً، ومفعول «يخشى» محذوف؛ أي: ليخش هؤلاء أن يضيعوا أموال اليتامى ويأكلوها.

وقوله: ﴿ذُرِّيَّةً﴾ الذرية هم الأولاد من بنين وبنات، وأولاد البنين، وأولاد بني البنين، وأما أولاد البنات وأولاد بنات البنات وبني البنات، فإنهم لا يدخلون في الذرية، هذا هو المشهور عند أهل العلم، فلو قال القائل: هذا وقف على ذريتي؛ لم يدخل أولاد البنات في هذا الوقف؛ لأن أولاد البنات ليسوا من الذرية، فهم كالأولاد والبنين، لا يدخل فيهم أولاد البنات ولا بنو أولاد البنات.

فإن قال قائل: هذا القول ينتقض بعيسى ابن مريم، فإن الله تعالى جعله من ذرية إبراهيم وهو ابن بنت؟

فيجاب عن ذلك: بأنه لا أب له، فأمه أبوه؛ ولهذا قال العلماء رحمهم الله: إن ولد الزنا ترثه أمه بالفرض والتعصيب؛ لأنها أم وأب، إذ لا أب له شرعاً.

وقوله: ﴿ضِعَٰفًا﴾ أي: لا يستطيعون أن يتكسبوا؛ لعدم رشدهم ولصغر سنهم، فكل واحد من الناس إذا حضرته الوفاة وله أولاد صغار، سوف يخاف عليهم، ويفكر ويقدر من يتولاهم بعده، ولكن المؤمن يقول كما قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله حين قالوا له: ألا توصي لولدك؟ فقال: لا؛ إن كان ولدي صالحاً فالله يتولى الصالحين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: ١٩٦]، وإن كانت الأخرى فلن أعينه على فساده.

فالضعيف من الأولاد هو الصغير، أو المجنون، أو السفيه الذي ليس لديه رشد، ولا يستطيع التصرف بنفسه.

وقوله: ﴿خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ أي: خافوا عليهم من الضياع وأكل أموالهم.

وقوله: ﴿فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ التقوى: هي اتخاذ وقاية من عذاب الله، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، هذا أجمع ما قيل في التقوى، وهذا إذا أطلقت التقوى وأفردت، أما إذا قيدت فإنها بحسب ما قيدت به، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وكذلك إذا قرنت بالبر صار معناها اجتناب المعاصي، ومعنى البر فعل الطاعات في الأوامر، أما إذا أطلقت فهي تشمل هذا وهذا.

وقوله: ﴿وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ القول السديد: هو ما سد

موضعه؛ أي: ما كان صواباً موافقاً للحكمة، فليس السداد أن تلين في القول ولا أن تشتد به، ولكن أن يكون قولك صواباً مطابقاً للحكمة، فقد يكون السداد بشدة القول، وقد يكون السداد بلين القول، وانظر إلى النبي ﷺ كيف يشتد أحياناً بقوله، وكيف يلين أحياناً بقوله، وقوله ﷺ كله سداد، وكله سديد بلا شك، والحكمة تختلف باختلاف الأحوال، وباختلاف الأشخاص، وباختلاف موضوع الكلام.

فلو أن رجلاً أراد أن يخطب في قوم أسرفوا على أنفسهم ووقعوا في المحارم، فإن السداد أن تكون الخطبة قوية، وبانفعال وبزجر شديد، وكأنه منذر قوم أو جيش يقول: صبحكم ومساكم، وإذا كان يخطب عند قوم ليسوا بهذه المثابة، ولا يرون الشدة في القول، بل ربما ينفرهم، فإنه في هذا الحال يلين لهم القول.

وقد ورد ذكر القول السديد في غير هذه الآية، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾ [الأحزاب: ٧٠].

والنتيجة لتقوى الله والقول السديد هي قوله تعالى: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٧١]. ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ الدينية والدنيوية، ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ أي: ما أذنبتموه، فعلينا أن نأخذ بهذه التوجيهات الإلهية والأوامر فنتقي الله ونقول قولاً سديداً.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تذكير المرء بما يحدث له؛ حتى يراعي في ذلك غيره، لقوله تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ

عَلَيْهِمْ﴾، فكما أنك تخاف على ولدك فخف على ولد غيرك.

٢ ـ الإشارة إلى أنه يجب على المرء أن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به؛ لأنه إذا كان يكره لنفسه أن يعتدي أحد على أولاده بعد موته، فكذلك لا يعتدي هو على أولاد الناس.

٣ ـ أنها تدل بدلالة الإشارة على أن الإنسان إذا أراد أن يجني على غيره فليتذكر نفسه، فإذا كان مثلاً يهم بأن يزني بامرأة، فليتذكر هل يرضى أن يزني أحد بإحدى محارمه؟ ومن المعلوم أن الجواب «لا»، فإذا كان كذلك؛ فلماذا يرضى أن يزني بمحارم الناس وهو لا يرضى أن يزني أحد بمحارمه؟ فقس ما تريد أن تفعله بالناس على ما يريدون أن يفعلوه بك.

٤ ـ أن الإنسان يكون مجانباً للتقوى إذا لم يراع ربه عزّ وجل في رعاية هؤلاء الضعفاء الذين كانوا بين يديه.

٥ ـ أن الإنسان ينبغي له أن يتقي الله عزّ وجل في الولاية على غيره، وأن يقول قولاً سديداً.

٦ ـ أن القول ينقسم إلى قسمين: سديد وغير سديد، فالسديد ما وافق الصواب، وغير السديد ما خالف الصواب، ومن ذلك اللغو من الكلام، فإنه ليس بسديد، لقول النبي ﷺ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»**[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، حديث رقم (٥٦٧٢)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير، حديث رقم (٤٧) عن أبي هريرة.

□ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ جملة إسمية مبدوءة بـ«إنَّ»، وخبر «إنّ» هو قوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ﴾؛ أي: ما يأكلون إلا ناراً.

وقوله: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، وفي قراءة: «وسيُصلون» بالبناء للمفعول، وهي قراءة سبعية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ يأكلونها. أي: يتلفونها، لكنه عبر بالأكل؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع؛ لأن أكثر ما يجني الإنسان المال من أجل أكله وما يتعلق به، فعبر بالأكل لأنه أعم وجوه الانتفاع، وإلا فغير الأكل مثله، بل قد يكون أشد، كما لو أتلف هذه الأموال بإحراق أو إغراق أو ما أشبه ذلك، فهو أعظم من أكلها.

واليتيم سبق أنه هو الذي يموت أبوه ولم يبلغ.

﴿ظُلْمًا﴾ مصدر في موضع الحال؛ أي: ظالمين.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ وجوب رعاية أموال اليتامى، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ﴾.

٢ ـ أنه لو أكل مال اليتيم بحق؛ فلا إثم عليه، مثل أن يكون فقيراً فيأخذ قدر أجرته من هذا المال الذي هو قائم عليه، فلا حرج.

٣ ـ أن أكل مال اليتيم بغير حق من كبائر الذنوب؛ لأنه توعد عليه بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ﴾، وعند أهل العلم: أن الكبيرة ما فيه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة.

وقيل: إن الكبيرة ما فيه عقوبة خاصة؛ أي: ما ذكر له عقوبة خاصة؛ وذلك لأن المحرمات نوعان: نوع ليس فيها إلا النهي، ونوع آخر يذكر فيها عقوبة خاصة: إما دنيوية، وإما دينية، وإما أخروية، فالدنيوية كالحد، مثل الزنا والسرقة، والدينية كالبراءة منه، كقوله عليه الصلاة والسلام: «**ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**»(١)، والأخروية هي العقوبة، كما في هذه الآية.

٤ ـ إثبات الجزاء، لقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾.

٥ ـ أن الجزاء من جنس العمل؛ لأنه قابل أكلهم بالنار التي يعذبون بها.

٦ ـ الوعيد الشديد على من أكل مال اليتيم بأنه سيصلى سعيراً، وهذا أعظم من قوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾، فتكون الحرارة في أجوافهم، وفي ظاهر أجسامهم، لقوله: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ليس منا من شق الجيوب، حديث رقم (١٢٣٢)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، حديث رقم (١٠٣) عن ابن مسعود.

أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء: ١١].

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ الوصية: هي العهد بأمر هام عهد به إليك، وتكون بعد الموت، وأما ما قبل الموت فهي وكالة، وينبغي أن يُعلم أن المتصرف في غير ماله له أوصاف بحسب الوظيفة التي هو قائم بها، فتارة نسميه «وكيلاً»، وتارة نسميه «ولياً»، وتارة نسميه «ناظراً»، وتارة نسميه «وصياً»، فإذا كان يتولى مال الغير بغير إذن منه، بل بإذن من الشرع؛ فإنه يسمى «ولياً» كولي اليتيم، وإذا كان يتولى مال الغير بعد موته؛ فإنه يسمى «وصياً»، وإذا كان يتولى الوقف؛ فإنه يسمى «ناظراً»، وإذا كان يتولى لحي؛ فإنه يسمى «وكيلاً».

وقوله: ﴿فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ﴾؛ أي: أن الوصية في الأولاد أنفسهم، والأولاد: جمع ولد، ويشمل الذكور والإناث، بدليل قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، فإذا اجتمع في الأولاد ذكور وإناث، فإننا نعطي الذكر مثل حظ الأنثيين، وتأمل كيف قال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ دون أن يقول: للأنثى نصف الذكر؛ لأن الحظ والنصيب فضل وزيادة، والنصف نقص، فلهذا قال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، ولم يقل: للأنثى نصف ما للذكر؛ لما في كلمة «نصف» من النقص، بخلاف حظ الأنثيين؛ فإن فيه زيادة، فهو أحسن تعبيراً مما لو قال: للأنثى نصف ما للذكر.

فإذا هلك الميت عن خمسة أبناء وبنت، فللبنت واحد من أحد عشر؛ لأن الخمسة عن عشرة، وإذا هلك عن سبعة أبناء

وثلاث بنات، فلكل بنت واحد من سبعة عشر؛ لأن السبعة عن أربعة عشر سهماً، والثلاث عن ثلاثة أسهم، فالجميع سبعة عشر سهماً.. وهكذا.

وقوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ قوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً﴾، ولم يقل: فإن كانوا نساءً؛ أي: الأولاد، وهذا جائز، فيجوز في الضمير إذا اكتنفه مذكر ومؤنث أن تذكره باعتبار ما سبقه، إذا كان السابق مذكراً، وتؤنثه باعتبار ما لحقه، فهنا قال: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً﴾ فأنث الضمير باعتبار ما لحقه، ولو كان في غير القرآن وقيل: «فإن كانوا نساءً» جاز باعتبار ما سبقه، فالضمير في مثل هذا التركيب يجوز أن يعود على ما سبق، ويجوز أن يعود على ما لحق.

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ فقيل: إنها زائدة، وأن المعنى: فإن كن نساء اثنتين؛ وذلك لأن الثلثين تستحقه الثنتان فما فوق، وظاهر الآية الكريمة أن الثنتين لا تستحقان الثلثين؛ لأنه قال: ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾، والحكم خلاف ذلك، فلهذا قال بعض العلماء: إنها زائدة، ولكن الصحيح أنها ليست بزائدة، بل هي مفيدة وأصلية؛ ليتبين أن ما فوق الثنتين لا ينحصر، فلو كن عشراً أو عشرين فإن الفرض لا يزيد بزيادتهن.

ولنا في تقرير الثلثين للثنتين عدة أوجه:

الوجه الأول: أنه قال: ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ ومفهومه: أن ما زاد عن الواحدة فليس لها النصف، ولا نعلم فرضاً للبنات سوى النصف أو الثلثين، فإذا لم يكن لها النصف بقي لها الثلثان؛ لأنه ليس هناك فرض بين النصف والثلثين.

الوجه الثاني: أن الله جعل للأختين الثلثين في آخر السورة، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]، وصلة البنتين بأبيهما أقوى من صلة الأختين بأخيهما، وعلى هذا فيكون للبنتين الثلثان، كما أن للأختين الثلثين.

الوجه الثالث ـ وإن كان خارجاً عن نطاق القرآن ـ : أن النبي ﷺ أعطى ابنتي سعد بن الربيع الثلثين وهما اثنتان[1].

وعلى هذا فنقول: لقد بيَّن الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن الأولاد إما أن يكونوا ذكوراً وإناثاً، وإما أن يكونوا إناثاً فقط، وبقي قسم ثالث: وهو أن يكونوا ذكوراً فقط.

فأما إذا كانوا ذكوراً وإناثاً فقد بيَّن الله الحكم؛ وهو أن للذكر مثل حظ الأنثيين، وإذا كانوا نساءً فقط فقد بيَّن الله الحكم؛ وهو أن للواحدة النصف ولما زاد الثلثين، وسكت عن الأولاد الذكور فقط، فدل هذا على أنهم يرثون بلا تقدير؛ لأنه لو كان لهم مقدر لبينه كما بين المقدر للإناث، ولو كانوا يختلفون لبين ذلك، كما بين اختلاف الواحدة من البنات مع الثنتين فأكثر.

وعلى هذا: فإذا كانوا ذكوراً فقط فلهم المال، وتكون مسألتهم من عدد الرؤوس؛ لأن الورثة إذا كانوا عصبة فلا تؤصل لهم مسألة، بل أصل مسألتهم من عدد رؤوسهم، فإذا كانوا مئة بني عم فالمسألة من مئة.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الفرائض، باب ما جاء في ميراث البنات (٢٠٩٢)؛ ورواه ابن ماجه، كتاب الفرائض، باب فرائض الصلب (٢٧٢٠)؛ ورواه أحمد في مسنده (١٤٣٨٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ فيها قراءتان، ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً﴾.. «وإن كانت واحدةٌ» وعلى هذه القراءة فإن «كان» تامة، و«كان» التامة هي التي يكتفى بمرفوعها عن خبرها؛ لأنها لا تتطلب سواه، فهي تامة به، والناقصة هي التي تحتاج إلى خبر؛ لأنها لا تتم إلا به، ولهذا سميت «كان» إذا اكتفت بمرفوعها تامة، لا تحتاج إلى تكميل.

وقوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أي: أبوي الميت، ولم يسبق له ذكر، لكن المقام يقتضيه، لقوله: ﴿مَا تَرَكَ﴾؛ لأن الإنسان لا يترك ماله إلا بعد موته.

وقوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ يعني: الأب والأم، من باب التغليب، وهو هنا ملحق بالمثنى.

وقوله: ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾، بدل من قوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ بإعادة العامل، والبدل معروف أن له حكم المبدل في الإعراب، لكن هنا نستغني عن التبعية في الإعراب؛ لأنه أعيد العامل.

أي: فلكل واحد من الأبوين السدس مما ترك ابنهما أو بنتهما أيضاً، ﴿إِن كَانَ لَهُۥ﴾ أي: للميت «ولد»، وقوله: ﴿إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ يشمل الذكر والأنثى، فإذا كان للميت أبوان، وله أولاد، فلكل واحد من الأبوين السدس، فإن كان الولد ذكراً؛ فللأم السدس وللأب السدس، والباقي للابن، وإن كان أنثى فرض لها فرضها وهو النصف إن كانت واحدة، أو الثلثان إن كانت زائدة، والباقي للأب تعصيباً؛ لقوله ﷺ: «**ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر**»[1].

---

(١) تقدم ص٤٩.

وميراث الأبوين مع الولد: أما الأم ففرض وليس لها تعصيب إطلاقاً، وفرضها السدس مع وجود الولد: ذكراً كان أم أنثى، وأما الأب فإن كان في الأولاد ذكور، فليس له إلا السدس، وإن كان الورثة إناثاً؛ فله السدس فرضاً، والباقي إن بقي تعصيباً.

وحينئذ نقول: إما أن يكون الولد الذي مع الأبوين ذكوراً فقط، أو إناثاً فقط، أو ذكوراً وإناثاً، فإن كانوا ذكوراً فقط؛ فليس للأب ولا للأم إلا السدس، وإن كانوا إناثاً فقط؛ فليس للأم إلا السدس، وكذلك الأب يفرض له السدس، وإن بقي شيء أخذه تعصيباً، وإن كانوا ذكوراً وإناثاً فليس للأب إلا السدس كالأم؛ لأنه لا تعصيب للأب مع وجود أحد من الأبناء أو أبنائهم؛ لأن الأبناء أو أبناءهم أولى بالتعصيب من الأب.

وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: إن لم يكن له فرع وارث، لا ابن، ولا ابن ابن، ولا بنت ابن، ولا بنت، وهذا الشرط الأول، والشرط الثاني في قوله: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾، والجواب: ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ وللأب الباقي؛ لأنه إذا كان المال بين شخصين، وفرض لأحدهما، فالباقي كله للآخر.

فقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ هنا انحصر الإرث في الأبوين، ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾، والباقي للأب؛ لأن الله قال: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ وأعطى أمه الثلث، فيكون الباقي للأب بالضرورة، فإذا هلك هالك عن أم وأب، وليس معهما ولد ولا غيره؛ لا إخوة، ولا زوج، ولا زوجة؛ فللأم الثلث، والباقي للأب.

وهذا مطرد على قاعدة الفرائض؛ لأن قاعدة الفرائض: «إذا كان الوارثان ذكراً وأنثى من جنس، وفي مرتبة واحدة، فإن للذكر مثل حظ الأنثيين» فمثلاً: ابن وبنت، أخ شقيق وأخت شقيقة، أخ لأب وأخت لأب، للذكر مثل حظ الأنثيين.

مسألة: إذا كان مع الأبوين زوج أو زوجة، فهل ترث الأم الثلث؟

الجواب: نقول: إن الآية الكريمة تدل على أنه ليس لها الثلث:

فإذا هلكت امرأة عن زوجها وأمها وأبيها مثلاً، وليس في المسألة ولد، فانحصر الإرث في ثلاثة أشخاص، فللزوج النصف، وللأم ثلث الباقي، وللأب الباقي.

وصار للأم ثلث الباقي لماذا؟ لأن الأم والأب ورثا ما بقي بعد الزوج، وقد قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾، فكأن الأبوين ورثا نصف المال الذي هو الباقي بعد الزوج، فنجعل الباقي بعد فرض الزوج كأنه المال كله، فإذا جعلناه كأنه المال كله فإن للأم الثلث، وهذا واضح جداً، ومعلوم بنص القرآن أن الأم والأب إذا ورثا المال كله فللأم الثلث، فيكون لها ثلث الباقي.

وهذه القسمة ليست مخالفة للنص، بل هي موافقة للنص.

مثال آخر: هلك رجل عن زوجة، وأم، وأب، فللزوجة الربع، وبقي ثلاثة أرباع: للأم ثلث الباقي، وللأب الباقي؛ لأن الزوجة لما أخذت نصيبها صار الباقي بعد فرضها كأنه المال كله، والأم والأب إذا ورثا المال كله صار للأم الثلث، وعلى هذا:

فللأم ثلث الباقي بعد فرض الزوجة، والباقي للأب، وهذا مقتضى النص القرآني الذي معنا.

وهاتان المسألتان ـ وهما: زوج وأم وأب، وزوجة وأم وأب ـ تسميان: العمريتين، والغراوين؛ لأن أول من قضى بهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إذ لم توجد هذه الصورة لا في عهد النبي ﷺ، ولا في عهد أبي بكر رضي الله عنه، ووجدت هاتان الصورتان في عهد عمر رضي الله عنه، فقضى بهما على هذا النحو قضاء موافقاً للصواب بلا شك، وسميتا بالغراوين لأنهما في الفرائض كالغرة في وجه الفرس، لظهورهما وبيانهما واشتهارهما.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾ يعني: حين إرث أبويه له ﴿فَإِن كَانَ﴾ والفاء هنا عاطفة للترتيب، وهي تدل على ترتب ما بعدها على ما قبلها، فإذا ورث الرجل أبواه وكان له إخوة، ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾ سواء كانوا إخوة ذكوراً أو إناثاً، أشقاء، أو لأب، أو لأم.

مثاله: هلك هالك عن أم وأب وأخوين شقيقين؛ فللأم السدس، والباقي للأب.

وقد فرضنا للأم السدس؛ لوجود جمع من الإخوة، ولم نفرض للأب السدس؛ لعدم الفرع الوارث، فنقول: للأم السدس، والباقي للأب، والإخوة يسقطون بإسقاط النبي ﷺ لهم حيث قال: «**ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر**»[1].

---

(١) تقدم ص٤٩.

وصاحب الفرض في هذه المسألة هي الأم، وقد أعطيناها نصيبها، ثم بحثنا وقارنا بين الأب والإخوة فوجدنا أن الأب أولى؛ لأن الميت بضعة منه، فقلنا: الباقي للأب.

فإن قال قائل: كيف يحجب الإخوة وهم محجوبون؟

فنقول: نعم، يحجبون غيرهم وهم محجوبون؛ لأن حجبهم هنا لوجود المانع، فإن الذي منعهم من الإرث هو الأب لا لفوات الشرط، فهم من أهل الإرث، فليس فيهم مانع من موانع الإرث حتى نقول: إن هؤلاء ليسوا مستحقين بالأصل من الميراث، بل نقول: إنهم مستحقون لولا وجود المانع؛ فلهذا حجبوا وهم محجوبون.

والغريب في هذه المسألة: أنه لو كان الإخوة إخوة من أم؛ فإنهم يحجبون الأم من الثلث إلى السدس، وهذه غريبة من غرائب العلم أن يكون المدلي حاجباً لمن أدلى به، والعادة أن الذي يَحجب هو المدلى به، فالابن يحجب ابن الابن؛ لأن الابن مدلي بالابن، ومن أدلى بواسطة حجبته تلك الواسطة، وهنا الإخوة من الأم مدلون بالأم، ولم تحجبهم الأم، بل هم الذين حجبوا الأم، فهي على العكس، ولكن مسائل الفرائض كثير منها لا مجال للرأي فيها، ولا مدخل للاجتهاد فيها كما قال تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

فيكون ميراث الأبوين على أحوال:

الحالة الأولى: إذا كان معهم ولد؛ فلكل واحد منهما السدس، فإن كان الولد ذكراً فليس سوى السدس، وإن كان أنثى فللأب ما بقي بعد الفروض تعصيباً.

الحالة الثانية: إذا ورث الميت أبواه فقط؛ أي: لم يوجد وارث سوى الأبوين، لا إخوة، ولا فرع وارث، فميراث الأم الثلث بالنص، والباقي للأب؛ لأن المال الذي بين شخصين إذا قدر لأحدهما نصيبه صار الباقي للثاني.

فمثلاً: لو أعطاك شخص مالاً مضاربة تشتغل فيه، وقال: لك ربع الربح، فإنه يكون لصاحب المال ثلاثة أرباع؛ لأن المال بين اثنين، إذا قدر لأحدهما نصيب فالباقي للآخر.

الحالة الثالثة: إذا ورث الأبوان ولدهما وله إخوة، فللأم السدس، وإن كان الإخوة غير وارثين، والباقي للأب، والإخوة يسقطون، لقول النبي ﷺ: «**ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر**»(١).

وهذه الآية الكريمة قد اشتملت على حكم ميراث الفروع والأصول، وقد بدأت بذكر الفروع قبل الأصول، وكان المتوقع أن تبدأ بالأصول؛ لأنهم أحق بالبر من الفروع، لكن بدأت بالفروع لأنهم بضعة من الميت وجزء منه، والأصول بالعكس، فإن الميت بضعة منهم، فكان الذي هو بضعة منه أولى، وهذه من الحكم العظيمة؛ لأنه قد يقول قائل: لماذا لم يبدأ الله عزّ وجل بذكر الوالدين قبل ذكر الأولاد؟ والجواب هو هذا.

أما الأزواج والحواشي، فقد ذُكروا بعد هذه الآية مباشرة؛ لأن الآية الثانية الآتية خالصة لذوي الفروض، وليس فيها عصبة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢].. الآية، وقد ذكر فيها الزوجان، والإخوة من الأم، وكلهم

---

(١) تقدم ص٤٩.

أصحاب فروض، ولهذا قال الله تعالى فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النساء: ١٣] الآية، وهنا لم يقل: تلك حدود الله؛ لأن هذه الآية فيها تعصيب غير محدد، والآية التي بعدها كلها أصحاب فروض، والآية الثالثة في آخر السورة فيها فروض وفيها تعصيب، ولهذا قال الله تعالى فيها: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦].

مسألة: هلك هالك عن جد وأخ وأم، فنقول: للأم الثلث؛ لأنه ليس هناك فرع وارث، ولا جمع من الإخوة، وهذا مما يُضعف القول بأن الجد أخ؛ لأنه هنا ليس بأخ، ولا يحجب الأم، كما أنه لو كان عندنا جدان لم يحجبا الأم إلى السدس، وقد ذكر العلماء صورتها فيما لو وطئ رجلان امرأة بشبهة، وأتت بولد، وعرض على القافة الذين يعرفون الأنساب بالشبه، فقالوا: هذا الولد لهذين الرجلين جميعاً، فصار له أبوان، ولكل أب أب، فيكون له جدان، فلو كان له جدان لم يحجبا الأم إلى السدس، والأدلة على ضعف إلحاق الجد بالإخوة أدلة كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ أي: أن هذا الميراث الذي قسمه الله عزّ وجل إنما يكون ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ﴾، وفي قراءة «يُوصَى بها» بالبناء للمجهول، ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾، والوصية في الأصل هي العهد بالشيء المهم، وهي اصطلاحاً: التبرع بالمال بعد الموت، أو الأمر بالتصرف بعد الموت، فهي إما بمال وإما بتصرف، فإذا أوصى رجل إلى شخص بالنظر على أولاده الصغار، فهذه وصية بتصرف، وإذا أوصى شخص بمائة درهم لفلان، فهذا تبرع بالمال بعد الموت، وهذا هو المراد بهذه الآية، وهو التبرع بالمال بعد الموت.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ﴾ مطلق لم يقيد، لكن دلت السنة على أنه لا تزيد الوصية على الثلث، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حين عاده النبي ﷺ في مكة فقال له سعد: إني ذو مال ـ يعني: ذو مال كثير ـ ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «**لا**». قال: فالشطر؟ قال: «**لا**». قال: فالثلث؟ قال: «**الثلث، والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»[(١)]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع»، يعني: لكان أحسن؛ لأن النبي ﷺ قال: «**والثلث كثير**»[(٢)]، ولم يرخص في الثلث إلا في المراجعة الثالثة من سعد رضي الله عنه.

ويُذكر أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: «أرضى بما رضيه الله لنفسه»[(٣)]، فأوصى بالخمس، واعتمد ذلك الفقهاء، فقالوا: ينبغي أن تكون الوصية بالخمس، ولكن لشُح الناس اليوم صاروا لا يعرفون في الوصية إلا الثلث، فيندر جداً أن ترى شخصاً أوصى بخمس ماله، وينبغي لطلبة العلم أن يبينوا للناس، وأن يقولوا لهم: إن الوصية بالثلث رخصة جاءت بعد مراجعة، وما دون الثلث أفضل منه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب رثي النبي ﷺ خزامة بن سعد، حديث رقم (١٢٣٣)؛ ومسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، حديث رقم (١٦٢٨) عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) قول ابن عباس عند مسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، حديث رقم (١٦٢٩).

(٣) رواه عبد الرزاق في المصنف (٩/ ٦٦)؛ وابن جرير في التفسير (٦/ ٢٤٨)؛ والبيهقي (٦/ ٢٧٠) من طريق قتادة عن أبي بكر.

وقد دل القرآن على أن الوصية لا تكون لوارث، وهذا هو الشرط الثاني في الوصية، **فالشرط الأول**: أن لا تزيد على الثلث.

والشرط الثاني: أن لا تكون لوارث، ووجه الدلالة قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ﴾، فجعل الوصية مستقلة عن الميراث، وقال في الآية التي تلي هذه لما ذكر الإرث: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ [النساء: ١٣ ـ ١٤]، ولا شك أن من أوصى لأمه بالخمس وقد أعطاها الله السدس، فقد تعدى حدود الله، فإن فرض الله لها هو السدس، وهو زاد على ذلك الخمس، فصار ميراثها أكثر من الثلث، وهذا تعدٍ لحدود الله.

فالوصية التي تقدم على الميراث هي الوصية الشرعية التي جمعت شرطين، وهما: ألا تزيد على الثلث، وألا تكون لوارث.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ﴾ في قوله ﴿يُوصِي بِهَآ﴾ دليل على أنه لا بد من ثبوت الوصية، وأن يكون الموصي أوصى بها عن طمأنينة وعن معرفة، فلو أوصى وهو في غمرات المرض، ولم يكن يتصور ما يقول، فإن الوصية لا تقبل، ولا عبرة بها؛ لأنه حقيقة لم يوص بها، وكذلك لو لم تثبت الوصية ببينة، فإنها لا عبرة بها، إلا إذا صدّق الورثة ـ وهم راشدون ـ بذلك، فالحق لهم.

وقوله: ﴿أَوۡ دَيۡنٖۗ﴾ الدين: كل ما ثبت في الذمة فهو دين،

فالأجرة دين، والقرض دين، وثمن المبيع دين، والصداق على الزوج دين، وعوض الخلع على الزوج دين، وأرش الجراحات دين، فكل ما ثبت في الذمة فهو دين، فيقدم الدين على الميراث، فلو قدر أن الدين يستغرق جميع المال فلا شيء للورثة؛ لأن الله قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾، وإذا قدر أنه يستغرق نصف المال صار الميراث نصف المال.

وأيهما يقدم: الدين أم الوصية؟

الجواب: يقدم الدين قبل الوصية، كما جاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ قضى بالدين قبل الوصية»[1]، والمعنى يقتضيه؛ لأن الدين قضاؤه من باب الواجب، والوصية من باب التبرع، بمعنى: أن المدين يجب عليه أن يقضي دينه، والوصية مستحبة وليست بواجبة، والنظر الصحيح يقتضي تقديم الواجب.

فإن قال قائل: إذا كان الأمر كذلك، فما الحكمة من تقديم الوصية على الدين في الآية؟

فنقول: الحكمة هي:

أولاً: العناية بالوصية، والإشارة إلى أن الدين ينبغي للعاقل أن لا يحمله نفسه.

---

(١) علقه البخاري (٣/ ١٠١٠)، باب تأويل قول الله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾، وهو عند أحمد (١/ ١٣١، ١٤٤)؛ والترمذي، كتاب الفرائض، باب ميراث الأخوة من الأب والأم، حديث رقم (٢٠٩٤)؛ وابن ماجه، كتاب الوصايا، باب الدين قبل الوصية، حديث رقم (٢٧١٥).

ثانياً: أن الدين له من يطالب به، فلو فرض أن الورثة سكتوا وقسموا التركة، فإن صاحب الدين لن يسكت، بل لا بد أن يطالب، لكن الوصية لو كتموها، ولم يعلم بها الموصى له، فليس هناك من يطالب بها، فلهذا قدمها ليهتم الورثة بها، لا ليقدموها على الدين، فالدين مقدم، ثم الوصية، ثم الميراث.

فإذا هلك هالك عن ورثة، وكان عليه دين يستغرق نصف ماله، وأوصى بالثلث، فالمسألة من ستة، للدين ثلاثة، وللوصية ثلث واحد، فالمأخوذ في الدين كالمفقود، وعلى هذا فتكون التركة الموروثة هي الباقية بعد الدين، وهي ثلاثة من ستة، فيعطى صاحب الوصية ثلث الباقي وهو واحد، ويبقى اثنان هما نصيب الورثة، فقدمنا الدين على الوصية، وجعلنا النقص على الوصية، ولولا الدين لأخذ الموصى له اثنين من ستة، لكنه الآن لم يأخذ إلا واحداً من ستة؛ لأن الدين مقدم على الوصية.

مسألة: هل يجوز للأب أن يوصي لابنه الكافر؟

الجواب: **نقول**: الكافر لا يرث من المسلم، فما دام أنه لا يرث فيوصي له، ولكن في بره تفصيل بيّنه الله في سورة الممتحنة، فقال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ وهذا إحسان ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨] وهذه المعاملة بالعدل، فما نُهي الإنسان أن يعامل الكافر بالعدل، أو بالفضل، بشرط ألا يكون ممن يقاتلوننا في الدين.

مسألة: إنسان له دين مؤجل، فهل تقسم تركته أو يقضى الدين المؤجل؟

نقول: إن وَثَّق الورثة برهن مُحرز، أو كفيل مليء، فالدين باقٍ على ما هو عليه لا يَحِل، وإن لم يوثقوه حل الدين ووجب البيع.

ثم قال تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ فلما قسم سبحانه القسمة على ما اقتضته حكمته؛ قطع خط الاعتراض على هذه القسمة بقوله: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾.

فلو قال قائل: إن الآباء أحق من الأبناء؛ لأن برهم واجب، وقال الآخر: إن الأبناء أحق من الآباء؛ لأنهم قصر يحتاجون إلى رعاية في الغالب، فنقول: وراء ذلك كله حكمة الله عزّ وجل، فنحن لا ندري: آباؤنا أو أبناؤنا أيهم أقرب لنا نفعاً.

والآية تعم التفصيل بين الجنس والجنس، وبين الأبناء، فهي تعم المعنيين، فلا تدرون هل الآباء أنفع لكم أو الأبناء؟ ولا تدرون هل الأكبر من الأبناء أنفع أم الأصغر؟ وهل الأقرب من الآباء أنفع أم الأعلى؟

وكثيراً ما يكون الجد أرأف وأرحم من الأب بأحفاده، وكثيراً ما يكون الابن الأصغر أرحم من الابن الأكبر، فنحن في الحقيقة لا ندري هل الآباء أبر وأنفع لنا أو الأبناء، وهل الأبر من الأبناء فيما بينهم الكبير أو الصغير أو المتوسط، وكذلك بالنسبة للآباء لا ندري، فلما كنا لا نعلم؛ وجب أن نكل الأمر إلى عالمه وهو الله عزّ وجل.

ثم قال تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قوله: ﴿فَرِيضَةً﴾

مصدر عاملها محذوف، وقد يقال: إنها مصدر نابت عن عاملها، والتقدير على الأول: فرضنا ذلك فريضة، وعلى الثاني نجعل ﴿فَرِيضَةً﴾ هي نفسها العامل، ولا تحتاج إلى عامل ينصبها، فتكون تأكيداً لما سبق، ويسمى هذا: المصدر المؤكد للجملة التي قبله، ولا يحتاج إلى عامل، قال ابن مالك: كأنت ابني حقاً.

فكلمة «حقاً» ليس لها عامل، لكنها تؤكد الجملة التي سبقتها.

وهذه أيضاً ليس لها عامل، لكن لما قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ وقسم وقدر، صار هذا المصدر مؤكداً للجملة التي قبله.

وقوله: ﴿فَرِيضَةً﴾ الفرض في اللغة: الحز والقطع، يقال مثلاً: فرض اللحم؛ أي: حزه، وفرض العصا: قطعها، وفي الشرع: ما ألزم به الشارع، ولا فرق على القول الصحيح بين ما ثبت بدليل ظني، وبين ما ثبت بدليل قطعي، وقد قال بعض العلماء: ما ثبت بدليل قطعي فهو فرض، وما ثبت بدليل ظني فهو واجب، والصحيح أنه لا فرق، فما دام أنه قد ثبت الإلزام به، فسمه فرضاً أو سمه واجباً.

وقوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: صادرة منه لا من غيره، فلم يقم بفرضها ملك مقرب ولا نبي مرسل، بل الله وحده هو الذي تولى فرضها.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: كان عليماً بمن يستحق، وبمقدار ما يستحق، وحكيماً في وضع الحق في أهله، كماً وكيفاً، فهو عزّ وجل له العلم التام، وله الحكمة

التامة، وبالعلم والحكمة تتم الأمور؛ لأن تخلف الأمور سببه أحد أمرين: إما الجهل، وإما السفه، فإذا وجد العلم ارتفع الجهل، وإذا وجدت الحكمة ارتفع السفه، فلما اجتمع في حقه سبحانه العلم والحكمة، انتفى أيّ اعتراض يمكن أن يعترض به على الحكم، ولهذا نجد الجاهل يتخبط في الأحكام؛ لأنه جاهل، ولو كان عنده حسن قصد وحسن إرادة، لكنه جاهل، وتجد العالم السفيه الذي ليس عنده حكمة ترشده إلى ما فيه الخير يتخبط ويتعسف، أما من لديه علم وحكمة فإنه كامل الحُكم، وأحكامه تامة؛ والله سبحانه هو العليم الحكيم.

والعليم والحكيم من أسماء الله عزّ وجل، والعلم إدراك المعلوم على ما هو عليه، فخرج بقولنا: «إدراك المعلوم» من لم يدرك، فهذا جاهل جهلاً بسيطاً، وخرج بقولنا: «على ما هو عليه» من أدرك الشيء على غير ما هو عليه، وهذا جاهل لكن جهله مركب.

والجهل البسيط أهون من الجهل المركب، ونضرب لذلك ثلاثة أمثلة: فلو سأل سائل عن غزوة بدر، فقيل له: وقعت في رمضان في السنة الثانية، فهذا المجيب عالم، ولو أجيب بأنها في السنة الثالثة، فهذا جاهل جهلاً مركباً، ولو أجيب بـ«لا أدري» فهذا جاهل جهلاً بسيطاً، وهو خير من الجهل المركب. ويقال: إن رجلاً يسمى توما يدعي الحكمة، فقال فيه القائل:

قال حمار الحكيم توما ... لو أنصف الدهر كنت أركب

لأنني جاهل بسيط ... وصاحبي جاهل مركب

فالحمار جاهل لكن جهله بسيط، وتوما صاحبه جاهل مركب، وعلى هذا يقول الشاعر الآخر:

ومن رام العلوم بغير شيخ يضل عن الصراط المستقيم
وتلتبس العلوم عليه حتى يكون أضل من توما الحكيم
تصدق بالبنات على رجال يريد بذاك جنات النعيم

أي: أن توما تصدق على الناس بالنساء بدون عقد نكاح؛ ويظن أن ذلك تقرب إلى الله وصدقة، فهذا هو الجهل المركب.

و«الحكيم» مشتق من الحُكم والحِكمة، فهو عزّ وجل حاكم، وهو محكم، فعليه تكون «حكيم» بمعنى «فاعل» إذا كانت من الحكم، وبمعنى «محكم» إذا كانت من الحكمة، و«حكيم» يأتي بمعنى محكم، ومنه قول الشاعر:

أمن ريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

فقوله: «السميع» أي: المسمع.

وحكم الله ينقسم إلى قسمين: حكم كوني، وحكم شرعي.

فقول أخي يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف: ٨٠] هذا حكم كوني، ولهذا لم يقل: «علي» بل قال: «لي»؛ أي: يُقدر لي ذلك، وقوله تعالى في سورة الممتحنة عندما ذكر أحكام النساء: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠] هذا حكم شرعي.

والفرق بينهما يقارب الفرق بين الإرادتين الكونية والشرعية: فما تعلق بما يحبه فأمر به، أو يكرهه فنهى عنه، فهذا شرعي، وما تعلق بتقديره، سواء أحبه أم لم يحبه، فهو كوني، والحكم الكوني لا بد من وقوعه، والحكم الشرعي قد يُمتثل وقد لا يمتثل.

أما على الوجه الثاني في «الحكيم» وهو المحكم، فنقول:

الحكمة وضع الشيء في موضعه، وتتعلق بالحكم الكوني والحكم الشرعي، ثم هي إما حكمة باعتبار الصورة المعينة، وإما حكمة باعتبار الغاية، فإذا ضربت اثنين في اثنين صارت أربعة، فالحكمة تتعلق بالحكم الكوني على صورته المعينة وعلى غايته الحميدة، فمثلاً: الحكم الكوني إذا حكم الله عزّ وجل على أناس بالفقر والمرض والزلازل وما أشبه ذلك، فهذا حكم لا شك أنه متضمن لحكمة، كونه وقع على هذا الوجه حكمة، والغاية منه حميدة، وهذه حكمة ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

وقد خلق الإنسان على هذه الصفة لحكمة، خلق قائماً منتصباً وغيره على العكس؛ لأن الإنسان له وظائف من قيام وركوع وسجود لا تتم إلا على خلقه على هذا الوجه، فلذلك خلقه الله تعالى قائماً منتصباً دون غيره من الحيوانات، فكونه على هذا الوجه حكمة، وكون الغاية من ذلك أداء الوظائف التي كلفه الله بها هذه حكمة أخرى، وهكذا في الشمس والقمر والجبال والأنهار وما أشبه ذلك.

وفي الشرع أيضاً حكمة على الصورة المعينة وحكمة في الغاية، فكون الشرع جاء على هذا الوجه: الصلوات الخمس، وأوقاتها متفرقة، وعددها كذا وكذا، هذا لا شك أنه مطابق للحكمة؛ ولهذا فإن الصلوات كلها مقرونة بتغير الشمس في الأفق، فالفجر عند إقبالها، والمغرب والعشاء عند إدبارها، والظهر والعصر عند توسطها وميلها، فلا بد أن يكون هناك سبب، فهذه حكمة، والغاية من الصلاة حكمة أيضاً.

إذاً: فالحكمة تتعلق بالحكم الكوني والشرعي على الصورة التي هو عليها، وعلى الغاية المقصودة منه، فتكون أربعاً: حكمة في الحكم الكوني باعتبار الصورة التي هو عليها، وحكمة في الحكم الكوني باعتبار غايته، وحكمة في الحكم الشرعي باعتبار الصورة التي هو عليها، وحكمة في الحكم الشرعي باعتبار الغاية المقصودة منه، وكل هذه المعاني الجليلة العظيمة يتضمنها قوله: «حكيماً»، فأسماء الله في الحقيقة مملوءة من المعاني، وهي حسنى كما وصفها الله عزّ وجل.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الله أرحم بالإنسان من والديه، لقوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾، فالذي يوصيك بالشيء هو أرحم به منك، وأشد عناية به منك، ولهذا إذا وصى الإنسان أحداً على أولاده فهو أرحم بأولاده من هذا الوصي.

٢ ـ الحكمة في توزيع الميراث، فإنه يشمل جميع الأولاد، ولا يقتصر على الصغار فقط، أو على ذوي الحاجة، أو على من كان لا يكتب، وما أشبه ذلك، وهذا من الحكمة، من أجل أن لا يحصل ما يسمى في العرف الاصطلاحي «بتبديد الثروة» أي: توزيع الثروة، حتى لا تنحسر، فإن هذا المال الذي هو ملايين كان يملكه واحد، والآن يملكه عدد كثير، ثم هذا العدد إذا ماتوا سينتقل إلى عدد آخرين، وهذا لا شك أنه من الحكمة.

٣ ـ وهناك حكمة أخرى في توزيع الميراث، حيث جعل للذكر مثل حظ الأنثيين؛ وفي ذلك حكم:

منها: اعتبار ما يكون على الذكر من مسؤوليات مالية أكثر

من الأنثى، فإن عليه الإنفاق، وعليه المهر، وعليه الجهاد، وعليه حقوق مالية أكثر، فَرُوعِي ذلك في قسمة المواريث، وجعل للذكر مثل حظ الأنثيين.

ومنها: بيان شرف الرجل على المرأة، وأنه أحق بالتكريم منها، خلافاً للمتفرنجين الآن الذين يقدمون الإناث على الذكور، وخلافاً لأهل الجاهلية الذين لا يورثون الإناث شيئاً، يقولون: لا نورث إلا من يحمي الذمار، ويركب الخيل، ويذود عن الحمى، أما امرأة قابعة في البيت فليس لها ميراث، لكن الإسلام أعطاها الميراث، إلا أنها ليست مثل الذكر.

٤ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يختار من الألفاظ الأحسن والأمثل، وإن كان المؤدى واحداً، فإن الله قال: ﴿مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ ولم يقل: يوصيكم الله في أولادكم للأنثى نصف ما للذكر، فحسن التعبير له أثر.

ومعلومة قصة الملك الذي رأى في المنام أن أسنانه قد سقطت، فدعى بعابر يعبر الرؤيا، فقال: أيها العابر عبر لي هذه الرؤيا، فقال: أيها الملك! تموت حاشيتك وأهلك، فارتاع الملك، فأمر به فضرب وجلد؛ لأنه روع الملك، ثم قال: ائتوا بعابر آخر، فأتوا بعابر آخر فسأله، فقال: يكون الملك أطول حاشيته عمراً، ففرح الملك، وأمر له بجائزة، مع أن المعنى واحد؛ لأنهم إذا ماتوا قبله يكون هو الآخر، لكن هذا فيه أن حسن التعبير له أثر، فينبغي للإنسان إذا أراد أن يعبر أن يختار أجزل العبارات وأسهلها وأحبها إلى النفوس.

٥ ـ أن ميراث النساء الخلص البنات: للثنتين فأكثر الثلثان، وللواحدة النصف.

٦ ـ أن الإرث شامل لجميع التركة من عقار، ومنقول، وحيوان، ومنافع، وحقوق، ويؤخذ هذا من قوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾، فكل ما ترك فهو داخل في الإرث، ولهذا يجب التنبه لمن كان له ورثة في غير البيت الذي هو فيه، فإن من الناس من إذا مات ميتهم وورثه آخرون خارج البيت، يتمتع بما في البيت من طعام وغيره، ويسكن أيضاً، وهذا لا يجوز إلا بعد إذن بقية الورثة، وإلا فإنه يُخصم من ميراثه، وكذلك تُضرب أجرة على هؤلاء الذين في البيت من حين موت الرجل.

٧ ـ أنه لا يزيد فرض الثلثين بزيادة الإناث، ويؤخذ من قوله: ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾.

٨ ـ الحكمة في تقديم ميراث الأولاد على ميراث الأبوين؛ لأن الأولاد بضع من أبيهم أو أمهم، فلذلك قدم ذكرهم على الأبوين.

٩ ـ أن الوالدين إذا ورثا ولدهما واختصا بالإرث، كان للأم الثلث والباقي للأب، لقوله: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾، وعلى هذا فيكون الأب في هذه الحال وارثاً بالتعصيب؛ لأن نصيبه لم يقدر.

١٠ ـ أنه إذا وجد للميت فرع وارث فإن للأبوين السدس، لا يزيد إلا مع الإناث، فإن بقي شيء أخذه الأب تعصيباً.

١١ ـ أن للأم السدس مع جمع من الإخوة، لقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾، وظاهر الآية: سواء كانوا وارثين أم

غير وارثين، بل إن ظاهرها أنهم إذا كانوا غير وارثين فليس للأم إلا السدس؛ لأن الفاء مفرَّعة لما بعدها على ما قبلها.

فإن قال قائل: كيف تجعلون للأم السدس مع وجود إخوة محجوبين بالأب؟ ألستم تقولون: لو وجدت أم وإخوة أرقاء؛ فإن الإخوة لا يحجبون الأم إلى السدس، أو وجدت أم وإخوة كفرة؛ فإنهم لا يحجبون الأم إلى السدس، يعني: لو هلك هالك عن أمه وإخوته الذين لا يصلُّون، فإن لأمه الثلث، ولا يحجبها الإخوة الذين لا يصلُّون إلى السدس؛ لأنهم كفار لا يرثون؟

فالجواب: أن هؤلاء محجوبون بوصف، فهم ليسوا من أهل الإرث أصلاً، وأما الإخوة الذين حجبوا بالأب فهم من أهل الإرث، لكن وجد مانع، وفرق بين وجود المانع وبين فوات الشرط، فالإخوة مع اختلاف الدين أو كونهم أرقاء، ليسوا أهلاً للميراث أصلاً؛ لأن من شرط استحقاقهم الإرث أن يكونوا موافقين للإنسان الميت في دينه، وأن يكونوا أحراراً، لكن هؤلاء الإخوة مع الأب هم مستحقون للإرث، فهم أحرار، موافقون في الدين، لكن وجد مانع وهو الأب، فهذا هو الفرق بين كون المحجوب بالوصف وجوده كعدمه، والمحجوب بالشخص وجوده معتبر.

١٢ ـ أن الميراث يأتي في المرتبة الثالثة مما تركه الميت، لقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾، ولكن قد دلت السنة على أن تجهيز الميت مقدم على كل ذلك، وعلى هذا يكون الميراث في المرتبة الرابعة، ودليل السنّة: أن رجلاً وقصته راحلته وهو واقف بعرفة، فسئل النبي ﷺ عنه فقال: «**اغسلوه بماء**

وسدر، وكفنوه في ثوبيه»[١]، ولم يذكر هل عليه دين، أو وصية، فدل هذا على أن مؤن التجهيز مقدمة على الوصية والدين؛ ولأن التجهيز يتعلق ببدن الميت، فكان مقدماً على الوصية والدين؛ كالمحجور عليه عند الإفلاس، فالمحجور عليه عند الإفلاس إذا أفلس وحجرنا عليه، ومنعناه من التصرف في ماله، فإننا نبدأ بما تتعلق به حاجته، فإنه يبقى له.

١٣ ـ وجوب تنفيذ الوصية؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ﴾، فقدمها على ما يستحق من المال؛ لأن تنفيذها واجب.

١٤ ـ أن الرق مانع من الإرث، ويؤخذ من قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾.. إلى قوله: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾، ووجه ذلك أن اللام تفيد الملك، والرقيق لا يملك، وعلى هذا فلا حق للرقيق في الميراث؛ لأنه لا يملك.

١٥ ـ الإشارة إلى اجتهاد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الاجتهاد الصائب في العمريتين، حيث جعل للأم ثلث الباقي بعد فرض الزوجين، وذلك أن الزوج أو الزوجة إذا أخذ حقه انفرد الأب والأم فيما بقي، وقد جعل الله للأب والأم إذا انفردا؛ للأم الثلث، والباقي للأب، فيكون ما بقي بعد فرض الزوجين للأم ثلثه، وللأب الباقي.

١٦ ـ أن الواحد من الإخوة لا يحجب الأم إلى السدس، لقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾، بخلاف الأبناء أو البنات، فإن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الكفن في ثوبين، حديث رقم (١٢٠٦)؛ ومسلم، كتاب الحج، باب ما يفعل بالمحرم إذا مات، حديث رقم (١٢٠٦) عن ابن عباس.

الواحد يحجبها إلى السدس، لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، و﴿وَلَدٌ﴾ نكرة في سياق الشرط، فيعم الواحد والمتعدد والذكر والأنثى.

١٧ ـ أن الميراث لا يكون إلا بعد الدين والوصية، لقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾، ولكن الدّين قد يستغرق جميع التركة، فلا يبقى للورثة شيء، وأما الوصية فلا تستغرق جميع التركة؛ لأن أقصى ما يمكن الثلث، وما زاد على الثلث فهو إلى الورثة، وعلى هذا فيفرق بين الدّين والوصية، وهو: أن الدّين قد يستغرق المال فلا يبقى للورثة شيء، والوصية لا يمكن أن تستغرق المال؛ لأن ما زاد على الثلث موقوف على إجازة الورثة.

وعلى هذا فلو مات شخص وخلف مائة ألف، وعليه دين يبلغ مائة ألف، فليس للورثة شيء، ولو مات ميت وقد أوصى بمائة ألف، ولما مات وجدنا ميراثه مائة ألف، فنرد المائة ألف إلى الثلث ما لم تُجِز الورثة.

١٨ ـ أن المفضول قد يقدم على الفاضل لاعتبارات أخرى، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١٢]، فالدّين أوجب من الوصية وأقدم، لكن قدمت الوصية لاعتبارات أخرى؛ كتقديم هارون على موسى في بعض المواضع، فقد قدم هارون في سورة طه، قال تعالى: ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]؛ لاعتبارات، وهي: مراعاة الفواصل، وإلا فلا شك أن موسى أفضل من هارون، ومقدم عليه في جميع مواضع القرآن.

١٩ ـ قصور علم الإنسان، فأقرب الناس إلى الإنسان آباؤه

وأبناؤه، فإذا كان لا يدري أيهم أقرب نفعاً، فما بالك بالبعيد! وهذا لا شك يعود إلى قصور علم الإنسان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]، فالروح التي هي بين جنبيك لا تعرفها؛ لأنك لم تؤت من العلم إلا القليل.

٢٠ ـ وجوب إعطاء الورثة نصيبهم من الإرث؛ وأنه فرض، ويؤخذ من قوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾، وعلى هذا فتعلم الحساب الفرضي ـ إن كان يتوقف عليه إعطاء كل ذي نصيب نصيبه ـ تعلمه فرض، وإن كان لا يتوقف عليه فليس بفرض، وتعلم الحساب في الفرائض وسيلة، فإذا كان وسيلة فننظر: إن احتجنا إليه أخذنا به، وإن لم نحتج فلا، ولكن في الغالب أننا نحتاج إليه، فلو جاء إنسان وقال مثلاً: اقسم بين زوج، وأم، وأخ من أم. فنقول: للزوج النصف، وللأم الثلث، وللأخ لأم السدس، ولا يلزم أن نقول مثلاً: المسألة من ستة: للزوج النصف ثلاثة، وللأم الثلث اثنان، وللأخ من الأم السدس واحد. فإن هذا ليس بلازم، لكن أحياناً يتوقف القسم وإعطاء كل ذي نصيب نصيبه على معرفة الحساب، فإذا توقف على معرفة الحساب صار معرفة الحساب فريضة كالأصل.

٢١ ـ أن أمر الفرائض إلى الله، لقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾، ونقول: ذلك وإن كان أمراً معلوماً، لكن من أجل الأدب في الفتيا، فقد كان الإمام أحمد رحمه الله مع علمه الغزير لا يطلق على الشيء أنه فريضة، أو أنه حرام، إلا إذا ورد به النص، وإلا فإنه يقول: «لا يفعل»، «أكره هذا»، «لا يعجبني»، وما أشبه

ذلك، وهذا من باب الورع، أما نحن فتجد الواحد منا يقول: هذا يحرمه الشرع، أو هذا حرام في الشرع، سبحان الله! وربما أن هذا الرجل لو بُحث معه في أدنى مسألة لما عرفها، ويقول: هذا حرام في الشرع، وهو من المسائل الاجتهادية، وقد يكون الصواب أنه ليس بحرام، ثم يضاف إلى الشرع كله من شخص ليس أهلاً للاجتهاد.

لكن لو سأل سائل: ما تقول في الميتة؟ فقل: حرام؛ لأن هذا ورد في القرآن.

إذاً: يجب على الإنسان أن يتحرز، وكثيراً ما يلجئنا بعض الناس إلى ذلك، كأن تكون المسألة عندنا ليست واضحة في التحريم، ثم نقول: لا تفعل، فيقول: أهو حرام؟ ويصر على ذلك، ولكننا نصر على أن نقول: لا تفعل، ويكفينا هذا حجة عند الله عزّ وجل؛ لأن بعض الناس قد يلجئك، ومعنى كلامه: أنه إن كان حراماً فما أنا بفاعله، وإن كان غير حرام فسأفعله، وإن كان فيه شبهة... هذا هو معنى كلامه، وهذا إلجاء واضطرار، فلا يلزمني أن أقول: هو حرام، إذا لم يتبين لي الأمر فيه.

بل إن بعض الناس عنده جدل، فأقول له: نهى عنه الرسول ﷺ، فيقول: لكن هل النهي للتحريم؟ سبحان الله! إذا نهى عنه الرسول فاتركه، وانتهِ عنه، فإن كان للتحريم فقد سلمت من إثمه، وإن كان للكراهة فقد رجعت بفضله؛ لأن ترك المكروه يعتبر من الزهد، إذ أن الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما يضر في الآخرة، فيكون الزهد أعلى؛ لأن بين ما ينفع

وما يضر مرتبة، وهي ما لا نفع فيه ولا ضرر، فالزاهد يتركه، يترك من أمر الدنيا ما ليس فيه نفع ولا ضرر، والورع أن لا يترك إلا الحرام، إذاً: طبقة التاركين للمكروه أعلى من طبقة التاركين للحرام؛ لأن ترك الحرام من باب الورع، وترك المكروه من باب الزهد.

٢٢ ـ إثبات اسمين من أسماء الله وهما: العليم والحكيم، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

٢٣ ـ من الفوائد اللغوية: أن: ﴿كَانَ﴾ قد تسلب دلالتها على الزمان؛ لأنها لو دلت على الزمان في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، لكان الرب عزّ وجل الآن ليس عليماً ولا حكيماً، لكنها أحياناً تسلب دلالتها على الزمان، ويكون مدلولها مجرد الحدث، أو مجرد الوصف إذا كان صفة، ولهذا قال بعض السلف ولعله ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الله كان غفوراً رحيماً ولم يزل غفوراً رحيماً»، خوفاً من هذا الوهم، وهو أن ﴿كَانَ﴾ للماضي فقط، ولهذا لو سئلت عن رجل: هل كان غنياً؟ فتقول: كان غنياً، والمعنى: وأما الآن ففقير، وإذا سئلت عن طالب: هل هو مجتهد؟ فتقول: كان مجتهداً، والآن ليس مجتهداً.

إذاً: ﴿كَانَ﴾ في الأصل تدل على زمن مضى، لكنها أحياناً تسلب دلالتها على الزمان، فتكون لمجرد الوصف بخبرها.

٢٤ ـ أنها تستلزم التسليم التام لقضاء الله الكوني والشرعي، ووجهه: إذا آمنت بأن الله عليم حكيم فسأطمئن، وأعلم أنه ما قضى قضاءً شرعياً إلا والحكمة تقتضيه، ولا قضى قضاءً كونياً إلا والحكمة تقتضيه، فيسلم الإنسان لربه عزّ وجل تسليماً تاماً،

وينشرح صدره بقضائه وقدره وشرعه وحكمه، ولا يبقى عنده أي تردد، ولهذا انظر إلى الصحابة رضي الله عنهم كيف كان قبولهم للشرع.

فحينما قال النبي ﷺ للنساء: «**يا معشر النساء! تصدقن؛ فإني رأيتكن أكثر أهل النار**»[(١)]، بدأت الواحدة تأخذ خرصها أو خاتمها أو سوارها وتقول: يا بلال! أعطنا ثوبك، فجعلن يلقين ذلك في ثوب بلال، حليها الذي تتجمل به لزوجها تخلعه؛ لأن النبي ﷺ أمرهن أن يتصدقن، وهذا امتثال غريب!!

والرجل الذي نزع النبي ﷺ خاتمه من إصبعه ـ والذهب حرام على الرجال ـ وطرحه ورمى به، فقيل للرجل: خذه، فقال: لا آخذ خاتماً طرحه النبي ﷺ[(٢)].. إنه امتثال عجيب!

ولما قال النبي ﷺ للصحابة بعد رجوعهم من الأحزاب: «**لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة**»[(٣)]، فلم يتأخروا أبداً، بل شدوا رحالهم وذهبوا، ولم يتعللوا بأي شيء، وبعضهم أخذ بظاهر اللفظ فقال: لن أصلي العصر إلا في بني قريظة ولو في نصف الليل، وساروا حتى وصلوا إلى بني قريظة وصلوا، والآخرون قالوا: إنما قصد النبي ﷺ أن نبادر، ولم يقصد أن نؤخر الصلاة، وقالوا: عندنا نصان: أحدهما متشابه، والثاني

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، حديث رقم (٢٩٨)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، حديث رقم (٨٠).

(٢) رواه مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم خاتم الذهب على الرجال (٢٠٩٠).

(٣) رواه البخاري في أبواب صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب راكباً وإيماءً، حديث رقم (٩٠٤)؛ ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب المبادرة بالغزو وتقديم أهم الأمرين المتعارضين، حديث رقم (١٧٧٠).

محكم، فالمتشابه: «**لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة**»، فهذا يحتمل تأخير الصلاة، ويحتمل تعجيل السير والمشي، والمحكم هو وجوب الصلاة في وقتها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣]، فيجب أن نرد المتشابه إلى المحكم، ونصلي الصلاة في وقتها، وإن لم نصل إلى بني قريظة.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ١٢﴾ [النساء: ١٢].

﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ لا يمكن أن يصدق على المرأة أنها زوج إلا إذا تمت شروط النكاح، وعلى هذا فلا بد من عقد الزوجية الصحيح، فإن كان العقد غير صحيح فلا إرث، والعقد غير الصحيح يشمل الفاسد والباطل، فالأنكحة عند العلماء ثلاثة أقسام: صحيح، وباطل، وفاسد، فما أجمع العلماء على صحته فهو صحيح، وما أجمعوا على بطلانه فهو باطل، وما اختلفوا فيه فهو فاسد.

فالصحيح: هو ما اجتمعت شروطه وانتفت موانعه، وإن شئت فقل: ما أجمع العلماء على صحته.

والباطل: هو ما أجمعوا على فساده. والفاسد: هو ما اختلفوا في صحته.

مثال الأول: أن يتزوج الرجل المرأة بعقد صحيح خال من الموانع.

ومثال الثاني: الباطل: أن يعقد على امرأة فيتبين أنها أخته من الرضاع، فهنا العقد باطل؛ لإجماع العلماء على فساده، أو أن يتزوج امرأة في عدتها، فإن العلماء مجمعون على فساد هذا العقد.

ومثال الثالث: أن يتزوج امرأة بلا شهود، أو بشهود من الأصول والفروع، أو بلا ولي، أو يتزوج امرأة رضعت من أمه ثلاث رضعات، فكل هذه الأنواع مختلف فيها.

فمثلاً: من رضعت من أمه ثلاث رضعات، فهي عند كثير من العلماء أو أكثر العلماء تحل له؛ لأن الرضاع المحرم خمس رضعات، وعند بعض العلماء أن المحرم ثلاث؛ لقول النبي ﷺ: «**لا تحرم المصة ولا المصتان**»[1]، فمفهومه أن ما زاد عليهما محرم، فعلى هذا الرأي يكون هذا النكاح باطلاً؛ أي: فاسداً.

وإذا تزوج من امرأة رضعت من أمه رضعة واحدة، فالنكاح أيضاً فاسد، لكن فساده أقرب من فساد من يقول بالثلاث؛ لأن القول بأن الرضاع مطلقاً محرم هو قول أهل الظاهر، وهو قول ضعيف.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الرضاع، باب في المصة والمصتان، حديث رقم (١٤٥٠).

فالنكاح الفاسد لا توارث فيه بين الزوجين، والنكاح الباطل كذلك لا توارث فيه، والنكاح الصحيح ـ وهو الذي أجمع العلماء على صحته؛ لتمام شروطه وانتفاء موانعه ـ هو الذي يحصل به الإرث، وهو مستفاد من قوله: ﴿مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾.

وقوله: ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ هذا شرط عدمي، ووجه كونه شرطاً عدمياً: دخول النفي على مضمونه، والنفي عدم، فيشترط لإرث الزوج نصف ما تركت زوجته شرط عدمي، وهو أن لا يكون لها ولد.

وقوله: ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ يشمل الواحد والمتعدد، والذكر والأنثى؛ لأن كلمة ﴿وَلَدٌ﴾ بمعنى مولود، وهو صالح للذكر والأنثى، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، فدل هذا على أن الأولاد والولد يشمل الذكور والإناث.

وقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ هذا تصريح بالمفهوم من قوله: ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾، فمفهومه: إن كان لهن ولد فالحكم يختلف، بمعنى: أنه لا يكون لهم النصف وإنما يكون لهم الربع، كما قال تعالى: ﴿فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾.

فإن قال قائل: ما الحكمة من أنه مع الأولاد يكون للزوج الربع، ومع عدمهم يكون له النصف؟ فنقول: لأنه إذا كان لها أولاد، فإن أولادها محتاجون إلى الإنفاق عليهم، فلذلك توفر لهم من المال ثلاثة أرباع، بخلاف ما إذا لم يكن لها ولد.

وقوله: ﴿وَلَدٌ﴾ يشمل الذكر والأنثى، والواحد والمتعدد،

ومن كانوا من زوجها، ومن كانوا من غير زوجها، كما لو ماتت ولها أولاد من زوج سابق، فليس لزوجها إلا الربع.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۚ﴾، ويشترط للوصية التي تقدم على الإرث أن تكون وصية مشروعة، وذلك بأن تكون من الثلث فأقل، ولغير وارث، وأن تكون وصية تامة الشروط، فإن اختل شرط منها فبطلت فلا عبرة بها، فلو أوصت المرأة بشيء من مالها يصرف على أهل العزف والغناء، فالوصية باطلة لا عبرة بها، ولذلك فإن هناك قاعدة مهمة: «أن الألفاظ الشرعية تحمل على المعنى المعتبر شرعاً»، فعليه نقول: الوصية هي المعتبرة شرعاً، بحيث تكون من الثلث فأقل، ولغير وارث، وبالشروط المعروفة عند أهل العلم.

وقوله: ﴿أَوۡ دَيۡنٍۚ﴾ ﴿أَوۡ﴾ هنا مانعة خلو، وليست مانعة انفراد، والفرق بينهما: أن ﴿أَوۡ﴾ التي هي مانعة الخلو تعني أنه يشترط ألا يخلو واحد من هذين الأمرين، وإن اجتمعا فهو أولى، والثانية التي تمنع الاشتراك هي التي يكون الحكم فيها لأحد الأمرين، فإذا قلتُ: أكرم زيداً أو عمراً، وأنا أريد أن تكرم أحدهما، فهذه مانعة اشتراك، وإذا قلت: أكرم زيداً أو عمراً، بمعنى أني جعلت لك الخيار، فهذه يسمونها: مانعة خلو، بمعنى: أنه لا يخلو الحال من إكرام أحد الرجلين، وإكرام أحدهما من باب أولى، فـ﴿أَوۡ﴾ هنا مانعة خلو، بمعنى: أنه قد يجتمع الدين والوصية، وقد ينفرد أحدهما، فالإرث لا يكون إلا بعد الوصية والدين، ولكن الوصية ـ كما سبق ـ تكون من الثلث فأقل، والدين قد يستغرق جميع المال، فإن استغرق الدين جميع

المال فلا حق للورثة، فلو كان عليه ألف درهم وخلف ألف درهم، فهنا لا شيء للورثة؛ لأن الدين قد استغرق جميع التركة، ولو أوصت المرأة بألف وتركت ألفاً فقط، فإنها لا تنفذ الوصية؛ لأنها لا تملك الوصية إلا بالثلث فأقل.

وفي هذه الآية قدم الله تعالى الوصية على الدين، وقد سبق في الآية الأولى كذلك، وقد بيَّن العلماء رحمهم الله الحكمة من هذا بأن الوصية تبرع، والدين واجب، فقدمت الوصية ـ لجبر نقصها، بكونها تبرعاً ـ على الواجب، **هذا وجه**.

والوجه الثاني: أن الدين له من يطالب به، بخلاف الوصية فإنها تبرع، ولو شاء الورثة أن يجحدوها لجحدوها، فقدمت اهتماماً بها واعتناءً بها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ يقال في هذه الجملة ما قيل في التي قبلها، والحكمة من أن الله فرق بين الرجال والنساء، فجعل للأنثى نصف ما للرجل ـ لأن هذه هي القاعدة في الفرائض ـ : أن الرجل والأنثى إذا كانا من جنس واحد فهما على التفريق، فيكون للرجل ضعف ما للأنثى، إلا من ورث بالرحم المجردة، فإنه يستوي فيه الذكر والأنثى، مثل أولاد الأم، فإن ذكورهم وإناثهم سواء، ومثل ذوي الأرحام على المشهور من المذهب، فإن ذكرهم وأنثاهم سواء، فابن الأخت وبنت الأخت المال بينهما بالسوية، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ في الفوائد ذكر الخلاف فيه، وأن الصحيح أن ميراث ذوي الأرحام مبني على إرث من يدلون

به، فإن أدلوا بمن تختلف فيه الذكورة، والأنوثة فهم كذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ يحتمل أن تكون ﴿كَانَ﴾ هنا ناقصة، وتكون جملة ﴿يُورَثُ﴾ خبر كان، ويحتمل أن تكون تامة، و﴿رَجُلٌ﴾ فاعل، ويورث صفة لرجل، وهذا أقرب؛ لأن التقدير: وإن وجد رجل يورث كلالة، وقوله: ﴿كَلَٰلَةً﴾ مفعول مطلق، ودليل أنها مفعول مطلق: أنه يصح أن يقدر قبلها المصدر، والتقدير: يورث إرث كلالة، فعليه تكون مفعولاً مطلقاً.

وإرث الكلالة: أن يرث مَنْ دون الأصول والفروع؛ أي: أن يكون الوارث من غير الأصول والفروع؛ لأنه كالإكليل الذي يحيط بالشيء، وهم الحواشي، فالكلالة هو من كان ورثته حواشي، وهو من لا يرثه فرع ولا أصل، ولهذا جاء عن السلف أن الكلالة من ليس له ولد ولا والد، فالمورث كلالة هو الذي لا يرثه إلا الحواشي، مثل: رجل مات عن إخوة، أو عن أعمام، أو عن بني إخوة، أو عن بني أعمام فهو كلالة، فكل من يورث بلا أصل ولا فرع فهو كلالة.

وقوله: ﴿أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ معطوف على رجل، ولكن كلمة ﴿ٱمْرَأَةٌ﴾ معطوفة على رجل بصفة، والمعنى: أو امرأة تورث كلالة، وقد اتفق النحويون وكذلك الأصوليون على أن الوصف إذا تعقب جملاً عاد على الكل؛ كقولنا: أكرم زيداً وعمرواً وبكراً وخالداً إن اجتهدوا في الدراسة، فإن هذا الوصف يعود على الكل، وأما إذا انفرد وتقدم مثل قولنا: أكرم زيداً وعمرواً وخالداً إن اجتهدوا وبكراً، فقد اختلفوا: هل يكون إكرام بكر مطلقاً، أو

يكون موصوفاً بما سبق؟ على قولين في هذه المسألة: والصحيح أنه يرجع في هذا إلى القرائن، والقرائن هنا قد دلت على أن «امرأة» معطوفة على رجل باعتباره موصوفاً بكونه يورث كلالة.

وقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ﴾ الضمير في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ﴾ يعود على الرجل الذي يورث كلالة وكذلك المرأة، ولم يقل: ولهما أخ أو أخت، اعتباراً بالوصف الأول الذي هو الرجل.

وقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ﴾ مطلق، فيشمل الشقيق، أو لأب، أو لأم، ولكن العلماء أجمعوا على أن المراد الأخ من الأم أو الأخت من الأم، وقد وردت بها قراءة عن بعض السلف، «وله أخ من أم أو أخت من أم» وهذا ظاهر جداً، حتى وإن لم ترد هذه القراءة؛ وذلك لأن الإخوة الأشقاء والإخوة لأب قد ذكر الله تعالى حكمهم في آخر السورة في قوله: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ﴾ [النساء: ١٧٦] الآية.

وقوله: ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾ أي: إذا كانوا اثنين فأكثر فهم شركاء في الثلث، فإن كانوا ثلاثة أو أربعة أو أكثر فهم شركاء في الثلث وهنا لا يفضل الأخ على الأخت؛ لأن الله قال: ﴿فَهُمۡ شُرَكَآءُ﴾ ومقتضى الشركة عند الإطلاق التسوية.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرٍّۚ﴾ نقول فيها ما سبق، من أن هذه الوصية وصية شرعية في حدود ما أذن به الشرع.

وقوله: ﴿أَوۡ دَيۡنٍ﴾ أي: أو من بعد دين، و﴿أَوۡ﴾ هنا مانعة خلو كما سبق، لكنه قال هنا: ﴿غَيۡرَ مُضَآرٍّۚ﴾ أي: بشرط ألا

يكون المقصود بالوصية المضارة، فإن ثبت أن المقصود بها المضارة؛ فهي لاغية، كما لو علمنا أن هذا الميت الذي ليس له إلا إخوة من أم أنه أوصى بالثلث من أجل أن يضيق على الإخوة، فهذه وصية ضرار، فلا تنفذ؛ لأن الله اشترط في الوصية النافذة أن تكون غير مضار بها، وكذلك لو فرض أن المريض تدين ديناً يضر بالورثة يستغرق جميع ماله، فإنه في هذه الصورة ينظر فيه إذا كان قد ضار بهم، فإن الضرر ممنوع شرعاً.

وقوله: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (وصيةً) مفعول مطلق، عامله محذوف وجوباً؛ لأن المقصود بها هنا الإلزام، والوصية بمعنى العهد المؤكد.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يصلح عباده، ﴿حَلِيمٌ﴾ بمن عصاه فلا يعاجله بالعقوبة، والفائدة من ختم هذه الآية الطويلة ـ التي اشتملت على إرث الزوجين والإخوة لأم ـ بالعلم والحلم: أنه قد تكون الوصية مضاراً بها، ومع ذلك فلا يعجل الله للإنسان بالعقوبة، ولهذا ختم الله هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين: العليم والحليم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الإرث ملك قهري، لا اختيار للإنسان فيه، لقوله: ﴿وَلَكُمْ﴾، فقد ملكنا الله إياه وأثبته حكماً شرعياً، فلو قال الزوج: أنا لا أريد نصيبي من زوجتي، قلنا له: لا، بل هو داخل في ملكك قهراً لا خيار لك فيه، فإن قال: أريد أن أتفضل به لها في مشروع خيري، أو إن كان لها أولاد أتفضل به على أولادها، قلنا له: هذه ابتداءُ عطية.

وبناءً على ذلك فلو كان عليه دين يحتاج أن يبذل فيه هذا المال الذي ورثه، فإن تبرعه بهذا المال غير نافذ، وهذه الفائدة من قولنا أنه ملك قهري.

ويتفرع على هذا أيضاً لو كان الموروث شقصاً من أرض مشتركة، فليس للشريك أن يشفع، وصورتها: أن يكون للمرأة نصف أرض، ونصف الأرض الثاني لرجل آخر أجنبي، فماتت، فورث ورثتها نصيبها من هذه الأرض، وهو النصف، فليس للشريك أن يشفع؛ لأنه ملك قهري، لكن لو أنها باعت نصيبها في حياتها، فللشريك أن يشفع.

٢ ـ أنه يشترط في الميراث أن يكون الوارث حراً، ويؤخذ هذا من اللام التي للتمليك، والعبد لا يملك، فلو كان زوج الحرة عبداً، فإنها إذا ماتت لا يرث منها شيئاً، لقول النبي ﷺ: **«من باع عبداً وله مال فماله للذي باعه»**[1].

٣ ـ أن الميراث يشمل الأعيان، والديون، والحقوق، فالأعيان؛ كالدراهم والنقود والعقارات، والديون التي في ذمم الناس، والحقوق؛ كحق الشفعة، وحق الانتفاع بالكلب المباح نفعه، وحق الانتفاع بالسرجين النجس، وحق الانتفاع بالدهن النجس ـ إذا قلنا بجواز الانتفاع به ـ وما أشبه ذلك.

٤ ـ ثبوت الإرث بالزوجية؛ لقوله: ﴿أَزْوَٰجُكُمْ﴾، ولا تثبت الزوجية إلا بعقد صحيح.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المساقاة والشرب، باب الرجل يكون له ممر أو شرب في حائط أو في نخل، حديث رقم (٢٢٥٠)؛ ومسلم، كتاب البيوع، باب من باع نخلاً عليها ثمر، حديث رقم (١٥٤٣).

٥ ـ ثبوت الإرث ولو ماتت الزوجة قبل الدخول؛ لأنها تكون زوجة بمجرد العقد، سواء حصل الدخول أم لم يحصل.

٦ ـ أن الزوجة إذا بانت فلا توارث بين الزوجين، ويؤخذ من قوله: ﴿أَزْوَاجُكُمْ﴾؛ لأنها إذا بانت لم تكن زوجة، فلو طلقها وانتهت عدتها ثم ماتت، فلا ميراث له منها؛ لأنها صارت أجنبية منه لا تحل له إلا بعقد جديد، ولو طلقها طلاقاً بائناً وماتت في العدة، فلا ميراث له منها؛ لأنها لما بانت منه لم تكن زوجته، بدليل أنها لا تحل له إلا بعد زوج إن كانت البينونة كبرى.

واستثنى العلماء من ذلك مسألة: وهي ما إذا أبانها في مرض موته المخوف متّهماً بقصد حرمانها، فهنا أربعة شروط: ١ ـ إذا بانت، ٢ ـ في مرض موته، ٣ ـ المخوف، ٤ ـ متهماً بقصد حرمانها. فإذا كان الأمر كذلك فإنها ترثه ولو انتهت العدة، ما لم تتزوج، أو تأت بمنافٍ للزوجية؛ كالردة، فإن طلقها في الصحة طلاقاً بائناً، ثم مات قبل انقضاء العدة، فإنها لا ترث؛ لأنه طلقها في الصحة كما سبق، وإن طلقها في مرض مخوف، ثم عوفي منه، ثم حصل له حادث فمات، فلا ترث؛ لأنه لم يمت بذلك المرض، وإن طلقها في مرض لكنه ليس بمخوف، وبعد ذلك ازداد به المرض حتى مات، فإنها لا ترث، وإن طلقها في مرض موته المخوف بطلبها، فإنها لا ترث؛ لأنه ليس متهماً بقصد حرمانها.

إذاً: ينقطع التوارث بين الزوجين بالبينونة، إلا فيما إذا طلقها في مرض موته المخوف متهماً.

٧ ـ أن للزوج النصف، بشرط عدمي وهو عدم الولد، لقوله: ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾.

٨ ـ أنه لا فرق بين أن يكون الولد واحداً أو متعدداً، ذكراً أم أنثى، ووجه الدلالة في هذه الآية: أن كلمة: ﴿وَلَدٌ﴾ نكرة في سياق النفي، فتكون للعموم.

وولد الولد كالولد، فلو كان لها ابن ابن فليس للزوج النصف؛ لأن أولاد الأبناء كأولاد الصلب.

٩ ـ عناية الله سبحانه بالمواريث، حيث جاءت الآيات على هذا التفصيل، لقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ﴾.

١٠ ـ أن المواريث مبنية على الحكمة، ووجهه: أنه إذا لم يكن للزوجة ولد فللزوج النصف، ومع الولد الربع؛ ليتوفر المال للولد.

١١ ـ أنه لا ميراث إلا بعد الدين والوصية، لقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۚ﴾ وينبني على هذه الفائدة أمثلة: لو مات الميت وخلف ألفاً، وعليه ألف ديناً، فليس للورثة شيء؛ لأن الدين مقدم على الميراث، لكن كيف تكون الوصية مقدمة على الميراث، مع أن الوصية لا تجوز بأكثر من الثلث؟ يتضح هذا بالمثال: فلو هلك هالك عن زوج وأخت شقيقة، فإن للزوج النصف؛ لعدم الفرع الوارث، وللشقيقة النصف؛ لتمام شروط إرثها النصف، وإذا قدرنا أن المال ستون ألفاً، كان للزوج ثلاثون ألفاً، وللأخت ثلاثون ألفاً، فإذا كانت المرأة المتوفاة قد أوصت بالثلث اختلف الحال، فللوصية الثلث عشرون ألفاً، وللزوج نصف الباقي عشرون ألفاً، وللأخت الشقيقة كذلك النصف عشرون ألفاً، فالوصية أعطيناها الحق كاملاً، وتجد أن

الميراث بدلاً من أنه كان للزوج النصف لم يكن له الآن إلا الثلث، وكذلك الأخت الشقيقة.

فتبين بذلك أن الوصية مقدمة على الميراث، ولو قدرنا أن الوصية كالميراث لاختلف الحكم، ولقلنا: عندنا ثلث زائداً على الكُلّ، فتكون المسألة من ستة: للزوج النصف ثلاثة، وللأخت الشقيقة النصف ثلاثة، وللثلث اثنان، فتعول المسألة إلى ثمانية، فيكون نصيب الثلث الآن ربعاً، مع أنا أعطيناه حسب القسمة الأولى ثلثاً كاملاً، كما أن نصيب الزوج ربع وثمن، ونصيب الأخت ربع وثمن.

فالحاصل: أن الوصية مقدمة على الميراث؛ لأن الموصى له يعطى سهمه كاملاً، ثم يقسم الباقي على الورثة على حسب الميراث.

١٢ ـ أن الزوجة حرة في التصرف بمالها، لقوله: ﴿يُوصِينَ بِهَآ﴾، فأضاف الفعل إليها، ولو كانت لا تتصرف إلا بإذن الزوج، فلربما منعها الزوج من الوصية؛ لأن ذلك يضره.

١٣ ـ الحكمة في توزيع الميراث، حيث جعل للأنثى التي من جنس الذكر نصف ما للذكر، وذلك في ذكر ميراث الزوجات.

١٤ ـ بيان العدل في الدين الإسلامي، حيث لم يهضم المرأة حقها من الميراث، خلافاً لما كانوا في الجاهلية يفعلونه، حيث يحرمونها من الميراث، ويظهر العدل أيضاً بكونه عبَّر عن ميراث الزوجة بمثل ما عبر به عن ميراث الزوج.

١٥ ـ أنه إذا كان الحديث عن النساء والرجال، فإن الحكمة أن يقدم الحديث عن الرجال؛ لأنه سبحانه بدأ بميراث الأزواج

قبل ميراث الزوجات، وهذا هو الموافق للفطرة، خلافاً لمن حرف الله فطرته، وغير سليقته، فصار يقدم النساء على الرجال في الذكر، ففي الإذاعات الغربية ومن قلدوها يقولون: أيها السيدات والسادة، وأخس من ذلك من يكتب على الحمام: حمام للسيدات، وإلى جنبه: حمام للرجال، ولا يقول: للسادة، فبدلاً من أن الأنثى كانت تطالب بحقها أصبحنا نحن نطالب بحقنا! حيث يجعل النساء سيدات، والرجال بوصف الرجولة فقط لا بوصف السيادة! وكل هذا مما يدل على ضعف الشخصية، كما قاله الحكيم المؤرخ ابن خلدون في مقدمته التي كلها فلسفة كما يقولون، حتى إن بعض العلماء أنكر أن تكون له؛ لأنها فوق مستواه، وهي عظيمة جداً.

يقول: من عادة الأمم أن الأمة الضعيفة تقلّد الأمة القوية ولو بالباطل. ونحن الآن استضعفنا أنفسنا، وصرنا نقلد من قلب الله فطرتهم وسلبهم الدين في مثل هذه الأمور. نسأل الله أن يحمينا جميعاً.

١٦ ـ أن ميراث الإخوة من الأم الثلث إن كانوا اثنين فأكثر، أو السدس إن كان واحداً.

١٧ ـ أنه يشترط لإرث الإخوة من الأم أن يكون الإرث كلالة؛ أي: ليس هناك فروع ولا أصول ذكور؛ لا والد، ولا ولد، أما الأصول الإناث؛ فإن الإخوة من الأم يرثون معهن.

١٨ ـ التسوية بين الذكور والإناث في إرث الإخوة من الأم، ويؤخذ من قوله: ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾، وأصل الشركة يقتضي التسوية، كما أن البينية بالتسوية، فإذا قلت

لرجلين: هذه مائة درهم بينكما، فلكل واحد خمسون، وكذلك لما قال الله عزّ وجل في إرث الإخوة من الأم: ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾، فلما لم يذكر تفضيل الذكر على الأنثى، دل ذلك على أنهم سواء.

وهل يشاركهم غيرهم في التسوية بين الذكر والأنثى؟

لا يشاركهم غيرهم إلا لعارض، مثل: أن يهلك هالك عن بنتين وأبوين أم وأب، فهنا يستوي الأب والأم؛ لأن البنتين تأخذان الثلثين، وللأم السدس، وللأب السدس، لكن هذه التسوية لأمر عارض؛ لأنه لم يبق شيء بعد الفروض حتى يأخذه الأب.

ويرى بعض العلماء أن ذوي الأرحام لا يفرق بين ذكرهم وأنثاهم، فإذا مات ميت عن ابن أخت شقيقة، وبنت أخت شقيقة، فلهما ميراث أمهما بالسوية.

والصحيح في هذه المسألة: أنهم ـ أي: ذوي الأرحام ـ إن أدلوا بمن يُفضَّل ذكرهم على أنثاهم؛ فُضّل ذكرهم على أنثاهم، وإن أدلوا بمن لا يفضل ذكرهم على أنثاهم؛ لم يفضل ذكرهم على أنثاهم.

مثال ذلك: ابن أخت شقيقة وبنت أخت شقيقة، والقاعدة أن الإخوة الأشقاء يفضل الذكر على الأنثى، فنقول في هذا المثال: للذكر مثل حظ الأنثيين، وفي ابن أخ من أم، وبنت أخ من أم نقول: الميراث بينهما بالسوية؛ لأنهم أدلوا بمن لا يفضل ذكرهم على أنثاهم.

١٩ ـ عناية الله عزّ وجل بالوصية والدين، حيث إنه كلما ذكر ميراثاً قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾، ففي باب

الفروع والأصول في الآية السابقة قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾، وفي ميراث الزوجين قال بعد إرث كل زوج ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۚ﴾.. ﴿مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ وفي الإخوة من الأم هنا قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾.

٢٠ ـ أن الوصية المضار بها لاغية، لقوله: ﴿غَيۡرَ مُضَآرٍّۚ﴾، ووصية المضارة حرام، وفيها إثم كبير، حتى إنه روي عن النبي ﷺ: «**إن الرجل أو المرأة ليعملان في الصالحات أربعين سنة، ثم يجوران في الوصية فيعذبان**»(١)، وهذا دليل على أن الجور في الوصية من كبائر الذنوب.

٢١ ـ وجوب العمل بما فرضه الله تعالى في الميراث، لقوله تعالى: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾، فالله عزّ وجل لا يوصي إلا بما هو حق، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [النساء: ١٣١].

٢٢ ـ أن هذه الوصية مبنية على أمرين: العلم والحلم، لقوله: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

٢٣ ـ إثبات هذين الاسمين لله عزّ وجل، وهما: العليم والحليم، وهما يدلان على العلم والحلم، والقاعدة: «أن كل اسم من أسماء الله فهو متضمن لصفة، وليس كل صفة يشتق منها اسم، ولهذا كانت الصفات أوسع من الأسماء».

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه أبو داود في، كتاب الوصايا، باب ما جاء في كراهية الإضرار في الوصية، برقم (٢٨٦٧).

❑ قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [النساء: ١٣].

يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ﴾ وهذه الجملة مكونة من مبتدأ وخبر، المبتدأ اسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾، والخبر ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ﴾، والمشار إليه ما سبق من المواريث في الآية، ويحتمل أن يكون المشار إليه كل ما سبق من الأحكام قبل هذه الجملة، وذلك أن القرآن ـ وإن كانت آياته مفصلات ـ، لكنه في الحقيقة كلام واحد من حيث المعنى والسياق، ومعنى قولنا: «كلام واحد»: أن بعضه ينبني على بعض، ولهذا اعتنى بعض المفسرين ببيان تناسب الآيات، كما اعتنى بعضهم ببيان تناسب السور، وهذا بحث جيد.

ولو قيل: إن الإشارة تعود إلى أقرب مذكور على حسب القاعدة أن الضمير يعود على أقرب مذكور، وكذلك الإشارة تعود إلى أقرب مذكور، كان المراد بالمشار إليه هنا ما ذكر في هذه الآية: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢].

وقوله: ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ﴾ حدود جمع حد: والحد هو الشيء الفاصل بين شيئين، ومنه حدود الأرض يفصل بعضها عن بعض.

وحدود الله عزّ وجل تنقسم إلى قسمين: حدود واجبات، وحدود محرمات، أما الحدود الواجبات فهي ما أوجبه الله على عباده بشروطها وأركانها وواجباتها، وأما حدود النواهي فهي ما حرمه الله على عباده؛ كالزنى، واللواط، وشرب الخمر، وقتل النفس، وغير هذا، قال أهل العلم: وإذا قال الله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٩] فهي من حدود الأوامر، وإذا قال:

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧] فهي من حدود النواهي، فالزنى مثلاً نقول: هو حد من حدود الله، فلا تقربه، والصلاة حد من حدود الله، فلا تتعده؛ أي: لا تتجاوزه.

والآية هنا من حدود الأوامر.

ثم قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ هذه الجملة شرطية، واسم الشرط فيها ﴿وَمَن﴾، وفعل الشرط ﴿يُطِعِ﴾، وهو مجزوم بالسكون كما هو ظاهر، وأصل ﴿يُطِعِ﴾: يطيع، لكنها حذفت الياء لالتقاء الساكنين؛ لأن العين استحقت السكون بالشرط، والياء ساكنة، وقد قال ابن مالك في الكافية:

إن ساكنان التقيا اكسر ما سبق وإن يك ليناً فحذفه استحق

وقوله: «ليناً» أي: حرف من حروف اللين الثلاثة، وتنطبق الآية على الثاني، إلا في قوله: ﴿يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ بكسر العين، فتكون على الأول.

إذاً: الآية جمعت بين الوجهين.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قال العلماء: إن الطاعة هي موافقة الأمر، وتكون بفعل الأوامر، واجتناب النواهي، فتارك شرب الخمر امتثالاً لنهي الله عزّ وجل يقال: إنه مطيع، والمصلي يقال: إنه مطيع، وهذا إذا أفردت الطاعة، فإنها تشمل فعل الأوامر وترك النواهي، وأما إذا قرنت بالمعصية فقيل مثلاً: من أطاع الله، ومن عصى الله؛ كانت الطاعة في الأوامر خاصة، والمعصية في النواهي، والآية التي معنا من النوع الثاني، إذاً: المراد بها القيام بالأوامر.

وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ عطف اسم الرسول عليه الصلاة والسلام أو وصفه على اسمه تعالى؛ لأن طاعة الرسول من طاعة الله، كما قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقوله: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ المراد به حين نزول القرآن رسول معين، وهو محمد ﷺ، وأما حين قيام الشرائع السابقة فالمراد بالرسول من كانت شريعته قائمة، ففي عهد المسيح يكون المراد بالرسول عيسى، وفي عهد موسى يكون المراد بالرسول موسى... وهكذا، لكن بعد بعثة الرسول ﷺ يكون المراد بالرسول محمداً ﷺ.

وقوله: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ﴿يُدْخِلْهُ﴾ جواب الشرط، وهو مجزوم بالسكون، والقاعدة ومقتضى الدلالة العقلية: أن الشرط يترتب على المشروط، فالشرط الطاعة، والمشروط الجزاء والثواب، فالمشروط يترتب على الشرط ترتباً عقلياً، فهنا يكون قوله: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ هو المشروط الذي اشترطه الله عزّ وجل لمن أطاعه، فتكون نتيجة حتمية ضرورة لصدق المخبر به؛ لأن المخبر به هو الله، وهو أصدق القائلين، والمخبر به قادر على فعله، ولهذا فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١]؛ لأنه كامل الصدق، كامل القدرة، وإخلاف الوعد يأتي من أحد أمرين: إما الكذب؛ أي: كذب الواعد، وإما العجز وعدم القدرة، والله عزّ وجل لا يخلف الميعاد.

وقوله: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جنات: جمع جنة، وهي في الأصل: البستان الكثير الأشجار،

وسمي بذلك لأنه يستر من كان فيه لكثرة أشجاره، وهذه المادة «الجيم والنون» تدل على الستر، ومنها: «الجَنَان» وهو القلب؛ لأنه مستتر، و«الأجنة» وهي الأحمال في بطون الأمهات؛ لأنها مستترة، و«الجن»؛ لأنهم مستترون، و«الجُنة» ما يستتر به المقاتل؛ لأنها تستره، فهذه المادة كلها تدور على هذا المعنى، فالجنات: هي البساتين الكثيرة الأشجار، ولكنه لا يحسن أن نفسرها في هذا الموضع بهذا المعنى؛ لأنها إذا فسرت بهذا المعنى فكأنما حصر مدلولها بما يعرفه الناس، وسوف يقلل من أهمية الجنة الموعود بها.

ولهذا ينبغي أن تفسر بأنها الدار التي أعدها الله لأوليائه، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فإذا فسرت بهذا التفسير بقيت هيبتها في النفوس، لكن لو فسرت بالمعنى الأول؛ لتوهم الإنسان وقال: هذا كبستان فلان ابن فلان، كثير الأشجار، وكثير النخيل، وما أشبه ذلك.

والجنة أعظم مما في الدنيا بأضعاف مضاعفة، لا يعلمها إلا الله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء»[1]، وإلا فالحقائق تختلف، كما قال الله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]، وفي الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا**

(١) رواه البيهقي في البعث والنشور، باب ما جاء في طعام أهل الجنة وشرابهم وفاكهتهم (٣٢١)؛ ورواه أبو نعيم الأصبهاني في باب ذكر اتفاق ما فيها من النعيم (١١٩).

أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[١].

وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ الجريان معروف، وهو سير الماء على الأرض، وقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت هذه الجنات، فهي أشجار وارفة الظل، والأنهار تجري من تحتها، ولو تخيل الإنسان هذا النعيم، لوجده أكبر نعيم، وهذه الأنهار قد فسرها الله عزّ وجل في سورة القتال بقوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، فليس هو عسل نحل، إنما عسل مصفى، خلقه الله هكذا، ولبن ليس كلبن البقر أو الغنم، بل خلقه الله عزّ وجل أنهار، وكذلك الماء لا يأسن أبداً مهما طالت مدته، بخلاف ماء الأرض فإنه يأسن وتتغير رائحته بطول المكث، والخمر لذة، ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: ٤٧].

وقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ قال العلماء: إنها تجري من تحتها، ولا تحتاج إلى بناء يمنع تسرب الماء، ولا إلى حفر أخدود، بل تسير هكذا حيثما أردت، قال ابن القيم في النونية:

أنهارها في غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان

فهي أنهار لا تحتاج إلى حفر سواقي، ولا إلى إقامة أخدود، بل تجري هكذا على الأرض، وقال أهل العلم أيضاً: إنها تجري حيثما أراد الإنسان، من دون أن يحتاج إلى مواد البناء ونحوها، بل يريدها بقلبه أو يأمرها بلسانه.. اللهم اجعلنا من أهلها.

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، حديث رقم (٣٠٧٢)؛ ومسلم أول، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم (٢٨٢٤) عن أبي هريرة.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ خالدين: حال من الضمير في قوله: ﴿يُدْخِلْهُ﴾، لكن يشكل عليه أن الحال كالنعت، والنعت يتبع المنعوت في إفراده وتثنيته وجمعه، وهنا صاحب الحال مفرد والحال جمع، فما هو الجواب عن ذلك؟

الجواب عن ذلك: أن نقول: إن صاحب الحال عائد على «من» الشرطية، و«من» الشرطية يجوز فيها مراعاة لفظها ومراعاة معناها، فإن راعيت اللفظ أعدت الضمير إليها مفرداً، وإن راعيت المعنى أعدت الضمير إليها جمعاً، وكذلك ما يشبه الضمير من الحال والصفة وما أشبهه، فيجوز مراعاة المعنى ومراعاة اللفظ، فهنا يقول الله: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ فراعى اللفظ في قوله: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ والمعنى في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ويجوز أن تراعي اللفظ والمعنى وتعود مرة ثانية لمراعاة اللفظ، قال الله عزّ وجل: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]، فراعى في الأول اللفظ، ثم راعى المعنى، ثم راعى اللفظ، وهذا جائز في اللغة العربية.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ قال العلماء: الخلود هو المكث الدائم، إلا أن يدل دليل على أنه مؤقت، فيراد به المكث الطويل، وإلا فالأصل أن الخلود هو الدوام، لكن إن وجد دليل يدل على أن المراد به طول المكث؛ عمل به.

وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ المشار إليه ما ذكر من هذا الثواب الذي أعده الله لمن أطاعه.

﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الفوز معناه: الربح، يقال: فاز فلان، بمعنى: ربح، والعظيم: معناه: ذو العظمة، والعظمة: هي ضخامة الشيء، وجلالة الشيء، وكثرة الشيء أيضاً، ومعلوم أن نعيم الجنة يتصف بالضخامة والجلالة والدوام، فهو أعظم فوز، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وإعراب هذه الجملة: «ذا» اسم إشارة مبتدأ.

﴿ٱلْفَوْزُ﴾ خبر المبتدأ.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ صفة للفوز.

ولو قال قائل: إن ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ بدل، أو عطف بيان، أو نعت لـ«ذلك»، ويكون المعنى: وذلك الفوز هو العظيم؛ لكان صالحاً، لكن الإعراب الأول أحسن.

ويذكر أن الزمخشري ـ وهو من المعتزلة ـ قال تعليقاً على قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ قال: أيُّ فوز أعظم من أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة؟! والاستفهام هنا بمعنى النفي؛ أي: لا فوز أعظم من ذلك، وقال بعض المحشين عليه والمتعقبين له: إنه أراد بذلك نفي رؤية الله عزّ وجل؛ لأن رؤية الله أعظم من الجنة وما فيها، وأعظم فوزاً، والله أعلم بمراده.

فمن نظر إلى اللفظ قال: إنه لا دلالة فيه في الواقع؛ لأن من لازم دخول الجنة النظر إلى وجه الله، ومن عرف حال الرجل وأنه معتزلي ـ ولكنه ذكي ـ قال: لعله أراد ذلك، ولو وقعت مثل هذه العبارة من شخص معروف بأنه يؤمن برؤية الله عزّ وجل، لما

فسرناها بهذا التفسير، ونقول: إنه أراد نفي الرؤية، لكن من عرف حاله لم يستبعد أن يكون هذا مراده.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن المواريث من حدود الله.

٢ ـ أن من نفَّذ هذه المواريث على ما فرض الله فله هذا الثواب.

٣ ـ أن قسمة المواريث من العبادات، وتؤخذ من ترتيب الثواب عليها، ووصف ذلك بأنه طاعة.

٤ ـ عناية الشرع بإيصال الحقوق إلى أهلها؛ لأن حقيقة المواريث أن توصل الحقوق إلى أهلها، والله عزّ وجل حكم عدل، يريد من عباده أن يوصلوا الحقوق إلى أهلها.

٥ ـ أنَّ طاعة رسول الله ﷺ طاعة لله، ولهذا عطفها بالواو الدالة على الجمع والاشتراك.

فإن قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية وبين قول الرسول عليه الصلاة والسلام لرجل قال له: ما شاء الله وشئت: **«أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده»**[1].

فالجواب: أن الأمور الشرعية لا حرج أن تقرن الرسول عليه الصلاة والسلام مع الرب عزّ وجل بالواو، وأما الأمور الكونية فلا يجوز؛ لأنها من خصائص الربوبية، وفعل العبد بعد فعل الله، أما الحكم فإن حكم الرسول حكم لله، ولهذا

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢١٤)؛ والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٨٨)؛ والبخاري في الأدب (٧٨٣)، من حديث ابن عباس.

قال الله عزّ وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩] ولم يقل: ثم رسوله؛ لأن هذا الإيتاء إيتاء شرعي، إيتاء للزكاة والأموال الشرعية، أما الأمور الكونية فلأنها من خصائص الربوبية، فلا بد أن يكون فعل العبد بعد فعل الله، فقول: «ما شاء الله وشئت» لا يجوز؛ لأنه جعلت مشيئة الرسول ﷺ كمشيئة الله، وليس كذلك، لكن طاعة الرسول ﷺ كطاعة الله، قال الله: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فجعل الله طاعة الرسول طاعة له.

وأما حديث علي بن حاتم في صحيح الإمام مسلم قال: أن رجلاً خطب عند النبي ﷺ، فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال رسول الله ﷺ: «**بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله فقد غوى**»[(١)]، فأحسن ما قيل في الجواب عن ذلك: أن الرسول ﷺ أثنى عليه شراً، لكون المقام لا يقتضي هذا، فالمقام يقتضي أن يفصل ويبسط؛ لأنه ربما تخاطب قوماً بمثل هذا الخطاب فيظن أنه لا يكون غي إلا إذا كان الأمر من الله ورسوله، فلكل مقام مقال، فالرسول عليه الصلاة والسلام إنما أثنى عليه شراً؛ لكونه لم يستعمل في الخطبة السياق المناسب، لا لأن هذا ممنوع؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه قال مثل هذا.

وما ذكره بعض العلماء حيث قال: إنما أنكر عليه لأنه قال: «من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما» وسكت، ثم قال:

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، حديث رقم (٨٧٠).

«فقد غوى»، فكأن قوله: «يعصهما» معطوفة على «يطع»، فهذا بعيد، ويحتاج لإثبات أنه سكت، ثم لو سكت المتكلم فقال: «ومن يعصهما»، ثم قال: «فقد غوى» فإنه يعرف أن هذه الجملة مفرعة على ما قبلها.

٦ ـ إثبات الجزاء يوم القيامة، لقوله: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ ووجه ذلك: أن إدخال الجنات ليس في الدنيا، وإنما هو في الآخرة.

مسألة: قال العلماء: إن الجمع بين قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وبين قوله ﷺ: «**لا يدخل الجنة أحد بعمله**»[1] بأن نجعل الباء في قوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ للسببية، وأن نجعل الباء في قوله: «**لا يدخل الجنة أحد بعمله**» للمعاوضة والبدل، فإنه لو قورن العمل بالثواب لأحاط الثواب بالعمل، ولم يكن مقابلاً له، ثم إن توفيق الإنسان للعمل الصالح نعمة تحتاج إلى شكر.

٧ ـ بيان نعيم هذه الجنات، وأن الأنهار تجري من تحتها، وأنواع هذه الأنهار معروفة في آيات أخرى.

٨ ـ دوام نعيم هذه الجنات، لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾، والخلود هنا مؤبد، وقد ذكر الله عزّ وجل ذلك في عدة آيات من القرآن، وأجمع المسلمون على أن نعيم الجنة مؤبد، ولم يذكر في ذلك خلاف.

٩ ـ أن هذا النعيم هو الربح العظيم الذي لا يماثله شيء، لقوله: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل يرحمه الله (٢٨١٨) عن عائشة رضي الله عنها.

□ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٤].

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، المعصية: مخالفة الأمر، أو الوقوع في النهي، فمن ترك الواجب فقد عصى، ومن فعل المحرم فقد عصى، يقول شيخ الإسلام: فعل المنهي يعتبر ترك واجب، والقاعدة صحيحة، فترك الواجب وقوع في النهي، وفعل النهي ترك للواجب؛ لأنه يجب الكف عن المنهي، ويستشهد لذلك بقول ابن عباس رضي الله عنهما: «من نسي من نسكه شيئاً أو تركه فليهرق دماً»[(١)]، والدم على من فعل المنهي في الحج، وفعل المنهي ترك للواجب.

ونقول في قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ما قلنا في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النساء: ١٣]، إلا أن الإعراب هنا يختلف، فإن ﴿يَعْصِ﴾: فعل الشرط مجزوم بحذف حرف العلة وهو الياء.

وقوله: ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ ﴿وَيَتَعَدَّ﴾ معطوف على ﴿يَعْصِ﴾ المجزوم، وهو مجزوم بحذف الألف، وأصله «يتعدى».

وقوله: ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ أي: يتجاوزها، والمراد بالحدود هنا: الأوامر؛ أي: يتجاوز ما حدَّه الله بأوامره.

وقوله: ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ هذا هو جواب الشرط، والنار معروفة.

وهنا لطيفة: في قول الله تعالى عن أهل النار: ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾، وقال عن أهل الجنة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [النساء: ١٣]

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ، كتاب الحج، باب ما يفعل من نسي من نسكه شيئاً (٩٤٣)؛ ورواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب جُمَّاع أبواب المواقيت، باب من مر بالميقات يريد حجاً أو عمرة فجاوزه غير محرم (٨٣٨١).

والحكمة في ذلك: أن أهل الجنة يتنعمون باجتماع بعضهم إلى بعض، ولهذا قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [النساء: ١٣] أما أهل النار ـ والعياذ بالله ـ فقد ورد أن كل واحد منهم في تابوت لا يرى أحداً ولا يراه أحد، اللهم إلا على سبيل التقريع، فهذا هو السر، والعلم عند الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي إدخاله النار، وخلوده فيها، لا يبقى مستقراً أبداً، بل هو معذب عذاب إهانة، فيكون عذاباً جسمياً وعذاباً قلبياً نفسياً؛ لأن العذاب الجسمي أهون من العذاب والألم القلبي، ولهذا قال العلماء: ينبغي أن يُختن الإنسان وهو صغير؛ لأن ختان الصغير ليس فيه إلا الألم الجسمي، أما إذا ختن وهو كبير صار هناك ألم جسمي وألم نفسي قلبي، فإنه يفكر ويقول: ربما يزداد الجرح، وربما يموت، وما أشبه ذلك، لكن الصغير إذا برد عليه سكت، وإذا صال عليه الوجع صاح، وإذا حملناه إن كان لا يستطيع المشي سكت.

فعذاب أهل النار ـ والعياذ بالله ـ عذاب مهين؛ أي: ذو إهانة؛ لأنهم يقرعون ويوبخون.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن معصية الله عزّ وجل سبب لدخول النار؛ لقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾، وإنما قلنا: سبب؛ لأنه قد يتخلف لوجود مانع، وهو: عفو الله عزّ وجل في غير الشرك، أما الشرك فلا بد أن يدخل صاحبه النار ويخلد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وعلى هذا فنقول: المعصية إن كانت دون الشرك فهي سبب لدخول النار، وليس

دخول النار واجباً بها، إذ قد يعفى عنه، وإن كانت شركاً فهي سبب حتمي، فلا بد أن يدخل صاحبها النار ويخلد فيها.

أما الشرك الأصغر فليس سبباً للخلود، لكن هل هو سبب للدخول؟ هذا ينبني على معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] هل هذا الشرك عام أو مطلق؟ فإن قلنا: إنه عام، صار الشرك ولو كان أصغر لا يغفر، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، يقول: إن قوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ فعل دخل عليه حرف مصدري، فيؤول إلى مصدر أي: إشراكاً به، و«إشراك» نكرة في سياق النفي، فتكون للعموم.

لكن في نفسي من هذا شيء، والشرك الأصغر أكبر من الكبائر، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً»(١).

والشرك الأصغر: كل ما أطلق عليه الشارع اسم شرك، وهو لا يخرج من الملة.

٢ ـ تحريم الوصية للوارث؛ لأنك إذا أوصيت للوارث فقد تعديت الحدود، فإذا أوصت المرأة لزوجها بالثلث، كان له على مقتضى الوصية ثلث ونصف، وهذا تعد للحدود، ولهذا قال النبي ﷺ: «**إن الله أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث**»(٢).

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٨٧٦٥)؛ ورواه الصنعاني، كتاب الأيمان والنذور، باب الأيمان (١٥٤٠٢)؛ ورواه ابن أبي شيبة، كتاب الأيمان والنذور والكفارات، باب الرجل يحلف بغير الله أو بأبيه (١٣٨٤١).

(٢) رواه أبو داود، كتاب الوصايا، باب ما جاء في الوصية للوارث، حديث رقم (٢٨٧٠)؛ والترمذي، كتاب الوصايا، باب ما جاء لا وصية لوارث، حديث رقم (٢١٢٠)؛ وابن ماجه، كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، حديث رقم (٢٧١٣).

٣ ـ تقسيم المخالف إلى عاص ومتعدٍ للحدود، فالمعصية هنا: فعل المحرم، وتعدي الحدود: ترك الواجب، أو الغلو فيه.

٤ ـ أن معصية رسول الله ﷺ معصية لله، أو كمعصية الله؛ لأنه قرنها بمعصية الله بحرف يقتضي التسوية.

٥ ـ أن من جمع بين الأمرين: المعصية، وتعدي الحدود، فإنه يُدخَل النار. ولكن هل هو دخول أبدي أو دخول مؤقت؟ الجواب أن يقال: حسب المعصية؛ لأن الله ذكر في الآية التي قبلها أن من أطاع الله ورسوله دخل الجنات، وهنا قال: من عصى الله ورسوله دخل النار، فيقال: الطاعة الغالبة يدخل فيها صاحبها الجنة بدون أن يدخل النار، والمعصية الغالبة ـ التي ليس فيها طاعة ـ يدخل فيها النار، والجامع بين الطاعة والمعصية يدخل النار والجنة؛ لأنه وجد فيه سبب دخول الجنة والنار، فيعطى الحكم جزاء وفاقاً.

وعلى هذا: فالعاصي معصية مطلقة، والمتعدي للحدود تعدياً مطلقاً، يدخل النار ولا يدخل الجنة، والذي جمع بين المعصية والطاعة: إن غلبت الطاعة لم يدخل النار، وإن غلبت المعصية دخل النار بقدر ذنبه وخرج منها.

٦ ـ إثبات الخلود في النار، لقوله: ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾، وقد ذكر الله سبحانه أن الخلود في النار مؤبد في آيات ثلاث من القرآن: في سورة النساء، وفي سورة الأحزاب، وفي سورة الجن؛ ففي سورة النساء قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [١٦٨، ١٦٩]، وفي سورة الأحزاب قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ [٦٤ ـ ٦٥]، وفي

سورة الجن قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [٢٣]، وإذا كان الله تعالى قد ذكر التأبيد في آيات ثلاث، فإن أي قول يخالف ذلك فهو ساقط؛ لأن من لزوم الخلود لزوم المكان، فإذا قيل: إنه خالد في النار أبداً، لزم أن يكون المكان الذي يخلد فيه مؤبداً، وإلا فلا معنى للتأبيد، فقول بعض العلماء: إنهم خالدون فيها أبداً ما دامت باقية، قول ساقط لا وجه له من النظر؛ لأن الله صرح بتأبيد الخلود، ويلزم من تأبيد الخلود في المكان أبدية المكان، وإلا لم يكن للتأبيد فائدة.

٧ ـ أن الذين في النار ـ والعياذ بالله ـ يعذبون عذاباً مهيناً؛ أي: ذا إهانة، وليسوا مكرمين.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٨ ـ ٤٩]؟

فالجواب من أحد وجهين:

الوجه الأول: إما أن يكون ذلك على سبيل التهكم به.

الوجه الثاني: وإما أن يكون هذا ليذكر حاله في الدنيا، والمعنى: أنت العزيز الكريم في الدنيا؛ حتى يزداد حسرة، وهو أنه في الدنيا كان عزيزاً كريماً، والآن صار ذليلاً مهيناً. وكلا الأمرين يحصلان لهذا الذي يوجه له هذا الخطاب، فإنه يصب من فوق رأسه الحميم، ثم يقال: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾، ولا شك أنه سوف يرى أنه يقال له ذلك على سبيل التهكم، ثم يذكر هو أيضاً حاله في الدنيا، وأنه كان في الدنيا عزيزاً مكرماً، والآن وصل إلى هذا الحد من الإهانة والعياذ بالله.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾ [النساء: ١٥].

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ اللاتي: مبتدأ، وخبره جملة ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾.

وقد اقترنت الفاء بخبر المبتدأ؛ لأنه لما كان المبتدأ اسماً موصولاً كان مشبهاً لاسم الشرط في العموم، فأعطي حكمه، واقترنت الفاء بخبره، ومنه قول النحويين في المثال المشهور: «الذي يأتيني فله درهم»، فإنه نائب مناب قولك: «من يأتني فله درهم»، فالاسم الموصول لما أشبه الشرط في العموم، صار دخول الفاء في خبره كدخول الفاء في جواب الشرط.

وقوله: ﴿وَٱلَّٰتِي﴾ جمع التي، لكنه على غير القياس؛ لأن هذه الأسماء غير مشتقة.

وقوله: ﴿يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ الفاحشة: ما يستفحش شرعاً وعرفاً، والذي يستفحش شرعاً يستفحش عرفاً؛ أي: في أعراف المسلمين لا في أعراف غير المسلمين، وإنما قيدنا بذلك؛ لأن الزنا فاحش شرعاً، وفاحش عرفاً في عرف المسلمين، لكنه في عرف الكفار ليس بفاحش، ومن هنا نعرف أن قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**الإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس**»[1]، أن هذا خاص بالمسلم الذي يكره الإثم ويخشى أن يطلع عليه الناس في حال إثمه، وإلا فإن الكافر لا يحوك في نفسه الإثم.

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، حديث رقم (٢٥٥٣).

والمراد بالفاحشة هنا الزنا، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، وعلى هذا فتكون «أل» للعهد الذهني؛ لأنه لم يذكر، لكنه معروف شرعاً، وإنما قررنا ذلك لرد قول من يقول ـ كأبي مسلم الخراساني ـ : إن المراد بها السحاق بين النساء. وهذا بعيد عن الصواب، ولم يذهب إليه أحد من الصحابة والتابعين فيما نعلم، والصواب أن المراد بها الزنا.

وقوله: ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ المراد به الجنس؛ أي: من جنس النساء، سواء كانت من الزوجات أو من غير الزوجات. و﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ بيان للموصول في قوله: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ أي: اطلبوا شهادة أربعة، وقوله: ﴿أَرْبَعَةً﴾ عدد يدل على أن المعدود مذكر؛ لأن العدد المؤنث يكون معدوده مذكراً فيما دون العشرة، فتقول: تسعة رجال، وتسع نساء.

وقوله: ﴿أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ الخطاب للمسلمين؛ لأن من شرط الشهادة ـ ولا سيما في هذا الأمر العظيم ـ أن يكون الشاهد مسلماً.

قوله: ﴿فَإِن شَهِدُوا۟﴾ أي: على فعل الفاحشة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ والخطاب هنا في قوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ عام، والذي يقصد به ولي الأمر؛ إما الخاص، وإما العام.

وقوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾ جمع بيت؛ أي: أمسكوها

في بيتها واحبسوها حتى لا تخرج؛ لأن ذلك وسيلة إلى تقليل الزنا، حيث تبقى محبوسة في بيتها ولا تخرج فتفتن الناس وتفتتن.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾ يتوفاهن: أي: يقبضهن، يقال: توفيت حقي من فلان؛ أي: قبضته.

وقوله: ﴿ٱلْمَوْتُ﴾ أي: ملك الموت، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، ولكن قد يعبر عن ذلك بالموت توسعاً.

والموت: هو فقد الحياة، وذلك بخروج الروح من البدن؛ لأن الروح في البدن عارية، متى دعيت خرجت.

وقوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ ﴿أَوْ﴾ حرف عطف، و﴿يَجْعَلَ﴾ معطوفة على «يتوفى» فهي منصوبة، والمعنى: أو يُصيِّر لهن سبيلاً؛ أي: طريقاً للخلاص من هذا الإمساك، وقد جعل الله لهن سبيلاً بقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] قال النبي ﷺ: «**خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً: البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم**»[(١)]، فتبين بهذا أن المراد بالسبيل هو ما شرعه الله تعالى من حد الزاني جلداً وتغريباً، أو جلداً ورجماً.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ عظم الزنا، وأنه من الفواحش؛ لأنه بالاتفاق أن المراد

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحدود، باب حد الزنى، حديث رقم (١٦٩٠) عن عبادة بن الصامت.

بذلك الزنا، والقول بأنه السحاق قول ضعيف لا يعول عليه.

٢ ـ أنه لا بد في الزنا من شهادة أربعة رجال عدول، لقوله: ﴿فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين، والصحابة كلهم عدول، أو نقول: إنه خطاب للصحابة كلهم، ويحمل هذا الإطلاق على العدالة، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢].

٣ ـ الإشارة إلى أن الرجل أقوى في الشهادة من المرأة وأثبت؛ وذلك لأن الله تعالى لم يعتبر في الزنا إلا شهادة الرجال.

٤ ـ أن الحد يدرأ بالشبهة، وذلك لأن اشتراط أربعة رجال من أجل إثبات الشهادة، وشهادة النساء الأربع فيها شبهة؛ لأنهن لم يضبطن، كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ولا شك أن الحدود تُدرأ بالشبهات، ولكن يبقى عندنا مناط الحكم، بمعنى: ما هي الشبهة التي يُدرأ بها الحد؟ فمن العلماء من توسع فيها حتى قال: إنه لو استأجر امرأة للزنا فزنى بها فلا حد عليه؛ لأن استئجاره إياها شبهة، كمن استأجر بيتاً يسكن فيه، ومن العلماء من توسط، ومنهم من شدد، والغالب أنَّ الأقوال إذا اختلفت على ثلاثة فإن الوسط هو الصحيح.

٥ ـ أنه لا بد من تصريح الشهداء بالشهادة في باب الزنا، لقوله: ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾، ولهذا يجب أن يقول الشهود: رأينا ذكره في فرجها قد أدخله فيه كما يدخل الميل في المكحلة، فلا يكفي أن يقول الشهود: رأينا رجلاً على امرأة وهما عراة، ورأينا ذكره بين فخذيها، بل لا بد من التصريح بالجماع، كما قال الرسول عليه

الصلاة والسلام لماعز: «**أنكتها؟ لا تكني**»، أو قال: «**لا يكني**»[(١)].

ولهذا قال شيخ الإسلام في زمنه: «إنه لم يثبت حد الزنا بالشهادة إلى يومنا هذا»؛ لأنها صعبة.

فإن قال قائل: هل يمكن أن نثبته بالتقاط الصورة؟

فنقول: كنا نقول بذلك، لكن لما تبين لنا دبلجة المصورين قلنا: لا نثبته، والدبلجة أنهم يلفقون صورة، ويجعلون رجلاً على امرأة قد جامعها، وليس الأمر كذلك، والدبلجة هذه مشكلة كبيرة نسأل الله أن يكفينا شرها، فقد بدؤوا يدبلجون الكلام، ويأخذون مثلاً من بعض كلامي حرفاً في كلمة من الكلمات، وحرفاً من كلمة أخرى، ويركبون بعضها على بعض، فينشؤون خطبة بصوتي على ما يريدونه، والصوت صوتي، ونبرات الكلام نبرات كلامي، فأي إنسان يريد أن يتقول على شخص فإنه يمكنه ذلك، لكن أسأل الله أن يسخر فيروساً لهذه الآلات، كما أن هناك فيروساً للكمبيوتر؛ حتى نسلم ويسلم الناس من شرها.

٦ ـ أن حبس المرأة في بيتها من أسباب درء الفتنة، لقوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾؛ لأن هذا نوع من العقوبة من وجه، وكف لأسباب الفتنة من وجه آخر.

٧ ـ الإشارة إلى أن البيت خير للمرأة، لقوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ﴾، وكما قال النبي ﷺ: «**بيوتهن خير لهن**»[(٢)].

٨ ـ أنه لا يجوز حبس المرأة في بيتها بحيث تمنع من

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست أو غمزت (٦٨٢٤).

(٢) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء إلى المسجد (٥٦٧) من حديث ابن عمر، ورواه الإمام أحمد في مسنده (٥٤٤٥).

الخروج، إلا إذا كان هناك فتنة وشر، وإلا فالأصل أنها لا تمنع من الخروج من البيت، ويؤيد هذا أن الله تعالى أوجب بقاء المرأة المتوفى عنها زوجها في بيتها، فدل ذلك على أن غيرها لا يلزمها البقاء في البيت، وهو كذلك، فالبيت ينبغي أن نرغب النساء في البقاء فيه، ولكن لا نلزمهن بذلك.

٩ ـ مشروعية العقوبة بالحبس المؤبد، والأقرب أن للعقوبة بالحبس المؤبد أصلاً في الشرع؛ أما أن نجعل ذلك مشروعاً وهو قد نسخ، ففي النفس منه شيء.

١٠ ـ إثبات الجعل لله عزّ وجل، لقوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، والجعل نوعان: جعل شرعي، وجعل كوني قدري، ومن أمثلة الجعل الشرعي: قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، وقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣].

فقوله: ﴿مَا جَعَلَ﴾ أي: جعلاً شرعياً، أما قدرياً فإنه قد جعل البحيرة والسائبة والوصيلة والحام موجودة، وأمثلة الجعل الكوني كثيرة في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ [النبأ: ٩ ـ ١١] والأمثلة كثيرة.

١١ ـ إثبات الأفعال الاختيارية لله عزّ وجل؛ أي: إثبات صفة الفعل المتجدد لله، والفعل المضاف إلى الله ثلاثة أنواع: جنس، ونوع، وفرد.

فالأول: الجنس، وهو صفة أزلية أبدية؛ أي: أن الله لم يزل ولا يزال فعّالاً، فهو فعّال في الأزل، كما هو فعال في الأبد، ولهذا كان القول الراجح من أقوال العلماء: القول بتسلسل الحوادث في الماضي كما هي في المستقبل، لكننا لا نعلم ما

تسلسل في الماضي إلا ما أُخبرنا به فقط؛ وإلا فنحن نؤمن بأن الله لم يزل ولا يزال فعّالاً.

والثاني: النوعي، وذلك مثل الاستواء على العرش، وهذا حادث، فإن الله لم يستو على العرش قبل خلق العرش.

والثالث: الآحادي، وذلك كالنزول إلى السماء الدنيا كل ليلة، والمجيء للفصل بين العباد، والنزول إلى السماء الدنيا عشية عرفة، والغضب عند وجود سببه، والرضا عند وجود سببه، والضحك عند وجود سببه، والعجب عند وجود سببه، وغير ذلك.

وقد أثبت أهل السنة والجماعة ذلك، وأنكره الأشاعرة والمعتزلة ومن سلك سبيلهم، وقالوا: لا يمكن أن يوصف الله بصفة حدوثية أبداً، ولهذا يرون أن القرآن الذي بين أيدينا قديم، وعللوا هذا الحكم الفاسد فقالوا: إن قيام الحوادث بالله عزّ وجل يقتضي أن يكون حادثاً؛ لأن الحوادث لا تكون إلا في حادث، ولا شك أن هذه علة عليلة؛ بل ميتة، فإن كون الحوادث تقوم بالله عزّ وجل وأنه يفعل ما يريد، هذا دليل على كماله، وكمال حياته، ولو تصور الإنسان ربّاً لا يفعل، وربّاً يفعل، لكان مقتضى الفطرة أن الثاني أكمل بلا شك، فالصواب بلا شك أن أفعال الله عزّ وجل كما تكون جنساً، تكون نوعاً، وتكون فرداً آحاداً.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء: ١٦].

﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ اللذان: في مقابل اللاتي، وتكون للذكور، ولكن المقابلة ليست بتامة، فهنا قال: «اللذان»، وهناك قال: «اللاتي»، وقد قال بعض العلماء: إن المراد باللذان هنا: الزاني والزانية، ولكن الزانية سبق حكمها، وهو أنها تحبس في البيت، والزاني يؤذى ولا يُحبس في البيت. وقال بعض العلماء: المراد بهما اللوطيان؛ أي: الفاعل والمفعول به، وأضاف الإتيان إلى المفعول به مع أنه مأتي؛ لأن القابل الراضي كالفاعل، ولهذا قال النبي ﷺ: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»(١).

والصحيح أن «اللذان» يراد بهما اللائطان؛ أي: الرجل الذي يلوط بآخر، والعياذ بالله.

ولكن لماذا عبر في حق النساء بـ«اللاتي» وفي حق الذكور بـ«اللذان»؟

لأن فشوَّ الزنا في النساء أكثر من فشو اللواط في الذكور، وقد كانوا في الجاهلية لا يعرفون اللواط، حتى إن بعضهم يقول: لولا أن الله قص علينا ما قص من نبأ قوم لوط، لما كنا نتصور أن هذا يقع؛ لأنه لا يتصور أن رجلاً يرضى أن يُفعل به كما يفعل بالمرأة!!!

هذا شيء مستحيل فطرة، ومستحيل شرعاً، فلذلك عبر عن

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الحدود، باب فيمن عمِل عمَل قوم لوط، حديث رقم (٤٤٦٢)؛ والترمذي، كتاب الحدود، باب حد اللوطي، حديث رقم (١٤٥٦)؛ وابن ماجه، كتاب الحدود، باب من عمِل عمَل قوم لوط، حديث رقم (٢٥٦١)؛ وأحمد (١/ ٣٠٠) عن ابن عباس.

اللواط بأدنى ما يمكن أن يتحقق به وهو اثنان، بخلاف الزنا في النساء فإنه كثير.

وقوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ﴾ الضمير في ﴿يَأْتِيَـٰنِهَا﴾ يعود على الفاحشة، وفاحشة الرجال هي اللواط، وهي أعظم من فاحشة الزنا؛ والدليل على عظمها: أن لوطاً قال لقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وفي الزنا قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً﴾ [النساء: ٢٢] أي: من الفواحش، أما اللواط فقال عنه: الفاحشة؛ لأنها ـ والعياذ بالله ـ مستفحشة في عقل كل إنسان.

ثم إن الزنا جنسه مما يباح بالعقد، واللواط لا يباح بأي حال من الأحوال، لا بعقد ولا بغيره، فكان أفحش.

وقوله: ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ أي: بالسب، والتعيير، والضرب، والإعراض على سبيل التعزير، والهجر، وما أشبه ذلك مما يتأذيان به.

وقوله: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ﴾ أي: إن تابا مما وقع منهما، وأصلحا عملهما في المستقبل، فأعرضوا عنهما؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، فيعرض عنه؛ لأن السبب ما دام موجوداً، فإن المسبب يتبعه، فإذا زال السبب زال المسبب.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ تواباً: صيغة مبالغة، وذلك لكثرة توبته وكثرة من يتوب عليهم؛ فالذين يتوب الله عليهم لا يحصون، وتوبته عزّ وجل لا تحصى، فلهذا عبر بصيغة المبالغة، وتوبة الله على العبد نوعان: توبة قبل فعل التوبة، وتوبة بعدها؛ فالتوبة التي قبل فعل التوبة معناها: التوفيق للتوبة، كما

قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨]، والتوبة التي بعد التوبة هي: قبول التوبة، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥]، والله سبحانه تواب بهذا المعنى وبهذا المعنى، فهو تواب؛ أي: مهيئ للتوبة لمن شاء من عباده، وتواب؛ أي: قابل للتوبة.

﴿رَّحِيمًا﴾ أي: ذو رحمة يوصلها إلى من شاء من عباده؛ كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [العنكبوت: ٢١].

وفي هذه الآية شيء من الإشكال، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، فإن المعروف أن «كان» للمضي، ويفهم منها أن هذا الوصف كان فزال، كما لو قلت: كان فلان طالب علم، المعنى: فيما مضى.

وقد أجاب العلماء عن هذا الإشكال: بأن «كان» قد تسلب منها الدلالة على الزمن، ويكون المراد بها تحقق الاتصاف بخبرها، وكل ما أضيف إلى الله من هذا التركيب فإن هذا هو المراد به؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤]، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧]، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦] وما أشبه ذلك. فالمراد أنه متصف به أزلاً وأبداً، ولكن أتت «كان» لتحقيق اتصافه بهذا الوصف.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن اللواط له حكمان:

الحكم الأول: ما دلت عليه الآية، وهو أن الذي يأتي

الفاحشة من الرجال يؤذى بالقول وبالفعل، وبالهجر، وبأنواع الأذى، وكثير من الناس قد تكون أذيته أشد من ضربه، وأشد من حبسه.

الحكم الثاني: ما دلت عليه السنة، وهو قتل الفاعل والمفعول به؛ لقول النبي ﷺ: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط؛ فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»[1]، ولا يحمل هنا المطلق على المقيد، فيقال: اقتلوا الفاعل والمفعول به إذا كانا محصنين، كما هو الشأن في الزنا؛ وذلك لأن من شرط حمل المطلق على المقيد: أن يكون الحكم واحداً والسبب واحداً، وهنا اختلف السبب والحكم، فهناك السبب الزنا وهو في فرج يحل في الجملة بعقد النكاح الصحيح، أو ملك اليمين، وهذا استباحة فرج لا يحل أبداً.

وأيضاً فإن هذه الفاحشة ـ والعياذ بالله ـ يصعب التحرز منها ـ بخلاف الزنا ـ ؛ لأنها تكون بين الذكور، ومن يحبس الذكور بعضهم عن بعض؟ فالتحرز منها صعب، فإذا لم يكن لها عقوبة رادعة قوية انتشرت في المجتمع، وإذا انتشرت في المجتمع فسد الرجال والنساء؛ لأن من عقوبة اللوطي أنه لا يشتهي النساء، فإذا لم يشته النساء؛ بقيت النساء متعطلة، وحصل الشر والفساد، والدليل على أن من عقوبة اللوطي أنه ينزع منه شهوة النساء: قول لوط عليه السلام لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ [الشعراء: ١٦٥ ـ ١٦٦]، فهم لم يذروا النساء إلا لأنها سلبت

(١) تقدم ص١٣٠.

شهوة النساء من نفوسهم، وإلا فإن الإنسان بفطرته يميل إلى النساء، وهذه العقوبة إذا انتشرت في المجتمع فسد رجاله ونساؤه، وتعطلت مصالحه، فلهذا كانت الحكمة تقتضي القضاء على هذه الجرثومة الفاسدة بالقتل.

ولا يصح أن يحمل هذا المطلق على المقيد؛ لما عُلم من اختلاف السبب والحكم، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن الصحابة أجمعوا على قتل الفاعل والمفعول به، إلا أنهم اختلفوا في كيفية القتل، فمنهم من قال: يلقيان من شاهق من أعلى مكان في البلد ثم يتبعان بالحجارة، ومنهم من قال: يرجمان، ومنهم من حرَّق اللوطي: الفاعل والمفعول به؛ لأن جريمتهما عظيمة منكرة، وقد سماها لوط: الفاحشة، والزنا في كتاب الله سمي: فاحشة، والأول أشد.

٢ ـ أن من تاب وأصلح وجب الكف عن عقوبته، وقد صرح الله تعالى في آية المحاربين في سورة المائدة أن ذلك مشروط بما إذا تاب قبل القدرة عليه، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٣٤]، أما لو تاب بعد القدرة عليه؛ فإنه لا ترفع عنه العقوبة، لكن الذي يظهر من السنة أن ما ثبت بإقرار ثم تاب فإنه يترك ليتوب، ودليل ذلك حديث ماعز بن مالك رضي الله عنه حين جاء إلى النبي ﷺ وأقر عنده بالزنا، فأمر برجمه، فلما أذلقته الحجارة ـ أي: أصابه مس الحجارة ـ هرب؛ ولكن الصحابة لكون الرسول ﷺ أمرهم برجمه قالوا: لا بد من تنفيذ أمر الرسول ﷺ، فنفذوا الرجم، ثم أخبروا النبي ﷺ بذلك، فقال:

«**هلا تركتموه يتوب فيتوب الله عليه؟!**»[(١)]، فدل ذلك على أن المقر بالذنب إذا تاب ولو في أثناء الحد، فإنه يترك فيتوب الله عليه، وقوله: «**هلا تركتموه يتوب**» ليس لمعنى أنه يأتي إليَّ فيخبرني بما يريد ثم أقيم عليه الحد، بل المعنى هلا تركتموه بلا حد فيصلح حاله في المستقبل، فالتوبة الأولى لإقامة الحد، ولهذا قال: أريد أن تطهرني، والثانية باصلاح حاله.

٣ ـ أن التوبة من الذنب لا بد أن يقارنها إصلاح، لقوله: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا﴾.

ولكن كيف تكون التوبة في مثل هذا؟

قيل: إن التوبة في مثل هذا أن يراود فيمتنع، كأن يقال لهذا المفعول به: نريد أن نفعل بك، فإذا امتنع دل ذلك على توبته، ويقال للفاعل: هذا يريد أن تفعل به، فإذا أبى دل ذلك على توبته، وكذلك يقال في الزاني والزانية، لكن هذا القول قول منكر، بعيد عن الصواب؛ لأن المراودة لا تكون إلا في حال السر، فإن كان المراود أهلاً للفعل ـ أي: يتوقع منه أن يفعل ـ فإنه قد يستجيب، وحينئذ تقع الفاحشة، وإن كان المراوِد ليس أهلاً لأن يفعل، فسينتبه المراوَد إلى أن هذا يريد أن يختبره، فيمتنع، وبهذا نعرف أن هذا القول لا أساس له من الصحة، ولكن التوبة من هذه الفاحشة تكون كالتوبة من غيرها من الذنوب، فإذا عرفنا أن الرجل قد عزف عن هذا الشيء، وصار لا يذهب إلى المجالس التي تنتشر فيها هذه الفاحشة، وما أشبه

---

(١) هذه الرواية عند أبي داود في، كتاب الحدود، باب رجم ماعز بن مالك، حديث رقم (٤٤١٩)؛ وأحمد (٥/٢١٦) عن نعيم بن هزال.

ذلك؛ عرفنا أنه تاب، ولهذا قرن التوبة هنا بالإصلاح، فلا بد من شيء يدل على أنه تاب، وهو إصلاح العمل والبعد عن هذه الفاحشة.

٤ ـ إثبات أن الحكم يدور مع سببه؛ وجوداً، وعدماً، ووجهه أنه قال: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ فلما زالت العلة زال الحكم، وهو كذلك؛ فإن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً، ولكن إن كانت العلة منصوصاً عليها، فإنها إذا تخلفت فلا بد أن يتخلف الحكم، وإن كانت مستنبطة، فلا ينبغي أن يتخلف الحكم بتخلفها؛ لأنه من الجائز أن لا تكون العلة شرعاً هي هذه العلة المستنبطة، فنلغي حكماً من أحكام الله ثابتاً بمجرد الاحتمال، أما لو نص عليها فالحكم يدور معها، مثل قوله ﷺ: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث، من أجل أن ذلك يحزنه**»[1]، فإن هذا يدل على أنه لو كان لا يحزن بهذا التناجي؛ جاز ذلك.

٥ ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: التواب والرحيم، وقد سبق معنى التواب، ولماذا جاء بصيغة المبالغة، وكذلك معنى الرحيم.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء: ١٧].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب لا يتناجي اثنان دون الثالث، حديث رقم (٥٩٣٠)؛ ومسلم، كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه، حديث رقم (٢١٨٣) من حديث ابن عمر.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ﴿ٱلتَّوۡبَةُ﴾: مبتدأ مسبوق بأداة الحصر وهي ﴿إِنَّمَا﴾، وخبر المبتدأ قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾، أو قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ فيحتمل هذا وهذا.

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾ ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ يعني: العمل السيئ؛ كالمنكرات، وفعل المحظورات، أو ترك الواجبات، ولكنه قيدها بقوله: ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ والمراد بالجهالة هنا: السفاهة، وليس الجهل؛ لأن فاعل السوء بجهل معذور، ولا ذنب عليه؛ لقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولكن المراد بالجهالة هنا السفاهة، ومنه قول الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ أي: ثم إذا فعلوا السوء بجهالة تابوا إلى الله من قريب، والقريب هنا ما كان قبل الموت، فإذا تابوا قبل الموت تاب الله عليهم، وسيأتي في الفوائد أنه تجب التوبة فوراً.

وقوله: ﴿يَتُوبُونَ﴾ بمعنى: يرجعون إلى الله، وذلك بترك ما قاموا به من السوء، أو فعل ما تركوه من الواجب.

وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾، هذه الجملة باعتبار ما قبلها تأكيد؛ لأن هذا الحكم مفهوم من قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ولكنه أكد ما التزم به عزّ وجل على نفسه بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾.

وأشار إليهم بـ«أولئك» مع أنهم باعتبار الحديث عنهم في محل القرب، والقريب يشار إليه بـ«هؤلاء»، لكنه هنا قال: أولئك، فأشار إليهم بإشارة البعيد؛ إشارة إلى علو منزلتهم بالتوبة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: ذا علم وحكم وحكمة، فالعلم: إدراك الشيء على ما هو عليه، وهذا التعريف يخرج الجهلين جميعاً: الجهل البسيط، والجهل المركب؛ لأن الجهل البسيط ليس فيه إدراك مطلقاً، والجهل المركب فيه إدراك الشيء على غير ما هو عليه، فالعلم: إدراك الشيء على ما هو عليه.

وبالنسبة لعلم الله عزّ وجل فإنه علم شامل كامل، وقولنا: كامل؛ أي: أنه لم يسبق بجهل، ولم يلحق بنسيان، قال موسى عليه الصلاة والسلام لفرعون حين قال: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١] قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، ﴿لَّا يَضِلُّ﴾؛ أي: لا يجهل، ﴿وَلَا يَنسَى﴾ ما علم، وهو كذلك شامل، قال الله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقد بين الله تعالى علمه في كتابه أحياناً بالإجمال والعموم، وأحياناً بالتفصيل، فقوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩] هذا تفصيل، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ [لقمان: ٣٤]، أيضاً فيه شيء من التفصيل، وأما الإجمال فكثير في القرآن.

والعلم أشمل من القدرة وأوسع؛ لأنه يتعلق بكل شيء، حتى بالممتنع، بخلاف القدرة، فإنها شاملة لكل شيء، لكن ما

كان مستحيلاً فليس بشيء بالنسبة للقدرة، أما العلم فيشمل حتى المستحيل، فمثلا قول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، فإن تعدد الآلهة ممتنع مستحيل، ومع ذلك أخبر الله أنه لو كان لكان ما ذكر الله تعالى.

وقوله: ﴿حَكِيمًا﴾ مشتق من الحكم والحكمة، فهو حاكم إذا جعلناه مشتقاً من الحكم، ومُحكِم إذا جعلناه مشتقاً من الحكمة.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان فضل الله عزّ وجل على عباده بإيجابه التوبة على نفسه بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ أن لله أن يوجب على نفسه ما شاء، وليس للعباد أن يوجبوا عليه شيئاً، لقوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، لكن له سبحانه أن يوجب على نفسه ما شاء، وله أن يحرم على نفسه ما شاء، قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي**»[(١)]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، فهذا إلزام وفرض، ومنه هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ أن كل عامل سوء فإنما يعمله بجهالة وسفه، والسفه ضد الرشد، فمن عمل سيئاً فقد فُقد منه الرشد.

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم (٢٥٧٧) عن أبي ذر رضي الله عنه.

٤ ـ أن الرشد يختلف باختلاف مواضعه، فالرشد في المال: إحسان التصرف فيه، والرشد في الولاية: معرفة ما يجب للولاية، فإن كانت ولاية سلطان وإمارة فلها رشد معين، وإن كانت ولاية نكاح فالرشد في الولي: أن يعرف كفء المرأة ومصالح النكاح، والرشد في معاملة الناس له معنى يخصه، ويجمع هذا كله إحسان التصرف فيما يتصرف فيه، هذا هو الرشد، وضده إساءة التصرف.

٥ ـ وجوب المبادرة بالتوبة، لقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، ووجهه: أن المراد بالقرب هنا الموت، والموت ليس معلوماً وقته، وإذا كان كذلك كانت المبادرة بالتوبة واجبة؛ لأن الإنسان لا يدري ما يعرض له؛ ولأن الإنسان إذا أصر على المعصية فإنه يقسو قلبه، وتكون هذه الصغيرة من صغائر الذنوب كبيرة، ولهذا ذكر بعض العلماء: أن التهاون بالمعاصي والاستمرار في المعصية الصغيرة يجعلها كبيرة، فإذا فعل الإنسان صغيرة تهاوناً بالله، وبأوامر الله؛ صارت كبيرة؛ لما قام بقلبه من التهاون بها، وإذا فعل الكبيرة مع شدة تعظيمه لله عزّ وجل، وخوفه منه، وخجله منه، لكن سولت له نفسه أن يفعلها، فإن ذلك يجعلها صغيرة، والرجل الذي كان يضرب في الخمر، لما لعنه أحد الصحابة قال له النبي ﷺ: «**إنه يحب الله ورسوله**»[(١)]، فالإنسان العاصي قد يكون في قلبه من هيبة الله تعالى وإجلاله وتعظيمه؛ ما يجعله عند فعل المعصية خجلاً من الله، مستحيياً منه، فتنقلب الكبيرة صغيرة بما قارنها من خوف الله وتعظيمه

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وإنه ليس بخارج من الملة (٦٧٨٠) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وإجلاله؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات. والعكس بالعكس.

٦ ـ قبول الله للتوبة إذا تاب الإنسان من قريب، لقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾.

٧ ـ إثبات العلم والحكمة، والحكم لله، أيضاً المفهومة من قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وقد بينا في التفسير أن علم الله تعالى واسع شامل لكل صغير وكبير، وقريب وبعيد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ [آل عمران: ٥].

٨ ـ إثبات هذين الاسمين لله، وهما: العليم والحكيم.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٨﴾ [النساء: ١٨].

﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هنا قال: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ﴾، ولم يقل: على الله؛ لأن هذه التوبة منتفية شرعاً، فهي ليست حقيقية، وقوله: ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، يحتمل أن يراد بها الجنس، وهو الأظهر، أو الجمع؛ لأنه ظاهر اللفظ.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ فهؤلاء لا توبة لهم؛ لأن توبتهم توبة ضرورة؛ كالمكره على العمل، والمكره على العمل لا حكم لعمله، كما هو معروف بأن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يحكم بكفره، وكذلك هذا الذي تاب بعد أن أيس من الدنيا وأيقن أنه راحل، فإن هذه التوبة لا تنفعه. لأنه عندما شاهد الموت أراد أن يتوب،

وأي توبة صادقة لشخص علم أنه مفارق الدنيا؟! وهذا نظير قوله ﷺ من بعض الوجوه عندما سئل: أي الصدقة أفضل؟ قال: أن «**تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل البقاء وتخشى الفقر**»، فقوله: «**تأمل البقاء**»؛ أي: لصحتك، فإن الصحيح يستبعد الموت، و«**تخشى الفقر**»؛ لأنه شحيح، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**ولا تمهل** ـ يعني: لا تؤخر ـ **حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان كذا**»[1]؛ أي: للوارث، وهذا يقع كثيراً، فإنه إذا أيس الإنسان من حياته ذهب يوصي، فيقول: أوصيت بكذا لأعمال البر، وبالصدقة على الفقراء، وطبع الكتب، وبناء المساجد، مع أنه قبل أيام لم يوص؛ لأنه الآن آيس من حياته، وعلم أنه مفارق لا محالة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ الواو في قوله: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ﴾: حرف عطف، ﴿وَلَا﴾ زائدة للتوكيد، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ معطوفة على قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ﴾، والمعنى: وليست التوبة أيضاً للذين يموتون وهم كفار، فإن الذين يموتون وهم كفار لا توبة لهم.

وظاهر الآية مشكل؛ لأن من مات انقطع عمله، فكيف يقول: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾؟

فنقول: المراد بذلك ندمهم يوم القيامة، حيث يندمون

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب أي الصدقة أفضل وصدقة الشحيح الصحيح، حديث رقم (١٣٥٣)؛ ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح، حديث رقم (١٠٣٢) عن أبي هريرة.

ويقولون: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧] قال الله تعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨]، فتوبة الكافر بعد الموت يراد بها: ندمه الذي يظهره يوم القيامة، فإن ذلك لا ينفعه؛ لأن وقت العمل قد انتهى، وما بقي إلا وقت الجزاء والحساب.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ المشار إليه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ هم الكفار الذين ماتوا على الكفر، أما من مات على ما دون الكفر، فهذا أمره إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، فإعداد النار إنما هو للكافرين، أما العصاة فقد يعفى عنهم ولا يدخلون النار أبداً.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن التوبة تنقطع باحتضار المرء؛ أي: بحضور الموت، لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾.

٢ ـ أن المحتضر لا عبرة بقوله؛ لأنه غير كامل الشروط.

٣ ـ أنه يشترط لصحة التوبة أن تكون في الزمن الذي تقبل فيه التوبة، وذلك قبل حضور الموت، وحينئذ يحسن بنا أن نأتي على شروط التوبة، وقد تتبعناها فوجدناها خمسة شروط:

الشرط الأول: الإخلاص لله عزّ وجل، بأن لا يكون الحامل له على التوبة إلا محبة الله والقرب منه، والخوف من عذابه، لا لينال شيئاً من الدنيا، أو يدفع عنه مذمة في الدنيا، إنما يحمله على التوبة الإخلاص لله عزّ وجل.

الشرط الثاني: الندم على ما فعل من الذنب، فإن تاب بلا

ندم؛ فتوبته: إما فاسدة؛ لعدم تمام شروطها، أو ناقصة جداً.

وقد أورد بعض العلماء على هذا الشرط إشكالاً، وهو أن الندم انفعال، والإنسان يفعل ولا ينفعل فكيف يندم؟

والجواب عن ذلك سهل جداً: فإن الندم أن يشعر بنفسه أنه أساء فيحزن، ويتمنى أن لم يكن فعل ذلك، هذا هو الندم المراد به، وهذا شيء ممكن، ولهذا أرشد النبي عليه الصلاة والسلام إلى أن الانفعال قد يملكه الإنسان، فقال: «**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[1]، مع أن الغضب انفعال، إذا وجد سببه ثار الإنسان، لكن مع ذلك يمكن أن يملك نفسه، فكذلك أيضاً بعث الانفعال ممكن.

الشرط الثالث: الإقلاع عن الذنب، فإن لم يقلع فتوبته كاذبة، وهو إلى الاستهزاء بالله أقرب منه إلى تعظيم الله، إذ كيف يقول: إنه تائب من شرب الخمر، وهو مدمن عليه؟! وكيف يقول: إنه تائب من الربا وهو مصر عليه؟! فإن هذا استهزاء بالله عزّ وجل، ولو أنك أتيت ملكاً من الملوك فقلت: أنا تائب عن سبّك، ولن أقول فيك شيئاً، لكن إذا وجد غفلة من الملك، ولو بتكليم من إلى جنبه، يقول ـ ولو بالإشارة ـ إن هذا ملك لا خير فيه، فهذا ليس توبة أبداً، فكيف بملك الملوك عزّ وجل، كيف تتوب إلى الله من ذنب وأنت مصر عليه؟! إن هذا لا يمكن.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، حديث رقم (٥٧٦٣)؛ ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب من فضل من يملك نفسه عند الغضب، حديث رقم (٢٦٠٩) عن أبي هريرة.

وقول بعضهم: وإذا كان الذنب حقاً لآدمي فلا بد من إيصاله إليه؟!

فنقول: هذا الشرط لا يخرج عما قلنا، وهو الإقلاع عن الذنب، فإذا كان ذنبك حقاً لآدمي، وأصررت على إضاعة هذا الحق، فأنت لم تقلع عن الذنب، فإن كان حق الآدمي مالاً فأعطه إياه، وإن كان دماً فأعطه إياه، وإن كان عرضاً فاستحلله منه.

وإن كان مالاً وقد مات الذي ظلمته فيه، فابحث عن ورثته، فإن لم تجد وتعذر عليك؛ فتصدق به، وحينئذ تتصدق به عن الورثة؛ لأنه إذا مات الميت انتقل حقه إلى الورثة، فأنت إذاً تتصدق به عن الورثة، مع الاستغفار من ظلم الميت، ولذلك؛ لو أنك أديت هذا المال إلى الورثة، فإنك لم تتب توبة تامة حتى تستغفر الله للميت؛ لأنك حقيقة حُلْتَ بينه وبين ماله.

وإذا كان الحق دماً، مثل أن يكون رجل قد دهس شخصاً وهرب خوفاً من السلطة، ثم ندم وتاب، فماذا يصنع؟

الجواب: يذهب إلى أوليائه، ويقول: هذا الذي حصل، وكذلك لو قتله عمداً وندم، فإنه يذهب إلى أوليائه ويقول: لقد قتلت صاحبكم عمداً.

وإذا كان قد ظلم شخصاً في عرضه، فقد قال بعض العلماء: لا بد أن يستحله، بأن يذهب إليه ويقول: إني اغتبتك فحللني، وقد اعترض بعض العلماء على ذلك فقال: إنه إذا ذهب وقال له: إني اغتبتك فحللني، ربما تأخذه العزة بالإثم ويقول: لا. فالتفصيل في ذلك هو: أنه إذا كان قد علم بأنك اغتبته؛

وجب عليك أن تستحله، أما إذا لم يعلم، ولا تخشى أن يعلم، فإنه يكفي أن تستغفر له، كما جاء في الحديث: «**كفارة من اغتبته أن تستغفر له**»[١]، فتستغفر له، وتذكره بخير في المجالس التي اغتبته فيها.

الشرط الرابع: أن يعزم على أن لا يعود في المستقبل إلى ما تاب منه، فإن كان قد تاب، وندم وأقلع، لكن في قلبه أنه لو تمكن من فعل الشيء مرة ثانية لفعله، فإن هذا لا تصح توبته؛ لأنه لم يعزم على أن لا يعود، إذاً لا بد أن يعزم على أن لا يعود، فإن كان يحدث نفسه بأنه لو حصل له هذا الذنب لعاد إليه، فإنه لم يتب.

وهناك فرق بين قولنا: «العزم على ألا يعود»، وبين قولنا: «من الشروط ألا يعود»، فإن عدم العود ليس بشرط، بل الشرط أن يعزم على ألا يعود، والفرق بينهما ظاهر؛ لأنه إذا قلنا: يشترط العزم على ألا يعود، وعزم على ألا يعود، ثم سولت له نفسه بعد ذلك فعاد، فإن التوبة الأولى صحيحة، لكن قولنا: يشترط ألا يعود، فإن معنى ذلك أنه إذا عاد بعد ذلك فتوبته غير صحيحة، وهذا غير صحيح، ولذلك فإن العلماء يقولون: يشترط أن يعزم على ألا يعود.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقت تقبل من التائب، فإن كانت في وقت لا تقبل منه ـ كما لو حضر الأجل، أو طلعت الشمس من مغربها ـ فإن التوبة لا تقبل، قال النبي ﷺ: «**لا تنقطع التوبة حتى تنقطع الهجرة، ولا تنقطع الهجرة حتى تطلع الشمس**

---

(١) مسند الحارث (٢/ ٩٧٤) (١٠٨٠) عن أنس.

من مغربها»[١]، فإذا تاب الإنسان عند طلوع الشمس من مغربها، أو عند حلول الأجل؛ لم تقبل منه، فإن فرعون لما أدركه الغرق آمن، وقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]؛ أي: الله عزّ وجل، لكنه لم يصرح باسم الله، وإنما قال: ﴿ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، مبالغة في التذلل، واتباعه لبني إسرائيل بعد ما كان مستعلياً ومتكبراً عليهم، فالآن صار تابعاً لهم، قال: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] أي: من المسلمين لله، فقيل له: ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١﴾ [يونس: ٩١].

مسألة: اختلف العلماء رحمهم الله هل يشترط لقبول التوبة أن ينزع عن جميع المعاصي أم لا يشترط؟

فمنهم من قال: يشترط أن ينزع عن جميع المعاصي، وأن من تاب من الزنا وهو يرابي، فإن توبته من الزنا لا تقبل؛ لأن التوبة الحقيقية هي التي تملأ قلب العبد خشية لله وتعظيماً له، والذي يتوب من ذنب وهو مصر على الآخر، لا يتحقق ذلك في حقه.

ومنهم من فصل وقال: إن كان الذنب الذي أصر عليه من جنس الذنب الذي تاب منه، فإنه لا تقبل توبته، وإن كان من غير جنسه، فإنها تقبل، مثال ذلك: لو تاب من النظر إلى النساء ـ النظر المحرم ـ، ولكنه يلمس النساء لمساً محرماً، فهنا الجنس واحد، فلا تقبل توبته من النظر المحرم؛ لأنه يمارس جنسه،

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت؟ حديث رقم (٢٤٧٩)؛ وأحمد (٤/ ٩٩) عن معاوية بن أبي سفيان.

فالنفس إذاً متعلقة بهذا الجنس من الذنوب، ولم تقلع عنه، أما إذا كان من غير جنسه فإنها تقبل، فلو تاب من الربا وهو يزني، أو يشرب الخمر، فتوبته من الربا صحيحة مقبولة، ولو تاب من شرب الخمر وهو مصر على الزنا، فتوبته منه مقبولة.

والصحيح أن التوبة من الذنب تقبل مع الإصرار على غيره، لكنه لا يستحق التائب منه وصف التائبين الوصف المطلق، وإنما هو تائب توبة مقيدة بهذا الذنب المعين، فوصفه بالتوبة من هذا الذنب وصف مقيد؛ لأن هذا هو العدل، والله عزّ وجل أمر بالعدل والقسط، وهو سبحانه أهل العدل والقسط، وهذا القول هو الصحيح.

وقد قال ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين عندما تكلم عن هذه المسألة، قال: «وبعد: فإن هذه المسألة لها غور بعيد ـ أي: أنها ليست بالأمر الهين الذي تلقى أحكامها على اللسان ـ ؛ لأن لها تعلقاً بالقلوب، والقلوب حساسة كالكرة على سطح الماء، تهتز ولا يمسكها شيء»، فالمسألة في الحقيقة لها غور عظيم، وأصل التوبة: تعظيم الله عزّ وجل، وإجلاله، والخشية منه، والخوف منه، فإذا تحقق للإنسان هذا؛ هانت عليه التوبة، وأما مع عدم ذلك فإن التوبة عليه صعبة المنال.

وهنا إشكال: وهو أنه إذا كانت التوبة لا تنفع عند حضور الأجل، فما الجواب عن قول الرسول ﷺ لعمه أبي طالب حينما حضره الموت: **«قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»**[1]؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قصة أبي طالب، حديث رقم (٣٦٧١)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع، حديث رقم (٢٤).

والجواب من وجهين:

الوجه الأول: أن هذه قضية عين، فكما أن أبا طالب ينتفع بشفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام دون غيره من الكافرين، فقد ينتفع بإسلامه دون غيره من التائبين في هذه الحال.

الوجه الثاني: أن النبي ﷺ لم يجزم بأنها تنفعه، بل قال: «**أحاج لك بها عند الله**»[1]، والمحاج قد تقبل حجته وقد لا تقبل، فإذا كان هذا الحديث لا يدل على أنها تقبل جزماً، فإنه من المتشابه الذي يحمل على المحكم، وهو أن التوبة في هذه الحال لا تقبل.

مسألة: قد يترك بعض الناس الربا، أو شرب الخمر، أو الزنا، ليس توبة إلى الله، وإنما مللاً من هذا العمل، فهل يوصفون بالفسق؟

الجواب: أن نقول: أما باطناً فهم فساق، وأما ظاهراً فلا؛ لأننا نحكم بالظاهر، حتى وإن وجدت قرينة؛ والدليل على ذلك: حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه حين لحق المشرك، فلما أدركه ليقتله قال المشرك: لا إله إلا الله، فقتله متأولاً، فلما بلغ النبي ﷺ قال له: «**أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟**» قال: نعم، قال: «**قتلته؟**» قال: نعم، قال: «**فما تفعل بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة**»؟! فما زال يكرر عليه حتى قال: تمنيت أني لم أكن أسلمت بعد[2]، فنحن الآن نوافق أسامة رضي الله عنه على

---

(١) الحديث السابق.

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات، حديث رقم (٤٠٢١)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل =

أن الرجل قالها تعوذاً من القتل، لكن مع ذلك لم يجعل النبي ﷺ القرينة مانعة من الحكم بالظاهر.

٤ ـ أن الكافر لو تاب يوم القيامة لم تنفعه توبته، لقوله: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

٥ ـ وجوب المبادرة بالتوبة؛ لأن الله علق قبولها على أمد لا يُعلم، فإذا كان كذلك وجب المبادرة بها.

٦ ـ أن الله عزّ وجل أعدَّ للكافرين الذين يموتون على الكفر عذاباً مؤلماً.

٧ ـ بطلان قول من يقول: إن أهل النار يتكيفون بها ويتأقلمون عليها، فلا يضرهم حرها؛ لأن الله تعالى قال: ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، ولو كان الأمر كما ذكروا لم يكن مؤلماً لهم.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ والخطاب إذا ابتدئ بالنداء فإنه دليل على أهميته، والعناية به، وإذا صدر بهذا الوصف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كان دليلاً على أن امتثاله من مقتضيات الإيمان، وفيه دليل على اتخاذ الاسم المغري بالشيء؛ أي: الحاث على الشيء، لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فكأنه يغريهم على قبول ما

= الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، حديث رقم (٩٦) عن أسامة بن زيد.

سيوجه إليهم؛ لأن الوصف إذا ذكر على وجه يهيج الإنسان، كان هذا إغراءً به، كما تقول: يا أيها الكريم! لا تبخل على الضيف، يا أيها الرجل! لا تغلبك النساء، فإن هذا يوجب على الإنسان أن يأخذه الحماس حتى يمتثل.

وقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ نفي الحل يقتضي التحريم، والمحلل والمحرم هو الله عزّ وجل، ولهذا يعبر الله سبحانه أحياناً بالتحريم، وأحياناً بنفي الحل، ففي هذه الآية قال: ﴿لَا يَحِلُّ﴾، وسيأتي بعدها بآيات التصريح بالتحريم في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

وقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ ﴿كَرْهًا﴾ أي: كُرهاً عليهن، بحيث لا يرضين بذلك وأنتم تجبرونهن على هذا الميراث.

وليس المعنى أنهم يرثونهن كما يرثون المال، بمعنى أنهم يسترقونهن، بل المعنى: أنهم يخلفون أزواجهن فيهم دون تملك؛ لأنهم لا يرثون النساء كما يرثون المال، بل يخلفون أزواجهن فيهن، فسماه الله ميراثاً؛ لأن كل من خلف غيره في شيء فهو وارث له، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠]، مع أن الله عزّ وجل مالك لها من قبل، ومالك لمن عليها، لكنه يفني من عليها ويبقى هو سبحانه، وقال تعالى عن زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥ ـ ٦] أي: يخلفني في قومي في العلم والنبوة، وليس المعنى أنه يرثهم ميراث مال؛ وذلك لأن الأنبياء لا يُورثون.

وقوله: ﴿كَرْهًا﴾ هذا القيد لبيان الواقع، وإذا كان لبيان

الواقع فلا مفهوم له، ولا يدل على أنهن لو رضين أن يخلف الرجال أزواجهن فإن ذلك جائز؛ لأن هذا لا يجوز إلا بعقد نكاح شرعي، فلا يحل أن يرثوا النساء لا كرهاً ولا اختياراً، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل جاء ورثته من بعده ومنعوا المرأة أن تتزوج إلا بمن يرضون هم، وإذا كانوا من بني عمه اختارها أحدهم فتزوجها قهراً عليها، وهذا لا شك ظلم وعدوان، فلهذا نهى الله عنه فقال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ هذه مسألة أخرى تشبه ما سبق، فقوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أي: لا تمنعوهن حقوقهن فتلجئوهن إلى المخالفة، ﴿لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾، وهذا يقع كثيراً من بعض الأزواج الظلمة، فيعضل زوجته ويمنعها، فإذا ضاقت به ذرعاً اضطرت إلى أن تفتدي نفسها منه بمال، فيكون هذا أخذاً لما أعطاها من قبل، إما الكل وإما البعض.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ فلو عضلها ليأخذ كل ما أعطاها فإنه يدخل في النهي.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ وفي قراءة «مُبَيَّنَة» أي: إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فلكم أن تعضلوهن، والفاحشة المبينة فيها أقوال:

قيل: إنها الزنا، فإذا زنت فله أن يعضلها من أجل أن تفتدي منه؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يبقى مع زوجة زانية، ولا تطيب نفسه أن يطلقها هكذا فيذهب ماله، فله في هذه الحال أن

يعضلها ويمنعها حقها من أجل أن تخالع وتفتدي نفسها منه.

وقيل: إن المراد بالفاحشة المبينة بذاءة اللسان، بأن تكون سليطة اللسان عليه وعلى أهله وعلى الجيران، فإن ذلك مستفحش عرفاً، فإذا حصل من المرأة هذا فله أن يعضلها حتى تفتدي منه.

وقيل: المراد سوء العشرة، بحيث لا تعطيه حقه على وجه الرضا والانبساط والانشراح، فإذا دعاها إلى فراشه قامت تتقهقر، وتتمنع، ويحمر وجهها ويصفر، ولا تجيبه، وإذا أمرها بحاجة صارت تتكره لبذل هذه الحاجة التي يجب عليها أن تبذلها، فهذا من الفاحشة المبينة.

والقول الأخير يشمل القولين قبله؛ لأنه لا شك أن من سوء العشرة أن تخدع المرأة زوجها فتزني والعياذ بالله، ولا شك أيضاً أن من سوء العشرة بذاءة اللسان، وطول اللسان، فعليه يكون المعتمد: أن المراد بالفاحشة المبينة سوء العشرة بأي شيء كان، سواء كان مما يستفحش شرعاً؛ كالزنا، أو عرفاً، مع أن الزنا يستفحش شرعاً وعرفاً.

وقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾ أي: النساء، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما يتعارفه الناس ولا ينكره الشرع، والمعاشرة مفاعلة، فهي تكون من الجانبين؛ لأن الغالب أن الفعل الذي يكون مصدره مفاعلة أنه واقع من الجانبين، مثل: جاهد مجاهدة، قاتل مقاتلة، ياسر مياسرة، عاسر معاسرة، عاشر معاشرة، وقد لا يكون من الجانبين؛ كسافر، فإن السفر لا يكون إلا من واحد.

ومعنى قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: ليعاشر كل منكم

الآخر بالمعروف؛ أي: بما يتعارفه الناس ولا ينكره الشرع، فإن كان مما يتعارفه الناس ولكن الشرع ينكره فإنه لا يجوز، وليس بمعروف بل هو منكر، والمراد: المعاشرة بالقول والفعل والبذل.. بالقول بأن يلين لها القول، وتلين له القول، وبالفعل: بالخدمة وما أشبهها، وبالبذل: بذل النفقات؛ من كسوة، وطعام، وشراب، ومسكن، ولا يلزمها قضاء دينه، ولا يلزمه قضاء دينها، اللهم إلا أن تستدين لنفقة واجبة عليه، فإن استدانت لنفقة واجبة عليه وجب عليه قضاء هذا الدين؛ لأنه لازم له.

وقوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: أنه قد يكره الإنسان الزوجة فلا يعاشرها بالمعروف؛ لأن من طبيعة الإنسان أنه إذا كره شيئاً لا ينقاد له، ولا يفرح به، فيقول الله عزّ وجل: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ أي: لسوء أخلاقهن، أو لغير ذلك ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، وهذا إشارة إلى أن نصبر عليهن؛ أي: إن كرهتموهن فاصبروا ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لا تتوقعونه، ومن الخير أن يقدر الله بينهما ولداً صالحاً، فإن هذا من أعظم الخيرات، ومن الخير أيضاً أن يقلب الله أحوالها وصفاتها التي كان يكرهها من أجلها إلى أحوال وصفات يرضاها، وحينئذ يطمئن إليها ويعيش معها عيشة حميدة.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تحريم إرث النساء على وجه يكرهنه، كما يجري في الجاهلية، لقوله:

﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾.

٢ ـ أن نفي الحل يراد به التحريم؛ وذلك لأن نفي الشيء إثبات لضده.

٣ ـ أنه لو ورث المرأة على وجه ترضى به فلا بأس، لكنه مقيد برضا الشرع، فلو تزوج بعد موت ابن عمه زوجة ابن عمه، فإن ذلك لا بأس به، ولو تزوج زوجة أخيه بعد موته برضاها وبعقد شرعي فلا بأس.

٤ ـ تحريم عضل المرأة بغير حق؛ لتفتدي نفسها، لقوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾.

٥ ـ الإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يكون الخلع بأكثر مما أعطاها، لقوله: ﴿بِبَعْضِ﴾، ولكن قد يناقش في هذه الفائدة فيقال: إن الله نهى عن العضل ليذهب ببعض ما آتاها؛ لبيان أن العضل لأخذ شيء منها ولو قل حرام، وليس فيه التعرض بما إذا أخذ أكثر أو أقل، وقد اختلف العلماء هل يجوز للإنسان في الخلع أن يأخذ أكثر مما أعطاها أم لا يجوز؟ المسألة فيها ثلاثة أقوال: الجواز، والتحريم، والكراهة.

٦ ـ تنويع الخطاب، لقوله تعالى في أول الآية: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾، وبعد ذلك قال: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ هذا إذا جعلنا: ﴿لَا﴾ ناهية، فإن جعلناها نافية للتوكيد، وجعلنا تقدير الآية: ولا أن تعضلوهن لتذهبوا، صار الكلام على نسق واحد، والآية محتملة لأن تكون ﴿لَا﴾ ناهية، وقوله: ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ مجزومة بلا الناهية، وأن تكون «الواو» حرف عطف، و ﴿لَا﴾ زائدة للتوكيد، وقوله: ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ معطوفة على قوله: ﴿أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ﴾، والمعنى: ولا أن تعضلوهن، فإن كان الأول؛ ففيه

اختلاف في الأسلوب، وإن كان الثاني؛ فالأسلوب على نسق واحد، ولكن لا شك أنه من الفصاحة والبيان والبلاغة أن يتنوع الأسلوب والخطاب إذا اقتضت البلاغة ذلك.

٧ ـ أن الصداق للمرأة، لقوله: ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي: أعطيتموهن، وهو كذلك، وقد سبق في أول السورة ما هو واضح جداً بأن الصداق حق للمرأة في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤]، وعلى هذا فإذا كانت مكلفة رشيدة، فالأمر إليها، فيما لو أسقطت عن زوجها بعض المهر أو كل المهر، ولا اعتراض لأحد عليها، وأيضاً لا يحل لأحد أن يأخذ من المهر شيئاً؛ لا اختياراً، ولا غصباً، إلا بعد أن يتم العقد، وتملك الزوجة مهرها، فلها حينئذ أن تتبرع بما شاءت لمن شاءت، إذا كانت أهلاً للتبرع.

٨ ـ أن سوء العشرة مبيح لعضل المرأة لتفتدي نفسها، تؤخذ من قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي: فلكم أن تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن.

٩ ـ وجوب معاشرة المرأة بالمعروف، لقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

١٠ ـ اعتبار العرف في إحالة الحكم عليه، لقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وقد أحال الله تعالى على العرف في مواضع متعددة، مثل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ولكن هذا المعروف ـ الذي هو العرف ـ لا يعتمد ولا يرجع إليه إذا كان مخالفاً لمعروف الشرع؛ لأن الشرع مُحكَّم وحاكم على العادة.

١١ ـ الإشارة إلى أنه ينبغي للزوج أن يصبر إذا رأى من زوجته ما يكره، فإن العاقبة قد تكون حميدة، لقوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

١٢ ـ أنه وإن كان الحكم ورد في كراهة الزوجة، فالعلة عامة، فكثيراً ما يكره الإنسان الشيء ويجعل الله عزّ وجل عاقبته حميدة نافعة له، وهذا أمر مشاهد محسوس، وقد تكون العاقبة غير حميدة، لكن الغالب أن وعد الله يتحقق.

فإن قال قائل: ﴿عَسَى﴾ هنا هل هي للتحقق أو للرجاء؟

فنقول: قال العلماء: «عسى» من الله واجبة، فإذا قال الله: «عسى» فهي واجبة، والأمر واجب ويقع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٩]، وذلك لأن الرجاء في حقه عزّ وجل غير وارد، إذ أنه هو المتصرف المدبر، والرجاء إنما يكون ممن لا يملك الشيء فيرجوه من غيره، وعلى هذا فتكون الآية وعداً من الله أن من صبر ابتغاء وجه الله على ما يكرهه، واحتساباً لثواب الله، بأن يجعل الله فيه خيراً كثيراً، فإنه يتحقق له هذا الوعد، فإن تخلف هذا الوعد فلوجود مانع، وإلا فإن وعد الله حق.

١٣ ـ إثبات وصف الله عزّ وجل بالجعل، لقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، والجعل: كوني وشرعي، وأكثر ما في القرآن هو الشرعي، قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٩٧]، مع أن هذا يحتمل أن يكون جعلاً كونياً، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] أي: ما جعلها

شرعاً وإن كان قد جعلها قدراً، وكذلك قوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥].

١٤ ـ جواز ثبوت الكراهة بين الرجل المسلم وأخيه، لقوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، فأثبت الله الكراهة شرطاً وتحقيقاً، ولا شك أن هذا وارد، وهو أن الإنسان قد يكره أخاه المسلم، ولكنه مأمور إذا وجد من قلبه كراهة لأخيه المسلم أن يفكر لأي سبب كرهه، فإذا كان لأمر شرعي فلينصح أخاه عن هذا الشيء حتى يزول؛ فتزول الكراهة، وإذا كان لغير أمر شرعي بأن وجد أنه يكره هذا الرجل كراهة عادية، لا لخلل في دينه أو خلقه، فعليه أن يعالج هذا الداء حتى يزيل عن قلبه كراهة إخوانه؛ لأن من أوثق عرى الإيمان المحبة في الله.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ [النساء: ٢٠].

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾ أي: إن اخترتم، فالإرادة هنا بمعنى: المشيئة والاختيار.

﴿ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ أي: أخذ زوج ﴿مَّكَانَ زَوْجٍ﴾؛ أي: إن أردتم أن تطلقوا الزوجة الأولى، وتأخذوا بدلاً عنها زوجة جديدة، ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ الآية مبهمة، لكن ما دام الأمر فيه بدل، فإن المبدل منه هو الأولى، والمعنى: وآتيتم إحداهن وهي الأولى، على أنه يصح أن تكون الثانية، بأن يتزوج

ثانية ولكن لا يرغب فيها، ويريد أن يطلقها، فتكون الآية عامة لهذا ولهذا.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْتُمْ﴾ بمد الهمزة، بمعنى: أعطيتم، أما قصر الهمزة «أتيتم» فهو بمعنى: جئتم، وهي تنصب مفعولين، ليس أصلهما المبتدأ والخبر، وفي هذه الآية المفعول الأول ﴿إِحْدَىٰهُنَّ﴾، والثاني: ﴿قِنطَارًا﴾.

فإن قال قائل: ما هي العلامة على أنها نصبت ما ليس بمبتدأ ولا خبر؟

فنقول: العلامة: أنه إن صح الإخبار بالثاني عن الأول؛ فأصلهما المبتدأ والخبر، وإن لم يصح؛ فليس أصلهما المبتدأ والخبر، فهنا لو قيل: «هن قنطار» فإنه لا يصح.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، وإنما ربط الجواب بالفاء لأنه طلب ﴿فَلَا تَأْخُذُوا﴾، و«لا» ناهية، والدليل على أنها ناهية جزم الفعل، وإذا وقع الجواب جملة طلبية وجب اقترانه بالفاء، وقد نظم في ذلك بيت من الشعر:

اسمية طلبية وبجامد ... وبما وقد ولن وبالتنفيس

وقوله: ﴿مِنْهُ﴾ أي: مما آتيتموهن ﴿شَيْئًا﴾ نكرة في سياق النهي، فهي تعم القليل والكثير.

وقد نهى الله عزّ وجل عن أخذ شيء مما أعطيناهن؛ لأن لها المهر بما استحل من فرجها، كما سيأتي في الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ٢١]، وقد

ثبت عن النبي ﷺ أن استحلال الفرج موجب للمهر كاملاً.

وقوله تعالى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ، فإن الله تعالى يوبخ هؤلاء الذين يحاولون أن يأخذوا منه شيئاً، وينكر عليهم.

وقوله: ﴿بُهْتَٰنًا﴾ أي: كذباً؛ لأنكم لم تستحقوه.

وقوله: ﴿إِثْماً مُّبِيناً﴾ أي: عقوبة، أو معصية بينة واضحة، فمبين هنا بمعنى: بيّن، وإن كانت من الرباعي؛ لأن «أبان» الرباعي يجوز أن يكون لازماً ومتعدياً، فقوله: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ من «أبان» اللازم؛ أي: إثماً بيِّناً.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

يقول الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ ﴿كَيْفَ﴾ استفهام للتعجب والإنكار.

وقوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ الجملة هنا في موضع نصب على الحال، والمعنى: والحال أنه قد أفضى بعضكم إلى بعض؛ أي: انتهى بعضكم إلى بعض بما لا ينتهي إليه إلا الزوج.

وقوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ النون في ﴿وَأَخَذْنَ﴾ ليس فيها ألف؛ لأنها نون نسوة، وليست ضمير متكلم، فإنها لو كانت ضمير متكلم لكان: «وأخذنا»، فقوله: ﴿وَأَخَذْنَ﴾ أي: النسوة.

قوله: ﴿مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ هنا إشكال من جهة أن ما

سبقه إما مفرد، وإما مثنى، فكيف عاد الضمير جمعاً لما سبق؟

والجواب عن ذلك أن يقال: إن ما سبق من المفرد أو المثنى يراد به الجنس، وإذا أريد به الجنس؛ صح أن يُجمع باعتبار الجنس.

وقوله: ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ الميثاق: هو العهد، والغليظ: هو المشدد، أو الشديد؛ أي: أخذن منكم ميثاقاً غليظاً وذلك بعقد النكاح، فإن عقد النكاح يستلزم أنه متى ملك العوض ملك المعوض، فأنت عندما ملكت البضع، واستحللت منها ما لا يستحله إلا الزوج؛ وجب لها المهر الذي هو العوض، وهو عهد وميثاق غليظ لا يوجد له نظير من العقود، فإن أشد ما يكون من العقود وأخطر ما يكون منها هو عقد النكاح؛ لأنه يترتب عليه أشياء كثيرة؛ كثبوت المحرمية، ولحوق النسب، ووجوب النفقة، وغير ذلك من الأحكام الكثيرة، ولهذا احتاط له الشرع ما لم يحتط لغيره، فلا بد فيه من ولي، ولا تستقل به المرأة بنفسها، مع أن بيع مالها ولو كثر تستقل به إذا كانت مكلفة رشيدة، ولا بد فيه من شهود عند كثير من أهل العلم، وعقد البيع لا تجب فيه الشهادة، ولا بد فيه من الخلو من الموانع، وبقية العقود قد تنعقد مع مانع لكن مع الإثم، أما هذا فلا، ثم عند التحلل منه وفسخه ليس هو كغيره من العقود متى شاء فسخ، بل لا بد له من قيود، فلا يفسخه في حيض، ولا يفسخه في طهر جامع فيه، ثم إذا فسخ فإنه يترتب على ذلك آثار؛ كالعدة وغيرها، إذاً: فهو أخطر العقود، ولهذا سماه الله: ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

من فوائد الآيتين السابقتين:

١ ـ جواز التزوج بثانية، ولو كان يريد أن تكون بدلاً عن الأولى، لقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ أي: لو أراد أن يتزوج امرأة لتكون بدلاً عن الأولى تخدمه، وتقوم بحوائجه؛ فلا بأس.

٢ ـ جواز كثرة المهر، لقوله: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ والقنطار قيل: إنه ألف مثقال من الذهب، وقيل: إن القنطار ملء جلد ثور من الذهب، وهذا كثير، فهل نقول: إن الآية تدل على جواز الزيادة في المهر؟ أم نقول: إن هذا من باب المبالغة؟ أي: لو آتيتم إحداهن هذا المال الكثير فلا تأخذوا منه شيئاً ولو قليلاً؟

الجواب: إن صحت الرواية عن عمر رضي الله عنه أنه خطب الناس، وقال: «لا يزيد أحد على صداق رسول الله ﷺ إلا جعلته في بيت المال»، فقامت امرأة فقالت: يا أمير المؤمنين! كيف تقول هذا، والله يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ فقال: «امرأة أفقه منك يا عمر»، وفي لفظ: «أصابت امرأة وأخطأ عمر»[1]، فعدل عن قوله: فإن صحت هذه القصة فإن قوله: ﴿قِنطَارًا﴾ لا يراد به المبالغة التي لا حقيقة لها، وإنما يراد به الكثرة الحقيقية، والأصل أنه يجوز أن يزاد في المهر، ولو بلغ قناطير؛ لأنه عقد بين متعاقدين ولا بد فيه من الرضا، فإذا لم ترض الزوجة وأولياؤها إلا بالكثير؛ فالأمر إليهم.

ولكن يقال: إن الأفضل عدم المغالاة في المهور، وكلما

---

(١) وقد ذكره القرطبي في التفسير (٥/ ٩٩)؛ وابن كثير (٢/ ٢٤٤)؛ والرازي (٥/ ١٢٠)؛ والسيوطي في الدر المنثور (٣/ ٦٥)، وقال الحافظ ابن كثير في جامع المسانيد، مسند عمر بن الخطاب (٢/ ٥٧٣): فيه انقطاع.

خف المهر كان أكثر لبركة النكاح، وأحسن عاقبة، وأضرب لذلك مثلاً: إذا كان المهر قليلاً، ولم يوفق بين الزوج وزوجته، فإنه من السهل عليه أن يطلقها، سواء بفداء أو بغير فداء، فإن طلب الفداء فإنما يطلب شيئاً يسيراً، وإن لم يطلب الفداء، فارقها وانتهى منها، لكن لو أنه أنفق عليها شيئاً كثيراً، ثم ذهب يستدين من فلان وفلان، فركبه الدين الذي هو ذل في النهار، وهم في الليل، فماذا ستكون قيمة هذه المرأة عنده وقد كانت سبباً لهذا كله؟

سوف يكرهها، ويقول: هذه التي أدت إلى لحوق الدين علي، ثم إذا لم يرد الله التوفيق بينهما، فلن يسهل عليه أن يطلقها إلا بأن ترد إليه مهره، وهي قد أنفقت المهر، وذهب يميناً وشمالاً، فيصعب عليها جداً أن تدرك ذلك، فلهذا لا شك أن فوائد تقليل المهر كثيرة، ولهذا جاء في الحديث: «**أعظم النكاح بركة أيسره مؤونة**»(١).

٣ ـ تحريم أخذ الزوج شيئاً من المهر ولو قليلاً، لقوله: ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾، وكلمة: ﴿شَيْئًا﴾ نكرة في سياق النهي، فتعم القليل والكثير، ولكن لو رضيت الزوجة بأن يأخذ من مهرها شيئاً فالحق لها، إذا كانت مكلفة رشيدة، لقوله تعالى: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

٤ ـ الإنكار الشديد على من أخذ شيئاً من مهر امرأته بغير رضاها، لقوله: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾.

---

(١) هذا اللفظ لأحمد (٦/ ٨٢، ١٤٥)، وهو عند الطبراني في «الأوسط» (٩/ ١٧٣) بلفظ: «أخف النساء صداقاً أعظمهن بركة»، وهو عند النسائي في «الكبرى» (٥/ ٤٠٢)؛ والحاكم (٢/ ١٩٤).

٥ ـ أن من كمال البلاغة أن يأتي المتكلم بأبشع صورة؛ تنفيراً مما يريد التنفير عنه، لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، والعقل يقتضي أنه مع هذا الإفضاء يرجع كل من المتعاقدين إلى ما كان عليه، فالمرأة ترجع بمهرها، والزوج قد جاءه عوضه، وهو استحلال فرجها.

٦ ـ الإشارة إلى ستر ما بين الزوجين، لقوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، وهذا الإفضاء معروف أنه إفضاء سري، ولهذا فإن الذي يفشي السر فيما كان بينه وبين زوجته من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة.

٧ ـ أن العقود عهود، لقوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، ولا شك أن العقود عهود، وعلى هذا فيدخل الوفاء بالعقد تحت قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١]، وتحت قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، والوفاء بالعقود يعم الوفاء بأصل العقد وما أضيف إليه من شرط وصفة؛ لأن الشروط التي تشترط في العقود هي من أوصاف العقود، فإذا وجب الوفاء بالأصل وجب الوفاء بالصفة، ويتفرع على هذا التقرير: أن في الآية دلالة على وجوب الوفاء بالشروط في العقود، لكن يستثنى من ذلك ما منع الشرع منه، فإذا منع الشرع من شرط، حرم اشتراطه، وحرم الوفاء به، مثل أن يشترط البائع على المشتري ولاء العبد الذي باعه عليه، فهذا شرط باطل لا يصح، أبطله النبي ﷺ علناً، ومثل أن يشترط البائع على مشتري الأمة أن يطأها لمدة شهر، فإن هذا الشرط باطل؛ لأنه لما باعها انتقل الملك إلى المشتري، فوطء البائع

لها ـ لو اشترط أن يطأها وليست ملكاً ـ له من باب الزنا.

فإن اشترط بائع الأمة أن تخدمه لمدة شهر مثلاً، فلا بأس؛ لأن الخدمة تجوز من ملك اليمين وغيره.

٨ ـ غلظ عقد النكاح، وأنه عقد يجب أن يهتم به، لقوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، ويدل على هذا قوله تعالى في الطلاق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [١] أي: اضبطوها بالحساب، لكنه لم يقل: بالحساب؛ لأنه كان من عادتهم أن يضبطوا الشيء بالحصى، فإذا جاء قوم أخذوا حصى بعددهم من أجل الضبط، وعلى هذا جاء قول الشاعر:

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكاثر

أي: أن الحصى الذي يعرف به عدد القبيلة إذا كانت كثيرة فيه فائدة، ولهذا قال: وإنما العزة للكاثر؛ أي: لمن يكثر غيره، ويفوق غيره في الكثرة.

إذاً: هذه الآية الكريمة تفيد خطر عقد النكاح، وأهميته، وأنه يجب أن يعتنى به، ويحتفظ به، وبشروطه، وكل ما يلزم فيه؛ حتى لا يقع الإشكال بين الرجل وزوجته، وتحصل أمور لا تحمد عقباها.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: ٢٢].

صلة هذه الآية بما قبلها واضحة؛ لأن الله قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾، ومن جملة النساء زوجات الآباء، التي يخلفها الأب بعد موته، فبين الله عزّ وجل أن زوجات الآباء لا تحل فقال: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾

قوله: ﴿مَا نَكَحَ﴾ النكاح في القرآن الكريم يطلق على العقد؛ وعلى الوطء، فإذا وقع على أجنبية فالمراد به العقد، أما إذا وقع على زوجة الإنسان فالمراد به الوطء، فإذا قيل: نكح زوجته، فهو الوطء، وإذا قيل: نكح بنت فلان، فهو العقد.

ففي قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، فهل المراد بالنكاح هنا العقد، أو أن المراد به الجماع؟

الجواب: المراد به الجماع؛ لأن هناك قرينة تدل على ذلك، وهي قوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾، ولا يمكن أن يصدق عليه أنه زوج إلا بعقد، ولهذا لا بد أن يكون العقد صحيحاً حتى تتحقق الزوجية، أما فيما عدا ذلك فالمراد به العقد، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾.. ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٢١].

وقوله تعالى: ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ بناء على ما قررناه يكون المراد بالنكاح هنا: العقد؛ أي: ما عقدوا عليهن، سواء حصل الدخول أم لم يحصل، وسواء حصل الوطء أم لم يحصل.

وقوله: ﴿ءَابَآؤُكُم﴾ جمع أب، وهو شامل للأب الأدنى ومن فوقه، وهم الأجداد، وشامل للجد من قبل الأب ومن قبل الأم؛ وذلك لأن النكاح يكفي في تحريمه أدنى ملابسة، بخلاف

الإرث والنفقات، فإنه في باب الإرث والنفقات لا يدخل في الآباء الأجداد من جهة الأم، أرأيت الرضاع مثلاً فإنه يحرم في النكاح، لكنه لا يوجب أي شيء مما يوجبه النسب، من نفقة، أو تحمل دية، أو صلة، أو غير ذلك.

إذاً: المراد بالآباء: الآباء الأدنون والأعلون، من قبل الأب ومن قبل الأم.

وقوله: ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ هذا بيان لـ«ما» الموصولة، وذلك أن «ما» الموصولة ـ وكذلك أسماء الشرط ـ مبهمة تحتاج إلى بيان، فيأتي في الغالب البيان بعدها مُصدّراً بـ«من».

وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ﴿إِلَّا﴾ هنا أداة استدراك، وليست أداة استثناء، فهي بمعنى «لكن»، ويعبر بعض العلماء عن مثل هذا بأنه استثناء منقطع، ويعبر آخرون بأن ﴿إِلَّا﴾ هنا بمعنى «لكن»، وليست استثناء أصلاً؛ لأن الاستثناء لا بد أن يكون المستثنى قد دخل في المستثنى منه، ثم أخرج، والاستثناء المنقطع لا يصدق عليه ذلك.

وعلى هذا: فإذا جاء الاستثناء المنقطع، فإننا نجعل ﴿إِلَّا﴾ بمعنى «لكن»، ويكون هذا من باب تناوب الحروف بعضها عن بعض.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: لكن ما مضى، فإنه لا حرج عليكم فيه، ولا يلحقكم فيه الإثم.

فإن قال قائل: ما قد سلف لن يلحقهم فيه إثم؛ لأن الحكم لم يقرر بعد، فكيف استدرك وقال: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

فالجواب ـ والعلم عند الله عزّ وجل ـ : أنه لما كان عقد

النكاح أخطر العقود، وأشدها، استثنى ما سلف؛ لئلا يظن الظان أن ما سلف ينسحب عليه الحكم الذي ثبت أخيراً، فكأنه قال: لا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء، وقد عفا الله عما سلف؛ لتطمئن النفوس، وليس معنى ذلك: أن ما سلف من العقد يبقى، ويقر عليه الإنسان، بل يجب فسخه، والتفريق بين الإنسان والزوجة التي هي زوجة أبيه؛ لأن هذا التحريم باقٍ لم يَزُل وصفه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ الضمير في: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعود على المصدر المفهوم من قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟﴾ أي: إن نكاحكم، والضمير قد يعود على المصدر المفهوم من الفعل لدلالة السياق عليه، كما في قوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، فقوله ﴿هُوَ﴾ أي: العدل المفهوم من كلمة اعدلوا.

فقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: نكاحكم ما نكح آباؤكم.

قوله: ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾ أي: والآن هو فاحشة، فعلى هذا تكون ﴿كَانَ﴾ هنا مسلوبة الزمان وإنما جاءت لتحقق هذا الأمر؛ لأن ﴿كَانَ﴾ إذا سلبت الزمان صارت للتحقيق، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤] فليس المعنى: كان فيما مضى، ولكن ثبت ثبوتاً قطعياً أنه غفور رحيم، وهنا نقول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي: ثبت فحشه.

وقوله: ﴿فَٰحِشَةً﴾ أي: في نفسه، ﴿وَمَقْتًا﴾ أي: عند الله، فنكاح ما نكح الآباء من النساء فاحشة في نفسه، تستفحشه

العقول، والشرع، وهو أيضاً مقت، والمقت أشد البغض، كما قال أهل العلم في قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٣] أي: كبر بغضاً، فالمقت أشد البغض.

وقوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ ﴿سَآءَ﴾ فعل ماضٍ من أنواع الأفعال الجامدة، فهو جامد في سياقه على هذا الوجه؛ أي: على أنه إنشاء، وإنما قيدت ذلك لأنه إذا جاء بمعنى الإساءة أو السيئة صار متصرفاً، كما قال تعالى: ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، فيسوءوا مضارع ساء، فساء إذا كان المقصود به إنشاء الذم صار فعلاً جامداً، وإذا كان المقصود به ضد ما يسر، صار متصرفاً، فإذا قلت: إن ﴿سَآءَ﴾ فعل جامد، فلا بد من قيد أن تقول: إذا كان المقصود به إنشاء الذم.

وقوله: ﴿سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً، فوصف الله عزّ وجل نكاح ما نكح الآباء بثلاثة أوصاف: أنه فاحشة، وأنه مقت، وأنه سبيل سيئ.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تحريم نكاح من نكحه الآباء الأدنون والأبعدون، لقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

٢ ـ أنه لو وقع هذا العقد لكان فاسداً؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، ولقوله ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[1]،

(١) رواه البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث رقم (٢٥٥٠)؛ ومسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم (١٧١٨) من حديث عائشة.

والذي ينكح ما نكح آباؤه من النساء قد عمل عملاً ليس عليه أمر الله ورسوله.

٣ ـ حل من زنى بها أبوه، ويؤخذ هذا من قوله: ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾، والزنا ليس نكاحاً، خلافاً للمشهور عند الحنابلة من أن موطوءة الأب ولو بزنا حرام على الابن، فإن هذا لا دليل عليه، بل الدليل على خلافه في قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، ولا يصح قياسه على النكاح؛ لأن النكاح عقد شرعي معتبر، والزنا سفاح بغيض إلى الله غير مشروع عند الله، فلا يصح قياسه عليه، وأغرب من ذلك أن بعضهم يقول: اللواط يجري مجرى النكاح، فلو لاط بالغلام حرمت عليه أم الغلام، وحرمت عليه بنت الغلام، وهذا لا شك أنه خطأ عظيم.

فالحاصل: أن الصواب في هذه المسألة أنها لا تحرم.

٤ ـ تحريم نكاح زوجات الآباء وإن لم يحصل وطء ولا خلوة، ووجه ذلك: صدق النكاح بمجرد العقد، فإن من عقد على امرأة صدق عليه أنه تزوجها.

٥ ـ أن الخطيئة المفعولة قبل العلم لا يلحق الفاعل إثمها، لقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وهذه قاعدة شرعية: «أن الشرائع لا تلزم قبل العلم لا إيجاباً ولا تحريماً»، كما قرر ذلك شيخ الإسلام رحمه الله[1]، وعلى هذا فلو أن الإنسان أسلم في بادية بعيدة، ولم يعلم عن وجوب صوم رمضان، ثم علم بعد ذلك، فإننا لا نلزمه بقضاء ما ترك من الصوم؛ لأنه لم يبلغه وجوبه، فلم تقم عليه الحجة به، وكذلك الصلاة: فلو كان لا يصلي، أو

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤/ ٢٠٩).

يصلي وعليه جنابة، أو بغير وضوء، أو بغير طمأنينة، فإنه لا يلزم بقضاء ما فاته، ولهذا أدلة كثيرة:

منها: حديث المسيء في صلاته، حيث لم يلزمه النبي ﷺ بقضاء ما سبق، مع أنه قال: «**فإنك لم تصل**»[(١)]، وإنما أمره بإعادة الصلاة الحاضرة؛ لأنه مطالب بها في الوقت.

٦ ـ أن رحمة الله سبقت غضبه، حيث عفا عما سلف من الذنوب، لقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وهذه قاعدة معلومة من قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ومن قوله تعالى في الكتاب الذي كتبه عنده فوق العرش: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»[(٢)]، وينبني على هذه القاعدة: أن العفو أقرب إلى السلامة من العقوبة، ولهذا جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لأن أخطئ في العفو أحب إليّ من أن أخطئ في العقوبة»[(٣)]، وينبني على ذلك قاعدة مهمة: لو تنازع العلماء في مسألة من المسائل بين محرم ومحلل، وتكافأت أدلة الطرفين، فإننا نأخذ بالأيسر والأسهل، بناءً على هذه القاعدة: أن رحمة الله سبقت غضبه، وأنه يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر، وبأن الأصل براءة الذمة. فهذه ثلاثة أمور.

٧ ـ أن نكاح المحارم أشد من الزنا، لقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات (٧٥٧)؛ ورواه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٧) عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، حديث رقم (٦٩٨٦)؛ ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، حديث رقم (٢٧٥١) عن أبي هريرة.

(٣) وهو في السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٢٣٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، وفي الزنا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢]، ولم يقل: ﴿وَمَقْتًا﴾؛ ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أن من زنى بامرأة من محارمه أو تزوجها، فإنه يرجم ولو كان غير محصن؛ لأن نكاح ذوات المحارم أعظم من الزنا وأشد.

٨ ـ قبح هذا المسلك، لقوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

٩ ـ بيان نعمة الله عزّ وجل علينا في هذه الشريعة، حيث جنبنا سلوك السبل السيئة المذمومة، لقوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

١٠ ـ ويؤخذ من ضدها: أن السلوك الإسلامي أو المنهج الإسلامي هو خير السبل وأفضلها وأحسنها.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء: ٢٣].

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ المحرِّم هو الله عزّ وجل، وقد حذف الفاعل للعلم به، وأصل الحرام في اللغة: المنع، ومنه: حريم البئر، وهو ما حولها مما يكون حماية لها، ويمنع غير مالكها من تملكه، فأصل الحرام في اللغة: المنع، والمعنى: مُنعتم من أمهاتكم.

وقوله: ﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ «أمهات» جمع أم، أو أمهة، ويقال في

جمع أم في العاقل: «أمهات»، وفي غير العاقل: «أُمَّات» بحذف الهاء.

وقوله: ﴿أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ يشمل الأم الدنيا والأم العليا؛ كالجدة أم الأب، وأم الأم، وأم الجد، وأم الجدة، ونقول فيها كما قلنا في قوله: «آباؤكم»، فهي تشمل القريب والبعيد من الأمهات، من جهة الأب ومن جهة الأم.

وقوله: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ البنات: جمع بنت، ويشمل البنت، وبنت الابن، وبنت البنت وإن نزلن، ويشمل أيضاً البنت من الزنا على قول جمهور أهل العلم، وإن كانت لا تنسب إليه شرعاً، لكنها خلقت من مائه، فهي على القول الراجح داخلة، كما سنبين ذلك في الفوائد.

وقوله: ﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ الأخوات: جمع أخت، وهن فروع الأب الأدنى.

وقوله: ﴿وَعَمَّـٰتُكُمْ﴾ العمات: جمع عمة، وهن فروع الأب الأعلى؛ أي: فروع الجد، وفروع أب الجد، وفروع جد الجد، وهلم جرا.

وليعلم أن عمة الرجل عمة له ولذريته من بنين وبنات، ولهذا فعمة أبيك عمة لك، ولأولادك وبناتك، وأولاد أبنائك وأولاد بناتك.

وقوله: ﴿وَخَـٰلَـٰتُكُمْ﴾ الخالات: فروع أب الأم وإن علا، وهن: أخوات أمك.

وقوله: ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ﴾ وإن نزلن، ويشمل الأخ الشقيق، والأخ لأب، والأخ لأم، ونسبتك إلى بنات الأخ: عم.

وقوله: ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ وهن من تكون خالاً لهن، فبنات الأخوات حرام على الإنسان وإن نزلن.

إذاً: هؤلاء المحرمات من النسب، وهن سبع: أمهاتكم، وبناتكم، وأخواتكم، وعماتكم، وخالاتكم، وبنات الأخ، وبنات الأخت، ويقال في حصرهن على طريقة الفقهاء: الأصول، والفروع، وفروع الأصل الأدنى وإن نزلن، وفروع الأصل الأعلى دون فروعهن، فالأصول مثل: الأمهات والجدات، والفروع: كالبنات وإن نزلن، وفروع الأصل الأدنى وإن نزلن هن: الأخوات وبنات الأخوات، وفروع الأصل الأعلى لصلبهم خاصة: العمات والخالات، وقولنا: «لصلبهم خاصة» أي: دون من نزلوا، فبنت العمة مثلاً حلال، وبنت الخالة حلال. فهذه طريقة الفقهاء.

أما على طريقة العد الذي هو أفصح شيء، وهو كلام الله عزّ وجل، فلا يحتاج إلى كبير تأمل، ولذلك لو قيل للعامي: يحرم عليك نكاح الأم، والبنت، والأخت، والعمة، والخالة، وبنت الأخ، وبنت الأخت، لذهب مطمئناً متضحاً له الأمر، لكن لو قيل له: تحرم عليك الأصول، والفروع، وفروع الأصل الأدنى وإن نزلن، وفروع الأصل الأعلى لصلبهم خاصة دون من نزلن، لقال: إن هذا شيء معقد، وذهب يطلب تفسيراً لهذا الكلام، ولذلك فإن القرآن أبلغ شيء مهما كان، فمهما تكلم أحد في بلاغته، فإن القرآن أبلغ منه، وأوضح، وأبين.

وقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ هذا صنف آخر؛ لأن المحرمات أصناف: بالنسب، وبالرضاع، وبالمصاهرة، وهنا المحرمات بالرضاع، فقوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ والرضاع: امتصاص الرضيع للثدي، أو إسقاؤه إياه بعد انفصاله عن الثدي،

كما لو جعل في إناءٍ أو في ثدي صناعي، أو ما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ كلمة «أرضع» فعل، والفعل في الأصل للإطلاق، والإطلاق يصدق بمرة واحدة، فإذا قلت مثلاً: ضربت، فإنه يصدق بمرة واحدة، إذن قوله «أرضعنكم» يصدق بمرة واحدة؛ أي: برضعة واحدة، فالآية تدل على أن مطلق الرضاع يثبت به التحريم، وسيأتي إن شاء الله في الفوائد بيان أن السنة قيدت ذلك.

وقوله: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ الأخوات من الرضاعة: هن بنات المرأة التي أرضعتك، وبنات زوجها منها أو من غيرها؛ لأن بنات زوجها يكن أخواتك من الأب، وبنات التي أرضعتك أخوات لك من الأب والأم؛ أي: شقائق، أو من الأم؛ لأنها قد ترضعك بلبن زيد، ولها بنات من عمرو، فتكون بناتها من عمرو أخوات لك من الأم، فقوله تعالى: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ يشمل الشقيقات، واللاتي لأب، واللاتي لأم.

وقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾ هذا هو الصنف الثالث: وهن المحرمات بالمصاهرة، والأم إذا أطلقت فهي التي ولدت الإنسان، قال الله تعالى: ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾ [المجادلة: ٢]، فأمهات النساء؛ أي: اللاتي ولدن نساءكم.

وقوله: ﴿نِسَآئِكُمۡ﴾ أي: زوجاتكم، ولا تكون المرأة زوجة إلا بعقد صحيح، فلا بد من أن يكون العقد صحيحاً؛ لأنه إذا لم يكن صحيحاً لم تكن المرأة من نسائه، فلا تكون من نسائه إلا بعد صحة العقد.

وقوله: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ «ربائب»: جمع

ربيبة؛، كصحائف: جمع صحيفة، وقوله: ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ صفة لربائب، وقوله: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ بيان لها؛ أي: أن الربائب من هؤلاء النساء اللاتي دخلتم بهن، وقوله: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾ أي: زوجاتكم اللاتي عقدتم عليهن عقداً صحيحاً، إذ لا تكون المرأة من نساء الرجل إلا بعقد صحيح.

وقوله: ﴿ٱلَّٰتِي﴾ صفة لقوله: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾، والمراد بالدخول بهن: الجماع دون الخلوة، وهنا لا بد أن نفرق بين الدخول الذي هو الجماع، وبين الخلوة، فإن الخلوة لا تؤثر.

إذاً: الربائب ذكر الله فيهن قيدين:

القيد الأول: أن تكون في حجر الإنسان، فيتزوج امرأة ولها بنت من غيره، ويضم البنت مع الأم فتكون عنده في حجره.

القيد الثاني: أن تكون المرأة قد دخل بها الزوج؛ أي: جامعها.

فهل هذان القيدان معتبران؟

هناك قولان للعلماء:

القول الأول: أنهما معتبران، وأن الربيبة إذا لم تكن في حجر الإنسان، أو لم يكن قد دخل بأمها فهي حلال، وأنها لا تحرم إلا إذا اجتمع القيدان: أن تكون في حجره، وقد دخل بأمها.

القول الثاني: وهو قول الجمهور، أن المعتبر هو القيد الثاني، وهو قوله: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾، وأما القيد الأول فليس بمعتبر، وإنما ذكر بناءً على الأغلب، أو بياناً للحكمة، واستدل الجمهور لرأيهم هذا بأن الله تعالى صرح

بمفهوم القيد الثاني ولم يصرح بمفهوم القيد الأول، بل سكت عنه، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، ولو كان القيد الأول معتبراً لقال: فإن لم تكونوا دخلتم بهن أو لم يكنّ في حجوركم؛ فلا جناح عليكم.

ولو سكت الله عن المفهوم ولم يقل: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾؛ لكان القيد معتبراً، وكانت الحجة مع من جعله شرطاً.

فالمراتب ثلاث:

المرتبة الأولى: أن يقال: وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن، فإن لم يكن في حجوركم أو لم تدخلوا بأمهاتهن، فلا جناح عليكم، ففي هذه المرتبة يكون القيدان معتبرين.

المرتبة الثانية: أن يقال: وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن، فهنا القيدان معتبران.

المرتبة الثالثة: أن يرد القيدان في الآية: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، فهذا يؤذن بأن القيد الثاني معتبر، والقيد الأول غير معتبر، وهذا هو رأي الجمهور، وهو الصحيح، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ «حلائل»: جمع حليلة، وتشمل الزوجة، والمملوكة، لكن الزوجة تحرم على أبي الزوج بمجرد العقد، وأما السرية فلا تحرم على أبي السيد إلا بالوطء؛ وذلك لأن السرية قبل أن يجامعها يحتمل

أن تكون سلعة تباع وتشرى، فإذا جامعها فقد اختارها لنفسه، فالحلائل إذن: جمع حليلة، وهي الزوجة التي استحلها بالعقد، أو الأمة التي استحلها بالوطء.

ولم يذكر الله عزّ وجل هنا قيداً، فتشمل كل زوجة؛ سواء دخل بها الابن أم لم يدخل بها، وعلى هذا فزوجة الابن حرام على أبيه، وإن طلقها قبل الدخول، وإن طلقها قبل الخلوة؛ لعموم الآية.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ «أصلاب»: جمع صلب، وهو الظهر، والمراد: الأبناء الذين ولدوا من مائكم؛ لأن هذا هو ابن الصلب، وهذا قيد يخرج به جمهور العلماء أبناء التبني، فقد كان من عادة الناس في الجاهلية أن يتبنى الإنسان ابناً له، ويقول له: أنت ابني، ويجعله كابنه في الميراث وغيره، فقيد الابن هنا بكونه من الصلب ليخرج ابن التبني، هذا هو رأي الجمهور، ولكن لا مانع من أن يقال: إنه يشمل ابن التبني، وابن الرضاع؛ لأن ابن الرضاع ليس ابناً لك من صلبك، وابن الرضاع يسمى ابناً شرعاً، لكن ابن التبني قد أبطله الشرع، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، فإذا كان قد أبطل شرعاً فلا حاجة إلى قيد يخرجه؛ لأنه غير داخل شرعاً في معنى البنوة عند الإطلاق، ولا حساً كذلك أيضاً؛ لأنه ليس من مائه، وعلى هذا فيكون هذا القيد لإخراج ابن الرضاع أظهر منه لإخراج ابن التبني؛ لأن ابن التبني غير معترف به شرعاً، فلا حاجة إلى قيد يخرجه من معنى البنوة.

وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وإن كان يظن أنه خالف الناس في هذا، لكن قوله عند التأمل هو الصواب، وهو أن المصاهرة لا تجري في الرضاع، ولا علاقة للرضاع بها؛ لأن الحديث: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**»[1]، وأبو الزوج، وابن الزوج إنما هو حرام بالمصاهرة، فكيف ندخل في الحديث ما لم يدخل فيه، وكذلك في الآية الكريمة؟

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾، وهذا المحرم ليس عيناً، ولكنه عمل، وهو الجمع، والمعنى: وحُرِّم علينا أن نجمع بين الأختين، ولهذا لا يصح التعبير بأن نقول: تحرم أخت الزوجة، أو تحرم عمة الزوجة؛ لأن ذلك ليس وارداً لا في القرآن ولا في السنة، ففي القرآن: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾، وفي السنة: «**لا يجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها**»[2]، فالحكم معلق بعمل، وهو الجمع، وليس بعين وهي الأخت أو العمة، ولهذا نقول: إن تعبير بعض العلماء رحمهم الله: تحرم أخت الزوجة وعمتها وخالتها، فيه تساهل.

فالصواب أن يقال: يحرم الجمع بين الأختين، وبين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب والرضاع، حديث رقم (٢٥٠٢)؛ ومسلم، كتاب الرضاع، باب تحريم ابنة الأخ من الرضاعة، حديث رقم (١٤٤٧) من حديث ابن عباس.

(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب لا تنكح المرأة على عمتها، حديث رقم (٤٨٢٠)؛ ومسلم، كتاب النكاح، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح، حديث رقم (١٤٠٨) عن أبي هريرة.

وقوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ يشمل الأختين الشقيقتين، والأختين لأب والأختين لأم؛ لأن الآية مطلقة.

قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ نقول فيها كما قلنا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] أي: لكن ما قد سلف معفو عنه، وإنما ذكره الله عزّ وجل لعظم المقام، ولئلا ينشغل الإنسان بفعله السالف الذي وقع على الوجه المنهي عنه، ومن الحكم بيان حكم الولد الحاصل من النكاح فيما سلف بمعنى: أنه لو نكح الإنسان زوجة أبيه في الجاهلية، وأتت منه بولد، ثم أسلم وفرق بينهما؛ لأن سبب التحريم باقٍ، لكن الولد الذي حصل من النكاح الأول ينسب إليه شرعاً، فهذا ـ والله أعلم ـ هو الحكمة من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ لأجل أن يزول ما في قلب الإنسان نهائياً؛ لأنه قد يقول: إذا كان ذلك حراماً عليّ، فما موقفي أمام الولد الذي خلق مني في ذلك الوقت، فطمأن الله العباد بقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، فهذا هو الحكمة في استثناء واستدراك ما سبق، وإلا فقد يقول قائل: ما سبق كيف يرجع التحريم إليه بما يسمى أثراً رجعياً؟ فنقول: الحكمة من ذلك هو عظم المقام، والثاني: أنه لو ولد ولد في ذلك النكاح، فالولد ولد شرعي؛ لأنه معفو عنه ـ أي: عما سلف ـ وعن آثاره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ سبق الكلام على هذه الآية كثيراً، وفيها تأكيد اسمين من أسماء الله بمؤكدين: ﴿إِنَّ﴾ و﴿كَانَ﴾؛ لأن و﴿كَانَ﴾ كما أسلفنا مسلوبة الزمان، فتفيد تحقيق الوصف.

و«الغفور» صيغة مبالغة من الغفر، وهو ستر الذنوب، وعدم المؤاخذة عليها، و«الرحيم» كذلك صيغة مبالغة من الرحمة، والرحمة صفة ذاتية لله عزّ وجل، ولكن لها آثار، مثل: نزول المطر، وسعة الرزق، وكثرة العلم، واتجاه الناس اتجاهاً سليماً، وما أشبه ذلك، فهذه الأشياء هي من آثار رحمة الله، ولكن ليست هي الرحمة، إنما يطلق عليها الرحمة لأنها آثار رحمة الله كما قال الله تعالى في الجنة: «**أنت رحمتي أرحم بك من أشاء**»(١).

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تحريم نكاح هؤلاء السبع بالنسب، وكلهن قريبات، لقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾.

فإن قال قائل: إضافة التحريم هنا إلى الأعيان، فما الذي خصصه بالنكاح، ألا يجوز أن يقول قائل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ أي: لا تنظروا إليهن، أو لا تقتلوهن، فما الذي يقيد التحريم بالنكاح؟

فنقول: يفهم ذلك من سياق الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٢٢]، فالسياق في الآية التي قبلها وفيها أيضاً كل ذلك في النكاح، فتعين أن يكون المراد به النكاح، وما زعمه بعض العلماء من أن في الآية إجمالاً متردداً بين كذا وكذا، فهذا لا وجه له.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة ق، حديث رقم (٤٥٦٩)؛ ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، حديث رقم (٢٨٤٦) عن أبي هريرة.

٢ ـ ثبوت التحريم بالرضاع، لقوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾.

مسألة: ضوابط المحرمات من المصاهرة:

يحرم على الزوج خاصة أصول زوجته وفروعها، لكن الأصول بمجرد العقد، والفروع لا بد من الدخول، والفروع سماها الله: ربائب، والأصول سماها الله: أمهات نسائكم.

ويحرم على الزوجة خاصة أصول زوجها وفروعه، فالمحرمات بالمصاهرة أربعة: أصول الزوج على الزوجة خاصة، وفروع الزوج على الزوجة خاصة، وأصول الزوجة على الزوج خاصة، وهذه الثلاث يثبت فيها التحريم بمجرد العقد، والرابع: فروع الزوجة على الزوج خاصة، لكن بشرط الدخول.

مسألة: بناء على ذلك هل يجوز للإنسان أن يتزوج بنت زوجة أبيه؟

هذه المسألة فيها تفصيل، فإن كانت زوجة أبيه هي أمه، فلا يجوز؛ لأن بنتها أخته، وأما من غيرها فنقول: يجوز للإنسان أن يتزوج بنت زوجة أبيه.

مسألة: هل يجوز أن يتزوج أم زوجة أبيه؟

قلنا: إن التحريم يتعلق بالزوج خاصة، أو بالزوجة خاصة، فيحرم على الزوج أصول الزوجة وفروعها، ويحرم على الزوجة أصول الزوج وفروعه، وهذا الرجل أراد أن يتزوج أم زوجة أبيه، فيجوز؛ لأن أصول الزوجة إنما يحرمون على الزوج خاصة؛ أي: أن التحريم يتعلق بالزوج فقط، وبالزوجة فقط، هذا هو الضابط في المحرمات بالمصاهرة، والقرآن واضح في هذا.

٣ ـ أن الأم عند الإطلاق لا يدخل فيها الأم من الرضاعة، ووجه ذلك: أنه لو كانت الأم من الرضاع تدخل في الأم عند الإطلاق، لما احتيج إلى قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾؛ لأنها تدخل في قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾، ويتفرع عن هذه الفائدة: أن أم الزوجة من الرضاع لا تدخل في قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾؛ لأنه عند الإطلاق لا تدخل فيها الأم من الرضاع، فإذا قال قائل: أم الزوجة من الرضاع حرام، لدخولها في عموم قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾.

فنقول: لا نسلم بهذا؛ لأن الأم عند الإطلاق لا تدخل فيها الأم من الرضاع، بدليل قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾ ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾، ولو كانت الأم عند الإطلاق تدخل فيها الأم من الرضاعة لكان في الآية تكرار منافٍ للبلاغة.

٤ ـ ثبوت الأمومة بالرضاع، وعلى هذا فيصح أن يقول القائل لمن أرضعته: أمي، لكن لا ينبغي أن يقولها إلا مقيدة؛ لأن الله قيدها، فقال: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾، فيقول: أمي من الرضاعة؛ لئلا يتوهم السامع أنها أم من النسب.

ويتفرع عن هذه الفائدة: أن ما يطلقه كثير من الناس على زوجة الأب أنها عمة، وبعضهم يسميها خالة، على الإطلاق، وكذلك ما يفعله بعض الناس من إطلاق اسم العم أو الخال على أبي الزوجة، فيقول: عمي، أو خالي، وهذا غلط؛ لأنها تسمية لا تصح لغة، ولا شرعاً، وتُوهم، ولهذا نهى النبي ﷺ عن تسمية العشاء بالعتمة، فقال: «**لا يغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم**

العشاء، فإنها في كتاب الله العشاء»[١] يقول الله: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾ [النور: ٥٨].

فالحقائق لا ينبغي أن تطلق على خلاف الحقائق الشرعية.

٥ ـ أن المرضعة تحرم بمطلق الرضاعة، لقوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾، والرضاع يصدق بمرة، بل بمصة؛ لأن من مص من ثدي المرأة قيل: إنه رضع، وعلى هذا فيثبت التحريم بمجرد رضعة واحدة، وإلى هذا ذهب الظاهرية، وقالوا: إن التحريم بالرضاع يثبت بالرضعة الواحدة؛ لأنه جاء مطلقاً في القرآن، والمطلق يصدق بمرة واحدة.

ولكن الصحيح أن هذا الإطلاق في القرآن قد قيدته السنة، فيما صح عن النبي ﷺ في قوله: **«لا تحرم المصة ولا المصتان»** وفي حديث آخر: **«لا تحرم الإملاجة والإملاجتان»**[٢]، ومنطوق هذا الحديث: أن المصة والمصتين لا تحرم، ومفهومه: أن ما زاد عليهما يحرم، وإلى هذا ذهب أيضاً كثير من علماء أهل القياس، وقالوا: إن الثلاث محرمة؛ لمفهوم الحديث.

وقال بعض العلماء: لا يحرم إلا خمس رضعات، لما صح في مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، فنسخن بخمس معلومات،

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب وقت العشاء وتأخيرها، حديث رقم (٦٤٤) عن ابن عمر.

(٢) رواه مسلم، كتاب الرضاع، باب في المصة والمصتان، حديث رقم (١٤٥١) عن أم الفضل.

فتوفي رسول الله ﷺ وهي فيما يقرآ من القرآن»[١]، وإلى هذا ذهب الإمام أحمد رحمه الله، وأجاب عن الحديث: «**لا تحرم المصة ولا المصتان**» بأن تحريم الثلاث بالمفهوم، وإذا تعارض المفهوم والمنطوق فيقدم المنطوق؛ لأن المفهوم واسع يصدق بصورة واحدة، فمثلاً: لا تحرم المصة ولا المصتان والثلاث، والأربع، والخمس، والعشر مسكوت عنها، وبالمفهوم أنه إذا رضع خمس رضعات ثبت التحريم، وإذا قلنا: يثبت التحريم بخمس رضعات، فإننا لم نخالف المنطوق؛ لأن مفهومه أن الثنتين لا تحرم، وما زاد فيصدق بصورة واحدة، ولهذا نقول: إننا نقدم دلالة المنطوق.

لكن بعض العلماء طعن في هذا الحديث طعناً موجعاً، وقال: إن هذا الحديث لا يصح ولو كان في صحيح مسلم، إذ كيف يتوفى رسول الله ﷺ وهي فيما يتلى من القرآن، ولم نجدها الآن في القرآن؛ لأنها إذا كانت بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام موجودة في القرآن، فيجب أن تبقى، ولو فتح هذا الباب لكان هذا سبيلاً إلى تصحيح قول الرافضة بأن في القرآن شيئاً محذوفاً.

وبناء على ذلك: فإن المتن منكر، ونأخذ بحديث: «**لا تحرم المصة ولا المصتان**»[٢] أو نأخذ بالإطلاق.

ولكن عند التأمل لا يتبين أن هذا طعن في الحديث؛ لأن

---

(١) رواه مسلم، كتاب الرضاع، باب التحريم بخمس رضعات، حديث رقم (١٤٥٢).

(٢) تقدم ص٩٤.

عائشة رضي الله عنها صرحت بالنسخ، ولكنها كانت فيما يتلى من القرآن عند وفاة الرسول ﷺ؛ لعدم علم التالي لها بالنسخ، وهذا أمر واقع، فالحديث يدل على أن النسخ وقع متأخراً ولم يعلم به بعض الناس، فصار يقرؤه فيما يتلو من القرآن، وإذا زال الإشكال فإنه لا ينبغي أن نتجرأ على الطعن في الرواة؛ لأنك إذا حكمت بنكارة المتن حكمت بوهم الرواة وخطئهم، وهذا شيء صعب، فمهما أمكن قبول خبر الثقة فإنه يقبل، أما إذا لم يمكن وكان مخالفاً للقرآن؛ فلا يقبل، لكن إذا كان غير مخالف وأمكن الجمع فإنه يجمع.

وهذا الذي ذهب إليه الإمام أحمد رحمه الله هو الصحيح؛ أن المحرم خمس رضعات، وفي الحديث: «**معلومات**»، فلو وقع الشك في عددها هل هي خمس أو أربع؟ فلا عبرة بهذا الرضاع؛ لأن الحديث قيد الرضعات بأن تكون معلومات، ومع الشك لا يثبت الحكم، وهذا مما يطمئن الإنسان لما يفتي به الناس في هذه المسألة؛ لأن كثيراً من الناس يأتي ويقول: إن الرضاع ثابت، لكن لا ندري كم كان الرضاع.

فنقول: ما دام أن الحديث: «**خمس رضعات معلومات**» فإن ما شك فيه ليس معلوماً، وحينئذ فلا يثبت به الحكم.

بقي أن ننظر: هل يمكن أن يقيد إطلاق القرآن بالسنة؟

والجواب: نعم، يمكن أن يقيد إطلاق القرآن بالسنة، كما يخصص عموم القرآن بالسنة، وأما نسخ القرآن بالسنة فالصحيح أنه ينسخ القرآن بالسنة إذا صحت؛ لأن الكل من عند الله عزّ وجل، فقد ينسخ الله قوله بقوله، وقد ينسخ الله قوله بقول رسوله ﷺ، إذاً: المحرم «**خمس رضعات معلومات**».

وما هي الرضعة؟ الرضعة هي على الأصح المشبعة، وليس في الحديث: خمس رضعات مشبعات، ولذلك قال بعضهم: الرضعة هي المصة، لقوله: «**لا تحرم المصة ولا المصتان**»، ومعلوم أن الطفل إذا مص فقد رضع، وأتاه اللبن بمصته، وعلى هذا فيمكن أن تكون الخمس في مجلس واحد، وفي نَفَس واحد، فإن الطفل يمكن أن يمص خمس مرات في نفس واحد، والثدي في فمه، ولكن هذا فيه شيء من الاشتباه؛ لأن الإحاطة بهذا صعبة.

وقال بعض العلماء: المراد بالرضعة التقام الثدي، فما دام الصبي ملتقماً للثدي فهذه رضعة، وإذا أطلقه لأي سبب من الأسباب فقد تمت الرضعة، سواء أطلقه لتنفس، أو لسماع صوت أزعجه، أو لنقل أمه له من الجهة اليمنى إلى اليسرى، أو ما أشبه ذلك، المهم أن الرضعة التقام الثدي، فما دام الطفل ملتقماً للثدي فهي رضعة، وإذا أطلقه لأي سبب فقد تمت الرضعة.

وعلى هذا فيمكن أن تتم الخمس الرضعات في مجلس واحد.

وقال بعض العلماء: إن الرضعة هي فَعْلة مما يعد رضعة؛ أي: وجبة في الرضاع، كما تقول: أكلة، كما جاء في الحديث: «**إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها**»[1]، فالحمد يكون عند الانتهاء من الأكل، فتكون الرضعة كالأكلة تماماً، فلا بد أن تكون الرضعة الأخرى منفصلة عن الأولى بزمن يعد انفصالاً، كأن تكون واحدة في الصباح، وواحدة في المساء، وواحدة في الليل، وواحدة في السحر، وما أشبه ذلك، وهذا هو

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب رقم (٢٧٣٤).

اختيار شيخنا عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله: أن المراد بالرضعة ما انفصلت عن أختها انفصالاً بيِّناً، لتكون رضعة كاملة.

وإذا قدرنا أن الحديث يحتمل المعاني الثلاثة، وهي: المصة، والتقام الثدي، والوجبة من الرضاع، فإن الأصل الحل حتى يقوم دليل بيِّن على أن هذا الرضاع محرم، وبناءً على هذا الأصل يكون الراجح هو القول الثالث؛ لأن دلالة الحديث على المعنى الأول مشكلة وفيها اشتباه، وعلى المعنى الثاني فيها أيضاً اشتباه، وعلى المعنى الثالث تتفق الأقوال وليس فيها اشتباه، وحينئذ فنأخذ بهذا؛ لأن الأصل الحل، حتى يثبت التحريم بيقين ليرفع هذا الأصل.

إذاً: قوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ مطلق قيدته السنة بخمس رضعات، وفي الآية أيضاً إطلاق آخر؛ فإن ظاهر الآية أنه يشمل الإرضاع في الصغر، والإرضاع في الكبر، فهل هذا الظاهر مراد؟

نقول: هو مراد عند بعض العلماء؛ كالظاهرية، فعندهم أن إرضاع الكبير كإرضاع الصغير، واستأنسوا لقولهم بحديث سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه، حيث كان متبنى عند أبي حذيفة ـ أي: من أبنائه الذين تبناهم في الجاهلية ـ ومعلوم أنه إذا كان ابناً فسوف يدخل على البيت ليلاً ونهاراً، وفي أقصى البيت وأدناه، فهو كالولد تماماً، فلما أبطل الله التبني جاءت امرأة أبي حذيفة إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقالت: «إن سالماً كان يدخل علينا ـ أي: ويشق علينا أن نتحرز منه ـ فقال: «**أرضعيه تحرمي عليه**»»[1]،

(١) رواه مسلم، كتاب الرضاع، باب رضاعة الكبير (١٤٥٣) عن عائشة.

يعني: وإذا حرمتي عليه جاز أن ينظر إليك، وأن يخلو بك، وهو كبير، وهذا الحديث مطابق لظاهر الآية، فيكون شاهداً للإطلاق.

وقال بعض العلماء: إنه لا يعتبر في الرضاع إلا إذا كان في الحولين؛ لأن قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ أي: الإرضاع المعتبر شرعاً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فما كان في الحولين فهو رضاع معتبر، وما كان بعد الحولين فلا عبرة به؛ لأن هذا هو زمن الإرضاع الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾.

وهذا هو المشهور عند أكثر أهل العلم، وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد، أن العبرة بالحولين، فما كان قبلهما فهو رضاع معتبر، وما كان بعدهما فليس بمعتبر، قالوا: وهذا حد فاصل لا يبقي اشتباهاً، وعليه: فلو أرضعته ثلاث مرات في يوم السبت، والرابعة في ضحى يوم الأحد، والخامسة بعد ظهر يوم الأحد، وولادته عند زوال الشمس فيتم السنتين عند زوال الشمس، فإن هذا الرضاع غير معتبر؛ لأن الخامسة وقعت بعد الحولين، مع أن الرابعة لم تنهضم بعد في المعدة، فلا زالت باقية في معدته، ولكن تمت السنتان، كما أن الرجل قبل تمام خمس عشرة سنة غير بالغ، وبعدها يصير بالغاً، فلو أنه فعل شيئاً يشترط فيه البلوغ ضحى اليوم الذي بلغ فيه، فإنه لا يؤاخذ به، وآخر النهار يؤاخذ به.

وقال بعض العلماء: إن المعتبر هو الفطام، فما كان قبل الفطام فهو معتبر، وما كان بعده فليس بمعتبر؛ لحديث: «**لا يحرم من الرضاعة إلا ما فتق الأمعاء في الثدي، وكان قبل**

الفطام»[١]، وهذا الحديث وإن كان ضعيفاً، لكن يؤيده النظر؛ لأن الإرضاع قبل الفطام يؤثر في نمو الولد، وليس له إلا هذا الغذاء، وبعد الفطام لا فرق بين الصغير والكبير في تأثير الرضاع؛ لأنه إذا فطم وصار لا يأكل إلا الطعام، فلا فرق بينه وبين من له عشر سنوات، فإن تأثير الغذاء عنده باللبن كتأثيره عند صاحب العشر سنوات، وهذا القول هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وهو أن العبرة بالفطام، وهذا من حيث المعنى أصح، لكن فيه شيء من العسر، وذلك لعدم انضباطه في بعض الأحيان؛ لأن الطفل لا يفطم مرة واحدة، بل يفطم شيئاً فشيئاً؛ لصعوبة الفطام عليه.

ولو قال قائل: باعتبار الأكثر من الفطام، أو السنتين؛ لم يكن هذا القول بعيداً، فإذا فطم قبل السنتين امتد الحكم إلى السنتين، وإن تمت السنتان قبل فطامه امتد الحكم إلى فطامه، فلو قيل بهذا لكان جيداً، لكن تعليقه بالفطام أصح من حيث المعنى؛ لأنه إذا فطم فلن يتغذى باللبن، وليس معنى قولنا: «لا يتغذى باللبن» أنه لا يستفيد منه، فإن الإنسان يستفيد من اللبن حتى ولو كان له خمسون سنة، لكنه ليس غذاء له إذا فطم.

فإن قال قائل: ما الجواب عن إطلاق الآية وعن قصة سالم؟

فنقول: أما إطلاق الآية فقد ذكرنا أنها مقيدة بعدد خمس

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما ذكر أن الرضاعة لا تحرم في الصغر دون الحولين، حديث رقم (١١٥٢)؛ والنسائي في الكبرى، كتاب النكاح، باب الرضاعة بعد الفطام قبل الحولين، حديث رقم (٥٤٦٥).

رضعات، فلتقيد بالزمن أيضاً، وهو الحولان، ثم إن ظاهر الآية يؤيد اشتراط الفطام؛ لأنه قال: ﴿ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾، ومعلوم أن الكبار ليسوا من المراضيع، فقد فطموا وانتهوا، فظاهر قوله: ﴿أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ يعني في وقت الرضاع، أما قصة سالم مولى أبي حذيفة فالجواب عنها بأحد ثلاثة أوجه: فإما أنها منسوخة، أو خاصة به عيناً، أو خاصة به نوعاً.

أما القول بأنها منسوخة، فهذا ليس بشيء؛ لأن الأصل عدم النسخ، ولا بد من إثبات التاريخ، وتعذر الجمع.

وأما القول بأنها خاصة به عيناً فضعيف أيضاً؛ لأن الله عزّ وجل لا يمكن أن يخص أحداً بحكم إلا لمعنى فيه، حتى النبي عليه الصلاة والسلام ما خص بما خص به من الأحكام إلا لأنه نبي، لا لأنه محمد بن عبد الله، فلا بد من علة يتغير بها الحكم، ويخصص به من اتصف بها، وما هو المعنى الذي يخص به سالم حتى نقول: إن الحكم لا يتعداه، وأنه خاص به؟ لأننا إذا قلنا: إن الحكم لا يتعداه، وأنه خاص به؛ صار معناه: أنه حكم له بذلك؛ لأنه سالم مولى أبي حذيفة، وهذا لا معنى له، وعلى هذا فيضعف هذا القول أيضاً.

بقي الوجه الثالث، وهو أنه خاص به نوعاً، فإذا وجد حال مثل حال سالم ثبت الحكم، وهذا لا يمكن أن يكون الآن؛ لأن ابن التبنِّي قد بطل شرعاً، وعلى هذا فلا يرد علينا أبداً، ما دمنا قررنا أنه لا أحد يخصص عيناً بحكم من شريعة الله، ولا بد أن يكون هناك معنى يتعدى إلى نوعه، وهذا لا يمكن.

لكن شيخ الإسلام رحمه الله له في هذه المسألة قولان:

القول الأول: يوافق ما قلت، من أنه لا بد من مراعاة التبني.
والقول الثاني: يعتبر الحاجة، وأنه متى ما احتيج إلى إرضاع الكبير رضع، وثبت حكم الرضاع، ولكن قوله هذا ضعيف كقول الذين يرون رضاع الكبير؛ وقد قلنا: إن هذا القول ضعيف؛ لأن النبي ﷺ قال: «**إياكم والدخول على النساء!**» فقالوا: يا رسول الله! أرأيت الحمو؟ ـ والحمو أخو الزوج أو عمه أو خاله؛ أو ما أشبه ذلك ـ قال: «**الحمو الموت**»[1]، ومعلوم أن الحمو يحتاج إلى الدخول إلى بيت أخيه، لا سيما إذا كانوا في بيت واحد، فلو كان إرضاع الكبير مؤثراً لقال: الحمو ترضعه زوجة قريبه؛ ليزول الحرج، فلما لم يقل ذلك، علم أن مطلق الحاجة لا يؤثر في ثبوت حكم الرضاع في الكبير، وأنه لا بد أن تكون حاجة خاصة نمشي فيها على كل ما حصل في قضية سالم مولى أبي حذيفة.

وإذا اعتبرنا ذلك صارت هذه الحالة الآن غير موجودة، وبهذا تسلم الأدلة من التعارض، ويحصل الجمع بينها.

مسألة: هل لا بد من مباشرة الإرضاع، بحيث لو صب اللبن في إناء وشربه الطفل فإنه لا يؤثر، أم ليس ذلك بلازم؟

نقول: ليس من الشرط أن يلتقم الثدي، بل لو صب في إناء وشربه، وفرق له ذلك خمس مرات، ثبت الحكم؛ لأن المعنى موجود في هذا كما هو موجود في التقام الثدي، هذا من حيث تغذي الطفل باللبن، لكن يفقد منها الحنان، والمحبة، فإن الرضيع إذا كان يلتقم الثدي حصل من حنان المرضعة ومحبتها له

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم والدخول على النساء (٥٢٣٢)؛ ورواه مسلم، كتاب السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها (٢١٧٢) عن عقبة بن عامر.

ما لم يحصل فيما لو صب لبنها في إناء وأسقي الطفل، فهل هذا معتبر؟ وأن الشرع لاحظ التحريم بالرضاع؛ لأنه يحصل من المرضعة مثل ما يحصل من أم النسب من المحبة والحنو، ولذلك صارت هذه العلاقة مؤثرة، أو أن المقصود تغذي الطفل باللبن؟ هذا هو موضع الخلاف، لكن الظاهر العموم، وهو أنه لا فرق بين أن يرضعه من ثدي المرضعة، أو أن يصب له في إناء ويشرب؛ لأن الجسم يتغذى بهذا، والله أعلم.

٦ ـ أن لبن الفحل محرم؛ أي: أن الأخت من الأب من الرضاعة حرام؛ لعموم قوله: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾، وهذا ـ والله أعلم ـ من فائدة ذكر الأخوات دون البنات من الرضاعة، فإن البنات من الرضاعة لم يذكرن، وكذلك العمات لم يذكرن؛ لأن الأخوات تغني عن العمات؛ لأنهن حواشي، وهن أقرب الحواشي إلى الإنسان.

إذاً: يستفاد من هذه الآية أن الأخوات من الأب، أو الأخوات من الأم، أو الأخوات من أم وأب من الرضاع كلهن حرام.

٨ ـ أن أم الزوجة حرام بدون شرط، لقوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾، فبمجرد العقد على المرأة عقداً صحيحاً تحرم أمها، وكذلك جداتها وإن علون.

٩ ـ أن أم المزني بها لا تحرم على الزاني، خلافاً لما ذهب إليه كثير من أهل العلم، لقوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾، والمزني بها ليست من نساء الرجل، ولا يمكن قياسها على نسائه؛ لأن نساءه حللن له بعقد شرعي صحيح، والمزني بها لم

تحل له، فكيف يقاس السفاح على النكاح الصحيح؟!

١٠ ـ بطلان قول من قال: إن اللواط بالذكر ـ والعياذ بالله ـ كعقد النكاح، وأن من لاط بذكر؛ حرمت عليه أمه كأم الزوجة، وهذا منكر من القول؛ إذ كيف تجعل هذه الفاحشة العظيمة بمنزلة النكاح الصحيح؟! فأم الملوط به حلال وليست حراماً، لكن اللائط والزاني لا يحل أن يزوج من أي امرأة حتى يتوب.

١١ ـ تحريم الربيبة، لكن الله تعالى اشترط لتحريم الربيبة شرطين:

الشرط الأول: أن تكون في حجره، **والشرط الثاني**: أن يكون قد دخل بأمها، ولكن دلت الآية الكريمة على أن كونها في الحجر غير مقصود، إنما هو لبيان الواقع، وليس شرطاً للحكم، بدليل قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

١٢ ـ تحريم حلائل الأبناء من زوجات أو مملوكات، لقوله: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾، لكن المملوكة لا تكون حليلة إلا بالوطء، ولذلك فلو أن شخصاً اشترى أمة ولم يطأها، ثم ملكها أبوه، فإنها تحل لأبيه، لكن لو عقد على امرأة ولم يطأها، ثم طلقها، فلا تحل لأبيه؛ لأن المملوكة لا تكون حليلة إلا بالوطء، وأما الزوجة فتكون حليلة بمجرد العقد الصحيح.

١٣ ـ أن حليلة ابن الرضاع لا تحرم، لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾، وقد اختلف العلماء: هل هذا القيد مخرج لابن التبني أو لابن الرضاع؟ وقد ذكرنا أن الصواب: أنه مخرج لابن الرضاع، أما ابن التبني فليس ابناً شرعياً، فلا يحتاج إلى قيد لإخراجه.

١٤ ـ تحريم الجمع بين الأختين، لقوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾، وعمومه يشمل الأختين من النسب، والأختين من الرضاع، فلا يجوز أن يجمع الإنسان بين أختين من الرضاع، ولا بين أختين من النسب.

مسألة: هل هذا الحكم شامل لملك اليمين أو خاص بعقد النكاح؟

اختلف في ذلك السلف، والصحيح أنه شامل لملك اليمين وعقد النكاح، وأن الإنسان إذا كان عنده مملوكتان أختان ووطئ إحداهما، فإن الأخرى محرمة عليه، حتى يحلَّ الموطوءة بإخراجها عن ملكه، كأن يبيعها مثلاً، أو يزوجها بعد الاستبراء، أما ما دامت عنده وقد وطئها، فإنه لا يحل له أن يطأ الأخرى.

وبالنسبة للنكاح، لا يشترط لتحريم الأخت أن يطأ التي عنده، بل تحرم الأخت بمجرد العقد، ولهذا يجوز أن يجمع بين الأختين في ملك اليمين بعقد بيع أو غيره، ولا يجوز أن يجمع بينهما بعقد نكاح، والفرق: أن ملك اليمين يراد للوطء ولغيره، والنكاح إنما هو للوطء، فصار الحكم ثابتاً بمجرد العقد للنكاح، أما في الإماء فبالوطء.

١٥ ـ أن ما سلف من الذنوب قبل الشرع فلا يؤاخذ به، لقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وكذلك ما حصل من الذنوب بعد الشرع قبل علم الفاعل فإنه لا يؤاخذ به، لقول الله تعالى: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ولكن إذا كان مفرطاً في ترك السؤال؛ فترك واجباً من أجل هذا التفريط، فإنه يلزمه قضاؤه.

١٦ ـ إثبات اسمين من أسماء الله وهما: الغفور والرحيم، فبالمغفرة زوال المكروه، وبالرحمة حصول المطلوب، والمغفرة للذنوب والرحمة للحسنات، فيرفع الله بها الدرجات، ومن هذين الاسمين نأخذ صفتين هما: المغفرة والرحمة؛ لأن من طريقة أهل السنة والجماعة: أن كل اسم من أسماء الله دال على ذات الله والصفة المشتقة منه، فالغفور دال على الذات وعلى الصفة، وهي المغفرة، والرحيم دال على الذات وعلى الصفة، وهي الرحمة.

وقد قسم العلماء ـ رحمهم الله ـ الرحمة إلى قسمين: عامة وخاصة:

فالعامة: هي الشاملة لجميع الخلق، ولكنها رحمة لا تتصل بها رحمة الآخرة، إنما يتصل بها عدل الآخرة، وهذه للكافرين والمؤمنين.

والخاصة: هي الرحمة الخاصة بالمؤمنين، وهذه تتصل فيها الرحمة في الآخرة بالرحمة في الدنيا، فيكون الإنسان مرحوماً فيهما؛ أي: في الدنيا والآخرة.

ومن الرحمة العامة: قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣].

ومن الرحمة الخاصة: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [النساء: ٢٤].

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: وحرمت عليكم المحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم.

وقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ اسم مفعول من فعل رباعي وهو «أحصن»؛ لأن اسم المفعول يكون فعله مبنياً للمفعول، والإحصان يطلق على عدة معانٍ: فيطلق على الحرائر، ويطلق على العفيفات، ويطلق على المتزوجات، وكل هذا جاء في القرآن، قال الله تعالى في الأول: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ [النساء: ٢٥] فالمراد بالمحصنات هنا الحرائر، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ٢٣] والمراد بالمحصنات هنا: العفيفات عن الزنا.

ومن الثالث ـ أي: المتزوجات ـ هذه الآية: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

فإن قال قائل: مثل هذه الألفاظ المشتركة لعدة معانٍ كيف نعرف تعيين المعنى المقصود من هذه المعاني؟

فنقول: نعرفه بالسياق، فإن لم يكن سياق يعيِّن، فالصحيح أنه يجوز استعمال الاسم المشترك في جميع معانيه، ويكون شاملاً لها، كما يشمل اللفظ العام جميع أفراده، فاللفظ المشترك بين معنيين فأكثر يكون عاماً للمعنيين إذا لم يوجد قرينة تعين أحدهما.

ولننظر الآن في هذه الأمثلة الثلاثة السابقة:

فالمثال الأول على أن المراد بالمحصنات: الحرائر، والسياق الذي يعين ذلك هو قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ [النساء: ٢٥] إذاً: المحصنات غير مملوكات، فهن حرائر.

المثال الثاني على أن المراد العفيفات قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ٢٣] ويعينها قوله: ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: غافلات عن الزنا، ولم يطرأ لهن على بال، فهن عفيفات.

والمثال الثالث على أن المراد المتزوجات، وليس في اللفظ الذي في الآية الكريمة ما يعين المراد، لكن السنة جاءت به، فالمسألة وقعت في شيء معين، وهو المرأة المسبيّة في القتال مع الكفار، إذا كانت ذات زوج ثم ملكها المسلمون فإنها تحل؛ لانفساخ نكاح زوجها الأول بسبيها.

إذاً: معنى المحصنات هنا: المتزوجات اللاتي يسبين في الجهاد في قتال الكفار، فإذا سبين في الجهاد صرن ملكاً للسابي، وحينئذ تحل له.

أما قتال المؤمنين فإنه لا سبي للنساء، ولو كان قتالاً محرماً؛ كأهل البغي مثلاً، فإن نساءهم لا يسبين، لكن المراد نساء الكفار.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: فإنهن حلال، لكن يجب أن يلاحظ أنهن حلال ما لم يكن من المحرمات، فقد تكون أخت الإنسان، أو عمته، أو ما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿كِتَٰبَ﴾ قيل: إنه مفعول لفعل

محذوف؛ أي: الزموا كتاب الله عليكم؛ أي: الزموا فريضة الله عليكم ولا تتجاوزوها؛ لأن الكتاب هنا بمعنى مكتوب أي: مفروض، والكَتْب يأتي بمعنى الفرض، كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وأكد الله ذلك لأهميته، ويحتمل أن يكون «كتاب الله» مصدراً لفعل محذوف؛ أي: كُتِب كتاب الله عليكم، فيكون مصدراً لفعل محذوف دل عليه السياق، ولكن المعنى الأول كأنه أوضح.

فقوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فرضه، فهو مفروض عليكم.

وقوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾، وفي قراءة سبعية «أَحَلَّ» فالقراءة السبعية «أَحَلَّ» أليق بالسياق في قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، والقراءة الأخرى السبعية «أُحِلَّ» أليق بالسياق في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] فإن: «حُرم» مبني للمفعول، و«أُحل» مبني للمفعول، فيكون هناك تناسب بين اللفظين الدالين على هذين الحكمين.

وعلى كل حال: فالقراءة التي فيها البناء للمفعول حذف الفاعل لأنه معلوم؛ لأن الخلق أو الشرع إذا بني للمفعول فإنما ذلك للعلم بالفاعل؛ لأنه لا خالق إلا الله، ولا شارع إلا الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ ﴿مَّا وَرَآءَ﴾ هنا بمعنى: دون، أو سوى، والمعنى: ما سوى ذلك فهو حلال، وهذا لفظ عام، فإن ﴿مَّا﴾ اسم موصول للعموم، فتشمل كل ما سوى ذلك.

وحينئذ نرجع إلى الآية لننظر هل العمة من الرضاع حلال؟ وهل ذكرت في الآية؟

والجواب: أن نقول: قال النبي ﷺ: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**»[(١)]، فيكون هذا الحكم مما جاءت به السنة، وما جاء عن رسول الله فهو كما جاء عن الله، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] ومن يعص الرسول فقد عصى الله، فتحريم العمة من الرضاع والخالة من الرضاع يستفاد من السنة.

إذاً: قوله تعالى ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ دخله تخصيص، وهو العمة من الرضاع، والخالة من الرضاع.

وكذلك لو جمع الإنسان بين المرأة وعمتها فإنه لا يجوز، وهذا مما جاءت به السنة: «**لا يجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها**»[(٢)]، والله تعالى يقول: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣]، ولا شك أن بين الأختين من الروابط ما ليس بين غيرهما، **فنقول**:

إذاً: هنا أربع محرمات: العمة من الرضاع، والخالة من الرضاع، والجمع بين المرأة وعمتها، والجمع بين المرأة وخالتها، وكل ذلك مما جاءت به السنة، فيكون مخصصاً لعموم قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾.

وتحريم الجمع بين الأختين إلى أن تموت الزوجة أو تطلق، فإذا طلقت طلاقاً رجعياً وجب الانتظار بالإجماع حتى تنتهي العدة، وإذا كان الفراق بائناً بطلاق ثلاث، أو طلاق على عوض، أو فسخ، فالمشهور من مذهب الحنابلة أنه يجب الانتظار حتى تنتهي العدة؛ لأنها إلى الآن مشغولة بحق من حقوق الزوج.

---

(١) تقدم ص١٧٩.

(٢) تقدم ص١٧٩.

وقال بعض العلماء: إذا كان الفراق بائناً بفسخ أو طلاق على عوض، أو طلاق ثلاث، فإنه يصح أن يتزوج أختها؛ لأنها الآن ليست زوجة له، والله تعالى يقول: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣]، والآن ليس هناك جمع، فقد بانت منه، ولو قال قائل بالتفريق بين البينونة الكبرى والصغرى لكان له وجه، بأن يقال: إن كانت بائناً بطلاق ثلاث، أو بفرقة لعان، فإنه يجوز أن يتزوج أختها بمجرد الفراق؛ لأنه لا يمكن أن يرجع إليها، وإن كانت البينونة بغير ذلك؛ كالطلاق على عوض، والفسخ، فإنه لا يتزوجها؛ لأنه في هذه الحال يمكنه أن يراجعها بعقد، فلو قال قائل بهذا لكان له وجه، وكان بعض قول من يقول بالجواز مطلقاً، لكن الجواز مطلقاً أقرب إلى القواعد؛ أي: إذا كان الطلاق بائناً سواء كان مما يمكن الرجوع فيه أو لا، فإنه يحل له أن يتزوج أختها؛ لأنه لم يجمع بين الأختين.

مسألة: هل يجوز أن يجمع بين عمتين، كل واحدة عمة للثانية؟ وكذلك هل يجوز أن يجمع بين خالتين، كل واحدة خالة للثانية؟

نقول: الجمع بينهما حرام؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣]، فإذا كان لا يجوز الجمع بين المرأة وبنت أخيها، فكذلك بين المرأة وعمتها التي كل واحدة عمة للأخرى، فالحكم ليس فيه إشكال، لكن التصوير هو الذي قد يستبعده الإنسان، وهو أدنى من شراك نعله، وهو أن يتزوج رجلان كل واحد منهما أم الآخر، فتكون بنتاهما عمتين، وإذا تزوج كل واحد بنت الآخر صارتا خالتين.

ومعنى قوله: ﴿وَأُحِلَّ﴾ بمعنى: أباح لكم، ولم يلحقكم حرج، ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما وراء هذه المذكورات، فالإشارة لما سبق، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ هذه هي اللغة الفصحى، فإذا جاء اسم الإشارة مقروناً بكاف الخطاب فيراعى فيه المخاطب، فإن كان مفرداً مذكراً فهو مفرد مفتوح، مثل: «ذلكَ»، وإن كان مفرداً مؤنثاً فهو مفرد مكسور، مثل «ذلكِ»، وإن كان مثنى فهو بالتثنية مثل: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٣٧]، وإن كان لجماعة الذكور فهو لجماعة الذكور ﴿ذَٰلِكُمْ﴾، وإن كان لجماعة الإناث فهو لجماعة الإناث «ذلكن» ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]، وهنا قال: ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ فالخطاب لجماعة الذكور.

وجاء فيه لغة أخرى بالإفراد والفتح للمذكر مطلقاً، مفرداً كان أو مثنى أو جمعاً، وبالكسر للمؤنث مطلقاً، مفرداً كان أو مثنى أو جمعاً، وهناك لغة ثالثة بالفتح مطلقاً، ووجهها: أن المخاطب شخص، فصح أن تأتي بلفظ الإفراد والتذكير، وأما الثانية فوجهها: مراعاة المعنى دون مراعاة المخاطب، فالمذكر مفتوح، والمؤنث مكسور، وأما اللغة الفصحى فالأمر فيها واضح.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾: ﴿أَن﴾ مصدرية، ولهذا نصب الفعل ﴿تَبْتَغُوا۟﴾ بها فحذفت النون، والمعنى: أحل لكم بهذا الشرط، وهو أن تبتغوا بأموالكم؛ أي: تطلبوا النكاح بأموالكم، والمال: كل ما يُتَمَّول من أعيان ومنافع.

وقوله: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ حال من فاعل ﴿تَبْتَغُوا۟﴾؛ أي: حال كونكم محصنين؛ أي: محصنين لفروجكم،

محصنين لفروج زوجاتكم، والإحصان في اللغة: المنع، ومنه سمي «الحصن» للقصر المنيع؛ لأنه يحصن ما فيه، والنكاح الشرعي سبب لمنع الزنا، قال النبي ﷺ: «**يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج**»(١).

وقوله: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ المسافحة: مفاعلة من السفح، وهو: الزنا. وسمي الزنا سفاحاً؛ لأن المقصود به سفح الماء؛ أي: نيل الشهوة، فالزاني لا يريد أولاداً، ولا يريد العشرة، وإنما يريد أن يسفح هذا الماء الذي ضيق عليه حتى تبرد شهوته، والسفح في الأصل: هو الصب والدفق، قال الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وقوله: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ﴾ أي: بالعقد ﴿مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: أعطوهن أجورهن، والأجور هنا: جمع أجر وهو المهر؛ أي: المال الذي طلبتموهن به، والمعنى: فإذا ابتغيتم بأموالكم وعقدتم النكاح؛ فأعطوهن أجورهن، وسمي المهر أجراً؛ لأنه في مقابلة منفعة، فهو كالرجل يستأجر أجيراً ليبني له بيتاً فيعطيه أجره، وكذلك الزوج مع زوجته، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ التنبيه على شيء من النكتة في قوله: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ عند ذكر الفوائد.

وقوله: ﴿فَرِيضَةً﴾ أي: حال كونها ـ أي: الأجور ـ ﴿فَرِيضَةً﴾، بمعنى: مفروضة؛ أي: ما فرضتم من المهور فأعطوهن.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة، حديث رقم (١٨٠٦)؛ ومسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، حديث رقم (١٤٠٠) عن ابن مسعود.

وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ أي: لا إثم عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة بزيادة أو نقص، فإذا سمى المهر وفرضه، وعرفت الزوجة نصيبها، فلا جناح عليه ولا عليها فيما تراضيا به من بعد الفريضة بزيادة أو نقص، فقد تعفو المرأة عن شيء مما فرض لها، أو عن كل ما فرض لها، وقد تطلب الزيادة ويعطيها الزوج، فكل هذا لا بأس به؛ لأن الله قال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ هذه الجملة مؤكدة بـ: ﴿إِنَّ﴾ و: ﴿كَانَ﴾؛ لأن «كان» مسلوبة الزمان هنا، فتفيد الثبوت والتحقق، وعلم الله عزّ وجل واسع كامل لم يسبق بجهل، ولا يلحقه نسيان، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، لا في الحاضر، ولا في الماضي، ولا في المستقبل.

وقوله: ﴿حَكِيمًا﴾ أي: ذا حكمة، والحكمة: هي وضع الشيء في موضعه، سواء كانت مما يتعلق بالقدر، أو مما يتعلق بالشرع، فإن أقدار الله ومشروعات الله كلها حكمة، ولكن معنى «حكيم» أوسع من كونه دالاً على الحكمة، بل هو دال على الحكمة والإحكام، ودال على الحكمة والحكم، فمعنى «حكيم» أي: حاكم محكِم، من الإحكام الذي هو الحكمة.

ثم إن حكم الله سبحانه ينقسم إلى قسمين: كوني وشرعي، والحكمة والإحكام حكمة في صورة الشيء، وحكمة في غاية الشيء والمراد منه، وكل ذلك ثابت من قوله: ﴿حَكِيمًا﴾، وعلى هذا فتكون أربعة أقسام: حكم كوني، وحكم شرعي، وإحكام في صورة الشيء، وإحكام في غاية الشيء.

ووجه ختم الآية بهذا هو أن هذه أحكام عظيمة، فدل هذان الاسمان الكريمان على أن هذه الأحكام صادرة عن علم تام بما يصلح الخلق، وعن إحكام تام.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن النساء المسبيات يكن رقائق بمجرد السبي، وعليه عمل المسلمين، فإن سبيت مع زوجها؛ فإنها تبقى معه، ولكن بدونه تكون رقيقة.

٢ ـ أنه ينفسخ نكاحها من زوجها؛ لأن المسلمين قد ملكوها.

فإن قال قائل: وهل يقاس على ذلك ما لو انتقل ملكها وهي مع زوج أن تطلق بهذا الانتقال؟

فالجواب: في هذا قولان للعلماء: الأول: أن بيع الأمة طلاقها، والثاني: لا تطلق، بل تبقى على زواجها، ويكون للمشتري إذا لم يعلم بأنها مزوجة الخيار؛ لأنه يفوت عليه الاستمتاع بها، وهذا هو القول الصحيح: ودليله أن بريرة لما أُعتقت؛ خيرها النبي ﷺ بين أن تبقى مع زوجها، أو أن تفسخ النكاح، ولو كان البيع سبباً للطلاق أو الانفساخ لانفسخ بدون تخيير؛ إذن لا يصح أن يقاس بيع الأمة على سببها، وإن كان قد انتقل ملكها.

٣ ـ إثبات الرق، لقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، وهذا أمر مجمع عليه بين المسلمين، ولا يمكن لأحد الإنكار؛ لأنه في القرآن، وفي السنة، وبإجماع المسلمين.

ولكن نقول: لا يجوز أن يسترق الإنسان لأي سبب، بل

لا بد من سبب شرعي، وعلى هذا فكثير من الأرقاء الذين كانوا يوجدون لا حقيقة لرقهم؛ لأن أهلهم كانوا يبيعونهم لحاجة ولغير حاجة، فيشتريهم المشتري ويسترقهم، وهذا ليس سبباً شرعياً للرق، لكن إذا ثبت السبب الشرعي ثبت المسبب وثبت الرق، ولا يجوز إلغاؤه بأي حال من الأحوال لأنه حكم شرعي.

ولو قال قائل: هؤلاء الأرقاء الموجودون استرقوا بغير سبب شرعي. فنلغي الرق هنا لأجل بطلان سببه، ولكن يجب أن لا يكون التعبير: إلغاء الرق؛ لأن هذا مصادمة للنص والإجماع، ولكن يقال: الرق الموجود الآن ليس على سبب شرعي، فلا يجوز اعتماده.

٤ ـ صحة إطلاق البعض على الكل، لقوله: ﴿أَيْمَٰنُكُمْ﴾؛ لأن «أيمان» جمع «يمين» وهي اليد، والملك في الحقيقة ملك للإنسان كله، لكن عبر باليمين؛ لأن الغالب أن الأخذ والإعطاء يكون بها.

٥ ـ وجوب التزام ما فرض الله علينا، لقوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، وكتاب الله سبحانه ينقسم إلى قسمين: كتاب شرعي؛ كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وكتاب كوني؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾﴾ [النبأ: ٢٩] أي: الكتاب القدري، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

٦ ـ أن المحللات من النساء أكثر من المحرمات، ويؤخذ من قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ ووجه ذلك: أنه حصر المحرمات وعمم في المحللات.

٧ ـ أن من ادعى تحريم امرأة فعليه الدليل؛ فلو خطب إنسان امرأة فقال له بعض الناس: إن هذه المرأة من المحرمات عليك، فلا بد أن يقيم دليلاً على ذلك؛ لأن المحرمات محصورات، والمحللات الأمر فيهن مطلق.

٨ ـ أننا إذا شككنا في سبب التحريم فالأصل عدم التحريم؛ أي: أن الأصل الحل، ومن أمثلة ذلك: لو شككنا في رضيع: هل رضع خمس مرات أو أربع مرات؟ فالأصل أربع، ولو كانت هذه المرأة قد رضعت من أم الرجل، وشككنا: هل رضعت خمساً أم أربعاً؟ فالأصل الحل، وأنها لا تحرم عليه حتى يثبت سبب التحريم.

٩ ـ أن رحمة الله أوسع وأسبق من غضبه، أما كونها أسبق؛ فللحديث الصحيح: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»[1]، وأما كونها أوسع؛ فلأن ما أحل الله لعباده أكثر مما حرم عليهم.

١٠ ـ وجوب بذل المال في النكاح، وأنه لا نكاح إلا بمال، لقوله: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم﴾، وعلى هذا فلا بد في النكاح من مال، وفي هذا ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن يشترط معيناً، فيقال: المهر ألف ريال، وهذا جائز ولا إشكال فيه.

الحالة الثانية: أن يشترط عدمه، فيقول: زوجتك بنتي، فيقبل الزوج ويقول: بشرط أن لا مهر، فيزوجه بشرط أن لا مهر، ففي هذا للعلماء قولان:

---

(١) تقدم ص١٧١.

القول الأول: أن النكاح صحيح، ولها مهر المثل؛ وهذا هو المذهب.

القول الثاني: أن النكاح غير صحيح؛ وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فإنه يقول: لأن الله اشترط للحل أن يكون ذلك بالمال، وإذا شرط عدمه؛ انتفى المشروط وهو الحل. وقول شيخ الإسلام رحمه الله قول قوي، ولعل نكاح الشغار مأخذه من هنا، أنه ليس فيه مال، وإذا ذكر فيه المال فإنه مذكور وغير مقصود.

الحالة الثالثة: أن يُسكت عنه، فلا يشترط ويعين، ولا يشترط عدمه، فيقول: زوجتك بنتي، فيقول: قبلت، ففي هذه الحال النكاح صحيح، ولها مهر المثل، كما جاء في القرآن والسنة، قال الله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، هذا إن طلقت قبل الدخول، فإن طلقت بعد الدخول؛ فلها مهر المثل، كما صح ذلك في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[(١)].

١١ ـ أن الطالب للنكاح هو الزوج، لقوله: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟﴾، فهل يمكن أن تطلب الزوجة النكاح؟ نقول: يمكن للمرأة أن تخطب نفسها إلى شخص، فقد وهبت امرأة نفسها للنبي ﷺ، وهذا عمر رضي الله عنه عرض ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما، فلا بأس في ذلك، لكن الغالب أن الطالب هو الزوج.

١٢ ـ أن المهر إذا كان مغصوباً فإنه لا يعتد به، ويؤخذ ذلك من قوله: ﴿بِأَمْوَٰلِكُم﴾، فهو مال، لكنه ليس له، والله أضاف المال إليه.

---

(١) انظر: تفسير اللباب لابن عادل (٣/ ١٦٩) قال ابن مسعود: «لها صداق نسائها لا وكس ولا شطط وعليها العدة، ولها الميرات».

١٣ ـ أنه لو كان المهر خمراً، فإنه لا يصح؛ لأنه ليس بمال.

١٤ ـ جواز جعل المنفعة مهراً، وتؤخذ من قوله: ﴿بِأَمْوَٰلِكُم﴾ إذا جعلنا المال يشمل العين والمنفعة، أو من قوله: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾، فنقول: إن الله سماه أجراً، والأجرة تكون على المنافع والأعيان، إذاً: المهر يصح أن يكون منفعة، فإن عادت المنفعة إلى الزوجة فالأمر ظاهر، وإن عادت إلى غيرها بإذنها فلا بأس، كما في قصة موسى مع صاحب مدين؛ لأن المهر أن يرعى غنمه ثمان سنوات، فالمنفعة لوالدها، لكن برضاها، فإذا رضيت فالحق لها، وإلا فالمهر للمرأة.

وهل يصح أن يجعل الزوج مهرها خدمته لها؟ كأن: يغسل ثوبها، ويفرش فراشها، ويقدم لها السجاد لتصلي عليها؟

في ذلك خلاف بين العلماء، فقال بعضهم: يصح لأن في هذا منفعة، وقال بعض العلماء: لا يصح ذلك؛ نظراً إلى أن استخدامها إياه نوع من الإذلال، وعكس ما يريد الشرع من كون الرجال قوامين على النساء، فإن الرسول ﷺ قال: «**إن النساء عوان**»[1] أي مثل الأسرى، ولكن إذا دعت الحاجة إلى ذلك فلا بأس، كأن لا يجد امرأة يتزوجها إلا بهذه الحال، أما لو جعلت المهر رعي غنمها، وإصلاح بستانها مما لا يكون خدمة مباشرة، فهذا لا شك في جوازه.

١٥ ـ تحريم المتعة، لقوله تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾،

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها (١١٦٣) بلفظ: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عوان عندكم...»؛ ورواه ابن ماجه، كتاب النكاح، باب حق المرأة على الزوج (١٨٥١)، ورواه أحمد في مسنده (٢٠١٧٢).

وصاحب المتعة لا يريد الإحصان، بل إنه يريد السفاح؛ لأن من أراد الإحصان فإن الإحصان لا يحصل إلا بالملازمة، أما أن يبقى عندها يومين أو ثلاثة أو أسبوعاً، فهذا لا يحصل به الإحصان، بل لا يزيد الأمر إلا شدة؛ لأن كون الإنسان قد كف نفسه وأيس، فإنه ربما يتحصن بعض الشيء، لكن إذا استمتع مدة يومين أو ثلاثة فإنه يزداد شبقاً، وبهذا لن يحصل الإحصان، والله سبحانه اشترط أن يكون محصناً، وزواج المتعة إنما هو للسفاح فقط؛ أي: لسفح هذا الماء الذي ضيق عليه، ولذلك فلا يثبت به شيء من أحكام النكاح، فليس فيه طلاق، ولا نسب، ولا عدة، ولا إحصان، فكل أحكام النكاح لا تترتب عليه، حتى عند القائلين بجوازه، لا يترتب عليه شيء من أحكام النكاح، فدل هذا على أنه سفاح.

وقد دلت السنة على أنه حرام، فعن سبرة بن معبد الجهني رضي الله عنه أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال في غزوة الفتح عن المتعة: «**ألا إنها حرام من يومكم هذا إلى يوم القيامة**»[1]، وهذا التحريم خبر مؤبد، فهي حرام إلى يوم القيامة، وإنما قلنا: إنه خبر مؤبد؛ لئلا يدعي مدعٍ أنه نسخ؛ لأن جعل غايته يوم القيامة معناه أن نسخه غير ممكن، ولو أمكن نسخه؛ لأمكن تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذا مستحيل.

وقد أجاز بعض العلماء المتعة للضرورة، فقال: إذا خاف الإنسان على نفسه الزنا، لكونه شديد الشهوة، ولكون الزنا متيسراً ـ كما يوجد في بلاد الكفر ـ؛ فلا حرج أن يتمتع، ويروى هذا

---

(١) هذه الرواية لمسلم، كتاب النكاح، باب نكاح المتعة وبيان أنه أبيح ثم نسخ ثم أبيح ثم نسخ واستقر تحريمه إلى يوم القيامة، حديث رقم (١٤٠٦) من حديث سبرة الجهني.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، فقد قال: «إنه كالميتة»، فإذا اضطر الإنسان إليه؛ فعله، وإلا فلا، وحجته: أن فيه ارتكاب أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما، وهو الزنا، الذي يشعر الإنسان بأنه تيس وجد عنزاً في الطريق فأقرعها ومشى، هذا هو الزنا، لكن المتعة فيها نوع من الارتباط بين الرجل والمرأة، وهو ارتباط إلى المدة التي اتفقا عليها، ففيها شيء من العلاقة التي لا يشركه فيها أحد، لكن الزنا على خلاف ذلك.

ولكن القول الراجح: أنها لا تحل مطلقاً؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣]، وقد أنكر عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما على ابن عباس رضي الله عنهما إنكاراً عظيماً في هذه المسألة، ومحل إنكار هذا القول؛ أن النبي ﷺ عمم فقال: «**حرام إلى يوم القيامة**»[1]، وأطلق، ولأن حقيقة المتعة استئجار المرأة ليزني بها لمدة معينة، فإذا تمت المدة خرجت من الباب الذي دخلت منه، ولا تعتد، ولا يترتب على ذلك شيء أبداً، وهل الزنا إلا هذا؟! أما الضرورة فقد جعل الشارع لها حلاً، فقال عليه الصلاة والسلام: «.. **ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء**»[2]، وأما ارتكاب أدنى المفسدتين فيقال: هذه مفسدة مثل الأولى ـ أي: مثل الزنا ـ ولا فرق بينهما، والعلاقة الحاصلة ـ كما لو اتفق مع امرأة ليزني بها ليالي معينة ـ إنما هي علاقة يسيرة منقطعة في هذه الليالي، فالصواب التحريم مطلقاً، وقد سبق أن علماء

---

(١) تقدم ص٢١٠.

(٢) تقدم ص٢٠٣.

السنة كلهم يقولون بتحريمها، لكن خالف في ذلك الرافضة، وإنك لتعجب أن يخالفوا في ذلك، ومن يزعمون أنه إمامهم يقول بتحريمها ويعلن ذلك! لكن هذا ليس بغريب على من يتبع هواه، فهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو من جملة من روى المسح على الخفين، ومع ذلك فإن الرافضة لا يقولون بالمسح على الخفين، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه هو من جملة من روى تحريم المتعة، وهم لا يقولون بالتحريم، وعلي رضي الله عنه يقول ويعلن على منبر الكوفة بأن خير هذه الأمة أبو بكر وعمر، وهم يقولون: ليسا خير هذه الأمة، بل بعضهم يقول: إنهما ماتا على النفاق، وبعضهم يقول: إنهما كافرين، وما أشبه ذلك.

ومما يدل على أن مبنى عقيدتهم ليس على هدى ـ ولكنه على هوى ـ : أنهم لو كانوا يتشيعون لآل البيت حقيقة؛ لما صاروا إلى مخالفة علي رضي الله عنه الذي هو أفضل آل البيت.

إذاً: المتعة حرام، ولكن هل من المتعة أن يتزوج الإنسان بنية الطلاق إلى مدة معينة؟ النكاح بنية الطلاق ليس متعة؛ لأنه ليس فيه شرط، لكن فيه محذور، وهو الغش للزوجة وأهلها؛ لأن الزوجة وأهلها لو علموا أن هذا الرجل يريد أن يطلقها إذا سافر مثلاً، أو إذا طهرت امرأته من النفاس؛ فلن يزوجوه، وقد وجدت للشيخ محمد رشيد رضا كلاماً يؤيد هذا، ويقول: إن فيه مثلبة على المسلمين، فيعرف الناس عنهم أنهم متلاعبون في أنكحتهم، ثم إن فيه سداً لباب التزويج؛ لأن كل إنسان يعرف أن هؤلاء يتزوجونهن ثم يطلقونهن عند السفر، فإنه لا يثق بهم، ولا يأمن أن يفعل مثلما فعلوا، وحينئذ فيكون فيه سد لباب التزويج، ولهذا

ينبغي لنا إذا لاحت لنا مصلحة أن لا نتعجل في الأخذ بها حتى نرى ما يترتب عليها، فقد يترتب عليها من المفاسد ما هو أعظم من المصلحة.

والذين قالوا بالجواز، يقولون: لأن كل إنسان إذا لم تتلاءم معه زوجته فإنه يطلقها، ولكن نقول: هناك فرق بين شخص لم يدخل إلا على أنه سيطلق في يوم معين، وبين شخص آخر دخل على أنها زوجته، ولكنه وجد عارضاً يمنع الاستمرار في الزوجية، وهذا فرق عظيم.

ثم إننا نقول: ألستم تقولون: إن الرجل إذا تزوج المرأة بنية التحليل للزوج الأول ـ لا بشرط التحليل ـ فإن النكاح فاسد، فهذا مثله، لأن هذا نوى أن يطلق بعد زمن معين، وذاك نوى أن يطلق بعد زمن معين، والأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى. فإذا قالوا: إن هذا يمكن أن يرغب ويبقى، قلنا: والمحلل يمكن أن يرغب ويبقى.

فعلى كل حال: أنا أرى أنه لا يجوز للإنسان أن يتزوج بنية الطلاق إذا سافر.

لكن هل يصح النكاح أم لا يصح؟

المذهب عند الحنابلة أن النكاح غير صحيح؛ لأن نية المتعة كشرطها، كما أن نية التحليل كشرطه، والمخرج أن لا يفعل، وهناك الآن شيء أخف من هذا كله، وهو: أن هناك عقاقير تخفف الشهوة، ولا تقضي عليها؛ لأن الذي يقضي عليها لا يجوز، وهناك أمر آخر، وهو الاستمناء مثلاً؛ فإن الاستمناء أهون من المتعة ومن الزواج بنية الطلاق للضرورة.

١٦ ـ أن المهر يثبت باستمتاع الزوج بزوجته، لقوله: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، وعلى هذا فيثبت المهر بالجماع وبالاستمتاع بالمرأة استمتاعاً لا يكون إلا من الزوج مع زوجته؛ كالتقبيل والضم ونحو ذلك، ويثبت أيضاً بالخلوة، كما جاء ذلك عن الخلفاء الراشدين.

١٧ ـ تسمية المهر أجراً، ووجهه: أنه عوض في مقابل منفعة، لا في مقابل عين، فلو كان في مقابل عين لسمي بيعاً، لكنه في مقابل المنفعة، وهو استمتاع الزوج بالزوجة، فصار مثل الإجارة.

١٨ ـ أن المهر لازم كلزوم الأجرة على المستأجر، ولكن إذا سمح من له الحق فإنه يسقط، لقوله تعالى: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وقد سمى الله عزّ وجل المهر أجراً، لا لأن الزوج يعامل زوجته وهو يشعر أنها كالأجير، بل إن معاشرة الزوج لزوجته ومعاملته لها أسمى من ذلك وأعلى؛ لأنه إذا شعر بأنها كأجير استأجرها ليستمتع بها؛ لم يحصل مقصود النكاح، وهو: المودة والرحمة، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، ولأنه لو شعر هذا الشعور، لغضب عليها حينما تمتنع منه لسبب أو لغير سبب، وربما طلقها، لكن إذا شعر بأن الأمر أعلى وأسمى من ذلك فإنه سيقدر الحياة الزوجية قدرها.

نعم، إن المهر أجر؛ لأنه في مقابل منفعة، ولكن الذي سيق إليه المهر ليس كالأجير، فالعوض ـ وإن سمي أجراً ـ لكن المعوض له ليس كالأجير.

١٩ ـ وجوب إيتاء النساء مهورهن، لقوله: ﴿فَرِيضَةً﴾ أي: مفروض عليكم أن تؤتوهن أجورهن.

٢٠ ـ أنه إذا تراضى الزوج والزوجة على زيادة أو نقص أو إسقاط، فلا حرج؛ لقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾.

٢١ ـ نأخذ من ذلك قاعدة مهمة وهي: «أن ما أوجبه الله عزّ وجل لحق الإنسان وأسقط حقه، فلا إثم على من لم يقم به» فإذا أوجب الله علينا حقاً لإنسان وأسقط حقه، فلا إثم علينا إذا لم نقم به، وهذه القاعدة لها فروع كثيرة:

منها: إجابة دعوة الوليمة، فهي واجبة لحق الزوج، فإذا أسقطها فلا إثم على المدعو إذا لم يجب؛ لأن الحق له، والشيء الذي أوجبه الله من باب الحقوق على الناس بعضهم لبعض إذا أسقطه من له الحق سقط.

ومنها: أن من سب الرسول ﷺ وجب قتله ولو تاب، ومن سب الله فإنه إذا تاب لا يقتل، مع أن سب الله أعظم، لكن الله أخبرنا عن نفسه أن من تاب إليه تاب عليه، ولكن حق الرسول عليه الصلاة والسلام لا نعلم أنه أسقطه، فإنه حق آدمي، فيقتل لحق الرسول ﷺ مع قبول توبته، فإذا قتلناه غسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه مع المسلمين؛ لأنه تاب، لكن القتل لا بد منه.

٢٢ ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: العليم والحكيم، وقد سبق تفسيرهما.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء: ٢٥].

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ﴾ «مَنْ» اسم شرط جازم، وقوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ﴾ جواب الشرط، وقد اجتمع في هذه الجملة موجبان للجزم: أحدهما ﴿مَن﴾، والثاني ﴿لَّمْ﴾، فهل الفعل مجزوم بـ﴿مَن﴾ أو مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾؟

نقول: الفعل المجزوم بـ﴿لَّمْ﴾؛ لأنها المباشرة، وعلى هذا فنقول: يستطع: فعل مضارع مجزوم بلم، وهو فعل الشرط.

وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ الطول: هو الغنى؛ أي: ومن لم يستطع منكم غنىً يكفي لمهر المحصنات.

وقوله: ﴿أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: الحرائر: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ ضد الكافرات.

وقوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ أي: فانكحوا مما ملكت أيمانكم، والخطاب هنا للجميع باعتبار المجموع لا باعتبار كل فرد، وإنما قلنا ذلك لأن المالك لا يصح أن ينكح مملوكته، فالسيد لا يمكن أن يتزوج مملوكته، وإنما يتسراها تسرياً؛ لأن الله جعل ملك اليمين معادلاً للزوجية، فقال: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦] فدل هذا على أن ما ملكت اليمين غير الأزواج.

وقال أهل العلم: إنه لا يجوز أن يتزوج السيد مملوكته؛ لأن استباحته بضعها كان بعقد أقوى من عقد النكاح؛ لأن عقد الملكية يفيد ملكها بجميع أنواع الاستمتاعات، وعقد النكاح يفيد ملك الاستمتاع بها فقط، فالأمة يملك سيدها منافعها كلها، فيملك أن تخدمه، وأن يؤجرها، وليس لها مال بل مالها له، ويملك الاستمتاع بها، والزوجة ليست كذلك.

إذاً: فملك منفعة البضع بملك اليمين أقوى من عقد النكاح، فلا يرد الأقوى على الأضعف، هذا من حيث التعليل.

أما من حيث الدليل فيقول الله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦]، وجه الدلالة: أن الله جعل ملك اليمن قسيماً للزوجية.

﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ من بيان لـ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ وفتيات جمع فتاة؛ وهي الأمة المملوكة وتطلق على الشابة إذا أضيفت إلى الحرة. واشترط الله عزّ وجل فيها الإيمان، فقال: «المؤمنات»؛ أي: لا بد أن تكون مؤمنة، فإن كانت كتابية فإنها لا تحل، حتى وإن كان ممن لا يجد طول الحرة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ الجملة هنا جملة اعتراضية، يعني: أن الله سبحانه أعلم بالإيمان، فإذا اشترط الله الإيمان فليس لنا إلا الظاهر، أما الباطن فعلمه عند الله، ولهذا كان الحساب في الدنيا على الظاهر وفي الآخرة على الباطن.

وقوله: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾: البعضية هنا بعضية إنسانية، يعني: أن الله أباح لنا الإماء لأنهن منا بشر مثلنا، فبعضنا من

بعض، وإن كان الحر أشرف وأعلى، وأتى بهذه الجملة المؤكدة للتساوي في البشرية؛ لأنه يوجد عند العرب أنفة عظيمة أن يتزوج الحر أمة فخفف الله ذلك عنهم وقال: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ فأنت لست تنكح إلا إنسانة فأنت معها: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾.

قوله: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾: الهمزة في قوله: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾ همزة وصل؛ لأنها من «نكح»، أما قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢] فهي همزة قطع؛ لأنها من الرباعي «أنكح».

وقوله: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾ أصل النكاح الاجتماع؛ لأن بعقده يكون اجتماع الزوج والزوجة، وكذلك اجتماع الأصحاب بعضهم إلى بعض، وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًاۗ﴾ [الفرقان: ٥٤].

وهمزة: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾ همزة وصل؛ لأنها من الثلاثي «نكح».

قوله: ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾؛ أي: برضاهم، والإذن بمعنى السماح والرضا، والمراد بأهلهن أسيادهن، وذلك أن الأمة لا تملك نفسها، ولا يملكها وليها في النسب، وإنما يملكها وليها بالسبب، أي مالكها، ولذلك يزوج الأمة سيدها ولا يزوجها أبوها؛ لأن ولاية السيد أقوى من ولاية الأب، ولذلك قال: ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾، وهم أسيادهن.

قوله: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: أعطوهن؛ لأنها من الرباعي وآتى الرباعي بمعنى أعطى، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي: أعطى المال، بخلاف أتى

فإنها بمعنى جاء، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ [النمل: ١٨].

وقوله: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن، وسمي أجراً لأنه عوض عن منفعة، والإضافة هنا في قوله: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ إضافة اختصاص لا إضافة ملك؛ كإضافة سرج الدابة إليها، فيقال: سرج الفرس، لا لأن الفرس يملكه لكن لأنه مختص به، وذلك لأن الأمة لا تملك، لقول النبي ﷺ «**من باع عبداً وله مال فماله للذي باعه**»(١).

وقوله: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي: بالمعروف شرعاً وعادة، والمعروف شرعاً أن يكون المهر متمولاً شرعاً، سواء كان من الذهب أو الفضة أو الحديد أو الرصاص أو الثياب أو الفرش أو الأبواب أو غير ذلك.

والمعروف عادة أن لا يماطل، بل يعطي الأمة مهرها كما يعطي الحرة، وإنما ذكر الله ذلك لأنه ربما يحتقر الأمة ولا يؤتيها حقها كما ينبغي، ولهذا قال: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ﴾:

قوله: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ﴾: حال من الضمير في قوله: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾، يعني: انكحوهن حال كونهن محصنات، أو من ضمير المفعول به في قوله: ﴿وَءَاتُوهُنَّ﴾؛ أي: آتوهن أجورهن حال كونهن محصنات، ولا تعطوهن أجورهن أجور زنا، بل أجور إحصان.

وقوله: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ﴾ هنا أي: متزوجات: لا زانيات، وهو من باب التوكيد لما سبق؛ لأنه يغني عنه قوله: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾؛ لأن نكاحهن الشرعي بإذن أهلهن يجعل العقد معهن

---

(١) تقدم ص١٠١.

عقد إحصان لا زنا، لكن لخطر هذا الأمر أكده الله سبحانه بقوله: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾، والمسافح الزاني والعياذ بالله، وسمي مسافحاً لأنه ليس له هم إلا سفح الماء في القبل، فلا يريد أولاداً، ولا عشرة، ولا مودة، وإنما هو كالتيس يريد أن يقضي نهمته فقط.

قوله: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾، الأخدان: جمع خِدْن أو خَدَن، والمراد به ما يعرف عند الكفرة بالصديق والصاحب، فإنه في بلاد الكفر تتخذ المرأة صديقاً صاحباً يفعل بها ما يفعل الرجل بامرأته ما عدا الجماع، وربما تصل الحال إلى الجماع، والإماء لما كن لا يهتممن بهذا الأمر، قيد الله ذلك بقوله: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾، أما الحرائر فإنه يبعد فيهن الزنا، حتى قيل: إن هنداً بنت عتبة لما بايعت النبي ﷺ النساء: «**على ألا يسرقن ولا يزنين**» قالت: «يا رسول الله! أو تزني الحرة»[1]، وهو ضعيف لكن ذكره بعض العلماء.

قوله: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾؛ أي: أحصنهن من يُحصِّنهن، وفي قراءة «أَحْصَنَّ» أي: أحصن أنفسهن.

واختلف المفسرون في المراد بالإحصان، فقال بعض العلماء: إنها على قراءة الفتح «أَحْصَنَّ» بمعنى أسلمن، و﴿أُحْصِنَّ﴾ بمعنى نُكحن، وقال بعض العلماء: هما بمعنى واحد، وأن معنى أَحصَنَّ؛ أي: صرن ذوات إحصان، كما يقال أنجد أي دخل نجداً، أما على قراءة الضم ﴿أُحْصِنَّ﴾ فالأمر ظاهر

---

(١) رواه أبو يعلى (٨/ ١٩٤) (٤٧٥٤) عن عائشة، وابن جرير (١٢/ ٧٣) عن ابن عباس.

بأن المراد نُكِحن فأحصن فروجهن بهذا النكاح، والصواب أنهما بمعنى واحد، وكونها بمعنى أسلمن بعيد؛ لأن السياق هنا في سياق الفتيات المؤمنات في قوله: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، والمؤمنة مسلمة.

قوله: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾:

هذا شرط داخل في شرط: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾: هذا الشرط الأول، وقوله: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ﴾: هذا الشرط الثاني، ﴿فَعَلَيْهِنَّ﴾: جواب الشرط الثاني، فهو شرط في شرط، يعني إذا أحصنت الأمة وأتت بفاحشة فعليها نصف ما على المحصنات من العذاب.

وقوله: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾: الحرائر، ولا يصح أن يقال: فإذا أُحصن فعليهن نصف ما على المحصنات من الإماء، فهذا لا يستقيم، ولكن معنى ﴿نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي: الحرائر.

قوله: «من العذاب» والعذاب هو الحد، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ﴾ [النور: ٨]، وقال سبحانه: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور: ٢]، فيكون المراد بالعذاب هنا الحد، والحد للمحصنة الحرة هو الرجم؛ لأن النبي ﷺ رجم الغامدية، وإن كانت الحرة غير محصنة فهو الجلد، لقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾، والحد للمحصنة الذي يمكن أن يتنصف في حق الأمة هو الجلد. أما الرجم فلا يتنصف؛ لأن الرجم يحصل به الموت والموت لا يتنصف، فيكون المراد بنصف العذاب خمسين جلدة.

والحرة تعذب تعذيباً آخر، وهو التغريب، والتغريب قد جاء في صحيح السنة أن النبي ﷺ قال لأبي العسيف: «**على ابنك جلد مائة وتغريب عام**»(١) وقال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام**»(٢)، ولكن العلماء اختلفوا في تغريب الحرة، هل تغرب أو لا تغرب؟

فمنهم من قال: إنها لا تغرب؛ لأن التغريب إنما هو لصيانة الإنسان عن الزنا، والمرأة إذا غربت ربما يزداد زناها، لا سيما إذا لم يكن معها محرم، فلا تغرب المرأة، فإذا لم تغرب فالأمة يكون عليها خمسون جلدة بلا تغريب؛ لأن الحرة لا تغرب.

ولكن إذا قلنا بالقول الثاني: أنها تغرب، فهل تغرب الأمة كما تغرب الحرة؟

قال بعض العلماء: تغرب نصف سنة، وقال بعض العلماء: لا تغرب؛ لأن تغريبها إضرار بمالكها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، ولكن هذا التعليل عليل؛ لأننا نقول: إذا قلنا بأن التغريب حد فإنه كما يكون إضراراً بالسيد فالجلد إضرار بالسيد أيضاً؛ لأنها ربما تتأثر صحتها بذلك، وستتأثر سمعتها بذلك وتنقص قيمتها.

وإذا قلنا بأن التغريب يرجع إلى اجتهاد الإمام في الحرة

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث رقم (٢٥٤٩)؛ ومسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى، حديث رقم (١٦٩٧).

(٢) تقدم ص١٢٥.

وليس بحد واجب، فإنا نقول أيضاً: يرجع التغريب في الأمة إلى اجتهاد الحاكم.

والصواب: أن عليها نصف ما على الحرة من العذاب في الجلد والتغريب، هذا إذا أحصنت لقوله: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

وإذا لم تحصن.

فقال بعض العلماء: ليس عليها شيء؛ لأن مفهوم الآية الكريمة أنها إذا لم تحصن فليس عليها شيء من العذاب، وإذا سكت الله عن شيء فهو مما عفا عنه، ولا شك أن زنا من أحصنت أقبح من زنا من لم تحصن؛ أي: من لم تتزوج.

وقال بعض العلماء: إذا أُحصنت فعليها نصف ما على الحرة من العذاب، وإذا لم تحصن فعليها العذاب كاملاً، وقال: نأخذ بالآيتين قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، فهذا عام في الحرة والأمة، وخرج منه الأمة إذا أحصنت فعليها نصف ما على الحرة من العذاب، وبقيت الأمة غير المحصنة فحدها كالبكر التي لم تتزوج من الحرائر، والبكر التي لم تتزوج من الحرائر حدها مائة جلدة، وعلى هذا فإذا أحصنت الأمة فزنت فعليها خمسون جلدة، وإذا لم تحصن فعليها مائة جلدة.

وأحق الناس بهذا المذهب الظاهرية، فإن الظاهرية قالوا بهذا، وقالوا: ما لنا إلا الظاهر.

ومن العلماء من قال: إذا أحصنت فعليها نصف ما على الحرة، وإذا لم تحصن وجب تأديبها بالجلد المطلق، لقول

النبي ﷺ: «**إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها ولا يثرب عليها، ثم إن زنت فليجلدها ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعر**»[(١)]؛ أي: ولو بحبل، فقال: «**فليجلدها**» وأطلق، فعلى هذا إذا زنت قبل أن تحصن وجبت عقوبتها بالجلد الذي ليس بحد، وهذا القول هو الصحيح: فإذا تزوجت فعليها نصف ما على الحرة وهو خمسون جلدة، ولا يمكن أن نقول عليها نصف الرجم لأنه لا يتبعض، وإذا لم تحصن فإنه يجب جلدها تعزيراً لها؛ لأننا لو تركناها فهو مشكل أيضاً.

وأما القول بأنها إذا زنت قبل الإحصان فإنها تحد حداً كاملاً، فهذا قول ضعيف بلا شك؛ لأن علة التنصيف هو الإحصان؛ أي: التزوج، فإذا زالت العلة زال الحكم.

ثم قال الله تعالى في بيان شروط نكاح الأمة: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: المشار إليه الحكم المذكور وهو جواز نكاح الإماء، ﴿لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ الجار والمجرور متعلق بخبر المبتدأ ﴿ذَٰلِكَ﴾، والخبر محذوف والتقدير ثابت أو كائن.

﴿خَشِيَ﴾ أي: خاف، والخشية والخوف يترادفان، فيحل أحدهما مكان الآخر، لكنهم فرقوا بينهما بأن الخشية إنما تكون عن علم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]،

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب بيع العبد الزاني، حديث رقم (٢٠٤٥)؛ ومسلم، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى، حديث رقم (١٧٠٣).

وبأن الخشية يكون سببها عظم المخشي وإن كان الخاشي عظيماً، وأما الخوف فسببه ضعف الخائف وإن كان المخوف ضعيفاً، فهي أقوى وأشد، فقوله: ﴿خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ أي: خافه خوفاً مؤكداً.

والعنت: المشقة، ومنه قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] أي: ما شق عليكم.

وقوله: ﴿مِنكُمْ﴾، بيان ﴿لِمَنْ﴾ في قوله: ﴿لِمَنْ خَشِىَ﴾.

قوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: الجملة مبتدأ وخبر، لكن المبتدأ مؤول، فإن معنى ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: وصبركم، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤] أي: وصومكم خير لكم، فالمبتدأ هنا هو المصدر المؤول من أن والفعل.

وقوله: ﴿تَصْبِرُوا۟﴾ أي: تحبسوا أنفسكم؛ لأن الصبر هو الحبس، والمعنى تحبسوها عن نكاح الإماء حتى مع وجود الشرطين، وهما: عدم استطاعة الطول وخوف العنت.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: من أن تنكحوا الفتيات، والخيرية هنا مطلقة، وإذا أطلق الله سبحانه الشيء صار عاماً؛ أي: خير لكم على كل حال، لكن إن عجز الإنسان عن الصبر فالأمر واسع.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين: «الغفور الرحيم» يشير إلى أنه يجب على الإنسان أن يتحرز في هذه المسألة احترازاً بالغاً لئلا يقع في الإثم، وأن الله سبحانه إنما أباح لنا ذلك من أجل أنه موصوف بهذين الوصفين اللذين دل عليهما الاسمان الكريمان، وهما المغفرة والرحمة.

والمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر وهو ما يوضع على الرأس من الحديد من أجل وقاية الرأس من السهام، ويحصل به ستر ووقاية، فالمغفرة مشتملة على هذين المعنيين: الستر والوقاية من العذاب، فليست ستراً فقط ولا وقاية من العذاب فقط، بل ستر ووقاية.

وأما الرحمة فهي صفة من صفات الله عزّ وجل تقتضي الإحسان إلى الخلق ودفع الضرر عنهم، والله سبحانه سمى نفسه بالرحمٰن وبالرحيم، ووصف نفسه بأنه ذو الرحمة فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وهي صفة مستقلة عن الإرادة وعن الإحسان، فهي عند السلف وأئمة أهل السنة صفة زائدة أو مستقلة عن الإرادة أو الفعل.

وحَرَّف معناها من لا يرى ثبوت الرحمة لله، وقال: إن المراد بالرحمة إرادة الإنعام، أو الإنعام نفسه، وإنما حرفوها إلى هذا المعنى لأنهم يثبتون الإرادة، فقالوا: إرادة الإحسان أو الإحسان نفسه؛ لأن الإحسان منفصل عن الذات، فلا يمتنع عندهم وقوعه من الله عزّ وجل، وهؤلاء هم الأشاعرة، وفي الحقيقة أنهم لو رجعوا إلى أنفسهم لوجدوا أن تفسيرهم الرحمة بهذا يستلزم ثبوت الرحمة؛ لأن إرادة الإحسان لا تكون إلا رحمة لمن استحقها، ومحبة للإحسان، والإحسان نفسه الذي هو المنفصل عن الله لا يكون إلا من آثار الرحمة.

على كل حال: مذهبنا ـ ولله الحمد ـ مذهب أهل السنة والجماعة أن كل ما سمى الله به نفسه أو وصف به نفسه فهو ثابت له على وجه الحقيقة، لكن بدون تمثيل، وبدون تكييف.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ الحث على تزوج الحرائر المؤمنات، ووجه ذلك: أن الله لم يرخص في العدول عن نكاحهن إلا لحاجة وعذر، لقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾.

٢ ـ أنه لا بد في النكاح من مال، لقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾.

٣ ـ أنه لا ينبغي لمن لم يستطع الطول أن يستدين، فليعدل إلى طريق آخر دون الطول الذي عجز عنه، لقوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾.

ويؤيد ذلك من السنة قصة الرجل الذي طلب من النبي ﷺ أن يزوجه الواهبة نفسها للرسول ﷺ حين قال: زوجنيها، فطلب النبي ﷺ منه مهراً، فقال: ليس عندي شيء ولا خاتم من حديد، ولم يقل: استقرض، بل سأله: هل معه شيء من القرآن؟ قال: نعم، قال: «**ملكتكها بما معك من القرآن**»[1].

ويؤيد ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].

ويؤيده أيضاً قوله ﷺ: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع**

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراءة عن ظهر القلب، حديث رقم (٤٧٤٢)؛ ومسلم، كتاب النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد وغير ذلك من قليل وكثير، حديث رقم (١٤٢٥) من حديث سهل بن سعد.

فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[١].

٤ ـ أنه يجوز للحر أن يتزوج الأمة بالشرطين المذكورين: أن لا يجد طول حرة مؤمنة، وأن يخشى العنت.

٥ ـ أنه لو قدر على مهر حرة كتابية لا حرة مؤمنة، فله أن يتزوج الفتاة المؤمنة، وتؤخذ من قوله: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، فإذا كان الإنسان عنده خمسة آلاف ريال لا تكفي لنكاح الحرة المؤمنة ولكنها تكفي لنكاح الحرة الكتابية، أو لنكاح الأمة المؤمنة، فهل يعدل إلى نكاح الأمة أو يجب أن يتزوج الحرة الكتابية؟

الجواب: له أن يعدل إلى نكاح الأمة المؤمنة دون الحرة الكتابية، وهذا ظاهر القرآن.

وقال بعض العلماء: بل الحرة الكتابية أولى من الأمة المؤمنة، وذلك لأن أولاد الحرة الكتابية ينشؤون على أنهم أحرار، وأولاد الأمة المؤمنة ينشؤون على أنهم أرقاء مملوكون لسيدها، وهذا الثاني هو المشهور من مذهب الإمام أحمد رحمه الله؛ أي: أنه لو قدر على نكاح أمة أو نكاح كتابية، فإنه لا يجوز أن يتزوج الأمة بل يتزوج الكتابية، ولكن ظاهر القرآن مقدم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

ولأن الكتابية لا يؤمن أن تضل زوجها، لا سيما إذا كانت ذات شهادة عالية وليس عنده مثل هذه الشهادة، أو كانت فصيحة اللسان قوية البيان فإنها قد تؤثر على الزوج فيرتد، ويكون يهودياً أو نصرانياً.

---

(١) تقدم ص٢٠٣.

ولا سيما أيضاً إذا كان عندها مال وهو فقير، فإنها تؤثر عليه، وإذا لم تؤثر عليه ربما تؤثر على أولاده، ولهذا كان ظاهر القرآن هو الواجب الاتباع، فنقول: إذا قدر على مهر حرة كتابية أو مهر أمة دون حرة مؤمنة، فالواجب أن يقدم الأمة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

٦ ـ نقص مرتبة الرق عن مرتبة الحرية، وهو كذلك، فإن الرقيق مملوك يباع ويشترى ولا يملك نفسه، حتى أنه إذا قتل فإن ديته قيمته وليس دية حر، فتختلف الديات في العبيد باختلاف صفات المقتولين، فربما إذا قتل عبد تكون ديته مليون ريال، وعبد آخر تكون ديته عشرة ريالات، فلهذا لا شك أن مرتبة الحرية أعلى من مرتبة الرق.

٧ ـ أنه لا يحل لمن لا يجد طول الحرة المؤمنة أن يتزوج أمة كتابية، وتؤخذ من قوله: ﴿فَمِن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ أي: فلا يحل أن يتزوج أمة كتابية.

وإذا لم يعجز عن طول الحرة المؤمنة، فلا يتزوج أمة كتابية من باب أولى، وبهذا يتبين أن الأمة الكتابية لا يحل للمؤمن تزوجها، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥]، فالمحصنات هنا الحرائر، ويحتمل أن يكون المراد بهن العفيفات عن الزنا، لكن هذه الآية تدل على أن المراد الحرائر، وأن الإماء من أهل الكتاب لا يحل تزوجهن مطلقاً.

٨ ـ إثبات علم الله عزّ وجل لما كان غيباً خفياً، لقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۡۚ﴾.

٩ ـ جواز استعمال صيغة التفضيل في صفات الله عزّ وجل، فيقال الله أعلم، الله أكبر، الله أعز، الله أعظم، وما أشبه ذلك، خلافاً لمن قال إن هذا لا يجوز، وأنه يجب أن نفسر اسم التفضيل باسم الفاعل، فيقول هذا القائل في مثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ أي: عالم بإيمانكم، وما علم هذا القائل أن قوله: «والله عالم بإيمانكم» أدنى من قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۡۚ﴾؛ لأن «عالم» اسم فاعل لا تمنع المشاركة في الوصف ولا في الرتبة، لكن أعلم اسم تفضيل تمنع المشاركة في الرتبة، فمن الأفهام الخاطئة، أن نجعل اسم التفضيل بالنسبة لصفات الله بمعنى اسم الفاعل؛ لأن هذا لا شك أن فيه نقصاً عما أراد الله عزّ وجل.

١٠ ـ إثبات الملك الذي هو الرق، لقوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم﴾، وهذا الحكم ثابت إلى يوم القيامة، لا يمكن أن يرفع بأي حال من الأحوال، فمتى وجدت أسبابه الشرعية فإنه ثابت، نعم إذا لم توجد، مثل أن ينهب الإنسان من بني آدم من ينهب، ويأتي بهم إلى أسواق الناس يبيعهم، فهنا لا يمكن أن نثبت الرق بهذه الطريقة، لكن إذا ثبت بطريق شرعي فإنه ثابت ولا يمكن رفعه، لقوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم﴾.

وملك الإنسان لما يملك من آدمي أو بهيمة أو عقار أو غيره ليس ملكاً تاماً، ولذلك لا يتصرف الإنسان فيما يملك كما يحب، بل تصرفه مقيد بالشرع، ولكن العلماء رحمهم الله جعلوا من ملك

التصرف الذي جعل له على وجه كامل جعلوه مالكاً، ومن ملكه على وجه مقيد جعلوه مستأجراً مثلاً أو مستعيراً أو ما أشبه ذلك.

١١ ـ جواز إطلاق البعض على الكل، وتؤخذ من قوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، والمراد مما ملكتم؛ لأن اليد وحدها لا تملك.

١٢ ـ استعمال ما يكون سبباً لقبول الحكم، وهو ما يمكن أن نعبر عنه بتخفيف الأمر على المحكوم عليه، لقوله: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾، وذلك أن العرب كانوا يأنفون أنفة كبيرة بالنسبة للأرقاء، ويرون أن من نكح رقيقة فقد أتى شيئاً فاحشاً عظيماً، ويقولون: الرقيقة مملوكة والبعير مملوك، فإذا نكحت الرقيقة فهم يرونها كبيرة جداً، ولهذا أرشد الله إلى هذا الأمر بقوله: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾، لتهوين الأمر على الناس.

فيؤخذ من هذا أنه ينبغي للمتكلم أن يخاطب المخاطب بما يهون عليه الحكم.

١٣ ـ اشتراط إذن الأهل في تزويج الإماء لقوله: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾، ويترتب على هذه الفائدة، فائدة أخرى وهي: أن المرأة لا تزوج نفسها، فإن قال قائل: هذا ظاهر فيما إذا كانت أمة أنها لا تزوج نفسها لأنها مملوكة، لكن إذا كانت حرة؟ فنقول: إذا كانت حرة فهناك أدلة أخرى تدل على أنها لا تزوج نفسها، وأنه لا بد من ولي.

١٤ ـ أن الأمة تملك مهرها، لقوله: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، والمراد بها المهور، وإلى هذا ذهب بعض أهل العلم وقال: إن مهر الأمة لها لأنها تحتاجه للتزين لزوجها، ولإعداد المكان،

والبيت والمطبخ وغيره للزوج، فلا يكون مهرها لسيدها؛ لأن هذا مما تتعلق بها حاجاتها.

ولكن جمهور أهل العلم على خلاف ذلك؛ أي: على أن مهر الأمة لسيدها، لقول النبي ﷺ: «**من باع عبداً له مال فماله للذي باعه**»[1]، قالوا: وإضافة الأجور إليهن من باب الاختصاص، أو من باب مراعاة السبب؛ لأنهن كن السبب في هذا المهر، فلولاها ما حصل مهر لسيدها، وهذا أقرب إلى القواعد الشرعية العامة.

١٥ ـ الرجوع إلى العرف، وتؤخذ من قوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وهذه قاعدة للشيء الذي لم يحدده الشرع أن نرجع فيه إلى العرف.

١٦ ـ اشتراط أن يكون النكاح نكاح إحصان لقوله: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾، ونكاح الإحصان: هو الذي تمت شروطه وانتفت موانعه، فإن لم تتم شروطه فهو سفاح، وإن وجدت موانعه فهو سفاح.

مثال الأول: لو تزوج امرأة مكرهاً، فهذا النكاح سفاح، لفوات الشرط.

ومثال الثاني: لو تزوج امرأة في عدتها فهنا النكاح سفاح لوجود المانع وهو العدة.

١٧ ـ أن الإحصان يطلق على العفة، وتؤخذ من قوله: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾، فجعل المسافحة مقابل الإحصان.

---

(١) تقدم ص١٠١.

١٨ ـ تحريم اتخاذ الأخدان من الرجال، لقوله: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ﴾، وحتى لو لم يحصل الزنا، فإن اتخاذ الأخدان ـ يعني: الأصحاب والأصدقاء ـ سبب للزنا، ولهذا نهي عن الخلوة بالمرأة خوفاً من ذلك، ونهي أن تخضع بالقول خوفاً من ذلك.

ويتفرع من هذه الفائدة: بيان ما عليه المجتمع الغربي من مجانبة الأخلاق، حيث إن كثيراً منهم يكون له صاحبة وصديقة يخرج معها، ويبيت عندها، وتبيت عنده، لكن لا يجامعها نظراً إلى أنهم لا يستحلون الجماع إلا بعقد نكاح، وربما يجامعها، فمعلوم أن الإنسان إذا خلا بامرأة وأطال معها المقام وقعا في الحرام، وفي الحديث: «**فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»[1]، فيغويهما جميعاً ويحصل الشر.

١٩ ـ أن الأمة إذا زنت فإنها تحد، لقوله: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِۚ﴾.

٢٠ ـ أنه لا حد عليها إلا بعد الإحصان، لقوله: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾؛ أي: فإن زنت قبل الإحصان فلا حد عليها وإنما تجلد جلد تعزير.

وأما ما ورد في بعض روايات مسلم: «**فليجلدها الحد**»[2]،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتكاف، باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى، باب المسجد، حديث رقم (١٩٣٠)؛ ومسلم، كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة وكانت زوجته أو محرماً له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به، حديث رقم (٢١٧٥) عن صفية بنت حيي.

(٢) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب بيع المدبر، حديث رقم (٢١١٩)؛ ومسلم، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى (١٧٠٣).

فقد ذكر أهل العلم أن كلمة «الحد» وَهمٌ من الراوي، كأنه توهم أنه لا جلد إلا بحد، فقال: فليجلدها الحد.

ويدل لهذا أنه في الروايات الأخرى «فليجلدها» دون أن يقيد ذلك بالحد، وهذا هو ظاهر القرآن أنه لا حد عليها إلا إذا أحصنت، أما قبل ذلك فعقوبتها التعزير.

٢١ ـ أنه لا رجم على الأمة إذا زنت ولو بعد أن تتزوج، وجه ذلك: أن الرجم لا يتنصف، والله عزّ وجل قال: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾، ولهذا اشترط العلماء للرجم أن تكون الزانية حرة.

٢٢ ـ أن الأمة إذا زنت بعد الإحصان تغرب نصف سنة، لعموم قوله: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾، وهذا مبني على ثبوت التغريب للمرأة الحرة، وهو موضع خلاف بين العلماء، فإن من العلماء من يقول: التغريب إنما هو للرجل فقط دون المرأة، وعلل ذلك بأن تغريب المرأة إغراء لها بالمفسدة؛ لأنها إذا غربت انفردت عن أهلها ومن يراقبها، وصار لها من الشر أعظم مما لو كانت عند أهلها، وعلى هذا القول لا تغرب الأمة من باب أولى.

ثم على القول بأن الحرة تغرب كما هو ظاهر حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «**البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام**»[1]، يبقى النظر هل تغرب الأمة أو لا؟

إن أخذنا بعموم قوله: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فإنها تغرب نصف سنة، وإن قلنا: بأن لدى الأمة مانعاً

---

(١) تقدم ص١٢٥.

من التغريب وهو حق السيد؛ لأنها إذا غربت فقد تهرب ولا ترجع إلى سيدها، ثم إن لديها من خسة المكانة ما لا يمنعها من الفاحشة، بخلاف الحرة، فلهذا ذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا تغريب في حق الإماء، ولا في حق العبيد، للسبب الذي ذكرنا، وهو أن تغريبهم يغريهم في فعل الفاحشة؛ لأنهم دون الأحرار في الشرف، ولا يهمهم أن يفعلوا الفاحشة، وهذا القول أعني أنها لا تغرب قول قوي جداً.

٢٣ ـ أنه يشترط لجواز نكاح الإماء أن يلحق الإنسان مشقةٌ بترك ذلك، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾.

٢٤ ـ حسن الترتيب في سياق القرآن؛ لأن الله سبحانه ذكر مسألة الزنا بين الشروط في نكاح الأمة، للإشارة إلى أن عند الأمة من دنو المنزلة ما لا يمنعها من الزنا، فهذا من حكمة النهي عن نكاح الإماء إلا بالشروط.

إذاً: يشترط شرطان:

الشرط الأول: أن لا يجد مهر حرةٍ مؤمنة.

والشرط الثاني: أن يخاف المشقة بترك النكاح.

واشترط بعض العلماء ومنهم فقهاء مذهب الامام أحمد ـ رحمهم الله ـ : أن لا يجد ثمن أمة، قال: فإن وجد ثمن أمة فإنه لا يحل أن يتزوج الأمة، وأخذ هذا الشرط من المعنى، وإن كان لا يوجد في الآية الكريمة، فقال: إذا كان قادراً على ثمن الأمة فإنه يشتري أمة ويطؤها بملك اليمين لا بالنكاح، والوطء بملك اليمين شرف وعز حتى عند العرب، ثم إذا أتت منه بولد فالولد حر وليس عبداً.

ولنضرب لهذا مثلاً: لو أن مهر الحرة المؤمنة عشرة آلاف، ومهر الكتابية ثمانية آلاف، وقيمة الأمة المؤمنة ستة آلاف، ومهر الأمة خمسة آلاف مثلاً، فهو الآن عنده ستة آلاف، فتحقق الشرط الأول وهو عدم القدرة على مهر الحرة، لكن هنا يستطيع أن يشتري أمة ويتسراها، فهل نقول: لك أن تعدل عن هذا فتتزوج أمة بخمسة آلاف؟

الجواب: إن قلنا إنه شرط، قلنا: لا تملك هذا، فاشتر أمة وتسرها، وإن قلنا إنه ليس بشرط كما هو ظاهر القرآن، قلنا: أنت مخير: إن شئت فاشتر وإن شئت فلا تشتر؛ لأنه قد يقول: أنا إذا اشتريت أمة صار علي من الواجبات ما ليس علي فيما لو كانت زوجة؛ لأنها إذا كانت زوجة ولم يقدر بينهما ألفة فإنه يطلقها ويتولاها سيدها، لكن إذا كانت أمةً له وأتت منه بولد فعلى المشهور من المذهب أنه لا يجوز بيعها، فمعناه أنه يلزم بالإنفاق عليها وهو لا يريده.

وعلى كلٍ فالأخذ بظاهر القرآن أولى، فنقول: إن الشرط أن لا يقدر على مهر الحرة، وأنه لو قدر على ثمن الأمة فإن له أن يتزوج الأمة.

٢٥ ـ أن الصبر عن نكاح الأمة أولى من نكاحها ـ وإن جاز ذلك ـ، لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٢٦ ـ أنَّ المباح قد يكون مستوي الطرفين كما هو الأصل، وقد يكون مرجوحاً كما هنا؛ لأن الله تعالى أحل لنا نكاح الإماء بالشرطين، لكن قال: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٢٧ ـ أن الأمر بالشيء قد يستفاد من الثناء على فاعله،

لقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فكأنه قال: اصبروا، لكنه جعله على وجه الترغيب.

٢٨ ـ إثبات هذين الاسمين لله عزّ وجل وما تضمناه من صفات، وهما «الغفور، الرحيم».

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء: ٢٦].

قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾:

يريد: الإرادة هنا إرادة شرعية، فإن إرادة الله سبحانه تنقسم إلى قسمين: إرادة كونية، وإرادة شرعية، والفرق بينهما:

أن الإرادة الشرعية: تتعلق بما يحبه ويرضاه فقط، وقد يقع فيها المراد وقد لا يقع.

وأما الإرادة الكونية: فتتعلق بكل ما شاءه، وقد يكون محبوباً لله وقد يكون مكروهاً له، ولا بد أن يقع فيها المراد؛ لأنها بمعنى المشيئة، وما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن.

فإذا كانت الإرادة بمعنى المحبة؛ أي: بمعنى أنه يصح أن يحل محلها «أحب أو يحب» فهي إرادة شرعية، وإذا كان يحل محلها «يشاء أو شاء» فهي إرادة كونية.

يقول الله عزّ وجل: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي: يحب ذلك، وقد فعل الله سبحانه وبيّن لنا غاية البيان، بلسان عربي مبين.

واللام في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ زائدة قد تفيد التعليل، وقد لا تفيد التعليل وتكون للتعدية، لكنها لو حذفت فقيل: يريد الله أن يبين لكم؛ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧] لصح الكلام، لكنها وجدت، ويقولون: كل لام جر بعد الإرادة فهي زائدة تقول: أردت لكذا؛ أي: أردتُ كذا.

وقوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾: البيان هنا يشمل البيان اللفظي والبيان المعنوي، وكلاهما واقع، قال الله عزّ وجل لرسوله محمد ﷺ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩] أي: إظهاره، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا ألقى عليه جبريل القرآن يتعجل - يسرع - يختطفه منه حباً له وشفقة عليه[1]؛ أي: حبًّا للقرآن وشفقة عليه، فقيل له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾، وقوله: علينا: الضمير يعود على الله والمراد جبريل، فإنه هو الذي يقرأ على النبي ﷺ، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: قرأه جبريل ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ البيان اللفظي والمعنوي.

قوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾:

يهديكم هداية الدلالة وهداية التوفيق، أما هداية الدلالة فهي ما أنزله من الوحي والشرع، وأما هداية التوفيق فهي أن يوفق من شاء من عباده للزوم هذه الهداية.

ومن أمثلة الهداية التي بمعنى الدلالة: قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] أي: دللناهم

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي (٥)؛ ورواه مسلم، كتاب الصلاة، باب الاستماع للقراءة (٤٤٨) عن ابن عباس.

على طريق الحق، لكنهم استحبوا العمى على الهدى.

وأما الهداية بمعنى التوفيق، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]؛ أي: لا توفقه لسلوك طريق الهداية؛ لأن ذلك إلى الله.

قوله: ﴿سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾:

﴿سُنَنَ﴾: جمع سنة وهي الطريقة، والمراد بسننهم ما كانوا عليه من الشرائع، لكن الشرائع تختلف باختلاف الأمم واختلاف الأزمنة والأمكنة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، لكن الناس سواء في الأصل.

وقوله: ﴿سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ يعني: اليهود والنصارى وغيرهم ممن نزل عليهم الوحي.

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ بالنصب ﴿يَتُوبَ﴾ عطف على ﴿يُبَيِّنَ﴾؛ أي: ويريد ليتوب عليكم؛ أي: يوفقكم للتوبة.

وتوبة الله على العبد نوعان: توبة توفيق للتوبة، وتوبة قبول للتوبة، فمن الأول قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١١٧] أي: وفقهم للتوبة ليتوبوا.

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] والتوبة في قوله: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ تشمل المعنيين.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: العلم هو إدراك الشيء على ما هو عليه، فخرج بقولنا «إدراك»: الجهل؛ لأنه ليس بإدراك، وخرج بقولنا «على ما هو عليه»: الجهل المركب؛ لأن الجاهل المركب يدرك الشيء على خلاف ما هو عليه.

فالله سبحانه عليم؛ أي: ذو علم، وقد بيّن الله سبحانه في آية أخرى أن علمه واسع شامل محيط بكل شيء جملة وتفصيلاً، قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿حَكِيمٌ﴾؛ أي: ذو حُكم وحكمة، وقد سبق لنا شرح ذلك، وبينا أن حكمة الله عزّ وجل تكون في الحكم الشرعي والحكم الكوني، وأنها تكون على صورة الشيء وعلى الغاية منه؛ أي: صورية وغائية.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ إثبات الإرادة لله، لقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، وهل هذه الإرادة أزلية أو هي حادثة؟

نقول: الإرادة نوعان: إرادة أزلية، وإرادة حادثة، فالإرادة المقارنة للفعل إرادة حادثة، والإرادة السابقة إرادة أزلية، ويظهر هذا بالمثال، أنت الآن تريد أن تصلي العشاء، فهذه إرادة سابقة على الفعل، فإذا أذن قمت إلى الصلاة فصليت، فهذه إرادة مقارنة للفعل، فإرادة الله المقارنة لفعله حادثة، وإرادته الأزلية السابقة لفعله غير حادثة، وهو مريد سبحانه لكل ما سيكون، وهذه إرادة أزلية.

٢ ـ سعة رحمة الله عزّ وجل بعباده حيث أراد أن يبين لهم؛ لأن من لطفه وكرمه أن لا يدع الناس على جهلهم.

٣ ـ أنه ليس في الشرع شيء مجهول لكل أحد، لقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، فالشرع لا يمكن أن يكون خفياً على كل

أحد، لكنه يخفى على الإنسان لأسباب: إما قلة العلم، وإما قصور الفهم، وإما التقصير في الطلب، وإما سوء القصد، فهذه أربعة أسباب لخفاء الحكم الشرعي على الإنسان.

فقلة العلم، مثل أن يوجد إنسان لم يراجع ولم يطالع ولم يستوعب كتب العلماء، فهذا تخفى عليه الأحكام الشرعية لقلة علمه.

أو قصور فهمه: يكون عنده علم واسع، لكنه لا يفهم، فهذا أيضاً يفوته كثير من الأحكام الشرعية.

أو لتقصيره في الطلب: انسان مقصر، عنده علم وعنده فهم، لكن لا يحرص على أن يحقق المسائل وينقحها ويحررها، فيفوته شيء كثير.

أو سوء القصد: بحيث لا يريد إلا نصر رأيه فقط، فهذا والعياذ بالله يحرم الخير، ويحرم الصواب.

وما دواء هذه العلل والآفات؟

الأول: وهو قلة العلم: دواؤه كثرة العلم، بأن يراجع الإنسان ويطالع كتب العلماء وكتب الحديث والتفسير.

الثاني: قصور الفهم: وهذا مشكل؛ لأنه غريزة، لكن بالتمرن يحصل المرء على قوة الفهم، وأضرب مثلاً: لو أن الإنسان راجع كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فأول ما يراجعها يقول: هذه فيها ردم يأجوج ومأجوج فلا يمكن فهمها، لكن مع التمرن عليها يفهمها.

إذاً: الفهم يحتاج إلى تمرين، ومن تمارين الفهم المناقشة مع الناس؛ لأنه كثيراً ما يغيب عنك شيء من العلم، وبالمناقشة يتبين لك الشيء الكثير.

الثالث: التقصير في الطلب: دواؤه الجد والاجتهاد، فاجتهد ولا تتوان.

ثم التقصير في الطلب ليس معناه قلة الطلب، بل يشمل عدم الترتيب في الطلب، وهذا أيضاً يضر بالإنسان فينقص علمه، فبعض الناس مثلاً إذا أراد أن يراجع مسألة في الكتب الكبيرة صار يستعرض الفهرس، فيجد بحثاً ثم يبحث فيه، وينسى الحاجة الأولى، وهذا خطأ، وهو الذي يقطع الأوقات عليك تقطيعاً، فما دمت تريد تحقيق مسألة فأغمض عينيك عما سواها، وإلا فستكون كالذي يلقط الجراد من أرض جرداء فلا تحصل شيئاً.

افرض أنك تريد أن تطالع مسألة في الطهارة، وأنت تراجع الفهرس مرت عليك مسألة غير التي تريد أن تراجع، فتقول هذا مبحث طيب فأرى ما يقول المؤلف، فيضيع عليك الوقت، فهذا من التقصير في الطلب، فليس هو تقصيراً كمياً؛ لكنه تقصير كيفي.

الرابع: سوء القصد: وسوء القصد يحتاج إلى إخلاص لله عزّ وجل، فإذا قصد الإنسان حفظ الشريعة، ونفع الخلق، وأن يرث الأنبياء، سهل عليه حسن القصد؛ لأنه إذا علم أن الإنسان إذا طلب العلم لغير الله فإنه يحرم الخير، وعليه الوعيد، وأن الله ينزع منه بركة العلم؛ حرص على أن يكون قصده حسناً.

فهذه الأمور الأربعة هي التي يحرم الإنسان بسببها تبين الأحكام الشرعية، وإلا فالله عزّ وجل تكفل فقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾.

٤ ـ كمال هذه الأمة وشريعتها، لقوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، فما من خير كانت عليه الأمم إلا ولهذه الأمة منه نصيب، وقد مثل النبي عليه الصلاة والسلام نفسه مع الأنبياء قبل بقصر مشيد، يعجب الناظرين، إلا أنهم إذا طافوا به قالوا: هذا القصر كامل إلا موضع هذه اللبنة، قال: «**فأنا اللبنة، وأنا خاتم الأنبياء**»(١)، تمم الله به مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، فكمل القصر ـ به عليه الصلاة والسلام ـ.

ويدل لذلك أيضاً قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣] فقال: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، إشادةً بهذه الأمة وأنها كملت فيها الفضائل التي لغيرها، وتسلية لها أيضاً؛ أي: لا تظنوا أن تكليفنا إياكم الصيام خاص بكم، بل لكم ولغيركم.

٥ ـ أن الله عزّ وجل يحب التوابين، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ويتفرع على هذا: غاية الكرم من الله عزّ وجل، ووجهه: أن التوبة يعود نفعها علينا لا عليه، وهو يحبها لمصلحتنا، وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام: «**أن الله يفرح بتوبة عبده، كما يفرح الرجل الذي أضل ناقته في أرض فلاة، فطلبها فلم يجدها، فاضطجع تحت شجرة ينتظر الموت قد أيس من الحياة فإذا بخطام ناقته فأخذ به**

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ، حديث رقم (٣٣٤٢)؛ ومسلم، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، حديث رقم (٢٢٨٦) عن أبي هريرة.

وقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك؛ أخطأ من شدة الفرح»[(١)].

٦ ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما العليم والحكيم، وما تضمناه من الوصف، فالعليم تضمن العلم، والحكيم تضمن الحكم والحكمة؛ لأنه مشتق من الحكم والحكمة.

٧ ـ اقتناع الإنسان بما يجري الله عزّ وجل من حكم شرعي وحكم كوني.

وجه ذلك: أن ما يجريه الله عزّ وجل من الأحكام مقرون بالحكمة، وإذا علمت ذلك اقتنعت، سواء كان هذا في الأحكام الكونية أو في الأحكام الشرعية، حتى المصائب التي تنال العباد لا شك أن لها حكمة ينبغي أن يقتنع الإنسان بوجودها، ولا يعترض على الله تعالى بها.

٨ ـ مراقبة الله في السر والعلانية، وتؤخذ من ثبوت صفة العلم؛ لأنك متى علمت أن الله عالم بك، فإن ذلك يوجب لك مراقبة الله سبحانه، فلا يفقدك حيث أمرك ولا يجدك حيث نهاك.

٩ ـ الإشارة إلى التوبة، وقد سبق أن شروط التوبة خمسة.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٧ ـ ٢٨].

---

(١) الحديث بتمامه عند مسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، حديث رقم (٢٧٤٧)، وهو عند البخاري مختصراً، كتاب الدعوات، باب التوبة، حديث رقم (٥٩٥٠) عن أنس بن مالك.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾:

قد يقول قائل: هذا مع ما قبله تكرار؛ لأنه قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ﴾ ﴿وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ فكيف قال: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾؟

والجواب: نقول: الفائدة من ذلك شيئان:

الأول: التوكيد، وإذا أكد الله عزّ وجل أنه يريد التوبة علينا، فإن ذلك مما يسرنا ويزيدنا نشاطاً في التعرض لتوبة الله عزّ وجل.

الفائدة الثانية: التوطئة لقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ فهي: تمهيد وتوطئة لما ذكر بعدها، وهو أن الله له هذه الإرادة، وللذين يتبعون الشهوات تلك الإرادة، ولهذا كررها: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ يشمل الكافر والفاسق؛ لأن الكافر يريد الشهوات ويتبعها، والفاسق كذلك، قال الله تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠]، فالذين يتبعون الشهوات هم الكفار والفساق.

قوله: ﴿أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ أي: تنحرفوا عما يريد الله سبحانه بكم من أسباب التوبة، وهي فعل الأوامر وترك النواهي، فالله يريد شيئاً وهم يريدون شيئاً بخلافه.

ثم قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾﴾.

وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ الإرادة هنا شرعية، وليست كونية؛ لأن الله يقدر على العبد أشياء تثقل عليه العبادات بسببها، لكنه شرعاً لا يريد منا أن نشق على أنفسنا، بل إنه لما قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: لأصومن النهار، ولأقومن الليل ما عشت، نهاه الرسول عليه الصلاة والسلام، وقال: «**إن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لزورك عليك حقاً**»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام فيما صح عنه أيضاً: «**اكلفوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا**»(٢) فالإرادة إذاً إرادة شرعية.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾: التخفيف ضد التثقيل، وتخفيفه سبحانه تخفيف في الأوامر وتخفيف في النواهي، أما التخفيف في الأوامر فإن الله سبحانه لما ذكر ما يجب علينا من طهارة الوضوء والغسل والتيمم قال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وكذلك خفف في النواهي فقال: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩] أي: فليس بحرام، وهذا تخفيف على العباد ولله الحمد.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، وباب صوم الدهر، حديث رقم (١٨٧٤، ١٨٧٥)؛ ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقاً..، حديث رقم (١١٥٩).

(٢) هذا اللفظ عند أبي داود، كتاب الصلاة، باب ما يؤمر به من القصد في الصلاة، حديث رقم (١٣٦٨)، وهو بمعناه عند البخاري، كتاب الصوم، باب صوم شعبان، حديث رقم (١٨٦٩)؛ ومسلم كتاب، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، حديث رقم (٧٨٢).

ثم قال: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾: الواو هنا يحتمل أن تكون استئنافية لبيان حال الإنسان الموجبة للتخفيف، ويحتمل أن تكون الواو للحال، والجملة على تقدير قد؛ أي: وقد خُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً.

وعلى الاحتمالين فالجملة فيها نوع تعليل لقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ كأن قائلاً يقول: ولماذا أراد ذلك؟ فقال: لأن الإنسان خلق ضعيفاً؛ أي: خلقه الله عزّ وجل ضعيفاً في كل أموره: ضعيفاً في جسمه، ضعيفاً في إرادته، ضعيفاً في علمه، ضعيفاً في كل شيء، والدليل على ذلك أنه لا يتحمل البرودة في الشتاء، ولا الحر في الصيف، ولا الأتعاب، فهو ضعيف؛ فكانت الشرائع مناسبة لحاله.

وتأمل الفرق بين قوله هنا: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾، وبين قوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]!

فالشيطان في كيده العظيم ضعيف، فإذا كان كيد الشيطان ضعيفاً، فإن هذا يقتضي منا أن نكون أقوياء على الشيطان وإن كنا ضعفاء؛ لأن الشيطان كيده ضعيف، ونحن وإن كنا ضعفاء لكن يجب أن نكون أقوى منه، وأن نثق بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٦].

وقوله: ﴿ضَعِيفًا﴾: منصوبة لأنها حال، حيث إنها وصف بعد معرفة، والوصف بعد المعرفة حال، والوصف بعد النكرة نعت؛ أي: صفة.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ تأكيد فضل الله عزّ وجل على عباده، حيث كرر قوله:

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ لأن التوكيد تزداد به الطمأنينة، ويزداد به معرفة قدر فضل الله عزّ وجل.

٢ ـ علم الله سبحانه بما في القلوب، لقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾؛ لأن الإرادة محلها القلب، ومع ذلك أخبرنا الله تعالى عنهم، فهو عالم بما في قلوب أهل الخير وأهل الشر، كما قال: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾ [ق: ١٦].

٣ ـ الحذر من الذين يتبعون الشهوات؛ لأنهم يريدون منا أن نميل ميلاً عظيماً، والشهوات قد تكون شهوة بطن وفرج، وقد تكون شهوة فكر وقلب، وكلا الأمرين مراد هنا.

٤ ـ الحذر من أهل البدع؛ لأن أهل البدع ينقسمون إلى قسمين: قسم عندهم شبهات، وقسم عندهم شهوات، فالجاهل منهم عنده شبهات حتى يلتبس عليه الحق بالباطل، والعالم منهم عنده شهوات، فهو يريد ما لا يريد الله ورسوله، ففي الآية التحذير من هؤلاء وهؤلاء.

٥ ـ الإشارة إلى انحطاط مرتبة الذين يتبعون الشهوات، حيث جعلهم الله أتباعاً تقودهم الشهوات، ومن الذل أن يكون الإنسان تابعاً للشهوات؛ لأن العزة أن يكون الإنسان متبوعاً، فإذا كان تابعاً فمعناه أن شهواته ملكته حتى صار تابعاً، وكأنه مجبر على ذلك.

٦ ـ أن إرادة المتبعين للشهوات بنا لا تقتصر على أدنى ميل، وتؤخذ من قوله: ﴿أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾، فإذا كان كذلك فإننا إذا ملنا قليلاً تابعوا حتى نميل ميلاً عظيماً، نسأل الله السلامة!!

٧ ـ أن الله سبحانه يريد التخفيف على العباد بالإرادة الشرعية.

٨ ـ أن اليسر إلى الله أحب إليه من العسر، لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٩ ـ الحث على اتباع رخص الله؛ لأن الرخص من التيسير، وقد أيد ذلك ما جاء في الحديث: «**إن الله سبحانه يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه**»(١).

١٠ ـ أنه إذا تعارضت الأدلة عند المستدل بين التيسير والتعسير، فالأولى أن يؤخذ بالتيسير؛ لأن هذا هو مراد الله عزّ وجل.

١١ ـ الإشارة إلى العلة بإرادة التخفيف على العباد، وهي قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾.

١٢ ـ أن الإنسان ينبغي له إذا شمخت به نفسه وعلا أنفه أن يذكر حقيقة نفسه، وهي الضعف، حتى لا يطغى أو يزيد، لقوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾.

١٣ ـ حذف الفاعل إذا علم، لقوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، فإن الخالق هو الله عزّ وجل، وذلك معلوم بالضرورة.

١٤ ـ أن ما كان مكروهاً للعبد فإن الله يعبر عنه بالبناء للمفعول: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ولم يقل: خلق الله، مع أن ذكر الله وارد في الجملة التي قبلها.

---

(١) هذا اللفظ عند الطبراني في الكبير (١١/ ٣٢٣)؛ وابن حبان (٢/ ٦٩) (٣٥٤) عن ابن عباس.

ويؤيد هذا قول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ١٠].

ويؤيده أيضاً ما في سورة الفاتحة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فأضاف النعمة إلى الله، وقال في الغضب: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، ولم يقل: الذين غضبت عليهم، مع أن أول من غضب عليهم هو الله عزّ وجل.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء: ٢٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾: النداء ـ كما سبق ـ يدل على العناية بما جاء في الخطاب، ووجه ذلك: أن النداء تنبيه للمنادى، فإنه يُفرَّق بين أن يأتي الخطاب مرسلاً وبين أن يأتي مصدراً بالنداء.

وتوجيه النداء إلى المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يفيد الإغراء بالتزام هذا الخطاب أو بالتزام مدلول هذا الخطاب، ووجه ذلك: أن وصف الإنسان بالإيمان يحمله على الامتثال، ويفيد أيضاً أن امتثال هذا الشيء من مقتضيات الإيمان، ويفيد أيضاً أن مخالفة ذلك نقص في الإيمان.

فقوله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذا النداء يجب علينا أن نعتني به وأن ننتظر ما سيوجهنا الله إليه، كما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إذا قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ﴾ فأرعها سمعك، فإما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه»[(١)].

وهنا جاء النهي: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾، فإن ﴿لَا﴾ هنا ناهية، فجزم الفعل بعدها بحذف النون.

وقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم﴾ أي: ما تتمولونه من قليل أو كثير، من عروض أو نقود، من ديون أو أعيان، فهي عامة لكل الأموال.

وقوله: ﴿بَيْنَكُم﴾ أي: في التعامل؛ لأن أكل المال لا بد أن يكون بين اثنين فصاعداً، أما إذا كان من واحد فهذا قد أكل مال نفسه.

قوله: ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الباطل في اللغة: الضائع سدى، والهالك الذي ليس فيه خير.

والمراد بالباطل هنا ما خالف الشرع؛ لأن الشرع حق وما خالفه باطل، والمعنى على هذا: لا تأكلوا أموالكم بينكم على وجه يخالف الشرع، مثل الربا والغش والكذب والتدليس، وما أشبه ذلك.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ﴾، إلا: أداة استثناء، لكن المراد بها الاستدراك، يعني: لكن إن كانت تجارة بينكم عن تراض منكم فهذا لا بأس به، وإنما قلنا إن الاستثناء منقطع؛ لأن قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ ليس من جنس الأكل بالباطل، بل هو أكل بحق، والاستثناء المنقطع هو أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه.

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق، باب التحضيض على طاعة الله عزّ وجل (٣٨)؛ وابن أبي حاتم في تفسير سورة البقرة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا . . .﴾ وأورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٩١، ٢٠٦).

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾ فيها قراءتان سبعيتان «تِجَارَةٌ» بالرفع، و«تِجَارَةً» بالنصب، أما على قراءة الرفع فلا إشكال فيها، والمعنى: إلا أن تحدث تجارة بينكم، وهنا تكون «كان» تامة لا ناقصة، وأما على قراءة النصب فإن «كان» ناقصة، و«تجارة» خبرها، واسمها مستتر، وحينئذ يُشكِل أن يكون الاسم مستتراً، وتقديره «هي» مع أن الأكل من قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ﴾ مذكر، إذ لا يصح أن أقول: إلا أن تكون الأكل تجارة.

ولكن ها هنا فائدة؛ وهي أنه إذا توسط الضمير أو اسم الإشارة بين شيئين الأول مذكر والثاني مؤنث أو بالعكس، فإنه يجوز مراعاة الأول أو الثاني، فجاز أن يُذَكِّر باعتبار مرجعه السابق، وأن يؤنث باعتبار مرجعه اللاحق، فهنا أُنثَ باعتبار مرجعه اللاحق، يعني: إلا أن تكون التجارة التي تأكلون بها الأموال تجارة عن تراض منكم.

والتجارة: هي التبادل بين الناس من أجل الربح، ومنه قول الفقهاء: «عروض التجارة»، أما ما يهدى أو يرهن أو يعار فهذا ليس بتجارة، وكذلك ما اشتري لدفع الحاجة كشراء الخبز للأكل، فهذا ليس بتجارة؛ لأن الإنسان لا يقصد به الربح.

وحينئذ يبقى في مدلول الآية إشكال: وهو أنه إذا كانت المعاملات بغير قصد التجارة أكثر من التجارة، فلماذا لم يذكرها؟

فقيل: إنها لم تذكر لأن الغالب في تعامل الناس هو التجارة، وهي التي يقع فيها المشاحة، وأما غيرها: فالإهداء يصدر عن طيب نفس من المهدي، وكذلك العارية، وكذلك

الرهن، وما اشتري للحاجة فالغالب أنه لا يحصل فيه تشاحن؛ لأن الإنسان يقصد به دفع الحاجة لا حصول الربح، فلهذا ذكرت التجارة، وإلا فمن المعلوم أن العقود التي تقع عن تراض أكثر من عقود التجارة.

قوله: ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾:

عن تراض: الجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: صادرة عن تراض منكم، أو: حاصلة عن تراض منكم. و﴿تَرَاضٍ﴾ هنا صيغة تفاعل يتبين بها أن المراد التراضي من الطرفين: الآخذ والمعطي.

وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ يعني: صادر منكم أنتم أيها المتعاملون لا من غيركم، فلو رضي الأب ببيع مال ابنه والابن لم يرض والملك للابن، فلا عبرة برضا الأب.

ثم قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: القتل معروف، وهو إزهاق النفس، ولكن قوله: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ هل المراد بذلك نفس القاتل ويكون هذا بمعنى الانتحار، أو المراد بأنفسكم: إخوانكم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، فإن الإنسان لا يلمز نفسه إنما يلمز أخاه، فأيهما المراد؟

نقول: الآية شاملة لهذا وهذا، فلا يقصر على من يقتل نفسه ولا على من يقتل غيره.

فإن كان المراد: لا تقتلوا أنفسكم أنتم، فلا إشكال في الآية، وإن كان المراد: لا تقتلوا غيركم، فنقول: عبر عن الغير بالنفس؛ لأن المؤمن مع أخيه كالجسد الواحد، كما ضرب لذلك النبي ﷺ مثلاً: «**إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد**

بالحمى والسهر»[(١)].

وأيضاً فالتعبير عن الأخ بالنفس فيه إغراء وحث، يعني: كأنه هو نفسك، ففيه إغراء للإنسان عن تجنب قتل الغير، وحمل له على التحنن على أخيه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا﴾ الجملة تعليل لما قبلها، فهي تعليل للحكمين: أكل الأموال وقتل النفوس.

فالله سبحانه بنا رحيم، ومن رحمته: النهي عن أكل الأموال بيننا بالباطل، والنهي عن قتل أنفسنا، فإن هذا من رحمة الله بنا، وجهه في الأول: أن أكل الأموال بالباطل يؤدي إلى التشاحن والنزاع، وربما يؤدي إلى الصدام المسلح. وقتل النفس واضح.

وقوله: ﴿بِكُمۡ﴾ الخطاب يعود إلى المؤمنين؛ لأنه يخاطب المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

ولم يرد في القرآن إضافة الرحمة إلى الله تعالى منسوبة إلى الكافرين، فالرحمة التي اتصف الله بها إما أنها ذكرت في القرآن على سبيل العموم، أو على سبيل الخصوص بالمؤمنين، أما على سبيل الخصوص بالكافرين فلم ترد.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ العناية بحفظ الأموال، وعدم العدوان، لقوله: ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِۖ﴾.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم (٥٦٦٥)؛ ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم (٢٥٨٦) عن النعمان بن بشير.

٢ ـ تحريم أخذ مال الإنسان بغير رضا منه، لقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾.

٣ ـ تحريم التعامل المحرم ولو كان برضا من الطرفين؛ لأن التعامل المحرم أكل للمال بالباطل، وعلى هذا فلو تراضى الطرفان على تعامل ربوي فإن ذلك محرم.

٤ ـ أن من مقتضى الإيمان تجنب أكل المال بالباطل؛ لأنه وجه الخطاب إلى المؤمنين.

٥ ـ اشتراط الرضا في عقود المعاملات، لقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾.

والرضا إذا كان سابقاً على العقد فلا إشكال في جواز العقد وصحته، ولكن إذا كان لاحقاً فهل ينفذ العقد أم لا؟ وذلك فيما يسمى عند أهل العلم بالتصرف الفضولي، مثاله: لو باع مال شخص بدون إذنه ورضاه، ولكن أذن فيما بعد ورضي؛ فهل يقع العقد السابق صحيحاً أو باطلاً؟

إذا نظرنا إلى عموم قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ قلنا: إنه يكون صحيحاً؛ لأن هذه التجارة صار مآلها إلى التراضي، وهذا القول هو الراجح؛ أي: أن تصرف الفضولي إذا أذن فيه صاحب المال فإنه جائز نافذ؛ وذلك لأن عموم قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ يدخل فيه هذه الصورة.

ولكن قال بعض أهل العلم: لا يصح مطلقاً، سواء أذن أو لم يأذن، وسواء تصرف في ذمته أو في عين المال، وسواء كان في الشراء أو في البيع.

وبعض العلماء فصّل وفرق بين الشراء وبين البيع فقال: إذا

اشترى له في ذمته ولم يسمه في العقد ثم رضي فلا بأس، وإلا فلا.

ولكن القول الراجح، أنه متى رضي ولو بعد العقد، فإنه يقع العقد صحيحاً.

٦ ـ تحريم قتل الإنسان نفسه، لقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾.

وعلى التفسير الثاني:

٧ ـ أن المؤمنين كنفس واحدة، وأن قتل الإنسان غيره كقتل نفسه.

٨ ـ أن الله عزّ وجل أرحم بالإنسان من نفسه؛ لأنه نهاه أن يقتل نفسه، فصار أرحم به من نفسه.

٩ ـ إثبات صفة الرحمة لله، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، والرحمة عند السلف صفة حقيقية ثابتة لله عزّ وجل، وأنكرها المعطلة إنكار تأويل لا إنكار تكذيب؛ أي: لم يقولوا إن الله ليس له رحمة، بل قالوا: إن المراد برحمته كذا وكذا، متعللين بأن الرحمة فيها شيء من الرقة واللين، والله عزّ وجل لا يوصف بهذا.

ويفسرون الرحمة بإرادة الإنعام والإحسان، أو بالإحسان، أما أن تكون هناك رحمة بها يريد الإحسان فيحسن، وهذا لا يجوز. ولا شك أنهم بذلك التفسير خالفوا ظاهر القرآن وإجماع السلف.

وقد يقول قائل: أين إجماع السلف؟

فنقول: إن القرآن نزل باللغة العربية، وفهموه على مقتضى

اللغة العربية، فإذا أثبت الله لنفسه الرحمة أثبتوا له الرحمة لأن هذا هو الأصل.

ونقول لمن قال إنه لا إجماع: ائت بحرف واحد عن السلف أنهم يفسرون الرحمة بغير ظاهر القرآن، وهذه فائدة مهمة تندفع بها شبهة من شَبَّه ولَبَّس وقال: أين إجماع السلف؟

فنقول: كان القرآن بين أيديهم، ولم يفسروه بخلاف ظاهره، والأصل أنهم فهموه على ظاهره بمقتضى اللسان العربي.

ثم نقول لهم: أنتم تفسرونه بالإرادة فراراً من مشابهة المخلوق بزعمكم، والمخلوق له إرادة، قال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وفي الحديث: «**إنما الأعمال بالنيات**»(١)، ولا أحد يشك في أن المخلوق له إرادة.

فإذا قالوا: إرادة المخلوق تليق به وإرادة الخالق تليق به، قلنا لهم: ورحمة الخالق تليق به ورحمة المخلوق تليق به.

وكذلك إذا فسرتم الرحمة بالإنعام الذي هو مخلوق، أو بالنعمة التي هي مخلوقة. قلنا: النعمة لا تكون إلا بإرادة، والإرادة لا تكون إلا برحمة، فمن لم يرحم لم يرد النعمة ولم ينعم، وبهذا تبين بطلان تحريفهم، ونسميه تحريفاً لا تأويلاً على كل تقدير.

---

(١) رواه البخاري في أول الكتاب، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم (١)، وفي كتاب الإيمان، باب النية في الإيمان، حديث رقم (٦٣١١)؛ ومسلم في، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات)، حديث رقم (١٩٠٧) عن عمر بن الخطاب.

وتحريف القرآن والسنة فيما يتعلق بصفات الله، أعظم منه فيما يتعلق بالأحكام التكليفية المتعلقة بأفعال العبيد.

لأن الأول لا مجال للعقل فيه، فالواجب إجراؤه على ظاهره، أما الثاني فهي أحكام تكليفية للعقل فيها مجال بالقياس مثلاً، فيكون التحريف فيها أهون، وتجد هؤلاء المعطلة ينكرون أشد الإنكار على من حرف النصوص فيما يتعلق بفعل المكلف، ولا ينكرون على أنفسهم تحريف النصوص فيما يتعلق بصفات الرب عزّ وجل.

١٠ ـ جواز التجارة والاتجار؛ لأن الله أقر ذلك في قوله: : ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾، وظاهر الآية العموم، وأن الاتجار جائز لذوي الجاه والشرف، وللسوقة من الناس، ولمن دونهم، فلا عيب على الإنسان أن يتجر ويطلب الرزق، ولهذا وجه الله الأمر للمؤمنين بالسعي إلى الجمعة عند ندائها، ثم قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الجمعة: ١٠]، فأمرنا بطلب الرزق بعد الانصراف من الجمعة، وذكرنا أن لا ننسى ذكر الله، فقال: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ﴾ [الجمعة: ١٠].

على كل حال: التجارة جائزة ولا عيب على الإنسان فيها، ويذكر في التاريخ أن أبا بكر رضي الله عنه لما ولي على المسلمين خليفة نزل إلى السوق يبيع ويشتري، فقالوا له: كيف تبيع وتشتري وأنت خليفة مسئول؟ قال: لا بد من ذلك، فضربوا له نصيباً معيناً من بيت المال بقدر كفايته رضي الله عنه.

والتجارة المذمومة هي ما صدت عن ذكر الله، ولهذا

امتدح الله الرجال الذين ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧]، قال بعض أهل العلم: والتجارة التي يقصد بها التكثر من الدنيا هي أيضاً مذمومة؛ لأن الغالب أن من كانت هذه نيته أن تصده التجارة عن ذكر الله، فإذا رأيت من نفسك جشعاً وطمعاً وشحاً في التجارة فأمسك؛ لأنه يخشى أن يكون ذلك على حساب الدين.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء: ٣٠].

الإعراب في هذه الآية «مَن» شرطية، وفعل الشرط ﴿يَفْعَلْ﴾ وجوابه ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ وارتبطت جملة الجواب بالفاء لوجود ما يقتضي ذلك، وهو «سَوْفَ»، والجواب الذي يحتاج إلى ربط بالفاء مجموع في قول الشاعر:

اسمية طلبية وبجامد وبما وقد وبلن والتنفيس

وسوف تدخل في قوله: «وبالتنفيس».

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه ما ذكر في الآية السابقة فقط، خلافاً لبعض العلماء الذين قالوا: إن قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: كل ما نهي عنه من أول السورة، فإن هذا لا وجه له، بل نقول: الإشارة تعود إلى أقرب مذكور؛ أي: من يأكل الأموال بالباطل إلا ما استثني، ومن يقتل النفس عدواناً وظلماً.

﴿عُدْوَٰنًا﴾ أي: اعتداءً، بأن يفعله عن قصد.

﴿وَظُلْمًا﴾ قيل: إنها من باب عطف المرادف على مرادفه؛ لأن الظلم عدوان والعدوان ظلم.

وقيل: بل بينهما فرق؛ فالعدوان ما فعل عن قصد، والظلم يعود إلى نفس الفاعل، فهو إذا خالف أو فعل ما ذكر من المناهي فقد اعتدى على غيره فأكل ماله، واعتدى على غيره فقتله، وظلم نفسه، فيكون عدواناً باعتبار الغير، وظلماً باعتبار النفس. والثاني أصح لا شك؛ لأن حمل الكلام على التأسيس أولى من حمله على الترادف؛ لأنك إذا جعلتهما مترادفتين صار ذلك تكراراً، لكن إذا قلت هذه لها معنى وهذه لها معنى فهذا هو الأصل.

وعليه فنقول: ﴿عُدْوَٰنًا﴾ أي: عن عمد وقصد، وهو عدوان على الغير، ﴿وَظُلْمًا﴾ أي: للنفس؛ لأن جميع المعاصي ظلم للنفس.

قوله: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ أي: ندخله ناراً يصلاها تحرقه، والفعل «نصلي» نصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، فيكون من باب كسى وأعطى.

قوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه إدخاله النار التي يصلاها. كان ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: سهلاً؛ لأنه لا يمانعه أحدٌ في ملكه، فالتعذيب بالنار قد يصعب على بعض ملوك الدنيا مثلاً، لكنه على الله يسير سهل: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ التحذير من فعل هذه المنهيات؛ وذلك بالوعيد عليها بالنار.

٢ ـ أن فعل هذه المنهيات من كبائر الذنوب؛ لأنه توعد عليه بالنار، وكل ذنب توعد عليه بالنار فهو من كبائر الذنوب.

٣ ـ بيان عظمة الله وتمام سلطانه وقدرته، لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

٤ ـ تعظيم الله نفسه، لقوله: ﴿نُصْلِيهِ نَارًا﴾؛ لأن الضمير هنا تقديره «نحن»، وهو ضمير العظمة، وليس من المتشابه إلا على من طمس الله قلبه؛ كالنصراني الذي يقول: إن ضمير الجمع يدل على التعدد، وينسى الآيات المحكمات الدالة على أن الله إله واحد؛ لأن الله تعالى طمس على قلبه، ومن طمس الله على قلبه فإنه لا يتبين له الحق.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١].

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟﴾ هنا عدول عن الغيبة إلى الخطاب، فالغيبة: في قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ﴾ [النساء: ٣٠] وأما ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟﴾ فهذا للخطاب.

يخاطب الله سبحانه العباد بقوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟﴾ أي: تبتعدوا عن كبائر ما تنهون، وقوله ﴿كَبَآئِرَ﴾: جمع كبيرة

قوله: ﴿مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ النهي: هو طلب الكف على وجه الاستعلاء؛ أي: ما ينهاكم الله عنه.

قوله: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

﴿نُكَفِّرْ﴾: مأخوذ من الكَفْر، وهو الستر، فالتكفير إذاً معناه ستر السيئات، وذلك بالعفو عنها.

وقوله عزّ وجل: ﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ جمع سيئة، والمراد بها هنا الصغيرة، والدليل على أن المراد بها الصغيرة أنها جاءت في

مقابلة الكبائر في قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، وإلا فالأصل أن السيئة عامة للكبيرة وللصغيرة.

ومن بلاغة القرآن أن يعرف معنى الكلمة بذكر ما يقابلها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]، فمعنى ثبات: فرادى، والدليل أنه قوبل بقوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾، مع أنك لو ذهبت تراجعها في القاموس أو غيره من كتب اللغة لأخذت وقتاً، لكن إذا عرفت أن الله عزّ وجل يذكر الشيء وما يقابله كما في هذه الآية، عرفت أن المراد بالثبات الفرادى.

وقوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾: المدخل الكريم هو الجنة؛ لأنها دار الكرم، ودار الفضل، ودار الإحسان، ودار السلام، وهنا قال: «مُدْخَلاً» ولم يقل «مَدْخَلاً» لأنه من الرباعي، واسم المكان أو الزمان والمصدر الميمي إذا كان من الرباعي فهو على وزن «مُفْعل» لا على وزن «مَفْعل»، ولهذا تقول: أقام الرجل عندنا مُقاماً، وتقول قام الرجل فينا مَقاماً؛ لأنه من الثلاثي، وعلى هذا كان قوله: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا﴾ بضم الميم لأنه من الرباعي: أدخل يُدخِل أي: ندخلكم في مكان دخول كريم، بناءً على أن «مُدخل» هنا اسم مكان، ويجوز أن تكون مصدراً ميمياً؛ أي: ندخلكم إدخالاً كريماً، ويجوز أن يراد بها هذا وهذا؛ أي: أن الكرم وصف للإدخال ولمكان الدخول.

فإذا قال قائل: ما هي الكبائر؟

قلنا: الكبائر جمع كبيرة، وقد جاءت الأحاديث بعدِّها بثلاث، وأربع، وسبع، وتسع، وتفاوتت الأحاديث في هذا، ففي

حديث أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» قلنا: بلى يا رسول الله! قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**»، وكان متكئاً فجلس، وقال: «**ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزور**»[(١)]، وورد عنه أيضاً: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»[(٢)] وعدها، وسئل عن الكبائر فقال: «**تسع..**»[(٣)] وعدها.

ومن ثم اختلف العلماء، فمنهم من قال: ما نص أنه من الكبائر فهو كبيرة، وما لا فهو صغيرة.

وقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الكبائر هل هي سبع؟ فقال: هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع[(٤)]، وفي رواية أخرى قال: هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع، ولكن لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.

وقال الإمام أحمد رحمه الله: الكبيرة محدودة لا معدودة، فما كان فيه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة، وما لا فلا، فالزنا مثلاً كبيرة.. والسرقة كبيرة..والقذف كبيرة، «**ومن**

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، حديث رقم (٥٦٣١)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، حديث رقم (٨٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾، حديث رقم (٢٦١٥)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، حديث رقم (٩٨).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الوصايا، باب ما جاء في التشديد في أكل مال اليتيم، حديث رقم (٢٨٧٥)؛ والحاكم (١/ ١٢٧، ٤/ ٢٨٨).

(٤) رواه عبد الرزاق وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس مرفوعاً.

جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه»[١]، فهو كبيرة.

قال ابن عبد القوي رحمه الله في منظومته الدالية التي تقع في نحو أربعة عشر ألف بيت في الفقه:

فما فيه حد في الدنا أو توعد بأخرى فسمِّ بكبرى على نص أحمد

الدنا: أي الدنيا، سم: سمِّه أو أعلمه؛ لأنه يجوز أن تكون من السمة والعلامة؛ أي: صفه بأنه من كبائر الذنوب على نص أحمد.

ثم قال رحمه الله:

وزاد حفيد المجد أو جَاْ وعيدُه بنفيٍ لإيمانٍ ولعنٍ مؤبد

وحفيد المجد: هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

أو جا وعيده بنفي لإيمان: أي مثل: لا يؤمن من فعل كذا وكذا، ليس منا من فعل كذا وكذا.

ولعن مؤبد: هو ما ذكر فيه اللعن مثل: **«لعن الله من لعن والديه»**[٢]، وأشباه ذلك، فزاد ثنتين مع الثنتين الأوليين فتكون أربعاً.

ولشيخ الإسلام رحمه الله كلام آخر قال فيه: ما رتب عليه عقوبة خاصة دينية أو دنيوية فهو من كبائر الذنوب، وما كان فيه مجرد التحريم أو مجرد النهي فهو من الصغائر، ووجه ذلك: أن تخصيص الذنب بالعقوبة يدل على عظمه، وإلا لاكتفى بالعقوبات العامة على الذنوب، فكونه ينص على عقوبة خاصة فيه يدل على عظمه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب اللباس، رقم (٥٤٤٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، حديث رقم (١٩٧٨) عن علي بن أبي طالب.

وهذا الضابط الذي ذكره شيخ الإسلام رحمه الله ضابط لا بأس به، لكنه سوف يدخل فيه ذنوب كثيرة، ولكننا لم نجد فارقاً يفرق بين الصغائر والكبائر إلا بمثل ذلك، فإذا رتبت عقوبة خاصة دنيوية أو دينية أو أخروية على ذنب فهو كبيرة.

فالدينية: مثل أن يقال: «**والله لا يؤمن.. من لا يأمن جاره بوائقه**»[1] فهذه دينية بنفي الإيمان.

والدنيوية: كالحد.

والأخروية: كالوعيد: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم**»[2]، وهذا تعريف للكبيرة بالحد.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن ما نهي عنه ينقسم إلى كبائر وصغائر، لقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

٢ ـ تفاضل الناس في الإيمان، وجهه: أن الإيمان يزداد بزيادة العمل كمية أو كيفية أو نوعاً، وهنا قسم الله المعاصي إلى قسمين، وكلما كان الإنسان في معصية أشد كان إيمانه أنقص وأقل، فيؤخذ منه أن الإيمان يزيد وينقص، وهذا هو الذي عليه جمهور أهل السنة، بدليل الكتاب والسنة والواقع.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، حديث رقم (٥٦٧٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب اليمين بعد العصر، حديث رقم (٢٥٢٧)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة، حديث رقم (١٠٨) عن أبي هريرة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤] وقال الله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، وفي الآيتين دليل على النقص؛ لأنه لا تتصور زيادة إلا بما نقص دون عنها.

وفي السنة قال النبي ﷺ: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن**»(١) ـ يعني النساء ـ.

وأما الواقع فظاهر، أن الأعمال عند أهل السنة من الإيمان، والأعمال تتفاضل بالزيادة، فمن صلى عشر ركعات لا يساويه من صلى ست ركعات، وهذا ظاهر محسوس.

كذلك أيضاً في القلب: فالإيمان يزيد وينقص في القلب، دليل ذلك أن إبراهيم عليه السلام قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] أي: ليزيد ثباتاً وإيماناً.

وأنت بنفسك تحس أن إيمانك بالشيء يزداد في القلب، فإذا جاءك مخبر بخبر وهو عندك ثقة آمنت بخبره، فإذا جاء آخر مثله وأخبرك بنفس الخبر ازداد إيمانك بلا شك، ولو أخبرك بعكسه ضعف إيمانك الأول الذي أخبرك به الثقة، وهذا الشيء مشاهد.

كذلك أيضاً بالنسبة لمراقبة الله عزّ وجل، يجد الإنسان من نفسه أحياناً أن قلبه حاضر بين يدي ربه، وأنه في أحلى ما يكون

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، حديث رقم (٢٩٨)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقصان الطاعات...، حديث رقم (٨٠) عن أبي سعيد.

وألذ ما يكون، وأنه قد ذاق طعم الإيمان، حتى يتمنى أنه لا يكون إلا في هذا السرور، ولا يريد لا دنيا ولا آخرة، فلا يرى أحسن ولا أطيب من الساعة التي هو فيها، سواء كان في صلاة، أو في قراءة قرآن، أو في تدبر سيرة النبي عليه الصلاة والسلام.

وأحياناً تستولي عليه الغفلة، فيصلي بنفس القراءة التي قرأها بالأمس ولكن كأن قلبه حجر ما يلين، والوقت هو الوقت، والمكان هو المكان، والعمل هو العمل.

يصلي الإنسان في آخر الليل مثلاً، ليلة يجد لذة عظيمة في الصلاة، وهو يحس أنه قريب من الله عزّ وجل، وليلة أخرى بالعكس فلا يذوق معنى من المعاني، فالإيمان بالأمس، أشد بكثير من الإيمان اليوم، حتى الصحابة قالوا: يا رسول الله! إذا كنا عندك وسمعنا ـ يعني: ما يقول ـ كأننا نرى رأي العين، ولكن إذا ذهبنا وعافسنا الأهل والأولاد نسينا، فقال: «**لو كنتم على ما تكونون عليه عندي لصافحتكم الملائكة، ولكن ساعة وساعة**»[1].

إذاً: فالإيمان يزيد حساً بلا شك، ولكن الطاعة لا شك أنها تزيد في الإيمان، بشرط أن تكون مصحوبة بعمل القلب، أما عمل الجوارح إذا لم يكن مصحوباً بعمل القلب فإنه لا يزيد في الإيمان، وربما ينقص الإيمان والعياذ بالله؛ لأنه يصبح عبثاً، لكن إذا كانت أعمال الجوارح مصحوبة بعمل القلب، من الخوف والرغبة واحتساب الثواب، فإنه بلا شك يزداد قلبه بالطاعة، لهذا يجب النظر في هذه المسألة.

---

(١) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك، حديث رقم (٢٧٥٠) عن حنظلة.

والذين قالوا إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: المرجئة، قالوا: لا يزيد ولا ينقص؛ لأن الأعمال الصالحة وغير الصالحة لا دخل لها في الإيمان، فالناس عندهم في الإيمان شيء واحد كالمشط، كما قال ابن القيم رحمه الله في النونية:

والناس في الإيمان شيء واحد كالمشط عند تماثل الأسنان

فالناس عندهم سواء.

فالإيمان عندهم مجرد التصديق والإقرار، حتى الشيطان عندهم مؤمن؛ لأنه مصدق، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله:

واسأل أبا الجن اللعين أتعرف الـ خلاق أم أصبحت ذا نكران

وأبو الجن اللعين يعرف الخلاق ويدعوه، يقول: رب أنظرني، ومع ذلك هو أكفر خلق الله.

الطائفة الثانية: الخوارج، وما أدراك ما الخوارج؟ أصحاب الأعمال الظاهرة وخراب القلوب الباطنة، الخوارج تقول: إذا فعل الإنسان كبيرة خرج من الإيمان، وأبيح دمه وماله؛ لأنه كافر مرتد، فعندهم أن الإيمان لا يزيد، فإما أن يوجد كله وإما أن يعدم كله، إن سلم الإنسان من الكبائر والإصرار على الصغائر وقام بالواجبات والمفروضات فمعه الإيمان كله، وإن أتى كبيرة واحدة انهدم الإيمان كله.

الطائفة الثالثة: المعتزلة، أشبهوا الخوارج من جهة أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، لكنهم لا يقولون بكفر فاعل الكبيرة، فهم يقولون: الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فإما مؤمن كامل وإلا ليس بمؤمن ولا كافر.

ففاعل الكبيرة عندهم ليس بمؤمنٍ ولا كافر؛ لأنهم نظروا بعين عوراء، فنظروا إلى أن معه أصل الإيمان فقالوا: ذهب عنه الإيمان بالكبيرة، ولكنه بقي معه أصل الإيمان، فلا نقول إنه كافر ولا نقول إنه مؤمن، بل نقول إنه في منزلة بين منزلتين.

والمنزلة ليس لها ذكر في القرآن والسنة، وهم الذين أحدثوها، قالوا: كما لو خرج رجل من مكة متجهاً إلى المدينة ووقف في أثناء الطريق، فليس من أهل مكة ولا المدينة، وهو في منزلة بين منزلتين، لكن اتفقوا مع الخوارج في أنه يكون مخلداً في النار، فأحكامه في الآخرة كأحكامه عند الخوارج.

أما أهل السنة والجماعة ـ نسأل الله أن يثبتنا جميعاً على قولهم إلى الممات ـ فقالوا: الإيمان يزيد وينقص، والكفر درجات، والإنسان قد يكون معه خصال إيمان وخصال كفر، ولا يخرج فاعل الكبيرة من الإيمان، فلا نعطيه الاسم المطلق ولا نسلبه مطلق الاسم، بل نقول: معه إيمان ناقص، أو: هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، وهذا هو العدل والميزان، أن يوصف الإنسان بما يقتضيه عمله من إيمان أو كفر.

٣ ـ أن الصغائر تقع مكفرة باجتناب الكبائر؛ لقوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾؛ أي: فإن لم يجتنب الكبائر أخذ بالصغائر؛ لكن الكبائر والصغائر تحت المشيئة ما لم تكن كفراً.

فالفائدة من قولهم يؤخذ بها أنه إذا اجتنب الكبائر جزمنا بأن الله كفر عنه الصغائر، وإذا لم يجتنب الكبائر فهو تحت المشيئة والخطر.

٤ ـ إثبات عظمة الله عزّ وجل لقوله: ﴿نُكَفِّرْ﴾ ﴿وَنُدْخِلْكُم﴾؛ لأن النون هنا للتعظيم، وقد قال النصراني الخبيث إن هذا يدل على تعدد الآلهة؛ لأن الضمير هنا للجمع، فنحن أحق بالحق منكم أيها الموحدون. فنقول له: إن هذا من باب التعظيم، وأنت قد طبع الله على قلبك وغفلت عن قول الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣].

٥ ـ سعة فضل الله سبحانه، وذلك بتكفير السيئات باجتناب كبائر الذنوب، وإلا لو جازى الناس بالعدل لعاقبهم على الصغائر وعلى الكبائر كل منها بحسبه، فالكبائر عقوبتها شديدة والصغائر دون ذلك، ولكن من فضله عزّ وجل جعل الصغائر مكفرة باجتناب الكبائر، وهذا من أثر قوله سبحانه كما في الحديث القدسي: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»(١).

٦ ـ أن من كفر الله عنه السيئات فهو من أهل الجنة لقوله: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

٧ ـ بيان أن الجنة هي أعلى ما يكون، بل هي من المداخل الكريمة، والكريم في كل شيء بحسبه، فكرائم الأموال أحاسنها، وكرائم المساكن أحاسنها، قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «**إياك وكرائم أموالهم**»(٢).

❁ ❁ ❁

---

(١) تقدم ص١٧١.

(٢) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، وترد في الفقراء حيث كانوا، حديث رقم (١٤٢٥)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩).

□ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء: ٣٢].

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟﴾ لا ناهية، وجزم الفعل بها بحذف النون، وقوله: «ما فَضَّل» مفعول تتمنوا، والتمني: هو الطمع فيما يتعسر نيله أو يتعذر نيله، كقول الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

فهذا طمع فيما يتعذر نيله، وقول الفقير: يا ليت لي مالاً فأتصدق منه، فهذا طمع فيما يتعسر نيله.

وقد يطلق التمني ويراد به مطلق الرجاء، بأن يطمع الإنسان في أمر يسهل نيله وإن كان لا يحصله، ولكنه يسهل نيله لو شاء الله، فقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟﴾ أي: لا تطمعوا في أمر فضل الله به بعضكم على بعض.

وقوله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي: زاد ﴿بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، سواء كان ذلك في العلم، أو في المال، أو في الولد، أو في الجاه، أو في الملك، أو في غير ذلك، فلا تتمن ما فضل الله به غيرك عليك؛ لأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

ثم قال: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟﴾: وذلك النصيب هو ما يعطيهم الله إياه من الثواب على الأعمال الصالحة.

﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ﴾ أي: من الأعمال الصالحة لهن نصيب، فكلٌ بحسب ما قدر الله له، فللرجال الجهاد، وللنساء حفظ البيوت، وهناك فرق بين الجهاد وحفظ البيوت، لكن الذي

فضل هؤلاء بهذا وهؤلاء بهذا، أو خص هؤلاء بهذا وهؤلاء بهذا، هو الله.

إذاً: ما دام الأمر إلى الله؛ فالله سبحانه حكم عدل، يعطي كل واحد من الجنسين ما يليق به، وسيأتي أيضاً بيان ما فضل الله به الرجال في قوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤].

فالمهم: أن ما فضل الله به بعض الناس على بعض، سواء بسبب الذكورة، أو بسبب الغنى، أو العلم، أو الصحة، أو المال، أو غير ذلك؛ فهو من فضل الله، وعليك ألا تتمنى ما فضل الله به غيرك عليك.

ثم قال: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، وفي قراءة: «سلوا الله»، وكلاهما قراءتان سبعيتان.

﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: من الذي فضل بعضكم على بعض اسألوه، وإذا سألتم الله من فضله أعطاكم.

فمثلاً: إذا رأيت شخصاً قد فضلك في المال فلا تتمنى هذا المال الذي أعطاه الله هذا الرجل، ولكن اسأل الله من فضله، وإذا وجدت رجلاً فضلك في العلم فلا تتمن هذا العلم الذي أعطاه الله غيرك، ولكن اسأل الله من فضله ودع علمه وماله يبقى له.

قوله: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ هل السؤال هنا سؤال عطاء أم سؤال علم؟ سؤال العطاء؛ أي: طلب منه أن يعطيه مالاً، كما في قوله تعالى: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]، وسؤال العلم بمعنى استخبره، فهو: يريد أن يخبره، فهل هذا سؤال مال أو سؤال علم؟

الجواب: هو سؤال عطاء؛ ومنه المال، والمعنى: اسألوا الله أن يعطيكم، وعدلنا عن قولنا سؤال مال لأن الإنسان قد يسأل الله غير المال كالعلم والجاه والذكاء والعقل وما أشبه ذلك.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ هذه الجملة استئنافية، والدليل على أنها استئنافية أن همزة: ﴿إِنَّ﴾ كسرت، وهمزة ﴿إِنَّ﴾ تكسر في الابتداء، وعلى هذا فهي جملة استئنافية لبيان قطع التمني؛ أي: تمني الإنسان ما فضل الله به غيره عليه، يعني: أن ما فضل الله به الغير فهو صادر عن علم بأن هذا المفضل أهل للتفضيل، فالرجال أهل للجهاد، أهل لحماية الأوطان، أهل لحماية الدين، وما أشبه ذلك، بخلاف النساء فإنهن قاصرات.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ نهي الإنسان أن يتمنى ما فضل الله به غيره عليه، لقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾، وهل النهي للتحريم؟

الجواب: نعم هو للتحريم؛ لأن هذا النوع من التمني هو الحسد بعينه؛ لأنه قال: ﴿مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: مثل ما فضل الله، ولو قال: ولا تتمنوا مثل. لكان في المسألة إشكال، وصار أول الآية يناقض آخرها في قوله: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، لكن المعنى: لا تتمنوا أن يكون ما فضل الله به الغير لكم ويُحرم إياه الغير، وعلى هذا فنقول: النهي هنا للتحريم، وهذا النوع هو الحسد.

ولكن ينبغي أن يعلم أن تمني ما أعطاه الله الغير ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يتمنى زواله لغير أحد.

والثاني: أن يتمنى زواله لغيره، لغير المتمني.

والثالث: أن يتمنى زواله لنفسه.

والذي في الآية هنا في قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ﴾ هو الثالث بلا شك، وهو أن يتمنى ما أعطى الله غيره من الفضل، ولكن الأول والثاني معلومان من أدلة أخرى أنه يحرم على الإنسان أن يتمنى زوال نعمة الله على غيره، سواء تمنى أن تزول إلى شخص أو أن تزول مطلقاً، وهذا هو الحسد عند جمهور أهل العلم، وقال شيخ الإسلام رحمه الله: إن الحسد كراهة ما أعطى الله هذا الرجل من فضله، سواء تمنى زواله أم لم يتمن زواله، فإذا كرهت ما ينعم الله به على غيرك فهذا هو الحسد.

٢ ـ حكمة الله سبحانه في العطاء والمنع، حيث يفضل بعضاً على بعض، ولا شك أن هذا صادر عن حكمة وليس مجرد اختيار، خلافاً لمن أنكر حكمة الله، وقال: إن فعله لمجرد الاختيار، بل هو لاختيار صادر عن حكمة.

٣ ـ إثبات أن الأحكام تدور مع عللها، لقوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾، فنصيب الرجال يليق بهم، ونصيب النساء يليق بهن.

٤ ـ جواز أن يتمنى الإنسان مثلما فضل الله به غيره عليه، وجهه قوله: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، فنحن لا نقول لك: لا تتمن أن يعطيك الله مثلما أعطى فلاناً، بل نقول: لا بأس، ولكن لا تتمن ما أعطاه الله فلاناً، وبينهما فرق.

٥ ـ الفرق بين الجنسين: الرجال والنساء، وقد قيل: إن الآية نزلت بسبب قول بعض النساء لما أنزل الله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١] فقال بعضهن: يا ليتني كنت ذكراً حتى يكون لي مثل الذكر ولا أنقص عنه.

وسواء صح هذا السبب أم لم يصح، فإن الآية تدل أن بين الجنسين فرقاً، خلافاً لمن يحاول أن يجعل الجنسين على حكم واحد، بل يحاول أن يفضل النساء على الرجال.

٦ ـ سعة فضل الله عزّ وجل وكرمه، لقوله: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، فهو سبحانه لم يأمرنا بالسؤال إلا ليعطينا؛ لأنه لو أمرنا بالسؤال من غير أن يعطينا لكان هذا عبثاً لا فائدة منه، ولكنه عزّ وجل كريم، هو الذي يتعرض لعباده ويقول: اسألوني.

وينبغي في السؤال أن يكون على الأدب المطلوب:

أولاً: أن تسأل الله سبحانه سؤال مفتقر لا سؤال مستغن.

ثانياً: أن تسأل الله سبحانه سؤال من يثق بربه أنه قادر، لا سؤال تجربة، بل سؤال من يثق بوعد الله وأنه قادر على الإعطاء يعطي السائل ما سأله.

ثالثاً: ينبغي أن يختار الإنسان الأزمان والأماكن والأحوال التي تكون سبباً في الإجابة.

مثال الأزمان: آخر الليل، وما بين الأذان والإقامة.

ومثال الأماكن: أن يكون في الأماكن الفاضلة، ومثال الأحوال: حال السجود، وحال السفر، وحال نزول المطر.

فينبغي أن يختار الإنسان ما يكون أقرب إلى الإجابة.

رابعاً: أن يكون مجتنباً للحرام؛ لأن أكل الحرام حائل يمنع

من قبول الدعاء؛ لأن النبي ﷺ قال: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين**» فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٢] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب! يا رب! ومطعمه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك»[1] فقوله: «أنى» هذه استفهام استبعاد؛ أي: بعيد أن يستجاب لهذا الرجل.

خامساً: أن لا يعتدي في الدعاء، قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥﴾ [الأعراف: ٥٥]، فإن اعتدى في الدعاء بأن سأل ما لا يحل له، أو سأل ما يمتنع شرعاً أو قدراً؛ فإنه لا يجاب.

فلو سأل إثماً، بأن قال والعياذ بالله: اللهم يسر له امرأة يزني بها، أو كأس خمرٍ يشربه؛ فهذا لا يستجاب له؛ لأنه عدوان واستهزاء بالله عزّ وجل، فهذا لا يحل شرعاً ولا يمكن قبوله لأنه محرمٌ وممتنع شرعاً.

والممتنع قدراً مثل أن يقول: اللهم اجعلني نبياً؛ لأن هذا ممتنعٌ قدراً بخبر الله، لا لأنه مستحيل لذاته، فهو غير مستحيل، لكن بخبر الله صار مستحيلاً لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

كل هذه آداب ينبغي على الإنسان أن يراعيها في الدعاء.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، حديث رقم (١٠١٥).

٦ ـ إثبات عموم علم الله، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

٧ ـ الاقتناع بما حكم الله به شرعاً أو قدراً، وذلك لأني إذا علمت أنه صادر عن علم الله اقتنعت، وقلت: لولا أن المصلحة في وجود هذا الشيء ما فعله الله؛ لأن الله سبحانه لا يفعل إلا عن علم، فيزيدني هذا اقتناعاً بما قضاه الله شرعاً أو قدراً.

٨ ـ وجوب مراقبة الله؛ لأن العاقل إذا علم أن الله سبحانه يعلمه فسوف يراقب ربه بلسانه وجنانه وأركانه.

بلسانه: بأن لا يقول ما حرم الله. وجنانه: بأن لا يعتقد شيئاً حرمه الله أو يقول شيئاً حرمه الله بالقلب؛ لأن قول القلب هو حركته وعمله، وأركانه جوارحه: لأن الإنسان إذا آمن حقيقة بهذا فسيراقب الله؛ لأن الله يعلمه، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ [النساء: ٣٣].

لما نهى الله سبحانه عن تمني ما فضل الله به بعضنا على بعض، ومنه تفضيل الرجال على النساء في الميراث، بيَّن عزّ وجل أنه جعل لكل ذكر وأنثى موالي.

قول الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿جَعَلْنَا﴾، وهو المفعول الثاني مقدماً، و﴿مَوَٰلِيَ﴾ المفعول الأول.

وقوله: ﴿لِكُلٍّ﴾ هذه من الكلمات التي لا تقع إلا مضافةً

لفظاً أو تقديراً، أما لفظاً فهو كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ﴾ [الحجر: ٣٠]، وأما تقديراً فيقدر له مضاف إليه مناسب للمقام، والمناسب في هذا: ولكل أحد من الذكور والإناث جعلنا موالي؛ أي: صيرنا.

وقوله: ﴿مَوَٰلِيَ﴾ جمع مولى، والمولى يطلق على عدة معان، والذي يعين المعنى السياق وقرائن الأحوال، فالسياق قرائن لفظية، والأحوال قرائن حالية تبين المراد، واللفظة الواحدة إذا تعددت معانيها تسمى عند أهل العلم بالمشترك، وقد انتقد بعض الناس ـ ولا سيما الزنادقة ـ اللغة العربية، وقال: إن اللغة العربية فقيرة بسبب الأسماء المشتركة، وإن العرب عجزوا عن أن يجعلوا لكل معنىً لفظاً مستقلاً.

وهذا القائل جائر في حكمه؛ لأنه إذا زعم أن الاشتراك في اللفظ إعواز في اللغة، وعجز عن إعطاء كل معنىً لفظاً خاصاً به؛ فإنه قد أغفل شيئاً آخر ضده، وهو: الترادف، فإن الترادف فيه إثراء للغة العربية وسعة للغة العربية، حيث تطلق كلمتان فأكثر على معنى واحد، فالإنسان العادل ينظر هذا وهذا.

ثم إن في الأسماء المشتركة دليلاً على فطنة العرب وذكائهم وحذقهم، حيث يفسرون كل لفظ بما يناسبه بالسياق، فالعين مثلاً تأتي في سياق ويراد بها شيء، وفي سياق آخر يراد بها شيءٌ آخر، فهذا دليل على أن العرب عندهم حذق وفطنة قوية، بحيث يتعين المعنى في اللفظة الواحدة ذات المعاني المتعددة بحسب السياق.

وهو أيضاً فتح بابٍ للتأمل والتفكر، فإن الإنسان يقف عند

الكلمة التي تطلق على عدة معان لينظر معناها المراد في هذا السياق، فيقتضي أن ينتبه الإنسان ويتأمل وينظر، ولكن بعض الناس يكون مغرضاً أو سطحياً، فيرمي اللغة العربية بما هي بريئة منه.

فقوله: ﴿مَوَالِيَ﴾ تطلق على معان:

منها: الناصر: مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ﴾ [التحريم: ٤] أي: هو ناصره.

ويطلق على الذي يتولى على غيره، مثل: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠].

ويطلق على المعتق لقول النبي ﷺ: «**إنما الولاء لمن أعتق**»(١).

ويطلق على العتيق، لقوله ﷺ: «**مولى القوم من أنفسهم**»(٢)، أي: عتيقهم منهم.

ويطلق على متولي الأمور، من ملك أو أمير أو وزير أو ما أشبه ذلك، ويسمى ولي الأمر أيضاً.

ومن معنى المولى: المشائخ. لأنهم يتولون أمور الناس بالعلم.

بقي الإطلاق الأخير الذي هو المراد في هذه الآية، فالمولى هنا هو من يتولى ملك من بعدك، وهو الوارث، ودليله

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب إذا اشترط شروطاً في البيع لا تحل، حديث رقم (٢٠٦٠)؛ ومسلم، كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق، حديث رقم (١٥٠٤) من حديث عائشة.

(٢) رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب مولى القوم من أنفسهم وابن الأخت منهم، حديث رقم (٦٣٨٠)، من حديث أنس.

قوله ﷺ: «**فما بقي فلأولى رجلٍ ذكر**»[(١)] ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥].

فقوله: ﴿جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ أي: يلون تركته من بعده، ولهذا قال: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾.

وقوله: ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ مبتدأ، ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ معطوف عليها، وهي بيان للموالي، وهذا أحد التفسيرين في الآية، وعلى هذا فيكون الوقف على قوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ﴾.

القول الثاني: أن ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ فاعل ﴿تَرَكَ﴾؛ أي: جعلنا وارثين من المتروك من الوالدين والأقربين.

والمعنيان متلازمان، لكن أيهما أقرب إلى اللفظ؟

يرى بعض العلماء أن الأقرب الثاني، وأن تكون ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ فاعل ﴿تَرَكَ﴾ ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ معطوفة عليها، والمعنى: لكل أحد من الناس جعلنا موالي أي: وارثين من الذي ترك الوالدان والأقربون، فعلى هذا يكون الوالدان موروثين، وعلى الأول يكونان وارثين، والمعنيان متلازمان؛ لأنه ما من وارث إلا وله موروث، فسواء كان المعنى: جعلنا موالي مما ترك أي: يلونه مما ترك، وهم الوالدان والأقربون؛ أي: الوارثون، أو مما ترك الوالدان والأقربون، وهم الموروثون.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب ميراث الولد من أبيه وأمه، حديث رقم (٦٣٥١)؛ ومسلم، كتاب الفرائض، باب ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر، حديث رقم (١٦١٥) عن ابن عباس.

وقوله: ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ إنما جاءت باسم التفضيل دون القريبون؛ لأنه يبدأ في الأقارب بالأقرب فالأقرب.

وقوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾: هذه متعلقة بشيء محذوف، ولا يستقيم المعنى إذا جعلناها متعلقة بموالي، فالشيء المحذوف مقدر بما يناسب المقام، فـ:﴿تَرَكَ﴾ يناسبها الإرث، قال الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، وقال في الآية التي تليها: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢]، فلما قال: ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ علمنا أن المقدر: يرثون مما ترك الوالدان والأقربون، ويؤيد هذا التقدير قول النبي ﷺ: «**ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر**»[1]، إذاً قوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ «من» بيانية أو تبعيضية، والمتعلق محذوف، والتقدير: يرثون.

وقوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ وهما الأب والأم، ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ وهم من عدا الوالدين، وإنما فسرنا الأقربين بمن عدا الوالدين مع أن الوالدين أقرب الناس؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، فالله تعالى جعل «موالي» يرثون مما ترك الوالدان، وهؤلاء الموالي الذين يرثون مما ترك الوالدان هم الفروع، إذاً: الوارث هو المولود، وهم الفروع، وقد بين الله سبحانه في كتابه كيف يرثون إذا انفرد الذكور أو انفرد الإناث أو اجتمعوا.

فإذا انفرد الإناث فإرثهم بالفرض فقط، وإذا انفرد الذكور فإرثهم بالتعصيب فقط، وإذا اجتمعوا فإرثهم بالتعصيب لكن

---

(١) تقدم ص٤٩.

تختلف جهته، فالذكور عصبةٌ بالنفس والإناث عصبةٌ بالغير، وهم الذكور؛ أي: عصبة بسبب غيرهم.

وقوله: ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ هذه كلمة واسعة، ولم يقل: القرابات، بل قال: ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾؛ لأن الميراث يكون للأقرب فالأقرب، حتى ذوو الفروض يفضل الأقرب على الأبعد، فالبنت مع بنت الابن لها النصف، ولبنت الابن السدس، والبنتان يسقطان بنات الابن، والأخت الشقيقة مع الأخت لأب لها النصف، والأختان الشقيقتان تسقطان الأخوات لأب، وهلم جرّا.

ولهذا قال: ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ أي: الأقرب فالأقرب.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فيها قراءتان سبعيتان «عقدت» و«عاقدت»، من المعاقدة وهي المعاهدة، وسميت المعاهدة عقداً لأنها إبرام لميثاق بين المتعاهدين، وكانوا في الجاهلية يتعاقدون على الولاء والإرث على حسب شروط بينهم، إما أن يقول: لك أنت سدس ما ورائي، أو ثلث أو ربع.. حسب ما يتفقون عليه.

قوله: ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي: أعطوهم، وفي اللغة العربية «أتى، وآتى»، فالتي بالمد بمعنى الإعطاء، والتي بالقصر بمعنى المجيء، والتي بمعنى الإعطاء تنصب مفعولين كلاهما فضلة ليس عمدة؛ أي: ليس أصلهما المبتدأ والخبر، فقوله: ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ هذه نصبت مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر وهما مفعولان.

ونصيبهم مقدر بحسب ما يتفق المتعاقدان عليه؛ لأن هذا من الوفاء بالعهد، والوفاء بالعهد مما جاءت به الشريعة، حتى أن الرسول ﷺ حذر من إخلاف الوعد، وبين أنه من خصال المنافقين.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ الجملة خبرية مؤكدة بـ﴿إِنَّ﴾.

و﴿كَانَ﴾ فعل ماض تفيد اتصاف اسمها بخبرها على وجه الدوام والاستمرار، فهي مسلوبة الزمان؛ أي: ليست دالة على زمن مضى كما هو شأن الفعل الماضي، بل هي دالة على ثبوت الاتصاف بهذا الوصف أزلاً وأبداً.

وقوله: ﴿شَهِيدًا﴾ أي: رقيباً مطلعاً على كل شيء، وهذه الجملة استئنافية تفيد تهديد من أخفى شيئاً مما يستحقه الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانهم؛ لأنه إذا أخفاه فلن يغيب عن الله سبحانه، بل هو على كل شيء شهيد.

وهذه الآية نسخت بآيات المواريث، وهل هو نسخ مقيد أو نسخ مطلق؟ على قولين للعلماء:

فمنهم من قال: إنها نسخ مقيد بما إذا وجد ذوو الأرحام، فإن لم يوجد توارث المتعاقدان بما اتفقا عليه.

ومنهم من قال: إنه نسخ مطلق، فلا إرث بالموالاة مطلقاً.

والثاني هو الذي عليه جمهور العلماء، والأول عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ إثبات الجعل لله عزّ وجل، وهذا من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته.

ثم إن الجعل الذي نسبه الله لنفسه عزّ وجل ينقسم إلى قسمين: جعل شرعي، وجعل كوني، فقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦] هذا الجعل كوني، وكذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ

لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ١٠ ـ ١١] وما أشبهها، كلها جعل كوني.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ هذا جعل شرعي، وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]، هذا جعل شرعي، ولا يصح أن يكون جعلاً كونياً؛ لأنها موجودة في الواقع منفية في الآية، إذاً: ما جعلها شرعاً ولكن جعلها قدراً.

والفرق بين الجعل الشرعي والجعل القدري كالفرق بين الإرادة الكونية والارادة الشرعية، فالجعل الشرعي محبوب إلى الله، وقد يقع من العباد وقد لا يقع، والجعل الكوني لا يتعلق بما يحبه الله فقط، بل يكون فيما يحبه وفيما لا يحبه، وهو واقع ولا بد.

٢ ـ أن إثبات الإرث يكون بالنسب والسبب، بالنسب لقوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾، وبالسبب لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، فإن هذا سببه فعل الإنسان؛ كالزوجية فإنها سبب وليست بنسب، والإرث بالعتق سبب وليس بنسب.

٣ ـ الإشارة إلى أن الأقرب مقدم على الأبعد في باب الميراث من قوله: ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾.

٤ ـ كمال الشريعة الإسلامية بإيجاب الوفاء بالعهود والعقود، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

٥ ـ وقوع النسخ في الشريعة؛ لأن هذه الآية منسوخة، إما نسخاً مطلقاً وإما نسخاً مقيداً.

وقد اختلف علماء الملة في النسخ، فأكثر الأمة على أن

النسخ ثابت في الشريعة، لقوله تعالى ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، ولقوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ [البقرة: ١٨٧] إلى آخرها، وقد كان قبل ذلك حراماً، ولقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦] وهذا صريح في النسخ، ولقول النبي ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**»(١).

وقال بعض العلماء ومنهم أبو مسلم الأصفهاني: لا نسخ في الشريعة، وحمل النسخ على التخصيص، وقال: إن مقتضى الحكم الأول استمراره إلى يوم القيامة، فإذا ألغي فهذا تخصيص في الزمن؛ أي: أنه بعد أن كان شاملاً للزمن كله صار خاصاً بالزمن الذي قبل النسخ.

ولكن هذا تكلف، وما الذي يجعلنا نفر من كلمة نسخ وهي موجودة بلفظها، وموجودة بمعناها في القرآن، وموجودة بمعناها في السنة أيضاً؟!

وأنكر اليهود النسخ وقالوا: لا يمكن أن ينسخ الله حكماً بحكم؛ لأنه إن كانت المصلحة في الحكم الثاني فلماذا كان الحكم الأول، وإن كانت المصلحة في الحكم الأول فلماذا كان الحكم الثاني، وإن كان في الأول قد خفيت الحكمة على الله، فهذا يستلزم وصف الله بالجهل، وإذا لم تخف فهذا يستلزم وصف الله بالسفه والعياذ بالله؛ لأنه فعل خلاف الحكمة.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عزّ وجل في زيارة قبر أمه، حديث رقم (٩٧٧) عن بريدة.

فيقال لهم: المصلحة تختلف باختلاف الزمان والمكان والأمة، وإذا كان كذلك فالله عزّ وجل يثبت هذا الحكم ما دام فيه مصلحة للأمة، وينسخه إذا كان ليس بمصلحة، وهذا غاية الحكمة، وأنتم يا بني إسرائيل كان حلاً لكم اللحم، وبظلمكم حرم الله عليكم طيبات أحلت لكم، بعد أن كانت حلالاً، ثم إن شريعتكم ناسخة للشريعة التي قبلها، وإذا قلتم: لا نسخ، أبطلتم شريعتكم؛ لأنها تنسخ ما قبلها.

إذاً: في الآية الكريمة ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ إثبات النسخ.

٦ ـ وجوب الوفاء بالعهد، لقوله: ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾.

فإذا قال قائل: كيف نؤتيهم نصيبهم وهذه المعاقدة باطلة؟ قلنا: لم تبطل إلا بعد النسخ؛ أي: بعد نزول الآية، أما ما ثبت قبل ذلك فالواجب أن يؤتوا نصيبهم.

٧ ـ إثبات شهادة الله عزّ وجل على كل شيء، وأن كل شيء مهما بطن فإنه مشهود لله، ويترتب على ذلك: التحذير من مخالفة الله سبحانه؛ لأن الإنسان إذا علم بأن الله شاهد عليه أمسك عن كل ما يغضب الله وقام بما يجب لله.

وهذه الأسماء التي تختم بها الآيات ينبغي للإنسان ألا يكون جامداً فيفهم منها المعنى فقط، بل ينبغي أن يتربى عليها، ويكون مسلكه على حسب ما تقتضيه هذه الأسماء، فمثلاً: إذا علمت أن الله علام الغيوب، ليس معناه أن تدرك بأن الله يعلم بكل شيء فقط، فهذا الإدراك يستوي فيه الكافر والمسلم، حتى الكفار الذين يعرفون اللغة العربية يعرفون مثل هذا اللفظ، لكن

المهم هو التربي بمقتضى هذا الوصف وهو علم الغيب، وهذه مسألة مهمة لا يفطن لها كثير من الناس.

٨ ـ إن الإنسان إذا آمن بأن الله على كل شيءٍ شهيد، فإنه يحذر ويخاف ويتقي الله عزّ وجل، و«الشهيد» من أسماء الله.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [النساء: ٣٤].

قوله: ﴿ٱلرِّجَالُ﴾ جمع رجل، وهو جمع تكسير، والرجل هو البالغ من ذكور بني آدم، والذكر يطلق على البالغ وغير البالغ، ولهذا جاء في الحديث: «**فما بقي فلأولى رجل ذكر**»[1]، مع أنه لو قال: فلأولى ذكر، اكتفي به، ولو قال: لأولى رجل، لخرج بذلك الصغير فلا يكون عاصباً، لكن جاءت كلمة «ذكر» ليبين أن الكبر ليس بشرط في استحقاق التعصيب، بل ولو كان دون الرجولة.

وذكر الرجل زيادة لها معنى، وهو الإشارة إلى أنه ـ أي: الذكر ـ كان أولى بالتعصيب؛ لأنه رجل يترتب عليه مسئوليات لا تترتب على المرأة.

قوله: ﴿قَوَّٰمُونَ﴾: جمع قوَّام، وقوام صيغة مبالغة من

(١) تقدم ص٤٩.

قائم، فلو قيل في غير القرآن: الرجال قائمون على النساء، لكان المعنى دون كلمة ﴿قَوَّٰمُونَ﴾؛ لأن قوله: ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ صيغة مبالغة تقتضي القوامة على النساء في كل حال، فالمراد بقوله: ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ إما صيغة مبالغة أو نسبة، والمراد بالقيام هنا ليس هو القيام الذي هو الوقوف على الرجلين، ولكنه قيام الولاية، فمعنى ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ أي: بالولاية والسلطة، فيحتمل أن تكون نسبة ويحتمل أن تكون مبالغة، ويحتمل المعنيين معاً، فالرجال قوامون على النساء، ولذلك تكون لهم الولاية والقضاء والإمارة وغير ذلك مما فيه سلطة دون النساء.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾: جمع نسوة، وإن شئت قل: جمع امرأة، لكنه من غير اللفظ؛ لأنه أحياناً يجمع المعنى على غير لفظ المفرد، فإبل جمع لا واحد له من لفظه، فهي جمع بعير.

قوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الباء هنا للسببية، و«ما» يجوز أن تكون مصدرية ويجوز أن تكون موصولة، فإن جعلت موصولة صار التقدير: بالذي فضل الله بعضهم على بعض، وحينئذٍ نحتاج إلى عائد يعود إلى الموصول، فيكون العائد محذوفاً تقديره: بما فضل الله به بعضهم على بعض.

وحذف العائد مشهور في اللغة إذا اتفق الحرفان لفظاً ومعنى، ومنه قوله تعالى: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣] أي: منه، وإن كانت مصدرية لم تحتج إلى عائد، ويكون تقدير الكلام بتفضيل الله بعضهم على بعض.

وقوله: ﴿فَضَّلَ﴾: زاد، والفضل هو الزيادة؛ أي: زاد

بعضهم على بعض، والمزيد هو الرجال، والمزيد عليه هن النساء، إذاً قوله: ﴿بَعْضَهُمْ﴾ تعود على الرجال، وقوله: ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ تعود على النساء، والذي فضل الله به الرجال على النساء: القوة الظاهرة والباطنة، فالقوة الظاهرة قوة البدن، ولهذا تجد الرجل، بل تجد الذكر حتى من غير بني آدم أقوى من الأنثى، وأكبر عضلات وأشد.

والقوى الباطنة: التحمل والصبر والذكاء والعقل والشجاعة وما إلى ذلك، المهم أن الله فضل الرجال على النساء بالقوى الظاهرة والقوى الباطنة، وهذا التفضيل باعتبار الجنس، فلا يرد علينا أنه يوجد من النساء ما هو أفضل من كثير من الرجال؛ لأننا إذا قلنا بتفضيل الجنس صار العبرة بالعموم لا بالخصوص، كما نقول مثلاً: التابعون أفضل من تابعي التابعين، لكن هذا لا يعني أن كل واحد من التابعين أفضل من كل واحد من تابعي التابعين، إذ يوجد في أتباع التابعين من هو أفضل من كثير من التابعين.

فقوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: من حيث الجملة لا باعتبار كل فرد.

قوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ هذه عطف على قوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ﴾ أي: وبالذي ﴿أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾؛ لأن المنفق على النساء هم الرجال؛ لأنهم هم الذين يكتسبون؛ فالزوج ينفق على زوجته ولو كانت غنية، والأب ينفق على أهله، فمن أجل ذلك صار لهم القِوامة لتفضلهم خلقة، وخلقاً، وعقلاً، وفكراً، ولفضلهم على النساء بالإنفاق.

فهم قوامون بتفضيل الله إياهم وبفضلهم هم على النساء، وبما أنفقوا من أموالهم.

وقوله: ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: من أموال الرجال، فبسبب التفضيل الجسدي بالقوة الظاهرة والقوة الباطنة، وبسبب التفضيل الخارجي وهو الإنفاق بالمال؛ صار الرجل أفضل من المرأة.

ثم قسم الله عزّ وجل النساء إلى قسمين: فقال: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾:

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: مبتدأ، وقوله: ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾: خبره، وقوله: ﴿حَٰفِظَٰتٌ﴾: خبر ثان.

ومعنى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أي: الموصوفات بالصلاح، وهنا يمكن أن نقول: إن ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ صفة لموصوف محذوف، والتقدير: فالنساء الصالحات، والصالحة ضد الفاسدة، وهي التي قامت بحق الله وحق زوجها.

وقوله: ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ أي: مديمات للصلاح؛ لأن القنوت يراد به الدوام، وهو المراد هنا، ويحتمل أن المراد بالقانتات هنا المطيعات لله، ويكون من باب التوكيد، وبطاعتهن لله يكن طائعات لأزواجهن.

وقوله: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ يعني يحفظن ما غاب عن الناس، وهو السر الذي يكون في بيت الزوج، ويكون بينها وبين زوجها أيضاً، فتجد المرأة الصالحة لا يمكن أن يطلع على ما في بيتها أحد، بل إذا سئلت عما في بيتها قالت: نحن بخير.

وانظر إلى إحدى امرأتي إسماعيل عليه السلام، لما سألها إبراهيم عليه السلام عن حالهم شكت وتضجرت، فقال لها: قولي

له يغير عتبة بابه، والثانية أثنت خيراً، فقال: إذا جاء الزوج فقولي له يمسك عتبة بابه[١].

فمن النساء من تكون شاكية فاضحة، تحدث الناس بكل ما يكون في بيتها، بل بعضهن والعياذ بالله يتجرأن أكثر من ذلك، فتحدث بما يكون بينها وبين زوجها حتى في أمور السر التي لا يطلع عليها إلا الزوج، وهذه ليست من الصالحات، وقد فقدت من الصلاح بمقدار ما فقدت من الحفظ.

قوله: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: بحفظ الله عزّ وجل، أو بالذي حفظ الله؛ أي: أمر بحفظه وعدم إفشائه، فهن ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾ أي: لا يظهرن بحفظ الله لهن ومنته عليهن بالحفظ، أو بالذي حفظ الله؛ أي: أمر بحفظه، والمعنيان متلازمان.

القسم الثاني: على خلاف ذلك، قال الله فيهن: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾:

﴿وَٱلَّٰتِي﴾ يعني: والنساء ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾، وذلك بظهور أماراته، والنشوز هو الارتفاع، ومنه الأرض النشز؛ أي: المرتفعة.

والمراد بالنشوز ترفع المرأة عن زوجها، بحيث لا تبذل ما يجب عليها من حقوقه، أو تبذله لكن متبرمة متكرهة متململة لا يأنس بها ولا يركن إليها، فإذا نشزت المرأة سقطت الحقوق التي لها من نفقة وغيرها؛ لأن النفقة معاوضة، إذا لم يوجد عوضها سقطت، فالنشوز داء، وذكر الله له دواء على ثلاث مراحل:

الأولى: ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾.

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ (٣٣٦٤) عن ابن عباس.

والثانية: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

الثالثة: ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾.

الرابعة: لم يذكرها الله لأنها مكروهة عنده، وهي الطلاق.

وهذه الأخيرة ـ مع الأسف ـ هي أول مرحلة عند كثير من الناس، فكثير من الناس إذا خالفته زوجته بأدنى شيء طلقها، لكن المراحل الثلاث التي ذكرها الله هي المراحل الشرعية.

أولاً: الموعظة، فيعظها بأن يذكرها بما يلين به قلبها، بأن يذكرها بحق الزوج، وما لها من ثواب إذا قامت به، وما عليها من عقاب إذا خالفت، ويقول لها مثلاً: أنتِ إذا كنت مطيعة قائمة بما يجب عليك، فإني سوف أقابلكِ بالمثل أو بأحسن، فيعدها خير الدنيا وخير الآخرة، ويخوفها من الله عزّ وجل إذا نشزت، فإن امتثلت، فهذا المطلوب.

وإلا؛ قال الله: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

والهجر هو الترك، ومنه الهجرة، وهي ترك الإنسان وطن الكفر إلى وطن الإسلام، والمعنى: اتركوهن في المضاجع أي: لا تضاجعوهن، فيكون في فراش وهي في فراش، أو هو في حجرة وهي في حجرة، فإن استقامت فهذا هو المطلوب، وإلا فننتقل إلى المرحلة الثالثة، وهي قوله:

﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ وهذا من فائدة القوامة على النساء، ولكن يكون المقصود من الضرب هو التأديب، فيضربها ضرباً يحصل به تأديبها ولا يحصل به جرحها، فتضرب ضرباً غير مبرح، كما قال النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع: «**ولكم عليهن أن لا يوطئن**

فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح»[١].

ويجب أن يتقي في ضربها ما أمر باتقائه كالوجه مثلاً؛ فإنها لا تضرب فيه، وسيأتي إن شاء الله في بيان الفوائد.

قوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ أي: قمن بما يجب عليهن من الطاعة، ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ بمعنى: لا تطلبوا عليهن سبيلاً؛ أي: اتركوا الماضي، فإن قوله: ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ ليس للمستقبل فقط، بل حتى الماضي اتركوه وتناسوه، ولا تأتوا له ببحث أو إثارة؛ لأن تذكير الماضي يؤدي إلى استمرار النشوز والمعصية، ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ وكأن شيئاً لم يكن.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ الجملة هنا استئنافية للتحذير من التعالي والكبرياء على النساء؛ لأن الرجل إذا شعر بأنه قائم على المرأة وذو سلطة عليها، إلى حد أن الشرع مكنه من ضربها في المرحلة الثالثة، ربما يتعالى عليها ويتكبر، فقال عزّ وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ أي: فاعلموا أن علوكم على النساء يوجد فوقه ما هو أعلى منه، وهو علو الله عزّ وجل؛ وكبرياء الله عزّ وجل، فلا تتعالوا عليهن ولا تتكبروا عليهن؛ لأن فوقكم من هو أعلى وأكبر، وهو الله عزّ وجل.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٣٥].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، حديث رقم (١٢١٨) من حديث جابر.

وهذه هي المرحلة الرابعة بعد المراحل الثلاث، وهي أننا إن خفنا الشقاق، ولم تثمر المراحل الثلاث؛ فحينئذ يوجه الخطاب للأمة: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا﴾، ولم يقل: فليبعثا حكماً، فهنا انعزل الزوجان، وصار المجال مجال الحاكم الشرعي الذي يمثل الأمة، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿فَٱبۡعَثُواْ﴾ خطاباً للأمة، لكن ليس المعنى كل واحد في السوق وفي المسجد، بل يبعث من ينوب عن الأمة، وهو الحاكم الشرعي، فيكون الخطاب هنا للأمة مراداً بها من يمثلها وهو الحاكم الشرعي.

وقوله: ﴿فَٱبۡعَثُواْ﴾ أي: أرسلوا، والبعث بمعنى الإرسال.

﴿حَكَمٗا﴾: الحَكَم ذو الحكم النافذ؛ أي: المحكم، فهو أخص من الحاكم، لأنه ذو الحكم النافذ فهو المحكم.

وقوله: ﴿مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾: والحكم لا بد أن يكون ذا علم وأن يكون ذا بصيرة بالواقع، ومن المعلوم أنه لا بد أن يكون بالغاً عاقلاً رشيداً، عالماً بالحكم الشرعي، وعالماً بواقع الزوجين، وما هي المشاكل، وما الذي أثار هذه المشاكل.

أما أن يأتي إنسان عامي أو غشيم ثم يريد أن يكون حكماً بين الزوجين، فهذا لا يصلح.

فإذا اجتمع الحكمان فهنا تأتي النية ويكون لها تدخل، فإما أن يريد الحكم من أهل الزوج أن ينتصر الزوج، والحكم من أهل الزوجة أن تنتصر الزوجة، وفي هذه الحال لا يوفق الرجلان؛ لأن النية هنا غير سليمة، وإما أن يريد الحكم من أهل الزوج، والحكم من أهل المرأة الإصلاح بينهما، فحينئذ يقول الله عزّ وجل، وهو الصادق في قيله: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾.

والضمير في قوله: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا﴾ يعود إلى الحكمين؛ لأنهما اللذان يحكمان، ونية الإصلاح تكون منهما لا من الزوجين؛ لأن الزوجين بينهما شقاق، وكل واحد منهما يريد أن ينتصر لنفسه، فالغالب أنهما لا يريدان الإصلاح، لكن الذي يريد الإصلاح هما الحكمان.

وقوله: ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ الضمير في ﴿بَيۡنَهُمَآۗ﴾ هل يعود على الزوجين اللذين خفنا الشقاق بينهما، أو يعود على الحكمين اللذين يدلي كل واحد منهما بما يرى أنه حجة؟ فيه احتمالان:

الاحتمال الأول: أن يعود إلى الزوجين؛ لأن القضية في شأنهما، والحكمان إنما ينظران في شأن الزوجين، فيكون الضمير عائداً إلى الزوجين.

الاحتمال الثاني: أن يكون الضمير عائداً إلى الحكمين؛ لأن الحكمين سيأتي كل واحد منهما بما يقابل الآخر، فيكون المراد بأن يوفق الله بينهما: أن تلتقي أقوالهما ولا يحصل بينهما نزاع، فلا ينتصر الحكم من أهل الزوج للزوج، ولا الحكم من أهل الزوجة للزوجة.

ونقول بأنه عام لهذا وهذا فعندما يوفق الله بين الحكمين، فإن الله تعالى أيضاً بمنه وكرمه يوفق بين الزوجين.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ أي: عالم خبير، والخبرة هي العلم ببواطن الأمور، والعلم بالظواهر والبواطن هو العلم، وعلى هذا فيكون ذكر الخبير بعد العليم من باب ذكر الخاص بعد العام، والجملة استئنافية لبيان لطف الله عزّ وجل فيما يجري من الحكمين؛ لأنه عزّ وجل عالم خبير بما يحدث بينهما من الحكم بين الزوجين.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ فضل الرجال على النساء، ووجهه: أن الله جعل الرجال قوامين على النساء.

٢ ـ بيان أن أحكام الله عزّ وجل الكونية والشرعية معللة بعلل، فيلزم من كون أفعال أو أحكام الله الشرعية معللة بعلل: إثبات الحكمة وأن الله تعالى حكيم.

٣ ـ التفضيل بين البشر ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

فإن قال قائل: هل للمفضل عليه أن يحتج على الله فيقول: يا رب! لم فضلت هذا علي؟ فالجواب: ليس له ذلك.

فإن قيل: لماذا؟

فالجواب: أن يقال: للمفضل عليه: هل منعك الله حقك؟ إن كان الأمر كذلك فلك الحجة، وإلا ففضل الله يؤتيه من يشاء، ولهذا لما ضرب النبي ﷺ مثلاً لليهود والنصارى وهذه الأمة، برجل استأجر أجراء من الصباح إلى الظهر، ومن الظهر إلى العصر، فأعطى كل واحد قيراطاً، ومن العصر إلى المغرب وأعطاهم على قيراطين قيراطين، فقال الأولون: لماذا نعطى قيراطاً ونحن أكثر عملاً، فقال: هل نقصتكم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: ذلك فضلي أوتيه من أشاء[(١)].

إذاً: لا حجة للمفضل عليه على الله عزّ وجل بالتفضيل، ولكن ماذا يصنع المفضل عليه؟

أشار الله إليه في آية سبقت فقال: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإجارة، باب الإجارة إلى نصف النهار (٢٢٦٨) عن ابن عمر.

٤ ـ أن للمنفق على المنفَق عليه فضلاً، وتؤخذ من قوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾.

٥ ـ كراهة سؤال الناس، لقوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، فكون المنفق له فضل على المنفق عليه، فيكون سؤالك إياه ذلاً؛ لأنك إذا سألته فقد أثبت له فضلاً عليك، ولهذا بايع النبي ﷺ أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئاً مطلقاً، حتى كان سوط أحدهم يسقط من على ظهر بعيره فينزل فيأخذه ويركب، ولا يقول للناس: أعطوني إياه[1]؛ لأن سؤالك للناس ذل.

٦ ـ أنه لا ولاية للنساء على الرجال، لا في قضاء، ولا إمارة، ولا أي شيء لقوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، فمن جعل للمرأة الولاية فقد خالف سنة الله.

فإن قال قائل: أليست الأم تكون ولية على أولادها وعلى أموالهم؟ قلنا: هذه ولاية خاصة، وولاية طارئة، بخلاف الولاية العامة، ولهذا قال النبي ﷺ: «**لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**»[2].

فإن قال قائل: نجد بعض النساء تكون رئيسة للوزراء، أو رئيسة الجمهورية، أو تكون ملكة؟

قلنا: ولكن انظر إلى حال المولى عليهم، لو لم تقم عليهم هذه المرأة لكانوا أصلح حالاً بلا شك، ولكانوا أفلح وأنجح، ولكن تأخروا بمقدار ما تولت عليهم هذه المرأة، وانظر مثلاً إلى بريطانيا، فقد كانت أكبر دول المستعمرين استعماراً، حتى قيل:

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس (١٠٤٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب، كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، حديث رقم (٤١٦٣) عن أبي بكرة.

إنها لا تغيب الشمس عن مستعمراتها، والآن تقلصت حتى صارت في المرتبة الثالثة، كل ذلك لأنها تستولي عليها النساء.

٧ ـ كراهة سؤال المال؛ لأن الله تعالى جعل للمعطي فضلاً على المعطى، ويشهد لهذا قوله ﷺ: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**»[1]، واليد العليا يد المعطي واليد السفلى يد الآخذ.

٨ ـ أن هؤلاء لا ينفقون إلا مما تيقنوا أنه مالهم، وأنهم لا يعتدون على أموال أحد، لقوله: ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، والمال كما هو معروف كل ما يتمول من أعيان ومنافع وغيرها، فيؤخذ منه

٩ ـ أن النساء ينقسمن إلى قسمين: صالحة مطيعة لزوجها وناشزة.

١٠ ـ الثناء على حفظ الغيب أي: على ما كان سراً بينك وبين أخيك، تؤخذ من قوله: ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾.

١١ ـ أن للزوج السلطة على زوجته، وتؤخذ من قوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾.

١٢ ـ التدرج في التأديب: فعظوهن.. واهجروهن.. واضربوهن.

١٣ ـ الإشارة إلى أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، حيث إنه ربما لا يفيد الوعظ، فينتقل إلى الهجر في المضاجع، أو الضرب؛ لأنه قد يكون أكثر نتيجة.

١٤ ـ أنه إذا أمكن التأديب بالخطاب الديني الشرعي، فإنه

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غني، حديث رقم (١٣٦٢)، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى..، حديث رقم (١٠٣٣) من حديث ابن عمر.

لا يرجع إلى التأديب بالفعل المحسوس؛ لأنه بدأ بالموعظة التي هي تليين القلب بالشرع، فإذا لم يمكن فبالعقوبة.

١٥ ـ الإشارة إلى أن فراش الزوج والزوجة واحد ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾، فدل ذلك على أن هجر الإنسان لفراش زوجته، لا يكون إلا عند النشوز.

١٦ ـ تحريم نشوز المرأة على زوجها، حيث قوبل هذا النشوز بالموعظة ثم الهجر ثم الضرب.

١٧ ـ الإشارة إلى أنه لا يجوز الهجر بالكلام، وإنما يجوز في خلال ثلاثة أيام فقط، لقول النبي ﷺ: «**لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**»(١).

١٨ ـ بطلان قول بعض علماء التربية المعاصرين الذين يقولون: إنه لا تحصل التربية بالضرب، تؤخذ من قوله: ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾، وفي السنة شاهد على ذلك أيضاً، وهو قوله ﷺ: «**واضربوهم عليها لعشر**»(٢) وبهذا يبطل قول علماء التربية الذين قالوا: إن الضرب لا يفيد وإنما يقسي القلب.

١٩ ـ المكافأة بالمثل عند الطاعة، فلا يجوز للإنسان أن يبغي عليها سبيلاً.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الهجرة، حديث رقم (٥٧٢٧)؛ ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الهجر فوق ثلاث بلا عذر شرعي، حديث رقم (٢٥٦٠)، من حديث أبي أيوب الأنصاري.

(٢) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، حديث رقم (٤٩٥)؛ وأحمد (٢/ ١٨٠)؛ والدارقطني (١/ ٢٣٠) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وورد من طرق أخرى.

٢٠ ـ التغاضي عما مضى؛ أي: أن قوله: ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ يشمل الماضي والمستقبل.

٢١ ـ الإشارة إلى أن الذي له العلو المطلق هو الله، فلا تتعال على غيرك، تؤخذ من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾، ورأى النبي ﷺ رجلاً يضرب غلامه فقال له عليه الصلاة والسلام: «**اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا العبد**»، فالتفت فإذا به رسول الله ﷺ فأعتق العبد[1]، ففي هذا الإشارة لكل إنسان يتعالى بنفسه أن يتذكر علو الله عزّ وجل.

٢٢ ـ إثبات هذين الاسمين لله عزّ وجل وهما: العلي الكبير.

وعلو الله حسي ومعنوي، فيشمل علو الذات وعلو الصفات وعلو القدر والقهر، ومذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة، أنهم يثبتون لله المعنيين: علو الذات، وعلو الصفات، وخالفهم طائفتان متطرفتان: طائفة أثبتت أن الله في كل مكان، وطائفة نفت أن يكون الله في مكان.

طائفة قالت: نقول: إن الله لا فوق العالم، ولا تحته، ولا داخله، ولا خارجه، ولا هو متصل، ولا منفصل، ولا مباين، ولا نصفه بأي شيء من هذا، وهؤلاء في الحقيقة كما قال محمود بن سبكتكين لابن فورك: بيِّن لي الفرق بين إلٰهك وبين العدم؟

والذين قالوا إن الله بذاته في كل مكان أيضاً لم يقدروا الله

---

(١) رواه مسلم، كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده، حديث رقم (١٦٥٩) عن أبي مسعود الأنصاري.

حق قدره؛ لأنهم جعلوه في أماكن القذر، وأماكن الشرف، وأماكن اللغو، وفي كل مكان.

ونحن نؤمن بأن الله عالٍ بذاته فوق جميع الخلق، وأن كل الخلق بالنسبة إليه ليس إلا كحبة خردل في كف أحدنا، وليست بشيء بالنسبة لله عزّ وجل.

٢٣ ـ أن لله الكبرياء الذي هو الكبر المعنوي، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وكذلك أن كل شيء بالنسبة إلى ذاته ليس بشيء، وهذا المراد بالكبير في قوله: ﴿عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.

٢٤ ـ وجوب عناية ولاة الأمور بالمجتمع، من قوله: ﴿فَٱبْعَثُوا۟﴾ والخطاب هنا لولاة الأمور.

٢٥ ـ أن المبعوثين حكمان وليسا وكيلين، كما قاله بعض العلماء، تؤخذ من قوله: ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا﴾ والحكم مستقل.

٢٦ ـ أنه لا بد أن يكون عند الحكمين علم بالشرع؛ لأن الحكم لا يمكن أن يحكم إلا بعد العلم، ولا بد أن يكون لديهما أمانة وثقة دينية؛ لأن غير الثقة لا يؤمن، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٦] والحاكم مخبر وملزم وفاصل، فهو مخبر عن حكم الله ملزم بما يحكم به فاصل بين الخصمين، فلا بد أن يكون عدلاً في دينه.

٢٧ ـ الإشارة إلى أنه ينبغي أن يكون الحاكم عالماً بأحوال من يحكم فيهم، لقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِهِۦ﴾.. ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾؛ لأن الذي من أهله وأهلها أقرب إلى العلم بحالهم من الرجل الأجنبي،

وعلى هذا فلا ينبغي أن يُولَّى قاض على قوم لا يعرف طبائعهم، ولا يعرف لسانهم، ولا يعرف أحوالهم، فإن هذا يحصل به شيء كثير من الغلط.

٢٨ ـ جواز حكم القريب لقريبه أو عليه، أما حكمه عليه فلا إشكال فيه لانتفاء التهمة، وأما حكمه له فقد يكون فيه تهمة، فما هو الشيء الذي يمكن أن تكون فيه التهمة التي تمنع من نفوذ الحكم؟

قال بعض العلماء: إن الإنسان لا يحكم لأصله، ولا لفرعه، ولا لزوجه؛ لأنه متهم بقوة الصلة، ففرعه بعض منه لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**إنما فاطمة بضعة مني**»[(١)] وأصله هو بعض منه، وعلى هذا فلا يحكم لأصله ولا لفرعه.

والقول الصحيح أنه يحكم لأصله وفرعه إذا قويت الثقة، ونتأكد هنا في الثقة أكثر مما نتأكد من الأجنبي أو من القريب البعيد.

٢٩ ـ الإشارة إلى حسن النية في الحكم، لقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ وأنه يجب على الإنسان المحكَّم أن يكون رائده الإصلاح لا غير، لا إرضاء فلان ولا فلان.

٣٠ ـ أن النية الطيبة سبب لصلاح العمل، لقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾، وعلى هذا سنأخذ فائدتين متعاكستين:

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب ذب الرجل على ابنته في الغيرة والإنصاف، حديث رقم (٤٩٣٢)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل فاطمة، حديث رقم (٢٤٤٩) عن المسور بن مخرمة.

٣١ ـ تحريم سوء النية في الحكم، وأن سوء النية يفضي إلى فساد الأمر؛ لأن ما حصل بشيء فات بفواته.

٣٢ ـ أن الأمور بيد الله عزّ وجل حتى الأمور الجزئية، لقوله: ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾، فيكون في هذا رد على المعتزلة الذين يرون أن العباد يخلقون أفعالهم ولا علاقة لله بها، وهم قدرية، فالمعتزلة قدرية.

٣٣ ـ أن الجزاء من جنس العمل، وجهه: أنه لما أرادا الإصلاح أثابهم الله عزّ وجل، بالتوفيق لقوله: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾.

٣٤ ـ إثبات صفتي العلم والخبرة، من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾، والخبرة أخص من العلم؛ لأنها علم ببواطن الأمور، ولا يستفاد من قوله: ﴿كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ أنه الآن ليس كذلك، بل كان ولا زال، والمراد بها تحقيق الصفة، فهي مسلوبة الزمان.

٣٥ ـ أن للحكمين التفريق والتوفيق بين الزوجين اللذينِ خيف الشقاق بينهما، سواء بعوض أو بدون عوض.

٣٦ ـ أن حكمهما ملزم؛ لأن الله سماهما حكمين، والحكم قوله لازم وحكمه فصل.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

﴿وَٱعۡبُدُواْ﴾ العبادة التذلل والتطامن، والخضوع والتواضع، وما أشبه ذلك، وكلها تدور على الذل، ومنه قولهم: طريق معبد أي: مذلل للسالكين مهيأ لهم، والمراد بعبادة الله سبحانه: القيام بأمره.

قوله: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ﴾ لا: ناهية، والشرك: أن يساوى غير الله بالله فيما هو من حقوقه فيجعل نداً له.

وقوله: ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ نكرة في سياق النهي، فتعم أن لا تشركوا بالله نبياً ولا رسولاً، ولا ملكاً ولا أي شيء، ثم النهي عن الشرك يشمل أي نوع من أنواع الشرك، وسيأتي إن شاء الله في استنباط الفوائد ما فيه الكفاية.

قوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾: عطف حق الوالدين على حق الله عزّ وجل؛ لأن حق الله أعظم الحقوق، وحق الرسول ﷺ أعظم من حق الوالدين، لكنه داخل في حق الله؛ لأن العبادة لا تتم إلا بإخلاص ومتابعة، والمتابعة هي أداء حق الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾: تثنية والد وهما الأم والأب، ويدخل في ذلك الجد والجدة، ولكن حق الأقرب أولى من الأبعد.

وقوله: ﴿إِحۡسَٰنًا﴾ مصدر أحسن يحسن، وهل الجار والمجرور متعلق به، أو هو متعلق بفعل محذوف دل عليه المصدر؟

فعلى الأول يكون تقدير الكلام وإحساناً بالوالدين، ويكون المصدر هنا بمعنى الفعل، وعلى الثاني يكون التقدير: وأحسنوا ﴿بِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾؟ الأقرب أن يكون الجار والمجرور متعلقاً

بمحذوف دل عليه المصدر الموجود؛ وذلك لأن عمل المصدر ضعيف فلا يسبقه معموله، فالمصدر لا يعمل فيما قبله، وعلى هذا فنقول: ﴿إِحْسَٰنًا﴾ مفعول مطلق عامله محذوف، والتقدير: أحسنوا ﴿بِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

ومعاملة الوالدين لا تخلو من إحدى حالات ثلاث: إساءة، وإحسان، ولا إساءة ولا إحسان، والمأمور به هو الإحسان، وضده الإساءة، أو لا إساءة ولا إحسان، فلا بد من الإحسان بالوالدين.

و قوله: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ذي: بمعنى صاحب، والقربى بمعنى القرابة، والدليل على أن القربى بمعنى القرابة قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] أي: المودة في القرابة؛ أي: بسبب القرابة؛ أي: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ولكن ودوني بسبب قرابتي منكم لأنني ابنكم.

فهنا قوله: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: بصاحب القرابة، فنص على الوالدين أولاً، وثنى بالقرابة، وذلك لأنه لا قرابة لك إلا بواسطة الوالدين، فمن الذي وصلك بعمك أو بخالك أو بأخيك أو بأختك إلا الوالدان، فلهذا جعلت منزلة القرابة بعد منزلة الوالدين.

قوله: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: جمع يتيم، وهو من مات أبوه قبل أن يبلغ، وإنما أمر بالإحسان إلى اليتامى لانكسار قلوبهم بفقد مربيهم وهو الأب، فأما من ماتت أمه دون أبيه فليس بيتيم.

قوله: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: جمع مسكين، وهو المعدم من المال، ويدخل فيه هنا الفقير؛ لأن الفقير والمسكين كلمتان إن ذكرتا

جميعاً اختلف المعنى فيهما، وإن انفصلت إحداهما عن الأخرى صارت كل واحدة بمعنى الأخرى.

وسمي المعدم مسكيناً لأن الفقر أسكنه وأذله، فالإنسان الفقير ذليل، ولهذا لا يطمع أن يصل إلى المرتبة التي وصل إليها الأغنياء إلا إذا كان فيه وصف يصعد به إلى درجة الأغنياء.

فمثلاً: الإنسان الفقير يعرف نفسه أنه ضعيف الرتبة عن الأغنياء، لكن لو فرض أن هذا الإنسان الفقير شجاع مقدام، صار هذا الوصف الذي فيه يرقيه إلى أن يكون في مرتبة الأغنياء أو أكثر، ولو فرضنا أن هذا الفقير ذو علم، صار في منزلة ترقيه إلى درجة الأغنياء أو أكثر، لكن مجرد كونه آدمياً وهو فقير لا يطمع في أن ينال مرتبة الأغنياء، ولهذا وصى به الله عزّ وجل.

قوله: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ الجار: هو من كان قريباً منك في المنزل، ومن المعلوم أنه يختلف قربه بحسب المسافة، ولكن الجار القريب إما أن يكون قريباً منك في النسب أو بعيداً، وأشار الله تعالى إلى الصنفين، فقال: ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: ذي القرابة، ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ أي: البعيد؛ لأن الجيم والنون والباء كلها مادة تدل على البعد، فالمعنى الجار البعيد الذي ليس بينك وبينه قرابة.

وقيل: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: القريب منك في السكن، ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ البعيد في السكن، ولكن المعنى الأول أصح، والمعنى الثاني يغني عنه قوله: ﴿وَٱلْجَارِ﴾؛ لأن الجار هو من قرب منك في المنزل، ويعلم منه أنه كلما قرب منك في المنزل كان أقرب جواراً.

قوله: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ يعني: الذي يصاحبك في جنبك، وقد اختلف المفسرون فيه، فقيل: إنه الزوجة، وقيل إنه صاحبك في السفر، واللفظ يحتمل المعنيين فيحمل عليهما، فالإنسان مأمور بأن يحسن بـ﴿ٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنْبِ﴾ أي: بالزوجة أو بالصاحب في السفر؛ لأن كلاً منهما له حق للصحبة.

قوله ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: المسافر، والسبيل الطريق، وسمي المسافر ابن سبيل لملازمته له، كما يقال: «ابن الماء» لطير الماء الملازم للماء، فهناك طيور تلازم الماء، وتحوم على البحار تلتقط ما يحصل من سمك وغيره، فيسمى هذا الطير ابن الماء، ويسمى المسافر الذي جد به السير ابن السبيل؛ لأنه ملازم للطريق.

قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: أحسنوا بما ملكت أيمانكم، وكلمة «ما» اسم موصول؛ أي: والذي ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، والاسم الموصول يفيد العموم، فيشمل ما ملكت أيماننا من الإنسان وما ملكت أيماننا من الحيوان، وكلاهما مأمور بالإحسان إليه، والإحسان إلى الإنسان أوكد من الإحسان إلى البهائم، ولهذا نجد أننا نكفل البهائم من أجل مصلحتنا، ونذبح الشاة نتفكه بها لحماً، وعلى هذا نقول: ما ملكت الأيمان يشمل الإنسان والحيوان، ولكنه بالإنسان أوكد؛ لأن حق الإنسان أعظم من حق الحيوان.

ثم قال الله عزّ وجل في ختام الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ أي: إن الله لا يحب الذي كان مختالاً، و﴿كَانَ﴾ هنا فعل ماض لكنها مسلوبة الزمنية، والمراد لا يحب

من اتصف بالاختيال والفخر، والمختال في هيئته، والفخور بلسانه، فالاختيال يكون بالفعل والفخر يكون باللسان، فمن كان مختالاً في فعله فإن الله لا يحبه، ومن كان فخوراً بقوله فإن الله لا يحبه أيضاً.

وختم الآية بهذه الجملة لأن الغالب أن من يستكبر عن عبادة الله، وعن هذه الوصايا النافعة؛ فالغالب عليه أنَّ فيه اختيالاً، وفيه فخراً واستنكافاً واستكباراً، فلهذا ختم الله هذه الآية المشتملة على هذه الوصايا العظيمة بهذه الجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

فهذه الآية فيها بيان حقوق: حق الله، وحق غيره من الناس، وغير الناس.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ وجوب عبادة الله، لقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، والأمر هنا للوجوب بالإجماع، ولا أحد يمكن أن يقول إن هذا الأمر للاستحباب.

٢ ـ تحريم الشرك، لقوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

٣ ـ أن الشرك بأنواعه: صغيره وكبيره، خفيه وجليه، كله محرم، لقوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ فهو عام، وعليه: يكون الرياء حراماً؛ لأنه شرك، ويكون الحلف بغير الله حراماً لأنه شرك، ويكون تسوية الله بغيره حراماً بمثل: ما لي إلا الله وأنت، وما أشبه ذلك؛ لأنه شرك.

والعلماء رحمهم الله كتبوا في هذا الموضوع ـ أي: في الشرك وأنواعه ـ كتابات كثيرة، من أحسنها كتاب التوحيد لشيخ

الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، فإنه بيَّن أنواعاً كثيرة من الشرك.

٤ ـ أن الإثبات المحض لا يدل على التوحيد، ويؤخذ ذلك من أنه لما أمر بالعبادة قال: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟﴾، وذلك أن الإنسان قد يعبد الله لكن يعبد غيره، فنقول: إذا عبد مع الله غيره فإنه لم يخلص العبادة لله، والمطلوب إخلاص العبادة له.

٥ ـ وجوب الإحسان إلى الوالدين، لقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، ولكن التعبير القرآني يقول: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ ولم يقل: وإلى الوالدين؛ لأن المطلوب مباشرة الإنسان بالإحسان إلى والديه لا إيصال الإحسان فقط، ولو قال: إلى الوالدين أحساناً كان المطلوب إيصال الإحسان فقط.

٦ ـ أن أعظم حقوق البشر حق الوالدين؛ لأن الله جعله في المرتبة الثانية بعد حقه، ولا يرد على هذا حق الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأن حق الرسول داخل في حق الله، ووجهه: أن العبادة لا تتم إلا بالإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ، وإذا تحققت متابعة الرسول فقد أديت حقه، والرسول لا يسألنا أجراً إنما يسألنا أن نتعبد لله بما شرع.

٧ ـ تحريم الإساءة إلى الوالدين؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده.

٨ ـ أن من لم يحسن ولم يسئ فهو مقصر؛ لأن الله أمر بالإحسان، وخلاف الإحسان شيئان: إساءة وعدم إساءة وإحسان، وهذا خلاف ما أمرنا الله به.

٩ ـ الأمر بالإحسان إلى القرابة، لقوله ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾،

وفائدة إعادة حرف الجر ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الإشارة إلى أن الإحسان إلى القرابة مستقل، بمعنى أنه لو فرض أن الرجل ليس له والدان فحق القرابة ثابت، ولا نقول: إن حقهما مبني على حق الوالدين تابع له؛ لأن الوالدين قد يكونان ميتين، فحق القرابة باق.

١٠ ـ أن الأقرب فالأقرب أولى بالإحسان، ويؤخذ من أن الله قدم الوالدين وهما أقرب القرابات، فقياساً على ذلك نقول: من كان أقرب من بقية القرابات فهو أحق، هذا وجه، والوجه الثاني: أن المعلق على وصف يقوى بقوة ذلك الوصف ويضعف بضعف ذلك الوصف، والحكم هنا معلق على القرابة، فكل من كان أقرب كان حقه أوكد، فصارت الدلالة على أننا نقدم الأقرب فالأقرب من وجهين: الوجه الأول قياسي، والثاني معنوي.

١١ ـ الأمر بالإحسان إلى الأيتام، لقوله: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، والإحسان إلى الأيتام يكون بالمال ويكون بالقول ويكون بالفعل.

١٢ ـ الأمر بالإحسان إلى المساكين، لقوله: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾، ونقول في المساكين كما قلنا في القربى بأن من كان أشد مسكنة كانت الوصية به أوكد؛ لأنه علق على وصف، أما اليتيم فلا يتنوع؛ لأن اليتم واحد، يعني أن من له أربع عشرة سنة ومن له سنة واحدة فهما سواء في اليتم.

١٣ ـ الأمر بالإحسان إلى الجار سواء كان قريباً أم بعيداً، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم**

جاره»[1]، فعلق الرسول ﷺ كمال الإيمان على إكرام الجار، والإكرام ضد الإهانة.

١٤ ـ الأمر بالإحسان إلى الصاحب بالجنب: الزوجات والأصحاب في السفر، لقوله: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾.

ويمكن أن نقول ما قلنا فيما سبق في الأوصاف ولا شك، فالنساء ـ أعني: الزوجات ـ تختلف صحبتهن لأزواجهن، وكذلك المسافرون أصحاب السفر تختلف صحبته معك في السفر، فكل من كان أقوم بهذه الصحبة كان أحق بالإحسان.

١٥ ـ الأمر بالإحسان إلى ابن السبيل؛ لأن الغالب أنه يكون محتاجاً، وإذا قدر انتفاء حاجته بغناه فإنه يكون غريباً في البلاد، والغريب يحتاج إلى عناية؛ فيحتاج إلى من يدله على الطريق، وإلى من يدله على ما فيه مصالحه، فهو في حاجة.

١٦ ـ الأمر بالإحسان إلى ما ملكت الأيمان، لقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: من آدمي أو حيوان؛ لأنه كله ملك لأيماننا.

١٧ ـ جواز التعبير بالبعض عن الكل، لقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، والمراد ما ملكتم؛ لكن هذا شيء معلوم.

١٨ ـ تحريم الإساءة إلى من ذُكر، وجهه: أن الأمر بالشيء نهي عن ضده، فإذا كان الله تعالى أمر بالإحسان إلى هؤلاء

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم والآخر فلا يؤذ جاره، حديث رقم (٥٦٧٣)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير..، حديث رقم (٤٨) عن أبي شريح العدوي.

فالإساءة إلى هؤلاء حرام، ومن أشد ما يكون الإساءة إلى الوالدين، ثم ذوي القربى، ثم اليتامى، ثم المساكين، ثم الجيران، وقد قال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده! لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه**»[1] يعني: ظلمه وغشمه، فنفى الإيمان عن الشخص الذي لا يأمن جاره بوائقه، فكيف بمن أصابته بوائق جاره فذلك يكون أشد، نسأل الله السلامة.

١٩ ـ عناية الله سبحانه بعباده، من وجوه في هذه الآية:

أولاً: من جهة القيام بحق الوالدين والقرابات.

وثانياً: من جهة جبر النقص الذي يحصل على بعض الناس مثل المساكين واليتامى.

وثالثاً: أن حسن الجوار سبب للالتحام وللالتئام بين الناس وعدم الكراهية والبغضاء، ولهذا يوجد في وقتنا أن كثيراً من الجيران لا يعرف جاره ولا يدعوه في المناسبات، ولا يرسل إليه الهدايا، وقد قال النبي ﷺ: «**إذا طبخت مرقة، فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك**»[2]، وهذا مع الأسف غير موجود، مع أن فيه فائدة اجتماعية عظيمة، فهو من عناية الله بالخلق.

٢٠ ـ أن الله تعالى أرحم بالإنسان من أولاده، ويؤخذ من قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ حيث أمر الولد أن يحسن إلى والده، وهذا يدل على أن الله أرحم بالإنسان من أولاده، كما أن قول الله

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم إيذاء الجار (٤٦) عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، حديث رقم (٢٦٢٥) عن أبي ذر.

تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النساء: ١١] يدل على أن الله أرحم بالإنسان من والديه، وهذا هو الواقع.

كانت امرأة فقدت صبياً لها في السبي، فجاءت إلى النبي ﷺ في المدينة تنظر في السبايا وقد زاغ عقلها، فلما وجدت صبيها أخذته وضمته إلى صدرها، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟**» قالوا: لا يا رسول الله! وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»[1]، ولا يصيبنا ما يصيبنا مما يخالف الرحمة إلا بأسباب ذنوبنا: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠].

٢١ ـ إثبات المحبة لله، وتؤخذ من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾.

فإذا قال قائل: هذا نفي وليس بإثبات.

فالجواب: أن نقول: لو كانت المحبة منتفية ولا تجوز على الله لم يكن لنفيها فائدة هنا، وعلى هذا فإنها تدل على إثبات المحبة لله، ومذهب السلف وأهل السنة إثبات المحبة لله حقيقة، وأنه جل وعلا يحب، وأن محبته تتعلق بالأعمال، وتتعلق بالأشخاص، وتتعلق بالأزمنة، وتتعلق بالأمكنة، فقد سئل الرسول عليه الصلاة والسلام: «**أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة**

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، حديث رقم (٥٦٥٣)؛ ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه، حديث (٢٧٥٤) عن عمر بن الخطاب.

على وقتها»[١] وهذا تعليق المحبة بالأعمال.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا﴾ [الصف: ٤] هذا تعليق لها بالأشخاص المعينين بالوصف، وتكون متعلقة بالأشخاص المعينين بالشخص كقول الرسول ﷺ: **«إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»**[٢]، والخلة أعلى أنواع المحبة، وتكون معلقة بالأماكن، **«أحب البقاع إلى الله مساجدها»**[٣]، وربما تكون معلقة بالزمن، مثل قوله ﷺ: **«ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر»**[٤]، فإن كان الزمن محبوباً إلى الله فيها فإن الله يحبها، وفي هذا الاستدلال ضعف، لكن على كل حال محبة الله عزّ وجل تكون مقيدة بما قيدها الله به، فهي ثابتة لله حقاً.

---

(١) رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، حديث (٥٠٤)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، حديث (٨٥) عن ابن مسعود.

(٢) هذا اللفظ لمسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها، حديث رقم (٥٣٢) عن جندب.

(٣) هذا اللفظ رواه القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٥٣) (١٣٠١)، وهو عند مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد، حديث رقم (٦٧١)، بلفظ: **«أحب البلاد إلى الله مساجدها»** عن أبي هريرة.

(٤) هذا اللفظ عند أبي داود، كتاب الصيام، باب في صوم العشر، حديث رقم (٢٤٣٨)؛ والترمذي، كتاب الصوم، باب العمل في أيام العشر، حديث رقم (٧٥٧)، وأصل الحديث عند البخاري، كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، حديث رقم (٩٢٦) عن ابن عباس.

وأنكر المحبة المعطلة من الأشاعرة والمعتزلة والجهمية ومن شابههم، وقالوا: لا يمكن أن الله يحب، والمحبة لا تكون إلا بين شيئين متناسبين، فيحب الرجل زوجته، ويحب ابنه، ويحب صديقه، ولا تناسب بين الخالق والمخلوق، فكيف يحب الله الشخص؟ كيف يحب الرسول؟ قالوا: والمراد بالمحبة في القرآن إرادة الثواب، أو الثواب نفسه.

ونقول لهم: إذا قلنا هي إرادة الثواب فإرادة الثواب لا تكون إلا على شيء محبوب، وهل يريد الله أن يثيب أحداً وهو يكرهه؟ لا يمكن، إذاً: ما دمتم أثبتم الثواب فيلزمكم أن تثبتوا المحبة، إذ لا يمكن أن تكون إرادة الثواب أو الثواب نفسه إلا على شيء محبوب لله.

وأما قولكم: إن المحبة لا تكون إلا بين شيئين متناسبين، فقول باطل، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**أُحد جبل يحبنا ونحبه**»[1]، والجبل كومة من الأحجار والأتربة وغيرها، فهو جماد، ومع ذلك قال: «**يحبنا ونحبه**».

وكذلك أيضاً الحيوان يحبه الإنسان وهو يحب الإنسان، وكون الإنسان يحبه واضح، فكثيراً ما تحب بعيرك على بعير غيرك، أو شاتك على شاة غيرك.

وهي تحبك أيضاً، وهذا مشاهد فالناقة تأتي إلى صاحبها من بين الناس، تأتي إليه وتستجديه، وقد شوهد في الإبل أن

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب أُحد يحبنا ونحبه، حديث رقم (٣٨٥٥)؛ ومسلم، كتاب الحج، باب أُحد جبل يحبنا ونحبه، حديث رقم (١٣٩٣) عن أنس بن مالك.

الإنسان إذا أراد أن ينام في الليالي الباردة يجعل البعير بينه وبين الريح، وينام تحت الناقة في حضنها، وأن الناقة تميل عليه لتكون عليه كالغطاء، يحدثنا بذلك أهل الجمال، يقول: تنحني عليه حتى يدفأ منها وتقيه البرد، وهذا يدل على أنها تحبه، ولو كانت تكرهه لطحنته ولم تقه البرد.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧﴾ [النساء: ٣٧].

قال الله تبارك وتعالى في ختام آية الحقوق السابقة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾: مختالاً في هيئته، فخوراً في لسانه بقوله، والمراد بالفخور الذي يتحدث بما عليه من الصفات افتخاراً على الناس لا إخباراً بنعمة الله عزّ وجل، فأما إذا كان إخباراً بنعمة الله فإنه تحدث بنعمة الله، وهو مشروع.

وبين صفات الله هذا المختال الفخور فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾.

فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يجوز أن تكون بدلاً من «مَنْ» في قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ باعتبار المعنى؛ لأن ﴿مَن﴾ مفردة اللفظ مجموعة المعنى؛ أي: صالحة للجمع والمفرد، ولفظها: «مَن» مفرد، ويجوز أن يوصف بالجمع باعتبار المعنى.

فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ يجوز أن تكون صفة لـ«مَن»، ويجوز أن تكون خبر مبتدأ محذوف والتقدير: هم الذين ﴿يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾.

وقوله: ﴿بِٱلْبُخْلِ﴾ فيها قراءتان، بالبُخْلِ وبالبَخَل.

والبخل هو إمساكُ ما يجب بذله من مال أو علم أو جاه أو عمل، فكل ما يجب بذله من هذه الأشياء فمنعه بخل، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**البخيل من إذا ذكرت عنده لم يصل علي**»(١) اللهم صل وسلم عليه. فهذا بخل بما يجب من عمل، وما يجب من جاه؛ كالشفاعة الواجبة إذا بخل بها الإنسان فإن هذا بخل، وما يجب من مال وأعلاه الزكاة، فهذا بخل بما يجب من المال.

والرابع: ما يجب من العلم، فمنعه بخل، وهو من أشد أنواع البخل قال الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وفي الحديث: «**من سُئل عن علم يعلمه فكتمه ألجم بلجام من نار يوم القيامة**»(٢)، فهذه أنواع البخل.

وأيضاً: البخل بالبدن إذا وجب عليك إعانة مسلم؛ كإنقاذه من حريق أو غرق أو هدم أو غير ذلك فلم تفعل، فإنك تكون من أهل البخل.

---

(١) رواه الترمذي كتاب، باب قول رسول الله ﷺ: «**رغم أنف رجل**»، حديث رقم (٣٥٤٦)؛ والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٤، ٦/ ١٩، ٢٠)؛ وأحمد (١/ ٢٠١)؛ وابن حبان (٩٠٩)؛ والحاكم (١/ ٧٣٤) من حديث الحسين بن علي بن أبي طالب.

(٢) رواه أبو داود، كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، حديث رقم (٣٦٥٨)؛ والترمذي، كتاب العلم، باب كتمان العلم، حديث رقم (٢٦٤٩)؛ وابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب من سئل عن علم فكتمه، حديث رقم (٢٦٦)؛ وابن حبان (١/ ٢٩٧) (٩٥)؛ والحاكم (١/ ١٨١)؛ وأحمد (٢/ ٢٦٣، ٢٩٦، ٣٠٥، ٣٤٤، ٣٥٣، ٤٩٥، ٤٩٩، ٥٠٨) عن أبي هريرة.

إذاً: تعريف البخل: هو منع ما يجب بذله من مال أو علم أو عمل أو جاه أو بدن.

وإن شئنا أدخلنا كلمة البدن بالعمل؛ لأنه في حقيقة الأمر هو عمل.

قوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ أي: فيتعدى ضررهم إلى غيرهم، فإذا جاءهم من يستشيرهم في أمر فيه بذل قالوا: ليس له داع؛ ادخر مالك فربما تحتاجه في المستقبل!

بل إذا رأوا من يريد أن ينفق وإن لم يستشرهم ذهبوا يأمرونه بالبخل.

قوله: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يسترونه، وقوله: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يشمل ما آتاهم من فضله من المال أو ما آتاهم الله من فضله من العلم، أو غير ذلك، فكل ما آتاهم الله من فضله يتسترون به، لئلا يلومهم الناس إذا بخلوا، فإنهم إذا كتموا ما عندهم مما آتاهم الله من فضله لم يعلم الناس أن عندهم فضلاً يمكن أن يبذلوه، فيكتمون لئلا يلومهم الناس إذا بخلوا به.

وقوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: من عطائه وإفضاله.

قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أعتدنا أي: هيأنا وأعددناه لهم، والكافرون هم الذين كفروا بالله ورسوله، والكفر أنواع كثيرة، منه أصغر ومنه أكبر، والأكبر قولي وفعلي وجحدي، وهو أنواع معروفه عند أهل العلم ذكره الفقهاء في باب حكم المرتد، وذكره المتكلمون على التوحيد في أبواب التوحيد.

وقوله: ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: ذا إهانة يهينهم ويذلهم؛ لأنهم إذا دخلوا النار وُبِخوا على أعمالهم، وقيل لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ

مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وفي هذا إهانة لهم مع ما هم عليه من العذاب الأليم.

وفي هذه الآية إظهار في موضع الإضمار، وهو قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: أعتدنا لهم، والإظهار في موضع الإضمار له فوائد:

منها: إرادة العموم، فإن قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ يشمل هؤلاء وغيرهم.

ومنها: الحكم على هؤلاء بما يقتضيه هذا الوصف، وهو وصف الكفر، فيكون الذين ذكرهم الله هم الكافرون.

ومنها: إفادة عِلِّية الحكم المذكور لهؤلاء؛ لأن الوصف الذي علق عليه الحكم يكون علةً لذلك الحكم، ومن القواعد المقررة: أن الحكم إذا علق بوصف فإنه يقوى بقوة ذلك الوصف، ويضعف بضعف ذلك الوصف.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ ذم البخل، وهو أنواع، والبخل بما يجب شرعاً أعظم من البخل بما يجب عرفاً، والبخل بالفضل دون البخل بالواجب، فالضيافة مثلاً تجب يوماً وليلة، فالبخل فيها أشد من البخل في كامل الضيافة وهو ثلاثة أيام، فمن بخل بيوم وليلة أشد ذماً ممن بخل بثلاثة أيام.

٢ ـ أن هؤلاء الذين أساءوا في عملهم كانوا دعاة سوء، يأمرون الناس بالبخل، والأمر بالبخل أشد من الدعوة للبخل، وعلى هذا فيكونون آمرين، ومن باب أولى داعين للبخل، فيكونون دعاة سوء.

٣ ـ ذم من يكتم ما آتاه الله من فضله، والكتمان نوعان: كتمانٌ فعلي، وكتمانٌ قولي: فالكتمان الفعلي: أن لا يرى أثر نعمة الله على العبد، فيعطيه الله المال فيخرج إلى الناس بلباس الفقراء وبمركوب الفقراء، لا تعففاً ولكن بخلاً.

والكتمان القولي: أن يتحدث عند الناس فيقول: أنا ليس عندي مال، أنا متوسط الحال، أو يزيد ويقول: أنا فقير، أو ما أشبه ذلك. والآية تدل على ذم كتمان ما آتى الله من فضله.

٤ ـ الثناء على الكرماء الآمرين بالكرم المظهرين للفضل، وتؤخذ من أنه إذا ذم الشيء فضده ممدوح، فالكرماء والآمرون بالكرم، والمظهرون لفضل الله لا شك أنهم يمدحون على هذا، ولهذا جاء في الحديث: «**إن الله يحب إذا أنعم على عبده نعمة أن يرى أثر نعمته عليه**»[(١)].

٥ ـ أن ما بنا من النعم فهو من الله، لقوله: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، فالنعم كلها من الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

٦ ـ أن هذه الصفات صفات كفر، لقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

٧ ـ إثبات وجود النار، ويؤخذ من قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ بمعنى: هيأنا، إذاً: فالنار وعذاب الكافرين مهيأ الآن، ومذهب أهل السنة والجماعة أن النار والجنة موجودتان الآن وأنهما لا تفنيان.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البيهقي (٣/ ٢٧١)؛ وأحمد (٤/ ٤٣٨) عن عمران بن حصين.

□ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ [النساء: ٣٨].

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾: هذا وصف قبيح أيضاً، وعطف الصفات بعضها على بعض مع أن الموصوف واحد يفيد إثبات ما سبق، وأن هذا أمر زائد عليه، والصفات المتكررة لموصوف واحد يجوز فيها وجهان في اللغة: إسقاط حرف العطف، وإثبات حرف العطف.

فقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الأعلى: ١ ـ ٤] فهذه الآيات جمعت بين الأمرين بين حذف حرف العطف وبين إثباته، فالصفة الأولى فيها إسقاط حرف العطف ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾، والصفة الثانية والثالثة فيها إثبات حرف العطف، مع أن الموصوف واحد، ولكن التغاير هنا بين المعطوف والمعطوف عليه تغاير صفة لا تغاير ذات، ولكن حرف العطف يفيد إثبات ما سبق.

هنا قول الله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، «ينفقونها»: يبذلونها، و﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾: مفعول من أجله؛ أي: من أجل أن يراهم الناس فيمدحوهم على البذل، وليس ذلك من أجل التقرب إلى الله، لقوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، فلا يؤمنون بالله فيتقربوا إليه، ولا باليوم الآخر فيرجوا ثوابه، بل هم منكرون لله ولليوم الآخر، وهذا فيمن كان كفره تماماً، أما من كان كفره ظاهراً فإنه قد ينفق رئاء الناس

ولكن لا يصل ذلك إلى حد نفي الإيمان بالله واليوم الآخر.

قوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾: والإيمان بالله يتضمن أربعة أشياء: الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، وأنه منفرد بذلك.

وقوله: ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾: اليوم الآخر هو يوم القيامة، وسمي يوماً آخر لأنه لا يوم بعده، فكل ما سبق فإن بعده شيئاً، فالدار الأولى البطن، وبعدها الخروج إلى الدنيا، وبعد الخروج إلى الدنيا البرزخ، ثم اليوم الآخر النهاية، ولهذا نقول: إن القول عن الميت «**إنه حُمِل إلى مثواه الأخير**»، كلمة خطيرة جداً، مضمونها إنكار البعث؛ لأنه إذا كان القبر مثواه الأخير فمعناه أنه ليس بعده بعث، وهذه الكلمة يكثر ذكرها في الجرائد والمجلات، وعلى ألسنة بعض من يدَّعون أنهم مثقفون، لكنها في الواقع غير صحيحة إلا لإنسان لا يؤمن بالبعث.

قوله: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾: هنا إشكال نحوي وهو جر الفعل المضارع، في قوله: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ والمعروف أن الجر إنما يكون في الأسماء، لكنه غير مجرور؛ وإنما محرك بالكسر لالتقاء الساكنين، ولولا الساكن الذي بعده وهو همزة الوصل، لكان مجزوماً.

وقوله: ﴿وَمَن يَكُنِ﴾ ولم يقل: ومن يكون لأن «مَن» شرطية تجزم فعلين، الأول فعل الشرط والثاني جوابه وجزاؤه.

قوله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ المراد به الجنس؛ لأن كل واحد من الناس له قرين، فالمراد الشيطان الذي هو القرين السوء، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ

قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦] أي: يقارنه دائماً، فإذا عشى عن ذكر الرحمٰن وأعرض عن ذكر الله، جاءه الشيطان فصار يأمره بالمنكر وينهاه عن المعروف.

وقوله: ﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾: الجملة جملة إنشاءٍ للذم، واقترنت بالفاء في جواب مَن لأن الفعل جامد، وقد قيل فيما يجب اقترانه بالفاء إذا وقع جواباً للشرط:

اسميةٌ طلبيةٌ وبجامدٍ وبما وقد وبلن وبالتنفيس

فإذا وقع جواب الشرط واحدة من هذه الجمل السبع وجب قرنه بالفاء، وقد تحذف قليلاً كقول الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها

والتقدير: فالله يشكرها، لكن هذا قليل.

وكلمة «ساء» تحتاج إلى فاعل، والفاعل هنا محذوف تقديره: فساء قريناً قرينه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله ابتلوا بإنفاق المال على وجه لا خير فيه، على أنهم يبذلونه رئاء الناس، وهذا وجه لا خير فيه، بل إذا وقع تعبداً كان شراً.

ـ ويترتب على هذه الفائدة أن من عدل عن المشروع ابتلي بالممنوع، فانظر قوم لوط لما عدلوا عن النساء ابتلوا بالذكران، فأتوا الذكران شهوة، وانظر إلى البخيل الذي يبخل بالزكاة كيف تجده يبذل ماله وبكل سهولة ويسر في غير فائدة، فيبذله للتنزه خارج البلاد الإسلامية، فيستهلك من الأموال أضعاف أضعاف ما يجب عليه بذله من الزكاة والنفقات الواجبة.

٢ ـ ذم من ينفق ماله لمراءاة الناس، ولكن لو أنفق الإنسان ماله علناً ليراه الناس فيقتدوا به، فلا يدخل في الآية؛ لأن هذا أنفقه لله، لكن جعله علانية لمصلحة الإنفاق، وفرق بين من ينفق لا لشيء إلا ليراه الناس فيمدحوه، وبين من ينفق علناً ليقتدي به الناس، ولهذا امتدح الله الذين ينفقون أموالهم سراً وعلانية.

٣ ـ أن الشيطان يلعب بابن آدم، فهؤلاء الذين بذلوا ما يحبون من الأموال بذلوها في شيء لا ينفعهم، وثناء الناس على المرء في غير ما يحبه الله سينقلب بعد ذلك ذماً ولا بد، ودليله: **«من التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس»**[1]، ولذلك تجد الذين يراءون في الإنفاق إن حمدوا فإنهم يحمدون ساعتهم فقط، ثم ينقلب هذا الحمد ذماً، فالشيطان يلعب بالإنسان ويغره وينفخه، حتى يظن أنه إذا أنفق أو عمل مراءاة للناس رفعه ذلك عند الناس.

٤ ـ أن المرائي عنده نقص في الإيمان بالله واليوم الآخر، لقوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ لأن الذي حملهم على المراءاة ضعف إيمانهم بالله واليوم الآخر، ولو كان إيمانهم بالله واليوم الآخر قوياً ما ابتغوا بالإنفاق إلا وجه الله والدار الآخرة.

٥ ـ ذم من لا يؤمن بالله واليوم الآخر؛ لأنه كافر والعياذ بالله، ومدح من آمن بالله واليوم الآخر؛ لأنه مؤمن.

٦ ـ الثناء على من آمن بالله واليوم الآخر، وأن الإيمان بالله

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب حفظ اللسان، حديث رقم (٢٤١٤)؛ وابن حبان (١/ ٥١٠) (٢٧٦) عن عائشة.

واليوم الآخر من أسباب الإخلاص واجتناب الرياء، لقوله: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

٧ ـ أن الله قد يبتلي العبد بمقارنة الشيطان له، لقوله: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾.

٨ ـ الحذر من مقارنة الشيطان للإنسان.

فإن قال قائل: وأي شيءٍ أصل به إلى العلم بأن الشيطان كان قريناً؟

فالجواب: أن نقول: بما يأمرك به، قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، فإذا وجدت في نفسك من يأمرك دائماً بالمعصية والبخل والفحشاء، فهذا هو الشيطان، فعليك أن تلجأ إلى الله عزّ وجل؛ لأن الله أمرك بذلك، قال الله عزّ وجل: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠] فهو يسمع استعاذتك ويعلم حالك، ويعلم كيف يدفع الشيطان عنك.

٩ ـ تقبيح وذم مقارنة الشيطان للإنسان، لقوله: ﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾، وقد جاء في الحديث: «**أن كل إنسان له قرين، ولكن القرين قد يسلم ويستسلم ولا يأمر بشر**»؛ لأن الرسول ﷺ لما سئل: قيل: ولا أنت يا رسول الله! قال: «**ولا أنا، ولكن الله أعانني عليه فأسلم**»[1] يقال: إنه روي بضم الميم: «فأسلمُ»، وروي بفتحه: «فأسلمَ»، أما على رواية الضم فالمعنى: أعانني الله

---

(١) رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرين، حديث رقم (٢٨١٤) عن ابن مسعود.

فأنا أسلم منه، وأما على رواية الفتح فليس المراد أن القرين أسلم لله، ولكنه أسلم استسلاماً ظاهراً، فهو من الاستسلام وليس من الإسلام لأنه شيطان، فإذاً: على الوجه الثاني يكون الله تعالى أعان الرسول ﷺ عليه حتى ذل وخضع واستسلم، فلا يأمر إلا بخير.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ [النساء: ٣٩].

قال الله تبارك وتعالى موبخاً أولئك القوم الذين يختالون ويفخرون ويبخلون ويأمرون الناس بالبخل، أو الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

فقوله: ﴿مَاذَا﴾ استفهام، لكن هل «ماذا» كلها استفهام، أو «ما» استفهام و«ذا» بمعنى الذي؟ في هذا قولان لعلماء النحو، مع اتفاق الجميع على أن الجملة استفهامية.

والمراد بالاستفهام هنا التوبيخ، والمعنى: أي شيء عليكم إذا آمنتم؟ الجواب: لا شيء عليهم، وكما قال مؤمن آل فرعون: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، فلو آمنوا وجربوا فماذا يكون عليهم؟

وقوله: ﴿لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ﴿لَوْ﴾ هنا شرطية، وجوابها محذوف دل عليه ما قبله، وقيل: إنها في مثل هذا التركيب لا تحتاج إلى جواب؛ أي: ما كان جوابه مذكوراً في غير محله بأن كان مقدماً، فإنه لا يحتاج إلى جواب، وهذا الذي

نرى أنه أصح؛ لأنه ما دام قد تقدم ما يدل عليه أصبح ذكره مستغنياً عنه، وحينئذٍ لا حاجة إلى تقديره؛ لأن الأصل عدم التقدير.

وقوله: ﴿لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ سبق الكلام على مثلها فلا حاجة للإعادة.

﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾؛ أي: أنفقوا مما رزقهم الله إخلاصاً لله لا رئاء الناس، والإنفاق بمعنى البذل، والرزق بمعنى: العطاء؛ أي: لو بذلوا مما أعطاهم الله على حسب ما يرضي الله عزّ وجل، وأعظم ما ينفق هو الزكاة، وما دون ذلك فهو دونها.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أي: بما هم عليه من كفر، وبما هم عليه لو آمنوا بالله، ففي الجملة هنا ترغيب وترهيب؛ أي: لو آمنوا بالله وصدقوا الله لعلم الله بإيمانهم وأثابهم، ولو بقوا على كفرهم لكان الله بهم عليماً.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ توبيخ من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، لقوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾.

٢ ـ أن الإنسان يجب أن يوازن في الأمور بين النافع والضار، فينظر ماذا يترتب على إيمانه أو على كفره، حتى يختار خير الطريقين.

٣ ـ وجوب الإيمان بالله واليوم الآخر لتوبيخ من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، والتوبيخ لا يكون إلا على شيءٍ محرم.

٤ ـ فضيلة الإنفاق، لقوله: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾.

٥ ـ أن المنفق لا ينفق من كيسه، لكنه منفق مما رزقه الله، فالفضل كل الفضل لله عزّ وجل.

٦ ـ أن من أنفق أخلف الله عليه، لقوله: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾؛ أي: فالله تعالى سيعطيهم بقدر ما أنفقوا بل أكثر، ويشهد لهذا قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ [سبأ: ٣٩] أي: يعطيكم خلفه، وفي الحديث: «**أنفق ينفق عليك**»(١).

٧ ـ بيان منَّة الله سبحانه على عباده بما أعطاهم، وأن العطاء عطاؤه.

ـ ويتفرع على هذه الفائدة: أن تعتمد على الله في حصول الرزق، ولكن إذا قلنا بهذا فلا يعني أن لا نفعل الأسباب التي نصل بها إلى الرزق، فلا بد أن نفعل الأسباب، لكن مع الاعتماد على الله عزّ وجل، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً**»(٢) تغدو في أول النهار وهو الغداة خماصاً جائعة، وتروح في آخر النهار بطاناً شبعانة، ولم يقل: كما يرزق الطير تبقى في أوكارها ويأتيها رزقها، ولكن قال: تغدو وتروح.

---

(١) هذا اللفظ عند الطبراني في الأوسط (٨/ ٢٤٦) عن قيس بن سلع، وعند مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، حديث رقم (٢٨٦٥) بلفظ: «**وأنفق فسننفق عليك**».

(٢) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، حديث رقم (٢٣٤٤)؛ وابن ماجه، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، حديث رقم (٤١٦٤)؛ وأحمد (١/ ٥٢)؛ والحاكم (٤/ ٣٥٤)؛ وابن حبان (٢/ ٥١٠) (٧٣٠) عن عمر بن الخطاب.

إذاً: لا بد من عمل مع الاتكال على الله عزّ وجل.

٨ ـ إثبات العلم لله تعالى بأحوال عباده، لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

ـ ويتفرع على هذه الفائدة: الرغبة والرهبة، وذلك لأنك إذا علمت أن الله عليم بك خفت من مخالفته، ورجوت في موافقته، إذ لا يضيع شيءٌ على الله عزّ وجل، والإيمان بعلم الله عزّ وجل يكسب الإنسان مراقبة الله سبحانه تماماً؛ لأن أي شيء تفعله فهو عليم بك، فهذا يحمل الإنسان على الرجاء في فعل ما يحبه الله، وعلى الخوف من فعل ما يكرهه الله عزّ وجل.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ﴾: أصل الظلم النقص، لقوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: لم تنقص منه شيئاً، فهذا أصل الظلم، فالله لا ينقص الناس شيئاً، ولا ينقص الناس حقهم، كما قال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢] أي: ظلماً بعقوبته على شيءٍ لم يفعله، ولا هضماً: أي نقصاً من ثواب حسناته.

وقوله: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: زنة ذرة، والذرة يضرب بها المثل في التحقير، وإلا فإن الله تعالى لا يظلم مثقال ذرة ولا دونه، وما جيء به على سبيل التحقير أو التكثير فإنه لا مفهوم له، كما قيل به في قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن

يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] قيل إن المراد بذلك التكثير، وأن الرسول لو استغفر لهم سبعمائة ألف مرة ما غفر لهم، وحينئذٍ لا يكون له مفهوم، كذلك ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ المقصود بها المبالغة في التحقير، وما كان المقصود به المبالغة في التحقير فإنه لا مفهوم له.

وعلى هذا فلو سألنا سائل: هل يظلم الله دون مثقال ذرة: قلنا: لا.

قوله: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾ فيها قراءتان «وإن تك حسنةٌ»، ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾ ويختلف الإعراب على الوجهين، فعلى الرفع «وَإِن تَكُ حَسَنَةٌ» تكون «كان» على هذه القراءة تامة؛ أي: لا تحتاج إلى خبر، والمقصود بكان التامة مجرد الدلالة على الحدوث لا على صيرورة شيءٍ إلى شيءٍ آخر، وأما «كان» الناقصة فإنها تدل على صيرورة شيءٍ إلى شيءٍ آخر، مثل: كان الرجل قائماً؛ أي: بعد أن لم يكن قائماً.

وبالنصب على أنها ناقصة، واسمها مستتر تقديره هي؛ أي: وإن تكُ الفعلةُ التي يفعلها الإنسان حسنة يضاعفها.

وفي قوله: ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾ أيضاً قراءتان «يُضْعفها» و﴿يُضَٰعِفْهَا﴾ وهي على القراءتين ساكنة الفاء؛ لأنها جواب الشرط المذكور في قوله: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾.

ومعنى «يضعفها» أو ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾: يجزي أكثر من الحسنة، وقد دلت النصوص على أن الحسنة تكون بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعافٍ كثيرة، وأن السيئة بمثلها.

قوله: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هذا معنى قوله في

الحديث: «**إلى أضعافٍ كثيرة**»[(١)].

فقوله: ﴿وَيُؤْتِ﴾: معطوفة على يضاعف، ولهذا جاءت مجزومة بحذف الياء.

وقوله: ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾: أي من عنده.

والفائدة من ذكر قوله: «من لدنه» الإشارة إلى أن هذا الأجر عظيم جداً، وذلك لأن العطاء يعظم بعظم المعطي، ونظير هذا ما علمه الرسول ﷺ أبا بكر رضي الله عنه قال: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً..**» إلى قوله: «**فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني..**»[(٢)].

﴿أَجْرًا﴾: أي ثواباً.

﴿عَظِيمًا﴾: أي ذا عظمةٍ كثيرة لا يتصورها الإنسان.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ انتفاء الظلم عن الله عزّ وجل، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، وهذا النفي يتضمن إثبات كمال العدل، وليس المراد به مجرد انتفاء الظلم؛ لأن مجرد انتفاء الظلم لا يدل على كمال، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] أي: الوصف الأعلى.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، حديث رقم (٦١٢٦)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب، حديث رقم (١٣١) عن ابن عباس.

(٢) رواه البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب الدعاء قبل السلام، حديث رقم (٧٩٩)؛ ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، حديث رقم (٢٧٠٥).

وانتفاء الظلم المجرد لا يدل على الكمال؛ لأن انتفاء الظلم قد يكون لعدم قبول المنفي عنه لهذا الظلم، بمعنى: أنه ليس مما يقبل انتفاء الظلم أو ثبوت الظلم، فإذا نفي الظلم عما لا يقبله فإنه لا يعد مدحاً، فلو قلت: إن الجدار لا يظلم فليس في هذا مدح للجدار، لأن الجدار لا يمكن أن يظلم فلا يكون نفي الظلم عنه مدحاً؛ لأنه أصلاً لا يظلم، وربما يكون نفي العيب بعدم قدرة الشيء على هذا العيب، ولنجعل المثل الظلم، فقد يكون نفي الظلم عن شخص لا لكمال عدله ولكن لعجزه عن الظلم، وحينئذٍ لا يكون ذلك مدحاً بل يكون ذماً، فصار انتفاء الظلم عما لا يقبل الظلم ليس مدحاً ولا ذماً، وانتفاء الظلم عما يمكنه الظلم ولكنه عاجز يعتبر ذماً، ومن ذلك قول الشاعر:

قبيلة لا يغدرون بذمةٍ ولا يظلمون الناس حبة خردلِ

فقوله: لا يغدرون بذمة لا يعني أنهم أوفياء بالذمم، وقوله: ولا يظلمون الناس حبة خردل لا يعني أنهم ذوو عدل، بل هذا تحقير لهم بأنهم لا يستطيعون أن يغدروا، ولا يستطيعون أن يظلموا، وقرينة ذلك قوله: «قبيلة» فإنها للتصغير، والتصغير يدل على التحقير.

ومنه قول الحماسي يهجو قومه:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عددٍ ليسو من الظلم في شيءٍ وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً ومن إساءة أهل السوء إحسانا

وهذا ظاهره المدح، ولكن المراد به الذم، ولهذا قال:

فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا شنوا الإغارة فرساناً وركباناً

ليت لي بهم؛ أي: بدلهم، فصار نفي الظلم عنهم وكونهم

يجزون بالسوء مغفرة وبالإساءة إحساناً لعجزهم، وليس لكمال أخلاقهم.

إذاً: فقوله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ليس المراد به مجرد نفي الظلم عن الله، بل المراد به إثبات كمال العدل، وأنه لكمال عدله لا يظلم، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]، وهذه القاعدة تكون في جميع ما نفى الله عن نفسه، فكل ما نفى الله عن نفسه، فإنه لا يراد به مجرد النفي، إنما المراد به إثبات كمال الضد، وإنه لكماله في ضد هذه المسألة انتفت عنه، ومن ذلك قوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] أي: من تعب، لكمال قوته.

٢ ـ أن ما ذكر على سبيل المبالغة لا مفهوم له، لقوله: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ فلا مفهوم لقوله: مثقال ذرة أنه يظلم دون ذلك، بل لا يظلم مثقال ذرة ولا دونها، لكن عادة العرب ضرب المثل في الشيء الحقير بمثقال الذرة.

٣ ـ إثبات علم الله عزّ وجل لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ﴾، فإنه يستلزم علمه بالظلم ومن يستحقه ومن لا يستحقه، مع أن الله تعالى لا يظلم أبداً.

٤ ـ أن الله تعالى يضاعف الحسنات، لقوله: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾، وقد بين الله هذه المضاعفة بأن الحسنة بعشر أمثلها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة.

٥ ـ أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه؛ لأن الحسنات تضاعف والسيئات لا تزاد فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾،

هذا نفي زيادة السيئات، والتضعيف في الحسنات: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾.

٦ ـ أن الله تعالى يجزي على الحسنة ثواباً أكثر من المقابلة، فلا يقال: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف فقط، بل هناك شيء فوق هذا وهو قوله: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٧ ـ أن الحسنة تجذب الحسنة، وتؤخذ من قوله: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ لأن هذا الأجر قد يكون سببه زيادة الحسنات بسبب الحسنة الأولى، فمن نعمة الله عزّ وجل أن الإنسان إذا عمل العمل الصالح وفق لعمل آخر.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

لما ذكر أن الله عزّ وجل لا يظلم مثقال ذرة، قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾، والاستفهام هنا للتعظيم أو للتعجب؛ أي: كيف تكون الحال ﴿إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾، وذلك يوم القيامة، حيث يأتي الله تعالى من كل أمة بشهيد.

والشهيد هو الرسول، يشهد على أمته بأنه بلغ رسالة ربه، فهذا شهيد كل أمة.

وهناك شهادة عامة وهي شهادة هذه الأمة على من قبلها من الأمم، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقوله: ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾: أمة جاءت في القرآن الكريم لعدة معان:

المعنى الأول: الطائفة، كهذه الآية؛ وكقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣].

المعنى الثاني: الإيمان؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل: ١٢٠].

المعنى الثالث: الزمن؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] أي: بعد زمن ومقداره بضع سنين، كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

المعنى الرابع: الدين؛ كقوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وقوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾:

﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشار إليه أمة محمد ﷺ؛ أي: إذا جئنا بك شهيداً على هؤلاء ماذا تكون الحال؟ ولما بلغ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه هذه الآية حين أمره رسول الله ﷺ أن يقرأ عليه، حيث قال له النبي عليه الصلاة والسلام: «**اقرأ**»، قال: كيف أقرأ وعليك أنزل، فقال النبي ﷺ: «**إني أحب أن أسمع القرآن من غيري**»، فقرأ حتى إذا بلغ هذه الآية قال: «**حسبك**»، قال: فنظرت فإذا عيناه تذرفان[1].

فالله عزّ وجل سوف يستشهده على أمته يوم القيامة أنه بلغ

---

(١) رواه البخاري كتاب، باب قول المقرئ للقارئ حسبك، حديث رقم (٤٧٦٣)؛ ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن..، حديث رقم (٨٠٠) عن ابن مسعود.

البلاغ المبين، ولهذا استشهدهم هو عليه الصلاة والسلام ليقروا على أنفسهم بذلك، استشهدهم في حجة الوداع حين خطبهم وقال: «**ألا هل بلغت؟**» قالوا: نعم، فرفع إصبعه إلى السماء وجعل ينكتها إلى الناس ويقول: «**اللهم اشهد، ألا هل بلغت**» قالوا: نعم، قال: «**اللهم اشهد، ألا هل بلغت**» قالوا: نعم، قال: «**اللهم اشهد**»[(١)].

ولا شك أن الصحابة رضي الله عنهم يمثلون الأمة كلها، فإقرارهم بأنه بلغ هو إقرار من الأمة جميعاً، ونحن نشهد أنه بلغ البلاغ المبين عليه الصلاة والسلام، وأنه ترك الأمة على محجةٍ بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

وقوله عزّ وجل: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾:

﴿شَهِيدًا﴾: حال من الكاف في قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان عظمة هذه الشهادة، ويؤخذ ذلك من الاستفهام الدال على التفخيم والتعظيم.

٢ ـ أن الناس يوم القيامة تقام عليهم الأشهاد يشهدون عليهم بأنهم بلغوا.

٣ ـ أن كل رسولٍ يشهد على قومه بأنه بلغهم، لقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، حديث رقم (١٦٥٤)؛ ومسلم، كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، حديث رقم (١٦٧٩) عن أبي بكرة.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذا وبين قوله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]؟

فالجواب: أن هذا لا يعارض ما ذكر هنا، فإنه شهد على أمته الذين باشر إبلاغهم، أما بعد موته فإن الأمر إلى الله عزّ وجل، وهو الذي يتولاهم ويتولى من بعدهم.

٤ ـ أن نبينا ﷺ سيكون شهيداً علينا، لقوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.

فإن قال قائل: هل الذين ورثوا النبي ﷺ ـ وهم العلماء ـ يكونون شهداء على الأمة؟

الجواب: نعم، يكونون شهداء على الأمة؛ لأنهم هم الذين بلغوا رسالة محمد ﷺ، ولهذا جاء في الحديث: «**أن العلماء ورثة الأنبياء**»(١).

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: ٤٢].

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا موقع الاستفهام والتفخيم.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: يعني يوم إذ نأتي من كل أمةٍ بشهيد وبك

---

(١) رواه أبو داود، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، حديث رقم (٣٦٤١)؛ والترمذي، كتاب العلم، باب فضل الفقه على العبادة، حديث رقم (٢٦٨٢)؛ وابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، حديث رقم (٢٢٣)؛ وأحمد (٥/ ١٩٦) عن أبي الدرداء.

شهيداً على هؤلاء، يود الذين كفروا، والمودة: هي التمني وهي أعلى المحبة؛ أي: يحبون محبة هي أعلى المحبة.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: جحدوا ما يجب الإيمان والإقرار به.

قوله: ﴿وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: خالفوا أمره فلم يمتثلوا الأمر ولم يجتنبوا النهي؛ لأن المعصية هنا تشمل التفريط في الأوامر وكذلك فعل النواهي.

وقوله: ﴿وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾ الرسول هنا المراد به الجنس، وليس المراد به العهد؛ لأنه يشمل كل رسول.

قوله: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ ﴿تُسَوَّىٰ﴾: فيها قراءتان ﴿تُسَوَّىٰ﴾ و«تَسَوَّى»، فعلى قراءة الضم ﴿تُسَوَّىٰ﴾ تكون الأرض نائب فاعل، وعلى قراءة الفتح تكون الأرض فاعلاً، ومعنى ﴿تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: يدفنون فيها ولا يظهرون فيها، فيكونون كأنهم جزء من الأرض ولا يحاسبون.

وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ الواو حرف عطف، وجملة ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ﴾ معطوفة على قوله: ﴿يَوَدُّ﴾ وليست على قوله: ﴿تُسَوَّىٰ﴾، وذلك لأنها لو كانت عطفاً على ﴿تُسَوَّىٰ﴾ لفسد المعنى، إذ يكون المعنى: يودون لو أنها تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً، فعلى هذا التقدير يكونون قد أقروا بما هم عليه، وكتموا الحديث لو جعلناها معطوفة على ﴿تُسَوَّىٰ﴾، والواقع أنهم لم يكتموا الله شيئاً، ولهذا يودون لو تسوى بهم الأرض والحال أنهم لا يكتمون الله حديثاً؛ أي: يقرون بالكفر والشرك.

وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ أي: ما يحدثون به عن أنفسهم، بل يقرون إقراراً كاملاً بأنهم كفروا وعصوا الرسول.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان ما تؤول إليه حال الكفرة العاصين للرسول ﷺ، حيث يتمنون أنهم لم يخلقوا وأن الأرض سويت بهم.

٢ ـ الحذر من معصية الرسول ﷺ، لقوله: ﴿وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ﴾.

٣ ـ وجوب العمل بما في السنة وإن لم يكن في القرآن، وتؤخذ من قوله: ﴿وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ﴾؛ لأن هناك أوامر صدرت من الرسول ﷺ ولم تكن في القرآن، فيجب العمل بها.

٤ ـ شدة حسرة أولئك الكفار يوم القيامة، أنهم يتمنون أنهم لم يخلقوا وأن تسوى بهم الأرض ويدفنون فيها، ولكن هذا لا ينفعهم.

٥ ـ أن هؤلاء الكافرين العاصين يقرون بما هم عليه، فلا يكتمون الله حديثاً.

٦ ـ أنهم لا يكتمون أي حديث كان؛ لأن ﴿حَدِيثًا﴾ نكرة في سياق النفي فتعم كل شيء، فهم يقرون بكل ما عملوا، ولهذا: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨] فيقولون: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾ [الملك: ٩ ـ ١٠].

فإن قال قائل: كيف تجمعون بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣﴾

[الأنعام: ٢٣]، فإن هذا صريح في أنهم ينفون أن يكونوا مشركين، وهذه آية صريحة في أنهم لا يكتمون؟

فالجواب: أن القيامة ليست ساعةً أو ساعتين حتى تتصادم الأقوال فيها، بل القيامة يوم مقداره خمسون ألف سنة، فالأحوال تتغير وتتبدل، فهم أحياناً يقولون كذا وأحياناً يقولون كذا؛ لأنهم يريدون الخلاص، فكل وسيلة يظنونها سبباً للخلاص يسلكونها حتى وإن تناقضوا، فهم لا يكتمون الله حديثاً، ولكن إذا رأوا نجاة أهل التوحيد ﴿قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، من أجل أن تحصل لهم النجاة، ولكنها لا تحصل إذا قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، والذي يفضحهم:

﴿تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وكذلك الجلود، حتى إنهم يوبخون جلودهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

إذاً: فالجمع بينهما: أن أحوال القيامة تتغير. وهكذا تأتي آيات يظن أن فيها تعارضاً، مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] وفي آية أخرى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] فنقول: يوم القيامة أحواله تتغير حيث تسود الوجوه، ويحشرون زرقاً وتتغير؛ لأن المدة خمسون ألف سنة، فنحن بيننا وبين الرسول ﷺ ألف وأربعمائة، وهذا خمسون ألف سنة، أعاننا الله على أهواله، فالمسألة ليست هينة، فتختلف الأحوال وتتغير.

٧ ـ أن هؤلاء المجرمين الكافرين العاصين يسألون عن

ذنوبهم سؤال توبيخ، بدليل قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾، لكنهم لا يحاسبون كحساب المؤمن، ولا توزن أعمالهم، فالمؤمن تعرض عليه أعماله فإذا أقر بها قال الله عزّ وجل: «**سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»(١)، ولا مناقشة؛ لأنه لو نوقش لهلك، أما هؤلاء فإنهم ينادى على رءوس الأشهاد يوم القيامة: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله في العقيدة الواسطية: إنهم لا يحاسبون حساب من توزن أعماله وسيئاته؛ لأنه لا حسنات لهم، فلا توزن لهم أعمال، لقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء: ٤٣].

إذا صدر الله الآية بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دل ذلك على أهمية الموضوع؛ لأن النداء يسترعي الانتباه، فإذا خاطبك أحد وناداك يا فلان، فإنه يريد منك أن تنتبه، والذي ينادينا هو الله رب

---

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، حديث رقم (٢٣٠٩)؛ ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، حديث رقم (٢٧٦٨) عن ابن عمر.

العالمين. ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأرعها سمعك، فإما خير تؤمر به وإما شر تنهى عنه»(١).

ثم إن الله تعالى إذا صدر هذا النداء بوصف الإيمان دل ذلك على أن امتثاله إن كان أمراً، وتصديقه إن كان خبراً من مقتضيات الإيمان؛ لأنه لا ينادى شخص بوصف ثم يوجه إليه الأمر أو الخبر إلا لأنه أهل لقبول هذا الأمر، وتصديق هذا الخبر بما معه من هذا الوصف.

ويفيد أيضاً: أن مخالفة هذا نقص في الإيمان، فإذا كان أمراً فخولف أو خبراً فكذب، فإن هذا ينافي الإيمان.

ويفيد أيضاً معنى ثالثاً: وهو ما يعرف بالإغراء؛ أي: تحبيب الشيء إلى الإنسان؛ لأنه إذا قيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كأنه قيل: إن كنت مؤمناً فافعل، كما تقول للرجل: يا أيها الكريم قد نزل بك ضيف، تعني: فأكرمه.

قوله: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ أي: لا تصلوا ولا تتهيئوا للصلاة والحال أنكم سكارى، ولا تأتوها إلا وأنتم على أتم ما يكون من الإحساس واليقظة، ولهذا نعرب الواو في قوله ﴿وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ حالية، والجملة ﴿وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ في محل نصب على الحال من الواو في قوله: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ﴾، وذلك لأن الصلاة صلة بين العبد وبين الله، والمصلي يناجي الله عزّ وجل ويخاطبه، ويحاوره، فإذا قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ يقول الله: «**حمدني عبدي**» وإذا قال:

---

(١) تقدم ص٢٥١.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة]، فيقول: أثنى علي عبدي، ويقول: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝﴾ [الفاتحة] فيقول: مجدني عبدي، ويقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة] فيقول: هذا بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، ويقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝﴾ [الفاتحة] فيقول: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[1]، فما كان هذا شأنه فإنه يجب أن يعتنى به، وأن يدخل الإنسان فيه وهو على أتم ما يكون صحوة، وأتم ما يكون يقظة.

والصلاة: اسم جنس تشمل صلاة الفريضة وصلاة النافلة.

وقوله: ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ جمع سكران، والسكران: من زال عقله على سبيل الطرب والنشوة، وبهذا يظهر الفرق بين السكران والمغمى عليه والمبنج وما أشبهه، فالسكران يتغطى عقله لكن يجد طرباً ولذة ونشوة حتى يتخيل أنه ملك من الملوك، كما قال شاعر الجاهلية:

ونشربها فتتركنا ملوكاً .....

وكما وقع لحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه حين شرب الخمر، قبل أن تحرم حتى سكر، فمر به بعيران ناضحان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان عنده مغنية تغنيه فقالت:

ألا يا حمزُ للشرف النواء

فهيجته فأخذ السيف وجب أسنمة البعيرين وبقر بطونهما، وأخرج أكبادهما، فجاء علي رضي الله عنه إلى النبي ﷺ يشتكي، فقام النبي ﷺ إلى حمزة رضي الله عنه، فلما جاء إليه وجده لم

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، حديث رقم (٣٩٥) عن أبي هريرة.

يفق بعد فكلمه، فقال له حمزة: وهل أنتم إلا عبيد لآبائي[(١)].

إذاً: تصور أنه ملك، وأن هؤلاء عبيد أبيه، فرجع النبي عليه الصلاة والسلام وعرف أن الرجل لا يدري ما يقول، وتركه.

فالسكارى جمع سكران، وهو من تغطى عقله على وجه اللذة والطرب، وذلك بشرب المسكر، أما البنج فليس بسكر، والإغماء ليس بسكر وإن تغطى العقل.

والسكر يكون بالشراب، ويكون بالشم، ويكون بالأكل، فكل ما أسكر فهو خمر، لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام**»[(٢)].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ لفظاً ومعنىً، وما تفعلون كذلك من باب أولى، لأن الذي لا يعلم القول لا يعلم الفعل، وكثير من الناس لا يفهم من الفعل شيئاً، وبعض الناس يفهم من الفعل أكثر مما يفهم من القول، و﴿حَتَّىٰ﴾ تأتي للتعليل وتأتي للغاية، ففي قوله تعالى: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١] لا شك أنها للغاية؛ لأن بقاءهم عاكفين على العجل لا يستلزم مجيء موسى.

وفي قوله تعالى: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ [المنافقون: ٧]، هذه للتعليل؛ لأننا لو جعلناها للغاية كان المعنى: لا تنفقوا حتى ينفضوا فإذا انفضوا فأنفقوا، ولكن المعنى: لا تنفقوا على من عند رسول الله لأجل أن ينفضوا عنه،

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً (٤٠٠٣)؛ ورواه مسلم، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر وبيان أنها تكون من عصير العنب (١٩٧٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر..، حديث رقم (٢٠٠٣).

وهذا هو المعنى بلا شك؛ لأنهم ليسوا على استعداد إذا انفضوا عن رسول الله أن ينفقوا عليهم.

وهذه الآية التي معنا: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ هل المعنى: «إلى أن تعلموا ما تقولون» أو المعنى: «لتعلموا ما تقولون»؟ فيها وجهان، وتصلح لهذا وهذا، وإذا كانت صالحة للوجهين ولا منافاة بينهما فإنها تحمل عليهما، فنقول: السكران لا يقرب الصلاة حتى يعلم ما يقول؛ أي: حتى يصحو صحواً تاماً، ولا يقرب الصلاة لأجل أن يعلم ما يقول في صلاته وما يفعل.

قوله: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ يعني: ولا تقربوا الصلاة جنباً، والحال هنا صارت مفردة، وفي الأول قال: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾، فالله أعلم هل هذا من باب اختلاف التنوع في الألفاظ، أو لسبب يظهر بالتأمل.

وقوله: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ كلمة «جنب» مفردة لفظاً، ولكنها صالحة للجماعة وللواحد، ولهذا قال: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ ولم يقل: إلا عابر سبيل، إذاً: «جنب» حال من فاعل ﴿تَقْرَبُوا۟﴾، أو معطوفة على الجملة الحالية من فاعل ﴿تَقْرَبُوا۟﴾.

قوله: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ أي: مجتازين مارين، وكيف يتفق هذا مع الصلاة؟

الجواب: نقول: إن الله لم يقل لا تصلوا، بل قال: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وأماكن الصلاة هي المساجد، وعلى هذا يكون المعنى: ولا تقربوا أماكن الصلاة وأنتم جنباً إلا عابري سبيل؛ أي: مارين بها مروراً، والعبور بمعنى التجاوز، والسبيل بمعنى الطريق.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية، وهو غاية لقوله: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾، أما ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ فغايتها ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟﴾، هذا كالاستثناء من قوله: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾، ففي هذه الأحوال لا يجب الغسل، ويغني عنه التيمم.

وفي قوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ﴾ قراءتان: الأولى بتحقيق الهمزتين ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ﴾ والثانية: بحذف إحداهما «أو جا أحد».

وفي قوله: ﴿لَٰمَسْتُمُ﴾ قراءتان أيضاً: الأولى بالمد ﴿لَٰمَسْتُمُ﴾، والثانية بحذف المد: «لَمَسْتُم».

قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ وأطلق الله المرض، فلم يقل وأعجزكم عن الاغتسال، لكن يؤخذ من آيات أخرى أن المراد بالمرض: المرض، الذي يؤثر عليه استعمال الماء.

وقوله: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أطلق أيضاً ولم يقيد، لكن نقول: إن قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾ قيد هذا الإطلاق؛ أي: على سفر ولم تجدوا ماء.

قوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ﴾ ﴿أَوْ﴾ هذه أشكلت على أهل العلم؛ لأن ظاهرها التنويع مع قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ والتنويع مشكل؛ لأنها ليست قسيماً لما سبق، ولا نوعاً مما سبق.

والجواب عن هذا الإشكال: أن نقول: إن «أو» بمعنى الواو، ومنه قول النبي ﷺ: «**سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، وعلمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»[1] فقوله: «**سميت به نفسك أو أنزلته...**» الإنزال ليس

(١) رواه أحمد في المسند (١/ ٣٩١، ٤٥٢)؛ وابن حبان، كتاب الرقائق، =

قسيماً للتسمية، ولا نوعاً من التسمية، لكن معنى الحديث: «**سميت به نفسك وأنزلته في كتابك وعلمته أحداً من خلقك، واستأثرت به في علم الغيب عندك**» فالآية معناها والله أعلم: «أو على سفر وجاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء».

وقوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ الغائط: المكان المطمئن المنخفض من الأرض، وعبر به عن الخارج المستقذر وهو البول والغائط؛ لأنهم كانوا فيما سبق ليس عندهم كنف ولا حمامات، وإنما يخرج الإنسان إلى البر، فيختار مكاناً مطمئناً من أجل أن يقضي حاجته، فحال الناس في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، البيوت ليس فيها بيوت خلاء، ولا مراحيض إلا فيما بعد، وكان الناس ينتابون المكان المنخفض لقضاء الحاجة، والمكان المنخفض يسمى غائطاً؛ أي: نازلاً، وفي اللغة العامية يقولون: ماء غويط، ومعناه: نازل منقعر.

قوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وفي قراءة: «لَمَسْتُم»، اختلف المفسرون في معناهما على قولين: القول الأول: أن معناهما واحد فالمراد الجماع، وقيل: لامستم للجماع، ولمستم لمجرد اللمس، ولكن الصحيح أن معناهما واحد، ولكن الفرق بينهما أن اللمس من جانب واحد، والملامسة من جانبين؛ كالقتل من جانب واحد، والمقاتلة من جانبين.

والمراد باللمس: الجماع، وإنما اخترنا ذلك من أجل أن تكون في مقابل قوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ الذي فيه

= باب الأدعية، حديث رقم (٩٧٢)؛ والحاكم (١/ ٦٩٠)؛ وأبو يعلى في مسنده (٥٢٩٧).

اشارة إلى سبب الوضوء؛ لأنه لو كان المراد اللمس باليد لكان في الآية تكرار وإهمال؛ أي: تكرار لحدث أصغر؛ لأن المجيء من الغائط هو الحدث الأصغر، ولمس النساء باليد حدث أصغر، وفيه إهمال للحدث الأكبر، فإذا قلنا الملامسة الجماع في قوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ صارت الآية تذكر الحدثين جميعاً الأصغر والأكبر.

أما لو قلنا ﴿لَٰمَسْتُمُ﴾ بمعنى اللمس باليد، وأن اللمس باليد ناقض للوضوء، لم يكن في الآية إلا ذكر سببين لحدث واحد، وهو الحدث الأصغر، وهذا نوع من التكرار.

وقوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ النساء اسم جنس يشمل الأحرار والعبيد، ويشمل الجميلة وغير الجميلة، ويشمل الصغيرة، ولكنه لا يشمل الصغيرة التي لا يوطأ مثلها، وسيأتي إن شاء الله ذكر ذلك في الفوائد.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾: الفاء هذه حرف عطف على قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ ونفي الوجدان يدل على الطلب؛ لأنه لا يقال لم يجد إلا لمن طلب، فيقول: طلبت فلم أجد، وأما من لم يطلب، فلا يصح أن يقال: إنه لم يجد.

قوله: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ تيمموا: أي اقصدوا؛ لأن التيمم في اللغة بمعنى القصد، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧] أي: لا تقصدوا الخبيث تنفقون منه ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه، وقال الشاعر:

تيممتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عال

تيممتها؛ أي: قصدتها.

وأما الصعيد: فهو وجه الأرض؛ لأنه صاعد ظاهر بيِّن، وكل ما على وجه الأرض، أو وجه الأرض؛ سواء كان أحجاراً أو رمالاً أو تراباً أو غير ذلك.

وأما قوله: ﴿طَيِّبًا﴾، فالطيب ضد الخبيث، وإذا كان المقصود من هذا التيمم التطهر صار الطيب هو الطهور، وإن شئت فقل: الطاهر، وهو كذلك، فالطيب هنا هو الطاهر.

قوله: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾.

وحد الوجه من الأذن إلى الأذن عرضاً، ومن منحنى الجبهة إلى أسفل اللحية طولاً، هذا هو الوجه.

وأما قوله: ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾ فهنا أطلق الله اليد، وإذا أطلقت اليد فالمراد بها الكف فقط، ولا يراد بها ما زاد على ذلك.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ الجملة هذه تعليل لما سبق من الأحكام؛ أي: لعفوه ومغفرته شرع لكم التيمم عند عدم وجود الماء أو عند المرض، والعفو هو التجاوز عن عباده في ترك الواجب وفعل المحرم، وعفو الله عزّ وجل عفو كامل مقرون بالقدرة، لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، بخلاف عفو غيره فقد يكون للعجز؛ أي: العجز عن الأخذ بالثأر.

وقوله: ﴿غَفُورًا﴾ الغفور: هو الساتر للذنوب المتجاوز عنها، فإذا أضيف العفو إلى المغفرة حصل الكمال، وهو أن العفو لترك الواجب، والمغفرة لفعل المحرم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أهمية الصلاة والعناية بها، وجه ذلك: أن الله تعالى صدر الحكم المتعلق بالصلاة بالنداء لاسترعاء الانتباه.

ـ ومما يدل على العناية بها أن الله صدر الخطاب بذلك بوصف الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فدل هذا على أهمية الصلاة، وعلى العناية بها.

٢ ـ حل الخمر بقوله: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾، فإن هذا رخصة للناس أن يشربوا الخمر في غير أوقات الصلاة، وهذه إحدى المراحل التي كانت في الخمر؛ لأن الخمر له أربعة مراحل: الإباحة، والتعريض بتركه، والنهي عن شربه قرب وقت الصلاة، والنهي عن شربه مطلقاً، وقد أجمع المسلمون على تحريم الخمر، وصار تحريمه من الأمور الظاهرة المجمع عليها، حتى قال العلماء: إن من أنكر تحريمه فإنه كافر، إلا أن يكون ناشئاً في بلد بعيد عن بلاد المسلمين، فإنه يعرَّف، ثم بعد ذلك يبين له.

٣ ـ أنه لا حكم لقول السكران، لقوله: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾، فإنه يدل على أن السكران لا يعلم ما يقول، وإذا كان لا يعلم ما يقول صار قوله لغواً لا عبرة به، وهذا هو القول الراجح، حتى لو طلق فإنه لا يقع طلاقه، ولو أعتق فإنه لا ينفذ عتقه، ولو وقف لا ينفذ إيقافه، وأيّ قول يقوله فإنه لا عبرة به؛ لأنه لا يعلم ما يقول.

ـ ويتفرع على هذه الفائدة أن الإنسان إذا غضب غضباً شديداً حتى صار لا يعلم ما يقول فإنه لا عبرة بقوله، حتى لو

كان كفراً وحمله على ذلك شدة الغضب فإنه لا عبرة بقوله، لقوله: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾، فدل ذلك على أن جهل الإنسان بما يقول له أثر في تغير الحكم، وكذلك لو طلق في شدة الغضب وهو لا يعلم ما يقول، بل لو أنه طلق وهو يعلم ما يقول لكن صار كالمكره من شدة الغضب، فإنه لا حكم لقوله، ولا تطلق المرأة بذلك.

٤ ـ الحث على حضور القلب في الصلاة، لقوله: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾، والقلب إذا غاب فإن الإنسان لا يعلم ما يقول، وإنما يقول على سبيل العادة فقط، وإلا لو أنه رجع إلى نفسه لتبين له أنه لا يدري ما يقول؛ أي: لا يدري معنى ما يقول، وإن كان قد يدري أنه لفظ.

٥ ـ أن فيه شاهداً لنهي النبي ﷺ عن الصلاة في حضرة الطعام، أو وهو يدافعه الأخبثان[1]، ووجه ذلك: أن الصلاة في هذه الحال ينقصها العلم بما يقول المصلي.

٦ ـ ومنها ما ذهب إليه بعض العلماء: من أن الوسواس إذا غلب على أكثر الصلاة فإنها لا تصح، يعني لو غلب الوسواس والهواجس في الصلاة أو على أغلبها، فإنها لا تصح، لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾.

ولكن هذه المسألة الصحيح فيها أن الصلاة تصح، لكنه لا ينال الثواب الكامل، ودليل ذلك ما أخبر به النبي ﷺ: «**إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان له ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي**

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله (٥٦٠).

التأذين أقبل حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر، حتى إذا قضي التثويب أقبل، حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول له: اذكر كذا واذكر كذا لما لم يكن يذكر من قبل، حتى يظل الرجل ما يدري كم صلى»[(١)]، وهذا يدل على أن الوسواس في الصلاة لا يبطلها، لكن لا شك أنه ينقصها، لقوله: «**ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها**»[(٢)].

٧ ـ تحريم مكث الجنب في المسجد، لقوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾، وهذا هو أصح الأقوال في هذه الآية؛ أي: أن المراد بذلك النهي عن قربان الجنب للمساجد إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ، ولكن يستثنى من ذلك ما إذا توضأ الجنب، فإنه إذا توضأ يجوز له المكث في المسجد؛ لأن هذا ورد فيه آثار عن الصحابة رضي الله عنهم، أنهم كانوا يفعلون هذا في عهد النبي ﷺ[(٣)].

٨ ـ أن العبور ليس كالمكث، وعليه: فإن الإنسان لو مر عابراً بالمسجد فإننا لا نلزمه أن يصلي تحية المسجد لأنه عابر، بخلاف ما إذا مكث وجلس فإننا نقول له: لا تجلس حتى تصلي ركعتين.

٩ ـ أن منع الجنب من دخول المسجد يزول إذا اغتسل، لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾، ويزول بالوضوء، للآثار الواردة عن الصحابة.

١٠ ـ الإشارة إلى القاعدة المعروفة المتفق عليها، وهي أن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب فضل التأذين، حديث رقم (٥٨٣)؛ ومسلم، كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه، حديث رقم (٣٨٩) عن أبي هريرة.

(٢) انظر: تفسير النيسابوري (٥/ ٤٢٨)؛ وتفسير السعدي (١/ ٤٠) من تفسير الآية ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

(٣) انظر: التفسير من سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٧٧).

المشقة تجلب التيسير، ووجهه: أن الله تعالى أجاز للمريض أن يتيمم، ولكن هل يتيمم لكل مرض، أو يتيمم إذا كان استعمال الماء يؤدي إلى الموت؟

الجواب: من العلماء من يقول: لا يتيمم إلا كان يخاف الموت، أما إذا كان يخاف طول المرض، أو تشويه الجسم، فإنه لا يتيمم.

ومنهم من قال: يتيمم لكل مرض، والصواب أنه لا هذا ولا هذا، فيتيمم لكل مرض يخشى باستعمال الماء فيه أن يطول مرضه، أو يزيد مرضه، أو يسري الجرح حتى يؤثر في البدن، أو ما أشبه ذلك، المهم أنه متى حصل شيء يضره، فإنه يتيمم ولا بأس.

١١ ـ أن المسافر إذا لم يجد الماء فإنه يتيمم، ولا ينتظر حتى يجد الماء في البلد، لقوله: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟﴾.

١٢ ـ أنه لا يجوز التيمم في الحضر عند عدم الماء؛ لأن الله تعالى شرط للتيمم شرطين: الأول: عدم الماء، والثاني: السفر، والصحيح أنه جائز؛ لأنه ثبت أن النبي ﷺ تيمم في الحضر، وذلك في قصة الرجل الذي جاء وسلم على النبي ﷺ فلم يرد عليه حتى تيمم على الجدار، وقال: «**إني أحببت ألا أذكر الله إلا على طهر**»[1]، وهذا نص في النزاع، ولأن العلة واحدة وهي عدم

---

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» برقم (٣٣٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما، والدارقطني في «سننه» (١/ ١٧٧) برقم (١٧١)؛ والطبراني في «الأوسط» (٨/ ٦) برقم (٧٧٨٤) وقال: لم يذكر التيمم إلا نافع.

الماء، فلو فرض أن الماء انقطع عن البلد ولم يجد الإنسان ماء يتطهر به فإنه يتيمم؛ لأن العلة واحدة، لكن ذكر السفر لأنه مظنة العدم، وكما مر علينا أن القيد إذا كان أغلبياً فإنه لا مفهوم له.

١٣ ـ أن السفر ليس له حد معين، ووجهه: الإطلاق في قوله: «أو على سفر»، ولم يقل مسافة كذا، وهذا القول هو الراجح من أقوال أهل العلم، ولا يحد بثمانين كيلو، ولا مائة كيلو، ولا أربعين كيلو، بل حده أن يقع عليه اسم السفر، فإذا وقع عليه اسم السفر ثبتت له أحكام السفر، ولم يحدد الله ولا رسوله السفر بمسافة معينة.

١٤ ـ أن البول والغائط ناقضان للوضوء، لقوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾، وهناك نواقض أخرى سوى ذلك:

منها: النوم إذا كان عميقاً، بحيث لو أحدث الإنسان لم يحس بنفسه، وأما النوم اليسير الذي يحس الإنسان بنفسه لو أحدث، فإنه لا ينقض الوضوء، وفيه خلاف، ولكن الصحيح أنه ينقض الوضوء إذا كان عميقاً.

ومنها: أكل لحم الإبل، فإنه ناقض للوضوء، ثبت عن النبي ﷺ فيه حديثان صحيحان، حديث البراء وحديث جابر بن سمرة رضي الله عنهما.

ومنها: الخارج من غير السبيلين إذا كان نجساً كالدم، وفيه خلاف بين العلماء، والصحيح أنه لا ينقض الوضوء، فإن الصحابة رضي الله عنهم كانت تصيبهم الجراحة في سبيل الله، وتصيبهم الجراح أيضاً في غير القتال، ولم يرد عن النبي ﷺ أنه أمرهم بالوضوء من ذلك، ومثل هذا تتوافر الدواعي على نقله.

ولأننا نقول: الوضوء ثبت بمقتضى الدليل الشرعي، فلا يمكن أن ترتفع هذه الطهارة التي حصلت في الوضوء إلا بدليل شرعي، وليس هناك دليل يدل على أن خروج الدم من البدن أو غيره من النجاسات من غير السبيلين ناقض للوضوء، وعلى هذا فالرعاف ولو كثر، والجرح إذا كثر حتى نزف الدم منه لا يكون ناقضاً للوضوء.

ومنها: مس الذكر، وإن شئت فقل: مس الفرج، وفيه للعلماء أقوال: أنه ناقض مطلقاً، وأنه غير ناقض مطلقاً، والتفصيل، وهو الأظهر، وهذا هو مقتضى التعليل الذي علل به النبي ﷺ عدم النقض، فإنه لما سئل عن الرجل يمس ذكره في الصلاة أعليه الوضوء، قال: «**لا، إنما هو بضعة منك**»[1] أي: جزء منك، فإذا مسه الإنسان بغير شهوة، فهو كما لو مس بقية أعضائه فليس عليه وضوء ولا إشكال في هذا، لكن إذا مسه لشهوة فهل الوضوء واجب، أو الوضوء مستحب؟

فيه قولان للعلماء: منهم من قال إنه مستحب؛ لأن الشهوة تثير البدن، ومنهم من قال: إنه واجب، والأحسن بل والأحوط أن يتوضأ.

ومنها أيضاً: مما اختلف فيه العلماء: تغسيل الميت، ومس المرأة، والقيء والصحيح في هذا أنه لا ينقض.

وعلى هذا فالنواقض التي نرى أنها ناقضة والتي دلت عليها النصوص عندنا هي: من البول، والغائط والريح، والنوم العميق،

---

(١) رواه النسائي، كتاب الطهارة، باب ترك الوضوء من ذلك (١/ ١٠١)؛ وابن حبان (١١٢٠)؛ والدارقطني (١/ ١٤٩) عن طلق بن علي.

وأكل لحم الإبل، ومس الذكر لشهوة على سبيل الاحتياط.

١٥ ـ أن مجامعة النساء حدث، لقوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، وهو حدث أكبر كما دلت على ذلك آية المائدة، وعلى هذا فيجب على الإنسان إذا جامع المرأة أن يغتسل، سواء أنزل أم لم ينزل.

وكان في أول الإسلام أن الرجل إذا جامع ولم ينزل، فإنه يغسل ذكره وما أصاب المرأة منه، ولا يجب عليه الغسل، ثم بعد هذا نسخ، فصار الاغتسال من الجماع واجباً وإن لم يحصل إنزال، أما إذا حصل إنزال من جماع أو غير جماع فإن الغسل واجب، لقول النبي ﷺ: «**إنما الماء من الماء**»(١).

١٦ ـ أنه يشترط في جواز التيمم عدم الماء، أو التضرر باستعماله، وعدم الماء مأخوذ من قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾، والتضرر باستعماله من قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾، وعلى هذا فلا يمكن أن يكون تيمم إلا إذا تعذر استعمال الماء لعدم أو لضرر باستعماله.

١٧ ـ جواز التيمم على وجه الأرض كله؛ من رمل، أو حصى، أو تراب، أو سبخة، أو جص، أو غير ذلك، لقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا﴾ ولم يقيد، ولقول النبي ﷺ: «**الصعيد الطيب وضوء المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين**»(٢).

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحيض، باب إنما الماء من الماء، حديث رقم (٣٤٣) عن أبي سعيد الخدري.

(٢) رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب الجنب يتيمم، حديث رقم (٣٣٢)؛ والترمذي أبواب الطهارة، باب التيمم للجنب إذا لم يجد الماء، حديث =

واختلف العلماء فيما إذا كان من غير جنس الأرض كالشجرة، هل يجوز التيمم به، أو لا؟ فمنهم من أجاز التيمم به، ومنهم من قال: لا يجوز إلا إذا كان متصلاً بالأرض، فأما الغصن المنكسر المرمي في الأرض فإنه لا يتيمم به، وهذا هو الأقرب، وعلى هذا فلو تيمم الإنسان بجذع شجرة متصل بالأرض فلا بأس، ولكن لا شك أن تيممه على نفس الأرض أولى وأحوط وأبعد عن الخلاف.

واختلف العلماء رحمهم الله: هل يشترط أن يكون له غبار أو لا؟

فقال بعض العلماء: لا بد أن يكون له غبار، لقوله تعالى في آية المائدة: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة: ٦] و«من» للتبعيض، وهذا يقتضي أن يكون هناك غبار يمسح به.

ومنهم من قال: لا يشترط أن يكون له غبار، واستدلوا بهذه الآية: ﴿بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ ولم يقل: «منه»، واستدلوا بأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه لما أرى عمار بن ياسر رضي الله عنه كيف يتيمم **«أنه ضرب بيديه الأرض ونفخ فيهما»**[1]، ولو كان الغبار شرطاً لم ينفخ؛ لأن النفخ يلزم منه أن يطير الغبار، والصواب أنه لا يشترط الغبار وأن الإنسان إذا تيمم على الأرض صح تيممه، سواء كان فيها غبار أم لم يكن.

= رقم (١٢٤)؛ والنسائي، كتاب الطهارة، باب الصلوات بتيمم واحد، حديث رقم (٣٢٢)؛ وأحمد (٥/ ١٨٠).

(١) رواه البخاري، كتاب التيمم، باب المتيمم هل ينفخ فيهما، حديث رقم (٣٣١).

١٨ ـ أنه لا بد مع المسح من القصد، لقوله: ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ ﴿فَٱمۡسَحُواْ﴾، وعلى هذا فلو هبت الريح وحملت تراباً ووقف الإنسان أمام الريح حتى ملأت وجهه من الغبار، ومسح وجهه، فقال بعض أهل العلم: إنه يجزئ، والأحوط أن لا يجزئ، وذلك لأن الله أمر بأن نقصد وجه الأرض، ونمسح منه.

١٩ ـ الحكمة في التشريع، ووجه ذلك: أن الله فرق بين طهارة الماء وطهارة التيمم، فطهارة الماء من الجنابة لا بد أن تعم جميع البدن، ومن الحدث الأصغر لا بد أن تعم الأعضاء الأربعة: الوجه، واليدين، والرأس، والرجلين.

أما طهارة التيمم فإنها لا تكون إلا في عضوين فقط، وهما: الوجه، واليدان، ولا فرق فيها بين الطهارتين الكبرى والصغرى، والحكمة من ذلك: أن الطهارة بالماء فيها تطهير حسي واضح، وطهارة التيمم فيها تطهير معنوي، وهو كمال التعبد والتذلل لله عزّ وجل، بحيث إن الإنسان يمسح بالتراب وجهه وكفيه، وهذا دليل على كمال التعبد.

٢٠ ـ وجوب الترتيب بين مسح الوجه في التيمم ومسح اليدين، بحيث يقدم الوجه، والدليل على هذا قول النبي ﷺ حين أقبل على الصفا وقرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٥٨]، «**أبدأ بما بدأ الله به**»[(١)]، وفي لفظ للنسائي رحمه الله: «**ابدءوا بما بدأ الله به**»[(٢)]، وإذا كان الله بدأ هنا بالوجوه، فإننا نبدأ بها، وهذه المسألة اختلف فيها العلماء:

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، حديث رقم (١٢١٨).

(٢) رواه النسائي، كتاب مناسك الحج، باب القول بعد ركعتي الطواف، =

فمنهم من قال: يشترط الترتيب في التيمم مطلقاً، سواء تيمم عن حدث أصغر أم عن حدث أكبر.

ومنهم من قال: لا يشترط الترتيب مطلقاً، سواء تيمم عن حدث أصغر، أو عن حدث أكبر.

ومنهم من قال: إن كان عن حدث أصغر وجب الترتيب، وإن كان عن حدث أكبر لم يجب، قالوا: لأنه إذا كان عن حدث أصغر كان بدلاً عن طهارة يجب فيها الترتيب، والبدل له حكم المبدل، وإن كان عن غسل فالغسل لا يشترط فيه الترتيب، فيكون بدله لا يشترط فيه الترتيب وهو التيمم.

والأحوط أن يرتب فيبدأ بالوجه ثم باليدين.

٢١ ـ أنه لا يجب في التيمم مسح الذراع، لقوله: ﴿بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ وأطلق، واليد عند الإطلاق هي الكف، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، وقد أجمع العلماء على أن السارق لا تقطع يده إلا من مفصل الكف ولا تقطع من المرفق، وهنا أطلق الله تعالى اليد كما أطلقها في القطع في السرقة، وإذا أطلقت فالمراد الكف.

فإن قال قائل: أفلا يجب المسح إلى المرفق قياساً على الوضوء؟

فالجواب: أن نقول: القياس لا بد فيه من مساواة الفرع للأصل، وهنا لا يمكن تساوي الفرع والأصل للتباين العظيم بين طهارة التيمم وطهارة الماء، فطهارة التيمم أخف بكثير من طهارة

= حديث رقم (٢٩٦٢)؛ وأحمد في المسند (٣/ ٣٩٤)؛ والدارقطني، كتاب الحج، باب المواقيت، حديث رقم (٢/ ٢٥٤).

الماء، فلا يجب إلا أن نطهر عضوين فقط، والطهارة متساوية في الحدث الأصغر والأكبر.

والطهارة هذه أيضاً ليس فيها مضمضة ولا استنشاق، ولا إيصال التراب إلى ما تحت الشعور ولو كان خفيفاً، والفرق بين طهارة الماء والتيمم كبير جداً، وإذا كان كذلك فإنه لا يصح القياس.

٢٢ ـ إثبات هذين الاسمين لله عزّ وجل «العفو والغفور»: **لقوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

٢٣ ـ إثبات ما دل عليه هذان الاسمان من الصفة وهي: العفو والمغفرة.

وهذا الوصف لا يدل على أنه كان لله ثم زال؛ لأن «كان» فعل ماض، لكنها في هذا السياق وشبهه قد سلبت عنها الدلالة على الزمن، وكان المراد بها تحقيق الاتصاف بما دلت عليه، وهذا في القرآن كثير بالنسبة لأسماء الله وصفاته.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ [النساء: ٤٤].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الاستفهام هنا للتقرير؛ أي: يقرر الله سبحانه ذلك على وجه مشاهد مرئي يراه الرائي، والخطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يحتمل أن يكون للرسول ﷺ، ويحتمل أن يكون لكل من يتوجه الخطاب إليه؛ أي: ألم تر أيها المخاطب.

قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا﴾ أي: أعطوا نصيباً، فـ﴿أُوتُوا۟﴾

هنا تنصب مفعولين، المفعول الأول في هذا السياق هو الواو الذي هو نائب الفاعل، والمفعول الثاني هو قوله: ﴿نَصِيبًا﴾، والذي آتاهم نصيباً من الكتاب هو الله عزّ وجل، وهذا النصيب من الكتاب هو التوراة والإنجيل، وعلى هذا فيشمل اليهود والنصارى، لكن هو في اليهود أعظم؛ لأنهم هم الذين كانوا في المدينة في عهد الرسول ﷺ.

قوله: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ أي: يطلبونها شراءً، ومن المعلوم أن المشتري طالب للسلعة جاد في طلبها حتى يحصلها بالشراء، وهذا أبلغ مما لو قال: يسلكون الضلالة؛ لأن الشراء ينبئ عن رغبة وطلب حتى يصل الإنسان إلى ما أراد.

وقوله: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ أي: ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦]، وهذا الشراء أخسر أنواع الشراء، ولهذا قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

وقوله: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ هذا باعتبار ما يختارونه لأنفسهم، ولكن شرهم ليس قاصراً

ولذلك قال: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: مع شرائهم للضلالة واختيارهم إياها وحرصهم عليها، يريدون أن ينقلوها أيضاً إلى غيرهم، فيريدون أن تضلوا السبيل؛ أي: الطريق إلى الله عزّ وجل، وهو دين الإسلام، وإذا كانت هذه إرادتهم فسوف يسعون إلى حصول مرادهم بكل وسيلة، ولهذا نجد أن الكفار أعداء المسلمين يسعون إلى إضلال المسلمين بكل وسيلة،

فتارة بالانحلال الخلقي، وتارة بالدمار العسكري، وتارة بالأفكار السيئة الرديئة، فهم يرون السلاح الذي هو أنكأ فيستعملونه ولا يبالون، يعني: لو أن الأمر أفضى إلى العدوان المسلح لفعلوا؛ لأنهم يريدون أن نضل السبيل.

فإن قال قائل: لماذا يريدون أن نضل السبيل؟

الجواب: أن نقول: لأنهم ضُلَّال، وكل إنسان يريد أن يكون الناس على شاكلته، هذا من وجه، ومن وجه آخر: أنهم أولياء للشيطان، والشيطان قال يخاطب الله عزّ وجل: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧]، وتأمل قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ﴾ ولم يقل «على صراطك، ولا في صراطك»، بل حذف حرف الجر، ليشمل قعوده على الصراط حتى لا ندخل، وقعوده في الصراط حتى لا نتم السير، وهو كذلك، فهو يقعد لنا على الصراط خارجاً حتى لا ندخل، وفي الصراط داخلاً حتى لا نتم المسير، وهؤلاء هم أولياء الشيطان، كما قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [النساء: ٧٦]، وإذا كانوا أولياءه فسوف يناصرونه على ما يريد من إضلال عباد الله.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن من الناس من يؤتى الكتاب ويرزق العلم، ولكنه لا ينتفع به، مثل هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، ومع ذلك لم ينتفعوا به واشتروا الضلالة بالهدى.

٢ ـ أن من لم ينتفع بعلمه فهو شبيه بهؤلاء، فمن آتاه الله

علماً ولم ينتفع به فهو شبيه بهؤلاء، ولهذا قال سفيان بن عيينة رحمه الله: «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى»، وهذا صحيح.

٣ ـ أنها شاهدة لقول رسول الله ﷺ: «**القرآن حجة لك أو عليك**»[1]، فكتب الله التي يحملها الناس، إما لهم وإما عليهم.

٤ ـ حب هؤلاء للضلالة والشر، لقوله: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾.

٥ ـ الحذر من هؤلاء، وأنهم مهما عملوا معنا، فإنهم لا يريدون لنا الخير إطلاقاً، لقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾، فهم قد يغدقون علينا من الأموال، ومن المصانع، ومن كل شيء، لكنهم يريدون أن نضل السبيل، والغزو بالدنيا غزو بسلاح فتاك، ورفاهية الإنسان غزو بسلاح فتاك؛ لأن الإنسان كما قال الله تعالى عنه: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ٢٠]، فإذا أغدق عليه المال الذي يحبه، فإن طبيعة الحال البشرية تقتضي أن يلين مع هذا الذي وفر عليه المال وأغدقه عليه.

٦ ـ الثناء على المسلمين بكونهم على السبيل؛ لأن قوله: ﴿أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾، ولولا أنهم على السبيل ما حاولوا أن يضلوهم؛ لأن الضال ضال، فأي شيء يحاولون أن يفعل.

٧ ـ التحذير من هؤلاء اليهود أو النصارى أو غيرهم؛ لأنه إذا حذرنا الله ممن أوتوا نصيباً من الكتاب، فتحذيرنا ممن هم عمي صم بكم، من باب أولى.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، حديث رقم (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري.

□ قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [النساء: ٤٥].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ﴾ أي: والله أعلم بأعدائكم منكم؛ لأننا نحن قد يخفى علينا العدو، وقد تخفى علينا تخطيطاته التي يريد بها أن يضلنا، ولكن الله تعالى له بالمرصاد، ففي قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ﴾ تسلية لنا، وتهديد لأعدائنا؛ لأنه إذا كان أعلم بأعدائنا فسوف يقينا شرهم إذا تولينا الله، وإن تولينا عن الله سلط علينا هؤلاء الأعداء.

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي: متولياً للأمور، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي: مدافعاً وناصراً.

فقوله: ﴿وَلِيًّا﴾: منصوب على أنه تمييز محول عن الفاعل؛ لأن الكافي هو الله نفسه، فهي تمييز محول عن الفاعل، والباء في قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾ قالوا: إنها زائدة، وأن الأصل وكفى الله ولياً، وكفى الله نصيراً.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ إثبات علم الله لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ﴾.

٢ ـ كمال علم الله، حيث جيء به على صيغة التفضيل ﴿أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ﴾.

٣ ـ تسلية المؤمنين وتقوية عزائمهم، لكونه أعلم بأعدائنا وأنه ناصر لنا وولي لنا.

٤ ـ تهديد المشركين وتحذيرهم، لقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ﴾؛ لأننا لو فرضنا ـ ولله المثل الأعلى ـ أن أباك قال لعدوك: أنا أعلم بك وبعداوتك، فسوف يخاف ويحذر.

٥ ـ أنه لا بد للمسلمين من عدو بل من أعداء، وكل من كان غير مسلم، فإنه عدو للمسلمين.

٦ ـ الثناء على الله سبحانه بالكفاية التامة في الولاية والنصرة، لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: ٤٦].

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، ﴿مِّنَ﴾ هذه للتبعيض.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: الذين رجعوا، وهم اليهود، رجعوا عن عبادة العجل، فسموا الذين هادوا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي: رجعنا إليك.

وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ الجملة هذه لا يصح أن تكون مبتدأ؛ لأن الفعل لا يبتدأ به، وإذا لم يصح أن تكون مبتدأ فنعربها صفة لموصوف محذوف هو المبتدأ، والتقدير: من الذين هادوا قوم يحرفون الكلم عن مواضعه.

وقال بعض النحويين: إن ﴿مِّنَ﴾ التبعيضية اسم، فتعرب على أنها مبتدأ؛ لأن تقدير ﴿مِّنَ﴾ التبعيضية: بعض الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه، وعلى هذا فتكون ﴿مِّنَ﴾ بصورة الحرف ولكنها اسم، وتكون هي المبتدأ، وجملة ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ هي الخبر، ولا حاجة إلى التقدير.

ولها نظائر في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ

مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التوبة: ١٠١] والتقدير: ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق، وكل من القولين له وجه:

أما الذين قالوا إن ﴿مِّنَ﴾ التبعيضية اسم، فيرجح قولهم أننا لا نحتاج إلى تقدير في الآية، وإذا دار الكلام بين التقدير وعدمه فعدم التقدير أولى؛ لأن الأصل عدم الحذف، وأما الثاني فيقويه أن ﴿مِّنَ﴾ التبعيضية حرف، واستعمالها اسماً إخراج لها عن موضوعها الأصلي، فنكون ارتكبنا مجازاً بتقديرنا إياها اسماً، ويكون تقدير الاسم أرجح، ويسمى هذا إيجازاً بالحذف؛ لأن الإيجاز إيجاز بالحذف، وإيجاز بالقصر، فإذا كانت جملة قليلة لكن تحتمل معنى كبيراً، فهذا إيجاز بالقصر، وإذا كانت جملة فيها أشياء محذوفة، فهو إيجاز بالحذف.

قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي: يصرفونه، والتحريف التصريف، ومنه حرف الدابة عن جهة سيرها؛ أي: صرفها، والكلم: اسم جمع واحده كلمة، قال ابن مالك في الألفية:

..... واسم وفعل ثم حرف الكلم
واحده كلمة والقول عم وكلمة بها كلام قد يؤم

والمراد بالكلم هنا ما أنزله الله تعالى على رسله من الوحي.

وقوله: ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي: يصرفونه عما أراد الله عزّ وجل به؛ لأن ما أراده الله بكلامه فهو موضعه، قال العلماء: والتحريف نوعان: لفظي ومعنوي، وقد ينفرد واحد عن الآخر وقد يجتمعان، ثم التحريف اللفظي قد يتغير به المعنى وقد لا يتغير به المعنى، ولنضرب لكل واحد مثالاً:

فالتحريف اللفظي المعنوي كتحريف بعضهم قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] إلى: «وَكَلَّمَ اللهَ مُوسى تَكْلِيماً»، فهذا تحريف لفظي معنوي، لفظي لأنه جعل لفظ الجلالة منصوباً بعد أن كان مرفوعاً، ومعنوي: لأنه تغير به المعنى، حيث كان دالاً على أن المكلِّم هو موسى.

ومثال التحريف اللفظي الذي لا يتغير به المعنى: أن يقول القارئ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فهنا التحريف لفظي؛ لأنه كان يجب أن يقول ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لكن هذا التحريف لا يتغير به المعنى.

ومثال التحريف المعنوي مع إبقاء اللفظ على حاله، تحريف أهل التعطيل قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] إلى معنى: استولى، فهم لم يغيروا اللفظ، فاللفظ قد أبقوه على ما هو عليه، ولم يغيروه، لكن قالوا: المراد بالاستواء الاستيلاء، وهذا تحريف معنوي.

ثم إن هذا التحريف المعنوي سماه متبعوه تأويلاً، وقالوا: التأويل صرف الكلام عن ظاهره إلى المعنى المخالف للظاهر بدليل، فسموا هذا التحريف تأويلاً، ولكنا نقول: هذه التسمية تمويه على السامع؛ لأن التأويل أن يصرف الكلام عن ظاهره لدليل صحيح، وأما الدليل الذي استدلوا به فهو دليل وهمي وليس له أصل من الصحة، وعليه فنقول: إذا صرف الإنسان الكلم عن ظاهره إلى معنى يخالف الظاهر، فإن كان هناك دليل من كتاب أو سنة فإنه مقبول، وإن لم يكن له دليل فإنه غير مقبول.

فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨] أي: إذا أردت أن تقرأ القرآن.

وهذا تأويل مقبول لأن له دليلاً، وهو أن النبي ﷺ كان يتعوذ عند إرادة القراءة لا عند إنهاء القراءة، فالدليل فعل الرسول عليه الصلاة والسلام.

وإذا قال قائل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] أي: استولى، قلنا: هذا صرف للكلام عن ظاهره، وهو غير مقبول لأنه لا دليل عليه، فصار التأويل الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره، إن دل عليه دليل فهو مقبول، ونسميه تفسيراً، وإن لم يدل عليه دليل فهو مرفوض ونسميه تحريفاً.

وهؤلاء الذين هادوا أو بعض هؤلاء الذين هادوا حرفوا الكلم عن مواضعه، بالنسبة لعيسى عليه السلام وبالنسبة لمحمد عليه الصلاة والسلام، أما عيسى عليه السلام فادعوا عليه ما برأه الله منه أنه ولد بغي، وأنه لا يصح أن يكون رسولاً؛ لأن الرسل طاهرون مطهرون، وهذا ولد بغي فليس برسول، وقتلوه حكماً لا حقيقة؛ لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧]، فأقروا على أنفسهم بقتله فيكون لهم حكم الذين قتلوه، أما حقيقة فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

وحرفوا الكلم بالنسبة لمحمد ﷺ، وقالوا: ليس هذا الرسول المنتظر، وكانوا قبل أن يبعث يستفتحون على الذين كفروا يقولون: سيبعث نبي ونتبعه ونغلبكم، لكن لما بعث من بني إسماعيل، وكانت بنو إسماعيل بني عمهم حسدوهم؛ لأنهم

يعرفون صفته في التوراة والإنجيل، ويعرفون أنه أفضل نبي، وكانوا يظنون أنه سيكون من بني إسرائيل على غير الأصل؛ لأنهم لو رجعوا للأصل لوجدوا أن التوراة والإنجيل صرحت بأنه يبعث من أم القرى.

ويقول المؤرخون: إن تجمع اليهود في المدينة إبان بعثة الرسول ﷺ، كان بناءً على أنهم يعلمون أن مهاجره هي المدينة، فقالوا نستقبله ونؤمن به، فاليهود حرفوا الكلم عن مواضعه بالنسبة لرسالة عيسى عليه السلام وبالنسبة لرسالة محمد ﷺ.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾: وهذا غاية ما يكون من المحادة لله عزّ وجل ورسله، أن يقول البشر: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، والعصيان مخالفة الأمر؛ أي: الخروج عن الطاعة، إن كان أمراً فبتركه، وإن كان نهياً فبارتكابه هذه المعصية.

قوله: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾؛ يقولون للرسول ﷺ: اسمع غير مسمع؛ أي: اسمع أصمك الله حتى لا تسمع، وهذا معنى «غير مسمع»؛ أي: اسمع قولنا حال كونك غير مسمع، والذي لا يسمع هو الأصم، فيدعون عليه بالصمم ويسخرون به؛ لأنهم إذا كانوا يدعون عليه بالصمم فكيف يقولون: اسمع.

وقيل: المعنى اسمع غير مسمع ما تكرهه، لكن هذا بعيد عن سياق الآية، وبعيد عن حال اليهود.

ويحتمل أن يكون المعنى: اسمع غير مسمع ما يسرك؛ أي: سنقول لك ما يسوؤك، كما قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، ولكن هذا يحتاج إلى دليل، وذلك لأن فيه حذفاً يحتاج إلى تقدير؛ أي: غير

مسمع ما تكره، هذا في الأول، والثاني غير مسمع ما يسرك، نقول: هذا يحتاج إلى دليل لأن فيه حذفاً، والمعنى الأول يكفي في خزيهم ـ والعياذ بالله ـ أن يقولوا للرسول: اسمع لا أسمعك الله.

وقوله: ﴿وَرَٰعِنَا﴾ الذي ترد على سمعه هذه الكلمة يظن أنها فعل أمر متصل به ضمير مفعول، وفاعله مستتر وجوباً تقديره أنت؛ أي: راعنا أنت، من الرعاية أو من المراعاة، وكلاهما معنى حسن، لكن هم لا يريدون لا الرعاية ولا المراعاة، وإنما يريدون الرعونة، وهي الجبن والخور وما أشبه ذلك.

وهي كلمة عند اليهود في اللغة السريانية العبرية، فيقولون: راعنا أي: أصابك الله بالرعونة، ولهذا نهى الله المؤمنين عن أن يقولوا هذه الكلمة؛ لأن اليهود يقولونها يريدون بها سوءاً، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ [البقرة: ١٠٤].

قوله: ﴿لَيًّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾ أي: يقولون هذا الكلام ﴿لَيًّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ﴾ حيث يظهرون معنى صحيحاً مقبولاً، وهم لا يريدون المعنى الصحيح، فـ﴿غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ يحتمل غير مسمع ما يسوؤك كما سبق، ﴿وَرَٰعِنَا﴾ يحتمل أنه من المراعاة أو من الرعاية، وهم يريدون عكس ذلك، فيريدون الدعاء عليه أن لا يسمع، ويريدون الدعاء عليه بالرعونة، وهذا لي باللسان.

ومعنى اللي باللسان أن يريد باللفظ خلاف معناه الظاهر منه؛ لأنه تكلم لكن لوى هذا اللفظ إلى معنى آخر غير الذي يفهم من اللفظ، ولهذا قال: ﴿لَيًّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ﴾، وأصل ﴿لَيًّۢا﴾ «لوياً»،

لكن اجتمعت الواو والياء في كلمة واحدة وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء، على القاعدة التصريفية.

أما كون هذا ليّاً بألسنتهم فظاهر، ولكن قوله: ﴿وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ﴾ كيف كان طعناً في الدين؟

الجواب: نقول: إنما قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ لأنهم لم يرتضوا هذا الدين، وعدم ارتضاء الدين مستلزم للطعن في الدين؛ أي: عيبه مستلزم عيب الدين والقدح فيه، وذلك لأن من ارتضى شيئاً لا يمكن أن يقول إذا أمر به: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

وأيضاً: إذا قالوا: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ فهذا طعن في الدين؛ لأنه طعن في الرسول الذي جاء بالدين، والطعن في الرسول طعن بما أرسل به.

وكذلك قولهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾ إذا كان من الرعونة، فهي أيضاً طعن في الدين، فصار الطعن في الدين في كل الكلمات السابقة:

الأولى: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

والثانية: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾.

والثالثة: ﴿رَاعِنَا﴾.

فكل هذا طعن في الدين، ولهذا قال الله عزّ وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بدل قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وقالوا: ﴿وَٱسْمَعْ﴾ وحذفوا ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، وقالوا: «وانظرنا» بدل ﴿رَاعِنَا﴾؛ لأن هذه هي الكلمة التي أمر الله المؤمنين أن يقولوها بدلاً عن قولهم: ﴿رَاعِنَا﴾، لو أنهم قالوا هكذا ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾، والخيرية تشمل خيرية الدين والدنيا، وخيرية الجزاء في الآخرة، و﴿أَقْوَمَ﴾؛ أي: في دينهم وفي حياتهم؛ لأن هذا القرآن

كما قال تعالى: ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] ولكن عدلوا عن هذا القول الذي هو خير؛ لأن الله لعنهم بكفرهم.

ولذلك قال: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: طردهم وأبعدهم عن رحمته بسبب كفرهم، فهم الجناة على أنفسهم، والرب عزّ وجل لم يمنع عنهم فضله، ولكنهم هم الذين تسببوا لذلك فكفروا.

وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: هؤلاء الذين قالوا ما قالوا لا يؤمنون إلا قليلاً، وكلمة ﴿قَلِيلًا﴾ قال بعض المفسرين: إنها صالحة أن تعود إلى الإيمان وأن تعود إلى الواو في قوله «**يؤمنون**»، والفرق بينهما:

أننا إذا قلنا: إنها عائدة إلى الإيمان صار المعنى فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، وإذا قلنا إنها عائدة إلى الواو صار المعنى فلا يؤمنون إلا قليلاً منهم، فالكافر منهم كافر لا إيمان معه، والمؤمن قليل، ورجح بعضهم الأول، وقال: إننا إذا قلنا لا يؤمنون إلا قليلاً منهم لم يستقم الكلام؛ لأن الكلام كله قد سيق لبيان وصف هؤلاء، ولكن يبقى على هذا الترجيح أن يسأل: ما هذا الإيمان القليل وهم يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؟

قالوا: إن القليل يأتي بمعنى العدم؛ أي: فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً لا ينفعهم فيكون بمنزلة العدم؛ لأن ما لا نفع فيه كالمعدوم تماماً.

وبعض العلماء أنكر أن يكون الاستثناء من الضمير في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إنكاراً بيناً، ولكن الذي يظهر لي أن الآية محتملة، وأن منهم قوماً يؤمنون، وهؤلاء الذي يؤمنون قد يفهم

من قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ يعني: وبعض الذين هادوا لا يقولون هذا فيكونون مؤمنين، ولا شك أنه آمن من اليهود من آمن، وحسن إسلامه واستقام إيمانه، مثل عبد الله بن سلام رضي الله عنه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن من اليهود من استقام فلم يحرف الكلم عن مواضعه، ويؤخذ من التبعيض، حيث جعل مَنْ يحرف الكلم عن مواضعه «بعضهم».

٢ ـ أن المحرفين للكلم عن مواضعه يشبهون اليهود في طريق استعمال الوحي.

٣ ـ عدل الله عزّ وجل، حيث تحدث عن اليهود بالقسط، فذكر الموصوفين بالعيب، وأخذ من هذا أن منهم من لم يوصف بذلك، لقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ ولم يقل: كل الذين هادوا، وينبغي للإنسان إذا تحدث عن قوم في مقام التقويم أن يذكر المحسن والمسيء.

أما في مقام التحذير فإنه لا يذكر الإحسان؛ لأن الإحسان لا يتأتى أو لا يتناسب مع إيراد التحذير.

٤ ـ شدة عناد اليهود الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، لقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، فإنهم لو قالوا: لم نسمع، أو قالوا: سمعنا ولم نفهم، لربما قال قائل: إن هذا عذر، لكن قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، فلم يمنعهم شيء عن الطاعة إلا مجرد عصيان.

٥ ـ أن من عتا من هذه الأمة وقال: أنا أعلم أن صلاة الجماعة واجبة ولكن لا أصلي مع الجماعة، نقول: من قال ذلك فهو يشبه اليهود الذين قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

٦ ـ شدة حقد اليهود على رسول الله ﷺ، حيث كانوا يجيبون بهذه الكلمة السيئة: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾.

٧ ـ تعالي هؤلاء اليهود حتى عند الرسول ﷺ، لقولهم: اسمع؛ لأن كلمة اسمع إنما تكون في الغالب في المخاطبات من الأعلى إلى الأدنى، ولهذا ينتقد بعض الناس إذا قال لمن هو أكبر منه: اسمع، أو قال لأمه: اسمعي، فهذا منهم يدل على تعالي اليهود والعياذ بالله.

٨ ـ أن الإنسان يحاسب على ما أراد، لقوله: ﴿لَيّٗا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ﴾؛ أي: على ما في قلوبهم قال: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾.

فإذا قال قائل: وهل يحاسب ظاهراً على ما أراد في باب الحكومة والخصومة مع الناس؟

الجواب: لا، بل على الظاهر، لقول النبي ﷺ: «**إنما أقضي بنحو ما أسمع**»[1] ولقوله: «**يمينك على ما يصدقك به صاحبك**»[2] لا ما في قلبك، ففرق بين الحكم في أمر يتعلق بالعبادة وبين حكم يتعلق فيما بين الناس.

٩ ـ أن الطعن في الدين يكون بالصريح ويكون باللازم، فالصريح أن يقول: هذا الدين يوجب لأهله التأخر والتقهقر والتزمت وما أشبه ذلك، هذا صريح.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب موعظة الإمام للخصوم، حديث رقم (٦٧٤٨)؛ ومسلم، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، حديث رقم (١٧١٣) عن أم سلمة.

(٢) رواه مسلم، كتاب الأيمان، باب يمين الحالف على نية المستحلف، حديث رقم (١٦٥٣) عن أبي هريرة.

الثاني: أن لا يكون صريحاً لكن من لازم القول، فهنا إذا نظرت إلى كلامهم لم تشعر بالطعن على وجه صريح، ولكن من لازم القول.

١٠ ـ أن الطعن في الدين من خصال اليهود، فمن طعن في الدين فهو مشبه لليهود والعياذ بالله.

١١ ـ تحريم الطعن في الدين، وأنه يجب أن يكون الدين محل احترام وتعظيم، لا محل طعن وقدح.

١٢ ـ عرض الحق على المستكبر عن الحق، لقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.. إلى آخره.

ومن نظائر ذلك: قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: ١٠] أي: قتلوا أولياءه وأحرقوهم بالنار، ثم عرض عليهم التوبة، فقال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]

١٣ ـ أن المنكَر إذا أنكره المنكِر فإنه ينبغي أن يري بدله ما لا ينكر، لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بدل ﴿وَعَصَيْنَا﴾، ﴿وَاسْمَعْ﴾ دون ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، ﴿وَانْظُرْنَا﴾ بدل ﴿رَاعِنَا﴾ كما قال تعالى في خطاب المؤمنين بهذا: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤].

١٤ ـ أنه تجوز صيغة التفضيل بين شيئين لا يوجد في الطرف الآخر منه شيء، وأن قولهم: إن التفضيل بين شيئين يقتضي اشتراكهما في أصل المعنى ليس على إطلاقه، بل في غالب الأحوال كذلك، ولكن قد يخرج عن هذه القاعدة، فإذا قلت: فلان أفضل من فلان، فقد اشتركا في الفضل، وزاد

المفضل على المفضل عليه، وهذا هو الأصل في اسم التفضيل أن يشترك المفضل والمفضل عليه بأصل المعنى، لكن أحياناً يأتي اسم التفضيل والطرف الآخر ليس فيه شيء منه، فهنا قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ فليس في قولهم السابق خير، ولا في قولهم السابق استقامة، ومع ذلك قال: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾.

ومثل ذلك قول المؤذن في صلاة الفجر: الصلاة خير من النوم، فالنوم الذي يصد عن الواجب لا خير فيه وإن كان الانسان يعذر به، والذي يحب النوم سيقول: ليس مثله؛ لأن النوم خير.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤]

لأن أصحاب النار لا خير في مستقرهم، ولا حسن في مقيلهم، ويتمنون أن لا يكونوا من أهل النار.

١٥ ـ إثبات أصل التفاضل بين الأعمال والأقوال؛ لأن الله قال: ﴿خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾، ولا شك أن التفاضل بين الأقوال السيئة والحسنة والأفعال السيئة والحسنة ثابت، لكن هل تتفاضل الأعمال الحسنة؟ وهل تتفاضل الأعمال السيئة؟

الجواب: نقول: الأعمال تتفاضل، ولهذا سئل النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**»، قيل: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**»، قيل: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[1] والسائل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وكذلك أيضاً: قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**ما**

---

(١) تقدم ص٣١٤.

تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه»[١]، فالأعمال الصالحة تتفاضل كما أن الأعمال السيئة تتفاضل، فمنها صغائر ومنها كبائر، والكبائر منها أكبر ومنها دون ذلك، وكذلك الصغائر.

ويلزم من هذا زيادة الإيمان ونقصه على أصل مذهب أهل السنة والجماعة؛ لأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

١٦ ـ أن من لعن وطرد عن رحمة الله فإنه ينقلب عليه الحق باطلاً والباطل حقاً، ولهذا لم يسلكوا الأحسن والخير فيما قالوا؛ لأن الله لعنهم.

ويتفرع على هذه القاعدة: أن العاقل لا يتعرض لما فيه لعنة الله؛ لأن الإنسان إذا تعرض لما فيه لعنة الله لعن وطرد وخذل، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**»، قالوا: يا رسول الله، كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[٢] وعلى هذا فلا تتعرض لسب الوالدين؛ لأنك إن تعرضت لعنت وإذا لعنت طردت وأبعدت عن رحمة الله.

١٧ ـ أن الكفر سبب للعن، لقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، وإذا كان في الإنسان خصال كفر، فهل يناله من اللعنة بمقدار ما معه من خصال الكفر؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، حديث رقم (٦١٣٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، حديث رقم (٥٦٢٨)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، حديث رقم (٩٠) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

الجواب: الظاهر نعم، وقد يقال: إن اللعنة عقوبة عظيمة لا تكون إلا على فعل عظيم، وقد يقال: إن الحكم المعلق على فعل إن وجد الفعل كاملاً فالحكم كامل، وإن وجد بعضه فله بعض الحكم، وينبني على ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت**»[1] فقد نقول: إن من طعن في النسب أو ناح على الميت فعليه جزء من اللعنة؛ لأن معه جزءاً من الكفر فيحتمل أن يقال: إن اللعنة تتبعض كما أن الكفر يتبعض، ويحتمل أن يقال: إن اللعنة إنما هي على الكفر الأكبر، ولكنا إذا رجعنا إلى قول الرسول ﷺ: «**لعن الله من لعن والديه**»[2] ولعن الوالدين لا يخرج من الملة، تبين لنا أن من عمل عملاً أطلق عليه الكفر فإنه يناله من اللعنة مقدار ما حصل منه من هذا الوصف.

١٨ ـ إثبات الأسباب، لقوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾.

١٩ ـ الرد على الجبرية والقدرية، وكلتاهما فئتان ضالتان بالقضاء والقدر، فالجبرية يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله، والقدرية يقولون: الإنسان مستقل بعمله وليس لله فيه تدبير، والآية ترد عليهم جميعاً.

أما على الجهمية الذين هم الجبرية، فلقوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ فأضاف العمل إليهم، وهم يقولون: لا يضاف العمل إلى العامل

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة، حديث رقم (٦٧) عن أبي هريرة.

(٢) هذا اللفظ لمسلم، كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله ولعن فاعله، حديث رقم (١٩٧٨) عن علي بن أبي طالب.

إلا على سبيل المجاز، وإلا فالحقيقة أنه ليس فعله؛ لأنه ليس باختياره.

أما على القدرية: فلإثبات الأسباب في قوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾، وهم يقولون: إن فعل الإنسان مستقل، ليس لله فيه تدخل إطلاقاً، فأنت تفعل وتترك وتقوم وتقعد وتذهب وتجيء وليس لله تعالى فيه أي تعلق.

وأهل السنة والجماعة يقولون: عمل الإنسان باختياره ولا شك، ولكن الذي جعله باختياره هو الله، فيكون ناتجاً عن مشيئة الله وخلق الله، وخالق السبب التام خالق للمسبب.

٢٠ ـ أن هؤلاء اليهود يقل فيهم الإيمان بالنسبة للمؤمنين، أو بالنسبة لهم جميعاً حسب ما قلنا في الاستثناء: هل الاستثناء عائد للواو أو عائد إلى الفعل، ولا شك أن اليهود على قوة ما جاءهم من الوحي أن فيهم العتاة، وإلا فإن الرسول ﷺ رأى في المنام أكثر الأمم أمة موسى عليه السلام بعد هذه الأمة؛ لأنه يقول: «**فنظرت فإذا سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي: هذا موسى وقومه**»(١).

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ

(١) رواه البخاري، كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره، وفضل من لم يكتو، حديث رقم (٥٣٧٨)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث رقم (٢٢٠).

كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ [النساء: ٤٧].

النداء في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المراد به اليهود إرادة أولية، وكذلك النصارى لأنهم أوتوا الكتاب، والكتاب الذي أوتيه اليهود هو التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، كتبها بيده سبحانه، وأنزلها على موسى عليه السلام، أما الكتاب الذي نزل على عيسى عليه السلام فهو الإنجيل.

قوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ وهو القرآن وقال: ﴿نَزَّلْنَا﴾ لأنه نزل شيئاً فشيئاً حسب ما تقضيه حكمة الله عزّ وجل.

قال العلماء: والفرق بين نزّلنا وأنزلنا، أن ﴿نَزَّلْنَا﴾ إذا اجتمعت مع «أنزلنا» صار المراد بها التفريق، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ﴾ [النساء: ١٣٦] وقال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦] فالقرآن منزل تنزيلاً على حسب ما تقتضيه حكمة الله، إما أن تكون واقعة يتحدث الله عنها، أو مشكلة يفتي الله تعالى بها، أو غير ذلك.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ أي: للذي معكم، والذي معهم هو التوراة بالنسبة لليهود، والإنجيل بالنسبة للنصارى، والتصديق له وجهان:

الوجه الأول: أنه مصدق لها؛ أي: شاهد بما جاءت به وأنه حق، والقرآن مملوء من ذلك؛ أي: من أن الكتب السابقة المنزلة على الرسل كلها حق.

والوجه الثاني: أنه مصدق لها، حيث جاء على وفق ما أخبرت به؛ لأن هذا القرآن الكريم والنبي ﷺ قد ذكرا في التوراة

والإنجيل، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾: هذا تحذير وتهديد لهم إذا تأخروا عن الإيمان أن يحصل لهم هذا.

وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾: هذا الطمس اختلف العلماء فيه، فقيل: إنه طمس معنوي بحيث لا ترى الحق، ولا تسمعه، ولا تنتفع به، ويردها الله على أعقابها فتهوي في الكفر.

وقيل: بل هو طمس حسي، وذلك بأن تطمس الوجوه حتى تكون كخف البعير ليس فيها عين ولا أنف ولا شفة ولا حاجب، بل هي كالقفا تماماً، فكما أن قفا الرأس ليس فيه شيء من ذلك، فهذه أيضاً تطمس حتى تكون وجوههم كأقفائهم، ثم بعد ذلك: ترد على الأدبار.

وقيل المراد بالطمس: طمس حسي، ولكن هو أن تلوى الأعناق وتكون الوجوه من الخلف، وهذا معنى قوله: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ والقاعدة التفسيرية: أنه إذا كانت الآية تحتمل وجهين لا يناقض أحدهما الآخر فإنها تحمل على الوجهين جميعاً؛ لأن كلام الله معناه واسع، فإذا كان اللفظ يحتمل هذا وهذا، وليس بينهما مناقضة، فالواجب حمله على الوجهين، فهنا نقول: إن الله تعالى هددهم بالطمس الحسي والطمس المعنوي.

قوله: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ أي: نطردهم عن

رحمتنا ونوقع بهم من النكال ما وقع لأصحاب السبت، والذي وقع لأصحاب السبت هو أنهم قيل لهم: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥] فكانوا قردة خاسئة ذليلة تتعاوى، والعياذ بالله.

والفرق بين التهديدين: أن الأول حسي خاص بجزء من البدن وهو الوجه، أما الثاني فهو عام يقلب الصورة كاملة والعياذ بالله إلى صورة قرد.

ويُذكر أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه لما سمع بهذه الآية أقبل مسرعاً ويده على وجهه يخشى أن يطمس، حتى جاء إلى الرسول ﷺ وآمن به، وكذلك يذكر عن كعب الأحبار في عهد عمر رضي الله عنه، والله أعلم، ولكن لا شك بأن المؤمنين منهم سوف يخافون هذا الأمر.

فإن قال قائل: إنهم لم يؤمنوا ولم يقع بهم هذا التهديد، فما الجواب؟

فالجواب: أنه لما آمن بعضهم ارتفع هذا التهديد؛ لأن هذا التهديد معلق بما إذا لم يؤمن أحد منهم، وقيل: إن الله عزّ وجل هددهم بهذا، والتهديد قائم إلى يوم القيامة، فإذا قدر أنه لم يقع فيما مضى فإنه متوقع؛ لأن الله سبحانه هددهم به فقال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾.

والوجه الأول قد يكون أقرب؛ لأن تهديد أهل الكتاب الذين في عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام بأمر لا يكون إلا قبيل قيام الساعة لا معنى له، ولا وجه له، فيقال: إنه لما آمن بعضهم رفع عنهم هذا التهديد، وقامت الحجة على الباقين، حيث آمن من كان منهم واعترف بالحق.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ نعم والله، أمر الله مفعول، ومن يرد أمر الله؟ لا أحد يرده، فأمر الله لا بد أن يقع.

والأمر هنا بمعنى المأمور؛ يعني كان مأمور الله؛ أي: ما أمر به (مفعولاً).

ويحتمل أن يكون الأمر هو الأمر الكوني؛ أي: القضاء، ويكون المفعول بمعنى الواقع، وأياً كان، سواء قلنا: إن الأمر بمعنى المأمور، وهذا لا بعد فيه؛ لأن الأمر مصدر، والمصدر يأتي أحياناً بمعنى اسم المفعول؛ كقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] أي: وأولات المحمولين؛ لأن الأحمال جمع حمل، والحمل هو الجنين في البطن، وكما في قوله ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[1] أي: مردود.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ وجوب الإيمان بالقرآن الكريم على أهل الكتاب، لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ﴾.

٢ ـ إقامة الحجة على هؤلاء الذين أوتوا الكتاب وكفروا بمحمد ﷺ؛ لأنه لا عذر لهم؛ لأنهم أوتوا الكتاب فعندهم علم، ولأن الذي نزل على محمد ﷺ مصدق لما معهم، فليس لهم عذر، كتابهم بين أيديهم، وهو وسيلة العلم، ثم مجيء هذا القرآن مصدقاً لما معهم يثبت أن محمداً ﷺ حق، فوجب عليهم الإيمان به.

٣ ـ إثبات أن القرآن كلام الله، ووجهه قوله: ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾،

---

(١) تقدم ص١٦٩.

فإن قال قائل: التنزيل الذي يضاف إلى الله قد يكون في أمر مخلوق؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]؟

فالجواب عن ذلك يحصل بالتفصيل الآتي: وهو أن المنزل من عند الله ينقسم إلى قسمين:

أعيان، وأوصاف، فالأعيان بائنة منفصلة عن الله فتكون مخلوقة، مثل قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، فهذه أعيان بائنة منفصلة عن الله فتكون مخلوقة.

والقسم الثاني: أوصاف لا تقوم إلا بموصوف، مثل: الكلام، فالكلام صفة لا تقوم إلا بموصوف، فإذا أضاف الله إنزال الكلام إليه، فهو من صفاته، وهي غير مخلوقة، وعلى هذا فالقرآن غير مخلوق.

٤ ـ إثبات علو الله، ووجهه قوله: ﴿نَزَّلْنَا﴾ لأن النزول إنما يكون من الأعلى وهو كذلك، وأدلة علو الله عزّ وجل سبقت مراراً، وقلنا: إن علو الله عزّ وجل ينقسم إلى قسمين:

قسم حسي، وقسم معنوي، فالقسم المعنوي متفق عليه بين أهل الملة، حتى أهل التعطيل يدعون أنهم يعطلون تنزيهاً لله عن النقص، فالعلو المعنوي لا أحد ينكره من أهل الملة، فكل أهل القبلة يقرون به.

والعلو الحسي الذاتي: هو الذي أنكره من سوى أهل السنة والجماعة، وقالوا: إن الله ليس عالياً بذاته، بحجة باطلة، وقد

بينا فيما سبق أن العلو الذاتي قد دل عليه من الأدلة خمسة أنواع: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة، وبينا وجه ذلك.

٥ ـ أن القرآن الكريم مصدق للكتب السابقة يشهد لها بالصدق، ومصدق لها حيث جاء مطابقاً لما أخبرت به، فهو لا يتنافى معها ولا يتنافر معها، لكن الشرائع تختلف باختلاف الأمم، حتى باختلاف الأحوال، حتى في الشريعة الإسلامية تختلف الشرائع باختلاف الأحوال، فالفقير لا زكاة عليه، والغني عليه زكاة، وهذا اختلاف، إذ كيف يقال هذا الرجل الذي هو اسمه زيد عليه زكاة، وهذا الرجل الذي اسمه عمرو لا زكاة عليه؟ نقول: نعم؛ لأن الأول غني والثاني فقير.

فالشرائع تختلف، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، لكن أصول الملل ثابتة واحدة، وهذا الكتاب العزيز مصدق لما بين يديه، وفي سورة المائدة بين الله عزّ وجل أنه مهيمن على ما سبق، ومعنى مهيمن: أي مسيطر، فالهيمنة على الشيء السلطة والسيطرة، وإذا كان كذلك لزم أن يكون ناسخاً لما سبق.

٦ ـ تهديد أهل الكتاب إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن بهذين الوعيدين: طمس الوجوه وردها على أدبارها، والثاني: أن يلعنوا كما لعن أصحاب السبت.

٧ ـ تحاشي التعبير بالمواجهة عند المؤاخذة، فهنا قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ ولم يقل: «وجوهكم»، وكان مقتضى السياق أن يقول: من قبل أن نطمس وجوهكم؛ لأنهم هم المهددون، لكن أتى بها على صيغة النكرة تحاشياً للمواجهة

بالمؤاخذة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: قد يقال: إن المراد بالتنكير هنا التعظيم؛ أي: وجوهاً معظمة عندكم فتطمس، وهي وجوه زعمائهم الذين صدوهم عن سبيل الله عزّ وجل.

٨ ـ أن الإحالة على المعلوم تصح ولو بلفظ الإبهام، وتؤخذ من قوله: ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾؛ لأنه إذا قال قائل: ما هي اللعنة التي حلت بأصحاب السبت، ومن هم أصحاب السبت؟ فنقول: ذكروا هنا على سبيل الإجمال؛ لأن أمرهم معلوم، وهذا يشبه ما يقول النحويون في «ال» التي للعهد الذهني.

٩ ـ أن الله سبحانه يذكر نفسه بلفظ العظمة: «نطمس، نرد، نلعن، كما لعنا»، وذلك لأن المقام يقتضي ذلك، فالمقام مقام تهديد، ولا بد أن يظهر المهدِّد عظمته أمام المهدَّد، وهذا في غاية البلاغة، وهي مراعاة المخاطب.

١٠ ـ تفضيل تغيير الأسلوب إذا اقتضت الحاجة ذلك، لقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ ولم يقل: وكان أمرنا مفعولاً، ففي الآية التفات من الخطاب إلى الغَيبة؛ لأن قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ تحدث عن غائب، لكن قوله: ﴿نَّطْمِسَ﴾ وما أشبه ذلك، هذه تحدث عن متكلم، ففيه التفات من التكلم إلى الغيبة للتعظيم؛ لأن قول العظيم فعل فلان كذا يعني نفسه، أبلغ من قوله: فعلت كذا.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ﴾: تحدث سبحانه عن نفسه بصيغة الغائب تعظيماً له، كما يقول الملك لجنوده: إن الملك يأمركم أن تتجهوا إلى المكان الفلاني، فيكون هذا من باب التعظيم؛ أي: أن تحدث المتحدث عن نفسه بصيغة الغائب يعتبر تعظيماً.

وقوله: ﴿لَا يَغۡفِرُ﴾، المغفرة الستر مع التجاوز، ويدل لكون المعنى مركباً من الستر والتجاوز الاشتقاق؛ لأن المغفرة مأخوذة من المِغْفَر، وهو الذي يوضع على الرأس، ويسمى البيضة، يتقى به السهام، وإذا وضع على الرأس واتقى به السهام صار فيه ستر ووقاية.

فقوله: ﴿لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ أي: لا يتجاوز ولا يستر الإشراك به.

وقوله: ﴿أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ ﴿أَن﴾ هذه مصدرية، وأن المصدرية من الحروف الموصولة فتسبك مع ما بعدها بمصدر، ويكون التقدير على هذا: إن الله لا يغفر إشراكاً به، وإذا حولنا هذا الفعل مع ﴿أَن﴾ إلى مصدر صار نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي للعموم.

وقوله تعالى: ﴿أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ يشمل الإشراك في الربوبية والإشراك في الألوهية الذي هو الإشراك في العبادة، والثالث الإشراك في الأسماء والصفات، فالله لا يغفره؛ لأن جانب التوحيد أعظم الجوانب حقاً أن يوفى به، فإذا أخل به الإنسان فإن الله سبحانه لا يغفره، بخلاف المعاصي الأخرى التي دونه أو التي سوى الشرك فإن الله يغفرها، فمن اعتقد أن مع الله خالقاً فهو مشرك، أو أن لأحد من الخلق شيئاً ينفرد به دون الله فهو

مشرك، فمن قال: السماء لله والأرض لغير الله، ومن قال: السماء والأرض مشتركة بين الله وغيره، فهو مشرك، ومن قال: إن الله له معين في خلق السماوات والأرض فهو مشرك، وكل هذا لا يغفره الله.

وفي العبادة: من سجد لغير الله، أو نذر لغير الله، أو ذبح لغير الله؛ فهو مشرك، ومن أشرك بالله في العبادة رياءً فهو مشرك، فالرياء شرك بنص الحديث، إذاً: الرياء لا يغفر.

كذلك من زعم أن لله مثيلاً في صفاته، أو أن استواء الله على العرش كاستواء الإنسان على السرير، وأن نزول الله إلى السماء الدنيا كنزول الإنسان من السطح إلى أسفل الدرجة وما أشبه ذلك، فهو مشرك. وكل هذا لا يغفره الله.

قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، هل المراد بقوله: ﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما سوى ذلك أو ما هو أصغر من ذلك؟

هل هو من الدون الذي هو الأصغر أو من الدون الذي هو السوى؟ الجواب يتعين أن يكون ﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما هو أصغر، وهو مأخوذ من الدون الذي هو أقل، لا من الدون الذي بمعنى سوى؛ لأننا لو فسرناه بمعنى ما سوى ذلك لكان كفر الجحود داخلاً في الآية وليس كذلك؛ أي: لزم أن يغفر الله كفر الجحود؛ لأنه سوى الشرك، فلو قال شخص: إن الله لم يرسل محمداً ﷺ مثلاً، فهذا ليس بشرك، وليس بمغفور.

قوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: للذي يشاء، فعلى هذا يكون الشرك وما كان بمنزلته من كفر الجحود ونحوه غير مغفور، وما

دون ذلك فهو تحت المشيئة، فليس مغفوراً ولا مؤاخذاً به، بل هو تحت المشيئة.

ثم إننا نقول: كل شيء قيده الله سبحانه بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة، إن اقتضته الحكمة شاءه الله، وإن لم تقتضه فإنه لا يشاؤه؛ لأن فوات الحكمة سفه، والله تعالى منزه عنه، ويدل لهذا القيد أن كل ما قيده الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة، قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾ [الإنسان: ٣٠] فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أعقبها قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، فبين أن مشيئة الله تابعة لعلمه وحكمته.

قوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ صدق ربنا، من يشرك بالله فهذا أعظم مفتر، يعني: من يشرك بالله في ربوبيته، أو في عبادته، أو في أسمائه وصفاته، فقد افترى إثماً عظيماً؛ أي: كذب كذباً عظيماً، أو كذب كذباً يستحق به الإثم العظيم؛ لأن أعظم ذنب كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»[1] إذ كيف تجعل لله نداً وهو الذي خلقك، هذا أعظم شيء ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؛ فهذا معنى الآية.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ عظم الشرك، وأن الله سبحانه لا يغفره لأنه أعظم

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة البقرة، حديث رقم (٤٢٠٧)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، حديث رقم (٨٦).

ذنب، فقد سئل النبي ﷺ: «**أي الذنب أعظم؟**» قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»[(١)].

٢ ـ إثبات الأفعال الاختيارية لله عزّ وجل، وكثير من المعطلة الأشاعرة والمعتزلة ونحوهم ينكرون أن يقوم بالله فعل متعلق بإرادته؛ لأنهم يقولون: إن الأفعال المتعلقة بالإرادة حادثة، والحادث لا يقوم إلا بحادث، ولا شك أن هذا كذب في التصور؛ لأن الشيء الحادث يمكن أن يقوم بالأزل، كما أن الشيء الحادث الذي حدث اليوم يمكن أن يقوم بمخلوق خلق قبل خمسين سنة، فلا يلزم من حدوث الفعل أن يكون الفاعل حادثاً.

٣ ـ أن ما دون الشرك تحت المشيئة، لقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ وليس مجزوماً بمغفرته، ولا مجزوماً بالمؤاخذة عليه، وإنما هو تحت المشيئة.

ويتفرع على هذه الفائدة: رد كلام المسوفين الذين يفعلون ما يفعلون من المعاصي ثم يقولون: إن الله يغفر ما دون الشرك لمن يشاء، فنقول لهم: ما الذي أدراك أن تكون أنت ممن شاء الله أن يغفر لك؟ فلو فرضنا أن عملك المعصية يمكن أن يغفر لكنه ليس بمتيقن، فالمعصية مفسدة ظاهرة حاصلة، ومغفرتها مصلحة؛ لكنها تحت المشيئة فقد تحصل وقد لا تحصل.

٤ ـ وجوب توحيد الله، لكون الشرك لا يغفر، ويلزم من ذلك أن يكون توحيد الله واجباً، بل وأوجب الواجبات، فيجب أن يوحد الله عزّ وجل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

---

(١) تقدم ص٣٨٩.

٥ ـ أن المشرك مفترٍ على الله، لقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

٦ ـ أن هذا الكذب من أعظم الكذب، لقوله: ﴿إِثْمًا عَظِيمًا﴾ وفي آية أخرى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، فهو ضال في دينه، وهو أيضاً مفتر إثماً عظيماً في قوله.

٧ ـ إثبات المشيئة لله، لقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، ولكن سبق في التفسير أن كل شيء علقه الله بالمشيئة فهو مقرون بالحكمة، واستدللنا لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠]، وظاهر قوله تعالى: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ أنه شامل للشرك الأصغر والشرك الأكبر، وبذلك صرح شيخ الإسلام رحمه الله في كتاب الاختيارات، أن الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، ولكن يجب أن نعلم أنه ليس معنى قولنا: إن الشرك الأصغر لا يغفر أن صاحبه يخلد في النار، بل يعذب على قدر عمله ثم يدخل الجنة، أما الشرك الأكبر فلا يغفر وصاحبه مخلد في النار، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء: ٤٩].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ﴾: الاستفهام هنا للتعجب والتقرير، يعني: ألا تتعجب من حال هؤلاء القوم، والخطاب في

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إما لرسول الله ﷺ، والخطاب الموجه إليه موجه للأمة عن طريق التبع؛ لأن الأمة فرع.

وقيل: إن الخطاب موجه لكل من يتأتى خطابه؛ أي: لكل من يصح توجيه الخطاب إليه، والثاني أعم؛ لكن القولين لا يتنافيان؛ أي: حتى لو قلنا إن أصل الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام فخطاب الزعيم خطاب له ولمن تبعه.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ جواب الاستفهام محذوف أي: أتحصل لهم التزكية، فهذا هو المعنى؛ لأنه إذا جاء مثل هذا الكلام فلا بد أن يكون هناك جملة استفهامية إما مذكورة وإما محذوفة.

وقوله: ﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: ينسبونها إلى الزكاء وهو ضد الشقاء، والمراد بهؤلاء كل من زكى نفسه، وأول من يدخل في ذلك اليهود والنصارى؛ لأن اليهود والنصارى قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] فزكوا أنفسهم بالعمل والجزاء عليه، زكوا أنفسهم بالعمل حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وزكوا أنفسهم بالثواب عليه حيث قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، وزكوا أنفسهم أيضاً من وجه آخر بالجزاء: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾، ومن كان مثلهم؛ أي: من زكى نفسه فإنه آخذ بنصيب من مشابهتهم، فمن قال: أنا ولي، أو أنا تقي، أو ما أشبه ذلك، فقد زكى نفسه، ولا سيما ما يحصل من بعض مشايخ الصوفية الذين يغرون الناس فيقولون:

نحن أولياء، ونحن أصفياء وما أشبه ذلك، فهم يزكون أنفسهم من أجل أن يغتر الناس بهم.

وقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ ﴿بَلِ﴾ هنا للإضراب الإبطالي؛ لأن التقدير: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أتحصل لهم التزكية؟ الجواب: لا تحصل لهم التزكية، ولو كان كل من زكى نفسه حصل له التزكية لكان أخبث الناس يزكي نفسه، فالآن الذين يعبدون الأصنام، أو يعبدون البقر، أو يعبدون الأشجار يقولون: نحن على حق، فيزكون أنفسهم، لكن ترجع التزكية إلى الله، ولهذا أبطل الله هذه التزكية كلها، وقال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾، فقوله «بل» هنا للإضراب الإبطالي.

و﴿بَلِ﴾ تأتي للإضراب الإبطالي، وتأتي للإضراب الانتقالي، فقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل: ٦٦] هذا إضراب انتقالي من شيء لآخر، والشيء الأول باق، ولكن تنقل بين الأحوال إلى أن يصلوا إلى هذا الحد.

فالحاصل أن الإضراب يكون إبطالياً ويكون انتقالياً.

وقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾: فهو الذي ـ يزكي عزّ وجل ـ، وهو الذي يثني، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ [الحديد: ١٠]، فأعطى الله تعالى التزكية لهؤلاء، كل بحسب حاله، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ﴾ فأعطى هؤلاء

نصيبهم من الزكاة، وهؤلاء نصيبهم، ثم زكى الجميع على وجه عام فقال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥]، فالله تعالى هو الذي يزكي.

وكذلك رسوله ﷺ يزكي أيضاً، فيقول مثلاً: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»(١)، ومن زكاه الرسول ﷺ فهو زكي؛ لأن النبي ﷺ في مثل هذه الأمور لا ينطق إلا عن وحي.

وقوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ هذا تابع للحكمة أيضاً، وكل فعل مقيد بالمشيئة فهو تابع للحكمة، فيزكي عزّ وجل من كان أهلاً للزكاء، سواء كان الزكاء بعد العمل أو قبل العمل، فمثال التزكية بعد العمل ما ذكرنا من الآيات، والتزكية قبل العمل أن يهب الله للإنسان العمل الصالح، فإنه كما أنه أعلم حيث يجعل رسالته، فهو يعلم حيث يجعل أثر هذه الرسالة، وهي الإيمان والعمل الصالح، فتزكية الله تزكية قبل العمل وتزكية بعده، وهو سبحانه يزكي من يشاء قبل العمل وبعده، وإذا قلنا إن المشيئة تابعة للحكمة، فإنه لن يزكي إلا من كان أهلاً للزكاء.

ثم قال: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ الواو للجماعة، وقوله: ﴿لِمَن

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، حديث رقم (٣٤٥١)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم..، حديث رقم (٢٥٣٣).

﴿يَشَآءُ﴾، مَنْ: اسم موصول لفظه مفرد، فهنا: عاد الضمير إلى مَنْ باعتبار المعنى.

والمراد بقوله: ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: من زكاهم الله عزّ وجل، أو: ولا يظلم من زكوا أنفسهم، فلن يعاقبوا إلا على حسب أعمالهم السيئة، وسواء كان المعنى هذا أو هذا فإن الله لا يظلم أحداً، فلا يزيد من سيئاته، ولا ينقص من حسناته.

وقوله: ﴿فَتِيلًا﴾ الفتيل: قيل: إنه الفتيل الذي في باطن النواة، فالنواة فيها ثلاثة أشياء كلها مذكورة في القرآن: القطمير والنقير والفتيل، فالقطمير السلب الذي على النواة، والنقير النقرة التي في ظهرها، والفتيل الخيط الذي في بطنها.

وقيل: إن الفتيل ما تفتله بين أصابعك، حال العرق، فإن الإنسان إذا عَرِق وفتل أصابعه حصل شيء، وكذلك إذا حك صدره أو ظهره ظهر الفتيل، لكن الأول هو المشهور، وهو أن الفتيل هو الخيط الذي يكون في بطن النواة، وهو يضرب مثلاً في القلة.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ الإنكار على من يزكي نفسه، وجه ذلك أن قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهام إنكاري.

٢ ـ النهي عن تزكية النفس؛ لأن الله تعالى أنكر ذلك، كما صرح به في قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

ومن فروع هذا: قول الإنسان: أنا مؤمن، فهل يجوز

للإنسان أن يقول: أنا مؤمن! أو لا بد أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، الجواب: في هذا قولان للعلماء:

فمنهم من قال: لا يجوز أن يقول: أنا مؤمن إلا باستثناء؛ لأن الإنسان لا يدري ماذا يموت عليه، والعبرة بالعاقبة، فقد يكون الإنسان اليوم مؤمناً، ويكون غداً كافراً، ولا يجوز الجزم بشيء مستقبل.

ومنهم من قال: لا يجوز أن يقول: أنا مؤمن، لا لهذه العلة، ولكن لأنه يلزم من قوله هذا تزكية النفس، والشهادة لنفسه بالجنة؛ لأنه إذا قال: أنا مؤمن، فكل مؤمن في الجنة، فيلزم على هذا أن يجزم بأنه من أهل الجنة، وهذا لا يجوز.

ومنهم من علل بعلة ثالثة، وقال: إن الإيمان على وجه الإطلاق يراد به الإيمان المطلق المتضمن لفعل الواجبات، وترك المحرمات، وفعل المستحبات، وترك المكروهات، وهذا لا يمكن أن يجزم به العبد، فما أكثر المستحبات التي لا يفعلها، بل والواجبات، وما أكثر المكروهات التي يفعلها بل والمحرمات، وعلى هذا فيجب أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله!

وقال آخرون: لا يجوز أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله؛ لأن هذا شك، والشك في الإيمان كفر، إذ إن الواجب في الإيمان الجزم، والتردد فيه كفر.

ولكن القول الراجح في هذه المسألة أن يقال: إن قول الإنسان: أنا مؤمن، إما أن يقرنه بالمشيئة أو لا يقرنه، فإن لم يقرنه بالمشيئة فله حالان:

الأولى: إذا كان الحامل له تزكية النفس فهذا قول حرام؛

لأن الله يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [النجم: ٣٢]، ثم إن هذا فيه الإدلال على الله والمنة عليه، والله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [الحجرات: ١٧] فإذا كان قوله: أنا مؤمن للإعجاب بالنفس فهذا لا يجوز؛ لأنه تزكية للنفس ومنهي عنه فيكون حراماً.

الحالة الثانية: إن كان المقصود بذلك مجرد الخبر، بأن يعني بقوله: أنا مؤمن؛ أي: لست بكافر؛ فهذا لا بأس به، وقد قال النبي ﷺ للقوم الذي لقيهم في طريقه إلى الحج: «**من القوم؟**» قالوا: «المسلمون»[1] فأقرهم النبي ﷺ على ذلك؛ لأنهم يريدون بذلك الخبر، فإذا قال الإنسان: أنا مؤمن يعني: لست بكافر، فلا بأس، ولا يلزم على ذلك اللوازم التي ذكرها من منع قوله: أنا مؤمن، وإذا قرنه بالمشيئة فله ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون الحامل على ذلك قصد التردد فهو كفر، كما إذا قيل له: أنت مؤمن؟ فقال: إن شاء الله، متردداً، فهذا كفر؛ لأنه لا إيمان مع شك، بل لا بد من الجزم.

الثانية: إذا كان الحامل له على ذلك بيان أن إيمانه كان بمشيئة الله لا بحوله ولا بقوته، فهذا لا بأس به؛ لأن الشيء المحقق قد يربط بالمشيئة إشارة إلى أنه واقع بمشيئة الله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] أي: لتدخلنه بمشيئته؛ لأن الجملة هنا: خبر مؤكد

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحج، باب صحة حج الصبي وأجر من حج به، حديث رقم (١٣٣٦).

بثلاث مؤكدات، ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾، ورسول الله ﷺ لما قال له عمر رضي الله عنه: ألست تقول: إننا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال له الرسول ﷺ: «**أقلت لك هذا العام؟**» قال: لا، قال: «**إنك آتيه ومطوِّف به**»[1] قال ذلك في المحاورة بينه وبين عمر رضي الله عنه في مسألة صلح الحديبية.

ومن ذلك أيضاً قول زائر المقبرة: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»[2]، فإن اللحوق بهم مؤكد، والموت لا ينكره أحد، لكن المراد بـ«إن شاء الله»؛ أي: لاحقون بمشيئة الله، فمتى شاء الله لحقنا بكم.

الثالثة: إذا كان قصده بإن شاء الله دفع التزكية؛ أي: دفع تزكية النفس، وأنه يخشى على نفسه أنه إن لم يقل: إن شاء الله صار في نفسه شيء من التزكية، فهنا يكون قوله: إن شاء الله واجباً.

وهذا التفصيل هو الذي تجتمع به الأدلة.

٣ ـ أن تزكية الغير لا بأس بها؛ لأن النهي أو الإنكار منصب على تزكية النفس، أما لو زكى غيره فإن ذلك لا بأس به، وهنا لا يزكي غيره بمجرد المظهر، ولا بد من خبرة، فلا يكفي أن ترى مظهر الشخص وتقول: إنه عدل ثقة، بل لا بد من خبرة؛

---

(١) رواه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، حديث رقم (٢٥٨١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان.

(٢) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، حديث رقم (٢٤٩) عن أبي هريرة.

لأنه قد لا يكون عدلاً، وقد يكون مرائياً منافقاً مخادعاً، وربما يكون عدلاً في دينه ولكن عنده سوء حفظ، فإذا زكيته فيما يتعلق بالخبر كالشهادة مثلاً دون أن تخبره صار ذلك شهادة بما لا تعلم، فلو قال شخص: زك فلاناً، فإنه شهد عندي بشيء، فقد أزكيه من جهة دينه وأعرف أنه رجل مستقيم في الدين، يصلي ويزكي ويصوم، لكن من جهة الحفظ ـ والمسألة مسألة شهادة خبرة ـ، فلا بد أن يكون عندي علم بباطن حاله واختبار، فلا تجوز التزكية في مثل الأخبار إلا إذا عرفت أن الرجل حافظ.

٤ ـ أن الأمر إلى الله عزّ وجل في تزكية الإنسان ورفع التزكية عنه، وتؤخذ من قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾، فالحكم بالتزكية إثباتاً أو نفياً إلى الله وحده، فهو الذي يزكي من يشاء.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

فالجواب: إن كان الفاعل في قوله: ﴿زَكَّىٰهَا﴾ هو الله فلا إشكال؛ لأن المزكي هو الله في هذا وفي هذا، وإن كان ضمير الفاعل يعود على الإنسان، يعني: قد أفلح من زكى نفسه وقد خاب من دس نفسه، فالجمع أن نسبة التزكية إلى الإنسان هنا نسبة شيء إلى سببه لا إلى حصوله، فالإنسان يفعل الطاعة فيكون زكياً، فيكون المراد بالتزكية فعل سببها، وعلى هذا فلا إشكال أيضاً.

٥ ـ أنه يجب على الإنسان أن يلجأ في طلب التزكية إلى الله، لقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ فأنت إذا علمت أن الله هو الذي يزكي فاسأل الله، ولهذا كان من الدعاء المأثور: «**اللهم**

أعط نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»[١].

٦ ـ الرد على القدرية، الذين يقولون باستقلال الإنسان في عمله، ويؤخذ من قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾.

٧ ـ إثبات المشيئة لله عزّ وجل، لقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، وأن الله سبحانه له مشيئة، يدبر الأمر بحسب هذه المشيئة، ولكن هذه المشيئة ليست مشيئة مطلقة بل مشيئة مقرونة بالحكمة.

٨ ـ نفي الظلم عن الله، لقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، والظلم محرم على الله حرمه على نفسه جل وعلا، ففي الحديث القدسي: «**يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً**»[٢]، وفي هذا نكتة جيدة، وهو أن الله يفرض على نفسه ويحرم على نفسه؛ لأن الله هو الذي يدبر الأمر، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وكتب بمعنى: فرض، فقد فرض على نفسه، وهنا في الحديث القدسي: «**إني حرمت الظلم على نفسي**»[٣].

وليس في صفات الله ما هو نفي محض، فكل نفي في صفات الله فهو متضمن لإثبات، فقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾؛

---

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، حديث رقم (٢٧٢٢) عن زيد بن أرقم.

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم (٢٥٧٧) عن أبي ذر.

(٣) تقدم الحديث السابق.

أي: لأن الله كامل العدل، ومن كان كامل العدل فإنه لا يظلم فتيلاً.

قال أهل العلم: ولا يمكن أن يكون في صفات الله نفي محض لا يتضمن مدحاً، وعللوا ذلك فقالوا: النفي إن لم يتضمن كمالاً فقد يكون نقصاً، وقد يكون لا نقصاً ولا كمالاً، فالأقسام ثلاثة: نقص، وكمال، ولا هذا ولا هذا، فالنقص وكونه لا هذا ولا هذا ممتنع عن الله، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

فإذا قلت مثلاً: إن الجدار لا يظلم، والخشبة لا تظلم، والسيارة لا تظلم، فهذا لا يتضمن كمالاً ولا نقصاً؛ لأنه غير قابل لأن يوصف بالظلم أو عدمه، إذ إن الجدار ليس له إرادة حتى يظلم أو لا يظلم.

ومثال ما يكون فيه نفي الظلم نقصاً قول الشاعر:

قبيّلة لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقوله: «لا يغدرون بذمة» لا يعني أن عندهم وفاء، قوله: «ولا يظلمون الناس حبة خردل» لا يعني أن عندهم عدلاً، فإن الشاعر لم يقصد ذلك، وإنما قصد بيان ضعفهم وعجزهم، بدليل أنه قال: «قبيَّلة» بالتصغير.

وكذلك قول الحماسي:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا

أي: إذا ظلمهم أحد صبروا وغفروا، وإذا أساء إليهم إنسان أحسنوا إليه، فإذا أخر عليهم المزرعة أرسلوا له أكياساً من البر، فهم يجزون من سوء أهل السوء إحساناً.

ومن سمع هذا الكلام قال: هؤلاء الجماعة طيبون، لكن قال فما بعده:

فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا شنوا الإغارة فرساناً وركباناً

يعني: ليت لي بدلاً منهم، إذاً: هم ضعفاء لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك، فهذا نقص، فإذا نفى الله عن نفسه الظلم فلا يمكن أن يكون من هذا ولا من الذي قبله، ولكنه من نفي الظلم المتضمن لكمال العدل.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ۝٥٠﴾ [النساء: ٥٠].

﴿ٱنظُرۡ﴾ الخطاب إما للرسول ﷺ، أو لكل من يصح توجه الخطاب إليه، وسبق أن الخطاب الموجه للرسول عليه الصلاة والسلام، ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما دل الدليل على أنه خاص به فهذا خاص به، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١ ـ ٢] فقوله: ﴿لَكَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، ولا يشمل الأمة؟ وقوله: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١﴾ [الشرح: ١] لا يشمل الأمة، وقوله: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى: ٦] لا يشمل، وقوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾ [النساء: ٧٩] لا يشمل، وهذا واضح؛ لأنه خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام بلا نزاع ولا إشكال.

القسم الثاني: ما دل الدليل على أنه عام، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]...

الآية، فهنا دل الدليل على أن الخطاب ليس خاصاً به، ووجه الدلالة قوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ ولم يقل: «إذا طلقت».

القسم الثالث: ما لا دليل فيه على الخصوصية أو على العموم، فالعلماء اختلفوا فيه على قولين:

القول الأول: أنه عام موجه لكل من يصح توجه الخطاب إليه.

القول الثاني: أنه خاص بالرسول ﷺ، ويكون شموله للأمة من باب العموم المعنوي لا العموم اللفظي، وذلك لأن الحكم الثابت في حق الرسول ﷺ حكم له وللأمة، لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وما هنا فهو من القسم الثالث، الذي ليس فيه دليل على هذا ولا على هذا.

والمراد بالنظر في قوله: ﴿ٱنظُرْ﴾ النظر العقلي لا النظر البصري؛ لأن افتراء الكذب على الله عزّ وجل ليس مما ينظر بالعين، ولكنه مما ينظر بالعقل وعين البصيرة.

وقوله: ﴿كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: بقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] وقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، فانظر كيف يفترون على الله الكذب، وكيف جرأتهم على الله؛ نعوذ بالله!

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾ أي: بالافتراء ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ هذه الجملة معناها التعجب، يعني: ما أكبر هذا الإثم! وهو الافتراء على الله؛ لأن الافتراء على الله أعظم افتراء على مفترى عليه، وإذا كان

النبي ﷺ يقول: «**من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[(١)]، فالكذب على الله أشد وأعظم.

وقوله: ﴿مُّبِينًا﴾ أي: بيناً، وقد ذكرنا فيما سبق: أن «أبان» الرباعي يأتي لازماً ويأتي متعدياً، فإن كان متعدياً فمعناه الإظهار، أبان: أي أظهر، وإن كان لازماً فمعناه الوضوح، تقول: أبان الفجر؛ أي: وضح وتبين، وتقول: أبان القرآن أن الكذب حرام، بمعنى: بين وأوضح، وأما قوله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ [الزخرف: ٢] من النوعين يشمل هذا وهذا، فهو بيِّن في نفسه مبين لغيره.

وإعراب هذه الجملة ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾، وهي ترد في القرآن كثيراً، مثل: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩] وهنا: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ الفاعل في ﴿كَفَى﴾ يكون مجروراً دائماً أو غالباً، فيكون مدخول الباء هو الفاعل بزيادة الباء، ويأتي بعد ذلك الاسم منصوباً فيقولون: إنه تمييز للكفاية؛ لأن الكفاية تكون في أي شيء فيميز، وبعضهم يعربه: حالاً، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: حال كونه شهيداً.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ دعوة الإنسان إلى العجب فيما يتعجب منه، وأن هذا من طرق القرآن، لقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾.

٢ ـ تعظيم الكذب على الله؛ لأنه لم يؤمر بالتعجب منه إلا

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ، حديث رقم (١١٠)؛ ومسلم في المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، حديث رقم(٣) عن أبي هريرة.

لأنه شيء عظيم، والكذب على الله يشمل الكذب عليه في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته وفي أفعاله، وفي أحكامه، وإن شئت فقل: في أحكامه الكونية والشرعية، فالكذب على الله في ذاته مثل أن يتحدث الشخص عن ذات الله عزّ وجل، فأي إنسان يتحدث عن ذات الله بغير علم فهو كاذب على الله.

والكذب على الله في أسمائه: مثلما فعل المعطلة في قولهم: إن أسماء الله مجرد أعلام لا معنى لها، فيقول: الغفور الرحيم السميع البصير العزيز الحكيم، ليس لها معنى، وما هي إلا مجرد أعلام تدل على المسمى بها ولا تحمل أي معنى، فهذا كذب على الله، كيف تقولون: إنها مجرد أعلام والله عزّ وجل يقول في القرآن إنه ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، ومقتضى هذا اللسان العربي المبين أن اسم الفاعل يدل على أصل المعنى، وثبوت أصله، ولا يمكن أن يقال لمن لم يضرب إنه ضارب، ولا لمن لم يسمع إنه سميع.

ثم إن الله قد بين أن هذا المعنى مقصود في قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: ١]، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الزخرف: ٨٠] وأمثال ذلك.

فهؤلاء الذين قالوا: إن الله أراد بأسمائه مجرد التسمية دون المعنى مفترون على الله الكذب.

وكذلك في صفاته: فمن حرف في صفات الله، وقال: المراد بالاستواء الاستيلاء، فهذا مفتر على الله الكذب، فالله عزّ وجل يقول عن نفسه: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]،

والقرآن بلسان عربي مبين، واستوى على كذا باللسان العربي معناه: علا عليه واستقر عليه، فإذا قال: استوى بمعنى استولى، فقد كذبوا على الله، ونحن نجزم أن الله لم يرده؛ لأن الله قال في القرآن: إنه بلسان عربي مبين، واللسان العربي المبين لا يقتضي سوى أنه علا عليه واستقر عليه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] أي: صيرناه بلسان عربي، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: تفهمون معناه على مقتضى هذا اللسان العربي.

والذين يقولون: هذا حرام، وهذا حلال، بدون علم، قد افتروا على الله الكذب، لماذا؟ ما الذي أدراهم أن الله حرم هذا أو أوجبه، ولهذا كان من ورع الإمام أحمد رحمه الله كما نقله عنه شيخ الإسلام رحمه الله أنه لا يمكن أن يقول: هذا حرام إلا بما نص على تحريمه، فالميتة يقول إنها حرام؛ لأنه منصوص عليها، ونكاح الأم يقول إنه حرام لأنه منصوص عليه، أما الذي هو نهي فإنه يقول: أكره هذا، لا يعجبني، أستقبحه، وما أشبه ذلك.

ومع هذا فقد حفظ الله له هذا الطريق، فقال أصحاب الإمام أحمد رحمه الله: إذا قال الإمام أحمد: لا يعجبني، فهو للتحريم، وإذا قال: أكره هذا فهو للتحريم، فالله سبحانه قد حفظه فيما يريده من الأحكام، مع تورعه عن إطلاق الحرام إلا على ما كان مصرحاً به، فما بالك بمن يقول الآن: قال الإسلام كذا وكذا؟ ومع ذلك تجده من أجهل الناس بأحكام الإسلام، ثم ينسب هذا القول الذي قاله وهو خطأ إلى الإسلام، وإذا تبين للناس أنه خطأ فسوف يخطئون الإسلام.

فالحاصل: أن الافتراء على الله كذباً يشمل الكذب عليه في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، وفي أحكامه الكونية والشرعية.

ومثال الكونية أن يقول: إن جزاء هذا الذنب كذا وكذا من العقوبات، بلا علم، مثل أن يقول: إذا نهر الإنسان والديه تزلزل العرش، من قال ذلك؟ قاله العامة! فأي إنسان يحكم بعقوبة معينة على ذنب بدون علم، فقد افترى على الله الكذب.

٤ ـ تعظيم الكذب على الله عزّ وجل لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ يعني: ما أعظمه وما أكثره، إذا افترى على الله الكذب أن يأثم هذا الإثم!

٥ ـ بيان عظم ما يحصل لهؤلاء من الإثم، لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾.

٦ ـ أن إثم هؤلاء بين ظاهر، ووجه ظهوره وبيانه: أنه إذا كان للإنسان عقل، فبدلالة العقل لا يمكن أن يتقول على أحد شيء وهو من جنسه، فتقوله على الله أعظم وأشد، ولهذا قال الله تعالى في رسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحاقة: ٤٤] وليس كل ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ [الحاقة: ٤٥] ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٦] ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٧].

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١].

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، ويقال فيها كما قيل في الآية التي قبلها: أن الاستفهام للإنكار والتعجب، كأنه يقول: تعجب من حال هؤلاء!

قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا﴾ أي: أعطوا نصيباً، وآتى تنصب مفعولين، الأول منهما: نائب الفاعل وهو الواو، والثاني قوله: نصيباً.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا﴾ أي: قسطاً من الكتاب؛ أي: الكتاب المنزل على الرسل عليهم الصلاة والسلام.

والمراد بهؤلاء اليهود؛ لأن الله آتاهم نصيباً من الكتاب وهو التوراة، ولم يعطهم علم كل شيء.

قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: هذا محل التعجب أنهم أعطوا نصيباً من الكتاب، وقامت عليهم الحجة، ومع ذلك يؤمنون بالجبت ويؤمنون بالطاغوت.

والجبت: كل ما لا فائدة فيه في الدين، ومنه السحر والكهانة والطرق، والعيافة وما أشبه ذلك، فإن هذه كلها من الجبت.

وأما الطاغوت: فالطاغوت كل ما طغى به الإنسان فهو طاغوت، قال الله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فأئمة الكفر ودعاة الكفر طواغيت، والشيطان طاغوت، ولهذا قال عمر رضي الله عنه: «الجبت السحر، والطاغوت الشيطان»، يعني: أن السحر فرد من أفراد الجبت والشيطان فرد من أفراد الطاغوت، وإلا فإن التعريف العام للطاغوت ما ذكره ابن القيم رحمه الله: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ ومعنى إيمانهم به إقرارهم إياه، وعدم إنكاره.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾:

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، قال بعض المفسرين: إن اللام هنا بمعنى في؛ أي: يقولون في شأنهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: الذين كفروا، ﴿أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾.

وقيل: إن اللام هي اللام المعدية للفعل كقوله: قلت لفلان؛ أي: هي اللام المعدية للفعل، وأن قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بمعنى: أنتم؛ أي: يقول هؤلاء للذين كفروا أنتم أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، وعلى هذا تكون الإشارة في مقام ضمير المخاطب؛ لأنك إذا قلت: قلت لفلان كذا، صار فلان مخاطباً، فلا بد أن يؤتى بضمير المخاطب، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسم إشارة ليس ضمير مخاطب لكن قالوا: إنها بمعنى أنتم، وهذا ما مشى عليه في تفسير الجلالين.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المراد بالذين كفروا أهل مكة؛ لأن طائفة من اليهود قابلوا أهل مكة، فقال لهم أهل مكة: هذا محمد فرق بيننا وبين أبنائنا، وبيننا وبين غلماننا، وبيننا وبين أزواجنا، وفرق بيننا وبين العرب، وسب آلهتنا، وسفه أحلامنا، أما نحن فإننا أهل البيت، نسقي الحجيج ونفعل كذا وكذا.. وذكروا أشياء، فأينا أهدى، أنحن أم محمد؟

فاليهود انتهزوا هذه الفرصة، وقالوا: أنتم أهدى من

محمد؛ لأنهم لا يريدون أن يقوم للنبي ﷺ قائمة، فانتهزوا هذه الفرصة أن يسألهم قوم هم شيعة محمد عليه الصلاة والسلام وقرابته، فقالوا هذا الكلام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً.

وقوله: ﴿سَبِيلًا﴾ هنا تمييز؛ لأنها وقعت بعد اسم التفضيل، والمنصوب بعد اسم التفضيل يكون تمييزاً.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٥٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: المشار إليه هؤلاء الذين أوتوا نصيباً وقالوا للكفار: أنتم خير فأنتم أهدى من الذين آمنوا سبيلاً.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ هذه الجملة تفيد الحصر، لتعريف طرفيها المبتدأ والخبر، فالمبتدأ «أولاء» وهو اسم إشارة معرفة، والخبر: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وهو اسم موصول معرفة.

قوله: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾؛ أي: طردهم وأبعدهم عن رحمته، والعياذ بالله.

قوله: ﴿وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾:

«مَن»: اسم شرط، و﴿يَلۡعَنِ﴾ فعل الشرط مجزوم به، ولكنه حُرِّك بالكسر لالتقاء الساكنين.

قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ أي: لن تجد له من ينصره فيقربه من رحمة الله، ويدخله برحمة الله؛ لأن الله سبحانه إذا أراد بقوم سوء فلا مرد له.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ التعجب من حال هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، ومع ذلك ينكرون ما دل عليه الكتاب.

٢ ـ بيان قبح صنيعهم، حيث إن الله قد أعطاهم نصيباً من الكتاب، ومع ذلك قالوا للكفار إنهم أهدى من المؤمنين، ومعلوم أن من حكم بخلاف ما يعلم فهو أقبح ممن حكم بما لا يعلم، والكل قبيح، لكن الأول أشد!

٣ ـ بيان حقد اليهود على المؤمنين.

٤ ـ أنهم يؤمنون بالجبت ويؤمنون بالطاغوت، فلا ينكرون الجبت ولا الطاغوت بل يقرونه.

٥ ـ الإشارة إلى أن أصل السحر متلقى من اليهود، ولهذا سحروا النبي ﷺ، فإن لبيد بن الأعصم سحر النبي ﷺ بسحر عظيم، ولكن الله حمى نبيه ﷺ من أن يؤثر فيه ذلك التأثير الذي كانوا يريدونه.

٦ ـ أن اليهود أهل حسد؛ لأنهم يعلمون بقرارة أنفسهم أن محمداً أهدى من المشركين؛ لأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، لكن لما امتلأت قلوبهم من حسده صاروا يفضلون الكفار عليه وعلى من اتبعه.

٧ ـ تأثير الدعاية بلبس الحق بالباطل، وإلا فمن المعلوم أن الكافر فيما يرمي إليه أو فيما يذهب إليه، ليس فيه هداية إطلاقاً، ومع ذلك قالوا إنهم ﴿أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة: ما عليه بعض الناس اليوم من قوله: إن الكفار أوفى بالعهد من المؤمنين، وإنهم أخلص من

المؤمنين وأنصح من المؤمنين، وما أشبه ذلك، فمن قال هذا في المسلمين فإن فيه شبهاً من اليهود.

ونحن لا ننكر أن في المسلمين من خالف طريق الإسلام بعدم الصدق في القول، وعدم الوفاء بالعهد وعدم الوفاء بالوعد، وعدم النصح في العمل، ولكن كل هذه الأخلاق حذر منها النبي ﷺ أشد التحذير، فهي أخلاق دخيلة على الشعب المسلم، وسببها ما كان عليه هؤلاء من النقص في العلم وفي الإيمان.

٨ ـ تحريم تفضيل الكفار على المؤمنين؛ لأن الله تعالى أنكره، بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.. إلى آخره.

٩ ـ بيان استحقاقه لعنة الله، وبيانه أن كل من قال مثل هذا القول فإنه مستحق للعنة الله، لقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾، وأحكام الله سبحانه الشرعية والجزائية لا تتعلق بالأشخاص أبداً، فإذا استحق هؤلاء اللعن بإيمانهم بالجبت والطاغوت، وقولهم ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾؛ فمن جرى مجراهم استحق ما يستحقون من العقاب.

١٠ ـ أن من لعنه الله فلا ناصر له، لقوله: ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾.

١١ ـ التحذير من التعرض للعنة الله؛ لأن الإنسان إذا تعرض للعنة الله وحقت عليه لن يجد من ينصره.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ [النساء: ٥٣].

﴿أَمْ لَهُمْ﴾: أم هنا بمعنى بل، وهمزة الاستفهام، ففيها إضراب عما سبق، وقيل: إنها للاستفهام فقط، لكنه خلاف المشهور عند النحويين.

فقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ﴾ أي: بل ألهم نصيب من الملك، حيث يريدون أن يحولوا بين النبي ﷺ وبين ما أعطاه الله من النبوة التي يكون بها ملك مشارق الأرض ومغاربها.

يعني: هؤلاء الذين قالوا هذا الكلام، وفضلوا طريق الكفار على طريق المؤمنين، فهل لهم نصيب من الملك بحيث يمنعون فضل الله سبحانه على نبيه، ويجعلون الفضل لهؤلاء الكفار؟!

يقول الله عزّ وجل: ﴿فَإِذًا﴾ يعني: لو كان لهم نصيب من الملك ﴿لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: لا يعطون الناس، و﴿ٱلنَّاسَ﴾ مفعول أول ليؤتون، و﴿نَقِيرًا﴾ مفعول ثان.

والنقير: هو النقرة التي على ظهر النواة، ويضرب بها المثل للقلة؛ أي: لو كان عند هؤلاء ملك ولهم نصيب من الملك، فإنهم لبخلهم لا يؤتون الناس نقيراً؛ لأن اليهود من أشد الناس بخلاً، وأشدهم طمعاً وحرصاً على المال.

إذاً معنى الآية: هل لهؤلاء نصيب من الملك حتى يحاولوا أن يمنعوا فضل الله على رسوله، وأن يجعلوا هذا الفضل لهؤلاء الكفار؟ الجواب: لا، ولو قدر أن لهم نصيباً من الملك فإنهم لن يعطوا أحداً منه شيئاً، ولهذا قال: ﴿فَإِذًا﴾ لو أعطوا نصيباً من الملك ﴿لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾؛ أي: وما فوقه من باب أولى.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن هؤلاء اليهود الذين أرادوا أن يحولوا بين فضل الله

على رسوله وبين رسوله ﷺ، وأن يرحلوا هذا الفضل إلى هؤلاء الكفار؛ ليس لهم نصيب من الملك، فالملك لله وحده.

٢ ـ الإشارة إلى أن اليهود من أبخل الناس، لقوله: ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء: ٥٤].

﴿أَمْ﴾ نقول فيها كما قلنا في سابقتها أنها بمعنى بل وهمزة الاستفهام.

قوله: ﴿يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، والمراد بالناس محمد ﷺ وأصحابه، والحسد في تعريف أكثر العلماء: تمني زوال نعمة الله على الغير، سواء أردت أن تكون لك، أو أن تزول إلى غير أحد.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الحسد كراهة ما أنعم الله به على غيره، بحيث إذا قيل له: فلان حصل له كذا، اضطرب قلبه من كراهة ما حصل لهذا الرجل، وعلى هذا فيكون ما قاله الشيخ رحمه الله أعم مما قاله جمهور العلماء؛ لأن على ما قاله جمهور العلماء لا بد أن يتمنى أن يزيل الله هذه النعمة، أما الشيخ فيقول: مجرد كراهته لها يعتبر حسداً، ومن المعلوم أن من كره شيئاً فسوف يتمنى أن يزول.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: أعطاهم من فضله، والفضل الذي أعطيه الرسول ﷺ النبوة والرسالة.

قوله: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ أي: فإن فضلنا لن يزال موجوداً، وليس هذا أول فضل تفضلنا به على عباد الله، بل إن الفضل لم يزل موجوداً، والمراد بآل إبراهيم هنا: كل من تبعه على دينه، وهو أولهم عليه الصلاة والسلام، وقد آتاهم الله الكتاب وآتاهم الحكمة، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، وأكثر الأنبياء الذين قصهم الله علينا من ذرية إبراهيم، فأكثرهم من بني إسرائيل، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، والواحد الوحيد في آل إبراهيم محمد ﷺ وهو من ذرية إسماعيل عليه السلام، ودينه مهيمن على جميع الأديان، ورسالته خاتمة للرسالات، وأمته باقية إلى يوم القيامة.

و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بمعنى المكتوب، والكتب المنزلة على الأنبياء كلها تكتب باليد، والحكمة: هي الصواب، فالقرآن صواب، والتوراة صواب، والإنجيل صواب، وكل ما جاءت به الرسل فهو صواب ولهذا قيل: إن الحكمة هي وضع الأشياء في مواضعها.

قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ أي: آتينا آل إبراهيم ملكاً عظيماً، وأبلغ مثل في ذلك ما أعطاه الله لسليمان عليه السلام، فقد آتاه الله ملكاً عظيماً، حين قال: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥]، حتى إن الشياطين المردة ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣]، وحتى إن من الشياطين ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص: ٣٧، ٣٨]. بناء: يبني على ظاهر البر، وغواص: يغوص في البحر ليأتي بالجواهر والدرر، وكل ما

يكون في البحر، والقسم الثالث مقرنون في الأصفاد؛ لأنهم عصوا أمره، فقرنهم في الأصفاد وحبسهم، وهذا ملك عظيم!

كذلك أيضاً سخر الله له الريح ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [صٓ: ٣٦]؛ أي: حيث أراد، وقوله: ﴿رُخَآءً﴾: أي: بدون اضطراب وبدون مشقة، والمعروف أن الريح يكون فيها قلق ومشقة، وإن لم تحمل الإنسان، فضلاً عما لو قدر أن هناك ريحاً تحمله لكان فيها القلق والاضطراب، لكن الله تعالى جعلها رخاء مع أنها عاصفة، ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأنبياء: ٨١]، لكن مع كونها عاصفة لم يكن فيها قلق، بل هي ﴿رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾.

قال العلماء: إنه إذا أراد أن تتجه إلى ناحية وضع بساطاً وجلس عليه هو وحاشيته، ومن أراد أن يسافر معه، ثم أمر الريح فحملته، فطارت به، ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢] وهذا من قدرة الله عزّ وجل، وهو من جملة الملك الذي أعطيه آل إبراهيم، وهذا لا شك أنه ملك عظيم، حيث يسخر له الشياطين والرياح.

ولما قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨] وكان عرشها بالجنوب، في اليمن، وهم في الشمال في الشام، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩] وكان له حد معين يقوم فيه؛ أي: بعد ساعة أو ساعتين أو نحو ذلك، ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩] ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠] أي: مد الطرف ثم رده آتيك به، ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ [النمل: ٤٠].

وتأمل قوله: ﴿فَلَمَّا﴾ فإن الفاء تدل على الترتيب والتعقيب، وأنه رآه فوراً، ثم رآه ﴿مُسْتَقِرًّا﴾ كأن له عشرات السنين، ولهذا جاءت كلمة مستقراً ولم يقل: فلما رآه عنده؛ لأنها تحتمل الآن وما بعده، لكن قال: ﴿مُسْتَقِرًّا﴾، كأنه جاء منذ بضع سنين، ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، وهذه الكلمة ينبغي أن تكون على كل لسان، فإذا أنعم الله عليك نعمة، فقل: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ لأن كثيراً من الناس لا تحصل لهم هذه النعمة.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان ما كان عليه اليهود من الحسد.

٢ ـ إنكار الحسد؛ لأن الله ساق هذه الآية للإنكار عليهم.

والحسد من كبائر الذنوب؛ لأنه يأكل الحسنات، ولا يستفيد الحاسد شيئاً، وفي الحسد مفاسد:

أولاً: أنه من كبائر الذنوب، وكبائر الذنوب لا تغفر إلا بتوبة.

ثانياً: أنه اعتراض على قضاء الله وقدره؛ لأن كونك تكره أن يعطي الله هذا الإنسان شيئاً، هذا اعتراض على الله، ولهذا قال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

ثالثاً: أن فيه عدواناً على المحسود، وهذا في الغالب وليس دائماً، فقد يقوم في قلب الإنسان حسد لكن لا يعتدي على المحسود لا بقول ولا بفعل، ولهذا جاء في الحديث: «**إذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فلا تبغ**»[1]، فالحسد قد يقوم بقلب

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٦/ ٣٣٢.

الإنسان، والإنسان بشر، ولكن إذا أحسست به في قلبك فحاول طرده عن قلبك حتى يكون نزيهاً، فإن عجزت فأقل ما يلزمك أن لا تبغي على من حسدت؛ أي: أن لا تعتدي عليه، لا بقول ولا بفعل.

فمن القول: أن يتهم المحسود باتهامات، ويتقول عليه ما لم يقل، أو يحال بينه وبين أعماله، أو يُسَب عند كبرائه وأمرائه، أو يُسَب أيضاً عند أصحابه وقرنائه، أو ما أشبه ذلك، فهذا اعتداء بالقول.

والاعتداء بالفعل: أن يعتدي عليه بيده، حتى يحول بينه وبين ما آتاه الله من فضله، مثل أن يغرق ماله، أو أن يحرقه حتى لا يكون عنده مال؛ لأنه حسده على كثرة المال.

رابعاً: المشابهة لليهود: فمن مضار الحسد أنه مشابهة لليهود، وبئس الخصلة خصلة يكون فيها الإنسان مشابهاً لليهود.

خامساً: أن الحاسد يكون دائماً في قلق؛ لأن نعم الله على غيره تترى، فكلما تجددت نعمة على غيره نبغ في قلبه الحسد، فيكون في قلق مستمر.

سادساً: أن الحاسد في الغالب يستحسر، ويتصور أنه عاجز عن أن يلحق بالمحسود، فتجده يستحسر ولا يحاول أن يصل إلى الفضائل، لكن لو أعرض عن الناس ومن زاده الله من فضله، وحاول هو أن يسعى في النعم؛ لسلم من هذا كله.

سابعاً: إحداث العداوة والبغضاء بين الناس؛ لأن الحاسد في الغالب لا يخلو من عدوان، والعدوان على الغير يؤدي إلى العداوة والبغضاء.

وأما دواء الحسد فهو:

أولاً: أن يرضى الإنسان بقضاء الله وقدره، وأن يعلم أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فإذا علم ذلك اطمأن ولم يعترض على الله سبحانه فيما آتاه من فضله.

ثانياً: أن يعلم أن حسده لن يمنع فضل الله عن المحسود أبداً، ولو كان يمنع فضل الله عن المحسود لكان كل إنسان يحسد غيره.

ثالثاً: أن يتجه إلى الله عزّ وجل في سؤاله أن يعطيه مثلما أعطى هذا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ﴾ [النساء: ٣٢].

رابعاً: أن يذكر عواقب الحسد وشؤمه وعقوبته، حتى يخشى هذا الشؤم والعقوبة فيدعه.

خامساً: أن يعلم أنه من أخلاق اليهود.

والمهم أن الإنسان إذا تأمل مضاره كان هذا التأمل دواء يحتمي به عن الحسد.

٣ ـ بيان أن الله أنعم على هؤلاء الحسدة بما ذكره في قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾... الآية، فلا وجه للحسد مع ما أعطاهم الله تعالى من الفضل، وهذا أيضاً من الدواء الذي يداوي به الإنسان الحسد، فيقول مثلاً: ما لي أحسد فلاناً وقد أعطاني الله كذا وكذا.

٤ ـ بيان ما مَنَّ الله به على آل إبراهيم من الكتاب والحكمة

والملك العظيم، فمثلاً: التوراة والإنجيل كلها كتاب وحكمة، والملك العظيم؛ مِنْ أعظم من أعطي ملكاً من بني إسرائيل سليمان عليه السلام، فإنه أعطي ملكاً عظيماً، حتى قال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥] لعظمته.

٥ ـ أن الله عزّ وجل له التصرف في ملكه بما يشاء، فإنه يقبض ويبسط، لقوله: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥٥].

﴿فَمِنْهُم﴾ الضمير يعود على آل إبراهيم، يعني: ليس كل آل إبراهيم تقبلوا هذا الكتاب، وهذه الحكمة، وهذا الملك، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ و﴿مَّنْ﴾ هنا للتبعيض والدليل عليه قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ فقسمهم الله تعالى إلى قسمين.

والتبعيض قد يأتي بالحرف الدال عليه في كلا القسمين، وقد يأتي في أحدهما ويحذف من القسم الثاني، مثل قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، المعنى: فمنهم شقي ومنهم سعيد؛ لأنه لا يمكن أن يكون شقي وسعيد في آن واحد، ولكن حذفت من القسيم الثاني.

فمنهم من آمن به وقبله، وآمن بكتابه والحكمة وشكر النعمة على الملك، ومنهم من صد عنه، فلم يؤمن به، ولم يشكر الله على هذه النعمة والملك العظيم.

وقوله: ﴿مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ ﴿صَدَّ﴾ هذه تستعمل لازمة ومتعدية،

فاللازمة بمعنى أنه صد عنه بنفسه، والمتعدي أنه صد غيره عنه، وكلا الوصفين ثابت لهؤلاء، فهم صادون عنه بأنفسهم، وهم صادون غيرهم عنه، حتى إن بني إسرائيل يدعون أن سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام ليس نبياً، ولكنه ملك واسع الملك قوي السلطان، وكذلك داود عليه السلام يرون أنه ليس بنبي ولكنه ملك، والصواب أنهما من الرسل والأنبياء، لكن الله تعالى أعطى سليمان ذلك الملك العظيم.

ثم قال: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ يعني: ما أعظم السعير الذي يحصل لهؤلاء بجهنم، ﴿وَكَفَىٰ﴾ سبق أنها تتعدى بالباء، ولكنهم يقولون: إن الباء زائدة لفظاً يعني: من حيث الإعراب، وأما من جهة المعنى فلها فائدة وهي تعدية كفى إلى المعمول، ويقولون: إن الباء حرف جر زائد، وأن «جهنم» في هذه الآية هي الفاعل؛ أي: كفت، وأن قوله: ﴿سَعِيرًا﴾ تمييز، والسعير بمعنى المسعر، أو بمعنى الساعر وكلاهما يدل على الإحراق العظيم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الناس ينقسمون فيما يعطيهم الله تعالى من نعم الدين والدنيا إلى قسمين:

قسم يؤمن، وقسم يكفر، وهذه هي سنة الله كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة، ولكن من رحمته أن جعلهم يتفرقون حتى يعلم الله الصادق من الكاذب، وحتى يقوم علم الجهاد، وحتى يقوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحتى

يعرف المؤمن قدر نعمة الله عليه بالإيمان، وحتى يجتهد المؤمن ليثبته الله عزّ وجل حتى لا يكون مثل هؤلاء.

والحاصل أن الله سبحانه جعل الناس قسمين لحكم عظيمة.

٢ ـ أن الذين لم يؤمنوا به أعرضوا عنه وصدوا الناس عنه أيضاً، لقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾، وقد ذكرنا أنها تستعمل لازمة ومتعدية وأنها في هذه الآية على الوجهين.

٣ ـ تعظيم إحراق النار، لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

٤ ـ أن من صد عما آتاه الله من الكتاب والحكمة فإنه يكون من حطب جهنم والعياذ بالله.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء: ٥٦].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ وقال بعدها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهكذا طريقة القرآن مثاني، يعني: إذا جاء ذكر أهل النار جاء ذكر أهل الجنة، وإذا جاء ذكر المتقين جاء ذكر المجرمين وهكذا، حتى يكون الإنسان سائراً إلى الله بين الخوف الرجاء، وحتى لا يمل لو كان الكلام على نسق واحد.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ «كفروا بها» أي: جحدوها وأنكروها، وأصل المادة «كفر» من الستر والتغطية، ومنه سمي «الكُفُرَّى» الذي هو غلاف طلع النخل.

وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يشمل الآيات الكونية والآيات الشرعية.

فمن الكفر بالآيات الشرعية: تكذيب الرسل، وعدم الالتزام بما جاءوا به من الشرائع.

ومن الكفر بالآيات الكونية: أن ينسب هذا الكون إلى غير الله أو يقال: إن أحداً أعان الله فيه، أو يقال: إن أحداً له فيه شرك، فكل هذا من التكذيب بالآيات.

ومن ذلك: إنكار أن يكون الكسوف وقع إنذاراً من الله وتخويفاً؛ لأن بعض الناس يقولون: إن الكسوف أمر عادي وليس من أجل أن يخوف الله به العباد، وهذا يعتبر نوعاً من الكفر، وليس كفراً مخرجاً من الملة، لكنه نوع من الكفر.

قوله: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ سوف يقول المعربون: إنها حرف تسويف، يعني: تدل على تحقق وقوع الشيء لكن بعد زمن؛ لأن التسويف بمعنى التأخير، ومنه قولهم: سوَّف بالتوبة، يعني: أخرها، فمعنى سوف: يعني: أنهم سوف يصلون لكن بعد زمن.

وقوله: ﴿نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أي: نجعلهم يصلونها حتى تحرقهم.

قوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ﴾ النضج معناه: بلوغ الغاية في الكمال، يعني: أنها إذا نضجت من الاحتراق واحترقت فإنها تبدل جلوداً غير الأولى؛ لأن الأولى احترقت، وزالت، ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾؛ أي: الألم الذي يعذبون به؛ لأن الجلد إذا احترق صار حائلاً دون بقية الجسم، فلا يحسون بالنار، لكن إذا بدل بجلد آخر جديد حينئذ أحسوا بحر النار ـ أعاذانا الله منها ـ، و﴿كُلَّمَا﴾ حرف شرط يدل على التكرار، يعني: أنهم دائماً وأبداً كلما نضجت الجلود بدلوا جلوداً غيرها.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ «كان» فعل ماضٍ لكن لا يراد بها الزمن، فهي تدل على تحقق الاتصاف بما دل عليه خبرها بدون التقيد بزمن، ولهذا تكون: مسلوبة الزمان في هذا؛ لأننا لو قلنا: إنها دالة على الزمان لكانت العزة والحكمة قد انتهت وذهبت.

وقوله: ﴿عَزِيزًا﴾ العزيز قال العلماء: إن له ثلاثة معان:

الأول: عزة القدر.

الثاني: عزة القهر.

الثالث: عزة الامتناع.

أما عزة القدر فمعناه: أنه ذو قدر عظيم لا يماثله شيء، وأما عزة القهر فمعناه: أنه الغالب القاهر لكل ذي جبروت، وأما عزة الامتناع فمعناه: الممتنع عن كل عيب ونقص وسوء، ومنه قولهم: أرض عزاز، يعني: صلبة ممتنعة عن الرخاوة، وربما يحتمل معانٍ أخرى أيضاً، وكلها ثابتة لله، «وقل لله العزة جميعا».

وأما الحكيم فإنه مشتق من الحكمة وهي الإحكام والإتقان، ومن الحكم وهو القضاء والفصل، والله سبحانه حكيم ذو حكمة بالغة، وحكيم بمعنى: حاكم فاصل بين عباده، ترجع الأمور كلها إليه، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وليعلم أن حكم الله سبحانه ينقسم إلى حكم كوني قدري، وحكم شرعي ديني.

أما الحكم الكوني القدري: فمثل قوله تعالى عن أحد إخوة يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾

[يوسف: ٨٠] يريد بذلك حكماً قدرياً لا حكماً شرعياً؛ لأن الله تعالى لم يمنعه شرعاً من الرجوع إلى أهله، ولكنه يريد بذلك أن يحكم له حكماً قدرياً.

وأما الحكم الشرعي: فدليله ومثاله قوله تبارك وتعالى في سورة الممتحنة لما ذكر ما ذكر من الأحكام قال: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠] هذا حكم شرعي.

وقد يجتمع القسمان في آية واحدة، مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]، ومثل قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]، ومثل قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: ٨] فالمهم أن حكم الله عزّ وجل ينقسم إلى كوني قدري، وشرعي ديني، وذكرنا لكل واحد دليله ومثاله، وذكرنا ما يجمع القسمين، وكل ذلك موجود في القرآن.

والحكم الكوني القدري هو الحكم النافذ في العباد، ولا يمكن لأحد أن يعاند فيه أو يمانع فيه.

أما الحكم الشرعي الذي يحكم الله فيه بين العباد، فمن العباد من يقبل ويقوم به، ومن العباد من لا يقبل ولا يقوم به لحكمة وهي أحد المعنيين في قوله: ﴿حَكِيمًا﴾، فهي مأخوذة من الإحكام، وهو إتقان الشيء، فالشيء المحكم هو الشيء المتقن، وفسرها بعض العلماء بأنها وضع الأشياء في مواضعها، بمعنى: أنك إذا رأيت هذا الشيء قلت: لا يصلح في مكانه إلا هو، ثم هي ـ أي: الحكمة ـ حكمة في نفس الشيء، وحكمة في غاية الشيء، بمعنى: أن هذا الشيء في نفسه مطابق للحكمة، والثاني: أن الغاية منه حكمة محمودة، فالوضوء مثلاً: كونه يبدأ أولاً

بالوجه ثم باليدين ثم بالرأس، ثم بالأذنين، وكون بعض الأعضاء تغسل، وبعض الأعضاء تمسح، هذا من الحكمة ولا شك، يعني: كونها على هذه الصورة المعينة حكمة، ثم الغاية منه وهو التطهير من الذنوب والتطهير من الأحداث وهذه غاية حميدة بلا شك.

إذاً: الحكمة تكون في ذات الشيء وفي غاية الشيء، وكل هذا ثابت في حكمة الله عزّ وجل، وإذا قلنا: إن الحكم كوني وشرعي، والحكمة حكمة في ذات الشيء وحكمة في الغاية منه صار الجميع أربعة أقسام.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ الوعيد على من كفر بآيات الله بالنار.

٢ ـ أن من كذب أو كفر ببعض الآيات فله نصيب من هذا الوعيد حسب كفره، وذلك بناء على القاعدة المعروفة أن الحكم المرتب على وصف يقوى بقوة ذلك الوصف ويضعف بضعفه.

٣ ـ إثبات العقوبة بالنار، ويتفرع عليها وجوب اعتقاد ذلك؛ لأن الخبر صادر من عند الله عزّ وجل وهو أصدق القائلين ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾.

٤ ـ تمام قدرة الله عزّ وجل، حيث كان هذا العذاب كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها، وهذا أبد الآبدين.

لكن هل هي تنضج في الحال، أو تبقى مدة ليزداد ألمهم؟ لأنه من المعروف أن اللحم إذا كانت النار قوية ينضج بسرعة، والعكس بالعكس، فهل هذه الجلود تنضج بسرعة ثم تبدل، أو أنها تبقى متألمة مدة الله أعلم بها ثم تبدل؟

نقول: هذا خبر عن غيب، والأخبار عن الغيب لا يجوز أن نتعدى فيها أكثر مما أخبرنا به، فنقول: إذا نضجت الجلود بدلوا جلوداً غيرها، أما هل تأخذ زمناً كثيراً قبل أن تنضج؟ فهذا ليس إلينا، فربما تأخذ زمناً كثيراً وربما تأخذ زمناً قليلاً، لكن القاعدة في أمور الغيبيات أن نقتصر على ما ورد كمية وكيفية وزمناً وقدراً ولا نتعدى في شيء منه.

٥ ـ أن الإحساس إنما يكون في الظاهر، لقوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ فهي التي يقع عليها العذاب والعياذ بالله، هذا هو الظاهر.

وربما يقول قائل: إن العذاب قد يكون حتى على الداخل، لكن لما كانت الجلود هي التي تباشر النار ـ أعاذنا الله منها ـ ذكر حالها، ويستشهد لذلك بقول النبي ﷺ في أبي طالب: «**أنه في ضحضاح من نار، وعليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه**»[1] وغليان الدماغ لا شك أنه من شدة الحرارة، فهذا يدل على أن كل البدن والعياذ بالله تناله هذه الحرارة، لكن ذكر الجلود لأنها المباشرة حيث أنها هي الظاهرة.

ويقول الأطباء ـ ولا أدري هل هو مؤكد؟ ـ أن داخل الجلد لا يتألم، وأن الألم للجلد فقط، والله جعل الجلد يتألم من أجل أن يحس الانسان بما يصيبه، وكلما تأمل الانسان حكمة الله رأى العجب العجاب.

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قصة أبي طالب، حديث رقم (٣٦٧٢)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، حديث رقم (٢١٠).

٦ ـ ومن الفوائد وهي فائدة لغوية: أن ﴿كُلَّمَا﴾ لا تعاد في جوابها، قال الله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ﴾.. ﴿بَدَّلْنَاهُمْ﴾، خلافاً للغة الأخيرة العرفية العصرية، حيث يقولون: كلما جاء زيد كلما جاء عمرو، وهذا غلط على اللغة العربية، فكلما حرف شرط، تأتي في أول الجملة ولا تعاد في الجواب، مع أننا نسمع الآن من يقول: كلما حصل كذا كلما حصل كذا، ونعتبرهم من أهل اللغة، ومع ذلك يخطئون هذا الخطأ الفاحش.

٧ ـ إثبات الحكمة لله عزّ وجل في أفعاله، وتؤخذ من قوله: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ وهكذا كلما رأيت لام التعليل بعد حكم كوني أو شرعي فإنها تفيد إثبات الحكمة لله عزّ وجل، والعجيب أن قوماً من أهل الملة ومنهم الأشاعرة ينكرون الحكمة لله، ويقولون: إن أحكام الله الكونية والشرعية لمجرد المشيئة وليس لها حكمة، فأنكروا ما هو من أشرف صفات الله عزّ وجل وهي الحكمة؛ لأن ضد الحكمة السفه، وسبحان الله عن السفه.

وإذا قررنا هذا التقرير وهو أن كل حكم معلل باللام فإنه دليل على ثبوت الحكمة صارت أدلة الحكمة لا تحصى فهي كثيرة جداً، وإنما أنكروا الحكمة وقالوا: لأنه إذا فعل لحكمة فقد فعل لغرض يعود عليه بالنفع، والله سبحانه منزه عن ذلك، ويا سبحان الله! كيف زين لهم الشيطان هذا الترتيب.

فيقال: إن الله يفعل لحكمة لا لنفع يعود عليه، ولكن لنفع يعود على العباد، فهو سبحانه مستغنٍ عن ذلك، فقال: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] فالتطهير هنا النفع فيه عائد لنا لا لله، وهكذا بقية الأشياء، وإذا

كان لمصلحة الغير كان ذلك دليلاً على كرمه وجوده عزّ وجل، وهذا كمال وليس بنقص بحال من الأحوال.

٨ ـ إثبات غضب الله عزّ وجل؛ لأن العذاب لا يكون عن رضا، بل عن غضب، لكن الاستدلال بهذه الآية على الغضب من باب الاستدلال باللازم؛ لأنه لا يمكن أن يعذب من يرضى عنهم.

إذاً: كل آيات فيها إثبات الوعيد فإنها تدل على الغضب؛ لأن الله سبحانه إنما يعذب لأنه يغضب من هذا الشيء، ولكن لا يلزم مثلاً لمن فعل معصية واحدة أن نقول: إن الله يغضب من هذا الفعل المعين؛ لأن الفعل المعين لا نثبت له الغضب المعين إلا بدليل، وإلا لو قلنا: إن كل فعل محرم إثبات للغضب لصارت جميع المحرمات كبائر؛ لأن ما ثبت به الغضب فهو من كبائر الذنوب كما ذكر ذلك أهل العلم.

٩ ـ إثبات اسمين من أسماء الله وهما: العزيز والحكيم، وما تضمناه من صفة العزة، وصفة الحكمة، ثم باجتماع الاسمين وما تضمناه من الصفة وصف زائد، وذلك لأن من له العزة والغلبة قد تأخذه العزة بالإثم فلا يكون في تصرفه حكمة، فجمع الله بين العزة والحكمة ليتبين أن عزته عزّ وجل لا تنافي الحكمة، خلافاً لما يكون من الخلق فإن الإنسان إذا غلب وانتصر ربما يتصرف تصرفاً ينافي الحكمة.

إذاً: يؤخذ من الجمع بين الاسمين معنى آخر زائداً على ما دل عليه كل اسم على حدة، وهو أن عزة الله عزّ وجل مقرونة بالحكمة، وكذلك حكمته مقرونة بالعزة؛ لأن الإنسان قد يكون

ضعيفاً؛ فالحكمة أن يستذل أمام القوي، فلو دخل إنسان على الأمير فلا يقول: يا فلان! أنت ظلمتني ولم تعطني حقي؟ إنما الحكمة أن يقول: أطال الله بقاءك على طاعته أيها الأمير! المحترم الموقر المعظم، ويأتي بأشياء تسهل الأمور فالتصرف الثاني هو دليل الحكمة، لكن حكمة الله عزّ وجل مقرونة بالعزة، فهو منزه عن ذلك.

إذاً: قرن العزة بالحكمة له فائدة، وقرن الحكمة بالعزة كذلك له فائدة.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: ٥٧].

لما ذكر الله سبحانه حال أهل النار أعاذنا الله وإياكم منها، قال بعد ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والقرآن مثاني، تثنى فيه المعاني، فإذا ذكر فيه أهل النار ذكر فيه أهل الجنة، وإذا ذكرت النار ذكرت الجنة، وإذا ذكر الحق ذكر الباطل، وهكذا، وهذا أحد المعاني في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣].

قول الله عزّ وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قدم الله الإيمان على العمل الصالح ـ ومثل هذا التركيب موجود في القرآن بكثرة ـ لأن العمل الصالح مبني على الإيمان، فعمل بلا إيمان لا فائدة منه، فالمنافقون يعملون، ويذكرون الله، ويصلون، ويتصدقون، ولكن ليس عندهم إيمان فلا ينفعهم،

ولهذا يقدم الله عزّ وجل الإيمان على العمل الصالح؛ والإيمان الذي يكثر ذكره في القرآن فسره النبي ﷺ بقوله: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره**»(١).

فالذين آمنوا بهذه الأصول ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، قال بعض النحويين: إن الصالحات صفة لموصوف محذوف، والتقدير: الأعمال الصالحات؛ لأن الصالح وصف، والوصف لا يفعل، وإنما الذي يفعل هو الموصوف. هكذا قال، وعندي: أنه لا حاجة لذلك، فما دام الأمر معلوماً فلا حاجة إلى أن يقدر، ونقول: إنَّ ﴿عَمِلُوا﴾ مسلط على الصالحات، والأعمال الصالحة: ما كانت خالصة لله صواباً على شريعة الله، يعني: ما كان خالصاً صواباً كما قال الفضيل بن عياض، ومعنى ذلك: ما جمع بين الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ.

فمن عمل عملاً أشرك به مع الله غيره ولو يسير الرياء كان عمله غير صالح، ومن أخلص لله لكن على غير شريعة رسول الله ﷺ كان عمله غير صالح.

قوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ السين هنا: للتنفيس، وسبق أن قيل في أصحاب النار: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ [النساء: ٥٦]، وأصحاب الجنة قيل فيهم: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾، فهل هذا من باب اختلاف التعبير وأن معنى الحرفين واحد؟ الجواب: قال ابن هشام: معنى الحرفين واحد، وقيل: بل معناهما مختلف،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان..، حديث رقم (٨) عن عمر بن الخطاب.

وأن السين تدل على القرب، وسوف تدل على المهلة، وهذا هو المعروف وهو الأصح، فإذا قيل كذلك فلماذا جاء الوعيد بالنسبة لأهل النار بسوف ولأهل الجنة بالسين؟

الجواب على ذلك: أن أهل النار يفسح لهم لعلهم يتوبون إلى الله فيرجعون، وحينئذ لا يكونون من أهل النار، أما أهل الجنة فإنهم يدخلون الجنة، ولكن ليس المقصود جنة الآخرة، لكن يدخلون جنة الدنيا قبل جنة الآخرة، مصداق قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] ولا أحد أطيب حياة من المؤمنين أبداً.

قال بعض السلف: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ـ الذين تمت لهم الدنيا على ما يريدون ـ ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف؛ أي: لقاتلونا مقاتلة لينالوه، ولكن لا يحصل لهم.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية لما حبس: ما يصنع أعدائي بي؟ إن جنتي في صدري[(١)].

وربما يدل على أن أهل الجنة منعمون أتم نعيم قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]، إذا جعلنا الاستثناء متصلاً صار المعنى: أن الموتة الأولى التي ماتوها في الدنيا ذاقوها، والنعيم مستمر من الدنيا إلى الآخرة، ولكن أكثر العلماء يقولون: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ إن الاستثناء هنا منقطع، والتقدير: لكن الموتة الأولى.

على كل حال نقول: إنما قال: «سوف» في أهل النار ليمد

---

(١) انظر: ذيل طبقات الحنابلة (١/ ٣٤٤).

لهم في الأجل، لعلهم يرجعون، فأراهم العذاب وكأنه بعيد، لكن أهل الجنة أراهم النعيم كأنه قريب، حتى ينشطوا على العمل، وأيضاً نقول: إن أهل الإيمان في سعادة حتى في الدنيا، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن**»[1] فكل أمره خير، إن أصابته ضراء صبر مع الله عزّ وجل، وصبر لله، وانشرح صدره، وكما قالت رابعة العدوية لما قطع أصبعها أو أصابها جرح فيها قالت: إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها.

فالمؤمن في الحقيقة حتى وإن أصيب بالمصائب يوفق للصبر، ويثيبه الله عزّ وجل على ذلك، فيكون كأنه لم يصب، وإن أصابته السراء شكر فزيد في النعمة، كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

قوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ المراد بالجنات هنا: ما أعده الله عزّ وجل في الدار الآخرة لهؤلاء المؤمنين، ولا يَحسُن هنا أن نقول: الجنات: جمع جنة، وهي البستان الكثير الأشجار؛ لأن هذا ينقص من شأن الجنة، إذ لا ينصرف إلا إلى بساتيننا في الدنيا، وهي مرة تيبس ومرة تخضر، ومرة تصيبها الرياح ومرة تستقيم، لكن إذا قلت: الجنات: جمع جنة، وهي الدار التي أعدها الله سبحانه للمتقين، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، حينئذ يبتهج القلب ويسر.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، حديث رقم (٢٩٩٩) عن صهيب الرومي.

وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قال العلماء: المراد ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أي: تحت أشجارها وقصورها، أنهار مطردة تحت الأشجار وتحت القصور، فهي من تحتها، وهذه الأنهار أصنافها أربعة، كما قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] فهذه أربعة أنهر، أو أربعة أنواع من الأنهار في الجنة.

قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال وصاحبها الضمير في قوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ أي: الضمير الهاء، وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ بين أن هذا الخلود أبدي، فقال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أبد الآبدين، لا منتهى له.

فإذا قال قائل: هل يعيش الإنسان وهو يرى أنه باق دائماً في هذا؟

فالجواب: نقول: نعم؛ لأن كل ساعة تتجدد له لذة ونعيم، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ﴾ [البقرة: ٢٥] في الدنيا ننتظر الموت حتى نرتحل عن هذه الدنيا، لكن في الآخرة لا تنتظر الموت، وإنما دائماً في سرور ونعيم، قال الله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] فهم في نعيم دائم، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

قوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ ﴿لَّهُمْ﴾ أي: للذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أزواج: جمع زوج، وهي الأنثى ويطلق على الرجل أيضاً، يقال: زوج فلانة، ويقال: زوج فلان، يعني: زوجته، وفي الفرائض يجب أن

تأتي بالتاء، بينما في غير الفرائض لا تأتي بالتاء؛ لأن الإتيان بالتاء لغة رديئة، أو قليلة.

وقوله: ﴿لَهُمْ﴾ جمع، و﴿أَزْوَاجٌ﴾ جمع، فهل يقابل الجمع بالجمع على وجه الإفراد، أو الجمع بالجمع على وجه الجمع، بمعنى: هل لكل واحد زوجة واحدة فقط، فنقول: مثلاً لهم أزواج، ولو فرضنا عشرة، وقلنا: لكم أزواج، فهل المعنى أن لهؤلاء العشرة عشر زوجات فقط، أو لكل واحد عشرة؟ مثل هذا يختلف فيه العلماء هل يقابل كل فرد بفرد، أو يقابل كل فرد بالجمع.

فمن العلماء من قال: يقابل كل فرد بفرد، ومنهم من قال: يقابل الجميع لكل فرد، فلو قلت لرجال أمامي: لكم عشرة دراهم، فهل المعنى أن العشرة توزع بينهم، أو المعنى لكل واحد عشرة؟ على خلاف، فهنا قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ﴾، هل المعنى لكل واحد أزواج، أو المعنى: لكل واحد زوجة واحدة، لكن الأزواج هنا قوبلت بالجمع في قوله: ﴿لَهُمْ﴾؟ الجواب يقال: إن السنة دلت على أن الواحد له أزواج متعددة، سواء من أهل الدنيا أو ممن خلق الله في الجنة وهن الحور.

وقوله: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ مطهرة طهارة حسية، ومطهرة طهارة معنوية، فالطهارة الحسية تشمل الطهارة من البول والغائط، والحيض، والاستحاضة، والنفاس، والصفرة، والكدرة، والعرق، والرائحة المنتنة وغير ذلك، من كل ما يستحب إزالته والتنزه عنه فهي مطهرة منه.

ومطهرة أيضاً طهارة معنوية، وذلك لأنها خالية من كل خلق

سيئ، لا غضب ولا تكرب للزوج، ولا كراهية ولا عصيان، ولا اكفهرار في وجهه، فهي مطهرة من كل خلق رذيل، ومن كل أذى وقذر، فالطهارة إذاً حسية ومعنوية، ولو اشتكت النساء وقلن: الرجال لهم أزواج مطهرة فما بالنا نحن؟ فنقول لهن: أنتن لَكُنَّ أزواج مطهرون، فالله طيب لا يقبل إلا طيباً، ولا يكون جاره إلا الطيب، وأنتن في الآخرة كل واحدة منكن لا تريد إلا زوجها، كما قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرحمٰن: ٥٦] كل واحدة قاصر طرفها على زوجها ومتنعمة به، وأنتن خير من سواكن فلا تجزعن، ولكن لما كان الزوج هو الطالب غالباً صار هو الذي يقال له: لك زوجة فيها كذا وفيها كذا، أما الزوجة فلا تكون طالبة إلا نادراً.

قال: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ الظل هو ما فاءت عنه الشمس، وإن شئت فقل: هو ما لم تحله الشمس، سواء كان فيئاً أم ظلاً من أول النهار، وأما الظليل فهو المؤدي معناه تماماً؛ لأن من الظل ما ليس بظليل، فلو جلست تحت ظل جدار في أيام الصيف فأنت في ظل، لكن ليس هو ظليل؛ لأن لفح الحر يأتيك، لكن الجنة ظل ظليل.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الإيمان لا يتم استحقاق دخول الجنة به إلا إذا قرن بالعمل الصالح، لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ولهذا يقرن الله سبحانه بينهما كثيراً، فمن آمن وقال: إنه مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولكن لا يعمل صالحاً فإن الجنة غير مضمونة له، ولكن من الأعمال ما نعلم أنه لن يدخل الجنة إذا تركها مثل الصلاة.

٢ ـ أن العمل لا ينفع إلا إذا كان صالحاً، والصالح ما تضمن شيئين:

الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ، وإن شئت فقل: الإخلاص لله واتباع شريعته، وهذا أعم، إذ إن المعنى الأول قد يتوهم منه أن المراد بالرسول محمد ﷺ، ولكن المراد أعم من هذا، حتى الذين عملوا الصالحات حين كانت شرائعهم قائمة يدخلون في هذه الآية وغيرها.

٣ ـ أن الله سبحانه وعدهم هذا الوعد المؤكد بالسين: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾.

٤ ـ أن الله تعالى عظم نفسه؛ لأنه أهل للتعظيم، في قوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ وقد التبس على النصراني مثل هذا التعبير الذي يأتي من قبل الله إذا كان بهذه الصيغة، فظن أن الإله متعدد، ولكن هذا من فهمه السيئ واتباعه للمتشابه، فإن ذكر الواحد بصيغة الجمع أمر معروف في كل لغة، والوحدانية مفهومة ومعلومة بالضرورة من الأديان، وبالفطر السليمة.

٥ ـ بيان ما في الجنة من النعيم لقوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

٦ ـ أن الجنة أنواع وليست نوعاً واحداً، يؤخذ ذلك من صيغة الجمع ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

٧ ـ أن أهل الجنة مخلدون فيها أبداً، لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وقد أجمع أهل الملة على أن نعيم الجنة دائم أبداً، وكذلك جمهور أهل السنة على أن عذاب أهل النار دائم أبداً.

٨ ـ الثناء على الأزواج في الجنة، سواء كن من أهل هذه

الدنيا أو من الحور، لقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾.

٩ ـ الثناء على هؤلاء الأزواج، وأنهن مطهرات من كل عيب حسي أو معنوي.

١٠ ـ أن الجنة ليس فيها حر، وإنما هي ظل ظليل، لقوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

وجملة الآية فيها الحث على الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله سبحانه إنما ساق بيان نعيمهم حثاً على أن نعمل العمل الموصل إلى ذلك.

١١ ـ أن أهل الجنة ينعمون في الدنيا وفي الآخرة، لقوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ لأن السين تدل على القرب، ذكرنا ذلك في التفسير، وأن أصحاب الجنة هم في الجنة في الدنيا وفي الآخرة؛ لأنه لا أحد أطيب عيشاً ممن آمن وعمل صالحاً.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ وهذا الأسلوب أبلغ في التعظيم من قول: إني آمركم؛ لأنه يدل على العظمة، كأنه قال: إن الله الذي له الألوهية وله الحكم عليكم يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، والأمر: هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء، بصيغة افعل أو ما ينوب منابها.

فقولنا: طلب الفعل، كلمة «طلب» خرج بها الخبر لأنه ليس بطلب، وطلب الفعل خرج به النهي؛ لأن النهي طلب الكف،

و«على وجه الاستعلاء» خرج به الالتماس والدعاء، وقولنا: على وجه الاستعلاء ولم نقل على وجه العلو يشمل ما إذا كان الآمر عالياً حقيقة أو مستعلياً ادعاءً، إن لم يكن علياً في الواقع، فهنا عندنا قيود.

مثال ذلك: عبد مملوك أسر حراً كريماً، فجعل يأمره ويقول: افعل كذا.. وقرب لي كذا.. وأبعد عني كذا، فالحر أعلى ولا شك، لكن هذا ادعى العلو لنفسه فاستعلى عليه، فهذا هو الأمر.

وكل أمر موجه من الله للعباد فالأصل فيه أنه لطلب الفعل وأنه للوجوب، لكن قد تخرج الأوامر عن غير ذلك للقرائن.

قوله: ﴿أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ الأمانات جمع أمانة، وهي كل ما اؤتمن الإنسان عليه من أمتعة، ونقود، وأقوال، وأفعال وغير ذلك، تؤدي إلى أهلها، والضابط في أهلها هم الذين أمرت بأدائها إليهم، فمثلاً: إذا قال لك شخص: خذ هذه الدراهم وأدها إلى فلان، فالمؤتمن صاحب الدراهم، وأهلها الذين أمرت أن تؤديها إليه، يعني: فلا تؤدها إلى أحد غيره، وقد تكون الأمانة بالقول، فأقول لك مثلاً: بلغ سلامي فلاناً، فإذا قلت: نعم؛ فقد تحملت، فلا بد أن تؤدها لي السلام، أما إن قلت: إن ذكرت أو لا أتحمل فأنت بالخيار، لكن إذا قال: بلغ سلامي فلاناً فقلت: نعم أبلغه فلا بد أن تبلغه؛ لأن هذه أمانة، وقد أمرك الله أن تؤديها إلى أهلها، وسيأتي إن شاء الله في بيان الفوائد أنواع الأمانات.

قوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ﴾ ﴿وَإِذَا

﴿حَكَمْتُم﴾ الحكم هنا الفصل، يعني: إذا أردتم أن تفصلوا بين الناس في مشاجراتهم فاحكموا بالعدل و﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ لم يقيد أناساً دون أناس فيكون عاماً، حتى لو أراد الإنسان أن يحكم بين أبيه وبين رجل أجنبي فهو داخل في الآية، أو مسلم وكافر فهو داخل في الآية؛ لأن الآية عامة بين الناس.

وقوله: ﴿أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ العدل في الأصل الاستقامة، ومنه العصا المستقيمة التي ليس فيها ميل، ولا حكم أعدل من حكم الله، وعلى هذا فالحكم بالعدل أن تحكم بينهم بشريعة الله، هذا هو الحكم بالعدل؛ لأننا نعلم أنه لا أحد أحسن من الله حكماً، ولا أحد أعدل من الله فصلاً، فإذاً ﴿أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بشريعة الله.

فإن قال قائل: ما وجه الارتباط بين قوله: ﴿أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ وبين قوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾؟

فالجواب: أن نقول: لأن الأمانات كالمقدمة بين يدي الأحكام، فمنها مثلاً الشهادة، وهي تحمل الإنسان أن يخبر بحق غيره على غيره، فهذه تكون مؤداة عند الحكام، فكان تأدية الأمانات كالمقدمة بين يدي الحكم بين الناس.

ثم أثنى الله على هذا الأمر، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ وفي قوله: ﴿نِعِمَّا﴾ قراءات: نَعِمَّا، ونِعِمَّا، وأصلها نعم ما لكن حصل فيها إدغام، قوله: ﴿يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ الموعظة قال العلماء: هي ذكر الأحكام مقرونة بترغيب أو ترهيب، بمعنى أن تذكر حكم الله عزّ وجل، مقروناً بترغيب أو ترهيب، إن كان طلباً فهو مقرون بالترغيب، وإن كان نهياً فهو مقرون بالترهيب.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ هذه الجملة استئنافية كالتحذير والتهديد لما سبق، يعني: إن لم تفعلوا فتؤدوا الأمانات إلى أهلها، وتحكموا بين الناس بالعدل؛ فإن الله تعالى سميع لأقوالكم، بصير بأفعالكم، وسيعاقبكم على مخالفاتكم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان عظمة الله عزّ وجل وذلك حيث عبر عن نفسه تبارك وتعالى بصيغة الغائب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾، ومثل هذا التعبير قال علماء البلاغة: إنه يدل على التعظيم.

٢ ـ وجوب حفظ الأمانات فيما تحفظ به عادة، فإذا أعطاك إنسان دراهم وجب عليك أن تحفظها فيما تُحفظ به عادة، ووجه ذلك: أنه من لازم أدائها حفظها؛ لأن من لم يحفظها لا يمكن أن يؤديها، فإذا أعطاك دراهم ووضعتها في فرجة أو في رف وسرقت فأنت ضامن؛ لأن هذا تفريط في الواجب، فالواجب أن تحفظها في الصناديق.

وإذا أودع عندك بهيمة وتركتها للبرد أو للحر، أو للجوع أو للعطش، فأنت ضامن؛ لأنك فرطت، فإن الله أمرك أن تؤدي الأمانات إلى أهلها ومن لازم أدائها حفظها حتى تُؤدى كما أُخذت.

٣ ـ سمو الدين الإسلامي؛ حيث أمر برد الأمانات، وهذا لا شك أنه من حسن المعاملة.

٤ ـ أنه يجب على المؤتمن أن يؤديها إلى أهلها، وأهلها: إما صاحبها أو من يقوم مقامه، فإذا أودعك شخص ما وديعة ومات فأهلها ورثته.

كذلك: لو وكَّل من يقبضها منك وجب عليك أن تؤديها إليه؛ أي: إلى الوكيل، ولا تقل: إني لا أعطيك؛ لأن الذي أودعني سواك.

٥ ـ وجوب حفظ السر فيما يكون بينك وبين صاحبك من قول، لقوله: ﴿ٱلْأَمَٰنَٰتِ﴾ وهو عام في أمانات الأموال، وأمانات الأقوال، وأمانات الأحوال أيضاً؛ ولهذا ورد الوعيد الشديد فيمن تفضي إليه زوجه وهو يفضي إليها ثم يصبح يتحدث بما جرى بينهما، وأن هذا شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة.

٦ ـ وجوب أداء الشهادة على الشاهد كما تحملها؛ لأن الشاهد مؤتمن، فيجب عليه أن يؤدي الشهادة كما تحملها من غير زيادة ولا نقص.

وهل يجوز أن يؤديها بالمعنى؟

الجواب: نعم، إذا كان عالماً بالمعنى، ولم يحدث ما يتغير به المعنى فإنه لا بأس أن يؤديها بالمعنى.

٧ ـ وجوب الحكم بين الناس بالعدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾، والعدل أنواع كثيرة، ولنضرب لهذا مثلاً بالقاضي، فالقاضي يجب عليه أن يعدل بين الخصمين في كل شيء:

أولاً: في الدخول عليه، فلا يقدم أحداً على أحد، حتى لو كان الخصم كافراً مع مسلم، فإنه لا يقدمه عليه؛ لأن المقام مقام حكم، والحكم تجب فيه العدالة، وفضل المسلم على الكافر لا شك فيه، لكن الآن هما سواء في الحكم، وإن كان بعض العلماء رحمهم الله قال: إنه يقدم المسلم في الدخول، لكن في هذا

القول نظر، والصواب: أنه يعدل بينهما في الدخول.

ثانياً: في المجلس، فلا يجلس أحدهما في مكان رفيق كعلى كنب مثلاً، والثاني على الأرض، أو أحدهما على الفراش والثاني على الأرض، بل لا بد أن يعدل بينهما في المجلس، وأن يكون مجلسهما سواء.

ثالثاً: لا بد أن يعدل بينهما في اللحن؛ أي: النظر، فلا ينظر إلى أحدهما نظراً بارداً، وإلى الثاني نظراً حاراً يكاد يخرق رأسه، بل الواجب أن ينظر إليهما نظراً سوياً.

رابعاً: في اللفظ، فلا يكلم أحدهما بشدة والآخر بلين.

خامساً: في الالتفات، فلا ينظر إلى أحدهما عند مخاطبته بوجهه، وينظر إلى الثاني بخده مصعراً خده له.

سادساً: في استخلاص الحجة، فلا يقاطع أحدهما في حجته، والآخر يمهله.

فإذاً: يجب عليه العدل في كل شيء يعاملهما فيه.

ومن العدل أيضاً: العدل بين الزوجات في كل ما يستطيع.

ومن العدل أيضاً: العدل بين الأولاد في كل شيء يستطيعه، في العطايا فإذا أعطى الأنثى أعطى الذكر، وإذا أعطى الذكر أعطى الأنثى، والصحيح: أنه يعطي الذكر مثل حظ الأنثيين، حتى كان بعض السلف يعدل بين أولاده في القُبَل، يعني: إذا قبَّل واحداً قبَّل الثاني، وهذا صحيح في الصبيان الصغار، أما الكبار فشيء آخر؛ لأن الصبيان الصغار ترى أحدهم إذا رآك قد قبلت الثاني يأتي ويزاحم ويدخل خده عليك، يعني: لا بد أن تقبله، حتى في الجلوس ـ مثلاً ـ إذا أجلسته على

فخذك، جاء الثاني يركض وجلس على فخذك الثانية وكأن هذه مطالبة واحتجاج، وكأنه يقول: لماذا تفعل؟ ويأخذ حقه بالقوة.

فعلى كل حال: الواجب على الإنسان أن يعدل بين أولاده.

كذلك من العدل: أن يعدل مع نفسه في معاملة غيره، فلا يريد من الناس أن يعطوه حقه كاملاً وهو يبخس الناس، وقد قال الله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾ [المطففين: ١ ـ ٢] يعني: يأخذون حقهم وافياً، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ٣] يعطون الحق الذي عليهم ناقصاً، وهذا ليس من العدل، بل العدل أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، ولهذا شدد النبي ﷺ في هذه المسألة وقال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[1] وهذه هي آداب الإسلام العظيمة.

٨ ـ التعبير بالعدل دون المساواة، والغريب أن كثيراً من الناس العصريين تجدهم شغوفين في التعبير بالمساواة دون العدل، بل قد لا تكاد تجد أحداً منهم يقول: الدين الإسلامي دين العدل، بل يقول: الدين الإسلام دين المساواة، ولا أدري ـ والله أعلم ـ لماذا استخدمت هذه الكلمة «المساواة»، هل هي واردة علينا من الخارج؟ لأنك إذا قلت: المساواة دون العدل قالت الأنثى: أنا لا بد أن أعامل كما يعامل الرجل، وقال الرجل

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم (١٣)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، حديث رقم (٤٥)، من حديث أنس بن مالك.

الساقط الذي لا خير فيه: لا بد أن أعامل كما يعامل الشريف، وهلم جرا، لكن إذا استعملنا العدل فمعناه أن ننزل كل إنسان منزلته.

٩ ـ ثناء الله سبحانه على ما يوجهه من الأحكام إلى العباد لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ وشيء أثنى الله عليه لا بد أن يكون في قمة الخير.

١٠ ـ أن الأحكام الشرعية تسمى موعظة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ مع أنه ليس فيها وعيد وليس فيها تهديد، وإنما فيها بيان أحكام.

١١ ـ كمال حكم الله عزّ وجل؛ وذلك بثناء الله عليه، وكونه موعظة للقلوب، ولهذا كلما ازداد الإنسان تمسكاً بطاعة الله ازداد إيماناً ويقيناً ورغبة في الخير.

١٢ ـ إثبات هذين الاسمين من أسماء الله وهما: السميع، والبصير، وتكلمنا كثيراً على معنى السميع، والبصير كذلك اسم من أسماء الله متضمن للبصر، وتكلمنا عليه أيضاً في ما سبق بما لا يحتاج معه إلى إعادة.

وهل فيهما إثبات السمع والبصر لله؟ الجواب: نعم؛ لأن القاعدة: أن كل اسم لله فهو متضمن لصفة ولا عكس، فالصفة لا يشتق منها اسم لله، إلا إذا تسمى به جل وعلا، والاسم يثبت منه صفة؛ لأن جميع أسماء الله مشتقة من المعاني التي تدل عليها، وعلى هذا فلا نسمي الله بالواعظ مع أنه قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾؟ لأن أفعاله وصفاته لا يُشتق منها أسماء له، أما أسماؤه فإنها تتضمن الصفات.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩].

صدر الله هذه الآية بالنداء، وقد سبق أن تصدير الحكم بالنداء يدل على العناية به؛ لأن النداء يطلب به انتباه المنادى لما يلقى إليه، وفي النداء بوصف الإيمان إشارة إلى أن ما يذكر من مقتضيات الإيمان، يعني: أن ما يذكر وامتثاله من مقتضيات الإيمان.

وفيه أيضاً: أن عدم القيام به نقص في الإيمان؛ لأنك إذا قلت للمؤمن: يا مؤمن! أفعل كذا ولم يفعل فإنه لا بد أن ينقص إيمانه؛ لأنه وجه إليه الخطاب باسم الإيمان أو بوصف الإيمان، فإذا لم يمتثل هذا الخطاب نقص إيمانه.

وقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأرعها سمعك، فإما خير تؤمر به وإما شر تنهى عنه»[1] والذي في هذه الآية خير نؤمر به.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: آمنوا بالله، وبما يجب الإيمان به.

وأركان الإيمان ـ كما هو معروف ـ ستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

وقوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ الطاعة: موافقة الأمر، وذلك بفعل

---

(١) تقدم ص٢٥١.

المأمور وترك المحظور؛ ولهذا أخذت من المطاوعة وهي الانقياد، فالطاعة هي الانقياد وموافقة الأمر بفعل المأمور وترك المحظور.

قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ الرسول هو: محمد عليه الصلاة والسلام، و«ال» فيه للعهد الذهني.

قوله: ﴿وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ الواو حرف عطف، وقوله: : ﴿وَأُو۟لِى﴾ معطوفة على ﴿ٱلرَّسُولَ﴾، وهي بمعنى أصحاب، والأمر بمعنى الشأن، يعني: أصحاب الشأن فيكم، وأصحاب الشأن:

قيل: هم العلماء، وقيل: هم الأمراء، والآية صالحة للمعنيين جميعاً، وعلى هذا فتكون شاملة للأمراء والعلماء.

أما كون العلماء أولي أمر؛ فلأنهم يوكل إليهم الكلام في شرع الله، وهم الذين يوجهون الناس، ويبينون لهم أحكام الله الشرعية.

وأما كون الأمراء أولي أمر؛ فلأنهم هم الذين يحملون الناس على شريعة الله، والشريعة تحتاج إلى أمرين: أمر سابق، وأمر لاحق، فالأمر السابق هو من شأن العلماء فهم الذين يبينونه ويوضحونه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وأمر لاحق وهو من شأن الأمراء فهم يلزمون الناس بشريعة الله، ويقيمون حدود الله على من خالف، فالكل عليه مسئولية.

وبهذا التقسيم نعرف أن مسئولية العلماء أشد من مسئولية الأمراء؛ لأن الأمراء لا يمكن أن يمشوا على شيء إلا بعد بيان العلماء.

وعلى هذا: فشأن العلماء في الأمة الإسلامية أعظم من شأن الأمراء، ويجب على الأمراء اتباع العلماء فيما يبينونه من شريعة الله.

ويحتمل أن يكون المراد بالأمر في قوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾: طلب الفعل ممن هو دون الآمر، أو على وجه الاستعلاء، ويكون معنى الأمر أي: الذين لهم أن يأمروا الناس، والعلماء يأمرون الناس، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١]، وهم العلماء.

والأمراء كذلك يأمرون، فالأمر هنا صالح لمعنيين أيضاً: الشأن، والأمر الذي هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء.

وهنا يقول الله: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ ولم يُعِدْ الفعل، فلم يقل جل وعلا: وأطيعوا أولي الأمر؛ لأن طاعة ولاة الأمور تابعة لطاعة الله، ولهذا لو أمروا بما يخالف طاعة الله لم يكن لهم طاعة، فطاعتهم تابعة لطاعة الله ورسوله.

ثم قال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ وهذا متوقع جداً أن يحصل النزاع بين أولي الأمر بعضهم مع بعض، وبين أولي الأمر مع عامة الناس، فالعلماء يختلفون فيما بينهم، والأمراء يختلفون مع العلماء، ومع الناس، أو العلماء يختلفون مع الناس، أو يختلف الناس مع الأمراء، أو ما أشبه ذلك.

المهم أن التنازع هنا غير مقيد، فيشمل التنازع بين العلماء، وبين الأمراء، وبين العلماء مع الأمراء، وبين العلماء مع الناس، والأمراء مع الناس، وهذا لا بد أن يقع.

وقوله: ﴿فِي شَيْءٍ﴾ نكرة في سياق الشرط، فتكون للعموم، فأي شيء يُتنازع فيه فإنه يُرد إلى الله والرسول.

وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا يمكن أن يقول قائل: أننا نذهب إلى الله عزّ وجل، ونتحاكم عنده أو نرد الشيء إليه، ولكن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، أما إلى الرسول ﷺ فهو الرد إليه شخصياً في حياته، وإلى سنته بعد وفاته ﷺ.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ هذه جملة شرطية يراد بها الإغراء والحث؛ أي: إن كنتم صادقين في الإيمان بالله واليوم الآخر فامتثلوا هذه الأوامر: طاعة الله، وطاعة الرسول، وأولي الأمر، والرد عند التنازع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ الإيمان بالله يتضمن: الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته.

وقوله: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي: الإيمان بكل ما يكون بعد الموت، سواء في البرزخ أو بعد قيام الساعة، وإنما نص الله على اليوم الآخر لأنه اليوم الذي يقع فيه الجزاء، واليوم الذي يقع فيه الجزاء لا بد أن يحسب له الإنسان حسابه؛ خوفاً من أن يجازى بالسوء في يوم القيامة.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾: المشار إليه كل ما سبق من طاعة الله وطاعة رسوله وأولي الأمر، والرد إلى الله ورسوله عند التنازع؛ ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: في الحال والحاضر، ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾؛ أي: أحسن مآلاً وعاقبة، فامتثال هذه الأوامر الأربعة يحصل به الخير في الحاضر والخير في المستقبل، وكل إنسان لا يسعى إلا

لخير حاضر أو مستقبل؛ لأن الماضي مضى بخيره وشره ولا يمكن إعادته.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ حسن التناسب بين الآيات في الكتاب العزيز، فإنه لما ذكر أداء الأمانات والحكم بين الناس بالعدل، ذكر ما يحصل به الخير أيضاً إضافة إلى ذلك، وهو طاعة الله ورسوله ﷺ.

٢ ـ وجوب طاعة الله، وإن خالفت الهوى، وإن خالفت الواقع، وإن خالفت الحال، خلافاً لمن يمتثل طاعة الله إذا وافقت الواقع ولم يجد معارضاً؛ لأن من قيد طاعة الله بهذا، فهو في الحقيقة لم يطع الله، وإنما اتبع هواه.

٣ ـ وجوب طاعة الرسول ﷺ استقلالاً، وأن طاعته كطاعة الله؛ لقوله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾؛ لأنه أعاد الفعل: ﴿أَطِيعُوا۟﴾، ولم يجعل طاعة الرسول تابعة لطاعة الله.

٤ ـ الرد على من كفر بالسنة وقال: لا نقبل إلا ما جاء في القرآن؛ لأن الله جعل طاعة الرسول ﷺ مستقلة، والحقيقة أن الذي يقول هذا القول لم يتبع ما جاء به القرآن؛ لأن القرآن أمر بأن يتبع الرسول عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ولم يقل: اتبعوه إن وجدتم لذلك أصلاً في القرآن، بل هو أمر عام.

٥ ـ وجوب طاعة ولاة الأمور؛ لقوله: ﴿وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

٦ ـ أن طاعة ولاة الأمور من طاعة الله؛ لأن الله تعالى أمر بذلك.

٧ ـ أنهم لو أمروا بما يخالف طاعة الله ورسوله ﷺ، فلا طاعة لهم؛ لأن الله جعل طاعتهم تابعة لطاعته ولطاعة رسوله فقال: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

٨ ـ أن طاعة ولاة الأمور واجبة، حتى وإن لم يأمر الله بذلك الشيء المعين الذي أمروا به، وهنا لا بد من التقسيم **فنقول**:

ما أمر به ولاة الأمور على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما أمر الله به.

القسم الثاني: ما نهى الله عنه.

القسم الثالث: ما لم يرد به أمر ولا نهي.

أما ما أمر الله به فإن ولاة الأمور إذا أمروا به صارت طاعتهم واجبة من وجهين:

الوجه الأول: طاعة الله.

الوجه الثاني: طاعة ولاة الأمر.

مثال ذلك: أن يأمروا بإعلان الأذان، أو بإقامة الصلاة جماعة في المساجد، أو بأداء الزكاة، فهذا واجب الطاعة.

وأما القسم الثاني: أن يأمروا بما نهى الله عنه: مثل أن يقولوا للناس: افتحوا خانات الخمر، فهذا لا يطاعون فيه، أو يأمروا بقتل شخص لا يحل قتله، ونحن نعلم أنه لا يحل قتله، وإنما أمروا بقتله عدواناً وظلماً؛ فهنا لا طاعة لهم، أما إذا أمروا بقتله بحق كقصاص أو ردة، أو فساد في الأرض أو تعزير يسوغ

لهم التعزير به؛ فإن طاعتهم في ذلك واجبة، لكن إذا كنا نعلم أنه ظلم بغير حق فإننا لا نطيعهم.

كذلك أيضاً لو أمروا بإدخال حدود الأراضي على الجيران ظلماً وعدواناً، فإننا لا نوافقهم على ذلك ونعصيهم؛ لأن طاعتهم تابعة لطاعة الله ورسوله.

ومن ذلك قصة أمير السرية الذي أمَّره النبي ﷺ على سرية، فخرج بهم، وغاضبهم يوماً من الأيام، فأمرهم أن يجمعوا حطباً، فجمعوا حطباً امتثالاً لأمر الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنه أمرهم بطاعته، ثم قال: «أضرموا فيه النار، فأضرموها»، ثم قال لهم: «ألقوا أنفسكم في النار، فتوقفوا» وقالوا: نحن من النار فررنا ـ ولم نؤمن إلا خوفاً من النار ـ فكيف نقحم أنفسنا فيها؟ فلما رجعوا إلى النبي ﷺ وحكوا له ذلك، قال: «**لو دخلوها ما خرجوا منها**»؛ لأنهم قتلوا أنفسهم «**إنما الطاعة في المعروف**»[1] يعني: في شيء لا ينكره الشرع.

لو نهى الأمير الناس عن الأمور المستحبة فليس له ذلك.

لكن إذا قال لشخص معين: لا تتكلم في هذا، فله ذلك؛ إذا كان يرى أن في كلامه مضرة للناس، أما إذا كان لا يرى ذلك فلا يجوز له أن يمنع الناس من شرع الله، ولهذا امتثل الإمام أحمد رحمه الله حين منعوه أن يحدث. وقال أبو موسى

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، حديث رقم (٦٧٢٦)؛ ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، حديث رقم (١٨٤٠) عن علي بن أبي طالب.

لعمر رضي الله عنهما: «إن شئت ألا أحدث به فعلت».

وأما القسم الثالث: أن يأمر ولاة الأمور بما لم يتعلق به أمر ولا نهي، فهنا معترك القول، فالمتمردون على ولاة الأمور يقولون: لا سمع ولا طاعة، هات دليلاً على أن هذا واجب، والمؤمنون يقولون: سمعاً وطاعة؛ لأننا لو لم نطعهم إلا في أمر ورد فيه الشرع بعينه لكانت الطاعة ليست لهم، بل للأمر الشرعي، فمثلاً: لو قال انسان أنا لا أخضع للتنظيم، فلو سد المرور هذا الطريق وقال للناس: سيروا في الجهة الأخرى، فقال: أنا لا أخضع لهذا الأمر، ثم جاء ليجادل ويقول: أين الدليل؟ هل قال الله تعالى: إذا قال لك المرور: لا تمش في هذا الخط فلا تمش؟

الجواب: لم يقل، لكن على سبيل العموم، قال الله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ﴾؛ فيجب أن تمتثل. فإذا قال: ليس في هذا مصلحة، فلماذا أمتثل؟ قلنا: لو جعلنا المصلحة مربوطة برأي كل واحد من الناس ما عملنا بمصلحة قط؛ لأن أهواء الناس متباينة مختلفة، فالرأي لولي الأمر قبل كل شيء، فإذا كان عندك رأي ترى فيه مصلحة، وجب عليك ـ من باب النصيحة ـ أن ترفعه لولي الأمر، وتقول: نحن نمتثل أمرك سمعاً وطاعة لله عزّ وجل قبل كل شيء، ولكن نرى أن المصلحة في كذا كذا، وحينئذ تكون ناصحاً لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

سؤال مهم: لو أمر الإمام بما يرى أنه مشروع، والرعية أو واحد منهم يرى أنه غير مشروع: مثل أن يأمر بصوم يوم

الاستسقاء؛ لأن الفقهاء رحمهم الله يقولون: ينبغي للإمام أن يأمر الناس بصيام يوم الاستسقاء، فهل يلزم الصوم؟ قال الفقهاء: لا يلزم الصوم ولا الصدقة؛ لأن هذا أمر بشريعة، والأصل في الصوم أنه ليس بواجب، والصدقة ليست بواجبة، فلا يجبان بأمره، وإلا لقلنا: إن الإمام يمكن أن يشرع.

ثم قالوا: والمراد بقولنا: «طاعة ولي الأمر» فيما يعود إلى تنظيم الأمة، فإذا أمر بالصوم يوم الاستسقاء وكان هذا العالم يرى أنه ليس بسنة؛ لأن النبي ﷺ لم يأمر الناس حين خرج للاستسقاء أن يصوموا، فله ألا يصوم، لكن لا يعلن مخالفة ولي الأمر، وهو فيما بينه وبين الله لا يلزمَه، لكن المنابذة وإعلان المخالفة في أمر يسوغ فيه الاجتهاد هذا خطأ، ولهذا يُنتَقد على من يتكلم بما يرى، مع إظهار الإمام رأيه في شيء من الموضوعات، يُنتقد على من تكلم بخلافه، وقال: إن هذه المسألة اجتهادية، وللإمام اجتهاده ولي اجتهادي؛ لأن هذا يؤدي إلى استهانة الناس بما ينظمه ولاة الأمور، وأن يقول كل واحد: ولي الأمر مجتهد، وأنا مجتهد، ولكل اجتهاده، والواجب ـ من باب النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ـ أن يتكلم مع ولي الأمر الذي خالفه في اجتهاده ويبين له.

مسألة: لو أن ولي الأمر أقر أمراً منكراً، فإنه يجب أن يبين إنكاره، لكن لا يوجه الإنكار على ولي الأمر، ولكن يحذر الناس منه، فلو وجد مثلاً في بعض البلاد أشياء منكرة مقرة من قبل ولاة الأمور فإنه لا يجوز إقرارها، فمثلاً: يوجد في بعض البلاد الإسلامية والبلاد القريبة منا بيع الخمر علانية في البقالات وفي

المقاهي وفي كل مكان، فهل نقول للناس: لا تحذروا الناس منها بناءً على أن ولي الأمر سمح بها؟ الجواب: لا، بل يجب أن نحذر الناس منها، لكن لا ينتقد ولي الأمر بإقراره إياها، بل ينصح، وتقدم له النصيحة.

قد يقول قائل: أيهما أقوى: سلطان الأمراء أو سلطان العلماء؟

والجواب: بالنسبة للتنفيذ سلطان الأمراء أقوى؛ لأنهم يستطيعون أن يجبروا الناس على أي شيء، والعلماء لا يستطيعون، وأما بالنسبة لما تقتضيه الشريعة وللحكم الشرعي فالعلماء أقوى بلا شك؛ لأن الأمراء يأخذون من العلماء.

فإذا قال بعض الناس: أبايع العلماء فقط.

فنقول: لا يجوز، حتى العلماء لا يرضون بهذا، والعلماء يرون أنه تجب البيعة لمن ولّاه الله أمرنا على ما فيه من الأمور التي قد لا ترضى.

٩ ـ محبة الله عزّ وجل للنظام، والانضمام والانزواء تحت رعاية واحدة، لقوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾؛ لأن الناس لو لم يكن لهم ذو أمر مطاع لصارت أمورهم فوضى، ولهذا يقول الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

فلا بد من أمير، ولا بد من قائد، ولا بد من موجه، حتى الحيوانات العجم لا بد لها من أمير.

كانت الطيور منذ زمن بعيد ـ لم ندركه لكن ينقل لنا ـ تأتي فرقاً كثيرة يعني: يجتمع ثلاثون، أو أربعون طيراً أو خمسون طيراً، لكن لا يمكن أن تطير في جو السماء إلا بقائد يطير أمامها، وتتبعه.

والظباء كانت موجودة في الجزيرة بكثرة، فكانت تأتي المجموعة من الظباء ـ يشاهدها الصيادون ـ يقودها واحد وهي تمشي خلفه، والصيادون عندهم حكمة في الصيد، فكانوا يصيبون القائد، فإذا أصابوه تشتت الجمع، هكذا يقولون لنا: اضرب القائد تدرك التابع.

فأقول: كل جمع لا بد له من قائد ولا بد من أمير، حتى إن الرسول عليه الصلاة والسلام أمر المسافرين إذا سافروا وكانوا ثلاثة أن يؤمروا أحدهم[1] حتى يكون لهم رأي.

وكون الرسول ﷺ أمر المسافرين أن يؤمروا واحداً منهم لا يدل على أنه يجوز للطوائف أن تؤمِّر واحداً منها في داخل البلد التي فيه سلطة الإمرة، لكن في السفر ليس عندهم أحد يرجعون إليه، فلا بد من أن يؤمِّروا واحداً منهم بدون مبايعة، فإذا رأوا صاحب رأي منهم فيرجعون إليه في الاستشارة، لا في توجيه الأوامر.

١٠ ـ وجوب رد الأمور المتنازع فيها إلى الله ورسوله؛ لقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾.

١١ ـ تحريم رد المسائل المتنازع فيها إلى القوانين الوضعية، أو تحكيم أهل الكفر والإلحاد، لقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

١٢ ـ تحريم التقليد مع وضوح الدليل، لقوله: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، وإنما قلنا: مع وضوح الدليل؛ لأن التقليد يجوز للضرورة إذا لم يعلم الإنسان، لقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، ولم يأمر سبحانه بسؤال أهل

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم (٢٦٠٨) عن أبي سعيد الخدري.

الذكر إلا للرجوع إلى ما يقولون، وإلا لم يكن هناك فائدة من سؤال أهل الذكر.

١٣ ـ أن الرد إلى الله والرسول من مقتضيات الإيمان، لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

١٤ ـ أن من ادعى الإيمان بالله واليوم الآخر ولكنه لا يرد مسائل النزاع إلى الله ورسوله فإنه كاذب؛ لأن قوله: ﴿إِن كُنتُمْ﴾ بمنزلة التحدي، فيكون كاذباً فيما يدعي، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، انظر القسم المؤكد في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فهذا القسم مؤكد بـ﴿لَا﴾ التي هي للتنبيه، ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ هذه المرتبة الأولى وهي تحكيم الرسول عليه الصلاة والسلام، فإن حكموا غيرك فليسوا بمؤمنين.

ثانياً: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ أي: ضيقاً، حتى المحكوم عليه إذا وجد في نفسه حرجاً وضيقاً فليس بمؤمن، فهذه المرتبة الثانية وهي: انتفاء الحرج والضيق، يعني: يجب أن ينشرح صدره لما يحكم به الرسول ﷺ.

المرتبة الثالثة: ﴿وَيُسَلِّمُوا۟﴾ أي: ينقادوا، ﴿تَسْلِيمًا﴾ وهذا المصدر مؤكد؛ أي: يسلموا إذا انقادوا انقيادا تاماً لما يحكم به الرسول عليه الصلاة والسلام، فنفى الخلاف الباطن والخلاف الظاهر.

والخلاف الباطن: أن يكون في صدرك ضيق وحرج، والظاهر: ألا تسلم التسليم التام، بل تماطل، ولا يكون أمرك أمر استسلام.

١٥ ـ أنه كلما ازداد إيمان الإنسان بالله واليوم الآخر ازداد رجوعه إلى الكتاب والسنة؛ وذلك لأن الحكم المعلق بشرط متضمن للوصف، يقوى بقوة ذلك الوصف ويضعف بضعف ذلك الوصف، لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

١٦ ـ إثبات اليوم الآخر، وأنه سيكون بعث يجازى فيه الناس بأعمالهم، فمن كذَّب به أو شك فيه ـ والعياذ بالله! ـ فهو كافر ولو آمن بالله.

١٧ ـ أن الرجوع إلى الكتاب والسنة خير في الحاضر والمستقبل، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: في الحاضر، ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: أحسن عاقبة في المستقبل.

١٨ ـ بطلان توهم من حكَّم القوانين الوضعية، وظن أن الأمة تصلح بها، فإننا نقول: هذه القوانين الوضعية ما كان صالحاً موافقاً للكتاب والسنة فصلاحه وإصلاحه ليس بذاته، ولكن لموافقته للكتاب والسنة، ولا يصح أيضاً أن نجعل هذا الحكم من القانون الوضعي، بل هذا الحكم هو حكم الكتاب والسنة، فكوننا إذا وجدنا أشياء مصلحة من القوانين منسوبة إلى وضع البشر فهذا يعتبر سرقة من الشرع، ومن الحكم الإلهي؛ لأن كل شيء يصلح للخلق فمبناه على كتاب الله وسنة رسوله.

١٩ ـ أن من تحاكم إلى غير الله ورسوله فهو كافر، ولكن هل هو الكفر المخرج من الملة أو لا؟ الجواب نقول: في هذا تفصيل بحسب حال المتحاكم: وذلك أنه إذا رأى أن الحكم الذي تقضي به هذه القوانين خير من حكم الله ورسوله أو مثله فهو

كافر؛ لأنه مكذِّب لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: ٨].

وأما إذا كان لا يعتقد ذلك ـ ولكن مشى مع الناس ـ فهذا لا يكفر؛ لأن من الناس ـ ولا سيما العامة ـ من لا يدرك هذا الفرق، فهذا لا يكفر.

وبقي أن يقال: إذا كنت في بلد لا يحكم إلا بالقوانين الوضعية؛ كبلد الكفار، أو من أخذ بقوانينهم، فأنت الآن بين أمرين: إما أن يضيع حقك، وإما أن تلجئك الضرورة إلى التحاكم إلى هؤلاء فهل يجوز لك أن تتحاكم إلى هؤلاء؟ الجواب: قد يظهر للإنسان في أول وهلة أنه لا يجوز أن نتحاكم إليهم؛ لأن هذا تحاكم إلى الطاغوت، ولكن نقول: لك أن تتحاكم لا باعتقاد أن ذلك حكم ملزم، ولكن لأجل الوصول إلى حقك الذي لا يمكن أن تصل إليه إلا بهذه الطريق، ثم إذا حكموا لك بما يوافق الشرع فخذ به؛ لأنه شرع الله، وإن حكموا لك بخلاف ذلك فلا تأخذ به، وهذا هو الذي يحفظ للناس حقوقهم؛ لأنه من المشكل إذا كنت في بلد لا يحكم إلا بالقانون الوضعي، وقد أشار إلى هذا ابن القيم رحمه الله في أول كتابه «الطرق الحكمية».

فإن قال قائل: التعبير في الآية الكريمة: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ﴾، و«إن» لا تدل على وقوع الشرط، بخلاف «إذا» فإنها تدل على وقوع الشرط ولكن توقته، ولهذا تجد الفرق بين أن تقول: إذا قام زيد فأكرمه، أو تقول: إن قام زيد فأكرمه، الأولى تدل على أنه سيقوم لكن إكرامه معلق بقيامه، والثانية لا تدل على أنه سيقوم،

فإن قام فأكرمه، فهنا قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ معناه: أن الأصل في النزاع أنه مرفوع فيما بيننا، وأن الأصل عدم المنازعة، لكن إن حصل النزاع فردوه إلى الله والرسول.

٢٠ ـ وفي هذا فائدة نضيفها إلى الفوائد السابقة، وهي: الإشارة إلى أنه لا ينبغي النزاع بيننا، بل كل ما أمكن درء هذا النزاع كان هو الأولى.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠].

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ﴾ الاستفهام هنا للتعجيب، يعني: ألا تتعجب من هؤلاء، والخطاب في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ يجوز أن يكون موجهاً إلى الرسول ﷺ، ويجوز أن يكون موجهاً لكل مخاطب بهذا الكتاب العزيز، وإذا دار الأمر بين هذا وهذا فالأولى أن يكون محمولاً على العموم، وعلى الأول وهو: أن المخاطب به الرسول ﷺ، لا يعني أن الأمة لا تخاطب به؛ لأن ما خوطب به الرسول فهو خطاب للأمة، إما عن طريق الأسوة، وإما لأنه القائد، والخطاب للقائد خطاب له ولمن يتبعه في قيادته.

فها هنا أمور ثلاثة:

أولاً: هل الخطاب عام للرسول ﷺ وللأمة؟ الجواب نقول: إذا لم يكن مانع فهذا هو الأصل وهو الأصح.

ثانياً: إذا قلنا: هذا خاص بالرسول ﷺ، فهل هو خاص به، وغيره من الأمة يكون تبعاً له عن طريق الأسوة أو أنه وجه للرسول خطاباً لا حكماً، بمعنى: أنه لما كان هو القائد الإمام لهذه الأمة وجه إليه الخطاب، والخطاب الموجه للقائد يكون خطاباً له ولمن وراءه؟

الجواب: فيه احتمالان، وإذا لم يوجد مانع فالأصل حمله على العموم، وهنا وجد مانع وهو قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، ومعلوم أنه لم ينزل إلى كل واحد منا وحي، فيكون هذا الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام، والأمة تبع له، إما عن طريق التأسي أو لأنه القائد، والخطاب للقائد خطاب لمن تبعه، فالكلام باقٍ على القاعدة.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ ﴿يَزْعُمُونَ﴾ أي: يقولون، وهذه المقولة ينظر هل تكون صحيحة أو لا؟

وقوله: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ كاليهود مثلاً يقولون: نحن نؤمن بما أنزل إليك يا محمد! ونؤمن بالتوراة، والنصارى يقولون: نؤمن بما أنزل إليك ونؤمن بالإنجيل والتوراة.

ولم يذكر المنزل في قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ لأنه معلوم، والمعلوم كالمذكور، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] لو قال قائل: من الذي خلق الإنسان؟ لقلنا: الله، فإذا قال: ليس في الآية «وخلق الله الإنسان» فنقول: لأنه معلوم أنه لا خالق إلا الله، فقوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وهذا معلوم كوناً، وإنزال الوحي معلوم شرعاً؛ لأن الذي ينزل الوحي هو الله عزّ وجل.

ولكنهم ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾، هذا هو محل التعجب، يزعمون ذلك وهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، والطاغوت: كل ما خالف الشرع؛ لأن ما خالف الشرع فهو طغيان، فيريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت.

﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ أي: يكفروا بالطاغوت، والآمر هو الله عزّ وجل، لكنه أتى بصيغة اسم المفعول؛ ليكون هذا الأمر ـ وإن كان أصله من الله ـ فهو أيضاً صادر من الرسول ﷺ ومن كل مؤمن، فكل مؤمن يؤمر أن يكون التحاكم إلى الله ورسوله، وأن يكفر الإنسان بالطاغوت.

وقوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ﴾ أي: من قبل الله ومن قبل أولياء الله، أن يكفروا به؛ أي: بالطاغوت، وإنما قلنا: إنه من قبل الله ومن قبل أوليائه؛ لأنه نظير قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة] ولم يقل: غير الذين غضبت عليهم؛ لأن طريقة هؤلاء تغضب الله، وتغضب أولياء الله.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ إذاً: فهم تابعون للشيطان الذي يملي عليهم التحاكم إلى الطاغوت، فالشيطان يريد أن يضلهم ضلالاً بعيداً؛ أي: بعيداً عن الحق؛ لأن التحاكم إلى الطاغوت يوجب للإنسان أن يبتعد عن الحق، وأن يعلق قلبه بهذا الطاغوت.

مثال ذلك: إذا دعي أحد من الناس إلى القرآن الكريم فيأبى ويقول: لا. بل نتحاكم إلى التوراة أو إلى الإنجيل، أو إلى القانون الفلاني، أو يقول: نتحاكم إلى المحاكم التجارية والقوانين التجارية، وهو يُدعى إلى التحاكم إلى الله ورسوله،

فيقول: لا، نرجع إلى أعراف التجارة ولو كانت تخالف الشرع، فهذا يدخل في هذه الآية[١].

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦١].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ الضمير يعود إلى هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وما أنزل من قبل، وهم المنافقون من أهل الكتاب.

قوله: ﴿تَعَالَوْا﴾ أي: أقبلوا.

قوله: ﴿إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يعني: القرآن، ولم يقل: إلى القرآن؛ إشارة إلى بيان منزلته وعلو مرتبته، وهو أنه منزل من عند الله؛ لأن ما نزل من عند الله تقوم به الحجة على كل أحد.

قوله: ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾، ولم يقل: إلى قول الرسول؛ لأنهم يدعون إلى الحضور إلى حضرة النبي ﷺ، ويأتون إليه ليناقشهم ويبين لهم.

و«أل» في قوله: ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ للعهد الذهني، وذلك لأن العهود ثلاثة:

ذهني، وذكري، وحضوري، فإن كانت «أل» تشير إلى شيء مذكور فالعهد ذكري، مثل قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥ ـ ١٦] والرسول هنا موسى عليه السلام؛ لأنه هو الذي أرسل إلى فرعون.

---

(١) سيرد ذكر الفوائد بعد آيات.

وتكون للذهني إذا كان معلوماً بالذهن، كما يقول القائل لخصمه: اذهب بنا إلى القاضي، أي: قاضي البلد المعهود، وكما في هذه الآية الكريمة، وأمثلتها كثيرة.

وتكون للعهد الحضوري، مثل قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] أي: اليوم الحاضر، ومن ضوابط هذه: أن تأتي بعد اسم الإشارة، مثل: هذا الرجل، هذا اليوم، هذا الأسبوع، فـ«أل» التي تأتي بعد اسم الإشارة للعهد الحضوري؛ لأن اسم الإشارة يدل على شيء حاضر مشار إليه، فتكون «أل» الواقعة بعده للعهد الحضوري.

إذاً: ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ يعني: محمداً ﷺ؛ وسمي رسولاً لأن الله أرسله، وجعله واسطة بينه وبين عباده في تبليغ شرعه، وإرسال الله إياه أكبر دليل على تزكيته، وأنه أهل لتحمل الرسالة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فالنبي عليه الصلاة والسلام جمع بين الأمانة وبين القوة في إبلاغ الرسالة، ولهذا لا أحد أقوى أمانة منه، ولا أحد أشد صبراً منه على ما يناله من تبليغ رسالة الله عزّ وجل.

قوله: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: جملة: ﴿رَأَيْتَ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾.

والتاء في قوله: ﴿رَأَيْتَ﴾ المخاطب بها: إما الرسول، لقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ٦٠]؛ لأن السياق كله في خطاب الرسول، ويحتمل أن تكون للعموم، لكن كونها للرسول ﷺ أقرب للسياق.

وقوله: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ المنافق:

اسم فاعل من نافق، وهو مأخوذ من نافقاء اليربوع؛ أي: جحره، وجحر اليربوع مبني على الخداع؛ لأن الجربوع أو اليربوع يكيد، فيجعل له باباً في جحره يدخل منه، ويجعل له باباً من قشرة الأرض في أقصى الجحر، فإذا زاحمه أحد من الباب المعهود المفتوح؛ خرج من الباب الخفي، فخادع، فلهذا أخذ منه كلمة: «منافق».

وقد قيل: إن هذه الكلمة كلمة محدثة شرعية أي: لا يعرف معناها في اللغة بهذا المعنى؛ لأن الجاهلية كلها كفر، ليس فيها إيمان، والمؤمن يكون مؤمناً فيما بقي من دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أو يكون متنصراً كورقة بن نوفل، أو ما أشبه ذلك، لكن بعد أن ظهر خبث هؤلاء أنهم يظهرون للناس أنهم مؤمنون وهم كافرون جاءت هذه الكلمة.

وقوله: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ هنا نكتة بلاغية، وهي: الإظهار في موضع الإضمار؛ لأن مقتضى السياق أن يقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ رأيتهم، هذا مقتضى السياق، لكن قال: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ وإذا جاء الإظهار في موضع الإضمار فإن له ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: عِلِّيَّة الحكم؛ لأن هذا المظهر يفيد العلة في هذا الشيء، فالعلة في صدهم: هو النفاق.

الفائدة الثانية: التسجيل على مرجع الضمير بهذا الوصف؛ أي: أن مرجع الضمير متصف بهذا الوصف ـ وهو: النفاق ـ لكن لو قال: ﴿رَأَيْتَ﴾ لم نعرف أنهم كانوا منافقين.

الفائدة الثالثة: العموم؛ أي: أنه يعم هؤلاء وغيرهم من

المنافقين، ولو قال: رأيتهم فقط لم يشمل غيرهم.

قوله: ﴿يَصُدُّونَ﴾ هذا الفعل يصح أن يكون متعدياً، ويصح أن يكون لازماً، يقال: صد بنفسه ويقال: صد غيره، فهنا: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ من الأول الذي هو اللازم؛ أي: يعرضون عنك.

وقوله: ﴿صُدُودًا﴾ هذا مصدر مؤكد، ويجوز أن يكون مصدراً نوعياً، والمصدر المؤكد هو: الذي يؤكد عامله لينتفي المجاز، وذلك لأن الفعل قد يراد به المجاز أي: أنه أسند إلى الفاعل مجازاً، فإذا أكد زال احتمال المجاز، ويحتمل أن يكون مصدراً نوعياً أي: أنه صدود عظيم، فهو موصوف بوصف محذوف، والتقدير: صدوا عنك صدوداً عظيماً، والثاني أبلغ؛ لأنه ينتظم الأول ولا عكس.

فهؤلاء ـ والعياذ بالله! ـ إذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله من القرآن نتحاكم إليه، وإلى الرسول ﷺ لنتحاكم إليه، ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ يعني: رأيتهم في نفاقهم وانغماسهم في النفاق يصدون عنك صدوداً.

وهنا قال: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ﴾ ولم يقل: يصدون عن الذي قال لهم؛ لأنهم لا يهمهم من قال لهم، الذي يهمهم ومرادهم هو الرسول عليه الصلاة والسلام، فقد يصدون عن الرسول ولا يأتون، ولكن لا يصدون عن الذي دعاهم، بل ربما يقابلونه بوجه طلق حسن، لكن يصدون عن الرسول ﷺ، فلهذا لم يقل: يصدون عنه.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء: ٦٢].

﴿كَيْفَ﴾ هذه للتعجب، يعني: اعجب لحالهم إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم، وهذه المصيبة هي: أن يُطلع على نفاقهم، وعلى ما في صدورهم، وعلى إعراضهم، فإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول صدوا وأعرضوا ثم اطلع على ذلك، فهذه هي المصيبة، وإنما كانت مصيبة بالنسبة إليهم؛ لأنهم لا يريدون أن يطلع على عوارهم وعلى كفرهم، فهم منافقون، يستترون غاية الاستتار لما يخفون من الكفر، فإذا عثر عليهم صار هذا العثور مصيبة عظيمة.

قوله: ﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسبب ما قدمته أيديهم من الكفر والنفاق.

قوله: ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ أي: جاءوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.

قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ جملة ﴿يَحْلِفُونَ﴾ حال من الواو في جاءوك؛ أي: جاءوك متلبسين بهذا الحلف، ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ﴾ ﴿إِنْ﴾ هنا نافية، وقرينة كونها نافية أداة الاستثناء ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا﴾ أي: ما أردنا إلا إحساناً، وتأتي «إن» شرطية، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾ [الأنفال: ١٩]، وتأتي مخففة من الثقيلة، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] أي: وإنهم كانوا من قبل، وقول الشاعر:

وإن مالك كانت كراماً معادنه

وتأتي زائدة، مثل:

بني غدانة ما إن أنتم ذهب ولا صريف ولكن أنتم الخزف

والرابع: تأتي نافية، كما في هذه الآية: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾.

قوله: ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ الإحسان: أن ينبسطوا إلى المؤمنين، ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ١٤]، وإذا لقوا الذين كفروا قالوا: إنا معكم، فيريدون الإحسان؛ أي: السير بدون عداوة لهؤلاء ولا هؤلاء.

﴿وَتَوْفِيقًا﴾ أي: بين الناس، حيث نثبت لهؤلاء أنا معهم فنوافقهم، وهؤلاء أنا معهم فنوافقهم أيضاً، وهذا ـ والعياذ بالله ـ غاية النفاق، يعني: ما أردنا إلا الإحسان، وألا يحصل بيننا تضارب وبين غيرنا؛ لأن هذا لا يحتمله المنافقون، وسيأتي إن شاء الله في الفوائد بيان ذلك.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٣].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المشار إليه هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله، وأتى باسم الإشارة الدالة على البعد لانحطاط مرتبتهم؛ وذلك لأن الإشارة بالبعيد قد تكون إشارة إلى البعيد الحسي كما تقول: ذاك فلان بعيد، وقد تكون الإشارة إلى البعيد المعنوي: إما علواً وإما نزولاً، حسب

ما يقتضيه السياق، فهنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ هذا نزول.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البينة: ٧] هذا علو، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البينة: ٦] هذا نزول، فجمعت الآيتان بين العلو والنزول.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ قال: يعلم، ولم يقل: علم؛ لأن علم الله مستمر سابق وحاضر ولاحق؛ ولهذا أتى بالفعل المضارع الدال على الاستمرار.

وقوله: ﴿مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: ما تضمره من النفاق والكفر، يعني: وأما أنتم فلا تعلمون ما في قلوبهم؛ لأنه ليس لنا إلا الظاهر، لكننا نعلمهم بالقرائن، قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [محمد: ٣٠]؛ أي: إشارة ومفهوماً، وهذا يكون لأهل الفراسة، وكلما كان الإنسان أقوى إيماناً بالله كان أشد فراسة، حتى إن بعض الناس ليقرأ ما في قلب الإنسان من على صفحات وجهه.

لذلك نقول: المنافقون لا يعلمهم إلا الله، وهذا الأصل، ولكن ربما نعرفهم في لحن القول، أو بفراسة يعطيها الله تعالى من شاء من عباده.

قوله: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ يعني: لا تتعب نفسك معهم، ولا تعاملهم معاملة الكافرين فتقاتلهم؛ لأنهم لم يعلنوا بالعداوة، ولهذا لما استؤذن النبي ﷺ في قتل من استؤذن بقتله منهم، قال: **«لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»**[1]، وهذا هو عين

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة المنافقون، حديث رقم =

الحكمة؛ لأننا لو سلطنا سيوفنا على أمثال هؤلاء لقتلنا عالماً، وقد يكونون مؤمنين، وإذا كان الرجل المشرك الذي لحقه أسامة رضي الله عنه وأدركه بالسيف قال له النبي ﷺ: «**أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟!**»[1] مع أن الظاهر أنه قالها تعوذاً، فإذا كان هذا الرجل عصم دمه بهذه الكلمة فكيف بهؤلاء المنافقين الذين يذكرون الله، ويأتون معنا ويصلون ويتصدقون، فالكف عنهم هو عين الحكمة.

قوله: ﴿وَعِظْهُمْ﴾ الموعظة: هي التذكير المقرون بالترغيب والترهيب؛ أي: أن تذكّر الإنسان بما يلزمه من فعل أو ترك مع ترغيب أو ترهيب، ترغيب فيما تأمره به، وترهيب فيما تنهاه عنه.

قوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: قل لهم قولاً يصل إلى قرارة نفوسهم، ولهذا جعل ظرف القول هو النفس، ويحتمل أن يكون المعنى ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: في شأنهم وحالهم قولاً بليغاً يبلغ قلوبهم، والمعنيان لا يتنافيان، وعلى هذا فيكونان جميعاً حقاً؛ أي: قل لهم في شأنهم وفي أنفسهم بأنكم فعلتم كذا وفعلتم كذا، أو قل لهم قولاً في النفس يصل إلى النفوس، وإلى قرارة القلوب.

وقوله: ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: ذا بلاغة، أو بليغاً بمعنى بالغاً

= (٤٦٢٢)؛ ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، حديث رقم (٢٥٨٤) عن جابر بن عبد الله.

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات، حديث رقم (٤٠٢١)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله، حديث رقم (٩٦) عن أسامة بن زيد.

غايته، وكلاهما صحيح؛ لأن القول كلما كان بليغاً كان أشد تأثيراً؛ ولهذا جاء في الحديث: «**إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة**»[(١)]، وكم من إنسان يعبر عن المعنى بعبارة بليغة غاية في البيان والفصاحة فيؤثر، ثم يأتي إنسان آخر يعبر عن هذا المعنى نفسه ولكن لا يؤثر شيئاً؛ بسبب عدم البلاغة، ولهذا من نعمة الله على العبد أن يعطيه الله بلاغة وفصاحة حتى يستطيع أن يعبر عما في نفسه فيكون مؤثراً على غيره، وضد ذلك: من لم يكن بليغاً.

والبلاغة صارت فناً مستقلاً، ألف فيه العلماء كتباً، وهي فن لذيذ جداً. لأنه مفيد من وجه، وله ذوق طيب من وجه آخر.

فهذه الآيات نزلت في قوم منافقين، يزعمون أنهم مؤمنون بالله ورسوله، وليسوا كذلك.

من فوائد الآيات الكريمات:

١ ـ التعجب من هذه الحال الشاذة، وتؤخذ من الاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ لأن المراد بذلك التعجيب يعني: أن نتعجب من حاله.

٢ ـ أن الإنسان قد يدعي ما ليس صادقاً فيه، لقوله: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

٣ ـ وجوب الإيمان بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من

---

(١) هذا اللفظ عند الحاكم (٣/ ٧١٠)؛ والطبراني في الأوسط (٧/ ٣٤١) عن أبي بكرة، والشطر الأول من الحديث (إن من البيان لسحراً) عند البخاري، كتاب النكاح، باب الخطبة، حديث رقم (٤٨٥١) عن ابن عمر.

قبل، لقوله: ﴿أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، وهذا يدل على أن الإيمان بما أنزل من قبله يساوي الإيمان بما أنزل إليه، وإن كان يخالفه من حيث المنهاج والشرعة كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وإلا فأصل الأديان واحد من حيث الإيمان والمعتقدات، لكنه يختلف في الشرعة والمنهاج؛ لأن الله حكيم يشرع لكل أمة ما يناسبها، وما تقتضيه حالها من الصلاح والإصلاح.

٤ ـ كمال الإسلام والمتمسكين به؛ لأن الإسلام يأمر الناس بالإيمان بكل ما أنزل الله، والمتمسكون به كذلك يؤمنون بكل ما أنزل الله، فالذين اعتنقوا غير الإسلام ـ كاليهود والنصارى ـ لا يؤمنون بكل ما أنزل الله، أما السابقون منهم فإنما يؤمنون به إيماناً حكمياً، يعني: يؤمنون بما تأخر عن شرائعهم إيماناً حكمياً؛ لأنهم لم يدركوه، ولكنهم يؤمنون به، يعني: أن المؤمنين بموسى في وقته، والمؤمنين بعيسى في وقته يؤمنون بالقرآن؛ لأنهم يجدون الرسول مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، لكنه إيمان حكمي، أما إيمان المسلمين بالقرآن وبالشرائع السابقة فهو إيمان حقيقي؛ لأن دين الإسلام هو المتأخر.

٥ ـ إثبات علو الله، وتؤخذ من ذكر الإنزال، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف والعقل الصريح والفطرة، وهذا شيء معلوم، والحمد لله.

٦ ـ أن التحاكم إلى غير الله ورسوله تحاكم إلى الطاغوت، لقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾.

مسألة: إذا كان هناك بلد لا يحكم بالشريعة وإنما يحكم بالقانون، فهل لنا أن نتحاكم إليه؟

الجواب: نقول: أولاً: إذا لم يكن ضرورة؛ فإننا لا نتحاكم إليه، يعني: إذا أمكن الإصلاح لا نتحاكم، وإذا لم يمكن الإصلاح ننظر، هل هناك أحد نختاره ليكون حكماً بيننا، إن وجدنا لم يجز أن نتحاكم إلى هذه المحاكم، وإذا لم نجد فهنا نتحاكم، لا بنية أن نقبل بكل ما حكموا به، ولكن بنية أن نقبل ما وافق الشرع؛ لأن هذا أمر ضروري، وإلا لضاعت الحقوق، وليست الحقوق عشرة ريال أو عشرين ريالاً، فقط، لكن ربما تكون أملاكاً وعقارات، فإن لم يتحاكم إلى هؤلاء فإنه يضيع حقه، فهنا نقول: يجوز أن تتحاكم لا بنية قبول حكمهم، ولكن بنية قبول ما وافق الشرع، لكن بعد مقدمتين:

الأولى: محاولة الإصلاح.

الثانية: التحاكم إلى رجل يحكم بشريعة الله، فإذا لم يمكن فلا تُضيع الحقوق، وهذا المحامي الذي يريد أن يتحاكم إلى محكمة غير شرعية، نقول: إذا كان من نيته أنه لو حكم بغير الشرع لم يقبل فلا بأس، أما إذا كان من نيته أن يحكم له بما يريد سواء ما وافق الشرع أم لا فهذا حرام، حتى ولو كان في محاكم شرعية.

ولو جاء محامٍ جيد فصيح في المدافعة والدعوى، وأراد أن يحامي عن شخص حتى عند محكمة شرعية، وهو يريد أن يصل إلى مراده لا إلى مراد الله ورسوله، لكان هذا حراماً، ولا شك في هذا، وذلك أن من الناس من يكون عنده قوة إقناع في الدعوى أو في المدافعة، فإذا جلس إلى القاضي مع شخص هادئ أكله بثيابه؛ والقاضي يقضي بما يسمع، كما قال النبي عليه

الصلاة والسلام، وهذه: قاعدة في كل المحامين الذي يحامون يريدون أن يصلوا إلى مرادهم دون مراد الله ورسوله، فهؤلاء: لا يحل لهم أن يسلكوا هذا الطريق.

٧ ـ أن التحاكم إلى غير الله ورسوله كفر، وتؤخذ من تكذيبهم دعوى الإيمان في قوله: ﴿يَزْعُمُونَ﴾؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين ما أرادوا التحاكم إلى الله ورسوله.

٨ ـ أنه إذا كانت إرادة التحاكم إلى الطاغوت مخرجة من الإسلام فالتحاكم إليه فعلاً من باب أولى، فمن كان يهوى ويريد أن يكون التحاكم إلى الطاغوت ـ وإن لم يتحاكم إليه ـ فإنه ليس بمؤمن، فكيف بمن حقق هذه الإرادة وتحاكم إلى الطاغوت فعلاً؛ ولهذا قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥] قيود عظيمة ومؤكدة. ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فهذه جملة مؤكدة بقسم، وبحرف زائد لفظاً، فالقسم «ورب»، والحرف الزائد: «لَا»؛ لأن هذه ليست نافية، ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ وهذا الفعل، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ أي: لا يجدوا ضيقاً فيما قضيت.

الثالث: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: تسليماً كاملاً بدون تردد، والإنسان قد يجد في نفسه حرجاً من الحكم الشرعي، وقد لا يجد، لكنه لا يؤمن حتى ينتفي عنه الحرج، وحتى يسلم تسليماً.

٩ ـ أننا مأمورون بأن نكفر بالطاغوت، لقوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠]، ولا يتم إيماننا إلا بالكفر

بالطاغوت؛ لقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فلا بد من الكفر بالطاغوت، وإلا لم يصح الإيمان بالله.

١٠ ـ أن للشيطان إرادة، وتؤخذ من قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، فله إرادة بل وله أمر، وتؤخذ من قوله أيضاً: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، فهو يريد ويأمر.

فهل يمكن أن نرد هذه الإرادة وهذا الأمر؟

الجواب: نعم، نردها بالاستعاذة بالله منه؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، والنبي عليه الصلاة والسلام لما اشتكى إليه الصحابة ما يجدون في نفوسهم من الخواطر الرديئة، قال: «**من وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته**»(١) فهذا هو العصمة منه.

١١ ـ أن الشيطان يريد من بني آدم أن يَضلوا ضلالاً بعيداً، وليس ضلالاً قريباً، لقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، ولكن لا نظن أن الشيطان يأمر بالضلال البعيد من أول وهلة؟ بل يأمر بالتدرج، فيأمر أولاً بالفسوق والمعاصي الصغيرة، ثم بالكبائر، ثم بالكفر، نسأل الله أن يعيذنا منه.

ولهذا قال العلماء: إن المعاصي بريد الكفر، والبريد: مسافة معينة، مقدارها ثلاثة فراسخ، وكانوا فيما سبق ليس عندهم

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، حديث رقم (٣١٠٢)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان، حديث رقم (١٣٤). عن أبي هريرة.

طائرات ولا هواتف، فكانوا يوصلون الرسائل في وقت قصير بحيث كانوا يجعلون مسافة بريد، يأخذ الفارس الرسائل من هذه النقطة، ثم يعدو بفرسه إلى غاية البريد، وإذا بفارس آخر ينتظر فيأخذ الرسالة ويسير بها إلى بريد، وهكذا حتى يصل بها إلى الغاية، هذا وجه قوله: بريد.

المهم أن العلماء يقولون: إن المعاصي بريد الكفر، والشيطان يتدرج بالإنسان شيئاً فشيئاً حتى يهلكه.

١٢ ـ أن الله تعالى لا يخفى عليه ما في الصدور، لقوله: ﴿يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

١٣ ـ أن الإنسان مؤاخذ على كسب القلب، ولا يعارض هذا قول النبي ﷺ: «**إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم**»[1]؛ لأن حديث النفس ليس فيه استقرار، يعني: أن الإنسان يحدث نفسه لكن لا يستقر، فإن استقر صار عملاً.

ولهذا قال العلماء: للقلب عمل، وللنفس حديث، فعمل القلب هو أن يستقر على الشيء ويأخذ به، والذي توعد الله عليه في قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

هو: عمل القلب؛ لأن الإنسان يعمل بقلبه؛ أي: يطمئن للشيء الذي حدثته به نفسه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون، حديث رقم (٤٩٦٨)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر، حديث رقم (١٢٧)، من حديث أبي هريرة.

١٤ ـ وجوب الإعراض حيث لا ينفع الكلام، لقوله: : ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية منسوخة بآيات الجهاد وليس كذلك، فآيات الجهاد في شيء، وهذه في شيء آخر، فهذه في مجادلة المنافقين، والمنافقون لا يمكن أن يجاهدوا بالسلاح؛ لأنهم يظهرون أنهم مسلمون، ولا يمكن أن يجاهدوا إلا بالعلم والبيان، فإذا بينا لهم ولكن استمروا في الجدال فإننا نعرض عنهم.

ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله : «إذا أتاك مجادل فبين له السنة ولا تجادله» لأنك إذا بينت له السنة جعلت الحجة عليه بين يديه، فإن جادل فإنه يجادل الله لا يجادلك أنت، فبين له السنة ولا تجادل فيها؛ لأن الواجب على من تبينت له السنة أن يقبل بدون جدال.

١٥ ـ أنه إذا أعرض الإنسان عن هؤلاء المنافقين وأمثالهم فإنه لا يتركهم بدون موعظة، بل يعظهم لعلهم ينتفعون، لقوله: ﴿وَعِظْهُمْ﴾ وقد سبق لنا معنى الموعظة وأنها: التذكير مقروناً بالترغيب والترهيب.

١٦ ـ أنه ينبغي للإنسان إذا تكلم أن يتكلم بكلام بليغ يصل إلى النفس، لقوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾.

١٧ ـ أن من آداب المتكلم أن يتجه إلى المخاطب، لقوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ﴾؛ لأن كلمة ﴿لَّهُمْ﴾ تعني: أن يتوجه الإنسان القائل إلى مخاطبه، فلا يتكلم وهو معرض، أو يتكلم وتلقاء وجهه إلى محل آخر، بل إذا أراد أن يتكلم مع شخص في موعظة فليكن اتجاه وجهه إلى هذا الرجل، لقوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ﴾.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: ٦٤].

أولاً: الإعراب:

﴿مِن رَّسُولٍ﴾، هذه محلها النصب على أنها مفعول به، لكن دخلت عليها ﴿مِن﴾ الزائدة لتأكيد العموم، وعليه فنقول في أعرابها: رسول: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

وإذا قيل: في حرف ما إنه زائد فلا يعني: أنه زائد من حيث المعنى، بل هو زائد من حيث الإعراب، أما المعنى فإن جميع الحروف الزائدة يقولون: إنها من أدوات التوكيد، فكل حرف جر زائد فهو من أدوات التوكيد.

ثانياً: قوله: ﴿لِيُطَاعَ﴾ اللام هذه للتعليل وليست للعاقبة؛ لأنه ليس كل رسول يُطاع، ولكن الحكمة من الإرسال هو أن يُطاع، فاللام هنا للتعليل.

و﴿إِذ﴾: ظرف، والظرف لا بد له من متعلق، وهي متعلقة بقوله: ﴿جَآءُوكَ﴾.

وقوله: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ معطوفة على قوله: ﴿جَآءُوكَ﴾، وقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ معطوفة عليها أيضاً.

﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ﴾ اللام واقعة في جواب ﴿لَوۡ﴾، وعلى هذا فيكون جواب لو هو قوله: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ﴾.

قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾ ﴿إِذ﴾ ظرف لما مضى،

وليست ظرفاً للمستقبل، وتأتي ﴿إذ﴾ للتعليل لا ظرفية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف: ٣٩] يعني: لأنكم ظلمتم، وتقول: أتيتك إذ أتيتني، وإن كان وقت الإتيان الثاني غير وقت الإتيان الأول، لكن ﴿إذ﴾ هنا تكون للتعليل.

وفي الإعراب أيضاً: ﴿لَوْ﴾ يقولون: إنها مختصة بالأفعال، وهنا دخلت على ﴿أَنْ﴾ فما هو الجواب على هذا القاعدة التي تقول: إن ﴿لَوْ﴾ مختصة بالأفعال مع أنها هنا لم تدخل على فعل؟

والجواب: نقول: إن الفعل محذوف، والتقدير: ولو ثبت أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك.

أما ﴿جَآءُوكَ﴾ فهي جواب لو.

وقوله: ﴿لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ اللام أيضاً واقعة في جواب الشرط.

ثانياً المعنى: يقول الله عزّ وجل: إنه ما أرسل من رسول إلا ليطاع بإذن الله، ولم يرسل الرسل من أجل أن يُكذبوا ويُؤذوا، وإن كانت العاقبة قد تكون التكذيب والإيذاء، لكن الأصل في إرسال الرسل هو طاعتهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، يعني: هذا هو الأصل في خلق الجن والإنس، أنهم خلقوا للعبادة لا للهو واللعب، ولكن هذا ليس متحققاً في كل واحد من البشر، وكل واحد من الجن.

إذاً: هذه الآية كالتي في سورة الذاريات، لكن التي في سورة الذاريات تتعلق بشهادة أن لا إله إلا الله، وهذه تتعلق

بشهادة أن محمداً رسول الله، وهذه في الرسالة وتلك في التوحيد، فالرسل ما أرسلوا إلا ليُطاعوا، لا ليُكذبوا ويُؤذوا ويُقتلوا؛ لأن من الرسل من كُذب، وأُوذي، وقُتل، ومن الرسل من أُطيع.

قوله: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إذنُ الله تعالى ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، وشرعي، والمراد به هنا الشرعي، ويحتمل أنه الكوني، يعني: ليطاع إذا أذن الله تعالى بذلك كوناً، ومن الرسل الذين أرسلوا ليطاعوا محمد ﷺ، ولهذا فرَّع عليه قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾، يعني: لو أنهم حين ظلموا أنفسهم جاءوك، يعني: جاءوك في حال ظلم أنفسهم، وذلك فيما وقع بينهم من خصومة فتحاكموا إلى غير الرسول ﷺ، فلو أنهم حين حصلت منهم هذه المظلمة جاءوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

وقوله: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾ يعني: حين ظلموا أنفسهم، وذلك بما وقع بينهم من نزاع وخصومة.

قوله: ﴿جَآءُوكَ﴾ أي: جاءوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن المعلوم أن المراد جاءوك في حال حياتك، ويدل لهذا قوله: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾؛ لأنه بعد موته لا يمكن أن يستغفر لهم؛ إذ أن عمله انقطع بموته، كما قال النبي ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله...**»[1].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، حديث رقم (١٦٣١).

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: عما وقع منهم من ظلم.

قوله: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ تأكيداً لذلك.

وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ فيه إظهار في موطن الإضمار، والأصل «واستغفرت لهم»، لكنه أظهر موضع الإضمار تنبيهاً على أن النبي ﷺ رسول، وأن استغفار الرسول ﷺ له مزية على غيره، إذ أن دعوة الرسول مستجابة، فلهذا أتى بوصف الرسالة دون الضمير الذي هو في الأصل في هذا المكان.

قوله: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، اللام واقعة في جواب لو، و﴿جَآءُوكَ﴾ هي خبر «أن»، والتقدير ولو أنهم جاءوك حين ظلموا أنفسهم فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول.

وقوله: ﴿تَوَّابًا﴾ التواب من أسماء الله سبحانه.

وتوبة الله تعالى تنقسم إلى قسمين:

توبة بمعنى التوفيق للتوبة، وتوبة بمعنى قبول التوبة.

فمن الأولى قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨] فمعنى ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾: وفقهم للتوبة، وقدرها لهم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥] فهو دليل على أن التواب يأتي بمعنى قابل التوبة، ومنه قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣].

إذاً: فالتواب من أسماء الله، وله معنيان:

الأول: الموفق للتوبة.

والثاني: القابل للتوبة.

وقوله: ﴿رَّحِيمًا﴾ هو أيضاً من أسماء الله، فمن أسماء الله تعالى الرحيم.

ورحمة الله تعالى تنقسم إلى قسمين: عامة، وخاصة.

فالعامة: هي الشاملة لجميع الخلق، وهي تكون للمؤمن وللكافر، وللبر والفاجر، ولكنها في الدنيا فقط.

وأما الخاصة فهي خاصة بالمؤمنين، لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] وهي تكون في الدنيا، وفي الدين أيضاً.

ثم اعلم أن رحمة الله تعالى وصف من أوصافه الثابتة له على وجه الحقيقة، وليست كما يزعم أهل التعطيل، بمعنى إرادة الإحسان، أو الإحسان؛ لأن أهل التعطيل لا يؤمنون بأن الله له رحمة، ويقولون: كل ما ورد في الرحمة: فالمراد به الإحسان، أو إرادة الإحسان؛ لأنهم ظنوا أن الرحمة التي أثبتها الله تعالى لنفسه هي كرحمة المخلوق، فقالوا: إن الرحمة فيها نوع عطف وانفعال نفسي ورقة، وهذه لا تليق بالله.

فيقال لهم: هذه المعاني التي زعمتموها خاصة برحمة المخلوق، أما الخالق فهو رحيم مع قوته وقدرته، على أن دعواكم أن الرحمة رقة ولين وعطف دعوى كاذبة، فإنه قد يوجد سلطان قوي ذو جبروت وربما يكون له رحمة، لكن من أجل تصورهم أن الرحمة التي أثبتها لنفسه هي كرحمة المخلوق أنكروا ذلك، وقالوا: لا يمكن أن يكون لله رحمة.

ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه «الفتوى الحموية» قال: كل معطل فهو ممثل، وقد يستغرب هذا، كيف

يعطل ونقول: إنه ممثَّل؟! لأنه إنما عطل بناءً على التمثيل، وبناءً على أنه إذا أثبت فقد مثل، فيكون مثَّل أولاً وعطل ثانياً.

مثاله: صفة الرحمة.

ومثال آخر: الوجه، قالوا: لا يمكن أن يكون لله وجه؛ لأنه لو كان له وجه للزم أن يكون مماثلاً للمخلوق، وهذا مستحيل. فنقول: أنتم مثلتم أولاً، وعطلتم ثانياً.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ إثبات الحكمة لله عزّ وجل في إرسال الرسل، لقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾.

٢ ـ ثبوت قيام الأفعال الاختيارية لله عزّ وجل، بمعنى: أنه تتجدد له الأفعال الاختيارية حسب المفعولات، وتؤخذ من قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾؛ لأن إرسال الرسل يتجدد، فأولهم نوح وآخرهم محمد ﷺ.

٣ ـ إثبات تعليل أفعال الله، ويؤخذ من قوله: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة، أن أفعال الله وأحكام الله معللة، لكن العلة قد تكون معلومة لنا، وقد تكون مجهولة لنا، إما على سبيل العموم، وإما على سبيل الخصوص، ومعنى قولنا: إما على سبيل العموم؛ أي: أنها تكون مجهولة لكل البشر، والخصوص تكون مجهولة لبعض الناس دون بعض، وإلا فنعلم أن جميع أفعال الله وأحكامه كلها معللة، ومربوطة بعلل وحكم وأسرار، ولكن بعضها معلوم للخلق، وبعضها غير معلوم، فلو قال قائل: لماذا كانت صلاة الظهر أربعاً؟ ولماذا لم تكن اثنتين أو ستاً؟ فنقول: الله أعلم، ولا أحد من البشر يعلم.

ولو قال قائل: لماذا كان لحم الإبل ناقضاً للوضوء؟

فالجواب: من العلماء من يقول: الله أعلم؛ لأنه لا يدري عنه، ويقول: هذا تعبدي علينا أن نتعبد لله به، وأن نتوضأ إذا أكلنا لحم الإبل، ولا نسأل.

ومن العلماء من يقول: بل هذا معلل بعلة وهي: لما للإبل من القوة والشيطنة، فإذا أكل الإنسان من هذا اللحم تأثر به، فيتوضأ من أجل أن تهبط هذه القوة التي حصلت له بأكل لحم الإبل، ولهذا أمر الإنسان إذا غضب أن يتوضأ ليطفئ الوضوءُ حرارة الغضب.

وهكذا أيضاً الصلاة في أعطان الإبل، بعض العلماء فَهِمَ الحكمة، وبعضهم لم يفهم الحكمة. وربما يختلف العلماء في العلة، فالنهي عن الصلاة في المقبرة قال بعض العلماء: العلة فيه: أنه يختلط تراب المقبرة بصديد الموتى وما فيه من النجاسات، وقال بعض العلماء: بل العلة: خوف الشرك، والثاني قطعاً أصح:

أولاً: لأنه ليس كل مقبرة تكون منبوشة.

وثانياً: أن الأصل الطهارة.

فالمهم: أن جميع أفعال الله وأحكامه كلها معللة، لكن منها ما هو معلوم العلة، ومنها ما لا يعلم، ومنها ما يعلمه بعض الناس دون بعض.

٤ ـ أن الحكمة الشرعية قد يتخلف الحكم فيها، وتؤخذ من قوله: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾، فهذه الحكمة الشرعية في إرسال الرسل، لكن قد تتخلف، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا

لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] هذه الحكمة الشرعية، وقد تتخلف.

٥ ـ ثبوت الإذن لله عزّ وجل، لقوله: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، والإذن نوعان: شرعي، وكوني، فمن الأول قوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] أي: شرعاً ولا يصح قدراً؛ لأنه وقع، فقد أذن الله به قدراً، لكن لم يأذن به شرعاً.

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩] أي: أذن لكم شرعاً.

وأما الإذن الكوني فكثير، مثل قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٦ ـ أنه يجب على الإنسان أن يبادر بالتوبة والاستغفار، لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾.

٧ ـ أنه يشرع لمن ظلم نفسه في المخاصمة والمحاكمة أن يأتي إلى الرسول ﷺ ليستغفر الله ويطلب من الرسول أن يستغفر الله له؛ وذلك لأن الرسول عليه الصلاة والسلام له الحكم وإليه التحاكم، فمن المشروع أن يأتوا إلى الرسول ويستغفروا الله عزّ وجل عنده ويستغفر لهم الرسول عليه الصلاة والسلام.

٨ ـ أن الإنسان إذا ظلم نفسه لا يجوز له أن يذهب إلى قبر النبي ﷺ ليستغفر الله عنده؛ لأن الآية المراد بها في حياته، لكن مع ذلك استدل بها أهل الغلو على أن الإنسان ينبغي له إذا أذنب ذنباً أن يأتي إلى القبر النبوي فيستغفر الله، ويستغفر له الرسول ﷺ، واستدلوا لذلك بقصة مكذوبة وهي: أن رجلاً

أعرابياً جاء إلى قبر النبي عليه الصلاة والسلام وأنشد:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه .....

إلى آخر البيتين، فلما نام رأى النبي ﷺ، وقال له: إن الله قد غفر لك. وهذه قصة مكذوبة[1]، والآية تدل على بطلان هذا القول؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾ و﴿إِذ﴾ للماضي، ولو قال: إذا ظلموا ربما يكون فيها شبهة، على أنه لو قال: إذا ظلموا لم يكن فيها دليل؛ لأن قوله: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ يمنع أن يكون ذلك بعد موته قطعاً، إذ أن الرسول ﷺ لا يمكن أن يستغفر لهم بعد موته.

وقال بعضهم: إذا كان الله يرد إلى نبيه ﷺ روحه ليرد السلام، وكذلك أن الأنبياء ليسوا بموتى في قبورهم فلذلك ندعوهم سواء في حياتهم أو في مماتهم.

والجواب: أن هذا من أمور الغيب، يقتصر فيها على ما ذكرنا، فنقول: إن الله يرد روح الرسول ﷺ ويرد السلام، لكن لا نتجاوز هذا، وإلا لقلنا له: كيف أصبحت اليوم؟! وما أشبه ذلك.

ثم الحياة البرزخية غير الحياة الدنيوية، حتى الشهداء: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] لكن حياة البرزخ غير حياة الدنيا، وإلا لقلنا: إن الصحابة رضي الله عنهم جنوا

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٨).

وقد ذكر هذه الحكاية النووي في المجموع (٨/ ٢١٧)؛ وفي الإيضاح ص٤٩٨، وساقها بقوله: «ومن أحسن ما يقول: ما حكاه أصحابنا عن العتبي مستحسنين له ثم ذكرها بتمامها، وابن كثير لم يروها ولم يستحسنها بل نقلها كما نقل بعض الإسرائيليات في تفسيره، وهي حكاية باطلة، وقصة واهية.

جناية عظيمة على الرسول ﷺ حيث دفنوه وهو حي.

٩ ـ أن من تاب واستغفر بصدق وإخلاص فإنه سيجد التوبة والرحمة، لقوله: ﴿لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، ولا يستثنى من ذلك ذنب، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، وهذه آية عامة، تشمل كل الذنوب، وهناك آية مفصلة وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾ [الفرقان: ٦٨] رءوس الذنوب العظيمة ذكرها الله في قوله: ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨] هذا الشرك.

قوله: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] هذا العدوان على الناس، وهو أعظم العدوان الجسدي.

وقوله: ﴿وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾ [الفرقان: ٦٨] هذا العدوان على العرض.

ثم قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

ويشمل هذا المنافقين أيضاً للعموم، ولقوله تعالى في المنافقين خاصة: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء: ١٤٥ ـ ١٤٦].

١٠ ـ انتفاع الإنسان بدعاء غيره، ولا يؤخذ من الآية طلب الدعاء من الغير، بأن تقول: يا فلان! استغفر الله لي، وذلك لأنه ليس في الآية أنهم طلبوا من الرسول أن يستغفر لهم، لكن في الآية

أنهم استغفروا الله واستغفر لهم الرسول، ولم يُذكر في الآية الطلب.

ومعلوم أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره، فهاهو النبي عليه الصلاة والسلام قال للصحابة: «**إنكم إذا قلتم ذلك** ـ أي: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ـ **فقد سلمتم على كل عبد صالح في السماء والأرض**»[1]، وكذلك ذكر الله عن المؤمنين أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]، وكذلك المسلمون يصلون على موتاهم، ويقولون: اللهم اغفر له وارحمه. وهذا محل إجماع، أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره.

ولكن هل يسأل غيره أن يدعو له؟

الجواب: هذا محل خلاف، فمن العلماء من قال: لا بأس أن يسأل الرجل الصالح أن يدعو له، واستدلوا بأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يأتيه الرجل ويقول: يا رسول الله! ادع الله أن يغيثنا، فيدعو، وربما يسأل النبي ﷺ أن يدعو الله له بالمغفرة، فيدعو له، وبأن الصحابة رضي الله عنهم توسلوا إلى الله تعالى في طلب السقيا بالعباس بن عبد المطلب[2]، وبأن النبي ﷺ أمر من أدرك أويساً القرني أن يطلب منه الدعاء، وبأن النبي ﷺ قال لعمر: «**لا تنسنا يا أخي من دعائك**»[3] ولكن كل هذه ليس فيها دليل.

---

(١) رواه البخاري أبواب العمل في الصلاة، باب من سمى قوماً أو سلم في الصلاة على غير مواجهة وهو لا يعلم، حديث رقم (١١٤٤)؛ ومسلم، كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، حديث رقم (٤٠٢) عن ابن مسعود.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا (١٠١٠) عن أنس بن مالك.

(٣) رواه أبو داود، كتاب سجود القرآن، باب الدعاء، حديث رقم (١٤٩٨)؛ والإمام أحمد في المسند (١/ ٢٩).

أما طلب الإنسان من النبي ﷺ أن يدعو له فهذا خاص به، ولهذا لم ينقل إن أحداً جاء إلى أبي بكر، أو عمر، أو عثمان، أو علي رضي الله عنهم يقول: ادع الله لي.

وأما الاستسقاء بالعباس فلأن عمر رضي الله عنه قال: «قم يا عباس! ادع الله لنا»[1]، وإنما طلبه أن يدعو لعموم المسلمين، ولا حرج أن تأتي إلى شخص تؤمل فيه الخير وإجابة الدعوة فتقول: ادع الله للمسلمين أن يغيثهم؛ لأنك لم تدع لنفسك.

وأما أويس القرني فهو خاص به، ولهذا نحن نعلم علم اليقين أن أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وفقهاء الصحابة رضي الله عنهم أفضل منه، ومع ذلك لم يأمر النبي عليه الصلاة والسلام أحداً ويقول: اطلبوا من هؤلاء أن يدعو لكم، لكن هذا خاص به فقط.

وعلى هذا فالأفضل ألا تسأل من أحد أن يدعو لك، لكن قيد شيخ الإسلام رحمه الله هذا بما إذا قصدت نفعك الخاص، أما إذا قصدت نفع أخيك بثوابه على دعائه لك وثوابه على دعاء الملك له، فإن من دعا لأخيه بظاهر الغيب قال له الملك: آمين، ولك بمثله، أو ولك مثله، قال: إنه إذا قصد هذا، فقد قصد الإحسان إلى أخيه، فيكون غير داخل في المسألة المذمومة.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾[2] وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ

(١) أوردها البخاري، كتاب الجمعة، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا رقم (١٠١٠).

(٢) سبق الحديث عن معنى هذه الآية ضمن الآية ٥٩ لارتباط المعنى.

ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء: ٦٥، ٦٦].

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ﴾ وذلك لأنهم يكرهون ما يؤلمهم ويؤذيهم في الدنيا، ولا يهمهم إذ كفوا هذا الأمر أن يكونوا طائعين أو عاصين.

وقوله: ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ لا يراد به أن يقتل الإنسان نفسه، بل يراد به أن يقتل أخاه؛ لأن أخا الإنسان بمنزلة نفسه، ودليل ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، ومعلوم أن الإنسان لا يلمز نفسه وإنما يلمز أخاه.

وقوله: ﴿أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾ هذه أيضاً من الأمور المكروهة للنفوس، أن يخرج الإنسان من بلده،، يدع وطنه الذي عاش فيه، ويدع أملاكه، ويدع الأرض التي كان يعرفها، فإن ذلك من أكره ما يكون على النفوس، وهو شاق عليها، فلو فرضنا عليهم ذلك ما انقادوا إلا قليل منهم، كما قال: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ وذلك لإثارتهم الدنيا على الآخرة.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ هذا استثناء، والقليل ما دون النصف، والكثير: النصف فما فوق، لكن يقال لما فوق النصف: إنه أكثر، ويقال لما دونه: إنه الأقل.

وقوله: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فيها قراءتان: «قليلاً» و«قليل»، والاستثناء هنا تام منفي يجوز فيه الوجهان: النصب على الاستثناء، أو الاتباع على ما قبله.

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ يعني: لو أن هؤلاء الذين تحاكموا إلى غير الرسول عليه الصلاة والسلام، وأمروا أن يتحاكموا إلى

الرسول، لو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم، والذي يوعظون به هو الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الحال، وفي المآل.

﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ يعني: أشد ثباتاً على الحق؛ لأن الإنسان كلما ازداد طاعة لله ازداد إيماناً ويقيناً وثباتاً.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان ضعف الإنسان، وأنه لا يستطيع أن يتحمل كل ما أمر به إذا كان لا يلائمه، لا سيما مع ضعف الإيمان، خصوصاً إذا قلنا: إن هذه الآية نزلت في المنافقين.

٢ ـ أن قتل الناس بعضهم بعضاً من أشق ما يكون على النفوس.

٣ ـ أن الإخراج من الديار هو من الشاق على النفوس؛ لأن الله تعالى ضربه هنا مثلاً: ﴿أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾.

٤ ـ أن الناجي من العباد قليل، لقوله: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ ففتش نفسك هل أنت من هؤلاء القليل أو من الكثير؟!

وهذا الحكم يشهد له ما ثبت في الصحيحين وغيرهما: «**أن الله سبحانه ينادي يوم القيامة: يا آدم! فيقول: لبيك وسعديك، فيقول الله له: اخرج من ذريتك بعث النار، فيقول: يا رب! وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون**» يعني: واحد من ألف من أهل الجنة، والباقون من بني آدم في النار «**فعظم ذلك على الصحابة، وقالوا: يا رسول الله! أينا ذلك الواحد؟ فقال: أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألفاً، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، وثلث أهل الجنة،**

وشطر أهل الجنة، ففرح الصحابة بذلك وكبروا»[١].

وهذا يدل على أن بني آدم القليل منهم هم الذين ينجون من النار، والباقون من أهل النار.

٥ ـ أن طاعة الله تعالى سبب لكل خير، لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

٦ ـ أن الأحكام الشرعية مواعظ، ولهذا سمى الله القرآن موعظة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

ووجه كون الأوامر والنواهي موعظة: أن الإنسان يتعظ بها فيمتثل الأمر ويجتنب النهي، وكثير من الناس لا يفهم من كلمة موعظة إلا ما كان مقروناً بالترغيب أو الترهيب، وهذا ليس بشرط.

٧ ـ تفاضل المنازل بين العباد، لقوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.

٨ ـ أن الثبات على الحق يختلف: فمنه الشديد القوي، ومنه الضعيف، ومنه المتوسط، لقوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.

٩ ـ الإشارة إلى عظيم ما يحصل في المستقبل، وأن الإنسان يخشى عليه من الزلل إلا أن يثبته الله، لقوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾؛ لأن التثبيت على غير مواطن الزلل لا يذكر، إنما يذكر التثبيت في حال مواطن الزلل، ومعلوم أن الإنسان يرد عليه في

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، حديث رقم (٣١٧٠)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب قول الله تعالى لآدم: (أخرج بعث النار)، حديث رقم (٢٢٢) عن أبي سعيد.

حياته شبهات ويرد عليه شهوات، فالشبهات تدك العلم وتذهبه، والشهوات تدك الإرادة حتى يصبح الإنسان لا يريد إلا ما يهواه فقط، وهذه آفة.

فالإنسان يحيط به شيئان: شبهة يزول بها العلم، وشهوة تزول بها الإرادة، فإذا لم يثبته الله بالعلم والإرادة الصادقة والعزيمة الجازمة فإنه يهلك.

١٠ ـ أن الإيمان يتفاوت؛ لأن قوله: ﴿خَيْرًا﴾ اسم تفضيل، ويقتضي وجود مفضل ومفضل عليه، وهذا هو التفاوت، وكذلك يؤخذ من قوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لأن الإيمان يتفاوت.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٧ ـ ٦٨].

«إذاً» ظرف للزمن الحاضر، وإذْ للماضي، وإذا للمستقبل، فهذه الأدوات الثلاث تقاسمت الزمان، يعني: وإذاً ﴿لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ لثبناهم على ذلك.

وقوله: ﴿لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ آتى بالمد بمعنى: أعطى، فهي من أخوات كسا؛ أي: من العوامل التي تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، بخلاف ظن وأخواتها فإنها تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر.

مثال ذلك: تقول: زيد قائم، وإذا أدخلت عليها ظن، تقول: ظننت زيداً قائماً، وتقول: كسوت زيداً جبة، فإذا حذفت العامل فلا يستقيم أن تقول: زيد مبتدأ وجبة خبر، ولهذا يفرق بين كسا وأخواتها، وبين ظن وأخواتها.

قوله: ﴿آتَيْنَاهُمْ﴾ من باب كسا، ومفعولها الأول الهاء في قوله: ﴿آتَيْنَاهُمْ﴾ والثاني ﴿أَجْرًا﴾.

وقوله: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم﴾ أي: أعطيناهم.

قوله ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾ أي: من عندنا.

قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً، وسمى الله تعالى الثواب الذي جعله على الأعمال أجراً، ليتبين للإنسان أن هذا الثواب لا بد من حصوله، كما أنه لا بد من حصول الأجر لمن استأجر بيتاً أو نحوه، فلا بد أن يحصل على الأجرة، والعظيم هنا بمعنى: الكثير، وبمعنى: الشديد، يعني: أنه أجر لا يمكن للإنسان أن يدرك كنهه؛ لأنه عظيم، ووصف الشيء بالعظيم من العظيم يدل على عظمته.

قوله: ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾، قوله: ﴿صِرَٰطًا﴾ فيه قراءتان: بالسين والصاد، سراطاً وصراطاً، و«هَدَى» أيضاً تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، المفعول الأول الهاء في قوله: ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ والثاني: ﴿صِرَٰطًا﴾.

وقوله: ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ﴾: الهداية هنا تشمل هداية العلم والإرشاد، وهداية التوفيق والرشاد، وقد سبق أنه إذا عدي العامل بـ﴿إِلَى﴾ فهو هداية الدلالة والإرشاد، وإذا جرد من حرف الجر شمل هذا وهذا، ولهذا شواهد، فمن شواهد المعدى بـ﴿إِلَى﴾ قوله تعالى عن نبيه ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ومن شواهد المجرد قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة] وهذه الآية أيضاً: ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ في هذه الآية دليل على أن الإنسان يثاب ثواباً آخر غير التثبيت الذي ذكره الله في الآية الأولى، وهو أنه ينال ثواباً عظيماً من عند الله عزّ وجل، وكل هذا من أجل الترغيب في فعل ما يوعظ به العبد.

٢ ـ في هذه الآية دليل على بطلان قول الصوفية الذين يقولون: أعبد الله لله، ولا تعبده لثواب الله، ووجه الدلالة: أنه لولا أن لذكر الثواب تأثيراً في العمل لكان ذكره عبثاً ولغواً، فالله عزّ وجل لم يذكر الثواب، ويرغب في العمل من أجل الثواب إلا ليبين أن نية الثواب لا تضعف العمل ولا تنافي الإخلاص، وقد وصف الله نبيه محمداً ﷺ والذين معه بأنهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً فقال تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وجاء في آية أخرى المدح للذين يبتغون وجه الله، فيكون هذا دليلاً على أنك إن أردت وجه الله فإنك مثاب، وإن أردت ثواب الله فإنك مثاب أيضاً.

٣ ـ عظم هذا الثواب، من وجهين:

الأول: إضافته إلى الله، في قوله: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾؛ لأن عطاء العظيم عظيم.

والثاني: من قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٤ ـ أن من فعل ما يوعظ به وأطاع الله ورسوله فإنه يُهدى إلى الحق، وثواب الحسنة الحسنة بعدها.

٥ ـ أنك إذا أردت سعة العلم وثبوت العلم فعليك

بطاعة الله؛ لأنه كلما اهتدى الإنسان بهداية الله ازداد هدى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧].

٦ ـ يستفاد من وقوله: ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أن هناك صراطاً غير مستقيم، والصراط غير المستقيم هو سبيل الكفر، قال الله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فالسبل التي تميل بالإنسان يميناً وشمالاً هذه غير مستقيمة، أما صراط الله الذي هو سبيله والموصل إليه فإنه مستقيم.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾.

الإعراب: «مَنْ» هذه شرطية، والفعل بعدها مجزوم بها، ودليل الجزم حذف الياء، وأصل ﴿يُطِعِ﴾ يطيع، وحذفت الياء لأنه لما جزم الفعل صار ساكناً والياء ساكنة، والقاعدة: أنه إذا اجتمع ساكنان فإن كان الأول حرفاً صحيحاً كسر، وإن كان حرف علة حذف.

وفي هذا يقول ابن مالك:

إن ساكنان التقيا اكسر ما سبق وإن يكن ليناً فحذفه استحق

فقوله: وإن يك ليناً يعني: حرف علة، فحذفه استحق يعني: فاحذفه.

وهنا نقول: حذفت الياء؛ لأنها حرف لين، وبعدها ساكن فوجب حذفها.

فإن قال قائل: ما بعدها ليس بساكن، بل هو مكسور: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ فالجواب: أن هذه الكسرة عارضة لالتقاء الساكنين.

وجواب «من» جملة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾.

واقترن جواب الشرط بالفاء لأن جواب الشرط جملة اسمية، وإذا كان جملة اسمية فإنه يجب اقترانه بالفاء، وهناك سبعة مواضع إذا وقعت جواباً للشرط اقترنت بالفاء.

وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ﴾ «أولئك» إشارة إلى جمع، مع أن الذي قبلها مفرد، لكن قالوا: إن «من»، و«ما» وأمثالهما صالحة للجمع والمفرد، فهي باعتبار لفظها مفرد، وباعتبار معناها جمع، فيصح أن يعود الضمير إليها أو الإشارة إليها باعتبار اللفظ وباعتبار المعنى، وقد جمع الله تعالى بين ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ [الطلاق: ١١] فراعى في الأول اللفظ، وفي الثاني المعنى، وفي الثالث اللفظ أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ قال بعض العلماء: إن ﴿مَعَ﴾ بمعنى «مَنْ» فهل يتعين أن تكون ﴿مَعَ﴾ بمعنى «مَنْ» أو يجوز أن تكون على بابها وهو المصاحبة؟

الجواب: يجوز أن تكون بمعنى «مَنْ»، وأن تكون للمصاحبة على بابها: فقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ إذا كان معهم مصاحباً لهم فهو منهم، وحينئذ لا نخرج الكلمة عن

معناها الظاهر، ولكن المعنى يئول إلى القول الثاني الذي هو بمعنى «مَنْ».

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فيها قراءتان: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بالياء، و«من النبيئين» بالهمزة، و«من» هذه بيانية، والمبهم الذي بُيِّنَ بـ«مِنْ»؟ هو اسم الموصول؛ لأنه مبهم يحتاج إلى بيان، وصلته لا تبينه.

قوله: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ تعود إلى: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، وهنا قال: ﴿رَفِيقًا﴾ مع أن المشار إليه جمع، يقول العلماء: إن ﴿رَفِيقًا﴾ مفرد صالح للجمع والمفرد، يعني: صالح لهذا ولهذا، فتقول: هؤلاء جماعة رفيق هؤلاء الجماعة أو رفقاء هؤلاء الجماعة، ككلمة «جنب» مثلاً، فجنب لفظها مفرد، ولكنها صالحة للجمع، قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة: ٦]، ومثل: ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ مفرد لكنه صالح للجمع، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٣١] وأمثال هذا كثير.

ويعجبني كلمة قالها ابن عقيل رحمه الله ـ وهو من الفقهاء ـ قال: إن الأحدب الذي حدبته كالراكع ينوي الركوع، كفلك في العربية صالح للمفرد وللجمع، وهكذا الانحناء من الرجل الأحدب صالح لأن يكون طبيعياً أو يكون شرعياً.

وعلى كل حال: فإن الإنسان إذا ربط العلوم بعضها مع بعض ينتفع، ويكون عنده قدرة على تأليف الفكر، ولهذا تجد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقرن الأشياء التي تظنها بعيدة لكنها قريبة، ويجمعها أصل واحد.

يقول الله عزّ وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ الطاعة هي: موافقة الأمر تركاً للمنهي وفعلاً للمأمور، ولهذا نقول: إن من ترك المعصية يعتبر مطيعاً، ومن فعل الواجب فهو مطيع، ولهذا قيل في الطاعة: هي موافقة الأمر أو موافقة المطاع.

وقوله: ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ ولم يقل: «ثم الرسول»؛ لأن أمر الرسول ﷺ من شرع الله، والنبي ﷺ في الشرع لا بأس أن يُقرن مع الله بالواو؛ لأن ما جاء به هو من شرع الله، بخلاف الأمور الكونية فإنه لا يجوز أن يقرن مع الله إلا مقروناً بثم.

ومن فروع هذه القاعدة: قول القائل في الأمور الشرعية: الله ورسوله أعلم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٥٩] ولم يقل: ثم رسوله لأن هذا إيتاء شرعي، فهو من الشرع.

أما الأمور القدرية فإن النبي ﷺ لا يملك فيها شيئاً، فلهذا لما قال له الرجل: «ما شاء الله وشئت» قال: «**أجعلتني لله نداً؟**»(١).

وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ «أل» في الرسول للعهد، والمراد به محمد ﷺ.

وفيها احتمال آخر أن المراد الجنس: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ أي: الذي أرسله سواء كان محمداً أم غيره، وهذا العموم أقرب.

وقوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أتى باسم الإشارة إشارة إلى علو مرتبتهم، ولم يقل فهؤلاء للتنبيه على علو المرتبة.

---

(١) تقدم ص١١٥.

وقوله: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أي: نعمة الدين والدنيا، وهي النعمة الخاصة.

وليعلم أن نعمة الله تعالى تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: النعمة العامة: وتكون للمؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمستقيم والفاسق، فهذه هي العامة، ومنها إدرار الرزق على الناس من مطر ونبات، ورخاء وأمن.

القسم الثاني: النعمة الخاصة، وهي النعمة التي تكون في الدين والدنيا، وهذه خاصة بالمؤمنين، وهم أصناف أربعة كما قال الله تعالى هنا: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ هنا تشمل الرسل؛ لأن كل رسول فهو نبي، فإذا قيل: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ دخل فيهم بالأولى الرسل، ولا شك في هذا، و﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ قيل: إنهم من أوحي إليهم بشرع ولم يؤمروا بتبليغه، والرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، وهذا هو المشهور عند أهل العلم، وقيل: النبي من أوحي إليه أن يتعبد بشريعة من قبله أو يأتي بما يكملها، فلا بد من سبق رسول عليه.

ولكن الصحيح ما ذهب إليه الجمهور، وهو: أن النبي يوحى إليه بالشرع ولكنه لا يكلف ولا يلزم بتبليغه، ومن هؤلاء النبيين الذين لم يرسلوا آدم عليه السلام، فإن آدم نبي مكلف، ولكنه ليس برسول؛ لأنه أول البشر، فليس هناك أمة حتى يكون رسولاً لها، ولأن الناس الذين خرجوا منه ومن حواء كانوا قليلين لم تفتنهم الدنيا، وكانوا ينظرون إلى أبيهم فيتعبدون بعبادته، فلما

انتشر الناس وكثروا أرسل الله الرسل، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] وهذا يدل على أن الناس قبل هذا لم يبعث فيهم أنبياء مبشرين ومنذرين، وإنما هم أنبياء يتعبدون لله وتتبعهم الأمة.

والنبي: مأخوذ من النبأ وهو الخبر، وقيل: من النبوة وهي الرفعة، أما على الأول فظاهر؛ لأن النبي مخبِر ومخبَر، وعلى هذا يكون لفظ النبيئين بالهمز، فعيل بمعنى مفعول وفاعل فهو مُنَبأ وكذلك منبئ.

وأما على الياء فتحتمل أن تكون من النبأ، ولكنها حذفت الهمزة تخفيفاً، أو من النبوة وهي الرفعة، لعلو منزلة الأنبياء، ولا شك أن الأنبياء هم أعلى طبقات عباد الله الصالحين، ويدخل في النبيين هنا الرسل؛ لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً، فقوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ يشمل الرسل وهم أفضل من الأنبياء، وهذا هو المتفق عليه بين علماء المسلمين، وأما غلاة الصوفية فقالوا: إن الولي أفضل من النبي، والنبي أفضل من الرسول، قالوا: لأن الولي له الولاية والقرب، والنبي له الإخبار مع البعد، والرسول خادم، وأنشدوا على ذلك العبارة السيئة:

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

إذاً: الولي عندهم يُعد فوقهم وبعيداً عنهم، ثم يليه مع البعد النبي، ثم الرسول، وليس بين النبي والرسول على زعمهم فرق إلا قليلاً، ولا شك أن هذا ضلال بَيِّن، والعياذ بالله.

لأننا نقول: كل رسول نبي، وكل نبي ولي، فأشرف أولياء الله هم النبيون، وأشرف النبيين الرسل بلا شك، فكلامهم باطل.

ثم من يعنون بالأولياء؟ يعنون بالأولياء رءوس الطواغيت وأولياؤهم الذين هم أولياء الشيطان، الذين يريدون منهم أن يعبدوهم، وأن يجعلوهم معصومين من كل ذنب، ومن كل خطأ.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ من هذه لبيان المبهم الذي بينته، وهو ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ﴾.

قوله: ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾: الصديق هو: الذي صدق بالحق وقال بالصدق، بينه قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٣] فالصديق هو الذي قال بالصدق، وصدق بالحق.

وأفضل الصديقين هو أبو بكر رضي الله عنه؛ لأن هذه الأمة أفضل الأمم، وأبو بكر أفضل هذه الأمة، فيكون أفضل الصديقين هو أبو بكر رضي الله عنه.

قوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الشهداء: جمع شهيد، واختلف العلماء فيهم:

فقيل: إن المراد بالشهداء أهل العلم، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

وقيل: المراد بالشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩]. والصحيح: أن الآية عامة؛ لأن العلماء شهداء استشهدهم الله سبحانه على الخلق، فهم يشهدون بالحق ويشهدون على الخلق.

وأعلم الناس بصدق الرسل وبشريعة الرسل العلماء،

فيشهدون بالحق الذي جاءت به الرسل ويشهدون على الخلق أن الرسل بلغوهم.

ثم نقول أيضاً: هذه الأمة شهداء على الناس عموماً، لقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] ووجه ذلك: أن هذه الأمة تشهد على أن الرسل جاءوا أقوامهم بالبينات، وأن من هؤلاء الأقوام من كفر ومنهم من آمن؛ لأنه ليس بعد رسول الله ﷺ رسول، فالرسل كلهم قد سبقوا، وقد قص الله علينا من أنبائهم.

وقوله: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هؤلاء أدنى مرتبة ممن قبلهم، لكن من كان قبلهم فهو من الصالحين ولا شك، فهو من باب عطف العام على الخاص، فليس كل صالح يكون صديقاً، وليس كل صالح يكون شهيداً، وليس كل صالح يكون نبياً أو رسولاً، لكن كل نبي وكل صديق وكل شهيد فهو صالح، قال الله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٢].

إذاً: الصلاح وصف عام، فيكون عطفه على ما سبق من باب عطف العام على الخاص، والصالح: ضد الفاسد، وهو المطيع لله؛ لأن الفاسد هو: العاصي لله كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] قال العلماء: أي: لا تفسدوا فيها بالمعاصي، فإن المعاصي سبب للفساد في الأرض، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦] وقال تعالى ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

وعبر بعضهم عن ذلك بقوله: الصالح: من قام بحق الله وحق العباد، وهذا بمعنى الأول؛ لأن المطيع لله لا بد أن يكون قائماً بحق الله، وحق العباد.

والمعية في قوله: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ في الآخرة وفي الدنيا أيضا؛ لأن كل من اعتنق طريق شخص فهو معه في الواقع، ولهذا يطلق الآل على الأتباع، ويسمون الآل بالنسبة للشخص وهم أتباع قد يكون ليس بينه وبينهم نسب.

وهل الصالحون أرفع أو المصلحون؟

الجواب: كل مصلح فهو صالح، والصالح هو: الذي لا يكون فيه نقص في صلاحه؛ لأن من كمال الصلاح الإصلاح، ولهذا قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: ١٧٠]، لم يذكر أنهم أمروا بالمعروف فمن كمال الصلاح الإصلاح، وقد يكون الإنسان صالحاً لكنه لا يهتم بصلاح غيره فلا يكون مصلحاً، وحينئذ نقول: هو صالح ناقص الصلاح.

قال الله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ «حسن» فعل ماضٍ لكنه مشرب بمعنى التعجب، فهو بمعنى قول: ما أحسن هؤلاء الرفقاء.

وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المشار إليه هم هؤلاء الأصناف الأربعة، وقوله: ﴿رَفِيقًا﴾ قيل: أنها بمعنى رفقاء، وإنها اسم يستوي فيه الجمع والواحد.

وقيل: إن رفيقاً تمييز لـ«حسن»؛ لأنها بمعنى التعجب، لكن الأول أصح؛ أي: حسن هؤلاء رفقاء؛ ولأن رفيقاً صالح للواحد

والجمع، والرفيق هو: المرافق، والمرافق هو: الذي ترتفق به أنساً ومعونة وانشراحاً، وما أشبه ذلك.

ولهذا لا يقال رفيق إلا لمن رافقك وزاملك إما في عمل، أو سفر وإما في غير ذلك.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ الحث على طاعة الله ورسوله، وجه ذلك: ذكر الثواب؛ لأن ذكر الثواب على فعل الشيء يعني الترغيب فيه، والحث عليه.

٢ ـ أن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله، وجه ذلك: أن من أطاع الرسول استحق الثناء؛ كالذي أطاع الله.

٣ ـ جواز عطف الرسول على الرب عزّ وجل بالواو في الطاعة، وكذلك في المعصية؛ لأن أمر الرسول من أمر الله لقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾؛ ولهذا نقول ما يتعلق بالشرع فإنه لا حرج أن يعطف الإنسان الرسول على الرب عزّ وجل بالواو؛ لأن شرع الرسول ﷺ هو شرع الله، انظر إلى هذه الآيات: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٥٩] وهذا إتيان شرعي.

أما في الأمور الكونية، فإنه لا أحد يشارك الله تعالى في ربوبيته، فلا بد أن يكون مذكوراً بحرف العطف الدال على الترتيب، ولهذا لما قال رجل للرسول ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: «**أجعلتني لله نداً؟ قل: ما شاء الله وحده**»[1].

---

(١) تقدم ص١١٥.

٤ ـ أن الذين أُنعم عليهم أربعة أصناف: النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون، وهذه الآية تفسر آية الفاتحة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة] فالذين أنعم الله عليهم هم هؤلاء الأصناف الأربعة.

٥ ـ أن النبي أفضل من الصديق، والصديق أفضل من الشهيد، والشهيد أفضل من الصالح؛ لأن الترتيب هنا ترتيب من الأعلى إلى الأدنى.

٦ ـ إبطال ما ادعاه الفلاسفة من الصوفية وغيرهم بأن الولي أفضل من النبي والنبي أفضل من الرسول، وقد شرحنا هذه المسألة وبينا أن كل نبي فهو ولي، وكل رسول فهو نبي، وعلى هذا فالرسول نبي ولي، وليس كل ولي نبياً ولا رسولاً.

٧ ـ الثناء على هؤلاء الأصناف الأربعة ـ جعلنا الله منهم ـ حيث قال عزّ وجل: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾.

٨ ـ أن الرفقاء يختلفون: منهم رفقاء خير، ومنهم رفقاء شر، لقوله هنا: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾، وقد حذر النبي ﷺ من رفقاء السوء، وقال: «**مثل الجليس السوء كنافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة كريهة**»[1].

والكير: جلد يكون طرفه الذي يدخل على محل النار دقيقاً، وأعلاه يكون واسعاً، وفي أعلاه خشبتان ينفتحان، إذا

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقاً فليطلبه في عفاف، حديث رقم (١٩٩٥)؛ ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، حديث رقم (٢٦٢٨) عن أبي موسى.

فتحه امتلأ الهواء، ثم يضمه ويضغط عليه، فإذا ضغط وهو مملوء يذهب إلى النار، فتجد النار مشتدة اللهب.

فنافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة كريهة، بخلاف الجليس الصالح، فهو كحامل المسك إما أن يبيعك، وإما أن يحذيك، يعني: يعطيك بلا ثمن، وإما أن تجد منه رائحة طيبة.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٧٠].

﴿ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه ما سبق من نعمة الله سبحانه على هؤلاء الأصناف الأربعة، الذين أنعم الله عليهم نعمتين، نعمة في الدنيا والآخرة؛ لأن النعمة، على هؤلاء الأربعة نعمة متصلة من الدنيا إلى الآخرة، بخلاف نعم الله على غيرهم من أشقياء عباد الله؛ فإنها نعمة في الدنيا خسارة في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ الفضل يحتمل أن يكون صفة، أو عطف بيان لـ﴿ذَٰلِكَ﴾، ويحتمل أن يكون خبر المبتدأ، ولو جاء ضمير الفصل لتعين أن يكون خبر المبتدأ، ففي إعرابه وجهان: الوجه الأول أن يكون: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ﴾ كلمة واحدة الصفة والموصوف، والجار والمجرور: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ خبر المبتدأ.

ويجوز أن يكون ذا مبتدأ، والفضل خبره، ويكون ﴿مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ في موضع نصب على الحال.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ يعني: لا من غيره، فهم لم يكسبوا ما كسبوا من المنزلة العالية بأنفسهم، بل بفضلٍ

من الله عزّ وجل؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين**»[(١)] فالإنسان لا يكتسب الفضائل بنفسه، ولو وكل إلى نفسه لهان وذل وحرم، ولكن الفضل من الله عزّ وجل.

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ هذه صيغة بمعنى التعجب، وقيل في إعرابها: كفى فعل ماض، والباء حرف جر زائد، ولفظ الجلالة فاعل، يعني: وكفى الله عليماً وعلى هذا فتكون كلمة: ﴿عَلِيمًا﴾ منصوبة على الحال؛ أي: حال كونه عليماً، وصلة هذه الجملة بما قبلها بيان أن الله سبحانه لم يعط الفضل لهؤلاء إلا عن علم، وليس هكذا جزافاً بل: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وأعلم حيث يجعل الصلاح، وأعلم حيث يجعل العلم والرشد، فهو سبحانه يعلم المحل الذي هو أهل لهذا الفضل فيمنحهم إياه، ويعلم من ليس بأهل فيحرمه، فهذا وجه صلة الجملة بما قبلها.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان نعمة الله عزّ وجل على هؤلاء الأصناف، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ووجهه: أن الله تفضل عليهم.

٢ ـ أن ما يحصل للإنسان من فضل فإنما هو من الله عزّ وجل لا بحوله وقوته، ولهذا أهلك الله الذي قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]؛ لأن الفضل بيد الله.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٧٣٠)؛ والنسائي في الكبرى (٦/ ١٤٧) عن أنس بن مالك.

٣ ـ الحث على توجه الإنسان إلى ربه في سؤال مطلوبه، ووجهه: أنه إذا كان الفضل من الله فلا تسأل الفضل إلا ممن بيده الفضل.

٤ ـ بيان سعة علم الله عزّ وجل، لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾.

٥ ـ تفويض الأمر إلى الله، وأن الله تعالى إذا فضل أحداً على أحد فاعلم أن ذلك عن علم وليس عبثاً، ولهذا لما قال المكذبون: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤] رد الله عليهم فقال لهم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] أي: وأنتم لستم أهلاً للرسالة.

٦ ـ ومن فوائد الآية وهي فائدة بعيدة بعض الشيء، بيان أن جنس العرب أفضل بني آدم بعلم الله، ووجهه: أن محمداً عليه الصلاة والسلام أشرف عباد الله وأشرف البشر، وهو من العرب، فدل ذلك على أن الجنس العربي أفضل من الجنس غير العربي من بني آدم، وهذا شيء مشاهد، وتدل عليه أخلاقهم وآدابهم، وما حصل لهم من الفضل العظيم بنصرة هذا الدين.

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم» أوجهاً متعددة على أن جنس العرب أفضل من الجنس الآخر من البشر.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ [النساء: ٧١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ الخطاب هنا موجه

للمؤمنين، وإذا صدر الله سبحانه الخطاب بياء النداء دل هذا على الاهتمام به، وأنه جدير بأن ينبه المخاطب له؛ فينادى حتى ينتبه.

والنداء يفيد التنبيه، والتنبيه يدل على الاهتمام بالأمر والشأن.

وكونه يكون موجهاً للمؤمنين فيه إثارة داعي الاستجابة للمخاطبين، فإذا خاطبهم بوصف الإيمان كان فيه التهييج على القبول.

وفيه أيضاً: فضيلة الإيمان حيث خص المؤمنين بالنداء، ويدل على أن القيام به من مقتضيات الإيمان، وفيه كذلك الترهيب من المخالفة؛ لأنه إذا كان هذا الأمر من مقتضيات الإيمان فإن تركه من نواقص الإيمان. وقد تكون من نواقض الإيمان حسب ما أمر به.

قال ابن مسعود رضي الله عنه فيما نقل عنه واشتهر: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأرعها سمعك ـ يعني: استمع لها جيداً ـ فإما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه»[1]، وصدق رضي الله عنه فهو إما خير نؤمر به، وإما شر ننهى عنه، وإما خبر نحذر منه، مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] فهذه ليس فيها أمر ولا نهي، ولكن فيها التحذير من طريقة هؤلاء الأحبار والرهبان الذين يصدون عن سبيل الله، ويأكلون أموال الناس بالباطل.

وقوله: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ الحذر يعني: التخوف، وهو في الأصل من أعدائنا الكفار، ولا عدو للمؤمن إلا الكافر قال الله:

---

(١) سبق ص١٥١.

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٨] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]، فلا عدو حقيقة للمؤمن إلا الكافر، والكافر طبقات: الكافر المصرح بالكفر أهون من الكافر المخفي للكفر، وهو المنافق، ولهذا قال الله تعالى في سورة المنافقين التي أنزلها كاملة فيهم قال: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، فقوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ جملة تفيد الحصر؛ لتعريف طرفيها، كأنه لا عدو للمسلمين إلا المنافق؛ لأن عداوته ـ والعياذ بالله ـ لا يمكن أن يُطلع عليها، ولا يمكن التحرز منها.

فالعدو الأول: الشيطان، والثاني: المنافقون، والثالث: النفس، ولا أشد من عداوتها إلا من رحم ربي: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

إذاً: قوله: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ من أعدائكم من المنافقين، ومن الكافرين المصرحين بالكفر، ومن الفاسقين الذين يغرونكم في الوقوع في المعاصي التي دون الكفر، ومن كل أحد يصدكم عن دين الله.

فعلينا أن نأخذ الحذر من غزو هؤلاء لنا، سواء كان بالسلاح، أو كان بالفكر، أو كان بالخلق، ومعلوم أن أعداء المسلمين يغزون المسلمين بكل سلاح، وينظرون السلاح المناسب للأمة فيغزونها به، فإذا كان من المناسب للأمة أن يغزوها بالسلاح فعلوا وقاتلوا وهاجموا، وإذا كان من غير الممكن فإنهم يغزون بالأفكار فيأتون بأفكار منحرفة إلحادية إذا أمكنهم ذلك، وإذا لم يمكن بأن كانت الأمة على جانب كبير من الوعي والتوحيد والارتباط بالله عزّ وجل قالوا: إذاً نغزوا بطريق ثالث وهو الخُلُق، فسلطوا عليها كل ما يفسد أخلاقها: من المجلات، والإذاعات وغير ذلك.

ولهذا انظر الآن ماذا فعلوا بالناس بواسطة المحطات الدولية التي تلتقط عن طريق الدشوش، فالأقمار مرسلة والدشوش مستقبلة، وهذه الأشياء التي يبثونها لا شك ـ كما سمعنا ولم نشاهد، والحمد لله ـ أن فيها شراً عظيماً، وهم يجعلون فيها أشياء مفيدة؛ لأنهم يعلمون أنها لو كانت مفسدة بكامل عناصرها ما قبلها الناس، إلا من زاغ قلبه، والعياذ بالله، لكن يجعلون فيها أشياء مفيدة من أجل أن يضعوا الحَبَّ للصيد.

فأقول: هذا الغزو الآن غزو خُلُقي، وربما يكون فيه غزو فكري وأنا أسمع أحياناً إذاعة عالية صافية من أحسن ما يكون من إذاعات العالم التي نسمع، وتبث الدعوة إلى النصرانية، لكن الحمد لله كل شيء تدعو إليه وهو خير نجد أن شريعتنا متضمنة له، وأنه لا حاجة إلى دعوتهم هذه؛ لأن الشريعة الإسلامية والحمد لله قد تضمنت أكثر مما عندهم.

فقوله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ يشمل كل ما يكون سلاحاً علينا، ومعلوم أننا نأخذ لكل سلاح ما يناسبه، فالذي يناسب السلاح الخُلُقي أن يُبصِّر الناس، وتبين لهم العاقبة السيئة في دمار الأخلاق، وأنه كما قيل:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويُبين لهم المضار في سوء الأخلاق والفواحش، وغير هذا.

وفي الأفكار: يبين للناس العقيدة السليمة التي تصلهم بالله، وتجعل الإنسان دائماً مع الله عزّ وجل، يذكر الله بقلبه، ولسانه وجوارحه قائماً وقاعداً وعلى جنب.

والغزو المسلح بالسلاح، لا بد أن نعد له العدة؛ لأن الله

قال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فصار الحذر يختلف: قد نقول لهؤلاء القوم: تعلموا العقيدة، أو تعلموا العلم النافع، وبثوه في الناس. وقد نقول لهؤلاء القوم: تخلقوا بالأخلاق الفاضلة، واجتنبوا السفاسف، ونبين للناس عاقبة الأخلاق السيئة.

وقد نقول لقوم: تعلموا كيف يصنع السلاح، وكيف يرسل، وكيف يتقبل السلاح الوارد عليكم وهكذا، فالآية مطلقة في قوله: ﴿حِذْرَكُمْ﴾، وحذر كل شيء بما يناسبه.

والأقوال في الأسباب طرفان ووسط، فالذين نفوا الأسباب يقولون: خذ الحذر، لكن لو أخذت الحذر لا تنتفع بحذرك؛ إنما تنتفع عند الحذر وليس بالحذر، ويقولون: الأسباب علامة على الشيء وليست هي سبباً، فمثلاً: إنسان كسلان قال: أريد أن أغتسل لأجل أن أنشط، وفعلاً اغتسل ونشط، فيقولون لم ينشط من أجل الاغتسال، إنما نشط عنده لا به، يعني: أن الله جعل له نشاطاً عند الاغتسال وليس بالاغتسال.

وعندما ترمي الزجاجة بالحجر وتنكسر الزجاجة، يقولون: ما كسرها الحجر، لكن قدر أنها تنكسر عند مماسة الحجر لها، وهذا قول غير صحيح بلا شك[1].

قوله: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ هذه قد يقول قائل: إنها تعني أن يكون المراد بالحذر هنا حذر السلاح، ولكنه ليس بلازم؛ لأن عطف المعنى على بعض أفراد العموم لا يقتضي التخصيص، وهذه قاعدة مفيدة.

---

(١) وفي (٢/ ٥١) بقية التفصيل.

فمثلاً: قول جابر رضي الله عنه في الشفعة: «قضى النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم، فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة»[(١)] إذا نظرنا إلى أول الحديث: «**قضى بالشفعة في كل ما لم يقسم**»، قلنا: الشفعة في كل شيء لم يقسم، فلو بعت سيارة بينك وبين زيد على عمرو فلزيد الشفعة؛ لأن السيارة لم تقسم، وهي داخلة في قوله: «**في كل ما لم يقسم**»، فهذه السيارة التي بينك وبين زيد وبعت نصيبك منها على عمرو، لزيد الحق في أن يأخذ هذا الذي بعت على عمرو ويضمه إلى نصيبه، ولذلك سميت شفعة؛ لأنه يشفع نصيبه بنصيب شريكه.

وقوله: «**إذا وقعت الحدود وصرفت الطرق**» يقتضي أن يكون المراد بما لم يقسم الأرض؛ لأنها هي التي يكون فيها الحدود وهي التي تصرف فيها الطرق، ولهذا اختلف العلماء هل الشفعة في كل شيء حتى في المنقولات، أو هي في العقار فقط؟ والصحيح: العموم؛ لأن عطف المعنى على بعض أفراد العموم لا يقتضي التخصيص.

مثال آخر: قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨] الآية الكريمة تفيد في أولها أن جميع المطلقات ولو البوائن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، يعني: ثلاث حيض تعتدها المرأة إذا طلقت، لكن قوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ تقتضي أن يكون المراد بالمطلقات الرجعيات دون البوائن، فهل

---

(١) رواه البخاري كتاب، باب بيع الأرض والدور والعروض مشاعاً غير مقسوم، حديث رقم (٢١٠٠) عن جابر بن عبد الله.

نقول: إن العموم في قوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ خصصه قوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ وأن المراد بالمطلقات الرجعيات، أو نقول: المطلقات عامة، وعطف المعنى على بعض أفراد العموم لا يقتضي التخصيص؟

الجواب: الثاني، ولهذا جمهور العلماء ـ بل حكي إجماعاً ـ على أن عدة المطلقة ولو كانت بائناً ثلاثة قروء، ولما كانت قاعدة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أن كل امرأة مفارقة لا يملك زوجها الرجعة فيها كالمخالعة والمفسوخة، ومن تبين فساد نكاحها، فإن عدتها حيضة واحدة، وما أشبه ذلك، والمذهب: لا بد من ثلاث حيض، فأورد عليه المطلقة ثلاثاً؛ لأن المطلقة ثلاثاً ليس لزوجها عليها رجعة، ومقتضى قاعدته أن تعتد بحيضة واحدة، لكنه رحمه الله علق القول بذلك على وجود قائل به؛ لأنه لا يمكن للإنسان المتأخر أن يكون مخالفاً للإجماع المتقدم، وقد ذكر أنه قال به بعض التابعين.

فأقول: إن القاعدة التي قَعَّدناها: إذا ذكر العام ثم عطف المعنى على بعض أفراده فهل يكون ذلك تخصيصاً للعام أو لا؟

نقول: لا يكون، وهذا هو القول الصحيح.

فقوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ وإن كان ظاهر السياق يقتضي أن قوله: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ يعني: من أعدائكم الذين يعادونكم بالسلاح، لكن نقول: ذكر حكم بعض أفراد العام لا يقتضي التخصيص.

وقوله: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ «انفروا» يعني: للقتال في سبيل الله؛ أي: اخرجوا.

وقوله: ﴿ثُبَاتٍ﴾ أي: متفرقين.

﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين، والذي دلنا على أن

﴿ثُبَاتٍ﴾ بمعنى: متفرقين قوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾، حيث قوبلت بهذا، ومقابل الشيء يكون ضده في المعنى.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ فضيلة الإيمان، حيث استحق أهله أن يوجه إليهم الخطاب من الله عزّ وجل، لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢ ـ وجوب أخذ الحذر من أعدائنا، وكل عدو يؤخذ منه الحذر فيما يخاف منه، فالذين يغزوننا بالسلاح نأخذ الحذر منهم بالسلاح، والذين يغزوننا بالأفكار نأخذ الحذر منهم بالعلم، والذين يغزوننا بالأخلاق نأخذ الحذر منهم بالترفع عن سفاسف الأخلاق، فكل عدو يقابل بسلاحه.

٣ ـ أنه يجب على الإنسان أن يكون كيساً فطناً، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**المؤمن كيس فطن**»[(١)] وقوله: «**كيس**» بينها الرسول ﷺ بأنه: «**من دان نفسه وعمل لما بعد الموت**»[(٢)] يعني: أنه حازم، وقوله: «**فطن**» أي: عنده حذر.

لكن لا يجوز أن نسيء الظن بمن ظاهره العدالة، ونقول هذا من أخذ الحذر، كما قال أهل العلم: يحرم الظن السوء بمسلم ظاهره العدالة، أما من كان ظاهره الفسق فلنا أن نأخذ الحذر منه؛ لئلا يخدعنا.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٢٥)، حديث رقم (٢٤٥٩)؛ وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، حديث رقم (٤٢٦٠) عن شداد بن أوس، وأحمد (٤/ ١٢٤).

(٢) رواه الشهاب القضاعي (١/ ١٠٧) (١٢٨).

٤ ـ وجوب النفور للجهاد في سبيل الله، سواء كنا مجتمعين أو متفرقين.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢]؟

قلنا: **الجواب**: أن هؤلاء النافرين ينفرون سواء كانوا متفرقين أو جماعة، وعلى هذا فيكون الأمر هنا لمن نفر، حيث يؤمرون بالنفور متفرقين أو مجتمعين، أما من بقوا ليتفقهوا في دين الله فهؤلاء لن ينفروا.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾ [النساء: ٧٢].

الإعراب:

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ «مِنْ» للتبعيض، وعلامة «من» التبعيضية أن يحل محلها بعض.

في هذه الآية لامان: اللام الأولى قوله: ﴿لَمَن﴾ والثانية ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾، فأما الأولى فهي لام الابتداء؛ لأنها وقعت في اسم إن المؤخر، وتفيد التوكيد، وأما اللام الثانية فهي موطئة للقسم، فقوله: ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ واقعة في جواب القسم، والتقدير: «وإن منكم لمن والله! ليبطئن» فاللام هنا واقعة في جواب القسم، وهنا إشكال كيف نقول: لام الابتداء، وليست في ابتداء الكلام؟

فالجواب: أخروها لئلا يجتمع في أول الكلام مؤكدان، ولهذا يسميها بعضهم اللام المزحلقة، يعني: التي دفعت عن مكانها.

والفائدة من القسم في القرآن ـ وهو حق وصدق بدون قسم ـ إما لشك المخاطب. فيؤكد بهذا القسم، أو لعظم المقسم عليه، يعني: أن القرآن باللسان العربي، ولسان العرب يؤكدون الأخبار بالقسم.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ الجملة شرطية، والشرط فيها وجوابه فعل ماضٍ، فنقول: إنه مبني في محل جزم؛ لأن الفعل الماضي مبني، وفعل الشرط ﴿أَصَٰبَتْكُم﴾ وجوابه: ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ﴾.

وقوله: ﴿إِذْ لَمْ أَكُن﴾ إذ هنا للتعليل، وليست ظرفاً، يعني: حيث لم أكن معهم شهيداً.

معنى الآية:

أما معنى الآية يقول الله عزّ وجل: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾ ومن هذه للتبعيض، يعني: إن بعضكم.

﴿لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ يعني: للذي يبطئن، ومعنى «يبطئ» أي: يدعو للتباطؤ، سواء دعا غيره أو دعا نفسه، فيكون قوله: ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ شاملاً لمن يخذل غيره عن النفور للقتال، ولمن يخذل نفسه ويتهاون حتى يفوت الأوان عن هذا الذي يتأخر ولا يخرج للقتال.

ونتيجة القتال إما أن تكون الغنيمة والغلبة والنصرة، وإما أن تكون العكس، فهو إذا أصابتكم مصيبة يعني: أصابكم خذلان وهزيمة ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ فيتضمن كلامه هذا الافتخار والاحتقار، الافتخار بنفسه أنه لم يشهد هذه المصيبة، والاحتقار لمن أصيبوا بهذه المصيبة، وهذا غاية ما يكون من التباعد، وهذا الذي يقول ـ وهو منهم ـ هذا الكلام كأنه لم يكن بينه وبينهم

مودة، وكأنه من أبعد الناس عنهم، حين افتخر بأن نجا من المصيبة التي أصابتهم، واحتقر هؤلاء الذين أصيبوا وصار كالموبخ لهم.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [النساء: ٧٣].

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ﴾ أي: نصر وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: يتمنى على الله الأماني بعد أن فاته الأمر.

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾ الجملة شرطية وقسمية:

شرطية لوجود إن، وقسمية لوجود اللام، فاللام في قوله: ﴿وَلَئِنْ﴾ موطئة للقسم، و«إن» شرطية و﴿لَيَقُولَنَّ﴾ واقعة في جواب القسم، وقد تنازعها الشرط والقسم، فنجعلها للقسم يوضح ذلك ابن مالك رحمه الله في قوله:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

والمؤخر هنا هو الشرط، فجواب الشرط محذوف، والذي بقي جواب القسم، ولهذا قرن الجواب باللام، ولم يقع مجزوماً جواباً للشرط، وهذه قاعدة عند النحويين: أنه إذا اجتمع شرط وقسم فإنه يحذف جواب المؤخر، إما الشرط، وإما القسم، كما تقول: والله! إن قام زيد ليقومن عمرو، فالمؤخر هو جواب الشرط، وتقول: إن قام زيد والله! يقم عمرو.

المهم: أن المؤخر هو الذي يحذف جوابه على هذه القاعدة التي عند النحويين.

قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ أي: هذا المبطئ، وفيها قرآتان: القراءة المشهورة ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ﴾ والثانية «كأن لم يكن بينكم وبينه مودة» أي: محبة وصحبة.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ﴾ هذه فيها شاهد نحوي وهو: تخفيف كأن.

وجملة ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ﴾ في محل رفع خبر كأن، واسمها ضمير الشأن محذوف.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ المودة هي: خالص الحب، يعني: كأنه بعيد منكم ليس بينكم وبينه ارتباط، وهذه الجملة قال أكثر المفسرين بأنها جملة تعود إلى الحال الأولى، وهي ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ [النساء: ٧٢].

وفي الآية التقسيم لحال الرجل في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ﴾، فإنه يدل على أن الرجل لا يريد القتال في سبيل الله، إنما يريد الدنيا، فإن أصابتهم مصيبة افتخر أنه نجا، وإن فاته النصر قال: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾، فهو يشبه من قال الله فيهم: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨].

وقوله: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾ هذا مقول القول في قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾ أي: أتمنى أني معهم: ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ والفعل هنا منصوب بفاء السببية على رأي ذوي التسهيل واليسر الكوفيين، وبأن مضمرة بعد الفاء على رأي البصريين، والتقدير: «فأن أفوز فوزاً عظيماً»، وإنما نصب الفعل بذلك لأنه واقع في جواب التمني.

ومعنى الآيات: أن هذا القسم من الناس الذي يبطئ نفسه ويبطئ غيره، فلا يخرج للقتال في سبيل الله، ويبقى متفرجاً إن أصابتكم مصيبة افتخر واحتقركم، لكونكم خرجتم في حالٍ خُذلتم فيها، وافتخر في كونه نجا من هذه المصيبة، وإن أصابكم فضل فحينئذ يتمنى أن يكون معكم، ليفوز بالفضل الذي هو النصر والغنيمة، وحينئذ نعرف أن هذا الرجل لا يقصد القتال في سبيل الله، وإنما يقصد الدنيا فقط.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ الجملة هنا جملة معترضة، ولكن هل محلها هذا المكان؟

الجواب: قال كثير من المفسرين إن محلها ما قبلها، والمعنى أنه قال: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ قد أنعم الله عليَّ، ولكن الصحيح: أنها ليس فيها تقديم وتأخير، وأن مكانها هو مكانها، وليس شيء أفصح من كتاب الله، وأنه يقول: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ يعني: كأنه لا يريد أن يبين أن تمنيه لكونه معكم من أجل المودة التي بينكم وبينه، ولكن من أجل ما حصل من الفضل الذي هو النصر والغنيمة، وأما المودة فكأنها قطعت حتى في هذا الحال التي فيها الفوز بالنصر.

والفوز في قوله: ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لأنه يرى أن أكبر شيء هو الفوز بالدنيا فقط، والحقيقة أن الفوز الأعظم الذي لا فوز أكبر منه هو ما ذكره الله في قوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وخلاصة الآيتين: أن من الناس من هو منافق لا يريد القتال في سبيل الله، وإنما يقاتل لأجل الدنيا، فإن أصابتكم مصيبة

ـ هزيمة وذل ـ افتخر عليكم واحتقركم وقال: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٢]، وأما إذا كان العكس وانتصرتم وأصابكم فضل من الله، فحينئذ يتمنى أن يكون معكم ليفوز الفوز العظيم الذي هو غاية مناه، وهو النيل من الدنيا.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ دليل على أن التكاسل في الخير، والتراجع عنه من أسباب النفاق، وهو كذلك، والتباطؤ عن الخير والتكاسل عنه ليس سبباً للنفاق فحسب، بل هو سبب للضلال والعمى، والعياذ بالله! كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [ق: ٥]، ولهذا يجب على الإنسان متى تبين له الحق أن يأخذ به، وألا يتهاون، لئلا يصيبه ما أصاب هؤلاء، بل يسارع ويعمل، وقد أحسن من انتهى إلى ما سمع.

٢ ـ بيان حال صنف من الناس الذين لا يريدون القتال في سبيل الله، وإنما يريدون الدنيا، وأنه إذا أصيب من كانوا بصدد الخروج معه افتخروا في أنهم نجوا من ذلك، وإن أصيب هؤلاء بالفضل والنصر تمنوا أن يكونوا معهم، فيكون مرادهم الدنيا وليس مرادهم القتال في سبيل الله، أما الذي مراده القتال في سبيل الله فإنه على العكس من ذلك، إذا أصيب بمصيبة فاستشهد فإنه ينتقل من حال إلى أفضل منها كما قال الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران:

١٦٩]، وإن أصابه فضل ونصر حمد الله عزّ وجل، وسأل الله المزيد من فضله، وجعل هذا عوناً على طاعته.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء: ٧٤].

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ﴿فَلْيُقَٰتِلْ﴾ الفاء عاطفة، وتدل على ارتباط ما بعدها بما قبلها، والارتباط واضح؛ لأن الذي قبلها فيه ذكر من لا يريد القتال في سبيل الله، أما هذه ففيها ذكر الصنف الآخر الذي يقاتل في سبيل الله، واللام في قوله: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ﴾، لام الأمر، وسكنت مع أنها مكسورة لوقوعها بعد الفاء، ولام الأمر تسكن إذا وقعت بعد الفاء أو الواو أو ثم، مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩] بخلاف لام التعليل التي تسمى لام كي، فإنه يجب أن تكون مكسورة بكل حال، مثل قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ۖ﴾ [العنكبوت: ٦٦] فيجب أن تكسر ولا تقرأ: «وَلْيتمتعوا» لأنه يختلف المعنى.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعل يقاتل، وقوله: ﴿يَشْرُونَ﴾ بمعنى: يبيعون، مع أنها في اللهجة العامية بمعنى يشترون، وليس كذلك، بل ﴿يَشْرُونَ﴾ يعني: يبيعون، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢٠٧] يعني: يبيع نفسه.

أما إذا كان آخذاً فيقال: اشترى، فالمعطي شارٍ والآخذ مشترٍ.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة، فيجعلون بدل الحياة الدنيا الآخرة، وهؤلاء هم الذين اغتنموا الأعمار، وهم الذين اكتسبوا في الحقيقة أن أخذوا الآخرة بالدنيا، ولم يكونوا كالذين قال الله فيهم: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٧].

قوله: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ﴾ ﴿وَمَن﴾ هذه شرطية، والفعل بعدها مجزوم، وجواب الشرط قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أما قوله: ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ فهو معطوف على فعل الشرط.

قوله: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أي إنسان يقاتل في سبيل الله، وهو الذي يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، كما فسر ذلك النبي ﷺ.

قوله: ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ إن قتل فهو شهيد، أو غلب فهو فائز، ولا يبطل غلبه أجره، ولهذا قال: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فهو غانم على كل حال، إن قُتل قُتل شهيداً، وإن غلب غلب سعيداً، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] وهما: الشهادة أو النصر والغلبة: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢].

قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً عظيماً، وسمى الله

تعالى الثواب أجراً تشبيهاً له بأجر العامل الذي يستأجره الإنسان لعمل شيء ما، ثم يعطيه أجره.

والمقصود بذلك: أن الله تعالى التزم بإثابة هذا العامل كما يلتزم المستأجر بإعطاء العامل أجره، ولهذا سمى الله تعالى العمل له قرضاً، مع أن الله لا يحتاج، وسمى الثواب عليه أجراً كأنه استأجر أجيراً ليعطيه أجره.

وقوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو أجر الجنة، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله**»[(١)] يعني: في الجنة وهذا هو الأجر العظيم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ وجوب قتال الأعداء لقوله: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ﴾.

٢ ـ وجوب إخلاص النية في القتال، لقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ووجه ذلك: أن المقاتلين منهم من يقاتل شجاعة، ومنهم من يقاتل حمية، يعني: عصبية لقوميته أو لوطنه، ومنهم من يقاتل ليُرى مكانه؛ أي: مراءاة، فسُئل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، حديث رقم (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حديث رقم (٢٦٥٥)؛ ومسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، حديث رقم (١٩٠٤) عن أبي موسى الأشعري.

إذاً: القتال في سبيل الله هو القتال لتكون كلمة الله هي العليا.

وليس القتل هو لأجل أن يؤمن الناس، وإنما لتكون كلمة الله هي العليا إما بإيمان المقاتَلين، وإما بذُلِّهم وبذْلِهم الجزية، لقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: ٢٩].

٣ ـ بيان علو همة هؤلاء المقاتلين، وهو أنهم يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة، وهذا من قوة إيمانهم، وصدق عزائمهم، وعلو همتهم؛ لأنهم يؤمنون بأن هناك آخرة، وعندهم عزيمة قوية يغلبون بها أهوائهم، وإلا فكم من إنسان يُغلِّب جانب الحياة الدنيا، ويقول: درهم منقود خير من ألف درهم موعود، ولا شك أن هذا يدل على عدم إيمانهم، وإلا لو أنه مؤمن لكان هذا الموعود الذي وعد به ـ وهو خير مما نقد له ـ لكان يعمل له، ويعلم أنه ليس بينه وبين هذا الموعود إلا القليل من الزمن، وأن ما يحصل له من المنقود لا يساوي شيئاً بالنسبة إلى الموعود، حتى قال النبي ﷺ: **«موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها»**[1]، والسوط ليس بالطويل، وهو خير من الدنيا كلها وما فيها، وليس دنياك أنت، أو الدنيا التي أنت في عهدها، بل الدنيا من أولها، من قبل آدم أيضاً، من أولها إلى آخرها موضوع سوط أحدنا في

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، حديث رقم (٢٧٣٥) عن سهل بن سعد الساعدي.

الجنة خير من الدنيا وما فيها، فهذا هو العاقل الحازم المؤمن الصادق.

٤ ـ أن المقاتل في سبيل الله ناجح على كل حال، لقوله: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾ فهو غانم ناجح على كل حال، سواء قتل، أو غلب، فهو على أجر عظيم.

وإذا كان المقاتل في سبيل الله عليه حقوق للعباد فقد سئل النبي ﷺ أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي فقال: **«نعم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر، إلا الدين فإن جبريل قال لي ذلك»**[1]، فدل هذا على أن حقوق الآدمي لا تسقط بالشهادة، وهو كذلك؛ لأن حقوق الآدمي لا بد أن تؤدى إليه، لكن ثبت عن النبي ﷺ أن من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه[2].

٥ ـ بيان عظمة الرب عزّ وجل، لقوله: ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ﴾ وجه ذلك: ضمير الجمع؛ لأننا نعلم أن الله إله واحد، فكل ما أضيف إلى الله عزّ وجل من ضمائر الجمع فالمراد بها التعظيم.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين، حديث رقم (١٨٨٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها (٢٣٨٧) عن أبي هريرة.

❑ قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥].

لما أمر الله سبحانه بالقتال في سبيل الله وَوَجَّه الأمر إلى الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة؛ أي: يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة، وبيَّن فضل القتال في سبيل الله، وأن المقاتل في سبيل الله سواء قتل أو غلب فله الأجر من عند الله حيث قال: ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤]، بعد هذا وَبَّخَ الله أولئك الذين يمتنعون عن القتال فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ و«مَا» هنا استفهام، ومعناه: الإنكار، ويحتمل أن يكون الإنكار والتعجب، يعني: أن يكون معناه الإنكار على هؤلاء الذين لم يقاتلوا، والتعجب من حالهم.

وقوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سبق مراراً بأن القتال في سبيل الله هو القتال لتكون كلمة الله هي العليا لا غير.

وقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ يحتمل أن تكون معطوفة على لفظ الجلالة؛ أي: وفي سبيل المستضعفين، ويحتمل أن تكون معطوفة على سبيل؛ أي: وفي المستضعفين من الرجال، والمعنيان يصبان في قناة واحدة، سواء قلنا: في سبيل المستضعفين أو في المستضعفين أنفسهم.

والمستضعفون من الرجال هم الذين لا يستطيعون أن يخرجوا من هذه القرية التي تسومهم سوء العذاب.

قوله: ﴿وَٱلنِّسَآءِ﴾ معطوفة على ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ أو معطوفة على الرجال، فإذا قلنا: إنها معطوفة على الرجال فالمعنى: أن النساء ينقسمن إلى قسمين: قسم مستضعف، وقسم غير مستضعف، والمراد بالآية: القسم المستضعف، وإذا قلنا: إنها معطوفة على المستضعفين صار النساء لا ينقسمن إلى قسمين، بل هي قسم واحد، والمعنى: أن المرأة لا يلزمها أن تهاجر، ولكن المعنى الأول أحسن؛ لأن من النساء من هاجرت، ولم تبق في دار الذل والهوان.

وقوله: ﴿وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ هذا هو الذي يمكن أن نقول: إنه معطوف على قوله: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ وذلك لأن الولدان لا يستطيعون الهجرة، ولا يستطيعون الخروج، وهم في هذه الأماكن مظلومون لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فواجب علينا أن نقاتل في سبيل الله سبحانه، وفي هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لكل ما سبق، من المعطوف والمعطوف عليه.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: يقول كل واحد منهم، أو يقولون على معنى الجملة، وإن لم يكن هذا القول صادراً من كل واحد، وذلك لأن الجماعة الذين على هدف وطريق واحد يكون قول القائل منهم قولاً للجميع.

قوله: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ المشار إليه القرية التي هم ساكنوها، وباقون فيها وهي مكة؛ لأن قريشاً كانت تسوم من يؤمن سوء العذاب.

وقوله: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ الظالم هنا نعت لاسم الإشارة: ﴿هَٰذِهِ﴾، ولكن كيف يكون نعتاً والمعنى قائم بغير المنعوت؟ لأنه قال: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ ولم يقل: الظالمة، والجواب عن هذا أن يقال: النعت نوعان: حقيقي وسببي:

فالحقيقي: ما عاد فيه الوصف على المنعوت، كما تقول: مررت بزيد الفاضل، فهنا «الفاضل» وصف عائد على زيد.

والسببي: ما كان الوصف فيه عائداً إلى غير المنعوت لكن له به علاقة، كما لو قلت: مررت بزيد الفاضل أبوه، فهنا الفضل لا يعود على زيد، بل يعود على أبيه، لكن له به علاقة وارتباط، ولهذا أضيف إليه فقيل: أبوه، فالضمير في «أبوه» عائد على زيد، و﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ من هذا الباب، النعت فيه سببي، وعلى هذا فنقول: الظالم اسم فاعل صفة لهذه، وأهلها: فاعل للظالم، وأهل مضاف، و«ها» مضاف إليه.

وقوله: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ المراد الظلم الذي هو العدوان على حق هؤلاء المؤمنين، وما هو أعم كظلمهم بالشرك والعدوان أيضاً، فأهل هذه القرية ظالمون في حق الله لإشراكهم به، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وهؤلاء ظالمون بالنسبة إلى اعتدائهم على هؤلاء المؤمنين، حيث كانوا يؤذونهم ويسومونهم سوء العذاب.

قوله: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ «الواو» حرف عطف، وقوله: ﴿ٱجْعَلْ﴾ معطوف على ﴿أَخْرِجْنَا﴾، يعني ويقولون أيضاً: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من عندك ﴿وَلِيًّا﴾ يعني: يتولانا

ويتولى أمورنا، و ﴿نَصِيرًا﴾ ينصرنا على أعدائنا، والنصير هو المدافع المانع من عدوك أن يعتدي عليك، والولاية تأتي بمعنى النصرة، ولكن مقام الدعاء ينبغي فيه البسط، وتأمل أن كلمة «اجعل» جاءت مرتين؛ لأن المقام مقام دعاء، ومقام الدعاء ينبغي فيه البسط؛ لأن الداعي يناجي الله عزّ وجل، ومناجاة الحبيب لمحبوبه كلما زادت كان ذلك أقوى في المحبة، ولهذا ترى الإنسان إذا كان يحب شخصاً يحب أن يكثر معه الكلام، وربما يجلس يتكلم معه مدة طويلة وكأنها أقل من هذه المدة بكثير.

واعلم أن الولي والنصير إذا اجتمعا صار الولي فيما ينفع، والنصير في دفع ما يضر، وأما إذا أفرد أحدهما شمل الآخر، فإذا قيل: ولي بدون نصير، فالمراد به من يجلب لك الخير ويدفع عنك الشر، وإذا قيل: النصير بدون ولي فالمراد من يدفع الشر ويجلب الخير، وإذا اجتمعا صار الولي فيمن يجلب الخير، والنصير فيمن يدفع الشر. يعني ويمنع أعداءه منه؛ لأن النصر معناه المنع كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ [غافر: ٢٩].

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِۖ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ [النساء: ٧٦].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ لما وبخ الله سبحانه وتعجب من الذين لا يقاتلون في سبيل الله، بيَّن أن المقاتلين

ينقسمون إلى قسمين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهذه جملة مكونة من مبتدأ وخبر، المبتدأ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ والخبر قوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾.

وقوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يقاتلون الكفار.

وقوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في دينه وشرعه؛ أي: من أجله، وقد بين النبي ﷺ أن القتال في سبيل الله هو قتال من يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهذا هو القتال في سبيل الله، وما عدا ذلك فليس في سبيل الله.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ هذه الجملة أيضاً مكونة من مبتدأ وخبر، المبتدأ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ والخبر جملة ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾.

والطاغوت: صيغة مبالغة من الطغيان، فالتاء فيها كالتاء في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] للمبالغة، وكما يقولون: فلان علَّامة، التاء أيضاً للمبالغة، وعلى هذا فيكون آخر أصول الكلمة هي الواو في الطاغوت، وأما التاء فهي مزيدة للمبالغة.

والطاغوت يعرف بذكر المقابل، فالطاغوت هو في مقابل من يقاتل في سبيل الله، فكل من قاتل في غير سبيل الله فهو مقاتل في الطاغوت، سواء قلنا: إنه الشيطان، أو أولياء الشيطان، أو العصبية أو غير ذلك، المهم أننا نفهم أن المراد بالطاغوت هو ما كان لغير سبيل الله، وفهمنا هذا من المقابلة.

وقد ذكرنا قاعدة مفيدة في هذا: أن الشيء قد يعرف بمعرفة

مقابله، وذكرنا أن منه قوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

وقوله: ﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾ يعني: كل ما تجاوز به الإنسان حده، فإنه طغيان وطاغوت.

قوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الفاء: للتفريع على ما سبق؛ أي: قاتلوا أيها المقاتلون! في سبيل الله أولياء الشيطان الذين اتخذوا الشيطان ولياً فغرهم وأضلهم، وهم الذين يقاتلون لا لتكون كلمة الله هي العليا.

قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ لما أمر بقتال أولياء الشيطان بيَّن أنهم مغلوبون، وأن المقاتل لأولياء الشيطان غالب، يؤخذ هذا التعليل من قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، وإذا كان ضعيفاً فإنه لا مقاومة منه للحق، وإذا كان كيد الشيطان ضعيفاً وهو الذي يأتي به مكراً وخديعة فما كان صريحاً فهو من باب أولى.

والشيطان له مكائد للإنسان، لكنه ضعيف، فإذا ذُكر الله خنس، وإلا فهو يكيد حتى في غير القتال، يكيد للإنسان في العبادات، فيأتيه أولاً من باب التهاون بالعبادة فيهونها عليه، ويقول: إذا تركت هذا مرة تفعله المرة الأخرى، ثم إذا أراد وهمَّ بها في المرة الأخرى أيضاً وسوس له وثبطه.

ويهون عليه المعصية ويقول: هذه المعصية بسيطة ولا يراك أحد، وليس عندك أحد، ليس عندك إلا الله، والله غفور رحيم، وما أشبه ذلك، فيهونها عليه كيداً ويزينها، ولكن مع ذلك فكيده ضعيف؛ لأنه لا يقاوم الحق أبداً.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ توبيخ من توانى عن الجهاد لقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ ذكر ما يشجع على القتال من الناحية النفسية، لقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾؛ لأن ذكر ما يثير الإنسان ويهيجه أمر مطلوب، ولا شك أن الإنسان إذا قيل له: إن هناك رجالاً مستضعفين وولداناً ونساءً لا شك أنه سوف يزداد همة وإقداماً.

٣ ـ أن الكفار قد استضعفوا هؤلاء وأهانوهم.

٤ ـ وجوب الدفاع عن المستضعفين عند الكفار؛ لأن الله تعالى وبخ على أمرين: على ترك القتال في سبيل الله، وعلى ترك القتال في سبيل هؤلاء المستضعفين لتخليصهم، وهذا أمر واجب على كل مسلم مع القدرة أن يفك أسير المسلمين، وأن يرفع الظلم عنهم، بقدر المستطاع، لقول الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

٥ ـ جواز التوسل بالحال لقوله: ﴿أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، توسلوا إلى الله تعالى بذكر حال أهل هذه القرية بأنهم ظالمون لهم، وذكر الحال أن الإنسان مظلوم يوجب الرقة والعطف.

واعلم أن التوسل إلى الله عزّ وجل يكون بأمور:

الأمر الأول: التوسل إلى الله بأسمائه، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فتقول: يا غفور! اغفر لي، ويا رحيم! ارحمني، وهنا ينبغي ـ أدباً وعقلاً وفطرة ـ ألا

يتوسل لمطلوب إلا بالاسم المناسب له، فإذا كان يريد أن يسأل الله المغفرة يتوسل بالغفور، والرزق بالرزاق، والبطش بالظالم بشديد العقاب، وما أشبه ذلك.

الأمر الثاني: التوسل إلى الله تعالى بصفاته، مثاله ما جاء في الحديث المأثور: «**اللهم برحمتك أستغيث**»[(١)] فإن هذا التوسل إلى الله عزّ وجل بصفة من صفاته، ومنه أيضاً: «**اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني إذا علمت الحياة خيراً لي**»[(٢)] ومنه أيضاً: «**اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك...**» الحديث[(٣)].

الأمر الثالث: التوسل إلى الله بأفعاله وإن كانت من الصفات، لكن هي نوع آخر كحديث: «**اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم**»[(٤)]، فإن الصحيح: أن الكاف هنا للتعليل؛ أي: لأنك صليت على إبراهيم، ولا غرابة أن تأتي الكاف للتعليل، فقد جاءت في قوله

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب (٩٢)، حديث رقم (٣٥٢٤)؛ والحاكم (١/ ٧٣٠)؛ والنسائي في الكبرى (٦/ ١٤٧) عن أنس بن مالك.

(٢) رواه النسائي، كتاب صفة الصلاة، باب نوع آخر، (٣/ ٥٤)؛ وأحمد (٤/ ٢٦٤)؛ وابن حبان (٥/ ٣٠٤) (١٩٧١)؛ والحاكم (١/ ٧٠٥) عن عمار بن ياسر.

(٣) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، حديث رقم (٦١٠٩) عن جابر بن عبد الله.

(٤) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب (يزفون)، حديث رقم (٣١٩٠)؛ ومسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، حديث رقم (٤٠٦) عن كعب بن عجرة

تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]؛ أي: لهدايته إياكم على أحد الوجهين.

وإذا قلنا: إن الكاف في قوله: «كما صليت على إبراهيم»[(١)] للتعليل زال عنا الإشكال الذي يعرضه كثير من العلماء، وهو: كيف يشبّه الصلاة على محمد ﷺ بالصلاة على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، مع أن محمداً وآله أفضل من إبراهيم وآله؟!

وإذا جعلناها للتشبيه ـ وهو لا يصح لكن تنزلاً ـ فإن ذلك على قول بعض العلماء من باب ذكر الصلاة على النبي ﷺ مرتين، مرة مطلوبة، ومرة مخبراً عنها عنه، فمطلوبة في قوله: «**اللهم صل على محمد وعلى آل محمد**»[(٢)]، ومخبراً عنها في قوله: «**كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم**»[(٣)]، فإن محمداً لا شك أنه من آل إبراهيم نسباً ومن آله اتباعاً، كما قال الله تبارك تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ٦٨]، فهو من آله عليه الصلاة والسلام نسباً واتباعاً.

لكن ما ذكرناه أولاً أنه من باب التوسل إلى الله تعالى بأفعاله أولى.

الرابع: التوسل إلى الله تعالى بحال الداعي، يعني: بأن يذكر الإنسان حاله لله عزّ وجل ويعرضها، فإن ذكر الحال التي

---

(١) تقدم ص٥٣٥.

(٢) تقدم ص٥٣٥.

(٣) تقدم ص٥٣٥.

تقتضي الحنو والعطف توسل بها، ومنه قول موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

الخامس: التوسل إلى الله تعالى بالإيمان بالله عزّ وجل ورسوله ﷺ، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

السادس: التوسل إلى الله عزّ وجل بدعاء الصالحين، كأن يتوسل الإنسان إلى الله بدعاء رجل صالح، مثل قول عكاشة بن محصن: «ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: أنت منهم»[(١)]، ومثل قول الأعرابي الذي قال: «يا رسول الله! هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا»[(٢)].

السابع: التوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح؛ كتوسل الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار، فإن ثلاثة آواهم المبيت إلى غار فدخلوا فيه، ثم انطبقت عليهم صخرة، فعجزوا عنها، فتوسلوا إلى الله تعالى بأعمالهم الصالحة، أحدهم بالبر بوالديه، والثاني بالعفة، والثالث بالوفاء، فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون.

فهذه أقسام التوسل الجائزة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، حديث رقم (٦١٧٥)؛ ومسلم كتاب، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث رقم (٢٢٠)، من حديث ابن عباس.

(٢) رواه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، حديث رقم (٩٦٨)؛ ومسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، حديث رقم (٨٩٧) عن أنس بن مالك.

أما التوسل الممنوع فضابطه: أن يتوسل إلى الله تعالى بما ليس بوسيلة؛ لأن هذا نوع من الاستهزاء بالله عزّ وجل والسخرية به، إذ أن الوسيلة هي ما يتوسل به إلى المطلوب، فإذا قدمتها بين يدي دعائك وهي ليست وسيلة صار هذا كالاستهزاء بالله عزّ وجل، مثل: أن يتوسل الإنسان بنفس الشخص الصالح، ويقول: اللهم إني أسألك بفلان، ومن ذلك ـ على القول الراجح ـ الجاه، كأن يقول: اللهم إني أسألك بجاه فلان، فإن هذا التوسل حرام؛ لأنه توسل إلى الله بما ليس بوسيلة، ولهذا حرم على الإنسان تعليق التمائم إذا لم تكن من القرآن؛ لأنها وسيلة غير صالحة، فكل من توسل إلى الله بوسيلة غير صالحة فإن توسله حرام.

وأما التوسل بجاه النبي ﷺ فلا يجوز؛ لأنه ليس وسيلة، إذ إن جاه النبي عليه الصلاة والسلام منزلة رفيعة للرسول لا تنفع أحداً، أما جاه الله عزّ وجل فلا يجوز التوسل به، إلا إذا أراد بالجاه الوجه وقال: أتوسل بصفة الله، مثل: أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم؛ لأن الجاه معناه المنزلة عند الغير، كما يقال: فلان له جاه عند فلان، يعني: منزلة عالية، فمن أعلى من الله؟!

٦ ـ جواز الجهر بالسوء لمن ظلم، فتقول: فلان ظلمني، وفلان أخذ مالي، وما أشبه ذلك، ولا يُعد هذا من باب الغيبة، لقوله: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨].

٧ ـ أن أيدي الكفار لها ولاية على ما تحتها، بمعنى: أن الكافر إذا كان له بلد أو مدينة أو ما أشبه ذلك فإنه له ولاية عليها، لقوله: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ فجعلهم أهلها، ومع ذلك فليسوا

أهلاً في الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

٨ ـ جواز دعاء الإنسان ربه أن يخرجه من القرية الظالم أهلها، لقوله: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ وإذا كان له قدرة فليخرج.

ولكن هل المراد: بـ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ الذين اعتدوا علينا أو: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ الذين اعتدوا على حق الله؟

الجواب: الظاهر الأول، يعني: أن الإنسان لا يجوز أن يدعو الله أن يخرجه من البلد إلا إذا كان أهلها قد ظلموه، بمنعه عن دينه وعن إقامته، أما إذا كانوا ظالمين أنفسهم ولكنهم لا ينالون مسلماً بسوء فإنه لا تجب الهجرة، ولا ينبغي أن يدعو الله أن يخرج منها، إلا إذا خاف على دينه.

٩ ـ أن للإنسان أن يطلب من الله تعالى ولياً من عنده، لقوله ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ ولا يقال: إنه لا بد أن تقول: اللهم تولني، فأنت إما أن تدعو الله بأن يتولاك أو أن ييسر لك ولياً، وكذلك يقال في قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

١٠ ـ بيان علو همة هؤلاء حيث قالوا: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ في الولي ومن لدنك في النصير؛ لأن الولي إذا جاء من عند الله وكذلك النصير فهذا هو الذي ينفع، أما الولي الذي لا يأتي من عند الله عزّ وجل وإنما حملته الحمية والعصبية فهذا قد ينفع، وقد لا ينفع.

١١ ـ التوسل بالربوبية لقوله: «ربنا» وهذا من أنواع التوسل بالصفات، وأكثر ما يكون الدعاء إذا كان فيه توسل

يكون بالربوبية؛ لأن الربوبية هي التي فيها الملك والخلق والتدبير، وإن كانت تأتي بالألوهية مثل: «اللهم» لكن أكثر ما تكون بالربوبية.

١٢ ـ بيان أن الإيمان يحمل على الإخلاص، لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾، ويمكن أن نقيس على هذا بقية الأعمال الصالحة، فالذين آمنوا يتعلمون العلم لحفظ شريعة الله ونشرها بين عباد الله، والذين آمنوا يتعبدون لله تعالى بالصلاة والصدقة وغير ذلك، تقرباً إلى الله، وعكس ذلك الذين كفروا.

١٣ ـ الثناء على المؤمنين بالإخلاص؛ لأن الله ساق ذلك ثناءً عليهم.

١٤ ـ بيان أن من قاتل في غير سبيل الله ففيه خصلة من خصال الكفر، لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِۖ﴾، حتى لو كان مؤمناً يصلي ويصوم ويزكي ويحج وهو يقاتل حمية أو عصبية ففيه شبه من الكفار، وخصلة من خصالهم.

١٥ ـ وجوب قتال أولياء الشيطان، يؤخذ من قوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، فأمر الله تعالى بقتال أولياء الشيطان.

١٦ ـ ذكر ما يحمل على الامتثال، يؤخذ من قوله: ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾؛ لأن هذا فيه الحث والإغراء على مقاتلتهم.

١٧ ـ أن الكفار المحاربين من أولياء الشيطان، لقوله: ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، وكانوا أولياءه؛ لأنهم يمتثلون لأمره ولنهيه، فإذا أمرهم بالفحشاء امتثلوا، وإذا نهاهم عن البر امتثلوا، فبذلك صاروا له أولياء.

١٨ ـ بيان ضعف ما يعمله الشيطان بالكيد أو بغير الكيد؛

لأنه إذا كان كيده ضعيفاً فما يكيد به أضعف، لقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

١٩ ـ أنه لا ينبغي للإنسان، أن يخشى أو يخاف أولياء الشيطان؛ لأن أولياء الشيطان ضعفاء، كما أن الشيطان الذي هو وليهم كيده ضعيف.

٢٠ ـ أن الشيطان يكيد للإنسان، لقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فاحذر كيده لا يغرنك، فربما يوسوس لك في التهاون في العبادات المطلوبة، أو في غشيان الأشياء الممنوعة، ويقول: الله غفور رحيم، والأمر سهل افعل وتب، حتى يكيد لك فتقع في الشباك، فاحذر كيده!

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: ٧٧].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ الاستفهام هنا: استفهام تعجب، يعني: اعجب لحال هؤلاء.

وقوله: ﴿تَرَ﴾ يحتمل أن تكون: رؤية علمية، أو رؤية بصرية، والظاهر أنها رؤية علمية، يعني: تعجَّبْ من حال هؤلاء بقلبك وفكرك.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ القائل مبهم، والظاهر أنه النبي ﷺ.

وقوله: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ أي: امنعوها عن القتال، وذلك أن بعض الصحابة الذين كانوا في مكة، لما ظلمتهم قريش وضيقت عليهم، قالوا: لماذا يحجرون علينا ويظلموننا؟ أفلا نقاتلهم؟ فقيل لهم: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ أي: لا تقاتلوهم؛ لأن القتال في غير موضعه مهلكة، فلا تقاتلوا، بل ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ والمسلمون كانوا في مكة مضطهدين مظلومين، وليس لهم شوكة، وليس لهم دولة، فالقتال غير لائق إطلاقاً، فقيل لهم: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ أي: عن القتال، والدليل أن المراد عن القتال، قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤] أي: عن القتال.

قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يعني: قوموا بالعبادات الخاصة التي ليس فيها قتال ولا جهاد.

فقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هذه عبادة خاصة بالإنسان، لا تتعداه إلى غيره.

وقوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهذه عبادة تتعداه إلى غيره، لكنها عبادة، فالزكاة ـ مثلاً ـ لا يراد بها مجرد الإحسان إلى الفقراء، بل أهم شيء فيها أن تتعبد لله ببذل المحبوب ـ وهو المال ـ لنيل المطلوب، ولهذا يغلط من يفهم من الزكاة أنه لا يراد بها إلا مجرد نفع المستحقين، وهذا ليس هو المقصود، بل المقصود التعبد لله ببذل ما نحب، وكلنا يحب المال، كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ۝٢٠﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [العاديات: ٨] أي: المال ﴿لَشَدِيدٌ ٱلۡعِقَابِ﴾ [العاديات: ٨].

والصلاة هي: التعبد لله تعالى بأقوال وأفعال معلومة مفتتحة

بالتكبير، مختتمة بالتسليم. وهنا يجب أن يُلحق بالتعريف الذي عرفها به الفقهاء في العبادات قيد «التعبد لله»، فنحن نجد في كتب الفقهاء أن الصلاة هي: أقوال وأفعال معلومة، وهذا لا يكفي؛ لأن الإنسان لو أراد أن يقول هذه الأقوال وأن يفعل هذه الأفعال بدون تعبد لله فإنها لا تكون صلاة، فيجب أن نزيد ونقول هي: التعبد لله، بأقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم.

والزكاة هي: التعبد لله ببذل جزء من المال على وجه مخصوص معلوم من السنة.

وقوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ «آتى» تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، بل هما من باب «كسى» والمفعول الثاني محذوف والتقدير: مستحقها أو أهلها.

قوله: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي: فلما فُرض، والكتب بمعنى الفرض، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] أي: فرضاً؛ فـ ﴿كُتِبَ﴾ أي: فرض، وفرض حين هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وكان لهم دولة، وكان لهم شوكة، حينئذٍ أمروا بالجهاد.

كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩]، وكان فرض الجهاد على المسلمين في السنة الثانية من الهجرة.

ولما كتب عليهم القتال: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ﴾ أي: من الذين طلبوا أن يقاتلوا وهم في مكة،

لما كتب عليهم القتال في المدينة تخلف فريق منهم، وزالت عزيمته التي كانت في مكة.

وفي قوله: ﴿عَلَيْهِمُ﴾ ثلاث قراءات ضم الهاء والميم، وكسر الهاء وضم الميم، وكسرهما جميعاً، الأول: «عَلَيْهُمُ»، والثاني: ﴿عَلَيْهِمُ﴾، والثالث: «عَلَيْهِمِ»، والمعروف في المصحف الآن هو كسر الهاء وضم الميم.

فقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: طائفة منهم، ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ «يخشونهم» أي: يخافونهم، ويتقونهم، ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: كخشيتهم لله، ولهذا نقول: إن هذا المصدر مضاف إلى مفعوله، والتقدير: كخشيتهم الله.

قوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ ﴿أَوْ﴾: حرف عطف، ولكن هل هي للشك أو للتنويع، أو للإضراب؟

الجواب: نقول: أما للشك فلا؛ لأنه لا يمكن أن الله عزّ وجل يشك، بل الله عالم، والإنسان هو الذي يشك، فيقول: هذا مثل هذا أو أحسن!

والتنويع يعني أن بعضهم يخشون الناس كخشية الله، وبعضهم يخشون الناس أشد خشية، وهذا محتمل، ويحتمل الإضراب وأن المعنى: بل أشد خشية، أو لتحقيق ما سبق، ولهذا لما قال الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الصافات: ١٤٧]، قال العلماء: كيف ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾؟ فالله عزّ وجل يعلم أنهم بعدد معين، فكيف قال: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾؟

فالجواب: نقول: ﴿أَوْ﴾ هنا ليست للشك قطعاً، لكن بعضهم قال: إنها للإضراب، والمعنى: بل يزيدون، وبعضهم قال: إنها لتحقيق ما سبق، كما تقول: هذا مثل هذا إن لم يكن مثله فهو أعلى منه مثلاً، فتكون ﴿أَوْ﴾ لتحقيق ما سبق، وأما للتنويع في الآية: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الصافات: ١٤٧] فلا تأتي؛ لأنهم طائفة واحدة لا يمكن فيها التنويع.

وعلى كل حال: ﴿أَوْ﴾ في مثل هذا السياق لا يمكن أن نجعلها للشك؛ لأن الشك لا يمكن أن يقع في خبر الله عزّ وجل.

وإذا قلنا: إن ﴿أَوْ﴾ للإضراب فالإضراب نوعان: إضراب إبطال، وإضراب انتقال، وهذا انتقال، فليس المعنى أنه يبطل المعنى الأول لأجل الثاني، بل المعنى لأجل تحقق هذا الأمر فإنهم لا يمكن أن ينقصوا عن مائة ألف.

قوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ يعني: أعلى وأعظم خشية.

واعلم أن الخشية والخوف كلمتان تترادفان، بمعنى: أن إحداهما تأتي في مكان الأخرى كثيراً، لكن قالوا: إن هناك فرقاً دقيقاً بينهما، فمن الفروق: أن الخشية مبنية على علم، بخلاف الخوف فقد يأتي عن وهم لا حقيقة له، فقد يرى الإنسان شبحاً من بعيد فيظنه عدواً فيخاف، فنقول: هذا خوف؛ لأنه مبني على وهم، بل قد يكون من شجرة، لكن إذا رأى أنه عدو وأنه متسلح حينئذٍ يخشاه، واستدلوا لقولهم هذا بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

وأورد على هؤلاء قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠]، وهنا خوف،

فأجابوا بأن قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يمنع أن يكون هذا الخوف وهماً، بل هو خوف عن علم.

كذلك قالوا: إن الخشية تكون من عظمة المخشي، والخوف يكون إما من عظمة المخوف وإما من ضعف الخائف، وعلى هذا فإذا خاف صبي له سبع سنوات من صبي له عشر سنوات فنقول: هذا خوف؛ لأن الصبي الذي له عشر سنوات ضعيف لا يُخشى منه، لكن لضعف الصبي الثاني الذي له سبع سنوات صار يخاف، فنقول: هذا خوف وليس خشية.

وخشية الله عزّ وجل لا شك أنها لعظمة المخشي عزّ وجل، وكل من سوى الله فهو ضعيف بالنسبة لله، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وقالوا أيضاً: إن الخشية أشد من الخوف، واستدلوا لهذا بالاشتقاق، فقالوا: إن الخاء والشين والياء في جميع تصرفاتها تدل على غلظة، ومنه الشيخ، فـ (شَيَخَ) تدل على كبر وتقدم سن، والإنسان إذا كبر وتقدم سنه صلب عوده، وإذا أردت أن تعدله انكسر، لكن الصغير لين يمكن أن تعدله إذا مال، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام وهو يوصي السرايا والبعوث قال: «**اقتلوا شيوخ المشركين واستحيوا شرخهم**»[(١)] أي: شبابهم.

وقالوا أيضاً: منه الخيش من خَيَشَ، وهو: الخشن من

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في قتل النساء، حديث رقم (٢٦٧٠)؛ والترمذي، كتاب السير، باب النزول على الحكم، حديث رقم (١٥٨٣)؛ وأحمد (٥/ ١٢) من حديث سمرة بن جندب.

الكتَّان، وهو غليظ، كل هذا يدل على أن الخشية أعظم وأشد.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ سبحان الله! بالأمس يطلبونه والآن يعترضون عليه؟! وهذا يدل على ضعف الإنسان مهما بلغ في المنزلة.

وقوله: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ الاستفهام هنا إما للتعجب ـ وهو أليق بحال الصحابة ـ وإما للإنكار، وهو بعيد بالنسبة لحال الصحابة رضي الله عنهم.

قوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ ﴿لَوْلَآ﴾ بمعنى: هلّا، فهي للتحضيض، وقوله: ﴿أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ ولم يقولوا: إلى أجل بعيد؛ لأن الدنيا كلها قريبة؛ فمهما طالت بالإنسان الحياة فإنها قريبة، وهذا يدل على جبن وخور؛ لأنه لا يلزم من فرض القتال أن يموتوا، وكم من إنسان قاتل وجالد وخاض الغمار وقطع صفوف الأعداء ولم يُقتل، ومنهم خالد بن الوليد رضي الله عنه، فكم قاتل؟! وكم حارب؟ ثم مات على فراشه، وقال: «ها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء»[1]، فيقال: لا يلزم من القتال أن يُقتل الإنسان، بل إذا فرض عليه الجهاد وجاهد فقد ينجو.

وقوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ هنا يحتمل أن يكون قوله: ﴿قَرِيبٍ﴾ من كلامهم، وأنهم لا يريدون امتداد العمر الطويل؛ لأنهم يعرفون أن الدنيا كلها قريبة.

ويحتمل أن كلامهم انقطع إلى قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ ولكن الله بين أن الأجل مهما كان فهو قريب.

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور (٨/ ٢٦).

قوله: ﴿قُلْ﴾ الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ أي: والله! متاع الدنيا قليل، لا بالنسبة لنوعه ولا لجنسه، ولا لأمده، فكل ما في الدنيا من نعيم لا يقاس بنعيم الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] حتى إن ما يوجد في الدنيا ويوجد له نظير في الآخرة فالفرق بينهما عظيم، بل الفرق بينهما كالفرق بين الدنيا والآخرة، فيهما فاكهة ونخل ورمان ولحم وخمر ولبن وماء وعسل، لكن هذا ليس مثل هذا، ولا يمكن أن يُتصور ما في الآخرة، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

وأيضاً هو قليل من جهة أمده، ومهما كان فهو قليل، فالذين بقوا في كهفهم ثلاثمائة سنة: ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] والذي أماته الله مائة عام ثم بعثه قال: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وقد قال الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧] فمهما طال الأمد في الدنيا فإنه قليل، ولقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»(١).

ولهذا قال عزّ وجل: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ فالآخرة خير من الدنيا، و﴿خَيْرٌ﴾ اسم تفضيل حذفت منه همزة أفعل تخفيفاً، لكثرة وروده في كلام الناس، ومثله شر، ومثله ناس، فهو خير في نوعه وجنسه ومدته، ولهذا قال في سورة سبح: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٧].

وقوله: ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ هذا قيد لا بد منه؛ لأن الآخرة ليست

---

(١) تقدم ص٥٢٧.

خيراً لغير المتقين، بل هي شر، وإنما هي خير ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ وقوله: ﴿ٱتَّقَىٰ﴾ أصله من الوقاية، فأصل اتقى أوتقى، لكن قلبت الواو تاءً لعلة تصريفية، ثم أدغمت التاء بالتاء.

واعلم أنه إذا ذكرت التقوى وحدها شملت البر، وإذا ذكر البر وحده شمل التقوى، وإذا ذكر البر والتقوى جميعاً صار البر فعل الطاعات، والتقوى ترك المحرمات، فقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] ﴿ٱلْبِرِّ﴾ فعل الطاعات ﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ ترك المحرمات، وهنا قوله: ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ يشمل البر والتقوى.

وقوله: ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ يعني: أما غير المتقي فليست خيراً له، وسيأتي إن شاء الله في الفوائد ما يتعلق بذلك.

قوله: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ فيها قراءتان: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ بالياء، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ بالتاء، فإن كانت بالتاء، فهي من جملة القول الذي أمر الله نبيه أن يقوله: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ يعني: قل لهم: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، وإن كانت بالياء، يعني: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١] فهي من كلام الله عزّ وجل.

والفتيل: هو الخيط الذي يكون في بطن النواة، والنواة فيها ثلاثة أشياء يضرب بها المثل في الحقارة: النقير، والقطمير، والفتيل، فالفتيل هو: الخيط الذي يكون في بطن النواة، وعليها سلك يسمى قطمير، وفي ظهرها نقرة تسمى النقير، وهذه النقرة إذا دفنت في الأرض وأراد الله عزّ وجل أن تنبت خرج العرق من هذه النقرة، ثم انتشر في الأرض، وبعد مدة يكون كل المخ الذي فيها قد انسحب ولا يبقى إلا القشر الذي هو جلدها.

ويضرب المثل بهذه الأشياء الثلاثة في قلة الشيء وحقارته،

والمعنى: أن جميع الناس ﴿لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩] بل كل يجازى بعمله.

ولو قال قائل: لو كان عمر الكافر في الدنيا مائة سنة، ويبقى في النار أبد الآبدين فهذا ظلم، يعني: كيف يكون الجزاء أبد الآبدين والعمل محدد بمائة سنة أو نحو ذلك؟

فالجواب: أن نقول: استوعب ظلمه وكفره جميع حياته في الدنيا فليستوعب جزاؤه جميع بقائه في الآخرة، ثم هو قد أعذر الله إليه، وقد بين له، فليس له عذر، والأمر ليس مبهماً حتى يقال: إنه ظلم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ الدعوة إلى التعجب لما يكون محل تعجب؛ لأن الاستفهام في الآية للتعجيب.

٢ ـ أن الإنسان قد يتعجل الشيء فإذا نزل به نكص عنه، وهؤلاء تعجلوا القتال فلما أمروا به نكص بعضهم عنه، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا فإن الجنة تحت ظلال السيوف**»(١).

٣ ـ ويتفرع من هذه الفائدة: أنه لا ينبغي للإنسان أن يتدخل في أمر يعجز عن الخروج منه؛ لأن فيه إذلالاً للنفس ووجهه أن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا تمنوا لقاء العدو، حديث رقم (٢٨٦١)؛ ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء، حديث رقم (١٧٤٢) عن عبد الله بن أبي أوفى.

الإنسان إذا شرع في الشيء ثم عجز عنه وتأخر نزلت قيمته عند الناس، وقالوا: هذا رجل متسرع، متعجل، كيف يدخل في أمر وهو لا يعرف كيف يخرج منه؟!

٤ ـ أن الإنسان إذا كان لا يستطيع أن يقوم بالجهاد فليحسن الأعمال أو العبادات الخاصة؛ لأنه أُمر بها، لقوله: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٥ ـ أن قتال الكفار فرض، لقوله: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ﴾.

وهل هو فرض عين أو فرض كفاية، نقول: الأصل أنه فرض كفاية.

ويكون فرض عين كما قال العلماء في أربعة مواضع:

الموضع الأول: إذا حضر الصف؛ فإنه حينئذ يتعين عليه أن يقاتل، فإن تولى فذلك من كبائر الذنوب، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٦﴾ [الأنفال: ١٥ ـ ١٦]؛ ولأن النبي ﷺ جعل التولي يوم الزحف من الموبقات.

الموضع الثاني: إذا حصره العدو فيجب عليه الدفاع؛ لأنه إذا انهزم أمام العدو صار في هذا فتنة كبيرة في الدين، والله يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وإذا حُصر بلده، فإنه يتعين عليه أن يدافع عن بلده، ولا يستسلم بقدر ما يستطيع.

وحصر العدو وحصر الإنسان سواء، يعني: لو حُصر جماعة في البرية أو في البلد فالعبارة واحدة.

الموضع الثالث: إذا دعاه الإمام وجب أن يستجيب؛ لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [التوبة: ٣٨]، وهذا إنكار عليهم؛ لأنهم إذا قيل لهم: انفروا في سبيل الله اثاقلوا إلى الأرض.

الموضع الرابع: إذا احتيج إليه، مثل أن يكون عنده علم بنوع من السلاح لا يعرفه إلا هو، فهنا يتعين عليه أن يتقدم ويقاتل.

إذاً: الأصل أن القتال فرض كفاية، ويتعين في هذه الأمور الأربعة.

والقتال ليس لإرغام الناس على الدخول في دين الله إنما القتال لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا؛ بحيث لا يقوم أحد يضاد الدين ويمانعه، والدليل على هذا: ما رواه مسلم في صحيحه من حديث بريدة بن الحصيب أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً، وفيه: «**فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم**»[1]، وهذا يدل على أن القتال ليس لإرغام الناس على أن يسلموا؛ لأن إعطاء الجزية لا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، حديث رقم (١٧٣١) عن بريدة.

يعني الإسلام، وإنما يعني الاستسلام وعدم المنابذة، فإذا كان الدين كله لله وهو الظاهر الغالب فقد قام الناس بالواجب.

وقتال الكفار ليس من باب دفع الصائل بحيث لا يقدم على القتال إلا إذا تعذر ما دونه، ولذلك نجهز على جريحهم، ونتبع مدبرهم، ونقتل الجريح والمدبر، أما قتال أهل البغي فهذا من باب دفع الصائل، ولهذا لو قامت طائفة على الإمام وقاتلهم فإنه لا يجوز الإجهاز على الجريح، ولا اتباع المدبر، إلا إذا علمنا أنه أدبر ليجهز نفسه من جديد، فحينئذ لنا أن نتبعه لكن دون أن نقتله، وإنما نحبسه حتى لا ينشأ شره من جديد.

٦ ـ ذم من خشي الناس كخشية الله أو أشد، لقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾، وعلامة ذلك: أن الإنسان يترك ما أوجب الله عليه خوفاً من الناس، أو يفعل المحرم خوفاً من الناس، فإن هذا مذموم، وقد يصل أحياناً إلى الشرك بالله عزّ وجل، فالواجب على العبد ألا يخشى الناس كخشية الله؛ لأن الناس كما قال النبي عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «**اعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»[1] فأنت أيها الإنسان! مأمور بفعل الأسباب التي توصلك

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٥٩)، حديث رقم (٢٥١٦).

إلى المنفعة، وترك الأسباب التي توصلك إلى المضرة، أما أن يكون ذلك على حساب دينك فهذا لا يجوز.

٧ ـ ذم من اعترض على أحكام الله الشرعية، كما في هذه الآية: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ والكونية لقوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ فإن هذا يشمل الحكم الكوني والحكم الشرعي، فلا يجوز أن يعترض الإنسان على أحكام الله الشرعية، ولا على أحكام الله الكونية، بل عليه أن يستسلم، أما الشرعية فمن الناس من يستسلم ومنهم من لا يستسلم، وأما الكونية فالجميع مستسلمون كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥] فهذا السجود الكوني كل إنسان ذليل خاضع لحكم الله الكوني، ولا يمكن أن يدافعه أبداً، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٧].

علينا أن نستسلم وليس لنا أن نعترض.

فكلمة «لِمَ» ممنوعة شرعاً وقدراً.

و﴿مَتَىٰ﴾ ليست ممنوعة إلا إذا كان الحامل عليها التكذيب، كقوله: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨].

و«أين» غير ممنوعة، فلك أن تستفهم أين يكون الحكم الشرعي، أو الحكم الكوني، بل إن الرسول ﷺ قال للأَمَة: «**أين الله؟**»(١) فالاستفهام يختلف.

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، حديث رقم (٥٣٧) عن معاوية بن الحكم السلمي.

و«كيف» إذا كانت عن الحكم فليس بممنوع، وإذا كان عما يتعلق بأمور الغيب فهو ممنوع، كما قال السلف الصالح فيمن سأل عن كيفية صفات الله عزّ وجل.

٨ ـ التزهيد في الدنيا، لقوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ وصدق الله ورسوله، فإن متاع الدنيا قليل، فاسأل من عُمّر مائة سنة مثلاً، وقل له: كم تقدر أنه مضى من عمرك؟ فسيقول لك: أنا في الوقت الذي أنا فيه كأني ولدت الآن، وكل الذي مضى قد ذهب، فهو إذاً عمر قليل، وكذلك ما يوجد من الدنيا بالنسبة للآخرة فهو قليل ليس بشيء، فإن جئت ـ مثلاً ـ إلى الثمار تجدها تأتي زمناً وتغيب آخر، والفواكه والزروع كذلك، والأمطار كذلك، كلها قليلة، وهذا من حكمة الله عزّ وجل؛ لأن الله لو أتم لنا النعمة في هذه الدنيا من كل وجه لاغتررنا بها، وقد أشار الله إلى هذا في قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الزخرف: ٣٣] يعني: على الكفر ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥].

٩ ـ جواز التفضيل بين شيئين متباينين غاية التباين، لقوله: ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ لأنه لا نسبة بين الدنيا والآخرة، لكن لما كانت الدنيا عاجلة والنفس مولعة بحب العاجل صار التفضيل بينهما مستحسناً، فالآخرة خير لمن اتقى، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤] مع أن أصحاب النار ليس عندهم خيرية إطلاقاً، لكن من أجل الترهيب منها، ومن أجل بيان أن أصحاب النار في شر حال.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء: ٧٨].

قال عزّ وجل: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾.

أولاً: الإعراب:

قوله: «أين» اسم شرط جازم، و«ما» زائدة للتوكيد، وفعل الشرط قوله: ﴿تَكُونُوا۟﴾ وقوله: ﴿يُدْرِككُّمُ﴾ جواب الشرط.

قوله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ ﴿لَوْ﴾ هذه شرطية، وفعل الشرط فيها قوله: ﴿كُنتُمْ﴾، ولم نجد جواب الشرط في ﴿لَوْ﴾، فقيل: إن جواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله، والتقدير: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ لأدرككم الموت، وقيل: إنها في مثل هذا السياق لا تحتاج إلى جواب، وهذا اختيار ابن القيم رحمه الله في كتابه «أقسام القرآن»[1]، بل لو جيء بالجواب لكان الكلام ركيكاً ليس ببليغ، وهذا الحذف يوجد في القرآن كثيراً، فتجد جملة شرطية عائدة على ما سبق؛ أي: أن جوابها يفهم مما سبق وحينئذ نقول: لا تحتاج إلى جواب، وتقدير الجواب يجعل الكلام ركيكاً، وقوله: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ «يكاد» من أفعال المقاربة، ويعمل عمل كان وأخواتها، يرفع الاسم، وينصب الخبر، وبقية الآية ظاهرة ليس فيها إشكال.

---

(١) انظر: التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم ص١٠.

يقول الله عزّ وجل رداً على هؤلاء الذين قالوا: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧] يقول: إذا كنتم تقولون ذلك من أجل أن تتمتعوا قليلاً في الدنيا فإنكم لن تنجوا من الموت، و﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾، سواء كنتم في الجو، أو في البحر، أو في الأرض، أو في بروج مشيدة، أو في دور منهارة، أو في فلاة من الأرض، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ و«أين» معروف أنها للمكان.

وقوله: ﴿يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: لا يخطئكم ولا تفوتونه، بل في آية أخرى ما هو أشد، حيث قال الله عزّ وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨] ولم يقل: فإنه لاحقكم، بل قال: ﴿مُلَٰقِيكُمْ﴾، وما ظنك بشيء إذا فررت منه لاقاك؛ تكون أنت أسرع إليه مما لو كان يلحقك ولا شك؛ لأنه يجتمع فرارك، والثاني ملاقاتك فيكون أسرع، فقول الله عزّ وجل: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ وماذا بعد الموت؟

بعد الموت ملاقاة الله عزّ وجل بالخير أو بالشر؟

ولا ندري متى يكون الموت، ولا في أي أرض، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، إذاً: فلنستعد، ولنكن دائماً في يقظة، حتى إذا أدركنا الموت فنحن على الحال التي يرضاها ربنا عزّ وجل.

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ﴾ البروج: جمع برج، وهو: البناء العالي، ومنه البروج التي في السماء، وهي اثنا عشر برجاً أشار الله إليها في قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١].

هذه البروج تدور عليها أوقات السنة من الربيع والصيف والخريف والشتاء، وكل فصل يكون له ثلاثة بروج. وأحسن البروج وأنفعها للبدن برج الحَمَل الذي يكون في أول الربيع؛ فإنه أصح ما تكون فيه الأجسام، هذا من حيث إنه برج، لكن هناك أشياء تعتري الإنسان يكون فيها بدنه صحيحاً أو يكون مريضاً حسب الحال، لكن من حيث الزمن أحسن ما يكون فصل الربيع.

فالمراد بالبروج هنا الأبنية العالية؛ لأنها تشبه بروج السماء في علوها وارتفاعها، وأما من قال: إن المراد بذلك البروج السماوية فقد أبعد وأخطأ؛ لأن الله قال: ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾ وهذا الوصف لا يكون أبداً للبروج السماوية، إنما يكون للقصور العالية.

وقوله: ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾ أي: محكمة متقنة، ويضاف إلى ذلك أنها مطلية بالشيد، وهو: الجص؛ أي: مطلية بالبياض؛ لأن البياض محبوب للنفس، واقٍ من حر الشمس، فلذلك تُشاد به القصور.

وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ الهاء في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ تعود للمكذبين للرسول ﷺ.

والمراد بالسيئة هنا: ما يسوء، وليس المراد بها سيئة العمل، بل ما يسوء الإنسان، مثل: القحط، والمرض، والفقر، وما أشبه ذلك، القحط من السماء فلا تمطر، والجدب من الأرض فلا تنبت، فإذا أصابتهم سيئة قالوا: هذه من عندك، وإن أصابتهم حسنة وهي ضدها من الخصب والمطر والغنى والصحة قالوا: هذه من عند الله، يعني: ليس لك فضل، وفي السيئة يقولون: هذه من عند محمد هو الذي أتى بها، فيتطيرون به عليه

الصلاة والسلام، وهذا كقول بني إسرائيل لموسى: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ [النمل: ٤٧].

وكما قالت الأقوام لرسلهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [يس: ١٨]، فالتطير كان من شأن المكذبين للرسل، حيث إنهم كانوا يقولون: ما أصابنا من الجدب والقحط والمرض والفقر فهو منكم، وإن أصابهم ضد ذلك مما هو حسن في نفوسهم قالوا: هذا من عند الله.

قال الله تعالى رداً عليهم ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد! ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ الحسنة والسيئة من عند الله؛ لأن الله هو الذي يقدر ذلك، وليس من مجيء الرسول ﷺ، بل مجيء الرسول لا يأتي إلا بخير، لكن هم يتحججون على الرسول ﷺ بهذه الشبهات لأجل أن يكذبه الناس وينفروا منه.

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ فهو الذي يقدر الخير ويقدر الشر، وهذا الجواب جواب سديد؛ لأنه لا يمكن أن يأتي بالمطر إلا الله، ولا يمنع المطر إلا الله، ولا يأتي بالصحة إلا الله، ولا يأتي بالمرض إلا الله عزّ وجل، فالكل من عند الله.

وقوله: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ «ما» استفهام تعجب، يعني: عجباً لهؤلاء القوم.

﴿لَّا يَكَادُونَ﴾ أي: لا يقربون، ومعلوم أن نفي القرب نفي للمباشرة من باب أولى، فإذا كانوا لا يكادون يفقهون فمن باب أولى لا يفقهون إطلاقاً وليسوا قريبين من الفقه، وقوله: ﴿حَدِيثًا﴾ أي: ما يحدثون به.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أنه لا مفر من الموت، فمهما كان الإنسان قوياً في سلطانه وفي حصونه فإنه لا مفر له من ذلك، يؤخذ هذا من قوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾.

٢ ـ أنه يجب على الإنسان أن يستعد للموت؛ لأنه لا مفر له منه، وإذا كان لا مفر فلنستعد له ولنعمل.

٣ ـ إسناد الإدراك إلى الموت، ويتفرع عليها أن الأسباب يصح أن يسند إليها الشيء، لكن بشرط أن يعتقد أن هذه الأسباب لا تؤثر بنفسها، وإنما هي من الله عزّ وجل.

٤ ـ أن الحصون لا تغني عن قدر الله لقوله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

٥ ـ استعمال المبالغة في الكلام، وأن هذا من أساليب اللغة العربية لقوله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

٦ ـ جواز حذف ما يعلم، ولا يعد ذلك خللاً في الكلام، لقوله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾، ويتفرع من هذه الفائدة ما يكون في عقود البيع والإجارة والرهن والوقف وما أشبهها، فمثلاً: إذا قال الإنسان: وقفت هذا على فلان ولو كان غنياً، المعنى: ولو كان غنياً فهو وقف عليه، وعلى هذا فيكون الوقف ثابتاً لهذا الموقوف عليه على كل تقدير.

٧ ـ أنه جرت في العادة أن الناس يتحصنون عن العدو بالقصور العالية المحكمة، فلو كان هناك عدو يريد مداهمتك فإنك لا تستجير منه بخيمة من الخرق، أو ببناء من الخشب وإنما ببروج عالية محكمة حتى لا ينالك منه شيء، ولهذا نجد الناس

الآن صنعوا السيارات المدرعة، وصنعوا البنايات المسلحة، وتحصنوا عن العدو بأقوى ما يكون من التحصن.

٨ ـ تلبيس أعداء الرسل على العامة بما يقدر الله سبحانه من البلاء والامتحان؛ كالجدب والفقر والمرض إذا بعث الرسل. فيكون لله الحكمة فيما قدره ليبتلى العباد أيقبلون أم لا؟ لكن يتخذ أعداء الرسل من هذا ذريعة للتنفير من الرسل.

٩ ـ إقرار المكذبين للرسول عليه الصلاة والسلام بتوحيد الربوبية، وتؤخذ من قولهم: ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ فهم يقرون بالله عزّ وجل، ويقرون بأن ما يحدث في الكون فمن الله، وأن الله هو الرزاق، وأنه المحي المميت، يقرون بهذا كله، لكن لا يقرون بلازمه وهو توحيد الألوهية.

١٠ ـ أن الحسنات والسيئات كلها من عند الله، لقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

فإن قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية والتي بعدها وهي قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]؟

قلنا: الجمع بينهما أن لكل خطاب مكانه، فهنا نخاطب القوم الذين احتجوا بما يصيبهم من البلاء على بطلان ما جاءت به الرسل، فرد الله تعالى عليهم بأن كلاً من عند الله.

أما الآية الثانية: فإن فيها بيان أن ما أصاب الرسول عليه الصلاة والسلام من الحسنات فمن الله، وما أصابه من السيئات فمن نفسه.

ونظير ذلك: أن الله أبطل قول الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ

أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] لأنهم يحتجون بالقدر على معاصيهم وشركهم، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: ١٠٧]؛ لأن الخطاب في الآية الثانية موجه للرسول ﷺ كما يبين ذلك آخرها: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام: ١٠٧] فوجه الخطاب إليه بقضية أبطلت حين جاءت من جهة أخرى؛ لأجل أن يطمئن الرسول ﷺ أن إشراكهم كان بقدر الله، فيرضى ويسلم لقدر الله، لكن ذلك لا يمنعه من القيام بما يجب من تبليغ الرسالة.

وهنا نقول: لما أراد المشركون أن يحتجوا بأن الحسنة من الله ومجرد فضل منه، وأن السيئة من الرسل أبطل الله ذلك، فبأي وجه يكون مجيء الرسل سبباً للجدب والقحط والفقر والمرض؟ لكن ما أصاب الإنسان من الحسنة فمن الله، وما أصابه من سيئة فمن نفسه؛ لأنه هو السبب، فإضافتها إلى النفس من باب إضافة الأشياء إلى أسبابها، وإضافتها إلى الله من باب إضافة المقدور إلى مقدره وهو الله عزّ وجل.

١١ ـ ذم من لا فقه عنده، لقوله: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾، ويتفرع على ذلك: مدح من وفقه الله للفقه في دين الله؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»[1].

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، حديث رقم (٧١)؛ ومسلم، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، حديث رقم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان.

❑ قال الله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٧٩].

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، ﴿مَا﴾ هذه شرطية، وجواب الشرط قوله: ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ ويقال: مثل ذلك في قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾.

وقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ المراد بالحسنة هنا ما يحصل للإنسان من الصحة والرزق وغير ذلك، فهي مجرد فضل من الله؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] ولولا إنعام الله وفضله ما حصل لنا هذا الخير الذي نحن فيه.

وقوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ وهي ضد الحسنة؛ أي: ما يسوءك من قدر الله عزّ وجل ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ يعني: فأنت السبب.

والخطاب في قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ﴾ قيل: إنه للرسول ﷺ؛ لأن الله قال له: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] ثم قال: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ﴾، وقيل: إن الخطاب لغيره، فهو موجه لكل من يتأتى خطابه.

حجة الأولين: أن السياق يقتضي ذلك في قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ﴾، والسياق على نمط واحد.

وحجة الآخرين أنهم قالوا: إن النبي ﷺ لا يسيء إساءة تكون المصائب التي تصيبه من عنده، ولكن الأولى الأخذ بظاهر السياق، وأن الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام، وإذا كان هذا للرسول ﷺ فمن دونه من باب أولى، وهذا لا شك فيه.

ولهذا قال: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ فصار القول الذي

رجحناه مؤيداً بكلام سابق، وبكلام لاحق وهو قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾.

لو قال قائل: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ﴾ ألا يكفي عن قوله: ﴿رَسُولًا﴾؟

قلنا: بلى، لكن كلمة ﴿رَسُولًا﴾ أبلغ مما لو اقتصر على الفعل، هذا من وجه.

ومن وجه آخر: أن ذكرها يفيد بأنه أهل للرسالة، كما تقول لشخص ما: وكلتك بائعاً، يعني: لأنك أهل للوكالة لكونك عارفاً بالبيع قادراً عليه، فيكون ذكر الرسول هنا من باب التوكيد، وبيان أنه أهل للرساله ﷺ.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿كَفَىٰ﴾ فعل ماضٍ، و«الباء» حرف جر زائد لفظاً وليس زائداً معنى، والمعنى: كفى الله تعالى شهيداً عن كل شيء.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان أن ما يصيبنا من الحسنات فهو محض فضل من الله، لقوله: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾، ويدل لذلك: أن الحسنة التي تصيبك إما أن تكون ابتداءً، وإما أن تكون ثواباً، فإن كانت ابتداءً فكونها فضلاً واضحة، وإن كانت ثواباً على عمل فإن توفيقنا للعمل الذي كانت هذه الحسنة ثواباً له من الله عزّ وجل.

إذاً: فهي من الله سواء كانت ابتداءً أم ثواباً.

٢ ـ جواز إضافة الشيء إلى سببه، لقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾.

٣ ـ أنه يجب على الإنسان إذا أصابته الحسنة أن يوليها

شكراً لله عزّ وجل؛ لأنها منه تفضلاً وإحساناً، وإذا أصابته السيئة فلينظر في نفسه حتى يحاسبها ويستعتب فترتفع السيئة.

فإذا قال قائل: إذا كان الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام فهل الرسول عليه الصلاة والسلام يفعل فعلاً يعاقب عليه؟

الجواب: أن النبي ﷺ أمره الله أن يستغفر لذنبه وللمؤمنين، وقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١ ـ ٢]، وهو من بني آدم، وبنو آدم خطاءون، وخير الخطائين التوابون، فالنبي ﷺ قد يخطئ، ولهذا قال: «**اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي**»(١).

لكن الفرق بينه وبين سائر البشر ممن أرسل إليهم: أنه لا بد أن يُوفق للاستغفار والتوبة، أما غيره فقد يوفق وقد لا يوفق، وبهذا نعرف أن النبي ﷺ قد يحصل منه ما يكون سبباً في إصابته للسيئة، ولكنه يزداد بذلك رفعة ودرجة عند الله عزّ وجل.

٤ ـ عموم رسالة النبي ﷺ لجميع البشر، لقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ﴾، ويتفرع على ذلك الرد على النصارى الذين زعموا أن محمداً ﷺ رسول إلى العرب خاصة؛ لأننا نقول لهم: أنتم الآن تؤمنون بأنه رسول، وأنه من عند الله، وقد قال الله عنه: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ﴾ فيلزمكم على إقراركم بأنه رسول بأن تقروا بأن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «**اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت**»، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، حديث رقم (٢٧١٩)، من حديث أبي موسى الأشعري.

رسالته عامة، وإلا فقد كذبتموه، فمتى أقررتم بأنه رسول ولو إلى العرب لزمكم أن تقروا بأنه رسول إلى كافة الناس.

٥ ـ الإشارة إلى أن النبي ﷺ أهل للرسالة، وكفء لها، وقائم بها، لقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ فهو ابتداءً أهل لها، وهو غاية منفذ لها تماماً.

٦ ـ أن شهادة الله له بالرسالة مغنية عن كل شهادة، لكن لمن اتقى. وقد شهد الله لنبيه ﷺ بأنه رسول حقاً بشهادتين: شهادة قولية، وشهادة فعلية:

أما الشهادة القولية: ففي قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦].

وأما الشهادة الفعلية: فهو تمكينه من إبلاغ الرسالة، ونصره على أعدائه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحاقة: ٤٤] قال: «بعض»، وليس كل الأقاويل: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٥ ـ ٤٦] يعني: لأهلكناه.

ومع هذا كله أيده الله تعالى بآيات بينات معجزات ظاهرات، حسية ومعنوية، وما أحسن مراجعة ما كتبه شيخ الإسلام رحمه الله حول هذا الموضوع في كتابه: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، فإنه ذكر في آخر الكتاب من آيات النبي ﷺ الحسية والمعنوية ما لم أره لغيره، حتى إن ابن كثير رحمه الله في كتاب «البداية والنهاية» نقله إما بلفظه أو بمعناه.

٧ ـ منع التطير، لقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

وأعداء الرسل يتطيرون بالرسل، وبيَّن الله سبحانه أن كل ما يقع فهو من عند الله، وفي آية أخرى بين أن طائرهم معهم، يعني: إن كان هناك شؤم فالشؤم منكم على أنفسكم، وقد تقدم أن ذكرنا أن ما أصاب الإنسان من حسنة فمن الله، وما أصابه من سيئة فمن نفسه، وذكرنا الجمع بين هذه الآية والتي قبلها، وأن السيئة والحسنة من الله خَلقاً وتقديراً، والسيئة من الإنسان سبباً، يعني: أنه يكون هو السبب، وليس هو الذي أوجدها، وبهذا يحصل الجمع بين الآيتين.

تمّ بعون الله تعالى وتوفيقه المجلد الأول من تفسير سورة النساء

ويليه المجلد الثاني ويبدأ من تفسير قوله تعالى:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ إلى آخر السورة

فهرس الفوائد

الفوائد	الصفحة
تعريف المكّي والمدني واعتماده على الزمان لا المكان	٧
خصائص الآيات المكية والمدنية	٧
المنادَى من الآيات المكية والمدنية	٧
الموضوعات التي تناولتها سورة النساء	٨
ترتيبها في المصحف	٨
تفصيل القول في «البسملة» وهل هي آية مستقلة؟	٨
اختيار الشيخ أن البسملة ليست آية في الفاتحة ولا في غيرها، ودليله على ذلك	٩
تفسير البسملة ـ إسرار النبي بالبسملة وجهره بها أحياناً دليل على أنها ليست من الفاتحة	١٠
تفسير «الرحمٰن» بين أهل السنّة وأهل التعطيل	١١
هل الرحمٰن والرحيم مترادفان؟ .	١١
تفسير قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾ و	١١
دلالة توجيه الخطاب للناس مع أن السورة مدنيّة	١٢
معنى الناس	١٢
﴿رَبَّكُمُ﴾ تتضمن ثلاثة معاني ...	١٢
معنى قولنا: «صفة كاشفة»	١٢
معنى قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ والمراد بالنفس	١٣
معنى قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ...	١٣
الزوج لغةً يطلق على الرجل والمرأة	١٣
معنى قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾	١٣
الخنثى لا يخرج عن قسمي الذكورة والأنوثة	١٣
الكثرة في الرجال عزّ بخلافها فهي الإناث	١٤
معنى قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾	١٤

الفوائد	الصفحة
تكرار الأمر بالتقوى لأهميتها ...	١٤
أوجه القراءة في ﴿تَسَآءَلُونَ﴾	١٤
وجها القراءة في ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ بالجر والفتح	١٤
هل ثمة تعارض بين وجهي قراءة ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ بالفتح والجر؟ ..	١٥
الإشكال في قراءة «الأرحام» بالجر، والرد على حكم النحويين على ما خرج من قواعد اللغة والشذوذ	١٥
ليس في القرآن شيء شاذ، والقرآن يقعِّد ولا يقعَّد عليه .	١٦
معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾	١٦
فوائد الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ...﴾ ...	١٦، ١٩
الردّ على نظرية التطور لداروين في أصل نشأة الإنسان	١٧
من «التبعيضية» في قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾	١٧
هل يجوز للإنسان أن يسال غيره بالله؟ وهل تجب إجابته	١٧
إجابة السؤال بالله حين يوافق حقاً	١٨
إثبات اسم الرقيب لله عزّ وجل ..	١٩

الفوائد	الصفحة
تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ...﴾	١٩
«اليتيم» لغةً واصطلاحاً	٢٠
الفرق بين الإيتاء والدفع	٢٠
قوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ فيها وجهان	٢٠
معنى قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾	٢١
«لا تأكلوا» بمعنى تضمّوا	٢١
قاعدة تفسيرية: «الحمل على المعنى الكثير في القرآن أولى من الحمل على المعنى القليل»	٢١
الفائدة من تخصيص ذكر الأكل فقط	٢١
معنى قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾، الضمير في «إنه»	٢٢
الرد على القائلين بنسخ قوله: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ ...	٢٢
معنى النسخ إنكار المنسوخ، ولا يجوز إدعاء النسخ مع إمكان الجمع	٢٢، ٢٣
فوائد الآية	٢٣، ٢٥
اليتيم يملك وملكه تام وتجب عليه الزكاة لذلك	٢٣

الفوائد	الصفحة
الرد على من قال بأنه لا تجب الزكاة في أموال اليتامى	٢٣
جواز إطلاق اسم الخبيث على الرديء	٢٤
تحريم ضم مال اليتيم إلى مال الولي بقصد إتلافه	٢٤
الاحتياط في كتابة مال اليتيم والإشهاد عليه في حال إدخاله مع مال الولي ...	٢٤، ٢٥
العدوان على مال اليتيم من كبائر الذنوب	٢٥
مسألة: هل يضمن الولي مال اليتيم إن ضمّه إلى ماله فخسره؟	٢٥
قاعدة في الضمان	٢٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ...﴾	٢٦
هذه الآية في إبضاع اليتامى	٢٦
دلالة الخوف في الآية	٢٦
الفرق بين قسط وأقسط	٢٦
النهي عن ظلم اليتيمة بالإكراه على نكاحها	٢٦
معنى «ما» في قوله: «ما طاب» .	٢٧
بماذا تطيب النفس؟	٢٧
متى تكون «من» بيانية؟	٢٨
معنى قوله: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ ودواعي منعها من الصرف ..	٢٨
الفهم الخاطئ لمعنى الآية	٢٨
الرجل لا يتزوج أكثر من أربع ..	٢٩
ما اختص به النبيّ الكريم في النكاح	٢٩
المقام في قوله: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ مقام تخيير	٢٩
يحرم على الرجل أن يتزوج أمته لأنها تحلّ له بالمِلْك	٣٠
قاعدة الأضعف لا يردّ على الأقوى والعكس صحيح	٣٠
السيد يملك الرقبة والمنفعة والزوج لا يملك إلا المنفعة	٣٠
معنى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾	٣٠
معنى قوله: ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾	٣٠
ما نسب للشافعي في معنى ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ ضعيف جداً لمنافاته مقصود الشارع	٣١
فوائد الآية الكريمة	٣١، ٣٤
حينما يوصد الشرع باب حرام فإنه يفتح أبواب الحلال	٣٢
مشروعية التعدّد	٣٢

الفوائد	الصفحة
لا يجوز تجاوز الأربع في النكاح	٣٢
تحريم الوسائل المؤدية إلى المحرّم	٣٢
قاعدة أصولية: «أن للوسائل أحكام المقاصد» وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ..	٣٣
العدل واجب بين الزوجات، وليس لازماً بين الإماء في الجماع ولا في غيره	٣٣
أنواع الملك	٣٣
اليمين أفضل من اليسار	٣٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ ... الآية	٣٤
الفرق بين «أتوا» و«آتوا»	٣٤
الخطاب في قوله: «آتوا» للأزواج أم للأولياء؟ فيه قولان	٣٤
معنى قوله تعالى: ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾	٣٥
المصدر المحول عن الفاعل تارة وعن المفعول أخرى	٣٥
من البيانية والتبعيضية	٣٥
معنى قوله: ﴿فَكُلُوهُ﴾ ودلالة التعبير بالأكل	٣٥
الهنيء والمريء	٣٦
من فوائد الآية: ..... ٣٦،	٣٧
الراجح أنه لا يجوز للوالي أخذ شيءٍ من صداق النساء	٣٦
جواز إسقاط المرأة شيئاً من مهرها أو ردّه إن كانت قبضته	٣٧
لا يحل قبول ما تسقطه المرأة حياءً وخجلاً	٣٧
لا يحل أخذ شيء من مال الغير بغير طيب نفس منه	٣٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ...﴾ الآية .	٣٧
أوجه القراءة في الآية	٣٧
معنى السفهاء «السفيه»	٣٨
معنى قوله: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾	٣٨
قاعدة: «إذا كانت الآية صالحة لوجهين لا يتنافيان فإنها تحمل عليهما»	٣٨
معنى قوله: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾	٣٩
الفرق بين «الرزق فيها» و«الرزق منها»	٣٩
معنى قوله: ﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾	٣٩

الفوائد	الصفحة
من فوائد الآية الكريمة	٤٠
ذمّ السفه، وتحريم إعطاء السفهاء الأموال	٤٠
تقسيم العلماء للحجر على قسمين: لحظّ الغير ولحظ النفس	٤٠
ما هو ضابط السفه الذي يحصل به الحجر؟	٤١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ ...﴾ ...	٤٢
إعراب قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾	٤٢
معنى «رشداً» ـ الرشد في كل موضع بحسبه	٤٣
معنى قوله: ﴿فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾	٤٣
معنى قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا ...﴾	٤٣
معنى الإسراف ..... ٤٣،	٤٤
معنى قوله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ...﴾	٤٤
دلالة اللام في ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ و﴿فَلْيَأْكُلْ﴾	٤٤
ما الذي أخرج اللام في قوله: ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾ عن الأمر؟	٤٤
الأمر بعد النهي للإباحة أو لرفع الحظر	٤٤
معنى قوله: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾	٤٤
معنى الأكل بالمعروف	٤٤
معنى قوله: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾	٤٤
معنى قوله: ﴿فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾	٤٤
معنى قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ ..	٤٤
كل شيء في القرآن زائد إعراباً فهو زائد معنى	٤٥
من فوائد الآية الكريمة ..... ٤٥،	٤٨
الحجر على اليتامى لا يحتاج لحكم الحاكم	٤٥
يجوز لولي اليتيم الأكل بالمعروف ولو زاد على الأجرة	٤٦
الولي الفقير لا يلزمه ـ إن اغتنى ـ رد ما أكل من مال اليتيم بالمعروف، وهذا رأي الشيخ	٤٦
أقوال العلماء في وليّ ادعى دفع مال اليتيم بلا إشهاد (مسألة)	٤٧

الفوائد	الصفحة
اختيار الشيخ: لا تقبل دعواه إلا بشهود أو قرينة لظاهر الآية	٤٨
تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ ...	٤٨
إجمال بعدة تفصيل في قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ (بلاغة) ...	٤٩
إطلاق الوالد على الأب والأم ..	٤٩
معنى قوله: ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾	٤٩
خمسة من الورثة لا يمكن أن يحجبوا ..... ٤٩،	٥٠
معنى قوله: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ ...﴾	٥٠
علَّة جعل حظ الذكر في الميراث مثل حظ الأنثيين	٥٠
معنى قوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ...﴾	٥١
معنى قوله: ﴿مَّفْرُوضًا﴾	٥١
من فوائد الآية الكريمة	٥١
مخالفة الشرع والفطرة بتقديم النساء على الرجال	٥١
تهاون بعض الناس في التصرف فيما يخص الورثة دون إذنهم	٥٢
جواز حذف ما يُعلم	٥٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ ...﴾ الآية	٥٣
إعراب الآية	٥٣
«المساكين»، سبب التسمية	٥٤
معنى قوله: ﴿فَٱرْزُقُوهُم﴾	٥٤
الفرق بين ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ و﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾	٥٤
معنى قوله: ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾	٥٤
من فوائد الآية الكريمة	٥٥
قول العلماء: كل الأوامر المتعلقة بالآداب فهي للاستحباب	٥٥
الإحسان للقرابة أفضل من الإحسان إلى اليتيم والمسكين	٥٦
اتباع العطاء بالقول المعروف تلافياً للمنّ	٥٦
تفسير قوله: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا ...﴾	٥٧
الفرق بين لام الأمر ولام التعليل	٥٧
«لو» الشرطية وجوابها	٥٧
أوجه إتيان «لو»	٥٨

الفوائد	الصفحة
معنى قوله: ﴿ذُرِّيَّةِ﴾	٥٨
الذريّة تشمل الأولاد من بنين وبنات وأولاد البنين دون أولاد البنات	٥٨
تفسير جعل عيسى ابن مريم من ذرية إبراهيم مع أنه ابن بنت	٥٨
معنى قوله: ﴿ضِعَٰفًا﴾	٥٩
معنى قوله: ﴿خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾	٥٩
معنى قوله: ﴿فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾	٥٩
معاني التقوى مطلقة ومقيّدة	٥٩
معنى قوله: ﴿وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾	٥٩، ٦٠
معنى السداد في القول	٦٠
نتيجة تقوى الله والقول السديد ..	٦٠
من فوائد الآية الكريمة	٦٠، ٦١
قسما القول: سديد وغير سديد	٦١
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا ...﴾	٦٢
وجه في قراءة ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ﴾ بالبناء للمفعول	٦٢
لِمَ عبّر بالأكل مع أموال اليتامى؟	٦٢
من فوائد الآية الكريمة	٦٢
تعريف الكبيرة	٦٢، ٦٣
نوعا المحرمات	٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ ...﴾	٦٣
ما هي الوصية؟	٦٤
تعدد أصناف المتصرف في غير ماله بحسب وظيفته	٦٤
البلاغة في قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾	٦٤
معنى قوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ ...﴾	٦٥
اعتبار اللاحق والسابق في عود الضمير على جمع مذكر ومؤنث	٦٥
اختلاف المفسرين في قوله تعالى: ﴿فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾	٦٥
أوجه تقرير الثلثين للثنتين ...	٦٥، ٦٦
مجمل أنصبة الورثة من الأولاد .	٦٦
معنى قوله: ﴿وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ﴾ ووجها القراءة فيها	٦٦، ٦٧
معنى قوله: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ﴾	٦٧
معنى قوله: ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾	٦٧
تفصيل نصيب أبوي الميت من الميراث	٦٧، ٦٨

الفوائد	الصفحة
متى يزيد نصيب الأب عن السدس تعصيباً؟	٦٨
معنى قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ﴾	٦٨
قاعدة الفرائض في المواريث ...	٦٩
مسألة: إذا كان مع الأبوين زوج أو زوجة، فهل ترث الأم الثلث؟	٦٩
ترث الأم ثلث الباقي بعد نصيب الزوج	٦٩
أمثلة على نصيب الأبوين في ميراث أحد الزوجين	٦٩
المسألتان العمريتان (الغراوين) ..	٧٠
معنى قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾	٧٠
مثال: لمن مات عن أم وأب وأخوين شقيقين	٧٠
كيف يحجب الإخوة وهم محجوبون؟	٧١
مسألة غريبة في الميراث (الأخوة لأم يحجبون الأم من الثلث إلى السدس)	٧١
حالات ميراث الأبوين	٧١، ٧٢
لماذا لم يبدأ الله عزّ وجل بذكر الوالدين قبل ذكر الأولاد من مسائل الميراث؟	٧٢
مسألة: هلك هالك عن جد وأخ وأمّ	٧٣
معنى قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ ...	٧٣
معنى الوصيّة لغةً واصطلاحاً	٧٣
لا تزيد الوصيّة على الثلث	٧٤
الوصية بالثلث رخصة وما دونه أفضل	٧٤
شروط الوصيّة [ألا تزيد عن الثلث، وألا تكون لوارث] .	٧٥
معنى قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾	٧٥
متى تثبت الوصيّة؟	٧٥
معنى قوله: ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾	٧٥
تعريف «الدَّيْن»	٧٥، ٧٦
أيهما يُقدّم: الدَّين أم الوصيّة؟ ..	٧٦
ما الحكمة في تقديم الوصيّة على الدين في الآية؟	٧٦
مسألة في الدَّين الوصيّة	٧٧
مسألة: هل يجوز للأب أن يوصي لابنه الكافر؟	٧٧

الفوائد	الصفحة
مسألة في تقسيم التركة أو قضاء الدَّين المؤجل	٧٧
معنى قوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾	٧٨
معنى قوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾	٧٨
أوجه الإعراب في كلمة: ﴿فَرِيضَةً﴾	٧٩
الفريضة لغةً وشرعاً	٧٩
رأي الشيخ: ما ثبت الإلزام به يسمى فرضاً أو واجباً ولا فرق بينهما	٧٩
معنى قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾	٧٩
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾	٧٩
العلم والحكمة في حقه سبحانه .	٨٠
العليم والحكيم من أسماء الله عزّ وجل	٨٠
الجهل البسيط والجهل المركب .	٨٠
قسما حكم الله: حكم كوني وحكم شرعي	٨١
الفرق بين الإرادتين: الكونية والشرعية	٨١
الحكم الكوني حتميّ الوقوع أما الشرعي فيمتثَل أو لا يُمتثل .	٨١

الفوائد	الصفحة
الأوجه في معنى «الحكيم» ..	٨١، ٨٢
الحكمة تتعلق بالحكم الكوني والشرعي على الصورة التي عليها والغاية المقصودة منه .	٨٣
من فوائد الآية الكريمة	٨٣
الحكمة في توزيع الميراث	٨٣
الحكمة في جعل نصيب الذكر مثل حظ الأنثيين في الميراث	٨٣
قصة رؤيا الملك تساقط أسنانه وفائدة حسن التعبير	٨٤
الإخوة الذين لا يصلون لا يحجبون أمهم إلى السدس لكونهم كفاراً (اختيار الشيخ)	٨٦
الميراث يأتي في المرتبة الثالثة مما تركه الميت، بل في المرتبة الرابعة بعد تجهيز الميت	٨٦
الرق مانع من الإرث	٨٧
اجتهاد عمر بن الخطاب في العمريتين	٨٧
واحد الإخوة لا يحجب الأم إلى السدس بخلاف الأبناء والبنات	٨٧، ٨٨

الفوائد	الصفحة
المفضول قد يُقدم على الفاضل لاعتبارات	٨٨
علم الإنسان قاصر لا يدرك أيّاً أقرب نفعاً	٨٩
الزهد أعلى من الورع	٩٠
إثبات اسميْ: العليم والحكيم من أسماء الله تعالى	٩١
فائدة لغويّة: كان قد تسلب دلالتها على الزمان الماضي فتكون لمجرد وصف الخبر .	٩١
أمثلة في امتثال الصحابة	٩٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ ...﴾	٩٣
أنواع الأنكحة عند العلماء	٩٣
الزواج الصحيح والباطل والفاسد، وأمثلة عليها	٩٤
الرضاع المحرّم	٩٤
متى يكون الشرط عدميّاً	٩٥
معنى قوله: ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾	٩٥
ما الحكمة في أنه مع الأولاد يكون للزوج الربع، ومع عدمهم يكون له النصف؟ ...	٩٥
شروط صحة الوصيّة	٩٦
قاعدة: «أن الألفاظ الشرعيّة تُحمل على المعنى المعتبر شرعاً»	٩٦
الفرق بين «أو» مانعة الخلو، و«أو» مانعة الاشتراك	٩٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ ...﴾	٩٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ ...﴾	٩٧
حكمة التفريق بين الرجال والنساء في الميراث	٩٧
الرجل والأنثى إذا كانا من جنس واحد فهما على التفريق إلّا من ورث بالرحم المجردة ...	٩٧
ميراث ذوي الأرحام مبني على إرث من يدلون به	٩٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ ...﴾	٩٨
ما هو إرث الكلالة؟	٩٨
قاعدة نحوية أصولية: «الوصف إذا تعقب جُملاً عاد على الكلّ»	٩٨
معنى قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ .	٩٩

الفوائد	الصفحة
إجماع العلماء على أنّ المراد الأخ من الأم والأخت من الأم	٩٩
وصيّة الضِّرار	١٠٠
معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾	١٠٠
من فوائد الآية الكريمة	١٠٠
الإرث ملك قهريّ	١٠٠
متى ترث الزوجة البائنة من زوجها وإن انتهت عدتها؟ ..	١٠٢
ينقطع التوارث بين الزوجين بالبينونة إلّا إذا طلقت في مرض موته المخوف منهما ..	١٠٢
لا ميراث إلا بعد الدَّين والوصيّة	١٠٣
الزوجة حرة في التصرف بمالها .	١٠٤
الأمّة الضعيفة تقلّد الأمّة القويّة ولو بالباطل	١٠٥
يشترط لإرث الإخوة من الأمّ أن يكون الإرث كلالة	١٠٥
الوصية المضار بها لاغية وهي حرام	١٠٧
قاعدة: «كل اسم من أسماء الله يتضمن صفة، وليس كل صفة يشتق منها اسم فالصفات أوسع من الأسماء»	١٠٧
معنى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ...﴾	١٠٨
قسما حدود الله: حدود واجبات وحدود محرمات	١٠٨
معنى قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ ...﴾	١٠٩
قول العلماء في معنى الطاعة مفردة أو مقرونة بالمعصية ...	١٠٩
معنى ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ المراد به الرسول ﷺ بعد نزول القرآن أو غيره من الرسل السابقين إن أشارت الآية لعهدهم	١١٠
قاعدة: «الشرط يترتب على المشروط»	١١٠
معنى قوله تعالى: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾	١١٠
معنى الجنة في أصلها اللغوي، وتفسير هذا المعنى بما يلائم مقامها	١١١
معنى قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، وتفسير الأنهار	١١٢
معنى قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾	١١٣

الفوائد	الصفحة
«من» الشرطية يجوز فيها مراعاة لفظها ومراعاة معناها	١١٣
معنى قوله تعالى: ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وإعرابها	١١٤
تعليق الزمخشري على قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ ...﴾	١١٤
ما يفهم من تعليق الزمخشري من نفي رؤية الله في الجنة بما تتفق ومذهب المعتزلة المنتسب إليهم	١١٤، ١١٥
من فوائد الآية الكريمة	١١٥
لا حرج أن تقرب الرسول ﷺ مع الرب في الأمور الشرعية، أما في الأمور الكونية فلا يجوز ..	١١٥
لا يجوز قولنا: «ما شاء الله وشئت»	١١٦
سبب إنكار الرسول ﷺ على من قال: «من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى»	١١٦
مسألة: أقوال العلماء في الجمع بين الآية: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ والحديث: «لا يدخل الجنّة أحد بعمله»	١١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا ...﴾ ...	١١٨
معنى المعصية	١١٨
لطيفة بلاغية في التعبير القرآني بين قوله تعالى عن أهل النار ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ وعن أهل الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾	١١٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾	١١٩
فائدة ختان الصغير	١١٩
من فوائد الآية الكريمة	١١٩
معصية الله سبب لدخول النار بينما الشرك سبب للخلود في النار	١١٩
اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية «الشرك مهما صغر لا يُغفر» .	١٢٠
اختيار الشيخ ابن عثيمين: الشرك الأصغر لا يخر من الملة	١٢٠
تحريم الوصية لوارث	١٢٠
تقسيم المخالف إلى عاص ومتعد للحدود	١٢٠
دخول العاصي النار بقدر ذنبه وخروجه منها بقدر طاعته ...	١٢١

الفوائد	الصفحة
من لزوم أبدية الخلود لزوم أبديّة المكان	١٢٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ ...﴾	١٢٣
معنى الفاحشة شرعاً وعرفاً	١٢٣
المراد بالفاحشة وتخطئة من فسرها بالسحاق بين النساء ..	١٢٤
معنى قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡۖ﴾	١٢٤
معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾	١٢٥
معنى قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾	١٢٥
المراد بالسبيل ما شرعه الله من حد للزاني بكراً أم ثيباً	١٢٥
من فوائد الآية الكريمة ... ١٢٥،	١٢٦
ما هي الشبهة التي يُدرأ بها الحدّ؟	١٢٦
هل يشترط التصريح في شهادة الشهود على جريمة الزنا؟ ...	١٢٦
قول شيخ الإسلام: «لم يثبت حج الزنا بالشهادة إلى يومنا هذا» لصعوبتها	١٢٧
هل يمكن إثبات الزنا بالتقاط الصور؟	١٢٧
أقرّ الشيخ الاحتكام إلى شهادة الصور ثم تراجع للخداع في دبلجات الصور فلا تحكي الواقع الحقيقي	١٢٧
بقاء النساء في البيت مرغوب فيه وليس لازماً إلا لضرورة ..... ١٢٧،	١٢٨
العقوبة بالحبس المؤيد لها أصل في الشرع، ولكن الشيخ لا يطمئن إليها بعد نسخ الآية ..	١٢٨
الجعل نوعان: شرعي، وكونيّ قدريّ	١٢٨
إثبات الأفعال الاختيارية لله عزّ وجل	١٢٨
الصفات الحديثة لله بين أثبات أهل السنّة والجماعة وإنكار الأشاعرة والمعتزلة	١٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ ...﴾	١٢٩
القول الصحيح في المقصود بـ«اللذان» أي اللائطان	١٣٠
لماذا عبّر سبحانه في حق النساء بـ«اللاتي» وفي حق الذكور بـ«اللذان»؟	١٣٠

الفوائد	الصفحة
لِمَ كان اللواط أعظم من فاحشة الزنا؟	١٣١
معنى قوله تعالى: ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ ..	١٣١
معنى قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ﴾	١٣١
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾	١٣١
توبة الله على العبد نوعان: قبل فعل التوبة وبعده، فقبلَهُ: التوفيق لها، وبعده: قبولها	١٣١، ١٣٢
الإشكال في فهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾	١٣٢
﴿كَانَ﴾ في الآية مسلوب منها الدلالة على الزمن، والمراد الاتصاف بخبرها	١٣٢
من فوائد الآية الكريمة	١٣٢
شرط حمل المطلق على المقيَّدة	١٣٣
اختلاف العلماء في كيفية القتل للوطيّ	١٣٤
المقرّ بالذنب إذا تاب ولو في أثناء الحد، فإنه يترك فيتوب الله عليه	١٣٥
لا بد أن تُقرن التوبةُ بإصلاح ...	١٣٥
كيف تكون التوبة من فعل اللواط؟ وكيفية إثباتها؟	١٣٥
الحكم يدور رفع سببه وجوداً وعدماً	١٣٦
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ ...﴾	١٣٦، ١٣٧
معنى قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾	١٣٧
معنى قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾	١٣٧
دلالة الإشارة بـ«أولئك» بدل «هؤلاء»	١٣٧
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾	١٣٨
علم الله عزّ وجل علم شامل كامل	١٣٨
المقارنة بين العلم والقدرة	١٣٨، ١٣٩
من فوائد الآية الكريمة	١٣٩
إن لله أو يوجب على نفسه ما شاء وليس للعباد أن يوجبوا عليه شيئاً	١٣٩
الرشد يختلف باختلاف مواضعه	١٤٠
الإصرار على الصغيرة كبيرة	١٤٠

الفوائد	الصفحة
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ...﴾	١٤١
التوبة عند الاحتضار لا تنفع لأنها توبة ضرورة	١٤١
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾	١٤٢
معنى قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾	١٤٣
من فوائد الآية الكريمة	١٤٣
شروط صحة التوبة ..... ١٤٣،	١٤٤
كيفية إثبات الندم ـ كشرط لصحة التوبة ـ وهو انفعال؟	١٤٤
الفرق بين قولنا «العزم على ألا يعود» وقولنا: «من الشروط ألا يعود» في صحة التوبة ...	١٤٦
هل يشترك قولنا التوبة النزوع عن جميع المعاصي	١٤٧
الصحيح أن التوبة من الذنب تقبل مع الإصرار على غيره دون أن يستحق وصف التائب المطلق	١٤٨
كلام ابن القيم رحمه الله حول التوبة وتعلقها بالقلوب	١٤٨
الإشكال حول كون التوبة لا تنفع عند حلول الأجل مع أن النبي ﷺ رغبها من عمِّه أبي طالب ..... ١٤٨،	١٤٩
مسألة: حكم تارك الذنب مللاً من فعله لا توبةً إلى الله	١٤٩
تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ...﴾	١٥٠
أهمية الخطاب المبتدأ بالنداء ...	١٥٠
معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾	١٥١
معنى ﴿كَرْهًا﴾	١٥١
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ...﴾	١٥٢
المراد بالفاحشة المبيّنة ... ١٥٢،	١٥٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ...﴾	١٥٣
المعاشرة بالمعروف بالقول والفعل والبذل	١٥٤
معنى قوله تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ ...﴾	١٥٤
من فوائد الآية الكريمة	١٥٤

الفوائد	الصفحة
هل يجوز للإنسان في الخلع أن يأخذ من المرأة أكثر مما أعطاها؟	١٥٥
الصداق حق للمرأة	١٥٦
اعتبار العرف في إحالة الحكم عليه، ولكن لا يتم الاعتماد على العرف إن خالف	١٥٦
معروف الشرع	١٥٦
قال العلماء: «عسى» من الله واجبة لأن الرجاء في حقه عزّ وجل غير وارد	١٥٧
جواز ثبوت الكراهة بين الرجل المسلم وأخيه	١٥٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ...﴾	١٥٨
﴿وَءَاتَيْتُمْ﴾ تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر	١٥٩
ما العلامة التي تدل على أن الفعل ينصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر	١٥٩
معنى قوله تعالى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا ...﴾	١٦٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ...﴾	١٦٠
ويصح أن يعود الضمير على الجمع باعتبار الجنس إن كان ما سبقه مفرداً أو مثنى .	١٦١
معنى قوله تعالى: ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾	١٦١
لِمَ وصف الميثاق بالغليظ؟	١٦١
من فوائد الآيتين السابقتين	١٦٢
جواز كثرة المهر والأولى تيسيره	١٦٢
تحريم أخذ الزوج شيئاً من المهر ولو قليلاً	١٦٣
من كمال البلاغة الآيتان بصورة بشعة للتنفير مما يستوجب التنفير	١٦٤
العقود عهود يجب الوفاء بها وبشروطها إلّا ما خالف منها شرعاً	١٦٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾	١٦٥
نكاح الأجنبية عقد، ونكاح الزوجة وطء	١٦٦
معنى قوله تعالى: ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾	١٦٦

الفوائد	الصفحة
معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾	١٦٧
أقوال العلماء في «إلا» ومتى تكون بمعنى «لكن»	١٦٧
﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ لا يعني الإقرار بما مضى من عقود، فالتحريم باق لم يزُل وصفه	١٦٨
«كان» إذا سلبت الزمان صارت للتحقيق	١٦٨
المقت أشد من البغض	١٦٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾	١٦٩
﴿سَآءَ﴾ إذا كان المقصود به الذمّ صار فعلاً جامداً، وإن قصد به ضد ما يسُرّ صار متصرفاً	١٦٩
من فوائد الآية الكريمة	١٦٩
حل من زنى بها الأب خلافاً للمشهور عند الحنابلة، ولا يصح قياس الزنا على النكاح الذي هو عقد صحيح معتبر	١٧٠
تحريم زوجات الآباء بمجرد العقد وإن لم يحصل وطء	١٧٠
قاعدة شرعية «الشرائع لا تلزم قبل العلم لا إيجاباً ولا تحريماً»	١٧٠
العفو أقرب إلى السلامة من العقوبة	١٧١
إن رحمة الله سبقت غضبه؛ لذا فإن تنازع العلماء في مسألة بين محلل ومحرّم	١٧١
وتكافأت أدلة الطرفين، فالأقرب هو الأيسر والأسهل	١٧١
نكاح المحارم أشد من الزنا	١٧١
من زنى بامرأة من محارمه أو تزوجها يُرجم ولو كان غير محصن	١٧٢
تفسير قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ...﴾	١٧٢
جمع «أمّ» في العاقل «أمهات» وفي غير العاقل «أُمَّات»	١٧٢
المحرمات من النسب سبع	١٧٤
سرد المحرمات على طريقة العدّ في القرآن أفصح من مسلك الفقهاء لأصول وفروع وفروع الأصل الأدنى	١٧٤
المحرمات أصناف: بالنسب وبالرضاع والمصاهرة	١٧٤

الفوائد	الصفحة
معنى قوله: ﴿ٱلَّٰتِىٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ ..	١٧٥
مطلق الرضاع يثبت به التحريم ..	١٧٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾	١٧٥
﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ يشمل الشقيقات واللاتي لأب واللاتي لأم	١٧٥
لا تكون المرأة زوجة إلا بعقد صحيح	١٧٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾	١٧٥
الربائب مقيّدة بقيدين: مكوثها في حجر الإنسان، والدخول بالمرأة أمّها	١٧٦
أقوال العلماء في قَيْدي الربائب: ١ ـ القيدان معتبران مجتمعين، ٢ ـ قول الجمهور: المعتبر هو القيد الثاني وهو الدخول بأمها ...	١٧٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾	١٧٧
الفرق بين الحليلة والسريّة	١٧٧
معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾	١٧٨
التبني أبطله الشرع، وابن التبني خارج من قيد «أبناء الأصلاب»	١٧٨
رأي ابن تيمية في أن المصاهرة لا تجري في الرضاع، وهو ما يرجحه الشيخ ابن عثيمين	١٧٩
معنى قوله: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾	١٧٩
يحرم الجمع بين الأختين، وبين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها	١٧٩
تحريم الجمع بين الأختين يشمل الشقيقتين والأختين لأب والأختين لأم	١٨٠
من فوائد الآية الكريمة	١٨١
مسألة: ضوابط المحرمات من المصاهرة	١٨٢
مسألة: هل يجوز للإنسان أن يتزوج بنت زوجة أبيه؟	١٨٢
مسألة: هل يجوز أن يتزوج أم زوجة أبيه؟	١٨٢
إطلاق الألقاب بلا ضابط لا يصح لغة ولا شرعاً لأنه يُوهم	١٨٣

الفوائد	الصفحة
التحريم بالرضاع يثبت برضعة واحدة حسب رأي الظاهرية لمجيئه مطلقاً في القرآن	١٨٤
إطلاق الرضاع قيدته السُّنّة على الصحيح، فقيل: الثلاث محرّمة وقيل: خمس رضعات تحرم	١٨٤
طعن بعض العلماء على حديث: «لا تحرم المصّة ولا المصتان» والإشكال حوله	١٨٥، ١٨٦
تقييد الرضعات بخمس معلومات لا شك فيها، والشك لا يثبت الحكم	١٨٦
هل يمكن أن يقيد إطلاق القرآن بالسنّة؟	١٨٦
المراد بالرضعة التقام الثدي ثم إطلاقه لأي سبب (قول بعض العلماء)	١٨٧
يمكن أن تتم الرضعات الخمس في مجلس واحد	١٨٧
اختيار الشيخ عبد الرحمٰن السعدي أن المراد بالرضعة ما انفصلتْ عن أختها انفصالاً بيّناً لتكون رضعة كاملة	١٨٨
الحديث يحتمل المعاني الثلاث: المصة ـ التقام الثدي ـ الوجبة من الرضاع، والراجح	١٨٨
القول الثالث لأن الأصل الحل حتى يثبت التحريم بيقين	١٨٨
قوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ مطلق قيدته السنّة بخمس رضعات	١٨٨
إرضاع الكبير، وحديث سالم مولى أبي حذيفة	١٨٨
الإرضاع المعتبر شرعاً في الحولين فقط أي قبل الفطام	١٨٩
تفصيل القول في حديث سالم مولى أبي حذيفة	١٩١
قولا شيخ الإسلام في إرضاع الكبير، وردّ ابن عثيمين عليه	١٩١، ١٩٢
هل لا بد من مباشرة الإرضاع بحيث لو صبّ اللبن في إناء وشربه الطفل فإنه لا يؤثر، أم ليس ذلك بلازم؟	١٩٢
لبن الفحل محرم	١٩٣
تحرم المرأة بمجرد العقد الصحيح على أمّها	١٩٣

الفوائد	الصفحة
أم المزني بها لا تحرم على الزاني خلافاً لكثير من أهل العلم	١٩٣
المملوكة لا تكون حليلة إلا بالوطء	١٩٤
حليلة ابن الرضاع لا تحرم	١٩٤
تحريم الجمع بين الأختين هل يشمل ملك اليمين أم هو خاص بعقد النكاح؟	١٩٥
كل اسم من أسماء الله دال على ذات الله والصفة المشتقة منه	١٩٦
تقسيم رحمة الله إلى عامة وخاصة	١٩٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ...﴾	١٩٦، ١٩٧
معاني: الإحصان	١٩٧
المشترك اللفظي، كيف نحدِّد معناه المقصود؟	١٩٧
معنى قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾	١٩٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ وأوجه القراءة فيها .	١٩٩
هل العمة من الرضاع حلال؟ ...	١٩٩
أربع محرمات: العمة من الرضاع، والخالة من الرضاع، والجمع بين المرأة وعمتها والجمع بين المرأة وخالتها	٢٠٠
مسألة: هل يجوز الجمع بين عمتين كل واحدة عمّة للثانية؟ وهل يجوز الجمع بين خالتين، كل واحدة خالة للثانية	٢٠١
يراعى المخاطب في اسم الإشارة المقرون بالكاف	٢٠٢
معنى قوله تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾	٢٠٢
معنى قوله تعالى: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾	٢٠٢
لِمَ سُمِّي الزنا سفاحاً؟	٢٠٣
معنى قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ ...﴾	٢٠٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ ...﴾	٢٠٤
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾	٢٠٤
من فوائد الآية الكريمة	٢٠٥

الفوائد	الصفحة
إثبات الرق، وجوازه بسبب شرعي	٢٠٦
المحللات من النساء أكثر من المحرمات، لذا حصر المحرمات	٢٠٦
تحريم المرأة يحتاج لدليل	٢٠٧
إذا شككنا في سبب التحريم فالأصل عدم التحريم	٢٠٧
لا بد من بذل المال في النكاح على ثلاثة حالات	٢٠٧
النكاح بشرط عدم المهر فيه قولان أقواهما أن النكاح غير صحيح (وهو اختيار ابن تيمية)	٢٠٨
هل يمكن أن تطلب الزوجة النكاح؟	٢٠٨
جواز جعل المنفعة مهراً؛ فالله سمّى المهر أجراً، قصة موسى مع صاحب مدين	٢٠٩
هل يصح أن يجعل الزوج مهرها خدمته لها؟ فيه خلاف	٢٠٩
تحريم المتعة ..... ٢٠٩،	٢١٠
أدلة تحريم نكاح المتعة من السنّة	٢١٠
أجاز بعض العلماء المتعة للضرورة، ولكن الراجح أنها لا تحل مطلقاً ..... ٢١٠،	٢١١
أهل السنّة يحرمون المتعة ولكن الرافضة يجيزونها كما يجيزون أموراً أخرى كثيرة حرّمها أئمتهم	٢١٢
رأي الشيخ: لا يجوز للإنسان أن يتزوج بنيّة الطلاق إذا سافر	٢١٣
عند الحنابلة: نكاح من ينوي الطلاق غير صحيح، فنيّة المتعة كشرطها	٢١٣
المهر يثبت بالاستمتاع أو الخلوة	٢١٤
قاعدة: «إنّ ما أوجبه الله عزّ وجل لحق الإنسان وأسقط حقه، فلا إثم على من لم يقم به»	٢١٥
من سبّ الرسول ﷺ وجب قتله ولو تاب، ومن سبّ الله إذا تاب لا يُقتل	٢١٥
من أسماء الله: العليم والحكيم .	٢١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا ...﴾ ...	٢١٦
معنى قوله تعالى: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾	٢١٦

الفوائد	الصفحة
ملك اليمين معادل للزوجيّة، لذا لا يجوز للسيد أن يتزوج مملوكته لأن عقد الملك أقوى من عقد النكاح	٢١٦
معنى قوله تعالى: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾	٢١٧
معنى قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾	٢١٧
البعضية في الآية بعضية إنسانية ٢،	٢١٨
معنى قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾	٢١٨
الأمة لا يملكها وليها بالنسب بل يملكها وليها بالسبب أي: الملك	٢١٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ...﴾	٢١٨
الأمة تُعطَى مهرها كما تُعطى الحرّة	٢١٩
معنى قوله تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾	٢١٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾	٢٢٠
معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ وأوجه القراءة فيها	٢٢٠
معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ ...﴾	٢٢١
معنى قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾، والعذاب هو الحدّ	٢٢١
الحرّة الزانية هل تغرّب أم لا؟ وهل تغرب الأمة كالحرة ـ على القول بذلك؟	٢٢٢
التغريب في الحرة والأمة يرجع إلى اجتهاد الحاكم	٢٢٣
حد الزنا للحرة والأمة	٢٢٣
معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾	٢٢٤
الفرق بين الخوف والخشية	٢٢٤
معنى قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾	٢٢٥
معنى المغفرة يشتمل على الستر والوقاية	٢٢٦
الرحمة صفة مستقلة عن الإرادة وعن الإحسان	٢٢٦
الأشاعرة حرفوا معنى الرحمة إلى الإرادة	٢٢٦
مذهب أهل السنّة والجماعة: «كل ما سمّى الله به نفسه أو وصف به نفسه فهو ثابت له ـ سبحانه ـ على وجه الحقيقة بلا تمثيل أو تكييف	٢٢٦

الفوائد	الصفحة
من فوائد الآية الكريمة	٢٢٧
من لم يستطع طَوْلاً الزواج يتجه إلى ما ملكت يمينه ولا يستدين	٢٢٧
هل للمسلم أن يعدل إلى نكاح الحرة الكتابية دون الأمة المؤمنة إن لم يملك ما يكفي لنكاح الحرة المؤمنة؟	٢٢٨
ظاهر القرآن يقدِّم نكاح الأمة المؤمنة على الحرة الكتابية ..	٢٢٨
في رأي مشهور للإمام أحمد يرى تقديم نكاح الحرة الكتابية على الأمة المؤمنة لينشأ أولادها أحراراً لا أرقاء، وهو رأي غير مأمون، وظاهر القرآن واجب الاتباع	٢٢٨
لا يحلّ لمن لا يجد طَوْل الحرّة أن يتزوج الأمة الكتابية	٢٢٩
جواز استعمال صيغة التفضيل في صفات الله عزّ وجل خلافاً لمن قال لا يجوز	٢٣٠
إثبات الرق متى وجدت أسبابه الشرعيّة، وتصرّف الإنسان فيما يملك مقيّد بالشرع	٢٣٠
الأمة تملك مهرها، ولكن جمهور أهل العلم على أن مهرها لسيِّدها ..... ٢٣١،	٢٣٢
تحريم اتخاذ الأخدان	٢٣٣
الأمة إذا زنت تُحدّ، ولكن بعد الإحصان، فإن زنتْ قبله تجلد جلد تعزير	٢٣٣
لا رجم على الأمة إن زنت وبعد زواجها لأن الرجم لا ينتصف	٢٣٤
القول بألا تُغرّب الأمة ـ إن زنتْ ـ أوْلى بخلاف الحرّة ..	٢٣٤
مذهب الإمام أحمد أنه إن وجد ثمن الأمة لا يحل له أن يتزوجها، بل يطؤها بملك اليمين لا بالنكاح	٢٣٥
وطء ملك اليمين أشرف عند العرب، وولدها حر	٢٣٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ...﴾ ..	٢٣٧
إرادة الله: إرادة شرعية وإرادة كونية	٢٣٧
كل لام جر بعد الإرادة فهي ـ أي اللام ـ زائدة	٢٣٨

الفوائد	الصفحة
هداية الدلالة وهداية التوفيق والأمثلة عليهما	٢٣٨
توبة الله على العبد نوعان: توبة توفيق للتوبة، وتوبة قبول للتوبة	٢٣٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾	٢٣٩، ٢٤٠
من فوائد الآية الكريمة	٢٤٠
نوعا الإرادة: إرادة أزليّة وإرادة حادثة	٢٤٠
الشرع واضح جلي لا يَخفى إلا بسبب: قلة علم أو قصور منهم أو تقصير في الطلب أو سوء قصد، وهذه أربعة علل	٢٤٠
دواء العلل المسببة لخفاء الحكم الشرعي	٢٤١
التقصير في الطلب ودواؤه	٢٤٢
التوبة يعود نفعه على العبد لا الرب عزّ وجل، وهذا غاية الكرم	٢٤٣
كل شيء حتى المصائب التي تنال العبد لها حكمة	٢٤٤
ثبوت صفة العلم لله	٢٤٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ...﴾	٢٤٤
فائدة التكرار في القرآن	٢٤٥
معنى قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾	٢٤٦
التخفيف في الأوامر والتخفيف في النواهي	٢٤٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾	٢٤٧
حالات «الواو» في الآية	٢٤٧
من فوائد الآية الكريمة	٢٤٧
التحذير من أهل البدع ممن عندهم شبهات أو شهوات	٢٤٨
الأخذ بالتيسير إن تعارضت الأدلة	٢٤٩
حذف الفاعل إذا علم للضرورة	٢٤٩
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ...﴾	٢٥٠
وصف الإنسان بالإيمان يحمله على الامتثال	٢٥٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾	٢٥١
الاستثناء المنقطع يكون فيه المستثني من غير جنس المستثنى منه	٢٥١

الفوائد	الصفحة
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً ...﴾	٢٥٢
فائدة: إذا توسط الضمير أو اسم الإشارة بين شيئين، الأول: مذكر، والثاني: مؤنث أو العكس جاز مراعاة الأول أو الثاني	٢٥٢
معنى التجارة	٢٥٢
معنى قوله تعالى: ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾	٢٥٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾	٢٥٣
دلالة قوله تعالى: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ على نفس القاتل أو نفس الغير	٢٥٣
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾	٢٥٤
لم يرد في القرآن إضافة الرحمة إلى الله تعالى منسوبة إلى الكافرين؛ فالرحمة ذكرت في القرآن على العموم أو على سبيل الخصوص بالمؤمنين	٢٥٤
من فوائد الآية الكريمة	٢٥٤
اشتراط الرضا في عقود المعاملات	٢٥٥
الرضا إن سبق العقد أو لحقه يجعل العقد صحيحاً نافذاً، وإن رأى بعض أهل العلم عدم صحة العقد بعد الرضا اللاحق، والراجح الأول بصحة العقد مع الرضا قبل أو بعد العقد	٢٥٥
إثبات صفة الرحمة لله، وهي صفة حقيقية ثابتة أنكرها المعطلة وأوّلوها بإرادة الإنعام والإحسان	٢٥٦
السلف يفسرون الرحمة بظاهر القرآن	٢٥٧
تحريف القرآن والسنّة فيما يتعلق بصفات الله أعظم منه فيما يتعلق بالأحكام التكليفية لأفعال العبيد	٢٥٨
التجارة المذمومة هي التي تلهي عن ذكر الله	٢٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾	٢٥٩
الفرق بين العدوان والظلم	٢٦٠

الفوائد	الصفحة
معنى قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾	٢٦٠
من فوائد الآية الكريمة	٢٦٠
ضمير العظمة «نحن» وتوحيد الله	٢٦١
تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ...﴾	٢٦١
العدول عن الغيبة إلى الخطاب في الآية	٢٦١
بلاغة القرآن في معرفة معنى الكلمة بذكر ما يقابلها	٢٦٢
معنى قوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾	٢٦٢
ما هي الكبائر؟	٢٦٢
لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار	٢٦٣
الإمام أحمد: «الكبيرة محدودة لا معدودة» أي هي ما فيه حدّ أو وعيد	٢٦٣
شيخ الإسلام (ابن تيمية): ما رتّب عليه عقوبة خاصة دينية أو دنيوية فهو من الكبائر	٢٦٤
من فوائد الآية الكريمة	٢٦٥
مذهب جمهور أهل السنّة: الإيمان يزيد وينقص	٢٦٥
الأعمال عند أهل السنّة من الإيمان	٢٦٦
عمل الجوارح إذا لم يُصحب بعمل القلب فإنه لا يزيد في الإيمان بل ربما يُنقصه	٢٦٧
الطوائف الثلاث القائلة بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص: المرجئة - الخوارج - المعتزلة	٢٦٨
أهل السنّة والجماعة على أن الإيمان يزيد وينقص وأن الكفر درجات	٢٦٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ...﴾	٢٧١
معنى قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا﴾	٢٧١
معنى قوله: ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾	٢٧١
القراءة في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾	٢٧١
السؤال في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ للعطاء أم للعلم؟	٢٧٢

الفوائد	الصفحة
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ والدليل على أنها جملة استئنافية	٢٧٣
من فوائد الآية الكريمة	٢٧٣
النهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾ هل هو للتحريم؟ ...	٢٧٣
أقسام تمنِّي ما أعطى الله للغير ..... ٢٧٣،	٢٧٤
حكمة الله في المنع والعطاء	٢٧٤
الآداب المطلوبة في سؤال الله تعالى ..... ٢٧٥،	٢٧٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ ....﴾	٢٧٧
المشترك اللفظي في كلمة «موالي» ..... ٢٧٨،	٢٧٩
معنى قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾	٢٨١
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ ..	٢٨٢
معنى قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾	٢٨٢
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ .	٢٨٣
أقوال العلماء في أن آيات المواريث نسخت هذه الآية على قولين: نسخاً مقيداً، أو نسخاً مطلقاً، والثاني: عليه جمهور العلماء، والأول عليه شيخ الإسلام ابن تيمية	٢٨٣
من فوائد الآية الكريمة	٢٨٣
إثبات الجعل لله عزّ وجل وهو صفة فعلية تتعلق بالمشيئة ...	٢٨٣
إثبات الإرث يكون بالنَسَب والسبب	٢٨٤
اختلاف علماء الملة في النسخ ووقوعه في الشريعة .. ٢٨٤،	٢٨٥
اليهود ينكرون النسخ	٢٨٥
إثبات النسخ في الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ ..	٢٨٦
إدراك معاني أسماء الله وصفاته، والتربية والسلوك بمقتضاها ..... ٢٨٦،	٢٨٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾	٢٨٧
معنى قوله تعالى: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾	٢٨٨

الفوائد	الصفحة
أوجه تفضيل الرجال على النساء باعتبار الجنس وعمومه لا بالخصوص ..... ٢٨٨،	٢٨٩
معنى قوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾	٢٩٠
النساء في الآية قسمان ... ٢٩٠،	٢٩١
المراد بالنشوز	٢٩١
النشوز داء، ودواؤه على ثلاث مراحل: وعظ ـ هجر ـ ضرب ..... ٢٩١،	٢٩٢
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾	٢٩٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ...﴾	٢٩٣
تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾	٢٩٤
معنى قوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾	٢٩٥
الضمير في ﴿يُرِيدَآ﴾ يعود على الحكمين	٢٩٥
الضمير في قوله: ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ هل يعود على الزوجين، أم الحكمين؟	٢٩٥
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾	٢٩٥
من فوائد الآيتين الكريمتين	٢٩٦
لا حجّة للمُفضَّل عليه على الله عزّ وجل بالتفضيل	٢٩٦
السؤال للناس مذلّة	٢٩٧
فرق بين الولاية العامة والولاية الخاصة والطارئة	٢٩٧
لا يجوز للهجر بالكلام فوق ثلاث	٢٩٩
إثبات اسمَيّ: العليّ، والكبير لله؛ فالعلُو علو ذات وعلو صفات	٣٠٠
شروط الحَكَمَيْن	٣٠١
جواز حكم القريب لقريبه أو عليه بشروط	٣٠٢
النية الطيبة سبب لصلاح العمل .	٣٠٢
إثبات صفة العلم والخبرة لله تعالى	٣٠٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ...﴾ .	٣٠٣
معنى العبادة	٣٠٤
معنى قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾	٣٠٤

الفوائد	الصفحة
الموقع الإعرابي لقوله: ﴿إِحْسَٰنًا﴾	٣٠٤
حالات معاملة الوالدين	٣٠٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾	٣٠٥
الفقير والمسكين، والفرق بين اجتماعهما وانفصالهما في السياق	٣٠٥، ٣٠٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾	٣٠٦
مراتب الجيران	٣٠٦
مراتب الجيران	٣٠٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ واختلاف المفسرين فيها على وجهين	٣٠٧
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾	٣٠٧
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾	٣٠٧
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾	٣٠٧
الاختيال يكون بالفعل، والفخر يكون باللسان	٣٠٨
الحقوق في هذه الآية: حق الله، وحق غيره من الناس، وغير الناس	٣٠٨
من فوائد الآية الكريمة	٣٠٨
كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب من أحسن ما كتب في الشرك وأنواعه	٣٠٨، ٣٠٩
فائدة: إعادة حرف الجر في قوله تعالى: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾	٣١٠
الإحسان إلى ذي القربى، والمساكين درجات حسب حالتهم لكن اليتيم لا يتنوع، فاليُتم واحد	٣١٠
جواز التعبير بالبعض عن الكل كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾	٣١١
عناية الله سبحانه وتعالىٰ بعباده: حق الوالدين، وجبر نقص اليتامى والمساكين، وحسن الجوار	٣١٢
إثبات المحبة لله حقيقة (مذهب السلف وأهل السنّة)	٣١٣
الخلّة أعلى أنواع المحبّة	٣١٣

الفوائد	الصفحة
المعطلة من الأشاعرة والمعتزلة والجهمية ومن شابههم ينكرون إثبات المحبّة لله	٣١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ ...﴾	٣١٦
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبُخۡلِۖ﴾	٣١٧
معنى البخل	٣١٧
أنواع البخل	٣١٧
معنى قوله تعالى: ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾	٣١٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾	٣١٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾	٣١٨
أنواع الكفر	٣١٨
فوائد الإظهار في موضع الإضمار	٣١٩
من فوائد الآية الكريمة	٣١٩
الأمر بالبخل أشد من الدعوة للبخل	٣٢٠
أنواع الكتمان	٣٢٠
إثبات وجود النار والجنة وأنهما لا تفنيان	٣٢٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ...﴾	٣٢١
الصفات المتكررة لموصوف واحد يجوز فيها وجهان في اللغة: إسقاط حرف العطف أو إثباته	٣٢١
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾	٣٢١
مقتضيات الإيمان بالله	٣٢٢
خطورة قولنا للميت: «حُمل إلى مثواه الأخير» لأنها تتضمن إنكاراً للبعث	٣٢٢
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ .	٣٢٢
تحريك نهاية الفعل المضارع «يكن» بالكسر منعاً للالتقاء الساكنين	٣٢٢
من فوائد الآية الكريمة	٣٢٣
كيف نصل للعلم بأن الشيطان كان قريناً	٣٢٥
ذمّ مقارنة الشيطان للإنسان	٣٢٥
الحديث في استثناء الرسول ﷺ من غواية القرين، حيث قال: «ولا أنا، ولكن الله أعانني عليه فأسلم» وميم «أسلم» على روايتين: بالفتح والضم	٣٢٥، ٣٢٦

الفوائد	الصفحة
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ...﴾	٣٢٦
قول علماء النحو في «ماذا» مجموعةً أو مفصَّلة من جزءين (ما، ذا)	٣٢٦
من فوائد الآية الكريمة	٣٢٧
العطاء عطاء الله، وعلينا تفعيل الأسباب التي تصل بها إلى الرزق	٣٢٨
فائدة الرغبة والرهبة	٣٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ...﴾	٣٢٩
المبالغة في التحقير في قوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾	٣٣٠
هل يظلم الله دون مثقال ذرة؟ لا	٣٣٠
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً ...﴾	٣٣٠
كان التامّة وكان الناقصة	٣٣٠
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾	٣٣٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾	٣٣٠
الفائدة في ذكر قوله: ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أنه يدل على عظم الأجر، فالعطاء يعظم بعظم المعطي	٣٣١
من فوائد الآية الكريمة	٣٣١
انتفاء الظلم عن الله يثبت كمال العدل له سبحانه	٣٣١
قاعدة: جميع ما نفى الله عن نفسه المراد به إثبات كمال الضد	٣٣٣
الحسنة تجذب الحسنة	٣٣٤
تفسير قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ ...﴾	٣٣٤
الشهيد هو الرسول ﷺ	٣٣٤
معاني «أمّة» في القرآن	٣٣٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾	٣٣٥
من فوائد الآية الكريمة	٣٣٦
هل العلماء، ورثة الأنبياء، يكونون شهداء على الأمّة؟	٣٣٧
تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾	٣٣٧
«عصوا الرسول» المراد به الجنس فيشمل كل رسول وليس المراد به العهد	٣٣٨
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ...﴾	٣٣٨

الفوائد	الصفحة
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾	٣٣٨
من فوائد الآية الكريمة	٣٣٩
وجوب العمل بما في السنّة وإن لم يكن في القرآن	٣٣٩
أحوال يوم القيامة تتبدل وتتغير فيتلمس الكفار أي وسيلة للخلاص فتتعارض أقوالهم بين ألا يكتمون الله حديثاً، وبين قسَمهم بأنهم ما كانوا مشركين	٣٤٠
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾	٣٤١
تصدير الآية بنداء المؤمنين، ودلالته	٣٤٢
معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾	٣٤٢
معنى قوله تعالى: ﴿سُكَٰرَىٰ﴾	٣٤٣
السكر يكون بالشراب والشمّ والأكل	٣٤٤
معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾	٣٤٤
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾	٣٤٥
معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾	٣٤٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ ...﴾	٣٤٦
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ﴾	٣٤٦
معنى «أو» في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ﴾	٣٤٦
معنى الغائط	٣٤٧
معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، والمقصود بـ﴿لامستم﴾	٣٤٧
معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾	٣٤٨
نفي الوُجدان يدل على الطلب	٣٤٨
معنى قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾	٣٤٨
معنى: «الصعيد»	٣٤٩
معنى قوله: ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾	٣٤٩
إذا أطلقت اليد فالمراد بها الكف فقط	٣٤٩
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ بإضافة العفو إلى المغفرة يحصل الكمال؛ فالعفو لترك الواجب والمغفرة لفعل المحرم	٣٤٩

الفوائد	الصفحة
من فوائد الآية الكريمة	٣٥٠
جهل الإنسان بما يقول له أثرٌ في تغيُّر الحكم	٣٥١
النهي عن الصلاة في حضرة الطعام أو مدافعة الأخبثين ..	٣٥١
اختيار الشيخ: الوسواس إذا غلب في الصلاة فإنها تصح ولكن لا يُنال ثوابها الكامل .	٣٥١
تحريم مكث الجنب في المسجد	٣٥٢
إذا كان الماء يؤدي إلى الموت، هل يتيمم المريض؟	٣٥٣
اختيار الشيخ: يتيمم المريض متى خشي ضرراً باستعماله الماء	٣٥٣
هل يجوز التيمم في الحضر عند عدم الماء؟	٣٥٣
السفر ليس له حد معين، فكل ما يقع عليه اسم السفر تثبت له أحكامه	٣٥٤
نواقض الوضوء	٣٥٤
الدم لا ينقض الوضوء؛ فالصحابة صلوا في جراحاتهم ولم يؤمروا بالوضوء	٣٥٤
هل مس الذكر ينقض الوضوء؟ ..	٣٥٥
اختلاف العلماء في جواز التيمم من غير جنس الأرض	٣٥٧
الإنسان إذا تيمم على الأرض صحّ تيممه سواء كان فيها غبار أم لم يكن	٣٥٧
طهارة الماء فيها تطهير حسي وطهارة التيمم فيها تطهير معنوي يعبر عن كمال التعبد لله	٣٥٨
اختلاف العلماء في القول باشتراط الترتيب في التيمم ..	٣٥٩
في التيمم، هل يجب المسح إلى المرفق قياساً على الوضوء؟	٣٥٩
لا يصح قياس طهارة التيمم على طهارة الوضوء	٣٦٠
إثبات اسمي: العفو والغفور لله عزّ وجل وما دلّ عليهما من صفة	٣٦٠
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ...﴾	٣٦٠
معنى قوله تعالى: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾	٣٦١
لماذا يريدون أن فضل السبيل؟ ..	٣٦٢

الفوائد	الصفحة
من فوائد الآية الكريمة	٣٦٢
التحذير من اليهود والنصارى وغيرهم ممن يريدوننا أن نضل السبيل	٣٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ...﴾	٣٦٤
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا ...﴾	٣٦٤
من فوائد الآية الكريمة	٣٦٤
تفسير قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ...﴾	٣٦٥
موقعية ﴿مِّنَ﴾، و﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ في الآية، وتوجيهها النحوي	٣٦٥
الإيجاز نوعان: بالحذف أو القصر	٣٦٦
معنى قوله: ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾	٣٦٦
التحريف نوعان: لفظي ومعنوي .	٣٦٦
أمثلة للتحريف اللفظي والمعنوي	٣٦٧
صرف معنى الكلام عن ظاهره إلى معنى يخالف الظاهر بلا دليل من القرآن أو السنّة، غير مقبول	٣٦٧
تجمع اليهود في المدينة إبان البعثة كان بناءً على علمهم أنها ستكون مهجر النبي ﷺ	٣٦٩
معنى قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾	٣٦٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾	٣٦٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَرَٰعِنَا﴾	٣٧٠
كيف كان الليُّ بألسنتهم طعناً في الدين؟	٣٧١
الطعن في الدين في كلماتهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ - ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ - ﴿رَٰعِنَا﴾ ففي الأولى: عدم ارتضاء الدين، وفي الثانية: طعن في الرسول، وفي الثالثة: قصدهم ﴿رَٰعِنَا﴾ من الرعونة	٣٧١
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾	٣٧٢
معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾	٣٧٢
الإيمان القليل في الآية يعني العدم، أي لا ينتفعون به ...	٣٧٢

الفوائد	الصفحة
﴿قَلِيلًا﴾ هل تعود على الإيمان أم تعود على الواو في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾	٣٧٢
من فوائد الآية الكريمة	٣٧٣
في مقام العدل يقتضي ذكر المحسن والمسيء، وفي مقام التحذير لا نذكر الإحسان لعدم مناسبته للمقام	٣٧٣
كلمة ﴿أَسْمِعْ﴾ فيها تعالٍ من المخاطِب	٣٧٤
الإنسان يحاسب على ما أراد، ولكن ليس ذلك في باب الحكومة والخصومة مع الناس	٣٧٤
الطعن في الدين من خصال اليهود	٣٧٤
على من يُنكِر المنكَر أن يقدِّم البديل الصالح	٣٧٥
جواز التفضيل بين شيئين ينعدم في أحدهما أصل معنى التفضيل ..... ٣٧٥،	٣٧٦
إثبات أصل التفاضل بين الأعمال والأقوال	٣٧٦
هل تتفاضل الأعمال الحسنة؟ وهل تتفاضل الأعمال السيئة	٣٧٦
العاقل لا يتعرض لما فيه لعنة الله لئلا تصيبه (حديث الرجل يلعن والديه)	٣٧٧
من عمل عملاً أطلق عليه كفر؛ فإن اللعنة تناله بمقدار ما حصل منه من وصف	٣٧٨
الرد على الجبرية والقدرية فيما يتعلق بالقضاء والقدر	٣٧٨
أهل السنّة والجماعة يقولون بأن عمل الإنسان باختياره ولكنه ناتج من مشيئة الله	٣٧٩
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا ...﴾	٣٧٩
النداء في الآية لليهود ثم النصارى لأنهم أوتوا الكتاب	٣٨٠
الفرق بين نزلنا وأنزلنا	٣٨٠
معنى قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾	٣٨٠
أوجه التصديق	٣٨٠
معنى قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ...﴾	٣٨١
المراد بالطمس، وهل هو حسيّ أم معنوي؟	٣٨١

الفوائد	الصفحة
قاعدة تفسيرية، إذا كانت الآية تحتمل وجهين لا يتناقضان فإن المعنى يُحمل على الوجهين جميعاً	٣٨١
معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ ...﴾	٣٨١
التهديد في الآية معلّق بما إذا لم يؤمنوا، فإن لم يقع فيما مضى فهو متوقع	٣٨٢
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾	٣٨٣
من فوائد الآية الكريمة	٣٨٣
المُنزَّل من عند الله ينقسم إلى قسمين: أعيان وأوصاف	٣٨٤
عُلوّ الله عزّ وجل ينقسم إلى قسمين: علو معنوي، ولا أحد ينكره من أهل القبلة وعلو حسيّ ذاتي، أنكره من سوى أهل السنّة والجماعة بحجة باطلة	٣٨٤
أصول الملل ثابتة، والشرائع هي التي تختلف	٣٨٥
الإحالة على المعلوم تصح ولو بلفظ الإبهام، كما في قوله تعالى: ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾	٣٨٦
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ...﴾ ...	٣٨٦
التحدث بصيغة الغائب في مقام التعظيم	٣٨٧
الشرك بالله يشمل الإشراك في الربوبية والإشراك في الألوهية (العبادة)، والإشراك في الأسماء والصفات ..... ٣٨٧،	٣٨٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾	٣٨٨
ما هو الدون الذي هو الأصغر؟	٣٨٨
كل شيء قيّده الله بالمشيئة فهو مقرون بحكمة	٣٨٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ .	٣٨٩
من فوائد الآية الكريمة	٣٨٩
إثبات الأفعال الاختيارية لله عزّ وجل مع أن المعطلة من الأشاعرة والمعتزلة ينكرونها	٣٩٠
ما دون الشرك مقيّد بالمشيئة، إن شاء ـ سبحانه ـ غفر، وإن شاء آخذ	٣٩٠
المسوفون لا يضمنون غفران الذنوب	٣٩٠

الفوائد	الصفحة
الشرك الأصغر لا يغفر، ولكن صاحبه لا يخلد في النار، بل يعذب بقدر عمله	٣٩١
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ ...﴾ ...	٣٩١
الخطاب للرسول في الآية موجّه للأمّة تبعاً	٣٩٢
اليهود والنصارى زكوا أنفسهم بالعمل والجزاء والثواب عليه	٣٩٢
معنى قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾	٣٩٣
﴿بَلْ﴾ تأتي للإضراب الإبطالي أو للإضراب الانتقالي	٣٩٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾	٣٩٤
معنى كل من: الفتيل والنقير والقطمير	٣٩٥
من فوائد الآية الكريمة	٣٩٥
هل يجوز للإنسان أن يقول: «أنا مؤمن»؟	٣٩٦
الراجح أن قول الإنسان «أنا مؤمن» ينبغي أن يقرنه بالمشيئة، وإلا فإن قالها من غير قبيل تزكية النفس جاز، وإن خالط قوله عُجب لم تجز	٣٩٦، ٣٩٧
تزكية الغير لا بأس بها	٣٩٨
الله سبحانه وتعالىٰ يفرض على نفسه ويحرم على نفسه فهو مدبر الأمر	٤٠٠
كل نفي في صفات الله فهو متضمن لإثبات	٤٠٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ...﴾ .	٤٠٢
الخطاب الموجه للرسول ينقسم إلى ثلاثة أقسام: ما هو خاص به ويدل عليه دليل، وما هو عام، وبدليل أيضاً، وما لا دليل على خصوصيته أو عمومه	٤٠٢، ٤٠٣
«أبان» الرباعي يأتي لازماً ومتعدياً، ويختلف معناه في الحالين	٤٠٤
إعراب قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾	٤٠٤
من فوائد الآية الكريمة	٤٠٤
الكذب على الله يشمل الكذب عليه في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته وفي أفعاله	٤٠٥

الفوائد	الصفحة
كان الإمام أحمد رحمه الله لا يقول على شيء حرام إلا إذا ورد نص بتحريمه	٤٠٦
من يحكم بعقوبة معينة على ذنب دون علم، من افتراء الكذب على الله	٤٠٧
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ...﴾	٤٠٧
معنى قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾	٤٠٨
ما معن الجبت والطاغوت	٤٠٨
تعريف ابن القيم للطاغوت: «كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع» ...	٤٠٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾	٤٠٩
اللام المعدية للفعل	٤٠٩
تفسير قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ...﴾	٤١٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾	٤١٠
من فوائد الآيتين الكريمتين	٤١١
أصل السحر متلقى من اليهود؛ فقد سحروا النبي ﷺ ولكن الله حفظه	٤١١
تحريم تفضيل الكفار على المؤمنين	٤١٢
تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾	٤١٢
من فوائد الآية الكريمة	٤١٣
تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾	٤١٤
تعريف الحسد	٤١٤
تعريف ابن تيمية رحمه الله الحسد: بأنه كراهة ما أنعم الله به على غيره	٤١٤
معنى قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾	٤١٤
معنى قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ...﴾	٤١٥
المقصود بالكتاب في الآية	٤١٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ...﴾	٤١٥
دلائل «المُلك العظيم» في الآية	٤١٥، ٤١٦

الفوائد	الصفحة
شكر النعمة	٤١٧
من فوائد الآية الكريمة	٤١٧
مضار الحسد	٤١٧، ٤١٨
دواء الحسد	٤١٩
تفسير قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ ...﴾ .	٤٢٠
من التبعيضية في الآية	٤٢٠
﴿صَدَّ عَنْهُۚ﴾ تأتي لازمة ومتعدية .	٤٢١
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾	٤٢١
الباء في ﴿بِجَهَنَّمَۚ﴾ زائدة لفظاً، ولكنها تحقق فائدة في المعنى بتعديه «كفى» إلى معمولها	٤٢١
من فوائد الآية الكريمة	٤٢١
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ...﴾	٤٢٢
يُتبع القرآن ذكر أهل النار بذكر أهل الجنة وأحوالهم، كما يتبع ذكر المتقين بذكر المجرمين ليتبصر الإنسان مصيره بين الخوف والرجاء .	٤٢٢
إنكار آيات الله الكونية كالكسوف، نوع من الكفر ..	٤٢٣
معنى قوله تعالى: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾	٤٢٣
معنى قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ...﴾	٤٢٣
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾	٤٢٤
أقوال العلماء في قوله: ﴿عَزِيزًا﴾: عزّة القدْر ـ عزّة القهر ـ عزة الامتناع	٤٢٤
معنى: الحكيم	٤٢٤
حكم الله عزّ وجل ينقسم قسمين: كوني قَدَري، وشرعي ديني	٤٢٥
من فوائد الآية الكريمة	٤٢٦
هل تنضج جلود الكافرين في النار بسرعة أم تبقى مدة ليزداد ألمهم؟	٤٢٦
أقوال الأطباء: مواطن الإحساس بالألم تكمن في الجلد	٤٢٧
فائدة لغوية: «كلما» لا تُعاد في جوابها، فقد قال الله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ ...﴾ ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ﴾	٤٢٨
كل حكم معلل باللام دليل على ثبوت الحكمة لله تعالى	٤٢٨
إثبات غضب الله عزّ وجل	٤٢٩

الفوائد	الصفحة
إثبات اسمين من أسماء الله: العزيز، والحكيم	٤٢٩
الجمع بين اسمي: العزيز والحكيم من أسماء الله فيه فائدة عظيمة	٤٣٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ ...﴾	٤٣٠
العمل الصالح مبنيٌّ على الإيمان، ولا فائدة من عمل بلا إيمان	٤٣٠
ما هي الأعمال الصالحة	٤٣١
معنى قوله تعالى: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾	٤٣١
لماذا جاء الوعيد لأهل النار مبدوءاً بسوف، والبشرى لأهل الجنة مبدوءة بالسين؟ .	٤٣٢
جاءت «سوف» مع أهل النار ليمد لهم في الأجل لعلهم يرجعون، أما أهل الجنة فأتى بـ«السين» ليعجّل لهم النعيم	٤٣٢، ٤٣٣
المؤمن يوفّق للصبر، حتى مصائبه، فيثاب عليها	٤٣٣
معنى قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾	٤٣٤
معنى قوله تعالى: ﴿لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ ...﴾	٤٣٤
الزوجة لغةً	٤٣٤، ٤٣٥
﴿لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ﴾، هل يعني أن لكل واحد زوج واحدة أم لكل واحد زوجات متعددات؟	٤٣٥
معنى قوله: ﴿مُّطَهَّرَةٞ﴾	٤٣٥، ٤٣٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلٗا﴾	٤٣٦
الظل الظليل هو المؤدي لتمام معناه	٤٣٦
من فوائد الآية الكريمة	٤٣٦
ينبغي أن يتوفر في العمل الصالح شيئان	٤٣٧
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ...﴾	٤٣٨
أسلوب الأمر في الآية ودلالته	٤٣٨، ٤٣٩
معنى قوله تعالى: ﴿أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ...﴾	٤٣٩
مفهوم الأمانة	٤٣٩

الفوائد	الصفحة
معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ ..	٤٣٩
ما وجه الارتباط بين قوله: ﴿أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم ...﴾	٤٤٠
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ وأوجه القراءة في قوله: ﴿نِعِمَّا﴾	٤٤٠
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾	٤٤١
من فوائد الآية الكريمة	٤٤١
وجوب حفظ الأمانات؛ فالأمين ضامن	٤٤١
الشاهد مؤتمن	٤٤٢
هل يجوز تأدية الشهادة بالمعنى؟	٤٤٢
أوجه العدل بين الخصمين ٤٤٢،	٤٤٤
من أنواع العدل: العدل بين الزوجات، والعدل بين الأولاد، والعدل مع النفس ..... ٤٤٣،	٤٤٤
التعبير بالعدل دون المساواة	٤٤٤
تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ...﴾ ..	٤٤٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾	٤٤٧
شأن العلماء في الأمة الإسلامية أعظم من شأن الأمراء	٤٤٨
معنى قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ﴾	٤٤٨
مقتضيات الإيمان بالله	٤٤٩
معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾	٤٤٩
من فوائد الآية الكريمة	٤٥٠
وجوب طاعة الله وإن خالفت الهوى	٤٥٠
الرد على من أنكر الاحتجاج بالسنّة	٤٥٠
ما أمر به ولاة الأمور على ثلاثة أقسام	٤٥١
ليس للأمير نهي الناس عن الأمور المستحبة	٤٥٢
لو أمر الإمام بما يراه مشروعاً وأحد الرعية يرى غير ذلك، فهل تلزمه الطاعة؟ ... ٤٥٣،	٤٥٤
أيهما أقوى: سلطان الأمراء أم سلطان العلماء؟	٤٥٥
كل جمع لا بد له من قائد أو أمير	٤٥٦
يجوز التقليد للضرورة إذا لم يتضح للإنسان الدليل	٤٥٦

الفوائد	الصفحة
بطلان توهّم من رأى في تحكيم القوانين الوضعية صلاحاً للأمة	٤٥٨
التحاكم إلى غير الله ورسوله يفضي إلى الكفر، وهل هو كفر ملّة أم كفر اعتقاد؟	٤٥٨
هل يجوز التحاكم للقوانين الوضعية في بلاد الكفار أو بلاد لا تحكم بالشرع؟	٤٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ...﴾	٤٦٠
الخطاب في الآية على ثلاثة أوجه	٤٦٠، ٤٦١
معنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ...﴾	٤٦٢
معنى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾	٤٦٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ...﴾	٤٦٣
متى تكون «أل» للعهد الذهني، ومتى تكون للعهد الذكري، ومتى تكون للعهد الحضوري؟	٤٦٣، ٤٦٤
دلالة لفظة «المنافق» وأصلها اللغوي	٤٦٥
البلاغة في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: الإظهار في موضع الإضمار	٤٦٥
الفوائد البلاغية لمجيء الإظهار في موعد الإضمار	٤٦٥
تفسير قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ ...﴾	٤٦٧
معنى قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾	٤٦٧
أحوال «إنْ»	٤٦٧، ٤٦٨
معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾	٤٦٨
تفسير قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ...﴾	٤٦٨
دلالة اسم الإشارة «أولئك»	٤٦٨
دلالة الفعل المضارع «يعلم» في الآية	٤٦٩
معنى قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾	٤٦٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَعِظْهُمْ﴾ ...	٤٧٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ ...	٤٧٠

الفوائد	الصفحة
ما هو القول البليغ، وما هي خصائصه	٤٧١
من فوائد الآيات الكريمات	٤٧١
أصل الأديان واحد من حيث الإيمان والمعتقد، ولكنها تختلف من حيث الشرعة والمنهاج	٤٧٢
إيمان المسلمين بالقرآن والشرائع السابقة إيمان حقيقي، وإيمان غيرهم إيمان حكمي .	٤٧٢
يجوز التحاكم إلى قانون بلد لا يحكم بالشرع بنيّة قبول ما وافق الشرع منه	٤٧٣
إذا كانت أرداة التحاكم إلى الطاغوت مخرجة من الإسلام؛ فالتحاكم إليه فعلاً من باب أولى	٤٧٤
لا يتم إيماننا إلا بالكفر بالطاغوت	٤٧٤
للشيطان إرادة، وأمر، فبأي شيء يمكن ردّهما؟	٤٧٥
الشيطان يريد أن يضل بني آدم الضلال البعيد باستدراجهم في المعاصي	٤٧٥
المعاصي يريد الكفر	٤٧٥، ٤٧٦
الإنسان مؤاخذ على كسب القلب، فالقلب عمل وللنفس حديث	٤٧٦
المنافقون لا يُجاهَدون بالسلاح وإنما بالعلم والبيان	٤٧٧
من آداب المتكلم أن يتوجّه بحديثه إلى المخاطَب	٤٧٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾	٤٧٨
إعراب الآية الكريمة	٤٧٨
جميع الحروف الزائدة تعد أداة من أدوات التوكيد، فهي زائدة لفظاً لا معنى	٤٧٨
«لو»، وجوابها	٤٧٨، ٤٧٩
معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾	٤٨٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ﴾ ...	٤٨٠
قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، فيها إظهار في موطن الإضمار	٤٨١
معنى قوله تعالى: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾	٤٨١

الفوائد	الصفحة
توبة الله تنقسم إلى قسمين: التوفيق للتوبة، وقبولها	٤٨١
أقسام رحمة الله تعالى	٤٨٢
الرحمة وصف ثابت لله سبحانه على وجه الحقيقة	٤٨٢
قول شيخ الإسلام: كل معطّل فهو ممثل ..... ٤٨٢،	٤٨٣
من فوائد الآية الكريمة	٤٨٣
ثبوت الأفعال الاختيارية لله تعالى	٤٨٣
إثبات تعليل أفعال الله واليقين بها فهمنا مغزاها أو لم نفهم ..... ٤٨٣،	٤٨٤
ثبوت الإذن لله عزّ وجل، والإذن نوعان: شرعي وكوني	٤٨٥
طلب استغفار النبي رهين بحياته، ولا يجوز قصد قبره ﷺ لهذا القصد لما فيه من الغلو	٤٨٥
من تاب واستغفر بصدق وجد التوبة والرحمة	٤٨٦
انتفاع الإنسان بدعاء غيره	٤٨٧
مسألة: هل يجوز للمرء أن يسال غيره الدعاء؟ مسألة خلافية .	٤٨٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ...﴾	٤٨٩
معنى قوله تعالى: ﴿أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾	٤٩٠
معنى قوله تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾، وأوجه القراءة في الآية	٤٩٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾	٤٩١
من فوائد الآية الكريمة .. ٤٩١،	٤٩٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ...﴿٦٧﴾﴾	٤٩٣
معنى الأجر العظيم	٤٩٤
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾	٤٩٤
من فوائد الآيتين الكريمتين	٤٩٥
نية الثواب لا تضعف العمل ولا تنافي الإخلاص	٤٩٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ ...﴾	٤٩٦
إعراب الآية الكريمة	٤٩٦
متى يجب اقتران جواب الشرط بالفاء؟ في سبعة مواضع	٤٩٧

الفوائد	الصفحة
هل يجوز أن تكون «مع» بمعنى «من»؟	٤٩٧
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾	٤٩٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾	٤٩٨
في الأمور الشرعية يقرن الله مع رسوله بالواو، وفي الأمور الكونية يقرن الله رسوله بـ«ثم»	٤٩٩
نعمة الله تعالى تنقسم إلى قسمين: عامّة، وخاصّة	٥٠٠
الفرق بين النبي والرسول	٥٠٠، ٥١٠
قول غلاة الصوفيّة في النبيّ والرسول وتفضيلهم الوليّ عليهما	٥٠١
معنى قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾	٥٠٢
المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾	٥٠٢
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾	٥٠٣
مرتبة الصالحين، ومن هو المستحق لهذا الوصف؟	٥٠٣، ٥٠٤
أيهما أرفع مقاماً: الصالحون أم المصلحون؟	٥٠٤
معنى قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾	٥٠٤
من فوائد الآية الكريمة	٥٠٥
ما هو الكبير؟	٥٠٦، ٥٠٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ...﴾	٥٠٧
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾	٥٠٨
من فوائد الآية الكريمة	٥٠٨
اختيار الشيخ: أن الجنس العربي أفضل من الجنس غير العربي، واتكأ في ذلك على ما ذكره شيخ الإسلام في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم»	٥٠٩
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ...﴾	٥٠٩
فوائد النداء للمؤمنين في الآية	٥١٠
طبقات الكفار	٥١١
الأعداء الثلاثة	٥١١
الغزو الفكري: الإلحادي	٥١٢
خطورة الغزو الإعلامي والثقافي	٥١٢
معنى قوله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾	٥١٢
إعداد العدّة لمواجهة الأخطار بما يناسبها	٥١٣

الفوائد	الصفحة
هل الشفعة في كل شيء حتى في المنقولات أم هي في العقار فقط؟	٥١٤
اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية: أن عِدّة كل امرأة مفارقة لا يملك زوجها مراجعتها فيها كالمخالعة والمفسوخة ومن تبين فساد نكاحها، عدة أي منهن حيضة واحدة، على خلاف المذهب، ورأي جمهور العلماء	٥١٥
معنى قوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾	٥١٦
من فوائد الآية الكريمة	٥١٦
يحرم ظن السوء بمسلم ظاهره العدالة	٥١٧
النفور للجهاد في سبيل الله واجب سواء كنا مجتمعين أو متفرقين	٥١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ...﴾	٥١٧
لامان في الآية: لام الابتداء في ﴿لَمَن﴾ واللام الموطئة للقسم في ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾	٥١٨
لام الابتداء تسمى اللام المزحلقة إذا لم تقع في ابتداء الكلام	٥١٨
فائدة القسم في القرآن	٥١٨
معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾	٥١٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ ...﴾	٥١٩
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ﴾	٥٢٠
هل في الآية: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ تقديم وتأخير	٥٢١
معنى قوله تعالى: ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾	٥٢٢
من فوائد الآيتين	٥٢٢
يجب على الإنسان أن يأخذ بالحق متى تبيّن له	٥٢٣
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	٥٢٣
لام الأمر تسكن إذا وقعتْ بعد الفاء أو الواو أو ثمّ بخلاف لام التعليل فهي مكسورة دائماً	٥٢٤

الفوائد	الصفحة
معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ﴾	٥٢٤
خلط العامة بين ﴿يَشْرُونَ﴾ و﴿يَشْتَرُونَ﴾	٥٢٤
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	٥٢٥
المقاتل في سبيل الله غانم في كل أحواله	٥٢٥
معنى قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾	٥٢٥
من فوائد الآية الكريمة	٥٢٥
وجوب إخلاص النيّة في القتال	٥٢٦
حقوق الآدميّ يجب أن تؤدّى، ولا تسقط حتى بالشهادة في سبيل الله	٥٢٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾	٥٢٨
الاستفهام الإنكاري التعجبي في الآية	٥٢٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾	٥٢٨
العطف في قوله تعالى: ﴿وَٱلنِّسَآءِ﴾ علامَ يعود؟	٥٢٩
ينطق الواحد بلسان الجميع إذا اتحد هدفهم	٥٢٩
معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾	٥٢٩، ٥٣٠
النعت في قوله تعالى: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾	٥٣٠
النعت نوعان: حقيقي وسببي	٥٣٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾	٥٣٠، ٥٣١
مقام الدعاء يقتضي البسط وتكرار المناجاة، كما في تكرار قوله: ﴿وَٱجْعَل﴾	٥٣١
الولي والنصير إذا اجتمعا يصير الوليّ فيما ينفع والنصير في دفع ما يضر	٥٣١
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾	٥٣١
الطاغوت صيغته مبالغة من الطغيان، والتاء فيها للمبالغة	٥٣٢
قاعدة: الشيء قد يُعرف بمعرفة مقابله	٥٣٢
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾	٥٣٣

الفوائد	الصفحة
من فوائد الآيتين الكريمتين	٥٣٤
وسائل وأقسام التوسل إلى الله عزّ وجل: بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وبحال الداعي، وبالإيمان به، وبدعاء الصالحين، وبالعمل الصالح	٥٣٤، ٥٣٨
أقسام التوسل الممنوع، وضابطه	٥٣٨
ضابط التوسل الممنوع أن يُتوسل إلى الله بما ليس بوسيلة	٥٣٨
التوسل بما ليس بوسيلة كالاستهزاء بالله تعالى	٥٣٨
التوسل بجاه فلان أو بجاه النبي لا يجوز	٥٣٨
جواز الجهر بالسوء لمن ظُلِم ...	٥٣٨
أيدي الكفار لها ولاية على ما تحتها	٥٣٨
جواز دعاء الإنسان بأن يخرجه الله من القرية الظالم أهلها	٥٣٩
المراد بـ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ اعتداؤهم علينا أم على حق الله؟	٥٣٩
الإيمان يحمل على الإخلاص ..	٥٤٠
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ ...﴾	٥٤١
معنى قوله تعالى: ﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ ومناسبة الآية	٥٤٢
القتال في غير موضعه مهلكة	٥٤٢
معنى قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾	٥٤٢
جوهر الزكاة: التعبد إلى الله ببذل المحبوب (المال) لنيل المطلوب (الرضا والجنة) ...	٥٤٢
جوهر العبادات والخضوع والتسليم لله	٥٤٣
معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ ...﴾	٥٤٣
أوجه القراءات في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ﴾	٥٤٤
توجيه «أو» في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾، هل هي للشك أم للتنويع أم للإضراب؟	٥٤٤
الفروق الدقيقة بين الخشية والخوف	٥٤٥، ٥٤٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾	٥٤٧
معنى قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾	٥٤٧
معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾	٥٤٧، ٥٤٨

الفوائد	الصفحة
كل ما في الدنيا من نعيم لا يقال بنعيم الآخرة	٥٤٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾	٥٤٨
خير، وشر: اسما تفضيل حُذفت همزتهما للتخفيف	٥٤٨
العلة التصريفية في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقَىٰ﴾	٥٤٩
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾	٥٤٩
الأشياء الثلاثة التي تتضمنها النواة ويُضرب بها المثل في القلة والحقارة	٥٤٩
من فوائد الآية الكريمة	٥٥٠
لا ينبغي للإنسان أن يتدخل في أمر يعجز عن الخروج منه ..	٥٥٠
قتال الكفار فرض كفاية، ويصبح فرض عين في أربعة مواضع	٥٥١، ٥٥٢
القتال في الإسلام لإعلاء كلمة الله لا لإرغام المخالفين على الدخول في الإسلام	٥٥٢
من يخشون الناس كخشية الله مذمومون	٥٥٣
المعترض على أحكام الله الشرعية مذموم	٥٥٤
المعترض على أحكام الله الشرعية مذموم	٥٥٤
علينا الاستسلام لشرع الله، وليس لنا أن نعترض	٥٥٤
جواز التفضيل بين شيئين بعيدي التباين والاختلاف	٥٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ ...﴾	٥٥٦
إعراب الآية	٥٥٦
ماذا بعد الموت؟	٥٥٧
البروج الفلكية	٥٥٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ ...﴾	٥٥٨
المراد بالسيئة	٥٥٨
التطيُّر من شأن المكذبين للرسل .	٥٥٩
معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾	٥٥٩
معنى قوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾	٥٥٩
من فوائد الآية الكريمة	٥٦٠
جواز حذف ما يُعلم دون إخلال بالمعنى	٥٦٠

الفوائد	الصفحة
إقرار المكذبين للرسول بتوحيد الربوبية	٥٦١
الله وحده هو الذي يقدّر الحسنات والسيئات	٥٦١
ذم من لا فقه عنده	٥٦٢
تفسير قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ...﴾	٥٦٣
توجيه الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ﴾	٥٦٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾	٥٦٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾	٥٦٤
من فوائد الآية الكريمة	٥٦٤
الحسنة من الله ابتداءً كانت أم ثواباً	٥٦٤
جواز إضافة الشيء إلى سببه	٥٦٤
إذا كان الخطاب للرسول في الآية ﴿وَمَآ أَصَابَكَ﴾ فهل يفعل الرسول فعلاً يعاقب عليه؟ ..	٥٦٥
هل يخطئ النبي؟!	٥٦٥
شهادة الله لنبيه بالرسالة مغنية عن كل شهادة	٥٦٦
شهادة الله لرسوله قولاً وفعلاً ...	٥٦٦
الكلام الجليل الذي كتبه شيخ الإسلام في آيات النبي الحسية والمعنوية	٥٦٦

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
* المقدمة	٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ . . . ﴿١﴾﴾ ..	٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ . . . ﴿٢﴾﴾ ...	١٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم . . . ﴿٣﴾﴾	٢٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ . . . ﴿٤﴾﴾ ..	٣٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا . . . ﴿٥﴾﴾ ..	٣٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا . . . ﴿٦﴾﴾ ..	٤٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ . . . ﴿٧﴾﴾ ...	٤٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ . . . ﴿٨﴾﴾ ...	٥٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا . . . ﴿٩﴾﴾ ..	٥٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا . . . ﴿١٠﴾﴾	٦٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ . . . ﴿١١﴾﴾	٦٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن . . . ﴿١٢﴾﴾ ...	٩٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ . . . ﴿١٣﴾﴾ ..	١٠٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ . . . ﴿١٤﴾﴾ .	١١٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ . . . ﴿١٥﴾﴾	١٢٣

الموضوع الصفحة

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا... ﴿١٦﴾﴾ ... ١٢٩

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ... ﴿١٧﴾﴾ .. ١٣٦

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ... ﴿١٨﴾﴾ ... ١٤١

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ... ﴿١٩﴾﴾ .. ١٥٠

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ... ﴿٢٠﴾﴾ ١٥٨

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ... ﴿٢١﴾﴾ ... ١٦٠

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ... ﴿٢٢﴾﴾ .. ١٦٥

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ... ﴿٢٣﴾﴾ .. ١٧٢

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ... ﴿٢٤﴾﴾ . ١٩٦

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ... ﴿٢٥﴾﴾ ٢١٦

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ... ﴿٢٦﴾﴾ . ٢٣٧

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ ٢٤٤

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم... ﴿٢٩﴾﴾ .. ٢٥٠

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ... ﴿٣٠﴾﴾ .. ٢٥٩

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ... ﴿٣١﴾﴾ .. ٢٦١

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ... ﴿٣٢﴾﴾ .. ٢٧١

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ... ﴿٣٣﴾﴾ ٢٧٧

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ... ﴿٣٤﴾﴾ ٢٨٧

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ... ﴿٣٥﴾﴾ .. ٢٩٣

الموضوع الصفحة

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا . . . ﴿٣٦﴾﴾ ٣٠٣

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ . . . ﴿٣٧﴾﴾ ... ٣١٦

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ . . . ﴿٣٨﴾﴾ ٣٢١

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ . . . ﴿٣٩﴾﴾ ٣٢٦

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً . . . ﴿٤٠﴾﴾ .. ٣٢٩

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ . . . ﴿٤١﴾﴾ ٣٣٤

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ . . . ﴿٤٢﴾﴾ ٣٣٧

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ . . . ﴿٤٣﴾﴾ ٣٤١

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ . . . ﴿٤٤﴾﴾ .. ٣٦٠

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ ٣٦٤

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ . . . ﴿٤٦﴾﴾ .. ٣٦٥

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا . . . ﴿٤٧﴾﴾ .. ٣٧٩

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ . . . ﴿٤٨﴾﴾ .. ٣٨٦

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى . . . ﴿٤٩﴾﴾ .. ٣٩١

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ .. ٤٠٢

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ . . . ﴿٥١﴾﴾ ٤٠٧

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ ... ٤١٠

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ .. ٤١٢

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ . . . ﴿٥٤﴾﴾ .. ٤١٤

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ .. ٤٢٠

الموضوع الصفحة

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا... ﴿٥٦﴾﴾ ٤٢٢

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ... ﴿٥٧﴾﴾ .. ٤٣٠

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا... ﴿٥٨﴾﴾ ٤٣٨

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ... ﴿٥٩﴾﴾ ٤٤٦

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟... ﴿٦٠﴾﴾ ٤٦٠

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ... ﴿٦١﴾﴾ ٤٦٣

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ... ﴿٦٢﴾﴾ . ٤٦٧

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ... ﴿٦٣﴾﴾ ... ٤٦٨

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ... ﴿٦٤﴾﴾ .. ٤٧٨

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ... ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ... ﴿٦٦﴾﴾ ٤٨٩

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ... ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا... ﴿٦٨﴾﴾ .. ٤٩٣

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ... ﴿٦٩﴾﴾ .. ٤٩٦

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ ٥٠٧

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ... ﴿٧١﴾﴾ .. ٥٠٩

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ... ﴿٧٢﴾﴾ ٥١٧

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ... ﴿٧٣﴾﴾ ٥١٩

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ... ﴿٧٤﴾﴾ .. ٥٢٣

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ... ﴿٧٥﴾﴾ ٥٢٨

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟... ﴿٧٦﴾﴾ ٥٣١

الموضوع الصفحة

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ . . . ﴿٧٧﴾﴾ .. ٥٤١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ . . . ﴿٧٨﴾﴾ . ٥٥٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ . . . ﴿٧٩﴾﴾ ٥٦٣
فهرس الفوائد ٥٦٩
فهرس المحتويات ٦١٩

دار ابن الجوزي 8428146
161578

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١)

تفسير القرآن الكريم

سورة النساء

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الثاني

دار ابن الجوزي

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير
القرآن الكريم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٠هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير القرآن الكريم: سورة النساء. / محمد بن صالح العثيمين.
- الرياض، ١٤٣٠هـ
٢مج.- (سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ ابن عثيمين؛ ٩)
ردمك: ٥ - ٠٧ - ٨٠٣٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)
٩ - ٠٩ - ٨٠٣٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٢)
١ - القرآن - سورة النساء - تفسير أ - العنوان ب - السلسلة
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٠/٢٤١٨

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
إلا لمن أراد طبعه لتوزيعه مجاناً بعد مراجعة
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
عنيزة - ص.ب ١٩٢٩
هاتف: ٠٦/٣٦٤٢١٠٧ - ٠٦/٣٦٤٢٠٠٩
www.binothaimeen.com
info@binothaimeen.com
الطبعة الأولى
رمضان ١٤٣٠

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ -
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - **الرياض** - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - **جدة** - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - **بيروت** - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ -
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - **القاهرة** - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
البريد الإلكتروني: **aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com**

□ قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠].

الآية فيها جملتان شرطيتان: الأولى قوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ﴾ فـ«من» هنا شرطية، وفعل؟ الشرط قوله: ﴿يُطِعِ﴾ وفيه إشكالان:

الإشكال الأول: أين ذهبت عين الكلمة؟

والإشكال الثاني: كيف كُسرت مع أن «مَن» تجزم؟

والجواب عن الإشكال الأول: أن عين الكلمة حذفت؛ لأن لامها كانت مجزومة، وعينها ساكنة، وقد قال ابن مالك:

إن ساكنان التقيا اكسر ما سبق وإن يكن ليناً فحذفه استحق

فالياء ساكنة، والعين ساكنة، فيحذف حرف اللين وهو الياء.

وأما كسر العين وهي مجزومة فمن أجل التقاء الساكنين، وأمثلة هذه كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البينة: ١].

وجواب الشرط في قوله: ﴿مَّن يُطِعِ﴾ قوله: ﴿فَقَدْ أَطَاعَ﴾.

الجملة الثانية قوله: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ فعل الشرط فيها قوله: ﴿تَوَلَّىٰ﴾ وهو فعل ماض في محل جزم فعل

الشرط، والجواب جملة منفية؛ لأن ﴿مَا﴾ نافية و﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ فعل ماضٍ.

أما وجه اقتران الجواب بالفاء في الجملتين فلأنه لا يصح أن يكون الجواب شرطاً، وإذا كان الجواب لا يصح أن يكون شرطاً وجب اقترانه بالفاء، كما قال ابن مالك في ألفيته:

واقرن بفا حتماً جواباً لو جُعل شرطاً لإن أو غيرها لم ينجعل

وقد ذُكر ذلك في بيت من الشعر وهو:

اسمية طلبية وبجامدٍ وبما وقد وبلن وبالتنفيس

يقول الله عزّ وجل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ «ال» في قوله: ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ للعهد الذهني، وهو محمد ﷺ؛ لأن القرآن نزل في عهد رسالته، ويصح أن نقول: إنه عام يشمل كل رسول، وعلى هذا فتكون «ال» للعموم وليست للعهد، لكن يُضعف هذا الاحتمال قوله: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ﴾؛ لأن هذا الخطاب للنبي ﷺ، وعلى هذا فالمراد بالرسول محمد ﷺ، وتكون «ال» للعهد الذهني.

وقوله: ﴿فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ أي: أن طاعة الرسول طاعة لله عزّ وجل، فإذا أمرنا رسول الله ﷺ بأمر فأطعناه فنحن قد أطعنا الله.

وقوله: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ يعني: لم يطع الرسول: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾؛ لأن عليك البلاغ، وقد بلغت، وحفظ الناس وأعمالهم إلى الله عزّ وجل.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الأصل فيما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام أنه شرع؛ لعموم قوله: «**مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ**».

وينبني على ذلك أننا لو شككنا فيما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام أو قاله هل هو شرع أو نسيان فنحمله على أنه شرع، ومن ذلك: «أنه قرأ سورة الزلزلة في صلاة الفجر في الركعتين»، قال الراوي: «فلا أدري أنسي أم كان على علم»[1] فنقول: إذا قلنا: إن الأصل أن ما فعله فهو شرع يكون هذا الاحتمال غير وارد، وإن ورد عقلاً فهو ضعيف شرعاً، ونقول: الأصل أن ما فعله فهو شرع وليس بنسيان.

٢ ـ الاحتجاج بالسنة، وأنها كالقرآن في وجوب العمل بها، ولكن نحتاج في السنة إلى إثبات نسبتها إلى رسول الله ﷺ؛ لأنه ما دام أنها لم تثبت فإنها ليست من كلام الرسول ﷺ.

٣ ـ جواز نسخ القرآن بالسنة، وجواز تخصيص القرآن بالسنة، أما الثاني فمحل اتفاق، وهو: أن السنة تُخصص القرآن، وأما الأول فمختلف فيه، فقيل: إنها ـ أي: السنة ـ لا تنسخ القرآن من وجهين:

الوجه الأول: أن ثبوت القرآن قطعي؛ لأنه نقل بالتواتر اللفظي والمعنوي، والسنة ليست كذلك.

الوجه الثاني: أن القرآن كلام الله منقول إلينا بالتواتر اللفظي والمعنوي، أما السنة فإن الرواة قد يتصرفون فيها فينقلونها بالمعنى، وهذا كثير؛ لذلك قالوا: إن القرآن لا يُنسخ بالسنة.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب الرجل يعيد سورة واحدة في الركعتين (٨١٦).

والصواب: أن القرآن ينسخ بالسنة إذا ثبتت عن النبي ﷺ، ولكن حتى الآن لم نجد مثالاً يسلم من المعارضة، لكن من حيث النظر نقول: إن نسخ القرآن بالسنة ثابت.

٤ ـ أن معصية الرسول معصية لله، تؤخذ بطريق المفهوم؛ لأنه إذا كانت طاعته طاعة لله فمعصيته معصية لله عزّ وجل.

٥ ـ إثبات رسالة النبي ﷺ من وجهين:

أولاً: وصفه بالرسول.

وثانياً: جعل طاعته كطاعة الله عزّ وجل.

وهنا مسألة: هل للنبي ﷺ أن يجتهد؟

الجواب: نعم. وسنته نوعان: اجتهادية، ووحي، فمن الوحي: حين سُئل عن الشهادة فقال: «**إنها تكفر كل شيء**»، ثم أتاه جبريل عليه السلام فقال: «**إلا الدين**»[1]، فإن قوله: «**إلا الدين**» هذا بالوحي، وأما ما يقوله عليه الصلاة والسلام دون أن ينسبه إلى الله فهو وحي باعتبار إقرار الله له، كما نقول: إن النبي ﷺ إذا أقر أحداً على قول أو عمل صار هذا من سنته، وسنته: قول، وفعل، وإقرار.

٦ ـ تهديد من تولى وأعرض عن طاعة النبي ﷺ لقوله: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ كأنه يقول: فنحن نحفظه، ونحفظ عليه أعماله، وما معه.

٧ ـ أن النبي ﷺ لا يُسأل عن إعراض أمته، وأن من

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين، حديث رقم (١٨٨٥) عن أبي قتادة.

أعرض من أمته فذنبه على نفسه، لقوله: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

٨ ـ إثبات العظمة لله عزّ وجل، وذلك حين جاء بضمير الجمع لقوله: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، وقد ذكر بعض العلماء أن النصارى يستدلون بمثل هذه الضمائر على تعدد الآلهة؛ لأنهم يقولون: هذه تفيد الجمع، فيقال: لا غرابة أن يستدل النصارى بهذا المتشابه على باطلهم؛ لأن النصارى في قلوبهم زيغ، وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، والجواب على هذا سهل: هو أن نقول: ما لكم تشبثتم بهذه الآية المتشابهة وتركتم الآيات المحكمة البينة الظاهرة التي تدل على أن الله إله واحد، كما في قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣].

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: ٨١].

﴿يَقُولُونَ﴾ هؤلاء من المنافقين، أو خليط من المنافقين والمؤمنين.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ يعني: إذا أمرتهم قالوا: طاعة لا نخالفك، ولكنهم إذا خرجوا من عند الرسول عليه الصلاة والسلام كانوا كما قال سبحانه: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ﴾.

قوله: ﴿فَإِذَا بَرَزُوا۟﴾ البروز معناه: الظهور، يعني: إذا فارقوا المجلس، وظهر فراقهم إياه، وصاروا بدل من أن يكونوا في

الحجرة صاروا في السوق، والمقصود من هذا: بيان أنهم إذا فارقوا المكان مفارقة تامة.

وقوله: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ ﴿بَيَّتَ﴾ يعني: عمل ليلاً، وإنما كان عملهم ليلاً لأن الليل محل الخفاء ومحل السر، فتجدهم يظهرون عند النبي ﷺ طاعة، لكن إذا ذهبوا إلى بيوتهم بيتوا غير الذي يقول الرسول ﷺ.

وقوله: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: وليس كلهم.

وقوله: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ ﴿غَيْرَ﴾ هنا بمعنى المخالفة، فإذا قال: افعلوا كذا قالوا: طاعة، فإذا رجعوا إلى بيوتهم قالوا: لا طاعة، يعني: يبيتون المخالفة لما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام.

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ الجملة هذه خبرية تفيد أمرين:

أولاً: تهديد هؤلاء الذين يبيتون غير ما يقول الرسول ﷺ.

ثانياً: تسلية الرسول ﷺ، وأن أمرهم لا يخفى على الله، فقد يعاجلهم بالعقوبة، وقد يؤخرهم.

يقول جل وعلا: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تهتم بهم، ولا تُشغل بالك بهم.

قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا تعتمد عليهم، واعتمد على الله، واعلم أنهم ـ وإن بيتوا ما يبيتون ـ لن يضروك، حتى إنهم بيتوا أن يبطشوا بالرسول عليه الصلاة والسلام، أو أن يردوا دعوته بادعاءات باطلة، أو ما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿تَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ التوكل على الله قال العلماء: هو صدق الاعتماد على الله عزّ وجل، مع الثقة به، وفعل السبب الذي أمر به، فهو مكون من ثلاثة معانٍ:

الأول: صدق الاعتماد على الله.

الثاني: الثقة بالله عزّ وجل؛ لأن التوكل لا ينفع إذا لم يكن صاحبه واثقاً بوعد الله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

الثالث: فعل الأسباب التي أمر بها، فمن لم يفعل الأسباب فهو ليس متكلاً، ولكنه متواكل، فلا بد من فعل الأسباب.

وقولنا: التي أُمر العبد بها: احترازاً من فعل الأسباب التي لا حقيقة ولا أصل لها، كما يفعله المشعوذون وأصحاب التمائم غير المباحة، وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ سبق إعراب مثل هذه الجملة عند قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩] وقلنا: إن الباء حرف جر زائد، وأن لفظ الجلالة محله الرفع على أنه فاعل، و﴿وَكِيلًا﴾ إما تمييز وإما حال.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان الله عزّ وجل للرسول عليه الصلاة والسلام أن من الناس من يؤمن ظاهراً ويكفر باطناً، لقوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾.

٢ ـ التحذير من النفاق، وأن الإنسان يجب أن يكون صريحاً بيناً لا يَظهر للناس بوجه وإذا اختفى عنهم أعطاهم وجهاً آخر؛ ولهذا لا أحسن من الشخص الصادق الذي لا يباري ولا

يماري، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وهذا هو الواجب على كل مسلم أن يكون ظاهره وباطنه سواء.

٣ ـ بطلان التَّقِيَة التي يتخذها الرافضة ديناً، وتؤخذ من تهديد الله عزّ وجل هؤلاء الذين يتظاهرون بالطاعة ويبيتون خلاف الطاعة، وذلك في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾.

٤ ـ إثبات الفعل لله عزّ وجل، لقوله: ﴿يَكْتُبُ﴾، لكن هل المراد بذلك أنه يكتبه هو بنفسه جل وعلا مباشرة، أو يأمر بكتابته؟ الجواب: الثاني هو المراد، لكن ما فُعل بأمر الآمر فهو منسوب إليه، وإلا فالذين يكتبون أعمال العباد هم الملائكة، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار: ٩ ـ ١١]، ويصح أن ينسب الفعل إلى الآمر به شرعاً وعرفاً، ولهذا يقال: بنى عمرو بن العاص مدينة الفسطاط، ومعلوم أن عمرو بن العاص لم يباشرها بنفسه، ولكن أمر بها، ويقال: بنى الأمير قصره، وليس هو الذي أتى باللبن والطين، ولكنه أمر بذلك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧﴾ [النازعات: ٢٧] فليس باشرها الله عزّ وجل بيده كما خلق آدم بيده، لكنه قال: كن فيكون، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾ [فصلت: ١١].

٥ ـ أن المنافقين يحرصون على أن يخفوا أعمالهم، ولهذا يوقعونها ليلاً، لقوله: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾.

٦ ـ أن قول النبي ﷺ كقول الله في وجوب طاعته وترك ما

نهى عنه، ووجهه: أنه حذر هؤلاء الذين يبيتون غير ما يقول الرسول ﷺ.

٧ ـ إثبات الأفعال الاختيارية التي تكون من فعل الله، لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ﴾.

فإن قال قائل: لقد فسرتم الكتابة هنا بكتابة الملائكة.

قلنا: ولكن كتابة الملائكة وقعت بأمره، والأمر من الصفات الاختيارية، وهذا هو الذي دلت عليه الآية الكريمة، وهو ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، من أن أفعال الله أفعال اختيارية، وذهب أهل التعطيل إلى أن الله تعالى ليس له أفعال اختيارية تقوم به، وأنه لا يمكن أن يتجدد له فعل؛ لأنهم يدعون أنه لا يقوم الحادث إلا بحادث، وهذا باطل، بل نقول لهم عكس ما أرادوا: إن من لا يفعل ناقص، ومن يفعل كامل. ولا شك أن من يفعل أكمل ممن لا يفعل، فالصفات الاختيارية ـ وهي الصفات الفعلية ـ لا شك أنها من كمال الله عزّ وجل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

٨ ـ إثبات العلم لله لقوله: ﴿يَكْتُبُ﴾ ولا كتابة إلا بعد علم.

٩ ـ الإعراض عمن يئسنا من صلاحه، لقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ولكن هل هذا يعني إعراضاً مطلقاً بحيث إننا لا نعيد عليه الكرة مرة ثانية؟ الجواب: لا، إنما نعرض عنه ما دمنا قد أيسنا من صلاحه.

١٠ ـ وجوب التوكل على الله، لقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: اعتمد عليه في جلب المنافع، ودفع المضار، بمعنى: أنك

لا ترجو حصول المنافع إلا منه، ولا دفع المضار إلا منه سبحانه.

والتوكل على الله معناه: تفويض الأمر إليه، وصدق الاعتماد عليه، والثقة به سبحانه.

وهل يجوز أن يطلق هذا اللفظ على المخلوق كأن يقول قائل: توكلت على فلان في شراء سيارة لي؟

الجواب: يجوز، والفرق بين هذا وبين التوكل على الله، أن التوكل على الله تفويض مطلق يعتقد المتوكل فيه أنه مفتقر إلى الله عزّ وجل، أما هذا فهو تفويض مقيد، ثم إن الموكَّل أو المتوكِل يرى أن المتوكَّل عليه في رتبة أقل من رتبته، فهذا هو الفرق، لكن لو تحاشى الإنسان هذا القول: توكلت على فلان وأبدله بقوله: وكلت فلاناً لكان خيراً.

١١ ـ كفاية الله سبحانه لمن توكل عليه، لقوله: ﴿**كَفَى**﴾، وهذا كقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وذكر بعض المفسرين على قول الله تبارك وتعالى عن يوسف أنه قال للذي نجا منهما: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]، أن الله تعالى، قدَّر أن ينسى هذا الرجل الموصى؛ لأن يوسف لما قال: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] صار في هذا نوع اعتماد على هذا السيد، هكذا زعم هذا القائل والله أعلم، وقد يقال: إن الله سبحانه قدَر أن يَنسى هذا الرجل من أجل ابتلاء يوسف حتى يتم له الصبر بأنواعه الثلاثة.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ﴾.

أولاً: الإعراب:

قوله: ﴿أَفَلَا﴾ الهمزة هنا للاستفهام و«الفاء» عاطفة، وفي المعطوف عليه قولان: القول الأول: أن الهمزة داخلة على محذوف تقديره «أغفلوا»: ﴿فَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ﴾، أو أنه على ما سبق، وعلى هذا فيكون موضع الهمزة بعد الفاء؛ ولكن قدمت لأن لها الصدارة.

والأول أقرب، والثاني أيسر، الأول أقرب للقواعد أنه يكون هناك شيء مقدر معطوف عليه، والثاني أسهل وأيسر؛ لأنه لا يحتاج إلى تقدير، وربما في بعض الأحيان يصعب عليك جداً أن تعين المحذوف.

وقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ ﴿لَوْ﴾ شرطية، وفعل الشرط هو قوله: ﴿كَانَ﴾ وجواب الشرط قوله: ﴿لَوَجَدُوا۟﴾.

واعلم أن «لو» إن كان جوابه مثبتاً فإنه يقترن باللام دائماً أو غالباً، كما في هذه الآية: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٥]، وقد تحذف اللام؛ كقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠] لكنه قليل، أما إذا كان خبره منفياً فإن الغالب حذف اللام، ووجهه: أن اللام تفيد التوكيد والنفي يضاد التوكيد، فتقول: لو جاء زيد ما جاء عمرو، ولا تقل: لما جاء

عمرو، لكن قد تقترن اللام أحياناً مع وجود النفي بـ«ما» في قوله:

ولو نعطي الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الليالي

فقال: لو نعطي الخيار لما افترقنا، والأفصح: ما افترقنا.

يقول الله عزّ وجل موبخاً هؤلاء: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ والهمزة هنا استفهام بمعنى التوبيخ.

وقوله: ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾ أي: يتأملون ويتفكرون، مأخوذ من كون الإنسان يأخذ الشيء إدباراً وإقبالاً، يعني: يتدبر المعاني ويتفهمها، والقرآن على وزن فُعْلَان، قيل: إنه مصدر، وأنه مثل الشكران والغفران، وقيل: إنه بمعنى المفعول، وحتى ولو قلنا: إنه مصدر بناءً فهو بمعنى المفعول معنى؛ لأن القرآن بمعنى المقروء، والمقروء هل معناه المتلو أو المجموع؟ وهل هو من قرأ يقرأ، يعني: جمع يجمع، ومنه القرية لأنها تجمع الناس، أو من قرأ يقرأ بمعنى: تلى؟ الجواب: فيه لأهل اللغة قولان، والصحيح: أنه من هذا ومن هذا، فالقرآن متلو ومجموع حروفه بعضها إلى بعض.

والمراد بالقرآن: كلام الله عزّ وجل الذي أنزله على محمد ﷺ، المتعبد بتلاوته، المعجز بأسلوبه ومعناه.

وقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ ﴿لَوْ كَانَ﴾ اسم كان ضمير يعود على القرآن، يعني: لو كان القرآن من عند أحد غير الله.

قوله: ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ أي: لوجدوا فيه تناقضاً، إما في المعنى وإما في الأسلوب أو غير ذلك، وأيضاً سيكون اختلافاً كثيراً وليس اختلافاً قليلاً.

وإذا كان من عند الله فلن يجدوا فيه اختلافاً ولو قليلاً، لكن قوله: ﴿ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ بيان لواقع ما كان من عند غير الله، وليس هذا قيداً في أنه لو كان من عند الله لوجدوا فيه اختلافاً قليلاً، إذ أنه لا اختلاف في كتاب الله عزّ وجل.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ الحث على تدبر القرآن، وجه ذلك: توبيخ من لم يتدبر، وإذا كان من لا يتدبر القرآن يوبخ فمن يتدبره يُثنى عليه ويُمدح.

إذاً: ففيه الحث على تدبر القرآن.

٢ ـ الرد على من يقول: إن آيات الصفات مجهولة المعنى، وهم أهل التفويض الذين يقولون: فرضنا بالنسبة لآيات الصفات أن نتلوها فقط، وألا نتكلم في معناها؛ لأن معناها مجهول، فيقال لهم: القرآن عام يشمل آيات الصفات وغيرها، والله تعالى وبخ من لم يتدبره، ولازم هذا أن يكون للآيات معنى؛ لأن الحث على تدبر ما لا يمكن الوصول إلى معناه حث على متعذر أو متعسر، وعلى هذا فيكون هذا الحث من كلام اللغو، وينزه عنه كلام الله عزّ وجل.

فإن قال قائل: إذا قلتم: إن آيات الصفات غير مجهولة المعنى، وإنها معلومة، فهل يلزم من ثبوت المعنى مماثلة المخلوق؟

فالجواب: لا يلزم؛ لأن الله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ففي الآية إثبات الصفات ونفي المثل، ولو كان لا يمكن إثبات الصفات إلا بإثبات المماثلة لكان في الآية تناقض ظاهر.

إذاً: آيات الصفات معلومة المعنى لكن بدون تمثيل.

فإن قال قائل: وهل يمكن إثبات معنىً بدون تمثيل؟

فالجواب: نعم، ولنضرب مثلاً بقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤] فأهل التفويض يقولون: لا نعلم ما المراد بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾، وأهل التأويل يقولون: معناها: النعمة والقدرة، وأهل السنة والجماعة يقولون: معناها: اليد الحقيقية التي نظير مسماها أجزاء وأبعاض لنا، فـ«اليد» جزء منا، لكنه لا يمكن إطلاق كلمة جزء على شيء من صفات الله؛ لأن الجزء لا يمكن انفصاله عن الكل، وبالنسبة ليد الله وقدم الله وعين الله لا يمكن فيها هذا المعنى.

إذاً: نقول لله يد حقيقة، فهو يطوي السماء بيمينه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧].

ويمكن أن نتصور يداً بدون مماثلة، وهذا أمر سهل، فنحن نشاهد الآن للجمل يداً، ونشاهد للهرِّ يداً، يعني: نشاهد مضمون هذا في الجملة ولا يلزم لإثبات اليد للجمل، أو للهر أن تكون اليدان متماثلتين، بل نحن نشاهد أنها مختلفة.

٣ ـ أن القرآن لا اختلاف فيه ولا تناقض، لقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾.

فإن قال قائل: إننا نجد في كتاب الله ما ظاهره التعارض، فكيف يتفق مع هذه الآية؟

فالجواب: نقول: ليس هناك تناقض، لكن أنت إذا ظننت التناقض ورأيت شيئاً في كتاب الله ظاهره التعارض فإما لقصور فهمك، يعني: أن فهمك رديء قاصر، أو لقصور علمك؛ لأن

هناك علماً يبين الجمع بينهما، ولكنك لم يبلغك هذا العلم، وإما لسوء في قصدك؛ لأن الإنسان إذا كان قصده سيئاً فإنه لا يُوفق. ويكون قصده سيئاً إذا كان يريد أن يُظهر أن القرآن متعارض، ولا يريد أن يصل إلى نتيجة سليمة، وهي الجمع بين ما ظاهره الاختلاف.

ولهذا تجد المبتلى بهذا الشيء يشكل عليه آيات واضحة ليس فيها تعارض، لكن نظراً لأنه يفتش لعله يجد شيئاً من الآيات يعارض بعضه بعضاً تجده ـ والعياذ بالله! ـ يشتبه عليه الآيات الواضحات، وممكن أن نزيد احتمالاً رابعاً وهو: التقصير في الطلب؛ لأن التقصير في الطلب نتيجته عدم العلم، وعلى هذا أسباب عدم فهم القرآن أربعة.

وهناك آيات متعارضة ظاهراً لكنها لا تتعارض حقيقة، وهي آيات متعددة ذكرها كثير من العلماء وألفوا فيها، ومنهم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في كتابه «دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب»، وهو كتاب متوسط لكنه مفيد.

٤ ـ ضعف الآدمي فيما يكتبه، وأنه عرضة للاختلاف والخطأ.

ومن ذلك ما يروى عن الأئمة ـ رحمهم الله ـ من أقوال متعددة في مسألة واحدة، ولكن ما يقع من الأئمة ليس عن قصد، ولكنه عن زيادة علم، والإنسان بشر يزداد كل يوم علماً، فمثلاً الإمام أحمد رحمه الله قد يروى عنه في المسألة الواحدة عدة روايات، ونحن نعلم أنه لم يتقصد رحمه الله ذلك، لكن علمه كان يأتي شيئاً فشيئاً، ولهذا تجد عنه في ثبوت الهلال في رمضان

عدة أقوال، حتى إنهم ذكروا في مذهبه سبعة أقوال، منها خمسة أقوال نص عليها رحمه الله.

٥ ـ إثبات أن القرآن كلام الله، يؤخذ من قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ فإنه يدل على أن القرآن من عند الله عزّ وجل، فإذا كان من عند الله صار صفة من صفاته، ولا يمكن أن يكون مخلوقاً؛ لأنه صفة، وصفة الموصوف لازمة له ليست بائنة منه، ثم لو قلنا: إنه مخلوق لبطل الأمر والنهي، ولبطلت الشريعة، ولو قال قائل كيف ذلك؟ فنقول: إذا قلت: إنه مخلوق فمعناه أن الله خلق «ص» ـ مثلاً ـ كما يخلق السماء، والسماء ليس فيها أمر أو نهي، وبسم الله الرحمن الرحيم خلقها الله حروفاً على هذه الصورة لا تفيد شيئاً، ومثل قوله: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦] إذا قلنا: إنها مخلوقة فمعناه: أنها حروف ليس فيها أمر ولا نهي، وأنها حروف خلقت على هذا الشكل فقط.

ولهذا كنا نتعجب حينما نسمع ابن القيم رحمه الله أو شيخه يقولان: إن القول بأن القرآن مخلوق يبطل الشريعة؛ لأنه يبطل الأمر والنهي! فنقول: كيف يتصور هذا؟! فتأملنا ووجدنا أن السبب هو أنه إذا كان مخلوقاً صار عبارة عن صورة كلام خالقها الله عزّ وجل، لا يتعلق بها أمر ولا نهي، كما لو صورت سيارة أو بناءً أو ما أشبه ذلك.

٦ ـ إثبات العندية لله؛ أي: أن الشيء يكون من عنده، وهو كذلك، لكن العندية قد تكون صفة، وقد تكون قرباً، فقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾

[الأعراف: ٢٠٦] العندية هذه عندية قرب؛ لأنهم ملائكة بائنون عن الله عزّ وجل، وإذا قلت: القرآن من عند الله فإن هذه عندية صفة.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٨٣].

الأعراب:

هذه الآية فيها أدوات شرط متعددة: قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ وفعل الشرط قوله: ﴿جَآءَهُمْ﴾ والجواب قوله: ﴿أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ وهذا الشرط لا يجزم.

وقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ فيها شرط وهو: ﴿لَوْ﴾، وفعل الشرط قوله: ﴿رَدُّوهُ﴾ وجوابه: قوله: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هذه أيضاً فيها شرط، لكنها ليست من النوع الأول، وتُسمى ﴿لَوْلَا﴾ حرف امتناع لوجود، وقد تقاسمت هذه الكلمات الثلاث «لو، ولما، ولولا» الوجود والعدم.

فـ«لو» حرف امتناع لامتناع، تقول: لو جاء زيد لجاء عمرو، والمعنى لم يأتِ عمرو ولا زيد.

و«لما» حرف وجود لوجود، تقول لما جاء زيد جاء عمرو.

و«لولا» حرف امتناع لوجود؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، إذاً: امتنع اتباع الشيطان لأجل وجود فضل الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَاتَّبَعْتُمُ﴾ ذكرنا أن قوله: ﴿لَاتَّبَعْتُمُ﴾ جواب الشرط، فأين خبر المبتدأ ﴿وَلَوْلَا﴾ في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾؟ والجواب: الخبر محذوف، والتقدير: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ موجود، كما يقول ابن مالك:

وبعد لولا غالباً حذف الخبر حتمٌ وفي نص يمين ذا استقر

وقوله: ﴿لَاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ هذا مستثنى يحتمل أنه من الاتباع أو من التابعين بلا شك، والمعنى لاتبعتم الشيطان في كل ما تفعلونه إلا قليلاً من أفعالكم، أو لاتبعتم الشيطان كلكم إلا قليلاً منكم.

وفي هذه الآية من البلاغة ما يسمى بالجناس، يعني: المجانسة، في قوله: «أمر» و«أمن»، ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ﴾ ففيه جناس غير تام؛ لأن فيه اختلاف الحرف من راء إلى نون. أما إذا قيل:

عباس عباس إذا احتدم الوغى والفضل فضل، والربيع ربيع

فهذا جناس تام؛ لأن عباس علم وصفة، والفضل علم وصفة، والربيع علم على رجل اسمه الربيع وصفة أحد الفصول الأربعة.

قول الله عزّ وجل: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ يعني: إذا جاء هؤلاء شيء مما يُخاف أو مما فيه الأمن.

قوله: ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ يعني: نشروه على فهمهم الخاطئ، لا على الصواب؛ لأنهم ليس عندهم ذاك العمق في فهم كتاب الله عزّ وجل، وهذا نتيجة لقوله في الآية التي قبلها ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، فتجدهم يذيعون الأمر من الأمن أو الخوف، مع أن الأمن ليس فيه أمن، والخوف ليس فيه خوف، لكنهم فهموا ذلك فضلوا وأضلوا.

وقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ «ال» في قوله: ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ فيه للعهد الذهني، وهو محمد ﷺ.

وقوله: ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾، أولو الأمر هنا يتعين أنهم العلماء؛ لأنهم هم أهل العلم الذين ورثوا النبي ﷺ بعد موته، والذين شاركوه فيما شاركوه فيه في حال حياته.

وقوله: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ ﴿لَعَلِمَهُ﴾ أي: علم الأمر على الوجه المراد من الأمن أو الخوف قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي: يستخرجونه، وأصل الاستنباط من نبط، يعني: استخراج الماء، وسمي استخراج الماء استنباطاً لأنه كان يستخرجه فيما سبق الأنباط الذين ليسوا من العرب، فكانوا هم الذين يحفرون عن الماء حتى يصلوا إلى غايته، ولكن المراد بالاستنباط في الألفاظ هو: استخرج المعاني؛ أي: لعلمه الذين يستخرجون المعاني التي تخفى على هؤلاء.

ثم قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ صدق الله عزّ وجل؛ فلولا فضله أي: عطاؤه، ورحمته أي: إحسانه لضل جميع الخلق، والمراد بالرحمة هنا ليست صفة الله عزّ وجل، بل المراد ثمرات هذه الصفة، وهو إحسانه عزّ وجل إليهم.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي: ولكن الله عزّ وجل يتفضل عليكم ويرحمكم فيعصمكم من الشيطان.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ هو على ما سلف: يحتمل أن يكون المراد إلا قليلاً منكم، أو أن المراد من أعمالكم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ الحرص على عدم إذاعة الشيء إلا بعد التيقن من معناه والمعرفة به، يؤخذ من قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ وهذا إنكار عليهم، ثم أرشدهم إلى ما هو الأصوب.

٢ ـ ما جرت به العادة في أن الله عزّ وجل إذا نهى عن شيء بين وجهاً آخر غير منهي عنه، يؤخذ من قوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾، وهذه الآية قاعدة جاءت في القرآن الكريم وجاءت في السنة النبوية، ففي القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤] فجاء بكلمة مباحة بدلها.

وفي السنة لما جيء إلى النبي ﷺ بتمر جيد، وسأل: من أين هذا؟ قال: كنا نأخذ الصاع من هذا بصاعين، والصاعين بثلاثة، فقال: «**لا تفعل**»، ثم أرشدهم، فقال: «**بع الجمع بالدراهم ثم ابتغ بالدراهم جنيباً**»(١).

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، حديث رقم (٢٠٨٩)؛ ومسلم، كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلاً بمثل، حديث رقم (١٥٩٣) عن أبي سعيد وأبي هريرة.

إذاً: لا ينبغي للإنسان المبين للناس أحكام شريعة الله أن ينهاهم عن شيء حتى يفتح لهم باب الحل.

مثلاً: إنسان يعامل معاملة ربوية فقلت له: هذا حرام لا يجوز، ومعاملته كلها على هذا المنوال؛ أي: أنها ربوية، ولم ينهه أحد قبلك، فإذا قلت: هذا حرام، وهذا ربا فلا بد أن تفتح له باب البيع الحلال؛ حتى يهون عليه ترك ما كان معتاداً له، وينتقل إلى الحلال بسهولة؛ لأن صرف الإنسان عما كان يعتاده صعب جداً، وهكذا ينبغي لطالب العلم إذا ذكر للناس شيئاً محرماً أن يذكر لهم ما يستغنون به عن هذا المحرم من الشيء الحلال.

والخلاف سنة الله في خلقه، وقد ورد حديث ليس بصحيح: «اختلاف أمتي رحمة»[1] والمعنى أيضاً ليس بصحيح، بل الوفاق هو الرحمة، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، ولو صح الحديث لكان معناه اختلاف أمتي رحمة بمعنى أن المختلفين فيما يسوغ فيه الخلاف لا يأثمون، لكن من العجيب أن العامة، إذا أرادوا شيئاً أتوا بنص ولو كان ضعيفاً، ثم فسروا النص بما يريدون، فيستفتيك عامي ويقول لك: هذا حلال أو حرام؟ فتقول: هذا حرام، فيذهب إلى

---

(١) ذكره نصر المقدسي في الحجة والبيهقي في رسالة الأشعرية بغير سند، وأورده الحليمي والقاضي حسين وإمام الحرمين وغيرهم، ولعله خرج به في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا، قال المناوي في الفيض (١/ ٢٠٩): لم أقف له على سند صحيح، وقال الحافظ العراقي: سنده ضعيف، وقال الألباني: موضوع، انظر الجامع الصغير وزيادته (١/ ١٢٥).

عالم آخر ويقول هذا حلال، فيحتج ويقول: اختلاف أمتي رحمة، والله رحمنا بهذا الرجل الذي قال: هذا حلال.

قد يأتي إنسان يستفتي عالماً ويقول: أنا أريد أن أتعجل في اليوم الثاني عشر، فهل يجوز أن أرمي قبل الزوال، وأنصرف؟ فيقول له: لا يجوز؛ لأن النبي ﷺ وقّت هذا الرمي بما بعد الزوال، ولم يأذن للضعفاء أن يرموا قبل الزوال كما أذن لهم في الدفع من مزدلفة، فدل هذا على أنه لا رخصة. فيذهب إلى عالم آخر فيقول له: لا بأس، والناس الآن في حاجة إلى إنك توسع لهم، دعوه يرمي في الضحى ويمشي، فيرجع إلى الأول ويقول: الحمد لله اختلاف الأمة رحمة، دع فتواك عندك؛ فقد أفتاني فلان، فيقال: هذا غلط.

والحاصل أن هذا الحديث لا يصح عن النبي ﷺ، وأن الاختلاف لا شك أنه شر من الوفاق، وأن الرحمة في الوفاق، ولكن لو صح الحديث لكان المعنى أن المختلفين مرحومون فيما يسوغ فيه الخلاف؛ لأنهم مجتهدون، والمجتهد إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر.

٣ ـ التحذير من التعجل في نشر الخبر، ووجهه: أن الله حكى ذلك ذاماً له.

٤ ـ الرجوع إلى الرسول ﷺ في حياته وإلى سنته بعد وفاته، وإلى العلماء في نشر الأخبار، وإذاعتها.

٥ ـ أن هذه الآية تنطبق تماماً على ما نحن فيه الآن، حيث إن كثيراً من الناس يعلنون الأخبار على عواهنها، ولا يبالون بما ترتب عليها من خير أو شر، ولا يزنون بين المصالح بعضها مع

بعض، ولا بين المفاسد بعضها مع بعض، ولا بين المصالح وبين المفاسد، وإنما يذيعون الشيء وينشرونه بدون تحقيق ولا تمحيص، وهذا من دأب المنافقين؛ لأن الله تعالى ذكرهم في هذا السياق، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١].

٦ ـ أن أولي الأمر حقيقة هم العلماء لقوله: ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ وهذا كالتفسير لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، فإن أولي الأمر في هذه الآية تشمل العلماء والأمراء، ولكن العلماء في المقدمة؛ إذ أن الأمراء منفذون لما يقوله العلماء من شريعة الله، فالأصل هم العلماء، والأمراء يلزمهم أن ينفذوا ما قاله العلماء من شريعة الله، فهم في الحقيقة تابعون للعلماء، وليس العلماء تابعين لهم، اللهم إلا أن يقدر الله أمراً تنعكس فيه الأحوال، ويكون العلماء وراء الأمراء فإن هذا انقلاب وعكس، إذ إن الواجب أن يكون الأمراء خلف العلماء؛ لأن العلماء عندهم من شريعة الله ما ليس عند الأمراء لا سيما في الأزمان المتأخرة، أما في عهد الخلفاء الراشدين فالخليفة هو أعلم الناس بشريعة الله.

٧ ـ التعمق في التثبت، ويؤخذ من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ ولم يقل: يعلمونه، وهنا إظهار في موضع الإضمار؛ لأن الأصل: ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلموه، لكنه قال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾، فأظهر في موضع الإضمار لهذه الحكمة؛ أي: إن هؤلاء لهم نظر بعيد عميق كالذي يستنبط الماء، وهو مأخوذ من استخراج الماء؛ لأن الأنباط هم الذين

يتولون استنباط المياه حين كان عهد الأمة الإسلامية الزاهر.

٨ ـ بيان فضل الله عزّ وجل علينا باتباع الشريعة، لقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾.

٩ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يلجأ إلى الله عزّ وجل في ابتغاء الفضل لا إلى غيره، لقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾.

١٠ ـ أنه ليس أمامنا إلا سبيلان: سبيل السنة والرشاد، وسبيل الضلال، لقوله: ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾، فإذاً: لا يوجد إلا الحق أو الضلال قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، وفي هذا رد على المعتزلة القائلين بالمنزلة بين منزلتين.

١١ ـ ذم من اتبع الشيطان، وأنه قد تخلى الله عنه فلم يؤته من فضله ـ الفضل الخاص ـ لقوله: ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾.

فإن قال قائل: بأي وسيلة نعلم أن هذا طريق الشيطان أو طريق الرحمٰن؟

قلنا: الأمر واضح، والحق بيّن ظاهر أبلج، والباطل بيِّن لا يخفى على أحد، فما وافق شريعة الله فهو طريق الرحمٰن، وما خالف شريعة الله فإنه طريق الشيطان، هذا هو الميزان.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [النساء: ٨٤].

﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ﴾، الفاء عاطفة، و«قاتل»: فعل أمر، والخطاب للرسول ﷺ، ولا يظهر أن يكون

الخطاب موجهاً لمن يتأتى خطابه، لقوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿قَٰتِلْ﴾.

قوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ في هذه الآية إشكال من حيث الإعراب، وهو نصب ﴿نَفْسَكَ﴾ والقاعدة الرفع على أنها نائب فاعل، هذا ما يتبادر إلى ذهن بعض الناس، لكن الواقع أن الأمر ليس كذلك؛ لأن قوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ نائب الفاعل مستتر، يعني: لا تكلف أنت أحداً إلا نفسك، يعني: لا نكلف أحداً من الناس، بل نكلفك نفسك، وعلى هذا فتكون نفس هنا في مقام المفعول الثاني لنكلف، والمفعول الأول هو نائب الفاعل المستتر.

قوله: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: حثهم على القتال.

قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: «بأسهم» أي: شدتهم، و﴿عَسَى﴾ إذا جاءت من الله عزّ وجل فليست للترجي؛ لأن الله تعالى لا يترجى، إذ إن الرجاء في مقابل الشيء الصعب، والله على كل شيء قدير، ولهذا قيل: عسى من الله في القرآن واجبة؛ أي: واقعة حتماً، ولكن الله عزّ وجل يجعلها على هذه الصيغة حتى لا يأمن الإنسان مكر الله عزّ وجل.

ومعنى الآية: يقول الله عزّ وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام، قاتل في سبيل الله حتى وإن لم يقاتل معك أحد، لا تكلف إلا نفسك، أما وظيفتك مع المؤمنين فهي وظيفة التحريض، فحرضهم على القتال، لكنك غير مكلف بهم، لا تأثم إذا لم يقاتلوا. ثم إذا قاتلت وحرضت المؤمنين وقاتلوا فحينئذٍ يكون النصر، ويكف الله سبحانه بأس الذين كفروا.

إذاً: هذه الآية لها ارتباط بما سبق؛ لأن المقام كله مقام بيان المنافقين الذين هم أذل الناس وأخذلهم عند القتال.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ وجوب القتال في سبيل الله، لقوله: ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والأصل في الأمر الوجوب، وقد اختلف العلماء رحمهم الله: هل قتال المؤمنين للكافرين قتال للطلب أو قتال دفاع؟

والصواب: أنه قتال طلب، لكنه ليس لإكراه الناس على الإيمان؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وهذا استفهام للإنكار، وكذلك يقول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، لكنه يقاتل قتال طلب؛ لأن تكون كلمة الله هي العليا، هذا هو المطلوب، وأن يكون الإسلام هو الظاهر المهيمن، فمن أسلم فهو في الإسلام وفي ظله، وهو في الطبقة العليا من طبقات بني آدم، ومن لم يسلم فهو في ظل الإسلام أيضاً إذا بذل الجزية عن يد وهو صاغر.

٢ ـ وجوب الإخلاص، لقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وما عدا سبيل الله، فيوصف بأنه في سبيل الطاغوت، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ۖ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦].

وأسباب القتال الدافعة إليه كثيرة:

الأول: أن تكون كلمة الله هي العليا، وهذا في سبيل الله.

الثاني: الحمية كأن يقاتل لقوميته، وهذا المقاتل حمية في سبيل الطاغوت، اللهم إلا أن يقول: إني أقاتل حمية لأن قومي

مسلمون، فأقاتل دفاعاً عن إسلامهم، فحينئذٍ يكون قاتل في سبيل الله.

الثالث: يقاتل شجاعة: فهذا أيضاً ليس في سبيل الله، بل في سبيل الطاغوت، ولكن كيف يقاتل شجاعة؟! الجواب: الإنسان الشجاع يحب أن يقاتل، ويجد ألذ شيء في حياته أن يكون مقاتلاً في صف القتال، فهو قرة عينه، فحينئذٍ يقاتل شجاعة، وهذا ليس في سبيل الله.

الرابع: يقاتل ليتخلص من الدنيا؛ لأنه أصابته ضائقة، فأراد أن يقاتل ليقتل حتى يستريح من الدنيا، وليس في سبيل الله، فهذا في سبيل الطاغوت، وربما يقال: إنه قاتل نفسه لو قتل؛ لأنه ما أراد أن تكون كلمة الله هي العليا، لكنه بدل أن ينتحر في نفسه فيأخذ السكين، ويطعن نفسه، ذهب يعرض رقبته لسيوف الأعداء، وهذا ليس في سبيل الله.

الخامس: يقاتل رياءً، ليقال: ما أشجع الرجل! وهذا ليس في سبيل الله، هذا في سبيل الطاغوت، والعياذ بالله، وربما يكون هذا أخطرهم؛ لأنه أظهر أنه يريد التعبد لله وهو عابد لهواه.

وعلى كل حال: أسباب القتال وبواعثه كثيرة، ولكن لا يكون في سبيل الله إلا إذا قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

٣ ـ أنه لا يُكلف أحد هداية أحد، حتى الرسول ﷺ الذي هو أهدى الخلق وأعظمهم هداية، لا يمكن أن يُكلف هداية أحد، دليله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾، وعليه فإذا دعوت إلى الله، أو أمرت بمعروف، أو نهيت عن منكر، ولم يستجب لك فلا حرج عليك؛ فإن الله قال لنبيه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟

مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ٣]؛ أي: لا تهلك نفسك، ولا يكن في صدرك حرج ولا ضيق ما دمت قمت بالواجب، فإن أَزِمَّة القلوب بيد الله عزّ وجل، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]، وكثير من الناس عنده غيرة ومحبة للخير، فيأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويدعو إلى الله، فإذا لم يُجب ضاق صدره حتى اختلت عباداته في نفسه، وصار يهتم وينشغل بأحوال الناس عن أحوال نفسه، وهذا غلط، هذا كالنار تحرق نفسها وتضيء لغيرها، ومع ذلك قد يكون غيرها رطباً لا يتأثر بها.

٤ ـ أنه يجب على الإنسان مراعاة نفسه، وقيادتها للحق؛ لأنه مكلف إياها، لقوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أنت مكلف بنفسك، يجب أن تجرها إلى ما فيه الخير، وأن تنهاها عما فيه الشر، وقد قال الله عز جل: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

٥ ـ أن من قام بالواجب في حق نفسه، فلا ينس إخوانه، لقوله: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: حثهم على القتال في سبيل الله، فإن استجابوا فذلك المطلوب، وإن لم يستجيبوا فقد أبرأت ذمتك.

٦ ـ أن محل التحريض للقتال أي: قتال المشركين: هم المؤمنون؛ لأنه لم يقل: حرض الناس، بل قال: ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فالمؤمن هو الذي ينفع فيه التحريض على القتال في سبيل الله.

٧ ـ أنه مهما بذلنا من الجهد والجهاد والإعداد فإن الأمر

بيد الله، لقول الله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني: بعد اجتهادك وتحريضك المؤمنين على القتال واستعدادكم وإعدادكم، الأمر بيد الله.

٨ ـ الاستدلال لأهل السنة بأن أعمال العباد مخلوقة لله عزّ وجل، وتؤخذ من قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فنسب ذلك إليه، مع أنه يأتي بفعل المؤمنين، لكن نسبه الله إليه، وأحياناً يأتي بغير فعل المؤمنين، مثل قوله تبارك وتعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [٢٥].

ولنقف عند هذه النقطة لأهميتها: إذا قلنا: إن الله تعالى خالق أفعال العبد، فوجه ذلك أن نقول: أفعال العباد لا تقع إلا بأمرين هما:

الأول: الإرادة.

والثاني: القدرة.

والإرادة في القلب، والقدرة في الجوارح، والإرادة وصف للإنسان العامل، والقدرة كذلك وصف قائم بذات العامل، والخالق للذات هو الله بالاتفاق، وخالق الذات خالق لأوصافها، وبهذا نعرف: أن أفعال العباد مخلوقة لله عزّ وجل؛ لأنها صادرة عن إرادة جازمة، وقدرة لا عجز فيها على هذا المقدور، وكلاهما وصفان في مخلوق، ووصف المخلوق يكون مخلوقاً.

ويبقى النظر: هل الإنسان مجبر أو مخير؟

نقول: هو مخير ليس مجبراً، ولهذا إذا وقع الفعل عن إجبار لا يؤاخذ الإنسان به، حتى لو كان أكفر شيء، كما قال

تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل: ١٠٦].

إذاً: فالإنسان مخير لا شك، لكننا نعلم أنه لن يفعل فعلاً أو يترك شيئاً إلا بعد مشيئة الله، إلا أن مشيئة الله لا يمكن الاطلاع عليها إلا بعد وقوع المشاء؛ لأن مشيئة الله غيب لا ندري عنها حتى يقع الشيء، فإذا وقع الشيء علمنا أن الله شاءه، أما قبل ذلك فلا نعلم، فلا يكون في ملك الله عزّ وجل ما لا يشاؤه أبداً، بل كل ما في الكون فهو في مشيئة الله عزّ وجل.

٩ ـ أن الكافرين لهم بأس وقوة، لكنهم تحت قوة الله، لقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾، وأنت لا تنبهر بقوة الأعداء؛ فإنهم ليسوا عند قدرة الله شيئاً، ففرعون كان يفتخر بأن الأنهار تجري من تحته، فهلك بالماء الذي هو من الأنهار، وعاد افتخروا بقوتهم وقالوا: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت: ١٥]، فأهلكوا بالريح اللطيفة السهلة، والأحزاب أعجبتهم كثرتهم، وحاصروا المدينة فأجلاهم الله تعالى بالريح، قال النبي ﷺ: «**نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور**»[1]، كذلك أيضاً الأمم الأخرى التي كانت قوية شديدة وأهلكها الله عزّ وجل، ولو شاء الله عزّ وجل لأنزل على مصانع القنابل الذرية صواعق، بل رب صاعقة واحدة تدمر كل ما صنعوا، لكن الله عزّ وجل له حكمة، قال الله تعالى:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب قول النبي ﷺ: «**نصرت بالصبا**»، حديث رقم (٩٨٨)؛ ومسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور، حديث رقم (٩٠٠) عن ابن عباس.

﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] ثم سلى المؤمنين، فقال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد: ٤ ـ ٦]، اللهم اجعلنا منهم.

إذاً: الله عزّ وجل قادر على كف بأس الكافرين وإن قووا لكنه حكم عزّ وجل.

١٠ ـ جواز استعمال اسم التفضيل في الصفات المشتركة بين الله وبين الخلق، تؤخذ من قوله: ﴿أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾، وهذا ليس الجواز الذي هو ضد المحرم، لكن الجواز الذي هو ضد المستحيل، فيكون هذا واجباً.

وقد تعجب من بعض العلماء رحمهم الله أنهم يمتنعون من إطلاق اسم التفضيل، ويحولونه إلى اسم فاعل خوفاً من تنقص الله عزّ وجل، فيقولون: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ [الأنعام: ١١٧]؛ أي: إن ربك هو عالم، سبحان الله! أنت أعلم بالله من نفسه؟! الله سبحانه يقول عن نفسه: أعلم، وأنت تقول: عالم، ثم إنك أيها المسكين! إذا قلت: الله عالم، جعلته مع الخلق مشاركاً على وجه السواء، لكن إذا قلت: أعلم، جعلته أعلم من الخلق، ولا يمكن أن يكونوا مثله، والإنسان إذا أراد الحق تبين له طريق الحق، والأمر واضح.

وعلى هذا فنقول: استعمال اسم التفضيل في الصفات المشتركة بين الله وبين الخلق هو الواجب، فللإنسان علم والله

أعلم، وللإنسان قدرة والله أقدر، له قوة والله أقوى، له سمع والله أسمع، له بصر والله أبصر.. وهلم جرا.

١١ ـ إثبات البأس والتنكيل لله عزّ وجل، وهذا أيضاً جاء في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]، ينكل الخلق: أي: يحذرهم من أن يقعوا فيما يكون سبباً لعقوبتهم.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ [النساء: ٨٥].

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾، ﴿مَّن﴾: هذه شرطية، وفعل الشرط قوله: ﴿يَشْفَعْ﴾، ولا يجوز أن يقال: يشفعُ؛ لأن «مَنْ» الشرطية تجزم، وجواب الشرط قوله: ﴿يَكُن﴾.

والشفاعة هي: جعل الوتر شِفعاً، يقال: شفع الشيء؛ أي: جعله شفعاً بعد أن كان وتراً، فإذا جعلت الثلاثة أربعة، فهذا شفع، والخمسة ستة فهذا شفع.

وفي الاصطلاح هي: التوسط للغير لجلب منفعة أو دفع مضرة، فشفاعة رسول الله ﷺ في أهل الموقف أن يقضى بينهم من دفع المضرة، وفي أهل الجنة أن يدخلوها من جلب المنفعة.

وهنا يقول الله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾، إما أن يكون المراد حسنة بالنسبة للمشفوع له، وإن لم تكن من الحسنات الشرعية، وإما أن تكون حسنة أي: من الحسنات الشرعية،

وكلاهما صحيح؛ أي: من يشفع شفاعة حسنة شرعاً، أو حسنة باعتبار المشفوع له، والآية تحتمل المعنيين، وإذا كانت الآية تحتمل معنيين لا منافاة بينهما فالواجب حملها عليهما جميعاً، لما في كلام الله عزّ وجل من سعة المعنى، أما إذا كان أحدهما لا يتفق مع الآخر فالواجب طلب المرجح ليؤخذ به.

وقوله: ﴿حَسَنَةً﴾، الحسنة: ما يحسن فعله من قول أو فعل.

قوله: ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾: أي: حظ وجزء، مما شفع؛ لأنه أعان على الخير على أحد الاحتمالين السابقين، أو نصر أخاه على الاحتمال الثاني.

وقوله: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ يقال فيها كما قيل في الأولى: فمن يشفع شفاعة سيئة؛ أي: يشارك ذا سيئة في سيئته؛ أي: فيكون شفعاً له، أو المعنى: يشفع لأحد شفاعة سيئة، مثل أن يشفع له في الوصول إلى شيء محرم، فهذه شفاعة سيئة.

وقوله: ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ الكفل: هو النصيب، وإذا كان هو النصيب فلماذا غاير الله سبحانه بين الحسنة وبين السيئة، فقال في الحسنة: نصيب، وقال: في السيئة: كفل.

الجواب: قيل: إن الكفل هو النصيب فيما يسوء، والنصيب: هو الحظ فيما ينفع، وقيل: إنما غاير بينهما من أجل اختلاف اللفظ؛ لأن اختلاف اللفظ من أساليب البلاغة، حيث لا يتكرر اللفظ مع اللفظ الآخر في مكان واحد.

فعلى المعنى الأول: يكون الخلاف بين النصيب والكفل خلافاً معنوياً، وعلى الثاني: يكون خلافاً لفظياً، لكن المعنى

الأول يرد عليه أن الله سبحانه سمى الأجر والثواب كفلاً، في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]، فيترجح القول الثاني: وهو أنه إنما غاير بينهما من أجل اختلاف اللفظ، حتى لا يرد لفظ واحد في سياق واحد بمعنى واحد.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ «كان» هذه ترد كثيراً في القرآن العظيم، مثل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، وهي هنا لا يراد بها الزمان، وإنما الاتصاف بالمعنى؛ لأن الله لم يزل ولا يزال موصوفاً بالسمع والبصر، والمغفرة والرحمة.. وما أشبه ذلك.

وعلى هذا ﴿كَانَ﴾ هنا في هذا السياق وأمثاله مسلوبة الزمن؛ لأنه لو لم تكن مسلوبة الزمن لكانت دلالتها على أن الله متصف بهذه الصفات في زمن مضى وانقضى.

وقوله: ﴿مُّقِيتًا﴾، معناها: إما مقتدراً وإما حفيظاً، فقال بعضهم: المقيت يعني: الحفيظ، وقال بعضهم: معنى المقيت: المقتدر، وكلاهما صحيح، وقد جاءت هذه الكلمة في اللغة العربية بالمعنيين ولا منافاة بينهما.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ الحث على الشفاعة الحسنة، لقوله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾.

٢ ـ الحث على التعاون على البر والتقوى؛ وذلك بإعطاء المتعاونين نصيباً من الأجر على ما تعاونوا عليه.

٣ ـ التحذير من الشفاعة السيئة.

٤ ـ أن من شارك في عمل سيء كان له نصيب منه، وقد

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

٥ ـ بلاغة القرآن وفصاحته، على القول بأن الاختلاف بين النصيب والكفل لفظي.

٦ ـ أن الله سبحانه مقيت على كل شيء؛ أي: مقتدر عليه، ويلزم من هذا أن يحذر الإنسان من مخالفة الله؛ لأن الله تعالى حفيظ عليه ومقتدر عليه.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء: ٨٦].

الإعراب:

﴿إِذَا﴾ شرطية لكنها غير جازمة، وفعل الشرط فيها قوله: ﴿حُيِّيتُم﴾ وجواب الشرط قوله: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ﴾، و«أَحْسَنَ» هنا نجد أنها دخل عليها حرف الجر، ولكنها لم تكسر؛ لأنها ممنوعة من الصرف، والمانع لها من الصرف: الوصفية، ووزن الفعل.

وقوله: ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾، هذه للتنويع، يعني: هذا أو هذا.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾، وهذه واضحة لا إشكال فيها.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ التحية هي: البقاء، مأخوذة من الحياة، فمعنى حياه أي: دعا له بالحياة والبقاء، ولهذا نقول في قول المصلي: التحيات لله: أي: جميع ألفاظ العظمة والبقاء ثابتة لله.

وقوله: ﴿بِتَحِيَّةٍ﴾ نكرة في سياق الشرط يعم أي تحية، فكل ما يدل على أن هذا تحية فإنه داخل في الآية الكريمة.

وقوله: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾؛ أي: ردوا هذه التحية بأحسن منها، في الكمية والوصفية.

وقوله: ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ أي: حيوا بمثلها.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾؛ أي: محاسباً لكل أحد، كل شيء فالله حسيبه، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨] وقيل: معنى ﴿حَسِيبًا﴾؛ أي: كافياً، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، والمعنيان صحيحان.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ وجوب رد التحية، لقوله: ﴿فَحَيُّواْ﴾، والأصل في الأمر الوجوب.

٢ ـ أن رد التحية يكون على وجهين، مجزئ وأفضل، فالمجزئ مأخوذ من قوله: ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾، والأكمل والأفضل من قوله: ﴿بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾، وقدم الأحسن على المثل لأنه أكمل وأفضل.

٣ ـ مراعاة الإسلام للعدل، لقوله: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾.

٤ ـ الآية عامة في كل من ألقى إلينا التحية أن نحييه بمثل ما حيانا أو أكمل، سواء كان مسلماً أو كافراً، صغيراً أو كبيراً؛ لأن الآية عامة، ولهذا قال: ﴿حُيِّيتُم﴾ بالبناء للمجهول ولم يقل حياكم المسلمون.

وبناءً على ذلك نقول: إذا سلم علينا أهل الكتاب فقالوا: السلام عليكم، بلفظ صريح، فنقول: وعليكم السلام، أما إذا قالوها بلفظ محتمل فإننا نقول: وعليكم، فقط.

٥ ـ أنه لا يجزئ الرد بغير السلام، فإذا قال المسلم: السلام عليك، فقلت: أهلاً وسهلاً، فلا يجزئ؛ لأن هذه التحية ليست مثلها ولا أحسن منها، إذ إن قول المسلم: السلام عليكم، دعاء لك بالسلامة من كل الآفات البدنية والمالية والقلبية وغيرها.

لكن أهلاً وسهلاً لا تفيد إلا مجرد الترحيب باللسان، فهي ليست مثلها وليست أحسن منها.

٦ ـ أنه يطلب من المُسَلم عليه أن يرد بأكمل إما بالكمية وإما بالكيفية، فإذا قال: السلام عليك فالأحسن: عليك السلام ورحمة الله، هذا بالكمية.

إما الكيفية: فإذا قال: السلام عليك، بصوت مرتفع مسموع يدل على التواضع فقلت: عليك السلام، بصوت مثله أو أبين فهذا رد صحيح بالكيفية، لكن لو قال: السلام عليك، بلفظ بين صريح رفيع ثم رددت عليه بأنفك بصوت ربما يُسمع وربما لا يُسمع، فأنت لم ترد ولم تقم بالواجب، بل أنت آثم؛ لأن الله أمر بردها أو بأحسن منها.

٧ ـ أنه لو حياك إنسان بقوله: أهلاً وسهلاً فقلت: أهلاً وسهلاً بك، فإن ذلك جائز، لكن يحسن ولا سيما لطلبة العلم أن يبينوا لهذا الرجل أن السلام المشروع هو: السلام عليك.

ثم إن للسلام آداباً معروفة مطولة مبسوطة في كتب أهل العلم، ففي كتب الفقهاء ذكروا كثيراً من آداب السلام في آخر

كتاب الجنائز، حين ذكروا السلام على المقابر تطرقوا إلى السلام على الأحياء، وفي كتب الآداب أيضاً شيء كثير من هذا.

٨ ـ أن الله عزّ وجل حسيب على كل شيء، يعني: أنه يحاسب كل من عمل عملاً بما يقتضيه عمله، وهذا على أحد القولين في حسيباً، وعلى القول الثاني: أنه كافٍ من توكل عليه.

٩ ـ التحذير من عدم رد التحية بمثلها أو أحسن، يؤخذ من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ يعني: فاحذر أن تتعرض لمحاسبة الله عزّ وجل.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧].

أولاً: الإعراب:

الاسم الكريم ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ خبر المبتدأ، و﴿إِلَٰهَ﴾ اسم لا، وخبرها محذوف تقديره «حق»، و ﴿هُوَۚ﴾ الواقع بعد ﴿إِلَّا﴾ بدل من الخبر المحذوف، وهذا أحسن ما قيل في إعرابها.

وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ اللام: واقعة في جواب قسم مقدر والتقدير: والله! ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾، وعليه فتكون هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، وهي: القسم المقدر، واللام، ونون التوكيد.

وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِۗ﴾ هذه: ﴿لَا﴾ النافية للجنس، واسمها قوله: ﴿رَيْبَ﴾، وخبرها قوله: ﴿فِيهِۗ﴾.

وهل النفي هنا بمعنى الطلب؟ أي: لا ترتب فيه، أو هو

خبر على ظاهره؟ الجواب فيه قولان للعلماء، والصحيح: أنه خبر على ظاهره.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾ ﴿مَنْ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿أَصْدَقُ﴾ خبر، والاستفهام هنا بمعنى النفي؛ أي: لا أحد أصدق من الله حديثاً.

وقوله: ﴿حَدِيثًا﴾ تمييز؛ لأنها وقعت مبينة لاسم التفضيل، وكل ما وقع مبيناً لاسم التفضيل فهو تمييز؛ لأن التمييز يبين ما انبهم من الذوات.

يقول الله عزّ وجل: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذا خبر من أصدق الأخبار، فإنه لا إله إلا الله، والإله بمعنى المألوه أي: المعبود حباً وتعظيماً.

وقال بعضهم: إن الإله من قُصِد بالعبادة، وليس المألوه حباً وتعظيماً، واستدلوا بحديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه، حين قالوا: اجعل لنا ذات أنواط، فأنكر عليهم ﷺ بالآية[1]، فهم لم يحبوها وإنما أرادوا التبرك بها، فكيف نجيبهم؟

الجواب: نجيب عن هذا بأنهم قالوا: اجعل لنا ذات أنواط للتبرك بها، وهذا يتصل بتوحيد الربوبية، ثم إن قولنا: حباً وتعظيماً إنما هو للإله الحق، وقد يكون للباطل بما قام في قلب العابد من شبهة، فقد يحب الأصنام ويعظمها، ولهذا افتخر بها أبو سفيان في أُحد، وقال: أعل هبل، ولهذا كان يحلفون بها، وكل هذا يدل على تعظيمها، لكنها ليست أهلاً للتعظيم.

وقوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الضمير يعود على الله عزّ وجل، فلا

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم (٢١٨٠).

معبود حقٌّ إلا الله، وكل ما عبد من دون الله فهو باطل، لقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢].

وهذا المعبود من دون الله يُسمى إلهاً، ولكنها تسمية لفظية لا حقيقية، لقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ [يوسف: ٤٠] يعني: بدون مسميات ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠]، ولقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود: ١٠١]، ولقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩] فكل معبود فهو إله، لكن منه ما هو بحق ومنه ما هو بباطل.

وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أقسم الله عزّ وجل وهو الصادق أنه سيجمعنا إلى يوم القيامة، يجمع الأولين والآخرين وكل ما فيه روح، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ [التكوير: ٤ ـ ٥] فكل شيء يبعث يوم القيامة ويجمع، وإنما أكد الله ذلك لسببين:

السبب الأول: أن فيه من ينكر هذا الجمع، قال الله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ﴾ [التغابن: ٧].

فإن قال قائل: هذا السبب لا ينفع فيمن ينكره؛ لأن الذي ينكر سينكر سواء أقسم له أم لم يقسم، فالمنكر لا يفيد فيه القسم.

قلنا: هذا إذا أكد له الكلام وأنكر بعد التأكيد صار إنكاره مكابرة، لقيام ما يدل على تأكد هذا الشيء، هذا **أولاً**.

ثانياً: أنه جرت عادة العرب ـ والقرآن بلسان عربي ـ أنهم

يؤكدون الحكم فيما إذا كان المخاطب منكراً، ويقولون: إنه يجب أن يكون الكلام مؤكداً.

السبب الثاني للتأكيد: أن هذا من أهم الأمور، وكلما كان الشيء مهما كان توكيده أوكد، حتى لا يبقى في النفوس شك أو تردد، ولا شك أن من أهم الأمور بعد الإيمان بالله أن تؤمن باليوم الآخر؛ لأن من لم يؤمن باليوم الآخر لا يمكن أن يعمل، فإذا قال: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤] فما الفائدة من العمل، فصار التوكيد هنا لسببين.

وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يوم القيامة هو اليوم الذي يبعث فيه الناس، وسمي يوم القيامة لأمور ثلاثة:

الأول: أن الناس يقومون فيه من قبورهم لله، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٦].

الثاني: أنه يقام فيه العدل، لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

الثالث: أنه يقوم فيه الأشهاد، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ۝٥١﴾ [غافر: ٥١]، ولهذا سمي هذا اليوم ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، وله أسماء كثيرة في القرآن، يذكره الله تعالى بها حسب ما يقتضيه السياق.

وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الريب هو الشك مع القلق، وهذه الجملة خبرية في ظاهرها، لكن اختلف المفسرون هل هي خبرية محضة أو هي خبرية طلبية أي: أنها خبر بمعنى النهي؟ الجواب في ذلك قولان، والراجح: أنها خبرية محضة؛ لأن الخبر

المحض يفيد استقرار الشيء وثبوته، سواء آمن به الإنسان أم لم يؤمن، وأنه شيء مستقر ليس فيه إشكال.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ يعني: لا أحد أصدق من الله، فالاستفهام هنا بمعنى النفي، والنكتة البلاغية في كون النفي يأتي بصيغة الاستفهام هو أنه إذا أتى بصيغة الاستفهام صار مشرباً معنى التحدي، يعني: كأن المتكلم يتحدى المخاطب، ويقول: بيِّن لي من أصدق من الله حديثاً! فهو متضمن للنفي بلا شك، ومتضمن للتحدي.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ انفراد الله تعالى بالألوهية، لقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وأنكر انفراده بالألوهية كفار قريش، وقالوا للرسول ﷺ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥].

وأنكر توحيد الربوبية فرعون، لكن فرعون حينما أنكر لم ينكر حقيقة وإنما بلسانه، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، وقال له موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] ولم ينكر عليه، ويقول: ما علمت.

وأما توحيد الأسماء والصفات فأنكره كثير، حتى من أهل الملة الذين ينتسبون للإسلام من أنكروا توحيد الأسماء والصفات، فمنهم من عطل، ومنهم من مثل، وكلاهما يعتبر منكراً.

٢ ـ إثبات الجمع يوم القيامة لقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وهذا دل عليه آيات كثيرة، مثل قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ

وَٱلْأَخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩ ـ ٥٠].

٣ ـ إثبات يوم القيامة، لقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، والإيمان به أحد أركان الإيمان الستة، لقول النبي ﷺ في جواب جبريل: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**»[1]، فاليوم الآخر هو يوم القيامة.

٤ ـ وجوب الإيمان باليوم الآخر على وجه لا شك معه، لقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فيجب علينا أن نؤمن بأن الله يجمعنا يوم القيامة إيماناً لا شك معه، ولا تردد فيه.

٥ ـ إثبات الكلام لله عزّ وجل، يؤخذ من قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾، نأخذ هنا من قوله: ﴿أَصْدَقُ﴾ ومن قوله: ﴿حَدِيثًا﴾.

والصدق إنما يوصف به الكلام، والحديث هو الكلام، وعلى هذا فيكون إثبات كلام الله عزّ وجل من الكلمتين جميعاً.

والصدق هو مطابقة الخبر للواقع، ومطابقة الواقع للخبر فما دمنا قلنا: مطابقة فهي مفاعلة تكون من جانبين.

٦ ـ أن كلام الله تعالى وخبره صدق لا كذب فيه بوجه من الوجوه، لقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾ أي: من اسم التفضيل؛ لأن اسم التفضيل يجعل المفضل في قمة الوصف، وعلى هذا فليس في كلام الله سبحانه تعالى شيء من الكذب إطلاقاً.

٧ ـ وجوب الإيمان بما أخبر الله به عن نفسه وعن أمور الغيب كلها، لقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾، فإذا أخبر الله عن نفسه بشيء، أو عن الأمور الغائبة بشيء وجب علينا تصديقه.

---

(١) تقدم (١/ ٤٣١).

٨ ـ وصف كلام الله تعالى بالحديث لقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ وهو كذلك، لكن هل الحديث بمعنى الخبر، أو يجوز أن يكون المراد به أنه حادث لتكلم الله به؟ الجواب: الثاني هو المراد، فكلام الله عزّ وجل باعتبار أصله من الصفات الذاتية؛ لأنه تعالى لم يزل ولا يزال متكلماً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

فإن قال قائل: فهل عندكم دليل على أن كلام الله حادث، يعني: باعتبار آحاده؟

قلنا: هناك أدلة، وليس دليلاً واحداً، استمع إلى قول الله تبارك تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]، فإن «قد» للتحقيق و﴿سَمِعَ﴾ فعل ماضٍ يقتضي أن يكون المسموع سابقاً للخبر عنه، وأن الخبر عنه لاحق، ومعلوم إن المرأة إنما شكت إلى النبي عليه الصلاة والسلام في أمر حادث.

وقال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]، والآيات في هذا كثيرة.

فإن قيل: إذا قلت بأن كلام الله حادث لزم أن يكون الله تعالى حادثاً؛ لأن الحوادث لا تكون إلا من حادث! فالجواب: هذا غير صحيح، فلا يلزم من قيام الحوادث بالله عزّ وجل أن يكون هو حادثاً، أليس الله تعالى يقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، و﴿ثُمَّ﴾ تفيد الترتيب.

إذاً: الاستواء فعل كان بعد خلق السماوات والأرض،

فقامت به الأفعال الاختيارية، ولا شك أن قيام الأفعال الاختيارية بالله عزّ وجل من كمال الله، فمن كماله أن يكون فاعلاً متى شاء فعل ومتى شاء لم يفعل، وأما من قال: إنه يلزم من قيام الحوادث به أن يكون حادثاً فهذه قضية غير مسلمة ولا صحيحة.

والمخلوق والحادث بينهما فرق عظيم، فالحادث قد يكون صفة وقد يكون مخلوقاً بائناً، فكلام الله عزّ وجل ليس مخلوقاً بائناً عن الله، لكنه يتكلم به، وكلامه به الآن ليس أزلياً، بل هو حادث.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾ [النساء: ٨٨].

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ الخطاب في قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ للصحابة رضي الله عنهم، و«ما» اسم استفهام مبتدأ، والمراد بالاستفهام هنا الإنكار عليهم وقوله: ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، يعني: أي شيء لكم في المنافقين تختلفون فتكونون فئتين؟ وذلك أن الصحابة رضي الله عنهم بعد رجوع من رجع من المنافقين من أُحد ـ وكان الذين رجعوا من الجيش في أُحد نحو الثلث كلهم منافقون ـ اختلف الصحابة فيما بعد، فقال بعضهم: نقتلهم لأنهم خانوا وتبينت ردتهم، وقال آخرون: لا نقتلهم لأنهم يتظاهرون بالإسلام، فاختلفوا وتنازعوا وصار المسلمون فئتين، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿فِئَتَيْنِ﴾ خبراً لصار المحذوفة، والتقدير: «فما لكم في المنافقين صرتم فئتين» أو «كنتم فئتين» وكلاهما صحيح.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾ الإركاس بمعنى: الرد والإرجاع، لكن على وجه مذموم.

وقوله: ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾ الباء للسببية، و«ما» يجوز في إعرابها أن تكون مصدرية، ويكون التقدير أركسهم بكسبهم، ويجوز أن تكون موصولة ويكون التقدير بالذي كسبوه، فإذا كان الله أركسهم بما كسبوا فالصواب مع من قال: إنهم كافرون مرتدون. أما مسألة المقاتلة فسيأتي التفصيل فيها في الآيات.

قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ وهذا الاستفهام استفهام توبيخ، والإرادة هنا بمعنى المحبة، أو بمعنى المشيئة وكلاهما صحيح، يعني: أتشاءون أن تهدوا من أضل الله، أو أتحبون أن تهدوا من أضل الله؟

والجواب: ليس لكم ذلك؛ لأن من يرد الله أن يضله فإنه ليس له من الله ولي ولا نصير.

وقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ الاسم الكريم ﴿ٱللَّهُۖ﴾ بالرفع على أنه فاعل، وعلى هذا فيكون «أضل» فيها ضمير محذوف، هو عائد الصلة، والتقدير: «من أضله الله».

قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ ﴿مَنْ﴾ هذه شرطية، والدليل على أنها شرطية أن الفعل بعدها وقع مجزوماً، ولكنه حرك بالكسر لالتقاء الساكنين، وقد قال ابن مالك في الكافية:

إن ساكنان التقيا اكسر ما سبق وإن يكن ليناً فحذفه استحق

يعني: إن كان حرف علة احذفه، وإذا كان ساكناً اكسره.

وقوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ هذه الجملة جواب الشرط،

واقترنت بالفاء؛ لأن الجواب لا يصح أن يكون فعلاً للشرط، ومتى امتنع أن يكون الجواب فعلاً للشرط وجب اقترانه بالفاء، وقد جُمعت المواضع التي يقترن الجواب فيها بالفاء في بيت:

اسمية طلبية وبجامد وبما وقد وبلن وبالتنفيس

وقوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ قد يقول قائل: كيف كانت بالإفراد، والخطاب الذي قبلها بالجمع في قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾؟

قلنا: كأن هذه الجملة ـ والله أعلم ـ انفصلت عما قبلها، وصار المراد بها المخاطب، يعني: فلن تجد أيها المخاطب! له سبيلاً، ومعنى: ﴿سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً إلى الهداية.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ الإنكار على المؤمنين في الاختلاف في المنافقين، لقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾.

ويترتب على هذه الفائدة أن هذا يوحي بذم الاختلاف، وذم الاختلاف أمر ثابت؛ لأن هذه الأمة أوصيت بأن تقيم الدين ولا تتفرق فيه، والاختلاف تفرق، بل قد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

٢ ـ أن الإنسان يُركس ويُرد على الوجه المذموم بسبب عمله، ويؤخذ من قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ﴾.

٣ ـ إثبات الأسباب، ويؤخذ من قوله: ﴿بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ﴾ لأن الباء السببية.

والناس في الأسباب طرفان ووسط: فمن الناس من أنكر

تأثير الأسباب إطلاقاً، وقال: لا أثر للسبب في المسبب، حتى كابروا المعقول والمحسوس، وقالوا: لو رميت الزجاجة بحجر فانكسرت فإن الحجر لم يكسرها ولكن انكسرت الزجاجة عنده لا به، قالوا: لأننا لو أثبتنا تأثير الأسباب لأثبتنا خالقاً مع الله، سبحان الله! وهذا القول إذا نسب للإسلام سوف يكون مثاراً للقدح في الإسلام؛ لأن غير المسلمين يشاهدون أن الأسباب تؤثر.

الطرف الثاني: من يقول: إن الأسباب لها تأثير بمقتضى طبيعتها لا بأن الله سبحانه جعل فيها القوة المؤثرة، وهؤلاء قد ضلوا وأشركوا، وجعلوا مع الله شريكاً، وهؤلاء أيضاً على ضلال.

والقسم الثالث: الذين قالوا: إن للأسباب تأثيراً بما أودع الله فيها من القوة الفاعلة، وليست هي التي تفعل، وهؤلاء هم أهل الحق وأهل الصواب، فالله تعالى هو الذي جعل الإحراق في النار فتحرق، وجعل الكسر في الحجر الذي يقع على الزجاج فينكسر.

والدليل على هذا: أن الله تعالى قال في نار إبراهيم: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، وطبيعة النار الحرارة والإحراق والإهلاك، لكن قال لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فكانت برداً وسلاماً عليه.

إذاً: الأسباب لا تؤثر بذاتها، ولكن بما أودع الله فيها من القوى الفاعلة.

٤ ـ أن الأعمال قد تكون سبباً لردة الإنسان بكثرة معاصيه،

فالسيئة تجذب السيئة، والصغائر بريد الكبائر، والكبائر بريد الكفر، وهذا واضح، يؤخذ هذا من قوله: ﴿أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾، فإذا رأيت من نفسك إركاساً ـ والعياذ بالله ـ فانتشلها بالتوبة والاستغفار لله عزّ وجل، وسؤال الله الثبات، ولا تتهاون، ولا تقل: إن شاء الله سيقوى إيماني، بل من الآن، من حين أن تحس بالمرض فعليك بالدواء.

٥ ـ الرد على الجبرية، ويؤخذ من قوله: ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾، فأثبت لهم كسباً، والجبرية يقولون: إن الإنسان لا كسب له، وعمله مجبر عليه.

٦ ـ الرد على القدرية أيضاً، ويؤخذ من قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾، والقدرية يقولون: إن أفعال العباد لا علاقة لتقدير الله بها إطلاقاً، فصار في الآية رد على كلتا الطائفتين المنحرفتين المبتدعتين، وأهل السنة والجماعة يقولون: للإنسان فعل ينسب إليه حقيقة، والمقدر لهذا الفعل هو الله عزّ وجل، وهذا هو المطابق للمنقول والمعقول والمحسوس.

٧ ـ توبيخ أولئك المؤمنين الذين يريدون أن يهدوا من أضل الله، لقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾.

فإن قال قائل: يشكل على هذا إشكالاً كبيراً الدعوةُ إلى الله عزّ وجل، ومحاولة إصلاح الخلق، فإن الداعي يريد أن يهتدي المدعوون؟

فيقال: **الجواب عن هذا**: أن الله أنكر على هؤلاء الذين يشاهدون أن الله أضل هؤلاء بالنفاق ـ والعياذ بالله ـ ! ويحاولون أن يحكموا بإسلامهم، ويقولون: إنهم مسلمون كما هي الفئة الثانية.

٨ ـ أن الهداية والإضلال بيد الله، ويتفرع على هذه الفائدة: أن لا تسأل الهداية من الضلال إلا من الله عزّ وجل، وأن تجعل سؤالك لبعض الناس كيف اهتدى تجعله سؤالاً عن السبب والطريق، وأما الذي بيده أزِمَّة الأمور فهو الله عزّ وجل، ولهذا قال الله لنبيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

٩ ـ إن من قدَّر الله إضلاله فإنه لا يمكن لأحد أن يقوم بهدايته، لقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾.

فإن قيل: هذا يقتضي أن يكون للعاصي حجة على معصيته، فيقول: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾.

فالجواب عن هذا: أن يقال: لا حجة في هذا للعاصي إطلاقاً، وذلك لأن الإنسان لا يعرف أن الله أضله إلا بعد أن يضل هو، وضلاله هو صادر عن إرادته؛ أي: إرادة الإنسان وقدرته، فهو الفاعل، وهو الذي أضل نفسه، لكن لا يعلم أن الله قدر عليه الضلال إلا بعد وقوعه، فكيف يحتج بحجة لا يعلم بها إلا بعد وقوعها؟! فهذا باطل.

١٠ ـ بيان أن الأمور بيد الله سبحانه، لقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، وإذا آمنت بذلك فلن تسأل الهداية إلا من الله عزّ وجل.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ [النساء: ٨٩].

﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ ﴿وَدُّواْ﴾ الفاعل هم المنافقون؛ لأن السياق فيهم.

وقوله: ﴿لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ ﴿لَوۡ﴾ هنا مصدرية؛ أي: ودوا كفركم، فهي بمنزلة «أن» و«لو» تأتي لمعانٍ متعددة، تأتي مصدرية كما هنا، وتأتي للتمني، وتأتي شرطية، وتكون حرف امتناع لامتناع، وإذا أردت أن تعرف معاني الحروف فعليك بكتاب «المغني» لابن هشام رحمه الله، فإنه يأتي بالكلمة ويبين معانيها.

يقول عزّ وجل: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ أي: ككفرهم، وعلى هذا فـ«ما» هنا مصدرية، ولا يصح أن تكون موصولة؛ لأن المراد ودوا لو تكفرون ككفرهم.

وكفر المنافقين كفر غريب، فهم كما قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ [البقرة: ١٤] فهو كفر مستور، ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب، هم يودون أن كل الناس يفعلون هكذا مع النبي عليه الصلاة والسلام، فيؤمنون ظاهراً ويكفرون باطناً؛ ولهذا قال الله عزّ وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]؛ أي: أن قومهم كذبوهم في دعوى الإيمان بهم، فقالوا: إنهم مؤمنون وهم لم يؤمنوا، هذا معنى قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾، وفيها قراءة سبعية «وظنوا أنهم قد كُذِّبُوا» أي: أيقنوا أنهم مكذبون، ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾.

قوله: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ هنا الفاء عاطفة، وليست جواب «لو»؛ لأن «لو» ليست شرطية، وقوله: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ أي:

فتكونون معهم سواءً لا فضل لكم عليهم، وهذا بمقتضى طبيعة الإنسان أنه يود إذا سلك منهجاً أن يسلكه الناس معه، فكل إنسان سواء صاحب الخير أو صاحب الشر يود إذا سلك منهجاً أن يسلكه الناس، وهؤلاء ودوا أنَّ المؤمنين يكفرون كما كفروا ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾.

قال الله تعالى محذراً عنهم وعن موالاتهم: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: يوالونكم أو توالونهم، يعني: لا تتخذوا منهم أولياء؛ لأنهم أعداء، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]، وكذلك لا تتخذوا منهم أولياء توالونهم أنتم؛ لأن موالاة الكفار كفر.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾ هنا للغاية، يعني: استمروا في عداوتهم ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

واعلم أن ﴿حَتَّىٰ﴾ تكون غاية، وتكون علة، ففي قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ [المنافقون: ٧] يتعين أنها علة، وفي قوله: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١] هذه غاية، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تتخذوا أولياء توالونهم أو يوالونكم، أما كونكم لا توالونهم فظاهر؛ لأنهم لم يتموا ما عليهم من المهاجرة، وأما كونكم لا تطمعون في أن يكون أولياء لكم؛ فلأن من كان على غير دينك لا يمكن أن يعينك أو أن ينصرك.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اختلف في المراد

بالهجرة هنا: فقيل: المراد حتى يهاجروا من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، فإن كانوا في بادية وجب عليهم أن يهاجروا إلى المدينة، وإن كانوا في مكة فكذلك، وقيل المراد بالهجرة: الخروج مع النبي ﷺ للجهاد؛ لأن من خرج في الجهاد فقد هاجر؛ أي: ترك بلده إلى ميدان المعركة.

وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: في الطريق الموصلة إليه وهي دينه.

واعلم أن الله سبحانه أضاف السبيل إليه في عدة آيات مثل هذه الآية وأشباهها كثير، ومثل قوله تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧]؛ أي: طريقك، وسمي سبيل الله؛ لأن الله تعالى هو الذي وضعه لعباده، وهو ـ أي: هذا السبيل ـ يوصل إلى الله، فالواضع له هو الله، وهو يوصل إلى الله عزّ وجل، وقد أضافه الله تعالى إلى المؤمنين في قوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥]، وإضافته إلى المؤمنين باعتبار أنهم سالكوه، فصار إضافة السبيل إما إلى الله وإما إلى المؤمنين، فأما إضافتها إلى الله فلوجهين:

الأول: أن الله هو الذي وضعه لعباده حتى يسيروا عليه.

والثاني: أنه موصل إلى الله عزّ وجل.

وأما إضافته إلى المؤمنين فباعتبار أنهم سالكوه.

ومثل ذلك أيضاً يقال في الصراط، فإن الله أضافه إلى نفسه في قوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ [الشورى: ٥٣]، وفي قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وأضافه أيضاً إلى الذين أنعم الله عليهم في قوله: ﴿صِرَٰطَ

﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، ويقال: في توجيهه ما قيل في توجيه السبيل.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تولوا عن الهجرة في سبيل الله، ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ يعني: إذا وجدتموهم فخذوهم أسرى، بدليل قوله: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ فالأخذ أسر، والقتل إزهاق الروح، قوله ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي: في أي مكان وجدتموهم، سواء وجدتموهم في البر أو في بلادهم أو في غير ذلك، ما داموا لم يهاجروا في سبيل الله وتولوا عن سبيل الله.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ كررَّه مرة أخرى إما تمهيداً لقوله: ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ وإما من باب التوكيد، وإما للأمرين جميعاً؛ لأن قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا﴾ هو كقوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، لكن هنا زاد قال: ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾.

والفرق بين الولي والنصير: أن النصير هو من يدافع عنك ممن يعتدي عليك، فهو ينصرك، وأما الولي فهو الذي يتولاك بالعناية، وبتحصيل مطلوبك ودفع مرهوبك.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الكفار يودون بكل المحبة أن يكفر المؤمنون كما كفروا، لقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾، ويتفرع على هذه الفائدة أنهم إذا كان هذا ودهم فسوف يسعون إليه بكل وسيلة، سواء كانت الوسيلة في تدمير الاقتصاد، أو بالسلاح، أو بنشر الأخلاق الرذيلة السافلة؛ لأن الأخلاق الرذيلة السافلة إذا انتشرت في الأمة فعليها الوداع.

المهم أننا ما دمنا نعلم أنهم يودون أن نكفر كما كفروا

فلا بد أن يسعوا لذلك بكل طريقة، بالتهديد تارة، وبالترغيب تارة، وبتسهيل الباطل تارة، وكما نشاهد الآن أن دول الكفر تلعب لعباً لا يستهان به بدول المسلمين.

٢ ـ أن بني آدم بطبيعتهم يتسلى بعضهم ببعض، ويقوى بعضهم ببعض، لقوله تعالى: ﴿كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾، ولا شك أنه إذا أشترك أحد معك فيما أصابك فإنه تشجيع لك، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف: ٣٩]، بينما في الدنيا إذا تشارك المجرمون في العذاب هان عليهم، كما قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أسلي النفس عنه بالتأسي

فالحاصل أن الاشتراك في العقوبة يخففه، وهنا الاشتراك في الكفر يهون الكفر على أصحابه.

٣ ـ اعتزاز الكفار بمن يدخل في دينهم، لقوله: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾.

٤ ـ تحريم اتخاذ أولياء من الكفار حتى يهاجروا في سبيل الله، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ أن من لم يهاجر في سبيل الله فإن هذا دليل على عدم صدقه في إيمانه؛ لأنه متى صدق الإنسان في إيمانه فسوف يدع الغالي والرخيص من أجل الحفاظ على هذا الإيمان.

٦ ـ الإشارة إلى الإخلاص، وتؤخذ من قوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٧ ـ أن من تولى عن الهجرة في سبيل الله فإنه ليس ولياً لنا، ويجب علينا مقاتلته، لقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾؛ وذلك لأنه لا إيمان ولا عهد لهم لكونهم تولوا عن دين الله ولم يهاجروا في سبيل الله.

٨ ـ تأكيد النهي عن اتخاذ الأولياء من الكفار؛ لقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذه الآية وبين محالفة النبي ﷺ لخزاعة بعد صلح الحديبية؟

فالجواب: أن المراد باتخاذ الأولياء أن ينصرهم الإنسان ويناصرهم على من قاتلوه وحاربوه، سواء كان مسلماً أو كافراً، وأما مجرد أن يتخذ معهم حلفاً يتقوى بهم ويدفع بهم شروراً كثيرة فهذا لا بأس به عند الحاجة إليه؛ لأن النبي ﷺ أقر ذلك في صلح الحديبية.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾ [النساء: ٩٠].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ هذا استثناء من قوله: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

فقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ يعني: إلا قوماً وصلوا إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، واستجاروا بهم،

وعقدوا معهم الأحلاف، فهؤلاء ليس لهم حكم من سبقهم، ولهذا قال: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ إلى آخره.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ الميثاق هو: العهد المؤكد، مأخوذ من الوثاق الذي هو الرباط الذي يربط به الشيء.

وقوله: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ هذه معطوفة على ﴿يَصِلُونَ﴾، يعني: أو الذين جاءوكم، يعني: لم يلتجئوا إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، ولكنهم جاءوا إليكم.

وقوله: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ ﴿حَصِرَتْ﴾ بمعنى: ضاقت ولم تتسع للقتال، والجملة في قوله: ﴿حَصِرَتْ﴾ قيل: إنها في موضع نصب على الحال، على تقدير قد؛ أي: قد حصرت صدورهم ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾.

وقوله: ﴿أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ هؤلاء الآن جاءوا إلى المسلمين لئلا يقاتلوا المسلمين مع قومهم، ولكنهم لا يقاتلون قومهم مع المسلمين، ولهذا قال: ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ يعني: مع قومهم: ﴿أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ يعني: معكم، فهؤلاء قوم مسالمون.

قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ يعني: هؤلاء الذين جاءوكم. وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ ﴿لَوْ﴾ هذه شرطية، وفعل الشرط. قوله: ﴿شَآءَ﴾ وجوابه قوله: ﴿لَسَلَّطَهُمْ﴾ وقوله: ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ هذه معطوفة على جواب «لو» بإعادة اللام الرابطة؛ ولهذا لو حذفت وقيل: لسلطهم عليكم فقاتلوكم لاستقام الكلام، إذاً: فهي اللام الأولى أعيدت للتأكيد.

وقوله: ﴿لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لجعل لهم سلطاناً عليكم

بالمقاتلة، وهل شاء الله ذلك؟ الجواب: لا. لأنهم لم يقاتلوا المسلمين.

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾ فسرها بقوله: ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾؛ أي: اعتزلوكم فلم يكونوا معكم، ولم يقاتلوكم، وألقوا إليكم السلم؛ أي: السلام.

وقوله: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ لأنهم قوم مسالمون لم يقاتلوكم، ولم يقاتلوا قومهم، فهؤلاء مسالمون.

وقوله: ﴿فَمَا جَعَلَ﴾ هذه جواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾، ومعنى ﴿سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً يبيح لكم قتالهم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ استثناء هؤلاء الصنف من الناس ممن أمرنا بقتالهم، وهم طائفتان: طائفة وصلوا إلى قوم بيننا وبينهم ميثاق ودخلوا فيهم.

والطائفة الثانية: قدموا وجاءوا إلينا فلم يقاتلونا مع قومهم، ولم يقاتلوا قومهم معنا، فهم مسالمون.

٢ ـ تمام وفاء الإسلام بالعهد، حيث حمى العهد لمن باشر عقد العهد معنا ومن لجأ إليه، ويؤخذ من قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ الآية.

٣ ـ أن من سالمنا سالمناه؛ لقوله: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾، وفي الجهاد تكون الهدنة، وهل يصح أن تزيد على عشر سنوات؟ الصحيح: أنه تصح الهدنة المطلقة المبنية على ضعفنا، ولنا إذا قوينا أن ننبذ إليهم.

٤ ـ إثبات مشيئة الله سبحانه، لقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

٥ ـ أن أفعال العباد واقعة بمشيئة الله، لقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ﴾، فيستفاد منها الرد على طائفة مبتدعة زائغة وهم: القدرية، الذين يقولون: إن فعل الإنسان مستقل به لا علاقة لله به، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

٦ ـ وفي قوله: ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ الرد على الجبرية حيث نسب القتال إلى الإنسان، وهم لا ينسبون الفعل إلى الإنسان إلا على سبيل المجاز، فمثلاً: يقولون: الرجل إذا صلى إنما صلى على سبيل المجاز، وإلا في الحقيقة أنه أجبر على الصلاة.

٧ ـ أنه إذا اعتزلنا من بيننا وبينه عهد وأمان، ولم يقاتل، وألقى السلم وجب الكف عنه، لقوله: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

٨ ـ الحاصل بالمفهوم أنهم لو أخذوا منا الميثاق ولكنهم خانوا فقاتلونا فإن العهد ينتقض، ولا يكون بيننا وبينهم عهد، يؤخذ من مفهوم قوله: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

٩ ـ أن من ألقى السلاح وجب الكف عنه، لقوله: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾، لكن إن خيف أن إلقاءه السلاح خيانة وخداع فإنه لا عبرة بإلقائه؛ لأن العدو قد يلقي السلاح غدراً وخيانة، وقد ينهزم أيضاً أمام جيوشنا غدراً وخيانة، فالواجب التنبه.

فإن قال قائل: كيف نقول فيما وقع من أسامة بن

زيد رضي الله عنه في قتله المشرك بعد أن قال: لا إله إلا الله، فأنبه النبي ﷺ ووبخه، وقال: «**أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله**»[1] مع أن الذي يظهر أنه قالها تعوذاً من القتل؟

قلنا: لا بد من قرينة قوية تدل على أنه يخشى منه الغدر والخيانة، وأما مجرد الظن فلا يكفي؛ لأن الأصل العصمة بالعهد، فيبنى على هذا الأصل حتى يُوجد ما يعارضه.

١٠ ـ أن الشرع منعاً ودفعاً وإذناً كله لله عزّ وجل، لقوله: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾، وهذا يدل على أن الأمر بيد الله، فهو الذي يحكم بما شاء من حل وحرمة وإيجاب وغير ذلك.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾ [النساء: ٩١].

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ السين هنا للتنفيس، وأختها «سوف» للتسويف، والفرق بينهما: أن التسويف متأخر، والتنفيس حاضر، وكلتاهما تفيدان التقرير والثبوت والتحقيق، فمثلاً إذا قلت: أنت سوف تجد زيداً، وأنت ستجد زيداً فكلتاهما تفيد التوكيد والثبوت، ولكن سوف للتراخي والسين للقرب.

---

(١) تقدم (١/١٤٩).

وقوله: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ هؤلاء قسم رابع ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾، ولا يمكن هذا إلا بالنفاق، فإذا جاءوكم ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ فأمنوا ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤] فنافقوا، فهم يريدون أن يكون مرضين لهؤلاء وهؤلاء ولا يمكن هذا، لا يمكن أن ترضى أولياء الله وأعداءه في آن واحد؛ لأن أولياء الله وأعداء الله كلهم أعداء، ولا يمكن لعدو الله أن يوالي ولياً لله، أو بالعكس، فهؤلاء ليسوا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ لأنهم ليسوا مع المسلمين ظاهراً وباطناً، ولا مع الكفار ظاهراً، لكن في الباطن هم معهم.

وقوله: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾ يعني: أن مآلهم الفتنة ـ والعياذ بالله! ـ والضلال، والمراد بالفتنة هنا: الخروج من الإسلام، وقوله: ﴿أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾ يعني: ازدادوا ركساً وعمقاً فيها، وبعداً عن الهدى، وهكذا كل إنسان يريد الفتنة فإنه يزداد شراً وإيغالاً في الفتنة.

وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ يعني: إن ظهرت عداوتهم لكم، ولم يعتزلوكم حتى يتبينوا ويظهروا ﴿وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ يعني: الاستسلام أو المسالمة، والظاهر أن المراد المعنيان.

وقوله: ﴿وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ﴾ عنكم بالإيذاء ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ خذوهم أسراً، واقتلوهم إماتة ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: حيث وجدتموهم، كما قال تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ [الممتحنة: ٢] أي: إن يجدوكم.

وقوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾

الإشارة هنا إشارة إلى بعيد مع قرب الذكر، لبعد منزلتهم وسفول منزلتهم؛ لأن القريب قد يشار إليه بإشارة البعيد إما لبعده نزولاً أو لبعده علواً، حسب ما يقتضيه السياق.

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: حقاً بيناً وسلطة بقتالهم، وأخذهم حيث ﴿لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾.

وهذه الآيات كلها في المنافقين وأشباه المنافقين؛ لأنها بُدئت بهم وانتهت بهم، فهي في المنافقين وأشباههم.

وخلاصتها بالمعنى الإجمالي: أن الناس أقسام: مسلمون، ومعاهدون، وذميون، ومنافقون، وكل قسم من هذه الأقسام له حكم يليق به.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ علم الله عزّ وجل بالغيب، لقوله: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾.

٢ ـ إثبات الإرادة للعبد، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾.

٣ ـ أنه لا يمكن الجمع بين الولاية والعداوة، ولا يمكن أن يكون الإنسان ولياً لأولياء الله، ووليا لأعداء الله، هذا شيء لا يمكن، لقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾، وهذا قاله في مقام الذم لا في مقام المدح.

فإن قال قائل: هل يمكن الجمع بين العداوة والولاية في شخص معين؟

فنقول: نعم يمكن، فإذا كان هذا الشخص يأتي بالإيمان

والتقوى من جانب، وعنده شيء من الكفر والفسوق من جانب آخر، صار ولياً من جانب وعدواً من جانب آخر، وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة في أن الإيمان والكفر قد يجتمعان، لكن ليس الإيمان المطلق ولا الكفر المطلق؛ لأن الإيمان المطلق والكفر المطلق لا يمكن أن يجتمعا، لكن مطلق الإيمان ومطلق الكفر يمكن أن يجتمعا.

٤ ـ التحذير من الوقوع في الفتن، وأن الإنسان كلما وقع في الفتنة أُركس فيها.

٥ ـ الرد على الجبرية، لقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾.

٦ ـ أن هؤلاء القوم لما لم يكونوا صادقين في الإيمان كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها، وهكذا كل إنسان ليس صادقاً في إيمانه، فإنه كلما رُدَّ إلى الفتنة ازداد شراً وركساً.

٧ ـ أنه يجوز أن يقاتل أمثال هؤلاء إذا لم يعتزلوا المسلمين أي: لم يكفوا عنهم ويلقوا إليهم السلم، يعني: السلام.

٨ ـ حسن بلاغة القرآن حيث قال هنا: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وهناك في الآية الأولى قال ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

لأن اختلاف الألفاظ يؤدي إلى النشاط، واتفاقها يؤدي إلى الملل غالباً.

٩ ـ أن الله سبحانه جعل للمؤمنين على هؤلاء سلطاناً مبيناً؛ أي: سلطة شرعية، وربما يكون أيضاً سلطة قدرية ظاهرة بينة.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء: ٩٢].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾.

الإعراب: ﴿مَا كَانَ﴾ فعل ناقص منفي، وخبره قوله: ﴿لِمُؤْمِنٍ﴾، واسمه قوله: ﴿أَن يَقْتُلَ﴾ على أنه مؤول بالمصدر؛ أي: ما كان لمؤمن قتل مؤمن إلا خطأً، وأما ﴿إِلَّا﴾ فهي أداة استثناء، وقوله: ﴿خَطَـًٔا﴾ يحتمل أن تكون صفة لموصوف محذوف أي: إلا قتلاً خطأً، كقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ﴾ [سبأ: ١١] أي: أن اعمل دروعاً سابغات، وحذف الموصوف مع بقاء الصفة كثير في اللغة العربية، وفي القرآن الكريم.

يقول الله عزّ وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾، المؤمن هو: الذي استقر الإيمان في قلبه، والإيمان شرعاً أخص من الإيمان لغة؛ إذ إن الإيمان شرعاً هو الإقرار بالقلب المتضمن للقبول والإذعان؛ أي: قبول الخبر، وقبول الطلب، والإذعان بذلك الانقياد، وعدم الاستكبار.

وقوله: ﴿أَن يَقْتُلَ﴾ القتل هو: إزهاق الروح بأي وسيلة كانت، سواء بالسيف، أو بالسهم، أو بالإحراق، أو بالإغراق أو بأي نوع من أنواع القتل.

وقوله: ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ يعني: أنه لا يمكن أن يقتله خاطئاً، بل مُخطئاً، والفرق بين الخاطئ والمخطئ: أن الخاطئ هو: من ارتكب الخطأ عمداً، والمخطئ: من ارتكبه بغير عمد وقصد.

ويكون الخطأ إما بالقصد وإما بالآلة، أما الخطأ بالقصد فمثل: أن يرمي صيداً رمية قاتلة فيصيب إنساناً لم يقصده، فهذا خطأ بالقصد، والخطأ بالآلة مثل: أن يضربه عمداً بسوط لا يقتل مثله غالباً، فهذا خطأ بالآلة؛ لأنه لم يظن أنها تقتله، ولهذا لم يكن قاصداً لقتله، وإنما العصا يؤدب بها الإنسان عادة، ولكن قدر الله عزّ وجل أن تسري هذه الجناية حتى يموت المضروب.

ثم قال: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ «مَنْ» هذه شرطية، وفعل الشرط قوله: ﴿قَتَلَ﴾ وقوله: ﴿فَتَحْرِيرُ﴾ جواب الشرط، وقرن بالفاء لأنه جمله اسمية، وكلمة «تَحْرِير» مبتدأ، والخبر محذوفاً، والتقدير: «فعليه تحرير رقبة».

وتحرير الشيء هو تخليصه، والمراد بهذا التحرير: تخليص الرقبة من الرق خاصة، لا تخليصها من الهلاك، ولهذا لا يعتبر من أنقذ شخصاً محرراً له، بل من حرره من الرق وخلصه منه فهو المحرر.

والمراد بالرقبة هنا: النفس كاملة، لكن يعبر بالرقبة عنها لأن الجسد لا يمكن أن يقوم بدون رقبة، ولهذا إذا قطعت رقبته هلك.

وقوله تعالى: ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ المراد بالإيمان هنا ما يشمل الإسلام، وليس المراد بالإيمان: الإيمان المطلق، بل المراد: مطلق الإيمان، ولهذا لو أعتق فاسقاً لأجزأه.

وقوله: ﴿وَدِيَةٌ﴾ معطوفة على «تحرير»، يعني: وعليه ﴿دِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ ولم يبين الله عزّ وجل من يسلمها، بل قال: ﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾ بالبناء للمفعول.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ مستثنى من قوله: ﴿وَدِيَةٌ﴾، يعني: وعليه دية مسلمة إلى أهله ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ أي: يتصدقوا على من وجبت عليه الدية بإسقاطها، وبالعفو عنه تسقط، والمراد بالتصدق هنا: العفو والإسقاط؛ وليس المراد البذل، بل الإسقاط.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ أصلها إلا أن يتصدقوا، ولكن أدغمت التاء بالصاد فصارت ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾.

وقوله: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ ﴿فَإِن كَانَ﴾ الضمير يعود على المقتول، وهو اسم كان، وقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ جملة في موضع نصب على الحال من الضمير المستتر في قوله: ﴿كَانَ﴾ يعني: والحال أنه مؤمن.

قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾؛ أي: فعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة، وعليه فيكون الخبر محذوفاً، والتقدير: فعليه.

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ﴾ ﴿إِنْ كَانَ﴾ الضمير يعود على المقتول وقوله: ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي: عهد، وسمى العهد ميثاقاً؛ لأنه بمنزلة الحبل يوثق به المأسور، إذ إن العهد رباط بين المتعاهدين؛ بحيث لا يجرؤ أحدهما على الآخر، ولا يعتدي أحدهما على الآخر.

وقوله: ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ هؤلاء القوم كفار؛ لأن المؤمنين قد ذكروا في الأول.

وقوله: ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي: فعليه ـ أي: على القاتل ـ دية مسلمة إلى أهله؛ أي: أهل المقتول.

والمراد بالأهل في الموضعين الورثة؛ لأن الورثة هم الذين يرثون ما خلفه الميت، والدية من مخلفات الميت.

وقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: من لم يجد الرقبة، إما أن تكون الرقاب معدومة، وإما أن يكون ثمنها معدوماً، ولهذا جاءت الآية الكريمة ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ ولم يذكر المفعول ليكون ذلك أشمل وأعم؛ أي: فمن لم يجد الرقبة أو لم يجد ثمنها قوله: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: فعليه صيام، وعلى هذا فيكون ﴿فَصِيَامُ﴾ مبتدأ، والخبر محذوف والتقدير: فعليه، وقوله: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ يعني: يتبع بعضهما بعضاً بحيث لا يفطر بينهما.

وقوله: ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذه مصدر لفعل محذوف؛ أي: يتوب بذلك توبة إلى الله، والتوبة إلى الله هي: الرجوع إليه من معصيته إلى طاعته، وسيأتي أن لها شروطاً.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أن ما شرعه الله من هذه الأحكام هي توبة منه على عبده، وإلا لو شاء لشق علينا، ولكان الواجب بقتل الخطأ أكبر من ذلك.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناسخ، ولفظ الجلالة اسمها، وقوله: ﴿عَلِيمًا﴾ خبرها، و﴿حَكِيمًا﴾ خبر ثانٍ، ولا يصح أن يكون صفة؛ لأن الضمير لا يوصف ولا يوصف به، وعلى هذا فيتعين أن نعربها على أنها خبر ثانٍ.

والعلم: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكاً جازماً، فإذا أدركت ـ مثلاً ـ أن هذه ورقة سمي هذا علماً؛ لأنك أدركتها على ما هي عليه إدراكاً جازماً، وإذا قلت: يترجح عندي أنها ورقة فهذا ليس بعلم؛ لأنه ليس جازماً، وإذا قلت: لا أدري ما هي، فهذا أيضاً ليس بعلم؛ لأنك لم تدركها.

وأما قوله: ﴿حَكِيمًا﴾ فالحكيم: مأخوذ من الحكم والإحكام، فهو حكيم بمعنى: حاكم وبمعنى: محكِم، فالحاكم بين عباده والحاكم على عباده هو الله، وتأمل كيف قلنا: الحاكم على عباده وبين عباده! فالحاكم بين عباده يعني: فصل النزاع بينهما، والحاكم عليهم يعني: الذي له الحكم على العباد يحكم فيهم بما شاء، وهو أيضاً مشتق من الحكمة، والحكمة قال العلماء هي وضع الشيء في موضعه اللائق به، فيكون اسم الحكيم مشتملاً على حكم وإحكام، والحكم نوعان، والحكمة نوعان أيضاً، وإذا ضربت اثنين في اثنين صار الحاصل أربعة، كما سبق بيانه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ امتناع قتل المؤمن للمؤمن عمداً، ويؤخذ من قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾، وإذا جاءت «ما كان» أو «لم يكن» أو «لا ينبغي» أو «ما ينبغي» فإنها تفيد الامتناع، ولكن هذا الامتناع شرعي؛ لأنه قدراً يمكن أن يقتله عمداً لا خطأً، فإذاً: هو شرعاً لا يمكن، ولهذا يعتبر من قتل المؤمن خطأ يعتبر ناقص الإيمان جداً، حتى إنه يصح أن ننفي عنه الإيمان، فنقول: هذا ليس بمؤمن؛ أي: ليس بمؤمن كامل

الإيمان؛ لأنه إذا كان الإنسان لا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن، فما بالك بمن يقتل؟!

٢ ـ أن المؤمن قد يقتل غير المؤمن عمداً، لقوله: ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾، ولكن هل هذا جائز؟

الجواب: فيه تفصيل: إن كان محارباً فقتله جائز، ثم قد يجب أو لا يجب على حسب ما تقتضيه الحال، وإن كان معاهداً أو مستأمناً أو ذمياً فقتله حرام، ونقول: ما كان له أن يقتله.

٣ ـ حكمة الشرع حين فرق بين الخطأ والعمد؛ لأن الخطأ لا يقع عن قصد، والعمد يقع عن قصد، فالمخطئ أهل للمسامحة، والعامد ليس أهلاً لها، وهذا لا شك من الحكمة في الشرع، ولولا هذه الحكمة لاستوى العامد والمخطئ.

٤ ـ تقسيم القتل إلى خطأ وغير خطأ؛ لأن استثناءه في قوله: ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ يدل على أن هناك عمداً، وهو كذلك، وسيأتي ذكر العمد في الآية التي بعدها.

٥ ـ أن قتل الخطأ بنوعيه على حسب ما فسرنا من قبل يوجب شيئين:

الأول: العتق.

والثاني: الدية. ويؤخذ من قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾.

ومن قتل غير مؤمن فقد ذكر الله ما يلزمه فيما بعد في نفس الآية.

٦ ـ فضيلة العتق وعلو منزلته؛ لأنه صار كفارة لهذا الذنب

وهو قتل المؤمن، وهذا يدل على فضيلته، وعلو مرتبته، وأنه هام، وهو كذلك.

٧ ـ نظر الشريعة إلى تحرير الرقاب من الرق، ويتفرع على هذه الفائدة الرد على من أنكر على المسلمين الاسترقاق، فيقال: إن الاسترقاق جاء نتيجة لأمر ضروري، ومع ذلك فإن هناك مشجعات كثيرة على التحرير.

٨ ـ اشتراط الإيمان في عتق الرقبة في القتل، لقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾، وهل يلحق بذلك كل رقبة كانت كفارة لمعصية؟

الجواب: في هذا للعلماء قولان:

فمنهم من قال باشتراط الإيمان في كل رقبة أعتقت كفارة، ففي قوله تعالى في كفارة اليمين: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]، والرقبة هنا مطلقة، فهل يشترط فيها الإيمان؟ يرى بعض أهل العلم أنه يشترط، ويرى آخرون أنه لا يشترط، وهذا مبني على تخصيص النص بنص آخر، وقد بينا أنه إذا اتفق السبب والحكم فإنه يخصص، وإن اختلف الحكم فإنه لا يخصص مع اتفاق السبب، وإن اتفق الحكم مع اختلاف السبب فأكثر العلماء على أنه يخصص، فالسبب في تحرير الرقبة هنا: هو القتل، وفي كفارة اليمين هو الحلف، فالسبب مختلف، لكن الحكم واحد وهو تحرير الرقبة، وأكثر العلماء على أنه يقيد المطلق بكفارة اليمين على المقيد في كفارة القتل.

٩ ـ جواز إعتاق الذكر والأنثى في كفارة القتل، وتؤخذ من

الإطلاق في قوله: ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ولم يقل: ذكر ولا أنثى، فيكون مطلقاً.

١٠ ـ أنه لو أعتق رقبة كافرة ـ مثل أن يعتق عبداً لا يصلي ـ فإنه لا يجزئه في كفارة القتل.

١١ ـ تعظيم القتل؛ ولهذا أوجب الله فيه الكفارة، مع أن القاعدة الشرعية أن المخطئ لا كفارة عليه، وأنه مرفوع عنه القلم لقوله ﷺ: «**إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه**»[1] لكن تعظيماً لشأن القتل صار الذي يصدر منه القتل ولو مخطئاً عليه الكفارة.

١٢ ـ أن من أعتق رقبة غير مؤمنة فإنها لا تجزئه، وهل يشترط في هذه الرقبة السلامة من العيوب الجسدية كما اشترط السلامة من العيب الشرعي؟

الجواب: في هذا خلاف:

فيرى بعض العلماء أنه لا بد أن تكون الرقبة سليمة من العيوب الضارة بالعمل؛ لأن إعتاق من فيه عيوب ضارة بالعمل يؤدي إلى أن يكون عالة على المجتمع، فمثلاً: لو كان هذا الرجل قد قطعت يداه وهو عبد فعلى القول باشتراط السلامة لا

---

(١) هذا الحديث جاء من رواية ابن عباس عند ابن ماجه، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، حديث رقم (١/ ٦٥٩) (٢٠٤٥)؛ والطبراني في الصغير (٢/ ٥٢) (٧٦٥)؛ والدارقطني في سننه (٤/ ١٧٠) (٣٣)؛ وابن حبان (١٦/ ٢٠٢) (٧٢١٩)؛ والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٥٦) (١٤٨٧١).
وعن أبي ذر عند: ابن ماجه (١/ ٦٥٩) (٢٠٤٣).
وعن ابن عمر عند: البيهقي في الكبرى (٦/ ٨٤) (١١٢٣٦).
وعن عقبة عند: البيهقي أيضاً (٧/ ٣٥٧) (١٤٨٧٣).

يجزئ، وعلى القول بعدم الاشتراط يجزئ، وأكثر العلماء فيما أظن على أنه يشترط أن يكون سليماً من العيوب الضارة بالعمل؛ لأن إعتاق مثل هذا العبد الذي فيه عيوب ضارة بالعمل يوجب أن يكون العبد عالة على الغير.

١٣ ـ وجوب الدية في قتل الخطأ، لقوله: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾.

١٤ ـ أنه يجب على من وجبت عليه الدية أن يوصلها إلى أهل الميت، لقوله: ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾، فأهله هم الورثة، وهل تؤجل أو هي على الفور؟

في هذا خلاف بين العلماء:

فمنهم من قال: إنها لا تؤجل إلا إذا رأى الحاكم أن في تأجيلها مصلحة؛ لأن الأصل في وجوب الدين قضاؤه على الفور، فإذا رأى الحاكم التأجيل أجلها، وتؤجل ثلاث سنين.

وهل الدية واجبة على القاتل بالأصالة وعلى العاقلة بالتبعية أو هي واجبة على العاقلة أصلاً؟

الجواب: في هذا خلاف أيضاً:

فمن العلماء من يقول: إنها واجبة على القاتل بالأصالة، وعلى غيره بالتبعية؛ لأن القاتل هو المباشر للقتل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] وتحميل العاقلة إنما هو من أجل إعانته ومساعدته، فإذا قدرنا أن هذا الرجل الذي قتل خطأً عنده ملايين الدراهم والعاقلة أحوالهم ضعيفة، فإنه قد لا يكون من الحكمة أن نحمل العاقلة ونضيق عليها في معيشتها ثم ندع هذا القاتل الذي وقعت الجريمة منه مع غناه وكثرة ماله.

ومن العلماء من يقول: هي واجبة على العاقلة بالأصالة، وعلى هذا فلا يلزم القاتل شيء حتى وإن كان من أغنى الناس والعاقلة فقراء؛ لأنها واجبة على العاقلة.

والظاهر لي: أن نقول بالقول الوسط: إذا كان عند العاقلة قدرة ألزمناها، بمعنى: أن العاقلة إذا كانت ذات غنى واسع فإننا نلزمها، لما في ذلك من التعاون وإشعار القرابة بأن بعضهم لبعض ظهير، وأما إذا كانت العاقلة لا يستطيعون تحمل الدية إلا بكلفة ومشقة وفقد بعض الحوائج والقاتل غني فإننا نلزمه؛ لأنه هو الأصل.

ووجوب الدية على العاقلة، لا يعكر عليه قول الله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٩] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

لأن هذا من باب التعاون؛ لأن الخطأ يقع كثيراً، فكان من رحمة الله عزّ وجل أن يحمل هؤلاء كما يحملون في النفقة.

فإن قال قائل: ما هي الدية؟

قلنا: قد بينتها السنة: بأنها مائة من الإبل للذكر الحر، وخمسون من الإبل للأنثى الحرة، وهذا هو القول الصحيح: أن الإبل هي الأصل في الدية، وأما البقر والغنم والذهب والفضة والحلل فإنها قيم، وإلا فالأصل هو الإبل.

١٥ ـ يؤخذ من قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾، وهو مستثنى من قوله: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾، أن العفو عن الدية من الصدقة، وذلك أن الصدقة إما إعطاء وإما إبراء، فالإعطاء ظاهر، والإبراء هو: أن يبرئ الإنسان شخصاً مديناً من الدين ويسقطه عنه، لكن هذا لا يجزئ في الزكاة عن زكاة العين، يعني: لو كان على إنسان

زكاة، وكان له دين على فقير، فأبرأ الفقير من الدين واحتسبه من الزكاة فإن ذلك لا يجزئ؛ أي: لا يجزئ الدين عن زكاة العين.

١٦ ـ جواز العفو عن الجاني، ولكن هذا مقيد بما إذا كان في العفو إصلاح، لقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، فإن لم يكن فيه إصلاح فترك العفو أولى، بل قد يجب الأخذ بالحق وترك العفو؛ لأن الإصلاح أهم من المصلحة الخاصة، فالعفو عن الدية مصلحة خاصة، لكن الإصلاح مصلحة عامة، فإذا كان هذا الذي قتل خطأً رجلاً متهوراً لو عفونا عنه لذهب يقتل مرة أخرى، وثالثة ورابعة، فإن العفو عن هذا ليس من الإصلاح؛ وعليه فلا ينبغي العفو.

١٧ ـ أن قتل المعاهد حرام، ووجه الدلالة: أن الله أوجب في قتل من بيننا وبينهم ميثاق الدية والكفارة.

١٨ ـ أن دية الكافر المعاهد ليست كدية المسلم؛ لأنه قال: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ﴾ وهذه نكرة، وإعادة الكلمة بلفظ النكرة تدل على أن الثاني غير الأول، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]، قال النبي ﷺ: «لن يغلب عسر يسرين»[(١)]، ولو كانت دية المعاهد كدية المؤمن لقال: فالدية مسلمة إلى أهله، فالدية، يعني: التي سبقت، ولكن هذه دية أخرى.

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٢٨) عن الحسن البصري مرسلاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ قال: خرج النبي ﷺ مسروراً فرحاً يضحك وهو يقول: «**لن يغلب عسر يسرين**»، وأخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٤٤٦)؛ وابن أبي شيبة (٥/ ٣٣٥)، (١٣/ ٣٠٨)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٥٠٢ ـ ٢٠٦)؛ والحاكم (٢/ ٣٠١) موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما.

فإن قال قائل: فما هي إذاً؟

فالجواب نقول: اختلف فيها العلماء: منهم من قال: إن ديته ثلث دية المسلم، ومنهم من قال: أن ديته نصف دية المسلم، وهذا هو الصحيح، فمثلاً: إذا كانت دية المسلم مائة بعير فدية من بيننا وبينهم ميثاق من الكتابيين خمسون بعيراً.

١٩ ـ احترام الدين الإسلامي للعهود والمواثيق، ولذلك لم يهدر حق المعاهد الذي بيننا وبينه ميثاق، بل أوجب الدية لأهله.

٢٠ ـ وجوب الكفارة في قتل من بيننا وبينهم ميثاق وإن كانوا غير مسلمين، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

٢١ ـ وجوب إيصال الدية إلى مستحقيها، فلو قال هي عندي في البيت تعال وخذها فإنه لا يلزمه؛ ولأنه لا بد أن يسلمها من وجبت عليه إلى من هي له.

٢٢ ـ أن الدية في الخطأ لا تجب على القاتل؛ لأنه لم يقل يسلمها بل قال: ﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾، فعلى من تجب؟

الجواب: تجب على العاقلة، وهم ذكور العصبة الأغنياء، ويجتهد الإمام والقاضي في تحميل كل منهم ما يناسب حاله، فالأقرب يحمل أكثر من الأبعد، والغني يحمل أكثر من المتوسط، والفقير ليس عليه شيء؛ لأنه فقير.

٢٣ ـ أن من لم يجد الرقبة أو ثمنها فعليه صيام شهرين متتابعين، لقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾.

٢٤ ـ أن من لم يستطع الصيام فلا شيء عليه، لا عتق رقبة لأنه لا يجد، ولا صيام لأنه لا يستطيع، ولا إطعام لأنه لم يُذكر

في الآية؛ ولهذا لما أراد الله عزّ وجل أن يكون الإطعام بدلاً عن الصيام ذكره كما في آيات الظهار.

فإن قال قائل: أفلا يصح أن يقاس هذا على الظهار؟

قلنا: لا يصح؛ وذلك لاختلاف السبب، فإن سبب الكفارة في الظهار هو الظهار، وسبب الكفارة في القتل هو القتل، وبينهما فرق، فالظهار سماه الله تعالى منكراً من القول وزوراً، والقتل الخطأ لم يصف الله تعالى فاعله بما يقتضي قبح فعله.

٢٥ ـ أن على القاتل خطأ مع الكفارة أن يتوب؛ لقول الله تعالى: ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وحينئذ يرد على ذلك إشكال، وهو: كيف تجب عليه التوبة والكفارة مع أن فعله خطأ؟!

فنقول: لأن الخطأ قد يكون نتيجة للتساهل في عدم التحري، مثلاً: من قتل الخطأ أن يرمى صيداً فيصيب آدمياً، فنقول: هذا الرجل لو أنه تأنى حتى تحقق الأمر لسلم من هذا الخطأ، فلذلك لما كانت النفوس عظيمة، والعدوان عليها عظيماً، وكان الإنسان قد يقصر في بعض الأحيان أوجب الله الكفارة وأوجب التوبة.

فإن قال قائل: وهل تجب الكفارة في القتل العمد؟

قلنا: لا تجب في القتل العمد؛ لأن قتل العمد أعظم من أن يكفر بالعتق أو بالصيام، ومن قاسه على القتل الخطأ فقد أخطأ؛ وذلك للفرق بين الجناية وبين مقتضيات الجناية، فإن مقتضى العمد أن يقتل القاتل والخطأ لا يقتل، كذلك في العمد الدية في مال القاتل مغلظة، والخطأ على عاقلته ومخففة أيضاً، فلا يمكن أن يقاس هذا على هذا مع اختلاف السبب والمقتضى.

فإن قال قائل: إذا عفا أهل الدية عنها فهل تسقط الكفارة؟

فالجواب: لا؛ لأن الكفارة حق لله، والدية حق للآدمي، وكذلك لو عجز الإنسان عن إعتاق الرقبة، وعجز عن صيام شهرين متتابعين.

فلا تسقط الدية، وذلك لأن الدية حق للآدمي فلا تسقط إذا سقط حق الله.

٢٦ ـ إثبات اسمين من أسماء الله: أحدهما: العليم، والثاني: الحكيم، والله تعالى يقرن بين العليم والحكيم في مواضع كثيرة؛ ليبين أن ما يحكم به سبحانه من الأحكام الشرعية والأحكام الكونية فإنه صادر عن علم وحكمة لا عن جهل وسفه، وأصل الخطأ في الحكم إما من الجهل، وإما من السفه، فإن كان عن غير علم فهو من الجهل، وإن كان عن غير حكمة فهو من السفه، ولهذا فالآيات التي تتضمن أحكاماً يختمها الله جل وعلا كثيراً بهذين الاسمين.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣].

هذه الآية من أعظم الآيات التي جاءت في الوعيد، قال الله فيها: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾، المؤمن هنا: يراد به ما هو أعم من المؤمن؛ فالمؤمن يشمل ناقص الإيمان وكامل الإيمان.

وقوله: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ أي: متعمداً للقتل قاصداً له، ولا يكون

هذا إلا بتعمد الفعل بما يقتل غالباً، يعني: أن يتعمد القتل بما يقتل به غالباً؛ كالسيف، والرصاص، والحجر الكبير، والسم، والسحر، وما أشبه ذلك، وعلى هذا إذا لم يقصد الفعل فليس بعمد، وإذا قصده بما لا يقتل غالباً فليس بعمد، لكن الأول يُسمى ﴿خَطَـًٔا﴾.

والثاني يسمى «شبه عمد»؛ لأنه تعمد الفعل لكن بآلة لا تقتل غالباً، فسماه العلماء شبه عمد، وقد مر علينا أن الخطأ يكون في القصد، ويكون في الآلة.

وقوله: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ هذه الجملة جواب الشرط في قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ﴾، وقوله: ﴿جَزَآؤُهُۥ﴾ أي: عقوبته التي سيجازى بها هي ﴿جَهَنَّمُ﴾، وهي اسم من أسماء النار، وسميت بذلك لبعد قعرها وظلمتها، أعاذنا الله وإياكم منها.

وقوله: ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ الخلود بمعنى: المكث، ولكن من نعمة الله أنه لم يصف ذلك بأنه أبداً، بل قال: ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾.

قوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ والغضب أبلغ من العقوبة؛ لأن الله إذا غضب فإنه لا يكلم من غضب عليه، ولا يرحمه كما يرحم غيره، وينتقم منه بما يقتضيه ذنبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] أي: لما أغضبونا انتقمنا منهم.

وقوله: ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾ أي: طرده وأبعده عن رحمته.

قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ أعده يعني: هيأه؛ أي: هيأ له العذاب العظيم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ في هذه الآية الكريمة دليل على أن قتل المؤمن عمداً من كبائر الذنوب؛ لورود الوعيد عليه، وكل ذنب رُتب عليه الوعيد والعقوبة فهو من كبائر الذنوب.

ولكن من قتل مؤمناً متعمداً وتاب تاب الله عليه، وما ينسب إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «إن قاتل المؤمن عمداً لا توبة له»[(١)]، محمول على أن المراد لا توبة له باعتبار حق المقتول؛ ولأن القتل عمداً يتعلق فيه ثلاثة حقوق: حق الله، وحق أولياء المقتول، وحق المقتول، أما حق الله فلا شك أنه يسقط بالتوبة بنص القرآن: قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠]، وأما حق أولياء المقتول فيسقط بتسليم القاتل نفسه لهم؛ لأن حقهم أن يقتلوه وقد سلم نفسه، وأما حق المقتول فالمقتول قد مات فبقي حقه؛ لأنه لا يُعلم سماحه، فيحمل ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما على هذا؛ أي: أنه لا توبة له باعتبار حق المقتول، على أن القول الصحيح أن له توبة حتى باعتبار حق المقتول؛ لأن الله تعالى يوفي عنه يوم القيامة، حيث تاب توبة نصوحاً.

٢ ـ أنه لا بد من القصد لقوله: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾، ولكن هل يشترط في القصد أن يعلم أنه مؤمن، أو إذا تعمد أن يقتل هذا الرجل وإن كان يشك هل هو مؤمن أو معاهد فإنه عمد؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ (٤٧٦٤)؛ ورواه مسلم، كتاب التفسير (٣٠٢٣) عن سعيد بن جبير.

الجواب: هذه فيها خلاف بين العلماء: فمنهم من قال: إنه إذا تعمد فعل ما لا يجوز وأصاب مؤمناً فهو عمد، مثل أن يرمي معاهداً ـ والمعاهد لا يجوز رميه ـ فيصيب مؤمناً، بل قالوا: لو رمى بعيراً يحرم عليه رميها ثم أصاب إنساناً فإنه يعتبر عمداً.

ولكن الصحيح في هذه المسألة: أنه إذا تعمد قتل شخص فأصاب من كان مثله فهو عمد، يعني إذا أراد أن يقتل زيداً فأصاب عمراً فهذا عمد، لكن لو أراد أن يقتل بعيراً فأصاب رجلاً فليس بعمد، وذلك لظهور الفرق بين الآدمي وبين البهيمة، ولا يمكن أن يقال: قصد قتل البهيمة كقصد قتل المؤمن.

فالصواب في هذه المسألة أن يقال: العمد يشمل ما إذا قصد هذا المؤمن بعينه، أو قصد من كان في وصفه من المؤمنين، فكله يعتبر عمداً.

ولا يشترط العلم بالعقوبة لإقامة القصاص، وهذا عام في كل شيء، متى علم الإنسان أن هذا شيء محرم ترتب عليه أثره، ولهذا أوجب النبي ﷺ على الذي أتى أهله في رمضان الكفارة مع أنه لا يدري، بدليل أنه جاء يسأل: ما الذي عليه؟[1].

٣ ـ أن من قتل مؤمناً غير متعمد فلا عقوبة عليه؛ أي: لا يعاقب بهذه العقوبة؛ وذلك لأن القيد يعتبر شرطاً في ترتب ما يترتب عليه.

٤ ـ أن قاتل المؤمن عمداً يخلد في النار، لقوله: ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾، وقد اختلف العلماء رحمهم الله في معنى الخلود: فمنهم من قال: إن الخلود هو المكث الطويل، ولا يشترط أن يكون

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصيام، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق (١٩٣٦)؛ ورواه مسلم، كتاب الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم (١١١١).

دائماً؛ ولهذا لم تقيد الآية بالأبدية، وعلى هذا القول لا يكون في الآية إشكال إطلاقاً، ومن العلماء من يقول: الخلود هو المكث الدائم، وعلى هذا القول يرد على هذه الآية إشكال، وهو: أن قاتل النفس عمداً لا يخرج من الإيمان، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ [البقرة: ١٧٨]، والمؤمن لا يخلد النار؟! وهذا إشكال كبير جرى بين أهل السنة وأهل البدعة، وفيه مناظرات كثيرة، وأشكلت كذلك على أهل السنة، حيث إن ظاهرها أن قاتل المؤمن عمداً يخلد في النار فهو كافر، وهذا مذهب المعتزلة والخوارج، وأجابوا عنها بالآتي:

فقيل: إن الآية محمولة على من استحل ذلك؛ أي: من استحل قتل المؤمن عمداً، لكن هذا القول ساقط؛ لأن من استحل قتل المؤمن عمداً فهو كافر، سواء قتل أم لم يقتل، ولهذا لما ذُكر هذا القول للإمام أحمد رحمه الله تبسم، وقال: «إذا استحل قتله فهو كافر، سواء قتله أم لم يقتله»[1].

وهذا التخريج يشبهه تخريج من خرج أحاديث كفر تارك الصلاة على أن المراد من استحل ذلك، فإنه يقال: من استحل ترك الصلاة فهو كافر، سواء ترك أم لم يترك، فحمل نصوص كفر تارك الصلاة على المستحل الذي لا يعتقد فرضيتها فيه تحريف للنص، من وجهين:

الوجه الأول: صرف اللفظ عن ظاهره.

والوجه الثاني: تحميل النص معنى لا يدل عليه.

فالجناية على النصوص في هذه المسألة من وجهين.

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم رحمه الله (١/ ٣٩٣).

وقال بعض العلماء: إن الآية على تقدير شيء محذوف، والتقدير: فهذا جزاؤه إن جازاه، وإن لم يجازه ففضل الله واسع، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦]، ولكن هذا التخريج لا نخرج به من المأزق؛ لأن كلامنا على ما إذا جازاه، فهل يخلد أو لا؟ والله عزّ وجل ذكر في الآية أنه سيجازيه بهذا، فيكون هذا التخريج ضعيفاً.

الوجه الثالث: أن المراد بالخلود هنا المكث الطويل.

الوجه الرابع: أن هذا الوعيد مرتب على سبب، والسبب قد يوجد له مانع يمنع من نفوذه؛ لأن الأشياء لا تتم إلا بوجود أسبابها وانتفاء موانعها، فيقال: هذا جزاؤه، ولكن إذا دلت النصوص على أن هناك مانعاً يمنع من الخلود الدائم فنأخذ بهذا المعنى؛ كقول الله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١١]، فلو كان أحد الأبوين كافراً فإنه لا يستحق الميراث مع أن الآية ظاهرها العموم، فيقال: إن نصوص الشرع يُقيد بعضها ببعض، وهذا الوجه أسلمها على تقدير أن الخلود هو المكث الدائم، أما إذا قلنا: إن الخلود هو المكث الطويل فإنه لا يرد على الآية شيء مما ذكرنا.

الوجه الخامس: أن من قتل مؤمناً عمداً أو شك أن يمسخ، ويطبع على قلبه، ويموت على الكفر، ويؤيده قول النبي ﷺ: «**لا يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً**»[1] والمعنى: أن مآله والعياذ بالله أن يزول الإيمان منه بالكلية ثم يموت على الكفر.

٥ ـ إثبات الغضب لله عزّ وجل، والغضب صفة من

---

(١) رواه البخاري، أول، كتاب الديات، حديث رقم (٦٤٦٩).

الصفات الفعلية التي تقع بمشيئة الله تعالى، وكل صفة مرتبة على سبب فهي من الصفات الفعلية؛ لأنها توجد بوجود ذلك السبب وتنتفي بانتفائه، ولكن هل الغضب على ظاهره؛ أي: أنه صفة في الغاضب يترتب عليها الانتقام، أو إنه شيء بائن عن الغاضب والمراد به الانتقام؟ نقول: أما السلف فيقولون: إن الغضب صفة في الغاضب يترتب عليها الانتقام، وليست هي الانتقام، ويدل لذلك: أن هذا هو ظاهر اللفظ، وأن الله تعالى قال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، فلو قيل: إن الغضب هو الانتقام لكان معنى الآية: فلما انتقمنا منهم انتقمنا منهم، وهذا معنى ينزه عنه كلام الله، والآية صريحة في أن الانتقام كان سببه الغضب، والسبب غير المسبب.

إذاً فالغضب صفة قائمة بالله عزّ وجل، وليست هي الانتقام، أما أهل التعطيل والتحريف فقالوا: إن الغضب هو الانتقام، أو إرادة الانتقام، ولكن أهل السنة قالوا: إننا نلزمكم بأن تقولوا بأن الغضب صفة قائمة بالله؛ لأنه لا ينتقم إلا ممن غضب عليه، فالانتقام لازم من لوازم الغضب، وإرادة الانتقام كذلك؛ لأن الله لم ينتقم منهم أو يرد الانتقام منهم إلا لأنهم أغضبوه، وعليه فيتعين علينا أن نؤمن بأن الله تعالى يغضب.

فإن قال قائل: الغضب جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم يغلي منها دم القلب، وتنتفخ منها الأوداج، ويحمر الوجه، وينتفش الشعر، فهل تقولون بثبوت هذا لله؟

قلنا: لا، بل هذا غضب المخلوق، أما غضب الخالق فلا نعلم كيفيته، لكن نؤمن بأنه جل وعلا يغضب.

فإن قيل: الغضب صفة نقص، بدليل أن النبي ﷺ نهى عنها حين قال الرجل: «**أوصني، قال: لا تغضب، فردد مراراً قال: لا تغضب**»[(١)]؟

قلنا: هي صفة نقص بالنسبة للمخلوق، أما بالنسبة للخالق فإنها صفة كمال؛ لأنها تدل على كمال السلطة وكمال القوة، ولهذا إذا أسأت إلى شخص أقوى منك غضب، وإن أسأت إلى شخص دونك حزن، فذاك يغضب؛ لأنه قادر على الانتقام، والثاني يحزن؛ لأنه عاجز عن الانتقام.

٦ ـ أن من قتل مؤمناً متعمداً فمن جزائه أن يلعن بأن يطرد من رحمة الله، لقوله: ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾، ويتفرع على هذه الفائدة: هل يجوز أن نلعن القاتل بعينه، ونقول: أنت ملعون مغضوب عليك؟

الجواب: لا، لكن نقول: أنت قاتل للمؤمن عمداً، والله يقول: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ إلى آخر الآية، فنفرق بين أن نحكم على هذا الرجل بأنه ملعون؛ لأنه يجوز أن يتوب فتزول اللعنة.

٧ ـ أن الله تعالى هيأ العذاب لمن يستحقه، لقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾، ويتفرع على هذه الفائدة: أن النار التي يعذب بها الكافرون موجودة الآن، كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] ورآها النبي ﷺ في صلاة الخسوف.

٨ ـ عظم عذاب النار، لقوله: ﴿عَظِيمًا﴾، والعظيم إذا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، حديث رقم (٥٧٦٥) عن أبي هريرة.

استعظم الشيء صار بقدر عظمة هذا المستعظِم؛ أي: أنه شيء عظيم عظماً كبيراً.

٩ ـ إذا كان ورثة المؤمن المقتول كفاراً فإنه لا دية له؛ أولاً: لأنه لا يمكن أن يرثوه وهم كفار؛ لأنه لا يرث الكافر المسلم، وثانياً: لأننا لو أعطيناهم لاستعانوا به علينا.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء: ٩٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ الفائدة من تصدير الخطاب بالنداء هي: الدلالة على أهمية الشيء؛ ولهذا صدر بما يقتضي التنبه.

وكونه يوجه النداء إلى المؤمنين **أولاً**: للتنبيه على أن امتثال ما ذكر سواء كان أمراً أو نهياً من مقتضيات الإيمان، ولهذا خوطب به المؤمن.

ثانياً: الدلالة على أن مخالفة هذا من نواقص الإيمان؛ أي: من منقصات الإيمان.

الثالث: الإغراء؛ لأنك إذا وصفت الإنسان وقلت: يا مؤمن! فإن هذا يحثه، ويجعله يقدم، كما لو قلت: يا أيها الرجل، فتحثه وكأنك تقول: مقتضى رجولتك كذا وكذا.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا خرجتم

مجاهدين في سبيل الله؛ لأن الضرب يكون في الأرض وتختلف النيات فيه، كما قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠] فهؤلاء هم التجار، وهؤلاء مجاهدون فقوله: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: خرجتم مجاهدين في سبيل الله.

وقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا۟﴾ هذه الآية نزلت في قوم خرجوا للجهاد فأصابوا قوماً قالوا: أسلمنا، لكنهم لم يقولوها بهذا اللفظ، بل قالوا: صبأنا، فظنوا أن معنى قولهم: صبأنا أي: بقينا صابئين؛ أي: غير مسلمين، فقاتلوهم، فقال الله عزّ وجل: ﴿فَتَبَيَّنُوا۟﴾ وفيه قراءة: «فتثبتوا» في الموضعين، يعني: تقرأ ﴿فَتَبَيَّنُوا۟﴾ أو تقرأ «فتثبتوا» وعلى هذا فليس فيها إلا قراءتان، بمعنى أنك إذا قرأت الأول ﴿فَتَبَيَّنُوا۟﴾ فاقرأ الثاني ﴿فَتَبَيَّنُوا۟﴾، وإذا قرأت الأول «فتثبتوا» فاقرأ الثاني «فتثبتوا»، ولا يجوز أن تخالف فتقرأ الأول ﴿فَتَبَيَّنُوا۟﴾ والثاني «فتثبتوا» أو بالعكس.

وقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا۟﴾ أي: اطلبوا بيان الأمر، والتبين نتيجة التثبت، ولهذا كانت القراءتان بمنزلة المعنيين اللذين يترتب أحدهما على الآخر، والذي يترتب على التثبت هو التبين؛ لأنه يجب أن يتثبت أولاً ليتبين له الأمر، فيكون في مجموع القراءتين فائدة عظيمة، أنك تتثبت وبالتثبت يتبين الأمر، فلا تستعجل.

وقد سبق ذم المستعجلين في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

فقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا۟﴾ أي: فتثبتوا، ولا تقدموا على فعل شيء

تندمون عليه، وما أكثر ما يندم الإنسان إذا أقدم على شيء قبل التبين، حتى في خاصة نفسه، فلو أنه أراد أن يفعل فعلاً ثم بمجرد ما طرأ على نفسه أو على قلبه فعل قبل أن يتروى في الأمر، وقبل أن ينظر النتائج فستجده يندم، فكيف إذا كان الفعل متعلقاً بغيره؟ يكون أشد. وكثيراً ما يدخل الإنسان بيته فيجد الولد يصيح فيقول: ما لك يا بني؟! فيقول: ضربني أخي، ثم ينهال الأب ضرباً على الأخ الذي ادعى الصغير أنه ضربه، فإذا تبين الأمر فقد يكون الخطأ من الصغير، فنقول: تثبت، ولا تقدم حتى تتبين.

وسبب ذلك: أن الإنسان تأخذه الغيرة فيندفع، والغيرة إذا لم تكن مضبوطة بحد من الشرع وحد من العقل أصبحت غِيرة، والغِيرة هي: فساد الطعام في المعدة، حتى إذا تجشأ الإنسان ظهر لها رائحة كريهة، وكأنها اللحم المنتن، فالغيرة لا بد أن تكون مضبوطة بحد من الشرع والعقل، ولهذا قال: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ ﴿السَّلَامَ﴾، فيها قراءتان: «السَلَم» و«السلام»، وقوله: ﴿لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ أي: مد إليكم السلام، وأبلغه إياكم؛ لأنه مسلم، فالسلام هنا بمعنى الإسلام، لا تقولوا له: ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ بل خذوه بظاهر حاله؛ لأن هذا هو الواجب علينا أن نجري الأحكام في الدنيا على ظاهر الحال؛ لأننا لا نعلم ما في القلوب، وأما في الآخرة فالأحكام تجري على ما في القلوب، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩﴾ [الطارق: ٩]، وقال تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠﴾

[العاديات: ٩ ـ ١٠]؛ ولهذا يجب على الإنسان أن يعتني بعمل القلب أكثر مما يعتني بعمل الجوارح؛ لأن عمل الجوارح قد يدخلها الهوى، وقد يتصنع الإنسان بعمله للدنيا، ولكسب الناس، وللجاه، وللمال، ولغير هذا، لكن عمل القلب لا يمكن أن يتصنع فيه الإنسان؛ لأنه لا يقع إلا بإخلاص إذا كان صالحاً.

وقوله: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كأن الله عزّ وجل يشير إلى التوبيخ لهؤلاء القوم الذين تعجلوا؛ فإن منهم من يريد الغنيمة، ولذا قال: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ لأن كل ما في الدنيا فإنه عرض أي عارض يزول، كما هو الواقع، فالدنيا لا شك أنها عرض، وأنها تزول، وأن الإنسان يزول عنها، فأنت إما أن تفقد الدنيا، وإما أن تفقدك الدنيا، فكل إنسان إما أن يفتقر ويفقد ما عنده من الدنيا، وإما أن يموت فيفقده المال، ولهذا سمى الله سبحانه متاع الدنيا عرضاً؛ لأنه يزول، وأما الباقي فهو ثواب الآخرة، قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٧].

وقوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ سبحان الله! لما وبخهم على إرادة الغنيمة في هذه القصة التي وقعت وعدهم بأن هناك مغانم كثيرة، كما قال تعالى في سورة الفتح: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ٢٠]، فالله سبحانه عنده مغانم كثيرة، وما أكثر المغانم التي غنمها المسلمون في غزواتهم، غنموا أموالاً كثيرة حتى قيل: إنه كان يؤتى بالدنانير وتوضع في المسجد كأنها سفرة من طعام، أي ليست في الأكياس أو الجروب، بل توضع على الأرض كأنها سفرة من طعام، أو كأنها تل من رمل، وغنم

الناس غنائم عظيمة كثيرة في زمن الفتوحات الإسلامية.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي: كحال هؤلاء القوم كنتم من قبل؛ أي: كنتم أنتم كفاراً قبل أن تكونوا مؤمنين تجاهدون الكفار على أن تكون كلمة الله هي العليا، أو أن المعنى كنتم مستضعفين فلم تجهروا بإسلامكم فلما قويتم جهرتهم به.

قوله: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ المن هو: العطاء بلا ثمن؛ أي: أعطاكم الله سبحانه عطاءً بلا ثمن إلا الشكر، والشكر في الواقع ليس ثمناً للنعمة؛ لأن الله تعالى لا ينتفع به، وإنما الذي ينتفع به هو العبد الشاكر. فإذاً: نعمة الله عليك بالتوفيق للشكر نعمة عليك، ولو شاء الله تعالى ما شكرت، وفي هذا يقول الشاعر:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر

فإذا أعطاك الله خيراً دينياً أو دنيوياً ثم شكرته فتوفيقك للشكر نعمة تحتاج إلى شكر، فإذا شكرت فهذا التوفيق للشكر صار نعمة أخرى، وإذا شكرتها صار نعمة أخرى، إذاً: لا يمكن أن تبلغ شكر الله عزّ وجل، ولهذا كان من الأذكار الواردة عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**لا أحصي ثناء عليك؛ أنت كما أثنيت على نفسك**»[1] ومع ذلك يمن الله علينا بالإسلام، ونسلم، ويجازينا عليه، ثم يقول: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمٰن: ٦٠]

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم (٤٨٦) عن أبي هريرة.

فيا سبحان الله! أنت المحسن إلينا أولاً وآخراً، وما عملنا بالنسبة لإحسانك؟! بل عملنا من إحسانك إلينا، ثم هو سبحانه يقول: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾، ويقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢﴾ [الإنسان: ٢٢] سبحان الله! من الذي وفقنا لهذا السعي هو الله عزّ وجل، فيشكرنا على ذلك وهو الذي وفقنا لذلك.

والحقيقة أن الإنسان مملوء من نعم الله عزّ وجل، ولا يمكن أن يحصي نعمة الله عزّ وجل كما قال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ولهذا قال: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ أعادها مرة أخرى للتوكيد؛ ولأهمية الأمر، والتوكيد للشيء يدل على أهميته، ولهذا قال: ﴿فَتَبَيَّنُوا۟﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ إشارة إلى أنكم لو تعجلتم وزعمتم، أو أظهرتم للناس أنكم متريثون فإن الله لا يخفى عليه حالكم، فهو يعلم حالكم، و«الخبير»: هو: العليم ببواطن الأمور.

والفرق بين الخبير والعليم:

أن الخبير يختص ببواطن الأمور، والعليم بظواهرها، ولكن العليم إذا ذكر وحده شمل العلم ببواطن الأمور وظواهرها، وإذا ذكر مع الخبير صار الخبير هو العليم ببواطن الأمور، والعليم هو العليم بظواهرها، مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لماذا قدم

المعمول، هل المقصود إفادة الحصر كما هي القاعدة، أو المقصود شيء آخر، وما الذي يمنع الوجه الأول؟

والجواب: ليس المقصود الحصر، ويمنعه أن الله خبير بما يعملون وبغيره، بل المقصود تهديد هؤلاء، وكأنه قال ـ والله تعالى منزه عما أفرضه ـ: إن لم أعلم شيئاً فأنا عليم بما تعملون، فيكون فائدة ذلك ليس الحصر؛ لأن الله يعلم ما عمل هؤلاء وغيرهم، وإنما المقصود التهديد، يعني: لو فرض أني لا أعلم شيئاً فأنا عليم بما تعملون.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أهمية الحكم المذكور فيها، ووجهه: التصدير بالنداء.

٢ ـ أن امتثاله من مقتضيات الإيمان؛ لأنه صدر بتوجيه الخطاب للمؤمنين.

٣ ـ فضيلة المؤمنين؛ حيث يخاطبهم الله عزّ وجل بما شاء من أحكام، ولا شك أن مخاطبة الله للإنسان لشخصه أو لوصفه لا شك أنها شرف، والناس يتدافعون عند ملوك الدنيا، فإذا قال هذا الملك: كيف أصبحت يا فلان؟! فإنه يعده شرفاً، فإذا وجه الله الخطاب للمؤمنين كان ذلك شرفاً لهم.

٤ ـ وجوب التثبت في الأمور، حتى في الجهاد في سبيل الله فلا بد أن تتثبت، وجه ذلك قوله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ وهذا فعل أمر، والأصل في الأمر الوجوب لا سيما في مثل هذه الأمور الخطيرة.

٥ ـ أن الواجب علينا معاملة الخلق بالظاهر، لقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ ولم يقل: لست

مسلماً؛ لأنه ألقى السلام واستسلم، لكن لا تقولوا: لست مؤمناً، يعني: لم يدخل الإيمان في قلبك.

٦ ـ التحذير من هؤلاء الناس الذين يتهمون المسلمين بأن عملهم رياء، فبعض الناس ـ والعياذ بالله! ـ إذا كره شخصاً وأُثني عليه عنده بأنه يعمل العمل الصالح قال: هذا مرائي، فيكون بهذا القول وارثاً للمنافقين؛ لأن المنافقين هم ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩].

٧ ـ أنه لا يجوز لنا أن نتعدى الظاهر الذي يبدو من الإنسان، حتى وإن وجدت قرائن تدل على خلاف ظاهره، والدليل: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

وقد وقع مثال تطبيقي لهذا في عهد النبي ﷺ، فإن أسامة بن زيد رضي الله عنه وعن أبيه ـ وهو حب رسول الله ﷺ ـ أدرك رجلاً من المشركين فعلاه بالسيف، فقال الرجل لما غشيه أسامة وأدركه: لا إله إلا الله، ولكن أسامة قتله؛ يظن أنه قالها خوفاً من القتل، ولم يقلها من قلبه، فأخبر بذلك النبي ﷺ، فجعل يقول: **«أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟ كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة»** الله أكبر! جعل يكرر هذا حتى قال أسامة: «تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ»[1] يعني: تمنيت أن يكون هذا في حال كفري حتى أسلم فيغفر لي ما قد سلف؛ لأن من أسلم غفر الله له ما سلف في كفره مهما كان.

فأقول: إن هذا يدل على التحذير من الحكم على الناس

---

(١) تقدم (١/ ١٤٩).

بما يخالف الظاهر، ونحن لا نكلف ما لا نطيق، ووالله! لو أن الله جعل حكمنا على الناس على حسب الباطن لهلكنا، فمن يحقق الباطن، لا يمكن أن يحققه أحد، فنحن ليس لنا إلا الظاهر.

٨ ـ علم الله سبحانه ببواطن الأمور، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، فقد فسر النبي ﷺ الباطن بأنه الذي ليس دونه شيء، فكل شيء بأمره، وكل شيء بعلمه، وكل شيء بسمعه، وكل شيء ببصره، فعلوه عزّ وجل فوق كل شيء، ولا يمنع من علمه بكل شيء.

٩ ـ تهديد الإنسان أن يعمل ما لا يرضي الله عزّ وجل، يعني: لا تظن أنك إذا عملت شيئاً فإنه يخفى على الله أبداً، ومتى آمن الإنسان بهذا ـ ونسأل الله أن يجعلنا من المؤمنين به ـ فإنه لن يقدم على شيء لا يرضاه الله؛ لأنه يعلم أن الله يعلم بهذا، حتى في قلبه يحفظ قلبه من الانحراف والانجراف إذا علم بأن الله تعالى خبير بما يعمل، لكن هذه المسائل تحتاج إلى فطنة، وأن الإنسان دائماً يكون مراقباً لله سبحانه، خائفاً منه، وكلما هم بشيء ذكر عظمة الله عزّ وجل وعلمه بما سيعمل حتى يمتنع، نسأل الله تعالى أن يحيي قلوبنا بذلك؛ لأننا في غفلة عن هذه الأمور، وقد يغلب الهوى على الهدى.

فقد تجد الإنسان إذا هوي شيئاً فعله، ولا يفكر أن لديه رقيباً عتيداً، ولا يفكر أن الله سبحانه في تلك الساعة يعلم ما يفعل؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**لا يزني الزاني**

حين يزني وهو مؤمن»[(١)]، أي: لو كان عنده إيمان ما زنى؛ لأنه يعلم أن الله يعلمه.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥ ـ ٩٦].

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ﴾ ﴿لَّا﴾: هذه نافية، وقوله: ﴿يَسْتَوِى﴾: فعل مضارع، وقوله: ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾: فاعل، وقوله: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾: معطوف على قوله: ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾، وذلك أن من الناس من تمنى على الله الأماني، تمنى أن يكون مثل المجاهدين في سبيل الله وهو قاعد، وهذا لا يمكن، ولهذا نفى الله المساواة فقال: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: القاعدون عن الجهاد.

ثم قال: ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾ وفي ﴿غَيْرُ﴾ قراءتان: الرفع على أنها صفة لـ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾، والثاني: النصب على أنها مستثناة، وكلاهما قراءتان سبعيتان صحيحتان، فيجوز أن تقرأ: ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾ أو ﴿غَيْرَ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾ وهذا فيما بينك وبين نفسك، أو فيما بينك وبين الذين يفهمون، أما عند العامة فلا تذكر لهم

---

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب النهي بغير إذن صاحبه، حديث رقم (٢٣٤٣)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية...، حديث رقم (٥٧) عن أبي هريرة.

قراءتين؛ لأن في ذلك مفسدتين: خاصة وعامة، الخاصة أنهم يتهمونك بالخطأ، ويقولون: صلينا خلف إمام يلحن ويقول في قراءته: «لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُوْلِي الضَّرَرِ» والذي في المصحف: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ إذاً: هذا إمام لا يصلح؛ لأنه يلحن.

والمفسدة العامة: أن الناس إذا قيل لهم: إنه لم يلحن، ولكنه قرأ بقراءة ثانية، ربما تهبط عظمة القرآن في نفوسهم، ويقولون: كيف يختلف القرآن؟ سبحان الله! فلهذا لا ينبغي أن يقال لكل إنسان: إن في هذا قراءتين كما قال علي رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون» أي: بما يمكنهم معرفته من غير نفور «أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟»[1]، والجواب: لا، إذاً: حدث الناس بما تبلغه عقولهم، وبما يمكن أن يخدموه ويعرفوه، وليس معنى قوله: «حدثوا الناس بما يعرفون» أن تحدثوهم بما كانوا قد عرفوه؛ لأن هذا لا فائدة فيه؛ فالذي قد عرفوه لا حاجة للتحديث به، اللهم إلا على سبيل التذكير بعد الغفلة فهذا يمكن.

وقول الله عزّ وجل: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ الضرر الذي يسقط وجوب الجهاد بيّنه الله تعالى في قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]، فهذه الأعذار الثلاثة هي التي تسقط وجوب الجهاد، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ بشرط ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١] فهؤلاء هم أهل العذر.

وقوله: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ المجاهد:

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم (١٢٧).

هو الذي بذل جهده؛ أي: طاقته في إدراك ما يريد، وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في شريعة الله، وهذا يشمل القصد والتحرك، فالقصد بينه الرسول ﷺ بقوله: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[1]، والتحرك: أن يكون الجهاد على وفق الشرع، بحيث نقوم به حينما يكون فرضاً أو سنة، ونحجم عنه حينما يكون ضرره أكثر من التحرك به.

مثلاً: لو أن الأمة الإسلامية عندها تأخر في السلاح وفي العَدَد والعُدد أيضاً، والأمم ضدها أقوى منها سلاحاً وأكثر عدداً، فليس من المستحسن أن نقاتل، ولهذا لم يوجب الله القتال على الأمة الإسلامية إلا حين كانت مستعدة وقادرة، وأمر بالاستعداد فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وأما قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فإن هذه المسألة خاصة في بدر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦] فأجاز للناس أن يفروا من عدوهم إذا كانوا أكثر من مثليهم.

إذاً قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يشمل معنيين:

المعنى الأول: القصد، بأن يكون قصد المجاهد إقامة شريعة الله، وأن تكون كلمة الله هي العليا.

والمعنى الثاني: أن يكون على وفق الشريعة؛ لأن ﴿فِي﴾ للظرفية، والمظروف قوله: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فإذا قلت: الماء في

---

(١) تقدم (١/ ٥٢٦).

الكأس، فالظرف: الكأس، والمظروف: الماء، والجهاد في سبيل الله لا بد أن يكون في سبيل الله؛ أي: في شرعه الذي شرعه.

وقوله: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ الباء هذه كقولك: قطعت بالسكين، وضربت بالعصا، فهي للتعدية، يعني: أنها لبيان الأداة التي حصل بها الجهاد، والجهاد يكون بالأموال، ويكون بالأنفس، وقدم الله الجهاد بالأموال لسببين:

السبب الأول: أنه أهون على الإنسان، فالمال أهون على الإنسان في الغالب.

والشيء الثاني: قد يكون نفعه أكثر؛ لأن الإنسان بنفسه يقاتل، ويقتل من شاء الله، لكن إذا كان ذا مال كثير وبذل أموالاً عظيمة فإنه يموِّن من المجاهدين عشرات أو مئات أو أكثر.

وقوله: ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ يعني: ذواتهم.

ثم بيَّن الله عزّ وجل وجه انتفاء الاستواء وقال: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾، وهذه الدرجة لم يبينها الله عزّ وجل، لكن قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢] يستفاد منها أن هذه الدرجة درجة عظيمة كبيرة ليست هينة، وقد ذكر النبي عليه الصلاة والسلام أن في الجنة مائة درجة أعدها الله تعالى للمجاهدين في سبيله[1].

وقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ «كُلّاً» نصبت؛ لأنها مفعول مقدم، و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مفعول ثانٍ، ولا يكون هذا من باب الاشتغال؛ لأن العامل لم يشتغل بضمير المفعول.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله (٢٧٩٠) عن أبي هريرة.

وقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هي: الجنة كما فسر ذلك النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، قال: «الحسنى الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله»(١)، فالحسنى إذاً: الجنة، وهي وصف لموصوف محذوف تقديره: وعد الله الموعدة الحسنى، وهي اسم تفضيل، يعني: لا غاية في الحسن فيما سواها، بل كل ما يوجد من الحسن فهو دونها؛ لأن الحسنى اسم تفضيل؛ أي: أعلى ما يكون الحسن.

وقوله: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قال في الأول: ﴿دَرَجَةً﴾، وهنا قال: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فالأول في المنزلة، والثاني في حجم الأجر والثواب.

وقوله: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ الله أكبر! ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ هذه بدل، أو عطف بيان من قوله: ﴿أَجْرًا﴾.

وقوله: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾ وقد أبهمت في الآية، لكن قال الرسول عليه الصلاة والسلام فقال: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله**»(٢).

وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةً﴾ أي: مغفرة للذنوب.

وقوله: ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: تيسيراً للمطلوب، وباجتماع المغفرة والرحمة يزول المرهوب ويحصل المطلوب، فيزول المرهوب بالمغفرة؛ لأن الذنب الذي حصل واستحق العقوبة عليه يغفر له، وبالرحمة يحصل المطلوب، والرحمة هي فوق المغفرة؛ ولهذا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رواية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه (١٨١).

(٢) تقدم ص١٠١.

تأتي المغفرة سابقة للرحمة في الغالب؛ لأنه كما يقال: التخلية قبل التحلية.

والمغفرة تكررت في القرآن الكريم وفي غير القرآن أيضاً، وهي مشتقة من المِغفَر، وهو: الخوذة، وهي: عبارة عن شيء مثل الإناء من الحديد يلبس على الرأس حتى يُتقى بها السهام، ويتقى بها السيف. ومعنى مغفرة الذنوب: ستر الذنب، والتجاوز عنه؛ لأن هذا مقتضى الاشتقاق، فالذين يقولون: الغَفْر في اللغة: الستر، لم يحيطوا بالمعنى إلا إذا قالوا: الوقاية؛ لأنه ليس كل ساتر واقياً.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ نفي التساوي بين الناس، والعجب أننا نسمع من يدندن كثيراً فيقول: إن دين الإسلام دين المساواة، وهذا غلط على دين الإسلام، فدين الإسلام ليس دين المساواة، ولكنه دين العدل، والعدل هو: إعطاء كل أحد ما يستحقه؛ ولذلك تجد أكثر ما في القرآن نفي المساواة، وليس إثباتها؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وكقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد: ١٠] وهلم جرا.

فالقول بأن الإسلام دين المساواة في الحقيقة قد ينبني عليه مبدأ خطير، وهو:

أولاً: تسوية الذكور مع الإناث وأن تفضيل الذكور على الإناث يعتبر مخالفاً لدين الإسلام.

ثانياً: الاشتراكية، بتسوية الناس في الرزق، بحيث نأخذ من مال الغني ونعطيه الفقير؛ لأن الدين دين المساواة، ولو قالوا:

الدين دين المواساة لكان صحيحاً؛ ولهذا تشرع التعازي في المصائب، وما أشبه ذلك.

٢ ـ حكمة الشريعة حيث لا تساوي بين المفترقين كما أنها لا تفرق بين المتساويين؛ فالشريعة الإسلامية من لدن حكيم خبير، فلا يمكن أن تجد فيها حكمين متناقضين، ولا يمكن أن تجد فيها شيئين متساويين ثم يختلفان في الحكم أبداً، بل إذا تراءى لك أن هذين الشيئين متساويان وقد اختلفا في الحكم شرعاً فأعد النظر مرة بعد أخرى حتى يتبين لك، فإن لم يتبين لك فاتهم فهمك، ولا تتهم الأحكام الشرعية.

٣ ـ أن من قعد عن الجهاد لضرر فإنه كالذي أتى بالجهاد، لقوله: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم استثنى فقال: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾، فأولو الضرر مساوون للمجاهدين، ويشهد لهذا قول النبي ﷺ في غزوة تبوك: «**إن في المدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا وهم معكم**»، قالوا: كيف يا رسول الله! وهم في المدينة؟! قال: «**حبسهم العذر**»[(١)].

ويقاس على ذلك كل من تخلف عن عبادة لعذر، ولذلك جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً**»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر، حديث رقم (٤١٦١)؛ عن أنس بن مالك، ومسلم، كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر، حديث رقم (١٩١١) عن جابر بن عبد الله.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، حديث رقم (٢٨٣٤) عن أبي موسى.

٤ ـ فضل الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، ووجهه: أنهم أعلى درجة من القاعدين الذين لا يجاهدون.

٥ ـ أن الجزاء من جنس العمل، لقوله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾، ويلزم من هذه الفائدة: أن تفاضل الجزاء يدل على تفاضل العاملين، ويمكن أن يستنبط منه فائدة ثانية وهي: الاستدلال به على ما ذهب إليه أهل السنة من أن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، كما هو معروف.

٦ ـ حسن الاحتراس في كلام الله عزّ وجل، وجهه: أن الله لما ذكر فضل المجاهدين على القاعدين، فربما يتوهم الواهم نزول درجة القاعدين من المؤمنين، فأزال الله هذا الوهم بقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وهذه طريقة القرآن، وانظر إلى المثال الآخر المطابق لهذا، وهو قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]، وانظر إلى المثال الثالث: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩] الشاهد في قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، فهذه ثلاثة أمثلة تفيد أنه من بلاغة الكلام الاحتراس بدفع ما يتوهم وقوعه.

٧ ـ البشارة لعامة المؤمنين من القاعدين والمجاهدين بالحسنى، لقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، فهل ينبني على هذه الفائدة أن نشهد لكل مؤمن أنه في الجنة؟ الجواب: أما على سبيل العموم فنعم، وأما على سبيل الخصوص فنتوقف على ما جاء به النص، فمثلاً: نحن نقول: الصحابة كلهم وعدهم الله الجنة: المجاهد، والقاعد، لكن الشخص بعينه لا يمكن أن نشهد له إلا إذا شهد له النبي ﷺ.

وزاد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال: من أثنى عليه الناس خيراً فإننا نشهد له بالجنة، واستدل لذلك بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، واستدل بما ثبت في السنة حيث مرت جنازة فأثنى عليها الحاضرون خيراً، فقال النبي ﷺ: «**وجبت**»، ثم مرت أخرى فأثنوا عليها شراً فقال: «**وجبت**»، فقالوا: يا رسول الله! ما وجبت؟ فقال: «**أما الأول فأثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وأما الثاني فأثنيتم عليه شراً فوجبت له النار**»، ثم قال: «**أنتم شهداء الله في الأرض**»(١).

فاستدل شيخ الإسلام رحمه الله بهذا على أنه تجوز الشهادة لمن اتفقت الأمة على الثناء عليه، وضرب لذلك أمثلة بالأئمة المشهورين المشهود لهم بالعدالة والإيمان والتقوى، مثل: الأئمة الأربعة: الإمام أحمد، والشافعي، ومالك، وأبي حنيفة، ومثل سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة ـ رحمهم الله ـ ممن اتفقت الأمة على الثناء عليهم.

٨ ـ أنه لا فضل أعظم من الجنة، وتؤخذ من قوله: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لأن الحسنى اسم تفضيل مؤنث أحسن.

٩ ـ الحث على الجهاد في سبيل الله، وجه الدلالة: تفضيل الله عزّ وجل للمجاهدين على القاعدين بالدرجات.

١٠ ـ عظم منَّة الله سبحانه على العباد؛ حيث جعل إثابتهم

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت، حديث رقم (١٣٠١)؛ ومسلم، كتاب الجنائز، باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتى، حديث رقم (٩٤٩) عن أنس بن مالك.

على الأعمال مثل الأجرة التي استحقها الإنسان فرضاً على المستأجر، لقوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فسماه ﴿أَجْرًا﴾، كأجرة الأجير، مع أن الفضل لله تعالى أولاً وآخراً، فهو الذي وفقك للعمل، وهو الذي منَّ عليك بالجزاء عليه، ويؤيد هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، فكتب على نفسه الرحمة، وهو سبحانه يوجب على نفسه وعلى عباده ما شاء، ولا أحد يعترض عليه.

١١ ـ عظم درجات المجاهدين في سبيل الله، وجه ذلك قوله: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾ فأضافها إلى نفسه، ومعلوم أن العطاء يعظم بعظم المعطي، فلو قلت ـ مثلاً ـ: فلان تصدق ـ وهو من أغنى الناس ـ لذهب بالك إلى أنه تصدق بشيء كثير، ولو قلت: فلان تصدق ـ وهو فقير ـ لم يذهب بالك إلا إلى أنه تصدق بشيء قليل، ولهذا قال: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾ فإضافة الشيء إلى الله يدل على عظمته، ومنه قوله ﷺ في الدعاء الذي علَّمه أبا بكر رضي الله عنه يدعو به في صلاته: «**فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني**»(١).

١٢ ـ إثبات المغفرة لله، لقوله: ﴿وَمَغْفِرَةً﴾، وهل تثبت المغفرة لغير الله؟ الجواب: نعم، تثبت لغير الله، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

---

(١) رواه البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب الدعاء قبل السلام، حديث رقم (٧٩٩)؛ ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، حديث رقم (٢٧٠٥) عن أبي بكر.

[التغابن: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣].

١٣ ـ إثبات الرحمة لله، والرحمة التي أضافها الله إلى نفسه نوعان: منها صفة لله، ومنها مخلوق من مخلوقات الله، سماه الله تعالى «رحمة»، فمن الأول: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨] فهذه صفة، ومن الثاني: قوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨] فالمراد بالرحمة هنا ما يكون أثراً للمطر من النبات وغير النبات، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠٧]، فالمراد بالرحمة هي: الجنة، بدليل قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ﴾ [هود: ١٠٦] وهذه رحمة مخلوقة، ومنه قوله في الحديث القدسي للجنة: «**أنت رحمتي أرحم بك من أشاء**»[(١)] فتبين بهذا أن الرحمة تنقسم إلى قسمين: مخلوقة، وصفة، فالمخلوقة من جملة المخلوقات، شيء بائن من الله عزّ وجل لا ينسب إليه إلا نسبة خلق وإيجاد، لكنه من آثار الرحمة التي هي الصفة، وأما الرحمة التي هي الصفة فهي صفة تابعة للذات؛ أي: لذات الله عزّ وجل.

١٤ ـ إثبات هذين الاسمين لله وهما: الغفور، والرحيم، في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وقد مر تفسيرهما.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، حديث رقم (٤٥٦٩)؛ ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، حديث رقم (٢٨٤٦) عن أبي هريرة.

❑ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: ٩٧].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ هذه ﴿إِنَّ﴾ المؤكدة، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمها، وقوله: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حال من الهاء في قوله: ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾، وخبر ﴿إِنَّ﴾ قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، وما بين ذلك فهو اعتراض.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ﴾ أي: تقبضهم، والمراد بذلك: قبض أرواحهم من أبدانهم.

وقوله: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الملائكة هم: عالم غيبي، محجوبون عن العباد، لهم أوصاف معلومة في الكتاب والسنة، فما علمنا فيها وجب علينا الإيمان به على ما علمنا، وما لم نعلم فيها فالواجب علينا السكوت، كما هو الشأن فيما وصف الله به نفسه.

قالوا: والملائكة: مأخوذة من الألوكة، وهي: الرسالة، لقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] فإن الألوكة هي الرسالة، وبناءً على ذلك يكون فيها إعلال بالقلب؛ لأن ملائكة جمع ملأك، وأصله مألك، لكن فيها تقديم وتأخير إعلالاً صرفياً حسب قواعد الصرف التي كتبها العلماء.

وقوله: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: حال كونهم ظالمي أنفسهم؛ لكونهم بقوا في أرض يجب عليهم الهجرة منها؛ لأن بقاءهم مع وجوب الهجرة معصية وظلم لأنفسهم.

قوله: ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الملائكة.

قوله: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي: في أي مكان كنتم، وقيل: على أي

حال كنتم، فعلى المعنى الثاني تكون «في» بمعنى «على» كما هي في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١] أي: على الأرض، ويكون المراد بقوله: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي: على أي حال كنتم، بدليل قوله في الجواب: ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أما على القول بأن المراد في قوله: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ السؤال عن المكان والموضع، فيكون الجواب في قوله: ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على تقدير شيء محذوف؛ أي: قالوا: بقينا في هذا؛ لأننا كنا مستضعفين في الأرض.

وعلى كل فالمعنيان يدوران على شيء واحد، وهو: أن هؤلاء بقوا في أرض تجب عليهم الهجرة منها، فتأتي الملائكة لقبض أرواحهم فيوبخون: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي: لماذا كنتم في هذا المكان؟

وقوله: ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: أننا نعامل معاملة الضعيف من قبل الكفار؛ أي: الذين استضعفوهم، ولكن هذا ليس بعذر، ولهذا تقول لهم الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾؟ وهذا الاستفهام للتقرير والتوبيخ، يعني: أن أرض الله واسعة، فلماذا لا تهاجروا؟

وقوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟﴾ الفاء هل هي عاطفة أو سببية؟

الجواب: إذا قلنا: سبقها الاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ فهي سببية، لكن الاستفهام هو للتقرير والإثبات، وتقدير الكلام: قد كانت أرض الله واسعة، وعلى هذا التقدير تكون الفاء عاطفة والمعنى: ألم تكن أرض الله واسعة ألم تهاجروا فيها؟

وقوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾ يعني: أن هناك أراضٍ غير الأرض التي أنتم مستضعفون فيها.

قوله: ﴿فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ هاجر: مأخوذة من الهجر، وهو: الترك، والمهاجرة: ترك البلد الذي عاش فيه الإنسان إلى بلد آخر، حتى الذي يخرج من بلد كان مستوطناً له ثم يستوطن بلداً آخر يقال: إنه مهاجر؛ لأنه ترك بلده. والهجرة شرعاً هي: الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وإذا جاء لفظ له معنى لغوي ومعنى شرعي في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ فيحمل على المعنى الشرعي؛ لأن حقيقة كل متكلم على حسب ما يقتضيه كلامه.

وقوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ الفاء عاطفة، أو واقعة في خبر المبتدأ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وقوله: ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾ أي: مصيرهم، و﴿جَهَنَّمُ﴾ اسم من أسماء النار، أعاذنا الله منها.

قوله: ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: ساءت مرجعاً ومرداً، وهذا إنشاء ذم لها؛ لأن ساء مثل بئس، فهي جملة لإنشاء الذم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الملائكة تتوفى بني آدم، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وظاهر هذا اللفظ أنهم جمع، فيطابق قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] أي: الملائكة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]، وحينئذ يحصل التعارض في الظاهر بين هذه الآية وبين آيتين أخريين، هما قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾

[الزمر: ٤٢] وبين قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

والجواب عن هذا الظاهر أن يقال: نسب الله تعالى التوفي إليه لأنه بأمره، وما وقع بأمر الملك فإنه كفعله، حتى في عامة حديث الناس، ولهذا يقال: بنى عمرو بن العاص رضي الله عنه مدينة الفسطاط، وعمرو لم يبن، وإنما أمر.

وأما الجمع بين كونه ذكر في هذه الآية وأمثالها بصيغة الجمع، وفي آية السجدة بصورة الإفراد، فيقال: ملك الموت مفرد مضاف فيعم، ولا ينافي الجمع؛ لأن المفرد المضاف يعم فلا ينافي الجمع، وهذا وجه ضعيف، أو يقال: إن الملائكة تساعد ملك الموت، كما جاء في الحديث الصحيح: أنهم يأمرون الروح فتخرج من الجسد، حتى إذا لم يبق إلا قبضها تولى قبضها ملك الموت، فإضافة الوفاة أو التوفي إلى الملائكة بالجمع لأنهم أعوان لملك الموت، وإضافة التوفي إلى ملك الموت لأنه هو المباشر لقبض الروح.

وهنا يرد إشكال آخر ويقال: إننا نجد أنفساً تقبض في المشرق وفي المغرب، وبينهما من المسافات ما لا يعلمه إلا الله عزّ وجل، فكيف يقال: إن ملك الموت واحد، وكيف يتصور أن واحداً يقبض العديد من الناس في أماكن بعيدة متفرقة؟

فيقال: قد يكون المراد بملك الموت جنس الملك؛ أي: الملك الموكل بقبض الأرواح وإن كان أكثر من واحد، فيكون المراد به الجنس لا العين، وهذا وجه ضعيف، ويجاب بوجه آخر وهو: أن هذا من أمور الغيب، والواجب علينا في أمور الغيب أن

نصدق بها وإن لم تدركها عقولنا، وهذا أبلغ في التسليم لخبر الله عزّ وجل؛ حتى لا نتكلف في الجواب ونقول: إن ملك الموت يراد به الجنس؛ وهو أكثر من واحد، فنقول: إن الله عزّ وجل على كل شيء قدير، وملك الموت يقبض الأرواح وإن كانت متباعدة، وإن كانت في آن واحد، وعلينا أن نصدق ونسلم.

٢ ـ أن للملائكة أجساماً تقبض الأرواح، وتخاطب وتتكلم، وكلامها مفهوم، خلافاً لمن يقول: إن الملائكة هي القوى الخيرة، وأن الشياطين هي القوى الشريرة، فإن هذا قول باطل يكذبه القرآن والسنة والإجماع، قال الله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر: ١]، ورسول الله ﷺ رأى جبريل على صورته التي خُلق عليها وله ستمائة جناح قد سد الأفق.

فالصحيح الذي يجب علينا اعتقاده: أن الملائكة أجسام، وأنهم يقومون ويفعلون، ويصعدون وينزلون بأمر الله عزّ وجل.

٣ ـ أن العبرة في الأعمال بالخواتيم، لقوله: ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: أنهم في وقت الوفاة ظالمون لأنفسهم، فالعبرة بالخواتيم، ولهذا يجب على الإنسان أن يكون خائفاً من سوء الخاتمة، وأن يسأل الله سبحانه دائماً حسن الخاتمة، وألا يموت إلا وهو مسلم.

وقد أخبر النبي ﷺ في الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «**أن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع**»[1] والمراد: ذراع بالنسبة

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، حديث رقم (٣٠٣٦)؛ ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن =

لقرب الأجل لا بالنسبة للعمل، لكن معناه: أنه يعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يبقى عليه إلا شيء يسير فيموت، وليس المراد حتى ما يبقى بينه وبينها إلا ذراع للوصول إليها بعمله؛ لأن الحديث هذا مقيد بالحديث الآخر: «**ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار**»(١).

وأيضاً لا يمكن أن الله سبحانه يخذل عبداً قام بعبادته إلى أن يبقى عليه ذراع واحد ثم يخذله فيسيء خاتمته، فهذا ينافي كلام الله عزّ وجل ورحمته، فإذا قررنا هذا التقرير بأن المعنى يكون بينه وبينها ذراع بالمدة لا بالعمل تبين أن الأعمال بالخواتيم.

٤ ـ توبيخ أولئك القوم الذين يموتون وهم ظالمون لأنفسهم، توبخهم الملائكة: ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾، وقد سبق في التفسير معنى قوله: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾.

٥ ـ وجوب الهجرة، وأن من لم يهاجر فإنه يموت وقد ظلم نفسه، ولكن وجوب الهجرة مشروط بشروط منها: **أولاً**: القدرة، لقوله في الآية الكريمة التي بعد هذه الآية: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ [النساء: ٩٨]؛ ولأن القاعدة العامة العظيمة العميقة في الشريعة الإسلامية: أنه لا واجب مع العجز، لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فيشترط لوجوب الهجرة القدرة.

= آمه...، حديث رقم (٢٦٤٣) عن ابن مسعود.

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا يقول فلان شهيد، حديث رقم (٢٧٤٢)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار، حديث رقم (١١٢) عن سهل بن سعد الساعدي.

ثانياً: أن يكون الإنسان مغموصاً ومغموراً بحيث لا يستطيع أن يؤدي شعائر دينه في بلاد الكفر، فإن كان يستطيع فإنه لا تجب عليه الهجرة، بل إذا كان يستطيع أن يدعو إلى دين الله ويجد قبولاً من الناس فربما نقول: إن بقاءه واجب؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ثالثاً: أن يجد مكاناً خيراً من هذا المكان الذي هو فيه، فإن كانت الدنيا كلها متساوية في أنه لا يستطيع الإنسان إظهار دينه سواء في هذا البلد أو في هذا البلد فلا يجب؛ لأن الإيجاب هنا لغو لا فائدة منه، فكيف نقول: يجب أن تهاجر من هذا المكان إلى مكان آخر لا تستطيع فيه إظهار دينك؟! وما الفائدة إلا مجرد التعب والعناء والقلق واختلاف البلدان عليه، وما أشبه ذلك.

وهل الدعوة من شعائر الدين التي يهاجر الإنسان بسببها إن لم يتمكن منها؟

الدعوة محل نظر، فقد يقال: إن من أساسيات الدين الإسلامي الدعوة إلى الله عزّ وجل، فإذا عجز الإنسان عنها فهو آثم، وقد يقال: لا، بل الدعوة فرض كفاية، وأيضاً ليست متعلقة بشخص الإنسان، فهي عندي محل نظر. والله أعلم.

وإذا كان المسلم لا يستطيع أن يقيم شعائر دينه في بلاده لكن يستطيع أن يقيمها في بلاد الكفر فهل يهاجر؟ نقول: الأولى ألا يهاجر؛ لأن هذه الحال ربما لا تدوم، فقد يغير الله الحال، وهي إن شاء الله ليست دائمة بإذن الله، وإذا هاجر أهل الخير عن البلد، ولم يبق إلا المستضعف صار الأمل ضعيفاً في إصلاح

البلاد، لكن إذا بقي هؤلاء الأخيار وعالجوا الأمور بحكمة، فالغالب أن الله يجعل لهم فرجاً، نسأل الله تعالى أن يصلح أحوال المسلمين.

٦ ـ أن الظالم يحتج بأي حجة كانت، لقول هؤلاء: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والواقع أنهم غير مستضعفين؛ لأن الملائكة قالت لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾، لكن الإنسان إذا ابتلي حاول أن يدافع عن نفسه بأي حجة حتى وإن لم تكن صحيحة، وهذا نجده كثيراً في مقام المناظرات بين العلماء في المسائل العقدية والعملية.

فتجد بعض العلماء ـ مثلاً ـ حين يجيب عما هو عليه من المذهب عقدياً كان أم عملياً تجده يجيب بأجوبة باردة. فتستغرب وتقول: كيف يجيب هذا العالم النحرير بهذا الجواب غير المفيد؟ لكن مقام الضيق والضنك يحرج رأيه، فتجده يجيب بغير ما هو حق حتى في نفسه، ولو أنه رجع إلى نفسه لوجد أن إجابته غير صحيحة.

٧ ـ أن الشريعة إن منعت باباً ضيقاً فتحت باباً أوسع، وتؤخذ من قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾، فالله تعالى لم يحجر عليهم الأرض، بل جعلها واسعة، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦].

٨ ـ أن التخلف عن الهجرة الواجبة من كبائر الذنوب، لقوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ ووجه الدلالة: أنه ترتب عليها عقوبة خاصة.

٩ ـ قبح هذا المأوى الذي هو جهنم، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ فأثنى الله عليها بالذم؛ لأن ساء وحسن متضادان، فساء ذم، وحسن مدح.

١٠ ـ يؤخذ من الآية أن النار مظلمة مجهمة، من قوله: ﴿جَهَنَّمُ﴾، ووجه الدلالة: أن جهنم من الجهمة وهي: الظلمة، وعلى هذا فتكون جهنم اسماً عربياً، وقيل: إن جهنم اسم فارسي، وأصله كهنام، لكن لما عُرِّب تحول إلى هذا.

١١ ـ يؤخذ من الآية أن الجهاد فرض كفاية؛ لأنهم لم يؤثموا، بل بُين لهم أنهم تأخروا عن القوم المجاهدين.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٨ ـ ٩٩].

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ هذا مستثنى من قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٧]، ويحتمل أن يكون استثناءً منقطعاً، وذلك أن المستضعفين لا يمكن أن يتوعدوا بجهنم، ومن المعلوم أن الفرق بين الاستثناء المتصل والمنقطع: أن الاستثناء المتصل يكون المستثنى فيه بعض أفراد المستثنى منه، وهنا لا يستقيم.

وكذلك لو قال قائل: إنها مستثناة من قوله: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨] قلنا: أيضاً لا يصح الاستثناء متصلاً؛ لأن

هؤلاء المستضعفين ليسوا ظالمي أنفسهم، ولهذا يترجح القول بأن الاستثناء هنا منقطع، والاستثناء المنقطع ليس المستثنى من جنس المستثنى منه، هذا من حيث المعنى.

ثانياً: أداة الاستثناء فيه بمعنى أداة الاستدراك «لكن» فتكون «إلا» هنا بمعنى «لكن».

وفيه حكم ثالث: وهو أن المستثنى إذا كان منقطعاً وجب نصبه فيما إذا كان الكلام تاماً منفياً، بينما إذا كان المستثنى متصلاً والكلام تاماً منفياً فيجوز فيه الوجهان؛ أي: النصب على الاستثناء أو الإتباع على البدلية.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ يعني: الذين أصابهم الضعف، فالمستضعف بمعنى أصابه الضعف.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ ﴿مِنَ﴾ هذه بيانية، تبين المستضعفين؛ لأن «ال» في المستضعفين اسم موصول، والاسم الموصول من أقسام المبهم؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ٦] فـ«من» هنا بيانية.

قوله: ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾، الولدان إما ذكور وإما إناث، والرجال: جمع رجل، والرجل إنما يكون إذا بلغ، والنساء كذلك جمع امرأة، والمرأة لا يطلق عليها امرأة إلا إذا بلغت.

إذاً: المستضعفون من الرجال إما لمرض، أو كبر، أو غير ذلك مما لا يتمكنون معه من الهجرة، وكذلك يقال في النساء، أما الولدان فالغالب عليهم الضعف مطلقاً؛ لأنهم كما قال عزّ وجل: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ يعني: لا يستطيعون أن

يتحيلوا حتى يخرجوا، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ فيأتون الأمر على وجه صريح، فهم لا حيلة عندهم فيمكثون، ولا يستطيعون الخروج صراحة، فامتنع عليهم الخروج، والحيلة: فِعْلة من الحول، لكنها قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، وإذا كانت من الحول فالحول من التحول؛ وكأن المحتال يتحول من حال إلى أخرى على وجه لا يشعر به الغير.

وقوله: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً ينفذون إليه بأنفسهم فيهاجرون.

قال الله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الفاء: حرف عطف، و«أولاء» اسم إشارة يعود على المستضعفين.

قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾ جملة ﴿عَسَى﴾ وما بعدها في محل ظرف خبر قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، و﴿عَسَى﴾ فعل للترجي، وقيل: إنها تأتي للتوقع، والفرق بين الترجي والتوقع: أن الترجي رجاء ما لم يوجد سبب وقوعه لكنه ممكن، والتوقع ما يوجد سبب وقوعه، فيتوقع أن يكون.

وقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾ هل هذا من الرجاء أو من التوقع؟ إذا نسبت ﴿عَسَى﴾ إلى الله فهي من التوقع، ولهذا قال بعض العلماء: إن ﴿عَسَى﴾ من الله واجبة، ولا يمكن أن تأتي للترجي؛ لأن الله تعالى لا يترجى شيئاً، بل هو قادر على كل شيء، والرجاء إنما يكون من شخص قد يتعسر عليه أن يفعل، أما الله عزّ وجل فلا، وعلى هذا فتكون للتوقع، يعني: هؤلاء يتوقع أن الله يعفو عنهم.

لكن قول بعض العلماء: ﴿عَسَى﴾ من الله واجبة إذا قلنا

بهذا فلماذا عبر بـ﴿عَسَى﴾ التي لا تعطي الإنسان يقيناً بالوقوع؟

والجواب: نقول: لئلا يغتر الإنسان فيقول: أنا معفو عني، ثم لا يهتم، بل يقال: أنت يتوقع أن الله يغفر لك، ويتوقع أن تكون من المهتدين، في مثل قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]، وقوله: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٢]، وأمثلة هذا كثيرة، حتى لا يغلب الطمع على الإنسان فيأمن من مكر الله.

وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾ ﴿يَعْفُوَ﴾: العفو هو: التجاوز عن الذنب، ولكنه لا يكون ممدوحاً إلا إذا كان مع القدرة، أما إذا كان بدون قدرة فهو مذموم؛ لأنه عجز وذل، ولهذا يقال دائماً: فلان يعفو مع القدرة؛ لأن هذا هو محل العفو المحمود؛ كقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: ١٤٩] يعني: يعفو مع القدرة على المؤاخذة، فاعفوا أنتم عنهم حتى يعفو الله عنكم.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ عفو الله عزّ وجل عن هؤلاء الصنف من الناس في تركهم للهجرة.

٢ ـ أن الدين الإسلامي دين اليسر والسهولة، وأنه مع وجود المشقة ينتفي الحرج.

٣ ـ أن من الرجال البالغين من لا تجب عليهم الهجرة، وذلك لكونهم مستضعفين.

٤ ـ أن الواجب الوصول إلى القيام بالواجب بأي حيلة

تكون، لقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾، وهل يستدل بهذا على جواز استعمال الحيل؟

الجواب: نقول: لا، بل الحيل فيها تفصيل:

ما كان تحيلاً على واجب فهو واجب، وما كان تحيلاً على محرم فهو محرم، وما كان تحيلاً على مباح فهو مباح، وهذا الأخير بشرط ألا يؤدي ذلك إلى اتهام المحتال، وعدم الثقة بقوله أو بفعله، والاحتيال على إظهار الحق بإيهام خلاف المقصود واجب، مثل صنيع سليمان عليه الصلاة والسلام في المرأتين المتنازعتين في طفل إحداهما، قالت الكبرى: هو لي، وقالت الصغرى: هو لي، فقال: ائتوا بالسكين لأشقه بينكما، فقالت الصغرى: هو لها يا نبي الله! وقالت الكبرى: شقه[1]، فهذه حيلة، لكن على إظهار الحق.

والحيلة على المحرم كأن يحتال على الربا بصورة عقد غير مقصود؛ كمسائل العينة مثلاً، فهذا حرام.

والحيلة على مباح أن يحتال على أخيه في معاملة مباحة ليتوصل إلى مقصوده بها، فهذه جائزة بشرط ألا يؤدي ذلك إلى تهمة الإنسان وعدم الثقة بقوله أو فعله، هذا إذا قلنا: إن الحيلة هي التوصل إلى الشيء بما يخالف ظاهره، أما إذا قلنا: إن الحيلة المراد بها الحول، وأصله أنهم لا يستطيعون قوة على الهجرة، فإنه لا يكون فيها دلالة أصلاً على التحريم.

٥ ـ أنه تجب الهجرة على من يقدر عليها من أي سبيل،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب إذا ادعت المرأة ابناً (٦٧٦٩)؛ ورواه مسلم، كتاب الأقضية، باب بيان اختلاف المجتهدين (١٧٢٠) عن أبي هريرة.

سواء كان من السبيل السلطاني الأعظم الذي يمشي معه الناس، أو من السبل الأخرى، لقوله: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ وسبيلاً نكرة في سياق النفي فتعم.

٦ ـ أنه يرجى لهؤلاء أن يعفو الله عنهم، لقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾ فالرجاء هنا باعتبار ما يكون في قلب المخاطب، أما باعتباره منسوباً إلى الله فقال بعض السلف: ﴿عَسَى﴾ من الله واجبة، يعني: أن الله وعدهم أن يعفو عنهم.

٧ ـ إثبات اسمين من أسماء الله هما: العفو، والغفور، فالعفو هو: المتجاوز عن السيئات، والغفور: هو الماحي لها، لكن إذا اجتمع العفو والغفور، صار المراد بالعفو ما يقابل ترك الواجب، والغفور ما يقابل فعل المحرم؛ أي: عفو عن التفريط في الواجب، غفور عن فعل المحرم.

٨ ـ إثبات الصفتين الدال عليهما قوله: ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾، وذلك لأن كل اسم من أسماء الله متضمن لصفة، وليست كل صفة متضمنة لاسم، وبهذا عرفنا أن الصفات أوسع من الأسماء؛ لأن كل اسم لا بد أن يتضمن صفة، وليس كل صفة يشتق منها اسم، بل من الصفات ما ليس معنوياً أصلاً مثل الوجه، واليد، والعين، فهذه ليست معنوية، فهي صفات خبرية لولا إخبار الله بها ما اعتقدناها ولا علمنا بها.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٠٠﴾ [النساء: ١٠٠].

قوله: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

الإعراب:

﴿وَمَن يُهَاجِرْ ... يَجِدْ﴾ هذه جملة شرطية، وفعل الشرط قوله: ﴿يُهَاجِرْ﴾، وجوابه قوله: «يجد»، وإذا كان فعل الشرط مضارعاً وجواب الشرط مضارعاً وجب جزمهما، أما إذا كان فعل الشرط ماضياً وجوابه مضارعاً فإنه يجوز الرفع، قال ابن مالك:

وبعد ماضٍ رفعك الجزا حسن ورفعه بعد مضارع وهم

فيجوز مثلاً من قام يفوز، أما: من يقم يفز فصحيح أيضاً، ومن يقوم يفوز ضعيف.

وقوله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فعل الشرط قوله: ﴿يَخْرُجْ﴾، وجوابه قوله: ﴿فَقَدْ وَقَعَ﴾، واقترن بالفاء لأن الجواب سبق بـ«قد»، وإذا وقع جواب الشرط مقترناً بقد وجب اقترانه بالفاء، وضابطه: أنه كلما كان الجواب لا يصلح أن يلي أداة الشرط وجب اقترانه بالفاء.

قال ابن مالك:

واقرن بفا حتماً جوابا لو جعل شرطاً لإن أو غيرها لم ينجعل

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لا تفيد الحدوث، والمقصود: تحقيق ثبوتها لله.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ سبق لنا معنى الهجرة، وأنها لغة: بمعنى الترك، وشرعاً: ترك البلاد التي لا يقيم الإنسان فيها دينه إلى بلاد أخرى

يقيم فيها دينه، وعبر عنها بعضهم بقوله: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿فِي﴾ للظرفية، وسبيل الله تعالى طريقه، والهجرة في سبيل الله تتضمن شيئين: الإخلاص، والتزام الشريعة؛ لأن من نوى غير الله لم يكن في سبيل الله، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام حين سئل عن الرجل يقاتل شجاعة وحمية وليرى مكانه، فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١).

والثانية: أن تكون ضمن الشريعة لا مخالفة للشريعة.

إذاً: في سبيل الله إخلاصاً واتباعاً.

قوله: ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الأرض المراد بها هنا: الجنس، يعني: أرض الله عموماً.

قوله: ﴿مُرَٰغَمًا﴾ أي: مهاجراً يرغم به أعداءه، وبناءً على هذا تكون مراغماً صفة لموصوف محذوف؛ أي: مهاجراً مراغماً، يعني: يراغم بها أعداءه؛ لأن الإنسان إذا خرج من بلاد الكفر التي ضيق عليه فيها إلى بلاد أخرى فإنه يراغم الأعداء، والصحابة رضي الله عنهم لما هاجروا إلى الحبشة أرسلت قريش باسمها من يتكلم فيهم عند النجاشي؛ لأن هذا يراغمهم، ويعرفون أنهم إذا خرجوا ربما يكونون أمة، وهذا هو الذي وقع.

وكما في قصة أبي بصير رضي الله عنه حينما هاجر من مكة إلى النبي ﷺ بعد صلح الحديبية؛ فإنه لحقه اثنان من المشركين يطلبون من النبي ﷺ أن يرده، فلما وصلا إلى النبي ﷺ ـ وأبو

---

(١) تقدم ١/٥٢٦.

بصير عنده ـ قال: ارجع معهم، الشرط، فانطلق معهم راجعاً إلى مكة، وفي أثناء الطريق بعد أن أمنا منه قال لأحدهما وأخذ سيفه: هذا سيف ما شاء الله وأخذ يمدح السيف، فقال صاحب السيف: نعم، وكم ضربت به من هامة! فقال: أعطني أنظر إليه، فأعطاه إياه فسله فضرب هامته به، والصاحب الثاني هرب إلى المدينة، فلما وصل إلى المدينة وإذا أبو بصير رضي الله عنه في إثره، فقال أبو بصير رضي الله عنه: يا رسول الله! إن الله قد أوفى بعهدك أو بذمتك سلمتني لهم، لكني نجوت، فقال ﷺ: «**ويل أمه! مسعر حرب لو يجد من ينصره**»[1]، وعرف أبو بصير أن الرسول ﷺ سيرده، فخرج من المدينة إلى الساحل، وبقي عند الساحل، وكلما أتت عير لقريش غار عليها، فسمع به أناس من أهل مكة من المستضعفين وغير المستضعفين فخرجوا إليه، فكوّنوا جماعة، فتعبت قريش من ذلك، وأرسلت إلى النبي ﷺ أنها ألغت هذا الشرط.

إذاً: صار في هجرة الإنسان من بلاد الشرك مراغماً لأهل البلد، يعني: ترغم بها أنوفها، والرغام هو: التراب، ورغم الأنف بالتراب معناه غاية الذل.

وقوله: ﴿مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾ قد تشير إلى تجمع القوم؛ لأنه كان المتبادر أن يقال: «مراغماً عاصماً» لكنه قال: ﴿كَثِيرًا﴾ ولعل ذلك ـ والله أعلم ـ إشارة إلى أنه سيجتمع إليه من يكثر بهم.

وقوله: ﴿وَسَعَةً﴾ أي: سعة في الرزق، وفي الدين، وفي

---

(١) رواه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، حديث رقم (٢٥٨١).

الصدر، وفي كل شيء، سعة في الرزق ولا يقول: إني غادرت بلدي فمن أين آكل وأشرب؟ وسعة في الدين؛ لأنه ليس له أحد يقوم ضده ويضيق عليه في دينه، وسعة في الصدر فتتسع بها صدورهم؛ لأنهم كانوا في بلاد الشرك مخنوقين ومضيقاً عليهم، والآن هم أحرار طلقاء.

وقوله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ﴾ يقال: إن رجلاً خرج من مكة مهاجراً، وإنه مات في التنعيم أثناء سفره، فقيل: بطلت هجرته، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ﴾ انظر إلى قوله: ﴿مِنۢ بَيْتِهِۦ﴾ فالبيت يحوي الإنسان، والإنسان يألفه، وهو وطنه، فيخرج من هذا البيت الأليف الذي هو الوطن مهاجراً إلى الله ورسوله، يترك مأواه ومثواه من أجل الهجرة إلى الله ورسوله، والهجرة إلى الله بالإخلاص، وإلى رسوله بالاتباع، فيريد أن يهاجر إلى الله عزّ وجل ليقيم شرعه، وإلى رسوله ﷺ ليتبعه وينصره أيضاً.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ يعني: ثم يموت، وكلمة ﴿يُدْرِكْهُ﴾ قد تعطي أنه كالفار الذي يريد أن يصل إلى مهاجره، لكن الموت لحقه فأدركه.

وقوله: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ﴿وَقَعَ﴾: بمعنى: ثبت؛ أي: ثبت أجره على الله عزّ وجل، والأجر هو: الثواب، ولم يقل: وقع أجره على الله ورسوله، مع أن الهجرة كانت إلى الله ورسوله؛ لأن الهجرة إلى الرسول وسيلة، والغاية هي: الهجرة

إلى الله عزّ وجل، فلهذا كان الذي يثيب على الهجرة ليس الرسول ﷺ، بل هو الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِۗ﴾ سبق لنا معناها وأن ﴿ٱللَّهِۗ﴾: يقال: إن أصلها: الإله، كالناس أصلها: الأناس، وكقولهم: هذا خير من هذا؛ أي: هذا أخير من هذا، والعرب يحذفون الهمزة أحياناً للتخفيف، والإله فعال بمعنى مفعول، والمألوه هو: الذي تألهه القلوب، وتحبه وتعظمه في نفس الوقت، فبالمحبة يكون فعل المأمور، وبالتعظيم يكون ترك المحظور خوفاً من هذا العظيم، هذه هي اللفظة العظيمة ﴿ٱللَّهِۗ﴾.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ سبق الكلام على مثل هذه الجملة، وأنها تفيد ثبوت هذين الاسمين لله، وما تضمناه من الصفات، فالغفور: يتضمن المغفرة، والرحيم: يتضمن الرحمة، وبالجمع بينها يحصل المطلوب، والنجاة من المرهوب؛ لأن المغفرة للذنوب التي يتخلى عنها الإنسان هي بمغفرة الله، والرحمة للأعمال الصالحة التي توصل إلى رحمة الله عزّ وجل.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، وتؤخذ من قوله: ﴿يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾، فقد خرج من الضيق فوجد السعة.

٢ ـ أن فضل الله عزّ وجل على عبده أكثر من عمل عبده له، وتؤخذ من قوله: ﴿يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾ فله ثوابان: المراغم، والسعة.

٣ ـ أن من أُذل بطاعة الله صار العز له في النهاية، وتؤخذ

من قوله: ﴿مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾، فهذا الذي أُذِل هو الآن يُذل أنوف الذين أذلوه بالأمس.

٤ ـ أن فيها شاهداً لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: **«واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»**[(١)]، وتؤخذ من قوله: ﴿وَسَعَةً﴾ والسعة تفريج بعد الضيق والكرب.

٥ ـ أن من سعى في الهجرة وأدركه الموت فإن أجره ثابت كامل، وتؤخذ من قوله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ويقاس على ذلك بقية الأعمال فمن خرج إلى المسجد يريد الصلاة فمات في أثناء الطريق يكتب له أجر الصلاة.

يقال: إن الثواب لا قياس فيه، لجواز أن يكون تخصيص هذا العمل بهذا الثواب لحكمة لا نعلمها، لكن قال بعض أهل العلم: إن لنا شاهداً على العموم، وهو قصة الرجل الذي مات في أثناء الطريق، وهو رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، قتلهم عمداً، ثم جاء إلى رجل عابد، ـ وكلمة «عابد» معناها: أن العبادة خُلُق له ـ فسأله، وقال له: هل لي من توبة وأنا قد قتلت تسعة وتسعين نفساً عمداً؟ فاستعظم العابد هذا؛ لأنه عابد يخشى الله ويخاف عقابه، وقال: ليس لك توبة، فقتله وأتم به المائة، فهذا العابد جاهل جهلاً مركباً، ثم دُلَّ على عالم فقال له: إنه قتل مائة نفس عمداً، فهل له من توبة؟ قال العالم: ومن

---

(١) هذه الرواية عند أحمد (١/٣٠٧)؛ والطبراني في الكبير (١١/١٢٣) عن ابن عباس.

يحول بينك وبين التوبة؟ ـ وسبحان الله! العلم كله خير ـ ولكن أنت في أرض ظالم أهلها، اذهب إلى القرية الفلانية ففيها الصالحون أو كلمة نحوها، فذهب الرجل تائباً إلى الله، وفي أثناء الطريق أدركه الموت، فنزلت عليه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ملائكة العذاب تريد أن تقبض روحه باعتبار سوابقه، وملائكة الرحمة تريد أن تقبض روحه باعتبار مآله؛ لأن الرجل خرج تائباً، فتنازعت الملائكة أيهم يقبض روحه؟ والله تعالى هو الذي أرسلهم عزّ وجل اعتباراً بما يحصل، ثم بعث الله إليهم ملكاً وحكم بينهم، فقال: قيسوا ما بين القريتين فإلى أيتهما كان أقرب فهو من أهلها، فقاسوا فوجدوا أنه أقرب إلى الأرض الصالحة بشبر، وقيل: إنه لما حضره الموت من شدة شوقه صار يدفع بنفسه إلى الأرض الصالحة، فتقدم هذا التقدم، فتولت روحه ملائكة الرحمة[1].

قالوا: فإذا كان هذا فيمن قبلنا فنحن أفضل الأمم، فإذا شرعنا في عمل صالح وأدركنا الموت فإنه يكتب لنا، وهذا ما نرجوه من الله عزّ وجل.

وبناءً على ذلك نقول: من شرع في طلب العلم يريد بذلك ما يريده المخلصون في طلب العلم من حفظ الشريعة، والدفاع عنها، ونفع الخلق، ثم أدركه الموت، فإنه يكتب له ما نوى؛ لكن بشرط أن يكون شروعه شروعاً حقيقياً، يعني يكون عنده اجتهاد وحرص، لا أن يكون المراد بذلك أن يقطع الوقت، ويقول: أنا لا يوجد لي شغل، فبدل أن أذهب للأسواق أحضر حلقات العلم، فهذا ليس

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار (٣٤٧٠)؛ ورواه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٦) عن أبي سعيد الخدري

طالب العلم، بل طالب العلم هو الذي يفرغ نفسه تماماً لطلب العلم.

٦ ـ إثبات اسمين من أسماء الله وهما: الغفور، والرحيم، وما تضمناه من صفة.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ [النساء: ١٠١].

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ الخطاب في قوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ للناس جميعاً، ويدخل فيه ـ بالأولى ـ المؤمنون؛ لأنهم هم الذين يخاطبون بالتكاليف الشرعية.

وقوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الضرب في الأرض هو: السفر فيها، وسمي ضرباً لأن الإنسان لا يخلو من أن يكون معه راحلة تحتاج إلى الضرب، ولهذا قال النبي ﷺ: «**أما أبو جهم فلا يضع العصا عن عاتقه**»(١)، وحمله بعض العلماء على أنه كثير الأسفار.

وقوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لم يقيده الله عزّ وجل بكون هذا الضرب مشروعاً أو مباحاً أو مكروهاً أو محرماً.

وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الجناح يعني: الإثم.

وقوله: ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ زعم بعضهم أن ﴿مِنَ﴾ هنا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها، حديث رقم (١٤٨٠).

زائدة، وأن المعنى: أن تقصروا الصلاة، وعُلل هذا القول: بأن صلاة السفر فرضت ركعتين، فلا يصح أن يقال: إنه قصر منها، بل يقال: إنها قصرت، ولكن هذا القول ضعيف، كما سنبين ذلك في الفوائد.

وقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ هذا شرط للحكم الثابت، بقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فالجملة إذاً شرطية، وجواب الشرط الصحيح أنه لا حاجة إليه؛ لأنه معلوم من السياق، وقال بعضهم: إنه محذوف دل عليه ما سبق.

وقوله: ﴿أَن يَفْتِنَكُمُ﴾ أي: أن يصدكم عن دينكم، وذلك بقتالهم إياكم، أو بأسباب أخرى يصدونكم بها عن الدين.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ الجملة هنا موقعها مما قبلها أنها تعليل للحكم وهو قصر الصلاة.

وقلنا: إن الضرب في الأرض هو السفر فيها، ووجه تسمية السفر ضرباً: أن المسافر يحمل العصا معه ليضرب راحلته، وقد جاء الضرب في الأرض في عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، ومنها قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، ففي هذه الآية يبين الله سبحانه انتفاء الجناح عن قصر الصلاة إذا كان الإنسان ضارباً في الأرض خائفاً أن يفتنه الكفار، ويبين عزّ وجل أن الكافرين ﴿كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

وقد سبق لنا الكلام في مثل هذا التعبير ﴿كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ وأن «كَان» هنا يراد بها: إثبات الحكم لا حدوث الحكم؛

لأنه لو أريد بها الحدوث لكان هذا يقتضي أن عداوتهم كانت سابقة وليس الأمر هكذا.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان تيسير الله عزّ وجل على العباد حين يوجد السبب الذي يقتضي ذلك، وذلك بقصر الصلاة في السفر، فإن هذا لا شك تيسير على العباد، وسهلت الصلاة بالسفر من وجه آخر، وهو: جواز الجمع بين الصلاتين المجموعتين، وسهلت من وجه ثالث وهو: جواز التيمم إذا عُدم الماء.

فإن قال قائل: هذا حتى في الحضر؟ قلنا: لكنه في السفر أيسر منه في الحضر؛ لأن الحضر يجب على الإنسان أن يبحث بحثاً دقيقاً، أما في السفر فلا يلزمه أن يحمل الماء معه إلا إذا كان ذلك يسيراً جداً، أما أن يتكلفه بنوع من الكلفة فلا يلزم.

٢ ـ أن القصر ليس بواجب، لقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ هكذا استدل جمهور العلماء بهذه الآية على أن القصر ليس بواجب؛ لأن الله نفى الجناح في القصر، فدل ذلك على أنه ليس بواجب، لكن هذا الاستدلال فيه نظر، وجه النظر: أنه قد ينفى الجناح أو الحرج خوفاً من توهمه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]، فهنا نفى الجناح دفعاً لتوهم بعض الصحابة أن الطواف بهما محرم؛ لأنه كان فيهما صنمان.

وقال بعض أهل العلم ـ وهم الأكثر ـ: إن القصر ليس بواجب.

استدل القائلون بأن القصر واجب بحديث عائشة رضي الله عنها: «الصلاة أول ما فرضت ركعتين، فأقرت صلاة السفر، وأتمت صلاة الحضر»[١]، فقالوا: إن قولها: «أول ما فرضت ركعتين» مع قولها: «على الفريضة الأولى»[٢] يدل على أنه لا تجوز الزيادة على الركعتين في السفر، كما أنه لا تجوز الزيادة على الأربع في الحضر.

واستدلوا لذلك أيضاً بحديث عمر رضي الله عنه: «صلاة السفر ركعتان»[٣]، فجزم بأن صلاة السفر ركعتان، وكذلك يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «صلاة السفر ركعتان، وصلاة الحضر أربع، وصلاة الخوف ركعة»[٤].

وأما الجمهور فأجابوا عن ذلك بأن معنى قول عائشة: «أقرت على الفريضة الأولى»[٥] أنها لم تزد، فالمراد به نفي الزيادة لا تحريم الزيادة.

ويدل لهذا أن الصحابة رضي الله عنهم لما كان عثمان يتم

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، حديث رقم (٣٤٣)؛ ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم (٦٨٥) عن عائشة.

(٢) لفظ لمسلم (٦٨٥).

(٣) رواه النسائي، كتاب الجمعة، باب عدد صلاة الجمعة، (٣/ ١١١) (١٤٢٠)؛ وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب تقصير الصلاة في السفر، حديث رقم (١٠٦٣)؛ وأحمد (١/ ٣٧).

(٤) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم (٦٨٧) عن ابن عباس.

(٥) تقدم الحديث السابق.

في منى أنكروا عليه، ولكنهم تابعوه، ومتابعتهم إياه يدل على أن القصر ليس بواجب؛ إذ أنه لو كان واجباً ما صح أن يتابعوه، كما أن الإمام لو صلى خمساً فإنه لا يتابع ولو كان ساهياً، فكذلك إذا صلى المسافر أربعاً فإننا نقول: لو كان الواجب هو الركعتين، فلا تتابعوه على ذلك.

وهذا دليل واضح جداً على أن القصر ليس بواجب، وهو الأقرب عندي بعد أن كنت أرجح أن القصر واجب، لكن بعد التأمل رأيت أن قول الجمهور أقرب إلى الصواب، والله أعلم.

٣ ـ أن قصر الصلاة ثابت في كل ما يسمى ضرباً في الأرض، لقوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا مطلق، لم يُقيد بيومين أو ثلاثة أو أربعة أو عشرة، فدل ذلك على أن كل ما يسمى ضرباً في الأرض فإنه تقصر فيه الصلاة، وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وقال: «كل ما يسميه الناس سفراً وضرباً في الأرض فإنه سفر، يثبت له أحكام السفر»، ودليله: الإطلاق، ودليل آخر أنه ثبت في صحيح مسلم أن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا خرج ثلاثة أميال أو فراسخ صلى ركعتين»[(١)].

وقال الجمهور: بل السفر هنا مطلق، لكنه قيدته السنة، وهو: يومان قاصدان، وتقريبه بالفراسخ ستة عشر فرسخاً، يعني: أربعة برد، والبرد: جمع بريد، وسميت بذلك لأنها مسافات كان يقطعها رسل البريد، فقد كانوا فيما سبق يجعلون مراحل للبرد:

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم (٦٩١).

كل أربعة فراسخ بريد، والفرسخ: ثلاثة أميال، يعني: كل اثني عشر ميلاً يكون بريداً، فكان يذهب الفارس من هذا المكان إلى المكان الآخر وإذا بفارس آخر ينتظره، فيسلمه ما معه من الرسائل، فينطلق إلى مثله، وإذا الفارس الثالث ينتظره، وهلم جرا حتى يصلوا إلى آخر مرحلة، فلا بد من أن تكون هذه المسافة، وما دونها وإن سمي سفراً وإن حمل له المتاع وإن شدت له الرواحل فإنه لا يحصل فيه القصد. فيقال: أين الدليل على هذا؟

فلم يرد عن النبي ﷺ أنه حددها، بل حديث أنس رضي الله عنه الذي ذكرناه آنفاً يدل على أنه يقصر في ثلاثة أميال أو فراسخ، وإذا قلنا بالأعلى، وهو الفراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، فأين هي من الستة عشر فرسخاً؟ فإذاً: يرجع في ذلك إلى العرف.

لكن إذا اختلف العرف فحينئذ يمكن أن نرجع إلى التحديد، ونقول بأنه يحدد بالفراسخ، ونقول ذلك عند الضرورة، أما إذا أمكن ضبط العرف فلا نعدل عنه.

وقد قال شيخ الإسلام رحمه الله: إن هذا التحديد بالفراسخ غير صحيح بحسب الواقع؛ لأنه في عهد الرسول ﷺ ليس هناك أناس مساحون يقيسون الأرض حتى بالذراع، بل حتى بالشبر، بل حتى بالإصبع، بل حتى بحبة الشعير، بل حتى بشعرة؛ لأن الفقهاء الذين حددوا السفر حددوه إلى هذا الحد، فقالوا: الستة عشر فرسخاً هي كذا وكذا، وهذا كذا وكذا إلى أن وصلوا إلى التحديد بالشعرة.

وبناءً على ذلك: لو كان هناك أناس منعزلون وبينهم وبين

الآخرين شعرة، والأولون أقرب إلى البلد، لصار الأولون غير مسافرين، والذين بينهم وبينهم شعرة مسافرين، وهذا صعب أن يحقق الإنسان مثل هذا، ويجعله حداً للناس.

فعلى كل حال: الذي نرى أن المرجع في هذا إلى العرف، وأن نطلق ما أطلقه الله، ومن المعلوم أن العرف يختلف، فلو أن قوماً خرجوا في رحلة فتغدوا في البر ثم رجعوا فإن هذا لا يُسمى سفراً ولا ضرباً في الأرض، ولو خرجوا في هذه المسافة في رحلة لكنهم أقاموا يومين أو ثلاثة لعد ذلك سفراً؛ لأن الناس يتأهبون له، وإن كان في العرف الآن لا يعدون النزهة سفراً حتى لو بعدت، وحتى لو بقيت أياماً، لكن هذا لا عبرة به، فكل ما يحمل له الزاد ويستعد له فإنه سفر.

فإن قال قائل: الآن توجد فنادق، وتوجد سيارات وطيارات، ولا يحتاج الإنسان أن يحمل متاعاً.

قلنا: هذا لا عبرة به، العبرة بنفس المسافة والطريق الذي إذا أراده الإنسان استعد له، أما كون المتاع والزاد تسهل بالأماكن فهذا لا يمنع أن يكون سفراً.

٤ ـ أن الإنسان إذا أقام في سفره في مكان فإنه لا يلزمه الإتمام، بل يبقى قاصراً؛ لأن الله قال: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولم يقل: ما لم تمكثوا أربعة أيام أو عشرة أيام أو ما أشبه ذلك.

وبناءً على هذا لو أن إنساناً سافر إلى بلد غير بلده وأقام فيها شهراً فهو مسافر؛ وذلك لأن النصوص جاءت مطلقة غير مقيدة، وجاءت نصوص أخرى إيجابية تدل على عدم التقييد، ومن ذلك:

أولاً: أن النبي ﷺ أقام عام الفتح في مكة تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة، ولم يقل للناس: أتموا، وأقام في تبوك عشرين يوماً يقصر الصلاة، ولم يقل للناس: أتموا.

ثانياً: أن الرسول ﷺ قدم مكة في حجة الوداع وهي آخر سفرة سافرها في اليوم الرابع من ذي الحجة، ومكث يقصر الصلاة، ولم يقل للناس: من قدم قبل اليوم الرابع فليتم، أو من قدم قبل عشرة أيام فليتم أو ما أشبه ذلك، فعلم من هذا أنه لا حد للإقامة التي تمنع أو تقطع حكم السفر، وهذا القول هو الذي اختاره شيخ الإسلام رحمه الله ونصره بأدلة قوية ظاهرة، ذكر ذلك في أول باب «صلاة الجمعة» في «الفتاوى» وفي مواضع كثيرة من كلامه، ونصره نصراً عزيزاً، وهو جدير بالنصر؛ لأن أي إنسان يقيد بأربعة أيام أو بخمسة أو بأكثر أو بأقل، يقال له: أين الدليل؟ ولو كان هذا القيد لازماً لبينه الله تعالى في القرآن، أو لجاءت به السنة وبينته بياناً واضحاً؛ لأن هذا مما تتوافر الدواعي على نقله، ومما يحتاج الناس إليه، فكيف يُترك عمل بلا بيان؟!

ولهذا اختلف العلماء في هذه المسألة على نحو عشرين قولاً أو أكثر ذكرها النووي رحمه الله في «شرح المهذب»، فمنهم من قال: أربعة أيام صافية، يعني: لا يحسب منها يوم الدخول ويوم الخروج، وهذا مذهب الشافعي رحمه الله، ومنهم من قال: أربعة أيام بيوم الدخول والخروج، وهذا مذهب الحنابلة، ومنهم من قال: خمسة عشر يوماً، وهذا مذهب أبي حنيفة رحمه الله، ومنهم من قال: تسعة عشر يوماً وهذا مذهب ابن عباس رضي الله عنهما، وفي المسألة أيضاً آراء أخرى من أراد أن

يطلع عليها فليرجع إلى «شرح المهذب» فإنه قد بيّنها.

٥ ـ أنه لا يجوز قصر الصلاة إلا عند الخوف، لقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وهذا ظاهر الآية، لكن جاءت السنة تبين أن هذا ليس بشرط، يعني: أنه لا يشترط لجواز القصر الخوف، وذلك بما ثبت في «صحيح مسلم» أن رجلاً قال لعمر رضي الله عنه: إن الله يقول: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ونحن الآن آمنون، فقال عمر: لقد عجبت مما عجبت منه، فسألت النبي ﷺ عن ذلك فقال: «**صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته**»[1] وهذه سنة قولية تدل على أن الخوف ليس بشرط.

وهناك سنة فعلية تدل على أن الخوف ليس بشرط، وهو أن النبي ﷺ قصر في حجة الوداع وهو آمن ما يكون؛ إذ لا يوجد خوف إطلاقاً.

وقال بعض العلماء: إن الآية لا تدل على أن هذا القيد شرط؛ لأن هذا القيد جاء على الغالب، والناس حين نزول الآية كانت أسفارهم مخوفة، وما جاء بناءً على الغالب فإنه لا يكون قيداً، وهذا معروف في أصول الفقه: أن القيد إذا كان بناءً على الغالب فإنه لا مفهوم له، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، فإن الربيبة لا يشترط لتحريمها على زوج أمها أن تكون في حجره، لكن هذا بناءً على الغالب، وبقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم (٦٨٦).

ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣]، يعني: هذا هو الغالب، فقالوا: إن الآية خرجت مخرج الغالب فلا مفهوم لها، وهؤلاء عكس الذين يقولون: إنه يشترط الخوف.

وقال بعض العلماء: إن هذا القيد قيد للقصر من صلاة السفر، والقصر من صلاة السفر أن يجعلها واحدة، وعلى هذا فيكون المراد بالخوف: أن تجعل الثنائية واحدة، واستدلوا لذلك بأنه جاء عن النبي ﷺ في صلاة الخوف أنه صلى بأصحابه ركعتين، كل طائفة صلت ركعة واحدة فقط وانصرفوا[1]، وهذا أيضاً قول في هذه الآية.

فيكون المراد بقصر صلاة الخوف إلى ركعة لا إلى ركعتين.

وقال بعض أهل العلم ـ وهو قول رابع ـ: إن القصر قصران: قصر عدد، وقصر صفة، فقصر العدد لا يشترط فيه الخوف، وقصر الصفة يشترط فيه الخوف، وقصر الصفة في صلاة الخوف هو: أنه يفعل فيها أشياء لو فعلت في حال الأمن لأبطلت الصلاة، فخفف في هيئتها وكيفيتها، وهذا نوع من القصر، فهو قصر كيفية وليس قصر كمية، فهذه أقوال الناس التي تحضرني في هذه الآية، ولكن **نقول**:

إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام

فإذا كان النبي ﷺ قال: «**صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته**»[2] لم يبق شيء لأهل الكلام فنقول: إن الله تعالى شرط ذلك في أول الأمر، ثم سهل على عباده وتصدق عليهم،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب وقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (٩٤٢)؛ ورواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الخوف (٨٣٩).

(٢) تقدم ص١٣٨.

ونفى ورفع هذا الشرط في قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾.

٦ ـ أن الخوف له أثر في تغيير الأحكام، لقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وهذا أمر معلوم، حتى إن الله عزّ وجل قال: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٨ ـ ٢٣٩] يعني: وأنت راجل تمشي أو راكب فلك أن تصلي ما دام الخوف محققاً.

بل حتى الوضوء أو الغسل من الجنابة إذا خاف الإنسان على نفسه يتيمم، فالخوف له تأثير في تغيير الأحكام الشرعية، حتى إن العلماء قالوا: لو صلى خلف جدار وعدوه يطلبه فإن قام رآه العدو وإن صلى قاعداً لم يره فإنه يصلي قاعداً.

٧ ـ حرص الكفار على فتن المؤمنين حتى في العبادات، لقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾.

٨ ـ أن جميع الكفار أعداء لنا، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

٩ ـ أن عداوة الكفار لنا بينة ظاهرة؛ لأن قوله: ﴿مُّبِينًا﴾ هنا بمعنى: بين واضح.

فإن قال قائل: كيف كانت بينة وقد اغتر بهم بعض الناس، وظنوا أنهم أولياء وليسوا بأعداء؟

قلنا: إن الأعشى يعميه ضوء النهار، والأعمى لا يرى الشمس، فهؤلاء الذين يظنون أن الكفار ليسوا بأعداء لنا لا شك أنهم قد أعماهم الله عزّ وجل، إما لمصالح دنيوية أو لغير ذلك، وإلا فمن تأمل أحوال الكفار وجد أنهم أعداء لنا، وأنهم يغزوننا بالسلاح ويغزوننا في الحرب وفي السلم، فلا يظن أن غزو الكفار لنا بالحرب، بل بالحرب وبالسلم، فإنهم إذا سالمونا أوفدوا علينا

من أخلاقهم السافلة وعقائدهم المنحرفة ما يفسد المسلمين، ثم إنهم إذا سالمونا فإن منتوجاتهم وصنائعهم تُستهلك عندنا، ويتوفر لهم اقتصادنا، فهم يسلبوننا أموالنا، ويسلبوننا أخلاقنا، وربما يسلبون عقائدنا، ويوردون علينا أخلاقهم وأفكارهم، وبهذا نعرف أن الكافر عدو في الحرب وفي السلم؛ لأن الله تعالى لم يقيد ذلك في حال الحرب، ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

١٠ ـ التحذير من الاغترار بما يبديه الكافر من الموالاة، وجهه: أن العالم بما في الصدور والعالم بكل حال سبحانه وتعالى أخبرنا بأن الكافرين كانوا لنا عدواً مبيناً، ولا أحد أعلم من الله بعباد الله.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء: ١٠٢].

بعد أن ذكر الله عزّ وجل أن الضارب في الأرض يقصر من الصلاة إن خاف أن يفتنه الذين كفروا، وبين أن الكفار أعداء لنا عداوة بينة ظاهرة، ذكر حكم الصلاة إذا تقابل الصفان؛ لأن الآية الأولى في الخوف إذا خيف، وأما الثانية فهي فيما إذا تقابل الصفان، فكيف تكون الصلاة حينئذٍ؟

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ والخطاب للنبي ﷺ، والضمير في قوله: ﴿فِيهِمْ﴾ يعود على الصحابة.

قوله: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يحتمل أن يكون المراد: الإقامة التي هي الإعلام بالقيام للصلاة، ويحتمل أن المراد بالإقامة: إقامة أركانها وواجباتها وشروطها وغير ذلك.

وعلى الثاني يكون معنى قوله: ﴿فَأَقَمْتَ﴾ أي: أردت أن تقيم لهم الصلاة.

قوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ الفاء هنا رابطة لجواب شرط غير جازم، وعلى هذا فلا يكون للجملة التي بعدها محل من الإعراب؛ لأن جواب الشرط الذي لا يجزم ليس له محل من الإعراب، واللام في قوله: ﴿فَلْتَقُمْ﴾ للأمر، وسكنت لوقوعها بعد الفاء، ولام الأمر تسكن إذا وقعت بعد الفاء أو الواو أو ثم، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، وفي هذه الآية: ﴿فَلْتَقُمْ﴾ وهو الحرف الثالث الذي إذا وقع قبل لام الأمر سكن لام الأمر، أما لام كي وهي التي للتعليل فإنها مكسورة ولو وقعت بعد هذه الحروف الثلاثة، مثل قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ [العنكبوت: ٦٦]، ففي قوله: «ليتمتعوا»: لا بد من كسر اللام.

وقوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم﴾ ﴿مِّن﴾ لبيان الجنس، والطائفة هي الفرقة من الناس.

وقوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ نقول في قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟﴾ مثلما قلنا في قوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم﴾.

والضمير في قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ﴾ يعود على الذين قاموا مع الرسول ﷺ، وليس على الطائفة الأخرى.

وقوله: ﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾ السلاح هو ما يقاتل به دفاعاً أو طلباً، وينقسم إلى أقسام كثيرة: ثقيل، وخفيف ومتوسط، وسلاح يكون من بعيد، وسلاح يكون من قريب، والآية عامة، فيكون المراد: أسلحتهم التي يحتاجون إليها في الدفاع عن أنفسهم، والتي لا تشغلهم عن الصلاة.

وقوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ قوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ الفاعل يعود على الطائفة باعتبار المعنى؛ لأن الطائفة مفرد، لكن معناها الجمع، كما قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٩] ولم يقل: اقتتلتا؛ لأن الطائفة للجمع.

وقوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ ﴿سَجَدُواْ﴾ أي: أتموا صلاتهم، وخص السجود لأنه أفضل أركان الصلاة، حيث إنه أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، والمراد بذلك: إذا أتموا صلاتهم قوله: ﴿فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ أي: من وراء المصلين، وهنا قد يشكل قوله: ﴿مِن وَرَآئِكُمْ﴾ مع أنه لم يبق بعد إتمام صلاتهم إلا الرسول ﷺ، لكن باعتبار ما يؤول إليه الأمر، فإن الطائفة الثانية سوف تأتي وتصلي.

وفي قوله: ﴿مِن وَرَآئِكُمْ﴾ إشارة إلى أن العدو خلفهم وليس أمامهم.

وقوله: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾، قوله: ﴿وَلْتَأْتِ﴾ اللام نقول فيها ما قلنا فيما سبق، وقوله:

﴿وَلْتَأْتِ﴾ الفعل مجزوم بحذف حرف العلة، وأصل تأت: «تأتي» بالياء، لكن دخل عليها الجازم فحذفت الياء.

وقوله: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ﴾ أي: ثانية قوله: ﴿لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ وهنا قال: ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ أما الأولى فلم يقل: فليصلوا معك، بل قال: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ فأضاف السجود إليهم وحدهم.

وقوله: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ حذرهم: الحذر معناه: التثبت في الأمر والاستعداد له.

وقوله: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾، ﴿وَدَّ﴾: بمعنى: أحب، لكنه قيل: إن الود هو: صافي المحبة، فـ﴿وَدَّ﴾ أعلى من «أحب».

وقوله: ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾ ﴿لَوْ﴾ هذه مصدرية، بمعنى «أن» وليعلم أن ﴿لَوْ﴾ تأتي مصدرية كما هنا، والغالب أنها تأتي بعد ﴿وَدَّ﴾ و«أحب» وما أشبهها، وتأتي شرطية مثل أن تقول: لو جاء زيد لأكرمته، وجوابها إن كان منفياً فإنه يكون بدون اللام، وإن كان مثبتاً فإنه يأتي باللام، لكنه قد تقترن به اللام قليلاً إذا كان منفياً بـ«ما» وعليه قول الشاعر:

ولو نعطى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الليالي

وقوله: ﴿تَغْفُلُونَ﴾ أي: تتلهون بما أنتم فيه من الصلاة أو غيرها.

وقوله: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي: يميلون عليكم لقتالكم.

وقوله: ﴿مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ كقولنا: ضربة رجل واحد؛ أي: يميلون عليكم جميعاً ميلة واحدة تقضي عليكم.

وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ﴾، لا ﴿جُنَاحَ﴾ أي: لا إثم ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ أي: تأذٍ من المطر أن تضعوا الأسلحة، وجه ذلك: أن المطر سوف يبل الثياب ويبل السلاح، ويحصل بذلك ثقل على المقاتل، فإذا كان كذلك فلا حرج أن يضع السلاح، ولهذا قال: ﴿أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ أي: عاجزين عن حمل السلاح لمرض من جراح أو غير ذلك.

قوله: ﴿أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ أي: ولا تحملوها.

وقوله: ﴿أَن تَضَعُوٓا۟﴾ هذه من الذي حذف فيها حرف الجر اطراداً، كما قال ابن مالك:

وفي أنَّ وأنْ يطرد مع أمن لبسٍ كعجبت أن يدوا

والتقدير: لا جناح عليكم في وضع أسلحتكم، وعلى هذا فتكون أن وما بعدها في محل نصب بنزع الخافض.

وقوله: ﴿وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ يعني: إذا وضعتم الأسلحة لأذى من مطر أو مرض فلا تغفلوا عن الحذر، بل خذوا حذركم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ﴾ أي: هيأ.

قوله: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: عذاباً ذا هوان، وهذا العذب في الدنيا وفي الآخرة جميعاً.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ توجيه الخطاب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، وهل

الخطاب يشمله والأمة أو يختص به؟ نقول: في هذا تفصيل: فتارة يختص به، وتارة يعمه والأمة بمقتضى اللفظ، وتارة يعمه والأمة بمقتضى القياس والأسوة، فمن الأمثلة التي تختص به قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ١ ـ ٤] فالخطاب هنا للرسول عليه الصلاة والسلام ولا يشمل الأمة.

ومن الخطاب الذي يعمه والأمة بمقتضى اللفظ والسياق، قوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق: ١]، ولم يقل: إذا طلقت، فصدر الخطاب بالتوجيه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم عمم فقال: إذا طلقتم، وهذا يعمه ويعم الأمة لمقتضى اللفظ.

وهناك خطاب خاص بالرسول لكنه حكماً يعم الأمة، مثاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] فهذا خطاب موجه للرسول ﷺ خاص لكنه يعمه والأمة.

وهل يعمه والأمة بمقتضى أنه خطاب للأمة، لكنه خص به رئيس الأمة؛ لأن العادة أن الخطابات توجه إلى الرؤساء، أو أنه له وللأمة بمعنى أن الأمة تتأسى به فيكون من باب القياس؟ الجواب ـ والله أعلم ـ الأول؛ لأنه خوطب به الرسول ﷺ وهو زعيم الأمة، والخطابات في التوجيهات توجه إلى الزعماء.

إذاً: قوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هذا لا شك أنه خطاب للرسول عليه الصلاة والسلام، لكن هل هو يختص به بمعنى أن صلاة الخوف لا تشرع على هذا الوجه إلا في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، وإذا كان مع الجيش؟

الجواب: قد قيل بذلك؛ أي: أن صلاة الخوف لا تشرع على هذا الوجه إلا في حياة الرسول ﷺ إذا كان في الجيش، لكن هذا قول ضعيف.

فإذا قال قائل: كيف يكون ضعيفاً والخطاب موجه للرسول؟

قلنا: كما تقدم قريباً إن العادة أن الخطاب موجه إلى زعيم الأمة، فإن كان الأمر هكذا وإلا فإنه بالقياس على حال الرسول عليه الصلاة والسلام.

٢ ـ أن الإمام مسئول عن صلاة المأموم، وتؤخذ من قوله: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ﴾ كأنه يقيمها لهم، وهذا يعني أنه يجب على الإمام أن يتبع السنة في صلاته، بينما لو كان يصلي وحده فله أن يخفف وله أن يثقل حسب ما يريد، لقول النبي ﷺ: «**وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء**»[1].

٣ ـ وجوب صلاة الجماعة على الأعيان، لقوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ وقوله: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾؛ لأنها لو كانت فرض كفاية لاكتفي بالطائفة الأولى، فلما أمرت الطائفة الثانية بالصلاة جماعة دل هذا على أنها واجبة على الأعيان.

وهذه الصفة من الصفات التي خرجت عن المألوف في الصلاة من عدة أوجه:

منها: أن الركعة الثانية أطول من الأولى، والأصل أن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب إذا صلى لنفسه فليطول ما شاء، حديث رقم (٦٧١)؛ ومسلم، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، حديث رقم (٤٦٧) عن أبي هريرة.

الأولى أطول من الثانية، ومنها: جواز انفراد المأمومين عن الإمام، ومنها أن يأتوا بما فاتهم قبل سلام الإمام.

٤ ـ عناية الله سبحانه بالمجاهدين حيث رحمهم ووزعهم إلى طائفتين، وإلا لكان المفروض أن يصلوا جميعاً، لكن من رحمته سبحانه أن شرع التوزيع.

٥ ـ عدم مشروعية تكرار الجماعة، وجهه: أن النبي ﷺ صلى بهم جماعة واحدة، وإلا لكان يصلي بالأولى ركعتين وبالأخرى ركعتين، ولكن يقال: إن هذه الفائدة خرمت بما ثبتت به السنة من أوجه صلاة الخوف ففي بعض أوجهها: أنه يصلي بكل طائفة ركعتين جماعة مستقلة.

٦ ـ وجوب أخذ الأسلحة في هذه الصلاة، وهذا مأخوذ من قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾.

فإن قال قائل: لعل هذا الأمر للإباحة؛ لأنه لما كان من المتوهم أن المصلي لا يحمل شيئاً يشغله أمر بذلك، فكان هذا الأمر للإباحة، وإن شئت انتقلنا إلى أن يكون الأمر للاستحباب؛ لأن حمل ما يشغل مع أنه مكروه في غير صلاة الخوف يدل على أن حمله في صلاة الخوف مستحب.

قلنا: كلا الاحتمالين يبطلان بقوله في آخر الآية ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ فإن هذا يدل على وجوب حمل السلاح، وأنه لا يرخص في ترك حمله إلا لسبب مرض أو أذى، وهذا هو القول الراجح، أنه يجب حمل السلاح في صلاة الخوف.

٧ ـ الرخصة في حمل النجاسة في هذه الحالة، وهذا

يتوقف على القول بأن الدم نجس؛ لأن الغالب أن الأسلحة ولا سيما بعد القتال لا تخلو من دماء، ولهذا قال العلماء: يجوز في هذه الحال أن يحمل الإنسان سلاحاً نجساً؛ لأن الحاجة داعية لذلك.

ـ يتفرع على هذا فائدة: أن من لم يجد إلا ثوباً نجساً فإنه يصلي فيه ولا إعادة عليه؛ لأنه لو لم تجز الصلاة فيها لوجب وضعها، وهذا هو القول الراجح، خلافاً لمن قال: من لم يجد إلا ثوباً نجساً فإنه يلزمه أن يصلي فيه ويعيد. وهذا قول ضعيف، والشريعة الإسلامية لا توجب العبادة على عباد الله مرتين.

٨ ـ أن السجود ركن من أركان الصلاة؛ لأنه عبر به عن إتمام الصلاة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ولا يعبر عن الكل بالجزء إلا والجزء ركن فيه لا يمكن أن يصح بدونه.

٩ ـ فضيلة السجود، لقوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ حيث خصه من بين سائر الأركان، وإلا فإن قبله ركوعاً وقياماً وبعده جلوس بين السجدتين.

١٠ ـ أنه لا يجب التشهد ولا السلام، لقوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ فيقال: وهذا ظاهر الآية، لكن الشريعة يكمل بعضها ببعض، وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «كنا نقول قبل أن يفرض علينا التشهد»[1] فصرح عبد الله رضي الله عنه بأنه فريضة، والنصوص يكمل بعضها بعضاً، وعلى هذا فنقول: إن قوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ أي: أتموا صلاتهم بالسجود.

---

(١) رواه النسائي، كتاب صفة الصلاة، باب إيجاب التشهد، (٣/ ٤٠) (١٢٧٧)؛ والدارقطني (١/ ٣٥٠)؛ والبيهقي (٢/ ٣٧٨).

١١ ـ توجيه المصلين صلاة الخوف إلى أن يكونوا من وراء المصلين ليحموا ظهورهم، لقوله: ﴿فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾.

فإن قال قائل: لماذا لا يكونون من أمامهم ووجوههم نحو العدو؟

قلنا: هذا غلط؛ لأنهم إذا كانوا أمام المصلين فإنهم يشوشون على المصلين، ولا سيما وأن وجوههم ستكون مواجهة لوجوه المصلين، وأيضاً فإن وجوه المصلين لا حاجة إلى أن يكون هؤلاء في جهتها؛ لأنهم يرونهم، لكن هم محتاجون إلى أن يكونوا من ورائهم حتى لا يبغتهم أحد حال السجود أو في حال القيام أيضاً.

١٢ ـ أن ظاهرها أن الآخرين يصلون جماعة، يعني: الذين أرادوا أن يتموا الصلاة يصلون جماعة، لقوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟﴾، يعني: إذا تخلفوا عن الإمام والإمام قد قام الآن إلى الثانية فإنهم يتمون جماعة. فيقال: نعم، هذا ظاهر الآية لكنه ليس صريحاً، ولهذا فإن الظاهر: أنهم يتمون فرادى، كل يتم لنفسه، ثم يذهبون جميعاً إلى الميدان.

١٣ ـ أن المشروع للإمام في صلاة الخوف إطالة الركعة الثانية، يؤخذ من فعله ﷺ؛ لأنه إذا كانت الطائفة الأولى سوف تنهي صلاتها ثم تذهب، ثم تأتي الثانية ثم تدخل مع الإمام وينتظرها حتى تقرأ الفاتحة، فسيكون الوقوف طويلاً، وهو كذلك.

١٤ ـ جواز انفراد الإنسان عن الإمام لعذر، وجهه: أن الطائفة الأولى انفردت وأتمت صلاتها، فإذا حصل للإنسان عذر

لا يستطيع معه إتمام صلاته، مثل أن يطرأ عليه حقن أو ما أشبه ذلك فله أن ينفرد ويكمل صلاته ـ إن كان يستفيد من هذا الانفراد ـ بحيث لا تكون صلاته مع الإمام أفضل من صلاته إذا انفرد.

١٥ ـ مشروعية صلاة الخوف على هذا الوجه.

١٦ ـ جواز إقامة جماعتين في مكان واحد للحاجة، ومثال الحاجة: أن يكون المسجد ضيقاً كالمساجد التي تكون في السوق المزدحم بالباعة والمشترين، فلا يسعهم أن يصلوا ولا يتمكنون من المتابعة في السوق، فنقول: لا بأس أن تصلى جماعة أولى، ثم تأتي جماعة أخرى.

١٧ ـ أن الإنسان يجب أن يكون حذراً كل ما دعت الحاجة إلى الحذر، وجهه: أن الله قال في الطائفة الثانية: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ﴾ والطائفة الأولى لم يقل ذلك. والفرق بين هذا وهذا فرقان:

الفرق الأول: أن الطائفة الأولى تشاغلت بالصلاة في وقت لا يمكن أن يستعد العدو لمهاجمتهم.

والفرق الثاني: أن الطائفة الثانية دخلت في الصلاة في حالٍ عرف العدو أنهم مشتغلون في صلاتهم، فرأى الفرصة في الكر عليهم.

١٨ ـ أن الطائفة الثانية أدركت جميع الصلاة، بخلاف الطائفة الأولى؛ لأنه الله قال: ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ وقال الله في الأولى: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ﴾. ويتفرع على هذه الفائدة عدل الشريعة الإسلامية، ووجهه: أن الطائفة الأولى لما أدركت فضل تكبيرة الإحرام مع الإمام عوضت الثانية بكونها

أدركت الصلاة مع الإمام، وهذا لا شك أنه من عدل الشريعة.

١٩ ـ أن أعداء المسلمين يتربصون بهم الدوائر ويتحينون الفرص، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، ويمكن أن يؤخذ من هذا أن أعداء الإسلام يستغفلون أهل العلم الذين يبينون للناس فضائل الإسلام وقبائح الكفر؛ لأنهم إذا كانوا يستغفلون هؤلاء في حال القتال فكذلك أيضاً في حال السلم يستغفلونهم من أجل ألا يردوا عليهم، ولا يبينوا معايبهم.

٢٠ ـ أن أعداء المسلمين يحبون الإجهاز على المسلمين بسرعة، وتؤخذ من قوله: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ فسياسة الكفار واحدة من أول الأمر إلى آخره، يريدون القضاء على المسلمين بسرعة، مرة واحدة؛ لأن التباطؤ يؤدي إلى فوات الفرصة عندهم، فيقولون: لا نفوت الفرصة.

٢١ ـ ويؤخذ من الآية الكريمة أن الكفار يحرصون على عدم تسلح المسلمين، وهذا صحيح، فالكفار يودون أن نغفل عن أسلحتنا فكيف يعطوننا؟! وتدل على شدة حنق الكفار بالنسبة للإغارة علينا، فإن قوله: ﴿مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ تدل على الحنق وشدة الغيظ، وأنهم مقبلون بقوة.

٢١ ـ نفي الإثم عمن وضع السلاح إذا حصل له أذىً بحمله، لقوله: ﴿أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾.

٢٢ ـ وجوب حمل الأسلحة، ووجهه قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ

أَسْلِحَتَكُمْ﴾، فنفى الجناح عند التأذي، فدل ذلك على أن حمله إن لم يكن تأذٍ واجب.

٢٣ ـ وجوب أخذ الحذر من الكفار، ويؤخذ من قوله: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾، ويشمل هذا أخذ الحذر من هؤلاء الكفار اليوم دخولاً في اللفظ.

٢٤ ـ تهديد الكفار بما أعد الله لهم.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣].

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ﴾ القضاء يراد به الإتمام في اللغة العربية؛ أي: فإذا أتممتم، وقد ورد القضاء بمعنى الإتمام في عدة مواضع من القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] أي: أتمهن، فالمعنى: إذا أتممتم الصلاة وأنهيتموها.

و«إذا» أداة شرط، وفعل الشرط قوله: ﴿قَضَيْتُمُ﴾ وجواب الشرط قوله: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ وقرن بالفاء لأنه طلب، والجملة الطلبية إذا وقعت جواباً للشرط وجب اقترانها بالفاء.

قوله: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا﴾.

وقوله: ﴿قِيَامًا﴾ حال من الفاعل في قوله: ﴿فَاذْكُرُوا﴾ يعني: حال كونكم قياماً.

وقوله: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا﴾، الواو هل هي بمعنى «أو» يعني بمعنى: قياماً أو قعوداً، أو هي لمطلق الجمع؛ أي: اذكروا الله في حال قيامكم وفي حال قعودكم؟

الجواب: الثاني أحسن.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ معطوفة على الحال ﴿قِيَامًا﴾، وعلى هذا فيكون الجار والمجرور في موضع نصب على الحال.

وقوله: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يقال في جملة: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ما قيل في قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ موضع الجملة مما قبلها أنها تعليل، وقوله: ﴿كِتَـٰبًا﴾ خبر كان، وقوله: ﴿مَّوْقُوتًا﴾ خبر ثانٍ، ولا يصح أن تكون صفة.

يقول عزّ وجل: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: فرغتم منها، و«أل» في قوله: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ للعهد وليست للجنس، وإنما قلنا ذلك لأنه لا يشرع الذكر دبر كل صلاة، إنما يكون دبر الصلوات المكتوبة.

وعلى هذا فـ«أل» للعهد الذهني، وإن شئت فقل الذكري؛ لأن الله قال: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٢].

وقوله: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا﴾ أمر الله تعالى بذكره، وهذا أمر مجمل لم يبين كيف يذكر، ولا بماذا يذكر، ولكن السنة بينت ذلك فهو؛ كقوله: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فلم يبين والسنة بينت ذلك.

وقوله: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ المراد: اذكروه باللسان وبالقلب، وهذا هو المطلوب، لكن من ذكر بلسانه حصل المقصود إلا أنه ناقص؛ لأن الذكر ذكر القلب، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله: ﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ بيان للحال التي يذكر

الإنسان فيها ربه بعد الصلاة، وأنه على أي حال كان فليذكر الله.

وقوله: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ فعل من الطمأنينة، والطمأنينة هي: زوال القلق، والمراد بالطمأنينة هنا زوال الخوف والعدو.

وقوله: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدوها تامة كما تؤدونها قبل الخوف.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ يعني: أن من جملة إقامة الصلاة أن تؤدى في وقتها، بدليل الجملة التعليلية بعد ذلك، وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ الأمر بذكر الله بعد انتهاء الصلاة، لقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

فإن قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية وبين آية الجمعة، حيث قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الجمعة: ١٠]؟

قلنا: **الجواب**: هو أن لكل مقام مقالاً، ففي سورة الجمعة منعهم الله من البيع بعد نداء الجمعة حتى يصلوا، فكأن الناس محبوسون عن البيع والشراء مدة الصلاة، فكان من أهم ما يكون عندهم أن يطلق حبسهم، ولهذا قال: ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، والأمر في قوله: ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ليس للوجوب ولا للاستحباب، ولكنه للإباحة كما سيأتي إن شاء الله تعالى، أما هنا فليس هناك أمر بالحضور إلى الصلاة وترك البيع والشراء، فلهذا بدأ بالذكر.

٢ ـ أنه لا يشرع الدعاء بعد التسليم، ويؤخذ من قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟﴾ ولم يقل فادعوا الله.

فإن قال قائل: أليس من المشروع أن الإنسان إذا سلم استغفر ثلاثاً؟

قلنا: بلى لكن هذا الاستغفار استغفار لمحو ما عسى أن يكون في الصلاة من تفريط أو إخلال، فهو في الحقيقة تابع لها، ولهذا كان من الأفضل أن يبادر به الإنسان قبل الذكر حتى يزيل ما في الصلاة من إخلال وتقصير.

٣ ـ أن الذكر بعد الصلاة لا يشترط فيه أن يجلس الإنسان حتى ينهيه، بل له أن يذكر ولو كان قد انصرف، لقوله: ﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي: على أي حال.

٤ ـ أن الذكر لا ينقص إذا قعد الإنسان من قيام، أو قام من قعود أو اضطجع، وهذا هو الأصل أنه لا ينقص بكون الإنسان قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً، اللهم إلا أن يترتب على ذلك أنه إذا كان قائماً فهو أنشط له، لكن الغالب أن القاعد أخشع؛ لأن القائم لا يقوم ليقف، وإنما ليمشي.

٥ ـ أن الواجب إذا زال الخوف أن تعاد إقامة الصلاة على ما كانت عليه حين الأمن، لقوله: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٦ ـ أن الصلاة فرض، لقوله: ﴿كِتَـٰبًا﴾ لأن كتاباً بمعنى: فرضاً.

٧ ـ في قوله: ﴿كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظاهره أن غير المؤمنين لا تجب عليهم الصلاة، بمعنى أنهم لا يطالبون بها، بل

يقال: أسلموا ثم صلوا، ولهذا لو صلى إنسان وهو باقٍ على كفره لم تقبل منه.

فإن قال قائل: هل في هذه الآية دليل على من قال: إن الكفار لا يخاطبون بفروع الإسلام؟

نقول: نعم، استدلوا بها، لكن استدلالهم لا يتعين، لقوله تعالى في سورة المدثر: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ يعني: أي شيء أدخلكم النار؟ ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدثر: ٤٠ ـ ٤٣]، فدل هذا على أن الكفار مخاطبون بفروع الإسلام وهذا هو الحق، لكنهم لا يلزمون بها على كفرهم بل يقال: أسلموا ثم صلوا.

٨ ـ أن الصلاة موقتة، لقوله: ﴿مَّوْقُوتًا﴾ وهذا مما يوجب أن يجتمع الناس عليها؛ لأنها لو كانت غير موقتة لاختلف الناس، فهذا يصلي في الصباح، وهذا في الظهر، وهذا في العصر، ويصلون سبع عشرة ركعة في أي وقت شاءوا، لكن من أجل أن يكون الناس متحدين في وقت واحد حددت الأوقات، وهذه الآية مطلقة لم يبين فيها الوقت، لكن بينته السنة تفصيلاً، وبينه القرآن بنوع من الإجمال في موضع آخر مثل قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، فإن هذه الآية انتظمت أوقات الصلوات الخمس، ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ قال بعض النحويين: إن اللام في قوله: ﴿لِدُلُوكِ﴾ بمعنى: «من»، بدليل الغاية، فيكون معنى الآية: من دلوك الشمس إلى غسق الليل، ودلوك الشمس هو زوالها، وغسق الليل شدة ظلامه، وأشد ما يكون الليل ظلاماً في منتصف

الليل؛ لأن منتصف الليل أبعد ما تكون الشمس عن الأرض.

إذاً الآية الكريمة حددت الوقت من زوال الشمس إلى غسق الليل، لكن الله جعله وقتاً واحداً؛ لأن هذه الأوقات الأربعة كلها متوالية، يدخل وقت العصر بخروج وقت الظهر، ووقت المغرب بخروج وقت العصر، ووقت العشاء بخروج وقت المغرب إلى منتصف الليل، ومن منتصف الليل إلى طلوع الفجر ليس وقتاً، ولذلك لو أن المرأة طهرت بعد نصف الليل لم يلزمها صلاة العشاء، ولا صلاة المغرب من باب أولى.

لكن السنة فصلت أيضاً تفصيلاً زائداً على هذا، فوقت الظهر من زوال الشمس إلى أن يصير ظل كل شيء مثله بعد فيء الزوال، والعصر إلى اصفرار الشمس، والضرورة إلى الغروب، والمغرب إلى مغيب الشفق الأحمر، والعشاء إلى نصف الليل، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما[1].

٩ ـ الإشارة إلى أن الوقت مقدم على جميع الشروط، وجهه: أن الله تعالى لما ذكر صلاة الخوف ثم صلاة الأمن بين أن هذا من أجل مراعاة الوقت، والأمر كذلك؛ أي: أن الوقت مقدم على جميع الشروط، ولهذا إذا لم تجد ماءً فتيمم، حتى تصلي في الوقت، وإذا لم تجد ماءً ولا تراباً صل على حسب حالك، وإذا لم تجد ثوباً تستر به العورة صل على حسب حالك، ولا تنتظر حتى تحصل على ثوب؛ لأن الوقت مقدم على كل شيء.

١٠ ـ أن الإنسان لو قدم الصلاة كلها أو جزءاً منها ولو

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب أوقات الصلوات الخمس (٦١٢).

يسيراً على الوقت فإنها لا تصح؛ ولهذا لو كبر تكبيرة الإحرام فقط لصلاة المغرب قبل مغيب الشمس بمقدار التكبيرة فإنها لا تصح، وإن أخر الصلاة عن وقتها فإن كان لعذر صحت، ودليل هذا قوله ﷺ: «**من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها**»(١)، وإن كان لغير عذر فقد اختلف العلماء في هذه المسألة: فجمهورهم على أنه يلزمه أن يصلي، وقال شيخ الإسلام رحمه الله: لا يلزمه أن يصلي، بل ولا تصح الصلاة منه، وما ذهب إليه الشيخ هو الصواب، ولكننا نقول له: لا تصل لا تخفيفاً عليه، ولكن عقوبة له؛ لأنها غير مقبولة منه، إذ لو قبلت الصلاة بعد وقتها ممن أخرها عن وقتها عمداً لم يكن للتهديد فائدة، وقد قال النبي ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»(٢).

وعليه: فإذا جاءنا رجلان بعد طلوع الشمس؛ أحدهما ترك صلاة الفجر عمداً، والثاني تركها نوماً لعدم من يوقظه، فيسألان: أنصلي صلاة الفجر بعد طلوع الشمس أو لا؟ فنقول: أما من غلبه النوم فيصلي، وأما الثاني فلا يصلي، فإن قيل: وكيف تسهلون على المتعمد وتؤاخذون النائم؟! فنقول: لم نتساهل معه، ولم

---

(١) رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها ولا يعيد إلا تلك الصلاة، حديث رقم (٥٧٢)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، حديث رقم (٣٣٤) من حديث أنس بن مالك.

(٢) رواه البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث رقم (٢٥٥٠)؛ ومسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم (١٧١٨) من حديث عائشة.

نيسر له، بل هذا عقوبة له أن الله لا يقبل منه ولو صلى ألف مرة؛ لأنه متعد لحدود الله.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: ١٠٤].

قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ لما ذكر تعالى صلاة الخوف وما يترتب عليها، ووجوب أخذ الحذر من أعدائنا، وأن أعداءنا عداوتهم بينة، وذكر ما يتعلق بذلك في قولهم: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٣] قال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾ أي: لا تضعفوا، و«لا» ناهية، وحذفت النون من أجل النهي.

وقوله: ﴿فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: في طلب القوم، والقوم هم أعداء المسلمين.

ثم بيّن سبحانه أنه لا وجه للوهن والضعف في ترك طلبهم فقال: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾، يعني: هم يطلبونكم، ويريدون إيلامكم، وإذا تألمتم منهم فإنهم هم أيضاً يتألمون منكم كما تتألمون منهم، وهذا فيه التسلية للمجاهدين المقاتلين، ولكن الفرق بيننا وبينهم فرق كبير، أبعد مما بين السماء والأرض.

قوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أنتم ترجون من الله النصر الذي وعدتم به إذا اتقيتم الله عزّ وجل، وترجون ثواب الآخرة، وهم لا يرجون ثواب الآخرة قطعاً، والنصر قد

يرجونه وقد لا يرجونه، وإذا رجوه فإنما يريدون الانتصار عصبية لأوطانهم وقومهم، فصار الفرق عظيماً بين هؤلاء وهؤلاء، ولهذا لما نادى أبو سفيان يوم أُحد فقال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال. أجابه الصحابة، فقالوا: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، فإذا كنا نساويهم في ألم الجراح، وألم القتال، وألم فقد المال وغير ذلك، إذا كنا نساويهم في هذا فإننا نمتاز عنهم بأننا نرجو من الله ما لا يرجون، فكيف يكونون هم أقوياء في طلبنا ونحن ضعفاء، فهذا لا يليق.

وقوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي: تطمعون فيما عند الله من الثواب والنصر وهم لا يطمعون في ذلك؛ لأن قلوبهم خالية من الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مثل هذا يقع في القرآن كثيراً، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، ﴿كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١]، فهو كان ولا يزال، ولهذا نقول: إن «كان» هنا مسلوبة الزمان، يعني: لا تدل على المضي، وإنما تدل على تحقق الأمر ووقوعه، لا على أنه كان فزال.

وقوله: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لا يخفى علينا جميعاً أن علم الله سبحانه واسع، يشمل الماضي فلا ينسى، والمستقبل فلا يجهل، ويشمل الخفي والجلي، ويشمل ما في حقه وحق عباده، فهو يعلم سبحانه ماذا يجد علينا غداً، وماذا سنعمل، ويعلم ما سيفعله سبحانه هو بنفسه غداً وما لا يفعله، فعلم الله واسع، ثم إن علم الله متعلق بالواجب والجائز والمستحب، ولذلك تعتبر هذه

الصفة ـ أعني: صفة العلم ـ من أوسع الصفات؛ لأنها متعلقة بالواجب والجائز، والممكن والمستحيل.

أما تعلق العلم بالواجب: فكعلمه جل وعلا بذاته وأسمائه وصفاته.

وأما تعلقه بالممكن: فهو تعلقه بما يحدث في هذا الكون؛ لأن كل الكون من باب الجائز الممكن.

وأما تعلقه بالمستحيل: فمثل قوله تبارك وتعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فهنا حكم جل وعلا أنه لو كان في السماوات والأرض آلهة غير الله لفسدتا، ووجود ذلك مستحيل، ومع هذا علم الله بنتائجه مع أنه مستحيل.

فالحاصل: أن علم الله عزّ وجل صفة من أوسع الصفات.

والعلم هو إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكاً جازماً، ولا نحتاج أن نقول: مطابقاً؛ لأننا قلنا: إدراك الشيء على ما هو عليه، فيغني عن كلمة مطابقاً، هذا هو العلم، فعدم الإدراك بالكلية جهل، وإدراك الشيء على خلاف ما هو عليه جهل أيضاً، لكنه جهل مركب، وإدراك الشيء بلا جزم بل بظن أو شك أو وهم لا يكون علماً، فما غلب على الظن فهو ظن، ومقابله الوهم، وما تردد الأمر فيه فهو شك.

وقوله: ﴿حَكِيمًا﴾ يصلح أن تكون صفة مشبهة من الحكمة، وأن تكون اسم فاعل حُول إلى فعيل من الحكم، فهي من باب المشترك، والقاعدة في التفسير: أنه متى احتمل اللفظ معنيين لا يتنافيان فإنه يحمل عليهما جميعاً، فعليه نقول: الحكيم من الحكمة ومن الحكم.

ثم نقول: حكم الله عزّ وجل ينقسم إلى قسمين:

حكم كوني: وهو ما قضاه كوناً.

وحكم شرعي: وهو ما قضاه شرعاً.

والحكمة تنقسم أيضاً إلى قسمين:

حكمة في كون الشيء على صورته التي خُلق عليها، أو على صورته التي شرع والحكمة الثانية: حكمة غائية، بمعنى: أن الغاية من هذا الشيء حكمة، وحينئذ تبلغ أربعاً: حكمة في الصورة والغاية في الحكم الشرعي، وحكمة في الصورة والغاية في الحكم الكوني، فالجميع أربعة.

مثلاً: في سورة الممتحنة ذكر الله سبحانه أحكاماً ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾، وهذا حكم شرعي، وفي سورة يوسف قال أحد إخوته: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ وهذا حكم كوني.

وأما مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة: ٥٠]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: ٨] وما أشبه ذلك فالظاهر أنه شامل للحكم الكوني والشرعي.

أما الحكمة فإن الإنسان إذا تأمل المخلوقات بعناية وعقل وفهم تبين له أنه لا يوجد فيها شيء إلا لحكمة، حتى المصائب من الأمراض والهلاك والفتن كلها حكمة، لكن تحتاج إلى تدبر وتعمق ونظر، وليس نظراً إلى الأمور على وجه سطحي، وتجد أن الله عزّ وجل قدر هذا الشيء لحكم عظيمة، ولا أدل على هذا من قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ

﴿وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]، والأدلة على هذا كثيرة، مع أنها مصائب لكن لها حكم، وكم من إنسان نشاهده في وقتنا الحاضر تحصل عليه مصيبة إما في نفسه وإما في أهله، ويكون فاسقاً ثم يعود، وأنا أعرف بعض من كان فاسقاً ثم حصل حادث مات فيه أخوه أو أبوه فاهتدى، وأمثال هذا كثير.

وكذلك في الأمور الشرعية لا ترى شيئاً شرعه الشرع إيجاداً أو إعداماً إلا والحكمة في ذلك، يقول بعض أهل العلم: إن الله لم يأمر بشيء فيقول العقل: ليته لم يأمر به، ولم ينه عن شيء فيقول العقل: ليته لم ينه عنه.

وقد ألف شيخ الإسلام رحمه الله كتاباً في عدة مجلدات سماه: «موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول»، صريح المعقول يعني: العقل الصريح السالم من الشبهات والشهوات، للنقل الصحيح: الكتاب وما صح عن النبي ﷺ، أما الأحاديث الضعيفة فقد يأتي فيها ما يخالف العقل، فإذاً: الحكمة في حكم الله الشرعي وفي حكم الله الكوني.

وكل منهما إما أن تكون حكمة في الصورة التي هو عليها، أو في الغاية التي من أجلها حكم الله بها.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تشجيع المسلمين على جهاد الكفار، لقوله: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾.

٢ ـ أنه ينبغي القوة والمتابعة في طلب الكفار، وألا يلحقنا الوهن، لقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾؛ أي: لا يلحقكم الوهن في طلبهم.

٣ ـ أن بني آدم في الأمور البشرية على حد سواء، فإذا كان الكافر يتألم فالمؤمن يتألم، حتى الأنبياء في الأمور البشرية كغيرهم من الناس، لكنهم يختلفون عنهم في الصفات المعنوية؛ كالصبر، والتحمل، والإقدام، والعزيمة وغير ذلك.

٤ ـ أنه ينبغي للإنسان إذا عمل العمل الصالح أن يكون راجياً، لقوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ ويكون هذا الرجاء عند ابتغاء القوم وطلبهم، وهكذا ينبغي للإنسان إذا وفقه الله للعبادة أن يكون راجياً؛ أي: راجياً ثوابها؛ لأن من بشرى الإنسان أن يوفق للعبادة، فمن وفق للعبادة على ما يرضي الله فهي بشرى بالقبول، كما أن من وفق للدعاء فهو بشرى بالإجابة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ولهذا قال: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وهذا ربما يكون الفيصل في مسألة تغليب الرجاء على الخوف، فإن السالكين اختلفوا هل الأفضل للسالك إلى الله عزّ وجل أن يقدم الرجاء أو أن يقدم الخوف أو أن يكونا سواءً؟

فمنهم من أطلق أن الأفضل أن يكونا سواءً كالإمام أحمد رحمه الله، كما جاء عنه أنه قال: الخوف والرجاء بمنزلة جناحي الطائر، إن انخفض أحدهما تعلَّى الآخر، فلا بد أن يكونا سواءً، وقال: ينبغي على العبد أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً فأيهما غلب هلك صاحبه.

ومن العلماء من قال: يقدم الرجاء، لقول الله تعالى في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي، فإن ظن بي خيراً فله،**

وإن ظن بي شراً فله»[١].

ومنهم من قال: يغلب جانب الخوف، حتى يكون مبتعداً عن محارم الله؛ لأن الذي يحملك على ترك المحارم هو الخوف من عقوباتها وآثارها السيئة.

والذي يظهر لي أن يقال: إذا فعل الحسنة فالأولى أن يغلب جانب الرجاء، وإذا همَّ بالسيئة فالأولى أن يغلب جانب الخوف، وهذا أحسن ما يكون.

أما عند الموت فينبغي للإنسان أن يغلب جانب الرجاء؛ لأنه في هذه الحال يجب أن يكون عنده توبة ورجوع إلى الله عزّ وجل؛ لأنه أحوج ما يكون إلى التوبة في ذلك الوقت.

٥ ـ أن الكافرين لهم رجاء، ولكنه ليس كرجاء المؤمنين، ربما يؤخذ هذا من قوله: ﴿مَا لَا يَرْجُونَ﴾، والكافر قد يكون عنده توكل، ورجوع إلى الله، وافتقار إليه، ولا سيما إذا وقع في الشدة، قال الله عزّ وجل: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فإذا لجأوا إلى الله وصدق لجوؤهم أنقذهم الله عزّ وجل.

وهنا أيضاً ربما يكون عندهم حال قتال المؤمنين رجاء،

---

(١) هذا اللفظ عند أحمد (٢/ ٣٩١)؛ وابن حبان (٢/ ٤٠٥) (٦٣٩) عن أبي هريرة، وأصل الحديث عند البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، حديث رقم (٦٩٧٠)؛ ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله، حديث رقم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة.

يرجون الله عزّ وجل أن يغلبوا المسلمين، لا سيما إذا كانوا يعتقدون أنهم على حق، فعندهم رجاء، وقد يقال: إن قوله: ﴿مَا لَا يَرْجُونَ﴾ ليس إثباتاً لأصل الرجاء مع الاختلاف في صفته، بل هو نفي للرجاء إطلاقاً، وهذا واقع في قوم ملحدين لا يؤمنون برب كالشيوعيين مثلاً، فإن هؤلاء لا يرجون الله إطلاقاً؛ لأنهم لا يعترفون به، فالآية صالحة لهذا ولهذا.

٦ ـ في الآية إشارة إلى أنه لا يشهد للشهيد بأنه في الجنة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، والرجاء قد يتحقق وقد لا يتحقق، ولهذا نهي أن نقول عن شخص معين بأنه شهيد إلا من شهد له الرسول عليه الصلاة والسلام، فمن شهد له الرسول بالشهادة شهدنا له، وكذلك من شهد له القرآن كما في غزوة أُحد حيث قال الله عزّ وجل: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وفي حديث أُحد لما صعد النبي ﷺ الجبل ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فارتجف بهم فقال: «**اثبت أُحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان**»[(١)] يعني: أن أصناف الخلق الأربعة وجد منهم على هذا الجبل ثلاثة: نبي وصديق وشهيد، وعلى هذا فنحن نشهد أن عمر رضي الله عنه شهيد، وأن عثمان رضي الله عنه شهيد، ونشهد أن ثابت بن قيس رضي الله عنه شهيد؛ لأن الرسول ﷺ قال له: «**تعيش حميداً، وتقتل شهيداً،**

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذاً خليلاً**»، حديث رقم (٣٤٧٢) عن أنس بن مالك.

وتدخل الجنة»[١]، وذلك في قصته المعروفة لما نزل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٢] وكان هو رضي الله عنه جهوري الصوت، ولهذا كان خطيباً وشاعراً للرسول عليه الصلاة والسلام، فجمع بين الخطابة والشعر، فاختفى في بيته يبكي، إذ خاف أن يحبط الله عمله وهو لا يشعر رضي الله عنه، لكن من يخاف من العقاب أمنه الله منه، ففقده النبي عليه الصلاة والسلام فسأل عنه، فقيل له: إنه يلازم بيته، فأرسل إليه، فلما جاءه قال: إن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٢] وإني يا رسول الله! أخاف أن يحبط عملي وأنا لا أشعر، فقال له: «**ألا ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة**»[٢] فعاش حميداً، وقتل شهيداً، ونشهد أنه سيدخل الجنة رضي الله عنه.

وجاء في قتله قصة غريبة، فلما قتل رضي الله عنه مر به أحد الجنود فأخذ درعه الذي كان عليه، وكان في طرف الجيش، فوضعه تحت برمة ـ وهي قدر من الفخار يكون كالحجر، فوضع الدرع تحتها ـ فرأى أحد أصحاب ثابت ثابتاً في المنام، وقال له:

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ أبواب السير، باب فضائل أصحاب رسول الله، حديث رقم (٣/ ٤٤٥) (٩٤٥)؛ وابن حبان (١٦/ ١٢٥) (٧١٦٧)؛ والحاكم (٣/ ٢٦٠).

(٢) تقدم ص١٦٧.

إن فلاناً أو رجلاً ـ نسيت هل هو عين الرجل أو أنه قال: رجلاً ـ مر بي وأخذ الدرع ووضعه تحت برمة في طرف الجيش، وعنده فرس يستن ـ والفرس إذا كان واقفاً على ثلاث قوائم يقال: إنه يستن ـ، وأخبر خالداً بأني أوصي بكذا وكذا فليبلغ ذلك أبا بكر رضي الله عنهم.

فلما أصبح الرجل جاء إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه وأخبره بالخبر، فذهبوا إلى الجهة التي أخبر بها وإذا بالدرع تحت البرمة، وعنده فرس يستن، فأخذه، وبلغت وصيته أبا بكر رضي الله عنه فأنفذها[1].

قال العلماء: ولا يوجد أحد نفذت وصيته بعد موته إلا ثابت بن قيس.

فالحاصل: أننا لا نشهد لأحد بالشهادة إلا إن شهد له الرسول عليه الصلاة والسلام، وثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أن الحريق شهيد، وأن الغريق شهيد، وأن المطعون شهيد، وأن من مات بهدم شهيد[2]، فهل إذا مات أحد بهذه الأسباب نقول: هو شهيد بعينه؟

الجواب: لا، لكن نرجو أن يكون شهيداً، وذلك لأن المظهر قد يكون على خلاف المخبر، لكن نقول: نرجو أن يكون من الشهداء، والحمد لله شهاداتنا لا يتوقف عليها كونه شهيداً إن كان من الشهداء، وعدم شهادتنا لا يمنع أن يكون شهيداً إن كان من الشهداء، لكن يكفينا أن نرجو أن يكون من الشهداء.

---

(١) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/ ٦١)؛ أسد الغابة (١/ ١٤٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، كتاب الشهادة سبع سوى القتل (٢٨٢٩)؛ ورواه مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان الشهداء (١٩١٤) عن أبي هريرة.

٧ ـ إثبات اسمين من أسماء الله هما: العليم، والحكيم، يؤخذ من قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وإثبات ما تضمناه من الصفة وهي: العلم من العليم، والحكمة من الحكيم، والحكم من الحكيم أيضاً؛ لأن الحكيم ذو الحكمة والحكم، فيكون فيها ثلاث صفات: العلم، والحكمة، والحكم.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لا يدل على أنه كان فمضى؛ لأن ﴿كَانَ﴾ هنا مسلوبة الزمان، وإنما أتي بها لتحقيق هذين الاسمين وما تضمناه من صفة.

٨ ـ إثبات كمال الله عزّ وجل في حكمته تعالى، حيث قرن بين العلم والحكمة إشارة إلى أن حكمته صادرة عن علم، وليست عن صدفة؛ لأن الإنسان قد يفعل الفعل ويكون محكماً متقناً لكن على غير علم بل صدفة، كما يقال: «رب رمية من غير رامٍ» لكن حكمة الله عزّ وجل مقرونة بالعلم مبنية عليه.

٩ ـ أنه يجب علينا التفويض التام فيما لا نعلم حكمته من أحكام الله الكونية أو الشرعية، وجه ذلك: أنه عليم، فعنده من العلم ما يخفى علينا فيخفى به وجه الحكمة بالنسبة إلينا؛ لأن حكمة الله صادرة عن علم.

ولن نتكلم كلاماً واسعاً عن صفة العلم وصفة الحكمة؛ لأن هذا تكرر كثيراً فيما تقدم.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء: ١٠٥].

قوله: ﴿إِنَّآ﴾ الضمير يعود على الرب عزّ وجل، ولم يقل: «إني» تعظيماً لشأنه جل وعلا، وتعظيماً للمتحدث عنه وهو إنزال

الكتاب، فالتعظيم هنا لعظمة المنزِل ولعظمة المنزَل، وكذلك قوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ «نا» هنا للتعظيم.

وقوله: ﴿إِلَيْكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ مباشرة، وللناس بواسطة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، فهو منزل إلى الرسول مباشرة، وإلينا بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو القرآن، وسمي بذلك لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أنه مكتوب في اللوح المحفوظ.

والثاني: أنه مكتوب بأيدي الملائكة البررة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٢ ـ ١٦].

والوجه الثالث: أنه مكتوب بأيدي البشر، يكتبه الناس وقد سهل الله لهم ذلك، فهو يكتب من عهد الرسول ﷺ وإلى يومنا هذا.

وأصل الكَتْب مأخوذ من الجمع، لاجتماع الكلمات والحروف، ومنه الكتيبة للطائفة المجتمعة في قتال الأعداء، وكتاب هنا بمعنى مكتوب، فهو فعال بمعنى مفعول.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء هنا إما أن تكون للمصاحبة، وإما أن تكون للتعدية، وكلاهما صحيح، فهو نازل بحق ليس مكذوباً، بل نزل من عند الله حقاً، وهذا لإثبات نزوله من عند الله.

كذلك هو نازل بالحق؛ لأن كل ما نزل به القرآن فهو حق، إن كان خبراً فهو صدق، وإن كان حكماً فهو عدل، فالحق وصف للقرآن في حد ذاته، وأنه صدق ومن عند الله، وفيما جاء به فأخباره كلها صدق، وأحكامه كلها عدل.

ثم مع ذلك من تدبر القرآن جاعلاً إياه دليلاً على الحق فإنه لا بد أن يهتدي للحق، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧]، وتيسيره شامل لتيسير لفظه ومعناه، والعمل به، لكن يحتاج إلى تذكر.

إذاً: قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ له معنيان، المعنى الأول: أن نزوله من عند الله حقاً، والمعنى الثاني: أن ما جاء به القرآن فهو حق.

قوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام وقوله: ﴿لِتَحْكُمَ﴾ يحكم بالقرآن، فالرسول ﷺ يستدل بالقرآن، كما أننا نحن نستدل بالقرآن.

وقوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ المقصود تحكم بينهم في فصل الخصومات، وفي بيان أحكام أعمالهم، فيشمل هذا وهذا، فهو يحكم فيفصل بين الخصوم عليه الصلاة والسلام بما أراه الله، وكذلك يحكم بين الناس في أحكام أعمالهم، فيقول: هذا حق، وهذا باطل، وهذا واجب، وهذا محرم، وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ متعلق بتحكم أي: تحكم بالذي أراك الله، وقوله: ﴿أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ الظاهر أنه من الرأي ومن الرؤية، فيشمل هذا وهذا، فيشمل ما استنبطه النبي عليه الصلاة والسلام من القرآن، وإن لم تكن دلالته صريحة باللفظ وهذا من الرأي، أو مما أراه الله بما يتبين له من ألفاظ القرآن، ويحتمل أن تكون الإراءة هنا بمعنى العلم؛ أي: بما أعلمك؛ فتشمل المعنيين.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ لما ذكر أن الله أنزل عليه الكتاب بالحق، نهاه أن يكون خصيماً للخائنين؛ أي: لذوي

الخيانة، والخيانة هي: الغدر في موضع الأمانة، وهي صفة ذم بكل حال، بخلاف المكر والخديعة فإنها تكون أحياناً مذمومة، وأحياناً محمودة، فإذا كانت في موضع يحسن فيه المكر والخداع فهي محمودة، وإذا كانت بموضع لا يحسن فيه الخداع والمكر فهي مذمومة، أما الخيانة فلكونها غدراً في موضع الائتمان فهي مذمومة بكل حال.

ولذلك يوصف الله بالمكر والخداع ولا يوصف بالخيانة، كما في قول الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] وقوله: ﴿فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١] ولم يقل: فخانهم، وكان مقتضى المقابلة أن يقول: فخانهم، كما قال: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ لكن الخيانة لما كانت صفة ذم بكل حال صار الله تعالى منزهاً عنها.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ أي: مخاصماً، وهل يكون عليهم خصيماً؟ الجواب: نعم، يعني: ضدهم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان عظمة الرب، لقوله: ﴿إِنَّآ﴾، وقوله: ﴿أَنزَلْنَآ﴾.

فإن قيل: هل تعظيم المتكلم نفسه صفة مدح أو صفة ذم؟ نقول: أما بالنسبة لله عزّ وجل فهي صفة مدح بلا شك؛ لأنه جل وعلا هو المتكبر المتعال، المستحق للحمد والمدح، أما من الإنسان فهذا فيه تفصيل: فقد يكون من المستحسن أن تعبر عن نفسك بصيغة التعظيم إذا كان في ذلك إهانة للأعداء، وبيان لمنزلتك، فإن التعظيم في هذا المكان أمر ممدوح، قال النبي ﷺ في مشية الخيلاء: «**إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا**

الموضع»[١]، ولما كانت رسل قريش تأتي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام في صلح الحديبية كان المغيرة بن شعبة رضي الله عنه واقفاً على رأسه ومعه السيف، وهذا تعظيم ينهى عنه، والرسول ﷺ كان يأمر المصلين خلف من كان قاعداً أن يصلوا قعوداً، لكن في هذا القيام لإغاظة الأعداء كان ممدوحاً.

كما أنه عليه الصلاة والسلام في تلك الحال كان إذا بصق البصاق يتلقاه الصحابة رضي الله عنهم بأيديهم يمسحون به وجوههم وصدورهم، ولم يكونوا يفعلون هذا في كل حال، لكن إغاظة للكفار، وكانوا يقتتلون على وضوئه، وقد أثَّر هذا في رسول قريش لما رجع إلى قريش؛ فإنه قال: لقد دخلت على ملوك كسرى وقيصر والنجاشي فلم أر أحداً يعظمه أصحابه مثل ما يعظم أصحاب محمد محمداً عليه الصلاة والسلام[٢]، وأمثالها كثير.

المهم: أن من التواضع أن يذكر الإنسان نفسه بصيغة المفرد، لكن في مقام ينبغي فيه أن يكون معظماً لنفسه، معتداً بشخصه، فإنه ينبغي أن يذكر اللفظ الدال على التعظيم.

٢ ـ علو الله عزّ وجل لقوله: ﴿أَنزَلْنَآ﴾، والنزول لا يكون إلا من علو، والقرآن كلام الله، فإذا كان القرآن نازلاً لزم أن يكون المتكلم به عالياً.

٣ ـ أن القرآن كلام الله غير مخلوق، لقوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٧/ ١٠٤) (٦٥٠٨)؛ والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٤٨) برقم (١٠٨٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (٢٧٣٤).

فإذا قال قائل: هذا الاستدلال ممنوع؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، وقال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وكل هذه مخلوقة فلا يلزم من إنزال الله شيئاً أن يكون غير مخلوق؟

فالجواب: أن يقال: هذه أعيان قائمة بنفسها منفصلة عن منزلها، أما القرآن فهو كلام والكلام ليس عيناً قائمة بنفسها، بل هو وصف للمتكلم؛ فإذا كان الله أنزله لزم أن يكون الله فوق، وبهذا بطلت شبهة الجهمية والمعتزلة الذين يقولون بخلق القرآن.

٤ ـ المنقبة العظيمة لمحمد ﷺ، لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٥ ـ جواز كتابة القرآن، وهذا أمر متفق عليه بين الأمة، بل قد تكون كتابته واجبة، ولكن على أي وجه يكتب؟ هل بالحروف اللاتينية أم بالحروف العربية أو بالخط الكوفي أو بالخط الفارسي أو بأي شيء؟

الجواب: أحسن ما يكتب فيه أن يكون على الحرف العثماني، هذا أحسن ما يكون، ولكن هل يجوز أن يكتب على غير هذا الوجه بالقواعد المعروفة عند الناس، مثل «الصلاة» نكتبها لام ألف وبعدها هاء، «الزكاة» كذلك، أو أنه لا بد نكتبها على الخط العثماني؟

للعلماء في ذلك ثلاثة أقوال:

الأول: أنه يجب أن يكتب بالخط العثماني، وإن خالف القواعد المعروفة العرفية.

والثاني: يجب أن يكتب حسب القواعد العرفية حتى لا يخفى على العامة؛ لأن العامة لولا أنهم يتلقون الزكاة من أفواه العلماء من هذا اللفظ لنطقوا بها حسب الكتابة: الزكوات، فيجب أن يكتب بالخط العرفي حتى لا يشتبه على الناس.

والقول الثالث: التفصيل: فإذا كان المقصود التعليم فليكتب بالخط العرفي؛ لأنه أقرب للفهم، وإذا كان المقصود التلاوة ونحن نتكلم أو نكتب لقوم يعرفون القرآن تلاوة فيكون بالخط العثماني، ولم نر أحداً جوَّز أن يكتب القرآن بشكل رسوم، أو سيارات، أو مثل إذا كتب: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] كتب بصورة طائر، ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] يكتبها بصورة جبل، ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: ١] يكتبها بصورة قلم، هذا ما رأينا أحداً فعله، وهو إلى الاستهزاء بكتاب الله أقرب منه إلى التعظيم، والتعظيم له حدود فلا بد أن يكون بالحدود الشرعية.

أرأيت لو قال قائل: أنا أريد أن أقدس الكتاب العزيز وأحمله في جيبي حتى في موضع قضاء الحاجة؛ لأني أنا أحب القرآن فأجعله معي دائماً، فهل يصح هذا أو لا يصح؟ الجواب: لا يصح؛ لأن التعظيم في حدود، فلا تكتب على جدرانك: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]؛ لأنك لا تقدر أن تقرأه، وإذا رآها إنسان لا يقدر أن يقرأها؛ لأنها مرسومة على شكل قصر، وربما تكتب على شكل البيت الذي كتبت في مجلسه، فهذا لا يقره عاقل، لكن مع الأسف أن الناس الآن صاروا يتعبدون الله تعالى على غير بصيرة، ولا أظن ـ إن شاء الله ـ

أن الحامل لهم على هذا امتهان القرآن، ولكن الحامل لهم على هذا محبة القرآن ـ فيما نظن والعلم عند الله ـ ولكنهم أخطأوا الطريق، وكم من إنسان أراد خيراً لكن اخطأ في المنهج والمسير الموصل إلى هذا الطريق.

٦ ـ وصف القرآن بما لا يدع مجالاً للشك أن التمسك به هو الخير للأمة، لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، فإذا أرادت الأمة العزة والتمكين والنصر فلتكن قائمة بالقرآن الكريم؛ لأن القرآن نزل بالحق.

٧ ـ إثبات العلل في أفعال الله الشرعية والكونية، وتؤخذ من قوله: ﴿لِتَحْكُمَ﴾؛ لأن اللام للتعليل، ولا شك أن تعليل أحكام الله عزّ وجل ثابت ثبوتاً قطعياً لا إشكال فيه، والحكمة من تمام صفاته سبحانه.

وقد أنكر قوم أن يكون فعل الله تعالى أو حكمه بحكمة، وقالوا: إن أفعاله ليس لها حكمة؛ لأنه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ولأنه يفعل لمجرد مشيئة، لكنهم أخطأوا باستدلالهم، وأخطأوا بحكمهم؛ لأننا لو رفعنا الحكمة عن أفعال الله وأحكامه لكانت أحكامه وأفعاله لعباً ولهواً ولغواً، والله عزّ وجل يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧]، ويقول عزّ وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٣٩]، ويقول جل وعلا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ويقول تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن

يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الأفعال بلا حكمة لعب ولهو وسدىً وعبث.

والغريب أن استدلالهم بالآية: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ دليل عليهم في الواقع؛ لأنه لا يسأل عما يفعل لكمال حكمته، فأفعاله كلها لا تحتاج إلى السؤال؛ لأن حكمتها واضحة، وقد تخفى علينا، ولكن هذا هو الأصل، أما نحن فنُسأل، وأما تعليلهم بأنه لو كانت أفعاله بحكمة لكانت أفعاله واجبة؛ لأن الحكيم يجب أن يتبع ما تقتضيه الحكمة، فنقول: وليكن هذا، لكن من الذي أوجب عليه هذه الأفعال؟ الجواب: هو الله الذي أوجب على نفسه، كما قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [الليل: ١٢] فالتزم الله بالهدى والبيان للناس، وأما الملك فقال: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الليل: ١٣].

٨ ـ تفويض الأمر إلى النبي ﷺ بالحكم بين الناس بما أراه الله، ويتفرع على هذه الفائدة أن له أن يجتهد، وهو كذلك، ثم إن لم يكن اجتهاده موافقاً للواقع فلا شيء عليه، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فإنما أقتطع له قطعة من النار**»(١).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب موعظة الإمام للخصوم، حديث رقم (٦٧٤٨)؛ ومسلم، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، حديث رقم (١٧١٣) عن أم سلمة.

٩ ـ نهى النبي ﷺ أن يكون مخاصماً للخائنين، لقوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾.

ويتفرع على ذلك: أنه لا يحسن للمحامين أن يتولوا مهنة المحاماة من أجل الانتصار لمن وكلهم لا للحق، كما هو شأن الكثير اليوم، فأحدهم تجده يحامي عن الشخص في المخاصمات لا من أجل أن يصل إلى الحق، ولكن من أجل أن يغلب فيُعطى ما شُرط له.

١٠ ـ أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، وهذا يعلم بسب نزول الآية، وسبب نزول الآية أن رجلاً من الأنصار ـ قيل: إنه منافق، والله أعلم ـ سرق درعاً وأخفاه، ولما علم أن الناس علموا بذلك حمله ووضعه في بيت رجل آخر قيل: إنه يهودي، وقيل: غير يهودي، من أجل أن يتهم هذا الذي جُعل في بيته، ولما أحس قومه بأن الأمر بلغ النبي ﷺ ذهبوا إلى النبي ﷺ، وقالوا: إن صاحبنا لم يسرق، وإنما السارق غيره، يريدون أن يبرئه النبي ﷺ من ذلك حتى يبرأ؛ لأنهم قالوا له: إن لم تبرئه فإن الناس سوف يتكلمون فيه، لكن إذا جاءت براءته من عندك أسكتت الناس، فَهَمَّ النبي ﷺ بذلك لثقته بأصحابه وعدم ثقته باليهود[1]، وهذا على قول أكثر المفسرين: أن الذي وضعت في بيته هذه السرقة كان يهودياً، فأنزل الله عليه هذه الآيات ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾، ومعنى ﴿خَصِيمًا﴾ أي: مخاصماً لهم، وفعيل تأتي بمعنى مُفْعِل، مثل قول الشاعر:

أمن ريحانة الداعي السميع ... يؤرقني وأصحابي هجوع

فالسميع بمعنى: المسمع.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٢١/ ١٠).

❑ قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ [النساء: ١٠٦].

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أي: اطلب مغفرته، والمغفرة هي: ستر الذنب والتجاوز عنه، يعني: إسقاط العقوبة عنه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الجملة صلتها بما قبلها التعليل؛ أي: استغفر الله لأنه جل وعلا يغفر ويرحم كل من استغفره وطلب رحمته.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن همَّ النبي ﷺ وميله إلى هؤلاء فيه شيء من التقصير، ولهذا قال الله له: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾، فيؤخذ منها أنه يجب على الحاكم أن يتأنى في حكمه، وألا يتعجل، بل يتريث لا سيما مع وجود قرائن.

٢ ـ أن النبي ﷺ يمكن أن يقع منه الذنب، وهذا هو الحق، وأنه يمكن أن يقع منه الذنب إلا ذنباً ينافي مقتضى الرسالة، مثل الخيانة، والكذب وما أشبه ذلك.

وقال بعض أهل العلم: إن النبي ﷺ لا يمكن أن يذنب، وأن المراد بذنوبه: ذنوب أمته، أو أن المراد بذلك: تعليمه لتتعلم الأمة، ولكن هذا ليس بصحيح، أما الأول فإن الله تعالى قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] والقرآن منزه عن التكرار؛ لأننا لو قلنا: «استغفر لذنبك» أي: ذنوب أمتك لكان قوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ تكراراً لا فائدة منه.

وأما كونه نبياً فلا يمكن أن يذنب، فنقول: إن الذنب إذا

تلته التوبة فقد يكون الإنسان بعدها خيراً منه قبلها، فهذا آدم عليه الصلاة والسلام كان من الأنبياء فأذنب فصارت منزلته وحاله بعد الذنب أكمل منها قبل الذنب؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طـه: ١٢١ ـ ١٢٢]، نعم النبي عليه الصلاة والسلام معصوم من أن يُقر على ذنب، بخلاف غيره، بمعنى: أنه إذا أذنب فلا بد أن يستغفر بتنبيه الله له أو بتنبهه هو، أما غيره فليست له هذه الميزة، وهذا يظهر به الفرق بين الأنبياء وغيرهم.

٣ ـ إثبات هذين الاسمين من أسماء الله وهما: الغفور، والرحيم، فبالغفور زوال المكروه؛ أي: زوال آثام الذنوب، وبالرحمة حصول المطلوب؛ أي: أن الله ييسر للإنسان ما تكون به رحمة الله له.

٤ ـ استنبط بعض العلماء: أنه ينبغي لمن استفتي أن يقدم بين يدي فتواه الاستغفار؛ لأن الله قال: ﴿لِتَحْكُمَ﴾ [النساء: ١٠٥] ثم قال: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾؛ ولأن الذنوب تحول بين الإنسان وبين معرفة الصواب، كما قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٣ ـ ١٤]، فهم لم يقولوا: إن القرآن أساطير الأولين إلا لأنه حيل بينهم وبين معرفة حقيقته بسبب ذنوبهم، التي رانت على قلوبهم، وهذا القول وجيه، فعلى الإنسان إذا أراد أن يفتي أن يقدم بين يدي فتواه الاستغفار، لا سيما إذا التبست عليه المسألة، أو اشتبه عليه الحكم، فهو يدعو بذلك، وكذلك يدعو بقوله: «اللهم اهدني

لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[(١)].

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء: ١٠٧].

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ﴾ «لا» ناهية، والمجادلة هي: مماراة الخصم من أجل الظهور عليه، سميت بذلك إما من الجدْل وهو فتل الحبل وإحكامه؛ لأن المجادل يحكم حجته، وإما من الجدالة وهي الأرض؛ وكأن المجادل يطرح خصمه على الأرض حتى لا يكون به حراك.

وعلى كل حال: فهي المماراة والمدافعة من أجل الظهور على الخصم.

والنهي عن المجادلة لا يستلزم وقوعها، فقد يُنهى الإنسان عن الشيء وإن لم يقع، لكنه قد يقع، فينهى عن شيء متوقع غير واقع، فلا يلزم من قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ﴾ أن يكون النبي ﷺ جادلهم.

وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾ أي: يطلبون لها الخيانة فيوقعونها فيها، وهم هؤلاء الذين قالوا: إن صاحبنا لم يسرق، وإن السارق هو اليهودي.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ وإذا كان الله

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث رقم (٧٧٠) عن عائشة.

تعالى لا يحب من كان خواناً أثيماً فإنه لا يجوز الجدال عنه؛ أي: عن هذا الخوان الأثيم؛ لأن المجادلة عنه مضادة لله عزّ وجل؛ لأنها تأييد له، مع أن الله لا يحبه.

وقوله: ﴿خَوَّانًا﴾ هذه صيغة مبالغة، فيحتمل أن تكون على بابها وأن الله لا يحب كثير الخيانة، ويحتمل أن تكون للنسبة فلا يلزم منها الكثرة، ويكون المعنى: إن الله لا يحب من كان ذا خيانة، وفَعَّال تأتي للنسبة كقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] أي: بذي ظلم، وليس المعنى: بكثير الظلم؛ لأن الظلم منتفٍ عن الله تعالى قليله وكثيره.

إذاً الراجح: أنها للنسبة؛ أي: لا يحب من كان ذا خيانة.

وقوله: ﴿أَثِيمًا﴾ أي: مكتسباً للإثم، والخيانة والإثم تنطبق تماماً على هؤلاء الذين خانوا هذا اليهودي، وأثموا بالسرقة، فهم جمعوا بين أمرين: بين الإثم بالسرقة، وبين الخيانة بإلصاق هذا العمل في غيره.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ النهي عن معاونة الآثم، وهذا مطابق لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢] وتؤخذ من قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾.

٢ ـ أن اهتداء النبي صلوات الله وسلامه عليه هو بتوجيه الله تعالى وإرشاده، لقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ﴾؛ فإن هذا توجيه من الله عزّ وجل لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام ألا يجادل عن هؤلاء.

٣ ـ أن الخائن لغيره خائن في الحقيقة لنفسه، حيث أوقعها

في المآثم والخيانة، فلا يظن الخائن الذي يكتسب بخيانته ما يكتسب أنه رابح، بل هو خائن لنفسه، ولهذا قال النبي ﷺ: «**من غش فليس منا**»(١).

٤ ـ إثبات محبة الله؛ لأنه لما نفاها عن الخونة دل على ثبوتها للأمناء، وهذا كاستدلال الشافعي رحمه الله بقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥] على ثبوت رؤية الله تعالى من المؤمنين، فقال: لما حجب هؤلاء في حال الغضب ثبتت الرؤية للآخرين في حال الرضا.

والمحبة عند أهل السنة والجماعة والسلف الصالح وأئمة الهدى هي ما نعرفه من أنفسنا، ولكن محبة الله ليست كمحبتنا نحن، بل هي محبة كسائر صفاته، جل وعلا، هو أعلم بكيفيتها، ولكن نعلم معنى المحبة، وإذا كانت المحبة بيننا تختلف باعتبار إضافتها وباعتبار قوتها وضعفها، فالاختلاف بين المخلوق والخالق من باب أولى، ولهذا محبتنا للأشياء تختلف حسب متعلق المحبة، فأنت تحب العسل لحلاوته، وتحب صديقك لقربه منك وصداقته، وتحب زوجتك لشيء آخر، وهلم جرا، وتختلف المحبة بحسب متعلقاتها، وتحب ولدك محبة أخرى من جنس آخر، وتحب ابنك الصغير ما دام أنه صغير، لكن إذا كبر تضعف المحبة الأولى، وتنتقل إلى محبة ثانية من نوع آخر، فالمحاب تختلف باختلاف متعلقها.

وإذا كان الله تعالى يحب حقيقةً فما هي المحبة؟

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «**من غشنا فليس منا**»، حديث رقم (١٠١) عن أبي هريرة.

الجواب: المحبة هي: المحبة، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله في كتابه: «روضة المحبين» لا يمكن أن تحد المحبة بمعنى أظهر من لفظها، يعني: مهما قلت: إن ميل الإنسان مثلاً إلى ما يلائمه، فهذه ليست بمحبة، بل هذا أثرها ولازمها، ولذلك المعاني النفسية لا يمكن إطلاقاً أن تعرف بغير لفظها.

إذاً: محبة الله عزّ وجل ثابتة حقيقة، ولكنها لا تكيف ولا تمثل، لا تكيف لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، ولا تمثل لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ومن فسر المحبة بالثواب فهذا وقع في محرم؛ لأنه فسرها باللازم؛ لأن الإثابة فرع عن المحبة، فالصواب: أنها محبة حقيقية، لكنها تستلزم الثواب والرضا وما أشبه ذلك.

٥ ـ أن الخيانة من كبائر الذنوب، يؤخذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾؛ لأنه إذا رتب على العمل عقوبة خاصة فهو من الكبائر، وهذا أحسن ما قيل في حد الكبيرة، وذكره شيخ الإسلام رحمه الله، فكل شيء يرتب عليه عقوبة خاصة فهو من الكبائر، سواء كانت العقوبة لعنة، أو غضباً أو نفي إيمان، أو تبرءاً منه، أو غير ذلك.

٦ ـ التحذير من الخيانة، لكون الله تعالى نفى محبته للخائن الأثيم، والترغيب في أداء الأمانة؛ لأنه إذا وقع الذم على وصف لزم أن يكون المدح في ضده.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء: ١٠٨].

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: هؤلاء الذين سرقوا ولكنهم وضعوا السرقة في بيت آخر خوفاً من العار الذي يلحقهم بالسرقة، فهم يستخفون من الناس أن يوصفوا بالسراق، لكنهم لا يستخفون من الله، والله عزّ وجل أحق أن يُستخفى منه، وهو الأحق أن يُستحيا منه، وأن يخاف منه عزّ وجل، أما الناس فإنهم لا يضرونك ما دام الذي بينك وبين ربك سليماً.

قوله: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ قوله: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ الجملة هنا: حال، من الواو في ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾، أو من لفظ الجلالة، وهو أقرب، يعني: ولا يستخفون من الله والحال أنه معهم.

وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ المعية يعني: المصاحبة، لكن معية كل شيء بحسبه، والأصل في معنى هذه الكلمة: هي المصاحبة، لكنها تختلف ويختلف مقتضاها بحسب ما تضاف إليه.

فيقال مثلاً: المرأة مع زوجها، ويقال: القائد مع جنده، ويقال: المتاع مع حامله، ويقال: القمر معنا، ويقال أشياء كثيرة تختلف فيها المعية من موضع إلى آخر، لكن يجمع هذه المعاني كلها مطلق المصاحبة، وتختلف مقتضياتها حسب ما تضاف إليه.

فالله تعالى مع هؤلاء الذين بيتوا ما لا يرضى من القول، ومع الذين اتقوا والذين هم محسنون، والمعيتان تختلفان بحسب مقتضاهما ولوازمهما، والله تعالى مع محمد عليه الصلاة والسلام

في الغار، ومع موسى وهارون في الرسالة، وتختلف هذه المعية عن معيته مع المؤمنين والمتقين، وما أشبه ذلك. فما الذي تستلزمه هذه المعية في هذه الآية؟

الجواب: تستلزم التهديد، بالإضافة إلى الإحاطة؛ لأن المعاني الخاصة تضاف إلى المعنى العام، وهو هنا الإحاطة التامة بالخلق.

ثم هذه المعية الصواب: أن المراد بها المعية الحقيقية، وأنه سبحانه معنا لكنه في السماء، ولا منافاة في ذلك لثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن الله تعالى جمع بين هذين المعنيين في آية واحدة فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ [الحديد: ٤] مع أنه ذكر أنه مستوٍ على العرش، ولا يمكن أن يجمع الله لنفسه بين وصفين متناقضين أبداً.

الوجه الثاني: أنه لا منافاة بين العلو والمعية، فإن هذا ثابت للمخلوق، كما تقوله العرب: ما زلنا نسير والقمر معنا، مع أن القمر من أصغر الأجرام السماوية، ومع ذلك هو مع المسافر وغير المسافر، وهو في السماء، فإذا كان اجتماع حقيقة المعية والعلو في حق المخلوق ممكناً فاجتماعهما في حق الخالق من باب أولى.

الوجه الثالث: أنه لو فرض امتناع اجتماعهما في حق المخلوق فإنه لا يقتضي انتفاء اجتماعهما في حق الخالق؛ لأن الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فإذا كانت

السماوات السبع والأرضون السبع في يده جل وعلا كالخردلة في يد أحدنا فهل يمكن أن يقاس بالخلق؟! الجواب: لا يمكن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في العقيدة الواسطية: هو عليٌّ في دنوه، قريب في علوه.

إذاً: نحن نؤمن بأن الله تعالى معنا حقيقة، وهو في السماء، يعلم ما في قلوبنا، ويسمع ما نقول، ويرى ما نفعل، وله السلطة التامة علينا، وهذه كلها من مقتضيات المعية، وقد فسرها الكثير من السلف بهذه المقتضيات، فقالوا: هو معنا بعلمه، وهذا لا ينافي أن يكون المراد بالمعية الحقيقية؛ لأنهم فسروها أحياناً باللازم، كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مقدمة تفسيره؛ لأن التفاسير الواردة عن السلف قد تكون باللازم لا لانتفاء المعنى الحقيقي.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن هؤلاء بيتوا ما لا يرضى من القول، يعني: صاغوه واجتمعوا عليه ليلاً؛ لأن البيات لا يكون إلا بليل، ولهذا في بعض الروايات أنهم جاءوا إلى الرسول ﷺ بالليل بعد أن طبخوا ما طبخوا من آرائهم، فيستفاد من ذلك شدة اختفاء هؤلاء، وأنهم لا يحبون أن يطلع أحد عليهم.

وهل يؤخذ منه أننا إذا أردنا أن نخفي شيئاً نصنعه في الليل؟

الجواب: نعم، ربما يؤخذ منه، ولهذا في المثل السائر: «أمر قضي بليل».

٢ ـ إثبات الرضا لله عزّ وجل لقوله: ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾

ووجهه: أن نفي الرضا عن هؤلاء يدل على ثبوته لغيره؛ إذ لو كان منتفياً عن الجميع ما حسن أن ينفى عن هؤلاء، والرضا الثابت لله هو رضا حقيقي وليس كناية عن إثابتهم، كما قاله أهل التحريف، بل هو رضا اتصف الله به حقيقة، لكنه ليس كرضا المخلوقين، بل هو رضا أعظم وأجل، ولا يمكن أن نحيط به، وقد أثبت الله لنفسه الرضا، يعني: ذكره لنفسه وأضافه إلى نفسه على وجه الإثبات

مثل قوله سبحانه: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، والله تعالى يرضى من الأقوال والأفعال والأشخاص، يعني: أن متعلق رضاه يكون إما بالأعمال وإما بالأقوال وإما بالأشخاص، لكن رضاه عن الأشخاص إنما هو لأفعالهم وأقوالهم التي ترضي الله عزّ وجل.

٣ ـ إحاطة الله تعالى بكل شيء، لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾.

فإن قال قائل: قُدِّم المتعلِق على متعلقة وهذا يفيد الاختصاص؟

فالجواب على ذلك: ما أشرنا إليه سابقاً، بأن تقديم ذلك لا يعني الاختصاص، لكنه يعني شدة الوعيد، وتعلق الحكم بهذا المقدم، يعني: كأن الله تعالى يقول: لو لم يكن عالماً بشيء لكان عالماً بعمله فالمقصود من ذلك: شدة الوعيد على هؤلاء، وأنه لا يمكن أن يخفى أمرهم عن الله عزّ وجل.

٤ ـ إثبات معية الله سبحانه، وتنقسم إلى أقسام:

معية يقصد بها بيان الإحاطة؛ أي: بيان إحاطة الله تعالى

بكل شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].

وتارة يراد بها التهديد، كما في هذه الآية: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

وتارة يراد بها: النصر والتأييد، وهذه تكون معلقة بوصف ومعلقة بشخص، مثال المعلقة بالوصف قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]، وقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]، فهذه معية تقتضي النصر والتأييد، لكنها مقيدة بوصف.

ومعية تقتضي النصر والتأييد مقيدة بشخص، مثل قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]، وقوله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فهذه معية تقتضي النصر والتأييد والحفظ والكلاءة، لكنها مقيدة بشخص.

وهنا نسأل: هل المراد بالمعية حقيقتها أو لازمها؟ الجواب: نقول: المراد بها حقيقتها، ولكن السلف يفسرونها دائماً باللازم، كما قالوا: إن المعية هي العلم، فهو معهم بعلمه، ولكن هذا تفسير لها ببعض مقتضياتها، فإن مقتضى المعية: العلم، والسمع، والبصر، والإحاطة، والسلطان، والقدرة، وغير ذلك، ولكنها معية حقيقية، وما فسره السلف بها فهو تفسير

باللازم، وكما قال شيخ الإسلام رحمه الله في مقدمة التفسير: إن السلف قد يفسرون الشيء بلازمه.

فإذا قلنا: إنها حقيقية فهل هذا يعني: أننا ذهبنا إلى ما ذهب إليه أهل الحلول الذين قالوا: إن الله معنا بذاته في أمكنتنا؟

الجواب: لا، بل نحن ننكر هذا غاية الإنكار، ونقول: إنه ضلال، بل إنه كفر، وإنما نقول: إنه معنا حقيقة وهو في السماء؛ لأن الأدلة السمعية والعقلية كلها تدل على أن الله في السماء، ولا ينافي ذلك أن يكون معنا، لوجوه ثلاثة مرت في التفسير:

أولاً: أن الله جمع بينهما في وصفه نفسه، ولا يجمع الله تعالى بين متناقضين.

ثانياً: أن العلو والمعية ممكنان في حق المخلوق، كما يقولون: ما زلنا نسير والقمر معنا أو النجم الفلاني معنا، بل أحياناً يقولون: سرنا والجبل الفلاني معنا، ومع ذلك فالقمر في السماء والنجم في السماء، والجبل بعيد ثابت على الأرض، وما أشبه ذلك.

ثالثاً: لو فرض أن بين المعنى الحقيقي للمعية وبين العلو منافاة في حق المخلوقات فليس ذلك ثابتاً في حق الخالق؛ لأن الخالق ليس كمثله شيء في جميع صفاته، فهو كما قال شيخ الإسلام رحمه الله في العقيدة الواسطية: هو عليٌّ في دنوه، قريب في علوه.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩﴾ [النساء: ١٠٩].

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ «ها» للتنبيه و﴿أَنتُمۡ﴾ مبتدأ، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إما منادى محذوف الأداة، والتقدير: يا هؤلاء، وعليه فيكون قوله: ﴿جَٰدَلۡتُمۡ﴾ هو خبر المبتدأ، وإما أن تكون ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هي الخبر، وتكون الجملة ﴿جَٰدَلۡتُمۡ﴾ في محل نصب على الحال؛ أي: هاأنتم مجادلين عنهم في الحياة الدنيا.

والإشارة في قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾ إشارة إلى قوم الرجل الذي سرق درعاً واتهم به رجلاً من اليهود، كما ذكرناه في تفسير الآيات.

وقوله: ﴿جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ﴾ وهم قد جادلوا عن رجل واحد، لكن هذا الجدل عن الرجل الواحد هو حقيقةً جدال عن الجميع؛ لأن وصمة السرقة لرجل من القبيلة هي وصمة لجميع القبيلة، إذ يعيرون بذلك، فيقال: منكم السراق كفلان، ولهذا قال: ﴿جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ﴾ والمجادلة إنما كانت عن شخص واحد.

قوله: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ قد يكون الجدل فيه الغلبة ولو بالباطل في الحياة الدنيا؛ لأنه قد يجادل الإنسان بالباطل ويأتي بكلام فصيح بيِّن، يلبس به الحق بالباطل وينجح.

ولكن: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ و﴿فَمَن﴾ هنا استفهام بمعنى: النفي؛ أي: لا أحد يجادل الله عنهم يوم القيامة، والاستفهام إذا جاء في موضع النفي فإنه يكون أبلغ من النفي المجرد؛ وذلك لأنه يكون نفياً مشرباً بالتحدي، كأن القائل يقول: إذا كان هذا الأمر ممكناً فأتني به، فمجيء الاستفهام هنا في موضع النفي يكون أشد في النفي؛ لأنه مشرب معنى التحدي،

فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة؟ والجواب: لا أحد، ولا يستطيع أحد أن يجادل عنهم؛ وذلك لأنه لو فرضنا أن أحداً جادل لشهدت عليه جوارحه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤].

وقوله: ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: ذا وكالة وولاية يدافع ويمنع وينصر، والجواب: لا أحد.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن المجادلة والمخاصمة في الباطل إن نفعت في الدنيا فلن تنفع في الآخرة، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

٢ ـ أن الناس قد يتناصرون بالباطل؛ لأن هؤلاء القوم جادلوا بالباطل وهم يعلمون أن صاحبهم سرق، لقوله: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

٣ ـ تحريم المحاماة إذا علم المحامي أن صاحبه مبطل، وجه ذلك: أن الله أنكر على هؤلاء أن يجادلوا عن صاحبهم، أما إذا كان المحامي يريد أن يدافع عن الحق بإثباته فهذا جائز، بل قد يكون واجباً، كما لو وكلك شخص لا يعرف ولا يكاد يبين أن تدافع عنه، فهذا لا بأس به.

٤ ـ إثبات اليوم الآخر، وهو يوم القيامة، لقوله: ﴿فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

٥ ـ أن المجادلة يوم القيامة بالباطل لا تنفع وصاحبها مخصوم، ومن ثم يجب الحذر مما قاله النبي ﷺ في الحديث القدسي: «**أن الله تعالى قال: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل**

أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره»[(١)]، فإننا نعلم أن من كان الله خصمه فهو مخصوم بكل حال.

٦ ـ أن الله سبحانه لا يخفى عليه شيء، وأن من حاول أن يخفي عن الله شيئاً فإنه قد ظن بربه ظن السوء، ومع ذلك لن ينفعه هذا الظن، لقوله: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلًا﴾.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا﴾ أي: ما يسوء غيره، كما يدل على هذا أن الآيات كلها في سياق قصة معينة، فيكون المراد بالسوء ما يسوء الغير؛ كاتهام هؤلاء اليهودي في السرقة.

قوله: ﴿أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ يعني: بالمعاصي؛ لأن المعاصي ظلم للنفس، إذ أن النفس عندك أمانة يجب عليك أن ترعاها حق رعايتها، فإذا عصيت الله فقد ظلمتها، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾ [الأحزاب: ٧٢] لماذا؟ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

إذاً: هو يظلم نفسه بالمعاصي التي بينه وبين ربه، ويعمل سوءاً يسيء به إلى غيره.

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب إثم من باع حراً، حديث رقم (٢١١٤) عن أبي هريرة.

قوله: ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أي: يطلب مغفرة الله عزّ وجل بحاله ومقاله، أما المقال فظاهر، كأن يقول: اللهم اغفر لي، أو أستغفر الله، وأما الحال: فبأن يكون آتياً بشروط التوبة الخمسة، وهي:

الأول: الإخلاص، بأن لا يحمله على التوبة مراعاة أحد من الناس.

الثاني: أن يندم، ويقع في نفسه حسرة على فعل الذنب.

الثالث: أن يقلع عن الذنب.

الرابع: العزم على ألا يعود.

الخامس: أن يكون في وقت التوبة؛ أي: في الوقت الذي تقبل فيه التوبة.

والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، وليست الستر فقط؛ لأن الاشتقاق يدل على أنه لا بد من ستر ووقاية؛ إذ أنها مأخوذة من المِغْفَر، والمغفر: ما يغطى به الرأس من الفولاذ ونحوه لاتقاء السهام، فيحصل به ستر ووقاية.

وأقول: إنها مشتقة من المِغْفَر؛ لأن الأصل أن المعاني مأخوذة من الأشياء المحسوسة، فلهذا تجد علماء اللغة يعيدون المعاني إلى الأصول المحسوسة، فيقولون: مشتقة من كذا، وأصل ذلك ما قيل: إن الإنسان صار يتكلم تقليداً لما يسمع حوله من صرير الرياح وحفيف الأشجار وما أشبه ذلك، هكذا قيل: مع ما علَّم الله عزّ وجل آدم من أسماء.

إذاً: المغفرة هي: ستر الذنب والتجاوز عنه.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ كأن يقول: اللهم اغفر لي، أو أستغفر الله.

وقوله: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿يَجِدِ﴾ هذه جواب الشرط «من»، ولذلك صارت مجزومة، وحركت بالكسر لالتقاء الساكنين، والمعنى: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: أن الله يغفر له، والغفور هو: ذو المغفرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦] والرحيم: هو ذو الرحمة كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، فأنت إذا استغفرت الله عزّ وجل، وتبت إليه على الوجه الذي يرضاه فستجد الله غفوراً رحيماً.

والرحمة تطلق على الرحمة التي هي صفته، وعلى آثار الرحمة التي هي خلقه.

أما القسم الأول فهو الأصل، وهو أن الرحمة صفة من صفات الله عزّ وجل، وأما الثاني: فمنه قوله تعالى للجنة: «**أنت رحمتي أرحم بك من أشاء**»[1] وليس المعنى الرحمة التي هي وصفه؛ لأن الجنة مخلوق بائن، ومن ذلك أيضاً على قول بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨] ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ يعني: النبات وما يحصل من الرزق بالماء النازل من السماء.

أما الرحمة التي هي وصفه فإنها تنقسم عند أهل العلم إلى قسمين: عامة، وخاصة، فالعامة هي التي تشمل كل مخلوق، والخاصة هي المختصة بالمؤمنين، وهي التي تتصل بها سعادة الدنيا والآخرة.

---

(١) تقدم (١/ ١٨١).

والرحمة العامة: الرحمة لعموم الخلق في الدنيا، ولهذا نجد أن الكفار لله تعالى عليهم رحمة، فرزقهم.. وأمدهم.. وأعطاهم عقولاً؛ أي: عقولاً يدركون بها لا عقول رشد وتصرف، وهذه رحمة عامة، وكل ما مر بك من ذكر اسم الرحيم فالمراد الرحمة العامة، ويدخل فيه الخاصة، أما إذا خصت فهي الخاصة؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] وهذه رحمة خاصة بالمؤمنين.

والعجب! أن الأشاعرة أنكروا وصف الله تعالى بالرحمة، وأثبتوا له الإرادة، وقالوا: لا يجوز أن نثبت لله رحمة؛ لأن الرحمة رقة ولين ولا تليق بالخالق، وهذا بناءً على أصلهم الفاسد، وهو أنهم يتلقون ما يعتقدون في ربهم من عقولهم الفاسدة أيضاً؛ لأن الدليل الصحيح لا يناقض العقل الصريح، فيقول أحدهم: لا تصف الله بالرحمة، فمعنى الرحيم عنده: المنعم، أو مريد الإنعام، المنعم لأن النعمة منفصلة بائنة مخلوقة، أو مريد الإنعام لأنهم يثبتون الإرادة.

وسبحان الله! انظر إلى العقل المتناقض، يقول: الإرادة دل عليها العقل بواسطة التخصيص، يعني: تخصيص بعض المخلوقات بشيء من الأشياء يدل على الإرادة، فكون الآدمي على هذا الوصف، والحصان على هذا الوصف، فما الذي جعل هذا على وصف وهذا على وصف؟ الجواب: إرادة الله عزّ وجل، فقالوا: إن تخصيص المخلوقات بما تختص به يدل على إرادة الله.

والاستدلال بهذا على الإرادة استدلال خفي لا يدركه إلا طلبة العلم، بعد أن يقرؤوا، ولا يثبتون الرحمة التي آثارها يعرفها

الخاص والعام، فالليل والنهار، والمطر والأشجار والأنهار والبحار كل واحد يعرف أن هذه من رحمة الله، ولذلك تجد العامي إذا أمطرت السماء يقول: مطرنا بفضل الله ورحمته، ولا يشك في هذا، لكن ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن من أساء إلى غيره ثم استغفر الله غفر الله له، وحينئذ يشكل علينا أن العلماء قالوا: إن الدواوين ثلاثة: منها: ديوان الخلق، يعني: المعاملة مع الناس، فإن هذا لا يغفره الله عزّ وجل، ولكن ظاهر النصوص أنه إذا صحت التوبة غفره الله، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠] مع أنه ذكر القتل، فإذا تاب الإنسان من القتل توبة تمت شروطها فإن الله يغفره. ومن شروط التوبة في القتل: أن يسلم نفسه لأولياء المقتول، فإذا سلم نفسه لأولياء المقتول فقتلوه أو عفوا عنه مع ندمه على ما فعل، واستغفاره لربه، فإن حق المقتول يتحمله الله عنه يوم القيامة؛ لأن إيفاء المقتول حقه في هذه الصورة متعذر، والقاتل الذي صحت توبته يقول في نفسه: لو أمكنني أن استحل الميت لفعلت، لكني أنا الآن لا أقدر على أكثر من أن أسلم نفسي لأولياء المقتول، فهذا يتحمله الله عنه.

ولو أن أحداً سرق مالاً من شخص، فقد عَمِل سوءاً في

غيره وتاب من ذلك، فهل يتوب الله عليه؟ الجواب: نعم، إذا تمت شروط التوبة، ومن شروط التوبة أن يرد المال لصاحبه، فإذا رد المال لصاحبه فقد تاب، وعلى هذا فنقول: ظاهر الآية هنا وغيرها أيضاً من النصوص أنه متى صحت التوبة حتى في حقوق الآدمي التي لا يستطيع أن يتخلص منها فإن الله تعالى يقبل توبته.

٢ ـ أن الإنسان تصح توبته من الذنب ولو تكرر، ووجهه، العموم في قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ﴾ وهذا عام فيمن تكرر منه ذلك أو لم يتكرر، ويدل لهذا الحديث الثابت عن النبي عليه الصلاة والسلام: «**أن رجلاً أذنب فاستغفر الله، فقال الله عزّ وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي** ـ ثم عاد ثانية ثم ثالثة إلى أن قال الله له ـ: **اعمل ما شئت فقد غفرت لك**»[1] فهذا يدل على أن التوبة تثبت وتقع من الله عزّ وجل ولو تكرر الذنب، ولهذا قال العلماء: من شروط التوبة: أن يعزم على ألا يعود لا ألا يعود، فإذا عزم على ألا يعود فقد صحت توبته، وإذا عاد لم تبطل توبته الأولى، بل توبته الأولى صحيحة، وعليه أن يجدد توبة ثانية للذنب الثاني.

٣ ـ أن المعاصي ظلم للنفس؛ لقوله: ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ وهذا شيء ثابت مكرر في القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، إلى غير ذلك من النصوص

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، حديث رقم (٧٠٦٨)؛ ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت، حديث رقم (٢٧٥٨) عن أبي هريرة.

الدالة على أن الإنسان هو الظالم لنفسه إذا عصى الله.

٤ ـ أن الإنسان قد يكون عدواً لنفسه، كما أن أقرب الناس قد يكون عدواً له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] فأنت احذر نفسك؛ فإنها عدوك.

٥ ـ أن الله تعالى يقبل من عبده الاستغفار إذا تمت شروطه؛ أي: بلسان حاله ومقاله، لقوله: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فأنت استغفر واصدق في استغفارك ستجد الله عزّ وجل غفوراً رحيماً.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾ [النساء: ١١١].

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ﴾ هذه الجملة الشرطية فعل الشرط فيها: قوله: ﴿يَكْسِبْ﴾، وجواب الشرط فيها قوله: ﴿فَإِنَّمَا﴾، والسؤال هنا: لماذا اقترن الفاء بالجواب؟

والجواب: أن يقال: إن هذه تشبه الجملة الاسمية؛ لاقترانها بإنما، وأصل «إنما» «إن» حرف توكيد زيد عليه ما الكافة فصارت إنما.

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ﴾ يعني: لا على غيره.

ففي هذه الآية يخبر الله عزّ وجل أن من اكتسب إثماً فإنه لا يضر إلا نفسه؛ لأنه يكسبه على نفسه، لا على غيره.

وقوله: ﴿إِثْمًا﴾ نكرة في سياق الشرط، فتعم جميع الآثام الكبائر والصغائر، وتعم الآثام المباشرة والآثام السببية؛ لأن

الإنسان قد يباشر الإثم بنفسه، وقد يكون دالاً عليه أو معيناً عليه، فيكون ذلك إثماً.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ سبق أن مثل هذا التعبير لا يدل على الحدوث، ولا على أن الله كان عليماً حكيماً فيما سبق فقط، وإنما الفعل هنا مسلوب الزمان، والمقصود به: تحقيق تسميته سبحانه بهذين الاسمين واتصافه بما دلا عليه.

في الآية الكريمة: كرر الله عزّ وجل أن الإنسان إذا كسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه؛ لأن هذه الآيات كما ذكرنا فيما سبق أنها نزلت في قصة الرجل الذي سرق درعاً ثم رمى به يهودياً، فأرادوا أن يتهموا هذا اليهودي، وجاؤوا إلى النبي ﷺ، وتبين براءة اليهودي، فيقول الله عزّ وجل: إذا كسب الإنسان إثماً فإنما يكسبه على نفسه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الإنسان إذا كسب الإثم فإنما يكسبه على نفسه، ولا يحمله غيره، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

فإن قال قائل: أليس قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**من سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»(١).

الجواب: بلى، ولكن يكون عليه وزر من عمل بها وهو لم

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، حديث رقم (١٠١٧) عن جرير بن عبد الله.

يباشر العمل؛ لأنه هو الذي سن هذه البدعة السيئة، ولهذا ما قُتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول منها كفل؛ لأنه أول من سن القتل، وعلى هذا فيقال: إن الذي سن البدعة واتبعه الناس عليها فإن سنه إياها من عمله.

٢ ـ أن الله تعالى لا يظلم أحداً فيحمل غيره إثمه إلا بحق، وقد سبق أن من ظلم الناس فإن الناس يأخذون من حسناته حتى تفنى، ثم يؤخذ من سيئاتهم فتطرح عليه ويطرح في النار، وهذا ليس تحميلاً للغير إثم غيره، ولكنه من باب المقاصة والمجازاة، فإذا لم يكن عند هذا حسنات يؤخذ منها بقدر مظلمة الآخرين، فإنه يؤخذ من سيئاتهم وتطرح عليه ويطرح في النار.

٣ ـ إثبات هذين الاسمين من أسماء الله: العليم، والحكيم؛ لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

٤ ـ إثبات ما تضمنه هذان الاسمان من صفات الله، فالعليم تضمن: العلم، والحكيم تضمن: الحكمة والحكم؛ لأنه مر أن الحكيم مشتق من الحكم والإحكام الذي هو الحكمة.

٥ ـ أن من علم الله وحكمته أن من كسب إثماً فإنه يكسبه على نفسه، فإن ذلك من الحكمة البالغة.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ [النساء: ١١٢].

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾ الخطيئة والإثم من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت، فالخطيئة والإثم والسوء وما أشبه ذلك معناها واحد إذا انفردت كل كلمة عن

الأخرى، أما إذا اقترنت إحداهما مع الأخرى فلا بد أن نحمل كل واحدة على معنى، لئلا يلزم التكرار بلا فائدة، والأصل في العطف أنه يقتضي المغايرة، فما هي الخطيئة وما هو الإثم؟

قال بعض العلماء: الخطيئة: ما ارتكبه الإنسان عن غير قصد، والإثم ما ارتكبه عن قصد، وفي هذا نظر؛ وذلك لأن الخطيئة المرتكبة عن غير قصد قد رفع الله عنها الحرج والإثم، فلا تكون خطيئة، وأجيب عن ذلك: بأنه لا مانع أن يكسب خطيئة ويكون هناك مانع من العقوبة عليها، وإلا فالأصل أن من فعل الخطيئة عوقب عليها، لكن هناك مانع، وهو عفو الله عزّ وجل.

وقيل: الخطيئة: ما تعدى إلى الغير، والإثم ما كان خاصاً بالإنسان، وقيل بالعكس، وكل هذه أقوال قيلت دفعاً لوجود التكرار في الآية.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ الفعل لا يمكن أن يدخله الكسر، فلماذا كان هذا الفعل مكسوراً؟ الجواب: لأنه مجزوم بحذف حرف العلة وهو الياء.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ أي: بريئاً من هذا الإثم، وذلك كرمي هؤلاء الفئة لليهودي بأنه هو السارق.

وقوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا﴾ أي: كذباً.

وقوله: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: عقوبة بينة، فكلمة «مبين» بمعنى بيناً؛ لأن المبين يأتي بمعنى البين ويأتي بمعنى المبيِّن للشيء؛ إذ إن «أبان» يستعمل لازماً كما يستعمل أبان متعدياً، فتقول مثلاً: أبان لي الحجة وهذا متعدٍ، ويقال: أبان الفجر أي: ظهر، وهذا لازم وعليه فكلمة «مبين» بمعنى بين.

وقوله: ﴿ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا﴾؛ لأنه كذب على الغير.: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ لأنه جمع بين الخطيئة أو الإثم وبين رمي غيره بها، فجمع بين السيئتين، ولهذا كان إثماً مبيناً.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تحريم رمي الغير بما يفعله الإنسان من خطيئة، ووجه ذلك: قوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، فإن رمى الغير بخطيئة أو إثم لم تنسب إليه من قبل، فهل يكون داخلاً في ذلك، يعني: أن رجلاً اتهم شخصاً بعمل خطيئة أو إثم وقال: إنه عمل الخطيئة والإثم، فهل نقول: إنه احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً؟

الجواب: نعم، نقول ذلك، لكن الآية إنما خصت ذلك فيمن فعل الشيء ثم رمى غيره لأنها تحكي القضية الواقعة، وحكاية القضية الواقعة لا يكون لها مفهوم ما دام المعنى ثابتاً في هذا ونظيره، ولا شك أن من رمى غيره بفعل خطيئة وهو كاذب أنه متحمل للإثم والبهتان.

٢ ـ أن السيئات تتضاعف بتعدد أوصافها، لقوله: ﴿بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، وهذا هو الواقع وهو العدل، أرأيت من قذف قريباً له ومن قذف أجنبياً عنه، كلاهما قد قذف، لكن انضم إلى قذف القريب قطيعة الرحم، فتكون هذه السيئة متضاعفة فلا جرم أن يتضاعف إثمها؛ لأن الأحكام مرتبة على أوصافها.

وكذلك من تصدق على بعيد وتصدق على قريب، ففعله كله صدقة، لكن صدقته على البعيد صدقة فقط، وعلى القريب صدقة وصلة، فالأعمال السيئة تتضاعف بتضاعف الأوصاف، وكذلك الأعمال الصالحة تتضاعف بتضاعف الأوصاف.

٣ ـ التحذير من رمي الغير بالخطايا والآثام، لقوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ ﴿لَوْلَا﴾ شرطية، ويقال في إعرابها: حرف امتناع لوجود، والموجود هنا: ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾، والممتنع قوله: ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ﴾، وهناك «لو»، ويقال فيها: حرف امتناع لامتناع؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٦٤]، «فلو» هذه حرف امتناع لامتناع، وتقول: لو جاء زيد لأكرمته، ولهما بنت عم بعيدة وهي: «لما»، ويقال فيها: حرف وجود لوجود، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، فـ«لما» هذه حرف وجود لوجود، وجد الكفر لوجود المجيء، وتقول: لما جاء زيد جاء عمرو، وجد مجيء عمرو لوجود مجيء زيد، وعلى هذا فقد توزعت هذه الأحرف الثلاثة الوجود والعدم.

وهنا يقول الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ والفضل هو: العطاء الزائد، والرحمة أعم؛ لأن الرحمة يكون فيها دفع المكروه وحصول المطلوب، والفضل حصول المطلوب.

وقوله: ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ﴾ هذا جواب ﴿لَوْلَا﴾، وهذه

الطائفة هي التي ادعت أن السارق هو اليهودي، واجتمعوا على ذلك حتى لبسوا على النبي ﷺ، وهموا أن يضلوه.

وهنا إشكال: فإن ظاهر الآية الكريمة أنهم لم يهموا أن يضلوه، وإذا نظرنا إلى القصة وجدنا أنهم هموا، يعني: أنهم جاءوا إلى الرسول ﷺ بأجمعهم، وأنكروا أن يكون صاحبهم هو السارق، ورموا اليهودي بالسرقة، فقد هموا وفعلوا؟

والجواب عن ذلك أن يقال: هموا هماً يحصل به إضلاله، ولكنهم لم يصلوا إلى مرادهم، فصح أن يكون قوله: ﴿هَمَّت﴾ جواباً لقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾.

وقوله: ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ ﴿أَن﴾ هنا مصدرية، حذف منها حرف الجر، وتقديره: «بأن يضلوك» وحذف حرف الجر مع أَنْ وأَنَّ مطرد، وإذا حذف حرف الجر نصب المجرور، فهذه قاعدة مطردة في أَنَّ وأَنْ، كما قال ابن مالك:

وفي أَنَّ وأَنْ يطرد مع أمن لبس كعجبت أن يدوا

أما مع غير أَنَّ وأَنْ فهو سماعي، سمع عن العرب ولا يقاس عليه، ومن ذلك قول الشاعر:

تمرون الديار ولم تعوجوا كلامكم إذاً عليّ حرام

الشاهد في قوله: الديار، والأصل أن يقول: تمرون بالديار ولم تعوجوا، ولكن حذف الباء فنصب المجرور بنزع الخافض، لكنه غير مطرد إلا في أنْ وأنَّ.

وقوله: ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ الإضلال معناه في الأصل: يقال: ضل الطريق بمعنى تاه، ولم يكن سيره على بينة، والمراد إضلال الرسول عليه الصلاة والسلام هنا الذي همَّ به هؤلاء، ولكن

فضل الله ورحمته تداركت النبي ﷺ، أن يحكم بأن السارق هو اليهودي.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤] يعني: لو ركنت إليهم ولو شيئاً قليلاً ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٥] وتأمل هذه الآية يتبين لك عظم مخالفة الشرع من أجل عباد الله.

فقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ وهذا هو الرسول عليه الصلاة والسلام، لولا أن الله ثبته لركن إليهم شيئاً قليلاً، فما بالك بنا نحن؟! فالواجب على الإنسان أن يتنبه لمثل هذه الآية، وأن يسأل الله دائماً الثبات على ألا تأخذه في الله لومة لائم، ولو فعل لأذاقه الله ضعف الحياة وضعف الممات؛ لأن ذنب الرسول ﷺ ليس كذنب غيره.

قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ يعني: أنهم بتحايلهم واتهامهم للغير وإرادتهم أن يضلوا الرسول عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يضل، بل هذا لا يحصل به إلا ضلال أنفسهم.

وقوله: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ ﴿مِن﴾ هذه زائدة زائدة، تكون زائدة إعراباً زائدة معنى، زائدة الأولى هي من الفعل اللازم، والثانية من المتعدي؛ لأن معنى زائدة هي بنفسها، وزائدة معنىً؛ أي: زادت المعنى. كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧] تكون متعدية وتكون لازمة.

وعلى كل حال قوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ ﴿مِن﴾ هذه زائدة إعراباً

وزائدة للمعنى، والزيادة في الإعراب: هو أنه لو حذفت لاستقام الكلام، فلو كان في غير القرآن وقيل: وما يضرونك شيئاً لصح الكلام، وهي زائدة من حيث المعنى يعني: تزيد في المعنى؛ لأن الحروف الزائدة من أدوات التوكيد، فهي تؤكد المعنى، ولهذا نقول: إن قوله: ﴿شَيْئًا﴾ هنا نكرة في سياق النفي فتفيد العموم، فإذا دخلت عليها: ﴿مِّن﴾ كانت نصاً في العموم؛ كـ«لا» النافية للجنس.

وقوله: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ يعني: لا يمكن أن يضروك بأي شيء من الأشياء؛ لأن الله سبحانه قد منَّ عليك بفضله ورحمته.

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الكتاب هو القرآن، والحكمة في معناها وجهان:

الوجه الأول: أن المراد بذلك أسرار الشريعة؛ أي: أسرار أحكامها، فإن شريعة الرسول عليه الصلاة والسلام كلها مشتملة على أسرار وحكم عظيمة.

والوجه الثاني: المراد بالحكمة: السنة، فالله أنزل عليك القرآن والسنة، والمعنيان لا يتنافيان في الواقع[1]، فالرسول ﷺ أنزل عليه الكتاب وأنزل عليه السنة، وكذلك الكتاب والسنة كلاهما مشتمل على أحكام وحكم بالغة، قد تنالها العقول وقد لا تنالها.

وقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ علم الله نبيه ﷺ ما لم يكن يعلم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ

---

(١) ورجح الشيخ رحمه الله في الفوائد الوجه الأول. وأورد إشكالاً على الوجه الثاني ص٧٧٥، ولعله أراد عدم تنافي المعنيين عموماً.

رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وهذا لا ينقص النبي ﷺ شيئاً، بل يزيده، وفيه دلالة على أنه رسول الله حقاً، فمن أين جاءه هذا العلم؟

الجواب: من الله عزّ وجل، ولهذا وصف الله محمداً ﷺ بأنه أمّي وصف ثناء لا وصف قدح؛ لأن كونه أمياً ثم يأتي بهذا الكتاب العظيم الذي أعجز البشر يدل على أنه رسول الله حقاً.

وقوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ هذا توكيد لقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ وما ظنك بوصف الفضل بالعظم من العظيم الذي لا أعظم منه؟! يكون هذا العظم عظماً بالغاً جداً؛ لأن وصف العظيم للشيء بالعظيم يدل على عظمة كبيرة، ولهذا تجد الفقير مثلاً يستعظم أن يكون عنده ألف ريال، والغني يستصغرها ولا يراها شيئاً، فوصفه بالعظم وهو من عند الله الذي هو أعظم من كل شيء يدل على عظم الفضل الذي أوتيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان فضل الله على رسوله ﷺ.

٢ ـ إثبات الرحمة الخاصة، فإن قوله: ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ رحمة خاصة لم تكن لغير الرسول ﷺ، والرحمة نوعان: عامة وخاصة، فالعامة هي التي تشمل جميع العباد لقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]، وأما الرحمة الخاصة فهي للمؤمنين خاصة لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

٣ ـ أن النبي ﷺ محتاج لفضل الله ورحمته، ولولا فضل الله

عليه ورحمته لحصل له ما يحصل لغيره، لقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾.

٤ ـ أن الإنسان إذا منع من الضلال بسبب أو بغير سبب فذلك من فضل الله عليه، ويتجلى ذلك أن الإنسان أحياناً يرى رأياً في مسألة من المسائل أنها حرام أو حلال ثم يقيض الله له من يناظره في هذه المسألة حتى يتبين له الحق ويأخذ به، فهذا من نعمة الله عليه، ومن فضل الله عليه، وأحياناً ينقدح له الحق دون مناظرة إما بالتأمل والتدبر، وإما بأن ينظر إلى أشياء أخرى يقيسها عليها أو غير ذلك.

المهم: أن الإنسان متى تبين له الحق بأي سبب فإن ذلك من نعمة الله عليه، فليحمد الله على ذلك.

٥ ـ الحذر من أهل السوء، وألا يغتر الإنسان بظاهر الحال، لكن إذا لم يكن إلا ظاهر الحال فلا بد أن يحكم بذلك، لقول النبي ﷺ: «**إنما أقضي بنحو ما أسمع**»[1] ولكن عليه أن يحترس، فإن الإنسان قد يغر غيره بحاله، لقوله: ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾.

٦ ـ أن من أراد إضلال الخلق فإنه لا يضر إلا نفسه، لقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾؛ لأنهم عموا في الواقع عن الحق، ودعوا الناس إلى الباطل، فاكتسبوا إثماً إلى آثامهم فأضلوا أنفسهم بذلك.

٧ ـ عصمة الرسول ﷺ من إضرار هؤلاء، لقوله: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾.

---

(١) تقدم ص١٧٨.

٨ ـ أن القرآن الكريم منزل من عند الله، لقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

٩ ـ إثبات علو الله؛ لقوله: ﴿أَنزَلَ﴾، والنزول يكون من أعلى. وعلو الله عزّ وجل نوعان: علو معنوي، وعلو ذاتي.

فأما العلو المعنوي: فهو كمال أوصافه عزّ وجل، وهذا لا ينكره أحد ممن ينتسب إلى الإسلام، فكل من ينتسب إلى الإسلام يقر بعلو الله عزّ وجل علواً معنوياً.

والثاني: علو ذاتي، وهذا يثبته السلف وأئمة الأمة، وينكره الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، فهم ينكرون العلو الذاتي، وانقسموا إلى قسمين:

قسم منهم يقول: إن الله معنا في كل مكان، فليس له مكان أعلى، فإن كنا في المسجد فهو معنا، وإن كنا في البيت فهو معنا، وإن كنا في السوق فهو معنا، في أي مكان فهو معنا، ومع فلان وفلان في أي مكان، ولا شك أن هذا ضلال مبين؛ فإن الرب عزّ وجل واحد، فكيف يكون ذاتياً في كل مكان، فهذا يلزم منه إما التعدد وإما التجزؤ، ويلزم منه أيضاً أن يكون الله حالاً بالأمكنة، وهو أعظم من كل شيء؛ بل السماوات مطويات بيمينه، والأرض جميعاً قبضته سبحانه.

وأما الآخرون فقالوا: إن الله تعالى لا يوصف بأنه فوق العالم، ولا تحت العالم، ولا يمين العالم، ولا شمال العالم، ولا متصل بالعالم، ولا منفصل عن العالم، فأين هو؟!! وهذا هو وصف العدم، ولهذا قال محمود بن سبكتكين رحمه الله لمحمد بن فورك لما وصف الله عزّ وجل بهذه الصفة، قال: فرِّق لنا بين

الرب الذي تعبده وبين العدم؟ أي: أن هذا هو العدم، ولو قيل للإنسان: صف العدم بأبلغ من هذا الوصف ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

أما أهل الحق فقالوا: إن الله تعالى بذاته فوق كل شيء، ولا يمكن أن يكون في كل مكان، ولا يمكن أن نصفه بالعدم كما وصفه هؤلاء.

١٠ ـ أن القرآن كلام الله، وجهه: أن الله قال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ومعلوم أن القرآن كلام، والكلام صفة المتكلم، فإذا كان الإنزال دالاً على علو المنزل كان ذلك دليلاً على أن القرآن كلام الله؛ لأن القرآن وصف لا يمكن أن يقوم بذاته، فلزم أن يكون كلام الله عزّ وجل.

فإن قال قائل: في هذا الاستدلال نظر؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، ولا شك أن هذه الأشياء الثلاثة ليست كلام الله، ففي هذا الاستدلال نظر؟

فالجواب على ذلك أن يقال: هذه الأشياء أعيان قائمة بنفسها فهي مخلوقة، وأما القرآن فهو صفة لا تقوم بنفسها؛ لأنه كلام، فلزم من ذلك أن يكون صفة لله وليس بمخلوق، وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة.

أما الأشاعرة فقالوا: هذا القرآن الذي بين أيدينا مخلوق، وكلام الله غير مخلوق؛ لأنهم يرون أن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، وحقيقة قولهم: أنهم فسروا الكلام بالعلم وليس

بالكلام؛ لأن المعنى القائم بالنفس ليس كلاماً، بل إن الجهمية خير منهم في هذا الباب؛ لأن الجهمية يقولون: كلام الله مخلوق، وهو هذا الذي بين أيدينا، وهم يقولون: هذا الذي بين أيدينا مخلوق، وليس هو كلام الله، بل هو عبارة عن كلام الله! فصار الجهمية من هذا الوجه أحسن منهم.

١١ ـ فضيلة الرسول عليه الصلاة والسلام حيث كان محلاً لإنزال الكتاب عليهم، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

١٢ ـ أن القرآن كتاب، فِعَال بمعنى مفعول، وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة الكرام البررة، ومكتوب في المصاحف التي بأيدينا.

١٣ ـ أن النبي ﷺ أوتي الحكمة، والحكمة قيل: إنها السنة؛ لأن السنة حكمة، ولكن هذا القول وإن كان ذهب إليه كثير من العلماء ففي النفس منه شيء؛ لأن الحكمة الكائنة في القرآن كالحكمة الكائنة في السنة أو أعظم، وحينئذ نقول: المراد بالحكمة هي: الأسرار التي اشتملت عليها شريعة النبي ﷺ، وما جاء به هذا القرآن، فيكون الله تعالى قد أنزل على رسوله أحكاماً وحكماً، وهذا القول عندي هو الأرجح؛ لأن التعبير عن السنة بأنها منزلة من عند الله فيه شيء أيضاً؛ لأنه ليست السنة كلها وحياً، بل منها ما هو وحي، ومنها ما هو إقرار من الله للرسول عليه الصلاة والسلام، وما أقر الله رسوله عليه فهو من عنده.

١٤ ـ فضيلة العلم؛ لأن الله امتن به على رسوله ﷺ حيث

قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾، ولا شك أن العلم أشرف ما يلقاه الإنسان بعد الإسلام، فهو خير من المال، وخير من الأولاد، وخير من الأزواج، وخير من الدنيا كلها، وانظر إلى العلماء الذين نور علمهم بين أيدينا اليوم، وانظر إلى من في زمنهم من الملوك والسراة والوجهاء والأعيان وغير ذلك ذهب ذكرهم، لكن العلماء بقي ذكرهم، وصاروا يدرسون الناس وهم في قبورهم، وهذه فضيلة عظيمة للعلم، فما أُعطي الإنسان بعد الإسلام خيراً من العلم.

والعجب! أن العلم كما قال القائل:

يزيد بكثرة الإنفاق منه ... وينقص إن به كفاً شددتا

فكلما علّمت غيرك ازداد علمك، وكلما أمسكت العلم نقص علمك، والمال بالعكس، ولولا أن الله ينزل البركة فيمن تصدق حتى لا تنقصه الصدقة لانتهى المال عن قرب.

١٥ ـ أن رسول الله ﷺ لا يعلم إلا من عند الله، ولا علم له بشيء إلا من عند الله، لقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾.

فإن قال قائل: هذا يقتضي أن الرسول ﷺ كان جاهلاً من قبل، وهذا نقص فيه؟

فنقول: كلا، ليس نقصاً، بل هو كمال له؛ لأن إعطاءه الكمال بعد النقص من هذا الباب يعتبر كمالاً، ولا شك أن الرسول عليه الصلاة والسلام قبل أن ينزل عليه الكتاب لا شك أنه كان لا علم عنده، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ولقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا

﴿ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: لولا أن الله منَّ عليك بالعلم، نسأل الله أن يمن علينا بالعلم النافع.

وقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ الآية لا تدل على أنه علَّمه كل شيء، بل علمه ما لم يكن يعلمه من قبل، فجائز أن يكون علّمه ألف مسألة أو مليون مسألة أو عشر مسائل؛ لأنه قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾، ولم يقل: علمك كل شيء، وبهذا نرد على أولئك الكاذبين الذين يقولون: إن الرسول ﷺ يعلم الغيب، ونقول: كذبتم، ورب العرش! الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، وإذا كان بعض أخص أصحابه لا يدري أين ذهبوا وهم في مكان واحد، فكيف تقولون: إنه يعلم الغيب؟! وإذا كان يدخل بيته ولا يدري ما في البيت، ويقول: «**هل عندكم شيء؟**»[1] وإذا قالوا: ليس عندنا شيء، قال: «**ألم أر البرمة على النار؟!**»[2]، وهو لا يدري، فلعله ماء يفور، فالنبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب أبداً، وقد قال الله تبارك وتعالى في كتابه العظيم: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧]، وليس يعطيه علم كل شيء، حتى الساعة جاء جبريل عليه السلام يقول للرسول ﷺ: «**متى الساعة؟ فقال: ما المسئول عنها بأعلم من**

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصيام، باب جواز صوم النافلة بنية من النهار قبل الزوال، حديث رقم (١١٥٤) عن عائشة.

(٢) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب الأدم، حديث رقم (٥١١٤)؛ ومسلم، كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق، حديث رقم (١٥٠٤) عن عائشة.

السائل»[١] فأشرف الرسل من الملائكة وأشرف الرسل من البشر كلاهما لا يعلم متى تقوم الساعة.

١٦ ـ بيان فضل الله على رسوله ﷺ وعظمه؛ لقوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

وربما يتفرع من هذه الفائدة: أن أعظم فضل يتفضل الله به على العبد هو العلم، ولا شك في هذا، ثم هذه البشرى هي لأهل العلم؛ إذا علمهم الله تعالى من شريعته ما علمهم، فإنما هم ورثة النبي ﷺ حيث علمهم من شريعته ما لم يكونوا يعلمون.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤].

﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ الإعراب: ﴿لَّا خَيْرَ﴾: ﴿لَا﴾ نافية للجنس، واسمها قوله: ﴿خَيْرَ﴾ مبني على الفتح في محل نصب، وقوله: ﴿فِى كَثِيرٍ﴾ هو خبرها، وقوله ﴿إِلَّا مَنْ﴾ هذه بدل.

قوله: ﴿مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ يحتمل أن تكون جمعاً؛ كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المجادلة: ٧] فنجوى هنا بمعنى: متناجين؛ أي: ما يكون من متناجين ثلاثة إلا وهو رابعهم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام، حديث رقم (٥٠)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان...، حديث رقم (٩) عن أبي هريرة.

ويحتمل أن تكون مصدراً، وعلى هذا فيكون المعنى: لا خير في كثير من مناجاة من تناجوا، هذا من حيث الإعراب، أما من حيث المعنى فهو واحد لا يختلف، والمعنى: أن كثيراً مما يتناجى به هؤلاء لا خير فيه، والقليل فيه الخير.

قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن﴾ هل تحتاج إلى تقدير مضاف، فنقول: التقدير: إلا نجوى من، أو لا تحتاج؟

الجواب: نقول: هذا مبني على كلمة نجواهم، فإن قلنا: إنها مصدر احتاجت إلى التقدير، يعني: إلا نجوى من، وإن قلنا: نجوى بمعنى متناجين، فـ«من» هنا لا تحتاج إلى تقدير؛ لأن المعنى: لا خير في كثير من المتناجين إلا من أمر ففيهم الخير.

والنجوى سواء قلنا: إن المعنى: متناجين، أو إنها مصدر النجوى فهي: الكلام الذي يسره الإنسان إلى جليسه، وسيأتي إن شاء الله بيان حكمها.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ يعني: إلا الذي أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، فهذه ثلاثة أشياء.

وقوله: ﴿مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: من قال لغيره: تصدق، وهذه الكلمة تصدق إن وقعت من أعلى فهي أمر، أو من مساوٍ فهي التماس ومشورة، وهو شامل لهذا وهذا؛ أي: سواء كان الآمر له الإمرة على من وجه إليه الخطاب، أو كان الآمر ليس له إمرة، لكنه قاله على سبيل النصيحة والمشورة.

وقوله: ﴿بِصَدَقَةٍ﴾ منكر، والتنكير يدل على الإطلاق، فيشمل القليلة والكثيرة.

وقوله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ المعروف ما ليس بمنكر، وهو أعم

من الصدقة؛ لأن الصدقة إحسان، والمعروف ما يتعارف الناس عليه وإن لم يكن صدقة، مثال الأمر بالمعروف: كأن يأمر بالتسامح، أو يأمر بالتواصل، أو يأمر بالإحسان، وهذا لا يكون داخلاً في الصدقة، إذا خصصنا الصدقة بأنها صدقة المال.

وقوله: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ الإصلاح هو إزالة الفساد بين الناس، مثل أن يكون بين اثنين عداوة، فيسعى شخص إلى إزالة هذه العداوة، فهذا هو الإصلاح، وهو من أفضل الأعمال المقربة إلى الله.

وقوله: ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ يشمل المسلمين وغير المسلمين، فالإصلاح بين الناس خير سواء أصلحت بين المسلمين أو بين الكفار، أو بين المسلمين والكفار، وأخذنا العموم من قوله: ﴿ٱلنَّاسِۚ﴾.

ثم قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه ما سبق من الأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح.

قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ ابتغاء: بمعنى طلب، مرضاة الله: أي: طلب أن يرضى الله عنه.

قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الفاء هنا رابطة لجواب ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ واقترن الجواب بالفاء؛ لأنه اقترن الجواب بسوف، يقول ابن مالك:

واقرن بفا حتماً جواباً لو جعل شرطاً لإن أو غيرها لم ينجعل

يعني: ما لا يصح أن يلي «إن» وجب أن يقرن بالفاء، وهذا ضابط اقتران الفاء بجواب الشرط.

وما ذكر ابن مالك فيه فائدة، وهي: الإشارة إلى سبب

وجوب اقترانها بالفاء، وهو أنه لا يصح أن يكون فعلاً للشرط، فإذا لم يصح أن يكون فعلاً للشرط لم يصح أن يكون جواباً، ولذلك وجب اقترانه بالفاء.

ومعنى البيت إجمالاً: أنه إذا لم يصح أن يكون الجواب فعلاً للشرط وجب اقترانه بالفاء، وهذا الحكم؛ لأن ما لا يصح أن يكون شرطاً لا يصح أن يكون جواباً، فلهذا وجب أن يقترن بالفاء.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ في قوله: ﴿نُؤْتِيهِ﴾ قراءتان سبعيتان: ﴿نُؤْتِيهِ﴾، و«يؤتيه»، أما على قراءة «يؤتيه» فهي جارية على نسق الكلام؛ لأن الكلام كله في الغيب، وإذا قال: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ فقد خرج عن نسق الكلام، ويسمى هذا التفاتاً، وكل التفاتٍ لا بد له من فائدة على حسب السياق.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن كثيراً من كلام الناس ليس فيه خير، فما هو الميزان لما فيه الخير وما لا خير فيه؟

الجواب: الميزان ذكره النبي ﷺ بقوله: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»**[(١)] وفي قوله ﷺ: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**[(٢)]، وفي نهيه ﷺ عن قيل

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم والآخر فلا يؤذ جاره، حديث رقم (٥٦٧٣)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير..، حديث رقم (٤٨) عن أبي شريح العدوي.

(٢) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب (١١)، حديث رقم (٢٣١٧)؛ وابن =

وقال وكثرة السؤال، فهذه ثلاثة أحاديث كلها تبين ما هو الخير في الكلام.

٢ ـ فضيلة الصدقة، وجه ذلك: أنه إذا كان الآمر بالصدقة في أمره خير؛ ففاعل الصدقة من باب أولى.

٣ ـ حث الإنسان على الأمر بالخير والإحسان، لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

٤ ـ فضيلة الأمر بالإصلاح بين الناس.

٥ ـ فضيلة الأمر بالمعروف؛ حيث قرنه الله تعالى بالأمر بالصدقة، لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾، والمعروف هو: كل ما عرفه الشرع وأقره فهو معروف، وكل ما أنكره ونهى عنه فهو منكر.

٦ ـ بيان أن هذه الأمور الثلاثة فيها خير وإن فعلها الإنسان بغير قصد ابتغاء وجه الله، وجهه: أن الله تعالى لما نفى الخير في كثير من النجوى استثنى هذه الثلاثة، ثم قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٧ ـ وجوب العناية بالإخلاص؛ لأن هذه الثلاثة وإن كان فيها خير لأنها متعدية لكنه لا يحصل فيها الأجر العظيم.

٨ ـ أنه يصح إطلاق الفعل على القول، وتؤخذ من قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ مع أن الذي حصل أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح، وهذا إذا قلنا: إنها عائدة على مفهوم الأمر، أما إذا

= ماجه، كتاب الفتن، باب كف الإنسان في الفتنة، حديث رقم (٣٩٧٦)؛ وابن حبان (١/ ٤٦٦) (٢٢٩)؛ والطبراني في «الأوسط» (١/ ١١٥) عن أبي هريرة.

قلنا: إنها عائدة على الصدقة والمعروف والإصلاح فإن هذا فعل ولا إشكال فيه؛ لأن المشار إليه بذلك مختلف فيه كما ذكرناه سابقاً.

٩ ـ إثبات الرضا لله عزّ وجل، لقوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾، والرضا صفة فعلية؛ لأن كل صفة تتعلق بمشيئة الله إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها فهي صفة فعلية، هذا هو الضابط في ذلك، والرضا متعلق بالأشياء؛ لأن سببه الفعل الذي يرضى به الله، والفعل الذي يرضى به الله تابع لمشيئة الله؛ لأنه من فعل العبد وفعل العبد كائن بمشيئة الله.

إذاً: فالرضا من الصفات الفعلية، وليعلم أن الصفات الفعلية كلها باعتبار الجنس صفات ذاتية، لكن أنواعها وأفرادها هي التي تحدث وتتجدد، أما أصلها وهو الفعل فهو صفة ذاتية، والدليل: أن الله تعالى لم يزل ولا يزال فعالاً، لكن المتجدد هو أنواع الفعل أو آحاد الفعل، فمثلاً: الاستواء على العرش مما حدث نوعه؛ لأننا لا نعلم فعلاً هو الاستواء إلا ما كان خاصاً بالعرش، وما كان خاصاً بالعرش فإنه قطعاً حصل بعد خلق العرش.

والنزول إلى السماء الدنيا؛ هو حادث النوع، وحادث الآحاد أيضاً؛ لأن الله ينزل كل ليلة، والاستواء على العرش مطلق عام، ليس له حد بليلة ولا بيوم ولا بأسبوع ولا بشهر، لكن النزول متجدد؛ لأنه ينزل كل ليلة، فتبين أن صفات الأفعال أصلها ذاتية؛ لأن الله لم يزل ولا يزال فَعَّالاً.

وإذا قلت: ما الدليل على هذا؟

فنقول: لأن الفعل كمال، ولو قلنا: إنه يأتي أو يمر عليه زمن لم يكن فاعلاً لكان هذا نقصاً في الله عزّ وجل؛ لأننا إذا قلنا: أتى عليه زمن لم يكن فاعلاً فهذا لأنه غير قادر، فإن قلت: إنه غير قادر فهذا أمر مشكل، وإن قلت: إنه قادر، قلنا: هات الدليل على التحديد؛ لأن تحديد ما لم يقم عليه دليل يعتبر تحكماً، فمن أي وقت صار الفعل ممكناً في حقه؟ فلذلك نقول: إن صفات الأفعال أصلها ذاتي؛ لأن الله لم يزل ولا يزال فعالاً، أما أنواعها وآحادها فهي فعلية؛ لأنها تتعلق بمشيئته تبارك وتعالى.

وأما عند أهل التعطيل كالأشاعرة والمعتزلة والجهمية وأشباههم فيقولون: إن الله ليس له رضاً، لكنهم لا ينكرونه إنكار جحود، بل إنكار تأويل؛ لأن نفي الإنكار تكذيب للقرآن، ومكذب القرآن كافر، أما إذا قالوا: نعم، لله رضاً، لكن المراد بالرضا كذا، فهذا يسمى إنكار تأويل، ولا يكفرون بذلك إلا إذا كانت عندهم بدع كبيرة تكفر، فهذا شيء آخر.

وبماذا يفسرون الرضا؟ يقولون: الرضا هو: الإثابة، فيقال: إن الإثابة ليست هي الرضا؛ لأن الإثابة فعل منفصل بائن عن الله عزّ وجل، فيثيب هؤلاء الذين يرضى عنهم بشيء منفصل بائن عن الله، بالجنة ونعميها، وبالحياة الطيبة في الدنيا، وما أشبه هذا.

إذاً: تفسيره بالإثابة غلط، ونقول: إذا فسرتموه بالإثابة لزم من ذلك ثبوت الرضا، إذ لا يمكن أن يثيب إلا من رضي عنه، ولا يثيب من غضب عليه أبداً، بل يثيب من رضي عنه، ولهذا

مهما فروا من إنكار الرضا فإنه سوف يكون لازماً لهم، مع المعاناة والتحريف لا يمكن أن ينفلتوا منه إطلاقاً، ولهذا نجد أن أريح المذاهب وأسهلها هو مذهب أهل السنة والجماعة، مذهب السلف الذين يقولون: ما أثبته الله لنفسه أثبتناه، وما نفاه عن نفسه نفيناه، فنقول: نحن نثبت الرضا لله عزّ وجل كما أثبته لنفسه، وننفي عنه المثل كما نفاه عن نفسه، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وننفي التكييف أيضاً؛ لأنه لا علم لنا به، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] فتجد مذهب السلف سهلاً ليس فيه قلق، وليس فيه تناقض، وإنما التناقض عند أهل التحريف من المعتزلة وغيرهم.

١٠ ـ إثبات صفات الفعل في قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

١١ ـ أنه لا ينبغي للإنسان أن يستعجل الثواب، إذ قد يؤخر الله الثواب لحكمة، وتؤخذ من قوله: ﴿فَسَوْفَ﴾ الدالة على التسويف، وهي تدل على التحقيق، لكن تدل على أن الشيء ليس منتظراً قريباً، بل ولو على المدى البعيد، ولهذا لا تستعجل ثواب الله، بل ولا تستعجل إجابة الله للدعاء، كما جاء في الحديث: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي**»[1] وكذلك انتظار الثواب لا تستعجل به.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل، حديث رقم (٥٩٨١)؛ ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل...، حديث رقم (٢٧٣٥) عن أبي هريرة.

ثم إنه ينبغي للإنسان أيضاً ـ ونسأل الله أن يعيننا على ذلك ـ إذا عمل العمل الصالح أن لا يستعجل ثواب الدنيا، فيكون مريداً في الدنيا، يعني: مثلاً: من آمن وعمل صالحاً فقد قال الله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] فلو عملت لأجل أن يحييك الله حياة طيبة فهذا لا شك أنه خير، لكن خيراً من ذلك أن تنوي ثواب الآخرة، وسيأتيك ثواب الدنيا.

فإن أردت ثواب الدنيا والآخرة فلا بأس؛ لأن الله لم يذكر لنا ثواب الدنيا عبثاً، ولكن لتنشط الهمم وتنبعث النفوس، وإلا لكان كل ثواب ذكره الله في الدنيا يعتبر عبثاً ولغواً، فلا حرج على الإنسان أن ينوي ثواب الدنيا والآخرة، لكن من ينوي ثواب الدنيا فقط فهذا لا شك أنه ناقص الإخلاص.

١٢ ـ عظم ثواب من فعل ذلك ابتغاء وجه الله، لقوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ لأن تعظيم الشيء من العظيم يدل على عظمته.

١٣ ـ بيان فضل الله عزّ وجل على عباده، حيث سمى ثوابهم على العمل أجراً، بمنزلة أجرة الأجير التي لا بد أن يُعطاها؛ لأنه هو مستحق لها، وهذا من نعمة الله أن يسمي الثواب الذي جعله على العمل أجراً، بمنزلة أجرة الأجير اللازمة، مع أن الله هو الذي منَّ بالعمل، وهو الذي منَّ بالثواب، وبهذا يزول الإشكال في مثل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ [البقرة: ٢٤٥] فهذه الآية من المتشابه اتبعها من اتبعها من اليهود، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١] والدليل على أنه فقير أنه طلب القرض فقال: ﴿مَّن

ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فيقال: تباً لكم! إن الله غني عن عباده، قبل أن يخلقهم وبعد أن يخلقهم، لكنه شبه العمل بالقرض من باب الإحسان، وبيان أنه عزّ وجل ملتزم بأن يثيب المطيع.

فإن قال قائل: تقديرك هذا يقتضي أن يكون الله قد وجب عليه شيء؟ والله تعالى لا يجب عليه شيء؟

فالجواب: نعم، لا يجب عليه شيء من قبل الناس، فالناس لا يوجبون على الله شيئاً، لكن هو سبحانه أوجب على نفسه، وإذا أوجب على نفسه فهو من كماله، كما قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤] فهو الذي كتب على نفسه أن يثيب المطيع، وأن من عمل سوءاً بجهالة ثم تاب تاب الله عليه، ولهذا لما قال القائل:

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا عمل لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

قال ابن القيم مثل هذا القول إلا أنه قيده ووضحه فقال:

ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجب الأجر العظيم الشأن
إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله والفضل للمنان

فبين رحمه الله أنه لا واجب على الله للعباد إلا ما أوجبه على نفسه، فإذا أوجب الله على نفسه شيئاً فهو من فضله عزّ وجل.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

قوله: «مَن» هذه شرطية، وليست موصولة؛ لأن الفعل بعدها مجزوم، وفك الإدغام هنا جائز، ولو أدغم لقال فيه: ومن يشاقِّ الرسول.

وقوله: ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ «أل» هنا للعهد الذهني، والمراد به الرسول الذي أرسل إلى هذه الأمة، وهو محمد ﷺ.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ متعلق بالمشاقة يعني: وجدت مشاقته ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: تبين له الحق وظهر، والهدى: العلم الذي جاء به النبي ﷺ.

ومن المعلوم أن النبي ﷺ بعث بالهدى ودين الحق، فالهدى هو: العلم، ودين الحق هو: العمل الصالح.

وقوله: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ معطوفة على قوله: ﴿يُشَاقِقِ﴾، يعني: يجمع بين الأمرين: مشاقة الرسول، واتباع غير سبيل المؤمنين.

والمشاقة معناها: أن يكون في شق غير شق الرسول ﷺ، فهي مأخوذة من الشق، وليس من المشقة.

وقوله: ﴿غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يمكن أن نجعل ﴿غَيۡرَ﴾ صفة لموصوف محذوف؛ أي: ويتبع سبيلاً غير سبيل المؤمنين، ويمكن أن نجعلها مفعولاً به بدون أن نقدر موصوف.

وسبيل المؤمنين: هي طريقهم، ومن المعلوم أن المؤمنين ليس لهم طريق إلى الله إلا بشرعه.

قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ هذا جواب الشرط، وقوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ يعني: نتخلى عنه، ونجعل أمره إلى ما تولاه؛ كقوله ﷺ: «**ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر**

إليه»[١]، ومعنى: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: نتركه فلا نتولاه، ونقول: لك ما توليت، ومن تعلق شيئاً وكِّل إليه.

قوله: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ أي: ندخله جهنم حتى يصلاها، وصليها؛ أي: احتراقه بها.

وقوله: ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ الجملة جملة إنشائية للذم؛ أي: ما أسوأها مصيراً، والمصير بمعنى: المرجع.

فهذه الآية فيها التحذير والوعيد على من شاق الرسول عليه الصلاة والسلام، واتبع غير سبيل المؤمنين، بأن الله تعالى يعاقبه على ذلك بعقوبتين:

العقوبة الأولى: أن الله يوليه ما تولى ويتخلى عنه.

والعقوبة الثانية: أن الله يصليه جهنم، وجهنم اسم من أسماء النار.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تحريم مشاقة الرسول، وأنها من كبائر الذنوب، وجهه: أنه رتب عليها العقوبة، وهي: التخلي عنه، وصليه جهنم.

فإن قال قائل: هل هذا عام في كل مشاقة، أو هو مقيد بحسب ما تقتضيه النصوص؟

فالجواب: الثاني؛ لأن بعض أسباب المعاصي لا تخرج من الدين، ولا يترتب عليها هذا العقاب، لكن لو أن الإنسان أراد بمعصيته مخالفة الرسول صراحة وأظهر عدم رضاه بهذا الحكم فهذا يكفر، لا من أجل المعصية التي فعلها ولكن من أجل

---

(١) تقدم (١/ ٢٥٧) من حديث: «**إنما الأعمال بالنيات..**».

المشاقة والمخالفة، وعدم الالتزام بما جاء به الرسول ﷺ.

٢ ـ العذر بالجهل، لقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾، فلو أنكر الإنسان شيئاً مما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، وصار يحاج عليه، لكنه جاهل فإنه معذور؛ لأن الآية صريحة: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾.

٣ ـ أن ما جاء به النبي ﷺ فهو هدى ونور، ويتبين بأن يتأمل الإنسان ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام من العبادات والأخلاق والمعاملات وغير هذا، فإذا تأمله بعلم وعدل ـ يعني: كان منصفاً ـ تبين له الحق وعرف أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق.

٤ ـ أنه مع التردد لا تقوم الحجة، لقوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ﴾، لكن على الإنسان أن يتبين ولا يقول: أنا ما اتضح لي الحق ولا أعرفه، يجب أن يبحث، وهذا يرد علينا، ففي بعض البلاد الإسلامية يكون فيها عوام مشركون شركاً صريحاً لا إشكال فيه، فيعبدون القبور، ويستغيثون بالأموات، وغير ذلك مما يأتونه من الشرك الأكبر، ويقال لهم: إن هذا شرك، لكن لا يبحثون، فهؤلاء لا يعذرون بجهلهم؛ لأنهم لم يطلبوا التبين، وهم مفرطون بلا شك.

٥ ـ الاحتجاج بالإجماع، لقوله: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فإنه يستدل بذلك على أن سبيل المؤمنين حق، وهو كذلك يعني: أن الأمة إذا أجمعت على شيء فإنه حق، ولا يمكن لهذه الأمة التي اختارها الله عزّ وجل، وجعلها شهيدة على الناس كما قال: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وهي تشهد

على أفعالهم وعلى أحكام أفعالهم، لا يمكن أن يقال: إن إجماعها ضلالة أبداً، بل إجماعها على الشيء حق، ولكن الذي يبقى هو تحقيق الإجماع، فهذا هو المشكل؛ لأنك أحياناً ترى من العلماء الأجلاء من ينقل الإجماع والخلاف قائم موجود، وبعض العلماء ـ عفا الله عنهم ـ لا يقول: لا أعلم مخالفاً، إذ لو قال كذا لكان معذوراً، لكنه يقول: بالإجماع، أو أجمعوا على كذا، بينما الخلاف موجود بكثرة.

ومن الغرائب: أنه نقل الإجماع على أن شهادة العبد مردودة، ونقل إجماع آخر على أن شهادة العبد مقبولة، وهذا لا يمكن، لكن السبب في ذلك عدم التحري والاطلاع على أقوال أهل العلم، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في كتاب الصواعق المرسلة طائفة كبيرة مما نقل فيه الإجماع، ونقله أئمة أجلاء وليس فيه إجماع.

ومن الأمثلة بالإضافة إلى مسألة شهادة العبد، نقل بعض العلماء الإجماع على أن الطلاق الثلاث بكلمة واحدة يبين المرأة، وقال: هذا مجمع عليه، ومن قال: إنه لا يبينها فقد خرج عن الإجماع وخالف سبيل المؤمنين، هذا الإجماع لا يمكن أن يصح أبداً، لا بعد عهد عمر ولا قبل عهد عمر رضي الله عنه، أما قبل عهد عمر رضي الله عنه فإنه لا يصح قطعاً، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان الطلاق الثلاث على عهد النبي ﷺ، وفي عهد أبي بكر، وسنتين من خلافة عمر واحدة»[1]، يعني:

---

(١) رواه مسلم، كتاب الطلاق، باب طلاق الثلاث، حديث رقم (١٤٧٢) عن ابن عباس.

الرجل إذا قال: أنت طالق أنت طالق أنت طالق فهي واحدة، ولهذا لما قال النبي ﷺ لركانة: «**كيف طلقتها**»؟ قال: طلقتها ثلاثاً، قال: «**في مجلس واحد**»، قال: نعم، قال: «**فإنما تلك واحدة فارجعها إن شئت**»[1]، وهذا واضح أنه كرر فقال: أنت طالق أنت طالق أنت طالق، لكن سأله وقال: «**في مجلس واحد**» لأنه إذا كان في مجلسين فيحتمل أنه راجع فيما بين الطلقتين، وإذا راجع فيما بين الطلقتين صارت الثانية واقعة.

فعلى كل حال: أنا أريد أن أمثل أن بعض العلماء نقل الإجماع على أنها تبين بطلاق الثلاث، سواء كانت متفرقة أو مجموعة، ونحن نقول: هذا لا يصح؛ لأنه إذا كان في عهد الرسول ﷺ وعهد أبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة كيف يصح الإجماع؟ ولهذا قال بعض العلماء: إن الإجماع على أنها لا تقع إلا واحدة، وهو إجماع قديم سابق، والذي قال ذلك: أسعد بالصواب ممن قال: إن الإجماع على أنها تبين بها المرأة ولا شك.

فالمهم أن هذه مسائل يحتاج الإنسان فيها إلى تحرير المسألة، والاطلاع الكامل، وقد عرف عن بعض العلماء التساهل في نقل الإجماع، وعذرهم في ذلك أنهم لم يطلعوا على مخالف فتساهلوا في الأمر.

ولا إجماع مع مخالفة الخمسة أو العشرة، بل ولا مع مخالفة الواحد والاثنين، إلا عند بعض العلماء، فابن جرير رحمه الله يرى أن خلاف الواحد والاثنين لا ينقض

---

(١) هذا اللفظ لأحمد (١/ ٢٦٥).

الإجماع، والصواب: أنه لا بد من إجماع كل المجتهدين، والعوام لا نعتبرهم، والمقلدون لا نعتبرهم؛ لأن العلماء أجمعوا على أن المقلد ليس من العلماء فلا يعتبر قوله؛ لأن المقلد نسخة من كتاب مؤلف في هذا المذهب، فالإجماع يكون من المجتهدين، وهنا في قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يشمل العامي والمقلد والعالم، فتخصيص ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالمجتهدين لأن العامي تابع للعالم، إذ ليس له رأي في الواقع فلا يعد، ولذلك تجد العامي يتبع العالم الذي في بلده، حتى إنه قبل أن يوجد الاتصال التام بين الناس إذا قيل مثلاً: قال الشيخ في الرياض كذا وكذا، ثم قيل: وقال الشيخ في بلد آخر كذا وكذا، لا يعتبرون القول الثاني؛ لأن العامي مع شيخ بلده.

٦ ـ أن سبيل المؤمنين طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنه قال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ﴾، ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذاً: سبيل المؤمنين هي عدم المشاقة وهو كذلك، وكلما كان الإنسان أقوى إيماناً كان أقوى اتباعاً لرسول الله ﷺ، حتى كأنه يشاهد الرسول أمامه فيتبع أثره، وإذا اتبع الإنسان هذه الطريقة حصل له الراحة والطمأنينة وقوة الإيمان، كلما فعل شيئاً كأن الرسول ﷺ أمامه يرشده بقوله أو بفعله.

وهذه المسألة يجب علينا أن ننتبه لها؛ حتى لا تضيع علينا أعمالنا سدى؛ لأن أكثرنا عنده الاتباع المطلق ـ والحمد لله ـ، لكن الاتباع الخاص في كل فعل يفعله أو يقوله، فهذا يُفقد منا كثيراً فلا بد من التنبه له.

٧ ـ عقوبة من شاق الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين بأنه

يولى ما تولى فيضيع، وهذا هو الواقع، ولهذا قال الله تعالى في آيـــة أخـــرى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]، فالذنب سبب للذنب الآخر، وكلما أذنب الإنسان ذنباً فليتهيأ لذنب آخر عقوبة له إلا أن يتوب.

٨ ـ إثبات النار والعذاب بها، لقوله: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، وهذه النار ـ أعاذنا الله منها ـ موجودة وهي مؤبدة. وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة، ولم يعرف لأحد في ذلك خلاف إلا أقوال شاذة لا عبرة بها؛ لأن الله صرح بتأبيدها في آيات ثلاث في القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨ ـ ١٦٩] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٤ ـ ٦٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ١٤] أعاذنا الله وإياكم منها.

٩ ـ ثناء الله بالذم والقدح على النار، لقوله: ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، وصدق الله عزّ وجل فإن أسوأ مصير يصير إليه الإنسان أن يصير إلى النار.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ سبق الكلام على هذه الآية،

وكررها الله مرتين في هذه السورة، وكان بين الآيتين ذكر قتل النفس، وقد مر أن أهل العلم قالوا: إن قاتل النفس له توبة، واستدلوا لذلك بأن الله ذكر قتل النفس بين آيتين كلتاهما تدل على أن ما سوى الشرك فالله تعالى يغفره.

وسبق القول في معنى ما دون ذلك.

وقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ وفي الآية الأولى: ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

فيؤخذ من مجموع الآيتين أن المشرك مفترٍ ضال، وهو كذلك؛ لأن دعواه أن لله شريكاً كذب وافتراء عظيم.

وكونه يبني على هذه الدعوى أن يشرك بالله يكون هذا ضلالاً، فمجرد قوله: إن الله له شريك، افتراء، ثم تطبيق ذلك في عمله يعتبر ضلالاً، فيؤخذ من الآيتين الكريمتين: أن المشرك مفتر ضال.

وقوله: ﴿بَعِيدًا﴾ لعظم إثمه وذنبه.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: ١١٧].

قوله سبحانه: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾.

﴿إن﴾ هنا بمعنى «ما»، وعلامة كون ﴿إن﴾ بمعنى «ما» أن تأتي بعدها ﴿إِلَّآ﴾، ففي قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ﴾ [المائدة: ١١٠] المعنى: ما هذا، وفي قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] المعنى: ما هذا إلا ملك كريم، وفي قوله:

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [فاطر: ٢٣] أي: ما أنت إلا نذير، فـ﴿إِن﴾ تأتي بمعنى «ما» وعلامتها أن يأتي بعدها ﴿إِلَّآ﴾، كما أن ﴿إِن﴾ لها معانٍ متعددة:

فتأتي نافية، وتأتي مخففة من الثقيلة مثبتة عكس النافية؛ لأن المخففة من الثقيلة تفيد التوكيد، إذ أنها هي «إنَّ» لكن خففت، فتكون للتوكيد عكس «إنْ» فإنها للنفي، قال الشاعر:

ونحن أباةُ الضيم من آل مالكٍ وإن مالك كانت كرام المعادن

أي: وإنَّ مالكاً كانت كرام المعادن، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] ﴿إِن كَانُواْ﴾ بمعنى: إنّ، واسمها، يقولون: إنه ضمير الشأن المحذوف، والتقدير: وإنه؛ أي: الشأن، أو وإنهم؛ أي: القوم، وبعضهم يقول: لا نقدر ضمير الشأن، بل نقدر ضميراً مناسباً للسياق، فإذا كانوا جماعة قلنا التقدير: إنهم ولا مانع.

على كل حال: هذه ﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة، وهي على العكس من ﴿إِن﴾ النافية؛ لأنها للإثبات، وتوكيد الإثبات بخلاف ﴿إِن﴾ النافية.

وتأتي ﴿إِن﴾ شرطية، وهذا كثير مثل: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وتأتي زائدة يعني: وجودها كالعدم كقول الشاعر:

بني غدانة ما إن أنتم ذهبٌ ولا صريف ولكن أنتم الخزف

فالشاعر يهجو هؤلاء القوم، ويقول: لا أنتم ذهب ولا فضة، بل أنتم خزف، والناس معادن كما قال النبي ﷺ: «**الناس معادن**»(١)، معدن طيب ومعدن رديء.

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ =

على كل حال: هي في هذه الآية الكريمة في قوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ نقول: ﴿إِن﴾ نافية؛ أي: ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله ـ أي: سوى الله ـ إلا إناثاً، ومعنى قوله: ﴿إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ قيل: إن أسماء هذه الأصنام أسماء إناث: اللات، والعزى، ومناة، فهذه كلها أسماء إناث، والمؤنث دون المذكر في قوته ومرتبته ومقامه، وفي كل شيء قال الله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقيل المعنى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ أي: إن يدعون إلا شيئاً مثل الإناث لا يدفع عن نفسه فكيف يدفع عن غيره، وعلى هذا القول يدخل في ذلك الأصنام المذكرة مثل: هبل، فهبل مذكر، ومع ذلك يعبد من دون الله، وعلى هذا يكون هذا القول أولى بالصواب؛ لأنه أعم، ولأنه يدل على حقيقة هذه الأصنام وأنها لا تدفع عن نفسها شيئاً فكيف عن غيرها.

قوله: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ أي: وما يدعون إلا شيطاناً مريداً، والدعاء هنا بمعنى العبادة، يعني: وما يعبدون إلا الشيطان، والعبادة هنا بمعنى الطاعة؛ أي: يطيعون الشيطان، كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١]، فالشيطان يأمرهم بالشرك فيشركون، فيكون شركهم بالشيطان شرك طاعة، وشركهم بالأصنام شرك عبادة، وقوم هذه حالهم لا خير فيهم، فهم لا يعبدون إلا ما لا ينفعهم، ولا يأتمرون إلا بأمر الشيطان.

= فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ (٣٣٨٣)؛ ورواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب خيار الناس (٢٥٢٦) عن أبي هريرة.

وقوله: ﴿شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ المَريد: هو البالغ في العدوان والعتو غايته، وهل الشياطين أقسام: منهم المريد ومنهم غير المريد، أم أنها صفة كاشفة؟

في هذا قولين، فيحتمل أنها صفة كاشفة، والمعنى أن كل شيطان فهو مريد، ويحتمل أنها صفة مقيدة، وأن الشياطين ينقسمون إلى مردة وغيرهم، ولهذا جاء في حديث تصفيد الشياطين في رمضان في بعض الألفاظ: «**تصفد مردة الشياطين**»(١) أي: الشياطين العتاة الأقوياء بعتوهم.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء: ١١٨ ـ ١١٩].

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ اللعن بمعنى: الطرد والإبعاد عن رحمة الله عزّ وجل، وهذا يتعين أن يكون خبراً؛ لأنه من الله، والله يفعل ولا يدعو على أحد، فالله تعالى يخبر بأنه لعنه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: ٧٨]، وفي الآية الثانية: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر: ٣٥]، فلعنة الله ولعنة اللاعنين على إبليس إلى يوم الدين.

قوله: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ قوله: ﴿وَقَالَ﴾ الفاعل الشيطان، والواو للاستئناف، ولهذا يتعين

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الصوم، باب فضل شهر الصوم، حديث رقم (٦٨٢)؛ والنسائي، كتاب الصيام، باب فضل شهر رمضان (٢١٠٦)؛ وأحمد (٢/ ٢٩٢) عن أبي هريرة.

الوقوف على قوله: ﴿لَعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ ثم تستأنف، ﴿وَقَالَ﴾ أي: الشيطان.

وقوله: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ مقول القول: هو جملة ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾، وهذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، ونون التوكيد.

وقوله: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ المعنى: أتخذهم أولياء أتولاهم ويتولوني، والنصيب: الجزء من الشيء، وهذا النصيب أكبر بكثير من النصيب السابق؛ لأن النبي ﷺ أخبر أن الله يقول يوم القيامة: «**يا آدم؛ فيقول: لبيك وسعديك! فيقول: أخرج من ذريتك بعث النار، فيقول: يا رب! وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون**»(١).

لكن يجب أن نعلم أن الشيطان لم يقل: لأتخذن من بني آدم، بل قال: ﴿مِنْ عِبَادِكَ﴾ و﴿عِبَادِكَ﴾ أعم وأشمل من بني آدم، ولهذا قال: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ وهم الذين أغواهم من بني آدم.

فعليه نقول: هل المراد بالعباد هنا: بنو آدم؟ إن قيل: هم بنو آدم صار من باب العام الذي يراد به الخاص، وحينئذ يكون هذا النصيب المفروض أكثر بكثير من الذين سلموا من إغوائه، وإذا قلنا: المراد بالعباد ما يشمل كل الخلق، ومنهم الملائكة الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، كذلك كل المخلوقات متذللة لله عزّ وجل تذللاً شرعياً أو تذللا قدرياً.

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء قصة يأجوج ومأجوج (٣٣٤٨)؛ ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب قوله يقول الله لآدم اخرج بعث النار من ذريتك (٢٢٢) عن أبي سعيد.

وعلى هذا يكون النصيب المفروض بالنسبة للعباد على سبيل العموم قليلاً، لكنه بالنسبة لبني آدم كثير؛ لأن من الألف من بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعين في النار وواحداً في الجنة.

وقوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ الفرض بمعنى الحتم، يعني: محتماً مقدراً، وقد أعطاه الله عزّ وجل ذلك، ومكنه من إضلال بني آدم لحكمة أرادها سبحانه، ولكنه توعد من تابعه، وقال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٨٥].

قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ فهو يتخذهم أولياء يتولاهم ويتولونه، ويضلهم أيضاً عن صراط الله عزّ وجل، سواء في هذه الأمة أو في غيرها، والجملة هنا: مؤكدة بما أكدت به الجملة قبلها أي ثلاثة مؤكدات، وقوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ أي: عن الصراط المستقيم.

قوله: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أي: أَعِدُهُم بالأماني، وفعلاً وقع هذا لآدم، حيث قال له الشيطان: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: ٢١] فنسي آدم عليه الصلاة والسلام أن الله نهاه وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥] لكن وعدهم بأماني وقال: ﴿أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ يعني: على الشجرة التي إذا أكلتها تخلد، ويصير لك الملك الذي لا يبلى، فالشيطان يمني ابن آدم بعدة أماني:

منها: أنه يسهل عليه أمر المعصية، ويقول: هذه سهلة.. وهذه صغيرة تكفر بالصلوات.. وتكفر بالعمرة، وهكذا، وما علم المسكين الذي أضله الشيطان أن الصلوات والعمرة إلى العمرة وما أشبه ذلك مما يكفر به الذنوب لا بد أن تكون كاملة، ومن

يأتي بكمال الصلاة؟ أكثر الناس عسى أن تصل صلواتهم إلى حد الإجزاء.

وكذلك أيضاً يقول: هذه سهلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

يُمَنيّه فيقول: أنت لو فرض أنك مت على المعصية فلك أولاد صالحون يدعون لك، وإذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث، وهلم جرا.

المهم أنه يوقع الأماني في نفوسهم بأشكال كثيرة.

قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ هل المعنى آمرنهم أمراً صريحاً مواجهة أو أمر وحي من داخل النفس؟

الجواب: الثاني، وربما يتصور الشيطان بصورة إنسي فيأمره أمراً صريحاً، لكن الأصل أنه أمر داخلي يأمره أن يفعل كذا وكذا، ولهذا قال: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الفاء هذه للعطف، وهي معطوفة على آمر، وسيأتي إن شاء الله أنها تدل على تمام الانقياد من هؤلاء.

وقوله: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يبتكن: أي: يقطعون، وإعراب قوله: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ الفاء: عاطفة تدل على الترتيب والتعقيب، واللام: موطئة للقسم، يعني: تمهد للقسم لأنه يقدر قبلها، ويبتك: فعل مضارع مرفوع، وعلامة الرفع النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والنون للتوكيد؛ ولم يبنَ الفعل مع أن النون للتوكيد؛ لأنه غير مباشر، والواو محذوفة لالتقاء الساكنين، وهي فاعل، وأصل الكلمة هذه: «فليبتكونن آذان الأنعام» فحذفت النون الأولى كراهة توالي الأمثال، ولم تحذف نون التوكيد لأنه أتي بها

لعلامة، ولو حذفت لفاتت هذه العلامة، ثم حذفت الواو؛ لأنه لما حذفت النون الأولى التقت النون الثانية وأولها ساكن، بالواو الساكنة، فالتقى ساكنان، وابن مالك رحمه يقول:

إن ساكنان التقيا اكسر ما سبق وإن يكن ليناً فحذفه استحق

وهنا الأول لين، يعني: أحد حروف العلة، فيحذف.

والمعنى: فليبتكن أي: فليقطعن آذان الأنعام، وليس مجرد التقطيع داخلاً في الآية، لكنهم يقطعون آذان الأنعام علامة على أنها محرمة؛ لأنهم يحرمون ما أحل الله ويحلون ما حرم الله؛ فعندهم قواعد وضوابط معروفة، وقوانين وضعية وليست شرعية، ومنها أن الناقة إذا ولدت كذا وكذا بطناً يجب أن تطلق، والعلامة قطع الأذن، وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] لكنها مفصلة لهذا التقطيع، وليسوا يقطعونها علامة ودليلاً على أنها ملك فلان كما لو قطعوها على أنها وسم، بل يقطعونها اعتقاداً باطلاً أنها أصبحت حرة، لا تركب، ولا يحمل عليها، ولا يشرب من لبنها، ولا غير ذلك.

وقوله: ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ جمع نعم، كأسباب جمع سبب، والنعم يطلق على ثلاثة أشياء: الإبل والبقر والغنم.

قوله: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ هذا معطوف على قول الله: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ﴾ يعني: أن الشيطان يأمر عباد الله عزّ وجل أن يغيروا خلق الله، فما المراد بخلق الله؟ هل المراد به الفطرة التي فطر الناس عليها، فيكون المعنى: أنهم يغيرون فطرة الخلق من

التوحيد إلى الشرك، ومن اليقين إلى الشك، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، أو المراد بتغيير خلق الله الوشم والوشر والنمص وما أشبه ذلك؟

الجواب: فيه قولان للعلماء، والصواب أنه شامل، بناءً على قاعدة التفسير المشهورة، أنه متى ذكر في الآية قولان لا تضاد بينهما، والآية تحتملهما وجب حملها على المعنيين جميعاً، وعلى هذا فهو يأمرهم أن يغيروا خلق الله الذي هو الفطرة التي فطر الناس عليها، وخلق الله التغيير الحسي بالتفليج والوشم والوشر وغير ذلك؛ لأن هذا أعم.

وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ صدق الله ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي: يجعله ﴿وَلِيًّا﴾ أي: متولي؛ أي: يتولى الشيطان ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ وتولي الشيطان يكون بطاعته، فمن أطاع الشيطان وعصى الرحمٰن ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ والخسران ضد الربح، بل إن الخاسر هو الذي لم يحصل ولا على رأس ماله، فهو لم يربح بل خسر.

وقوله: ﴿مُّبِينًا﴾ مشتقة من أبان، فهي مشتقة من فعل رباعي، وأصلها مُبْين، لكن نقلت حركة الياء للساكن الصحيح قبلها، ونقل السكون الذي على ما قبلها إليها، فصارت ﴿مُّبِينًا﴾ وهي من أبان، وأبان يصلح أن يكون لازماً ويصلح أن يكون متعدياً، نقول: بان الفجر وأبان الفجر، فإذا جعلناها من اللازم ﴿مُّبِينًا﴾ صارت بمعنى بيِّن واضح، وإذا جعلناها من المتعدي

أبان الشيء يعني: أظهره، صار المعنى أنه خسارة تظهر ذلك فيمن خسر وتتضح.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠].

﴿يَعِدُهُمْ﴾ ضمير الفاعل يعود على الشيطان، والهاء ضمير المفعول به يعود على العباد الذين أضلهم الشيطان، يعدهم بماذا؟ يعدهم بأشياء يتمنونها ويرجونها فيتبعونه، فمثلاً يقول للإنسان: افعل هذه المعصية وتب إلى الله، افعل هذه المعصية وهي صغيرة، افعل هذه المعصية ولك كذا وكذا، كما قال لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

قوله: ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ أي: يرجيهم ويفتح أمامهم الآمال الكاذبة.

قوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهنا إظهار في موضع الإضمار، وكان مقتضى السياق أن يقول: وما يعدهم إلا غروراً، لكنه أظهر في مقام الإضمار لإظهار عداوته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

وقوله ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ يعني: إلا خداعاً وباطلاً.

من فوائد الآيات الكريمات:

١ ـ بيان حقيقة الأصنام، وأنها من الجنس الضعيف، لقوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾، وقد سبق لنا في التفسير هل المعنى أنهم يسمون الأصنام بأسماء الإناث، أو أن هذه الأصنام بضعفها مثل الإناث بالنسبة للذكور؟

٢ ـ أن عبادة الشيطان دعاء، لقوله: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾.

٣ ـ أن الطاعة تسمى دعاء وعبادة، لقوله: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾.

٤ ـ أن الشيطان يغوي بني آدم حتى يضلهم إلى هذا الحد، فيجعلهم عباداً له، وقد سبق لنا الكلام عن كلمة مَرِيد هل هي صفة كاشفة أو صفة مقيدة؟ بمعنى هل الشياطين كلهم مردة، أو أنهم ينقسمون؟ وذكرنا في هذا قولين: يحتمل أنها صفة كاشفة، والمعنى: أن كل شيطان فهو مريد، ويحتمل أنها صفة مقيدة وأن الشياطين ينقسمون إلى مردة وغيرهم.

٥ ـ أن الله لعن الشيطان، لقوله: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾.

٦ ـ التحذير من الانصياع لأوامر من لعنه الله؛ لأن هذه الجملة كالتعليل لذمهم حينما عبدوا الشيطان.

٧ ـ أن الشيطان أقسم بأن يتخذ من عباد الله نصيباً مفروضاً، لقوله: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

٨ ـ إثبات القول للشيطان، وأنه يقول كما أنه يفعل أيضاً، وقد أخبر النبي ﷺ أنه يأكل ويشرب بشماله، فهو يقول ويفعل ويُمَنِّي ويعد ويضر.

٩ ـ أن نصيب الشيطان من عباد الله مفروض؛ أي: مقدر لا بد أن يكون، وهذا كقوله تعالى في سورة هود: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

١٠ ـ أن الشيطان أقسم قسماً مؤكداً أن يضل هؤلاء النصيب الذين فرضوا له، وهذا القسم له مدلوله، فيتفرع عليه أنه

يجب علينا أن نحذر من وساوس الشيطان لأنها كلها ضلال، لقوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

١١ ـ أن هذا الإضلال الذي يقع من الشيطان لبني آدم مصحوب بالأمنيات، بمعنى أنه يدخل عليهم الأماني وأنهم ينالون خيراً، وأن المعاصي لا تضرهم، وأن التوبة قريبة وما أشبه ذلك.

١٢ ـ الحذر ممن يضلك ويدخل عليك الأماني الكاذبة؛ لأن الضلال كله شر.

١٣ ـ تحريم قطع آذان الأنعام إذا كانت على الوجه الذي يستعمله أهل الجاهلية، وقد سبق أن أهل الجاهلية يقطعون أذان الأنعام للإشارة إلى أنها محرمة مسيبة، فهل يقال بناءً على ذلك: أن الإنسان لو قطع آذان الأنعام لمصلحة دنيوية فهل يجوز أو لا؟

الجواب: أنه يجوز؛ لأن هذا ليس من أوامر الشيطان.

١٤ ـ أن الشيطان يأمر بني آدم فيغيرون خلق الله، لقوله: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾، وهل المراد تغييرهم خلق الله تعالى بالأنعام أو هو عام؟ الصواب: أنه عام، وقد مر علينا ذلك في التفسير، وأشرنا إلى حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

١٥ ـ أن الأصل في تغيير خلق الله المنع؛ لأنه من أوامر الشيطان، وقولنا: الأصل احترازاً من تغيير خلق الله الذي أمر الله به؛ كحلق العانة، والشارب، ونتف الإبط وما أشبه ذلك، فإن هذا من التغيير؛ ولكنه مأذون فيه، فلا يدخل في أوامر الشيطان، إذ أن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء.

وهل من تغيير خلق الله صبغ الشيب بالسواد؟

الجواب: نعم؛ لأن هذا الذي صبغه بالسواد أراد أن يعيد

نفسه شاباً، فيغير خلق الله من الشيخوخة إلى الشباب، ولهذا أمر النبي عليه الصلاة والسلام بتغيير الشيب بغير السواد[١].

ويدخل في تغيير خلق الله الوشم والوشر والنمص، كل هذا داخل.

وهل يدخل في تغيير خلق الله حلق اللحية؟

الجواب: يحتمل أن يقال: إنه داخل، لا سيما إذا أصر الإنسان عليه وواظب عليه، ويحتمل أن يقال: إن هذا ليس تغييراً لأن اللحية تنبت، وإذا كانت تنبت لم يغير الخلق، لكن غالب الذين ابتلوا بحلق اللحية يستمرون عليه، فيكون عملهم هنا محاولة لتغيير خلق الله عزّ وجل، وقد صرح بعض العلماء بأن حلق اللحية من تغيير خلق الله.

١٦ ـ التحذير من اتخاذ الشيطان ولياً، لقوله: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾.

فإن قال قائل: بماذا نعرف أن هذا الرجل موالٍ للشيطان أو لا؟

فالجواب: نقول: كل من عصى الله فإنه موالٍ للشيطان، لكن الولاية قد تكون عامة وقد تكون خاصة، فإذا أطاع الشيطان في الكفر والشرك كانت الولاية عامة، وإذا أطاعه في معصية من المعاصي كانت خاصة، وليعلم أنه يفوت من ولاية الإنسان لربه عزّ وجل إذا والى الشيطان بقدر ما والى به الشيطان.

١٧ ـ بيان أن أكثر الخلق قد خسروا؛ لأن أكثر الخلق قد اتخذوا الشيطان ولياً من دون الله.

١٨ ـ التأكيد على التحذير من الشيطان ووعده وأمانيه،

---

(١) رواه مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب استحباب خضاب الشيب بصفرة أو حمرة وتحريمه بالسواد (٢١٠٢) عن جابر بن عبد الله.

فتكون الجملة الأخيرة: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ تأكيداً لقوله: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

١٩ ـ التحذير من غرور الشيطان، وإدخال الأماني والرجاء، لقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء: ١٢١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المشار إليه الذين أطاعوا الشيطان واتبعوه.

قوله: ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مرجعهم، وجهنم: اسم من أسماء النار، وسميت بذلك لأنها ـ والعياذ بالله ـ قعيرة وسوداء مظلمة، فهي كلها جهمة.

قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي: لا يجدون عنها ملاذاً ومفراً، بل هم خالدون فيها ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨] كما في آيات أخرى.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن مرجع الطائعين للشيطان جهنم، وأنه لا يمكن أن يخرجوا منها، ويكون ذلك على من أطاعوه طاعة مطلقة، أما من أطاعوه في بعض المعاصي فإن مذهب أهل السنة والجماعة أنهم لا يخلدون في النار، وإنما يعذبون بقدر أعمالهم ثم يخرجون من النار.

٢ ـ إثبات جهنم وهي النار، لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

٣ ـ أن أهل جهنم لا يمكن أن ينجوا منها، والمراد بأهلها الكفار الذين خرجوا من الإسلام إلى الكفر.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ [النساء: ١٢٢].

مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن القرآن الكريم مثاني تثنى فيه المعاني، فإذا جاء الوعيد جاء الوعد، وإذا جاء ذكر النار جاء ذكر الجنة، وإذا جاء ذكر المؤمنين جاء ذكر الكافرين، وهلم جرا، وذلك من أجل أن لا يكون الإنسان خائفاً دائماً فيستولي عليه اليأس، ولا راجياً دائماً فيستولي عليه الأمن من مكر الله، بل يكون بين هذا وهذا.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لا يكفي الإيمان، بل لا بد من إيمان وعمل، وقوله: ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي: آمنوا بكل ما يجب الإيمان به من أمور الغيب، وقد بيَّن النبي ﷺ أصول ذلك في حديث جبريل عليه السلام حيث قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**»[(١)].

وأما قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فالمراد بالصالحات الأعمال، ولهذا قال النحويون: إن الصالحات صفة لموصوف محذوف، والتقدير: الأعمال الصالحات، وحذف الموصوف كثير

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان...، حديث رقم (٨) عن عمر بن الخطاب.

في اللغة وفي القرآن أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ: ١١]؛ أي: دروعاً سابغات.

والأعمال الصالحات ما كان خالصاً صواباً، فالخالص: هو الخالص لله الذي ليس فيه شرك لأحد، والصواب: هو الذي كان على شريعة الله، وبهذا ينتفي الإشراك وتنتفي البدعة، فالإشراك ينتفي بالإخلاص، والبدعة تنتفي بالمتابعة، ولا يمكن أن تتحقق المتابعة إلا إذا وافقت الشرع في أمور ستة، وهي: السبب، والجنس، والقدر، والهيئة، والزمان، والمكان، إذا وافق العمل الشرع في هذه الأمور الستة تحققت فيه المتابعة، وإن اختل واحد منها فلا متابعة.

أولاً: السبب، فلو أن الإنسان تعبد لله تعالى عبادة مقرونة بسبب لم يجعله الله سبباً فلا متابعة، ومن ذلك ما يحدث في مولد النبي ﷺ من الصلاة عليه والأذكار وغير ذلك، فهي حتى وإن كانت مباحة فإنها ليست موافقة للشرع؛ لأن مرور الوقت الذي ولد فيه ليس سبباً لإحداث هذه العبادة.

كذلك أيضاً يوجد بعض الناس إذا تجشأ قال: الحمد لله، وهذا لا يصح؛ لأن التجشأ ليس سبباً للحمد، وإلا لكان خروج الريح من الدبر سبباً للحمد، ولا قائل به حتى من العوام.

إذاً: نقول: هذا يعتبر غير متبع فيه الرسول عليه الصلاة والسلام.

وبعض الناس إذا أعطيته بخوراً، قال: اللهم صل على محمد، فجعل تبخره سبباً للصلاة على النبي ﷺ، فنقول: هذا

ليس فيه اتباع؛ لأن النبي ﷺ كان يتطيب ولم ينقل عنه أنه كلما تطيب صلى على النبي.

ومن ذلك أيضاً: أن بعض الناس إذا تثاءب يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فهذا ليس له أصل، وليس من الشرع؛ لأن النبي ﷺ دلنا على ما نفعله فإذا حصل التثاؤب، بأن يكظم الإنسان ما استطاع فإن لم يستطع فإنه يضع يده على فيه.

الثاني: أن تكون العبادة موافقة للشرع في جنسها، فلو تعبد لله تعالى بشيء لم يتعبد الله عباده بجنسه فإنه لا يقبل، ولا يكون من الشرع، مثاله: أن يضحي بفرس، والفرس حلال، لكنه لو ضحى به لم تقبل أضحيته؛ لأنه مخالف للشرع في جنسه، إذ أن الأضاحي لا تكون إلا من بهيمة الأنعام.

الثالث: أن تكون العبادة موافقة للشرع في قدرها، فلو أنه صلى خمساً في رباعية، أو أربعاً في ثلاثية، أو ثلاثاً في ثنائية لم تصح عبادته؛ لأنه زاد على القدر المشروع، وكذلك لو توضأ أربع مرات فإن هذه الزيادة لا يؤجر عليها؛ لأنه زاد عن الأمر المشروع، وكذلك لو طاف ثمانية أشواط فالزائد ليس من الشرع فلا يثاب عليه.

الرابع: أن تكون العبادة موافقة للشرع في هيئتها، بأن تكون على الهيئة التي وردت، فلو أن الإنسان صلى فسجد قبل أن يركع، أو أتى بالركوع ولكن بعد السجود لم تقبل لمخالفتها الشرع في هيئتها، وكذلك لو توضأ منكساً فبدأ بغسل الرجل ثم مسح الرأس، ثم غسل اليدين إلى المرفقين، ثم غسل الوجه، فإن هذا الوضوء لا يصح.

الخامس: أن تكون العبادة موافقة للشرع في الزمان، فلو أن الإنسان صلى قبل الوقت بدقيقة واحدة، فصلاته غير صحيحة؛ لأنها لم تكن في الوقت الذي عينه الشرع، ولو ضحى الإنسان ـ أي: ذبح أضحيته ـ في اليوم التاسع من ذي الحجة لم تقبل؛ لأنها في غير الزمن الذي عينه الشرع.

السادس: أن تكون العبادة موافقة للشرع في مكانها، فلو اعتكف في بيته بدلاً عن المسجد لم يقبل اعتكافه؛ لأنه على غير الوجه المشروع.

إذاً: العمل الصالح هو الذي توبع فيه النبي ﷺ، ولا تتحقق المتابعة حتى تكون العبادة على وجه الشرع في أمور ستة.

قوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ هذه الجملة خبر لمبتدأ، وهو «الذين»، والسين فيها للتحقيق والتقريب، أما التحقيق فلا إشكال، وأما التقريب فإنه وإن كان بعيداً فإنه لتحقق وقوعه يكون كالقريب؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، فعبر بالماضي عن المستقبل وذلك لتحقق وقوعه؛ لأنه قد يورد الإنسان عليه إيراداً فيقول: إذا قلت: إن السين في ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ للتحقيق والتقريب فالإنسان ربما يبقى في الدنيا ثمانين سنة قبل أن يموت، فنقول: المحقق كالقريب، فالمستقبل لا شك أنه قريب مهما بعد، والماضي بعيد مهما قرب.

قوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وأحياناً يأتي التعبير «جنة» مفرداً، ولا منافاة، فهي جنة باعتبار الجنس، وجنات باعتبار الأنواع كما قال النبي ﷺ: «**جنتان من**

ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما»[(١)]، فما هي الجنة؟ يقول بعض الناس: الجنة هي البستان الملتف الأشجار مع كثرتها، وإذا عرفناها بهذا التعريف ربما تقل من قيمتها أمام العامة، فنقول: الجنات هي الدار العظيمة التي أعدها الله تعالى للمتقين، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ليس المعنى: من تحت أرضها، بل من فوق الأرض، لكنها من تحت القصور والأشجار، والنهر المطرد من تحت الأشجار والقصور يكون له منظر جميل جذاب، جعلنا الله من أهلها بمنه وكرمه.

قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ هذا جزاء المتقين الذين قاموا بالإيمان والعمل الصالح.

ثم قال عزّ وجل: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ ﴿وَعْدَ﴾ مصدر، عاملها مضمون الجملة السابقة، فهو مصدر مؤكد لمضمون الجملة، ولهذا لا يصح أن يذكر معه العامل؛ أي: عامل المصدر؛ لأنه إذا ذكر معه عامل المصدر بقي التوكيد لهذا العامل لا للجملة، والمقصود هو تأكيد الجملة؛ أي: أن هذا الخبر من الله عزّ وجل وعد.

وقوله: ﴿حَقًّا﴾ قيل: إنه مصدر مؤكد لمصدر قبله؛ أي: حق؛ أي: أن هذا الوعد حق وقيل إنه: مصدر لفعل محذوف، والتقدير: أحق ذلك حقاً.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة الرحمن، حديث رقم (٤٥٩٧)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم، حديث رقم (١٨٠) عن عبد الله بن قيس.

والحق هو الشيء الثابت، وضده الباطل، وهو الزائل الضائع سدى، وأما الحق فهو ثابت وليس بضائع، بل هو مقصود بذاته، وله ثمراته العظيمة.

قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام، لكنه مشرب معنى النفي، فهو أبلغ من الاستفهام المجرد، وأبلغ من النفي المجرد، وقد ذكرنا فيما سبق أنه إذا أشرب الاستفهام معنى النفي فإنه يكون مشرباً معنى التحدي؛ أي: إن كنت تزعم أن أحداً أصدق من الله قيلاً فأت به.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾ أصدق: اسم تفضيل مأخوذ من الصدق، والصدق هو: الإخبار بما يوافق الواقع، وضده الكذب، وهو: الإخبار بما يخالف الواقع.

وقوله: ﴿قِيلًا﴾ بمعنى: قولاً، وهو تمييز واقع بعد اسم التفضيل؛ كقوله تعالى: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

٢ ـ أن الإيمان وحده لا يكفي، بل لا بد من عمل، وأن العمل وحده لا يكفي، بل لا بد من إيمان، فلا يستحق الجنة إلا من جمع بين الإيمان والعمل الصالح، وإذا ذكر ثواب الجنة مقيداً أو معلقاً بالإيمان وحده، فالمراد بذلك الإيمان المتضمن للعمل الصالح.

٣ ـ أن العمل لا ينفع صاحبه إلا إذا كان صالحاً، والعمل الصالح هو: الخالص الصواب؛ أي: ما ابتغي به وجه الله، وكان على شريعة الله.

٤ ـ أن نشهد لكل مؤمن عمل الصالحات بأنه يدخل الجنة، لقوله تعالى: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ وهذا على سبيل العموم، فإننا نشهد لكل مؤمن عامل للصالحات أنه سيدخل الجنة، لكن لا نطبق الشهادة هذه على جميع أفراد العموم، بمعنى: أن نخص واحداً بعينه إلا من شهد الله له بذلك، أو شهد له رسوله ﷺ، أو أجمعت عليه الأمة.

إذاً: الشهادة لمعين بالجنة لا تكون إلا لأحد ثلاثة:

الأول: من أخبر الله عنه بأنه من أهل الجنة.

والثاني: من أخبر عنه الرسول عليه الصلاة والسلام.

والثالث: من أجمعت الأمة عليه؛ أي: على الثناء عليه وأنه من أهل الخير وأنه من أهل الحق.

فمن الأول: أبو بكر رضي الله عنه، فإن قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ١٤ ـ ٢١] أكثر المفسرين يقولون: إن هذه نزلت في أبي بكر، وعلى هذا تكون الآية دالة على الإخبار أنه رضي الله عنه سيجنب النار، وإذا جنب النار فسيكون من أهل الجنة لأنه ليس هناك إلا داران.

وأما من شهد له النبي ﷺ بالجنة فكثير، فمثلاً: زوجات الرسول كلهن في الجنة؛ لأن زوجاته في الدنيا هن زوجاته في الآخرة، ومن ذلك العشرة المبشرون بالجنة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وسعيد، وسعد بن أبي وقاص . . رضي الله عنهم،

ومنهم ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه، فقد شهد له النبي ﷺ بالجنة، ومنهم بلال رضي الله عنه شهد له النبي ﷺ بالجنة، ومنهم عكاشة بن محصن رضي الله عنه شهد له النبي ﷺ بالجنة، والأمثلة على هذا كثيرة.

وأما ما أجمعت الأمة عليه فدليله: «أن النبي ﷺ مرت به جنازة فأثنوا عليها خيراً فقال: «**وجبت**»، ثم مرت به أخرى فأثنوا عليها شراً فقال: «**وجبت**»، قالوا: ما وجبت يا رسول الله؟! قال: «**أما الأول فأثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وأما الثاني فأثنيتم عليه شراً فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في أرضه**»[1].

ولكن من كان ظاهره الإيمان والعمل الصالح نقول: إن من آمن وعمل صالحاً فهو من أهل الجنة، ولا نقول هذا بعينه؛ لأننا لا نعلم ماذا يختم له، نسأل الله أن يختم لنا بخير، فهذا الرجل الذي كان مع النبي ﷺ في غزاة، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً لا يدع للعدو شاذة ولا فاذة، فقال النبي ﷺ: «**هو من أهل النار**» فعظم ذلك على الصحابة وشق عليهم، لما يرونه من جهاده، فقال رجل من الصحابة: لألزمنه، يعني: ألازمه حتى أنظر ماذا تكون خاتمته، فلزمه، فأصاب هذا الرجل سهم من العدو فجزع جزعاً شديداً، فسل سيفه ثم وضع ذبابته على صدره واتكأ عليه حتى خرج مع ظهره فمات والعياذ بالله، فجاء الرجل الذي لزمه إلى النبي ﷺ، وقال: أشهد أنك رسول الله، إن الرجل الذي قلت: إنه من أهل النار، حصل عليه كيت وكيت، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس،**

---

(١) تقدم ص١٠٦.

وهو من أهل النار»[١] نعوذ بالله.

ولهذا لا يجوز أن نشهد لشخص بأنه في الجنة وإن كنا نرى أن عمله من عمل أهل الجنة.

٥ ـ أن الله يقول، والقول هو لفظ مسموع، فيكون الله سبحانه يقول قولاً حقيقياً، وهو مسموع، وإلا لما كان قولاً؛ لأن القول الذي هو قول النفس لا بد أن يقيد كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ [المجادلة: ٨].

وأما إذا أطلق فالمراد به القول المسموع، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، أن الله تعالى يقول قولاً مسموعاً، وأنه بصوت وأنه بحرف، وهذا لا يتضمن أي نقص ولا مماثلة بل هو كمال، وهناك مذاهب ذكرها ابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة بلغت ثمانية مذاهب، فلتراجع في موضعها في كلام الله عزّ وجل، والمشهور من هذه المذاهب: مذهب الأشاعرة بأن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وأما ما يسمع فهو أصوات مخلوقة خلقها الله عزّ وجل لتعبر عما في نفسه.

وقالت الجهمية: بل كلام الله مخلوق، وإضافته إلى الله تعالى من باب التشريف وليس من باب الوصف، فقالوا: إن كلام الله كغيره من المخلوقات، وكلاهما خالف السنة؟ والأشاعرة أبعد عن السنة من المعتزلة؛ لأن الجميع اتفقوا على أن ما يسمع فهو مخلوق، لكن المعتزلة قالوا: هو كلام الله، والأشاعرة قالوا: ليس كلام الله، بل هو عبارة عن كلام الله، وكلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وعلى كلامهم يكون الكلام بمعنى العلم تماماً، وهذا كله باطل.

---

(١) تقدم ص١١٤.

٦ ـ وصف كلام الله تعالى بالصدق، لقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ وهل يمكن أن يوصف بالكذب؟ كلا والله، لا يمكن.

فإن قال قائل: أليس أهل البلاغة يقولون: إن الخبر هو ما احتمل الصدق والكذب؟

قلنا: بلى، لكنهم يقيدون ذلك فيقولون: ما احتمل الصدق والكذب لذاته؛ أي: بقطع النظر عن قائله، فإن من القول ما يقطع بكذبه، ومن القول ما يقطع بصدقه، ولا يحتمل هذا ولا هذا.

٧ ـ أنه يصح أن نضع اسم التفضيل بين صفات الله وصفات الخلق، فنقول: كلام الله أصدق الكلام، وعلم الله أوسع العلوم، والله تعالى أعلم من غيره، وقد ظن بعض الناس أنك إذا قرنت الوصف باسم التفضيل فإنك قد مثلت الله، حتى ذهبوا يفسرون قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ٥٥] يفسرونها بأنه عالم، فيقولون: أعلم أي: عالم، فسبحان الله! فروا من النقص، ولكنهم وقعوا في أنقص منه؛ لأن اسم التفضيل يدل على علو صفات الله وأنها أعلى الصفات، وليس فيها نقص بوجه من الوجوه، فهم يقولون: عالم، وإذا قلت: عالم لم يمنع المشاركة والمساواة، فإنك تقول: عمرو عالم، وزيد عالم، ومحمد عالم، وأبو بكر عالم، فيستوون، لكن يؤتى الإنسان من حيث أن عنده عقيدة فيحاول أن يصرف النصوص إليها فيقع في الزيغ، نسأل الله العافية.

إذاً: أعلم في أسماء الله وصفاته على بابها، حتى إن الله تعالى قال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، وكل يقول الجواب: الله خير، حتى المشركون مع أصنامهم يقولون: الله خير.

ذكر أن النبي ﷺ سأل أبا عمران بن حصين: كم إلهاً تعبد، قال: «**ستة، خمسة في الأرض وواحد في السماء**»، قال: من تعد لرغبتك ورهبتك، قال: «**الذي في السماء**»(١)، فهم يقرون بأن الله تعالى فوق كل شيء، حتى المشركون يقرون بذلك.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ﴾ الخطاب في قوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ لهذه الأمة، وقوله: ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ﴾ يعني: بذلك اليهود والنصارى، وذلك أن اليهود والنصارى قالوا: نحن أهل الكتاب، ونحن أسبق منكم، ونحن أولياء الله وأحباؤه، وما إلى ذلك، يريدون أن يفضلوا أنفسهم على هذه الأمة، وهذه الأمة تقول: إن رسولنا خاتم النبيين، وإن هذه الأمة فضلت على الناس، وتريد أن تكون أفضل من أهل الكتاب، ففصل الله بينهم، وحكم بينهم بحكم عدل، فقال: الأمر ليس بأمانيكم يا أيها المسلمون! ولا بأماني أهل الكتاب، وليس الأمر يعطى على

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما جاء في جامع الدعوات عن النبي ﷺ (٣٤٨٣)

حسب أمنية الشخص؛ فإذا تمنى حصل له ما تمنى، كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [النجم: ٢٤ ـ ٢٥].

وقوله: ﴿أَهْلِ﴾ يعني: اليهود والنصارى، والكتاب: يراد به التوراة بالنسبة لليهود، والإنجيل بالنسبة للنصارى، ثم جاء الحكم فقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، ﴿مَن﴾ هذه شرطية، وقوله: ﴿يَعْمَلْ﴾ فعل الشرط، وقوله: ﴿يُجْزَ﴾ جواب الشرط، وقوله: ﴿بِهِۦ﴾ أي: بسوئه، سواء منكم أي: هذه الأمة، أو من أهل الكتاب.

وإذا نظرنا في هذا الحكم وجدنا أنه ينطبق على أهل الكتاب أكثر مما ينطبق على هذه الأمة؛ لأن أهل الكتاب عملوا سوءاً وذلك بتكذيبهم محمداً ﷺ، فيجزون به.

قوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ﴾ معطوفة على جواب الشرط.

قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من سواه، قوله: ﴿وَلِيًّا﴾ يتولاه لتحصيل المصالح.

قوله: ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدافع عنه المساوئ والمفاسد.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن التمني لا يجدي شيئاً، لقوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهذا يشهد لما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني**»[1].

---

(١) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٢٥)، حديث =

٢ ـ العدل بين المتخاصمين؛ حتى وإن كان أحدهما على حق والثاني على باطل، فالواجب العدل وأن يحكم لكل واحد ما يستحق، وجه ذلك: نفي كون الشيء بالأماني بالنسبة للمسلمين واليهود والنصارى، ثم إثبات أن من عمل سوءاً جوزي به، وهذا غاية العدل، ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

٣ ـ التهديد لمن عمل سوءاً، لقوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ فإن عمله لن يضيع وسوف يجزى به، والآية مطلقة فهل يجزى في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما؟ الجواب نقول: أما إذا كانت العقوبة في الدنيا عقوبة شرعية فإنه لا يجمع عليه بين العقوبتين، ولهذا صح عن النبي ﷺ أن من أصاب حداً فأقيم عليه في الدنيا كانت كفارة له[1]، وأما العقوبات غير الشرعية وهي العقوبات القدرية التي ينزلها الله بالمرء من مرض أو فقر أو غير ذلك، فهذه قد تكفر السيئات ولا يبقى عليه شيء في الآخرة، وقد لا تكفر السيئات جميعاً.

٤ ـ جواز إخلاف الوعيد؛ لأن من الوعيد قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، ولكن الله تعالى قال في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وهذا يدل على أن من عمل سوءاً قد يغفر الله له ما عدا الشرك.

= رقم (٢٤٥٩)؛ وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد، حديث رقم (٤٢٦٠)؛ وأحمد (٤/ ١٢٤) عن شداد بن أوس.

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار (١٨)؛ ورواه مسلم، كتاب الحدود، باب الحدود كفارة لأهلها (١٧٠٩).

فإذا قال قائل: كيف نجيب عن هذه الآية: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ وهي خبر؟

قلنا: هذه يراد بها التهديد، وهي من باب الوعيد، والعفو عن الوعيد من باب الكرم، وهو مدح وليس بذم، ولهذا امتدح الشاعر نفسه بقوله:

وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

٥ ـ أن الإنسان لا يجازى بأكثر مما عمل من السوء، لقوله: ﴿يُجْزَ بِهِۦ﴾، والباء هنا للعوض، أو للبدل، بخلاف من عمل حسناً فإنه يعطى أكثر، كما في آيات أخرى.

٦ ـ كمال قوة الله تعالى وسلطانه، لقوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، ومثل هذه الآية قد تكررت في القرآن كثيراً، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣] ومثل قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ [الأحزاب: ٦٥] وهذا كثير؛ لأن الله سبحانه كامل القوة، وكامل السلطان، فلا أحد يمنعه ولا أحد يدفعه.

٧ ـ أن المصائب في الدنيا كفارات؛ لأنها نوع من الجزاء، وقد أخبر النبي ﷺ أنه ما من غم ولا هم ولا حزن يصيب العبد إلا كفر به عنه حتى الشوكة إذا أصابته فإن الله يكفر بها عنه[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض (٥٦٤٢)؛ ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٢)

□ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٤].

﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾ هذه شرطية، وفعل الشرط قوله﴿يَعْمَلْ﴾، وجواب الشرط قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾، وقرنت بالفاء لأنها جملة اسمية.

وقوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ﴾ قلنا: هي شرطية، والشرط يفيد العموم، وأكد هذا العموم بقوله: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ادعى بعضهم أن «من» زائدة، وقال: إن التقدير: ومن يعمل الصالحات، وهذا قول ليس بصحيح؛ لأن من لا تزاد إلا في نفي أو شبهه، كما قال ابن مالك رحمه الله:

وزيد في نفي وشبهه فجر نكرة كما لباغ من مفر

ووجودها هنا أكمل من عدمها؛ لأن «من» لبيان جنس العمل المبهم، في قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾ فـ«من» هنا بيانية.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: من الأعمال الصالحات، وهذا الأسلوب كثير في القرآن، وهو أن يحذف الموصوف وتبقى الصفة، وعكسه قليل، يعني: حذف الصفة قليل، وحذف الموصوف كثير، وذلك لأن الصفة تدل على الموصوف ولا عكس.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: من الأعمال الصالحات، والصالحات ما جمع شرطين: الشرط الأول: الإخلاص، والثاني: المتابعة لشريعة الله، سواء كان لشريعة محمد ﷺ إن كان

من هذه الأمة، أو لشريعة من شريعته باقية من الرسل السابقين.

قوله: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ «من» هذه بيان لـ«من» في قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

وقوله: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ وهذا من باب التفصيل بعد الإجمال، وإلا فمن المعلوم أن «من» للعموم الشامل للذكر والأنثى.

قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الجملة حالية، حال من فاعل يعمل، يعني: والحال أنه مؤمن، وهذا شرط لا بد منه، إذ أن العمل الصالح لا ينفع مع عدم الإيمان، وكلما ازداد الإنسان إيماناً ازداد قوة في العمل الصالح.

قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ وفي قراءة: «يُدْخُلُونَ»، فعلى القراءة التي في المصحف تكون الجنة مفعولاً به، وعلى القراءة الأخرى: يُدخلون الجنة، تكون مفعولاً ثانياً ليدخلون، ونائب الفاعل في محل المفعول الأول.

وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ هذا إظهار في موضع الإضمار، ولو قيل: فإنهم يدخلون الجنة لصح؛ لأن اسم الإشارة من باب الأسماء الظاهرة.

والنكتة في هذا الإظهار: بيان علو مرتبتهم، حيث أشار إليهم بإشارة البعيد ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾.

وقوله: ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ الجنة هي الدار التي أعدها الله تعالى لأوليائه المتقين، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، أسأل الله أن يجعلنا من أهلها، آمين.

وقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ يعني معناه: أن كل إنسان يكون

في مكانه الذي يستحقه بدون نقص، والنقير هو: النقرة التي تكون في ظهر النواة، وفي النواة ثلاثة أشياء كلها مضرب للمثل في القلة: الفتيل، والنقير، والقطمير.

أما الفتيل فهو: الحبل الذي في مجرى النواة من جهة بطنها.

وأما النقير فهو: النقرة التي في ظهرها.

وأما القطمير فهو: الغشاء الذي يكون عليها.

وكلها يراد بها ضرب المثل، وإنما قال الله تعالى: ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ لئلا يظن الظان أن الإنسان إذا كان في منزلة فربما ينزل من منزلته بسبب من الأسباب، وليس الأمر كذلك، ونضرب لهذا مثلاً: وهو أن الله تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١] والذرية هنا المراد بهم من يتبعون آباءهم وهم الصغار فهؤلاء يتبعون آباءهم، فإذا كانت منزلة الابن أدنى مرتبة من منزلة الأب فإن الابن يُرقى إلى منزلة الأب، ولا يُنزل الأب في مقابلة ترقية الابن، يعني: لا يقال مثلاً إذا كانت المسافة عشرين درجة ينزل الأب عشر درجات ويصعد الابن عشر درجات، بل يرفع الابن عشرين درجة ويلتحق بالأب بدون نقص على الأب، فهذا والله أعلم هو الفائدة في قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن القرآن الكريم كما وصفه الله عزّ وجل مثاني؛ أي: تثنى فيه الأمور، فإذا ذكر المؤمن ذكر الكافر، وإذا ذكر جزاء

الكافر ذكر جزاء المؤمن وهكذا، وتأمل هذا تجده أكثر ما يكون في القرآن، والحكمة من ذلك: أن يكون الإنسان سائراً إلى الله بين الخوف والرجاء؛ لأنه إذا ذكر ما أعد الله للمتقين غلب رجاؤه، وإذا ذكر ما أعده الله للكافرين غلب خوفه، والأولى أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً.

وقد اختلف العلماء رحمهم الله في هل لا بد أن يكون خوف الإنسان ورجاؤه واحداً في كل حال أو في بعض الأحوال؟ وهل هو في كل عمل أو هو في بعض الأعمال؟

فمن العلماء من يقول: إذا كان الإنسان مريضاً فالأولى أن يغلب جانب الرجاء، حتى يقدم على ربه وهو يحسن الظن به، لقول النبي ﷺ: **«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»**[1].

ومن العلماء من يقول: إذا هم بالسيئة فليغلب جانب الخوف حتى يرتدع، وإذا عمل العمل الصالح فليغلب جانب الرجاء أن الذي وفقه للعمل سوف يقبل منه.

وعلى كل حال: العلماء اختلفوا في هذا، فنقول: كل إنسان ونفسه، إذا رأيت من نفسك أنه غلب عليك الخوف حتى وصلت إلى اليأس من رحمة الله؛ سواء في أمور الدين أو أمور الدنيا فحينئذ قوِّم نفسك وعدل نفسك، وإذا رأيت أنك تغلب جانب الرجاء فقوم نفسك أيضاً؛ لأن بعض العصاة إذا قلت له: اتق الله يا أخي! وارتدع عن المعصية، يقول لك: الله غفور رحيم، فيغلب جانب الرجاء، وهذا خطأ، ومن الناس من يكون

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، حديث رقم (٢٨٧٧) عن جابر بن عبد الله.

بالعكس لو يفعل أدنى شيء من المعاصي أيس وقنط من رحمة الله، فغلب جانب الخوف.

٢ ـ أنه لا فرق بين الرجال والنساء فيما يستحقون من الجزاء، ووجه الدلالة: قوله: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ ثم ذكر الجزاء فقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾، لكن من حيث العمل فإن بينهما فرقاً، لقول النبي ﷺ: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن**»[1]، ثم فسر النقصان في دينها بأنها إذا حاضت لم تصل ولم تصم، أما الجزاء على العمل فهما سواء.

٣ ـ أنه لا بد لقبول العمل أن يكون صالحاً، لقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فإن كان فيه شرك لم يقبل؛ لفوات الشرط وهو الإخلاص، ولهذا قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[2] ومن عمل عملاً مبتدعاً بإخلاص تام لكن ليس على شريعة الرسول فإنه لا يقبل منه؛ لأنه على غير الاتباع، وقد قال النبي ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[3].

٤ ـ أنه لا بد أن يكون العمل الصالح مبنياً على إيمان لا شك معه، لقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، وأما من عمل الصالحات ظاهراً

---

(١) تقدم (١/ ٢٦٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، حديث رقم (٢٩٨٥) عن أبي هريرة.

(٣) تقدم (١/ ١٦٩).

لكن قلبه غير مؤمن ـ أعاذنا الله من ذلك ـ فإنه لن ينفعه العمل الصالح، كرجل مخلص يريد رضا الله عزّ وجل ويتبع الرسول ﷺ، لكنه متشكك مع إخلاصه فإنه لا يقبل منه.

ولكن هنا مسألة يجب التفطن لها، وهي أن القلب إذا كان خالصاً صريحاً فإن الشيطان يسلط عليه حتى يوقعه إما في شرك وإما في شك، وكلما كان الإنسان أصرح إيماناً فإن الشيطان يزيد في ضربه بسهامه، وتشكيكاته، وغير ذلك، فلتكن على حذر، وأعرض عن هذا وانته عنه، واستعذ بالله منه فإنه لا يضرك.

ولهذا كثيراً ما نسمع من يشتكي هذه الحال، فنقول له كما قال النبي ﷺ: «**استعذ بالله ثم انته**»[1] «استعذ بالله» هذا لجوء إلى الله فيما لا يمكن أن يخلصك من الشيطان إلا الله عزّ وجل، فاستعذ بالله، «وانته» هذا فيما يمكنك فعله، انته: بمعنى أعرض عن هذا ولا تفكر فيه، فلو كنت ذاهباً لتصلي، وسألك سائل: لماذا تصلي؟ لقلت: إيماناً بالله وابتغاءً لفضله وليس عندك في هذا شك، إذاً: ما يورده الشيطان على قلبك لا تلتفت إليه، وبكل سهولة يمكنك أن تتخلص من إيراداته، بيقينك بأنك ما جئت إلى المسجد ولا توضأت، وكذلك ما تركت الطعام والشراب والنكاح في صومك إلا وأنت مؤمن بالله عزّ وجل، ومؤمن بثوابه، وخائف من عقابه، بمثل هذه الأمور يمكن أن يستعين الإنسان على طرد هذه الوساوس، وإلا فإن الإنسان إذا استرسل معها ربما تهلكه، لكن الحمد لله أن الرسول ﷺ أعطانا هذا الدواء الناجع، بأن أقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم أنتهي، وأنظر إلى

---

(١) تقدم (١/ ٤٧٥).

عملي الذي أنا فيه وأقبل عليه، إن كان عبادة فعبادة، وإن كان أمراً دنيوياً فأمراً دنيوياً، المهم أن أتغافل عن هذا الشيء وأن لا استرسل معه؛ لأن الاسترسال معه الهلكة؛ لأنه وسواس لا حقيقة له.

ومن ثم جاءت الآية: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فوطن نفسك على الإيمان، ولا يكن في قلبك شيء من الشك؛ لأن النفس بكل بساطة تقول: لماذا توضأت؟ لماذا صليت؟ لماذا صمت؟ لماذا أديت الصدقة؟ وما أشبه ذلك.

٥ ـ علو منزلة من اتصف بهذه الصفة وهو العمل الصالح مع الإيمان، ويؤخذ من قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾.

٦ ـ أنه يجوز لنا أن نشهد لكل من عمل صالحاً وهو مؤمن أنه في الجنة؛ لأن هذا خبر من الله، والله تعالى لا يخلف وعده.

فإن قال قائل: وهل نشهد لكل واحد بعينه؟

الجواب: لا؛ لأن هناك فرقاً بين العموم والخصوص، وبين الإطلاق والتقييد، فلا نشهد لأحد بعينه إلا من شهد له الله سبحانه أو شهد له رسول الله ﷺ بذلك، فإننا نؤمن بهذا، فنقول: فلان في الجنة.

كذلك الكفر نفس الشيء، نقول: من ذبح لغير الله فهو كافر مشرك، لكن لا تشهد لكل إنسان ذبح لغير الله بأنه مشرك؛ لأنه قد يكون عن جهل، أو عن تأويل أو ما أشبه ذلك، ففرق بين التعيين والتعميم، وبين الإطلاق والتقييد، وهذه مسألة قل من يتفطن لها.

بل كثير من الناس من يأخذ العمومات ثم يطبقها على كل

فرد، وهذا غير صحيح؛ لأن هذا الذي حكمنا بأنه مؤمن حسب الظاهر لنا، يمكن أن يكون من أهل النار، لقول النبي ﷺ: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار**»[1]، وكذلك بالعكس، ربما يكون هذا الرجل يعمل ما يقتضي أن يكون كافراً ولكنه لا يدري وهو ينتسب للإسلام ويقول: إنه مسلم يصلي ويزكي ويصوم ويحج، لكن عنده خصلة شرك لا يعلم عنها، فهذا لا نقول: إنه من أهل النار، بل نقول: من فعل هذا فهو من أهل النار، لكن هذا الرجل بعينه لا، لاحتمال وجود الجهل أو التأويل.

٧ ـ نفي الظلم لقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾، ومن الذي يمكن أن يظلم؟ الجواب: الله عزّ وجل يمكن أن يظلم قدراً، لكن شرعاً وحكمة لا يمكن، فيكون قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ الظلم منفي عن الله الذي بيده الجزاء، وهذا النفي هو نفي لشيء ممكن إذ لو كان لشيء مستحيل لم يكن كمالاً؛ لأن انتفاء المستحيل ليس للكمال فهو منتف، لكن هو شيء ممكن، إلا أنه لكمال عدل الله غير ممكن، وعلى هذا فهو ممكن قدراً، ولو شاء الله لعذب من لا يستحق التعذيب، لكن حسب حكمة الله ورحمته يكون غير ممكن.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

---

(١) تقدم ص١١٤.

«مَنْ» هنا اسم استفهام، والمراد به النفي، وقد قلنا عدة مرات: أن النفي إذا جاء بصيغة الاستفهام كان أبلغ مما لو أتى بصيغة النفي الصريح؛ وذلك لأنه إذا أتى بصيغة الاستفهام صار مشرباً معنى التحدي؛ أي: كأن المتكلم يقول: ائتني بأحسن من كذا.. ائتني بأظلم ممن افترى على الله كذباً، وما أشبه ذلك.

قوله: ﴿دِينًا﴾ هنا منصوبة على التمييز؛ لأنها وقعت بعد اسم التفضيل.

وهي تمييز لكلمة ﴿أَحْسَنُ﴾؛ لأن أحسن مبهمة، لا ندري لأي شيء تضاف، فإذا جاءت بعدها كلمة منصوبة فهي مميزة ومبينة لها.

وقوله: ﴿دِينًا﴾ الدين هنا بمعنى العمل، وإنما قلنا ذلك لأن الدين يطلق بمعنى الجزاء، مثل قول الله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة]، وبمعنى: العمل كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ٦]، وكما في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

إذاً: قوله: ﴿دِينًا﴾ أي: عملاً، فالعمل الذي يبتغي عامله مقابلاً يسمى ديناً.

قوله: ﴿مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ الإسلام بمعنى الإخلاص؛ أي: فوض أمره إلى الله عزّ وجل، وهذا يعني: الإخلاص في القصد.

قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ جملة حالية من «مَنْ» في قوله: ﴿مِمَّنْ أَسْلَمَ﴾، والإحسان هنا: الموافقة للشريعة، فيكون في الآية دليل على شرطي العبادة، وهما الإخلاص والمتابعة، فالإخلاص

في قوله: ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾، والمتابعة في قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ لأن إحسان العمل هو موافقته الشريعة.

قوله: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ هذه جملة معطوفة على ما سبق للتوكيد المعنوي؛ لأن ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام هي الإخلاص، والقيام بالشريعة، فتكون هذه الجملة كأنها مؤكدة لما سبق ومتضمنة له.

وقوله: ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ هو أبو الأنبياء؛ لأن الأنبياء من بعده كانوا من ذريته، وفيها قراءتان إبراهيم، وإبراهام؛ أي: إبدال الياء ألفاً، وإذا أبدلت الياء ألفاً لزم فتح الهاء.

وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ يحتمل أن يكون حالاً من فاعل «اتبع»، وأن يكون حالاً من: ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، والثاني أرجح، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣]، ومن المعلوم أنه إذا كان إبراهيم حنيفاً وأمرنا باتباع ملته، فإننا سوف نكون حنفاء.

قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ الواو هنا استئنافية وليست عاطفة، فكأنه عزّ وجل استأنف ليبين مرتبة إبراهيم الذي أمرنا باتباعه؛ لأن الله اتخذه خليلاً، والخليل هو ذو المحبة الخالصة، وسمي بذلك لأن المحبة شملت جميع جسده حتى تخللت عروقه، وفي ذلك يقول الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلاً

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ الحث على الإخلاص، لقوله: ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾.

٢ ـ الحث على المتابعة، لقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

٣ ـ أنه لا أحد أحسن ديناً ممن هذا وصفه، وعلى هذا فلو قال النصارى: إنهم أحسن ديناً من المسلمين فنقول: هذا كذب؛ لأنه فقد منهم الإخلاص والمتابعة جميعاً، فالنصارى معلوم أنهم يقولون بالتثليث، وهم أيضاً لم يتبعوا شريعة الله؛ حيث كفروا بمحمد ﷺ.

٤ ـ فضيلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث أمرنا باتباعه، وهذا يعني: أنه إمام، ولهذا يطلق عليه العلماء اسم أو لقب: إمام الحنفاء.

٥ ـ أن الله اتخذ إبراهيم خليلاً، وهذه منقبة عظيمة له، وهل اتخذ غيره؟

الجواب: نعم، وهو رسول الله ﷺ، لقول النبي ﷺ: **«إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»**[1].

٦ ـ الإشارة إلى أن الخلة أعلى رتبة من المحبة لاختصاص إبراهيم ومحمد ﷺ بها، ولو كانت بمعنى المحبة؛ أو في مرتبتها لكانت ثابتة لجميع من يستحق المحبة، ومن المعلوم أنه لا يصح أن تقول: إن الله اتخذ المؤمنين أخلاء؛ لأن الخلة خاصة، ومن ثم نعلم خطأ من يقول: إبراهيم الخليل ومحمد الحبيب؛ لأن هذا تنقص للرسول عليه الصلاة والسلام، حيث أنزل مرتبته من الخلة إلى المحبة التي يشترك فيها حتى المؤمن المتقي المقسط الصابر.

---

(١) هذا اللفظ لمسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها، حديث رقم (٥٣٢) عن جندب.

٧ ـ إثبات أفعال الله عزّ وجل، لقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، والاتخاذ حادث بعد وجود سببه، وهذا ما يعبر عنه أهل العلم بقيام الحوادث بالله عزّ وجل؛ أي: بأنه تبارك وتعالى يفعل ما يريد ومتى شاء، خلافاً لمن قالوا: إنه لا تقوم به الأفعال الاختيارية، وأنه لا يتجدد له فعل، لا كلام ولا خلق ولا غيره، ولا شك أن هذا قول باطل، ومضمونه نقص الله عزّ وجل، حيث لا يفعل ما يشاء متى شاء.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ [النساء: ١٢٦].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هذه الجملة خبرية مكونة من مبتدأ وخبر، قدم فيها الخبر لفائدة الحصر، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لا يشركه أحد في ذلك قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣]، فلله ما في السماوات وما في الأرض.

وهنا قال: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ولم يقل: من في السماوات، قال بعضهم: تغليباً لغير العقلاء؛ لأن «من» في اللغة العربية يؤتى بها للعقلاء؛ أي: لذوي العقول، و﴿مَا﴾ لغير العقلاء، وغير العقلاء من المخلوقات أكثر من العقلاء، ويحتمل أنه أتى بـ﴿مَا﴾ ليعم ذلك الأشخاص والأوصاف؛ لأن تعيين «من» للعقلاء و﴿مَا﴾ لغير العقلاء إنما هو في الأعيان، لكن ﴿مَا﴾

للأعيان والأوصاف، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] حيث قال: ﴿مَا﴾ ومعلوم أن النساء من ذوي العقول، لكن لما كانت المنكوحة لا تنكح لعينها، إنما تنكح لما قام بها من أوصاف، والأوصاف معانٍ وليست عقلاً، قال ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وهذا قول أرجح من القول الأول: أن ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إنما أتت بـ﴿مَا﴾ دون «من» ليعم الأشخاص والأوصاف.

وقوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾، وفي بعض الآيات يقول الله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ والظاهر والله أعلم أن هذا من باب تنوع السياق والأساليب؛ لأن المعنى لا يختلف، إذ أن المعطوف له حكم المعطوف عليه، فإذا قال: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ فهو كما لو قال: «ما في السماوات وما في الأرض»، والتنوع في السياق جاء في القرآن كثيراً، كما يظهر للإنسان عندما يتلو القصص التي وردت في القرآن لعدد من الرسل، يجد اختلاف التعبير كثيراً.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ «كان» هنا منزوعة الدلالة على الزمان؛ لأنها لو بقيت دالة على الزمان لكانت إحاطة الله تعالى بكل شيء إحاطة سابقة ماضية، مع أنه لم يزل ولا يزال محيطاً بكل شيء، ولكنها تأتي هنا في مثل هذا السياق لبيان ثبوت الحكم، فيكون هذا كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] وليس المعنى أن الله تجدد له المغفرة والرحمة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧] وليس المعنى أن العلم والحكمة يتجددان له، بل هذا لتوكيد اتصافه بهذا الوصف.

وقوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ علماً وقدرة، وسمعاً وبصراً، وتدبيراً وغير ذلك من معاني ربوبيته عزّ وجل.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ عموم ملك الله، ويؤخذ ذلك من ﴿مَا﴾ الموصولة في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأن جميع أسماء الموصول تفيد العموم.

٢ ـ اختصاص ملك ما في السماوات والأرض بالله عزّ وجل، ويؤخذ ذلك من تقديم الخبر؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

٣ ـ أن السمٰوات ذوات عدد، ويؤخذ ذلك من قوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ التي هي جمع، وهذا العدد بين في القرآن والسنة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦]، وقال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ [النبأ: ١٢] وكذلك جاءت السنة بذلك، وأجمع الناس عليه.

٤ ـ أن الأرض واحدة، لقوله: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولم يقل: وما في الأراضين، فتكون الأرض واحدة، وهذا ظاهر اللفظ، لكن هذا الظاهر قد بين في مواضع أن المراد بالإفراد هنا الجنس، لا الوحدة؛ أي: جنس الأرض، وجاءت السنة صريحة بأن الأراضين سبع، وجاء القرآن ظاهراً بأن الأراضين سبع، ففي السنة قال النبي ﷺ: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه يوم القيامة من سبع أراضين**»[1] وفي ظاهر القرآن قال الله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، حديث =

خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] فالمماثلة هنا يحتمل أن تكون في الصفة، ويحتمل أن تكون في العدد، والاحتمال الأول ممتنع لظهور الفرق بين السمٰوات والأرض، فيبقى الاحتمال الثاني وهو المماثلة في العدد.

٥ ـ إحاطة الله تعالى بكل شيء، لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾، ويترتب على هذه الفائدة فائدة مسلكية مهمة، وهي: أنك إذا علمت إحاطة الله بكل شيء خفت منه، وخشيته، وراقبته؛ لأنه مهما كنت في أي مكان فالله محيط بك، فإذا آمنت بهذا خفت رب العالمين المحيط بكل شيء.

وينبني على ذلك خوف الله في القلب؛ لأن الله يعلم حتى ما في قلبك ومحيط به عزّ وجل.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ [النساء: ١٢٧].

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي: يسألونك، والإفتاء هو: الإخبار عن حكم شرعي، وهو تبيين للحكم، وليس إلزاماً به، وبهذا يفرق بين القضاء وبين الإفتاء، فالقضاء تبيين الحكم الشرعي، والإلزام به؛ لأن القاضي يقول للخصمين: الحق عليك يا فلان ـ وهذا تبيين

= رقم (٣٠٢٦)؛ ومسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، حديث رقم (١٦١٠) عن سعيد بن زيد.

الحق ـ فاقضه لخصمك، وهذا إلزام ـ، بينما المفتي لا يستطيع أن يلزم حتى لو أفتى، لكن هل يجب أن يلتزم بما يفتي به؟ فيه تفصيل.

قال العلماء رحمهم الله: إذا سأل المستفتي عالماً مطمئناً لقوله معتقداً فيه الحق فإنه يلزمه العمل به، ولا يستفتي غيره؛ لأن الله قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] والفائدة من سؤالهم الأخذ بما يقولون، وإلا لكان ذلك عبثاً.

فلو أنك استفتيت عالماً في قرية، وليس في نظرك من هو أعلم منه، وفي نيتك أنك إذا وصلت إلى المدينة التي يكثر فيها العلماء سألت، ففي هذه الحالة أنت ملتزم بفتوى هذا العالم التزاماً مقيداً أو مؤقتاً، فلك أن تسأل إذا وصلت إلى الموارد العذبة.

قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ المستفتى رسول الله ﷺ، والمفتي هو الله عزّ وجل؛ لأن ما يفتي به رسول الله هو ما يفتي به الله عزّ وجل.

قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ ولم يبين الله عزّ وجل الاستفتاء على أي شيء يقع، هل المراد بقوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾ في تزويجهن؟! أم في التزوج منهن؟! أم في تمكينهن من البيع والشراء؟ أم في أي شيء؟ لكن الآية نزلت بسبب معلوم، وهو أنه يكون عند الرجل امرأة يتيمة من عمه أو ما أشبه ذلك، فيظلمها ويحجزها لنفسه، أو يحجزها لابنه، أو ما أشبه ذلك، فأشكل هذا الأمر على الصحابة فسألوا الرسول ﷺ، فأفتاهم الله بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾.

قوله: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: يفتيكم فيهن القرآن؛ لأنه كلام الله عزّ وجل، والواو هنا عاطفة لكنها ليست عطف مغايرة؛ وذلك لأن الكتاب هو الطريق الذي نتوصل به إلى معرفة فتوى الله سبحانه، إذ أن الله ليس يتكلم ويفتي؛ ولكنه يتكلم بالقرآن فتكون به الفتوى، فالعطف هنا ليس مغايرة تامة؛ لأن ما في الكتاب هو الوثيقة التي تدلنا على فتوى الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾، معطوفة على الجملة الأولى، ولا يصح أن تكون معطوفة على لفظ الجلالة؛ لأن الجملة الأولى استكملت بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾، فيكون ما بعدها جملة معطوفة على جملة، والمراد بالكتاب هنا: القرآن و«أل» فيه للعهد الذهني.

قوله: ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي: في اليتيمة عنده لا يعطيها ما كتب لها، فيأتي الخاطب الكفء الذي يجب أن يعطى ولكنه يمنع، فلا يؤتيهن ما كتب لهن، ويمنع ذلك محاباة لنفسه؛ لأنه يرغب أن ينكحها.

وهنا قال: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فأي الحرفين نقدر هنا: «في» أم «عن» بمعنى: ترغبون في نكاحهن أو عن نكاحهن؟ نقول: الآية محتملة وهذا من بلاغة القرآن وإيجازه؛ لأنه قد يكون راغباً عنها فلا يريدها، لكنه لا يريد أن تكون لغيره، وقد يكون راغباً فيها فلا يريد أن تكون لغيره، فتكون الآية شاملة للأمرين جميعاً.

قوله: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ يعني: ويفتيكم الله، وما يتلى عليكم في الكتاب؛ في المستضعفين من الولدان، ما حالهم؟

وما شأنهم؟ وهل يأثمون بترك الهجرة مثلاً؟ وهل يجوز ظلمهم؟ فكل ما يتعلق بشأنهم أفتى الله به وبينه.

قوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ﴾ هذه الآية الظاهر أن التقدير فيها: وأوجب عليكم أن تقوموا لليتامى بالقسط، واليتامى جمع يتيم وهو الذي مات أبوه قبل بلوغه؛ أي: بلوغ الولد.

قوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ﴾ القسط: هو العدل، من أقسط يقسط إقساطاً، والاسم القسط، والمراد به العدل، وأما القسط فالمراد به الجور، ولهذا إذا كانت من الثلاثية فلها معنى، وإذا كانت من الرباعية فلها معنى آخر، فأقسط أي: عدل، وقسط: جار، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١٥].

فقوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ﴾ أي: بالعدل، والعدل يكون في كل شيء، حتى في مخالطتكم إياهم في الطعام؛ لأن الصحابة تورعوا عن مخالطة اليتامى في الطعام، فأباح الله لهم ذلك، فيكون هذا في كل شأن اليتامى.

قوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ «ما» هنا شرطية، بدليل قرن جوابها بالفاء.

وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾، يشمل أي خير، سواء كان متعدياً أو لازماً، وسواء كان خيراً مالياً، أو خيراً علمياً، أو بدنياً أو أي خير.

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ هذه جملة الجواب، واقترنت بالفاء لأنها جملة اسمية، وكلما كان جواب الشرط جملة

اسمية وجب قرنه بالفاء، ولكنها قد تحذف أحياناً، كما في قول الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها .....

والأصل فالله يشكرها، فإن قال إنسان: إن الفاء سقطت هنا للضرورة، قلنا: لا ضرورة؛ لأن البيت لو قيل فيه: «من يفعل الحسنات فالله يشكرها» سكن التاء ولم يكن ضرورة.

وعلى كل حال: فقد تحذف الفاء في جواب الشرط، لكنها نادرة.

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ عليماً حين يفعل، وقبل أن يفعل وبعد؛ لأن علم الله سابق على المعلوم، بخلاف الخلق فإنه مقارن للمعلوم.

وقوله: ﴿عَلِيمًا﴾ إذا قلنا: إنه شامل العلم فما الجواب عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١]؛ لأن ﴿حَتَّىٰ﴾ هنا للتعليل، وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ يعني: نختبرنكم لنعلم الصابرين؟ والجواب: أن علم الله قسمان: علم سابق للفعل، وعلم لاحق، فالمعنى: حتى نعلم علماً يكون به الشيء ظاهراً، فنعلمه بعد وقوعه، هذا وجه.

ووجه آخر: أن المراد به العلم الذي يترتب عليه الجزاء، ولهذا قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ والعلم الذي يترتب عليه الجزاء لا يكون إلا بعد الفعل، وهذا الوجه أوضح وأرجح، ويفهمه كل إنسان، وملخص ذلك أن نقول: إن علم الله نوعان: علم بأن الشيء سيقع وهذا سابق، وعلم بأنه وقع وهذا الذي يترتب عليه الجزاء.

وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ لم يقل: فإن الله يجازيكم به، كما هو المتوقع! فيقال: إن ذكر العلم فيه فائدة: وهو أنه لا يضيع لكم أي خير كان؛ لأن علم الله محيط به، فيكون هذا المعلوم ثابتاً لكم، ومن المعلوم من آيات أخرى كثيرة أن الله تعالى يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ حرص الصحابة رضي الله عنهم على معرفة الأحكام الشرعية، لقوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾، ولكن يجب أن نعلم أن استفتاء الصحابة لرسول الله ﷺ استفتاء متطلب للحكم ليقوم به، ويعمل به، ولهذا إذا علموا بالأحكام عملوا بها، بخلاف بعض الناس اليوم، حيث يستفتي لينظر ما عند العالم، ثم إن شاء أخذ به وإن شاء استفتى عالماً آخر، وهذا الأخير يعتبر متلاعباً بدين الله عزّ وجل؛ لأنك إذا استفتيت عالماً فإنك قد جعلت ما يفتيك به هو الطريق إلى الله عزّ وجل، فإذا كنت إنما تسأله لترى إن وافقت فتواه هواك أخذت بها عندئذ وإلا طلبت غيره، فهذا هو الذي يتبع هواه، ولهذا قال العلماء رحمهم الله: من تتبع الرخص صار فاسقاً.

٢ ـ اعتناء الصحابة بشأن النساء، بل واعتناء الله عزّ وجل فوق ذلك بشأنهن، لقوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾، فالمستفتي الصحابة والمفتي هو الله عزّ وجل، والواسطة بين المستفتي والمفتي هو الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذا

يدل على عناية الشرع بالنساء، وبناءً على هذا نعلم أن كل ما شرعه الشرع من أحكام النساء فإنه في مصلحتهن، حتى وإن ظن السفهاء والأغبياء أنه هضم لحقهن وظلم فإنهم خاطئون.

٣ ـ الرجوع إلى ما في كتاب الله عزّ وجل، وأن ما في الكتاب من الفتوى صادر من عند الله، لقوله: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو كذلك؛ لأن الكتاب منزل من الله عزّ وجل، هو الذي تكلم به وأنزله على محمد ﷺ، وأمره أن يبلغه الناس، وهو نفسه تبارك وتعالى تكفل ببيانه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٨ ـ ١٩].

٤ ـ العناية بالنساء عموماً، والعناية بيتامى النساء وهذا أخص؛ لأن يتيمة النساء اجتمع في حقها الضعف من حيث الجنس، فجنس النساء أضعف من الرجال، والضعف من حيث فقد العائل، وهو الأب، فلهذا أوصى الله بها بعناية.

٥ ـ جبروت أهل الجاهلية، حيث سلطوا جام ظلمهم على هؤلاء اليتامى من النساء، بحيث لا يؤتونهن ما كتب لهن، ويتحكمون فيهن وفي مصيرهن، لقوله: ﴿ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾.

٦ ـ أن مهر المرأة مفروض لها، لقوله: ﴿مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ [النساء: ٤]، وعلى هذا فصاحب المهر هو المرأة، وليس ولي المرأة، ولو كان أباها فالمهر إليها؛ تقديره عدداً، وتعيينه جنساً، ولها أن تبرئ منه إذا كانت عاقلة رشيدة.

٧ ـ أنه يجوز للإنسان أن يتزوج موليته؛ لأن هؤلاء اليتامى

تحت ولاية هؤلاء الذين يرغبون أن ينكحوهن، وهو أحق الناس بتزويجها، فإذا أراد أن يتزوجها فلا نقول: إنه لا يجوز؛ لأنه ولي يعامل نفسه لنفسه كما لا يجوز للوكيل أن يشتري من مال موكله له، بل يجوز لولي اليتيمة إذا كانت تحل له أن يتزوجها، لكن عليه بتقوى الله فلا يظلمها ولا يهضمها، ولكن كيف يعقد النكاح إذا كان هو الولي؟

الجواب: يأتي بشاهدين ويقول: أشهدكم أني زوجت نفسي ابنة عمي، بالولاية الشرعية، ولا يحتاج أن يقول: قبلت؛ لأن هذا إيجاب تضمن القبول، ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام: «**أعتق صفية وجعل عتقها صداقها**»[(١)] ولم يحتج إلى إيجاب ولا قبول؛ لأن المعنى مفهوم.

٨ ـ العناية بالمستضعفين من الولدان؛ لأن المستضعف من الولدان سواء كان لصغره، أو لمرضه أو لجنونه، أو لغير ذلك من الأسباب التي صار بها ضعيفاً، فالعناية به لا شك أنها دليل على رحمة الإنسان، وقد قال النبي ﷺ: «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»[(٢)]، وقال: «**الراحمون يرحمهم الرحمٰن**»[(٣)]، ولهذا من أكبر أسباب حصول الرحمة في القلب

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب من جعل عتق الأمة صداقها، حديث رقم (٤٧٩٨)؛ ومسلم، كتاب النكاح، باب فضيلة إعتاق أمة ثم يتزوجها، حديث رقم (١٣٦٥) عن أنس.

(٢) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب رحمة المسلمين، حديث رقم (١٩٢٤)؛ وأبو داود، كتاب الأدب، باب في الرحمة، حديث رقم (٤٩٤١)؛ وأحمد (٢/ ١٦٠) عن عبد الله بن عمرو.

(٣) هذه الجملة هي أول الحديث السابق.

هو: الإشفاق على الصغار، والضحك إليهم، وإدخال السرور عليهم، فإن الإنسان يجد في ذلك رقة ورحمة في قلبه، ولو بقي يدرس مجلدات لإيصال الرحمة إلى قلبه ما حصل له ذلك.

وتأمل معاملة الرسول ﷺ للصغار، فمرة ركبه الحسن وهو ساجد يصلي بالناس، وتأخر في القيام من السجود، وأخبر الناس بعد سلامه أن ابنه ارتحله، وأنه أحب أن يقضي نهمته، وارتحله يعني: جعله راحلة؛ لأنه حين رآه ساجداً ظنه يتهيأ له فركب عليه، فأقره النبي عليه الصلاة والسلام[١]، مع أنه لو جاء أحد أئمة الناس اليوم ابنه وركبه لما اكتفى بإنزاله، بل قد ينفضه عن ظهره نفضاً ـ نسأل الله العافية ـ وهذا غلط.

كذلك أمامة بنت زينت كانت تبكي، فخرج بها ﷺ إلى المسجد وجعل يحملها في الصلاة[٢].

ولما خرج الحسن والحسين وعليهما ثياب يعثران بها، نزل من المنبر وحملهما بين يديه[٣]، والأمثلة على هذا كثيرة، كأن

---

(١) رواه النسائي، كتاب التطبيق، باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة (١١٤١)؛ ورواه الإمام أحمد في المسند (١٥٦٠٣).

(٢) رواه النسائي، كتاب المساجد، باب إدخال الصبيان المساجد (٧١١)؛ ورواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب العمل في الصلاة (٩١٨)؛ ورواه الإمام أحمد في مسنده (٢٢٠١٣) عن أبي قتادة.

(٣) رواه الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما (٣٧٧٤)؛ ورواه النسائي، كتاب الجمعة، باب نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة (١٤١٣)؛ ورواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب الإمام يقطع الخطبة للأمر يحدث (١١٠٩)؛ ورواه ابن ماجه، كتاب اللباس، باب لبس الأحمر للرجال (٣٦٠٠).

يقول: «**يا أبا عمير! ما فعل النغير**»[(١)]، يمازحه ليدخل السرور عليه، ولو أننا سرنا على هذه الآداب لحصل في هذا خير كثير.

٩ ـ وجوب القيام لليتامى بالقسط، وهذا أمر عام، يجب على كل إنسان أن يقوم لله شهيداً بالقسط، لكن اليتامى لهم أمر خاص للعدل بينهم؛ لأن اليتيم ليس له من يدافع عنه، وربما يأكله وليه من حيث لا يشعر، فلهذا أوصي بهم.

١٠ ـ أن كل ما عملناه من خير قليلاً كان أو كثيراً فإن الله يعلمه.

ـ ويترتب على هذه الفائدة: الحذر من الإخلال بالواجب؛ لأنه إذا كان يعلم الخير الذي نعمله فهو يعلم أيضاً ما لا نعمله من الخير.

١١ ـ الحث على الخير؛ لأنك إذا علمت أن الله يعلمه وأنه سيجازيك عليه، نشطت وقويت همتك لفعله.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء: ١٢٨].

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ﴾ كيف نعرب امرأة؟ الجواب: إما أن نقول: (امْرَأة) فاعل لفعل محذوف، تقديره: (وَإِنْ خَافَتِ امْرَأة) وهذا مذهب البصريين، ويقول الكوفيون: (امْرَأة) مبتدأ، وما بعدها خبر؛ لأنهم يجوزون دخول الشرط على الجملة الإسمية،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس، حديث رقم (٥٧٧٨)؛ ومسلم، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته..، حديث رقم (٢١٥٠) عن أنس.

والثالث: أن (امْرَأة) فاعل مقدم وهذا أيضاً للكوفيين، وعلى هذا يقال: (امْرَأة) فاعل مقدم ولا مانع، وكما مر من قبل أقول: إنه إذا اختلف النحويون فإننا نتبع الأسهل من أقوالهم؛ لأن الله سبحانه تعالى يحب السهولة.

إذاً: (امْرَأة) إن شئنا قلنا: فاعل مقدم، وإن شئنا قلنا: مبتدأ، ولا مانع من أن تكون الجملة اسمية بعد أداة الشرط.

قوله: (امْرَأة) نكرة في سياق الشرط فتكون عامة، والمراد المرأة المتزوجة.

قوله: ﴿خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا﴾ أي: من زوجها، كما قال الله تعالى عن امرأة إبراهيم: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]، إذاً: البعل الزوج.

قوله: ﴿نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ نشوزاً يعني: ترفعاً عليها، أو إعراضاً عنها، والإعراض أشد؛ لأن النشوز قد يخاطبها ويتكلم معها لكن بكلام فيه استعلاء وترفع واحتقار، أما الإعراض: فهو معرض عنها؛ لا يكلمها، ولا يعاشرها المعاشرة بالمعروف.

ويمكن أن نقول: إن الإعراض عما يجب، والنشوز فيما يمتنع، يعني يعلو عليها فيعتدي عليها، أو يعرض عنها فلا يقوم بالواجب.

قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾، ﴿لَّا جُنَاحَ﴾: أي: لا إثم، ﴿عَلَيْهِمَا﴾ أي: على المرأة وبعلها ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ «وفي قراءة أخرى: «أن يَصَّالحا» وأصل: يَصَّالحا: يتصالحا، فهما قراءتان سبعيتان» وإنما نفى الجناح دفعاً لتوهم المنع، فإن المرأة إذا سألت زوجها الطلاق من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة، فنفى الله الجناح في المصالحة من أجل أن يصطلحا على ما يشاءان، ولكن إذا لم يصطلحا بأنفسهما

وطلبا طرفاً ثالثاً فهل عليهما جناح؟ الجواب: لا، ليس عليهما جناح، وتأمل الفرق بين نشوز الزوج عن الزوجة ونشوز الزوجة عن الزوج، ليتبين لك الحكم إن شاء الله تعالى.

قوله: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ﴾ هذه جملة عامة في كل شيء، في حقوق الزوجة، وحقوق الرحم، وحقوق المصاهرة، وحقوق الجوار، وحقوق المعاملة، فالصلح خير في كل شيء، وهنا لم يقل: الصلح بينهما؛ لإفادة العموم، يعني: أن الصلح في كل شيء خير من عدمه، ومن المعلوم أن الصلح قد يتصور الإنسان أن فيه غضاضة عليه، فلهذا قال: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ يعني: أنه عند النزاع وطلب المصالحة تكون الأنفس شحيحة، كل نفس تريد أن يكون الصلح في جانبها وفي مصلحتها، وكأن الله يقول: دعوا هذا الشح الذي أحضرته الأنفس واطلبوا الخير في المصالحة.

ولهذا نجد أنه إذا تعقدت الأمور بين شخصين، وأردنا أن نصلح بينهما فإن كل واحد منهما يركب رأسه، ويأبى أن يتنازل إلا بعد جهد جهيد.

وفي قوله: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ الشح منصوبة، وما قبلها مرفوع لأن الأنفس نائب فاعل، والشح مفعول ثانٍ.

والسبب في قوله: «أحضرت» مع أنها أحضرها الله؛ لأن الله تعالى إذا أضاف إلى نفسه الشيء المذموم يأتي بصيغة اسم المفعول، وانظر إلى قول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجن: ١٠] قال: ﴿أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تأدباً مع الله عزّ وجل، ومعلوم أنه شيء يريده الله عزّ وجل، وفي الرشد قال: ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ فأضافوه إلى الله؛ لأنه خير، فلما كان الشح أمراً مذموماً فالأنفس نائب فاعل، قائم مقام المفعول الأول، والشح هو المفعول الثاني.

وقوله: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ إن تحسنوا فيما بينكم بفعل المطلوب، وتتقوا بترك المحظور، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، وسيجازيكم على الإحسان وعلى ما اتقيتموه.

والإحسان والتقوى والبر وما أشبه ذلك إذا أفرد أحدهما عن الآخر شمل الآخر، وإن اقترنا فسر كل منهما بما يليق به.

فقوله هنا: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ الإحسان بفعل الأوامر، والتقوى بترك النواهي، أما إذا أفرد الإحسان فإنه يشمل فعل الأوامر وترك النواهي، وكذلك التقوى إذا أفردت فإنها تشمل هذا وهذا.

وهذا يوجد كثيراً في القرآن الكريم، المسكين والفقير إذا أفرد أحدهما عن الآخر صار أحدهما شاملاً للآخر، وإن قرنا صار الفقير له معنى، والمسكين له معنى، فهما مما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

فقوله: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ الإحسان يكون في عبادة الله، ويكون في معاملة عباد الله، يجمع الأول قول النبي ﷺ لجبريل عليه السلام: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1] فهذا الإحسان.

أما في المعاملة: فما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام في قوله: «**من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه**»[2]

---

(١) تقدم (١/ ٤٣١).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول =

والكلام على الجملة الأخيرة «**وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه**» فهذا هو الإحسان في معاملة الناس، أن تأتي للناس ما تحب أن يؤتى إليك، وبهذا يتحقق الإيمان كما قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(١).

أما التقوى هنا فهي تقوى محارم الله؛ أي: تقوى المحرمات في حقوق الله وفي حقوق عباد الله، فتجتنب البغي والعدوان والكذب والشرك وغير ذلك، سواء كان في حقوق الله، أو في معاملة عباد الله.

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: اسم موصول وصلته، والاسم الموصول يفيد العموم، وعلى هذا فتكون خبرة الله تعالى بكل ما نعمل من ظاهر وباطن، وخير وشر، وصغير وكبير؛ لأن «ما» اسم موصول يفيد العموم.

وقوله: ﴿خَبِيرًا﴾ قال العلماء: إن الخبير أخص من العليم، إذ أن الخبير هو الخبير ببواطن الأمور، وإذا كان خبيراً ببواطن الأمور كان عليماً بظواهرها، والغرض من هذه الجملة ـ التي وقعت جواباً للشرط ـ حث النفوس على الإحسان والتقوى؛ لأنك إذا علمت أن الله خبير بكل ما تعمل أوجب لك أن تخافه فتتقيه، وأوجب لك أن ترجوه فتحسن.

وفي قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ إشكال، متعلق بتقديم

= فالأول، حديث رقم (١٨٤٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم (١٣)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، حديث رقم (٤٥) عن أنس.

المعمول هنا، فإن العلماء يقولون: إن تقديم المعمول يفيد الحصر، وإذا قلنا به في هذه الآية أوجب إشكالاً وهو: أنه لا يكون خبيراً إلا بما نعمل، وما سواه فليس خبيراً به، وهذا مقتضى الحصر، فهل الغرض من التقديم هنا الحصر؟

الجواب: لا؛ لأننا نعلم أن الله عزّ وجل يعلم، وهو خبير بكل شيء، لكن الحكمة في ذلك: شدة التحذير من المخالفة، كأنه قال: لو لم يعلم شيئاً لكان عالماً بما تعملون، وحينئذ يتأكد علمه جل وعلا بما نعمل، فيكون في ذلك شدة التحذير من المخالفة، وهذه هي فائدة تقديم قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في هذا الموضع.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ عناية الله عزّ وجل بما يكون بين الزوجين، وجهه: أن الله ذكر هنا نشوز الزوج، وفي أول السورة ذكر نشوز الزوجة، مما يدل على عناية الله تعالى بما يكون بين الزوجين؛ لأن الزوجين هما الرابطة التي تربط بين الأولاد، وتربط أيضاً بين الصهر وصهره، وهي أحد النوعين في الربط، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

٢ ـ أن من الأزواج من ينشز على الزوجة، ويترفع عليها، ويعرض عنها، ولا يجلس إليها، ولا يستأنس بها، لقوله: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾.

٣ ـ العمل بالقرائن، ويؤخذ من قوله: ﴿خَافَتْ﴾ ولم يقل: رأت نشوزاً بل خافت، ومن المعلوم أنها لم تخف من النشوز والإعراض إلا بوجود القرائن، والعمل بالقرائن ثابت بالقرآن

والسنة، فقد عمل شاهد يوسف بالقرينة، في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف: ٢٦ ـ ٢٧]، وعمل سليمان عليه الصلاة والسلام في قضائه بين المرأتين بالقرينة، حين دعا بالسكين ليشق الولد نصفين، والأمثلة على هذا كثيرة.

٤ ـ أنه يجوز أن يصطلح الزوجان فيما بينهما على ما شاءا، لقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾.

ـ ويتفرع على هذه الفائدة: اطمئنان الزوج فيما لو صالحها على إسقاط حقها أو بعضه، فإذا اصطلحا على أن تبقى عنده ويُسقط بعض الحق فلا حرج عليه، والآية هنا: ﴿أَن يُصْلِحَا﴾.

٥ ـ أنه يجوز للزوجة عند المصالحة أن تسقط حقها من القسم، فإذا قال لها: إنه تزوج زوجة جديدة ورغب عن القديمة، وقال: إما أن تبقي عندي مع إسقاط حقك من القسم وإما الطلاق، فرضيت بذلك، فإنه يجوز؛ لأن الحق لها وهو غير مجبر على أن تبقى عنده، فيقول: إما أن تبقي عندي وترضي بإسقاط القسم، وإلا طلقتك، فلا مانع أن يقول هكذا، إن رضيت وقنعت فذلك المطلوب، وإن لم ترض طلقها ولا إثم عليه في هذا، ولا يقال: إنه أجبرها على التنازل عن حقها بتهديدها بالطلاق، ووجه عدم ورود ذلك: أن له أن يطلق بأي حال من الأحوال لو كرهها حتى بدون قصد الزواج من زوجة أخرى، فإذا كان كذلك فإنه لا إثم عليه.

٦ ـ أنهما لو تصالحا على إسقاط حقها بعوض، فلا يسقط

إلا بعوض، فلو قالت: لا أسقط حقي إلا أن تعطيني عن كل ليلة عشرة ريالات، فيكون عليه في كل شهر مائة وخمسون؛ إن كان له زوجة ثانية، وإذا تزوج بثالثة نقص سهمها وبالتالي حقها في العوض.

على كل حال: إذا وافقت على أن تسقط حقها من القسم بعوض فلا بأس.

وقول بعض العلماء: إنه لا يصح بعوض؛ لأن العوض لا بد أن يكون معوضه مالاً ليس بصحيح؛ لأن الله أطلق، حيث قال: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ وهذه فائدة التنكير في قوله: ﴿صُلْحًا﴾؛ لأن ﴿صُلْحًا﴾ يعني: أي: صلح كان، وهذا من بلاغة القرآن ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ يعني: أي: صلح كان، ولو قال: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا﴾ فقط، ربما يقال: إنه لا بد من قيود وشروط، لكن لما قال: ﴿صُلْحًا﴾ صار هذا عاماً، فأي شيء يتفقان عليه فلا بأس.

فلو رضيت واصطلحا على أن يقسم لها يوماً وللأخرى يومين صح هذا.

إذاً: لا تقييد في هذا، إلا في شيء واحد، وهو ما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً**»[1] فمثلاً: لو قال لها والعياذ بالله: اختاري إما أن أطأك بالدبر وإلا طلقتك؟ وقالت: لا مانع، فلا يجوز هذا الصلح؛ لأنه أحل حراماً، فإذا كان يقتضي أن يحل

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الأحكام، باب ما ذكر في الصلح بين الناس، حديث رقم (١٣٥٢)؛ وابن ماجه، كتاب الأحكام، باب الصلح، حديث رقم (٢٣٥٣) عن عمرو بن عوف المزني.

حراماً فإنه لا يجوز، ولو اصطلحا على أن يطلق زوجته الأخرى فلا يجوز؛ لأنه أحل حراماً، ولأن فيه عدواناً وظلماً على الطرف الثالث.

إذاً: الصلح الذي لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً جائز مطلقاً بلا تقييد.

٧ ـ هذه القاعدة العظيمة من الرب الذي هو على كل شيء قدير، وهي: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ﴾، وقد يظن بعض الناس أنه إذا تنازل عن الحق أن في ذلك غضاضة وهضماً لحقه، وأن العاقبة غير حميدة، لكن الله عزّ وجل الذي بيده ملكوت السماوات والأرض يقول: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ﴾، وإن شئت مثالاً على ذلك: فتدبر صلح الحديبية بين النبي ﷺ وبين قريش، ظاهر الصلح أن فيه غضاضة عظيمة على المسلمين، ولكن الذي بيده ملكوت السماوات والأرض تحول هذا الصلح بإذنه إلى خير للمسلمين، من الذي أسقط حق إرجاع المسلم إذا جاء إلى المسلمين من الكفار؟

الجواب: قريش كانت مستفيدة منه، وهي التي أسقطته، ومن الذي أسقط وضع الحرب بينهما عشر سنين؟ الجواب: قريش؛ لأنها نقضت العهد بمعاونتها لحلفائها على حلفاء النبي ﷺ، فأنت يا أخي! لا تنظر إلى الأمور في حاضرها، بل صدق بوعد الله والعاقبة لك.

وهل نقول هنا: الصلح خير فيما بين الزوجين، أو نقول: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؟

نقول: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، إذاً: الصلح في جميع الأحوال خير؛ لأنه يحصل فيه سماحة النفس

والمودة، ولو أدى النزاع إلى التحاكم صار في النفوس بعض الشيء، إذ أن المحكوم عليه سوف يكون في قلبه شيء على خصمه، وربما على القاضي أيضاً، وربما على الشهود، فتنتشر العداوة، فإذا وقع الصلح انقاد الجميع عن سماحة نفس واطمئنان.

٨ ـ الإشارة إلى أن الصلح ثقيل على النفوس، لكن المؤمن يهون عليه الثقل إذا كان يؤمن بأن الصلح خير، ويؤخذ من قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ فالإنسان بطبيعته لن يتنازل عما يريد، ولن يتغاضى عن حقه، لكن في المصالحة التي هي خير لا بد من ثمن يبذل وهو الضغط على النفس التي أحضرت الشح؛ حتى توافق على الصلح.

٩ ـ الحث على الإحسان والتقوى، لقول الله تعالى: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

١٠ ـ عموم علم الله في كل شيء حتى بما نعمل، وعلم الله بما نعمل علم سابق على عملنا ولا شك؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠].

فإن قال قائل: أليس الله يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢] قلنا: بلى قال الله هذا، والذي قال هذا هو الذي قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠]، إذاً: كيف نجمع؟

الجواب: نقول: الطريقة السليمة هنا أن تؤمن بهذا وهذا، ولا تحاول إثبات أن هناك تعارضاً، فتقول: نحن نؤمن بأن الله سبحانه يعلم ما نعمل من قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، بل من قبل ذلك أيضاً، لكن الكتابة كانت قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وتؤمن بأن الله تعالى يبتلينا ويختبرنا ليعلم، لكن قد لا تطمئن النفس إلى الاستسلام المجرد، فنقول: علم الله سبحانه الذي يكون بعد عملنا وبعد اختبارنا علم يترتب عليه الثواب أو العقاب؛ لأنه لا يمكن أن يثاب العبد أو يعاقب إلا إذا امتحن، أما علمه السابق فهو سبحانه عالم بأنه سيمتحننا، وأننا سنعمل أو نترك، لكن إذا وقع الابتلاء والامتحان ثم خالف الإنسان أو وافق فهذا هو العلم الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، يعني: يترتب عليه الجزاء، فهذا هو العلم الذي قيد بالابتلاء والاختبار.

وفرق بعض العلماء بفرق آخر فقال: علم الله سبحانه بما لم نعمل علم بأنه سيكون، وعلمه بما عملناه علم بأنه كان، فتعلق العلم الأول بما يكون علم بشيء لم يقع، وتعلق العلم بما كان علم بأنه قد وقع، وهذا لا بأس به، ولكن العمدة الأول.

١١ ـ أن التهديد يكون باللفظ ويكون بالمعنى، فلو قال: إن فعلتم كذا فعليكم كذا، فهذا تهديد باللفظ، أما ما يتعلق بالمعنى فهو أن الله تعالى لما ذكر عموم خبرته بما يعمل، فيعني هذا: أن لا نخالف حذراً من أن يعلم منا ما لا يرضيه، كما أن الأحكام الشرعية تستفاد بالأمر والنهي، والترغيب والترهيب، فإذا جاءت

الأحكام مقرونة بالترغيب، فهذا دليل على أنها مأمور بها، وإذا جاء الترهيب علمنا أنها منهي عنها.

ويذكر أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والله غفور رحيم، فقال الأعرابي: ما هكذا الآية، اقرأ، فردها، وقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والله غفور رحيم، فقال: ما هكذا الآية، فقرأها الثالثة أو الرابعة: وقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨] قال: الآن أصبت؛ لأنه عزّ وجل عز وحكم فقطع، لعزته وقهره وغلبته وسلطانه عز، ولحكمته قطع، ولو غفر ورحم لما قطع، وهذا القول صحيح، ولهذا قال العلماء رحمهم الله: لو تاب قاطع الطريق الذي أخذ أموال الناس وقتلهم قبل القدرة عليه سقط عنه الحد، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٣٤]، ولم يقل: فارفعوا عنهم العقوبة، لكن كونه يأمرنا أن نعلم بأن الله غفور رحيم يعني: أنه غفر لهؤلاء ورحمهم، فتسقط عنهم العقوبة، لكن هذا فيما يتعلق بحق الله، أما العقوبة الخاصة بحق الآدمي كالقصاص، ورد المال الذي أخذه فهذه باقية؛ لأنها حق آدمي.

أما قول الله تعالى عن عيسى أنه قال له: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨] ولم يقل: فإنك أنت الغفور الرحيم؛ لأن ما في الآية في الحقيقة ليس مغفرة محضة، فهما أمران: تعذيب ومغفرة، وكلاهما إذا

اجتمعا يقتضيان العزة والحكمة؛ لأنه من الحكمة أن يغفر الله تعالى لمن شاء، ومن العزة أن يعذب من شاء، فلما كانت الآية ليست في موضوع واحد ختمت بما يصلح لهذا وهذا.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ [النساء: ١٢٩].

يقول الله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ «لن» للنفي فهي نافية، وللنصب تنصب الفعل المضارع، وللاستقبال. يعني: تجعل الفعل المضارع لمحض الاستقبال، ويقابلها: «لم»، التي تجعل الفعل المضارع للمضي، فإذا قلت: لم يقم زيد فهذا فيما مضى، وتشترك مع لن في النفي، وتختلف معها في العمل، وفي نقل الفعل من الحاضر والمستقبل إلى الماضي.

وقوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ﴾ أي: لن يكون في طاقتكم.

قوله: ﴿أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أن تعدلوا هنا: فعل مضارع دخلت عليه أن المصدرية، ويؤول ما بعد أن بمصدر ليكون في هذه الآية مفعولاً لقوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ﴾؛ أي: لن تستطيعوا عدلاً بين النساء، ولو حرصتم، والعدل ضد الميل.

قوله: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ ولما جاء قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ انتفى الإشكال الوارد في قوله تبارك وتعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣]، فيفسر ما في الآية

الماضية على أن قوله: ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ العدل الممكن؛ لأن العدل غير الممكن لا يمكن أن يكلف به الإنسان.

قوله: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ لو هذه شرطية، وفعل الشرط قوله: ﴿حَرَصْتُمْ﴾ وجواب الشرط قيل: إنه محذوف يدل عليه ما قبله، والتقدير: «ولو حرصتم فلن تستطيعوا»، وقيل ـ وهو الصواب ـ: أن لو وإن وما شابهها من أدوات الشرط في مثل هذا السياق لا تحتاج إلى جواب، بل هي كالقيد لما سبق فقط، فلا تحتاج إلى جواب، وهذا القول هو الذي رجحه ابن القيم فيما أظن، وهو الصحيح، فإذا قلت: أكرم زيداً إن أكرمك، فلا تقل: إنَّ جواب الشرط في أكرمك محذوف دل عليه ما قبله، بل قل: لا يحتاج إلى جواب، بل هذا قيد لما سبق فقط.

وقوله: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي: بذلتم الجهد للعدل فلن تستطيعوا، ولكن ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ ولم يقل: فلا تميلوا الميل؛ أي: فلا تميلوا الميل كله، وأما بعض الميل فلا حرج؛ لأنه داخل في نفي الاستطاعة.

قوله: ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ الضمير في «تذروها» يعود على التي مال عنها ولا شك؛ لأن التي مال إليها قد أقبل إليها وأكرمها، لكن التي مال عنها هي التي إذا أعرض عنها الإعراض الكلي صارت كالمعلقة بين السماء والأرض، وهذا إشارة إلى أنها لن تستقر، فإن المعلق بين السماء والأرض لا يستقر، لا هو في السماء فيستقر، ولا في الأرض فيستقر، وهذه التي ميل عنها كل الميل ستبقى معلقة، ليست أيمة ولا متزوجة، يعني: ليس هو الذي طلقها واستراحت ورزقها الله غيره، ولا هي بالمتزوجة التي

تسعد بالزواج كغيرها، وإنما شبهها الله بذلك تنفيراً عن الميل الكلي الذي يجعل هذه المرأة كالمعلقة.

قوله: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ هنا قال: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ وفي الآية التي قبلها قال: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾، والفرق أن هذا له زوجتان: إحداهما مال عنها كل الميل، والثانية: أقبل عليها، ومثل هذا سوف يحدث شقاقاً بين الزوجتين، فلهذا قال: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟﴾ إشارة إلى أنه ينبغي أنه إن حدث بين الزوجتين شقاق وغيرة فليصلح بينهما؛ لأن هذا أمر فطري.

ثم قال: ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ يعني: تتقوا في الإصلاح، بحيث لا تميلوا إلى واحدة دون الأخرى.

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾...

﴿غَفُورًا﴾: لما حصل من الشقاق والميل وما أشبه ذلك.

﴿رَّحِيمًا﴾ أي: ذا رحمة واسعة.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الله سبحانه نفى الحرج عن الإنسان حتى في معاملة الغير، لقوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟﴾، وهذا خبر عن أمر فطري يستلزم رفع الجناح؛ لأن القاعدة الشرعية أن ما لا يستطاع لا يلزم به العبد.

٢ ـ علم الله سبحانه بأحوال العباد ونفسياتهم، لقوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، وهذا أمر معلوم بالضرورة أن الله سبحانه يعلم كل شيء، حتى ما يوسوس به الإنسان في نفسه.

٣ ـ أن الإنسان يجب عليه العدل فيما يستطيع؛ لأن الله

نفى الاستطاعة لرفع الحرج فيها، ومفهومه: أنه إذا استطاع الإنسان فإنه يجب أن يعدل، وقد سبق ما يعدل به بين النساء، وأنه يجب العدل بين النساء في كل شيء يقدر عليه، وأما المحبة وما ينشأ عنها فهذا صعب، فلا يكلفه الإنسان.

٤ ـ أن الإنسان لا ينبغي أن يكلف نفسه ما لا يستطيع ويشق عليه، لقوله: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ فكأنه قال: لا تكلفوا أنفسكم بشيء لا تستطيعونه.

٥ ـ تحريم الميل كله بالنسبة للعدل بين الزوجات؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾.

٦ ـ أنه ينبغي للإنسان في خطابه أن يستعمل كل ما يكون فيه التنفير فيما ينفر منه، أو الترغيب فيما يرغب فيه؛ لأن هذا من أسلوب الحكمة، لقوله: ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾.

٧ ـ الاستعطاف في المقام الذي ينبغي فيه العطف؛ لأنه إذا تصور الإنسان أن هذه الزوجة التي مال عنها كالمعلقة بين السماء والأرض؛ فإن هذا يوجب العطف عليها، والرأفة بها ورحمتها.

٨ ـ أن الصلح والتقوى سبب للمغفرة، لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، ووجهه ظاهر؛ لأن الإصلاح خير، والحسنات يذهبن السيئات، ولأن الإصلاح خير والحسنات يجلبن الرحمة.

٩ ـ إثبات اسمين من أسماء الله عزّ وجل وهما: الغفور الرحيم، فبالمغفرة يزول المكروب، وبالرحمة يحصل المطلوب، ولهذا يقرن الله تعالى بين الغفور والرحيم في مواضع كثيرة؛ لأن بالمغفرة يزول المكروب، وبالرحمة يحصل المطلوب.

المغفرة: مغفرة الذنوب، وإزالة آثارها، والرحمة: حصول المطلوب والمحبوب، ولهذا سمى الله تعالى الجنة رحمة، فقال لها: «**أنت رحمتي أرحم بك من أشاء**»(١).

وهل المغفرة صفة حقيقة أو هي عبارة عن رفع المؤاخذة والعقوبة؟

الجواب: صفة حقيقة، تقتضي رفع المؤاخذة والعقوبة، وكذلك يقال في الرحمة.

وهي صفة حقيقة يتصف الله بها، وليست عبارة عن الإحسان والإنعام وجلب المصالح، وهذا ما عليه السلف الصالح وأئمة هذه الأمة من بعدهم.

وأما من قال: إن الله لا يوصف بالمغفرة ولا بالرحمة فقد ضل ضلالاً مبيناً، وحجته وهمية حقيقة وليست عقلية؛ لأنه يقول: «مغفرة» تقتضي فعلاً، والفعل من سمات المحدثين؛ لأنه بزعمه لا يقوم الحدث إلا بحادث، وبزعمه أن الرحمة لا تليق بالله؛ لأن فيها رقة وانفعالاً بالمرحوم، وهذا لا يليق بالله عزّ وجل.

ومعلوم أن هذا قياس في مقابلة النص، وأنه يشبه قياس إبليس حين خاطبه الله عزّ وجل وأمره بالسجود، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]. يعني: فأنا خير منه كيف أسجد له وهو دوني؟! فمن حكَّم العقل في مقابلة النص؛ فإنه يشبه إبليس تماماً، وفعله من وحي إبليس.

ونحن نقول: الرحمة التي هي الرقة والانفعال من الرفق

---

(١) تقدم (١/ ١٨١).

بالمرحوم إنما هي رحمة العبد، أما رحمة الله فإنها تابعة لذاته لا نستطيع أن نكيفها.

وأما قوله: إن العقل لا يدل عليها، فنقول: إن هذا خطأ، فالعقل يدل عليها: قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فهذه النعم كلها من آثار الرحمة، ولولا رحمة الله ما أنعم على عباده بشيء، والعجيب: أنهم يستدلون على ثبوت الإرادة بأمر لا يفهمه بعض الطلبة فضلاً عن العامة، وينكرون إثبات الرحمة بالعقل مع أن العامة تفهم ذلك، ولو سألت أي عامي: المطر نزل وأروى الأرض وأنبت الأرض فعلام يدل، لقال: يدل على رحمة الله. لكنهم يقولون: إن تخصيص المخلوقات بما تختص به دليل على الإرادة. يعني: كون الإنسان إنساناً، وكون البعير بعيراً، والشمس شمساً وما أشبه ذلك يدل على الإرادة، وإلا لما حصل تمييز بين الخلائق، ولولا الإرادة ما حصل تمييز بين الخلائق.

فنقول: هذه الدلالة نوافقكم عليها، لكنها دلالة خفية أخفى من دلالة النعم على الرحمة، لكن من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء: ١٣٠].

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾: قوله: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ الضمير يعود على الزوجين، على الزوج الذي خاف من زوجه نشوزاً أو إعراضاً، وعلى الزوجة التي تركها زوجها كالمعلقة.

ومن المعلوم أنه لن يعرض عنها ولم يجعلها كالمعلقة إلا لكراهته لها، وحينئذ يحصل التفرق.

وإذا تفرقا فإن الله سبحانه ييسر لكل واحد منهما ما يحصل به الغنى من سعة الله.

قوله: ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ بماذا؟

قال بعضهم: يغني الزوج بزوجة صالحة يسعد بها، ويغني الزوجة بزوج صالح تسعد به، يعني: أن الزوج يجد امرأة، والزوجة تجد زوجاً.

وقال بعضهم: يغني الله كلاً من سعته سواء بإبدال الزوج الأول، أو بالسلوان والنسيان، وأن يكون الأمر كأن لم يكن، ولكن هذا القول ضعيف؛ لأن السلوان وعدم ذكر أحدهم الآخر ليس إغناءً، والإغناء: أن يوجد ما يستغني به الإنسان، وهذا لا يكون إلا بزوج للزوجة وزوجة للزوج، وهذا وعد من الله عزّ وجل، وعد من القادر الذي يقدر على أن يبعث للمرأة زوجاً تسعد به، أو للرجل زوجة يسعد بها، وهو وعد حق وصدق؛ لأن الواعد به هو الله الذي لا يخلف الميعاد، وهو على كل شيء قدير، لكن أحياناً يتخلف هذا لشك الإنسان، وعدم ثقته وإيمانه، فيحصل هذا المانع ولا يتحقق الموعود.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ واسعاً. أي: ذو سعة عظيمة في جميع الصفات:

واسع في علمه كما قال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

واسع في قدرته كما قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ

قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ٢٠] واسع في حكمته، ولهذا قرن الحكمة به، واسع في سمعه وبصره، وفي كل صفاته عزّ وجل، وواسع في إحاطته فهو محيط بكل شيء: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة: ١١٥].

المهم: أنه جل وعلا واسع بمعنى الكلمة على أوسع ما يكون.

وقوله: ﴿حَكِيمًا﴾ أي: ذو حكمة وحكم، فهو الذي له الحكم الكوني والشرعي، وهو الذي له الحكمة الصورية أو الغائية، فالحكم الله عزّ وجل ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وحكم الله عزّ وجل، كوني وشرعي، فما قضاه في خلقه فهو كوني، وما شرعه لخلقه فهو شرعي. إذاً: الضابط: الحكم الكوني ما قضاه الله في خلقه، والحكم الشرعي ما شرعه الله لخلقه عزّ وجل، كقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] فهذا حكم شرعي، وقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] حكم كوني.

أما المثال لنفس الحكم بهذا المادة فقول الله تبارك وتعالى في سورة الممتحنة: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠] وهذا حكم شرعي، وقال: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة: ٥٠] وهذا حكم شرعي، وقول أخي يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف: ٨٠] فهذا كوني، وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين: ٨] كوني شرعي.

أما الحكمة فقد تكون في صورته التي خلقه الله عليها، وقد

تكون الحكمة في الغاية منه، فقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] هذه حكمة لبيان الغاية الحميدة في خلق الإنس والجن، وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤] هذه حكمة صورية وليس المراد أنه ليس لها معنى، وإنما «صورية» يعني: كونها على هذه الصورة المعينة، هذه من حكمة الله عزّ وجل.

فارتفاع الشمس والقمر بهذا المقدار، وتعاقب الليل والنهار على هذا الوجه كله من الحكمة الصورية. يعني: أن كونه على هذه الصورة هو الحكمة، ولو اختلف لفاتت الحكمة.

فعلى هذا نقول: الحكم هنا أربع: حكمة في الشرع، وحكمة في القدر، وحكمة في الصورة، وحكمة في الغاية.

إذا آمنت بهذا علمت أن الله عزّ وجل لا يمكن أن يحدث شيئاً ـ ولو أعظم الشر والضرر ـ إلا لحكمة، فهذه الحروب التي وقعت، والتي تقع الآن كلها لحكمة، وإذا آمنا بذلك صبرنا وانتظرنا الفرج، ويحصل الفرج بإذن الله، ولا نقول: لماذا قدرها الله؟ أو نتسخط أو نقول: ليس فيها حكمة. بل يجب أن نؤمن بأن ذلك لحكمة؛ لأنه قدر الله، وقدر الله لا شك أنه لحكمة.

كذلك في الشرع: إذا أمر الله بشيء أو نهانا عن شيء ـ حتى وإن كنا لا نعلم حكمته ـ يجب أن نعلم أن له حكمة؛ لأن هذا من مقتضى اسم الحكيم.

فقد خلق الله عزّ وجل الشياطين، وسلطها على من شاء من عباده، وخلق الله الشر، والأمراض، والفقر وغيره، ولها حكمة

ولا شك؛ لأننا نعلم أن الله لا يقدر شيئاً إلا لحكمة فنرضى ونسلم، والحقيقة أن عدم الرضا بالقدر يعني: الطعن في حكمة الله.

ففائدة علم الإنسان بحكمة الله أنه يرضى ويسلم، ويعلم أن ما شرعه الله فهو حق، وأن ما قدره فهو حق، وحينئذ يستسلم للقضاء والقدر تمام الاستسلام.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ الإشارة إلى التفريق بين الزوجين في حال عدم التوافق، ووجه ذلك: أن الله وعد على التفرق خيراً، فقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾، وهذا هو الحق، أننا إذا لم نجد سبيلاً إلى الإصلاح بين الزوجين والوئام بينهما فإن السبيل الوحيد هو التفريق؛ ليسعد كل منهما في حياته، ولنا دليل على هذا من السنة:

جاءت امرأة ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه وثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه من المبشرين بالجنة. يعني: مقامه رفيع ـ فقالت: يا رسول الله! ثابت بن قيس لا أعتب عليه في خلق ولا دين ـ رجل مستقيم في خلقه مستقيم في دينه ـ ولكني أكره الكفر في الإسلام ـ والمراد بالكفر: كفر العشير. يعني: بأن لا تقوم بواجبه لكراهتها له، فهي تكرهه كرهاً عظيماً ـ فقال لها: «**أتردين عليه حديقته**» فقد أمهرها حديقة ـ بستاناً لكن والله أعلم أن البساتين رخيصة في ذلك الوقت، وهذا حتى لا تحتج النساء علينا فتقول: البستان يساوي ملايين ـ قال: «**أتردين عليه حديقته**»، قالت: نعم يا رسول الله! فقال الرسول ﷺ

لثابت: «**اقبل الحديقة، وطلقها تطليقة، فقبلها وطلقها**»[١].

وقد ذهب إلى هذا بعض العلماء وقال: إنه إذا قالت المرأة: أنا لا أستطيع البقاء مع الزوج إطلاقاً وإن أبقيتموني معه أحرقت نفسي، قالوا: إن القاضي يُلزم الزوج بالطلاق إذا ردت عليه مهره، وهذا القول ليس ببعيد من الصواب، والله تعالى أشار في هذه الآية إلى أن التفرق أولى وأحسن؛ لأن الله وعد به خيراً.

٢ ـ رحمة الله عزّ وجل بعباده، وأن المرأة والرجل إذا انكسرا بالفراق بينهما جبرهما الله عزّ وجل بالإغناء فيغني كلاً من سعته.

٣ ـ سد باب اليأس من رحمة الله، حيث قال: ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ ولم يقل: يغني كلاً فقط. بل قال: ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ إشارة إلى أن فضل الله واسع، وأن لا تيأس حتى لو استبعدت أن الله يبدلك بخير منها، أو أن الله يبدلها بخير من زوجها، فلا تستبعد؛ لأن الله سيغنيك من سعته.

٤ ـ أن الله تعالى واسع وحكيم، لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ وهذه من حكمته.

٥ ـ إن هذه السعة التي وعد الله تعالى بالإغناء منها مبنية على حكمة، وكأن هذا ـ والله أعلم ـ إشارة إلى أنه لو تخلف هذا الموعود، فإنه لن يتخلف إلا لحكمة، وأحياناً يمنع الله سبحانه الإنسان ما يحب لمصلحة عظيمة، فأحياناً يبتليه بما يملأ قلبه غماً وهماً دائماً، لكن لحكمة عظيمة..

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب الخلع وكيفية الطلاق فيه، حديث رقم (٤٩٧١) عن ابن عباس.

وهي أن هذا الذي يصيب الإنسان من هم وغم وفوات محبوب كله يكفر الله به عنه، ونحن نعلم أن الدنيا تمضي، وينسى الإنسان ما حصل له، لكن يجد أجره وثوابه عند الله عزّ وجل.

ولهذا لما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن الحمى تكفر الذنوب، فقال له أحد الصحابة: يا رسول الله! ولكن إذا ابتليت بحمى ـ يعني: لا تمنعني عن الصلاة مع الجماعة ولا فعل الخير.. فهل يكفر الله بها عني ـ قال: «**نعم**»[1]، فسأل الله عزّ وجل أن يبتليه بحمى لكنها لا تمنعه من صلاة ولا صيام ولا خير؛ لأجل أن تكفر عنه، ولكن هذا اجتهاد، والأولى أن تسأل الله العافية، فإن العافية أوسع من العقوبة بلا شك.

لكن على كل حال: إنه إذا تخلف الموعود فإننا نعلم أنه تخلف لحكمة عظيمة، قد يجد الإنسان ثمراتها في المستقبل، إما في الدنيا وإما في الآخرة.

٦ ـ إثبات الحكمة لله عزّ وجل، ويتفرع على هذا فائدة عظيمة مسلكية منهجية، وهي الرضا بقضاء الله وشرع الله، ترضى لأنك تعلم أن هذا عن حكمة، حتى وإن كان فيه فوات مالك أو ولدك، فاعلم أنه لحكمة، وأنت إذا آمنت بهذا فسوف تسهل عليك كل مصيبة، إذا علمت أن ما أصابك من الله، وأن الله ذو حكمة عظيمة فيما يقدر.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٢٢٦) برقم (٥٤١)، وفي الأوسط (١/ ٤٥١) برقم (٤٥٢)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٤١٧)؛ رواه الطبراني في الكبير والأوسط عن محمد بن معاذ بن أبي بن كعب عن أبيه وهما مجهولان كما قال ابن معين، قلت: ذكرهما ابن حبان في الثقات. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣٤٤٤) حسن لغيره.

□ قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء: ١٣١].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ هذه تقدم لنا مراراً أمثالها، وفيه أن تقديم الخبر: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يفيد الحصر، وأنه خاص بالله عزّ وجل.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ يشمل ما فيهما من الأعيان والمنافع وغير ذلك، فكله ملك لله، لا يشاركه فيه أحد، ولهذا لا يمكن لأحد أن يتصرف في شيء من السماوات والأرض إلا بإذن الله عزّ وجل، الإذن الكوني أو الإذن الشرعي.

قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ لمَّا ذكر ما يتعلق بالربوبية، وهو ملكه الواسع العام، ذكر ما يتعلق بالألوهية والعبادة، وهي: التقوى، فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

وقوله: ﴿وَصَّيْنَا﴾ الوصية: هي العهد بالشيء مع التأكيد، يعني: ليس مجرد أن أقول: يا فلان! افعل كذا وكذا، فليست هذه وصية، بل إذا قيل: «وصى» فمعناها: أنه عهد إليه بشيء مع التأكيد.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الذين أوتوا الكتاب من قبلنا: هم اليهود والنصارى، ولكن الصحيح أنها أعم، وأن كل من أنزل الله إليه كتاباً فقد وصَّاه بالتقوى.

ومن المعلوم أن كل رسول معه كتاب، كما قال تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥].

إذاً: فـ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ هنا لا تختص باليهود والنصارى، بل كل من آتاه الله الكتاب، وصاهم الله تعالى بالتقوى.

قوله: ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾: ﴿أَنِ﴾ هنا يسميها النحويون تفسيرية، وعلامتها: أن تأتي بعدما تضمن معنى القول دون حروفه.

فإذا أتت ﴿أَنْ﴾ بعد فعل تضمن معنى القول دون حروفه فأعربها على أنها تفسيرية، وإن شئت فقل: ما حل محلها «أي» فهي تفسيرية.

وهنا قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيكون قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ كأنها تفسير لما أوصى به الله سبحانه من قبلنا وهذه الأمة.

وهنا لو قال قائل: قوله: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أليس من الممكن أن يقال: ولقد وصيناكم والذين أوتوا الكتاب من قبلكم حتى لا ينفصل الضمير؟ قلنا: بلى، لكن لما كان هؤلاء سابقين علينا كان مقتضى الترتيب الزمني أن يقدموا، كما أن من سبق غيره في المرتبة فإنه يقدم عليه ولو أمكن اتصال الضمير، مثل قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الممتحنة: ١] وكان لقائل أن يقول: لماذا لم يكن الكلام: «يخرجونكم والرسول»، لأنه لا فصل مع إمكان الوصل، كما قال ابن مالك في الألفية:

وفي اختيارٍ لا يجيء المنفصل ... إذا تأتى أن يجيء المتصل

فنقول: نعم هو في الإمكان أن يكون هذا، لكن يفوت

الغاية، فهنا: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ليسوا أفضل منا، ولكنهم أسبق منا زمناً، وفي قوله: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ تقديم الرتبة، فذكر الرسول عليه الصلاة والسلام لئلا يكون تابعاً لغيره، فيقال: يخرجونكم والرسول.

وقوله: ﴿أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ هذا ما أوصى به الله عزّ وجل الأولين والآخرين، وتقوى الله مرت علينا كثيراً مراراً وتكراراً على أنها اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

والتقوى: أحياناً تضاف إلى الله كما هنا، وأحياناً تضاف إلى المخلوقات مثل: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣١]، وأحياناً تضاف إلى الزمن مثل: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وليست التقوى المضافة إلى غير الله كالتقوى المضافة إلى الله؛ لأن التقوى المضافة إلى الله تقوى مع عبادة وتذلل لله عزّ وجل، أما اتقاء النار، واتقاء اليوم الذي يرجع فيه إلى الله فهذا مثل اتقائنا للسباع والذئاب وما أشبه ذلك! أي: أننا نخاف منها خوفاً طبيعياً لا خوف عبادة ولا تقوى عبادة.

وفي الأثر: «**اتق شر من أحسنت إليه**»، وهذا ليس تقوى عبادة، فكل تقوى تضاف إلى غير الله فليست تقوى عبادة، والتقوى المضافة إلى الله تقوى عبادة، بمعنى أن الإنسان يتقي مخالفة الله عزّ وجل محبة له وتعظيماً له.

قوله: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: ولن تضروا الله.

فإذا كفر كل الخلق فإنهم لن يضروا الله عزّ وجل؛ لأنه غني

عنهم، وفي الحديث القدسي من حديث أبي ذر رضي الله عنه المشهور أن الله تعالى قال: «**يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً**»(١)، وأي شيء ينقص الله؟! الطاعة تنفع صاحبها، والسيئة تضر صاحبها، أما الرب عزّ وجل فإنه لا يتضرر بمعصية ولا تنفعه الطاعة، ولهذا قال: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فهو غني عنهم أجمعين.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ مر علينا أيضاً مراراً وتكراراً أن «كان» في مثل هذا الترتيب تفيد الثبوت والاستمرار، واتصاف الموصوف فيها. يعني: اتصاف اسمها بالصفة المضافة إليه فكان الله غنياً حميداً ولم يزل غنياً حميداً.

والغني: هو من عنده غنىً يستغني به عن غيره، والحميد بمعنى: المحمود، فهو غني يحمد على غناه، وليس كل غني يحمد على غناه، فالغني البخيل كالفقير تماماً، بل أردأ من الفقير؛ وأسوأ حالاً من الفقير؛ لأن الغني البخيل يذم، والفقير لا يذم، لكن الغني الحميد بمعنى: الذي ينفع غيره بغناه، وهذا هو المحمود، فالله سبحانه غني بذاته عن جميع مخلوقاته، ثم هو حميد بما يفعله بعباده من الخيرات والنعم ودفع النقم... وغير ذلك.

وقوله: «حميد»: بمعنى حامد، وبمعنى محمود، فإن قال إنسان: أليس هذا من استعمال المشترك في معنيين؟ قلنا: وأي

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم (٢٥٧٧) عن أبي ذر.

ضرر في استعمال المشترك بمعنيين إذا كان لا منافاة بينهما، فالمشترك معناه: اللفظ الصالح لمعنيين على وجه الحقيقة، مثل: كلمة «عين» تطلق على الذهب:

أندَّان أم عينان أم ينبري لنا فتى مثل نصل السيف ميزت ضاربه

فالذهب يسمى عيناً، والماء الجاري يسمى عيناً حقيقة، والعين الباصرة تسمى عيناً حقيقة، فهنا: لو جاءت كلمة عين فهل يمكن أن تحملها على المعاني الثلاثة؟

الجواب: نقول: لا. إذا لم يمكن أن تجتمع، أما إذا أمكن فنحملها.

وهنا «الحميد» فعيل، وتأتي بمعنى «فاعل» وتأتي بمعنى «مفعول»، إذاً: هو حميد. أي: محمود، محمود على صفاته الكاملة.. ومحمود على إنعامه.. وعلى أفعاله الدائرة بين العدل والإحسان، وهو أيضاً حامد لمن يستحق الحمد من عباده، ولهذا يثني الله سبحانه على من يستحقون الثناء مثل الأنبياء والرسل والأصفياء... وما أشبه ذلك.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ عموم ملك الله سبحانه، لقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

٢ ـ اختصاص الملك العام لله، سواء كان عاماً لشموله في الأعيان أو لشموله في الأفعال. «شموله في الأعيان» يعني: كل الموجودات ملك لله. و«شموله في الأفعال» أنه يفعل في هذه الموجودات ما يشاء.

ولا يثبت مثل هذا لأحد من المخلوقين، فلا يوجد أحد

عنده شمول في الموجودات، ولا في الأفعال والتصرفات؛ لأن ملكي أنا محصور لا تملكه أنت، وملكك أنت محصور لا أملكه أنا، ثم ملكي بما أملك ليس ملكاً لجميع التصرفات، أتصرف فيه كما أشاء، بل هو ملك محدود.

٣ ـ أهمية تقوى الله عزّ وجل؛ لأنه أوصى بها الأولين والآخرين، لقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

والتقوى تكون بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

وأما قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] وكل ما أمر الله به فهو بر، فالجواب: أن بعض الكلمات يكون لها معنىً إذا انفردت ومعنى إذا اقترنت بغيرها، فالتقوى إذا انفردت تشمل البر، والبر إذا انفرد يشمل التقوى، وإذا اجتمعا صار البر فعل الأوامر، والتقوى ترك النواهي.

٤ ـ أن مخالفة التقوى لا تضر الله شيئاً، لقوله: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٥ ـ إثبات اسمين من أسماء الله وهما: الغني والحميد، فيستفاد منهما: إثبات صفتين من صفات الله وهما «الغنى والحمد»، ويستفاد من ضم أحدهما للأخرى فائدة الانضمام؛ لأن الغنى وحده كمال، والحمد وحده كمال، واجتماعهما يتولد منه كمال أعلى.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾ [النساء: ١٣٢].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ هذا تكرار، لكنه تكرار مهم، ففي الأول بيان غناه عزّ وجل عن خلقه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾، وفي الثاني: بيان مراقبته لخلقه، فالآية الأخيرة تتضمن التحذير من المخالفة، والأولى تتضمن الأمر بالموافقة.

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ الوكيل هو المراقب المتصرف، ولهذا يكون وكيل الإنسان متصرفاً فيما وكل فيه مراقباً له.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ في هذه الآية من عموم ملك الله ما في الأولى.

٢ ـ وفي هذه الآية كمال مراقبة الله عزّ وجل لعباده؛ لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

فإن قال قائل: الوكيل عادة أدنى رتبة من الموكل، فكيف نقول: إن الله وكيل؟

فالجواب: الوكيل الذي هو عادة أدنى مرتبة من الموكل هو الذي يتصرف للغير بأمر الغير، فوكيلك أدنى منك مرتبة؛ لأنه يتصرف لك بأمرك، فهو دونك، أما الوكيل الذي بمعنى المراقِب فإن مرتبته تكون أعلى؛ لأنه سبحانه يراقب جميع العباد، ويحصي عليهم أعمالهم.

٣ ـ في الآية أيضاً كمال مراقبة الله عزّ وجل، وأن فيها الكفاية عن كل مراقب.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: ١٣٣].

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ الجملة لا يخفى أنها جملة شرطية، وفعل الشرط وجوابه كلاهما فعل مضارع، ولهذا جاءا مجزومين، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وقوله: ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ بمعنى: يعدمكم حتى لا تكونوا في الوجود.

وقوله: ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هذا منادى، وصدر الله هذه الجملة بالنداء للتنبيه، و﴿ٱلنَّاسُ﴾: يشمل الكافر والمؤمن.

قوله: ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ أي: بآخرين يتقون الله عزّ وجل، ويقومون بأمره، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، وهذا تهديد من الله عزّ وجل أن يخالف أوامره أحد.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾، أي: على إذهابكم والإتيان بآخرين قديراً، والقدرة وصف يتمكن به القادر من الفعل بلا عجز، والقوة وصف يتمكن به من الفعل بلا ضعف، والدليل على أن القدرة ضدها العجز، والقوة ضدها الضعف، قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، ولم يقل: عليما قوياً؛ لأن الذي يقابل العجز هو القدرة.

وقوله: ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ حذف في قوله: ﴿بِـَٔاخَرِينَ﴾ الموصوف، والتقدير «بقوم»، وعليه قول مالك رحمه الله:

وما من المنعوت والنعت عقل ... يجوز حذفه وفي النعت يقل

فالمنعوت يحذف كثيراً كقوله: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ: ١١] ومثل هذه وغيرها.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾؛ أي: وعلى غيره أيضاً قدير، والتقديم هنا لا يدل على الحصر، ولكن تقديمه لتأكيد قدرته عليه، وهو محل الخصومة بين المنكرين والمثبتين للقدرة، فلذلك قدم المعمول للأهمية، ومر علينا قريباً مثله.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ إثبات المشيئة لله، وتؤخذ من قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾، والمشيئة الثابتة لله ليست مشيئة مطلقة مجردة عن الحكمة بل هي مشيئة مقرونة بالحكمة، فكل شيء علّقه الله بالمشيئة فالمراد المشيئة التي تقتضيها الحكمة، بدليل: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠]، فدل ذلك على أن مشيئة الله مقرونة بالعلم والحكمة.

٢ ـ بيان قدرة الله عزّ وجل، وأنه قادر على أن يذهب الناس جميعاً ويأتي بآخرين، ومعلوم أن نوحاً عليه الصلاة والسلام هو الأب الثاني للبشرية؛ لأن الله تعالى أهلك قومه إلا من كانوا معه، وقد قال المؤرخون: إن الذين بقوا من البشرية كلهم أولاد لنوح، وأن أولاد نوح: سام وحام ويافث هؤلاء الثلاثة تفرع منهم بنو آدم بعد أن أغرق الله أهل الأرض.

فهنا أذهب الله أهل الأرض، وأتى بآخرين، وعمرت الأرض بساكنيها، إلى أن بعث الله محمداً ﷺ فكان خاتم الأنبياء.

٣ ـ إثبات قدرة الله عزّ وجل على كل شيء، فهو قادر عزّ وجل على إعدام الموجود؛ لأنه شيء، وعلى إيجاد معدوم؛ لأنه شيء، وكل شيء فالله قادر عليه.

وهو قادر على أن ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الآخر، وقادر على أن يأتي للفصل بين العباد، وقادر على أن يتكلم، وكل شيء فالله قادر عليه.

قال بعض أهل العلم: ولكن القدرة تتعلق بالشيء الممكن، أما الشيء المستحيل فلا تتعلق به القدرة، وأشكل هذا على بعض الناس، وقال: إن الله على كل شيء قدير، وأجاب عنه شيخ الإسلام رحمه الله بأن المستحيل ليس بشيء؛ لأنه لن يوجد ولن يعدم، وليس بشيء حتى يقال: إنه خرج من عموم الآية، وإذا كان ليس بشيء فإنه لا يدخل في العموم حتى نقول: إن هذا خطأ، ولهذا قال السفاريني في عقيدته:

بقدرة تعلقت بممكن كذا إرادة فع واستبن(١)

وعلم الله يتعلق بالمستحيل بدليل قول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فمستحيل أن يكون فيهما آلهة إلا الله، ومع ذلك علم الله تعالى بنتيجته لو كان، وهذا شيء مستحيل.

فلو قال قائل: هل يقدر الله على أن يخلق مثل نفسه؟ قلنا: هذا مستحيل، مستحيل أن يخلق مثل نفسه؛ لأنه جل وعلا لا مثل له، كما أخبر عن نفسه، وإذا كان لا مثل له فإنه يستحيل أن يكون كذلك؛ لأن الله تعالى خبره صادق لا يخلف ولا يتغير.

ويعبر بعض الناس بقوله: «إن الله على ما يشاء قدير»، وهذا التعبير غير صحيح؛ لأنه يقيد القدرة بما شاءه الله، وما لم يشأه فهو قادر عليه، ومفهوم هذا الكلام أنه ليس بقادر، فعلى

---

(١) البيت رقم ٣٧ من منظومة العلّامة الشيخ محمد بن أحمد السفاريني المتوفى عام ١١٨٨هـ رحمه الله تعالى.

هذا نقول: أولاً: هذه الكلمة لم ترد لا في القرآن ولا في السنة: «إن الله على ما يشاء قدير». وثانياً: أنها توهم معنى فاسداً.

ورتب بعض العلماء على هذا أموراً فقال: إنها توهم مذهب المعتزلة الذين أنكروا تعلق مشيئة الله بفعل العبد، وقالوا: إن العبد يفعل الفعل باختياره، ولا تعلق لمشيئة الله به، فيكون عزّ وجل غير قادر على أفعال العباد بناءً على ذلك؛ لأنه لا يشاؤها.

وعلى كل حال: يجب التقيد بما جاء في القرآن والسنة، فنقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يدرك معنى مستحيلاً أو غير مستحيل فليقل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ويسكت. ونحن نبين لطلبة العلم وسيفهمون، لكن العامي قد لا يفهم هذا الكلام. فلا نخاطبه به.

ويُذكر أن الشيطان ـ أبا الشياطين ـ الذي يجعل له كرسياً على البحر، ويبث جنوده وسراياه في إضلال الخلق، قالت له ذريته: لمَ تفرح بموت العالم أكثر مما تفرح بموت العابد، قال: لأن العالم يرشد الناس ويهديهم، ويدلهم، ولا أتمكن من إضلاله، لكن العابد تنطلي عليه الأمور. قالوا: كيف ذلك؟ قال: أنا أختبرهم لكم، فأرسل من جنوده من يقول للعابد: هل يستطيع الله أن يجعل السمٰوات والأرض في جوف بيضة، فالبيضة مفهومة، والسماوات والأرض كذلك، والعابد يعبد الله ليل نهار، ففكر وقال: لا يستطيع، فرجع المندوب وقال: إنه يقول: لا يستطيع، قال: انظروا، الآن كفر الرجل، وهو لا يدري، فأرسله إلى العالم وقال له: هل يستطيع الله عزّ وجل أن يجعل السماوات والأرض في بيضة؟ قال: نعم يستطيع، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا

أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، لو قال للسماوات: كوني في جوف البيضة كانت، إما أن تكبر البيضة أو تصغر السماوات والأرض، فرجع إلى شيطانه وأخبره بقول العالم. قال: انظر! هذا تخلص وذاك المسكين كفر، وهذه قصة مرت عليَّ في بعض الكتب قديماً، لكني أقول: قل للعامي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ولا تقل القدرة تعلقت بالممكن ولا بالمستحيل ولا بالواجب.

وأما قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] فالمشيئة هنا معلقة بالجمع. يعني: إذا شاء جمعهم فإنه لا يمتنع عليه، فالمشيئة هنا شرط في الجمع، وليست شرطاً في القدرة.

٤ ـ إثبات القدرة على كل شيء، بإذهاب الناس والإتيان بآخرين بعدهم.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء: ١٣٤].

الإعراب:

قول الله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ هذه جملة شرطية، فعل الشرط فيها «كان»، وجواب الشرط قوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾، واقترن الجواب بالفاء؛ لأنه لا يصح أن يكون فعلاً للشرط، وكل جواب لا يصح أن يكون فعلاً للشرط فإنه يتعين أن يقترن بالفاء، كما قال ابن مالك رحمه الله:

واقرن بفا حتماً جواباً لو جعل شرطاً إن أو غيرها لم ينجعل

هذا هو الضابط، وقد حصر ما يشملها هذا الضابط بسبع جمل، مذكورة في قوله:

اسمية طلبية وبجامد وبما وقد وبلن وبالتنفيس

وقوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ جملة خبرية، قدم فيها الخبر لإفادة الحصر؛ لأن من قواعد البلاغة أن تقديم ما حقه التأخير يقتضي الحصر.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ الإعراب فيها واضح لا يحتاج إلى ذكر.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: جزاءها ومتعها وزهرتها فقد فاته الخير الكثير؛ لأنه حرم ما عند الله من ثواب الدنيا والآخرة، ولهذا لم يقل: من كان يريد ثواب الدنيا نؤته منها، كما جاء ذلك في آية أخرى: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] بل جاء الجواب على خلاف ما يتوقع السامع، فكأنه لم ينل شيئاً.

وهذه الآية لها شواهد كثيرة: أن من أراد الدنيا فإن الدنيا والآخرة تفوته، ثم لا ينال ما أراد من الدنيا؛ كقول الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ١٩].

ومن أراد الآخرة لا تفوته الدنيا، ولهذا قال الله عزّ وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠]،

فمن أراد الآخرة لم تفته الدنيا، ومن أراد الدنيا قد تفوته الدنيا والآخرة وإن أتته الدنيا فإنه لا يؤتى منها كل ما يريد، وهذا هو الحاصل في الإرادات، ومن أراد الدنيا والآخرة معاً فهل نقول: إنه بين درجتين، أو نقول: إنه ينال ثواب الدرجة الثانية وهي إرادة الآخرة؟

الجواب: نقول هنا: أيهما أغلب فيمن أراد الدنيا والآخرة، إذا كان الأغلب هو الآخرة فإنه ينال ثواب الدنيا والآخرة، وإذا كان الأغلب الدنيا فإنه ينقص من ثواب الآخرة بقدر ما نوى من الدنيا، فإذا كان نوى الآخرة كلها حصل له الثواب كله، أو بعضها يحصل له أقل.

وقد جاءت الأحاديث شاهدة بهذا، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[1]، ولهذا نجد الكفار الذين يريدون الدنيا أحياناً يوفقون في الدنيا، ويحصل لهم مرادهم أو بعضه، وأحياناً لا يحصل لهم مرادهم، ويكونون أشد فقراً من المسلمين.

وقوله عزّ وجل: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾. يعني: وقد فاته ما يريد؛ لأنه في الواقع قد يؤتى ما يريد أو بعضه، ثم لو أتي فإنه لن يدوم، بل سيموت أو يفقد ما أوتي.

---

(١) تقدم (١/ ٢٥٧).

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ يعني: أنه ثبت ثبوتاً أزلياً وأبدياً.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ ترتيب الثواب والجزاء على النية، لقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾، وعلى هذا فيجب على الإنسان أن يصحح نيته تماماً، وأن لا ينوي بعمل الآخرة إلا الآخرة، أما عمل الدنيا فهو للدنيا.

٢ ـ الرد على الجبرية، وذلك بإثبات الإرادة للعبد، والجبرية يقولون: إن العبد ليس له إرادة، وأنه مجبر على عمله ليس له إرادة، وهذه الآية وغيرها ترد عليهم.

٣ ـ بيان انحطاط رتبة الدنيا عند الله عزّ وجل، ولهذا قال: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ قال ابن القيم رحمه الله في النونية:

لو ساوت الدنيا جناح بعوضة ... لم يسق منها الرب ذا الكفران
لكنها والله أحقر عنده ... من ذا الجناح القاصر الطيران

يعني: لو أن الدنيا تساوي جناح بعوضة ما سقى الله أحداً من الكفار، ولا أنعم عليهم بشيء؛ لكفرهم، لكن يتمتعون بها لأنها ليست عند الله بشيء، سواء تمتع بها أولياؤه أو أعداؤه، وهذا هو الواقع، فالدنيا إذا لم تكن وسيلة إلى الآخرة فلا خير فيها، حتى لو نعم فيها الإنسان فإن هذا النعيم جحيم، ولذلك تجد أشد الناس همّاً وأسىً وحزناً وقلقاً هم أصحاب الدنيا، ولا يغرنك ما عندهم من اللباس والقصور، والنعيم والسيارات وغيرها، فقلوبهم والله أسوأ حالاً من أفقر المسلمين.

قال بعض السلف: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من لذة العيش لجالدونا عليه بالسيوف».

٤ ـ أن الذي يعطي الثواب هو الله عزّ وجل لا غيره، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، ويتفرع على هذه الفائدة: ألا نعتمد فيما نرجوه من ثواب الدنيا والآخرة إلا على ربنا عزّ وجل؛ لأنه هو الذي بيده الأمور سبحانه وتعالى، حتى قال الرسول ﷺ لابن عمه عبد الله بن عباس: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك**»[1].

٥ ـ إثبات الآخرة، ولم نقل: إثبات الدنيا؛ لأنه لا حاجة إلى ذلك، ولو قلنا: إثبات الدنيا لكان هذا من باب اللغو؛ كقول السماء فوقنا والأرض تحتنا.

وكأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم الماء

فهذه الآية تدل على ما ذكرنا من إثبات الآخرة، وأنها آتية لا بد منها، وأنها هي الغاية لكل حي، ولهذا يجب علينا أن نشعر بأننا نحن في هذه الدنيا مسافرون كالمسافر تماماً، بل أعجل من المسافر؛ لأن المسافر يسير ويمكث، ينزل لينام، يستريح، ويريح الإبل، لكن الحي في الدنيا لا يستريح، بل هو سائر ليلاً ونهاراً، قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وسائر في كل حال، فعلينا أن نشعر أنفسنا بهذا لئلا نتخذها وطناً.

ومن نعمة الله سبحانه على العباد جميعاً: أنه لم يجعل نعيم هذه الدنيا كاملاً، بل ينغص، لئلا يتخذ الإنسان الدنيا مقراً ووطناً، بل يعرف أنها ليست دار مقر، فصفوها كدر، وراحتها عناء، وبهذا يعلم: أن الآخرة هي الأهم.

٦ ـ إثبات اسمين من أسماء الله هما «السميع» و«البصير»،

---

(١) تقدم (١/ ٥٥٣).

وإثبات ما يترتب عليهما من وصف «السمع» و«البصر»، وإثبات ما يترتب عليهما من أثر وهو أنه «يسمع ويبصر»، يعني: ليس سميعاً بلا سمع أو بلا بصر، ولا ذا بصر بدون أن يبصر، أو ذا سمع بدون أن يسمع.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطاب لكل المؤمنين، ونحن ـ إن شاء الله تعالى ـ منهم، فالخطاب موجه إلينا، وإلى غيرنا من المؤمنين.

واعلم أن تصدير الله تعالى خطابه بالنداء يدل على أهميته؛ لأن النداء يلفت سمع السامع، ويتجه إلى المنادي ماذا تريد؟

ثم اعلم أن تخصيص النداء بالمؤمنين يفيد أنهم هم الأهل لتوجيه مثل هذا الخطاب إليهم؛ لأنهم مؤمنون ينفذون أمر الله إن كان أمراً، ويتركون نهيه إن كان نهياً، ويتأدبون بخلقه إن كان خلقاً، فكانوا أهلاً لأن يوجه الخطاب إليهم، وكفى شرفاً بالإيمان أن يوجه الله الخطاب إلى المتصفين به فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ شرف عظيم أن يوجه رب العالمين إليك خطاباً.

ويدل أيضاً على تخصيص المؤمنين، وعلى أن ما ذكر من مقتضيات زيادة الإيمان، وأن مخالفته تنقص الإيمان.

قوله: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ فعالين.

فهي صيغة مبالغة، ويحتمل أن تكون على سبيل النسبة. أي: من ذوي القوامة.

قوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ القسط هو العدل، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١]، فالقسط هو العدل، والإقساط: هو الجور، و«أقسط» بمعنى عدل، وقسط بمعنى جار، ولهذا جاء اسم الفاعل من الأولى منها على وزن مُفْعِل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢] وجاء اسم الفاعل من الثانية على وزن «فاعل»: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١٥].

قوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ﴾ حال من فاعل قوامين، ويحتمل أن تكون خبراً ثانياً لقوله: ﴿كُونُوا۟﴾ لكن كونها حالاً أولى.

وقوله: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ أي: تشهدون بالقسط لله عزّ وجل، لا يحملكم على هذا رياء، ولا سمعة، ولا دنيا ولا غير ذلك، شهداء لله فقط، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢].

قوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الشهادة على النفس ممكنة، تشهد على نفسك قبل أن تشهد نفسك عليك، والشهادة على النفس هي الإقرار، بأن يقول: فعلت كذا وفعلت كذا.

قوله: ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ أي: الأم والأب، حتى على الأم والأب اشهد ولو غضبوا؛ لأن رضا الله مقدم على رضا الوالدين.

قوله: ﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ مثل الإخوان، والأبناء، والأجداد، والأعمام، والأخوات والخالات، والقرابة الذين ليسوا بأقربين من باب أولى، لكن الله نص على ذلك؛ لأن النفس قد تميل إليهم، فلا تشهد بالعدل.

ثم أشار سبحانه إلى أمر مهم يحمل على الشهادة للمشهود له أو عليه، فقال: ﴿إِن يَكُنْ﴾ أي: المشهود عليه أو المشهود له: ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾؛ لأن من الناس من يشهد للغني لغناه، أو للفقير لفقره، أو يشهد على الغني لغناه، أو على الفقير لسبب من الأسباب، فالله أمر بأن نشهد على هؤلاء ولو كان الإنسان غنياً أو فقيراً؛ لأن أمرهما إلى خالقهما عزّ وجل، ولهذا قال: ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ فلا تقل: أشهد للفقير؛ لأنه فقير محتاج وصاحب عائلة؛ لأن ولاية الله لهم خير من شهادتك.

ثم قال: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أي: هوى النفس، وهو: ميل الإنسان إلى ما يخالف الشرع، وهذا هو الهوى المذموم.

وقوله: ﴿أَن تَعْدِلُوا۟﴾ معناها لأجل أن تعدلوا، وليس هناك أحد يكره العدل، لكن لما أمر الله بالشهادة على النفس والوالدين والأقربين، وبيّن أنه تعالى هو الذي يتولى الجميع، ونهى عن اتباع الهوى، قال: ﴿أَن تَعْدِلُوا۟﴾ يعني: إن أردتم العدل فلا تتبعوا الهوى، وعلى هذا فيجوز أن نقول: التقدير: كراهة أن تعدلوا. يعني: أننا أمرناكم أو نهيناكم عن اتباع الهوى كراهة أن لا تعدلوا؛ أي: من أجل أن تعدلوا، والعدل هو الاستقامة، والمراد به في باب الأحكام: الحكم بما دل عليه الكتاب والسنة.

قوله: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ «إن تلووا» أي: تنحرفوا في الشهادة، فتزيدوا فيها أو تنقصوا منها، أو تعرضوا عن الشهادة بحيث لا تؤدونها، فهذا وعيد.

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ وماذا يكون إذا كان الله بما نعمل خبيراً؟

الجواب: الجزاء، وهذا من أشد ما يكون من الوعيد؛ لأن من علم أن الله تعالى خبير بعمله فلا يتجاسر أبداً أن يخالف أمر الله عزّ وجل.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ وجوب إقامة الشهادة، لقوله: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾.

٢ ـ وجوب العدل فيها، بحيث لا يزيد فيها ولا ينقص، ولا يأبى أن يؤديها عند الحاجة إليها؛ لأن هذا كله داخل في قوله: ﴿قَوَّٰمِينَ﴾.

٣ ـ أنه يجب العدل في أداء الشهادة، ومنه ما ذكره في قوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾.

٤ ـ الإشارة إلى الإخلاص في أداء الشهادة، لقوله: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، فلا تظن أن الشهادة مجرد شهادة للغير أو على الغير، بل أدها قربة إلى الله عزّ وجل، مخلصاً بها لله بامتثال أمره بأدائها.

٥ ـ وجوب الإقرار على من عليه حق، لقوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، فيجب على الإنسان أن يقر بالحق الذي عليه ولو كان مُراً.

٦ ـ أن الإقرار شهادة، لقوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ وذلك أن الإنسان في الواقع إما أن يضيف الشيء إلى نفسه أو على نفسه، أو لغيره على غيره، فهذه ثلاثة أنواع:

الأول: دعوى، إذا أضاف الشيء إلى نفسه، وقال: هذا لي، أو أنا أطلبك مائة ريال، أو ما أشبه ذلك، فهذه دعوى تحتاج إلى بينة، وطريق حكم حسب ما تقتضيه الشريعة.

الثاني: إقرار، إذا أضاف الشيء على نفسه، وهذا إقرار، مثل أن يقول لفلان علي كذا.

الثالث: شهادة، إذا أضاف الشيء لغيره على غيره، وهذه شهادة، يشهد بالشيء لفلان على فلان، وكلها تعتبر شهادة.

٧ ـ وجوب الشهادة على الوالدين والأقربين بما يلزمهم، لقوله: ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾، وعلى هذا فتقبل شهادة الولد على والديه، وهل تقبل لهما؟ في هذا خلاف بين العلماء، فمنهم من قال: لا تقبل سداً للباب ودفعاً للتهمة، ومنهم من فصل فقال: إذا عُلم أن الوالدين أهل تقى وصلاح، وأنهما لن يدعيا ما ليس لهما، وأن الولد أيضاً على جانب كبير من التقى والأمانة؛ فإن الشهادة للوالدين تقبل؛ لأن العلة وهي التهمة مفقودة في مثل هذه الصورة، ولكن أكثر العلماء كما أظن رد على قبول شهادة الإنسان لوالديه سداً للباب؛ ولأن مقياس الأمانة أو عدم الأمانة أمر يصعب.

٨ ـ أن الله سبحانه نهى عن المحاباة للغنى أو للفقر، وتؤخذ من قوله: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾.

٩ ـ أن الله سبحانه هو الولي على كل أحد، فلا تحاب أحداً لغناه ولا لفقره، فالله ولي الجميع.

ومن هنا نأخذ فقه ما يروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله، حين قيل له: ألا توصي لأولادك، قال: لن أوصي لهم، إن كان أولادي صالحين فالله يتولى الصالحين، وولاية الله لهم خير من ولايتي، وإن لم يكونوا صالحين فلا أعينهم على فسقهم، وهذا من فقهه رحمه الله، خلافاً لما يفعله الناس الآن من محاباة

القريب والولد والوالد، ولو كانوا من أفسق عباد الله.

١٠ ـ تحريم ما يسمى بالاشتراكية؛ لأن دعاة الاشتراكية ـ والحمد لله أنها خمدت نارهم ـ يقولون: إننا نريد أن نرحم الفقير، فنأخذ من مال الغني ونعطيه الفقير رحمة به، فيقال: إن الله أولى به منكم، والله عزّ وجل له الحكمة في جعل الناس بعضهم فقير وبعضهم غني، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] أي: يسخر بعضهم بعضاً؛ لأنه لو كان الناس على حد سواء ما استقامت الأمور، فمن يبني لك بيتك إذا كان الناس كلهم أغنياء؟! ومن يبني لك بيتك إذا كانوا كلهم فقراء؛ لأنك ليس عندك شيء تبني به، فالله عزّ وجل له الحكمة في اختلاف الطبقات، لكن مع ذلك لم يضيع حق الفقير، فأوجب الزكاة، وأوجب دفع الضرورة، وأوجب النفقة على الأقارب، وأوجب النفقة على الأزواج، وما أشبه ذلك، وهذا كله يسد حاجات كثير من الفقراء.

١١ ـ تحريم اتباع الهوى الذي يخالف العدل، ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ والهوى لا يذم مطلقاً ولا يحمد مطلقاً، فإذا كان الهوى تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ فهو محمود، وإذا كان مخالفاً له فهو مذموم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ أي: كراهة أن تعدلوا.

١٢ ـ التحذير من الجور، لقوله: ﴿أَن تَعْدِلُوا۟﴾ وهذا يشمل كل موضع يتعين فيه العدل، فيكون ـ مثلاً ـ العدل بين الأولاد في العطية وغير العطية، حتى كان السلف يعدلون بين أولادهم في

القبل. يعني: إذا قبل صبياً قبل الآخر، والعدل بين الزوجات أيضاً، والعدل بين الخصمين بين يدي القاضي... وما أشبه ذلك.

١٣ ـ تحذير من أعرض عن إقامة الشهادة والعدل، أو لوى لقوله: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

١٤ ـ عموم علم الله وخبرته، لقوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لأن «مَا» اسم موصول تشمل كل ما يعمله ابن آدم.

١٥ ـ التحذير من مخالفة الله؛ لأن كل مؤمن يعلم أن الله خبير بعمله لا بد أن يتجنب ما يكون سبباً للعقاب، ويتعرض لما يكون سبباً للثواب.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ كل ما رأيت الخطاب مصدراً بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فانتبه له، كما يذكر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فأرعها سمعك، فإنها إما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه.

وقد ذكرنا فوائد تصدير الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فلا حاجة إلى تكراره؛ لأنه معلوم.

وقوله: ﴿ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قد يقول القائل: كيف يقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ثم يقول: ﴿ءَامِنُواْ﴾ والأمر بالحاصل لغو، وخطابهم بالإيمان ثم أمرهم، فهذا أمر بشيء حاصل؟

فيقال: هذا الفهم خطأ، فالمراد بقوله: ﴿ءَامِنُواْ﴾ أي: حققوا إيمانكم واثبتوا عليه، فيكون الأمر بالإيمان في قوله: ﴿ءَامِنُواْ﴾ أمراً بأمرين:

الأول: تحقيق الإيمان؛ أي: الحرص على تكميله، من كل وجه.

والثاني: الثبات عليه؛ لأنه كم من مؤمن يزل ويقصر.

وقوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ المراد بالرسول هنا: محمد عليه الصلاة والسلام، بدليل ما يأتي بعده.

والإيمان بالله ذكرناه فيما سبق، ولا حرج أن نعيده، الإيمان بالله يتضمن أموراً أربعة:

١ ـ الإيمان بوجوده.

٢ ـ الإيمان بربوبيته.

٣ ـ الإيمان بألوهيته.

٤ ـ الإيمان بأسمائه وصفاته.

ومن أنكر واحداً منها فإنه لم يؤمن بالله.

والإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام، يتضمن الإيمان بأنه رسول الله حقاً وأنه جاء بالحق، فيصدقه فيما أخبر، ويمتثل أمره فيما أمر، وينزجر عما نهى وزجر.

قوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ المراد به هنا: القرآن: وعبر عنه بقوله: ﴿نَزَّلَ﴾؛ لأنه ينزل شيئاً فشيئاً، كما قال

تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

قوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾، «الْكِتَابِ» هنا اسم جنس، فـ«أل» هنا للاستغراق؛ أي: وكل كتاب أنزل من قبل، وعبر عن الكتب السابقة بـ﴿أَنزَلَ﴾ لأنها تنزل جملة واحدة.

والإيمان بكتاب الله: هو أن تؤمن بأنه من عند الله حقاً، وأن ما جاء فيه من أخبار فهي صدق، وما جاء به من أحكام فهي عدل، وأنه مهيمن على الكتب السابقة ناسخ لها.

والإيمان بالكتاب الذي أنزل من قبل: أن تؤمن بأن كل رسول قد أنزل الله عليه كتاباً، وتؤمن بما جاء من الكتب بالتعيين، مثل: التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، وأن تؤمن بأنها من عند الله عزّ وجل، وأن تؤمن بكل ما صح فيها من خبر، وقيدنا بكل ما صح فيها من خبر؛ لأنه دخلها التحريف والتبديل والتغيير، وأما الأحكام فلست مأموراً باتباعها إلا حيث أمرك شرعك.

وقد اختلف العلماء رحمهم الله في شرع من قبلنا: هل هو شرع لنا أو ليس بشرع لنا؟

والتحقيق أنه شرع لنا، لقوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] إلا إذا ورد شرعنا بخلافه، فإنه يكون منسوخاً، على أن العمل بالأحكام التي في الكتب الموجودة الآن بأيدي أهل الكتاب ليس مأموناً؛ لأنهم حرفوا وبدلوا وغيروا.

ثم قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ هذه خمسة من أركان الإيمان

والباقي: الإيمان بالقدر، وهو مذكور في آية أخرى.

وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ﴾: فينكره أو ينكر ما ثبت له من حقوق، أو من أسماء وصفات.

قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ كذلك من يكفر بالملائكة، والملائكة: هم عالم غيبي، خلقهم الله عزّ وجل ليقوموا بطاعته، ورتب لهم وظائف كل على حسب ما تقتضيه حكمته عزّ وجل، وهم أشرف من الجن وأقوى وأعظم، فإن النبي ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلق عليها، له ستمائة جناح قد سد الأفق، وهذا شيء عظيم، والعفريت من الجن قال لسليمان: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩] والملك جاء به قبل أن يرتد إليه طرفه، وهذا أقوى وأعظم.

والملائكة منهم من نعلمهم بأعيانهم مثل جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومالك خازن النار، ورضوان ـ إن صح ـ خازن الجنة، ومنكر ونكير ـ إذا صح ـ وهما اللذان يسألان المرء بعد دفنه، أما عزرائيل فلم يصح، وهو مشهور عند العامة شهرة الشمس في رابعة النهار، وهذا الاسم عند العامة أشهر من اسم جبريل، لكنه لم يصح عن النبي عليه الصلاة والسلام، أنه بهذا الاسم.

ونؤمن أيضاً بما علمنا من أعمالهم وأوصافهم، فنحن نعلم أن جبريل عليه السلام موكل بالوحي، وفيه حياة الأرواح والقلوب، وأن إسرافيل موكل بالنفخ في الصور، وفيه الحياة الآخرة حين ينفخ في الصور، فتخرج الأرواح وتحل في أجسادها، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، وفيه حياة الأرض،

وهؤلاء الثلاثة كان النبي عليه الصلاة والسلام، يستفتح صلاة الليل بقوله: «**اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرفيل**»[(١)]؛ لأن في هؤلاء الملائكة كل واحد له حياة معينة، واستقبال النهار بعد النوم يعتبر حياة جديدة كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

كذلك الإيمان بالكتب: سبق بيانه.

ونؤمن برسل الله عزّ وجل، على سبيل الإجمال، وعلى سبيل التعيين فيمن علمناه بعينه، وليس كل الرسل قد علمناهم، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، لكن نؤمن بهم على سبيل الإجمال، وأما المعين فنؤمن به على سبيل التعيين.

فنؤمن بأنهم رسل الله، وأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله عزّ وجل، وأنهم مبعوثون إلى أقوامهم، وأنهم أدوا الرسالة، ولهذا سنُستَشهد يوم القيامة لهم، وعلى أممهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

قوله عزّ وجل: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ وهو يوم البعث، وسمي اليوم الآخر؛ لأنه المنتهى ليس بعده يوم، والدنيا ثلاثة مراحل: مرحلة الأجنة، ومرحلة الحياة، ومرحلة البرزخ، والرابع النهاية: مرحلة البعث، ولهذا يسمى: اليوم الآخر.

قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ هذا جواب الشرط، «من»؛

---

(١) تقدم ص١٨٢.

أي: صار في متاهات بعيدة؛ لأن هذه الأشياء أمرها ظاهر، فجحدها وإنكارها ضلال بعيد.

والضلال البعيد يعود على كل من كفر بالأربع أو بواحد منها؛ لأن الذي يؤمن ببعض ويكفر ببعض كالذي كفر بالكل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١].

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ وجوب الثبات على الإيمان، لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

٢ ـ وجوب تكميل الإيمان بناءً على قوله: ﴿ءَامِنُوا۟﴾؛ أي: اثبتوا وحققوا الإيمان بإكماله.

٣ ـ وجوب الإيمان بالله عزّ وجل ورسوله وكتابه، لقوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.

٤ ـ أن القرآن منزل، لقوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾. وفيما يتعلق بالله عزّ وجل: فيه أن القرآن كلام الله؛ لأنه نزل من عنده، فيكون كلامه، وعلو الله عزّ وجل أيضاً لقوله: ﴿نَزَّلَ﴾، والتنزيل يكون من أعلى إلى أسفل، وكل هذا أمر معلوم في العقيدة.

٥ ـ أن القرآن منزل على محمد عليه الصلاة والسلام، لقوله: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، ومنتهى نزوله قلب النبي عليه الصلاة والسلام، لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾

[الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤] فقد حل في قلب النبي عليه الصلاة والسلام، ووعاه، وبينه، ولم يفته حرف واحد، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٨ ـ ١٩].

٦ ـ أن القرآن الكريم نزل مفرقاً، لقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ واستشهدنا بالآية الكريمة: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

٧ ـ وجوب الإيمان بالكتب السابقة، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ مِن قَبْلُ﴾، فلو أن أحداً قال: أنا أؤمن بالقرآن، لكن التوراة والإنجيل لم تنزل على رسولنا فلن أؤمن بها، قلنا: إنك الآن كافر مرتد؛ لأنه لا بد أن تؤمن بالكتاب الذي أنزل من قبل كما أمرك الله.

٨ ـ أن هذا القرآن الكريم ختام الكتب، وتؤخذ من قوله: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ مِن قَبْلُ﴾ ولم يقل ومن بعد، إشارة إلى أنه لا كتاب بعد القرآن الكريم.

ـ ويتفرع على هذه الفائدة أنه لا رسول بعد محمد ﷺ؛ لأنه لو ثبت أن هناك رسولاً بعده للزم أن ينزل عليه كتاب.

٩ ـ التحذير من الكفر، لقوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

١٠ ـ أنه لا يصح الإيمان المبعض. بمعنى: أن يؤمن ببعض ويكفر ببعض، لقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

١١ ـ وجوب الإيمان بما ذكر، وهي خمسة أركان من أركان الإيمان الستة.

١٢ ـ وجوب الإيمان بكل ما أخبر الله به أو أخبر به

رسوله ﷺ مما يكون في اليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر ليس أن تؤمن بأنه سيكون، بل أن تؤمن بكل ما يجري فيه مما جاء في الكتاب والسنة، بل قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

مما يدخل في الإيمان في اليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، فجعل من الإيمان باليوم الآخر الإيمان بعذاب القبر، وقوله حق؛ لأن من مات انتهى من الدنيا، ودخل في اليوم الآخر.

١٣ ـ أن الضلال يتفاوت، بعضه أشد من بعض، لقوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

إذاً: هناك ضلال ليس ببعيد، وهو كذلك، فالضلال يتفاوت، والإيمان يتفاوت، والأعمال تتفاوت: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، فمثلاً: جنس الواجب أفضل من جنس المستحب، ففريضة الصلاة أفضل من نافلتها، وقراءة الفاتحة أفضل من قراءة السورة التي بعدها؛ لأن قراءة الفاتحة ركن وما بعدها غير ركن، وصيام رمضان أفضل من تطوع بصوم في أي زمن، وهلم جرا.

وجنس الفريضة أفضل من جنس النافلة، ودليل هذا قوله تعالى في الحديث القدسي: «**ما تقرب عبدي إلي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه**»[1]، ثم أجناس الأعمال تختلف، فبعضها من أركان الإسلام، وبعضها ركن مؤكد، وبعضها دون ذلك، وبعضها ليس من أركان الإسلام.

إذاً: أعمال أهل الخير وأعمال أهل الشر كلها تتفاوت.

---

(١) تقدم (١/ ٣٧٧).

وينبني على ذلك: تفاوت الإيمان وتفاوت الفسق، فيكون هذا أقوى إيماناً وذاك أضعف، والفسق هذا أعظم فسقاً وهذا دون ذلك، ففاعل الكبيرة أعظم فسقاً من فاعل الصغيرة إذا فسق بفعلها، وهذا الأصل هو الذي عليه أهل السنة والجماعة، على أن الأعمال تتفاضل، وأن العاملين يتفاضلون، سواء السيئ أو الصالح.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾ [النساء: ١٣٧].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾: حصل منهم الإيمان مرتين، والكفر ثلاث مرات، وهؤلاء آمنوا ودخلوا في الإيمان، لكن الإيمان لم يستقر في قلوبهم فارتدوا والعياذ بالله.

وقوله: ﴿ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾؛ لأن الإيمان لم يستقر في قلوبهم، ولو استقر الإيمان في قلوبهم ما كفروا، لكنه لم يستقر ـ والعياذ بالله ـ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة: ٨].

قوله: ﴿ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾، انظر التذبذب، بعد أن كفروا أول مرة بعد الإيمان آمنوا، بعد أن كفروا أول مرة بعد الإيمان آمنوا، وبعد ذلك ﴿كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ ـ نسأل الله العافية ـ بتلاعبهم بالدين، وصار الكفر الأخير أشد مما قبله؛ لأنهم متلاعبون متذبذبون، فهم لا يستقرون على قرار.

قوله تعالى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ هذا خبر ﴿إِنَّ﴾، وقوله: ﴿لَّمْ يَكُنِ﴾ هنا فعل مضارع منفي، واللام في قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ تسمى لام النفي أو لام الجحود، وهي زائدة على قول بعض النحويين، وغير زائدة على قول آخرين، فالذين قالوا: إنها زائدة قالوا: التقدير: «لم يكن اللهَ يغفر لهم» والذين قالوا غير زائدة، قالوا: إن قوله: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ على تقدير الإرادة. يعني: لم يرد لغفرانهم.

وأياً كان ففي قوله: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ تيئيس لهم من المغفرة ـ والعياذ بالله ـ وأنهم سيبقون على كفرهم إلى يوم يلقونه.

قوله: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾: ﴿سَبِيلًا﴾، يعني: طريقاً إلى الخير، فلا يمكن أن يهديهم الله سبيلاً إلى الخير، وفي الآية التي في آخر السورة قال: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩] قال: ذلك في الذين كفروا وظلموا.

فهؤلاء الذين حصل لهم ذلك قد سد الله عنهم باب المغفرة وباب الرحمة، باب المغفرة في قوله: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ وباب الرحمة في قوله: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن المتذبذب بين الإيمان والردة يكون مآله أن يزداد كفراً، لقوله: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾، وذلك ـ والله أعلم ـ أن الإيمان لم يدخل قلبه.

٢ ـ من العلماء من استدل بهذه الآية على أن من تكررت

ردته لم تقبل توبته، قالوا: لأن الله قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ فهل هذا الاستدلال صحيح؟

الجواب: قد يقول قائل: إنه ليس بصحيح؛ لأن آخر أمر هؤلاء أن ﴿ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ ولم يذكر الله توبتهم، فإذا قارنا هذا بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣] قلنا: هذه الآية تقضي على ما ذكره هؤلاء العلماء الذين قالوا: إن من تكررت ردته لا تقبل توبته؛ لأن الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾.

وإن قالوا: إننا لا نقول أنها لا تقبل توبته، وأنه لو تاب لم تقبل، لكننا نقول: إنه بعيد أن يتوب، ولهذا كان أمر هؤلاء أن يزداد الإنسان كفراً.

وبناءً على هذا نقول: إذا ظهر من هذا الذي تكررت ردته، الإيمان الصحيح والاستقامة، وصلاح الحال فإننا نقبل منه: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم: ٢٠] وهذا هو الأصح، أن من تكررت ردته يجب أن نتأنى في قبول توبته، حتى نعرف صدق توبته، وصلاحه واستقامته، وأنه تاب توبةً نصوحاً.

٣ ـ الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله، وأن فعله لا ينسب إليه إلا مجازاً، فالرد عليهم من قوله: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ فأضاف الأفعال إليهم، ففيه رد على الجبرية؛ لأن الجبرية عندهم أن العبد ليس له فعل اختياري، بل هو مجبر على العمل؛ كتحرك السعفة في الرياح، فلما قيل لهم: كيف يكون ذلك والله تعالى يثيب

الطائع ويعاقب العاصي؟! أي حكمة في إثابة الطائع وعقوبة العاصي، والكل منهم يفعل بغير اختياره؟!

قالوا: لا نتحاج على الله، والله يفعل ما يشاء، والظلم تصرف الفاعل في غير ملكه، والكل ملك لله، فإذا تصرف في ملكه بما شاء ولو بتعذيب المطيع وتنعيم العاصي فهو ملكه.

وبناءً على ذلك نفوا الحكمة في أفعال الله، وقالوا: ليس لله حكمة في أفعاله، فهو يفعل لمجرد المشيئة.

٤ ـ وفيها أيضاً: رد على القدرية، لقوله: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾، فدل هذا على أن الهداية بيد الله وليس يستقل بها العبد، والقدرية يقولون: إن الإنسان مستقل بفعله، وليس لله فيه مشيئة ولا خلق، وغُلاتهم يقولون: ولا علم ولا كتاب، فغُلاتهم ينكرون جميع مراتب القدر: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق، ومقتصدوهم ينكرون مرتبتين من مراتب القدر، وهما: المشيئة والخلق. ويقولون: الله يعلم وقد كتب ما يكون، لكنه لا يشاء، والإنسان مستقل بعمله، وكلا الطائفتين غاليتان مفرطتان، فالقدرية غلوا في إثبات فعل العبد، وتطرفوا في إثبات خلق الله ومشيئته، والجبرية بالعكس.

٥ ـ أنه يجب على الإنسان أن يحذر من التردد والتقلب، فإن الغالب أن من هذه حاله لا يبارك له في عمره، ولا في عمله، فكونه كل يوم له رأي، وكل يوم له عمل، هذا لا شك أنه يضيع عليه الوقت، ولا يستفيد من عمره شيئاً، ولهذا يذكر عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: «من بورك له في شيء فليلزمه»[1]

---

(١) انظر: الغماز على اللماز للسمهودي ص٢٥٦.

وهذا عام في كل شيء، في العمل، حتى في السيارة إذا بورك لك فيها فالزمها.

على كل حال: في هذا دليل على أن الإنسان لا ينبغي له أن يتقلب، وليثبت، ولكن ليس معنى قولنا هذا أنه يثبت على الباطل بعد أن يرى أنه باطل، بل الواجب إذا تبين له أنه باطل أن يأخذ بالحق، كما قال عمر رضي الله عنه في كتابه إلى أبي موسى الأشعري، «لا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس أن تقضي بالحق فيه اليوم، فإن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل»[(١)].

٦ ـ أن الله سبحانه إذا علم من حال العبد أنه لن يستقيم، فإنه لن يغفر له ولن يهديه؛ لأن هؤلاء: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾.

ـ ويترتب على هذه الفائدة التي دلت عليها هذه الآية، ودل عليها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥] أن الأعمال الصالحة تجلب الأعمال الصالحة، والأعمال السيئة تجلب الأعمال السيئة، فإذا منَّ الله عليك بعمل صالح فأبشر أنه سيمنُّ عليك بعمل آخر تتبعه إياه.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨﴾ [النساء: ١٣٨].

﴿بَشِّرِ﴾ الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام، ويمكن أن نجعله عاماً لكل من يتوجه الخطاب إليه، سواء للرسول ﷺ أم

(١) رواه الدارقطني (٤/٢٠٦)؛ والبيهقي (١٠/١١٩).

غيره، والبشارة في الأصل هي الإخبار بما يسر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، فالتبشير: الإخبار بما يسر، فكيف قال: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨﴾ وهل العذاب الأليم يسر؟ أجاب بعض العلماء بأن هذا من باب التهكم بهم، وهذا يقع كثيراً في كلام الناس، إذا رأى إنساناً متمرداً قال: أبشر بالخيبة، أبشر بالعقوبة وما أشبه ذلك، ومنه: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ٤٨ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩﴾ [الدخان: ٤٨ ـ ٤٩] فإن بعض العلماء قال: المراد بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ التهكم، وبعضهم قال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ في الدنيا، وهذا جزاؤك في الآخرة.

أما الجواب الثاني: فقالوا: إن البشارة هي الإخبار بما يتغير به الوجه من خير أو شر، وسميت بذلك؛ لأن البشرة تتغير، لكن إذا أخبر الإنسان بما يسره استنار وجهه، وإذا أخبر بما يسوؤه أظلم وجهه واكفهر، وعلى هذا فلا يكون في الآية إشكال، هل قيل هذا على سبيل التهكم أو على سبيل الحقيقة، بل يكون قيل على سبيل الحقيقة.

وقوله: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ يعني: الذين نافقوا، بإظهار الإسلام وإبطان الكفر، وهو مأخوذ من «نافقاء اليربوع»؛ أي: جحره؛ لأن اليربوع له جحر له باب مفتوح، يحفر في الأرض خندقاً، ثم يجعل في آخر الجحر قشرة رقيقة، حتى إذا أتي من باب الجحر سهل عليه أن يرفع هذه القشرة الرقيقة برأسه ويخرج، فهذا أصل النفاق من «نافقاء اليربوع».

والنفاق لم يكن معروفاً قبل الإسلام، ولا في أول الإسلام؛ لأن أول الإسلام ليس هناك قوة للمسلمين يخافها الناس، لكن لما صار للمسلمين شوكة، وقوي المسلمون وذلك بعد انتصارهم في غزوة بدر في السنة الثانية بدأ النفاق يظهر، وقال المنافقون: إن أمره قد اشتد وظهر، فلا بد أن نداهنه، ولا بد أن نظهر أننا معه حتى لا ينالنا بسوء، وحصل لهم ما أرادوا، فإن الرسول ﷺ لم ينالهم بسوء، حتى أنه استؤذن في قتلهم فقال: «**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»[1] لكن هذا لا ينفعهم.

إذاً: أول ما ظهر النفاق حين قوي المسلمون بعد غزوة بدر.

قوله: ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿بِأَنَّ﴾ متعلق بقوله: ﴿بَشِّرِ﴾ وقوله: ﴿عَذَابًا﴾ اسم أن، و ﴿لَهُمْ﴾ خبرها مقدم، وقوله: ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: مؤلماً. والعذاب الأليم سيأتي في آخر الآيات، في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥].

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أنه ينبغي لنا أن نصارح المنافقين بأن نبشرهم، سواءً بلفظ أبشروا، أو بلفظ «اعلموا»، ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ حتى يرتدعوا عن نفاقهم.

وهنا قاعدة ينبغي أن نفهمها: إذا وردت النصوص لفظية

---

(١) تقدم (١/ ٤٦٩).

فالأصل وقوعها عملياً، أما إذا قلنا النصوص اللفظية لا يعمل بها إلا إذا علمنا أنه معمول بها فهذه قاعدة خطيرة وفاسدة، فبعض الناس يقول: النصوص اللفظية لا يعمل بها إلا إذا علمنا أن الصحابة عملوا بها، ونحن نقول: الأصل في النصوص اللفظية أنه معمول بها، وهنا لا نحتاج أن نقول: أثبتوا أن الرسول ﷺ كان يبشرهم، فالأصل أنه لما قيل له بَشِّر فبَشَّر.

٢ ـ أن المنافقين مستحقون للعذاب الأليم، لقوله: ﴿بِأَنَّ لَهُمْ﴾ واللام هنا للاستحقاق.

٣ ـ أن عذابهم مؤلم موجع.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٩].

ثم بيَّن من صفاتهم ما ذكره بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ فهذه من علامات النفاق، وأن الإنسان يتولى الكفار دون المؤمنين؛ لأنه يجد المؤمنين ضعفاء ليس لهم شوكة، والكفار أقوياء لهم الشوكة والسلطة فيتخذهم أولياء، يواليهم ويناصرهم ويداهنهم ولو على حساب الدين، كما يوجد الآن من بعض الناس بالنسبة لموالاة الكفار من دون المؤمنين، بل تجده سيفاً مسلولاً على المسلمين، وتجده على الكفار ماءً بارداً، يواليهم ويناصرهم، وهذه من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾.

والتولي في جميع الأمور، أولياء في المحبة، أولياء في

النصرة والمساعدة ولو بالقول.. أولياء في تقوية اقتصادهم.. أولياء في مداهنتهم وعدم التعرض لهم وما هم عليه، المهم أن طرق الموالاة كثيرة.

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أتت ﴿مِن﴾ الدالة على بعد الصلة بينهم وبين المؤمنين؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، فهو أبلغ من قوله: «وبيننا وبينك حجاب»؛ لأنه لو قال: بيننا وبينك حجاب لكان من المحتمل أن يكون ليس بينهما إلا الحجاب فقط، لكن لما قال: «من بيننا وبينك» فمعناها أن هناك مسافة قبل أن نصل إلى الحجاب بيننا وبين هؤلاء.

وهنا أيضاً قال: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تدل على بعد الصلة بين المؤمنين والمنافقين.

قوله تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ أي: أيطلبون عند الكافرين العزة. يعني: الغلبة، والقوة والقهر، وهذا هو الذي يحصل من بعض من يتولى الكفار، يطلبون منهم العزة أن يعتزوا بهم، فأبطل الله هذا الابتغاء بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

فليست العزة عند الكفار، وهذا كقوله تعالى عن المنافقين أنفسهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، وهذا حق لكن من الأعز؟

قال الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وهنا لم يقل: «والله الأعز ورسوله والمؤمنون» لأنه لو قال: والله أعز لأثبت لهم عزة، ولكنه قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ بصيغة تقتضي الحصر بتقديم الخبر، من أجل أن يتبين أن المنافقين لا عزة لهم، وكيف يكون لهم عزة وهم يتقون ويداهنون ويخادعون.

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ كلمة ﴿جَمِيعًا﴾ حال من العزة، وهي تدل على أن هناك أنواعاً من العزة، وهكذا يقول العلماء: إن العزة ثلاثة أنواع: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع، فالله تعالى وحده هو القاهر لكل شيء، الغالب لكل شيء، والله وحده هو ذو القدر العظيم، الذي لا يماثله شيء، والله وحده هو الذي يمتنع عليه كل نقص وكل عيب، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان صفةٍ قبيحة من صفات المنافقين، وهي: موالاة الكافرين من دون المؤمنين.

إذاً: فكل من والى الكافرين من دون المؤمنين ففيه نفاق، ويكفر من ناصرهم على المسلمين، أو أحب انتصارهم على المسلمين، أو انتصار الباطل على الحق، أما مجرد الولاية بالعهد، أو الولاية بالمعاملة فهذه لا تخرج من الإسلام، وقد لا تكون مذمومة فضلاً عن كونها تخرج من الإسلام.

والحزن لمصائبهم لا شك أنه ولاية، لكن مسألة الكفر صعبة، ولكن ربما يأسف الإنسان لمصائبهم؛ لأنه يرى أنها تضره، إذ قد يكون علاقة الناس بهذه الدولة أقوى من علاقتهم بالدولة الكبرى، والله عزّ وجل قال: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤ ـ ٥] انتصار الروم على الفرس، وهناك فرق بين موالاتهم ومداهنتهم، فالموالاة: أن يناصرهم ويساعدهم ويتولاهم ويكون من أوليائهم، والمداهنة أن يسكت عن باطلهم ليسكتوا عنه لكن ليس بينه وبينهم صلة في الموالاة،

والمداهنة حرام، والموالاة أشد، لكن المداراة لا بأس بها إذا دعت الحاجة إليها.

٢ ـ أن من ابتغى العزة من دون الله فهو ذليل، لقوله: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ فإن هذا استفهام إنكاري.

٣ ـ أن العزة لله وحده، لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، فهو العزيز الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء.

٤ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يقطع العلائق عن الخلائق، وأن يعلق قلبه بالله عزّ وجل، يبتغي منه العزة، والنصر ودفع البلاء ويبتغي منه تيسير الأمور... وهكذا.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ الفاعل هو الله عزّ وجل، ونزَّل وأنزل معناهما واحد، وقيل: أنزل: فيما كانت جملة واحدة، ونزل فيما كان متفرقاً، ولكن آيات الكتاب العزيز تدل على أنه لا فرق، والذي يتدبر القرآن يدل على أنه لا فرق، فإن الله تعالى يعبر عن إنزال القرآن تارةً بالإنزال وتارةً بالتنزيل، وإذا فصل بهذا مثل قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]، فعلى حسب ما فصل.

فقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ﴾ أي: الله عزّ وجل.

قوله: ﴿عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: في القرآن، وإذا فسرنا

الكتاب بالقرآن فهذا تفسير بالمراد، وإذا فسرنا الكتاب بالمكتوب فهذا تفسير باللفظ، فالتفسير باللفظ هو الذي يفسر اللفظ بما يوافق اشتقاقه، والتفسير بالمراد هو الذي يفسر اللفظ فيه بما أريد به بقطع النظر عن الاشتقاق، فإذا قلت: الكتاب بمعنى المكتوب فهذا تفسير لفظي باللفظ، وإذا قلت المراد به: القرآن فهذا تفسير بالمراد، وهذا يقع كثيراً في القرآن الكريم، فتارةً تفسر الكلمة بمرادها، وتارة تفسر بما يوافق اشتقاقها.

وعلى كلٍ فالكتاب هنا: فِعَال بمعنى مفعول؛ أي: مكتوب، وسمي مكتوباً؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ولأنه مكتوب في المصاحف التي بين أيدينا، ولأنه مكتوب بأيدي السفرة الكرام البررة.

قوله: ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ﴾، ﴿أَنْ﴾ هذه مصدرية، ويجوز أن تكون تفسيرية؛ لأن التنزيل يتضمن معنى القول دون حروفه، والتفسيرية هي التي تأتي مفسرة لما تضمن معنى القول دون حروفه.

والمنزل الآن قوله: ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾، والآية التي أشار الله عزّ وجل إليها هي قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨] يعني: إذا رأيت أحداً يخوض في آيات الله إما بكفر أو استهزاء أو غير ذلك فلا تقعد معه، لكن لو نسيت فلا حرج عليك، إلا إذا ذكرت، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقوله: ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المراد بالآيات هنا: الآيات الشرعية فيما يظهر، ولكن لا مانع أن نقول: هي أيضاً تشمل الآيات الكونية، أما الآيات الشرعية فهي ما جاءت به الرسل من الكتب المنزلة عليهم، وأما الآيات الكونية فهي المخلوقات، فإذا رأيت أحداً يقرر أن تكون الطبيعة هي الخالقة المدبرة، فهذا كفر بآيات الله الكونية، أما الشرعية فيكون الكفر بها إما بالتكذيب أو بالعصيان والمخالفة، والعصيان والمخالفة إما أن يكون كفراً أكبر أو يكون دون ذلك.

وقوله: ﴿وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ أي: تتخذ هزواً وسخرية، سواء كان ذلك في ذاتها، أو فيما جاءت به من الأحكام، أو فيما أخبرت به من الحوادث، مثل أن يسخر بيوم القيامة، أو يسخر بآدم عليه السلام، أو يسخر بقصص الأنبياء السابقين، أو يسخر بالأحكام الشرعية، فكل هذا داخل في قوله: ﴿وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾.

قوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾ المراد بالقعود المكث، سواء كان ذلك قعوداً أم وقوفاً أم اضطجاعاً، وليس المراد بالقعود ما هو ضد القيام والاضطجاع.

قوله: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾ تفيد الغاية؛ يعني: إلى أن يخوضوا في حديث غيره، وعبر بقوله: ﴿يَخُوضُوا۟﴾ لأن الذين كانوا يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها يبعد كون قولهم جداً، بل هم دائماً ﴿فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ [الطور: ١٢]، لكن مع ذلك إذا كان هذا الخوضُ لا يخدش الدين فلا بأس أن نبقى معهم، و﴿حَتَّىٰ﴾ هنا قلت: إنها للغاية، وتأتي لغير الغاية كثيراً، فتأتي للتعليل مثل قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ

رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ [المنافقون: ٧] فهنا ﴿حَتَّىٰ﴾ للتعليل، ولا تكون للغاية لأن المعنى يختلف ولو قال: «لا تنفقوا حتى ينفضوا» كانت دلالة الآية على: أنهم إذا انفضوا فأنفقوا عليهم؛ لأن حتى الغائية هي التي يحل محلها: إلى أن؛ أي: «لا تنفقوا على من عند رسول الله إلى أن ينفضوا فإذا انفضوا فأنفقوا» وهذا ليس المراد، بل المعنى: ﴿لَا تُنفِقُواْ﴾ لأجل أن ينفضوا، أما التي معنا وهي قوله: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ فهي للغاية.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ أي: غير الحديث الذي يكفرون فيه بآيات الله ويستهزئون بها.

قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ جملة مؤكدة بـ«إن»، والمراد: إنكم إن قعدتم ﴿إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي: مثل هؤلاء الخائضين.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة، والمنافق سبق أنه: هو الذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر، والكافر هو المصرح بكفره.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ إثبات أن القرآن منزل من عند الله، لقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾.

ـ ويتفرع على هذه الفائدة: أن القرآن كلام الله؛ لأنه إذا كان نازلاً من عنده لزم أن يكون كلاماً، إذ أن الكلام صفة، وليس عيناً قائمةً بنفسها، بل صفة من الصفات.

ـ ويتفرع على هذا أيضاً إثبات علو الله؛ لأنه إذا كان الكلام من عنده، وهو نازل، دل هذا على أن المتكلم به عالٍ.

٢ ـ أن الحكم معلق بالسمع، لقوله: ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ﴾، كما

علق بالبصر والقلب.. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

٣ ـ ظاهر الآية ـ بقطع النظر عن آيات أخرى ـ أنه لا يجب الإنكار على الكافر بآيات الله المستهزئ بها؛ لأنه إنما نهى عن القعود معهم ولم يأمر بالإنكار عليهم، ولكن يقال: الجواب عن هذا: أن الله تعالى إنما أراد أن يبين حكم المشاركين، ونهيهم عن ذلك؛ أي: أن هذا المنكر يفهم من نهينا عن الجلوس معهم أن لا نقر المنكر، فالصواب: أن هذه الآية لا تدل على ارتفاع النهي عن هذا المنكر، سواءً دلت عليه أو سكتت عنه، فلدينا نصوص أخرى تدل على وجوب إنكار المنكر.

٤ ـ أن الأحكام تدور مع عللها، لقوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ فلما كانوا يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها نهي عن القعود معهم، ثم أذن لنا بالقعود معهم إذا خاضوا في حديث غيره.

٥ ـ أن المشارك لفاعل المنكر كفاعل المنكر، لقوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ﴾، ونحن قلنا: المشارك، والآية لا تدل على المشارك، وإنما تدل على أن الجالس معهم له حكم الفاعل، فنقول: إذا كان الجالس يعني: القاعد معهم له حكم الفاعل فالمشارك من باب أولى.

٦ ـ وجوب مغادرة المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ بها، ولا يجوز للإنسان أن يبقى ويقول: أنا منكر بقلبي، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**من رأى منكم منكراً فليغيره**

بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه»[١] وأنا الآن منكر بقلبي غاية الإنكار!!

فنقول: لو صدقت في ذلك لقمت؛ إذ أن الجوارح تبع للقلب، فلو كره القلب ذلك لكرهته الجوارح، وهذا لا يغنيك، ولا بد أن تفارق، وإلا كنت مثلهم.

فإن قال قائل: إذاً حرموا على الإنسان الجلوس مع حالق اللحية؛ لأن حلق اللحية حرام؟

فالجواب عن ذلك: أنه يجب علينا أن نغادر المكان حين نراه يحلقها بالفعل، أما وقد انتهى الفعل ولم يبق إلا أثره فلا يلزمنا أن نغادر المكان الذي هو فيه، ومثله لو قال قائل: إذا شممت رائحة الدخان في إنسان وجب عليك أن تفارقه؛ لأن أثر الدخان في فمه؟ فالجواب: لا يجب، نعم إذا رأيته يشرب الدخان حينئذ أنهاه، فإن نفع وإلا قمت، أما أثر المعصية فليس كفعل المعصية.

٧ ـ تحريم التعاون على الإثم والعدوان، وجهه: أنه إذا حرم القعود مع فاعل المنكر فالإعانة من باب أولى، مثل أن تهيئ له المكان، فترشه، وتطيبه، وتأتي بالأواني، وتصب له القهوة والشاي، فهذا حرام من باب أولى.

٨ ـ أن جليس الصالحين الذين يعملون الصالحات مثلهم ومنهم، بقياس العكس؛ لأنه إذا وزر بالجلوس مع العصاة أجر بالجلوس مع الطائعين، وقد استعمل النبي ﷺ هذا القياس بنفسه

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص، حديث رقم (٤٩) عن أبي سعيد الخدري.

صلوات الله وسلامه عليه، لما قال: «**وفي بضع أحدكم صدقة**» ـ يعني الإنسان إذا أتى زوجته فله صدقة ـ قالوا: يا رسول الله! يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيه أجر؟! قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟**» قالوا: نعم، قال: «**كذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**»[(١)] فهذا قياس العكس، وهذه مثلها؛ لأن الله تعالى إذا أثم القاعدين مع فاعل المنكر فإن فضله أوسع وأعظم، فيثيب القاعدين مع الصالحين وأهل الطاعات.

٩ ـ الحذر من جلساء السوء، والترغيب في جلساء الصلاح، وهذا ما حصل من رسول الله ﷺ، حيث قال: «**مثل الجليس الصالح كحامل المسك**»[(٢)] المسك: نوع من الطيب يقال: إنه يخرج من دم غزال معين، وفي ذلك يقول المتنبي يمدح سيف الدولة:

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

فنحن نقول: إن الرسول قال: «**مثل الجليس الصالح كحامل المسك إما أن يحذيك** ـ يعني: يعطيك مجاناً ـ **وإما أن يبيعك** ـ يعطيك بعوض ـ **وإما أن تجد منه رائحةً طيبة**» فلن تفلس من الجليس الصالح، «**ومثل الجليس السوء كنافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه رائحةً كريهة**»[(٣)] والكير: عبارة عن جلد

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم (١٠٠٦).

(٢) سيأتي تخريجه قريباً.

(٣) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقاً فليطلبه في عفاف، حديث رقم (١٩٩٥)؛ ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء =

يربط بعضه ببعض، ويجعل له حلقوم يدخل على ماسورة تتصل بالجمر، وفي طرف هذا الجلد ـ وهو جلد لين ـ خشبتان تنفتحان وتنضمان، إذا فتحهما امتلأ الجلد هواءً ثم إذا ضمهما ودفعهما حينئذ يخرج هواء من الماسورة على الفحم فتشتعل النار، هذا هو الكير، وكانوا يستعملونه فيما سبق، وقد أدركناهم، وحال الكير إما أن يحرق ثيابك إذا طار الشرر على ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة كريهة.

فيؤخذ من الآية الكريمة معنى هذا الحديث، فاحذر جلساء السوء، وعليك بجلساء الصلاح، فإنك لن تعدم خيراً من جلساء الصلاح، ولن تعدم شراً من جلساء السوء.

١٠ ـ أن النار لصنفين من العالَم، المنافقين، والكافرين، أما الصنف الثالث وهم المؤمنون فلهم الجنة، وهؤلاء الأصناف الثلاثة هم المذكورون في أول سورة البقرة.

١١ ـ إثبات وجود النار، وأنها واسعة، ووجه ذلك قوله: ﴿جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ﴾ ووجه أنها واسعة: أن تسعمائة وتسعة وتسعين من بني آدم في النار، والجن قال تعالى فيهم: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، والظاهر أن الجن أكثر من بني آدم في النار دخولاً، ولهذا قدموا في الآية الكريمة.

١٢ ـ أن فيها التفاتاً. فبعد أن قال: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾ وعبر هنا بالضمير، ثم تلاه قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فعبر بالاسم الظاهر، والإظهار في موضع الإضمار له فوائد، منها:

= السوء، حديث رقم (٢٦٢٨) عن أبي موسى.

إرادة العموم كقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٨] ولم يقل: «عدو له» مع أن هذا مقتضى السياق، لكن ليبين أن من كان عدواً ﴿لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ فهو كافر، ولينبه على سبب عداوة الله وهي الكفر، وليكون المعنى أشمل، يعني: فيكون الله عدواً للكافرين الذين كفروا بالمعاداة والذين كفروا بغيرها أيضاً.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١].

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم جمَّاعون مَنَّاعون، كذابون خداعون، وانظر قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ التربص: الانتظار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] أي: ينتظرن.

وقوله: ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾ أي: ينتظرون الدوائر، هل هي عليكم أو لكم؟

قوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قالوا: نريد من هذا الفتح، ونحن معكم، لا تحرمونا الغنيمة، قوله: ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ ولم يقل فتحاً؛ لأن ما يعطاه الكفار ليس فتحاً، ولكنه محنة، ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: للكافرين: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلولا نحن لأهلككم المؤمنون، لكن نحن منعناكم منهم، واستحوذنا عليهم، وصرنا درعاً لكم.

وقوله: ﴿نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: نسيطر ونكون درعاً لكم، وقوله: ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: نحن الذين حميناكم من المؤمنين، ولولا نحن لقاتلكم المؤمنون، فهم يدعون أنهم مع المؤمنين ويطلبون منهم الغنيمة، ويدعون أنهم حماة الكفار من أجل أن يكونوا أولياء لهم.

قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فالفاء للتفريع، واسم الله الكريم مبتدأ، وقوله: ﴿يَحْكُمُ﴾ جملته خبر، ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يعني: بين المؤمنين وبين هؤلاء المنافقين، والكفار أيضاً، وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: متعلق بـ﴿يَحْكُمُ﴾، والمراد بيوم القيامة هو يوم البعث، وسمي بذلك لأمور:

أنه يوم يقوم فيه الأشهاد، وأنه يوم يقام فيه العدل.

قوله: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ سبحان الله! الخصم يخبر بنتيجة الحكم قبل أن يحاكمه، فنحن الآن مخاصمون للكفار؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ بعد أن قال: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ فأي حكم أبلغ من هذا؟! أن يقال للخصم: حاكم وليس لخصمك عليك سبيل؛ لأن الأمر واضح منتهٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان شدة عداوة المنافقين للمؤمنين، لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أي: ينتظرون الساعة التي يكون فيها الضرر على

المؤمنين، لكن قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

٢ ـ أن المنافقين لهم حظ من الفيء، ويؤخذ من قوله: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، فدل هذا على أن المنافق يعامل بالظاهر، فيعطى ما يعطاه المسلم.

٣ ـ أن المنافقين عندهم منَّة، وفي أنوفهم أنفة، إن كان الفتح للمسلمين طالبوا بالغنيمة، وإن كانت الغلبة للكفار منَّوا عليهم ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: فأعطونا من النصيب.

٤ ـ الدعوى الكاذبة للمنافقين بأنهم هم الذين منعوا الكفار منهم، لكونهم كثروا سوادهم وساعدوهم في الباطن، وأثلجوا صدورهم بالنصر.

٥ ـ إثبات الجزاء والحكم بين الناس، لقوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهذا حكم لا حكم بعده.

٦ ـ إثبات أن الكافر ليس له سبيل على المؤمن مهما كان الأمر، أرأيتم لو أن المسلم أحرق نخيله وأمات مركوبه، فلا يأثم، ما دام أنهم كفار حربيون؛ لأن مالهم مباح، أما المعصوم وهو الذمي، والثاني المعاهد، والثالث المستأمن، فهؤلاء أموالهم محترمة.

٧ ـ أن الله سبحانه هو الحكم بين العباد، بدليل قوله: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾ ﴿وَلَن يَجْعَلَ﴾ وعلى هذا فلا حكم يوم القيامة لأحد، حتى الرسول ﷺ لا يحق له أن يحكم، ولهذا عند الشفاعة لا يستطيع الرسول عليه

الصلاة والسلام أن يشفع بدون أن يستأذن من الله.

٨ ـ يمكن أن يستفاد من هذه الآية الكريمة: أن المحاكمة بين الكفار والمؤمنين في الدنيا، قد يكون فيها الحق للكافر؟ ووجهه: أن الله نفى أن يكون لهم سبيل يوم القيامة، أما في غير يوم القيامة فالناس كلهم تحت العدالة.

٩ ـ أن المنافقين أشد من الكفار؛ لأن الله بدأ بهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وجميع الآيات التي فيها الجمع بين المنافقين والكفار يقدم الله فيها المنافقين، كقوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣]، إلا في آية واحدة، بسبب وهي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التحريم: ٩] وذلك لأن جهاد الكفار يكون بالسلاح علناً، وجهاد المنافقين يكون بالعلم والبيان وليس بالقتال.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ الجملة مؤكدة بـ﴿إِنَّ﴾؛ لبيان حال هؤلاء المنافقين، ومعاملتهم مع الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ يعني: والمؤمنين أيضاً، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩] وبماذا يخادعون؟ بإظهار الإسلام، فإن من رآهم ورأى حضورهم الصلاة وصدقاتهم، قال: إنهم مؤمنون، فهم يخادعون الله في هذا.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ يعني: أن الله يقابل خداعهم بخداع من عنده، ومخادعته إياهم أنه يملي لهم حتى يستمروا على هذا ويستمرئوه، فيبقون كفاراً مع شياطينهم، ومسلمين مع المؤمنين، ويعصمون بهذا النفاق دماءهم وأموالهم، وهذا هو خداع الله تعالى لهم، أنه يملي لهم ليستمروا في نفاقهم، ثم بالتالي يختم لهم بسوء الخاتمة.

قوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾، أي صلاة كانت يقومون إليها كسالى، والكسلان: هو الذي يكون عنده فتور، وعدم نشاط على فعل الفعل، فهم إذا قاموا إلى الصلاة: ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ تجدهم يتثاقلون الوضوء، ويتثاقلون الذهاب إلى المسجد، ويتثاقلون الصلاة نفسها، وذلك لعدم رغبتهم في الصلاة، ووجه هذا: أن من كان راغباً في الشيء فلا بد أن يقوم إليه نشيطاً.

قوله: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: مع كونهم يقومون كسالى لا يخلصون في قيامهم، وإنما ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: يظهرون أنفسهم بهذا المظهر ليراهم الناس فيقولوا: إنهم مسلمون.

قوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: لا يذكرون الله في صلاتهم، فحتى ولو صلوا ﴿لَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ والمراد: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ لا يذكرونه بألسنتهم، وجوارحهم، وقلوبهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، فلا يذكرون الله بألسنتهم لأنهم لا يأتون بالواجب من تكبير وتسبيح وتحيات وغيرها، وكذلك لا يذكرون الله بأفعالهم، فلا يطمئنون في الصلاة، وإنما ينقرونها كنقر الغراب لأنها ثقيلة عليهم، وهم لا يأتونها من رغبة.

ولا يذكرون الله بقلوبهم لأن قلوبهم ساهية غافله، يؤدون الصلاة كأداء الآلة، بدون أن يشعروا بأنهم يناجون الله عزّ وجل، إذاً: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ في الصلاة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: بالقلب واللسان والجوارح.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ إثبات خداع المنافقين، وأنهم قوم أهل خداع ومكر، ولهذا كان من صفات المنافقين أنهم إذا عاهدوا غدروا، وإذا خاصموا فجروا، وإذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا؛ لأن كل هذا يتضمن الخداع.

٢ ـ إثبات الخداع لله عزّ وجل؛ أي: أنه جل وعلا يخدع من يخادعه، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾.

وهل الخداع صفة ذم أو صفة مدح؟

في ذلك تفصيل: إن كان في مقابلة من يخادع فهو صفة مدح؛ لأنه يدل على قوة المخادع؛ لأنه أشد مكراً من عدوه وأشد خداعاً، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس: ٢١] وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، أما إذا كان ليس له سبب، وكان خداعاً في موضع الائتمان فإنه لا يسمى خداعاً، وإنما يسمى خيانةً، وهذا عيب بكل حال، ولهذا لا يوصف الله بالخائن إطلاقاً، حتى الذين يخونون الله لا يقابلهم الله بالخيانة، كما قال تعالى: ﴿فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١] فقال: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ ولم يقل: فخانهم، ووجه ذلك: أن الخيانة خداع في موضع الائتمان.

حتى إن الرسول ﷺ قال: «**لا تخن من خانك**»[(١)] لأن هذا ذم، فلا يوصف الله به.

فإن قال قائل: هل يوصف الله بالخداع مطلقاً فيقال: إن الله مخادع؟

فالجواب: لا يوصف به إلا في مقابلة خداع أعدائه، وكذلك المكر، والكيد، والاستهزاء ونحوها من الصفات التي تكون مدحاً في حال دون حال، فإنه لا يجوز أن يوصف الله بها على سبيل الإطلاق.

وعلى هذا نقول: المعاني والأوصاف إما أن تكون كمالاً محضاً: فهذا يوصف الله به، وإما أن تكون ذماً ونقصاً محضاً: فهذا لا يوصف الله به مطلقاً، وإما أن تكون مدحاً في حال وذماً في حال: فهذا يوصف الله به حين يكون مدحاً، ولا يوصف به حين يكون ذماً.

وعلى هذا: لو أن أحداً وصف الله بالعجز لقلنا: إن هذا حرام بكل حال؛ لأن العجز صفة ذم، وكذلك لو وصفه بالخيانة قلنا: هذا حرام بكل حال؛ لأن الخيانة ذم بكل حال، والكلام كمال فيوصف الله بأنه متكلم، ومريد كذلك: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] لأن كل هذه صفات كمال.

٣ ـ أن المنافقين يصلون، لكن لا تقبل منهم صلاتهم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الإجارة، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، حديث رقم (٣٥٣٥)؛ والترمذي، كتاب البيوع، باب (٣٨)، حديث رقم (١٢٦٤)، الحاكم (٢/ ٥٣)، من حديث أبي هريرة.

كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤] مع أن النفقة نفعها متعدٍ، ومع ذلك لا تقبل، فكيف بالعبادة التي نفعها غير متعد؟ فإنها من باب أولى أن لا تقبل، فصلاتهم لا تقبل، لكن هم يصلون مراءاة للناس.

٤ ـ أنهم إذا أدوا الصلاة مراءاة يؤدونها بكسل وبرود، وعدم نشاط.

٥ ـ أن من أدى الصلاة على وجه الكسل ففيه شبه بالمنافقين، فاحذر أن تكون مشابهاً للمنافقين، أد الصلاة بنشاط وفرح وسرور، ووالله إن المؤمن حقاً ليفرح إذا أقبلت الصلاة؛ لأنه سوف يقف بين يدي الله يناجيه، وإذا كان الواحد منا يفرح أنه سيلاقي صديقه أو خليله، ويعد لذلك العدة، فما بالك بملاقاة الله عزّ وجل ومناجاته، ولهذا إذا رأيت في نفسك كسلاً في الصلاة فاتهم نفسك، فأنت بلا شك مشابه للمنافقين في هذه الخصلة، لكن اتهم نفسك، وعدل مسيرتك إلى الله عزّ وجل، ولا تتهاون؛ لأنه ربما يكون عندك الآن تهاون بسيط، لكن يزداد حتى تكون الصلاة عندك أثقل شيء.

٦ ـ أن من راءى الناس بعمله الصالح ففيه شبه بالمنافقين، والرياء بابه واسع، ليس في الصلوات أو النفقة أو الصوم أو الحج، فقط، بل هو أوسع من هذا، حتى الإنسان لو أنه لبس ثياباً رثة ليظهر للناس بمظهر الزاهد فهو مراءٍ، ولذلك لا تظن أن الرياء يختص بالعبادات المحضة، قد يكون في أي شيء، فكل شيء تظهر فيه للناس أنك تتقرب به إلى الله ليراك الناس فإنه رياء ـ والعياذ بالله ـ، رياء محبط للعمل؛ لأن الله يقول في الحديث

القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[(١)] فالله غني عنا، ونحن المضطرون إليه، وهو في غنى كامل عنا، فإذا أشركنا بالله ـ نعوذ بالله من الشرك ـ أحداً فإنه لن يقبله منا، فهو أغنى الشركاء عن الشرك.

٧ ـ التحذير من مراءاة الناس، فأنت ترائي الناس لماذا؟ الناس لا ينفعونك؟ ولا يضرونك، إنما الذي ينفعك ويضرك هو الله عزّ وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: ٥٣] فلا تهتم بالناس مدحوك أو قدحوا فيك، أهم شيء أن تنظر إلى رضا الله عزّ وجل، وابتعد بعداً تاماً عن الرياء.

ولكن هنا مسألة وهي: أن الشيطان يأتي إلى الإنسان فيقول: إن صليت فقد راءيت، وإن حسنت صلاتك فقد راءيت، وهو بعيد من هذا، فهل يترك تحسين الصلاة خوفاً من ذلك، أو يترك العبادة خوفاً من ذلك؟

الجواب: لا، وهذا من مثبطات الشيطان للإنسان، ولكن ليشق طريقه وليستمر، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم، ولا يلتفت إلى هذه الوساوس؛ لأن الشيطان يتمنى أن لا نعبد الله؛ لأنه عصى الله، فيريد من الناس أن يعصوا ربهم أيضاً، فلا تترك العبادة من أجل الرياء.

ثم إن طرأ على بالك أنك تحسنها من أجل رؤية الناس: فإن كنت طالب علم يقتدى به فانو أنك تحسنها من أجل أن يقتدي الناس بك، وتكون في هذه الحال عابداً معلماً، فإن

---

(١) تقدم ص٢٦٥.

الرسول ﷺ كان إذا أتاه وفد يطلب منه أن يبين لهم كيفية الصلاة يقول لهم: «**صلوا معنا**»، وكان يصعد على المنبر حين بني له، ويصلي عليه ويقول: «**فعلت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي**»[(١)]، وبهذا تطرد الشيطان عنك.

٨ ـ أن ذكر الله تعالى عند المنافقين قليل، وقلنا: إن الذكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، فهم ﴿لَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، حتى بالجوارح الظاهرة التي يراها الناس لا يذكرون الله إلا قليلاً.

٩ ـ أنك إذا رأيت في نفسك قلة في ذكر الله، فإن فيك شبهاً بالمنافقين، ولهذا وصف الله المؤمنين أولي الألباب بأنهم: ﴿لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١] وما يضرك إذا ذكرت الله؟ فليس هناك عضو كاللسان في عدم التعب، فإذا كان كذلك فأكثر من ذكر الله.

وجاء في الحديث: أن رجلاً قال: يا رسول الله! إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، ـ يعني: وقد كبرت ـ فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: «**لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله**»[(٢)] يعني: أدم ذكر الله.

١٠ ـ أن المنافقين يذكرون الله، ولكن ذكرهم قليل.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة برقم (٥٤٤) عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب فضل الذكر، حديث رقم (٣٣٧٥)؛ وابن ماجه، كتاب الأدب، باب فضل الذكر، حديث رقم (٣٧٩٣)؛ وأحمد (٤/ ١٨٨)؛ وابن حبان (٣/ ٩٦)(٨١٤) عن عبد الله بن بسر.

□ قال الله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾ أي: مرددين، يرددهم الشيطان، مرةً هنا، ومرةً هنا.

قوله: ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: المؤمنين، ﴿وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: الكافرين، فهم في الظاهر مسلمون، وفي الباطن كافرون، فهم إذا أتوا الكفار قالوا: إنا معكم، وإذا جاءوا إلى المسلمين قالوا: إنا معكم، ألم نكن معكم؟! فهم والعياذ بالله مذبذبين لا يستقرون على رأي، وهذا لأنهم لم يؤمنوا أول مرة، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠] ولهذا احذر أن لا تقبل الحق إلا متردداً، فمتى بان لك الحق فقل: سمعاً وطاعة، وآمن خوفاً من أن يقلب فؤادك وبصرك إذا لم تقبل الحق في أول مرة.

ومن هذا أو قريب منه ما يفعله بعض الناس، إذا قلت له: إن الرسول ﷺ أمر بكذا.. أو إن الله أمر بكذا.. قال: هل الأمر للوجوب؟! كأنه يقول: إذا لم يكن للوجوب فلن أفعل، وهذا غلط، إذا سمعت الله يأمر، أو الرسول ﷺ يأمر فقل: سمعنا وأطعنا، سواءً كان للاستحباب أو للوجوب، وإنما يسأل عن الواجب أو المستحب إذا ضيع الإنسان هذا الأمر وتركه، فحينئذٍ لا حرج عليه أن يقول: هل هو واجب فأقضيه، أو غير واجب فلا آثم بعدم القضاء، أما قبل أن تفعل فإن تمام العبودية أن تقول: سمعنا وأطعنا، ثم إن كان واجباً فقد حصلت على ثواب

الواجب وإبراء الذمة، وإن لم يكن واجباً حصلت على خير وثواب، فلم تندم، لكن الندم أن تتردد فتقول: هل هو واجب أو لا؟!

ولا أعلم من الصحابة رضي الله عنهم أنهم سألوا الرسول عليه الصلاة والسلام حين يأمرهم: أواجب ذلك أم سنة، إلا في قضية واحدة، في قصة بريرة رضي الله عنه، فإن الرسول ﷺ لما أمرها أن تبقى مع زوجها مغيث، قالت: إن كنت تأمرني فسمعاً وطاعة، وإن كنت تشير علي فلا حاجة لي به، وكانت بريرة أعتقت، وإذا أعتقت الزوجة تخير بين البقاء مع زوجها وبين فسخ النكاح، فلما عتقت خيرها الرسول عليه الصلاة والسلام قال: **«إن شئتِ بقيت مع زوجك، وإن شئتِ افسخي النكاح»**[1]، فاختارت الفسخ، وإنما خيرها الشارع لأنها الآن ملكت نفسها ملكاً تاماً، وكانت حين العقد مملوكة لا تصرف لها في نفسها، أما الآن فقد تحررت، ولهذا جعل لها الخيار، فاختارت الفسخ، واختارت نفسها، فكان زوجها يلاحقها في أسواق المدينة وهو يبكي، يريد أن ترجع، فكان الرسول عليه الصلاة والسلام يتعجب ويقول: ألا تعجبون من حب مغيث لبريرة وبغض بريرة لمغيث؟! وهذا حق أن نعجب؛ لأن العادة أن القلوب شواهد كما يقولون، تتبادل البغضاء والمحبة، لكن هذه ـ سبحان الله ـ أبت!

وكامرأة ثابت بن قيس رضي الله عنه المشهود له بالجنة، جاءت للرسول عليه الصلاة والسلام تطلب المخالعة، وقالت: إني لا أعيب عليه في خلق ولا دين، لكني أكره الكفر في

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي ﷺ في زوج بريرة (٥٢٨٣) عن ابن عباس.

الإسلام، حتى أمره الرسول ﷺ أن يخالعها وترد عليه حديقته[١]، وهذا من العجب.

المهم: أننا لا نعلم أن الصحابة راجعوا الرسول عليه الصلاة والسلام في أمره وقالوا: هل هو على سبيل الإلزام أو على سبيل التطوع أبداً، فلتكن كالصحابة قل: سمعنا وأطعنا، واحمد الله أن الله عزّ وجل شرع لك هذا الأمر؛ لأنه لولا أن الله شرعه لك لكان قيامك به بدعة لا يزيدك إلا ضلالاً وبعداً عن الله.

قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ الجملة هذه شرطية، وفيها إشكال وهو: أن «من» الشرطية تجزم الفعل. وإشكال آخر: أن الفعل لا يلحقه كسر، يعني: لا يكون مجروراً، وهنا جاء مكسوراً، فهذان إشكالان.

والجواب على الإشكال الأول: هو مجزوم، لكن كسر كسرة عارضة لالتقاء الساكنين.

والجواب على الإشكال الثاني: ليست الكسرة الظاهرة كسرة إعراب، وإنما هي للتخلص من التقاء الساكنين.

أما جواب الجملة الشرطية، فهو قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ فأي إنسان يكتب الله سبحانه ضلاله ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ إلى الهداية، وقوله: ﴿سَبِيلًا﴾ يعني: طريقاً، وهؤلاء المنافقون قد أضلهم الله، فلن تجد لهدايتهم سبيلاً ـ والعياذ بالله ـ ولكن ربما يمنّ الله على بعضهم فيهتدي، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦].

---

(١) تقدم ص٣٠٦.

قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ ﴿سَبِيلًا﴾ هذه نكرة في سياق النفي، فتعم كل سبيل، فلا يمكن أن يكون سبيل لمن أراد الله له الضلالة، نسأل الله أن يهدينا صراطاً مستقيماً، وأن يصلح قلوبنا وأعمالنا.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن حال المنافقين التردد بين الكفر والإيمان، لكن الحكم عليهم في الآخرة أنهم كفار، أما في الدنيا فيعاملون على ظواهرهم؛ لأن الأحكام في الدنيا على الظواهر.

٢ ـ أنك إذا رأيت نفسك متردداً بين القبول والإنكار فاعلم بأن فيك شبهاً بالمنافقين؛ لأن المؤمن لا يمكن أن يكون متردداً، ولا أن يكون له الخيرة فيما قضى الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، بل لا يترددون، وإنما يقبلون وينقادون.

٣ ـ أن الطمأنينة والاستقرار أمر مطلوب، ولهذا نجد أشد الناس استقراراً وطمأنينة هم المؤمنون ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

٤ ـ أن من أضله الله فلن يستطيع أحد أن يهديه، لقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾.

فإن قال قائل: لماذا يضل الله فلاناً ويهدي فلاناً؟ قلنا له: هذا الذي منع الله هدايته هل منعه ظلماً أو عدلاً؟

الجواب: عدلاً ولا شك، وتفضل على الآخر فهداه، فهو لم يمنع أحداً حقه، وإنما تفضل على هذا فهداه.

ثم اعلم أنه لن يكون الإضلال إلا لسبب من العبد؛ لقوله الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف: ٥]، وكما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾ [الأنعام: ١١٠] فلو أنهم آمنوا أول مرة واستقاموا على الطريق لم يضلهم الله أبداً.

وبهذا نعرف أن حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**»(١) أنه ليس المراد أنه لا يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع بحسب عمله، ولكن: المراد لا يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع بحسب أجله؛ لأنه لو كان عمله أوصله حتى لا يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع ما خذله الله أبداً، لكنه في قلبه حسكة، كما جاء في الحديث الآخر: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار**»(٢) وهذا التأويل متعين أن نقول: حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع باعتبار الأجل، يعني: حتى إذا قارب أجله وقارب الموت أظهر وأعلن أنه من أهل النار والعياذ بالله!

٥ ـ الإشارة إلى اللجوء إلى الله عزّ وجل في طلب الهداية؛ لقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾، وعليه: فإذا دعونا أحداً إلى الحق فأبى وتردد فإننا نلجأ إلى الله أن يهديه؛ لأن الله على كل شيء قدير، وكم من أناس كانوا أشقى القوم فصاروا أسعدهم، وكانوا أفسد القوم فصاروا أصلحهم، وما أمر عمر بن

---

(١) تقدم ص١١٣.

(٢) تقدم ص١١٤.

الخطاب ـ الرجل الثاني من أتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ـ ببعيد! وهذا خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، كانوا في أحد كفاراً معادين للإسلام، يريدون القضاء على أهل الإسلام، ويريدون قتل الرسول عليه الصلاة والسلام، وقتل الصحابة، ومع ذلك كانوا بعد هذا قادة وشجعاناً في نصرة الإسلام وهزيمة الكفار.

فالله سبحانه يهدي من يشاء، فإذا علم الله في قلب الإنسان خيراً ـ ونسأل الله أن يجعل قلوبنا هكذا ـ هداه للإسلام قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ [الأنفال: ٧٠]، فإذا علم الله من قلب العبد الخير وفقه له وهداه، حتى وإن ضل فالعاقبة أن الله يهديه!

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤﴾ [النساء: ١٤٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبق الكلام على مثل هذا التعبير، وذكرنا أن تصديره بالنداء يفيد التنبيه، وأن تصديره بهذا الوصف ـ وصف الإيمان ـ يدل على أن امتثاله من مقتضيات الإيمان، وأن مخالفته نقص في الإيمان.

قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ أي: لا تجعلوهم أولياء؛ لأن اتخذ بمعنى: جعل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥] أي: جعله خليلاً له، لا

تجعلوهم أولياء أي: تتولونهم، وتثقون بهم، وتناصرونهم، وتعلقون آمالكم بهم من دون المؤمنين؛ لأن بعض المؤمنين يكون ضعيف الإيمان، وضعيف التوكل على الله، فيعتمد على هؤلاء الكفار لقوتهم، ويتولاهم ويرى أن المؤمنين لا يبلغون مبلغهم، وهذا لا شك أنه نقص في الإيمان والتوكل، فقد سبق أن الله قال: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من سواهم.

قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ وهذا استفهام بمعنى الإنكار يعني: ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ باتخاذكم ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ﴾ أي: تصيروا له ﴿عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: حجةً بينة وواضحة؛ لأن كونكم مؤمنين يقتضي أن تتولوا المؤمنين لا الكفار، فإذا عدلتم عن هذا الواجب إلى موالاة الكفار فقد جعلتم ﴿لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ تستحقون به عقوبة الله.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ فيها دليل على تحريم اتخاذ الكافرين أولياء؛ لأن الله نهى عن ذلك وحذر منه، نهى عن ذلك بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾، وحذر منه بقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

٢ ـ أنه لا تجتمع ولايتان: ولاية الكفار، وولاية المؤمنين؛ لقوله: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولا يعني ذلك أنهم لو اتخذوهم هم والمؤمنين أولياء جاز ذلك، بل نقول: إن قوله ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: أنكم إذا اتخذتم الكفار أولياء عدلتم عن ولاية المؤمنين.

٣ ـ أن الله سبحانه له سلطان وحجة على من خالف أمره، ويدل على هذا قوله تعالى حين ذكر إرسال الرسل: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] فهنا لو لم يرسل الرسل صارت الحجة ﴿لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وإذا أرسل الرسل وبيَّنت الأحكام صارت الحجة لله على العباد.

٤ ـ وجوب موالاة المؤمنين ومناصرتهم؛ لأن المؤمنين إخوة، فما أصاب أحدهم فقد أصاب الآخر، وما حصل من ضرر وجب على جميع المؤمنين إزالته على حسب الحال والإمكان.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥].

صلة هذه الآية بالتي قبلها هي: أن الذين يتخذون ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يشبهون المنافقين، والمنافقون هم الذين اتخذوا ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فمن اتخذهم فقد شابه المنافقين، والمنافقون ليس لهم حظ في الآخرة إطلاقاً؛ لأنهم ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ يحلون فيه ولا يخرجون منه.

و﴿ٱلدَّرْكِ﴾ بمعنى المكان الأسفل الذي ليس دونه شيء، قوله: ﴿ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ولا يعني هذا أن غيرهم لا يدخلون فيه، لكن هم فيه يقيناً، وأما غيرهم فيحتمل أن يكونوا معهم فيه وأن يكونوا فوقهم.

وقوله: ﴿فِى ٱلدَّرْكِ﴾ فيها قراءة «في الدرَك» أي: فتح الراء بدلاً عن سكونها، وهي قراءة سبعية.

قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ الخطاب إما للرسول ﷺ، وإما لكل من يصح توجيه الخطاب إليه.

وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أي: لن تجد لهم من يمنع العذاب عنهم، وينصرهم في هذه الحال.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ فيها دليل على أن المنافقين من أهل النار؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾.

٢ ـ أن النار دركات، والدرك كما قلنا المكان المهلك، فكل مكان أنزل مما فوقه حسب شدة العقوبة.

٣ ـ أن هؤلاء المنافقين ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وهذا لا يعني أن غيرهم لا يشاركونهم بل قد يشاركهم غيرهم، لكننا نجزم بأن المنافقين ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾ وأن من سواهم قد يكونون فيه، وقد لا يكونون فيه.

٤ ـ أنه لا ناصر للمنافقين في الدنيا، وقد ينتصرون بسبب التمويه والخداع، ولكن في الآخرة لن ينتصروا، ولن يجدوا من ينصرهم؛ لقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

٥ ـ يستفاد من قوله: ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أن المنافقين أشد كفراً من بعض الكفار الأصليين ولا شك، والمنافق أشد؛ لأن المنافق جمع بين الأمرين، بين الكفر والخداع، ولهذا قال الله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤] فحصر العداوة فيهم لما يحصل منهم من المفاسد العظيمة.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء: ١٤٦].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ من النفاق؛ أي: رجعوا من النفاق إلى خالص وصريح الإيمان.

قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ أي: أعمالهم، أصلحوها بدل ما كانوا مفسدين كانوا مصلحين؛ لأنه سبق في سورة البقرة قول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ١٢] فإذا أصلحوا بدل أن كانوا مفسدين فهذا الشرط الثاني.

قوله: ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: توكلوا عليه ولم يلجئوا إلى غيره؛ لأن المنافقين من ديدنهم الرجوع إلى الكفار، وتعظيمهم الكفار، والاعتصام بهم، فهنا يعتصمون بالله بدلاً عن اعتصامهم بالكافرين.

قوله: ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ ﴿دِينَهُمْ﴾ أي: عبادتهم لله عزّ وجل، فلم يجعلوا مع الله شريكاً فيه، وقد سبق أن من صفات المنافقين أنهم يراءون الناس، فإذا أزالوا هذه الخصلة ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾.

قال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلن يصلوا إلى درجة المؤمنين ومنزلة المؤمنين إلا بهذه الأوصاف الأربعة:

الوصف الأول: التوبة من النفاق.

الثاني: الإصلاح.

الثالث: الاعتصام بالله.

الرابع: إخلاص الدين لله.

ثم قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لم يقل: «وسوف يؤتيهم» بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليشملهم وغيرهم، وليكونوا هم ضمن المؤمنين، ولم يستحقوا هذا الوعد على انفرادهم.

﴿أَجْرًا﴾ أي: ثواباً، وسمى الله الثواب أجراً تفضلاً منه، كأنه بمنزلة أجرة الأجير التي لا بد أن يعطى إياها

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن المنافق تقبل توبته، لكن لن يكون مع المؤمنين حتى يتصف بالصفات الأربع، المذكورة في الآية، وهذه المسألة اختلف فيها العلماء رحمهم الله، فقال بعض العلماء: لا تقبل توبة المنافق؛ لأنه لم يظهر منه إلا الإسلام أصلاً، فهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، فإذا قالوا: إنهم آمنوا وتركوا النفاق فهذا هو ما كانوا يقولونه بالأول، وينكرون النفاق، وعلى هذا فلا تقبل توبتهم، بل يقتلون وأمرهم إلى الله، إذا كانوا صادقين فالله عزّ وجل يوم القيامة يجزيهم بصدقهم، وأما إذا كانوا كاذبين فلهم النار، لكننا نحن في الدنيا لا نقبل توبتهم.

ولكن الصحيح أن توبتهم مقبولة، إلا أنه يتحرى فيها ما لا يتحرى فيمن كفره صريح؛ لأن من كفره صريح يصرح إما كافر وإما مؤمن، ولا يظهر أنه مؤمن وهو كافر، لكن البلاء هو المنافق، ولهذا لا بد أن نتحرى ونرصده ذاهباً وراجعاً.

٢ ـ أنه لا بد لمن أفسد أن يصلح مقابل إفساده، ولا تكفي التوبة المجردة، فلا بد من إصلاح ما أفسد.

وبناءً على ذلك قال بعض العلماء: إن المبتدع لا توبة له؛

لأنه أفسد أمماً اتبعوه على بدعته فمن يصلح هذه الأمم؟! وعلى هذا فلا توبة له، ولكن الصحيح أن له توبة، وأن إصلاحه ما أفسد أن يعلن الرجوع عما كان من الفساد، وأن يدعو إلى الإصلاح.

ولهذا يقال: إن أبا الحسن الأشعري رحمه الله، لما تاب من الاعتزال قام يوم الجمعة على الكرسي، ووضع عمامته، وقال: أما بعد: فمن عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا فلان.. ثم صرح برجوعه عن الاعتزال، وصار يرد على المعتزلة، فمثل هذا الرجل الذي كان مبتدعاً معتزلياً، توبته مقبولة؛ لأنه أصلح ما أفسد، ولهذا كان خطر البدعة عظيماً لما يحصل بها من الفساد.

٣ ـ أن من كان معتصماً بغير الله فإن من تحقيق توبته أن يعدل عن الاعتصام بغير الله إلى الاعتصام بالله؛ لأن الداء يداوى بدواء مقابل، فالاعتصام بغير الله شرك، يداوى بالاعتصام بالله عزّ وجل، ولكل داء دواء يناسبه.

٤ ـ أن من تمام التوبة إخلاص المشرك؛ لقوله: ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ والمنافقون عندهم إشراك؛ لأنهم يراؤون الناس، ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٥ ـ أن من اتصف بهذه الصفات فإنه يكون مع المؤمنين، ولو كان قبل ذلك منافقاً؛ لأن هذه الصفات تنتشله من النفاق إلى الإيمان، فهذه معية المؤمنين لا شك أنها منزلة عالية، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

٦ ـ وعد المؤمنين بما هو أصدق الوعود، وهو قوله: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وهذا التزام من الله سبحانه، التزم على نفسه أن يثيب المؤمنين بالأجر العظيم، وهذا الأجر العظيم يكون في الدنيا، ويكون في الآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: ١٤٧].

﴿مَا﴾ هنا استفهامية؛ يعني: أي شيء يفعله الله بعذابكم؟!

قوله: ﴿إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ أي: أنكم إذا شكرتم الله عزّ وجل على نعمه، وقمتم بطاعته، وآمنتم فإن الله لن يعذبكم؛ لأنكم لا تستحقون العذاب حسب وعده، فأي شيء يفعله الله بكم إذا قمتم بشكره والإيمان به؟!

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ شاكراً لمن يستحق الشكر من عباده القائمين بأمره، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقوله: ﴿عَلِيمًا﴾ أي: عليماً بمن يستحق الشكر من عباده، وهم الذين قاموا بطاعته.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الله سبحانه غني عن عذاب الخلق إذا قاموا بالشكر والإيمان.

٢ ـ أن من لم يشكر الله، أو من لم يؤمن به فإنه عرضة

للانتقام والعذاب؛ لأن الله سبحانه نفى العذاب عمن شكر وآمن، وهذا يدل على أن من لم يشكر ويؤمن فإنه معرض لعقابه، وهذا هو الواقع، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٥].

٣ ـ إثبات هذين الاسمين من أسماء الله وهما: الشاكر والعليم.

فإذا قال قائل: كيف يشكر الله عباده؟ قلنا: بأن يثيبهم على ما عملوا، أكثر مما عملوا، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

مسألة: معاملة الكفار في التجارة ليست ولاية، الولاية: المناصرة، والاعتماد عليهم، وكونه يخشى من معرتهم، وأما الاتجار فلا بأس، لكن لا شك أن الإنسان إذا دار الأمر بين أن يتاجر مع كافر أو مع مؤمن لا شك أن التجارة مع المؤمن أولى.

مسألة: في بعض البلاد التي يتواجد فيها الكفار ويعملون هناك، مع الوقت يصبح المسلم لا يبغضهم، وقد ـ مع العادة ـ يذهب ما في قلبه من بغض الكفار، فقد يصادقهم، فهل هذا داخل في أنه يواليهم؟

الجواب: نعم، ولا شك أن هذا عنده خلل في الدين؛ لأن هذا نوع من الولاء، والواجب أن أعاملهم لمصلحتي أنا لا لمصلحتهم هم، وأن أعاملهم بمعاملة دون أن يصل أثرها إلى القلب، وإلا فمن المعلوم أن الإنسان إذا أحسن إليه أحد سيحبه، فلو عجز مثلاً الأطباء المسلمون عن معالجة هذا المريض، وهذا

الطبيب الكافر عالجه فبرئ بإذن الله، لا شك أنه سيقع في قلبه محبة لهذا الرجل، لكن ليست محبة تصل إلى محبة الدين، إنما هي محبة طبيعية، أن الإنسان يحبه لأنه أحسن علاجه.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ [النساء: ١٤٨].

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ﴾ هذه الجملة جملة خبرية منفية، ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾، و﴿ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾ معناه أن يقول: فلان ظلمني، فلان أخذ حقي، وفلان جحدني وما أشبه ذلك، فالله لا يحب هذا، إلا من ظلم بأخذ حقه أو عدوان عليه، فإن محبة الله لا تنتفي في حقه، مثال المظلوم: لو أن إنساناً آذاه جاره فصار يتكلم عند الحاكم، أو عند الأمير، أو من يستطيع أن يزيل مظلمته، ويجهر بهذا السوء، وليس المراد بالجهر أن يصوت بين الناس، وإنما المراد أن يبينه لغيره، فإن هذا المظلوم له أن يقول ذلك.

ومن هذا النوع قصة الجار الذي كان يؤذيه جاره، فأمره النبي ﷺ أن يخرج متاعه من بيته، فيمر الناس به فيقولون ما هذا؟ فيقول: آذاني جاري، فصار في هذا فضيحة للجار بالفعل.

ومن الجهر بالسوء ممن ظلم أن يسبك إنسان أمامك، ويقول: أنت بخيل، أنت جبان، أنت سفيه، وما أشبه ذلك، فلك أن ترد عليه بما وصفك به من العيب، فتقول: السفيه أنت، الجبان أنت، البخيل أنت، كما قال بدون زيادة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]،

ولقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، ولقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الشورى: ٤١ ـ ٤٢]، ولقول النبي ﷺ: «**المستبان ما قالا فعلى البادئ منهما، ما لم يعتد المظلوم**»(١).

فكل هذه النصوص تدل على أنه يجوز الجهر بالقول ممن كان مظلوماً، ومن ذلك ما يفضيه الإنسان إلى صديقه ورفيقه في شكاية الحال، كما لو أن إنساناً ظلمه شخص وجاء إلى صديقه يتحدث، ويقول: فلان فعل بي كذا.. وفعل بي كذا.. وفعل بي كذا.. ومن ذلك أيضاً: الزوجة تشكو ما يحصل من زوجها إلى أخواتها أو إلى أمها، وما أشبه ذلك؛ لأن كل هؤلاء مظلومون، وقد استثنى الله تعالى من ظلموا.

ومن ذلك إذا قال: لعنك الله، فقل: لعنك الله أنت؛ لأن هذا اعتداء بمثل ما اعتدى عليك، وعلى هذا نقول: إن ﴿ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ إذا كان من مظلوم فإن محبة الله لا تنتفي عنه، وهذا من نعمة الله عزّ وجل أن رفع الحرج عنها؛ لأن الله إذا كان لا يحب ﴿ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ حتى من المظلوم صار في هذا حرج؛ لأن المظلوم يكاد يتشقق صدره حتى يتحدث عما في صدره من الظلامة، فيخف عليه الأمر.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ﴿سَمِيعًا﴾ لأقوالكم، ﴿عَلِيمًا﴾

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن السباب، حديث رقم (٢٥٨٧) عن أبي هريرة.

بما في قلوبكم، يعني: فاحذروه، احذروا أن تقولوا ما لا يرضاه، واحذروا أن تخفوا في صدوركم ما لا يرضاه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ إثبات المحبة لله؛ أي: أن الله يحب، ووجه الدلالة: أننا استدللنا على الإثبات بالنفي؛ لأن هذا النفي خص بحال معين، فيكون دليلاً على أن ما سوى ذلك تثبت به المحبة، ومحبة الله عزّ وجل للعبد هي غاية ما يتمناه الإنسان، وأكمل مراتب الإنسان، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ولم يكن الجواب على ما يتوقع من أن يقال: «فاتبعوني تصدقوا في دعواكم»، بل قال: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ وهذا هو الغاية.

ومحبة الله عزّ وجل تنال بهذا الشرط، وهو شرط يسير لمن يسره الله عليه، نسأل الله أن ييسره لنا، وهو: اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ظاهراً وباطناً، في العقيدة والقول والفعل، فإذا حققت ذلك فإن محبة الله سوف تنالك، وأنكر قوم محبة الله كالأشاعرة، ونسأل الله أن يعفو عن الأموات منهم وأن يهدي الأحياء، أنكروا المحبة، وقالوا: إن الله لا يحب، لكن إنكارهم إياها ليس إنكار جحود، إذ لو كان إنكار جحودٍ لكفروا؛ لأنه تكذيب لما أثبته الله لنفسه، لكنه إنكار تأويل قصدوا به تنزيه الله، لكنهم ضلوا، فقالوا: إن المحبة لا تقع إلا بين متجانسين، والله عزّ وجل مباين للخلق، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقالوا: إن المحبة التي جاءت في الكتاب والسنة هي

الإحسان، ففسروها بأمر بائن منفصل عن الله، أو هي إرادة الإحسان؛ لأن الإرادة عندهم ثابتة لله عزّ وجل، فيقال لهم: هل الإحسان إلا ثمرة المحبة، وهل إرادة الإحسان إلا ثمرة المحبة؛ لأن الله لا يحسن إلى من لا يحب إلا على سبيل الاستدراج، ولهذا إذا رأيت الله ينعم على العبد مع إقامته على معاصيه فاعلم أن ذلك استدراج: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢﴾ [الأعراف: ١٨٢].

إذاً: عقيدتنا أن الله عزّ وجل يُحِب، وأنه يُحَب جل وعلا، وأن محبته أعلى المراتب وأفضل المنازل.

٢ ـ حسن الإسلام، وأنه يدعو إلى التراضي وعدم الجهر بالسوء، وأن لا نفضح أحداً بسوئه، ولهذا كانت الغيبة من كبائر الذنوب، وهي ذكرك أخاك بما يكره.

٣ ـ عدالة الإسلام، ووجه ذلك: أنه رخص للمظلوم أن يجهر بالقول، لكن بحسب مظلمته ولا يزيد، فإن زاد فكما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**على البادئ منهما ما لم يعتد المظلوم**»[(١)].

٤ ـ أن الدين الإسلامي لا يكبت النفوس، بل يوسع لها ويشرح الصدور، ويدخل السرور، ولهذا نهي الإنسان أن يتعرض لما فيه الغم والهم، والوساوس والأوهام، حتى أن النبي عليه الصلاة والسلام قال في الذي يشكُ هل خرج منه ريح أو لا: «**لا ينصرف حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً**»[(٢)] والمعنى حتى يتيقن

---

(١) تقدم ص٣٨١.

(٢) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن، =

يقيناً مثل الشمس، أما مجرد التخيل أنه خرج من بطنه شيء، أو من دبره شيء، أو من قبله شيء، فهذا يجب أن يطرح، لئلا يقع الإنسان في تذبذب وتردد.

والدين الإسلامي يريد منك أن تكون دائماً مبسوطاً، وفي سرور، وجه ذلك: أنه رخص للمظلوم أن يجهر بالسوء بقدر مظلمته؛ لأن ذلك تنفيس عن نفسه بلا شك.

٥ ـ إثبات هذين الاسمين لله عزّ وجل وهما: السميع والعليم، أما السميع فقال العلماء: إنه ينقسم إلى قسمين: سمع بمعنى: إدراك المسموع، وسمع بمعنى: الاستجابة، والسمع الذي بمعنى إدراك المسموع يتنوع أيضاً، فتارة يراد به بيان إحاطة الله تعالى بكل مسموع، وتارةً يراد به التأييد والنصرة، وتارةً يراد به التهديد على حسب ما تقتضيه الحال والسياق.

فمن الأول: قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١] وهذه المرأة كانت في حجرة النبي عليه الصلاة والسلام في الأرض، والرب عزّ وجل في السماء فوق عرشه، وتقول عائشة: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد كنت في الحجرة وإنه ليخفى علي بعض حديثها»[1] والله قال: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ

= ومسلم، كتاب الحيض، باب الدليل على أن من تيقن الطهارة ثم شك في الحدث فله أن يصلي بطهارته تلك، حديث رقم (٣٦٢) واللفظ له.

(١) علقه البخاري (٦/ ٢٦٨٩)؛ ووصله النسائي، كتاب الطلاق، باب الظهار، حديث رقم (٣٤٦٠)؛ وابن ماجه، كتاب الطلاق، باب الظهار، حديث رقم (٢٠٦٣)؛ وأحمد (٦/ ٤٦).

تَحَاوُرَكُمَآ﴾ فهذا سمع يراد به بيان إحاطة الله بكل مسموع.

وتارةً يراد به التأييد والنصرة، مثل قول الله تبارك وتعالى: لموسى وهارون ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦] يعني: فأؤيدكما وأنصركما.

وقد يراد بذلك في هذه الآية التهديد أيضاً، وهو تهديد فرعون، وأما الذي للتهديد فمثل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] وهؤلاء اليهود، قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قال تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١] وهذا لا شك أن المقصود به التهديد، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠] فهو مسموع مكتوب، وستكون القراءة يوم القيامة قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

قال بعض السلف: والله لقد أنصفك من جعلك حسيباً على نفسك، خذ هذا الكتاب اقرأه وحاسب نفسك.

القسم الثاني من أقسام السمع: سمع الاستجابة؛ أي: أن الله يستجيب، وذلك فيما إذا أضيف إلى الدعاء أو نحو ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] أي: لمجيبه، وليس مراد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن الله يسمع دعاءه فقط؛ لأن سماع الدعاء لا شك أنه كمال، وأن الله تعالى مدرك لكل مسموع، لكن المقصود من دعاء الداعي الاستجابة،

فيكون معنى سميع الدعاء أي: مستجيب الدعاء، قالوا: ومن ذلك قول المصلي: سمع الله لمن حمده؛ أي: استجاب، وهذا حق، ويؤيد ذلك أنه عُدِّي باللام، «سمع الله لمن حمده»، ولو كان المراد إدراك الحمد، أو إدراك قول الحامد، لقال: سمع الله من حمده.

أما العليم فهذا أوسع شيء، فعلم الله تعالى محيط بكل شيء جل وعلا، محيط بالظاهر والباطن، بالماضي والمستقبل، بالواجب والممكن والمستحيل، ولهذا لا شيء أعم من العلم فيما يحضرني الآن، فالعلم شامل جداً، فهو يتعلق بالماضي والمستقبل.

ومن ذلك قول موسى عليه الصلاة والسلام: حين سأله فرعون ما بال القرون الأولى ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: ٥٢] سبحان الله! ﴿لَّا يَضِلُّ﴾ جهلاً ﴿وَلَا يَنسَى﴾ ذكراً، بل هو جل وعلا عالم بكل شيء، ولا ينسى الماضي، بينما العالم سوى الله أهل للنسيان، كذلك علم الله عزّ وجل محيط بالظاهر والباطن: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦] ولا شيء أخفى من هذا، فما توسوس به نفسك وتحدثك به فالله تعالى يعلم به، وأما الظاهر فظاهر علم الله به، وكذلك علم الله محيط بالواجب والممكن والمستحيل.

أما المستحيل: فقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] هذا خبر عن علم، ومن المعلوم أنه لا يمكن أن يكون في السمٰوات والأرض آلهة سوى الله، ومستحيل

غاية الاستحالة، فهذا خبر عن مستحيل صادر عن علم.

أما العلم بالواجب: فعلم الله تعالى بنفسه، وبماله من الأسماء والصفات، فإن هذا من العلم بالواجب، وهو أعلم بنفسه من غيره.

وأما تعلقه بالممكن: فعلمه بما يحدث في الكون، فكل ما يحدث في الكون غير ما يتعلق بالله عزّ وجل، فهو ممكن؛ لأن الكون كله حادث بعد أن لم يكن «**كان الله تعالى ولم يكن شيء قبله**»[1]، وفي لفظ: «**لم يكن شيء غيره**»[2]، فكل الكون حادث، وقابل للزوال؛ لأن كل حادث قابل للزوال، بدليل عدمه قبل وجوده، وكلمة «قابل» ليس معناها أن كل موجود فانٍ، لكنه قابل للفناء، وإنما قلنا ذلك لئلا يرد علينا مسألة الروح، فالروح مخلوقة بعد العدم، لكنها باقية لا تفنى، والولدان والحور في الجنة مخلوقة، ولكنها لا تفنى، بل تبقى أبد الآبدين، والجنة أيضاً مخلوقة وتبقى أبد الآبدين، والنار مخلوقة وتبقى أبد الآبدين؛ ولهذا نقول: كل موجود قابل للزوال لا أنه زائل؛ لأن من المخلوقات شيئاً لا يزول، لكن كونه حادثاً بعد أن لم يكن دليل على أنه من أقسام الممكن القابل للعدم والوجود.

ووجه ذلك: أنه لو لم يكن قابلاً للوجود لم يوجد، ولو لم يكن قابلاً للعدم لم يعدم أولاً.

المهم: أن علم الله محيط بكل شيء، وإيماننا بعلم الله ليس أن نؤمن بهذه الصفة العظيمة الواسعة الشاملة، لكن المهم

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم (٧٤١٨) عن عمران بن حصين.

(٢) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ . . .﴾ (٣١٩٢) عن عمران بن حصين.

أن نحذر من أن يعلم في قلوبنا ما لا يرضاه عنا، أو أن يعلم من أفعالنا ما لا يرضاه عنا، أو من أقوالنا ما لا يرضاه عنا، أو مما نترك ما لا يرضاه عنا، هذا هو المهم، ولهذا يجب أن يركز طالب العلم على الفوائد المسلكية التي تستفاد من أسماء الله وصفاته، لا على أقسامها وتقسيمها وعمومها وشمولها، وأهم شيء أن تُعدل من منهجك ومسلكك، ولهذا قال الله عزّ وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] أن تعبدوه بمقتضى هذه الأسماء، وقال النبي ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة**»(١) ومن إحصائها التعبد لله بمقتضاها، وفقنا الله إلى ذلك.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: ١٤٩].

﴿إِن تُبْدُوا۟﴾ هذه جملة شرطية، وجواب الشرط قيل: إنه محذوف، وقيل: إنه قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾، وهذه الجملة وإن كان ظاهر الحال أنه لا رابط بينها وبين الشرط، لكنها تدل عليه، وسنتكلم إن شاء الله عن ذلك.

قوله: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾، ﴿تُبْدُوا۟﴾ أي: تظهروا، وعرفنا أن الإبداء بمعنى الإظهار من ذكر مقابله، وهو قوله: ﴿أَوْ

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحداً، حديث رقم (٦٩٥٧)؛ ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، حديث رقم (٢٦٧٧) عن أبي هريرة.

﴿تُخْفُوهُ﴾ وهذه قاعدة مفيدة في التفسير، أنه ربما يخفى عليك معنى بعض الكلمات، فتنظر إلى ما يقابلها، فقوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١] لو أن أحداً سأل ما معنى ﴿ثُبَاتٍ﴾ لعرفت معناها من ذكر مقابلها، وهو قوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ فيكون معنى ﴿ثُبَاتٍ﴾ أي: فرادى، إذاً: المعنى إن تظهروا خيراً أو تخفوه فلن تعدموا أجره، فسوف تؤجرون عليه؛ لأن الخير مطلوب ونافق، سواءً كان مبدى، أو مخفي.

في مقابل ذلك قوله: ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾، قوله: ﴿تَعْفُواْ﴾ العفو هو الإبراء من التبعة، فالمعنى ﴿تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ أي: تبرئوا من أساء إليكم من تبعة سوئه.

وقوله: ﴿عَن سُوٓءٍ﴾ أي: عما يسوء من قولٍ أو فعل.

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي: أنه ذو عفو مع القدرة على الانتقام ممن أساء إليه، فإذا كان الله تعالى عافياً عمن أساء مع القدرة، فأنتم من باب أولى أن تعفوا؛ لأنكم ليس لديكم القدرة في الانتصار للنفس، والانتقام من المجرم كالذي عند الله عزّ وجل.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الخير خير، سواء أبدي أو أخفي، فإن قيل: أيهما أفضل الإبداء أو الإخفاء؟

الجواب: قد يقول القائل: الإخفاء أفضل، وهنا قد يعارض قوله: كون الله بدأ بالإظهار فقال: ﴿إِن تُبْدُواْ﴾، وإنما يبدأ بالأهم فالأهم، ولكن الذي يظهر أن ذلك راجع إلى المصلحة، فإن كانت المصلحة في الإبداء أظهر، مثل أن يكون رجلاً ذا

أسوة إذا أظهر ما عنده من خير تأسى به الناس، وفعلوا فعله فهذا طيب، سواء كان ذلك على سبيل العموم أو على سبيل الخصوص، بأن يتصدق على شخص معين حتى يراه الناس أنه تصدق عليه، فيقتدوا به؛ لأن كثيراً من الناس لا يتصدق على أحد إلا إذا علم أن الجهة الفلانية تصدقت عليه، كجمعية البر الخيرية مثلاً.

إذاً نقول: الإبداء والإخفاء يرجع إلى المصلحة، فإن لم تظهر المصلحة الراجحة في الإبداء فالإخفاء أفضل، لقول النبي ﷺ فيمن يظلهم الله في ظله: «**ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(١).

٢ ـ أن الإحسان إلى الغير إما بإعطاء الخير ظاهراً أو خفياً، وإما بدفع السوء وذلك بالعفو عنه، لقوله: ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ﴾ فالعفو عن السوء خير، فيستفاد من ذلك فضيلة العفو عن السوء.

ولكن لا نقول: إن العفو أفضل مطلقاً، بل تبع المصلحة، ولهذا قيد الله العفو في مكان آخر بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] فإذا كان في العفو إصلاح فهو أفضل، وإن كان في العفو إفساد فالانتصار أفضل، فمثلاً لو كان هذا الرجل شريراً، فلو عفونا عنه لازداد في شره واعتدائه على الناس، فهنا الانتصار أفضل، أولاً: لإعطاء النفس حظها؛ لأن النفس تحب أن تنتصر ولا شك.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، حديث رقم (٦٢٩)؛ ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، حديث رقم (١٠٣١) عن أبي هريرة.

وثانياً: لكف شره عن الناس، فيكون هنا الانتصار أفضل، وأما إذا تساوى الأمران فلا شك أن العفو أفضل، أولاً: لما فيه من الإحسان إلى المسيء.

وثالثاً: أن الله تعالى يحب العافين عن الناس.

٣ ـ الإشارة إلى أنك إذا عفوت عن الخلق عفواً في محله فأبشر بعفو الله، لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ يعني: فمتى عفوتم عفا الله عنكم، وهذا له شواهد كثيرة في الشريعة، منها قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**»[(١)]، ومنها: «**من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته**»[(٢)]، ومنها: «**الجزاء من جنس العمل**»[(٣)]، والشواهد على هذا كثيرة.

٤ ـ فضل الله سبحانه بالعفو عن حقه، حتى إنه جل وعلا يغفر لمن لا يشرك به شيئاً، تفضلاً؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] حتى وإن عظمت الذنوب فإن الله تعالى يغفرها إن شاء، فضلاً منه.

٥ ـ أن عفو الله تعالى أكمل أنواع العفو؛ لأنه عفو مع القدرة، لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾، ويتولد من الجمع بين

---

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، حديث رقم (٢٦٩٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، حديث رقم (٢٣١٠)؛ ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم (٢٥٨٠) عن ابن عمر.

(٣) لم يرد هكذا، ولكن معناه صحيح ففي التنزيل هل جزاء الإحسان إلا الإحسان. انظر: الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث ١٤١.

العفو والقدرة صفة الكمال، وهو أن الله سبحانه عفى مع القدرة على الانتقام، وهذا هو العفو الحقيقي، أما العفو مع العجز عن الانتقام فليس بعفو، فلو أن أحداً اعتدى عليك وهو أقوى منك بدناً، وأضخم منك جسماً، ففكرت وقلت: إن أخذت بحقي فأخشى أن يزيد في الضرب والعدوان، لكن يا فلان! الله يسامحك، فهذا عفو مع العجز، فإن كان فيه احتمال أن يأخذ بحقه فله أجر بقدر هذا الاحتمال، وإن لم يكن احتمال فليس له أجر، اللهم إلا أن يكون بإدخال السرور على المعتدي، فيما لو ارتدع عن العدوان وفكر، فإذا هو يشعر بأن المعتدى عليه قد سامحه فيطمئن قلبه، فهنا قد يؤجر.

٦ ـ إثبات هذين الاسمين من أسماء الله وهما: العفو والقدير، فيدلان على إثبات صفة العفو والقدرة؛ لأن القاعدة في باب الأسماء والصفات: أن كل اسم متضمن لصفة، ولا عكس.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ والكفر بالله ورسله: أن يكفر الإنسان بما يجب الإيمان به، سواء كان كفراً بوجود الله، أو كفراً بربوبيته، بأن ادعى بأن معه رباً، أو كفراً بألوهيته بأن عبد معه غيره، أو كفراً بأسمائه وصفاته بأن أنكرها وجحدها، المهم الكفر بالله: هو جحد ما يجب الإيمان به في جانب الله،

قوله: ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾، كذلك جحد ما يجب نحوهم، فهذا الكفر بالرسل.

قوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ فالذين لا يؤمنون بالرسل يكفرون بالله عزّ وجل، والذين يكفرون ببعض الرسل يكفرون بجميعهم عليهم السلام.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ أي: يهمهم أن يفرقوا بين الله ورسله، فيؤمنون بالله ويكفرون بالرسل، أو يؤمنون بالرسل بعضهم دون بعض، كما قال: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ وهذا كثير، فمثلاً: النصارى يدعون أنهم يؤمنون بالله، ويدعون بأنهم يؤمنون بعيسى وموسى عليهما السلام ومن سبقهما، هكذا يقولون، لكن يكفرون بمحمد ﷺ، وهو أفضل الرسل، ففرقوا بين الله ورسله، وآمنوا بالله وكفروا بالرسل، وفرقوا كذلك بين الرسل، فآمنوا ببعضهم وكفروا ببعضهم.

قوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً يوصلهم إلى الله، فيظنون أنهم بهذا العمل سلكوا طريقاً حسناً يوصلهم إلى الله عزّ وجل، ولكنهم كما قال الله تعالى: ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾ [الكهف: ١٠٤، ١٠٥].

قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، وقوله: «هُمْ» ضمير فصل.

فإن قال قائل: أفلا يجوز أن تكون مبتدأ ثانياً و﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة خبر المبتدأ الأول؟ قلنا: هذا جائز، لكنه خلاف الأولى؛ لأن ظاهر القرآن أن ما بعده خبر ما قبله، قال الله

تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء: ٤٠] ولم يقل: «هم الغالبون» فدل هذا على أن مثل هذا التركيب تكون فيه «هُم» ضمير فصل لا محل له من الإعراب.

الثاني: أننا إذا قلنا: إن «هم» ضمير فصل لا محل له من الإعراب؛ صرنا لا نفتقر إلى جملة تكون خبر المبتدأ، وصار المبتدأ والخبر جملة واحدة، والأصل في الأخبار أنها مفرد لا جملة، إذاً قوله: ﴿هُمْ﴾ ضمير فصل، وضمير الفصل يفيد ثلاثة أشياء:

أولاً: التوكيد.

ثانياً: الحصر.

ثالثاً: التمييز بين الخبر وبين التابع؛ لأنه إذا جاء ضمير الفصل تعين أن ما بعده خبر، وإذا لم يأت احتمل أن يكون خبراً وأن يكون تابعاً، فإذا قلت: «زيد الفاضل في الدرس» فهنا يحتمل أن «الفاضل» صفة، فيكون المعنى: زيد الفاضل في الدرس حاضر، فإذا قلت: «زيد هو الفاضل في الدرس» تعين أن تكون خبراً، وحصرته في الفضل، فقلت: زيد هو الفاضل ومحله في الدرس.

وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾، ﴿حَقًّا﴾ هذه منصوبة، وإعرابها مصدر مؤكد لمضمون الجملة، ومضمون الجملة قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فأثبت الله لهم أنهم الكفار حقاً، فتأتي ﴿حَقًّا﴾ مؤكدة لمضمون الجملة، وذلك لأن أحقية هؤلاء للكفر مفهومة من قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فإذا جاءت ﴿حَقًّا﴾ صارت مؤكدة لمضمون الجملة، وصار عاملها محذوفاً وجوباً،

فلا يصح أن يقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ «أُحق ذلك حقاً»، وذلك لأنها مؤكدة لمضمون الجملة، فكانت مضمون الجملة كأنها الفعل المحذوف، ولا يجمع بين هذا وهذا.

ولهذا ذكر ابن مالك وغيره من العلماء: أن المصدر المؤكد لمضمون الجملة قبله يجب حذف عامله.

قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أي: هيأنا، فهي بمعنى: أعددنا، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣١] وهنا قال: ﴿أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ وفي هذا السياق ﴿أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ خروج عن مقتضى السياق، إذ مقتضى السياق أن يقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا﴾ لهم؛ لأنه متى أمكن الإتيان بالضمير فإنه لا يؤتى بغيره، فإن ذكر الضمير أوضح في الجملة وأخصر، لكن هنا عدل عن الإتيان بالضمير إلى الإتيان بالظاهر المطابق لوصفه، فما هي البلاغة في هذا؟

الجواب: البلاغة: أن هذا إظهار في مقام الإضمار، والإظهار في مقام الإضمار له فوائد وهي: إرادة العموم؛ لأنه إذا قال: «أعتدنا لهم عذاباً مهيناً»، صار هذا خاصاً بهم، لكن قوله: ﴿أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ فكل كافر سواء هؤلاء أو غيرهم.

الفائدة الثانية: تطبيق الوصف على مرجع الضمير الذي لولا هذا الظاهر لكان موجوداً، فأين مرجع الضمير لو كان هناك ضمير؟

الجواب: هؤلاء الذين قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾، ومثل ذلك قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ

وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٨] لم يقل: عدواً له الذي هو مقتضى السياق.

الفائدة الثالثة: مراعاة فواصل الآيات.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ غلبة الهوى على كثير من الناس؛ لأن هؤلاء الذين يفرقون بين الله ورسله أو يؤمنون ببعض الرسل دون ببعض، لا يحملهم على ذلك إلا الهوى، فاليهود يقولون: لا نؤمن بغير موسى، والنصارى يقولون: لا نؤمن بغير عيسى، لمجرد الهوى.

٢ ـ أن الكفر ببعض الرسل كفر بالجميع لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾، ويدل على هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥] مع أن نوحاً كان أول الرسل، ومع ذلك جعل تكذيب قومه له تكذيباً لجميع الرسل؛ لأن التكفير بالرسول كأنه تكفير بالجنس أي: بجنس الرسالة، وإلا فما الفرق بين محمد، وعيسى، وموسى، وإدريس ونوح عليهم السلام، وما أشبه ذلك؟

٣ ـ أن هؤلاء المفرقين يقولون: إننا نتخذ ذلك سبيلاً، يعني: لنرضي هؤلاء وهؤلاء، وهذا لا ينجيهم من عذاب الله، ولا ينجيهم من الكفر.

٤ ـ ذم تلك الطريقة أي: الإيمان بالبعض دون البعض، وإن هذا منهج قبيح، فيتفرع على هذا ذم أهل الكلام الذين أرادوا أن يجمعوا بين الدليل السمعي والعقلي في صفات الله، وقالوا: إننا أخذنا بهذا وهذا، من أجل التوفيق بين الأدلة، وهم خالفوا الأدلة كلها، فهم أرادوا الجمع بين دليل السمع والعقل، ولكنهم

في الحقيقة خالفوا السمع والعقل كما هو معروف من مناظرتهم والرد عليهم.

٥ ـ وعيد الكفار بالعذاب المهين.

٦ ـ أن الجزاء من جنس العمل؛ لأنهم إنما فرقوا بين الرسل استكباراً وهوى، فأعد لهم العذاب الذي يهينهم ويخذلهم، ولهذا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

٧ ـ أن الإظهار في موضع الإضمار لا يعد تطويلاً بلا فائدة، وجه ذلك: أن الضمير أخصر من الظاهر، فلا يقول القائل: إن الإتيان بالظاهر في موضع الضمير تطويل وزيادة بلا فائدة، بل نقول: هو فائدة، وقد ذكرنا فيما سبق أن من فوائد الإظهار في موضع الإضمار قصد العموم، وتطبيق الوصف على أولئك الذين يعود الضمير عليهم لو كان موجوداً، وكذلك بيان علية الحكم، فمثلاً: في قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ لو قال: «أعتدنا لهم» لم يتبين لماذا أعد لهم هذا العذاب، لكن لما قال: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ كأن هذا الوصف يفيد العلية؛ أي: أن العلة في إعداد العذاب المهين لهم هو الكفر.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء: ١٥٢].

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ لما ذكر الله عزّ وجل حال الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ذكر حال الذين يجمعون في الإيمان بين الجميع، والقرآن هكذا! إذا

ذكر حالاً ذكر ما يضادها، إذا ذكر عقوبة ذكر المثوبة؛ لأنه مثاني تثنى فيه المعاني، فيؤتى بهذا ثم بهذا، ولأن التنويع مما يشد النفس والذهن إلى ما يتلى أو يسمع؛ ولأجل أن يكون سير الإنسان إلى الله عزّ وجل بين طرفي النقيض: الإفراط والتفريط؛ لأن الإنسان لو غلب جانب الرجاء لحصل له الأمن من مكر الله، ولو غلب جانب الخوف لحصل عليه القنوط واليأس من رحمة الله.

قول الله عزّ وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ الإيمان بالله سبق عدة مرات ماذا يتضمن، والإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام كذلك، فإنه يقتضي الإيمان بأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله عزّ وجل، وأما الإيمان بشرائعهم فإن الشريعة الإسلامية التي جاء بها محمد ﷺ نسخت جميع الشرائع، لكن نؤمن بأن شرائعهم من عند الله عزّ وجل.

قوله: ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ في أصل الإيمان لا في العمل، ففي أصل الإيمان نؤمن بالجميع، وأنهم كلهم رسالتهم حق من عند الله، أما العمل فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] ووجه ذلك: أن أصل الإيمان شيء واحد، وهو الإيمان بالواحد القهار عزّ وجل، وأما الشرائع فإنها تختلف باختلاف الناس وأحوالهم، والعموم والخصوص، فلهذا جعل الله لكل ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ حتى الشريعة الإسلامية في أول أمرها ليست كالشريعة الإسلامية في آخر الأمر، ففي أول الأمر ليس هناك صوم، ولا زكاة، ولا حج، ثم فرضت الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة؛ لأن الله عزّ وجل يشرع الشرائع حسب ما يليق بأحوال الناس.

وقوله: ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني: في أصل الإيمان، فيقولون: إيماننا بمحمد، وإيماننا بنوح عليهما الصلاة والسلام على حد سواء، بمعنى: إننا نؤمن بأن الرسولين الكريمين وكذلك من بينهما من الرسل كلهم على حق ومن عند الله، وهذا في أصل الإيمان كما قلت، أما في الشرائع فتختلف.

قوله: ﴿أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾، ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أتى باسم الإشارة هنا تعظيماً لهم، وجاءت بصيغة البعيد لعلو منزلتهم.

وقوله: ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ﴾، سوف والسين تتناوبان على فعل المضارع كثيراً، لكن هناك بينهما فرق، فالسين للتحقيق والتقريب، وسوف للتحقيق مع البعد، فهذا الفرق بينهما، وكلاهما يدل على التحقيق، لكن السين للقريب، وسوف للبعيد، فهل إيتاء أجورهم كان بعيداً؟

الجواب: هو بعيد قريب، أما من جهة امتداده، وأن الله تعالى يجازيهم شيئاً فشيئاً، ثم يأتي الجزاء الأوفى في يوم القيامة فهو لا شك أنه بعيد، وأما كون كل آت قريب فهو قريب، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧].

وقوله: ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: ثواب أعمالهم، وسمى الله ثواب الأعمال أجوراً تكرماً منه وفضلاً منه عزّ وجل، فكأنه استأجر هؤلاء على عمل عملوه ثم أعطاهم أجرهم، كالإنسان يستأجر أناساً ليبنوا له بناءً فإذا بنوه أعطاهم أجورهم، وهذا يعني أن الله عزّ وجل التزم وألزم نفسه سبحانه بأن يثيب هؤلاء، ولا مانع من أن يكون الله تعالى ألزم نفسه بما شاء كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقد قال الأول:

ما للعباد عليه حقٌ واجب كلا ولا عملٌ لديه ضائعُ
إن عُذِّبوا فبعدله أو نُعِّموا فبفضله وهو الكريم الواسعُ

ولكن ابن القيم رحمه الله قيد هذا فقال:

ما للعباد عليه حقٌ واجبُ هو أوجب الأجر العظيم الشان

فجعل عليه حقاً واجباً، لكن هو الذي أوجبه.

إن عذبوا فبعدله أو نعموا فبفضله والفضل للمنان

فالحاصل: أن الله سمى الثواب أجراً تكرماً منه وفضلاً؛ كأن العاملين لأنفسهم عاملون له، إذا انتهى عملهم أوفاهم أجورهم.

وقوله: ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ لم يبين هنا مقدار الأجر، لكنه بينه في مواضع كثيرة في القرآن، وكذلك في السنة، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لما كان هؤلاء المؤمنون ﴿بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ لما كانوا قد يخطئون، ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ولما كان هذا الإيمان المطابق من فضله ورحمته أردف المغفرة بالرحمة، فهؤلاء لا بد أن يقصروا، ولا أحد إلا يقصر، فختم الآية بالمغفرة، ثم هذا الإيمان الذي حصل لهم ليس بكسبهم، ولا من عمل أيديهم، ولكنه من رحمة الله عزّ وجل، فلذلك ناسب أن تختم الآية بالغفور الرحيم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن القرآن الكريم مثاني، إذا ذكر شيئاً ذكر ضده بالوجوه التي ذكرناها في الشرح.

٢ ـ أنه لا بد أن نؤمن بالله وجميع الرسل، ولكن كيف يكون الإيمان وبمن نؤمن؟

أما الإيمان فكيفيته: أن نؤمن بأصل الرسالة، وأنهم رسل حق من عند الله عزّ وجل، وأما الشرائع فتختلف، لكل منهم شرعة ومنهاج، أما من نؤمن به فيجب علينا أن نؤمن بكل من ذكره الله في القرآن باسمه، وعينه؛ لأنهم عينوا لنا، وما لم يعين فنؤمن به إجمالاً؛ لأننا نؤمن أن من الرسل من لم يقصصهم الله علينا، فنؤمن بهم إجمالاً.

٣ ـ أنه لا يجوز أن نفرق بين أحد منهم، وذلك في أصل الإيمان، وهل نفرق بينهم في الفضل ونقول هذا الرسول أفضل من هذا الرسول؟

الجواب: نعم، يجب علينا أن نفضل بينهم؛ لأن الله تعالى أخبر بذلك في كتابه، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وعلى هذا فسبب التفضيل ما حباهم الله به من المناقب والفضائل، وكثرة الأتباع وما أشبه ذلك، وهو توقيفي، لكننا إذا علمنا أن الله فضل هذا الرسول على ذاك، إما أن نعلم السبب ويتضح، وإما أن لا نعلمه، ولهذا قال العلماء: إن أولي العزم من الرسل خمسة: أولهم: محمد ﷺ، وفضله الله على غيره لما له من المناقب العظيمة التي لم يدركها أحد، والفضائل التي خصه الله بها، والأتباع الذين لا يوجد مثلهم في جميع أتباع الرسل، بل هم ضعفا أتباع الرسل كلهم؛ لأن الرسول ﷺ أخبر بأن الجنة عشرون ومئة صف، هذه الأمة منها ثمانون صفاً[1]، وهذا يعني أن

---

(١) الحديث الوارد بلفظ: (أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم) وهذا الحديث عند ابن حبان في صحيحه =

هذه الأمة تعدل جميع الأمم وتزيد الضعف، ثم إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد محمد ﷺ، وهذان الرسولان الكريمان هما خليلا الرحمٰن، ولم تثبت الخلة فيما نعلم لأحد سواهما، ثم موسى لأنه عليه الصلاة والسلام كابد من المشقة مع فرعون ومع بني إسرائيل ما لم يتبين لنا في رسول سواه، بقي عندنا عيسى ونوح، أيهما أفضل؟ منهم من قال: إن نوحاً أفضل؛ لأن نوحاً عليه الصلاة والسلام بقي يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وحصل منهم من السخرية والاستهزاء به ما هو معلوم في القرآن والسنة، ومنهم من فضل عيسى؛ لأنه كابد بني إسرائيل، وبنو إسرائيل هم أشد الناس عتواً وطغياناً كما يظهر ذلك لمن تدبر القرآن والسنة، فحصل له مشقة إلى حد أن بني إسرائيل جعلوا أمه زانية، وجعلوا عيسى ولد زنا والعياذ بالله! قاتلهم الله! فحصل له عليه الصلاة والسلام من المضائق، وحصل له من المناقب والكرامات ما لم نعلم أنه حصل لنوح.

ولو قال قائل: إما أن نجعلهم على حد سواء، وإما أن نتوقف لكان هذا خيراً؛ لأنه ليس هناك أشياء تميز تماماً أيهما أفضل.

المهم: أن إيماننا بالرسل يدخل فيه الإيمان بما حباهم الله تعالى به من الفضائل، وأن نفضل بعضهم على بعض، وهذا لا يضر، ولكن إذا أدى هذا التفضيل إلى خصومة ونزاع، واحتقار رسولنا إذا فضلناه على رسول الآخرين، فإنه يجب التوقف والسكوت، حتى إن الرسول عليه الصلاة والسلام، قال: «**لا ينبغي لعبدٍ أن يقول: أنا خير من يونس بن متى**»[1] مع أن يونس عليه الصلاة

= كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة (٧٥٦٦)، وكذلك أورده الحاكم في مستدركه كتاب الإيمان (٢٤٨).

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٤١٦).

والسلام خرج مغاضباً لقومه قبل أن يؤذن له بالخروج، ولهذا نجوا لما آمنوا حين جاءهم العذاب؛ لأن نبيهم لم يبق فيهم فأنجاهم الله، فالمهم: أنه لو قدر أننا نريد أن نفاضل بين محمد وموسى عليهما الصلاة والسلام، وعندنا يهود ولو فضلنا محمداً ﷺ لذهبوا يفضلون موسى عليه السلام، ويحتقرون محمداً، فحينئذ يجب الكف عن ذلك.

٤ ـ أن الله وعد هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بالأجور، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

٥ ـ تمام منة الله سبحانه على العباد، حيث سمى الثواب أجراً، ومن المعلوم أن الأجر ثابت لزوماً للمستأجر، والذي أوجب هذا الأجر هو الله تعالى، أوجبه على نفسه، وهذا يدل على تمام فضل الله عزّ وجل ومنته، أما كيف تكون هذه الأجور؟ فإن الله تعالى بينها في كتابه، وكذلك السنة، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ويختلف الأجر باختلاف الأشخاص، واختلاف النيات، واختلاف المتابعة، أما اختلافه باختلاف الأشخاص فكما قال النبي ﷺ: «**لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»[1] هذا لأنهم أصحابه، فهذا باعتبار الأشخاص.

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذا خليلاً**»، حديث رقم (٣٤٧٠)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم، حديث رقم (٢٥٤١) عن أبي سعيد الخدري.

وكذلك أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن أيام الصبر «**أن العامل فيهن له أجر خمسين من الصحابة**»[١]، والمراد أن ما يلحقه من المشقة في العمل يقابل خمسين مرة من عمل الصحابة؛ لأن الصحابة كلهم مؤمنون، وكلهم مستقيمون، لكن أيام الصبر كل الناس على خلاف هذا الرجل الذي قام بطاعة الله، فهو غريب بينهم، ومن المعلوم أنه إذا كان غريباً بينهم فسوف تشق عليه العبادة، فمن أجل ذلك صار للعامل فيهن أجر خمسين واحداً من الصحابة، وهذا لا يعني الفضل المطلق على الصحابة؛ لأن هؤلاء فاقوا الصحابة في مشقة العمل عليهم، أما الفضل المطلق فهو للصحابة رضي الله عنهم.

ويكون أيضاً الأجر بحسب الإخلاص، فمن كان أخلص لله كان أكثر ثواباً، حتى إن الله قال في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[٢] وكذلك يختلف باختلاف المتابعة، فمن كان للرسول ﷺ أتبع، كان أجره أكثر، حتى قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إياكم ومحدثات الأمور! فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[٣].

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، حديث رقم (٤٣٤١)؛ والترمذي، كتاب التفسير، باب سورة المائدة، حديث رقم (٣٠٥٨)؛ وابن ماجه، كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾، حديث رقم (٤٠١٤) عن أبي ثعلبة الخشني.

(٢) تقدم ص٢٦٥.

(٣) رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، حديث رقم (٤٦٠٧)؛ والترمذي، كتاب العلم، باب الأخذ بالسنة واجتناب البدع، حديث رقم (٢٦٧٦) عن العرباض بن سارية.

٦ ـ إثبات اسمين من أسماء الله: الغفور الرحيم، الغفور في مقابل الذنوب، والرحيم في مقابل الثواب والحسنات؛ لأن المغفرة تتعلق بالذنب، والرحمة تتعلق بحصول المطلوب من الثواب والأجور.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء: ١٥٣].

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ﴾ وفي قراءة ﴿أَن﴾ (تُنْزِل) ومعناهما واحد، والخطاب في قوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ﴾ لرسول الله ﷺ، وهو من الخطابات الموجهة إليه على وجه الخصوص، فلا يتناول أمتهُ.

والخطاب الموجه للرسول عليه الصلاة والسلام: إما أن يدل الدليل على أنه له وللأمة فهذا واضح، وإما أن يدل الدليل على أنه خاص به، فهذا أيضاً واضح على أنه خاص به، وإما أن لا تكون هناك قرينة تدل على هذا ولا على هذا، فالأصل أنه له، وأمته تبع له.

فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ﴾ [التحريم: ١ ـ ٢] هنا العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولهذا قال: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ولم يقل: لك، وقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ هذا يدل على أنه له وللأمة،

ومثل هذه الآية ﴿يَسْـَٔلُكَ﴾ الخطاب لهُ، وقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: ١] الخطاب له، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ [الأحزاب: ٤٥] الخطاب لهَ، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] الخطاب لهُ.

وقوله: ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، لكن اليهود في المدينة أكثر من النصارى بكثير، فيوجد نصارى لا شك، لكن اليهود أكثر منهم، وسبب كثرتهم في المدينة أنهم قرؤوا التوراة أنه يبعث نبي هو خاتم الأنبياء، وشريعته أكبر الشرائع، وأن مهاجره المدينة، فجاءوا من فلسطين إلى المدينة، ينتظرون بعثة النبي ﷺ، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: يقولون للمشركين: سيبعث نبي، ونكون أتباعاً له، ونغلبكم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩] فهذا هو سبب وجود ثلاث قبائل من اليهود في المدينة.

فأهل الكتاب هنا من حيث الأصل يشمل اليهود والنصارى، لكن أكثر ما يكون في المدينة هم اليهود.

قوله: ﴿أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هذا السؤال يحتمل أنه للتحدي، أو لإقامة البينة كما يدعون أنه ليس برسول؛ لأن الكتب السابقة كانت تنزل من السماء لا سيما التوارة، فإن الله كتب لموسى في الألواح من كل شيء، وأنزلها عليه، فكأنهم يقولون: إما أن تأتي بكتاب من السماء فنصدقك، وإما أن تكون كموسى ينزل عليه كتاب من السماء فتكون نبياً، فالآية تحتمل هذا وهذا.

أما قريش فقالوا: لولا أنزل عليه ملك، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٨، ٩] وقوله: ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ أي: بصورة الرجل؛ لأنه لا يمكن أن يكون ملكاً بصورة الملائكة ثم يخاطب البشر، فلو أن الله أرسل ملكاً إلى البشر لجعله بصورة البشر.

قوله: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ يعني: فلا تعجب أن يسألوك ﴿أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ وعلى هذا فيكون قوله: ﴿فَقَدْ﴾ جملة معطوفة على مقدر، دل عليه السياق، والمعنى: إذا سألوا هذا فلا تستغرب، ولا تستكثر هذا السؤال ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ والذي سألوه قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ والعياذ بالله!

وهؤلاء هم القوم السبعون الذين اختارهم موسى، فقد اختار موسى من قومه سبعين رجلاً لميقات الله، فجاءوا لميقات الله، وسمعوا الله عزّ وجل يكلم موسى، سمعوه بآذانهم يكلم موسى، ومع ذلك لم يصدقوه ﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ يعني: وإلا فلست بصادق، وهذا الذي يسمع ليس كلام الله، وماذا حصل لهم؟

قال الله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ وماتوا في آن واحد، ولكن موسى عليه الصلاة والسلام سأل ربه أن يحييهم، ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] فأحياهم الله، ثم صاروا في بني إسرائيل.

الحاصل أن هؤلاء قالوا قولاً أعظم مما طلبوا من

الرسول، ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ يعني: نراه بأعيننا، وهذا شيء مستحيل! من هم الذين يرون الله في الدنيا؟! الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يرون الله في الدنيا، فكيف بهؤلاء القوم العتاة المعاندين؟

فقول الله عزّ وجل: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾؛ أي: أنهم صعقوا فهلكوا، وقوله: ﴿بِظُلۡمِهِمۡۚ﴾ أي: بسبب ظلمهم، فالباء هنا للسببية، والظلم أنهم اعتدوا في الدعاء ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ وهذا عدوان عظيم، لا بالنسبة لموسى، ولا بالنسبة للرب عزّ وجل، فإن مثل هذا لا يمكن أبداً، ومن دعا بما لا يمكن فقد اعتدى في الدعاء.

قوله: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ﴾ فيها قراءة أخرى وهي: «أَرْنَا اللهَ» يعني: بسكون الراء؛ لأن هذه أخف على الإنسان وإلا فالمعنى واحد.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾، قوله: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾ المفعول الثاني محذوف؛ أي: إلهاً، وقوله: ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب الذكري، يعني: أضف إلى هذا الأمر المنكر منكراً آخراً، وهو اتخاذهم العجل إلهاً، وهذا العجل ليس حيواناً، بل عجلاً جماداً، استعاروا حلياً، ثم صنعوه على هيكل عجل، وجعلوا داخله مجوفاً، وجعلوا له ثقباً في رأسه، وفتحة في دبره، فيوجهونه إلى الريح مستدبراً إياها، فتدخل الريح في هذا المجوف من ثقب واسع، وتخرج من ثقب ضيق، وبطبيعة الحال سوف يكون له صوت، فكان له خوار كخوار الثور، وقوم العجل هؤلاء ثيران، فقد قال لهم السامري: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨] يعني: أن موسى ضل وضاع عن الإله؛

لأنه كان قد واعد ربه ثلاثين ليلة، فأتمها الله عشراً حتى صارت أربعين ليلة، قالوا: موسى ضال، يبحث عن الإله، وهذا هو الإله، فاتخذوا هذا العجل الذي صنعوه بأيديهم إلهاً يعبدونه، ونصحهم هارون وقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ [طه: ٩٠] فكان الجواب: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ۝٩١﴾ [طه: ٩١]، ونعرف أن موسى عليه السلام لم يضل إلهه، وأن له إلٰهاً سوى هذا، وبقوا على عبادة العجل، وهذا أيضاً منكر عظيم، حيث جعلوا مع الله إلٰهاً آخر صنعوه بأيديهم، ثم صاروا كالصبيان، تدخل الريح من الدبر وتخرج من الفم، ويظنون أن هذا خواره، وإذا كان إلٰه يخور فما الفائدة منه؟ لكن هذا يدل على سفاهة عقولهم، وأنهم على حد كبير من السفه!

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾، ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ يعني: الآيات البينات، والبينات الظاهرة التي ليس فيها إشكال؛ لأن موسى عليه السلام آتاه الله تسع آياتٍ بينات واضحة جلية، يغني عنها آية واحدة، كان له عصى يهش بها على غنمه، ويتوكأ عليها، وله فيها مآرب كالدفاع عن نفسه وما أشبه ذلك، فإذا ألقاها انقلبت في الحال ثعباناً مبيناً، وحية عظيمة فهذه من أعظم الآيات.

ثم هي ليست حية وهمية تخيلية كما هو في صنيع السحرة، بل هي حية حقيقية تتحرك، وتأكل وتبلع بإذن الله عزّ وجل، والسحرة ملأوا الدنيا حبالاً وعصياً، وصار يخيل إلى موسى أنها تسعى حتى ﴿أَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ﴾ [طه: ٦٧] فألقى هذه العصا،

فبدأت تلتهم هذه الحبال والعصي، وسبحان الله! يعني: في لحظة تذوب هذه الحبال والعصي، ثم تبلع أُخر في لحظة، يعني: هذا خلاف المعتاد، فالمعتاد أن الطعام يدخل في الجوف، ويبقى مدة، ويتحول إلى دم ثم يخرج فضلات، لكن هذه بإذن الله تبلع، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه يخرج مباشرة منصهراً خالصاً، وهذا من آيات الله عزّ وجل، ومع ذلك جاءتهم البينات وشاهدوها، ولكنهم اتخذوا العجل إلهاً.

قوله: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ سبحان ربنا عزّ وجل، ما أكرمه وأعظمه، عفا الله عنهم؛ لأنهم أمروا بالتوبة، ولكنها توبةٌ شديدة، منَّ الله علينا معشر هذه الأمة الإسلامية المحمدية برفعها، أمروا أن يقتلوا أنفسهم، وليس معنى أن كل واحد يقتل نفسه، بل يقتل بعضهم بعضاً، لكن الأمة الواحدة كأنها نفس واحدة، فألقيت عليهم الظلمة، وأخذوا الخناجر والسكاكين، وجعل الواحد منهم يقتل مَنْ أمامه ولو كان أباه أو أمه، فلما علم الله منهم صدق الرجوع إلى الله، وامتثال الأمر؛ لأن كون الإنسان يؤمر بأن يقتل قومه، هذه من أشد ما يكون على النفوس، فلما انقادوا وذلوا إلى هذا النوع من التوبة رفع الله عنهم ذلك وعفا عنهم.

قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ ﴿ءَاتَيْنَا﴾ أعطينا، والسلطان في كل موضع بحسبه، فسلطان الأنبياء هي آياتهم؛ لأنها حجة قوية يتسلطون بها على من أنكر، فهذا السلطان الذي أوتي موسى هو الحجج والبراهين الدالة، حتى إن الله سبحانه كتب لهم في التوراة من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، والعموم هنا في قوله: ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٤] أي: مما

يحتاجه بنو إسرائيل في عهدهم، كما في قوله: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦] ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على عالمي زمانهم، وليسوا على كل العالمين حتى الأمة هذه، لكن هذا الكتاب المبين الذي قال الله فيه: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] هذا يعم كل شيء؛ لأنه كتاب للأمة إلى يوم القيامة، فلا بد أن يكون قد أتى بما تحتاجه الأمة إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ قوله: ﴿مُّبِينًا﴾ من أبان، وهو صالح لأن يكون من أبان اللازم أو أبان المتعدي؛ لأن كلمة «أبان» رباعية تكون لازمة، كما يقال: أبان الصبح، فهذه لازمة يعني: بان، وتكون متعدية كما تقول: أبان لي هذا الرجل ما أشكل علي، فهذا السلطان الذي أوتيه موسى مبين مظهر للحق، وهو بيِّن بنفسه، وهذا مبني على القول الراجح وهو جواز استعمال المشترك في معنيين، والمشترك: هو ما تعدد معناهُ واتحد لفظه، فلفظه لفظاً واحداً يصلح للمعنيين فأكثر، مثل كلمة «العين»، فإنها تكون للعين الباصرة، وتكون للذهب، فيسمى عيناً، وتكون للشمس، تسمى عيناً، وتكون للماء الجاري، تسمى عيناً، فهذا المشترك، فهل يمكن أن يستعمل المشترك في جميع المعاني التي يصلح لها؟ الجواب نقول: يمكن، لكن لا بد من قرينة، ولا بد من أن لا يتنافى المعنيان، فقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾ [التكوير: ١٧] قال العلماء: ﴿عَسْعَسَ﴾ كلمةٌ تصلح للإقبال والإدبار؛ أي: إذا أقبل أو إذا أدبر، فيصح أن نقول: إن ﴿عَسْعَسَ﴾ بمعنى: أقبل وأدبر؛ لأنهما لا يتنافيان، فيقسم الله بالليل حين إقباله، وذلك عند غروب الشمس، ويقسم بالليل حين إدباره، وذلك عند طلوع الفجر أو طلوع الشمس.

إذاً قوله: ﴿مُّبِينًا﴾ هنا نقول: ما دامت صالحة للمتعدي واللازم فهي من المشترك، ويجوز أن نستعملها في المعنيين لعدم التنافي بينهما.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ فيها دليل على تعنت أهل الكتاب، وإنما قلت ذلك لأن هذا اللفظ المطابق للقرآن، وكلما أمكن أن نأتي باللفظ الذي هو لفظ القرآن والمطابق له فهو أولى.

٢ ـ دفاع الله تعالى عن الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنه سلاه بقوله: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾، وإلا فإن الرسول عليه الصلاة والسلام إذا طلب منه أهل الكتاب أن ينزل عليهم كتاباً من السماء ـ وهم أهل كتاب ـ ولم يفعل، من المعلوم أن هذا سيكون في قلبه حرج منه؛ لأن أهل الكتاب معروفون عند الجاهليين بالعلم؛ لما في أيديهم من الكتب، فإذا قالوا: أنزل علينا ﴿كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ولكنه لم يفعل لا بد أن يكون في قلبه شيء، وسوف يلحقه من الغم والهم ما يلحقه، فدافع الله عنه وقال: لا تتعجب ولا تستكبر هذا السؤال ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾.

٣ ـ أن بني إسرائيل كما آذوا موسى آذوا محمداً عليه الصلاة والسلام، يعني: أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ﴾ [الأحزاب: ٦٩] آذوا الرسول محمداً ﷺ، فهموا بقتله كما في قصةِ بني النضير، وكذلك فعلوا في الواقع، إذ أهدوا إليه في خيبر شاة فيها سم، ولاكها ولكنه لفظها، إلا أنها أثرت في لهواته عليه الصلاة

والسلام، أثرت فيها ألماً، حتى قال في مرضه: «**ما زالت أكلة خيبر تعاودني، وهذا أوان انقطاع الأبهر مني**»(١)، ولهذا ذهب بعض التابعين ـ وأظنه الزهري ـ إلى أن محمداً ﷺ من النبيين الذين قتلتهم بنو إسرائيل.

٤ ـ أن سؤال الإنسان أن يرى الله جهرة من أكبر العدوان، لقوله: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ وهل يؤخذ منه أنه يمتنع في الدنيا أن يرى أحد ربه؟

الجواب: نعم، الظاهر أنه يؤخذ منه؛ لأن الله قال: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾؛ لأنه لو كان يمكن لكان سؤالهم ليس بذاك الشنيع، لكنه لا يمكن أن يرى الله في الدنيا، ويدل لهذا: أن موسى عليه السلام قال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] لكن قول موسى ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ ليس كقول هؤلاء ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ فبينهما فرق، فموسى سأل الرؤيا شوقاً إلى الله عزّ وجل، ومحبة لرؤيته، اللهم لا تحرمنا إياها، لكن بنو إسرائيل قالوا ذلك تحدياً وعناداً واستكباراً، فقال الله له: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ أي: لا يمكن، ثم ضرب الله له مثلاً فقال: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فقوله: ﴿ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ أي على ما هو عليه، ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ جعله مندكاً بالمرة، صار كالرمل، ولم يهرب

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الديات، باب فيمن سقى رجلاً سماً أو أطعمه فمات أيقاد منه؟ (٤٥١٢)؛ ورواه الدارمي في المقدمة، باب ما أكرم الله به النبي ﷺ (٦٧).

كما يتوقع الناس: بل استقر مكانه، وإن هرب فلن تراني، كأن الجبل لم يتمالك نفسه حتى انهد، ولم يتمكن من الهرب، ولما رأى موسى هذا الأمر العظيم ﴿خَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أغمي عليه، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: لم أسأل هذا إنكاراً، أو جحداً فأنا أول المؤمنين، لكن أتوب إليك مما سألت؛ لأن هذا السؤال لا يجوز.

ومحمد ﷺ لم ير الله على كل الأقوال؛ لأن النبي ﷺ سئل، هل رأيت ربك؟ قال: «**رأيت نوراً**»(١)، وفي رواية قال: «**نور أنى أراه**»(٢)، يعني: كيف أراه مع هذه الأنوار، الحجب حجب عظيمة من الأنوار، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه**، ـ أي: بهاؤه وعظمته ـ **ما انتهى إليه بصره من خلقه**»(٣) والمعنى: لأحرقت سبحات وجهه كل شيء؛ لأن بصره ينتهي إلى كل شيء.

فمع هذه العظمة كيف يمكن لأحد في الدنيا أن يراه، فالرسول عليه الصلاة والسلام لم ير ربه على كل الأقوال:

أولاً: من قوله هو نفسه ﷺ حيث قال: «**نور أنى أراه؟!**»، وقال في لفظ آخر: «**رأيت نوراً**» يعني: نوراً حجب الرؤية، وعائشة رضي الله عنها أنكرت ذلك، وقالت: «من زعم أن

---

(١) رواية عند مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «**نور أنّى أراه**»، وفي قوله: «**رأيت نوراً**»، حديث رقم (١٧٨) من حديث أبي ذر.

(٢) رواية عند مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «**نور أنّى أراه**»، وفي قوله: «**رأيت نوراً**»، حديث رقم (١٧٨) من حديث أبي ذر.

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «**إن الله لا ينام**» وفي قوله: «**حجابه النور..**»، حديث رقم (١٧٩) عن أبي موسى.

محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية»[١] هذا دليل.

وابن عباس رضي الله عنهما كما يقول شيخ الإسلام: إنه لم يقل إن محمداً رأى ربه بعينه، حتى نقول إن قوله معارض لقول عائشة، وإنما الرؤية التي أثبتها ابن عباس رضي الله عنهما هي رؤية القلب التي قويت حتى صار كالمشاهد، وهذا الأقرب من ابن عباس؛ لأن ابن عباس رضي الله عنهما أفقه من أن يظن أن محمداً ﷺ يرى الله عزّ وجل في الدنيا.

والخلاصة: أن هذه الآية فيها إشارة إلى أنهُ لا يمكن رؤية الله في الدنيا، والآية الأخرى التي في سورة الأعراف صريحة.

ورؤية الله في المنام لا تسمى رؤية عين، ونحن كلامنا في رؤية العين، وإلا فقد قال الرسول عليه الصلاة السلام: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٢] وحقيقةً: أن الإنسان أحياناً يصل إلى درجة كأنما يشاهد الله عزّ وجل، لكن ليس هذا مرادنا، إنما مرادنا أنه رؤي بالعين يقظة، كما ذكرت آنفاً، أما أنه من قوة اليقين كأنه يشاهده فهي رؤية من حيث اليقين؛ لأن الإنسان إذا رأى شيئاً تيقن، فإذا رآه بقلبه ووصل إلى هذا الحد صار كما قال الرسول: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»[٣].

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير والنجم، حديث رقم (٤٥٧٤)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء، حديث رقم (١٧٧).

(٢) تقدم (١/ ٤٣١) من حديث جبريل.

(٣) تقدم (١/ ٤٣١) من حديث جبريل.

وهذا مشهور عن شيخ الإسلام رحمه الله أنه يقول: إن المؤمن يرى الله عزّ وجل في المنام بقدر عمله وإيمانه به، واتباعه لرسوله ﷺ، لكن في نفسي من هذا شيء، ويمكن أن يقال: إن الله يري هذا الإنسان ملكاً أو ما أشبه ذلك على قدر اتباعه وتمسكه.

٥ ـ عناد بني إسرائيل وتعنتهم، حيث كانوا يسمعون كلام الله، ولكنهم قالوا لنبيهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

٦ ـ أن الذنب كلما عظم كان أسرع للعقوبة، لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾، والفاء تدل على الترتيب والتعقيب، ولهذا أخذتهم الصاعقة في الحال فماتوا جميعاً.

٧ ـ بيان قدرة الله سبحانه حيث أهلكهم جميعاً، وهو سبحانه على كل شيء قدير، ففي يوم القيامة عند قيام الساعة ينفخ في الصور؛ فيصعق كل من في السماوات والأرض إلا من شاء الله بلحظة واحدة، وينفخ فيه فيقوم الناس من قبورهم بلحظة واحدة.

٨ ـ إثبات الأسباب، وأن لها أثراً في حصول المسببات، لقوله: ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ فإن الباء للسببية، وهذه مسألة ذكر بعض العلماء أن عليها من كتاب الله ألف دليل على إثبات الأسباب، وتعليل الأحكام وبيان الحكم.

٩ ـ أن الله تعالى لا يظلم الناس شيئاً، لقوله: ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾، وليس أخذ الله إياهم مجرد مشيئة، ولكن لأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١].

١٠ ـ بيان سفه بني إسرائيل، وأنهم مع عنادهم واستكبارهم أهل سفه، وذلك بعبادتهم العجل واتخاذهم إياه إلهاً، لقوله: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾.

١١ ـ أنهم اتخذوا ذلك عن علم، فليس لهم عذر، لقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ ومعلوم أن المذنب بعد العلم أشدُ من المذنب عن غير علم، بل إن المذنب عن غير علم لا أثر لذنبه مطلقاً ـ على القول الراجح ـ.

١٢ ـ أن ما جاءت به الرسل فهو حجة ظاهرة لا تخفى إلا على من أعمى الله قلبه، لقوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾.

١٣ ـ بيان شمول عفو الله، حيث قال: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾.

١٤ ـ عظمة الرب عزّ وجل، وذلك بعود الضمير إلى الله تعالى بصيغة الجمع، فإن قوله: ﴿فَعَفَوْنَا﴾ لا شك أنها للتعظيم، وليست للتعدد كما زعم النصرانيُ الخبيث، فإن النصراني يقول: الآلهة متعددة، وهذا موجود في القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [يس: ١٢] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] وما أشبه ذلك، فيقال له: إن هذا للتعظيم، وأنت من الذين في قلوبهم زيغ تتبع المتشابه، وإلا فعندك آيات محكمات ظاهرات كقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣]، ولكن هذا الذي في قلبه زيغ هو الذي يتبع المتشابه.

١٥ ـ أن الله تعالى أعطى موسى حججاً بينة لا تخفى على أحد، لقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ وهذا هو ظاهر الآية، وإن كان بعضهم قال: تسلطاً على بني إسرائيل، لكن الصواب ما

ذكرنا أن قوله: ﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: بالحجج البينة الظاهرة، وقد مر علينا أن الله آتاه تسع آيات بينات، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] وهي في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣] هذه خمس، ومع العصا واليد صارت سبعاً، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠] فهذه تسع، وهذه التي ذكرها الله آيات صريحة، وهي سلطان بين الحجة، ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ يعني: الغرق، فأغرق الثمار قبل أن تخرج، ﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ أكلها بعد أن خرجت، ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ أفسدها بعد أن خزنت، ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ أفسدت الماء ﴿وَٱلدَّمَ﴾ الصحيح أنه النزيف يخرج به ـ أي: بهذا النزيف ـ فائدة الغذاء، فانظر الآن هي سلسلة من حين ما بذروا إلى أن وصل إلى غذاء الجسم، وهو الدم، وكلهم ابتلوا به والعياذ بالله!

١٦ ـ العذر بالجهل مطلقاً لقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ حتى عباد القبور، فالصحيح أنه لا فرق، وأن الدين كله واحد.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ [النساء: ١٥٤].

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ قوله: ﴿وَرَفَعْنَا﴾ الضمير يعود إلى الرب عزّ وجل، لكنه جاء بصيغة الجمع تعظيماً.

قوله ﴿فَوْقَهُمُ﴾ أي: فوق رؤوس بني إسرائيل.

و﴿ٱلطُّورَ﴾ الجبل المعروف، وهو جبل عظيم كبير، اجتثه الله تعالى ورفعه حينما تقاعسوا عن تنفيذ الأوامر، فصار الجبل فوقهم كأنه ظلة، حتى ظنوا أنه واقع عليهم، وقيل لهم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]، فآمنوا إيمان إكراه في الحقيقة؛ لأنهم هددوا بالموت والهلاك، فإيمانهم إيمان اضطرار ـ والعياذ بالله! ـ ولهذا قال المفسرون: لما سجدوا كانوا ينظرون إلى الجبل، وإلى الآن يقولون: إن اليهود يسجدون على أطراف الجباه ـ وليس باستقامة ـ كأنما ينظرون إلى شيء يخافون أن يقع عليهم.

وقوله: ﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ أي: رفعاً مصحوباً بالميثاق؛ لأن الله تعالى أمرهم عند رفعه أن يأخذوا الكتاب بقوة، والميثاق هو العهد المؤكد.

قوله: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾؛ أي: باب بيت المقدس، : ﴿سُجَّدًا﴾ أي: ساجدين لله تعالى شكراً لله تعالى على النعمة؛ لأن الله تعالى أمرهم أن يذهبوا إلى هذه القرية، وأن يقاتلوا أهلها، ولكنهم قالوا: إن فيها قوماً جبارين، والقصة مبسوطة في سورة المائدة، وبعد أن حصل عليهم التيه أربعين سنة أذن الله لهم بدخول القرية، وقيل لهم: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: حال كونكم سجداً؛ أي: ساجدين لله عزّ وجل.

وهل المراد بالسجود حقيقتهُ أو المراد الذل والخضوع كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: ١٥] الظاهر الأول: لأنهم دخلوا على أستاههم.

وقوله: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ ولكنهم لم يفعلوا،

وإنما دخلوا على أستاههم، والاست: هي الدبر، والمعنى أنهم دخلوا يزحفون ـ والعياذ بالله ـ استكباراً، وقيل: إنهم دخلوا على القفا، وقيل لهم: قولوا حطة، ولكنهم لم يفعلوا، لم يقولوا: حطة بل قالوا: حنطة، يعني: كأن هؤلاء القوم لا يريدون إلا أن يأكلوا ويشربوا فقط كالبهائم.

قوله: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ وفي قراءة: «لَا تَعدُّوا فِي السَّبْتِ» والتعدي والعدو بمعنى واحد، والمعنى: ﴿لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ بصيد الحيتان وقد حرمت عليكم، وكان اليهود قد حرم الله عليهم أن يصيدوا الحوت في يوم السبت ابتلاء وامتحاناً، فصارت الحيتان تأتي يوم السبت شرعاً؛ أي: طافية على سطح الماء وبكثرة، وكان اليهود ـ كما هو معروف من سيرتهم ـ أهل طمع وجشع، فغاظهم ذلك، وقالوا: ما الطريق إلى أخذ هذه الحيتان التي تأتي يوم السبت شرعاً، وفي غير يوم السبت لا يأتي منها شيء، فاحتالوا على ذلك بأن وضعوا شباكاً يوم الجمعة، فتأتي الحيتان وتتساقط فيها، ثم يأتون يوم الأحد فيأخذونها، فالفعل هنا ظاهره الإباحة؛ لأنهم ما تعدوا في السبت، لكن المقصود منه انتهاك حرمة الصيد في يوم السبت.

ولهذا قيل لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥] فقلبوا قردة؛ لأن القرد أشبه ما يكون بالإنسان، وهم بفعلهم هذا يشبه أن يكون حلالاً؛ لأنهم لم يصيدوا مباشرة يوم السبت، لما قيل لهم: ﴿لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ لم يمتثلوا بل اعتدوا يوم السبت على وجه الحيلة والمكر والخداع، ومن استحل المحرم بالحيلة فهو أعظم إثماً ممن استحله بصرحه؛ لأنه إذا استحله بالحيلة جمع بين مفسدتين:

المفسدة الأولى: استحلال المحرم.

المفسدة الثانية: الخداع والتحيل على رب العالمين، الذي ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩].

ولهذا كان الذين يتحيلون على الربا أعظم إثماً من الذين يأتون الربا على وجه صريح؛ لأن المتحيلين يخادعون الله، فيجمعون بين مفسدة الربا ومفسدة الخداع؛ ولأن المتحيلين يرون أنهم على صواب، فلا يكادون ينزعون عنه، والذي يأتي الشيء صريحاً ويعرف أنه أخطأ فربما تلومه نفسه في يوم من الأيام حتى ينزجر.

قوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهداً قوياً على أن يقوموا بما أمروا به، ولكنهم لم يقوموا بذلك، فنقضوا العهد ولم يبالوا، وكفروا بنعمة الله.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء: ١٥٥].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾، ﴿فَبِمَا﴾ الفاء عاطفة، والباء حرف جر، و«مَا» زائدة إعراباً، ولكنها زائدة معنى؛ لأن كل حرف زائد إعراباً فإنه يفيد التوكيد، والتوكيد لا شك أنه زيادة معنى، وعلى هذا فنعرب «مَا» زائدة، و«نقض» اسم مجرور بالباء؛ لأنه لو حذفت «ما» صار التركيب «فبنقضهم ميثاقهم».

وأين متعلق الجار والمجرور في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾؟

الجواب: كلام الله يفسر بعضه بعضاً، وفي سورة المائدة قال الله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ وعلى هذا فيكون الجار والمجرور متعلقاً بمحذوف يفسره ما جاء في القرآن الكريم نفسه.

وقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ أي: فبنقضهم ميثاقهم، ونقض الميثاق هو المخالفة فيه، بأن يكون بينك وبين آخر عهد ثم تخالفه، فهذا هو نقض الميثاق، وهؤلاء خالفوا ما أمروا به ولم يقوموا به فنقضوا الميثاق.

قوله: ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الكونية والشرعية فالظاهر العموم، يعني: ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ حين كفروا بموسى، واقترحوا عليه وقَالُوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] إلى غير ذلك مما يعرف من سيرة القوم «الأمة الغضبية»، ومن أراد أن يعرف شيئاً من سيرتهم فليعد إلى كتاب إغاثة اللهفان لابن القيم رحمه الله، فإنه بين معايبهم ومخازيهم والعياذ بالله!

قوله: ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ﴿وَقَتْلِهِمُ﴾ فيها ثلاث قراءات: «وَقَتْلِهُمُ الأَنْبِيَاء» أي: بضم الهاء والميم، والقراءة الثانية: كسر الهاء وضم الميم «وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ»، القراءة الثالثة: كسر الهاء والميم، «وَقَتْلِهِمِ الأَنْبِيَاءَ» وكلها قراءات سبعية يجوز للقارئ أن يقرأ بها، ولكن إنما يحسن ذلك لطالب العلم، أما العامي فلا تسمعه قراءة غير التي في المصحف؛ لأنك إذا أسمعته قراءة أخرى لهان القرآن بقلبه، أو لغلطك، وقال: إن هذا يتخبط بكتاب الله عزّ وجل، كما أنكر عمر رضي الله عنه على هشام بن الحكم حين قرأ الآية من سورة الفرقان على خلاف ما كان

يقرؤها عمر رضي الله عنهما، حتى تنازعا إلى النبي ﷺ.

فالعامة إذا قرأت بخلاف ما في أيديهم لا شك أنهم سوف ينكرون عليك إنكاراً عظيماً ـ وإن كنت على حق ـ ثم لو قدرنا أنهم لو وثقوا بك فسوف يهون القرآن في نفوسهم، والإنسان يجب عليه أن يجعل تعظيم القرآن في قلوب الناس أعلى من كل شيء يعظم سوى الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، ﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ جمع نبي، فإن كان نبيء بالهمزة فيقال: الأنبئاء، وإن كان بالياء قيل: الأنبياء، وكلتاهما قراءتان: «الأنبئاء» «والأنبياء».

وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ هذا بيان للواقع، وليس قيد احتراز؛ لأنه لا يمكن أن يكون قتل النبي بحق، لكنه بيان للواقع، وأن قتل النبي ليس بحق، والقيد الذي لبيان الواقع يفيد العلية، يعني: كأنه قال: ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ لأن قتل الأنبياء ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، وسيأتي إن شاء الله بيان الحق في الفوائد.

قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ نسأل الله العافية، إذا دعوا إلى الحق قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ والغلف: جمع أغلف، والأغلف: هو المغلف الذي عليه غلاف لا يصل إليه شيء، فهم يقولون هكذا ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، وهذا كقول قريش: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] فقريش أعظم؛ لأنهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾، وبنو إسرائيل قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ لا نسمع، ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ لا نرى، فسدُّوا جميع الطرق ـ أعني: قريشاً ـ قالوا: القلوب لا تفقه، والآذان لا تسمع، والأعين لا

تبصر، والعياذ بالله! مع أن الحق أبلج، وأوضح ما يكون ـ نسأل الله الهداية ـ.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، قوله: ﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الإبطالي، يعني: بل ليس في قلوبهم غلاف، وليست قلوبهم غلفاً، ولكن ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ لأن الأصل الفطرة، والفطرة دين الإسلام، وما يرد عليها مما لا يوصل الحق إلى القلب فهو وارد، وليس أصلياً فيها، فكأن الله كذبهم، وقال: إن القلوب ليست غلفاً، ولكن طبع عليها ـ بعد أن كانت على الفطرة ـ بكفرهم.

وقوله: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: جعل عليها طابعاً، والشيء المختوم يجعل عليه طابع يطبع عليه، يعني: بمعنى الختم.

وقوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ الباء للسببية؛ أي: بسبب كفرهم طبع على قلوبهم فلا يصل إليها الخير.

ولهذا قال: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، اختلف العلماء في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فقيل: إن المعنى لا يؤمنون أبداً، وأن مثل هذا التعبير جارٍ في لسان العرب، فهو نفي للكل، وقيل: المعنى: إلا قليلاً منهم، فيكون الاستثناء من الواو، في قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم، وعلى هذا فينقسمون إلى قسمين: مؤمن وهو الأقل، وكافر وهو الأكثر، وقيل: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعود على الإيمان أي: لا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، ثم هل المعنى ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلا ضعيفاً، أو ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ في الزمن، بمعنى: أن أكثر وقتهم الكفر، وقد ينقدح الإيمان في قلوبهم ولكن سرعان ما

ينطفي؛ لأنه ليس على أساسه؟ كل هذا محتمل، والسياق لا ينافية.

فيقال: إن منهم المؤمنين، ومنهم الكافرون، والكافرون أكثر، ثم المؤمنون أيضاً، ليسوا مستقرين على الإيمان مستمرين عليه، ثم إيمانهم ليس إيماناً قوياً راسخاً، وعلى هذا فالآية صالحة لجميع هذه الاحتمالات.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ بيان قدرة الرب عزّ وجل، وأن ﴿أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وإلا فمن ذا الذي يستطيع أن يرفع هذا الجبل العظيم؟ ثم من الذي يستطيع أن يجعله فوق رءوسهم؛ ليس واقعاً عليهم حتى يموتوا، ولا رفيعاً بعيداً حتى يأمنوا، ولكنه فوق الرءوس قريب؟ إذاً: ففيه دليل على قوة الله عزّ وجل وقدرته.

٢ ـ أن إيمان بني إسرائيل إيمان إكراه؛ لأن أي قادر يقول: أنا سأسقط عليك حجارة من السماء إن لم تؤمن، فيؤمن المهدد على إكراه، وعليه: فالمؤمن على إكراه لا بد أن يكون إيمانه ضعيفاً مهزهزاً، إذا زال الإكراه ربما يرجع إلى الكفر.

٣ ـ أنهُ يشرع عند فتح البلاد صلاة الفتح، لقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾، ويمكن أن يؤخذ هذا على أساس أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا لم يرد شرعنا بخلافه، وقد قيل: إن شرعنا ورد بوفاقه، فإن النبي ﷺ لما فتح مكة صلى ثماني ركعات ضحى في بيت أم هانئ، فقال بعض العلماء: إن هذه صلاة الضحى، وقال آخرون: إنها صلاة الفتح؛ لأنه ليس من عادة الرسول عليه الصلاة

والسلام أن يصلي صلاة الضحى ثمان ركعات، فتكون هذه صلاة الفتح، وأخذ بها بعض الخلفاء فكانوا إذا فتحوا المدينة صلوا صلاة الفتح.

وما أقرب هذا القول من الصواب، أن صلاة النبي ﷺ الضحى حين فتح مكة صلاة فتح، شكراً لله عزّ وجل على ما أنعم به من الفتح، ولا سيما إذا كان الفتح فتح عاصمة، فإن بني إسرائيل فتحوا بيت المقدس، ومحمد ﷺ فتح أم القرى عاصمة القرى كلها.

٤ ـ أن لله تعالى أن يحرم الحلال في زمن، ويبيحه في زمن آخر؛ لأنه حرم عليهم الصيد يوم السبت.

٥ ـ أن اليهود أهل مكر وخديعة، حيث اعتدوا في السبت.

٦ ـ أن المتحيل على المحرم ولو بما صورته الإباحة يعتبر واقعاً فيه، لقوله: ﴿لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ فاعتدوا فيه بهذه الحيلة، إذاً: فمن تحيل على محرم بما صورته المباح فهو واقع في المحرم، بل هو زيادة.

٧ ـ أنه يظهر الفرق التام بين هذه الأمة وبين بني إسرائيل ـ ولله الحمد ـ فهذه الأمة حرم الله عليهم الصيد في حال الإحرام في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ٩٥] ثم ابتلاهم بإرسال الصيد عليهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ [المائدة: ٩٤] فالطائر يناله الرمح، والزاحف تناله اليد، فالزاحف كالأرانب والغزلان وما أشبهها، يناله الإنسان بيده، ويمسكه فلا يهرب منه، والطائر يناله الرمح دون السهم، وهذا ابتلاء، قال الله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ

يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٤] فماذا كان موقف الصحابة من هذه الآية؟

الجواب: تجنبوا وامتثلوا الأمر، تجنبوا ذلك مع أنه سهل عليهم، فهذه الأمة أمة: سمعنا وأطعنا والحمد لله، جعلنا الله منهم.

٨ ـ أن من تحيل على محارم الله من هذه الأمة ففيه شبه من اليهود، وأي إنسان يتحيل على محارم الله فإن فيه شبهاً من اليهود، سواء كان في البيع أو في الشراء، أو فيما أحل الله من الطعام وحرم، أو في النكاح، ولهذا سمى النبي ﷺ المحلل التيس المستعار[1].

٩ ـ أن الله جل وعلا لم يعذب عباده إلا بعد أن قامت عليهم الحجة، لقوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ عهداً قوياً بينه وبين الخلق، ثم ينقضون عهده، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

١٠ ـ إثبات الأسباب الشرعية، وكذلك إثبات الأسباب القدرية من باب أولى، لقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ والباء للسببية، وإثبات الأسباب المؤثرة في مسبباتها من مقتضى حكمة الله عزّ وجل؛ لأن الشيء لو وقع صدفة هكذا لكان سفهاً، لكن إذا وقع الشيءُ مربوطاً بسببه دل ذلك على الحكمة والإتقان، والإنسان الذي يفعل الشيء اعتباطاً بدون سبب موجب له لا يعد حكيماً، لكن الذي يفعل الشيء بأسبابه والمؤثرات فيه هذا هو الحكيم، والله عزّ وجل قد ربط المسببات بالأسباب، ولكن يجب أن نعلم أنه لقصورنا ونقصنا قد نعلم السبب وقد لا نعلمه، إذاً: فيه إثبات الأسباب.

---

(١) رواه ابن ماجه، كتاب النكاح، باب المحلل والمحلل له (١٩٣٦) عن عقبة بن عامر.

والناس في الأسباب ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

قسم: فرط، وقسم: أفرط، وقسم: توسط، وخير الأمور الوسط.

القسم الأول: فرط وقال: إنه لا أثر للأسباب إطلاقاً، حتى النار التي تحرق الورق ليس لها أثر، واحتراق الورق لم يكن بالنار ولكن عند النار، واحتجوا لذلك بأنك لو أثبت أن للسبب تأثيراً في المسبب لأشركت بالله، حتى قالوا: أي إنسان يثبت سبباً فهو مشرك، في الربوبية.

القسم الثاني: أفرط وجاوز الحد وقال: إن الأسباب مؤثرة بطبيعتها، ولا يمكن أن تتخلف الأسباب، وهؤلاء أخطأوا أيضاً وأفرطوا.

القسم الثالث: قالوا: إن الأسباب مؤثرة لا بنفسها، ولكن بما أودع الله فيها من القوى المؤثرة، وهؤلاء هم أهل الحق، سواء كان السبب قدرياً أو كان السبب شرعياً، ولذلك نجد بعض الأشياء مشروعة لها أسباب ولها موانع، مثل الإرث له سبب وله مانع، فربما يكون أبوك الذي يرث مالك كله إذا انفرد به لا يرث شيئاً مع وجود السبب، لوجود المانع، إذاً: السبب هو المؤثر الآن، فالذي جعل الأبوة سبباً للإرث جعل القتل مانعاً من الإرث مثلاً.

كذلك أيضاً الأسباب القدرية، فهذه النار محرقة جعل الله فيها قوة الإحراق، ولما ألقي فيها إبراهيم قال الله لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فانتفى الإحراق، مع أنها سبب مؤثر بأمر الله، ولكن لم تؤثر لما قال الله لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، فكانت برداً وسلاماً عليه.

قال أهل العلم: إن الله تعالى لو قال لها: كوني برداً فقط لهلك من البرد، الله أكبر! لكن قال: ﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ لئلا تهلكه من البرد، فكانت ﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ عليه.

إذاً نحن نقول: إن الأسباب مؤثرة بما أودع الله فيها من القوى المؤثرة لا بنفسها، وحينئذ لم نشرك، وإنما قلنا بما تقتضيه ربوبية الله وحكمة الله، ربوبية الله بالتأثير، وحكمة الله بقرن المسبب بسببه، وهذا هو الحق، وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة.

١١ ـ أن نقض الميثاق سبب للعنة الله عزّ وجل؛ لأن الآية على تقدير محذوف وهو: «لعنَّاهم».

١٢ ـ أن هؤلاء احتجوا بقدر الله على شرعه، حيث قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ فأبطل الله ذلك، فيترتب على هذا: أن كل من احتج بالقدر على الشرع فحجته داحضة، وقد أبطل الله هذا في قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ولو كانت حجتهم صحيحة مقبولة ما أذاقهم الله بأسه.

فإن قال قائل: أليس الله تعالى قد قال في آيةً أخرى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ﴾ [الأنعام: ١٠٧] فكيف ينفي احتجاجهم بأن شركهم بمشيئة الله، ثم يثبت أن شركهم بمشيئة الله؟

الجواب عن هذا: أن يقال: إن الله سبحانه قال ذلك لنبيه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ﴾ تسليةً له، وليس إقراراً لهم على شركهم، ولكن ليسلي النبي ﷺ، حتى إذا تبين له أن شركهم كان بمشيئة الله

رضي بقدر الله، والرضا بقدر الله هنا ليس من جهة الفاعل لكن من جهة أجنبي منه، وأما قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ فقصدهم في هذا الاحتجاج بالقدر على الشرع ليستمروا على ما هم عليه من الباطل، وفرق بين هذا وهذا.

١٣ ـ أن الكفر بآيات الله سبب للعن كنقض العهد والميثاق، ولكن يقال: إن نقض العهد والميثاق منه ما يصل إلى حد الكفر، ومنه ما هو دون ذلك، أما الكفر في مثل هذا السياق فالمراد به الكفر الأكبر المخرج من الملة.

١٤ ـ إثبات الآيات لله، وآيات الله تعالى نوعان: كونية وشرعية، فالكونية جميع المخلوقات، فكل المخلوقات دالة على خالقها عزّ وجل، وعلى قدرته وعلمه، وحكمته ورحمته، وغير ذلك مما يتعلق بهذه المخلوقات.

والآيات الشرعية: هي ما أنزله الله على رسله من الوحي، فهي آيات شرعية؛ لأنك لو تدبرتها لوجدت أنه لا يمكن لأي بشر أن يأتي بمثلها، وليس المراد الإعجاز اللفظي بل الإعجاز المعنوي، أما الإعجاز اللفظي فيقال: إنه لم يثبت إلا للقرآن فقط، فالله أعلم، لكن على كل حال الآيات الشرعية هي التي جاءت بها الرسل، وهي آية من آيات الله لا أحد يستطيع أن يأتي بمثلها.

وقد تحدى الله سبحانه المكذبين بالرسل بالآيات الكونية والآيات الشرعية، فقال تعالى في الآيات الكونية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣] فهذا تحدٍ بالآيات الكونية،

لا أحد يقدر أن يخلق ولا الذباب، وقال في الآيات الشرعية: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]، ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ لا يمكن، ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي: مساعداً ومعيناً.

المهم أن آيات الله سبحانه لا يكفر بها إلا المكابر، وإلا فإنه لا يمكن لأي إنسان إلا أن يقر، حتى أعتى من نعلم من أهل الأرض مستيقن بالحق، وهو فرعون وقومه، مستيقنون لكن جحدوا به ظلماً وعلواً، وموسى ﷺ يخاطب فرعون يقول: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] يخاطبه محاورة، فهل قال فرعون: ما علمت؟ أبداً، أُخرس ولم يتكلم؛ لأن هذه آيات بينة واضحة.

١٥ ـ عتو بني إسرائيل؛ حيث اعتدوا على من أتوا بشرع يهدون الناس به، حيث قتلوا: ﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، بل قتلوا ﴿ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١] ولو كانوا غير أنبياء، وكل من يأمر بالقسط من الناس فإن بني إسرائيل يريدون قتله، والذي يقدرون على قتله يقتلونه؛ لأنهم إنما يريدون الفساد في الأرض.

١٦ ـ أن قتل الأنبياء لا يمكن أن يكون بحق، وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بيان للواقع وليس قيداً احترازياً، وهو كثير في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] والرسول لا يدعو لما يميت أبداً، لا يدعو إلا لما فيه الحياة.

١٧ ـ أن الله تعالى يطبع على القلب بالكفر، بمعنى أن الإنسان إذا كفر ولم يعلم الله فيه خيراً طبع الله على قلبه، فلا يهتدي أبداً، لقوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، وهذا إبطال لاحتجاجهم بالقدر، وهناك أيضاً آية تبين هذا أعظم بيان، أن من زاغ عن الحق فهو السبب، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥] فلا يمكن لأحد أن يزيغ إلا وهو السبب في زيغ نفسه.

١٨ ـ أن من طبع الله على قلبه فإنه لا يؤمن إلا قليلاً، يعني: إلا إيماناً قليلاً لا يقوى به على الاستقامة، وقد سبق لنا أن ﴿قَلِيلًا﴾ هذه لها ثلاثة احتمالات، وأن الآية تعم الجميع؛ لأن لدينا قاعدة في التفسير، وينبغي أن لا تغيب عن أفهامنا: أنه متى احتملت الآية أكثر من معنى بدون أن يكون هناك تناقض فإنها تحمل على كل المعاني.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٦].

﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ هذا هو الراجح، وإن كان فيها خلاف عند المعربين، لكن هذا أرجح ما يكون؛ أي: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ «لعناهم».

وقوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ هذا توكيد على أنهم كفروا كفراً أكبر، أكد بهذا التكرار.

قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ﴾ وهي بنت عمران وأخت هارون، وهنا إشكال: كيف تكون أختاً

لهارون وبين هارون وبينها سنين طويلة؟ أورد هذا على الرسول عليه الصلاة والسلام، فقال: «**إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم، وإن هارون أخا مريم ليس هو هارون أخا موسى، لكن كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم، حتى وصل إلى هارون أخي مريم**»(١).

وقد وصفها الله تعالى بأنها: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، وأنها أبعد ما يكون عن البغي، مع أن بني إسرائيل قالوا: لها ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨] هذا نفي، ولا يمدحون بذلك أباها وأمها، أبوها ليس ﴿ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ وأمها ليست ﴿بَغِيًّا﴾، وإنما المراد رميها بالزنا؛ كأنهم يقولون من أين جاءكِ هذا؟! الأم طاهرة، والأب بعيد عن السوء، ولهذا ذهب بعض العلماء الفقهاء إلى أنَّ القذف بالتعريض يجب به الحد، فلو تنازع شخصان وقال: أحدهما للآخر الحمد لله، أنا محصن الفرج، عفيف، ما زنيت، هو يقول عن نفسه، والمعنى أنك أنت بالعكس، ولهذا قال بعض العلماء: أنه يجب أن يحد؛ لأن هذا التعريض أشد.

وقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ حيث قالوا: إنها كانت بغياً، ويلزم من ذلك أن يكون عيسى أحد الأنبياء أولي العزم ولد زنا ـ والعياذ بالله! ـ وهذا بهتان عظيم، ونظير ذلك ما وقع من المنافقين في عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك، قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور: ١٢] بيِّن، ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ

---

(١) رواه مسلم، كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب (٢١٣٥).

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [النور: ١٣، ١٤] ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور: ١٥].

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ إثبات السبب، لقوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾.

٢ ـ أن الكفر سبب للشر والفساد واللعن والإبعاد عن رحمة الله عزّ وجل؛ لأنه متعلق بمحذوف، كما قلنا في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

٣ ـ أن اليهود رموا مريم ببهتان عظيم، حيث قالوا: إنها زانية، وإن عيسى ابن زنا، نسأل الله العافية، وهذا بهتان عظيم، ولكن هل نقول: إنهم كفروا برميهم إياها؟ نقول: أما من قذفها بذلك بعد أن برأها الله منه فهو كافر، لا لقذفه ولكن لتكذيبه تبرئة الله سبحانه إياها، فعلى هذا يكون كفره من باب كفر الجحود؛ لأنه أنكر ما أثبته الله عزّ وجل، والله سبحانه قال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم: ١٢] فشهد الله لها بإحصان الفرج، وعليه فمن رماها بما رماها به اليهود فإنه كافر مكذب لله عزّ وجل.

مسألة أخرى لها علاقة تامة بهذا: لو قذف أحد من الناس زوجة النبي عليه الصلاة والسلام عائشة رضي الله عنها بما برأها الله منه يكون كافراً من وجهين:

الوجه الأول: تكذيب خبر الله عزّ وجل، وأول ما ذكر الله القصة ذكر الإفك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١] مما يدل على أن هذا القضية من أصلها وفصلها كذب، فمن رمى أم المؤمنين عائشة بما برأها الله منه فإنه كافر مكذب لله عزّ وجل.

الوجه الثاني: أنه دنس فراش النبي عليه الصلاة والسلام،

وأم المؤمنين عائشة ـ وحاشاها أن تكون فعلت ما رميت به ـ إذا كانت زانية والعياذ بالله فهي خبيثة، والله يقول: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور: ٢٦] ولهذا يلزم من ذلك أن يكون القائل طعن بالرسول عليه الصلاة والسلام.

زد على ذلك أنه طعن في حكمة الله عزّ وجل، أن يجعل هذه المرأة الزانية فراشاً لأفضل البشر عنده ـ نعوذ بالله ـ لأنه ليس من الحكمة أن يجعل وليه وصفيه وخليله محمداً ﷺ يفترش امرأةً زانية، فهؤلاء الذين يرمونها بما برأها الله منه هم كفرة لا شك، نشهد بالله أنهم كفرة، وليسوا من الإسلام في شيء؛ لأنهم كذبوا الله ورسوله؛ ولأنهم دنسوا فراش النبي عليه الصلاة والسلام؛ ولأنهم طعنوا في حكمة الله، ولا إشكال في هذا.

لكن لو قذف غير أم المؤمنين عائشة من زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام، اللاتي متن وهن تحته أو مات عنهن فما حكمه؟ الجواب: الصحيح أنه يكفر، ولا نقول: لأنه تكذيب لله، فالله ما برأ واحدةً منهن، لكن لأنه دنس فراش النبي ﷺ، وطعن في حكمة الله، ولهذا كان القول الراجح أن من قذف واحدةً من أمهات المؤمنين فإنه كافر، يباح دمه وماله إلا أن يتوب، فإذا تاب فينظر الإمام هل يرفع عنه القتل لأنه تاب أو لا يرفع لأنه حد، فهذا يرجع إلى رأي الإمام.

٤ ـ أن رمي المحصنات بهتان عظيم، ولهذا أوجب الله فيه حداً قدره ثمانون جلدة، حتى لو شهد أحد بأن فلانة أو فلاناً زنى، وأنه شاهد ذكر هذا الرجل في فرجها، فنقول: عليك ثمانون جلدة، ولو كان من أصدق الناس، ولو كان من أزكى الناس، ولو قال: معي شاهد آخر، فنقول: الشاهد الثاني نجلده

أيضاً ثمانين جلدة مع الأول، ولو قالوا: عندنا شاهد ثالث، قلنا نجلده أيضاً ثمانين جلدة، وكل هذا حمايةً للأعراض والأنساب، يعني أن جلد القاذف ليس حماية لعرض المقذوف فقط، بل وللأنساب أيضاً؛ لأنه إذا ثبت زناه اختلط نسب الزاني بنسب الزوج، فما يدرى هذا الولد لهذا أو لهذا فتضيع الأنساب، ولهذا كان من الواجب أن يقام على القاذف حد، وأيضاً لا يكفي أن يقام عليه الحد، فبالإضافة إلى ذلك لا تقبل له شهادة أبداً، حتى ولو شهد بما يساوي فلساً؛ لأن الله قال: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ [النور: ٤] فأكد النفي بالتأبيد، فإذا شهد وهو من أعدل الناس قلنا: لا نقبل؛ لأن هذا أمر الله، العقوبة الثالثة: الخروج عن العدالة ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤] وبناءً على ذلك فكل عمل ديني أو دنيوي يشترط فيه العدالة فإنه لا يتولاه أبداً، لكن الله استثنى فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٥] وهذا الاستثناء يعود إلى الجملة الأخيرة بالاتفاق، وهو ارتفاع الفسق إذا تاب، ولا يعود إلى الأولى بالاتفاق، وهي قوله: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤] واختلف العلماء هل يعود للثانية؟ وهي ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ أو لا؟ على قولين: وينبغي أن يرجع في ذلك إلى اجتهاد الحاكم القاضي.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء: ١٥٧].

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ هذا أيضاً مما ادعاه اليهود بنو إسرائيل، يقولون: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، وذكروه باللقب والاسم والكنية، ﴿ٱلْمَسِيحَ﴾ لقب، والاسم ﴿عِيسَى﴾، ﴿ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ الكنية، وهذا لا شك أنه واقع من اليهود، قالوا: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ ذكروه بالاسم وباللقب، والكنية لئلا يكون اشتباه، وهذا من باب التوكيد، توكيد العين والشخص بأنه هو المراد.

أما قوله: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ فقد اختلف المفسرون فيها، هل هذا من قولهم أو من قول الله؟ فقال بعض أهل العلم: إنه من قول الله، يعني: لما قال هؤلاء: ﴿ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ فهم لا يقرون بأنه رسول، لكن الله تعالى قال: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ كأنه يقول: إنه لا يستحق أن يقتل لأنه رسول.

وقال بعض المفسرين: إن هذا من كلامهم، وأنهم قالوا: ذلك على سبيل التهكم، يعني: الذي يزعم أنه ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، وأن هذا كقول قريش للرسول: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر: ٦] كيف ينزل عليه الذكر وتقولون: إنه مجنون؟! لكن هذا من باب التهكم.

على كل حال: القرآن عظيم، جاء بهذه الصيغة، من أجل أن يدير الإنسان فكره في كل ناحية ليتأمل أيهما أحق، ويمكن أن يقال: قاله الله تعالى تكريماً وتعظيماً لعيسى عليه الصلاة والسلام، وقاله هؤلاء استهزاء وتهكماً.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ القتل موجود، فهم قالوا: ﴿قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾ لكن أين الصلب؟ يقولون: هذا من باب

حذف المعلوم بالسياق، وهنا هم قالوا: قتلنا وصلبنا، لكن طوي ذكره اكتفاءً بما سيذكر.

فقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ وهم قالوا: إنَّا قتلناه وصلبناه، والصلب: أن توضع خشبة على طول جسد المصلوب، ويعرض فوقها على حذاء عضديه عارضة، ثم يوقف ويشد على هذه الخشبة، وتربط يداه على العارضتين.

ولذلك اتخذ النصارى لسفههم وضلالهم وقلة عقولهم الصليب الذي صلب عليه نبيهم إلهاً، وعلى الأقل مقدساً، مع أنهم لو كانوا عقلاء لكانوا إذا رأوا الصليب كسروه وأوقدوا به النار، لكنهم سفهاء ضلال، لا يميزون بين الحق والباطل.

قوله: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، ﴿شُبِّهَ﴾ أي: ألقي شبهه على شخص آخر، فقتلوا هذا الشخص، وانظروا الضلال والفتنة، ألقي شبهه على رجل، فقتلوا هذا الرجل وصلبوه، وقالوا: ﴿قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾ وقد اتفق جميع الذين كانوا حاضرين معه على أنه رفع، كما قال الله عزّ وجل، ونحن لسنا بحاجة إلى شهادة أحد بعد شهادة الله عزّ وجل.

ومن الذي شُبِّه؟ قيل: إن الذي شبه هو نفس الذي دل اليهود على عيسى؛ لأن اليهود كانوا يبحثون عن عيسى عليه السلام، وعيسى كما تعلمون كان يسيح في الأرض هو وأمه خوفاً على نفسه من اليهود، فقيل لهم: إنه كان في البيت الفلاني، فأرسلوا لقتله، وكان دليلهم واحداً منهم، فلما وصلوا إلى البيت الذي هو فيه وأصحابه ـ وكانوا نحو ثلاثة عشر نفراً أو اثني عشر ـ دخل الذي يدل عليه ليتأكد، فلما دخل ألقى الله عليه

شبه عيسى، سبحان الله! فدخل اليهود فأمسكوه يظنونه عيسى، فقال: أنا صاحبكم، فقالوا: أنت عيسى، فقتلوه وصلبوه، أما عيسى عليه الصلاة والسلام، فيقال: إن الله فتح له كوة في الجدار وخرج من غير الباب، ورفعه الله إليه سبحانه.

وقيل: إن الذي شبه رجل من قوم عيسى، حيث قال عيسى لقومه الثلاثة عشر نفراً: من يصبر على القتل فيلقي الله عليه شبهي وهو رفيقي في الجنة؟ فقام شاب منهم وقال: أنا، فكأنهم استصغروه فأعادها مرة ثانيةً وثالثة، فقال: أنا، قال: أنت ذاك، فألقى الله شبهه عليه، ونجا عيسى، وهذا الشاب هو الذي دخل اليهود عليه فقتلوه وصلبوه.

فقوله: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وأما عيسى عليه الصلاة والسلام فيذكر الله أنه رفعه.

قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ فقال بعضهم: إنه عيسى، وقال بعضهم: ليس عيسى، كأن الشبه ليس تاماً؛ ففيه ملامح عيسى، وفيه ملامح غيره، ولهذا اختلفوا.

فمنهم من قال: قتلنا عيسى، ومنهم من قال: لم نقتله؛ لأن الشبه لا يقتضي المماثلة، ولعلهم لقوة انفعالهم لم يتأنوا كثيراً، فألقي الشبه على واحد منهم، أو على من في البيت فقتلوه، ثم بعد قتله تنازعوا هل حقيقة أنهم قتلوا عيسى أو لا؟ فاختلفوا فيه، وهؤلاء الذين اختلفوا لم يختلفوا عن علم، ولكن عن شك، منهم من قال: قتلناه، ومنهم من قال: لم نقتله، واختلفوا وصار هذا في النهاية اختلافاً دينياً، فمن اليهود من أقر بأنهم قتلوه، ومنهم

من أنكر، وقال: إن الذي قتلنا الشبه شبه عيسى، والجسد ليس جسده، والنصارى أيضاً اتبعوهم في اختلافهم ذاك.

قوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ نفى الله عنهم أن يكونوا عالمين، ووجه ذلك: أن العلم إدراك الشيء على ما هو عليه في الواقع إدراكاً جازماً، وهؤلاء لم يصلوا إلى هذا الحد، بل نعلم أنهم لم يعلموا هذا؛ لأنهم ﴿مَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾.

وقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ «مَا» هنا نافيه، وهل هي حجازية، أو تميمية، أو حجازية لم تكمل شروطها؟ الجواب: حجازية لم تكمل شروطها، والذي اختل من الشروط عدم الترتيب بين اسمها وخبرها، وابن مالك رحمه الله يقول في الألفية:

إعمال ليس أعملت ما دون إن مَعَ بقا النفي وترتيب زكن

أي: عُلم، وهنا الترتيب مختلف، ولو قلت: «**ما زيد قائماً**» كنت حجازياً، ولو قلت: «ما زيد قائم» كنت تميمياً، وقال الشاعر يصف معشوقته:

ومهفهف الأعطاف قلتُ له انتسب فأجاب ما قتلُ المحب حرامُ

إذاً هي تميمية، ولو كانت حجازية لقال: «ما قتل المحب حراماً».

لكن ﴿مَا﴾ لا تعمل عمل ليس عند الحجازيين إلا مع الترتيب وبقاء النفي، وهنا لا ترتيب، ولذلك نعرب ﴿مَا﴾ نافية، وقوله: ﴿لَهُم﴾ جار ومجرور خبر مقدم، وقوله: ﴿عِلْمٍ﴾ مبتدأ مؤخر، لكن دخل عليه حرف الجر الزائد إعراباً الزائد معنى؛ لأن الحروف الزائدة إعراباً تفيد تقوية الكلام.

قوله: ﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾، ﴿إِلَّا﴾ هنا أداة استثناء، لكن

الاستثناء منقطع، وعلامة الاستثناء المنقطع أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، ونحن نعلم جميعاً أن ﴿ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ ليس علماً، وعلى هذا فلا يكون الاستثناء هنا متصلاً بل هو منقطع؛ لأن ﴿ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ ليس علماً، فيكون المستثنى الآن من غير جنس المستثنى منه، ويكون منقطعاً، وتقدر ﴿إِلَّا﴾ في الاستثناء المنقطع بـ«لكن»، يعني «ما لهم به من علم لكن اتباع الظن».

و«الظَّنُّ» هو الراجح من أحد احتمالين أو احتمالات، فإذا كان الأمر يحتمل شيئين فأكثر وترجح أحدها فالراجح يسمى ظناً، والمرجوح يسمى وهماً، وإن تساوى الأمران فهو شك، هذا عند الأصوليين، أما عند الفقهاء فالشك ما يقابل اليقين، فيشمل الوهم والظن والشك، ولهذا قالوا: إذا تيقن الطهارة وشك في الحدث فهو على طهارته، ومعنى الشك بالحدث: يشمل الظن والوهم والشك، لكن الأصوليين رحمهم الله قسموا ما لا يكون علماً إلى هذه الأقسام: ظن، وشك، ووهم.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ وحينئذ لا علم عندهم، والأمثلة التي يكون فيها الاستثناء منقطعاً من القرآن كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ [الغاشية: ٢٢ ـ ٢٤] فهنا ﴿إِلَّا﴾ استثناء منقطع؛ لأن انتفاء السيطرة على هؤلاء يشمل من كفر ومن كان غير كافر، ولهذا أتت الفاء في الجواب، والتقدير ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ لكن ﴿مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾.

يقول جل وعلا: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ﴿مَا﴾ نافية، وقوله:

﴿قَتَلُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، قوله: ﴿يَقِينًا﴾ قيل إنها مصدر في موضع الحال من الواو في قوله: ﴿قَتَلُوهُ﴾ أي: وما قتلوه متيقنين، ولكنهم في شك منه، فهنا يتناسب هذا مع قوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ وعلى هذا فتكون ﴿يَقِينًا﴾ مصدراً في موضع الحال، وعاملها قوله: ﴿قَتَلُوهُ﴾ وصاحبها الواو، يعني: وَمَا قَتَلُوهُ متيقنين، وقيل: إن ﴿يَقِينًا﴾ مؤكدة للنفي؛ أي: «مَا قَتَلُوهُ ـ أقول ذلك أو أنفي ـ يَقِيناً» ولا يصح أن تكون مؤكدة للمنفي، يعني: ومَا قَتَلُوهُ قتلاً يَقِيناً بل قتلاً ظنياً، فهذا لا يصح.

إذاً: إما هي مصدر في موضع حال من فاعل قتلوا، وإما هي تأكيد للنفي، وعلى القاعدة التي مرت علينا في التفسير أنه إذا احتمل الكلام معنيين فأكثر لا منافاة بينهما ولا مرجح لأحدهما حمل على المعنيين جميعاً، وشروط حملها على المعنيين: ألا يكون بينهما تعارض، وألا يكون الحمل على وجه مستبعد، بمعنى ألا يترجح أحدهما على الآخر، فإن ترجح أحدهما على الآخر أخذ بالراجح، وعلى هذا فنقول: كلمة ﴿يَقِينًا﴾ لها معنيان:

المعنى الأول: مَا قَتَلُوهُ، متيقنين.

والمعنى الثاني: مَا قَتَلُوهُ، أنفي ذلك يَقِيناً.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن اليهود باءوا بإثم قتل المسيح أخذاً بإقرارهم؛ لأن الله جعل الإقرار شهادة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥] ولهذا نقول:

اليهود قتلوا المسيح حكماً ولم يقتلوه واقعاً؛ لأنهم أقروا بأنهم قتلوه، ولكنهم لم يقتلوه واقعاً في الحقيقة، فحكم قتل المسيح ثابت على اليهود بإقرارهم.

٢ ـ أنهم ـ يعني: اليهود ـ إما أن يكونوا قد أقروا بأنه رسول، وقالوا: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ليعلنوا على أنفسهم أنهم فعلوا ذلك عناداً، أو أن قوله: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ هذه من كلام الله، كما سبق ذكر القولين اللذين قال بهما المفسرون في ذلك.

٣ ـ نسبة الإنسان إذا لم يكن له أب إلى أمه، وتؤخذ من قوله: ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾.

٤ ـ فائدة نحويه: أن الإنسان إذا اشتهر بلقبه فلا بأس أن يقدم على اسم العلم؛ لأنه قدم المسيح، وإلا فالأصل أن يقدم الاسم أولاً ثم اللقب ثم الكنية، لكن إذا اشتهر باللقب فإنه يقدم، مثل أن تقول: الإمام أحمد بن حنبل، أو أحمد بن حنبل الإمام، فالأول مقدم؛ لأنه مشتهر به.

٥ ـ أن عيسى عليه الصلاة والسلام رسول الله، لقوله: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وهو آخر نبي بعث بعده محمد ﷺ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩] وثبت عن النبي ﷺ أنه ليس بينه وبين عيسى أحد من الرسل[1]، وبه نعرف كذب الأخبار التي قالت: إن خالد بن سنان وهو من العرب كان رسولاً، فيقال: ليس بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام أحد من الرسل.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام (٢٣٦٥) عن أبي هريرة.

٦ ـ شرف عيسى عليه الصلاة والسلام؛ لأنه ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وكفى بالإنسان شرفاً أن يكون رسولاً لله، كما كفى به شرفاً أن يكون عبداً لله، لكن الرسالة أخص من العبودية.

٧ ـ إن عيسى عليه الصلاة والسلام لم يقتل ولم يصلب خلافاً لقول اليهود، والذي قال: إنه لم يقتل ولم يصلب هو الله عزّ وجل في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾.

٨ ـ سفاهة النصارى وقلة تمييزهم حيثُ كانوا يعبدون الصليب ويعظمونه، ولو كانوا عقلاء لكسروه، صليب يصلب عليه نبيهم، ثم يذهبون إلى تقديسه! لو أخذنا بظاهر الحال لقلنا: هذا دليل على بغضهم لعيسى، حيث قدسوا ما عذب به، وهو الصليب، لكن هم يدعون أن هذا تعظيم لعيسى عليه الصلاة والسلام.

٩ ـ تمام قدرة الله عزّ وجل، حيث انقلب الرجل إلى مشابه عيسى، سواء قلنا: إنه أحد القاعدين في البيت، أو إنه اليهودي الذي دل اليهود على مكان عيسى، فهو في كلا الحالين دليل على تمام قدرة الله عزّ وجل.

١٠ ـ إذا قلنا: إن المقتول هو الرجل الذي دل اليهود، فإن فيها تأييداً للمثل القائل: «من حفر لأخيه حفرة وقع فيها»، فإن هذا الرجل جاء يدل اليهود ليقتلوا عيسى، فقتلوه هو.

١١ ـ أن اليهود اختلفوا بعد أن قتلوا عيسى ـ بزعمهم ـ هل قتلوه أم لا؟

١٢ ـ أنهم تكلموا بهذا بلا علم، فهذا الاختلاف كله لا علم فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ وكل المختلفين ليس لهم به علم، وإنما هو الظن.

١٣ ـ أنه كما ينتفي العلم عن النصارى؛ لأنهم ضلال، فقد

انتفى العلم عن اليهود في هذه المسألة، ولم يدركوها حقاً.

١٤ ـ الإشارة إلى ذم من اتبع الظن، ووجهه: أن الله نفى عنهم العلم أولاً، ونفي العلم يقتضي ثبوت الجهل، والجهل مذموم، فـ﴿ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ أيضاً مذموم، ولكن الله تعالى بين في سورة الحجرات أن الظن بعضه غير مذموم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢] يعني: ولا تجتنبوا بعض الظن، ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ يعني: وبعضه ليس بإثم، فالظن المبني على قرائن قوية، وليست أوهاماً ولا تخيلات هذا ليس بإثم، والظن الذي لا أصل له هذا إثم، ولكن إذا ظن الإنسان بأخيه سوءاً فهل الأولى أن يحقق أو أن يتجاهل الأمر؟ الجواب: يقال: حسب الحال، فقد يكون من المصلحة النفي حتى نصل إلى اليقين، إما نفياً أو إثباتاً، وقد يكون من المصلحة أن نتجاهل ونتغاضى، فإذا كان الأمر بينك وبين هذا الرجل فالتجاهل أحسن، يعني: لو نقل إليك إنسان كلاماً فيك من شخص فالأولى أن تتجاهل هذا؛ لئلا يقع في قلبك شيء عليه، فضلاً عن أنه ربما تذهب إليه وتتنازع معه، ولهذا جاء في حديث رواه ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**لا يخبرني أحد منكم عن أحد شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**»(١) والحديث فيه ما فيه من حيث السند، لكن معناه جيد، إلا إذا دعت الحاجة إلى إخبار الإنسان فهذا شيء آخر، مثل أن نعرف أن هذا الرجل بينه وبين هذا صداقة، ويفضي إليه بسره،

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في رفع الحديث من المجلس، حديث رقم (٤٨٦٠)؛ والترمذي، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ، حديث رقم (٣٨٩٦)؛ وأحمد (١/ ٣٩٥).

والثاني ينقل الكلام، فهو كالمنخل تماماً لا يمسك الماء، فهذا يجب أن تنصحه، وإذا أخبرت عن حاله فليس هذا نميمة بل هو نصيحة.

المهم: أن الظن ينقسم إلى قسمين: بعضه له قرائن قوية فهنا ينتفي عنه الإثم، وقسم آخر ليس له قرائن قوية فظنه إثم.

١٥ ـ انتفاء قتل عيسى عليه الصلاة والسلام، وأنه لم يقتل يقيناً، لقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ واليقين هنا عائد إلى نفي القتل.

فإن قال قائل: ما الذي أحوج القضية إلى أن يكون فيها هذا التأكيد، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ ألسنا نحن نؤمن بكلمة واحدة من ربنا عزّ وجل؟

الجواب: بلى، لكن الذي أوجب هذا أن اليهود لهم دعاية قوية فيما يذهبون إليه، فمن أجل هذه الدعاية القوية قوبلوا بهذه التأكيدات التي تدل على أنهم لم يقتلوا عيسى، وهذا من رحمة الله وحكمته، أما كونه من رحمته؛ فلئلا يعلق في قلوب المسلمين من هذه الدعاية، وأما كونه من حكمته الله، فلأجل أن يتبين الأمر كما هو، حتى لا يكون ملتبساً.

١٦ ـ أن هؤلاء الذين يدعون قتله لم يتيقنوا من قتله، بل هم في شك منه، بناءً على أن ﴿يَقِينًا﴾ مصدر في موضع الحال من فاعل «قتلوا»، يعني: وما قتلوه متيقنين بل هم في شك من ذلك، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٨].

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ ﴿بَلۡ﴾ حرف إضراب، وهو إضراب إبطالي، وعلامة الإضراب الإبطالي أن يكون مبطلاً لما سبقه، وعلامة الانتقالي ألا يكون مبطلاً لما سبقه، لكنه ينتقل من حال إلى حال، مثل قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل: ٦٦] ﴿بَلِ﴾ هنا انتقالية، لكن الإضراب في قوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ﴾ إضراب إبطالي؛ أي: بل لم يصدقوا في دعواهم.

وقوله: ﴿رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾، رفعه الله تعالى إليه حياً، إما من كوة في البيت، أو من الباب، الله أعلم، وكل ذلك ممكن، وكل ذلك بقدرة الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ وأين كان؟

الجواب: كان في السماء الثانية، دليل ذلك: أن النبي ﷺ حين عرج به، وجد في الأولى: آدم، ووجد في الثانية: عيسى، ويحيى، ووجد في الثالثة: يوسف، ووجد في الرابعة: إدريس، ووجد في الخامسة: هارون، ووجد في السادسة: موسى، ووجد في السابعة: إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ لأنه أعلى هؤلاء منزلة عند الله عزّ وجل، ولهذا كان في السماء السابعة، وآدم في السماء الدنيا ليقرب من بنيه، فإن بنيه كانوا في الأرض، وأقرب ما يكون إلى الأرض من السماوات: السماء الدنيا، وفضل الله واسع ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] إذاً قوله: ﴿رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ إلى السماء الثانية، مع ابن خالته يحيى، لكن

يحيى ليس مرفوعاً في حال حياته، إنما هو مرفوع بعد أن مات.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ أي: ذا عزة، والعزة ثلاثة أقسام ـ كما قال العلماء ـ: عزة القهر، وعزة القدر، وعزة الامتناع:

فعزة القهر: أن الله سبحانه وتعالىٰ غالب غير مغلوب، وفي ذلك يقول الشاعر الجاهلي:

أين المفر والإله الطالبُ والأشرم المغلوب ليس الغالبُ

ومن أمثلة ظهور الغلبة في العزة، قول الله تبارك وتعالى رداً على قول المنافقين: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] فالعزة هنا أظهر معانيها الغلبة؛ لأنه في مقابلة قول هؤلاء المنافقين، وعزة الغلبة واضحة، أن يكون غالباً لكل شيء، فهو غالب وليس بمغلوب جل وعلا.

وعزة القدر: أي أنه ذو قدر عظيم لا نظير له.

وعزة الامتناع: أنه يمتنع عليه النقص، وأخذوا هذا من قول العرب: أرض عزاز؛ أي: صلبه قوية.

قوله: ﴿حَكِيمًا﴾ أي: ذا حكمة، والحكمة هي: إحكام الشيء وإتقانه، ووضعه موضعه بحيث لا يقول عاقل ليته لم يكن هنا، هذه الحكمة، وقد نتوسع في المعنى ونقول: إن الحكيم مشتقه من الحكمة والحكم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] فهو الحكيم؛ أي: الحاكم في عباده، وبين عباده، فهو الحاكم في عباده، يشرع ما شاء فيهم بأمره ونهيه، وهو الحاكم بينهم بشرعه في الدنيا وبجزائه في

الآخرة، ويكون أيضاً من الحكمة، وهي إتقان الشيء ووضعه في موضعه، ولا شك أن الله سبحانه وتعالىٰ له الحكمة البالغة في شرعه، وفي قدره، ولهذا نقول: الحكمة شرعية وقدرية.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ مناسبة ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين؛ لأن هؤلاء اليهود جاءوا مغالبين يريدون أن يقتلوا رسولاً من رسل الله عزّ وجل، فناسب أن يختم الآية بالعزة والحكمة، وهي هنا في الحكم أظهر منها في الحكمة، يعني هو الحاكم عزّ وجل؛ ولذلك منع هؤلاء من إفسادهم وقتلهم النبي.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ إبطال ما ادعاه هؤلاء من قتل عيسى ابن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حيث نفى قتله ثم بين أنه مرفوع إلى الله.

٢ ـ إثبات علو الله عزّ وجل، لقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ وإلى للغاية، فدل ذلك على أن المرفوع إليه عالٍ، والأدلة على علو الله تعالى بذاته كثيرة لا تحصر من القرآن، والسنة، وإجماع السلف، والعقل، والفطرة، وقد تكرر هذا كثيراً وبيناه ـ والحمد لله ـ.

٣ ـ أن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام حي، لقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ وهذا يقتضي رفعه بجسده، كما عرج بالنبي ﷺ بجسده إلى السماوات.

ولو جاء سائل يقول: إذا قلنا: إن عيسى حيٌّ، فما الجواب على قول الله ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]؟

والجواب على هذا: أن قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ فيه أقوال:

الأول: أن المراد بالوفاة النوم، والدليل قول الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠] والمعنى: أن الله تعالى عندما أراد أن يرفعه ألقى عليه النوم، حتى لا ينزعج بهذا الرفع.

والقول الثاني أن قوله: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: قابضك، كما يقال: توفى فلان حقه؛ أي: استوفاه وقبضه.

والقول الثالث: أن الآية ليست على الترتيب الذكري، وأن المعنى: إني رافعك إلي ومتوفيك، فيكون الترتيب هنا من باب الترتيب الذكري لا المعنوي، وهذه كلها أجوبة صحيحة، وأظهرها الأول، وهو أن المراد وفاة النوم، وأن الله تعالى ألقى عليه النوم حتى يكون عند رفعه غير منزعج ولا متأثر.

٤ ـ إثبات هذين الاسمين لله عزّ وجل، وهما: العزيز والحكيم، والعزيز: المتصف بالعزة، والحكيم: المتصف بالحكم والحكمة؛ لأنها من حكم وأحكم، وسبق أن قلنا: إن عزة الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع، فهي ثلاثة معان.

٥ ـ إثبات الحكمة لله عزّ وجل، وهو أنه لا يحكم بشيء إلا لحكمة ولا يفعل شيئاً إلا لحكمة، وهذه الحكمة قد تكون معلومة للناس، وقد تكون غير معلومة.

٦ ـ وجوب اقتناع الإنسان بحكم الله ورضاه بقدره، فوجوب اقتناعه بحكم الله؛ لأنه إذا آمن أنه لحكمة وجب أن يقتنع به، ولهذا كان السلف الصالح لا يقنعون النفوس عند الإشكال إلا بالنصوص، كما قالت عائشة رضي الله عنها حين سئلت «ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فقالت:

كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة»[(١)] وأما الرضا بقضائه، فالمراد: أن يرضى الإنسان بقضاء الله لا بالمقضي؛ لأن المقضي فيه تفصيل، لكن القضاء من حيث هو قضاء الله يجب عليه أن يرضى به، وهذا من تمام توحيد الربوبية.

٧ ـ إثبات الحكم لله عزّ وجل، فالحكم لله كوناً وشرعاً، أما الحكم الكوني فنافذ على كل أحد؛ مسلم وكافر، مؤمن وفاجر، فكل أحد خاضع للحكم الكوني، وأما الحكم الشرعي فمن الناس من خضع له، ومن الناس من لم يخضع له، فالمؤمنون خاضعون له، والكافرون لم يخضعوا له.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩].

﴿إِنْ﴾ هنا نافية؛ أي: «ما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به» و﴿إِنْ﴾ تأتي في اللغة العربية على وجوه متنوعة، فتأتي نافية كما في هذه الآية، وأمثلتها كثيرة، وغالباً ما تأتي نافية إذا أتت بعدها إلا، مثل قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣]، وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧]، وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧] فـ﴿إِنْ﴾ تكون هنا نافية، وتأتي مخففة من الثقيلة، مثل: «إن زيداً لقائم» فهي مخففة من الثقيلة، وتأتي شرطية مثل: «إن قام زيد قام عمرو».

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، حديث رقم (٣١٥)؛ ومسلم، كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، حديث رقم (٣٣٥) عن عائشة، واللفظ لمسلم.

وقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المراد بهم اليهود والنصارى.

وقوله: ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ مستثنى من محذوف، والتقدير «وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به» وعلى هذا فقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف دل عليه السياق، وتقدير الخبر المحذوف أحد.

وقوله: ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ نجد الفعل هنا مفتوحاً ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ فهو مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد.

وقوله: ﴿بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ ﴿بِهِۦ﴾ أي: بعيسى عليه الصلاة والسلام، ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ الضمير يعود على عيسى، وقيل يعود على الرجل من أهل الكتاب، يعني: أنه ما من أحد من أهل الكتاب إلا إذا حضره الموت آمن بعيسى، أو المعنى: ما من أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى إلا آمن بعيسى، وكلا المعنيين صحيح، والثاني: أظهر، وهو أن الضمير يعود على عيسى عليه الصلاة والسلام؛ لأن عيسى سوف ينزل في آخر الزمان، وسوف يكسر الصليب ويقتل الخنزير، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، حتى الجزية لا يقبلها.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ ظرف، عامله: ﴿يَكُونُ﴾، والمعنى: أن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام يكون شهيداً عليهم يوم القيامة.

ومعنى الآية الكريمة: أنه لا يوجد أحد من أهل الكتاب إلا آمن بعيسى قبل أن يموت عيسى، وعلى هذا التقدير يكون المعنى: ما من أحد من أهل الكتاب أدرك عيسى إلا آمن به قبل أن يموت، وعلى القول الثاني: أن الضمير يعود على الواحد من

أهل الكتاب، يكون المعنى: أنه ما من إنسان من أهل الكتاب يحضره الموت إلا آمن بعيسى، حتى اليهود الذين كانوا ينكرون رسالته يؤمنون به.

وقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هم اليهود والنصارى، وسموا بذلك؛ لأن لهم كتباً حية وإن كانت محرفة، وهي التوراة عند اليهود، والإنجيل عند النصارى؛ ولهذا سموا أهل الكتاب، ولا يعلم كتاب بقي إلى بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام مما جاءت به الرسل إلا التوراة والإنجيل، وقيل: إن المجوس لهم كتاب أنزل، أو لهم شبهة؛ ولكن الصحيح خلاف ذلك، وأنه لا يوجد كتاب بقي إلى بعثة الرسول ﷺ إلا التوراة والإنجيل.

وقوله: ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ أي: إيمان قبول وإذعان، وليس مجرد التصديق؛ لأن مجرد التصديق لا يسمى إيماناً، ولهذا لا يحكم بإيمان أبي طالب مع أنه مصدق، بل لا بد من قبول ما آمن به الإنسان والإذعان له.

وقوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي: قبل موت عيسى، أو موت الإنسان، وذلك حين يرى الحق، فإذا رأى الكتابي الحق سواء كان ذلك بنزول الموت، أو كان ذلك بنزول عيسى عليه الصلاة والسلام فإنه يقبل، ولكن هذا الإيمان يكون كالإيمان الاضطراري؛ لأنهم لما كان باختيارهم لم يؤمنوا بعيسى بل كفروا به.

قوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ وذلك مذكور في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا

لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧] فيوم القيامة سيشهد عيسى ابن مريم عليها السلام على قومه أنه لم يقل لهم إلا ما أمره الله به ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن الكتابي قد يؤمن إيمان اضطرار إما عند موته، أو إذا نزل عيسى، ولكن النصوص تدل على أن الإيمان الاضطراري لا ينفع، وأن الإيمان لا ينفع إذا حضر الأجل، لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨] ولكن الإيمان الاضطراري في غير هذا الحال قد يرسخ في قلب المرء، فقد يؤمن أولاً خوفاً من السيف، ثم يرسخ الإيمان في قلبه ويثبت، ويكون إيماناً حقيقياً يثاب عليه وينجو به من النار.

٢ ـ إثبات الموت للبشر كلهم حتى الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤].

٣ ـ أن الموت ثابت للرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن دونهم من باب أولى، وقد ذكرنا أدلة على ذلك.

٤ ـ إثبات القيامة، لقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ وقد بينا فيما سبق لماذا سمي هذا اليوم بيوم القيامة؟

٥ ـ أن الرسل عليهم الصلاة والسلام يشهدون على أممهم؛

لقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، وهذا عام في كل الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]، وهل يكون العلماء الذين هم ورثة الأنبياء شهداء؟

الجواب: نعم، فإن العلماء يشهدون على الأمم ببلوغ الرسالة إليهم، ويشهدون للرسل بأنهم بلغوا، ولهذا كان العلماء ورثة الأنبياء.

٦ ـ أن الناس يوم القيامة يتكلمون، ويستشهدون، ويناجون؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ﴾ [المائدة: ١١٦].

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: ١٦٠ ـ ١٦١].

﴿فَبِظُلْمٍ﴾ الفاء عاطفة على ما سبق، والباء هنا للسببية، والظلمُ في الأصل النقص، ومنه قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۙ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٣] وأما في الشرع فهو التعدي، سواء كان بترك واجب أو بفعل محرم.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ يعني بهم: قوم موسى، حين قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي: رجعنا، ومع رجوعهم والتزامهم بالرجوع إلى الله ظلموا أنفسهم.

قوله: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ هذا الفعل هو العامل في قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ يعني: الجار والمجرور في قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿حَرَّمْنَا﴾، والتحريم في اللغة المنع، ومنه حريم البئر، وهو: ما حولها، فيمنع من إحيائه، ومنه سمي النساء حريماً، لاحتجابهن والمنع من التعدي عليهن.

وقوله: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، ﴿طَيِّبَٰتٍ﴾ أي: أطعمة طيبات، فهي صفة لموصوف محذوف، والطيب ضد الخبيث، والخبيث له إطلاقات متعددة، تارةً يراد به الشيء النجس، وتارةً يراد به الرديء، وتارة يراد به المحرم مطلقاً.

قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ أي: كانت في الأول حلالاً، وهي باقية على طيبها، لكن حرمت عليهم بسبب ظلمهم.

وقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ المُحِل هو الله عزّ وجل؛ لأنه هو الذي بيده الأمر.

قوله: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ ﴿وَبِصَدِّهِمْ﴾ الواو حرف عطف، وصدّ: مصدر يحتمل أن يكون من الفعل المتعدي، ويحتمل أن يكون من الفعل اللازم، وذلك لأن صدَّ تكون فعلاً لازماً، وتكون متعدية، فيقال: «صد الرجل عن كذا» بمعنى أعرض، «وصد غيره عن كذا» بمعنى صرفه عنه، وهنا يجوز فيها الأمران، فهم قد صدوا أنفسهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ وصدوا غيرهم أيضاً بما عندهم من الكتاب الذي يشبهون به، ويموهون به على الناس، ويقولون: إن محمداً ﷺ ليس هو المبعوث المنتظر أو ما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المراد بسبيل الله شرعه الذي

شرعه الله لعباده، وسمي سبيل الله؛ لأنه طريق موصل إلى الله عزّ وجل؛ ولأن الله تعالى هو الذي وضعه للعباد، ولم يشرعه أحد سواه، فأضيف إلى الله تعالى باعتبارين: الاعتبار الأول: أنه موصل إليه، كما تقول: هذا طريق المدينة، وهذا طريق مكة، والثاني: أن الله هو الذي وضعه للعباد وشرعه لهم، مع أنه يضاف أحياناً للسالكين؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] فهنا أضاف السبيل إلى المؤمنين باعتبار أنهم سالكوه، وعلى هذا فإذا أضيف السبيل إلى الله كان باعتبارين، وإذا أضيف إلى العباد صار باعتبار واحد.

وقوله: ﴿كَثِيرًا﴾ يختلف إعرابها باختلاف كلمة صدّ، فإن كانت لازمة فهي صفة لمصدر محذوف؛ أي: «صدوداً كثيراً» وإن كانت متعدية فهي مفعول لصدّ، وإن شئت قلت: صفة لمفعول صدّ المحذوف؛ أي: «خلقاً كثيراً»، وهم في الواقع جديرون بالوصفين فأنهم صدوا بأنفسهم، وصدوا غيرهم.

قوله: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ هذا الوصف الثالث ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ ولم يقل أكلهم؛ لأن الأخذ أعم، فقد يأخذ إنسان الربا ولا يأكله، فيستعمله في لباس أو في بناء أو ما أشبه ذلك، وقد يأخذه للأكل، فتارةً يعبر بالأكل؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وتارةً يعبر بالأخذ وهو أعم، لكن التعبير بالأكل أشد؛ لأن ممارسة الآكل للربا أشد من ممارسة غير الآكل، إذ أن الآخذ يستعمل الربا، وقد يفيده في أمور أخرى غير الأكل.

وقوله: ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ لغة: الزيادة، وفي الشرع: الزيادة في أشياء معينة، بيَّنها النبي ﷺ في ستة أشياء: الذهب، والفضة، والشعير، والتمر، والبر، والملح، ودليلها قوله ﷺ: «**الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر وبالبر، والملح بالملح، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر مثلاً بمثل سواء بسواء**»(١) أما إلحاق غير الستة بها فقد اختلف العلماء في ذلك:

أما أهل الظاهر فقالوا: لا يلحق بها غيرها؛ لأنهم يمنعون القياس، وأما القياسيون فاختلفوا، فمنهم من قال: لا يلحق بها غيرها، بل يقتصر على ما جاء به النص، كابن عقيل الحنبلي رحمه الله، حيث قال: يقتصر على ما جاء به النص، مع أنه من أهل القياس والمعاني، لكنه قال: إن العلماء اختلفوا في العلة واضطربوا، وليس هناك نص بيِّن يجب المصير إليه، فإذا اختلفوا فهو كاختلاف المأمومين على الإمام في الزيادة أو النقص في الصلاة، والمعروف أنه إذا اختلف المأمومون على الإمام في الزيادة أو النقص سقطت أقوالهم، ولم يؤخذ بقول الزيادة ولا بقول النقص، فيقول: لما اختلف العلماء رحمهم الله في علة الربا في هذه الأشياء الستة بطلت العلة، ورجعنا إلى القول بأنه يقتصر على ما جاء به النص.

والقول الثاني عند أصحاب القياس: أن العلة معقولة، ويمكن أن يلحق بهذه الأشياء الستة ما كان مثلها، ثم اختلفوا في المماثلة، هل هي الطعم، أو الكيل، أو الكيل والادخار؟ ولهذا

---

(١) اللفظ لمسلم، كتاب المساقاة، باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقداً، حديث رقم (١٥٨٧).

كانت أقوال العلماء في هذه المسألة مضطربة لا تكاد تأتي على شيء تطمئن إليه كثيراً.

وعلى كل حال نحن نقول: الربا حرمه الله ورسوله، سواء كان ذلك عن طريق الأثر أو عن طريق النظر والقياس.

قوله: ﴿وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾، ﴿وَقَد﴾ الواو هنا للحال، يعني: والحال أنهم ﴿قَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ وبلغوا، وقامت عليهم الحجة، لكنهم أخذوه، والناهي عنه هو الله ورسله.

الوصف الرابع: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ يعني أنهم استولوا على أموال الناس، فالمراد بالأكل هنا الاستيلاء سواء استولوا فأكلوه، أو لبسوه أو عمَّروا، أو فعلوا أي شيء.

وقوله: ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾، «الْبَاطِلِ» كل ما خالف الشرع فهو باطل، سواء أخذوه عن طريق الغش، أو عن طريق الكذب، أو عن طريق الجهل بالمبيعات، أو عن طريق كتم الحق، أو ادعاء ما ليس لهم، المهم أن المراد ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ كل ما أخذ بغير حق.

وقوله: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ يحتمل أن تكون معطوفة على ما سبق، ويكون العامل هو ﴿حَرَّمْنَا﴾ يعني: وحرمنا عليهم طيبات أحلت لهم بصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا... إلخ، ويحتمل أن العامل محذوف، والتقدير: وعذبناهم بصدهم عن سبيل الله كثيراً، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، ويدل عليه قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

يخبر الله في هذه الآية الكريمة: أن هؤلاء اليهود الذين ظلموا أنفسهم، حرم الله عليهم بعض الطيبات لا كل الطيبات،

بدليل قوله: ﴿طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ وهي نكرة لا تفيد العموم، بدليل الإطلاق، فما الذي حرم عليهم؟

الجواب: قال الله تعالى مبيناً ذلك في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] فحرم الله عليهم من أجناس الحيوان ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ والمراد بكل ذي ظفر: كل ما رجلاه، أو قدماه غير مشقوقة، يعني: الذي لم تشق رجله يسمى: ذا الظفر، مثل الإبل، والنعام، وما أشبه ذلك، يعني: الذي ليس له أصابع ولا شقت قدمه يسمى: ذا الظفر، وعلى هذا فالإبل محرمة على بني إسرائيل.

قوله: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ يعني: أنهم كانوا صادين عن سبيل الله وصادين لغيرهم أيضاً، فهم مستكبرون ومجرمون؛ مستكبرون عن طاعة الله بصدهم لأنفسهم، ومجرمون حيثُ اعتدوا على غيرهم، وصدوهم عن سبيل الله.

قوله: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ يعني: أخذهم إياه أكلاً واستعمالاً وانتفاعاً.

قوله: ﴿وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ وهذا أشد في الإثم والتحريم؛ لأنهم قد قامت عليهم الحجة.

وكذلك أيضاً وصفهم بأنهم يأكلون أموال الناس بالباطل، ومن ذلك الرشوة، فقد كانوا آكالين للسحت والرشوة في الحكم، يعني: أنهم يرشون الحكام ليحكموا لهم بما لم ينزل به الله شرعاً، ثم بين الله عزّ وجل أنه أعد للكافرين منهم عذابا أليما،

وهنا نجد الإظهار في موضع الإضمار، حيث لم يقل «وأعتدنا لهم» بل قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وقد سبق أن للإظهار في موضع الإضمار فوائد، وهي: الإشارة إلى علة الحكم، والإشارة إلى عموم الحكم لكل من اتصف بهذا الوصف، والتسجيل عليهم بما يقتضيه هذا الوصف؛ أي: أنهم بذلك صاروا كفاراً، لكن هنا لا يستقيم هذا المعنى؛ لأنه قال: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ﴾ فجعلهم قسمين: قسم كافر، وقسم غير كافر، أيضاً تنبيه للمخاطب؛ لأن الكلام إذا خرج عن الأسلوب فإنه لا بد أن ينتبه الإنسان، ومن ذلك الالتفات من الخطاب إلى الغيبة أو العكس، فهذا يقتضي انتباه المخاطب، وهو أسلوب من أساليب العربية.

وبيَّن الله عزّ وجل أن هذا العذاب الذي أعدهُ لهم أليم؛ أي: مؤلم، وفعيل تأتي بمعنى مُفعل، ومنه قول الشاعر:

أمن ريحانة الداعي السميعُ يؤرقني وأصحابي هجوع

معنى السميع هنا: المسمع.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ إثبات الأسباب، وأن الله تعالى قد يشرع الشيء لسبب، لقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، ومن ذلك أن الله شدد على بني إسرائيل الذين أمروا بذبح البقرة حين قال لهم نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] فلو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لأجزأهم، وحصل بذلك المقصود، لكنهم شددوا فشدد الله عليهم.

وإثبات الأسباب انقسم الناس فيه إلى طرفين ووسط: منهم من أنكر الأسباب مطلقاً، وقال: إثبات الأسباب يقتضي إثبات خالق مع الله، ومنهم من أثبت الأسباب على أنها فاعلة بطبيعتها، ومنهم من أثبت الأسباب على أنها فاعلة بما أودع الله فيها من القوى الموجبة للمسببات، وهذا القول هو القول الوسط الذي دل عليه المنقول والمعقول، فأي دعوى لخالق مع الله، إذا قال: إن الله خلق هذا الشيء ليكون سبباً للشيء الفلاني؟ وأي دعوى تصح لإنكار تأثير الأسباب في مسبباتها، وكل يعرف أن الأسباب مؤثرة في مسبباتها، ولهذا هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فأثبتوا أن الذي خلق الأسباب وأوجدها هو الله عزّ وجل.

ولذلك قد تتخلف المسببات بإذن الله، كما تخلف إحراق النار لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، مع أنها نار عظيمة محرقة، حتى قيل: إنهم لم يستطيعوا أن يقربوا منها، بل رموه إليها بالمنجنيق من بعد، ومع ذلك صارت عليه برداً وسلاماً، وهذا يدل على أن السبب ليس يؤثر بنفسه، بل بإرادة الله عزّ وجل، وأيضاً من حكمة الله عزّ وجل أن جعل لكل شيء سبباً.

٢ ـ أن الظلم سبب لحرمان الخير، وهذا لقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، والظلم سبب لحرمان الخير الشرعي والقدري، فقد ثبت أن الرسول عليه الصلاة والسلام خرج ذات يوم ليخبر أصحابه بأن الليلة ليلة القدر، فتلاحى رجلان من الأنصار أو من غيرهم فرفعت[1]، ونسيها عليه

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر (٤٩) عن عبادة بن الصامت.

الصلاة والسلام، وهذا حرمان لأمر شرعي، وهو «**أن من قامها إيماناً واحتساباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه**»[(١)] لكن حرم الناس هذا الخير بسبب الظلم، وهو التلاحي، والتخاصم، والتنازع، ولهذا يغفر في ليلة القدر لغير المتشاحنين؛ أي: الذين بينهم شحناء، كما تعرض الأعمال يوم الإثنين والخميس فيغفر لكل أحد إلا من بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا[(٢)].

٣ ـ أن الله تعالى قد يحرم بالظلم تحريماً قدرياً؛ لأن الذي حصل لبني إسرائيل تحريم شرعي، قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ وقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] فهذا تحريم شرعي، لكن قد يحرم الإنسان تحريماً قدرياً مع حل الشيء شرعاً، فيصاب مثلاً بمرض، فيقول له الأطباء: اترك الأكلة الفلانية، بسبب ظلمه، وقد يتهور إنسان مثلاً ويسرف في الإنفاق ـ والإسراف في الإنفاق أكلاً وشرباً ولبساً حرام ـ، والدليل: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فقد يسرف الإنسان، فيحرم من هذا الخير الذي أسرف فيه قدراً لا شرعاً، بأن يصاب بمرض لا يتلاءم معه أن يأكل كل شيء، أو أن يلبس كل شيء، وهذا نسميه: تحريماً قدرياً.

٤ ـ أن الأمر إلى الله تعالى تحليلاً وتحريماً، لقوله:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونيه (١٩٠١)؛ رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦٠) عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي من الشحناء والتهاجر (٢٥٦٥) عن أبي هريرة.

﴿حَرَّمْنَا﴾، وقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ وهو كذلك، فالتحليل والتحريم ليس إلينا ولا لأحد من الناس، بل هو إلى الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦].

٥ ـ أن الطيبات نفسها قد تكون ممنوعة شرعاً حتى بعد كمال الدين، يقول شيخ الإسلام: إن الطعام حرام على الإنسان إذا كان يتأذى به لو أكل، أو خاف التخمة، فإنه يكون حراماً عليه، مثلاً: لو أن إنساناً أكل طعاماً، وكان الطعام شهياً ولذيذاً، فجعل يأكل ويأكل ويأكل حتى وصل إلى الحلقوم، فهذا لا شك أنه سيتأذى، وربما يحصل عليه ضرر إما في الحاضر أو المستقبل، فيقول شيخ الإسلام: إنه يحرم عليه أن يأكل، وكذلك إذا خاف التخمة، وذلك بتغير المعدة ونتنها، وإن لم يكن من أجل الأذية، فأحياناً بعض الأطعمة لا يتلاءم مع أطعمة أخرى، فتجد الإنسان يأكل هذا على هذا، فتتغير معدته، ويحصل لها نتن ورائحة كريهة، هذا أيضاً نقول: إنه حرام عليه أن يأكل؛ لأن الله أنما أباح الأكل والشرب من أجل تقويم البدن، فإذا عاد ذلك إلى ضرر صار حراماً.

٦ ـ التحذير من الصد عن سبيل الله، سواء كان صداً بنفسه أو صداً لغيره، لقوله: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾.

٧ ـ أن الصد لا يتقيد بصيغةً معينة، بل كل ما فيه صد عن سبيل الله سواء بالتخذيل، أو بالإرجاف، أو بالإيعاد، أو بالوعد، أو بغير ذلك فإنه داخل في التحذير من ذلك، ومن أمثلة الصد عن سبيل الله بالتخذيل: أن يأتي المرء إلى إنسان ويقول له: يا فلان! لا تكلف نفسك بالدعوة والموعظة ونصح الناس، إنك تدعو موتى، ولقد أسمعت لو ناديت حياً، مع أن الأول المنصوح

عنده همة ونشاط وعزيمة، فيأتي هذا ويخذله، فيكون هذا قد صد عن سبيل الله، لكن إذا علم أن هذا الشخص ربما يتكلم بما لا يعلم، فتخذيله عن الكلام ليس من الصد عن سبيل الله، بل من حماية سبيل الله؛ لأنه ربما يأتي إنسان عنده إقدام، وعنده شجاعة، ويحب أن يدعو، لكن لا علم عنده، فهذا لا حرج عليك إذا قلت له: إنه لا ينبغي له أن يكلف نفسه أو يتعبها، سواء أضفت هذا إلى أن الناس لن يقبلوا منه، أو أضفت هذا إلى أنه ليس عنده علم فيقع في حرج، فهذا لا بأس به، بل هذا من حماية سبيل الله، وليس من الصد عن سبيل الله.

٨ ـ ذكر الوصف الذي يكون أشد في الذم وإن كان لا مفهوم له، لقوله: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾، فهذا غاية الذم، لكن لو أنهم صدوا قليلاً لكان لهم نصيب من الإثم، إنما الغاية هي الكثرة.

٩ ـ أن المتعاطين للربا من هذه الأمة مشبهون لليهود، لقوله: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾.

١٠ ـ أن أخذ الربا محرم، سواء كان للأكل، أو للشرب، أو للبس، أو للاقتناء، أو لأي غرض كان، لعموم قوله: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾.

١١ ـ أن الحجة لا تقوم إلا بعد بلوغها، وأن من فعل شيئاً لا يدري عن حكمه فهو غير مؤاخذ به، لقوله: ﴿وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾، وعلى هذا فلو تعامل الإنسان بمعامله ربوية وهو لا يدري أنها من الربا، يعني أنه يعرف الربا؛ لكن لا يدري أن هذه المعاملة المعينة من الربا، ثم علم بعد ذلك، فلا نقول: إن ما أخذه من

الربا حرام، بل نقول: ليس حراماً، لقوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وهو لم يعلم أنه منهي عنه، لكن إذا كان يعلم أنه منهي عنه وأخذه ثم تاب، فهل نقول رده على من أخذته منه؟

الجواب: لا؛ لأننا إذا قلنا رده على من أخذته منه، لكان له ـ أي: للمردود عليه ـ الغُنم مرتين، لكن نقول: تصدق به، ولا تدخله في ملكك، وأيضاً لا ترده إلى المرابي الذي كان عالماً بأن الربا حرام، وسولت له نفسه فأعطاك الربا.

وإذا كان المرابي قد أُخذ منه الربا، وتاب، فلا يلزمه أن يتصدق بمقدار ما أعطى من الربا؛ لأنه مظلوم في الواقع، فإذا تاب إلى الله عزّ وجل فإننا لا نقول: يلزمك أن تتصدق بمقدار ما دفعت من الربا، فالكلام فيمن أخذ الربا.

١٢ ـ تحريم أكل أموال الناس بالباطل؛ لقوله: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، وقد ذكرنا أن الباطل هو ما ليس بحق، وبناء على ذلك: لو أن الإنسان أكل مال الحربي فلا يكون ممن أكل أموال الناس بالباطل؛ لأن الحربي مباح الدم والمال، ولو تلصص جماعة ليس لهم شوكة على بلاد الكفار الحربية وأخذوا أموالاً فهي لهم، ولا شيء عليهم في ذلك؛ لأن أموال الكافر الحربي مباحة للمسلمين.

وإن أخذ مال ذمي أو معاهد أو مستأمن بغير حق فقد أكل أموال الناس بالباطل؛ لأن هؤلاء الثلاثة معصومون؛ فأموالهم محترمة، وأنفسهم محترمه.

١٣ ـ الوعيد الشديد لمن اتصف بهذه الصفات: الظلم،

وأخذ الربا، وأكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله، لقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

١٤ ـ إثبات عدل الله عزّ وجل، حيثُ ذكر هذه الصفات، وذكر أن الذي أُعد له العذاب الأليم هو الكافر من هؤلاء.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء: ١٦٢].

قال الله عزّ وجل استدراكاً على ما مضى من وصف هؤلاء الذين هادوا: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ فقوله: ﴿لَّٰكِنِ﴾ هنا حرف استدراك على ما مضى من أوصافهم، وقوله: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ اسم فاعل من رسخ إذا ثبت، ومنه رسوخ الشجرة، ورسوخ أساس البنيان، وما أشبه ذلك؛ لأنه يثبت ولا يتزعزع، وقوله: ﴿فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾، ﴿ٱلْعِلْمِ﴾ المراد به هنا العلم الشرعي، فـ«أل» للعهد الذهني؛ لأن الرسوخ في غير العلم الشرعي لا يمدح صاحبه فيه ولا يذم، بل هو على حسب ما يؤدي إليه ذلك الرسوخ.

وقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ أي الذين هادوا، ونمثل لهذا بعبد الله بن سلام رضي الله عنه، فإنه كان حبراً من أحبار اليهود، وآمن بمحمد ﷺ.

قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على قوله: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾، لكن هل

المراد بذلك ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ الذين أثمر علمهم الإيمان، فتكون من باب عطف الصفة على الصفة، وعطف الصفة على الصفة جائز في اللغة العربية، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ [الأعلى: ١ ـ ٤] أو أن المؤمنين هنا غير الراسخين في العلم، والمراد بهم المؤمنون من المهاجرين والأنصار؛ أي: من هذه الأمة، فيكون العطف من باب عطف المتباينين المتغايرين؟ ذكروا في هذا قولين: ولا يبعد أن يكون القولان كلاهما صحيحاً.

وقوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ هو القرآن، والمنزل له هو الله عزّ وجل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، والمنزل إليه هو محمد ﷺ، والنازل هو القرآن، إذاً «مَا» اسم موصول يعود على القرآن.

وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: من الكتب السابقة، فيؤمنون بأن الله أنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والزبور على داود، والصحف على إبراهيم، وكذلك على موسى عليهم الصلاة والسلام.

قوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: الذين يأتون بها على وجه الاستقامة والتمام، بأن يأتوا بها تامة الشروط والأركان والواجبات، ويكملونها بالمستحبات، والمراد بالصلاة هنا عموم الصلوات فيشمل الفرائض والنوافل.

وفي الآية إشكال من حيث الإعراب، حيث جاء قوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ بالياء بين مرفوعات؛ مرفوع سابق، ومرفوع لاحق، فأشكل على بعض الناس كيف جاءت هذه الكلمة بين المرفوعات على أنها بالياء؟ فقيل: إن قوله: ﴿ٱلْمُقِيمِينَ﴾ معطوف على قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: والمؤمنون بـ﴿ٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ والمراد بهم الملائكة؛ لأن النبي ﷺ، أخبر أنه ما في السماء موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك قائم لله أو راكع أو ساجد، فكأنه قال: والمؤمنون بالملائكة، وقيل: إن المقيمين هنا وصف عام، يشمل كل من أقام الصلاة من الملائكة وغيرهم، وأنه نص على ﴿ٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لأهميتها؛ ولأنها آكد أفعال البدن من العبادات، فعلى هذا تكون منصوبة لا مجرورة، ونصبت على المدح؛ أي: أمدح ﴿ٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعاملها محذوف والتقدير وأمدح المقيمين الصلاة، وإنما جاء القطع حيث نصبت بفعل محذوف، لفائدتين:

الفائدة الأولى: معنوية، وهي بيان العناية بإقامة الصلاة.

الفائدة الثانية: الانتباه، وذلك لأن الكلام إذا كان على نسق واحد فإن الإنسان ينسجم معه، ولا يكون هناك شيء يوجب وقوفه، لكن إذا اختلف توقف، وتساءل: لماذا جاءت هذه الكلمة على هذا الوجه، مخالفة لغيرها من الكلمات؟

وهذا بلا شك خير ممن قال: إن هذا غلط من الكتاب، كما قال بعضهم ـ والعياذ بالله ـ حيث قال إن الذين كتبوا المصحف أخطأوا فقالوا: والمقيمين، وأنها على قراءة ابن مسعود «والمقيمون» وهي الصواب، لكن هذا لا يستقيم إطلاقاً، إذ كيف

يمكن للأمة الإسلامية أن يبقى الغلط في القرآن الكريم ولا يغير، وكيف يلتئم هذا مع قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

والحقيقة أن الغالط هو القائل بهذا، وأنه أبعد النجعة وأخطأ خطأ عظيماً، بل الفائدة كما ذكرنا سابقاً.

إذاً: يبقى النظر هل نقول إن «المقيمين» بالجر، والمعنى ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وهم الملائكة، أو أنها منصوبة على تقدير فعل محذوف؟

الجواب: الثاني أولى، وإن كان الأول فيه احتمال، لكن الثاني هو الراجح، والحكمة من ذلك أي: من القطع لفظية ومعنوية كما ذكرنا.

قوله: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قيل: إنها مستأنفة، وأن الخبر قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وقيل: إنها معطوفة على ما سبق من قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، لكن الأقرب أنها مستأنفه لوجود الفاصل بينها وبين المعطوف عليه، وهو قوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ﴾ أي: المعطون و﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: النصيب المقدر في الأموال الزكوية، وعلى هذا فالمراد بذلك زكاة المال، وقيل: المراد بذلك زكاة البدن، لقول الله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧] والمراد بذلك زكاة البدن، لكن الأول أقرب إلى الصواب؛ لأن الله تعالى يقرن دائماً بين إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يعني: المعطونها لمستحقيها،

والزكاة: مال فرضه الله تعالى في أموال معينة، تؤخذ من الأغنياء، وترد على الفقراء.

وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ الإيمان بالله ليس هو التصديق فقط؛ لأن مجرد التصديق لا يسمى إيماناً، ولهذا لم يكن أبو طالب مؤمناً مع كونه مصدقاً للرسول عليه الصلاة والسلام، بل الإيمان هو: الإقرار التام المستلزم للقبول والإذعان، فلا بد من إقرار القلب الإقرار التام، ولا بد من قبول ما جاءت به الشريعة، ولا بد من الإذعان حتى يتم الإيمان، والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده، وبربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، وتفرده في ذلك، وهذا قد مضى كثيراً مشروحاً مبيناً، وقوله: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ هو يوم القيامة، ووصف بالآخر لأنه لا يوم بعده فإنه آخر مراحل الإنسان؛ لأن الإنسان له أربع مراحل بعد أن يكون إنساناً:

المرحلة الأولى: في بطن أمه، والثانية: في الدنيا، والثالثة: في البرزخ، والرابعة: في يوم القيامة.

ولهذا يسمى اليوم الآخر، وليس الآخر هو البرزخ الذي بين الحياة والموت، كما يفهم من تعبير بعض الناس، حين يصف الميت بأنه انتقل إلى مثواه الأخير، فإن هذا ليس بصحيح، بل مثواه الأخير هو يوم القيامة إما الجنة وإما النار.

والإيمان باليوم الآخر لا يتضمن أن تؤمن أن الناس سوف يبعثون فقط، بل له متعلقات كثيرة، حددها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: يدخل في الإيمان باليوم الآخر كل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت؛ كفتنه القبر، وعذاب القبر،

ونعيم القبر، وما أشبه ذلك، فإنه يدخل في الإيمان باليوم الآخر؛ لأن الموت آخر ما للإنسان في الدنيا، فإن من مات قامت قيامته، والإيمان باليوم الآخر يتضمن استقامة الإنسان على دين الله؛ لأنه يخاف اليوم الآخر، ويرجو اليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الممتحنة: ٦] فهو يخاف اليوم الآخر فيتجنب المعصية، ويرجو اليوم الآخر فيقوم بالطاعة، ولهذا يقرن الله تبارك وتعالى دائماً بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر هو الذي يحمل على الاستقامة أو على تمام الاستقامة.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيها قراءتان «سيؤتيهم» و﴿سَنُؤْتِيهِمْ﴾، وقراءة «سيؤتيهم» جارية على نسق الكلام؛ لأن نسق الكلام كله للغائب في قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: «سيؤتيهم» الله ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فالقراءة بالياء ـ وهي سبعية صحيحة ـ هي على نسق السياق، وأما القراءة بالنون ففيها انتقال من الغيبة إلى المتكلم، والانتقال ـ ويسمى الالتفات ـ له فائدة، وهي تنبيه المخاطب بما سيأتي بعد؛ لأنه إذا تغير نسق الكلام فلا بد أن يتوقف الإنسان متسائلاً: ما هو السبب الذي تغير به الكلام؟ وحينئذ ينتبه إلى المعنى أكثر.

أما الفوائد الأخرى التي تتفرع على الالتفات، فكل مقام يذكر له ما يناسبه، فقوله هنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾ يكون تكفلاً صريحاً من الله عزّ وجل بأنه سيؤتيهم أجراً عظيماً، وإضافة الشيء إلى النفس أبلغ من إضافته إلى الغائب.

وقوله: ﴿سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً عظيماً؛ أي: ذا عظمة، واعلم أن العظيم إذا عظم الشيء فإنه يكون فوق ما يتصور، ولهذا قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»(١).

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تمام عدل الله عزّ وجل، وأنه إذا حكم بحكم عام يختص أفراده بخلاف ذلك الحكم فلا بد أن يذكره، ونأخذ هذا من كلمة: ﴿لَّٰكِنِ﴾ الاستدراكية، بعد أن حكم عليهم بما حكم؛ من أخذهم الربا وأكلهم أموال الناس بالباطل، قال: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ فتمام العدل أن يذكر الخير والشر، سواء كان ذلك الخير والشر بالنسبة للطائفة، أو كان ذلك الخير والشر بالنسبة للواحد، فمن أراد تقويم شخص فالواجب عليه أن يذكر محاسنه ومساوئه، أما من أراد أن يبطل ما يكون من باطل فهنا لا يلزم أن يذكر المحاسن؛ لأن ذكر المحاسن في مقام الرد عليه يرفع الرد عليه، والتنفير منه، ويوجب العطف عليه، فهنا يفرق بين شخص يريد أن يقوِّم شخصاً فلا بد أن يذكر المعايب والمحاسن، وبين إنسان يريد أن يرد على شخص باطله فيذكر الباطل ولا يذكر المحاسن؛ لأنه لو ذكر المحاسن لضعف جانب الرد عليه.

٢ ـ فضيلة الرسوخ في العلم، وانتبه لكلمة «الرسوخ»،

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، حديث رقم (٣٠٧٢)؛ ومسلم أول، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم (٢٨٢٤) عن أبي هريرة.

ومعناها الثبوت والاستقرار، وذلك لأن العلم علمان: علم راكد، بمعنى أنه على السطح، وأي ريح تزعزعه، وهذا ما يكون عند كثير من الطلبة، فتجد كثيراً من الطلبة يجمع العلوم دفعه واحدة، فيكون كالطبيب العام، ليس له اختصاص في شيء، وبعض الطلبة يركز ويحرص، فهذا هو الذي يدرك العلم، ويكون عنده قدرة وملكة، حتى إن بعض العلماء زعم أن من نبغ في فن من الفنون كان مدركاً لجميع الفنون.

ولا يخفى ما ذكر عن محاجة أبي يوسف مع الكسائي، حين تناظرا عند الرشيد، وكان الكسائي يزعم أن كل من أتقن علماً إتقاناً تاماً أمكنه أن يدرك جميع العلوم، فقال له أبو يوسف: ما تقول فيمن سها في سجود السهو؟ قال أقول: لا سجود عليه، قال: من أين أخذت هذا من علمك ـ والكسائي معروف بعلم النحو ـ قال: أخذته من علمي أن القاعدة عندي أن المصغر لا يصغر، فسجود السهو على زعمه مصغر فلا يصغر.

على كل حال هذه قصة الله أعلم هل هي مصنوعة أو حقيقة، وهي بلا شك غير صحيحة، لكن قصدي من إيرادها أن أقول: إن الرسوخ في العلم هو العلم، ومن ثم كنت أقول دائماً لطلاب العلم احرصوا على قواعد العلم وضوابط العلم، وذلك لأن الجزئيات لا حصر لها، فكل يوم يخرج للناس معاملة جديدة، أو حدث جديد في العبادات، ولا يمكن للإنسان أن يحكم عليه الحكم الصحيح إلا إذا كان عنده قواعد وأصول يلحق بها هذه الجزئيات، أما من يأخذ العلم مسألة مسألة فهو كالذي يلقط الجراد من الصحراء؛ لأنه سيتعب دون أن يملأ الكيس،

لكن الذي يحرص على القواعد هو الذي يدرك العلم بإذن الله.

٣ ـ أن العلم سبب للإيمان، لقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ولا شك أنه كلما ازداد الإنسان علماً ازداد إيماناً وبصيرة بتوفيق الله عزّ وجل، فعليك بالعلم واحذر الشبهات والجدال. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما أوتي قوم الجدل إلا ضلوا»[1] ولهذا نجد أن أهدى الناس طريقاً، وأقلهم تكلفاً هم الصحابة رضي الله عنهم؛ لأن الجدال عندهم قليل، ولا يلجأون إليه إلا عند الضرورة، أما كون الإنسان كلما فهم مسألة ذهب يورد فيها على قلبه أو على غيره ما لا يكون وارداً، فهذا من التكلف والتنطع، وهو سبب للحرمان.

٤ ـ أن من أهل الكتاب من هو راسخ في العلم، مؤمن بالله، لقوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ أي: من أهل الكتاب.

٥ ـ أنه لا يمكن أن يتم الإيمان إلا بالإيمان بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، لقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ فكل إنسان يدعي أنه مؤمن دون أن يؤمن بما أنزل على محمد ﷺ فإنه كافر وكاذب في دعواه؛ لأن دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ ناسخ لجميع الأديان.

٦ ـ إثبات رسالة الرسول ﷺ، وتؤخذ من الكاف في قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

٧ ـ أن القرآن كلام الله، والكلام صفة للمتكلم، فيقتضي ذلك أن الله هو الذي تكلم به وهو كذلك.

٨ ـ أنه لا بد من الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل

---

(١) انظر: قسم التفسير وأصوله، تفسير سورة الكهف (٦/ ٧٧).

من قبله، لقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۖ﴾ ولهذا جاء في الآية من سورة البقرة: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [٢٨٥].

٩ ـ الإشارة إلى أنه لا نبي بعد محمد ﷺ، لقوله: ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾ ولم يقل من بعدك، وهذا هو الواقع، لكن الآية فيها الإشارة وليس فيها التصريح.

١٠ ـ فضيلة إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لأن الله تعالى نص عليهما من بين سائر الأعمال، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة قرينتان في كتاب الله، ولولا حديث أبي هريرة رضي الله عنه في مانع الزكاة وأنه يرى سبيله أما إلى الجنة وإما إلى النار، لقلنا: إن تارك الزكاة كافر، كما قلنا ذلك في تارك الصلاة، لكن ليس لنا أن نكفر من دلت النصوص على عدم كفره، كما أنه ليس لنا أن نتهيب في تكفير من دلت النصوص على كفره؛ لأننا متعبدون بقول الله ورسوله.

١١ ـ فضيلة الإيمان بالله واليوم الآخر، لقوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ ونص على الإيمان بهذا مع أنه داخل في قوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۖ﴾ لأهميته؛ لأن مدار الإيمان كله على الإيمان بالله؛ لأنا نؤمن بأن الرسل رسل الله، وأن الكتب كتب الله، وأن الملائكة عباد الله، وهلم جراً، فالركيزة الأولى هي الإيمان بالله عزّ وجل، وما بعده يعتبر فروعاً أو جهات متعددة من الإيمان بالله.

١٢ ـ إثبات اليوم الآخر وقد سبق الكلام عليه.

١٣ ـ وعد الله سبحانه وتعالىٰ من اتصف بهذه الصفات، أنه

سيؤتيه أجراً عظيماً لا يتصور عظمته، لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٣١٤ ـ علو مرتبة هؤلاء المتصفين بهذه الصفات، يؤخذ ذلك من الإشارة إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ولم يقل: هؤلاء، ولم يقل: فإننا سنؤتيهم، بل قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ والإشارة إلى المشار إليه بالبعد تدل على علو مرتبته، كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ١، ٢] مع أنه بين أيدينا، لكن لعلو مرتبته أشير إليه بإشارة البعيد.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين في العلم، المؤمنين بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبلنا.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝١٦٣﴾ [النساء: ١٦٣].

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ ﴿إِنَّآ﴾ الضمير يعود إلى الله عزّ وجل، وجاء بصيغة الجمع للتعظيم.

وقوله: ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ الوحي هو: الإعلام بسرعة وخفاء، والمراد به هنا: إعلام الله تعالى أنبياءه ورسله بشرعه الذي يتعبد به عباده، فهذا هو الوحي، وقد ذكر الله عزّ وجل في سورة «الشورى» أنه ثلاثة أقسام، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا

وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

وقوله: ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ «ما» هنا يحتمل أن يكون موصولة، وإذا كان كذلك فلا بد من عائد محذوف، والتقدير: كالذي أوحيناه إلى نوح، ويحتمل ـ وهو الأقرب ـ أن تكون مصدرية؛ أي: كإيحائنا، وهذا أولى؛ لأنه لا يحتاج إلى تقدير.

ونوح هو أول الرسل عليهم الصلاة والسلام، كما جاء ذلك مصرحاً به في حديث الشفاعة.

ولهذا قالوا: ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ والمراد بـ«النَّبِيِّينَ» هنا النبيون الذين أرسلوا إلى أقوامهم، وقد جعل الله النبوة والكتاب في ذرية إبراهيم ونوح، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦] وبهذا نعرف أنه لا رسول قبل نوح عليه الصلاة والسلام، وأن ما ذكر المؤرخون من أن إدريس قبل نوح عليهما السلام فهو قول خطأ، والصواب: أن إدريس عليه السلام من أنبياء بني إسرائيل فيما يظهر.

قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ قوله: ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ هنا فيها قراءتان: «إبراهام» و«إبراهيم»، وكلاهما قراءتان صحيحتان سبعيتان، يجوز أن يقرأ بهما الإنسان، ولكن لا يجوز أن يقرأ الإنسان بين العامة بقراءة خارجة عما في أيديهم من المصاحف؛ لأن ذلك يكون سبباً للفتنة.

وقوله: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ «إِسْمَاعِيلَ» هو ابن إبراهيم الأكبر، ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾ وهو ابنه الثاني، ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ هو ابن إسحاق، وإنما

نص عليه مع أنه ابن الابن؛ لأن أنبياء بني إسرائيل كانوا من ذرية يعقوب.

إذاً ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ أخوان، ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ عم يعقوب عليهم السلام.

وقوله: ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ قيل: إن ﴿ٱلْأَسْبَاطِ﴾ المراد بهم قبائل بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] وقيل: إن المراد بالأَسْبَاطِ هم أولاد يعقوب، فعلى الأول يكون من باب ذكر العام وإرادة الخاص؛ لأن الأسباط كلهم ليسوا أنبياء، وإنما الأنبياء فيه، وعلى الثاني لا إشكال.

﴿وَعِيسَىٰ﴾ وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، وليس بينه وبين محمد ﷺ رسول ولا نبي أيضاً.

وقوله: ﴿وَأَيُّوبَ﴾وهو من بني إسرائيل.

قوله: ﴿وَيُونُسَ﴾ كذلك.

قوله: ﴿وَهَٰرُونَ﴾ كذلك أيضاً من بني إسرائيل.

قوله: ﴿وَسُلَيْمَٰنَ﴾ من بني إسرائيل.

قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ ﴿دَاوُۥدَ﴾ هو أبو سليمان، والزبور هو: الكتاب الذي أعطاه الله تعالى داود؛ ونص عليه لأن فيه مواعظ مرققة للقلوب؛ ولأن داود عليه الصلاة والسلام كان يترنم به، فتسمعه الطير وتسبح معه وكذلك الجبال.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤].

الرسل الذين لم يذكرهم في هذه الآية مثل: يونس، وشعيب، ولوط، وصالح، ويوسف عليهم الصلاة والسلام.

قوله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل ذكر هذه الآية.

وقوله: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ لأن الله تعالى لم يقص على الرسول عليه الصلاة والسلام إلا من كانوا حول جزيرة العرب، أما من كانوا بعيدين؛ كالذين في أمريكا، وأقصى آسيا، وما أشبه ذلك فلم يذكروا؛ لأن المقصود من ذكر الأنبياء هو الاعتبار، وإذا لم يكن هناك قرب في الأحاديث وفي المكان فإن الاعتبار يكون في ذلك قليل.

قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ ﴿كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ قوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل و«مُوسَى» مفعول به، وقوله: ﴿تَكْلِيمًا﴾ مصدر مؤكد لمعنى الفعل الذي قبله، كلم تكليماً، وإنما أخّر ذكر موسى لما ذكر من خصائصه، وهو الكلام، فإنه كلمه تكليماً، كما أخر ذكر داود بعد سليمان مع أنه أبوه من أجل النص على الزبور الذي آتاه الله تعالى داود، والترتيب بين الأنبياء في الذكر يكون لأسباب بلاغية لفظيه أو معنوية، حسب ما يتبين من السياق.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ أن أول الرسل نوح، لقوله: ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، وهذا هو الحق وليس قبله رسول، أما النبوة فكانت قبل نوح، فإن آدم عليه الصلاة والسلام كان نبياً؛ لأنه كان يتعبد الله عزّ وجل، ولا يمكن أن يتعبد الله إلا بوحي من الله، وبثبوت الوحي له يكون نبياً، ولكنه لم يُرسل إلى أولاده؛ لأنه في ذلك الوقت لا حاجة

للرسل؛ إذ أن الناس كانوا على ملة واحدة، كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ٢١٣] أي: كان الناس أمة واحدة على الحق، وعلى الدين القويم، فاختلفوا: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] لكن في عهد آدم لا اختلاف، ولهذا كان نبياً ولم يكن رسولاً.

٢ ـ أن الوحي إلى جميع الأنبياء، والرسل كان من جنس واحد، لقوله: ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ﴾ ولكن الموحى به: يتفق في أشياء، ويختلف في أشياء، فالتوحيد اتفق عليه الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] وهذا متفق عليه، أما الشرائع والمنهاج فإن الأمم تختلف؛ لأن الله تعالى يشرع لكل أمة ما يناسب حالها، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ﴾ [المائدة: ٤٨] فالشرائع والمنهاج يختلف، أما الأصل فهو متفق عليه، فكل الرسل اتفقوا على التوحيد.

إذاً: ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ هذا في أصل الوحي وما اتفقت فيه الشرائع، وهو التوحيد، أما المنهاج والشرائع فهي لكل أمة بحسبها.

٣ ـ بطلان قول بعض المؤرخين: إن إدريس كان قبل نوح، فهذا القول باطل يبطله القرآن الكريم.

٤ ـ الإيحاء لهؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام: إبراهيم وإسماعيل، وإسحاق... إلى آخره.

٥ ـ أن الله تعالى قص أنباء بعض الرسل ولم يقص أنباء آخرين، والحكمة من ذلك هي ـ كما أشرنا إليه في التفسير ـ: أن الأنبياء البعيدين عن منطقة رسالة محمد ﷺ لم يقص الله علينا من نبأهم.

ولكن لو قال قائل: هل لكل أمة رسول؟

الجواب: نعم، ولا شك في هذا، لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] ولقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

٧ ـ أن الله تعالى كلم موسى كلاماً حقيقياً، لقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ والذين أنكروا أن يكون الله كلمه سلكوا مسلكين: منهم من حرف الآية لفظاً ليتغير المعنى، ومنهم من حرفها معنى وأبقى اللفظ على ما هو عليه، فمنهم من قال: إن صواب القراءة: ﴿وَكَلَّمَ﴾ اللهَ ﴿مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ فجعل المكلِّم موسى، وهذا تحريف لفظي يتغير به المعنى، وهذا لا شك أنه جناية على الله عزّ وجل وعلى كلامه، وهو أيضاً باطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣] إذ لا يمكن لأحد أن يقول هنا: إن المكلم موسى؛؛ لأن الهاء في قوله: ﴿كَلَّمَهُۥ﴾ ضمير مفعول، ولا يمكن أن تكون ضمير الفاعل.

ومنهم من قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ من «الكَلْم» وهو الجرح، كما في قول النبي ﷺ: «**ما من مكلوم يكلم في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله**»[1] فقوله: «**يكلم**»

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من يجرح في سبيل الله عزّ وجل! حديث رقم (٢٦٤٩)؛ ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج =

بمعنى: يُجرح، فقالوا: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ أي: جرحه بمخالب الحكمة، وهذا تحريف، والعياذ بالله، يعني: أنهم جعلوا هذا من باب الاستعارة، وهذا أيضاً باطل، بل الصواب: أن الله تعالى كلم موسى تكليماً واضحاً بحرف وصوت سمعه موسى، وأن كلامه إياه كان على وجهين:

الوجه الأول: المناجاة.

الوجه الثاني: المناداة، قال الله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢﴾ [مريم: ٥٢] والنداء يكون للبعيد، والمناجاة تكون للقريب، ومن المعلوم أن البعيد يحتاج إلى صوت أعلى، والقريب يكفيه الصوت الخفي.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ۝١٦٥﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، ﴿رُّسُلٗا﴾ جمع رسول، بمعنى: المرسَل، والظاهر: أنها حال من قوله: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣] أي: حال كونهم رسلاً، وكانت حالاً لأنها بمعنى المشتق؛ إذ أن ﴿رُّسُلٗا﴾ بمعنى: مرسلين.

وقوله: ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ البشارة: الإخبار بما يسر، والإنذار: التخويف بما يخاف منه؛ وذلك أن الشرائع التي جاءت بها الرسل أوامر ونواهي، فالذي يناسب الأوامر البشارة، بأن

= في سبيل الله، حديث رقم (١٨٧٦) عن أبي هريرة.

يبشر عامل هذا العمل بالثواب، والذي يناسب النواهي هو الإنذار؛ فينذر الإنسان من الوقوع فيها، ولهذا كانت أنواع التكليف اثنين: أمر ونهي، فالذي يليق بالأمر البشارة، والذي يليق بالنهي الإنذار، وهذا ما جاءت به الرسل، البشارة والإنذار، حتى محمد عليه الصلاة والسلام جاء بذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ اللام هنا في قوله: ﴿لِئَلَّا﴾ للتعليل؛ أي: لأجل ألا يكون ﴿لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ والحجة: ما يحتج به الغير على آخر، لدفع الملامة، ورفع العقوبة عنه، هذه هي الحجة، يعني: الدليل أو البينة أو ما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ أي: بعد إرسال الرسل؛ لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام يبينون للناس بياناً تاماً لا يحتاج معه إلى إيضاح، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [إبراهيم: ٤] فلا بد من البيان على كل رسول، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فلعزته أرسل الرسل، وجعل النصر لهم في الدنيا والآخرة، ولحكمته شرع الشرائع وأحكمها وأتقنها.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان حال الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأنه لا تخلو رسالتهم من بشارة ونذارة، حسب الأوامر والنواهي.

٢ ـ أنه ينبغي للإنسان الداعي إلى الله أن يعامل الناس بما تعامل به الرسل أقوامها، فتارة يبشر، وتارة ينذر؛ لأنه إن سلك سبيل البشارة دائماً أدخل الناس في الإرجاء، وإن سلك سبيل الإنذار دائماً أدخل الناس في القنوط واليأس، فلذلك يجب أن يكون الإنسان حكيماً يراعي أحوال الناس، فمثلاً: إذا رأى الناس قد انهمكوا في أمر محرم فالأولى هنا أن لا يسلك سبيل البشارة فيوقع الناس في الأمن من مكر الله، بل يسلك سبيل الإنذار ويشدد، فإن لم ينفع فيهم الوعيد الديني فالرادع السلطاني، ولهذا كان من سياسة عمر رضي الله عنه أنه كان يستعمل الردع السلطاني إذا لم يصلح الناس بدونه، ولهذا ورد أنه أمر بقتل شارب الخمر في الرابعة إذا لم يرتدع، قال شيخ الإسلام: إن هذا حكم ثابت إذا لم ينته الناس بدونه.

٣ ـ إثبات التعليل لأحكام الله القدرية، كما هو ثابت في الأحكام الشرعية، ويؤخذ من لام التعليل، وهذا ثابت بأدلة كثيرة، أوصلها بعضهم إلى ألف دليل على أن أفعال الله وأحكامه معللة، ولو لم يكن من ذلك إلا اسم الله الحكيم لكان هذا كافياً، فكل ما فعله فلحكمة، وكل ما شرعه فلحكمة.

٤ ـ أن الله تعالى يحب الإعذار من الناس؛ لأنه أرسل الرسل ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾.

٥ ـ الفائدة العظيمة الكبرى وهي: العذر بالجهل حتى في أصول الدين؛ لأن الرسل يأتون بالأصول والفروع، فإذا كان الإنسان جاهلاً لم يأته رسول فله حجة على الله، ولا يمكن أن تثبت الحجة على الله إلا إذا كان معذوراً؛ لأنه لو لم يكن معذوراً

فلا حجة له، وهذا الأصل هو الذي دل عليه الكتاب والسنة، ولكن قد يكون الإنسان مفرطاً فلا يعذر بجهله، كما لو ألقي إليه أن هناك ديناً إسلامياً إلهياً، ولكنه لم يبحث عن هذا الدين، وأعرض واستكبر، فهنا نقول: إنه لا يعذر؛ لتفريطه، وعدم بحثه، والإنسان إذا أراد أن يذهب إلى قرية من القرى وسلك سبيلاً ثم قيل له: هذا لا يوصلك إلى القرية، فسوف يتركه ويسأل: أين الطريق إلى هذه القرية؟ فلهذا نقول: العذر بالجهل ليس على إطلاقه من كل وجه، لكن بشرط ألا يكون مفرطاً في التعلم، فإن كان مفرطاً فلا عذر له، والتفريط: أن يُذكر له أن الدين خلاف ما هو عليه، ولكنه يقول: إنا وجدنا آباءنا على أمة، ولن أبحث، وكما يقول بعض العوام: لا تسألوا عن أشياء إن تُبد لكم تسؤكم، اعمل ما تريد ولا تسأل، فإن سألت، قالوا: حرام، وهذا مشكل، وإن سألت، قالوا: هذا واجب، وهذا أيضاً مشكل!! وهذا غلط كبير.

٦ ـ بيان رحمة الله تعالى بعباده؛ حيث أرسل إليهم الرسل يعلمونهم ويرشدونهم ويهدونهم إلى دين الله، ولولا الرحمة ما أرسل إليهم، ولوكلهم إلى العهد السابق الذي أخذه عليهم وهم في أصلاب آبائهم، وعذبهم بناءً عليه.

٧ ـ إثبات اسمين من أسماء الله وهما: العزيز، والحكيم.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦].

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾ كلمة ﴿لَّٰكِنِ﴾ حرف استدراك، وجاء حرف الاستدراك في هذا الموضع لأن النبي ﷺ له من يكذبه، ويقول: إنك لم ترسل كما أرسل الرسل، فقال: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾ خلافاً لمن كذبه، وقال إنه لم يُنزل إليه.

وقوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ قوله: ﴿يَشۡهَدُ﴾ شهادته تعالى لنبيه نوعان: شهادة قولية، كما في هذه الآية، وشهادة فعلية وهي: تمكينه في الأرض، ونصره على عدوه، وإظهار الآيات التي تعجز البشر على يده ﷺ، فإن هذه شهادة فعلية. قوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾ وهو القرآن.

وقوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ يعني: أنه نزل بعلم من الله عزّ وجل، أو أنزله بمعلومه؛ أي: بما علم سبحانه وتعالىٰ أنه مصلح للخلق وللعباد، وكلا المعنيين صحيح ولا يتنافيان، فيجب حمل الآية على المعنيين، بناءً على القاعدة، أنه إذا احتمل الدليل لمعنيين على السواء، ولا منافاة بينهما وجب حمله عليهما جميعاً.

وقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾ الملائكة تشهد أيضاً أن الله أنزل على محمد ﷺ قرآناً كان به رسولاً، وهل المراد بالملائكة هنا ملك واحد وهو جبريل لأنه نزل بالقرآن، أو العموم؟

الجواب: العموم، ويجب أن نعلم أنه إذا جاء اللفظ عاماً فالواجب حمله على عمومه إلا بدلالة قوية تدل على أنه أريد به الخصوص، سواءً كانت دلالة شرعية أو عقلية.

ومن المعلوم: أن النبي ﷺ لما عرج به كان جبريل عليه السلام يستفتح، فيقال: «**من معك؟ فيقول: محمد،**

فيقال: أرسل إليه؟ فيقول: نعم»[(١)]، فتعلم الملائكة بهذا أنه أوحي إليه عليه الصلاة والسلام.

و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، وجعل لهم عبادات كما اقتضتها حكمته، وجعل بعضهم أفضل من بعض.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿شَهِيدًا﴾ حال؛ أي: كفى الله عزّ وجل شاهداً، والباء هنا قالوا: إنها زائدة لتحسين اللفظ، والأصل «كفى اللهُ شاهداً» ونعم، والله! كفى اللهُ شاهداً، لكن إذا جاء شاهد آخر وثالث ازداد الأمر قوة، كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] فالشهادة على الوحدانية صارت من ثلاثة أطراف: الرب عزّ وجل، والثاني: الملائكة، والثالث: أولو العلم، أما الشاهد بالرسالة فلم يذكر إلا طرفين: الله، والملائكة؛ لأن أولي العلم لا يكونون أولي علم إلا بعد ثبوت الرسالة، فهم تابعون.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ إثبات الشهادة لله، من قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾ وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ وهو سبحانه وتعالىٰ شاهدٌ على كل أعمال الخلق، وعلى كل ما يحدث في السماء والأرض، بل على ما لا يحدث لو حدث كيف كان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦] مع أنه لم يتكلم به، ولكن الله يعلم بذلك.

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٢٠٧) عن مالك بن صعصعة؛ ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (١٦٢) عن أنس بن مالك.

٢ ـ إثبات رسالة النبي ﷺ، لقوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾.

٣ ـ أن القرآن كلام الله، وتؤخذ من قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ وبهذا استدل أهل السنة والجماعة على أن القرآن كلام الله.

فإن قال قائل: إن الله تعالى ذكر الإنزال في أشياء ليست كلام الله: مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وكذلك قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦].

فالجواب: أن ما ذكر هنا أعيان قائمة بنفسه، وأما الكلام فهو معنى لا يقوم إلا بذات، وعلى هذا يتبين أن القرآن كلام الله عزّ وجل.

واستدل العلماء أيضاً بهذه الآية وأمثالها على أن الله تعالى في العلو، لقوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ وهو كذلك، فإن الله تعالى فوق كل شيء، والأدلة على هذا متوافرة، ـ ولله الحمد ـ وقد سبق بيانها كثيراً، ولكن الغريب أننا في مخالطتنا للناس في الموسم تبين لنا أن كثيراً من المسلمين ـ مع الأسف ـ لا يؤمنون بعلو الله، ويقولون: إن الله بذاته في كل مكان؛ وذلك لأن علماءهم يقررون لهم هذا، وتكلمنا على هذا كثيراً في لقاءاتنا في المسجد الحرام، حتى أنهم ـ والحمد لله ـ اقتنعوا، وقالوا: سبحان الله! كيف علماؤنا يقولون كذا وكذا؟! حتى إننا صادفنا طالباً شاباً من الصين يتكلم بلغة عربية جيدة، فلما انتهينا من الكلام عن هذا، وانتهى الدرس جاء إلي وقال: سبحان الله! هذا الذي قلت هو الحق، لكن أنا إلى الآن رأسي غير مستقر ـ لأنه

ترسخ عنده القول الباطل ـ وإن علماءنا يقولون هذا، وأن من قال: إن الله عالٍ بذاته فهو كافر، وأن ابن تيمية، وابن القيم، وابن عبد الوهاب، كلهم مبتدعة؛ لأنهم خرجوا عن المذاهب الأربعة، فقلت: من قال لك هذا؟! قل لقومك الذين درسوك: ابن تيمية رحمه الله حنبلي، وكل تفقهه على مذهب الحنابلة، وكذلك ابن القيم، وكذلك ابن عبد الوهاب، وليرجعوا إلى هذا، لكن ـ الحمد لله ـ ظهر على وجهه علامة البشر والقبول، وانتفع، والحمد لله.

فأنا أقول: سبحان الله! إن دلالة علو الله عزّ وجل واضحة، سمعية وعقليه وفطرية، ومع ذلك يقولون هذا القول المنكر، نسأل الله العافية.

٤ ـ أن إنزال الله للقرآن كان بعلمه، فلا يتطرق إليه أي خلل؛ لأنه يعلم متى نزل، وبماذا نزل، وكيف نزل، وعلى من نزل، ولا يمكن أن يتطرق اختلاف أو ادعاء نقص أو ادعاء زيادة؛ لأن الله أنزله بعلمه؛ أي: أن إنزاله مقرون بعلم الله، فمن ادعى أن فيه زيادة أو نقصاً فقد رمى الله بالجهل؛ لأن الله أنزله بعلمه، وكذلك نزل القرآن بما يعلم الله تعالى أنه مصلح للخلق.

٥ ـ إثبات الملائكة، وأن الملائكة ذات عقول، خلافاً لمن قال: إنهم لا عقول لهم، كما قال بعض الناس ممن نسأل الله لهم العافية والعفو، فالملائكة لها عقول؛ فهي تعلم، وتسمع، وتقول.

٦ ـ عناية الله سبحانه وتعالىٰ برسوله وبما أوحاه إليه؛ حيث

ذكر أن الله يشهد به، وكذلك الملائكة، وكثرة سياق الأدلة على الشيء تدل على العناية به، وهو كذلك.

٧ ـ أن شهادة الله كافية عن كل شهادة، لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾ [النساء: ١٦٧].

هذه الجملة مؤكدة بمؤكدين: الأول: ﴿إِنَّ﴾ والثاني: ﴿قَدْ﴾.

وقوله: ﴿كَفَرُواْ﴾ أي: بالله، والكفر في الأصل: الستر، ومنه الكُفُرَّى وهو: وعاء طلع النخل؛ هذا لأنه يستر ما في جوفه.

وقوله: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿صَدَّ﴾ لها وجهان:

الوجه الأول: أعرضوا عن سبيل الله، وعلى هذا يكون ﴿صَدَّ﴾ فعلاً لازماً.

والوجه الثاني: صدوا غيرهم؛ أي: حملوهم على الإعراض، وعلى هذا فيكون ﴿صَدَّ﴾ متعدياً، والمفعول به محذوف؛ أي: وصدوا غيرهم عن سبيل الله، فالآية إذاً محتملةً للوجهين، وكلاهما لا يناقض الآخر، فتكون محمولة عليهما جميعاً.

والكفار لا شك أنهم صادون بأنفسهم، صادون لغيرهم، فإن كانوا من دعاة الكفر فصدهم ظاهر، وإن لم يكونوا من دعاة الكفر فإن من الناس من يقتدون بهم؛ فهم بهذا يصدون عن

سبيل الله، كما صد هؤلاء، لقول النبي عليه الصلاة والسلام: **«من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها»**[(١)].

إذاً: صد الكفار لغيرهم يكون بالقول، ويكون بالفعل، يكون بالقول إذا كانوا دعاة إلى الكفر، وكلما رأوا شخصاً يريد الهداية ذهبوا إليه يصدونه، ويكون بالفعل إذا كانوا يفعلون، ولكن لا يدعون، إلا أن الناس إذا رأوهم اقتدوا بهم ولا سيما إذا كانوا من أشراف الناس ووجهائهم، وعادة الناس يتبعون وجهاء القوم.

وقوله: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ السبيل بمعنى: الطريق، وأضافه الله إليه لأنه تبارك وتعالى هو الذي شرعه لعباده فأضيف إليه، واعلم أن السبيل والطريق والصراط تارة يضاف إلى الله، وتارة إلى غير الله، فيضاف إلى الله باعتبار أن الله هو الذي شرعه للعباد، ويضاف إلى غيره باعتبار السالكين، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥] فأضاف السبيل إلى المؤمنين وهنا أضافه إلى الله، فيضاف إلى الله لأنه هو الذي شرعه؛ ولأنه يوصل إليه سبحانه، فمن سلكه وصل إلى الله عزّ وجل، كما تقول: سبيل مكة من هنا؛ لأنك إذا سلكته أوصلك إليها.

قوله: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ الضلال بمعنى: التيه؛ أي: تاهوا عنه وقوله: ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ وذلك لكفرهم وصدهم عن سبيل الله، ووُصف بأنه بعيد لأن هذا الضلال ـ والعياذ بالله ـ ضلال عن شيء بيِّن، فإن الحق منار وعلم يهتدي به كل ضال، فإذا ضل عنه أناس كان ضلالهم بعيداً؛ لقوة الدليل.

---

(١) تقدم ص٢٠١.

فيخبر الله عزّ وجل ـ وخبره هو الصادق ـ خبراً مؤكداً بأن الذين جمعوا بين هذين الوصفين: ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾؛ لأنهم جمعوا بين الكفر والصد عن سبيل الله.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تأكيد الخبر ولو كانت ابتدائياً إذا دعت الحاجة إليه، وقد قال علماء البلاغة: إن الأصل في الخبر أن يلقى غير مؤكد، فمثلاً إذا كنا نخاطب رجلاً ساذجاً لا يعرف شيئاً قلنا: محمد قائم، فهذا لا يحتاج إلى توكيد؛ وذلك لأن المخاطب سوف يقبل الخبر، وإذا كنا نخاطب شخصاً متردداً فهنا يحسن أن نؤكد الخطاب، حتى يرتفع عنه التردد، وإذا كنا نخاطب منكِراً أو في حكم المنكِر فإننا نؤكده وجوباً، وتتعدد أدوات التوكيد بحسب قوة الإنكار، وهنا أكد الله الخبر مع أن الخبر يلقى إلى خالي الذهن لأهمية الموضوع؛ لأن الموضوع إذا كان ذا أهمية فمن المستحسن أن يؤكد.

٢ ـ أن من آمن واستقام على سبيل الله، ودعا الناس إليه فهو على الهدى، ونعرف ذلك من المقابل والضد، فإنه إذا ثبت الحكم لشيء ثبت نقيضه لضده.

٣ ـ أن الضلال ينقسم إلى: ضلال قريب، وضلال بعيد، وهكذا أيضاً المعاصي تنقسم: إلى كبائر، وصغائر كما هو معروف.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [النساء: ١٦٨ ـ ١٦٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾﴾، هذه الآية كالآية الأولى فيها التوكيد لهذا الحكم، لكن فيها التصريح بالظلم، فبأي شيء ظلموا؟

الجواب: ظلموا بالاستمرار على الكفر لأن الإنسان إذا استمر على الكفر فقد ظلم نفسه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، والظلم في الأصل: بمعنى النقص؛ لقوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٣] أي: لم تنقص، وسمي المعتدي ظالماً لأنه نقّص من حق المعتدَى عليه، وهنا هل ظلموا غيرهم وإلا ظلموا أنفسهم؟

الجواب: كلاهما، فحصل منهم الظلم لأنفسهم ولغيرهم؛ حيث دلوا غيرهم على طرق الكفر.

قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ اللام في قوله: ﴿لِيَغْفِرَ﴾ تُسمى عند علماء النحو «لام الجحود» أو «لام النفي»، وعلامتها: أن تقع بعد «ما كان» أو ﴿لَمْ يَكُنِ﴾، فكلما وجدت اللام بعد ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ أو «ما كان» فهي لام الجحود أو لام النفي؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] اللام لام جحود؛ لأنها وقعت بعد ما كان، والمعنى: أنه لا يوفقهم للتوبة حتى يغفر لهم، وليس المعنى: لم يكن الله ليغفر لهم إذا تابوا؛ فإن الله سبحانه وتعالىٰ يتوب على من تاب مهما كان عمله، لكن المراد أنه لا يوفقهم للتوبة حتى يغفر لهم، والمغفرة: ستر الذنب مع التجاوز عنه، وفسرناها بهذين المعنيين؛ لأنها مأخوذة من المغفر وهو: الذي يوضع على الرأس عند القتال وقاية للرأس من

السهام، وفيه المعنيان جميعاً، وهما: الستر والوقاية، ويؤيد هذا ما ثبت في الحديث الصحيح أن الله سبحانه يخلو يوم القيامة بعبده المؤمن ويقرره بذنوبه فيقول: «**قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»[1].

وقوله: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ يعني: لا يوفقهم، فالهداية هنا هداية توفيق، وقوله: ﴿طَرِيقًا﴾ أي: مسلكاً يسيرون عليه، إلا طريقاً واحداً وهو طريق جهنم.

و﴿جَهَنَّمَ﴾ من أسماء النار.

قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أي: ماكثين فيها، ﴿أَبَدًا﴾ أي: باستمرار، والأبد هو: الاستمرار في المستقبل، والأمد هو: الاستمرار إلى حد معين غير مؤبد.

قوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: كان خلودهم في النار على وجه الأبد يسيراً على الله عزّ وجل؛ مع أنه يستلزم أن تبقى النار بما فيها من السعير والعذاب وأنواع العقوبات، ومع هذا فهي يسيرة على الله عزّ وجل.

والإنسان لو أراد أن يوقد تنوراً فإنه يحتاج إلى عمل ووقود وتعب، لكن النار وهي أعظم شيء في الحرارة إذا بقيت على وجه الأبد فإن هذا أمر يسير على الله عزّ وجل، وليس صعباً عليه.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ أن من اتصف بهذين الوصفين: الكفر والظلم فإنه

---

(١) تقدم (١/ ٣٤١).

مسدود عنه باب التوفيق، لقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾.

٢ ـ إثبات الأفعال الاختيارية لله عزّ وجل؛ يعني: أنه يفعل ما يشاء بإرادته متى شاء، لقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾، والمغفرة فعل اختياري، وهذا الذي عليه السلف الصالح أهل السنة، فهم يقولون بإثبات الأفعال الاختيارية لله عزّ وجل، وأنكر ذلك أهل التعطيل كالأشاعرة والمعتزلة، وقالوا لا يمكن أن يكون لله تعالى فعل اختياري يتجدد ويحدث، وعللوا ذلك بعلل واهية، فقالوا: إن الحدث لا يكون إلا بحادث، ولو أنا أثبتنا لله تعالى أفعالاً يحدثها متى شاء للزم من ذلك أن يكون الله حادثاً.

ولا شك أن هذا قياس باطل؛ لأنه مصادم للنص، فالآيات الكثيرة التي لا تحصر كلها تدل على أن الله يفعل ما يشاء متى شاء، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، وقال: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، وغير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على أن الله يفعل ما يشاء متى شاء، فهذا القياس باطل لمصادمته للنص، وأيضاً هو خطأ؛ وذلك أننا نحن ـ ونحن محدثون ـ تقوم بنا أفعال متجددة ليست بلازمة لنا منذ خلقنا، ولا يلزم من حدوث هذه الأفعال أن نكون لم نحدث إلا عند حدوثها، بل حدوثها سابق علينا، كذلك الرب عزّ وجل وجوده أزلي أبدي، ولا يمنع من ذلك أن يُحدث ما شاء من أفعاله وأحكامه وأقواله.

٣ ـ أن الكافر لا يوفق للهدى؛ لقوله: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾.

فإن قال قائل: أليس يوجد أناس من الكفرة الماردين المارقين المضادين للدعوة الإلهية من هداهم الله؟

فالجواب: بلى، لكن لا مانع من أن نخصص العام، فيكون هذا العموم مخصوصاً بمن أراد الله تعالى هدايته، فمن أراد الله هدايته فإنه قد يهدى، ولو كان قد كفر وظلم، إذ من المعلوم أن من الصحابة رضي الله عنهم من كان كافراً ظالماً ومع ذلك أسلموا، وكانوا رؤساء في الإسلام، ولهم مقام صدق.

٤ ـ أن للنار طريقاً، وللجنة طريقاً، وطريق النار: يتلخص في مخالفة أمر الله ورسوله تركاً للمأمور وفعلاً للمحذور، فالمخالفة لأمر الله ورسوله هي طريق جهنم، والموافقة لأمر الله ورسوله هي طريق الجنة.

٥ ـ إثبات الخلود الأبدي؛ لقوله ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، والخلود الأبدي يتضمن أبدية المكان الذي يكون فيه الخلود، وعلى هذا يكون في الآية دليل واضح على أبدية الخلود في النار.

وقد جاء ذكر الأبدية في هذه الآية، وفي آية أخرى في سورة الأحزاب، وفي آية ثالثة في سورة الجن، وكلها معلومة.

وبناءً على ذلك لا قول لأحد بعد قول الله ورسوله مهما كان من العلم، فما دام هناك آيات صريحة، فإننا لا نركن إلى قول أحد كائناً من كان؛ لأن خبر الله صدق، صادر عن علم مراد به البيان التام، فلا يمكن أبداً أن يتخلف مدلوله، حتى لو قيل: إن فلاناً يقول بكذا، وفلاناً يقول بكذا فنقول: لا قول لأحد بعد قول الله ورسوله.

٦ ـ أن كل شيء ـ وإن صعب ـ فهو يسير على الله عزّ وجل، لكمال قوته وقدرته وسلطانه، لقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرًا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ [النساء: ١٧٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هنا الخطاب لعموم الناس، مع أن السورة مدنية، والغالب في السور المدنية أن يكون الخطاب فيها للمؤمنين؛ لأن القرآن نزل وسط أمة مؤمنة، لكن قد يأتي الخطاب بالعموم لقرائن تحتف به؛ وذلك أن الخطاب سوف ينتقل من هذا العموم إلى مخاطبة أهل الكتاب، وأهل الكتاب ليسوا من المؤمنين، ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، والرسول هو: محمد ﷺ؛ لأن «أل» هنا للعهد الذهني، إذ لا رسول مع محمد ﷺ، ونظير ذلك أن تقول: جاء الأمير، وليس في البلد إلا أمير واحد، فكلٌ سينصرف ذهنه إلى هذا الأمير أمير البلد.

وقد ذكر العلماء أن العهود ثلاثة:

عهد حضوري، وعهد ذكري، وعهد ذهني، فما تعين بالذهن فـ«أل» فيه للعهد الذهني، وما تعين بالذكر فـ«أل» للعهد الذكري، ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥ ـ ١٦]؛ أي: الرسول السابق الذكر، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦] أي: أن

العسر الثاني هو الأول، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لن يغلب عسر يسرين»[(١)].

وتكون للعهد الحضوري، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] وكقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦].

و«أل» التي للعهد الحضوري لها ضابط: وهي التي تأتي بعد اسم الإشارة، فإذا أتت «أل» بعد اسم الإشارة فإنها للعهد الحضوري؛ وذلك لأن اسم الإشارة يدل على القرب، فإذا قلت: هذا الرجل فـ«أل» هنا للعهد الحضوري؛ لأن المشار إليه قريب.

قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء للمصاحبة والتعدية؛ أي: مصاحبة للحق، فما جاء به فهو حق، أو بالحق يعني: أنه رسول من عند الله حقاً، فالآية تدل على هذا وهذا، إذ ليس بينهما منافاة، وعلى هذا نقول: إن المراد بها المعنيان جميعاً؛ أي: أنه جاء بالحق، ولم يأت بالباطل، وأنه رسول حق، ليس بكاذب، عليه الصلاة والسلام.

والحق هو: ضد الباطل، وأصله الثبوت، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس: ٩٦] أي: ثبتت ولزمت، فالأصل أن هذه الكلمة تفيد معنى الثبوت، فالحق ثابت، والباطل زائل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ ﴿مِنْ﴾ هنا للابتداء؛ أي: أن الحق جاء من عند الله، وتأمل قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ حيث إن فيها إشارة إلى أنه يجب عليكم أن تقبلوا هذا الرسول؛ لأنه جاء من ربكم

---

(١) تقدم ص٧٨.

الذي هو مالككم، والمدبر لأموركم، فيجب عليكم أن تقبلوا ما جاء به هذا الرسول؛ لأنه من ربكم.

وقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ الفاء للتفريع؛ أي: فيتفرع على ذلك وجوب الإيمان. أي: آمنوا بالرسول وبما جاء به.

وقوله: ﴿خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ منصوبة على أنها خبر يكن المحذوفة، والتقدير «فآمنوا يكن خيراً لكم» أي: خيراً من الكفر، ولا شك أن الإيمان خير من الكفر؛ لأن الإيمان به سعادة الدنيا والآخرة، والكفر به خسارة الدنيا والآخرة؛ لقول الله تبارك وتعالى في الكفر: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الزمر: ١٥] وقوله في الإيمان: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾ [النحل: ٩٧].

وقوله: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾ أي: بالرسول ﷺ، وبما جاء به فَإِنَّ ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يعني: فهو غني عنكم؛ لأن له ما في السماوات والأرض، ومن جملة ما يملكه هؤلاء الكافرون.

إذاً: كأنه قال: إن تكفروا فإن الله غني عنكم؛ لأن له ما في السماوات والأرض.

وقوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ هنا يقول النحويون: لماذا عبر بـ ﴿مَا﴾ التي يعبر بها عن غير العاقل دون «من» التي يعبر بها عن العاقل؟

والجواب: قالوا: لأن غير العاقل أكثر من العاقل.

وقد يقول قائل: إن في هذا نظراً؛ لأن من جملة العقلاء الملائكة؛ إذ لا شك في أنهم من جملة العقلاء، وهم عدد لا

يحصيهم إلا الله، فيجيب هؤلاء ويقولون: الملائكة لهم أمكنة، وكل واحد منهم قد شغل مكاناً، والأمكنة التي في السماء والأرض أكثر من الملائكة، وعلى هذا فيكون غير العاقل في السماوات والأرض أكثر، وهذا ليس ببعيد أن يقال: إنه غلب غير العاقل؛ لأنه أكثر.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ختم الآية بالعلم والحكمة إشارة إلى أن كفر هؤلاء الذين كفروا بالرسول ﷺ كان عن علم وحكمة من الله، أما كونه عن علم فلأنه في ملكه، ولن يكون في ملكه ما لا يعلمه.

وأما كونه عن حكمة فلأنه لا تقوم أحوال العباد ولا دين العباد إلا بهذا التقسيم؛ أي: أن يكون بعضهم مؤمناً وبعضهم كافراً، ولولا هذا الانقسام ما قام علم الجهاد، ولا تميز المؤمن من الكافر، ولا صار للمؤمن مزية يتميز بها عن الكافر، ولا حصل للنار ملؤها؛ وقد تكفل الله لها بذلك، فمن حكمة الله أن يكون في الناس مؤمن وكافر.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان أن محمداً ﷺ رسول من عند الله حقاً، لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٢ ـ عموم رسالة النبي ﷺ لجميع الناس لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

فإن قال قائل: أفلا يمكن أن يراد بالناس الخصوص، كما في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

فالجواب: أن الأصل في العموم إرادة العموم.

٣ ـ إلزام قبول ما جاء به الرسول ﷺ عقلاً كما هو لازم شرعاً، ووجه ذلك قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ فإذا كان من ربنا وهو مالكنا وخالقنا والمتصرف فينا كيف يشاء وجب علينا قبوله.

٤ ـ أن ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام هو الحق، ولا يصح أن نقول: كل ما ينسب للرسول حق بل كل ما جاء به؛ لأن هناك أحاديث ضعيفة وأحاديث موضوعة، لكن كل ما جاء به الرسول ﷺ فهو حق.

٥ ـ إثبات الربوبية العامة؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ بالإضافة إلى قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وربوبية الله سبحانه وتعالىٰ عامة وخاصة؛ فالعامة كقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، والخاصة كقوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢٢] وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣]، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] والأمثلة على هذا كثيرة.

٦ ـ أن إرسال الرسل من مقتضى الربوبية؛ لأنه تصرف في الخلق، وفعل من أفعال الله، وكل ما كان كذلك فهو داخل تحت مضمون الربوبية.

٧ ـ وجوب الإيمان بالحق ممن جاء به؛ لقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ بعد قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ﴾، وهذه قاعدة في كل من جاء بالحق أنه يجب علينا أن نؤمن بما جاء به، فالحق يقبل من أي إنسان، ومن كل من جاء به، لكن إذا كان الذي جاء به ممن عرف بالباطل فهل يقبل منه الحق؟

الجواب: نعم، ولذلك مثال في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ﴾ [الأعراف: ٢٨] وسكت عن قولهم ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ والسكوت عن أحد الشقين مع إنكار الآخر يدل على الإقرار بالثاني الذي لم ينكر.

٨ ـ أن الإيمان كله خير، خير في الدنيا وخير في الآخرة، حتى في المعيشة وإن كانت ضنكاً فهي عند المؤمن خير؛ لأن المؤمن كما وصفه النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن إصابته سراء شكر فكان خيراً له**»(١).

٩ ـ أن أمر الله تعالى عباده بالإيمان به وإثابتهم على ذلك ليس لافتقاره إليهم، بل هو غني عنهم لقوله: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾.

١٠ ـ عموم ملك الله؛ لقوله: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾، فكل ما في السماوات والأرض فهو لله عزّ وجل.

فإن قال قائل: أليس لنا أملاك يختص بها كل واحد منا؟

فالجواب: بلى، لكن ملكنا لما نملكه ليس على سبيل الإطلاق ولهذا لا يحق لنا أن نفعل في أموالنا ما نشاء، بل لا نفعل بها إلا ما أذن الله به، فلو أراد الإنسان أن يحرق ماله فليس له ذلك.

ذاً: الملك قاصر، والملك المطلق الشامل هو لله رب العالمين وما يضاف إلينا ملكاً فإنه ملك قاصر مربوط بما علم الله به.

---

(١) تقدم (١/ ٤٣٣).

١١ ـ إثبات الجمع للسماوات، فهي سبع سماوات مصرحاً بذلك في القرآن، أما الأرض فهي تأتي دائماً في القرآن مفردة، لكن في السنة جاءت مجموعة، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله به يوم القيامة من سبع أراضين**»[1] والقرآن أشار إلى ذلك فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] والمماثلة في النوع والسعة والكبر غير ممكنة؛ لأنه من المعروف أن السماء أعظم من الأرض بكثير، فلم يبق إلا العدد، هذا من جهة القرآن، ومن جهة السنة إذا لم يكن هناك سبع أرضين فإنه لا يمكن أن يعاقب الإنسان على شيء ليس موجوداً، فلا يقال: إن ذكر السبع أرضين من باب العقوبة ومضاعفتها فقط، فلولا وجود سبع أرضين فإنه لا يمكن أن يعاقب الإنسان على شيء ليس موجوداً، لكن كونه يعاقب من سبع أرضين يدل على أن القرار ملك لصاحب الأرض العليا، كما أن الهواء ملك له، والهواء إلى السماء الدنيا كلها لمالك الأرض، كذلك أيضاً قاع الأرض إلى الأرض السابعة ملك له، ولهذا لو أراد الإنسان أن يحفر خندقاً من تحت بيت الإنسان أو من تحت أرضه فإنه لا يملك هذا.

وذكر ابن كثير رحمه الله في «البداية والنهاية» أن العلماء اختلفوا في الأرضين هل هي متطابقة، يعني: متلاصقة ويكون الفاصل بينها أمراً مجهولاً، أم أن بينهما فجوات، وهذه الفجوات كما بين السماء والسماء، وهذا التقدير الأخير ليس بصحيح؛ لأن مسافة الأرض الآن لو دارت عليها الطائرة لم تنسب ولا إلى

---

(١) تقدم ص٢٧٤.

السماء الدنيا، لكن يقال: هذه السبع أرضين الله أعلم بكيفيتها، ولا ندري هل هي متلاصقة أو بينها فاصل، وعلينا أن نؤمن؛ لأن هذا شيء فوق طاقتنا.

١٢ ـ إثبات اسمين من أسماء الله هما: العليم والحكيم، لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وقد مر علينا كثيراً أن علم الله تعالى واسع شامل لكل شيء في السماء أو في الأرض، وإيماننا بذلك يوجب لنا أن نحذر من مخالفته؛ لأننا لو خالفناه فإنه عالم بنا، واسم الله العليم أبلغ من اسميه: السميع والبصير؛ لأن السميع إذا آمنا بمقتضاه حذرنا مما يُقال، والبصير إذا آمنا بمقتضاه حذرنا مما يُرى، لكن العليم إذا آمنا به حذرنا مما يُقال أو يُرى أو يُفعل أو يُترك؛ لأن الله تعالى عليم به.

وأما الحكيم فهو مشتق من الحكم والحكمة، فلله الحكم وله الحكمة البالغة.

والحكم نوعان: كوني وشرعي، فما كلف الله به العباد فهو حكم شرعي، وما انفرد به الله عزّ وجل فهو حكم كوني، ثم كل منهما لا يصدر إلا لحكمة.

إذاً: فالحكمة: كونية وشرعية، ثم الحكمة تكون على الصورة المعينة وعلى الغاية المرادة، ولهذا نقول: الحكمة غائية وصورية؛ أي: على الصورة المعينة حكمة فإيجاد الواجب حكمة، والإثابة عليه حكمة، فالأول صوري، والثاني غائي.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ

وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١].

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ قوله هنا: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ عام أريد به الخاص، والمراد بهم النصارى؛ لأن الله تعالى ذكر حال اليهود فيما سبق، من قوله: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧] إلى آخره، وما قبلها أيضاً، ثم خاطب أهل الكتاب الذين هم النصارى، فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ والغلو هو: الزيادة، في الشيء، وهذه الزيادة تُسمى غلواً وتُسمى إفراطاً، وضدها: التفريط والتقصير.

وقوله: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ أي: فيما تدينون الله به، وذلك أنهم اعتقدوا أن المسيح هو الله، أو ثالث ثلاثة أو قالوا: إن المسيح وأمه إلهان، وقالوا: إن المسيح ابن الله، كل هذه الأقوال يرونها ديناً، فقال لهم الله تعالى: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ أي: فيما تدينون الله به.

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ أي: ولا تقولوا على الله فيما تصفونه به إلا الحق؛ أي: الشيء الثابت المقبول عقلاً وفطرة ونقلاً، وضده الباطل، فمن قال: إن المسيح ابن الله، فقد قال على الله غير الحق، ومن قال: إن الله ثالث ثلاثة فقد قال على الله غير الحق، ومن قال: إن المسيح وأمه إلهان فقد قال على الله غير الحق.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، هذه الجملة إبطال لقولهم: إن المسيح ابن الله، وأن المسيح وأمه إلهان، وأن الله ثالث ثلاثة، وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، عندنا أربع كلمات: المسيح، وعيسى، وابن مريم، ورسول الله ولا بد من إعرابها:

أما قوله: ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ فهو مبتدأ، وأما قوله: ﴿عِيسَى﴾ فهو عطف بيان، وأما قوله: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ فهو صفة، وأما قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ فهو خبر، وجملة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ جملة تدل على الحصر، فيكون التركيب: «ما المسيح عيسى ابن مريم إلا رسول الله» وليس جزءاً من الله ولا إلهاً.

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ﴾ المسيح: لقب لعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام؛ وسُمي بذلك لأنه لا يمسح ذا عاهة إلا برئ، فيبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله عزّ وجل، بخلاف المسيح الدجال، فإنما سُمي المسيح لأنه ممسوح العين؛ أي: أعورها.

وقوله: ﴿عِيسَى﴾ هو العلم.

فإن قال قائل: كيف قدم اللقب على العلم، واللقب وصف، والعلم ذات؟

قلنا: إن اللقب إذا اشتهر به الملقب صار بمنزلة العلم، بل أظهر في تعيين الملقب من العلم، ولهذا تقول: الإمام أحمد مثلاً، فتقدَّم اللقب «المسيح» على عيسى ابن مريم؛ لأنه بلقبه أظهر وأبين.

وقوله: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ هي: مريم ابنة عمران، ونسب إليها

لأنه ليس له أب، وإلا فمن المعلوم أن من له أب شرعي فإنه يجب أن ينسب إليه لا إلى أمه.

وقولنا أب شرعي احترازاً ممن له أب قدري لا شرعي، وهو ما حصل بالزنا، والعياذ بالله! فإن هذا له أب قدري وهو الزاني، لكن الزاني ليس أباً شرعياً.

وقوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: مرسل من الله عزّ وجل، وليس رباً ولا جزءاً من رب، بل إنه رسول الله.

وقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ الواو حرف عطف، وقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ معطوفة على رسول الله، و﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ أي: كلمة الله؛ أي: الكائن بكلمة الله، وليس هو الكلمة؛ لأن الكلمة وصف للمتكلم لا شيء بائن منه، وعلى هذا فيكون معنى ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ أي: الكائن بكلمته ﴿كُن﴾، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أي: أوصلها إلى مريم، بأن قال لها احملي مثلاً، أو كلمة نحوها، ونعوذ بالله أن نقول على الله ما لم يقل، لكن هذا معنى كونه كلمة تصل إلى مريم، عن طريق جبريل، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] وأضاف الله النفخ إليه؛ لأنه فعل رسوله الذي أرسله لينفخ في فرجها، وإضافة النفخ إلى الله مع أنه كان من جبريل كإضافة القراءة إلى الله مع أنه كان من جبريل في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٨]، فالذي يقرأ جبريل، والنبي ﷺ يتبعه.

وهل مريم وموسى بن عمران أخوان؟ لأنها مريم بنت عمران، وهو موسى بن عمران؟

الجواب: أورد هذا الإشكال على النبي ﷺ فقال: «**إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم**»[1] يعني: أن موسى بن عمران ليس أخاً لمريم بنت عمران، فعمران الذي هو أبو موسى لا نعلم أنه نبي، لكنه أبو نبي، فكان هذا الاسم شائعاً في بني إسرائيل، فسمي أبو مريم عمران.

قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ هل معناه أنه ريح منه، وهو ما حصل بالنفخ من جبريل، أو أنها روح منه أي: أن روحه مخلوقة من الله عزّ وجل، أو الأمران؟

الجواب: الأمران؛ لأنهما لا يتنافيان، فإن جبريل نفخ في فرجها، والنفخ ريح، وكذلك عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام جسد نفخت فيه الروح فصار إنساناً.

ولهذا سماه الله تعالى روحاً يغلب على دينه المسالك الروحية والرهبانية وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ من الله، و«من» هنا ليست للتبعيض قطعاً، وقد استدل بها النصارى على أن عيسى جزء من الله، وجعلوا «من» للتبعيض؛ وذلك لأنهم زائغون، والزائغون هم الذين يتبعون ما تشابه من الأدلة ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

وذُكر أن نصرانياً استدل بها على أن عيسى جزء من الله، وقال: إن قرآنكم يدل على ما قلنا من أن عيسى جزء من الله، وكان عنده أحد العلماء فتلا هذه الآية ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا

---

(١) تقدم ص٤٣٣.

فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] فقال: للنصراني: هل السمٰوات والأرض وما فيها جزء من الله؟! فحار النصراني، وعرف أنه على ضلال ثم أسلم؛ لأنه تبين له الحق، فـ«من» هنا ليست للتبعيض، ولكنها للابتداء؛ أي: أنها من عند الله عزّ وجل.

قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ ﴿ءَامِنُواْ﴾ الضمير «الواو» يعود إلى أهل الكتاب الذين يراد بهم النصارى، وقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي عيسى وموسى ومحمد وجميع الرسل، ولا تقولوا: لا نؤمن إلا بمحمد؛ لأن عيسى هو الذي بشَّر به، بل آمنوا بالله ورسله كلهم من أولهم إلى آخرهم.

والإيمان في اللغة اشتهر بأنه التصديق، ولكن الصحيح: أنه ليس التصديق، وأنه الإقرار، ولهذا يُعدى بالباء، فيقال: آمن بكذا؛ أي: أقر به إقرار مؤمن مصدق، وقد ذكر هذا شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه «الإيمان»، وذكر أن من فسره بالتصديق فليس بصواب، لكن قد يُضمن معنى التصديق ثم يتعدى باللام، مثل قوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، والإيمان هنا بمعنى الانقياد؛ أي: فانقاد له لوط ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ جملة ﴿لَا تَقُولُواْ﴾ مكونة من فعل مضارع وفاعل، والقول هو: النطق باللسان، وهنا كلمة ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾ لم يقع عليها الفعل؛ لأن القول لا ينصب إلا جملة أو شبه جملة، ولا ينصب الاسم المفرد إلا على لغة بعض العرب الذين يجعلون القول كالظن، فينصبون به المفرد، وعلى هذا فنقول: ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾ ليست مفعولاً لـ﴿تَقُولُواْ﴾، ولكنها خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: «ولا تقولوا: الله ثلاثة».

وكانوا يقولون بالتثليث كما ذكر الله ذلك عنهم في قوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

وقوله: ﴿ٱنتَهُواْ﴾ أي: عن قول: ثلاثة، فنهى أولاً، ثم أمر ثانياً بقوله: ﴿ٱنتَهُواْ﴾.

وقوله ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ ﴿خَيْرًا﴾ خبر «يكن» المحذوفة والتقدير: «انتهوا يكن خيراً لكم».

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ هذا دفع لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾، و«إنما» أداة حصر، فالجملة فيها حصر الألوهية بالله عزّ وجل.

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ «سُبْحَانَ» بمعنى تنزيه، وهي اسم مصدر، وفعلها «سبح»، والمصدر منه «تسبيح»، واسم المصدر «سبحان»، وهي ملازمة للنصب على المفعولية المطلقة دائماً، فكلما جاءت «سبحان» فهي منصوبة على أنها مفعول مطلق، وعاملها محذوف وجوباً؛ ولا يجمع بينها وبين عاملها.

وقوله: ﴿أَن يَكُونَ﴾ أن هذه مصدرية، وقد حذف حرف الجر منها للعلم به؛ أي: تنزيهاً له عن أن يكون له ولد، وإنما هو منزه عن الولد جل وعلا لأمور متعددة:

أولاً: لأنه مالك كل شيء، والمالك لا بد أن يكون المملوك مبايناً له في كل الأحوال.

وثانياً: أنه ليس له زوجة، والابن إنما يكون غالباً ممن له زوجة، كما ذكر الله ذلك في سورة الأنعام ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

ثالثاً: أن الولد إنما يكون لمن يحتاج للبقاء؛ أي: بقاء النوع باستمرار النسل، والرب عزّ وجل ليس بحاجة إلى ذلك؛ لأنه الحي الذي لا يموت.

رابعاً: أن الابن إنما يحتاج إليه والده ليساعده ويعينه على شئونه وأموره، والله سبحانه وتعالىٰ غني، وقد أشار إلى ذلك في قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ [يونس: ٦٨] فعلى كل حال هو منزه عن أن يكون له ولد، وما قدر الله حق قدره من قال: إن له ولداً.

قوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا كالدليل على أنه منزه عن أن يكون له ولد، فإن ما في السمٰوات وما في الأرض ملك له، والولد لا بد أن يكون كوالده في أنه له قسط من الملك؛ لأنه سوف يرث والده إذا مات مثلاً، والله سبحانه له ملك السمٰوات والأرض.

وقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ «مَا» هنا للعموم؛ أي: كل ما في السمٰوات من ذوات وأحوال وأمور فهي لله عزّ وجل، وكذلك ما في الأرض.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ قال المعربون: إن الباء هنا زائدة، والتقدير: «وكفى الله وكيلاً» أي: حافظاً على كل شيء، فلا يحتاج إلى ابن يساعده، أو يعينه في حفظ الملك.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ النهي عن الغلو في الدين، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ وإذا نهى الله أمة عن شيء وقصه علينا فهو عبرة لنا؛ يعني: أننا منهيون عنه، ويؤكد هذا قول

النبي ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم**»[(١)] أي: لا تغلوا فيَّ.

٢ ـ أن الغلو في الدين كالنقص منه، فكما أن الإنسان منهي عن النقص في دينه فهو أيضاً منهي عن الغلو.

٣ ـ أنه لا يجوز لنا أن نغلو في ديننا، سواء ما يتعلق برسولنا ﷺ أو بأعمالنا، وعلى هذا: فمن أحب النبي ﷺ أكثر من محبة الله فهو غالٍ فيه عليه الصلاة والسلام، ومن نزله منزلة الرب وأنه يتصرف في الكون فهو غالٍ فيه، ومن زعم أن غيره ممن هو دونه يتصرف في الكون فهو غالٍ فيه، فالغلو هو مجاوزة الحد في كل شيء.

٤ ـ تحريم القول على الله إلا بالحق، لقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ﴾ وهو الشيء الثابت.

ـ ويتفرع من هذه الفائدة: تحريم تحريف آيات الصفات وأحاديثها؛ لأن الذي يحرفها لم يقل على الله الحق، بل قال عليه الباطل، فآيات الصفات مثل قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] فلو قال قائل: ليس المراد باليدين اليد الحقيقية، بل المراد النعمة والقدرة وما أشبه ذلك، فنقول: هذا قال على الله غير الحق؛ لأنه قال ما لا يريده الله عزّ وجل.

٥ ـ بيان أن المسيح عليه الصلاة والسلام لا يستحق من أمر الربوبية شيئاً، وتؤخذ من قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾.

٦ ـ جواز نسبة الإنسان إلى أمه إذا لم يكن له أب، لقوله:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت...، حديث رقم (٣٢٦١).

﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ وعيسى ابن مريم ليس له أب كما هو معلوم للجميع، فإذا كان الولد ولد زناً قلنا إنه ليس له أب شرعي، فينسب إلى أمه، ويبقي عندنا إشكال: فهو ينسب إلى أمه حقيقة وحكماً ولا شك فيه، لكن عند المناداة، وعندما نضع له اسماً يشتهر به بين الناس وينادى به، فهل نحن ننسبه إلى أمه فيكون بذلك نشر عارها، وكسر قلبه، أو نضع له اسماً ننسبه إلى من هو حقيقة منسوب إليه؟ فنقول ـ مثلاً ـ: عبد الله بن عبد الكريم، فنحن إذا قلنا هو: عبد الله بن عبد الكريم هل أخطأنا؟

الجواب: لا؛ لأن الزاني عبد لله عزّ وجل، وإن كان زانياً فهو عبد لله، فنسميه بهذا الاسم؛ لأنه لو سميناه منسوباً إلى أمه لكان كل إنسان يسمع ذلك سيقول: لماذا؟ ثم يلحق العار هذا الرجل وذريته، ويبقي وصمة عار في تاريخهم إلى ما شاء الله.

فنقول: الحمد لله، أما من جهة الأحكام الشرعية فلا شك أننا لا نرتب عليه أحكام الأبوة، ولهذا لو مات ابن الزنا فأمه ترثه فرضاً وتعصيباً، فلهذا نقول: يوضع له اسم ينسب إليه ولا يخالف الواقع.

أما اللقيط فيوضع له اسم مثل: عبد الله بن عبد الكريم، أو عبد الرحمن بن عبد العزيز، أو فلان بن أبيه، لكنه ليس أباً شرعياً، وقد يكون له أب شرعي؛ لأن بعض الناس ربما يلقي أولاده ـ مثلاً ـ في الطرقات والمساجد عجزاً عنهم، فهذا اللقيط في الحقيقة لا ندري هل هو ابن زناً أو ابن رشد، لكن أباه ألقى به لعجزه عنه.

والمشهور عند أهل العلم أن ميراثه لبيت المال، وديته إن

قتل لبيت المال، إلا إذا تزوج وصار له أولاد فأولاده يرثونه، ولكن نقول: الراجح: أن ماله يكون لمن التقطه؛ لأنه قام عليه وحضنه وتعب فيه فيكون له، وهو أولى من بيت المال الذي يكون لعموم الناس.

أما ما اشتهر في عهد الصحابة من نسبة بعضهم لأمه فلأنهم يرضون بذلك، وقد اشتهر هذا الشيء وليس هناك أدنى شك في أنهم أولاد حقيقة لآبائهم وإلا فهناك ابن أم مكتوم، وعبد الله بن مالك ابن بحينة رضي الله عنهم.

أما الحديث الذي فيه وعيد للذي انتسب لغير أبيه فهو لم ينتسب لغير أبيه، بل نعرف أن أباه فلان.

مسألة: الولد إذا كان من الزنا، ولكن بعد أن حملت المرأة تزوج بها الزاني زواجاً شرعياً ثم ولدت فهذا الولد إلى من ينسب؟

الجواب: أولاً نقول: لا بد من توبة الزاني والزانية ولا بد من تحقق ذلك.

ثانياً: إذا أراد أن يتزوجها فأكثر العلماء يقولون: إنه لا يجوز أن يتزوجها؛ لأنه الآن في عدة لا يلحقه ولده، فيجب أن ينتظر حتى تنتهي العدة؛ وذلك بوضع الحمل على الوجه المعروف. ومن العلماء من يجوز ذلك إذا تحققت التوبة، وأنه إذا استلحقه الزاني يُلحق به. لكن هذا الباب لا يجوز إطلاقاً أن يفتح للناس، فلو كان هذا القول من الناحية النظرية قولاً صحيحاً إلا أنه لا يجوز أن يُفتى به الناس على الإطلاق؛ لأنهم لو أُفتوا به لتساهلوا في هذا الأمر، ولكان كل إنسان يزني بامرأة فإذا حملت

ذهب يتزوجها، وأهلها سوف يضطرون إلى أن يزوجوه، وسيفتح بهذا باب شر على الناس.

٧ ـ إثبات رسالة عيسى ابن مريم؛ لقوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، لهذا يجب علينا أن نؤمن بأن عيسى رسول، ليس له حق في الربوبية بأي حال من الأحوال.

٨ ـ إطلاق السبب على مسببه، لقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ فإن عيسى ليس هو الكلمة نفسها، لكنه خلق بالكلمة، فأطلق السبب وأريد المسبب.

٩ ـ أن عيسى عليه الصلاة والسلام من أشرف عباد الله وأكرمهم عليه؛ لأنه أضافه إلى نفسه فقال: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾، والإضافة للتخصيص والتكريم.

١٠ ـ أن عيسى عليه الصلاة والسلام روح من الله، لقوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ يعني: أنه من جملة الأرواح التي خلقها الله عزّ وجل، ولكن أضيف إلى الله عزّ وجل من باب التكريم والتشريف. وأعلم أن المضاف إلى الله تعالى نوعان: نوع معنى لا يقوم إلا بغيره، وهذا يكون من صفاته، مثل: علم الله، وقدرة الله، وسمع الله، وكلام الله، وما أشبه ذلك، فهذه معانٍ إذا أضيفت إلى الله فهي من صفاته وليست بمخلوقة، ونوع آخر يضاف إلى الله لكنه بائن منه ومنفصل عنه، وهذا يكون مخلوقاً، لكن أضيف إلى الله من باب التشريف والتكريم، ومنه قوله هنا: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ [الشمس: ١٣] فأضاف الناقة إليه، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤] وقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ

لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦] كل هذه أعيان قائمة بنفسها فإضافتها إلى الله إضافة تشريف وتكريم.

١١ ـ وجوب الإيمان بالله ورسله كلهم أجمعين من نوح إلى محمد عليه الصلاة والسلام، لقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ وقد سبق مراراً ذكر ما يتضمنه الإيمان بالله عزّ وجل؛ فلا حاجة للتكرار، وكذلك ما يتضمنه الإيمان بالرسل.

١٢ ـ النهي عن التثليث، لقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ يعني: أنه يحرم أن يقول الإنسان: إن الله ثالث ثلاثة، وهذا من الشرك، فالنهي عنه كقوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦] فلا يقول قائل: لماذا اقتصر على النهي فقط؟ نقول: نعم، اقتصر على النهي ولو كان هو شركاً؛ لأن الشرك منهي عنه.

١٣ ـ أن من تاب من التثليث وانتهى عنه تاب الله عليه؛ لقوله: ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ فدل هذا على أن من تاب فهو خير له، وهذا يستلزم قبول التوبة.

١٤ ـ انفراد الله تعالى بالألوهية، في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ فقوله: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ﴾ دلت على الحصر، وهو أن الله تعالى هو الإله وحده، لكن قوله: ﴿وَٰحِدٞۖ﴾ يكون زيادة تأكيد.

١٥ ـ تنزيه الله أن يكون له ولد، يعني: أنه منزه عن أن يكون له ولد، تؤخذ من قوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ تنزيهاً له، ووجه كون اتخاذ الولد بالنسبة إلى الله تعالى عيباً ونقصاً لأنه يستلزم أن يكون محتاجاً إليه، وأن يكون باقياً فيما لو هلك الأب.

والذين قالوا: إن الله اتخذ ولداً ثلاثة أصناف، وهم: اليهود، والنصارى، والمشركون.

١٦ ـ انفراد الله تعالى بالملك، من قوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨] فقدم ما حقه التأخير، وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

١٧ ـ أن السمٰوات عدد، يؤخذ من صيغة الجمع، لكنه مبهم، ولكن ورد في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] وأما الأرض فالآية فيها إشارة، وجاءت السنة بذلك صريحاً في قوله: «من اقتطع شبراً من الأرض طوقه الله من سبع أرضين»[(١)].

١٨ ـ أن الله وكيل على الخلق، بمعنى أنه رب وحافظ لهم؛ لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

١٩ ـ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ ما يوجب للإنسان صدق الاعتماد على الله عزّ وجل، وأن يعتمد على الله وحده، لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ فاجعل اعتمادك على الله فإنه كافيك، ولو أننا صدقنا في ذلك لكان الله حسبنا، ومن كان الله حسبه فقد تم له أمره. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق: ٣] فأنت يا أخي! توكل على الله، فأنت إن صدقت التوكل على الله فإن الله حسبك وكافيك، ويسهل لك أمرك، وهذا وعد من الله عزّ وجل ليس من زيد ولا عمرو، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح**

---

(١) تقدم ص٢٧٤.

بطاناً»[١] فالطير تغدو من أوكارها خماصاً جائعة، قد مضى عليها الليل، ونفذ ما في بطونها، لكنها متوكلة على الله عزّ وجل، تعرف ربها وتعتمد عليه، ولا ترجع إلا وهي بطان ممتلئة بطونها، فلو أننا توكلنا على الله حق التوكل لكفانا، لكن ينقصنا ذلك كثيراً، والأسباب المادية تجد أكثر الناس يعتمد عليها وينسى المسبب عزّ وجل.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء: ١٧٢].

المسيح هو ابن مريم، الذي اتخذه هؤلاء إلهاً، فبين الله أن المسيح نفسه لا يمكن أن يستنكف عن عبادة الله، بل هو عليه الصلاة والسلام يطلب الوسيلة إلى الله؛ أي: في القرب لديه قال الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧] يعني: يطلبون الوسيلة التي تقربهم إلى الله عزّ وجل، وأولئك يدعونهم فهم مساكين، وهنا يقول: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾.

فقوله: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ﴾ بمعنى يأبى أنفة وعلواً، وقوله: ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ أي: عبداً شرعياً؛ لأن الكوني لا أحد يستنكف عنه، حتى أفجر عباد الله لن يستنكف أن يكون عبداً لله العبودية القدرية، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ

(١) تقدم (١/ ٣٢٨).

ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣] ففرعون مستكبر، لكن قدرياً لا يمكن أن يستكبر، أما الاستكبار عن الأمر الشرعي فهذا كثير.

فقوله: ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ أي: عبودية شرعية.

وقوله: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ يعني: ولن يستنكف الملائكة المقربون، والملائكة هم: عالم غيبي خلقهم الله من نور، وجعل غذاءهم التسبيح، ولهذا كانوا صمداً لا يأكلون ولا يشربون.

وقوله: ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ هل هي صفة كاشفة أو صفة قيد؟ الجواب: يحتمل أن تكون صفة كاشفة؛ لأن الملائكة مقربون إلى الله عزّ وجل، ويحتمل أن تكون قيداً، وعلى هذا الاحتمال يكون الملائكة فيهم المقربون وفيهم من ليس بمقرب. فالله أعلم.

فإن قال قائل: ما المناسبة في ذكر الملائكة عند ذكر عيسى؟ قلنا: المناسبة أن من الناس من جعل الملائكة أولاداً لله، كما أن منهم من جعل المسيح ابناً لله عزّ وجل، فهذه هي المناسبة، يعني: حتى الملائكة الذين اتخذتموهم أولادً لله لن يستنكفوا أن يكونوا عباداً لله.

ثم قال: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

قوله: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ﴾ الجملة هنا شرطية، و«مَن» أداة شرط، وقوله: ﴿يَسْتَنكِفْ﴾ فعل الشرط، وجواب الشرط قوله: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ وقرن بالفاء لأنه صدر بالسين، وإذا صدر الجواب بالسين وسوف فإنه يتعين أن يربط بالفاء.

وقوله: ﴿يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ يستنكف عن عبادته شرعاً،

﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ يتعلا ويترفع، ويأبى أن يخضع للأوامر والنواهي.

قوله: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي: المستنكف المستكبر، والمتعبد المتذلل، كلهم سيحشرهم إليه، وعلى هذا فالضمير في قوله: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ يعود على الجميع.

وهنا مباحث:

أولاً: قوله: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ﴾ روعي في فعل الشرط لفظ الشرط؛ لأن «مَن» لفظ مفرد، و﴿يَسْتَنكِفَ﴾ فاعله مفرد، والجواب قوله: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ روعي فيه المعنى، وأيضاً روعي فيه المعنى بالمعنى الأعم؛ لأن قوله: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ يشمل المستنكف وغير المستنكف، وعلى هذا فيكون فيه عموم أوسع.

فإذا قال قائل: فهل يجوز في اللغة العربية أن يتعدد مرجع الضمير، فمرة يعود بالإفراد ومرة يعود بالجمع؟ قلنا: نعم، هذا موجود في اللغة العربية، بشرط أن يكون مرجع الضمير صالحاً للإفراد والجمع، فإذا كان صالحاً للإفراد والجمع جاز أن يعود الضمير عليه بالإفراد، وأن يعود عليه بالجمع، وأن يتنوع، قال الله تعالى في آخر سورة الطلاق: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١] ففي الآية هنا عاد الضمير أولاً باعتبار اللفظ، ثم باعتبار المعنى، ثم باعتبار اللفظ.

والحكمة من ذلك التنبيه على أن مثل هذه الكلمات للعموم، يعني: أن ﴿مَنْ﴾ سواء كانت شرطية أو موصولة تأتي للعموم، ونستفيد من كون الذي يرجع إليها مرة يكون بالإفراد، ومرة يكون بالجمع.

وثانياً: قوله: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ أي: سيجمعهم، وذلك يوم القيامة، فإن الله سبحانه يجمع الأولين والآخرين في مكان واحد، لا بناء، ولا جبال، ولا أشجار، ولا هضاب، ولا رمال، في مكان واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر؛ لأنهم على أرض مسطحة تمد مد الأديم، كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾ [الانشقاق: ١ ـ ٣] وهي الآن مبسوطة وليست ممدودة، وهي الآن أيضاً مطوية، كما قال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، لكن إذا كان يوم القيامة صارت ممدودة: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾، وكما جاء في الحديث: «**تمد مد الأديم**»[1] أي: مد الجلد، ولهذا يسمعهم الداعي إذا دعى أولهم سمع آخرهم؛ لأنه ليس هناك انحناء، أو جبال، أو أشجار يمنع وصول الصوت، وأيضاً ينفذهم البصر، فيراهم الرائي كلهم؛ لأنه ليس هناك انحناء حتى يغيب بعضهم عن البصر، بل يُشاهدون جميعاً، فكل الخلائق يجمعون يوم القيامة جميعاً في هذا الصعيد، كما قال الله تعالى رداً على الذين قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧﴾ [الصافات: ١٦، ١٧] قال الله عزّ وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠] فالأولون والآخرون كلهم يجمعون في هذا المكان.

---

(١) رواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسى...، حديث رقم (٤٠٨١)؛ وأحمد (١/ ٣٧٥)؛ والحاكم (٢/ ٤١٦) عن ابن مسعود.

زد على ذلك أن الوحوش والبهائم كلها تحشر مع الناس، فيا له من مشهد عظيم! هذا المشهد يجب أن نتذكره دائماً قياماً وقعوداً، وإذا تذكره الإنسان فإنه قد يقول يوماً من الأيام: ليتني شجرة تعضد، كما قال ذلك أمير المؤمنين رضي الله عنه، وإن الإنسان أحياناً ليمر بالعصفور أو بالقط فيقول: يا ليتني! مثله؛ يخشى من الذنب، وإلا فمن المعلوم أن ابن آدم إذا قدر الله له السعادة فهو أفضل منها بكثير، كما قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى: ٤]، لكن من يضمن لنفسه هذا؟! ومن يضمن لنفسه أنه سالم من هذا الموقف العظيم؟! من هذا اليوم الذي ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٧، ١٨]، فلو ضمن الإنسان هذا لقال: الحمد لله الذي خلقني، مع أن الله محمود على كل حال، لكن الإنسان يخشى من الذنوب.

فأقول: إن الخلائق كلها سوف تحشر إلى الله عزّ وجل، ويجازى كل إنسان بما عمل، ولو أنكر الإنسان ما الذي يشهد عليه؟ نفس البدن، أعضاؤه وجلده، فكل الجلد يشهد بما مس من عمل سيء، وبما تصبب عرقاً من شهوة باطلة، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤] اللهم نجنا من ذلك اليوم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أنه لا يمكن للمسيح عيسى ابن مريم الذي جعله هؤلاء إلهاً أن يستنكف عن عبادة الله، ويتفرع على هذه الفائدة: أن العبد لا يصلح أن يكون رباً أو معبوداً؛ لأنه هو نفسه عابد مربوب.

٢ ـ الاستطراد بذكر ما يشارك الشيء وإن لم يكن له ذكر، لقوله: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾؛ لأننا ذكرنا في التفسير أنها ذكرت إلى جانب المسيح؛ لأن من الناس من يعبد الملائكة، ويدعي أنها بنات الله.

٣ ـ أن الملائكة مقربون إن قلنا: إن الصفة صفة كاشفة، أو أن الملائكة ينقسمون إلى قسمين: مقربون، وغير مقربين إذا قلنا: إنها صفة قيد.

٤ ـ وعيد من استنكف عن عبادة الله واستكبر، لقوله: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ ثم فصل.

٥ ـ أن الاستنكاف غير الاستكبار، فالاستنكاف بالقلب؛ بأن يكون الإنسان عنده أنفة وكبرياء قلبية عن عبادة الله، والاستكبار أن يدع العبادة ويستكبر عنها، ويحتقر العبادة ويحتقر الرسول؛ كقولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١].

٦ ـ إثبات البعث لقوله: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

٧ ـ أنه عام لكل أحد، فلا بد لكل حي من البعث، سواء كان من بني آدم أو من غير بني آدم، حتى البهائم والوحوش تحشر يوم القيامة.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧٣].

في هذه الآية والتي بعدها التفصيل، والتفصيل بعد الإجمال من أساليب البلاغة، ومن المعلوم أن القرآن اشتمل على أعلى أنواع البلاغة.

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ «أَمَّا» هنا شرطية، وتفيد مع الشرط التفصيل، أما كونها شرطية فلأن لها جواباً، وهو قوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾، وأما كونها تفصيلية فلأنه فُصل فيها المؤمنون والذين استنكفوا واستكبروا.

وقوله: ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هذه تكرر الكلام عليها كثيراً فلا حاجة إلى إعادة شرحها.

وقوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: يعطيهم أجورهم وافية كاملة، وقد جاء في القرآن والسنة بيان كيف هذه الأجور، وأن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ولهذا قال: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ يعني: زائداً على أجورهم، فإذا استحق الإنسان الحسنة فهي بعشرة أمثالها وتتضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ استنكفوا بقلوبهم، واستكبروا بجوارحهم عن عبادة الله.

قوله: ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: عذاب عقوبة وألم، فقوله: ﴿أَلِيمًا﴾ بمعنى: مؤلم، وكلمة: ﴿عَذَابًا﴾ من حيث الإعراب يسميها النحويون: مصدراً؛ لأن المفعول المطلق هو: الذي لا يكون كالفعل أو كالعامل، أما إذا كان من العامل فإنه يسمى مصدراً، والمصدر له عدة أغراض منها: التوكيد كما هنا:

﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، فهو توكيد من جهة أنه عاد بلفظ العامل «يعذب»، وهو أيضاً توطئة لما بعده؛ حيث وصف بأنه أليم.

وقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ «الولي» أي: من يتولاهم إذا عذبهم الله، وقوله: ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يمنع عنهم عذاب الله، فليس لهم دافع ولا رافع من عقوبة الله عزّ وجل، والدافع الولي، والرافع النصير.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ في الآية دليل على المجازاة، وأن الإنسان يُجازى بقدر عمله، ولكن حسب ما وعد الله عزّ وجل.

٢ ـ فضيلة الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٣ ـ أنها ربما تشعر بأن العمل الصالح لن يكون مقبولاً إلا بالإيمان؛ لأنه قدم ذكر الإيمان، والأصل أن ما قدم فهو الأسبق، وهذا أمر دلت عليه السنة، بل دل عليه القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤] فلا بد من الإيمان السابق على العمل الصالح.

وهل يمكن أن يستدل بهذا على أن العمل الصالح لا يدخل في الإيمان؛ لأن الأصل في العطف التغاير؟

الجواب: نعم، قد يستدل به من يستدل على أن العمل الصالح ليس من الإيمان، ولكن نقول: قد دل الكتاب والسنة على أن العمل من الإيمان، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] قال أهل التفسير: أي: صلاتكم

إلى بيت المقدس، والصلاة عمل، وقال النبي ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»(١) وربما يقال: إذا جمع بين الإيمان والعمل الصالح صار المراد بالإيمان عمل القلب وقول القلب، وبالعمل الصالح عمل الجوارح وقول اللسان، فيكون هذا من باب ما يفترق عند الاجتماع ويجتمع عند الافتراق.

٤ ـ الرد على الجبرية، يؤخذ من قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فأضاف العمل إليهم، والجبرية يقولون: إن الإنسان لا يعمل، ولا يضاف العمل إليه إلا مجازاً، وأن عمله ليس باختياره ولا بقصده.

٥ ـ بيان منَّة الله عزّ وجل؛ حيث سمى الثواب أجراً، كأنه استأجر أجراء يعملون فيأجرهم، مع أن فائدة العمل للعامل نفسه، بينما الأجراء في غير المعاملة مع الله يكون العمل لمن دفع الأجرة، أما هذا فالعمل للإنسان، ومع ذلك يأجره الله عزّ وجل.

٦ ـ أن ثواب الأعمال الصالحة يزيد على ما قدره الله تعالى، لقوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

٧ ـ أن المستنكفين المستكبرين جزاؤهم العذاب، لقوله: ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهل يدخل في هذا أهل المعاصي؟

---

(١) هذا اللفظ لمسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، حديث رقم (٥٨)، وهو عند البخاري مختصراً، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، حديث رقم (٩) من حديث أبي هريرة.

الجواب: إن قلنا: نعم، لزم أن يقع بهم العذاب على كل حال، وإن قلنا: لا، فهو أقرب؛ لأن المؤمنين يستحقون العذاب، ولكنهم لا يعذبهم الله إذا شاء، إما بمغفرة من الله، أو بشفاعة أو بدعاء المؤمنين لهم، أو ما أشبه ذلك.

٨ ـ أن من أرداه الله بسوء فإنه لا مرد له، ولا عاصم منه، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، ويترتب على هذا أن المشركين لن ينتفعوا بآلهتهم مهما كان، بل إن الله قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فيلقون فيها جميعاً العابد والمعبود.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء: ١٧٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الخطاب هنا بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ لإفادة أن رسالة النبي ﷺ عامة لا تختص بقوم دون قوم، فالناس كلهم مخاطبون بشريعة النبي ﷺ، حتى اليهود والنصارى مخاطبون بذلك.

وقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم﴾ الجملة هنا مؤكدة بمؤكد واحد، وهو ﴿قَدْ﴾.

وقوله: ﴿بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ البرهان هو الدليل، والمراد بها الآيات التي جاءت بها الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأعظم آية جاءت بها الرسل آية النبي ﷺ، وهو القرآن الذي بقي آية للرسول ﷺ إلى أن يأذن الله تعالى بخراب العالم.

وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الربوبية هنا: ربوبية بالمعنى الأخص؛ لأن كونه عزّ وجل يمنُّ علينا بالآيات البينات القاطعة لا شك أن هذا من مقتضى ربوبيته الخاصة، فهو سبحانه وتعالىٰ رب الجميع، لكن هناك ربوبية خاصة يمنُّ الله بها على يشاء من عباد.

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾، ﴿نُورًا﴾ يعني به: القرآن، والنور ضد الظلمة.

وهو نور معنوي لا شك؛ لأن به يستنير القلب والوجه، وفي القبر والبعث، فالقرآن كله نور، ولكنه يحتاج إلى تأمل، وإلى تدبر لمعانيه، وإلى عمل به.

وقوله: ﴿نُورًا مُّبِينًا﴾ كلمة «مبين» ذكرنا فيما سبق أنها تصلح أن تكون بمعنى «بيَّن»، وبمعنى «مظهر»؛ وذلك لأنها مشتقة من «أبان»، و«أبان» تصلح متعدية ولازمة، فتقول: أبان لي الطريق، وحينئذ تكون متعدية، وتقول: أبان الفجر، بمعنى طلع، وهذه لازمة، وعلى هذا فكلمة ﴿مُّبِينًا﴾ يصح أن تفسرها بأنه مبين لغيره، وبأنه بين في نفسه ولا يتنافى المعنيان، وقد مر أن القاعدة المهمة الأصلية أنه متى كانت النصوص من القرآن والسنة تحتمل معنيين لا مرجح لأحدهما على الآخر، ولا منافاة بينهما، وجب حمل النص على المعنيين جميعاً.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن القرآن الكريم نازل لجميع الخلق، لقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ويترتب على هذه عموم رسالة النبي ﷺ.

٢ ـ أنه يجب على من لم يعرف اللغة العربية أن يتعلمها، ليتوصل إلى الاستفادة من القرآن، لقوله: ﴿بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ومن

المعلوم أن تلاوته على رجل أعجمي لا تفيده، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الشعراء: ١٩٨ ـ ١٩٩] لأنهم لا يعرفونه، ولا يتذوقون طعمه.

٣ ـ إثبات الربوبية، وأن إرسال الرسل وإنزال الكتب من مقتضى ربوبيته، لقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٤ ـ أن القرآن الكريم نور، ولكن لا يتذوق ذلك أو لا يشاهد ذلك إلا من جمع بين أمرين:

الأول: التدبر.

والثاني: التذكر.

ودليل هذا قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ لأي غرض؟ ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾، هذه واحدة، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] فمن تدبر الآيات، وسلم من الهوى، وسلم من تحريف الأدلة، واتعظ بما فيها، فإنه سيجد نوراً عظيماً في قلبه، ويُكشف له من العلوم ما لا يُكشف لغيره.

٥ ـ أن القرآن الكريم فيه بيان لكل شيء؛ لأن النور لا بد أن تستبين به كل الأشياء؛ كالنهار إذا طلع بانت به الأشياء، وكالحجرة إذا أسرجتها فلا بد أن يبين منها ما كان خافياً، فالقرآن تبيان لكل شيء، ولكن قد يخفي البيان إما لقلة الإيمان، وإما لقلة العلم، وإما لقصور الفهم، وإما لسوء القصد، وإلا فإن القرآن بين ونور لكل أحد، لكن قد يكون عند الإنسان ضعف إيمان، بمعنى أنه لا يثق بأن القرآن فيه تبيان كل شيء، أو يكون قاصر علم، وليس عنده أداة يتمكن بها من استنباط الأحكام من

الأدلة، ومن ثَمّ صرنا محتاجين إلى تعلم أصول الفقه، وإما أن يكون من قصور الفهم، فيكون الإنسان عنده علم وعنده تدبر لكن لا يفهم، والناس يختلفون في هذا اختلافاً عظيماً، فتجد بعض الناس يستطيع أن يستنبط من الآية أو الحديث فوائد كثيرة، ولا يستنبط غيره من ذلك إلا قليلاً بالنسبة له، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء؛ ولهذا لما سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هل خصكم النبي ﷺ بشيء، يعني: هل أوصى إليكم؟ قال: «**لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة! إلا فهماً يؤتيه الله أحداً في كتابه**» ـ انظر إلى قوله: «**إلا فهماً يؤتيه الله أحداً في كتابه**» ـ وما في هذه الصحيفة، قيل: وما فيها؟ قال: «**العقل، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر**»(١).

الشاهد من هذا قوله: «فهماً يؤتيه الله أحداً في كتابه» وأنت إذا تأملت كلام العلماء ـ رحمهم الله ـ وجدت الفرق العظيم بينهم في الفهم، فتجد ـ مثلاً ـ هذا العالم يشرح حديثاً ثَم يستنبط منه عشرين فائدة، وآخر يشرحه ولا يستنبط إلا خمس أو أربع فوائد، وكذلك في الآيات.

والرابع سوء القصد، فقد يكون الإنسان عنده علم واطلاع وفهم، ولكن قصده سيء، فيطالع الكتاب والسنة من أجل أن ينتصر لقوله، وإن كان يعلم أنه باطل، نسأل الله العافية، سيء القصد يحرم الوصول إلى المقصود.

❁ ❁ ❁

---

(١) ورواه البخاري، كتاب الديات، باب لا يقتل المسلم بالكافر (٦٩١٥).

□ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٥].

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾ هذه جمعت بين الإيمان والتوكل فقوله: ﴿ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾ فلم يلجأوا إلى أحد سواه، بل جعلوه عزّ وجل حمايتهم وبه عصمتهم، إذ لا يعتصمون بأحد سوى الله، ولا يعتمدون ويتوكلون إلا على الله.

وقوله: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ السين في قوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمْ﴾ تفيد شيئين: الأول: التحقيق، والثاني: القرب.

أما التحقيق فظاهر، وأما القرب فما أقرب الآخرة من الدنيا! وما بين الإنسان وبين الآخرة إلا أن تخرج روحه من جسده ثم يكون في عالم الآخرة، ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله في «العقيدة الواسطية»: يدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت.

وقوله: ﴿فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ كلمة ﴿رَحْمَةٍ﴾ يصح أن تكون صفة لله، ويصح أن تكون مخلوقة لله. والمراد هنا: الرحمة المخلوقة؛ لأن الرحمة الصفة لا يمكن أن يدخل الناس فيها، لكن الرحمة المخلوقة هي التي يمكن أن يدخل الناس فيها؛ ولهذا قال: ﴿فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾، و«من» هنا ليست للتبعيض ولكنها للابتداء؛ أي: رحمة كائنة منه.

قوله: ﴿وَفَضْلٍ﴾ أي: زائد على ما يستحقونه من الثواب والأجور.

وقوله: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ فذكر الله تعالى لـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾ ثمرتين عظيمتين:

الثمرة الأولى: أن يدخلهم الله في الرحمة والفضل.

والثانية: أن ﴿يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: يدلهم. وهذا يدل على أن الإيمان والاعتصام بالله سبب لزيادة العلم، وهو واضح، ودلت عليه نصوص أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧]، وقوله: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١].

وقوله: ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ فيها قراءتان: الأولى: بالسين، والثانية: بالصاد؛ لأن السين والصاد تتناوبان لقرب مخرجيهما.

وقوله: ﴿صِرَاطًا﴾ الصراط هو: الطريق الواسع السهل، وأصل ذلك من قولهم: زرط اللقمة، إذا ابتلعها بسرعة، وصرطها كلها، ومعناها واحد.

وقوله: ﴿مُّسْتَقِيمًا﴾ ضد المعوج، والاعوجاج تارة يكون اعوجاجاً طلوعاً ونزولاً، وتارة يكون اعوجاجاً يميناً وشمالاً، وصراط الله عزّ وجل مستقيم ليس فيه يمين ولا شمال، وليس فيه طلوع ولا نزول؛ لأنه سهل.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ فضيلة الإيمان بالله والتوكل عليه، ووجه ذلك أنه وعدهم بأنه يدخلهم في رحمة منه.

٢ ـ أن من آمن واعتصم بالله فإنه سوف ينال الرحمة

العاجلة والآجلة، لقوله: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ﴾ والسين تدل على القرب، وبينا وجه ذلك في التفسير، وأن أنعم الناس بالاً وأشدهم انشراحاً في الصدور هم المؤمنون المعتصمون بالله.

٣ ـ أن الرحمة تطلق صفة من صفات الله، وتطلق على ما كان من آثارها، وهذه الآية من إطلاق آثار الصفة؛ لأنه قال: سيدخلهم في رحمة منه، ومن إطلاق الرحمة على ما كان من آثارها ما ثبت في الصحيح قول الله تعالى للجنة: «**أنت رحمتي أرحم بك من أشاء**»[1].

٤ ـ بيان فضل الله عزّ وجل على هؤلاء الذين آمنوا بالله واعتصموا به، لقوله: ﴿وَفَضْلٍ﴾.

٥ ـ أن من آمن بالله واعتصم به فإن إيمانه واعتصامه سبب للهداية، لقوله: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

٦ ـ أن الصراط الهادي إلى الله عزّ وجل مستقيم لا اعوجاج فيه؛ لقوله: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

وهل الاستقامة هنا استقامة الدنيا فقط أو الدنيا والآخرة؟

الجواب: العموم، فدين الله تعالى مستقيم دنيا وأخرى.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء: ١٧٦].

---

(١) تقدم (١/ ١٨١).

الاستفتاء طلب الإفتاء، والإفتاء هو: الإخبار عن حكم شرعي أو غير شرعي أيضاً؛ لأن الإنسان قد يستفتي في أمور دنيوية، والفاعل في قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ الصحابة، والكاف في قوله: -﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ يعني: الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿قُلِ﴾ مجيباً لهم.

قوله: ﴿فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ متعلقة بقوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾، و﴿يُفْتِيكُمْ﴾؛ لأننا قلنا: لا مانع من أن يتسلط عاملان على معمول واحد كما هو مذهب الكوفيين، وعلى هذا فنقول: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾، أما على رأي البصريين، فيقولون: إن قوله: ﴿فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ متعلق بـ﴿يُفْتِيكُمْ﴾ و﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ حذف منها معمولها، ولم يكن فيها الضمير؛ لأنه ليس عمدة.

والاستفتاء عن الكلالة ما هي؟ فبين الله تعالى ما هي الكلالة بذكر المسألة التي تتضمنها، وأصل الكلالة: مأخوذة من الإكليل، وهو ما أحاط بالشيء، ولهذا نقول في تفسيرها: هم الحواشي؛ لأن قرابات الإنسان ثلاث شعب: شعبة منه، وشعبة أصل له، وشعبة من آبائه وأجداده، فالشعبة التي منه تُسمى الفروع، والشعبة التي هو منها تُسمى الأصول، والشعبة التي من أبائه وأجداده تُسمى الحواشي، وعلى هذا نقول: المراد بالكلالة: الحواشي: الأخ وأبناؤهُ، والعم وأبناؤهُ، سواءً كان عمك أو عم أبيك أو عم جدك، هؤلاء هم الكلالة، ولهذا فسرها الصديق رضي الله عنه، بما ذكروا عنه أنها: «من لا ولد له ولا والد».

وقوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾، ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ ﴿إِنِ﴾ شرطية، وأدوات الشرط لا تدخل إلا على الأفعال، وهنا دخلت على اسم ﴿إِنِ﴾ وهذا موضع خلاف، فعلى رأي من يرى أن الشرط لا يدخل إلا على الأفعال فيقول: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟﴾ فاعل لفعل محذوف، والتقدير «إن هلك امرؤ»، ولكن هناك قول آخر، وهو أن أدوات الشرط تدخل على الأسماء، لورود ذلك كثيراً في اللغة العربية؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ [الانفطار: ١]، وقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق: ١]، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ [الانفطار: ٢] وأمثلة هذا كثيرة، فيقول: لا مانع من أن تدخل أداة الشرط على الأسماء.

وهناك رأي ثالث يقول: إن الذي يلي «إن» الشرطية يكون معمولاً للفعل الذي بعدها، فإن كان فاعلاً فهو فاعل مقدم، وإن كان نائب فاعل فهو نائب فاعل مقدم، وإن كان منصوباً فهو مفعول مقدم، ولا مانع.

وعلى كل حال فالذي نرى أنه إذا اختلف النحاة في شيء فإننا نتبع الأسهل.

وقوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ أي: مات، قوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ لا ذكور ولا إناث؛ لأن الولد نكرة في سياق النفي فيعم.

وقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي: ﴿أُخْتٌ﴾ شقيقة أو لأب، ولم يذكر الأخت من الأم؛ لأن الأخت من الأم ذكرها الله تعالى في أول السورة فقال: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن

كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾ [النساء: ١٢].

إذاً: إذا وجد أخت شقيقة أو لأب والولد مفقود، يعني: ليس له فرع وارث ﴿فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ﴾، ويتعين أن لا يكون معها ذكور من الأصول؛ لأنه لو كان معها ذكور من الأصول لم ترث النصف؛ إذ من شرط إرث الأخت الشقيقة أو لأب النصف أن لا يوجد أصل وارث من الذكور، فصار هنا لا ولد ولا والد من الذكور، الولد من قوله: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾، ولا والد يؤخذ من كون فرض الأخت هنا النصف؛ لأنه لو كان هناك وارث من الذكور لم ترث النصف.

وقوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ﴾، قوله: ﴿يَرِثُهَآ﴾ أي: أخوها ﴿إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ﴾ يعني: ليس لها ولد لا ذكر ولا أنثى، بأن ماتت امرأة عن أخيها الشقيق فقط، أو امرأة عن أخيها من أب فقط، وليس لها ولد.

وقوله عزّ وجل: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ﴾ وهنا المسألة مشكلة كيف قال الله عزّ وجل: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ﴾ مع أنه لو كان لها زوج لم يرث إلا ما بقي من فرض الزوج، والله عزّ وجل قال: ﴿يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ﴾؟

والجواب: نقول: هذا الكلام باعتبار الكلالة، وهم الذين يرثون بالقرابة، بقطع النظر عن الذي يكون بالزوجية، فهم يسألون عن الكلالة، والكلالة لا تتعلق إلا بالأقارب، فقوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ﴾ يعني: إن كان لها زوج فهو يرث ما بقي بعد الزوج، وإن لم يكن لها زوج فإنه يرثها.

فإذا قال قائل: ربما يكون لها أم فهل يرثها أخوها؟

الجواب: نعم، ولكن بعد فرض الأم؛ لأن الله سبحانه ذكر هنا من يرث بالتعصيب، ولهذا لم يقدر له نصيباً، بل قال: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ﴾.

قوله: ﴿فَإِن كَانَتَا﴾ الضمير يعود على الأختين، ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ يعني: ليس معهما ذكر، ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ أي: مما ترك الأخ.

قوله: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ ولم يقدر الله عزّ وجل؛ لأنه إذا كان مع الأخوات أخوة ورثن بالتعصيب، فذكر الله هنا الإخوة الإناث الخلص الواحدة، والإناث الخلص مع التعدد، والإناث مع الذكور؛ وذلك لأنه لا يمكن أن تخرج القسمة عن هذه الأقسام الثلاثة: إما أنثى واحدة، أو إناث متعددات، أو مختلط: ذكور، وإناث.

فالواحدة لها النصف، والثنتان فأكثر ﴿ٱلثُّلُثَانِ﴾، وإذا كانوا ﴿رِّجَالًا وَنِسَآءً﴾ فبالتعصيب ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ إذاً: الأقسام أربعة:

ذكور خلص، وإناث خلص متعددات، أو منفردات.

الرابع: اجتماع الذكور والإناث.

وبناءً على ذلك نتعرض لأرث الأخت النصف، **ترث الأخت النصف بشروط**:

الشرط الأول: ألا يوجد فرع وارث، وهذا مأخوذ من قوله ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾.

الشرط الثاني: ألا يوجد أصل من الذكور وارث، مأخوذة من قوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ لأنه لو كان هناك أب ما ورثها.

الشرط الثالث: الانفراد.

الشرط الرابع: عدم المعصب.

هذه شروط إرث الأخت الشقيقة النصف، والأخت لأب تزيد شرطاً واحداً وهو أن لا يوجد أحد من الأشقاء الذكور أو الإناث.

فإذا هلك هالك عن أخت شقيقة وزوج، ففرضها النصف؛ لتمام الشروط.

وإذا هلك هالك عن أختين شقيقتين وزوج فيكون لهما الثلثان، وعن أخت شقيقة وأخ شقيق يكون الأرث بالتعصيب، لقوله: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ﴾.

ثم قال الله عزّ وجل: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ ﴿يُبَيِّنُ﴾ أي: يظهر الحق بيناً.

وقوله: ﴿أَن تَضِلُّواْۗ﴾ قال العلماء: معناها: لئلا تضلوا، وقيل التقدير فيه: كراهة أن تضلوا؛ لأن الله تعالى يريد أن يهدينا.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ وعلم الله سبحانه عام لكل شيء ماضياً كان أو حاضراً أو مستقبلاً، وسواءً كان فيما يتعلق بفعله أو بفعل العباد ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ومن علمه عزّ وجل أنه أفتانا فيما يشكل علينا.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ حرص الصحابة رضي الله عنهم على معرفة الحق، لقوله: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ﴾ وما أكثر ما استفتوا، وما أكثر ما سألوا ليصلوا إلى الحق.

٢ ـ أن النبي ﷺ قد يشكل عليه بعض الشيء فيفتي الله به؛ لقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ ولم يقل: فأفتني فأفتهم.

٣ ـ إطلاق الإفتاء على الله، لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾، وهذا فعل من الأفعال، وإن كان هو قولاً، فهل يجوز أن نشتق من ذلك اسماً لله فنقول: المفتي؟

الجواب: لا، لكن يجوز أن نشتق منه وصفاً؛ لأن الوصف أوسع وأعم.

٤ ـ أن ترتيب الآيات توقيفي، ووجه ذلك: أن هذه الآية لها صلة بآيات المواريث التي في أول السورة، ولو كان اجتهادياً لكان مقتضى الاجتهاد أن تربط مع أخواتها، وأن تذكر هناك، لكن لما كان ترتيب القرآن توقيفياً في آياته صار محلها هنا، ونظير ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٨ ـ ٢٤٠] فهاتان الآيتان ذكرتا في سياق آيات العدد؛ لأن ترتيب الآيات من عند الله عزّ وجل، أو من عند النبي ﷺ، وليس للرأي فيه مجال.

٥ ـ أنه إذا هلك هالك لا ولد له، ولا أب له، وله أخت فلها النصف، لقوله تعالى: ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ فإن كان له ولد نظرنا: إن كان الولد ذكراً سقطت الأخت، وإن كان أنثى أخذت فرضها والباقي للأخت.

مثال الأول: لو هلك هالك عن أخت شقيقة وابن، فالمال للابن، وليس لها شيء معه.

هلك هالك عن أخت شقيقة وابن ابن فالمال لابن الابن، وليس للأخت الشقيقة شيء؛ لأن أبناء الأبناء وإن نزلوا بمنزلة الأبناء.

ولو هلك هالك عن أخت وأب فتسقط لوجود ذكر من الأصول.

ولو هلك هالك عن أخت وجد فنسأل إذا كان من قبل الأم فإنها ترث النصف؛ لأن الجد من قبل الأم من ذوي الأرحام، وإن كان من قبل الأب كأب الأب فهذا موضع خلاف بين العلماء، والراجح المقطوع به: أنها تسقط مع وجود الجد، وأنه لا ميراث لها مع الجد.

٦ ـ أنه لو ماتت امرأة عن أخيها الشقيق أو لأب فقط فالمال له، لقوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ فإذا هلكت امرأة عن أخ شقيق فقط فالمال كله له، أو عن ابن أخ شقيق فالمال له، وعن بنت أخ شقيق فليس لها شيء؛ لأنها من ذوي الأرحام، وعن ابن أخ شقيق وبنت أخ شقيق فالمال لابن الأخ الشقيق ولا شيء لأخته؛ لأنه عاصب وهي من ذوي الأرحام.

٧ ـ أن الأختين فأكثر لهما الثلثان، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾، فلو أن امرأة هلكت عن أختين شقيقتين وزوج، فميراث الزوج النصف، وميراثهما الثلثان، وهذا مشكل؛ لأن النصف والثلثين أكثر من التركة، لكن يقول العلماء: إنها تعالج المسألة، وكيفية ذلك أن تقول: المسألة هنا من ستة، للزوج النصف ثلاثة، وللأختين الشقيقتين الثلثان أربعة، فتعول إلى سبعة، ويكون الزوج بدل أن كان له ثلاثة ونصف من

سبعة لم يكن له إلا ثلاثة من سبعة، ومسألة العول أخذ بها عمر رضي الله عنه بمشورة الصحابة، ولم يخالف فيها إلا القليل من الناس.

٨ ـ أن الميراث يدخل في ملك الوارث شاء أم أبى، وتؤخذ من قوله: ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾، وقوله: ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ﴾ واللام للتمليك.

٩ ـ أن الرقيق المملوك لا يرث، وتؤخذ من اللام التي هي للتمليك، إذ أن العبد المملوك لا يملك، فالعبد المملوك ملكه لسيده، لقول النبي ﷺ: «**من باع عبداً له مال فماله للذي باعه، إلا أن يشترط المبتاع**»[1] ولأننا لو ورثنا الأخ من أخته إذا كان رقيقاً لكان حقيقة الأمر أننا ورثنا سيده وهو أجنبي منها.

١٠ ـ تفضيل الذكر على الأنثى في التعصيب، لقوله: ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ والحكمة: فضل الذكورة على الأنوثة؛ ولأن الذكر عليه متطلبات في الحياة من نكاح، وإنفاق على الغير، وغير ذلك.

فإن قال قائل: يرد عليكم هذا في الأخوة لأم، فإنهما سواء، فنقول: لأنهما لا يرثان بالتعصيب، وإنما يرثان بالفرض.

١١ ـ أن الفرض قد يزيد بزيادة المفروض له، والدليل: أن الواحدة لَهَا النصْفُ وللاثْنَتَيْنِ الثُّلُثَانِ، لكن هناك فرض لا يزيد بزيادة المفروض له وهو أربعة أنواع:

الأول: فرض الزوجة، فالزوجة واحدة أو متعددة لا يزيد فرضها.

---

(١) تقدم (١/ ١٠١).

الثاني: الجدات، فللواحدة السدس، وللمتعددات السدس.

الثالث: بنات الابن إذا ورثن السدس.

الرابع: الأخوات لأب إذا ورثن السدس.

فهؤلاء أربعة لا يزيد الفرض بزيادتهم.

١٢ ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ قد بيَّن لنا كل ما نحتاج إليه، لئلا نضل، لقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وحذف المفعول لأجل العموم.

١٣ ـ الرد على أهل التفويض في صفات الله عزّ وجل، الذين يقولون: إننا لا نعلم معاني صفاته عزّ وجل؛ لأنه إذا لم نعلم لزم من ذلك أن لا بيان في القرآن، والله عزّ وجل يقول: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾، ولأن الضلال في باب الصفات أعظم من الضلال في باب الأحكام؛ لأن الضلال في باب الصفات يتعلق بالخالق عزّ وجل، والضلال في الأحكام إنما هو في العبادة، وبينهما فرق.

١٤ ـ الحث على العلم بالرجوع إلى كتاب الله عزّ وجل؛ لأننا لا نعلم بيان الله عزّ وجل إلا عن طريق الكتاب والسنة، وكل إنسان يفر من الضلال، ويريد البيان والهدى، فنقول: طريق ذلك أن تحرص على اتباع الكتاب والسنة.

١٥ ـ عموم علم الله عزّ وجل في كل شيء، لقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

مسائل متعلقة بالآية:

مسألة: الواجب على كل إنسان عنده مال أن يوصي لمن لا يرث من الأقارب؛ لأن الله أوجب هذا فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا

حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة: ١٨٠] وإن لم يوص فهذا لا يجوز.

مسألة: قال رسول الله ﷺ: «**ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر**»[1] فإن لم يكن عاصب فقد اختلف العلماء رحمهم الله، هل يُرد الباقي على صاحب الفرض أو يجعل في بيت المال؟ فمنهم من قال: يُرد، ومنهم من قال: يُجعل في بيت المال، والصحيح: أنه يُرد، فمثلاً: يُرد على الأختين فيكون لهما ثلثان فرضاً والباقي رداً.

مسألة: في الحديث: «**لا وصية لوارث**»[2].

فإذا أوصى لأولاده ينظر إن كانوا وارثين فإنها لا تصح الوصية، مثل: لو كان له بنت وابن ابن، فهنا لا تصح الوصية لابن الابن؛ لأنه وارث، والوصية للوارث محرمة؛ لأنها تعدٍ لحدود الله، فالله تعالى قد أعطى الوارث شيئاً معيناً، فكيف تأتي أنت وتوصي له؟!

مسألة: الدين يقدم على الميراث، فلو هلك هالك وعنده عشرة آلاف ريال وهو مطالب بعشرة آلاف ريال، فهنا لا حظ للورثة فيها، لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١] لكن الوصية قد يقول قائل: كيف تقدم على الورثة،

---

(١) تقدم (١/ ٩٤).

(٢) رواه أبو داود، كتاب الوصايا، باب ما جاء في الوصية للوارث، حديث رقم (٢٨٧٠)؛ والترمذي، كتاب الوصايا، باب ما جاء لا وصية لوارث، حديث رقم (٢١٢٠)؛ وابن ماجه، كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، حديث رقم (٢٧١٣).

مع أنه لا بد أن يكون للورثة نصيب؟ الجواب: يظهر هذا في المثال: امرأة أوصت بثلثها ولها زوج وأخت شقيقة، لو لم تكن وصية لكان للزوج النصف كاملاً، وللشقيقة النصف كاملاً، أما الآن وقد صارت الوصية فنقول: المسألة من ثلاثة: للموصى له واحد، وللزوج نصف الباقي واحد، وللأخت الشقيقة واحد، فالآن صار حقيقة الأمر أن الزوج لم يكن له إلا ثلث، والأخت الشقيقة لم يكن لها إلا ثلث، والوصية ما نقصت؛ لأنه أوصى بالثلث، وأعطى الموصى له الثلث، لكن الزوج لم يبق له إلا الثلث، بينما لولا الوصية لورث النصف، هذا هو وجه تقديم الوصية على الميراث؛ لأنه ليس معنى قولنا: تقديم الوصية على الميراث أنه لا يرث الورثة مع الوصية، بل المعنى: أنه لو كان هناك نقص فالنقص على الورثة دون الوصية. والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

❁ ❁ ❁

وبذلك انتهت الدروس العلمية المسجلة التي كان يلقيها فضيلة شيخنا
محمد بن صالح العثيمين في تفسير سورة النساء
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.
رحم الله شيخنا رحمة الأبرار، وأسكنه فسيح جناته، ومَنَّ عليه بمغفرته ورضوانه
وجزاه عما قدم للإسلام والمسلمين خير الجزاء.

فهرس الفوائد

الفوائد	الصفحة
السيئة والحسنة من الله خلقاً وتقديراً، والسيئة من الإنسان سبباً	٥
تفسير قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ...﴾	٥
الجملتان الشرطيتيان في الآية، وردّ الإشكال فيهما	٥
من فوائد الآية الكريمة	٧
الاحتجاج بالسنّة الصحيحة المثبتة احتجاجنا بالقرآن	٧
جواز تخصيص القرآن بالسنّة، ولكن هل يجوز نسخ القرآن بالسنّة؟	٧
وجهان لإثبات رسالة النبي ﷺ ..	٨
هل للنبي ﷺ أن يجتهد؟	٨
إثبات العظمة لله بالإتيان بضمير الجمع في الآية	٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ...﴾	٩
معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾	١٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾	١٠
ما تفيده الجملة الخبرية في الآية ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ ..	١٠
معاني التوكل على الله	١١
من فوائد الآية الكريمة	١١
بطلان التّقية التي يتخذها الرافضة ديناً	١٢
إثبات الفعل لله عزّ وجل	١٢
أفعال الله أفعال اختيارية على خلاف ما يقول به أهل التعطيل	١٣
الإعراض عن الميئوس من صلاحه	١٣
هل يجوز أن نكل أمورنا إلى أحد من البشر؟	١٤
من توكّل على الله كفاه	١٤
تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ...﴾	١٥
إعراب الآية	١٥
حالات جواب «لو» في حالة الإثبات في اقتران اللام به ..	١٥
معنى قوله تعالى: ﴿يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾	١٦

الفوائد	الصفحة
أصل معنى القرآن	١٦
معنى قوله تعالى: ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾	١٦
من فوائد الآية الكريمة	١٧
آيات الصفات، والردّ على من قال بتجهيل معناها	١٧
ليس معنى إثبات آيات الصفات إثبات المثل	١٧
آيات الصفات معلومة المعنى، ولكن بدون تمثيل	١٨
هل يمكن إثبات معنى بدون تمثيل؟	١٨
لا تناقض أو تعارض في القرآن .	١٨
قصور الفهم وسوء القصد والتقصير في طلب العلم مدعاة لتوهم التعارض في القرآن	١٩
اختلاف أقوال الأئمة والإمام الواحد في المسألة الواحدة لزيادة علمه ..... ١٩،	٢٠
القرآن كلام الله غير مخلوق	٢٠
إثبات العندية لله	٢٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾	٢١
إعراب الآية	٢١
«لو» و«لولا» و«لما»	٢١
الجناس غير التام في قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ﴾	٢٢
معنى قوله تعالى: ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ .	٢٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾	٢٣
معنى قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾	٢٣
أصل الاستنباط	٢٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ...﴾	٢٣
ليس المراد بالرحمة صفتها وإنما ثمرتها	٢٣
من فوائد الآية الكريمة	٢٤
التيقن من الخبر قبل إذاعته	٢٤
لم ينه الله عن شيء إلا أعقبه بالبديل أو بوجه آخر مباح ..	٢٤
أتبعْ ذكرك للمحرّم ذكرك ما يُستغنى به عنه من الحلال ..	٢٥
اختلاف الأمة ليس برحمة، والحديث المستشهد به غير صحيح	٢٥
تسويغ معنى الحديث في أن المختلفين مرحومون فيما يسوغ فيه الخلاف	٢٦
الموازنة بين المفاسد والمصالح بعد التحقق من الخبر وقبل إذاعته	٢٧
العلماء في مقدمة أولي الأمر بالجديرين بالطاعة، والأمراء لهم تبع	٢٧

الفوائد	الصفحة
إمعان التثبت والتيقن بالنظر العميق	٢٧
ليس أمامنا إلا سبيلان: سبيل السنّة، وسبيل الضلال، وهذا يرد على المعتزلة القائلين بالمنزلة بين المنزلتين	٢٨
كيف نفرق بين طريق الشيطان وطريق الرحمٰن؟	٢٨
تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾	٢٨
معنى قوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ...﴾	٢٩
الإشكال في نصب ﴿نَفْسَكَ﴾ وتوضيحه	٢٩
«عسى» من الله واجبة، وحتمية الوقوع	٢٩
معنى قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ...﴾	٢٩
من فوائد الآية الكريمة	٣٠
قتالنا الكافرين، هل هو قتال طلب أم قتال دفاع؟	٣٠
دوافع القتال ودواعيه .....٣٠،	٣١
كل ما ليس في سبيل الله فهو في سبيل الطاغوت	٣١
ابدأ بنفسك فانهها عن غيّها	٣٢
لا تنس حق إخوانك	٣٢
أعمال العباد مخلوقة لله عزّ وجل	٣٣

الفوائد	الصفحة
الإرادة والقدر مسئولتان عن وقوع أفعال العباد، وهما نابعتان من ذات الإنسان التي خلقها الله تعالى	٣٣
هل الإنسان مجبر أم مخيّر؟	٣٣
الإنسان مخيّر، ولكنه لا يخرج عن المشيئة التي هي غيب ..	٣٤
بأس الكافرين وقوتهم لا يقاس بقوة الله	٣٤
جواز استعمال اسم التفضيل في الصفات المشتركة بين الله وبين الخلق	٣٥
تفسير قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً ...﴾	٣٦
معنى الشفاعة لغةً واصلاحاً	٣٦
معنى قوله تعالى: ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾	٣٧
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾	٣٧
معنى قوله تعالى: ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾	٣٧
الخلاف بين «النصيب» و«الكفل»	٣٧
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾	٣٨
كان في الآية مسلوبة الزمن دالة على الوصف	٣٨
من فوائد الآية الكريمة	٣٨

الفوائد	الصفحة
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ ...﴾	٣٩
إعراب الآية	٣٩
معنى التحية	٣٩
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾	٤٠
من فوائد الآية الكريمة	٤٠
وجها ردّ التحيّة: مجزئ وأفضل	٤٠
رد التحية للمسلم والكافر الصغير أو الكبير	٤٠
الرد بغير السلام لا يجزئ	٤١
الرد الأكمل للسلام كمّاً وكيفاً ..	٤١
الاستنكاف عن رد التحية بمثلها وأحسن يعرض المرء لمحاسبة الله	٤٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ...﴾	٤٢
إعراب الآية	٤٢
النفي في الآية: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بمعنى الطلب، أم هو خبر على ظاهره؟	٤٢، ٤٣
معنى الإله	٤٣
معنى قوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ...﴾	٤٤
سبب التأكيد في قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾	٤٤، ٤٥
سبب تسمية ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بهذا الاسم	٤٥
معنى قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾	٤٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾	٤٦
إتيان النفي بصيغة الاستفهام يفيد التحدي	٤٦
من فوائد الآية الكريمة	٤٦
أنواع التوحيد ومنكروها	٤٦
إثبات الكلام عزّ وجل	٤٧
وجوب الإيمان بما أخبر الله به عن نفسه من الغيب	٤٧
هل كلام الله حادث؟ وما الدليل؟	٤٨
تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ...﴾	٤٩
اختلاف الصحابة في المنافقين العائدين من «أُحد»	٤٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ...﴾	٥٠
معنى قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾	٥٠
الخطاب في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ بالإفراد، وفيما قبله بالجمع، فما التفسير؟	٥١
من فوائد الآية الكريمة	٥١
ذمّ الاختلاف	٥١
إثبات الأسباب، والخلاف في تفسيرها	٥١، ٥٢

الفوائد	الصفحة
الأسباب لا تؤثر بذاتها، ولكن بما أودع الله فيها من قوة ...	٥٢
الرد على الجبرية في قولهم: «الإنسان لا كسب له»	٥٣
الرد على القدرية في قولهم أنه لا علاقة لتقدير الله بأفعال العباد	٥٣
لا حجة للعاصي في معصيته، وضلال المرء صادر عن إرادته	٥٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ ...﴾	٥٤
تفصيل معاني الحروف في كتاب «المغني» لابن هشام	٥٥
كفر المنافقين كفر مستور وخطره عظيم	٥٥
معنى قوله تعالى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾	٥٥
معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾	٥٦
معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	٥٦
«حتى» متى تكون للغاية ومتى تكون علّة	٥٦
معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ...﴾	٥٦
معنى قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	٥٧
إضافة السبيل والصراط إلى الله يوضح أن الله هو واضعهما لعباده وأنهما موصلان إليه سبحانه ..... ٥٧،	٥٨
معنى قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ ..	٥٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾	٥٨
الفرق بين الولي والنصير	٥٨
من فوائد الآية الكريمة	٥٨
تشارُك المجرمين في عذاب الدنيا يهون عليهم أما في الآخرة فلا	٥٩
التخاذل عن الهجرة في سبيل الله قدحٌ في صدق إيمان المرء ..	٥٩
عقد الأحلاف مع غير المسلمين، هل يجوز؟ أم يتعارض مع تولي الكفار؟ ...	٦٠
تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ...﴾	٦٠
معنى قوله: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾	٦١
معنى قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ...﴾	٦١
معنى قوله: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ ...﴾	٦٢
من فوائد الآية الكريمة	٦٢

الفوائد	الصفحة
المسالمة لمن سالمنا، وهل يشترط تقييد الهدنة بزمن محدد، عشر سنوات مثلاً أو يجوز إطلاق مدتها؟	٦٢
أفعال العباد واقعة بمشيئة الله ...	٦٣
من ألقى السلاح وجب الكف عنه	٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾	٦٤
الفرق بين أداتي التنفيس: السين وسوف	٦٤
معنى قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾	٦٥
معنى قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ ...﴾	٦٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ ...﴾	٦٥
بداية الآيات بالمنافقين وأشباههم وانتهائها بهم	٦٦
هل يمكن الجمع بين العداوة والولاية في شخص معين؟ ..	٦٦
الإيمان والكفر قد يجتمعان ولكن ليس مطلق الإيمان ومطلق الكفر	٦٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾	٦٨
إعراب الآية	٦٨
الإيمان لغةً وشرعاً	٦٨
معنى القتل	٦٨
الفرق بين الخاطئ والمخطئ	٦٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا ...﴾	٦٩
المراد بتحرير الرقبة	٦٩
وصف الرقبة بالمؤمنة، ماذا يعني؟	٦٩
معنى قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ ...﴾	٧٠
معنى قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ ...﴾	٧٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ...﴾	٧٠
المراد بالأهل الذين يتسلمون الدية	٧١
معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾	٧١
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾	٧١
ما معنى العلم ومعنى الحكمة ...	٧٢
من فوائد الآية الكريمة	٧٢
قتل المؤمن للمؤمن عمداً لا يجوز	٧٢
هل يجوز القتل العمد لغير المؤمن؟	٧٣
قتل الخطأ يوجب شيئين: العتق والديّة	٧٣

الفوائد	الصفحة
الاسترقاق في الإسلام له دواعيه، ومشجعات العتق والتحرير كثيرة	٧٤
اشتراط الإيمان في عتق الرقبة في القتل، هل يلحق كل رقبة؟	٧٤
هل يجزئ إعتاق الرقبة الكافرة في كفارة القتل	٧٥
هل يشترط في الرقبة المعتَقَة السلامة من العيوب الجسدية كما اشترط فيها السلامة من العيوب الشرعية؟	٧٥
هل يجوز إرجاء الديّة أم تُسلَّم على الفور؟	٧٦
هل الدية واجبة على القاتل بالأصالة وعلى غيره بالتبعيّة؟	٧٦
ما مقدار الديّة؟	٧٧
إبراء الفقير من دينه، واحتسابه من الزكاة لا يجزئ	٧٨
جواز العفو عن الجاني إن كان فيه إصلاحاً	٧٨
قتل المعاهد حرام	٧٨
دية الكافر المعاهد ليست كدية المسلم، فما مقدارها (حدّها)؟	٧٨
الدية في الخطأ لا تجب على القاتل، فعلى من تجب؟	٧٩
إن لم يجد الرقبة أو ثمنها أو حتى لم يستطع صيام شهرين متتابعين، ماذا يفعل؟	٧٩
هل يصح قياس كفارة القتل على كفارة الظهار؟	٨٠
يلزم مع كفارة القتل الخطأ توبة .	٨٠
هل تجب الكفارة في القتل العمد؟	٨٠
أهل الدية إذا عفوا، هل تسقط الكفارة؟	٨١
إثبات اسمين من أسماء الله: العليم، الحكيم	٨١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ ...﴾	٨١
ما هي دواعي التعمد وصوره؟ ..... ٨١،	٨٢
معنى قوله تعالى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾	٨٢
سبب تسمية النار بـ جهنم	٨٢
معنى قوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾	٨٢
من فوائد الآية الكريمة	٨٣
تفسير ما نسب إلى ابن عباس رضي الله عنهما من أن قاتل المؤمن عمداً لا توبة له	٨٣
العمد يشمل ما إذا قصد مؤمناً بعينه أو من كان في وصفه من المؤمنين	٨٤

الفوائد	الصفحة
لا يشترط العلم بالعقوبة لإقامة القصاص	٨٤
قاتل المؤمن عمداً يخلد في النار، فهل يعني الخلود الديمومة والأبدية؟	٨٦
الغضب صفة قائمة بالله عزّ وجل	٨٧
الغضب من الشيطان، فكيف نثبته لله عزّ وجل؟	٨٧
الفرق بين غضب المخلوق وغضب الخالق	٨٧
الغضب بالنسبة لله تعالى صفة كمال لا صفة نقص	٨٨
هل يجوز أن نلعن القاتل بعينه؟ .	٨٨
النار التي يعذب بها الكافرون موجودة الآن	٨٨
إذا كان ورثة المؤمن المقتول كفاراً فلا دية لهم	٨٩
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ . . .﴾	٨٩
دلالة تصدير الخطاب بالنداء للمؤمنين	٨٩
مناسبة نزول قوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ وأوجه القراءة فيها	٩٠
ينبغي أن تكون الغيرة مضبوطة بحد من الشرع والعقل	٩١
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا . . .﴾	٩١
الواجب إجراء الأحكام في الدنيا على ظاهر الحال	٩١
أوجه القراءة في قوله: ﴿أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾	٩١
ضرورة الاعتناء بعمل القلب أكثر من الاعتناء بعمل الجوارح .	٩٢
معنى قوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾	٩٢
الدنيا عَرَض زائل	٩٢
معنى قوله تعالى: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾	٩٢
معنى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾	٩٣
معنى قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾	٩٣
الشكر ليس ثمناً للنعمة، والتوفيق للشكر ـ في ذاته ـ نعمة	٩٣
عملنا لله من إحسانه علينا	٩٤
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ .	٩٤
الفرق بين الخبير والعليم	٩٤
من فوائد الآية الكريمة	٩٥
توجيه الخطاب من الله للمؤمنين شرف لهم	٩٥

الفوائد	الصفحة
التثبت مطلوب في الأمور جميعها	٩٥
معاملة الناس بظواهرهم وإيكال البواطن لله علّام الغيوب	٩٥، ٩٦
تفسير النبي ﷺ لمعنى الباطن ...	٩٧
مراقبة الله تقتضي أن يستحضر المرء ربّه في أموره كلها	٩٧
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ . . .﴾	٩٨
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾	٩٨
خطورة تحديث الناس بما لا يعرفون من أوجه القراءة	٩٨، ٩٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ ...	٩٩
تعريف المجاهد	١٠٠
متى نحجم عن الجهاد؟	١٠٠
معنى قوله تعالى: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ .	١٠١
علّة تقديم الجهاد بالأموال على الجهاد بالنفس	١٠١
عظم درجة المجاهدين في سبيل الله	١٠١
معنى قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾	١٠١، ١٠٢
معنى قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ . . .﴾ ..	١٠٢
دلالة اجتماع المغفرة والرحمة في الآية	١٠٢
من فوائد الآيتين الكريمتين	١٠٣
الإسلام ليس دين المساواة ولكنه دين العدل	١٠٣
خطورة القول بأن الإسلام دين المساواة وما يترتب عليه	١٠٣، ١٠٤
كل من تخلّف عن عبادة لعذر كتب له أجرها	١٠٤
الجزاء من جنس العمل، وتفاضل الجزاء يدل على تفاضل العاملين	١٠٥
بلاغة القرآن في الاحتراس، ودفع ما يتوهم وقوعه	١٠٥
البشارة العامة للمؤمنين	١٠٥
رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في جواز الشهادة لمن اتفقت الأمة على الثناء عليه	١٠٦
العطاء يعظم بعظم المعطي	١٠٧
إثبات المغفرة لله	١٠٧
إثبات الرحمة لله، والرحمة نوعان: منها ما هو صفة لله، ومنها مخلوق من مخلوقات الله	١٠٨
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ . . .﴾	١٠٩
معنى قوله: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾	١٠٩
أصل لفظة: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾	١٠٩
معنى قوله تعالى: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾	١٠٩

الفوائد	الصفحة
معنى قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾	١١٠
معنى قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ ...	١١٠
توجيه «الفاء» في قوله تعالى: ﴿فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ هل الفاء عاطفة أم سببية	١١٠
الهجرة مفهومها: لغةً وشرعاً	١١١
من فوائد الآية الكريمة	١١١
الملائكة تتوفي بني آدم بأمر الله .	١١١
هل يراد بملك الموت جنس الملك أم عَيْنُه؟	١١٢
الملائكة أجسام يقومون ويفعلون ويصعدون وينزلون بإذن ربهم	١١٣
العبرة في الأعمال بالخواتيم	١١٣
من لم يهاجر يموت ظالماً لنفسه	١١٤
شروط وجوب الهجرة ... ١١٤،	١١٥
هل الدعوة سبب من الأسباب التي يهاجر الإنسان من أجلها؟ ...	١١٥
دلالة لفظة «جهنم»	١١٧
الجهاد فرض كفاية	١١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ...﴾	١١٧
الفرق بين الاستثناء المتصل والمنقطع ..... ١١٧،	١١٨
معنى قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾	١١٨
معنى قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ...﴾	١١٩
متى تكون «عسى» للترجِّي، ومتى تكون للتوقّع؟	١١٩
متى يكون العفو ممدوحاً ومتى يكون مذموماً؟	١٢٠
من فوائد الآيتين الكريمتين	١٢٠
هل يجوز استعمال الحيل؟ وتفصيل القول في ذلك	١٢١
إثبات اسمي: العفو والغفور لله تعالى، ومعناهما	١٢٢
إثبات الصفتين الدال عليهما اسما: العفو والغفور	١٢٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾	١٢٢
إعراب الآية	١٢٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ...﴾	١٢٣
معنى قوله تعالى: ﴿مُرَٰغَمًا﴾	١٢٤
هجرة الصحابة للحبشة	١٢٤
قصة هجرة أبي بصير عزّ وجل من مكة إلى النبي ﷺ بعد صلح الحديبية ..... ١٢٤،	١٢٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ﴾ وسبب نزولها	١٢٦
الهجرة إلى الله بالإخلاص وإلى رسوله بالاتباع	١٢٦
معنى قوله تعالى: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾	١٢٦

الفوائد	الصفحة
أصل لفظة «الله»	١٢٧
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾	١٢٧
من فوائد الآية الكريمة	١٢٧
فضل الله على عبده أكثر من عمل عبده له	١٢٧
أجر من سعى في الهجرة ثم أدركه الموت ثابت وكامل ..	١٢٨
الثواب لا قياس فيه	١٢٨
من شرع شروعاً صادقاً في عمل الصالحات ثم أدركه الموت كتب له أجر نيّته	١٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾	١٣٠
معنى قوله تعالى: ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾	١٣١
معنى قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ...﴾	١٣١
من فوائد الآية الكريمة	١٣٢
تيسير الله على العباد حين يوجد سبب يقتضي ذلك	١٣٢
قصر الصلاة ليس واجباً	١٣٢
أدلة القائلين بوجوب قصر الصلاة في السفر	١٣٣
إتمام عثمان رضي الله عنه الصلاة في «منى» ومتابعة الصحابة له يفيد أن القصر ليس بواجب	١٣٤
قصر الصلاة ثابت في كل ما يسمى ضرباً دون التقييد بزمن	١٣٤
في حالة اختلاف العرف نرجع للتحديد بالفراسخ أما إن أمكن ضبط العرف فلا نعدل عنه، وذلك في مسألة قصر الصلاة في السفر	١٣٥
يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن المرجع الأول في مسألة قصر الصلاة هو العرف	١٣٦
الدليل على أن قصر الصلاة في السفر لا يتقيد بزمن معيّن، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ..... ١٣٦،	١٣٧
اختلاف العلماء في تحديد زمن قصر الصلاة في السفر ١٣٧،	١٣٨
لا يشترط لجواز قصر الصلاة الخوف، والدليل عليه	١٣٨
القيد إذا كان بناءً على الغالب فإنه لا مفهوم له	١٣٨
نوعا القصر: قصر عدد وقصر صفة	١٣٩
الخوف له أثره في تغيير الأحكام الشرعية	١٤٠
عداوة الكفار بينة وواضحة للمسلمين	١٤٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾ ...	١٤١

الفوائد	الصفحة
حكم الصلاة حال الخوف وكيفيتها عند التقاء الصفين في القتال	١٤١
لام الأمر تسكن إذا وضعت بعد الفاء أو الواو أو ثمّ	١٤٢
السلاح وأقسامه	١٤٣
السجود أفضل أركان الصلاة	١٤٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ ...﴾	١٤٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾	١٤٤
معنى قوله تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ ...﴾	١٤٤
متى تأتي «لو» مصدريّة؟	١٤٤
معنى قوله تعالى: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾	١٤٤
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى ...﴾	١٤٥
من فوائد الآية الكريمة	١٤٥
خطاب الرسول ﷺ هل يشمله والأمّة أم يختص به؟	١٤٦
هل صلاة الخوف لا تشرع بوجهها المذكور في الآية إلا في حياة النبي ﷺ؟	١٤٧
صلاة الجماعة واجبة على الأعيان لا على الكفاية	١٤٧
خروج صلاة الخوف في صفة من صفاتها عن المألوف في الصلاة المعتادة	١٤٧
الراجح أنه يجب حمل السلاح في صلاة الخوف ولا يُترك إلا لعذر	١٤٨
الرخصة في حمل النجاسة حال صلاة الخوف	١٤٨، ١٤٩
فائدة: من لم يجد إلا ثوباً نجساً يصلي فيه ولا يعيد	١٤٩
جواز انفراد الإنسان عن الإمام لعذر	١٥٠
جواز إقامة جماعتين في مكان واحد للحاجة	١٥١
الفرق بين الطائفتين في صلاة الخوف	١٥١
حرص الكفّار على منع المسلمين من التسلح	١٥٢
تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ﴾	١٥٣
معنى القضاء	١٥٣
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾	١٥٤
معنى قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾	١٥٤
معنى قوله تعالى: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾	١٥٤

الفوائد	الصفحة
من فوائد الآية الكريمة	١٥٤
الجمع بين الآية: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وآية سورة الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ ودفع توهّم التعارض	١٥٤
الدعاء لا يشرع عقب التسليم بل الذكر والاستغفار	١٥٥
الكفار مخاطبون بفروع الإسلام ولكن لا يلزمون بها إلا بعد إسلامهم	١٥٦
الصلاة موقتة وحددت السنة مواقيتها تفصيلاً	١٥٧
من منتصف الليل إلى طلوع الفجر ليس وقتاً لفريضة مكتوبة	١٥٨
الوقت مقدّم على كل شيء وإدراكه مطلوب على أي حال	١٥٨
مسألة: رجلان تركا صلاة الفجر حتى طلوع الشمس، أحدهما عمداً، والآخر لعذر النوم؛ فأيهما يؤاخَذ، وأيهما يصلي؟	١٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ...﴾	١٦٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾	١٦١
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾	١٦١
احتمال اللفظ لمعنيين لا يتنافيان فإن يُحمل عليهما جميعاً	١٦٢
أقسام الحكمة	١٦٣
الحكمة في حكم الله الشرعي وفي حكمه الكوني	١٦٤
من فوائد الآية الكريمة	١٦٤
من بشرى الإنسان أن يوفق للعبادة وأن يوفق للدعاء	١٦٥
متى يغلب المرء جانب الرجاء ومتى يغلب جانب الخوف؟ .	١٦٦
النهي عن أن يقال فلان شهيد ما لم يشهد له الرسول أو القرآن بذلك	١٦٧
شهادة الرسول ﷺ لعمر رضي الله عنه بالشهادة	١٦٧
شهادة الرسول ﷺ لثابت بن قيس بالشهادة	١٦٨
قصة قتل ثابت بن قيس وموطن الغرابة فيها	١٦٨
ليس هناك أحد نُفذت وصيته بعد موته إلا ثابت بن قيس	١٦٩
هل نشهد للحريق والغريق والمطعون ومن مات بهدم بالشهادة	١٦٩
إثبات اسمي: العليم والحكم لله تعالى وما تضمناه من صفة ..	١٧٠
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ...﴾ .	١٧٠

الفوائد	الصفحة
لِمَ سمّي القرآن بالكتاب؟	١٧١
معنى قوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾	١٧٢
معنى قوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾	١٧٢
الخيانة مذمومة بكل حال بخلاف المكر والخديعة فتحمد وتذم حسب موضعها	١٧٣
من فوائد الآية الكريمة	١٧٣
من صور تعظيم صحابة رسول الله ﷺ له	١٧٤
القرآن كلام الله غير مخلوق	١٧٤
جواز كتابة القرآن	١٧٥
على أي حرف يكتب القرآن؟ ووفق أي رسم؟	١٧٥
لم يجوّز أحد تحوير كلمات القرآن على شكل رسوم وإن حسُنت النوايا	١٧٦
التمسك بالقرآن مقام العزة والتمكين	١٧٧
إثبات العلل في أفعال الله الشرعية والكونية	١٧٧
الرد على من أنكر أن يكون فعل الله تعالى أو حُكمه بحكمه	١٧٧
النبي ﷺ مفوّض في الحكم بين الناس بما يراه الله، وله أن يجتهد وإن خالف الواقع فلا شيء عليه	١٧٨
المحاماة والدفاع للانتصار لغير الحق لا تجوز	١٧٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ...﴾	١٨٠
من فوائد الآية الكريمة	١٨٠
هل يمكن أن يقع الذنب من النبي ﷺ؟	١٨٠
استنباط: ينبغي لمن استُفْتى أن يقدِّم بين يدي فتواه الاستغفار	١٨١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ...﴾	١٨٢
معنى المجادلة	١٨٢
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ .	١٨٣
من فوائد الآية الكريمة	١٨٣
الخائن لغيره خائن لنفسه في الحقيقة ..... ١٨٣،	١٨٤
معنى المحبة والفرق بين محبة الله، ومحبة سائر الناس بعضهم بعضاً	١٨٤
مفهوم المحبة عند ابن القيّم	١٨٥
تفسير المحبة بالثواب غير صحيح	١٨٥
الخيانة من الكبائر لذا وجب التحذير منها	١٨٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ ...﴾	١٨٦

الفوائد	الصفحة
معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾	١٨٦
المعية في الآية، وهل هي معية حقيقية؟	١٨٧
من فوائد الآية الكريمة	١٨٨
التقديم في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ يفيد شدة الوعيد ولا يعني الاختصاص	١٨٩
أقسام معيّة الله	١٨٩، ١٩٠
هل المراد بالمعيّة حقيقتها أم لوازمها؟	١٩٠
تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ ...﴾	١٩١
معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾	١٩٢
الاستفهام إذا جاء في موضع النفي فإنه يكون أبلغ من النفي المجرد	١٩٢
من فوائد الآية الكريمة	١٩٣
تحريم المحاماة إن كان فيها دفاع عن الباطل	١٩٣
المجادلة بالباطل لا تنفع صاحبها يوم القيامة	١٩٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾	١٩٤
شروط التوبة الخمسة	١٩٥
الاستغفار يكون بالحال والمقال	١٩٥
معنى المغفرة وأصل اشتقاقها اللغوي	١٩٥
الرحمة تطلق على الرحمة الصفة لله تعالى، وعلى آثارها التي هي خلقُه	١٩٦
أقسام الرحمة عند أهل العلم	١٩٦
إنكار الأشاعرة لوصف الله تعالى بالرحمة، والردّ عليهم	١٩٧
من فوائد الآية الكريمة	١٩٨
تصحّ التوبة من الذنب ولو تكرر	١٩٩
المعاصي ظلم للنفس	١٩٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ...﴾	٢٠٠
سبب نزول الآيات (قصة سارق الدرع الذي رمى اليهودي بسرقته)	٢٠١
من فوائد الآية الكريمة	٢٠١
المرء يتحمل وزر ما اقترف من إثم، لا يحمله غيره	٢٠١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ...﴾	٢٠٢
الفرق بين الخطيئة والإثم	٢٠٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾	٢٠٣
من فوائد الآية الكريمة	٢٠٤
السيئات تتضاعف بتعدد أوصافها وكذا الحسنات	٢٠٤

الفوائد	الصفحة
التحذير من رمي الناس بالخطايا والآثام بلا بيّنة	٢٠٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ ...﴾	٢٠٥
بيان: لولا، و«لو»، و«لمّا»	٢٠٥
معنى قوله تعالى: ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾	٢٠٦
الحروف الزائدة إعراباً ومعنىً	٢٠٧، ٢٠٨
أوجه التفسير في معنى القرآن والحكمة	٢٠٨
وصف الرسول ﷺ بالأميّ وصف ثناء لا قدح	٢٠٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾	٢٠٩
من فوائد الآية الكريمة	٢٠٩
إثبات الرحمة الخاصة لله تعالى .	٢٠٩
النبي يحتاج لرحمة الله وفضله	٢٠٩، ٢١٠
من فضل الله عليك أن يصرفك عن الضلال بسبب أو بغير سبب	٢١٠
الحذر من الاغترار بظاهر الحال وحده	٢١٠
من أراد إضرار الخلق فإنما يضر نفسه	٢١٠
إثبات علوّ الله الذاتي والمعنوي .	٢١١
الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ينكرون العلو الذاتي خلافاً لأهل السلف	٢١١
الرد على من أنكر العلو الذاتي .	٢١١
القرآن كلام الله	٢١٢
تفسير الحكمة التي أوتيها النبي ﷺ	٢١٣
تفسير الشيخ للحكمة بأنها الأسرار التي اشتملت عليها شريعة النبي ﷺ وما جاء به القرآن	٢١٣
شرف العلم وطلبه	٢١٤
هل علم النبي ناقصاً قبل أن يعلمه الله؟	٢١٤
الرسول لا يعلم الغيب	٢١٥
أعظم فضل يتفضل الله به على العباد هو العلم	٢١٦
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ ...﴾ .	٢١٦
معنى النجوى	٢١٧
الفرق بين المعروف والصدقة	٢١٧، ٢١٨
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾	٢١٩
من فوائد الآية الكريمة	٢١٩
الميزان فيما فيه خير، وما لا خير فيه	٢١٩
فضيلة الأمر بالمعروف	٢٢٠

الفوائد	الصفحة
إثبات الرضا لله عزّ وجل، وهو صفة فعلية	٢٢١
أهل التعطيل كالأشاعرة والمعتزلة والجهمية وأشباههم ينكرون إثبات صفة الرضا لله عزّ وجل	٢٢٢
ما أثبته الله لنفسه أثبتناه وما نفاه عن نفسه نفيناه	٢٢٣
لا ينبغي استعجال الثواب فقد يؤخره الله لحكمة	٢٢٣
فضل الله عزّ وجل على عباده حيث سمى ثوابهم على العمل أجراً	٢٢٤
الله تعالى يوجب على نفسه وهذا من كماله سبحانه، ولا واجب على الله للعباد إلا بما أوجبه على نفسه	٢٢٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ ...﴾	٢٢٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ...﴾	٢٢٦
عقوبة من يتبع غير سبيل المؤمنين	٢٢٧
من فوائد الآية الكريمة	٢٢٧
العذر بالجهل	٢٢٨
لا تقوم الحجة مع التردد	٢٢٨
الاحتجاج بالإجماع: الأمة إذا أجمعت على شيء فهو حق .	٢٢٨
لا تجتمع الأمة على ضلالة	٢٢٩
تحقيق الإجماع ليس بالأمر اليسير، مثال: شهادة العبد .	٢٢٩
تساهل بعض العلماء في نقل الإجماع، والمسألة تحتاج لتحرير	٢٣٠
الإجماع لا يكون إلا بالمجتهدين ولا اعتبار للعوام والمقلدين	٢٣١
الذنب سبب لذنب آخر هو عقوبة للذنب الأول	٢٣٢
النار موجودة مؤبدة، وهذا ما عليه أهل السنّة والجماعة، والشذوذ خلافه لا عبرة له ..	٢٣٢
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ...﴾	٢٣٢
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ ...	٢٣٣
تفسير قوله تعالى: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا ...﴾ ..	٢٣٣
أحوال «إن»	٢٣٤
معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾	٢٣٥
هل الشياطين أقسام؟	٢٣٦
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ...﴾	٢٣٦
معنى قوله تعالى: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ والمؤكدات الثلاثة	٢٣٧

الفوائد	الصفحة
هل المراد بالعباد بنو آدم؟	٢٣٧
أمانيّ الشيطان لبني آدم	٢٣٨
معنى قوله تعالى: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ودلالة فاء العطف	٢٣٩
إعراب الآية	٢٣٩
الأنعام تطلق على: الإبل والبقر والغنم	٢٤٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾	٢٤٠
ما المراد بقوله تعالى: ﴿خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ وأقوال العلماء فيها ...	٢٤٠، ٢٤١
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا ...﴾	٢٤١
تفسير قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ...﴾	٢٤٢
من فوائد الآيات الكريمات	٢٤٢
بيان حقيقة الأصنام ووهنها	٢٤٢
إضلال الشيطان لبني آدم وغوايتهم	٢٤٣
قسم الشيطان بأن يتخذ من عباد الله نصيباً مفروضاً	٢٤٣
إثبات القول للشيطان	٢٤٣
الحذر من الأمانيّ الكذوب	٢٤٤
تحريم قطع آذان الأنعام على الوجه القائم في الجاهلية ...	٢٤٤
الأصل في تغيير خلق الله المنع .	٢٤٤
هل صبغ الشيب بالسواد من تغيير خلق الله؟	٢٤٤
هل يدخل في تغيير خلق الله حلق اللحية؟	٢٤٥
كل من عصى الله فإنه موال للشيطان موالاة عامة أو خاصة	٢٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾	٢٤٦
من فوائد الآية الكريمة	٢٤٦
من أطاع الشيطان في بعض المعاصي يخلد في النار بقدر معصيته ثم يخرج منها .	٢٤٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾	٢٤٧
الموازنة بين الخوف والرجاء في السياق القرآني	٢٤٧
الإيمان وحده لا يكفي، بل يجب أن يتبع بالعمل الصالح	٢٤٧
الأعمال الصالحات هي ما كان خالصاً صواباً	٢٤٨
متى تتحقق في العمل متابعة الشرع؟	٢٤٨
موافقة العمل أو العبادة للشرع في: السبب، والجنس، والقدر، والهيئة، والزمان، والمكان	٢٤٨، ٢٥٠
معنى قوله تعالى: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ .	٢٥٠

الفوائد	الصفحة
معنى قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾	٢٥١
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾	٢٥٢
من فوائد الآية الكريمة	٢٥٢
الشهادة لمعيَّن بالجنة لا تكون إلا لأحد ثلاثة	٢٥٣
المبشرون بالجنة	٢٥٣
الله يقول، والقول إذا أطلق يراد به القول المسموع	٢٥٥
المذاهب في كلام الله ذكرها ابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة	٢٥٥
جواز وضع اسم التفضيل بين صفات الله وصفات خلقه ...	٢٥٦
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾	٢٥٧
من فوائد الآية الكريمة	٢٥٨
التمني لا يجدي شيئاً	٢٥٨
العدل بين المتخاصمين	٢٥٩
من عمل سوءاً فهو مجزيٌّ به في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما	٢٥٩
المصائب في الدنيا كفارات	٢٦٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾	٢٦١
متى تقع «من» زائدة؟	٢٦١
أوجه القراءة في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾	٢٦٢
الإظهار في موضع الإضمار في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ ودلالته	٢٦٢
الفتيل والنقير والقطير	٢٦٣
من فوائد الآية الكريمة .. ٢٦٣،	٢٦٤
متى نغلّب الخوف، ومتى نُغلِّب الرجاء؟	٢٦٤
قدِّر لنفسك صلاحها في الموازنة بين الخوف والرجاء	٢٦٤
الرجال والنساء متساوون في استحقاق الجزاء	٢٦٥
صلاح العمل من شروط قبوله ..	٢٦٥
ينبغي للعمل الصالح أن يحاط بالإخلاص والإيمان ومتابعة الشرع ..... ٢٦٥،	٢٦٦
كلما كان إيمانك صريحاً كلما ناوشتك سهام الشيطان بشرك أو شكّ	٢٦٦
الاستعاذة بالله من الشيطان حصن لطرد وساوسه	٢٦٦
يجوز أن نشهد لكل من عمل صالحاً في إيمان بأنه في الجنّة، وذلك بلا تعيين والكفر كذلك	٢٦٧
خطر من يسقط التعميم على فردٍ معيّن ..... ٢٦٧،	٢٦٨

الفوائد	الصفحة
نفي الظلم عن الله تعالى نفي كمال لله، مع إمكانه ولكن عدل الله يمنعه	٢٦٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ ...﴾	٢٦٨
من فوائد الآية الكريمة	٢٧٠
الخُلة أعلى رتبة من المحبة لاختصاص إبراهيم ومحمّد عليهما السلام بها	٢٧١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ...﴾ .	٢٧٢
علّة الإتيان بـ «ما» التي لغير العاقل في الآية	٢٧٢
«ما» للأعيان والأوصاف فتعم العاقل وغيره ..... ٢٧٢،	٢٧٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾	٢٧٣
من فوائد الآية الكريمة	٢٧٤
الأرض ـ في الظاهر ـ واحدة، ولكن السنّة صرحت بأن الأراضين سبع وكذا القرآن .	٢٧٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾	٢٧٥
معنى الإفتاء والفرق بينه وبين القضاء	٢٧٥
معنى قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ...﴾ وسبب نزولها	٢٧٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ...﴾ .	٢٧٧
معن قوله تعالى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ والبلاغة في تقدير معنى «أن»	٢٧٧
معنى قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾	٢٧٧
معنى قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾	٢٧٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ ...﴾	٢٧٨
معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾	٢٧٨
أقسام علم الله تعالى	٢٧٩
من فوائد الآية الكريمة	٢٨٠
حرص الصحابة على معرفة الأحكام الشرعيّة	٢٨٠
من تتبع رخص العلماء صار فاسقاً	٢٨٠
اعتناء الصحابة بشأن النساء، وفوقه اعتناء الله بهنّ	٢٨٠
مهر المرأة مفروض لها	٢٨١
يجوز للإنسان أن يتزوج موليته ..	٢٨١
كيف يُعقد النكاح إذا كان الولي هو الزوج؟	٢٨٢
العناية بالمستضعفين من الولدان	٢٨٢
معاملة الرّسول ﷺ للصغار، ورفقه بهم	٢٨٣

الفوائد	الصفحة
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ...﴾	٢٨٤
معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ وأوجه القراءة فيها	٢٨٥
بلاغة البناء للمفعول في قوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ وما يناظرها في القرآن	٢٨٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾	٢٨٦، ٢٨٧
اختلاف معنى الفقير والمساكين حال اجتماعهما عنه حال افتراقهما	٢٨٧
شمول معنى التقوى	٢٨٨
معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾	٢٨٨
الخبير أخصّ من العليم	٢٨٨
من فوائد الآية الكريمة	٢٨٩
يجوز أن يصطلح الزوجان فيما بينهما على ما شاءا	٢٩٠
يجوز للزوجة عند المصالحة إسقاط حقها من القسم	٢٩٠
الصلح لا يكون إلا على حلال مشروع	٢٩١
الصلح في جميع أحواله خير	٢٩٢
الصلح ثقيل على النفوس	٢٩٣
علم الله السابق واللاحق	٢٩٤
التهديد يكون باللفظ والمعنى	٢٩٤
قاطع الطريق لو تاب قبل القدرة عليه سقط عنه الحد	٢٩٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ...﴾	٢٩٦
معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ...﴾	٢٩٦
معنى قوله تعالى: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾	٢٩٧
الفرق بين قول تعالى: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾	٢٩٨
من فوائد الآية الكريمة	٢٩٨
قاعدة شرعية: ما لا يستطاع لا يلزم به العبد	٢٩٨
الصلح والتقوى سبب للمغفرة	٢٩٩
المغفرة والرحمة صفتان حقيقيتان يتصف بهما الله	٣٠٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾	٣٠١
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾	٣٠٢
الحكم أربع: في الشرع وفي القدر وفي الصورة وفي الغاية	٣٠٤

الفوائد	الصفحة
عدم الرضا بالقدر يعني الطعن في حكمة الله	٣٠٥
من فوائد الآية الكريمة	٣٠٥
التفريق بين الزوجين هو الحل في حالة عدم التوافق	٣٠٥
الرجل والمرأة إذا انكسرا بالفراق فإن الله يجبرهم بالإغناء	٣٠٦
فضل الله واسع، وعطاؤه ومنعه لحكمة؛ فتخلّف موعود الله يكون لحكمة	٣٠٦، ٣٠٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ . . .﴾ .	٣٠٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ . . .﴾	٣٠٨
﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لا تختص باليهود والنصارى بل تشمل كل من آتاه الله الكتاب	٣٠٩
ليست التقوى المضافة إلى غير الله كالتقوى المضافة إلى الله	٣١٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾	٣١٠
الله عزّ وجل لا يتضرر بمعصية ولا تنفعه طاعة	٣١١
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾	٣١١
من فوائد الآية الكريمة	٣١٢
معاني التقوى والبر منفردين ومجتمعين	٣١٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ . . .﴾	٣١٣
من فوائد الآية الكريمة	٣١٤
الوكيل عادة أدنى من الموكل، لكونه في حق الله بمعنى المراقِب فمرتبته أعلى من المراقَب	٣١٤
تفسير قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ . . .﴾	٣١٤
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾	٣١٥
الفرق بين القدرة والقوة	٣١٥
من فوائد الآية الكريمة	٣١٦
إثبات المشيئة لله، وهي مشيئة مقرونة بالحكمة والعلم	٣١٦
نوع عليه السلام هو الأب الثاني للبشرية	٣١٦
علم الله يتعلق بالممكن والمستحيل	٣١٦
التعبير بقول: «إن الله على ما يشاء قدير» تعبير قاصر فيه توهُّم ...	٣١٧
فرح الشيطان بموت العالم أشد من فرحه بموت العابد	٣١٨
تفسير قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا . . .﴾	٣١٩

الفوائد	الصفحة
إعراب الآية	٣١٩
تقديم ما حقه التأخير يقتضي الحصر	٣٢٠
من أراد الآخرة لا تفوته الدنيا، ومن أراد الدنيا قد تفوته الآخرة	٣٢٠
أي الثواب يحققه من أراد الدنيا والآخرة معاً؟	٣٢١
من فوائد الآية الكريمة	٣٢٢
الثواب والجزاء مترتب على النيّة	٣٢٢
الردّ على الجبرية بإثبات الإرادة للعبد	٣٢٢
الدنيا أحط مرتبة عند الله عزّ وجل	٣٢٢
الله وحده هو من عنده ثواب الدنيا والآخرة	٣٢٢
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ...﴾	٣٢٤
دلالة توجيه الخطاب للمؤمنين ..	٣٢٤
الفرق بين «قسط» و«أقسط»	٣٢٥
معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ...﴾	٣٢٦
إن أردتم العدل فلا تتبعوا الهوى	٣٢٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ ...﴾	٣٢٦
من فوائد الآية الكريمة	٣٢٧
أداء الشهادة قربة إلى الله؛ فينبغي أن يتوفر فيها الإخلاص	٣٢٧
الإقرار شهادة	٣٢٧
هل تقبل شهادة الولد لوالديه، أو عليهما؟	٣٢٨
نهى الله سبحانه عن المحاباة على حساب الحق	٣٢٨
بطلان مذهب الاشتراكية	٣٢٩
تحريم اتباع الهوى إن خالف العدل	٣٢٩
التحذير من الجور	٣٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ ...﴾	٣٣٠
تحقيق الإيمان والثبات عليه	٣٣١
الإيمان بالله يتضمن أربعة أمور ..	٣٣١
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾	٣٣١
اختلاف العلماء في شرع من قبلنا، هل هو شرع لنا؟	٣٣٢
أركان الإيمان الخمسة ... ٣٣٢،	٣٣٣
الملائكة منهم المعلومون بأعيانهم، ومنهم غير المعلومين	٣٣٣
اسم «عزرائيل» لا يصح إطلاقه على ملك الموت	٣٣٣
كان النبي ﷺ يستفتح في صلاة الليل بقوله: «اللهم ربّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل»	٣٣٤
مراحل الدنيا الثلاث	٣٣٤
من فوائد الآية الكريمة	٣٣٥

الفوائد	الصفحة
وجوب الثبات على الإيمان وتحقيقه بتكميله	٣٣٥
القرآن نزل مفرقاً	٣٣٦
الإيمان بالكتاب السابقة واجب .	٣٣٦
لا يصحّ الإيمان المبعّض	٣٣٦
الضلال يتفاوت والإيمان يتفاوت وكذا الأعمال تتفاوت	٣٣٧
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ . . .﴾ .	٣٣٨
التذبذب بين الإيمان والكفر يولّد كفراً أشدّ	٣٣٨
أقوال النحويين في لام الجحود .	٣٣٩
معنى قوله تعالى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ . . .﴾	٣٣٩
من فوائد الآية الكريمة	٣٣٩
من تكررت ردته، هل تُقبل توبته؟	٣٤٠
الرد على الجبرية في قولهم: إن الإنسان مجبر	٣٤٠
الرد على القدرية في قولهم: إن الإنسان مستقل بأفعاله	٣٤١
قول عمر رضي الله عنه: «من بورك له في شيء فليلزمه» ...	٣٤١
الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل	٣٤٢
تفسير قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾	٣٤٢
الخطاب في الآية على سبيل الحقيقة أم على سبيل التهكم؟	٣٤٣
جذور النفاق وبداياته	٣٤٤
من فوائد الآية الكريمة	٢٤٤
الأصل في النصوص اللفظية أنه معمول بها	٣٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾	٣٤٥
من صفات المؤمنين موالاة الكفار من دون المؤمنين	٣٤٥
معنى قوله تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾	٣٤٦
قصر العزة على الله ورسوله والمؤمنين وليس للكافرين والمنافقين منها نصيب	٣٤٦
أنواع العزة: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع	٣٤٧
من فوائد الآية الكريمة	٣٤٧
ولاية الكفار بالعهد أو بالمعاملة لا تخرج من الإسلام، ولا تُذم	٣٤٧
الحزن لمصائب الكفار قد يدخل في باب الولاية	٣٤٧
الفرق بين الموالاة والمداهنة ٣٤٧،	٣٤٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ . . .﴾ ...	٣٤٨

الفوائد	الصفحة
تفسير الكلمة بلفظها وبالمراد ٣٤٨،	٣٤٩
النهي عن القعود مع الخائضين في آيات الله بالاستهزاء والكفر	٣٤٩
معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ...﴾	٣٥٠
معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ ...﴾	٣٥٠
معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾	٣٥٠
من فوائد الآية الكريمة	٣٥١
القرآن كلام الله	٣٥١
إثبات علو الله	٣٥١
ظاهر الآية لا يوجب الإنكار على الكافر المستهزئ بآيات الله بل ينهى عن مجالسته حال استهزائه فلا نقر المنكر	٣٥٢
الأحكام تدور مع عللها	٣٥٢
المشارك لفاعل المنكر كفاعله ..	٣٥٢
وجوب مغادرة المكان الذي يستهزأ فيه بآيات الله ولا يجوز التعلل بالإنكار القلبي ٣٥٢،	٣٥٣
هل الجلوس مع حالق اللحية حرام؟	٣٥٣
أثر المعصية ليس كفعل المعصية	٣٥٣
جليس الصالحين مشارك لهم في الثواب على القياس . ٣٥٣،	٣٥٤
الحذر من جلساء السوء	٣٥٥
النار لصنفين: المنافقين والكافرين	٣٥٥
إثبات وجود النار، وأكثرها من الجنّ	٣٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ...﴾	٣٥٦
معنى قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ ...﴾ ...	٣٥٦
من فوائدد الآية الكريمة	٣٥٧
المنافق له حظ من الفيء ويعامل بظاهره	٣٥٨
الكافر ليس له سبيل على المؤمن مهما كان الأمر	٣٥٨
الموقف من الكفار والحربيين يختلف عنه مع الذميّ أو المعاهد أو المستأمن	٣٥٨
المنافقون أشد من الكفار	٣٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ...﴾	٣٥٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾	٣٦٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ ...﴾ ...	٣٦٠
ذكر الله بالقول والفعل	٣٦٠
من فوائد الآية الكريمة	٣٦١
غدر المنافقين وخداعهم	٣٦١

الفوائد	الصفحة
إثبات الخداع لله عزّ وجل وتوجيهه	٣٦١
هل الخداع صفة ذم أم مدح؟ ...	٣٦١
الخداع في موضع الائتمان يسمى خيانة	٣٦١
لا يوصف الله بالخداع إلا في مقابلة خداع الأعداء	٣٦٢
من المعاني والأوصاف ما هو كمال محض، ومنها ما يحتمل الكمال والنقص حسب الحال التي تستدعيها .	٣٦٢
صلاة المنافقين غير مقبولة	٣٦٢
من تكاسل في أداء الصلاة ففيه شبه بالمنافقين، فليحذر!	٣٦٣
المراءاة بالعمل الصالح تدخل صاحبها في دائرة المنافقين .	٣٦٣
الرياء قد يكون في أي شيء، وهو محبط للعمل	٣٦٣
مداخل الشيطان في إفساد عبادة المرء بالتثبيط	٣٦٤
تفسير قوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ ...﴾	٣٦٦
متى بان لك الحق فأذعن له	٣٦٦
تمام العبودية أن تبادر بالسمع والطاعة لأمر الله ورسوله ...	٣٦٦
ما راجع الصحابة رسول الله في أمره سواء على سبيل الإلزام أم التطوع	٣٦٧، ٣٦٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾	٣٦٨
من فوائد الآية الكريمة	٣٦٩
المنافقون في الدنيا يترددون بين الكفر والإيمان ويعاملون على ظاهرهم	٣٦٩
التردد في التسليم بما قضى الله ورسوله من صفات المنافقين	٣٦٩
من أضله الله لا يستطيع أحد هدايته	٣٦٩
إذا علم الله من قلب العبد خيراً وفقه له وهداه	٣٧١
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ...﴾	٣٧١
موالاة الكفار والاعتماد عليهم نقص في الإيمان والتوكُّل ...	٣٧٢
معنى قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾	٣٧٢
من فوائد الآية الكريمة	٣٧٢
تحريم اتخاذ الكافرين أولياء	٣٧٢
لا تجتمع ولاتيان: ولاية الكفار وولاية المؤمنين	٣٧٢
الله يقيم الحجة على من خالف أمره	٣٧٣
مناصرة المؤمنين على قدر الحال والمكان	٣٧٣

الفوائد	الصفحة
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ .	٣٧٣
صلة هذه الآية بالتي قبلها	٣٧٣
معنى ﴿ٱلدَّرْكِ﴾	٣٧٣
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿فِى ٱلدَّرْكِ﴾	٣٧٣
من فوائد الآية الكريمة	٣٧٤
النار دركات	٣٧٤
لا نصير للمنافقين في الآخرة ...	٣٧٤
المنافق أشد خطراً من الكافر ...	٣٧٤
تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ ...﴾ .	٣٧٥
شروط توبة المنافقين ليتصفوا بالإيمان	٣٧٥
من فوائد الآية الكريمة	٣٧٥
تقبل توبة المنافق إن اتصف بصفات المؤمنين (اختيار الشيخ ابن عثيمين)	٣٧٦
لا تكفي التوبة المجردة، بل يدعمها بإصلاح يدعو إليه ...	٣٧٦
توبة أبي الحسن الأشعري عن مذهبه المعتزلي وإعلانه ذلك	٣٧٧
تفسير قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ ...﴾	٣٧٨
من فوائد الآية الكريمة	٣٧٨
الله غني عن عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا	٣٧٨
من لم يشكر الله أو يؤمن معرّض لعقابه سبحانه	٣٧٩
إثبات اسمي: الشاكر والعليم لله سبحانه	٣٧٩
مسألة: المتاجرة مع الكفار ليست ولاية ولكنها مع المؤمنين أوْلى	٣٧٩
هل الاندماج مع الكفار في بلادهم وذهاب بغضهم من القلب يدخل في باب الموالاة؟	٣٧٩
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ ...﴾	٣٨٠
لا حرج في رد الظلم والجهر به	٣٨٠
ردّ الاعتداء بمثله بلا زيادة لا حرج منه	٣٨١
من فوائد الآية الكريمة	٣٨٢
إثبات المحبة لله	٣٨٢
الشرط الذي تُنال به محبّة الله ...	٣٨٢
فرق بين إنكار الجحود وإنكار التأويل	٣٨٢
إحسان الله إلى من لا يحب استدراج	٣٨٣
دعوة الإسلام لعدم الجهر بالسوء إلا من ظلم	٣٨٣
جهر المظلوم بمظلمته تنفيس له وترويح	٣٨٤
إثبات اسمي: السميع والعليم لله تعالى	٣٨٤

الفوائد	الصفحة
معنى السميع يشمل قسمين: إدراك المسموع والاستجابة .	٣٨٤
علم الله محيط بالواجب والممكن والمستحيل	٣٨٦
كل موجود قابل للزوال، وليس معناه أن كل موجود زائل ...	٣٨٧
ضرورة تركيز طالب العلم على الفوائد المسلكية المستفادة من أسماء الله وصفاته	٣٨٨
تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ . . .﴾	٣٨٨
قاعدة في التفسير: معنى بعض الكلمات يفسّره مقابلُه في السياق	٣٨٩
معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾	٣٨٩
من فوائد الآية الكريمة	٣٨٩
إبداء الخير أو إخفائه يخضع للمصلحة الراجحة	٣٨٩، ٣٩٠
العفو إن كان إصلاحاً أفضل، ويدخل في دائرة الخير	٣٩٠
متى يكون العفو إفساداً ويكون الانتصار أفضل	٣٩٠
لِمَ يكون الانتصار أفضل من العفو أحياناً؟	٣٩٠
العفو عن الخلق في كلّه بشرى بعفو الله	٣٩١
عفو الله تعالى أكمل أنواع العفو؛ لأنه عفو مع القدرة ..	٣٩١
العفو مع العجز عن الانتقام ليس بعفو	٣٩٢
إثبات اسمي: العفو والقدير لله عزّ وجل	٣٩٢
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾	٣٩٢
الكفر بالله هو جحد ما يجب الإيمان به في جانب الله	٣٩٢
الإيمان ببعض الرسل والكفر ببعضهم يدخل في دائرة الكفر	٣٩٣
ماذا يفيد ضمير الفصل الذي لا محل له من الإعراب؟	٣٩٤
معنى قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾	٣٩٤
إعراب: حقاً	٣٩٤
المصدر المؤكد لمضمون الجملة قبله يجب حذف عامله	٣٩٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾	٣٩٥
بلاغة الإظهار في موضع الإضمار، وفائدتها	٣٩٥
من فوائد الآيتين الكريمتين	٣٩٦
الكفر ببعض الرسل كفر بالجميع	٣٩٦
ذمّ أهل الكلام في دعواهم الجمع بين الدليل السمعي والعقلي في صفات الله	٣٩٦

الفوائد	الصفحة
الإظهار في موضع الإضمار لا يُعد تطويلاً وزيادة بل فيه فائدة	٣٩٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ...﴾	٣٩٧
القرآن إذا ذكر حالاً ذكر ما يضادها ليشد الذهن والانتباه للاعتبار	٣٩٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾	٣٩٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾	٣٩٨
الإيمان بجميع الرسل في أصل الإيمان لا العمل، فالشرائع تختلف	٣٩٨
معنى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾	٣٩٩
الفرق بين «السين» و«سوف» في تناوبهما على الفعل المضارع	٣٩٩
سمى الله عزّ وجل الثواب أجراً تكرماً منه وفضلاً	٤٠٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾	٤٠٠
من فوائد الآية الكريمة	٤٠٠
الإيمان بجميع الرسل إجمالاً من سماهم الله ومن لم يسمِّهم ..	٤٠١
لا يجوز التفرقة بين أحد من الرسل في أصل الإيمان	٤٠١
هل يجوز التفرقة بين الرسل في الفضل؟	٤٠١
إيماننا بالرسل يدخل فيه الإيمان بما حباهم الله تعالى من فضل	٤٠٢
كلما كان العمل أدخل في الإخلاص كلما كان الثواب أكثر	٤٠٤
كما يختلف الأجر باختلاف المتابعة للشرع	٤٠٤
إثبات اسمين من أسماء الله تعالى: الغفور الرحيم	٤٠٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا ...﴾	٤٠٥
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿أَن تُنَزِّلَ﴾	٤٠٥
توجيه الخطاب للرسول ﷺ ودلالته للخصوص أو للعموم	٤٠٥
أهل الكتاب تشمل اليهود والنصارى	٤٠٦
معنى قوله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ ...﴾ ..	٤٠٧
القوم السبعون الذين اختارهم موسى	٤٠٧
معنى قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ...﴾	٤٠٧
معنى قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾	٤٠٧

الفوائد	الصفحة
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ﴾	٤٠٨
معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ ...﴾	٤٠٨
الآيات التسع التي أوتيها موسى عليه السلام	٤٠٩
معنى قوله تعالى: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾	٤١٠
توبة الله على بني إسرائيل بعد أن انقادوا لله وذلُّوا	٤١٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾	٤١٠
سلطان الأنبياء حججهم وآياتهم	٤١٠
«أبان» المتعدية واللازمة	٤١١
المشترك اللفظي: ما اتحد لفظه وتعدد معناه	٤١١
من فوائد الآية الكريمة	٤١١
تعنت أهل الكتاب	٤١٢
دفاع الله عن رسوله ﷺ	٤١٢
إيذاء بني إسرائيل لموسى عليه السلام وللرسول ﷺ	٤١٢
سؤال الإنسان أن يرى الله جهرة من أكبر العدوان	٤١٣
الفرق بين طلب موسى عليه السلام وطلب بني إسرائيل إياها	٤١٣
الرسول ﷺ لم يرَ ربه على كل الأقوال، ودليل ذلك	٤١٤
توجيه قول ابن عباس رضي الله عنهما في الرؤية التي أثبتها للنبي	٤١٥
رؤيا اليقين تختلف عن رؤية العين ورؤيا المنام	٤١٥
عدم ارتياح الشيخ للقول المشهور عن شيخ الإسلام بجواز رؤية المؤمن ربّه في المنام	٤١٦
وقد رويَ أن الإمام أحمد بن جنبل رحمه الله رأى ربّه	٤١٦
كلما كان الذنب عظيماً، كلما كانت العقوبة أسرع	٤١٦
للأسباب أثرٌ في حصول المسببات	٤١٦
لا يظلم الله الناس شيئاً	٤١٦
المذنب بعد العلم أشد نكارة من المذنب عن غير علم على الراجح	٤١٧
المذنب بعج العلم أشد نكارة من المذنب عن غير علم على الراجح	٤١٧
تفصيل القول في آيات موسى عليه السلام التسع	٤١٨
العذر بالجهل مطلقاً	٤١٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ ...﴾	٤١٨
تقاعس بني إسرائيل عن تنفيذ الأوامر وإيمانهم إيمان إكراه	٤١٩

الفوائد	الصفحة
معنى قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾	٤١٩
المراد بالسجود	٤١٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ وأوجه القراءة فيها	٤٢٠
استحلال المحرّم بالحيلة أعظم إثماً من استحلاله صريحاً ...	٤٢٠
مفاسد استعمال الحيلة في استحلال المحرّم	٤٢١
معنى قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾	٤٢١
تفسير قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ...﴾	٤٢١
إعراب الآية	٤٢١
معايب بني إسرائيل ومخازيهم فصلها ابن القيم في كتابه «إغاثة اللهفان»	٤٢٢
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ...	٤٢٢
خطر عرض أوجه القراءات على العامة لئلا يهون القرآن في قلوبهم ..... ٤٢٢،	٤٢٣
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ...	٤٢٣
قيد الاحتراس في قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾	٤٢٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾	٤٢٣
معنى قوله تعالى: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾	٤٢٤
معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾	٤٢٤
دلالة قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ..	٤٢٤
من فوائد الآيتين الكريمتين	٤٢٥
بيان قدرة الله عزّ وجل	٤٢٥
المؤمن مكرهاً لا يثبت إيمانه بل يتزعزع	٤٢٥
يشرع عند فتح البلاد صلاة الفتح	٤٢٥
صلاة النبي الضحى حين فتح مكة صلاة فتح	٤٢٦
المتحايل على المحرّم ولو بصورة ظاهرها الحلال، واقعٌ في الإثم والمحرم	٤٢٦
الفرق التام بين أمة الإسلام وبني إسرائيل	٤٢٦
ما موقف الصحابة من تحريم الصيد في الأشهر الحرم، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾	٤٢٧
لا يعذب الله عباده إلا بعد أن تقوم عليهم الحجة	٤٢٧
إثبات الأسباب الشرعية والقدرية، وهذا من مقتضى حكمة الله عزّ وجل	٤٢٧

الفوائد	الصفحة
أقسام الناس تجاه الأسباب ثلاثة أقسام	٤٢٨
الأسباب مؤثرة بما أودع الله فيه من قوى، لا بنفسها	٤٢٩
نقض الميثاق سبب للعنة لله عزّ وجل	٤٢٩
دعوى من احتجوا بقدر الله على شرعه دعوى باطلة	٤٢٩
الكفر بالله سبب للعن أيضاً	٤٣٠
آيات الله الكونية والشرعية	٤٣٠
لا يكفر بآيات الله إلا المكابر ...	٤٣١
عتو بني إسرائيل في الأرض	٤٣١
قتل الأنبياء لا يمكن أن يكون بحق	٤٣١
قاعدة تفسيرية: احتمال الآية أكثر من معنى بلا تعارض، فتحمل عليها جميعاً	٤٣٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾	٤٣٢
القذف بالتعريض يجب به الحد عند بعض الفقهاء	٤٣٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾	٤٣٣
حادثة الإفك	٤٣٣
من فوائد الآية الكريمة	٤٣٤
الكفر سبب للشر والفساد	٤٣٤
رمي اليهود مريم بالبهتان العظيم، وكفر من رماها بذلك بعد تبرئة الله لها	٤٣٤
هل يكفر من رمى زوج النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها بعد أن برأها الله؟	٤٣٤
حكم من قذف غير أم المؤمنين عائشة من أمهات المؤمنين ..	٤٣٥
حد قذف المحصنات وعقوبته ...	٤٣٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ...﴾	٤٣٦
ذكر اليهود عيسى بن مريم عليه السلام بالاسم واللقب والكنية لتأكيد دعواهم	٤٣٧
اختلاف المفسرين في توجيه قوله تعالى: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ بأنها قول الله أو حكاية عن اليهود ..	٤٣٧
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾	٤٣٨
تعظيم النصارى للصليب الذي ادعوا أن المسيح صلب عليه وكذّب الله ادعاءهم	٤٣٨
من الذي شُبِّه لليهود؟	٤٣٨
اختلاف اليهود فيمن قتلوه: أهو عيسى أم شبهه	٤٣٩
معنى قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾	٤٤٠

الفوائد	الصفحة
شروط «ما» العاملة عمل ليس ...	٤٤٠
معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾	٤٤٠
علامة الاستثناء المنقطع	٤٤١
الفرق بين الظن والوهم والشك .	٤٤١
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ..... ٤٤١،	٤٤٢
من فوائد الآية الكريمة	٤٤٢
اليهود باءوا بإثم المسيح بإقرارهم، والإقرار شهادة ...	٤٤٢
نسبة الإنسان إلى أمّه إن لم يكن له أب	٤٤٣
فائدة نحويّة: الإنسان إذا اشتهر بلقبه لا بأس بتقديمه على الاسم العلم	٤٤٣
ليس بين النبي ﷺ وعيسى عليه السلام نبيّ	٤٤٣
تقديس النصارى لما عُذِّب به عيسى بزعمهم دليل سفاهة وقلة تمييز	٤٤٤
ذمّ من اتبع الظنّ	٤٤٥
الظنّ بعضه إثم وبعضه ليس بإثم	٤٤٥
الظنّ ينقسم قسمين: ظنّ له قرائن قوية تنفي الاسم، وآخر لا قرينة له	٤٤٦
نفي قتل عيسى عليه السلام	٤٤٦
من يدّعون قتل عيسى عليه السلام ليس لديهم يقين بذلك	٤٤٦

الفوائد	الصفحة
تفسير قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ...﴾	٤٤٧
علامة الإضراب الإبطالي والإضراب الانتقالي	٤٤٧
إلى أين رفع الله عيسى عليه السلام؟	٤٤٧
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾	٤٤٨
أقسام العزّة	٤٤٨
معنى الحكمة ..... ٤٤٨،	٤٤٩
مناسبة ختم الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾	٤٤٩
من فوائد الآية الكريمة	٤٤٩
إبطال دعوى القائلين بقتل عيسى عليه السلام	٤٤٩
إثبات علو الله بذاته	٤٤٩
عيسى ابن مريم عليه السلام حيّ	٤٤٩
الأقوال في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ ..... ٤٤٩،	٤٥٠
كان السلف الصالح لا يقنعون النفوس عند الإشكال إلا بالنصوص	٤٥٠
الرضا بقضاء الله من تمام توحيد الربوبية	٤٥١
أحكام الله الكونية يخضع لها الجميع أما أحكامه الشرعية فتسري على المؤمنين فحسب	٤٥١

الفوائد	الصفحة
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ...﴾	٤٥١
وجوه مجيء «إن» في اللغة العربية	٤٥١
إعراب الآية	٤٥١، ٤٥٢
نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان وكسره الصليب وقتله الخنزير، ودعوته للإسلام	٤٥٢
معنى قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾	٤٥٣
حقيقة الإيمان القبول والإذعان لا التصديق فحسب	٤٥٣
من فوائد الآية الكريمة	٤٥٤
الإيمان الاضطراري لا ينفع عند حلول الأجل	٤٥٤
إثبات الموت للبشر كلهم حتى الأنبياء	٤٥٤
شهادة الرسل على أممهم	٤٥٤
هل العلماء شهداء على الأمة؟	٤٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ ...﴾	٤٥٥
الظلم لغةً وشرعاً	٤٥٥
معنى قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾	٤٥٥
معنى قوله تعالى: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ...﴾	٤٥٦
الفعل «صدّ» بين التعدية واللزوم	٤٥٦
معنى قوله: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	٤٥٦، ٤٥٧
معنى قوله تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾	٤٥٧
الفرق بين أخذ الربا وأكله	٤٥٧
الربا لغةً وشرعاً، وأنواعه أو أصنافه الستة	٤٥٨
هل يقتصر الربا على هذه الأصناف الستة؟	٤٥٨
الوصف الرابع من أوصاف اليهود: أكلهم أموال الناس بالباطل	٤٥٩
النكرة في قوله تعالى: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ لا تفيد العموم، وقد فصّل الله ما حرّمه عليهم في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا ...﴾	٤٦٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾	٤٦٠
الإثم والتحريم يكون أشد بعد إقامة الحجة	٤٦٠
فوائد الإظهار في موضع الإضمار	٤٦١
الالتفات من الخطاب إلى الغيبة (أسلوب بلاغي يقتضي الانتباه)	٤٦١
من فوائد الآيتين الكريمتين	٤٦١

الفوائد	الصفحة
إثبات الأسباب وانقسام الناس حولها	٤٦١، ٤٦٢
تتخلف المسببات بإذن الله	٤٦٢
الظلم سبب لحرمان الخير الشرعي والقدري	٤٦٢
قد يحرم الإنسان التحريم القدري مع وجود الحل الشرعي	٤٦٣
التحريم والتحليل موكول إلى الله ورسوله وليس لأحد أن يدعيه	٤٦٣
الطيبات قد تحرم شرعاً حتى بعد كمال الدين، إن ألحقت ضرراً بتناولها	٤٦٤
التحذير من الصد عن سبيل الله بكل صوره	٤٦٤
الحجة لا تقوم إلا بعد بلوغها ..	٤٦٥
هل يلزم من أخذ الربا ـ إذا تاب ـ أن يرده على من أخذه منه؟	٤٦٦
تحريم أكل أموال الناس بالباطل	٤٦٦
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ ...﴾ .	٤٦٧
المقصود بالعلم في الآية العلم الشرعي	٤٦٧
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ...﴾ ..	٤٦٨
عطف الصفة على الصفة جائزٌ في اللغة العربية	٤٦٨
عطف المتباينين المتغايرين	٤٦٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾	٤٦٨
توجيه النصب في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وفائدته .	٤٦٩
التوجيه النحوي في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾	٤٧٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾	٤٧١
مراحل الإنسان (سبقت الإشارة إليها)	٤٧١
يدخل في الإيمان باليوم الآخر كل ما أخبر به النبي ﷺ بعد الموت: كفتنة القبر وعذابه ونعيمه	٤٧١
الإيمان باليوم الآخر يحمل على تمام الاستقامة	٤٧٢
أوجه القراءة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ومعناها ..	٤٧٢
الفوائد البلاغية لأسلوب الالتفات	٤٧٢
من فوائد الآية الكريمة	٤٧٣
من تمام عدل الله عزّ وجل ذكر الخير والشر وعاقبة كل منهما	٤٧٣
فضيلة الرسوخ في العلم .	٤٧٣، ٤٧٤

الفوائد	الصفحة
صفنا العلم	٤٧٤
محاجة أبي يوسف مع الكسائي بحضرة الرشيد	٤٧٤
من يأخذ العلم مسألة مسألة كلاقط الجراد من الصحراء؛ فالرجوع للأصول والقواعد مهم جداً	٤٧٤
العلم سبب الإيمان، والجدال سبب الضلال	٤٧٥
قد يتصف بعض أهل الكتاب برسوخ العلم	٤٧٥
كل من ادعى الإيمان دون أن يؤمن بما أنزل على محمد ﷺ فهو كاذب في دعواه	٤٧٥
إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة قرينتان لما لهما من فضيلة	٤٧٦
الإشارة بالبعيد في الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ دلالة على علو المرتبة	٤٧٧
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ ...﴾	٤٧٧
الوحي ثلاثة أقسام، كما وضحته سورة الشورى ..... ٤٧٧،	٤٧٨
نوح أول الرسل عليهم السلام، فلا رسول قبله (اختيار الشيخ)	٤٧٨
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾	٤٧٨
التلبيس على العامة بقراءة لا يعرفونها من أسباب الفتنة ...	٤٧٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ .	٤٧٩
ليس بين عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ نبيٌّ ولا رسول .	٤٧٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ ...﴾	٤٧٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ...﴾	٤٧٩
لم يذكر الله الرسل في الأماكن البعيدة كأمريكا وآسيا؛ لأن قرب المكان يوجب على الاعتبار	٤٨٠
من فوائد الآيتين الكريمتين	٤٨٠
الوحي إلى جميع الأنبياء والرسل كان من جنس واحد	٤٨١
أصل دعوة الرسل واحد والاختلاف واقع في الشرائع	٤٨١
بطلان قول بعض المؤرخين بأن إدريس كان قبل نوح	٤٨١
هل لكل أمةٍ رسول؟	٤٨٢
كلام الله تعالى لموسى عليه السلام كان كلاماً حقيقياً	٤٨٢
تحريفات البعض في تأويل قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾	٤٨٣

الفوائد	الصفحة
كلام الله لموسى عليه السلام كان على وجهين	٤٨٣
تفسير قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ...﴾	٤٨٣
موازنة دعوة الرسل بين البشارة والإنذار ..... ٤٨٣،	٤٨٤
معنى قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾	٤٨٤
من فوائد الآية الكريمة	٤٨٤
حكمة الداعية في مراعاة أحوال الناس وتنويع الخطاب بين البشارة والإنذار	٤٨٥
إن لم ينفع الوازع الديني مع الناس فالرادع السلطاني يكون أولى	٤٨٥
إثبات التعليل لأحكام الله القدريّة	٤٨٥
العذر بالجهل حتى في أصول الدين، ولكن ليس على إطلاقه	٤٨٥
العذر بالجهل لا يكون مع التفريط بعد العلم	٤٨٦
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ...﴾	٤٨٦
شهادة الله لنبيه نوعان	٤٨٧
معنى قوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾	٤٨٧
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾	٤٨٧
هل المراد بـ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ جبريل عليه السلام أم عموم الملائكة	٤٨٧
اللفظ العام يُحمل على عمومة إلا إذا وجدت دلالة قوية تدل على تخصيصه	٤٨٧
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾	٤٨٨
الشهادة على الوحدانية من ثلاثة أطراف والشهادة بالرسالة من طرفين	٤٨٨
من فوائد الآية الكريمة	٤٨٨
بعض المسلمين ـ للأسف ـ يؤمنون بعلو الله	٤٨٩
دلالة علو الله عزّ وجل واضحة سمعية وعقلية وفطرية	٤٩٠
إنزال القرآن مقرون بعلم الله	٤٩٠
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ ..	٤٩١
معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾	٤٩٢
من فوائد الآية الكريمة	٤٩٣
درجات توكيد الخطاب حسب حال المخاطب، ودرجة الإنكار	٤٩٣
الضلال ينقسم إلى: ضلال قريب، وضلال بعيد	٤٩٣

الفوائد	الصفحة
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ...﴾	٤٩٣
علامة لام الجحود	٤٩٤
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾	٤٩٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾	٤٩٥
من فوائد الآيتين الكريمتين	٤٩٥
إثبات الأفعال الاختيارية لله (سبق الحديث عنها)	٤٩٦
الكافر لا يوفق للهدى، وليس يُهدى إلى من أرد الله هدايته	٤٩٦، ٤٩٧
إثبات الخلود الأبدي	٤٩٧
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ ...﴾	٤٩٨
العهود ثلاثة: العهد الحضوري، والعهد الذكري، والعهد الذهني	٤٩٨
ضابط «أل» التي للعهد الحضوري	٤٩٩
دلالة التعبير بـ«ما» التي لغير العاقل في قوله تعالى: ﴿مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾	٥٠٠
من فوائد الآية الكريمة	٥٠١
عموم رسالة النبي ﷺ	٥٠١
إثبات الربوبية العامة	٥٠٢
إرسال الرسل من مقتضى الربوبية	٥٠٢
وجوب الإيمان بمن جاء بالحق	٥٠٢
إذا جاء بالحق من عُرف بالباطل، هل يُقبل منه؟	٥٠٢، ٥٠٣
الإيمان كله خير في الدنيا والآخرة	٥٠٣
إثبات الجمع للسماوات	٥٠٤
اختلاف العلماء في الأرضين، هل هي متطابقة؛ أي: متلاصقة أم بينها فجوات؟	٥٠٤
إثبات اسمين من أسماء الله: العليم والحكيم	٥٠٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ ...﴾	٥٠٥
العموم في الآية أريد به الخصوص، فالمراد: النصارى	٥٠٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾	٥٠٦
إعراب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾	٥٠٧
كيف قدّم اللقب على العلم، واللقب وصف والعلم ذات؟	٥٠٧
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾	٥٠٨

الفوائد	الصفحة
هل مريم وموسى بن عمران أخوان؟	٥٠٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ واحتمال تأويله بأكثر من معنى	٥٠٩
معنى قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾	٥١٠
تفسير معنى الإيمان بالتصديق تأويل قاصر	٥١٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ...﴾	٥١٠
معنى قوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾	٥١١
إعراب كلمة «سبحان»	٥١١
تنزيه الله عن أن يكون له ولد لأسباب عديدة	٥١١، ٥١٢
دلالة قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في تنزيه الله عن أن يكون له ولد	٥١٢
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾	٥١٢
من فوائد الآية الكريمة	٥١٢
النهي عن الغلو في الدين	٥١٢
تحريم القول على الله إلا بالحق	٥١٣
تحريم تحريف آيات الصفات وأحاديثها	٥١٣
المسيح عليه السلام لا يستحق من أمر الربوبية شيئاً	٥١٣
جواز نسبة الإنسان إلى أمه إن لم يكن له أب	٥١٣
إشكالية نسبة ولد الزنا إلى أمه حقيقة، وحلّ المسألة بوضع اسم ينسب إليه ولا يخالف الواقع	٥١٤
ميراث من لا يُعلَم أبوه لبيت المال، وديته إن قُتل كذلك، ولكن اختيار الشيخ أن يكون هذا الميراث وتلك الدية لمن التقطه؛ أي: حاضنه	٥١٥
إذا تزوج الزاني بمن حملت منه زواجاً شرعياً ثم ولدت، هل يُنسب إليه الولد؟	٥١٥
اختلاف العلماء في جواز تزويج الزاني بالزانية ونسبة ولدها له	٥١٥
إطلاق السبب على مسببه	٥١٦
عيسى عليه السلام روح من الله	٥١٦
المضاف إلى الله نوعان	٥١٦
النهي عن التثليث	٥١٧
تنزيه الله عن اتخاذ الولد	٥١٧
من توكل على الله حق التوكل كفاه	٥١٧، ٥١٨
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ...﴾	٥١٩
معنى قوله تعالى: ﴿لَّن	

الفوائد	الصفحة
﴿يَسْتَنكِفَ﴾	٥١٩
نوع العبودية في قوله تعالى: ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾	٥٢٠
مناسبة ذكر الملائكة عند ذكر عيسى عليه السلام	٥٢٠
هل يجوز في العربية أن يتعدد مرجع الضمير بين الإفراد والجمع؟	٥٢١
معنى قوله تعالى: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ .	٥٢٢
يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد	٥٢٢
الخلائق كلها سوف تحشر إلى الله عزّ وجل وتشهد عليه أعضاؤه .	٥٢٣
من فوائد الآية الكريمة	٥٢٣
العبد لا يصلح أن يكون رباً أو معبوداً	٥٢٣
الصفة الكاشفة وصفة القيد	٥٢٤
الاستنكاف غير الاستكبار	٥٢٤
تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ...﴾	٥٢٤
التفصيل بعد الإجمال في الآيات	٥٢٥
معنى قوله تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾	٥٢٥
الفرق بين المصدر والمفعول المطلق	٥٢٥
من فوائد الآية الكريمة	٥٢٦
هل العمل الصالح داخلٌ في الإيمان مع أن العطف يفيد التغاير؟	٥٢٦
الرد على الجبرية في القول بأن عمل الإنسان ليس باختياره .	٥٢٧
منّة الله عزّ وجل في تسمية الثواب أجراً	٥٢٧
من أراده الله بسوء لا مردّ له	٥٢٨
تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ ...﴾ ..	٥٢٨
القرآن أعظم آيات الله على رسوله	٥٢٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾	٥٢٩
من فوائد الآية الكريمة	٥٢٩
حث الناس على تعلم اللغة العربية للاستفادة منها في فهم القرآن	٥٢٩
إرسال الرسل وإنزال الكتب من مقتضى ربوبية الله	٥٣٠
نور القرآن لا يتذوقه إلا من جمع بين التدبُّر والتذكُّر	٥٣٠
في القرآن بيان كل شيء، ولا يخفى هذا إلا على قليل الإيمان أو قاصر الفهم أو سيئ القصد	٥٣٠، ٥٣١
تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا ...﴾ .	٥٣٢
ما الذي تفيده السين في قوله: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ﴾	٥٣٢

الفوائد	الصفحة
معنى قوله تعالى: ﴿فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ والمراد بالرحمة	٥٣٢
ثمرات من آمن بالله واعتصم به .	٥٣٣
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾	٥٣٣
من فوائد الآية الكريمة	٥٣٣
يصح أن تكون الرحمة صفة وأن تكون مخلوقة	٥٣٤
تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ ...﴾	٥٣٤
الفرق بين الاستفتاء والإفتاء	٥٣٥
ما هي الكلالة؟	٥٣٥
قرابات الإنسان، وتقسيمها	٥٣٥
معنى قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ ...﴾	٥٣٦
«إن» الشرطية وما بعدها	٥٣٦
معنى قوله تعالى: ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾	٥٣٧
الكلالة في حالة وجود زوج للأخت أو أم	٥٣٧
الشروط التي ترث الأخت بها النصف .....٥٣٨،	٥٣٩
من فوائد الآية الكريمة	٥٣٩
حرص الصحابة على معرفة الحق واستفتاء الرسول ﷺ	٥٣٩
الله يفتي، فهل يجوز أن نشتق لله اسم «المفتي»؟	٥٤٠
ترتيب آيات القرآن توقيفي لا مجال للرأي فيه	٥٤٠
مسائل في ميراث الكلالة ٥٤٠،	٥٤١
العول في بعض المسائل أخذ به عمر رضي الله عنه ووافقه الصحابة	٥٤٢
الرقيق المملوك لا يرث	٥٤٢
الإخوة لأم لا يرثان بالتعصيب بل بالفرض، لذا فهم سواء، ولا يتم تفضيل الذكر على الأنثى منهم	٥٤٢
أنواع الفروض التي لا تزيد بزيادة المفروض له .. ٥٤٢،	٥٤٣
الرد على أهل التفويض في صفات الله عزّ وجل القائلين بعدم علمهم بمعاني هذه الصفات	٥٤٣
الضلال في باب الصفات أعظم خطراً من الضلال في باب الأحكام	٥٤٣
الواجب لمن عنده مال أن يوصي لمن لا يرث من الأقارب	٥٤٣
لا وصية لوارث	٥٤٤
الدَّيْن مقدم على الميراث، وكذلك الوصيّة	٥٤٤
لو كان هناك نقص فيكون على الورثة دون الوصيّة	٥٤٥

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ . . . ﴿٨٠﴾﴾ ...	٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ . . . ﴿٨١﴾﴾ ..	٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ . . . ﴿٨٢﴾﴾	١٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ . . . ﴿٨٣﴾﴾ ..	٢١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ . . . ﴿٨٤﴾﴾	٢٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ . . . ﴿٨٥﴾﴾	٣٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ . . . ﴿٨٦﴾﴾ ...	٣٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ . . . ﴿٨٧﴾﴾	٤٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم . . . ﴿٨٨﴾﴾	٤٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً . . . ﴿٨٩﴾﴾	٥٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ . . . ﴿٩٠﴾﴾ ..	٦٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ . . . ﴿٩١﴾﴾ ..	٦٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ . . . ﴿٩٢﴾﴾ ...	٦٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ . . . ﴿٩٣﴾﴾	٨١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ . . . ﴿٩٤﴾﴾ .	٨٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ . . . ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾	٩٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ . . . ﴿٩٧﴾﴾	١٠٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ . . . ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾	١١٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا . . . ﴿١٠٠﴾﴾ ..	١٢٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ . . . ﴿١٠١﴾﴾ ..	١٣٠

الموضوع الصفحة

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ... ﴿١٠٢﴾﴾ .. ١٤١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا... ﴿١٠٣﴾﴾ .. ١٥٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ... ﴿١٠٤﴾﴾ .. ١٦٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ... ﴿١٠٥﴾﴾ ١٧٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ ١٨٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ... ﴿١٠٧﴾﴾ ١٨٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ... ﴿١٠٨﴾﴾ ١٨٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا... ﴿١٠٩﴾﴾ .. ١٩١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ... ﴿١١٠﴾﴾ .. ١٩٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ... ﴿١١١﴾﴾ ... ٢٠٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا... ﴿١١٢﴾﴾ .. ٢٠٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ... ﴿١١٣﴾﴾ .. ٢٠٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ... ﴿١١٤﴾﴾ ٢١٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ... ﴿١١٥﴾﴾ ... ٢٢٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ... ﴿١١٦﴾﴾ ٢٣٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ... ﴿١١٧﴾﴾ ٢٣٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ... ﴿١١٨﴾﴾
وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ... ﴿١١٩﴾﴾ ٢٣٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ ... ٢٤٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ ... ٢٤٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ... ﴿١٢٢﴾﴾ ٢٤٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ... ﴿١٢٣﴾﴾ ٢٥٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ... ﴿١٢٤﴾﴾ ... ٢٦١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ... ﴿١٢٥﴾﴾ ٢٦٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ... ﴿١٢٦﴾﴾ ٢٧٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ... ﴿١٢٧﴾﴾ .. ٢٧٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا... ﴿١٢٨﴾﴾ .. ٢٨٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ... ﴿١٢٩﴾﴾ ٢٩٦

الموضوع الصفحة

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ... ﴿١٣٠﴾﴾ ٣٠١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ... ﴿١٣١﴾﴾ ٣٠٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾ ٣١٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ... ﴿١٣٣﴾﴾ ... ٣١٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا... ﴿١٣٤﴾﴾ .. ٣١٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ... ﴿١٣٥﴾﴾ ٣٢٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ... ﴿١٣٦﴾﴾ .. ٣٣٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟... ﴿١٣٧﴾﴾ ... ٣٣٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ ٣٤٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ... ﴿١٣٩﴾﴾ .. ٣٤٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ... ﴿١٤٠﴾﴾ ٣٤٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ... ﴿١٤١﴾﴾ . ٣٥٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ... ﴿١٤٢﴾﴾ ٣٥٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ... ﴿١٤٣﴾﴾ ٣٦٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ... ﴿١٤٤﴾﴾ . ٣٧١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ... ﴿١٤٥﴾﴾ ٣٧٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ... ﴿١٤٦﴾﴾ ٣٧٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ... ﴿١٤٧﴾﴾ .. ٣٧٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ... ﴿١٤٨﴾﴾ .. ٣٨٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ... ﴿١٤٩﴾﴾ ... ٣٨٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ... ﴿١٥٠﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ ٣٩٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟... ﴿١٥٢﴾﴾ ٣٩٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا... ﴿١٥٣﴾﴾ ٤٠٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ... ﴿١٥٤﴾﴾ ٤١٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ... ﴿١٥٥﴾﴾ ٤٢١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ ٤٣٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ... ﴿١٥٧﴾﴾ .. ٤٣٦

الموضوع | الصفحة

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ ٤٤٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ ... ﴿١٥٩﴾﴾ .. ٤٥١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ ... ﴿١٦٠﴾
وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ ... ﴿١٦١﴾﴾ ٤٥٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ ... ﴿١٦٢﴾﴾ .. ٤٦٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ... ﴿١٦٣﴾﴾ .. ٤٧٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا ... ﴿١٦٤﴾﴾ ٤٧٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ ... ﴿١٦٥﴾﴾ ٤٨٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ... ﴿١٦٦﴾﴾ ٤٨٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ... ﴿١٦٧﴾﴾ ٤٩١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ ... ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ
جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ ٤٩٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ... ﴿١٧٠﴾﴾ ٤٩٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ ... ﴿١٧١﴾﴾ ٥٠٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ... ﴿١٧٢﴾﴾ ٥١٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ ... ﴿١٧٣﴾﴾ .. ٥٢٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ ... ﴿١٧٤﴾﴾ ٥٢٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ ... ﴿١٧٥﴾﴾ ٥٣٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ... ﴿١٧٦﴾﴾ ٥٣٤
فهرس الفوائد ٥٤٧
فهرس المحتويات ٥٨٩

دار ابن الجوزي 8428146
161578

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ

(١٠٥)

تفسير القرآن الكريم

سورة المائدة

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

طبع بإشراف مؤسسة

الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

دار ابن الجوزي

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٠٥)

تفسير القرآن الكريم

سورة المائدة

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الأول

دار ابن الجوزي

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير

القرآن الكريم

سورة المائدة

١

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد صالح
تفسير القرآن الكريم سورة المائدة. / محمد صالح العثيمين.-
الرياض، ١٤٣٢هـ
٢مج.
ردمك: ٢ ـ ١١ ـ ٨٠٣٦ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (مجموعة)
٩ ـ ١٢ ـ ٨٠٣٦ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (ج١)
١ ـ القرآن ـ التفسير الحديث ٢ ـ القرآن ـ سورة المائدة ـ تفسير
أ ـ العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٢/٥١٧٣

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
إلا لمن أراد طبعه لتوزيعه مجاناً بعد مراجعة
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
عنيزة ـ ص ب ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
www.binothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الطبعة الثانية
١٤٣٥هـ

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٥٧
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٣ - الرقم الإضافي: ٨٤٠٦ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ - الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٨١٣٧٠٦ - ٠٥٦٣٤٧٦٣٨٨ - بيروت
هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨
تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:
aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

□ قال الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾ [المائدة: ١].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾.

أولاً: هذه السورة مدنية وهي آخر ما نزل من القرآن؛ ولذلك قال العلماء: ما كان فيها من حلال فأحلوه، وما كان فيها من حرام فحرموه، ولم يأتِ فيها حكم يكون منسوخاً، بل كل الأحكام التي فيها محكمة، وهي مدنية؛ لأنها نزلت بعد الهجرة، وكل ما نزل بعد الهجرة فإنه مدني، وإن نزل بمكة، وإلا ففيها قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣] وهذه الآية نزلت في عرفة والنبي ﷺ واقف بها[١].

البسملة لا حاجة لتكرار الكلام عليها لأنه سبق[٢] الكلام

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾، حديث رقم (٤٣٣٠)، ومسلم، كتاب التفسير، باب، حديث رقم (٣٠١٧) عن طارق بن شهاب.

(٢) انظر: تفسير سورة الفاتحة لفضيلة شيخنا المؤلف رحمه الله تعالى.

عليها، وأنها آية من كتاب الله مستقلة ليست من السورة التي قبلها ولا التي بعدها، يؤتى بها عند بدء كل سورة سوى سورة براءة، وأنها متعلقة بمحذوف، ويقدر هذا المحذوف فعلاً متأخراً مناسباً للموضوع الذي تقدمته هذه البسملة، هذا أحسن ما قيل في متعلق البسملة.

وعليه: فإذا كنت تريد أن تقرأ تقول: إن الجار والمجرور متعلق بفعل محذوف تقديره باسم الله أقرأ، وإذا كنت تريد أن تتوضأ تقول: باسم الله أتوضأ، وإذا كنت تريد أن تذبح مذكاة تقول: باسم الله أذبح.. وهكذا.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ اعلم أنه إذا صُدِّر الكلام بهذه الجملة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فإنه كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أرعها سمعك ـ يعني: انتبه لها ـ فإما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه[1]، وإما خبر يكون فيه مصلحة لك، مثل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] وما أشبه ذلك.

واعلم أيضاً أنه إذا صدر الكلام بها فإنه يدل على أن ما بعدها من مقتضيات الإيمان؛ تصديقاً به إن كان خبراً، وعملاً به إن كان طلباً، وأن مخالفة ذلك نقص في الإيمان وامتثاله يزيد به الإيمان.

واعلم أيضاً أن الله تعالى يصدر الخطاب بها إغراءً للمخاطب؛ لأن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كأنه يخاطبهم بقوله: إن إيمانكم يحملكم على أن تفعلوا كذا وكذا وأن تتركوا كذا وكذا حسب السياق.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ أوفوا بها أي:

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/١٩٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٠)، وأحمد في الزهد (ص١٥٨).

ائتوا بها وافية كاملة من غير نقص، وقد بَيَّن الله تعالى الوعيد على من يستوفي العقود تامة ولا يوفيها تامة، في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ١ ـ ٣] إذاً: (أوفوا) بمعنى: ائتوا بها كاملة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ [الإسراء: ٣٥] وما أشبه ذلك.

و«العقود» جمع عقد: وهو ما أبرمه الإنسان مع غيره، وضد العقد الحل، تقول: عقدت الحبل وحللت الحبل، فالعقود هي ما أبرمها الإنسان مع غيره، وهي أنواع كثيرة: منها البيع والإجارة والرهن والوقف والنكاح وغير ذلك.

وقوله: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ هذا عام فأي عقد فإنه يجب الوفاء به، ولكن لا بد أن يقيد بما جاءت به الشريعة، وهو ألا يكون العقد محرماً، فإن كان العقد محرماً فإن النصوص تدل على عدم الوفاء به بل على تحريم الوفاء به، لقول النبي ﷺ: **«ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط»**[1].

قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أحلت: هذا فعل مبني لما لم يسمَّ فاعله، وفاعله معلوم ليس مجهولاً؛ لأن الفاعل هنا هو الله عزّ وجل، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦] فالمُحِلُّ هنا هو الله عزّ وجل.

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب إذا اشترط شروطاً في البيع لا تحل، حديث رقم (٢٠٦٠)، ومسلم، كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق، حديث رقم (١٥٠٤) عن عائشة.

وقوله: ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ البهيمة: ما لا ينطق، فكل حيوان لا ينطق فهو بهيمة، وذلك لأن البهائم لا تُعْرِبُ عما في ضميرها بل يكون ما في ضميرها مبهماً لا يُعرف.

وقوله: ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ المراد بها ثلاثة أنواع: الإبل والبقر والغنم، فإضافة البهيمة إلى الأنعام من باب إضافة الشيء إلى جنسه، أي: البهيمة من الأنعام، كما تقول: خاتم حديد، وباب خشب، وما أشبه ذلك.

وقولنا: بهيمة الأنعام هي الإبل والبقر والغنم هذا تفسير للأنعام لا للبهيمة.

قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ هذا استثناء من قوله: ﴿بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ لأن بهيمة الأنعام مفرد مضاف فيعم كل شيء من بهيمة الأنعام.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ المراد بذلك ما سيأتي في الآية التي بعدها في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة: ٣]. هذا الذي يتلى عليهم.

قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ هذا استثناء من قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ويحتمل أن تكون حالاً، وهو الأقرب؛ لأنها مضافة إلى اسم الفاعل، يعني: أحلت لكم حال كونكم غير محلي الصيد وأنتم حرم.

وقوله: ﴿مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ أي: مستبيحيه وذلك بصيده.

قوله: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ جملة حالية، والحُرُم جمع حرام وهو: من تلبس بالإحرام بحج أو عمرة أو دخل في الحرم وإن لم يكن محرماً.

والحَرم في مكة معروف بحدوده، وفي المدينة كذلك أيضاً، لكن المدينة ليست كمكة في التحريم بل هي أقل كما سيذكر إن شاء الله تعالى.

والمراد بالصيد في حال الإحرام: كل حيوان بري متوحش أصلي؛ أي: متوحش باعتبار أصله، مثاله: رجل محرم قبل أن يدخل حرم مكة نزل ضيفاً على إنسان عنده حمام فاشترى منه حماماً؛ هذا لا يجوز لأنه صيد، وعليه فإن كان الرجل في الحرم أو كان محرماً فلا يجوز الصيد، ومثال آخر: رجل اشترى دجاجة غير مقدور على إمساكها تطير كالحمام هذا يجوز؛ لأن الدجاج غير متوحش أصلاً فهو ليس بصيد، وأيضاً من أمثلة الصيد الغزال والظباء والضب، وأما الغراب فلا يدخل لأنه لا يؤكل بل يدخل في الخمس التي أمر بقتلها في الحل والحرم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ الجملة كالتعليل لما قبلها، لما ذكر الله عزّ وجل الإحلال والتحريم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، الحكم هنا يشمل الحكم الكوني والحكم الشرعي، فكل ما يريده الله عزّ وجل فإنه يحكم به؛ لأنه لا راد لحكمه، إن شاء حلل هذا وحرم هذا، وإن شاء أوجب هذا ورخص في هذا، وكذلك أيضاً إن شاء حكم على عباده بالغنى والأمن؛ وإن شاء حكم بضد ذلك، فالأحكام الكونية والشرعية كلها بإرادة الله، ولا أحد يعترض على حكم الله عزّ وجل، كما قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ [يوسف: ٤٠] يعني: ما الحكم إلا لله، ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ [يوسف: ٤٠].

وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ﴾ الإرادة هنا تشمل الإرادة الكونية والشرعية، فالكونية باعتبار كون الحكم كونياً، والشرعية باعتبار كون الحكم شرعياً، وحينئذٍ لا بد أن نفرق بين الإرادتين الكونية والشرعية، والفرق بينهما: أن الكونية بمعنى المشيئة، فتتعلق بما يحبه الله وما لا يحبه الله، ويقع فيها ما أراد الله عزّ وجل بكل حال، وأما الشرعية فهي التي بمعنى المحبة، فمعنى يريد أي: يحب، فتتعلق بما يحبه الله فقط، وقد يقع فيها المراد وقد لا يقع، فهذا هو الفرق بين الإرادتين الكونية والشرعية.

لو قال قائل: إيمان أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكفر أبي لهب هل وقعا بإرادة الله الكونية أم الشرعية، وكذلك إيمان أبي طالب هل هو مراد كوناً أم شرعاً؟

الجواب: إيمان أبي بكر وقع بإرادة الله الكونية والشرعية، وأما كفر أبي لهب فواقع بالإرادة الكونية فقط؛ لأن الله لا يريد الكفر شرعاً، لكن قدراً يريده لحكمة، وأما إيمان أبي طالب فهو مراد شرعاً؛ لأن الدلالة الشرعية لا تستلزم الوقوع، ولو أراده كوناً لوقع.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: فضيلة الإيمان؛ وجه ذلك توجيه الخطاب أعني خطاب الله عزّ وجل إلى المؤمنين.

الفائدة الثانية: أهمية ما يذكر بعد هذا النداء، لوجود فرق بين قولك: (افعل كذا) وقولك: (يا فلان افعل كذا)، فالثاني أشد وأدعى للاهتمام؛ لأنك ناديته حتى ينتبه لك، ففيه أهمية ما سيذكر بعد هذا النداء.

الفائدة الثالثة: وجوب الوفاء بالعقود، لقوله: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ لأن الأصل في الأمر أنه للوجوب لاسيما إذا كان متعلقاً بحق الآخرين، والعقد متعلق بحق الآخرين؛ لأنه إبرام شيء بينك وبين الآخر، فإذاً الأمر بالوفاء للوجوب.

الفائدة الرابعة: أن جميع العقود حلال، وجه ذلك: أن الله أمر بالوفاء بها، والله تعالى لا يأمر بالوفاء بالفحشاء أبداً، ولكن هذا ليس على عمومه إذ يستثنى منها ما حرمه الشرع، كبيع الغرر وبيع حبل الحبلة، والبيع بالربا، والقمار، وما أشبه ذلك.

الفائدة الخامسة والسادسة: أن العقود تنعقد بما دل عليها من قول أو فعل بلفظ أو إشارة أو كتابة، وجه ذلك أن الله جل وعلا أطلق العقد فكل ما كان عقداً بين الناس فهو عقد، ويتفرع على هذا مسائل كثيرة:

منها: جواز البيع بالمعاطاة، والمعاطاة أن يأتي الإنسان إلى الخباز وقد كُتِبَ إعلان (الخبزة بريال) فيضع الريال في مكان الفلوس ويأخذ الخبزة، هذا بيع بالمعاطاة؛ لأنه ليس فيه قبول ولا إيجاب، لكنه بالمعاطاة، وقد عرف عند الناس أنه عقد.

ومن ذلك أيضاً: الركوب في الحافلات، الإنسان يدخل باب الحافلة المفتوح فيدخل ويسلم الأجرة للذي عند الباب، ولا يتكلم ولا يعقد الإجارة بصيغة، هذه أيضاً إجارة بالمعاطاة.

ومن ذلك أيضاً: أن النكاح ينعقد بما دل عليه وأنه لا يحتاج إلى لفظ: زَوَّجْتُكَ، فإذا قال: وهبتك ابنتي، وعلم أن المراد بالهبة ليس مجاناً صح العقد، وكذلك لو قال: ملكتك

ابنتي فقال: قبلت، صح العقد؛ لأن هذا هو المعروف، وقد جاء في حديث الواهبة نفسها عند البخاري لفظ: «**ملكتكها بما معك من القرآن**»[١].

الفائدة السابعة: وجوب الوفاء بالشروط المشترطة في العقد، فإذا عقد رجلان بينهما عقد بيع أو غيره واشترطا شروطاً فالأصل وجوب الوفاء بالشروط، وذلك لأن قوله: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ يشمل الوفاء بالعقد نفسه وبأوصافه التي هي شروطه؛ لأن الشروط في العقد في الحقيقة أوصاف للعقد، والأمر بالوفاء بالعقد أمر بالوفاء به وبما يتضمنه من الأوصاف.

فإذا اشترط المتعاقدان شرطاً وحصل نزاع في هذا الشرط فالصواب أن هذا الشرط يصح حتى يقيم المانع دليلاً على المنع، وعلى هذا فإننا نُجري الناس على معاملاتهم حتى نتأكد أن فيها مخالفة للشرع، فالأصل إذاً في المعاملات أن تجري على ما هي عليه حتى يقوم دليل على أنها محرمة لأن قوله: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ أمر، والأمر يقتضي الوجوب، فيجب الإيفاء بالعقود.

مثال ذلك: رجل باع بيتاً واشترط على المشتري أن يسكنه سنة فيجب على المشتري أن يُمَكِّنَ البائع من ذلك.

مثال آخر: امرأة اشترطت إن جاز لها المقام مع أهله وإلا فلها الفسخ؛ لأنها سمعت أن أمه شريرة طويلة اللسان سريعة الغضب، فقالت: سأقع في مشاكل فالشرط صحيح، فإذا جاز لها

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراءة عن ظهر القلب، حديث رقم (٤٧٤٢)، ومسلم، كتاب النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد وغير ذلك من قليل وكثير، حديث رقم (١٤٢٥) عن سهل بن سعد.

المقام عند أهله وإلا فلها الفسخ، ولكن ينبغي في مثل هذه الحال أن يُجعل الباب مفتوحاً، فتقول: لها الفسخ أو المطالبة بأن تسكن في مكان وحدها.

مثال آخر: رجل باع أمَةً واشترط على المشتري أن يطأها سنة حتى يتزوج، هذا شرط باطل؛ لأنه ليس في كتاب الله، وكل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، بل في القرآن ما يدل على تحريم ذلك قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧]، وأيضاً لأن هذه الأمة خرجت عن ملكه.

مثال آخر: رجل باع أمَةً واشترط أن تخدمه سنة، أي: باعها واستثنى منفعتها يصح، ويدل له حديث جابر لما باع جمله للنبي ﷺ واستثنى حملانه[(١)].

ويدخل في الوفاء بالشروط شروط النكاح بل قال النبي ﷺ: **«إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به من الفروج»**[(٢)] فإذا اشترطت المرأة على زوجها ألا يتزوج عليها صح الشرط ويجب الوفاء به، وإذا اشترطت الزوجة أن يطلق زوجته التي معه لا يصح الشرط.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الشروط، باب إذا اشترط البائع ظهر الدابة إلى مكان مسمى جاز، حديث رقم (٢٥٦٩) عن جابر بن عبد الله.

(٢) رواه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في المهر عند عقدة النكاح، حديث رقم (٢٥٧٢)، ومسلم، كتاب النكاح، باب الوفاء بالشروط في النكاح، حديث رقم (١٤١٨) عن عقبة بن عامر.

والفرق ظاهر: لأن الثاني فيه عدوان على الزوجة الأولى، والأول لا عدوان فيه، بل الزوج امتنع عما أباح الله له باختياره ورضاه، ولكن لو أراد الزوج أن يتزوج وتزوج، فالزوجة لها الخيار إن شاءت بقيت وإن شاءت فسخت، ولا مهر للزوج؛ لأنه هو الذي أخل بالشرط، فنقول له: تزوج، ولا نحجر عليه إذا لم يفِ بالشرط، إن اضطرته الحاجة لذلك وإلا فإن ذمته لا تبرأ وهو للإثم أقرب؛ لأن المرأة مكرهة على الفسخ وقد غرر بها، وهي ربما تبقى وهي مكرهة.

يدخل في ذلك الوفاء بالعهود لأن العهد عقد، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وأيضاً يدخل في ذلك الوفاء بالوعد، فلو قلت لإنسان: سأمر عليك غداً في الساعة الفلانية، الصحيح أنه يجب عليك أن توفي به؛ لأن الوعد عهد ولأن إخلاف الوعد من صفات المنافقين، والرسول عليه الصلاة والسلام لما قال في المنافق: «**إذا وعد أخلف**»[1] لا يريد أن يوصل إلى أفهامنا أن هذه الخصلة من خصال المنافقين فقط، ولكن يريد منا أن نتجنبها ونحذرها، ولهذا كان القول الراجح أن الوفاء بالوعد واجب، وأنه لا يجوز للإنسان أن يخلف في الوعد إلا لعذر شرعي.

والعجب أن بعض المغرورين بأخلاق الأمم الكافرة يقول لصاحبه إذا واعده: إنه وعد إنجليزي، مع أن الكفار من أبعد

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، حديث رقم (٣٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، حديث رقم (٥٩) عن أبي هريرة.

الناس عن الوفاء بالوعد، وكان على هذا أن يقول: إنه وعد مؤمن؛ لأن المؤمن هو الذي لا يخلف الوعد إلا لعذر شرعي.

تنبيه:

إذا استثنى الواعد، أي: قال إن شاء الله ولم يفِ بالوعد فالظاهر أنه لا شيء عليه؛ لأن صاحبه الذي سمعه يقول: إن شاء الله يعرف أنه لم يُردِ الوفاء التام، إلا إذا فهم المخاطب من قوله: إن شاء الله، التحقيق كأن يكون أشار إليه بيده أثناء وعده له فيجب عليه الوفاء بالوعد حينئذٍ؛ لأن الوعد عقد أو معاقدة بين الواعد والموعود.

الفائدة الثامنة: أن جميع بهائم الأنعام حلال لقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وأيضاً غير بهيمة الأنعام نقول: إنها حلال لكن لا بهذه الآية، بل بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وعلى هذا فإذا شككنا في هذا الحيوان الزاحف أو الطائر هل هو حلال أو حرام؟ فالأصل أنه حلال، وعلى من حرمه الدليل، لكن إذا شككنا في الحلال هل ذكي ذكاة شرعية أم لا؟ فالأصل عدم الذكاة الشرعية؛ لأن الذكاة فعل لا بد من تحقق وجوده، فإذا وجدنا عضواً من شاة ولا ندري هل هو مذكى أو غير مذكى؟ فنقول: إنه لا يحل؛ لأن الأصل عدم التذكية ما لم يوجد ظاهر يغلب على هذا الأصل، فإن وجد ظاهر يغلب على هذا الأصل فإننا نأخذ به.

فلو وجدنا رِجْلَ شاة عند بيت من بيوت المسلمين فنحن لا نعلم هل ذكيت أم لا؟ فالأصل عدم الحل، لكن هنا ظاهر يغلب على هذا الأصل وهو أن وجودها بين بيوت المسلمين يدل على أنها مذكاة، فيكون هذا الظاهر غالباً أو مُغَلَّباً على الأصل.

ولهذا قال العلماء رحمهم الله: لو وجد الإنسان شاة مذكاة في بلد أكثر أهله ممن تحل ذبيحته فهي حلال، مع أن هناك احتمالاً أن يكون الذي ذبحها ممن لا تحل ذبيحته، لكن يغلَّب الظاهر لقوته.

الفائدة التاسعة: الإحالة على مذكور أو على ما سيذكر، لقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، وهذا إحالة على ما سيذكر، وقد استعمل العلماء رحمهم الله هذا في مؤلفاتهم، وأكثر من رأيناه يستعمله الحافظ ابن حجر رحمه الله، فما أكثر إحالاته، ومع ذلك أحياناً ينسى أن يوفي رحمه الله.

الفائدة العاشرة: أن الأصل في البهيمة ـ أعني: بهيمة الأنعام ـ الحل كما قررناه قبل قليل، وجه ذلك: الاستثناء من هذا الحكم ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا﴾، وقد قال العلماء رحمهم الله: إن الاستثناء معيار العموم ـ معيار يعني: ميزاناً ـ فإذا وجدت شيئاً فيه استثناء فاعلم أن هذا الحكم عام؛ لأنه لما أخرج هذا الفرد من أفراده علم أن الحكم شامل لجميع الأفراد.

الفائدة الحادية عشرة: أنه لا يحل الصيد للمُحْرِم، لقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ ولا لمن كان في الحرم؛ لأن من كان في الحرم فقد دخل في جو محرَّم فيه الصيد فيحرم عليه الصيد.

لكن لو صاد صيداً حلالاً يعني: أنهر الدم وسمَّى الله وقتله فإنه لا يحل، لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي: غير محليه، فدل ذلك على أنهم إذا قتلوه فهو حرام فلا يحل لهم أن يحللوه لأنفسهم؛ ولهذا عبر الله عن صيد الصيد بالقتل، فقال تعالى في آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ٩٥] ومعلوم أنه لا يريد أن يقتل بغير الصيد الشرعي؛

لأن القتل بغير الصيد الشرعي منهي عنه سواء كان الإنسان مُحْرِماً أم غير محرم، لكن لما كان صيد الصيد في حال الإحرام حراماً صار هذا الصيد بمنزلة القتل، فيكون المصيد حراماً.

الفائدة الثانية عشرة: تعظيم الإحرام وأنه يحرم على المحرم الصيد لئلا ينساب وراء الصيد فينسى الإحرام، إذ من المعلوم الآن عند أهل الصيد أنهم شغوفون به وأنه يأخذ بلبهم وعقولهم، حتى إنك ترى الصائد يلحق الصيد والحصى يُدمي قدمه والشوك يخرقها ومع ذلك لا يبالي، فلو أحل الصيد للمحرم لتلهى به عن إحرامه وغفل.

الفائدة الثالثة عشرة: إثبات الحكم لله، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

الفائدة الرابعة عشرة: إثبات الإرادة لله جل وعلا، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

الفائدة الخامسة عشرة: الإشارة إلى أنه لا يحل للإنسان أن يعترض على الأحكام الشرعية، وجه ذلك: لأن الله ختمها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ وذلك بعد أن ذكر أنواعاً من الأحكام.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة: ٢].

نقول في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ما قلناه في الآية الأولى.

قوله: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تنتهكوا حرماتها، و«الشعائر» جمع شعيرة، وهي العبادات الكبار، كالحج والعمرة ونحو ذلك، وذلك لأن الأحكام الشرعية شعائر وغير شعائر، الأحكام الكبيرة تسمى شعائر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

قوله: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ الشهر هنا المراد به الجنس، وليس المراد به الواحد، فالشهر الحرام شهور أربعة بينها الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦] وبيَّن النبي ﷺ أعيان هذه الأشهر بأنها: ذو القَعدة بفتح القاف وهو الأفصح ويجوز الكسر، وذو الحِجة والأفصح كسر الحاء، والمحرم والرابع رجب مضر الذي بين جمادى وشعبان[1]، هذه الأشهر الحرم، يقول الله تعالى: لا تحلوها بالمعاصي وأيضاً لا تحلوها بالقتال؛ لأن القتال في الأشهر الحرم حرام، حتى الكفار لا يحل أن نبدأهم بالقتال في الأشهر الحرم، إلا دفاعاً عن النفس أو إذا كان امتداداً لقتال سابق، وهذه المسألة يأتي إن شاء الله بيان حكمها واختلاف العلماء فيها.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾، حديث رقم (٤٣٨٥)، ومسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، حديث رقم (١٦٧٩) عن أبي بكرة.

قوله: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾ أي: لا تحلوا الهدي، والمراد بالهدي ما يهدى إلى الحرم، من إبل أو بقر أو غنم، وكيفية إحلاله أن يذبحه قبل أن يبلغ محله، فلو أن الإنسان ساق الهدي من الميقات: من ذي الحليفة مثلاً ثم أراد أن يذبحه أو ينحره قبل الوصول إلى مكة كان هذا حراماً لا يحل، ولهذا قال: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾ والعطف هنا لا يدل على المغايرة، فليس المعنى أن الهدي ليس من شعائر الله بل هذا كقول الله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فالعطف هنا لا يدل على أن الصلاة الوسطى ليست من الصلوات، لكن قد يعطف الخاص على العام للعناية به.

قوله: ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ جمع قلادة، والمراد بالقلائد: ما تقلد به أعناق الهدي، وكان من عادتهم أن يجعلوا في عنق كل واحدة قلادة، إشارة إلى أنها هدي، ويعلق في هذه القلادة النعال البالية وأطراف الأسقية أي: أطراف القرب وما أشبه ذلك، إشارة إلى أن هذه للفقراء، فمن حين أن يرى الإنسان هذا البعير أو هذه الشاة وعليها هذه القلادة يعرف أنها هدي فيحترمها ولا يضيرها بشيء، ويحتمل أن يقال: إن القلائد أعم من ذلك، وأن المراد: ولا ما تقلدتموه، أي: ما تقلدتموه من عهود ووعود وغيرها، ولكن السياق يدل على المعنى الأول، القلائد يعني: قلائد الهدي.

قوله: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ يعني: ولا تحلوا أيضاً.

قوله: ﴿ءَآمِّينَ﴾ بمعنى قاصدين، ﴿ٱلْبَيْتَ﴾ مفعول به لآمين

و﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ هو الكعبة وسماه الله بيتاً لأنه بيت في الواقع، إذ إنه حجرة ذات أركان وسقف، ووصفها الله بالحرام لما لها من الحرمة والتعظيم، ولهذا كان ما حولها محترماً، حتى الأشجار محترمة في الحرم، مع أن الأشجار جماد، أما الحصى والتراب فغير محترم، ولهذا لك أن تكسر الحصاة، ولك أن تنقل التراب إلى خارج الحرم، بخلاف الأشجار، لكن الأشجار التي لا تنمو كالتي قد يبست وكأغصان انكسرت فهذه ليست حراماً.

قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ جملة يبتغون في موضع نصب على الحال من «آمّين».

وقوله: ﴿يَبْتَغُونَ﴾ أي: يطلبون.

وقوله: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الفضل هنا يشمل الفضل الدنيوي والفضل الأخروي، دليل ذلك قوله تبارك وتعالى لما ذكر أحكام الحج قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] وهذا فضل الدنيا يشير به إلى من أتى إلى الحج يبيع ويشتري أو يكاري إبله أو سيارته أو ما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: رضاً من الله عزّ وجل وفيها قراءتان ضم الراء وكسرها (رُضواناً) و(رِضواناً).

وقوله: ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: من ربهم، فالرضوان هنا عام فهم يريدون رضواناً من الله عزّ وجل ومن أنبيائه وأوليائه وأصفيائه، لكن الأصل الأصيل أنهم يريدون الفضل من الله عزّ وجل.

قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ إذا حللتم أي: من الإحرام، لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ١].

وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ أي: من إحرامكم ﴿فَٱصْطَادُوا۟﴾ والمراد بالإحلال هنا الإحلال الأول الذي يحصل برمي جمرة العقبة يوم العيد والحلق أو التقصير، كما جاءت بذلك السنة أن من رمى وحلق حل له كل شيء إلا النساء[1]، هذا هو المراد بقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ وليس المراد إذا حللتم من كل الإحرام.

وقوله: ﴿فَٱصْطَادُوا۟﴾ أصلها فاصتادوا لكن لعلة تصريفية قلبت (التاء) (طاء)، والمعنى: صيدوا الصيد، ولم يقل: فصيدوا؛ لأن الصيد يحتاج إلى عمل وحركة وافتعال، وإن شئت فقل: وانفعال أيضاً، وسيأتينا إن شاء الله تعالى هل الأمر هنا للإباحة أو لرفع النهي، وينظر في حكم الاصطياد الأصلي.

قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ ﴿شَنَـَٔانُ﴾ فيها قراءتان بسكون النون وفتحها، وكذلك «أنْ» في قوله تعالى: ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ فيها قراءتان بفتح الهمزة وكسرها، فالشنآن هو البغض.

قوله: ﴿قَوْمٍ﴾ المراد بالقوم هنا وإن كان نكرة أهل مكة، فالنكرة هنا معلومة.

والمعنى على قراءة الكسر أي: لا يحملنكم بغضهم إن

---

(١) رواه بهذا اللفظ الدارقطني (٢/٢٧٦) (١٨٥)، ورواه بدون ذكر الحلق: أبو داود، كتاب المناسك، باب في رمي الجمار، حديث رقم (١٩٧٨) عن عائشة، والنسائي، كتاب مناسك الحج، باب ما يحل للمحرم بعد رمي الجمار، حديث رقم (٣٠٨٤)، وابن ماجه، كتاب المناسك، باب ما يحل للرجل إذا رمى جمرة العقبة، حديث رقم (٣٠٤١) عن ابن عباس.

صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، وهذا إشارة إلى أنهم سوف يصدونكم عن المسجد الحرام، لكن إن صدوكم فلا تعتدوا.

أما على قراءة الفتح «أن صدوكم» فتكون الجملة تعليلاً، أي: لا يحملنكم بغضهم من أجل صدهم إياكم أن تعتدوا.

إذاً: يختلف المعنى باختلاف القراءتين، فعلى قراءة كسر الهمزة إخبار عما يتوقع، وعلى قراءة فتح الهمزة إخبار عما وقع، فيكون المعنى الأول: ولا يحملكم بغض هؤلاء إن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، وعلى الثانية: ولا يحملكم بغض قوم لكونهم صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا.

وقوله: ﴿صَدُّوكُمْ﴾ أي: صرفوكم، وهذا ينطبق تماماً على ما فعلته قريش في غزوة الحديبية، فإنها صدت النبي ﷺ، وأحلت شعائر الله، وأحلت الشهر الحرام، والهدي، والقلائد، فكل ما نهى الله عنه في هذه الآية انتهكته قريش، وصدوا أولى الناس بالبيت عن بيت الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: ذي الحرمة والتعظيم، ولا شك أن هذا المسجد له حرمة وعظمة، فإن أول بيت وضع للناس ليتعبدوا الله فيه هو المسجد الحرام، وهو الذي يجب على كل مسلم وجوباً عينياً لا يتم إسلامه إلا به أن يؤمه بحج بالإجماع، أو بحج وعمرة على خلاف بين العلماء رحمهم الله تعالى في وجوب العمرة، فهو مسجد حرام.

ووصف بالمسجد إما لأن جميع الأرض مسجد، وأولى أرض تتصف بذلك هي هذه البقعة، أو يقال: إن المراد بالمسجد

الحرام هو مسجد الكعبة الذي اتُخذ مسجداً؛ لأنهم صدوهم عن الوصول إليه، وما حول المسجد تابع له، والأصل هو المسجد، ولهذا أجمع العلماء رحمهم الله على ركنية الطواف في العمرة والحج، فطواف الإفاضة وطواف العمرة مجمع على ركنيتهما وعلى أنه لا يصح الحج والعمرة إلا بهما.

وقوله: ﴿أَن تَعْتَدُوا﴾ هذه متعلقة بقوله: لا يجرمنكم، يعني: لا يحملنكم على العدوان، و«أَنْ» في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض وتقديره: على أن تعتدوا، يعني: لا يحملكم هذا على العدوان.

قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ تعاونوا على وزن (تفاعلوا)، ولا تكون هذه الصيغة إلا من جانبين، فإنك إذا قلت: أعن صاحبك، فطلب الإعانة من جانب واحد، لكن قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا﴾ أي: ليعن كل واحد أخاه، ﴿عَلَى الْبِرِّ﴾: وهو فعل الطاعات: ﴿وَالتَّقْوَىٰ﴾: وهي ترك المحرمات، فإذا استعانك أخوك على عبادة من العبادات فأعنه لتشاركه في الأجر، فإذا قال لك: قَرِّب لي ماء الوضوء؛ فقربه له، وإذا قال لك: اشترِ لي ثوباً أستر به عورتي في الصلاة؛ اشترِ له، وإذا قال لك: دلني على اتجاه القبلة دله عليها، بل وإن لم يستعنك فأعنه أيضاً.

كذلك تعاونوا على التقوى، أي: على ترك المحرمات، فإذا استعانك إنسان على تكسير المزمار فأعنه، أو استعانك على إراقة خمر فأعنه أيضاً، أو على إتلاف كتب بدع فأعنه، وهلمَّ جرًّا.

قوله: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ «الإثم» هو المعاصي المتعلقة بحق الله عزّ وجل، و«العدوان»: المعاصي المتعلقة بحق

العباد، وإذا أفردت إحداهما عن الأخرى صارت شاملة لمعنى الأخرى، يعني: إذا أطلق الإثم صار شاملاً للعدوان على الناس، ولو أطلق العدوان صار شاملاً للإثم؛ لأن العدوان على حق الله عزّ وجل إثم.

قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ لما ذكر هذه الأوامر والنواهي أمر بتقوى الله عزّ وجل، يعني: اتقوا الله أن تخالفوا أمره أو أن تقعوا في نهيه، والتقوى فسرت بعدة تفاسير وأحسنها أن يقال: إن التقوى اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وينقص من التقوى بقدر ما نقص من ذلك، فالإنسان الذي عنده معاصي ومآثم لكنها لا تخرجه من الإسلام نقول: إن تقواه ناقصة.

وقد كان بعض السلف إذا قيل له: اتقِ الله؛ ارتعد وربما سقط من مخافة الله عزّ وجل، وأدركنا من الناس من هذه حاله، أي: أنك إذا قلت له: اتقِ الله؛ اضطرب واحمر وجهه وخشع، والآن بالعكس، إذا قلت له: اتقِ الله، قال: ماذا فعلت؟ مع أنه منتهك لحرمات الله عزّ وجل، فالواجب على العبد تقوى الله عزّ وجل امتثالاً لأمره تعالى.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ الجملة صلتها بما قبلها أنها وعيد لمن لم يتقِ الله، والمعاقبة هي المؤاخذة على الذنب.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تحريم تحليل الشعائر، لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾.

الفائدة الثانية: أن إحلال شعائر الله وكذلك ما ذكر في الآية نقص في الإيمان، لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

الفائدة الثالثة: أن امتثال ما ذكر في الآية من مقتضيات الإيمان التي يزيد بها الإيمان.

الفائدة الرابعة: تعظيم الشعائر؛ لأن الله أضافها إلى نفسه، والمضاف يشرف ويعظم بحسب المضاف إليه.

الفائدة الخامسة: تحريم إحلال الشهر الحرام بالقتال، وكذلك أيضاً بالمعاصي، فإن المعاصي في هذه الأشهر الحرم أعظم من المعاصي في غيرها، أما القتال في الشهر الحرام فاختلف فيه العلماء:

فمنهم من يقول: إنه منسوخ، **ومنهم** من يقول: إنه محكم وليس بمنسوخ، فالقائلون بأنه منسوخ يقولون: إن الرسول عليه الصلاة والسلام قاتل في الشهر الحرام[1]، فإنه بعد فتح مكة ـ أي: في رمضان ـ خرج إلى هوازن وثقيف وقاتلهم في ذي القعدة، وكذلك كانت غزوة تبوك في الشهر الحرام في محرم، وهذا يدل على أن القتال في الشهر الحرام نسخ تحريمه.

ولكن الصحيح أنه باقٍ، وأنه لا يجوز القتال في الشهر الحرام ابتداءً، أما إذا كان دفاعاً أو امتداداً لغزوة سابقة فإن ذلك جائز، وعليه تحمل قصة هوازن وتبوك؛ لأن النبي ﷺ إنما غزاهم لأنه قيل له: إنهم قد جمعوا له، فلا بد من الدفاع.

الفائدة السادسة: احترام الهدي وتحريم إحلاله، لقوله: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾.

الفائدة السابعة: العمل بالقرائن؛ لأن القلائد قرينة على أن

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٤٩ ـ ١٥٠)، وتفسير البغوي (٤/ ٤٥).

هذا هدي، والعمل بالقرائن جاءت به السنة، بل أشار إليه القرآن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩] وكانت رعته ليلاً وعلم ذلك بآثارها.

كذلك أيضاً: سليمان عليه الصلاة والسلام لما تنازعت المرأتان عنده في الولد الذي بقي وهو للصغرى، فطلب سكيناً يشقه بين المرأتين نصفين، فوافقت الكبرى وامتنعت الصغرى، فحكم به للصغرى؛ لأن كونها تأبى أن يشق، هذا يدل على أنها هي الأم وذلك لشفقتها[1].

وكذلك شاهد يوسف عليه السلام قال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف: ٢٦ ـ ٢٧].

وكذلك السنة جاءت بالعمل بالقرائن، فإن النبي ﷺ لما فتح خيبر وطلب مال حيي بن أخطب فقال له سَلام بن مِشْكَم: إنه فني، قال: «**كيف يفنى، العهد قريب والمال كثير؟**» ثم أمر الزبير بن العوام أن يمسه بعذاب، فلما أحس بالعذاب قال: اصبروا، إني أرى حييا يطوف حول خربة هناك، فذهبوا إلى الخربة وإذا فيها ذهب عظيم مدفون قيل: إنه ملء جلد الثور[2]،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب إذا ادعت المرأة ابناً، حديث رقم (٦٣٨٧)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب بيان اختلاف المجتهدين، حديث رقم (١٧٢٠) عن أبي هريرة.

(٢) رواه ابن حبان (١١/ ٦٠٧) (٥١٩٩)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٣٧) (١٨١٦٨)، وأصله عند أبي داود، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب ما جاء في حكم أرض خيبر، حديث رقم (٣٠٠٦) عن ابن عمر.

لكن لماذا حكم النبي عليه الصلاة والسلام بأن المال كثير؟ لأنه لا بد من مال؛ لأن العهد قريب والمال كثير أين يذهب؟

فلا بد من العمل بالقرائن لكن بشرط ألا تكون مجرد تهمة، فإن كانت مجرد تهمة ليس لها أصل فإنه لا يجوز، لأنَّ الأصل البراءة والسلامة.

الفائدة الثامنة: وجوب احترام الحجاج والعمار، لقوله: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ وهذا يفيد أن العدوان عليهم أشد من العدوان على غيرهم.

الفائدة التاسعة: الإشارة إلى الإخلاص لقاصد المسجد الحرام، لقوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ وهنا نسأل: من قصد البيت لغير هذا الغرض بأن قصد البيت لزيارة قريب أو لتجارة، أما زيارة القريب فهي مما يبتغى به وجه الله، لكن من قصد البيت لتجارة، هل يدخل في هذا أو لا؟

الجواب: يدخل بلا شك، لكن ذُكِرَ ذلك القيد بناءً على الأغلب، والقيد المبني على الأغلب يقول أهل الأصول: إنه لا مفهوم له، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ ليس قيداً ولكنه بناءً على الأغلب كقوله تعالى في بنات الزوجات: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣] فإن ابنة الزوجة تحرم على الزوج إذا دخل بأمها وإن لم تكن في حجره، لكن ذكر الحجور بناء على الغالب.

الفائدة العاشرة: أنه يجوز للإنسان أن يعمل العبادة لطلب الأجر والرضا من الله وأن هذا من أعلى المقامات، خلافاً

للصوفية الذين يقولون: اعبد الله لله، فإن عبدته لثوابه فعبادتك ناقصة ـ قاتلكم الله ـ أليس الله تعالى امتدح محمداً ﷺ وأصحابه في قوله: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩] ولا شك أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه هم أعلى الناس مقاماً، ولكن هؤلاء لقصور فهمهم ظنوا أنك لا بد أن تعبد اللهَ لله فقط، نسأل الله العافية، وهذا خلاف ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

الفائدة الحادية عشرة: الإشارة إلى مِنَّة الله عزّ وجل على هؤلاء الذين قصدوا البيت الحرام، وجه ذلك لأن إضافة الربوبية إليهم دليل على عنايته تبارك وتعالى بهم، واعلم أن الربوبية نوعان: عامة وخاصة، وإليهما الإشارة في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢١ ـ ١٢٢] فقوله: «رب العالمين»، ربوبية عامة، وقوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ ربوبية خاصة، إذاً كون الله تعالى أضاف ربوبيته إليهم إشارة إلى عنايته بهم عزّ وجل، ومن ذلك أن وفقهم للحضور إلى المسجد الحرام.

الفائدة الثانية عشرة: إثبات الرضا لله عزّ وجل، وأنه من أكبر غايات المؤمنين، بل هو أكبر غاياتهم، فالرضا من صفات الله عزّ وجل التي يثبتها أهل السنة والجماعة على وجه الحقيقة، يقولون: إن الله يرضى ويكره، ويغضب، ورضاه من صفات كماله عزّ وجل، وهو سبب للثواب، إذا رضي الله عن العبد أثابه، وحمل أهل التعطيل الرضوان على أنه الثواب، وقالوا: إنه مجاز عن الثواب عُبر به لأنه سببه، فهو من التعبير

بالسبب عن المسبب، فيقال: ما المانع أن نثبت الرضا لله عزّ وجل، وقد أثبت الله لنفسه الرضا في القرآن، وأثبته النبي ﷺ في السنة «**إن الله يرضى لكم ثلاثاً**»[1]، والنصوص في هذا كثيرة، وأجمع عليه سلف الأمة، وطريق إجماعهم أنه لم يرد عنهم ما يخالف ذلك وهم يقرؤون الكتاب والسنة ولم يرد عن واحد منهم أنه فسر الرضا بالثواب، وهذا طريق ينبغي أن يتفطن له الإنسان؛ لأنه قد يقول قائل: ما الدليل على أن السلف أجمعوا على أن الرضا على معناه الحقيقي؟ نقول: الدليل هو أنهم يتلون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بهذا اللفظ ولم يرد عنهم حرف واحد يدل على أنه غير مراد.

فإذا كان الله يرضى، والرضا من صفته، فهل هو من الصفات الذاتية أو الفعلية؟

الجواب: هو من الصفات الفعلية؛ لأن كل صفة لله تكون لسبب فهي من الصفات الفعلية، إذ إن كونها تقع لسبب يدل على أنها كانت بمشيئة الله، فالرضا صفة فعلية، والغضب صفة فعلية، والنزول صفة فعلية.. وهكذا، فالقاعدة: أن كل صفة من صفات الله تكون لسبب فهي فعلية؛ لأنها قبل وجود السبب غير موجودة.

هذا هو القول الذي ندين الله به، أن الله عزّ وجل يرضى ويغضب، ويكره ويحب، حقيقة لا مجازاً، والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، والنهي عن منع وهات...، حديث رقم (١٧١٥) عن أبي هريرة.

الفائدة الثالثة عشرة: أن الإنسان إذا حل من الإحرام فإنه يحل له الصيد، لقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ أي: من الإحرام، وهذا كالمستثنى من قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ وهل المراد الحل كله أو بعضه، بينت السنة أن المراد الحل بعضه؛ لأنه إذا حل التحلل الأول جاز له الصيد وجاز له جميع محظورات الإحرام إلا النساء، وعلى هذا فقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ يكون فيه نوع من الإجمال، بينته السنة.

الفائدة الرابعة عشرة: حل الصيد، وقد بينت السنة أن لحل الصيد شروطاً معروفة في كتب أهل العلم، وقد تقدم ذلك في التفسير.

فإن قال قائل: ذكرتم أن الاصطياد بعد الحل مباح مع أنه أمر كيف يكون ذلك؟

نقول: لأنه إذا ورد الأمر بعد النهي فإنه للإباحة، وهذا الذي عليه أكثر الأصوليين.

وقيل: إن الأمر بعد النهي رفع للنهي، والفرق بين القولين، أننا إذا قلنا إنه للإباحة؛ صار الشيء الذي أمر به مباحاً فقط، وإذا قلنا: إنه رفع للنهي عاد حكم الشيء الذي أمر به إلى ما كان عليه قبل النهي، ولكل من القولين وجه.

أما الذين قالوا: إن الأمر بعد النهي للإباحة فقالوا: إنه لما ورد النهي على الإباحة نسخها نهائياً، حتى ولو كان النهي عن شيء مستحب فإنه ينسخه نهائياً، ثم يرد الأمر بعد النهي فيكون معناه الإباحة.

وأما الذين قالوا: إن الأمر بعد النهي رفع للنهي فقالوا: إنه

لما ورد النهي عن الشيء صار منهياً عنه، فإذا رفع النهي وجب أن يبقى المنهي عنه على ما كان عليه من قبل، لكن هل نقول: يسن لكل إنسان حل من إحرامه أن يأخذ آلة الصيد من أجل أن يصيد الصيد؟

الجواب: لا، لا أحد يقول بذلك، لكن يباح له ذلك، أما قوله تعالى في الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الجمعة: ١٠] فهذا الأمر يكون للاستحباب؛ لأن طلب الرزق أمر مستحب، وعلى القول الثاني وهو أن الأمر بعد النهي للإباحة يكون مباحاً.

والأقرب ما ذكرناه في نظم القواعد[1] وهو أنه لرفع النهي:

والأمر بعد النهي للحل وفي ... قول لرفع النهي خذ به تفي

فهذا هو الأقرب.

الفائدة الخامسة عشرة: أنه لا يجوز الاعتداء على الغير ولو كان الإنسان مبغضاً له، ولو كان قد صده عن الطاعة، فأما إذا عامله بمثل ما عامله به فهذا لا بأس به، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

الفائدة السادسة عشرة: التحذير من اتباع الهوى وحمل النفس على العدوان عند العداوة والبغضاء؛ لأن العادة والطبيعة أن الإنسان إذا أبغض شخصاً فإنه يعامله بالعدوان والشدة؛ لأن نفسه تحمله على هذا، فحذر الله عزّ وجل من ذلك.

---

(١) انظر «منظومة أصول الفقه وقواعده» لفضيلته رحمه الله.

الفائدة السابعة عشرة: الإشارة إلى ما وقع من قريش في غزوة الحديبية، لقوله: ﴿أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ والآية فيها قراءتان كما تقدم ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ وهذه القراءة لا إشكال فيها لأن ﴿أَن﴾ هنا للتعليل، يعني: لا يحملكم بغضهم من أجل صدكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، لكن الذي فيه إشكال هو قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ فيقال: هذا شرط والشرط يكون للمستقبل.

فيقال في الجواب عن ذلك: إن معنى الآية إن تكرر صدهم إياكم، أو إن فرض أن يصدوكم فلا تعتدوا.

الفائدة الثامنة عشرة: إثبات حرمة المسجد الحرام لقوله: ﴿أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وقد استدل بعض العلماء بقوله تعالى: ﴿أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أن قول النبي ﷺ في تضعيف الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف يشمل جميع حدود الحرم؛ أي: كل ما كان داخلاً في حدود الحرم، ولكن هذا الاستدلال فيه نظر:

أولاً: أننا لا نسلم أن المراد بالمسجد الحرام هنا ما كان داخل حدود الحرم؛ لأننا لو سألنا: ماذا أراد رسول الله ﷺ ومن معه هل أرادوا أن يدخلوا إلى حدود الحرم فقط، أو أن يَصِلوا إلى مسجد الكعبة؟

الجواب: الثاني بلا شك، فيكون المعنى أنه ذكر أعلى ما يصدونهم عنه وهو الوصول إلى المسجد الذي فيه الكعبة.

ثانياً: أن نقول: ما دام هناك دليل صريح واضح عن الرسول عليه الصلاة والسلام أن المراد بما فيه التضعيف هو

مسجد الكعبة كما في صحيح مسلم: «**صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا مسجد الكعبة**»[١]، فما دام عندنا دليل صريح في هذا فلا حاجة إلى أن نتأول النصوص على ما فهمناه.

الفائدة التاسعة عشرة: وجوب التعاون على البر والتقوى، لقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾، وهل هذا متوقف على استعانة الغير بك أو مطلقاً؟

الجواب: الآية عامة، سواء طلب منك المعونة أم لا، فيجب عليك أن تعينه على البر والتقوى.

الفائدة العشرون: الحث على البر والتقوى، وجه ذلك: لأنه إذا أمر بالتعاون عليه فالأمر به من باب أولى، يعني: أمرنا بالتعاون على البر ففعل البر من باب أولى.

الفائدة الحادية والعشرون: النهي عن التعاون على الإثم والعدوان، لقوله: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ وسواء طلب منك المعونة أم لا، فلا تعن على الإثم والعدوان.

لكن هل من المعونة على الإثم والعدوان أن يؤجر الإنسان بيته لمن يصنع فيه الخمر؟ الجواب: نعم.

وهل من المعونة أن يبيع التلفزيون على من يستعمله في المحرمات؟ الجواب: نعم. وهذه قاعدة عامة ولها فروع كثيرة جداً.

الفائدة الثانية والعشرون: وجوب تقوى الله عزّ وجل، وأن

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحج، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة، حديث رقم (١٣٩٦) عن ابن عباس.

مخالفة ما ذكر مناقض لتقوى الله، لقوله بعد أن أمر بما أمر به ونهى عما نهى عنه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

الفائدة الثالثة والعشرون: شدة عقاب الله عزّ وجل والتحذير من مخالفته لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣].

قوله: ﴿حُرِّمَتْ﴾ هذا فعل مبني لما لم يسمَّ فاعله، والفاعل هو الله عزّ وجل، فحذف الفاعل للعلم به، فإن قال قائل: قال الله تعالى في هذه الآية: ﴿حُرِّمَتْ﴾ وفي سورة البقرة والنحل قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ [البقرة: ١٧٣ ـ النحل: ١١٥] فنسب التحريم إلى الله صراحة، فلماذا اختلف التعبير؟

فالجواب من وجهين:

الوجه الأول: أن بلاغة القرآن لا يمكن أن يدركها كل الناس؛ لأنها كلام الله عزّ وجل، والله تعالى لا نحيط به علماً، لا في ذاته ولا في صفاته، فبلاغة القرآن أعظم من أن تدركها عقولنا، وعلى هذا الجواب يجب الإمساك عن مثل هذه الأمور، ونقول: هذا أمر فوق عقولنا، وبذلك يمسك كل مؤمن عن محاولة التكلف في معرفة الفرق.

أما الوجه الثاني: فيمكن أن يقال: في البقرة والنحل قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ لأنه بصيغة الحصر في أمور أربعة، فكأنه قال: ما حَرم إلا هذا خلافاً لما حرمتم أنتم في الجاهلية، قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] فقال: ما حرم إلا هذا إظهاراً لفضله عزّ وجل وأنه لم يحرم إلا أربعة أصناف فقط من الطيبات، وهذا الذي حرمه الله ليس بطيب.

قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ هذا بيان لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] قوله: ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ «أل» هنا لبيان الحقيقة، يعني: كل ميتة فهي حرام، والميتة هي ما مات حتف أنفه أو ذكي على وجه غير شرعي، وقولنا: (ما مات حتف أنفه) يعني بدون فعل فاعل أو بفعل فاعل لكن لا على الوجه الشرعي، مثاله: إذا مرضت البهيمة وماتت نقول: هذه ماتت حتف أنفها، وإذا دق عنقها شخص فماتت نقول: هذه ذكاة غير شرعية.

لكن يستثنى من الميتة ميتة البحر فإنها ليست بحرام، لقول الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ [المائدة: ٩٦] قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «**صيده ما أخذ حياً، وطعامه ما أخذ ميتاً**»، كما في قصة السرية الذين وجدوا العنبر وأقرهم النبي عليه الصلاة والسلام على أكلها[1]، وكذلك يستثنى الجراد كما في حديث عبد الله بن عمر: «**أحلت لنا ميتتان ودمان، فأما**

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة سيف البحر وهم يتلقون عير قريش، حديث رقم (٤١٠٣)، ومسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب إباحة ميتات البحر، حديث رقم (١٩٣٥) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

الميتتان فالجراد والحوت»[١] وهذا الحديث أعله بعض العلماء بضعفه مرفوعاً، وهذه العلة معلولة؛ لأننا إذا قلنا: إنه غير مرفوع فهو موقوف في حكم المرفوع؛ لأن ابن عمر لا يمكن أن يقول: أحل لنا إلا وقد سمعه من الرسول عليه الصلاة والسلام.

والجراد ليس بحرياً بل لا يعيش إلا في البر، لكنَّ ميتته حلال:

أولاً: لأن الإلزام بتذكيته إلزام بما لا يمكن، مَنْ يستطيع أن يمسك كل جرادة ويذبحها؟

وثانياً: أنه ليس فيها دم يحتاج إلى استخراجه؛ فلذلك أحلت، لكن هل يلزم من تحريم الميتة أن تكون نجسة؟

نقول: لا يلزم، لكن هناك دليل على نجاستها وهو قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] أي: ما ذكر.

إذاً يستثنى من الميتات الجراد وميتة البحر.

لو قال قائل: هل يشرع للمضطر أن يستغفر بعد أن يأكل من الميتة؟

الجواب: لا يشرع له، بل يشرع له أن يحمد الله **«إن الله ليرضى على العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة ويحمده عليها»**[٢].

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال، حديث رقم (٣٣١٤)، وأحمد في المسند (٢/ ٩٧) (٥٧٢٣) عن ابن عمر.

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، حديث رقم (٢٧٣٤).

قوله: ﴿وَٱلدَّمُ﴾ الدم هنا مطلق و«أل» فيه لبيان الحقيقة، ولكنه قُيد في سورة الأنعام بالدم المسفوح، احترازاً من الدم الذي يبقى في العروق بعد التذكية فإنه ليس بحرام؛ لأنه لا يمكن أن تأخذ العرق وتمصه بعد أن يذكى، فالحرام هو الدم المسفوح الذي يخرج عند الذكاة أو يخرج عند فصد العرق أو ما أشبه ذلك، وكانوا في الجاهلية يأكلون الميتات ولا يبالون بها، ويقولون: كيف تحرمون ما قتله الله ولا تحرمون ما قتلتموه، يعني: بالذكاة، وكانوا أيضاً يأكلون الدم المسفوح، يَفصد الإنسان عرق ناقته ويمصه، فحرمه الله عزّ وجل.

وعلى هذا فالكبد لا تحرم، والطحال لا يحرم، والكلى لا تحرم، والدم الذي يكون في القلب لا يحرم، والدم الذي يبقى في العروق لا يحرم؛ لأن الدم قيده الله بالمسفوح.

قوله: ﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ لحم الخنزير حرام، والخنزير معروف، حيوان خبيث من شأنه أن يأكل القاذورات والحشرات وما أشبهها، وهو أيضاً معروف بعدم الغيرة، والذي يتغذى به يكتسب من طبيعته، ولهذا «**نهى النبي ﷺ عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير**»[1] لأن ذوات الأنياب والمخالب من طبيعتها الاعتداء، وأن تفترس غيرها، فلذلك نهى عنها لئلا يتأثر الإنسان بغذائه منها.

قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ الإهلال في الأصل رفع

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، حديث رقم (١٩٣٤) عن ابن عباس.

الصوت، والمراد به هنا ما ذكر اسم غير الله عليه، مثل أن يقول: باسم المسيح، باسم عزير، باسم الرئيس الفلاني، باسم الولي الفلاني، باسم النبي، باسم جبريل، أو بأي اسم، فإذا ذبح على اسمٍ غيرَ اسمِ الله فإنه حرام.

قوله: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ المنخنقة بنفسها والمخنوقة بفعل فاعل، المنخنقة بنفسها مثل: أن تجر الحبل، أي: القلادة التي في رقبتها ثم تضيق عليها حتى تنخنق، أو كما قال بعض السلف: تدخل رأسها بين غصنين من أغصان الشجرة ثم تعجز عن إخراجه فتنخنق، والصحيح أنه يشمل المختنقة والمنخنقة، المختنقة بفعل فاعل يعني: كما لو أن إنساناً أمسكها وضم رقبتها حتى ماتت فالصحيح أنها تدخل في المنخنقة وإن كانت تسمى مختنقة.

إذاً: المنخنقة هي الميتة بالخنق سواء بفعل نفسها أو بفعل فاعل.

قوله: ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ من الوقذ وهو الضرب الشديد حتى تموت، مثاله: يأتي إنسان فيضرب البهيمة ضرباً شديداً فتموت إما بعصا وإما بحجر وإما بحبل أو بغير ذلك، هذه أيضاً لا تحل لأنها موقوذة، وكذلك البهيمة إذا صدمتها سيارة تعد من الموقوذة وليست من النطيحة؛ لأن صاحب السيارة لا يريد أن يناطح.

قوله: ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ الساقطة من عالٍ، سواء كان عالياً من فوق أو عالياً من أسفل، فالمتردية من الجبل متردية من فوق، والمتردية من فم البئر إلى أسفله متردية من أسفل، فالمتردية حرام؛ لأنها ماتت بغير ذكاة شرعية.

قوله: ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ فعيلة بمعنى مفعولة، أي: المنطوحة،

وهي التي تناطحت مع أختها حتى قتلتها؛ لأن هذا الموت ليس بفعل فاعل ممن تصح ذكاتهم.

قوله: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ ما أكل السبع كالذئب والكلب والأسد وما أشبه ذلك، فالمراد بالسبع هنا كل ما يعتدي على البهائم ويأكلها.

إذا قال قائل: ما أكله السبع كيف يُستخرج من بطنه؟

يقال: المعنى ما قتله ليأكله، أو ما شرع في أكله، ولهذا قال بعض العلماء: إذا قطع السبع الأوداج، أو الأوداج والحلقوم والمريء على رأي، أو قطع حشوته، أي: أمعاءه ومعدته فهذا في حكم الميت لا تنفع فيه التذكية، وهذا فيه نظر؛ لأن الآية عامة ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾.

قوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ عد الله عزّ وجل من المحرمات: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع، هذه تسعة، والعاشرة: وما ذبح على النصب. وهل الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ يعود على التسعة كلها أو على بعضها؟

الجواب: على بعضها قطعاً؛ لأن الميتة لا يمكن أن تذكى؛ لأنها قد ماتت وانتهت، ولحم الخنزير كذلك لا يمكن أن تحله الذكاة؛ لأنه محرم لنوعه لا للقصور في سبب موته، ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أيضاً لا يمكن أن تحله الذكاة، اللهم إلا أن يدركه قبل موته إنسانٌ غَيْرَ الذي ذَكَرَ اسمَ غَيْرِ اللهِ عليه فيذكيه الذكاة الشرعية، مثل أن نسمع إنساناً يذبح شاة يقول: باسم المسيح، ثم ذكاها وانصرف وأدركنا ذكاته قبل أن تموت فهذا

يدخل في الآية، لكن إذا كان قد قطع الأوداج فإنه يعتبر في حكم الميت، فلا يمكن أن تأتي عليه الذكاة.

إذاً: يبتدئ الاستثناء من قوله: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ وهذه الأوصاف أوصاف لسبب الموت وعددها خمس. فالنطيحة ربما تدركها قبل أن تموت، والمتردية كذلك، وما أكل السبع كذلك، والموقوذة كذلك، يمكن أن تدركها قبل أن تموت.

فإذا قال قائل: بماذا تكون تذكية هذه الأشياء التي أصابها سبب الموت؟

الجواب: تكون التذكية بقطع الحلقوم والمريء، أو بقطع الودجين، أو بقطع ثلاثة من أربعة، أو بقطع الأربعة، على خلاف بين العلماء، وأرجح الأقوال أن التذكية تحصل بقطع الودجين، وأن من كمالها قطع الحلقوم والمريء أيضاً: فما هما الودجان؟

هما العروق الغليظة المحيطة بالحلقوم، تسمى في مصر بالودجين، وتسمى عندنا جلاميد، وفي بعض المناطق تسمى الوردان، وأقرب ما يكون للقرآن أنها الوردان وإلا فاللغة واسعة، قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

الحاصل: أنه إذا أدركها وقطع أوداجها قبل أن تموت فهذه التذكية، لكن ما علامة الموت؟ هل لا بد أن تتحرك بيدها أو رجلها أو عينها أو أذنها أو ذنبها، أو لا تشترط لها الحركة؟

أكثر العلماء يقولون: لا بد أن تتحرك؛ لأنك إذا ذبحتها ولم تتحرك فمعنى ذلك أنها ماتت، وقال شيخ الإسلام رحمه الله: علامة الحياة أن يخرج منها الدم السائل المسفوح الحار الأحمر؛

لأن الحيوان إذا مات انقلب دمه إلى أسود، وانتقل من الحرارة إلى البرودة، وأيضاً تجلط الدم، أي: لا يسيل كما يسيل عند ذبحه، فيقول رحمه الله: إنه إذا خرج منها الدم الأحمر الحار الذي يسيل فإنها تحل سواء تحركت أم لم تتحرك؛ لأنها قد لا تتحرك لشدة ما نزل بها، قد يكون أغمي عليها مثلاً فلا تتحرك، لا بعينها ولا برجلها ولا بذنبها، وما ذهب إليه الشيخ رحمه الله هو الصحيح، أنه متى خرج منها الدم الأحمر الحار الجاري فهي مذكاة.

قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ يعني: ما ذبح على الأصنام، وكانوا يذبحون على الأصنام تقرباً لها، وهذا شرك، حتى لو ذبحوها لله عزّ وجل لكن اعتقدوا أن هذا المكان أفضل، وأما قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي: ما ذكر عليه اسم غير الله تعالى، مثل أن يقول: باسم المسيح أو باسم المَلِك أو باسم الوزير فهذا حرام حتى ولو كان لغير العبادة، وسواء كان هذا أمام الصنم أو غائباً عن الصنم، أما قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ أي: ما ذبح على الصنم، وذلك بأن يكون الصنم بين يديه ويذبح لهذا الصنم فهو قول لا فعل.

قوله: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ أي: حرم عليكم أن تستقسموا بالأزلام، وجه الصلة بين هذه المسألة وما قبلها ظاهر؛ لأن الاستقسام بالأزلام يريد به المستقسم أن يصل إلى ما هو خير له، وكذلك في هذه المطعومات يريد أن يتناول ما هو خير له.

ومعنى الاستقسام بالأزلام: طلب القَسْم، يعني: طلب ما يقسم الله لك، فهو يشبه في الدين الإسلامي الاستخارة، وكانوا

في الجاهلية إذا أراد أحدهم الأمر ولم يتبين له وجه الصواب استقسم بالأزلام، والأزلام جمع زلم وهي الأقداح، التي يستقسم بها فيكتب على أحدها افْعَل وعلى الثاني لا تفعل، والثالث لا يكتب عليه شيء، ثم يضعها في كيس أو نحوه ويخلط بينها ثم يُخرِجُ واحداً منها، فإن خرج افعل فعل، وإن خرج لا تفعل لم يفعل، وإن خرج الثالث أعاد، وهم إنما يجعلون الثالث الذي ليس فيه افعل ولا تفعل من أجل أن يطول الاستقسام؛ لأنهما لو كانا قدحين لخرج من أول مرة، لكن يجعلون الثالث من أجل أن يتأخر الاستقسام لعلهم يرجحون شيئاً على آخر.

قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المشار إليه كل ما سبق، أو الاستقسام بالأزلام؟ القاعدة: أنه إذا أمكن أن يعود اسم الإشارة أو الضمير إلى كل ما سبق فمحمول عليه.

وقوله: ﴿فِسْقٌ﴾ الفسق معناه الخروج عن الطاعة، ومنه قولهم: فسقت الثمرة إذا خرجت من قشرها، كذلك الخارج عن الطاعة فاسق لأنه خارج عما يجب أن يكون عليه.

قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ «أل» هنا للعهد الحضوري، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني الذي نزلت فيه هذه الآية، واعلم أن «أل» العهدية تأتي للعهد الحضوري وتقدم، وتأتي للعهد الذهني أي: المعلوم في الذهن، مثاله تقول: ذهبت مع خصمي إلى القاضي، فالمراد بالقاضي هنا هو الذي يحكم بين الناس، وأما العهد الذكري فإن «أل» تشير فيه إلى مذكور مثاله قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥] ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٦].

وقوله: ﴿يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ﴾، يعني: يئسوا من أن يغيروه أو يبدلوه؛ لأن الدين الإسلامي والحمد لله قد انتشر وبان وظهر.

قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ فلا داعي للخشية الآن، ما دام دينكم قد ظهر ويئس هؤلاء الكفار من أن يقضوا عليه فلا تخشوهم واخشون، «والخشية» هي: الخوف الناتج عن علم، دليل ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال أهل العلم: الفرق بين الخشية والخوف: أن الخشية تكون عن علم، والخوف لا يلزم أن يكون عن علم.

ثانياً: أن الخشية تكون من عِظَمِ المخشي وإن كان الخاشي قوياً، لكن المخشي يكون أقوى منه، والخوف لا يدل على عظم المخوف، وإنما يدل على ضعف الخائف أمام من يخاف منه وإن لم يكن قوياً، وهذا فرق واضح، فالطفل الذي له أربع سنوات يخاف من الطفل الذي له ثمان سنوات مع أن الثاني ضعيف، لكن الذي يخشى من ملك أو صاحب سلطان قوي هذا يقال: إنه خاشي.

قوله: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي: جعلته كاملاً، وليس المعنى أنني أتممت شرائعه؛ لأنه نزل بعد هذه الآية شيء من الشرائع، فالمعنى أن الدين كامل ولا يعني ذلك أنه تام، ولهذا فرق فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾.

لو قال قائل: هذا يصدق من أول يوم نزل فيه الشرع؟

الجواب: لا؛ لأن الشرائع لم تتكامل من أول يوم نزل فيه

الشرع، ولا يمكن أن يقول الله جل وعلا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ولم ينزل إلا الجزء اليسير.

وقوله: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي: ما تدينون الله به من العبادة.

قوله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ التي هي إكمال الدين وهي أكبر النعم، ومعنى إتمامها أي: ليس فيها نقص.

قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ أي: رضيت لكم الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ ديناً تدينون الله به فلا تتخذوا ديناً سواه.

ثم قال بعد أن ذكر هذه النعم العظيمة علينا ـ قال عَوْداً على ما ابتدأ في الآية ـ قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ ﴿ٱضْطُرَّ﴾ فيها قراءتان «فمنِ اضطر» بكسر النون لالتقاء الساكنين، والقراءة الثانية «فمنُ اضطر» بضم النون لمناسبة الضمة للفعل؛ لأن الضمة تناسب الطاء المضمومة فقد تكون أيسر في النطق، فاضطر، بمعنى: أصابته الضرورة، وأصلها اضتر، فقلبت التاء طاءً لعلة تصريفية معروفة في علم الصرف.

وقوله: ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ المخمصة المجاعة، ويدل لذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً** ـ أي: تذهب في الصباح خماصاً؛ أي: جائعة ـ **وتروح بطاناً**»[1].

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، حديث رقم (٢٣٤٤)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، حديث رقم (٤١٦٤)، وأحمد (١/ ٥٢) (٣٧٠)، والحاكم (٤/ ٣٥٤)، وابن حبان (٢/ ٥١٠) (٧٣٠) عن عمر بن الخطاب.

وقوله: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ أي: غير مائل لإثم ولا مريد له، لكن للضرورة أكل من هذه المحرمات.

وقوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ يفسر قوله في الآيتين السابقتين: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥] فقوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غير مريد لهذه المحرمات بل ألجأته الضرورة لها، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: معتدٍ يريد الإثم، فمنهم من قال: غير باغ ولا عاد تفسره آية المائدة، وآية المائدة من آخر ما نزل، فيكون غير باغٍ لأكل الميتة ولا عادٍ بأن يأكل أكثر من ضرورته، وهذا تفسير مطابق للآيات الأخرى، وبعضهم قال: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: الذين يخرجون على الإمام ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: ولا عاصٍ في سفره، ولكن هذا المعنى بعيد جداً، ولهذا قالوا: من كان عاصياً في سفره واضطر إلى أكل الميتة لا يأكلها وإن مات؛ لأنهم يشترطون أن يكون السفر مباحاً، والصحيح خلاف ذلك، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وأن قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ تطابق تماماً قوله تعالى: ﴿فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾.

واعلم أن المحرم للضرورة لا يحل إلا بشرطين:

الأول: ألا يوجد ما يدفع به الضرورة غير هذا المحرم.

الثاني: أن تزول ضرورته به وإنما اشترطنا هذا لئلا يقول قائل: يجوز التداوي بالمحرم؛ لأنه غير ملجأ للتداوي بالمحرم لأنه قد يزول مرضه بدواء آخر، وقد يزول مرضه بدون دواء، وكم من إنسان وصل إلى أدنى حالة من المرض ثم يشفيه الله عزّ وجل دون أي سبب، والشرط الثاني: ألا تزول ضرورته إلا بهذا الدواء، فإنه قد يتداوى الإنسان ولا يشفى بخلاف من أكل محرماً

للجوع، فالإنسان إذا لم يجد إلا الميتة ولا يمكن أن تزول ضرورته إلا بأكلها، وإذا أكل زالت ضرورته لأن المعدة قد امتلأت.

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر له ويرحمه، فغفر له الذنب بتناول هذا المحرم ورحمه بإباحته له.

لو قال قائل: إذا كان إنسان في سفر واضطر إلى الأكل ومعه صاحب له يستطيع أن يذكيه ويأكله، هل يجوز له ذلك؛ لأنه مضطر؟

الجواب: إذا كان حياً لا يجوز، هذا بالإجماع؛ أي: لا يجوز أن تقتل إنساناً لتحيي نفسك، لكن إذا كان ميتاً، فالمشهور عندنا في مذهب الحنابلة أنه لا يجوز أكله، لقول النبي ﷺ: «**كسر عظم الميت ككسره حياً**»[1] ولو أدى ذلك إلى موته نقول: لِيَمُت وهذا أجله، وذهب بعض العلماء وهو مذهب الشافعي: أنه يجوز للحي أن يأكل الميت عند الضرورة، وعللوا ذلك بأن حرمة الحي أعظم من حرمة الميت.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تحريم ما ذكر من أنواع البهائم، لقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ﴾.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الجنائز، باب في الحفار يجد العظم هل يتنكب ذلك المكان، حديث رقم (٣٢٠٧)، وابن ماجه، كتاب الجنائز، باب في النهي عن كسر عظام الميت، حديث رقم (١٦١٦)، وأحمد في المسند (٦/ ١٠٠) (٢٤٧٣٠) عن عائشة.

الفائدة الثانية: حكمة الله عزّ وجل فيما أحل لنا من الحلال وما حرم علينا من الحرام؛ لأنه ثبت طباً أن هذه الأشياء المحرمة ضارة، ولأجل ضررها حرمها الله.

الفائدة الثالثة والرابعة: تحريم الميتة إلا ما استثني، وتحريم الدم إلا ما استثني.

الفائدة الخامسة والسادسة: تحريم لحم الخنزير، وهل يلحق بذلك شحمه؟

الجواب: نعم بالإجماع، حتى الظاهرية يقولون: إن شحم الخنزير حرام؛ لأن اللحم عند الإطلاق يشمل جميع أجزاء البهيمة، أما لو قيل: لحم وشحم فإنه يفرق بينهما، فإذا قيل: لحم الإبل أو لحم الضأن أو لحم البقر أو لحم الخنزير صار شاملاً للجميع.

ننطلق من هذه الفائدة إلى فائدة أخرى وهي: أن لحم الإبل ينقض الوضوء، سواء كان اللحم الأحمر أو الأبيض أو من الأمعاء أو من الكرش، أو من أي جزء من أجزاء البدن، وهذا هو القول الراجح.

الفائدة السابعة: تعظيم الشرك، وأنه يؤثر حتى على المأكولات، لقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

الفائدة الثامنة: تحريم ما أهل لغير الله به سواء أهل باسم ملك أو نبي أو رئيس أو وطن أو غير ذلك؛ لعموم قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

الفائدة التاسعة: تحريم المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع.

الفائدة العاشرة: أن ما أدرك حياً ولم يمت من هذه الأشياء فإنه يكون حلالاً، لقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ وسبق في التفسير متى يدرك وهل لا بد من حركته بيده أو رجله أو ذنبه أو عينه؟ وبينَّا أن القول الراجح أنه: إذا خرج منه الدم الأحمر السيال فهو حي.

الفائدة الحادية عشرة: تأثير النية في العمل، لقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ أي: للأصنام فإنه يكون حراماً حتى ولو ذكر اسم الله عليه، وذلك لتأثير النية وأن النية تؤثر حتى في حل الشيء وتحريمه.

الفائدة الثانية عشرة: تحريم الاستقسام بالأزلام، وهل يدخل في ذلك الاستقسام بغيرها؟

الجواب: نعم؛ لأنه مبني على وَهْم وليس على حقيقة، لكنَّ الله أبدل العباد بالاستخارة، وأما الاستقسام بأي شيء فإنه لا يجوز، فلو أراد إنسان أن يستقسم فقال: إن ظهر عليَّ رجل بالغ سافرت، وإن ظهر عليّ صبي صغير لم أسافر، وما أشبه ذلك من الاستقسامات فهذا حرام ولا يجوز.

لو قال قائل: ما الفرق بين الاستقسام والتطير والقرعة؟

التطير يحصل بغير إرادة الإنسان، وأما الاستقسام بالأزلام فيحصل بفعل الإنسان، مثال التطير: إذا رأى طيراً اتجه عند طيرانه إلى جهة اليمين أو اليسار تطير، وعزم على الفعل أو على الترك، لكن الاستقسام يكون من فعله هو نفسه.

مثاله: اختلف صديقان هل يذهبان أم لا، وعندهم قطعة نقود حديدية فقالا: إن خرج هذا الوجه من العملة ذهبنا وإلا فلا، هذا من الاستقسام، فالمستقسم هو الذي جعل هذا الشيء سبباً، ففرق بين ما يُفعل بلا قصد وبين ما يفعل بقصد.

وأما القرعة فتكون في حق من الحقوق لا في الإيرادات، والمضي والرجوع.

الفائدة الثالثة عشرة: الإشارة إلى أن الاستقسام بالأزلام فسق، والغرض من ذلك التنفير منه.

الفائدة الرابعة عشرة: أن من استقسم بالأزلام سقطت ولايته وإمامته وعدالته؛ لأن الفاسق تسقط ولايته ولا يؤم ولا يكون عدلاً، فكل ما تشترط فيه العدالة فإن من استقسم بالأزلام لا يتولاه، لكن في مسألة الإمامة على القول الراجح لا بأس أن نصلي خلف إمام فاسق، لكن عندما نريد أن نقدم من يصلي لا نقدم إنساناً فاسقاً، لكن لنفرض أنه قد جمعك الحضور بين رجل حالق اللحية ورجل آخر غير حالق اللحية وأنت أيضاً غير حالق اللحية، فتقدم الحالق، هل من الحكمة أن تقول: تأخر؟

الجواب: لا، لما في ذلك من الشر والفساد، إلا إذا علمت أنك إذا فعلت فإنه سوف يتوب ويقلع فنعم، وإلا فلا تفعل، صلِّ وراءه، وفسقه على نفسه.

الفائدة الخامسة عشرة: أن المشركين أيسوا من تغيير الناس عن دينهم، لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ ونظير هذا قول النبي ﷺ: «**إن الشيطان يئس أن يعبد في جزيرة العرب**»[1].

ويرد على هذا إشكال وهو أن الشرك وقع، فيقال: إن هذا

---

(١) رواه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، حديث رقم (٢٨١٢) عن جابر بن عبد الله الأنصاري.

خبر عما كان في نفوس هؤلاء الكفار ولا يلزم أن يقع ما كان في نفوسهم بل قد تتغير الحال.

الفائدة السادسة عشرة: تحريم خشية الكفار التي يترتب عليها المداهنة في دين الله، لقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾.

الفائدة السابعة عشرة: بيان نعمة الله على هذه الأمة ـ وله الحمد والمنة ـ بإكمال الدين لقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

الفائدة الثامنة عشرة: شرف ذلك اليوم الذي أُكمل فيه الدين؛ لأنه لولا ذلك لم يكن لقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فائدة، لكن فيه الإشارة إلى شرف ذلك اليوم، ولكن هل نُشَرِّفُ ذلك اليوم بما لم يشرفه الله؟

الجواب: لا، ولكننا نقتصر على ما جاء في شرفه، ولهذا لما قال أحد اليهود لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الله أنزل آية لو نزلت علينا معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، وتلا الآيـــة، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ فقال عمر رضي الله عنه: إني أعلم متى نزلت على رسول الله ﷺ، وذكر أنها نزلت يوم الجمعة في يوم عرفة[1]، ولكن الشأن كل الشأن أن لا نعظم ذلك اليوم بأكثر مما جاء، وإنما قلت ذلك درءاً لقول من قال: إنه ينبغي أن نشرف اليوم الذي ولد فيه الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأن النبي ﷺ لما سئل عن صوم يوم الاثنين قال: «**ذاك يوم ولدت فيه، وبعثت فيه**

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، حديث رقم (٤١٤٥)، ومسلم، كتاب التفسير، حديث رقم (٣٠١٧) عن عمر بن الخطاب.

أو أنزل عليّ فيه»[١] قال: فكونه نص على أنه ولد فيه يدل على أن له شرفاً.

فيقال: الشَرَف يتلقى من الشرع، والنبي عليه الصلاة والسلام لم يذكر شرف اليوم الذي ولد فيه بوقته من الشهر، بل ذكر شرفه بوقته من الأسبوع، وهناك فرق بين هذا وذاك، وأيضاً لم يثبت أن الرسول عليه الصلاة والسلام ولد في اليوم الثاني عشر، وبعض المحققين المعاصرين ذكر أن ولادته في اليوم التاسع.

ثانياً: أن الشرف الذي يعطى لهذا اليوم الذي أنزل فيه القرآن على الرسول ﷺ وولد فيه هو الصوم فقط، وبهذا جاءت السنة، وما سوى ذلك فلا، فلو أن أحداً أراد أن يكثر الصلاة في يوم الإثنين بناءً على أنه اليوم الذي ولد فيه الرسول عليه الصلاة والسلام وبعث فيه لقلنا: هذا خطأ.

الفائدة التاسعة عشرة: أن تمسكنا بالدين يجب أن نكون فخورين به لقوله: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فأضافه الله إلينا لنفخر به ونعتز به وندافع عنه، وبالنسبة لحال الناس اليوم كثير من المسلمين مع الأسف عكس ذلك، بل كثير من المسلمين يستحي أن يقول: إنه مسلم، وهذا ذل عظيم.

الفائدة العشرون والحادية والعشرون: أن الله عزّ وجل تفضل على عباده بإتمام النعمة، لقوله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب ثلاثة أيام من كل شهر، وصوم يوم عرفة، وعاشوراء، والاثنين، حديث رقم (١١٦٢) عن أبي قتادة الأنصاري.

ويتفرع على ذلك أنه عزّ وجل يثني على نفسه بما أنعم به من أجل أن يتحبب لعباده بنعمه، ولهذا جاء في الحديث: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم**»[(١)] وهذا هو الموافق للفطرة، أن أي إنسان يحسن إليك فإنك سوف تحبه، هذا وهو مخلوق مثلك فكيف بالخالق عزّ وجل.

الفائدة الثانية والعشرون: أن ما خالف ما جاءت به الشريعة فهو غير مرضي عند الله ولا مقبول، لقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وهذا يشمل الدين كله الأصول والفروع التي تكون بزعم الفاعل من الدين، فمثلاً: هل رضي الله لعباده الكفر؟ الجواب: لا، وهل رضي لعباده أن يبتدعوا في دينه ما ليس منه؟ الجواب: لا، فقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ يعني: بأصوله وفروعه وجملته وجزئه.

الفائدة الثالثة والعشرون: رحمة الله عزّ وجل بعباده حيث أباح لهم المحرم عند الضرورة، وهناك آية تعتبر قاعدة في جميع المحرمات وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩] هذه الآية التي تلوتها أخيراً أعم؛ لأن الآية التي في سورة المائدة ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أي: إلى ما ذُكِرَ، وليأكل منها، وأما قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩] فهو عام شامل.

بقي أن يقال: لو اضطر الإنسان إلى شرب الخمر للعطش.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب أهل النبي ﷺ، حديث رقم (٣٧٨٩)، والحاكم في المستدرك (٣/ ١٦٢) (٤٧١٦)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٨١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٦٦) (٤٠٨) عن ابن عباس.

نقول: إن اندفعت ضرورته بذلك فلا بأس؛ لأن الآية ليس فيها استثناء، لكن العلماء يقولون: إنه لا يمكن أن تندفع ضرورته بشرب الخمر؛ لأنه لا يزيده إلا حرقاناً وعطشاً، ولذلك لو اضطر إلى دفع لقمة غَصَّ بها وعنده كأس من الخمر فهنا يجوز أن يشرب ما يدفع به اللقمة، لأنَّ الضرورة تندفع به.

لو قال قائل: ما الفرق بين الضرورة والحاجة؟

الجواب: الحاجة من باب الكماليات، والضرورة من باب دفع الضرر، مثال ذلك: إنسان عليه ثوب يقيه البرد ولو خلعه لضره البرد، فلبس عليه ثوباً آخر هو بالنسبة للثوب الأول حاجة والأول ضرورة؛ لأنه إذا لم يلبسه تضرر من البرد، والفرق بينهما ظاهر، المهم أنه لا يبيح المحرمات إلا الضرورة، وأما المكروهات فتبيحها الحاجة.

لو قال قائل: بعض الأصوليين يفرقون فيقولون: ما كان حراماً لذاته لا يجوز ارتكابه إلا للضرورة، وما كان حراماً لغيره يجوز للحاجة، ما رأيكم في هذا التوجيه؟

الجواب: ليس بصحيح؛ لأن ما حُرِّمَ لغيره كالذي يحرم لذاته بالنسبة لوجوب تجنبه.

الفائدة الرابعة والعشرون: إعمال النية وتأثيرها في الأعمال، لقوله: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾.

الفائدة الخامسة والعشرون: أنه يجب التحرز في انتهاك المحرم، وألا تغلبه نفسه وهواه حتى يتجانف، يعني: يميل إلى الإثم، بل عليه أن يتحرى، وهل يؤخذ من الآية الكريمة أنه لا يجوز أن يأكل من الميتة وما ذُكِرَ في الآية إلا بقدر ما يسد الرمق أو له أن يشبع؟

الجواب: الأول، إلا إذا علم أنه لن يجد ما يأكله، وليس معه ما يحمل الميتة فيه، فحينئذٍ يضطر إلى أن يشبع ويحمل معه في معدته، معها سقاؤها وحذاؤها، لكن إذا كان يعلم أنه سيصل إلى ما يأكله قبل أن تدركه الضرورة مرة أخرى، فلا يجوز أن يأكل أكثر من ضرورته.

الفائدة السادسة والعشرون: أخذ الأحكام من أسماء الله عزّ وجل، وذلك لأن أسماء الله ولاسيما المتعدية لا بد أن يكون لها أثر، وقد تقدم أن الاسم المتعدي لا يتم الإيمان به إلا بإثبات اسماً من أسماء الله وإثبات ما تضمنه من صفة، وإثبات الأثر، وجه ذلك قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والعلماء رحمهم الله يأخذون الأحكام من مثل هذا التعبير، مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٣٤] يعني: إذا تاب قطاع الطريق قبل القدرة عليهم سقط عنهم الحد.

ويذكر أن أحد الأعراب سمع قارئاً يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ فقال الأعرابي: أخطأت، أعد الآية، فأعادها وقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ فقال: أخطأت أعدها، فأعادها فأدركها في المرة الثالثة وقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨] قال: الآن أصبت؛ لأنه عز وحكم فقطع، ولو غفر ورحم ما قطع. انظر إلى الفهم، وهذا لا شك فيه.

الفائدة السابعة والعشرون: إثبات هذين الاسمين من أسماء الله: الغفور والرحيم، وإثبات ما تضمناه من صفة وما تضمناه من أثر؛ لأن الغفور يتعدى وكذلك الرحيم.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ [المائدة: ٤].

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ الفاعل هم الصحابة، والصحابة لا يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام إلا عن شيء ينفعهم، إما في الدين وإما في الدنيا، وأيضاً لا يسألون إلا عما هو مشكل عليهم، وقد ذكر الله تعالى في القرآن حوالي اثني عشر موضعاً من سؤال الصحابة له، فهل أجابهم الرسول؟ الآية تدل على أنه لم يجبهم، بدليل أن الله قال له: ﴿قُلْ﴾ يعني: فيه جوابهم، ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ إلى آخره.

واعلم أن السؤال تارةً يُراد به سؤال المال، وتارةً يراد به الاستفهام، فإذا أريد به سؤال المال نصب مفعولين، وإذا أريد به الاستفهام نصب مفعولاً واحداً، ثم عُدي إلى الثاني بـ«عن»، فإذا أردت أن تسأل رجلاً درهماً تقول: أسألك درهماً، ومنه قول الله تعالى: «**من يسألني فأعطيه**»[1] أي: من يسألني شيئاً، فالمفعول

(١) هذا اللفظ للبخاري في حديث النزول، كتاب الكسوف، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، حديث رقم (١٠٩٤).

الثاني محذوف لدلالة السياق عليه، وإذا أردت أن تسأل عن ضالة ضاعت منك تقول: أسألك عن ضالتي، وتقول: سألني فلان عن المسألة الفلانية، فيتعدى كما تقدم إلى المفعول الثاني بـ«عن».

فإن قال قائل: ما الجواب عن قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ [المعارج: ١]؟

الجواب: عن ذلك مختلف فيه بين العلماء:

فمن قال: إن الفعل إذا تعدى إلى مفعوله بحرف جرت العادة أنه يتعدى به، فالأمر واضح، وإن تعدى الفعل إلى مفعوله بحرف لم تجرِ العادة أنه يتعدى به فهنا اختلف النحويون: هل يُفَسَّر الحرف بما يناسب الفعل، أو يفسر الفعل بما يناسب الحرف، أي يُضمن معنى يناسب الحرف، قال الله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] يشرب بها عباد الله، والذي يناسب (يشرب) «منها»، كما قال تعالى: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩] لكن جاءت الآية يشرب بها.

فعلى القول بأن الحرف يكون بمعنى الحرف المناسب للفعل نقول: الباء في قوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ بمعنى «من».

وعلى القول الثاني: نلتمس معنى يناسب الباء، والفعل الذي يناسب الباء هو «يروى»، فنضمن الفعل يشرب معنى يروى، وحينئذٍ يكون التقدير عيناً يروى بها عباد الله، والثاني أبلغ؛ لأن الري يستلزم الشرب ولا عكس، وحينئذٍ يكون التجوز بالفعل أقوى؛ لأنه يتضمن الفعل الذي يتعدى إلى هذا الحرف وزيادة، وهذا مذهب نحاة البصرة وهذا الذي اختاره شيخ الإسلام رحمه الله في مقدمة التفسير.

نرجع إلى الآية ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ [المعارج: ١] من قال: إن التجوز بالحرف يقول: «الباء» هنا بمعنى «عن»، ومن قال: التجوز بالفعل قال: سأل هنا ضُمنت بمعنى الجواب، أي: سأل سائل فأجيب بعذاب واقع، وهذا أصح كما تقدم.

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ هذا سؤال علم، ﴿مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ «ذا» هنا بمعنى «الذي»، قال ابن مالك رحمه الله:

ومثل ما ذا بعد ما استفهامِ .....

أي: مثل صيغ العموم الموصولة «ذا» بعد ما استفهام، أي: بعد «ما» الاستفهامية، أي: ما الذي أحل لهم، ونائب الفاعل يعود على «ما» والمحلل هو الله جلَّ وعلا.

قوله: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ أي: أحل لكم الأطعمة الطيبات، قال الله تعالى في وصف النبي ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ومعنى الآيتين ـ والله أعلم ـ: أن كل ما أحله الله فهو طيب، وكل ما حرمه فهو خبيث، وليس كل خبيث يكون حراماً بدليل أن النبي ﷺ وصف الثوم بأنها شجرة خبيثة ولم يحرمها[1].

قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ يعني: وأحل لكم ما صاده ما علمتم من الجوارح، والجوارح جمع جارحة وهي الكاسرة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب ما جاء في الثوم النيء والبصل والكراث، حديث رقم (٨١٥) عن ابن عمر، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها، حديث رقم (٥٦٥) عن أبي سعيد.

قوله: ﴿مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: معلمين لهن تعلمونهن مما علمكم الله، ويحتمل أن يكون ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ أي: جارحين، يعني: أن هذه الكواسر تجرح ما أمسكت، ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ أي: الجوارح، ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: في كيفية الصيد.

قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ كلوا، يعني: على وجه الإباحة، والأمر هنا للإباحة ﴿مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ و«من» هنا بيانية، والبيانية مثل أن تقول: خاتم من حديد، وليست «من» هنا تبعيضية، ومن قال بذلك قال وجه كونها تبعيضية: لأن الصيد لا يؤكل كله، فالآية خصت ما يؤكل منه، وأما ما لا يؤكل فإن شئت فقل الجلد وإن شئت فقل الريش.

وقوله: ﴿أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: «لكم»، ونقول في قوله تعالى: ﴿مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ ما تقدم، أي: مما أمسكن مضموماً إليكم، أو ﴿مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ يعني: محملاً عليكم أو ما أشبه ذلك، هذا على القول بتضمين الفعل، وأما على القول بأن المجاز بالحرف تكون «على» بمعنى «اللام»، أي: مما أمسكن لكم.

قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۚ﴾ اذكروا اسم الله عليه عند الأكل أو عند إرسال الجارحة، والسنة دلت على أنه يسمي إذا أرسل الجارحة[1]، والقرآن دل على أنه يسمي إذا أمسكه وكذلك إذا أراد أن يأكل فإنه يسمي، فتكون التسمية على الأكل، والتسمية على الإرسال.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب ما جاء في التصيد، حديث رقم (٥١٦٩)، ومسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الصيد بالكلاب المعلمة، حديث رقم (١٩٢٩) عن عدي بن حاتم.

قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ «اتقوا» أي: اتخذوا وقاية من عذابه؛ وذلك بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ هذه جملة خبرية مؤكدة بـ﴿إِنَّ﴾ والغرض منها التخويف من اجتناب التقوى، وأن من لم يتقِ الله، فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: إن الله تعالى سيحاسبكم على أعمالكم، وقوله: ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ يتضمن سرعة التنفيذ من وجه، وسرعة الوقت من وجه آخر، أما سرعة الوقت فما أسرع الدنيا تمضي سريعاً وإذا بالإنسان قد انتهى، وأما سرعة التنفيذ فإن الله تعالى يحاسب الخلائق يوم القيامة على كثرتهم يحاسبهم في نصف يوم[1]، لقول الله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٖ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾ [الفرقان: ٢٤].

فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: حرص الصحابة رضي الله عنهم على العلم لقوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ﴾، ومن هنا نعرف أن ما لم يسأل الصحابة عنه مما يرد السؤال عنه في عصرنا من أمور الغيب فالسؤال عنه بدعة؛ لأننا نعلم أنه لو كان هناك خير في العلم به لألهم الله الصحابة أن يسألوا عنه حتى يتبين الأمر.

الفائدة الثانية: أن الإحلال والتحريم ليس إلى العباد، بل هو إلى الله عزّ وجل، وقد حذرنا الله عزّ وجل من أن نحلل أو نحرم بأهوائنا فقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ [النحل: ١١٦].

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (ص٤٦٣)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٣٢)، والطبري في تفسيره (١٩/ ٥) عن الأعمش عن إبراهيم النخعي.

الفائدة الثالثة: أن رسول الله ﷺ لا يستقل بالتحليل أو التحريم، وجه ذلك: أن الرسول لم يجبهم ولكن الله تعالى أجابهم، وقد صرح النبي ﷺ بذلك حيث قال للصحابة: «**من أكل من هذه الشجرة الخبيثة فلا يقربن مساجدنا، فذهب الصحابة يقولون: حرمت حرمت، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال لهم: إنه ليس لي تحريم ما أحل الله، ولكنني أكره ريحها**»(١).

الفائدة الرابعة والخامسة: أن كل ما أحله الله تعالى فهو طيب، نافع للبدن ونافع للقلب ونافع للفرد ونافع للمجتمع، لقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ وأيضاً نأخذ من المفهوم أن كل ما حرمه الله فهو خبيث.

الفائدة السادسة: إحلال ما اقتنصته الجوارح، فما هي الجوارح، وهل كل جارح يمكن أن يؤكل ما صاده؟ نقول: نعم، كل جارح، لكن بشرط أن يكون معلماً، وأكثر ما يقبل التعليم الكلاب، وهي للزواحف، ثم الصقور وهي للطائر، فإذا كان من الكلاب فلا بد أن يسترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل، هذه ثلاثة شروط: يسترسل إذا أرسل، يعني إذا رأيت الصيد وأرسلته استرسل، وكذلك ينزجر إذا زجر، يعني: إذا زجرته ليقف وقف؛ لأنه لو تجاوز وأنت أمرته أن يقف فمعناه أنه صاد لنفسه. الثالث: إذا أمسك لم يأكل، فإن أكل فهو دليل على أنه إنما أمسك على نفسه، والله أعلم.

الفائدة السابعة: أن من الحيوان ما يقبل التعليم، لقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾.

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها، حديث رقم (٥٦٥) عن أبي سعيد.

الفائدة الثامنة: فضيلة العلم؛ لأن الله تعالى فرق بين صيد ما ليس بمعلم وما كان معلماً، فأحل الثاني ولم يحل الأول، وهذا يدل على فضل التعليم حتى في الحيوانات.

الفائدة التاسعة: وجوب ذكر اسم الله تعالى عند إرسال الجارحة، لقوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وهذا على أحد الاحتمالات في الآية؛ لأن هناك احتمالاً آخر، وهو: أن المعنى ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عند أكله، ومعنى ثالث: وهو اذكروا اسم الله عليه إذا أدركتموه حياً قبل أن يقتله الجارح، وكل هذه محتملة في الآية فتحمل عليها جميعاً.

الفائدة العاشرة: بركة ذكر اسم الله، وشواهد هذا كثيرة منها: حل الذبيحة، وحل الصيد، وتمام الطهارة في الوضوء، وأن البركة تنزل في الطعام، وأن الحمل يوقى إساءة الجن والشياطين، المهم أن بركة اسم الله تعالى كثيرة ولها شواهد كثيرة.

الفائدة الحادية عشرة: أن ظاهر الآية إباحة ما صاده الجارح سواء جرح أم لم يجرح، وهذا مبني على أن المراد بالجوارح الكواسر، أما إذا قلنا: إن الجوارح جمع جارح وهو الذي يجرح الشيء فحينئذٍ لا بد من أن يُنهِر الدم، ويتبين ذلك بالمثال:

فلو جاء الكلب بالصيد مخنوقاً ليس فيه أي جرح ولم يخرج منه أي دم فهل يباح أو لا؟

الجواب: إن قلنا: إن المراد بالجوارح الكواسر فهو مباح، وإذا قلنا: إن المراد بالجوارح الجارحات اللاتي يجرحن الجلد

ويخرج منه الدم فإنه لا يباح، والمسألة فيها خلاف بين العلماء:

منهم من يقول: إنه يشترط أن يجرح الكلب فإن لم يجرح فلا يحل، واستدل هؤلاء بعموم قوله ﷺ: «**ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكل**»[1].

ومنهم من قال: إن الجوارح هن الكواسر، وأن كل ما أمسكنه على صاحبهن فإنه حلال سواء جرح أم لم يجرح، ولا شك أن الاحتياط تركه، لكن التحريم فيه نظر، يعني: الاحتياط إذا جاء لك الكلب بصيد لم يُجرح أن تتركه، ولكن كوننا نجزم بالتحريم لا نجزم به لعموم قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾.

الفائدة الثانية عشرة: قطع ما يوجب الإعجاب بالنفس؛ لأن قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ فيه إسناد التعليم إلى البشر، فقد يزهى الإنسان بنفسه ويغتر ويعجب فلهذا قال الله عزّ وجل: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى أن علمك الذي تعلمه إياهن مصدره من عند الله عزّ وجل.

الفائدة الثالثة عشرة: أن العلم لا يختص بالعلوم الشرعية، بل علم كل شيء بحسبه، فالعلم هنا ليس هو العلم بالأحكام الشرعية وأن هذا واجب وهذا حرام وما أشبه ذلك، لكنه علم يختص بتعليم الجوارح كيف يصدن، فيكون في هذا دليل على أن العلم يختص بما يقتضيه السياق، وكل شيء بحسبه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب التسمية على الذبيحة ومن ترك متعمداً، حديث رقم (٥١٧٩)، ومسلم، كتاب الأضاحي، باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر وسائر العظام، حديث رقم (١٩٦٨) عن رافع بن خديج.

الفائدة الرابعة عشرة: سعة رحمة الله عزّ وجل، حيث أباح لنا ما ذكيناه بأيدينا وما ذكيناه بواسطة، أي: واسطة الجوارح، وهذا لا شك أنه من توسيع الله لنا في الرزق.

الفائدة الخامسة عشرة: أن المشقة تجلب التيسير؛ لأنه لما كان يشق على الإنسان أن يصطاد الصيد بنفسه في كل وقت وحين لأن المصيد ربما يكون مثلاً في جبال أو في سهول أو في أودية ولا يستطيع أن يصيده بنفسه رخص له أن يصيد بجارحة، وهذا من توسعة الله عزّ وجل على عباده في أسباب الرزق.

الفائدة السادسة عشرة: وجوب ذكر اسم الله تعالى، ومنه ذكر اسم الله عند إرسال الصيد، فإن نسي فإنها لا تحل، لعموم قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]؛ ولأن النبي ﷺ جعل ذكر اسم الله شرطاً، والشرط لا يسقط بالسهو، وهذا هو القول الراجح الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وهو مقتضى الأدلة.

وقال بعض العلماء: إنها ـ أي: التسمية ـ تسقط بالسهو، لعموم قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فقال الله عزّ وجل: قد فعلت[1]، لكننا نقول: إن هذا الذي لم يذكر اسم الله على الذبيحة أو على الصيد إذا نسي فهو معذور ولا يؤاخذ، ولو تعمد ترك التسمية وذبح أو صاد كان بذلك آثماً؛ لأن فيه إضاعة مال، وفيه نوع من الاستهزاء بآيات الله، لكن النظر الآن ليس في الذابح أو الصائد، النظر

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه سبحانه وتعالىٰ لم يكلف إلا ما يطاق، حديث رقم (١٢٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الآن في الآكل، نقول: لمن أراد أن يأكل من هذا الصيد الذي لم يذكر اسم الله عليه: هذا الصيد لم يذكر اسم الله عليه، وقد نهيت أن تأكل منه فإن أكل ناسياً فلا شيء عليه؛ لأن المسألة هنا لها جهتان، جهة الصائد أو الذابح وجهة الآكل، وكلاهما لا يؤاخذ بالنسيان، لكن إذا كان الذابح أو الصائد ناسياً فإنه لا يؤاخذ ثم يتوجه المنع إلى الآكل، ويقال له: لا تأكل مما لم يذكر اسم الله عليه، وزعم من زعم أن المراد بما لم يذكر اسم الله عليه الميتة زعم خاطئ؛ لأن الله تعالى ذكر تحريم الميتة صريحاً، فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ ولو أراد الله تعالى ذلك لقال: ولا تأكلوا الميتة، وعلى هذا فما اختاره شيخ الإسلام رحمه الله هو الحق.

لكن ذكر ابن جرير في تفسيره أن الإجماع منعقد على أن متروك التسمية نسياناً حلال، وتعقبه ابن كثير رحمه الله، وقال: إن ابن جرير ممن لا يعتد بقول الواحد والاثنين في نقض الإجماع، وهو خلاف ما عليه العلماء، والصواب أن الإجماع لا بد أن لا يوجد له مخالف حتى ينعقد، فإن وجد مخالف ولو واحداً من الفقهاء المجتهدين فلا إجماع.

الفائدة السابعة عشرة: وجوب تقوى الله عزّ وجل لقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

الفائدة الثامنة عشرة: الإشارة إلى أن من أكل ما لم يحلله الله فهو غير متقي لله.

الفائدة التاسعة عشرة والعشرون: أن الله تعالى سريع الحساب، ومن ذلك ما ذكرناه في التفسير أن المراد بذلك سرعة

لقاء الله عزّ وجل وذلك بالموت، وسرعة فصل الله بين العباد وذلك يوم القيامة، فإن الله يفصل بين الناس ويحاسبهم في نصف يوم، بدليل قوله الله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤].

فإن قال قائل: سرعة الحساب من صفات الله الذاتية أو الفعلية؟

قلنا: هي من الفعلية؛ لأن المحاسبة فعل يتعلق بمشيئته، وعلى هذا فيكون فيه إثبات الصفات الفعلية لله عزّ وجل.

الفائدة الحادية والعشرون: إثبات الحساب، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة: ٥].

قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ﴾ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾، يحتمل المراد بذلك ما قبل اليوم ما سوى الزمن الماضي، أو اليوم الحاضر الذي هو اليوم المعين.

وقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ﴾ من أحلها؟ أحلها الله عزّ وجل، فحذف الفاعل للعلم به، كما في قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] فالخالق هو الله عزّ وجل وهو معلوم، والمحلل والمحرم هو الله وهو معلوم، ولذلك حذف الفاعل في الخلق وهو

أمر كوني، وفي الشرع وهو في الحلال والحرام، وعلى هذا فمن كان معلوماً بالتحليل أو التحريم أو الإيجاد أو الإعدام فلا حرج أن يحذف ويبنى الفعل لما لم يسمَّ فاعله.

قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ﴾ أي: أحل الله الطَّيِّبَاتِ، والطيبات هي ضد الخبائث، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠] فما هو ميزان الطيب، أهو في ذوق كل إنسان أم في عادات الناس، أما ماذا؟ نقول: المرجع في ذلك إلى ما جاءت به الشريعة، فما أحلته الشريعة فهو طيب، وما حرمته فهو خبيث.

فإن قال قائل: ما هو الأصل في الأطعمة؟

الجواب: الحل، والدليل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] إذاً الأصل الحل، فإذا ادعى مدعٍ أن هذا الشيء حرام من طير أو زاحف أو غيرهما قلنا له: ما الدليل على ذلك؟ فما أحله الله فهو طيب بلا شك.

قوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ طعام الذين أوتوا الكتاب يعني: اليهود والنصارى، وليس المراد كل ما يطعموه من حب وثمر، بل المراد كل ما يطعمون من لحم، ثم أيضاً: ليس المراد كل ما يطعمون من لحم إذا كان لا تشترط له الذكاة؛ لأن ما لا تشترط له الذكاة حلال بدون فعلهم، والحبوب والثمار حلال بدون فعلهم، فليس من طعامهم الخاص، ولا يمكن أن يقول الله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ والمراد به هذا الطعام الذي لكل أحد.

فلو كان أهل الكتاب لا يأكلون إلا الشعير، فهل حِل الشعير لنا مأخوذ من هذه الآية؟

الجواب: لا؛ لأن هذا ليس من خصائصهم ولم يكن إحلاله متوقفاً على فعلهم، بل الذي يتوقف إحلاله على فعلهم هي الذبائح، ولهذا فسر ابن عباس رضي الله عنهما طعامهم بذبائحهم، وعليه فيكون المراد بطعام الذين أوتوا الكتاب هي ذبائحهم، أي: ذبائح اليهود والنصارى.

وظاهر الآية الكريمة: أنه لا فرق بين أن يكونوا قد بدلوا وحرفوا أم التزموا بشرائعهم للعموم، ولأن هذه الآية في نفس السورة التي حكى الله عنهم أنهم يقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

وقوله: ﴿وَطَعَامُكُمْ﴾ أي: ما ذبحتموه، ﴿حِلٌّ لَّهُمْ﴾ الأطعمة قسمان: طعام لا يتوقف حله على فعل آدمي، فهذا حل للجميع، كمن وجد سمكة ميتة على شاطئ البحر فهي حلال وليأكلها، وهي حلال سواء كانت طعام أهل كتاب أم طعام غيرهم.

وطعام يشترط لحله فعل فاعل، وهذا حرام من غير أهل الكتاب وهو الحيوان الذي يحتاج إلى ذكاة أي: يتوقف على ذبح الإنسان، فإن ذبحناه فهو حلال لهم، وإن ذبحوه فهو حلال لنا.

قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ المحصنات فيها قراءتان: «المحصِنات» بكسر الصاد على أنها اسم فاعل، وبفتحها على أنها اسم مفعول، يعني: وأحل لكم المحصنات، فعليه تكون معطوفة على قوله: ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾.

قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المحصنات من المؤمنات هن الحرائر، حلال لنا، ويحتمل أن يراد بذلك العفيفات، فأما الأول فيؤيده قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن

يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ [النساء: ٢٥] فإن المراد بالمحصنات هنا الحرائر بلا إشكال، وأما الثاني وهو أن المراد بذلك العفائف أو العفيفات فيؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ٢٣] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور: ٤] فالمراد بهن هنا العفيفات عن الزنا.

ولكن الذي يبدو أن المراد بالمحصنات هنا الحرائر، والآية محتملة، ليس فيها ما يدل على هذا ولا على ذاك، قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ يعني: الحرائر، وأما المملوكات فلا يحل للإنسان أن يتزوجهن إلا بشروط سبقت في سورة النساء.

وقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ المحصنات الحرائر، أو العفيفات على الخلاف ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ لكن بشرط ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ اشترط الله تعالى لحل المحصنات من المؤمنات ومن الذين أوتوا الكتاب إيتاء الأجور، وهي المهور التي تبذل عوضاً عن الاستمتاع بالمرأة، ولهذا سماه الله تعالى أجراً؛ لأن الأجر ما يؤخذ في مقابلة عوض.

قوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي: أعطيتموهن، ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ أي: أجور هؤلاء المحصنات وهي المهور.

قوله: ﴿مُحْصِنِينَ﴾ حال من الواو في قوله: ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ يعني: حال كونكم محصنين، أي: طالبين الإحصان، أي: إحصان فرج المرأة وفرج الرجل؛ لأن الزواج يحصل به إحصان فرج الزوج والزوجة.

قوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي: غير معلنين بالزنا.

قوله: ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ أي: مختفين بالزنا، وعلى هذا فيكون الوطء ثلاثة أقسام:

الأول: ما كان حلالاً بالصداق.

والثاني: ما كان علناً بالعهر والفجور.

والثالث: ما كان خفياً بالعهر والفجور.

والذي يحل الأول وهو الذي يتزوجها محصناً غير مسافح ولا متخذ أخدان.

وقوله: ﴿أَخْدَانٍ﴾ أي: أصدقاء، والخدن يطلق على الصديق من رجل أو امرأة، ولهذا قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥] وفي هذه الآية قال: ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ فدل ذلك على أن الخدن يكون في الرجال ويكون في النساء.

قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ هل الإيمان شيء يكفر به ولا يكفر به، أو الإيمان ضد الكفر؟ الإيمان ضد الكفر، لكن المراد بالإيمان هنا أي: بمقتضيات الإيمان من التزام الشريعة؛ لأن الله تعالى ذكر هنا محللات ومحرمات، فمن أخذ بها وقام بها فهو مؤمن، ومن لم يأخذ بها فليس بمؤمن.

إذاً: قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: بما يقتضيه الإيمان من الالتزام بأحكام الإسلام ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ أي: بطل، وتلف، وذهب.

و«عمل»: مفرد مضاف فيشمل كل الأعمال؛ لأن الردة تحبط الأعمال، إلا أنه يشترط أن يموت الإنسان على ردته ـ والعياذ بالله ـ لقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ

فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

قوله: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ذكر الله تعالى أنه خاسر في الآخرة؛ لأن ظهور خسرانه في ذلك الوقت، وإلا فهو في الحقيقة خاسر في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [الزمر: ١٥] وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ [التوبة: ٦٩].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الإحلال والتحريم إلى الله عزّ وجل، وليس لأحد أن يحلل أو يحرم لقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ﴾ وهذا بإجماع المسلمين، حتى إن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ﴾ [النحل: ١١٦] وقد تقدم أن الأصل في العبادات التحريم والمنع إلا بدليل، والأصل في غيرها الحل، وكلام الأصوليين حول هذا الموضوع: وما الأصل في الأشياء قبل الشرع وما أشبه ذلك كله كلام ليس فيه فائدة إلا تسويد ما ابيض من الصحف؛ لأنه كلام جدلي لا فائدة منه؛ لأن لدينا من كتاب الله ومن سنة رسوله ما يغني عن كل هذه المباحث التي ذكروها وأطالوا فيها.

نقول عندنا قاعدتان مهمتان: أن الأصل في العبادة المنع أصلاً ووصفاً إلا بدليل، والأصل في غير العبادات مطلقاً من عادات ومعاملات وأعيان ومنافع وغيرها الأصل فيها الحل، إلا ما دل الدليل على التحريم، والأدلة على ذلك ذكرناها سابقاً، ولا حاجة للإعادة.

الفائدة الثانية: أن كل ما أحله الله تعالى فهو طيب، ولكن هذا الطيب هل هو حلال لكل أحد؟

الجواب: إن تضمن ضرراً على بعض الناس كان حراماً وإن كان طيباً، فإذا قيل لشخص: إنك إذا أكلت هذا النوع من الطعام فإنه يضرك، صار في حقه حراماً، لا لأنه خبيث ولكن لأنه ضار لهذا الشخص المعين.

الفائدة الثالثة: أن طعام اليهود والنصارى حلال لنا، لقوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾، وهل غيرهم كذلك؟

الجواب: لا، وأخطأ من قال: إن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إنه لقب، بل نقول: إنه وصف، والوصف يخرج ما سواه ممن لم يتصف به، فـ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ اسم المفعول منها «وطعام المؤتون الكتاب»، وإذا أتيت باسم مفعول منها صارت صفة مشتقة، لا لقباً؛ لأن اللقب معروف أنه ليس له مفهوم، فإذا قلت لك: أكرم زيداً، فليس المعنى لا تكرم غيره؛ لأن هذا لقب، لكن إذا قلت: أكرم المجتهد؛ صار وصفاً، يعني لا تكرم المهمل فيخرج من ليس بمجتهد، لكن من العلماء ولا سيما المتأخرون من قال: إن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لقب وليس بوصف، من أجل أن يتذرعوا إلى حل طعام غير اليهود والنصارى؛ لأن اللقب كما هو معروف عند الأصوليين ليس له مفهوم.

على كل حال: من فوائد هذه الآية حل طعام الذين أوتوا الكتاب، وهم اليهود والنصارى.

الفائدة الرابعة: أن من سوى اليهود والنصارى لا تحل

ذبيحتهم، كالمجوس والوثنيين والشيوعيين والمشركين ومن أشبههم، وجه ذلك: نأخذه من مفهوم الذين أوتوا الكتاب.

الفائدة الخامسة: حكمة الله عزّ وجل في تحليل طعام الذين أوتوا الكتاب؛ لأن الذين أوتوا الكتاب عندهم علم سماوي، فهم من أقرب الناس إلى قبول الشريعة الإسلامية، ولا شك أن أحوال أهل الكتاب تغيرت بعد نزول القرآن الكريم، تغيرت تغيراً كبيراً، فصار بين المسلمين واليهود وبين المسلمين والنصارى حروب عظيمة طاحنة، أدت إلى استكبار هؤلاء اليهود والنصارى وعدم قبولهم لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام.

الفائدة السادسة: أن ما عَدَّه أهل الكتاب ذكياً فهو ذكي؛ لأنهم إذا عدوه ذكياً صار طعاماً، وليس الذكي هنا بمعنى الفطن، بل المراد بالذكي المُذكى، فما عدُّوه ذكياً فهو طعام لهم.

وبناءً على ذلك: يحل من طعامهم ما ذكروا اسم غير الله عليه، يعني: لو قال النصراني: باسم المسيح، وقال اليهودي: باسم عزير أو ما أشبه ذلك فالذبيحة حلال؛ لأنهم يعتقدون هذا طعاماً، والله عزّ وجل أطلق فقال: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾.

ومن ذلك أيضاً: أن ما عدوه ذكياً من الموقوذ فهو حلال، والموقوذ كما تقدم الذي قتل بغير إنهار الدم، بالصعق وشبهه، فإنه حلال؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فما عدوه طعاماً مذكى يأكلونه فإنه حلال.

فإذا قال قائل: هل ذهب إلى هذا أحد؟

نقول: أما ما ذكروا عليه اسم المسيح فقد ذهب إليه بعض السلف من الصحابة وغير الصحابة، وقالوا: إن هذا لا يعود إلى ذات المذكى أو إلى خبثه، إنما يعود إلى القصد، ونحن لا يهمنا قصده.

وأما الثاني وهو أن الذكي عندهم ما مات ولو بخنق، فقالوا: إن الآية مطلقة، لكن ما علمنا أن أحداً من السلف قال به، إلا أن المتأخرين الذين قالوا به، قالوا: إذا كان بعض السلف أجازوا ما ذكر اسم غير الله عليه فهذا مثله؛ لأن النبي ﷺ جعل ذكر اسم الله على الذبيحة وإنهار الدم قرينين في حكم واحد، فقال: «**ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكل**»[1].

لكن جمهور العلماء يقولون: إن هذا الإطلاق في طعام الذين أوتوا الكتاب يجب أن يقيد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١] وقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨] ويقيد أيضاً بقول الرسول ﷺ: «**ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكل**»[2] وإذا كان هذان القيدان مقيدين لإطلاق حل ذبيحة المسلم فتقييدهما لحل ذبيحة غير المسلم من باب أولى، وإذا كان المسلم لو خنق الشاة مثلاً صارت حراماً، فكذلك الكتابي، إذ لا يمكن أن تكون مقتولة الكتابي أفضل من مقتولة المسلم، وهذا هو الذي عليه جمهور العلماء وهو الصحيح.

فالصحيح أن قوله: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وإن كان

---

(١) تقدم تخريجه ص٦٢.

(٢) تقدم تخريجه ص٦٢.

مطلقاً فإنه يجب أن يقيد بما ورد من تقييد ذلك بذكر اسم الله على الذبيحة وإنهار الدم.

ولكن إذا أتتنا ذبيحة من يهودي أو نصراني ونحن لا ندري أَذَكَرَ اسم الله عليها أم لا، أخنقها ثم قطع رقبتها أم لا، فالأصل الحل، لما ثبت في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها **«أن قوماً أتوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا، قال: سموا أنتم وكلوا، قالت: وكانوا حديثي عهد بكفر»**[1] يعني: أسلموا قريباً، والمسلم قريباً قد يخفى عليه كثير من أحكام الإسلام، ومع ذلك قال: **«سموا أنتم وكلوا»**[2].

قال صاحب المنتقى رحمه الله: يؤخذ من هذا أن كل فعل صدر من أهله فالأصل الحل، ولا تنقب، ولو كلفنا أن ننقب لكان حتى الذي يأتينا في أسواقنا مما ذبحه المسلمون يجب أن نسأل: هل الذابح سمى أو لا، هل قطع الأوداج أو لا، هل هو يصلي أو لا؟ وما أشبه ذلك.

ولو أننا كلفنا أن ننقب لكان الرجل إذا باع علينا الثوب قلنا تعالَ من أين ملكته؟ لاحتمال أن يكون قد سرقه، فإذا قال: ملكته من فلان، فنذهب إلى فلان فنقول له: من أين ملكته؟ لاحتمال أن فلاناً سرقه، إلى أن نصل إلى الشجرة التي نسج منها، وهذا شيء لا يمكن أن يطاق.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب ذبيحة الأعراب ونحوهم، حديث رقم (٥١٨٨).

(٢) تقدم تخريجه في الحديث السابق.

على كل حال: الأصل في الفعل الواقع من أهله الحل.

لكن لو ادعى مدع أن المراد بقوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ما طبخوه من خبز ومرقٍ وما أشبه ذلك، هل يقبل؟

الجواب: لا؛ لأن هذا حل من أهل الكتاب ومن غيرهم بالإجماع، حتى لو أن مجوسياً صنع لنا خبزاً نأكله، وذلك أن المحللات كما تقدم تنقسم إلى قسمين:

الأول: ما لا يشترط لحله فعل فاعل، وهذا حلال من الكتابي وغير الكتابي.

الثاني: ما يشترط لحله فعل فاعل، وهذا حرام من غير أهل الكتاب، وقد تقدم هذا في التفسير.

لو قال قائل: إذا علم الإنسان أن لحم أهل الكتاب حرام لكونه ميتة أو لكونه ذبحه من لا تحل ذبيحته، أو لكون الذابح لم يذبحه على الطريقة المشروعة، فهل يخبر الناس أم يسكت؟

الجواب: يجب عليه أن يخبر، وقد ذكر العلماء رحمهم الله مثل ذلك فقالوا: يجب على من علم أن الماء النجس أن يخبر من أراد أن يستعمله، وكذلك لو رأيت إنساناً يريد أن يأكل شيئاً مضراً يجب عليك أن تخبره أنه ضار، هذا من باب النصيحة.

لو قال قائل: إن الدجاج الذي يرد من أوروبا إلى البلاد الإسلامية مذبوح على غير الطريقة الإسلامية، وقد ذهب نفر من التجار إلى بعض البلاد الأوروبية وتأكدوا من ذلك؟

الجواب: هل الدجاج الذي يذبح على غير الطريقة الإسلامية هو الذي يرد إلى البلاد الإسلامية أم يرد إلى بلاد أخرى، لا ندري، ثم لو أخبروا الجزارين لذبحوا على الطريقة الإسلامية؛ لأنهم يريدون الفائدة وإلا قالوا لهم: سنقاطعكم.

الفائدة السابعة: أنه لا بأس أن نطعم أهل الكتاب ويطعموننا، لقوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ وحينئذٍ نقول: هل تجوز المهاداة بيننا وبين أهل الكتاب؟

الجواب: نعم، تجوز، فإن النبي ﷺ قَبِلَ هديتهم كما أهدت إليه المرأة اليهودية في خيبر الشاة المسمومة؛ لأن هذه المرأة سألت: أي شيء يعجب محمداً؟ قالوا: يعجبه من الشاة ذراعها. فملأت الذراع بالسم وأهدتها للرسول عليه الصلاة والسلام، والنبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب فأكل هو ومن معه، من الذين أكلوا معه من مات، أما هو عليه الصلاة والسلام فإنه تأثرت لهواته، ولكن بإذن الله لم يؤثر فيه السم شيئاً، لكنه قال في مرض موته، كما روته عنه عائشة رضي الله عنها: **«ما زالت أكلة خيبر تعاودني، وهذا أوان انقطاع الأبهر مني»**[1] الأبهر: عرق معروف إذا انقطع هلك الإنسان.

ولهذا قال الزهري وغيره: إن رسول الله ﷺ مات شهيداً بقتل اليهود له.

المهم: كون طعامهم حل لنا وطعامنا حل لهم يدل على جواز المهاداة بيننا وبين أهل الكتاب، لاسيما إذا رجونا منهم الإسلام، أو إذا أردنا أن نبين لهم أن الإسلام دين السلام، وأن الإسلام ما أنزله الله عزّ وجل ليفرض على الناس أن يسلموا، إنما فرض الله عزّ وجل على البشر أن تكون كلمته هي العليا، سواء بإسلام أم بجزية، ولذلك لو أن الكافر أراد أن يبذل الجزية ويبقى

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، حديث رقم (٤١٦٥).

على دينه، نقول: ابقَ على دينك ولكن سلم الجزية، وتسليم الجزية متى يكون؟ إذا كنا نحن المسلمين لنا الكلمة، وليس كحالنا اليوم، حالنا اليوم ـ نسأل الله أن يرحم ضعفنا ـ على العكس من ذلك، الكلمة العليا لغيرنا؛ وذلك لأننا ما قمنا بدين الله حق القيام، لو قمنا بالدين حق القيام لكان دين الله لا بد أن يظهر على جميع الأديان، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ لماذا؟ ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] لكن مَنْ منا إلا من شاء الله يريد هذا، أكثر المسلمين الآن على خلاف ذلك، فتجد في بلاد المسلمين شركاً، لو كان الرسول حياً لكان يقاتلهم عليه، وتجد غلواً في قوم صالحين أو غير صالحين، والأشياء لا تخفى على كثير من الناس.

على كل حال: دين الإسلام هو دين السلام لكنه مع ذلك هو دين العزم والقوة والحذر من الأعداء، وكيدهم، ومكرهم، وخيانتهم.

الفائدة الثامنة: حل المحصنات من أهل الكتاب كحل المحصنات من المؤمنات؛ لأن الله قال: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ قد يقول قائل: حل المحصنات المؤمنات أمر معلوم؛ لأن المحصنات من المؤمنات حلها مذكور، في سورة النساء وهي قبل هذه السورة وهي صريحة بذلك، فما وجه ذكرها في هذه الآية؟

الجواب والله أعلم: أن يبين أن المحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب سواء في الحل، ولكن لا يلزم من تساويهن في الحل أن يتساوين في الإقدام عليهن، قد يكون الشيء حلالاً ولكن نقول: الأفضل ألا تقدم عليه، يعني: لا يلزم من حل المحصنات من المؤمنات ومن أهل الكتاب أن

يتساوين في الإقدام، فقد تحل المرأة للإنسان ويقال: لا تقدم عليها.

الفائدة التاسعة: علو مرتبة المؤمن وإن لم يكن عالماً لقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فقدم المحصنات المؤمنات على المحصنات من الذين أوتوا الكتاب، مع أن أهل الكتاب عندهم علم، والمؤمن قد لا يكون عنده علم.

الفائدة العاشرة: اشتراط المهر في حل المرأة، لقوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وهذه المسألة اختلف فيها العلماء ولها صور:

الصورة الأولى: أن يتزوج الرجل المرأة بشرط ألا مهر لها، فهل يصح العقد؟ ظاهر الآية الكريمة هنا وظاهر الآية الكريمة في سورة النساء أنه لا يصح العقد. في سورة النساء، قال الله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ ماذا؟ ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ [النساء: ٢٤] يعني: ليس مجاناً بل لا بد من المهر، وفي الآية الكريمة هنا: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وهذا القول هو الراجح، وأنه إذا تزوج امرأة بشرط أن لا مهر لها فالنكاح باطل، ووجه ذلك: أنه إذا تزوجها بشرط أن لا مهر لها صار هذا النكاح نكاح هبة، ونكاح الهبة لا يجوز إلا للرسول ﷺ، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] فإذا اشترط أن لا مهر فهذا هو نكاح الهبة.

وقال بعض العلماء: النكاح صحيح والشرط فاسد، وحينئذ يجب لها مهر المثل، ولكن هذا القول ضعيف؛ لأن الأدلة تمنعه.

الصورة الثانية: تزوجها وسكت ولم يذكر مهراً، فالنكاح صحيح بنص القرآن، ولكن لها مهر المثل، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة: ٢٣٦] ثم قال: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ﴾ [البقرة: ٢٣٦] فنقول: إذا دخل بها فلها مهر المثل، وإن طلقها قبل الدخول فلها المتعة بقدر يُسر زوجها وعسره.

والفرق بين هذه الصورة والصورة الأولى واضح، ففي الصورة الأولى شَرَطَ عدم المهر، وفي الثانية سكت.

الصورة الثالثة: أن يتزوجها بشرط المهر، فهذه جائزة، وشرط المهر ما هو إلا تأكيد لمقتضى العقد، وهل يشترط إذا شرط المهر أن يعين؟

الجواب: لا يشترط أن يعينه، إن عينه فلها ما عين، وإن لم يعينه فلها مهر المثل.

لو قال قائل: هل يجوز للزوج أن يؤجل المهر، وهل يجوز للمرأة أن تهب الرجل مالاً ليكون مهراً لها؟

الجواب: يجوز للزوج أن يعطي المهر معجلاً ومؤجلاً كله ولا بأس بذلك وليس هناك مانع؛ لأن هذا المهر ثبت في ذمته ولو مات لأُخذ من تركته، وأما المرأة فيجوز لها أن تهب مالاً للرجل ليكون مهراً لها، ولكن أخشى إذا وهبته المال قال: الحمد لله الآن أنظر أحسن منك، وأيضاً يجوز للمرأة إذا تم العقد أن ترد المهر إليه وهذا يقع كثيراً، وكان الناس في السابق في بلادنا كان الرجل يمهر المرأة، أي: يصدقها صداقاً وهو فقير، ثم ترده المرأة إليه، وحدث مرة أن تزوج رجل امرأة وأعطاها مهراً قدره ريال واحد، وفي ضحى يوم الزواج قرع الباب عليه

رجل وهو مع أهله وقال: أعطني الريال الذي أطلبك، قال: ما عندي شيء، قال: أعطني وإلا ذهبت إلى القاضي، وارتفعت أصواتهما، فجاءت المرأة وقالت: ماذا يريد؟ قال: إنه يطلبني ريالاً ويقول: أعطني إياه وإلا ذهبت إلى القاضي. قالت: خذ الريال وأعطه إياه، فأعطته المهر وأوفى به الدائن.

وكذلك يجوز لولي المرأة إذا كان راغباً في رجل ويريد أن يزوجه ابنته يجوز أن يعطيه المهر ليدفعه للبنت.

الفائدة الحادية عشرة: أن المهر بمنزلة الأجرة، لقوله: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ وحينئذٍ يرد إشكال يقال: الأجرة يشترط فيها معرفة العوض والمعوض وعلمهما، وهنا «العوض» يجوز أن يكون مجهولاً وهو المهر الذي لا يسمى، والمعوض كذلك، المعوض هو منفعة المرأة إلى الموت أو الطلاق، وهذا أمر مجهول، فقد تبقى مع زوجها عشرين سنة أو ثلاثين سنة أو مائة سنة، وقد تموت في أسبوعها الأول، وقد يطلقها في الأسبوع الأول، ومهر الأولى والثانية سواء، مثال ذلك: تزوج امرأة بألف ريال وبقيت معه مائة سنة، اقْسم السنة على المائة ريال كل سنة بريال، وامرأة أخرى تزوجها بمائة ريال وماتت بعد مائة يوم، فاليوم بريال، فرق بين هذه وتلك، فإذا قال قائل: كيف تقولون: إنه بمنزلة الأجرة مع هذا الاختلاف العظيم؟

قلنا: نظراً لتطلع الشرع للنكاح من أجل كثرة الأمة، وتحصين الفروج، والمصالح العظيمة، خفف فيه، ولو قلنا: يشترط العلم بالعوض والمعوض صار في ذلك مشقة عظيمة، وصارت النساء تختلف في مقدار المهر، وعدنا إلى مسألة ثانية

ممنوعة في الشرع وهي نكاح المتعة؛ لأننا لو قلنا: لا بد من معرفة العوض والمعوض قلنا: كم مدة النكاح؟ كما لو استأجرت امرأة خادمة نقول: كم مدة الخدمة؟ فلأجل هذه المصالح العظيمة عفا الشرع عن مقدار المدة والعوض والمعوض.

الفائدة الثانية عشرة: أن المقصود الأعظم من النكاح هو الإحصان، لقوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾.

الفائدة الثالثة عشرة: الإشارة إلى أنه ينبغي إعلان النكاح؛ لأنه قال: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾، فلا بد أن يكون النكاح معلناً ظاهراً، وهل يكفي في إعلانه أن يقع بشهود، أو لا بد من إظهاره وإعلانه؟

الجواب: الثاني على القول الراجح.

لكن إذا كان هناك شهود مع الكتمان، فإن اشترط كتمانه فهو غير صحيح، لا بد من إعادته وإعلانه، وإن لم يشترط ففيه خلاف، بعض العلماء يقول: لا يصح، وبعضهم يقول: يصح، لكن العلماء كلهم متفقون على أن إعلان النكاح أفضل وأبعد عن التهمة وأبعد عن اتخاذ الأخدان.

الفائدة الرابعة عشرة: أن الاستمتاع بالنساء ينقسم إلى أقسام: تحصين، وسفاح، واتخاذ أخدان، والفرق بينهما، الأول: عقد شرعي، والثاني: زنا معلن، والثالث: زنا سري.

الفائدة الخامسة عشرة: أنه إذا قصد المسافحة، أو اتخاذ الخدن فإنه لا يكون نكاحاً صحيحاً؛ لأنه اشترط فقال: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ وقد استدل علماء السنة بذلك على بطلان نكاح المتعة؛ لأن نكاح المتعة إن أعلن فهو سفاح؛ لأن الرجل لم يقصد إلا أن

يستمتع فقط، وليس قصده إحصان الفرج، بل لذة يقذفها في فرج هذه المرأة وينتهي، وإن كان مخفياً فهو من جنس اتخاذ الأخدان، وهذا القول هو بإجماع أهل السنة على أن نكاح المتعة حرام.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنه حرام إلى يوم القيامة**»[1] وهذا يدل على أنه لا يمكن نسخه؛ لأن قوله عليه الصلاة والسلام: «**حرام إلى يوم القيامة**» خبر يتضمن حكماً مغيّاً إلى يوم القيامة، وإذا كان الخبر يتضمن حكماً مغيّاً إلى يوم القيامة فإنه لا يمكن نسخه؛ لأن النسخ هو رفع الحكم، وما كان غايته يوم القيامة فإنه لا يمكن أن يرفع.

الفائدة السادسة عشرة والسابعة عشرة: طهارة بدن الكافر؛ لأنه لا بد أن يلامس الطعام، وأيضاً في النكاح لا بد أن يكون الزوج مع زوجته الكتابية ما يقتضي التنجيس لو كانت نجسة. وفي الآية أيضاً دليل على أن آنيتهم طاهرة، إلا ما علم نجاستها فهي نجسة، كأواني المسلمين.

لو قال قائل: إن في الآية دليل واضح على جواز الزواج من الكتابية، فكيف نجمع بين هذه الآية وبين ما رواه الإمام أحمد في مسنده بإسناد صحيح: «**ثلاثة يدعون ولا يستجاب لهم**»[2] وذكر منهم رجل تحته امرأة عاصية ولم يطلقها؟

---

(١) هذه الرواية لمسلم، كتاب النكاح، باب نكاح المتعة وبيان أنه أبيح ثم نسخ ثم أبيح ثم نسخ واستقر تحريمه إلى يوم القيامة، حديث رقم (١٤٠٦) عن سبرة الجهني.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣١) (٣١٨١)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٤٦) (٢٠٣٠٤) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

الجواب: إن صح الحديث فهو يحمل على المرأة غير العفيفة؛ لأنه إذا أبقى أهله وليس فيهم عفة صار ديوثاً، ويكون هذا للتحذير من هذا الأمر.

الفائدة الثامنة عشرة: أن الإماء من أهل الكتاب لا يبحن للمسلم ولو خاف العنت، دليله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فإن قال قائل: إذاً الإماء من المؤمنات كذلك؛ لأن الله قال: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؟

قلنا: نعم، لولا آية النساء وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء: ٢٥] لولا هذه الآية لقلنا بذلك، فالجارية المسلمة تحل للمسلم عند الضرورة على حسب ما سبق في سورة النساء.

الفائدة التاسعة عشرة: أن الأعمال داخلة في الإيمان، لقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ والمذكور في هذه الآية أعمال، فدل ذلك على أن الأعمال داخلة في الإيمان، وهذا هو ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة، أن الأعمال من الإيمان، وله دليل من الكتاب والسنة، دليله من القرآن قال الله تبارك وتعالى حين ذكر توجيه الناس إلى المسجد الحرام بعد أن كانوا يتجهون إلى بيت المقدس: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] قال المفسرون: أي صلاتكم إلى بيت المقدس.

وأما من السنة فقال النبي ﷺ: («**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله**» وهذا قول «**وأدناها إماطة الأذى**

عن الطريق» وهذا فعل **«والحياء شعبة من الإيمان»**[(١)] وهذا انفعال النفس من أثر القلب وهو من أعمال القلوب، فدل هذا على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، لكن إذا قرنت الأعمال بالإيمان صارت الأعمال علانية والإيمان في القلب، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

الفائدة العشرون: أن العمل قد يحبط بعد أن عمله الإنسان، وذكرنا التفصيل في هذا، وأن الردة لا تحبط الأعمال إلا إذا مات الإنسان على ذلك.

الفائدة الحادية والعشرون: إثبات الآخرة.

الفائدة الثانية والعشرون: أن الناس في الآخرة ما بين خاسر ورابح، لقوله: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فدل هذا على أن الآخرة فيها رابح وفيها خاسر.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة: ٦].

---

(١) هذا اللفظ لمسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، حديث رقم (٥٨)، وهو عند البخاري مختصراً، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، حديث رقم (٩) عن أبي هريرة.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ﴾ الخطاب في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبق الكلام عليه عدة مرات فلا حاجة إلى إعادته هنا.

قوله: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إذا أردتم الصلاة، ولا يشترط أن يقوم الإنسان على قدميه، بل متى أراد وإن كان قاعداً فإنه يلزمه ما أمره الله به.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الصلاة عبادة معلومة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم، هكذا قال العلماء في تعريفها، ولم يذكروا كيفيتها؛ لأنها يعلمها الخاص والعام، فقولنا: «مفتتحة بالتكبير» هذا فصل يخرج ما عدا الصلاة؛ لأن جميع العبادات التي سوى الصلاة ليس فيها افتتاح بالتكبير، وقولنا: «مختتمة بالتسليم» يخرج ما يبتدئ بالتكبير ولا يختتم بالتسليم، كالطواف بالبيت، على أن ابتداء الطواف بالتكبير ليس بركن، لكنه من المندوبات، لكنه يخرج بقولنا: مختتمة بالتسليم، فإن الطواف لا يختتم بالتسليم، وهذا مما يدل على أن الحديث المروي مرفوعاً إلى الرسول عليه الصلاة والسلام: **«أن الطواف بالبيت صلاة»**[1] لا يصح مرفوعاً، إنما هو عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو لا يصح طرداً ولا عكساً.

ولهذا كان القول الراجح أن الطواف لا تشترط له الطهارة؛

---

(١) رواه النسائي، كتاب مناسك الحج، باب إباحة الكلام في الطواف، حديث رقم (٢٩٢٢) عن رجل أدرك النبي ﷺ، والترمذي، كتاب الحج، باب ما جاء في الكلام في الطواف، حديث رقم (٩٦٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

لأنه لا يدخل في الصلاة، ولا يمكن أن يدخل في هذه الآية لأنه ليس بصلاة، وإذا تبين أن الحديث المرفوع الذي هو في الحقيقة موقوف، إذا تبين أنه لا يصح طرداً ولا عكساً تبين أنه لا يشترط له الطهارة. ونتكلم على هذا إن شاء الله في الفوائد.

لو قال قائل: قلنا في تعريف الصلاة: إنها عبادة مبتدأة بالتكبير ومختتمة بالتسليم، وقلنا: إن قولنا: «مختتمة بالتسليم» أخرج ما ليس بصلاة، ألا يقوي هذا القول أن سجود التلاوة ليس بصلاة لا سيما أننا إذا قلنا إنه صلاة لزمنا أن نقول: إن الإمام يتقدم على المأمومين وأنهم لا يسبقونه يعني في القيام من السجود والتزامات أخرى؟

الجواب: سجود التلاوة إن كان في الصلاة فله حكم سجود الصلاة، يعني يكبر له عند السجود وعند الرفع، وإن كان خارج الصلاة فإن من العلماء من قال: لا يكبر له، لا عند السجود ولا عند النهوض من السجود ولا يسلم له، ومن العلماء من قال: يكبر للسجود ولا يكبر للرفع ولا يسلم، وهذا ظاهر صنيع ابن القيم رحمه الله، أما شيخه فيرى أنه ليس بصلاة، وأنه يجوز على غير طهارة، وإلى غير القبلة، وأما أنا فأميل إلى أنه صلاة من وجه أنه لا يجوز للإنسان أن يسجد على غير طهارة، وأيضاً لا يسجد إلى غير القبلة، والحمد لله الأمر ليس بواجب لكن على القول بأنه صلاة إذا قرأ والناس يستمعون ثم سجد، فإن من خلفه يصفون ويسجدون وراءه.

قوله: ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ لو قال قائل: ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ في اللغة الدعاء فيكون المراد إذا قمتم إلى الدعاء؟

قلنا: لا، ما ثبت أنه نقل عن معناه اللغوي إلى معنى شرعي فإنه إذا ورد في لسان الشارع يحمل على الحقيقة الشرعية، يعني: على المعنى الشرعي، ولهذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ**»[1] هل نقول: المعنى: لا يقبل الله دعاء أحدكم؟ لا أحد يقول بذلك، مع أن الصلاة في اللغة الدعاء، لكن نقول: الحقائق اللغوية إذا نقلت إلى حقائق شرعية وجب أن تحمل على الحقائق الشرعية في لسان الشارع.

قوله: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ الغسل المعروف هو إمرار الماء جرياً على العضو، يعني: يجري الماء عليه، احترازاً من المسح على العضو، «والوجوه» جمع وجه، وإنما سمي وجهاً؛ لأنه تحصل به المواجهة وأيضاً من وجه آخر لأنه وجه القلب، فالإنسان يعرف ما في قلبه مما في وجهه، ولهذا إذا سر الإنسان استنار وجهه، وإذا غم انقبض وجهه، فهو تحصل به المواجهة الحسية وهو وجه للقلب حقيقة؛ لأنه ينبئ عما في القلب.

إذاً: «الوجه» ما تحصل به المواجهة، وحدّه العلماء بأنه عرضاً من الأذن إلى الأذن، فالبياض الذي يكون بين العارض والأذن يعتبر من الوجه، وأما طولاً فإنه من منحنى الجبهة إلى أسفل اللحية، وهذا الضابط من منحنى الجبهة أقرب من قول بعضهم من منابت شعر الرأس؛ لأنك إذا قلت: من منابت شعر الرأس؛ لزم أن تقول المعتاد، ليخرج الأفرع والأنزع؛ لأن بعض

---

(١) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب لا تقبل صلاة بغير طهور، حديث رقم (١٣٥)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب الطهارة للصلاة، حديث رقم (٢٢٥) عن أبي هريرة.

الناس تنزل منابت شعره إلى الجبهة، وبعض الناس ترتفع إلى الناصية، لكن إذا جعلنا الضابط هو منحنى الجبهة صار هذا أدق، وأيضاً هو المطابق للواقع؛ لأن الذي يواجه الناس عند اللقاء هو ما دون المنحنى، أما ما وراءه فهو مواجه للسماء أي: لأعلى.

ومسترسل اللحية من أهل العلم من قال: إنه من الوجه، وعلى هذا فإذا كان للإنسان لحية طويلة فإنها داخلة في الوجه، وقال بعض العلماء: إن المسترسل من اللحية ليس من الوجه، وذلك لأنه في حكم المنفصل؛ لأن لدينا ثلاثة أشياء في جسد الإنسان في حكم المنفصل: الشعر والظفر والسن، فنقول: ما دام ذلك في حكم المنفصل فإنه لا يدخل في حد الوجه، ولكن الصحيح أنه يدخل في حد الوجه لأنه تحصل به المواجهة ولأنه قد روي عن النبي ﷺ في حديث إسناده حسن أنه كان يخلل لحيته في الوضوء[1].

فإذا قال قائل: هذا فعل والفعل لا يدل على الوجوب؟

قلنا: الفعل لا يدل على الوجوب في الأصل، لكن إذا وقع مبيِّناً لمنطوق صار له حكم ذلك المنطوق.

قوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ أيدي جمع يد، ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ هنا قَيَّدَ اليد بأنها إلى المرافق، فيجب أن تغسل اليد من أطراف الأصابع إلى المرفق، والمرفق هو مفصل العضد من الذراع، وسمي مرفقاً لأن الإنسان يرتفق به، أي: يتكئ عليه.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الطهارة، باب ما جاء في تخليل اللحية، حديث رقم (٢٩)، وابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في تخليل اللحية، حديث رقم (٤٢٩) عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ قال العلماء: ﴿إِلَى﴾ هنا بمعنى «مع»، وإنما أولوها بمعنى «مع»؛ لأن النبي ﷺ ثبت عنه أنه إذا توضأ غسل مرفقيه[1]، فتكون السنة مبيِّنة للقرآن، ثم استدلوا بأن لهذا نظيراً في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ يعني: أموال اليتامى ﴿إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢] ولكن الاستشهاد بهذا الشاهد فيه نظر، المهم أن الذي بيَّن أن منتهى الغاية هنا داخل هي السنة.

قوله: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ المسح هو إمرار اليد على الممسوح، لكن من المعلوم أن المراد امسحوها بالماء، أي: امسحوا الرؤوس بالماء، ولهذا زعم بعض العلماء أن في الآية قلباً، وأن المعنى امسحوا رؤوسكم بالماء، ونحن نقول: إن «الباء» هنا ليست لتعدية الفعل بالباء ولكنها مفيدة لمعنى زائد على المسح وهو الإلصاق والاستيعاب أيضاً، وإن كانت دلالة المسح على الإلصاق واضحة، وأما الاستيعاب فلأن الباء تدل على الاستيعاب، ولهذا قلنا: إن قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩] يدل على وجوب استيعاب البيت بالطواف؛ لأن الباء للاستيعاب.

وقوله: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ ما حد الرأس؟ الرأس ما ترأس، والعضو المترئس على البدن كله هو ما بين مفصل المخ والرقبة، وعلى هذا فالرقبة لا تدخل في الرأس؛ لأنها عضو مستقل، ثم

---

(١) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب الوضوء ثلاثاً ثلاثاً، حديث رقم (١٥٨)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، حديث رقم (٢٢٦) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

إذا أخرجت من الوجه بقي ما سوى الوجه مما ترأس، وهل يدخل في ذلك الأذنان؟

الجواب: نعم يدخل في ذلك الأذنان، أولاً: لأن الاشتقاق يدل على دخولهما، وثانياً: أنه ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يمسح بأذنيه[1].

قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ في ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ قراءتان سبعيتان صحيحتان، الأولى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالفتح، والثانية: ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ بالكسر.

فعلى القراءة الأولى تكون معطوفة على قوله: ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ لأنه إذا تعددت المعطوفات فالمعطوف عليه ما يلي العامل، وهو الأول.

وأما على قراءة الجر ففيها إشكال عند بعض العلماء:

منهم من قال: إنها جُرت على سبيل المجاورة، والمجاورة أن تتبع الكلمة ما جاورها في الإعراب، ومثلوا لذلك بقول العرب: هذا جحرُ ضبٍّ خربٍ، فخربٍ لا تصلح أن تكون نعتاً للضب؛ لأن الخرب هو الجحر، لكن قالوا: إنه جر على سبيل المجاورة، ولكن هذا التعليل عليل، إلا أنه دأب كثير من

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب صفة وضوء النبي ﷺ، حديث رقم (١٠٨) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، والترمذي، كتاب الطهارة، باب مسح الأذنين ظاهرهما وباطنهما، حديث رقم (٣٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، والنسائي، كتاب الطهارة، باب مسح الأذنين، حديث رقم (١٠١) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، حديث رقم (٤٤٢) عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه.

النحويين إذا عجزوا عن توجيه الإعراب ذكروا علة قد تكون مستكرهة، ولهذا يقولون: إن علل النحويين كجحور اليرابيع، واليربوع دويبة أكبر من الفأر، والفأر معروف، لكن رجليها طويلة، ويديها قصيرة جداً، ولها ذنب طويل، وهي ذات حيل، تحفر الجحر لها في الصحراء وتجعل له باباً واضحاً ولكنها تستمر في حفره وتحفر صاعدة إلى أقصاه، حتى إذا لم يبقَ على أن تخرقه إلا قشرة رقيقة توقفت، من أجل إذا حجرها أحد من فم الجحر خرجت من الباب المغلق إلى حين الحاجة إليه، ولهذا تسمى نافقاء اليربوع.

فنقول: إن القول بأنها مجرورة على سبيل المجاورة فيه نظر.

لكن ذهب شيخ الإسلام رحمه الله إلى مذهب جيد، قال: إن الله قال: «وأرجلَكم» بالفتح و«أرجلِكم» بالكسر لأن للرِّجل حالين: حالاً تكون فيها مكشوفة ففرضها الغسل، وحالاً تكون فيها مستورة ففرضها المسح.

وقوله عزّ وجل: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ ما هما الكعبان؟ الكعبان هما العظمان الناتئان في أسفل الساق، وهما معروفان.

قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ انتهى الكلام على الوضوء الذي سببه الحدث الأصغر، قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ في الآية إشكال من جهة أن المخاطب جماعة، والخبر بصيغة الإفراد، لم يقل: إن كنتم جُنُبين، بل قال: ﴿جُنُبًا﴾، وهذا جوابه سهل؛ لأن كلمة جنب في اللغة الفصحى يستوي فيها المفرد والاثنين والجماعة، وإن كان قد ورد في لغة ضعيفة جمعها

على جنبين، لكن اللغة المشهورة الفصحى: أن كلمة جنب تطلق على الواحد والجماعة، فمن هو الجنب؟ الجنب من أنزل مَنِيّاً، وألحقت السنة به من جامع وإن لم ينزل، لقول النبي ﷺ: «**إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل وإن لم ينزل**»(١).

وقوله: ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾، أصلها بالتاء لكن قلبت التاء طاءً، ولم يبيِّن الله جلَّ وعلا كيف نتطهر، لكن الصيغة تدل على التعميم، لم يقل: طهروا جزءاً من أبدانكم، أو عضواً من أعضائكم، بل قال: «اطهروا»، وهو شامل لكل البدن وله صفتان كما سيأتي إن شاء الله تعالى في الفوائد.

وبهذا انتهى الكلام على مُوجب الحدث الأكبر، وقد ذكر في كلمتين فقط، وموجب الحدث الأصغر ذكر في كلمات متعددة، ووجه ذلك: أن الأعضاء في موجب الحدث الأصغر متعددة، وأما في الحدث الأكبر فالعضو واحد فقط وهو البدن كله، ولهذا ليس فيه ترتيب، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

انتهى الكلام الآن على الطهارتين الصغرى والكبرى، بالماء.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ الآية، من هنا انتقل الكلام إلى

---

(١) رواه البخاري، كتاب الغسل، باب إذا التقى الختانان، حديث رقم (٢٨٧)، ومسلم، كتاب الحيض، باب نسخ الماء من الماء ووجوب الغسل بالتقاء الختانين، حديث رقم (٣٤٨) عن أبي هريرة.

الطهارة الأخرى وهي الطهارة بالتراب، وأول الآية الطهارة بالماء.

قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ كلمة مرضى جمع مريض، والمريض هو من اعتلت صحته، والمراد «إن كنتم مرضى وتضررتم بالماء».

فإذا قال قائل: لماذا قَيَّدْتَ والله أطلق؟

قلنا: لأن الحكمة تقتضي ذلك؛ لأن المريض الذي لا يتضرر بالماء بل ربما يكون الماء صحة له ينشط به ليس بحاجة إلى أن يعدل عن الماء إلى التراب.

قوله: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: في سفر، والسفر كل ما خرج به الإنسان عن محل إقامته، وسمي سفراً؛ لأن الإنسان يسفر ويخرج من القيد أو من الحد الذي هو بلده إلى مكان آخر، وهل هو محدود أو غير محدود؟ سنتكلم عليه إن شاء الله في الفوائد.

قوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ ﴿أَوْ﴾ هنا بمعنى الواو، أي: وجاء أحد منكم من الغائط.

فإذا قال قائل: هل لما ادعيتم دليل أي: إتيان ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو؟

قلنا: نعم، ومنه حديث ابن مسعود رضي الله عنه في دعاء الهم والغم: **«أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»**[1] فـ ﴿أَوْ﴾ هنا بمعنى «الواو»؛ لأن ما أنزله في

---

(١) رواه أحمد في المسند (١/ ٣٩١، ٤٥٢) (٣٧١٢، ٤٣١٨)، وابن حبان (٣/ ٢٥٣) (٩٧٢)، والحاكم (١/ ٦٩٠) (١٨٧٧)، وأبو يعلى في مسنده (٥٢٩٧).

كتابه قد سمى به نفسه، فلا يستقيم المعنى في الآية إلا بجعل ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو؛ لأننا إذا لم نقل: إن ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو صارت قسيمة للسفر والمرض يعني هذا أو هذا، والآية ليس هذا معناها، بل المعنى إذا حصل سفر أو مرض وحصل حدث وجاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء.

قوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم﴾ أيُّ أحد ذكر أو أنثى، صغير أو كبير ممن يقوم للصلاة.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ الغائط هو المكان المطمئن من الأرض، وكانوا ـ أي: العرب ـ ينتابون هذا المكان ـ أي: الهابط من الأرض ـ ينتابونه لقضاء الحاجة، ليستتروا به عن الناس، فليس في البيوت كنف ولا حمامات ولا مراحيض، فإذا أراد الإنسان أن يقضي حاجته يخرج إلى المكان الهابط يقضي حاجته فيه ليستتر بذلك عن الناس، وعلى هذا يكون الغائط هنا شاملاً لمن قضى حاجته من البول أو من العذرة، ولا يختص هذا بمن قضى حاجته من العذرة، ما دمنا فسرنا الغائط بأنه المكان المنخفض من الأرض.

قوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وفي قراءة ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ لامستم فعل مبني للمفاعلة، بحيث يكون الفعل واقعاً من الطرفين الرجل والمرأة، ولا يصدق هذا إلا بالجماع، ولهذا اختلف العلماء رحمهم الله هل المراد بالملامسة هنا الجس باليد، أو المراد الجماع؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد به الجماع وليس الجس باليد.

فإن قال قائل: عندنا قراءة صحيحة سبعية ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ﴾

واللمس دون الملامسة، وهو ظاهر في أن المراد به الجس باليد، فلماذا لا تقولون: إن المراد به مس المرأة؟

قلنا: لا نقول به؛ لأن القراءة الثانية ﴿لَمَسْتُمُ﴾ تشير إلى أن المراد به الجماع، هذا من جهة اللفظ، أما من جهة المعنى: فلو حملناها على أن المراد بذلك المس باليد لكان الله تعالى ذكر موجبين للطهارة من جنس واحد، مع أنه في طهارة الماء ذكر موجبين من جنسين، أي: إذا قلنا: إن قوله تعالى: ﴿لَمَسْتُمُ﴾ بمعنى اللمس باليد، فلا يوجب إلا الوضوء، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ يوجب الوضوء فقط، فذكر موجبين وأهمل موجب الغسل الذي هو الجنابة، فيكون ذَكَرَ موجبين من جنس واحد وأَهْمَلَ آخر لا بد منه، وهذا ترجيح من حيث المعنى.

وقوله: ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ هن الإناث، وليس كل امرأة بل المراد كل امرأة تجامع، وأما من لا تجامع فإنها ليست محل شهوة، لكن لو فرض أن أحداً سلط على بنت صغيرة وجامعها فإنه يدخل في الآية.

وقوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ هذه معطوفة على قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ إلى آخره.

قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ أي: ماءً تتطهرون به طهارة صغرى وطهارة كبرى.

قوله: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا﴾ تيمموا أي: اقصدوا، فالتيمم في اللغة القصد، ومنه قول الشاعر:

تيممتها من أذرعاتٍ وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالي

فمعنى تيممتها أي: قصدتها، من أذرعات: هي بلدة في الشام، وأهلها بيثرب: أي: بالمدينة، أدنى دارها نظر عالي.

وقوله: ﴿صَعِيدًا﴾ الصعيد كل ما تصاعد على وجه الأرض من رمل أو جبل أو أودية أو غير ذلك.

قوله: ﴿طَيِّبًا﴾ أي: طاهراً؛ لأن طِيب كل شيء بحسبه، فالطيب من الحيوان ما حل أكله، والطيب من الأعمال ما كان مرضياً عند الله عزّ وجل، وكل موضع يفسر الطيب فيه بما يناسبه.

قوله: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ امسحوا بوجوهكم من هذا الصعيد، والمسح الإمرار باليد على الوجه، والمسح باليد إمرار إحدى اليدين على الأخرى.

قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ قيل: إن ﴿مِّن﴾ للتبعيض، وعلى هذا فلا بد أن يعلق باليد شيء من هذا التراب، وقيل: إن ﴿مِّن﴾ للابتداء، أي: مسحاً يكون ابتداؤه من هذا الصعيد.

قوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ ﴿مَا﴾ نافية، و﴿يُرِيدُ﴾: هنا إرادة شرعية، أي: ما يحب الله عزّ وجل، وقوله: ﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾، «اللام» هنا زائدة؛ لأن التقدير: ما يريد الله أن يجعل عليكم من حرج، ويمكن أن نقول: إن اللام هنا على أصلها وليست زائدة، ونقدر الكلام: ما يريد الله ليجعل عليكم، أي: ما يريد الله لذلك.

وقوله: ﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم﴾ أي: ليُصير عليكم من حرج، و﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿مِّنْ حَرَجٍ﴾ زائدة إعراباً لكنها لها معنى وهي: تأكيد النفي وعمومه، و«الحرج» هو الضيق، أي: إن الله

تعالى لم يرد أن يجعل علينا بما فرض علينا من الوضوء والغسل والتيمم شيئاً يضيق علينا.

قوله: ﴿وَلَٰكِن﴾ هذا استدراك، ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ نقول في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ كما قلنا في قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم﴾.

وقوله: ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ أي: طهارة حسية ظاهرة، وطهارة معنوية، أما الوضوء والغسل بالماء فالطهارة فيهما حسية ومعنوية، أما الحسية فإنها ظاهرة لكون الإنسان يغسل هذه الأعضاء أو يغسل البدن كله فينظفه، وأما المعنوية فلأن في الوضوء تكفير السيئات ومحو الخطيئات، وأما التيمم فإنه طهارة معنوية، وذلك لأن فيه كمال التعبد لله عزّ وجل حيث إن الإنسان يتيمم هذا الصعيد ويمسح به وجهه ويديه.

قوله: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ﴾ يعني: ويريد أيضاً ليتم نعمته ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أي: بما شرعه لكم من العبادات، إذ لولا أن الله شرع لنا هذه العبادات لكان فعلنا لها بدعة تبعدنا عن الله عزّ وجل، ولكنه شرعها لتكون عبادة نتقرب بها إلى الله، ونتذلل بها عند الله عزّ وجل.

قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لعل هنا للتعليل وليست للترجي؛ لأن الرجاء طلب ما فيه عسر، والله عزّ وجل لا يتأتى في حقه ذلك؛ لأن كل شيء سهل عليه، فتكون هنا للتعليل، وهي كثيرة في القرآن بهذا المعنى.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله عزّ وجل على نعمه، والشكر يكون بالقلب ويكون باللسان ويكون بالجوارح.

وعلى هذا قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

معنى البيت: أن نعماءكم عليّ ملكتم بها يدي ولساني والضمير المحجبا، فنعماؤكم أفادتكم هذه الثلاثة، فملكتموها.

فالشكر بالقلب: أن يعترف الإنسان بقلبه بأن هذه النعمة من الله عزّ وجل ويحب الله عزّ وجل لذلك، أي: لكونه أنعم، ولهذا جاء في الحديث: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم**»[1]، والشكر باللسان الثناء على الله بها، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١] ومن ذلك ـ أي: من الشكر باللسان ـ القيام بكل قول يقرب إلى الله عزّ وجل.

أما الثالث فالشكر بالجوارح، أي: أن يقوم الإنسان بما يلزمه نحو هذه النعمة، فإذا كانت مالاً فقيامه بشكرها أن يؤدي زكاتها إلى أهلها، وكذلك أيضاً: إذا كانت عملاً آخر يحتاج إلى حركة بالجوارح فلا بد من أن يقوم بهذه الحركة، فالشكر إذاً: محله القلب واللسان والجوارح.

فإذا قال قائل: أيهما أعم الحمد أو الشكر؟ قلنا: بينهما عموم وخصوص وجهي، ومعنى وجهي أي: أن أحدهما أعم من الآخر من وجه وأخص من الآخر من وجه، فباعتبار السبب الأخص الشكر؛ لأن سببه النعمة، وأما الحمد فسببه النعمة وكمال المحمود حتى وإن لم ينعم، ولهذا نحن إذا حمدنا الله عزّ وجل فإننا نحمده على كمال صفاته وعلى كمال إنعامه وإحسانه.

---

(١) تقدم تخريجه ص٥٢.

وأما المتعلق فالشكر أعم؛ لأنه يكون بالقلب واللسان والجوارح، والحمد إنما يكون باللسان فقط.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أهمية الوضوء للصلاة وإن شئت فقل: أهمية الطهارة للصلاة بوضوء أو غسل أو تيمم، وجه الأهمية: أن الله صدَّر الخطاب بالنداء؛ لأن تصدير الخطاب بالنداء يدل على أهميته، فإنك تجد الفرق بين أن تتحدث حديثاً مرسلاً هكذا وبين أن توجه الخطاب إلى المخاطب، فتقول: يا فلان افعل كذا، واترك كذا وما أشبه ذلك.

الفائدة الثانية: أن هذه الطهارة من مقتضيات الإيمان، كأنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لإيمانكم افعلوا كذا وكذا.

الفائدة الثالثة: أن الإيمان يزيد بالطهارة، وضوءاً كانت أو غسلاً أو تيمماً؛ لأنها إذا كانت من مقتضياته لزم أن يزيد بزيادتها وينقص بنقصانها.

الفائدة الرابعة: أن الإخلال بها منافٍ لكمال الإيمان، يعني: لو صليت بدون وضوء أو بدون غسل أو بدون تيمم فإن ذلك ينقص من إيمانك؛ لأنك خوطبت بصفة الإيمان على أن تقوم بهذا، لكن هل ينافي أصل الإيمان؟ جمهور العلماء: على أنه لا ينافي أصل الإيمان، وأن من صلى محدثاً لم يكفر، وقال أبو حنيفة رحمه الله: إن من صلى محدثاً كفر؛ لأنه مستهزئ بآيات الله عزّ وجل، وعلى هذا فيكون عدم القيام بها منافياً لأصل الإيمان.

الفائدة الخامسة: مشروعية الوضوء أو الغسل أو التيمم عند

كل صلاة، حتى وإن كنت على طهارة، فمثلاً: لو توضأت لصلاة الظهر وجاء وقت العصر وأنت على طهارتك نقول: الأفضل أن تتوضأ، لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ و«أل» هذه للعموم، ولم أعلم أن أحداً من الناس قال: إنه يشرع إذا قام لكل صلاة موالية للأخرى كما لو كان يصلي الليل ركعتين ركعتين، كلما فرغ من ركعتين ذهب وتوضأ، ولكن فيما بين الأوقات نعم، فقد ذهب كثير من العلماء إلى أنه يشرع للإنسان إذا دخل وقت الصلاة الأخرى أن يجدد الوضوء ولو كان على طهارة.

وذهب بعض أهل العلم إلى وجوب الوضوء لكل صلاة، ولكن هذا ضعيف؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه صلى الصلوات الخمس بطهور واحد[1]، ولأنه أمر المستحاضة أن تتوضأ لكل صلاة[2]، فدل هذا على أن هذا الحكم خاص بالمستحاضة، أعني: وجوب الوضوء لكل صلاة.

الفائدة السادسة: أن الطهارة لا تجب إلا للصلاة، وعلى هذا فلا تجب لقراءة القرآن، ولا تجب لمس المصحف، ولا تجب للطواف، ولا تجب للسعي، ولا لغير ذلك من الأعمال الصالحة، وإلى هذا ذهب قوم من أهل العلم أنه لا وضوء إلا لصلاة.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب جواز الصلوات كلها بوضوء واحد، حديث رقم (٢٧٧) عن بريدة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري، كتاب الحيض، باب عرق الاستحاضة، حديث رقم (٣٢١)، ومسلم، كتاب الحيض، باب المستحاضة وغسلها وصلاتها، حديث رقم (٣٣٣) عن عائشة رضي الله عنها.

ولهذا لما قيل للنبي ﷺ: أتتوضأ؟ ـ من عمل عمله ـ. قال: «**إني لم أرد أن أصلي**»[١] أو كما قال عليه الصلاة والسلام، مما يدل على أنه من المعلوم أنه لا وضوء إلا للصلاة، ولا شك أن هذا هو الأصل، وأن من ادعى أن غير الصلاة يجب الوضوء له فإن عليه الدليل، وإلا فالأصل أنه لا يجب إلا للصلاة.

فلننظر: مس المصحف اختلف فيه العلماء: هل تجب له الطهارة أو لا؟

فمنهم من قال: إن الطهارة واجبة لمس المصحف، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: ٧٩]، واستدل آخرون بقول النبي ﷺ في الكتاب الذي كتبه لعمرو بن حزم: «**ألا يمس القرآن إلا طاهر**»[٢].

فأما استدلال الأولين بقوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] فإنه لا يستقيم؛ لأن الضمير في قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ ضمير المفعول به يعود إلى الكتاب المكنون، واقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩] الضمير يعود إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور هو الكتاب المكنون، وأيضاً يقول: ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ ولم يقل:

---

(١) رواه مسلم بلفظ: (أن النبي ﷺ خرج إلى الخلاء، فأتى بطعام فذكروا له الوضوء، فقال: «**أريد أن أصلي فأتوضأ؟**»)، كتاب الحيض، باب جواز أكل المحدث الطعام وأنه لا كراهة، حديث رقم (٣٧٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه ابن حبان، كتاب التاريخ، باب كتب النبي ﷺ، حديث رقم (٦٥٥٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٥٢) (١٤٤٧)، والدارقطني (١/ ١٢١) (١).

إلا المطَّهِّرُون، وفرق بين المطَهر والمتطهر، والمطَهَّرون هم الملائكة.

وأما حديث عمرو بن حزم: فإن من لا يستدل بالمرسل لا يراه حجة، والحديث مرسل مشهور، يقول: ما دام مرسلاً فالمرسل من قسم الضعيف فلا نثبت به حكماً نلزم به عباد الله، فلا يستقيم الدليل، ففي هذه الآية نعبر بقولنا: لا يستقيم الاستدلال، وفي هذا الحديث نعبر بقولنا: لا يستقيم الدليل، ومن رأى أن هذا الحديث المرسل بعينه حجة لتلقي الأمة له بالقبول في الزكاة والديات وغيرها، وعملوا بهذا الحديث فإن كان خبراً فبالتصديق، وإن كان عملاً فباعتباره حكماً، والعلماء الذين صححوه أخذوا به في الديات وأخذوا به في الزكاة، وأسنان الإبل وقد اعتبروه دليلاً، والحديث وإن كان مرسلاً فإن العلماء تلقوه بالقبول، والمرسل إذا تلقته الأمة بالقبول وعملت به دل ذلك على أن له أصلاً، وهذه الفائدة الحديثية تفوت على كثير من الناس، وما أحسن البحث الذي كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مقدمة التفسير حول هذا الموضوع.

وإذا كان حجة فقال بعض العلماء: حتى لو ثبت واحتججنا به فيما جاء فيه من الأحكام فإن قوله: «**إلا طاهر**» يحتمل أن يراد بالطاهر المؤمن، ويحتمل أن يراد به المتوضئ، ومع الاحتمال يبطل الاستدلال.

وعلى هذا: فلا تجب الطهارة لمس المصحف، فنقول في رد هذا: إذا وجد الاحتمال بطل الاستدلال، هذا إذا تساوى الاحتمالان، فليس أحدهما بأولى من الآخر، وأما مع رجحان

أحد الاحتمالين فالواجب الأخذ بالراجح، ولو أننا جعلنا لكل نص يحتمل وجهين جعلنا دلالته ساقطة لضاعت علينا أحكام كثيرة وأدلة كثيرة.

فنقول: أيهما أرجح أن يراد بالطاهر المؤمن أو أن يراد بالطاهر المتوضئ؟

الثاني أرجح؛ لأننا لم نعهد أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يعبر عن المؤمن بالطاهر؛ لأن وصف المؤمن أحب إلى النفوس وأقوى في الثناء من وصف الطاهر.

لكن قد يقول قائل: هذا الظاهر الذي قلتم يعارضه أن الرسول عليه الصلاة والسلام ذكر ذلك في الكتاب الذي كتبه لعمرو بن حزم وقد بعثه إلى اليمن، فهذه قرينة على أن المراد بالطاهر المؤمن؛ لأنه متوجه إلى قوم كفار يدعوهم إلى الإسلام، وهذا لا شك أنه مؤثر في الاستدلال، لكن كون الرسول عليه الصلاة والسلام لم يستعمل قط كلمة طاهر تعبيراً عن المؤمن، يضعف هذا الوجه.

فالذي يظهر أن مس المصحف لا يجوز إلا بوضوء، هذا هو الظاهر.

لو قال قائل: كيف الجواب على حديث: «**كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه**»[1] والقرآن داخل في عموم الذكر، فلا يشترط لقراءة القرآن الوضوء؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب هل يتبع المؤذن فاه هاهنا وهاهنا وهل يلتفت في الأذان، ومسلم، كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها، حديث رقم (٣٧٣) عن عائشة رضي الله عنها.

الجواب: إن سلمنا أن القرآن يدخل في مطلق الذكر فإن هذا العموم خصص بقوله ﷺ: **«لا يمس القرآن إلا طاهر»** والمسألة ليست قراءة القرآن فهي داخلة في العموم بلا شك، لكن المسألة هي مس المصحف، أما القراءة فالرسول ﷺ يقرأ القرآن بلا وضوء، فهذا الحديث لا يعارض القول بوجوب الوضوء لمس المصحف، فهما مسألتان كل واحدة مستقلة، ولهذا نقول لمن ليس على وضوء وأراد أن يقرأ من المصحف: اجعل بينك وبينه حائلاً واقرأ.

لو قال قائل: بعض الناس منع الكتابة على المصحف هل قوله معتبر؟

الجواب: في الزمن السابق الكتابة غير معربة لا في الأصل ولا فيما يكتب على الحواشي، فَكَرِهَ بعض السلف أن يكتب على المصحف شيئاً؛ لئلا يختلط القرآن بالمكتوب أو بغيره، أما الآن فلا يختلط، فإذا كانت الكتابة لا تؤثر على الحروف فلا بأس، بمعنى أن الكتابة لا تكون بين الأسطر فتختلط بالقرآن.

بقي علينا الطواف، **إذا قال قائل**: أين الدليل على أن الطواف تشترط له الطهارة؟

نقول: الدليل قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: **«الطواف بالبيت صلاة إلا أن الله أباح فيه الكلام»**[1] وهذا

---

(١) الحديث رواه مرفوعاً: الترمذي، كتاب الصوم، باب الكلام في الطواف، حديث رقم (٩٦٠)، وابن حبان، كتاب الحج، باب دخول مكة، حديث رقم (٣٨٣٦)، والدارمي، كتاب المناسك، باب الكلام في الطواف، حديث رقم (١٨٤٧)، وانظر: إرواء الغليل (١٢١).

الحديث روي مرفوعاً إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، وروي موقوفاً على ابن عباس، فرواية المرفوع ضعيفة، يعني: لا نقول: إنه تعارض رفع ووقف فيجب الأخذ بالرفع؛ لأن الرافع معه زيادة علم، ولأن الراوي كثيراً ما يعبر عما رواه مرفوعاً بقولٍ من عنده، فيظن سامعه أنه موقوف عليه؛ لأننا نقول: كلام الرسول عليه الصلاة والسلام لا يتناقض ولا يخالف الواقع، وهذا متناقض، لا يصح طرداً ولا عكساً.

فلننظر: إذا قلنا: إنه صلاة إلا أن الله أباح فيه الكلام، نقول: يجب التكبير عند الدخول فيه، والتسليم عند الانتهاء منه، وقول: سبحان ربي الأعلى فيه وسبحان ربي العظيم، والاتجاه إلى القبلة، وألا يأكل فيه، ولا يشرب وهلمَّ جراً، فنجد أنه يخالف الصلاة أكثر مما يوافقها، وهل يمكن أن يرد عن المعصوم كلام تكون المخالفة فيه أكثر من الموافقة؟ لا يمكن أن يرد، ولهذا ليس في هذا الحديث دليل على أن الطواف تشترط له الطهارة، وهنا النظر في الاستدلال وفي الدليل أي النظر فيهما جميعاً؛ لأننا لا نقبل مثل هذا الحكم العام، الذي تتوافر الدواعي على نقله، ويحتاج الناس إليه في كل وقت وحين، لا يمكن أن نقبله وهو بهذا الثبوت الهش لا بد أن يكون قد تواتر أو اشتهر على الأقل، وثانياً: أنه لا يمكن أن يكون مرفوعاً لكونه متناقضاً.

إذاً: لا تشترط الطهارة للطواف.

فلو قال قائل: دعونا من هذا الحديث، أليس الطائف إذا طاف لا بد أن يصلي؟ فهل تقولون: إن الطائف يصلي بلا وضوء؟

الجواب: لا، لا نقول ذلك، بل نقول: يطوف ولا يصلي، وليست الصلاة بعد الطواف شرطاً في صحته، فنقول: إن كان الماء قريباً ذهب وتوضأ وصلى، وإن كان لا يجد ماءً إلا بعيداً فإن الصلاة تسقط عنه.

فإذا قال قائل: إن النبي ﷺ بلا شك طاف متطهراً وصلى ركعتين خلف المقام، وقال: «**خذوا عني مناسككم**»[1]؟

قلنا: هذا الحديث: «**خذوا عني مناسككم**»[2] ليس على عمومه بالإجماع، وما أكثر المسائل التي يفعلها الرسول ﷺ وكانت على سبيل الاستحباب، فنحن نقول: المستحب بلا شك أن يطوف على طهارة ولا إشكال في ذلك، أما أن نقول: إن الطهارة شرط للطواف وأن من طاف محدثاً فطوافه غير صحيح حتى ولو لزم من ذلك مشقة عظيمة كما لو كان الطوافُ بغير طهارة طوافَ الإفاضة، ثم قدم إلى بلده وقلنا: إن حجك لم يتم، قد يكون فيه مشقة شديدة، ويقع ذلك كثيراً أعني عدم الطهارة في هذه الأعصار؛ لأن الزحام يكون شديداً، ومدة الطواف تكون طويلة، وربما يُحْدث الإنسان في أثناء ذلك، فهل نقول: اخرج وتوضأ، وإذا قلنا: اخرج وتوضأ خرج وتوضأ ثم رجع ثم أحدث مرة ثانية هذا فيه مشقة شديدة.

والذي نرى في هذه المسألة أنه لا يشترط للطواف وضوء،

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٥/ ١٢٥) (٩٣٠٧)، وهو عند مسلم بلفظ: «**لتأخذوا مناسككم**»، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر، حديث رقم (١٢٩٧) عن جابر بن عبد الله.

(٢) تقدم تخريجه.

وهذا الذي ذكرناه هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ويكفينا أن نستدل بهذه الآية، ونقول: أي عمل تشترط له الطهارة يحتاج إلى دليل.

لو قال قائل: ما الجواب على منع النبي عليه الصلاة والسلام عائشة رضي الله عنها من الطواف، وكذلك صفية؟

الجواب: الرسول ﷺ منع عائشة رضي الله عنها من الطواف لأنها حائض[1] وكذلك صفية[2]، فالحائض لا يرخص لها في البقاء في المسجد، ولهذا لو اضطرت الحائض إلى أن تطوف قلنا لها: طوفي وتلجمي حتى لا يتلوث المسجد بالدم، فتطوف للضرورة، فعائشة وصفية كانا عليهما الحيض، وكلامنا في الوضوء فلا إشكال على هذا.

الفائدة السابعة والثامنة: وجوب غسل الوجه، لقوله: ﴿فَٱغۡسِلُواْ﴾ ويتفرع على ذلك: أنه لو مسح وجهه مسحاً لم يصح وضوؤه لقوله: «اغْسِلُوا».

الفائدة التاسعة: وجوب استيعاب الوجه بالغسل، فلا بد أن يغسل كل الوجه، لقوله: ﴿وُجُوهَكُمۡ﴾.

الفائدة العاشرة: أنه لا يجب غسل شيء من الرأس، خلافاً

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحيض، باب تقضي الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت، حديث رقم (٢٩٩)، ومسلم، كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج...، حديث رقم (١٢١١) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه البخاري، كتاب الحيض، باب المرأة تحيض بعد الإفاضة، حديث رقم (٣٢٢)، ومسلم، كتاب الحيض، باب وجوب طواف الوداع وسقوطه عن الحائض، حديث رقم (١٢١١) عن عائشة رضي الله عنها.

لما ذهب إليه بعض الأصوليين وقال: يجب أن يغسل جزءاً من الرأس؛ لأنه لا يتحقق أنه غسل جميع الوجه إلا بغسل جزء من الرأس، ويجب أن يمسح بعض الوجه؛ لأنه لا يتحقق أنه مسح الرأس كله إلا بمسح بعض الوجه، فيكون عندنا جزء من البدن تجب فيه طهارتان، مسح وغسل، وهذا خلاف ظاهر القرآن، وهو في الحقيقة نوع من التنطع، فيقال: حد الوجه معروف، وما زاد عن الوجه فليس بواجب أن يُغسل.

الفائدة الحادية عشرة: وجوب غسل الأيدي من أطراف الأصابع إلى المرافق، لقوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾.

لو قال قائل: الآية لم تذكر أن غسل اليدين قبل الوجه مما يدل على عدم الوجوب، لكن لو قيل إن الوجوب يؤخذ من مداومة النبي ﷺ على غسلها؟

الجواب: هذا يرده قوله عليه الصلاة والسلام: «**إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً**»[1] فأوجب الغسل فيما إذا كان قد قام من نوم الليل والفعل لا يدل على الوجوب، خاصة إذا كان عندنا نص من القرآن وظاهر السنة، وأما كونهم يستدلون بالمداومة على الوجوب في بعض الأحكام هذا إذا لم يوجد معارض، وهنا يوجد معارض وهو ظاهر الآية.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب الاستجمار وتراً، حديث رقم (١٦٠)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب كراهة غمس المتوضئ وغيره يده المشكوك في نجاستها، حديث رقم (٢٧٨) عن أبي هريرة، واللفظ لمسلم.

الفائدة الثانية عشرة: أنه إذا أراد غسل اليد بدأ من أطراف الأصابع؛ لأن ﴿إِلَى﴾ تفيد الغاية، فإذا كان المرفق هو الغاية لزم أن يكون أطراف الأصابع هو البداية، لكن هذا فيه شيء من النظر؛ لأن الذي تعتبر فيه البداية والنهاية إذا جاءت ﴿مِن﴾ و﴿إِلَى﴾، وأما إذا حددت النهاية فقط وسكت عن البداية، فإنه لا يدل على أن الأفضل البداية من الجانب الآخر، بل نقول: هذا تحديد للنهاية فقط؛ لأنه لا بد أن يحدد النهاية، مهما كان، بدأنا من الأول أو من الأطراف أو من الوسط. وعليه: فلا يظهر أنه من المشروع أن تبدأ بغسل أطراف الأصابع ثم تأتي إلى المرفق، بل يقال: الغسل ينتهي بهذا، والبدء من حيث شئت.

الفائدة الثالثة عشرة: أن اليد عند الإطلاق هي الكف فقط، وجه الدلالة، أن الله قال: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ ولو كانت اليد عند الإطلاق ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ لكان هذا القيد لا فائدة منه، والأمر كذلك: أعني أن اليد عند الإطلاق إنما هي الكف، ولنا دليل على ذلك: يد السارق تقطع من مفصل الكف، لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] ولا يجوز أن يتجاوز مفصل الكف، في التيمم إنما يطهر الكف فقط ولا يتجاوز إلى المرفق، وهذا أمره واضح.

إذاً نستفيد من هذا: أن اليد إذا أطلقت فهي الكف فقط، وإن قيدت فهي بما قيدت به.

الفائدة الرابعة عشرة: وجوب مسح الرأس، لقوله: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ ووجوب استيعاب الرأس بالمسح؛ لأن «الباء» للاستيعاب، ولم تأتِ في اللغة العربية للتبعيض إطلاقاً،

قال ابن برهان: من ادعى أن الباء للتبعيض فقد قال عن أهل اللغة بما لا يعرفون.

الفائدة الخامسة عشرة: أنه لو غسل الرأس بدلاً عن المسح فإنه لا يجزئ؛ لأن الله أمر بالمسح، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[١] وعلى هذا فلو أدلى برأسه حتى صب الماء من الماسورة وعم جميع الرأس فإنه لا يجزئه.

وقال بعض العلماء: إنه يجزئ مع الكراهة، مستدلاً بنظر لا بأثر، فيقول: إنما وجب مسح الرأس تخفيفاً على العباد، فإذا أراد الإنسان أن يأخذ بما هو أكمل فلا حرج عليه، كما شرع للصائم أن يفطر عند غروب الشمس، ولو أراد الوصال فله أن يواصل إلى السحر، وبعض العلماء قال: له أن يواصل اليومين والثلاثة، لكن هذا القول فيه نظر، أعني القول بإجزاء الغسل بدل المسح؛ لأن حديث عائشة رضي الله عنها: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٢] يقتضي رده، أي: رد الغسل بدل المسح؛ ولأن هذا من باب التنطع في الدين، وقد قال النبي ﷺ: «**هلك المتنطعون**»[٣].

الفائدة السادسة عشرة: وجوب غسل الرِّجل، لقوله:

---

(١) رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم (١٧١٨) عن عائشة.

(٢) تقدم تخريجه الحديث السابق.

(٣) رواه مسلم، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، حديث رقم (٢٦٧٠) عن ابن مسعود.

﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ وهي معطوفة على قوله: ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ أي: واغسلوا أرجلكم، هذا على قراءة النصب.

أما على قراءة الجر فقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على جواز الاقتصار على مسح الرجل؛ أخذاً بالقراءة الثانية ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ وقال: إن الإنسان يغسل رجله مرة ويمسحها مرة أخرى، يغسلها بناءً على قراءة النصب، ويمسحها على قراءة الجر، وهذا لولا السنة لكان له نوع من الوجاهة، يعني: لكان وجهة نظر جيدة لكن السنة تأبى ذلك، فإن النبي ﷺ كان يغسل قدميه ولم يرد حرف عنه ﷺ أنه كان يمسحها، بل إنه لما رأى بعض أصحابه قد غسل رجليه بما ليس بغسل نادى بأعلى صوته: **«ويل للأعقاب من النار»**[1] فدل ذلك على وجوب غسل القدم.

إذاً: كيف ننزل الآية؟

أما من جهة الإعراب ننزلها على ما سبق أن بعض أهل العربية قال إنها مجرورة بالمجاورة، وأن محلها حقيقة النصب، أو ننزلها على أن الرِّجل لها حالان: حال تكون مستورة، وحال تكون مكشوفة، فإذا كانت مكشوفة فالفرض الغسل، وإذا كانت مستورة فالفرض المسح، ولهذا لم يأتِ مثله في اليدين؛ لأن اليدين ليس فيهما مسح، حتى إن الرسول عليه الصلاة والسلام لما كان عليه الجبة الشامية وصعب عليه أن يخرج يده من الكم أخرج الكم من اليد، وأخرج يده من أسفل الجبة وغسلها عليه

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب من رفع صوته بالعلم، حديث رقم (٦٠)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما، حديث رقم (٢٤١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

الصلاة والسلام كما هو ثابت في الصحيح[١]، إذاً: نأخذ من القراءتين وجوب غسل الرِّجل إذا كانت مكشوفة، ومسحها إذا كانت مستورة، فيكون فيها إشارة إلى المسح على الخفين.

وبناءً على ذلك: هل الأفضل للابس الخفين أن يخلعهما ويغسل القدمين أو أن يمسحهما؟ الثاني هو الأفضل، ويدل له أن المغيرة بن شعبة لما أراد أن يخلع خفي النبي ﷺ قال: «**دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين، فمسح عليهما**»[٢].

الفائدة السابعة عشرة: وجوب غسل الرِّجل إلى الكعبين، والكعبان داخلان في الغسل، لقوله: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾، فهل نقول: إن الرِّجل أو القدم إذا أطلق يكون لما دون الكعبين كما قلنا في اليدين؟

الجواب: نعم، وذلك أن الرجل عند الإطلاق حدها مفصل العقب، وكما نعلم أن قطاع الطريق الذين تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف يقطعون من مفصل العقب، ويبقى العقب غير مقطوع، وهنا إذا قلنا: الرجل إلى الكعبين دخل العقب؛ لأن الكعبين هما العظمان الناتئان في أسفل الساق، وذهبت الرافضة إلى أن الكعبين هما العظمان الناتئان على ظهر القدم، قال ابن كثير رحمه الله: وقد خالفوا أهل السنة في تطهير الرجل من وجوه ثلاثة:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في الجبة الشامية، حديث رقم (٣٥٦)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب المسح على الخفين، حديث رقم (٢٧٤) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب إذا أدخل رجليه وهما طاهرتان، حديث رقم (٢٠٣)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب المسح على الخفين، حديث رقم (٢٧٤) عن المغيرة بن شعبة.

الوجه الأول: أنهم جعلوا حد التطهير إلى العظم الناتئ على ظهر القدم.

الوجه الثاني: أنهم قالوا: إن الواجب في الرِّجل هو المسح دون الغسل.

الوجه الثالث: أنهم أنكروا المسح على الخفين، وقالوا: لا يجوز المسح على الخفين، والعجب أنهم أنكروا ذلك مع أن من جملة رواة المسح الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إمام الأئمة عندهم، ومع ذلك خالفوه.

على كل حال: لسنا الآن في موضع نقاش مع هذا الرأي، ولكن نقول: إن الكعبين هما العظمان الناتئان في أسفل الساق.

الفائدة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة: وجوب الترتيب بين الأعضاء في الوضوء، ولذلك وجهان:

الوجه الأول: أن قوله: ﴿فَٱغۡسِلُواْ﴾ جواب للشرط، وجواب الشرط يكون مرتباً في ذاته كما هو مرتب على فعل الشرط، ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ﴾ .. ﴿فَٱغۡسِلُواْ﴾ فقوله: «اغسلوا» إلى آخره مرتب على قوله: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ﴾، فإذا كان كذلك لزم أن يكون هذا الفعل المرتب على شيء هو بنفسه مرتباً.

الوجه الثاني: أن الله أدخل الممسوح بين المغسولات، ولا نعلم لهذا فائدة إلا الترتيب، وهو أن يكون تطهير الرأس في محله أي: بين غسل اليدين وغسل الرِّجلين، هذا مأخوذ من الآية نفسها، أما من السنة: فقد قال النبي ﷺ حين أقبل على الصفا بعد الطواف وأراد السعي قال: **«أبدأ بما بدأ الله به»**[1] وفي لفظ

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، حديث رقم (١٢١٨).

في غير الصحيح قال: «**ابدءوا**»[١] بلفظ الأمر، وهذا يدل على أن ما بدأ الله به فهو أحق بالتقديم، وعلى هذا يكون دليل الترتيب من وجهين في الآية ومن دليل منفصل من السنة ويتفرع على هذا أنه لو توضأ مُنكساً فبدأ بالرِّجلين ثم الرأس ثم اليدين ثم الوجه، هل يصح الوضوء أم لا؟

الجواب: إن كان عبثاً فغير صحيح، أي لا يصح الوضوء في أي عضو من الأعضاء، بل قد يكون خطراً على دين المرء أن يعبث بشريعة الله، وإن كان نسياناً أو جهلاً صح غسل الوجه فقط، ثم يطهر ما بعده، هذا في الترتيب؛ لأنه إذا كان عابثاً فقد عمل عملاً ليس عليه أمر الله ورسوله فيكون مردوداً كله، وإن كان ناسياً أو جاهلاً فإنه معفو عنه وحينئذٍ نقول: كأنك ابتدأت من الآن، وقد غسلت الوجه فأكمل الباقي.

الفائدة العشرون: وجوب الموالاة، وجهه: أن غسل هذه الأعضاء جاء مرتباً على الشرط، فلا بد أن يكون أجزاء هذا الفعل المرتب على الشرط لا بد أن تكون متوالية؛ لأن الشرط يعقبه المشروط، هذا وجه الدلالة من الآية، أما من حيث النظر، فيقال: إن الوضوء عبادة واحدة فإذا جزأه المتوضئ لم يظهر كونه عبادة واحدة، يعني: لو غسل وجهه الساعة الواحدة، وغسل يديه في الساعة الثانية، ومسح رأسه في الساعة الثالثة، وغسل رجليه في الساعة الرابعة فإنه لا يتبين أن هذه عبادة واحدة، إذاً: لا بد من الموالاة، ولكن كيف نحد الموالاة؟

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣/ ٣٩٤) (١٥٢٨٠)، والدارقطني (٢/ ٢٥٤) (٧٩).

من العلماء من قال: إننا لا نحدها بحد، ونقول: ما جرى فيه العرف أنه منفصل فقد فاتت فيه الموالاة، وما لم يجرِ العرف أنه منفصل فهو متصل، وحدَّه بعض العلماء بحدٍّ آخر قد يكون أكثر انضباطاً وقال: حد الموالاة أن لا ينشف العضو قبل غسل الذي بعده بزمن معتدل، وهذا هو المشهور من المذهب.

وبناءً على ذلك: لو أن العضو يبس قبل أن يغسل الثاني في زمن معتدل لانقطعت الموالاة، وإذا انقطعت الموالاة وجب إعادة الوضوء.

الفائدة الحادية والعشرون: وجوب غسل البدن كاملاً من الجنابة، لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾.

لو قال قائل: المريض إذا كان عليه جنابة ولا يستطيع أن يغتسل فهل يلزمه الوضوء، وإذا كان أيضاً عادم الماء وهو عليه الجنابة يعني لم يجد إلا ماءً يكفي لوضوئه فهل يتوضأ؟

الجواب: الظاهر أنه يتوضأ؛ لأن الوضوء يخفف الجنابة، ولهذا قال النبي ﷺ: «**في الرجل ينام وهو جنب، قال: نعم إذا توضأ**»[1] وكذلك أيضاً الجنب إذا أراد الجلوس في المسجد يتوضأ، فإذا كان الوضوء له تأثير في تخفيف الجنابة فليتوضأ.

الفائدة الثانية والعشرون: أنه لا يشترط في الغسل ترتيب، وأن المغتسل لو بدأ من أسفل بدنه أو من وسط بدنه أو من أعلى

---

(١) رواه البخاري، كتاب الغسل، باب الجنب يتوضأ ثم ينام، حديث رقم (٢٨٥)، ومسلم، كتاب الحيض، باب جواز نوم الجنب واستحباب الوضوء له، حديث رقم (٣٠٦) عن ابن عمر أن عمر سأل رسول الله، ثم ذكره.

بدنه وعمَّه بالماء كان ذلك مجزئاً؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾ ولم يُفَصِّل.

وقال بعض الناس: بل يجب الغسل كما اغتسل النبي ﷺ، فإن هذه الآية مجملة، وبيَّنتها السنة النبوية، وعلى هذا فلا بد أن يكون الاغتسال كاغتسال النبي ﷺ، وهذا كقوله: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فبيَّن الرسول عليه الصلاة والسلام كيفية إقامتها وقال: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[1]. ولكن هذا ضعيف، والصواب أنه لا يشترط فيه الترتيب، ويدل لذلك: أنه ثبت في صحيح البخاري في قصة الرجل الذي لم يره النبي ﷺ يصلي بعد أن انتهى من صلاته، فسأله: لماذا لم تصلِّ؟ قال: أصابتني جنابة ولا ماء، يعني: ليس عندي ماء أغتسل به، فقال: «**عليك بالصعيد فإنه يكفيك**» وبعد ذلك جيء بالماء وانتهى الناس من الشرب وسَقْي إبلهم فقال النبي ﷺ حين بقي بقية قال لهذا الرجل: «**خذ هذا فأفرغه على نفسك**»[2] فأخذه الرجل واغتسل، ووجه الدلالة: أن النبي ﷺ لم يذكر له كيف يغتسل، قال: أفرغه على نفسك، وعلى هذا فيكون هذا الحديث موافقاً لظاهر القرآن، وهو أن الواجب في الغسل أن يعم البدن على أي كيفية كانت، لكن لا شك أن اتباع السنة أولى.

فإن قال قائل: إذا انغمس الرجل في بركة أو في بحر ناوياً رفع الحدث من الجنابة ثم خرج فهل يكفيه؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر، حديث رقم (٦٠٥) عن مالك بن الحويرث.

(٢) رواه البخاري، كتاب التيمم، باب الصعيد الطيب وضوء المسلم، حديث رقم (٣٣٧) عن عمران.

الجواب: نعم يكفيه لكن لا بد من المضمضة والاستنشاق، والدليل على هذا أنه يجب أن يطهر الفم والأنف في الحدث الأصغر ففي الأكبر من باب أولى.

الفائدة الثالثة والعشرون: أنه لا تشترط الموالاة في الغسل، فيجوز أن يغسل بعض بدنه في أول النهار وبعض بدنه في آخر النهار؛ لأنه يصدق عليه أنه تطهر، وليس كالوضوء الذي رتب على شرط فصار لا بد فيه من الموالاة، وهذا هو المشهور من المذهب، ولكن الراجح أنه لا بد من الموالاة، وأنه لو غسل بعض جسده ثم ترك الباقي حتى نشف فإنه لا بد أن يعيد ما غسله أولاً، والتعليل: أن هذه عبادة واحدة فلا بد من أن تتوالى أجزاؤها.

الفائدة الرابعة والعشرون: أن غسل الجنابة تُستباح به الصلاة، وأنه لا يجب الوضوء معه، وجه الدلالة: أن الله قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾، ولم يذكر وضوءاً حتى لو لم ينوِ إلا رفع الحدث الأكبر فإنه يجزئه لعموم الآية، ولا شك أن المغتسل إما أن ينوي رفع الحدثين أو ينوي رفع الحدث أو ينوي استباحة الصلاة، فإن نوى رفع الحدثين أجزأه ولا إشكال، لقوله ﷺ: **«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»**[1] وإن نوى

---

(١) رواه البخاري في أول الكتاب، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم (١)، وفي، كتاب الإيمان، باب النية في الإيمان، حديث رقم (٦٣١١)، ومسلم في، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: **«إنما الأعمال بالنيات»**، حديث رقم (١٩٠٧) عن عمر بن الخطاب.

استباحة الصلاة فلا شك أنه يرتفع الحدث الأصغر والأكبر، وجهه أن الصلاة لا تستباح إلا بذلك، وإن نوى رفع الحدث الأكبر فقط، فمن العلماء من قال: إنه لا يجزئ عن الحدث الأصغر، ومنهم من قال: إنه يجزئ وهو الراجح؛ لأن الله لم يذكر سوى ذلك.

الفائدة الخامسة والعشرون: أن المرض من أسباب جواز التيمم، لقوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾، يعني: فتيمموا، وقوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾، فظاهر الآية: أن المريض لا يتيمم إلا إذا عدم الماء، فإما أن نأخذ بظاهر الآية ونقول: المريض لا يتيمم إلا إذا عدم الماء وحينئذٍ يبقى التقييد بالمرض لا فائدة منه؛ لأن من لم يجد الماء يباح له التيمم سواءً كان مريضاً أو غير مريض، فيقال في الجواب ـ والله أعلم ـ: إن قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ يدل على أن المراد المريض الذي يلحقه الحرج من استعمال الماء.

وأما التقييد بعدم وجود الماء فهو للمسافر؛ لأن المسافر لا يشق عليه استعمال الماء إذا وجده ولا يلحقه حرج به، فيكون تيمم المسافر مشروطاً بعدم وجود الماء، ويكون تيمم المريض مشروطاً بوجود الحرج، لقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾.

الفائدة السادسة والعشرون: أن الدين يسر سواء كان من أصل المشروعات أو إذا وجد سبب للرخصة؛ لأن المشقة تجلب التيسير لكنها لا تسقط الواجب إلا في حدود الشرع.

الفائدة السابعة والعشرون: أنه لا يجب التطهر بغير الماء، يعني: لو كان مع الإنسان نبيذ أو شاي أو لبن فإنه لا يتطهر به؛ لأن الله جعل آلة الطهارة هي الماء، قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾.

الفائدة الثامنة والعشرون: أن الماء ما دام يطلق عليه اسم الماء فإنه مطهر ولو تغير بشيء طاهر، لعموم الآية: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ و﴿مَاءً﴾ نكرة في سياق النفي، فما دام اسم الماء باقياً فإنه يجب التطهر به ولو مع التغير.

الفائدة التاسعة والعشرون: وجوب طلب الماء، لقوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ قال العلماء: ولا يقال: غير واجد إلا لمن طلب، فيقول: طلبت فلم أجد، أما إنسان باقٍ قاعد ويقول: لم أجد، هذا غير صحيح.

ولكن كيف يكون هذا الطلب، هل يجب عليه أن يطلب الماء من مسافات بعيدة أو بقدر ما لا يكون فيه مشقة؟

الثاني، يعني يجب عليه أن يطلب الماء في الأماكن القريبة منه التي لا يلحقه حرج بطلب الماء فيها، وإذا تيقن عدم وجود الماء حوله فلا يجب عليه البحث عند كل صلاة؛ لأن هذا عبث ومنافٍ للحكمة ومنافٍ للشرع.

فإن قال قائل: لو كان في أرض ولا يعلم أن حوله ماء ثم وجد الماء بعد الصلاة قريباً منه هل يعيد أم لا؟

الجواب: نقول: إذا كان يعلم أنه لا ماء فيها وأن الماء حدث من بعد، كأرضٍ حفر فيها بئر بعد طلبه فهذا لا يعيد؛ لأنه جاهل، أما إذا كان لم يطلب ثم وجد الماء بعد صلاته فهذا عليه

الإعادة؛ وذلك لأنه مفرط حيث لم يطلب، والله عزّ وجل يقول: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾، ولا يجب على راجي الماء أن يؤخر الصلاة إلى آخر وقتها لأنه توجه الأمر إليه من أول الوقت، لكن التأخير أفضل.

الفائدة الثلاثون: جواز التيمم من الصعيد الذي على ظهر الأرض أياً كان لقوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا﴾ سواء كان هذا الصعيد رملياً أو حجرياً أو سبخة أو يابساً أو رطباً يعني: ندياً، المهم أنه يسمى صعيداً.

لو قال قائل: ورد في الحديث أن النبي ﷺ أقبل على جدار فمسح وجهه ويديه[1] كيف يوجه هذا الحديث؟

الجواب: الجدار إذا كان عليه غبار فلا بأس بالتيمم ولو كان مطلياً بالدهان، وكذلك لو كان الصعيد غير متصل بالأرض كأن يأخذ حجراً أو رملاً وينقله إلى مكان، وكذا الغبار الذي يكون تحت السجادة أو الموكيت كل هذا جائز ولا بأس بالتيمم منه.

الفائدة الحادية والثلاثون: أنه لا ينقض الوضوء إلا الغائط سواء ببول أو بعذرة، لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ ولم يذكر سوى ذلك، ولهذا لم يُجْمِع العلماء من نواقض الوضوء إلا على ما خرج من السبيلين القبل أو الدبر، فكل النواقض ما عدا هذا فيها خلاف.

وعليه فنقول: إنَّ القرآن دل على ناقضٍ واحد من نواقض

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحيض، باب التيمم، حديث رقم (٣٦٩) عن أبي الجهم بن الحارث بن الصمة الأنصاري.

الوضوء وهو الخارج من السبيلين من بول أو غائط، والبقية تحتاج إلى دليل، فإن وجد دليل من السنة أخذنا به وإن لم يوجد فالأصل بقاء الوضوء؛ لأن الإنسان توضأ بمقتضى دليل شرعي وارتفع حدثه بمقتضى دليل شرعي، فلا يمكن أن ننقض هذا إلا بدليل شرعي، فلننظر، من العلماء من قال: في الآية دليلٌ على أن مس المرأة ينقض الوضوء لقوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وفي قراءة: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ﴾ ولكن سبق في التفسير إن القول الراجح المتعين أن المراد بالملامسة الجماع، وبيَّنا وجه ذلك فيما سبق أثراً ونظراً، وننظر بقية النواقض.

الثاني: الخارج من بقية البدن لا ينقض الوضوء: كالدم وما تفرع منه، والقيء، والعرق، والريق وما أشبه ذلك، كل هذا لا ينقض الوضوء، فإن ادعى أحد شيئاً من ذلك ينقض الوضوء قلنا: هاتِ الدليل، فالصحابة رضي الله عنهم كانوا يصابون بالجراح وكانوا يقيئون ومع ذلك ولشدة دعاء الحاجة إلى بيانه لم يرد عن النبي ﷺ على وجهٍ يثبت أن ذلك ناقض للوضوء وعلى هذا فلا نقض.

الثالث: لمس النساء من تقبيل أو مباشرة أو غير ذلك سوى الجماع، ليس في السنة ما يدل على أنه ناقض للوضوء، إلا إذا خرج شيء فيكون النقض بالخارج، وعلى هذا فلو أن إنساناً قَبَّلَ زوجته وهو على وضوء ولم يخرج منه شيء فوضوؤه باقٍ على حاله.

لو قال قائل: مس الذكر إذا كان بشهوة يجب فيه الوضوء، ومس المرأة مظنة للشهوة أكثر من مس الذكر ولا يجب فيه الوضوء، فما الجواب عن هذا؟

الجواب: صحيح هذا الإيراد الذي قد يورده مورد، فنقول: مس المرأة لم يرد عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه أمر بالوضوء، بل كان يُقبِّل بعض نسائه ويخرج إلى الصلاة ولا يتوضأ[١].

الرابع: النوم، والنوم أيضاً فيه خلاف يبلغ إلى ثمانية أقوال، هل ينقض أو لا ينقض؟ والصحيح أنه ناقض لكن بشرط: أن يكون مظنة الحدث وهو النوم المستغرق الذي لو أحدث الإنسان فيه لم يحس بنفسه، وأما النوم اليسير الذي يتراءى للإنسان الأحلام ولكنه مستيقظ ولو أحدث لأحس فهذا لا ينقض الوضوء، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم ينتظرون العشاء الآخرة حتى تخفق رؤوسهم ثم يصلون ولا يتوضؤون، وأمر النبي ﷺ من نعس في صلاته أن ينصرف، قال: «**لأنه لا يدري أيدعو لنفسه أم يدعو عليها**»[٢] أو كما قال ﷺ.

فدل ذلك: على أن النوم اليسير لا ينقض الوضوء، ولكن ما هو النوم اليسير؟ هو الذي لو أحدث الإنسان حال نومه لأحس

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب الوضوء من القبلة، حديث رقم (٧٨)، والنسائي، كتاب الطهارة، باب ترك الوضوء من القبلة، حديث رقم (١٧٠)، والترمذي، كتاب الطهارة، باب ما جاء في ترك الوضوء من القبلة، حديث رقم (٨٦) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه النسائي، كتاب الطهارة، باب النعاس، حديث رقم (١٦٢) عن عائشة رضي الله عنها، وله أصل عند البخاري، كتاب الوضوء، باب الوضوء من النوم من لم ير من النعسة والنعستين، حديث رقم (٢٠٩)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن، حديث رقم (٧٨٦) عن عائشة رضي الله عنها.

بنفسه، ولا فرق بين أن يكون مضطجعاً أو متكئاً أو جالساً أو قائماً أو راكعاً.

الخامس: أكل لحم الإبل، وفيه خلاف، والنقض به من مفردات الإمام أحمد رحمه الله، والأئمة الثلاثة كلهم على خلافه، لكن الرجوع للدليل هو الحاكم، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**توضؤوا من لحوم الإبل**»[١] وأنه سئل: أنتوضأ من لحوم الإبل؟ قال: «**نعم**»، وسئل عن الوضوء من لحوم الغنم، قال: إن «شئت»[٢]، وهذا يدل على وجوب الوضوء من أكل لحم الإبل، والدليل: أنه خَيَّرَ بين الوضوء وتركه في أكل لحم الغنم وقال في لحم الإبل: «**نعم توضأ**» فإذا خَيَّرَ في لحم الغنم دل على أن لحم الإبل لا خيار فيه، وأنه لا بد أن يتوضأ منه، ولا فرق بين أن يكون نيِّئاً أو مطبوخاً.

فإذا قال قائل: إنه قد ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه أهل السنن من حديث جابر رضي الله عنه: «**أن آخر الأمرين من رسول الله ﷺ ترك الوضوء مما مست النار**»[٣] و﴿مَا﴾: اسم موصول يشمل لحم الإبل وغيره.

---

(١) هذا اللفظ عند ابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في الوضوء من لحوم الإبل، حديث رقم (٤٩٧) عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه مسلم، كتاب الحيض، باب الوضوء من لحوم الإبل، حديث رقم (٣٦٠) عن جابر بن سمرة.

(٣) رواه النسائي، كتاب الطهارة، باب ترك الوضوء مما غيرت النار، حديث رقم (١٨٥)، وأبو داود، كتاب الطهارة، باب في ترك الوضوء مما مست النار، حديث رقم (١٩٢)، وابن خزيمة (١/ ٢٨) (٤٣)، وابن حبان (٣/ ٤١٦) (١١٣٤) عن جابر بن عبد الله.

فالجواب: أن هذا عام ولحم الإبل خاص، ومعلومٌ أن الخاص يقضي على العام، وإنما قال جابر ذلك؛ لأن النبي ﷺ أمر أولاً أن يتوضأ الإنسان إذا أكل مما مسته النار، حتى الخبزة إذا أكلها يتوضأ منها، ثم بعد ذلك نسخ هذا الأمر وصار الوضوء مما مست النار ليس بواجب.

السادس: مس الذكر أيضاً فيه خلاف بين العلماء واختلفت فيه الأحاديث، ففي بعضها الأمر بالوضوء وفي بعضها أن لا وضوء منه، وعلل النبي عليه الصلاة والسلام عدم الوضوء منه بقوله إنه بضعةً منك: لما سئل عن الرجل يمس ذكره في الصلاة، أعليه وضوء؟ قال: «**لا، إنما هو بَضْعَةٌ منك**»[1]، و«البضعة»: يعني الجزء، ومعلوم أن الإنسان إذا مس جزءاً منه لا ينتقض وضوؤه، فلو مس رأسه أو مس يده الأخرى أو مس رجله أو بطنه أو ظهره لم ينتقض وضوؤه، فكذلك إذا مس ذكره، كلها أعضاء، وهذا التعليل تعليل بعلة ثابتة لا يمكن أن تتغير؛ لأنه لا يمكن أن يكون ذكر الإنسان غير بضعة منه، فهو لا يتغير، وإذا كانت العلة لا يمكن أن تتغير كان الحكم كذلك لا يمكن أن يتغير، ثم إن العلة هنا خبر من الرسول عليه الصلاة والسلام أي: أنها علة منصوصة بلفظ الخبر، والخبر لا يمكن أن يتخلف، وعلى هذا فلا وضوء من مس الذكر.

لكن قد ورد حديث آخر يقابله أن الرسول عليه الصلاة

---

(١) رواه النسائي، كتاب الطهارة، باب ترك الوضوء من ذلك، حديث رقم (١٠١)، وابن حبان (١١٢٠)، والدارقطني (١/١٤٩) (١٥) عن طلق بن علي.

والسلام قال: «**من مس ذكره فليتوضأ**»[١] وهذا عام، فيقال: هذا الحديث عام، وإن شئت فقل: مطلق، وإذا كان كذلك وجب أن يحمل على معنىً لا ينافي الحديث الأول، فما هو المعنى الذي لا ينافيه؟

نقول: إذا مس الإنسان ذكره كما يمس بقية أعضائه فإنه لا وضوء عليه؛ لأنه بضعة منه، أما إذا مسه للمعنى الذي يختص بالذكر وهو الشهوة فعليه الوضوء؛ لأنه في هذه الحال ليس مسه كمس بضعة من الإنسان، بل مسه المس الذي يختص بالذكر وهو الشهوة ولأن الشهوة مظنة الحدث؛ لأن الإنسان قد يمذي بدون أن يشعر بذلك، فألحقت المظنة باليقين، وعليه فيكون الراجح في هذه المسألة: أن من مس ذكره لشهوة انتقض وضوؤه ووجب عليه الوضوء، ومن مسه لغير شهوة فلا وضوء عليه، وهذا أعدل الأقوال وفيه الجمع بين الأقوال أيضاً؛ لأنك إذا قلت: لا وضوء، وافقت قول من يقول: لا وضوء فيه مطلقاً، وإذا قلت: فيه الوضوء؛ وافقت قول من يقول: إن فيه الوضوء مطلقاً، ويكون هذا التفصيل هو التحصيل.

تنبيه:

مس فرج الصغير لا ينقض الوضوء إلا إذا كان له سبع سنوات، وبعضهم يرى الإطلاق، والراجح كما تقدم لا بد من شهوة.

السابع: تغسيل الميت: لا دليل عليه، فحديثه ضعيف، ولا

---

(١) رواه الترمذي، كتاب أبواب الطهارة، باب الوضوء من مس الذكر، حديث رقم (٨٢)، وأبو داود، كتاب الطهارة، باب الوضوء من مس الذكر، حديث رقم (١٨١)، والنسائي، كتاب الطهارة، باب الوضوء من مس الذكر حديث رقم (١٦٣) عن بسرة.

دليل على أنه ناقض للوضوء، وعلى هذا فلا يكون ناقضاً للوضوء حتى إذا قلنا: إن الميت كله عورة فإنه لا ينتقض وضوء غاسله، وأما حمل الجنازة: فلا ينقض الوضوء ولا أظن أحداً قال به.

الثامن: الردة، في الواقع أنها تحبط الأعمال كلها، ولكن الله اشترط لحبوط العمل بها أن يموت الإنسان على الكفر، لكن إذا قلنا: بأنه يجب على من أسلم أن يغتسل صار الوضوء واجباً من هذه الناحية، ووجوب الاغتسال لمن أسلم فيه خلاف أيضاً وربما يذكر إن شاء الله تعالى في مكان آخر.

الفائدة الثانية والثلاثون: أن التيمم جائز في الحدث الأصغر وفي الحدث الأكبر؛ لأن الآية واضحة، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا۟﴾ ثم قال: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟﴾ ذكر الله تعالى التيمم بعد الوضوء وبعد الغسل من الجنابة، فيكون في ذلك دليل على أن من عليه غسل الجنابة إذا لم يجد الماء فإنه يتيمم ويصلي، وهذه المسألة فيها خلاف قديم، حتى إن عمر رضي الله عنه أنكر على عمار بن ياسر الإفتاء بجواز التيمم للجنب، وكان يرى ـ أي: عمر ـ: أن من عليه جنابة ينتظر حتى يصل إلى الماء ثم يغتسل، ولكن عمار بن ياسر رضي الله عنه ذكر أن النبي ﷺ بعثه هو وعمر في حاجة، وأن عمار بن ياسر أجنب فتمرغ في الصعيد كما تتمرغ الدابة، ظناً منه رضي الله عنه أن طهارة التيمم كطهارة الماء، ومعلوم أن الجنب يجب عليه في طهارة الماء أن يعم بدنه فظن أن طهارة التراب كذلك، فتمرغ في التراب، ثم لما قدم إلى النبي ﷺ

أخبره، «**فأخبره النبي ﷺ أنه يكفيه أن يمسح وجهه ويديه**»[١].

ثم قال عمار: يا أمير المؤمنين إن شئت أن لا أحدث به لِمَا أوجب الله عليّ من طاعتك فعلت؟ قال: لا، نوليك ما توليت؛ يعني: فحدث به، فجعل يحدث به، ثم إن الأمة أجمعت بعد ذلك على أن التيمم يكون في الجنابة ويكون في الحدث الأصغر.

لو قال قائل: هل الأولى لعادم الماء ألا يقرب زوجته لئلا يقع في الجنابة والحرج؟

الجواب: لعادم الماء أن يأتي أهله متى شاء ثم إذا لم يجد ماءً فليتيمم.

الفائدة الثالثة والثلاثون: الإشارة إلى أنه ينبغي لقاضي الحاجة أن يستتر حتى يتوارى عن الناس، وجهه قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ فإن هذا هو سنة الصحابة رضي الله عنهم في حياة نبيهم ﷺ، فيكون هذا دليلاً على أن من هديهم الاستتار عن الأعين ولا شك أنه من كمال الأدب، أما البول، فليس من الأمور المذمومة أن يبول الإنسان أمام الناس إذا كان قد ستر عورته؛ لأنه فَعَلَهُ من هو أشد الناس حياءً محمد رسول الله ﷺ حين أتى سُباطة قوم فبال فيها عليه الصلاة والسلام، قائماً وكان حذيفة رضي الله عنه حوله[٢].

---

(١) رواه البخاري، كتاب التيمم، باب التيمم ضربة، حديث رقم (٣٤٠)، ومسلم، كتاب الحيض، باب التيمم، حديث رقم (٣٦٨) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب البول عند صاحبه والتستر بالحائط، حديث رقم (٢٢٣)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب المسح على الخفين، حديث رقم (٢٧٣) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

الفائدة الرابعة والثلاثون: حكمة الشرع في التطهير حيث كان الاقتصار على أربعة أعضاء في الحدث الأصغر؛ لأن هذه الأعضاء هي غالباً أدوات العمل وآلات العمل، فالبطش باليد، والمشي بالرجل، والبصر والشم والكلام في الوجه، والسمع والتخيل والتفكير في الرأس، فشرع تطهير هذه الأعضاء الأربعة.

أما في الجنابة فشرع للإنسان أن يطهر جميع بدنه؛ وذلك لأن الجنابة تخلخل البدن كله، ولهذا يضعف الإنسان إذا حصلت منه الجنابة، ويؤمر إذا أراد أن يعود أن يغتسل فإن لم يمكنه فليتوضأ، ويدل لهذا ـ أعني: أن الجنابة تؤثر على جميع البدن ـ أن الرجل إذا زنى وهو محصن فإنه يرجم بالحجارة حتى يموت من أجل أن يذوق جميع بدنه ألم العقوبة كما ذاق لذة الشهوة المحرمة.

الفائدة الخامسة والثلاثون: التكنية عما يُستقبح ذكره لقوله: ﴿مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ وقوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

الفائدة السادسة والثلاثون: أن التيمم جائزٌ بجميع ما على الأرض سواء كان رملاً أم تراباً أم حجراً أم غير ذلك.

فإن قال قائل: ننازع في هذه الفائدة لقوله: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ و﴿مِّن﴾: تقتضي التبعيض، ولا يمكن أن يَعْلَقَ شيءٌ باليد من الأرض إلا إذا كانت ترابيةً؟

قلنا: هذا الإيراد وارد بلا شك وهو دليل من يقول: إنه لا بد أن يكون التيمم بأرض فيها تراب، وأما التيمم على ما لا تراب فيه ولا غبار فيه فإنه لا يصح.

لكن الجواب على هذا الإيراد: هو أنه قد علم بالضرورة أن

الرسول عليه الصلاة والسلام كان يسافر الأسفار الطويلة في أيام الشتاء وأيام الصيف، وفي أسفاره يمر بالرمال ويمر بالأرض الممطورة، ولم ينقل أنه كان يحمل التراب معه ولا أنه كان لا يتيمم على مثل هذه الأراضي، وبهذا اندفع هذا الاعتراض، وسبق أن قلنا في التفسير: إن ﴿مِن﴾ يحتمل أن تكون للتبعيض ويحتمل أن تكون للابتداء.

الفائدة السابعة والثلاثون: أنه لا بد أن يكون الصعيد الذي يتيمم منه طيباً وهو الطاهر، وضده النجس، ولكن ليس هناك صعيد يكون نجساً، بل لا بد أن يكون متنجساً والمتنجس كالنجس، وعلى هذا فلا يصح التيمم على أرض متنجسة لقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

الفائدة الثامنة والثلاثون: وجوب استيعاب الوجه بالمسح في التيمم، لقوله: ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ ومن ثَمَّ يجب أن ننبه بعض العامة الذين إذا تيمموا مسحوا الأنف وما حوله وتركوا الباقي، فيقال: هذا لا شك أنه لا يجزئ؛ لأن الآية صريحة قال تعالى: ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ أي: كلها.

الفائدة التاسعة والثلاثون: أن اليد عند الإطلاق لا يدخل فيها الذراع لقوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾ وجه الدلالة: أن الله لما أراد تجاوز الكف قيده، وذلك في نفس الآية التي معنا في طهارة الوضوء بالماء حيث قال: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾.

الفائدة الأربعون: وجوب الترتيب في التيمم بين الوجه واليدين، فيبدأ أولاً بالوجه ثم باليدين، وهل هذا الترتيب مطابق لترتيب الوضوء؟

الجواب: بلى فغسل اليدين بعد غسل الوجه، إذاً مطابق.

فإن قال قائل: «الواو» لا تقتضي الترتيب بل هي لمطلق الجمع؟

قلنا: لكن تقتضيه بالقرينة، القرينة هنا أن الله تعالى بدأ بالوجه وقد قال النبي ﷺ: **«أبدأ بما بدأ الله به»**[1] فظاهر السنة الترتيب لكنه ليس قطعياً.

لكن لو قال قائل: ما الحكم إذا خالف التيمم الترتيب؟

الجواب: الفقهاء يقولون: إذا كان التيمم عن جنابة فلا بأس أن يخالف الترتيب في التيمم؛ لأن الغسل لا يشترط له الترتيب، والتيمم بدلاً عن الغسل، أما في الحدث الأصغر فلا بد من الترتيب، ولكن يقال: إن طهارة التيمم لا يمكن قياسها على طهارة الماء لوجود الفوارق الكثيرة بينهما، وإلحاق الفرع بالأصل لا بد أن يكون بينهما اتفاق يجمعهما.

الفائدة الحادية والأربعون: انتفاء الحرج في هذا الدين الإسلامي، لقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ أي: من مشقة، فالدين الإسلامي والحمد لله كله مبني على اليسر، وليس اليسر منوطاً بهوى كل إنسان؛ لأنه لو كان منوطاً بهوى كل إنسان لكان بعض الناس يشق عليه أن يقوم يصلي الفجر في الشتاء، ولكن المعنى أن كل ما شرعه الله فهو ميسر ليس فيه مشقة.

الفائدة الثانية والأربعون: إثبات الإرادة لله لقوله: ﴿مَا يُرِيدُ

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، حديث رقم (١٢١٨) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

... وَلَٰكِن يُرِيدُ﴾، فأثبت الله تعالى لنفسه الإرادة بنفي إرادة الحرج وإثبات إرادة التطهير.

الفائدة الثالثة والأربعون: إثبات الإرادة الشرعية لقوله: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ﴾.

الفائدة الرابعة والأربعون: رفع الحرج عن هذه الأمة تارةً يكون برفع المشروع بالكلية، وتارةً بتخفيفه، وتارةً بفعل بدله، فهذه ثلاثة أقسام: إما أن يرتفع التكليف بهذا الشيء الذي فيه الحرج بالكلية، وإما أن يخفف، وإما أن يجعل له بدل.

مثال الأول: كفارة القتل، إذا عجز الإنسان عن صيام شهرين متتابعين تسقط عنه، أي: ترفع عنه بالكلية.

مثال الثاني: القيام في الصلاة إذا عجز الإنسان عنها، يخفف فيصلي قاعداً إذا لم يستطع أن يصلي قائماً.

مثال الثالث: أن يكون إلى بدل، فالإنسان العاجز عن الصيام عجزاً مستمراً لا يلزمه أنه يصوم لكن عليه البدل وهو: إطعام مسكين عن كل يوم، فصار الأمر والحمد لله واسعاً، وبناءً على هذه القاعدة التي أخذناها من كلام ربنا عزّ وجل نقول: إن من عجز عن الكفارات أياً كانت الكفارة وقت الوجوب فإنها تسقط عنه، وأما قول بعض العلماء: إنه لا يسقط من الكفارات عند العجز إلا كفارة الجماع في الحيض، وكفارة الجماع في نهار رمضان فهذا الحصر لا دليل عليه.

والصواب: أن جميع الكفارات إذا كان حين وجوبها عاجزاً عنها فإنها تسقط، كما قلنا في الزكاة إذا كان فقيراً فإنه لا زكاة عليه، ولو اغتنى هل نقول: اقضِ عن السنوات التي مضت بعد التكليف؟ لا نقول بهذا.

الفائدة الخامسة والأربعون: سعة رحمة الله عزّ وجل حيث نفى الحرج عن عباده، ولكن لو سألنا سائل: أليس يوجد في بني إسرائيل شيء من الحرج في عباداتهم؟ قلنا: بلى، لكن ذلك بسببهم، هم الذين تسببوا في ذلك، قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء: ١٦٠]، إلى آخره.

الفائدة السادسة والأربعون: أن التيمم مطهر وليس بمبيح؛ لأن بعض أهل العلم رحمهم الله يرى أن التيمم يبيح ما كان محظوراً بدون الماء، يعني يبيح الصلاة بدون ماء؛ لأن الأصل أن الصلاة بدون ماء حرام، لكن إذا عدم الماء أو خيف الضرر باستعماله وتيمم أبيحت الصلاة.

فيرى بعض العلماء: أن طهارة التيمم استباحة لما كان محظوراً، وبناءً على هذا لو تيمم لقراءة القرآن، لم يصلِّ نافلة؛ لأن النافلة أعلى من قراءة القرآن، وإن شئت فقل: لأن وجوب الطهارة للنافلة أقوى من وجوب الطهارة لقراءة القرآن، بل الوضوء لقراءة القرآن سنة وليس بواجب، ومس المصحف هو الذي تجب له الطهارة، ولو نوى صلاة نافلة لم يصلِّ بذلك فرضاً؛ لأن الفرض أعلى من النفل، ولو خرج الوقت وهو على طهارته بطل تيممه؛ لأن الضرورة تقدر بقدرها، وهذا الرجل لم يتيمم إلا للصلاة الحاضرة، والصلاة الحاضرة تنتهي بخروج وقتها، ولكن هذا القول ضعيف، والصواب أن التيمم مطهر، ودلالة ذلك في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، دلالته من كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ فبعد أن ذكر الوضوء والغسل والتيمم، قال: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾.

وقال النبي ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**»[(١)] والطهور بالفتح: ما تحصل به الطهارة، وعلى هذا فيكون التيمم مطهراً رافعاً للحدث، فإذا تيمم لقراءة القرآن يصلي به النافلة؛ لأنه تطهر، وإذا تيمم للنافلة يصلي به الفريضة، وإذا تيمم للصلاة وخرج وقتها يصلي به الصلاة الأخرى، ما دام لم ينتقض وضوؤه وهلمَّ جرًّا.

وإذا تيمم عن الجنابة أول مرة كفاه فلا يتيمم بعد ذلك إلا عن الحدث الأصغر فقط؛ لأنه حين تيمم للجنابة تطهر منها وارتفعت الجنابة فلا حاجة إلى أن نقول: أعد التيمم للجنابة كلما دخل وقت الصلاة؛ لأن الله تعالى سمى ذلك تطهيراً، والنبي ﷺ سمى الأرض طهوراً.

بقي أن يقال: هل إذا قلنا: إنه مطهر هل هو مطهر طهارة مقيدة بوجود الماء أو طهارة مطلقة بمعنى أنه لو وجد الماء فهو على طهارته فلا يجب عليه استعمال الماء؟

الجواب: الأول، وعلى هذا فإذا تيمم لجنابة ثم وجد الماء وجب عليه الغسل.

لو قيل: أليس قد طهر من الجنابة؟

الجواب: بلى، إذاً لماذا توجبون عليه الغسل وقد طهر من جنابته؟

نقول: لنا أدلة في هذا:

الدليل الأول: قصة الرجل الذي رآه النبي ﷺ بعد صلاة

---

(١) رواه البخاري أول كتاب التيمم، حديث رقم (٣٢٨)، ومسلم أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم (٥٢١) عن جابر بن عبد الله.

الفجر أو إحدى الصلوات، فقال: «**ما منعك أن تصلي؟**» قال: أصابتني جنابة ولا ماء. قال: «**عليك بالصعيد فإنه يكفيك**». ثم جاء الماء بعد ذلك فأمره أن يغتسل[١] مع أن الرجل تيمم وصلى فأمره أن يغتسل.

الدليل الثاني: قوله ﷺ: «**الصعيد الطيب وضوء المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين، فإن وجد الماء فليتقِ الله وليمسه بشرته**»[٢].

إذاً: عندنا دليلان من السنة، وقال شيخ الإسلام رحمه الله: إن الإجماع منعقد على ذلك، يعني أن العلماء أجمعوا بأن من تيمم لعدم الماء ثم وجد الماء فلا بد أن يتطهر به، وكذلك إذا وجد الماء في أثناء الصلاة فالصحيح أنه يقطع الصلاة لأن وجود الماء يبطل التيمم فيكون كالذي أحدث في أثناء الصلاة فيجب عليه أن يعيد الصلاة.

حينئذٍ تكون القاعدة بأنه مطهر فيها شيءٌ من الاستثناء، ولكن هذا الاستثناء دل عليه النص والإجماع، ومعلوم أننا لا نقدم على النص شيئاً؛ لأننا قلنا: إنه مطهر بالنص فإذا وجد الماء وقلنا: يلزمك استعماله فإنما قلنا ذلك بالنص، ونحن لا محيد لنا عما دل عليه الكتاب والسنة.

---

(١) تقدم تخريجه ص١١٦.

(٢) رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب الجنب يتيمم، حديث رقم (٣٣٢)، والنسائي، كتاب الطهارة، باب الصلوات بتيمم واحد، حديث رقم (٣٢٢)، والترمذي، كتاب الطهارة، باب ما جاء في التيمم للجنب إذا لم يجد الماء، حديث رقم (١٢٤) عن أبي ذر رضي الله عنه.

مثال ذلك: رجل تيمم لعدم الماء لصلاة الفجر وبقي إلى العشاء، أيعيد التيمم عند وقت كل صلاة؟ إن قلنا: لا، أخطأنا، وإن قلنا: نعم، أخطأنا، فالجواب ينبني على الخلاف، فإذا قلنا: إنه مطهر فلا يعيده ويصلي بتيمم الفجر صلاة العشاء، وإذا قلنا: إنه غير مطهر يعيد التيمم؛ أي: كلما خرج وقت الصلاة بطل التيمم، وعليه فإذا أراد أن يصلي الضحى بتيمم صلاة الفجر على القول بأنه مبيح لا رافع، لا بد أن يتيمم ثانية.

الفائدة السابعة والأربعون: أن الإنسان لو تيمم ولبس الخفين ثم وجد الماء فهل يمسح عليهما؟

الجواب: نقول: التيمم لا يتعلق به طهارة؛ لأن القدم ليس لها دخل في التيمم، وقد قال النبي ﷺ للمغيرة رضي الله عنه: **«دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين»**[1] فدل هذا على أنه لا يمسح الخف إلا في طهارة تشمل القدمين، وعلى هذا إذا كان الإنسان في البر وليس عنده ماء ولبس الخفين على غير طهارة، وجاء وقت الصلاة وتيمم، لا نقول: اخلع الخفين؛ لأن القدم لا تتعلق بها طهارة التيمم، إذاً يبقى لابساً للخفين ولو يبقى عشر سنوات وطهارته تيمم فإنه لا حرج عليه.

الفائدة الثامنة والأربعون: إثبات الحكمة في شرع الله، وجه ذلك التعليل في قوله تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا الذي دل عليه الكتاب والسنة من وجوه لا تحصى، أن الله سبحانه وتعالىٰ حكيم في كل ما يخلق وفي كل ما يشرع.

الفائدة التاسعة والأربعون: وهي متفرعة عن الفائدة السابقة

---

(١) تقدم تخريجه ص١١٢.

الاستسلام لقضاء الله الشرعي والكوني، فما دمت تعتقد أن هذا الحكم مبني على حكمة فسوف تستسلم، وتقول: ما دام لحكمة فإننا راضون، وكذلك لحكم الله الكوني، إذا أراد الله الجدب، أو أراد الله الفقر والمرض وكثرة الموت، فإننا نعلم أن هذا لحكمة ليس عبثاً ولا لمجرد المشيئة، بل هو لحكمة، وحينئذٍ نستسلم للقضاء الكوني والقضاء الشرعي.

لكن من أهل البدع من نفى الحكمة، وقال: إن الله تعالى لا يفعل لحكمة ولا يشرع لحكمة إنما هي مجرد مشيئة، ويأتي بشبهات منها حديث عائشة رضي الله عنها: «**كان يصيبنا ذلك** (يعني: الحيض) **فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة**»[1]، ولكن يقال: إن الأمر الشرعي عند المؤمنين هو حكمة، يعني مجرد أن أعرف أن الله شرعه أنا أؤمن بأنه لحكمة، فعائشة رضي الله عنها فوضت الحكمة إلى الله عزّ وجل؛ لأن هذا هو ما يؤمرون به وكفى بذلك حكمة.

الفائدة الخمسون: أن الطهارة بأقسامها الثلاثة: الغسل والوضوء والتيمم نعمة من الله عزّ وجل على العباد، لقوله: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، ولا شك أنها نعمة ومن رأى فضائل الوضوء وما يكفر من الذنوب، عرف نعمة الله عزّ وجل بهذا وكذلك الغسل من الجنابة ولاسيما في أيام الشتاء وأيام المشقة.

---

(١) اللفظ لمسلم، كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، حديث رقم (٣٣٥)، ومعناه عند البخاري، كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، حديث رقم (٣١٥) عن عائشة رضي الله عنها.

لو قال قائل: جماعة مشتركون في ماء، والماء لا يكفي أن يتطهر به الجميع فماذا يصنعون؟

الجواب: إن آثر أحدهما الآخر قلنا: الإيثار بالواجب لا يجوز، فلم يبقَ علينا إلا القرعة.

لو قال قائل: رجل عنده ماء قليل، كنصف قارورة صغيرة، وهذا الماء لا يكفي إلا لغسل وجهه ويديه فماذا يصنع؟

الجواب: إذا كان لا يكفي إلا غسل وجهه ويديه يستعمله ويتيمم عن الباقي.

فلو قيل: ذكرتم فيما سبق أنه لا يُجمع بين الطهارتين؟

فالجواب: نقول: لا يجمع بين طهارتين كاملتين، يعني أن الإنسان يتوضأ وضوءاً كاملاً ويتيمم، أما إذا لم يجد إلا بعض الماء، فقد قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال النبي ﷺ: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم**»[(١)] وقد أمرنا بالوضوء ولم نستطع إلا بعضه، وإذا قلنا: لا بد من الغبار فلا بد أن ينشف يديه قبل أن يتيمم، وإذا قلنا: ليس بشرط فلا بأس.

الفائدة الحادية والخمسون: أن الشكر هو العمل الصالح، لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

فلو قال قائل: ما هو الشكر؟ نقول: إن النبي ﷺ بَيَّنَهُ في

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، حديث رقم (٦٨٥٨)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، حديث رقم (١٣٣٧) عن أبي هريرة.

قوله: «**إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]»(١).

إذاً: فشكر الله هو العمل الصالح، ولا شك أن تفسير كلام الرسول ﷺ وكلام الله عزّ وجل بعضه ببعض أولى من أن نلتمس تفسيرات أخرى، لكن ذكرنا فيما سبق أن الشكر محله القلب واللسان والجوارح، ولا يكون إلا في مقابلة نعمة، وأما الحمد فإنه يكون في مقابلة نعمة أو على كمال صفة المحمود ويكون بالجوارح واللسان.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [المائدة: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إنما أمر الله تعالى أن نذكر النعمة: من أجل أن نعرف فضله علينا حتى يسهل علينا الانقياد لطاعته؛ لأن الإنسان بمقتضى فطرته وطبيعته لا بد أن ينقاد لمن أحسن إليه فيقول عزّ وجل: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ تذكروها، ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ يعني العهد الذي عاهدكم به وهو قوله: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ﴾ فإن قول

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، حديث رقم (١٠١٥) عن أبي هريرة.

المؤمن: سَمِعنَا وَأَطَعنا، يعني التزامه بكل الشريعة بدون تفريط، بين أن يكون مما يهواه قلبه أو مما لا يهواه.

وقوله: ﴿سَمِعْنَا﴾: أي: فيما يقال، ﴿وَأَطَعْنَا﴾: أي: فيما يؤمر وينهى، فيتضمن تصديق الخبر وامتثال الأمر واجتناب النهي.

قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ اتخذوا وقاية منه جلَّ وعلا وذلك بفعل أوامره وترك نواهيه على علم وبصيرة.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ الجملة هذه تعليل تتضمن التهديد، يعني أنه لا بد أن تكون التقوى مبنية على صلاح القلب وليست مجرد قول باللسان، بل لا بد أن تكون تقوى الإنسان في قلبه وجوارحه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بصاحبة الصدور، وما هي صاحبة الصدور؟

الجواب: هي القلوب، واعلم أن كلمة «ذات» تطلق في اللغة العربية على عدة معانٍ: منها أنها تطلق اسماً موصولاً في لغة طيء، كما قال ابن مالك رحمه الله:

وكالتي أيضاً لديهم ذاتُ .....

فقولنا: (جاءت المرأة التي أطاعت الله)، في لغة طيء يقولون: (جاءت المرأة ذات أطاعت الله)، فهي عندهم بمعنى «التي».

وتطلق أيضاً على الجهة، مثل قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، أي: الجهة أو الصلة التي بينكم.

وتطلق بمعنى صاحبة كما في هذه الآية: ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بصاحبة الصدور، ولا تطلق على النفس إلا في اصطلاح

المتكلمين، فإنهم يطلقون الذات على النفس أي: على ما يقابل الصفة، ولهذا نجد في كلام الذين يتكلمون في العقائد نجد كثيراً ما يقولون: الذات والصفات، ويعبرون بالذات عن النفس، فقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، إذا أردنا أن نفسرها على حسب اصطلاح المتكلمين نقول: نفسه، أي: ذاته، وليست نفس الله عزّ وجل صفة سوى الذات بل هي الذات نفسها، فقول بعض أهل العقائد: ونثبت لله نفساً، قد يفهم منه بعض الناس، أن النفس صفة زائدة على الذات وليس كذلك، ولكن يريدون أننا نصف الله بالنفس فقط، ولكنها ليست هي صفة مستقلة بل هي الذات نفسها. فقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ كقوله تماماً: يحذركم الله الله، أي: أن الله عزّ وجل له نفس، وقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، يعني: ما عندك وما عندي، فيجب التنبيه لهذا؛ لأن بعض الناس إذا قرأ في كتب العقائد «نثبت لله نفساً» فيظن أن ذلك صفة زائدة على الذات وليست كذلك.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن من المشروع أن يذكر الإنسان نعمة الله، وهل ذلك واجب أو مستحب؟ في ذلك تفصيل: فإن أدى عدم ذكرها إلى نسيان الواجب، كان ذكرها واجباً، مثل أن يرى نفسه قد شطحت وأبعدت عن فعل المأمور وترك المحذور فليذكرها نعمة الله، فليقل مثلاً: اذكري أيتها النفس نعمة الله عليك بالعافية وبالصحة وبإرسال الرسل وبإنزال الكتب وببيان الحق وما أشبه ذلك.

الفائدة الثانية: إثبات أن لله تعالى علينا نعمة وهو أمر لا يحتاج إلى برهان، ولكن هل النعمة تكون للمؤمن والكافر أو للمؤمن وحده؟

نقول: أما النعمة العامة التي يشترك فيها البهائم والإنسان فهي للمؤمن والكافر، فالكافر يتمتع بنعمة الله كما تتمتع البهيمة، وأما النعمة الخاصة: التي هي نعمة الله تعالى على العبد بالإيمان والعلم فهذه خاصة بالمؤمن، فإذا سألك سائل: هل لله على الكافر نعمة؟ فقل: في ذلك تفصيل. أما النعمة العامة فنعم، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وأما الخاصة: فإنه لا يدخل فيها الكافر؛ لأنها خاصة بالمؤمنين.

الفائدة الثالثة: أنه يجب على الإنسان أن يذكر الميثاق الذي واثق الله عليه وهو العهد بالسمع والطاعة.

فإن قال قائل: نحن لا نذكر هذا الميثاق؟ قلنا: إن عقد الميثاق يكون بالقول وبالفعل، أما القول فإننا لا نستحضره، حتى لو صح حديث: «**إن الله استخرج ذرية آدم من ظهره وأخذ عليهم العهد والميثاق**»[1]. وأما الفعل فنعم، هو ثابت وذلك بما فطر الله عليه الإنسان من التوحيد والاعتراف بالله عزّ وجل، وكذلك أيضاً بما أعطاه من العقل الذي يميز به بين الحق والباطل والصدق والكذب، وهذا ميثاق بالفعل، يعني أنت لا تستحضر أنك

---

(١) رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، حديث رقم (٤٧٠٣)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأعراف، حديث رقم (٣٠٧٥)، وأحمد (١/ ٤٤) (٣١١) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

عاهدت الله عزّ وجل بالقول، لكن بما أعطاك من العقل والفطرة صار ذلك عهداً.

لو قال قائل: ما صحة قول: من قال: إن الميثاق هو الميثاق الذي أخذه النبي ﷺ في بيعة الرضوان أو بيعة العقبة؟

الجواب: لا؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم لما نزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢] قالوا: ما نطيق هذا، فأمروا أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، ثم خفف عنهم.

الفائدة الرابعة: أن السمع المجرد لا يغني شيئاً، فلا بد أن يكون سمعاً واستجابة، فأما مجرد السمع فلا، وذلك لقوله: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ويدل لهذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال: ٢١]، فنفى الله عنهم السمع؛ لأنهم لم يأتوا بفائدة السمع وهي الطاعة، فعلى هذا لا يكفي مجرد السماع بل السماع حجة على العبد، فعليه عند السماع أن يمتثل.

الفائدة الخامسة: فضيلة التقوى وأنها مبنية على تذكر العهد والميثاق، لقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وقد قلنا: إن أجمع كلمة في معنى التقوى هي: اتخاذ وقاية من عذاب الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه على علم وبصيرة.

الفائدة السادسة: تهديد من خرج عن التقوى، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

الفائدة السابعة: أن التقوى محلها القلب، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يعني فاجعلوا مدار التقوى على القلوب. ولهذا

قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(١) نسأل الله أن يصلح قلوبنا جميعاً.

الفائدة الثامنة: عموم علم الله وأنه شامل لما ظهر وبطن، ووجه الدلالة من الآية: أنه أخبرنا بأنه عليم بذات الصدور، فيقتضي أنه كان عالماً بالظاهر والباطن.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

في الآية قراءتان: قراءة بالسكون: ﴿شَنْـَٔانُ﴾، وقراءة بالفتح: ﴿شَنَـَٔانُ﴾ والظاهر والله أعلم أن سبب القراءة بالسكون هو التخفيف؛ لأن ﴿شَنَـَٔانُ﴾ فيها شيء من الثقل، لتوالي الحركتين، فإذا قيل: ﴿شَنْـَٔانُ﴾ صار ذلك أخف، على كل حال التعليل هذا تعليل لما وقع لا لما سيقع. بمعنى أنه ليس لنا أن نتصرف ونختار اللفظ الأسهل على اللسان لكن نعلل ما وقع من القراءات؛ لأن القراءة توقيفية.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبق مراراً مثل هذه الصيغة وبيان ما يترتب عليها.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم (٥٢)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير.

قوله: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ﴾ ﴿كُونُواْ﴾: أَمْرٌ بأن نكون، والأمر هنا شرعي.

وقوله: ﴿قَوَّٰمِينَ﴾: أي: ذوي قيام، وإنما قلت ذلك؛ لئلا يقال: إن الأمر في كثرة القيام وليس في القيام أصله، فنقول: «قوامين» التشديد فيها للنسبة وليس للكثرة، ويحتمل أن نجعلها للكثرة باعتبار كثرة المخاطبين، فإذا كانوا أمة فقام واحدٌ بهذا وقام واحد بهذا، وواحد بهذا صار المجموع كثيراً، فصاروا قوامين.

على كل حال: إن جعلت «فعَّالاً» للكثرة فهي باعتبار المجموع، إذا كان كل واحدٍ قائماً بالقسط وهم أمة صح أن يقال: قوامون، وإن جعلتها غير مبالغة فهي للنسبة، أي: كونوا ذوي قيام، فتشمل القليل والكثير.

والحاصل: أننا إذا قلنا إنه موجه للكثرة صار الذي يأتي بمرة واحدة ليس داخلاً في الأمر وليس ممتثلاً له، وإنما نأخذ ذلك من أدلة أخرى؛ لأن الذي قام بالقسط مرة واحدة قد امتثل، وإذا كان مأموراً به في واحدة فمن باب أولى يكون مأموراً به في كل مرة، وضابط التفريق بين المعنيين القرينة والسياق، فقول الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] لو قال قائل: إن هذه للكثرة ما استقام؛ لأن المنفي على هذا المعنى هو كثرة الظلم فقط، فإذا قلنا للنسبة صح ذلك؛ لأن الله جلَّ وعلا نفى عن نفسه نسبة الظلم إليه ولو مرة واحدة، وأيضاً إذا قلت: «لا تكن أكَّالاً» فالمعنى لا تكثر الأكل، وليس المعنى لا تأكل أبداً،

وأما قوله ﷺ: «**لعن الله زوارات القبور**»[(١)] فلا تدخل نهائياً؛ لأنه صح الحديث عن النبي ﷺ أنه لعن زائرات القبور[(٢)].

وقوله: ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ «اللام» هنا: إشارة إلى الإخلاص، أي: اجعلوا قيامكم بالقسط أي: بالعدل لله عزّ وجل، لا تخشوا في ذلك أحداً ولا تحابوا بذلك أحداً.

قوله: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ شُهَدَاءَ: نقول في إعرابها: يجوز أن تكون حالاً من فاعل قوامين، يعني: قوامين حال كونكم شهداء، ويجوز أن تكون خبراً ثانياً لـ«كان»؛ لأن تعدد الخبر جائز، قال الله عزّ وجل: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج: ١٤ ـ ١٥]، أربعة أخبار: الغفور، الودود، ذو العرش، المجيد.

قوله: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ «شهداء»: جمع شهيد أو جمع شاهد، المعنى: أنكم إذا شهدتم فاشهدوا بالعدل.

قوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: العدل، وقد جاء في الحديث: «**المقسطون على منابر من نور على يمين الله عزّ وجل**»[(٣)].

قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾: ﴿وَلَا

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء في كراهية زيارة القبور للنساء، حديث رقم (١٠٥٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وابن ماجه، كتاب ما جاء في الجنائز، باب ما جاء في النهي عن زيارة النساء للقبور، حديث رقم (١٥٧٤) عن حسان بن ثابت رضي الله عنه.

(٢) تقدم.

(٣) رواه أحمد (٢/ ١٦٠) (٦٤٩٢)، وابن حبان (١٠/ ٣٣٦) (٤٤٨٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: أي: لا يحملنكم، ﴿شَنَـَٔانُ﴾: أي بغض، ﴿قَوْمٍ﴾: هم الجماعة من الناس، فإذا قيل: «قوم» وذكر معه نساء، فالقوم هم الرجال، والنساء للإناث، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]، وإذا ذكر «قوم» وحده صار شاملاً للرجال والنساء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٩]، يعني الذكور والإناث.

وقوله: ﴿شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾ «على»: حرف جر، «أن»: مصدرية، «لا»: نافية، «تعدلوا»: فعل مضارع منصوب بـ«أن» وعلامة نصبه حذف النون، و«أن» وما دخلت عليه في محل جر، والتقدير: لا يحملكم بغضهم على عدم العدل وهو الجور.

وقوله: ﴿ٱعْدِلُواْ﴾ حتى فيمن تبغضون، «اعْدِلُوا»: أي: قولوا بالعدل. والعدل: هو إعطاء كل ذي حقٍ حقه.

قوله: ﴿هُوَ﴾ أي: العدل، وقلنا ذلك مع أنه لم يسبق ذكر العدل؛ لأن العدل مفهوم من الفعل الذي هو: اعدلوا؛ لأن مرجع الضمير قد يكون منصوصاً عليه بلفظه، وقد يكون بلفظ دال عليه، فهنا قوله ﴿ٱعْدِلُواْ﴾: دالٌ على أن الفعل مشتق من العدل، فيكون قوله: ﴿هُوَ﴾ أي: العدل الذي أمرتم به أقرب للتقوى ولم يقل: هو التقوى، بل قال: أقرب للتقوى؛ وذلك لأن العدل قد يحمل عليه مخافة الله فيكون تقوى، وقد يحمل عليه محبة الثناء عند الناس فلا يكون تقوى، ولهذا جاءت الآية الكريمة: ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بعد أن أمر بأن نكون قوامين، ونهى

أن يحملنا البغض على ترك العدل ثم أمر بالعدل، قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ وهذه كالطابع على ما سبق.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ هذه الجملة نقول فيها مثل قولنا فيما سبق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧] يعني أنها جملة تتضمن التهديد بمخالفة التقوى.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ﴾ قالوا: إن الخبير أدق من العليم؛ لأن الخبير من الخُبْر وهو العلم ببواطن الأمر، ولذلك سميت المزارعة مخابرة؛ وسمي الزارع خبيراً؛ لأنه يدس الحب في الأرض فيختفي، فالخبير هو العليم بخفايا الأمور.

قوله: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: بالذي تعملونه من قول أو فعل، وذكر الله جلَّ وعلا هذا لكي نستقيم على أمره؛ لأننا لو خالفنا أمره لكان عالماً بنا سبحانه وتعالىٰ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: وجوب الإخلاص لله عزّ وجل في الشهادة لقوله: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾ [الطلاق: ٢]، واعلم أنك إذا كنت مخلصاً لله بالشهادة فإنك لن تحابي قريباً ولا صديقاً، ولن يحملك بغضك لشخص على أن لا تشهد له ما دمت مخلصاً لله تعالى بالشهادة.

الفائدة الثانية: أن الواجب على الإنسان أن يشهد بالقسط ـ أي: بالعدل ـ ولو كان المشهود عليه قريبك، أباك أو أخاك لقوله تعالى في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾ [النساء: ١٣٥]، ولا تعد شهادة الإنسان على أبيه وأمه عقوقاً بل هي بر؛

لأنك إذا شهدت عليهما منعتهما من الظلم وقد جعل النبي ﷺ منع الظالم من ظلمه نصراً للظالم، فقال: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**»، قالوا: يا رسول الله هذا المظلوم فيكف نصر الظالم؟ فقال: «**تمنعه من ظلمه**»[1].

الفائدة الثالثة: وجوب الشهادة بالقسط ولو كنت كارهاً؛ لأن بعض الناس قد يحمله كراهة أن يتضرر الشخص على كتمان الشهادة فتجده مع نفسه في صراع: هل يشهد أو لا يشهد؟ فالواجب أن لا يحملك قرب قريب أو بغض بعيد على أن لا تشهد، اشهد بالعدل.

لو قال قائل: أنا لا أريد أن أشهد مخافة أن يلحقني أذى فأكون آثماً بهذا؟

الجواب: يقول العلماء: إذا خاف ضرراً لا يحتمل فلا بأس، لكن يبين الشهادة في موطن آخر، أما إذا كان الضرر يحتمل مثل أن يعاديه من شهد عليه أو ما أشبه ذلك، فلا يجوز كتم الشهادة.

الفائدة الرابعة: أن أساليب القرآن الكريم وإن شئت فقل - وهو أولى - أن تعبير القرآن الكريم بالعدل يدل على بطلان قول من يقول: إن الدين الإسلامي دين المساواة، فهذا على إطلاقه فيه نظر؛ لأنهم يريدون بهذا أن لا يفرقوا بين الرجل والمرأة، ويريدون بهذا أيضاً أن لا يفرقوا بين المسلم والكافر، ويريدون بهذا أن لا يفرقوا بين البر والفاجر، والله تعالى قد أنكر هذا

---

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً، حديث رقم (٢٣١٢) عن أنس بن مالك.

إنكاراً عظيماً فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ﴾ ما هذا الحكم؟ ما الذي حملكم عليه؟ ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ - ٣٦] هذا الحكم؟ وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وإذا تدبرت القرآن وجدت نفي المساواة فيه أكثر من إثباته، وأن الذي في القرآن هو العدل: وهو إعطاء كل ذي حق ما يستحق، ولذلك العبارة السليمة أن نقول: الدين الإسلامي دين العدل، وهو الذي أمر الله به في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، نعم إذا اتفق الناس في الحقوق صح أن نقول: إنه دين المساواة، إذا اجتمعوا في سبب الحكم وغاياته حينئذٍ نقول: هو دين المساواة، يعني إذا سرق الشريف وسرق الوضيع، هنا نقول: لا بأس ألَّا يفرق بين الشريف والوضيع وأنه يسوى بينهما؛ لأن التسوية هنا عدل.

وعلى هذا فنقول: إذا كانت المساواة هي العدل فنعم، أما المساواة التي يرمي إليها هؤلاء فهذا ليس بصحيح، فالدين يفرق تماماً، في كل موطن تكون الحكمة فيه هي التفريق، لهذا يجب على طالب العلم إذا رأى بعض كتب المُحْدَثِين المعاصرين يقولون: الدين الإسلامي دين المساواة، يقول: قف، من قال هذا؟ هاتِ آية في إثبات التسوية، وأنا آتي لك بآيات كثيرة في نفي التسوية، لكن بدلاً من أن تقول هذا هاتِ الكلمة الحبيبة التي ترد على القلب ورود الماء البارد على كبد العطشان وهي العدل.

الفائدة الخامسة: أن العدل أقرب للتقوى وهو صريح.

الفائدة السادسة والسابعة: أن الأعمال الصالحة منها ما يبعد عن التقوى ومنها ما يقرب، وينبني على الفائدة السابقة

تفاضل الأعمال، وتفاضل الأعمال قد دل عليه الكتاب والسنة والعقل، وأن الأعمال تتفاوت والعمال يتفاوتون أيضاً قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الحديد: ١٠]، مع أنهم كلهم صحابة لكن لا يستوون، حتى قال النبي عليه الصلاة والسلام لخالد بن الوليد حين حصل بينه وبين عبد الرحمٰن بن عوف ما حصل قال: «**لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحدٍ ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»(١) هذا يقوله النبي ﷺ بين صحابي وآخر فكيف بمن بعدهم؟ هذا اختلاف في العمال.

وكذلك أيضاً اختلاف الأعمال قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ﴾ [النساء: ٩٥] وهلمَّ جرًّا، فالأعمال تتفاضل، ويلزم من تفاضل العمل تفاضل العامل، وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة أن الأعمال تتفاضل، والعمال يتفاضلون، وأن الإيمان يزيد وكذلك ينقص.

الفائدة الثامنة: فضيلة التقوى، وانظر كيف يكرر الله عزّ وجل التقوى في آيات كثيرة؛ لأنها في الحقيقة عليها مدار الإسلام، فإذا اتقى الإنسان ربه فسوف يقوم بدين الله تعالى على ما يريد الله جلَّ وعلا.

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذاً خليلاً**»، حديث رقم (٣٤٧٠)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم، حديث رقم (٢٥٤١) عن أبي سعيد الخدري.

الفائدة التاسعة: تهديد من خالف تقوى الله لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

الفائدة العاشرة: سعة علم الله، وأنه سبحانه وتعالىٰ عالم ببواطن الأمور، وقد قال الله عن نفسه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ [الحديد: ٣]، وفسر النبي ﷺ الباطن بأنه: «**الذي ليس دونه شيء**»[1] فليس دون الله شيء، كل شيء يراه، كل شيء يعلمه، كل شيء يقدر عليه، كل شيء في قبضته، ليس دونه شيء، وهذا قريب من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

الفائدة الحادية عشرة: أن خبرة الله شاملة للعمل، واعلم بأنه إذا قيل: عمل فهو للقول والفعل، القول عمل اللسان، والفعل عمل الجوارح، لكن الفعل يطلق غالباً على عمل الجوارح فقط، أما العمل فيطلق على هذا وهذا حتى إن شيخ الإسلام رحمه الله في العقيدة الواسطية ـ تلك العقيدة المباركة ـ قال: إن الدين والإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، فجعل للقلب عملاً وله قولاً وهو كذلك.

فقول القلب: هو إقراره وتصديقه وإيمانه، وفعله: رجاؤه وخوفه وتوكله وما أشبه ذلك ففيه نوع حركة قلبية، أما القول فهو: إقرار وتصديق.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، حديث رقم (٢٧١٣) عن أبي هريرة.

□ قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٩﴾ [المائدة: ٩].

قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ «وعد»: يقال: «وعد» ويقال: «أوعد»، قالوا: «أوعد» في الشر «ووعد» في الخير، وبنوا عليه قول الشاعر:

وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلفُ إيعادي ومنجزُ موعدي

فالإيعاد في الشر، والوعد في الخير.

قال: «وعد الله»، ولم يقل: أوعد؛ لأن الوعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات، لكن هذا الذي قاله بعض أهل العلم قد ينازع فيه؛ لأن الله تعالى ذكر الوعد في العقوبة فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ [التوبة: ٦٨]، وهذا مما يدل على أن الوعد يأتي في الخير ويأتي في الشر.

وهذا مطرد في القرآن، ولو كان غير مطرد لقلنا: إن إيعاد الله جلَّ وعلا الكفار بالنار على وجه السخرية كقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [النساء: ١٣٨] لكن لم يأتِ في القرآن ولو مرة واحدة (أوعد) في حق الكفار والمنافقين فهو غير مطرد.

قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ﴿ءَامَنُواْ﴾: أي: بما يجب الإيمان به، وقد بيَّن النبي عليه الصلاة والسلام أن الإيمان: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره»**[1].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان..، حديث رقم (٨) عن عمر بن الخطاب.

وقوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: يعني عملوا الأعمال الصالحات، فالصالحات: صفة لموصوف محذوف، والتقدير: الأعمال الصالحات، فمتى يكون العمل صالحاً؟ يكون العمل صالحاً إذا تضمن أمرين: الأول: الإخلاص لله، والثاني: المتابعة لشريعة الله، سواء كان من أمة محمد أو من الأمم السابقة.

فلا بد من أمرين: الأول: الإخلاص لله عزّ وجل؛ لأن العبادة حق لله وحده فلا يجوز أن تشرك بها معه غيره، وللأدلة الكثيرة الدالة على وجوب الإخلاص لله تعالى في العبادة كما في قوله: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، وأيضاً قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقوله ﷺ: «**من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله**»(١) والنصوص في هذا كثيرة.

أما المتابعة: فلأن النبي ﷺ قال: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»(٢) فأيُّ عمل ليس عليه أمر الله ورسوله من عبادات أو معاملات فإنه مردود على صاحبه، إذاً: لا بد أن يكون العمل عليه أمر الله ورسوله.

ولا تتحقق المتابعة إلا إذا وافق العملُ الشريعة في أمور ستة؛ **الأول**: السبب، **والثاني**: الجنس، **والثالث**: النوع، أو الكيفية والتعبير بالكيفية أوضح، **والرابع**: القَدْر، **والخامس**: المكان، **والسادس**: الزمان، فلا بد أن تكون الموافقة للشريعة في هذه الأمور الستة.

---

(١) تقدم ص١١٧ في حديث: «**إنما الأعمال بالنيات..**».

(٢) تقدم ص١١٠.

فمن تعبد لله عبادةً علقها بسبب لم يجعله الله ورسوله سبباً فالعبادة باطلة لأنها بدعة مردودة، مثال ذلك: أن يقول المرء كلما لبس ثوباً: اللهم صلِّ على محمد، فقيل له: لماذا؟ قال: أتذكر لبس النبي ﷺ للثوب فأصلي عليه، فنقول له: هذه العبادة بدعة؛ لأنها لم ترد عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه أنهم كانوا يصلون على النبي إذا أرادوا اللباس.

ولا بد أيضاً أن يكون موافقاً للشرع في جنس العبادة، فإن تعبد لله بما لم يشرع جنسه فالعبادة مردودة عليه، ومثال ذلك: أن يضحي بفرس بدلاً عن البقرة فنقول: هذه الأضحية غير مقبولة؛ لأنها ليست من جنس ما شرع الله ورسوله فلا تقبل.

وأيضاً لا بد أن يكون موافقاً في النوع أو الكيفية وهو أخص من الجنس، فمن تعبد لله عزّ وجل بعبادة لم يشرع نوعها، فإنها لا تقبل، كما لو أحدث أذكاراً مشروعة من حيث الجنس، لكنها لنوع آخر فإنها لا تقبل لقول الرسول ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[1]، وكما لو سجد قبل الركوع فإنها لا تقبل لمخالفة الشريعة في الكيفية، وتقدم أننا أحياناً نعبر بالنوع وأحياناً بالكيفية، فالنوع هو الكيفية.

كذلك أيضاً لا بد أن يكون العمل موافقاً للشرع في قدر العبادة، فلو تعبد لله تعالى بعبادة زائدة أو ناقصة لم تقبل منه، كما لو صلى الظهر خمساً أو صلاها ثلاثاً لم تقبل لمخالفة الشريعة في العدد.

ولا بد من أن يكون العمل موافقاً للشرع في مكان العبادة

---

(١) تقدم ص١١٠.

كما لو اعتكف الإنسان في بيته بدلاً عن المسجد وانقطع للعبادة في البيت، فإنها لا تقبل، لأنها غير موافقة للشرع في المكان. ولا بد من موافقة العمل للشرع في زمان العبادة كما لو صام الإنسان في غير رمضان عن رمضان لم تقبل؛ لأنه في غير الزمن المشروع، وكذلك لو وقف بعرفة في غير يوم عرفة، أو رمى الجمرات في غير موسم الحج أو ما أشبه ذلك.

إذاً العمل الصالح هو ما وافق الشريعة في هذه الأمور الستة.

يقول الله عزّ وجل في الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وهذا في مقابل الذنوب ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ في مقابل الحسنات فالسيئات تغفر والحسنات يثابون عليها هذا الثواب العظيم.

لو قال قائل: ما حكم الأيام التي تقام في بعض البلدان من الاحتفال بأيام المناسبات والذكرى كيوم كذا ويوم كذا مما لا يتقرب به إلى الله، لأن بعض أهل العلم يقولون: هذه بدعة، وبعضهم يقول: ليست بدعة، لأننا لا نتقرب بها إلى الله، إنما هي مناسبات للتنشيط والذكرى، مع أنكم ذكرتم أن البدعة ما خالفت الشرع في الست المتقدمة؟

الجواب: بالنسبة لهذه الأيام بعض العلماء قال: إنها ليست بدعة، يعني يوم الشجرة ويوم كذا ويوم كذا، يقولون هذه الأيام المقصود بها تذكير الناس، أما إذا كانت المناسبة مناسبة تولي أمير على إمرة، أو رئيس على رئاسة، أو ملك على ملك، فهذا إنما يفعل للتعظيم ولا يجوز؛ لأن الأعياد لا يجوز أن تكون إلا

بمناسبات شرعية، وأما المناسبات غير الشرعية لا تشرع، لكن ما يذكر عن أيام الشجرة وأشباهها، يقولون: إننا لا نتخذها على سبيل أنها عيد، ولذلك لا نخصها بيوم معين إنما هي تذكير وتنشيط وكأنها ابتداء عمل، ولكن عندي لو أن الناس تنزهوا عنها لكان أحسن.

لكن **لو قال قائل**: قلتم: إن هذه الأيام ليست أعياداً بل لشحذ الهمة لكن ألا يشكل على هذا أنها تشبه بالكفار كأسبوع كذا ويوم كذا؟

الجواب: علة التشبه بالكفار تشتبه على كثير من الناس مع أن الأئمة نصوا على أنه: إذا كان مصدر الشيء من غير المسلمين ثم انتشر وصار المسلمون يفعلونه زال التشبه؛ لأن التشبه حقيقته: أن يقوم الإنسان بما يختص بالغير، وما دام أن هذه المسألة شاعت بين المسلمين فلا تعد تشبهاً، مثال ذلك: لبس البنطلون أتى من الكفار لكن تبعهم المسلمون وصار الآن يلبسه المسلم والكافر.

لو قال قائل: ما حكم تحري الإنسان لأوقات كاجتماع الناس في حفل أو فرح، فيتحرى هذا الوقت ويذهب ويخطب ويعظهم بخير، وكذلك إذا رآهم مجتمعين في عزائم في بيت أو غيره، وهل يعتبر هذا بدعة لأنه خصص هذا بالزمان أو المكان؟

الجواب: أما من جهة الموعظة فإذا وجد سبب لها فإنها تفعل في أي مكان، لكن إذا اتخذ هذا راتباً وكأنه هو السبب، قلنا: هذا خطأ، فمثلاً: الاجتماع في العرس أو في وليمة كبيرة، إذا رأى الإنسان من المناسب أن يتكلم، وذلك بأن رآهم متشوفين

لكلامه، والناس يختلفون في هذه الناحية، فمن الناس رجالٌ يتشوف الناس إلى كلامهم ويتمنون أن يتكلموا، فهنا نقول: الكلام جيد، وكذلك لو طلب منه أن يتكلم، فهنا أيضاً نقول: تكلم؛ لأنك سئلت العلم، فإذا سئلت العلم فبيِّنه، أما إنسان ليس ذا أهمية عند الناس ولا الناس يترقبون كلامه يفرض نفسه عليهم ثم يتكلم في مثل هذه المناسبات، لا شك أن هذا فيه تضييق على الناس، وكثير من الناس يأتون إلى هذه الحفلات فيجتمع بعضهم ببعض مع طول الزمان ويتساءلون عن أحوالهم وعن قراباتهم، فيقطع هذا عليهم ما يريدون أو ما يتكلمون فيكون شهرة بين الناس، هذه واحدة، وكذلك العزاء أشد وأشد، لأن كون الإنسان يأتي ويخطب في الحاضرين تكون بدعة على بدعة؛ لأن أصل الاجتماع على عزاء غير مشروع كما نص على ذلك أهل العلم، منهم من كرهه وصرح بالكراهة، ومنهم من قال: إنه بدعة، وكتب الفقهاء بين أيدينا.

كذلك أيضاً ما أحدثه بعض الناس عند الدفن وذلك بأن يقوم أحدهم خطيباً ويخطب ويعظ الناس هذا أيضاً من البدع؛ لأن الرسول ﷺ لم يفعل هذا، وغاية ما ورد عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه انتهى إلى القبر مع أصحابه ولمَّا يلحد، يعني: ما تم تلحيد القبر، فجلسوا وجلس النبي عليه الصلاة والسلام معهم وجعل ينكت بمخصرة معه ـ ينكت بها الأرض ـ ويحدثهم عن حال الإنسان عند الموت وبعد الدفن، وهذه ليست خطبة، هذه موعظة وليست راتبة، لم يفعلها الرسول كلما دفن أحداً، بل فعلها لأنه ينتظر التلحيد، فبدلاً من أن يسكت أو

يتكلموا في شيء غير مناسب تكلم عليه الصلاة والسلام[١].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: فضيلة الإيمان والعمل الصالح وجه ذلك: ما رتب عليها من الثواب؛ لأن كل عمل رتب عليه ثواب فإنه فاضل مأمور به.

الفائدة الثانية: أن الإيمان وحده لا يكفي بل لا بد من عمل، ولهذا نجد كثيراً من الناس يركزون على العقيدة، فيقولون: عقيدتنا سليمة والحمد لله ولا يتعرضون للعمل وهذا قصور، بل لا بد مع العقيدة من عمل صالح.

الفائدة الثالثة: إثبات المغفرة لله عزّ وجل، لقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وقد تقدم معنى المغفرة وأنها ستر الذنب والتجاوز عنه.

فإن قال قائل: المغفرة هنا مطلقة، لم يقل: من الله؟

الجواب: هي مطلقة، لكن الله تعالى قال: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وهذا أمر معلوم بالضرورة من دين الإسلام أن الذي بيده المغفرة والرحمة هو الله عزّ وجل.

الفائدة الرابعة: تفضل الله عزّ وجل على عباده، حيث جعل الثواب بمنزلة الأجر، كأن العامل أجير إذا وَفَّى العمل أعطي أجره، مع أن المنَّة لله عزّ وجل أولاً وآخراً.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله، حديث رقم (١٢٩٦)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتبة رزقه وأجله وعمله... حديث رقم (٢٦٤٧) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الفائدة الخامسة: عظم ثواب المؤمنين العاملين الصالحات حيث عظمه الله عزّ وجل، وتعظيم العظيم للشيء يدل على أنه عظيم عظمة لا يتخيلها الإنسان ولا يتصورها، وهو كذلك.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٠﴾ [المائدة: ١٠].

ولما كان هذا القرآن مثاني كما وصفه الله بذلك، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، فلما ذكر ثواب المؤمنين العاملين للصالحات ثنى بذكر من يقابلهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ ﴿كَفَرُواْ﴾ في مقابل الأعمال الصالحات، ﴿كَذَّبُوا﴾ في مقابل الإيمان، فكذبوا بما يجب التصديق به وكفروا بما يجب العمل به.

وقوله: ﴿كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ فهم لم يستقيموا على الأمر ولم يصدقوا الخبر، بل قابلوا الخبر بالتكذيب، وقابلوا العمل بالكفر.

قوله: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾: المراد بالآيات هنا الآيات الشرعية والكونية، فمن أنكر ربوبية الله وخلقه للمخلوقات وتصرفه في الكون، فهذا مكذب بالآيات الكونية، ومن أقر بذلك لكنه لم يقم بطاعة الله فقد كفر وكذب بالآيات الشرعية، وآيات الله تعالى كونية وشرعية.

فالكونية: هذا الكون بما فيه من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والبحار والأنهار وغير ذلك من المخلوقات العظيمة، التي بعضها لا تحيط به كبراً وبعضها لا تحيط به

صغراً، إنك أحياناً تفتش الكتاب فتجد في طياته حشرات صغيرة جداً جداً لا تكاد تراها بالعين، وهذه مخلوقات الله يرزقها الله عزّ وجل ويعلم مستقرها ومستودعها ولا يخفى عليه أمرها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦].

والآيات الشرعية: هي ما جاءت به الرسل وكانت آيات دالة على الله عزّ وجل؛ لأن البشر لا يمكن أن يأتوا بمثلها، فمن يأتي بشريعة تصلح للبشر في كل زمان ومكان؟ بالنسبة للشريعة المحمدية لا أحد، وكذلك الشرائع بالنسبة للأمم السابقة، هي ملائمة تماماً لأحوالهم وأزمانهم وأماكنهم، فلا أحد يستطيع أن يأتي بمثل هذه الآيات الشرعية.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ هذه مبتدأ ثاني، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: هي المبتدأ الأول، «وأصحاب» خبر للمبتدأ الثاني، والمبتدأ الثاني وخبره في محل رفع خبر المبتدأ الأول والرابط الإشارة.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: أهل الجحيم الملازمون لها، والجحيم هي النار أعاذنا الله منها، وسميت بذلك لبعد قعرها وسوادها.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن القرآن الكريم مثاني، إذا ذكر أهل العمل الصالح ذكر أهل العمل السيئ، وفائدة ذلك: أن لا يغلب جانب الرجاء أو جانب الخوف؛ وذلك أن الإنسان إذا لم يكن أمامه إلا أوصاف المؤمنين وجزاء المؤمنين فإن ذلك قد يحمله على الرجاء

وينسى الخوف، وإذا لم يكن أمامه إلا أوصاف الكافرين وعقوبة الكافرين، فقد يستولي عليه الخوف والقنوط من رحمة الله، فلهذا كان الله تعالى يذكر هذا إلى جنب هذا، حتى لا يستولي القنوط من رحمة الله عند ذكر ما يخوف، أو الأمن من مكر الله عند ذكر ما يُرَجِّي.

فإن قال قائل: أيهما أفضل للعامل أن يغلب جانب الخوف أو أن يغلب جانب الرجاء؟

الجواب: أن أحسن الأقوال في هذا: أنه عند عمل العمل الصالح يغلب جانب الرجاء، وعند الهم بالسيئة يغلب جانب الخوف؛ لأنه إذا عمل العمل الصالح وغلب جانب الرجاء أحسن الظن بالله، وأن الله تعالى سيقبل عمله، ويثيبه عليه فينشط على العمل، ويحتسب الأجر على الله.

وعند الهم بالمعصية لو غلب جانب الرجاء لقالت له نفسه: إن الله غفور رحيم، وهذه معصية سهلة وأنت إذا فعلتها فتب، باب التوبة مفتوح وما أشبه ذلك، لكن إذا غلب جانب الخوف، وخاف أن لا يوفق للتوبة وأن يزيغ قلبه، حينئذٍ يكف عن المعصية، فأحسن الأقوال في ذلك: أن ينظر الإنسان إلى حاله، فعندما يفعل الطاعات يغلب جانب الرجاء، وعندما يهم بالمعصية يغلب جانب الخوف.

لو قال قائل: إن الخوف والرجاء من العبادات القلبية فكيف يستطيع الإنسان أن يحقق الخوف والرجاء ويعرف أنه يمشي بين هذين؟

الجواب: هذا ليس انفعالاً في الواقع، وإذا قدر انفعالاً فإننا نقول للإنسان إذا مُنِّيَ بشيء يحبه: أيرجوه أو لا؟ يرجوه،

وإذا خوف يخاف، لو أن رجلاً كريماً قال: من عمل هذا فله كذا وكذا، فعمله الإنسان، يرجو أو يخاف؟ يرجو، كذلك بالعكس، لو أن رجلاً ظالماً قال: من فعل كذلك عاقبته بكذا، فالإنسان يخاف، وإن كان انفعالاً، لكن لا بد أن يتأثر الإنسان بما يكون أمامه من طمع أو خوف.

فإن قال قائل: ألم يقل الله عزّ وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠]، فبيَّن الله تعالى أن من أوصاف هؤلاء السادة: أنهم إذا آتوا ما يؤتون فقلوبهم وجلة، يخافون أن لا يقبل منهم، كما جاء ذلك في تفسيره؟

قلنا: نعم هو كذلك، وهذا إذا خاف الإنسان أن يعجب بعمله فيجب أن يخاف، وأما إذا كان بريئاً من ذلك وهو يعلم أن ذلك العمل الصالح بمعونة الله، فليحسن الظن بالله عزّ وجل، وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي**»(١).

الفائدة الثانية: أن الكفر قد يصحبه التكذيب وقد لا يصحبه، ولهذا أحياناً يذكر الله الكفر فقط، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣١]، وأحياناً يذكر التكذيب فقط، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٢]، وأحياناً يقرن بينهما،

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، حديث رقم (٦٩٧٠)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله، حديث رقم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة.

وذلك لأن كلاً منهما قد يكون وحده موجباً للخلود في النار، فإذا اجتمعا جميعاً، صار ذلك أشد وأعظم والعياذ بالله.

الفائدة الثالثة: أن على الإنسان أن يكون مستسلماً استسلاماً تاماً لآيات الله مصدقاً بأخبارها منفذاً لأحكامها؛ لأن الله توعد المكذبين بالآيات والكافرين بها بأنهم أصحاب الجحيم، وقد ذكر الله عزّ وجل في سورة النساء قسماً مؤكداً، أنهم لا يؤمنون إلا بشروط فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ هذه الأولى، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ هذه الثانية، ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] هذه الثالثة، فمن حكَّم غير الله ورسوله فليس بمؤمن، ومن حكم الله ورسوله ولكنه صار في قلبه ضيق، ولم ينشرح صدره بما حكم الله به ورسوله فليس بمؤمن، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾، ومن لم يجد حرجاً لكن صار يتكاسل ويتهاون في التسليم فإنه لم يؤمن، ثم قد يكون الانتفاء لما نهي عنه انتفاءً كاملاً، وقد يكون انتفاءً جزئياً حسب ما قام في قلبه وعمله.

الفائدة الرابعة: أن الكافرين المكذبين مخلدون في النار لقوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، وكلما جاءت ﴿أَصْحَابُ﴾: فالمراد بها الملازمة الدائمة، كقول النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا يسمع بي من هذه الأمة يهوديٌ ولا نصراني ثم لا يؤمن بما جئت به ـ أو قال: لا يتبع ما جئت به ـ إلا كان من أصحاب النار**»(١).

❁ ❁ ❁

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، حديث رقم (١٥٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

□ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: ١١].

الكلام على قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تقدم تفسيره كثيراً وأظنه لا يخفى.

قوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أمر الله تعالى أن نذكر نعمته، لا من أجل مجرد الذكر والخبر، ولكن للقيام بشكر هذه النعمة؛ لأنه لا يكفي مجرد أن أقول: إن الله سلمني من العدو، أو إن الله مكنني من العدو، أو إن الله نصرني على العدو، أو إن الله خذل عدوي هذا لا يكفي، لا بد أن يكون ذلك شكراً لله عزّ وجل، فإن كان شكراً بأن كان الإنسان يتحدث بنعمة الله ثناءً على الله فهذا من الشكر.

وقوله: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ﴾، ﴿إِذْ﴾ متعلقة بقوله: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فتكون في موضع نصب على الحال.

قوله: ﴿هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾، القوم هم المشركون، وقد هموا بقتل النبي ﷺ، وهموا أيضاً بأن يقاتلوه في مكة ولكنَّ الله قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [الفتح: ٢٤]، وقال في سورة النساء: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ﴾ [النساء: ٩٠]، فعدة وقائع يهم الكفار بأن يبسطوا أيديهم إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه، ولكن الله تعالى يكف أيديهم ويسلم الرسول وأصحابه، ولذلك قال تعالى: ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۚ﴾ أي: ولم يستطيعوا أن ينالوكم بسوء وهذه نعمة عظيمة، أن يهم عدوك بشيء ثم

يحجزه الله عنك، لقد قال الله عزّ وجل في سورة الأحزاب: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، وقال فيها: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

لما أمر بذكر النعمة قال: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ والتقوى هي: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني وليتوكل المؤمنون على الله، ونعلم جميعاً أن قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بقوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ فهي مقدمة عليه لإفادة الحصر، و«الفاء»: زيدت لتحسين اللفظ، وإلا لو قيل: وعلى الله ليتوكل، صح الكلام.

وقوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ «اللام»: لام الأمر وأصلها مكسورة، لكنها تسكن إذا سبقها «الفاء» أو «الواو» أو «ثم»، وفي هذه الآية التي معنا سبقها الفاء، وفي قوله تعالى ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ﴾ [الحج: ١٥]، سبقها «ثم»، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ [الحج: ٢٩]، سبقها الواو.

قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، «التوكل» أحسن ما قيل فيه: إنه صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار، ثقة به تبارك وتعالى وتفويضاً إليه، فالتوكل على الله، أن تعتمد على الله في جلب المنافع، والإنسان محتاج إلى المنافع، ودفع المضار ثقةً بالله عزّ وجل، وتفويضاً إليه، وبهذا يظهر الفرق بين توكل الإنسان على العبد وتوكله على الرب، إن توكل الإنسان على الرب تفويض مطلق، فهو يعتقد أن الله تعالى هو الذي له الحكم فيه وله السلطة عليه، لكن توكله على شخصٍ وَكَّلَه أن يشتري له حاجة، ليس تفويضاً إليه، ولكنه وَكَّلَه وهو يعتقد أنه

دونه في المرتبة، يعني: عندما تعتمد على شخص وكلته يشتري لك حاجة هل هو كتوكلك على الله؟

الجواب: لا، توكلي على الله توكل عبادة وتفويض واستسلام، وتوكلي على إنسان وكلته ليس إلا اعتماداً على شخصه: أنا الذي أدبره، وأنا الذي أريد أن يتوكل، وأنا الذي بيدي فسخ وكالته.

فالفرق بين التوكل على الله والتوكل على العبد فرق عظيم، لكن مع ذلك، لا ينبغي للإنسان أن يقول: توكلت على فلان في شراء كذا وكذا، بل يقول: وكلت فلاناً، لئلا يستعمل اللفظ الذي لا يطلق إلا لله في حق العبد.

وقوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أنه يجب على الإنسان أن يذكر نعمة الله عليه في جلب المنافع ودفع المضار، وجه ذلك: أمر الله جلَّ وعلا بذكر نعمه بكف أيدي الأعداء عنا.

لو قال قائل: في كثير من الأحيان ما يكاد الإنسان يذكر نعمة هو فيها إلا ويُحْرَمْها، فهل يجب عليه في هذه الحال أن يذكر نعمة الله عليه؟

الجواب: هذا غلط، الله عزّ وجل يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]، لكن ربما يكون ذكره إياها على سبيل الفخر والإعجاب فحينئذٍ يُحْرَمُ إياها، حتى لو كانت النعمة لا تستوجب فخراً ولا عجباً كصحة مثلاً أو مال أو ذهاب أو إياب

أو أي شيء، فنقول: أبداً لا يمكن، الإنسان مأمور أن يتحدث بنعمة الله بدون فخر، وبدون إعجاب.

❁ ❁ ❁

الفائدة الثانية: أن كف الأذى والضرر من النعم وهو كذلك، وكثير من الناس يظنون أن النعم هي الإيجاد، وهذا قصور، النعمة: إما إيجاد معدوم وإما كف موجود، ولهذا يشكر الله عزّ وجل على هذا وهذا.

الفائدة الثالثة: وجوب تقوى الله عزّ وجل عند ذكر النعم حتى لا يطغى الإنسان ويرتفع ويربأ بنفسه، لقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

الفائدة الرابعة: وجوب التوكل على الله عزّ وجل، لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ﴾.

الفائدة الخامسة: إخلاص التوكل لله عزّ وجل، وجه ذلك: تقديم المعمول، والقاعدة عند البلاغيين: أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

فإن قال قائل: هل التوكل يمنع فعل الأسباب؟

الجواب: لا، بل التوكل لا يتم إلا بفعل الأسباب، وأضرب لكم مثلاً بسيد المتوكلين محمد ﷺ، ومع ذلك كان يتوقى الحر ويتوقى البرد ويلبس الدروع في الحرب، ولبس عليه الصلاة والسلام في أُحد درعين، كل ذلك توقياً للسهام، فَفِعْل الأسباب النافعة الحقيقية لا ينافي التوكل، بل هو من تمام التوكل.

ولهذا **لو قال قائل**: أنا لن أسعى في طلب الرزق، يرزقني الذي رزق الثعابين في جحورها، أنا متوكل على الله؟

قلنا: هذا عجز وكسل. التوكل على الله: التفويض إذا لم تستطع الأسباب، فإذا عجز الإنسان عن الأسباب فليس عنده إلا التفويض، ولهذا تجد الكفار إذا غشيهم موجٌ كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين أي: فوضوا الأمر إلى الله، وكذلك الإنسان إذا ألم به شيء لا يستطيع دفعه تجده ليس له حول ولا قوة، أما مع القدرة على فعل الأسباب فإنه لا بد من فعلها، لو أن الإنسان قال: أنا أريد أن أسافر إلى مكة للحج، قلنا: خذ معك نفقة قال: لا حاجة لذلك أنا متوكل على الله، ماذا نقول في هذا؟ هذا عجز وتواني وكسل، إذا كنت متوكلاً على الله حقيقة فافعل السبب، خذ معك ما يكفيك للنفقة أو أجر نفسك على بعض الناس تكون معهم ويكفونك المؤنة أو ما أشبه ذلك.

الفائدة السادسة: أن التوكل من الإيمان، لقوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، فوجه الأمر إلى المؤمنين؛ لأنهم هم أهل التوكل.

الفائدة السابعة: أن ترك التوكل على الله نقص في الإيمان، ولكن هل ينافي كمال الإيمان أو ينافي أصل الإيمان؟ فيه تفصيل فمن توكل على نبي ميت، وكل الأنبياء أموات إلا عيسى فهو حي في السماء فهذا ينافي أصل الإيمان، من توكل على قبر فهذا ينافي أصل الإيمان، فمن اعتمد على سبب معلوم وهو سبب شرعي أو قدري فذلك لا ينافي الإيمان، لكن لا تجعل عمدتك هذا السبب بل اجعله سبباً والمسبب هو الله عزّ وجل، ولهذا نجد الأسباب كثيراً ما تتخلف مسبباتها؛ لأن الأمر بيد الله عزّ وجل، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ١٢].

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكدات: «اللام» و«قد» و«القسم المقدر»، والتقدير: والله لقد، وهذه قاعدة كلما جاء تعبير بهذا فهو مؤكد بثلاثة مؤكدات ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤] وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البلد: ٤] وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] فالآيات مؤكدة بثلاثة مؤكدات.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: عهدهم، والسياق هنا سياق غائي.

قوله: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾ هذا التفات من الغيبة إلى التكلم ولو كان الكلام على نسق واحد لقال: وبَعَثَ.

وقوله: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾: أي: جعلنا منهم اثني عشر رقيباً، قوله: ﴿ٱثْنَىْ عَشَرَ﴾ الأعداد المركبة مثل ثلاث عشر، وأربع عشر وثلاثة عشر وأربعة عشر، لا نعرب الجزء الأول وحده والثاني وحده، إلا اثني عشر واثنتي عشرة، فيعرب الجزء الأول بحسب العوامل، ففي الرفع نجعله بالألف وفي النصب والجر بالياء؛ لأنه ملحق بالمثنى، وإنما قلنا: إنه

ملحق بالمثنى ولم نجعله مثنى حقيقة؛ لأنه ليس له مفرد، إذ إن «اثنا» ليس مفرده: «اثني»، لكن مفرده واحد، فلهذا يعربونه على أنه ملحق بالمثنى، ويكون إعرابه كما تقدم بالألف رفعاً وبالياء نصباً وجراً، ولكنه لا يضاف إلى عشر، بل يقال: اثنا مركب مع عشر، وعشر مبنية على الفتح لا محل له من الإعراب.

قوله: ﴿ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ ﴿نَقِيبًا﴾ هذه تمييز وكلما جاءتك كلمة تفسر العدد وهي المعدود فأعربها على أنها تمييز، مثلاً: ثلاثة عشر رجلاً نقول: رجلاً: تمييز، ولهذا يقول صاحب الألفية:

اسم بمعنى: مِن مُبينٌ نكرة يُنْصَبُ تمييزاً بما قد فسره

وقوله: ﴿ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ ﴿نَقِيبًا﴾ فعيل بمعنى فاعل، «وناقب» بمعنى منقب، مُنَقِّب: يعني مفتش والنقباء هم العرفاء؛ لأن العريف يفتش عمن جُعل عريفاً عليه وأصل التنقيب التفتيش، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [ق: ٣٦] أي: فتشوا فيها. يعني: جعل الله منهم نقباء أي: عرفاء على قومهم كل سبط عليهم عريف؛ لأنهم اثنا عشر أسباطاً، وهذا من عناية الله عزّ وجل بهم، أن جعل عليهم العرفاء من أجل أن يوجهوهم ويؤدبوهم.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ﴾: أي: بالنصر والتأييد، وهذه المعية خاصة وسنتكلم إن شاء الله عليها في الفوائد.

قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ﴾ هذا بدأ الميثاق، ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: أتيتم بها مستقيمة، والصلاة معروفة: هي التعبد لله تعالى بذات الأقوال والأفعال المعلومة المفتتحة بالتكبير المختتمة

بالتسليم، هذا هو الأصل، وعلى هذا فصلوات النصارى واليهود الآن صلوات محرفة، فهم كما حرفوا في التأويل حرفوا أيضاً في الأفعال.

قوله: ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ﴿ءَاتَيْتُمُ﴾: بمعنى أعطيتم، والزكاة: مالٌ واجب في أموال مخصوصة، وقوله: ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: إلى مستحقها. ولهذا نقول: إن «آتى» تنصب مفعولين: الأول: الزكاة، والثاني: محذوف، أي: آتيتم الزكاة أهلها، وسميت زكاة لأنها تزكي أخلاق باذلها، تزكيها يعني تنميها، فإن بذل المال ينمي الأخلاق بلا شك، وإذا أردت أن ينشرح صدرك فأكثر من النفقة لكن بدون إسراف.

قوله: ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِى﴾؛ أي: أقررتم إقراراً مستلزماً للقبول والإذعان، هذا معنى الإيمان، فمجرد الإقرار لا يعتبر إيماناً، ولو كان مجرد الإقرار إيماناً لكان أبو طالب مؤمناً؛ لأنه مقر برسالة النبي ﷺ.

وقوله: ﴿بِرُسُلِى﴾ «الرسل»: جمع رسول: وهم الذين أرسلهم الله تعالى إلى بني إسرائيل، وأكثر الأنبياء الذين قصوا علينا من بني إسرائيل.

قوله: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: نصرتموهم؛ لأن التعزير يعني النصرة وأصله من التقوية، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩]، أي: تعزروا الرسول ﷺ.

قوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ أي: بذلتم المال محتسبين الأجر من عنده؛ لأن المقرض يعطي القرض على أنه سوف يرد إليه عوضه، فالإقراض لله: يعني احتساب الثواب منه؛ كأنك بذلت الشيء ابتغاء مرضاته لتنال بذلك ثوابه.

فإن قال قائل: قوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ﴾ مع قوله: ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، هل هو من باب عطف المتغايرين أو هو من باب عطف العام على الخاص أم ماذا؟

يرى بعض العلماء أنه من باب عطف العام على الخاص؛ لأن الزكاة حقيقة إذا أدَّاها الإنسان محتسباً ثوابها فهي من إقراض الله، ويكون ذكر الإقراض وهو أعم من الزكاة بعد ذكر الزكاة ليشمل الزكاة وغيرها.

وقيل: المراد بالإقراض هنا الصدقة؛ أي: ما زاد على الزكاة وعلى هذا يكون العطف عليها من باب عطف المتغايرين.

وقوله: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ القرض الحسن: ما كان خالصاً لله على وفق شريعة الله، وقد بَيَّن الرسول عليه الصلاة والسلام الإحسان في عبادة الخالق: أنه تمام الإيمان والمراقبة، فقال: **«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[1].

قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ هذا جواب قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ﴾، وهل هو جواب للشرط التي هي: «إنْ» أو جواب للقسم المقدر المدلول عليه باللام، في قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ﴾؟ الثاني، فهو جواب القسم ولهذا لم يقترن بالفاء، ولو كان جواباً للشرط لاقترن بالفاء، وفي هذا يقول ابن مالك رحمه الله:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

والذي أخر هنا الشرط، إذاً: الذي حذف هو جواب الشرط.

---

(١) تقدم ص١٥٢ في حديث جبريل.

وقوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أجعلها مكفرة بالحسنات التي فعلت من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل وتعزيرهم، وإقراض الله قرضاً حسناً، فالسيئات تكفر بهذه الحسنات.

قوله: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ هذه معطوفة على قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ وإذا جمعت بينها وبين أكفر، صار بها النجاة من المرهوب وحصول المطلوب، النجاة من المرهوب في قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾؛ لأنها إذا كفرت لم يعاقب عليها، وحصول المطلوب، في قوله: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وبالتتبع والاستقراء، نجد أن أغلب ما يكون تقديم النجاة من المرهوب، ليرد المطلوب على محل خالٍ مما يرهب، فتكون التصفية قبل التحلية؛ يعني: صَفِّ الشيء قبل أن تحليه، اكنس المكان قبل أن تفرشه، وتأمل الآن في القرآن والسنة وفي غيرهما أيضاً، تجد أن النفي غالباً يكون مقدماً على الإثبات: فكلمة الإخلاص «لا إله إلا الله» قدم فيها النفي على الإثبات؛ ليرد الإثبات على مكان خالٍ من الشوائب.

وقوله: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ﴿جَنَّاتٍ﴾: المراد بها جنة المأوى، وهي كما نرى تذكر أحياناً مفردة، وأحياناً مجموعة، قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا﴾ [الحديد: ٢١]، «جنة»: هنا مفردة، وتأتي جنات كثيرة مجموعة، فإفرادها باعتبار الجنس وجمعها باعتبار النوع؛ لأن الجنة أنواع، وقد ذكر الله تعالى في آخر سورة الرحمٰن أربعة أنواع، قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن: ٤٦]،

ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرحمٰن: ٦٢] يعني سواهما لكن أيهما أشرف الأوليان أو الأخريان؟ **الجواب**: الأوليان، وابن القيم في النونية ذكر أن الفروق عشرة، لكن قال النظم يعييني أن أسوقها، إذاً تجمع الجنة على جنات باعتبار الأنواع وتفرد باعتبار الجنس.

وقوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لو أننا فسرنا، جنات بما نفسر به الجنات في الدنيا، وقلنا: الجنات: بساتين كثيرة الأشجار كثيرة الثمار، لم يذهب الذهن بعيداً ولاستقلَّ نعيم الآخرة، لكن إذا قلنا: الجنة هي الدار التي أعدها الله تعالى لأوليائه ـ اللهم اجعلنا منهم ـ فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، أيهما أشد هزاً للمشاعر؟ الثاني بلا شك.

ولهذا قد نعتب على بعض الناس أن يفسر جنة المأوى بأنها البستان الكثير الأشجار، وأنها سميت بذلك لأن أشجارها ملتف بعضها إلى بعض فهي تستر من فيها، نقول: هذا لا شك أنه يقلل من تخيل الجنة وأنها شيء عظيم، فنقول: الجنة: هي الدار التي أعدها الله تعالى لأوليائه، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ هذا يهز المشاعر ويوجب أن يسارع الإنسان ويسابق إليه.

وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ معلوم أنه ليس المراد من تحت أرضها؛ لأن النهر إذا جرى من تحت الأرض فأي فائدة فيه؟ ولهذا لا ننتفع بالأنهار الجوفية، ولكن المراد بقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ قال العلماء: أي: من تحت قصورها وأشجارها، وما

أحسن اضطراد الأنهر تحت الأشجار الظليلة والقصور الفخمة العظيمة، لها منظر لا يتصوره الإنسان في الواقع، هذه الأنهار ليست كأنهار الدنيا، أنواعها أربعة: ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: ١٥]؛ يعني: لا يمكن أن يتغير وأنهار الدنيا تتغير، والثاني: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ [محمد: ١٥]، بل هو من أحسن ما يكون مذاقاً: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥]، وقد نفى الله عنها الغول، قال تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: ٤٧]، وقال ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، نقي ليس فيه شيء مما يكون في عسل الدنيا، هذه أنهار أربعة تجري جريان.

الماء: ربما يتصور الإنسان كيف يجري، وكذلك اللبن الذي لم يتغير طعمه؛ لأن اللبن جارٍ، والخمر قد يتصور جريانه وقد لا يتصور؛ لأن الخمر ليس كله سواء، الرابع: العسل في تصورنا الآن أنه لا يمكن جريانه لكنه في الجنة نهر يجري، ثم إن ابن القيم رحمه الله ذكر في النونية أن هذه الأنهار تجري بغير أخدود، فقال:

أنهارها من غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضانِ

الله أكبر! النهر يجري ليس له أخدود يمنعه أن ينحرف يميناً ويساراً ولا حفر له على سطح مكان، ومع هذا أيضاً لا يجري إلا حيث شاء صاحبه، يصرفه كيف شاء ليس هناك عمال ولا عوامل وإنما هي: إرادات، قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، إذاً هنا ميثاق بين متعاقدين: عمل يسير في مقابل ثواب كثير.

قوله: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ «مَن» هنا: شرطية جوابها ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾، أي: فمن كفر بعد هذا الميثاق ولم يقم بما واثق الله عليه ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، «الضلال»: بمعنى الضياع والتيه، يعني تاه عن الصراط المستقيم، و﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: مستقيمه الموصل إلى المراد، وهذا من باب إضافة الموصوف إلى صفته.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تذكير هذه الأمة وتذكير بني إسرائيل بما أخذه الله عليهم من الميثاق، أما تذكير بني إسرائيل فالأمر فيه واضح، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وأما تذكيرنا نحن الأمة الإسلامية؛ فلأنه ليس بين البشر وبين الخالق عهد يتضمن المحاباة إلا تفضلاً من الله عزّ وجل، فإذا قمنا بما أوجب الله علينا فلنا الأجر مرتين، حسب ما جاءت به النصوص عن النبي ﷺ[1].

الفائدة الثانية: ذكر الله نفسه بالغيبة تعظيماً وتكبيراً له جلَّ وعلا، وجه ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: «لقد أخذنا»، وهذا كما يقول الملك لجنوده إن الملك يأمركم أن تفعلوا كذا لا يقول: إني آمركم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

الفائدة الثالثة: أن من أساليب البلاغة الانتقال من أسلوب

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، حديث رقم (٧٠٢٩) عن ابن عمر.

إلى آخر لتنبيه المخاطب، لقوله: ﴿وَبَعَثْنَا﴾ بعد قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ ولا شك أن تغير الأسلوب يوجب الانتباه.

الفائدة الرابعة: إثبات أن الله تعالى خلق أعمال العباد، لقوله: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾؛ لأن النقباء مفتشون، وإذا كان الله هو الباعث لهم، لزم أن تكون أفعالهم مخلوقة لله.

الفائدة الخامسة: الرد على القدرية لقوله: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾، وجه الدلالة لأنهم قاموا بأمر الله، لكن القدرية يقولون: إن أفعال العبد ليست مخلوقة لله، وليس لله فيها تعلق.

الفائدة السادسة: الرد على الجبرية، لقوله: ﴿نَقِيبًا﴾ لأن النقيب: هو المنقب، فأضاف الله تعالى الفعل إليهم، وهذا يدل على أن الإنسان غير مجبور، ونصوص الكتاب والسنة تدل على بطلان قول القدرية وبطلان قول الجبرية.

الفائدة السابعة: أنه ينبغي للناس أن يتخذوا نقباء يرجعون إليهم في أمورهم، عند النزاع يكونون مصلحين وعند الإشكال يكونون موضحين وما أشبه ذلك، ولهذا أمر النبي ﷺ، إذا كانوا ثلاثة في سفر أن يؤمروا أحدهم[1] من أجل أن يوجههم ويدبر شؤونهم، ولا يكون الأمر فوضى.

الفائدة الثامنة: منَّة الله على بني إسرائيل بأنه ناصرهم، لقوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ واعلم أن الله تعالى وصف نفسه بالمعية في عدة آيات، فمرة ذكرها عامة ومرة ذكرها خاصة بوصف، ومرة ذكرها خاصة بشخص، وكلها حق، فالعامة

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم، حديث رقم (٢٦٠٨) عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة.

مقتضاها الإحاطة بالخلق علماً وقدرة وسلطاناً وتدبيراً وملكاً وغير ذلك، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧]، والمعية الخاصة إما مقيدة بوصف كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]، لكن هذه تقتضي مع الإحاطة العامة تقتضي النصر والتأييد والدفاع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨]، وإما مقيدة بشخص، مثل قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ومثل قول النبي ﷺ فيما حكاه الله عنه لصاحبه أبي بكر رضي الله عنه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

هذه المعية، هل هي حقيقة أو هي مجاز عن العلم والإحاطة والنصرة والتأييد وما أشبه ذلك؟

الجواب: الأول كسائر الصفات، أنها حقيقة وأنها تقتضي في كل موضع ما يناسبها.

لكن إذا قلنا: إنها حقيقة، هل تنافي ما ذُكر من علو الله جلَّ وعلا؟

الجواب: لا، أبداً، بل هو معنا سبحانه وتعالىٰ وهو على عرشه، وليس معنى قوله ﴿مَعَنَا﴾، أنه في الأرض، كلا، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، ومن كان هذا شأنه كيف يمكن أن يتصور عاقل فضلاً عن مؤمن أن يكون معنا

في أماكننا، فاللَّه سبحانه وتعالىٰ معنا وهو عالٍ، ولا مانع؛ لأن الله بكل شيء محيط، حتى إن الرسول عليه الصلاة والسلام لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير، قال: «**أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً**، ـ أصم: لا يسمع، ولا غائب: لا يرى ـ **إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»[1]، نحن نؤمن بهذا، لكن ليس معنى ذلك أن الله عزّ وجل في نفس المكان؛ لأنك لو قلت هذا لكنت ممن عمل بالنصوص ولكن نظر إليها نظر الأعور؛ أي: من جانب واحد.

ولهذا لما نظرت الجهمية إلى هذا من جانب واحد، قالوا: إن الله معنا في كل مكان، لكنهم غفلوا عن نصوص العلو، ونحن نقول: إن الله تعالى معنا حقيقة وهو سبحانه وتعالىٰ على عرشه حقيقة، ولا منافاة.

فإن قال قائل: هل يتصور العقل أن الشيء يطلق عليه أنه معك وهو بعيد عنك؟

قلنا: نعم، إنه يتصور في الأمور المخلوقة، فالقمر يقول المسافرون إنه معنا، والنجم يقولون إنه معنا، والشمس يقولون: إنها معنا، وأمكنة هذه المخلوقات في السماء، يعني العرب تقول: القمر معنا والقطب معنا والجدي معنا، يقولون هذا،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير، حديث رقم (٢٨٣٠)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، حديث رقم (٢٧٠٤) عن أبي موسى.

ويعبرون عن هذا على أنها حقيقة ومحلها في السماء، ولا يعد ذلك تناقضاً، ثم على فرض أنه تناقض في المخلوق وأنه لا تجتمع المعية حقيقة والعلو حقيقة، فهل يقاس الخالق بالمخلوق؟

الجواب: لا يقاس بل يقال: نثبت لله ما أثبته لنفسه من علوه ومعيته، ونعلم أنه لا تناقض بل هو عالٍ ومعنا ولا منافاة، إذاً: الجواب على هذا نقول: ليس بينهما تناقض للوجوه التالية:

أولاً: أن الله جمع لنفسه بينهما، وما جمع الله بينه في كتابه فليس فيه تناقض، إذ لو كان لما صدق قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فكل شيئين جمع الله بينهما فاعلم أنه لا تناقض بينهما.

ثانياً: لا تناقض ولا منافاة بين المعية حقيقة والعلو حقيقة أبداً؛ لأننا نحس بالواقع المشاهد المتفق عليه عند علماء اللغة أنه يقال للشيء إنه معنا وهو في مكانه في السماء بعيداً عنا.

ثالثاً: على فرض أن هذا ممتنع في حق المخلوق فليس بممتنع في حق الخالق؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، في جميع نعوته، فهو عليٌّ في دنوه قريب في علوه، وقد أشار إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في العقيدة المباركة ألا وهي: العقيدة الواسطية، وبه أيضاً نسلم من إلزام أهل التأويل لأهل السنة حيث يقولون: أنتم تنكرون علينا التأويل وأنتم تؤولون؛ لأنك إذا قرأت ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤]، كل هذه الضمائر تعود إلى الله عزّ وجل، ما الذي يخرج المعية عن هذا؟

إذا كان قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أي: الله، ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤]: أي: الله، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾: أي: الله ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾: أي: الله، لكن يجب كما قال شيخ الإسلام رحمه الله أن يصان هذا الفهم عن الظنون الكاذبة، مثل: أن يعتقد الإنسان أنه معنا في مكاننا، أو أنه على السماء يعني أن السماء تقله، أو أنه إذا نزل إلى السماء الدنيا صارت السمٰوات الأخرى تظله، هذا يجب أن يصان عنه؛ لأن الله تعالى في العلو، وعلوه من لازم ذاته وهو من الصفات الذاتية التي لا ينفك عنها كما لا ينفك عن سمعه وبصره فلينتبه لهذا.

لكن ورد عن السلف رحمهم الله ـ عن كثير منهم ـ أنهم فسروا المعية بالعلم وهذا تفسير باللازم؛ لأن من لازم من كان معك أن يكون عالماً بك، ولا شك أن هذا التفسير صحيح غير منكر والتفسير باللازم تفسير صحيح لكنه ليس هو المطابق؛ لأن الدلالات: ثلاثة أنواع: دلالة تضمن، ودلالة مطابقة، ودلالة التزام، هذا من دلالة الالتزام، واضطروا إلى ذلك من أجل الرد على أولئك الجهمية الذين كانوا يقولون: إن الله معنا في نفس المكان، ولهذا قال عبد الله بن المبارك رحمه الله: نقول: إن الله معنا بعلمه، ولا نقول: كما قال هؤلاء الجهمية، إنه معنا ها هنا يعني: في الأرض فتبين بذلك لماذا صارت أكثر عبارات السلف: أن المعية يعني العلم؟ ونحن نقول هذا التفسير صحيح غير منكر؛ لأنه تفسير باللازم والتفسير باللازم قد استعمله السلف في كثيرٍ من الآيات ولا يعد هذا خروجاً عما تقتضيه الآية، لكن التفسير الذي ينكر على الإنسان، أن يؤول تأويلاً مخالفاً للفظ بأنواع الدلالات الثلاث وهي: المطابقة والتضمن والالتزام.

المعية الخاصة بالوصف كثيرة في القرآن قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨]، هذه الآية إذا آمن بها الإنسان سوف تحمله على ثقته بنفسه، لكن ثقته بنفسه: لا لأنه قوي قادر، ولكن لأن الله معه فإذا اتقى الإنسان ربه تقوى حقيقية، فإنه سوف يحصل له النصر والتأييد لأن الله يدافع عن الذين آمنوا، لكن الذي ينقصنا في الحقيقة هو التقوى، ولذلك نجد أننا فاشلون في كل المعارك التي خضناها مع إخوان القردة والخنازير وهم: اليهود.

ونجد أن الإخوة الذين عندهم ـ فيما يظهر لنا والعلم عند الله تقوى وقوة ـ نجد أنهم غلبوا من كانوا أكبر دولة فيما سبق وهم الروس، ولكن الذين غلبوهم عندهم من التقوى ما ليس عندنا، يقولون: في الشيشان كان الروس أذل من الكلاب عندهم، حتى إنهم لما أمر ضُبَاطُهم وقوادهم جُيُوشَهم أن تتجمع، كانوا يتجمعون وينحدرون من رؤوس الجبال، يقول لي رجل ويقسم بالله أن سبعمائة آلية للحرب يقودها الروس، يقول: إن الشيشان قالوا: لا يمكن أن تسير هذه من حولنا، إلا والعَلَمُ المكتوب عليه «لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله» في المقدمة. فصاروا يقودونهم بلا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، وهؤلاء يقول: أذل ما يكون، والذي قتل منهم ـ أي: من الروس ـ يقولون: سبعون ألفاً. ما كنا نظن هذا.

فأقول: إن الإنسان إذا وثق بنفسه لما معه من تقوى الله والإحسان في عبادة الله، فليبشر بأن الله تعالى معه وأن الله ناصره، ثم ليُعلم أنه ليس من الضروري أن ينصر الإنسان في

حياته، بل إذا نصر ما يدعو إليه بعد موته فهو انتصار له بلا شك، ولهذا نحن نؤمن بأن انتصار الصحابة بفتحهم مشارق الأرض ومغاربها انتصاراً للرسول عليه الصلاة والسلام، فمن قام بالدعوة إلى الله مخلصاً لله متبعاً لشريعة الله ثم مات أو قتل، لكن بقيت الدعوة وانتصر بها من بعده، فهو في الحقيقة انتصار له، فيصدق قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

أما المعية المعينة بشخص فهي أعظم وأعظم، فقول الرسول ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، أبلغ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾؛ لأنه تعيين للشخص، وكذلك قول الله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

الفائدة التاسعة: أن هؤلاء لو أوفوا بعهد الله لأوفى الله لهم بعهده، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، ولقوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إلى آخره.

الفائدة العاشرة: أن الصلاة والزكاة مفروضة على الأمم السابقة، وهو كذلك، فالصلوات والزكوات مفروضة لكن لا يلزم من كونها مفروضة أن تكون مماثلة لما وجب علينا في الكيفية والوقت والمقدار، المهم أن جنس الصلاة مفروض وجنس الزكاة مفروض لكن قد يختلف، وهذا كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فالتشبيه هنا للفرض، شَبَّه الفرض بالفرض ولا يلزم أن

يكون صيامهم كصيامنا، وبقي الحج فقد ثبت عن النبي ﷺ أن الأمم السابقة كان الحج مشروعاً في حقهم[١]، فهذه الأركان العظيمة ـ أركان الإسلام ـ مشروعة عند كل أمة.

الفائدة الحادية عشرة: أنه يجب على بني إسرائيل الإيمان بجميع الرسل وعلى رأسهم محمدٌ ﷺ؛ لأن الله تعالى لم يتكفل لهم بهذا الثواب إلا إذا آمنوا برسله لقوله: ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾، ومن المعلوم أن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥]، مع أنه لم يسبق رسول قبل نوح، لكن لما كذبوا نوحاً صار تكذيبهم إياه تكذيباً لجميع الرسل.

الفائدة الثانية عشرة: وجوب نصرة الرسل، لقوله: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾، فنصرتهم في حياتهم أن يكون معهم في الجهاد والدفاع وغير ذلك، ونصرتهم بعد وفاتهم أن ينصروا شرائعهم ويقيموها بين الناس، فواجب علينا نحن الآن أن ننصر شريعة النبي ﷺ.

الفائدة الثالثة عشرة: بيان فضل الله عزّ وجل على العباد حيث إنَّه يعطيهم الرزق ثم يقول تعالى: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ﴾، وهو المعطي أولاً والمثيب ثانياً لقوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمْ﴾، والحكمة في التعبير عن الإنفاق في سبيل الله بالقرض، أن الله جعل الإنفاق في سبيله بمنزلة القرض الذي يلزم المستقرض أن يوفيه.

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السمٰوات وفرض الصلوات، حديث رقم (١٦٦)، سنن ابن ماجه، كتاب المناسك، باب الحج على الرحل، حديث رقم (٢٨٩١)، مسند أحمد (١/ ٢١٥) (١٨٥٤).

الفائدة الرابعة عشرة: أنه لا بد أن تكون الأعمال التي يتقرب بها الإنسان إلى الله حسنة لقوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ليخرج النقص عن الواجب والإسراف في البذل؛ لأن الإسراف ليس حسناً والنقص ليس حسناً.

الفائدة الخامسة عشرة: أن الأعمال الصالحة تكفر الأعمال السيئة، لقوله تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقول النبي ﷺ: «**أتبع السيئة الحسنة تمحها**»(١).

الفائدة السادسة عشرة: أنه يُبدأ بالنجاة من المرهوب قبل بيان حصول المطلوب، لقوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ﴾ وهو شاهدٌ لما اشتهر عند العلماء أن التخلية قبل التحلية، يعني إزالة الشوائب والعوائق قبل أن يحصل المطلوب.

الفائدة السابعة عشرة: أن الجنة ليست واحدة لقوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ هذا إذا قلنا: إن هذا الجمع عائد على الجنات لا على من دخلها؛ لأن فيه احتمالاً أن يكون عائداً على من دخلها وأن كل واحد له جنة وإن كانت الجنة واحدة لكن تعددت باعتبار داخليها، فنقول: هذا محتمل ولكن القرآن دل على أنها جنات مجموعة أي: نفس الجنات، ففي سورة الرحمٰن: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن: ٤٦]، وقال في الثانية: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرحمٰن: ٦٢].

الفائدة الثامنة عشرة: أن نعيم الجنة نعيم للنفس والقلب

---

(١) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب معاشرة النساء، حديث رقم (١٩٨٧) عن أبي ذر.

والسمع والبصر وكل شيء، وذلك حينما ذكر أن هذه الجنات تجري من تحتها الأنهار وهذا لا شك أنه يطرب السمع، فحفيف جريان النهر يطرب السمع، ولهذا تجد الإنسان يقف عند الشلالات متمتعاً بالاستماع إليها، وكذلك النظر أيضاً وكذلك القلب والنفس تستريح.

الفائدة التاسعة عشرة: أن في الجنة أنهاراً لا نهر واحد، لقوله: ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ والأنهار: جمع نهر وقد ذكر الله عز جل أنواعها في سورة القتال، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، فالأنهار أربعة أنواع كما تقدم.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۢ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥]، فذكر نهراً واحداً وهنا ذكر أنهاراً؟

الجواب: الإفراد باعتبار الجنس فلا ينافي التعدد، فالمراد جنس الأنهار.

الفائدة العشرون: وعيد من كفر بعد الميثاق والنداء عليه بالضلال، لقوله: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

الفائدة الحادية والعشرون: أن المؤمن يسير على سواء السبيل؛ أي: وسطها دون حافتيه، وجه ذلك: أنه إذا ثبت في حكم الكافر ضلال سواء السبيل فيثبت ضد حكمه للمؤمن؛ لأنه إذا تضادت الأعمال تضادت الجزاءات.

الفائدة الثانية والعشرون: التنبيه على أن الغالب أن وسط السبيل والطريق هو الحق؛ لأن سواء بمعنى وسط كقوله تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥﴾ [الصافات: ٥٥]، أي: في وسطها ومستقرها وهذا هو الغالب أن ما تطرف إلى اليمين أو اليسار فهو ضلال، ولذلك جاء في الحديث: «**حامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه**»(١).

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣﴾ [المائدة: ١٣].

قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ «الفاء»: عاطفة والعطف بالفاء يفيد الترتيب وإذا كان عطف فعلٍ على فعل، فإنه يفيد السببية مع الترتيب فإذا قلت: جاء زيد فعمرو، فالفاء للترتيب المحض؛ لأن العطف هنا عطف مفرد على مفرد، وإذا عطفت جملة على جملة فإنه قد يفيد الترتيب مع السببية وهو الغالب مثل أن تقول: كَفَرَ فلانٌ فكان في النار، آمن فلانٌ فكان في الجنة، أي: بسبب، وأحياناً تكون لمجرد الترتيب كما في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤]، فالهلاك بعد مجيء البأس.

قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾، الفاء تقدم أنها

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم (٤٨٤٣).

عاطفة تفيد الترتيب وتفيد السببية مع أن الباء التي بعدها تفيد السببية أيضاً.

وقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ «الباء» للسببية وهي حرف جر، و«ما» زائدة.

لكن **لو قال قائل**: كيف يجتمع حرفان يفيدان التعليل وهما الباء والفاء؟ **الجواب**: نقول كيف يجتمع شاهدان على مشهود به واحد وتعدد الأسباب لا يستلزم تعدد المسبب.

وقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي: بنقضهم ميثاقهم، فـ«ما» هنا زائدة للتوكيد، كما تقدم، والمؤكد نقض الميثاق، يعني: فبتأكدنا نقض الميثاق حصل كذا وكذا، و«ما» تأتي زائدة وتأتي مصدرية وتأتي موصولة وتأتي شرطية، وقد جمع بعضهم معانيها في بيت واحد فقال:

محامل «ما» عشر إذا رمت عدها ... فحافظ على بيت سليم من الشعر
ستفهم شرط الوصل فاعجب لنكرها ... بكف ونفي زِيْدَ تعظيم مصدر

فمن جملة ما ذكر من المعاني أنها زائدة كما في هذه الآية، (بكف ونفي زيد) هذه الزائدة، **فإذا قال قائل**: ما الفائدة من الزائدة؟ قلنا: الفائدة التوكيد وهكذا جميع حروف الزيادة العاملة وغير العاملة فائدتها: التوكيد.

قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ «النقض»: ضد العقد، أي: حلهم الميثاق.

وقوله: ﴿مِّيثَٰقَهُمْ﴾: أي: الذي واثقهم الله عليه، وهو قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: ١٢]، فهؤلاء نقضوا الميثاق بسببه.

قوله: ﴿لَعَنَّٰهُمۡ﴾ «اللعن»: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، فكانوا ـ والعياذ بالله ـ مطرودين مبعدين عن رحمة الله لا ينالهم الله برحمة، ومن لعنه الله لعنه اللاعنون، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: وما لي لا ألعن من لعنه الله أو من لعنه رسول الله[1].

قوله: ﴿لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾ وفي قراءة ﴿قَٰسِيَةٗۖ﴾، ﴿قاسية﴾ اسم فاعل ﴿قسية﴾ صفة مشبهة، والصفة المشبهة أغلظ من اسم الفاعل؛ لأنها وصف ملازم، كما قال ابن مالك رحمه الله:

..... **كطاهر القلب جميل الظاهر**

فالصفة المشبهة ملازمة، إذاً ﴿قاسية﴾ و ﴿قَٰسِيَةٗۖ﴾ قراءتان، وإذا كان في الآية قراءتان، فالمعنى أن الأمرين كلاهما حاصل، فهي قسية وهذا وصفها الملازم، وقاسية عند وجود ما يوجب لين القلب تقسو ـ والعياذ بالله ـ فهي قسية وصفاً قاسية فعلاً كما قلنا: في قراءة ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة: ٤]، و«مَلِكْ»، قلنا: نجمع بين القراءتين فيكون المعنى: أنه ملك ذو تصرف، أي: ملك مالك؛ لأن بعض ملوك الدنيا يكون ملكاً غير مالك، وكثير من الناس مالك ولكنه غير ملك، كلنا يملك مالاً لكن لسنا ملوكاً، إذاً: ﴿قَٰسِيَةٗۖ﴾ ﴿وقاسية﴾ قريب من هذا.

قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ هذا أيضاً من ضلالهم والعياذ بالله ونقضهم العهد ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾ أي:

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، حديث رقم (٤٦٠٤).

كلم الله عزّ وجل، «والكلم»: اسم جمع كلمة والجمع كلمات.

قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ أصل التحريف: التغيير: تغيير الشيء عن وجهه ولهذا تقول: انحرفت الدابة، يعني تغير مسيرها، وانحرفت السفينة: أي: تغير اتجاهها، إذاً «يحرفون»: أي: يغيرون الكلم عن مواضعه، وتغيير الكلم عن مواضعه عندهم نوعان: تغيير في اللفظ وتغيير في المعنى، من تغييرهم في اللفظ: أنه لما قيل لهم: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، قالوا: حنطة، ما قالوا: حطة، يعني حط عنا ذنوبنا بل قالوا: حنطة، يعني: أعطنا أكلاً، ولما وجب على الزاني المحصن أن يُرجم حرفوا ذلك وقالوا: إن هذا في الوضعاء وليس في الشرفاء، وصاروا يرجمون الوضعاء ولا يرجمون الشرفاء، هذا تحريف معنوي يعني حملوا النصوص على غير ما أراد الله عزّ وجل بها. إذاً: التحريف من هؤلاء يشمل التحريف اللفظي والمعنوي.

واعلم أن التحريف المعنوي يكون في الدليل والتعطيل يكون في المدلول، فقوله تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] قالوا: استوى بمعنى استولى، حرفوا الدال إلى اللام، فالتحريف في الدليل وعطلوا المدلول فلم يثبتوا الاستواء، والآية تدل على الاستواء، وكل إنسان يحرف الدليل فسيعطل المدلول وسيدَّعي معنى لا يدل عليه اللفظ فيكون جانياً على النص من وجهين: الأول: تعطيل النص عما أريد به، والثاني: إثبات معنى لا يراد به.

قوله: ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي: عن المواضع التي أرادها الله به.

قوله: ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟﴾ «نسوا» تحتمل معنيين: الأول: نسوا: أي: تركوا، والثاني: نسوا: أي: بعد الذكر، فالأول نسيان عملي، والثاني نسيان علمي، فهل المراد في هذه الآية الأول أو الثاني؟

الجواب: كلاهما المراد، نسوا: أي: تركوا عن عمد، نسوا: أي: تركوا عن عدم علم، يعني: نسوا العلم الذي كانوا يعلمونه من قبل.

فإذا قال قائل: ما هو الدليل على تقسيم النسيان إلى هذا؟

قلنا: اقرأ قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، هذا نسيان علمي، واقرأ قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ١٩]، هذا نسيان عملي، وقوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، هذا أيضاً نسيان عملي.

وقوله: ﴿حَظًّا﴾ أي: نصيباً، والحظ قد يكون في الخير وقد يكون في الشر، فقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]، هذا حظ محمود، وإذا قيل مثلاً: فلان حظه من اليوم الآخر النار، هذا مذموم، فقوله: «حظاً»: أي نصيباً.

قوله: ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: من الوحي الذي نزل عليهم ليتذكروا به، فهم نسوا حظاً من التوراة؛ لأن الكلام الآن على اليهود، نسوا حظاً من التوراة أي: تركوه عمداً نتيجة تحريف الكلم عن مواضعه، أو نسوه بمعنى أنهم نسوه بعد العلم، وذلك أن كتبهم تلفت ولما تلفت صاروا يتخبطون فيها ويكتبون فيها ما أرادوا، فهذا وجه النسيان الذي هو ضد الذكر، والنسيان الذي هو ضد العمل.

وقوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ هل المراد لا تزال أيها المخاطب، أو لا تزال أيها الرسول؟

الجواب: الأول، يعني لا تزال أيها الإنسان؛ لأنه لم يتقدم للرسول ﷺ ذكر، أي: لا تزال أيها الإنسان أو أيها المتأمل في حالهم.

قوله: ﴿تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ كلمة «خائنة» يحتمل أن تكون مصدراً كالعاقبة والعافية ويحتمل أن تكون اسم فاعل، فإن كانت مصدراً فالمعنى: لا تزال تطلع على خيانة منهم، وإن كانت اسم فاعل فالمعنى لا تزال تطلع على طائفةٍ خائنةٍ، أو نفس خائنة منهم، فتكون وصفاً لموصوف محذوف، أما كونها اسم فاعل فلا إشكال فيه؛ لأن اسم الفاعل يأتي على وزن فاعل، لكن كيف تكون مصدراً وهل يأتي في المصادر ما هو على فاعل؟ قلنا: نعم يأتي، فكلمة (العافية) في قوله ﷺ: «**اللهم إني أسألك العافية**»[1] مصدر «أسألك أن تعافني عافيةً»، وكلمة «العاقبة» كذلك مصدر، فاللغة العربية واسعة.

لو قيل: (خائنة) ألا يمكن أن تكون اسم فاعل على أن التاء فيها للمبالغة، وأن الأصل على خائن منهم، كما يقال في داعٍ داعية؟ نقول: يمكن؛ لأن فيهم ـ أي: في اليهود ـ من طبيعته الخيانة فيصدق عليه أنه داعية أي: أن التاء فيه للمبالغة وهذا من سعة معاني القرآن الكريم، أنك تجد اللفظة الواحدة تحتمل معاني كثيرة، **والقاعدة**: أن ما احتمل أكثر من معنى، ولا مرجح ولا تضاد فإنه يحمل على كل ما يحتمله من معنى.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، حديث رقم (٢٧١٢) عن ابن عمر.

قوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ إلا قليلاً من اليهود فإنهم سالمون من هذه الأوصاف والعيوب، مثل عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وهو من أحبار اليهود حبر من أحبارهم وعالم من علمائهم وليس فيه شيء من هذه الأوصاف، بل من حين قدم النبي عليه الصلاة والسلام المدينة آمن به واتبعه وشهد له بالحق. وله أمثال: فمنهم من هو سالم من هذه العيوب، والأوصاف الذميمة لكنهم قليل ولهذا قال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

قوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ «اعف عنهم»: هل العفو عن القليل الذين لا خيانة فيهم، أو عن جميعهم؟ قيل: الضمير يعود على أقرب مذكور وهو القليل، يعني فاعف عن هؤلاء القليل الذين تقدم منهم الأذى والعداوة لرسالتك، ثم زالت أوصافهم السيئة، فيكون المراد: اعف عما مضى من سيئاتهم، وعلى هذا المعنى لا إشكال في الآية إطلاقاً. أي: اعف عن القليل الذين سلموا من الأوصاف الذميمة؛ لأن هؤلاء القليل كانوا يهوداً وكان منهم ما كان من المنابذة ونقض العهد لكن آمنوا، فنقول: على هذا التقدير لا إشكال في الآية إطلاقاً، لكن إذا قلنا: اعف عنهم أي: عن مجموعهم مع اتصافهم بهذه الأوصاف وخيانتهم، يبقى في ذلك إشكال وهو أن النبي ﷺ قاتل اليهود بأمر الله، قال الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩]. فكيف الجمع؟

ذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف أي: بالآيات التي تأمر بقتالهم. وما أكثر الناس الذين إذا أعياهم الجمع بين النصوص قالوا: هذا منسوخ، فيكون كثير من الشريعة منسوخاً، مع أن بعض العلماء والمحققين يقول: أن كل النسخ لا يتجاوز عشرة أحكام، وعلى كل حال نحن نقول: إن بعض العلماء قال: إن هذه الآية منسوخة، وفي هذا إشكال؛ أي: أن تكون منسوخة.

أولاً: لأننا لا نعلم التاريخ، ومن المعلوم أن من شرط النسخ العلم بالتاريخ حتى نعلم أن هذا بعد هذا فيكون ناسخاً له.

ثانياً: من شرط النسخ أيضاً: أن لا يمكن الجمع فإذا أمكن الجمع فلا نسخ؛ لأنه إذا أمكن الجمع وقلت: هذا منسوخ، فإن هذا إلغاء للنص الآخر وإلغاء النص ليس بهين، فكونك تقول: هذا بَطَلَ حُكْمُه وهو ثابت بالقرآن والسنة ليس بهين، ولذلك لا يجوز الإقدام على دعوى النسخ إلا بدليل لا مفر منه، ومتى أمكن الجمع فإن القول بالنسخ محرم؛ لأنه كما تقدم إبطال لأحد الدليلين، وهذا صعب أن يكون دليل ثابت ثم تدعي أنه بَطَلَ.

ثانياً: أن سورة المائدة من آخر ما نزل حتى قال بعض أهل العلم: إنه لا نسخ فيها، وأن جميع الأحكام الموجودة فيها محكمة لا منسوخة، وهذا مشهور عند أهل العلم.

إذاً دعوى النسخ غير صحيحة، يبقى عندنا الجمع، جمع بعض العلماء بين هذا وبين الأمر بالقتال، أن الرسول عليه الصلاة والسلام عفا عن الذين خانوا وعن الذين نابذوه، عفا عنهم: أي خفف عنهم العقوبة فلم يقتلهم عليه الصلاة والسلام. فبنو قينقاع،

وبنو النضير، هل قتلهم الرسول عليه الصلاة والسلام؟ لم يقتلهم مع أنهم نقضوا العهد الذي بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذا نوع من العفو والصفح، وبنو قريظة أيضاً في الواقع أنه عفا عنهم؛ لأنه أنزلهم على حكم من رضوا حكمه، أنزلهم على حكم سعد بن معاذ وهذا نوع من العفو، وإلا لكان الرسول وضع فيهم السيف؛ لأنهم خانوا النبي عليه الصلاة والسلام وألبوا الأحزاب عليه، ومع هذا أنزلهم على حكم سعد بن معاذ الذي رضوه، فتكون الآية الآن محكمة، ويكون المراد بالعفو ليس العفو الكامل الذي يقتضي عدم عقوبتهم بأي عقوبة، ولكنه عفو جزئي، ولا شك أن هذا خير من القول بالنسخ، بل القول بالنسخ مع إمكان الجمع محرم؛ لأنه يعني إبطال النص الذي أُدعي أنه منسوخ كما تقدم.

قوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾ «العفو»: ترك المؤاخذة على الذنب، «والصفح»: الإعراض عنه، ولا يلزم من العفو الصفح، لكن في الغالب أنه يلزم من الصفح العفو، مثال ذلك: رجل أساء إليك فعفوت عنه ولم تقتص منه، هذا عفو، فإن أعرضت ولم تتكلم فيما جرى منه أبداً فإن هذا يسمى صفحاً.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ هذا كالتعليل لما سبق أي: إنما أمرناك بالعفو والصفح؛ لأن الله تعالى يحب المحسنين، وفيه أيضاً أنه إذا كان الله يحب ذلك فلا تتأخر في العمل به.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات الأسباب لقوله: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم﴾ وجه ذلك: لأن الفاء والباء دلَّا على السببية.

الفائدة الثانية: أن نقض الميثاق سبب للعنة الله عزّ وجل، لقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾.

الفائدة الثالثة: أن اللعن عقوبة؛ لأن الله تعالى عاقب به من نقض الميثاق.

وهنا سؤال: هل يجوز لنا أن نلعن من لعنه الله ورسوله؟

الجواب: نعم، نلعن من لعنه الله ورسوله لكن على سبيل العموم إذا جاءت اللعنة على سبيل العموم، وعلى سبيل الخصوص، إذا جاءت اللعنة على سبيل الخصوص، فمثلاً نقول: لعن الله المعتدين، لعن الله الظالمين وما أشبه ذلك، والرسول ﷺ دعا على قريش عموماً فقال: «**اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش**»[1]، ولا يستبعد أن يوجد اللعن لشخص معين، أعني: الدعاء على شخص معين.

الحاصل: أننا لا نخص باللعن شخصاً معيناً حتى ولو كان من الظالمين؛ لأننا لا ندري بماذا يختم لهذا الرجل، فقد يختم له بالخير، حتى لو كان كافراً ومات على الكفر فإننا لا نلعنه؛ لأن هذا من باب سب الأموات، وقد أفضوا إلى ما قدموا ولا فائدة من ذلك؛ لأنه إن كان قد استحق اللعنة فهو ملعون لعنتَ أم لم تلعن، وإن لم يكن يستحق اللعنة بُؤْتَ بالإثم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والذل، حديث رقم (٢٧٧٤)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، حديث رقم (٦٧٥) عن أبي هريرة.

ولهذا لما دعا الرسول ﷺ على قوم باللعنة فقال: «**اللهم العن فلاناً وفلاناً**»[١] نهاه الله تعالى بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وأما قوله ﷺ: «**إنما أنا بشر يغضب كما يغضب البشر فأيما امرئ لعنته فاجعل ذلك كفارة له**»[٢] فالمراد باللعن في هذا الحديث السب، ولهذا لما قال الصحابة رضي الله عنهم: يا رسول الله! وهل يلعن الرجل أباه، قال ﷺ: «**نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه**»[٣] لكن لو دعا على الكافر بالهلاك لا يدخل في اللعن؛ لأن اللعن هو الطرد والإبعاد.

الفائدة الرابعة والخامسة: أنه كلما عصى الإنسان ربه قسا قلبه، لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾، عكس ذلك أن نقول: كلما أطاع الإنسان ربه لان قلبه، وما أكثر الذين يطلبون أن تلين قلوبهم ويسألون ما هو الدواء لقسوة القلب؟ نقول: الدواء لقسوة القلب كثرة طاعة الله عزَّ وجل.

الفائدة السادسة: أن للقلوب أحوالاً: قسوة وليناً، وهو كذلك، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾، حديث رقم (٤٢٨٣) عن ابن عمر وأبي هريرة.

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلاً لذلك كان له زكاة وأجراً ورحمة، حديث رقم (٢٦٠١) عن أبي هريرة.

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، حديث رقم (٥٦٢٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، حديث رقم (٩٠) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

الفائدة السابعة: أن المعاصي سبب لقلة الفهم ـ أعني: فهم كلام الله عزّ وجل ـ أو للعدوان في فهمه لقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ وتحريف الكلم عن مواضعه: إما أن يكون سببه الجهل وفقد العلم، وإما أن يكون سببه الاستكبار والعدوان، وعلى كلٍّ فالجملة معطوفة على ما سبق، أو أنها حال من فاعل قاسية، يعني: حال كونهم يحرفون الكلم عن مواضعه، المهم أن المعاصي سببٌ لعدم الأخذ بالنصوص وسبب لتحريفها.

الفائدة الثامنة: أن المعاصي سبب لنسيان ما ذُكِّر به الإنسان، وقد تقدم أن النسيان نوعان: نسيان علم ونسيان عمل، وهذا كله لا شك سبب. أما كون المعاصي سبب لنسيان العلم فقد دل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧]، فإذا كانت الهداية سبباً لزيادة العلم فالمعصية سببٌ لنقصانها، وأما كون المعاصي سبباً لنسيان الترك فلقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]، يعني إن تولوا وأعرضوا فاعلم أن سبب ذلك هو أنهم أذنبوا، فأراد الله تعالى أن يصيبهم ببعض ذنوبهم.

الفائدة التاسعة: أن هؤلاء قد أقيمت عليهم الحجة، ولكنهم تركوا العمل بعد إقامة الحجة، لقوله: ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾.

الفائدة العاشرة: أن قسوة القلب وتحريف الكلم عن مواضعه، ونسيان ما ذكر به الإنسان من خصال اليهود، وإذا كانت من خصالهم، فالواجب على الإنسان أن يبتعد عنها وأن يفر منها فراره من الأسد.

الفائدة الحادية عشرة: أن خيانة اليهود لا تزال باقية، لقوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾، وقد سبق تفسير كلمة خائنة، ومن تدبر تاريخهم عرف أنهم على ما وصفهم الله لا يزالون خونة، وأنه لا يُفرح منهم بعهد ولا يوثق منهم بوعد إذ إنهم خونة، إن رأوا قوة في مقابلهم ضعفوا أمامها، إن رأوا ضعفاً قووا أمامه، فهم يتبعون مصالحهم، ولا يبالون بوفاء الوعد أو العهد أو عدم وفائه؛ لأنهم لا يزالون خونة.

الفائدة الثانية عشرة: أن من اليهود من طهر من ذلك، لقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهذا هو الواقع فإن من اليهود من آمن برسول الله ﷺ وشهد له بالحق وحسن إسلامه وكان داعية لقومه.

الفائدة الثالثة عشرة: حسن معاملة الإسلام لعدوه، وذلك حين أمر الله بالعفو عنهم والصفح، ولا سيما إذا ظهر النصر لنا، فحينئذٍ يأتي دور العفو؛ لأن العفو الحقيقي الذي يمدح عليه صاحبه هو: العفو مع القدرة، أما العفو مع العجز فهذا ليس بعفو ولا يحمد عليه الإنسان.

الفائدة الرابعة عشرة: إثبات المحبة لله، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ومحبة الله عزّ وجل ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع السلف والذوق المحسوس، فإن الإنسان يحس بمحبة الله عزّ وجل؛ أي: بأنه يحب الله ويعمل بطاعته، وكذلك أيضاً: إذا أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله وعادى لله، صار لله ولياً وذاق طعم الإيمان.

الفائدة الخامسة عشرة والسادسة عشرة: أن عدم المؤاخذة على الذنب من الإحسان، لقوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فدل هذا على أن عدم المؤاخذة على الذنب يعتبر إحساناً، وكثير من الناس لا يفهم من الإحسان إلا الشيء الإيجابي، يعني الإعطاء، والصدقة، والهدية، والتبرع وليس كذلك. ويتفرع على هذه الفائدة أن فوات الأجر يعتبر عقوبة فقوله ﷺ: «**من اقتنى كلباً إلا كلب ماشية أو حرث أو صيد انتقص من أجره كل يوم قيراط**»[1] هذه عقوبة وإن كانت ليست عقوبة إيلام وتعذيب لكن فوات محبوب، ثم ليعلم أن أصل العفو ليس مشروعاً إلا إذا كان فيه إصلاح، فالعفو لا بد أن يكون في محله، ولذلك الله عزّ وجل اشترط في العفو أن يكون إصلاحاً فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ [الشورى: ٤٠] ولهذا لو كان عفونا عن هذا الرجل يؤدي إلى تسلطه وعدوانه على الناس لم نعف عنه، فالإحسان يتضمن شيئين: إما إيصال مطلوب، وإما العفو عن مرهوب.

الفائدة السابعة عشرة: الحث على الإحسان، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقد تقدم غير بعيد أن الإحسان ينقسم إلى قسمين: إحسان في عبادة الخالق، وإحسان في معاملة المخلوق.

فالإحسان في عبادة الخالق: بَيَّنَهُ الرسول ﷺ بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[2].

---

(١) رواه البخاري، كتاب المزارعة، باب اقتناء الكلب للحرث، حديث رقم (٢١٩٧)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب الأمر بقتل الكلاب، وبيان نسخه وبيان تحريم اقتنائها إلا لصيد أو زرع أو ماشية، حديث رقم (١٥٧٥) عن أبي هريرة.

(٢) تقدم ١٥٢.

والإحسان في معاملة المخلوق: هو أن تبذل لهم المعروف وأن لا تعتدي عليهم بما ليس بمألوف، ومنهم من قال: الإحسان: بذل الندى وكف الأذى وهذا بمعنى ما ذكرنا، ومما يدل على أن كف الأذى يعتبر من الإحسان هذه الآية.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة: ١٤].

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ يعني وأخذنا من الذين قالوا: إنا نصارى ميثاقاً، ولم يقل: ومن النصارى، بل قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾، مع أنه في الآية الأخرى يثبت الله تعالى لهم هذا الوصف، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٦٩]، لكن هنا قال: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾، وفائدة ذلك: إقامة الحجة عليهم حيث يدَّعون أنهم نصارى وأنهم أهل نصرٍ للحق، ومع ذلك نسوا حظاً مما ذكروا به.

وقوله: ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ إذاً أَخَذَ الله الميثاق من اليهود وأخذ الله الميثاق من النصارى وكذلك من هذه الأمة، فإن الله تعالى أخذ منا الميثاق، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧]، وقد أخذ الله الميثاق على بني آدم كلهم أن يؤمنوا به وبرسله ويوحدوه ولا يشركوا به شيئاً، فأخذ الله الميثاق على الذين قالوا:

إنا نصارى ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾، نسوا: أي: تركوا وهذا نسيان عمل، وهل يمكن أن يكون نسيان علم؟ لا يمكن، إن قلنا: إن بني إسرائيل قد سقطت عنهم المؤاخذة بالنسيان؛ لأنه إذا سقطت عنهم المؤاخذة فإنهم لا يعاقبون.

لكن إذا قلنا: إن عدم المؤاخذة بالنسيان خاص بهذه الأمة، قلنا: إن قوله: ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] يتناول: نسيان العلم ونسيان العمل، ولا شك أن نسيان العمل أشد من نسيان العلم حتى على القول: بأنهم يؤاخذون بنسيان العلم.

وقوله: ﴿حَظًّا﴾ أي: نصيباً.

قوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ولم يذكر الله تعالى لهؤلاء النصارى مثل ما ذكر لليهود من أنه لعنهم وجعل قلوبهم قاسية، وابتلوا بتحريف الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذُكِّروا به. أما هؤلاء فقال: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾، هذا العقاب يقول عزّ وجل: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ﴾ أي: ألقيناها بينهم، لكنه عبر بالإغراء كأن كل واحد قد أغري بالآخر من شدة العداوة بينهم.

وقوله: ﴿ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾، «العداوة»: بالقول والفعل، و«البغضاء»: بالقلب. يعني: فلا موالاة بينهم ولا موادة، بل العداوة التي هي ضد الولاية والبغضاء التي هي ضد المودة.

وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يعني: حتى إلى وقتنا هذا، فالنصارى مختلفون متعادون، يضلل بعضهم بعضاً ويكفر بعضهم بعضاً.

فإن قال قائل: نحن الآن نجد أن النصارى متفقون؟

نقول: هذا الاتفاق اتفاقٌ ظاهري وإلا ففي قلوبهم من العداوة والبغضاء بعضهم لبعض ما لا يعلمه إلا الله، ثم هم متفقون على عدوٍ ثالث، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]، فهم متفقون على عدوٍ ثالث وإلا فهم فيما بينهم مختلفون، قلوبهم متنافرة واعتداءاتهم ظاهرة.

وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ نقول: العداوة الآن والبغضاء بين النصارى وبين طوائفهم لا شك أنها موجودة؛ لأن خبر الله صِدْق، وقد قال: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، لكن ما نشاهده من الاتفاق الظاهري: فإنه مخالف لما في الباطن، ثم كما تقدم لأن اتفاقهم ضد عدو للجميع وليس هذا بغريب في مسائل الدنيا وسياستها.

قوله: ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أما يوم القيامة فقد سبق أنه اليوم الذي يبعث فيه الناس وأنه سمي بذلك لأمور ثلاثة: الأول: أن الناس يقومون فيه من قبورهم لرب العالمين، والثاني: أنه يقام فيه الأشهاد، والثالث: أنه يقام فيه العدل.

قوله: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ «سوف»: للتحقيق، لكنها تدل على التراخي وأختها «السين» للتحقيق، لكنها تدل على الفورية، فإذا قلت: سيقوم زيدٌ. فالمعنى أنه يقوم الآن، وإذا قلت: سوف يقوم؛ أي: فيما بعد، لكن كلاهما يدل على التحقيق وأن الأمر محقق ولا بد من وقوعه.

وقوله: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ أي: يخبرهم بما كانوا يصنعون، وإخباره سبحانه وتعالىٰ بأنه سوف

ينبؤهم تهديد؛ لأنه إذا نبأهم بما صنعوا، فما بعد ذلك إلا الجزاء بما يستحقون.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ أي: بما كانوا يعملونه من نسيان الحظ مما ذكروا به.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إقامة الحجة على الخصم بما يدعيه، لقوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾؛ لأنه تقدم أن الحكمة من قوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ دون قوله: ومن النصارى؛ لإقامة الحجة عليهم بما ادعوه، فهم يدعون أنهم نصارى، ومع ذلك نسوا حظاً مما ذُكِّروا به.

لو قال قائل: سمى الله الذين يَدَّعون أنهم أتباع عيسى بالنصارى وهم يسمون أنفسهم بالمسيحيين، ويرفضون نسبتهم إلى النصرانية، ما السبب في ذلك؟

الجواب: السبب في ذلك أنهم إذا انتسبوا إلى المسيح انتسبوا إلى دين وإلى رسول دينه حق، وهذا أهون من قولهم: إنا نصارى، لا سيما إذا قلنا: إن كلمة النصارى نسبة إلى بلد تسمى الناصرة؛ لأن النسبة حينئذٍ تكون نسبة أرضية وطنية، لكن إذا قلنا: مسيحيون صارت نسبة إلى رسول متبوع، كما يسمي أهل التحريف أنفسهم بأهل التأويل، قالوا ذلك تلطيفاً للأمر وجعل هذا الشيء أمراً مقبولاً؛ لأنهم لو قالوا: أهل التحريف؛ ما تبعهم أحد.

الفائدة الثانية: أن الله سبحانه وتعالىٰ لم يغفل أمةً من الميثاق الذي أخذه عليهم، لما تقدم أنه أخذ الميثاق على اليهود،

وأخذه على النصارى، وأخذه على هذه الأمة؛ بل أخذه على جميع بني آدم.

الفائدة الثالثة: أن إضاعة حق الله من أسباب إلقاء العداوة والبغضاء بين الناس، بمعنى أنك متى وجدت عداوة وبغضاء بين الناس، فهذا بسبب إعراضهم عن دين الله لقوله: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا﴾، فـ﴿أَغْرَيْنَا﴾: و«الفاء» للسببية.

الفائدة الرابعة: أن العكس يكون بالعكس، بمعنى أن الناس إذا قاموا بطاعة الله واتفقوا عليها فإن الله يلقي بينهم المودة والمحبة والولاية.

الفائدة الخامسة: التفريق بين العداوة والبغضاء، العداوة: ضدها الولاية، والبغضاء: ضدها المحبة، وهناك فرق بين حبيبٍ ليس ولياً وبين حبيبٍ هو ولي، وبين بغيض ليس عدواً، وبغيض هو عدو؛ لأن البغيض قد يعتدي عليك فيكون بذلك بغيضاً عدواً، وقد لا يعتدي عليك ولكن يكرهك فقط، فلا يكون عدواً.

الفائدة السادسة: إثبات يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وهو آتٍ لا محالة، لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ٧].

الفائدة السابعة: تهديد هؤلاء النصارى الذين نسوا حظاً مما ذكروا به وذلك في قوله: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

الفائدة الثامنة: إثبات علم الله، لقوله: ﴿يُنَبِّئُهُمُ﴾؛ لأنه لا إنباء إلا بعد علم وهو كذلك.

الفائدة التاسعة: الرد على الجبرية، لقوله: ﴿يَصْنَعُونَ﴾

فأضاف الفعل إليهم، والأصل أن الفعل إذا أضيف إلى أحد فإنه قائم به مختار له، والجبرية يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله، حتى في الحركات الإرادية يقولون: هو مجبر، حتى لو أراد الإنسان أن يأكل أو يشرب يقولون: هو مجبر على ذلك، ولا شك أن قولهم هذا يخالف المحسوس والمعقول والمنقول.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: هم اليهود والنصارى، وإذا كان كذلك فالمراد بالكتاب هنا: الجنس وهو التوراة والإنجيل، وأضافهم الله تعالى إلى الكتاب وسماهم أهلاً له لإقامة الحجة عليهم ونفي العذر، كأنه قال: يا أهل الكتاب أنتم أهل الكتاب عندكم علم وعندكم معرفة، ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ وأنتم تعرفون هذا الرسول كما تعرفون أبناءكم.

قوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ يريد به محمداً ﷺ.

قوله: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾ «يُبَيِّنُ» الجملة حال من رسول؛ أي: حال كونه يبين لكم؛ أي: يظهر لكم.

قوله: ﴿كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: يبين لكم حكمه؛ لأن الحاجة تدعو إليه. والبعض الآخر يعفو

عنه، فيبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب مما تقوم به الحجة عليكم.

قوله: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾؛ أي: يتركه ولا يذكره؛ لأنه لا حاجة لذكره، وسماه عفواً لأن فيه ستراً لفضائحهم التي كانوا يقومون بها من كتمان ما أنزل الله، فيعفو عن كثير مما لا تدعو الحاجة إلى ذكره، ومن تدبر القرآن وجد فيه أخباراً كثيرة عن بني إسرائيل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]، فهذا دأب أهل الكتاب.

قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾، «النور»: هل المراد به محمدٌ ﷺ أو المراد ما يحصل من الكتاب والسنة من الهدى؟ المراد الثاني، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿وَكِتَٰبٌ﴾ معطوفاً على نور، من باب عطف المقتضي على المقتضى، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ [الأعلى: ٢ ـ ٤].

وأيضاً قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۝١٧٤﴾ [النساء: ١٧٤]، فمحمدٌ ﷺ أتى بالنور الذي هو الهدي الساطع اللامع الذي لا ظلمة معه.

وقوله: ﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ هو القرآن وقد تقدم أنه سمي كتاباً لأمور ثلاثة: **أولاً**: أنه مكتوب في اللوح المحفوظ. **ثانياً**: أنه مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة. **ثالثاً**: أنه مكتوب في الصحف التي بأيدينا، وفعال: بمعنى مفعول، كما جاء ذلك كثيراً في اللغة العربية، مثل: غراس وبناء.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ هل المراد مبين لغيره أو بيِّن لنفسه؟

المراد كلاهما، وذلك؛ لأن «أبان» الرباعي يستعمل لازماً ويستعمل متعدياً، فتقول: أبان الصبحُ، بمعنى: بان، وتقول: فلان أبان الحقَ، بمعنى: أظهر، وإذا كانت الكلمة تستعمل في معنيين، فإنها تحمل عليهما بالشرطين اللذين ذكرناهما سابقاً، الأول: أن لا يتنافيا، وأن تحتملهما على السواء، وهنا الكلمة تحتمل هذا وهذا مع أن بعضهما لازم لبعض، فإنه إذا كان مبيِّناً لغيره فهو بيِّن بنفسه.

قوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ «يهدي به»: «الباء» هنا للسببية، «والهداية» هنا: إن كان المراد بقوله: «به» يعني: بدلالته، فالهداية هنا هداية دلالة، وإن كان المراد بقوله: «يهدي به» أي: باتباعه، فالهداية هداية توفيق ودلالة.

وننظر إلى بقية السياق، ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ ﴿مَنِ﴾: مفعول أول، «سبل»: مفعول ثاني، و«رضوانه»: مفعول لـ«اتبع»، إذاً: المهدي هو متبع الرضوان، والذي هدي إليه هو سبل السلام.

قوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي: تطلَّبه وابتغاه ورأى ما يرضي الله فقام به.

قوله: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ ولم يقل: سبيل السلام، مع أن التعبير الغالب أنه يعبر عن طريق الإسلام بالإفراد، وعن طرق الضلال بالجمع، لكن هنا لما قال: ﴿ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ تعين أن يكون المراد بالسبل هنا شرائع الإسلام؛ لأنه إذا كان متبعاً

لرضوان الله فقد اهتدى وأسلم وآمن، لكن الإسلام له شرائع وله سبل، فلهذا قال: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾، وإضافة السبل إلى السلام من باب إضافة الشيء إلى مسبَّبِه؛ أي: السبل التي يحصل بها السلام، فالسلام من كل شيء، والسلام من النار، والسلام من الزيغ، والسلام من الشبهات، يعني تشمل كل معنى تحتمله كلمة السلام.

قوله: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾ ﴿يخرجهم﴾: أي: الله عزّ وجل، والمراد بقوله: يخرجهم أي: من اتبع رضوانه، وعاد الضمير في قوله: ﴿يخرجهم﴾ إلى ﴿مَنْ﴾ بلفظ الجمع مراعاة لمعناها؛ لأن ﴿من﴾ لفظها مفرد ومعناها قد يراد به الجمع، فصح أن يعود الضمير إليها مجموعاً، وهذه قاعدة في «من»، سواء كانت اسماً موصولاً أو اسم شرط، فيجوز أن يعود الضمير إليها بلفظ الجمع باعتبار المعنى وبلفظ الإفراد باعتبار اللفظ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]، فتجد أن الله تعالى أعاد الضمير إليها مرة بلفظ الجمع ومرة بلفظ الإفراد، ثم أعاد مرة ثانية بلفظ الإفراد.

فقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ الضمير جاء بلفظ الإفراد، وقوله: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ إفراد أيضاً، ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أعاد الضمير بصيغة الجمع، وقوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ جاء بصيغة الإفراد.

قوله: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾ الظلمات، ظلمات الجهل والشرك والمعاصي والفسوق وغير ذلك.

قوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ الإذن: هنا قدري، والإذن القدري بمعنى: المشيئة والإرادة، ويقابله الإذن الشرعي، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، معلوم أن الله أذن لهم قدراً لكنه لم يأذن لهم شرعاً، ومن الإذن الشرعي قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، ومن الإذن القدري قوله في هذه الآية: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فالإذن نوعان: إذن قدري وإذن شرعي.

والفرق بينهما: أن الإذن الشرعي لا يكون إلا فيما يرضاه الله عزّ وجل، والإذن القدري يكون فيما يرضاه وفيما لا يرضاه، هذا **الفرق الأول**.

والفرق الثاني: أن ما أذن به شرعاً فقد يقع وقد لا يقع، إذ إن الناس قد يمتثلون، وقد لا يمتثلون وأما ما أذن به قدراً فلا بد من وقوعه.

قوله: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الهداية إذا تعدَّت بـ «إلى» فهي هداية الدلالة، وعلى هذا فمعنى قوله: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: يدلهم إليه، وهذا يعني فتح أبواب العلم لهم حتى يعلموا ما لم يكونوا يعلمونه من قبل.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: خطاب اليهود والنصارى بأهل الكتاب، وقد يقول قائل: في هذا إكرام لهم وإعزاز لهم أن سماهم أهل الكتاب؟

والجواب عن ذلك أن نقول: سماهم أهل الكتاب لا إكراماً لهم، ولكن إقامة للحجة عليهم؛ لأن أهل الكتاب هم الذين يجب عليهم أن يكونوا أول عامل به، كما قال تعالى في أول سورة البقرة: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٤١].

إذاً: فالذين يطنطنون الآن ويريدون أن يقربوا بين الأديان ويقولون: إن الله سماهم أهل كتاب، زعماً منهم أو إيهاماً منهم أن ذلك من باب التكريم لهم والرضا بما هم عليه، نقول: إن الله لم يخاطبهم بذلك تكريماً لهم، وكيف يكون ذلك إكراماً لهم؟ والله يقول: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: ٦٠]، لكنه ناداهم بهذا الوصف، إقامة للحجة عليهم، وأن تصرفهم أبعد ما يكون عن العقل؛ لأن أهل الكتاب يجب أن يكونوا أول عامل به.

الفائدة الثانية: رفع شأن النبي ﷺ وذلك لقوله: ﴿رَسُولُنَا﴾، فإن إضافة رسالته إلى الله لا شك أنها شرف، وكل ما يضاف إلى الله فهو شرف، حتى الجماد إذا أضيف إلى الله كان ذلك شرفاً له، قال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ [الحج: ٢٦].

الفائدة الثالثة: أن محمداً رسول الله مرسلٌ إلى أهل الكتاب لقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾، وهو كذلك، حتى أقسم النبي ﷺ «أنه لا يسمع به يهوديٌ ولا نصراني ثم لا يؤمن بما جاء به إلا كان من أصحاب النار»[1]، فهو مرسل إليهم بالقرآن والسنة وإجماع المسلمين.

---

(١) تقدم ص١٦٣.

الفائدة الرابعة: أن محمداً رسول الله مبيِّن لقوله: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ فهو عليه الصلاة والسلام سراجٌ منير، مبين للخلق كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، والتبيين الذي ذكره الله هنا يشمل تبيين اللفظ وتبيين المعنى، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

الفائدة الخامسة: أن أهل الكتاب أهل كتمان للعلم، لقوله: ﴿كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

الفائدة السادسة: أن من كتم العلم من هذه الأمة ففيه شبه باليهود والنصارى؛ لأن هذا هو دأبهم، فمن كتم فقد شابههم في أقبح خصلة ـ والعياذ بالله ـ وهي كتمان ما جاءهم من العلم.

الفائدة السابعة: أن رسول الله ﷺ سكت عن أشياء من معايب أهل الكتاب لم يبيِّنْها لهم.

فإذا قال قائل: لماذا لم يبيِّن ويفضحهم؟

قلنا: فضيحتهم فيما بُيِّن كافية، وأما السكوت عما لم يبين؛ لأن المصلحة تقتضي ذلك، وقد يكون في هذا نوع من التأليف، أي: من تأليف قلوبهم.

الفائدة الثامنة: أن ما جاء به محمدٌ رسول الله ﷺ كله نور، نور يشع، إن تأملت أخباره استنرت بها، وأحكامه كذلك، فهو نور يستنير به الإنسان في طريقه إلى الله عزّ وجل، وفي طريقه إلى معاملة عباد الله.

هو أيضاً نور في القلب، فكل من تمسك بشريعة محمدٍ ﷺ ازداد نوراً في قلبه وفراسة واستنباطاً للأحكام الشرعية وغير ذلك.

هو أيضاً نورٌ في الوجه؛ لأن المتمسك بشريعة النبي عليه الصلاة والسلام لا بد أن يؤثر ذلك عليه في مقاله وفعاله وحاله، فيستنير الوجه، ولهذا تجد للعلماء الربانيين، نوراً في وجوههم يكاد يكون محسوساً، أما المعنوي فمعلوم حتى لو كان العالم الرباني جلده ليس بأبيض فإنه يستنير وجهه، والنور شيء واللون شيء آخر.

ونورٌ أيضاً في القبر، فإن الإنسان إذا كان مؤمناً ـ جعلنا الله منهم ـ يفسح له في قبره مد بصره ويأتيه من روح الجنة ونعيمها[1]، هو أيضاً نورٌ يوم القيامة قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢].

إذاً: فكلمة نور شاملة عامة في كل ما يمكن أن يكون فيه ظلمة فالدين الإسلامي ينيره.

الفائدة التاسعة: أن القرآن مكتوب، وتقدم أنه مكتوب في المصاحف التي بين أيدينا وفي اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة.

الفائدة العاشرة والحادية عشرة: أن القرآن الكريم مبيِّن للأشياء، وأوضح من ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وكلمة «مبين» ذكرنا في التفسير أنها يصح أن تكون متعدية أو لازمة، فإن كانت لازمة فالمعنى: أنه بيِّن بنفسه، وإن كانت متعدية فالمعنى: أنه مبين لغيره، والقرآن لا شك أن بيانه بنفسه وإبانته لغيره هو وصفه، فإذا كان مبيناً وتبياناً لكل شيء، ألا يتفرع على هذا أنه لا يليق بنا أن نعرض

---

(١) رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، وأحمد (٤/ ٢٨٧) (١٨٥٥٧) عن البراء بن عازب.

عن تدبره بل علينا أن نتدبره، وأول ما يرد علينا من المسائل نطلبها في كتاب الله، فإن عجزنا عن استبيانها في كتاب الله ففي سنة رسول الله ﷺ، وسنة رسول الله مبينةٌ للقرآن بأمر الله، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فإذا لم يكن في القرآن ولا في السنة وعجزنا عن إدراك الحكم الشرعي في الكتاب والسنة، حينئذٍ إما أن نسأل أهل الذكر، لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وإما أن نتوقف، وإن كان الإنسان أهلاً للاجتهاد فلا حرج عليه أن يجتهد كالإنسان الذي لا يعرف القبلة بنفسه ولا أخبره بها ثقة، فعليه أن يجتهد ويتحرى.

الفائدة الثانية عشرة: أن الهداية بيد الله ولهذا أدلة كثيرة، كقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣]، والآيات في هذا كثيرة، فالهداية بيد الله، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وإذا كانت من الله، تفرع عن ذلك:

أولاً: أن لا نسأل الهداية إلا من الله وأن نلح على ربنا عزّ وجل بالهداية: اللهم اهدني، اللهم اهدني دائماً.

ثانياً: أن نعلم أن أفعالنا لا نستقل بها بل هي بتوفيق الله جلَّ وعلا، فيكون فيها رد على القدرية، إذا كان الله جلَّ وعلا يهدي معناه أن لأفعالنا علاقة بهداية الله، فيكون في ذلك رد على القدرية القائلين: بأن الإنسان مستقل بنفسه وبعمله وبمشيئته وبقدرته، وهل فيها موافقة للجبرية؟

الجواب: اقرأ قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ فأضاف الاتباع إليه، خلافاً للجبرية الذين يقولون: إن الإنسان لا ينسب إليه فعله.

الفائدة الثالثة عشرة والرابعة عشرة: أنه كلما اتبع الإنسان ما يرضي الله ازداد معرفة بشريعة الله، لقوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ واذكرها بالعكس من أعرض عن رضوان الله فإنه لا يهدى سبل الله؛ لأنه ليس أهلاً للهداية، وعلى هذا فنقول لكل طالب علم: أتريد أن يهديك الله ويرزقك علماً؟ سيقول: بلى، نقول: عليك باتباع رضوان الله، كلما رأيت شيئاً يرضي الله فافعله، وكلما رأيت شيئاً يغضب الله فاجتنبه.

الفائدة الخامسة عشرة: إثبات الرضا لله، لقوله: ﴿رِضْوَٰنَهُۥ﴾، والرضا: صفة فعلية من صفات الله عزّ وجل، تتعلق بمشيئته ولها سبب، وسببها عمل العبد بتوفيق الله، وكل صفة من صفات الله يكون لها سبب فإنها من الصفات الفعلية؛ وذلك لأن السبب واقع بمشيئة الله، والصفة التابعة له تكون واقعة بمشيئة الله، فالرضا والغضب والفرح والضحك والعجب وما أشبه ذلك كلها من الصفات الفعلية.

لكن **لو قال قائل**: هل رضا الله عزّ وجل كرضا المخلوق؟

الجواب: لا، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، هذا دليل أثري، والدليل العقلي: أنه إذا كانت ذات الرب عزّ وجل لا تماثل ذوات المخلوقين فكذلك صفاته؛ لأن القول في الصفات فرع عن القول في الذات، هذا ما مشى عليه أهل السنة وقالوا: ليس لنا أن نتحكم

في كلام الله ورسوله بمقتضى أفهامنا، ولا أقول عقولنا؛ لأن عقولنا تبع تقتضي التبعية للكتاب والسنة، لكن بمقتضى أفهامنا، وهؤلاء المعطلة، كما قال شيخ الإسلام رحمه الله: أوتوا فهوماً وما أوتوا علوماً، عندهم فَهْم لكن ليس عندهم علم وليس عندهم عقل، أوتوا ذكاءً وما أوتوا زكاءً.

أهل السنة يؤمنون بهذه الصفات، ويؤمنون بأنها لا تماثل صفات المخلوقين، أهل التعطيل يقولون: لا، لا نؤمن بهذا؛ لأن هذه صفات نقص، الرضا صفة نقص، والمحبة صفة نقص، والغضب صفة نقص، فيجب أن نفسرها بلازمها، أو نسكت ونقول: لا نعلم معناها، يعني أهل التعطيل عندهم لا يمكن أن نتجاوز أحد الطريقين إما أن نعطل وإما أن نفوض، التفويض المعنوي ليس التفويض الكيفي بل المعنوي، وفي ذلك يقول صاحب الخلاصة:

وكل نص أوهم التشبيهَ فوضه أو أوِّل ورم تنزيها

الواقع أن هذا ما نزه الله بل العكس نحن نقول: الرضا: صفة ثابتة لله عزّ وجل تستلزم الإثابة والإكرام، هم يقولون: لا، الرضا: هو الإثابة والإكرام وعبر عنه بسببه الملازم له، فنقول: يا ويل الإنسان أن يسمع كلام الله: يقول عن نفسه أنه يرضى ثم يقول: لا ترضى، إنه ليس لك رضا، ليس لك غضب، ليس لك فرح ـ لا إله إلا الله ـ كيف لا يكون له ذلك وهو الذي أخبر عن نفسه ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، كيف يصف نفسه بما ليس متصفاً به وهو الذي يقول لعباده: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]؟ وهل هذا إلا

إلغاز أن يتكلم بكلام الله عزّ وجل وهو يريد خلافه؟ هذا إلغاز وتعمية، ولو أن المعطل فكر قليلاً لوجد أن تعطيله من أكبر العدوان في حق الله عزّ وجل.

نحن نقول: الإثابة ناتجة عن الرضا وهي دليل على الرضا، يعني دليلاً عقلياً على الرضا؛ لأن من أثابك يدل على أنه راضٍ عنك، فسبحان الله! تجد أن أهل الباطل سواء في المسائل العملية أو العلمية تجدهم متناقضين، وعلى هذا فالقاعدة الأصيلة الرصينة:

أولاً: أن تثبت ما أثبته الله لنفسه في القرآن أو السنة.

ثانياً: أن تنفي عنه مماثلة المخلوقين وبذلك تسلم، أما أن تؤول ـ والحقيقة ـ أما أن تحرف فهذا ضلال، ومن الضلال أيضاً أن تفوض، كقولك: والله ما أدري، الرضا لا أدري ما هو، أنا لا أقرأ القرآن ولا أتكلم في شيء، هذا أيضاً شر عظيم، حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن مذهب المفوضة من شر أقوال أهل البدع والإلحاد، وصدق رحمه الله، إذا تأملت قول المفوضة عرفت أنه كفر وإلحاد، كيف ينزل الله علينا قرآناً، أشرف ما فيه أن نعلم بالله عزّ وجل وبأسمائه وصفاته وأحكامه وأفعاله، ثم لا نجد سبيلاً إلى فهم المعنى، ونجعلها عندنا بمنزلة ألف، باء، تاء.

وسبحان الله كيف يليق برجل مؤمن، أن يقول: ما قصه الله علينا عن فرعون وهامان وقارون معلوم المعنى، وما قص علينا عن نفسه غير معلوم، أي فائدة لنا من القرآن، ما دام ليس معلوماً فإننا لن نستفيد منه، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ

ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، أي: إلا قراءة، معناه أنه ليس لنا حظ ولا نصيب إلا مجرد القراءة، على كل حال عقيدتنا: أن نؤمن بكل ما أثبته الله لنفسه في القرآن أو في السنة، من غير تمثيل وبذلك نسلم في عقيدتنا.

لو قال قائل: كثيراً ما نقول في مسائل الاعتقاد: ثبت بالحس والعقل والنقل، ويقول بعضهم: ثبت بالعقل والنقل، وآخر يقول: ثبت بالحس والنقل، ما الفرق بين الحس والعقل؟

الجواب: الحس: ما تدركه بالحواس كاللمس والشم والذوق.

والعقل: ما تدركه بقلبك، أي: بعقلك، هذا الفرق، وممكن أن يجتمع الدليل السمعي العقلي والحسي، مثال ذلك: اليد تضاف إلى الإنسان وتضاف إلى البعير وتضاف إلى الذرَّة، فاختلافها مدرك بالحس، كلنا نعرف هذا يده كذا، وهذا يده كذا، وهذه يدها كذا، ودليل العقل أن تقول فيما يتعلق بصفات الله: إذا كانت ذات الخالق لا تماثل المخلوق، فكذلك صفاته هذا دليل عقلي ليس حسياً.

الفائدة السادسة عشرة: أن طرق السلامة كثيرة متعددة، لقوله: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾؛ فمثلاً: أركان الإسلام خمسة، كل واحد سبيل، أبواب الجنة ثمانية كل باب له أناس مختصون به، إذاً: هناك سبل وهناك أبواب، والمراد بذلك الشرائع، أما الإسلام جملة فهو سبيل واحد.

الفائدة السابعة عشرة: أن من سلك سبيل الشريعة فقد سلم، لقوله: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾، سلم بكل معنى الكلمة، سلم في عقيدته.. في أعماله.. في جزائه؛ لأن هذا المسلك سيؤدي به

إلى دار السلام التي يدعو الله إليها قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥].

لو قال قائل: ما حكم من يقول: إن أهل الكتاب ليسوا كفاراً؟

الجواب: هذا لا يعذر لأن هذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام، وإذا قال: إن أهل الكتاب يعني: اليهود والنصارى غير كفار فإنه قد كذب القرآن، ويعتبر مرتداً، إما أن يقر ويقول: هم كفار قامت عليهم الحجة، وإذا مات على هذا فهو من أصحاب النار، وإما أن يقتل ليكون معهم، وأخبرني بعض الطلبة بأن كثيراً من العوام لا يكفر أهل الكتاب، يقولون: هؤلاء يهود ونصارى ليسوا بكفار، فيجب أن يبيِّن، وهذه البدعة ما سمعناها إلا الآن، فهم كفار بنص القرآن، وإذا كان هذا في بلاد نجد فكيف بغيرنا؟ قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، وهذه أشياء واضحة، أليس الرسول ﷺ قاتل أهل الكتاب؟

الجواب: بلى، وأخذ منهم الجزية ومن لم يسلمها قتله، هل الرسول عليه الصلاة والسلام يقتل المسلمين؟ على كل حال: إذا كان هذا الأمر مشتبه على الناس يجب أن يبين في كل مناسبة، وكما ذكرنا سابقاً أن الله يناديهم بأهل الكتاب لإقامة الحجة عليهم لا إقراراً لما هم عليه ولا إكراماً لهم.

الفائدة الثامنة عشرة: الرد على القدرية الذين يقولون: إن الله لا علاقة له بفعل العبد، فالآية صريحة لقوله: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾.

الفائدة التاسعة عشرة: أن المعاصي ظلمات، والكفر والشرك أعظمها ظلماً، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، والافتراء على الله كذباً من أعظمها ظلماً قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٩٣]، ومنع المساجد أن يذكر فيها اسم الله، من أعظمها ظلماً قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤].

المهم: أن المعاصي كلها من الظلمات، الجهل أيضاً ظلمة؛ لأنه يُعمِّي على الإنسان الطريق ولا يدري أين يذهب، ولا أين يلجأ وكيف يعمل، وكذلك أيضاً من الظلم ظلم العباد بالعدوان عليهم في أموالهم أو أبدانهم أو أعراضهم.

الفائدة العشرون: أن الشريعة نور وهي كذلك، هي نور لا شك، ولا يحس بذلك إلا من آتاه الله تعالى إيماناً ويقيناً كاملاً، وكلما كمل الإيمان ازداد الإنسان نوراً وتبين له نور الشريعة ـ نسأل الله أن يبين لنا ذلك ـ.

الفائدة الحادية والعشرون: إثبات الإذن لله عزّ وجل ولست أقصد بالإذن الأذن التي يسمع بها؛ لأن هذا أمر لا نعلمه، لكن الإذن الذي هو الإرادة، وهو نوعان: إذن شرعي وإذن كوني، فالإذن الشرعي: ما شرعه الله عزّ وجل، فكل ما شرعه الله فقد أذن به شرعاً، ولا يلزم من الإذن الشرعي وقوع ما أذن الله به، والإذن القدري أو الكوني: هو ما أراده الله عزّ وجل وهذا الإذن لا بد أن يقع؛ لأنه إرادة الله ـ، لكن قوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ هل المراد الإذن الشرعي أم القدري؟

الجواب: القدري؛ لأن إخراجهم من الظلمات إلى النور يتعلق بالربوبية أي: بالقدر.

الفائدة الثانية والعشرون: أنه كلما تمسك الإنسان بشريعة الله هداه الله تعالى، لقوله: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فالمعاصي سبب للزيغ، والطاعة والامتثال سبب للهداية والرشد، وهذا له أمثلة كثيرة في القرآن ولا حاجة إلى استيعابها؛ لأنها تمر كثيراً.

الفائدة الثالثة والعشرون: أن الطرق منها المستقيم ومنها المعوج، فطريق الله تعالى مستقيم، وما سواه من الطرق فإنه معوج، ليس فيه قيام ولا يوصل إلى نتيجة.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ١٧].

قوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ لا يخفى أن الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات وهي: «اللام»، و«قد»، والقسم المقدر؛ لأن قوله: و﴿لَّقَدْ﴾ يقدر بقولك: واللهِ لقد كفر الذين قالوا.

إذا قال قائل: ما الذي أعلمكم أن هناك شيئاً محذوفاً هو القسم؟ نقول: أعلمنا ذلك ربنا عزّ وجل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ

مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥]، واللسان العربي: كلما جاءت مثل هذه الصيغة فهي مقدرة بقسم، وعلى هذا فيكون الذي دلنا على ذلك هو كلام الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، وهؤلاء هم النصارى بنص القرآن: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾ «هو»: ضمير فصل، وضمير الفصل يفيد ثلاثة أشياء: الأول: الحصر، والثاني: التوكيد، والثالث: التمييز بين الصفة والخبر، وهذا الأخير أحياناً يستغنى عنه ويعرف الخبر بدونه لكن يؤتى به، كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء: ٤٠] فـ: ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ودليل ذلك نصب ما بعده، وإلا لكان مرفوعاً، ففي قوله: ﴿إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ لا نحتاج لضمير الفصل للتمييز بين الصفة والخبر؛ لأن الضمائر تنعت ولا ينعت بها، وهنا لا يمكن أن تكون ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ نعتاً للواو من وجهين: أولاً: للقاعدة التي ذكرنا وهي أن الضمائر لا تنعت ولا ينعت بها، والثاني: أن ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ منصوبة، والواو مرفوعة، فلا يمكن أن تكون نعتاً لها.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أكدوا تأكيداً بهذا الضمير أن الله هو المسيح ابن مريم قاتلهم الله أنى يؤفكون، كيف يكون الله هو المسيح ابن مريم، ابن مريم مخلوق وليس بخالق، الخالق هو الله عزّ وجل، فكيف يكون الخالق عين المخلوق؟ هذا مستحيل عقلاً كما هو مستحيل شرعاً، هم أيضاً قالوا: إن المسيح ابن الله، كما قالت اليهود: عزير ابن الله.

وقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، «المسيح»: بمعنى الماسح، والمسيح الدجال بمعنى الممسوح، وليُنتَبه إلى الفرق: المسيح هنا بمعنى: الماسح، قال العلماء: لأنه لا يمسح ذا عاهة إلا برأ بإذن الله، يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله فسمي مسيحاً، المسيح الدجال: مسيح: بمعنى ممسوح؛ لأن عينه ممسوحة حيث إنه أعور، وأما من استحب من العلماء رحمهم الله وعفا عنهم، أن يقال للمسيح الدجال: المسيخ، يعني ممسوخاً، وفي عيسى ابن مريم المسيح فهذا غلط؛ لأن الذي علّم أمته أن يقولوا: «**أعوذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال**»[1] أعلم منهم بذلك ومع ذلك سماه المسيح.

وقوله: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أضافه إلى أمه؛ لأنه ليس له أب، وسيأتينا في الفوائد إن شاء الله أن من ليس له أبٌ يضاف إلى أمه، ومريم هي بنت عمران وأخت هارون.

وهل هي أخت لموسى وهارون عليهما السلام؟

الجواب: لا، بل سميت بذلك؛ لأنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم، وإلا فبينها وبينهما زمن بعيد.

قوله: «قل» يعني يا محمد، لهؤلاء: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، الله أكبر! حجة دامغة، من يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر، حديث رقم (١٣١١)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، حديث رقم (٥٨٨) عن أبي هريرة.

إذاً: فالمسيح ابن مريم، مربوب مقدور عليه، يقدر الله على أن يهلكه وأمه ومن في الأرض جميعاً، فكيف يكون هو الله عزّ وجل؟ هذا لا يمكن، لو أراد الله تعالى أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً، لا أحد يملك من الله شيئاً، وهذه حجة دامغة، والدليل على هذا: أن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، حاول اليهود أن يقتلوه، وفعلاً دخلوا وقتلوا من ألقى الله شبهه عليه، وقالوا: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٥٧].

قوله: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ «يملك» بمعنى: يمنع، من يمنع شيئاً أراده الله إن أراد بالإرادة الكونية القدرية أن يهلك المسيح ابن مريم، أي: يتلفه بعد أن كان موجوداً، المسيح ابن مريم الذي قلتم إنه هو الله، وأمه أيضاً التي أتت به فيهلك الفرع والأصل، الفرع عيسى والأصل أمه، فالله تعالى لو أراد أن يهلك المسيح الذي زعمتم أنه الله وأصله التي هي أمه، ومن في الأرض جميعاً، هل أحدٌ يملك أن يمنع الله جلَّ وعلا؟ لا واللهِ، لا أحد يملك أن يمنع الله، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥]، والقادر على أن يبعثهم بكلمة واحدة كلهم يوم القيامة قادر على أن يهلكهم بكلمة واحدة ولا أحد يرده ولا أحد يملك منه شيئاً.

قوله: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ جميعاً: هذه حال من المسيح وأمه ﴿وَمَن﴾ في قوله: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني يهلكهم كلهم.

ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، كل ما في السمٰوات والأرض، كل ما نشاهده فهو مملوك لله، وإذا كان

مملوكاً لله، تعذر أن يكون هو الله، فاستدل الله عزّ وجل على أنه ليس الله بأمرين:

الأول: أن المسيح لا يملك أن يدفع شيئاً عن نفسه لو أراد الله أن يهلكه.

الثاني: أن كل شيء في السماء والأرض فهو ملك لله فكيف يكون عيسى هو الله؟ كيف يكون المملوك مالكاً؟ هذا مناقض للعقل والفطرة.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، السمٰوات وهي سبع، والأرض وهي سبع، السمٰوات بنص القرآن أنها سبع، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦]، لكن الأرض ليس في القرآن تصريح بأنها سبع، لكن في القرآن ما يدل على أنها سبع، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، لو أردنا أن نقول: المماثلة في الوصف أو المماثلة في الكبر، أو المماثلة في العظم لكذبنا الواقع، إذ لا مقارنة بين السماء والأرض.

فإذا امتنعت الكيفية تعينت الكمية، فيكون المراد بقوله: ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ أي: في العدد، وجاءت السنة صريحة بأنها سبع أراضين، كما في قوله ﷺ: «**من اقتطع من الأرض شبراً بغير حق ـ أو قال ظلماً ـ طوقه يوم القيامة من سبع أرضين**»[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض، حديث رقم (٢٣٢١)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، حديث رقم (١٦١٠) عن سعيد بن زيد، واللفظ لمسلم.

لو قال قائل: ذكرتم فيما سبق أن الأراضين سبع فأين الست الباقية؟

الجواب: الست الباقية في جوف هذه الأرض؛ لأن النبي ﷺ قال: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله به يوم القيامة من سبع أرضين**»[1]. وهذا يدل على أن الأراضين في جوف هذه الأرض، لكن كيف؟ لا ندري.

وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ما بين السماء والأرض، لكن قد يقول قائل: لماذا جعل الله تعالى ما بين السماء والأرض عديلاً للسماء والأرض؟ قلنا: لأن بين السماء والأرض من الآيات العظيمة ما جاز أن يكون قسيماً للسمٰوات والأرض وعديلاً لهما.

إذاً نقول: «ما بينهما»: فيه آيات عظيمة، وتجول الناس الآن في الكون وفي الآفاق يدل على أن هناك أشياء من أعجب ما يكون من مخلوقات الله عزّ وجل، ولهذا في القرآن الكريم كثيراً ما يقرن ما بينهما، أي: بين السماء والأرض.

قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ هذا الدليل الثالث؛ لأن النصارى البلهاء الضلال قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم؛ لأنه خلق بدون أب، وافتدى بنفسه جميع الخلق، على زعمهم أن الخلق كانوا مستحقين للعذاب والعقوبة، وأن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام افتدى الخلق بنفسه وصبر على القتل وعلى الصلب، فاستحق أن يكون إلهاً لهم.

قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ وإذا كان يخلق ما يشاء، فمن الذي يحجر عليه أن يخلق شخصاً من أم بلا أب، فقد خلق الله آدم لا

---

(١) تقدم ص٢٢٥.

من أم ولا من أب، وخلق حواء من أب بلا أم، وخلق عيسى من أم بلا أب، وخلق بقية البشر من أم وأب، فالله على كل شيء قدير.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا الدليل الرابع، فبقدرته خلق عيسى من أم بلا أب.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: التصريح والتأكيد بكفر من قال: إن الله هو المسيح ابن مريم وهم النصارى، فما بقي شك في أن النصارى كفار، ومن قال: إنهم غير كفار وأنهم مؤمنون فإنه كافر إن علم ما جاء في القرآن والسنة من كفرهم؛ لأن لازم قوله هذا تكذيب الله ورسوله، وما أدري ـ سبحان الله ـ؟ أيداهنون النصارى من أجل أنهم أقوياء مادياً وينسون من الذي أقدرهم على هذه المادة، من الذي أقدرهم على هذه المادة إلا الله، فكيف يخشونهم ولا يخشون الله؟ كيف يداهنونهم ويبسطون لهم الأرض ويفرشون لهم وروداً، ويقولون: أنتم مؤمنون بالله واليوم الآخر، وأنتم على دين، ونحن على دين، واليهود على دين، وكأن الخلاف الذي بيننا وبين اليهود والنصارى، كالخلاف الذي بين أحمد بن حنبل ومحمد بن إدريس ـ سبحان الله ـ وهذه البدعة راجت على بعض الناس حتى راج أنه لا يجوز قتل المرتد؛ لأن الناس أحرار، يختار الإنسان من دينه ما يشاء، ولا إكراه في الدين ـ سبحان الله ـ هذا انقلاب ـ نسأل الله العافية ـ هذا أشد من التفسخ الخلُقي؛ لأن هذا يعود على العقيدة، وأن لا نتبرأ منهم والله عزّ وجل يقول: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ

وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

لماذا نداهنهم؟ بل نكفرهم ونقول ما قال نبينا عليه الصلاة والسلام: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[(١)] ونقول: إن آمنوا بمثل ما آمنا به فقد اهتدوا وإلا فهم على ضلال، لكننا في الحقيقة لا نستطيع الآن أن نقاتلهم ولا أن نجاهدهم، لأسباب كثيرة:

منها: أنه ليس عندنا حصيلة إيمانية توجب أن نقاتلهم، فالإيمان ضعيف في عامة المسلمين، لا أقول: في كل واحد، بل في عامتهم.

ثانياً: ليس عندنا حصيلة الاستقامة على دين الله وعلى العبادات، أين من يصوم النهار ويقوم الليل؟ كثير من المسلمين لا يصلون الصلاة في وقتها، وكثير من المسلمين لا يصلونها أبداً ولا يعرفون كيف يتوضؤون، أين الحصيلة؟

الثالث: أنه ليس عندنا غيرة دينية، بمعنى أن نقاتلهم من أجل الدين، كثير من الذين يقاتلون الكفار يقاتلونهم للأرض أو لآثار حسية كآثار الجاهلية، لا يقاتلونهم من أجل أن يقيموا دين الله على أرض الله، وتأمل هذا تجده واضحاً، وهناك أسباب أخرى لا يطيب لي أن أقولها في هذا المقام لكنها تظهر للمتأمل.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم (٣٢٦٧)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، حديث رقم (٥٣١) عن عائشة وابن عباس.

فنحن الآن في الحقيقة عاجزون عن مقاومتهم، لكن لا يجوز بأي حال من الأحوال أن نداهنهم في دين الله؛ لأنهم هم يودون، كما قال الله عزّ وجل: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩]، يودون هذا، لكن يأبى الله عزّ وجل ـ إن شاء الله تعالى ـ أن نداهنهم في دين الله أبداً، ولن نداهن، نسالمهم ما دمنا ضعفاء وإلى أن يأذن الله لنا بالقوة ويأذن لهم بالضعف.

وأما مسألة الدين فلا يمكن إطلاقاً أن نبيع ديننا لهم ولا لغيرهم، ولا يحل لنا هذا، لكن مع الأسف أنه يوجد الآن من يحطمون الدين باسم الدين: الدين الإسلامي دين التسامح، دين التساهل، دين المحبة، هذا ليس بصحيح على إطلاقه، فالتسامح مع من؟ مع إخواننا المسلمين؟ نعم، أما غيرهم فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٧٣﴾ [التوبة: ٧٣]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ۝١٢٣﴾ [التوبة: ١٢٣]، لكن مَنْ مد إلينا يد المسالمة مددنا إليه يد المسالمة، إذا كنا عاجزين عن المقاومة، لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، أما الدين فلا نرضى أن يصاب بشيء أبداً بل نقول: دين الإسلام دين خاص يمتاز عن غيره بأنه يؤمن بجميع الأديان أنها حق من عند الله، لكنها منسوخة بالإسلام، بعض الناس الجهال يقولون: اليهود يؤمنون بموسى والنصارى يؤمنون بعيسى، ثم يقول: كلٌ يؤمن بنبيه ما المانع؟!

نقول: اقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ

وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾ [النساء: ١٥٠] بعدها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١]، أكد الله كفرهم، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ هؤلاء النصارى واليهود الآن يقولون: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]، اليهود يدعون أنهم يؤمنون بموسى، والنصارى يدعون بأنهم يؤمنون بعيسى، ويكفرون بمحمد، محمد الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ من يخاطب؟ الأنبياء ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ عهدي الثقيل ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

إذا كان أنبياؤهم قد أُخذ عليهم العهد أن يؤمنوا بمحمد فهم من باب أولى ومع ذلك يكفرون بمحمد عليه الصلاة والسلام، ويقولون: نحن مؤمنون، ثم نقول لهم: أنتم في الحقيقة ما آمنتم؛ لأن محمداً ﷺ موجود في التوراة وفي الإنجيل، مكتوب عندهم يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، هذا موجود، بل قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، مثل ما يعرف الرجل ابنه، يعرف أن محمداً رسول الله ومع ذلك كفروا، كيف نقول: هؤلاء مؤمنون؟

ثم نقول: إن الله تعالى حكم على كل إنسان كفر برسول أنه كافر بجميع الرسل، حتى بمن لم يأتِ من الرسل فهو كافر به، قال الله تعالى في قوم نوح: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾

[الشعراء: ١٠٥]، من بعث من الرسل قبل نوح؟ لا أحد، ومع ذلك قال الله تعالى: إنهم كذبوا المرسلين.

فهؤلاء الذين يدعون أنهم مؤمنون بموسى وبعيسى نقول: أنتم الآن كافرون بموسى وعيسى، كافرون الكفر العام والكفر الخاص، أما العام: فكل من كذب رسولاً فقد كذب جميع الرسل، أما الخاص: فإن رسلكم جاءت كتبهم صريحة بأن محمداً رسول الله حقاً، وعرفتموه كما تعرفون أبناءكم.

ونحن أطلنا في هذا وتكلمنا على ذلك بكلام طويل ليس له مساس بالتفسير لكن له مساس بالواقع؛ لأن الدنيا أمامي مدلهمة من مثل هذه الأفكار الخبيثة الرديئة التي يريدها بعض من ليس عنده إيمان إلا أن يشاء الله.

فيجب علينا أن نقاوم هذا الفكر مقاومة تامة بقدر ما نستطيع الآن، هذا جهاد ليس بالسيف لكنه جهاد بالرأي والفكر، فلا يجوز السكوت على هذا إطلاقاً، فالحاصل أن في الآية الكريمة: كَفَّر الله تعالى كفراً مؤكداً من قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم.

الفائدة الثانية: الثناء على عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، لكون الله وصفه بأنه المسيح، والمسيح علمُ لقب، أما اسمه العلم بلا لقب فعيسى.

الفائدة الثالثة: جواز انتساب الإنسان إلى أمه إذا لم يكن له أب، لقوله: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ وأخذ المحققون من أهل العلم، أن من ليس له أب فإن عصبته أمه إذا لم يكن له عصبة؛ لأنه نسب إليها وجعلت بمنزلة الأب، أما إن كان له عصبة فأمه تأخذ فرضها والباقي لعصبته.

فإذا كان هناك ابن لامرأة ليس له أب، إما أنه ولد زنا أو أن أباه نفاه والتعن بنفيه أو لم يلتعن على خلاف، المهم أنه ليس له عصبة، ثم تزوج وجاء له أبناء، أمه هنا ليس لها إلا فرضها وهو السدس، والعاصب هنا أبناؤه، أما لو مات هذا الابن عن أمه وإخوانه من أم ليس لأب، فإخوانه من أمه يأخذون فرضاً، إن كان واحداً فالسدس، وإن كانوا أكثر فالثلث، وأمه تأخذ الفرض والباقي تعصيباً، لأنها بمنزلة الأب، وهذا القول هو الراجح: أن من ليس له أبٌ فعصبته أمه.

فإن قال قائل: إن كان للإنسان أب فهل يجوز أن ينسب إلى أمه؟

نقول: إن كان المراد الانتساب المطلق فهذا لا يجوز، وإن كان الانتساب لأنه اشتهر بها لكنه معروف أنه ولد فلان، فهذا لا بأس به، فمثلاً عبد الله بن بحينة: بحينة اسم أمه واسم أبيه مالك، ومع ذلك يطلق عليه هذا الاسم، كما نقول أيضاً في الانتساب إلى الجد، إذا كان للجد شهرة والانتساب إليه يعد شرفاً دون أن ينقطع الانتساب إلى الأب فلا بأس بذلك، ومنه قول النبي ﷺ عام حنين: **«أنا النبي لا كذب، أنا بن عبد المطلب»**[1] صلوات الله وسلامه عليه؛ لأن عبد المطلب أشهر من عبد الله في قومه، وهو سيد معروف فلا بأس، لكن بشرط أن لا ينسى الأب، أما إن نسي فلا يجوز؛ لأنه يترتب على هذا مسائل حكمية.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، حديث رقم (٢٧٠٩)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، حديث رقم (١٧٧٦) عن البراء بن عازب.

الفائدة الرابعة: شدة الرد على النصارى حيث قال الله عزّ وجل: ﴿ٱلْمَسِيحَ﴾ ﴿وَأُمَّهُۥ﴾ المسيح: الذين يرونه إلهاً، يقول الله عزّ وجل: لو أراد الله أن يهلكه ما استطاع أحد أن يمنعه، وهذا لا شك أن فيه صدمة قوية للنصارى، أن يقال في معبودهم وإلههم: إن الله تعالى قادر على أن يهلكه، وإذا أراد أن يهلكه فلا أحد يملك منعه.

الفائدة الخامسة: أنه إذا أراد الله شيئاً فإن الشرف والجاه والرئاسة ولو في الدين لا تمنع مما أراد الله؛ لأن المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام من أولي العزم من الرسل، ومع ذلك يقول الله عزّ وجل: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

الفائدة السادسة: أن نساء أهل الكتاب ـ ولو كانوا كفاراً، لكنهم منتسبون لأهل الكتاب ـ حلال، خلافاً لمن قال من العلماء: إنهم بعد أن بدلوا وغيروا وأشركوا فنساؤهم حرام، والصواب: أنَّ نساءهم حلال كطعامهم، ولو كانوا قد بدلوا وغيروا وكفروا وأشركوا.

الفائدة السابعة: الرد على أهل الباطل بالأدلة السمعية والعقلية؛ لأن الله رد عليهم بأدلة سمعية عقلية.

الفائدة الثامنة: بيان كمال سلطان الله عزّ وجل وأنه لا أحد يمنعه مما أراد، لقوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

الفائدة التاسعة: أنه عند المناظرة ينبغي بأن تبدأ بأول مَنْ يحتج به المناظر، وأنه على خلاف ما ناظر عليه، وجهه: أن الله بدأ بذكر إهلاك المسيح وأمه الذي يعتقد هؤلاء أنه إلهاً.

الفائدة العاشرة: عموم ملك الله عزّ وجل لقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الفائدة الحادية عشرة: اختصاص هذا الملك بالله، لقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ وجه الدلالة: أنه قدم الخبر، ومن القواعد المقررة عند أهل البلاغة وأهل الأصول: أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

فإن قال قائل: إن الله تعالى أضاف الملك إلى غيره، في غير ما آية من كتاب الله، فما الجمع؟

قلنا: من أضاف الله إليه ملكاً فإنه ملك قاصر من جميع الوجوه، مثل قول الله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦]، ومثل قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، والآيات في هذا متعددة، فيقال: الملك المضاف إلى المخلوق ليس كملك الله عزّ وجل، بل هو ملك قاصر، لا يشمل كل ما ذكر، وهو أيضاً قاصر في التصرف فيه، إذ إن الإنسان لا يملك التصرف كما يشاء فيما هو ملكه، لو أراد الإنسان أن يتلف ماله وقال: هذا ملكي أنا لي أن أتلفه؟ قلنا: حرام عليك، ليس لك أن تتلفه؛ لأن الشرع نهى عن إضاعة المال، ولو أراد أن يعتدي على ملك غيره لقلنا: لا يمكن؛ لأن ملكك محصور، وبهذا نعرف أن الملك التام هو ملك الله عزّ وجل.

الفائدة الثانية عشرة: الإشارة إلى أن ما بين السماء والأرض هو خلق عظيم حتى جعله الله عزّ وجل عديلاً أو إن شئت فقل: قسيماً للسمٰوات والأرض دليله قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

لو قال قائل: ما بين السمٰوات والأرض خلق عظيم ولذلك جعله الله عزّ وجل قسيماً للسمٰوات والأرض، فما مدى صحة أقوال أهل الهيئة في تلك المخلوقات؟

الجواب: ما يذكره علماء الهيئة في هذا الأمر لا يصدق ولا يكذب، مثل أقوال بني إسرائيل لا تصدق ولا تكذب، ولا يوافقون عليه لأنها مسافات هائلة، حتى إن بعضهم يقول: إن النجوم التي نراها الليلة هي نجوم البارحة، ولم يصل إلينا نورها إلا بعد أربع وعشرين ساعة، فهذا لا نصدقه ولا نكذبه، وقد تقدم أن هناك مخلوقات كالرياح والغيوم والأمطار، كل هذه المخلوقات بين السماء والأرض.

الفائدة الثالثة عشرة: أن الله تعالى له المشيئة المطلقة لقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ وقد فصل الله تعالى هذا في بعض المواضع مثل قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠]، وهذا من جملة كمال ملكه وتمام خلقه.

الفائدة الرابعة عشرة: أن أفعال العباد مخلوقة؛ لأن الله جلَّ وعلا إذا كان مالكاً للسمٰوات والأرض وما بينهما وهو خالق ما يشاء، فالإنسان مما في السمٰوات والأرض فتكون أفعاله مخلوقة لله.

الفائدة الخامسة عشرة: بيان عموم قدرة الله عزّ وجل، لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والقدرة أن يفعل الفاعل ما أراد بدون عجز، وثَمَّ شيئان قدرة وقوة وبينهما فرق:

فالقوة: تكون من ذوي الإدراك وغيرهم فيقال: الحديد قوي، ويقال: فلان قوي، وأما القدرة فلا تقال إلا فيما له إدراك، إذ لا يقال عن الحديد مثلاً: إنه قدير.

ثانياً: أن القدرة ضدها العجز، والقوة ضدها الضعف، وهي من هذه الناحية أخص من القدرة؛ لأنه ليس كل قادر قوياً، قد يكون الإنسان يقدر على أن يحمل هذا الكيس فوق ظهره لكن مع التعب والمشقة، هذا نقول: إنه قادر ولا نقول: إنه قوي، وإذا أخذه بسهولة ولم يتعب منه، قلنا: إنه قوي، ويلزم من قوته أن يكون قادراً.

والسادسة عشرة، والسابعة عشرة: أن القدرة تتعلق بكل شيء، فهو على كل شيء قدير من إيجاد المعدوم وإعدام الموجود، وتغيير الشيء وتحويله إلى شيء آخر، والهداية والإضلال وغير ذلك فكل شيء هو قادر عليه.

ويتفرع عن القدرة على الشيء أن يكون عالماً به؛ لأنه لا يمكن أن يفعل شيئاً مع قدرة إلا وهو عالم به، فتكون هذه الصفة متضمنة لصفة العلم، ومعلوم أنها تكون متضمنة أيضاً لصفة الوجود ومتضمنة لصفة الكمال؛ لأن بعض الصفات يستلزم صفات أخرى.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٨].

قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ﴾ «اليهود»: أتباع موسى الذين يَدَّعون أنهم متبعون له، و«النصارى»: أتباع عيسى الذين يَدَّعون أنهم متبعون له، قالوا عن أنفسهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ﴾ ولا يريدون أنهم أبناء الله بنوة الولادة؛ لأنه ما ادعى أحد منهم ذلك، غاية ما هنالك أن اليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، وقوله: ﴿أَبْنَٰٓؤُا۟﴾ هنا من باب المبالغة في المحبة والمودة؛ أي: أننا كأبنائه في مودته لنا وشفقته علينا وإكرامنا وإعزازنا وما أشبه ذلك.

وعلى هذا فيكون قوله: ﴿وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ﴾ من باب عطف الصفة الأعم على الصفة الأخص، وإن كان بعض المفسرين قال: إنه من باب عطف المرادف على مرادفه؛ لأن المرادف للأبناء هم الأحبة، لكن ما ذكرناه هو الأولى؛ لأن الأصل في المتعاطفين هو التغاير، والتغاير إما بالذوات وإما بالأوصاف، فإذا قلنا: أبناء الله يعني كأبنائه في الشفقة والحنو والإعزاز وما إلى ذلك، قلنا: ﴿أَحِبَّاؤُهُ﴾ تكون من باب عطف المعنى العام على المعنى الأخص.

قال الله تعالى مفنداً دعواهم: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ﴾ فهنا أبطل الحجة قبل أن يذكر الرد، وهكذا ينبغي في المناظرة أن

تبطل حجة الخصم ثم تأتي بما يُثْبِت خلاف قوله. فهنا قال: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ وهذا يتضمن الشيئين مما ينافي أن يكونوا أحبة وأبناءً: **الأول**: أنهم أذنبوا، والأصل في الابن ألا يكون مذنباً في جانب والده، بل يكون سميعاً مطيعاً له لا عاصياً مذنباً. **الثاني**: من جهة الأبوة التعذيب منافٍ لدعواهم أن الله أب لهم أو أنه حبيبهم؛ لأن العادة أن المحب يعفو ويصفح عن حبيبه إذا اعتدى أو أذنب أو ما أشبه ذلك، فهنا نقض الله تعالى دعواهم بأمرين:

الأمر الأول: أنهم أذنبوا.

والأمر الثاني: أنهم عذبوا.

فكيف تقولون أنكم أحباء له وأنتم تعصونه وتذنبون ثم كيف يكون حبيباً لكم وهو يعذبكم؟ ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾، ثم احتج الله عليهم بعد أن أبطل حجتهم، فقال: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾، و«بل»: هنا للإضراب الإبطالي؛ لأنهم لما قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ قال: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ كسائر البشر، و«البشر» هم بنو آدم، وسموا بشراً؛ لأن أبشارهم بادية بخلاف بقية المخلوقات فإن غالبها أبشارها غير بادية، بنو آدم أبشارهم بادية لحكمة عظيمة، ولذلك تجدهم مفتقرين إلى اللباس شتاءً وصيفاً حياءً وخجلاً، فأراد الله عزّ وجل أن يجعل أبشارهم بادية حتى يعرفوا أنهم مضطرون إلى ستر هذه العورة، وإلى فعل ما يقون به أنفسهم من الأذى، إشارة إلى أنهم كما أنهم مستحقون لهذا حساً، فهم مستحقون له أيضاً معنى فليلبسوا لباس التقوى حتى يتقوا به النار، كما يلبسوا لباس الجلود حتى يتقوا بها الأذى.

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي: من سائر المخلوقات.

قوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ فالأمر إليه، يغفر لمن يشاء أن يغفر له فيوفقه لفعل أسباب المغفرة، وإنما قلنا ذلك؛ لأن لدينا قاعدة مهمة وهي: أن كل فعل قرنه الله بالمشيئة فلا بد أن يكون موافقاً للحكمة؛ لأن مشيئة الله ليست مشيئة مجردة ترجح شيئاً على شيء بدون سبب.

وعلى هذا فقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: لمن اقتضت حكمته أن يغفر له وهو التائب من الذنب، وكذلك من مَنَّ الله عليه بالمغفرة بدون توبة وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ يعذب من يشاء أن يعذبه بأن فعل ما يقتضي التعذيب، وليس الأمر لمجرد مشيئة؛ لأن الله تعالى لا يعذب أحداً إلا بذنب، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]، لا ظلماً بزيادة السيئات ولا هضماً بنقص الحسنات، وعلى هذا فيكون التعذيب المقرون بالمشيئة مقيداً بما إذا اقتضت الحكمة أن يُعَذِّبَ، ومن ذلك: أنتم أيها اليهود والنصارى، فقد شاء الله تعالى أن يعذبكم وفعلاً عذبكم بذنوبكم؛ لأنكم عصيتموه.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذا تقدم الكلام عليه في الآية التي قبلها، لكن اختلف ختم الآيتين، فقال في الآية السابقة: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]؛ لأن المقام مقام ردٍّ على الذين قالوا: إن الله هو

المسيح ابن مريم، أما هنا فالمقام مقام تهديد ووعيد، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع لا إلى غيره، وإنما قلت: لا إلى غيره، من أجل تقديم الخبر، وتقديم الخبر يفيد الحصر، إذاً: فليست المسألة مسألة دعوى أنكم أبناء الله وأحباؤه، وإنما المسألة مسألة عمل إما سيء وإما حسن.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: كذب اليهود والنصارى في دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه.

الفائدة الثانية: أن اليهود والنصارى يقرون بثبوت المحبة لله، فيقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، وقد أنكر طائفة من هذه الأمة صفة المحبة لله، وقالوا: إن الله لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ، وفسروا المحبة التي أثبتها الله لنفسه، بما لا يدل عليه ظاهر لفظه، فقالوا: المحبة: هي الثواب أو إرادة الثواب وفسروها بأحد المعنيين؛ لأن مذهبهم أن الإرادة ثابتة لله، فهم يثبتون أن الله مريد وله إرادة، ويثبتون أن الله خالق وله مخلوق، وأن الثواب شيء منفصل عن الله، فهو من جملة المفعولات وليس من جملة الصفات وهؤلاء هم الأشاعرة، يقولون: لا يوجد محبة بين الله وبين العبد، وإنما المحبة هي الثواب أو إرادة الثواب، اليهود والنصارى قالوا هذا، قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، فأثبتوا أن الله تعالى يحب وأنهم هم أحبابه.

الفائدة الثالثة: أن اليهود يَدَّعون ما يقتضي أن يكونوا خيراً من هذه الأمة، وجهه: أنهم قالوا ذلك في معرض الرد على رسالة النبي ﷺ، فكأنهم قالوا: نحن أحق بالرسالة منكم أيها العرب، فنحن أبناء الله وأحباؤه.

الفائدة الرابعة: الإشارة إلى ما اشتهر عند بني إسرائيل، أنهم شعب الله المختار ويرون أنهم أفضل العالمين، وأفضل من العرب الذين منهم ظهر الإسلام وبهم ظهر.

الفائدة الخامسة: إنكار الله تعالى عليهم هذه الدعوى من وجهين: الوجه الأول: رد ما ادعوه، والثاني: إثبات ما لا يمكن معه هذه الدعوة.

الفائدة السادسة: أنه ينبغي في المناظرة أن تبطل حجة خصمك أولاً ثم تأتي بما يثبت قولك، ولهذا تجد العلماء الذين يذكرون أقوال العلماء ـ أي: اختلافهم ـ تجدهم يذكرون أولاً الرد على القول المقابل لأقوالهم ثم يذكرون ما يثبت أقوالهم، وهذا كله مبني على القاعدة المعروفة وهي: التخلية قبل التحلية.

الفائدة السابعة: أن عذاب الله لبني إسرائيل ـ أي: لليهود والنصارى ـ لم ينقطع ولن ينقطع، لقوله: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾، فلم يقل: فلِمَ عذبكم، ليستفاد بذلك أن تعذيب الله تعالى لهم مستمر؛ لأن الفعل المضارع يفيد الاستمرار، واليهود معذبون مشردون خاصة؛ لأن دعواهم المحبة والنبوة أعظم من دعوى النصارى، وهم إن شاء الله سيعذبون العذاب الأخير على يد المسلمين وذلك حينما يقتتلون مع المسلمين، فيقتلهم المسلمون حتى إن اليهودي يختبئ خلف الشجرة فتنادي المسلم: هذا يهوديٌ فاقتله.

لو قال قائل: هل يؤخذ من قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ أن الحق يؤخذ ممن جاء به، وجه ذلك لم ينكر عليهم إثباتهم صفة المحبة؟

الجواب: لا شك أن الحق يؤخذ ممن جاء به وقد تقدم هذا كثيراً، وبينا أن الرسول عليه الصلاة والسلام قَبِلَ الحق من الشيطان[١]، والله قَبِلَ الحق من المشركين، والرسول قَبِلَه من اليهود أيضاً[٢].

الفائدة الثامنة: إثبات الأسباب لقوله: ﴿بِذُنُوبِكُمْ﴾.

الفائدة التاسعة: الاحتراز عما يوهم باطله، حيث قال: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾ ولم يقل: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ فقط؛ لأنه لو قالها بدون أن يقرنها بقوله: ﴿بِذُنُوبِكُمْ﴾ لأوهم أن الله تعالى يعذب بغير ذنب.

الفائدة العاشرة: أن هؤلاء الذين ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه هم من البشر، والبشر عند الله سواء، وأكرمهم عند الله أتقاهم.

الفائدة الحادية عشرة: إثبات خلق الله عزّ وجل للبشر، لكن قد يقول قائل: هذا أمر لا حاجة إليه؛ لأنه أمر معلوم، ولكن الله تعالى قال: ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ فبيَّن أن هؤلاء مخلوقون وأنهم كغيرهم من البشر.

الفائدة الثانية عشرة: إثبات المغفرة والتعذيب من الله عزّ وجل لمن شاء، ولكن هل هذا مجرد مشيئة إن شاء غفر وإن شاء عذب أو لا بد من سبب؟

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً...، حديث رقم (٢١٨٧).

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر...، حديث رقم (١٣٠٦).

الجواب: الثاني، لا بد من سبب، وقد تبين لنا قاعدة مهمة: أن كل فعل علقه الله جلَّ وعلا بالمشيئة فإنه تابع لحكمة، إذ ليس لله مشيئة مجردة بل هي مقرونة بحكمته تبارك وتعالى، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠].

الفائدة الثالثة عشرة: إثبات المشيئة لله، والمشيئة: بمعنى الإرادة الكونية، واعلم أنه ليس فيها انقسام، يعني أنها لا تقسم إلى مشيئة كونية ومشيئة شرعية، بخلاف الإرادة، فالمشيئة: شيء واحد وهي الإرادة الكونية.

الفائدة الرابعة عشرة: اختصاص وانفراد الله عزّ وجل بالملك وأنه لا مالك معه لقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ووجه ذلك تقديم الخبر على المبتدأ.

فإن قال قائل: إن الله أثبت لعباده ملكاً كقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١]، ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣]، وما أشبه ذلك؟

قلنا: لا سواء بين الملكين، فملك الله تعالى عام تام، وملك الآدمي قاصر ناقص، ولهذا لا يملك الإنسان أن يتلف ماله، مع أنه ماله فلو أراد إنسان أن يحرق ماله، قلنا: لا يمكن وحجرنا عليه ومنعناه؛ لأنه خلاف ما أمر الله به، بل هو مما نهى الله عنه.

الفائدة الخامسة عشرة: أن بين السمٰوات والأرض من المخلوقات العظيمة ما اقتضى أن يكون مقابلاً ومعادلاً للسمٰوات والأرض لقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

الفائدة السادسة عشرة: أن مرجع الخلائق إلى الله وحده، لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ يعني: المرجع.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة: ١٩].

قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ في هذه الصفحة من المصحف نداء لأهل الكتاب مرتين، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ والمراد بهم: اليهود والنصارى.

وقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ وهو محمد ﷺ.

وقوله: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ الجملة حالية، حال من رسول، يعني حال كونه يبين لكم؛ أي: يوضح ويفصل، ولم يذكر الله تبارك وتعالى المُبَيَّن ليكون أعم؛ لأن حذف المفعول يفيد العموم، وهذه قاعدة معروفة في اللغة العربية: أن الحذف يفيد العموم، فقوله: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ أي: يبين كل ما يحتاج الناس إلى بيانه، ولهذا قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وقوله: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ يعني حال كون البيان ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾؛ أي: مدة من الزمن لم يأتِ فيها رسول، هذه المدة ليس لنا كبير فائدة في معرفتها على التحديد، لكن نعرف أنها مدة طويلة تقدر بنحو ستمائة سنة بين عيسى وبين محمدٍ ﷺ؛ لأن آخر الأنبياء الذين بعثوا إلى الناس هو عيسى عليه الصلاة والسلام ومن بعده محمد ﷺ، فليس بينهما نبي، ولهذا ما يذكر

في بعض التواريخ: أن خالد بن سنان وفلان وفلان أنهم أنبياء، وأنهم بعثوا بعد عيسى، فهذا كله ليس بصحيح؛ لأن النبي ﷺ قد أخبر أنه ليس بينه وبين عيسى نبي[(١)]، ويدل على ذلك أن عيسى عليه السلام قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فلم يأتِ أحد بعد عيسى إلا محمد ﷺ.

وقوله: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ إنما نص على هذه الفترة ليتبين أن الناس كانوا في أشد الحاجة إلى بعثة الرسول وهذا هو الواقع، «**فإن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم**»؛ أي: أبغضهم وكرههم؛ لأنهم ليسوا على دين «**إلا بقايا من أهل الكتاب**»[(٢)]، بقايا قليلة كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦]، بقي القليل، وهذا القليل أيضاً يحتاج إلى رسول فلهذا نص على الفترة: وهي المدة الطويلة التي بلغت نحو ستمائة سنة ليتبين شدة حاجة الناس إلى بعثة الرسول ﷺ.

قوله: ﴿أَن تَقُولُوا﴾ أي: لئلا تقولوا فـ«أن» وما دخلت عليه هنا في موقع التعليل، يعني أرسلناه إليكم حتى لا تحتجوا فتقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾، وذلك لطول المدة فلم

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السلام (٢٣٦٥) عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة، حديث رقم (٢٨٦٥) عن عياض بن حمار المجاشعي.

يأتهم رسل ولا أنبياء، فيحتجون، فيقولون: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾.

وقوله: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ «من» هذه يعربها المعربون على أنها: زائدة لفظاً لكنها تزيد في المعنى التوكيد، وهذه قاعدة معروفة عند البلاغيين: أن جميع الحروف الزائدة تفيد التوكيد، وأصل الكلام: ما جاءنا بشير ولا نذير، هذا الأصل، لكن إذا دخلت «مِنْ» صارت أدل على النفي مما لو لم تدخله، ولهذا يقولون: إن النفي قد يكون نصاً في التعميم إذا كان الحرف النافي هي «لا» أو اقترن بحرف الجر الزائد سواء كان «من» أو «الباء»، فقوله: ﴿مِنۢ بَشِيرٍ﴾ «من» زائدة من حيث الإعراب، «بشير»: فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد؛ لأن حرف الجر أداة لفظية، فلا بد أن يكون تأثيرها في اللفظ أكثر من تأثيرها في المعنى، والمعطوف على الفاعل المجرور بحرف الجر الزائد يجوز فيه اعتبار المحل واعتبار اللفظ، فيجوز فيه الجر والرفع كما في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] بالرفع و«غيرهِ» بالجر، فيجوز فيها الوجهان.

واعلم أن الحرف الزائد في القرآن لا بد أن يقيد بأنه حرف زائد في الإعراب، وبعض المعربين يقول: حرف صلة ولا وجه له، بل يقال: إنه حرف زائد إعراباً، ومن العبارات التي تقال: زائد زائد، أي: زائد لفظاً زائد معنى، فالأول: زائد من الناقص، من «زاد» «يزيد»، والثاني من «زاد» المتعدي؛ لأن زاد تصلح ناقصة، وتصلح متعدية، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] هذه متعدية، وتقول: زاد الماء، هذا لازم.

لكن **لو قال قائل**: ذكرتم أن ضابط حرف الجر الزائد أنه إذا حذف استقام الكلام، وأحياناً يحذف حرف الجر ويستقيم الكلام وحرف الجر ليس بزائد، كما في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦] وكما في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١]؟

الجواب: «مِن» في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ ليست زائدة بل «من» بيان لـ«ما»؛ لأن «ما» اسم شرط، وأسماء الشرط كلها مبهمة، فجاءت «مِن» للبيان، قال ابن مالك رحمه الله:

وزيد في نفي وشبهه فجر نكرة كما لباغ من مفر

وقوله: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ «من بشير»: يبشر بالخير، «ولا نذير»: يخوف من الشر.

وقوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ يعني: فالآن لا حجة لكم قد جاءكم بشير ونذير، وهو رسول الله محمد ﷺ.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ختم الله عزّ وجل هذه الآية بالقدرة، إشارة إلى أنه تبارك وتعالى قادرٌ على أن يبعث الرسل وعلى أن لا يبعث الرسل وأن الأمر كله بيده تبارك وتعالى.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أنه ينبغي أن ينادى المخاطب بالوصف الذي يقتضي أن يقوم بما وُجِّه إليه لقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهذا موجود في اللغة العربية، فإذا كنت تخاطب مؤمناً تقول: يا أيها المؤمن، وإذا كنت تخاطب رجلاً تقول: يا أيها الرجل، كأنك تذكر له ما كان ينبغي من أجله أن يستمع إليك ويمتثل ما توجهه

إليه، وفي كوننا نوجه الخطاب بالنداء بالوصف الذي يقتضي أن يمتثل فيه فوائد:

أولاً: توبيخ هذا الرجل إذا خالف؛ لأنه لا ينبغي أن يخالف وهو متصف بهذه الصفة.

ثانياً: حثه على الموافقة باعتباره هذا الوصف الذي اتصف به، ولهذا نجد أن الرسول ﷺ يقول دائماً: «**لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر**»[1] «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر**»[2].

الفائدة الثانية: إقامة اللوم عليهم من الآخرين.

الفائدة الثالثة: أن محمداً رسول الله مرسل إلى أهل الكتاب اليهود والنصارى، لقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ يعني: إليكم.

الفائدة الرابعة: أن الذين كفروا بمحمدٍ ﷺ من هؤلاء - أي: من اليهود والنصارى - كفار؛ لأنهم كفروا بالرسول الذي أرسل إليهم، أما قولهم: إنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، فنقول: هذا لا يكفي لا بد أن تؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

الفائدة الخامسة: الثناء على رسول الله ﷺ بكونه مرسلاً من عند الله لقوله: ﴿رَسُولُنَا﴾.

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب ليبلغ الشاهد الغائب، حديث رقم (١٠٤)، ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها، حديث رقم (١٣٥٤) عن أبي شريح.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب حد المرأة على غير زوجها، حديث رقم (١٢٢١)، ومسلم، كتاب الطلاق، باب وجوب الإحداد في عدة الوفاة وتحريمه في غير ذلك إلا ثلاثة أيام، حديث رقم (١٤٨٦) عن أم حبيبة.

الفائدة السادسة: إقامة الحجة على الأمة حيث إن محمداً رسول الله فهو حجة عليه الصلاة والسلام، فبمجرد أن شهد الله أنه رسوله كان ذلك حجة، وقد قال الله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦].

الفائدة السابعة: أنه لا حظ للرسول عليه الصلاة والسلام في شيء من الربوبية، وجه ذلك: أنه رسول والرسول لا يمكن أن يكون شريكاً للمرسل فيما يختص به.

الفائدة الثامنة: أن النبي ﷺ مُبَيِّنٌ للخلق، وأنه ليس فيما جاء به شيء من الغموض والإلغاز، لقوله: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾.

الفائدة التاسعة: الرد على أولئك المفوضة في أسماء الله وصفاته الذين يقولون: إننا لا نعلم شيئاً من معاني أسماء الله وصفاته، وأن وظيفتنا أن نقرأ ولا نفصل، وهذا القول من أعظم الأقوال وأشدها فساداً حتى إن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال: إنه من شر أقوال أهل البدع والإلحاد، ومن المؤسف أن كثيراً من الناس بل حتى من العلماء من يظن أن هذا هو مذهب السلف، ويقولون: إن مذهب السلف التفويض، وهم في الحقيقة لم يعرفوا مذهب السلف، مذهب السلف: التفويض في الكيفية؛ لأن العقل يعجز عن إدراكها، والشرع لم يرد بها، وأما المعنى فإنهم يؤمنون به، ويثبتونه ويقررونه ويفصلون فيما يحتاج إلى تفصيل، وهذا أمر معلوم من كتبهم.

الفائدة العاشرة: أن الرسول عليه الصلاة والسلام كما أنه مُبَيِّنٌ للعرب، فهو مُبَيِّنٌ لأهل الكتاب.

فإن قال قائل: كيف يبين لهم ولغته تخالف لغتهم فإن لغة

اليهود حتى الذين في المدينة في عهد الرسول تخالف اللغة العربية؟

نقول: عن طريق الترجمة، ولهذا لم ينتشر الإسلام في البلاد الأعجمية إلا بواسطة الترجمة.

الفائدة الحادية عشرة: أنه إذا احتجنا إلى معرفة اللغات الأجنبية لبيان الشريعة كان ذلك مما يثاب عليه؛ لأن من صفات النبي ﷺ أنه يبين للناس بأي وسيلة، وعلى هذا فمن تعلم اللغة غير العربية من أجل الدعوة إلى الله كان مثاباً على ذلك؛ لأنها وسيلة لتبيين الشريعة ونشرها.

لو قال قائل: ما توجيهكم لطالب العلم وهل يقتطع من وقته جزءاً لتعلم اللغات غير العربية؟

الجواب: هذا إذا كان الإنسان داعية يعرف من نفسه أنه ذو دعوة قوية وعنده بيان وإقناع، فلا بأس، أما أي إنسان يقول: ربما أكون، فهذا لا يشتغل بهذه اللغات عما هو أهم، لكني مع ذلك أنا أتمنى أني أعرف اللغة الإنجليزية لكن فات الأوان.

الفائدة الثانية عشرة: أن رسالة النبي ﷺ كانت على فترة من الرسل ليس بينه وبين عيسى رسول لقوله: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

الفائدة الثالثة عشرة: أنه كلما طال زمن الرسالة صار الناس أشد حاجة إلى الرسول، ولهذا جعل الله ذلك مِنَّة عظمى على أهل الكتاب حيث جاءهم على فترة، ومثل هذا يكون أيضاً في الواقع المحسوس، فالإنسان الذي يشرب الماء على عطش أشد شوقاً إلى الماء والحاجة من إنسان يشربه على ري.

الفائدة الرابعة عشرة: إثبات الرسالات السابقة للرسول عليه الصلاة والسلام لقوله: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ والظاهر لي أن هذا يشير إلى أن الرسول ﷺ هو آخر الأنبياء، لقوله: ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ يعني ليس بعده رسول وهذا هو الذي صرح الله به في كتابه في قوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وتأمل قوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ولم يقل: وخاتم المرسلين مع أنه قال: رسول الله؛ لأنه قد يكون نبياً ولا يكون رسولاً، ومحمدٌ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء.

الفائدة الخامسة عشرة: رحمة الله تعالى بالخلق حيث أرسل الرسل؛ لئلا تقوم الحجة على الله، لقوله: ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾.

الفائدة السادسة عشرة: أن من لم تبلغه الرسالة فإنه معذور، وهو ظاهر لقوله: ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾.

الفائدة السابعة عشرة: أنه لا حجة للإنسان بالقدر على مخالفة الرسل، لقوله تعالى: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ وجه الدلالة: لو كان لهم حق لم يرتفع بإرسال الرسل، وهو كذلك.

الفائدة الثامنة عشرة: أن الرسالات منحصرة في شيئين لا ثالث لهما: وهي البشارة والإنذار؛ لأن الناس ينقسمون بالنسبة للرسالات إلى قسمين: مطيع فله البشارة، وعاصي فله الإنذار.

لو قال قائل: البشارة هل تكون وسيلة لتأليف قلوب أصحاب المنكرات، كأن يقال لهم: أبشروا أنتم على خير ونحو ذلك؟

الجواب: لكل مقام مقال، قد يكون من الحكمة أن لا تنفر

الناس بذكر التخويف والوعيد، وقد يكون بالعكس، فمثلاً: إذا كنت تخاطب شخصاً معيناً منغمساً في الآثام، فهنا ربما يكون جانب التخويف أفضل، لكن مع التخويف تقول له: يا أخي باب التوبة مفتوح، واذكر قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، حيث ذكر أمهات العظائم، ومع ذلك قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٧٠]، فلكل مقام مقال، لا يمكن أن تذكر شيئاً معيناً.

الفائدة التاسعة عشرة: قوة حجة هؤلاء لو لم يبعث الله إليهم رسولاً، لقوله: ﴿مِنۢ بَشِيرٍ﴾ لأن «مِن» هذه للتوكيد يعني كأنهم يؤكدون أنهم لم يأتهم بشير ولا نذير.

الفائدة العشرون: تأكيد الكلام التأكيد المعنوي، ولست أقصد تأكيد النحويين، فالنحويون يقولون: إن التوكيد نوعان: توكيد معنوي وتوكيد لفظي، فما كان بتكرار اللفظ فهو لفظي، وما كان بالأدوات المعروفة، فهو معنوي، لكن لا أريد هذا، أريد أن المعنى قد يؤكد بجملة كاملة وهي قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾.

الفائدة الحادية والعشرون: أنه متى احتيج إلى التوكيد فلا عيب في التكرار، ولهذا كان من آداب الخطبة أن الإنسان يكرر في المواضع الهامة وأن هذا لا يُعَدُّ عِيّاً ولا يعد زيادة.

الفائدة الثانية والعشرون: أن رسالة النبي ﷺ مشتملة على هذين الأصلين في الرسالات وهما البشارة والإنذار، لقوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ يعني به محمداً ﷺ.

الفائدة الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون: إثبات قدرة الله عزّ وجل، لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وأنه لا

يستثنى من قدرة الله تعالى شيء، بل كل شيء فالله قدير عليه، وأما قول بعضهم ـ كصاحب الجلالين ـ خص العقل ذاته فليس عليها بقادر، فهذا خطأ إلا أنه على قاعدة منكري الأفعال الاختيارية الذين يرون أن ذلك صواب؛ لأنه يوجد طائفة من هذه الأمة يقولون: إن الله عزّ وجل لا تقوم به الأفعال الاختيارية، فالنزول إلى السماء الدنيا ممنوع عندهم، والاستواء على العرش ممنوع، والضحك ممنوع كذلك، والإتيان يوم القيامة ممنوع، كل الأفعال التي يفعلها بمشيئته واختياره يرون أنها ممنوعة. لماذا المنع؟ قالوا: لأنه مستحيل، والمستحيل على اسمه لا تتعلق به القدرة كالجمع بين النقيضين، فيقال لهم: هذا غلط، بل إن الأشياء التي تنافي الكمال لا يمكن أن يتصف الله بها كالنوم مثلاً فمستحيل أن الله جلَّ وعلا ينام، وهذا الكلام لا يرد إطلاقاً؛ لأنه مستحيل، لكن الله جلَّ وعلا ينزل إلى السماء الدنيا وينزل للفصل بين العباد ويستوي على العرش ويضحك ويعجب؛ لأنه لا ينافي الكمال بخلاف النوم فهذا ينافي الكمال.

الفائدة الخامسة والعشرون: أنه ينبغي أن يختم الكلام بما يناسب المقام، وجهه: أن مخالفة أهل الكتاب للرسول عليه الصلاة والسلام تعني أنهم معرضون للعقوبة، والله غير عاجزٍ عن عقوبتهم لكمال قدرته.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة: ٢٠].

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ «إذ»: هذه ظرف، ومن القواعد المقررة عند النحويين: أنه لا بد لكل جار ومجرور أو ظرف، من متعلق، هذا المتعلق هو العامل في الواقع؛ لأن الظرف مفعول فيه فلا بد من فعل يقع فيه، والجار والمجرور في محل المفعول به فلا بد له من متعلق كذلك، ولهذا قال ناظم الجمل:

لا بد للجار من التعلقِ بفعلٍ او معناه نحو مرتقي

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ «إذ» هذه ظرف تحتاج إلى عامل، أرى أن جميع المعربين إلا من لم نطلع على إعرابهم في القرآن الكريم كلما جاءت «إذ» غالباً يقدرون لها «اذكر إذ قالوا»، وهنا هل نقول: إن متعلق «إذ»، «اذكر»، فيكون هنا الخطاب موجهاً إلى الرسول ﷺ، أو أن المراد: اذكروا أي: يا أهل الكتاب، نقول: يحتمل هذا أو هذا، فإن كان الثاني: فمعناه أن الله تعالى بنفسه يذكرهم، وإن كان الأول، فمعناه أنه أمر رسوله أن يذكرهم، ومؤدى المعنيين واحد.

قوله: «إذ قال موسى لقومه» وهم بنو إسرائيل ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، قوله: «يا قوم»: ناداهم مناداة البعيد، قال أهل البلاغة: وهذا يدل على إعراضهم وصدودهم وعلى بلاهتهم، ولا شك أن بني إسرائيل من أشد الناس عتواً حتى على نبيهم عليه الصلاة والسلام، فلذلك قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ و«النعمة» هي الإفضال والإحسان، والمراد: اذكروا هذه النعمة لتقوموا بشكرها، ثم بَيَّن هذه النعمة فقال: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ (إذ) متعلقة بـ(نعمة)؛ لأنها بمعنى إنعام، أي: اذكروا إنعام الله عليكم.

وقوله: ﴿جَعَلَ فِيكُمْ﴾ «في» هذه للظرفية وينبغي أن نجعلها على معناها، وأن لا نجعلها بمعنى «من»، أي: منكم أنبياء، بل نقول: فيكم؛ لأن النبي يكون من سطة قومه، ومن أشراف قومه، وهي كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

قوله: ﴿أَنۢبِيَآءَ﴾ فيها قراءتان: ﴿أَنۢبِئَاءَ﴾، ﴿وَأَنۢبِيَاءَ﴾، وكلاهما قراءة صحيحة؛ لأنهما سبعيتان، وهل المراد هنا بالأنبياء الرسل أو الأنبياء الذين دون الرسل؟ يحتمل هذا وهذا؛ لأن فيهم رسلاً وفيهم أنبياء بلا رسالة.

قوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أي: صيركم ملوكاً، وتأمل الفرق بين الأنبياء والملوك، الأنبياء قال: ﴿فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ الملوك، قال: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ فهل معنى العبارة الثانية كالأولى؟ ولكنه جعل الملك عاماً؛ لأن أي واحد منهم يمكن أن يكون ملكاً بخلاف النبوة، فإنها من عند الله، ولهذا قال: ﴿فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ ولم يقل: جعلكم أنبياء، أو يقال: جعلكم ملوكاً، والملوكية هنا ملكية نسبية اعتبارية، أي: باعتبار كونكم خدماً أذلاء لآل فرعون أصبحتم الآن أحراراً تملكون أنفسكم، ولا أحد يقيدكم فيما تريدون؟ الجواب: يحتمل المعنى هذا وهذا، ولا شك أن هذا وهذا حصل.

قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ «وآتاكم» بمعنى: أعطاكم، والفرق بين «أتاكم» «وآتاكم»، أن «أتاكم» بمعنى: جاءكم، «وآتاكم» بمعنى: أعطاكم، ولهذا آتاكم تنصب مفعولين، لكن ليس أصلهما المبتدأ والخبر، المفعول الأول في

هذه الآية: «الكاف»، والثاني: «ما»، يعني الذي لم يؤت أحداً من العالمين.

وقوله: ﴿لَمْ يُؤْتِ﴾ أصلها: لم يؤته، لكن حذف العائد الذي يعود على اسم الموصول، والأصل: ما لم يؤته أحداً من العالمين، وعلى هذا فتكون «أحداً» مفعولاً ثانياً.

وقوله: ﴿أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: من العالمين الذين سبقوكم بل والذين في وقتكم، وهنا تأمل أنه لم يقل عليه الصلاة والسلام: ما لن يؤتِيَ، بل قال: ما لم يؤتِ، وبينهما فرق، فلو قال: ما لن يؤتيَ؛ صار قوم موسى أفضل الناس إلى يوم القيامة ولن يُعطي أحدٌ مثلهم، لكن إذا قال: ما لم يؤتِ: يعني في الماضي، وهو كذلك؛ لأن الله تعالى آتى هذه الأمة والحمد لله ما لم يؤتِ بني إسرائيل ولا غيرهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أنه ينبغي للداعية أن يُذكِّر من يوجه إليهم الخطاب بنعم الله عليه؛ لأن تذكيرهم بالنعم يوجب لهم محبة الله، ولهذا جاء في الأثر: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم**»[1].

الفائدة الثانية: أنه كلما أنعم الله على عبده بنعمة وجب عليه من السمع والطاعة ما لم يجب على غيره.

الفائدة الثالثة: الإشارة إلى أن وجود الأنبياء بين الناس من أكبر النعم؛ لأن الله قدم ذلك على الملك فقال: ﴿جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ ولا شك أن حاجة الناس إلى ذلك أعظم من حاجتهم إلى الملك وإن كانوا يحتاجون إلى هذا.

---

(١) تقدم ص٥٢.

الفائدة الرابعة: تقديم مقام العلماء على الأمراء، لقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ والعلماء ورثة الأنبياء، والأمراء إما من الملوك أو من ورثتهم أو نوابهم أو ما أشبه ذلك.

الفائدة الخامسة: أن من رزقه الله علماً فقد أنعم الله عليه نعمةً عظيمة، تحتاج إلى التذكر وهو كذلك؛ لأن نبيهم موسى صلوات الله وسلامه عليه ذكرهم بهذه النعمة، وأنت الآن تعرف هذه النعمة في نفسك، فلو قدرت نفسك جاهلاً لا تدري كيف تتوضأ ولا كيف تصلي ولا ما الواجب في الوضوء، ولا ما الواجب في الصلاة، ولا ما مبطلات الوضوء، ولا ما مبطلات الصلاة، لكنت أعمى تسير بلا هدى، فإذا منَّ الله عليك بعلم هذه الأشياء فهي نعمة عظيمة لا يقابلها نعمة، لا سيما وأن هذه الأمة والحمد لله تشعر بأنها وارثة لأفضل الأنبياء محمد ﷺ، فالعلماء من هذه الأمة يشعرون بهذا، أي: أنهم وارثون لمحمدٍ صلوات الله وسلامه عليه.

الفائدة السادسة: أن فك الحَجْرِ على المحجور عليه من نعمة الله، وهذا على المعنى الثاني؛ لأنه بذلك يأخذ شيئاً من الحرية، وقد تقدم معرفة الحجر في الفقه.

الفائدة السابعة: أنه ينبغي للإنسان أن يذكر تذكيراً خاصاً بما أنعم الله به على الشخص، نعمة خاصة وذلك لقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

لو قال قائل: هذا يؤدي إلى أن يعجب المخاطب بنفسه، ويقول: أنا من أنا؟

قلنا: إذا خيف هذا الشيء منع، ولكل مقام مقال، أما إذا كان ذِكْرُ هذا الشيء يستلزم أن يقوم بأمر الله فليذكر ولا يضر، ولذلك كان الناس يوم القيامة يتوسلون إلى آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى، بما خصهم الله به من المناقب والكرامات[1].

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢١ ـ ٢٦].

قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ النداء من موسى عليه الصلاة والسلام، والنداء هنا يتضمن شيئين:

الشيء الأول: أن فيه شيئاً من استبلاههم، وأنهم لن يتفطنوا ولن يستمعوا إلى الخطاب إلا إذا ورد بالنداء ولفظ القومية.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً، حديث رقم (٤٧١٢)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم (١٩٤).

الشيء الثاني: أيضاً أنه قال: ﴿يَقَوْمِ﴾ استعطافاً لهم؛ لأنه فرق بين أن يكون المخاطب من قومك أو من غير قومك.

قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ لم يقل: قاتلوا حتى تدخلوا، والأرض المقدسة قال العلماء: معناها الطاهرة من الشرك؛ لأن هذه الأرض كانت أرض الأنبياء. ثم ما هي هذه الأرض وما المراد بها؟ قال العلماء: هي أرض الشام التي تشمل ما يسمى في العصر الحاضر سوريا وفلسطين والأردن وغيرها وجميع المنطقة، وهذا في زمن موسى، وأما بعد بعثة محمد ﷺ لا شك أن المسجد الحرام أشد قداسة من المسجد الأقصى، وكذا المسجد النبوي.

وقوله: ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أيضاً فيها بشارة بأنهم سوف يغلبون، ففي هاتين الجملتين بشارتان: **الأولى**: ادخلوا الأرض، **والثانية**: التي كتب الله لكم، والكتابة هنا هي الكتابة القدرية؛ لأن الكتابة تتنوع إلى نوعين:

كتابة شرعية: مثل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وكتابة قدرية: مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قلنا: إن الكتابة هنا كتابة قدرية لا شرعية، لو كانت شرعية لتعدت بـ«على»، والمعنى كتب عليكم ولا يستقيم المعنى.

قوله: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ أي: لا ترجعوا بعد أن كنتم مقبلين على القتال على أدباركم؛ لأن النكوص على الدبر

والرجوع هزيمة وذل، ولهذا ورد النهي الشديد عن التولي يوم الزحف.

قوله: ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ لا ترتدوا فتنقلبوا، والانقلاب يشعر بخيبة الأمل، ولهذا قال: ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ و﴿خَٰسِرِينَ﴾ حال من الواو في قوله: ﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾ فماذا كان الجواب؟

كان الجواب كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ انظر للخطاب في قوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ لم يقولوا: يا نبي الله ولا يا رسول الله، ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ وهذا لا شك أنه جفاء في مخاطبته، أن يخاطبوا نبيهم باسمه، ولهذا نهى الله هذه الأمة أن يخاطبوا الرسول ﷺ باسمه في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، على أحد التفسيرين؛ لأن بعض العلماء يقولون: المعنى لا تدعوه باسمه كما يدعو بعضكم بعضاً، وإن كانت هذه الآية تشمل هذا المعنى وتشمل المعنى الثاني وهو أنه إذا دعاكم لا تجعلوا دعاءه كدعاء بعضكم بعضاً إن شئتم أجبتم وإن شئتم لم تجيبوا، بل يجب عليكم أن تجيبوا، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، ذكروا علة تدل على جبنهم وخورهم وضعف عزيمتهم بل عدم عزيمتهم.

وقوله: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ الجبار: هو العاتي الكبير الجسم الطويل مأخوذٌ من قولهم في اللغة العربية: نخلة جبارة، والنخلة الجبارة: هي النخلة القوية العالية، وإلى الآن هذا المعنى موجود يقال: فلان عنده بستان جبارٌ نخلُه، يعني قوياً عالياً لا يتناول الإنسان ثمره بيده.

إذاً: ﴿جَبَّارِينَ﴾ تدور على المعنيين السابقين: **الأول**: عتاة الأخلاق، **والثاني**: أقوياء الأجسام لا نستطيع أن نقاتلهم.

قوله: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ ـ سبحان الله ـ هذا قول صبيان، ﴿لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ من يقاتلون إذا لم يكن فيها أحد؟ لا شيء، وهذا مما يدل على سفاهة بني إسرائيل، وأيضاً أكدوا هذا المعنى بقولهم: ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾، وتأمل قولهم: ﴿فَإِن يَخْرُجُوا﴾ لم يقولوا: فإذا خرجوا، كأنهم يستبعدون خروجهم؛ لأن «إن» الشرطية: تتميز عن «إذا» بأن «إن» يكون فعل الشرط فيها حاصلاً وغير حاصل، بل قد يكون من الأشياء المستحيلة، لكن «إذا» تدل على وقوع الشرط، لكن المؤقت حصول الشرط، إذا قلت: إن قام زيد قمت، تجد الفرق بينها وبين قولك: إذا قام زيد قمت، إذا قام معناه أنه سيقوم، لكن لا أقوم إلا إذا قام فهو شرط للتوقيت أي: توقيت القيام، لكن إن قام زيد قمت شرط لحصول القيام، وقد يحصل وقد لا يحصل وقد يكون من المستحيل أن يحصل، كما في قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: ٨١]، هذا في حق الله، وفي حق الرسول: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وكلا الأمرين ممتنعان غاية الامتناع، الأول: وهو أن يكون للرحمٰن ولد، والثاني: وهو أن يشرك رسول الله ﷺ، الداعي إلى الإخلاص والتوحيد.

إذاً: هم يقولون: ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ يعني: كأنهم مستبعدين غاية الاستبعاد أن يخرجوا منها، ولذلك ابتلوا بالتيه، كما سيأتي إن شاء الله، وهو: الضياع وعدم الاهتداء إلى

هذا المكان. وتأمل أيضاً قوله: ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ يعني: يؤكدون دخولهم إذا خرج هؤلاء، وإذا خرج هؤلاء، هل يحتاج إلى أن يؤكد الدخول؟ لا يحتاج، لكن سبحان الله إذا تأمل الإنسان حال هذه الأمة الغضبية وجد أنهم في غاية السفاهة في العقول، كما أنهم في غاية الضلال في الدين، ومن رأى مزيد بيان في هذا الأمر فليرجع إلى كتاب ابن القيم رحمه الله «إغاثة اللهفان» فإنه تكلم عن خصائص الملل بما لا مزيد عليه.

قوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾، أولاً، ننظر في تركيب هذه الآية الكريمة، قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ صفة لـ﴿رَجُلَانِ﴾؛ لأن النكرة ما يأتي بعدها من الجملة وشبهها يكون صفة لها، ﴿يَخَافُونَ﴾ صلة الموصول. ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ «أنعم» هنا فعل وليس مفعول؛ لأن مفعول يخافون محذوف نقدره إن شاء الله بعدُ، ﴿أَنْعَمَ﴾ جملة فعلية محلها من الإعراب صفة لرجلان، ويجوز أن تكون حالاً منها لأنها نكرة خصصت، والنكرة إذا خصصت جاز وقوع الحال منها.

لكن **قد يقول قائل**: أليس الأنسب في التركيب أن يقال: قال رجلان أنعم الله عليهما من الذين يخافون؟

الجواب: لا؛ لأن قوله: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ إن قدر أنها حال، فلا إشكال لأن الوصف التابع لموصوفه إعراباً أولى بالموالاة؛ لأن الحال تابعة لموصوفها معنىً مفارقة له إعراباً، بخلاف النعت، فنقول: هذه إن جعلناها حالاً فإنها تكون متأخرة عن الوصف المباشر **هذا الأول**.

ثانياً: أن قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ شبه جملة، فهي في حكم المفرد. «وأنعم» جملة، والنعت بالمفرد أولى بالموالاة من النعت بالجملة؛ فلدينا ثلاثة أشياء: إما أن ينعت الموصوف بما يطابقه في الإفراد، وإما أن ينعت بشبه الجملة، وإما أن ينعت بالجملة والمفرد، وشبه الجملة ألصق بالمنعوت من الجملة، فلهذا كانت الفصاحة تقتضي تقديم ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾.

قوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ الله عزّ وجل لم يبين مَنْ هذان الرجلان، وليس لنا في معرفة عينهما ضرورة. ولأن تعيين الرجلين باسمهما لا يتوقف عليه فهم القضية وفهم الواقع، ولذلك تأتي آيات كثيرة وأحاديث كثيرة ليس فيها تعيين الإنسان بعينه؛ لأن المقصود هو فهم القضية.

لكن **لو قال قائل**: ألا يمكن أن يكون الرجلان موسى وهارون؟ **الجواب**: لا يمكن، ولو قلنا بذلك لفسد المعنى، المهم ماذا قالا؟ أما أن نعرف من هما، فلو كان هذا الأمر من الأمور التي تنبني عليه العقيدة لكان الله عزّ وجل بَيَّنَهُ إما في القرآن أو على لسان الرسول ﷺ.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي: يخافون الله، ولهذا نقول: إن مفعول يخافون محذوف، تقديره: الله.

وقوله: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أنعم الله عليهما بأمور:

أولاً: خوف الله عزّ وجل، فإن خوف الله من أكبر النعم؛ لأن خوف الله يستلزم اجتناب محارم الله، والقيام بطاعته.

ثانياً: أنعم الله عليهما بالقوة: بقوة النفس؛ لأنهما الآن يقابلان أمة؛ لأن قوم موسى كلهم قالوا له: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ﴾.

هذان الرجلان قابلا الأمة كلها، مما يدل على الشجاعة والعزيمة الصادقة، وهذه لا شك أنها نعمة إذا وفق الله العبد قوة وشجاعة وعدم مبالاة بالكثرة؛ لأن الكثرة ليست بشيء أمام الحق.

وقوله: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أيضاً بحصافة الرأي؛ لأن كل من قرأ البشائر التي ذكرها موسى عليه الصلاة والسلام، لا شك أنه سوف يُقْدِم، الأولىٰ ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ والثانية: ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، إذاً: أنعم الله عليهم من هذه الوجوه الثلاثة، وقد يكون أكثر من هذا.

لو قال قائل: قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢] بعضهم يحمل هذه الآية على وجود بعض أجسام الموتى لآل فرعون، بل بعضهم يقول: إن بعضها فرعون نفسه، فهل هذا صحيح؟

الجواب: نحن نعلم أن المدة طويلة، وأن الناس يخلقون من لا شيء شيئاً، ألم تعلم أنه قيل: إن رأس الحسين رضي الله عنه في النجف وفي سوريا وفي مصر!! يعني صارت ثلاثة رؤوس، فلا نصدق بهذه الأشياء، والظاهر لنا أن فرعون لما طفا على ظهر الماء ورآه بنو إسرائيل انتهى أمره وأكلته الحيتان أوْ لا ندري عنه، أما أن نقول: أن الذي يوجد الآن في الأهرام هو فرعون فهذا لا نصدقه ولا نكذبه، وأما قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، أي: لبني إسرائيل، فنحن نصدق كلام الله سواء رأينا جسمه أم لم نره، آيتنا نحن كلام الله عزّ وجل، لكن هلاكه كان آية لبني إسرائيل الذي كان يرعبهم.

لو قال قائل: وقع البعض في تحجيم قضية الصراع مع اليهود على أنه صراع على الأرض وليس صراعاً عقدياً؟

الجواب: لما تخلف الصلاح، وأقولها بمرارة: لما تخلف الصلاح في هذه الأمة صار هذا التسليط تسليط اليهود على هذا الجزء من الأرض، فالواجب علينا أن نقاتل اليهود وغير اليهود ممن كفروا بالله، لا على أساس الأرض، ولكن على أساس العقيدة، ولهذا صاروا هم أقوى، فيجب تعديل النية وإصلاح العمل قبل كل شيء، إذا عُدِّلت النية وأُصلِحَ العمل حصل خير كثير.

وقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَۖ﴾ أي: سيروا إليهم ولا تشعروهم بأنكم سائرون، وائتوهم بغتة، ادخلوا عليهم الباب بدون أن يكون هناك سابق علم؛ لأنه ما من قوم قوتلوا في ديارهم إلا ذلوا. ولهذا سأل النبي ﷺ ربه حين أراد أن يجاهد أهل مكة في الفتح، سأل الله تعالى أن يعمي الأخبار عنهم حتى يبغتهم في دارهم[1]. ولهذا قالا: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَۖ﴾ أي: لا تنذروهم ولا تخبروهم أنكم قادمون عليهم، و«أل» في قوله: «الباب» للعهد الذهني أي: باب المدينة.

قوله: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾ يعني: إذا دخلتم الباب فإنكم غالبون ولن يغلبوكم، أي: ستكون الغلبة لكم، وهذا إرشاد وتوجيه.

قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ لما أمر هذان الرجلان هؤلاء القوم أن يعملوا الأسباب النافعة أرشدوهم إلى أن لا يعتمدوا على أنفسهم، بل يتوكلون على الله، فقالوا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٣٣) (١٨٦٣٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٣/ ٥٢١). وانظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩).

والجار والمجرور في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بقوله: ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ والفاء مزيدة لتحسين اللفظ، ولهذا لو قيل: «وعلى الله توكلوا»، لصح، ولا يصح أن نجعلها عاطفة، يعني: لو جعلناها عاطفة والواو عاطفة ما استقام الكلام، ولكنها زيدت لتحسين اللفظ.

وقوله: ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ التوكل قال العلماء: إنه صدق الاعتماد على الله، أي: أن يعتمد الإنسان على ربه اعتماداً صادقاً مع الثقة به وحسن الظن، وفعل الأسباب، هذه أربعة أوصاف: الأول: صدق الاعتماد على الله، الثاني: مع الثقة به، الثالث: وحسن الظن، والرابع: فعل الأسباب.

فإذا اجتمعت هذه الأوصاف الأربعة فهذا هو حقيقة التوكل، فمن اعتمد على الله لكنه في شك فإنه ليس بمتوكل حقيقة، كذلك أيضاً لو أنه اعتمد على الله ولكنه لم يثق تلك الثقة، إما لما يعلم من ذنوبه أو لما يعلم من قصور الأسباب، أو لغير ذلك، فإنه لم يصدق التوكل، والثالث: حسن الظن، وحسن الظن في التوكل أن يظن الإنسان بربه تبارك وتعالى أنه حسبه لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] وقوله: مع فعل الأسباب؛ لأن هذا لا بد منه، إذ إن الله تعالى يقدر الشيء بسببه، وهذا من تمام حكمته.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ ثم قال: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥] فلا بد من سعي ولذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] فلا بد من فعل الأسباب، ولكن بشرط أن تكون الأسباب شرعية، إما منصوصاً عليها في الكتاب والسنة، وإما معلومة بالتجارب التي يشهد لها القدر.

قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذا شرط في إخلاص التوكل على الله عزّ وجل، إذ لا يتوكل على الله تمام التوكل إلا من كان عنده إيمان بما وعد الله به في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وبعد هذه المشورة وهذا التوجيه الحسن النافع، انظر الجواب: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ وهذا النفي نفي لفعلهم الشرعي أو نفي لفعل الله القدري؟

الجواب: الأول، يعني: لا يمكن أن ندخلها ما داموا فيها، وإذا ذهبوا عنها، دخلوها، هل هذا كلام؟! معلوم أنك إذا وجدت قرية خالية ليس فيها أحد، وأنت تريد أهلها معلوم أنك ستدخلها. لكن هذه عقلية بني إسرائيل.

ولذا قالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ يقولون لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾، فمن ربه؟ قال بعض المفسرين: ربه هو هارون؛ لأن الرب يطلق على السيد وهارون أكبر من موسى، والأكبر من الأخوين يكون سيداً للأصغر منهما، لكن هذا بعيد، والظاهر أنهم أرادوا الرب رب العالمين عزّ وجل؛ لأن موسى يدعوهم إلى الله، وإلى ربهم تبارك وتعالى.

فكأنهم من عجرفتهم وكبريائهم وغطرستهم، يقولون: ما دام أن عندك رب، اذهب أنت وربك فقاتلا، فأرادوا من الله أن ينزل الميدان يقاتل مع موسى ـ قاتلهم الله ـ، ومع ذلك قالوا: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ها هنا: في المكان القريب؛ لأن «هنا»: للقريب، و«هنالك»: للبعيد. هنا في مكاننا لن نتعداه، سنبقى متفرجين عليك أنت وربك، ولا يخفى ما في هذا الكلام من الغطرسة والعجرفة والجفاء ـ والعياذ بالله ـ فماذا قال موسى؟

قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ﴾ قوله: «ربِّ»، يخاطب ربه رب العالمين.

قوله: ﴿إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ﴾، يعني: لا أملك أمراً إلا أمر نفسي وأمر أخي، ويقصد بأخيه هارون عليه السلام.

قوله: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ سأل الله تعالى أن يفرق بينه وبين القوم الفاسقين. فيكون هو وأخوه في جانب والفاسقون في جانب آخر. ماذا كانت إجابة الله؟

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ﴾ أي: على بني إسرائيل الذين أمروا بالقتال ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ﴾ تحريماً قدرياً، كما في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]، فالتحريم قد يكون شرعياً كما في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] وقد يكون قدرياً كما تقدم.

قوله: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ﴾ شمسية أو هلالية؟ هلالية؛ لأن التوقيت بالهلال كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وإلى وقت ليس ببعيد التوقيت بالهلال، حتى إن اليهود لما صاموا يوم عاشوراء صامه الرسول عليه الصلاة والسلام وقال: «**نحن أحق بموسى منكم**»(١).

قوله: ﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ يعني: يضيعون، وسبحان الله المسافة بين مصر وأرض الشام تقدر بحوالي شهر، لكن هم بقوا أربعين سنة لم يهتدوا للطريق، ليست سنة ولا سنتين بل أربعين

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء، حديث رقم (١٩٠٠)، ومسلم، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، حديث رقم (١١٣٠) عن ابن عباس.

سنة في هذه المساحة القليلة من الأرض؛ ولأن الله عزّ وجل أعماهم فحرموا هذا الخير وهو دخول الأرض المقدسة، حرموا إياه من أجل هذا العناد والعتو.

وقوله: ﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فلا يهتدون سبيلاً، ولكن لماذا خص التيه بأربعين سنة؟ هناك جوابان:

الجواب الأول: أن مثل هذه الأمور القدرية أو الشرعية المحددة بعدد لا يمكن أن يكون الإنسان عالماً بحكمتها؛ لأن هذه ليس للعقل فيها مجال، وقد تقدم كثيراً أن المحدد شرعاً أو قدراً ليس للعقل فيه مجال؛ إلا أشياء يسيرة من الأمور القدرية.

الجواب الثاني: قال بعض العلماء: إنهم تاهوا أربعين سنة، وأربعون سنة مدة طويلة، يمكن أن ينشأ فيها جيل جديد، على غير ما كان عليه هؤلاء المعاندين، وهذا من الناحية النظرية ليس ببعيد، لكن قد يعترض عليه بأنه: هل هذه المدة مدة كافية؟ **الجواب**: نعم كافية؛ لأن الشعوب قد تتحول مع قوة الداعي وضعف المانع إلى عادات وأخلاق في أقل من أربعين سنة، حسب قوة الدافع وقلة المانع.

قوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: لا تحزن، كما قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] أي: لا تحزنوا، أي: فلا تحزن على القوم الفاسقين، مما عاقبهم الله به؛ لأنهم أهل لهذه العقوبة.

من فوائد الآيات الكريمات [٢١ ـ ٢٦]:

الفائدة الأولى: فضيلة أرض الشام، لقوله: ﴿ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ وسبق أن المقدسة، أي: المطهرة من الأوثان والشرك؛ وذلك

لأنها بلاد الأنبياء، ويدل لفضيلتها قول الله تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، فقوله: ﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ هذا أيضاً من تقديسها.

الفائدة الثانية: أن الله تعالى كتب أرض الشام لبني إسرائيل، لقوله: ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

الفائدة الثالثة: أنه ينبغي للداعية أن يذكر ما يهيج النفوس ويغريها بالقبول؛ لأنه ذكر في الآية أن الأرض مقدسة، هذا الأول، والثاني: أن الله كتبها لهم، والثالث: قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ وكأن هذه بشارة بأنهم سينتصرون وسوف يدخلون الأرض، فالبشارة من وجوه ثلاثة كما تقدم.

الفائدة الرابعة: أن الكتابة نوعان: شرعية وقدرية، فالكتابة في هذه الآية بمعنى الكتابة القدرية، والكتابة القدرية: تأتي غالباً مقرونة بـ(اللام)، والكتابة الشرعية: تأتي غالباً مقرونة بـ«على»، وهذا غالباً لا دائماً بدليل قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ [الحشر: ٣] والكتابة هنا: قدرية؛ لأن الله لم يفرض عليهم الجلاء فرضاً شرعياً ولكن قدرياً.

الفائدة الخامسة: أن بني إسرائيل أحق بأرض الشام من غيرهم، لقوله: ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فهم أحق الناس بها وهي مكتوبة لهم حين كانوا مؤمنين؛ فهي كتبت لهم لا لأنهم من بني إسرائيل، بل لأنهم مؤمنون، ولا شك أنهم في عهد موسى هم أفضل أهل الأرض، وموسى عليه السلام يخاطب قوماً صدقوا وآمنوا به، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ

ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥].
إذاً: فقول بني إسرائيل: إن هذه أرض الميعاد، نقول: إن شاء الله هي أرض ميعاد هلاككم، أما أنها أرض لكم مكتوبة شرعاً فلا، وأما قدراً فيمكن، لكن شرعاً ليس لهم فيها حق إطلاقاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، فكما أن الله أورث بني إسرائيل بلاد فرعون وأرضه؛ لأنهم كانوا مسلمين، فكذلك المسلمون المؤمنون بمحمد ﷺ يرثون بني إسرائيل.

الفائدة السادسة: أن الأمور لا تتم إلا بوجود المصالح وانتفاء المفاسد، لقوله: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ ولذلك نجد في الشرع أوامر ونواهي؛ لأن العبادة لا تتم إلا بأن يرغم الإنسان نفسه على فعل الطاعات وعلى الكف عن المعاصي والمحرمات، فالشرع تجد فيه فعل وفيه ترك، حتى يتم الامتحان والاختبار، ونضرب مثلاً بالصوم فيه ترك للمحبوب، وفي الزكاة بذل للمحبوب، وهذا الذي يكون به تمام الامتحان.

الفائدة السابعة: أن الكفر ردة عن الاستقامة، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ فالمرتد متأخر وليس متقدماً، إذا قلنا هذا صار الإيمان تقدماً، ولذلك نقول لأولئك القوم الذين يريدون من الأمة الإسلامية أن ترجع إلى الوراء وهو عندهم تقدم، نقول: أخطأتم، وذلك لأنهم يرون أن رجوع الناس إلى زمن السلف الصالح تأخر، ونحن نقول لهم: مخالفة طريق السلف الصالح هو التأخر؛ لأنه يسمى في القرآن ردة أو ارتداد على الدبر، لكن موافقة السلف الصالح هي التقدم حقيقة، ولكنه يحتاج إلى عزيمة وقوة وتطبيق.

الفائدة الثامنة: أن الارتداد عن العقب سبب للخسارة، أي: خسارة الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وإنما قلت: إن الردة على الأدبار سبب للخسران؛ لأن «الفاء» في قوله: ﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾ فاء السببية ولهذا نصب الفعل بعدها لوقوعه بعد النهي في قوله: ﴿وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

الفائدة التاسعة: أنه ينبغي للإنسان الداعية إلى الله أن يذكر عواقب السيئات من أجل تنفير النفوس، صحيح أن الدعوة إلى الله تعالى تحصل بأن يقول: هذا حرام، وهذا حلال، وهذا واجب، لكن إذا ذكر الترغيب والترهيب كان في ذلك حفز للنفوس على الامتثال، وجه ذلك أن موسى قال لقومه: ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

الفائدة العاشرة والحادية عشرة: أن ذكر العقوبة الدنيوية أو أن ذكر العواقب السيئة في الدنيا من أجل ردع الناس عن المعاصي والمخالفة لا ينافي الإخلاص، ولهذا كان الرسل يحذرون أقوامهم، كما أن ذكر العواقب الحسنة من أجل الحث على الطاعة لا ينافي الإخلاص، وهذا من الثواب العاجل ومن عاجل بشرى المؤمن لأن الله تعالى يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥ ـ ٧]، والنبي ﷺ يقول: «**من أحب أن ينسأ له في أثره ويبسط له في رزقه فليصل رحمه**»[1]، أليس هذا أمراً دنيوياً؟ ومع ذلك ذكره النبي عليه الصلاة والسلام وسيلة إلى فعل الطاعة، وهي صلة الرحم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم، حديث رقم (٥٦٤٠)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، حديث رقم (٢٥٥٧) عن أنس بن مالك.

وقول بعض الناس: إن الإخلاص حقيقة أن تعبد الله لله لا لثواب الله، هذا خطأ لأنه مخالف لهدي النبي عليه الصلاة والسلام، اقرأ قول الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، يبتغون الفضل والرضوان، لكن القول الذي أشرت إليه هو قول بعض الصوفية، يقولون: إنك إذا لاحظت الثواب فقد أشركت في العبادة، ـ نسأل الله العافية ـ الله عزّ وجل يرشدنا إلى هذا ويُبَيِّن أن هذا هو طريق الرسول ﷺ وأصحابه، وأنت تقول: إن هذا من الإشراك! صحيح أن من أراد الدنيا بعمل الآخرة عنده نوع من الإشراك، لكن إذا جعل نصيبه من الدنيا عوناً له على طاعة الله فليس فيه إشراك إطلاقاً، وانظر إلى الفواحش، الزنا مثلاً له عقوبة من أجل أن يرتدع الإنسان عنه ويخشى أنه إذا زنا أن يجلد أو يرجم، وكذلك قطع اليد في السرقة: من أجل أن يهاب الناس السرقة ولا يقدموا عليها، فلا يقال: يكفي الوازع الإيماني؛ لا يقال هذا، لأننا لو قلنا: يكفي الوازع الإيماني لوجب أن نعطل جميع الحدود، ولكن نقول: الوازع الإيماني لا شك أنه هو الأصل، لكن الرادع السلطاني مقوٍّ لهذا الأصل.

لو قال قائل: أحياناً يجد الإنسان انشراحاً في العبادة أكثر من طلب العلم والقراءة؟

الجواب: السبب في ذلك: لأن إخلاصنا في طلب العلم فيه شيء من الخدوش، وإلا لو شعرنا أننا نطلب العلم ونحن مجاهدون في سبيل الله، لصارت صدورنا أشد انشراحاً، لكن مع الأسف أن كثيراً من طلاب العلم يقصدون بالعلم أو بطلب العلم

التوسع في طلب العلم فقط، وهذا لا شك أنه نقص، أنا أقول: طالب العلم يجب أن يقصد بطلب العلم نصرة هذا الدين، وحماية هذا الدين من أعدائه وبهذا ينشرح صدره، ولهذا تجد الإنسان إذا لاحظ هذا الملحظ، إذا فهم مسألة من مسائل العلم رآها غنيمة، درة غواص لا يمكن أن يفرط فيها إطلاقاً.

الفائدة الثانية عشرة: بيان جفاء بني إسرائيل وذلك أن موسى كان يخاطبهم بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ بهذا اللفظ، وهم يقولون: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ ولم يقولوا: يا نبي الله أو يا رسول الله، وهذا من جفائهم وغلظ طبائعهم.

الفائدة الثالثة عشرة: سوء ظن بني إسرائيل بالله، وذلك لأن نبيهم عليه الصلاة والسلام وعدهم بأن الله كتب لهم الأرض المقدسة، ولكنهم اعتمدوا على الأمر المادي، فقالوا: إن فيها قوماً جبارين، وهذا يدل على سوء ظنهم بربهم سبحانه وتعالىٰ.

الفائدة الرابعة عشرة: بيان جبن بني إسرائيل لقولهم: ﴿لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ وهذا غاية ما يكون من الجبن؛ لأن الجبان هو الذي يقول: لا أدخل البلدة أو القرية أو المدينة إلا إذا خرج منها أهلها.

الفائدة الخامسة عشرة: تأكيد هذا الجبن مرة ثانية، لقولهم: ﴿فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾.

الفائدة السادسة عشرة: التوكيد على دخولهم إذا خرج منها هؤلاء القوم الجبارون لقولهم: ﴿فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ وهذا لا يحتاج إلى توكيد لكن يدل على بلاهتهم؛ لأن كل إنسان يعرف أنه متى خلت البلاد من عدوها وخرجوا منها، فالدخول لا يحتاج إلى تأكيد، مَنْ ينكر أن يدخل الإنسان إذا خلا البلد من العدو؟

الفائدة السابعة عشرة: أن الله قد ينعم على بعض القوم ويفتح عليهم بما لم يفتحه على أحد غيرهم، لقوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾.

الفائدة الثامنة عشرة: أن الله تعالى قد يجعل في القوم المعاندين من فيه الخير والصلاح والإصلاح، لقوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾.

الفائدة التاسعة عشرة: أن الخوف من الله مما يحمل العبد على طاعة الله؛ لقوله: ﴿يَخَافُونَ﴾ ولا شك أن الخوف مما يحمل على الطاعة، كما أن الرجاء أيضاً مما يحمل على الطاعة، لكن الغالب أن الخوف يحمل على عدم المخالفة وعدم الوقوع في النهي، والرجاء يحمل على الموافقة في الطاعات وفي الأوامر.

الفائدة العشرون: أن الخوف من الله عزّ وجل من النعم، ولا شك أنه من نعمة الله على العبد، أن ينعم الله عليه بالخوف منه، لقوله: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾.

الفائدة الحادية والعشرون: أنه ينبغي لمن أراد غزو بلد أن يُعَمِّيَ الأخبار عن أهلها، لقول هذين الرجلين الناصحين: ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ يعني: ولا يعلمون بكم حتى تدخلوا الباب، وقد ذكرنا لذلك شاهداً في فتح مكة، حيث إن النبي ﷺ سأل الله أن يعمي عن قريش الأخبار حتى يبغتها في بلادها[1].

الفائدة الثانية والعشرون: أن من غُزي في عقر داره فهو ذليل، وهذا مَثَلٌ مشهور: ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذُلوا،

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٥/ ٥٢)، تاريخ الطبري (٢/ ١٥٥)، البداية والنهاية (٤/ ٢٨٣).

لقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَۖ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾ وأهل البلد مغلوبون.

الفائدة الثالثة والعشرون: أن الدخول على البلدة لا يكون بِتَسَوُّر الجدر وإنما من الباب، ولهذا لما حاصر الصحابة رضي الله عنهم حديقة مسيلمة الكذاب، لم يتسوروا الجدران، بل فتحوا الباب ثم دخلوا، وكان البراء بن مالك رضي الله عنه مشهوراً بالشجاعة والقوة، فطلب منهم أن يرموه من وراء السور من أجل أن يفتح لهم الباب، ففعلوا، فدخل وفتح لهم الباب، ودخل الناس هذه الحديقة وحصل النصر[1].

الفائدة الرابعة والعشرون: أن التوكل على الله عزّ وجل من أسباب النصر، لقول هذين الرجلين: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾.

الفائدة الخامسة والعشرون: أن لا يعتمد الإنسان على نفسه وعلى السبب الحسي، لقولهما بعد أن وجها قومهما إلى أن يدخلوا عليهم الباب: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ ويشهد لهذا المعنى المأخوذ من هذه الآية، قول النبي ﷺ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**»[2]. احرص على ما ينفعك: هذا بفعل ما تستطيع من الأسباب، واستعن بالله: يعني: لا تعتمد على نفسك، اطلب العون من الله عزّ وجل حتى يحصل المراد.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٢٧٩)، الإصابة (١/ ٢٨١)، البداية والنهاية (٦/ ٣٢٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير، حديث رقم (٢٦٦٤).

الفائدة السادسة والعشرون: وجوب إفراد الله عزّ وجل بالتوكل، لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ وهذا فيه تفصيل، وذلك أن التوكل المطلق الذي فيه تفويض المتوكِل أمره إلى المتوكَل عليه، وهذا لا يجوز إلا لله، والمتوكل على الله بهذا المعنى يشعر بأنه بحاجة وافتقار إلى الله عزّ وجل.

وأما التوكل وهو الاعتماد الجزئي الذي لا يشعر المتوكِل أنه مفوض أمره إلى المتوكَل عليه بل هو الذي يمكن أن يقضي حاجته، فهذا لا بأس به، ولذلك جاءت السنة: بجواز توكيل الغير والاعتماد عليه فيما وكل فيه، فمثلاً: تقول: يا فلان اشترِ لي كذا وكذا، أنت الآن اعتمدت عليه، ولكن هل هذا اعتماد افتقار أو اعتماد معونة؟ الثاني: اعتماد معونة، وأنت الآن تشعر بأن هذا الرجل لستَ مفتقراً إليه لو شئتَ لعزلته، وهو أيضاً لا يمكن أن يأتي بمرادك، قد يعتريه مرض وقد يُمنع منه إلى آخره، ولكن توكل العبد على الله عزّ وجل، ـ وأسأل الله أن يجعلنا من المتوكلين عليه ـ يشعر الإنسان بأنه بحاجة إلى الله، وأنه قد فوض أمره إلى الله عزّ وجل، ومن ثَمَّ لا يمكن أن نقول: إن التوكل على غير الله إنه شرك؛ لأنه كما تقدم الفرق العظيم بين هذا، وهذا ظاهر، لكن قد يتوكل الإنسان ويعتمد الإنسان على من ينفق عليه مثلاً، فالابن يعتمد على أبيه في الحصول على النفقة، كذلك الموظف يعتمد على وظيفته.

هذه مسألة دقيقة جداً، فإن أشعرت نفسك بأن هذا سبب محض وأن الذي جعله سبباً هو الله، وأن الله قادر على أن يمنع نفوذ هذا السبب، وجعلت الأمر كله إلى الله عزّ وجل، فإن ذلك

لا ينافي التوكل، لا أصله ولا كماله، وأما إذا اعتمدت عليه وعلقت قلبك به، فإن هذا بلا شك نوع من الشرك، إن نسيت الله بالكلية ـ والعياذ بالله ـ وجعلت هذا هو الذي يجلب لك الأمور بنفسه فهذا شرك أكبر وإلا كان أصغر، ومن ذلك ما يقع كثيراً للمرضى، من اعتمادهم على الطبيب اعتماداً كلياً حتى إنه يشعر في نفسه أن الشفاء كان منه، وهذا خطر عظيم، أما إذا اعتمدت على الطبيب على أنه سبب والمسبب هو الله عزّ وجل، وأن الله تعالى إن قدر لك الشفاء فهو الذي شفاك، وإلا فالطبيب لن ينفعك وغاية ما هنالك أنني أذهب إلى الطبيب، كما أوقد النار لطهي طعامي مثلاً، فهذا لا بأس به، ولا بد أن يكون في القلب شيء من التعلق بمن ينفعه، لكن يجب أن نجعل الأول والآخر هو الله عزّ وجل.

لو قال قائل: إذا أصيب الإنسان بالمرض وترك التداوي يحتج على ذلك بقصة عمران بن حصين التي في صحيح مسلم بأنه قال لأحد الصحابة: إني كان يُسَلَّم عليَّ فلما اكتويت ترك ذلك، فلما تركته سلم علي[1] وقصة أبي بكر عندما مرض وقيل له: ألا تتداوى؟ قال: قد رآني الطبيب، قال: أنا على ما أشاء قدير[2]، فهل في هذا حجة على ترك التداوي؟

الجواب: عندنا السنة وعندنا كلام الصحابة أيهما نقدم؟

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحج، باب جواز التمتع، حديث رقم (١٢٢٦) عن عمران.

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٩٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/ ٤١٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٤).

الرسول ﷺ أمر بالتداوي، إلا أننا لا نتداوى بحرام[١]، الرسول عليه الصلاة والسلام لما ذكر الحبة السوداء أنها شفاء من كل داء إلا الموت[٢] غرضه من هذا أن يستشفي الناس بها، ثم يحمل فعل بعض الناس، سواء الصحابة أو من بعدهم على أن عندهم من قوة التوكل ما يغنيه عن الدواء، فتكون قوة التوكل عنده بمنزلة الدواء، أما لو كان مصاباً بمرض القلب مثلاً ويخشى أنه لو ذهب إلى الأطباء وأجروا له العملية ألَّا يتقنوها، فإذا لم يكن عنده الثقة في الطبيب هذا شيء آخر، لا سيما إذا كان المرض خطيراً فلا يخاطر بنفسه، أما إذا كان أمراً معلوماً مثلاً، كالزائدة الآن، الزائدة إذا أصابت الإنسان إن بادر بها وقطعها سلم بإذن الله وإن تركها مات، وهي عملية سهلة، والبواسير الآن سهلة عند الأطباء، مع أن بعض العلماء يقول: حرام قطع البواسير؛ لأن في عهدهم كان قطعها خطراً، يكون نزيف ويموت الإنسان، لكن الآن تقدم ـ والحمد لله ـ علم الطب.

لو قال قائل: هل ينافي كمال التوكل الابتداء بالتداوي بالأسباب الحسية كالأدوية وترك القراءة الشرعية والأسباب المعنوية؟

الجواب: بعض الناس قد يعدل إلى التداوي بالأدوية

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الطب، باب ما جاء في الدواء والحث عليه، حديث رقم (٢٠٣٨) عن أسامة بن شريك.

(٢) رواه البخاري، كتاب الطب، باب الحبة السوداء، حديث رقم (٥٣٦٤)، ومسلم، كتاب السلام، باب التداوي بالحبة السوداء، حديث رقم (٢٢١٥) عن أبي هريرة.

الحسية دون القراءة الشرعية؛ لأنها ربما تكون أفيد من القراءة عند بعض الناس؛ لأن الإنسان المريض لا يتقبل القراءة، ويكون شاكّاً فيها، وإذا كان شاكاً فيها لا تنفعه أو لا يثق بالقارئ لكن الأمور الحسية يثق بها كثيراً، لكن هناك أمراض لا ينفع فيها الأدوية الحسية، مثل الأمراض النفسية، فلا ينفع فيها إلا القراءة، والطبيب تجده يكشف على المريض عدة مرات ثم يقول: ليس فيه شيء، هذا لا ينفع فيه إلا القراءة، وليعلم أن الذي يشك في قراءة القارئ أو في نفثه لا يستفيد، لكن لا ندري هل هو يشك في هذا باعتبار الدواء الذي هو الآيات، أو باعتبار القارئ.

❁ ❁ ❁

الفائدة السابعة والعشرون: أن إفراد الله بالتوكل من الإيمان، لقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وأن نقص التوكل على الله نقص في الإيمان؛ لأن ما رتب على شيء ازداد بزيادته ونقص بنقصه.

الفائدة الثامنة والعشرون: إصرار بني إسرائيل على المعصية، وعلى الجبن والخور لقولهم: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ وهذا ظاهر في أنهم مصرون على معصية نبيهم الذي قال لهم: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾.

الفائدة التاسعة والعشرون: الغطرسة العظيمة في بني إسرائيل، حيث قالوا لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، حتى قولهم: «اذْهَبْ»، بهذه الصيغة، كأنهم آمرون لموسى، أيضاً فيه استعلاء واستكبار ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ يعني: ما رجوه رجاء وقالوا: ألا تذهب يا

رسول الله، أو يا نبي الله، أو ما أشبه ذلك، وجه ثالث من الغطرسة في قولهم: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ أي: لا نتحرك ولا نذهب معكم، لم يقولوا مثلاً: إننا ردء لك نحميك من ظهرك وما أشبه ذلك، ففيها أيضاً منتهى الغطرسة من بني إسرائيل.

الفائدة الثلاثون: أن موسى عليه الصلاة والسلام أيس من بني إسرائيل حينما عاندوا هذا العناد وعبروا هذا التعبير، لقوله: ﴿إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيٓ﴾ وقارن بينهم؛ أي: بين بني إسرائيل وبين صحابة النبي ﷺ، حيث كانوا يبتدرون أمره، ويتسابقون إليه، تجد الفرق العظيم بين هذه الأمة ـ والحمد لله ـ وبين الأمم السابقة.

الفائدة الحادية والثلاثون: أن موسى عليه الصلاة والسلام له الكلمة على هارون، لقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيٓ﴾ أما كون هارون أكبر من موسى أو موسى أكبر من هارون؟ فهذا يحتاج إلى دليل صحيح، ولكن موسى عليه الصلاة والسلام كان له الإمرة على هارون.

الفائدة الثانية والثلاثون والثالثة والثلاثون: جواز دعاء الإنسان ربه عزّ وجل أن يفصل بينه وبين أهل الفسوق والفجور، لقوله: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

ويمكن أن يتفرع على هذه الفائدة جواز هجران الفسقة؛ لأن الهجر مفارقة، ولكننا نقول: السنة دلت على أن الهجر إن كان فيه مصلحة فافعله وإلا فلا تفعل، فإن كان هجران العاصي أو المبتدع لا يزيد الأمر إلا شدة، وأنت إنما هجرت للإصلاح ولأجل أن يرتدع، وهو لن يرتدع بالهجر بل يمكن أن يزيد في

الشر، ونضرب لذلك مثلاً لو أنك رأيت رجلاً حالقاً لحيته وهجرته هل سوف ينتهي عن ذلك، إن كان سينتهي فلا بأس، وأما إذا كان لا ينتهي ويزداد كراهة لك ولما تدعوه إليه من الحق ويستمر فأي فائدة في هجره، ثم عندنا الحديث الصحيح: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة**»[1]. وهذا مُسَلَّم، وما ورد عن السلف من الهجر يحمل على أنه هجر للإصلاح أو لئلا يغتر بهم الخلق، وعلى هذا إذا كنت تتألف العصاة وأهل الضلال فلا بد أن تصرح بأنهم على ضلال، لئلا يغتر الناس بهم، لكن لا تخصهم بأعيانهم حتى لا ينفروا، لكن إذا قلت: بعض الناس قال كذا أو يقال كذا فلن ينفروا.

الفائدة الرابعة والثلاثون: أن التخلي عن الجهاد في سبيل الله من الفسق، لقوله: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

الفائدة الخامسة والثلاثون: الأخذ بالأكثر؛ لأن من قوم موسى من كانوا على الحق، وهما الرجلان اللذان قالا: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ فهل هما فاسقان؟ الجواب: لا، لكن باعتبار الأكثر صح أن يوصفا بالفسق على وجه العموم، وقد يقال: إن الفاسقين هنا عام أريد به الخاص؛ أي: أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يكن في باله إطلاقاً أن يدخل الرجلان، وعلى هذا فيكون الوصف هنا خاصاً بالذين قالوا: ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، حديث رقم (٥٧١٨)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر، حديث رقم (٢٥٥٨) عن أنس بن مالك.

دَامُواْ فِيهَآ﴾، وقد يقال: إن موسى عليه السلام لا يملك الملك التام والسيطرة التامة إلا على أخيه هارون.

الفائدة السادسة والثلاثون: استجابة الدعاء، لقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ﴾ واستجابة الله للدعاء تتضمن عدة صفات: منها: الاستجابة، ومنها: العلم، ومنها: السمع، ومنها: القدرة، كل هذه الصفات ثابتة بالاستجابة؛ لأنه لو لم يسمع لم يستجب، ولو لم يعلم ما يريد الداعي لم يستجب، ولو لم يقدر لم يستجب أيضاً.

الفائدة السابعة والثلاثون: أن التحريم يطلق على المنع القدري، لقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾؛ لأننا نعلم أن الله تعالى لم يرد أنه حرم عليهم دخولها شرعاً لكن قدراً، وهو كذلك أعني أن التحريم يكون كونياً ويكون شرعياً، وقد ضربنا لذلك أمثلة أثناء الكلام على تفسير الآية. فمن التحريم القدري الكوني: قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢] تحريماً قدرياً، ومن التحريم الشرعي قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة: ٣] وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

الفائدة الثامنة والثلاثون: أن العقوبة تعم لقوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

الفائدة التاسعة والثلاثون: إرشاد الإنسان أن لا يحزن على الفاسق؛ لأنه إذا بذل جهده فيما يجب من الدعوة، فإن هداية الخلق ليست إليه بل إلى الله، فلا يحزن، ولهذا قال الله: ﴿فَلَا

تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦] وقال لنبيه ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣] وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦] والآيات في هذا متعددة، فالإنسان إذا بذل الجهد بقدر المستطاع، فلا ينبغي أن يحزن ويشتغل بعيوب غيره عن عيوب نفسه، ولا يأس على القوم الفاسقين، وكثير من الناس يكون عنده غيرة، فتجده يشتغل بمعاصي غيره وعيوب غيره وينسى نفسه وهذا خطأ، أهم شيء عليك نفسك، عدلها ثم اسعَ في إصلاح الآخرين.

لو قال قائل: ما حكم وصف موسى عليه السلام بالعصبية بسبب هذه المواقف، وهي غضبه وإلقاؤه الألواح، وتعنيفه لهارون قبل سؤاله وأخذه بلحيته، وقتله للفرعوني، وتسرعه بالسؤال في قصة الخضر، واختياره للمصير الأدنى إذ قال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ [الكهف: ٧٦]؟

الجواب: نقول للذين وصفوا موسى عليه الصلاة والسلام بالعصبية: إن كنت تخبر مجرد خبر فلا تعرض المسألة على هذه الصفة، بل قل: إن موسى عليه الصلاة والسلام عنده غيرة وعنده قوة، وما أشبه ذلك من الأوصاف التي تكون مدحاً لا قدحاً، وأما إذا أردت القدح فيه فالقدح فيه كفر مخرج عن الملة، وموسى عليه الصلاة والسلام مشهور بأنه قوي وشديد؛ ولهذا لما جاءه ملك الموت ليقبض روحه لطمه حتى فقأ عينه[1]، فهو

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد حديث رقم (٣٢٢٦)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، حديث رقم (٢٣٧٢) عن أبي هريرة.

معروف بالشدة، والإنسان الشديد ربما يقع منه هذا الشيء، أما أن نقول: إنه معروف بالحمق والتسرع وما أشبه ذلك، فهذا لا يجوز أبداً، ثم إن له من الحسنات العظيمة ما يطغى على مثل هذا، والذي نرى أن الذي يتكلم في موسى عليه السلام أنه أساء الأدب بلا شك، أما كونه قادحاً أو غير قادح فالله أعلم بنيته، لكن لا شك أنه أساء الأدب.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣١].

قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ الخطاب للنبي ﷺ وأمره سبحانه وتعالىٰ أن يتلو عليهم هذا النبأ لأهميته، وإلا فمن المعلوم أن جميع القرآن قد أمر النبي ﷺ أن يبلغه، ويبينه لهم لفظاً ومعنى، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وقوله: ﴿نَبَأَ﴾ أي: خبر، وقيل: إن النبأ إنما يكون في الأمر الهام، والخبر: يكون في الهام وغيره.

وقوله: ﴿نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ﴾ هذان ابنان لصلبه، وإلا فجميع البشر بنو آدم، أحدهما اسمه: هابيل، والثاني اسمه: قابيل.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصدق الثابت، واعلم أن الحق يوصف به الخبر ويوصف به الحكم، فإن كان الخبر فهو: الصدق، وإن كان الحكم فهو: العدل، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] فقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: بالصدق الثابت الذي لا مرية فيه ولا اختلاف.

وقوله: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ (إذ) متعلقة بـ(نبأ)، أي: نبأهما، حين قربا قرباناً، وهي في محل نصب حال من النبأ، يعني: هذه الحال: هما قرَّبا قرباناً، ولم يبينه الله عزّ وجل، هل هو ذهب أو فضة أو طعام أو بهائم، ولو كان في بيانه مصلحة لبينه الله عزّ وجل، وعلى هذا فلا حاجة إلى أن نتكلف ما هذا القربان؟ وهذه قاعدة ينبغي أن تبني عليها جميع ما تسير عليه كتب التفسير، أن ما أبهمه الله فهو مبهم، ولا حاجة إلى أن نتكلف ما هو هذا الشيء الذي أبهمه الله؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ يقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] ويقول: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦]. ولو كان في بيان هذا المبهم فائدة لبينه الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ المراد به: ما يتقرب به إلى الله عزّ وجل، قوله: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ والمتقبل هو الله، وأبهم للعلم به، كما في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] فإن الخالق هو الله بلا شك وأبهم للعلم به، والذي تقبل منه هابيل، تقبل الله منه، ولكن كيف علمنا أن الله تقبل منه، إما أن يكون كما ذكر عمن سبق، أنهم إذا

غنموا الغنائم جمعوها فنزلت نار من السماء فأحرقتها، فإن كان فيها غلول فإن النار لا تنزل، وعلى هذا فيكون علامة القبول أن الله تعالى أنزل ناراً على هذا القربان فأحرقته، ويحتمل أنهما علما ذلك بأمارات أخرى، إما برؤيا أو بغير ذلك، المهم أنه لا بد أنهما قد علما أن هذا قُبِلَ وهذا لم يقبل.

قوله: ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾، لماذا؟ لأن الآخر ليس عنده تقوى لله عزّ وجل، كما سيأتي في تعليل القبول، فهو ظالم لنفسه، إما بهذا القربان الذي قربه، يعني: أنه غصبه أو سرقه أو تملكه بغير طريق شرعي، وإما بمعاصٍ كثيرة تمنع من قبول العمل الصالح.

قوله: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ القائل: هو الذي لم يتقبل منه، قال ذلك حسداً لأخيه، ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾؛ لأن الله تقبل منك ولم يتقبل مني، فقال له: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: أن الله لا يتقبل إلا من المتقين؛ ولهذا قال بعض السلف: لو أعلم أن الله تقبل مني عملاً صالحاً واحداً لفخرت بذلك وفرحت به؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. وجملة ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ جملة حصرية، طريق الحصر فيها «إنما» يعني: لا يتقبل الله إلا من المتقين، والمتقي: هو الذي قام بطاعة الله فاعلاً للمأمور تاركاً للمحظور.

قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وإنما قال ذلك لا افتخاراً بتقواه ولا إعجاباً بنفسه، ولكن حثاً لأخيه على أن يكون من المتقين، وبياناً بأن الله عزّ وجل إنما يتقبل لحكمة ويمنع لحكمة.

قوله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي﴾ «بسطتها» أي: مددتها مداً تصل به إليّ لتقتلني و«اللام»: للتعليل؛ أي: لأجل أن تقتلني، ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ﴾، يعني: أن هذا رجل قال لأخيه: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي﴾ فأنا لن أبسط إليك يدي لأقتلك، والمعنى: إنني لا أقتلك، وهو صريح في هذا، ولكن هل هذا يتضمن أنني لا أدافع عن نفسي؟ فيه احتمال أن المراد: ما أنا بمدافع عن نفسي بل سأستسلم، أو أن المعنى: ما أنا بقاصد قتلك، والذي وقع أن الرجل قتل صاحبه كما سيأتي في آخر القصة.

قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، لما قال: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ﴾ قد يتوهم أخوه أنه عاجز عن ذلك، فبيَّن أنه ليس بعاجز، ولكنه يخاف الله، و«إنْي» فيها قراءتان «إنيَ» بفتح الياء وسكونها. و﴿رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: خالقهم ومالكهم ومدبر أمورهم، والعالمون: كل من سوى الله فهو عالم، وإنما سموا بذلك؛ لأنهم عَلَمٌ على خالقهم، ففي المخلوقات كلها آية تدل على وحدانية الله عزّ وجل وتمام ملكه وسلطانه، وغير ذلك مما تقتضيه الربوبية.

قوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾، «إني» فيها قراءتان «إني» بفتح الياء وسكونها، والإرادة: هي ميل النفس إلى ما يجلب منفعة أو يدفع مضرة.

وقوله: ﴿أَن تَبُوٓأَ﴾ أي: أن ترجع بإثمي وإثمك، أما كونه يرجع بإثمه فواضح، لكن كيف يرجع بإثم أخيه، نقول: إن عدم قتال أخيه له سلامة من الإثم، فكأن أخاه الذي لم يقاتل وسلم

من الإثم كأنه حمل القاتل إثمه، وليس المعنى: أن القاتل يكون عليه إثمان: إثم للمقتول لو قتله وإثم لقتله إياه، بل الظاهر أن المعنى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ أي: أن سلامته من الإثم كأن الآخر تحمله عنه وباء به.

قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿فَتَكُونَ﴾: معطوفة على ﴿أَن تَبُوٓأَ﴾ ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنك قتلت نفساً بغير حق، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: كونك من أصحاب النار، ﴿جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فكل ظالم فإنه يعذب؛ لأن الحق حق لآدمي، ثم إن كان ظلمه عظيماً فإنه يكون من أصحاب النار ويخلد فيها، وإلا فلا.

قوله: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ﴾: أي: سهلت له، أن يقتل أخاه، مع أن أخاه وعظه هذه الموعظة، لكن ـ والعياذ بالله ـ لم تنفعه، ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ﴾ أي: للقاتل ﴿نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾؛ لأن نفسه سهلت عليه القتل، ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي: فصار من الخاسرين، وإنما قلنا: أصبح، أي: صار؛ لأن الأصل في معنى الإصباح أن يكون في أول النهار، لكن قد يعبر بالإصباح على مجرد الصيرورة، مثلما تقول: فلان أصبح حزيناً على هذه المصيبة، وربما تكون قد أصابته في وسط النهار.

قوله: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا﴾ أي: أرسله، والغراب: هو الطائر المعروف، ولا يقال: لماذا اختاره الله عزّ وجل من بين سائر الطيور؛ لأن مثل هذه المسائل لا يمكن تعليلها ولا يمكن الإحاطة بها.

قوله: ﴿يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ذكر المفسرون أن غرابين اقتتلا

فقتل أحدهما الآخر، فبحث القاتل في الأرض ثم دفن الغراب، ولكن ظاهر الآية خلاف ذلك؛ لأن الله يقول: بعث الله غراباً، ولم يقل: غرابين، والظاهر أن هذا القاتل لقوة ما وقع في نفسه، كأنه ذهل عن هذا الأمر، فبعث الله هذا الغراب يبحث في الأرض، أي: يحرثها حتى يري هذا القاتل ماذا يصنع بأخيه؟

قوله: ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِۚ﴾ ﴿يُرِيَهُ﴾ أي: ليجعله يرى بعينه ﴿كَيْفَ يُوَٰرِى﴾ كيف يغطي، ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِۚ﴾ أي: عورته؛ لأن الميت كله عورة، ولهذا أمر النبي ﷺ أن يكفن الميت كله لا يخرج منه شيء، إلا من كان محرماً من الرجال فإنه يجب أن يكشف رأسه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «**ولا تخمروا رأسه**»[1]، قال الرجل: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ﴾ «الويل»: هو الثبور والتعب والإعياء، ويقال في كل حال يقع فيها الندم، وأصل ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ يا ويلتي، لكن قلبت الياء ألفاً من أجل المد ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ تمد عند الصياح، وهنا نادى الويل؛ كأنه يقول: يا ويلتا احضري فإني نادم.

وقوله: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ، يعني: كيف أعجز أن أكون مثل هذا الغراب؛ لأن بني آدم أكرم من الحيوانات، فصرَّح بأنه عجز أن يساوي أو يماثل الغراب، ﴿فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَأُوَٰرِىَ﴾ منصوبة هنا لأنها جواب الاستفهام، في قوله: ﴿أَعَجَزْتُ﴾.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الكفن في ثوبين، حديث رقم (١٢٠٦)، ومسلم، كتاب الحج، باب ما يفعل بالمحرم إذا مات، حديث رقم (١٢٠٦) عن ابن عباس.

فوائد الآيات الكريمات [٢٧ ـ ٣١]:

الفائدة الأولى: أهمية هذه القصة، وجه ذلك أن الله أمر نبيه ﷺ أن يتلوها على الأمة أمراً خاصاً، لقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾.

الفائدة الثانية: أنه ينبغي لنا أن نعرف أخبار من سبق، لا سيما فيما فيه مصلحة؛ لأن الله إنما أمر بأن يتلوها علينا رسول الله ﷺ من أجل أن نعلم بها ونأخذ منها العبر، وكلما كان الشيء أشد، كان الاهتمام به أقوى، فمثلاً ينبغي لنا بل يتأكد أو يجب علينا أن نعرف سيرة النبي ﷺ منذ ولد إلى أن توفي، ولا سيما سيرته بعد أن أكرمه الله تعالى بالرسالة، حتى نعرف أحواله وأخلاقه وعباداته ودعوته وأعماله حتى يتم لنا التأسي به، ولا شك أن معرفة سيرة النبي ﷺ مما تزيد الإنسان إيماناً ومحبة له، وتقوي التأسي به عليه الصلاة والسلام.

الفائدة الثالثة: أن كل ما أخبر الله به فهو حق، لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ولا يقال إن هذا قيد، وإنه قد يكون ما يتلوه النبي عليه الصلاة والسلام غير حق، بل هذا بيان للواقع، فإن جميع ما أخبر الله به فهو حق.

الفائدة الرابعة: أنه قد يشترك الرجلان في عمل، ويكون بينهما من الفرق كما بين السماء والأرض. إما في رد عمل الثاني، وإما في زيادة ثواب الأول، وإن لم يحرم الثاني من الثواب، وفي هذه القصة أن الثاني حرم من الثواب، فقد يعمل الرجلان عملاً واحداً فيما يظهر، ولكن يكون بينهما في الثواب والقبول والرد كما بين السماء والأرض.

الفائدة الخامسة: أن الله سبحانه وتعالىٰ ـ له الحكم في القبول والرد، يتقبل أو لا يتقبل، ولكن من المعلوم أن الله جعل للقبول ميزاناً وجعل للرد ميزاناً، فمتى كانت العبادة خالصة لله موافقة لشريعته فهي مقبولة، متى عَمِلْتَ على الوجه الشرعي فإن عبادتك مقبولة، كما قال الله عزّ وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، فمن وفق للدعاء فليبشر بالإجابة، ومن وفق للعمل فليبشر بالثواب، ولولا هذا الرجاء من الإنسان لله عزّ وجل ما نشط على العمل ولا قام به.

الفائدة السادسة: أن التقوى هي سبب قبول الأعمال، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وهل المراد هو تقبل الأعمال فقط أو تقبل الأعمال والدعاء؟ الظاهر العموم، ولهذا من كان أتقى لله كان أقرب لإجابة دعائه وقبول عمله.

الفائدة السابعة: أن غير المتقي لا يقبل منه، فهل المراد أنه لا يقبل منه في نفس العبادة التي وقعت فيها المخالفة أو العموم؟ نقول: أما في نفس العبادة التي وقعت فيها المخالفة فلا شك أنه لا يقبل، فإن الله لا يقبل عملاً مبنياً على معصية؛ لأن الله لا يرضى ذلك، فلا يقبله، فلو تصدق الإنسان بمغصوب، أي: غصب شيئاً وتصدق به، فإنه لا يقبل منه؛ لأن المعصية وقعت في نفس العمل الذي عمله الإنسان لربه عزّ وجل، ولو صلى الإنسان صلاة لا تجوز في وقت النهي، فصلاها في وقت النهي، فإنها لا تقبل؛ لأن صلاته إياها في هذا الوقت معصية، فكيف يتقرب إلى الله بمعصيته؟ أما إذا كانت التقوى مختلة في غير هذا العمل، فقد يحرم الإنسان الإجابة بسبب عمله السيئ وقد يجاب ويتقبل

منه العمل الصالح، ثم تكون الموازنة في الآخرة، أيهما يرجح الحسنات أم السيئات.

الفائدة الثامنة: أن الله سبحانه وتعالىٰ موصوف بصفات الأفعال، لقوله: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ ولقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة، أن الله تعالى موصوف بصفات الأفعال، كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين عباده يوم القيامة، والكلام، وغير ذلك.

لكن اعلم أن أصل صفة الفعل صفة أزلية، والذي يحدث هو المفعولات والفعل المقارن للمفعول، وأما أصل الفعل فهو صفة أزلية؛ لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال فعالاً لكن مفعولاته غير معلومة لنا، يعني هناك أشياء قبل السمٰوات والأرض نعلم أن الله تعالى خلقها، لكن لا ندري ما هي، ولا نعلم إلا ما علمنا الله سبحانه وتعالىٰ.

الفائدة التاسعة: الترغيب في التقوى، لقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

الفائدة العاشرة: أنه لا حرج على الإنسان أن يخبر بوصف محمود إذا لم يقصد الفخر وإنما قصد مصلحة الغير، لقول هذا الذي تقبل منه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأن هذه الجملة تصلح لأن يكون القائل مفتخراً بنفسه، وتصلح أن يكون القائل يريد أن يحث هذا على التقوى، وأيهما أقرب احتمالاً بالنسبة لهذا؟ الثاني أقرب؛ لأن الرجل من المتقين.

الفائدة الحادية عشرة: أن هذا الرجل الذي هدد بالقتل

امتنع عن قتل صاحبه، فهل يؤخذ منه أنه ينبغي لمن أراد إنسان أن يقتله أن يستسلم؟ يحتمل هذا وهذا، فيحتمل أنه قال: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ وأما المدافعة فسأدافع، ولكن مدافعة لا تصل إلى القتل، وعلى كل حال سواء كان هذا الاحتمال هو المراد أو الأول، فإن شريعتنا وردت بخلاف ذلك، فإن النبي ﷺ أمر من أراده أحد على نفسه أن يقاتله، ومن أراده على ماله أن يقاتله، ومن أراده على أهله أن يقاتله[1]، وبيَّن أن المدافع إذا قتل فهو شهيد، وأن الآخر الصائل إذا قتل فهو في النار؛ لأنه أراد قتل صاحبه[2].

ولكن العلماء رحمهم الله قالوا: إن هذا بالنسبة للشريعة الإسلامية يختلف باختلاف المصلحة، ففي حال الفتنة ينبغي الاستسلام، وفي حال الأمن تجب المدافعة، وهذا هو الصحيح؛ لأنه في حال الفتنة ربما يترتب على القتل بالمدافعة، إراقة دماء كثيرة، ولهذا استسلم عثمان رضي الله عنه للقتلة، وطلب منه الصحابة أن يدافعوا عنه فأبى؛ لأنهم لو دافعوا لاشتبكوا بهؤلاء الخوارج ثم حصل إراقة دماء كثيرة، وهذا هو الأصح، أن يقال:

---

(١) رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في قتال اللصوص، حديث رقم (٤٧٧٢)، والترمذي، كتاب الديات، باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد، حديث رقم (١٤٢١)، والنسائي، كتاب تحريم الدم، باب من قاتل دون دينه، حديث رقم (٤٠٩٥) عن سعيد بن زيد.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٢٣) (١٥٥٢٥)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٩) عن قهيد بن مطرف، ولفظ أحمد: (أن رسول الله ﷺ سأله سائل: إن عدا عليَّ عاد، فأمره أن ينهاه ثلاث مرار، قال: فإن أبى، فأمره بقتاله، قال: فكيف بنا؟ قال: إن قتلك فأنت في الجنة، وإن قتلته فهو في النار).

إن الإنسان يجب عليه أن يدافع بقدر ما يستطيع، ولو أدى إلى قتل صاحبه، إذا لم يندفع إلا بقتله، إلا في حال الفتنة التي يترتب عليها المدافعة بالقتل ما هو أكثر ضرراً، فهنا يجب الاستسلام درءاً للمفسدة.

الفائدة الثانية عشرة: أن الإنسان ينبغي له إذا امتنع من شيء محرم، أن يبين لصاحبه أنه إنما امتنع لا عجزاً ولا خوفاً، ولكن للمعنى الذي من أجله امتنع، وذلك لقوله: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ونظير هذا أن النبي ﷺ قال في الصائم: «**وإن امرئ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم**»[1]، ليبين أنه لم يقاتله عجزاً ولا ضعفاً ولكن لأجل الصيام الذي ينهى فيه الإنسان عن المقاتلة والمسابة.

الفائدة الثالثة عشرة: أن الخوف من الله هو أقوى الأسباب الرادعة عن معصيته، لقوله: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولا شك في هذا أن الخوف من الله هو أقوى الأسباب الرادعة عن المخالفة، كما أن الرجاء هو أقوى الأسباب الموجبة للطاعة والرغبة فيما عند الله.

الفائدة الرابعة عشرة: إثبات عموم ربوبية الله عزّ وجل، لقوله: ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الفائدة الخامسة عشرة: إثبات الإرادة للعبد، وأن هذا معلوم منذ خلق البشر أن للعبد إرادة، فيكون في ذلك رد على الجبرية

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب فضل الصوم، حديث رقم (١٧٩٥)، ومسلم، كتاب الصيام، باب حفظ اللسان للصائم، حديث رقم (١١٥١) عن أبي هريرة.

الذين يقولون: إن الإنسان ليس له إرادة، وإنما يفعل الشيء قهراً وجبراً، لقوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ﴾.

الفائدة السادسة عشرة: أن من أريد قتله ولم يدافع خوفاً من الإثم، فإنه لا حرج عليه، ولكن كيف يكون خوفاً من الإثم؛ لأنه ربما يقتل الصائل فيتعجل؛ لأن الواجب في دفع الصائل أن يدافع بالأسهل فالأسهل، فإن رجع عن صوله بالتهديد لم يضرب، وإن رجع بالضرب اليسير لم يضرب كثيراً، وإن رجع بالضرب الكثير لم يقتل، وإن لم يندفع إلا بالقتل فالحكم أنه يقتل، إلا أن العلماء رحمهم الله استثنوا من ذلك مسألة وقالوا: ما لم يخف أن يبادره بالقتل، فإن خاف أن يبادره بالقتل فلا بأس أن يقتله لأول وهلة، كما لو كان هذا الصائل معه سلاح أشهره على صاحبه، وصاحبه يخاف أن يطلقه عليه فيقتله، فحينئذٍ لا حرج أن تبادره بالقتل؛ لأن هذا الصائل ربما لا يعطيك فرصة أن تدفعه بيدك مثلاً، أو تصيح به أو ما أشبه ذلك، وحينئذٍ لا بأس أن تبدره بالقتل.

الفائدة السابعة عشرة: أن القتل سبب لدخول النار، لقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ﴾ وقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣]. وهل هو مخلد فيها أبداً؟ نقول: اختلفت الأمة في ذلك؛ فمنهم من قال: إنه مخلدٌ فيها أبداً وهم الخوارج والمعتزلة، لكن الفرق بينهم أن الخوارج كفروه، وأما المعتزلة فلم يكفروه، بل قالوا: في منزلة بين منزلتين، والذي عليه أهل السنة والجماعة أنه

يدخل النار ولكن لا يخلد فيها، ولكن هل يدخل النار قطعاً أو هو داخل في قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦] المشهور في مذهب أهل السنة: أنه داخل تحت المشيئة، ولكن يبقى حق المقتول، هل يدخل تحت المشيئة؟

الجواب: إن تاب القاتل توبة نصوحاً، فإنه يدخل في ذلك، بمعنى: أن الله لا يعاقبه على حق المقتول لعموم قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

فظاهر الآية أنه إذا تاب توبة نصوحاً فإن الله سبحانه وتعالىٰ يتحمل عنه ولا يعذبه، وهذا في غير الحق المالي، يعني: نقول: لو تاب هذا القاتل، هل تسقط الدية عنه؟

الجواب: لا؛ لأنه حق للآدمي، ولهذا صرح الفقهاء رحمهم الله: بأن قاطع الطريق إذا تاب قبل القدرة عليه قبلت توبته ورفع عنه الحد، لكن لا يسقط عنه ما كان حقاً للآدمي في أمور الدنيا.

وأما إذا مات غير تائب فحق المقتول لا بد أن يؤخذ منه، وحق الله داخل تحت المشيئة، فالقاتل غير مضمون له أن ينجو من النار بل هو تحت مشيئة الله، إن شاء غفر له وإن شاء لم يغفر له، وهذا في الجزاء الأخروي. أما الدنيوي وهو الدية فلا بد من استيفائها لورثة المقتول سواء تاب أم لم يتب.

الفائدة الثامنة عشرة: أن الظلم من أسباب دخول النار، سواء كان الظلم في حق الله أو في حق المخلوق، لقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ويحتمل أن يقال: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هنا عام أريد به الخاص، وهو من ظلم مثل هذا الظلم إلا أن يعفو الله عنه كما في غير الشرك.

الفائدة التاسعة عشرة: الحذر من النفس الأمارة بالسوء؛ لأنها قد تطوع للإنسان أكبر المعاصي، فيجب على الإنسان أن يكون حازماً بالنسبة لنفسه، ويقظاً فلا يتبعها فيما تطوعه له من معاصي الله.

الفائدة العشرون: أن قتل النفس لا يخرج من الإيمان، لقوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ والله تعالى وصفه بالأخوة بعد أن بيَّن أنه قتله، وإلا فقد يقول قائل: إنه قبل أن يقتله لا يترتب عليه إثم القاتل، وإن سهلته نفسه له، فتبقى الأخوة ولكن الله تعالى ذكر الأخوة بعدما تم القتل، ويدل لهذا قول الله تبارك وتعالى قولاً صريحاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقتال المؤمن لا يوجب الكفر ولا يخرج من الإيمان وتبقى الأخوة لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩ ـ ١٠]، وبهذا

التقرير نعرف أن الكفر في الكتاب والسنة قد يراد به الكفر الأصغر، ودليل ذلك قول النبي ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»[(١)].

الفائدة الحادية والعشرون: أن القتال لم يخرج الطائفتين المقتتلتين من أخوة الإيمان، وهذا دليل على أن القاتل لا يكفر، وبه يعرف الرد على قول بعض الناس: إن كل كفر أطلقه الله فالأصل فيه الكفر المخرج عن الملة إلا بدليل، والحقيقة أن الأمر بالعكس، أن كل كفر أطلقه الله فهو كفر دون كفر إلا بدليل يدل على أنه كفر أكبر.

الفائدة الثانية والعشرون: أن هذا الرجل الذي قتل أخاه وظن أنه ربح الميدان، بحيث لم يكن له منافس، صار من الخاسرين، فيستفاد منه: أن كل إنسان حسد أخاه وحاول أن يحول بينه وبين التوفيق، فإن الخسارة ستعود على هذا الحاسد.

الفائدة الثالثة والعشرون: أن أفعال الحيوان غير الإنسان مخلوقة لله وبإرادته، لقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا﴾ فهل أفعال البشر مخلوقة لله وبإرادته؟

الجواب: نعم، أفعالنا مخلوقه لله وبإرادة الله عزّ وجل. هذا ما عليه أهل السنة والجماعة خلافاً للقدرية المعتزلة الذين يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله، ولكن مع ذلك نقول: إن فعل الإنسان يقع باختياره وإرادته، فللإنسان اختيار وإرادة خلافاً

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، حديث رقم (٥٦٩٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»، حديث رقم (٦٤) عن ابن مسعود.

للجبرية الذين قالوا: إن الإنسان ليس له إرادة ولا اختيار، فأهل السنة والجماعة وفقهم الله عزّ وجل للأخذ بالنصوص من جميع الجوانب، والمعتزلة أخذوا بنصوص، والجبرية الجهمية أخذوا بنصوص، فصاروا ينظرون إلى النصوص نظر الأعور الذي ينظر بعين واحدة.

أما أهل السنة ـ والحمد لله جعلنا الله منهم ـ فإنهم ينظرون إلى النصوص بالعينين جميعاً.

الفائدة الرابعة والعشرون: أن الحيوانات قد تكون مرشدة للبشر كما في هذه القصة، الغراب أرشد ابن آدم إلى أن يحفر لأخيه ويدفنه، وصارت سنة البشر إلى يومنا هذا، إلا من ضل عن الصراط المستقيم كالذين يحرقون موتاهم ويضعونهم في اليم وما أشبه ذلك، وهل الميزة في شيء معين يقتضي التفضيل المطلق؟

الجواب: لا، وهذه قاعدة ينبغي أن نعرفها، أنه إذا امتاز أحد بشيء فإن هذا لا يقتضي التمييز المطلق، ومن ذلك ما ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام: «**أنه يكون في آخر الزمان أيام الصبر، للعامل فيهن أجر خمسين من الصحابة**»[1] فهل يقال: إن هؤلاء الذين يكونون في تلك الأيام أفضل من الصحابة على سبيل الإطلاق؟

الجواب: لا، لكن يتميزون بميزة، كذلك نجد أن الرسول

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، حديث رقم (٤٣٤١)، والترمذي، كتاب التفسير، باب سورة المائدة، حديث رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٥]، حديث رقم (٤٠١٤) عن أبي ثعلبة الخشني.

عليه الصلاة والسلام، أحياناً يفضل بعض الصحابة على بعض في قضية معينة، فلا يلزم من ذلك التفضيل المطلق، كما في قوله: **«لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»**[1] فأعطاها عليَّ بن أبي طالب، وهذا لا يقتضي أن يكون أفضل من أبي بكر وعمر، وأمثال هذا كثير، فيجب أن نعرف الفرق بين الفضل المطلق والفضل المعين، فهل نقول: إن الغربان أفضل من بني آدم؟ الجواب لا وإن كان للغربان فضل في كيفية مواراة الأموات؟ لكن هذا لا يقتضي التفضيل.

لو قال قائل: ما الفرق بين مطلق الشيء والشيء المطلق؟

الجواب: الفرق بينهما أن مطلق الشيء الجزء منه والشيء منه، فمطلق الشيء هو الذي يسمى شيئاً، والشيء المطلق: يعني الشيء الكامل، المطلق من غير قيد، فلا يقال: إنه قليل، ولا يقال: إنه ضعيف، فالشيء المطلق الكامل من الشيء، ومطلق الشيء هو الذي يصدق عليه أنه شيء وإن لم يكن كاملاً، لكن فرق بين أن تضيف الإطلاق إلى النوع أو إلى الجنس وأن تصف النوع بالإطلاق.

الفائدة الخامسة والعشرون: أن الله سبحانه تعالى ييسر للإنسان إذا ضاقت به الأرض ما لم يطرأ له على بال، فإن هذا الرجل ضاقت عليه الأرض ماذا يصنع بأخيه الذي قتله؟ ففرج الله عنه ببعث هذا الغراب.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل، حديث رقم (٢٨٤٧)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب، حديث رقم (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد.

الفائدة السادسة والعشرون: أن الواجب في الدفن ما توارى به السوأة، أي: ما يغطى به الجسم، لكن العلماء رحمهم الله زادوا على ذلك شرطاً لا بد منه وهو أن يكون الدفن موارياً للسوأة، ومانعاً للسباع وللرائحة، يعني: لا بد أن يمنع السباع أن لا تحفر القبر، وأن يمنع الرائحة أن لا تخرج من القبر، فلو أن إنساناً حفر حفرة يسيرة ثم وارى عليها التراب، لكن يسهل على السباع أن تحفره وتخرج رائحته، فإن هذا لا يجزئ، ولا بد من تعميق القبر على وجه يمنع السباع والرائحة، وكلما كان أعمق في الأرض فهو أحسن.

الفائدة السابعة والعشرون: أن بدن الميت كله عورة؛ لأن القبر يواري البدن كله، ولهذا قال العلماء رحمهم الله: إن بدن الميت كله عورة، لكن هذا بالنسبة إلى وجوب تعميم الكفن لا بالنسبة للنظر، ولهذا قَبَّل أبو بكر رضي الله عنه النبي ﷺ بعد موته، مع أنه لا حاجة لذلك، إنما هو شوق إليه، وأما المغسل فجاز له النظر إلى الميت للحاجة، ولذلك نقول: إن الأفضل ألا يمس سائره إلا بخرقة، لكن في العورة المغلظة لا بد أن تكون مستورة.

الفائدة الثامنة والعشرون: أن قتل العمد لا يخرج من الإيمان، لقوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ ولقوله في هذه الآية: ﴿كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾، وهذا هو الحق أن قتل العمد لا يخرج من الإيمان خلافاً لطائفتين مبتدعتين زائغتين، وهما: الخوارج والمعتزلة، فالمعتزلة قالوا: إن قاتل النفس عمداً يخرج من الإيمان، لكن لا يدخل في الكفر، بل هو في منزلة بين منزلتين هذا حكمه في الدنيا، أما في الآخرة فإنه مخلد في النار.

أما الخوارج فقالوا: إنه يكفر؛ لأنه ليس هناك إلا كافر ومؤمن، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وإحداث منزلة بين المنزلتين هذه بدعة، والخوارج أشجع من المعتزلة؛ لأنهم صرحوا بما يقتضيه الدليل على زعمهم، فصرحوا بأنه كافر، وأما المعتزلة فلاذوا بهذه الحيلة وهي قولهم إنه لا يكفر ولكنه في منزلة بين المنزلتين، وكلا القولين خطأ.

لكن **لو قال قائل**: الخوارج يكفرون من ارتكب كبيرة، فماذا يقولون في الحدود الشرعية الثابتة في الكتاب والسنة، كقطع اليد والجَلْدِ؟

الجواب: مقتضى قاعدتهم أنهم كفار سواء جلدوا أم لا، حتى لو أقيم عليه الحد، لكن على كل حال: مذهبهم في هذا لا نستطيع معرفته إلا إذا قرأنا كتبهم، لكن على العموم كل كبيرة عندهم تخرج الإنسان من الإيمان إلى الكفر.

الفائدة التاسعة والعشرون والثلاثون: إظهار الندم الشديد من هذا الذي قتل أخاه، لقوله: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ وأصلها يا ويلي، ويا ويلتي، وهي كلمة تحسر وتحزن، وينبني على هذه الفائدة: أن فاعل المعصية إذا لم يتب فإنه يجازى بالخسران والندم وضيق النفس.

الفائدة الحادية والثلاثون: إقرار هذا الإنسان القاتل بما اقتضته الحال، مع ما في ذلك من لومه والقدح فيه، لقوله: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾.

الفائدة الثانية والثلاثون: أن هذا القاتل أصبح من النادمين على قتل أخيه، وعلى عجزه عن مواراة سوأة أخيه، فجمع الندم للأمرين جميعاً.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: ٣٢].

قوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ﴿مِنْ﴾ هنا: للتعليل، ﴿أَجْلِ﴾: بمعنى: سبب، أي: من سبب ذلك، والمشار إليه في قوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما جرى من قصة ابني آدم، وذلك أن ابن آدم الذي قتل كان هو أول من سن القتل في البشرية، وكان عليه في كل نفس تقتل بغير حق كفل من الوزر، فيكون قتله لهذه النفس كأنما قتل الناس جميعاً؛ لأن وزر كل نفس مقتولة بغير حق يكون عليه مثلها.

قوله: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: كتابة شرعية على بني إسرائيل، وإسرائيل: هو يعقوب بن إسحاق.

وقوله: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ هذا القيد قيد لا بد منه؛ لأن القتل قد يكون بحق وقد يكون بغير حق. فالقتل قد يكون قتل نفس بنفس، وذلك في القصاص، فإن القصاص قتل بحق، والقصاص ليس على إطلاقه بمعنى: أننا نقتل نفساً بنفس، بل لا بد من شروط، لثبوت القصاص منها: أن لا يكون القاتل

أعلى من المقتول في هذه الأمور الثلاثة: الدين والحرية وإن شئت قل الرق والملك، فإن كان أعلى منه فإنه لا يقتص منه، مثاله: كافر قتله مسلم، هذا لا يمكن أن يقتل؛ لأن القاتل أعلى من المقتول، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه: «**لا يقتل مسلم بكافر**»[1].

مثال الحرية والرق: أن يقتل شخص حُرٌّ رقيقَ رجل آخر، هذا أيضاً لا يقتل؛ لأن هذا حر وهذا عبد، فالقاتل أعلى فلا يقتل به.

مثال المُلْك: أن يكون للمكاتب عبد مملوك، كما لو اشترى عبداً مملوكاً يتجر به، ثم قتله، فهنا كلاهما عبد؛ لأن المكاتب عبد ما بقي عليه درهم، فهل يقتل هذا المكاتب بهذا الرقيق؟

الجواب: لا؛ لأنه مالكه، كلاهما عبد ولكن المكاتب مالكه، وبقية الشروط نذكرها في الفوائد.

قوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ﴾ أطلق الله تبارك وتعالى الفساد، والمراد بالفساد: الفساد الذي تعم مفسدته لا الفساد الخاص، فلو أن شخصاً أحرق دكان آخر، فهذا فساد لكنه لا يقتل بذلك، بل لا بد أن يكون مراده الفساد العام، مثاله: قطاع الطريق الذين يعرضون للناس على الطرق، فيغصبونهم المال مجاهرة بقوة السلاح، هؤلاء لا شك أنهم مفسدون في الأرض، ومن ذلك عند كثير من العلماء: شارب الخمر إذا جُلِدَ ثم جلد ثم

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم، حديث رقم (١١١) عن علي بن أبي طالب.

جلد ولم ينته فإنه يقتل[١]، ومن ذلك اللصوص الصائلون، المهم أن الفساد العام هذا يقتل صاحبه لأنه أفسد في الأرض.

قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ كأنما قتل الناس جميعاً وهو لم يقتل إلا واحداً، و«كأن» هنا للتشبيه، فما وجه الشبه؟

قيل: إن هذا في المستحل لقتل النفس بغير نفس أو فساد في الأرض، والمستحل لقتل نفس محرمة كأنما قتل جميع الناس؛ لأن المراد: الجنس، كما قلنا في الذي يكذب رسولاً هو مكذب لجميع الرسل، فهذا الذي قتل فلاناً لاستحلاله قتله وهو معصوم يكون كالذي قتل الناس جميعاً؛ إذ إنه استحل قتل جنس النفس المعصومة، فيكون كقاتل الناس جميعاً.

وقيل إن المعنى: من قتل نفساً ممن يكون في قتله فتنة، كقتل السلطان وما أشبه ذلك؛ لأنه إذا قتل السلطان صارت الفتنة، وصار الناس يقتل بعضهم بعضاً، فيكون بقتله هذه النفس كأنما قتل الناس جميعاً.

وقيل المعنى: كأنما قتل الناس جميعاً؛ لأنه إذا قتل نفساً قتل بها، ولو قتل عشرة قتل بهم، ولو قتل الناس جميعاً قتل بهم، بمعنى: أنه لن يخرج عن القتل ولو قتل الناس جميعاً أو قتل بعضهم.

فيكون المعنى: أن عقوبة القاتل بالقصاص لا فرق فيها، بين أن يقتل واحداً أو يقتل جميع الناس.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند بلفظ إذا شرب فاجلدوه (٤/٩٦)، والترمذي (١٤٤٤)، كتاب الحدود باب: ما جاء من شرب الخمر فاجلدوه ومن عاد في الرابعة.

وقيل: إن معنى قوله: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ هذا في عقوبة الآخرة؛ لأن من يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها، ولا أعظم من هذا الجزاء لو قتل نفسين، فكذلك لو قتل الناس جميعاً، فكذلك هذا أعظم جزاء، أنه في جهنم خالداً فيها ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، لكن المعنى الأول أظهر المعاني، أن من قتل نفساً عمداً بغير نفس أو فسادٍ في الأرض فإنما يقتلها مستحلاً للقتل، ثم إذا استحل القتل بنفس واحدة محترمة فكأنما استحله في جميع الناس.

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: أنقذها من الموت أو القتل، وليس المعنى: أنه نفخ فيها الروح؛ لأن ذلك لا يكون إلا لله عزّ وجل، وهذا يشمل أشياء:

أولاً: لو هم الإنسان بقتل شخص فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ، ثم استيقظ ورأى أن ذلك حرام، ثم كف عن هذا القتل، يكون قد أحيا هذه النفس، فبعد أن طوعت له نفسه قتله تراجع.

ثانياً: الدفع: دفع الصائل الذي يريد أن يقتل شخصاً، فيدفعه، ويكون بهذا أحيا نفساً، أي: أنقذها من القتل.

ثالثاً: ـ يعني من المعاني ـ أن يقع شخص في هلكة كحريق أو غرق أو هدم، فيأتي شخص آخر فينقذه، فهذا أحيا نفساً، فيكون كالذي أحيا الناس جميعاً في الثواب الذي يثاب عليه أو في حسن نيته بإنقاذ هذه النفس المعصومة، فيكون كأنه أنقذ الناس جميعاً؛ لأن طويته حسنة ونيته نية الرحمة، فإذا رحم واحداً من الخلق فكأنما رحم الناس جميعاً.

وقوله: ﴿عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ لماذا خص بني إسرائيل؟ خص بني إسرائيل لأنهم أكثر الناس قتلاً للأنبياء، وللذين يأمرون بالقسط من الناس، فخصهم بذلك، لكثرة العدوان فيهم.

فإذا قال قائل: وهل أيضاً كثرة الإحياء موجودة فيهم؟

قلنا: لا، لكن قد يذكر الشيء مع مقابله لتمام التقسيم.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ﴾ الجملة في مثل هذا التركيب مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المدلول عليه باللام، و«اللام»، و«قد»، وهذه الصيغة لها أمثلة كثيرة في القرآن.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ ﴿رُسُلُنَا﴾: الذين أرسلهم الله عزّ وجل، فأضاف الرسل إليه؛ لأنه هو الذي أرسلهم، وربما نقول: وتشريفاً لهم؛ لأن الرسول يَشْرُفُ بشرف مرسله، فالله عزّ وجل شرفهم بإضافة رسالتهم إليه جلَّ وعلا، وقد تأتي الرسالة مضافة إلى المرسل إليهم، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٠١]، ولا تناقض بينهما، فهم رسل الله لأنه هو الذي أرسلهم، ورسل إلى الخلق لأنهم بلغوهم رسالات الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ هذه صفة لموصوف محذوف، التقدير: بالآيات البينات، أي: الواضحات الظاهرات التي لا يأتي بها إلا رسول من عند الله، وقد جعل الله عزّ وجل آيات الرسل مناسبة لعصرهم، كما ذكر أهل العلم، أن موسى عليه الصلاة والسلام أتى بالعصا وباليد؛ لأن السحر انتشر في عهده، فأتى بآيات لا يمكن للسحرة أن يعارضوها، وعيسى عليه الصلاة والسلام أتى في زمن ترقى فيه الطب، فأتى بآيات لا يمكن للطب أن يعارضها، وهي: إحياء الموتى، وإخراجهم من القبور، وإبراء

الأكمه والأبرص، ومحمد ﷺ بعث في قوم قويت فيهم البلاغة وانتشرت، وصاروا يتفاخرون، فجعل الله أعظم آياته عليه الصلاة والسلام القرآن الكريم الذي لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثله بل ولا الجن قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

ثم بعد هذه البينات الواضحات التي أتت على مهل ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ أي: بعد إتيان الرسل بالآيات البينات الواضحات، يكون كثير منهم مسرفين في الأرض.

وإعراب ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾: خبر «إن» و«اللام» لم تمنع عمل ما بعدها فيما قبلها؛ لأن ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بـ﴿مسرفون﴾، والمعروف أن لام الابتداء لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، لكن قالوا: إن «اللام» هنا مزحلقة، والأصل أن تقع قبل «إنَّ»، لكن كره العرب أن يجتمع مؤكدان في محل واحد ـ كما يقول النحويون ـ فزحلقوا اللام حتى وضعوها في الخبر، ولذلك صح أن نقول: إن قوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بـ«مسرفون»، والإسراف: هو تجاوز الحد بتعدي حدود الله عزّ وجل وانتهاك حرماته وعدم المبالاة بتكذيب الرسل وقتلهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات العلة للأحكام الشرعية، لقوله: ﴿مِنْ أَجْلِ﴾ وهذه من أقوى صيغ التعليل، وإثبات العلة والحكمة لا شك أنها من كمال الله عزّ وجل، فالله تعالى لا يشرع شيئاً إلا لحكمة،

ولا يقدر شيئاً إلا لحكمة، وأما من قال: إنه لا يجوز إثبات الحكمة لله عزّ وجل وأن الله يفعل لمجرد المشيئة، ويشرع لمجرد المشيئة، فإن هذا قول باطل من نحو ألف وجه كما ذكره بعض العلماء، ثم إنه تنقصٌ لله عزّ وجل أن تكون أفعاله وأحكامه الشرعية مبنية على غير حكمة.

وقد أبطل الله تعالى ذلك في آيات متعددة: قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدخان: ٣٨] ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]. وذكر الله تعالى أنه ينزل من السماء ماءً ليحيي به الأرض بعد موتها، والآيات في هذا كثيرة، والنصوص كثيرة، وإثبات الحكمة لله هو غاية التنزيه عن النقص والعيب، خلافاً لمن قال: إنه لا يجوز إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى وشرعه، قالوا: لأنك لو أثبت العلة لله لجعلت الله تعالى يفعل لغرض، والغرض ممنوع، ولهذا من عباراتهم السائرة الباطلة: سبحان من تنزه عن الأعراض والأبعاض والأغراض، هذه العبارة لو سمعها العامي لبكى؛ لأنها مزوقة ومزخرفة ويعنون بالأبعاض: الوجه واليد والعين والقدم والساق، قالوا: لا يمكن أن يكون لله هذه الصفات؛ لأن هذه أبعاض.

والأعراض: الأفعال؛ لأن الفعل عرض كالاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا وما أشبه ذلك.

والأغراض: الحِكم، نحن نقول: سبحان من اتصف بما يليق به، ومن أعظم ما يليق به: الحكمة، أن تكون أفعاله وأحكامه الشرعية مبنية على الحكمة. إذاً نقول: الحكمة ليس فيها نقص.

فإذا قال قائل: إذا جعلتم الحكمة من صفات الكمال، فأوجبوا على الله ما تقتضيه الحكمة، واجعلوا الله تعالى يجب عليه أن يشرع هذا الشيء، وأن يوجب هذا الشيء، وأن يحرم هذا الشيء؛ لأن الحكمة تقتضيه، وحينئذٍ تكونون قد أوجبتم على الله تعالى أنتم بعقولكم؟

فنقول: هذا خطأ؛ لأننا نعلم أن ما شرعه الله فهو لحكمة، ولسنا نحن الذين نوجب على الله أن يفعل، ولسنا نحن الذين نجعل هذا الشيء لهذه الحكمة المعينة، وإذا كان الله تعالى قد كتب على نفسه الرحمة وأوجب على نفسه الرحمة، أفلا يوجب على نفسه أن يفعل الشيء إذا اقتضته الحكمة؛ لأنه مقتضى هذا الوصف، فنحن نقول: لا نوجب على الله بعقولنا شيئاً؛ لأن عقولنا أقصر وأنقص من أن تدرك أن هذه هي الحكمة وأنه يجب الحكم لهذه الحكمة، لكن إذا علمنا أن الله أوجبها أو حرمها علمنا أن ذلك لحكمة.

فإذا قال قائل: هل توجبون على الله أن يوجب إذا اقتضته الحكمة؟

الجواب: نعم، لكن بإيجابه على نفسه، والله جلَّ وعلا وصف نفسه بأنه الحكيم وأنه أحكم الحاكمين، أما نحن فلا نوجب ذلك بعقولنا.

الفائدة الثانية: تعظيم الله نفسه جلَّ وعلا، في قوله: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وأمثلة هذا كثيرة في القرآن، وقد استدل النصارى بهذا أي: إضافة الشيء إلى الله تعالى بنون التعظيم، أو بضمير الجمع استدلوا على باطلهم بأن الله ثالث ثلاثة، ولا غرابة في ذلك؛ لأن الذين في قلوبهم زيغ يتبعون

المتشابه، أما نحن فنقول: إن الله تعالى قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣] ويقول الله تبارك وتعالى لعيسى ابن مريم: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧].

الفائدة الثالثة: أن الله عزّ وجل ضاعف العقوبة على كل من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض، حيث جعله كالذي قتل الناس جميعاً.

الفائدة الرابعة: جواز تخصيص معين في الحكم وإن كان عاماً لكونه أكثر الناس عملاً به، وجهه أن الله خص هذه الكتابة على بني إسرائيل مع أنها عامة؛ لأنهم هم أكثر من انتهكوا حرمات الله عزّ وجل بقتل النفوس.

الفائدة الخامسة: قتل النفس بالنفس. لقوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ لكن لا بد من شروط القصاص، فمنها: أن لا يكون القاتل أعلى من المقتول: في الدين، والحرية، والملك، وقد سبق شرحه، فهل يقتل اليهودي بالنصراني؟ نعم؛ لأن الكفر ملة واحدة وبالمجوسي أيضاً، ومنها: ـ أي من شروط القصاص ـ انتفاء الولادة؛ بأن لا يكون القاتل والداً للمقتول، فإن كان والداً له فإنه لا يقتل به وذلك لوجهين: **الأول**: ما جاء في الحديث: «**لا يقتل والد بولده**»[1]. **والثاني**: أن الوالد هو الأصل في وجود الولد، إذ الوالد لولاه لم يوجد الولد، فلا ينبغي أن يكون الفرع سبباً

(١) رواه أحمد (١/ ٤٩) (٣٤٦) عن عمر بن الخطاب.

لإعدام الأصل، وهل يقتل الولد بأبيه؟ نعم يقتل، وذهب بعض العلماء: إلى أن الوالد يقتل بولده إذا كان قتله عمداً عدواناً واضحاً، وهذا هو القول الراجح، بل هو المتعين لعموم قوله تعالى: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] وكذلك ما جاء في السنة: «**النَّفْسَ بِالنَّفْسِ**»(١) وما ذكر من الأدلة في منع قتل الوالد بالولد فهي ضعيفة.

أولاً: الحديث ضعيف: «**لا يقتل والد بولده**»(٢).

الثاني: على تقدير صحته، يحمل على ما إذا كان هناك شبهة، وذلك لأنه يندر جداً أن يتعمد الوالد قتل ولده، وعلى هذا لما كان الخطأ محل ظن بالنسبة لقتل الوالد بولده، ارتفع حكم القصاص، نقول ذلك إن صح الحديث، أما إذا لم يصح فقد كفيناه، وأما التعليل بأن الوالد هو سبب وجود الولد، فيقال: هو سبب وجود الولد، لكن ما السبب بقتل الوالد بولده؟ الوالد هو السبب في قتل نفسه، ثم: نزيد هذا القول قوة إذا قلنا: أن قتل الوالد لولده من أعظم قطيعة الرحم.

والرسول ﷺ أخبر «**بأن من أعظم الذنوب أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**»(٣)، فهذا من أعظم الذنوب، فكيف نجازي

---

(١) رواه البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالىٰ: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾ [المائدة: ٤٥] (٦٨٧٨)، ورواه مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦).

(٢) تقدم ص٣١٢.

(٣) رواه البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣]، حديث رقم (٦٤٦٨)، ومسلم، كتاب =

هذا الوالد بأن نرفع عنه القتل؟ فالصواب بلا شك، أن الوالد يقتل بولده، سواء كان الوالد هو الأم أم الأب لكن إذا تحققنا العمد.

الشرط الثالث: أن نعلم أنه عمد، فإن كان شبه عمد بأن ضربه بآلة لا تقتل غالباً، فإننا لا نقتله حتى لو مات بها، فلو ضربه بعصا أو سوط ثم هلك، لا يقتل به؛ لأن الأصل العصمة، وكون هذا الذي ضرب بالعصا يموت، إنما ذلك لخلل في نفسه، وعدم تحمل، والعصا لا يقتل مثله غالباً فلهذا لا يمكن أن يقتل به.

أما ما سبق في قولنا: الحرية والملك، فاعلموا أن هناك خلافاً في قتل الحر بالعبد، والصواب قتل الحر بالعبد؛ لعموم الأدلة الدالة على أن النفس بالنفس، والحديث الوارد: «**لا يقتل حر بعبد**»[(١)] ضعيف، وقد جاء في حديث الحسن عن سمرة أن النبي ﷺ قال: «**من قتل عبده قتلناه**»[(٢)]، فإذا كان الإنسان يقتل بعبده وهو ملكه فقتله بعبد غيره من باب أولى، فالصواب: أنه

= الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، حديث رقم (٨٦) عن عبد الله بن مسعود.

(١) رواه الدارمي (٢/ ٢٥٠) (٢٣٥٨) عن سمرة بن جندب، والدارقطني (٣/ ١٣٣) (١٥٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٣٥) (١٥٧١٧) عن ابن عباس.

(٢) رواه أبو داود، كتاب الديات، باب من قتل عبده أو مثل به أيقاد به، حديث رقم (٤٥١٥)، والترمذي، كتاب الديات، باب ما جاء في الرجل يقتل عبده، حديث رقم (١٤١٤)، والنسائي، كتاب القسامة، باب القود من السيد للمولى، حديث رقم (٤٧٣٦)، وابن ماجه، كتاب الديات، باب هل يقتل الحر بالعبد، حديث رقم (٢٦٦٣) عن سمرة.

يقتل الحر بالعبد، والمالك بالمملوك، لكن بشرط أن يكون القتل عمداً وعدواناً واضحاً.

الفائدة السادسة: أن الفساد في الأرض مبيح لقتل النفس، لقوله: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ومن ذلك: قطع الطريق. يعني: هؤلاء الذين يعرضون للناس بالسلاح في الطرقات، فيغصبونهم المال، وربما يقتلونهم، هؤلاء مفسدون في الأرض، وكذلك من المفسدين في الأرض في وقتنا الحاضر: هؤلاء الذين يأتون بالمخدرات ويجلبونها إلى البلاد الإسلامية، هم مفسدون في الأرض لا شك، فإن قالوا: نحن لم نجبر الناس على أن يشتروا، قلنا: لكن وضعتم الأمر أمامهم، فأنتم مروجون وجالبون ولن يندفع شَرُّكُم إلا بالقتل، فكل إنسان لا يندفع شره إلا بالقتل من هؤلاء المفسدين فإنه يقتل.

الفائدة السابعة: أن الفساد في الأرض مبيح لقتل النفس، ولكنه مقيد بالأدلة الأخرى الدالة على أنه ليس كل فساد يبيح قتل النفس، بل منه ما يبيح القتل ومنه ما يبيح دونه، فتحمل هذه الآية على النصوص الدالة على التخصيص.

الفائدة الثامنة: أن إنقاذ المعصوم كإنقاذ جميع المعصومين اعتباراً بالجنس، فمن أنقذ معصوماً من هلكة فكأنما أنقذ الناس جميعاً باعتبار الجنس، كما أن من كذب رسولاً فكأنما كذب جميع الرسل.

الفائدة التاسعة: أن ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ وذلك باعتبار الجنس؛ لأن استحلاله لواحد استحلال للجنس، إذا لم يكن هناك سبب يبيح دمه.

الفائدة العاشرة: أن الله سبحانه وتعالىٰ أقام الحجة على العباد وذلك بإرسال الرسل بالبينات.

الفائدة الحادية عشرة: تشريف مقام الرسل وذلك بإضافتهم إلى الله، لقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، وكل شيء من الأعيان يضيفه الله إلى نفسه عزّ وجل فإنه يفيد التشريف، ولهذا قال العلماء في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٤] وفي قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»[1]، وفي قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، وما أشبه ذلك، قالوا: إن هذه الإضافة تفيد التشريف وعلو المقام، ولا شك أن الرسل هم أفضل أجناس البشر.

الفائدة الثانية عشرة: أن الرسل أيدوا بالآيات البينات التي تدل على صحة رسالتهم وذلك لقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

الفائدة الثالثة عشرة: محبة الله عزّ وجل للإعذار وإقامة الحجة حيث جعل مع كل رسول آية بينة يؤمن على مثلها البشر، حتى لا يقول الناس: من قال: إن هذا رسول؟ أين البينة على أن هذا رسول؟ فإذا جاء بالآيات البينات قامت الحجة.

الفائدة الرابعة عشرة: أن من لم تبلغه الرسالة فهو معذور، لقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وهذا لإقامة الحجة عليهم، والنصوص في هذا واضحة، قال الله تعالى:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم، حديث رقم (٨٥٨)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة وأنها لا تخرج، حديث رقم (٤٤٢) عن ابن عمر.

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

الفائدة الخامسة عشرة والسادسة عشرة: أنه لا بد أن يكون الرسول مبيناً لقومه ما أرسل به، لقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فإنه يشمل الآيات الدالة على صدقهم، ويشمل الشرائع التي جاؤوا بها وأنها بينة واضحة، والأمر كذلك، فإن الله سبحانه وتعالىٰ لم يخفِ على العباد ما يكلفهم به، فإن رحمته وحكمته تأبى ذلك، ولهذا قال الله لرسوله ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩]، فالله تعالى قد بَيَّنَ للخلق، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وينبني على هذه الفائدة، وهي فائدة البيان أهمية الترجمة، وأن على المسلمين أن يترجموا الشريعة إلى لغة من يخاطبونهم بها حتى تتم الحجة؛ لأنك لو أتيت إلى قوم عجم وتكلمت عندهم بأبلغ وأفصح الكلام العربي، ما استفادوا من هذا شيئاً، ولا يدرون ما تقول، وعليه فمن أراد أن يذهب إلى قوم يدعوهم إلى الله، لا بد أن يتعلم لغتهم حتى يتمكن من دعوتهم، أو يصطحب شخصاً يترجم له يكون عالماً باللغتين: الأصلية والفرعية، ويكون له إلمام بموضوع الترجمة، يعني موضوع ما يترجمه، يعني إذا كان يريد أن يترجم في الكلام على التوحيد لا بد أن يكون عنده إلمام بذلك لئلا يفهم الأمر على خلافه.

الفائدة السابعة عشرة والثامنة عشرة: أن بني إسرائيل مع الرسل المبينين لم يهتدوا بل كثير منهم بعد هذا البيان وبعد هؤلاء

الرسل مسرفون متجاوزون للحد، ومن أمثله ذلك أنهم كانوا يقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، ويقدحون في الرسل، ويؤذون رسولهم الخاص الذي أرسل إليهم وهو موسى، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

ويتفرع على هذه الفائدة: العلم بشراسة بني إسرائيل وأنهم أهل الغطرسة والاستكبار والتكذيب، وما زالوا إلى يومنا هذا على هذا الوصف.

الفائدة التاسعة عشرة: أنه إذا دعت الحاجة إلى تأكيد الخبر فإن الفصاحة تدعو إلى تأكيد الخبر، والمقام يدعو إلى توكيد الخبر، وإن كان المخبر من أهل الصدق، حتى يطمئن المخاطب، فإن قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ أُكِّدَ بمؤكدين وهما: «إنَّ» والثاني: «اللام».

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٣٣ ـ ٣٤].

قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إنما: أداة حصر، والحصر يفيد إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه، فإذا قلت: لا قائم إلا زيد، أثبت القيام لزيد ونفيته عمن سواه، وإذا قلت: إنما القائم زيد، أثبت القيام لزيد ونفيته عما سواه،

واعلم أن «إنما» لا يليها إلا المحصور كلما جاءت، فإذا قلت: إنما القائم زيد، حصرت القيام في (زيد)، وإذا قلت: إنما زيد شجاع، حصرت زيداً في الشجاعة؛ لأنها أبرز أخلاقه.

وقوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ «يحاربون»: فعل يدل على المشاركة؛ لأن «فَاعَلَ» تدل دائماً على المشاركة وقد لا تدل عليه.

فقول القائل: سافر زيد، هذا ليس فيه سفر من الجانبين، لكن قاتل، وضارب، وشاتم، وما أشبهها كلها تدل على المشاركة، فالغالب في هذا الفعل أنه دال على المشاركة، فمعنى ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾، أي: يتصدون لحرب الله عزّ وجل، وهل المعنى أنهم يحملون السلاح على الله؟ كلا، المعنى: أنهم يضادون الله في أمره، فيفعلون ما نهى الله عنه، ويتركون ما أمر به على وجه الاستكبار والعناد وهذه محاربة، ويحاربون الرسول قد نقول أيضاً: إنه يمكن أن يشمل الحرب بالسلاح والحرب بالرفض لما دعا إليه، لكن بالنسبة لله عزّ وجل لا يشمل الحرب بالسلاح؛ لأن هذا غير واقع ولا يمكن أن يقع.

قوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي: يفسدون في الأرض على وجه الإسراع، لقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾ والسعي بمعنى: الإسراع، أي: أنهم يسرعون إلى الفساد في الأرض، وذلك لزعزعة الأمن والتسلط على الناس، وأخذ الأموال، وقتل النفوس، ولهذا قال العلماء: إن هذه الآية نزلت في المحاربين الذين هم قطاع الطريق.

قطاع الطريق: قوم يعرضون للناس في الصحراء وعلى

الطرقات فإذا مر بهم أحد قتلوه وأخذوا ماله، أو أخذوا ماله وتركوه، أو أخافوه وروعوه، المهم أن جناياتهم تختلف لكنهم يعرضون للناس ويغصبونهم المال وربما يقتلونهم، وهذا يوجد كثيراً في البلاد التي تزعزع أمنها.

ومن ذلك أيضاً ـ أي: من الفساد في الأرض ـ السطو على البيوت الآمنة وقتل أهلها أو السرقة منها، أو ما أشبه ذلك مما يكون فيه تحزبات واجتماعات وفرق تؤذي الناس، بخلاف السارق الواحد هذا له حكم خاص، لكن هؤلاء الذين يتحزبون، ويكونون فئات وجماعات مروعة تسطوا على الناس في البنيان أو في الصحراء.

قوله: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ «أن» وما دخلت عليه خبر ﴿جَزَٰٓؤُاْ﴾ أي: جزاؤهم هو التقتيل، وهنا قال: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ بالتشديد ولم يقل: «أن يقتلوا» كأنه والله أعلم يشير إلى شناعة قتلهم وإلى تعددهم أيضاً؛ لأنه إذا تعدد المحل أو تعدد الفعل صح أن تأتي الصيغة بما يدل على الكثرة، وهنا إذا قلنا: إن المراد بقوله: «أن يقتلوا» الجماعة الكثيرة، صار هذا لتعدد المحل، أن يقتل زيد وعمرو وبكر وخالد إلى آخره، وإذا قلنا: لشناعة القتل معناه أننا نقتلهم قتلاً شنيعاً ينزجر به غيرهم.

قوله: ﴿أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ يعني: يصلبون، وهل المراد الصلب بعد القتل فيكون الجمع بين الأمرين؟ أو هو صلب فقط دون قتل؟ ظاهر الآيات الكريمة الثاني أن يصلب حتى يتضح بجنايته، ثم بعد ذلك ينظر ولي الأمر فيه بما يراه مناسباً.

لكن المعروف أن الصلب يكون بعد القتل، وقيل: يصلبون

قبل القتل، فالأقوال ثلاثة: الرأي الأول: يصلبون بعد القتل، والرأي الثاني: يصلبون قبل القتل، والرأي الثالث: أن الصلب عقوبة منفردة يعني ليست مركبة مع القتل، وهذا القول هو ظاهر الآية في قوله: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فيكون الصلب غير القتل لكنهم أوردوا على هذا الرأي أنه كيف يبدأ بالأشد ثم الأخف، فيقال: هذا لا مانع منه، القتل أشد ثم الصلب بدون قتل، ثم تقطيع اليد والرجل، والذين قالوا: إنه يصلب قالوا: يترك حتى يموت، وبعضهم قال: بل يطعن بالحربة حتى يموت، ويكون الأول قتل بلا صلب.

قوله: ﴿أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، فسرها العلماء بأن تقطع اليد اليمنى والرِّجْل اليسرى، ويكون القطع في اليد من مفصل الكف من الذراع، ويكون القطع في الرِّجل من مفصل القدم من العقب؛ لأن الرِّجل لها قدم ولها عقب، والعقب الذي يسمى العرقوب، فالعرقوب لا يقطع إنما يقطع من مفصل القدم من العرقوب.

قوله: ﴿أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ هذا الرابع، أي: يطردوا منها ويبعدوا عنها، و«أل» في الأرض للعهد أي: الأرض التي سعوا فيها فساداً، حتى يكون ذلك أبعد لهم من مواطن الفساد وأنكى لهم.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر من هذه العقوبة الصارمة ﴿لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ يعني: ذلاً وعاراً ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فيجمع لهم بين عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة، وذلك لعظم جرمهم وشناعته وبشاعته وعدوانهم على عباد الله.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ﴾ مستثنى مما سبق، وقوله: ﴿تَابُواْ﴾ أي: رجعوا إلى الله، وكفوا عن سعيهم في الأرض فساداً وعن محاربة الله ورسوله، وهنا لا بد من أن تمضي مدة نعرف بها صحة توبتهم، بأن يضعوا السلاح ويكفوا عن الإيذاء وتظهر عليهم علامة التوبة والصدق.

قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: تابوا من ذات أنفسهم فوضعوا السلاح، وكفوا عن قطع الطريق.

قوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فاغفروا لهم وارحموهم؛ لأن الله عزّ وجل بمغفرته ورحمته يرفع عنهم العقوبة.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: بيان عقوبة المحاربين لله ورسوله الساعين في الأرض فساداً، وقلنا: إن المفسرين قالوا: إنه يراد بذلك قطاع الطريق الذين يعرضون للناس بالسلاح في الصحراء أو في البنيان.

الفائدة الثانية: شدة محاربة الله ورسوله، وأن الإنسان إذا حارب الله ورسوله فإنه يخشى عليه، وذلك لعظم العقوبة، فإن عظم العقوبة يدل على عظم الجريمة، ومن المحاربين لله ورسوله: أكلة الربا، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

الفائدة الثالثة: عظم محاربة الرسول عليه الصلاة والسلام سواء كان بالسلاح الحسي أو بالسلاح المعنوي وهو رد دعوته والاستكبار عنها.

الفائدة الرابعة: أن الله تعالى يريد من عباده أن تطهر الأرض من الفساد، ولذلك عاقب الذين يسعون في الأرض فساداً بهذه العقوبة العظيمة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، قال أهل العلم: الفساد في الأرض بعد إصلاحها يعني المعاصي، لقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، ولكن كما قلنا في الآية التي قبلها: من الفساد في الأرض ما لا يؤدي إلى هذه العقوبة على حسب النصوص.

الفائدة الخامسة: أن عقوبة هؤلاء متنوعة: الأول: القتل، والثاني: الصلب، والثالث: تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، والرابع: النفي من الأرض، و«أو» في هذه الآية هل هي للتنويع أو للتخيير؟ في هذا قولان للعلماء: منهم من قال: إنها للتخيير وأن للإمام أن يقتِّل أو يصلب، وله أن يعدل إلى تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، وله أن يعدل إلى النفي في الأرض، لكن يجب عليه أن ينظر ما هو الأصلح؛ لأن كل من خُيِّر لمصلحة غيره وجب عليه اتباع الأصلح، وكل من خير لمصلحة نفسه والتيسير على نفسه فله أن يختار الأيسر، فعندنا الآن تخيير مصلحة وتخيير تيسير، من خير لمصلحة الغير فتخيير مصلحة، فولي اليتيم إذا قيل له: لك أن تبيع ملكه أو تشتري له ملكاً أو ما أشبه ذلك، فهذا التخيير يعتبر تخيير مصلحة لا تشهي وتيسير.

وقوله تعالى في كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩] هذا تخيير تيسير وتشهي.

فمن العلماء من قال: إن «أو» هنا للتخيير وأن الإمام مخير بين هذه العقوبات الأربع، ولكن يجب عليه أن يفعل الأصلح، فإذا كان الأصلح أن يقتلوا أو يصلبوا؛ لأن ذلك أعظم هيبة في قلوب المجرمين وجب عليه أن يقتل أو يصلب، وإذا كان المجرمون يرتدعون بدون ذلك، فإنه لا يعدل إلى الأعلى في العقوبة؛ لأن هذا كدفع الصائل.

ومنهم من قال: إن «أو» للتنويع وليست للتخيير، وأن هذه العقوبات تختلف بحسب الجرائم، ووزعوها كما يلي: قالوا: من قتل وأخذ المال فإنه يقتل ويصلب، أي: إذا جمع بين الأمرين فإنه يقتل ويصلب؛ لأنه فعل جريمتين فضوعفت عليه العقوبة، ومن قتل ولم يأخذ مالاً فإنه يقتل ولا يصلب، ومن أخذ مالاً ولم يقتل، انتقل به إلى العقوبة الثالثة حسب سياق الآية، وهي الثانية حسب ترتيب العلماء وهي: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ حتى وإن سرقوا ـ عند بعض العلماء ـ ما لا يبلغ النصاب، ـ أي: نصاب السرقة ـ مثل أن يكون مع الرجل أقل من نصاب السرقة وخرج عليه هؤلاء القطاع، ومعهم السلاح وقالوا: أعطنا ما معك، فأخذوه منه قهراً، وهو لا يبلغ ربع دينار فإنه تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وقال بعض العلماء: إنها لا تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، إلا إذا أخذوا ما يقطع بمثله السارق وهو ربع دينار.

بقى علينا النفي من الأرض، والنفي من الأرض: أن الإمام ينفيه من بقعته التي هو فيها إلى أرض أخرى؛ لأنه إذا تغير عليه المكان والجو ربما يستقيم ويتوب، وقيل: معنى النفي من

الأرض: أن يحبس، حتى لا يتجول في الأرض التي كان يتجول فيها؛ لأنه إذا حبس في بيت أو في حجرة صدق عليه أنه نفي من الأرض التي كان بالأمس يسير فيها في الهواء الطلق لا يخاف أحداً.

والصحيح أن المراد بالنفي من الأرض: الطرد من الأرض، إلا إذا كنا نخشى إن طردناه من أرضه أن يرتكب الجريمة في الأرض الأخرى، فحينئذٍ ليس له إلا الحبس، وعقوبة النفي من الأرض قال العلماء الذين يجعلون «أو» للتنويع، قالوا: هذا فيمن أخاف الطريق ولم يأخذ المال ولم يقتل النفس؛ لأننا إذا نفيناه كفينا الناس شره، وإذا حبسناه على القول الثاني كفينا الناس شره، لكن أي القولين أولى؟ الثاني أضبط لأن الخيانة مأمونة فيه، والأول أنسب؛ لأن المقصود من الحدود التقويم، أي: تقويم الناس، فإذا كانوا يمكن أن يُقَوَّموا بدون القتل والصلب قُوِّمُوا، لكن هذا لا تؤمن فيه الخيانة، أي: خيانة الإمام وولي الأمر، فيقول: هذا يستحق القتل والصلب، وتأتيه القضية نفسها في وقت آخر، فيقول: هذا لا يستحق القتل والصلب؛ لأن الثاني شريف والأول وضيع، فمن قال بالتحديد وأن هذا لا بد منه بحسب الجريمة، فقوله أقرب إلى الصواب من جهة الضبط، وأنه لا يمكن أن يتعدى ما حد له، ومن قال بأن «أو» للتخيير، وأن الإمام مخير فقوله أولى من حيث إن الحدود لتقويم الخلق، فإذا أمكن التقويم بما هو أقل وجب الاقتصار عليه.

فإن قال قائل: هل وقع مثل هذا في عهد الرسول ﷺ؟

الجواب: نعم، وقع، قدم أناس من جهينة أو عرينة أو عكل[(١)]، أو من هؤلاء وهؤلاء قدموا المدينة، فاستوخموها وأصيبوا بشيء من حُمَّاها، فأمرهم النبي ﷺ أن يلحقوا بإبل الصدقة ويشربوا من أبوالها، وألبانها، ففعلوا، فشربوا من أبوال الإبل وألبانها وزالت عنهم الحُمَّى وصحوا، فبدلوا نعمة الرسول عليه الصلاة والسلام كفراً، فسملوا عيني الراعي، وسَمْلُها: أن تحمى حديدة مثل المخيط وتكحل بها العين ـ والعياذ بالله ـ وهذا تعذيب شنيع ونسأل الله العافية، ثم قتلوا الراعي واستاقوا الإبل، فأرسل النبي ﷺ، في إثرهم وجيء بهم بعد أن ارتفع النهار، فأمر بهم ﷺ أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وأن تسمل أعينهم بالمسامير؛ لأنهم فعلوا ذلك بالراعي، والقصاص واجب، وأبقاهم في الحرة يستغيثون ولا يغاثون، حتى إن الواحد منهم، يأكل الثرى من العطش، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام تركهم ولم يحسمهم[(٢)]، يعني ما حسم الدماء، حتى لا يحصل النزيف، تركهم يرفسون بدمائهم ويستغيثون ولا يغاثون؛ لأن الرحمة بالناس عموماً تقتضي أن نعامل هذا المجرم بما يمنع الإجرام.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب المحاربين، باب سمل النبي ﷺ أعين المحاربين، حديث رقم (٦٤٢٠)، صحيح مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب حكم المحاربين والمرتدين، حديث رقم (١٦٧١).

(٢) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب المحاربين من أهل الكفر والردة، حديث رقم (٦٤١٧)، ومسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب حكم المحاربين والمرتدين، حديث رقم (١٦٧١) عن أنس بن مالك.

الفائدة السادسة: أن قطاع الطريق يجمع لهم بين العقوبة في الدنيا والآخرة لقوله: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، مع أنه ثبت عن النبي ﷺ: أن من أصيب بشيء من القاذورات، يعني: القبائح، وحد عليها فإن الحد يكون كفارة لذلك الذنب[1]. لكن لعظم جرم هؤلاء لم يكن الحد كفارة لهم، بل كان ﴿لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الفائدة السابعة: إثبات عذاب الآخرة، لقوله: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الفائدة الثامنة: أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، ربما يؤخذ من قوله: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولهذا قال النبي ﷺ في المتلاعنين، قال: «**إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة**»[2].

الفائدة التاسعة: أن هؤلاء المجرمين مع عظم جرمهم إذا تابوا قبل القدرة عليهم سقط عنهم الحد، ويؤخذ سقوط الحد من قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني: فإذا علمتم ذلك فاغفروا لهم، وهل هذا على إطلاقه بمعنى: أنه يعفى عنهم حتى فيما يتعلق بحقوق الآدميين من نفس أو جرح أو عضو أو مال أو هو خاص بحقوق الله؟ الثاني هو المتعين؛ لأن حقوق الآدميين لا بد من وفائها، وعلى هذا فإذا كان هؤلاء الذين تابوا ووضعوا السلاح وظهر صدقهم قد قتلوا أحداً، هل نقتلهم أو لا؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب توبة السارق، حديث رقم (٦٤١٦)، ومسلم، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، حديث رقم (١٧٠٩) عن عبادة بن الصامت.

(٢) رواه مسلم أول كتاب اللعان حديث رقم (١٤٩٣) عن ابن عمر.

الجواب: إذا طلب أولياء المقتول أن يقتلوا قتلوا؛ لأن حق الآدمي لا يسقط، لكن لو لم يتوبوا وأُتينا بهم، ثم قال أولياء المقتول: نحن قد عفونا هل يسقط؟ لا؛ لأنه حد، فالقتل حتم إذا لم يتوبوا؛ أما إذا تابوا انتقل الحد إلى حق الآدمي، إذا عفا فلا بأس.

وهل يلحق بذلك سائر الحدود كحد الزنا والسرقة وما أشبه ذلك؟ **الجواب**: نعم يلحق به؛ لأن التوبة إذا أسقطت هذا الحد العظيم في الجرم العظيم فما دونه من باب أولى، فالسارق مثلاً إذا تاب إلى الله، وأتى بالمال المسروق ورده إلى صاحبه فإننا لا نقطع يده؛ لأنه تاب إلى الله قبل أن نقدر عليه.

الفائدة العاشرة: أنهم إذا تابوا بعد القدرة فإن توبتهم لا تقبل، وهنا يرد إشكال، وهو ما جرى في قصة أسامة بن زيد رضي الله عنه حين لحق المشرك، فلما أدركه قال: لا إله إلا الله، فقتله أسامة، والذي يظهر أن هذا المشرك قال: لا إله إلا الله تعوذاً من القتل، فلما جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأخبره الخبر، قال: «**قتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله**» قال: نعم يا رسول الله، قتلته، لكنه قالها تعوذاً وخوفاً من القتل؛ لأنه لو كان صادقاً لأسلم قبل أن يهدد بالقتل، فجعل النبي ﷺ يردد: «**أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله، فماذا تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة**»[1]، حتى تمنى أسامة أنه لم يكن أسلم من

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات، حديث رقم (٤٠٢١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، حديث رقم (٩٦) عن أسامة بن زيد.

قبل؛ لأنه إذا فعل هذا وهو مشرك ثم تاب، تاب الله عليه، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

إذاً نقول في هؤلاء: إذا تابوا بعد القدرة فإنه لا يسقط، نقول: لأن هذا حد وليس قتلاً للردة، والحد قد فعل ما يوجبه، والردة الذي يوجبها هو الشرك وقد زال بالإسلام، فلا يرد على هذا لا في المحاربين ولا في غيرهم من ذوي الحدود.

لو قال قائل: بعض البلاد التي يحدث فيها الشغب يقوم الحاكم بإنشاء بعض القوانين حتى يرجع أولئك المحاربين، كقانون العفو العام، فيعفو عن الجميع حتى لو سرقوا وقتلوا ونهبوا كل ما فعلوا فإنه يعفى عنهم إذا وضعوا السلاح، فهل له ذلك لكي يكف شرهم؟

الجواب: هذا إنما نجوزه إذا دعت الحاجة إليه، بأن كنا لا نقدر عليهم، فيكون جائزاً.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المائدة: ٣٥].

هذه الآية فيها نداء وفيها ثلاثة أوامر وفيها علة وغاية، أما النداء ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وقد تقدم ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرعها سمعك[1].

---

(١) تقدم ص٦.

ذكرنا من قبل أن تصدير الخطاب بالنداء يدل على أهميته، ثم توجيه النداء إلى المؤمنين يدل على أن امتثال هذا من مقتضيات الإيمان، وأن مخالفته نقص في الإيمان، وأنه ينبغي إغراء الشخص المخاطب بما يحمله على الامتثال، يعني في الخطاب ينبغي أن تغري الشخص بما يحمله على الامتثال؛ لأن وصف الإنسان بالشيء الذي يحمله على الفعل والامتثال لا شك أنه يغريه ويزيده نشاطاً، فنقول مثلاً: يا أيها الكريم أكرم الضيف؛ لأنك إذا ناديته بـ(يا أيها الكريم)، فسوف يكون ذلك دافعاً له على إكرام الضيف.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هكذا تأتي مطلقة في كثير من الآيات، فآمنوا بمن؟ نقول: الإيمان فسره النبي عليه الصلاة والسلام أبين تفسير حيث سأله جبريل عن الإيمان، فقال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر**»[1]، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي: بما يجب الإيمان به وهي أركان الإيمان الستة.

قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ اتخذوا وقاية من عذابه وذلك بفعل الأوامر واجتناب النواهي على علم؛ لأن الإنسان قد يفعل شيئاً مأموراً به لكن على غير علم أو يترك شيئاً منهياً عنه على غير علم، لكن لا بد من العلم ليكون ذلك من خشية الله، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

ولهذا فسر بعض العلماء التقوى بأنها أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى الله على نور

---

(١) تقدم ص١٥٢.

من الله تخشى عقاب الله، والنور: هو العلم، ولهذا نقول: أجمع ما قيل في تعريفها: أنها امتثال أمر الله واجتناب نواهيه على علم حتى يحصل له الخشية؛ لأنه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

هل نقول: اتقوا الله نفسه، أو اتقوا عذاب الله؟ كلاهما صحيح؛ لأن الله قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]. فحذرنا الله تعالى من نفسه عزّ وجل، وإنما حذرنا منها لأنه قال لنا: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة: ٩٨]. وهذا خبر أخبرنا به الله عزّ وجل وقال لنبيه: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، فإذاً يحذرنا الله نفسه أن يعاقبنا على مخالفته.

قوله: ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾، أي: اطلبوا إليه، «الوسيلة»: مفعول ﴿ٱبْتَغُوٓا۟﴾، يعني: اطلبوا الوسيلة إليه، والوسيلة: هي التقرب إلى الله، كما فسرها كثير من المفسرين بأن معناها: ابتغوا القربة إليه، يعني: اطلبوا ما يقربكم إليه، فإذا كان الله أمرنا أن نطلب ما يقربنا إليه، فالذي يقربنا إليه هو امتثال أمره واجتناب نهيه طلباً للقرب منه.

وقوله: ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ ليس المراد بالوسيلة ما هو معروف عند المتأخرين، بأن يتخذ الإنسان وسائل في دعائه أو نحو ذلك؛ بل المراد: ابتغوا التقرب إليه، لكن بعض المحرفين قال: المراد بالوسيلة: الولي أو النبي أو جاه النبي أو جاه الولي، وهذا تحريف باطل، وإنما الوسيلة: الشيء الموصل إلى الله وإلى التقرب إليه عزّ وجل.

مثال ذلك: الصلاة تقرب إلى الله، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، ولا يوجد هذا الوصف وهو القرب من الله على هذا الوجه إلا في صلاة الإنسان، يتصدق ويتقرب إلى الله بالصدقة، يصوم ويتقرب إلى الله بالصيام، يحج ويتقرب إلى الله بالحج، لكن لا يوجد مثل الصلاة، أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فهو أقرب إلى الله ممن وقف بعرفة أو بالصفا أو بالمروة أو ممن يطوف بالبيت.

قوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ أي: ابذلوا الجهد في إعلاء كلمته؛ لأن الجهاد في سبيل الله أن يقاتل الإنسان لتكون كلمة الله هي العليا، والمراد بقوله: ﴿فِي سَبِيلِهِۦ﴾ أي: دينه؛ لأنه هو الطريق الموصل إليه تبارك وتعالى.

وقوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ هذا أمر، ويأتينا إن شاء الله في استنباط الفوائد، أنه أمر مشروط بالقدرة كغيره من الأوامر.

قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ «لعل» هنا: للتعليل، أي: لأجل أن تفلحوا. «والفلاح»: كلمة جامعة لحصول المطلوب وانتفاء المكروه، فهي من أجمع الكلمات.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بلاغة القرآن الكريم حيث تتنوع فيه العبارات، في النداء تارةً والأمر تارة والنهي تارة والحض والعرض.

الفائدة الثانية: أن من البلاغة أن نستعمل ما يكون به التنبيه في الأمور الهامة، وجهه: أن الله صدر هذه الأوامر الثلاثة المهمة بالنداء.

الفائدة الثالثة: أن الإيمان يحمل على امتثال أمر الله واجتناب نهيه، وذلك لأنه وَجَّهَ النداء إلى المؤمنين، ولا شك أن الإيمان يحمل الإنسان على فعل الأوامر واجتناب النواهي، وكلما كان الإنسان أقوى إيماناً، كان أشد امتثالاً للأمر وأبعد عن النهي، وهذا شيء مجرب، حتى الإنسان نفسه أحياناً يجد في قلبه قوة الإيمان فتجده يرغب في الطاعة ويحب أن يستمر فيها، وأحياناً يفتر ويكسل فتجد الطاعات تثقل عليه، فكلما كان الإنسان أكثر إيماناً كان أكثر امتثالاً للأمر والنهي.

الفائدة الرابعة: وجوب تقوى الله، لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فالتقوى واجبة وقد ذكرت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، أمراً بها وثناءً على أهلها وبيان لجزائها، ولو أن طالب العلم جمع الآيات التي فيها التقوى أمراً وثناءً وجزاءً في القرآن الكريم من أوله إلى آخره، لوجد خيراً كثيراً.

الفائدة الخامسة: وجوب طلب القربة إلى الله، لقوله: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أي: اطلبوا الوسيلة إليه.

الفائدة السادسة: وجوب التعلم، تعلم الدين، لكن بأي وسيلة نطلب القربى إليه؟ **الجواب**: بالعلم، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

الفائدة السابعة والثامنة: أنه كلما كانت العبادة تقرب إلى الله أكثر كان الاهتمام بها أكثر؛ لأن الحكم يدور مع علته، فإذا قيل: اسلك الطريق المقرب إلى الله، فإن من المعلوم أن ما يكون أقرب أو أشد تقريباً فهو أولى.

وينبني على هذه الفائدة أن الأعمال تتفاضل، بعضها أفضل من بعض، وهذا أمرٌ قررته الشريعة، فجنس الواجب أفضل من جنس التطوع، يعني الصلاة المفروضة أفضل من النافلة، وأيضاً صدقة الزكاة أفضل من صدقة التطوع، الصوم الواجب أفضل من النفل، والحج الواجب أفضل من النفل. هذا باعتبار الجنس، ويتفاضل أيضاً باعتبار نوعه.

كذلك أيضاً الجنس يتفاضل باعتبار الأجناس، فمثلاً الصلاة على وقتها أحب الأعمال إلى الله، كما سأل ابن مسعود رضي الله عنه النبي ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[1]. فالأعمال فيما بينها تتفاضل، والأجناس تتفاضل، فأنواع الجنس تتفاضل. ومناط معرفة الفاضل هو الكتاب والسنة.

وهنا **مسألة**: من هو الأفضل: رجل يفعل العبادة بانقياد وانشراح صدر وقبول، وآخر يفعلها بمشقة شديدة ويجاهد نفسه عليها؟ الأول: أفضل مقاماً وأعلى منزلة، والثاني: يؤجر على مشقة المجاهدة أكثر من ذلك، لكنه لا يمكن أن ينال درجة الأول ومقام الأول.

ويشبه هذا من بعض الوجوه، أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر الصحابة «**أن من ورائهم أياماً الصبر للعامل فيهن**

---

(١) رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، حديث رقم (٥٠٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، حديث رقم (٨٥) عن ابن مسعود.

أجر خمسين من الصحابة»[١]، هل هو بهذا الأجر الذي كان من أجل مشقة العبادة عليه ينال مرتبة الصحابة؟

الجواب: لا، وهذه نكت في العلم ينبغي لطالب العلم أن يتفطن لها وإلا فقد تخفى على كثير من الناس.

الفائدة التاسعة: وجوب الجهاد في سبيل الله، لقوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ ولكن هذا العمل ـ أعني الجهاد في سبيل الله ـ كغيره من الواجبات، لا بد أن يكون له شروط، من أهمها: القدرة، بأن يكون الإنسان مكافئاً للعدو في العدد والعدة، وإلا فمن المعلوم أنه من السفه والهلع أن يتقدم الإنسان ليقاتل عدداً أكثر من عدده وقوة أكبر من قوته.

ولهذا لم يوجب الله عزّ وجل الجهاد إلا حين قويت الأمة الإسلامية، ولم يوجب المصابرة إلا في الضعف فقط، فإن زادوا عن الضعف مع تكافؤ العدد فإنه لا يجب مصابرتهم، فلا بد من القدرة على الجهاد.

وهل يشترط أن يكون للمجاهدين إمام يأتمون به ويأتمرون بأمره، أو نقول: لا بأس أن يتكتل طوائف وطوائف وطوائف، وتجاهد كل واحدة من جهة؟

الجواب: الأول: لا بد من إمام يكونون تحت إمرته، حتى لا يكونوا أحزاباً يقتل بعضهم بعضاً عند النصر، أو يقاتل بعضهم بعضاً عند النصر، وكيف يمكن أن يقوم جهاد مع تفرق الأحزاب؟ هذا لا يمكن.

---

(١) تقدم ص٣٠٠.

الفائدة العاشرة: الإشارة إلى الإخلاص، لقوله: ﴿فِي سَبِيلِهِۦ﴾ حيث أضافه إلى نفسه عزّ وجل إشارة إلى أنه يجب على الإنسان أنْ يكون جهاده في سبيل الله، ومتى يكون الجهاد في سبيل الله؟ سئل النبي ﷺ عن ذلك أي: سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، وفي رواية: ليرى مكانه، أي ذلك في سبيل الله؟ فعدل عن الجواب عن الثلاثة كلها وقال: **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»**[1]، وقضى على هذه الثلاث: فالذي يقاتل شجاعة ليس في سبيل الله، ومعنى الشجاعة أن الرجل الشجاع يحب القتال؛ ويحب أن يقاتل؛ لأن هذا يوافق طبيعته وغريزته.

الثاني: يقاتل حمية لقومه وعصبيته، ومن هؤلاء بعض العرب، مع الأسف يقاتلون اليهود باسم العروبة، ولو قاتلوا باسم الإسلام لأبادوهم؛ لأنهم إذا قاتلوا باسم الإسلام خرج من بينهم الرجس وهم النصارى، ودخل فيهم أمم لا تحصى من المسلمين من العجم وغيرهم، وأريد بالعجم مَنْ سوى العرب من الروم والفرس والبربر والهنود وغيرهم، أمماً لا يحصيها إلا الله ولحصل بذلك النصر بإذن الله، إذا قام هؤلاء المقاتلون المسلمون بما يلزمهم من طاعة الله عزّ وجل وعدم الإعجاب بالنفس.

الثالث: الذي سئل عنه الرسول عليه الصلاة والسلام:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حديث رقم (٢٦٥٥)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، حديث رقم (١٩٠٤) عن أبي موسى الأشعري.

المقاتل رياءً ـ والعياذ بالله ـ هذا أخسرهم، يقاتل لأجل أن يقال: فلان جريء وشجاع، أو يقاتل لأجل أن يقال: فلان يجاهد في سبيل الله، وكلاهما باطل، والذي يقاتل ليقال: فلان جريء، هو من أول من تسعر بهم النار[1] ـ أعاذنا الله منها ـ نسأل الله العافية.

إذاً: لا بد أن تكون النية خالصة؛ لأن الذي يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا يمكن أن يفرط فيما أوجب الله عليه؛ لأنه يريد هذا، يريد من غيره أن يقوم بطاعة الله فلا يمكن أن يفرط بطاعته.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦﴾ [المائدة: ٣٦].

لما أمر الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يتقوا الله ويبتغوا إليه الوسيلة ويجاهدوا في سبيله وبَيَّن عاقبة هذا بأنه الفلاح؛ بَيَّن عاقبة من لم يقم بذلك من الكفار، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الإعراب: «إنَّ»: هذه تحتاج إلى خبر، وجملة الشرط ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم﴾ تحتاج إلى جواب،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، حديث رقم (١٩٠٥) عن أبي هريرة.

وجوابها قوله: ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ والجملة من الشرط وجوابه هي خبر «إن» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم﴾ «لو»: هذه شرطية، ولو الشرطية لا تدخل إلا على جملة فعلية، فأين الجملة الفعلية والتي بعدها «أن» المفتوحة وهي نائبة مناب مصدر؟ يقال في **الجواب**: إن فعل الشرط محذوف والتقدير: لو ثبت أن لهم ما في الأرض.

وقوله: ﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ «ما»: اسم موصول يفيد العموم، أي: جميع ما في الأرض من معالم وأشجار وبحار وأنهار وحيوان وآدمي وكل شيء في الأرض ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ إضافة مبذولة، ﴿لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وقولنا: «مبذولة» إشارة إلى أن «اللام» في قوله: ﴿لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ﴾ متعلقة بهذا المحذوف.

وقوله: ﴿لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ﴾ أي: ليبذلوه فداءً عما لهم من العذاب.

قوله: ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾، أي: ما تقبل الله منهم ذلك؛ لأنهم قد حقت عليهم كلمة الله وحق عليهم العذاب، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿أَلِيمٌ﴾: هنا بمعنى مؤلم، ففي هذه الآية يذكر الله عزّ وجل أن الكفار لن ينجوا من عذاب الله فمهما بذلوا من الفداء، فإنهم لن ينجوا منه، وأن عذابه أليم، أي: مؤلم، واقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، تعرف كيف كان هذا الإيلام.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: شدة عذاب الكفار.

الفائدة الثانية: أنهم لن يستطيعوا أن يفتدوا من هذا العذاب بما يمكن أن يملك.

الفائدة الثالثة: أن الله سبحانه وتعالىٰ أراد منهم ما هو أيسر من ذلك وهم في زمن الإمكان أي: في الدنيا، ولكنهم أبوا، فيتحسرون في الآخرة أن يجدوا فداء، ولن يجدوا.

الفائدة الرابعة: إثبات يوم القيامة، لقوله: ﴿لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

الفائدة الخامسة: أن الافتداء بعد حلول العذاب لا ينفع، لقوله: ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]؛ لأنه قد فات الأوان وحل العذاب، وشاهد الإنسان عالم الغيب فلا يقبل منه.

الفائدة السادسة: أن عذاب الكفار عذاب مؤلم ـ والعياذ بالله ـ وهل هو مهلك؟

الجواب: لا، ليس بمهلك؛ لأنهم لا يموتون ولا يحيون حتى إنهم يتمنون الموت ولكن لا يحصل، يقولون: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وهذا دعاء أن يقضي الله عليهم فيريحهم ولكنه يقول لهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

الفائدة السابعة: الرد على من قال: إن أهل النار يتأقلمون فيها ولا يحسون بألم ولا بعذاب، وإلا لما بقوا موجودين؛ لأن

حرارة النار ـ أعاذنا الله منها ـ أعظم من نار الدنيا بتسعة وستين جزءاً[(١)]، فيقال: إن الله تعالى يؤلمهم ولكنه يبدل جلودهم كلما نضجت جلودهم بُدِّلوا بجلود غيرها ليذوقوا العذاب.

فإن قال قائل: أليس في ذلك ظلم لهؤلاء؛ لأن هذه عقوبة عظيمة؟

فيقال: لا ظلم؛ لأنهم أُنْذِروا وبُيِّنَ لهم وتوعدوا بهذا العذاب، وأتوه من قبل أنفسهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، وإنما أوردت هذا الإيراد؛ لأن بعض القائلين: بأن النار تفنى، وهو قول شاذ منكر بلا شك، يقولون: إن حكمة الله ورحمته تأبى أن يعذب هؤلاء أبد الآبدين، مع أن وجودهم في الدنيا كان قليلاً لا ينسب إلى العذاب المؤبد، فيقال: إنه قد قامت عليهم الحجة، وإنهم أمضوا دنياهم كلها بدون إيمان ولا طاعة فتكون آخرتهم كلها ليس فيها ثواب ولا رحمة.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٧].

قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ﴾ الإرادة هنا: يحتمل أن يكون معناها المحبة لأن الإرادة تأتي

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، حديث رقم (٣٠٩٢)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين، حديث رقم (٢٨٤٣) عن أبي هريرة.

بمعنى المحبة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، ومعلوم أن هذه الإرادة بمعنى المحبة؛ إذ لو كانت الإرادة إرادة كونية لتاب الله على جميع الناس، فمعنى ﴿يُرِيدُونَ﴾ يحتمل أن المعنى: يحبون أن يخرجوا من النار، ولكن أنَّى لهم ذلك، ويحتمل أن المعنى أنهم يخدعون بمعنى: أن النار ترفعهم حتى يكونوا قريبين من أبوابها، ويريدون الخروج ولكن يردون إلى أسفلها ـ والعياذ بالله ـ كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، والمعنيان صحيحان هم يحبون ذلك ويفعل بهم ما يكون طمعاً في خروجهم ثم يعادون.

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ بل هم فيها باقون كما قال تعالى ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، وإذا كانوا لا يخرجون منها وهم خالدون فيها أبداً، دل هذا ولا بد على أن النار باقية أبداً وهو كذلك، وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة، وحكي إجماعاً لكن ذكر عن طائفة يسيرة جداً، أن النار تفنى بمن فيها، ولكنَّه قول ضعيف بل هو في الحقيقة باطل؛ لمخالفته لصريح القرآن، فإن الله ذكر التأبيد نصاً صريحاً في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: في سورة النساء، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، **الموضع الثاني**: في سورة الأحزاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]، **الموضع الثالث**: في سورة الجن لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ

نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، أَبَعْدَ هذا التصريح الواضح الصريح نقول إنها غير مؤبدة.

وقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ «ما» هنا حجازية وليست تميمية، والدليل أنها عملت عمل ليس لأننا نعلم أن لغة القرآن هي لغة قريش، وهذه طريقة القرآن، قال الله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١]. ولم يقل: «ما هذا بشرٌ»، وفي الواقع لا نستطيع أن نستدل بالخبر على أن «ما» حجازية؛ لأن «الباء» عملت في الخبر عملاً لفظياً، فعلى هذا نقول: إن «ما» حجازية، والخلاف بين التميميين والحجازيين ليس في المعنى ولكن في العمل.

وإعراب قوله: ﴿بِخَٰرِجِينَ﴾ الباء حرف جر زائد.

وخارجين: خبر «ما» منصوب بالياء المقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بالياء، التي جلبها حرف الجر، وأنا عندي توسعة في مسألة النحو، فإن شئت قل: علامة جره أو علامة نصبه الياء؛ لأنه تسلط على الكلمة عاملان فعملا فيها، فالياء علامة الجر بالنسبة لحرف الجر، والياء علامة النصب بالنسبة للمحل.

وقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ بل هم باقون فيها، وعلى هذا فالباء حرف جر زائد، ومعنى قولنا: زائد، أي: أنه زائد إعراباً، وليس المراد بكونه زائداً أنه ليس له معنى بل له معنى، وهو: التوكيد؛ لأن جميع حروف الزيادة كما قال أهل البلاغة تفيد التوكيد.

قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ نسأل الله العافية ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم، كإقامة الرجل بالبلد.

مَن فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى والثانية: أن أهل النار يحبون بكل قلوبهم أن يخرجوا منها، هذا على الوجه الأول أن معنى يريدون يحبون، ولكن لن يحصل لهم ذلك.

وعلى المعنى الثاني: أن أهل النار يحملهم لهيبها حتى يكونوا في مكان يطمعون أن يخرجوا منها، على القول بأن الإرادة هنا بمعنى المشيئة، يعني ليست بمعنى المحبة.

الفائدة الثالثة: أن أهل النار الذين هم أهلها لا يمكن أن يخرجوا منها، لقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾ وهذا خبر من الله عزّ وجل، وخبر الله حق.

الفائدة الرابعة: أن عذاب أهل النار مقيم والعياذ بالله، يعني: دائماً فإنهم لن يخفف عنهم، بل قالوا لخزنة النار: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]، لا كل العذاب، يوماً واحداً يخفف، فيقولون لهم موبخين: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [غافر: ٥٠] أي: في ضياع، لا ينفع إلى حد أنهم يدعون الله عزّ وجل يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، وهم في أشد الضرورة إلى الخروج، فيقول الله لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] أي: كونوا أذلة خاسئين ولا تكلمون، فما بعد هذا الخزي والذل والإهانة شيء. نسأل الله أن يقينا عذاب النار.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨].

قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ «السارق»: اسم مشتق من السرقة، والاسم المشتق المحلى بـ«أل» يقولون إنه للعموم، ولهذا نقول: «أل» من الأسماء الموصولة وصلتها الصفة الصريحة، والسرقة: في الاصطلاح هي أخذ المال على وجه الاختفاء من مالك أو نائبه، أما في اللغة: فهي أخذ المال خفية من المالك أو من غيره. فالسارق: هو الذي يأخذ المال على وجه الاختفاء من مالكه أو نائب مالكه.

فقولنا: «الذي يأخذ المال»: خرج به من أخذ ما ليس بمال، كما لو أخذ خمراً فإن هذا ليس بسارق اصطلاحاً؛ لأن الخمر ليس بمال، وخرج به من أخذ حراً، يعني سرق صبياً من بيت أهله فهذا ليس بسارق اصطلاحاً؛ لأنه ليس بمال، ويدخل فيه ما لو سرق عبداً ولو كبيراً فإنه يعتبر سارقاً؛ لأن العبد مال مملوك لسيده.

وقولنا: «من مالكه»، احترازاً مما لو أخذه من غير مالكه كما لو كان من غاصب، يعني أن رجلاً غصب مالاً، فسرقه سارق، أي: سرق هذا المال المغصوب فإنه لا يعد سارقاً اصطلاحاً، وإن كان يعد سارقاً لغة. لكنه اصطلاحاً ليس بسارق؛ لأن المال أخذ من شخص لا حرمة له، إذ إنه وضع يده عليه بغير حق.

قولنا: «أو نائبه» يعني: نائب المالك، مثل: الوكيل والوصي والناظر، وما أشبه ذلك، المهم أنه إذا أخذ المال من

نائب المالك فهو سارق، وعلى هذا فالذي يسرق من الدكاكين التي فيها أموال للغير، يُحَرِّج عليها صاحب الدكان، هل يعتبر سارقاً؟؛ المال الذي في الدكان ليس لصاحب الدكان بل هو يبيع للناس نقول: نعم، إنه نائب عن المالك، فإذا قال السارق: أنا لم أسرق هذا المال من مالكه، قلنا: لكنك سرقته من نائب المالك.

قولنا: «على وجه الاختفاء» احترازاً مما لو أخذه قهراً فإنه لا يعد سارقاً بل يعد غاصباً، وكذلك لو أنه أخذه وهو مار كأن يكون في يد شخص ساعة يُحَرِّج عليها، أي: ينادي عليها، وفي مروره خطفها وهرب، هل يعد سارقاً؟

الجواب: لا؛ لأنه غير مختف، فلا يعد سارقاً، لكنه منتهب أو مختلس، مثاله: إنسان وقف عند الدكان، وكلم صاحب الدكان، فقال له: عندك السلعة الفلانية؟ قال: نعم، قال: أريد أن أراها، فالتفت صاحب الدكان وأتى بها إليه، فقال له: لا أريد هذه، أريد تلك التي في طرف الدكان، فذهب صاحب الدكان ليأتي بالسلعة، فسَرَق من المال الذي في الدكان، هل يعتبر سارقاً؟

الجواب: لا، هذا مختلس؛ لأن التفريط من صاحب المال، كيف تذهب لتأتي بالسلعة من أقصى الدكان، وعندك رجل لا تدري عن أمانته، فأنت الذي فرطت.

لو قال قائل: ألا يشكل على هذا قصة المرأة المخزومية التي كانت تجحد المتاع، فأمر النبي ﷺ بقطع يدها[1]؟

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة، حديث رقم (١٦٨٨) عن عائشة.

الجواب: اختلف العلماء في تخريج حديث المرأة المخزومية، فمنهم من قال: إن النبي ﷺ قطع يدها لأنها كانت تسرق لا أنها تجحد المتاع، لكنها ذكرت بهذا الوصف لأنها اشتهرت به؛ لا لأن الحكم مبني عليه، فالحديث فيه أنها كانت تستعير المتاع فتجحده، فأمر النبي ﷺ بقطع يدها، قالوا: إن الحديث معناه أنها كانت تستعير المتاع فتجحده لأنها عُرِفت بهذا، لكنَّ هناك إضماراً تقديره: فسرقت فقطع يدها، لكن هذا غير صحيح، هذا تحريف للكلم عن مواضعه، والصحيح أن جحد العارية سرقة؛ لأن أي إنسان يريد أن يسرق فبدلاً من أن يذهب ويكسر الأقفال والأبواب ويأخذ على وجه الاختفاء، بدلاً من ذلك يأتي إلى الشخص ويقول: جزاك الله خيراً أنا محتاج إلى هذا الإناء أطبخ فيه للضيوف، وآتي به إليك إن شاء الله، وربما يبقى في الطعام فضلة فآتيك به، ويلين القول فيعطيه ثم بعد ذلك يجحد، فالتحقيق أن جحد العارية نوع من السرقة؛ لأنه أخذ المال على وجه الاختفاء.

قوله: ﴿وَٱلسَّارِقَةُ﴾ الأنثى يقام عليها الحد كما يقام على السارق، وهنا نجد أن الله ـ بدأ بالسارق قبل السارقة، وفي باب الزنا ذكر الله الزانية قبل الزاني، والحكمة في ذلك، أن السرقة مبناها على القوة والجلد والنشاط، والرجال أخص من النساء في هذا، فبدأ بهم، ولذلك نجد السُّراق من الرجال أكثر منهم من النساء، أما الزنا فبالعكس؛ لأن الزنا سلع البغايا ـ والعياذ بالله ـ فبدأ بالزانية؛ لأنه في النساء أكثر كما هو مشاهد.

قوله: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ ﴿اقْطَعُوا﴾: الخطاب للأمة جميعاً، لكن المقصود بالذات والعين هو الإمام أو نائبه، لكن

المسؤولية على الجميع، بمعنى لو تهاون الإمام وجب على الأمة أن تطالب بقطع يد السارق كما سنذكره إن شاء الله في الفوائد.

وقوله: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ «الفاء» هنا ما موقعها؟ يعني كيف جاءت الفاء والجملة ليست شرطية؟ والجواب عن هذا أن نقول: لما كان الاسم الموصول موغلاً في الإبهام صار كاسم الشرط، واسم الشرط إذا كان جوابه طلباً، يعني أمراً أو نهياً؛ وَجَب اقترانه بالفاء، وهذا واضح، ومثلها قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ﴾ [النور: ٢].

وقوله: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ «أيد» هنا جُمِعت مع أن المقصود أن يُقطع من كل منهما يد واحدة، فكيف جمعت هل المعنى أن نقطع الأربع الأيدي أم ماذا؟ نقول: لا، لا نقطع الأربع الأيدي، إنما يقطع من السارق والسارقة يدان اثنتان، لكن الأفصح في اللغة العربية أنه إذا أضيف المثنى إلى ما يفيد التعدد فإنه يُجمع، كراهة أن تجتمع تثنيتان فيما هو كالكلمة الواحدة؛ لأن المضاف والمضاف إليه كأنهما كلمة واحدة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، مع أن الواحدة لها قلب واحد، وقال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤]، ويجوز التثنية في غير القرآن مثاله: (اقطعوا يديهما)، ويجوز الإفراد: (اقطعوا يدهما)، إلا إذا كان يترتب على ذلك التباس واختلاف، فإنه يجب أن يكون الجزء الأول من المضاف والمضاف إليه على حسب الواقع، فمثلاً إذا قلت: اشتريت من الرجلين عبدهما، هنا إذا كان عبداً واحداً يجب أن تقول: عبدهما، ويدل ذلك على أن العبد مشترك بينهما، لكن إذا اشتريت من كل واحد عبده؛ تقول: عبديهما، إذا كنت

اشتريت جمعاً، يعني كل واحد عنده عبدان واشتريت الأربعة، ماذا تقول؟ تقول: عبيدهما، وهذا يتعين لئلا يلتبس المعنى، أما إذا كان المعنى واضحاً فإنه إذا أضيف ما يفيد التثنية إلى ما يفيد التعدد فإنه يكون مجموعاً.

قوله: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ «أيد» هنا مطلقة من حيث الحد، يعني: حد اليد، ومن حيث الجهة:

أولاً: من حيث الحد: فهل نقطع من المنكب؟ أو من المرفق؟ أو من الكف؟ لأن كل هذا يسمى يداً، فاليد من المنكب إلى الأصابع.

ثانياً: الجهة، «أيديهما» أي: الجهتين؟ اليمين أو الشمال، أيضاً الآية مبهمة، فنقول: المراد قطع اليد اليمنى، والذي جعلنا نُعيِّن اليد باليمنى قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فقد كان يقرأها «فاقطعوا أيمانهما»[1] وهذه القراءة إن كانت ثابتة عن النبي ﷺ بلفظها، فهي قرآن، وإن كانت تفسيراً من ابن مسعود رضي الله عنه؛ فهو صحابي جليل عالم بالتفسير، والأقرب أنها قراءة؛ لأن النبي ﷺ حث على أن نقرأ بقراءة ابن أم عبد وهو ابن مسعود[2]، إذاً تعينت الآن الجهة وهي اليمين.

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٦/ ٢٢٨)، والبيهقي في السنن الصغرى (٧/ ٣٠١) (٣٣٥٤).

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، حديث رقم (٤٩٩٩)، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله تعالى عنهما، حديث رقم (٢٤٦٤) عن عبد الله بن عمرو، ولفظ مسلم: «**خذوا القرآن من أربعة: من ابن أم عبد** ـ فبدأ به ـ **ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وسالم مولى أبي حذيفة**».

الحد: هل هو الكف أو المرفق أو الكتف؟ نقول: اليد إذا أُطلِقت فالمراد بها الكف، والدليل قول الله تبارك وتعالى في التيمم: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة: ٦]. واليد هنا حدها الكف، لدليل السنة الصريحة في هذا، كما في حديث عمار بن ياسر[1] وغيره، ولهذا لما أراد الله سبحانه وتعالىٰ الزيادة على الكف قال في آية الوضوء: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]، إذاً فتعين أن المراد باليد هنا اليد اليمنى، وأن حد القطع من مفصل الكف.

قوله: ﴿جَزَآءًۢ﴾ هذه منصوبة على أنها مفعول من أجله، أي: لأجل مجازاتهما على فعلهما.

قوله: ﴿بِمَا كَسَبَا﴾ أي: بما كسبا من الجريمة والمعصية والعدوان، وهذا المعنى يؤيد أن المراد باليد اليمين؛ لأن الغالب أن الإنسان يأخذ بيمينه ويعطي بيمينه، والغالب أيضاً أن اليمين أقوى من اليسار.

وقوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ أي: مجازاة لهما على ما كسبا من المال المبني على العدوان والظلم.

قوله: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿نَكَٰلًا﴾ مفعول من أجله أيضاً، أي: تنكيلاً لغيرهما، ونكالاً لهما أيضاً أن يعودا إلى مثله، فإن أي إنسان مهما بلغ من الطمع في المال إذا علم أن يده سوف تُقطع، فإنه سوف يُنكِل عن السرقة خوفاً من أن تقطع يده، وأصل النِّكَال بالكسر أصله القيد التي تقيد به يد الدابة فيمنعها من

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحيض، باب التيمم، حديث رقم (٣٦٨).

الهرب، كذلك النكال يمنع السُّراق من أن يسرقوا، فذكر الله تعالى حكمتين:

الحكمة الأولى: مجازاة هؤلاء على فعلهم، أي: السُّرَّاق، لقوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾».

والثانية: منع اعتياد السرقة منهم ومن غيرهم، وذلك في قوله: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾».

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ختم الآية باسمين عظيمين من أسمائه، أولهما: العزيز الدال على العزة والغلبة والقهر، والثاني: الحكيم الدال على نفوذ حكمه، وعلى أن حكمه مقرون بالحكمة؛ لأن حكيم مشتقة من الحُكْم والحكمة، فهو عزّ وجل له الحكم التام، وله الحكمة البالغة.

ويُذكر أن أعرابياً بدوياً جلس إلى قارئٍ يقرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والله غفور رحيم قال له: اقرأ الآية، قراءتك هذه غير صواب، فأعاد، وقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والله غفور رحيم قال: اقرأ، قرأها الثالثة، فقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ قال: الآن أصبت؛ لأنه سبحانه وتعالىٰ، عز وحكم فقطع، ولو غفر ورحم ما قطع.

فانظر إلى ذكاء هذا الأعرابي؛ لأن ختام الآيات في الغالب يكون مطابقاً، ولا يرد علي هذا قول الله تبارك وتعالى عن عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]، ولم يقل: فإنك أنت الغفور الرحيم؛ لأنه

ذكر العذاب والمغفرة، فكأنه قال: أنت عزيز فيمن تُعذِّب، وحكيم فيمن تُثِيب، ولا يقع الثواب والعقاب إلا مطابق للعزة والحكمة.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: وجوب قطع يد السارق والسارقة، لقوله ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾.

الفائدة الثانية: أن قطع أيديهما مخاطَب به جميع الأمة، لقوله: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ﴾ والخطاب للأمة كلها، لكن الأمة في الواقع تتمثل في ولاة أمورها؛ لأنهم هم الذين يرعون مصالحها، فإذا حصل التقصير من ولاة الأمور وجب على الأمة أن ينبهوهم على ذلك.

الفائدة الثالثة: أن ظاهر الآية وجوب قطع أيديهما بأي سرقة كانت قليلة أم كثيرة، وسواء كانت من حرز أم من غير حرز، وسواء كانت ممن له شبهة في الأخذ أم لا.

والسنة[1] قد قيدت هذا العموم:

الأول: بما إذا كان نصاباً تُقطع فيه اليد، والنصاب ربع دينار أو ثلاثة دراهم أو ما يساويهما من المتاع، فهذه ثلاثة أشياء.

وهل الأصل ربع الدينار أم ربع الدينار والثلاثة دراهم؟ في هذا خلاف بين أهل العلم، ويظهر أثر الخلاف فيما لو سرق

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾، حديث رقم (٦٤٠٧)، صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب حد السرقة ونصابها، حديث رقم (١٦٨٤).

متاعاً قيمته ثلاثة دراهم، ولكنه لا يساوي ربع دينار، فإذا قلنا: إن كليهما أصل، فقد سَرَق نصاباً، وإذا قلنا: إن الأصل ربع الدينار فإنه لم يسرق نصاباً؟

الصحيح أن النصاب ربع دينار، لكن الثلاثة دراهم في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام كانت تساوي ربع دينار بدليل الديات تقديرها ألف مثقال ذهب، واثنا عشر ألف درهم فضة، فكانت الثلاثة الدراهم تساوي ربع دينار. وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قطع في مِجَنٍ قيمته ثلاثة دراهم[1]، لكن الثلاثة الدراهم في ذلك العهد تساوي ربع دينار.

الثاني: الحرز، الآية ليس فيها ذكر الحرز، الحرز بمعنى: أن يسرق السارق المال مما يُحرَز به عادة، ومعنى يحرز: أي يُحفظ، مما يحفظ به عادةً، فإن سرق من غير حرز فلا قطع، مثال ذلك: الدراهم والدنانير، تحرز في البيوت وفي الصناديق ويقفل عليها وتراقب، فلو جعل الإنسان الدراهم والدنانير على عتبة الباب، أو في مرابض الغنم، فسُرِقت، فقد سُرِقت من غير حرز.

فإذا قلنا: إن الحرز شرط، قلنا: لا قطع على هذا الذي سرق من الدراهم من غير حرزها، وهذا يحتاج إلى دليل، إذ لو طالبنا مطالب وقال: لا بد أن تقطع يده لأنه سرق فما هو المانع من القطع؟ نقول: المانع من القطع أن كلمة السرقة أخذ المال

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾، حديث رقم (٦٤١١)، ومسلم، كتاب الحدود، باب حد السرقة ونصابها، حديث رقم (١٦٨٦) عن ابن عمر.

على وجه الاختفاء، وأن الذي جعل المال في غير حرزه هو الذي فرّط فلا يقطع.

إذاً لا بد أن تكون السرقة من حرز، وحرز المال: ما جرت العادة بحفظه فيه.

وهل هذا الحرز يختلف؟ نعم يختلف باختلاف الأموال، ويختلف باختلاف الأحوال، أحوال الخوف والفوضى ليست كأحوال الأمن والقرار، يختلف أيضاً باختلاف السلطان هل هو قوي أو ضعيف، وهل هو عدل أو جائر؟

إذا كان السلطان قوياً، فهنا لا يتكلف الناس في إحراز الأموال تكلفاً شديداً؛ لأن قوة السلطان تمنع من السرقة، وإذا كان ضعيفاً كان بالعكس، لكن أيهما أشد حفظاً للأموال أن يكون عادلاً أو أن يكون جائراً؟

الجواب: أن يكون عادلاً؛ لأن الجائر ليس معناه القوي في العقوبة، بل الجائر هو الذي يقضي على هذا بقطع اليد وعلى هذا بعدم قطع اليد، إذاً العادل لا شك أن الناس يأمنون في عهده أكثر من الجائر، من الناحية الإلهية، يعني من ناحية الرب عزّ وجل، ومن ناحية الواقع.

أيضاً يختلف الحرز باختلاف حال الناس من إيمان وضعف إيمان، إذا كان عند الناس إيمان؛ كان الحرز يسهل، وإذا لم يكن عندهم إيمان كان لا بد من التحرز الشديد، كذلك يختلف الحرز بإقامة هذا الحد بقطع يد السارق، إذا كانت تُقطع يد السارق، فإن الإنسان لا يتكلف الحرز لأنه يعرف أن السُّراق لن يفعلوا، وإذا كانت لا تُقطع يُحكم عليه بحبس أسبوع أو شهر أو شهرين،

أو سنة أو سنتين، فإنه يجب التشديد في الحرز، المهم أن الحرز يختلف باعتبارات متعددة، لكن لا بد لثبوت القطع من أن تكون السرقة من حرز.

الثالث: يُشترط أيضاً أن يكون المسروق مالاً محترماً، فلو سرق إنسان آلة لهو؛ فإن آلة اللهو ليست محترمة ولا قيمة لها شرعاً، فهل يقطع إذا سرق آلة لهو فخمة تساوي خمسة آلاف أو عشرة آلاف؟ الجواب: لا؛ لأنه مال غير محترم من أصله، فإن كان غير محترم بوصفه، مثل أن يسرق حلياً على صورة ثعبان أو على صورة أسد وما أشبه ذلك، هذا غير محترم لوصفه؛ لأن الصورة يجب طمسها أو كسرها إذا كانت مما يكسر، فهل يقطع أو لا؟ نقول: يُقطع، اعتباراً بالأصل أنه مال محترم.

إذاً لا بد أن يكون مالاً محترماً وهو الذي له قيمة شرعاً؛ فأما غير المحترم فلا يُقطع به؛ لأنه ليس بمال شرعي، ولا يُتقوَّم وليس له قيمة ولا ثمن.

الرابع: يشترط أيضاً انتفاء الشبهة، يعني أن لا يكون للسارق شبهة، فلو سَرَق من بيت المال، فإنها لا تقطع يده؛ لأن له شبهة، إذ إن له حقاً في بيت المال، بل كل مسلم له حق في بيت المال، فهو وإن كان محرَزَاً، لكن بالنسبة لهذا الشخص له حق فيه، وقد توسع الفقهاء رحمهم الله في مسألة الشبهة، ومنها هذه المسألة أنه إذا سَرَق الحر من بيت المال؛ فإنه لا يُقطع؛ لأن له فيه شبهة، والصواب أنه إن كانت الشبهة قوية فيُدرأ عنه الحد، وأما إذا كانت غير قوية وبعيدة، فلا ينبغي أن تُعطل الحدود من أجل أن يكون له حق من مليون مليون مليون مثلاً، هذا فيه تعطيل للحدود.

ومن الشبه إذا كان الناس في عام مجاعة، أو إذا كان الإنسان جائعاً، أما الأول فإذا كانت المجاعة عامة، والناس في سنة دهر وجدب وجوع؛ فإنه لا قطع؛ لوجود الشبهة وهي اضطرار هذا السارق إلى السرقة، ولو كان صاحب المال حاضراً لأوجبنا عليه أن يبذله له، فأما إذا كان الجوع خاصاً، فهذا لا يمنع من القطع؛ لأن هناك فرقاً بين هذا وهذا؛ لأن كل سارق يمكن أن يقول: إنه جائع، لكن المجاعة العامة هي التي تمنع القطع.

كذلك أيضاً قال أهل العلم: ولا يُقطع في بلاد الكفر، كالغزاة مثلاً، فالغزاة في بلاد الكفر لا يقطعون؛ لأنه لو قُطع لكان في ذلك تنفير عن الإسلام وربما يهرب هذا الرجل إلى بلاد الكفر ويبقى عندهم، وهذه مفسدة عظيمة، ولكن هل يرتفع عنه القطع دائماً أو يؤجل؟

الجواب: يؤجل، ومثل ذلك أيضاً ما وقع في بعض البلاد التي تحررت من الكفر ودخلت في الإسلام، لو قالوا: نحن إذا أقمنا الحدود ثار علينا الناس، فيثور علينا أولاً الشعب ثم الدول، فهل لنا الحق أن نؤجل حتى يتقوى الجانب الإسلامي؟

نقول: نعم، بدليل أن الحدود إنما جاءت في الشريعة الإسلامية متأخرة، نعم هي لدرء المفاسد، لكن هي أيضاً متأخرة حتى يتمكن الناس من قبولها، ثم إن المقصود من الحد، إصلاح الخلق، والتكفير عن المحدود، فإذا كان يترتب على إقامته مفسدة أعظم فليؤجل.

لو قال قائل: إذا وجب الحد على امرأة حامل سرقت هل يقام عليها الحد؟

الجواب: لا، يؤجل؛ لأن القطع يخشى منه على الجنين، والجنين بريء ليس منه جناية.

لو قال قائل: لو سرق الإنسان من مال أبيه هل يُقطع؟

الجواب: العامة يقولون: السارق من السارق كالسارق من أبيه، والمعنى أنه لا يقطع، السارق من أبيه يقولون: لا يقطع؛ لأنه له حق في مال أبيه، وهو الإنفاق عليه إذا كان محتاجاً، الزوج مع زوجته كذلك؛ لأن هذا فيه شبهة، وجرت العادة بأن الزوجين يتبسط أحدهما في مال الآخر، إذاً لا بد لإقامة الحد من انتفاء الشبهة، لكن كما تقدم هناك شبهة بعيدة، وشبهة قريبة.

لو قال قائل: هل يشترط ثبوت السرقة يعني: لو ادُّعِي على شخص أنه سارق، هل نقول: لا يقام عليه الحد حتى تثبت السرقة؟

الجواب: نعم؛ لأن الله قال: ﴿وَٱلسَّارِقُ﴾، ولا يصدق عليه وصف السرقة إلا إذا ثبتت، وبدون الثبوت لا يصدق عليه أنه سارق، وتثبت السرقة بشهادة رجلين عدلين، فإن شهد رجل وامرأتان لم يُقَم الحد، لكن يضمن المال؛ لأن المال يثبت بشهادة رجل وامرأتين، والحد لا يثبت إلا بشهادة رجلين، ولهذا فإنه لا مدخل للنساء في الحدود، لو يشهد أربعمائة امرأة على رجل أنه زنا؛ فإنه لا يقام عليه الحد، وكذلك في السرقة، وكذلك في بقية الحدود، لا مدخل للنساء في الحدود بل شهادة الحدود للرجال فقط.

إذاً لا بد من ثبوت السرقة، وتثبت بشاهدين أو بإقرار السارق، إذا أقر السارق فإنها تثبت السرقة.

لكن هل يُشترط تكرار الإقرار أو لا؟ في هذا خلاف بين العلماء، منهم من يقول: لا بد أن يكرر الإقرار مرتين كل مرة بإزاء شاهد؛ لأنه لا بد من شاهدين فلا بد أن يقر مرتين، فلو أقر مرة لم تثبت السرقة، وقال بعض أهل العلم: تثبت بالإقرار مرة؛ لأنه شهد على نفسه، ولا عذر لمن أقر، فتثبت السرقة بإقراره مرة.

وإذا أقر سواء قلنا مرتين أو مرة فهل له أن يرجع، يعني هل يُقبل رجوعه بحيث لا نقيم عليه الحد؟

أكثر الفقهاء يقولون: يُقبل رجوعه عن الإقرار، وعلى هذا لا يقطع، لكن يؤخذ بحق الآدمي يُضمَّن المال، أما القطع فلا؛ لأنه رجع عن إقراره، وقال بعض العلماء: لا يرجع إذا أقر عند القاضي.

والصحيح في هذا التفصيل، أنه إذا وجدت قرائن تدل على صحة إقراره، فإنه لا يقبل الرجوع، وإذا لم توجد قرائن، فإنه يقبل رجوعه، ويكون الأمر بينه وبين ربه، فلو قال السارق: إنه سرق، قلنا كيف سرقت؟ قال: أتيت في الليل فكسرت الباب وكسرت الصندوق وأخذت المال، وهذا البيت هو الذي أنا سرقته، ووصفه تماماً، ثم رجع، هل يقبل مثل هذا؟ لا يمكن أن يُقبل؛ لأنه لو قبل مثل هذا، أي: قبل الرجوع عن إقراره لتعطلت الحدود، بل قال شيخ الإسلام رحمه الله: لو قبل رجوع المقر في الحد ما أقيم حد في الدنيا؛ لأن كل إنسان يمكنه أن يقر ثم يرجع، لا سيما إذا لُقِّن، وقيل له: ارجع لا تخف، بعد أن أمر القاضي بقطع يده وأُحضِرت السكين، وأحضِر الزيت لتحسم يده، وحضر رجال الأمير، ثم قال: اصبروا؛ أنا رجعت عن إقراري، هذا شبه تلاعب، فنقول: هذا لا يقبل؛ لأنه وجدت قرائن تدل

على أن إقراره حق وليس عن تلاعب، وليس عن إكراه، هو الذي دلّ الناس على مكان السرقة وعلى كيفية السرقة، ولا شك أن مثل هذا لا يُقبل رجوعه عن إقراره.

إذاً يشترط ثبوت السرقة والدليل الآية: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ إذ لا يصدق عليه أنه سارق أو سارقة إلا بالثبوت، والثبوت يكون بشهادة عدلين وإما باعتراف.

وهل لا بد من التكرار أم لا؟ فيه خلاف وتقدم.

الفائدة الرابعة: وجوب قطع يد السارق والسارقة اليمنى، كما فسَّر ذلك قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «فاقطعوا أيمانهما» فتُقطَع اليد اليمنى بربع دينار، ومن أين تقطع؟ تقطع مما يصدق عليه أنه يد، فأقل ما يصدق عليه أنه يد تقطع منه؛ لأن ما زاد على ما يصدق عليه اليد مشكوك فيه، والذي يصدق عليه أنه يد الكف، فتقطع من مفصل الكف من الرُّسْغ والكوع والكرسوع، الكوع الذي يلي الإبهام في طرف الذراع، والكرسوع الذي يلي الخنصر، والرسغ الذي في الوسط.

فإن قال قائل: كيف تقطع بربع دينار وهي لو قطعت عمداً لكان فيها خمسمائة دينار يعني لو أن إنساناً جنى على شخص وقطع يده، قلنا: عليك خمسمائة دينار، والسارق يسرق ربع دينار وتقطع يده. ولهذا أورد التشكيك في هذه المسألة أبو العلاء المعري فقال:

يد بخمس مئين عسجداً وديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض ما لنا إلا السكوت له ... ونستعيذ بمولانا من النار

فقال: تناقض، وجه التناقض عنده، أنه كيف يد ديتها

خمسمائة دينار تقطع وتهدر بربع دينار هذا تناقض؛ لأنه إذا كانت اليد ديتها خمسمائة دينار فلا تقطع إلا بسرقة خمسمائة دينار؛ وإذا كانت تقطع بربع دينار صارت ديتها ربع دينار وإلا فتناقض؟ لكنهم ردوا عليه فقالوا:

قل للمعري عار أيما عار جهل الفتى وهو عن ثوب التُّقى عاري

عار: أي: ليس عنده علم ولا عبادة.

يد بخمس مئين عسجداً وديت لكنها قطعت في ربع دينار

حماية النفس أغلاها وأرخصها حماية المال فافهم حكمة الباري

فانظر إلى الجواب والشاهد في البيت الأخير، يعني أن ديتها جعلت خمسمائة دينار حماية للنفوس، حتى لا يجتريء أحد على قطع أيدي الناس، وقطعت في ربع دينار حماية للأموال حتى لا يجتريء أحد على السرقة، وهذا جواب واضح معقول.

وهناك جواب آخر، يشبه أن يكون أدبياً، قال: إنها لما خانت هانت، ولما كانت أمينة كانت ثمينة، لما خانت بالسرقة هانت وصارت قيمتها ربع دينار، ولما كانت أمينة كانت ثمينة وكانت قيمتها خمسمائة دينار، وعلى كل حال هذه أجوبة في الواقع لهؤلاء الذين يوردون مثل هذه الشبه، وإلا فإننا نعلم علم اليقين أن الله لا يفرق بين شيئين إلا وبينهما فرق أوجب التفريق في الحكم.

لو قال قائل: إذا قُدِّرَ أن السارق يستعمل شماله في السرقة ويعتمد عليها فهل تقطع اليمنى أم اليسرى؟

الجواب: تقطع يمينه حتى لو سرق بفمه، كأن يجد السارق حُلياً معلقاً فيعضه بفمه حتى يقطع حبله؛ لأنه لو استعمل يمينه

لرآه الناس، الحاصل أن يمينه هي التي تقطع، وأيضاً إذا قُدِّر أن السارق الذي سرق ليس له يد يمنى فهل تقطع اليسرى أو لا؟

في هذا خلاف: منهم من يقول: لا تقطع؛ لأن الله إنما نص على اليمنى فقط، يعني: إنما جاءت الآية باليمنى فقط واليسرى لا تقطع؛ لأننا إذا قطعنا يسراه فوتنا عليه منفعة اليدين كلتيهما، وهذا لا يصح، كما قالوا: إن عين الأعور لا تُفقأ بعين الصحيح، مثال ذلك: رجل أعور ليس عنده إلا العين اليمنى فقط، فقأ عين رجل سليم اليمنى، هل نفقأ عين الأعور؟

المشهور من المذهب لا نفقأها؛ لأننا إذا فقأنا عينه فوتنا عليه البصر كله، وهو لم يفوت البصر على المجني عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ [المائدة: ٤٥]، وعين الأعور تؤدي البصر كله، فلا مساواة.

فأقول: إن بعض العلماء يقول: إذا لم يكن للسارق إلا يد يسرى، فإنها لا تقطع؛ لأن ذلك يفوت عليه منفعة اليدين، ولذلك أمر الله عزّ وجل في قطاع الطريق أن تُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف؛ لئلا تتعطل اليدان جميعاً، فمنهم من يقول: لا تقطع اليد اليسرى، ومنهم من يقول: تقطع، وإذا فوتنا عليه ذلك، فهو الذي جنى على نفسه؛ لإننا إنما قطعناها لأنه هو الذي سرق، وهو الذي جنى على نفسه، والمسألة تتجاذب فيها الأدلة.

إذا لم يكن له يدان هل نقطع الرجل؟

الجواب: لا نقطع الرِّجل؛ لأنها ليست من جنسها، وإذا كانت اليمنى شلاء، هل نقطعها؟ تقطع لأن الآية عامة، ولا نقول: إننا لا نقطعها، ونقطع اليد اليسرى السليمة، بل نقطع الشلاء.

هل يجب علينا عند القطع أن نفعل ما يمنع نزيف الدم أم نتركه ينزف الدم ويموت؟ الأول، يجب أن نفعل ما يمنع نزيف الدم وأن لا ندعه يموت؛ لأن المقصود قطع اليد.

هل يجوز أو يلزم أن نُبَنِّج هذا السارق عند قطعه؟ يجوز أن نبنج هذا السارق؛ لأن القطع يحصل مع البنج وعدمه، بخلاف القصاص، فلو أن رجلاً قطع يد إنسان وحكمنا بالقصاص فلا نبنج يده من أجل أنه قطع يد المجني عليه؛ فإننا لا نبنجه بل نذيقه الألم كما أذاق المجني عليه الألم، وهذا فرق واضح.

وفيما سبق، يحسمون الدم بأن يأتوا بزيت يغلونه على النار. فإذا قُطِعت اليد، غمسوا طرف الذراع في هذا الزيت، وإذا انغمس تسددت أفواه العروق، لكن في ظني أن الطب ترقَّى الآن وأنه يمكن إيقاف الدم بدون هذه العملية، والواجب أننا نسلك أسهل ما يكون بالنسبة لإيقاف الدم؛ لأن المقصود هو إتلاف اليد وقد حصل، فإذا وجدنا طريقاً يمكن بها إيقاف الدم غير الحسم الذي ذكره العلماء، واستعملوه فيما سبق، فإننا نستعمله.

وهنا مسألة: إذا سرق مرتين هل نقطع غير اليمنى؟ نقول: إذا كان ذلك قبل القطع فإنه لا تقطع إلا اليد اليمنى، يعني لو سرق عشرين مرة قبل أن نقطعه لا نقطع إلا يداً واحدة، فإن قطعناها أول مرة، ثم سرق ثانية، فإنها تقطع رجله اليسرى لا يده اليسرى بل رجله اليسرى، لقول الله تبارك وتعالى في المحاربين: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ [المائدة: ٣٣] فيكون القطع لليد اليمنى والرجل اليسرى، لئلا يتعطل جانب منه كامل عن المنفعة.

وقال بعض أهل العلم: إذا تكررت منه السرقة بعد القطع فإنه لا يقطع؛ لأن الله إنما أباح قطع اليد اليمنى فقط، والأصل احترام المسلم، فلو تكررت السرقة منه عشرين مرة، لا تُقطع إلا اليمنى فقط، لكن إذا لم يندفع أذاه إلا بالحبس أو القتل فعلنا ما يندفع به أذاه، أما أن نقطع شيئاً من أعضائه والله عزّ وجل إنما ذكر قطع يد واحدة فلا، لكن المشهور عندنا في المذهب أنه تقطع رجله اليسرى إلحاقاً له بالمحاربين، فإن سرق الثالثة فإنه لا يقطع.

وقال بعض العلماء: إنها تقطع يده اليسرى، فيبقى عنده رِجل واحدة، فإن سرق الرابعة، فقال بعض أهل العلم: إنها تقطع رجله اليمنى، وعلى هذا لا يبقى شيء من أطرافه، فإن سرق الخامسة قتل، وقد سمع أحد العوام رجلاً يحدث في المسجد، وقال هذا القول، تقطع اليد اليمنى، ثم الرجل اليسرى، ثم اليد اليسرى، ثم الرجل اليمنى، ثم إن سرق قتل، فقال العامي على البديهة: بماذا يسرق وليس له يدان ولا رجلان؟ لكن الواقع أنه يمكن أن يسرق؛ لأنه باقٍ عنده الذراع، ويستطيع أن يأخذ المال به.

على كل حال: الذي يظهر أننا لا نتعدى حد المحاربين، يعني نقطع يده اليمنى، فإن عاد فرجله اليسرى فقط.

لو قال قائل: لو أراد السارق أن يعيد يده بعد قطعها هل له ذلك؟

الجواب: هذا سؤال جيد، فلو حاول السارق أن يجري عملية لرد يده لا يُمكَّن من ذلك؛ لأن المقصود قطعها، لكن لو كان قصاصاً بأن اقتص منه ثم أراد أن يجري العملية لردها هل

نمنعه؟ الظاهر لا نمنعه، بخلاف السرقة، فللشارع قصد في إتلاف يده، وأما القصاص فالمقصود منه أن تقطع يد الجاني كما قطعت يد المجني عليه، ولهذا لو فرض أن المجني عليه ردت يده وعادت سليمة مائة بالمائة لا يقطع الجاني.

الفائدة الخامسة: الحكمة في وجوب قطع يد السارق، لقوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾.

الفائدة السادسة: أن العقوبة من جنس العمل، وإن شئت فقل: الجزاء من جنس العمل؛ لأنه لما سرق والغالب أن الأخذ والإعطاء باليمين قطعت يده.

فإن قال قائل: يلزم على قولكم بقطع الآلة التي سرق بها أن توجبوا قطع ذكر الزاني، فما الجواب؟

الجواب: على كل حال واضح، وهو أن الزاني ذكر الله له عقوبة خاصة والسارق له عقوبة خاصة، هذا دليل سمعي، وأما الدليل العقلي: فالضرر الذي يترتب على قطع الذكر ليس كالضرر الذي يترتب على قطع اليد؛ لأن هذا يلزم منه قطع النسل ومصادمة ما يريده الرسول عليه الصلاة والسلام من هذه الأمة وهو تكثير النسل[1]، وأيضاً لأن يد السارق إذا قطعت صارت نكالاً لأن اليد ظاهرة، لكن قطع ذكر الزاني لا يعلمه أحد؛ لأنه

---

(١) رواه أبو داود، كتاب النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، حديث رقم (٢٢٥٠)، والنسائي، كتاب النكاح، باب كراهية تزويج العقيم، حديث رقم (٣٢٢٧) كلاهما عن معقل بن يسار، وأحمد (٣/١٥٨) (١٢٦٣٤) عن أنس، وابن ماجه، كتاب النكاح، باب ما جاء في فضل النكاح، حديث رقم (١٨٤٦) عن عائشة.

مستور، وحِكَمٌ أخرى، فلذلك لم يوجب الله تعالى أن يقطع ذكر الزاني، بل أوجب الجلد والتغريب لغير المحصن والرجم للمحصن.

الفائدة السابعة: الرد على الجبرية لقوله: ﴿بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، ووجه آخر معنوي، وهو أنه لو كان السارق والسارقة مجبرين ما صح أن يعاقبا؛ لأن المجبر لا حكم لفعله، حتى المكره على الكفر إذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان، فإنه لا يكفر فالمهم أن في الآية رداً على الجبرية، وما أكثر الردود على أهل البدع والحمد لله.

الفائدة الثامنة: أن الحدود كفارة، لقوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ ولا يضاعف الله عليه الجزاء.

الفائدة التاسعة: الحكمة في إيجاب الحدود، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والنكال يكون للغير، كما قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]، فإن من علم أن يده سوف تقطع بالسرقة سوف ينكل عنها ولا يسرق.

الفائدة العاشرة: بيان أن الله سبحانه وتعالىٰ مع كمال رحمته ورأفته، فإنه شرع الحدود وأوجبها شرعاً؛ لأن ذلك عين الرحمة، إذ لولا الحدود لفشت بين الناس المعاصي، لكن الحدود تردعهم إذا لم يردعهم الإيمان، ولهذا يقولون: إذا خلا الإنسان من الوازع الديني فإنه يقرع بالرادع السلطاني.

الفائدة الحادية عشرة: إثبات اسمين من أسماء الله، وهما العزيز والحكيم، وما أكثر ما يقترنان في القرآن الكريم؛ لأن بهما تمام السلطة وكمالها، والعزيز: يعني أنه ذو العزة، والعزة ذكر ابن القيم رحمه الله لها ثلاثة معان:

المعنىٰ الأول: العزة بمعنى الغلبة، ومنه قوله تعالى: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

ومنها قول الشاعر:

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

المعنى الثاني للعزة: أنه سبحانه وتعالىٰ ممتنع عن كل نقص، مأخوذ من الأرض العزاز، يعني الصلبة التي لا تُنال إلا بقوة ومعاول كبيرة وحديدية.

الثالث: العزة التي هي كماله أي: كمال وصفه.

وهو العزيز بعزة هي وصفه فالعز حينئذٍ له ثلاثة معانٍ

أما الحكيم: فإن الحكيم مشتق من معنيين: المعنى الأول: الحكم، والمعنى الثاني: الحكمة؛ لأن هذه المادة الحاء والكاف والميم تدل على الحكم وعلى الحكمة، يعني الإحكام، فأما الحكم فإن حُكْم الله تعالى نوعان: النوع الأول: الحكم القدري، والنوع الثاني: الحكم الشرعي، مثال الأول: قول الله تبارك وتعالى عن أخي يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف: ٨٠]، يعني يقدر، هذا حكم كوني، والحكم الكوني لا بد من وقوعه، فإذا حكم الله تعالى بالشيء كوناً فلا بد أن يقع.

أما الحكم الشرعي فمثل قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]، يعني حكماً شرعياً، وأما قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠]، فالظاهر أنها شاملة، وإن كان السياق يقتضي أن المراد به الحكم الشرعي، لكننا نقول: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة: ٥٠] يشمل الحكم الكوني والحكم الشرعي، الحكم الكوني ذكرنا أنه لا بد من وقوعه، وأما الحكم الشرعي إذا حكم الله على أحدٍ بشيء شرعاً هل يلزم منه الوقوع؟

الجواب: لا؛ لأن من الناس من لم يحكم بما أنزل الله، ولم يمتثل أمر الله، فلا يلزم من الحكم الشرعي أن يقع المحكوم به؛ لأنه شرع، والشرع قد يُخالَف وقد يوافق، أما الحكمة فإنها وضع الشيء في مواضعه، على حد قول بعض السلف: إن الله تعالى لم يأمر بشيء فيقول العقل: ليته لم يأمر به، ولم ينهَ عن شيء فيقول العقل: ليته لم ينهَ عنه، فهي وضع الأشياء في مواضعها، وأنت إذا تأملت أحكام الله تعالى الكونية وأحكامه الشرعية، وجدت أنها في موضعها.

فإن أدرك ذلك عقلك فهذا المطلوب، وإن لم يدركه فسلم الأمر لمن له الحكمة البالغة، ولذلك نجد الشرائع مطابقة للحكمة تماماً، فالطهارة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وبر الوالدين وصلة الأرحام، وما أشبه ذلك كلها مطابقة للحكمة.

ونجد أيضاً الأحكام الكونية مطابقة للحكمة قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ لماذا؟ ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، فالفساد الذي يكون في البر أو في البحر هو فساد لكنه لحكمة عظيمة، وهي: أن يرجع الناس إلى دينهم ويكفوا عما كسبت أيديهم من المعاصي، وهلمَّ جرًّا.

يعني أحكام الله الكونية والشرعية كلها مطابقة للحكمة،

ولكن لا يلزم من كونها مطابقة للحكمة أن يفهم الحكمة كل أحد من الناس، فقد تخفى على كثير من الناس، وقد تخفى على بعض الناس دون بعض، وما خفي عليك فَكِلْهُ إلى عالمه، ولذلك لما سألت المرأة عائشة رضي الله عنها: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ قالت عائشة رضي الله عنها: «**كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة**»[1].

إذاً: مجرد كون هذا الشيء محكوماً به من قِبل الله شرعاً فإننا نعلم أنه لحكمة، وأيضاً مجرد كون الشيء يقع في أحكام الله الكونية، وإن كانت لا تظهر لنا المصلحة فيه؛ فإننا نعلم أنه لحكمة، فعلينا أن نستسلم وأن لا نعارض، وأن لا نقول: كيف ولا لِمَ؟ لأن ذلك فيه اعتراض، اللهم إلا رجلاً يريد أن يسأل عن الحكمة، حتى يطمئن قلبه، وحتى يعرف من صفات الله ما لا يعرف؛ فهذا لا بأس به.

واعلم أن الحكمة نوعان: حكمة غاية، وحكمة وضع الشيء على ما هو عليه، ويمكن أن نقول: حكمة صورية وحكمة غائية، فالصورية: أن يكون الشيء على هذه الصورة، فكونه على هذه الصورة، هذه حكمة، كون الصلوات مثلاً خمساً وفي أوقات مختلفة، هذه حكمة، كونها تنقطع على الوتر، هذه حكمة، صلاة الليل وصلاة النهار، فصلاة النهار وترها المغرب، وصلاة الليل وترها النافلة المعروفة، هذه حكمة، كون هذه الأمور مشروعة لغاية، أيضاً حكمة، وهكذا أيضاً المخلوقات هي على وضعها

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، حديث رقم (٣٣٥) عن عائشة.

التي هي عليه حكمة، والغاية التي تصل إليها هذه المخلوقات لا شك أنها حكمة، فصار الحكيم مشتق من الحُكْم والإِحْكام الذي هو الحكمة، والحكم نوعان: كوني وشرعي، والحكمة نوعان: صورية وغائية.

الفائدة الثانية عشرة: حسن الختام في الآيات الكريمة، وأنها مطابقة تماماً للأحكام التي خُتِمت بها، فالعزة من معناها الغلبة، ولا شك أن إيجاب قطع الأيدي يدل على العزة والغلبة وكمال السلطة، الحكمة أيضاً تُنَاسِب القطع لأن فيها حكماً صارماً، وفيها أيضاً حكمة بالغة.

فلذلك كانت الجملة: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مطابقة تماماً لما ذكر في الآية الكريمة من قطع يد السارق، وبيان الحكمة من ذلك، ورأيت في كتاب السيوطي الإتقان أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ يقول: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والله غفور رحيم فاستنكر الأعرابي هذا وقال: أَعِد الآية، فأعادها مرة ثانية باللفظ الأول: «والله غفور رحيم» ثم قال: أعدها، فأعادها مرتين أو ثلاثاً، ثم أعادها على الصواب، فقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ فقال: الآن أصبت؛ لأنه عز وحكم فقطع، ولو غفر ورحم ما قطع.

انظر، كيف الفهم، وهو أعرابي لم يتعلم؟ لكن واضح أن الله سبحانه وتعالىٰ لو قال: «والله غفور رحيم» ما ناسب وجوب القطع، هذا يناسب التوبة، قال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ المائدة: ٣٩] أما القطع فإنه يناسب العزة والحكمة.

الفائدة الثالثة عشرة: الرد على كل ناعق يقول: إن قطع الأيدي وحشية، وأن ذلك يستلزم أن يكون نصف الشعب أشل، ليس له إلا يد واحدة، لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فيقال: بل هذه هي عين الحكمة وعين الصواب؛ لأنه لو ترك الناس لحصلت الفوضى وابتزاز الأموال، والسطو على الآمنين، فكان قطع اليد لا شك أنه هو الحكمة، وانظر إلى الشعوب التي تطبق هذه الحدود الشرعية كيف تقل فيها الجريمة، وعلى العكس الشعوب التي لا تطبقها.

وهذا كقول القائل: إن قتل القاتل يعني كثرة إزهاق النفوس، وهذا أيضاً مصادم تماماً لقول الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فالقصاص هو الحياة في الواقع، لنا فيه حياة؛ لأن من هَمَّ بالقتل ثم ذكر أنه سيقتل امتنع وكف عن القتل، ثم ليُعلم أن المقتول ظلماً، لا بد أن يقتل قاتله، لقول الله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، سلطاناً شرعياً بأن له القصاص، وسلطاناً قدرياً؛ بأن الله تعالى يمكن من العثور على هذا القاتل حتى يُقتل، وهذا شيء مشاهد دائماً، يقتل القاتل ويهرب، وإذا به يأتي بقدر الله عزّ وجل، وهذا داخل في قوله: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: قدرياً وشرعياً، وكأن الأمر حاصل ولا بد، ولهذا قال: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣]؛ كأنه قال: لا بد أن يقتل أي: ولي المقتول ظلماً، ولكن لا يسرف في القتل، وذلك لأن ولي المقتول ظلماً قد تأخذه الحمية والغضب، فيسرف في القتل، فنهاه الله عزّ وجل عن ذلك، وجعل الأمر قصاصاً.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾ [المائدة: ٣٩].

قوله: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ﴾ «مَنْ»: هذه شرطية، وهي عامة تعم السارق وغير السارق، كل إنسان يتوب من بعد ظلمه ويصلح فإن الله يتوب عليه، يدخل فيها السارق من باب أولى؛ لأنها في سياق الحكم على السارق، فإذا تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه.

والفائدة من ذكر هذه الآية بعد قوله: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] هي أن السارق قد تقطع يده، والحد هنا يكفر ما سبق من ذنب، لكنه في قرارة نفسه يريد أن يسرق إذا سنحت له الفرصة، فهل يتوب الله عليه في هذه الحال؟

الجواب: لا؛ لأنه لم يتبْ، فلا بد أن يتوب، فلا يقال: إنه قد ثبت عن النبي ﷺ أن من فعل شيئاً من هذه القاذورات وأصيب بها في الدنيا فإنه كفارة له[1]، يعني الحدود كفارة، كما يدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ [المائدة: ٣٨].

وقوله: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ﴾ «هذا» فيمن تاب من بعد إقامة الحد عليه بالقطع، فالقطع يُكفِّر ما مضى، لكن إذا كان في نية هذا السارق؛ أنه إذا تسنى له السرقة سرق، فهل يتوب الله عليه؟

الجواب: لا؛ لأنه لم يتب إلى الله، ومثله من قتل قصاصاً أيضاً، لو كان في قلبه أنه لم يتب من الفعلة التي فعلها، وأنه لو

---

(١) تقدم ص٣٢٧.

تسنى له أن يقتل أحداً لقتله، فإن القصاص لا يُكفِّر عنه؛ لأن هذا فيما بينه وبين الله، وهو لم يتب فيما بينه وبين الله.

إذاً لو قال قائل: هل الآية تعارض الحديث بأن الحدود كفارة؟

الجواب: لا، الحدود كفارة لما سبق ومضى، وأما ما يبقى في قلبه من إرادة المعصية، فإنه لم يتب قال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ أي: تاب من ظلم نفسه وظلم غيره؛ لأن المعصية إن تعدت إلى الغير ففيها ظلمان: ظلم النفس وظلم الغير، وإن كانت خاصة بالإنسان، ففيها ظلم واحد وهو ظلم النفس، وعجباً للإنسان المسكين أن يُقدم على المعصية، وهو يعلم أنه بذلك ظالم لنفسه، ولو أن أحداً أراد أن يظلمه لكان يدافع عن نفسه، ويمنعه من الظلم، فكيف لا يدافع عن نفسه من نفسه، ولكن الهوى يعمي ويصم.

المهم أن قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ يشمل ظلم نفسه، وظلم غيره.

وقوله: ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ أي: أصلح ما فسد بظلمه؛ لأن الظلم يفسد القلب، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**من ترك ثلاث جمع تهاوناً طبع الله على قلبه**»[1]، فالمعاصي تُفسِد، فإذا أصلح فإن الله يتوب عليه، والإصلاح في تحقيق التوبة والعمل الصالح.

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ﴾ يتوب عليه أي: يقبل توبته،

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب التشديد في ترك الجمعة، حديث رقم (١٠٥٢)، والنسائي، كتاب الجمعة، باب التشديد في التخلف عن الجمعة، حديث رقم (١٣٦٩) عن أبي الجعد الضمري.

واعلم أن لله تبارك وتعالى على عبده توبتين: التوبة الأولى: التوفيق للتوبة، والتوبة الثانية: قبولها من التائب، فمن الأول قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، تاب عليهم قبل أن يتوبوا بدليل قوله: ﴿لِيَتُوبُوا﴾ هذه التوبة توبة التوفيق، أن الله يوفق الإنسان إلى التوبة فيتوب إلى ربه عزّ وجل.

وأما قبول التوبة: فمثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]، ومثله هذه الآية: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾، أي: يقبل توبته.

وهل يصح في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ أن يكون بمعنى يوفقه للتوبة؟

الجواب: لا، لقوله: ﴿فَمَنْ تَابَ﴾ فهو الآن قد وفِّق: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ أي: من هذا الظلم الذي تاب منه.

وقوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: أصلح ما فسد بظلمه، وقد تقدم، وذلك بتدارك الواجب إن أمكن تداركه، وبالإقلاع عن المحرم فلا يستمر عليه، هذا هو الإصلاح ولا بد منه.

قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الجملة مؤكَّدة بـ(إنَّ)، من أجل طمأنينة العبد التائب بأن توبته لن تذهب سدى.

وقوله: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذان اسمان كريمان من أسماء الله، مقترنان كثيراً في القرآن؛ لأن بالأول زوال المكروه، وبالثاني حصول المحبوب، فالأول غفور؛ يعني للذنوب، والثاني رحيم، يعني أنه يوصل الخير إلى عباده بمقتضى رحمته سبحانه وتعالىٰ.

لو قال قائل: هل الغفور هنا اسم فاعل أو صفة مشبهة أو صيغة مبالغة؟

نقول: الظاهر والله أعلم أنها صيغة مبالغة، وليست اسم فاعل؛ اسم الفاعل مثل قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: ٣]، لكن هذه صيغة مبالغة، وجاءت بصيغة المبالغة؛ لكثرة غفران الله تعالى لعباده، ولكثرة من غُفِر لهم، فما أكثر ما يغفر الله لنا ذنوبنا بما شرع لنا من أسباب المغفرة، وما أكثر الذين غُفِرت ذنوبهم، فلهذا جاء هذا الاسم بصيغة المبالغة.

فما هي المغفرة؟ المغفرة: هي ستر الذنب والتجاوز عنه، هذا معناها، وإنما قلنا بهذا من أجل أن يطابق الوصف المعنوي الوصف الحسي؛ لأنهم يقولون: إنها مشتقة من المِغْفَر. والمِغْفَر هو ما يغطي به المقاتل رأسه يتقي به السهام، وإذا تأملت المغفر وجدت أنه حصل به شيئان: الستر والوقاية.

إذاً فالغفور معناه: الساتر لذنوب عباده الواقي لهم من عذابه، وما أكثر الذنوب، ولو أن الله تعالى أَطْلَعَ الناس على ذنوبنا لكان كما قال القحطاني رحمه الله في النونية:

والله لو علموا قبيح سريرتي لأبى السلام عليّ من يلقاني

يعني: لو أن الله كشف الذنوب لكان الإنسان يُهجَر، لكن من لطفه عزّ وجل أنه يسترها، وفي النهاية لا يعاقب عليها، كما جاء في الحديث الصحيح: «**أن الله تعالى يوم القيامة يخلو بعبده المؤمن وحده ويقرره بذنوبه، يقول: فعلت كذا وفعلت كذا وفعلت كذا، ويقر، لا يستطيع أن ينكر، فيقول الله له: قد سترتها**

عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[١] أقيك عذابها وعقوبتها مع سترها.

وقوله: ﴿رَّحِيمٌ﴾ أي: ذو رحمة بالغة، قال الله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ﴾ ماذا؟ ﴿ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧] والرحمة صفة حقيقية ثابتة لله عزّ وجل بالقرآن والسنة وإجماع السلف، وقد أنكرها أهل التعطيل الذين حكموا على الله بعقولهم، وتركوا الكتاب والسنة؛ لأن من أصول عقيدتهم أن تلقي الصفات من العقول، فما اقتضى العقل نفيه، وجب نفيه، وما اقتضى إثباته؛ وجب إثباته، وما لم يقتضِ نفيه ولا إثباته توقفوا فيه، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: إنهم انقسموا فيه قسمين، بعضهم توقف فيه وأكثرهم نفاه، قال: لأنه لا بد من دليل إيجابي على ثبوته، وأنت ترى أن هذا الأصل الخبيث يستلزم تكذيب ما جاء في القرآن، وإثبات ما لم يأتِ في القرآن؛ لأنهم قالوا: إذا أثبت العقل شيئاً أثبتناه، يعني سواء وجد في الكتاب والسنة أم لا، وإذا نفى شيئاً نفيناه، يتصرفون هذا التصرف في معبودهم وإلههم، ولا شك أن الإنسان إذا تأمل هذه القاعدة الخبيثة وجدها خطراً عظيماً، ولولا أنهم يعذرون بأنهم قالوا ذلك تأويلاً لكان أمرهم خطيراً جداً.

نحن نؤمن بأن لله تعالى رحمة، وهم لا ينكرون الرحمة إنكار تكذيب لكنهم ينكرونها إنكار تأويل، ولذلك لم يكفروا، ولو أنهم أنكروها إنكار تكذيب لكفروا؛ لأن هذا تكذيب للخبر،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، حديث رقم (٥٧٢٢)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، حديث رقم (٢٧٦٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

لكنهم ينكرونها إنكار تأويل، ويقولون: إن الرحمة هي الثواب أو إرادة الثواب، والمعلوم أن الثواب شيء منفصل عن الله عزّ وجل مخلوق بائن من الله، وإرادة الثواب صفة في ذات الله، لكن هم يُقرون بالإرادة أي: يثبتون الإرادة التي هي إحدى الصفات السبع، وعجباً أنهم يثبتون الإرادة بطريق خفي، وينكرون الرحمة مع أن طريقها واضح، في الإرادة يقولون: نحن نستدل بأن الله مريد بالتخصيص، يعني كونه يخصص مثلاً الإنسان على هذا الوجه، يعني مستطيل القامة، له عقل وإرادة، وما أشبه ذلك، وخصص البعير بخصائصه، والشمس بخصائصها، والقمر بخصائصه، هذا يدل على الإرادة، يعني لولا الإرادة لكانت المخلوقات كلها سواء. فهم يقولون: التخصيص يدل على الإرادة، ودلالة التخصيص على الإرادة دلالة خفية لا يعرفها كل إنسان، حتى طلاب العلم لا يعرفونها إلا إذا قرؤوها، لكن دلالة النعم على الرحمة واضحة، كلٌّ يعرف أن من رحمة الله أن جعل الليل والنهار، وجعل الأمطار والأنهار وغير ذلك، يعرفها الخاص والعام.

والعجيب أنهم يقولون: الرحمة لا نُثبتها لانتفاء دلالة العقل عليها، والإرادة نثبتها لدلالة العقل عليها، فيقال: سبحان الله، أيما أبين دلالة العقل على الرحمة أو على الإرادة؟! دلالة العقل على الرحمة بلا شك.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: حث الإنسان على التوبة حتى لو ظَلَمَ، لقول الله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ

عَلَيْهِ﴾، والله تعالى لم يقل هذا لمجرد الخبر، بل لأجل الحث على التوبة.

الفائدة الثانية: التائب من الظلم مهما كان، حتى التائب من الشرك إذا تاب وأصلح فإن الله يتوب عليه، وإنما قلنا ذلك؛ لأن الظلم يشمل الشرك، كما قال الله تعالى عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

الفائدة الثالثة: أن فعل المعاصي وترك الواجبات ظلم، لقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ وذلك أن النفس عند الإنسان أمانة يجب أن يسعى لها بما هو الأصلح والأنفع، فإذا خالف فهو ظالم خائن للأمانة.

الفائدة الرابعة: أنه لا بد في التوبة من الإصلاح؛ لقوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ ولكن هل الإصلاح شرط للتوبة في جميع الأعمال؟ أو شرط للتوبة في ذلك العمل الذي وقع فيه الظلم؟

الجواب: الثاني، ولهذا نقول: الصحيح أنه يجوز أن يتوب من ذنب مع الإصرار على غيره، لكن هو لا يستحق أن يسمى تائباً على وجه الإطلاق، بل يقيد أنه تائب من كذا.

إذاً قوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: ما أفسده بظلمه وإن لم يكن أصلح جميع أحواله.

الفائدة الخامسة: تأكيد توبة الله على من تاب وأصلح، لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ وقد تقدمت شروط التوبة قريباً وأنها خمسة.

الفائدة السادسة: بلاغة القرآن الكريم حيث يختم الأحكام بما يناسبها من أسماء الله، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الفائدة السابعة: إثبات هذين الاسمين الكريمين لله عزّ وجل وهما الغفور والرحيم.

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [المائدة: ٤٠].

قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الخطاب لكل من يصح توجه الخطاب إليه، فكل من يصح توجه الخطاب إليه فإنه داخل في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ لأن خطاب المفرد في القرآن الكريم يشمل كل من يتأتى خطابه، أو كل من يصح توجيه الخطاب إليه إلا إذا دل الدليل على أنه خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام، فيكون خاصاً به، فقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح: ١]، هذا خاص بالرسول ﷺ، لكن إذا لم يدل الدليل على أنه خاص بالرسول ﷺ فإن القرآن يخاطب كل الناس، فإنه يُحمل على أنه موجَّه إلى كل من يصح توجه الخطاب إليه، وقد ذكرنا فيما سبق الخلاف في هذا، هل هو موجه للرسول ﷺ أولاً، ثم لغيره ثانياً، أو لغيره أولاً، ثم لغيره تأسياً، أو لكل من يصح منه الخطاب؟ هذا هو الأولى.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ أيها المخاطب أن الله له ملك السمٰوات والأرض، وأتى بهذه الآية في مكانها اللائق؛ لأن ما سبق من الآيات كان في إقامة الحدود، فلعل النفس تقول: لماذا كل هذه الشدة، لماذا هذه الغلظة، فقال الله عزّ وجل: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والاستفهام هنا للتقرير، فإذا كان له

ملك السمٰوات والأرض، فإنه يحكم بما شاء، ويفعل ما شاء، ولهذا قال: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ في هذه الآية قَدَّم التعذيب على المغفرة، وفي آية أخرى قدم المغفرة على التعذيب، والمناسبة واضحة؛ لأن الكلام هنا عن الحدود والعقوبات، فناسب أن يُقدم التعذيب على المغفرة.

قوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ لا تظن أن الله إذا قال: يفعل ما يشاء، ويحكم ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا تظن أن الأمر على غير حكمة، بل يعذب من يشاء إذا اقتضت الحكمة تعذيبه، ويغفر لمن يشاء إذا اقتضت الحكمة أن يغفر الله له، ولهذا قال الله عزّ وجل: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠].

ثم ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ومن قدرته عزّ وجل أنْ أمر بعقوبة الجناة على الوجه المذكور، وقد تقدم أن القدرة هي فعل الشيء بدون عجز، فالله تبارك وتعالى يفعل ما يشاء بدون عجز، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، فهو سبحانه وتعالىٰ لا يعجزه شيء، القوة ضدها الضعف، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤]، لكن القدرة ضدها العجز، والفرق بينهما أن القدرة لا تكون إلا من ذي إرادة، والقوة تكون من ذي الإرادة وغيره، فالإنسان يقال له قادر، ويقال له قوي، والجدار يقال له قوي، ولا يقال له قادر؛ لأن القدرة لا تكون إلا من ذي إرادة.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تقرير عموم ملك الله عزّ وجل، لقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الفائدة الثانية: أن الملك العام في السمٰوات والأرض خاص بالله، دليله تقديم الخبر في قوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال علماء البلاغة: وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر والاختصاص.

الفائدة الثالثة: أن ملك السمٰوات والأرض لله لا يشاركه فيه أحد، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، وقال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢].

فإذا قال قائل: كيف نجمع بين هذه الآية الكريمة، واختصاص ملك السمٰوات والأرض بالله، وبين قول الله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١]، وقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣]، وما أشبه ذلك من إثبات الملك للمخلوق؟

الجواب: نقول: ملك الله عزّ وجل عام، يتصرف كما يشاء في كل شيء، أما ملك الإنسان فخاص ومقيّد، أيضاً لا يتصرف الإنسان في ملكه كما يشاء، فالإنسان ممنوع من الربا، وممنوع من الغش، وممنوع من المعاملة المجهولة، بل ممنوع من أن يتلف ماله، فالملك إذاً قاصر تصرفاً وعيناً، حتى الأعيان لا يملك الإنسان منها كل شيء، يملك ملكه الخاص، لكن ملك الله عزّ وجل عام في كل شيء، في الأعيان والتصرف فيها، ولذلك ليس لنا الحق أن نتصرف فيما ملكنا الله إلا بإذن الله.

الفائدة الرابعة: إثبات العقوبة والمغفرة لله عزّ وجل وذلك لكمال سلطانه، لكن نجزم أنه لن يعذب أحد إلا بذنب يستحق العذاب عليه.

الفائدة الخامسة: إثبات المشيئة لله، لقوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾، ولا شك أن الله عزّ وجل له المشيئة التامة، يقول المسلمون كلهم: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

فإن قال قائل: مشيئة الله في أفعاله واضحة، يعني كونه ينزل المطر وينبت النبات ويخلق السمٰوات والأرض، ويحيي ويميت هذا واضح، لكن هل له مشيئة في أفعال العباد؟

الجواب: نعم له مشيئة في أفعال العباد، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣]، كررها مرتين، ليبين أن فعلهم بمشيئة الله عزّ وجل.

الفائدة السادسة: إثبات قدرة الله عزّ وجل على كل شيء؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو سبحانه وتعالىٰ لا يعجزه شيء في السمٰوات ولا في الأرض، وهل يُستثنى من هذا العموم شيء؟ **الجواب**: لا يُستثنى شيء، بل هو قادر على كل شيء ولا استثناء فيه.

قبل أن نبدأ في تفسير هذه الآية فإننا نحب أن نلقي شيئاً من الأضواء على ما يتعلق بتفسير كتاب الله عزّ وجل، فنقول:

أولاً: معرفة تفسير كتاب الله فرض، إما فرض كفاية وإما فرض عين، وعلى هذا فمن قام بمعرفة تفسير القرآن الكريم، فإنه قد قام بفريضة من فرائض الله عزّ وجل.

ووجه كون التفسير فرضاً أن الله تعالى قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩] وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤] ومن المعلوم أن الله تعالى لم ينزل علينا القرآن لمجرد أن نتعبد بلفظه، بل لنعرف معناه ونطبقه عملاً وعلماً وإلا لكانت فائدته قليلة، لو كان المقصود مجرد أن نتعبد لله بتلاوته، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل[1].

فإذا قال قائل: إلى أي شيء نرجع في التفسير فكتب التفسير كثيرة، وتناولها للقرآن على وجوه متنوعة، فإلى أيها نرجع؟

نقول: أهم شيء نلاحظه في هذا، ما يتعلق بالعقيدة، وعلى هذا فنحذر من كل من ينحى منحى أهل التعطيل في صفات الله عزّ وجل وأسمائه، فإذا عُرِف أن صاحب هذا التفسير من هؤلاء القوم فلنحذره حتى وإن كان فيه فوائد من الناحية اللغوية أو الفقهية، لكن يجب أن نحذره في مقام العقيدة، لئلا نزلّ.

ولنضرب لهذا مثلاً، الكشاف للزمخشري: لا شك أنه تفسير جيد في تحرير المعنى، وفيما يرمي إلى البلاغة، وأن كل من جاء بعده ممن ينهجون هذا المنهج، كلهم عيال عليه، حتى إنك لترى العبارة: عبارة الزمخشري بنصها وفصها في هذه التفاسير، لكنه في مسألة العقيدة سيء يجب الحذر منه، حتى قال

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٤١٠) (٢٣٥٢٩)، وابن أبي شيبة (٢٩٩٢٩) عن أبي عبد الرحمٰن السلمي رضي الله عنه.

بعضهم: إنه لا يطلع على ما في كتابه هذا من الاعتزال إلا بالمناقيش ـ يعني أنه خفي ـ كما أن الشوكة لا تخرج إلا بمنقاش، كذلك لا يمكن أن يخرج الإنسان اعتزاليات صاحب الكشاف إلا بالمناقيش، وضرب لهذا مثلاً: قال: إنه قال: ـ عفا الله عنا وعنه ـ في قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] قال: أي فوز أعظم من أن يزحزح الإنسان عن النار ويدخل الجنة، هذا الكلام لا أحد يشعر بأن فيه انحرافاً، لكن إذا علمنا أن الرجل ذكي، وأنه يغلف المعاني بما يخفى على كثير من الناس، فهو يريد بهذا أن ينكر الرؤية أعني رؤية الرب عزّ وجل؛ لأن رؤية الرب عزّ وجل أعظم فوزاً من أن يدخل الإنسان الجنة ويزحزح عن النار، لكن الرجل ذكي، فمثل هذه العبارة يقرؤها الإنسان على أنها عبارة سليمة ليس فيها شيء، ولكن ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قِبله العذاب. الحاصل أن الإنسان لو رجع إلى تفسير الزمخشري وأعجبه بلاغته وحسن أسلوبه لكنه صغير ليس عنده علم، نقول: لا بد أن ينبه على هذا، ويقال: خذ ما يتعلق بالبلاغة، وما يتعلق بالنحو، وما يتعلق بالمعنى، لكن احذر مسألة العقيدة.

إذاً: على أي تفسير نعتمد؟

نقول: **أولاً**: إن التفاسير الأثرية، أي: التي تفسر القرآن بالآثار عن الصحابة، وعن كبار التابعين، هي أولى ما يلتفت إليه وعلى رأسها تفسير ابن جرير، لكن في تفسير ابن جرير آفة، وهو أنه يطلق التفسير عن الصحابة والتابعين بأسانيد بعضها صحيح وبعضها حسن وبعضها ضعيف، وكأنه رحمه الله يريد أن يجمع ما

روي؛ فإما أن المنية أدركته قبل تمحيصه، وإما أنه يريد أن يكل هذا إلى القارئ، ولهذا إذا مر عليك شيء مشكل من تفسير القرآن بالأثر في ابن جرير أو غيره، فارجع إلى السند ربما تجد فيه آفة توجب رد ما روي عن ابن عباس أو عن مجاهد أو غيرهما.

ومن خير ما نرى من التفاسير، تفسير ابن كثير رحمه الله، فهو تفسير أثري نظري، لكنه أحياناً يتغاضى عن الكلام عن بعض الإسرائيليات أو بعض القصص، وهذه لا شك أنها آفة لكن كما تقدم: متى أنكر قلبك شيئاً من هذا فارجع إلى الأسانيد أو إلى أصل هذا المتن المروي، فقد يكون من الأشياء التي رُخِّص فيها عن بني إسرائيل، لقوله ﷺ: «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»[1]. لكنه تفسير جيد.

ثانياً: ومن التفاسير التي تعنى بتفسير القرآن بالقرآن تفسير الشيخ الشنقيطي رحمه الله حسب الاسم والعنوان؛ لأنه معنون بأضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن.

ثالثاً: أما تفاسير المتأخرين بعضها تجد الكلام الطويل العريض على الآية، ثم إذا أردت أن تحصل منه شيئاً لا تجد شيئاً، فهو قش هش فائدته قليلة، اللهم إلا النادر، وعلى كل حال طالب العلم يستطيع أن يميز بين الغث والسمين.

لكن هنا مسألة أحب أن أنبه عليها طالب العلم وهي: أني أُريد منك أن تحاول فهم القرآن بنفسك، اقرأ الآية، تدبر معناها، ثم سيكون لديك شيء من المعنى، ثم بعد ذلك ارجع إلى أقوال

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم (٣٢٧٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

المفسرين؛ لأن تعويد الإنسان نفسه على أخذ المعاني أو بعبارة ثانية على تفسير القرآن بنفسه يكسبه فهماً كثيراً؛ لأنه امتثال لأمر الله تعالى في قوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، لكن لا تجزم إذا كان الأمر ليس بواضح إلا بعد مراجعة كتب التفاسير.

رابعاً: ومن المفسرين من ينحى منحى آخر، فيذكر المسائل الفقهية مثل القرطبي رحمه الله، فإنه ينحى هذا المنحى، تجد في تفسيره مسائل كثيرة من مسائل الفقه، وهذا ولا شك أنه طيب ويفيد طالب العلم.

والمسألة الثانية في التفسير قال العلماء: يرجع أولاً إلى تفسير القرآن بالقرآن، وهذا كثير، ثم إلى تفسيره بالسنة، ثم إلى تفسيره بأقوال فقهاء الصحابة، ولا سيما من لهم عناية بتفسير القرآن، كابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، ثم إلى كبار التابعين الذين تلقوا التفسير عن الصحابة كمجاهد.

فمثلاً إذا قال لك قائل: ما هي القوة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]؟ ننظر في القرآن لا نجد تفسيراً لها، لكن نجد تفسيرها في السنة، قال النبي ﷺ: **«ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»**[(١)].

إذاً نفسر القوة بأنها الرمي، أي: تعلم الرمي، والرمي في كل زمان ومكان بحسبه، وقد كان الناس في السابق يرمون بالنبال وما أشبهها، ثم صاروا يرمون بالبارود، أي: بالبنادق والرصاص، ثم صاروا الآن يرمون بالصواريخ قريبة المدى وبعيدة

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، حديث رقم (١٩١٧) عن عقبة بن عامر.

المدى، والرمي الذي ذكره الرسول عليه الصلاة والسلام، يشمل أي رمي كان، حسب أساليب الحرب التي في وقته.

كذلك لو قال لك قائل: ما هو يوم الدين؟ ننظر، فالقرآن فسره، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨] إذاً يوم الدين هو اليوم الذي لا ينفع فيه إلا العمل ولا يملك فيه أحد لأحد منفعة، وأمثال هذا كثير.

ولا يعني هذا أننا إذا رأينا الآية تحتمل معان أخرى غير ما ذُكِر أن نقتصر على ما ذُكِر؛ لأن كلام الله تعالى أوسع من أن يحيط به البشر، قد يفهمون معنى ونحن نفهم معنى آخر للآية، لكن إن كان يُضاد ما فهمه الصحابة والتابعون، فإننا لا نقبله، أما إذا كان لا يضاده فلا مانع من أن نقول: الآية واسعة، تشمل هذا وهذا؛ لأن كلام الله واسع.

فالحاصل: أننا عند الاختلاف نرجع إلى تفسير القرآن بالقرآن، ثم تفسيره بالسنة، ثم بأقوال فقهاء الصحابة، ثم بأقوال كبار التابعين، لكن إذا فهم الإنسان المعنى فلا حاجة للرجوع للتفسير.

فإذا قال قائل: كيف أتوضأ؟ قلنا: هذا واضح في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦] ولا حاجة للتفسير.

تنبيه:

الاقتصار في تفسير القرآن على اللغة دون النظر إلى القرآن والسنة وأقوال الصحابة لا شك أن هذا المنهج غلط، فالرجوع

إلى اللغة مطلقاً غلط، فلو رجعنا إلى اللغة فقط في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] لكان المعنى: وأقيموا الدعاء، وهذا غلط.

القاعدة الثالثة: قد تكون الآية محتمِلة لوجهين فأكثر، فماذا نصنع إذا احتملت الوجهين فأكثر؟ نقول: أي هذه المعاني أظهر؟ فإذا كان أحد هذه المعاني أظهر وجب حملها على هذا الأظهر، لا سيما إذا كان الأخفى يعادل الأظهر، فإننا نأخذ بالظاهر.

فمثلاً قول الله تبارك وتعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، تحتمل الآية معنيين.

أحدهما أظهر من الثاني، المعنى الأول: أن المراد باليدين هما اليدان الحقيقيتان اللتان يأخذ الله بهما ويقبض.

المعنى الثاني: القوة، لكن هذا المعنى الثاني بالنسبة للأول ضعيف جداً، فنقول: لا يمكن أن نحمله على المعنى الثاني؛ لأن المعنى الأول أظهر، والله عزّ وجل لا يمكن أن يخاطب عباده بما هو أظهر، ويريد الأخفى، هذا مستحيل؛ لأن الله قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، ويقول: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦]، فلا يمكن أن نحمل كلام الله عزّ وجل على المعنى الأخفى مع وجود الأظهر، بل يتعين أن نأخذ بالأظهر.

أما إذا كان المعنيان محتملين، يعني أن المعنى صالح لهذا وهذا فحينئذٍ إن كان المعنيان لا يتعارضان وجب حمل الآية على المعنيين جميعاً، ولا مانع، وإن كانا يتنافيان وجب أن نطلب المرجِّح من الخارج؛ لأن اللفظ الذي بين أيدينا ليس فيه ترجيح، فنحتاج إلى مرجِّح من الخارج.

مثال الأول: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ [التكوير: ١٧، ١٨]. الليل إذا عسعس: قال بعضهم: معناها أدبر، وقال بعضهم: معناها أقبل، وكلاهما صالح في السياق وفي اللغة العربية، فماذا نقول في مثل هذا؟ نقول: تُحمل الآية على المعنيين جميعاً ولا مانع؛ لأن كلام الله تعالى واسع، ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾ [الطور: ٦]، هل معنى: «البحر المسجور» الذي سيسجَّر ويكون ناراً يوم القيامة أو المسجور المملوء، أو المسجور الممنوع عن الفيضان على الأرض فيه أقوال، هل كل قول ينافي الآخر؟

الجواب: لا، هل المسجور ظاهرة في أحدها دون الآخر؟

الجواب: لا، بل اللفظ صالح للجميع، حينئذٍ نقول: المسجور، الذي سيسجر كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦﴾ [التكوير: ٦] والمسجور المملوء كما تقول العرب: دلو مسجورة، أي: مملوؤة، والمسجور الممنوع كما يقال: سجرت الدابة بالقيد، أي: منعتها من الشرود، فالآية صالحة للجميع، أي: تحمل على الجميع، ولا مانع لأن كلام الله عزّ وجل كما تقدم واسع.

مثال آخر: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، يرى بعض العلماء أن المراد بالقروء الأطهار، ويرى آخرون أن المراد بالقروء الحيض، هذان المعنيان لا يمكن أن تحمل الآية عليهما جميعاً؛ لأنهما متنافيان، إذاً لا بد من مرجِّح خارجي، المرجح الخارجي إما من السنة أو من كلام العرب أو من غير ذلك، المهم لا بد من مرجح، إذا

رجعنا إلى المرجح الخارجي، وجدنا أن النبي ﷺ أطلق الأقراء على الحيض، فقال للمستحاضة: «**اجلسي قدر ما تحبسك أقراؤك**»[1]، أو كلمة نحوها.

فهنا نقول: المراد بالقروء الحيض، يتعين ذلك لدلالة السنة على هذا، وهذه قاعدة مفيدة لطالب العلم، أنه متى احتملت الآية معنيين فأكثر ولا مرجح لأحدهما ولا منافاة بينهما، فإنها تُحمل عليهما جميعاً.

القاعدة الرابعة في التفسير: هل يجوز للإنسان أن يفسر القرآن برأيه أو لا يجوز؟

الجواب: لا يجوز، ومعنى تفسيره بالرأي أن تحمله على ما تعتقد، فتجعل القرآن تابعاً لرأيك وعقيدتك، وهذا يقع كثيراً من أهل الأهواء؛ يحملون القرآن على ما يعتقدون، فيكونون قد قالوا في القرآن برأيهم، وهذه آفة قَلَّ من يسلم منها، حتى الفقهاء رحمهم الله، تجدهم إذا مر بهم النص وهو على خلاف ما يرونه تجدهم يحاولون أن يصرفوه إلى ما يرون، وهذا لا يجوز، هذا يعني أن الإنسان جعل نفسه مشرعاً مع الله، فالله يريد كذا وهو يحمله على غيره، وهذا من أعظم المحرمات، أعني: تحريف

---

(١) جاء بلفظ: «**تدع الصلاة أيام أقرائها ثم تغتسل وتصلي**» عند: أبي داود، كتاب الطهارة، باب في المرأة المستحاض ومن قال: تدع الصلاة في عدة الأيام التي كانت تحيض، حديث رقم (٢٩٧)، والترمذي، كتاب الطهارة، باب ما جاء أن المستحاضة تتوضأ لكل صلاة، حديث رقم (١٢٦)، وابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في المستحاضة التي قد عدت أيام، حديث رقم (٦٢٥) عن عبيد بن عازب جد عدي بن ثابت.

الكلم عن مواضعه، نعم لو فُرِض أنك حملته على غير ظاهره لدليل من القرآن والسنة فلا بأس، لكن لمجرد أنك تعتقد خلاف ما يدل عليه الظاهر فهذا لا يجوز أبداً، ولا يحل، وهو من تحريف الكلم عن مواضعه، ومن اتخاذ الإنسان نفسه مشرعاً مع الله، وهذا نجده كثيراً عند الفقهاء رحمهم الله في بعض المسائل، تجد أن الإنسان يحرف الدليل تحريفاً ظاهراً من أجل أنه يعتقد خلاف ما يدل عليه، ولهذا أمثلة.

مثلاً يرى الفقهاء رحمهم الله أن الرجل لا يجوز أن يتطهر بفضل طهور المرأة، ويجوز للمرأة أن تتطهر بفضل طهور الرجل، ثم يستدلون بقول النبي ﷺ: «**لا يغتسل الرجل بفضل المرأة، ولا المرأة بفضل الرجل وليغترفا جميعاً**»[1]، ماذا نقول الآن؟ نقول هذا تناقض، كيف يستدل بهذا الحديث على منع تطهر الرجل بفضل طهور المرأة، وجواز تطهر المرأة بفضل طهور الرجل مع أن الحديث واحد؟!! والذي يحمل على هذا هو اعتقادهم أن هذا هو الصواب.

وكذلك حديث عائشة رضي الله عنها المشهور: «**من مات وعليه صيام صام عنه وليه**»[2]، هذا الحديث حمله بعض الفقهاء على أن المراد به النذر، وقال: إن المرء إذا مات وعليه صيام

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب النهي عن ذلك، حديث رقم (٨١)، والنسائي، كتاب الطهارة، باب ذكر النهي عن الاغتسال بفضل الجنب، حديث رقم (٢٣٨) عن رجل صحب النبي ﷺ.

(٢) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب من مات وعليه صوم، حديث رقم (١٨٥١)، ومسلم، كتاب الصيام، باب قضاء الصيام عن الميت، حديث رقم (١١٤٧) عن عائشة.

فرض رمضان أو كفارة فإنه لا يصام عنه، والذي حملهم على صرف الحديث من عمومه، اعتقادهم أن الفرائض يكلف بها الإنسان بنفسه، ولا أحد يصوم عن أحد، ولا يصلي أحد عن أحد.

فانظر كيف حملوا الحديث على مسائل نادرة الوقوع، وصرفوه عن مسائل كثيرة الوقوع، أيهما أكثر أن يموت الإنسان عن صيام رمضان أو عن صيام نذر؟ الأول بلا شك، وهذا خطأ في الاستدلال، وقد تقدم في اقتضاء الصراط المستقيم أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله نبه على هذا، وأنه لا يجوز أن تحمل النصوص على المسائل النادرة، وتترك المسائل الكثيرة الوقوع.

ومما يتعلق بالقرآن وتفسيره مراعاة المعاني عند قراءة القرآن، فإن بعض الناس يقف على رأس آية موقفاً لا يتلاءم مع المعنى، وهذه مسألة تحتاج إلى فهم الإنسان، لا إلى التقيد بالرموز، أعني: علامات الوقف الموجودة في المصحف؛ لأن بعض هذه الرموز الوقف عليها خطأ واضح، وأضرب لهذا مثلاً:

قال الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنبياء: ٢١]. بعض الناس يصل، فيقول: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾، وهذا يفسد به المعنى؛ لأن جملة ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ مستقلة عن التي قبلها، ومعناها: أم لهم آلهة من الأرض أهم ينشرون، يعني أهذه الآلهة تُنشِر وتحيي الأموات؟ فتكون الجملة هنا مستأنَفَة، وهي استفهامية أيضاً حُذِف منها حرف الاستفهام لإبطال دعوى هؤلاء لآلهتهم التي يعبدونها.

كذلك أيضاً بعض الناس يقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ

ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فيقف على قوله: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهذا لا يجوز؛ لأنه إذا قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ثم استأنف فسد المعنى تماماً، أما قول الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون: ٤، ٥] فلا بأس أن تقف على قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ [الماعون: ٤] لأنها رأس آية والله تعالى أعلم بكتابه، فإذا كانت رأس آية فقف ولا مانع وإن تعلق ما بعدها بما قبلها، ثم قد يكون في الوقف فائدة.

فمثلاً: إذا قرأت ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ [الماعون: ٤] ثم وقفت، فالذي يسمع القراءة ينتبه تجده متشوقاً لما يأتي بعدها، فإذا قرأت ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ برد قلبه وانشرح صدره.

تنبيه: أرى كثيراً من إخواننا القراء الآن إذا انقطع بهم النَّفَس أعادوا ما قبل الأخير بكلمة أو كلمتين مع أن ما يعيدونه له تعلق بما قبله أي: بما لم يعيدوا، وهذا يقتضي إما التسلسل بأن يبدأ الإنسان من أول الآية ثم ينقطع نفسه في هذا المكان، والذي نرى أن انقطاع النَّفَس إذا كان لعذر يبدأ من حيث انقطع، اللهم إلا إذا انقطع في كلمة بين حروفها فهنا لا بأس أن يعيد الكلمة لأن بعض الناس يقرأ أربع آيات أو خمس آيات فتصير الخمسُ عَشْرَ آيات لأنه يكرر وهذا ليس بصحيح، ولا إخال أن الصحابة يفعلون هذا، ولذلك لما التزم بعض القراء هذا رأينا من يقرأ بالوصلِ في قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ﴾ [المائدة: ٤١] وهذا غلط لأن الصلة تخل

بالمعنى، لكن الصواب أن يقف على قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾ [المائدة: ٤١] ثم يقرأ ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة: ٤١].

كذلك أيضاً من جهة التحزيب للقرآن، شيخ الإسلام رحمه الله انتقد التحزيب الموجود في بعض الأحيان، تجد أن الحزب يقف على آية ما بعدها متعلق بها تعلق الروح بالجسد، لكن مكتوب مثلاً حزب، ثلاثة أرباع حزب، ثمن، وما أشبه ذلك، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: ما هكذا حَزَّبَهُ الصحابة، الصحابة يُحزِّبُونه ولكنهم يراعون المعنى، فإذا كان باقٍ على تمام المعنى سطر أو سطران أخَّروا التحزيب، وهذا صحيح، في بعض الأحزاب تتعجب كيف يكون هذا آخر الحزب وما بعده متعلق به تعلقاً واضحاً؟

هذا ما يحضرني الآن من الكلام على شيء من قواعد التفسير، وقد ألفنا كتاباً صغيراً في قواعد التفسير يدرس في المعاهد العلمية، فمن شاء فليرجع إليه[1].

وهنا **مسألة**: وهي أني أريد أن أنبه طالب العلم أنه يجب عليه أن يعتني بالتفسير، فكثير من طلاب العلم يعتني بالعقيدة وهذا طيب، وكثير منهم يعتني بالفقه وهذا طيب، وكثير منهم يعتني بالحديث وهذا طيب أيضاً، ولكن فيما أرى والعلم عند الله، قليل من يعتني بالتفسير، وهذا من العجائب، فالقرآن الكريم مملوء من كل خير، أحياناً تحاول أن تطلع على كلام الفقهاء في حكم مسألة من المسائل وتحاول فلا تجدها، وإذا هي موجودة في القرآن، والله عزّ وجل يقول: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ

(١) صدر بعنوان «أصول في التفسير».

شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، ولهذا؛ القرآن فيه كنوز عظيمة، حتى إن الإنسان يقف أحياناً يتأمل ما وجه ارتباط هذا بهذا، أو ما وجه كون هذه الكلمة مرفوعة أو منصوبة أو ما شابه ذلك، فعليك بالتفسير، لكن لو قرأ طالب العلم في التفسير دون أن يسبق له شيء من علوم الآلة كعلوم اللغة بفروعها قد لا يدرك شيئاً.

لو قال قائل: بعض المفسرين المعاصرين يحاول أن يربط بين آيات القرآن وبين الاكتشافات العصرية، فما حكم هذا؟

الجواب: نعم بعض المعاصرين يحاول أن يربط الاكتشافات العصرية بالقرآن، لكن بعضهم يتجاوز ويفرط في هذا، ويفسِّر القرآن بما يطابق الحاضر، وهو بعيد عنه، لكن إذا كان المعنى قريب فلا بأس، وقد رأيت بعض الناس لما قيل: إنهم وصلوا إلى القمر، صار يدندن على تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمٰن: ٣٣]، وقال: إن هؤلاء نفذوا إلى أقطار السمٰوات، وأن المراد بالسلطان هو العلم، وهذا حرام، فلا يجوز تفسير الآية بهذا المعنى، حرام لا إشكال فيه؛ لأن الآية ظاهرة جداً في أن هذا من باب التحدي، وأنهم لن يستطيعوا النفوذ والله يقول: ﴿مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، هل أحد نفذ من أقطار السمٰوات؟ يعني لو قلنا: نفذوا من أقطار الأرض وتعدوا الجاذبية، لم ينفذوا من أقطار السمٰوات، والآية واضحة بأنه يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٦، ٣٥]، ثم مَنْ قال: إن السلطان هو العلم، في هذه الآية؟ صحيح أن السلطان يأتي بمعنى العلم، مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ﴾ [يونس: ٦٨] لكن في هذه الآية المراد بالسلطان القدرة؛ لأنه قال: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ ولا سلطان لكم، فالسلطان يأتي بمعان متعددة، في كل موضع بحسبه.

فهؤلاء الذين يفسرون القرآن بما حدث من اكتشافات، بعضهم يفرط في هذا فيتجاوز الحد، ولم يعلم أنه ربما يأتي يوم من الأيام تكون النظرية التي حمل عليها القرآن نظرية خاطئة وحينئذٍ يُخَطَّئ مدلول القرآن.

لو قال قائل: ما حكم كتابة بعض الآيات على الأسواق التجارية والمدارس والمنازل وغير ذلك؟

الجواب: بعض الناس يستعمل الآيات أو الاستدلال بالآيات في معانٍ غير مقصودة، مثلاً، كثيراً ما نرى على المنازل أو على الأسواق التجارية أو حتى على الإدارات، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] هذا لا يجوز؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يرى هذا العمل، الله عزّ وجل يراه، والمؤمنون الموجودون يرونه، لكن

الرسول ﷺ لا يراه، فكيف نكذب ونقول فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، كذلك أيضاً ربما تطبق الآية على غير المراد، ولأن تحويل الآية إلى المعنى الذي اختاره هذا الرجل حرام إذا لم تدل عليه.

لو قال قائل: بعض المفسرين يتكلف في إيجاد المناسبة بين الآيات وبين السور فما رأيكم في هذا؟

الجواب: المناسبة بين الآيات حقيقة أنها من علم التفسير، وينبغي للإنسان إذا أمكن أن يعرف المناسبة بين الآية والآيات التي قبلها، لكن المبالغة في هذا والتكلف لا داعي له؛ لأن حسبنا أن نقول: الله أعلم بمراده، وإذا قال الإنسان الله أعلم فيما لا يعلم فهذا خير، ولهذا بعض الآيات لا يمكن أن تعرف المناسبة بينها، مثل قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] في سياق المعتدات، هذه لا تستطيع معرفة المناسبة، وهذا من الحكمة أن يقطع الله تبارك وتعالى أطماع الخلق في أن يحيطوا بكلامه علماً.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة: ٤١].

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ المراد بالرسول هنا محمد ﷺ، وفي قوله: ﴿لَا يَحۡزُنكَ﴾ قراءتان «يُحزِن»، و«يَحزُن»، وكلاهما سبعيتان صحيحتان أي: لا يجعلك تحزن قول هؤلاء الذين يسارعون في الكفر.

وقوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ أي: يتسابقون فيه، والكفر في اللغة: الستر، ومنه سمي الكافور أو الكُفُرَّى الذي هو وعاء طلع النخل؛ لأنه يستر الطلع الذي في جوفه، والمراد بالكفر هنا: الكفر بالله عزّ وجل.

والكفر بالله يدور على شيئين: إما الجحود وإما الاستكبار؛ إما الجحود والإنكار ـ يعني: التكذيب ـ وإما الاستكبار مع الإقرار.

لو قال قائل: كفر إبليس من أي النوعين؟

الجواب: من الاستكبار؛ لأنه مؤمن لكنه مستكبر والعياذ بالله، وكفر قريش الذين يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ [ص: ٥]، كفر إنكار وتكذيب.

لو قال قائل: قسمتم الكفر إلى قسمين ولم تذكروا القسم الثالث وهو كفر الجهل الذي يُلحق به عُبَّاد الصليب وعباد القبور؛ لأنهم ليسوا معاندين ولا مستكبرين بل هم جهال، نريد التفصيل في هذا؟

الجواب: هؤلاء لو كانوا جاهلين عفا الله عنهم، وبعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام يعدون معاندين، ولا نستطيع أن نقول إنهم جهال بل نقول معاندون، هذا لا شك فيه، فالنصارى معاندون. قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**والذي نفسي بيده، لا**

يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودياً ولا نصرانياً ثم لا يؤمن بما جئت به إلا كان من أهل النار»[(١)].

قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ مِن: هنا بيان للاسم الموصول الأول وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ﴾.

قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ قوله بأفواههم: متعلق بـ«قالوا»، أي: قالوا بأفواههم: ﴿ءَامَنَّا﴾ ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾، وهذا الوصف ينطبق تماماً على المنافقين، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [البقرة: ٨]، وهؤلاء في الكفر كاليهود والنصارى كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ [الحشر: ١١] يعني اليهود.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ بيَّن الله تعالى أحوال اليهود، والذين هادوا هم الذين قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]: أي: رجعنا إليك من المعصية إلى الطاعة، فيُسمون الذين هادوا، ويُسمون اليهود، أما التسمية الأولى فلقولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾، وأما الثانية: فنسبة إلى أبيهم يهوذا.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ﴾ هل هي جملة مستأنفة أو معطوفة على قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾؟

إذا جعلناها معطوفة يكون إعرابها خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: ومن الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن

---

(١) تقدم ص١٦٣.

الذين هادوا هم سماعون فتقرأ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ ثم تقف؛ لأنها معطوفة على قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ ثم تقول: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ والتقدير: «هم سماعون»، وإذا قلنا: إن الجملة مستأنفة جعلنا: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ خبراً مقدماً، وسماعون صفة لموصوف محذوف وهو المبتدأ، والتقدير: «ومن الذين هادوا قوم سماعون للكذب».

وقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾: أي: قابلون له، يقبلون الكذب من أحبارهم الذين يقولون: إن محمداً ليس بنبي، وهذا من أكذب ما يكون، بل هو أكذب شيء بعد الكذب على الله عزّ وجل.

قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي: سماعون لكذبهم، فيكون الله عزّ وجل ذكر أن هؤلاء الذين هادوا ويسمعون للكذب مطلقاً، ويسمعون لقوم آخرين لم يأتوا إلى الرسول ﷺ، وتكون «اللام» للتعدية أو للتقوية.

وقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ تحتمل معنيين، والقاعدة أن الكلمة تحمل على المعنيين إذا كانا صحيحين، ولا مرجح لأحدهما على الآخر، ولا منافاة بينهما.

فالمعنى الأول: أنهم سماعون للكذب ممن أَتوك وممن لم يأتوك، فهم يستجيبون للكذب من أي إنسان، سواء كان يأتي إليك أو لا يأتي.

والمعنى الثاني: في قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي: يسمعون منك ليوصلوه إلى قوم آخرين، فكأنهم واسطة بين الرسول ﷺ وبين من ينقلون إليه الخبر، وتكون «اللام» تعليلية،

يعني: سماعون لك من أجل قوم آخرين، يُوصِلون ما تقوله إليهم، فإذا أوصلوه إلى هؤلاء القوم الآخرين حرّفوه وبدلوه وغيروه، ولهذا قال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ يعني أن القوم الآخرين وهم أحبار اليهود الذين ينقل إليهم العامة ما يسمعونه من النبي ﷺ، فهؤلاء يُحرفون الكلم من بعد مواضعه، والتحريف بمعنى التغيير، أي: يغيرونه عن وجهه، فيقولون: المراد كذا، والمراد كذا على خلاف ما أراد الله ورسوله.

وهل المراد أنهم يحرفون الكلم من التوراة أو أنهم يحرفون الكلم من التوراة وغيرها؟

الأَولى العموم، فهم يحرفون الكلم من التوراة، ويحرفون الكلم من القرآن.

قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾ يعني ما نريد من الحكم فخذوه ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾، والإشارة بما يدل على البُعد ليس لرفع شأنهم، ولكن لإبعادهم عن الثناء وأن يكونوا على حق.

قوله: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ الإيتاء والإعطاء إنما يكون في المحسوسات وفي المنقولات، لكنه قد يستعمل في المعاني كما في هذه الآية، وأصل هذه القصة نزلت في يهوديين زانيين. فالأحبار يُعَيِّنُونَ لهؤلاء القوم الذين ينقلون إليهم الأخبار شيئاً معيناً أي: حكماً معين، فيقولون: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾ من محمد فخذوه، واقبلوه، ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ يعني احذروا أن تقبلوه، فصار الآن هؤلاء الأحبار الذين يُنقل إليهم الكلام من الرسول ﷺ، يقولون لأتباعهم: اعرضوا هذا على محمد فإن أعطاكم إياه فخذوه وإلا فاحذروا.

وضرب المفسرون لهذا مثلاً بقصة الرجم، كان الرجم - أعني رجم الزاني - محكوماً به في التوراة وكانت بنو إسرائيل ترجم من زنا، فلما كثر الزنا في أشرافهم صعُب عليهم أن يرجموا أشرافهم فقالوا: لا نرجم ولكننا نحمِّم الوجه، أي: نسوده، ونُرْكِبُ الزانيين على حمار، كل واحد منهما مستدبر الآخر، ونطوف بهما في الأسواق فقط، ولا نرجم، فقدر الله عزّ وجل أن يزني من اليهود رجل وامرأة، فرفعوا الأمر إلى النبي ﷺ[1]، وقال أحبارهم: إن آتاكم محمد هذا، يعني تحميم الوجه والطواف بهم في البلد فخذوه، وإن لم يعطكم وأمر بالرجم فاحذروا.

وهذا مثال وليس حصراً لمعنى الآية، بل المراد أنهم يعينون - أي: الأحبار - أحكاماً لعامتهم ويقولون: إن حَكَمَ بها محمد فاقبلوها وإن لم يحكم فاحذروا.

قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ وتحريفهم الكلم هنا تحريف معنوي، بمعنى أنهم جعلوا الرجم منسوخاً وأنه لا يجب العمل به، وسنذكر إن شاء الله في الفوائد أن التحريف ينقسم إلى قسمين.

قوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ يعني: ضلاله ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ وهذا تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام،

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا، حديث رقم (١٧٠٠)، سنن أبي داود، كتاب الحدود، باب في رجم اليهوديين، حديث رقم (٤٤٤٨)، مسند أحمد (٤/٢٦٨) (١٨٥٤٨).

يعني أن الله إذا أراد فتنة أحد فإنه لا يستطيع أحد من الخلق أن يرد هذه الإرادة، بل لا بد أن تقع، ولكن هل إرادة الله في فتنة أحد من الناس مبنية على غير حكمة؟

الجواب: لا، بل هي مبنية على حكمة، والحكمة ذكرت في قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف: ٥]، إذاً هم السبب، فلما علم الله أن ليس في قلوبهم خير أزاغها، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾ [الأنفال: ٧٠].

إذاً نقول: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ أي: إضلاله: ﴿فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ﴾، هذا فيمن هو أهل للإضلال.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ أولئك: المشار إليهم هؤلاء اليهود الذين لا يقبلون من الحق إلا ما وافق أهواءهم.

قوله: ﴿لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ أي: من الشك والشرك والإلحاد وغير ذلك، وإنما ذكر القلوب؛ لأن القلوب هي محل الصلاح والفساد، قال النبي ﷺ: **«ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»**[1].

قوله: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾ أي: ذل وعار، وذلهم وعارهم أما من جهة اليهود فبقتالهم والغلبة عليهم، وقد حصل والحمد لله ذلك، فإن قبائل اليهود التي كانت في المدينة منهم من قُتِل ومنهم من جُلِّي، فهذا خزيٌ في الدنيا، وأما في الآخرة فلهم عذاب

---

(١) تقدم ص١٤٣.

عظيم لا يعلم كنهه؛ لأنه من الأمور الغيبية، ومن شاركهم في عملهم استحق مثل عقوبتهم، والمنافقون خزيهم أن الله عزّ وجل بَيَّنَ حالهم وكشف عوارهم، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد: ٣٠]، وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد علم أسماء أُناس من المنافقين وأَخبر بهم حذيفة بن اليمان[1]، ولهذا يُقال: إنه صاحب السر.

قوله: ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذاب النار، نسأل الله أن يجيرنا منها، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: الشهادة لمحمد ﷺ أنه رسول، لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾.

الفائدة الثانية: تعظيم الله تعالى لرسوله؛ لأن صيغة النداء على هذا الوجه من علامة التعظيم، كما تقول: يا أيها الملك، يا أيها الأمير، يا أيها الكريم.

الفائدة الثالثة: تقوية النبي ﷺ، أي: تقوية قلبه وتسليته بقوله: ﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ يعني لا يهمنك أمرهم، فإن عاقبتهم أن لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الأخرة عذابٌ عظيمٌ.

الفائدة الرابعة: أن الناس يختلفون في الكفر، فمنهم من يسارع

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث رقم (٢٧٧٩)، سنن البيهقي الكبرى (٧/ ٣٥٢) (١٤٨٥٢).

فيه بخطا حثيثة، ومنهم من هو دون ذلك؛ لأنه قسَّم فقال: ﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾، يعني وهناك أناس لا يسارعون فيه، فالداعية إلى الكفر مسارع فيه، وغير الداعية غير مسارع.

الفائدة الخامسة: الإشارة إلى أن المدار في الإيمان على القلب، لقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ فالإيمان باللسان ليس إيماناً حتى يكون مبنياً على إيمان القلب، وإلا فإنه لا ينفع صاحبه.

الفائدة السادسة: أن الإيمان محله القلب، لقوله: ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾، ولكن إذا قال قائل: ألسنا مأمورين بأن نأخذ الناس بظواهرهم؟

الجواب: بلى، نحن مأمورون بهذا، لكن من تبين نفاقه فإننا نعامله بما تقتضيه حاله، كما لو كان معلناً للنفاق، فهذا لا نسكت عليه، أما من لم يعلن نفاقه، فإنه ليس لنا إلا الظاهر، والباطن إلى الله، كما أننا لو رأينا رجلاً كافراً فإننا نعامله معاملة الكافر، ولا نقول: إننا لا نكفره بعينه، كما اشتبه على بعض الطلبة الآن، يقولون: إذا رأيت الذي لا يصلي لا تكفره بعينه، كيف لا أكفره بعينه!! إذا رأيت الذي يسجد للصنم لا تكفره بعينه؛ لأنه ربما يكون قلبه مطمئناً بالإيمان، هذا غلط عظيم، نحن نحكم بالظاهر، فإذا وجدنا شخصاً لا يصلي قلنا: هذا كافر بملء أفواهنا، إذا رأينا من يسجد للصنم قلنا: هذا كافر، ونُعَيِّنُهُ ونلزمه بأحكام الإسلام، فإن لم يفعل قتلناه، أما في أمر الآخرة لا نشهد لأحد معين، لا بجنة ولا بنار إلا من شهد له النبي ﷺ أو جاء ذلك في القرآن.

الفائدة السابعة والثامنة: أن من اليهود من هو سماع للكذب نقَّال للكذب، بمعنى أنه يصدق الكذب ولا يتحرى فيه ويقبله، وأيضاً ينقل الكذب وهذا شيء مشاهد، فينبني على هذه الفائدة أن من كان هذه حاله ففيه شبه من اليهود، فالذي يقبل الكذب ويتحدث به، ويأخذه مسلَّماً مشابهاً لليهود، والذي ينقل الكذب كذلك مشابه لليهود، فمن كذَّب أو صدَّق بالكذب، فإنه مشابه لليهود بلا شك، وهذا يقتضي الحذر من هذا الخلق الذميم.

الفائدة التاسعة: تعاظم اليهود أعني أحبارهم، واستكبارهم عن الحضور إلى النبي ﷺ، وكأنهم يظنون أنهم إذا حضروا فهذا ذل وصغار، ولكن الله أذلهم وأصغرهم ـ والحمد لله ـ بعدم إيمانهم بالنبي ﷺ.

الفائدة العاشرة: بيان هذا الوصف الذميم من اليهود، وهو تحريف الكلم، والمراد بالكلم هنا الوحي الذي جاءت به الرسل، التوراة والقرآن وغيرهما، قال العلماء: والتحريف نوعان: الأول: التحريف المعنوي، والقائلون به كثير، والثاني: التحريف اللفظي، والقائلون به قليل.

أما الأول: التحريف المعنوي فهو أن يصرف كلام الله وكلام رسوله ﷺ إلى غير ما أراد الله ورسوله، سواء في الأمور العقدية أو في الأحكام الفقهية، إذا صرف النص عما لا يريد الله ورسوله، فإنه محرف للكلم، ولكن تحريف آيات الصفات أشد من تحريف غيرها من الآيات لسببين: الأول: لشرف موضوعه؛ لأن البحث في أسماء الله وصفاته هو من أشرف العلوم، حتى كانوا يسمونه الفقه الأكبر، الثاني: أنه ليس للعقل فيه مجال،

فواجب الإنسان التسليم وعدم التحريف، فالتحريف هنا أشد من أن يحرف الإنسان آية في حكم من الأحكام أو حديثاً؛ لأن الأول يتعلق بالخالق، وهذا يتعلق بالمخلوق.

الثاني: التحريف اللفظي، وهو أيضاً محرم، ولكنه قليل، وذلك لأن محرف التحريف اللفظي إن كان لا يتغير به المعنى، فلن يقيم عليه؛ لأنه لا يستفيد، سوف يظهر الناس عليه حتى العامة سيردون عليه، وإن كان يتغير به المعنى، فقد جمع بين التحريف اللفظي والتحريف المعنوي، فالذي يقول: إن الله استوى على العرش، لكن معنى استوى: استولى، هذا محرِّف تحريفاً معنوياً، والذي قرأ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] بنصب لفظ الجلالة، هذا محرف تحريفاً لفظياً ومعنوياً؛ لأنه إذا قال: كلم اللـهَ موسى تكليماً، صار الكلام من موسى، وهذا تحريف معنوي، وإذا نصب لفظ الجلالة، فهو تحريف لفظي، والذي يقول: الحمد لله ربَّ العالمين، بنصب (رب) محرِّف تحريفاً لفظياً؛ لأن المعنى لا يختلف، لكن اللفظ يختلف، وكل أنواع التحريف المعنوي واللفظي محرم، ثم إن تعمد الشيء مع علمه بمراد الله ورسوله، فهذا قد يصل إلى الكفر والعياذ بالله؛ لأنه قال على الله ما يعلم أن الحق في خلافه.

الفائدة الحادية عشرة: أن التحريف المذموم، هو الذي يقع بعد معرفة الإنسان للحق؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] فهم يريدون أن يُزيلوا الكلم عن مواضعه.

أما الإنسان الذي تأوَّل بتأويل سائغ فإنه لا يذم، ولا يُعد

فعله تحريفاً يأثم به؛ وذلك لأن أهل التأويل لهم شُبَه، فهم فهموا أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه وهذا فهم خاطئ بلا شك، فقالوا: إذا قلت: إن معنى قوله تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] إنه علا على العرش واستقر فقط؛ جعلته جسماً، والأجسام متماثلة، وما أشبه ذلك من الشبهات، وكذلك في مسألة اليدين والعينين، لكن لو قالوا: إن قوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بمعنى أنه أعدم العرش فهذا لا يصح؛ لأنه لا يسوغ، فالتأويل السائغ هو الذي له وجه في اللغة، فقولهم: استولى له وجه في اللغة؛ لأن استوى تأتي بمعنى العلو المعنوي، والعلو المعنوي معناه الملك والقهر والاستحواذ، وما أشبه ذلك من الشبهات.

وهنا **تنبيه** وهو أن الصواب أنه لا فرق بين ما يقال عنه أصول وفروع ما دام أن النص يسوغ فيه الاجتهاد، ثم تأوله الإنسان فلا يقال: إنه آثم كما تقدم، ولكن يقال: إن هذا خطأ، ونحن وإن كنا قد نعد تأويلهم تحريفاً فإننا نأثم به إذا وافقناهم ونعلم أنهم على غير صواب، ولهذا قد يعذر القائل ولا يعذر التابع.

الفائدة الثانية عشرة: أن من حرَّف الكلم عن مواضعه من هذه الأمة ففيه شبه من اليهود، فيقتضي هذا التحذير من تحريف الكلم عن مواضعه؛ لئلا يقع الإنسان في مشابهة اليهود.

الفائدة الثالثة عشرة: أن اليهود لا يقبلون من الحق إلا ما وافق أهواءهم، لقوله: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾.

الفائدة الرابعة عشرة: ذم أولئك الذين لا يقبلون من الحق

إلا ما وافق أهواءهم، وإذا لم يوافق أهواءهم ذهبوا يتطلبون الرخص من هذه الأمة، فإن كثيراً من الناس على هذا المنوال، إذا أُفتي بما تطمئن إليه نفسه قَبِلَهُ، وإلا ذهب يطلب آخرين يفتونه بما يشتهي، فهذا نقول: إن فيه شبهاً من اليهود.

الفائدة الخامسة عشرة: شدة كراهة أحبار اليهود للحق، لقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾، لم يقولوا: فلا تأخذوه، بل قالوا: ﴿فَٱحْذَرُوا۟﴾، وهذا أشد وقعاً من قولهم: فلا تأخذوه، وكان مقتضى المقابلة أن يقال: وإن لم تؤتوه فلا تأخذوه، لكنهم قالوا: ﴿فَٱحْذَرُوا۟﴾.

لو قال قائل: ما أسباب رد الحق عند علماء بني إسرائيل؟

الجواب: أقول: رد الحق قد يكون استكباراً، وقد يكون لشبهة تعرض للإنسان، ونحن نعلم أن علماء بني إسرائيل ردوا الحق استكباراً؛ لأن الله يقول: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٧]، لكن عوام بني إسرائيل لهم شبهة، وهي أن علماءهم يقولون: إن محمداً عربي، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، ثم لا يذكرون قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ [الجمعة: ٣]، فيشبهون.

الفائدة السادسة عشرة: إثبات إرادة الله عزّ وجل، وأنها شاملة حتى لإرادة الإنسان لقوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ واعلم أن الإرادة تنقسم إلى قسمين: إرادة شرعية: وهي التي بمعنى المحبة، وإرادة كونية وهي التي بمعنى المشيئة، فهنا في قوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾: الإرادة

إرادة كونية، أي: من يشأ الله فتنته، كذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٨] الإرادة كونية أيضاً، وفي قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، هذه إرادة شرعية؛ لأنها لو كانت إرادة قدرية لتاب الله على جميع الناس، لكنها إرادة شرعية بمعنى أن الله يحب أن يتوب علينا.

إذاً الفرق بين الإرادتين من حيث حقيقتيهما أن الإرادة الشرعية بمعنى المحبة، والإرادة الكونية بمعنى المشيئة، والفرق بينهما: أن الإرادة الكونية لا بد من وقوع مراد الله بها، والإرادة الشرعية قد يقع وقد لا يقع، والفرق الثاني: أن الإرادة الكونية تكون فيما يحبه الله وما لا يحبه الله، والإرادة الشرعية لا تكون إلا فيما يحبه الله.

فإذا قال قائل: هل الله يريد الكفر؟

قلنا: فيه تفصيل، بالإرادة الكونية نعم، وبالإرادة الشرعية لا، وبه نعرف ضلال من يقول: كل ما وقع فهو محبوب إلى الله، وهذا غلط، لو أخذنا بهذا لزم من ذلك أن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان، وهو عزّ وجل لا يحب هذا ولا يحب الفساد.

لو قال قائل: الإيمان هل هو مراد لله كوناً أو شرعاً؟

الجواب: إن وقع فهو مراد كوناً وشرعاً، وإن لم يقع فهو مرادٌ شرعاً.

لو قال قائل: قوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] هل فيها دليل أن للجمادات إرادة؟

الجواب: نعم، لها إرادة، لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، فالجمادات لها إرادة، أليس النبي ﷺ قال: «**هذا أُحد يحبنا ونحبه**»[(١)]؟ أليس تسبيح الحصى يُسمع بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام[(٢)]؟ أليس الله يقول: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء: ٤٤]. كل هذا يدل على أن الجماد له إرادة.

الفائدة السابعة عشرة: أنه لا أحد يملك أن يغير مراد الله، لقوله: ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ﴾.

الفائدة الثامنة عشرة: أن المدار في الصلاح والفساد على القلب، لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾.

الفائدة التاسعة عشرة: أنه يجب على الإنسان المستدل أن ينظر إلى النصوص من جميع الجوانب، وذلك أنك إذا نظرت إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ لقلت: إن إرادة الله تعالى لتطهير القلب مجرد مشيئة، لكن إذا قيدتها بالنصوص الأخرى عرفت أن عدم إرادة الله تطهير قلوب هؤلاء؛ لأنهم ليسوا أهلاً لذلك، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥]، وكما يتضح هذا جلياً في قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب أحد يحبنا ونحبه، حديث رقم (٣٨٥٥)، ومسلم، كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، حديث رقم (١٣٩٣) عن أنس بن مالك.

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٤٧) عن أبي ذر رضي الله عنه.

الفائدة العشرون: أن في الآية شاهد واضح لقول النبي ﷺ: **«ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله»**[(١)].

الفائدة الحادية والعشرون: أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله دائماً أن يطهر قلبه، وأن يعتني بأعمال القلب، واعتناء المرء بأعمال القلب يجب أن يكون أشد من اعتنائه بعمل الجسد؛ لأن عمل الجسد يقع من كل إنسان، من مؤمن ومنافق، لكن عمل القلب هو المهم. ـ أسأل الله أن يصلح قلوبنا جميعاً ـ.

الفائدة الثانية والعشرون: بشارة النبي عليه الصلاة والسلام، بأن هؤلاء القوم لهم الذل والعار في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

الفائدة الثالثة والعشرون: الوعيد لهؤلاء لعلهم يرجعون، فإن الوعيد على المعصية من أسباب العدول عنها، بحيث لا يَقْدِمُ عليها، وإذا أقدم استعتب وتاب.

الفائدة الرابعة والعشرون: إثبات أن لبني آدم دارين هما: الدنيا والآخرة، الدنيا: يكون عذابها إما من الله وإما من عباد الله، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ [التوبة: ١٤] هذا على أيدي الرسول وأصحابه، وقد يكون من الله عزّ وجل، كما إذا ابتلوا بالأمراض والقحط والجدب وغير ذلك، أما عذاب الآخرة فمن الله وحده، لا أحد يستطيع أن يعذب أحداً في الآخرة ولا أن يثيبه.

❁ ❁ ❁

---

(١) تقدم ص١٤٣.

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة: ٤٢].

قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم سماعون للكذب أكالون للسحت، هل هذه الجملة تأكيد لما سبق، أو هي مغايرة؟

يحتمل المعنيين: يحتمل أن تكون تأكيداً لما سبق؛ لأن المقام مقام عظيم ومهم يحتاج إلى تكرار وتأكيد بيان أوصافهم القبيحة للحذر منها، ويحتمل أن تكون مغايرة لما سبق، وذلك بأن نحمل «اللام» في الأولى على أنها للتقوية، وفي الثانية على أنها للتعليل.

وقوله: ﴿أَكَّٰلُونَ﴾ صيغة مبالغة تدل على كثرة أكلهم للسحت، و«السحت» فيها قراءتان «للسحُت» بضم الحاء، و«للسحْت» بسكون الحاء، قراءتان سبعيتان مثل: نَهْر ونَهَر، فما هو السحت، هل هو أكل المال بالباطل، هل هو أكل الربا، هل هو الرشوة؟

الجواب: شامل لكل ذلك، والمعنى العام أن نقول: السحت كل ما اكتسب بكسب محرم فهو سحت، فيشمل الربا وهو شائع في اليهود، والرشوة وهي أيضاً شائعة في اليهود، والغصب والسرقة والغش والخيانة وغير ذلك، ووجهه: أن الحرام يسحت الحلال وينزع بركته، أو أنه نفسه، أي: الحرام سحت ينسحت ويزول ولا يكون فيه بركة، فالسحت إذاً وصف في نفسه

وفي غيره، أما كونه وصفاً في نفسه؛ لأنه لا بركة فيه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم: ٣٩]، وكما جاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه، فيمن كسب مالاً محرماً أنه إن أنفقه لم يبارك له فيه، وإن تصدق به لم يقبل منه، وإن خَلَّفَهُ كان زاده إلى النار(١).

وأما كونه وصفاً في غيره؛ لأنه يسحت المال الآخر، والحاصل أن هؤلاء جمعوا بين فساد القول وفساد الغذاء، فهم سماعون للكذب يقبلونه ويتحدثون به، ويأخذونه مسلماً وأكالون للسحت.

قوله: ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ يعني: لتحكم بينهم ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ الخطاب هنا للرسول عليه الصلاة والسلام وأمته مثله، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] لكن الفاعل في قوله: ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ هل المراد به أهل الذمة، أم المعاهدون، أم كل كافر، أم كل مؤمن، أم ماذا؟ نقول: أما المؤمن، فلا يجوز الإعراض عن الحكم بين المسلمين خصوصاً من وكل إليه الأمر مثل القضاة، فلا يجوز لأي قاضٍ إذا ترافع إليه الخصمان أن يتعذر بل يجب أن يحكم بينهما، أما المُحكَّم الذي ليس بقاضٍ فله أن يحكم وله أن لا يحكم، لكن لو استفتي يجب أن يفتي بشرع الله، أما التحكيم فهو بالخيار إن شاء قبل وإن شاء لم يقبل، مثل أن يكون نزاع بين

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٨٧) (٣٦٧٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥) (٢١٣٧)، والبيهقي في الشعب (٤/ ٣٩٥) (٥٥٢٤).

قريبين فيقولان: لا نريد أن نصل إلى القاضي ولكن نحكم فلاناً فلا يلزمه أن يحكم، لكن لا شك أنه يتأكد عليه أن يحكم، لما في ذلك من فض النزاع وبيان حكم الله عزّ وجل، ولكن لا يحكم حتى يستوثق من الجميع.

أما غير المسلمين، فالصواب أن الإنسان مخير إن شاء حكم وإن شاء لم يحكم، سواء كانوا ذميين تحت حكمنا أو معاهدين منفصلين عنا، أو حربيين، والحربي غالباً لا يمكن أن يأتي إلينا؛ لأنه إذا أتى قتل؛ لأنه مباح الدم.

قوله: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾. «أو» هنا هل هي للتنويع أو للتخيير؟

الجواب: هذه للتخيير، وإذا كانت للتخيير فهل هو تخيير تشهي أو مصلحة؟ نقول: هو تخيير مصلحة، وسيأتي في الفوائد إن شاء الله تعالى.

قوله: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة، إن تعرض عنهم ولا تحكم بينهم، فإنهم لن يضروك لكن قد يؤذونك، والأذية لا يلزم منها الضرر، بدليل أن الله سبحانه وتعالىٰ أثبت أن بني آدم يؤذونه، ونفى أن يضره أحد، فقال جلَّ وعلا: «**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني**»[1] وكذلك في القرآن: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦] الأذية ثبتت في القرآن والأحاديث القدسية، قال الله تعالى في القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٧]

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم (٢٥٧٧) عن أبي ذر.

وقال في الحديث القدسي: «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر**»[(١)] فالضرر منفي عن الله عزّ وجل بالقرآن والأحاديث القدسية، والأذية ثابتة، ومن المعلوم أنه لا يلزم من الأذية الضرر، بدليل أن الإنسان إذا جلس إلى جنبه رجل آكل بصلاً فإنه يتأذى به ولا يضره.

وقوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي بـ«لن» فيعم أي شيء، لن يضروك به في الدنيا ولا في الآخرة.

وقوله: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ﴾ يعني رأيت أن تحكم واخترت أن تحكم فاحكم بينهم بالقسط، والقسط هو العدل، حتى لو كان الحكم لكافر على مسلم يحكم عليه بالعدل، حتى إن العلماء رحمهم الله قالوا: يجب أن يعدل بين الخصمين ولو بين مسلم وكافر، في اللفظ واللحظ والجلوس والتقديم وكل شيء؛ لأن هذا حكم يجب أن يعدل فيه، فعبد الله بن رواحة لما بعثه النبي ﷺ ليخرص على اليهود الثمار، جمعهم وقال: إني جئتكم من أحب الناس إليَّ، يعني: الرسول ﷺ، وإنكم لأبغض إليَّ من عدتكم من القردة والخنازير ـ رضي الله عنه كلمة شجاع ـ وما حبي له وبغضي لكم بموجب أن لا أعدل فيكم، وإلا من المعلوم أن النفس بالطبيعة البشرية تميل مع من تحب، وعلى من تبغض، لكن هو يقول: لا يمكن أن لا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السمٰوات والأرض، وعدل فيهم رضي الله عنه[(٢)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة حم الجاثية، حديث رقم (٤٢٤٩)، ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، حديث رقم (٢٢٤٦) عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٦٧) (١٤٦٩٦) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وابن حبان (١١/ ٦٠٧) (٥١٩٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما، =

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ هذا حث على العدل في كل شيء، و﴿ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ يعني: العادلين، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**أن المقسطين على منابر من نور عن يمين الله عزّ وجل، الذين يعدلون في أهليهم وما ولوا عليه**»(١).

إذاً المقسط: هو العادل، والقاسط هو الجائر، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١٥].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تأكيد كون هؤلاء اليهود سماعين للكذب، لقوله: ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾.

فإن قال قائل: يرد على قولك تأكيد القاعدة المعروفة أنه إذا دار الكلام بين التأسيس والتأكيد حمل على التأسيس؟ قلنا: نعم، هذا وارد لكن له جواب.

والجواب: أننا إذا قلنا إنه للتأسيس، صارت الجملة الأولى دالة على معنى واحد، والثانية على معنى واحد، وإذا قلنا: للتوكيد؛ صار كل منهما دالاً على معنيين، فمن ثَمَّ يترجح أن يكون ذلك للتأكيد.

الفائدة الثانية: التحذير من هذا الوصف القبيح وهو الاستماع للكذب أو نَقْلِ الكذب؛ لأن الله أكد بيان هذا الوصف القبيح من اليهود.

= والطبراني في الأوسط (٧/ ٣٠٣) (٧٥٦٥) عن عائشة رضي الله عنها، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ١١٥) (١١٤٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، حديث رقم (١٨٢٧) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

الفائدة الثالثة: أن من اتصف بذلك ففيه شبه من اليهود.

الفائدة الرابعة: التحذير من وصف قبيح آخر وهو أكل المال بالباطل، لقوله: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ والله عزّ وجل لم يذكر هذا الوصف إلا لنحذره.

الفائدة الخامسة: أن من اكتسب المال الحرام ففيه شبه من اليهود، فآكلو الربا مشابهون لليهود، وآكلو الأموال بالغش مشابهون لليهود، وآكلو الأموال بالحلف الكاذب مشابهون لليهود، فكل من اكتسب مالاً بغير حق بطريق محرم فهو مشابه لليهود، كالراشي والمرتشي، فالرشوة شائعة في اليهود.

الفائدة السادسة: أن النبي ﷺ مخير بين أن يحكم بين اليهود وألا يحكم، لقوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ﴾ و«أو» هنا للتخيير.

فإن قال قائل: هل التخيير على إطلاقه؟

الجواب: لا، بل هو مقيد بالمصلحة، والقاعدة عندنا أن التخيير إذا كان للتيسير على المكلف فهو للتشهي يفعل ما يشاء، وإذا كان للمصلحة وجب اتباع المصلحة.

الفائدة السابعة: أن من أعرض عن شيء بأمر الله فإن ذلك لا يضره، لقوله: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، يعني: فلم تحكم بينهم فلن يضروك شيئاً، ولكن هل انتفاء الضرر يجب أن يكون في الحال أو ولو في المستقبل، بمعنى أنه ربما يتضرر لأول وهلة، ثم تكون العاقبة له؟ الجواب الثاني: لأن الإنسان قد يتضرر لأول وهلة ولكن تكون العاقبة له، وحينئذٍ يكون كأن لم يتضرر.

الفائدة الثامنة: أنه يجب الحكم بين الناس بالعدل، لقوله: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ يعني: إن أردت أن تحكم كما خيرناك فاحكم بينهم بالقسط.

الفائدة التاسعة: أنه لا يجوز للإنسان أن يراعي في حكمه قريباً ولا صديقاً ولا غنياً ولا فقيراً، لقوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ وهذا يعني: أن ينظر إلى القضية من حيث هي قضية لا من حيث إنها قضية فلان بن فلان.

الفائدة العاشرة: إثبات المحبة لله عزّ وجل، أي: أن الله يحب، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وهل هذه المحبة مجاز عن الثواب أو هي محبة حقيقية؟ يتعين الثاني، ففيها إثبات أن الله تعالى يحب، ومن أهل التأويل من قال: إن الله تعالى لا يحب، قال ذلك تأويلاً لا تكذيباً، يعني هو لم يقل: إن الله لا يحب، بل قال: إنه يحب، لكن معنى المحبة كذا.

ويجب أن نفرق بين الطريقين الذي يقول: إن الله لا يحب، هذا كافر؛ لأنه مكذب للقرآن، والذي يقول: إنه يحب، لكن معنى المحبة كذا، فهذا ليس بكافر، ففرق بين إنكار المحبة تأويلاً وإنكارها تكذيباً وجحوداً، فالأشاعرة ومن وراءهم جميع المتأولين يقولون: إن الله لا يحب؛ لأن المحبة لا تكون إلا بين شيئين متناسبين؛ ولأن المحبة تتجدد لأنها معلقة بأوصاف وأسباب، والله تعالى منزه عن الحوادث.

إذاً ما معنى المحبة؟ قالوا: معناها: الثواب، ولم يعلم المساكين أنه يلزم من إثبات الثواب إثبات المحبة، إذاً لا يمكن

ثواب بلا محبة أبداً، فهم وإن فروا من إثباتها لفظاً فإنها تلزمهم إلزاماً، المهم أنهم يقولون: إن المحبة بمعنى: المثوبة، فقيل لهم: إن الله يقول: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] قالوا: نعم، يحبهم أي: يثيبهم، ويحبونه، أي: يفعلون ما يثيبهم عليه، ولكن هذا لا شك أنه مخالف لظاهر اللفظ ومخالف لإجماع السلف، فما من السلف أحد قال: إن المحبة بمعنى: الثواب.

فإذا قال قائل: وهل عندكم نص من كل واحد من السلف أن المحبة بمعناها الحقيقي؟

قلنا: لا، لكن كون هذه النصوص ترد عليهم ولم يرد عنهم تفسير بخلاف ظاهرها يدل على أنهم أجمعوا على إثباتها، ولا حاجة لأن ينقل إجماعهم على كل مسألة بعينها، لكن ما دامت نصوص الكتاب والسنة ترد عليهم، ولم يأتِ عن أحد منهم ولا حرف واحد أنه أوَّلها بخلاف ظاهرها، فإن هذا يدل على أنهم مجمعون على إثباتها.

أما قولهم: إن هذا يلزم منه أن تقوم الحوادث بالله عزّ وجل، فنقول: وليكن، نحن نؤمن بأن الله تعالى يفعل ما يشاء، وأن صفاته منها ما يتجدد ومنها ما لا يتجدد، بمعنى منها ما يحدث بأسباب، ومنها ما لا يحدث بأسباب، فالعلم مثلاً أزلي أبدي، لكن المحبة ليست كذلك، إذا كان الله يحب هذا العبد فمحبته لهذا العبد بعد وجود أسباب المحبة، فمحبته لهذا العبد المعين حادثة ولا مانع، وقيام الأفعال الاختيارية به من كمال صفاته ولا شك.

الفائدة الحادية عشرة: إثبات تفاضل محبة الله عزّ وجل، وجه الدلالة: أن المحبة هنا علقت بوصف وهو الإقساط؛ لأن «مقسطين» من الرباعي، وإذا كان كذلك فإن المعلق بوصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، أرأيت لو قلت: أَكْرِمْ المجتهد من الطلبة، فإن إكرامك يزيد بزيادة الاجتهاد وينقص بنقصه.

إذاً إثبات كون الله يحب المقسطين يدل على تفاضل محبة الله عزّ وجل وأنه يحب أحداً أكثر من أحد، ويحب أحداً ولا يحب الآخر، وهذه القاعدة في كل شيء.

الفائدة الثانية عشرة: الحث على الإقساط، أي: العدل، وجه ذلك: كون الله يخبر أنه يحب المقسطين يتضمن الحث على العدل، فهذا ليس مجرد خبر، بل هو خبر يراد به الحث والإغراء على العدل.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة: ٤٣].

قوله: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ «كيف» هنا: اسم استفهام، والمراد به: التعجيب، يعني: اعْجَبْ كيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله، وهم يدَّعون أنهم مؤمنون بها فإن هذا من التناقض، إذا كان لديهم كتاب يهتدون به، ويدَّعون أنه هو كتابهم وشريعتهم ودينهم، فكيف يتحاكمون إلى غيره؟ هذا مما يوجب الشبهة في تحكيمهم للرسول عليه الصلاة والسلام وأنهم ما أرادوا الحق، لو أرادوا الحق لرجعوا إلى الكتاب الذي عندهم؛ لأنهم يعتقدون أنه حق.

إذاً: المسألة الآن مسألة اشتباه وأنهم لم يريدوا حقيقة التحكيم وهذا هو الواقع؛ لأنه لما زنا منهم الزانيان، أتوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام يريدون أن يوافقهم فيما أحدثوه في عقوبة هذه الفاحشة، فأمر النبي ﷺ برجم الزانيين، ثم أنكروا ذلك وقالوا: هذا خلاف ما عندنا، ما الذي عندكم؟ قالوا: نحن عندنا أننا نسود وجوه الزانيين ونطوف بهما في الأسواق خزياً وعاراً، فأخبرهم عبد الله بن سلام أو غيره بأن التوراة تنص على أن الزانيين يرجمان.

فقال: ائتوا بالتوراة، فأتوا بها، فجعل القارئ يقرأ ووضع يده على آية الرجم، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك ـ لأن عبد الله بن سلام من أحبار اليهود ـ فرفع يده فإذا فيها آية الرجم توافق ما حكم به النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**اللهم إني أول من أقام** ـ أظنه قال ـ **حكمك بعد أن أماتوه، أو من أحيا حكمك بعد أن أماتوه**»[1].

فالله عزّ وجل يُعَجِّبُ الرسول عليه الصلاة والسلام، ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، يعني: بعد أن حَكَّموك وحَكَمْتَ تولوا وأبوا حتى جيء بالتوراة فإذا هي مطابقة تماماً لحكم النبي ﷺ، وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، المشار إليه: التحكيم.

قوله: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: وما هؤلاء بالمؤمنين، وأتى بـ«أولاء» مقرونة بالكاف الدالة على بعد المشار إليه، وهذا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا، حديث رقم (١٧٠٠) عن البراء بن عازب.

لدنو منزلتهم وليس لعلوها، يعني: ما هؤلاء المنحطون الذين نزلوا إلى أسفل السافلين بالمؤمنين، فهؤلاء لا آمنوا بالتوراة ولا آمنوا بمحمد ﷺ، وإعراب هذه الجملة:

«ما»: نافية تعمل عمل ليس.

«أولاء»: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع اسم ما، والكاف: حرف دال على الخطاب.

«بالمؤمنين»: «الباء»: حرف جر زائد، «المؤمنين»: خبر «ما» منصوب بياء مقدرة على الياء المجلوبة لحرف الجر الزائد، لماذا لا نقول: منصوب بالياء ما دام الياء هي الياء، سواء كان الاسم منصوباً أو مجروراً؟ قالوا: لأجل إحكام القواعد، وإلا حقيقة اللفظ لم يتغير سواء قلت: إن الباء حرف جر زائد أو إنها منصوبة؛ لأن علامة النصب في جمع المذكر السالم وعلامة الجر واحدة وهي الياء، لكن يقولون: إتقاناً للقواعد لا بد أن يكون هذا.

وقوله: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هنا نفى الله عزّ وجل أن يكون هؤلاء مؤمنين، وأتى بحرف الجر الزائد، وقد ذكر علماء البلاغة أن جميع الحروف الزائدة تفيد التوكيد، وعليه فتكون الباء هنا وإن كانت زائدة إعراباً زائدة معنى، وهو: التوكيد، فإذا قلت: ما زيد قائماً، وما زيد بقائم، فالثانية أوكد.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: العجب من هؤلاء اليهود الذين يحكمون النبي ﷺ طلباً للرخصة وعندهم التوراة.

الفائدة الثانية: أن من استفتى عالماً طلباً للرخصة ففيه شبه

من اليهود، ولهذا قال العلماء: يحرم الاستفتاء طلباً للرخصة، وقالوا: من تتبع الرخص فقد تزندق، وصفة تَتَبُّعِ الرخص أنه إذا أفتاك عالم ولم ترد فتواه ذهبت إلى عالم آخر ليفتيك بما يناسبك، ولا شك أن المستفتي إنما أراد اتباع الهوى دون الهدى؛ لأنه لما أفتي بما يرى هو أنه الحق ذهب إلى عالم آخر، وقلنا: يرى أنه الحق؛ لأنه لم يستفتِ هذا العالم إلا وهو يعتقد أن فتواه حق وشريعة، فلما لم يوافق هواه ذهب ليستفتي آخر، فصارت حاله تنادي بأنه لا يريد الهدى وإنما يريد الهوى.

نعم لو أن الإنسان استفتى عالماً في مكان في بلدته، لا يرى عالماً أحسن منه، لكن في نيته أنه لو حصل له أن يستفتي من هو أعلم لفعل، فهنا نقول: لا بأس أن يأخذ بقوله، وإذا ظفر بعالم أوثق منه عنده فليستفته، ويكون هنا بمنزلة استعمال التراب بدلاً عن الماء عند العجز عنه، وبمنزلة أكل الميتة عند العجز عن أكل المذكاة، وعليه فيفرق بين شخصين سألا عالماً ثم استفتيا غيره، أحدهما سأل هذا العالم؛ لأنه لا يرى في بلده من هو أعلم منه، وفي نيته أنه إذا ظفر بمن هو أوثق استفتاه، فاستفتاء هذا للعالم الثاني حكمه جائز، والثاني استفتى العالم الذي في بلده على أن فتواه هي الحق، لكنه تثاقلها، ثم استفتى عالماً آخر لعله يجد رخصة، هذا لا يجوز، اثنان عملهما واحد لكن حكمهما مختلف.

الفائدة الثالثة: تناقض اليهود وذلك بطلبهم الحق مع أن أداة الحق عندهم، فقد حكموا الرسول عليه الصلاة والسلام مع أن التوراة فيها حكم الله، أي: فيها ما يعتقدون أنه حكم الله.

الفائدة الرابعة: أن ما جاء في التوراة فهو حكم الله، ولكن هذا قبل أن تبدل وتغير ويخفى منها ما يخفى ويبدى منها ما يبدى، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

الفائدة الخامسة: أن الأحكام التي في التوراة هي حكم الله، لقوله تعالى: ﴿فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ لكن هذا في التوراة الثابتة، وأما بعد أن حرفت وغيرت وأخفيت فالحكم متغير، لقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

لو قال قائل: في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣] إشكال، والإشكال: أليست التوراة منسوخة بعد نزول القرآن؟

الجواب: بلى هي منسوخة، لكن من أجل أن يرد عليهم من كتابهم؛ لأنهم هم لا يؤمنون بالقرآن بل يؤمنون بالتوراة.

الفائدة السادسة: عتو اليهود وأنهم بعد أن يتبين لهم الحق يتولون، لقوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾ لأن ﴿ثُمَّ﴾ تدل على الترتيب والتراخي.

الفائدة السابعة: أن من طلب الفتوى تتبعاً للرخصة فليس بمؤمن، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لكن هل ينتفي عنه أصل الإيمان أو كمال الإيمان؟ الظاهر الثاني أنه ينتفي عنه كمال الإيمان.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ۚ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤].

قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ﴾، «إنا» «نا» معروف أنها للجماعة أي: ضمير جمع، لكنها إذا أضيفت إلى الله فالمراد بها: التعظيم قطعاً؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ إله واحد كما قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾ [البقرة: ١٦٣] وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقوله: ﴿أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ أي: من أعلى؛ يعني أن الله تعالى أنزلها على موسى لكنه جلَّ وعلا كتبها بيده في ألواح، نزلت من السماء على موسى عليه الصلاة والسلام وجاء بها مكتوبة في الألواح.

قوله: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ﴾ الهدى: العلم، والنور: آثار هذا العلم، وذلك أن الإنسان كلما ازداد علماً ازداد نوراً وبصيرة في دين الله عزّ وجل.

قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا﴾ أي: بالتوراة وما فيها من الهدى والنور، ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾ وفي قراءة «النبيئون» فعلى قراءة «النبيئون»: يكون مفردها نبيئاً، وتكون مشتقة من النبأ بمعنى: الخبر، وعلى قراءة حذف الهمزة، قيل: إنها مشتقة من النَبْوَة، وهو الشيء المرتفع وذلك لارتفاع منزلة النبيين، وقيل: إنها من النبأ لكن

سهلت الهمزة ياء، فصارت النبي والجمع النبيون، والكل متفقون على أن الرسل عليهم الصلاة والسلام في أعلى مراتب الخلق، وعلى أنهم أتوا بالأنباء والأخبار، فيكون القولان متفقين في المعنى، وإنما قلنا: إن الرسل وكذلك الأنبياء أعلى مراتب الخلق، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ يعني: الإسلام التام، الذي هو إسلام القلب وإسلام اللسان وإسلام الجوارح، يعني: الاستسلام لله ظاهراً وباطناً.

ولا تعجب أن يوصف الأنبياء بالإسلام؛ لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم أقوى الناس استسلاماً لله عزّ وجل، قال الله تبارك وتعالى عن يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال الله تعالى عن إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣١]، فإسلام الأنبياء متضمن للإيمان؛ وذلك لأنه إسلام القلب واللسان والجوارح.

قوله: ﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ متعلقة بـ«يحكم»، يعني: يحكم بها هؤلاء الرسل لليهود.

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ بمعنى: رجعوا، وذلك بعد توبتهم من عبادة العجل، فإن هذا رجوع إلى الله عزّ وجل.

قوله: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ قيل: إن الربانيين والأحبار العطف فيهما من باب عطف الصفات، وأن الربانيين هم الأحبار، وقيل: بينهما فرق، فالرباني: هو الذي أتم العبودية لله، وربى الناس عليها حتى وإن لم يصل إلى درجة الحبر بالنسبة

للعلم، والأحبار: هم الذين وصلوا إلى غاية كبيرة من العلم، فالحبر: واسع العلم، قالوا: لأنه يتفق في الاشتقاق، مع البحر لكنه ليس بالاشتقاق التام الذي يتساوى فيه المشتق والمشتق منه في الحروف والترتيب، بل يتساوى فيه المشتق والمشتق منه في الحروف دون الترتيب؛ فحبر وبحر كل كلمة حروفها ثلاثة متفقة، وعلى هذا فيكون الحبر: هو واسع العلم أي: الذي عنده علم واسع.

والرباني: من دونه لكنه يربي الناس على عبادة الله عزّ وجل، ويربيهم أيضاً على العلم، وقد قيل في غير هذه الآية: إن الرباني هو العالم الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره؛ لأن هذا لا شك أنه من الحكمة، وأقرب وسيلة إلى حصول العلم أن يربى الطالب بصغار العلم قبل كباره.

قوله: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ﴾ يعني: يحكمون بما استحفظوا من كتاب الله، أي: بما جُعِلوا حفَّاظاً عليه؛ لأن أول من يحفظ الدين ويقوم بحفظه والذود عنه هم العلماء الأحبار والربانيون، ولهذا قال: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ﴾ أي: بسبب ما استحفظوا من كتاب الله.

قوله: ﴿مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ والمراد بها: التوراة، لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ وأضيفت التوراة إلى الله؛ لأنه سبحانه وتعالىٰ كتبها بيده، هذا هو المشهور عند العلماء سلفاً وخلفاً.

قوله: ﴿وَكَانُواْ عَلَيْهِ﴾ أي: على الذين استحفظوا شهداء؛ لأن العلماء يشهدون بأن هذه شريعة الله، وينشرونها بين عباد الله، فكانوا شهداء على الخلق ببلوغ الشريعة إليهم.

قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ لا تخشوا الناس؛ أي: لا تخافوهم وتخضعوا لهم واخشوا الله، وهذا كالإشارة إلى كونهم إذا زنا فيهم الشريف تركوه وإذا زنا فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، واعلم أن الخشية والخوف بينهما فروق:

الفرق الأول: أن الخشية تكون عن علم، والخوف قد يكون عن علم وقد يكون بدون علم.

الفرق الثاني: أن الخشية تكون لعظمة المخشي، وأما الخوف فيكون لضعف الخائف، وإن لم يكن المخوف قوياً.

الفرق الثالث: أن الخشية أكمل من الخوف، ولهذا كانت ألفاظها الخاء والشين والياء، وكلها مشتقة من الشيء القوي.

قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني: لا تستبدلوا آيات الله بالثمن القليل، فما هو الثمن القليل؟ الثمن القليل إما الجاه وإما الرتبة والشرف، وإما الرشوة فهم يحكمون بغير شريعة الله، طلباً لبقاء شرفهم وجاههم وسيادتهم أو من أجل مال يبذل إليهم رشوة، ووصفه الله بأنه قليل لأن جميع ما في الدنيا مهما بلغ فهو قليل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧].

قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: أيُّ إنسان لم يحكم بما أنزل الله من يهود ونصارى وغيرهم ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ «أولاء»: مبتدأ، وهم: ضمير فصل، وجاء ضمير الفصل لإفادة الحصر والتوكيد؛ وقد تقدم أن ضمير الفصل له ثلاث فوائد، الأولى: إفادة الحصر، والثانية: التوكيد، والثالثة: التمييز بين الخبر والصفة، ولهذا سمي ضمير فصل،

ويظهر ذلك بالمثال: إذا قلت: زيد الفاضل، وعبرت تعبيراً آخر: زيد هو الفاضل، أيهما أبلغ في إثبات الفضل لزيد؟ الثاني، فقولنا: زيد هو الفاضل يعني: لا غير فيفيد الحصر والتوكيد أيضاً، ويفيد التمييز بين الخبر والصفة؛ لأنك إذا قلت: زيد الفاضل، يحتمل أن تكون الفاضل صفة لزيد، ويترقب المخاطب الخبر، زيد الفاضل ما شأنه؟ يتوقع الإنسان الخبر، فإذا قلت زيد هو الفاضل لم يحتمل أن تكون الفاضل صفة، بل تتعين أن تكون خبراً، وهل ضمير الفصل له محل من الإعراب؟ هو حرف في صورة ضمير وليس له محل من الإعراب، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء: ٤٠]، فقال: ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾، مما يدل على أنه ليس له محل من الإعراب، لو كان له محل من الإعراب لكان الضمير مبتدأ، والغالبون: خبر، ولهذا نقول في إعراب: ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾: «الواو» اسم كان، و«الغالبين» خبرها.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: ثبوت إنزال الله تعالى للتوراة، لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾.

الفائدة الثانية: شرف التوراة، حيث إن الله تعالى أنزلها من عنده، لكن كما تقدم في التفسير: أن المراد بالتوراة: التي لم تغير ولم تبدل.

الفائدة الثالثة: أن في التوراة هدى ونور، لقوله: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، وفي القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥] فالقرآن

كله هدى وكله نور قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وفي هذه الآية، قال الله تعالى في التوراة: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ وهذا التعبير بينه وبين التعبير القرآني بالنسبة للقرآن الكريم فرق عظيم؛ لأن التوراة جعل فيها هدى ونور، والقرآن جعله هو الهدى والنور.

الفائدة الرابعة: أن التوراة أصل للأنبياء الذين جاءوا من بعد موسى، لقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾، وعلى هذا فالشرائع التي أتت من بعد التوراة تعتبر تكميلاً للتوراة وتحقيقاً للعمل بها، ومن ثَمَّ نقول: هل الإنجيل داخل في ذلك؟ نقول: نعم الإنجيل مكمل للتوراة؛ لأن عيسى عليه الصلاة والسلام قال: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

فلو قال قائل: هل يجوز أن نقول هذه الآية من التوراة أو من الإنجيل؟

الجواب: إذا كانت منزلة من عند الله عزّ وجل فهي آية؛ لأنه كما تقدم: أن هذه الشرائع لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثلها، ولو أنكر البعض على من يقول هذه الآية من التوراة أو الإنجيل فهذا خطأ إلا إذا كان ينكرها خوفاً من الالتباس فلا بأس؛ لأن العامي إذا سمع هذا يظن أن التوراة والإنجيل قرآناً.

الفائدة الخامسة: جواز وصف الأنبياء بالإسلام، لقوله: ﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ والمراد هنا: الاستسلام الظاهر والباطن؛ لأن هناك إسلاماً ظاهرياً فقط، كما في قول الله تبارك وتعالى في قصة لوط: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦] فجعل

الذين في البيت من المسلمين، ومن المعلوم أن امرأة لوط ليست مسلمة بل هي كافرة، لكنها قد خانت زوجها فأظهرت الإسلام، ولهذا قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] فقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ ليس بفعل الفاحشة ولكن بإخفاء الكفر عنهما.

فالمهم أن الإسلام قد يطلق على من أظهر الإسلام وإن كان قلبه منطوياً على الكفر، لكن إسلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على عكس ذلك، إسلام الأنبياء هو استسلامهم لله ظاهراً وباطناً.

الفائدة السادسة: أنه لا عذر لليهود في الخروج عن شريعة الله؛ لأن الله تعالى قيض لهم الأنبياء الكثيرين يحكمون لهم بالتوراة، لكنهم عاندوا وكفروا.

الفائدة السابعة: أن أهل العلم ورثة الأنبياء في إظهار حكم الله والدعوة إلى شريعته، لقوله: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾.

الفائدة الثامنة: الثناء على أهل العلم، وأنهم هم حفظة شريعة الله، لقوله: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ وهذا أمر لا شك فيه، أن العلماء هم حفظة شريعة الله وهم ورثة الأنبياء، هم الذين يلزمهم الدعوة إلى الله على بصيرة، ونشر شريعة الله.

الفائدة التاسعة: أن كُتُبَ الله عزّ وجل هي أصل العلوم التي يدعو بها من حفظها من عباد الله، لقوله: ﴿مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ وعليه فتكون التوراة من كتب الله التي يجب علينا أن نؤمن بها.

الفائدة العاشرة: أن العلماء شهداء على شريعة الله موثوقون مؤتمنون، هذا هو الأصل، لكن قد يخرجون عن هذا الأصل، وهو: الشهادة على شريعة الله عزّ وجل التي ينشرونها بين الناس، لكن هل كل عالم كذلك؟

الجواب: لا، ولهذا نقول: العلماء ثلاثة أصناف: عالم ملة، وعالم أمة، وعالم دولة.

عالم الملة: هو الذي يحرص على حفظ الملة ونشرها بين الناس والدعوة إليها وهذا هو العالم حقيقة.

وعالم الأمة: هو الذي يرى ما يريده الناس فيفتيهم به ولو خالف الشرع؛ لأنه يريد أن يساير ويقبل رأيه ولا يبالي.

والثالث: عالم دولة: وهو الذي يرى ما تريده الدولة فيدعو إليه ويحكم به، ويحاول أن يلوي أعناق النصوص إلى ما تريده الدولة.

وقد ظهرت دعوة قبل سنوات تدعو إلى الاشتراكية[1]؛ بسبب تأثير الشيوعيين على بعض البلاد العربية، فظهرت دعوة الاشتراكية وتأميم الممتلكات، وصار بعض العلماء يحاولون أن يجدوا لهذا المنهج شيئاً يؤيده من القرآن والسنة، فصاروا يأتون بالآيات والأحاديث البعيدة عن مرادهم ليثبتوا هذا، حتى سمعنا من يقول: إن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم: ٢٨]، يعني: أنتم والعبيد الذين تملكونهم سواء، وهذا لا شك أنه تحريف؛ لأن معنى الآية: أن الله تعالى ضرب لنا مثلاً من أنفسنا:

---

(١) انظر كتاب «بطلان الاشتراكية» لفضيلة شيخنا المؤلف رحمه الله تعالى.

ـ هل السيد يرضى أن يشاركه عبده في خصائصه وحقوقه؟

الجواب: لا، قال تعالى: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم: ٢٨]، بناء على أنهم شركاء لكم وهذا لا يمكن أن تقروا به، فكذلك الرب عزّ وجل، هل يرضى أن يكون أحد من خلقه شريكاً له؟ لا يرضى، كما أنكم أنتم لا ترضون أن يكون عبيدكم شركاء لكم في الرزق، هذا معنى الآية.

واستدلوا أيضاً بأحاديث: «**الناس شركاء في ثلاث**»[1] وما أشبه ذلك، نسمي هؤلاء العلماء: علماء دولة، يعني يرون ما تريده الدولة فيصرفون الناس إليه ـ نسأل الله العافية ـ لكن العلماء الربانيين الذين استحفظهم الله على كتابه لا يمكن أن يسلكوا هذا المسلك.

الفائدة الحادية عشرة: تحريم خشية الناس في إضاعة شريعة الله، لقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ واعلم أن الله تعالى ذكر في القرآن الكريم سبباً لكون الإنسان يخشى الناس دون الله، فقال عزّ وجل: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥] الشيطان يأتي إلى ضعاف الدين وإلى ضعاف الهمة والحزم، يقول: لا تفعل هذا، فإذا فعلت تقوم عليك الأمة، تنكر عليك الأمم، فيخاف، والمؤمن حقاً لا يخاف يقول: ما دمت على بصيرة وعلى دين فأنا

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الإجارة، باب في منع الماء، حديث رقم (٣٤٧٧)، وأحمد (٥/ ٣٦٤) (٢٣١٣٢) عن رجل من أصحاب النبي، وعند ابن ماجه، كتاب الرهون، باب المسلمون شركاء في ثلاث، حديث رقم (٢٤٧٢) عن ابن عباس.

لا أخاف إلا الله عزّ وجل، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾.

لو قال قائل: متى يصدع الداعية بالحق ولا يخشى الناس، ومتى يكون الأمر فيه سعة، هذا إذا وجد من يصادمه؟

الجواب: إذا كان قصده من كتمان الحق الخوف على نفسه فهذا هو الذي يخشى الناس، أما إذا كان قصده من كتمان الحق الخوف على الحق وأنه لو جهر به ضاده الوالي الذي عنده وقمع هذه الدعوة وربما يتوصل الأمر إلى غيره، فهذا لا حرج أن يؤخر الدعوة إلى وقت يمكنه فيه أن يجهر بها.

الفائدة الثانية عشرة: أن المنحرف عن الدين وعن نشر العلم ينحرف لأحد سببين: السبب الأول: خشية الناس، والسبب الثاني: الطمع في الدنيا، وجه ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فلو أنك تأملت أسباب الانحراف، وأعني بذلك انحراف العلماء، لوجدته يدور على شيئين: إما الخوف من الناس، وإما طلب الدنيا والرئاسة والمال وما أشبه ذلك.

الفائدة الثالثة عشرة: أن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، لقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ واختلف العلماء رحمهم الله، هل المراد بهذا العموم الخصوص؟ يعني: أن المراد بذلك اليهود فقط؛ لأنهم لم يحكموا بما أنزل الله أو المراد العموم؟

منهم من قال: أن المراد بهذه الآية: اليهود؛ لأنها في سياق التثريب عليهم؛ لأنهم لم يحكموا بما أنزل الله فهم كافرون.

ومنهم من قال: إنها عامة؛ لأن لفظ «مَنْ» صريح في العموم، والصحيح أنه من حيث الحكم عامة، يعني: حتى لو نزلناها لفظاً على اليهود؛ لأن السياق في ذَمِّهِم، فإننا نقول: إذا ثبت هذا الحكم في اليهود ثبت في غير اليهود من باب العموم المعنوي الذي هو القياس، يعني إن قلنا: إن هذا عام أريد به الخاص، وأن المراد بذلك اليهود قلنا: هذه دلالة الآية لفظاً، لكن إذا قلنا بالعموم بغض النظر عن السياق، صارت الآية تدل لفظاً على الشمول لليهود، وغير اليهود، وعلى القول بأنها للخصوص، نقول: يلحق بذلك من لم يحكم بما أنزل الله من غير اليهود إلحاقاً معنوياً.

ولكن ليعلم أن من لم يحكم بما أنزل الله، إما أن يكون لطمع، وإما أن يكون لكفر بما أنزل الله، وإما أن يكون لعدوان وظلم على الغير.

فإن كان لطمع فإنه فاسق، كقاضٍ تنازع عنده رجلان، فأعطاه أحدهما رشوة فحكم بغير ما أنزل الله؛ طلباً للرشوة والطمع، هذا نقول: إنه فاسق.

الثاني: رجل تخاصم إليه رجلان، وكان بينه وبين أحدهما عداوة، فحكم عليه والحق معه، نقول: هذا ظالم معتدي، ليس له غرض في الحكم عليه، لكن يريد أن ينتقم منه؛ لأنه يكرهه أو بينه وبينه سوء تفاهم، وهذا أعظم وأشد من الأول؛ لأن الأول له منفعة قد تدعو النفس إليها، أما الثاني فليس له غرض إلا العدوان، فهو أشد وأعظم بلا شك.

الثالث: أن يحكم بغير ما أنزل الله كراهة لما أنزل الله، أو

اعتقاداً منه أن ما حكم به خير من حكم الله عزّ وجل، أو أنه مخير بين أن يحكم بما أنزل الله أو بغير ما أنزل الله، فهذا يكون كافراً خارجاً عن الإسلام؛ لأنه كره الإسلام أو ظن أن غيره أحسن منه، أو أن غيره مثله، والله عزّ وجل يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] أي: لا أحد أحسن من الله حكماً، فإذا حكم وهو يعتقد أنه مثل حكم الله، فقد كذب ما تدل عليه الآية، وهو قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ وإذا اعتقد أنه خير منه؛ فإنه أشر وأقبح من الذي قال: إنه مساوٍ له.

لو قال قائل: قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هل المعنى فأولئك هم الكافرون فيما حكموا فيه أو الكافرون الخارجون عن الملة؟

الجواب: هذا محل خلاف وقد تقدم، فمن العلماء من قال: إن قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هذا فيما حكموا به، كقول النبي ﷺ: **«اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت»**[1] مع أن هذا لا يخرج من الإسلام، فعليه يكون المعنى هم الكافرون فيما حكموا به فقط، لا الخارجون عن الملة، وقيل: هم الكافرون، أي: الموصوفون بالكفر المخرج عن الملة، ولكن الأدلة دلت على أن هذا مقيد بشروط:

الأول: أن يكون الحاكم عالماً بحكم الله، **والثاني:** أن يكون عالماً بمخالفة هذا الحكم لحكم الله، **والثالث:** أن يجعله

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة، حديث رقم (٦٧) عن أبي هريرة.

بديلاً عن حكم الله، **والرابع**: أن لا يرضى بحكم الله، فإذا تمت هذه الشروط صار حينئذٍ خارجاً عن الملة.

فإذا حكم بغير ما أنزل الله وهو لا يعلم بحكم الله، فإنه لا يكفر؛ لأن من شرط الحكم بالكفر أن يكون الإنسان عالماً به، فكيف إذا حكم بتأويلٍ ممن حرَّف الكلم عن مواضعه من علماء السوء؟ فيكون هذا أشد عذراً له وأبعد عن تكفيره.

وإذا قال: هو يعلم بحكم الله، وهو راضٍ بحكم الله لكنه يرى أنه لا يصلح في هذا الوقت مثلاً، قلنا: هذا كفر؛ لأن الشريعة الإسلامية باقية إلى يوم القيامة، فإن الذي شرعها علم ـ عزّ وجل ـ بما يُصلِح الخلق، وعلم أن محمداً خاتم النبيين، ولا بد أن تكون شريعته صالحة لكل زمان ومكان إلى آخر الدنيا، لكن يجب أن يُعَلَّمَ أولاً؛ لأنه قد يُلَبَّسُ على بعض الحكام ممن لا يعرف أحكام الشريعة فيأتيه جلساء السوء وقرناء السوء ويقولون: هذا يحتمل التأويل ويحتمل كذا، ويحتمل كذا، ثم يوردون العبارة المشهورة القيمة: «الشريعة الإسلامية جاءت بجلب المصالح ودفع المفاسد» ويتراءى لهم أن هذا الشيء صالح ثم يقولون للولاة: اجعلوه سنة واجعلوه نظاماً، مع أنَّ الإنسان قاصر النظر، قد يبدو له في هذه الحال أنه صالح لكن عواقبه فاسدة، فمتى علمنا أن الله حرم هذا الشيء أو أوجب هذا الشيء علمنا أن النتائج المثمرة في الواجب معلومة ولكنها قد تكون مجهولة لنا، معلومة في المآل، وكذلك المفاسد التي فيما حرم الله، قد لا تكون معلومة لنا في الحاضر لكنها تُعْلَمُ في المآل.

وهذه مسألة خطيرة للغاية؛ لأن من الناس من يقدم على التكفير مع انتفاء شروطه، ويحصل بذلك شر كثير، تمرد على الحكام، وتضليل للعامة، وفوضى في المجتمع، ودماء تراق بغير حق. واسأل مَنْ سلفك مِنْ الأمة، ماذا حصل من الخوارج الذين كَفَّروا معاوية ـ رضي الله عنه ـ ثم كفروا علياً رضي الله عنه وهم يقومون الليل ويتلون القرآن، وأخبر النبي ﷺ أن الصحابة وهم الصحابة، «**يحقر أحدهم صلاته مع صلاتهم وقراءته مع قراءتهم**»(١) ومع ذلك حصل من شرهم ما لا يعلمه إلا الله، ومن قرأ عنهم ـ وآخر الأمة كأولها ـ علم أن الخروج على الأئمة لا شك أنه مفسدة عظيمة، وأن بقاء الحكام على غير ما أنزل الله لا شك مضرة عظيمة، لكن الواجب أن يُدرأ أشد المفسدتين بأخفهما، فإذا جرت الدماء يصعب جداً إيقافها وأن تحقن بعد أن أريقت، لكنَّ إصلاح الحكام ربما يتحقق مع المران والمجالسة والمناصحة.

فلهذا أقول: إن المسألة خطيرة، وإن الواجب على الإنسان أن يدرس ما قاله أهل العلم في هذه المسألة دراسة خالية من العاطفة، كلنا نحب أن تكون كلمة الله هي العليا والله تعالى يعلم ذلك، وكلنا يحب أن يكف الشر عن الأمة، لكننا نعلم جيداً خطورة الوضع فيما إذا قيل: إن هذا الحاكم كافر وليس عندنا فيه من الله برهان.

فإذا وجدنا كفراً بواحاً صريحاً واضحاً عندنا فيه من الله

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٤١٤)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث رقم (١٠٦٤) عن أبي سعيد.

برهان، وطبقنا البرهان على الواقع وتبين أنه كفر، فهل يسوغ لنا أن نخرج على الإمام؟ حتى: لو قلنا: إنه يسوغ؛ فلا بد من شروط، أهمها: أن يكون لنا القدرة على إزاحته وأن ننظر ماذا يترتب على الخروج وفقاً للأصول العامة من الدين الإسلامي، أما أن نخرج عليه بدونها فلا يليق، وليس من الحكمة ولا من الشريعة. وهل أُمر المسلمون وهم مضطهدون في مكة أن يقاتِلوا؟ ما أمروا أن يقاتِلوا؛ لأنهم لا طاقة لهم بذلك، فإذا قدرنا أن هذا الحاكم كافر كفراً بواحاً عندنا فيه من الله برهان كالشمس، ورأيناه يسجد للصنم، فهل نخرج عليه؟

الجواب: لا نخرج، ومسألة الخروج هذه لا تجوز إلا بشروط، فأين القدرة الآن من هؤلاء الذين يخرجون فئات وفئات؟ ثم يحصل من الشر العظيم ما هو معلوم للجميع، وهذه الفئات أيضاً لا تتسلط على الحكومة نفسها بل تتسلط على الشعب المسكين الأعزل الذي لا حول له ولا قوة، فيقتلون النساء والصبيان ويدمرون البلدان بحجة أنهم يريدون أن تكون كلمة الله هي العليا، وهم بهذا الفعل ما حصلوا على المقصود ولا أثمروا ولا أنتجوا، إنما كان الضرر عظيماً مستطيراً، لذلك أكرر أن هذه المسألة من أخطر ما يكون في وقتنا الحاضر، فيجب وجوباً مؤكداً لازماً التثبت في هذا الأمر والتأني والنظر بالحكمة وإدراك العواقب وفقاً للأصول العامة من الدين الإسلامي، والله المستعان وهو حسبنا أن يقينا شر الفتن ويصلح أحوال المسلمين.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥].

قوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ «كتبنا»: أي: فرضنا، وكما قال تعالى في آية أخرى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣] فالكَتْبُ بمعنى الفرض، والكتابة نوعان: كتابة شرعية، وكتابة قدرية كونية، فما تعلق بالأمر والنهي الذي يفعله المكلف فهي كتابة شرعية، وما تعلق بالخلق والتكوين فهي كتابة قدرية، فمن الأول هذه الآية: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: ٤] هذا في القضاء، وقال في الكتابة: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١] هذه كتابة قدرية قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] والأمثلة كثيرة.

قوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾ أي: في التوراة، والنص على التوراة يتضمن توبيخ هؤلاء اليهود الذين يقولون: إنهم يعملون بالتوراة ولكنهم لا يطبقونها قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥].

قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ يعني: أن من قتل نفساً قُتل بها، كلمة (نفس): القاتل والمقتول لفظ عام في الموضعين، فلننظر هل شريعتنا على هذا أو تختلف؟ الأصل أنها على هذا، والدليل على هذا قول النبي ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا**

بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس»[١] هذا لفظ الحديث، وهذا لفظ الآية التي حكاها الله عزّ وجل عن التوراة أن النفس بالنفس، إذاً فالأصل أن من قتل نفساً قتل بها.

فلننظر مثلاً شاب مسلم قتل طفلاً مسلماً، يُقْتَلُ به؛ لأن النفس بالنفس، ورجل قتل امرأة يقتل بها، وعاقل قتل مجنوناً يقتل به، وكافر قتل مسلماً يقتل به؛ لأن الآية التي معنا تقتضي أنه يقتل به.

إذاً: كافر قتل مسلماً يقتل به، مسلم قتل كافراً يقتل به، نحن الآن نأخذ الأحكام من الأدلة التي بين أيدينا وهي قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ والحديث: «**النفس بالنفس**»[٢] والد قتل ولده يقتل به، ولد قتل والده يقتل به، حر قتل عبداً يقتل به، سيد قتل مملوكاً يقتل به، فكل قَتْل الأصل فيه أن تقتل النفس بالنفس، يبقى النظر هل هذا العموم خصص؟ نقول: نعم خصص، فإذا لم يثبت التخصيص في مسألة ما فالأصل العموم.

ولننظر كافر قتل مسلماً يقتل به لا شك، مسلم قتل كافراً لا يقتل به، ما الذي أخرجه من العموم؟ أخرجه من العموم ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يقتل مسلم بكافر**»[٣]، والتعليل أن المسلم طاهر عَبْد لله حقيقة، والكافر نجس متمرد مستكبر، والمسلم من أولياء الله، والكافر من أعداء الله، فكيف يكون هذا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ...﴾، حديث رقم (٦٤٨٤)، ومسلم، كتاب القسامة والمحاربين، باب ما يباح به دم المسلم، حديث رقم (١٦٧٦) عن ابن مسعود.

(٢) تقدم ص٣١٣.

(٣) تقدم ص٣٠٥.

نداً لهذا، أو بدلاً عنه، فالمسلم أعلى منزلة عند الله من الكافر، والإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فإذاً عندنا منقول ومعقول في أن المسلم لا يقتل بالكافر.

هل يقتل الرجل بالأنثى؟ نعم يقتل، الآية عامة، فيقتل الرجل بالأنثى، يعني إذا قتل رجل امرأة فإنه يقتل، فإذا قال إنسان: الرجل أشرف من المرأة وبه يقوم الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولايات والأحكام فهم القضاة وهم الولاة، وقد قال ﷺ: **«لن يفلح قوم ولَّوا أمرهم امرأة»**[(١)] فكيف تكون المرأة كفئاً للرجل فيقتل بها؟ نقول: عندنا عموم، وعندنا أيضاً دليل خاص، وهو أن جارية من الأنصار كان عليها أوضاح من ذهب أو فضة فقتلها يهودي، رَضَّ رأسها بين حجرين وأُدركت قبل أن تموت، فقيل لها: من فعل بك هذا؟ فلان فلان فلان حتى ذكروا اليهودي، فأشارت أن نعم، يعني: أنه هو الذي قتلها، فأخذوا اليهودي فاعترف، فأمر النبي ﷺ بالعدل: **«أن يرض رأسه بين حجرين»**[(٢)]، فرض رأسه بين حجرين قصاصاً، فهنا قُتِلَ رجل بامرأة.

فإذا قال قائل: الرجل ناقص عن هذه المرأة بالدين، فنقصه جعله يكون مكافئاً لها؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، حديث رقم (٤١٦٣) عن أبي بكرة.

(٢) رواه البخاري، كتاب الديات، باب سؤال القاتل حتى يقر، والإقرار في الحدود، حديث رقم (٦٤٨٢)، ومسلم، كتاب القسامة، باب ثبوت القصاص في القتل بالحجر وغيره من المحددات والمثقلات، حديث رقم (١٦٧٢) عن أنس بن مالك.

قلنا: هذا لا أثر له؛ لأن الدين إذا كان القاتل هو الأدنى لا يؤثر شيئاً، أصلاً لأن المسلم إذا قتله الكافر قتل الكافر.

إذا قتل عاقل مجنوناً يقتل به، لكن لو قال قائل: إذا قتل العاقل مجنوناً أراح الناس منه ومن شره، قلنا: يقتل للعموم.

قتل والد ولده يقتل به، حتى يوجد دليل، طلبنا دليلاً، ما وجدنا دليلاً صحيحاً، وحديث: «**لا يقتل والد بولده**»[1] ليس له إسناد مستقيم، والتعليل بأن الوالد كان سبب وجود الولد فلا ينبغي أن يكون الولد سبباً في موته، هذا التعليل عليل بل هو تعليل ميت ليس فيه حراك، وإلا فمن كان السبب في الهلاك؟ الوالد هو الذي قتل، ولهذا لو قيل: إن قتل الوالد بالولد أولى من قتل الأجنبي بأجنبي؛ لأن قتل الوالد لولده ارتكاب شيء منهي عنه بخصوصه في القرآن قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

ثانياً: قتل الوالد لولده من أكبر قطيعة الرحم وهذه جناية، فكيف يكون ارتكاب هذا الوالد لهذه الجناية؟ ومع ذلك نقول: لا قصاص، فإذا تبين أن المخصص لا يصح نقلاً ولا يصح عقلاً وجب أن يكون الحكم عاماً حتى في قتل الوالد بولده.

ولد قتل والده، يقتل ولا إشكال؛ لأن قتله لوالده من أكبر العقوق فلا ينبغي أن يتسامح فيه.

مملوك قتله سيده يقتل به، مالك قتل عبده يقتل به، هذا الأصل والفرع، لعموم «النفس بالنفس»؛ ولأنه جاء في الحديث

---

(١) تقدم ص٣١٢.

عن النبي عليه الصلاة والسلام: «**من قتل عبده قتلناه**»[1]، وإذا قتل الحر عبد غيره قُتل به؛ لأنه إذا قتل بعبده الذي هو يملكه فقتله بعبد غيره من باب أولى.

إذاً: لم يصح الآن في تخصيص هذه الآية إلا أنه لا يقتل مسلم بكافر، والباقي على عمومه، ومن ادعى إخراج شيء من هذا العموم، قلنا: مرحباً، هاتِ الدليل الذي يقنع، وحينئذٍ نقول: آمنا بالله، والشريعة يكمل بعضها بعضاً، فما عمم فيها في مكان وخص في مكان أخذنا به.

لو قال قائل: هل يقتل الكبير بالصغير والصغير بالكبير؟

الجواب: الصغير لا يقتل بالكبير، يعني: لو أن صغيراً دون البلوغ قتل كبيراً لا يقتل؛ لأنه مرفوع عنه القلم، ولأنه ليس له قصد صحيح، وكذلك يقال في المجنون إذا قتل العاقل فإنه لا يقتل.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ يعني: أن من قلع عين شخص قلعنا عينه، فعَيْنٌ بعَيْنٍ، ولا بد من المماثلة، فاليمنى باليمنى، واليسرى باليسرى؛ لأن التعريف في قوله: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ يدل على أن الثاني هو الأول، وهذا يقتضي المماثلة، ولأنه جاء بالباء الدالة على البدل، والبدل لا بد أن يكون مساوياً للمبدل منه.

مثاله: رجل قلع عين شخص ضعيف النظر، والقالع نظره قوي تقلع عينه، كما لو قتل الصحيح مريضاً فيقتل به، رجل سليم العين قلع عين شخص العوراء لا تقلع؛ لأنها لا تبصر، فاقدة المنفعة، أي: ميتة.

---

(١) تقدم ص٣١٤.

رجل أعور ليس له إلا عين يمنى قلع عين سليم اليمنى وله - أي: الأعور - عين يمنى؟ العلماء مختلفون في هذا، منهم من قال: تقلع عين الأعور، وأخذ بالعموم، في قوله: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ فهذا الرجل الأعور الذي ليس له إلا عين يمنى قلع عين رجل سليم العينين، اليمنى عمداً فتقلع.

فإذا قال قائل: إنكم إذا قلعتم عينه الباقية صار أعمى؟

نقول: من الذي جعله يتعدى على هذا الرجل ويقلع عينه؟ هو الذي جنى على نفسه، ونحن لم نجنِ عليه، وقال بعض العلماء: إنه لا تقلع عينه؛ لأن ذلك يؤدي إلى فوات منفعة لا يوجد لها نظير في البدن وهي الإبصار، لكن بعضهم قال: يُعطى الدية كلها، الأعور الآن لما قلع عين الصحيح اليمنى وهو له عين يمنى، نقول: لا نقلع عين الأعور، لكن تلزمه الدية كاملة عن عين الصحيح العينين، مع أن العين فيها نصف الدية، لكن هنا تلزمه الدية كاملة؛ لأن إبقاء عينه عوضاً عن إبصار كامل بالنسبة للأعور، والإبصار الكامل فيه دية كاملة، وبعضهم يقول: ليس فيها إلا نصف الدية، مطلقة.

والذي يظهر أن الصواب أحد أمرين: إما أن تقلع عينه، ويقال: أنت الذي جنيت على نفسك، وإما أن لا تقلع لكن يلزمه للآخر دية كاملة فيضاعف عليه الغرم.

قوله: ﴿وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾ الأنف له قصبة من العظام، وله أَرْنَبَةٌ من العظام الرقيقة، فهل المراد العظام الرقيقة أو كل الأنف؟ بعض العلماء يقول: كل الأنف، إذا قص الأنف من عند الجبهة قصصنا أنفه من عند الجبهة، وبعضهم يقول: لا يمكن أن يكون

أنف بأنف إلا إذا كان القطع من الجانب اللين من الأنف؛ لأنه هو الذي يمكن الاستيفاء منه؛ لأن له حداً فاصلاً بَيِّناً، يسمى المارن، أي: مارن الأنف، وهو ما لان منه، لكن القول الراجح الأول: أنه يقتص من الأنف من حيث كان موضع الجاني، لا سيما في وقتنا الحاضر، فالطب الآن متقدم ولا يمكن أن يكون فيه حيف؛ لأن الذين قالوا: لا يقتص من العظم، قالوا: يخشى أن يكون فيه حيف فيتقطع، العظم ولا يكون الاقتصاص تاماً، نقول: الآن الحمد لله في وقتنا الحاضر الطب متقدم يمكن أن يقتص بالشعرة.

إذا قلنا بهذا فهل المعتبر المساحة أو النسبة؟ إذا قلنا: المساحة، وكان المجني عليه أنفه كبيراً، والجاني كان أنفه صغيراً، وقطع نصف أنفه الكبيرة، ونصفه يقابل أنف الثاني بالكامل، وربما زيادة أيضاً فهل يعتبر بالمساحة أو بالنسبة؟ العبرة بالنسبة، وقد نجد أن بعض الناس يكون عنده حاسة شم يشم الروائح الطيبة والخبيثة، وآخر لا يشم، ولو كان عنده أطيب الروائح أو أخبث الروائح لا يشم، فهل إذا قطع الرجلُ الذي يشم أنفَ من لا يشم، فهل نقطع أنفه أو لا؟ يقطع؛ لأن الآية عامة ﴿وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾، ولأن الشم ليس في نفس الخيشوم بل الشم بالمخ ليس بالأنف، ولهذا يوجد أناس انقطعت آنافهم في حرب أو آفة أو غير ذلك وهم يشمون، وأناس آنافهم سليمة ومع ذلك لا يشمون، إذاً الأنف الأشم وغيره سواء.

قوله: ﴿وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾ الأذن أيضاً تقطع بالأذن لا بد من المماثلة أيضاً، اليمنى باليمنى واليسرى باليسرى سواء كانت

صماء أو غير صماء؛ لأن السمع ليس في نفس الغضاريف لكنه من الداخل، فإذا قَطع شخص أذن آخر فإنه يُقطع به.

إذا كان أذن القاطع تتحرك وأذن المقطوع لا تتحرك، هل تقطع أذن القاطع؟

على كل حال تقطع، وقد ذكروا لنا أن أناساً يحركون آذانهم تحريكاً كبيراً ليس صغيراً، لكن أكثر الناس لا يستطيعون؛ لأن هذه الحركة غير مقصودة والفائدة منها قليلة، وإلا لقلنا: إن هذا مثل الشلاء والسليمة، على أن الفقهاء رحمهم الله قالوا: إن الشلل في الأذن والأنف لا يؤثر؛ لأن الأنف والأذن الصورة باقية ولو كان هناك شلل.

قوله: ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ «الباء» هنا لا شك أنها بدل أو عوض، فلا بد أن يكون السن المقلوع مماثل لسن الجاني فمثلاً هل تقلع الثنية بالرباعية؟

الجواب: لا، لعدم الاتفاق، والباء كما تقدم أنها للعوض أو للبدل، لا يمكن أن تكون الرباعية بدلاً عن الثنية أو العكس، والثنايا هما السنان المتلاصقان وما وراءهم الرباعية.

فإذا قلع بعض السن يعني: كسر بعض السن، هل يقتص منه؟ نعم يقتص منه ويقدر بالنسبة، إذا كان الجاني قد برد سن المجني عليه حتى ذهب نصفه، نبرد سن الجاني حتى يذهب نصفه، فإذا قال الجاني: يا جماعة ارأفوا بي، قصوا السن بدلاً عن البرد بالمبرد، هل نطيعه؟ لا نطيعه؛ لأنه كما آلم المجني عليه فإننا نؤلمه، ولهذا لو قال لنا في مسألة العين أو في مسألة الأذن: بَنِّجُوني قلنا: لا نبنجك كما أنك فعلت بالمجني عليه نفعل بك.

بالنسبة للأذن: إذا أخذ بعض الأذن، ما دام يمكن القصاص فإنه يجب القصاص، وهو العدل.

قوله: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ لما ذكر الله تعالى الأعضاء ذكر الجروح لكن بقي أعضاء ما ذكرت، مثل اليدين والرجلين والأصابع، لكن يثبت الحكم فيها بالقياس على ما ذكر.

قوله: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ كلمة «الجروح» عامة تشمل كل جرح، لكن كلمة قصاص تقيد هذا العموم، إذ إن المفهوم منها أن الجروح قصاص فيما يمكن الاقتصاص منه، والفقهاء رحمهم الله يقولون: لا يمكن القصاص في جرح إلا في جرح ينتهي إلى عظم، والجرح الذي لا ينتهي إلى عظم لا يمكن القصاص منه، فمثلاً الجرح في الرأس حتى يصل إلى عظم الرأس، يمكن فيه القصاص، الجرح في الساق حتى يصل إلى العظم يمكن، في الفخذ كذلك، في الظهر كذلك، في الأضلاع كذلك، لكن في البطن لا يمكن هذا على ما سبق، وعندي أنه في الوقت الحاضر ممكن؛ لأن الأطباء عندهم من الحذق ما يمكن أن يُقَدِّروا الجرح بكل دقة، وإذا كان الله عزّ وجل لم يُبَيِّن موضع الجروح بل قال: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ فنقول: متى ثبت إمكان القصاص في أي جرح في أي موضع، فإنه واجب.

وهل القصاص يكون بالمساحة أو بالنسبة؟

هذه عندي فيها إشكال، مثل رجل بطنه كبير وآخر بطنه صغير، هل نعتبر المساحة أو النسبة؟ اعتبار النسبة، واللهِ أقرب إلى العدل، يعني: إنساناً جرح بطن طفل صغير، مساحة الجرح نصف سنتيمتر من بطن الصبي والسنتيمتر أظنه الأرقام التي على

المسطرة، فنصف السنتيمتر أو السنتيمتر من بطن الصبي كبير بالنسبة لبطنه، لكن الجارح هذا بطنه ما شاء الله بطن بعير، إذا قلنا بالمساحة لم يؤثر في بطنه شيئاً، وأيضاً قد يكون المجني عليه ذراعه طويلة لو أخذنا بالمساحة لزم أن نأخذ كل ذراع الجاني، ولكن إن كان القطع من النصف قلنا: خذ النصف، وإذا كان من الثلث قلنا: خذ الثلث، هذا هو القول الراجح، فإذا لم يمكن فالصواب: أن للمجني عليه أن يطلب القصاص مما دونه من المفصل، وله أن يطلب أرش الزائد أيضاً، هذا هو القول الراجح؛ لأن الله تعالى أمر بالعدل وهذا هو العدل فالظاهر والله أعلم أن الجروح بالنسبة.

وقوله: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾: يعني: أنه يقتص من الجاني بمثل ما جنى على المجني عليه، فإذا كان جرحه في جانب الرأس الأيمن يقتص منه في جانب الرأس الأيمن، وإذا كان جرحه في الجانب الأيسر يقتص منه في الجانب الأيسر، وهلمَّ جرًّا.

قوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ﴾ من تصدق به: أي: بالقصاص، وهذا يحتمل معنيين:

المعنى الأول: أن يتصدق المجني عليه بالقصاص فلا يقتص من الجاني ويكون هذا كفارة له؛ لأن الصدقة كفارة.

المعنى الثاني: تصدق به أي: بالقصاص، أي: بذل نفسه ليقتص منه فيكون ذلك كفارة له؛ لأنه إذا اقتص منه في الدنيا لم يلحقه الجاني به في الآخرة.

وقوله: ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ أما كونه كفارة للمتصدق الذي

هو المجني عليه فظاهر؛ لأنه أحسن إلى أخيه وتصدق عليه بأعز شيء عليه وهو نفسه إذا كان ذلك بالنفس، وأما كونه كفارة للجاني؛ فلأنه سلم نفسه بسهولة فيكون تسليمه نفسه ليقتص منه كفارة لجريمته وجنايته ولا يعاقب به؛ إذ لا يجمع الله تعالى على الإنسان عقوبتين، عقوبة الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ أي: للمتصدق؛ سواء كان المجني عليه أو الجاني، والكفارة: مأخوذة من الكَفْر وهو الستر؛ لأن الشيء إذا غطى آثار شيء آخر صار كالساتر له، ولذلك كان لليمين كفارة، وكانت للظهار كفارة، وكان للقتل كفارة؛ لأن الكفارة تستر ما يحصل من آثام الذنوب وتمحوها.

قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ نقول في هذه الجملة كما قلنا في الجملة الأولى: هل المراد من لم يحكم بما أنزل الله من اليهود أو هو عام؟ في هذا قولان للمفسرين كما تقدم:

منهم من قال: إنها في اليهود؛ لأن سياق الآيات فيهم، وعلى هذا القول يمكن أن يلحق بهم من فعل ذلك من المسلمين بطريق القياس.

القول الثاني في المسألة: أن الآية عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله فهو ظالم سواء كان من المسلمين أو كان من اليهود أو من غيرهم، وهذا يساعده اللفظ، والأول يساعده السياق؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾ فالكلام عن اليهود، ولكن الحكم في الحقيقة لا يختلف فيمن لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين؛ لأننا نقول: إن شمله اللفظ فقد شمله

الحكم بالدليل اللفظي، وإن لم يشمله فقد شمله الحكم بالدليل المعنوي وهو القياس.

وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ «هم»: ضمير فصل، وتقدم أن ضمير الفصل حرف لا محل له من الإعراب، لكن يؤتى به للفصل بين الصفة والخبر، أي: بين النعت والخبر، فإذا قلت: زيد الفاضل تريد أن تخبر عنه بأنه «الفاضل»، فإنه يحتمل أن تكون الفاضل نعتاً لزيد، والخبر لم يأتِ بعد، فإذا قلت: زيد هو الفاضل، تعين أن يكون خبراً ولهذا سمي ضمير فصل، وفائدته ما ذكرنا، وفائدة أخرى: التوكيد، وفائدة ثالثة: الحصر.

هل نقول: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يعني لا يوجد أحد ظالم إلا هؤلاء بناء على أن ضمير الفصل يفيد الحصر؟

الجواب: لا، هذا حصر نسبي أي: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في عدم تطبيق ما ذكر في الآية، وإلا فإن الكافرين هم الظالمون، والمفتري على الله كذباً ظالم، وهو أظلم الناس، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [يونس: ١٧].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الله فرض على اليهود القصاص، لقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾.

لكن إذا قال قائل: كيف نقول ذلك وقد فسرنا قوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ بأن المجني يعفو عن الجاني؟

نقول: نعم، فرض الله عليهم القصاص أو العفو مجاناً، يعني هذه الأمة رخص الله لها في القصاص والعفو مجاناً وأخذ الدية والمصالحة، كل هذا ـ والحمد لله ـ من سعة شريعة هذه

الأمة، وقد ذكر بعض العلماء أن اليهود يفرض عليهم القصاص، فالقصاص فرض عليهم، والنصارى بالعكس العفو فرض عليهم حتى قيل: إن من أصول شريعتهم: أن من ضربك على الخد الأيمن فأدر له الخد الأيسر، ولا شك أن هذا فيه نوع من الإذلال، لكن على كل حال لا ندري عن صحة هذه المقالة، فالله أعلم، لكن يقال: إن اليهود يفرض عليهم القصاص بخلاف النصارى، والعلة واضحة؛ لأن اليهود عتاة طغاة بغاة، ولا يليق بهم إلا أن يقتل القاتل حتى يكون ذلك نكالاً.

الفائدة الثانية: قبح ما فعله بنو النضير مع بني قريظة، بنو النضير يرون أنهم أشراف اليهود، ولذلك إذا قتل النضيري قرظياً فإنه لا يقتل به، وإذا قتل القرظي نضيرياً فإنه يقتل به ـ سبحان الله ـ كلهم يهود لكن يقولون: بنو النضير أشرف وأفضل، وإذا قتل النضيري قرظياً فله نصف الدية إذا لم يقتص منه وإن كان العكس فله الدية كاملة، هكذا ذكر المفسرون في هذا الموضع، فبين الله تعالى أنهم جائرون بهذا الحكم وأن المكتوب عليهم في التوراة أن النفس بالنفس، فيكون المراد بالكَتْبِ هنا بيان كيفية القصاص لا وجوب القصاص، هذا الظاهر من السياق، وقيل: إن المراد أن الله فرض عليهم القصاص وأنهم إما أن يقتصوا وإما أن يعفوا.

الفائدة الثالثة: أن القصاص ثابت في النفوس ولو اختلف الناس في السن والطول والقصر والعلم والعقل والذكاء وغير ذلك، وجه ذلك: العموم، ولهذا لو أن رجلاً شاباً عالماً كريماً حسيباً قتل طفلاً في المهد فإنه يقتل به؛ لأنه لا عبرة بالاختلاف في هذه الأشياء وذلك للعموم.

الفائدة الرابعة: جريان القصاص في الأعين، لقوله: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾.

الفائدة الخامسة: جريان القصاص بين الآناف، لقوله: ﴿وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾.

الفائدة السادسة: جريان القصاص في الآذان، لقوله: ﴿وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾.

الفائدة السابعة: جريان القصاص بين الأسنان، هذه أربعة أعضاء، وبقي أعضاء منها: اليدان، والرجلان، واللسان، وغيرها من الأعضاء، فهل الحكم فيها كالحكم في هذه الأعضاء؟

الجواب: نعم، الحكم فيها كالحكم في هذه بالقياس الجلي الواضح.

وإنما ذكر الله عزّ وجل هذه الأعضاء: العين والأنف والأذن والسن لأن اليهود يخالفون في القصاص في هذه الأعضاء، فنص عليها لوقوع المخالفة فيها، أقول: لعل ولا أجزم بهذا؛ لأن الله أعلم بما أراد في كتابه، لكن نعلم أن ما سواها من الأعضاء يكون مثلها، فمثلاً: الإصبع بالإصبع، فيؤخذ الخنصر بالخنصر والإبهام بالإبهام، وما بينهما كذلك، القدم بالقدم، والكف بالكف، والذراع بالذراع، وهلمَّ جرًّا.

لكن هل يشترط أن يكون القطع من مفصل أو لا يشترط؟

في هذا خلاف بين العلماء: منهم من قال: لا بد أن يكون القطع من مفصل، وإذا لم يكن من مفصل فلا قصاص مطلقاً، مثلاً: الذراع مفصله المرفق من جهة العضد، والكف من جهة اليد، فإذا قطع الجاني الذراع من النصف فالقطع الآن ليس من

المفصل، فعلى قول من اشترط أن يكون القطع من مفصل لا يقطع، حتى لو قال المجني عليه: اقطعوا هذا الرجل من الكف وأنا عفوت عن الزائد، لا يُقطع لعدم توفر الشرط، حتى لو قال مثلاً: اقطعوا من الكف وأعطوني أرش الزائد أرضى بهذا، نقول: لا يُقطع، ولكن الصواب أن يقال: بل يقطع لوجوب القصاص، لكن بشرط: أن يمكن القصاص.

فإذا قال المجني عليه: اقطعوه من الكف والزائد أعطوني أرشه، نقول: له الحق في ذلك، ومن باب أولى إذا قال: اقطعوه من المفصل وأنا متنازل عن الزائد فإنه من باب أولى، ودليلنا في هذا الذي رجحناه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، فمتى أمكن العدل وجب الأخذ به.

إذا قطع ذكر إنسان هل يقطع ذكره أم لا؟

الجواب: يقطع ذكره، لكن إذا قُدِّر أن المقطوع ذكره كان عقيماً والقاطع سليم، هل يقطع أو لا؟ يقطع، نظيره أذن الأصم، لو أن شخصاً قطع أذن أصم وهو يسمع أي: القاطع فإنها تقطع أذنه؛ لأن نفس العضو هو العضو، والعقم شيء زائد بخلاف الأشل والصحيح، أنه لو قطع يداً شلَّاء وهو سليم اليد فإنها لا تقطع يده لفوات المنفعة في اليد الشلاء وهي أمر مهم.

الفائدة الثامنة: أن جميع الجروح إذا أمكن الاقتصاص فيها فالحكم ثابت أعني القصاص، لعموم قوله: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ وكان السابقون من العلماء يقولون: إنه لا يمكن القصاص في الجروح إلا إذا انتهى الجرح إلى عظم، وهذا هو منتهى العلم في ذلك الوقت، لكن في وقتنا الحاضر يمكن أن يقتص من الجرح

بما دون الشعرة في أي موضع كان، فإذا أمكن القصاص وجب القصاص، هذا هو العدل ودليلنا هذه الآية العظيمة وهي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

لو قال قائل: غير الجروح هل يقتص فيها، كاللطمة والضربة بالعصا وما أشبه ذلك؟

اختلف في هذا العلماء: منهم من قال: إن اللاطم لا يلطم، لكن يؤخذ منه الحق العام، ويكون أمره إلى ولي الأمر يقدر ما يراه مانعاً من العدوان، وعللوا ذلك بأنه لا يمكن القصاص في اللطمة؛ لأن ربطها بالشدة والقوة أو بالعكس صعب جداً، وأيضاً ربما يكون المجني عليه يده كبيرة، وذاك يده صغيرة، فلما ضرب المجني عليه أصابت الضربة نصف خده، والثاني يده كبيرة إذا ضربه تحيط يده بكل الخد فيختلف الحكم، يعني: أنه لا يمكن القصاص، لكن بعض العلماء يقول: إن القصاص ممكن؛ لأن الإنسان في مسألة الضربة واللطمة وما أشبه ذلك لا يريد مجرد القصاص بل يريد أن يتشفى بما يصيب ضاربه من الألم، وإنما يريد أن يتشفى بما يصيبه من الإذلال والإهانة، ولهذا لو كانت المسألة من باب المزح وضربه على وجهه بقوة فلن يطلب القصاص لكن إذا كانت المسألة من باب المغالبة فلا شك أن في اللطمة إذلالاً، فيقول: أنا لا تهمني اللطمة غاية ما هنالك أنه تَفَرَّغ الدم ثم رجع؛ لأن الدم من شدة الضربة يتفرغ حتى يكون محل الضربة أبيض أحياناً، لكن الذي يهمني أنه أذلني فأنا أريد أن أذله، فعلى كل حال في هذه الحال ينبغي أن ينظر إلى رأي القاضي، والقاضي إذا رأى أن في إهانة المعتدي ولو بضربة خفيفة نوع من التشفي فليفعل.

كذلك أيضاً بالنسبة للضربة بالعصا، هل يقتص منها؟ نقول: أما بالعصا التي ضربه بها فهذا يمكن لكن يبقى النظر في شدة الضربة، فقد يضربه بسوط دقيق ثم يأتي بخشبة يريد أن يقتص، هذا لا يمكن، يبقى النظر فيما إذا ضربه بمثل ما ضربه به، فهل يمكن القصاص أو لا يمكن؟ ينبني هذا على ما سبق، أنه ليس المهم أن يضربه بما يؤذيه، أو ما أشبه ذلك، المهم أن يذله.

ويمكن أن نتعرض أيضاً لمسألة الثوب، لو شق ثوب إنسان هل يقتص منه بشق ثوبه؟ هذه فيها خلاف أيضاً، من العلماء من يقول: إذا شق ثوبه ضمنه إما بالمثل وإما بالقيمة، إن أتلفه حتى لا يستفاد منه فبالمثل إلا على المذهب كما تقدم، وإن شقه شقاً يمكن الانتفاع مع وجوده فإنه يُقَوَّم، والذين قالوا: بالقصاص في مثل الضربة واللطمة وشق الثوب، استدلوا بالعموم أي: عموم الآيات: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، والذين منعوا قالوا: إن هذا لا يمكن فيه القصاص؛ لأنه صعب التقدير، إذا قلنا بالقول الراجح: أنه يجوز أن يشق ثوبه كما شق ثوبه، فهنا سؤالان:

السؤال الأول: إذا اختلف الثوبان بأن كان أحدهما جديد والثاني قديم، أو كلاهما جديد أو أحدهما من النوع الجيد والثاني من النوع الرديء هل يفعل؟ هذا يرجع إلى ما ذكرنا، هل الذي طلب القصاص أراد المبادلة والمعاوضة، أو أراد إذلال الذي شق ثوبه؟ الغالب أنه الثاني وبناء على ذلك نقول: له أن يشق ثوبه ولو كان ثوب الجاني أعلى من ثوب المجني عليه قدراً ووصفاً.

السؤال الثاني: إذا قلنا بذلك، فهل يقدر بالمساحة أم بالنسبة؟ والفرق بين النسبة والمساحة لو كان الجاني ثوبه طويل والمجني عليه ثوبه قصير، وشق منه مقدار إصبع لو قلنا بالمساحة الذي ثوبه قصير الإصبع يأخذ منه مساحة، وذاك يكون قليلاً، إذاً: نقول: لا بد أن تكون بالنسبة؛ لأننا لو قلنا بالمساحة لم نتمكن من المماثلة.

الفائدة التاسعة: الحث على تسليم الجاني نفسه للمجني عليه، أو لأوليائه إن كان بالقتل لقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾.

الفائدة العاشرة: الحث على العفو عن الجاني، لقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾.

الفائدة الحادية عشرة: حث الجاني على تسليم نفسه وأن ذلك يكون كفارة له.

فإن قال قائل: تسليم نفسه كفارة له باعتبار حق أولياء المقتول، فما الحكم بالنسبة لحق المقتول الذي قطع عليه القاتل حياته؟

الجواب: إذا علم الله صدق توبة القاتل فإن الله سبحانه وتعالىٰ يتحمل عنه حق المقتول فيرضيه.

الفائدة الثانية عشرة: أن من لم يحكم بما أنزل الله فهو ظالم، لقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

الفائدة الثالثة عشرة: أن من لم يعلم حكم الله فحكم جهلاً منه فليس بظالم، لكن يقال: يجب عليه إذا علم أن يرجع إلى الحق ويحكم بما أنزل الله.

فإن قال قائل: هل بَيْنَ هذا الوصف ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وبين قوله في الآية السابقة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النساء: ١٥١] هل بينهما تعارض بمعنى هل هما متباينتان أو مدلولهما واحد؟

الجواب: قد تقدم أن من العلماء من قال: هما متباينتان، ومنهم من قال: إن مدلولهما واحد، فمن قال: إنهما متباينتان، قال في الأولى: إذا كان الحامل للحاكم بغير ما أنزل الله العدول عما أنزل الله، وأن غيره خير منه للإنسانية فهذا كافر سواءً حكم أم لم يحكم، لكن عدم حكمه دليل ما في قلبه.

وأما من حكم وهو يعتقد أن حكم الله هو الحق، وأنه أنسب للعباد من حكم الطاغوت لكنه أراد أن يعتدي على المحكوم عليه لعداوة بينه وبينه فهذا ظالم.

أما من قال: إنهما متفقتان ولا تباين بينهما فيقول: إن الكافر ظالم لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وعلى هذا فالوصفان متفقان على موصوف واحد، لكن الأول أظهر، وأن لكل وصف محلاً خاصاً.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦].

قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ ﴿قَفَّيْنَا﴾ أي: أرسلنا عيسى ابن مريم قافياً لمن سبقه، أي: متبعاً لمن سبقه، مأخوذ من القفا؛ لأن المتبع لآثار من سبقه يمشي في قفاه،

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: على آثار الرسل السابقين ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وهو آخر أنبياء بني إسرائيل وليس بينه وبين النبي ﷺ رسول، ولهذا جعله قافياً لمن سبقه، ولو كان هناك نبي بعد عيسى لكان هو المقفى، ونسب إلى أمه؛ لأنه ليس له أب.

قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من عيسى، يعني: حال كونه مصدقاً ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، وتصديقه لما بين يديه من التوراة له معنيان:

المعنى الأول: أنه يصدق التوراة ويشهد أنها حق.

المعنى الثاني: أنه يصدق خبرها ويشهد بوقوع ما أخبرت به حيث كان عيسى ابن مريم عليه السلام مذكوراً فيها.

وقوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لما سبقه ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وهي الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه الصلاة والسلام، فالتوراة والإنجيل كل منهما كتاب لبني إسرائيل؛ لأن الرسول يرسل إلى قومه خاصة ما عدا النبي ﷺ.

قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ أي: وأعطيناه الإنجيل زائداً على تصديق ما بين يديه من التوراة، فتكون شريعة عيسى مكونة من شريعة التوراة وشريعة الإنجيل، ولهذا لا يعتبر الإنجيل كتاباً مستقلاً بل هو تابع للتوراة، ليس فيه من الأحكام إلا شيء قليل، لكن غالبه مواعظ وقصص وعبر.

قوله: ﴿فِيهِ﴾: أي: في الإنجيل، ﴿هُدًى﴾ أي: علم، ﴿وَنُورٌ﴾ أي: أثر نافع يستنير به القلب.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ قوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾ هذه: عائدة على الإنجيل؛ لأن جملة ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ جملة

حالية ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ معطوف على هذه الجملة الحالية فهي حال من الإنجيل، ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ الأولى عائدة على عيسى، فيكون عيسى مصدقاً لما بين يديه من التوراة وكذلك الكتاب الذي نزل عليه وهو الإنجيل.

قوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بالنصب معطوفة على ﴿مُصَدِّقًا﴾ والمعطوف على الحال حال كما تقول: جاء زيد راكباً ومسرعاً وضاحكاً وما أشبه ذلك، وكلمة «هدى» الثانية من باب التوكيد، فـ «هدى» الأولى هي الثانية، أما «النور» فهو ما يحصل من آثار هذا العلم، والمعنى: جعل الله عزّ وجل هذا الإنجيل هدى وموعظة، ولهذا أكثر ما فيه المواعظ والعبر والقصص، أما الأحكام فغالبها مستمد من التوراة، والموعظة ما تتعظ به القلوب: وهي الإخبار المقرون بالترغيب والترهيب، فكل خبر قُرن بترغيب أو ترهيب فإنه موعظة كما كان الصحابة يقولون: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون»[1].

وقوله: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين اتقوا الله عزّ وجل، وتقوى الله تعالى هي امتثال أمره واجتناب نهيه، وسميت تقوى؛ لأن الإنسان يتقي بها عذاب الله تعالى.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، حديث رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، حديث رقم (٤٤)، وأحمد (٤/١٢٦) (١٧١٨٢) عن العرباض بن سارية رضي الله عنه.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن عيسى عليه الصلاة والسلام آخر الأنبياء، لقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وليس بعده نبي يقفوه إلا محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي عليه الصلاة والسلام.

الفائدة الثانية: أن من ليس له أب ينسب إلى أمه؛ لأن الله تعالى ينسب عيسى ابن مريم إلى أمه؛ لأنه ليس له أب.

فإن قال قائل: ما مثال الذي ليس له أب؟

قلنا: له أمثلة منها أن يزني رجل بامرأة فتأتي منه بولد، فهنا الولد ليس للزاني، لقول النبي ﷺ: **«وللعاهر الحجر»**[1] فلا ينسب إلى الزاني ولا يرث منه ولا يرثه الزاني ولا يتحمل عنه العقل ولا غير ذلك، المهم أن هذا ليس له أب.

ومنها: أن يلاعن الرجل امرأته لاتهامه إياها بالزنا وينتفي من ولدها، فيقول: ليس الولد مني، فحينئذٍ يكون له أم، وليس له أب.

واختلف العلماء رحمهم الله فيما لو استلحق الزاني الولد المخلوق من مائه وليس له معارض هل يلحق به أو لا؟ فمنهم من قال: إنه لا يلحق به، لعموم قوله ﷺ: **«وللعاهر الحجر»**[2] ومنهم من قال: بل يلحق به إذا لم يكن له منازع؛ لأنه ولده

---

(١) رواه البخاري، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب للعاهر الحجر، حديث رقم (٦٤٣٢)، ومسلم، كتاب الرضاع، باب الولد للفراش وتوقي الشبهات، حديث رقم (١٤٥٧) عن عائشة.

(٢) تقدم الحديث السابق.

قدراً وليس له منازع شرعاً، فيلحق به شرعاً كما هو منه قدراً، وهذا هو القول الراجح، ولا ينافي هذا قول النبي ﷺ: «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**»[١]؛ لأنه حديث صريح في أن هناك نزاعاً بين صاحب الفراش والزاني، ولهذا قال: «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**»[٢] فإذا كانت امرأة بكراً زنا بها رجل هل هناك فراش؟

الجواب: لا، ليس هناك فراش، وإذا لم يكن هناك فراش واستلحق الولد الزاني فإنه لا مانع من إلحاقه به، لكن جمهور العلماء على أن ولد الزنا لا يلحق الزاني ولو استلحقه، وكما تقدم أنهم استدلوا بعموم قوله: «**وللعاهر الحجر**»[٣].

والقول الثاني: أنه إذا استلحقه الزاني ولا معارض له فإنه يلحقه، وأجيب عن هذا الحديث بأن الحديث ظاهر في أنه عند التنازع يكون الولد للفراش وللعاهر الحجر.

الفائدة الثالثة: أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يصدق بعضهم بعضاً، لقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

الفائدة الرابعة: ثبوت نزول التوراة وأنها حق؛ لأنه شهد بها أحد الرسل أولي العزم بأنها حق.

الفائدة الخامسة: أن عيسى عليه الصلاة والسلام أُنزل عليه الكتاب وهو الإنجيل، وهو صريح قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ ﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣ ـ ٤].

---

(١) تقدم الحديث السابق.

(٢) تقدم ص٤٦٠.

(٣) تقدم ص٤٦٠.

فإن قال قائل: هل الإنجيل الموجود الآن في أيدي النصارى هو الإنجيل الذي نزل على عيسى؟

الجواب: لا، فيه وفيه؛ لأن النصارى وكذا اليهود وهم أخبث من النصارى في الجرأة على الله حرفوا التوراة والإنجيل، وكما قال عزّ وجل: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]، وعلى هذا فيجب التحري في نسبة التوراة الموجودة في أيدي اليهود اليوم والإنجيل الموجود في أيدي النصارى اليوم، يجب التحرز وأن يقال: ليس كل ما فيهما حق، بل فيهما ما هو محرف وما هو منقوص وربما يكون فيهما ما هو مزيد.

الفائدة السادسة: أن في الإنجيل هدى ونور، لقوله: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾، وهو كذلك، ومن الهدى والنور الذي فيه: أن فيه وصف النبي ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وأن النبي عيسى عليه الصلاة والسلام بشر بمحمد ﷺ وهذا من الهدى والنور.

الفائدة السابعة: أن الكتب الإلهية يصدق بعضها بعضاً، لقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

الفائدة الثامنة: التنويه بعظمة التوراة وفضلها وشرفها؛ لأنه ذُكر في هذه الآية: أن عيسى مصدقاً لما بين يديه من التوراة وأن الإنجيل أيضاً مصدق لما بين يديه من التوراة.

الفائدة التاسعة: أن في الإنجيل من العلم والموعظة ما ينتفع به المتقون، لقوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

الفائدة العاشرة: الحث على التقوى وأنها سبب لكل خير ولكل علم، لقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] ولا شك أن التقوى: هي أساس العمل لأن من لم يتقِ الله لا يعمل ومن اتقى الله عمل بأوامر الله حسب ما عنده من التقوى.

الفائدة الحادية عشرة: أنه كلما زادت التقوى في الإنسان زاد اتعاظه بالكتب السماوية، وعندنا قاعدة مفيدة وهي أن الحكم المعلق بوصف يزداد قوة بقوة ذلك الوصف ونقصاً بنقصانه، فلو قلت مثلاً: أكرم الرجل لكرمه فكل من كان أكرم يستحق من الإكرام أكثر.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧].

قوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ في قوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ قراءتان، القراءة الأولى: ما هو مثبت أي: بسكون «اللام» وسكون «الميم» ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ والقراءة الثانية: بكسر «اللام» وفتح «الميم»، والتقدير ﴿وَلِيحْكُمَ﴾ فعلى القراءة الأولى: تكون اللام لام الأمر، وعلى القراءة الثانية: تكون اللام لام التعليل التي يعبر عنها أحياناً بـ«لام» كي، ولننظر الإعراب على الوجهين:

فعلى القراءة الأولى: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ تكون أمراً من الله عزّ وجل بأن يحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ولكن هذا الأمر هل هو مقول لقول محذوف، أي: وقلنا وليحكم أهل الإنجيل بما

أنزل الله فيه، أو أنه أمر ابتدائي؟ قيل: هذا وهذا، ومتى دار الأمر بين التقدير وعدمه فالأولى عدم التقدير.

أما على القراءة الثانية: «ولِيحكمَ» فتكون تعليلاً لقول الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ٤٦] وهي معطوفة على قوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾ [المائدة: ٤٦] يعني مصدقاً لما بين يديه ولأجل أن يحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، «والحكم»: هو بيان الحكم والإلزام به، يعني: بمعنى القضاء، فالقضاء بيان الحكم وإلزام به، والفتوى: بيان للحكم بدون إلزام.

وقوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ﴾ ﴿بِمَآ﴾ أي: بالذي أنزل الله فيه من الأحكام فـ«ما» موصولة أي: بالذي أنزل الله فيه.

قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ نقول فيها كما قلنا في الآيتين السابقتين إلا أنه هنا قال: ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فهل الفسق هنا فسق معصية أو فسق كفر؟ لأن الفسق قد يكون فسق كفر وفسق معصية.

هذا على حسب الحال، والتفصيل الذي ذكرناه سابقاً تنزل عليه هذه الآيات، فمن حكم بغير ما أنزل الله عادلاً عن حكم الله زاعماً أنه يساوي حكم الله أو أنفع فهذا كافر، ومن حكم بغير ما أنزل الله للعدوان على المحكوم عليه فهذا ظالم، ومن حكم بغير ما أنزل الله لهوىً في نفسه فهذا فاسق، ومن أفتى بغير ما أنزل الله حكمه حُكْمُ مَنْ حَكَمَ بغير ما أنزل الله لأن الأوصاف واحدة، لكن الحكم يمتاز عن الإفتاء بأنه إلزام؛ لأن الحاكم يلزم والمفتي لا يلزم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أنه يجب على أهل الإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله فيه.

الفائدة الثانية: أنه يجب على أهل الإنجيل أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ووجه ذلك: أن مما أنزل في الإنجيل صفة محمد ﷺ، وقد بشر عيسى به فقال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فلو قال النصارى اليوم: إنهم مؤمنون بالإنجيل، قلنا لهم: لم تؤمنوا؛ لأنكم لو آمنتم بالإنجيل لآمنتم بمحمد ﷺ إذ هو مكتوب عندكم في التوراة والإنجيل أنه يأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر إلى آخره، فالإنجيل فيه وجوب اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأن الله ذكر في الآية التي بعدها: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] وهذا من ضلال النصارى ألا يفهموا ما أنزل الله على رسله.

وأيضاً: قد بشركم به نبيكم عيسى عليه الصلاة والسلام، فإن قالوا: إن الذي بشرنا به اسمه أحمد، قلنا: هذا اسم آخر لمحمد عليه الصلاة والسلام فاسمه أحمد ومحمد، ويدل لهذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الصف: ٦]، جاء بني إسرائيل بالبينات الدالة على صدقه وعلى تصديق عيسى ببشارته، ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦] وكلمة «جاء» في اللسان العربي المبين تفيد الماضي، فيكون الرسول الذي بشر به عيسى قد جاء، وهل أحد جاء قبل محمد؟

الجواب: لا، هم ما ادعوا أن أحداً جاء قبل محمد اسمه أحمد إنما قالوا: ينتظر أن يجيء أحمد، فنقول: هذا الذي قلتم غير صحيح؛ لأنه جاءكم وليس بمنتظر.

الفائدة الثالثة: أن الإنجيل منزل من عند الله، لقوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وهو صريح جداً في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣ ـ ٤]، وعلى هذا فيكون الإنجيل من كلام الله عزّ وجل؛ لأنه نزل من عنده وهو كلام موحى، والكلام إذا أضيف إلى المتكلم فهو كلامه.

الفائدة الرابعة: إثبات العلو: لله عزّ وجل، لقوله: ﴿أَنزَلَ﴾ والنزول لا يكون إلا من أعلى، والأدلة على علو الله عزّ وجل أي: العلو الذاتي، الأدلة أكثر من أن تحصى، وأصولها خمسة: الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة.

أما الكتاب: وهو القرآن فمملوء بعدة أوجه.

والسنة كذلك، القولية والفعلية والإقرارية، أما القولية: فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «سبحان ربي الأعلى»[(١)]، ويقول: «ربنا الله الذي في السماء»[(٢)].

وأما الإقرارية: «فقد قال للجارية: **أين الله؟** قالت: في السماء. فأقرها، بل قال: إنها مؤمنة»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، حديث رقم (٧٧٢) عن حذيفة.

(٢) رواه أبو داود، كتاب الطب، باب كيف الرقى، حديث رقم (٣٨٩٢)، وأحمد (٦/ ٢٠) (٢٤٠٠٣) عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، حديث رقم (٥٣٧) عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

وأما الفعلية: فإنه ﷺ إذا دعا ربه يرفع يديه إلى السماء، ولما استشهد ربه على أمته أنه بلَّغ في يوم عرفة جعل يقول: اللهم اشهد ـ يرفع إصبعه إلى السماء ـ وينكتها إلى الناس[(١)].

وأما **الإجماع** فلم يوجد حرف واحد، لا بسند صحيح ولا بضعيف، عن أحد من الصحابة والتابعين والأئمة أنهم قالوا: إن الله تعالى ليس في السماء أبداً، ولو قال قائل: ولم يوجد عنهم أنهم قالوا: إنه في السماء؟

قلنا: هذه مكابرة؛ لأنهم يقرؤون القرآن وفيه ذكر العلو، هل ورد عن أحد منهم أنه خالف ذلك؟ إذاً: فهم مجمعون عليه، وهذا طريق واضح للإجماع، ما منهم أحد فسر آيات العلو بغير ما يدل عليه ظاهرها.

أما **العقل**: فكل إنسان يعلم أن المنزلة العليا خير من المنزلة السفلى، وأن علو المكان خير من أسفل المكان، وأن العلو صفة كمال، فيجب أن يكون ثابتاً لله عزّ وجل.

وأما **الفطرة**: فسل عوام العجائز، إذا أردن أن يَدْعُوْنَ الله أين يتجهن؟ إلى السماء، حتى العجوز العامية تشهد بفطرتها بأن الله في السماء، وعلى هذا فإن هذه الأدلة الدالة على علو الله عزّ وجل، تفند قول من يقول: إن الله ليس في جهة، أو يقول: إن الله في كل مكان، وكلا القولين ضلال.

الفائدة الخامسة: أن من لم يحكم بما أنزل الله فإنه فاسق، وهذه آخر الآيات الثلاثة، أولها: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، حديث رقم (١٢١٨) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وثانيها: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وثالثها هذه الآية: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

فهل هذه أوصاف لموصوف واحد؟

فيه خلاف: وقد تقدم أن منهم من قال: إنها أوصاف لموصوف واحد؛ لأن الكافر يصدق عليه أنه ظالم، والظالم يصدق عليه أنه فاسق، فالكافر نسميه ظالماً فاسقاً كافراً، ومنهم من يقول: إن اختلافها على اختلاف الأحوال، فهذا حكم بغير ما أنزل الله فنقول: هو كافر، والثاني نقول: هو ظالم، والثالث نقول: إنه فاسق، وهذا هو الأرجح، وجه ذلك: أن الأصل في الكلام التأسيس لا التوكيد، فإذا كان كذلك فينبغي أن نقول: كل وصف يتنزل على حال من الأحوال، فمن حكم بغير ما أنزل الله على أن الطريق التي يمشي عليها أو أن ما حكم به هو السنة نابذاً حكم الله وراء ظهره، فهذا كافر، ومن حكم بغير ما أنزل الله لعدوان على المحكوم عليه أو على غيره فهو ظالم، ومن حكم بغير ما أنزل الله لهوىً في نفسه، ليتوصل إلى غرض يرى أنه مطلوب فهذا فاسق، فتكون الآيات منزلة على اختلاف الأحوال.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨].

قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ هذا آخر الكتب وأفضلها وأشرفها وأعمها وأنفعها وأرفعها وهو القرآن الكريم، قوله: ﴿إِلَيْكَ﴾ «إلى» تفيد الغاية فالإنزال من علو غايته النبي عليه الصلاة والسلام بخلاف «على» فإنها تفيد الاستعلاء.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ المراد بالكتاب: القرآن، وهو فعال بمعنى: مفعول أي: مكتوب، فهو مكتوب في اللوح المحفوظ، مكتوب بأيدي الملائكة السفرة، مكتوب في المصاحف التي بين أيدينا، وسمي بذلك؛ لأنه جمعت فيه الأحكام الشرعية والأخبار الصادقة والقصص النافعة، وأصل الكَتْب: الجمع، ومنه الكتيبة لطائفة مجتمعة من الجيش.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال من الكتاب، أي: حال كونه متلبساً بالحق، فيكون ما جاء به القرآن متضمناً للحق، هذا وجه من معناه.

الوجه الثاني: أنزلناه بالحق أي: أنه حق من عند الله عزّ وجل، فتكون الباء للتعدية في قوله: ﴿أَنْزَلْنَا﴾، يعني: أنزلناه إنزالاً حقاً، قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ والذي بين يديه من الكتاب: ليس التوراة والإنجيل فقط بل هما أقرب الكتب إليه، لكن جميع الكتب قد صدقها، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فهو مصدق لكل ما سبقه من الكتب، ولهذا لا يأتي بعده كتاب.

قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ معطوف على مصدقاً، ومصدقاً: هذه حال من الكتاب، فيكون الكتاب هو المهيمن.

قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي: على ما بين يديه من الكتاب، ومعنى الهيمنة: قيل معناها: الشاهد، أي: شاهد عليه، وهذا فيه نظر؛ لأن شاهداً يغني عنها مصدقاً، وقيل: الهيمنة بمعنى: السيطرة والحكم، أي: أنه حاكم على ما سبقه من الكتب مسيطراً عليها وناسخاً لها، وهذا المعنى أصح؛ لأن القرآن مهيمن على كل الكتب السابقة.

قوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني: فبناءً على ذلك ﴿ٱحْكُم بَيْنَهُم﴾ أي: بين أهل الكتاب وبين المسلمين.

وقوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ المراد به: القرآن، فإذا تحاكموا إلينا حكمنا بينهم بالقرآن؛ لأن القرآن مهيمن مسيطر على ما سبق، يعارِض ولا يعارَض، ويَحْكم ولا يُحْكم عليه.

قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الله أكبر هذا القول موجه من الله عزّ وجل إلى رسوله عليه الصلاة والسلام، مع أننا نعلم علم اليقين أنه لن يفعل ذلك، لكن ليعتبر الناس أنه إذا كان محمد رسول الله ﷺ ينهاه ربه ومرسله عن اتباع أهوائهم عما جاءه من الحق، فكيف بغيره؟ وهنا قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ ولم يقل: شريعتهم أو نحوها؛ لأنهم على هوى وليسوا على هدى، فكفرهم بما جاء به محمد ﷺ عن هوى، ليس عن عقل ولا عن شرع.

وقوله: ﴿عَمَّا جَآءَكَ﴾ متعلق بمحذوف، والتقدير: عادلاً عما جاءك من الحق، وهذا أحسن من أن يقدر معرضاً عما جاءك لأن

تقدير: معرضاً فيه شيء من الشدة، لكن عادلاً أخف، والمعنى واحد لكن ينبغي استعمال الألفاظ المناسبة.

وقوله: ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ لم يقل عما جاءك أو عما نزل، بل قال: من الحق، ليتبين أن ما جاء به الرسول ﷺ حق لا يمكن العدول عنه إلى غيره.

قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ ﴿لِكُلٍّ﴾: يقول النحويون: إن التنوين هنا تنوين عوض، والتقدير: «لكل أمة جعلنا منكم أو لكل واحد»، المهم أن هذا التنوين عوض عن محذوف، أي: عوض عن كلمة.

وقوله: ﴿جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ جعلنا أي: صيرنا شرعة ومنهاجاً، الشرعة: ما يشرع، وأصلها شرعة الماء، والمنهاج: ما ينهج، وأصله الطريق، فكل أمة لها شرعة تناسب حالها ومكانها وزمانها، ومنهاج تسلكه هذه الأمة إما الكفر وإما الإيمان، فالفرق بين الشرعة والمنهاج، أن الشرعة هي شريعة الله وهي ثابتة، والمنهاج هو التمسك بالشريعة وعدمه فهو سلوك المرسل إليه، ونهجه يعني: قد يؤمنون وقد يكفرون، ولهذا يقال: نَهَجَ فلان نَهْجَ فلان، أي: سلك مسلكه، كل أمة هكذا.

فشرائع اليهود والنصارى مناسبة لحالهم وزمانهم ومكانهم، وشريعة محمد ﷺ مناسبة لكل أمة في كل زمان وفي كل مكان، فيكون قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ بعد توحيد الشرعة والمنهاج يكون من باب إفحام الخصم، أي: أن هؤلاء الذين يقولون: إن شريعة محمد غير مقبولة لأنها تخالف شرائعنا، وغير صحيحة لأنها تخالف شرائعنا، نقول: أنتم لكم شرائع خاصة

مناسبة، وأمة محمد لها شرائع خاصة مناسبة، وأنتم الآن تعتبرون من أمة محمد باعتبار الدعوة.

قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ سبحانه وتعالىٰ لأن بيده الأمر فلو شاء الله لجعل الشرائع واحدة، يكفر بها من يكفر ويؤمن بها من يؤمن، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ له الحكمة فيما شرع، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ يبلو: بمعنى يختبر، ﴿فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: من الشرائع سواءً كانت سهلة ميسرة أو كانت صعبة مشددة، فالأول: يبتلى هل يشكر أو لا يشكر؟ والثاني: يبتلى هل يصبر أو لا يصبر؟ لأننا نعلم أن الشرائع مختلفة في يسرها وعسرها، فالشرائع ميسرة يبتلى بها للشكر، هل يشكر هؤلاء الذين ييسر عليهم أو لا؟ وأما المشددة فيبتلى بها بالصبر، هل يصبرون على هذه الشرائع، ويقومون بها أو لا؟ ولهذا قال: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: يختبركم فيما آتاكم من الشرائع.

قوله: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: بادروها بالسبق إليها، والخيرات: جمع خير، والمراد بها: كل ما جاءت به الشريعة الإسلامية فإنه خير، ولهذا ما من نبي بعثه الله إلا ودل أمته على الخير وحذرها من الشر.

قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ الله أكبر المرجع إلى الله سبحانه وتعالىٰ، كل الخلائق مرجعها إلى الله، وهل المراد المرجع في الدنيا أو في الدنيا والآخرة؟

الجواب: مرجعنا إلى الله في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإن مرجعنا إلى الله: هو الذي يحكم بيننا، وهو الذي يحكم علينا، ويحكم فينا، وأما في الآخرة فكذلك يفصل بيننا يوم القيامة فريق في الجنة وفريق في السعير.

وفي قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ فائدة بلاغية وهي: الحصر وذلك بتقديم الخبر؛ لأن القاعدة أنه إذا قدم ما حقه التأخير كان ذلك دليلاً على الحصر.

قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ ينبئ بمعنى: يخبر، وهل النبأ والخبر معناهما مترادف أو بينهما فرق دقيق؟ يقول شيخ الإسلام رحمه الله: إنه ليس في اللغة شيء مترادف، يعني مائة بالمائة بل لا بد من فرق، وإلا لكان في اللغة العربية شيء من الحشو، لا بد من فرق حتى كلمة أسد وضرغام وغضنفر، وما أشبه ذلك وإن كان مدلولها واحداً، لكن لا بد أن تكون كل واحدة منها مشتملة على معنىً دقيق يفرق بينها وبين الأخرى، فقيل: إن الإخبار يشمل ما كان هاماً وما لم يكن هاماً، والنبأ لا يكون إلا في الأمور الهامة، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ [النبأ: ١] عن ماذا؟ ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ: ٢]، فقال: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝٦٧﴾ [ص: ٦٧]، فالنبأ يكون في الأمور الهامة والعظيمة، والخبر يكون في أي شيء، فيكون الخبر على هذا أعم.

وقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ أي: بالذي كنتم تختلفون فيه وحينئذٍ يحصل الفصل بالعدل ويتبين من هو على حق أو ليس على حق.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات أن القرآن كلام الله، لقوله: ﴿أَنزَلۡنَا﴾ وجه ذلك: أن الضمير يعود على الله جلَّ وعلا، والمنزل كلام يفيد أن القرآن كلام الله.

الفائدة الثانية: إثبات علو الله، لقوله: ﴿أَنْزَلْنَا﴾ والإنزال لا يكون إلا من أعلى.

الفائدة الثالثة: الثناء على القرآن، لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لأن القرآن حق ونازل بالحق، وأيضاً القرآن كله علم قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: قبل أن ينزل عليه الوحي، وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] فالقرآن علم وحق.

الفائدة الرابعة: المنقبة العظيمة للرسول عليه الصلاة والسلام، لقوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٩٩] وهذا يفسره قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤].

الفائدة الخامسة: أن القرآن مصدق لجميع الكتب، لقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ والتصديق به على وجهين: الأول: كونه شاهداً بصدق الكتب المنزلة السابقة، ومصدقاً لما أخبرت به من نزول القرآن.

لو قال قائل: بعض البلاد تدرس في جامعاتها علم يسمى بعلم الأديان، والمتخصص فيه يكون على علم بالشريعة الإسلامية وعلى علم بغيرها من الشرائع كاليهودية والنصرانية، فإذا سئل المتخصص ـ في تلك البلاد التي يوجد فيها نصارى أو يهود ـ عن حكم من أحكام شريعة هؤلاء السائلين ونفرض أنهم يهود أو نصارى، فهل يجيبهم ويكون بذلك أفتاهم في دينهم، أم يجب أن يقول لهم: هذه الفتوى غير صحيحة؟

الجواب: سيأتينا إن شاء الله أنه إذا رفع إلينا فإننا نحكم

بما أنزل الله؛ لأن الحكم الذي هم عليه منسوخ غير مرضي عند الله عزّ وجل حتى بالإخبار؛ لأنك إذا أخبرتهم حكمت لهم.

الفائدة السادسة: أن جميع ما في القرآن حق، إن كان خبراً فهو صدق، وإن كان قصصاً فهو نافع، وإن كان أحكاماً فهو عدل.

الفائدة السابعة: أن القرآن ناسخ لما قبله من الكتب، لقوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.

الفائدة الثامنة: وجوب الحكم بما أنزل الله في القرآن إذا تحاكم إلينا أهل الكتاب، لقوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وهذا الخطاب للنبي ﷺ لكن يشمل الأمة.

الفائدة التاسعة: النهي عن اتباع أهواء أهل الكتاب وغيرهم من الكفار، لقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

الفائدة العاشرة: أن مخالفة أهل الكتاب لما جاء به محمد ﷺ لم تُبْنَ على دليل صحيح ولا على عقل رجيح، وإنما بنيت على هوىً باطل، لقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

الفائدة الحادية عشرة: أنه ينبغي لمن نهى عن شيء قبيح أن يبيِّن قبحه وأن ينقل الناس إلى ما هو خير منه، لقوله: ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ فكأنه قال: لا تتبع أهواءهم واتبع ما جاءك من الحق.

الفائدة الثانية عشرة: أنه يجب على المسلمين أن تكون لهم شخصية قائمة لا يتابعون الناس فيكونون أذناباً لأعداء الله، بل يجب أن تكون لهم شخصية قائمة بعزة الإسلام، لقوله: ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

الفائدة الثالثة عشرة: أن ما جاء به الرسول ﷺ فهو حق.

الفائدة الرابعة عشرة: أن الله سبحانه وتعالىٰ نَوَّع الشرائع بحسب الأمم، لقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً﴾.

وسبق في التفسير أن المصالح تختلف باختلاف أحوال الناس واختلاف أزمانهم واختلاف أمكنتهم، وهل هذا يكون بالنسبة للشريعة الإسلامية؛ بأن يكون الله قد جعل لكل حال حكماً، أشرنا في التفسير إلى ذلك وقلنا: حتى الشريعة الإسلامية تختلف أحكامها بحسب الأزمان والأمكنة والأحوال، وذكرنا لذلك أمثلة: منها قوله ﷺ: «**صلِّ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب**»[1]، أدِّ الزكاة إن كان عندك مال زكوي وإلا فلا شيء عليك، حجَّ البيت إن استطعت وإلا فلا شيء عليك، صم إن استطعت وإن عجزت عجزاً مستمراً فأطعم، وهلمَّ جرّا، الحاصل أن الشريعة الإسلامية نفسها تختلف باختلاف الأحوال.

الفائدة الخامسة عشرة: أن الناس يختلفون في المنهج في استقبال هذه الشرائع، لقوله: ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ فمنهم كافر ومنهم مؤمن.

الفائدة السادسة عشرة: عموم قدرة الله جلَّ وعلا وأن بيده الأمور الشرعية والكونية، لقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني: على ملة واحدة، ولكنه سبحانه وتعالىٰ له الحكمة البالغة فيما قدر وشرع.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب، حديث رقم (١٠٦٦) عن عمران بن الحصين رضي الله عنه.

الفائدة السابعة عشرة: الرد على القدرية وذلك بأن جعلهم أمة واحدة يعني: على دين واحد، وهذا يقتضي أن يكون تدينهم لله بمشيئته.

الفائدة الثامنة عشرة: أن الشرائع ابتلاء من الله سبحانه وتعالىٰ، أي: اختبار، وليست ابتلاء من البلاء بل من الاختبار، لقوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ فالشرائع للابتلاء، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] فتبين بهذا أن شرائع الله وأحكام الله القدرية كلها ابتلاء.

الفائدة التاسعة عشرة: الحث على السبق للخير، لقوله: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يعني: خذوا بها أيكم أسبق.

فإن قال قائل: المنافسة في الخيرات ألا تستوجب الحسد، بمعنى: أن يكره الإنسان أن يسبقه أحد؟

الجواب: لا؛ لأن كراهة أن يسبقك أحد لا تستلزم أن تكره إذا مَنَّ الله على أحد فسبقك، والحسد: أن يكره الإنسان ما أنعم الله به على الغير.

الفائدة العشرون: أن المرجع إلى الله تبارك وتعالى شرعاً وقدراً لقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ فالمرجع إلى الله شرعاً هو الذي يحكم بيننا، وقدراً فإن الأمر كما قال الله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥ ـ ٢٦].

الفائدة الحادية والعشرون: عموم علم الله تبارك وتعالى لأفعال العباد، لقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

فإن قال قائل: وهل الحكم للكافرين على المؤمنين أو للمؤمنين على الكافرين؟

الجواب: الثاني لقوله تبارك وتعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١] وهذا من غرائب الحكومة، أن يبين للخصم أنه غالب قبل التحاكم، لكن هذا له حكمة وهو أن ينضم الخصم إلى الطرف الثاني، فالكفار والمؤمنون خصمان، والغالب المؤمنون، هنا بيَّن الله تعالى أنه سيكون فصل، ويغلب المؤمنون ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ بَيَّنَ ذلك حثاً للكافر أن ينضم إلى صف المؤمنين؛ لأنه إذا تبين له أنه الخاسر وأن الجولة والمعركة للمؤمن فسوف ينضم للمؤمنين.

الفائدة الثانية والعشرون: أنه لا بد لبني آدم من الاختلاف، وهذا هو الواقع وقد دلت عليه آيات كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] لا بد من الاختلاف، والمرجع عند الاختلاف إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: ٤٩].

قوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم﴾ معطوفة على قوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨] ﴿وَأَنِ ٱحْكُم﴾ الخطاب للرسول عليه الصلاة

والسلام وفي «أَنِ» قراءتان: الضم والكسر «وأَنُ احكم» بالضم مراعاة لحركة الكاف، «وأَنِ احكم» بالكسر، كلاهما قراءتان سبعيتان، احكم بينهم إذا تنازعوا إليك، ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ولا تحكم بما عندهم.

وقد سبق أن بني النضير يرون لهم الفضل على بني قريظة، حتى إنهم في الديات يجعلون بني قريظة على النصف من بني النضير، ويقولون: إذا قتل النضيري قرظياً فإنه لا يقتل، وإذا قتل القرظي نضيرياً فإنه يقتل، يتحاكمون إلى الرسول عليه الصلاة والسلام في هذا وأمثاله ويريدون منه أن يحكم به، ولكن الله تعالى نهاه عن ذلك فقال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾؛ لأن ما أصَّلُوه من هذا الأصل الباطل هوىً محض وإلا فحكم الله بين الخلق سواء.

قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ انظر هذا كلام الله مع الرسول، ﴿وَٱحْذَرْهُمْ﴾ يعني: كن معهم على حذر وتخوف ﴿أَن يَفْتِنُوكَ﴾ عن بعض ما أنزل الله إليك.

في إعراب ﴿أَن يَفْتِنُوكَ﴾ وجهان:

الوجه الأول: أن تكون بدل اشتمال من الهاء في قوله: واحذرهم، والتقدير: واحذرهم فتنتهم، وكما هو معروف أن البدل ينقسم إلى خمسة أقسام؛ الخامس: البدل اللفظي، فيكون التقدير على هذا: احذرهم فتنتهم؛ لأن «أن» وما دخلت عليه في تأويل مصدر بدل، والبدل كما يقول ابن مالك رحمه الله:

التابع المقصود بالحكم بلا واسطة هو المسمى بدلاً

والوجه الثاني: أن تكون «أن» وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوبة بنزع الخافض، والتقدير: واحذرهم من أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك، وكلا الوجهين في الإعراب معناهما واحد، ومعنى ﴿أَن يَفْتِنُوكَ﴾ أن يصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك، والفتنة بمعنى: الصد، جاءت في القرآن، مثل قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج: ١٠]، فتنوا بمعنى: صدوا.

وقوله: ﴿عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إذا كان التحذير عن بعض ما أنزل، فعن الجميع من باب أولى، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن حكمك بما أنزل الله ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾، وهذه الإرادة إرادة كونية بمعنى: المشيئة، ﴿أَن يُصِيبَهُم﴾ أن يلحق بهم المصيبة بالإعراض ببعض ذنوبهم لا بكلها.

قوله: ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ بعض الذنوب مثل ما ذكرنا قبل قليل أن بني النضير يحكمون بالجور فيما بينهم وبين بني قريظة، والذنب ما خالف به الإنسان ربه سواء كان بترك واجب أو بفعل محرم.

قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ الجملة هذه كالتسلية للرسول عليه الصلاة والسلام لكي لا يحزن؛ لأن كثيراً من الناس فاسقون، و«اللام» في قوله ﴿لَفَٰسِقُونَ﴾ للتوكيد، وفاسقون بمعنى: خارجون عن طاعة الله، مأخوذة في الاشتقاق من قولهم: فسقت الثمرة إذا خرجت من كمها.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: وجوب الحكم بما أنزل الله عند تحاكم أهل الكتاب إلينا، لقوله: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ حتى وإن كان عندهم قوانين تخالف الحكم الشرعي فإننا لا نرجع إليها، حتى وإن أقاموا الدنيا ضدنا فإننا لا نهتم بهم، ما دمنا على صراط مستقيم، فإن الله يقول: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

الفائدة الثانية: النهي عن اتباع أهواء الكافرين أياً كانت.

لكن **إذا قال قائل**: إذا كان ما ذكروه مطابقاً للشريعة، فهل نتركه لأنهم يفعلونه أو نأخذ به لأنه شريعة؟

الجواب الثاني: لا شك في ذلك، من ذلك وهو مثل عجيب، بعض الناس لما سمع قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**خالفوا المجوس والمشركين وفروا اللحى وأحفوا الشوارب**»[1] قالوا: إن أحبار ورهبان النصارى واليهود الآن مطلقون لحاهم، فكان مقتضى الحديث في قوله: «خالفوا»: أن نحلق اللحية لأنهم يعفون لحاهم؟

فيقال في **الجواب**: إنهم الآن يطلقون لحاهم وفقاً للفطرة لا تقليداً لنا، وإذا كانوا يطلقونها وفقاً للفطرة فإننا نحن نطلقها وفقاً للفطرة واتباعاً للسنة والشريعة.

الفائدة الثالثة: وجوب الحذر من اليهود والنصارى وغيرهم، لقوله: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ﴾.

---

(١) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب تقليم الأظفار، حديث رقم (٥٥٥٣)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، حديث رقم (٢٥٩) عن ابن عمر.

الفائدة الرابعة: الإشارة إلى أن من أكبر غايات اليهود والنصارى أن يفتنوا المسلمين عما أنزل الله إليهم، وإذا كان الله تعالى قد تكلم في هذا في عهد الرسول ﷺ فالأمر في وقتنا أشد؛ لأنهم الآن يرون أنهم أقوى منا في المادة الحسية، فيكون حرصهم على صدنا عن سبيل الله أشد.

الفائدة الخامسة: أنه إذا كان هذا الخطاب موجهاً إلى رسول الله ﷺ المؤيد بالوحي الذي أعطاه الله عزّ وجل من القوة والعزيمة في دين الله ما لا يعطى غيره، فما بالك بغيره، وما بالك بمن كان في زمننا الآن، فيجب الحذر، واسمع إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ [الإسراء: ٧٣]، لو فعلت صرت أنت خليلهم وصديقهم، وقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤]، لولا أن الله ثبته، ونسأل الله الثبات، لكان يركن إليهم شيئاً قليلاً، ولو ركن إليهم شيئاً قليلاً: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٥]، والمخاطب رسول الله عليه الصلاة والسلام، فما بالك بمن دونه يكون الحذر منهم أشد وأشد.

الفائدة السادسة: أن الذنوب لها آثار سيئة، من أعظمها التولي عن دين الله وعما أنزل الله، فالإنسان كلما عصى الله ابتعد عن قبول الوحي والشريعة، ولهذا قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ﴾ ولهذا قال بعض السلف: من حُرِمَ قيام الليل فإنما ذلك لذنب أصابه، فإذا رأيت من نفسك إعراضاً عن شيء من دين الله أو رأيت إعراضاً عن كتاب الله عزّ وجل، إما عن تلاوته اللفظية أو تلاوته المعنوية أو تلاوته العملية فإنه يجب

عليك أن تعالج نفسك، واعلم أن سبب هذا الإعراض هو المعاصي، وأن هناك ذنباً انبنى عليه هذا الإعراض، والآية صريحة في ذلك: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ فاستغفر الله للنتيجة والسبب.

وعلى هذا فمن وجد في نفسه إعراضاً عن طاعات كان يفعلها فليكثر من الاستغفار، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وله أن يكثر من الصلاة إن رأى أن الصلاة توجب رجوعه إلى الحق وانتهائه، فالصلاة لا شك مكفرة وتنهى عن الفحشاء والمنكر، لكن أهم شيء الاستغفار.

الفائدة السابعة: أن كثيراً من الناس خارجون عن دين الله بالفسوق، لقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾، وهل المراد بالناس هنا أهل الكتاب أو العموم؟

إن قلنا: إنهم أهل الكتاب خف الإشكال، وإن قلنا بالعموم؛ صار هناك إشكال؛ لأن أكثر الناس فاسقون فسقاً موجباً لدخول النار، ودليل ذلك ما ثبت عن النبي ﷺ: «**أن الله يقول يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: أخرج من ذريتك بعث النار، فيقول: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون كلهم في النار وواحد من الألف في الجنة**»(١) جعلنا الله منهم، وإلى هذا يشير ابن القيم في النونية بقوله:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، حديث رقم (٣١٧٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب قول الله تعالى لآدم: «**أخرج بعث النار**»، حديث رقم (٢٢٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

يا سلعة الرحمٰن ليس ينالها في الألف إلا واحد لا اثنان

ما ينالها من بني آدم من الألف إلا واحد فقط لا اثنان، فهذا الحديث يدل على أن أكثر الناس فاسقون، وأنه لا نسبة بين الصالح والفاسق، وهذا مما يرجح أن يكون المراد بالناس أهل الكتاب، فإذا نظرنا إلى اللفظ قلنا: هو عام، وإن نظرنا إلى هذا الحديث، قلنا: لا بد أن نحمله على الخصوص، لكن ماذا كان شعور الصحابة لما قال: «**إن أهل النار تسعمائة وتسعة وتسعون؟**» قالوا: يا رسول الله أين ذلك الواحد؟ فقال لهم: «**أبشروا فإنكم في أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه، يأجوج ومأجوج، منكم واحد ومنهم ألف، ثم قال لهم: إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، شطر أهل الجنة فكبروا بذلك فرحاً**»[1]، اللهم لك الحمد، ولهذا أكثر أهل الجنة صالحو هذه الأمة، حتى إنه جاء في السنن أو في المسند أن أهل الجنة مائة وعشرون صفاً منهم ثمانون من هذه الأمة[2]، فتكون النسبة الثلثين.

الفائدة الثامنة: الحذر الشديد من موافقة الكفار، وليت أمة الإسلام اليوم تنتبه لهذا الأمر، حتى لا تلهث وراء المادة ووراء أهل المادة، فلو اجتمعت الأمة الإسلامية على هذا المنهاج لسادت العالم، لكن عندها ضعف في الشخصية وضعف في الإيمان فانحدرت إلى ما ترون، فنسأل الله تعالى أن يعلي كلمته وأن يعز دينه إنه على كل شيء قدير.

---

(١) الحديث السابق.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٤/ ٣٥٣) عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده (١/ ٣٧٧).

لو قال قائل: إذا كان الإنسان في بلاد الكفار هل له أن يتحاكم إليهم ليصل إلى حقه؟

الجواب: إذا كان لا يمكن أن يصل إلى حقه إلا بهذا فليتحاكم إليهم لا على نية أن حكمهم صحيح، لكن على نية أنهم كالشرطة يستخرجون له حقه من هذا الظالم، ولو لم نقل بذلك لضاع حقه، ففرق بين أن نحكمهم على أن حكمهم شريعة، وبين أن نحكمهم ليخلصوا حقه، لكن يجب أن يعتقد أن حكمهم باطل في الأصل وأنهم ليسوا حكاماً شرعيين.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

قوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ﴾ الاستفهام هنا للإنكار والتعجيب، يعني: أن الله تعالى أنكر عليهم ذلك وأراد منا أن نتعجب من هذا الذي يبغونه، «والفاء» هنا وقعت بعد أداة استفهام، ومن المعلوم أن أداة الاستفهام لها صدر الكلام، وهنا لا نجد شيئاً بين الهمزة والفاء، فكيف يتوجه العطف بالفاء على شيء ليس بموجود؟ في هذا رأيان بالنسبة للنحويين:

الرأي الأول: أنه كلما جاء حرف العطف بعد الهمزة فإن هناك جملة مقدرة تناسب المقام، وهذا جيد من جهة لكنه صعبٌ من جهة أخرى، إذ إنه يصعب على الإنسان أن يعرف ما الذي يقدره، وأحياناً يشق عليه ذلك كثيراً أو يعجز أن تقدر شيئاً مناسباً.

والرأي الثاني: أن الفاء مزحلقة عن مكانها وأن أصلها قبل

الهمزة، وعلى هذا فتكون الجملة التي دخلت عليها همزة الاستفهام معطوفة على الجملة السابقة، والتقدير: «فَأَحُكْمَ الجاهلية» وهذا لا شك أنه أسهل لطالب العلم؛ ولأن الأصل عدم الحذف، صحيح أن هذا مخالف للأصل من حيث إن حرف العطف زحلق عن مكانه لكنه أسهل من حيث إن الإنسان تبرأ ذمته إذا قال: إن هذه الجملة معطوفة على ما سبق.

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أضاف الله الحكم إلى الجاهلية، فما المراد به؟ هل المراد أحكام أهل الجاهلية كوأد البنات وما أشبه ذلك وتحريم بعض المحللات، أو أن المراد: أفحكم الجاهلية يعني: الحكم الموصوف بأنه جهل؟

نقول: كلا المعنيين حق لكن الثاني أعم؛ لأنه يشمل كل حكم مبني على جهل سواء، كان من أحكام أهل الجاهلية الذين هم العرب أو من أحكام آخرين، وعلى هذا فيكون المعنى: أفحكم الجهل يبغون، والجهل: هو عدم العلم، وكل ما خالف الحق الذي هو حكم الله فهو جهل أو جهالة، إن كان عن غير علم فهو جهل، وإن كان عن علم ولكن خالف الحق متعمداً فهو جهالة.

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي: يطلبون، ولا يخفى أن ﴿حكم﴾: منصوب وعامله: ﴿يَبْغُونَ﴾، فهو مفعول مقدم لـ﴿يَبْغُونَ﴾، يعني: أيطلبون حكم الجاهلية، وقدم المعمول لإفادة الحصر، يعني: كأن هؤلاء لا يريدون إلا الحكم الجاهلي المبني على الجهل أو الجهالة؛ لأن القاعدة عندنا أن تقديم ما حقه التأخير مفيد الحصر.

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ «من»: اسم استفهام، لكن هذا الاستفهام بمعنى النفي، إذ إن معناه: لا أحسن من الله حكماً، ولكن يأتي النفي بصيغة الاستفهام ليكون أبلغ، إذ إن النفي إذا جاء بصيغة الاستفهام فإنه أبلغ من النفي المجرد إذ إنه يتضمن النفي، ويكون مشرباً بالتحدي، كأن المتكلم يتحدى ويقول: أروني حكماً أحسن من حكم الله.

لو قال قائل: مَنْ أحسن مِن الله حكماً؟

الجواب: لا أحد أحسن من الله حكماً؛ لأن حكمه جلَّ وعلا مبني على علم بما يصلح العباد، ومبني على رحمة بما ينفع العباد، لا يمكن أن يحكم على عباده تبارك وتعالى بشيء يكون ضرراً أو عاقبته ضرراً، أبداً لا يمكن؛ لأننا نعلم أن حكمه صادر عن علم وحكمة ورحمة.

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾؟

الجواب: لا أحد أحسن، لكن لمن؟ ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يوقنون بالله وبأسمائه وصفاته وبما تقتضيه هذه الأسماء والصفات؛ هؤلاء لا يرون حكماً أحسن من حكم الله، أما من عنده ضعف في اليقين، فإنه قد يرى أن حكم غير الله أحسن من حكم الله، ولهذا كان الخلفاء الراشدون، لا يتعدون حكم الله أبداً، حتى إن الواحد منهم يخاطب الخليفة إذا زل عن حكم الله خطأً، خاطبه وأخبره بالحق.

لذلك نقول: إن تبيُّن حسن حكم الله إنما يكون للموقنين، أما ضعفاء اليقين فإنهم لا يرون أن حكم الله أحسن الأحكام، بل ربما يعتقدون أن حكم الله قد مضى عليه الدهر، واختلفت الأمة

واحتاجت إلى حكم جديد، وهؤلاء كأنهم يقولون بلسان الحال: إن محمداً ليس خاتم النبيين؛ لأن دينه لا يشمل إصلاح العصر، وإصلاح العصر إنما يصلح بهذه القوانين التي وضعها جهال أو كفار أو أتباع لهؤلاء، وإلا لا يمكن أن شخصاً يكون موقناً بالله عزّ وجل وبما له من الأسماء والصفات والأفعال والأحكام، أن يرى أن حكم غير الله أحسن من حكم الله، بل ولا يرى أن حكم غير الله مثل حكم الله، ولهذا جاءت الآية: ﴿مَنْ أَحْسَنُ﴾ وأحسن: اسم تفضيل، يعني: فلا يمكن لأي حكم من الأحكام أن يساوي حكم الله، فضلاً عن أن يكون أحسن من حكم الله.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: الإنكار الشديد على من بغى حكم غير الله، لقوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

الفائدة الثانية: أن هؤلاء القوم على عجب عظيم أن يبتغوا حكم الجاهلية ويَدَعوا حكم الله الصادر عن علم وحكمة ورحمة.

الفائدة الثالثة: أن كل حكم مخالفٍ لحكم الله فهو حكمٌ جاهلي، وبناءً على ذلك يصح أن نصف الأحكام المخالفة لحكم الله ـ في وقتنا الحاضر ـ بجاهلية القرن الخامس عشر.

وقلنا: الخامس عشر لأننا نعتمد التاريخ الهجري دون غيره. ولا شك أن تلك الأحكام والقوانين المخالفة للشريعة توصف بجاهلية هذا القرن شاء أصحابها أم أبوا.

الفائدة الرابعة: أن حكم الله أحسن الأحكام، لقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ ويترتب على هذا، أن الإنسان إذا آمن بأن

حكم الله أحسن الأحكام استسلم لحكم الله ورضي به تماماً، سواء علم الحكمة أم لم يعلم، وهذا حق فأي إنسان يرى أن حكم أحد هو أحسن الأحكام فسوف ينقاد له ولا يعارض ولا يمانع.

الفائدة الخامسة: أن حكم الله وإن تراءى لبعض الناس أنه ليس بصالح أو أنه يعيق التقدم الاقتصادي أو الاجتماعي أو غير ذلك فإنه يكون خاطئاً؛ لأن العبرة بالنهاية، قد يتراءى للإنسان أن هذا الحكم لا يصلح الآن، لكن في النهاية لا شك أنه هو الصالح، وأن علينا أن نصبر وستكون العاقبة حميدة، مثلاً: الآن كثير من الناس يرون أنه لا بأس بالتعامل بالربا؛ لأنه على زعمهم ينمي الاقتصاد من الآخذ والمعطي، فنقول: هذا وإن تراءى لكم لكن فيه مفاسد كثيرة، وانظروا إلى الدول التي تستعمل هذا ماذا كان حالها؟ تجد أن فيهم طبقات متباينة غاية التباين، هذا من أفقر الناس ربما يأكل التراب من الجوع والثرى من العطش، والآخر مثرٍ ثراءً زائداً، فهذا الاختلاف العظيم في الطبقات كل ذلك بسبب التعامل المحرم، لكن لو أن الناس مشوا على ما سنه النبي ﷺ لأمته لكان الاقتصاد متوازناً، تجد الغني لا يثري ثراءً فاحشاً، ويعطي الفقير من الزكاة، وتكون الحال بين الغني والفقير متقاربة، لا يطغى أحد على أحد، لكن إذا سلطنا الشح على المعاملات واستبحنا كل شيء، لا بد أن تكون هناك طبقات متميزة، وإذا وجدت طبقات متميزة فسد المجتمع أمنياً ووديا، تجد الغني يمقت الفقير ويزدريه ويحتقره، والفقير يكره الغني؛ لأنه يرى أنه قد ابتز ماله وأنه تعاظم عليه، لا سيما إذا كان لا يؤدي الزكاة.

إذاً: القاعدة: لا أحد أحسن حكماً من الله أبداً.

لو قال قائل: الموافق لأحكام الشريعة من القوانين، هل نصفه بأنه أحسن الأحكام؟

الجواب: لا نقول: هذا حكم الله، ولا نقول: هذا حكم القانون؛ لأن حكم الله متقدم على القانون، فنصف الأحكام المطابقة للشريعة في القوانين بأنها حكم الله وأنه لا أحد أحسن منه، ولا نجعل المدح منصباً على القانون؛ لأننا لو جعلنا المدح منصباً على القانون لاغتر الناس بذلك، وقبلوا أحكام القوانين على كل حال، لكن نقول: هذا هو حكم الشرع، فالكذب في القانون عند الدول ممقوت، وفي الشرع ممقوت والشرع سبقهم، حتى إن الرسول عليه الصلاة والسلام جعل الكذب من صفات المنافقين، وقال: «**إنه يهدي إلى الفجور، وإن الرجل لا يزال يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**»[1]، النصح في المعاملة: يحث عليه الشرع، والقوانين أيضاً تحث عليه، الصدق: يحث عليه الشرع والقوانين أيضاً تحث عليه، هنا يجب أن يكون المدح لا للقانون ولكن للشرع.

الفائدة السادسة: أنه لا يجوز للإنسان أن يعارض أحكام الشرع بعقله، هذا في العمليات الفقهيات، وفي العقديات العلميات من باب أولى؛ لأنه إذا كان لا يجوز للإنسان أن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩]، حديث رقم (٥٧٤٣)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، حديث رقم (٢٦٠٧) عن ابن مسعود.

يعارض الشرع في الأمور العملية التي يدخلها القياس فالأمور العلمية الخبرية من باب أولى؛ لأن الخبر ليس للعقل فيه مجال أبداً، إلا على سبيل العموم يمكن.

وبناءً على ذلك يتبين خطأ أولئك القوم الذين عطلوا صفات الله عزّ وجل، من الأشاعرة والمعتزلة والجهمية وغيرهم، فقد أخطأوا خطأً عظيماً؛ لأن الله إذا أخبر عن نفسه بشيء فمعنى ذلك أنه حكم بنفسه أنه مستحق كذا، وأخبر عباده به، فيجب علينا أن نقبله على ظاهره بدون أن نتعرض إلى تحريفه، أولئك القوم الذين حكموا على الله تعالى بعقولهم وقالوا: هذا لا يقبله العقل فلا نقبله ولو جاء به الشرع، ماذا يقولون في الآيات؟ يؤولونها، أي: يحرفونها، وهم لو ردوها صراحة لكانوا كفاراً، يعني: لو قالوا: إن الله لم يستوِ على العرش مثلاً، كفروا، لكن إذا قالوا: إنه استوى على العرش، لكن معنى الاستواء كذا، فهذا تأويل وينظر فيه.

الفائدة السابعة: أنه لا يعرف حسن أحكام الله إلا من عنده يقين، وكلما كان الإنسان أشد يقيناً، كان بيان حسن أحكام الله عنده أكثر وأشد، وإذا شئت أن تعرف هذا فانظر إلى العلماء المحققين كيف يستنبطون من الأحكام الشرعية ما تقتنع به العقول؛ لأنهم موقنون بأن حكم الله أحسن الأحكام فيفتح الله عليهم.

الفائدة الثامنة: الرد على من قال: إن في الأحكام الشرعية في المعاملات خاصة ما خرج عن القياس، مثل: باب السَّلَم، وباب الإجارة، وما أشبه ذلك، فنقول: ليس في الأحكام الشرعية

ما يخرج عن القياس، ومرادهم بالقياس العقل والنظر، بل كل الأحكام الشرعية موافقة للقياس، ولكن الله يفتح على من يشاء من عباده، فبعض الناس قد يفهم الموافقة وبعضهم لا يفهم، والله ولي التوفيق.

تمَّ بعون الله تعالى وتوفيقه المجلد الأول من تفسير سورة المائدة ويليه المجلد الثاني ويبدأ من تفسير قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١]، إلى آخر السورة.

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾	٥
المائدة سورة مدنية آياتها محكمة وهي من آخر ما نزل من القرآن	٥
البسملة آية مستقلة ليست من السورة	٥
تصدير الكلام بخطاب المؤمنين يدل على أن ما بعدها من مقتضيات الإيمان	٦
معنى العقود	٧
معنى قوله تعالى: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾	٧
تحريم الوفاء بالعقد المحرم	٧
معنى قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾	٧
المراد بالأنعام	٨
المراد بالصيد في حال الإحرام ..	٩
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾	٩
الأحكام الكونية والشرعية كلها بإرادة الله	٩
الإرادة الكونية بمعنى المشيئة، والشرعية بمعنى المحبة	١٠
إيمان أبي بكر وكفر أبي لهب بأي الإرادتين وقعا؟	١٠
من فوائد الآية الكريمة	١٠
فضيلة الإيمان	١٠
أهمية ما يذكر بعد نداء المؤمنين	١٠
وجوب الوفاء بالعقود	١١
العقود تنعقد بما دل عليها من قول أو فعل أو إشارة أو كتابة	١١
جواز البيع بالمعاطاة	١١
النكاح ينعقد بما دلّ عليه	١١
وجوب الوفاء بالشروط المشترطة في العقد	١٢
إذا اشترطت المرأة على زوجها ألا يتزوج عليها صحّ الشرط	١٣
الوفاء بالعهود والوعود من خصال المؤمنين	١٤
إذا استثنى الواعد، وقال إن شاء الله، ولم يفِ فالظاهر ألا شيء عليه	١٥
جميع بهائم الأنعام حلال	١٥

الفائدة	الصفحة
تغليب الظاهر في الحكم على ذكاة الذبيحة إن وجدت في بلد أكثره مسلمون	١٦
الإحالة على مذكور أو على ما سيذكر (أكثر ابن حجر من استعماله)	١٦
الاستثناء من الحكم يدل على أن الحكم عام	١٦
لا يحل الصيد للمحرم ولا لمن كان في الحرم	١٦
تعظيم الإحرام، فحرّم الصيد لئلا يتلهى به المحرم	١٧
إثبات الحكم لله	١٧
إثبات الإرادة لله	١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ ...	١٧
معنى الشعائر	١٨
المراد بالشهر الحرام	١٨
كيفية إحلال الهَدْى	١٩
المراد بالقلائد	١٩
لِمَ سميت الكعبة بيتاً	٢٠
أوجه القراءة في قوله: ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾	٢٠
المقصود بالإحلال في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾	٢١
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ﴾	٢١
اختلاف القراءة وأثره في اختلاف المعنى	٢٢
المراد بالمسجد الحرام	٢٢
معنى قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾	٢٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ .	٢٤
معنى التقوى وحال السلف	٢٤
من فوائد الآية الكريمة	٢٤
إحلال شعائر الله نقص في الإيمان	٢٤
تحريم إحلال الشهر الحرام بالقتال أو بالمعاصي	٢٥
اختلاف العلماء في القتال في الشهر الحرام	٢٥
لا يجوز القتال في الشهر الحرام ابتداءً، وإنما دفاعاً أو امتداداً لغزو سابق	٢٥
العمل بالقرائن	٢٥
وجوب احترام الحجاج والعمّار .	٢٧
ابتغاء الإخلاص لقاصد المسجد الحرام، ولو لتجارة	٢٧
جواز عمل العبادة ابتغاء الأجر والرضا من الله، خلافاً للصوفية	٢٧
الربوبية نوعان: عامة وخاصة ...	٢٨
إثبات الرضا لله عزّ وجل على وجه الحقيقة	٢٨

الفائدة	الصفحة
رضا لله هل هو صفة ذاتية أم فعلية؟	٢٩
قاعدة: كل صفة من صفات الله تكون لسبب فهي فعلية	٢٩
جواز الصيد بعد التحلل الأوّل ..	٣٠
رأي أكثر الأصوليين: ورود الأمر بعد النهي يفيد الإباحة	٣٠
لا يجوز الاعتداء على الغير وإن كنت مبغضاً له	٣١
التحذير من اتباع الهوى	٣١
إثبات حرمة المسجد الحرام	٣٢
هل تضعيف الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف يشمل جميع حدود الحرم؟	٣٢
الحث على البر والتقوى تعاوناً وفعلاً	٣٣
تفسير قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾	٣٤
معنى قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾	٣٥
هل يلزم من تحريم الميتة أن تكون نجسة؟	٣٦
يستثنى من الميتات: الجراد وميتة البحر	٣٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلدَّمَ﴾	٣٧
الكبد والطحال والكلى والدم في القلب لا يحرم لكونه دماً غير مسفوح	٣٧
معنى الإهلال في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾	٣٧، ٣٨
المراد بـ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾	٣٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ ..	٣٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ ..	٣٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ ..	٣٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾	٣٩
خمس قد تدرك بالذكاة قبل الموت: المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع	٤٠
بماذا تكون تذكية تلك التي أصابها سبب الموت	٤٠
ما هما الودجان؟	٤٠
ما علامة الموت؟ هل تشترط حركة المذبوح؟	٤٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾	٤١
الفسق لغة وشرعاً	٤٢
معنى قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾	٤٢
آل العهدية، تأتي للعهد العضوي، وللعهد الذهني وللعهد الذكري	٤٢
الفرق بين الخشية والخوف	٤٣
معنى قوله تعالى: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾	٤٣

الفائدة	الصفحة
كمال الدين لا يعنى تمامه	٤٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾	٤٤
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾	٤٤
قالوا: من كان في سفر معصية واضطر لأكل الميتة لا يأكلها وإن مات! والصحيح خلافة	٤٥
المُحَرَّم للضرورة لا يحلّ إلا بشرطين	٤٥
هل يجوز أن يأكل الإنسان صاحبه في السفر حين يضطر للأكل؟	٤٦
من فوائد الآية الكريمة	٤٦
حكمة الله عزّ وجل في تحليل الحلال وتحريم الحرام	٤٧
هل يلحق بتحريم لحم الخنزير تحريم شحمه؟	٤٧
الراجح: لحم الإبل ينقض الوضوء	٤٧
ما أدرك حياً وذكّي فهو حلال من: المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع	٤٨
النيّة تؤثرفي حلّ الشيء وتحريمه	٤٨
تحريم الاستقسام بالأزلام، هل يدخل فيه تحريم الاستقسام بغيرها؟	٤٨
ما الفرق بين الاستقسام والتطير والقرعة؟	٤٨
من استقسم بالأزلام سقطت ولايته وإمامته وعدالته كالفاسق	٤٩
تحريم خشية الكفار بالصورة التي تؤدى لمداهنتهم في دين الله	٥٠
الشرف يُتلقى من الشرع	٥١
تشريف يوم مولد النبي لا يكون بغير الصوم	٥١
التمسك بالدين يوجب الفخر	٥١
إتمام الله النعمة على عباده .. ٥١،	٥٢
كل مخالف للشرع غير مرضي عند الله	٥٢
رحمة الله بعباده أباحت لهم ما حرّمه للضرورة (قاعدة)	٥٢
ما الفرق بين الضرورة والحاجة؟	٥٣
المحرمات لا تباح إلا لضرورة أما المكروهات فتبيحها الحاجة ..	٥٣
التفريق بين ما كان حراماً لذاته وما كان حراماً لغيره في تقدير الضرورة والحاجة	٥٣
الاحتراز من انتهاك المحرم	٥٣

الفائدة	الصفحة
أخذ الأحكام من أسماء الله، والأسماء المتعدية لها أثرها	٥٤
توبة قاطع الطريق قبل القدرة عليه تسقط عنه الحدّ	٥٤
إثبات اسمي: الغفور والرحيم لله عزّ وجل	٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾	٥٥
في القرآن حوالي اثني عشر موضعاً من سؤال الصحابة ..	٥٥
الجواب عن قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾	٥٦
تراسُل معاني الحروف (أي: تضمين الحرف معنى حرف آخر)	٥٦
معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾	٥٧
كلّ ما أحله الله فهو طيب. وكل ما حرّمه فهو خبيث، وليس كل خبيث يكون حراماً	٥٧
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾	٥٧، ٥٨
الأمر في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ للإباحة	٥٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾	٥٨
فوائد الآية الكريمة	٥٩
حرص الصحابة على طلب العلم، والسؤال	٥٩
الإحلال والتحريم إلى الله وليس للعباد	٥٩
الرسول ﷺ لا يستقل بالتحليل أو التحريم	٦٠
كل ما أحله الله طيب ونافع	٦٠
كل ما اقتضته الجوارح المعلَّمة حلال	٦٠
فضيلة العلم	٦١
ذكر اسم الله عند إرسال الجارحة المعلمة، وعند الأكل	٦١
بركة ذكر اسم الله وشواهدها	٦١
أيّ الجوارح يباح أكل صيده؟	٦١، ٦٢
قطع ما يوجب الاغترار والإعجاب بالنفس	٦٢
العلم لا يختص بالأمور الشرعية وحدها، بل كل شيء بحسبه	٦٢
سعة رحمة الله عزّ وجل	٦٣
المشقة تجلب التيسير	٦٣
التسمية على الذبيحة أو الصيد مطلوبة، وشأن من ترك التسمية ناسياً	٦٣، ٦٤
أكل ما لم يحله الله ينافي التقوى	٦٤
سرعة الحساب من صفات الله الذاتية أم الفعلية؟	٦٥

الفائدة	الصفحة
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾	٦٥
ما هو ميزان الطيب؟	٦٦
ما الأصل في الأطعمة؟	٦٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾	٦٦
الأطعمة قسمان: طعام لا يتوقف حله على فعل آدمي، وطعام يشترط لحله فعل آدمي	٦٧
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾	٦٧
شروط حل المحصنات	٦٨
معنى قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾	٦٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾	٦٩
أقسام الوطء	٦٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾	٦٩
من فوائد الآية الكريمة	٧٠
الأصل في العبادات التحريم والمنع إلا بدليل، والأصل في غيرها الحل إلا بدليل ...	٧٠
الطيب قد يحرم لبعض الناس إن أضرّه	٧١
هل طعام غير اليهود والنصارى حلال لنا؟	٧١
يحل من طعام أهل الكتاب ما ذكروا اسم غير الله عليه	٧٢
الإطلاق في حل طعام أهل الكتاب هل يجب تقييده؟ ...	٧٣
كل فعل صدر من أهله، فالأصل الحل، ولا ننقّب	٧٤
هل تجوز المهاداة بيننا وبين أهل الكتاب؟	٧٦
حل المحصنات من أهل الكتاب كحل المحصنات من المؤمنات	٧٧
هل يصح عقد من اشترط عدم تقديم مهر؟	٧٨
نكاح من لم يسمِّ مهراً، هل يجوز؟	٧٩
هل يجوز تأجيل المهر؟ وهل يجوز للمرأة أن تهب لزوجها مالاً ليقدمه مهراً لها؟	٧٩
المهر بمنزلة الأجرة والعوض يكون معلوماً أو غير معلوم ..	٨٠
مقصود النكاح الأعظم الإحصان	٨١
إعلان النكاح وإظهاره	٨١
أقسام الاستمتاع بالنساء	٨١
نكاح المتعة حرام	٨٢
جواز الزواج من الكتابية	٨٢

الفائدة	الصفحة
الأعمال داخلة في الإيمان (مذهب أهل السنّة والجماعة)	٨٣
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ ...	٨٤
تعريف الصلاة	٨٥
سجود التلاوة وآدابه	٨٦
معنى قوله تعالى: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾	٨٧
حد الوجه وضابطه	٨٧
مسترسل اللحية، هل يدخل في حد الوجه؟	٨٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾	٨٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾	٨٩
معنى الباء في الآية	٨٩
حد الرأس	٨٩
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ ..	٩٠
﴿أَرۡجُلِكُمۡ﴾ على قراءة الجر، وإشكال بعض العلماء	٩٠
ما هما الكعبان؟	٩١
معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾	٩١
قول تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾	٩٢
معنى السفر	٩٣
معنى «أو» في قوله تعالى: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ ...	٩٣
«الغائط»، تفسيره	٩٤
معنى قوله تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وأوجه القراءة فيها ..	٩٤
المراد بالملامسة	٩٤
ما هو الصعيد الطيب؟	٩٦
معنى قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾	٩٦
ما المقصود بالطهارة في الآية ﴿لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾؟	٩٧
معنى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾	٩٧
الشكر يكون باللسان والقلب والجوارح ..... ٩٧،	٩٨
أيهما أعمّ: الحمد أم الشكر؟ ..	٩٨
من فوائد الآية الكريمة	٩٩
أهمية الوضوء للصلاة	٩٩
الطهارة من مقتضيات الإيمان ...	٩٩
الإخلال بالطهارة ينافي كمال الإيمان	٩٩
مشروعية الوضوء والغسل والتيمم لكل صلاة .... ٩٩،	١٠٠
الطهارة لا تجب إلا للصلاة، فلا تجب لقراءة القرآن ولا لمسّ المصحف، ولا للطواف، ولا للسعي	١٠٠

الفائدة	الصفحة
اختلاف العلماء حول وجوب الطهارة لمسّ المصحف	١٠١
رأي الشيخ: استدلال الأولين بقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ لإيجاب الطهارة لا يستقيم لأن الضمير يعود إلى أقرب مذكور وهو الكتاب المكنون	١٠١
الحديث إذا كان مرسلاً وتلقته العلماء بالقبول وعملت به دلّ على أن له أصلاً	١٠٢
مع الاحتمال يبطل الاستدلال ...	١٠٢
أيهما أرجح أن يراد بالطاهر المؤمن أم المتوضئ؟	١٠٣
الظاهر أن مس المصحف لا يجوز إلا بوضوء	١٠٣
الدليل على أن الطواف تشترط له الطهارة ومناقشته	١٠٤
الراجح: لا تشترط الطهارة للطواف، ولكنها مستحبة (اختيار الشيخ)	١٠٥، ١٠٦
الجواب على منع النبي ﷺ عائشة وصفية رضي الله عنهما من الطواف	١٠٧
وجوب غسل الوجه واستيعابه بالماء	١٠٧
وجوب غسل الأيدي من أطراف الأصابع إلى المرافق	١٠٨
اليد على الإطلاق هي الكف فقط	١٠٩
غسل الرأس بدلاً من المسح لا يجزئ، وأجازه البعض مع الكراهة	١١٠
وجوب غسل الرِّجل	١١٠
استدلال بعض العلماء على جواز الاقتصار على مسح الرِّجل أخذاً بالقراءة «وأرجلَكُم»	١١١
المأخوذ من القراءتين وجوب غسل الرِّجل إن كانت مكشوفة ومسحها إن كانت مستورة	١١٢
هل الأفضل للابس الخفين خلعهما وغسل القدمين أم مسحهما؟	١١٢
الرِّجل عند الإطلاق حدّها مفصل العقب	١١٢
مخالفة الرافضة لأهل السنّة في تطهير الرِّجل	١١٣
وجوب الترتيب بين الأعضاء في الوضوء	١١٣
وجوب الموالاة، وحدّها أن لا ينشف العضو قبل غسل الذي بعده بزمن معتدل ١١٤،	١١٥
وجوب غسل البدن كاملاً من الجنابة	١١٥

الفائدة	الصفحة
من عليه جنابة ولا يستطيع الاغتسال، هل يلزمه الوضوء؟	١١٥
لا يشترط في الغسل ترتيب	١١٥
انغماس الرجل في الماء ناوياً رفع الحدث من الجنابة هل يكفيه؟	١١٦
لا تشترط الموالاة في الغسل	١١٧
غسل الجنابة تستباح به الصلاة ولا يجب الوضوء معه	١١٧
المرض من أسباب جواز التيمم، وهو المرض الذي يلحقه الحرج باستعمال الماء	١١٨
تيمم المسافر مشروط بعدم وجود الماء وتيمم المريض مشروط بوجود الحرج	١١٨
الدين يسر في أصل المشروعات أو إذا وجد سبب للرخصة	١١٨
التطهر لا يجب بغير الماء	١١٩
الماء مطهر ولو تغير بشيء طاهر	١١٩
وجوب طلب الماء	١١٩
لو كان في أرض ولا يعلم أن حوله ماء ثم وجده بعد الصلاة، هل يعيد أم لا؟	١١٩
جواز التيمم من الصعيد الذي على ظهر الأرض	١٢٠
كيف نوجّه حديث إقبال النبي ﷺ على الجدار ومسح وجهه ويديه؟	١٢٠
الوضو لا ينقضه يقيناً إلا الغائط	١٢٠
قول العلماء بأن مس المرأة ينقض الوضوء مستدلين بقوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ والتفسير الراجح للملامسة هو الجماع	١٢١
الخارج من بقية البدن كالدم والقيء لا ينقض الوضوء	١٢١
لمس النساء من تقبيل، ومباشرة دون الجماع لا ينقض الوضوء	١٢١
النوم ينقض الوضوء بشرط أن يكون مظنة الحدث وهو النوم المستغرق	١٢٢
أكل لحم الإبل، فيه خلاف على نقضه الوضوء	١٢٣
مس الذكر فيه خلاف بين العلماء حول كونه ينقض الوضوء ١٢٤،	١٢٥
من مس ذكره لشهوة انتقض وضوؤه، ومن مسّه لغير شهوة فلا وضوء عليه	١٢٥
مس فرج الصغير لغير شهوة لا ينقض الوضوء	١٢٥
تغسيل الميت لا دليل على أنه ناقض للوضوء	١٢٦

الفائدة	الصفحة
التيمم جائز في الحدث الأصغر وفي الحدث الأكبر	١٢٦
هل الأوْلى لعادم الماء ألا يقرب زوجته لئلا يقع في الجنابة والحرج؟	١٢٧
ينبغي لقاضي الحاجة أن يستتر عن الأعين	١٢٧
حكمة الشرع في التطهير الاقتصار على أربعة أعضاء في الحدث الأصغر	١٢٨
الجنابة شرع لها تطهير جميع البدن	١٢٨
الجنابة تؤثر على جميع البدن؛ لذا، فالزاني المحصن يُرجم ليذوق جسده كله الألم كما ذاق لذة الشهوة	١٢٨
التكنية عما يُستقبح ذكره	١٢٨
التيمم على ما لا تراب فيه ولا غبار لا يصح	١٢٨
لا يصح التيمم على أرض متنجسة	١٢٩
استيعاب الوجه بالمسح في التيمم	١٢٩
اليد عند الإطلاق لا يدخل فيها الذراع	١٢٩
وجوب الترتيب في التيمم بين الوجه واليدين	١٢٩
التيمم عن جنابة لا يشترط فيه الترتيب، أمّا من الحدث الأصغر فيشترط	١٣٠
انتفاء الحرج في الدين الإسلامي	١٣٠
إثبات الإرادة لله تعالى ... ١٣٠،	١٣١
رفع الحرج عن الأمّة على ثلاثة أقسام: رفع المشروع كلية، تخفيفه، فعل بدله	١٣١
من عجز عن الكفارات حين وجوبها فإنها تسقط عنه	١٣١
التيمم مطهر	١٣٢
إذا تيمم لجنابة ثم وجد الماء، هل يجب عليه الغسل؟	١٣٣
حال من وجد الماء أثناء الصلاة	١٣٤
لو تيمم ولبس الخفين ثم وجد الماء، هل يمسح عليهما؟ ..	١٣٥
الاستسلام لقضاء الله الشرعي والكوني	١٣٦
الطهارة بأقسامها الثلاثة: الغسل والوضوء والتيمم نعمة من الله	١٣٦
رجل عنده قليل ماء لا يكفى إلا غسل وجهه ويديه، فماذا يصنع؟	١٣٧
شكر الله هو العمل الصالح	١٣٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾	١٣٨
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾	١٣٩

الفائدة	الصفحة
معاني «ذات» في اللغة العربية ...	١٣٩
النفس ليست صفة زائدة على الذات	١٤٠
من فوائد الآية الكريمة	١٤٠
تذكير النفس بنعمة الله، هل هو واجب أم مستحب؟	١٤٠
إثبات نعمة الله علينا، ونوعا النعمة: عامة وخاصة	١٤١
هل الميثاق هو ما أخذه النبي في بيعة الرضوان أو بيعة العقبة؟	١٤٢
السمع المجرد لا يغني، بل يلزم أن تتبعه استجابة	١٤٢
فضيلة التقوى	١٤٢
عموم علم الله وشموله	١٤٣
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾	١٤٣
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ ..	١٤٣
فعّالاً إذا جعلت للكثرة فهي باعتبار المجموع وإن كانت لغير المبالغة فهي للنسبة	١٤٤
إعراب قوله تعالى: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾	١٤٥
الخبير أدق من العليم	١٤٧
من فوائد الآية الكريمة	١٤٧
وجوب الإخلاص لله في الشهادة	١٤٧
الواجب علينا الشهادة بالقسط حتى ولو كان المشهود عليه قريباً لنا	١٤٧
وجوب الشهادة بالقسط ولو كنت كارهاً	١٤٨
تعبير القرآن بالعدل يدل على بطلان أدعائهم بأن الإسلام دين المساواة	١٤٨
الإسلام دين العدل، ونفي المساواة في القرآن أكثر من إثباتها	١٤٩
الأعمال تتفاوت والعمال يتفاوتون	١٥٠
فضيلة التقوى	١٥٠
سعة علم الله	١٥١
خبرة الله شاملة للعمل (القول والفعل)	١٥١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾	١٥٢
الإيعاد في الشر والوعد في الخير	١٥٢
معنى الإيمان	١٥٢
متى يكون العمل صالحاً؟	١٥٣
متى تتحقق المتابعة لله ورسوله في العمل؟	١٥٣
العمل الصالح هو ما وافق الشريعة في أمور ستة: السبب والجنس، والنوع أو الكيفية، والقدر، والمكان، والزمان	١٥٣، ١٥٥

الفائدة	الصفحة
ما حكم الأيام التي تحتفل بها بعض البلدان في مناسبات مختلفة؟	١٥٥
لا بأس بالمناسبات التنشيطية التذكيرية كيوم الشجرة، أما إذا كانت المناسبة مناسبة تولي أمير على أمره أو ملك على ملك، فهذا يفعل للتعظيم ولا يجوز	١٥٥
هل ثمة إشكال في أن الاحتفال بهذه الأيام فيه تشبه بالكفار	١٥٦
علة التشبه بالكفار فيها لبس، فما كان مصدره غير المسلمين وشاع عند المسلمين فعلة التشبه تزول، مثل ارتداء البنطلون	١٥٦
الاجتماع على العزاء غير مشروع من العلماء من كرّهه ومنهم من بدَّعه	١٥٧
وعظ الناس في موقف الدفن من البدع أيضاً	١١٥٧
من فوائد الآية الكريمة	١٥٨
فضيلة الإيمان والعمل الصالح معاً، فالإيمان وحده لا يكفي	١٥٨
إثبات المغفرة لله عزّ وجل	١٥٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾	١٥٩
آيات الله، شرعية وكونية	١٥٩
من فوائد الآية الكريمة	١٦٠
القرآن الكريم مثاني، إذا ذكر أهل العمل الصالح ذكر في مقابلهم أهل العلم السيئ، وذلك للموازنة بين الخوف والرجاء	١٦٠
أيهما أفضل للعامل تغليب جانب الخوف أم تغليب جانب الرجاء؟	١٦١
كيف يستطيع الإنسان تحقيق جانب الخوف والرجاء وقياسه؟	١٦١
الكفر قد يصحبه التكذيب وقد لا يصحبه	١٦٢
وجوب الاستسلام لآيات الله وتنفيذها عن رضا تام	١٦٣
الكافرون المكذبون مخلدون في النار	١٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾	١٦٤
ذكر نعمة الله ليس للذكر فحسب، بل للقيام بشكرها	١٦٤
لام الأمر مكسورة، وتسكن إذا سبقتها الفاء أو الواو أو ثمَّ	١٦٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾	١٦٥

الفائدة	الصفحة
أحسن ما قيل في التوكُّل	١٦٥
الفرق بين التوكل على الله والتوكل على العبد	١٦٦
من فوائد الآية الكريمة	١٦٦
ينبغي ذكر نعمة الله في جلب المنافع ودفع المضار	١٦٦
الإنسان مأمور أن يتحدث بنعمة الله فلا فخر ولا إعجاب ..... ١٦٦،	١٦٧
كفّ الأذى ورفع الضرر من النعم	١٦٧
وجوب تقوى الله عند ذكر النعم .	١٦٧
إخلاص التوكل لله عزّ وجل	١٦٧
هل التوكل يمنع فعل الأسباب؟ ..	١٦٧
التوكل على الله يعني الأخذ بالأسباب، والتفويض إن عجزت الأسباب	١٦٨
ترك التوكل على الله نقص في الإيمان، وكذا التوكل على غيره سبحانه	١٦٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ...	١٦٩
الجملة المؤكدة بثلاثة مؤكدات ..	١٦٩
إعراب الأعداد المركبة .. ١٦٩،	١٧٠
إعراب اثني عشر واثنتي عشرة ..	١٦٩
تمييز العدد	١٧٠
معنى قوله تعالى: ﴿نَقِيبًا﴾	١٧٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ﴾	١٧٠
معنى قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ١٧٠،	١٧١
الزكاة، سبب تسميتها؟	١٧١
المراد بالإقراض في الآية: الصدقة	١٧٢
قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ جواب لقوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ﴾ وليست جواباً للشرط لعدم اقترانها بالفاء ..	١٧٢
التصفية قبل التحلية، والنفي في القرآن والسنّة يأتي غالباً مقدماً على الإثبات	١٧٣
الجنة تجمع على جنَّات باعتبار الأنواع، وتفرد باعتبار الجنس	١٧٤
تفسير الجنة بالبستان يقلل من تخيّل نعيمها	١٧٤
معنى قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾	١٧٤
أنهار الجنة وأنواعها	١٧٥
من فوائد الآية الكريمة	١٧٦
تذكير الأمة، وبني إسرائيل بما أخذه الله عليهم من الميثاق .	١٧٦
ذكر الله نفسه بالغيبة تعظيماً وتكبيراً	١٧٦

الفائدة	الصفحة
من أساليب البلاغة الانتقال من أسلوب لآخر لجذب الانتباه	١٧٦، ١٧٧
إثبات أن الله خلق أعمال العباد ...	١٧٧
الرد على القدرية في قولهم إن أفعال العباد ليست مخلوقة ..	١٧٧
الرد على الجبرية	١٧٧
ينبغي للناس اتخاذ نقباء يشاورونهم في أمورهم	١٧٧
منّة الله على بني إسرائيل بأنه ناصرهم وأنه معهم	١٧٧
معيّة الله	١٧٧، ١٧٨
معية الله، هل هي حقيقة أم مجاز عن العلم والإحاطة والنصرة؟	١٧٨
الجهمية يقولون: إن الله معنا في كل مكان ويغفلون نصوص العلو	١٧٩
هل العقل يتصور أن تطلق على الشيء أنه معك وهو بعيد عنك؟	١٧٩
نثبت لله ما أثبته لنفسه من علوه ومعيّته، ولا تناقض بينهما ..	١٨٠
تفسير بعض السلف للمعية بالعلم تفسير صحيح لكنه ليس مطابقاً	١٨١
المعية الخاصة بالوصف كثيرة في القرآن	١٨٢
من يملكون التقوى والقوة تتحقق لهم السيادة والعزة	١٨٢
انتصار الصحابة بعد موت الرسول هو انتصار للرسول ودعوته	١٨٣
الصلاة والزكاة مفروضة على الأمم السابقة، وهذا لا يعني المماثلة بل تختلف الكيفية الوقت والمقدار	١٨٣
يجب على بني إسرائيل الإيمان بالرسل جميعاً وعلى رأسهم محمد ﷺ	١٨٤
نصرة الرسول في حياته بالجهاد والدفاع وبعد وفاته بنصرة شريعته	١٨٤
فضل الله على عباده	١٨٤
التقرب إلى الله بالأعمال الحسنة	١٨٥
الأعمال الصالحة تكفر الأعمال السيئة	١٨٥
الجنة ليست واحدة وإنما هي جنّات	١٨٥
نعيم الجنة نعيم للنفس والقلب والسمع والبصر	١٨٥، ١٨٦
في الجنة أنهار لا نهر واحد	١٨٦
الإفراد باعتبار الجنس لا ينافي التعدد	١٨٦
الغالب أن وسط السبيل أو الطريق هو الحق	١٨٧

الفائدة	الصفحة
تفسير قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾	١٨٧
عطف فعل على فعل يفيد السببية مع الترتيب	١٨٧
كيف يجتمع حرفان يفيدان التعليل، وهما الباء والفاء في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ ...	١٨٨
معنى قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾	١٨٨
معنى قوله تعالى: ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾	١٨٩
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ ..	١٨٩
معنى قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾	١٨٩
أصل التحريف، وأنه يشمل التحريف اللفظي والمعنوي ..	١٩٠
التحريف المعنوي يكون في الدليل، والتعطيل يكون في المدلول، كقولهم في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بمعنى استولى	١٩٠
معنى قوله تعالى: ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾	١٩٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾	١٩١
المراد بالنسيان في الآية	١٩١
ما الدليل على تقسيم النسيان إلى نسيان علمي وعملي؟	١٩١
من المخاطَب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ الرسول أم المخاطَب؟	١٩٢
معنى قوله: ﴿تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾	١٩٢
قاعدة: ما احتمل أكثر من معنى بلا ترجيح أو تضاد فإنه يحمل على جميع المعاني المحتملة	١٩٢
معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾	١٩٣
معنى قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾	١٩٣
العفو في الآية عن القليل الذين لا خيانة فيهم	١٩٣
الإشكال في تفسير قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾	١٩٣
أقوال بعض المفسرين في أن هذه الآية منسوخة بآية السيف	١٩٤
بعض المحققين يقول: كل النسخ لا يتجاوز عشرة أحكام	١٩٤
معرفة التاريخ شرط لمعرفة النسخ	١٩٤

الفائدة	الصفحة
لا يجوز الإقدام على دعوى النسخ إلا بدليل	١٩٤
سورة المائدة من آخر ما نزل، وجميع أحكامها محكمة لا منسوخة، وهو المشهور	١٩٤
المراد بالعفو في قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ ليس العفو الكامل، بل هو عفو جزئي لا يقتضي عدم عقوبتهم بأي عقوبة	١٩٥
الفرق بين العفو والصفح	١٩٥
من فوائد الآية الكريمة	١٩٥
إثبات الأسباب	١٩٥
نقض الميثاق سبب للعنة الله عزّ وجل	١٩٦
اللعن عقوبة	١٩٦
هل يجوز أن نلعن من لعنه الله ورسوله؟	١٩٦
اللعنة تكون على سبيل العموم أم على سبيل الخصوص؟	١٩٦
كيف نوجّه دعاء الرسول ﷺ على قوم باللعنة	١٩٧
كلما عصى الإنسان ربّه قسا قلبه	١٩٧
دواء قسوة القلب كثرة طاعة الله ..	١٩٧
أحوال القلوب:	١٩٧
المعاصي سبب لقلة الفهم	١٩٨
المعاصي سبب لنسيان العلم ونسيان العمل	١٩٨
قسوة القلوب وتحريف الكلم عن مواضعه ونسيان ما ذُكِر به من خصال اليهود	١٩٨
خيانة اليهود لا تزال باقية	١٩٩
حسن معاملة الإسلام للأعداء بالعفو عن قدرة	١٩٩
إثبات المحبة لله	١٩٩
عدم المؤاخذة على الذنب من الإحسان	١٩٩
فوات الأجر يعتبر عقوبة	٢٠٠
قسما الإحسان: إحسان في عبادة الخالق، وإحسان في معاملة المخلوق	٢٠٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾	٢٠١
فائدة قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ إقامة الحجة عليهم	٢٠١
أخذ الله الميثاق على بني آدم كلهم بأن يؤمنوا به وبرسله ..	٢٠١
معنى قوله تعالى: ﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾	٢٠٢
هل نسيانهم نسيان عمل أم نسيان علم؟	٢٠٢
معنى قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾	٢٠٢
بيان ظاهر اتفاق النصارى اليوم ..	٢٠٣

الفائدة	الصفحة
سبب تسمية يوم القيامة بهذا الاسم	٢٠٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾	٢٠٣
الفرق بين السين وسوف	٢٠٣
من فوائد الآية الكريمة	٢٠٤
إقامة الحجة على الخصم بما يدعيه	٢٠٤
تسمية النصارى لأنفسهم بالمسيحيين ورفضهم تسمية النصارى	٢٠٤
إضاعة حق الله من أسباب إلقاء العداوة والبغضاء بين الناس	٢٠٥
التفريق بين العداوة والبغضاء	٢٠٥
الرد على الجبرية في قولهم إن الإنسان مجبر على عمله	٢٠٦
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾	٢٠٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾	٢٠٧
معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾	٢٠٧
«النور» هل المراد به محمد ﷺ أم ما يحصل من الكتاب والسنّة من الهدى	٢٠٧
سمي القرآن كتاباً لثلاثة أمور ...	٢٠٧
قوله تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾ هل المراد مبين لغيره أو بيّنه لنفسه؟	٢٠٨
«أبان» الرباعي يأتي لازماً ومتعدياً	٢٠٨
قوله: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ لِمَ عبّر بالجمع عن طريق الإسلام والغالب أن يعبر عنه بالإفراد ..... ٢٠٨،	٢٠٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾	٢٠٩
(مَنْ) لفظها مفرد ومعناها قد يراد به الجمع فصح عودة الضمير إليها مجموعاً	٢٠٩
الإذن نوعان: قدري وشرعي	٢١٠
ما أذن الله به شرعاً قد يقع وقد لا يقع أما ما أذن به قدراً فلا بد واقع	٢١٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾	٢١٠
الهداية إذا تعدّت بـ«إلى» فهي هداية الدلالة	٢١٠
من فوائد الآيتين الكريمتين	٢١٠
هل خطاب اليهود والنصارى بأهل الكتاب إكرام لهم وتعزيز؟ ..... ٢١٠،	٢١١
ناداهم الله بأهل الكتاب لإقامة الحجة عليهم	٢١١

الفائدة	الصفحة
رفع شأن النبي في قوله: ﴿رَسُولُنَا﴾ بإضافة رسالة إلى الله	٢١١
محمد رسول الله مرسل إلى أهل الكتاب أيضاً، وهو مبيِّن لهم ..... ٢١١،	٢١٢
أهل الكتاب أهل كتمان للعلم ..	٢١٢
من كتم علماً ففيه شبه باليهود والنصارى	٢١٢
لماذا سكت الرسول ﷺ عن بعض معايب أهل الكتاب، فلم يبينها ويفضحهم؟	٢١٢
ما جاء به الرسول ﷺ كله نور ..	٢١٢
القرآن الكريم مبيّن للأشياء	٢١٣
التدبر والتماس الحق في الشرع قرآناً وسنَّة واجتهاداً	٢١٤
الهداية بيد الله، فلا نطلبها إلا منه	٢١٤
كلما ازداد المرء اتباعاً لما يرضي الله ازداد معرفة بشريعته	٢١٥
إثبات الرضا لله وهي صفة فعلية لها سبب	٢١٥
هل رضا الله كرضا المخلوق؟ ..	٢١٥
صفات الله بين أهل التعطيل وأهل التفويض	٢١٦
قاعدة: أن نثبت ما أثبته الله لنفسه في القرآن أو السنّة ...	٢١٧
قاعدة: أن ننفي عنه مماثلة المخلوقين	٢١٧
نقول في مسائل الاعتقاد: ثبت بالحس والعقل والنقل، فما الفرق بين الحس والعقل	٢١٧
طرق السلامة كثيرة ومتعددة	٢١٨
من يسلك سبيل الشريعة يسلم ...	٢١٨
ما حكم من يقول: إن أهل الكتاب ليسوا كفاراً؟	٢١٩
الرد على القدرية القائلين إن الله لا علاقة له بفعل العبد	٢١٩
المعاصي ظلمات والكفر والشرك أشد ظلماً	٢٢٠
إثبات الإذن لله، وهو نوعان: شرعي وكوني قدري	٢٢٠
المراد في قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ الإذن الشرعي أم القدري؟ ٢٢٠،	٢٢١
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾	٢٢١
القَسَم المقدّر في الآية كيف نستدل عليه ..... ٢٢١،	٢٢٢
قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾	٢٢٢
فوائد ضمير الفصل	٢٢٢
تأكيدهم أن الله هو المسيح ابن مريم يستحيل عقلاً وشرعاً ..	٢٢٢
الفرق بين المسيحَيْن: ابن مريم والدجّال، وغلط من سمّى الدجال مسيحاً	٢٢٣

الفائدة	الصفحة
مريم بنت عمران هل هي أخت موسى وهارون عليهما السلام؟	٢٢٣
معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ..... ٢٢٣،	٢٢٤
المسيح مربوب مقدور عليه	٢٢٤
المسيح ليس هو الله لأمرين	٢٢٥
دليل أن الأرضين سبع من القرآن	٢٢٥
علمنا أن الأرضين سبع فأين الست الباقية؟	٢٢٦
لماذا جعل الله تعالى ما بين السماء والأرض عديلاً لهما في قوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؟ ...	٢٢٦
معنى قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾	٢٢٦
من فوائد الآية الكريمة	٢٢٧
التأكيد على كفر القائلين بأن الله هو المسيح ابن مريم	٢٢٧
لِمَ لا نستطيع الآن مجاهدة الكفارة وقتالهم؟	٢٢٧
لا يجوز أن نداهن الكفار في دين الله	٢٢٩
التخزيل في الدين بدعوى التسامح والتساهل والمحبة ..	٢٢٩
أُخذ على أنبياء اليهود والنصارى عهد الإيمان بمحمد ﷺ، فأتباعهم أولى بالإيمان	٢٣٠
الكفر برسول واحد كفر بجميع الرسل ..... ٢٣٠،	٢٣١
جواز انتساب الإنسان إلى أمّه إن لم يُعلَم له أب	٢٣١
مسائل في ميراث المنسوب لأمه	٢٣٢
هل يجوز نسبة الإنسان إلى أمّه مطلقاً وإن كان له أب؟	٢٣٢
نساء أهل الكتاب ولو كانوا كفاراً لكنهم ينتسبون لأهل الكتاب، حلال	٢٣٣
بيان كمال سلطان الله	٢٣٣
في المناظرة ينبغي البدء بأول مَنْ يحتج به المناظِر	٢٣٤
اختصاص الملك بالله لقوله «لله»	٢٣٤
إضافة الملك لغير الله في القرآن ما تأويلها؟	٢٣٤
ما بين السماوات والأرض خلق عظيم، فما مدى صحة أقوال أهل الهيئة وعلماء الفلك؟	٢٣٥
لله المشيئة المطلقة في خلق ما يشاء	٢٣٥
أفعال العباد مخلوقة	٢٣٥
عموم قدرة الله عزّ وجل	٢٣٦
الفرق بين القدرة والقوة	٢٣٦

الفائدة	الصفحة
صفة القدرة متضمة لصفات العلم والوجود والكمال	٢٣٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾	٢٣٧
قوله: ﴿أَبْنَٰٓؤُا۟﴾ من باب المبالغة في المحبة والمودة	٢٣٧
توجيه العطف في قوله تعالى: ﴿وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾	٢٣٧
إبطال حجة الخصوم في المناظرة بإثبات خلافها	٢٣٧
معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾	٢٣٨
الإضراب الإبطالي في قوله: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ ...	٢٣٨
معنى قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾	٢٣٩
قاعدة: كل فعل قرنه الله بالمشيئة لا بد أن يكون موافقاً للحكمة	٢٣٩
من فوائد الآية الكريمة	٢٤٠
اليهود والنصارى يقرون بثبوت المحبة لله وبعض طوائف أمتنا كالأشاعرة ينكرونها	٢٤٠
إبطال حجة الخصم بالدليل في المناظرة	٢٤١
عذاب الله لبني إسرائيل ـ اليهود والنصارى ـ لم ولن ينقطع ..	٢٤١
هل يؤخذ من إثبات أهل الكتاب لصفة المحبة أن الحق يؤخذ ممن جاء به؟	٢٤١، ٢٤٢
إثبات الأسباب	٢٤٢
الاحتراز عما يوهم باطله	٢٤٢
هل مغفرة الله وتعذيبه لمن شاء يكون لمجرد المشيئة أم لا بد من سبب؟	٢٤٢، ٢٤٣
المشيئة لا تنقسم، فهي بمعنى الإرادة الكونية	٢٤٣
إثبات الله لعباده ملكاً، والفرق بين ملك الله وملك عباده؟ ..	٢٤٣
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾	٢٤٤
قاعدة: الحذف يفيد العموم	٢٤٤
معنى قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾	٢٤٤
ليس بين محمد ﷺ وعيسى عليه السلام نبيّ	٢٤٥
معنى قوله: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾	٢٤٥
قاعدة بلاغية: جميع الحروف الزائدة تفيد التوكيد	٢٤٦
الحرف الزائد في القرآن لا بد تقييده بأنه زائد في الإعراب	٢٤٦
ضابط حرف الجر الزائد أنه إذا حُذف استقام الكلام	٢٤٧

الفائدة	الصفحة
ما الحال مع حروف الجر غير الزائدة ويستقيم الكلام بدونها؟	٢٤٧
من فوائد الآية الكريمة	٢٤٧
مناداة المخاطَب بالوصف الذي يقتضي القيام بما وُجِّه إليه، وفوائد ذلك	٢٤٧، ٢٤٨
لا حظ للرسول ﷺ في شيء من الربوبية	٢٤٩
النبيّ مبيِّن للخلق	٢٤٩
الرد على المفوضة في أسماء الله وصفاته	٢٤٩
مذهب السلف تفويض كيفية لا تفويض معنى	٢٤٩
الرسول مبيِّن لأهل الكتاب أيضاً، كيف ذلك مع اختلاف اللغة؟	٢٤٩، ٢٥٠
تعلُّم غير العربية لنشر الدين يوجب الثواب	٢٥٠
كلما طال زمن الرسالة صار الناس أشد حاجة للرسول	٢٥٠
إثبات الرسالات السابقة للرسول ﷺ	٢٥١
من لم تبلغه الرسالة فإنه معذور	٢٥١
الرسالات منحصرة في شيئين: البشارة والإنذار	٢٥١
تأكيد الكلام تأكيداً معنوياً خلافاً لتأكيد النحويين	٢٥٢
لا عيب في التكرار إن احتيج إليه للتوكيد	٢٥٢
مستحيل أن يتصف الله عزّ وجل بأشياء تنافي الكمال كالنوم مثلاً	٢٥٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾	٢٥٣
التوجيه الإعرابي لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾	٢٥٤
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿أَنۢبِيَآءَ﴾	٢٥٥
هل المراد بالأنبياء الرسل أو الأنبياء دون الرسل؟	٢٥٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	٢٥٥
الفرق بين «آتاكم» و«أتاكم»	٢٥٥
من فوائد الآية الكريمة	٢٥٦
ينبغي للداعية تذكير المخاطَبين بنعم الله عليهم	٢٥٦
وجود الأنبياء بين الناس من أكبر النعم	٢٥٦
تقديم مقام العلماء على الأمراء	٢٥٧
ينبغي للإنسان أن يُذكِّر تذكيراً خاصاً بنعم الله الخاصة عليه دون إعجاب بنفسه	٢٥٧
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾	٢٥٨

الفائدة	الصفحة
ما المراد بالأرض المقدسة؟	٢٥٩
معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾	٢٥٩
الكتابة نوعان: شرعية وقدرية ...	٢٥٩
جفاء قوم موسى في مخاطبتهم نبيهم باسمه	٢٦٠
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾	٢٦٠
الجبّار لغةً	٢٦٠
قوله: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾	٢٦١
دلالة التعبير بـ«إن» الشرطية في الآية	٢٦١
كتاب «إغاثة اللهفان» لابن القيم ومزيد بيان عن خصائص الملل	٢٦٢
بلاغة السياق في قوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾	٢٦٢
هل هناك حاجة لتعيين الرجلين؟	٢٦٣
هل يمكن أن يكون الرجلان موسى وهارون؟	٢٦٣
بأي شيء أنعم الله على الرجلين؟ ..... ٢٦٣،	٢٦٤
اختصار قضية الصراع مع اليهود على صراع الأرض وليس صراع العقيدة، لِمَ؟	٢٦٤
معنى قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾	٢٦٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟﴾ ..... ٢٦٥،	٢٦٦
أقوال العلماء في التوكل وحقيقته	٢٦٦
الشرط في إخلاص التوكل	٢٦٧
النفي في قوله: ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾ هل هو نفي لفعلهم الشرعي أم نفي لفعل الله القدري؟	٢٦٧
سوء الأدب والغطرسة من اليهود بقولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾	٢٦٧
معنى قوله تعالى: ﴿يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٢٦٨
لماذا خصّ التيه بأربعين سنة؟ ...	٢٦٩
المحدّد شرعاً أو قدراً ليس للعقل فيه مجال	٢٦٩
من فوائد الآيات الكريمات [٢١، ٢٦]	٢٦٩
فضيلة أرض الشام لقوله: ﴿ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾	٢٦٩
الله تعالى كتب أرض الشام لبني إسرائيل	٢٧٠
الكتابة نوعان: شرعية وقدرية، والقدرية تأتي غالباً مقرونة بـ«اللام»، والشرعية تأتي غالباً مقرونة بـ«على»	٢٧٠

الفائدة	الصفحة
بنو إسرائيل أحق بأرض الشام وهي مكتوبة لهم حين كانوا مؤمنين	٢٧٠
شرعاً، لا حق لبني إسرائيل مطلقاً فيما يسمونه بأرض الميعاد	٢٧١
الأمور لا تتم إلا بوجود المصالح وانتفاء المفاسد	٢٧١
مخالفة طريق السلف الصالح هو التأخر، والكفر ردة عن الاستقامة	٢٧١
موازنة الداعية بين الترغيب والترهيب فيه تحفيز للنفوس للامتثال	٢٧٢
التحذير من مغبّة المعاصي في الدنيا لا ينافي الإخلاص	٢٧٢
غلط قول من قال بأن الإخلاص حقيقة هو عبادة الله لا طمعاً في ثوابه	٢٧٣
الوازع الإيماني وحده لا يكفي في إقامة الحدود بل يحتاج للرادع السلطاني	٢٧٣
ما سبب إقبال البعض على العبادة أكثر من إقبالهم على طلب العلم والقراءة؟	٢٧٣
سوء ظن بني إسرائيل بالله	٢٧٤
بيان جبن بني إسرائيل وتأكيده	٢٧٤
قد ينعم الله على بعض القوم بفتوحات لم يؤتها غيرهم	٢٧٥
الخوف من الله يحمل العبد على طاعته	٢٧٥
ضرورة التعمية على الأعداء ومفاجأتهم	٢٧٥
من غُزي في عقر داره فهو ذليل	٢٧٥
التوكل على الله والأخذ بأسباب النصر	٢٧٦
وجوب إفراد الله عزّ وجل بالتوكل	٢٧٧
التوكل الجزئي على عباد الله جائز مع يقينك بأنه سبب يسره الله	٢٧٧
التداوي لا ينافي التوكل	٢٧٨
الاتكال على الأسباب الحسية دون المعنوية هل ينفي كمال التوكل، كما في التداوي بالعقائد؟	٢٧٩
الشاكّ في قراءة القارئ على المريض لا يستفيد	٢٨٠
غطرسة بني إسرائيل وإصرارهم على المعصية والجبن	٢٨٠
المقارنة بين بني إسرائيل وصحابة رسول الله في حسن استجابتهم لله ورسوله	٢٨١
موسى عليه السلام له الكلمة على هارون	٢٨١

الفائدة	الصفحة
جواز دعاء الإنسان بالتفريق بينه وبين أهل الفسق والفجور ...	٢٨١
يجوز هجران العاصي هجر إصلاح إن كانت فيه مصلحة ..... ٢٨١،	٢٨٢
استجابة الله للدعاء وما تتضمنه الاستجابة من صفات	٢٨٣
التحريم يطلق على المنع القدري	٢٨٣
هداية الخلق ليست إلى الإنسان بل إلى الله ..... ٢٨٣،	٢٨٤
حكم وصف موسى عليه السلام بالعصبية في بعض المواقف؟	٢٨٤
القدح في الأنبياء كفر مخرج عن الملة وفيه إساءة أدب	٢٨٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾	٢٨٥
ابنا آدم: هابيل وقابيل	٢٨٦
الحق يوصف به الخبر والحكم؛ مع الخبر يعني الصدق، ومع الحكم يعني العدل	٢٨٦
قاعدة تفسيرية: ما أبهمه الله فهو مبهم، ولا حاجة للتكلف في تفسير المبهم	٢٨٦
معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾	٢٨٦
ما علامة قبول القربان	٢٨٧
حُقّ للمرء أن يفخر إن علم أن الله تقبّل منه عملاً صالحاً	٢٨٧
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	٢٨٨
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾	٢٨٨
معنى قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾	٢٨٩
قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٢٨٩
لا يقال: لماذا اختار الله الغراب من بين سائر الطيور؟ فالحكمة عند الله	٢٨٩
معنى قوله تعالى: ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾	٢٩٠
﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ دعاء على النفس بالثبور والهلاك	٢٩٠
الاستفهام في قوله: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ وغرضه	٢٩٠
فوائد الآيات الكريمات	٢٩١
أهمية قصة ابني آدم	٢٩١
ضرورة التعرف على أخبار السابقين لما فيها من عظات وعِبَر	٢٩١
كل ما أخبر الله به فهو حق	٢٩١

الفائدة	الصفحة
قد يشترك الرجلان في عمل ويفترقان في القبول والأجر ..	٢٩١
جعل الله للقبول ميزاناً وللرد ميزاناً	٢٩٢
التقوى سبب قبول الأعمال	٢٩٢
غير المتقي لا يقبل الله منه، هل المراد عدم قبول العبادة التي وقعت فيها المخالفة أم للعموم؟	٢٩٢
الله تعالى موصوف بصفات الأفعال وهي صفات أزلية ..	٢٩٣
لا حرج أن يخبر الإنسان بوصف محمود إن لم يقصد الفخر وإنما مصلحة الغير ...	٢٩٣
هل يستسلم المرء لمن يريد قتاله أم تجب المدافعة؟	٢٩٤
ينبغي للإنسان أن يبين لصاحبه المعنى الذي من أجله امتنع عن شيء محرم	٢٩٥
الخوف من الله من أقوى الأسباب الرادعة عن معصيته	٢٩٥
إثبات الإرادة للعبد، وفي ذلك رد على الجبرية	٢٩٥
من أريد قتله ولم يدافع خوفاً من الإثم فلا حرج عليه	٢٩٦
القتل سبب لدخول النار، ولكنه هل هو سبب للخلود في النار؟	٢٩٦
المشهور في مذهب أهل السنّة أن القاتل داخل تحت المشيئة	٢٩٧
لو تاب القاتل، هل تسقط الدية عنه؟	٢٩٧
الظلم من أسباب دخول النار ...	٢٩٨
الحذر من النفس الأمّارة بالسوء	٢٩٨
قتل النفس لا يخرج من الإيمان ولا يوجب الكفر، بل تبقى الأخوة	٢٩٨
كل كفر أطلقه الله فهو كفر دون كفر إلا بدليل يدل على أنه كفر أكبر	٢٩٩
أفعالنا مخلوقة لله وبإرادته ومع ذلك ففعل الإنسان يقع باختياره وإرادته	٢٩٩
قد تكون الحيوانات مرشدة للبشر كما في قصة الغراب	٣٠٠
إذا امتاز أحد بشيء فإنّ هذا يقتضي التمييز المطلق	٣٠٠
ما الفرق بين مطلق الشيء والشيء المطلق؟	٣٠١
الواجب في الدفن ما توارى به السوأة وأن يكون مانعاً للسباع والرائحة	٣٠٢
بدن الميت كله عورة بالنسبة لتعميم الكفن لا بالنسبة للنظر	٣٠٢

الفائدة	الصفحة
قتل العمد لا يخرج من الإيمان خلافاً للخوارج والمعتزلة ...	٣٠٢
ماذا يقول الخوارج في مرتكبي الحدود الشرعية الثابتة كقطع اليد والجلد؟	٣٠٣
تفسير قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا﴾	٣٠٤
ابن آدم أول من سنّ القتل في البشرية ويتحمل كفلاً من الوزر في كل نفس تقتل بغير حق	٣٠٤
معنى قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾	٣٠٤
شروط ثبوت القصاص: ألا يكون القاتل أعلى من المقتول في الدين والحرية والمُلك	٣٠٥
﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ما المراد بالفساد في الآية؟	٣٠٥
معنى قوله تعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾	٣٠٦
عقوبة القاتل بالقصاص لا فرق فيها بين أن يقتل واحداً أو يقتل جميع الناس	٣٠٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾	٣٠٧
صور إحياء النفس	٣٠٧
لماذا خص بني إسرائيل في قوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾	٣٠٨
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾	٣٠٩
اللام في قوله تعالى: ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾	٣٠٩
من فوائد الآية الكريمة	٣٠٩
إثبات العلة للأحكام الشرعية ...	٣٠٩
إثبات الحكمة هو غاية التنزيه عن النقص والعيب	٣١٠
تعظيم الله نفسه جل وعلا، بنون التعظيم في الآيات أو بضمير الجمع	٣١١
مضاعفة العقوبة لكل من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض	٣١٢
جواز تخصيص معيّن في الحكم وإن كان عاماً لكونه أكثر الناس عملاً به	٣١٢
قتل النفس بالنفس وهو القصاص لا بد له من شروط	٣١٢
الوالد لا يقتل بولده، والراجح أنه يقتل إن كان قتله عمداً وعدواناً واضحاً	٣١٣
الشرط الثالث الذي يعفى الوالد من القصاص أن تكون هناك شبه عمد	٣١٤

الفائدة	الصفحة
هناك خلاف في قتل الحر بالعبد، والصواب: أن الحر يقتل بالعبد لعموم الدليل على أن النفس بالنفس وكذا يقتل المالك بالمملوك شريطة أن يكون عمداً وعدواناً	٣١٤، ٣١٥
ـ الفساد في الأرض مبيح لقتل النفس، وليس كل فساد يبيح القتل	٣١٥
إنقاذ المعصومين كإنقاذ جميع المعصومين اعتباراً للجنس ..	٣١٥
تشريف مقام الرسل بإضافتهم إلى الله	٣١٦
محبة الله عزّ وجل للإعذار وإقامة الحجة	٣١٦
من لم تبلغه الرسالة فهو معذور .	٣١٦
لا بد أن يكون الرسول مبيناً لقومه ما أرسل به	٣١٧
أهمية الترجمة في إبلاغ شريعة الله لغير العرب	٣١٧
تجاوز بنو إسرائيل الحد فلم يهتدوا مع كثرة أنبيائهم بل آزوهم وقتلوهم	٣١٨
الحاجة والمقام قد يدعوان لتأكيد الخبر ليطمئن المخاطب	٣١٨
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ..	٣١٨
إنما لا يليها إلا المحصور كلمات جاءت	٣١٩
دلالة صيغة فاعل على المشاركة	٣١٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾	٣١٩
قال بعض العلماء: نزلت هذه الآية في المحاربين، قطاع الطريق	٣١٩
التشديد في قوله: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ يدل على الزجر والتعنيف ...	٣٢٠
معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ﴾، هل المراد الصلب فقط أم الصلب بعد القتل؟	٣٢٠
معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾	٣٢١
معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾	٣٢١
«أل» للعهد في قوله: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾	٣٢١
الجمع بين عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة	٣٢١
معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾	٣٢٢
من فوائد الآيتين الكريمتين	٣٢٢

الفائدة	الصفحة
عقوبة المحاربين لله ورسوله، الساعين في الأرض فساداً ..	٣٢٢
شدّة محاربة الله ورسوله، وعظمها	٣٢٢
عظم محاربة الرسول حسياً أو معنوياً	٣٢٢
يريد الله أن يطهر الأرض من الفساد والمفسدين	٣٢٣
تنوع عقوبة المحاربين لله ورسوله، فهل «أو» في الآية للتنويع أم للتخيير؟	٣٢٣
تخيير المصلحة وتخيير التيسير ..	٣٢٣
بعض العلماء جعلوا «أو» للتنويع بحسب الجرائم؛ فمن قتل وأخذ المال يقتّل ويُصلّب، فمن تكثر جرائمه تضاعف له العقوبة، كلٌّ بحسبه	٣٢٤
النفي في الأرض ومعناه	٣٢٥
هل وقع في عهد الرسول إقامة حد الحرابة؟	٣٢٥، ٣٢٦
الحد كفارة للذنب، ولكن مع المحاربين لم يكن الحد كفارة لهم: بل لهم عذاب في الدنيا والآخرة	٣٢٧
عذاب الآخر أشد من عذاب الدنيا	٣٢٧
إن تاب المجرمون قبل القدرة عليهم سقط عنهم الحد	٣٢٧
هل يُعفى عن المجرمين التائبين فيما يتعلق بحقوق الآدميين؟	٣٢٧
إن تاب المجرمون انتقل الحد إلى الآدمي، وله أن يعفوا، وإن لم يتوبوا، فالحد لا يسقط وإن عفا أولياء المقتول	٣٢٨
توبة المجرمين بعد القدرة عليهم، هل تُقبل؟	٣٢٩
إصدار الحاكم لقوانين العفو العام عن المتمردين ليعودوا هل هو جائز؟	٣٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾	٣٢٩
في الآية نداء وثلاثة أوامر وعلّة وغاية	٣٢٩
تصدير الخطاب ببذاء المؤمنَين والدلالة على أهميته	٣٣٠
تفسير العلماء للتقوى	٣٣٠، ٣٣١
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾، والمراد بالوسيلة؟	٣٣١
من فوائد الآية الكريمة	٣٣٢
بلاغة القرآن في تنويع العبارات والأساليب	٣٣٢
الإيمان يحمل على امتثال أمر الله واجتناب نهيه	٣٣٣
وجوب تقوى الله	٣٣٣

الفائدة	الصفحة
وجوب تعلُّم الدين، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ..	٣٣٣
الأعمال تتفاضل وكذا الأجناس، ومناط التفضيل: الكتاب والسنّة	٣٣٤
وجوب الجهاد في سبيل الله بشروط	٣٣٥
هل يشترط ائتمام المجاهدين بإمام يأتمرون بأمره؟	٣٣٥
أهمية الإخلاص في قبول العمل، وأصناف المجاهدين حسب نياتهم	٣٣٦
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾	٣٣٧
«لو» في الآية شرطية، وهي لا تدخل إلا على جملة فعلية، فكيف يأتي بعدها «أن» المفتوحة؟	٣٣٨
من فوائد الآية الكريمة	٣٣٩
شدّة عذاب الكفار	٣٣٩
لما فات الكفار زمن الإمكان في الدنيا؛ فإنهم يتحسرون في الآخرة	٣٣٩
الافتداء بعد حلول العذاب لا ينفع	٣٣٩
عذاب الكفار مؤلم، ولكن هل هو مهلك؟	٣٣٩

الفائدة	الصفحة
عظم عقوبة أهل النار	٣٤٠
تفسير قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾	٣٤٠
الإرادة في الآية بمعنى المحبّة ..	٣٤١
النار باقية أبداً لا تفنى بصريح القرآن في ثلاثة مواضع	٣٤١
اختلاف عمل «ما» بين التميميين والحجازيين	٣٤٢
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ وفائدة حرف الجر الزائد «الباء»	٣٤٢
من فوائد الآية الكريمة	٣٤٣
أهل النار يحبون الخروج منها ولكن لن يحصل لهم ذلك ..	٣٤٣
أهل النار لا يمكن أن يخرجوا منها	٣٤٣
عذاب أهل النار مقيم	٣٤٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ ..	٣٤٤
السارق لغة واصطلاحاً مع الشرح ..... ٣٤٤،	٣٤٥
حديث المرأة المخزومية واختلاف العلماء في تخريجه ..... ٣٤٥،	٣٤٦
جحد العارية نوع من السرقة لأنه أخذ المال على وجه الاختفاء	٣٤٦

الفائدة	الصفحة
البدء بالسارق في الآية قبل السارقة لحاجة السرقة للقوة والجلد	٣٤٦
وفي باب الزنا بدأ ـ سبحانه ـ بالزانية لأنها مدخل الغواية .	٣٤٦
معنى قوله تعالى: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ لمن الخطاب في الآية، وما موقع «الفاء»؟ ...	٣٤٧
ماذا يفيد جمع الأيدي في الآية؟	٣٤٧
إذا أضيف المثنى إلى ما يفيد التعدد فإنه يجمع لئلا تجتمع تثنيتان	٣٤٧
«أيد» في الآية مطلقة من حيث الحد والجهة	٣٤٨
قراءة ابن مسعود تعين الجهة: «فاقطعوا أيمانهما»	٣٤٨
اليد إذا أطلقت فالمراد بها الكف، وبهذا يتضح الحد ويتعيّن	٣٤٩
معنى قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا﴾	٣٤٩
ختم الآية بالاسمين العظيمين: العزيز، الحكيم	٣٥٠
قصة الأعرابي الذي استمع إلى من يقرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾	٣٥٠
من فوائد الآية الكريمة	٣٥١
وجوب قطع يد السارق والسارقة	٣٥١
الخطاب للأمة في قوله تعالى: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ﴾ يقوم به ولاة الأمر، وينبهوا إن قصروا ...	٣٥١
السنّة قيدت إقامة حد السرقة بشروط: النصاب، الحرز ـ ..	٣٥٢
اشتراط أن يكون المسروق مالاً محترماً	٣٥٤
يشترط انتفاء الشبهة عن السارق لإقامة الحد: السرقة من بيت المال، اجتياح المجاعة	٣٥٤
تأجيل إقامة الحدود في المجتمعات الكافرة حتى يتقوّى الإسلام	٣٥٥
هل يقام الحج على امرأة حامل سرقت؟	٣٥٦
لو سرق الإنسان من مال أبيه هل يُقطع؟	٣٥٦
هل يشترط ثبوت السرقة لإقامة الحد دون أن نعتد بالادعاءات؟	٣٥٦
بِمَ تثبت السرقة؟ شهادة رجلين أو إقرار السارق	٣٥٦
لا مدخل لشهادات النساء في الحدود	٣٥٦
هل يشترط تكرار الإقرار لإثبات السرقة؟ ..... ٣٥٦،	٣٥٧

الفائدة	الصفحة
شيخ الإسلام: لو قُبل رجوع المقر في الحد ما أقيم حد في الدنيا	٣٥٧
وجوب قطع اليد اليمنى للسارق والسارقة، ومن أي مكان تقطع؟	٣٥٨
أبو العلا وتشكيكه واعتراضه على قطع يد السارق	٣٥٨
إذا قدّر أن السارق يستعمل شماله في السرقة، فهل تقطع اليمنى أم اليسرى؟	٣٥٩
عين الأعور لا تفقأ بعين الصحيح	٣٥٩
قول بعض العلماء: إذا لم يكن للسارق إلا يد يسرى فإنها لا تقطع	٣٦٠
إذا لم يكن له يدان هل نقطع الرِّجل؟	٣٦٠
هل يجب في القطع أن نفعل ما يمنع النزف لئلا يموت؟	٣٦١
هل يجوز تحذير السارق عند القطع؟	٣٦١
إذا سرق مرتين، هل نقطع غير اليمنى؟	٣٦١
لو أراد السارق أن يعيد يده بعد قطعها، هل له ذلك؟	٣٦٢
الحكمة في وجوب قطع يد السارق	٣٦٣
الجزاء من جنس العمل	٣٦٣
هل معنى أن الجزاء من جنس العمل أن تقطع الآلة التي ارتكب بها الذنب، فنوجب قطع ذكر الزاني؟	٣٦٣
عقوبة الزاني عقوبة خاصة وكذا السارق	٣٦٣
الرد على الجبرية لقول الله: ﴿بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ..	٣٦٤
الحدود كفارات	٣٦٤
الحكمة في إيجاب الحدود	٣٦٤
إثبات اسمين من أسماء الله: العزيز، الحكيم	٣٦٤
حكم الله نوعان: قدري وشرعي	٣٦٥
إذا حكم الله على أحد بشيء شرعاً، هل يلزم منه الوقوع؟	٣٦٥
لا يلزم من كون أحكام الله الشرعية مطابقة للحكمة أن يفهم الحكمة كل أحد	٣٦٧
الحكمة نوعان: حكمة غاية وحكمة وضع الشيء على ما هو عليه	٣٦٧
حسن الختام في الآيات الكريمة	٣٦٨
قصة الأعرابي الذي سمع خاتمة الآية خطأ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فاستنكر وقوعها لتناسب الحكم	٣٦٨

الفائدة	الصفحة
في القصاص حياة لئلا يسرف ولي المقتول في الظلم والقتل	٣٦٩
تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ﴾	٣٧٠
الحد يكفر ما سبق من ذنب السارق، فهل يتوب الله عليه وفي نيته أن يعود للسرقة؟ ...	٣٧٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَأَصۡلَحَ﴾	٣٧١
لله على عبده توبتان: التوفيق للتوبة، وقبول التوبة من التائب	٣٧٢
معنى قوله تعالى: ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾	٣٧٢
الغفور هنا، هل هي اسم فاعل أم صفة مشبهة أم صيغة مبالغة؟	٣٧٣
معنى المغفرة	٣٧٣
الرحمة صفة حقيقية ثابتة لله، أنكرها أهل التعطيل إنكار تأويل	٣٧٤
من فوائد الآية الكريمة	٣٧٥
حث الإنسان على التوبة حتى لو ظَلَم	٣٧٥
التائب من الظلم مهما كان، يتوب الله عليه	٣٧٦
لا بد من التوبة من الإصلاح ...	٣٧٦
هل الإصلاح شرط للتوبة في جميع الأعمال؟ أو شرط للتوبة في العمل الذي وقع فيه الظلم	٣٧٦
جواز التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره، ولكن وصف التوبة لا يكون على إطلاقه .	٣٧٦
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾	٣٧٧
﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ خطاب لكل من يصح توجه الخطاب إليه	٣٧٧
الكلام عن الحدود والعقوبات في الآية استدعى تقديم التعذيب على المغفرة	٣٧٨
تعذيب الله وغفرانه لحكمة	٣٧٨
ختام الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ودلالته ..	٣٧٨
الفرق بين القوة والقدرة	٣٧٨
من فوائد الآية الكريمة	٣٧٩
الملك العام في السمٰوات والأرض خاص لله لا يشركه فيه أحد	٣٧٩
شمول ملك الله عزّ وجل وقصور ملك الإنسان	٣٧٩
إثبات العقوبة والمغفرة لله	٣٨٠
إثبات المشيئة لله	٣٨٠
إثبات قدرة الله عزّ وجل على كل شيء	٣٨٠

الفائدة	الصفحة
تفسير كتاب الله ومعرفته هل هي فرض كفاية أم فرض عين؟ ..	٣٨١
إلى أي شيء في كتب التفسير نرجع؟	٣٨١
الكشاف للزمخشري تفسير جيد في تحرير المعنى وإيراد البلاغة لكن في مسائل العقيدة ينبغي الحذر منه	٣٨١
لخفاء بعض مسائل الاعتدال وسوء العقيدة في الكشاف قيل: لا يمكن أن يخرج الإنسان اعتزاليات صاحب الكشاف إلا بالمناقيش	٣٨٢
على أي التفاسير نعتمد؟	٣٨٢
تفسير ابن جريج من أفضل التفاسير، ولكن آفته إطلاق الأسانيد عن الصحابة بعضها صحيح وبعضها حسن وبعضها ضعيف	٣٨٢
تفسير ابن كثير من خير التفاسير لكنه أحياناً يتغاضى عن الكلام في بعض الإسرائيليات والقصص	٣٨٣
معظم تفاسير المتأخرين مطولة مع قلة الفائدة	٣٨٣
تفسير القرطبي من التفاسير المهتمة بالمسائل الفقهية	٣٨٤
بأي شيء نبدأ في تفسير القرآن؟	٣٨٤
مراتب التفسير: تفسير القرآن بالقرآن، تفسيره بالسنّة تفسير بأقوال الصحابة ثم التابعين .	٣٨٥
منهج التفسير اللغوي للقرآن دون العناية بغيره منهج غلط	٣٨٥
ماذا يكون الحال في احتمال الآية لأكثر من وجه، على أيهما تحمل؟	٣٨٦
تحمل الآية على المعنيين أو المعاني غير المتعارضة	٣٨٦
أمثلة على احتمال الآية الكريمة أكثر من معنى	٣٨٧
هل يجوز للإنسان أن يفسر القرآن برأيه؟	٣٨٨
أمثلة على حمل الفقهاء للحديث على مسائل نادرة الوقوع وصرفها من مسائل كثيرة الوقوع	٣٨٩
مراعاة المعاني في قراءة القرآن وعدم التقيُّد بعلامات الوقف التي قد لا تكون موفقة	٣٩٠
تحزيب القرآن انتقده شيخ الإسلام في بعض الأحيان لتعلُّق معنى آية الحزب أحياناً بما بعدها	٣٩٢
كثير من طلاب العلم يعتني بالعقيدة أو الفقه أو الحديث، ولكن قليل من يعتني بالتفسير	٣٩٢

الفائدة	الصفحة
ما حكم الربط بين آيات القرآن والاكتشافات العصرية؟	٣٩٣
ما حكم كتابة بعض الآيات على الأسواق التجارية والمدارس والمنازل وغيرها؟	٣٩٤
ما القول في تكلف بعض المفسرين في إيجاد المناسبة بين الآيات والسور؟	٣٩٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾	٣٩٥
أوجه القراءة في قوله: ﴿لَا يَحۡزُنكَ﴾	٣٩٦
معنى قوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾	٣٩٦
الكفر لغة وشرعا	٣٩٦
كفر إبليس من أي نوع من الكفر؟	٣٩٦
ما القول في كفر الجهل الذي يطال عباد القبور والصليب؟	٣٩٦
معنى قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾	٢٩٧
سبب تسمية اليهود بهذا الاسم؟ .	٣٩٧
التوجيه الإعرابي لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ﴾	٣٩٧
تحريف اليهود للكلم عن مواضعه يشمل التوراة وحدها أم يشمل غيرها؟	٣٩٩
سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ﴾	٣٩٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾	٤٠٠
هل إرادة الله في فتنة أحد مبنية على غير حكمة؟	٤٠١
معنى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡ﴾	٤٠١
معنى قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾	٤٠١
من فوائد الآية الكريمة	٤٠٢
تعظيم الله لنبيه بندائه على وجه التعظيم	٤٠٢
التسرية عن النبي وتقوية قلبه	٤٠٢
اختلاف الناس في الكفر بين مسارع فيه وغير مسارع	٤٠٢
المدار في الإيمان على القلب، وهو محلُّه	٤٠٣
الحكم على الناس بالظواهر، هل يعني تجاهلنا لما تخفيه البواطن؟	٤٠٣
الحكم بالكفر على معيّن، متى يكون؟	٤٠٣
من اليهود سمّاعون للكذب نقّالون له، ومن يفعل مثلهم، ففيه شبه منهم	٤٠٤

الفائدة	الصفحة
تعالي أحبار اليهود واستكبارهم عن الحضور للنبي محمد ﷺ	٤٠٤
تحريف كلم الوحي من أوصاف اليهود الذميمة	٤٠٤
التحريف نوعان: معنوي ولفظي .	٤٠٤
من صرف النص عما لا يريد الله ورسوله فهو محرّف له	٤٠٤
تحريف آيات الصفات أشد من غيره، لماذا؟	٤٠٤
التحريف المذموم هو الذي يقع بعد معرفة الإنسان للحق	٤٠٥
من حرّف الكلم عن مواضعه ففيه شبهٌ من اليهود	٤٠٦
شدة كراهية أحبار اليهود للحق ..	٤٠٧
ما أسباب ردّ الحق عند علماء بني إسرائيل؟	٤٠٧
إثبات إرادة الله عزّ وجل	٤٠٧
قسما الإرادة: شرعية بمعنى المحبة، وكونية بمعنى المشيئة	٤٠٧
هل يريد الله الكفر؟	٤٠٨
الإيمان، هل هو مراد لله كوناً أو شرعاً؟	٤٠٨
هل للجمادات إرادة؟ بدليل قوله: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾؟	٤٠٨، ٤٠٩
لا أحد يملك تغيير مراد الله	٤٠٩

الفائدة	الصفحة
ضرورة أن يعتني الإنسان بأعمال القلب أشد من اعتنائه بعمل جسده	٤١٠
إثبات الدارين: دار الدنيا ودار الآخرة	٤١٠
تفسير قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ ...	٤١١
هل هذه الآية تأكيد لما سبق أم هي مغايرة؟	٤١١
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿لِلسُّحْتِ﴾	٤١١
هل أكل المال بالباطل، هو أكل الربا، وهو الرشوة؟	٤١١
معنى قوله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ وما المراد به؟	٤١٢
«أو» في قوله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ فاحكم بينهم أو أعرض عنهم، هل هي للتنويع أو للتخيير؟	٤١٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ ..	٤١٣
الفرق بين الأذيّة والضرر	٤١٤
يجب العدل بين الخصمين ولو بين مسلم وكافر في كل شيء	٤١٤
الفرق بين المقسط والقاسط	٤١٥
من فوائد الآية الكريمة	٤١٥

الفائدة	الصفحة
قاعدة: إذا دار الكلام بين التأسيس والتأكيد حُمل على التأسيس	٤١٥
التحذير من اكتساب المال الحرام	٤١٦
النبي مخيّر بين أن يحكم بين اليهود وألا يحكم، وليس هذا على إطلاقه	٤١٦
الله سبحانه لا يلحقه ضرر بإعراض المعرضين	٤١٦
إثبات المحبّة لله عزّ وجل والرد على المتأوّلة من الأشاعرة وغيرهم	٤١٧
وقوف الصحابة عند ظاهر الآيات يثبت المحبة بمعناها الحقيقي	٤١٨
إثبات تفاضل محبّة الله عزّ وجل	٤١٩
الحث على العدل والإقساط	٤١٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾	٤١٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾	٤٢٠
دلالة اقتران «الكاف» بـ«أولاء»	٤٢٠
إعراب الآية: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾	٤٢١
من فوائد الآية الكريمة	٤٢١
العجب من حال اليهود يحكّمون النبي طلباً للرخصة وعندهم التوراة	٤٢١
من يتتبع رخص العلماء فيه شبه من اليهود	٤٢٢
حال من يستفتي عالماً ثم يسأل غيره؛ إما رغبة في استزادة وثقة بسؤال الأعلم، وإما استثقالاً للحكم وطلباً للرخصة من غيره، وشتان بين الأمرين	٤٢٢
تناقض اليهود في طلبهم للحق وعندهم أداته	٤٢٢
ما جاء في التوراة قبل تحريفها هو حكم الله	٤٢٣
من طلب الفتوى تتبعاً للرخصة فليس بمؤمن كامل الإيمان	٤٢٣
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾	٤٢٤
معنى قوله تعالى: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾	٤٢٤
أوجه القراءة في كلمة ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾	٤٢٤
العطف في قوله: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾	٤٢٥
من هو الحبر ومن هو الربّاني؟	٤٢٦
معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾	٤٢٧
الفروق بين الخشية والخوف	٤٢٧
معنى قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾	٤٢٧

الفائدة	الصفحة
ما هو الثمن القليل؟	٤٢٧
معنى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾	٤٢٧
فوائد ضمير الفصل	٤٢٧، ٤٢٨
من فوائد الآية الكريمة	٤٢٨
ثبوت إنزال الله تعالى للتوراة	٤٢٨
شرف التوراة	٤٢٨
التوراة أصل للأنبياء الذين جاءوا بعد موسى	٤٢٩
هل يجوز القول بأن هذه الآية من التوراة أو من الإنجيل؟	٤٢٩
جواز وصف الأنبياء بالإسلام ...	٤٢٩
إسلام الأنبياء استسلام لله ظاهراً وباطناً	٤٣٠
لا عذر لليهود في الخروج عن شريعة الله	٤٣٠
الثناء على أهل العلم	٤٣٠
العلماء شهداء على شريعة الله مؤتمنون عليها	٤٣١
أصناف العلماء: عالم ملة، وعالم أمة، وعالم دولة	٤٣١
تحريم خشية الناس في إضاعة شريعة الله	٤٣٢
متى يصدع الداعية بالحق ولا يخشى الناس؟	٤٣٣
الانحراف عن الدين ونشر العلم سببه: خشية الناس والطمع في الدنيا	٤٣٣
قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يخص اليهود أم المراد العموم؟	٤٣٣
قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، هل يعني الكفر فيما حكموا به، أم الكفر المخرج عن الملة؟	٤٣٥
متى يكون كفر الحاكم خروجاً عن الملة؟	٤٣٥، ٤٣٦
قد يُلبَّس على بعض الحكام ممن لا يعرفون أحكام الشريعة فيزين لهم جلساؤهم السوء ..	٤٣٦
جراءة البعض في الحكم بالتفكير مع انتفاء شروطه	٤٣٧
إصلاح الحكام يتحقق بالمجالسة والمناصحة	٤٣٧
هل يسوغ الخروج على الإمام أو الحاكم إن وجدنا فيه كفراً صريحاً بواحاً؟	٤٣٧، ٤٣٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾	٤٣٩
الكتابة نوعان: شرعية، وقدرية كونية	٤٣٩
عموم آية القصاص وتخصيص السنّة لهذا العموم	٤٤٠
مسائل في القصاص بين العموم والتخصيص	٤٤١، ٤٤٢

الفائدة	الصفحة
لم يصح في تخصيص الآية سوى أنه لا يقتل مسلم بكافر والباقي على عمومه ...	٤٤٣
هل يُقتل الكبير بالصغير والصغير بالكبير؟	٤٤٣
أعور قلع عين سليم هل يقتص منه أم لا؟ (مسألة خلافية) ..	٤٤٤
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾	٤٤٤
يقتص من الأنف من حيث كان موضع الجاني	٤٤٥
هل المعتبر في القصاص المساحة أم النسبة؟	٤٤٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾	٤٤٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾	٤٤٦
قوله: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ تشمل كل جرح	٤٤٧
الجرح الذي لا ينتهي إلى عظم لا يمكن القصاص منه	٤٤٧
هل القصاص بالمساحة أو بالنسبة؟	٤٤٧
معنى قوله تعالى: فمن تصدق به فهو كفارة له	٤٤٨
لا يجمع الله على عبده عقوبتين في الدنيا والآخرة	٤٤٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾	٤٤٩
هل المراد في الآية اليهود أم هو عام؟	٤٤٩
من فوائد الآية الكريمة	٤٥٠
فرض الله القصاص على اليهود ..	٤٥٠
قبح ما فعله بنو النضير مع بني قريظة	٤٥١
القصاص ثابت في النفوس وإن اختلفوا في السن والطول والقصد والعلم والذكاء وغير ذلك	٤٥١
جريان القصاص في الأعين والأنوف والأذان والأسنان وسائر الجوارح	٤٥٢
هل يشترط أن يكون القطع في مفصل أم لا يشترط؟	٤٥٢
إذا قطع ذكر إنسان هل يقطع ذكر الجاني أم لا؟	٤٥٣
جميع الجروح إن أمكن الاقتصاص فيها فالحكم ثابت	٤٥٤
هل يقتص في غير الجروح كالضربة واللطمة؟	٤٥٤
حث الجاني على تسليم نفسه للمجنى عليه أو لأوليائه	٤٥٦
الحث على العفو عن الجاني ...	٤٥٦
من لم يعلم حكم الله فحكم جهلاً فليس بظالم	٤٥٦
هل بين نهاية الآيتين: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تباين	٤٥٧

الفائدة	الصفحة
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾	٤٥٧
معنى قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾	٤٥٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾	٤٥٨
الإنجيل يحوي قصصاً ومواعظ، أما الأحكام فغالبها مستمد من التوراة	٤٥٩
من فوائد الآية الكريمة	٤٦٠
عيسى عليه السلام آخر الأنبياء قبل محمد ﷺ	٤٦٠
عيسى ليس له أب، فهو ينسب إلى أمّه	٤٦٠
حالات نسبة الابن لأمّه	٤٦٠
لو استلحق الزاني الولد المخلوق من مائه بلا معارض، هل يلحق به؟	٤٦٠، ٤٦١
الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً	٤٦١
الإنجيل الموجود بين أيدينا، هل هو الإنجيل الذي نزل على عيسى؟	٤٦٢
الإنجيل فيه هدى ونور	٤٦٢
التنويه بعظمة التوراة وفضلها وشرفها	٤٦٢
كلما زادت التقوى كلما زاد الإنسان اتعاظاً	٤٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ ..	٤٦٣
أوجه القراءة في قوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ وأثرها في توجيه المعنى	٤٦٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾	٤٦٤
هل الفسق في الآية فسق معصية أم فسق كفر؟	٤٦٤
من فوائد الآية الكريمة	٤٦٥
يجب على أهل الإنجيل الإيمان بمحمد ﷺ	٤٦٥
الإنجيل منزل من عند الله	٤٦٦
إثبات العلو لله عزّ وجل	٤٦٦
الأدلة على علو الله عزّ وجل علواً ذاتياً من الكتاب والسنّة والإجماع ..... ٤٦٦،	٤٦٧
هل الأوصاف (الكافرون، الظالمون، الفاسقون) لموصوف واحد هو من لم يحكم بما أنزل الله	٤٦٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا﴾	٤٦٨
معنى قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾	٤٦٩
معنى قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾	٤٧٠

الفائدة	الصفحة
الرسول منهي عن اتباع أهواء الضالين، فكيف بغيره؟	٤٧٠
معنى قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾	٤٧١
التنوين في قوله: ﴿لِكُلٍّ﴾	٤٧١
الفرق بين الشرعة والمنهاج	٤٧١
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾	٤٧٢
الشرائع مختلفة في اليسر والعسر وذلك لحكمة الابتلاء للصابرين الشاكرين من غيرهم	٤٧٢
معنى قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾	٤٧٢
هل المرجع المراد في الدنيا أم في الدنيا والآخرة	٤٧٢
الفائدة البلاغية في قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾	٤٧٣
الفرق الدقيق بين النبأ والخبر ...	٤٧٣
من فوائد الآية الكريمة	٤٧٣
إثبات أن القرآن كلام الله	٤٧٣
إثبات علو الله	٤٧٤
الثناء على القرآن	٤٧٤
القرآن مصدق لجميع الكتب	٤٧٤
جميع ما في القرآن حق وصدق ..	٤٧٥
القرآن ناسخ لما قبله من الكتب ..	٤٧٥
وجوب الحكم بما أنزل الله	٤٧٥

الفائدة	الصفحة
النهي عن اتباع أهواء أهل الكتاب	٤٧٥
من نهى عن شيء قبيح ينبغي له أن يبين قبحه	٤٧٥
الله سبحانه نوّع الشرائع بحسب الأمم	٤٧٦
هل تختلف أحكام الشريعة الإسلامية باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال	٤٧٦
عموم قدرة الله في الأمور الشرعية والكونية	٤٧٦
الشرائع ابتلاء من الله	٤٧٧
المرجع إلى الله شرعاً وقدراً	٤٧٧
لا بد لبني آدم من الاختلاف	٤٧٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾	٤٧٨
أوجه القراءة في قوله: ﴿وَأَنِ احْكُم﴾	٤٧٩
الأوجه في إعراب قوله تعالى: ﴿أَن يَفْتِنُوكَ﴾	٤٧٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾	٤٨٠
من فوائد الآية الكريمة	٤٨١
وجوب الحكم بما أنزل الله عند تحاكم أهل الكتاب إلينا	٤٨١
إذا كان ما ذكره أهل الكتاب مطابقاً للشريعة، فهل نتركه لفعلهم أم نأخذ به لكونه شريعة؟	٤٨١

الفائدة	الصفحة
فتنة المسلمين عما أنزل الله إليهم من أكبر غايات اليهود والنصارى ..	٤٨٢
للذنوب آثار سيئة، وأشدّها سوءاً: التولي عن دين الله وما أنزل	٤٨٢
المعاصي سبب الإعراض عن دين الله	٤٨٣
كثيرٌ من الناس خارجون عن دين الله بالفسوق	٤٨٣
﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ هل المراد بالناس أهل الكتاب أم للعموم؟	٤٨٣
الحذر الشديد من موافقة الكفار .	٤٨٤
هل للمسلم أن يتحاكم للكفار في بلادهم ليصل لحقه؟	٤٨٥
تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾	٤٨٥
مجيء حرف العطف بعد همزة الاستفهام وتقدير جملة تناسب المقام	٤٨٥
إضافة الحكم للجاهلية، ما المراد منه؟	٤٨٦
دلالة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ ...	٤٨٧
معنى قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾	٤٨٧
الإنكار الشديد على من ابتغى حكم غير الله	٤٨٨
كل حكم مخالف لحكم الله فهو حكم جاهلي	٤٨٨
حكم الله أحسن الأحكام	٤٨٨
حكم الله وإن لم تتراءى للناس منافعه الآنية، فهو في النهاية الصالح وحكم غيره وإن رأوا فيه مصلحة ظاهرة، ففيه مفاسد كثيرة تخفى عليهم ...	٤٨٩
ما وافق الشريعة من الأحكام فهو أحسن الأحكام	٤٩٠
المدح ينبغي أن يكون للشرع وليس للقانون وإن وافقه	٤٩٠
معارضة أحكام الشرع بالعقل لا تجوز وخاصة في العقوبات العملية	٤٩٠
تأويل الحكم وتحريفه اتكالاً على العقل لفعل الأشاعرة والمعتزلة والجهمية مع صفات الله عزّ وجل يعد خطأً عظيماً	٤٩١
حسن أحكام الله لا تنجلي إلا لصاحب اليقين	٤٩١
الرد على القائلين بخروج بعض الأحكام الشرعية عن القياس والعقل، كما في بعض المعاملات، مثل: باب السَّلم، وباب الإجارة	٤٩١، ٤٩٢

انتهى

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الآية الأولى	٥
تفسير الآية الكريمة	٥
فوائد الآية الكريمة	١٠
الآية الثانية	١٧
تفسير الآية الكريمة	١٨
فوائد الآية الكريمة	٢٤
الآية الثالثة	٣٤
تفسير الآية الكريمة	٣٤
فوائد الآية الكريمة	٤٦
الآية الرابعة	٥٥
تفسير الآية الكريمة	٥٥
فوائد الآية الكريمة	٥٩
الآية الخامسة	٦٥
تفسير الآية الكريمة	٦٥
فوائد الآية الكريمة	٧٠
الآية السادسة	٨٤
تفسير الآية الكريمة	٨٥
فوائد الآية الكريمة	٩٩
الآية السابعة	١٣٨
تفسير الآية الكريمة	١٣٨
فوائد الآية الكريمة	١٤٠
الآية الثامنة	١٤٣
تفسير الآية الكريمة	١٤٣
فوائد الآية الكريمة	١٤٧
الآية التاسعة	١٥٢
تفسير الآية الكريمة	١٥٢
فوائد الآية الكريمة	١٥٨
الآية العاشرة	١٥٩
تفسير الآية الكريمة	١٥٩
فوائد الآية الكريمة	١٦٠
الآية الحادية عشر	١٦٤
تفسير الآية الكريمة	١٦٤
فوائد الآية الكريمة	١٦٦
الآية الثانية عشر	١٦٩
تفسير الآية الكريمة	١٦٩
فوائد الآية الكريمة	١٧٦
الآية الثالثة عشر	١٨٧
تفسير الآية الكريمة	١٨٧
فوائد الآية الكريمة	١٩٥
الآية الرابعة عشر	٢٠١
تفسير الآية الكريمة	٢٠١
فوائد الآية الكريمة	٢٠٤
الآيتان الخامسة عشر والسادسة عشر	٢٠٦

الموضوع	الصفحة
تفسير الآيتين الكريمتين	٢٠٦
فوائد الآيتين الكريمتين	٢١٠
الآية السابعة عشر	٢٢١
تفسير الآية الكريمة	٢٢١
فوائد الآية الكريمة	٢٢٧
الآية الثامنة عشر	٢٣٧
تفسير الآية الكريمة	٢٣٧
فوائد الآية الكريمة	٢٤٠
الآية التاسعة عشر	٢٤٤
تفسير الآية الكريمة	٢٤٤
فوائد الآية الكريمة	٢٤٧
الآية العشرون	٢٥٣
تفسير الآية الكريمة	٢٥٤
فوائد الآية الكريمة	٢٥٦
الآية الواحدة والعشرون إلى الآية السادسة والعشرون	٢٥٨
تفسير الآيات الكريمات	٢٥٨
فوائد الآيات الكريمات	٢٦٩
الآية السابعة والعشرون إلى الآية الواحدة والثلاثون	٢٨٥
تفسير الآيات الكريمات	٢٨٥
تفسير الآيات الكريمات	٢٩١
الآية الثانية والثلاثون	٣٠٤
تفسير الآية الكريمة	٣٠٤
فوائد الآية الكريمة	٣٠٩
الآية الثالثة والثلاثون والرابعة والثلاثون	٣١٨
تفسير الآيتين الكريمتين	٣١٨
فوائد الآيتين الكريمتين	٣٢٢
الآية الخامسة والثلاثون	٣٢٩
تفسير الآية الكريمة	٣٢٩
فوائد الآية الكريمة	٣٣٢
الآية السادسة والثلاثون	٣٣٧
تفسير الآية الكريمة	٣٣٧
فوائد الآية الكريمة	٣٣٩
الآية السابعة والثلاثون	٣٤٠
تفسير الآية الكريمة	٣٤٠
فوائد الآية الكريمة	٣٤٣
الآية الثامنة والثلاثون	٣٤٤
تفسير الآية الكريمة	٣٤٤
فوائد الآية الكريمة	٣٥١
الآية التاسعة والثلاثون	٣٧٠
تفسير الآية الكريمة	٣٧٠
فوائد الآية الكريمة	٣٧٥
الآية الأربعون	٣٧٧
تفسير الآية الكريمة	٣٧٧
فوائد الآية الكريمة	٣٧٩
الآية الواحدة والأربعون	٣٩٥
تفسير الآية الكريمة	٣٩٦
فوائد الآية الكريمة	٤٠٢
الآية الثانية والأربعون	٤١١
تفسير الآية الكريمة	٤١١
فوائد الآية الكريمة	٤١٥
الآية الثالثة والأربعون	٤١٩
تفسير الآية الكريمة	٤١٩
فوائد الآية الكريمة	٤٢١

الموضوع	الصفحة
الآية الرابعة والأربعون	٤٢٤
تفسير الآية الكريمة	٤٢٤
فوائد الآية الكريمة	٤٢٨
الآية الخامسة والأربعون	٤٣٩
تفسير الآية الكريمة	٤٣٩
فوائد الآية الكريمة	٤٥٠
الآية السادسة والأربعون	٤٥٧
تفسير الآية الكريمة	٤٥٧
فوائد الآية الكريمة	٤٦٠
الآية السابعة والأربعون	٤٦٣
تفسير الآية الكريمة	٤٦٣
فوائد الآية الكريمة	٤٦٥
الآية الثامنة والأربعون	٤٦٨
تفسير الآية الكريمة	٤٦٩
فوائد الآية الكريمة	٤٧٣
الآية التاسعة والأربعون	٤٧٨
تفسير الآية الكريمة	٤٧٨
فوائد الآية الكريمة	٤٨١
الآية الخمسون	٤٨٥
تفسير الآية الكريمة	٤٨٥
فوائد الآية الكريمة	٤٨٨
* **فهرس الفوائد**	٤٩٣
* **فهرس المحتويات**	٥٣٤

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٠٥)

تفسير القرآن الكريم

سورة المائدة

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الثاني

دار ابن الجوزي

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير

القرآن الكريم

سورة المائدة

٢

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد صالح
تفسير القرآن الكريم سورة المائدة. / محمد صالح العثيمين.-
الرياض، ١٤٣٢هـ
٢مج.
ردمك: ٢ ـ ١١ ـ ٨٠٣٦ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (مجموعة)
٦ ـ ١٣ ـ ٨٠٣٦ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (ج٢)
١ ـ القرآن ـ التفسير الحديث ٢ ـ القرآن ـ سورة المائدة ـ تفسير
أ ـ العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٢/٥١٧٣

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
إلا لمن أراد طبعه لتوزيعه مجاناً بعد مراجعة
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
عنيزة ـ ص ب ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٣١٠٧ ـ ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
www.binothaimeen.com
info@binothaimeen.com
الطبعة الثانية
١٤٣٥هـ

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٥٧
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٣ - الرقم الإضافي: ٨٤٠٦ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ - الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٨١٣٧٠٦ - ٠٥٦٣٤٧٦٣٨٨ - بيروت
هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨
تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:
aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

□ ثم قال الله عزّ وجل: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ الخطاب مصدر بالنداء، فلماذا صدر بالنداء؟

أولاً: لتنبيه المخاطب؛ لأنك إذا أتيت بالكلام مرسلاً قد يحصل من المخاطب غفلة، لكن إذا ناديته قد يكون في ذلك تنبيه له، فصدر الخطاب بالنداء للتنبه والعناية به، ثم وجه هذا النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ للإغراء والحث؛ لأنه كلما كان الإنسان مؤمناً كان أقبل للحق، فوجه الخطاب للمؤمنين إغراءً به وحثاً عليه، كما تقول للرجل: يا أيها الكريم، عند بيتك ضيف، المعنى تحثه لأن يكرم هذا الضيف، أي: تحثه على الكرم، وعلى حسن الضيافة له.

ثانياً: توجيهه للمؤمنين إشارة إلى أن مقتضى الإيمان العمل بما دل عليه الخطاب، والخطاب الذي في الآية: هو النهي عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء.

ثالثاً: أن مخالفة مقتضى الخطاب منافٍ للإيمان، وهل هو منافٍ للإيمان أصلاً أو كمالاً؟

هذا على حسب ما يقتضيه السياق، قد يكون منافياً للإيمان أصلاً وقد يكون منافياً للإيمان كمالاً.

لو قال قائل: إضافة الحكم إلى الجاهلية وإضافته إلى القضاء كما في قول الشافعي: «وطب نفساً إذا حكم القضاء» هل ينافي أن أصل التحكيم إنما هو إلى الله؟

الجواب: هذه ليست كهذه، وطب نفساً إذا حكم القضاء، يعني: القضاء القدري، يعني: إذا قضى الله عليك بما تكره فلا تقابل هذا بالجزع والسخط، بل ارضَ بما قدر الله عزّ وجل عليك.

لو قال قائل: بعض المتأخرين ميز بين الكفار الذين يحادون الله ورسوله والكفار من أهل الذمة، وقال: أهل الذمة يجوز موالاتهم، والكفار المحادون لله ورسوله لا تجوز موالاتهم؟

الجواب: إن هذا غلط، الموالاة ممنوعة دائماً، أما مسألة البر والمعاملة بالعدل فهذه جائزة فيمن لم يقاتلنا في الدين ولم يخرجنا من ديارنا، فيجوز أن نبرهم ويجوز أن نقسط إليهم، يعني: لا بأس أن نعاملهم بالإحسان والعدل، لكن لا يقر في نفوسنا أننا سنكون لهم أولياء، نحامي دونهم ونذود عنهم، وأما الذميون الذين عندنا في بلادنا وتحت إمرتنا ويعطوننا الجزية، علينا أن نمنع العدوان عليهم ما داموا في بلادنا، لكن لو خرجوا فلسنا المسؤولين عنهم.

لو قال قائل: بعض الدول تحكم بشرع الله لكن تسمي هذا التشريع قانوناً وتجعله على شكل مواد، مثلاً مادة رقم كذا: إذا طلق ثلاثاً لا يقع الطلاق ثلاثاً، وما أشبه ذلك هل في هذا محظور شرعي؟

الجواب: على كل حال مسألة تقنين الشريعة غير ترتيب

أبواب الفقه، يعني: مثلاً: إذا جعلوا باب الطلاق مثلاً مواداً فليس في هذا مشكلة، إلا إذا كانوا يريدون أن يلزموا القضاة بالحكم بها، سواء وافق اختيارهم أم لا؛ لأن مسائل الطلاق فيها خلاف، ومسائل النكاح فيها خلاف، وأشياء كثيرة، والعلماء ما زالوا مختلفين بدون قانون، فلا يجوز إلزام القاضي أن يحكم بشيء معين، حتى وإن كان عليه طائفة من الفقهاء.

لو قال قائل: ما رأيكم في قول بعض المعاصرين: إن المحكم الذي تبنى عليه الأصول والقواعد العامة في الشرع لا يتجاوز واحداً في المائة، وأن المتشابه يقدر بتسع وتسعين في المائة، ولذلك نرى هذا الاختلاف الكبير بين الفقهاء؟

الجواب: أقول: هذا يدل على جهله، وأن كل شيء عنده مشتبه؛ لأنه لا يعرف، وإلا فالمتشابه لا يمثل واحداً في المائة من أدلة الشرع، كلها والحمد لله واضحة وبينة، لكن الله يقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ اليهود مكذبون بجميع الرسل كافرون بجميع الرسل، وكذلك النصارى، واليهود سموا بذلك إما نسبة لأبيهم يهوذا أو أنها من قوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فالذين هادوا أي: رجعوا، أما النصارى فقيل: إنها من النصرة؛ لأن عيسى عليه الصلاة والسلام قال: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]، وإما نسبة إلى البلد المعروفة في فلسطين اسمها الناصرة؛ لأن عيسى عليه الصلاة والسلام كان هناك فالله أعلم، ويجوز أن تكون من هذا وهذا ولا منافاة.

لو قال قائل: هل يصح الدعاء: اللهم إنا هدنا إليك؟

الجواب: إذا كانت بمعنى رجعنا يصح يعني إذا علم الداعي المعنى يصح.

قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾، اليهود والنصارى: مفعول أول، وأولياء: مفعول ثاني، تتخذ أو اتخذ: هذا الفعل معناه التصيير، أي: لا تصيروهم أولياء، واليهود هم الذين يَدَّعُونَ أنهم أتباع موسى، والنصارى هم الذين يدعون أنهم أتباع عيسى وكلهم ليسوا أتباعاً لا لموسى ولا لعيسى بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأن من كذب رسولاً فقد كذب جميع الرسل، هذه أقولها دائماً من كذب رسولاً فقد كذب جميع الرسل شاء أم أبى، وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥] مع أن قوم نوح ما أدركوا من الرسل إلا واحداً، ومع ذلك قال: إنهم كذبوا المرسلين؛ لأن من كذب رسولاً فقد كذب جنس الرسالة، فيكون هؤلاء الذين كذبوا نوحاً مكذبين إلى آخر الرسل محمد عليه الصلاة والسلام.

وقوله: «أولياء» جمع ولي، ووزنه أفعلاء، ولهذا مُنِعَ من الصرف لوجود ألف التأنيث الممدودة، فما معنى أولياء؟ الولي: يطلق على معان متعددة في اللغة العربية، لكن لا يمكن أن نفهم أو أن نحدد معناه في موضع إلا بعد أن نتتبع المواضع كلها، فمثلاً: «**السلطان ولي من لا ولي له**»[1]، هذه ولاية لها معنى،

---

(١) رواه أبو داود، كتاب النكاح، باب في الولي، حديث رقم (٢٠٨٣)، والترمذي، كتاب النكاح، باب ما جاء لا نكاح إلا بولي، حديث رقم (١١٠٢)، وابن ماجه، كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، حديث رقم (١٨٧٩)، وأحمد (٦/ ٤٧) (٢٤٢٥١) عن عائشة رضي الله عنها.

السيد ولي عتيقه هذه ولاية لها معنى، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ [التحريم: ٤] ولاية لها معنى أيضاً.

المهم أن الولاية في اللغة العربية لها معانٍ متعددة، فما هي الولاية التي نهى الله سبحانه وتعالىٰ أن نتولى بها اليهود والنصارى؟ هي المناصرة، أن نناصرهم، سواء ناصرناهم على مسلمين أو على كافرين، فلا يحل لنا أن نناصرهم على كافرين، ما لم يكن في مناصرتنا إياهم على هؤلاء الكافرين مصلحة للإسلام، فإن كان فيه مصلحة مثل أن تقوم حرب بين كَافِرِينَ وكافرين، ويكون الطرف الثاني أكثر إساءة للمسلمين من الطرف الآخر فهنا لا بأس أن نناصرهم، لا لمصلحتهم، ولكن لمصلحة المسلمين؛ لأن هذا من باب دفع أشر الأمرين بأخفهما.

إذاً: أولياء جمع ولي، والمراد بالولاية هنا المناصرة والمعاونة، ويأتي إن شاء الله تعالى ما يتفرع على ذلك في الفوائد.

لكن **لو قال قائل**: هل من الولاية المحبة؟

الجواب: المحبة لا شك أنها وسيلة إلى المناصرة؛ لأن من أحب أحداً نصره، لكن المحبة الطبيعية لا تدخل في هذا، ولهذا أباح الله تعالى للمسلمين أن يتزوجوا من اليهود والنصارى، ومن المعلوم أن الزوج مع زوجته لا بد أن يكون بينهما محبة كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ كيف نعرب ﴿بَعْضُهُمْ﴾؟ مبتدأ، وعلى هذا تكون استئنافية، ولذا يجب أن نقف على قوله تعالى:

﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ لأننا لو وصلنا جعلنا الجملة حالية، يعني: لا تتخذونهم في هذه الحال، وأظن أنه مكتوب عليها في المصحف وقف لازم، وهي مع كونها استئنافية كالتعليل للنهي، يعني: لا يليق بكم أن تتولوا؛ لأن هؤلاء بعضهم أولياء بعض، فلا يليق بكم أيها المسلمون أن تكونوا أولياء لهم، يعني: بعض اليهود أولياء بعض، وبعض النصارى أولياء بعض؛ لأنهم على ملة واحدة وعلى طريق واحد، فلا بد بمقتضى الفطرة أن يتولى بعضهم بعضاً.

وهل يشمل قوله: ﴿بَعْضُهُمْ﴾: اليهود أولياء بعض النصارى، يعني: أن اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض؟ الظاهر أن الآية تشمل هذا، بل لو قيل: إن هذا هو المتبادر لكان أولى؛ لأن النهي عن الطائفتين، فيكون بعضهم أي: كل طائفة من هؤلاء وهؤلاء بعضهم أولياء بعض، وإن كان اليهود يقدحون في النصارى، والنصارى يقدحون في اليهود قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣]، لكنهم ضد المسلمين شيء واحد يوالي بعضهم بعضاً ويناصر بعضهم بعضاً على المسلمين، وهذا الذي ذكره الله عزّ وجل موجود إلى يومنا هذا، الآن تجد الدولة النصرانية تساعد الدولة اليهودية علناً وبكل صراحة ووقاحة ولا يبالون، ومن هنا تعلم أنه يجب علينا نحن المسلمين أن نتخذهم أعداءً كما نهانا الله تعالى أن نتخذهم أولياء.

قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ هذا تحذير شديد ووعيد شديد على أن من تولاهم فإنه منهم، لكن هل هو منهم في الظاهر؟

نعم هو منهم في الظاهر لا شك؛ بسبب المعاونة والمناصرة، لكن هل يكون منهم في الباطن؟ نقول: يمكن، قد تكون هذه المناصرة والمعاونة تؤدي إلى المحبة ثم إلى اتباع الملة؛ لأن الذنوب يجر بعضها بعضاً، أما ظاهراً فالأمر ظاهر، ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ [المجادلة: ١٤]، يعني: في الباطن، لكن في الظاهر هم مع اليهود مثلاً، والمراد بهم المنافقون في الآية التي سقناها آنفاً، إذاً: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ في الظاهر، وربما يؤدي ذلك إلى الباطن ومشاركتهم في عقائدهم وفي أعمالهم وأخلاقهم، وهنا إشكال نحوي في قوله: ﴿من يتولهم﴾ فمن المعروف أن «مَنْ» الشرطية تجزم الفعل، وهنا نجد أن الفعل مفتوح اللام ﴿من يتولهم﴾.

الجواب: فتحة اللام ليست فتحة إعراب لأن آخر الفعل محذوف، إذاً نقول: هذه مجزومة والفعل المعتل يجزم بحذف حرف العلة، ولولا «مَنْ»، لقيل: «يتولاهم» بالألف.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الجملة هنا استئنافية بلا شك، وهي كالتعليل لقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، كأنه قال: من يتولهم منكم فإنه ظالم، والظلم أصله النقص، ومنه قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٣٣]، يعني لم تنقص، إذاً أصل الظلم النقص، والظالم ناقص؛ لأنه لم يأتِ بما يجب عليه فهو باخس نفسه حقها.

إذاً قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الناقصين أنفسهم حقها وذلك بإقحامها في المعاصي، إما بترك الواجبات وإما بفعل المحرمات.

وقوله: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يجب أن تعلم أن «أل» إذا اقترنت بمشتق فهي اسم موصول، يقول ابن مالك رحمه الله:

وصفة صريحة صلة أل..... .....

فكلما اتصلت «أل» بمشتق اسم فاعل أو اسم مفعول فإنها تكون اسماً موصولاً لا حرفاً، إذاً «أل» هنا اسم موصولاً.

وعندنا أصل بل عندنا قاعدة: أن الأسماء الموصولة تفيد العموم، وعلى هذا فيكون قوله الظالمين يشمل كل ظالم، أي: فإن الله تعالى لا يهديه، والهداية المنفية هنا هداية التوفيق، أما هداية البيان فهي ثابتة لكل أحد، حتى الكفار قد هداهم الله عزّ وجل، اقرأ قول الله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ١ ـ ٣]، يعني: هو مَهدي هداه الله السبيل، أي: بَيَّنَها له سواء كان كافراً أو شكوراً، واقرأ قول الله عزّ وجل: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

إذاً: لا يهدي الله جلَّ وعلا القوم الظالمين هداية توفيق.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان أهمية تجنب اتخاذ الأولياء من اليهود والنصارى، وجه ذلك: أن الله صدر الخطاب بالنداء.

الفائدة الثانية: أن اجتناب اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من مقتضيات الإيمان.

الفائدة الثالثة: أن اتخاذهم أولياء يوجب نقص الإيمان، وربما يوجب محو الإيمان وزواله كله.

الفائدة الرابعة: أن اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض، وهل المراد الملة الواحدة، أم كلتا الملتين؟ المراد العموم، الملة الواحدة وكلتا الملتين، يدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ [الأنفال: ٧٣].

الفائدة الخامسة: أن النصراني يرث من اليهودي، واليهودي يرث من النصراني، لقوله: ﴿أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ والإرث مبني على الولاية، ولهذا قال النبي ﷺ، «**ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر**»[1]، وإلى هذا ذهب كثير من العلماء وقالوا: إن الكفر ملة واحدة، فيرث الكفار بعضهم من بعض.

ولعل قائلاً يقول: إن أهل الكتاب يرث بعضهم بعضاً؛ لأنهم يشتركون في كونهم أهل كتاب بخلاف المجوس مع الكتابيين.

والقول الثالث في المسألة: أنه لا يرث اليهودي من النصراني ولا النصراني من اليهودي، وهذا القول أصح الأقوال، لقول النبي ﷺ: «**لا يتوارث أهل ملتين شتى**»[2]، ولا شك أن اليهود على ملة، والنصارى على ملة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب ميراث الولد من أبيه وأمه، حديث رقم (٦٣٥١)، ومسلم، كتاب الفرائض، باب: «**ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر**»، حديث رقم (١٦١٥) عن ابن عباس.

(٢) رواه الترمذي، كتاب الفرائض، باب: «**لا يتوارث أهل ملتين**»، حديث رقم (٢١٠٨) عن جابر بن عبد الله.

الفائدة السادسة والسابعة: بيان أن النصارى واليهود وسائر الكفار كلهم بعضهم أولياء بعض في مضادة المسلمين؛ لأنه إذا كان هذا بين اليهود والنصارى وبعضهم يضلل بعضاً ويقول للآخر إنه: ليس على شيء، أي: ليس على شيء من الدين، فما بالك بغيرهم.

ويتفرع على هذه الفائدة أنه يجب على المسلمين الحذر من أعدائهم وأن يَدَعُوا الخلافات التي بينهم، حتى يكونوا يداً واحدة على أعدائهم الذين يصرحون بالإيذاء.

الفائدة الثامنة: التحذير من موالاة اليهود والنصارى، لقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، وهل هذا يدل على أن توليهم من كبائر الذنوب؟ نعم؛ لأن كونهم منهم كالبراءة منهم، فهو كقول الرسول ﷺ: «**من غش فليس منا**»[1].

إذاً: اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من كبائر الذنوب، والولاية كما قلنا: المناصرة، لكن هل يدخل في ذلك أن يستعين الإنسان بهم على شيء خاص، مثل أن يكون هناك مهندس يهودي أو نصراني، ويستعين به على إحكام البناء أو إحكام الماكينة أو ما أشبه ذلك؟

الجواب: لا؛ لأني وإن استعنت به أشعر بأني أعلى منه، وأنه عندي بمنزلة الأجير، ومع ذلك فمتى أمكن أن يتخذ الإنسان عاملاً من المسلمين فهو أولى بلا شك، كقول الله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]، ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «**من غشنا فليس منا**»، حديث رقم (١٠١) عن أبي هريرة.

خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]؛ ولأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنكر على أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن يتخذ كاتباً نصرانياً، حتى إنه لما قُدِّمَت إلى عمر رضي الله عنه كتابة هذا النصراني أعجبته كثيراً؛ لأنها كتابة جيدة وحسابات منضبطة تماماً، فقال لأبي موسى: «هاتِ كاتبك، قال: يا أمير المؤمنين إنه لا يدخل المسجد، فغضب، قال: من هذا؟ قال: نصراني، قال: كيف تأمنه وقد خونه الله»، وأنكر عليه كثيراً، وألح عليه أبو موسى قال: هذا رجل جيد، فقال له: «مات النصراني، والسلام»[(١)].

يعني: نفرض الآن أنه مات ماذا تكون حالك وهو سيموت إن عاجلاً أو آجلاً، فانظر كيف كان الخليفة الراشد، يحذر من أن يولى غير المسلمين أحوال المسلمين، يعني: لا يجوز أن تجعله مثلاً أميناً على بيت المال، أو أميناً على أشياء تتعلق بعموم المسلمين، هذه خيانة بلا شك؛ لأنه كيف يجعل هذا الذي خونه الله عزّ وجل أميناً على أحوال المؤمنين، أما شيء خاص فهذا لا بأس به؛ لأن الصحابة اتخذوا خدماً من غير المسلمين لكن شيء عام هذا لا يجوز بأي حال من الأحوال؛ لأنه مهما تظاهر الكافر بالنصح لك فاعلم أنه عدو.

وهل من الموالاة أن نستعين بهم على أعدائنا؟

الجواب: لا، لكن إذا احتجنا إليهم نستعين بهم، بشرط أن نأمن خيانتهم؛ لأن النبي ﷺ كان له حلفاء حين عقد الصلح مع المشركين، وحلفاؤه خزاعة، كانوا مع الرسول عليه الصلاة

---

(١) انظر: تفسير الرازي (٦/ ٧٧)، نظم الدرر للبقاعي (٢/ ٤١١)، تفسير اللباب لابن عادل (٦/ ١١٣).

والسلام[١]، حتى إن قريشاً لما اعتدت على خزاعة، وهم كفار اعتبر النبي ﷺ ذلك نقضاً للعهد، وغزا قريشاً، فالمهم أن الاستعانة بهم إذا دعت الحاجة إليها جائزة بشرط أن نأمن خيانتهم، فإن لم نأمن فإنه لا يجوز.

وهل من موالاتهم موادتهم؟

الجواب: نعم، من موالاتهم موادتهم، أعني طلب مودتهم حتى تكون المودة متبادلة، ولهذا قال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، قال: يوادون، ولم يقل: يودون، فتكون الموادة بين الطرفين؛ لأن المُوَادَّ لا بد أن يبذل ما تكون به المودة، وإذا بذل ما تكون به المودة، فهذا المبذول لا يريد أن يذهب هباءً لا بد أن يكون على حساب شيء ما، لذلك نقول: موادتهم حرام لا تحل، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وهل من الولاية أن نحبهم إذا صنعوا شيئاً نافعاً للعباد؟

على كل حال: نحب فعلهم بلا شك، إذا فعلوا ما فيه مصلحة للبشرية فلا بد أن نحب فعلهم؛ لأنه خير ومصلحة، أما أن نحبهم هم فهذا فيه نظر؛ يعني نحبهم لأجل فعل هذا الخير، ليس على سبيل العموم، لكن ما فعلوه من الخير، لا يمكن أن ننكره وأن نقول: ما فعلوا شيئاً، بل نحب ما فعلوا من الخير، هم الآن مع الأسف الشديد يصنعون لنا الطائرات، هل نحبهم على صنع الطائرات؟

---

(١) انظر: مصنف ابن أبي شيبة (٣٦٩٠٢)، السيرة النبوية لابن هشام (٥/ ٤٣)، زاد المعاد (٣/ ٣٩٥).

الجواب: لا نحبهم هم، لكن نحب فعلهم، يعني: صُنْعَ الطائرات نحبه ونود أن يزيدونا من الطائرات الجيدة، أما أن نحبهم هم فلا، مع أننا نعلم أنهم إذا صنعوا ذلك فإنما يريدون مصلحتهم، لكن ما دام فيه خير نحب فعلهم إذا كان خيراً.

هل من موادتهم أن نبيع ونشتري معهم، فيستفيدون لأنهم يشترون الشيء بعشرة ويبيعونه لنا بعشرين، هل يعتبر هذا من موالاتهم؟

الجواب: لا؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام وهو أعبد الناس لله اشترى منهم، مع أنهم سيكسبون، لكن هذا شيء لا يتعلق بالمودة ولا بالمحبة، وإنما يفعله الإنسان لمصلحته، وعلى هذا فمعاملة شركات الكفر لا تعتبر من الموالاة، وإن كسبوا؛ لأننا نحن أيضاً لن نعاملهم ولن نشتري منهم إلا لمصلحتنا ولا شك.

هل من موالاتهم أن نضيفهم إذا استضافونا، يعني: لو نزل بك كافر وأكرمته إكرام ضيف، هل يكون هذا من موالاتهم؟

الجواب: لا، لا يكون؛ لأن الله قال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ وهذا إحسان، ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ هذا عدل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ [الممتحنة: ٨ ـ ٩]، وهذا ظاهر وحكمة، فإذا كانوا يقاتلونا في ديننا، ويخرجونا من ديارنا، ويظاهرون علينا فليس من الحكمة أن نتولاهم بأي حال من الأحوال.

هل من موالاتهم أن نشاركهم في أفراحهم؟

إن قلنا: نعم، خطأ وإن قلنا: لا، خطأ، أما ما يتعلق بالعبادة والشعائر الدينية، فلا شك أن مشاركتهم في هذه الأفراح نوع من الموالاة والمناصرة؛ لأنك إذا شاركتهم في هذه المناسبات الدينية كأنك تقول: إنكم على حق وهذا لا يجوز، أما المشاركة في أفراح أخرى، ككافر ولد له فجعل له وليمة ودعاك هذا لا بأس أن تذهب إذا لم يكن في ذلك فتنة له، كأن يقول: أنا أدعو المسلمين وأدعو كبراء المسلمين فيأتون إليَّ، إن حصلت فتنة فلا، وأما إذا لم تحصل وكانت المسألة عادية فليس هذا من الموالاة ولا من المناصرة.

جار لك أكرمته، وهو كافر، هل يكون هذا من الموالاة؟ **الجواب**: لا، هذا ليس من الموالاة؛ لأن النبي ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره**»[1]، ثم إن إكرامك إياه ربما يكون سبباً لدخوله في الإسلام.

على كل حال: من هنا نعرف أن كلمة الموالاة التي نهى الله عنها هي موالاتهم في المناصرة والمعاونة، بما يعود عليهم بالنفع فهذا حرام، لكن ـ كما تقدم ـ إذا عاوناهم وناصرناهم على من هو أشد إيذاءً للمسلمين منهم فهذا لا بأس به.

الفائدة التاسعة والعاشرة: أن من تولاهم فهو منهم، ويتفرع على هذا، التحذير الشديد من توليهم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم والآخر فلا يؤذي جاره، حديث رقم (٥٦٧٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير..، حديث رقم (٤٨) عن أبي شريح العدوي.

هل من توليهم التشبه بهم؟

الجواب: نعم، الدليل: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[(١)]، ولأن التشبه بهم يعطيهم فرحاً وسروراً، ويرون أنهم مستعلون على غيرهم؛ لأن غيرهم صار مقلداً لهم، آخذاً بما يتحلون به من أخلاق أو غيرها.

الفائدة الحادية عشرة: التحذير من الظلم لكون الله تعالى لا يهدي الظالم، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فإن قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية وبين من هداهم الله تعالى من أهل الشرك، والشرك ظلم عظيم، ومع ذلك في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، وجد من كان يسجد للأصنام ويعبد الأصنام، وهداه الله، ما الجواب؟

الجواب عن ذلك أن يقال: هذه الآية مقيدة بآية أخرى، والمراد بهم الذين حقت عليهم كلمة الله، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧]، فتكون هذه الآية المطلقة أو العامة مقيدة بمن حقت عليه كلمة الله، فهذا لا يمكن أن يهديه أحد، قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف: ١٨٦].

الفائدة الثانية عشرة: الرد على القدرية، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإن في ذلك دلالة واضحة على أن أمر العباد بيد الله عزّ وجل، نسأل الله الهداية، فليس الإنسان مستقلاً

---

(١) رواه أبو داود، كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، حديث رقم (٤٠٣١)، وأحمد (٢/ ٥٠) (٥١١٤) عن ابن عمر.

بنفسه أبداً، ومدبراً في الأمور الاختيارية والأمور الغير الاختيارية، كما أن الإنسان ليس بيده أن يكون صحيحاً من مرض، أو مريضاً من صحة، فكذلك ليس بيده، أن يكون مهتدياً بعد ضلالة، إنما الأمر بيد الله سبحانه وتعالىٰ.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: ٥٢].

قوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾، كلما رأيت مثل هذا الخطاب فهو إما للرسول عليه الصلاة والسلام، وإما له ولمن يصح خطابه، وتوجيه الخطاب إليه، أي: فترى أيها النبي الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم، أو فترى أيها الإنسان.

لما نهى الله سبحانه وتعالىٰ أن يتخذ المؤمنون اليهود والنصارى أولياء؛ بَيَّنَ أن من الناس من في قلبه مرض، فيسارع في موالاتهم ومهادنتهم وموادتهم، ولهذا لم يقل: في موالاتهم ليفيد العموم بل قال: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي: في كل ما يكون سبباً لقوتهم وعزتهم، وأمراض القلوب أنواع كأمراض الأبدان تماماً، أمراض الأبدان أنواع: أمراض عضوية في عضو خاص، وأمراض عامة، وأمراض حمى، وأمراض رعشة، أنواع كثيرة، أمراض القلوب كذلك متنوعة، لكنها تدور على شيئين: إما شبهة وإما شهوة، كل أمراض القلوب لا تخرج عن هذين الأمرين: شبهة من حيث يلتبس عليه الحق والعياذ بالله بالباطل، ولا يهتدي للحق،

هذا مرض شبهة سببه الجهل، ولذلك يجب على كل إنسان أن يزيل عنه هذا المرض بتعلم الشريعة.

والثاني مرض الشهوة، أي: مرض إرادة وتشهي، بحيث لا يريد الحق مع علمه به، وهذا أخبث من الأول؛ لأن الأول يرجى صلاحه، إذا تعلم، لكن هذا لا يرجى صلاحه إلا أن يشاء الله؛ يعني: لأن هذا يعلم الحق ولكنه لم يعمل به، وهذا أشد.

ولكن اعلم أن المرض كما قلت: أنواع، ففي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، هذا مرض الشهوة في حب النساء والتلذذ بأصواتهن المحرمة استماعها وما أشبه ذلك، لكن في قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥]، أعوذ بالله، ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني: شكاً ونفاقاً، هؤلاء لا يزدادون بالآيات إلا رجساً إلى رجسهم، أجارنا الله من ذلك، ونسأل الله الثبات.

لو قال قائل: عرفنا صورة الموالاة للكفار فكيف تكون صورة الموالاة لأهل البدع، وهل هي كموالاة الكفار؟

الجواب: مثل موالاة الكفار، فمن صور موالاتهم تخفيف بدعهم، ومحاولة أن يختلط هؤلاء بهؤلاء، أي: أهل البدع بأهل السنة، وأتباع السلف.

لو قال قائل: هل استخدام كثير من المسلمين للتاريخ الميلادي يعتبر نوعاً من الموالاة؟

الجواب: نعم، عدول المسلمين الآن من التاريخ الهجري

ـ العربي ـ إلى تاريخ اليهود والنصارى لا شك أنه نوع من الموالاة، ولهذا كره الإمام أحمد رحمه الله أن يقول: آذرماه وما أشبه ذلك، والعجب منا نحن العرب! الآن التزامنا بالتاريخ الهجري يقتضيه شيئان: الشيء الأول الدين؛ والشيء الثاني: العروبة، لأنه مبني على مناسبة عظيمة، وهي الهجرة التي بها تكونت الدولة الإسلامية، ولهذا لما اختلفوا في زمن عمر: هل يجعلون التاريخ من البعثة أو من مولد الرسول ﷺ؟ قال: «لا من الهجرة؛ لأن الهجرة هي التي حصل بها تكوين الدولة الإسلامية» فمن ثَمَّ جعلوا التاريخ من الهجرة ولم يجعلوه من ربيع الأول؛ لأن مناسبة كونه في محرم أقوى من مناسبة كونه في ربيع الأول؛ لأن الناس ينصرفون من الموسم: موسم الحج بعد أن أدوا فريضة الصوم وفريضة الحج.

قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: يقولون بألسنتهم بعضهم لبعض، أو إذا لامهم لائم وبقلوبهم أيضاً ﴿نَخْشَىٰٓ﴾ أي: نخاف ﴿أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أي: نائبة من نوائب الدهر، والدائرة الشيء المهلك، فنوالي هؤلاء ليكون لنا عندهم يد نحتمي بها.

يقول الله عزّ وجل: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾ عسى: من أفعال الترجي، لكنها بالنسبة لله سبحانه وتعالىٰ، أي: لفعله سبحانه وتعالىٰ، لا يمكن أن نقول: إنها للترجي؛ لأن الترجي هو تمني ما يصعب حصوله بعض الشيء، والله عزّ وجل لا يصعب عليه شيء، ولهذا قال بعض المفسرين وأظنه ابن عباس: عسى من الله واجبة، أي: بمعنى سيقع حقاً، لكنه عزّ وجل يأتي بعسى في مثل قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٩٩]،

وما أشبه ذلك من أجل أن يتعلق القلب رجاءً بالله عزّ وجل؛ لأنه لو أخبر بأن هذا سيكون؛ لاعتمد على هذا الخبر الصادق وأنه سيكون، لكن إذا قيل: (عسى)، صار القلب متعلقاً برجاء الله تبارك وتعالى.

قوله: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾ «الفتح»: المراد به النصر، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]، يعني: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، وقيل المراد بالفتح: فتح مكة، ولكن الصواب الأول، يعني: أن المراد به النصر وذلك من أجل أن يعم فتح مكة وغيره.

قوله: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾، الأمر من عنده يعني: الشأن من عنده، وذلك في بيان مخازي هؤلاء الذين في قلوبهم مرض، وهم المنافقون، فيفضحهم، وقد فضحهم الله تبارك وتعالى أيما فضيحة في القرآن الكريم في سورة التوبة وفي سورة الحشر وغيرهما، فضحهم الله وبين مخازيهم.

فالأمر هو الشأن والمراد به فضيحة هؤلاء الذين في قلوبهم مرض؛ لأن هؤلاء الذين في قلوبهم مرض يأتون للمسلمين ويقولون: نحن مسلمون ويتظاهرون بالإسلام، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم.

قوله: ﴿فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ كلمة «يصبحوا» هنا: تعني فيؤول أمرهم إلى هذا سواء أدركوا ذلك في المساء أو أدركوه في الصباح، وهذا تعبير لغوي سائغ، يقال: أصبح فلان نادماً، ويكون ندمه في الليل أو في المساء، فيعبر أحياناً بالإصباح عن حصول الشيء في أي وقت كان، والنون في

قوله: «يصبحوا» محذوفة والتقدير: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾، فتكون داخلة تحت خبر عسى.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ما أخفوه في أنفسهم عن المؤمنين؛ لأنهم يخفون عن المؤمنين أنهم يسارعون في هؤلاء، ولكن الله تعالى فضحهم.

وقوله: ﴿نَٰدِمِينَ﴾ خبر يصبحوا، ولهذا نصبت بالياء، والندم: انفعال نفسي على ما بدر من المرء مما يقبح فعله أو قوله، هذا هو الندم، وكل إنسان منا يحس في نفسه معنى الندم؛ لأنه انفعال نفس يحصل بالتأسف على ما مضى مما يقبح فعله أو قوله، ولهذا من شروط التوبة: الندم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون يسارعون في موادة الكافرين.

الفائدة الثانية: أن كل من يسارع في موادة الكافرين وفي مناصرتهم ففي قلبه مرض، وينبني على ذلك أن هذا المرض ربما يتضاعف حتى يصل إلى الكفر والعياذ بالله.

الفائدة الثالثة: التحذير الشديد من موالاة هؤلاء الكفار والمسارعة فيهم.

الفائدة الرابعة: أن من سارع فيهم ففي قلبه مرض.

الفائدة الخامسة: ضعف توكل المنافقين على الله وأنهم إنما يتوكلون على الأمور المادية التي يظنون فيها النصر، لقوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾.

الفائدة السادسة: أن من أشار على ولاة الأمور بالمسارعة في موادة الكفار وفي مناصرتهم، فإن فيه شبهاً من هؤلاء المنافقين.

الفائدة السابعة: بشارة المؤمنين بأن الفتح والنصر سيكون لهم، لقوله: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾.

الفائدة الثامنة: أن المنافق لا بد أن يفضحه الله، لقوله: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾، وهذا مشاهد، كما روي عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ما أسر أحدٌ سريرة، إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه»، فلا بد أن يظهر نفاق المنافق، إلا أن يتوب إلى الله.

الفائدة التاسعة: تحذير المنافقين مما سيقع بهم من الندم على ما أسروا في أنفسهم، لقوله: ﴿فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [المائدة: ٥٣].

قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، في هذه الآية ثلاث قراءات: «ويقولُ» بالرفع، «ويقولَ» بالنصب، وفيها قراءة ثالثة: «يقولُ» بالرفع بدون واو، وهذه من غرائب القراءات أن يحذف حرف من القرآن في إحدى القراءات، وتقدم مثلها في سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ﴾ [البقرة: ١١٦]، فيها قراءة: «قالوا اتخذ الله ولداً» بسقوط الواو، وكذلك في سورة آل عمران: ﴿وَسَارِعُوٓا۟﴾ [آل عمران: ١٣٣] فيها قراءة: بحذف الواو، فتكون الآن ثلاث آيات في البقرة، وفي آل عمران، وفي سورة المائدة.

المهم أن الآية فيها ثلاث قراءات بالرفع والنصب مع ثبوت الواو، وبالرفع مع حذف الواو.

قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ﴾ الاستفهام هنا: للتعجيب، يعني: اعجبوا أيها الناس لهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم، ولا شك أن المنافقين يقسمون بالله جهد أيمانهم أنهم مع المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١].

إذاً: الاستفهام هنا للتعجيب، يعني: اعجب أيها الإنسان من هؤلاء الذين يقولون: إننا معكم كيف كانت حالهم.

قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۚ﴾، أقسموا به، أي: حلفوا به، والإقسام والحلف واليمين معناها واحد: وهو تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة، هذا القسم، قولنا بصيغة مخصوصة، وهي الواو والباء والتاء، هذه حروف القسم، تقول: واللهِ، وتقول: باللهِ، وتقول: تاللهِ.

إذاً: لا بد من أن يكون هناك تأكيد ولا بد أن يكون المحلوف به معظماً، وفي هذه الصيغة يوجد أشياء تكون بمعنى اليمين، ولكنها ليست يميناً كالحلف بالطلاق، والحلف بالنذر، والحلف بقول: لعمرك وما أشبهها، هذه ليست يميناً اصطلاحاً، وإن كان معناها معنى اليمين.

قوله: ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۚ﴾ يعني: أبلغ ما يكون من الأيمان، وأبلغ ما يكون من الأيمان إما أن يكون بالصيغة، وإما أن يكون بقرنه بالشهادة، وإما بقرنه بالدعاء على الحالف وما أشبه ذلك، فمثلاً إذا قال: أشهد بالله مقسماً به أن كذا، كذا وكذا، هذا

مؤكد بالشهادة، وإذا قال: والله إني لفاعل كذا وكذا هذا مؤكد بالصيغة، هؤلاء يقسمون أقوى وأشد ما يكون من الإقسام ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أي: مع المؤمنين، يقسمون بذلك إنهم لمعهم لكنهم ليسوا معهم.

وقوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ قالوا: إنه يحتمل أن يكون من جملة القول، ويحتمل أن يكون استئنافاً من عند الله، يعني: إن قلنا: إنه من جملة القول صار كالتعليل أو كالبيان لقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾، يعني: كأنه قال: وما هم معكم؛ لأنهم حبطت أعمالهم، ولا تحبط إلا بالكفر، والكافر ليس مع المؤمن قطعاً، وقيل: إنها من عند الله؛ يعني أن الله أخبر المؤمنين بأن هؤلاء حبطت أعمالهم، حتى وإن تظاهروا بالإسلام فأعمالهم حابطة، وحبوط الشيء بمعنى: ذهابه سدى، لا ينتفع به ولا يعتد به.

وقوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ العمل هنا يشمل القول والفعل، والاعتقاد لأنه أطلق وإذا قرن العمل بالقول صار المراد به عمل الجوارح، و«أصبح» هنا بمعنى صار، المعنى أنهم بعملهم هذا صاروا خاسرين، فعندهم الندم كما سبق في الآية الأولى، وعندهم الخسران والعياذ بالله، وأنهم لم يربحوا ولن يربحوا أيضاً، مع أن المنافقين يعتقدون أنهم المفلحون، وأنهم المصلحون، وأنهم هم الذين أرادوا الإحسان والتوفيق، ولكنهم في الحقيقة هم المفسدون، ولا إحسان ولا توفيق، بل هم الخاسرون.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أنه يجوز للمرء أن يجري الكلام على سبيل

التعجيب فيمن يستحق العجب منه، ولا يعد ذلك من باب الغيبة؛ لأن الله تعالى ذكر هذا عن المؤمنين ولم ينكره عليهم بل ذكره كالمادح لهم.

الفائدة الثانية: كذب المنافقين وأنهم يروجون باطلهم ونفاقهم بالأيمان، ولهذا قال بعض الناس: إذا رأيت الذي يكثر الأيمان على ما لا يحتاج إلى كثرة الأيمان فاعلم أنه كاذب؛ لأنه يريد أن يروج كذبه بكثرة الأيمان، وإلا فالصادق لا يحتاج إلى كثرة الأيمان، بل ولا يحتاج إلى يمين أصلاً؛ لأنه واثق من نفسه؛ إلا إذا كان المخاطب منكراً أو شاكاً فقد يؤكده.

الفائدة الثالثة: أن المنافقين يقسمون بالله ويظهرون تعظيم الله، كما أنهم يذكرون الله ويصلون، ويتصدقون، لكن كل هذا لا ينفعهم لعدم الإيمان في قلوبهم ـ أجارنا الله من ذلك ـ فلعدم الإيمان لا ينفعهم هذا كله.

الفائدة الرابعة: أن عمل المنافق حابط لقوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾، ولا يمكن أن ينفعه عمله، لكن لو أنه تصدق، هل تنفعه الصدقة في الآخرة؟ قطعاً لا تنفعه، في الدنيا قد يثاب عليها، بالبركة في ماله وكثرته لينفع غيره، لكن في الآخرة قطعاً لا ينتفع بها.

الفائدة الخامسة: أن المنافق خاسر، مهما ظن من الربح فإنه خاسر، وجه ذلك: إن فضحه الله في الدنيا تبين وخسر وصار مكروهاً عند الناس، وإن لم يفضحه الله في الدنيا ففي الآخرة، وحينئذٍ لا يكون منتفعاً بدنياه؛ لأنه خسر الدنيا والآخرة.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤].

سبق الكلام على قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وما فائدة تصدير الخطاب بالنداء، ثم بوصف الإيمان.

قوله: ﴿مَن يَرۡتَدَّ﴾، فيها قراءتان: ﴿يرتدد﴾، بفك الإدغام، و﴿يرتد﴾ بالإدغام، أما على قراءة: ﴿مَن يَرۡتَدَّ﴾ فهي مجزومة والجزم ظاهر بـ«مَن» الشرطية، لكن على قراءة ﴿من يرتدَّ﴾ تكون مجزومة أيضاً لكن نقول: لما أدغمت الدال بالأخرى حركت الثانية بالفتح لالتقاء الساكنين.

قوله: ﴿مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ عن دينه: يعني: عن عمله الذي يدين الله به وهو العبادة.

قوله: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأن هذا أحد المواضع السبعة التي يجب اقترانها بالفاء إذا وقعت جواباً للشرط، والبقية مذكورة في البيت يقول الشاعر:

اسمية طلبية وبجامد وبما وقد وبلن وبالتنفيس

هذه سبعة مواضع إذا وقعت جواباً للشرط، سواء كان الشرط جازماً أم غير جازم، فلا بد أن تقترن بالفاء ولا تحذف إلا قليلاً ولا سيما عند ضرورة الشعر، كما في قول الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها .....

والواجب أن يقال (فالله) لأن الجملة اسمية.

قوله: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، قالوا: إن «سوف»

و«السين» تتفقان في دلالتها على التأكيد، لكنهما تختلفان بأن السين تدل على الفورية، و«سوف»: تدل على الإمهال.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾: (بقوم) يعني: غير المرتدين، ولم نتكلم عن الارتداد، الارتداد عن الدين ينحصر في شيئين: إما الجحود وإما الاستكبار، لو قرأت جميع ما ذكره الفقهاء في كتاب المرتد لوجدته لا يخرج عن هذين الأمرين: وهما الجحد أو الاستكبار. الجحد: يعني: التكذيب في الأخبار، والاستكبار: عن الامتثال، كل الردة تعود إلى هذين الأمرين وما يذكر من التفاصيل، فهذا عبارة عن تشقيق لهذه الجملة وتفريع عليها.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ ذكر أوصافهم، فلنعددها: «يحبهم» و«يحبونه» «أذلة على المؤمنين» «أعزة على الكافرين» «يجاهدون في سبيل الله» «ولا يخافون لومة لائم» ستة أوصاف. يعني: إن ارتددتم فلن تضروا الله شيئاً، ولن تضروا الإسلام شيئاً، بل إن الله سيأتي بقوم هذه صفاتهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ فما معنى المحبة؟ المحبة: هي المحبة، ولا يمكن أن تعرفها بأوضح من لفظها، وهكذا جميع الأشياء الانفعالية، لا يمكن أن تحدها بأكثر من لفظها، لو قلت: ما هو الغضب؟ الغضب: هو الغضب، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في الكتاب المنسوب إليه ـ وهو روضة المحبين ـ ذكر للمحبة تعريفات كثيرة، لكنه قال: كلها لا تصح، كلها تفسير لها بلوازمها أو آثارها أو ما أشبه ذلك.

قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ هو الله عزّ وجل، ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ لكن يجب أن نعلم أن محبة الله تخالف محبة الإنسان

في أسبابها وفي آثارها وكيفيتها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أنهم لا يستكبرون على المؤمنين ولا يترفعون عليهم، بل يتطامنون لهم، ويذلون لهم، أي: يتواضعون، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، ولهذا عديت (أذلة) بـ«على» دون «اللام»، يعني: لم يقل: أذلة للمؤمنين، بل قال: أذلة عليهم، يعني: ذوي شفقة عليهم، وحنان عليهم دون استعلاء واستكبار، فـ«أذلة» مضمنة معنى الشفقة، يعني: أذلة بشفقة، وبعضهم قال: إن هذا يدل على أن الذل صار من علو وليس من ضعف لأن الذليل قد يكون ذليلاً لضعفه لا لعلوه لكن هذه الآية تفيد أنهم أذلة مع العلو والرفعة.

قوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أعزة: يعني أقوياء يُرُون الكافرين القوة والعزة والافتخار بما هم عليه من الدين.

قوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الجهاد: بذل الجهد لإدراك الشيء، والمراد به هنا: بذل الجهد لقتال الأعداء، ثم إن كان لإعلاء كلمة الله فهو جهاد في سبيل الله، وقد بَيَّنَ النبي ﷺ أن المجاهد في سبيل الله هو الذي يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا لأن يعلو هو، بل لتكون كلمة الله هي العليا فقد سئل النبي عليه الصلاة والسلام، عن الرجل يقاتل شجاعة وحمية ورياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ قال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[1]، وسبيل الله: طريقه الموصل إليه، وقد أضافه

(١) تقدم في (١/ ٣٣٦).

إلى نفسه وإلى غيره، فقال تعالى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥]، وأضاف الله السبيل إليه في آيات كثيرة، ولا منافاة فإن الله أضاف السبيل إليه لوجهين: **الأول**: أنه هو الذي شرعه وفتحه طريقاً إليه، **والثاني**: أنه موصل إليه، كما تقول: هذه سبيل مكة، وتعني طريقها الموصلة إليها، أما إضافته إلى المؤمنين فلأنهم سالكوه، فهو يضاف إلى الله باعتبار وإلى المؤمنين باعتبار، فلما اختلفت الجهة لم يكن هناك تناقض.

قوله: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍۚ﴾، اللوم: هو العذل، يعني: أن الإنسان لا يخاف إذا جاهد في سبيل الله، وصار عزيزاً على الكافرين لا يهمه أن يلام أو لا يلام؛ لأنه يريد هدفاً آخر، لا يريد أن يكون محموداً عند الناس ولا مذموماً عندهم وإنما يريد مرضاة الله سبحانه وتعالىٰ.

وقوله: ﴿لَوۡمَةَ لَآئِمٍۚ﴾، يعني: أي: لومة من أي لائم، أخذنا العموم من كلمة: لومة وهي واحدة، «لائم»: نكرة فيشمل كل من يلوم سواء كان من الأقارب أو الأباعد، أو الأصحاب، أو غيرهم.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ «ذلك»: المشار إليه الاتصاف بهذه الأوصاف، ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ أي: عطاؤه ورزقه ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾، وكلما قرأت شيئاً معلقاً بالمشيئة فاعلم أنه مقرون بالحكمة، ولا بد، والدليل على هذا قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾ [الإنسان: ٣٠]، فلا يشاء شيئاً إلا وهو يعلم أن الحكمة في مشيئته، حتى يفعله سبحانه وتعالىٰ.

وقوله: ﴿وَاسِعٌ﴾ واسع هل في فضله فقط أو في كل صفاته؟

الجواب: في كل صفاته، وإذا جاءك معنىً يكون أعم فخذ به إذا كان النص يحتمله، سواء في الكتاب أو السنة، فإذا قلنا: واسع في فضله وعطائه، نعم هو واسع في فضله وعطائه، لكن إذا قلنا: واسع في جميع صفاته فإن ذلك أعم، والأخذ بالأعم أولى؛ لأنه يدخل فيه الأخص.

وقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم، والعلم واسع، كما قال تعالى: ﴿وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: الإشارة إلى أن من المؤمنين من سيرتد، لقوله: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ﴾ هكذا قال كثير من المفسرين المتأخرين والمتقدمين: إن هذا إشارة إلى أنه سيكون من المؤمنين من يرتد، وعندي وفي نفسي من هذا شيء؛ لأنه قد يكون المراد بالآية: التحذير من الردة، كقوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، بقطع النظر هل تقع أو لا تقع؟ أما كونها واقعة فمما لا شك فيه أن الردة وقعت، قال العلماء: إنه وقعت ردة إحدى عشرة طائفة، ثلاث في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، وسبع في عهد أبي بكر، وواحدة في عهد عمر من طوائف العرب، ففي عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ظهر مسيلمة والأسود العنسي وصاحب غسان، وفي عهد أبي بكر سبعة

طوائف كلهم ارتدوا، ولكن الله عزّ وجل دحرهم والحمد لله، ولم تقم لهم قائمة وعرف كذبهم وردتهم.

الفائدة الثانية: أن الله غني عن العباد، فلو ارتد قوم جاء الله بقوم آخرين، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

الفائدة الثالثة: أن المرتدين مبغوضون عند الله لقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

بقي علينا شيء مهم في مسألة الردة، هنا لم يذكر الله عزّ وجل ما يترتب على الردة من عقوبة في الدنيا، بل قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

وهنا بحوث: أولاً: هل كل ردة يمكن التوبة منها؟

الجواب: نعم، كل ردة يمكن التوبة منها لعموم قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، ولقوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾، يعني: لا يشركون ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، لا يعتدون على الأنفس ﴿وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾، لا يعتدون على الأعراض ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

إذاً: القول الراجح أن كل إنسان أذنب ذنباً مهما عظم ثم تاب إلى الله توبةً نصوحاً، فإن توبته مقبولة.

تنبيه: من كان ذنبه بالكفر فإن الله يقول: ﴿قُل لِّلَّذِينَ

كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] ولهذا لو تاب المرتد قبلنا توبته ورفعنا عنه القتل، ولو تاب الزاني بعد وصوله إلى القاضي لا تنفعه التوبة، مع أن المرتد تنفعه التوبة حتى عند القاضي.

استثنى بعض العلماء من هذا مسائل:

أولاً: صاحب البدعة قالوا: المبتدع ولو تاب لا تقبل توبته، ولكن يقال: أين الدليل على خروجه من العمومات؟

قالوا: لأن مفسدته متعدية، فنقول في الجواب عن هذا: هذه المفسدة المتعدية يمكن إصلاحها بأن يقول هذا الذي ابتدع: إنه رجع عن بدعته وأن الصواب كذا وكذا، مثل ما جرى لأبي الحسن الأشعري رحمه الله، فأبو الحسن الأشعري كان في أول أمره معتزلياً تماماً، معتزلياً جلداً لا يلين، وبقي على ذلك مدة طويلة من الزمن ثم تاب، وأعلن توبته في المسجد الجامع وخلع عمامته وقال: من كان يعرفني فهو يعرفني، ومن لا يعرفني فأنا فلان، ثم أنكر إنكاراً شديداً على المعتزلة، هذه توبة، وربما يكون أجره على إنكار البدعة أعظم من عقوبته على هذه البدعة، مع أن العقوبة انمحت بالتوبة.

كذلك أيضاً: لا بد لتحقيق توبة المبتدع من أن يكتب ما يبطل بدعته، حتى يكون صادقاً في توبته.

فإن قال قائل: أرأيت لو أن الذين أخذوا ببدعته أبوا أن يرجعوا برجوعه؛ فهل يأثم بإثم بقاء هؤلاء على البدعة؟

الجواب: لا يأثم؛ لأنه أدى ما يجب عليه من التوبة وبَيَّنَ الحق، وإذا أصر هؤلاء على باطلهم فهم على باطلهم.

ثانياً: من سب الله، هل تقبل توبته أو لا تقبل؟

في هذا خلاف بين العلماء، منهم قال: من سب الله لا تقبل توبته، وذلك لأن ردته عظيمة جداً، حيث سب رب العالمين جلَّ وعلا، فلا تقبل توبته؛ لعظم جرمه بهذه الردة، ولكن هذا التعليل في مقابلة النصوص، والتعليل في مقابلة النصوص مرفوض، كالقياس في مقابلة النص، إذاً: هذا مرفوض، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] فدلت الآية على أن من الكفار من يسب الله عزّ وجل إذا سبت آلهتهم.

ثم يقال: إن الله سبحانه وتعالىٰ قال في المنافقين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥] يعني نتحدث حديثاً لا نقصد معناه، نتحدث حديث الركب لنقطع به عناء الطريق، فقال الله تعالى للرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦] وهذا نص صريح بأن المستهزئ بالله أو آياته أو رسوله كافر؛ لأن الله عزّ وجل قال: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ [التوبة: ٦٦] وهذا يدل على أنه قد يكون منهم طائفة يعفى عنها ولا يمكن أن يعفى عنها إلا بتوبة.

وعلى هذا فالقول الراجح: أن من سب الله ورسوله ثم تاب فإن توبته مقبولة.

ثالثاً: لكن من سب الرسول عليه الصلاة والسلام ثم تاب تقبل توبته، لكنه يقتل، يقتل مسلماً؛ لأن هذا حق آدمي وهو

الرسول عليه الصلاة والسلام، فلا بد أن نثأر له، لا بد أن نقتل من سبه، أما من سب الله فالله عزّ وجل قد أخبرنا عن نفسه أنه يتوب عليه، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام هل يتوب على من سبه؟ لا ندري، ولهذا وجد أناس سبوا الرسول عليه الصلاة والسلام في حياته وعفا عنهم؛ لأن الحق حقه، لما تابوا عفا عنهم، أما بعد موته فإن الحق علينا نحن أتباعه؛ لأنه ليس بحاضر فلا بد أن نثأر لرسولنا ﷺ ونقتل من سبه، ثم الحمد لله ماذا يكون له إذا قتل؟ ينتقل من الدنيا إلى الآخرة، ينتقل بصفته مسلماً، والذي لا يموت اليوم يموت غداً، لكننا إذا أخذنا بالثأر للرسول عليه الصلاة والسلام كان هذا من أدنى الواجبات علينا، وإن كنتَ قاضياً وعرض عليك فقل: اضربوه بالسيف ولا تبالي.

رابعاً: الساحر، السحر نوعان: نوع يكفر به الساحر، ونوع لا يكفر به.

أما الذي لا يكفر به الساحر فإنه يقتل حداً، كما جاء ذلك عن الصحابة، كفّاً لفساده؛ لأنه من الساعين في الأرض فساداً، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] ولا أحد يشك في إفساد السحرة في الأرض، فيقتلون كفاً لشرهم وردعاً لغيرهم، والساحر الكافر: هو الذي يستعين بالشياطين ومردة الجن على إيذاء عباد الله، بأن يضع سحراً يستهوي به الشيطان أو مردة الجن حتى يسكنوا في جسم إنسان، ويأبوا أن يخرجوا منه إلا بحل السحر؛ هذا يكفر لقوله

تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ﴾ [البقرة: ١٠٢] انظر ملائكة من ملائكة الله أنزل الله عليهم علم السحر وهم ملائكة، لا من أجل أن يجعلوه مهنة، لكن من أجل الاختبار، ولهذا قال الله عزّ وجل: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ﴾ [البقرة: ١٠٢] فهذا يقتل كفراً وردة كما تقدم.

ولكن إذا تاب فهل تقبل توبته؟ في هذا خلاف بين العلماء، منهم من قال: لا تقبل، ومنهم من قال: تقبل، والأسعد بالدليل؟ من قال: تقبل، فنقبل توبته، ونرفع عنه القتل، ونجعله من إخواننا، لكن لا بد أن يكون هناك دليل على استقامته وصلاح حاله، ولا يكفي مجرد أن يقول: تبت.

لكن ما ترتب على فعله هذا محل نظر؛ لأن الكفار إذا آذوا المسلمين وقتلوا منهم وأخذوا أموالهم ثم أسلموا سقط عنهم الضمان.

خامساً: المنافق نفاق كفر، هو كافر لا شك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥] والنفاق من شر خصال بني آدم، المنافق إذا علمنا نفاقه يقيناً لا مجرد وَهم وقرائن؛ لأنه بمجرد الوهم والقرائن لا يجوز أن نتهم أحداً بالنفاق، فإننا لم نؤمر أن ننقب عن قلوب الناس وبطونهم، لكن إذا علمنا يقيناً ورأينا هذا الرجل يذهب إلى مجمعات اليهود والنصارى والملحدين ويقول: إنه معهم، ويأتي إلى المسلمين يتملق ويقول: إنه مسلم، هذا ظهر نفاقه، فنحكم

عليه بالنفاق، وهل يقتل أو لا يقتل؟ يقتل؛ لأن هذا معلوم نفاقه، لكن المنافقون في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام رفع عنهم القتل لسبب، وهو: أن لا ينفر الناس عن الإسلام والإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال ﷺ: «**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»[1] وهو يعلمهم عليه الصلاة والسلام، لكن خوفاً من تنفير الناس عن الإسلام امتنع لهذه المصلحة العظيمة أن يقتلهم وأخذ بظواهرهم.

ولكن إذا تاب المنافق فهل تقبل توبته؟ المذهب لا تقبل توبته؛ لأن الرجل في الأصل يقول: إنه لم يكفر، يقول: إنه مسلم، فإذا قلنا: أنت منافق قال: أبداً، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وستجدونني في الصف الأول في كل الصلوات، فيقولون: إنه لا يقتل، قال السفاريني رحمه الله:

لأنه لم يبدُ من إيمانه ... إلا الذي أذاع من لسانه

فلا نقبله؛ لأنه في الأصل يقول: إنه مسلم.

ولكن الصحيح أن توبته مقبولة إذا دلت القرائن على صدقه، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٥ ـ ١٤٦] انظر إلى الشروط؛ لأن المسألة ليست هينة، هذا الرجل يبدي إيمانه، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة (المنافقون)، حديث رقم (٤٦٢٢)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، حديث رقم (٢٥٨٤) عن جابر بن عبد الله.

[النساء: ١٤٦] شروط ثقيلة في توبتهم؛ لأنهم لا يظهرون إلا الإسلام، فإذا تيقنا ذلك، فالله يقول: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦]، ومنهم هؤلاء المنافقون الذين تابوا؛ لأن الله يقول: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾.

مسألة: هل يستتاب المرتد أو لا، بمعنى إذا ثبت كفره فهل يستتاب؟

الجواب: الذين يقولون: إنها لا تقبل توبة هؤلاء لا يقولون بالاستتابة؛ لأنهم لو تابوا لم تقبل توبتهم، ومنهم الأصناف التي ذكرنا على القول الراجح، فإن هذا يرجع إلى رأي الإمام؛ لأن النصوص في هذا، بعضها فيه قتل المرتد بدون استتابة، وبعضها فيه قتل المرتد باستتابة، فيرجع في ذلك إلى رأي الإمام أو نائبه في الحكم كالقضاة، فإذا رأوا أن يستتاب استتيب، وإذا رأوا أن لا يستتاب لم يستتب.

فإن قال قائل: الاستتابة حق له، فلماذا تمنعونه منها؟

قلنا: ليست حقاً مطلقاً، بل هي حق إذا دعت المصلحة إليه، وإذا كانت مصلحته في عدم الاستتابة، فالحق العام للمسلمين، ومنعهم من التلاعب في الدين أهم من حق هذا الرجل الخاص.

إذا قال قائل: إذا ارتدت طائفة من الناس أو قبيلة من القبائل فهل يجوز قتالهم؟

الجواب: يجب قتالهم؛ لأن هذا هو الذي أجمع عليه الصحابة بقيادة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فيجب أن نقاتلهم، ولكن بشرط أن يكون لدينا قوة نستطيع بها المقاتلة، فإن

لم يكن لدينا قوة فإن الله لم يوجب القتال على المسلمين في مكة لعدم القوة، ومن المعلوم أنه من التهور الذي لا يأمر به الشرع ولا يقتضيه عقل، أن يقاتل الإنسان الجحافل المسلحة بالأسلحة المتطورة وليس معه إلا سكاكين المطبخ، هذا ليس من الحكمة، ولا يمكن أن تقتضيه الشريعة وأن تأمر به، ولا يقتضيه العقل؛ انتظر حتى يكون لديك قوة ثم حينئذٍ قاتل.

فإن قال قائل: أليس أبو بكر رضي الله عنه أرسل جيش أسامة مع حاجته إليهم في قتال أهل الردة؟

الجواب: بلى، لكن يجاب عن هذا بأمرين:

الأمر الأول: أن جيش أسامة عقد رايته محمد رسول الله ﷺ، ولهذا قال أبو بكر رضي الله عنه: والله لا أحل راية عقدها الرسول عليه الصلاة والسلام.

والثاني: أن في ذلك إظهاراً لعزة المسلمين وقوتهم، ولهذا لما رأى العرب المرتدون أن أهل المدينة صاروا يبعثون الجيوش إلى الشام؛ قالوا: هؤلاء عندهم قوة وقدرة فتراجع بعضهم، فصار في التأسي برسول الله ﷺ بركة عظيمة تغني عن القتال أشهراً، وهذا مما يدلنا على أن التمسك بالإسلام له بركات عظيمة، قد لا يشعر بها الإنسان إلا بعد مدة.

الفائدة الرابعة: بيان قدرة الله تعالى وأنه سبحانه وتعالىٰ إذا أذهب أقواماً أتى بآخرين خيرٍ منهم.

الفائدة الخامسة: إثبات أفعال الله الاختيارية، يعني: التي يفعلها باختياره، لقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي﴾ وسوف: للمستقبل، وإنما ذكرت ذلك؛ لأن كثيراً من المتكلمين من الأشاعرة وغيرهم

ينكرون أن تقوم الأفعال الاختيارية بالله، يقولون: لا يوجد شيء من صفات الله إلا هو أزلي، أما شيء حادث فلا يمكن، وتعليلهم، يقولون: إن الحوادث لا تقوم إلا بحادث، وهذا لا شك أنه خطأ، بل كون أفعال الله حادثة تدل على كماله سبحانه وتعالىٰ وأنه فعَّال لما يريد، فإذا قلنا: إنه ليس يفعل، فلا شك أن هذا تعطيل محض وتنقص لله عزّ وجل.

الفائدة السادسة: إثبات المحبة من الله ولله، من الله في قوله ﴿يُحِبُّهُمْ﴾، ولله في قوله: ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، وهذه الآية جمعت بين محبة الله لعباده الصالحين ومحبة العباد الصالحين لله، وفي آيات كثيرة إثبات المحبة من الله لعباد الله الصالحين المستحقين لها، وهي عندنا معشر أهل السنة الذين نأخذ بما أخذ به السلف الصالح محبة حقيقية تليق بالله عزّ وجل، وعند آخرين ليست محبة حقيقية، بل يحرفونها إما بالثواب وإما بإرادة الثواب، إما بالثواب عند من لا يثبت الصفات السبع، يثبتون الثواب؛ لأن الثواب منفصل مخلوق، لكن لا يجعلون المحبة صفة قائمة بالله، أو إرادة الثواب عند من يثبت الصفات السبع كالأشاعرة، ولهذا الأشاعرة نجدهم يفسرونها إما بإرادة الثواب، وإما بالثواب، لكنهم متناقضون في الواقع؛ لأن الثواب لا يقع إلا بإرادة، وإرادة الثواب لغير المحبوب أمر منكر لا يمكن، فإن الله لا يثيبه إلا وقد أحب عمله فأثابه عليه لكنهم متناقضون، وهكذا جميع الأقوال الباطلة ولنجعل ذلك منا على بال، كل الأقوال الباطلة تجدها متناقضة، والدليل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ولهذا من أكبر الأدلة على ضعف القول

أو بطلانه أن يكون متناقضاً، فإذا رأيت القول متناقضاً فاعلم أنه ضعيف، لا يمكن أن يكون حقاً.

إذاً: نحن نؤمن بأن الله عزّ وجل يُحِب ويُحَب، وأن المحبة التي يجدها الإنسان في قلبه لله عزّ وجل لا تساويها أي محبة، فالإنسان يحب ولده ويحب أباه ويحب أمه، ويحب أهله، ويحب أصدقاءه، لكن المحبة لله غير هذه المحبة، من نوع آخر يجد الإنسان فيها لذة وراحة، لا يعرفها إلا من فقدها والعياذ بالله، فهي محبة عظيمة لا تشبه تعلق الإنسان بغير الله عزّ وجل.

إذاً: الآية هي رد على الأشاعرة، والمعتزلة والجهمية، وكل من لا يثبت الأفعال الاختيارية، أو لا يثبت المحبة.

الفائدة السابعة والثامنة: الثناء على من كان ذليلاً على المؤمنين، وهو الذي يخفض جناحه لهم ويتطامن ويتواضع، فإن هذه من الصفات التي يحبها الله عزّ وجل، عكس ذلك يؤخذ منه فائدة ثانية، وهي أن ترفُّع الإنسان على إخوانه المسلمين، ليس محموداً عند الله بل ولا عند الخلق، ولذلك اعلم أنه كلما ازداد إيمانك ازددت تواضعاً، وكلما ازداد علمك ازددت تواضعاً، بعض الناس، نسأل الله أن لا يجعلنا منهم، إذا ازداد علمه انتفخ وتكبر وصار لا يكلم الناس إلا بأنفه، وصار إذا كلمه الناس يتجاهل، يقول: ماذا تقول، وهو يدري، قد ملأ سمعه كلامه، لكن من باب الاستكبار، وهذا لا شك أنه نقص عظيم؛ لأنه كلما كثر علمك ينبغي أن يكثر تواضعك.

الفائدة التاسعة: الثناء على عزة النفس وقوة الشخصية أمام الكفار وأن نكون أعزة عليهم، نرى في أنفسنا العلو عليهم

والظهور عليهم لا بذواتنا، ولكن بما معنا من الدين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، لماذا؟ ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٣] أي: الدين أو الرسول صاحب الدين، فيجب علينا نحن المسلمين أن نعرف قيمتنا في المجتمع الأممي، وأننا أحق الناس بالبقاء على الأرض وأحق الناس برزق الله وأحق الناس أن نعلو عليهم، هذا إذا كان لنا شخصية إسلامية، لكن لضعف الإيمان وضعف التوكل على الله عزّ وجل صرنا أذناباً لغيرنا، أعزاء على قومنا أذلاء أمام الكافرين، نسأل الله السلامة والعافية، نسأل الله أن يهيئ لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل الطاعة ويذل فيه أهل المعصية.

لو قال قائل: قلتم: إن المؤمن يكون عزيزاً على الكفار، فهل يشمل ذلك فساق المسلمين؟

الجواب: الذي لم يخرج من الإيمان لا ترى نفسك عزيزاً عليه ولا ذليلاً عليه؛ لأن معه إيماناً يقتضي أن تكون ذليلاً عليه، ومعه معصية تقتضي أن تكون عزيزاً، لكن لا كعزتك على الكافر، بل أحبه لما معه من الإيمان واكرهه لما معه من المعاصي، وحاول أن تصلحه، فإن كثيراً من الفساق الآن يبتعدون عن الاستقامة؛ لأنهم يجدون من بعض الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر شدة وصعوبة وتنفيراً، لكن لو أنهم سلكوا سبيل الرفق لحصل خير كثير، فأحياناً يقع الإنسان مع أحد العصاة ويدعوه بأسلوب طيب، لكن يكون رده شديداً فيقول للداعي: لماذا تتدخل، الأمر لا يهمك، أنت فضولي، فإذا قال: الأمر لا يهمك، لماذا تتدخل، قل: يا أخي، أنت أخي والرسول ﷺ

يقول: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**»[(١)]، واصبر على ما أصابك، أما أن تقول: بل الأمر يهمني، أنت فاسق يجب أن نربيك، يجب أن نؤدبك، هذا لا يستقيم.

لو قال قائل: هل يستقيم القول: على قدر ما يكون في الإنسان من صفات النفاق، على قدر ما يحبط مقابله من العمل، أو يقال: لا بد من وصفه بالنفاق ويحبط عمله بالكلية؟

الجواب: لا، حبوط العمل كاملاً لا يكون إلا في النفاق الكامل، في المقابل تأتي الموازنة، يعني: هناك موازنة بين الحسنات والسيئات سواء كانت السيئات من أعمال المنافقين أو لا، والموازين يوم القيامة تدور على الموازنة، وإذا كان الإنسان فيه من صفات المنافقين كإخلاف الوعد والكذب وغير ذلك لا يمكن أن نقول: يحبط من عمله الصالح مقابل ذلك؛ لأنه يأتينا إنسان آخر يقول: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، فيقال: الموازنة، لكن لا شك أن الذي فيه خصال المنافقين الظاهرة يخشى أن تتحول إلى صفات المنافقين الباطنة؛ لأن الشيء يجر بعضه بعضاً، والشبه الظاهر قد يؤدي إلى الشبه الباطن.

الفائدة العاشرة: فضيلة الجهاد في سبيل الله، لقوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

الفائدة الحادية عشرة: الإشارة إلى الإخلاص، لقوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأن الجهاد، وهو القتال يحمل عليه عدة أسباب، والجهاد المحمود هو الجهاد في سبيل الله.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً، حديث رقم (٥٦٨٠)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم (٢٥٨٥) عن أبي موسى.

فإن قال قائل: ما هو الجهاد في سبيل الله؟

قلنا: فسره النبي ﷺ؛ بأنه من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا؛ فهو في سبيل الله[١]، وقد تقدم.

لو قال قائل: ذكرتم أن البراء بن مالك رضي الله عنه ألقى بنفسه في أرض العدو[٢]، استدل البعض بهذه القصة على جواز العمليات الانتحارية، فما الجواب على هذا الإيراد؟

لو قال قائل: الإنسان إذا لم يستطع الجهاد في سبيل الله، وكان فرضاً عينياً عليه، فكيف يكون حاله، ثم ما صحة ما يروى عن حسان بن ثابت في هذا، هل هذا صحيح أي: أنه لم يكن مجاهداً؟

الجواب: بعض المتأخرين في الحقيقة ليس عندهم أدب مع الصحابة، ولا شك أن حسان بن ثابت رضي الله عنه ليس كخالد بن الوليد في الإقدام والشجاعة، ولكن كوننا نقول: إنه جبان وأن المرأة أشجع منه، فهذا غلط عظيم، مع أنه يدافع عن النبي عليه الصلاة والسلام دفاعاً بلسانه أشد من وقع النبل على الكفار[٣]، والذين يتكلمون في الصحابة رضي الله عنهم ينصحون

---

(١) تقدم في (١/ ٣٣٦).

(٢) تقدم في (١/ ٢٧٦).

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب الشعر في المسجد، حديث رقم (٤٥٣)، كتاب المناقب، باب من أحب أن لا يسب نسبه، حديث رقم (٣٥٣١)، كتاب الأدب، باب هجاء المشركين، حديث رقم (٦١٥٢)، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه، حديث رقم (٢٤٨٥)، جامع الترمذي، كتاب الأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر، حديث رقم (٢٨٤٦) عن عائشة.

ويقال لهم: لا تكونوا من آخر هذه الأمة الذين يلعنون أولها[١] فاتقوا الله، وأما حكم الجهاد لمن يعرفون بالجبن إذا كان الجهاد فرض عين فإنه يجب عليهم فإن تخلفوا فهم آثمون.

الجواب: تقول الأعمال الانتحارية هل هي موت محقق؟

الجواب: نعم هي موت محقق، وقصة البراء بن مالك موت غير محقق فليس فيها دليل، لكن هناك واحد من الألف أنه ينجو، والمنتحر ألفان أنه يموت، فرق عظيم.

الفائدة الثانية عشرة: أنه ينبغي للإنسان أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فما دام على حق، فلا يهمنه أحداً؛ لأنه لا بد لكل عابد من عدو، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١] وأتباع الأنبياء كذلك، لا بد أن يكون لهم أعداء من المجرمين، ولكن: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١] انظر لماذا ختم الآية بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ لأن هؤلاء الأعداء؛ إما أن يضلوا الناس بالفكر والتشكيك وما أشبه ذلك؛ فقطع طمعهم بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ وإما أن يحاولوا صد الناس بالقوة فقابل ذلك بقوله: ﴿وَنَصِيرًا﴾.

إذاً: كل إنسان يتمسك بالشريعة، فلا بد من ملامة، يلومه أكثر الناس؛ لأن بني آدم من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في

---

(١) بمعناه رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف، حديث رقم (٢٢١٠) عن علي بن أبي طالب، وابن ماجه المقدمة، باب من سئل عن علم فكتمه، حديث رقم (٢٦٣) عن جابر بن عبد الله، ولفظهما: ولعن آخر هذه الأمة أولها.

النار وواحد في الجنة[١]، جعلنا الله منهم.

لكن هل يدخل في قوله: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أن الإنسان يتهور ولا يستعمل الحكمة، أو لا بد من استعمال الحكمة؟

الجواب: الثاني، لا بد من استعمال الحكمة؛ لأن التهور يحصل منه انعكاس المقصود، ولهذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يدع ما يمكن أن يقال خوفاً من المفاسد أو ما يمكن أن يفعل خوفاً من المفاسد، حتى إنه لا يسب الرجل لسوء خلقه أو دينه، فإذا استأذن عليه لاقاه بوجه منشرح، كل ذلك من أجل التأليف؛ لأن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف[٢].

الفائدة الثالثة عشرة: أن هذه الصفات العظيمة من فضل الله تعالى لقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

الفائدة الرابعة عشرة: أن كل من سعى في فعل الخير فإن الله تعالى يجود عليه؛ لأن قوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ ليس لمشيئة مطلقة، بل لمشيئة مقيدة بالحكمة، ولهذا قال الله عزّ وجل: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فمن كان أهلاً للرسالة أرسله، كذلك الله أعلم حيث يجعل آثار هذه الرسالة وأتباع هذه الرسالة، فمن كان أهلاً لذلك أعطاه، ومن لم يكن أهلاً حرمه،

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب وترى الناس سكارى، حديث رقم (٤٤٦٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف...، حديث رقم (٢٢٢) عن أبي سعيد.

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، حديث رقم (٢٥٩٣) عن عائشة.

اقرأ قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] واقرأ ما مر قبل عدة آيات: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

الفائدة الخامسة عشرة: إثبات المشيئة لله عزّ وجل فيما يتعلق بفعل العبد لقوله: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٧٣] وهذا هو الذي عليه السلف الصالح، وعليه أهل السنة والجماعة، وأئمة المسلمين، أن لله مشيئة في أفعال الخلق، كما أن له مشيئة في أفعاله جلَّ وعلا، قال الله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨ ـ ٢٩]، ولهذا دائماً الإنسان يريد أن يفعل شيئاً؛ وإذا به يعدل عنه دون أي سبب ظاهر، ولكنها مشيئة الله عزّ وجل.

قيل لأعرابي: بم عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم وصرف الهمم، وهذا معناه: أن الإنسان قد يعزم على الشيء ثم إذا به ينتقض عزمه، وكذلك صرف الهمم، تجد الإنسان يتجه إلى شيء معين وإذا به ينصرف بدون أي سبب ظاهر، لكنها مشيئة الله تبارك وتعالى.

ومشيئة الله عزّ وجل لأفعال العباد من تمام ربوبيته، حتى لا يكون في ملكه ما لا يريده؛ لأن الذين يقولون: إن الإنسان منفرد بمشيئته وليس لله مشيئة في فعله يلزمهم أن يقولوا: إن في ملك الله ما لا يريد.

الفائدة السادسة عشرة: بيان سعة الله عزّ وجل في كل شيء، في الإحاطة بالخلق علماً، وقدرة، وسلطاناً، ورحمة، وغير ذلك، الله واسع وكفى في كل شيء سبحانه وتعالىٰ.

الفائدة السابعة عشرة: إثبات العلم لله عزّ وجل لقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ والعلم: هو إدراك الشيء على ما هو عليه، فمن لم يدرك الشيء فهو جاهل، ونوع جهله بسيط، ومن أدركه على خلاف ما هو عليه فهو جاهل ونوع جهله مركب؛ لأنه لا يدري ولا يدري أنه لا يدري.

الفائدة الثامنة عشرة: إثبات هذين الاسمين من أسماء الله عزّ وجل واسع وعليم، وعلى هذا لك أن تدعو الله بذلك، فتقول: اللهم يا واسع أوسع عليَّ في الرزق، اللهم يا عليم اختر لي ما فيه صلاحي، وما أشبه ذلك؛ لأن الله قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

واعلم أن جميع أسماء الله مشتقة؛ يعني: دالة على معنى، فليس في أسماء الله اسم جامد لا يدل على معنى أبداً، حتى اسم الله مشتق خلافاً لمن قال إنه جامد؛ لأنه مشتق من الألوهية، والإلوهية مصدر يدل على معنى، فكل أسماء الله دالة على معنى، ولو لم نقل: إنها دالة على معنى لم تكن حسنى؛ لأن الجامد ليس فيه مدح ولا ثناء.

إذاً: كل أسماء الله حسنى وهل كل أسماء الله مشتقة؟

الجواب: نعم مشتقة؛ ولذلك نقول: كل اسم لا بد أن يكون متضمناً لصفة، وليس كل صفة يشتق منها اسم، بعض الصفات لا يمكن أن تشتق لله منها اسماً مثل قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] لا يمكن أن تثبت لله اسم الماكر؛ لأن هذا وصف، والوصف يتقيد بما قيد به.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥].

قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ هذه الصيغة تفيد الحصر لأنها بمنزلة قوله: ما وليكم إلا الله ورسوله، فلا تتولوا اليهود والنصارى، إنما وليكم الله ورسوله، ونِعْمَ الوليان: رب العالمين وخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأن الذين آمنوا بعضهم أولياء بعض، كما قال الله تبارك وتعالى في سورة براءة: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] وهكذا يجب أن يكون المؤمنون بعضهم أولياء بعض؛ لأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وما ظنك برجل وليه الله ورسوله والمؤمنون، لا يستطيع أحد أن يهزمه.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هذا صفة لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فهم جمعوا بين الإيمان وهو العقيدة، وبين إقامة الصلاة.

قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ «الزكاة»: هي المال المقدر في الأموال الزكوية يؤتونها أهلها المستحقين لها.

قوله: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ الجملة هذه هل هي جملة حالية ـ يعني: أنهم يؤتون الزكاة وهم راكعون في الصلاة ـ أو أنها استئنافية؟

الجملة استئنافية، ثم على القول بأنها استئنافية، هل المراد بها الركوع الذي هو جزء من الصلاة، وهو انحناء الظهر تعظيماً لله عزّ وجل، أو المراد الخضوع لشريعة الله؟ الثاني، ولهذا قال الشاعر:

لا تهين الفقير علك أن ... تركع يوماً والدهر قد رفعه

وهذا يأتي به النحويون شاهد على أن الفعل المضارع يبنى على الفتح ولو حذفت نون التوكيد، وأصل: «لا تهين» لا تهينن، فقوله: (تركع) يعني تخضع، يوماً والدهر قد رفعه، يعني: لا تنظر للحاضر، انظر للمستقبل، أنت الآن غني وهذا فقير، ربما يكون في يوم من الأيام غني وأنت فقير.

إذاً جملة ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ جملة مستأنفة وليست جملة حالية، والمراد بالركوع هنا الخضوع للشريعة والذل لها.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: فضل المؤمنين، الفضل الذي لا شيء فوقه، لقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثلاثة أشياء: الله والرسول والذين آمنوا.

فإن قال قائل: ولاية الله عزّ وجل صالحة لكل زمان ومكان، لكن كيف ولاية الرسول؟

الجواب: أما ما كان في حياته؛ فالولاية واضحة ظاهرة، وأما بعد وفاته فإن تمسكنا بسنته من توليه لنا؛ لأننا ننصر بها، ونعان بها، فكأنه عليه الصلاة والسلام معنا يناصرنا ويعيننا، وأما الذين آمنوا فواضح أن المؤمنين لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله.

الفائدة الثانية: فضيلة من تولى الله ورسوله والذين آمنوا.

الفائدة الثالثة: فضيلة الصلاة؛ لأن الصلاة دائماً في المقدمة، ولا شك أن الصلاة أفضل العبادات بعد التوحيد والشهادة بالرسالة، ولهذا فرضت من الله عزّ وجل إلى الرسول ﷺ بدون واسطة، وفرضت على الرسول ﷺ في أعلى مكان يصل إليه البشر، وفرضت على الرسول في أشرف ليلة كانت له، وفرضت

على الرسول خمسين صلاة؛ لأن كونها خمسين صلاة يدل على أن الله يحبها؛ لأن خمسين صلاة تستوعب أكثر الوقت، ولكن الله بمنه وكرمه جعلها خمساً لكن كأنها خمسون، هي خمس بالفعل وخمسون في الميزان[1].

لو قال قائل: ما السبب في أن كثيراً من العبادات كالصيام والحج وأكثر العبادات لا تكثر فيها الهواجس والأفكار، وأما الصلاة فيكثر فيها ذلك؟

الجواب: تكثر الأفكار في الصلاة لأنها خير موضوع، والشيطان يريد أن يفسد علينا هذه الصلاة، الصلاة لو أتينا بها على الوجه المطلوب، لكان الأمر كما قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فتنهى الإنسان عن الفحشاء والمنكر وتعينه أيضاً على البر، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]، هذا هو السبب، ولذلك إذا قوي إيمان العبد أتاه الشيطان من كل وجه يوسوس له في أصل الإيمان لأنه عرف أنه إذا قوي إيمانه نجا من هذا العدو الخبيث، وإذا ضعف إيمانه تسلط عليه.

الفائدة الرابعة: أن مرتبة الزكاة في دين الإسلام بعد مرتبة الصلاة، وهكذا في الآيات الكريمة وفي الأحاديث النبوية؛ تأتي الزكاة بعد الصلاة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، حديث رقم (٣٤٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، حديث رقم (١٦٣) عن أبي ذر.

فإن قال قائل: الزكاة والصيام، الصيام أشق على الإنسان من الزكاة فلماذا لم يقدم؟

قلنا: أولاً: لا نسلم بهذا؛ لأن حب الإنسان للمال حبٌّ شديد، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ يعني: حب المال ﴿لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] وقال: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ١٩ ـ ٢٠] وربما يسهل على الإنسان أن يصوم عشرة أيام ولا يؤدي عشرة دراهم.

ثانياً: الزكاة فيها نفع متعدي، نفع للإسلام ونفع للمسلمين، فإن من أصناف الزكاة سبيل الله وهذا نفع للإسلام، ومن أصناف الزكاة الفقراء والمساكين والغارمون، وهذه مصلحة للمسلمين، فمصلحة الزكاة متعدية، والصيام غير متعدٍ، فلذلك ـ والله أعلم بحكمته سبحانه وتعالىٰ ـ صارت الزكاة تلي الصلاة.

الفائدة الخامسة: أنه لا بد أن يقترن بهذه الأعمال الصالحة الذل والخضوع لله عزّ وجل، بحيث يشعر الإنسان أنه متعبد لله خاضع له، وهذا يفوت كثيراً من الناس، أكثر الناس يؤدي الصلاة على أنها مفروضة عليه فقط لكن لا يشعر بأنه متعبد لله بذلك، وكذلك يقال في الزكاة، من أين أخذنا أنه ينبغي التنبه لذلك؟ من قوله: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾.

والعجب أن الرافضة قالوا: إنه لم يعمل بهذا الآية إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقالوا: إنه أدى الصدقة وهو راكع، وجعلوا هذا من مناقبه، وحاشاه رضي الله عنه أن يكون ذلك من فعله؛ لأن الحركة في الصلاة غير محمودة، ليست محل حمد، فكونه إذا ركع جاءه الفقراء قال: خذ، خذ، خذ، هذه

ليست منقبة هذه مثلبة، لما يترتب على صدقته في ركوعه من انشغاله بأمر خارج عن الصلاة فلا يحمد عليه، والصدقة ليست كالجهاد؛ لأن الإنسان يمكن أن يصلي وينهي صلاته ثم يتصدق، لكن الرافضة لا يفهمون، عندهم سفه، كما قالوا في مدحه: إنه يصلي ما بين المغرب والعشاء ألف ركعة! من يصلي ألف ركعة بين المغرب والعشاء؟! لو أن إنساناً يريد أن يفعل هذا ولو كان يرقص رقصاً ما تمكن من أن يصلي ألف ركعة! لكن جعلوا هذا من مناقبه، وهو في الحقيقة من المثالب، ونحن نشهد أنه لن يفعل هذا ولم يفعله، لا هذا ولا هذا، ولا نشك أن عليّاً رضي الله عنه له من المناقب والفضائل ما اختص به من بين الخلفاء، وله من الفضائل والمناقب ما شاركه فيه الخلفاء، وللخلفاء من المناقب والفضائل ما لم يحصل لعلي بن أبي طالب، ليس في ذلك شك، فعلي له مناقب، والخلفاء لهم مناقب، يشتركون في بعضها، وينفرد بعضهم عن الآخر في بعضها، لكن الفضل المطلق على هذا الترتيب: أبو بكر، عمر، عثمان، علي رضي الله عنهم.

فمثلاً قرابة علي من الرسول عليه الصلاة والسلام لا يشاركه فيها أحد لا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان، كون الرسول ﷺ يزوج علي بن أبي طالب ابنته فاطمة، يشاركه عثمان بل هو أولى؛ لأن عثمان رضي الله عنه لما ماتت بنت الرسول ﷺ الأولى زوجه الثانية، فقد تزوج ابنتين للرسول عليه الصلاة والسلام، ثم إن الرسول عليه الصلاة والسلام أعلن في آخر حياته إعلاناً لا يمكن أن يحصل لغير أبي بكر قال وهو على المنبر، ويبلغ قوله كل

الأمة قال: «**إن أمنَّ الناس عليَّ في ماله وصحبته أبو بكر**»[١] الله أكبر، من حصَّل هذا؟ وقال ﷺ: «**لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته**»[٢] هذه ما حصلت لأحد، خَلَّفَهُ في الصلاة، وخلفه في الحج، خلف علي بن أبي طالب في غزوة تبوك في أهله، وقال له لما قال: يا رسول الله تجعلني في النساء والضعفاء، قال: «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**»[٣] هذه المنقبة ما حصلت لأبي بكر، وكان خليفته في أهله، كما قال موسى لهارون: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ [الأعراف: ١٤٢].

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٦].

قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ «مَنْ» شرطية، يعني أي إنسان يتولى هؤلاء الثلاثة: الله ورسوله والذين آمنوا، أي: يتخذهم أولياء يتولاهم بالمحبة والمودة والنصرة وجميع ما تقتضيه الولاية.

---

(١) رواه البخاري أبواب المساجد، باب الخوخة والممر في المسجد، حديث رقم (٤٥٤)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق، حديث رقم (٢٣٨٢) عن أبي سعيد.

(٢) الحديث السابق.

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب، حديث رقم (٣٥٠٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب، حديث رقم (٢٤٠٤) عن سعد بن أبي وقاص.

فإن قال قائل: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ﴾ هل الله في حاجة لأن يتولاه أحد؟

الجواب: الله عزّ وجل ليس بحاجة لأن يتولاه أحد، لكنّ الدين بحاجة إلى أن يتولاه أهله، ومن تولى دين الله فقد تولى الله كما قال الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، ومن المعلوم أن الله عزّ وجل لا يحتاج إلى نصر، لكن ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: تنصروا دينه ﴿يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

وقوله: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ الرسول عليه الصلاة والسلام يحتاج إلى من يتولاه في حياته ويتولى سنته ويدافع عنها بعد وفاته، فيكون تولي الرسول بمعنى تولي سنته ونصرها، كما قلنا: إن تولي الله يعني تولي دينه ونصرة دينه.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تولي المؤمنين إلى يوم القيامة؛ لأنه لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق حتى تقوم الساعة وحتى يقبضوا قبل قيام الساعة؛ لأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق.

قوله: ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، لم يقل عزّ وجل فإنه الغالب، بل قال ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ﴾ ليكون دالاً على شيئين:

الشيء الأول: أن من تولى الله ورسوله والذين آمنوا فهو من حزب الله.

الشيء الثاني: إرادة العموم أن حزب الله لا بد أن يكون غالباً؛ لأن دين الله لا بد أن يكون غالباً، فالمتمسك بدين الله؛ هو من حزب الله وهو غالب ولا بد، لكن الغلبة قد تكون في حال الحياة وقد تكون بعد الموت، ولهذا نجد الأئمة الذين لم

يقدر لهم أن يظهروا ظهوراً كاملاً في حياتهم؛ ظهروا ظهوراً كاملاً بعد وفاتهم كالإمام أحمد وابن تيمية وغيرهما من العلماء والأئمة الذين لحقهم من الإهانة من ولاة السوء ما لحقهم، وكانت الغلبة لهم إما في الحياة وإما بعد الممات.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى والثانية: الحث على تولي الله ورسوله والمؤمنين، ويتفرع على ذلك أو هو حقيقةً بمعنى التولي: أن يكون الإنسان دائماً مرتبطاً بهذه الثلاث: كتاب الله والثاني سنة رسول الله ﷺ، والثالث سبيل المؤمنين، ولهذا قال الله سبحانه وتعالىٰ في سورة النساء: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥] فكن دائماً مرتبطاً بهذه الثلاث.

الفائدة الثالثة: الثناء التام على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، وأن توليهم من أسباب الغلبة، أما تولي الله فهو شأن فوق ذلك.

الفائدة الرابعة: أن لله تعالى حزباً، ومَنْ حزبه؟ حزبه الذي يقابل حربه؛ لأن الله له حزب، وله حرب فمن أقام على شريعته فهو حزبه، ومن خالف شريعته فهو حربه، فإعلان المخالفة حرب لله، لا سيما فيما نص على أنه حرب لله عزّ وجل كالربا وقطع الطريق وما أشبهها.

فإن قال قائل: أيمكن أن يستدل بهذه الآية من أقاموا الأحزاب في بلادهم؟

الجواب: لا، لا يمكن؛ لأن المفروض أن المسلمين حزب واحد لا يتفرقون، بل إذا تفرقوا فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾، فبرأ النبي ﷺ منهم وقال: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ ثم توعدهم بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩] فإذا كان هذا شأن من فرقوا دينهم كل واحد يقول: الدين معي؛ فكيف يقال: إن إقامة الأحزاب في الدين الإسلامي جائزة لأن الله قال: حزب الله؟

نقول: كل المسلمين حزب لله عزّ وجل والدين الإسلامي حزب واحد ومن خالف خرج عن هذه الحزبية، لكن لا يعني ذلك أن نقول: إنه لا بد أن تقام الأحزاب في الدين الإسلامي، ولذلك انظر الآن إلى الأمة التي بنت كيانها على قيام الأحزاب ماذا يكون فيها؟ الشر والبلاء العظيم حتى إذا صار حزب في الطليعة وله الغلبة؛ حصل الشر وربما قامت الجيوش على هذا الحزب.

لو قال قائل: هل الحزبية مشروعة؟

الجواب: الحزبية بين المسلمين غير مشروعة، بل هي أداة للتفرق، أما الحزبية بين الكفار وبين المسلمين واجبة؛ لأن غير المسلمين هم حزب الشيطان، فالله تعالى جعل لنفسه حزباً، وجعل للشيطان حزباً، ولا بد من هذا، لكن بين المسلمين محرمة لأنها تؤدي إلى الفرقة.

وهل يمكن أن نقيم حزباً إسلامياً ضد حزب شيوعي أو لا يمكن؟

يمكن؛ لأن الله جعل حزباً لله وحزباً للشيطان، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، هذا لا بد منه؛

لأن بني آدم كلهم حزبان: الإيمان والكفر، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] هذا لا بد منه، لكن أحزاب في الحزب الواحد هذا خلاف الإسلام، ولا يمكن أن يقال، ولذلك يحصل التفكك العظيم إذا قامت هذه الأحزاب.

لو قال قائل: تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ التأكيد على عدم التعددية الحزبية بين المسلمين لكن يظهر الآن في كثير من المجلات مقالات لمن يسمون بأهل الفكر تنص على **أولاً**: أنه يجوز التعدد الحزبي لأن هناك تعدداً مذهبياً مقبولاً عند المسلمين؟

الجواب: أن يقال: إن تعدد المذاهب ما هي إلا تعدد أقوال فقط لكن لا يتحزبون، وإن كان وجد من المتعصبين للمذاهب ما يقتضي أن يكون تحزباً لكنهم مستحقون للذم وإلا فقد وجد في العصور الوسطى تعصب، حتى إن بعض الحنابلة يضربون الشافعية، والشافعية يضربون الحنابلة لكن هذا منكر بلا شك، أما مسألة الخوارج فالخوارج يقاتلون على أنهم مسلمون، ومع ذلك فإن كثيراً من علماء السلف أخرجهم من الإسلام؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «**يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية**»[1]، أما مسألة الفكر وما الفكر هذه، فالفكر إن كان مخالفاً لما جاء به الإسلام فهو فكر باطل مردود على

---

(١) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم، حديث رقم (٦٥٣٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث رقم (١٠٦٤) عن أبي سعيد الخدري.

صاحبه، وهذا مثل قول الكفار: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] وإن كان فكراً صواباً فلا بد أن يكون في الإسلام ولا يقتضي التحزبية.

لو قال قائل: الذين يجوزون التعدد الحزبي كيف يصوبون رأيهم والكتاب والسنة أمرا بعدم التفرق؟

الجواب: قل: اللهم اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم، اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه.

لو قال قائل: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، هذه الجملة فيها حصر لأن الغلبة لحزب الله عزّ وجل، لو أُورد علينا إِيرَادُ هذا القائل فإننا نجد أن المسلمين صارت عليهم هزائم وصارت الغلبة لأعدائهم حتى في عهد الرسول ﷺ؟

الجواب: المراد هم الغالبون باعتبار النهاية وغلبة غير المسلمين لا بد أن يكون لها حكمة، فمثلاً: في أُحُد سببها المخالفة والمعصية، وفي حنين سببها الإعجاب، فالله تعالى قد يُدِيلُ الكفار على المسلمين لحكمة، إما لتقصير المسلمين أو لغلوهم في أنفسهم أو لأي سبب لكن في النهاية تكون الغلبة لحزب الله، الذين هم أولياء الله.

الفائدة الخامسة: البشرى لحزب الله بالغلبة؛ فهم الغالبون على أعدائهم واقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٣]، بشر المؤمنين بأن لهم النصر.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة: ٥٧].

في هذه الآية كلمتان فيهما قراءات:

الأولى: ﴿هُزُوًا﴾ بالواو وضم الزاي لا غير، ولا يصح أن نقول: هُزْواً، بل لا بد أن تضم الزاي، وبالهمزة قراءتان: هُزُؤاً بضم الزاي، وهُزْءاً بتسكين الزاي، فالجميع ثلاث قراءات.

والكلمة الثانية: ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾، فيها قراءتان: «والكفارِ» بالجر، «والكفارَ» بالنصب، فعلى قراءة الجر تكون معطوفة على «الذين» الثانية أي: على قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: «ومن الكفارِ» وعلى قراءة النصب تكون معطوفة على ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأولى، يعني: «لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم ولا تتخذوا الكفارَ».

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تأمل الآن كم مرة تكررت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في صفحة واحدة، مما يدل على الاهتمام التام بما ذكر في هذه الآيات حيث كرر الله عزّ وجل النداء للمؤمنين.

قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ وذكر أصنافهم، ﴿تَتَّخِذُواْ﴾: بمعنى تصيروا، وهي تنصب مفعولين: المفعول الأول: ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والمفعول الثاني: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: لا تتخذوهم أولياء، وهي نظير الآية السابقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ﴾ أي: صيروا، والدين بمعنى:

العمل هنا، وقد جاء لفظ الدين في القرآن الكريم، ويراد به الجزاء ويراد به العمل الذي يجازى عليه.

مثال الأول: قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤] يعني: يوم الجزاء، ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨﴾ [الانفطار: ١٧ ـ ١٨]، ويأتي بمعنى العمل كثيراً، مثل قوله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ٦]، ومثل هذه الآية، أي: العمل الذي تدينون الله به وترجون عوضه من الله، ومنه الدَّيْن في المعاملات، الاشتقاق واحد، فالدَّيْن في المعاملات: دفع شيء لانتظار عوضه.

قوله: ﴿هُزُوٗا وَلَعِبٗا﴾ يعني: جعلوه محل استهزاء، يسخرون به بألسنتهم، واعتقدوا بقلوبهم أنه لعب، واللعب: هو الذي ليس له هدف وليس له فائدة، وقالوا: ما معنى أن الإنسان يأتي إلى المسجد ويتحرك قائماً وقاعداً وساجداً وما أشبه ذلك؟ وقالوا: هذا لعب ليس هذا بدين ويسخرون به.

قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني بهم اليهود والنصارى، وقوله: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ بيان للواقع وليس تقييداً؛ لأنه لم يؤتِ أحد الكتاب معنا ولا بعدنا، وإنما كل الذين أوتوا الكتاب كانوا قبلنا، ولكن المراد بهم هنا كما هي طريقة القرآن اليهود والنصارى.

وقوله: ﴿وَٱلۡكُفَّارَ﴾ قلنا: فيها قراءتان، يعني: ولا تتخذوا الكفار أولياء سواء اتخذوا دينكم هزواً ولعباً، هذا على قراءة النصب، وعلى قراءة الجر، يعني: لا تتخذوا الكفار الذين

اتخذوا دينكم هزواً ولعباً، وكل من القراءتين مفيد جداً، فنقول: إذا جعلناها بالجر تفيد أن الكفار سوى الكتابيين ممن اتخذوا ديننا هزواً ولعباً، وعلى قراءة النصب تفيد أن نتجنب الكفار ولا نتولاهم مطلقاً، لكن على قراءة الجر فيها إشارة إلى أن الكفار غير الكتابيين يتخذون ديننا هزواً ولعباً، فيجتمع فيهم السخرية منا واعتقاد أن ديننا لعب.

قوله: ﴿وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: جمع ولي أي: منصور تناصرونه وتعينونه وتتقربون إليه وما أشبه ذلك مما يقتضي أن يكونوا أولياء لنا لا أعداء.

قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اتخذوا وقاية من عذابه، وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه تقرباً إليه تبارك وتعالى، ولهذا قال بعضهم في تعريف التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، فجمع هنا بين العمل والإخلاص والعلم، أن تعمل بطاعة الله، «عمل» على نور من الله، «علم» ترجو ثواب الله، «إخلاص» لا ترجو الدنيا، وأن تترك ما نهى الله على نور من الله، تخشى عقاب الله، ولهذا إذا قلنا: إنها اتخاذ وقاية بفعل الأوامر فلا بد من ملاحظة الإخلاص؛ لأنه إذا لم يكن إخلاص لم تكن طاعة.

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذه الشرطية من باب التحدي، يعني: إن كنتم صادقين في إيمانكم فلتتقوا الله؛ لأن الصادق في إيمانه لا بد أن يتقي الله، وأن يتجنب محارمه، أن يقوم بأوامره، فإن لم يفعل فإيمانه ناقص ضعيف، والآن الناس ضيعوا أمر الله وضيعوا أنفسهم، ويذكر عن عمر رضي الله عنه أنه قال: كنا أذلة فأعزنا الله بالإسلام فمتى طلبنا العزة في غيره أذلنا الله.

هل الشرطية هنا لها علاقة بما قبلها بحيث نقدر جواب الشرط ما قبلها؟ فيكون التقدير ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ «فاتقوا الله»، يستقيم الكلام أو لا يستقيم؟ يستقيم، إذاً فهي موصولة بما قبلها، وأحياناً تأتي الشرطية غير موصولة بما قبلها، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الجمعة: ٩] هذه الشرطية ليست متعلقة بما قبلها؛ لأنه ينعكس المعنى، لو قلنا: ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون فإن لم تعلموا فليس خيراً لكم، لا يستقيم، ولهذا في الآية الثانية التي قرأتها الآن؛ ينبغي للإنسان أن يقف، على قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأنك لو وصلت، فُهِمَ منه أنه خير إن كنا نعلم، وإن لم نعلم فليس بخير، مع أنه خير على كل حال، لكن معنى هذا إن كنتم من ذوي العلم فافهموا هذا، هذا معناها إجمالاً، على كل حال الآية التي معنا: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ نقول: هذا الشرط متعلق بما قبله، أي: إن كنتم مؤمنين حقاً فاتقوا الله؛ لأن الإيمان حقاً يحمل على التقوى.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: النهي عن اتخاذ اليهود والنصارى والكفار أولياء، فتكون هذه أعم من الآيات السابقة لقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١]؛ لأنه انضم إليهم في هذه الآية الكفار.

الفائدة الثانية: الإغراءُ التام عن اتخاذهم أولياء وذلك بإثارة الحمية والغيرة في قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ لأن أي إنسان يشعر بأن شخصاً يهزأ به في دينه ويقول: هذا الدين لعب لا فائدة منه؛ لا شك أنه سيثور.

الفائدة الثالثة: إظهار عداوة هؤلاء الكفار من أهل الكتاب والكفار للإسلام، وأن عداوتهم ظاهرة حيث كانوا يسخرون بأهله المتمسكين به.

لو قال قائل: بالنسبة لمن له أقارب كفار هل يؤمر بمدافعة الحب الطبيعي؟

من له أقارب كفار فإن الحب الطبيعي لا يؤثر على دينه؛ لأن هذا أمر لا بد منه ولا يمكن الفرار منه.

الفائدة الرابعة: أن العلم قد يكون وبالاً على صاحبه، لقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فإن هؤلاء أعطوا العلم ووصف لهم الرسول محمد ﷺ في التوراة والإنجيل وصفاً يجعلهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ومع ذلك لم ينفعهم هذا العلم.

الفائدة الخامسة: الحث على التقوى التي من جملتها البعد عن اتخاذ هؤلاء أولياء لقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

الفائدة السادسة: أن الإيمان الحقيقي مقتضي للتقوى، لقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

فإن قال قائل: هل التقوى خاصة بالله؟

نقول: أما تقوى العبادة فإنها خاصة بالله، ولا يجوز أن يُتقى شيء على وجه التعبد إلا الله عزّ وجل، وأما تقوى ما يُخشى منه؛ فهذه تكون لله ولغيره، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] قال: ﴿يَوْمًا﴾ ومعلوم أن هذه ليست تقوى عبادة، يعني: لم يأمرنا الله عزّ وجل أن نعبد اليوم بالتقوى، لكن هذا في اتقاء ما يُخشى منه، ويقال: اتقِ شر من أحسنت إليه، هل هذه تقوى عبادة؟

الجواب: لا، يعني احذر واخشَ، وليست هذه تقوى عبادة، وعبارة «اتقِ شر من أحسنت إليه» السابقة ليست بحديث لكن قد يكون معناها صحيحاً في بعض الأحيان، فإذا أحسنت إلى أحد قال هذا خائف مني ثم يهينك.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة: ٥٨].

قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ذكر ذلك مبيناً حال هؤلاء الذين أوتوا الكتاب وكذلك الكفار.

وقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: دعوتم الناس إليها بالصفة المعروفة، ولما قدم النبي ﷺ المدينة وصار للأمة دولة إسلامية ومجتمع كبير؛ تشاوروا فيما بينهم كيف يجمعون الناس إلى الصلاة؟ فمنهم من اقترح: أن توقد نيران إذا دخل الوقت، يُعلم بها دخول الوقت، ورُفض هذا الاقتراح بأن هذا من عادة المجوس؛ ولأن هذه النيران في النهار لا تفيد شيئاً، ثم اقْتُرِح ناقوس فرفض هذا الاقتراح؛ لأن هذا من علامة صلاة النصارى، ثم اقترح بوق ينفخ ويكون له صوت، ورُد هذا الاقتراح؛ لأنه من شعار دين اليهود، ويسر الله عزّ وجل أن أحد الصحابة وهو: عبد الله بن زيد بن عبد ربه رضي الله عنه، رأى في المنام رجلاً معه ناقوس أو بوق فقال له: أتبيع هذا؟ قال: لأي شيء، قال: لأعلن به الصلاة، فقال: ألا أدلك على خير من هذا؟ ثم أسمعه الأذان كله، فلما أصبح غدا إلى النبي ﷺ وأخبره، فقال: إنها لرؤيا حق وأقرها النبي ﷺ، وأمر عبد الله بن زيد أن يلقيه إلى

بلال؛ وعلل ذلك فقال: «**إنه أندى صوتاً منك**»[١]، ولم يقل: ألقه وسكت؛ لأنه لو سكت لكان في قلب عبد الله بن زيد شيء، إذ إنه هو الذي رآه فكان أولى الناس بالقيام به، لكن من عادة الرسول عليه الصلاة والسلام أنه يُبَيِّنُ حكمة الشيء حتى يطمئن القلب، فَبَيَّنَ أنه أندى صوتاً منه فنادى به، ونعم النداء، تعظيم لله عزّ وجل، شهادة له بالتوحيد، شهادة للرسول ﷺ بالرسالة، دعوة للصلاة، دعوة للفلاح، ختام بالتعظيم والتوحيد، أي دعوة أحسن من هذه؟ لا شيء، دعوة عظيمة، ولهذا يقول مجيب المؤذن: «**اللهم رب هذه الدعوة**»، ماذا؟ «**الدعوة التامة**»[٢] حتى إن الرسول عليه الصلاة والسلام جعلها من شعار البلاد الإسلامية فكان إذا نزل بقوم انتظر، فإذا أذنوا ترك قتالهم[٣]؛ لأن الأذان من شعائر الإسلام الظاهرة، التي لا يجوز للمسلمين أن يدعوها، ولا يجوز للمسلمين أن يهجموا على بلد يؤذن فيه، وربما يكون هذا هو علامة كون الدار دار إسلام، أن يعلن فيها الأذان؛ لأن الرسول ﷺ إذا سمع الأذان كف عنهم، وعلم أن بلادهم بلاد إسلام ويكون هذا هو الفيصل في معنى دار الإسلام.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب كيف الأذان، حديث رقم (٤٩٩)، والترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في بدء الأذان، حديث رقم (١٨٩)، وابن ماجه، كتاب الأذان والسنة فيها، باب بدء الأذان، حديث رقم (٧٠٦)، وأحمد (٤/٤٣) (١٦٥٢٥) عن عبد الله بن زيد.

(٢) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء عند النداء، حديث رقم (٥٨٩) عن جابر بن عبد الله.

(٣) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب ما يحقن بالأذان من الدماء، حديث رقم (٥٨٥) عن أنس.

وقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ناديتم بماذا؟ بالأذان.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ كلمة عامة تشمل: الجمعة والفرائض الخمس، وهل نقول: وغيرها؟

الجواب: لا نقول وغيرها، إذاً: هو عام أريد به الخاص، وهو ليس العام الذي خصص؛ لأن العام الذي خصص، أُريد عمومه أولاً، ثم ورد عليه التخصيص ثانياً، والعام المراد به الخاص، لم يرد عمومه أصلاً.

ولهذا نقول: الصلاة هنا عام أُريد به الخاص، الاستسقاء لا يؤذن له مع أنه يجتمع له، العيدان لا يؤذن لهما مع أنه يجتمع لهما، الكسوف لا يؤذن له مع أنه يجتمع له، قيام الليل في رمضان لا يؤذن له مع أنه يجتمع له، لكن الكسوف اختص بدعوة خاصة حتى لا يلحق بالفرائض التي تتكرر كل يوم وذلك بأن يقال: الصلاة جامعة؛ لأنه يأتي بغتة والناس غافلون.

إذاً: المراد بقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ست صلوات، الصلوات الخمس والجمعة.

قوله: ﴿ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ أي: جعلوا يسخرون ويستهزئون.

وسبق الفرق بين الهزو واللعب.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ ذلك: المشار إليه قولهم أو اتخاذهم إياها هزواً ولعباً، و«الباء» في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾: للسببية، أي: بسبب أنهم، ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي: ليس لهم عقول، أي: عقول راشدة لكن لهم عقول مدركة، والفرق بينهما:

العقول المدركة: هي العقول التي يترتب عليها التكليف، وهو الوصف الذي تجده في كتب الفقهاء من شروط الصلاة مثل التمييز والعقل... إلخ، والعقل هذا عقل إدراك.

لكنَّ **عقل الإرشاد**: هو الذي انتفى عن كل كافر، فكل كافر ليس عاقلاً عقل إرشاد، أي: ليس له عقل يرشده، عنده ذكاء وعنده إدراك للأمور، ويعرف من الواقع ما لا يعرفه كثير من المسلمين لكنه ليس بعاقل؛ لكفره بالله عزّ وجل والعقل يهدي إلى الحق.

إذاً قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي: ليس عندهم عقل إرشاد، ولو عقلوا لعظموا هذه الصلاة العظيمة التي لا نعلم أن في دين الإسلام شيئاً أعظم منها ما عدا التوحيد والرسالة؛ لأنها اختصت بخصائص عظيمة، ولا يخفى على كثير من الناس أنها فرضت من الله إلى رسوله بدون واسطة، ولم تفرض على الرسول عليه الصلاة والسلام وهو في الأرض؛ بل في أعلى مكان يصله البشر، وأيضاً لم تفرض عليه بهذا القدر الكمي ـ يعني: خمس صلوات ـ بل فرضت خمسين صلاة تستوعب كثيراً من الوقت إن لم يكن أكثر وقت اليقظة، وهذا يدل على محبة الله تبارك وتعالى لها، ولما كان الله يحبها؛ كانت قرة عين للرسول ﷺ، قال النبي ﷺ: **«حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة»**[1] اللهم صلِّ وسلم عليه.

هذه الصلاة العظيمة هل يمكن لأي عاقل عقل إرشاد أن يتخذها هزواً ولعباً؟ أبداً بل يتخذها مقام التعظيم والاحترام؛ لأن الإنسان إذا جاء يصلي، فمن يناجي ومن يقف بين يديه؟ يقف بين

---

(١) رواه النسائي، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، حديث رقم (٣٩٣٩)، وأحمد (٣/ ١٢٨) (١٢٣١٥)، والحاكم (٢/ ١٧٤) (٢٦٧٦) عن أنس.

يدي الله ويناجي الله، ليس بينه وبينه أحد، «**يقول: الحمد لله رب العالمين، فيقول الله جلَّ وعلا: حمدني عبدي**»[(١)].

ثم يأتي برياض من العبادات قرآن، تكبير، تعظيم لله، انحناء لله، سجود لله، يعني: روضة عظيمة من رياض العبادات، فكيف يمكن لعاقل أن يتخذها هزواً ولعباً؟! والله لو أن الإنسان منا قيل له: الآن عندك مقابلة مع الملك أو مع الرئيس، ماذا يكون؟ يتأهب ويتجمل ويتطيب، ويتخذ بذلك عدة واستعداداً، فكيف إذا كان يريد أن يقف بين يدي الله عزّ وجل؟ الذي هو أحب الأشياء إليه، سيكون لهذا تأثير عظيم لو كنا نعقل، لكن العقل عندنا قليل، نحن نعرف أن الواحد نصف الاثنين هذا عقلاً، لكن العقل الذي هو عقل الإرشاد قليل.

بل كثير من المسلمين اليوم ـ ونسأل من الله أن يعفو عنا وعنهم ـ يأتون إلى الصلاة ويقيمون الصلاة جسماً لا روحاً، ولا تتسلط على الواحد منهم الشياطين بالهواجس إلا إذا دخل يصلي، ثم إذا سلم من الصلاة فكأنه سحاب استدبرته الريح، كل الهواجس هذه تذهب ولا يجد لها فائدة أيضاً، فلذلك كان الذين يتخذون الصلاة هزواً ولعباً؛ لا شك أنهم قوم لا يعقلون، والذين يعظمونها وينزلونها منزلتها هم أهل العقل والرشاد.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان لشدة وقع الصلاة في أعدائنا الكفار اليهود والنصارى، وجه ذلك: أنه لما ذكر في الآية التي قبلها

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، حديث رقم (٣٩٥) عن أبي هريرة.

أنهم يتخذون ديننا هزواً ولعباً؛ خص الصلاة بعد هذا، وتخصيص الشيء من العموم يدل على العناية به وعلى شرفه على العموم.

الفائدة الثانية: مشروعية النداء للصلاة، لقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وكما قلنا: إن النداء يعني الأذان.

الفائدة الثالثة: أن النداء للصلاة أمر معلوم بالضرورة من الدين، لقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فكأن هذا أمر معلوم مفروض منه.

الفائدة الرابعة: أنه إذا كان النداء للصلاة مشروعاً كان عبادة يتقرب به المنادي إلى الله، وهو كذلك، فالأذان من أفضل الأعمال، حتى إن الله خص المؤذنين بخصيصة يوم القيامة ليست لغيرهم؛ وهي كونهم أطول الناس أعناقاً، رفع الله رؤوسهم بطول أعناقهم؛ لرفعهم ذكره بين العباد، فهم يختصون بهذه الخصيصة التي لا يشاركهم فيها غيرهم.

والظاهر أن قوله ﷺ: «**المؤذنون أطول الناس أعناقاً**»[1] هذا فيمن يسمى مؤذناً، أي: يداوم على الأذان ولا يحصل ذلك لمن أذن مرة أو مرتين، وإلا لقال الرسول عليه الصلاة والسلام: من أذن كان أطول الناس.

فإن قال قائل: ما تقولون: أهو أفضل أم الإمامة؟

الجواب: أنه أفضل من الإمامة؛ لأن النصوص الواردة فيه أكثر من النصوص الواردة في الإمامة من حيث الفضل، فالمؤذن أفضل من الإمام من حيث الأجر ومن حيث المرتبة، صحيح أنه

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهروب الشيطان عند سماعه، حديث رقم (٣٨٧) عن معاوية بن أبي سفيان.

متبوع، لكن المؤذن تلحقه مشقات عظيمة، وفي الزمن السابق كان يصعد المنارة الطويلة خمس مرات، ثم إذا تأخر المؤذن فضح نفسه كُلٌّ عرف أنه لم يحضر والإمام ليس كذلك.

فإن قال قائل: يرد عليكم إذا كان أفضل من الإمامة، فلماذا لم يؤذن الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يؤذن أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي؟

قلنا: لانشغالهم بما هو أهم، ونحن الآن لا نريد المفاضلة بين الأذان وغيره من سائر العبادات، بل بين الأذان والإمامة، ولا شك أن الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين، لو ألزموا أنفسهم بالأذان لكانوا يبقون مراقبين للأوقات مدة طويلة، وفي ذلك الوقت ليست الساعة في جيب الإنسان ليخرجها ويعرف أنَّ الوقت حضر، مَنْ يرقب الشمس ليعرف أنها الآن ستزول أو لا تزول أو زالت أو لم تزل؟ فهم مشتغلون بما هو أهم من التفرغ للأذان.

فإن قال قائل: أفلا يمكنهم أن يوكلوا من يرقب الأوقات، فإذا دخلت جاؤوا؟

قلنا: هذا يسقط عنهم عناء كثيرٍ من الأذان الذي ربما يكون الفضل من أجل هذا المعنى فيفوت المقصود.

فالحاصل أن القول الراجح من أقوال العلماء: أن الأذان أفضل من الإمامة.

فإن قال قائل: غير المؤذنين أفلا يكون لهم حظ؟

قلنا: بلى، لهم حظ والحمد لله وهو مشروعية متابعة المؤذن، يعني: أنه شرع لنا أن نقول مثل ما يقول المؤذن، حتى

لا يمتاز عنا بعمل ليس لنا منه حظ، وهذا من نعمة الله ورحمته وحكمته، أنه لم يُضِعْ غير المؤذنين من الأجر الذي يخص الأذان، فنحن مأمورون بمتابعة المؤذن، وأن نقول مثل ما يقول إلا في حيَّ على الصلاة حي على الفلاح لا نقول هذا؛ لأننا لو قلنا مثله لكنا ندعوه، فالمؤذن يدعونا بقوله: حي على الصلاة، فإذا قلنا: «حي على الصلاة» تعارض النداءان، لكننا نقول إذا قال: «حي على الصلاة» نقول ما يدل على أننا نقول: سمعاً وطاعة، وهو: لا حول ولا قوة إلا بالله، فكأننا قلنا: سمعاً وطاعة، ولكننا نسأل الله أن يعيننا؛ لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

الحاصل أنه شُرع لنا متابعة المؤذن حتى لا يمتاز عنا بعمل، وليس معنى ذلك أن تحصل على الأجر الذي يحصل عليه المؤذن، لكن نشارك المؤذن في بعض الثواب، ونظير ذلك من بعض الوجوه أنه شرع لمن لم يحج أن يضحي حتى يشارك الحجاج في شيء من أفعالهم كذبح القربان، وأن يتجنب الأخذ من الشعور والأظافر والجلد، كل هذا لأجل أن يعرف الناس حكمة الله عزّ وجل.

فإن قال قائل: إذا ثبت أن الأذان عبادة، فما تقولون في بعض الناس الذين ثبطهم الكسل والوهن، وصاروا يجعلون مسجلاً عند مكبر الصوت، فإذا جاء وقت الأذان فتحوا المكبر؟

نقول: هذا خطأ وغلط عظيم وتفويت الخير على الأمة وهذا ليس مؤذناً؛ لكنه حاكياً لصوت مؤذن سابق، ولذلك يجعل المسجل بصوت إنسان قد مات، فليس هذا عبادة، وفي رأيي

أنه، لا يحصل به أداء الفريضة، إذا لم يكن مؤذناً آخر يسمع في هذا المكان؛ لأن هذا مجرد صوت، ليس رجلاً متعبداً لله عزّ وجل بهذا الأذان كما لو جعلنا للجرس ساعة إذا سُمع، معناه: دخل الوقت، وهذه نقطة ينبغي لنا أن نعرفها؛ أن الدين الإسلامي عبادة ذات جسد وروح، ليست مجرد طقوس تسمع أو حركات تفعل، بل هو عبادة، فالأذان عبادة، إذاً يجب أن يكون عبادة، ولو أراد أن يقيس قائس على هذا، وقال: ننقل بالشريط صلاة إمام حسن القراءة حسن الصوت ونجعل الشريط أمام المصلين ونجعله يصلي بهم، يصح أو لا يصح؟ بالاتفاق لا يصح ولا إشكال، مع أنه سيقول: الله أكبر لتكبيرة الإحرام على أحسن ما يكون، والقراءة على أحسن ما يكون، ويقول الله أكبر للركوع، ويرفع صوته قليلاً عندما يقول: سبحان ربي العظيم لأجل ألا يشتبه لأنه لا يرى، لكنه بدلاً من أنهم لا يرونه يرفع صوته بالتعظيم، سبحان ربي العظيم وهكذا، لا أحد يقول: هذا يجزئ، فالأذان مثله حذو القذة بالقذة؛ لأننا لا نريد مجرد صوت نعلم به دخول الوقت.

لو قال قائل: انتشر بين الناس اليوم قول لا إله إلا الله بعد الإقامة وصاروا يجعلون هذا سنة، يعني: شاع في كثير من المساجد يضجون بها ضجاً حتى يستغرب الإنسان؟

الجواب: هذا مبني على صحة الحديث وهو متابعة المقيم والصحيح أن الحديث ضعيف وأن متابعة المقيم ليست بسنة، ومنها أيضاً أن يقال: أقامها الله وأدامها، فلا يقال: أقامها الله وأدامها، ولا يقال: لا إله إلا الله في آخرها، ولا يقال بعد ذلك: اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة.

الفائدة الخامسة: تعظيم الصلاة حيث ينادى لها، وحتى يعلم الناس دخول وقتها؛ فيصلوا ويحضروا إن كانوا ممن يجب عليهم الحضور للجماعة.

الفائدة السادسة: أن القيام بالصلاة دليل على كمال العقل وأن من لم يهتم بها فإن ذلك دليل على نقص عقله، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ فتكون إقامة الصلاة من تمام العقول والتهاون بها من نقص العقول، كما أنه نقص في الدين.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة: ٥٩].

قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الخطاب هنا للرسول عليه الصلاة والسلام، يعني: قل لهم، ناظرهم، جادلهم، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المراد بهم: اليهود والنصارى ﴿هَلْ تَنقِمُونَ﴾ هل هنا: استفهامية، والمراد بها: النفي؛ لأننا ذكرنا أنه إذا جاء الاستثناء بعد الاستفهام فهو دليل على أن الاستفهام للنفي، ﴿هَلْ تَنقِمُونَ﴾ أي: ما تنقمون منا إلا كذا، وهو نظير قوله تعالى في أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨].

قوله: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ بماذا تعيبونا، بأي شيء إلا بهذا، وهل هذا عيب، الإيمان بالله وبما أنزل إلينا وما أنزل من قبل هل هو عيب أم ليس بعيب؟ الجواب: ليس بعيب.

فكأنه قال: أنتم لا تعيبون علينا شيئاً، هو عيب بل تعيبون علينا شيئاً هو كمال وهو الإيمان بالله وبما أنزل إلينا، ومثل هذا الأسلوب يسميه علماء البلاغة: تأكيد المدح بما يشبه الذم، وله صورتان:

الصورة الأولى: نفي وإثبات، تنفى صفة الذم ويؤتى بعدها بصفة مدح مثبتة، أولاً: تنفى صفة العيب، ثم يؤتى بعدها بصفة كمال فهذا يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم، قال الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن نزيلهم يعاب بنسيان الأحبة والوطن

لا عيب فيهم غير أن نزيلهم الذي ينزل عليهم، يعاب بنسيان الأحبة والوطن، فإذا نزل عليهم ضيف فإنه ينسى كل شيء لإكرامهم الضيف واحتفائهم به، يعني: أن فيهم تسلية عن الأحبة والوطن هذا مدح، لكن أول ما تسمع «ولا عيب فيهم غير أن»، تترقب الذم، وكذلك قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

الأول: يمدحهم بالكرم، **والثاني**: يمدحهم بالشجاعة، فيقول: لا عيب فيهم غير أن سيوفهم، يعني: ليس فيهم أي جبن، وليس فيهم عيب إلا أن سيوفهم قد تثلمت من قرع الكتائب لشجاعتهم، هذا نوع وصورة من صور تأكيد المدح بما يشبه الذم.

الصورة الثانية: أن يؤتى بصفة مدح، ويستثنى بعدها صفة ذم، بأداة استثناء تقول: هذا الرجل عالم إلا أنه شجاع، هذا مدح عالم، إلا أنه ماذا يتوقع؟ صفة ذم، فإذا به يقال: إلا أنه شجاع، تقول: فلان طالب علم غير أنه مجتهد، هذا أيضاً من تأكيد المدح بما يشبه الذم، ومثاله أيضاً: الآية التي معنا.

لننظر الآية: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ هذا مدح.

إذاً الخطاب لهؤلاء نقول لهم: إنكم لا تنقمون منا شيئاً إلا هذا، وهذا ليس مما يقتضي أن تنقموا منا.

قوله: ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ «ما أنزل إلينا» هو: القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ هو: التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم والزبور وغير ذلك، نحن نؤمن بكل كتاب أنزله الله على كل رسول، هل هذا يُنْقم من الإنسان؟ لا، لا يمكن أن يُنْقم، لكن هؤلاء ننقم منهم أنهم لم يؤمنوا بما أنزل إلينا، بل نقول: لم يؤمنوا بما أنزل إليهم أيضاً؛ لأن أهل الكتاب الآن لا يؤمنون بما أنزل إلينا، وحقيقةً أنهم لا يؤمنون بما أنزل إليهم؛ لأنهم لو آمنوا بما أنزل إليهم لآمنوا بما أنزل إلينا، إذ إن ما أنزل إلينا مصدق لما أنزل إليهم، لكن هم يكذبون هذا وهذا.

قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ هذه الجملة هل هي معطوفة على قوله: ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا﴾، أو معطوفة على لفظ الجلالة؟ فيها وجهان: لكن الصواب الذي قد يكون متعيناً أنها معطوفة على قوله: «بالله»، يعني: إلا أن آمنا بأن أكثركم فاسقون، أي: خارجون عن طاعة الله بالكفر.

قد يقول قائل: إذا حملتها على هذا المعنى فهم ينقمون؛ لأنهم لا يريدون أن أكثرهم فاسقون، فينقمون منا أن نؤمن بأن أكثرهم فاسقون، فيقال: هذا لا نستحق أن ينقموا منا به؛ لأننا لم نقل: وأنكم فاسقون، بل نقول: وأن أكثركم فاسقون وهذا هو العدل؛ لأن منهم من كان مؤمناً وآمن فعلاً، مثل: النجاشي من النصارى وعبد الله بن سلام من اليهود، لكن أكثرهم فاسقون، فهذا

عدل، كأنه قال: ما تنقمون منا إلا أن قمنا بما يجب لله وما يجب لعباد الله، الذي يجب لله الإيمان به وبما أنزل، وما يجب لعباد الله العدل، أن نعطي كل إنسان ما يستحق، فمعظم هؤلاء فاسقون بلا شك، ونحن نؤمن بهذا ونؤمن بأن من اليهود من آمن وحسن إيمانه، ومن النصارى من آمن وحسن إيمانه، وهذا هو العدل، لم نحكم على الأمة بفعل أكثرهم بل أعطينا كل إنسان ما يستحق.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تحدي أولئك الذين ينقمون من أهل الخير خيراً، لقوله: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ﴾ وهذا ليس في محل نقم أو كراهة.

الفائدة الثانية: فضيلة هذه الأمة، وأن هذه الأمة لها فضل ومزية على الأمم السابقة؛ لأنها تؤمن بالله وما أنزل إليها وما أنزل من قبل، وهذا لا يوجد في أمم آخرين، لا يوجد إلا في هذه الأمة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] ولا يمكن أن نكون شهداء على الناس إلا إذا سبقونا، حتى نعلم ما حصل لهم.

الفائدة الثالثة: أنه ينبغي للمؤمن أن يكون صريحاً فلا يداهن، لقوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وهذه المقابلة الصريحة بوصفهم بالفسق.

الفائدة الرابعة: الاحتراز الذي يراعى فيه العدل، لقوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ولم يقل: وأنكم فاسقون؛ لأننا لو كنا نؤمن بأن كلهم فاسقون لكان هذا محل نقد، لكننا لا نقول إلا أن أكثرهم فاسقون.

الفائدة الخامسة: أن الفسق يراد به الكفر وهذا واضح، حتى في القرآن في غير هذه الآية ما يدل على أن الفسق يراد به الكفر، ويراد به الخروج عن الطاعة فيما دون الكفر، فقوله تبارك وتعالى في سورة السجدة: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ [السجدة: ١٨] فالمراد بالفسق هنا: الكفر، لقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة: ٢٠] والذي يكذب بالنار فسقه كفر لتكذيبه خبر الله عزّ وجل، والفسق الذي لا يخرج من الملة مثل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦].

إذاً المراد بقوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ المراد: فسق الكفر لأنهم كذبوا محمداً ﷺ.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: ٦٠].

قوله: ﴿قُلْ﴾ يعني: يا محمد، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ يا أهل الكتاب أي: أخبركم بالأمر العظيم؛ لأن النبأ إنما يراد به الشيء الهام العظيم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [ص: ٦٧] وقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النبأ: ١ ـ ٢]، بخلاف الخبر، الخبر: قد يكون في أمور تافهة، لكن النبأ لا يكون إلا في أمور هامة، ولعل ذلك والله أعلم؛ لأن أحد اشتقاقاته من النَّبْوَة، والنبوة: بمعنى الارتفاع.

قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه صلاة المسلمين التي اتخذها هؤلاء هزواً ولعباً، وقالوا: ما هذا العمل، ما هذا اللعب؟ يستهزئون، ومعلوم أن الاستهزاء بالعمل يستلزم الاستهزاء بالعامل، فقال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ ﴿مَثُوبَةً﴾ أي: عاقبة وهي منصوبة على التمييز؛ لأنها مفسرة لما انبهم من التفضيل في قوله: ﴿بِشَرٍّ﴾؛ لأن أصل شر: أشر فهو اسم تفضيل، والاسم المنصوب بعد اسم التفضيل المفسر يسمى عندهم، تمييزاً، مثل أن تقول: محمد أكثر منك علماً، فـ(علماً) هنا تمييز؛ لأنه مفسر للمبهم من اسم التفضيل.

إذاً: مثوبة: نعربها على أنها تمييز، والمثوبة بمعنى: العاقبة؛ لأنها من ثاب يثوب إذا رجع، فهي بمعنى: العاقبة والمآل عند الله، وهذا هو المهم، المهم المنزلة عند الله عزّ وجل لا عند الخلق، إذا كانت منزلتك عالية عند الله وخير فهذا هو المهم وهذا هو المطلوب، واعلم أنه متى كنت في منزلة عالية عند الله؛ فسوف تكون في منزلة عالية عند الخلق، والعكس بالعكس، ولهذا جاء في الحديث: «**من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله؛ سخط الله عليه وأسخط عليه الناس**»[1].

قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ «من» هذه اسم موصول وهي خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: هو من لعنه الله، هذا شر المثوبة عند الله من حصلت عليه هذه النكبات العظيمة، ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: طرده وأبعده

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب حفظ اللسان، حديث رقم (٢٤١٤)، وابن حبان (١/ ٥١٠) (٢٧٦) عن عائشة.

عن رحمته، وهم: اليهود والنصارى، ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨]، وقال النبي ﷺ: «**لعنة الله على اليهود والنصارى**»(١)، فهم ملعونون مطرودون من رحمة الله كما لعن إبليس، لكن هم يرجى أن يؤمنوا، أما إبليس فلن يؤمن، هذا هو الفرق وإلا فهم ملعونون مطرودون من رحمة الله عزّ وجل.

الثاني: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ غضب الرب عزّ وجل أشد من لعنته؛ لأن الطرد والإبعاد عن الرحمة قد يصحبه غضب وقد لا يصحبه، فقد يكون المقصود حرمان هذا الإنسان من الجنة وإن لم يكن غضباً، فالغضب أشد، ويدل على أن الغضب أشد قوله تبارك وتعالى في آيات اللعان، واللعان سببه: أن الرجل يرمي زوجته بالزنا، ومن المعلوم أنه لا يمكن لأحد أن يرمي زوجته بالزنا إلا وهو صادق؛ لأن هذا يدنس فراشه، ومن ثم صارت الشهادات قائمة مقام الشهود، لكن غير الزوج لو رمى امرأة بالزنا، قلنا: إما أن تقيم أربعة شهود وإلا حد في ظهرك، أما الزوج فلا يحتاج أن نقول له هذا، نقول له: إذا لم تقر الزوجة فلاعن، فيؤتى بالرجل ويقول: أشهد أربع مرات أن الزوجة هذه قد زنت؛ فيقول: أشهد، وفي الخامسة يقول: وأن لعنة الله عليه، والضمير هنا يجب أن يكون ضمير متكلم عندما يتكلم به الزوج،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم (١٣٢٦٧)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها...، حديث رقم (٥٣١) عن ابن عباس وعائشة.

لكن هذا من باب تحاشي الإضافة إلى ضمير المتكلم؛ لأن اللعنة ليست على المتكلم، اللعنة على الزوج.

ولهذا يقول هو: عليٌّ، فيشهد خمس مرات أن زوجته زنت، وفي الخامسة يقول: وأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، وهي تشهد في رد كلام الزوج أربع مرات أنه كاذب، وفي الخامسة: وأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ومعلوم أن كذبها ـ أي: الزوجة ـ أشد من كذب الزوج؛ لأن الزوج أقرب منها إلى الصدق، وهي ربما تفعل هذا يعني: تشهد على أنه كاذب لدرء السمعة السيئة عنها وعن قومها، لكن الزوج لا يمكن أن يراعي هذا، ولهذا كان الغضب في جانبها، واللعنة في جانب الزوج، وبه عرفنا أن الغضب أشد من اللعنة.

قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ إذاً اليهود: مغضوب عليهم؛ لأنهم علموا الحق ولم يعملوا به، وأما النصارى: فالآية هذه تدل على أن النصارى مغضوب عليهم؛ لأن الخطاب مع أهل الكتاب، ولا شك أن النصارى بعد تكذيبهم لرسول الله ﷺ مغضوب عليهم، ولا فرق بينهم وبين اليهود، بل هم أخبث من اليهود بالنسبة للمسلمين، والحروب الصليبية إذا قرأها الإنسان عرف شدة عداوة النصارى للمسلمين، وهم الآن ردء لليهود في وقتنا الحاضر، يناصرون اليهود ويدافعون عنهم ولا تفتيش على أسحلتهم ولا إنكار على فعائلهم، وهذا شيء لا يخفى على العميان فضلاً عن المبصرين.

إذاً قوله: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ ينطبق في هذه الآية على اليهود والنصارى؛ لأن اليهود بعد بعثة الرسول ﷺ علموا الحق،

والنصارى بعد بعثة الرسول علموا الحق وأنكروه؛ فيكونون جميعاً تحت هذه المظلة، مظلة الغضب.

قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ وسبب جعلهم قردة: هو أنهم تحيلوا على صيد الحيتان المحرم عليهم صيدها في يوم السبت، ليلتقطوها يوم الأحد.

يقول العلماء: يضعون شُبَّاكاً في يوم الجمعة، ويوم السبت سبحان الله ابتلاهم الله عزّ وجل بأن تأتي الحيتان شرعاً على الماء طافح من كثرتها لكن لا يجوز لهم أن يصطادوا؛ لأنه محرم عليهم، فكأنهم عجزوا عن تحمل هذا الحكم، فتحيلوا، فوضعوا الشِّبَاك يوم الجمعة، فتأتي الحيتان يوم السبت وفيها الشبك، فإذا كان يوم الأحد أخذوها، فالفعل ظاهره الإباحة؛ لأنهم لم يصطادوا يوم السبت، اصطادوا يوم الأحد، فلما كانت هذه الفعلة المحرمة شبيهةً بالحلال، مسخهم الله عزّ وجل قردة لأن القرد شبيه بالإنسان، انظر الجزاء من جنس العمل؛ صاروا قردة، هل هم صاروا قردة معنى أو حساً؟ صاروا قردة حساً، هذا الذي عليه جمهور المفسرين، وهو ظاهر القرآن، وإن كان بعض المعاصرين ذهب إلى أنهم كانوا قردة معنىً، أي: صاروا مثل القرود ليس عندهم أفكار بني آدم ولا عقول بني آدم، لكن يقال: الأصل هو الحقيقة. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١] الذي خلق الإنسان على هذا الوصف؛ قادر على أن يقلبه على وصف آخر، ولهذا قال: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥] فصاروا قردة، لكن هل بقوا؟

الجواب: لا؛ لأن المقصود من كونهم قردة أن يكونوا عبرة ونكالاً، ولا يلزم من هذا أن تتسلسل الذرية، ولذلك قال أهل

العلم: إنه لا نسل لمن مسخوا حيواناً من أجل العقوبة، فمن مات منهم لا يخلف أحداً.

لو قال قائل: هل في القرآن أن بني إسرائيل صاروا خنازير؟

الجواب: نعم، نقول هذه الآية قال الله تعالى فيها: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾، أما أن نعلم كيف كانوا أو بأي سبب، هذا ليس بلازم، فإذا حكى الله عنهم أنهم صاروا خنازير فقد صاروا خنازير، ولعلها والله أعلم، ولا نقول على الله ما لا نعلم: لعل هؤلاء الذي قلبوا خنازير لعل حيلهم كانت على الزنا؛ لأن المعروف أن الخنازير ليس عندها غيرة إطلاقاً، الحيوان غير الخنزير يغار فلا أحد يأتي أنثاه إلا إذا كان غائباً، لكن الخنزير ينزل من أنثاه ويقول لصاحبه: اصعد، يقولون: ليس عنده غيرة، ولذلك من حكمة الله عزّ وجل أن حرم الخنزير، لأنه ليس عنده غيرة، فعلى كل حال إن صح هذا فالله أعلم، ولا ندري.

المهم على أن نؤمن بأن الله جعل من أهل الكتاب قردة وخنازير.

قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الآية فيها إشكال من جهة التركيب، في قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ﴾ فقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ﴾ جاء بضمير الجمع ﴿مِنْهُمُ﴾ مع أنه قال في أول الآية: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ بالإفراد.

الجواب: (مَنْ) اسم موصول يجوز في ضميرها أن يرد على اللفظ وعلى المعنى.

قوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾: فيها قراءتان:

الأولى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، على أن (عَبَدَ): فعل ماض، فيها ضمير مستتر يعود على (مَنْ) في قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ والطاغوتَ: مفعول به يعني عبد عبادة الطاغوت، وعلى هذا فتكون معطوفة على صلة الموصول، وهو قوله: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾.

والقراءة الثانية: ﴿وعَبُدَ الطاغوتِ﴾، لكن يكون على هذه القراءة الطاغوت بالجر، على أن عَبُدَ: اسم مفرد، كما يقال: السبَع والسبُع، فيقال: العَبْدُ، والعَبُدُ فهما لغتان، وعلى هذه القراءة نقول: عبُد الطاغوتِ، وتكون معطوفة على القردة، يعني: وجعل منهم عبد الطاغوت، وأهل الكتاب عبدوا الطاغوت باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فإن الله قال عنهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة:٣١]، قال عدي بن حاتم رضي الله عنه للنبي ﷺ: يا رسول الله لسنا نعبدهم؛ فَبَيَّنَ أن طاعتهم في معصية الله هي عبادتهم[١].

وقوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أي: عبده عبادة بركوع وسجود وطاعة فيما يأمر، والمراد بالطاغوت ما ذكره ابن القيم رحمه الله بتعريف من أجمع التعاريف قال: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فكل إنسان يتجاوز الحد في عبادة أحد غير الله فهذا المعبود طاغوت، وكل إنسان يتجاوز الحد في اتباع

---

(١) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، حديث رقم (٣٠٩٥) عن عدي بن حاتم.

غير شريعة الله فقد اتخذه طاغوتاً، وكل إنسان يتجاوز حده في طاعة سلطان أو أمير فقد اتخذه طاغوتاً، وقلنا في التعريف: ما تجاوز به العبد حده؛ لأن أصل الطاغوت من الطغيان.

فإن قال قائل: هذا المعبود كيف نسميه طاغوتاً، هذا المتبوع كيف نسميه طاغوتاً، هذا المطاع كيف نسميه طاغوتاً؟

قلنا: الطاغوت هنا بمعنى: الطغيان، والطغيان ليس وصفاً للمفعول؛ ولكنه وصف للفاعل العابد الذي عبد غير الله أو أطاع غير الله في معصية الله عزّ وجل، أو اتبع غير رسول الله ﷺ في معصية الله عزّ وجل.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الجملة هذه من أحسن ما يكون في تقرير أن هؤلاء شر من المسلمين في المكان، ولهذا لم تأتِ جواباً من الرسول بل جاءت جواباً من الله عزّ وجل، أول الآية ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ يقول القائل: نعم نبئنا، فذكر الأوصاف، لكن هنا قال: أولئك أي: الموصوفون بهذه الصفات: اللعنة والغضب والمسخ والرابع: عبادة الطاغوت، هؤلاء شر مكاناً.

وقوله: ﴿مَّكَانًا﴾ تمييز لما انبهم من اسم التفضيل، **والقاعدة**: أن كل اسم منصوب يأتي بعد اسم التفضيل فهو مميز له، مثل: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] لكن هم شر مكاناً من المؤمنين بالله، الذين آمنوا بالله وما أنزل إليهم من قبل، وذلك لأن هؤلاء مكانهم النار والعياذ بالله، فمأواهم النار، وأولئك المؤمنون مأواهم الجنة.

فإن قال قائل: المعروف أن اسم التفضيل يشترك فيه المفضل والمفضل عليه في أصل المعنى، فهل في الجنة شر؟

الجواب: لا، ليس فيها شر، لكن هذا كقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**خير صفوف النساء؛ آخرها وشرها أولها**»[(١)] شرها يعني: الآخر ليس فيه شر، «**وخير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها**»[(٢)] وعكسه مثل قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤]، مع أن أصحاب النار ليس عندهم خير ولا حسن المقيل، فمثل هذا التفضيل، يقول علماء البلاغة: هو تفضيل ليس في الطرف الآخر منه شيء سواء كان في خير أو في شر.

لو قال قائل: في قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ قلنا: المشار إليه استهزاؤهم بالصلاة، أين الفعل الآخر الذي حصل بينه وبين الاستهزاء المفاضلة؛ لأن الله حكم عليهم باللعن لأنهم استهزؤوا، فهل تكون المفاضلة بين الاستهزاء والاستهزاء أم ماذا؟

الجواب: لا، المفاضلة بين حال الصحابة رضي الله عنهم وحال هؤلاء أيهما أشر، فقوله: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي: مما رميتمونا به من الاستهزاء والسخرية، فيكون المعنى: عمل من لعنه الله.

لو قال قائل: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ﴾ ألا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها، حديث رقم (٤٤٠) عن أبي هريرة.

(٢) تكملة الحديث السابق.

تحتمل الآية أن المراد المقارنة بين أهل الكتاب وغيرهم ممن ليس عندهم كتاب؟

الجواب: لا؛ لأن المناظرة بينهم وبين المسلمين، ولا شك أن غيرهم أضل منهم، ولهذا أباح الله لنا من اليهود والنصارى ما لم يبح من غيرهم، أباح لنا نكاح نسائهم وأباح لنا ذبائحهم، مما يدل على أنهم أرفع مرتبة من المشركين والمجوس.

لو قال قائل: وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ هل المراد بالمكان ما يقابل الزمان، أو المراد بالمكان المكانة والمنزلة، أو الأمران؟

الجواب: الأمران، فهم مكانهم شر لأنه النار، ومكانتهم شر لأنهم الأرذلون.

قوله: ﴿وَأَضَلُّ﴾ «أضل» هذه معطوفة على «شر»، يعني: وأولئك أضل عن سواء السبيل، وأضل اسم تفضيل من الضلال، يعني: أشد ضلالاً عن سواء السبيل، أي: عن الطريقة المستوية المستقيمة، فهو يشبه إضافة الصفة إلى موصوفها، يعني: عن السبيل السواء، هؤلاء شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل.

لو قال قائل: وهل في المؤمنين ضلال؟

الجواب: لا، لكن نقول فيها مثل ما قلنا في ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾، فلا ضلال في المؤمنين، وقد يقول قائل: لعل هذا من باب التنزل مع الخصم؛ لأن الخصم يدعي أن المؤمنين شرٌ مكاناً، وأضل عن سواء السبيل، فيقال: أنتم شرٌ مكاناً، وأنتم أضل عن سواء السبيل، لكن ما قررناه أولاً واضح وليس فيه إشكال، وهو أنه قد يأتي التفضيل بين شيئين؛ ليس في أحدهما شيء من المعنى.

وقد قيل: إن أهل الطاعة عندهم استقرار وعندهم طمأنينة، ولو كان الواحد منهم فقيراً فإن الله يعطيه سعة بال وقناعة، وأما صاحب المعصية لو أن ماله كثير فإنه في قلق وحيرة؟

ويشهد لصدق هذا القول قول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] وما جاء عن السلف الصالح حيث قالوا: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

لو قال قائل: ذكر بعض أهل العلم أن قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] أن النبي ﷺ فسرها باليهود والنصارى[1]، هل هذا صحيح؟

الجواب: هذا الحديث ضعيف، ثم لو صح لحمل على النصارى قبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: عرض الخطاب بصيغة الاستفهام؛ لأن ذلك أمكن في النفس وأحضر للقلب، لقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾، ومثله قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١] ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الكهف: ١٠٣].

الفائدة الثانية: أن هؤلاء اليهود الذين سخروا من النبي ﷺ وأصحابه؛ هم شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل لما اتصفوا به من الصفات المذكورة.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٦/ ٢٧٩) (٦٤١١).

لو قال قائل: هل كل صفة ثبتت بأنها صفة من صفات اليهود أو النصارى في الكتاب أو السنة ثابتة لهم إلى يوم القيامة، أو أنه لا بد أن يدل دليل على استمرارها؟

الجواب: أما أفعالهم فلا تستمر، يعني: ما ذكر من أفعالهم، قد يكون في وقت نزول القرآن أو قبله، مما يعلمه الموجودون في وقت نزول القرآن، ويتغير كما أن دين بني إسرائيل الذين هم عليه الآن ليس هو الدين الذي جاء به عيسى ولا موسى، واقرأ ما عندهم الآن من الكتب المؤلفة تجد أن فيها مخالفة لما نقل الله عنهم في أفعالهم.

الفائدة الثالثة والرابعة: أن العبرة بالمنزلة عند الله لقوله: ﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ ويتفرع على هذا: أنه ينبغي لنا أن لا ننظر إلى منزلتنا عند الناس وإنما ننظر إلى منزلتنا عند الله عزّ وجل، وإذا صححنا ذلك كفانا الله مؤونة الناس.

الفائدة الخامسة: أن اسم التفضيل قد يقع بين شيئين لا يشتركان في أصل المعنى، لقوله: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً﴾ لأن المعنى: بأشر من ذلك وكذلك في الخير ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤] ولا خير في مستقر أهل النار.

الفائدة السادسة: أن أولئك اليهود بل أهل الكتاب عموماً وُصِموا بهذه الصفات الأربعة: اللعنة والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت.

الفائدة السابعة: إثبات الغضب لله عزّ وجل، لقوله: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾، وفي سورة الفاتحة: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] والغضب: صفة من صفات ذاته عزّ وجل، لكنه من

الصفات الفعلية، وقلنا: من صفات ذاته لئلا يقول قائل: إن الغضب هو الانتقام، والانتقام شيء منفصل عن ذات الله، وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة أن الغضب صفة من صفات الله ثابت لله حقيقةً بلا تحريف، وفسره أهل التحريف بأن المراد به: الانتقام، أو إرادة الانتقام، فمن أثبت الإرادة قال: المراد به إرادة الانتقام، ومن لم يثبتها قال: المراد به الانتقام، ولكن هذا التفسير مردود:

أولاً: لمخالفته ظاهر اللفظ، والأصل في الأخبار أن تؤخذ على ظاهرها إلا بدليل صحيح.

ثانياً: أنه مخالف لما عليه السلف، فلم يأتِ عن الصحابة ولا التابعين ولا الأئمة حرف واحد يفسر الغضب بالانتقام أو إرادته، وسكوتهم عن تفسيره بما يخالف الظاهر دليل على إجماعهم على أن المراد به ظاهره، فيكون تفسيره بالانتقام أو إرادته مخالفاً لإجماع السلف، وهذه قاعدة نافعة تفيد في كل صفات الله عزّ وجل.

ثالثاً: أنه يكذبه القرآن، يعني يبطل هذا التفسير القرآن الكريم وذلك في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥﴾ [الزخرف: ٥٥] فإن معنى آسفونا أي: أغضبونا، ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ ومعلوم أن الجزاء غير الشرط، ﴿ٱنتَقَمْنَا﴾: جواب الشرط، و﴿ءَاسَفُونَا﴾: فعل الشرط، وجواب الشرط يخالف الشرط بلا شك، فهذه الآية الكريمة ترد عليهم ذلك التفسير.

رابعاً: أننا إذا تنزلنا معهم وقلنا: إنه إرادة الانتقام أو

الانتقام؛ فإن لازم ذلك أن يكون هناك غضب؛ لأن إرادة الانتقام أو الانتقام نفسه؛ لا يكون إلا عن فعل شيء لا يرضاه المنتقم، وهذا يكون نتيجة للغضب فهم مهما فروا لا بد أن يلزمهم إثبات الغضب لله عزّ وجل.

هنا عبارة يذكرها بعض المحققين يقولون: إن طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم، وهذه العبارة فيها حق وباطل، أما الحق: فقولهم: طريقة السلف أسلم، وأما الباطل: فقولهم: طريقة الخلف أعلم وأحكم؛ لأن هذه الجملة الأخيرة تناقض الأولى تماماً؛ لأنه كيف تكون السلامة مع الجهل أو السفه؛ لأن ضد العلم الجهل وضد الحكمة السفه، فكيف يمكن أن تكون هناك سلامة بدون علم وحكمة، فمتى كانت طريقة السلف أسلم لزم أن تكون أعلم وأحكم، ويدل على هذا أن السلف والحمد لله كتبهم مملوءة بتفسير آيات الصفات وأحاديثها، فلم يأتِ عنهم كلمة واحدة يقولون فيها: والله لا نعرف هذا المعنى، ولا نعرف معنى الآية، ولا نعرف معنى الحديث أبداً، بل كانوا يقولون: المعنى معلوم والكيف مجهول، ويقولون: أمروها كما جاءت بلا كيف، فطريقة السلف إذاً أسلم وأعلم وأحكم.

الفائدة الثامنة: قدرة الله عزّ وجل على مسخ الإنسان قرداً وخنزيراً، لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ وهل هذا الجعل جعل كوني أو جعل شرعي؟

الجواب: قوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً﴾ [الأعراف: ١٦٦] هذا أمر كوني وليس أمراً شرعياً.

لو قال قائل: هل يقال: من استهزأ بشيء من شعائر الإسلام يناله ما نال اليهود من هذه العقوبات المسخ والغضب... إلخ؟

الجواب: أما إذا قلنا: إن القردة والخنازير أمر معنوي فقد يصيبه هذا وقد ينتكس والعياذ بالله ولا ينتفع بحق، وإذا قلنا: إنه حسي فكذلك أيضاً، أليس النبي ﷺ قال: «**أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام، أن يحول الله رأسه رأس حمار أو يجعل الله صورته صورة حمار**»[(١)].

لو قال قائل: هل يجوز للإنسان أن يقول: اليهود والنصارى إخوان القردة والخنازير؟

الجواب: لا بأس أن يقول هذا، لكن أنا عندي أنه غير مناسب، خصوصاً في مقام الدعوة تأتي مثلاً ليهودي تقول: تعال يا أخا القردة والخنازير آمن بمحمد ﷺ، هذا لا يصح، لكن على سبيل الخبر قد يقال بالجواز، فعبد الله بن رواحة رضي الله عنه لما جمعهم ليخرص عليهم النخل قال: إني جئتكم من أحب الناس إليّ وإنكم لأبغض إليّ من عدتكم من القردة والخنازير[(٢)].

الفائدة التاسعة: أن لا يستعصي على الإنسان طلب الشيء من الله عزّ وجل ما دام ليس في طلبه عدوان، ولنضرب لهذا مثلاً: برجل مريض بمرض السرطان، بعض الناس يقولون: مرض

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب إثم من رفع رأسه قبل الإمام، حديث رقم (٦٥٩)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما، حديث رقم (٤٢٧) عن أبي هريرة.

(٢) تقدم في (١/ ٤١٤).

السرطان لا يرجى برؤه، وهذا هو الغالب بلا شك، لكن بعض الناس ييأس ويقول: كيف أدعو الله أن يبرئني من هذا المرض، والعادة أنه لا يبرأ منه، وهذا غلط عظيم؛ لأن الذي أوجد المرض قادر على رفعه، والذي خلقك ولم تكن شيئاً قادر على أن يعيدك كما كنت، ولهذا لما قال زكريا عليه الصلاة والسلام: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] قال الله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: ٩]، فلا تيأس فالله على كل شيء قدير.

الفائدة العاشرة: حكمة الله تعالى في العقوبة، حيث يجعل الجزاء من جنس العمل، وسيأتينا في قول اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] أنهم عوقبوا بغل اليد، فالجزاء دائماً يكون من جنس العمل، الجزء بالجزء والكل بالكل، سواء في الثواب أو في العقاب، ففي الحديث عن النبي ﷺ: «**من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضوٍ منه عضواً من النار**»[1] هذا في الثواب.

وفي العقاب: قال النبي ﷺ: «**ويل للأعقاب من النار**»[2]؛ لأن التفريط حصل في الأعقاب، توضأ الصحابة رضي الله عنهم

---

(١) رواه البخاري، كتاب العتق، باب ما جاء في العتق وفضله، حديث رقم (٢٣٨١)، ومسلم، كتاب العتق، باب فضل العتق، حديث رقم (١٥٠٩) عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري، كتاب العلم، باب من رفع صوته بالعلم، حديث رقم (٦٠)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما، حديث رقم (٢٤١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

على عجل فكانوا يمسحون أقدامهم ولا يسبغون، فنادى عليه الصلاة والسلام: **«ويل للأعقاب من النار»**، وكذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«ما أسفل من الكعبين ففي النار»**[1]، فهنا الجزاء كان جزئياً على قدر المخالفة، وسبق أن قلنا: الحكمة في جعلهم قردة وخنازير، أن القرد أقرب ما يكون للإنسان، والحيلة التي فعلوها أقرب ما تكون للحل والإباحة ولكنها محرمة.

الفائدة الحادية عشرة: أن كل من عبد غير الله فقد عبد الطاغوت، يعني: عبد عبادة الطاغوت.

فإن قال قائل: هل يشمل هذا ما جاء في الحديث: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة»**[2]؟ قلنا: نعم، إذا جعل المال هو أكبر همه فإن هذا نوع من العبادة.

ومعنى عبد الطاغوت أي: عبد عبادة الطاغوت، يعني: الطغيان، فالطغيان يعود على العابد، ولما أنزل الله تبارك تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨ ـ ٩٩]، قال المشركون للرسول عليه الصلاة والسلام: إذاً عيسى ابن مريم في النار؛ لأنه ممن عُبِدَ من دون الله، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا

---

(١) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب ما أسفل من الكعبين فهو في النار، حديث رقم (٥٤٥٠) عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقي من فتنة المال، حديث رقم (٦٠٧١) عن أبي هريرة.

ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١] وبَيَّنَ أن تمثيلهم بعيسى ما هو إلا جدل، قال تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨].

الفائدة الثانية عشرة: أن من اتصفوا بهذه الصفات فهم شر الناس مكاناً، لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾.

الفائدة الثالثة عشرة: أن من اتصف بهذه الصفات فهو أيضاً أضل الناس سبيلاً، لقوله: ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المائدة: ٦١].

قوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ الخطاب في قوله: ﴿جَآءُوكُمْ﴾: للنبي ﷺ وأصحابه، والفاعل: منافقو اليهود، حيث إنهم يأتون النبي ﷺ فيقولون: آمنا؛ لكن بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم.

قوله: ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ﴾ (الباء) هنا قالوا: إنها للملابسة والمصاحبة، يعني: متلبسين بالكفر، ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾: أي: بالكفر متلبسين، فهم عند الدخول وعند الخروج على الكفر، حتى لو قالوا: آمنا، فإن قلوبهم لم تؤمن، لأنهم منافقون.

قوله: ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾ من قبل خرجوا بالكفر، ويخرجون إذا دخلوا عليكم بالكفر أيضاً، حتى قال بعضهم يناصح بعضاً مع المسلمين: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٢ ـ ٧٣].

قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾، أعلم منكم بما كانوا يكتمون، أي: يخفون من الكفر، واسم التفضيل هنا على بابه، وهكذا كلما جاء هذا الوصف بهذه الصيغة فهو على بابه اسم تفضيل، وقد غلط من فسره باسم الفاعل حيث قال في تفسير قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ قال: والله عليم أو عالم بما كانوا يكتمون؛ لأنه إذا قال: عليم أو عالم لم يمنع المشاركة، لكن إذا قال: أعلم، منع المشاركة، أعلم: يعني لا أحد مثله، لكن هم فروا من شيء فوقعوا في شر منه، قالوا: إذا قلت: أعلم فإن القاعدة أن اسم التفضيل يدل على اشتراك المفضل والمفضل عليه في الصفة، فنقول: نعم لا شك أن الرب عزّ وجل والمخلوق مشتركان في أصل الصفة وهي العلم فلا بد من هذا، فإثبات العلم للمخلوق جاء في القرآن، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩]، لكن الذي يمتنع أن تجعل علم المخلوق كعلم الخالق، أما أن يشتركا في أصل الصفة فهذا لا بد منه حتى الحياة، حتى القدرة، حتى السمع، حتى البصر، لا بد من الاشتراك في أصل المعنى فنقول: أنتم منعتم من أن يكون اسم التفضيل على بابه؛ خوفاً من الاشتراك في أصل المعنى، لكن إذا قلتم: عالم أو عليم سويتم بين الخالق والمخلوق؛ لأن المخلوق يطلق عليه عليم، فلهذا لا يمكن أن تجد إنساناً خرج عن مدلولات النصوص من الكتاب والسنة، إلا ووقع في شر مما حذره.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: التحذير من المنافقين؛ لأن الله لم يقص علينا قصصهم أو حالهم إلا لنحذر، لا لنعلم فقط.

الفائدة الثانية: إثبات علم الله تبارك وتعالى بما في القلوب، لقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ﴾ فإثبات العلم بما في القلوب، ثابت لله عزّ وجل.

الفائدة الثالثة: أنه ليس لنا أن نحكم إلا بما ظهر؛ لأن الله لم يخبرنا إلا لنحذر، ولو أننا بقينا على ما يبدو لنا لكان هؤلاء مؤمنين حسب ما يقولون، لكن الله أخبرنا بهذا لنحذره.

الفائدة الرابعة: تحذير المرء من أن يبطن في قلبه ما يخالف لسانه، وهذه مسألة يجب علينا أن نعالج أنفسنا منها، احذر أن تضمر في قلبك ما يخالف ما تنطق به بلسانك أو تفعله بجوارحك، يجب أن تصفي القلب أولاً، وتطهر القلب، ثم بعد ذلك تبني أعمالك على حسب هذه التصفية.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: ٦٢ ـ ٦٣].

قوله: ﴿وَتَرَىٰ﴾ الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام، والظاهر أن المراد بالرؤية هنا: البصرية، ويجوز أن تكون علمية، ويكون قوله: ﴿كَثِيرًا﴾ مفعولاً أولاً، و«يسارعون»: مفعولاً ثانياً.

وقوله: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء الذين يأتون إليكم، ويقولون: إنهم مؤمنون؛ ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ﴾ يعني: يتسابقون إليه أيهم أسرع، والإثم فيما يتعلق بحق الله عزّ وجل، والعدوان فيما يتعلق بحق الآدمي.

ومنهم من فسر الإثم: بالكذب، والعدوان: بالظلم، ولكنا إذا قلنا: الإثم فيما يتعلق بحق الله، والعدوان فيما يتعلق بحق الآدمي كان أعم وأشمل.

قوله: ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ يعني: يسارعون في أكلهم السحت، يتسابقون إليه، السحت: كل كسب محرم، فيدخل في ذلك الربا ويدخل في ذلك الرشوة، ويدخل في ذلك الغش، وكل كسب محرم فهو داخل في لفظ السحت، ووصف بهذا الوصف المنفر لوجهين:

الوجه الأول: أنه لا بركة فيه.

الوجه الثاني: أنه سبب لسحت المال الموجود، فهو شر في نفسه شر في غيره، ولذلك إذا دخل الحرام على الإنسان؛ نزعت البركة من ماله واشتد طلبه للمال، يعني: يبتلى بالشح.

قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ «اللام» هذه في جواب القسم والتقدير: والله لبئس ما كانوا يعملون، و«بئس»: تعمل على أن ما بعدها فاعل، والمخصوص: محذوف، والفاعل هو الذي قام بالفعل، والمخصوص يكون مبتدأ، والفاعل يكون ضمن الجملة، فمثلاً إذا قلت: نعم الرجل زيد، أو بئس الرجل زيد، المخصوص زيد والفاعل الرجل، ولهذا نعرب (زيد) مبتدأ مؤخر، و(نِعْمَ الرجل) الجملة خبر مقدم، وفي الآية تكون «ما» فاعل والتقدير لبئس الذي يعملون، أي: لبئس ما كانوا يعملون عملهم، وإن شئت فاجعلها مصدرية ويكون الفاعل المصدر، والتقدير لبئس عملهم، والحاصل أن عملهم مذموم يصدق عليه هذا الوصف بئس ما كانوا يعملون، والذي عملوا المسارعة في الإثم

والمسارعة في العدوان وأكل السحت، وهذه الأمور الثلاثة مستحقة للذم.

قوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ ﴿لَوْلَا﴾ بمعنى: هلا، فهي أداة تحضيض، ومَثَلُها مَثَلُ قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور: ١٣] أي: هلّا جاءوا.

قوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ الربانيون: المربون، والأحبار: العلماء الكبار، جمع حَبر أو حِبر، يقال: حَبْر وحِبر، وهو موافق في الاشتقاق مع البحر، فالباء والحاء والراء في البحر وفي: الحبر، ولهذا لا يطلق الحبر إلا على العالم الواسع العلم، والربانيون: هم المربون سواء كانوا علماء كباراً أو غير علماء، والأحبار: هم العلماء الكبار كما تقدم.

قوله: ﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ يعني أن الله عزّ وجل حض الربانيين والأحبار على نهي هؤلاء عن قولهم الإثم وأكلهم السحت، فما هو الإثم الذي يقولونه؟ أعظمه وأشده أنهم ينكرون رسالة النبي ﷺ، وأعظم من ذلك أنهم يقولون: إن عزيراً ابن الله، والمسيح ابن الله، والقائل: عزير ابن الله اليهود، والقائل: المسيح ابن الله النصارى؛ هذا قول الإثم، كذلك يقولون الكذب، كما سبق أنهم يقولون لعوامهم قولاً يكذبون به الرسول، ويستمعون للكذب.

وقوله: ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ يعني: أكل المال المحرم، سواء بالرشوة أو بالربا، أو غير ذلك.

وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ يقال في إعرابها ما قيل في الجملة التي قبلها، لكن الفاعل في يصنعون هنا ليس عائداً

على ما تعود عليه الواو في يعملون الأولى؛ لأن الواو هنا عائدة إلى الربانيين والأحبار.

وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ الصنع والفعل بينهما خصوص وعموم مطلق؛ لأن الصنع إنما يكون فعلاً بترتيب وإعداد للقول أو للفعل بخلاف الفعل المجرد، فالفعل يطلق على كل فعل سواء كان عن قصد أو عن غير قصد، حتى البهيمة لو أكلت قلنا: إنها فعلت، لكن الصنع لا يكون إلا بتدبير وتنسيق وإصلاح، وذلك أن هؤلاء الربانيين والأحبار يصنعون ما يصنعون من كتمان الحق وعدم الأمر به؛ يريدون أن يبقوا وجهاء في قومهم؛ لأن الشيطان يقول لهم: إن نهيتموهم صرتم أعداء لهم ولم تحصل لكم الرئاسة، فلذلك تجدهم يعملون هذا العمل عن ترتيب وعن سياسة كما يقولون.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: أن من أوصاف هؤلاء اليهود أنهم يسارعون في هذه الأمور الثلاثة: الإثم والعدوان وأكل السحت.

الفائدة الثانية: أن من سارع في الإثم والعدوان وأكل السحت؛ ففيه شبه من اليهود.

الفائدة الثالثة: أن هذا العمل عمل مذموم يستحق فاعله أن يذم، لقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

الفائدة الرابعة: تحريم قول الإثم وتحريم العدوان وتحريم أكل السحت؛ لأن الله تعالى ذم هذا العمل وقدح فيه.

فإن قال قائل: الآية الكريمة عبرت بالأكل، أرأيت لو كانوا لا يأكلون السحت؛ لكن يستعملونه في اللباس والفرش والمساكن والنكاح، فهل يدخل في أكلهم السحت؟

الجواب: نعم لا شك، لكنه عبر بالأكل؛ لأنه هو الغالب؛ ولأن أعلى ما يمكن أن ينتفع به الإنسان بالمال هو الأكل؛ لأنه يغذي البدن، لكن اللباس لا يغذي البدن، صحيح أنه يقي البدن كذلك المساكن والنكاح، لكن الذي يغذي البدن وينميه هو الأكل، فعبر به لهذا الوجه.

الفائدة الخامسة: التحذير من الكسب المحرم، وجهه أن الله سماه سحتاً، فاحذر أن تخسر الدنيا والآخرة بأكل المحرم.

الفائدة السادسة: أنه لا حرج أن نذم الأفعال المكروهة بقطع النظر عن فاعليها، لقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

الفائدة السابعة: عظم مسؤولية المربين والعلماء لقوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ فجعل الله اللوم على الربانيين والأحبار؛ لأنهم لم يقوموا بما أوجب الله عليهم من نهي هؤلاء عن قولهم الإثم وأكلهم السحت.

الفائدة الثامنة: أن الواجب على العلماء والمربين النهي عن المحرم، لكن هل عليهم أن يهدوا الناس؟

الجواب: لا؛ لقول الله تبارك وتعالى للنبي ﷺ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ولقول الله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢٢]، ولقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، فالإنسان إذا نهى أبرأ ذمته سواء امتثل من نهاه أم لم يمتثل.

الفائدة التاسعة: سوء صَنْعِ هؤلاء العلماء والربانيين لقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

الفائدة العاشرة: أنه يجب على العلماء أن يبينوا الحق بقطع النظر عن مكانتهم الشخصية، حتى لو فرض أنهم أهينوا أو أذلوا بسبب ذلك فالعاقبة لهم، قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩].

لو قال قائل: متى يجب على الإنسان أن ينكر المنكر، هل إذا غلب على ظنه الإصلاح أم ماذا، ثم إنه قد يواجه بالاستهزاء؟

الجواب: الواجب إنكار المنكر سواء غلب على ظنه ـ يفعل ـ أو لم يغلب على ظنه، لكن بشروط معروفة، لكن إذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدون حكمة فهذا الأمر لا تقام به حجة، بل فعله منكر يجب أن ينكر، ومسألة الاستهزاء فلا بد من هذا في الغالب، ولكن نقول: هل يحصل أذى ولا أقصد الأذى النفسي بل الأذى الجسمي، فإن لم يحصل يصبر الإنسان ويحتسب، ورب كلمة سمعها واحد من هؤلاء فتنفعه، ولكن لا يشترط الإعلان في الأمر، بل يستطيع أن يمسك الرؤساء خاصة من هؤلاء القوم، يتكلم معهم بهدوء ويبين لهم، والرؤساء إذا وفقت لهدايتهم اهتدى بهدايتهم كثير من الناس.

لو قال قائل: الإنسان أحياناً يجد في نفسه وإن كان صالحاً في نفسه إلا أنه لا يجد عنده القوة والقدرة على الإصلاح فيحس بالرهبة فكيف تزول هذه الصفة؟

الجواب: الحمد لله هذه الرهبة تزول إذا قرأت قول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وعرفت أنك قمت بما استطعت، فأنت إذا قمت بما استطعت كأنما قمت بالكمال

كله؛ لأنك ممتثل لأمر الله ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، لكن الذي يدخل على الإنسان في هذه المسألة هو التأويل أحياناً، إذ يقول لنفسه: المقام هنا ليس مقام تذكير أو أمر أو نهي؛ لعلي أتكلم في مكان آخر أو ما أشبه ذلك، هذا اجتهاد، والإنسان مأجور عليه إما أجران وإما أجر واحد، وأما أن يكلف الإنسان نفسه وأن يريد من الناس أن يصلحوا على يديه، هذا مستحيل، بل قال الله عزّ وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ [هود: ١٢] وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣] وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦] أما إذا كانت هذه الحال صفة دائمة فليحاول أن يعالجها فلا يكون جباناً ولا يكون ثقيلاً على الناس أيضاً، والإنسان الذي يسأل الله دائماً التوفيق والحكمة والسداد ييسر لذلك.

لكن لو قال قائل: أحياناً تجد شخصاً على معصية ومن شكله تعرف أنه لن يقبل فما العمل؟

الجواب: ما أكثر هذا وما أكثر انتفاعهم من الناس، تجد الواحد منهم ليس على شكله سيما أهل الخير، هذا صحيح، وتظن أنه كذلك، لكن تجد نفسه لينة وهذا مجرب، فقد يكون حليق اللحية مسبل الثوب ووجهه ليس بوجه خير، لكن سبحان الله تجد قلبه ليناً، أقل ما يقول لك إذا لم تأته بعنف يقول: جزاك الله خيراً وأسأل الله الهداية وهذا مجرب، خذ بيده لكن بسهولة وتنحى به عن الطريق قليلاً تجد فيه خيراً كثيراً، لكن بلاؤنا من

أنفسنا إذا رأينا الرجل مخالف يغار الإنسان ولا يتحمل ثم يبتدئ يتكلم بكلام ينفر صاحبه.

لو قال قائل: أحياناً يجلس الإنسان مع العاصي ولا يستطيع نصحه، وأيضاً قد لا تتوفر الفرصة لنصحه مرة أخرى، فماذا يصنع في هذه الحال؟

الجواب: إذا كان لا يمكنه اللقاء به إلا في هذه الجلسة فربما يسمح له في نصحه، وأما إذا كان لا يمكنه نصحه فليقم عن المعصية ولينصحه في وقت آخر.

لكن لو قيل: قيامه يحدث مفسدة، لا سيما إن كان جلوسه مع الأقارب يعني كونه يقوم من مجلس الضيوف؟

نقول يستطيع الإنسان أن يقوم مُوَرِّياً إما أن يضع يده على أنفه كأنه حصل له رعاف وإما أن يقوم ويضع يده على رأسه كأن رأسه به وجع.

لو قال قائل: في بعض الأحيان يكون الإنسان في سيارة ومعه قوم لا يريدون النصيحة، فهل ينصحهم أم ماذا؟

الجواب: راكب السيارة لا يصح بمجرد ركوبه السيارة يقول: بسم الله الرحمٰن الرحيم ثم يأتي بمواعظ لن يحتملوا هذا، لكن يستطيع أن يدخل إلى عقولهم بأشياء، إما قصصاً ولتكن قصصاً مضحكة أو مسائل علمية غريبة يلقيها عليهم حتى تتهيأ أذهانهم لهذا، وإلا فمن المعلوم أن الواحد إذا جلس مجلساً فقال: بسم الله الرحمٰن الرحيم، ثم يعظهم سيستثقلون هذا، ولكل مقام له مقال.

لو قال قائل: أحياناً يجلس الإنسان مع جماعة يكونون على منكر فلو أنه قام مباشرة لم ينكر هذا المنكر، وأيضاً لا يستطيع

أن ينكر عليهم مباشرة، فهل يجلس معهم لكي يستطيع إنكار هذا المنكر أم ماذا؟

الجواب: لا بأس كالطبيب يشق الجرح ويشم رائحة كريهة من أجل إصلاحه، ولأحد العلماء تأثير بالغ في بعض جهات المملكة، كان يدخل معهم في منكرهم ويحتفل معهم في احتفالاتهم.

لو قال قائل: إنسان رأى رجلاً مع امرأة في سيارته، وليست المرأة من محارمه، ويستطيع منعها بدون فتنة، هل له منعها أو لا؟

الجواب: والله لا أدري، أتوقف في هذا، إذا كان لا يحدث فتنة وهو قادر على المنع فأنا أتوقف فيه، لو فرضنا هذه المسألة وقعت وهذا الرجل يمكنه أن يوقف السيارة ويقول: يا فلان! أنزل هذه المرأة، مَنْ هذه المرأة؟ فإن حصلت لواحد من الناس الذين نريد أن نُغَيِّرَ عليهم قد لا تحصل للآخرين، فنتوقف من أجل أن نخشى أن العواقب قد تكون وخيمة من أناس آخرين.

لو قال قائل: إذا غلب على ظن إنسان بأن فلاناً سوف يرتكب المنكر الفلاني وأخذ يتغيب هذا الذي يريد أن يرتكب المنكر، فهل لهذا الغالب على ظنه أن يتتبع وينظر هل سيفعل هذا المنكر أم لا، وذلك لكي ينكر عليه؟

الجواب: يعني: هل لنا أن نبحث ونتجسس عن المنكر؟ القاعدة العامة: إذا وجدت قرائن فلا بأس، وإن لم توجد قرائن فالأصل البراءة.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤].

قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ اليهود: هم الذين يَدَّعون أنهم أتباع موسى عليه الصلاة والسلام وسموا بذلك؛ قيل: إنه من قوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي: من الَهْودِ وهو الرجوع، وقيل: إنه نسبة إلى أبيهم يهوذا، ولكنها عربت فصارت يهودا، وأياً كان فالمراد به: من ينتسبون إلى موسى عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أولاً: قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ ولم يقولوا: «يدا» بالألف؛ لأنهم يريدون أن ينقصوا صفة الله عزّ وجل في ذاتها وفي تصرفاتها، أما في ذاتها فمعلوم أن ذا اليدين أكمل من ذي اليد الواحدة، وأما في تصرفاتها فقولهم إنها: ﴿مَغْلُولَةٌ﴾ أي: محبوسة عن الإنفاق، وذلك أن اليد إما أن تكون مغلولة مضمومة إلى العنق، بحيث لا تنبسط حتى تعطي، وإما أن تكون مبسوطة تعطي، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي: محبوسة عن الإنفاق، كما قالوا أيضاً في وصف آخر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١]، فوصفوا الله مرة بالبخل ومرة بالفقر، عليهم لعنة الله إلى يوم القيامة؛ لأنهم أهل مال وأهل طمع ويريدون أن يغدق الله عليهم

المال على حسب ما يريدون، فإذا لم يكن المال على حسب ما يريدون قالوا: هذا بخل من الله أو فقر منه.

قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فغلت أيديهم: وهذا خبر وليس دعاءً؛ لأنه صادر من عند الله عزّ وجل، والله سبحانه وتعالىٰ يخبر ولا يدعو، هذا هو الأصل، أن ما أخبر الله به عن نفسه فهو خبر عن نفسه ووقوع ـ أي: وقوع الشيء ـ إلا إن دل دليل ربما يكون دليل على أن الله جلَّ وعلا عَلَّمَ العباد أن يدعوا، وأما أن يسأل نفسه أن يفعل فلا يرد.

الحاصل أن الله أخبر أن أيديهم غُلت، أي: حبست عن الإنفاق، ولهذا نقول: إن أشد الناس بخلاً هم اليهود من جميع الأمم، ولا يمكن لليهودي أن يبذل ديناراً، إلا وهو يريد أن يعود عليه الدينار بدينارين، أو فلساً إلا وهو يريد أن يعود عليه بفلسين، لا تفكر في غير هذا؛ لأنهم قد غلت أيديهم.

قوله: ﴿وَلُعِنُوا﴾ أي: طردوا عن رحمة الله وأبعدوا عنها؛ بسبب هذا القول ولهذا قال: ﴿بِمَا قَالُوا﴾ و«الباء» هنا: واضح جداً أنها للسببية، وأما: «ما» فيحتمل أن تكون مصدرية، ويحتمل أن تكون موصولة، فإن كانت مصدرية فالتقدير: ولعنوا بقولهم، وإن كانت موصولة فالتقدير: ولعنوا بما قالوه، ولو جاء الضمير قالوه لتعين أن تكون اسماً موصولاً لكنه حذف.

على كل حال سواء جعلناها مصدرية أو موصولة؛ فإنها تفيد أن هذه هي العقوبة التي حلت بهم بسبب قولهم.

قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ «بل» هنا: للإضراب الإبطالي، ليبطل قولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ فقال: بل يداه ولم يقل: يده؛ لأن

له يدين اثنتين عزّ وجل، مبسوطتان: يعني غير مقبوضتين فضلاً عن أن تكونا مغلولتين.

قوله: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ﴿يُنفِقُ﴾ يعني: يعطي المال، ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي: على أي كيفية شاء، إن شاء بسط وإن شاء قدر، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦] فقد يعطي وقد يمنع على حسب ما تقتضيه الحكمة، وليس على حسب ما يريده الإنسان، ولهذا قد يريد الإنسان كسباً كثيراً بعمل من الأعمال ولكنه يخذل، وقد يعمل عملاً يسيراً لا يظن أنه يكسب به كثيراً ويكسب به شيئاً كثيراً.

قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ «زاد» هنا: ينصب مفعولين، ليس أصلهما المبتدأ والخبر، المفعول الأول: «كثيراً»، والثاني: «طغياناً»، وأما قوله: ﴿مَّآ أُنزِلَ﴾ فـ«ما» هنا: فاعل، يعني: أن ما أنزل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام يزيد كثيراً منهم ـ وليس كلهم ـ طغياناً على عباد الله وفي حق الله، وكفراً بالله عزّ وجل. و«اللام» في قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾ واقعة في جواب القسم، وعليه فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر تقديره: ﴿وَٱللَّهُ﴾، واللام، ونون التوكيد، وإنما أكد الله ذلك لأهميته ولئلا ينكر منكر أن يكون النازل شفاءً لما في الصدور ـ وهو القرآن ـ يزيد هؤلاء طغياناً وكفراً، لكن لا تعجب.

إذاً ﴿طُغْيَٰنًا﴾: في حق الله وحق عباده، ﴿وَكُفْرًا﴾ أي: بما أنزل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، فلن ينتفعوا بما أنزل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.

قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ يحتمل أن تكون «الواو» استئنافية، وأن تكون معطوفة على قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ومعنى قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ﴾، أي: وضعناها بينهم، أي: العداوة والبغضاء، والبغضاء مؤنثة، والبغض مذكر، وهما بمعنى واحد، والعدو: ضد الولي، والبغيض: ضد الحبيب، أي: أن الله سبحانه وتعالىٰ ألقى بينهم البغضاء في القلوب والمعاداة في الأبدان والأقوال، فلا أحد ينصر أحداً ولا أحد يوالي أحداً ولا أحد يحب أحداً، بينهم العداوة والبغضاء، إلى يوم القيامة، يعني: إلى آخر الدنيا، واليهود بعضهم عدو لبعض، وبعضهم بغيض لبعض؛ لأن الله تعالى أخبر بأنه ألقى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وخبره حق ووعده صدق.

قوله: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ «كلما» هذه شرطية، فعل الشرط فيها: «أوقدوا»، **والجواب**: «أطفأها الله»، أي: كلما أرادوا الحرب وأوقدوا نارها، فإن الله يطفئها، ولن تقوم لهم قائمة بل هم مخذولون، ويدل لهذا قول الله تعالى في آية أخرى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢].

قال العلماء: الحبل من الله: الإسلام، والحبل من الناس: العهد والميثاق، وقيل: الحبل من الناس: المساعدة والسبب الذي يَعِزُون به؛ لأن الحبل يطلق على السبب كما في قول الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] أي: بدينه الذي هو سبب للسعادة.

إذاً: نقول: إن الله سبحانه وتعالىٰ بيَّن أن هؤلاء اليهود كلما

أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، أي: لم ينالوا بها مرادهم، وليس المعنى أن الحرب لم تقم، بل تقوم الحرب وقد قامت بينهم وبين المسلمين في عدة وقائع لكن النتيجة: أن الله يطفئها ولا يحقق لهم ما يريدون من أكل هذه النار لعدوهم.

قوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ «يسعون» أي: يلقون فيها الفساد، وعبر بالسعي إشارة إلى مسارعتهم في هذا، ولهذا كان اليهود أفسد أهل الأرض في الأرض لما لهم من الوقائع، ومن أراد أن يطلع على شيء في ذلك فليراجع كتاب: «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» لابن القيم رحمه الله.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لم يقل: ولا يحبهم؛ لإرادة العموم وبيان العلة، فمثلاً: لا يحب المفسدين من اليهود وغير اليهود، أيضاً تفيد أن الله لا يحب هؤلاء لأنهم مفسدون، وهذا أعم، فكل مفسد فإن الله لا يحبه.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان عدوان اليهود وأنهم يصرحون بالعدوان والاعتداء، حتى في حق الخالق عزّ وجل، لقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾.

الفائدة الثانية: أن اليهود يقرون بصفات الله عزّ وجل الحقيقية؛ لأنه لا يقال: يد أحد مغلولة إلا لمن له يد، فيكون إقرار اليهود بالصفات الخبرية أحسن من إنكارهم، وإن كان اليهود ليس لهم دين لكن يجب أن يقبل الحق من أي إنسان.

الفائدة الثالثة: الإشارة إلى حرص اليهود على المال، وجه الدلالة: أنهم لم يحملهم على هذا القول إلا الجشع والطمع.

الفائدة الرابعة: تنزيه الله سبحانه وتعالىٰ عن البخل، ووجه ذلك: أن الله عاقبهم على هذه المقالة، ولا يعاقب تبارك وتعالى إلا على شيء محرم.

الفائدة الخامسة: الإشارة إلى بخل اليهود، لقولهم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾، وقد سبق أن هذا خبر وليس دعاء.

الفائدة السادسة: أن اليهود ابتلوا بهذين الأمرين: البخل واللعنة، فهم أبعد الناس عن رحمة الله، أو من أبعد الناس عن رحمة الله، لقوله: ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ ولم يبين الله عزّ وجل من اللاعن لإفادة العموم، أن الله يلعنهم ويلعنهم اللاعنون أيضاً، وهذا كقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بعد قوله: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] ولم يقل: غير الذين غضبت عليهم لإفادة العموم، وأن هؤلاء مغضوب عليهم من قبل الله ومن قبل أولياء الله.

الفائدة السابعة: إثبات الأسباب، لقوله: ﴿بِمَا قَالُوا﴾ يعني: إن الله سبحانه وتعالىٰ لم يغل أيديهم ويلعنهم إلا بسبب قولهم، والأسباب نوعان: حسية وشرعية وكلاهما ثابت، من الأسباب الشرعية: أن العمل الصالح سبب لدخول الجنة، والكفر سبب لدخول النار.

من الأسباب الحسية: ما نجده في الكون كون النار محرقة، والصقيع مجمد للماء والأكل سبب للشبع، وما أشبه ذلك، هذه أسباب حسية، ولا تحصى أفرادها.

وهل الأسباب مؤثرة بنفسها؟

الجواب: لا، لكنها مؤثرة بإرادة الله عزّ وجل بما أودع فيها من القوى المؤثرة، وهذا القول هو الذي تدل عليه دلالات

الكتاب والسنة والعقل، وأما من قال: إنه لا تأثير لها؛ فقد قال قولاً يضحك منه السفهاء، ومن قال: إنها مؤثرة بطبيعتها؛ فقد قال: قولاً منكراً.

أما الأول: الذي يقول: إنها لا تؤثر؛ فهذا قال قولاً يضحك منه السفهاء، فيكون إذا أكل الإنسان وهو جائع ثم شبع؛ فليس سبب شبعه الأكل، لكن حصل الشبع عند الأكل وإلا فإن الأكل لم يشبعه، وإذا وضعت ورقة في النار واحترقت فالنار لم تحرقها، إنما احترقت عند النار ـ سبحان الله ـ! ولو ضربت زجاجة بحجر وانكسرت فالحجر لم يكسرها، انكسرت عنده لا به، هذا شيء أدنى صبي يعرف أنه غلط، والذين قالوا: إنها مؤثرة بطبيعتها أيضاً أشركوا بالله، أثبتوا خالقاً مع الله، وهؤلاء نرد عليهم بأن الله تعالى خالق كل شيء، وبأن الله تعالى قد يغير حقائق هذه الأشياء، ومن ذلك أن الله سبحانه وتعالىٰ قال للنار التي أضرمت وكانت سعيراً عظيماً ليلقى فيها إبراهيم وألقي فيها، قال الله لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم، فهذا يدل على أن الأسباب لا تؤثر بذاتها إنما تؤثر بما أودع الله فيها من القوى، وإلا فقد يوجد موانع، بل حتى الأسباب الشرعية قد يوجد لها موانع، فمثلاً سبب الإرث: القرابة، وإذا كان قريباً مخالفاً لقريبه في الدين لم يرث منه.

فالمهم أن نقول: من أثبت أن الأسباب تؤثر بذاتها فهو مشرك، ومن نفى تأثيرها مطلقاً فهو سفيه، بقي أن نقول: تؤثر بما أودع الله فيها من القوى المؤثرة التي قد تتخلف بإرادة الله ومشيئته.

الفائدة الثامنة: أن الجزاء من جنس العمل، لقوله: ﴿بِمَا قَالُوا۟﴾ فإن قوله: ﴿بِمَا قَالُوا۟﴾ يفيد فحوى الخطاب وقوة الخطاب، أنهم إنما عوقبوا بمثل ما فعلوا.

الفائدة التاسعة: إثبات اليدين لله عزّ وجل، لقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾.

الفائدة العاشرة: أنهما اثنتان لا زيادة فيهما ولا نقص فيهما؛ لأن المحصور بعدد يتعين أن لا يزيد عنه ولا ينقص، فمثلاً قولك عندي له دراهم يحتمل ثلاثة وعشرة ومائة وألف، لكن عندي له ثلاثة دراهم لا يحتمل زيادة ولا نقص، فكل شيء محصور بعدد فإنه يقتضي ألّا يزيد عنه ولا ينقص.

إذاً: الله عزّ وجل له يدان اثنتان، وهذا ما أجمع عليه السلف لدلالة القرآن والسنة عليه.

لكن لو قال قائل: قولكم: كل شيء محصور بعدد فإنه يقتضي ألا يزيد عنه ولا ينقص، يشكل عليه قوله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله**»[1] وقوله ﷺ: «**ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**»[2] قد وردت في عدة أوصاف أكثر من الثلاثة؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، فضل المساجد، حديث رقم (٦٢٩)، ومسلم، كتاب الزكاة، فضل الصدقة، حديث رقم (١٠٣١) عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري، كتاب المساقاة، باب إثم من منع ابن السبيل من الماء، حديث رقم (٢٢٣٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب في بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، حديث رقم (١٠٧) عن أبي هريرة.

الجواب: لولا الأدلة وورود أحاديث لاقتصرنا على هذا العدد ولقلنا: ليس هناك أحد إلا هؤلاء السبعة، ثم إن العدد في قوله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله**» هذا في باب حصر الأوصاف لا الأعيان.

فإن قال قائل: ألم يقل الله عزّ وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ [يس: ٧١]، ألم يقل الله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

الجواب: بلى، لكن الجواب أن الآية الأولى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ لا يراد بها اليد الحقيقية، بل المراد مما عملت أيدينا، أي: مما عملنا، لكن العرب يطلقون اليد على الفاعل، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، ومعلوم أن كسبنا لا يختص باليد، بل يكون باليد وبالرجل واللسان والعين والأنف والفرج والقلب، لكن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، فالتعبيرات الموجودة في كلام العرب تكون في القرآن، ولذلك لو أن المراد باليد هنا حقيقة اليد دون الفاعل؛ لكانت الإبل أشرف منا؛ لأننا نحن خلقنا بالكلمة إلا آدم خلقه الله بيده، والإبل على تقدير أن المراد عملها الله تعالى بيده خلقت باليد.

أما المفرد: فلا ينافي التعدد؛ لأن من القواعد المعروفة أن المفرد المضاف يعم ما يقتضيه مدلوله، فمثلاً لو قال رجل: امرأتي طالق، وعنده امرأتان؛ طلقت المرأتان إلا إذا أراد واحدة، ولو قال: عبدي حر وعنده أعبد؛ عتق الأعبد كلهم إلا بنيَّة، فعليه نقول: المفرد لا ينافي التثنية لأن المضاف يعم،

والجمع لا ينافي التثنية؛ لأنه ليس المراد به حقيقة اليد بل المراد بها الذات، يعني: مما عمله الله عزّ وجل، ولكن جمعت في قوله: ﴿بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢] للتناسب بين المضاف والمضاف إليه، فإن «نا» موضوعاً للجمع أو للتعظيم فجمعت الأيدي، تعظيماً لها وتكريماً لها ولمراعاة المضاف إليه، بحيث يتناسب الكلام بعضه مع بعض، المهم أن يثبت أن لله يَدَيْن.

وهنا أسئلة، هل هما حقيقيتان أو لا؟

الجواب: نعم، هما يدان حقيقتان، ومن فسرهما بقوة فقد قال على الله ما لا يعلم، بل ما دل النص على خلافه، ولذلك نقول: كل محرف للنص عن ظاهره فقد ارتكب خطأين: **الأول**: صرفه عن ظاهره المراد به، **والثاني**: إثبات معنىً لم يراد به، إذاً: المراد اليدان الحقيقيتان.

السؤال الثاني: هل هاتان اليدان تماثلان أيدي المخلوقين؟

الجواب: لا، لا يمكن؛ لأن كل صفة ظاهرها التمثيل، وأقول: ظاهرها باعتبار الظاهر السطحي، فإنه مردود لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

السؤال الثالث: هل اليد هذه تأخذ وتقبض وتهز أو لا؟

الجواب: نعم؛ لأن ذلك وردت به السنة، بل ورد في القرآن: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

هل هاتان اليدان توصفان بأنهما يمين وشمال؟

الجواب: في هذا قولان للسلف: منهم من قال: لا،

وأنكر لفظ الشمال الوارد في صحيح مسلم[١]، ومنهم من قال: بلى، وكل منهما له شبهة، لكن الصواب أنها تثبت، وأن معنى قول النبي ﷺ: «**اخترت يمين ربي وكلتا يديه يمين**»[٢] يعني: اليُمن والبركة والتساوي؛ لأن المخلوق الذي له يمين وشمال، تختلف اليمين والشمال، تختلف في القوة حتى في القوة الجسمية تختلف، لكن يدا الله عزّ وجل وأريد التثنية لا تختلف، كلتاهما يمين وهذا هو الصحيح، أننا نثبت الشمال لله لكن لا على أنها ناقصة عن اليمين بل كلتاهما يمين.

الفائدة الحادية عشرة: كثرة عطاء الله وجوده، لقوله: ﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾ لا يمكن أن تقبضا بالنسبة للعطاء ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**يد الله ملأى سحّاء الليل والنهار**» «ملأى» يعني: مملوءة من الخير والجود والبركة، «سحّاء»: كثيرة العطاء، «الليل والنهار»: ظرف يعني: يعطي ليلاً ونهاراً «**لا يغيضها نفقة**»، يعني: ولا ينقصها ما أنفق وأعطى عزّ وجل، ثم ضرب مثلاً فقال: «**أرأيتم ما أنفق منذ خلق السمٰوات والأرض؟**».

---

(١) رواه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب، حديث رقم (٢٧٨٨) عن ابن عمر:

قال: قال رسول الله ﷺ: «**يطوي الله عزّ وجل السمٰوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرض بشماله ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟**».

(٢) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب (٩٤)، حديث رقم (٣٣٦٨)، وابن حبان (١٤/ ٤٠) (٦١٦٧)، والحاكم (١/ ١٣٢) (٢١٤) عن أبي هريرة.

الجواب: نعم رأينا لكن لا نحصيه، «**فإنه لم يغض ما في يمينه**»[١] أي: لم ينقص ما في يمينه تبارك وتعالى، إذاً: يد الله مبسوطة ملأى سحّاء الليل والنهار.

الفائدة الثانية عشرة: أن عطاء الله ومنعه تابع لمشيئته، لقوله: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ فهذا يعطيه أموالاً كثيرة، وهذا يعطيه صحة كبيرة وعقلاً كبيراً، وهذا بالعكس، وهذا وسط، فجميع ما ينفقه الله عزّ وجل من العطاء المعنوي والعطاء الحسي يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ.

ويجب أن يكون لديك قاعدة: أن كل شيء قرنه الله بمشيئة فإنه مقيد بالحكمة، يعني: ليست مشيئة مجردة كما ذهب إليه بعض الجهمية الذين يقولون: إن الله يفعل الشيء لمجرد المشيئة وليس لحكمة؛ لأنه لا يسأل عما يفعل، فلا يقال: ما حكمة كذا؟ ولماذا فعل كذا؟

بل نقول: إن كل شيء مقيد بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة، والدليل ما لا يحصى مما وصف الله به نفسه بأنه حكيم وأنه أحكم الحاكمين، ومعلوم أن الحكيم لا يصدر عنه فعل إلا لحكمة.

ثانياً: أن الله قال: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٢٩ - ٣٠]. ففي هذا إشارة إلى أن مشيئته تابعة لحكمته.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] (٧٤١١) عن أبي هريرة.

وعلى هذا إذا وقع شيء في الدنيا من الحوادث الأرضية والسماوية واستنكرته وقلت: لِم يقع؟ فهنا يجب أن تقول لذهنك الذي فرض هذا السؤال، أن تقول: لحكمة، لكن لا يلزم أن نحيط بحِكم الله عزّ وجل، كما أن جميع صفاته لا نحيط بها فكذلك حكمته، قد تكون هناك حكمة خفية ما تعلم إلا بعد زمان، لكن يجب عليك أيها المؤمن أن تؤمن بأن كل شيء فعله الله عزّ وجل فإنه لحكمة، لا يمكن أن يكون لعباً ولا لهواً، فاعرف هذا، إذا عرفت هذا وعرفت أن مشيئته مقرونة بالحكمة، فلا تقل: لماذا كان هذا السيد في قومه فقيراً، ولا لماذا كان لكع بن لكع غنياً؟! لا تقل هذا: لماذا؟ لأننا نعلم أن هذا العطاء أو هذا المنع من الله عزّ وجل وأنه مقرون بالحكمة.

لو قال قائل: بعض أهل العلم يقول: إن الحكمة يكشفها الله سبحانه وتعالىٰ للناس يوم القيامة، فهل هذا القول صحيح، وهل عليه دليل؟

الجواب: والله لا أدري هل تؤخذ من أن الله بَيَّن أنه يوم القيامة يبين للناس ما ذكروا به فالله أعلم، لكن من حكمة الله عزّ وجل أنه جعل بعض الحِكم خفية لأنه لا تتحقق عبودية الإنسان إلا إذا انقاد لما ظهرت حكمته وما لم تظهر، لكن لو كان كل شيء بَيِّن لكان الأمر واضحاً، فإخفاء بعض الحكم لا شك أنه من حكمة الله عزّ وجل، ولذلك تمام الانقياد أن نقول: سمعنا وأطعنا، ولا نسأل.

وهنا أنبه على مسألة ربما كانت غائبة على كثير من الناس وهي أنه إذا قيل: أمر الله بكذا أو أمر الرسول بكذا، قال: هل

الأمر للاستحباب أم للوجوب؟ هذا ليس بصواب، كمال العبودية أن تقول: سمعنا وأطعنا، وتفعل، نعم إذا تورطت في الأمر وخالفت المأمور أو فعلت المحظور حينئذٍ لا بأس أن تسأل لأجل إذا كان على سبيل الوجوب تستعتب، وإذا كان النهي على سبيل التحريم تستعتب أيضاً، وأنا أعتقد أنه ليس من تمام العبودية أنك إذا أمرت تقول: هل أنا ملزم أو غير ملزم؟ الآن ولله المثل الأعلى، لو قال لك أبوك مثلاً: يا فلان، اذهب اشترِ كذا هل يستقيم أن تقول: ملزم أو غير ملزم؟ لا يستقيم، ولذلك الصحابة أنفسهم رضي الله عنهم لا أعلم الآن أن أحداً منهم إذا أمر الرسول بشيء قال: يا رسول الله أعلى سبيل الوجوب أو على سبيل الاستحباب؟ أنا لا أعلم، وإنما يستفصلون أحياناً والاستفصال في موضع الإجمال حق، القلم لما أمره رب العرش وقال له: اكتب، قال له: ماذا أكتب؟[1].

لو قال قائل: لماذا نقف على قوله: ﴿وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ حيث إنه توجد علامة وقف لازم بالمصحف؟

الجواب: وجه ذلك أن الأول خبر عما كان لليهود، والثاني: خبر عن صفات الله تبارك وتعالى، ولذلك قرن بـ«بل».

الفائدة الثالثة عشرة: أن من الناس من لا تزيده الآيات إلا طغياناً وكفراً، لقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ ولا تعجب فقد ذكر الله في القرآن في آخر سورة

---

(١) رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، حديث رقم (٤٧٠٠)، والترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء في الرضا بالقضاء، حديث رقم (٢١٥٥)، وأحمد (٥/ ٣١٧) (٢٢٧٥٩) عن عبادة بن الصامت.

التوبة أنه إذا نزل انقسم الناس في قسمين: قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥]، فلا تعجب أن يكون شيء واحد لقوم دواء ولقوم داء، فإن هذا كما هو في المعقولات هو أيضاً في المحسوسات، أرأيت المصاب بمرض يمنعه الأطباء مثلاً من أكل التمر، إذا أكله مرض، وآخر إذا أكله صح مع أن التمر واحد، الدهن بعض الناس يؤمر بالإكثار منه، وبعض الناس ينهى عنه وأشياء كثيرة، فلا تعجب إذا كان في المعقولات ما يزيد أقواماً وينقص آخرين.

الفائدة الرابعة عشرة: عناد اليهود، وأنهم لا يمكن أن يخضعوا لما نزل من السماء، لكونه لا يزيدهم ما أنزل على محمد ﷺ إلا طغياناً وكفراً.

الفائدة الخامسة عشرة: الإنصاف والعدل في حكم الله عزّ وجل؛ لأنه قال: ﴿كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ ولم يقل: أكثرهم، ولم يقل: كلهم، ولهذا يجب على الإنسان إذا رأى في قوم انحرافاً من بعضهم؛ ألا يُجري الحكم على الجميع بل يقول: كثير أو بعض أو منهم أو ما أشبه ذلك؛ لأنه لو عمم مع وجود استقامة في الآخرين لكان ظالماً من وجه وكاذباً من وجه آخر، ولهذا تجد الله سبحانه وتعالىٰ يقول: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ ولم يقل: أكثر ولا الجميع.

لو قال قائل: ما حد الكثير؟ **الجواب**: الكثير حسب النسبة يعني مثلاً ثلاثة من عشرة كثير، ثلاثة من عشرة حوالي الثلث، لكن ثلاثة من ثلاثين ألفاً قليل.

لو قال قائل: الله سبحانه وتعالىٰ عبر بقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ [المائدة: ٦٨] ولم يقل: أكثرهم، مع أن اليهود والنصارى أكثرهم يزيدهم القرآن طغياناً وكفراً؟

الجواب: قد يكون أكثرهم مقلداً ولا يزداد طغياناً وكفراً لكنه مقلد مع العامة.

لو قال قائل: ذكرتم أن الإيمان يزداد بالقول والفعل فقد يذكر إنسان الله عزّ وجل ويذكر آخر الله عزّ وجل أقل من الأول، فيزاد إيماناً، والآخر لا يزداد؟

الجواب: هذا سببه اليقين حيث إنه قد يكون بالنسبة لشخص أقل من الآخر، لكن اليقين نفسه يختلف، مثلاً الذكر، قد يذكر اللهَ رجُلٌ ألف مرة، وآخر يذكر الله مائة مرة، فيكون الأول أكثر، لكن قد يقوم بقلب الثاني الذي لم يذكر الله من اليقين أكثر من الأول، فيكون كل واحد زاد من جهة.

الفائدة السادسة عشرة: أن النبي ﷺ حق، لقوله: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فكان النبي عليه الصلاة والسلام منزل عليه، فكان رسول الله حقاً.

الفائدة السابعة عشرة: أن المحبة ثابتة لله، وأن الله يحب وهي محبة حقيقية، أثبتها أهل السنة والجماعة على قاعدتهم المعروفة، وهي وجوب إجراء النصوص على ظاهرها في باب صفات الله وأن الله يُحِب، وهل هو يُحَب؟

الجواب: نعم، وقد صرح الله بذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، فالله تعالى يُحَب على ما له من صفات الكمال،

وعلى ما له من أفعال الإحسان والإنعام، ولهذا جاء في الأثر: **«أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم»**[١]، والإنسان لو أن أحداً من الناس أحسن إليه لأحبه لإحسانه، فكيف بالخالق الذي أوجده وأمده وأعده فهو أولى أن يكون محبوباً.

أما كونه يُحِب فنعم، جاء ذلك في القرآن الكريم وكذلك في السنة النبوية، ومحبة الله تارة تضاف للعمل وتارة للزمن وتارة للمكان وتارة للعامل، كل ذلك جاء كما في قوله ﷺ: **«أحب البقاع إلى الله مساجدها»**[٢]، وقوله ﷺ: **«ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر»**[٣] يعني: عشر ذي الحجة، وقوله ﷺ: **«أحب الأعمال إلى الله الصلاة لوقتها»**[٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] والآيات في هذا كثيرة متنوعة.

وهل محبة الله هي ثواب الله، أو إرادة ثوابه، أو هي صفة زائدة على ذلك؟

---

(١) تقدم في (١/ ٥٢).

(٢) هذا اللفظ رواه القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٥٣) (١٣٠١)، وهو عند مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد، حديث رقم (٦٧١) عن أبي هريرة، ولفظه: **«أحب البلاد إلى الله مساجدها»**.

(٣) هذا اللفظ عند أبي داود، كتاب الصيام، باب في صوم العشر، حديث رقم (٢٤٣٨)، والترمذي، كتاب الصوم، باب العمل في أيام العشر، حديث رقم (٧٥٧)، وأصل الحديث عند البخاري، كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، حديث رقم (٩٢٦) عن ابن عباس.

(٤) تقدم في (١/ ٣٣٤).

الجواب: الثالث، خلافاً لمن فسر المحبة بالثواب، أو بإرادة الثواب ممن ينكرون قيام المحبة بالله عزّ وجل، ولا شك أن هؤلاء ضالون، حتى إذا قلنا: إنها الثواب، يلزم من الثواب؛ المحبة؛ لأن الله لا يثيب إلا من يحب، حتى لو فسرناها بإرادة الثواب يلزم منها المحبة أيضاً؛ لأن الله لا يريد أن يثيب أحداً إلا حيث يحبه.

لو قال قائل: بعض المسلمين يلحدون في أسماء الله عزّ وجل مثل: الوهاب، فيسمون جماعة أو طائفة معينة وهابية، فيستهزئون بهذا الاسم وينقصون من قدره، فما تقولون في هذا؟

الجواب: لا، الوهابية نسبة إلى مذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، يظنون أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ابتدع مذهباً جديداً وهو صحيح، هو مذهب جديد بالنسبة لهم ولشركهم، لكن بالنسبة لأهل السنة ليس مذهباً مستقلاً، لكن هم لا يريدون تنقيص الله أبداً، بل يريدون تنقيص المذهب، وهذا ليس بغريب، فالرسول عليه الصلاة والسلام وصفوه بأنه ساحر وكذاب ومجنون وشاعر، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات: ٥٢].

الفائدة الثامنة عشرة: تحريم الفساد في الأرض، لقوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ وهكذا كل شيء نفى الله محبته؛ فإنه حرام، فالفساد في الأرض حرام، ولكن بماذا يكون الفساد في الأرض؟ هل هو بهدم البيوت وتخريب الأنهار وما أشبه ذلك؟

الجواب: لا، الفساد في الأرض هو المعاصي، ودليل

ذلك قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، لكن هل هدم البيوت بغير حق من المعاصي، فيكون من الفساد في الأرض من هذه الناحية، وعلى هذا فنقول: كل من عصى الله فقد أخذ معولاً يخرب به الأرض؟

الفائدة التاسعة عشرة: أن الشيء إذا ثبت لوصف، ثبت ضده لضد ذلك الوصف، فعلى هذا نقول: إذا كان الله لا يحب المفسدين فإنه يحب المصلحين، ولا شك أن الله يحب المصلحين، قال الله تعالى: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨] وقال الله تعالى في اليتامى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠] فالصلح خير يحبه الله عزّ وجل ويرغب فيه ويحث عباده عليه، الإصلاح كذلك خير، والإصلاح أنواع متعددة، والناس بالنسبة للأرض على ثلاثة أقسام: صالح، وصالح مصلح، وفاسد مفسد، وإن شئت زد رابعاً: فاسد غير مفسد حتى تتم الأقسام، لكن يلزم من الفاسد أن يكون مفسداً، ولذلك نقتصر على ثلاثة أقسام، فنقول: الناس بالنسبة للأرض ثلاثة:

الأول: صالح: لكنه لا ينفع إلا نفسه، وهذا يكون في كثير من العباد، كثير من العباد صالح في نفسه لكن لا يحاول أن يصلح غيره، يرى المنكر أمام عينه لا ينهى عنه، يرى التفريط في المعروف أمام عينه لا يأمر به، وهكذا، هذا نقول: إنه صالح، وإن كان أيضاً صلاحه فيه نقص؛ لأن من تمام الصلاح أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

الثاني: صالح مصلح، هذا خير الأقسام، هو صالح في نفسه ومصلح لغيره، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ

لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧] لم يقل صالحون، لا بد من أن يكون في الأرض مصلح.

والثالث: الفاسد المفسد في الأرض، حتى لو فرض أنه لم يدعو إلى فساده وإلى معصيته فإنه مفسد؛ لأنه سبب لفساد الأرض.

الفائدة العشرون والحادية والعشرون: أن القرآن نزل من عند الله، لقوله: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، وإذا ثبت هذا لزم عليه أمران عظيمان:

الأمر الأول: أن القرآن كلام الله؛ لأن القرآن ليس ذاتاً قائمة بنفسها، ولكنه وصف لا يقوم إلا بموصوف أو إلا بمتصف به، وعلى هذا فيفيد هذه الفائدة العظيمة: أن القرآن كلام الله، وهذا هو الذي أجمع عليه سلف الأمة والأئمة، وجرت فيه المحن على الإمام أحمد رحمه الله وغيره من علماء السنة.

فإن من الناس من قال: القرآن ليس كلام الله بل مخلوق من جملة المخلوقات، ولا شك أن هذا القول يلزم منه بطلان الشريعة تماماً؛ لأننا إذا قلنا: إنه ليس كلام الله؛ لزم أن يكون إذا كتب مجرد نقوش وزخرفة، خلقها الله عزّ وجل على هذا الوصف، ولذلك نقول: إنه يستلزم على القول بأن القرآن مخلوق؛ بطلان الشريعة تماماً، بطلان الأمر والنهي؛ لأنه لا أمر ولا نهي، فقوله تعالى: ﴿أَقِمِ﴾ [لقمان: ١٧] شيئاً مخلوق على هذه الصفة فقط لا يدل على أمر، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢] كذلك، شيء مخلوق على هذه الحروف كما تنقش الباب مثلاً، إن سُمِعَ فهو مجرد، أصوات كما نسمع الآن أصوات الرعد وأصوات

الرياح في الأشجار وغير ذلك، فحينئذٍ لا أمر ولا نهي ولا خبر، وهذا واضح جداً، لكن من أعمى الله قلبه لا يعرف أن هذا لازم.

لو قال قائل: رجل قام يتكلم وكان موضوع كلمته القرآن، وفي أثناء حديثه كان يقول: الذي قال عنه ربه، يقصد القرآن، ما حكم هذا؟

الجواب: هذا غلط عظيم، يعني يتكلم عن القرآن فيقول: إن القرآن هو الذي قال عنه ربه، وهذا يوحي بمذهب الجهمية، وإن كان له وجه في اللغة العربية إذا علمنا أن المتكلم من أهل السنة الأقحاح؛ لأن الرب يأتي بمعنى الصاحب، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات: ١٨٠] والعزة وصف لله عزّ وجل لكن بمعنى صاحب العز، على كل حال: هذا يجب تنزيه اللسان عنه، ويجب أن ينصح؛ لأن هذا يوهم العامة أن القرآن مخلوق.

الأمر الثاني: علو الله عزّ وجل؛ لأنه إذا كان القرآن كلام الله، وهو صفة من صفاته وهو نازل لزم أن يكون المتصف به عالياً، وإلا فلا معنى للنزول، فيكون فيه دليل على إثبات علو الله عزّ وجل، والناس في هذه الصفة على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قال: إن الله لا يجوز أن يوصف بالعلو ولا بالسفول، ولا يجوز أن نقول: إنه فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال، وهذا تعطيل محض، ولو قيل لأحد: صف العدم، ما وصفه بأدق من هذا الوصف الذي وصفوا به الرب عزّ وجل.

القسم الثاني: قالوا: إن الله تعالى في كل مكان، ولا يجوز

أن نقول: إنه في العلو، وكيف نقول: إنه في العلو وهو يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] ويقول: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨] وأشباه ذلك من آيات المعية، فلا يجوز أبداً أن نقول: إن الله عالٍ بنفسه، بل العلو الذي أثبت لله علو المعنى، وأما المكان فهو في كل مكان، وهؤلاء حلولية الجهمية يقولون: إنه في كل مكان، والعجب أن هذا عليه كثير من الناس من غير السعوديين الذين نتصل بهم - في المسجد الحرام - ونسألهم. السعوديون لا يعرفون هذا القول، أكثر العامة لا يعرفون هذا القول، ويقولون: إن الذي يقرر علينا علماؤنا أن الله في كل مكان، ولا شك أن هذا قول إذا تأمله الإنسان وجده في غاية البطلان، لمخالفته للقرآن والسنة والعقل والفطرة والإجماع، وهل يمكن أن يرضى أحد أن يجعل الخالق عزّ وجل في الحشوش والأماكن القذرة؟ لا يمكن، ولازم قولهم أن يكون كذلك في كل مكان.

أما القسم الثالث: الذي نسأل الله تعالى أن يميتنا عليه ويبعثنا عليه، فهو أن الله تعالى بذاته فوق كل شيء، لكنه محيط بالخلق، فكأنه معهم في أمكنتهم، ولا مانع من أن نقول: هو فوق كل شيء وهو معنا ولكن ليس في مكاننا، ولهذا أمثلة ذكرها شيخ الإسلام رحمه الله، مثالاً في الواسطية ومثالاً في الحموية، قال: إن العرب يقولون: ما زلنا نسير والنجم معنا، وقال في الواسطية: ما زلنا نسير والقمر معنا، وهذا أسلوب عربي واضح، وكل واحد يخاطب بهذا الخطاب أو يتكلم به؛ لا يمكن أن يعتقد أن القمر في الأرض، ولا أن النجم في الأرض، ولهذا يفرق

حتى في كلام الناس فيقال للرجل: زوجته معه، ويقال: متاعه معه، ويقال: دراهمه معه، ويقال: ساعته معه، وإذا كان هذا مخلوق من المخلوقات يحيط بنا وهو معنا وهو فوق؛ فما بالك بالخالق الذي حدَّث عنه النبي عليه الصلاة والسلام بأن **«السمٰوات السبع والأرضيين السبع بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة»**[1] فما بالك بالخالق سبحانه وتعالىٰ، فعلى كل حال نحن نؤمن بأن الله سبحانه وتعالىٰ فوق كل شيء حقاً.

أما صفاته فما أحد من المسلمين فيما نعلم ينكر علو الصفات، كلهم يقولون: إنه كامل الصفات، لكن يبقى النظر، هل كلهم يثبتون كل ما ورد من الصفات؟

الجواب: لا، لكن من أثبت له صفة كمال فيقول: إنه عالم بهذه الصفة الكاملة.

لو قال قائل: المحرف في الصفات إذا نوقش يقول: إنما نؤول هذه الصفات حتى لا يتوهم الناس مشابهة الله لخلقه، وإن كنا لا نرى التأويل؟

الجواب: نقول لهؤلاء **أولاً**: اقرؤوا قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤].

وثانياً: نقول: لستم أحرص على هداية الخلق من الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ولم يفعلوا هذا، ونقول:

---

(١) رواه ابن حبان (٢/٧٦) (٣٦١)، والطبراني في الكبير (٢/١٥٧) (١٦٥١)، وأبو نعيم في الحلية (١/١٦٨) عن أبي ذر.

إذا أثبتم هذه فاقرؤوا قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ونضرب لهم الأمثال، ونقول: بالنسبة لليد الآن نشاهد مخلوقات لها أيدي متفاوتة تفاوتاً عظيماً، وكذا الوجه والعين، كل الصفات في المخلوق متفاوتة، أفلا يمكن إذا ظهر التفاوت بين المخلوقات أن يكون التفاوت بين المخلوق والخالق، من باب أولى وأشد.

لكن لو قال قائل: هل القول في القرب كالقول في المعية أنها صفة حقيقية تليق بجلاله وكماله؟

الجواب: القرب والمعية بمعنى واحد، لكن القرب اختلف العلماء علماء السلف رحمهم الله أو علماء الخلف هل ينقسم كالمعية إلى عامة وخاصة أم لا؟ والظاهر أنه لا ينقسم، وأن القرب يختص بالعابد والداعي فقط، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦] هذا بالنسبة للداعي، وبالنسبة للعابد، قال النبي ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد**»[1] ولا يمكن أن نقول: إن الله قريب من الكافرين؛ لأن القرب شرف ورفعة، لكن نقول: إن الله مع الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [النساء: ١٠٨]، فالذي يظهر لي أن المعية تنقسم إلى قسمين: عامة وخاصة، والقرب خاص فقط ولا يكون عاماً.

لو قال قائل: بعض العلماء يقسم علو الله عزّ وجل إلى: علو ذات وقدر وقهر، فعلو الصفات يدخل في أي الأقسام؟

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم (٤٨٢) عن أبي هريرة.

الجواب: الصفات يدخل فيها القدر والقهر، إذا قلنا: علو ذات وعلو صفات، شمل القدر والقهر، لكن لو قيل: كيف يدخل القهر؟ القهر لأن الله قال في القرآن الكريم ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] وقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

الفائدة الثانية والعشرون: عناية الله عزّ وجل بالرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك بقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ [البقرة: ١٤٧]، فإن هذه الربوبية خاصة تقتضي العناية التامة والأقوى والأشد، واعلم أن الربوبية نوعان: عامة وخاصة، اجتمعا في قوله تعالى عن السحرة: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢١ ـ ١٢٢] العامة: في قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: كل من سوى الله فهو عالم، وعلى هذا يكون قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: برب الخلق كلهم، وقوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ هذه خاصة، كما أن العبودية كذلك: عامة وخاصة.

فالعبودية الكونية: عامة، ومنها قول الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣]، كل من في السمٰوات بالعبودية الكونية عبدٌ لله، هل يستطيع أحد أن يمنع المرض إذا قدره الله عليه؟ أبداً، وهل يستطيع أحد أن يرد ملك الموت إذا جاء لقبض روحه؟ أبداً، ولهذا تحدى الله هؤلاء، فقال لهم: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾

تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٧] لا يمكن، لو يجتمع الخلق كلهم أن يردوا هذه الروح التي بلغت الحلقوم ما استطاعوا، إذاً: فالكل عبد لله بهذا المعنى، أي: بالعبودية الكونية.

أما القسم الثاني: العبودية الخاصة، فهي **العبودية الشرعية**، التي منها قول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخره.

الفائدة الثالثة والعشرون: أن الله تعالى ألقى العداوة والبغضاء بين اليهود، لقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ وهذا كلام حق صدق ليس عندنا فيه شك، وما نحسبه نحن من اجتماعهم فعلى خلاف الواقع، ولهذا قال الله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤] لا تظن أنهم متفقون أبداً ولذلك هم أحزاب شتى، وحتى داخل الحزب الواحد متفرقون؛ لأنهم لا يمكن أن يجتمعوا وقد ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء، لكن لاحظ أن العَدُوَّيْنِ إذا كان لهما عدو ثالث اجتمعا عليه لمقابلة العدو الثالث، فاجتماعهم الآن ليس لأنهم متحابون متآلفون، أبداً ولا يمكن أن نصدق والله يقول: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لكنهم اجتمعوا لهدف واحد ومصلحة واحدة ضد عدو واحد للجميع، وهذا الاجتماع لا شك أنه اجتماع ظاهري فقط مقصود لغيره وليس مقصوداً لذاته.

الفائدة الرابعة والعشرون: أن العداوة والبغضاء بين اليهود سوف تستمر، لكن إذا آمنوا تزول بلا شك، ولهذا قال النبي ﷺ للأنصار: «**كنتم أعداء فألفكم الله بي، ومتفرقين فجمعكم الله**

بي»[١]، والأنصار كما هو معلوم بينهم عداوات وبغضاء في الجاهلية.

الفائدة الخامسة والعشرون: إثبات يوم القيامة وهو: اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين، وسمي بذلك لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن الناس يقومون فيه من قبورهم لرب العالمين.

الوجه الثاني: أنه يقام فيه العدل كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [يس: ٥٤] وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

الثالث: أنه يقام فيه الأشهاد، تستشهد الرسل ثم الأمم ثم الجلود والأعضاء، ويتبين الأمر وينكشف ويظهر ما في الصدور، فلذلك سمي يوم القيامة، هناك قيامة صغرى لكنها لا تراد في هذه الآية وهي موت الإنسان، فإن كل من مات فقد قامت قيامته؛ لأنه انتهى من الدنيا ودخل في عالم الآخرة.

الفائدة السادسة والعشرون: البشرى التامة للمسلمين بأن اليهود لن تقوم لهم قائمة في الحروب؛ لأنهم: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ ولم ينالوا بها مقصودهم، وإن كانوا قد ينالوا بعض الشيء، لكنهم لن ينالوا المقصود الذي يريدونه بإشعال نار الحرب.

الفائدة السابعة والعشرون: إثبات الأفعال الاختيارية لله عزّ وجل، لقوله: ﴿أَطْفَأَهَا﴾، وإطفاؤها يكون بعد

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، حديث رقم (٤٠٧٥) عن عبد الله بن زيد بن عاصم.

إيقادها وهذا فعل متجدد، وفيه رد واضح على الذين منعوا قيام الأفعال الاختيارية بالله، وقالوا: إن الله لا يمكن أن يأتي ولا يستوي على العرش ولا يتكلم بإرادته ومشيئته، بل كلامه معنى قائم بنفسه لا يتعلق بإرادته، ولا يضحك ولا يفرح ولا يغضب إلى آخر ذلك، كل صفة تتجدد فهي عندهم لاغية منتفية عن الله، وحجتهم واهية جداً وداحضة عند الله، يقولون: إن الأفعال الاختيارية التي تتجدد لا تقوم إلا بحادث، بناءً على قَاعِدةٍ غير قائمة في الحقيقة، يقولون: الحادث لا يقوم إلا بحادث، من أين لهم هذا؟ الحادث يقوم بالحادث والقديم، حوادث أفعالنا نحن حادثة قائمة بحادث، لكن حوادث الباري جلَّ وعلا حادثة لكنها قائمة بأزلي ليس بحادث.

الفائدة الثامنة والعشرون: محبة اليهود للفساد في الأرض وسعيهم في ذلك سعياً حثيثاً، لقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ ومن شاهد الواقع الآن عرف أن الآية منطبقة تماماً على يهود الوقت الحاضر، أنهم يسعون في الأرض فساداً بكل ما يستطيعون، إن استطاعوا بأنفسهم أو بعبيدهم الذين هم عبيد لهم، ولهذا نقول: اليهود الآن: عابد ومعبود، اليهود حقيقةً هم عبيد ومُعبِّدون؛ لأنهم يُسَخِّرون الدول الكبرى أن تفعل ما فيه مصلحتهم، وهم أيضاً أذناب للدول الكبرى؛ لأن الدول الكبرى آمنة منهم وتريد أن تبقيهم في مكان ما من أجل أن يفسدوا في الأرض، فهم يسعون في الأرض فساداً في كل وقت، نسأل الله تعالى أن يكبتهم وأن يخيبهم.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾ [المائدة: ٦٥].

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المراد بأهل الكتاب هم: اليهود والنصارى، والكتاب المشار إليه التوراة والإنجيل، لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٦].

وقوله: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بالقلوب، ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ بالأفعال، وهذا إذا جمع بين الإيمان والتقوى، فالإيمان بالقلب والتقوى بالجوارح، الإيمان سرٌ والتقوى علانية، أما إذا أطلق أحدهما؛ فإنه يدخل فيه الآخر ضمناً ﴿ءَامَنُوا۟﴾: أي: بما يجب الإيمان به، ومنه الإيمان بمحمد ﷺ؛ لأنه مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، معروف بأوصافه، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، هل أحد يجهل ابنه؟ لا، وعلقه بالأبناء؛ لأن تعلق الإنسان بالابن أقوى من تعلقه بالبنت؛ فتكون معرفته للابن أبلغ من معرفته للبنت؛ لأن الابن يسير معه في تجارته وفي حراسته وفي كل شيء، فهو يخبر ظاهره وباطنه، لكن البنت محلها البيت، ولا يخبرها تماماً إلا أمها، فهم يعرفون الرسول ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك لم يؤمنوا به، فيكون الإيمان عندهم منتفياً لأنهم ما آمنوا، حتى لو قالوا: إنهم مؤمنون بموسى إن كانوا يهوداً أو بعيسى إن كانوا نصارى فهم كاذبون.

وأما التقوى فهي: اجتناب ما حرم الله والقيام بما أمر، وهذا في العلانية أي: الجوارح: يعني الأقوال والأفعال، والتقوى: هي اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه وتصديق أخباره.

قوله: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ هذا جواب «لو»، واعلم أن

«لو» تقع «اللام» في جوابها كثيراً وقد تحذف، وقد اجتمع ذلك في آخر سورة الواقعة، فقال الله تعالى في الزرع: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٥] وقال في الماء: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠] فأثبت اللام في الأول ولم يثبتها في الثاني، أما إذا كان جوابها «ما» النافية فإنها لا تقرن بها إلا نادراً، وأما ما اشتهر عند الفقهاء وعند كثير من الناس، وهو قرن اللام بها فهذه لغة، لكنها قليلة، فالأفصح أن تقول: لولا كذا ما حصل كذا، ولكن لا بأس أن تقول: لما حصل كذا.

إذاً: الإثبات والنفي بـ«ما» متقابلان، الأفصح في الإثبات باللام، أو الأكثر ـ على الأصح ـ في الإثبات باللام، والأكثر في النفي بـ(ما) حذف اللام، ومنه قول الشاعر في إثبات اللام:

ولو نعطى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الليالي

الشاهد قوله: لما افترقنا.

وقوله: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: خطيئاتهم، يعني: معاصيهم سواء كانت بترك واجب أو بفعل محرم؛ لأن الإيمان والتقوى يكفران السيئات.

قوله: ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ هذا ثواب الآخرة، فانتفى عنهم ما يكرهون بتكفير السيئات، وحصل ما يحبون بإدخالهم جنات النعيم.

وقوله: ﴿جَنَّٰتِ﴾ جمع جنة، وجمعت لأنها أنواع، وقد ذكر الله في سورة الرحمٰن أربعة أنواع، والجنة في الأصل: هي البستان الذي كثرت أشجاره حتى صارت تغطي أرضه؛ لأن الأصل في هذه المادة الجيم والنون، الأصل فيها: الاستتار

والخفاء، ومنه سمي الجن جناً، والبستان كثير الأشجار جنة قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ [الكهف: ٣٢] لكن لا ينبغي أن تقول مثل هذا القول عند العامة؛ لأنك لو قلت: إن الأصل في الجنة أنها البستان كثير الأشجار؛ لَقَلَّتْ عظمة الجنة في نفوسهم، ولكننا نفسر الجنة التي في القرآن بأنها الدار التي أعدها الله لأوليائه، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ لأن هذا يُبْقي هيبتها في النفوس وقوة الرغبة فيها.

وقوله: ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ أي نعيم؟ أنعيم البدن، أم نعيم القلب، أم كلاهما؟ كلاهما لأن نعيم البدن ينعم الإنسان بكل أنواع النعيم، ونعيم القلب لا يمكن أن يلحقه هَم ولا غم ولا حزن بل هو دائماً في أنس ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان: ١١] النضرة في الوجه، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ [القيامة: ٢٢] والسرور في القلب، فما بالك بنعيم يكون فيه النضرة التي تبهج الناظر في الوجه والسرور في القلب، الذي ليس فيه حزن ولا هم ولا غم، اللهم اجعلنا من هؤلاء الذين يدخلون جنات النعيم.

لو قال قائل: بعض الناس يعبرون عن بعض البلاد الجميلة بأنها جنة الله في الأرض، هل يصح مثل هذا التعبير؟

الجواب: يصح، لكن إذا كان يفهم من ذلك أنها قطعة من جنة الخلد فلا يجوز، وإلا فمن المعلوم كل الذي في الأرض فهو لله عزّ وجل، لكن على كل حال، عند العامة لا ينبغي أن نعبر بهذا؛ لأنه قد يفهم منه معنى غير صحيح.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: كمال عدل الله عزّ وجل وأن كل من آمن واتقى ولو بعد الكفر والعناد فإن الله تعالى يتوب عنه.

الفائدة الثانية: أن التائب من الذنب يثاب بثوابين: ثواب الدنيا وثواب الآخرة، ثواب الآخرة لقوله: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وثواب الدنيا لقوله: ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦].

الفائدة الثالثة: إثبات أفعال الله سبحانه وتعالىٰ الاختيارية، لقوله: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾؛ لأن هذا التكفير يكون بعد إيمانهم وتقواهم، فيكون فيه دليل على إثبات أفعال الله الاختيارية، وهذا هو الذي عليه السلف الصالح وأئمة أهل السنة، أن الله عزّ وجل يفعل ما يشاء في أي وقت، وعلى أي كيفية، وأما من قال: إن الأفعال الاختيارية لا يمكن أن تنسب إلى الله؛ لأنها حادثة، والحادث لا يقوم إلا بحادث، فقوله مردود: **أولاً**: أنه قياسٌ باطل لمصادمته النص، **والثاني**: أنه قياس غير صحيح، من قال: إنه يلزم من قيام الحوادث بصاحبها أن يكون حادثاً.

الفائدة الرابعة: أن الجزاء يكون بالنجاة من المرهوب وحصول المطلوب، يشير إلى الأول قوله: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، وإلى الثاني قوله: ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ فالأول به النجاة من المرهوب، والثاني في حصول المطلوب.

الفائدة الخامسة: أن الجنّات فيها النعيم المطلق الذي يشمل نعيم البدن ونعيم الروح، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]، قال العلماء: النضرة في الوجه والسرور في القلب.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٦].

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ هذا أمر فوق الإيمان والتقوى، وهو إقامة التوراة والإنجيل، وذلك بتصديق أخبارهما وامتثال أمرهما واجتناب نهيهما.

والتوراة: هي الكتاب المنزل على موسى، والإنجيل: الكتاب المنزل على عيسى، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ هذا يشمل الصنفين من أهل الكتاب يعني: اليهود والنصارى، كل منهما يجب عليه إقامة التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم وهو القرآن الكريم.

وقوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيْهِم﴾ يدل على أن هؤلاء ملزمون بالإيمان بالقرآن وإقامته، ويدل على أن قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ هو القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣ ـ ٤].

وأما قول بعض العلماء: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يشمل حتى الكتب السابقة، ففيه نظر؛ لأن الكتب السابقة نزلت على من قبلهم لكنهم مكلفون بالإيمان بها، ووجه الضعف في هذا القول أن الذي نعلم نحن الآن أنهم كلفوا بالتوراة والإنجيل هذا وجه، وجه آخر: أن هذه الآية على نسق قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣ ـ ٤] وأيضاً لا يقال: الكتاب الذي أنزل على نوح نازل على اليهود

والنصارى، لكن يجب عليهم الإيمان به، كما أن التوراة والإنجيل لم ينزلا إلينا، لكن يجب علينا الإيمان بهما.

قوله: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ﴾ هذا جواب شرط: (لو)، وقد سبق البحث في أن لو الشرطية تختص بالأفعال، وأن النحويين قدروا في مثل هذا فعلاً وهو: ولو ثبت أنهم أقاموا التوراة أو ولو حصل أنهم أقاموا التوراة.

وقوله: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ هذه تشمل عدة أشياء:

أولاً: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وذلك بنزول الأمطار التي تكون سبباً للنبات الذي يأكلونه، والأمطار تنزل من السماء، ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ يعني: نبات الأرض، فيكون الله تعالى ذكر سبب النبات، والنبات، وهذا كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] هذا وجه ويدخل في الآية.

وقيل: المعنى: أكلوا من فوقهم من ثمار الأشجار؛ لأن الأشجار تكون عالية فيأكلون من ثمارها، ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ من الزروع ونحوها التي تكون في الأرض ليس لها ساق، فيكون الله تعالى بَيَّنَ أنهم سيبارك لهم في الأشجار والزروع.

وقيل: المعنى: لأكلوا من كل وجه، كما تقول: هذا الرجل في نعمة من هامه إلى إبهامه، والمراد أن النعمة تغمره.

وعلى كل حال فالآية تشمل هذا وهذا، كل هذه الأوجه يصح أن تفسر بها الآية، وقد سبق قاعدة في هذه المسألة مهمة، وهي: أن الآية إذا احتملت معنيين فأكثر على السواء ولا منافاة بينهما، فإنها تحمل عليهما جميعاً وهكذا الأحاديث أيضاً.

قوله: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ قسمهم الله تعالى إلى قسمين، وأمة هنا بمعنى: طائفة، وأمة في اللغة العربية لها معان متعددة جاءت في القرآن، فتكون بمعنى طائفة كما في هذه الآية، وتكون بمعنى: الدين، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢] وتكون بمعنى: الزمن كما في قوله: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] وتكون بمعنى: الإمام، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] ومن مجيئها بمعنى الدين قوله تعالى عن المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] أي: على ملة وهذا أوضح من تمثيلنا بقوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لأنه المعنى يحتمل أن الأمة الجماعة من الناس.

وعلى كل حال الأمة في القرآن جاءت على أربعة معاني: الأول: الطائفة، الثاني: الدين، الثالث: الزمن، الرابع: الإمامة.

قوله: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ﴾ أي: طائفة، ﴿مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أي: قائمة بالواجب لا تزيد ولا تنقص.

قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: كثير منهم أمة سيئة غير مقتصدة، بل هي مُفَرِّطة ومُفْرِطة، ولهذا وصف العمل المشار إليه بقوله: ﴿سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ فقوله: ﴿سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ يُبَيِّن أن المعنى وكثير منهم غير مقتصد بل مسيءٌ في عمله فساء ما كانوا يعملون، وعليه فيكون قوله: ﴿سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ ليس خبر «كثير»، بل خبرها محذوف، أي: كثير منهم سيء العمل لم يقتصد فساء ما يعملون.

بقي قسم ثالث خص الله به هذه الأمة وهو السابق

بالخيرات، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢] يعني: هذه الأمة ـ جعلنا الله منهم ـ ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فكأن بني إسرائيل، السابق بالخيرات منهم قليل بحيث لا يقام له وزن ولا يذكر في التقسيم، وإلا فلا شك أن فيهم سابقاً بالخيرات، منهم من أدرك الإسلام فأسلم هذا سابق بالخيرات، لكن لما كان السابق بالخيرات قليلاً في بني إسرائيل لم نجد له ذكراً؛ لأن الذكر إنما يكون لمن كان له شأن في التقسيم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن إقامة الشريعة في كل زمان، سبب لكل خير، لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ إلى آخره.

الفائدة الثانية: أن من أقام الشريعة، جوزي بأمرين: جزاء في الدنيا وجزاء في الآخرة.

الفائدة الثالثة: أنه يجوز ترغيب النفوس البشرية في فعل الطاعات بما يذكر من ثواب الدنيا، ولينتبه لهذه النقطة، وعلى هذا فلو أن إنساناً عمل عملاً صالحاً يريد أن ينال حسن الدنيا والآخرة، فإنه لا يلام؛ لأنه لو كان هناك لوم، ما ذكر الله سبحانه وتعالىٰ ما يحصل من ثواب الدنيا، يبقى ذكره شبيهاً باللفظ الذي ليس له معنى، وعلى العكس من هذا المحرمات، تجد أن الله تعالى جعل لها روادع تردع عنها، حتى لا يفعلها الإنسان، فتجد الرجل قد يترك الزنا مثلاً خوفاً من العقوبة، ولولا هذا لما كان للعقوبة فائدة.

فعلى كل حال نقول: إن الإنسان إذا قام بقلبه إرادة الدنيا لكن لا على أنها هي الباعث للعمل فلا حرج عليه، والإنسان يقرأ الأوراد، ليتحصن بها من شرور الإنس والجن، تجد الذي يقرأ الورد، قد يغيب عن باله أنه يريد أن يتقرب إلى الله بالتلاوة، وإنما يريد التحصن؛ لأن النفوس البشرية ضعيفة تحتاج إلى أمر مادي يساعدها على فعل الخيرات، ويدل لهذا الأصل أن الرسول عليه الصلاة والسلام في بعض المغازي يجعل سلب القتيل لمن قتله[1]، تشجيعاً له، فقول بعض الناس: إنه لا يجوز للإنسان أن يريد بعمل الآخرة شيئاً من الدنيا، هذا غير صحيح، بل قال الله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠] يعني نعطيه في الدنيا والآخرة.

الفائدة الرابعة: أنه يجب على أهل الكتاب أن يقيموا القرآن، كما يجب أن يقيموا التوراة والإنجيل، لقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وهو كذلك، ولهذا نقول لأهل الكتاب الذين يَدَّعون أنهم مؤمنون بالله واليوم الآخر نقول: إنكم إن لم تؤمنوا بالرسول ﷺ، ما نفعكم ذلك الإيمان لأنكم لم تتموا إيمانكم.

الفائدة الخامسة: أن القرآن كلام الله لقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وجه ذلك: أن القرآن صفة؛ لأنه كلام، والكلام لا بد له من متكلم، والصفة لا بد لها من موصوف، وإذا كان لا بد للقرآن من متكلم به، فالذي تكلم به هو الله عزّ وجل.

---

(١) رواه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب ومن قتل قتيلاً فله سلبه...، حديث رقم (٢٩٧٣)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، حديث رقم (١٧٥١) عن أبي قتادة.

الفائدة السادسة: إثبات علو الله تعالى لقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ لأنه إذا كان القرآن صفة الله نازلة منه؛ لزم أن يكون الله تعالى عالياً، وهذا والحمد لله عند من أنار الله بصيرته ولم تحتوشه الشياطين، وكان على الفطرة التي فطره الله عليها أمر لا يحتاج إلى دليل؛ لأنه أمر فطري، وهو علو الله تعالى علو الذات، وكما تقدم كثيراً أن المنكرين لعلو الذات انقسموا إلى قسمين:

قسم قال: إن الله تعالى في كل مكان في السماء والأرض، يعني هو نفسه ذاته في كل مكان.

وقسم آخر قال: لا يجوز أن يوصف بأنه فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال، ولا منفصل عن العالم ولا متصل بالعالم، فالأولون غلوا في إثبات صفة من الصفات وهي المعية، والآخرون غلوا فيما يَدَّعُونَه تنزيهاً للرب عزّ وجل.

إذاً: نأخذ من هذا أنه يجب علينا أن نؤمن بعلو الله عزّ وجل.

الفائدة السابعة: إقامة الدليل على أهل الكتاب أنه يلزمهم أن يؤمنوا بالقرآن، لقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ فإن لازم كونه رباً لهم، أن يقوموا بأمره ويلتزموا بحكمه؛ لأنه رب، والرب لا بد له من مربوب، وهو سبحانه وتعالىٰ السيد والإنسان عبد، فلا بد أن يقوموا بمقتضى هذه الربوبية، فيؤمنوا بما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ.

الفائدة الثامنة: أن نِعَمَ الله عزّ وجل التي في الأرض منها ما هو عال ومنها ما هو نازل، لقوله: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡۚ﴾ وهذا شيء مشاهد، بل منها ما هو ظاهر ومنها ما هو

خفي، فالمعادن التي في الأرض خفية، والأشياء الظاهرة التي في الأرض ظاهرة.

الفائدة التاسعة: انقسام أهل الكتاب إلى قسمين: قسم مقتصد قائم بالواجب تارك للمحرم ولكن ليس عندهم سبق إلى الخيرات، وقسم آخر: سيء مسيء في عمله، إما بترك الواجبات وإما بفعل المحرمات، لقوله: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

الفائدة العاشرة: بيان منقبة عظيمة لهذه الأمة، وهي أن هذه الأمة قسمها الله إلى ثلاثة أقسام: منهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات، أما أهل الكتاب فلم يقسَّموا إلا إلى قسمين: المقتصد، ومسيء العمل.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: ٦٧].

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ لينتبه طالب العلم للنداء والوصف الذي وجه إليه النداء، وتقدم كثيراً أن تصدير الخطاب بالنداء يدل على الاهتمام به والعناية به.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ وصفه بالرسالة إشارة إلى أن هذا الوصف مقتضاه وإن لم يؤمر بالإبلاغ أن يكون مبلغاً؛ لأنه رسول، ويعني به محمداً ﷺ، وعلى هذا فتكون «أل» للعهد الذهني، أما في قوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥ ـ ١٦]، فـ«أل» للعهد الذكري.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ يعني محمداً ﷺ، ﴿بَلِّغْ﴾ أي: اجعله بالغاً، بمعنى: أن تؤديه إلى من أرسلت إليه، وهو ﷺ أرسل إلى الجن والإنس منذ بعث إلى يوم القيامة، وعلى هذا فيكون تبليغه إما مباشر، كالذين رأوه وسمعوا منه، وإما بواسطة من خَلَّفَهُ في أمته علماً ودعوة، وهم العلماء، المهم أن الرسول ﷺ بلغ البلاغ المبين.

قوله: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ما: اسم موصول، والاسم الموصول يفيد العموم، أي: جميع ما أنزل إليك.

وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: إشارة إلى أن كونه مربوباً لله عزّ وجل يستلزم أن يُبلِّغ، وأيضاً لأن ربوبية الله عزّ وجل لرسوله عليه الصلاة والسلام ربوبية خاصة.

وقوله: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الذي أُنْزل إليه القرآن كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وتبليغ الرسول عليه الصلاة والسلام يشمل تبليغ اللفظ وتبليغ المعنى، ولذلك تجد بعض الآيات يفسرها النبي ﷺ إذا كانت مجملة أو غامضة، فهو يفسرها بقوله ويفسرها بفعله عليه الصلاة والسلام.

قوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ قراءة أخرى ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَاتِهِ﴾ بالجمع، أما على قراءة الإفراد فلا إشكال فيها، وأما على قراءة الجمع: فلماذا جمعت والرسالة واحدة؟ نقول: باعتبار الشرائع التي جاءت بها هذه الرسالة؛ لأنها جاءت بأعمال وأقوال واعتقادات، أعمال قلوب وأعمال جوارح، جاءت بفعل وبترك، فكل نوع يعتبر رسالة فصح الجمع.

قوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ هذا كلام شديد، إن لم تفعل أي: تبلغ كل ما أنزل إليك، فما بلغت رسالته، حتى فيما بلغته مما كتمته فإنه لا يكون بلاغاً؛ لأن جحد بعض ما أنزل كجحد الكل، الإيمان لا يتبعض، لا يمكن أن تؤمن بشيء وتنكر شيئاً، ولهذا قال: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ أي: تبلغ كل ما أنزل فما بلغت رسالته، حتى فيما بلغت لم تبلغ، يعني: لا بد أن تبلغ جميع ما أنزل، ولهذا بلغ عليه الصلاة والسلام كل ما أنزل إليه حتى فيما كان عليه، حتى فيما كان فيه لوم عليه، عليه الصلاة والسلام، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، هذه فيها لوم عظيم، هذه لو قيلت لواحد منا لطار من الغضب، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام لا بد أن يبلغ كل ما أنزل إليه، حتى فيما كان فيه لوم عليه، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «**ولو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أنزل الله تعالى عليه، لكتم هذه الآية: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾**»(١).

وقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي: رسالة ربك، وأضاف الرسالة إليه سبحانه؛ لأنه المُرسل، وقد تضاف إلى الرسول ﷺ، فيقال: هذه رسالة محمد؛ لأنه مبلغها، فتضاف إلى الله باعتباره المُرسِل، وإلى الرسول باعتباره المبلّغ.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم: ١٣]، حديث رقم (١٧٧) عن عائشة.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: إن كنت قد تخفي شيئاً خوفاً من الناس فلا تخفِ، فإن الله يعصمك من الناس، أي: يمنعك من الناس أن يضروك بشيء، وهذا هو الذي حصل والحمد لله، وإلا فما أكثر الذين يريدون قتله عليه الصلاة والسلام، أول ما قدم المدينة كان يخاف، تقول عائشة رضي الله عنها: في ليلة من الليالي لم ينم الرسول عليه الصلاة والسلام، سهر وقال: «**اللهم ابعث لنا عبداً من عبادك يحرسني**»[1] أو كلاماً نحو هذا، فما أن فرغ من دعائه إلا وسمع صوت السلاح، فقال: من هذا؟ قال: سعد بن مالك، يعني: سعد بن أبي وقاص، قال: ما الذي جاء بك؟ قال: خفت عليك يا رسول الله، فأتيت أحرسك، بعثه الله عزّ وجل فصار يحرسه.

وفي بعض الروايات لكن ليس في الصحيحين: أن حذيفة أيضاً جاء معه، فأمر النبي عليه الصلاة والسلام لما نزلت هذه الآية أمرهم أن يتفرقوا[2]؛ لأن الله التزم عزّ وجل بأن يعصمه من الناس، ومعلوم أن الله إذا التزم بمثل هذا، فإنه محروس أشد من حراسة بني آدم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني: أنه لن يسلط عليك لو سلط إلا كافر.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، حديث رقم (٢٧٢٩)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص، حديث رقم (٢٤١٠) عن عائشة، ولفظ مسلم: «**ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة**».

(٢) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، حديث رقم (٣٠٤٦) عن عائشة.

وقوله: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا يصلح شأنهم حتى يصلوا إلى ما يريدون، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا يدلهم إلى ما يريدون من قتل النبي ﷺ، ويحتمل أن المعنى: لا يهديه هداية دين، ويكون قوله: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الذين قضى الله عليهم بالكفر والموت عليه، فتكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات رسالة النبي ﷺ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾.

الفائدة الثانية: المنقبة العظيمة للرسول عليه الصلاة والسلام حيث كان رسولاً لله عزّ وجل، الناس الآن فيما بينهم يكرم الرسول بإكرام مرسله، وإذا كان مرسله ذا شأن في المجتمع، كان كونه رسولاً له شرف له، إذاً فالرسول عليه الصلاة والسلام في نداء الله له بهذا الوصف منقبة عظيمة له وشرف عظيم، وإذا كان وصف العبودية شرفاً، فوصف الرسالة أشد؛ لأن الرسالة متضمنة للعبودية وزيادة.

الفائدة الثالثة: أنه يجب على الرسول عليه الصلاة والسلام أن يبلغ كل ما أنزل إليه وقد حصل هذا، وشهدت له الأمة بذلك ـ ولله الحمد ـ، ففي أكبر مجتمع اجتمع فيه الرسول عليه الصلاة والسلام بأمته في يوم عرفة قال لهم: «**ألا هل بلغت؟**» قالوا: نعم، ثلاث مرات وهو يقول: «**ألا هل بلغت؟**» فيقولون: نعم،

فيشهد الله: «**اللهم اشهد، اللهم اشهد**»[١]، وشهادة صدر هذه الأمة ينسحب إلى بقية الأمة إلى يوم القيامة، فنحن نشهد بالله العظيم أنه بلغ البلاغ المبين عليه الصلاة والسلام وبلغ الرسالة كاملة.

الفائدة الرابعة: الرد على الرافضة الذين يقولون: إن ثلث القرآن لم يبلغ وأنه مكتوم، فنقول: كل القرآن مبلغ والحمد لله ولم يبقَ شيء، وقد ذكر ذلك المفسرون رحمهم الله وقالوا: هذا فيه رد على الرافضة؛ لأن الرافضة يعتقدون أن ما بين أيدينا من القرآن ليس هو القرآن، وأن محمداً كتم بعضه والعياذ بالله أو من بعده كتموا أيضاً.

الفائدة الخامسة والسادسة: إثبات أن القرآن كلام الله لقوله: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ وفيه أيضاً إثبات العلو وسبق قريباً.

الفائدة السابعة: عناية الله بالرسول عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿مِن رَّبِّكَۖ﴾.

الفائدة الثامنة: أن النبي ﷺ وحاشاه لو كتم شيئاً مما أنزل إليه لم يكن أدى حق الرسالة، لقوله: ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾.

الفائدة التاسعة: وجوب إبلاغ الشريعة على أهل العلم، وجه ذلك: أن العلماء ورثة الأنبياء، وإذا كانوا ورثة الأنبياء وجب عليهم أن يقوموا بحق الإرث، فيبلغوا ما علموا من

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، حديث رقم (١٦٥٤)، ومسلم، كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، حديث رقم (١٦٧٩) عن أبي بكرة.

شريعة الله وجوباً، إما بالقول وإما بالفعل: إما بالكتابة وإما بالإشارة، بأي وسيلة يجب عليهم أن يبلغوا ما أنزل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.

ومن ثَمَّ يجب أن ينتبه طالب العلم لهذا: وهو أن السنن التي هي سنن تجب على طالب العلم؛ لأن هذا من إبلاغ الرسالة، يعني: لو أن إنساناً طالب علم معتبراً عند الناس قام يصلي وترك رفع اليدين مثلاً عند تكبيرة الإحرام وعند الركوع وعند الرفع منه وعند القيام من التشهد الأول، أو ركع ركوعاً على غير وجه مشروع لعددته آثماً؛ لأن هذا الفعل الذي أخل بالسنة فيه سيكون حجة للناس وسيقولون: لو كان هذا مشروعاً ما تركه فلان، كذلك الأفعال التي تكون مكروهة في حق غيره قد تكون في حقه محرمة.

كما أنه يجب أيضاً على طالب العلم أن يفعل ما يعتقد الناس أنه حرام، من أجل أن يعرفوا أنه ليس بحرام، يعني بعض الناس يقول: أي حركة في الصلاة تبطل الصلاة، فنقول: إذا وجد سبب الحركة، يعني: السبب الذي يبيحها فليفعله العالم حتى يبين للناس، لكن في هذه الحالة إذا خاف أن يُقتدى به، يبين بالقول أنه فعل ذلك لحاجة وأن الحركة في الصلاة إذا كانت لحاجة فلا بأس بها وما أشبه ذلك.

الفائدة العاشرة: شدة تأكيد الله عزّ وجل على إبلاغ شريعته؛ لأن هذه الجملة: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ﴾ شديدة جداً مما يدل على أن الله عزّ وجل لا يرضى لعباده أن يتركوا شريعته غير مبلغة.

الفائدة الحادية عشرة: أن كتم شيء من الشريعة ككتم

جميعها، لقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ وهذا من فوائد القراءة الثانية ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَاتَهُ﴾؛ لأنه قد يقول قائل: هو بلغ الرسالة فيما بلغ، فإذا قال: ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ شمل الذي بلغ والذي لم يبلغ.

الفائدة الثانية عشرة: عناية الله تعالى بالرسول عليه الصلاة والسلام في عصمته من الناس لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهل هذه مطلقة أو مقيدة بما يحصل به البلاغ، يعني: يعصمك من الناس حتى تبلغ الرسالة؟ إن نظرنا إلى ظاهر الآية قلنا: إنها مطلقة، ﴿يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وإن نظرنا إلى أن النبي ﷺ أهديت إليه شاة مسمومة في غزوة خيبر[1]، وأكل منها وأثرت في لهواته، وكان أثرها مشاهداً، وفي مرض موته أخبر أن أكلة خيبر ما زالت تعاوده وقال: «**هذا أوان انقطاع الأبهر مني**»[2] الأبهر: عرق في الظهر متصل بالقلب إذا انقطع هلك الإنسان، فهذا يدل على ما قيل أن الرسول عليه الصلاة والسلام مات بسبب السم الذي حصل من هذه المرأة اليهودية، وقد قيل: إنها أسلمت، فإذا كان كذلك فيجب أن تقيد الآية، ويكون المعنى: يعصمك من الناس حتى تبلغ الرسالة، وفعلاً بلغ الرسالة وأنزل الله على رسوله نعيه في قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: ١ ـ ٣]، وحديث الشاة في البخاري ذكره تعليقاً

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في سم النبي ﷺ، حديث رقم (٥٤٤١) عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، حديث رقم (٤١٦٥) عن عائشة.

جازماً به، والحديث المعلق عند البخاري يكون صحيحاً عنده ليس عند كل أحد، وقد ذكره معلقاً بصيغة الجزم.

الفائدة الثالثة عشرة: الإشارة إلى أن القلوب بيد الله عزّ وجل وأن أفعال الخلق تابعة لإرادة الله لقوله: ﴿يَعْصِمُكَ﴾ لأن عصمة الرسول ﷺ من الناس تنقسم إلى قسمين:

إما عدم الإرادة: بأن يصرف الله القلوب عن قتله.

وإما بالعجز: بأن يحاول الفاعل ولكن يعجز، وهذا حصل كما في قصة بني النضير لما جاء الرسول عليه الصلاة والسلام يستعين بهم كادوا له، قالوا: اجلس حتى نأتي لك، ثم انبعث واحد منهم بطبق الرحى، من أجل أن يلقيه على الرسول عليه الصلاة والسلام وهو جالس، فأخبره جبريل بهذا فقام ودخل المدينة، لكن هل هذا عصمة من الإرادة أو عدم القدرة؟ من عدم القدرة وإلا فقد أراد.

الفائدة الرابعة عشرة: أن الكافرين وإن كادوا لأولياء الله، فإن الله سبحانه وتعالىٰ، لا يهديهم لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ على تفسير أن المراد بالهداية دلالاتهم على تنفيذ ما يريدون، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٦] يعني: كيداً أعظم من كيدهم، وقال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

أما على الاحتمال الثاني: أنه لا يهديهم هداية شرع، فيكون فيه دليل على أن من قضى الله عليه بالكفر، فإنه لا يستطيع أحد أن يهديه؛ لأن الله لا يهدي القوم الكافرين.

الفائدة الخامسة عشرة: أن مَنْ عَلِمَ الله تعالى منه الكفر فإنه

لا يُهدى ولا يوفق، فتكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة: ٦٨].

قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وأهل الكتاب هم: اليهود والنصارى، وهم يَدَّعون أنهم على حق وأنهم المقيمون لشرائع الله، ومع ذلك فبعضهم يقول لبعض: لستم على شيء، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣]، وكل منهم نفى أن يكون صاحبه على شيء إطلاقاً، أما الله سبحانه وتعالىٰ فهو حَكَمٌ عدل، فأمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: لستم على شيء من الدين، وإنما نفى أن يكونوا على شيء من الدين؛ لأن دينهم الذي هم عليه باطل حتى يقيموا التوراة والإنجيل، إذاً لستم على شيء من الدين؛ لأن دينهم الذي يَدَّعون أنه حق هو باطل، والباطل عدم وليس بشيء.

قوله: ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ حتى: هنا غائية، يعني: إلى أن تقيموا التوراة والإنجيل، أي: تأتوا بها قائمة فاعلين أوامرها، تاركين نواهيها، مصدقين بأخبارها، هذا معنى إقامتها، فإقامتها: تكون بثلاثة أمور: **الأول**: فعل الأوامر، **الثاني**: ترك النواهي، **الثالث**: تصديق الأخبار.

قوله: ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ التوراة: بإزاء اليهود، والإنجيل: بإزاء النصارى، ومعلوم أن اليهود لو أقاموا التوراة لآمنوا بعيسى، وأن اليهود والنصارى لو أقاموا التوراة والإنجيل، لآمنوا بمحمد ﷺ.

قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: وتقيموا ما أنزل إليكم من ربكم، والمراد به: القرآن؛ لأن التوراة والإنجيل مما أنزل، وإذا قلنا: إن المراد: بما أنزل إليكم من ربكم التوراة والإنجيل صار فيه شيء من التكرار، وإذا دار الأمر في الكلام بين التكرار وبين التأسيس، فالواجب حمله على التأسيس والمباينة فنقول: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني بذلك القرآن، ويؤيد ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣ ـ ٤] وجعل هذه الجملة خاصة بالقرآن أبلغ في رفعة القرآن، حتى يكون القرآن موازياً للكتابين جميعاً، ولا حاجة لأن نقول: ظاهرها العموم.

فإن قال قائل: القرآن نزل على أمة محمد؟ قلنا: نعم، القرآن نزل على أمة محمد وهم من أمة محمد، لكنهم من أمة الدعوة كما قال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بما جئت به، إلا كان من أصحاب النار**»[1] قال: من هذه الأمة ويشير إلى أمته عليه الصلاة والسلام والمراد: أمة الدعوة.

---

(١) تقدم في (١/ ١٦٣).

نقول: إذاً قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾ المراد به القرآن، فإذا اعترض معترض بما ذكرنا، أجيب بما أجبنا به.

وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾ في قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمۡۗ﴾ إشارة إلى أنه يلزمهم أن يقيموه؛ لأنه نزل من عند الرب، والرب: هو الخالق المالك المدبر، فإذا كان الله هو ربكم لزمكم أن تقيموا ما أنزل إليكم منه؛ لأنه ربكم وسيدكم وإلهكم.

قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾ هل النبي ﷺ إذا أمره الله تعالى أن يقول قولاً، هل نقول: إنه قاله؟ نعم، نقول: إنه قاله لا شك؛ لأنه إن لم يقله لم يبلغ رسالة ربه.

إذاً: هو قال لهم ذلك، وأعلن لهم أنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل والقرآن.

قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ﴾ انظر إلى الاحتراز ﴿كَثِيرًا مِّنۡهُم﴾ يعني: لا كلهم، بل بعضهم زاده القرآن إيماناً، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [المائدة: ٨٣] لكنَّ كثيراً منهم يزداد طغياناً وكفراً والعياذ بالله.

وإعراب قوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾: (اللام) هنا واقعة في جواب القسم المقدر، والتقدير: والله ليزيدن، والنون للتوكيد، وعلى هذا تكون الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات وهي: القسم المقدر، واللام، والنون.

وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ﴾ (ما): هذه فاعل «يزيدن»، ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وهو القرآن ﴿طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ﴾ لماذا يزيدهم طغياناً وكفراً؟ لأنهم كلما كذبوا بآية أو عصوا آية،

ازدادوا بذلك طغياناً وكفراً، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥]، فهم كلما نزلت آية ازدادوا طغياناً وازدادوا كفراً، نسأل الله العافية.

قوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لا شك أن الرسول عليه الصلاة والسلام يحزن ويأسى إذا لم يقم الناس بأمر الله؛ لأنه رسول يحب ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله، فهو يأسى حتى إن الله قال له: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر: ٩٧] وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ٣] يعني: مهلكاً نفسك ألا يكونوا مؤمنين، فلا تهتم، أدِّ ما عليك وبلغ الرسالة والباقي على الله ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥ ـ ٢٦] أي: لا تحزن وتأسف على القوم الكافرين الذين ردوا رسالتك، وهذا لا شك أنه تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام في كونه يحزن إذا لم تُجَبْ رسالته ﷺ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان أن اليهود والنصارى ليسوا على شيء، وعلى هذا فإذا زعموا أنهم مؤمنون قلنا لهم: كذبتم لستم على شيء، إلا إذا أقاموا التوراة والإنجيل.

الفائدة الثانية: أنه يجب على الإنسان أن يعلن براءته من هذا الشرك، ويبين أنهم ليسوا على شيء حتى نتبعهم لقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

الفائدة الثالثة: إعطاء كل ذي حق حقه؛ لأنه خاطبهم بأهل الكتاب، مع أنهم حقيقةً ليسوا بأهل له، إذ إن أهل الكتاب هم الذين يقومون به، كما تقول: يا أهل القرآن، يعني: الذين يقومون به، فالوصف إذا أعطي صاحبه فهو عدل، كما أن فيه فائدة ثانية وهي: أنه لكونهم أهل كتاب، يلزمهم أن يقيموه.

الفائدة الرابعة: أنه لا تتم إقامة التوراة والإنجيل إلا بإقامة القرآن؛ لأن الله اشترط ثلاثة أشياء: ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فمن ادعى أنه مقيم للتوراة وهو كافر بالإنجيل قلنا: هذا غير صحيح ودعواه باطلة، ومن ادعى أنه مؤمن بالإنجيل ولم يؤمن بالقرآن، قلنا: هذه دعوى باطلة.

الفائدة الخامسة: شرف القرآن لكونه نازلاً من عند الله.

الفائدة السادسة: أن القرآن كلام الله، وجه ذلك أن القرآن ليس عيناً قائمةً بنفسها حتى نقول: إنه مخلوق، بل هو وصف يقوم بالمتكلم به، وإذا كان وصفاً لزم أن يكون منزلاً غير مخلوق، أما قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، فهنا نقول: الأزواج مخلوقة؛ لأن الأزواج أعياناً قائمة بنفسها، وكذلك قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] أيضاً الحديد عينٌ قائمةٌ بنفسها لا يمكن أن تكون وصفاً لله، أما القرآن فهو كلام، والكلام لا بد أن يقوم بمتكلم فيكون منزلاً غير مخلوق، كما قال ذلك السلف رحمهم الله.

الفائدة السابعة: إثبات علو الله؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ والإنزال إنما يكون من أعلى.

الفائدة الثامنة: أنه يلزم من أقر بالربوبية أن يقر بالإلوهية

والشريعة لقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: من ربكم الذي لا تنكرون ربوبيته، وإذا كنتم لا تنكرون ربوبيته لزمكم أن تقوموا بأمره.

لو قال قائل: توحيد الربوبية هو الإقرار بأن الله هو المالك والخالق والرازق، لماذا اقتصر على هذه الثلاثة فقط؟

الجواب: الرب معناه الخالق المالك المدبر ولا يوجد غير هذا.

الفائدة التاسعة: إضافة ربوبية الله للكافرين، لكن هذه الإضافة ليست إضافة تشريف ولكنها إضافة إقامة حجة، فأنت مثلاً إذا قلت: إن الله تعالى رب محمد عليه الصلاة والسلام هذه إضافة تشريف، لكن بالنسبة للكفار فالإضافة لبيان إقامة الحجة عليهم.

الفائدة العاشرة: أن كثيراً من أهل الكتاب لا يزدادون بالقرآن إلا طغياناً وكفراً إما بالتكذيب وإما بالعصيان.

الفائدة الحادية عشرة: العدل في كلام الله وعدم المجازفة لقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ ولم يقل: كلهم؛ لأن الواقع أن بعضهم يزداد بالقرآن إيماناً كما تقدم.

الفائدة الثانية عشرة: جواز توكيد الكلام بما يثبت صدقه وإن كان في الأصل صدقاً، لقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ مع إن خبر الله وإن لم يكن مؤكداً فهو صدق بلا شك، لكن ما وجه تأكيده هنا؟ وجهه: أنه قد يستغرب أن يكون هذا القرآن الذي هو هدىً للناس لا يزيد هؤلاء إلا طغياناً وكفراً، فلما كان هذا محل استغراب، أكده الله عزّ وجل؛ لأن تأكيد الكلام إذا كان صادراً من صادق لا بد أن يكون له سبب وإلا لكان التوكيد لغواً.

الفائدة الثالثة عشرة: أن القرآن الكريم قد يزيد سامعه طغياناً وكفراً، وقد يزيده إيماناً وذلاً، لقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا﴾ فإنه يفهم منه أن بعضهم لا يزيده طغياناً وكفراً، بل لا يزيده إلا إيماناً وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

الفائدة الرابعة عشرة: أن الكفر يزيد وينقص، وجهه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾ وعليه فيكون هذا شاهداً مؤيداً لما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كفر دون كفر؛ لأنه إذا كان يزيد وينقص، فلا بد أن يكون الأعلى فوق الأدنى، فيكون هناك كفر دون كفر.

هل يمكن أن نقول: وفيه دليل على أن الإيمان يزيد وينقص؟ نعم، ربما نقول هذا؛ لأن الكفر إذا كان يزيد وينقص فبإزائه الإيمان فلا بد أن يكون مثله يزيد وينقص، والذي عليه أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص سواء بالأقوال أو بالأفعال أو باليقين.

ولينتبه لهذه الفائدة: الإيمان يزيد بالأقوال، فإن من ذَكَرَ الله ألف مرة ليس كمن ذكر الله مائة مرة، الأول أكثر وكذلك في الأفعال ليس من صلى مائة ركعة كمن صلى مائتي ركعة، الثاني أزيد، كذلك في اليقين: اليقين يختلف الناس فيه، الإنسان نفسه أحياناً يكون في حالة صفاء وفي حالة فراغ، ويكون قلبه خالياً من كل شيء سوى الله، فيجد لذة عظيمة في الإيمان وقوة عظيمة، حتى كأنه يشاهد الله عزّ وجل، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام في الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»[1]، ويدل لهذا،

---

(١) تقدم في (١/ ١٥٢).

أي: أن اليقين يزيد وينقص، أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] هذا وهو إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يقول: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وهذا شيء مشاهد، وليس الخبر كالمعاينة.

لو أخبرك إنسان من أوثق الناس عندك ومعه مثله أو أكثر، فإن يقينك بهذا الخبر ليس كيقينك به إذا شاهدته.

إذاً: الإيمان يزيد وينقص، وإذا كان يزيد وينقص فيجب علينا أن نلاحظ إيماننا هل زاد، هل نقص؟ فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه.

الفائدة الخامسة عشرة: عناية الله تبارك وتعالى بمحمد ﷺ لقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فإن هذه الربوبية للتشريف والتعظيم، وبيان أنه عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يزيد فيما أنزل إليه ولا ينقص؛ لأنه نزل من ربه الذي اعتنى به أتم اعتناء.

الفائدة السادسة عشرة: تسلية النبي ﷺ، أن لا يأسى على القوم الكافرين، حتى إن الله تعالى بَيَّن له في آية أخرى، أن ما حصل منه واقع بمشيئة الله، من أجل أن يطمئن كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الأنعام: ١٠٧] فإذا كان شركهم بمشيئة الله فإن الرسول لا شك أنَّه سوف يرضى، لكن لا يمنعه من الدعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

فإن قال قائل: وهل هذا أيضاً يوجه إلى الداعي إلى الله بمعنى: أنه لو جاء أحد يشكو إليك يقول: أنا نصحت هؤلاء

القوم ولكنهم لم يأخذوا بنصيحتي، بل كابروا واستهزءوا وسخطوا، هل لك أن تقول: يا أخي لا تأسَ، ولا تحزن، ولا يضيق صدرك أو لا؟ نعم، تقول هذا حتى تفرج عنه وتفسح له، لئلا يقنط، فلذلك ينبغي للإنسان إذا جاءه أحد من دعاة الخير، أو من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر يشكو إليه، أن يوسع له ويفسح له ويقول: لا تأسَ على هؤلاء، لكن بعض الناس إذا جاءه أحد يشكو يقول: والله الناس خراب من يستطيع يقدرهم إلا الله ـ نسأل الله العافية ـ سيحل بنا غضب ونقمة، ثم يدخل عليه حزناً على حزن وهذا غلط؛ لأن الداعي إلى الله إذا قام بما يجب عليه، وما وراء ذلك فهو إلى الله عزّ وجل.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة: ٦٩].

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: إيماناً حقيقياً، وليس كما قال بعضهم: إيمان نفاق؛ لأنه لا يمكن أن يعبر عن المنافق بالمؤمن ما دام على نفاقه، فلينتبه لهذا، أما قبل أن ينافق فيمكن أن يكون قد آمن ثم كفر، كما قال عزّ وجل في المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ [المنافقون: ٣] لكن يعبر عن المنافق حال نفاقه بالإسلام، لكن بالإيمان لا يمكن، ولهذا ضعف قول من قال: إن المراد بالذين آمنوا أي: آمنوا بألسنتهم دون قلوبهم، نقول: هذا لا يمكن أن يقع التعبير به في القرآن أبداً، لكن الذي حملهم على هذا، أن الله عزّ وجل قال: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٢٦] فقالوا: كيف نقول: إن الذين آمنوا، من آمن منهم؟

نقول: هذا يكون تكراراً، لكن يمكن أن نقول: «من آمن» اسم مشترك فيكون باعتبار الذين هادوا والصابئون والنصارى، أي: من دخل في الإيمان، وباعتبار الذين آمنوا، أي: من ثبت على إيمانه؛ لأن الإنسان قد يؤمن ثم يكفر ـ نسأل الله العافية ـ هذا وجه.

الوجه الثاني: أن نقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذه (إنَّ) واسمها، أما خبرها: فمحذوف دل عليه ما بعده، والتقدير إن الذين آمنوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وعلى هذا التقدير يكون قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ مبتدأ فتكون الواو للاستئناف، أو معطوفة على محل إنَّ واسمها ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ تكون مبتدأ.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ يعني: بذلك اليهود، ومعنى هادوا: رجعوا؛ لأنهم قالوا: إنا هدنا إليك، أي: رجعنا إليك وتبنا.

قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ الصابئون: أصل الصابئ هو الذي خالف دين آبائه وأجداده، يعني خرج عن دين قومه، فما المراد بهم هنا؟ قيل: إنهم فرقة من اليهود، وعلى هذا فيكون عطفها على ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ من باب عطف الخاص على العام، وقيل: إنهم فرقة من النصارى، وعلى هذا فيكون عطف النصارى عليهم من باب عطف العام على الخاص.

وقيل: وهو الأظهر أنهم فرقة مستقلة؛ لأن الله ذكرها على وجه الاستقلال، فالصابئون على دين مخالف لدين اليهود ودين النصارى، ولعلهم أخذوا من هذا الدين ومن هذا الدين، وركَّبوا ديناً لهم.

وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ الصابئون: معطوفة على ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ ولا إشكال في إعرابها على الوجه الذي تقدم، وهو أن ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ مبتدأ، فتكون عطفت على مبتدأ فترفع، ويرجح هذا آخر الآية، لكن يرد علينا أنها ذكرت في آية أخرى بالصابئين، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الحج: ١٧].

فيقال: الفرق ظاهر لأن الآية الأخيرة ليس فيها ذكر الإيمان فيما بعد، وإنما فيها ذكر عموم الأجناس من كافر ومسلم، فتكون ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ معطوفة على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على: اسم ﴿إِنَّ﴾، والخبر يأتي بعد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ فهو يفصل بين المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين والمشركين، فلا تكون نظيراً لهذه الآية، وإذا لم تكن نظيراً لها، لم يكن إعرابها كإعرابها.

وقوله: ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ هم الذين ناصروا عيسى عليه الصلاة والسلام، قيل: إنها مأخوذة من النصرة، وقيل: إنها مأخوذة من الناصرة اسم بلدة، وفي كل منهما شيء من الإشكال؛ لأن النصارى لا تتطابق في الترتيب مع النصرة ولا مع الناصرة، لكنه لا شك أن المراد بهم بالاتفاق: هم الذين تبعوا عيسى عليه الصلاة والسلام.

قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ إعراب ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ هل نقول: إنها شرطية، أو نقول: إنها اسم موصول؟ في ذلك قولان:

أحدهما: إنها شرطية، وعلى هذا فيكون جواب الشرط: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، وتكون الجملة الشرطية خبر للمبتدأ، ويجوز

أن تكون ﴿مَنْ﴾ اسماً موصولاً فتكون بدلاً، أو عطف بيان لما سبقها، ويكون محلها في الإعراب محل ما سبق، وعلى هذا فيكون الخبر قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وربطت بالفاء؛ لأن الذين هادوا اسم موصول، وهو كاسم الشرط في العموم.

قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ ما محل ﴿ءَامَنَ﴾ من الإعراب؟ إن قلنا: «من» شرطية فمحلها الجزم على إنها فعل الشرط، وإذا قلنا: اسم موصول فلا محل لها من الإعراب؛ لأنها صلة الموصول.

لكن إذا قال قائل: أين العائد على التقديرين على أنها شرط أو اسم موصول؟

نقول: العائد محذوف وقد ذكر في آية أخرى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة: ٦٢] فيكون المحذوف في هذه الآية قد دل على حذفه الآية الأخرى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ فلا بد من الإيمان بالله، والإيمان بالله يستلزم الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، فالإيمان بالله متضمن لخمسة أركان من الإيمان، والحكمة من ذلك أن الأركان الأربعة أجملت تحت الإيمان بالله، وخُص الإيمان باليوم الآخر؛ لأنه هو الذي يحمل الإنسان على العمل، إذا كان الإنسان في شك من اليوم الآخر والعياذ بالله، لن يعمل، ماذا يرجو وماذا يخاف؟ فلا يمكن الإيمان حقيقة إلا بالإيمان باليوم الآخر؛ لأن الإيمان به هو الذي يحمل على القيام بشريعة الله.

وقوله: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ هو يوم القيامة «وأل» فيه للعهد «والآخر» يعني: الذي لا يوم بعده؛ لأن نهاية مطاف الخلق هو اليوم الآخر إما إلى الجنة وإما إلى النار، جعلنا الله من أهل الجنة، قال شيخ الإسلام رحمه الله: يدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، فكل ما أخبر به الرسول ﷺ مما يكون بعد الموت فهو داخل في الإيمان باليوم الآخر: فتنة القبر، وعذاب القبر، ونعيم القبر، وكذلك ما يكون بعد قيام الساعة من الحساب والميزان والكتب والصراط والحوض والشفاعة وغير ذلك.

لو سأل سائل: عبارة افعل الذي عليك والباقي على الله، هل تصح أو لا؟

فالجواب: نعم تصح، والباقي يعني ما وراء طاقتك على الله، يعني: ليس عليك، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥ ـ ٢٦] ومثل ما نقول: أعطِ فلاناً عشرة ريالات والباقي على فلان، فأيضاً أنت الآن الذي عليك هذا وقد بلغت، والباقي على الله لست مكلفاً به.

ولو سأل: هل صحيح قول من يقول: بأن أمة الإسلام لن يقوم لها قائمة حتى ينزل الله عزّ وجل عيسى عليه الصلاة والسلام ويبعث المهدي؟

فالجواب: والله لا أدري، والظاهر أنها لا تصح، أما في طائفة فقطعاً؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «**لا تزال**

طائفة من أمتي على الحق»[١] أما في الكل فلا أدري، ولكن قد يكون؛ لأن حقيقة الأمر إذا رأيت المسلمين اليوم، ولا أدري عن المستقبل وجدتهم أنهم في حال لا تستقيم على النصر متشتتون متفرقون، وبعضهم يحكم بغير ما أنزل الله، ويستهزئ ويسخر بالدين وأهل الدين، نسأل الله أن يعيد للمسلمين مجدهم.

قوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يعني: عمل عملاً صالحاً، والعمل الصالح: هو ما جمع شرطين: الإخلاص لله عزّ وجل، والثاني: المتابعة للرسول ﷺ، وإن شئت فقل: الإخلاص لله والمتابعة لشريعته، حتى يكون أعم، فيشمل الذين آمنوا بالرسل السابقين واتبعوا شرائعهم، فيقال: العمل الصالح ما جمع بين أمرين: الإخلاص لله والمتابعة للرسول الذي تكون شريعته قائمة.

فالعمل الصالح ضده العمل الفاسد، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»**[٢]، وهذا فقدت فيه المتابعة، وقال له النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه أنه تعالى قال: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»**[٣]، وهذا فُقِدَ فيه الإخلاص.

واعلم أن الإخلاص ليس بالأمر السهل، الإخلاص من أصعب ما يكون، حتى أن بعض السلف يقول: ما جاهدت نفسي

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: **«لا تزال...»**، حديث رقم (٦٨٨١) عن المغيرة بن شعبة، ومسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: **«لا تزال طائفة...»**، حديث رقم (١٩٢٠) عن ثوبان.

(٢) تقدم في (١/ ١١٠).

(٣) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله...، حديث رقم (٢٩٨٥) عن أبي هريرة.

على شيء مجاهدتها على الإخلاص، ولهذا كان النبي ﷺ يستعيذ بالله أن يشرك بالله وهو يعلم ويستغفره لما لا يعلم[١]، فالشرك أخفى من دبيب النمل على الصخرة السوداء[٢]، لذلك يجب على الإنسان دائماً أن يغسل قلبه من أدران الشرك، ويتفقده حتى لا يقع فيه وهو لا يعلم.

قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أولاً: الإعراب: ﴿لَا خَوْفٌ﴾ بالرفع، مع أن «لا» في مقام النافية للجنس، والمعروف أن لا النافية الجنس تنصب الاسم وترفع الخبر كما قال ابن مالك رحمه الله:

عمل إن اجعل للا في نكره مفردة جاءتك أو مكرره

فهنا نقول: لا، لم تنصب؛ لأنها كررت، وإذا كررت ألغيت، فيكون قوله: ﴿لَا خَوْفٌ﴾ لا: نافية، ولا نقول: للجنس، نقول: ليس عليهم خوف، أي: من المستقبل لأنهم آمنون ومطمئنون، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: على ما مضى؛ لأن ما مضى كله قد استوعبوه بطاعة الله، فلا يحزنون على ما مضى؛ لأنهم رضوا بعاقبته وثوابه ولا يخافون من المستقبل.

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، كتاب الأذكار، باب فضل الدعاء، حديث رقم (٧١٦)، وأبو يعلى في مسنده (١/ ٦٠) (٥٨) عن أبي بكر الصديق.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٩) عن عائشة، وأبو يعلى في مسنده (١/ ٦٢) (٥٨، ٦١) عن أبي بكر الصديق، ولفظ الحاكم: «**الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا في الليلة الظلماء**».

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن من اليهود والنصارى والصابئين من هو مؤمن بالله واليوم الآخر، لقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وهو كذلك، فمثلاً اليهود الذين آمنوا بموسى حين كانت شريعته قائمة يدخلون في كونهم مؤمنين بالله واليوم الآخر، والنصارى الذين آمنوا بعيسى حين كانت الشريعة قائمة كذلك، والمؤمنون بمحمد ﷺ كذلك.

الفائدة الثانية: أن ثواب الله عزّ وجل لا ينبني على حسب ولا نسب، وإنما ينبني على الإيمان والعمل الصالح كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

الفائدة الثالثة: أنه ينبغي لنا عند التعبير أن نعبر عن اليهود باليهود وعن النصارى بالنصارى، لكن صار القسيسون من النصارى يلقبون أنفسهم بالمسيحيين، ليضفوا على ما هم عليه من الباطل ثوب الحق؛ لأنه إن انتسبوا إلى المسيح انتسبوا إلى دينه، ولكن المسيح بريء منهم؛ لأنهم لم يقبلوا بشارته ولم يصدقوا بها، ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ الذي أخذ الله على النبيين الميثاق أنهم يؤمنون به وينصرونه، فوصفهم الحقيقي ولقبهم الحقيقي هو النصارى، وما زال أهل العلم الذين يكتبون في التاريخ من المسلمين وغير المسلمين ما زالوا يسمونهم بالنصارى، حتى عظمت دولة النصارى واستولت على كثير من البلاد الإسلامية وسمت نفسها بالمسيحية.

الفائدة الرابعة: إثبات اليوم الآخر، لقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ ويدخل في الإيمان باليوم الآخر كل ما يكون

بعد الموت، فسؤال الميت في قبره عن ربه ودينه ونبيه من أحوال اليوم الآخر، ونعيم القبر وعذابه كذلك، وقيام الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلاً كذلك[1]، فكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت فإنه داخل في الإيمان باليوم الآخر.

الفائدة الخامسة: أن الإيمان وحده لا يكفي، لقوله ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فلو أن الإنسان كان مقراً بالله وباليوم الآخر وبالملائكة وبالكتاب والنبيين والقدر، ولكن ليس عنده عملٌ صالح، فإن عليه الخوف وله الحزن؛ لأن الله لم ينفِ الخوف والحزن إلا عمن آمن وعمل صالحاً.

فإن قال قائل: على هذا التقرير هل ترون أن ترك العمل الصالح، يكفر به الإنسان؟

الجواب: لا، لأن التكفير شيء، والخوف من الذنوب والحَزَن على ما فات شيء آخر، ولا نطلق الكفر إلا على من كفره الله ورسوله؛ لأن التكفير حكم شرعي يترتب عليه أمور عظيمة، والأحكام الشرعية لا تتلقى إلا من الشرع، فلا يجوز أن نصف أحداً بأنه كافر دون أن يكون كافراً بمقتضى دلالة الكتاب والسنة، ولا أن نسلب عنه الكفر إذا كان الكتاب والسنة يقتضي

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، حديث رقم (٦٥٢٧)، صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم (٢٨٥٩) عن عائشة، ولفظ البخاري: «**تحشرون حفاة عراة غرلاً**». قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! فقال: «**الأمر أشد من أن يهمهم ذاك**».

كفره، ولكن يبقى النظر إذا جاء إطلاق الكفر في الكتاب والسنة فهل نحمله على الكفر الأكبر أو على الكفر الأصغر؟

الجواب: الواجب أن نحمله على الكفر الأصغر؛ لأن الأصل بقاء إسلام المسلم، فلا نخرجه من دائرة الإسلام إلا بيقين؛ لأن اليقين لا يرفع إلا بيقين، ولا يمكن أن يزال اليقين بالشك، فإذا جاء في القرآن والسنة إطلاق الكفر على عامل عمل كذا وكذا، وشككنا هل المراد الكفر المخرج من الملة أو الكفر الأصغر، فالواجب أن نحمله على الكفر الأصغر؛ لأن الأصل بقاء الإسلام حتى نتيقن أنه خرج من الإسلام، ولأن التعبير بالكفر في مواطن كثيرة يتيقن الإنسان أنه الكفر الأصغر بدلالة القرآن والسنة، مثال ذلك: قول النبي ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»[1].

إذا قال قائل: إذاً من قاتل المؤمنين فهو كافر؛ لأن النبي ﷺ يقول: «**قتاله كفر**» نقول: هذا ليس بصحيح؛ لأن الله قال في كتابه العزيز: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، ولو كان المقاتل كافراً كفراً أكبر لم يكن أخاً لنا، وكذلك قال في القصاص فيمن قتل المؤمن: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] أخيه أي: القاتل، مع أن قتل المسلم كفر.

فيقال: هذا يدل على أن إطلاق الكفر لا يقتضي الخروج من الإسلام، وكذلك قوله ﷺ: «**اثنتان في الناس هما بهما كفر**:

---

(١) تقدم في (١/ ٢٩٩).

النياحة والطعن في النسب»[١]، وأمثال هذا كثير، وعلى هذا فنقول: الكفر حكم شرعي لا يجوز إطلاقه إلا على من أطلقه الله ورسوله عليه.

ثم الكفر نوعان: أصغر وأكبر، فإذا علمنا أن هذا من الكفر الأكبر بمقتضى دلالة الكتاب والسنة، قلنا: هو كفر أكبر، وإذا لم نعرف وجب حمله على الكفر الأصغر؛ لأن الإسلام متيقن، والكفر مع الاحتمال ليس بمتيقن، ولأنه لا يمكن أن نستبيح دم امرئ مسلم إلا بنص صريح واضح.

فإذا قال قائل: إذا ثبت أن هذا كفر، فهل نحكم به على الشخص المعين أو لا؟

نقول: نعم، نحكم به على الشخص المعين، إذا تمت شروط التكفير فإننا نحكم عليه بأنه كافر بعينه، فلو رأينا رجلاً لا يصلي أبداً قلنا: هذا كافر كفراً مخرجاً عن الملة، للأدلة المعروفة التي لا تخفى على كثير من طلبة العلم.

لو قال قائل: الذين يقولون: إن تارك الصلاة ليس بكافر، يستدلون بأن النبي ﷺ قال: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر**»[٢] وهذا كفر دون كفر، كيف نرد عليهم؟

---

(١) تقدم في (١/ ٤٣٥).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، حديث رقم (٢٦٢١)، والنسائي، كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة، حديث رقم (٤٦٣)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، حديث رقم (١٠٧٩)، وأحمد (٥/ ٣٤٦) (٢٢٩٨٧) عن بريدة.

الجواب: نرد عليهم بنفس الحديث؛ لأن النبي ﷺ قال: «**بيننا وبينهم**»، أي: فاصل، فإذا كان هذا بيننا وبينهم معناه فاصل بين الكفر والإيمان، وأيضاً حديث جابر رضي الله عنه قال عليه الصلاة والسلام: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»[1] فما دام الرسول قال: «**من تركها فقد كفر**» وأطلق كيف نقيدها؟ وإذا قيدناها بمن جحد الفريضة، قلنا: هذا غلط؛ لأن من جحد الفريضة يكفر ولو صلى، والحديث يقول: «**فمن تركها**» وإذا قال: المراد تركها مع الجحد؛ فنقول: هذا الرجل ألغى الوصف الذي اعتبره الشرع وأتى بوصف لم يعتبره الشرع؛ لأن الجحد يكفر به الإنسان بالإجماع، إلا حديث عهد بالإسلام لا يدري فهذا يُعَلَّم.

فإن قال قائل: وهل نكفره بعينه؟ قلنا: نعم، نكفره بعينه وندعوه إلى الصلاة، إن صلى ارتفع عنه الكفر والقتل، وإن لم يصلِ قتل كافراً بعينه، وكذلك لو رأينا شخصاً يسجد للصنم، والسجود للأصنام كفر أكبر مخرج عن الملة، نحكم عليه بعينه؛ بأنه كافر ونستبيح دمه وماله، ولو سمعنا أحداً يسب الله ورسوله، نحكم عليه بعينه أنه كافر، ونستتيبه على القول الراجح، وإذا تاب رفعنا عنه القتل ووصف الكفر وإلا قتلناه كافراً وهلمَّ جرًّا.

الحاصل أن ظن بعض الناس أنه لا يُكَفَّر أحد بعينه إلا إذا جاء في القرآن والسنة أنه كافر بعينه، هذا غلط عظيم، ولو أخذنا بهذا القول ما بقي أحد كافر، نعم لا نحكم له بالنار إلا إذا عُيِّنَ في الكتاب والسنة، وهناك فرق بين الحكم بالكفر وبين الشهادة له

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، حديث رقم (٨٢) عن جابر بن عبد الله.

بالنار، فإننا لو شهدنا بأنه كافر، لا نقول: إنه في النار بعينه، لكن نقول: هذا كافر، وكل كافر في النار، فصحيح كل كافر في النار، وأهل السنة والسلف أنكروا الشهادة لمعين بألقاب المدح والثناء ولم ينكروا التعميم، وقد خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إنكم تقولون: فلان شهيد فلان شهيد، ولعله حمَّل بعيره يعني غلولاً، لا تقولوا: شهيد ولكن قولوا: من قتل في سبيل الله فهو شهيد[(١)]. فيجب أن نعلم الفرق بين الحكم بالكفر وبين الشهادة بالنار.

تقدم أنه يحكم بكفر المعين إذا تمت شروط التكفير، وشروط التكفير لا بد من معرفتها:

أولاً: أن يكون الإنسان قاصداً لما قال أو فعل، فإن لم يكن قاصداً فلا شيء عليه؛ لأنه مغلوب، وجميع الألفاظ التي يغلب عليها الإنسان، لا حكم لها لا في الكفر ولا في الطلاق، ولا في العتق، ولا في الوقف، ولا غير ذلك، فإنه لا حكم لها؛ لأن النبي ﷺ قال: «**لا طلاق ولا عتاق في إغلاق**»[(٢)]، وقال الله عزّ وجل: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، فلا بد من القصد، بناءً على ذلك: لو أكره الإنسان على الكفر، فإنه لا يكفر بنص القرآن قال تعالى:

---

(١) رواه النسائي، كتاب النكاح، باب القسط في الأصدقة، حديث رقم (٣٣٤٩)، وأحمد (١/ ٤٠) عن أبي العجفاء.

(٢) رواه أبو داود، كتاب الطلاق، باب في الطلاق على الغلط، حديث رقم (٢١٩٣)، وابن ماجه، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، حديث رقم (٢٠٤٦)، وأحمد (٦/ ٢٧٦) (٢٦٤٠٣) عن عائشة.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل: ١٠٦]، ولو أن إنساناً قال كلمة الكفر من شدة الغضب، فإنه لا يكفر لعدم القصد لأنه ما قصد أن يتكلم بهذا، لكن غُلِب عليه حتى تكلم فلا يكفر، وعكس الأول، لو أن الإنسان قال كلمة الكفر من شدة الفرح عكس الأول، فإنه لا يكفر؛ لأنه مغلوب ولم يقصد، والحديث في هذا صريح في «**قصة الرجل الذي أضل راحلته وعليها طعامه وشرابه حتى أيس منها، فنام تحت شجرة فإذا بالناقة قد حضرت فأخذ بزمامها وقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**»[1]، فليس عليه شيء، وكلامه هذا لا يترتب عليه شيء؛ لأنه عن غير قصد، لكن مع الفرح الشديد أخطأ.

ومن ذلك أيضاً الخطأ في التأويل، لو أن إنساناً فعل ما يكفر تأويلاً، وظناً منه أن هذا هو الحق، فإنه لا يكفر؛ لأنه لم يقصد الكفر، وإنما فعل هذا الشيء أو قال هذا الشيء بناءً على أنه حق وحلال، ولو علم أنه كفر لكان أشد الناس نفوراً منه، ويشهد لذلك «**قصة الرجل الذي كان مسرفاً على نفسه، فأمر أهله إذا مات أن يحرقوه ويلقوه في اليم وقال: والله لئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين** ـ فهذا إنما قال هذا الشيء خوفا من عقاب الله، وأَمَرَ بهذا الشيء خوفاً من عقاب الله

(١) الحديث بتمامه عند مسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، حديث رقم (٢٧٤٧)، وهو عند البخاري مختصراً، كتاب الدعوات، باب التوبة، حديث رقم (٥٩٥٠) عن أنس بن مالك.

وظناً منه أنه لو بعثه الله لعذبه عذاباً شديداً ـ **فجمعه الله عزّ وجل وسأله: لماذا فعلت هذا؟ قال: يا رب فعلت هذا خوفاً منك، فغفر الله له»**[1] اللهم لك الحمد: غفر الله له؛ لأنه إنما فعل هذا خوفاً من عقاب الله عزّ وجل، فظن أن هذا لا يضره.

ومنهم على بعض التفاسير فعل يونس عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وألا نضيق عليه أشد من الضيق الذي حصل له، والذي حصل له من الضيق أشد، ولكنه عليه الصلاة والسلام لا شك أنه ما قال هذا إلا عن تأويل، أو ما ظنه إلا عن تأويل، وهذه المسألة مهمة بنى عليها الإمام أحمد رحمه الله في إحدى الروايتين عنه: أن الخوارج ليسوا كفاراً؟ لأنهم استباحوا دماء المسلمين بتأويل، هم يرون أنهم يتقربون إلى الله بقتل المسلمين؛ لأنهم لا يرون أنهم على حق، أي: أن المسلمين ليسوا على حق، فهم متأولة، ومن العلماء من أطلق كفرهم بناءً على الأحاديث الواردة فيهم، والآخرون قالوا: هذا في الخوارج المعينين الذين خرجوا على علي بن أبي طالب، وليس كل خارج يكون كافراً، فالمهم الآن اشتراطنا القصد وهذا أهم شيء.

الجاهل غير قاصد للمخالفة، ولينتبه طالب العلم لمسألة القصد فهي مهمة جداً جداً، فالجاهل الذي يسجد للصنم ظناً منه أنه ليس حراماً؛ لأنه عاش في بلد الكفر وكان حديث الإسلام،

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: ١٥]، حديث رقم (٧٠٦٧)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله، حديث رقم (٢٧٥٦) عن أبي هريرة.

فظن أن هذا لا يضر، فهل نقول: إنه كافر؛ لأنه مشرك أو لا؟ لا نقول هذا، حتى نُعَلِّمُهُ أن هذا شرك، فإذا أصر على ذلك وقال: إنه وجد أباه على ذلك؛ صار كافراً.

الزنا حرام بإجماع المسلمين، فلو أنكر أحد تحريمه لأنه لم يعرف الإسلام، لأنه أسلم حديثاً فإنه لا يكفر لأنه لا بد له من العلم، وهذا تدل عليه أحاديث كثيرة وآيات كثيرة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: ٥٩] ومن الظالم؟ الظالم: الذي يفعل المخالفة عن قصد وعلم، وأما من فعلها عن جهل أو خطأ في تأويل أو غيره فليس بظالم.

فلا بد من مراعاة هذه الأشياء لئلا تزل القدم، فتكفر من لم يكفره الله ورسوله، وإذا كفرت من لم يكفره الله ورسوله باء الكفر عليك ـ نسأل الله العافية ـ كما جاء في الحديث الصحيح: «**أن من دعا رجلاً بالكفر، أو قال: يا عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه**»[1] أي: رجع عليه.

عكس ذلك من لا يكفرون بترك الأعمال أبداً، حتى ما جاء به الشرع لا يقرون به، فيقولون: إنه لا كفر إلا في الاعتقاد فقط، وأما الأعمال فليس فيها كفر، يزني، يسرق، يقتل، يترك الصلاة، يترك الزكاة، يترك الحج، ولا يكفر، وهذا خطأ، ودائماً الحق

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم، حديث رقم (٦١) عن أبي ذر.

يكون بين طرفي نقيض إما إفراط وإما تفريط، والواجب علينا أن نتعبد لله عزّ وجل بما نذكر من أحكامه وبما نفعل من شريعته، فلا نذكر من أحكامه ما لم يذكره، إذا كان الله يقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦] فكيف بالذي يقول: هذا كفر وهذا إسلام، هذا أشد؛ لأن الكفر يترتب عليه أحكام عظيمة، يترتب عليه أن هذا الذي حكمنا بكفره دمه حلال، وماله حلال ولا تبقىٰ معه زوجته، ولا يدفن مع المسلمين، وإذا كان إماماً يجب الخروج عليه، وما أشبه ذلك من الأمور العظيمة، هذه ليست كلمة تقال، المسألة خطيرة جداً.

ثم بعد ذلك هؤلاء الذين يكفِّرون من لم يكفره الله ورسوله، هم يكفرون بقتالهم المسلمين، قتالهم المسلمين كفر كما جاء في الحديث الصحيح[1]، وإذا قلنا: إنه كفر أصغر كما تدل عليه آية الحجرات، قلنا: ولكنه يحتمل أن تنجر به المعاصي والكبائر، حتى يكفر كفراً أكبر.

فالمهم أن في مثل هذه المسائل يجب علينا ألا نتقدم بين يدي الله ورسوله، وألا نكفر من لم يكفره الله ورسوله، وألا نحجم عن تكفير من كفره الله ورسوله، الحمد لله، الأمر إلى الله ليس لنا ولا لفلان ولا لفلان.

لو قال قائل: ذكرتم أن الشرط الأول أن يكون الإنسان قاصداً لما قال أو فعل، هل هناك شروط غيرها كالعلم مثلاً؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، حديث رقم (٥٦٩٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»، حديث رقم (٦٤) عن ابن مسعود.

الجواب: العلم داخل في القصد، وحقيقة أن الشرط الوحيد الأكيد هو الذي ذكرت، وهو القصد وأما الجاهل، فقد قصد العمل لكن لم يقصد المخالفة، ولهذا كان القول الراجح في الحنث في الأيمان أنه إن حنث في يمينه جاهلاً أو ناسياً فلا كفارة عليه، فلو قال: والله لألبسنَّ هذا الثوب، ثم وجد ثوباً معلقاً فلبسه ولا يدري أنه الثوب الذي حلف عليه فليس عليه شيء، المهم قد تكون جميع الشروط التي تذكر تعود إلى هذا الشرط.

لكن قد يقول قائل: ما رأيكم في المستهزئ أيكفر أو لا؟

الجواب: يكفر بنص القرآن، فكيف يتفق هذا مع القول بأنه يشترط القصد؟ نقول: نعم؛ لأن المستهزيء قصد الفعل أو القول لكن لم يدرِ عما يترتب عليه، نظير ذلك الإنسان الذي جامع في نهار رمضان يدري أنه حرام لكن لا يدري ماذا يترتب عليه، نقول: يجب عليه الكفارة.

لو قال قائل: نجد أناساً يقولون: إن الكفر يكون بالأعمال، ويقولون: الحكم بغير ما أنزل الله عزّ وجل إذا تقرر وصار عاماً وليس في مسألة واحدة، إنما مقرراً ومشروعاً مستبدلاً به حكم الله عزّ وجل، فإنه كفر، ويجب علينا أن نكفر من أقر هذا الحكم حتى ولو كانت أكثر أحكامه بما أنزل الله عزّ وجل لكنه قرر عشرة بالمائة من أحكامه من غير ما أنزل الله وأقرها وناضل عنها فإنه يكفر، هل هذا صحيح أم ماذا؟

الجواب: ينظر هل هو عن قصد، هل هو عن تأويل، وهل هو أراد أن يستبدل شريعة الله بشريعة أخرى؟ الناس يختلفون؛

لأن الذي يحكم بغير ما أنزل الله قد يكون ظالماً، يعني يريد أن يضر المحكوم عليه، لا يريد إلا هذا، هذه معصية من المعاصي كما لو أخذ ماله بدون حكم، أو يريد مصلحة لنفسه، هو لا يريد أن يأخذ من المحكوم عليه شيئاً لكن يريد مصلحة لنفسه، فيحكم بغير ما أنزل الله، هذا أيضاً لا يكفر بلا شك، هذا يكون فاسقاً، وتارة يحكم بغير ما أنزل الله غير راض بحكم الله، فهذا يكفر؛ لأنه أنكر الشريعة، وتارة يحكم بغير ما أنزل الله متأولاً، إما بنفسه وإما بما يزين له.

ولنضرب لهذا مثلاً: بعض العلماء من المسلمين يقولون: مسائل الحياة جعل الشرع مطلقة، ينظر الإنسان ما هو أصلح للناس ويفعله، ثم يستدلون بأشياء هي شبهات ليست بحجج، فيقولون: إن الرسول ﷺ قدم المدينة ووجدهم يلقحون النخيل، فقال لهم: **«ما هذا؟»** كأنه يقول: اتركوه لا تلقحوه، فتركوه ففسد الثمر، فجاءوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وقالوا له: يا رسول الله، هذا الثمر فسد، قال: **«أنتم أعلم بأمر دنياكم»**[1] أخذ بعض الناس من قوله: **«أنتم أعلم بأمور دنياكم»** أي: الذي يرونه من المصلحة يفعلونه، حتى الربا الذي يسمونه الربا الاستثماري يقولون: إنه جائز؛ لأن الرسول ﷺ قال: **«أنتم أعلم»**، وما دام أن البنك مثلاً يعطي هذا الفقير أموالاً عظيمة ينشئ بها المصانع أو يحرث بها الأراضي، أو يتجر بها، فهو منتفع والفقير منتفع،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي، حديث رقم (٢٣٦٣) عن أنس.

هذه مصلحة للطرفين، وما دامت مصلحة للطرفين فإنه حلال، فيموهون بمثل هذا.

فإذا كان الحاكم جاهلاً بأحكام الشرعية، وجاءته بطانة تلبس عليه الأمور ربما أنه يميل إليها، فغلط عظيم إذا كفرناه كيف نحكم بكفره، ولم تتم الشروط، لا بد من الشروط، لكن يجب على أهل العلم أن يبينوا أن هذا حرام وأنه لا يجوز، وتقوم عليه الحجة.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المائدة: ٧٠].

قوله: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكدات وهي: القسم المقدر، واللام، وقد، والضمير في قوله ﴿أَخَذْنَا﴾ يعود إلى الله عزّ وجل، وجاء بهذه الصيغة تعظيماً لنفسه تبارك وتعالى؛ لأنه أعظم العظماء.

وقوله: ﴿مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الميثاق هو العهد الثقيل، كأنه وَثَقَ به المعاهد، وقد بَيَّنَ الله في هذه السورة ما هو العهد الذي أخذ عليهم، وما هو العهد الذي لهم عند الله، فقال الله تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: ١٢] هذا العهد الذي أُخِذَ عليهم، خمس مواد في هذا الميثاق أخذها الله تعالى على بني إسرائيل، وجعل لهم عهداً على الله في قوله ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [المائدة: ١٢].

قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ منهم من كان من أولي العزم كموسى وعيسى، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٢] وقوله تعالى عن موسى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥] وفي سورة الصف ذكر هذا وهذا، ومنهم من دون ذلك، أرسل الله إليهم الرسل.

وقد قال بعض العلماء: تحتمل الآية أن العهد الذي أخذه الله على بني إسرائيل؛ هو ما فطر الله الخلق عليه من توحيده تبارك وتعالى، فيكون في قوله: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: بالتوحيد ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ بالرسالة، للجمع بين الإيمان بالله والإيمان بالرسل.

وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ لم يبين الله تبارك وتعالى عددهم؛ لأن المهم الجنس وليس العدد، فماذا كان موقفهم من الرسل؟

قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ كلما: أداة شرط، وهي مع كونها شرطية تفيد التكرار، انظر إلى قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠] تفيد التكرار، والشرطية يعني أنهم لا يمشون إلا إذا أضاء لهم، وكل ما أضاء لهم مشوا فيه، وفي هذه الآية: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟﴾ بعض المفسرين زعم أن في الآية حذفاً، والتقدير: كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم عصوا ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون، ولكني أرى أنه لا حاجة لهذا التقدير، وإذا لم يكن حاجة للتقدير فإن

تقديره يكون زيادة لا محل لها، بل نقول: كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقاً من الرسل، وقتلوا فريقاً من الرسل.

وقوله: ﴿جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ﴾ أي: بم لا تريده وتميل إليهم، لم يستجيبوا، بل كان رد فعلهم إما القتل وإما التكذيب.

قوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ﴾ (فريقاً) هنا مفعول مقدم لكذبوا، وجملة كذبوا جواب الشرط أي: جواب «كلما»، أي: كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقاً، ولم يقل: كذبوه؛ لأن منهم من كُذِّب ونجا من القتل ومنهم من قُتل، ولن يقتل إلا بعد أن يُكذب.

قوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ ولم يذكر الله تعالى فريقاً ثالثاً وذلك لقلته وهو الإيمان به، يعني: وفريقاً يؤمنون به ولكنه قليل، وكما سبق: إن القليل لا يعتبر ولهذا يهمل ذكره دائماً.

وقوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ﴾ التكذيب هو: رد خبر المخبر، فإذا قال لك فلان: قام زيد، فقلت: لم يقم؛ هذا تكذيب؛ لأنك رددت خبره.

وقوله: ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ القتل معروف، وأتى في القتل بكلمة يقتلون، إشارة إلى استمرار قتلهم للأنبياء؛ لأن الفعل المضارع يدل على الاستمرار، والماضي يدل على الماضي والانتهاء، وربما يكون في هذا ـ والله أعلم ـ إشارة إلى أنهم لا يزالون يقتلون الأنبياء حتى آخرهم عليه الصلاة والسلام وهو محمد ﷺ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تأكيد الكلام بالقسم وغيره من المؤكدات ولو كان المخبر به صادقاً، لقوله: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فأكد الله تعالى كلامه بالقسم واللام وقد.

فإن قال قائل: أليس الله تعالى أصدق القائلين بلا توكيد؟

الجواب: بلى، لكن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال؛ لأن مطابقة الكلام لمقتضى الحال هو البلاغة، فإذا كان كذلك فالقرآن أبلغ الكلام، فإذا اقتضت الحال أن يؤكد الكلام أكد، وهنا الحال تقتضي التأكيد لتقوم الحجة على بني إسرائيل؛ لأن الله تعالى أخذ منهم الميثاق وانقسموا إلى فريقين.

الفائدة الثانية والثالثة: أن الله تعالى أخذ الميثاق على بني إسرائيل ولم يقتصر على ذلك، إذا قلنا: إن المراد الميثاق الفطرة، بل أرسل إليهم رسلاً تأييداً للفطرة.

ويتفرع على هذه الفائدة: رحمة الله تبارك وتعالى بعباده، وأنه لم يكلهم سبحانه وتعالىٰ إلى ما علموه بفطرهم، بل أرسل إليهم الرسل لتؤكد ذلك.

الفائدة الرابعة: حكمة الله تعالى بإرسال الرسل أفراداً وجماعات، لقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ بنو إسرائيل فيهم رسل متعددون، فمثلاً إبراهيم ولوط كانا في زمن واحد، ويوسف وأبوه في زمن واحد، ويعقوب وإسحاق في زمن واحد، لكن ببعثة النبي ﷺ لا يمكن أن يكون هناك نبيان أو رسولان، لماذا؟ لأنه خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام.

الفائدة الخامسة: نقض بني إسرائيل للعهد، لقوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾، وحينئذٍ لم يقوموا بالعهد.

الفائدة السادسة: التحذير مما فعلت بنو إسرائيل من تكذيب الرسل والعدوان عليهم؛ لأن الله لم يقص علينا قصص الأنبياء وقومهم؛ لنعلمها تاريخياً فقط؛ بل لنعتبر بها، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

الفائدة السابعة: أن بني إسرائيل لا تؤمن إلا بما وافق هواها، لقوله: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟﴾ إلى آخره.

الفائدة الثامنة: أن المتكلمين الذين بنوا أصول عقيدتهم على العقل كالمعتزلة، والجهمية، والأشعرية، وأمثالهم فيهم شبه من اليهود، فإنهم إذا أتاهم النص بما لا يرون كذبوه إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، أو حرفوه إن لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً؛ لأنهم يرون مرجع ما أخبر الله به عن نفسه العقل، فإذا جاء النص بما لا يهوون حسب عقولهم كذبوه وأنكروه، إن استطاعوا التكذيب ومن الذي ادعوا أنه كذب أخبار الآحاد الصحيحة الثابتة في الصحيحين وغيرهما.

يقولون: أخبار الآحاد لا يمكن أن تثبت بها عقيدة؛ لأنها خبر واحد، والخبر الواحد يلحقه الظن، والظن لا يمكن أن تُبنى عليه عقيدة، وعلى هذا يُرد أكثر الأحاديث الواردة في الصحيحين؛ لأن أكثرها أخبار آحاد، ثم نقول لهم: هل تقبلون خبر الواحد في الأحكام كالأوامر والنواهي؟ سيقولون: نعم، نقول: قبولكم ذلك مع أن الخبر يدل على وجوب، أو تحريم، أو كراهة، أو استحباب، وهذا لا بد منه، بمعنى لا بد أن تصلي

وأنت تعتقد أنها فريضة واجبة وهذه عقيدة، لكن هذه عقيدة فيما فُرِض على الإنسان أو فيما طولب به الإنسان، وتلك عقيدة فيما أثبت الله لنفسه.

وعليه فنقول: حتى أخبار الأحكام تستلزم العقيدة، إذ إن كل حكم لا بد أن يُعْتَقد فيه الوجوب أو الاستحباب أو الكراهة أو التحريم، المهم أن المتكلمين الذين ردوا ما لا تقتضيه عقولهم يُشْبِهُون بني إسرائيل الذين إذا جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقاً وقتلوا فريقاً.

الفائدة التاسعة: الحذر من هوى النفس، وأن هوى النفس قد يؤدي إلى الهلاك، وإلى فعل ما يقبح شرعاً وعقلاً.

الفائدة العاشرة: أن بني إسرائيل فريقاً منهم كذبوا الرسل، وفريقاً يقتلون الرسل، ولا يبالون بذلك؛ لقوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المائدة: ٧١].

قوله: ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ حسبوا بمعنى ظنوا، ﴿أن لا تكون فتنة﴾ فيها قراءتان: ﴿ألا تكونُ﴾ بضم النون و﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ بفتح النون، فعلى قراءة الضم تكون «أن» مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، وجملة «تكون» في محل رفع خبرها، وعلى قراءة النصب تكون «أن» مصدرية و«لا» نافية، و«تكونَ» فعل مضارع منصوب بـ«أن» المصدرية، فهنا سلط العامل على ما بعده مع الفصل بـ«لا» النافية.

حينئذٍ يسوغ لنا أو ينبغي لنا أن نتكلم على «أن»، فـ«أن» إذا كان ما قبلها عِلْمَاً فإنه يجب الرفع، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [طه: ٨٩]، وإذا كان ما قبلها يفيد الظن جاز الوجهان، وإذا كان ما قبلها ليس علماً ولا ظناً وجب النصب، فمثلاً تقول: يعجبني من الطالب ألا يجادل، كيف نقرأ حركة اللام؟ ألا يجادلَ فيتعين النصب، وإذا كان ظناً تقول: علمت ألا يكونُ كذا، وتكون «أن» المخففة من الثقيلة، فإذا كان ظناً جاز فيها الوجهان.

في الآية الكريمة: ﴿وَحَسِبُوٓاْ﴾ أي: ظنوا، ولذلك جاز الوجهان؛ النصب والرفع، ﴿وحَسَبُوا أَلَّا تَكُونُ فِتْنَةٌ﴾، ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، أي: حسبوا ألا يكون من جراء فعلهم هذا وهو التكذيب والقتل ألا تكون فتنة، أي: ألا يفتنوا بتسليط الأعداء عليهم، أو بعذاب يعاقبون به، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] فاستمروا في طغيانهم، ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ عموا عن الحق فلا يرونه، وصموا عنه فلا يسمعونه، ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بعد أن أراهم شيئاً من العذاب تاب الله عليهم، ثم رجعوا لكن لم يرجعوا كلهم، بل بعضهم انتفع بهذه الفتنة التي تاب الله عليهم بعدها، وبعضهم استمر، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ فصار بنو إسرائيل:

أولاً: عموا وصموا جميعاً، ثم تاب الله عليهم، ثم رجعوا لكن لم يرجعوا كلهم ولكن البعض، عموا وصموا كثير منهم، والذين لم يعموا ولم يصموا قليل.

قال بعض العلماء: أن هذا هو ما ذكره الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ هذا بعد التوبة ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٧]، لكن سياق الآية في الإسراء لا يناسب ما في هذه السورة، فالذي في هذه السورة أنهم قتلوا وكذبوا وظنوا أن لا يكون لذلك أثر، ولكن كان له أثر، ما هذا الأثر؟ لا ندري ـ الله أعلم ـ بعد هذا الأثر ما الذي حصل منهم؟ عموا وصموا كثير منهم في هذه الفتنة، يعني عموا عن الحق وصموا عنه، وليس المراد عميت أعينهم الباصرة وآذانهم السامعة، ثم تاب الله عليهم ووفقهم للهداية ثم عموا وصموا بعد ذلك كثير منهم، وليس بلازم أن نعرف ما أبهمه الله في القرآن، ما أبهمه الله في القرآن قد يكون فيه مصلحة، والمقصود معرفة القصة من حيث هي.

لو قال قائل: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾: ألا يكون المراد بهذا من جاء بعد بعثة الرسول ﷺ؛ لأنه قام عليهم الحق لا سيما وقد قال: «ثم»؟

الجواب: ربما يكون هذا أو قبله أيضاً من بني إسرائيل الذين سلط عليهم العدو أو أصابته الجدوب والقحط وغير ذلك.

قوله: ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ ﴿كَثِيرٌ﴾ قال بعض الناس: إنها فاعل عمي وصم، وأن الواو في عموا وصموا حرف دال على الجمع فقط، كالضمير في قولك: عليكم أو عليهم، فالواو في عموا وصموا حرف دال على الجمع، وهو خلاف المشهور من لغة العرب ويعبر عن هذه اللغة بـ«أكلوني البراغيث» وقيل: إن الواو في عموا وصموا فاعل، وأن «كثيرٌ» بدلٌ من الواو بدل بعض من كل، وهذا هو الأقرب، أن الله تعالى عمم أولاً ثم أبدل من هذا التعميم بأنهم كثير، وحينئذٍ نقول: القرآن الكريم لم يكن على لغة «أكلوني البراغيث» ولا يصح أن نقول بها في القرآن؛ لأن القرآن بلسان عربي مبين.

قوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ البصير هنا تشمل معنيين: المعنى الأول: البصير بالعين عزّ وجل، والثاني: البصير بالعلم، وقد اجتمع المعنيان في حق الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ يشمل الفعل والقول، لكن كيف يكون القول عملاً؟ نقول: المراد عمل اللسان، لكن لا يكون القول فعلاً؛ لأن الفعل خاص بالجوارح، فالله سبحانه وتعالىٰ ﴿بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ يراه ولا يخفى عليه، و﴿بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ يعلمه؛ لأن المعمول قد يكون ذات جسد فيُرى، أو غير جسد فلا يُرى، وكلاهما يُعلم، فإذاً نقول: بصير يشمل معنيين: بصير بمعنى الرؤية، وبصير بمعنى العلم، والثاني أعم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن من غباوة بني إسرائيل أنهم يظنون ألا تقع فتنة مع كونهم يقتلون الرسل ويكذبون فريقاً منهم، وهذا يدل

على الغباوة، وعلى أن قلوبهم قد طبع عليها والعياذ بالله فلا تميز بين الأشياء.

لو قال قائل: كثيراً من الصفات التي ذكرها الله عزّ وجل في بني إسرائيل موجودة في بني إسرائيل الذين يعاصروننا الآن من التعنت والعناد، فبني إسرائيل الآن فيهم خبث، لكنهم ليسوا بأغبياء، بل هم يسيطرون على العالم اقتصادياً ومتقدمون في الصناعات؟

الجواب: هؤلاء اليهود أغبياء باعتبار فهم الحق، فهم ليسوا أغبياء بسبب الذكاء، واجعل على بالك دائماً قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في المتكلمين، قال: إنهم أعطوا فهوماً وما أعطوا علوماً، وأتوا ذكاءً وما أتوا زكاء، واذكر قول الله تعالى عن الكفار مع أنهم أذكياء أنهم لا يعقلون، فهؤلاء في الواقع هم أغبياء باعتبار الشرع، فأدنى عامي من المسلمين يعرف أن قولهم: عيسى هو الله، جهالة عظيمة، ولهذا وصفوا بالضلال، فهم من أضل الناس ديناً وأسفههم عقولاً.

الفائدة الثانية: التحذير من الأمن من مكر الله، وأن ذلك من خُلق اليهود وذلك بأن يأمن الإنسان من مكر الله، ويظن أنه بمعصيته لا يعقبها عقاب، لقوله: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾.

الفائدة الثالثة: أن الله تعالى قد يتوب على المرء بعد عماه وصممه، لقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ بعد أن ذكر أنهم عموا وصموا.

الفائدة الرابعة: رأفة الله تعالى بعباده وأنه يتوب على من تاب، وإن شئت فقل: يتوب على من شاء من عباده تفضلاً منه وكرماً.

الفائدة الخامسة: أن الإنسان بعد التوبة ورفع الفتنة عنه قد لا يشكر هذه النعمة، ويعود إلى عماه وصممه لقوله: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٣].

الفائدة السادسة: الحذر من بطر النعمة بالعود إلى الفسوق والكفران؛ لأن الله هددهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

الفائدة السابعة: بيان عموم علم الله عزّ وجل بكل عمل، فإن كلمة «ما» في قوله: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠] موصولة تفيد العموم.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾، هذه مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، وقد.

وأكد الله تعالى ذلك جرياً على عادة اللسان العربي، في تأكيد ما يستحق التأكيد، وإلا فخبر الله عزّ وجل حق، ثم إن هذا أيضاً أي: قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ﴾ ليس خبراً مجرداً، بل هو خبر وحكم، وحتى إذا قلنا: إنه حكم عليهم بالكفر؛ فهو مؤكد، لئلا يعارض معارض فيقول: ليس هذا بكفر.

وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ هؤلاء النصارى الذين لم يناصروا عيسى ولم يكونوا من حواريه، قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ ـ نسأل الله العافية ـ والشبهة التي أحدثها الشيطان لهم، أنه خُلق بلا أب، والعجب أنهم يقولون: إن الله هو المسيح ابن مريم، ثم يقولون: إن عيسى ابن مريم ولد بغي، فيقذفون أمه من وجه، وينزهون أمه ويعلونها من وجه آخر حسب زعمهم.

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ كلمة «هو» ضمير فصل، وضمير الفصل له ثلاثة فوائد: التأكيد، والحصر، والفصل بين الخبر والصفة، الفصل يعني التمييز بين كون ما بعده خبراً أو صفة، ففي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، «هو» ضمير فصل يفيد أن هؤلاء أكدوا أن الله هو المسيح، ويفيد حصر الله عزّ وجل في المسيح وأنه لا يتعداه ويفيد أن قوله: ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ خبر وليس بصفة.

وقوله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ المسيح وصف لرجل من أولياء الله ورجل من أعداء الله، الرجل الذي من أولياء الله: عيسى ابن مريم، والرجل الذي من أعداء الله: الدجال، وقد سماه النبي ﷺ مسيحاً حيث أمر أن نستعيذ بالله من فتنة المسيح الدجال[1].

وأما تكايس بعضهم، يعني: بطلب الكيس وقوله: إن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر، حديث رقم (١٣١١)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستفاد منه في الصلاة، حديث رقم (٥٨٨) عن أبي هريرة.

الدجال يسمى المسيخ بالخاء، فهذا باطل؛ لأن أعلم الناس به سماه المسيح، ولا مانع من أن يوصف هذا بالمسيح وهذا بالمسيح، لكن يختلف الممسوح، عيسى ابن مريم كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ، يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، والمسيح الدجال ممسوح العين أعور العين خبيث المنظر، ففرق بين هذا وهذا، وكلاهما مسيح مشتق من المسح.

وقوله: ﴿مَرْيَمَ﴾ هي ابنة عمران، ونسب عليه الصلاة والسلام إلى أمه لأنه ليس له أب، وإنما أمر الله جبريل أن ينفخ في فرج مريم، فنفخ فيها الروح، وهو عيسى عليه الصلاة والسلام.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ﴾ في إعرابها وجهان:

الوجه الأول: أنها حال، وبناءً على هذا الوجه يتعين تقدير قد، ويكون معنى قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ وقد قال المسيح: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يعني كذبهم.

والوجه الثاني: أن الواو للعطف، ويكون قوله: «قال» معطوف على كَفَرَ، فتكون هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات؛ لأنها معطوفة على جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات ويكون المعنى: لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ولقد قال المسيح ابن مريم يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم والتقدير الأول أبلغ؛ لأن المسيح الذي وصف بأنه الله، رد على هؤلاء الذي وصفوه بأنهم كفروا، وقد قال لهم وبَيَّنَ لهم أنه عليه الصلاة والسلام عبد، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

لو قال قائل: بعض المفسرين ذكر في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم: ١٢] قال المراد بالفرج هنا: جيب الدرع، هل هذا التفسير صحيح؟

الجواب: المراد بالفرج في اللغة العربية الفرج المعروف، فلماذا نحرف، ولو قلنا بهذا التفسير لكان قوله تعالى: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ مشكل، يعني: ما أحصنت إلا جيب الدرع، لا الفرج الحقيقي، ولو قيل إن قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] هو الذي قد يقال: لا يلزم منه أن جبريل عليه السلام فتح ثوبها ونفخ في الفرج نفسه، فقد ينفخ في الجيب ويصل إلى الفرج، لكن طريق الحمل هو الفرج لا شك ليس الجيب.

لو قال قائل: الحديث الذي في صحيح مسلم أن النبي ﷺ رأى المسيح الدجال يطوف بالبيت[1]، ماذا يقال في هذا الحديث، مع أن المسيح لا يدخل مكة؟

الجواب: لا أدري والله ما وجه هذا الحديث؛ لكن رؤيا الأنبياء وحي، والرسول عليه الصلاة والسلام لم يره حقيقة؛ لأن الدجال بعد الرسول ﷺ، أي: سيأتي فيما بعد، وهو ممنوع من دخول مكة، ولذلك احتج ابن صياد على أنه ليس هو المسيح الدجال بأنه في المدينة وذهب إلى مكة[2].

---

(١) رواه البخاري، كتاب التعبير، باب رؤيا الليل، حديث رقم (٦٥٩٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال، حديث رقم (١٦٩) عن ابن عمر.

(٢) رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد، حديث رقم (٢٩٢٧) عن أبي سعيد الخدري.

وقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ نداء إشارة إلى بلاهتهم وغفلتهم، وأنهم لا يخاطبون إلا بالنداء، ولا ينتبهون ويستيقظون إلا به.

وقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾ اعبدوا: فعل أمر من العبادة، والعبادة تطلق على شيئين: الأول: فعل العابد، والثاني: مفعول العابد، فعلى الأول، أي: فعل العابد نقول: هي التذلل لله عزّ وجل بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وعلى الثاني نقول: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فمثلاً: يصح أن نقول: إن فعل المصلي عبادة، ويصح أن نقول: إن الصلاة عبادة، وأصلها من قولهم: طريق معبد، أي: مذلل مسهل ميسر، فمثلاً الطريق المسفلت نسميه طريقاً معبداً، والطريق الذي لم يسفلت ولم يوطأ ليس طريقاً معبداً.

وقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ بالنسبة لكلمة (الله) تقدم أن أصلها الإله، لكن حذفت الهمزة؛ لكثرة الاستعمال، كما حذفت الهمزة في (الناس) وأصلها الأناس، وكما حذفت الهمزة في (شر) من أشر، وفي خير من أخير.

هنا الأليق أن نجعل العبادة بمعنى فعل العابد، أو بمعنى مفعوله؟ هي أقرب هنا لفعل العابد.

وقوله: ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾ ذكر العبادة ثم ذكر الربوبية إشارة إلى أن الربوبية تستلزم الألوهية، أي: أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، فمن أقر لله عزّ وجل بالربوبية لزمه أن يقر بالعبادة؛ لأن الرب يجب أن يكون معبوداً لأن له الأمر، وله الحكم، فإذا كان كذلك يجب أن يعبد كما شرع.

وقوله: ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ بدأ بنفسه ليعترف عليه الصلاة والسلام بأنه عبد مربوب، وليس رباً كما يقولون.

والرب سبق كثيراً أنه هو الخالق المالك المدبر الذي له السلطان.

قوله: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ هذا من باب التحذير، والجملة هنا استئنافية للتحذير.

قوله: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ أي: منعه منها؛ لأن التحريم بمعنى المنع، ومنه: مكة حرام، المدينة حرام، ومنه حريم البئر، أي: ما قرب منها لمنع الناس من تملكه، فإذاً: حَرَّمَ بمعنى منع بأن يعبد غير الله.

وقوله: ﴿حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ أي: دخولها، والجنة هي الدار التي أعدها الله تعالى لأوليائه ـ جعلنا الله منهم ـ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، لكن أين يكون إذا حرم الله عليه الجنة؟ قال: ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أي: التي يأوي إليها كما يأوي الإنسان إلى منزله، والنار هي الدار التي أعدها الله لأعدائه، التي: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] فقد جمعوا بين القوة والامتثال، ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ لا يعجزون عنه، كل ما أمروا به فهم قادرون عليه، ثم مع ذلك ليسوا قادرين عليه على وجه الضعف، بل هم غلاظ شداد، أجارنا الله منها.

قوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أشار عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ هذا إذا كانت هذه

الجملة من قول عيسى، وإن كانت من قول الله فهي بيان استحقاقهم لدخول النار، وأنهم إنما استحقوا دخول النار لكونهم ظلمة لشركهم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ هنا هل يمكن أن نقول: إنه إظهار في موضع الإضمار، بمعنى أنه لو كان في غير القرآن لقيل: إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما له من أنصار؟

يمكن أن يقال هذا، لكن أظهر في موضع الإضمار، من أجل أن ينسحب على هؤلاء وصف الظلم، أي: أنهم ظلمة، ومن أجل التعميم، يعني: أن النار ليست لهؤلاء فقط بل لكل ظالم.

وقوله: ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي: من مانعين العذاب عنهم؛ لأن الناصر هو الذي يمنع العدو عنك ويساعدك عليه.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾ نص صريح في كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم.

الفائدة الثانية: توكيد الحكم بما يدفع الشك، لقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾ فإن الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، القسم واللام وقد.

الفائدة الثالثة: أن أحكام القرآن الكريم يؤتى بها غالباً بحكم عام، بمعنى لو شاء الله تعالى لقال: لقد كفر النصارى، لكنه قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ

مَرْيَمَ﴾ سواء كانوا من بني إسرائيل الذين هم النصارى أو من غيرهم.

الفائدة الرابعة: أنه لا كفر إلا بعد قيام الحجة بناءً على أن الواو في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ﴾ حالية يعني أنهم كفروا وقد بُيِّن لهم الأمر.

الفائدة الخامسة: أن إقرار الإنسان على غيره غير مقبول؛ لأنهم ادعوا أن الله هو المسيح، وعيسى ابن مريم أنكر ذلك فقال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ فأنا لست إلهاً تعبدونني، بل أنا وأنتم على حد سواء كلنا مربوبون لله عزّ وجل.

الفائدة السادسة: المنقبة والشرف العظيم للرسل عليهم الصلاة والسلام، حيث أنكر عيسى أن يكون هو الله في هذه الجملة العظيمة: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ وهذا مقام الرسل وأتباعهم الذين لا يريدون العلو في الأرض ولا الفساد، وانظر إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام حين قيل له: ما شاء الله وشئت، هل أقر هذا؟ لا، أنكره وقال: «**أجعلتني لله نداً بل ما شاء الله وحده**»[1] وهكذا أتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يريدون من الناس أن ينزلوهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله عزّ وجل، بل إن أتباع الرسل كلما أنعم الله عليهم بالاتباع؛ ازدادوا تواضعاً للخلق وتواضعاً للحق.

الفائدة السابعة: وجوب العبادة بمعنى أن الرسل عليهم

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢١٤) (١٨٣٩)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٨٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨٣) عن ابن عباس.

الصلاة والسلام يأمرون بعبادة الله في كل ملة، لقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾.

الفائدة الثامنة: إقامة الحجة على أهل الشرك حيث أشركوا بالله مع أنه ربهم، وأن الأصنام ليس لها شأن في الربوبية إطلاقاً، فهي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ [النحل: ٢١].

الفائدة التاسعة: الاستدلال الملزم للخصم، وأنه ينبغي للإنسان عند المجادلة أن يتبع أوضح الأدلة وأشدها إلزاماً للخصم، لقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾ لم يقل: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾ [الأعراف: ٨٥] قال: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾ إلزاماً لهم بعبادته لأنهم مقرون بالربوبية، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١] فقال: اعبدوا ربكم إلزاماً لهم بالعبادة لأن الله هو الذي خلقهم، وهو الذي يحكم فيهم ويحكم بينهم.

الفائدة العاشرة: أنه لا حظ لعيسى في الألوهية والربوبية، لقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا في الألوهية، ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾ وهذا في الربوبية، فعيسى ابن مريم ليس له حق في الألوهية ولا في الربوبية، وغيره من الرسل وغيره من الناس كذلك، وبهذا نعرف ضلال أولئك القوم الذين يدّعون أن أولياءهم هم الذين يدبرون الكون، وهم الذين يصرفونه، وأنهم على ضلال مبين، نسأل الله العافية.

الفائدة الحادية عشرة: أن الشرك موجب للخلود في النار، لقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾.

لو قال قائل: أهل العلم قسموا الشرك إلى أكبر وأصغر، ودلالة القرآن تدل على أن الشرك قسم واحد، فهل هذا المشرك شركاً أصغر يعذب في النار ثم يخرج، أم أنه يخلد فيها؟

الجواب: الشرك الأصغر لا يوجب الخلود في النار، لكن هل هو داخل تحت المشيئة؟ يعني إن شاء الله غفر له أي: لصاحبه أو لا؟ في هذا احتمالان، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] يحتمل أن المراد الشرك الأكبر والأصغر، وأن يكون الشرك الأصغر لا بد له من توبة، ويحتمل أن المراد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] يعني الشرك الأكبر الذي قال فيه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

الفائدة الثانية عشرة: أنه لا مأوى للخلق إلا أحد أمرين: إما الجنة، وإما النار، ليس هناك شيء وسط، كما أنه ليس بعد الحق إلا الضلال، وليس بعد الإيمان إلا الكفر قال تعالى: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وفي الجزاء قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥] أي: ومنهم سعيد، لا يوجد ثالث.

فإن قال قائل: وماذا تقولون فيما جاء في القرآن الكريم في أصحاب الأعراف؟

الجواب: أصحاب الأعراف يحبسون في مكان مطل على أهل النار ومبصر لأهل الجنة، محبوسون على حسب ما تقتضيه حكمة الله، ومآلهم إلى الجنة، كما قال عزّ وجل: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦] فصار هؤلاء، أعني أصحاب الأعراف

مآلهم إلى الجنة، فليس للخلق إلا داران فقط، النار أو الجنة، ولهذا قال السفاريني رحمه الله في عقيدته:

وكل إنسان وكل جِنة ... في دار نار أو نعيم جنة

لو قال قائل: قلتم في أصحاب الأعراف أنهم من تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيحبسون في مكان بين الجنة والنار، هل معنى ذلك: أن من زادت سيئاته واحدة، لا بد أن يدخل النار؟

الجواب: لا، الناس أقسام: من له سيئات بلا حسنات هذا إلى النار ولا إشكال فيه، ومن له سيئات زائدة عن الحسنات أي: له سيئات وحسنات وسيئات زائدة فهذا مستحق لدخول النار، مستحق ولا نجزم، وقد ينجو من النار بشفاعة؛ لأن من أصول أهل السنة والجماعة قسم: الشفاعة فيمن استحق النار ألا يدخلها، وقسم ثالث تساوت حسناتهم وسيئاتهم، هؤلاء هم أصحاب الأعراف، لا يدخلون النار ولا يدخلون الجنة، والقسم الرابع من ترجحت حسناته على سيئاته هذا لا يدخل النار ويكون من أهل الجنة، فهذه أربعة أقسام لا يخرج الناس عنها.

هل يمكن أن نقول: وقسم عنده حسنات بلا سيئات؟

يمكن أن نقول: رسول الله عليه الصلاة والسلام أخبر الله أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[1]، وحينئذٍ يلاقي الله عزّ وجل يوم القيامة بحسنات ولا سيئات، فتكون الأقسام خمسة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، حديث رقم (٤٥٥٦) عن عائشة، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم (٢٨١٩) عن المغيرة بن شعبة.

لو قال قائل: أصحاب الأعراف ينظرون إلى أهل الجنة وإلى أهل النار، وذكرنا أن مآلهم إلى الجنة، فهل نقول: هذا النظر إلى النار يعتبر نوعاً من العذاب؟

الجواب: نعم، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٧] مما يدل على أنهم لا يريدون النظر إليهم، لكن تصرف الأبصار صرفاً قهرياً، وإذا صرفت ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧].

الفائدة الثالثة عشرة: أن التحريم يكون قدرياً، وجهه: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ يعني تحريماً قدرياً لا شرعياً؛ لأنه ليس باختيار الإنسان، وهل يرد التحريم على وجه التحريم الشرعي؟

الجواب: نعم، ومنه قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣] ومنه ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

الفائدة الرابعة عشرة: إثبات الجنة وإثبات النار، لقوله: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾.

الفائدة الخامسة عشرة: أن المثوى الأخير للخلق هو إما الجنة وإما النار، وأما القبور فليست المثوى الأخير، بل هي زيارة يمكث فيها الناس ما شاء الله حتى تقوم الساعة.

الفائدة السادسة عشرة: الإشارة إلى أن الشرك ظلم، لقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ وقد جاء ذلك صريحاً في القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

الفائدة السابعة عشرة: أن الظالمين لا ناصر لهم لقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ و«من» هنا كما يعرفه أهل اللغة العربية: حرف جر زيد لإفادة العموم والتوكيد.

فإن قال قائل: كيف يستقيم هذا النفي المؤكد مع أن الكفار قد ينصرون، والمشركون قد ينصرون؟

الجواب: أن هذا نصر مؤقت ليبتلي الله به المؤمنين وليس نصراً دائماً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر: ٥١] وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة: ١٦٦] وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] ولا يمكن أن يتناصر الكفار في دفع العذاب عنهم يوم القيامة، وحينئذٍ فلا إشكال؛ لأن النصر الذي يحصل لهم نصر مؤقت يريد الله به أن يمتحن المؤمنين.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣﴾ [المائدة: ٧٣].

قوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ هؤلاء طائفة أخرى من النصارى، النصارى الذين تتحدث عنهم الآية الأولى؛ ماذا قالوا؟ قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ يعني: أن المسيح ابن مريم والله رب العالمين واحد، وهؤلاء غيرهم قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ من هؤلاء الثلاثة؟ هؤلاء ذكرهم الله تعالى في هذه السورة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

قوله: ﴿إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: مع الله، فإذا كانا إلهين من دون الله والله صاروا ثلاثة، إذاً ثالث ثلاثة هو الله والمسيح

وأمه، هؤلاء هم الثلاثة، فسر ذلك القرآن، والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

وأما ما قيل: إنه الابن والأب وروح القدس؛ ففيه نظر، يعني لا نفسره بالقرآن، وإن كان قد يكون منهم، أو من المتأخرين منهم من يقول: إن هؤلاء هم الثلاثة.

لكن غالبهم يقولون: إن الله عزّ وجل متعدد في الاسم فقط، ومتحد في الذات، يقولون: ثلاثة أقانيم: الأب والابن وروح القدس، وأما في الأحكام فطوائف متعددة.

قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الوقف على قوله ثالث ثلاثة متعين؛ لأنه لو وصل لفهم المخاطب أن قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ من قول هؤلاء الكفار.

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ هذه الآية بمعنى لا إله إلا الله، لكن تختلف عنها في الإعراب، نقول: «ما» نافية، و«من» حرف جر زائد، يعني: زائداً إعراباً مفيداً معنىٰ، «إله» مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، و«إلا» أداة حصر، و«إله» خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره، و«واحد» صفة.

أبطل الله هذا القول، أي: قولهم: إن الله ثالث ثلاثة بقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهذا خبر من أصدق المخبرين، خبر مؤكد بحرف الجر الزائد وبالحصر، وطريق الحصر النفي والإثبات، وهذا الحصر مؤكد بـ«من» الزائدة، وكل الحروف الزائدة مؤكدة.

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا يمكن أن يكون أكثر من إله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] أليس الله قال هذا؟ وكذلك أيضاً قال تعالى في آية أخرى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا﴾ يعني: لو كان كذلك ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ وانفرد بمخلوقاته ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] يعني: إذا انفرد كل إله بما خلق، وكل إله يريد أن تكون الألوهية له؛ لا بد أن يقع بينهما قتال، وإذا وقع بينهما قتال علا بعضهم على بعض أحياناً يعلو هذا، وأحياناً يعلو هذا، ومن المعلوم أن العالي هو المستحق أن يكون إلهاً وحده، وأن المعلو عليه لا يستحق أن يكون إلهاً.

وانظر الآن، لو خرجنا في سفر وأمرنا زيداً وعمراً؛ كلاهما أمير ماذا يكون؟ فوضى واضطراب، فلا يمكن أبداً أن تكون الآلهة متعددة، لو تعددت لفسدت الدنيا كلها، ولهذا قال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أكد الوحدانية بقوله: واحد، وهو الله عزّ وجل.

قوله: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إعراب: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ ... لَيَمَسَّنَّ﴾ «إن» شرطية لا إشكال فيها، مسلطة على فعل مضارع منفي، وقوله: ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾: إذا قلنا: إنه جواب شرط فهو مُشكل؛ لأن جواب الشرط لا يأتي بهذه الصيغة، لكنه جواب قسم مقدر مع لامه أيضاً، والتقدير: ولئن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم؛ لأن كلمة ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾ لا تصح أن تكون جواباً للشرط، لوجود اللام الموطئة للقسم، ووجود التوكيد في قوله: (يمسنَّ).

وقوله: ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾ [المائدة: ٧٢]، هل يتنافى مع قول الله عزّ وجل: ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾؟

الجواب: لا؛ لأن المعنى: ليمسن الذين استمروا على كفرهم منهم عذاب أليم، وأما من تاب فيتوب الله عليه.

قوله: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من تعدد الآلهة، وأن الله تعالى ثالث ثلاثة.

وقوله: ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾ أي: ليصيبن، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي: الذي استمروا على الكفر؛ لأنهم كافرون.

وقوله: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿عَذَابٌ﴾ فاعل (يمس)، وأليم بمعنى مؤلم ـ أعني عذاب الكافرين ـ مؤلم نفسياً وجسدياً، أما نفسياً فإنهم يوبخون التوبيخ المهين، حتى إنه يقال للواحد منهم تهكماً: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٩]، وهذا لا شك أنه أعظم إهانة، يعذب ويصب من فوق رأسه الحميم، ثم يقال له: ذق إنك أنت العزيز الكريم، هذه إهانةٌ وعذاب عظيم، ويقول الله لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، هذا عذاب يقطع القلوب، أما العذاب الجسدي فلا تسأل، إذا استغاثوا واشتد طلبهم للماء، يغاثون بماء كالمهل يشوي الوجوه، قبل أن يقع في الأمعاء، فإذا وقع في الأمعاء، قطع أمعاءهم، ـ نسأل الله العافية ـ إذاً: فهو مؤلم، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]؛ لأن الجلد إذا نضج لا يحس، لكنهم يبدلون جلوداً أخرى ليذوقوا العذاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦]، إذاً: فهو أليم ألم قلب وألم جسد.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن من قال بتعدد الآلهة فإنه كافر؛ لأنه مكذب للسمع والعقل والفطرة، مكذب للسمع: لأن الأدلة لا تحصى في إثبات توحد الله، ومكذب للعقل: لأنه لو تعددت الآلهة ما استقامت الدنيا قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ولا يمكن أن تستقيم الحال مع تعدد المسؤولية.

الآن فكر بهذا في نفسك: لو كنتم في سفر، وكان المسؤول عن الجماعة متعددين، هل يستقيم الأمر؟ لا، إلى أين نذهب؟ إلى فلان أو فلان، ثم هل ستتحد كلمتهم؟

الجواب: لا، هذا دليل عقلي، ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] ولا بد، والآن الكون كله منسجم لا يتصادم ولا يتناقض، مما يدل على أن مدبره واحد سبحانه وتعالىٰ، نقول هذا عن يقين، ليس لأننا عشنا في بلد التوحيد، لكن لأننا نتيقن أنه لا يمكن أن تتعدد الآلهة.

ومن قال بتعدد الآلهة مكذب للفطرة أيضاً؛ لأن كل إنسان مولود على الفطرة، كما قال الله عزّ وجل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، فتعدد الآلهة باطل بالسمع والعقل والفطرة.

الفائدة الثانية: إثبات أنه لا إله إلا الله، لقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢].

فإن قال قائل: أليست توجد آلهة سوى الله بتسمية الله لها، قال الله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود: ١٠١]، وقال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]، وآيات متعددة تدل على وجود آلهة، وكيف يستقيم هذا مع هذا الحصر العظيم ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؟

فالجواب سهل جداً، نقول: كل هذه الآلهة باطلة لا تغني شيئاً، ولهذا نقول: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ هو موصوف بصفة محذوفة، والتقدير: وما من إله حقٍ إلا الله، وحينئذٍ يزول الإشكال، ويدل على هذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

الفائدة الثالثة: فتح باب التوبة لكل من أساء وإن عظمت إساءته، لقوله: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟﴾ الآية، فالله تعالى حكى عنهم الكفر مع ذلك عرض عليهم أن ينتهوا عما يقولون.

الفائدة الرابعة: كرم الله عزّ وجل وجوده وإحسانه وأنه يعرض على أعدائه أن ينتهوا عما وصفوه به حتى لا يصيبهم العذاب الأليم.

الفائدة الخامسة: إثبات عدل الله عزّ وجل، وأنه لا يعذب إلا من استمر على كفره ومعصيته.

الفائدة السادسة: التحذير البليغ من الاستمرار على الكفر والشرك، وأن من استمر عليه، فله العذاب الأليم.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٤].

قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾، الاستفهام هنا ليس استفهام استخبار أو استعلام؛ لأن الله يعلم، لكن قيل: إنه للعرض، وقيل: إنه للتوبيخ، فمن العلماء من قال: إن الاستفهام للتوبيخ، أي: أن الله يوبخهم على عدم التوبة والاستغفار، ومنهم من قال: إن الله يعرض عليهم، فهو عرض كما تقول للشخص: ألا تزورنا، والأليق بكرم الله عزّ وجل وجوده أن تكون للعرض، أي: أن الله عرض عليهم التوبة، فحينئذٍ نقول: الاستفهام للعرض.

الإعراب: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ معروف أن الهمزة لها الصدارة، وهنا جاءت الفاء العاطفة، فكيف يستقيم الكلام؟ إذا جاءت الفاء العاطفة، فهذا يعني أن الجملة التي بعدها معطوفة على ما قبلها، وهذا فيه إشكال؛ لأن الاستفهام له الصدارة، فاختلف النحويون في هذا، فمنهم من قال: إن همزة الاستفهام داخلة على جملة، والفاء عاطفة على تلك الجملة التي هي مدخول الهمزة، وحينئذٍ يكون الاستفهام له الصدارة.

لكن بماذا نقدر هذه الجملة؟ نقول: باعتبار السياق، انظر المناسب للسياق وقدره، وكل سياق له ما يناسبه، فمثلاً قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾، كيف نقدر الجملة؟ استكبروا أو أيستمرون أو أيطيعون فلا يتوبون إلى الله، هذا على القول بأنها للتوبيخ، لكن على القول: بأنها للعرض، يقدر فعل يدل على جود الله وكرمه، مثلاً: أَغَفَلُوا عن كرم الله وجوده فلا يتوبون، وقال بعض النحويين: إن في الكلام تقديماً وتأخيراً، وأن الأصل أن الفاء مقدمة على الهمزة، والتقدير: فئلا يتوبون، وتكون الهمزة هنا في صدر جملتها المعطوفة على ما سبق، وهذا لا شك أنه أهون على الإنسان من جهة التقدير؛ لأنه قد يصعب على الإنسان

أن يقدر جملة مناسبة للسياق، فإذا قلنا: الهمزة للاستفهام ومحلها بعد الفاء، والفاء مزحلقة عن مكانها سهل الأمر.

قوله: ﴿يَتُوبُونَ﴾ أي: يرجعون؛ لأن تاب وثاب وأناب وما أشبهها، كلها معانيها متقاربة، فيتوبون إلى الله، أي: يرجعون إلى الله من معصيته إلى طاعته، من الشرك إلى التوحيد، من التعطيل إلى الإثبات، وهلمَّ جرًّا.

قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥٓ﴾: يسألونه المغفرة، فما هي المغفرة؟ أحسن ما قيل فيها: أنها ستر الذنب والتجاوز عنه؛ لأنها مشتقة من المغفر، وهو الذي يوضع على الرأس لاتقاء السهام عند القتال، والمغفر فيه ستر ووقاية، ولا ينبغي أن نقول: إن المغفرة ستر الذنب فقط، بل نقول: هي ستر مع عفو ووقاية من العذاب، ويؤيد هذا الاشتقاق أنه مشتق من المغفر، وربما يؤيده ما ثبت في الحديث الصحيح: **«أن الله عزّ وجل يخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه، فإذا أقر بها قال الله له: إني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»**[1].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الجملة معطوفة على ما سبق، لكنها تفيد أنه عزّ وجل أهلٌ لأن يستغفر، وأنه إذا استغفر غفر؛ لأنه غفور رحيم، ودائماً يقرن الله تعالى بين هذين الاسمين الكريمين؛ لأن الأول يزول به المرهوب وتغفر به الذنوب، وبالثاني يحصل المطلوب؛ لأن الرحمة جلب الخير والإحسان.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] حديث رقم (٢٣٠٩)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، حديث رقم (٢٧٦٨) عن ابن عمر.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: الحث على التوبة إلى الله عزّ وجل وتوبيخ من لم يتب، والتوبة كما قلنا: هي الرجوع من معصية الله إلى طاعته، والمعصية لها أنواع، وذكر العلماء رحمهم الله أن التوبة لها شروط، وهي خمسة: الإخلاص، الندم، الإقلاع، العزم على ألا يعود، أن تكون في وقت تقبل فيه التوبة.

الشرط الأول: الإخلاص: بمعنى أن لا يكون الحامل للإنسان على التوبة، مراءات الناس، أو الحصول على شرف أو جاه أو ما أشبه ذلك، وإنما يحمله على التوبة مخافة الله عزّ وجل ورجاء ما عنده.

الشرط الثاني: الندم على ما فعل من المعصية، فإن قال قائل: الندم انفعال، والانفعال ليس فعلاً، فكيف يكون اختيارياً بحيث نشترطه على التائب؟ نقول: المراد بالندم لازمه، بمعنى: أن لا يكون عنده فعل المعصية وعدمه سواء، بل تجده حزيناً يتمنى أن لا يفعل، وإلا لو قلت لك مثلاً: اندم، لا تستطيع أن تندم لأنه انفعال، لو قلت لك: افرح، لا تستطيع أن تفرح إلا بوجود سبب يقتضي ذلك، ولهذا اعترض بعض العلماء على هذا الشرط وقال: هذا شرط لا يمكن إدراكه؛ لأنه انفعال نفسي، كالغضب والفرح والحزن، فيقال: لا، بل هو ممكن، بمعنى أن يكون الإنسان يشعر بأنه لا يستوي عنده فعل المعصية وعدمها.

تنبيه:

التقصير إذا كان تقصيراً في الواجب يجب أن يتوب منه، وإن كان تقصيراً في غير الواجب فلا تجب التوبة؛ يعني: غير الواجب الإنسان في حل منه.

الشرط الثالث: الإقلاع عن المعصية: لأن من قال: إنه تائب وهو مصر على المعصية، فهو كالمستهزيء بالله عزّ وجل، كيف تقول: أتوب إليك يا رب وأنت تبارزه بالمعصية؟ هذا غير صحيح، لا بد أن يقلع، فإذا كانت المعصية بأخذ مال، غصباً أو سرقة أو جحداً فلا بد من إعادته إلى صاحبه، وإلا فهو كاذب في توبته، إذا كانت التوبة من الغيبة، فلا بد أن يقلع عنها وأن يبتعد عن المجالس المعمورة بها، وإلا فهو كاذب.

لو قدرنا أنه يلزم من إقلاعه أن يستعمل بعض ما كان عاصياً به، قلنا: لا بأس، وضربوا له مثلاً: برجل قد غصب أرضاً ثم ندم وتاب، وهو الآن في وسطها ويريد أن يخرج الجرافات والحفارات وغيرها، فهو في هذه الحال في وسط الأرض لا بد أن يستعملها، لا بد أن تمشي عليها الحفارات والجرافات وغيرها، فهل نقول: إن عمله الآن معصية، أو لا؟

الجواب: لا، هذا ليس بمعصية، بل هذا طاعة؛ لأنه يستعمل هذا ليتخلص منه، ولذلك تجد الواحد منا يستنجي ويمس النجاسة بيده، ولا نقول: إنه آثم ولا نقول إنه فاعل مكروهاً، بل نقول: إنه مأجور ومثاب على ذلك، مع أنه يباشر النجاسة بيده، ليتخلص منها، كذلك لو أن إنساناً تطيب في إحرامه، والطيب في الإحرام حرام، ثم تاب وندم، وأراد أن يزيله بغسله، فلا بد أن يمسه بيده، فمسه بيده الآن طاعة؛ لأنه للتخلص من هذه المعصية.

لو قال قائل: هل يجوز فعل الوسائل المحرمة للوصول للمصلحة كمن أراد إرشاد رجل ولا يتم له ذلك إلا بالجلوس معه في مكان المعصية؟

الجواب: أن الوسائل المحرمة لا تكون سبيلاً للإرشاد أبداً، فمثلاً: لو قلنا: إن هذا الرجل لا يمكن أن يهتدي، إلا إذا أتينا بالموسيقى نضربها له، فلا نضربها ومهما صغر هذا الذنب لا نفعله بل ندعوه إن اهتدى فلنفسه وإلا فعليها.

الشرط الرابع: العزم على أن لا يعود في المستقبل، والمراد بقولنا أن لا يعود في المستقبل، العزم على أن لا يعود، فإن عاد يوماً من الدهر لم تبطل توبته الأولى، ما دام حين التوبة كان عازماً على أن لا يعود؛ لأن الإنسان بشر، قد تسول له نفسه بعد التوبة أن يعود إلى المعصية، فإذا عاد فإن توبته الأولى لا تبطل، لكنه يحتاج إلى توبة جديدة.

إذاً: العزم على أن لا يعود، ولا نقول: بشرط أن لا يعود، وأظن الفرق بينهما واضح.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقت تقبل فيه التوبة، وذلك بأن تكون قبل طلوع الشمس من مغربها؛ لأن الشمس لا بد أن ترجع من حيث غربت، فإذا رجعت من حيث غربت آمن الناس كلهم؛ لأنهم حينئذٍ يؤمنون بأن لها رباً يدبرها؛ لأنها خرجت عن المعلوم، خرجت عن العادة، فيؤمن الناس، لكنه لا ينفعهم إيمانهم، إلا من آمن من قبل، ولهذا قال الله عزّ وجل: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وكذلك التوبة لا تقبل إذا حضر الأجل، لقول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]، فإذا حضر الأجل وشاهد الإنسان الغيب، أي: ما

كان غائباً، وما كان ينكره من قبل، إذا شاهده وآمن لا ينفع، لا تقبل التوبة.

فإن قال قائل: ألم يعرض النبي ﷺ التوبة على عمه في سياق الموت؟

قلنا: بلى، لكن الرسول ﷺ عرض عليه ذلك وقال: «**كلمة أحاج لك بها عند الله**»[1] يعني: أنه لم يجزم بأنها تنفعه، بل قال: أحاج لك، والمحاجة قد تنفع وقد لا تنفع.

فإن قال قائل: النبي ﷺ دخل على اليهودي وهو يحتضر ثم أسلم هذا اليهودي، فقال النبي ﷺ: «**الحمد لله الذي أنجاه الله بي من النار**»[2]؟

الجواب: هذا الرجل لم يحضره الموت، لكنه مريض وقريب من الموت، ولذلك جعل ينظر إلى أبيه كأنه يستشيره.

فإن قال قائل: هل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؟

الجواب: في هذا خلاف بين العلماء:

فمنهم من قال: لا تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؛ لأن التوبة هي الرجوع إلى الله، وهذا رجع رجوعاً موزعاً فلا ينفعه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قصة أبي طالب، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت...، حديث رقم (٢٤) عن المسيب بن حزن.

(٢) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، حديث رقم (٢٣٠٩)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، حديث رقم (٢٧٦٨) عن ابن عمر.

ومنهم من فصل، فقال: إذا كانت التوبة من ذنب مصر على جنسه فإنها لا تقبل، كما لو تاب من النظر إلى النساء، ولكنه مُصر على غمز النساء، فهنا لا تقبل التوبة؛ لأنه مصر على جنس الذنب، فالجنس واحد وإن كانت الأفراد مختلفة، أو الأنواع مختلفة.

فمنهم من قال: تقبل التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره، لكنه لا يستحق أن يوصف بأنه تائب على الإطلاق، بل نقول: هو تائب من كذا، فيستحق توبة مقيدة، فلا يعطى الوصف المطلق، ولا يسلب مطلق الوصف، بل يقال: هو تائب من كذا، وهذا هو أعدل الأقوال؛ لأن هذا فيه العدل، إذ لا يمكن أن ننفي عنه التوبة مطلقاً ولا يمكن أن نثبتها مطلقاً، نقول: هذا تائب، لكنه لم ينجُ من العذاب؛ لأنه مصر على معصية أخرى فسيعاقب عليها.

الفائدة الثانية: عرض الله تبارك وتعالى على هؤلاء الكافرين أن يستغفروه أي: يطلبوا المغفرة، وطلب المغفرة له جهتان:

الجهة الأولى: أن يسأل الله المغفرة بالصيغة، أي: بصيغة المغفرة، فيقول: أستغفر الله، اللهم اغفر لي وما أشبه ذلك.

الجهة الثانية: أن يفعل ما يكون سبباً لمغفرة الذنوب، فمن فعل شيئاً هو سبب لمغفرة الذنوب فقد استغفر، مثال ذلك: «**من قال: سبحان الله وبحمده مائة مرة، غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر**»[1] هذا الرجل لم يقل: اللهم اغفر لي خطاياي، ولكنه

---

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، حديث رقم (٦٠٤٢)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، حديث رقم (٢٦٩١) عن أبي هريرة.

فعل ما يكون سبباً للمغفرة، ومثاله أيضاً: **«إذا توضأ الإنسان فأسبغ الوضوء ثم صلى فيهما ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه»**[(١)]، وكذلك: **«الجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما»**[(٢)]، وأمثلة كثيرة.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥].

قوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ الإعراب: من المعروف بأن القرآن أنزل بلسان قريش؛ لأن لسان قريش أفصح لسان العرب، وأن «ما» عندهم تعمل عمل (ليس) كقوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١]، لكنها هنا لم تعمل لانتقاض النفي وإذا انتقض النفي أهملت، ولم تعمل عمل ليس، فإذا قلت: ما محمدٌ قائماً، فهذا صحيح، ما محمدٌ إلا قائم: صحيح، ما محمدٌ إلا قائماً: غلط؛ لأنه إذا انتقض النفي وجب إهمالها.

وقوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ المسيح ابن مريم هو:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب الوضوء ثلاثاً ثلاثاً، حديث رقم (١٥٨)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، حديث رقم (٢٢٦) عن عثمان بن عفان.

(٢) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر، حديث رقم (٢٣٣) عن أبي هريرة.

ابن مريم بنت عمران، وسمي مسيحاً؛ لأنه كان لا يمسح ذا عاهةٍ إلا بريء بإذن الله، وأما المسيح الدجال فإنه يسمى مسيحاً؛ لأنه ممسوح العين أعور، وقيل: لأنه يمسح الأرض بالسير عليها؛ لأنه يسير فيها كالسحاب إذا استدبرته الريح.

وقوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ يعني: وليس إلهاً كما زعم هؤلاء، بل هو رسول مرسل من قبل الله عزّ وجل.

قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: مضت من قبله الرسل فليس ببدع من البشر؛ لأن الرسل سبقوا فهو مثلهم.

قوله: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ يعني أمه من الصديقات، أي: الصادقة في القول والعقيدة، المصدقة لمن قامت الأدلة على صدقه؛ لأن الصديق هو الصادق المصدق، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٣]، هذا هو الصديق، فأمه رضي الله عنها صديقة، وهي من النساء الكمَّل التي قال فيها النبي ﷺ: **«كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع ـ وذكر منهن ـ مريم بنت عمران»**[1].

قوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ «كَانَا»: الضمير يعود على المسيح وأمه، ﴿يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ فهما محتاجان للغذاء، مفتقران إليه، فلا يصح أن يكونا إلهين؛ لأن الإله مستغنٍ عن غيره، كما قال الله تعالى في وصف نفسه: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ . . .﴾ [التحريم: ١١]، حديث رقم (٣٢٣٠)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين، حديث رقم (٢٤٣١) عن أبي موسى.

قوله: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ انظر أيها المخاطب، وأول من يدخل في هذا النبي ﷺ، ﴿كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ يعني: انظر كيفيته، ولهذا نقول: إن «كيف» هنا مفعول انظر، وليست اسم استفهام، أي: انظر كيفية تبيين الآيات لهم.

وقوله: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ﴾ أي: نوضح، «لَهُمُ» أي: لبني إسرائيل الذين ادعوا أن عيسى وأمه إلهان.

وقوله: ﴿كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: العلامات الواضحة الدالة على أنهما لا يصلحان أن يكونا إلهين؛ لأنهما كانا يأكلان الطعام؛ ولأن عيسى رسول قد خلت من قبله الرسل، فلا يصح أن يكون إله وهو مرسل من قِبَل الإله.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ «أنى» بمعنى كيف، يعني: ثم انظر نظرة أخرى كيف يؤفكون، أي: يصرفون عن الحق مع وضوحه وجلائه، وكل هذا في تقرير التوحيد: توحيد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته وإبطال ما عليه هؤلاء النصارى.

عندنا الآن ﴿أَنَّىٰ﴾، و﴿كَيۡفَ﴾، معناهما يختلف؛ لأن قوله: ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ نظر تعجب وإنكار، وأما قوله: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ فهو تدبر وإقرار.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الإنسان ينسب إلى أمه إذا لم يكن له أب، لقوله: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ فنسبه إلى أمه.

وهل إذا نسب إلى أمه ـ إذا لم يكن له أب ـ هل ترثه ميراث أب؟

الجواب: نعم على القول الراجح، ترثه ميراث أب، مثال ذلك: امرأة زنا بها رجل ـ والعياذ بالله ـ وولد الزنا لا يلحق الزاني، بل يكون له أم وليس له أب، إذا مات عنها، فهل ترثه ميراث أب؟ نقول: فيما لو مات هذا الولد عن أمه وعن أخيه، فإن الميراث يكون لأمه، أو ترثه ميراث أم، ويرثه عصبته ميراث عصبة؟ في هذا قولان للعلماء، والصحيح أنها ترثه ميراث أب، وعلى هذا ففي المثال الذي ذكرنا، يكون مال هذا الولد لأمه، وليس لإخوته من أمه، ولا لأعمامه من أمه؛ لأنه ليس له جهة عصبة إلا من جهة أمه، أما من جهة أبيه فليس له أب حتى يكون له عصبة من جهة الأب.

الفائدة الثانية: أن المسيح عيسى ابن مريم رسول من رسل الله عزّ وجل، لقوله: ﴿إِلَّا رَسُولٌ﴾.

الفائدة الثالثة: أن الوصف الذي ينحصر فيه عيسى ابن مريم ولا وصف له سواه، هو أنه رسول، ولا يمكن أن يكون الرسول إلهاً؛ لأنه مستعبد من جهة مرسله، مكلف من جهة مرسله.

الفائدة الرابعة: أن الرسل يموتون، لقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾، وهو إشارة، إلى أن عيسى سيموت كما مات غيره.

الفائدة الخامسة: أن الرسول لا يصح أن يكون إلهاً، وجه ذلك: أن الإله لا يموت، والرسل يموتون.

الفائدة السادسة: الثناء على مريم عليها السلام، لقوله: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾، فهي إذاً من الطبقة الثانية من طبقات البشر، والطبقات أربع: الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون.

الفائدة السابعة: الرد الواضح على اليهود الذين ادعوا أن مريم بغي، قاتلهم الله؛ لأن البغية لا يمكن أن تكون صديقة، فإن البغاء من كبائر الذنوب.

الفائدة الثامنة: الاستدلال بحال من يتحدث عنه، على ما لا يمكن أن يتصف به مع وجود هذه الحال، وهو قوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾، ففيه استدلال بحالهما على أنهما لا يصح أن يكونا إلهين.

الفائدة التاسعة: بيان أن الإله وهو الله عزّ وجل، لا يحتاج إلى الطعام، لقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾.

الفائدة العاشرة: الاستدلال بالأوضح الأجلى دون الأخفى؛ لأن أكلهما للطعام أمر لا ينكر، لكن لو جيء بأدلة عقلية أخرى ربما يكون فيها جدل، لكن الاستدلال بالمحسوس أبلغ من الاستدلال بالمعقول؛ لأن المعقول يمكن فيه الجدل، لكن المحسوس لا يمكن فيه الجدل.

الفائدة الحادية عشرة: الحث على الاعتبار والنظر، لقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾، والأمر بالنظر جاء في عدة مواضع من القرآن الكريم، وجاء بخصوص وعموم، فقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، هذا عام، وهذه الآية وأمثالها خاص.

الفائدة الثانية عشرة: الرد على أهل التفويض في أسماء الله وصفاته؛ لأن أهل التفويض يقولون: إن كل النصوص القرآنية والنبوية في أسماء الله وصفاته مجهولة المعنى لا تعلم، حتى إن النبي ﷺ يقول الحديث وهو لا يعلم معناه، ولهذا سموا أهل التجهيل.

وإذا قرأت بعض كتب العلماء المعتبرين لدينا ولدى غيرنا، تجدهم يقولون في أهل التفويض، إنهم أهل السنة، فيقولون: أهل السنة قسمان: مفوضة، ومؤولة، فالمفوضة: هم الذين يقولون: نحن لا نعلم شيئاً من معاني آيات الصفات وأحاديثها، وهذا مذهب السلف عندهم، والمؤولة: هم الذين يحرفون نصوص الكتاب والسنة، ولكنهم أخطأوا خطأ عظيما من وجهين:

الوجه الأول: دعواهم أن أهل التأويل من أهل السنة، وكيف يكونون من أهل السنة وهم يحرفون الكلم عن مواضعه، وكيف يكونون من أهل السنة وهم على النقيض من عقيدة أهل السنة، فلا ينبغي أبداً أن نساويهم بأهل السنة اللهم إلا في مقابل الرافضة، في مقابل الرافضة نقول سنة وشيعة، الشيعة تؤمن بالرافضة، والسنة من يخالفهم في الاعتقاد، وإن تخالف فيما بينهم، فالصواب أن نقول: أهل السنة هم الذين تمسكوا بها واجتمعوا عليها، واتبعوا السلف فيها.

الوجه الثاني: قولهم: إن أهل السنة يفوضون، أو أن السلف يفوضون المعاني، هذا كذب واضح على السلف، السلف لا يفوضون المعاني، بل يقرونها ويقررونها، وإنما يفوضون الكيفية، لأن هذا هو العقل، لكن المعاني لا يفوضونها، بل يقولونها ويقررونها ويبينونها، وهذا شيء معلوم معروف عندهم، لو سألت أي واحد من السلف أو أي واحد من أتباع السلف، ما معنى قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، لقال معناه: علا، ولا تحتمل عنده أي معنى آخر، وهذا تفسير للمعنى، لكن لو سألته: كيف استوى؟ قال: الله أعلم لا أدري،

ومن المعلوم أن أهل التفويض كما قال شيخ الإسلام رحمه الله: من شر أهل البدع والإلحاد؛ لأنه يلزم على كلامهم لوازم فاحشة جداً.

منها أن الرسل لا يعلمون معاني ما نزل إليهم.

ومنها: أن الرسل لا يعلمون معاني ما يقولون، ولا أحد لا يعلم معنى ما يقول إلا أن يكون مبرسماً أو مجنوناً.

ومنها: أن هذا القول فتح باباً لأهل الإلحاد؛ لأنك إذا قرأت قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر: ٢٢]، إلى آخر السورة وقلت: والله لا أدري معاني هذه الأسماء ولا أعرف معانيها، جاءك أهل الإلحاد وقالوا: تنحَ عن المعترك، نحن الذين نعرف معانيها، ثم يؤولونها، بل ثم يحرفونها على ما يريدون، ولذلك هذا الذي ينسب إلى السلف فتح باب الإلحاد على مصراعيه، فمن ثَمَّ يكون لا فائدة من القرآن ولا من السنة؛ لأنها غير معلومة، ثم لا حول ولا قوة إلا بالله، جعلوها غير معلومة في زبدة الرسالة وخلاصتها وهي: معرفة الله بأسمائه وصفاته.

إذاً الخلاصة: أن مذهب أهل التفويض مذهب باطل، ومن نسبه إلى السلف فقد أخطأ، فالتفويض عند السلف وأتباعهم في الكيفية، وهذا هو العقل؛ لأننا نعلم معنى استواء الله على العرش لكن لا ندري على أي كيفية، نعلم معنى نزوله إلى السماء الدنيا لكن لا نعلم على أي كيفية، ولا يحل لنا أن نتصور كيفية معينة.

الفائدة الثالثة عشرة: أن ما بينه الله عزّ وجل في كتبه المنزلة على الرسل، كله آيات، يعني: دلالات وعلامات على الحق، سواء من القرآن أو التوراة أو الإنجيل.

الفائدة الرابعة عشرة: العجب من هؤلاء الذين بينت لهم الآيات ثم صرفوا عن الحق والعياذ بالله، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

الفائدة الخامسة عشرة: أن هؤلاء أفكوا عن الحق بعد أن تبين، بدليل كلمة «ثم»، فإنها تفيد المهلة، يعني: بعد أن تتبين لك الآيات، وتتبين لهم أيضاً يؤفكون عن الحق ويصرفون عنه.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة: ٧٦].

قوله: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد، أو قل أيها المخاطب الموحد، لكل من يعبد من دون الله أحداً قل له: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ﴾.

قوله: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من سواه.

قوله: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ﴾ يعني: لا يملك أن يدفع الضر عنكم ولا أن يجلب لكم النفع، وقيل المعنى: ما لا يملك لكم ضراً لو عصيتموه، ولا نفعاً لو أطعتموه، فعلى التفسير الأول يكون في الآية حذف، والتقدير: ما لا يملك لكم دفع الضر، والقاعدة: أنه إذا دار الأمر بين أن يكون في الكلام شيء محذوف، أو لا يكون، فالأصل عدم الحذف، وعلى هذا فيكون: ما لا يملك لكم ضراً، يعني لو عصيتموه وخالفتموه، ولا نفعاً: لو أطعتموه.

قوله: ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يعني: كيف تعبدون ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً، وتَدَعُون من هو السميع العليم،

وهو الله عزّ وجل، السميع لما تقولون، العليم بما تعملون من قول وفعل.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: الإنكار على عابدي الأوثان؛ لأن الاستفهام في قوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ للإنكار.

الفائدة الثانية والثالثة: أن الأصنام لا تملك نفعاً ولا ضراً، وهذا مسلم به، وينبني على هذه الفائدة: ضلال أولئك الذين يعبدون الأصنام؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ [الأحقاف: ٥] لا يسمعونهم ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ [الأحقاف: ٦]، فهم لا ينفعونهم في الدنيا ولا في الآخرة بل يعادونهم.

فإن قال قائل: إنه قد يدعو الإنسان الصنم في كشف الضر فيكشف الضر، أو في جلب نفع فيأتي النفع، والقرآن صريح بأن جميع الأصنام لا تنفع ولا تضر؟

الجواب: أن هذا من الابتلاء، وأنه يحصل عند دعائها لا بدعائها؛ لأننا نؤمن يقيناً بأنها لا يمكن أن تستجيب إلى يوم القيامة فلو دُعِيَتْ إلى يوم القيامة ما استجابت، لكن قد يفتن الله العباد بحصول الشيء عند الدعاء لا بالدعاء، يكون الله عزّ وجل قد قدر حصول هذا الشيء في هذا الوقت المعين، الذي كان فيه الدعاء، وليس بالدعاء، ونعلم بهذا يقيناً لأن الله يقول: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف: ٥].

وفي هذا الذي قررناه الحذر، أي: أن يحذر الإنسان من تسهيل أسباب المعصية له، فإن الإنسان قد يبتلى وتسهل له أسباب المعصية فيقع فيها إلا من شاء الله، ولهذا كان من تيسرت له أسباب المعصية ولكنه تركها لله، كان أعظم أجراً ممن لم تتيسر له، انظر إلى الشاب الذي دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، فهذا المدعو رجل دعته امرأة وهو شاب فيه الشهوة، ليس عندهما أحد، ولا يطلع عليهما أحد؛ لأنه لم يذكر مانعاً إلا أنه يخاف الله، وهذا يدل على أن جميع الأمور متيسرة، لكن لما ترك هذا لله، أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، اللهم اجعلنا من هؤلاء.

المهم: أنه لو لبَّس علينا أولئك القوم الذين يعبدون من دون الله، ويدعون من دون الله بحصول المقصود، الجواب: أن هذا لم يحصل بالدعاء قطعاً وإنما حصل عند الدعاء.

الفائدة الرابعة: أن الضرر والنفع من الله عزّ وجل؛ لأنه أعقب نفي الضر والنفع لهذه الأصنام بقوله: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وهو كذلك، قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»[1].

---

(١) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٥٩)، حديث رقم (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣) (٢٦٦٩) عن ابن عباس.

الفائدة الخامسة: إثبات هذين الاسمين الكريمين لله عزّ وجل وهما السميع والعليم.

لكن لو قال قائل: هل الله عزّ وجل سميع بسمع أو بغير سمع؟

الجواب: سميع بسمع، والدليل من هذا الاسم على أن له سمعاً أن أسماء الله عزّ وجل مشتقة من معانيها فالسميع يعني المسمع، والسمع المضاف إلى الله عزّ وجل ينقسم إلى قسمين: قسم بمعنى إدراك المسموع، وقسم بمعنى الاستجابة.

الأول ينقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم يراد به التهديد، وقسم يراد به بيان الإحاطة، وقسم يراد به النصر والتأييد، هذا سمع إدراك المسموع.

أما الأول، فكقوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠]، هذا تهديد، **وأما الثاني**: الذي يراد به بيان إحاطة الله عزّ وجل بكل شيء، فمثل قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]، إلى آخره.

وأما الذي يراد به النصر والتأييد، فمثل قول الله تعالى لموسى وأخيه هارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦].

وأما الذي بمعنى الإجابة أو الاستجابة فمثل قول المصلي: سمع الله لمن حمده، يعني استجاب، ولذلك عدي بـ«اللام» ولم يتعد بنفسه؛ لأن السمع الذي بمعنى الإدراك يتعدى بنفسه، تقول: سمعت صوته، وأما الذي بمعنى الإجابة فيتعدى باللام، تقول:

سمعت لفلان، أي: استجبت له، ومنه سمع الله لمن حمده كما تقدم، لكن قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، من أيهما؟ منهما، فهو سميع الدعاء يسمع الصوت أي صوت الداعي، وهو أيضاً مجيب الدعاء، فيشمل الأمرين.

أما العليم: فما أعمه من اسم، فالعليم إن لم يكن أعم أسماء الله فهو من أعمها؛ لأن العلم يتعلق بالأمور الممكنة، وغير الممكنة، والواجبة، فعلم الله يتعلق بكل شيء، فالله عزّ وجل يعلم الشيء المستحيل، مثاله: قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، هذا شيء مستحيل، ومع ذلك عَلِمَ الله عزّ وجل نتيجته.

ويعلم سبحانه وتعالى الممكن، وهو ما يتعلق بأفعال العباد، فكل أفعال العباد من قسم الممكن، والله تعالى يعلمها قال تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقال: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقال أيضاً: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥١]، وغير ذلك من الآيات الكثيرة، كل علم يتعلق بالمخلوق فهو علم بالممكن؛ لأن المخلوق، من قسم الممكن، إذ لو كان مستحيلاً ما وجد، ولو كان واجباً ما عدم.

ويعلم جلَّ وعلا ما يتعلق بالواجب، وهو علمه تبارك وتعالى عن نفسه، فعلمه عن نفسه علم بالواجب، ولهذا قال العلماء: إن العلم هو أعم صفات الله عزّ وجل، وهل يتعلق بمشيئته جلَّ وعلا، أو هو صفة لازمة؟

الجواب: هو صفة لازمة، ولهذا قال السفاريني رحمه الله:

والعلم والكلام قد تعلقا بكل شيء يا خليلي مطلقا

هذا صحيح، فالكلام يتعلق حتى بالمستحيل، لكن العلم من جهة أنه صفة لازمة، أعم من الكلام.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧].

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد.

قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: يا أصحاب الكتاب، والمراد بهم اليهود والنصارى، والكتاب المراد به التوراة والإنجيل، فالمراد الجنس، و«أل» هنا للعهد، أي: الكتاب المعهود الذي يعرفه المخاطب.

قوله: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ ﴿لَا تَغْلُوا۟﴾ أي: لا تجاوزوا الحد، ﴿فِى دِينِكُمْ﴾، أي: في عبادتكم، فالغلو: مجاوزة الحد، وذلك حيث قالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وتشدد اليهود في أشياء لم تكن مفروضة عليهم، وإن كان اليهود قد شدد عليهم، كما قال الله عزّ وجل: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء: ١٦٠].

قوله: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: غلواً غير الحق، والوصف هنا ليس للقريب؛ لأن الغلو كله ليس بحق، لكنه بيان للواقع، ويسمي العلماء مثل هذا القيد الذي هو لبيان الواقع يسمونه صفة كاشفة.

قوله: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ الحق ما وافق الشرع، والباطل ما خالف الشرع.

قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ﴾ الأهواء جمع هوى، والمراد بالهوى هنا: ما خالف شريعة الله؛ لأن الأعمال إما هوىً وإما هدى، فما وافق الشرع فهو هدى، وما خالفه فهو هوى.

قوله: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾ يشير إلى علمائهم ورهبانهم الذين حرفوا دين الله، فضلوا وأضلوا، والله سبحانه وتعالىٰ يقول: اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا أهواء هؤلاء القوم الذي ضلوا وأضلوا.

قوله: ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ يعني: مع كونهم ضالين بأنفسهم، كانوا أئمة في الضلال فأضلوا كثيراً من الناس، فصاروا والعياذ بالله ضالين بأنفسهم مضلين لغيرهم، عكس الصالحين المصلحين أو المهتدين الهادين.

قوله: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هذا عطف للتوضيح والإيضاح؛ لأنه قال: ﴿ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾: عن ماذا؟ بينه بقوله: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: عن مستقيم السبيل، والسواء يطلق على معانٍ كثيرة منها الاستقامة، المعنى: وضلوا عن السبيل المستقيم، فهو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أمر النبي ﷺ أمراً خاصاً أن يقول هذا القول، وقد تقدم في غير موضع أن النبي ﷺ مأمور أن يبلغ القرآن كله، لكن أحياناً يوجه إليه الخطاب بتبليغ شيء معين، للاعتناء به.

الفائدة الثانية: أن أهل الكتاب عندهم غلو، وهو واضح، فالنصارى يقولون: إن عيسى ابن الله، واليهود يقولون: إن عزيراً ابن الله، وهم أيضاً يتبعون أحبارهم ورهبانهم ويتخذونهم أرباباً من دون الله.

الفائدة الثالثة: أنه إذا نهي أهل الكتاب عن الغلو، والغلو في ذاته مفسدة، فكذلك ينهى غيرهم، ولهذا حذر النبي ﷺ من الغلو في الدين، وحذر من الغلو فيه نفسه، فكان الرسول عليه الصلاة والسلام ينهى عن الغلو في الدين، فنهى الذين قالوا: إننا نصوم ولا نفطر، ونقوم ولا ننام، ولا نتزوج النساء، ولا نأكل اللحم[(١)]، وأخذ حصيات في حجة الوداع وجعل يقلبها في يده ويقول: «**بأمثال هؤلاء فارموا، إياكم والغلو في الدين**»[(٢)]، وسمى الذين أرادوا المواصلة في الصوم، المتعمقين[(٣)]، تحذيراً لفعلهم، ودعا على المتنطعين في دينهم ثلاث مرات، فقال: «**هلك المتنطعون**»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب: الترغيب في النكاح (٥٠٦٣)، ورواه مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه (١٤٠١) عن أنس بن مالك.

(٢) رواه ابن ماجه، كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي، حديث رقم (٣٠٢٩)، والنسائي، كتاب مناسك الحج، باب التقاط الحصى، حديث رقم (٣٠٥٧)، وأحمد (١/ ٢١٥) (١٨٥١)، وابن حبان (٩/ ١٨٣) (٣٨٧١) عن ابن عباس.

(٣) رواه البخاري، كتاب التمني، باب ما يجوز من اللو وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ [هود: ٨٠]، حديث رقم (٦٨١٤)، ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال، حديث رقم (١١٠٤) عن أنس بن مالك.

(٤) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، حديث رقم (٤٧٧٦)، ومسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه... حديث رقم (١٤٠١) عن أنس بن مالك.

والغالب أن الغالي ينحرف ـ نسأل الله العافية ـ لأن الغلو خلاف الفطرة، فيكون غلوه ظاهرياً فقط، ويكون قلبه خالياً من حقيقة الإيمان، ولهذا أخبر النبي ﷺ أن الخوارج يحقر الصحابي صلاته عند صلاتهم وقراءته عند قراءتهم[1]، ولكن إيمانهم لا يتجاوز حناجرهم والعياذ بالله، والغالب أن الغالي تجد قلبه يجول مع الناس وأفعال الناس وينتقدهم ويعترض عليهم، لكنه خال من معرفة الله حق المعرفة، ومن الرجوع إليه والإنابة إليه، فاحذر هذا، احذر هذا يا طالب العلم، كن مستقيماً بين الغلو والتفريط.

الفائدة الرابعة: أن الغلو ليس بحق: لقوله: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾.

الفائدة الخامسة: النهي عن اتباع أهواء الضالين، لقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ﴾.

الفائدة السادسة: أن الذي يحمل الإنسان على الضلال هو الهوى، وإلا لو كان الإنسان يقول بالعدل، ويحكم بالقسط، ما ضل عن الصراط المستقيم، لكن يغلبه هواه حتى يضل، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ﴾ ثم بَيَّنَ ضلالهم بأنه ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

الفائدة السابعة: التحذير من الإمامة في الضلال، لقوله: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ﴾ وماذا؟ ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

الفائدة الثامنة: الرد على الجبرية الذين قالوا: إن ضلال الإنسان لا ينسب إليه، وأنه مجبور عليه، ولا اختيار له فيه؛ لأن الآية صريحة بأنهم ضلوا وأضلوا.

---

(١) تقدم في (١/ ٤٣٧).

الفائدة التاسعة: إثبات الأسباب، لقوله: ﴿وَأَضَلُّوا﴾، فإن هذا إضلال ليس عن قوة وإجبار وإكراه لكنه عن سبب، يزينون به الباطل حتى يضلوا به غيرهم.

الفائدة العاشرة: أن هؤلاء المضلين الضالين جمعوا بين سوءين: الأول: ضلالهم لأنفسهم، والثاني: إضلال غيرهم، وهل يمكن أن يقتصر الإنسان على واحدة كضلال نفسه فقط؟ يمكن، يمكن أن يكون ضالاً ولا يدعو إلى الضلال، لكنه إذا كان إماماً في قومه صار ضلاله دعوةً بالفعل؛ لأنه سوف يتأسى به ويقتدى به، وهل يمكن أن يكون مضلاً وهو غير ضال؟

الجواب: لا، لا يمكن؛ لأن إضلاله يعتبر ضلالاً، هو ربما يكون قائماً بما أوجب الله عليه من أفعاله الخاصة، لكن إذا كان يضل فهذا ضلال.

إذاً: يمكن أن يكون الإنسان ضالاً غير مضل، ولا يمكن أن يكون مضلاً غير ضال؛ لأننا نقول: مجرد كونه يضل الناس هذا ضلال.

الفائدة الحادية عشرة: أن الدين الصحيح وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، لقوله: ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عن قِيَمِ السبيل، وأصل السبيل العدل، الذي ليس فيه غلو ولا تفريط.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٧٩].

قوله: ﴿لُعِنَ﴾: مبني للمجهول، أو إن شئت فقل: مبني لما لم يسمَّ فاعله، وهذا هو الأدق؛ لأنك إذا قلت: مبني للمجهول أشكل علينا قول الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، فإن الفاعل هنا غير مذكور، لكنه معلوم.

إذاً: التعبير بقولنا: فعلٌ ماض مبني لما لم يسمَّ فاعله، أولى من مبني للمجهول، فمن الذي لعنهم. إذا كان هنا مبنياً لما لم يسمَّ فاعله، لعنهم الله، والملائكة، والناس أجمعين؛ لأن كل من لعنه الله، فإن أولياء الله يلعنونه، بل إن الناس حتى غير أولياء الله يلعنونه كما قال الله عزّ وجل في أهل النار: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

قوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، والذين كفروا من بني إسرائيل: هم الذين لم يثبتوا على الدين الذي كلفوا به.

فمثلاً: بنو إسرائيل قبل بعثة عيسى دينهم هو دين موسى، فإذا خالفوه فقد كفروا، والنصارى بعد بعثة عيسى، وقبل بعثة محمد ﷺ دينهم النصرانية فمن خالفها فهو كافر.

قوله: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ لعنوا، يعني: أن داود عليه الصلاة والسلام وعيسى ابن مريم، دَعَوا عليهم باللعنة، فقالا: اللهم العنهم.

وقوله: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ داود: من أنبياء الله بلا شك، لكنه أعطي النبوة وشيئاً من الملك، ولكن الملك الأتم لابنه سليمان.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟﴾ المشار إليه اللعن، الذي دل عليه

الفعل لُعِن، وهنا عاد الضمير على ما اشتق منه الفعل، أي: ذلك اللعن بما عصوا.

والباء في قوله: ﴿بِمَا عَصَواْ﴾ للسببية، و(ما): مصدرية، أي: بعصيانهم، والمعصية خلاف الطاعة، والطاعة موافقة الآمر باجتناب ما نهى عنه، وفعل ما أمر به.

قوله: ﴿وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ معطوفة على عصوا، أي: على صلة الموصول، أي: بعصيانهم واعتدائهم، على الخالق عزّ وجل، فقالوا في حقه ما لا يليق به، واعتدوا أيضاً على المخلوق، فقتل بعضهم بعضاً.

وقوله: ﴿وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ لو قال قائل أليس الاعتداء من المعصية؟

الجواب: بلى هو من المعصية، لكن قد يخص بعض الأفراد بالذكر، لأهميته والعناية به، أو لكونه أشد وأقبح، ثم بين ذلك العدوان والمعصية، فقال: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾.

﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ أي: لا ينهى بعضهم بعضاً؛ لأن المفاعلة تدل على الاشتراك من الجانبين، والنهي هو طلب الكف على وجه الاستعلاء، وعلى هذا فلو أمر العبد سيده بأمرٍ أو نهاه عن شيء لم يكن آمراً ولا ناهياً؛ لأنه طلب الكف على وجه الاستعلاء، اللهم إلا أن يَدَّعي العبد أنه أعلى من سيده فهذه دعوى، يعني: قد يتخيل أنه أعلى من سيده فيوجه إليه الأمر والنهي.

وقوله: ﴿عَن مُّنكَرٍ﴾ المنكر هو: ما أنكره الشرع، أي:

نهى عنه إما تحريماً أو كراهة، من تفريط في واجب أو انتهاك لمحرم، لكن إذا كان كراهة فإنه لا يأثم من لم ينكره.

وهل المرجع فيه إلى العرف أو إلى الشرع؟ إلى الشرع؛ لأن الناس قد ينكرون ما ليس بمنكر، وقد يقرون ما هو منكر، فالمرجع إذاً إلى الشريعة، لا إلى عرف الناس، والمعروف ما أمر به الشرع إما إيجاباً أو استحباباً، وإذا كان استحباباً لا يأثم من لم ينكره.

وقوله: ﴿عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ﴾ كيف يقول: ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ﴾؟ لأن المفعول لا يتوجه إليه النهي، إذ إنه تم وفُعِل، لكن المراد بالآية ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ أي: عن الاستمرار في منكر فعلوه؛ لأن المنكر الذي فُعل لا يمكن أن يَرد عليه النهي، إذا قام الإنسان هل أقول: لا تقم؟ لا، إن قلت: لا تقم، فالمعنى لا تستمر في القيام.

قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ «اللام» هنا موطئة للقسم، يعني: والله لبئس، وبئس فعل ماض لكنه إنشاء في الواقع، إذ إنه فعل يدل على إنشاء الذم، و«نِعْم» تدل على إنشاء المدح.

قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ «ما» فاعل وهي اسم موصول، «وكانوا» صلة الموصول، والعائد على الموصول محذوف، والتقدير: لبئس ما كانوا يفعلونه.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: لعن الكافرين من بني إسرائيل، لقوله: ﴿لُعِنَ﴾ واللعن معروف، وهو الطرد والإبعاد من رحمة الله عزّ وجل وعدم التوفيق.

الفائدة الثانية: أن من بني إسرائيل من هو كافر ومنهم من هو مؤمن، لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وهذا هو الواقع، فإن منهم مؤمنين كالحواريين لعيسى عليه الصلاة والسلام، وكالقوم الذين اختارهم موسى سبعين رجلاً وغير ذلك.

الفائدة الثالثة: أن الذي لَعن بني إسرائيل رسولان كريمان، لعنوا على لسانهما وهما داود وعيسى ابن مريم، داود من أنبياء بني إسرائيل، لكنه ليس من آخرهم، آخرهم عيسى ابن مريم، فيكون لعنتهم في أول الرسالات، وفي آخر الرسالات.

الفائدة الرابعة: إثبات الأسباب، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾، فإن الباء للسببية، وسبق تقرير هذا وبيان اختلاف الناس في الأسباب، وبيَّنا الصحيح، وأن الأسباب نوعان: حسية، وشرعية.

الفائدة الخامسة: أن العدوان على الغير أشد من مجرد المعصية، مع أنه من المعاصي، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾.

الفائدة السادسة: أن الله سبحانه وتعالىٰ لا يظلم الناس شيئاً، وأنه لا يعاقب أحداً بعقوبة إلا بذنب، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾.

الفائدة السابعة: إحجام بني إسرائيل عن النهي عن المنكر، لقوله: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾.

الفائدة الثامنة: أن ترك التناهي عن المنكر سبب للعنة الله وطرده وإبعاده والعياذ بالله، واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتاج إلى شروط:

الشرط الأول: العلم بأن هذا معروف يؤمر به، وهذا منكر

ينهى عنه، فلا يجوز الأمر بما لا يعلم أنه مأمور به، ولا النهي عما لا يعلم أنه منهي عنه، لما في ذلك من الافتراء على الله، وصد عباد الله عما أحل الله لهم أو منعهم عما أحل الله لهم.

الشرط الثاني: أن يعلم وقوع هذا المنكر من الشخص المعين؛ لأن الشيء قد يكون منكراً عند شخص، وغير منكر عند آخر، فالمسافر يأكل سراً وجهراً في نهار رمضان، والمقيم لا يأكل، فالأكل منكر في رمضان عند المقيم وغير منكر عند المسافر، فلا بد أن يعلم الآمر والناهي أن هذا الشخص بعينه وقع في المخالفة، ومع الاحتمال يجب الاستفصال، دليله: أن النبي ﷺ رأى رجلاً دخل المسجد وجلس، وهو يخطب الناس عليه الصلاة والسلام، فقال له: «**أصليت؟**» قال: لا، قال: «**قم فصلِّ ركعتين وتجوز فيهما**»[1]، فلم ينهه عن المنكر الذي هو الجلوس قبل الصلاة حتى علم أنه لم يصلِّ، **وعلى هذا لو قال قائل**: هل يجب عليّ أن أنكر على شخص رأيته يمشي إلى جانب امرأة؟

الجواب: لا أنكر حتى أعلم أن المرأة أجنبية منه، وكيف الوصول إلى العلم؟ كل إنسان تريد أن تسأله ولو كان من أفسق عباد الله، سيقول: هذه أختي أو أمي أو زوجتي، لكن هناك قرائن تدل على أنه مرتكب محرماً.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب إذا رأى الإمام رجلاً جاء وهو يخطب أمره أن يصلي ركعتين، حديث رقم (٨٨٨)، ومسلم، كتاب الجمعة، باب التحية والإمام يخطب، حديث رقم (٨٧٥) عن جابر بن عبد الله.

وهل يجوز العمل بالقرائن؟

الجواب: نعم، والدليل أن الرسول ﷺ عمل بالقيافة[١]، وعندنا ثلاث قصص: قصة ليوسف عليه السلام، وقصة لسليمان عليه السلام، وقصة للنبي ﷺ غير مسألة القيافة، أما قصة يوسف فدليلها قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف: ٢٦ ـ ٢٨] والقرينة هنا إذا كان قميصه قُد من دبر فهي الكاذبة؛ لأنها هي التي جذبته إليها، وإن كان قميصه قُد من قُبل فتكون صادقة؛ لأنها أرادت أن تدافع عن نفسها بدفعه فانشق قميصه.

القصة الثانية: قصة سليمان عليه السلام حيث إنه جاء إليه امرأتان تختصمان في طفل صغير، فدعا بالسكين ليشقه نصفين، فقالت الصغرى: هو لها يا نبي الله، ورضيت الكبرى، فقضى به للصغرى[٢]، ووجه القرينة هنا أن الصغرى رحمته وقالت: لا تشقه، والكبرى أكل ولدها الذئب فقالت: اقضِ عليه لا يهم، وكان داود قد قضى به للكبرى.

والقصة الثالثة: قصة خيبر لما طلب النبي ﷺ مال حيي بن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب القائف، حديث رقم (٦٣٨٩)، ومسلم، كتاب الرضاع، باب العمل بإلحاق القائف الولد، حديث رقم (١٤٥٩) عن عائشة.

(٢) رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب إذا ادعت المرأة ابناً، حديث رقم (٦٣٨٧)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب بيان اختلاف المجتهدين، حديث رقم (١٧٢٠) عن أبي هريرة.

أخطب قالوا: إنه أفنته الحروب، قال: «**المال كثير والعهد قريب**»، ثم قال للزبير بن العوام رضي الله عنه: «**مسه بعذاب**»، أي: أمره أن يعذبه، فأقر[١]، فهذا من العمل بالقرائن وهو كثير في السنة، وكثير أيضاً في زمن التابعين من القضاة الأذكياء الذين يعملون بالقرائن، وفي كتاب الطرق الحكمية لابن القيم رحمه الله من هذا الباب شيء كثير.

لكن لو قال قائل: كيف نأمر وكيف ننهي، هل نأمر بشدة أو نأمر بسهولة؟

نقول: هذا يبنى على حال الشخص، فالمعاند ليس كالجاهل الأصلي، الجاهل الأصلي نعامله بلطف ولين وبالإقناع حتى يقبل الحكم، والمعاند أو المجاهر هذا له حكم آخر، ويدل لهذا وقائع وقعت في زمن النبي ﷺ:

منها: قصة الأعرابي الذي بال في المسجد، فإن النبي ﷺ كلمه بلطف وقال: «**إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من القذر والأذى**»[٢].

ومنها: قصة معاوية بن الحكم الذي تكلم في الصلاة مرتين، فدعاه النبي ﷺ وأخبره بأن «**هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس**»[٣].

---

(١) تقدم في (١/ ٢٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، حديث رقم (٢٨٥) عن أنس بن مالك، وأصله عند البخاري حديث رقم (٢١٩).

(٣) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، حديث رقم (٥٣٧) عن معاوية بن الحكم السلمي.

ومنها: لما رأى في يد رجل خاتماً من ذهب أخذه النبي ﷺ ونزعه من يده ثم رمى به ولم يتكلم معه، ولما انصرف النبي ﷺ قيل له: خذ خاتمك، قال: والله لا آخذ خاتماً رمى به رسول الله ﷺ[1]؛ لأن هذا الرجل ليس له عذر، فلكل مقام مقال.

ومن الشروط أيضاً: أن لا يتحول المنكر إلى ما هو أنكر منه، فإن تحول إلى ما هو أنكر منه وجب الكف عن النهي؛ لأنك إذا نهيت وأنت تعلم أنه سيتحول إلى ما هو أَنْكَر، فمعنى ذلك أنك دَعَوْتَ إلى فعلٍ زائد عن المنكر الأول، والزائد عن المنكر الأول منكر، يؤخذ هذا من قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فترك سب آلهة المشركين منكر؛ والواجب سب هذه الآلهة والتحذير منها والتنفير عنها، لكن إذا لزم منه ما هو أشد نُكْراً وجب الكف، لقوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ﴾.

فلو رأينا شخصاً يشرب الدخان أمامنا، لكن نعلم أننا لو نهيناه عن شرب الدخان لذهب يسرق أموال الناس، ويؤذي الناس ويضايقهم، فهل ننكر عليه شرب الدخان أو لا؟ لا ننكر، وكذلك لو غلب على ظننا أننا لو نهيناه عن الدخان لذهب إلى رفقة يشربون الخمر، فإننا لا ننهاه دفعاً لأعلى المفسدتين بأدناهما.

هذه ثلاثة شروط، واختلف العلماء في الشرط الرابع: وهو

---

(١) رواه مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم خاتم الذهب على الرجال...، حديث رقم (٢٠٩٠) عن ابن عباس.

هل يلزم أن يكون الآمر فاعلاً لما يأمر به أو الناهي تاركاً لما ينهى عنه، والصواب: أن هذا ليس بشرط؛ لأننا لو قلنا لمن يفعل المنكر: لا تنهَ عنه، لزم من ذلك أن نأمره بمنكرين، ترك الإنكار وفعل المنكر الذي هو يمارس، فنحن نقول: مُر بالمعروف وانهَ عن المنكر، وإن كنت تفعل ما تنهى عنه، أو تترك ما تأمر به، وربما يكون أمره ونهيه سبباً لالتزامه واستقامته؛ حيث إنه يوبخ نفسه ويقول: سبحان الله! أنهى الناس عن المنكر وأفعله، فيستقيم، وأما قول الشاعر:

لا تنهَ عن خلق وتأتي مثله عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

فمراده أن تجمع بين الأمرين لا تنهَ وتأتي مثله، فالإنسان الذي يفعل المنكر ويرى المنكر، يجب عليه شيئان: الأول: ترك المنكر، والثاني: النهي عنه، فإذا تعذر الأمر الأول لا نقول: يتعذر الثاني، فالصواب: أنه يجب على الإنسان أن يأمر بالمعروف وإن كان لا يفعله، وأن ينهى عن المنكر وإن كان يفعله، لكن هذا سيكون يوم القيامة أشد عذاباً؛ لأن حاله كحال المستهزئ بالله عزّ وجل وأحكام الشريعة، كيف تأمر بشيء لا تفعله، كيف تنهى عن شيء وأنت تفعله، ما هذا إلا نوع من الاستهزاء والسخرية، ولذلك كان أشد عذاباً، حيث أخبر النبي عليه الصلاة والسلام: «**أنه يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار حتى تندلق أقتاب بطنه** ـ والأقتاب: هي الأمعاء ـ **فيدور عليها كما يدور الحمار على رحاه، فيجتمع عليه أهل النار، فيقولون: يا فلان! مالك؟ ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر، فيقول: بلى، ولكني آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم**

عن المنكر وآتيه»[١] فيفضح هذه الفضيحة والعياذ بالله.

وليعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير تغيير المنكر، ولهذا جاءت النصوص مطلقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه يكون ممن له ولاية، وممن ليس له ولاية، وجاء التغيير مقيداً بالاستطاعة، حيث قال النبي ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه**»[٢] لأن التغيير لا بد أن يكون من ذي سلطة، كولي الأمر مثلاً ونوابه، وكذلك الرجل في أهله، يستطيع أن يغير المنكر بيده، لكن في الشارع عليه الأمر والنهي فقط، والإلزام بمأمور به أو التغيير لمنكر هذا ليس إليه، وذلك لما يحدث من الفوضى، فلا يفتح لكل أحد من الناس؛ لأنه لو فتح لكل أحد من الناس لكانت المسألة فوضى، ولكان كل إنسان يرى أن هذا منكر، ولو كان الفاعل لا يراه منكراً، يقوم ويغير بيده، فالتغيير لمن له ولاية وسلطة، فالأمير في بلده له ولاية وسلطة، والإنسان في بيته كما تقدم له ولاية وسلطة.

لكن لو قال قائل: هل الدعوة إلى الله هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو شيء آخر؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، حديث رقم (٣٠٩٤)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله، حديث رقم (٢٩٨٩) عن أسامة بن زيد.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص، حديث رقم (٤٩) عن أبي سعيد الخدري.

الجواب: الدعوة واجبة بكل حال، سواء رأيت منكراً أم لم تره، وسواء رأيته تفريطاً في واجب أم لم تر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] بدأ بالدعوة إلى الخير ثم ثنى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فصارت المراتب ثلاثة:

المرتبة الأولى: الدعوة إلى الخير والبيان بالمعروف، وبيان المنكر.

المرتبة الثانية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المرتبة الثالثة: التغيير بفعل المعروف وإزالة المنكر، وكثير من الناس لا يتفطن لهذا الفرق، ويظن أن الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتغيير سواء.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المائدة: ٨٠].

قوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿تَرَىٰ﴾: يحتمل أن تكون رؤيا علمية، ويحتمل أن تكون رؤية بصرية؛ لأن تولي الكافرين يشاهد بالعين ويعلم بالقلب، ثم هل الخطاب للنبي ﷺ ومن كان في زمنه أو لكل إنسان؟ الظاهر العموم، وهكذا ينبغي أن نسلك طريق العموم في جميع الخطابات القرآنية؛ لأن القرآن نزل للأمة إلى قيام الساعة، إلا إذا منع منه مانع فيجب أن نقتصر على ما دل عليه.

وقوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء الذين

لعنوا من بني إسرائيل ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: يتخذونهم أولياء، يوالونهم بالنصرة والمعونة والمساعدة، ومن هؤلاء اليهود حينما ساعدوا قريشاً عام غزوة الأحزاب[1]، فإنهم تولوا الذين كفروا وساعدوهم وعاونوهم، ومن هذا تولي اليهود للنصارى في وقتنا الحاضر، هذا إذا قلنا: إن «ترى» عامة؛ لأن النصارى من الذين كفروا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [البينة: ٦]، وهذا بيان للذين كفروا.

وقوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قيل: إن المراد بالذين كفروا هم الذين كفروا بقلوبهم وآمنوا بألسنتهم وهم المنافقون؛ لأن المنافقين مع اليهود في المدينة على خط واحد يتولونهم ويساعدونهم ويمكرون بالنبي عليه الصلاة والسلام كما يمكر المنافقون، ولو قيل: إن الآية عامة، لكان أولى من باب استعمال الاسم المشترك في معنيين، أو بناءً على القاعدة التي تقررت: أنه إذا كانت الآية أو الحديث يدل على معنيين على السواء، ولا ينافي أحدهما الآخر، فالواجب حمله على المعنيين، توسيعاً للمعاني الشرعية، وتبرئة للذمة؛ لأننا لو اقتصرنا على أحد المعنيين والله ورسوله أراد المعنيين، لتعلق ذلك بذممنا.

وقوله: ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: هل المراد كفروا ظاهراً وباطناً، أو كفروا باطناً وآمنوا ظاهراً، أو الأمران؟ الأمران جميعاً.

قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٧١)، تاريخ الطبري (٢/ ٩١).

يعني: لبئس الذي قدمت لهم أنفسهم ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، يعني: أن سخط الله عليهم بئس ما قدموه لأنفسهم، وإنما قدموا سخط الله لأنفسهم؛ لأنهم فعلوا ما يوجب سخطه، فكأنهم قدموا لأنفسهم سخط الله عليهم.

وقوله: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ السخط والغضب معناهما متقارب، وهما وصفان ثابتان لله عزّ وجل على وجه الحقيقة، وهما غير الانتقام، وغير إرادة الانتقام، بل هما شيء سابق لإرادة الانتقام، وسابق للانتقام، فالانتقام غير السخط، بل هو نتيجته، والدليل على ذلك: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] آسفونا يعني: أغضبونا، لكن بالنسبة لنا: السخط حال تعتري الإنسان عند وجود ما يثيره من قولٍ أو فعل، وتجد الإنسان ينفعل ويختل تفكيره حتى إنه يفعل ما لا تحمد عقباه، والسخط يكون فيه انتقام من الساخط، وقد يعفو الله عزّ وجل عن المسخوط عليه إذا اقتضت رحمته وحكمته ذلك.

قوله: ﴿وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ فيه نوع من التوكيد وذلك بوجود الضمير، وإلا لو قيل: «لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب خالدون»، لاستقام الكلام، لكن جاءت كلمة «هم» للتوكيد، والخالد: هو الماكث مكثاً طويلاً هذا في الأصل، وقد يراد به المكث الدائم حسب الأدلة والسياق.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن بني إسرائيل قد يتولون الكفار، ممن كُفْرُهُمْ صريح أو خفي، فهم يوالون الكفار والمنافقين ـ والعياذ بالله ـ على رسول الله ﷺ، وإن كان بعضهم مع بعض قد لا يكون

بعضهم إلى الآخر حبيباً ومستحقاً للولاية، لكن لأنهم ضد ثالث.

الفائدة الثانية: التحذير من موالاة الكافرين، وموالاة الكافرين أنواع كثيرة، منها ما يصل إلى الكفر ومنها ما هو دون ذلك، فالتولي التام كفر، بمعنى أن يكون معهم على الخطأ والصواب وعلى المسلم وغير المسلم، وعلى دين الإسلام وغيره، هذا لا شك أنه كفر، والتولي في بعض الأمور كالمعاقدة معهم في أمور اقتصادية مثلاً أو تجارية أو عمل حرث أو زراعة هذا لا يؤدي إلى الكفر؛ لأنه قد يعامله وقلبه منكر له مبغض له، بخلاف الذي يقول: إنه معهم على الخطأ والصواب، فهذا لا شك أنه كما قال الله عزّ وجل: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

لو قال قائل: هل هناك فرق بين الموالاة والتولي؟

الجواب: لا فرق بينهما، تولاه ووالاه لا فرق بينهما.

لو قال قائل: عمل المسلم مع الإذاعات التي تبث من الدول غير المسلمة حيث إنه ينقل أخبار المسلمين إليهم هل هي من الموالاة؟

الجواب: لا يجوز، والصحفي الذي ينقل أخبار المسلمين إلى الكفار هذا جاسوس، والصحيح أن الجاسوس ولو كان مسلماً يجب أن يقتل، يعني لو تأكدنا أن هذا الرجل يجس بأخبارنا إلى أعدائنا، وجب أن نقتله لا شك في هذا، وحاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه إنما منع قتله أنه من أهل بدر، وهذا يدل على أن غير أهل بدر يقتلون، ولا شك أنه يقتل؛ لأن هذا من أعظم الفساد في الأرض هذا إذا كانت هذه الأخبار تضر

بالمسلمين وتنفع الكفار؛ لأنها قد تكون مجرد أخبار وحوادث فقط.

لو قال قائل: ما حكم مساعدة الكفار للقتال ضد المسلمين ليس حباً في دين الكفار، ولكن حسداً وبغضاً على هؤلاء المسلمين؟

الجواب: هذا معناه أنه يريد أن يظهر الكفار على المسلمين، وهذا لا يجوز.

لكن لو قاتل مع الكفار عدواً للمسلمين، أشد عداوة من الذين يقاتل معهم، يعني: هؤلاء القوم من الكفار أعداء للمسلمين لا شك، هناك عدو ثالث للجميع، وهو بالنسبة لعداوة المسلمين أشد خطراً من الآخرين، فهل لنا أن نقاتل مع هؤلاء لأن هذا العدو أخطر علينا من الآخر الذي نقاتل معه، أو نقول: لا نقاتله وليتقاتل الطرفان وليغلب الأشد علينا من الآخر؟ الظاهر أننا نقاتل معهم بشرط أن لا نخشى من أن يتقوى الجانب الذي نقاتل معهم ثم ينقلبون علينا؛ لأن هذا وارد، ربما يفعلون هذا إذا قاتلنا معهم وقضوا على عدوهم بمساعدتنا أن ينقلبوا علينا، ويكون كما قال الشاعر:

خلا لِك الجو فبيضي واصفري .....

الفائدة الثالثة: الرد على الجبرية، لقوله: ﴿قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾، وقوله أيضاً: ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾.

الفائدة الرابعة: الاستدلال بالأمور الحسية، يعني: إقامة الدليل الحسي مما جاء في القرآن الكريم، لقوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، فإن هذا كما تقدم في التفسير يحتمل الرؤية العلمية والرؤية البصرية.

الفائدة الخامسة: إثبات سخط الله عزّ وجل، لقوله: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، ومذهب أهل السنة والجماعة المتلقى من طريق السلف الصالح الصحابة والتابعين، إثبات هذه الصفة لله عزّ وجل، وأنه يسخط ويغضب، ويحب ويكره، ويبغض ويمقت، إلى غير ذلك مما أثبته الله لنفسه، فمذهب السلف الصالح: أننا نثبت هذا لله حقيقة، ولكن في علمنا ويقيننا أن ذلك لا يماثل صفات المخلوقين؛ لأن الله يقول: ليس كمثله شيء ولو أننا حرفنا وقلنا: السخط هو الانتقام لافترينا على الله كذباً؛ لأنه يقال لمن فعل ذلك: أين دليلك على أن الله أراد هذا؟ ونحن متعبدون بظاهر اللفظ، والقرآن عربي ونازل باللغة العربية، لو صرفناه عن ظاهره لكنا افترينا على الله كذباً بغير حجة، وما موقف الإنسان من ربه يوم القيامة، إذا اعتقد هذا الاعتقاد ـ أعني: الاعتقاد، أن السخط: هو إرادة الانتقام أو الانتقام ـ فالصواب في هذا المتعين الواجب على المؤمن الذي يريد إنقاذ نفسه، أن يجري آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها.

فإذا قال قائل: إن ظاهرها التمثيل، قلنا: كذبت، لا يمكن يكون ظاهرها التمثيل؛ لأن التمثيل معنى باطل، ولا يمكن أن يكون ظاهر كلام الله ورسوله شيئاً باطلاً بأي حال من الأحوال.

فإذا قال: هذا الظاهر، وأصر على ذلك، قلنا: أين الدليل لك على أن هذا هو الظاهر؟ إذا قال: إن العقل يمنع أن يقوم السخط بالله أو الغضب بالله أو الكراهة بالله، قلنا: عقل من؟ والعقل لا مجال له في الأمور الغيبية إطلاقاً، وإنما فَرْض العقل

في الأمور الغيبية هو التسليم والتصديق؛ لأننا أقل من أن ندرك ما أخفاه الله علينا، وإذا كان الله عزّ وجل ينكر على من يسألون عن الروح، ويقول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]، فما كان أعظم من الروح، فهو أولى بالخفاء علينا.

ولهذا ضرب شيخ الإسلام رحمه الله في العقيدة التدمرية، ضرب مثلاً بالروح قال: روح الإنسان مجهولة لا يعلم من أي عنصر هي، ولا يعلم كيفية الروح، إلا ما جاءت به الشريعة فقط، من أن الروح تقبض وتجعل في كفن عند الموت وتحنط، ويصعد بها إلى السماء، وتقبض، ما عدا ذلك ليس لنا فيه علم، فإذا كان هذا في شيء مخلوق، أي: أننا لا ندركه مع أنه شيء مخلوق فما بالك بالخالق، المخالف لجميع الأشياء، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

فالواجب على من نصح نفسه، أن يقول في كل ما أخبر الله به ورسوله عن نفسه أن يقول: سمعنا وصدقنا وآمنا، لكن على أساس أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وهذا إجماع من السلف، فكون السلف يقرؤون الآيات ولا يفسرونها بخلاف ظاهرها، يدل على أنهم مجمعون على ما دل عليه ظاهرها، وهذا في الحقيقة طريق جيد لنقل الإجماع؛ لأنك لو أردت أن تطلب من كل إنسان أن يثبت لك قولاً واحداً من أقوال السلف قد لا تستطيع، لكن نقول: كونهم يقرؤون القرآن والحديث ولم يرد عنهم تأويله يدل على أنهم أخذوه على ظاهره.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٨١].

قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟﴾ الضمير يعود على اليهود الذين حدث الله عنهم أولاً.

قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: حق الإيمان، والإيمان مع الكفر بالرسل لا يسمى إيماناً، حتى لو قال: أؤمن بالله وأن الله سبحانه وتعالىٰ حي، عليم، قادر، مدبر للأشياء، فإن ذلك لا يعد إيماناً مع الكفر.

قوله: ﴿وَٱلنَّبِىِّ﴾ «أل» هنا للعهد الذهني وهو محمدٌ ﷺ.

قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ أي: القرآن، والمُنْزِلُ له هو الله تبارك وتعالى.

قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ﴾ هذا جواب «لو»، يعني: ما اتخذوا الذين كفروا أولياء، ولم يقترن جواب لو بـ«اللام»؛ لأنه نفي، واللام للتوكيد والإثبات، ولا يتناسب هذا وهذا، ولذلك كان الأكثر في جواب لو الشرطية إذا كان مثبتاً أن يقترن باللام، وإذا كان منفياً أن يتجرد من اللام، فإذا قلت: لو زرتني أكرمتك صح، ولو قلت: لو زرتني لأكرمتك صح، وأيهما الأكثر؟ الثاني، (لأكرمتك)، وقد اجتمع النوعان في سورة الواقعة، فقال الله تبارك وتعالى في الزرع: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٥]، لجعلناه بإثبات اللام وقال في الماء: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠] فحذف اللام، أما إذا كان جواب لو منفياً بـ«ما» فإن الأكثر تجرده من اللام، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا

عَبَدْنَٰهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠]، ولم يقل: لما عبدناهم، ووجه ذلك: أنه لا يتناسب التوكيد باللام مع الاقتران بـ(ما)، لكن مع ذلك تأتي في اللغة العربية كما في قول الشاعر:

ولو نعطى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الليالي

قال: لما افترقنا، المعنى لو كان الأمر بأيدينا لما افترقنا، ولكن تأبى الليالي إلا أن نفترق.

في هذه الآية قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ﴾ جَرْيٌ على الأكثر، (ما اتخذوهم) أي: ما صيروهم أولياء.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله، والمراد بالفسق هنا الفسق الأكبر المخرج عن الملة.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن اتخاذ الكافرين أولياء منافٍ للإيمان بالله ورسوله وكتابه، لقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.

الفائدة الثانية: أن النبي يطلق على الرسول، وفي هذه السورة ذُكر الرسول والنبي وكلاهما للرسول محمد ﷺ، وقد تقدم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ [المائدة: ٦٧] وفي هذه الآية يقول: ﴿وَٱلنَّبِىِّ﴾، وفي القرآن الكريم أكثر ما ذكر الرسل بوصف النبوة، اقرأ إن شئت سورة مريم، واقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

الفائدة الثالثة: أن القرآن منزل على محمدٍ ﷺ، لقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ هذا الإنسان معتنى به أكمل عناية، لقول الله

تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢]، تأمل قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ليتبين لك عظمة هذا القرآن، وأن العالمين ملزمون بقبوله؛ لأنه نازل من ربهم، ثم تأمل قول الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣]، الروح جبريل؛ لأنه موكل بالوحي الذي به حياة القلوب، فهو أمين مؤتمن، لا يمكن أن يزيد فيه ولا ينقص ولا يتقدم ولا يتأخر عليه الصلاة والسلام.

أين وعاء هذا المُنَزَّل ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٤]، والشيء إذا حل بالقلب لا بد أن يؤثر على البدن، لقول النبي ﷺ: «**وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(١).

الفائدة الرابعة: ثبوت علو الله عزّ وجل، لقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾، ومعلوم أن المنزل هو الله تبارك وتعالى، والتعبير بالإنزال يدل على علو المنزل، وهو كذلك، وعلو الله عزّ وجل ثابت بالكتاب والسنة، والعقل والفطرة والإجماع، ثبوتاً لا شك فيه، أما الكتاب فالآيات في ذلك كثيرة متنوعة الدلالة، وأما السنة فكذلك، اجتمع فيه ـ أي: في العلو ـ الدلالة القولية والفعلية والإقرارية، والدليل على الإقرارية أن النبي ﷺ سأل الجارية: «**أين الله؟**» قالت: في السماء، فقال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»(٢).

---

(١) تقدم في (١/ ١٤٣).

(٢) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، حديث رقم (٥٣٧) عن معاوية بن الحكم السلمي.

ودليل الفعلية أن النبي ﷺ كان يشهد الله على إقرار الأمة بأنه بلغ فيرفع إصبعه إلى السماء ويقول: «**اللهم اشهد**»[(١)]، أما القول: فلا يحصى.

وأما دلالة العقل على علو الله، فكل إنسان عاقل يعرف أن العلو صفة كمال، سواء أكان معنوياً أم حسياً، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، والعقل يدل على أنه يجب أن يكون للمعبود المثل الأعلى.

أما الفطرة فحدِّث ولا حرج، تجد النساء والأطفال الذين لم يدرسوا يشهدون بفطرهم أن الله تعالى فوق وأنه عالٍ، ولا يمكن أن يحيد عن هذه الفطرة إلا من أزاغ الله قلبه والعياذ بالله.

بقي الإجماع، إجماع المسلمين قبل أن يحدث هذا الخلاف، فإنه ما من أحد منهم قال: إن الله ليس في السماء أبداً، لا تصريحاً ولا تلميحاً، وكما قال شيخ الإسلام رحمه الله: هذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وهذه سنة رسول الله ﷺ، وهذه الآثار عن الصحابة، ليس فيها حرف واحد يدل على أن الله في كل مكان أبداً، ولكن من يضلل الله فلا هادي له.

والعجب أنه يوجد من المسلمين مَنْ يؤمن بأن الله في كل مكان ـ نسأل الله العافية ـ ولا أدري كيف يستسيغ الإنسان أن يقول: إن الله في كل مكان، وهو يعرف أنه سوف يدخل المرحاض وبيت الخلاء، فهل يمكن لإنسان عنده مسكة عقل أن يعتقد مثل هذا، لا والله، لكن ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فلا يهتدون، نسأل الله العافية.

---

(١) تقدم في (١/ ٤٦٧).

فالواجب على طلبة العلم نشر العقيدة الصحيحة حول هذا الموضوع المهم، أنا أخشى إن لاقى الإنسان ربه على هذه العقيدة أن لا يتولاه الله، ولا يكلمه الله؛ لأنها عقيدة من أبطل العقائد ـ والعياذ بالله ـ ومع ذلك فهي موجودة، كما أحسسنا بذلك في دروس الحرم، حتى إن الواحد من الناس لو قلت له: أين الله؟ قال بلا تردد: في كل مكان، وكأنه شيء ثابت عنده، ولهذا يجب على طلاب العلم أن يعتنوا بهذه المسألة.

نحن في بلادنا والحمد لله لا نعرف هذه العقيدة الباطلة، ولا يمكن أن يدور في فكر أي إنسان أن الله في كل مكان، لكن في بعض البلدان التي أشربت عقيدة الضلال ـ والعياذ بالله ـ، وصاروا يقرؤونها في الكتب ويتعلمونها صغاراً، ويشيخون عليها كباراً هم الذين تأثروا بها، فعلينا أن نعتني بهذه المسألة وبغيرها من المسائل التي شاعت في العالم الإسلامي، وهي خلاف الصواب.

الفائدة الخامسة: ما أشرنا إليه أولاً: أن اتخاذ الكافرين أولياء ينافي الإيمان بالله، ورسوله، وكتابه، الدليل: ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.

الفائدة السادسة: الاستدلال بالمحسوس على المعقول، وإن شئت فقل: بالمشاهد على الخفي، وجه ذلك: أن الإيمان في القلب، ولا أحد يعلم عن الإيمان الذي في القلب، لكن الآثار تدل عليه، والأثر الذي دلنا على أنهم لم يؤمنوا هنا، هو تولي الكفار، واتخاذهم أولياء.

الفائدة السابعة: أن الفسق يطلق على الكفر، لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وهو كذلك، ولذلك شاهد،

وقولي: وهو كذلك، لست أريد أن أقرر الآية؛ لأنها معروفة لكن لها شاهد، اقرأ سورة السجدة ماذا قال الله؟ قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠]، في مقابل الذين آمنوا، وإذا جاء الفسق في مقابل الإيمان، والوعيد في مقابل الوعد، فالمراد به الكفر.

الفائدة الثامنة: وجوب الاحتراز عند الكلام، بمعنى أن لا تعمم فتقول مثلاً: كل أهل هذه البلدة كلهم فسقة، كلهم فجار، كلهم كذا، لا تعمم؛ لأنك لا تدري، ولهذا اسمع إلى عالم الخفيات جلَّ وعلا يقول: ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، فإياك والتعميم فتقع في الخطر أو في الكذب.

لو قال قائل: هل معرفة تفسير القرآن واجبة؟

الجواب: تفسير ما لا يقوم دين المرء إلا به فهو واجب، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] يجب أن نعرف ما معنى إقامة الصلاة، ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] كذلك، وما زاد على ذلك فهو فرض كفاية، وإن حصل أن الإنسان يتأمل القرآن كلما قرأه، ويحاول أن يعرف المعنى بنفسه، ثم يرجع بعد ذلك إلى أقوال المفسرين فهذا طيب، وبهذا يكون عنده ملكة في معرفة تفسير القرآن؛ لأن كون الإنسان يريد أن يفهم معنى آية فيذهب بلا تردد إلى كتب التفسير، لا ينتفع كثيراً، يعني: كونه يقرأ أقوال المفسرين فقط قراءة عابرة هذا لا يستفيد الفائدة المطلوبة، بل يحاول أولاً أن يعرف المعنى أو يكون معنى في نفسه، ثم يعرض ما فهمه على كتب المفسرين، لئلا يضل؛ فإن طابق فهذا من نعمة الله، وإن خالف فليرجع عن تصوره أو عن

فهمه؛ لأنَّا وجدنا هذا أقوى في معرفة التفسير، وأمكن في قلب الإنسان، هذه قاعدة.

لكن لو قال قائل: ما الحد الأدنى من المعرفة التي تجعل الإنسان يحاول التفسير بنفسه؟

الجواب: أن يكون طالب علم، يفهم ويعرف، ولا نقول للعامي الذي لا يعرف إلا الدكان: تعال حاول أن تفسر القرآن.

لو قال قائل: هل يفسر طالب العلم معاني الكلمات أم ماذا؟ المراد أن يفسر المعنى الإجمالي، وما تدور حوله الآية وأما معاني الكلمات فليست بلازمة.

القاعدة الثانية: إلام نرجع في التفسير؟ **أولاً**: نرجع إلى كتاب الله يعني: أن نفسر القرآن بالقرآن؛ لأن المتكلم به سبحانه وتعالى أعلم بمعناه، فإذا جاء تفسير القرآن بالقرآن فلا تَعْدُوهُ، أي القرآن، وأحياناً يفسر الله عزّ وجل المعنى بالأحكام التي تكون، وأحياناً يفسره بالمعنى المطابق، فقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾ [الانفطار: ١٧ ـ ١٨]، لو أردنا أن نفسرها بالمعنى لقلنا: يوم الدين: اليوم الذي تجازى به النفوس بما كسبت؛ لأن الدين معناه الجزاء، لكن الله تعالى بَيَّنَ ما يكون في ذلك اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩]، وقال تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾﴾ [القارعة: ٩ ـ ١٠]، قال: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ [القارعة: ١١]، ففسر الهاوية بالنار الحامية.

فعلى كل حال: نرجع إلى تفسير القرآن بالقرآن، ووجه ذلك: أن الذي أنزله سبحانه وتعالى أعلم بمعناه.

ثانياً: بعد ذلك نرجع إلى التفسير بالسنة، والتفسير بالسنة أنواع لا تحصى، تارة يكون بلفظ الرسول عليه الصلاة والسلام، وتارة يكون بفعله، وأنواع كثيرة مثلاً: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، الحسنى هي: الجنة، والزيادة: هي النظر إلى وجه الله، هكذا فسره النبي ﷺ[(١)].

إذاً: ليس لنا أن نقول: هل هناك معنى آخر؟ لا نقول هذا؛ لأن النبي ﷺ فسرها بذلك، وهو أعلم الناس بمعاني كلام ربه تبارك وتعالى، وكذلك قال النبي ﷺ في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، قال: «**ألا إن القوة الرمي**»[(٢)]، يعني هو أعلى أنواع القوة وإلا فهناك قوة أخرى غير الرمي، وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام، الآن أشد ما يكون هو الرمي، ليس الرمي بالقوس وما أشبه ذلك، فالرمي يشمل كل رمي يحدث إلى يوم القيامة، الآن القنابل الهيدروجينية، والنووية، والأشياء هذه كلها داخلة في الرمي.

إذاً: القوة فسرها الرسول ﷺ بالرمي، فلا نتعداه، وقد يقال في هذه المسألة بالذات: إن النبي ﷺ أراد أن يفسرها بمثال، وأن القوة تكون بالرمي وتكون بالكر والفر والخداع وما أشبه ذلك، لكن يشكل على هذا الاحتمال أن الرسول ﷺ قالها على وجه الحصر، قال: «**ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالىٰ، حديث رقم (١٨١) عن صهيب الرومي.

(٢) تقدم في (١/ ٣٨٤).

(٣) تقدم في (١/ ٣٨٤).

ثالثاً: إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا السنة، رجعنا إلى تفسير الصحابة؛ لأننا نعلم أن أعلم الناس بكلام الله بعد الرسول عليه الصلاة والسلام هم الصحابة؛ لأنه نزل في عصرهم، وبلغتهم، ومعلوم أن معاني الألفاظ تختلف باختلاف الأحوال، قد تخاطب بلفظ واحد أمة، وتخاطب أمة أخرى، ويكون المراد بالخطاب الأول غير المراد بالخطاب الثاني، ولا شك أن القرآن إذا كان نزل غضاً طرياً في عهدهم وعصرهم وأحوالهم، والملابسات التي توجب فهم النص على ما أراد الله، لا شك أن هذا يرجح أن يكون المرجع أقوال الصحابة.

لكن الصحابة قد يفسرون الشيء بالمثال، فإذا كان اللفظ يحتمل معنى غير ما قالوا، فليكن مفسراً بالمعنى الذي قالوا، وبالمعنى الآخر، هاتان قاعدتان مهمتان.

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّۖ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٦].

قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ﴾، قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ هذه الجملة مؤكدة بمؤكدات ثلاث:

القسم المقدر الذي دلت عليه اللام بقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾، ولهذا يسمي النحاة هذه اللام موطئة للقسم، ومؤكدة أيضاً باللام وبالنون، والخطاب فيها إما للرسول ﷺ، وعلى هذا فيكون الحديث عن اليهود والنصارى والمشركين في هذه الآية الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ، وإما أن يكون الخطاب لكل من يتوجه إليه الخطاب، فتكون هذه الأوصاف عامة في هؤلاء إلى يوم القيامة، فالآية محتملة، ومع ذلك حتى لو قلنا بالعموم، فلا تعم كل يهودي بعينه أو نصراني بعينه أو كل مسلم بعينه، لكن هذا الحكم على سبيل العموم، والأحكام تأتي دائماً على سبيل العموم كما تقول: الرجال خير من النساء، يعني هذا الجنس خيرٌ من هذا الجنس، ويوجد في النساء من هو خير من كثير من الرجال، ويوجد في الرجال من هو شر من كثير من النساء.

إذاً: الخطاب يحتمل أن يكون للرسول ﷺ، وعلى هذا فيختص الحكم بهؤلاء الذين في عهد الرسول ﷺ، ويحتمل العموم ويكون المراد الجنس ليس كل فرد، فلا نقول كل يهودي أشد الناس عداوة للمؤمنين، ولا كل نصراني أقرب الناس مودة بل هذا باعتبار الجنس.

وقوله: ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ﴾، يحتمل في «أشد» أن تكون هي المفعول الأول، ويكون المراد الإخبار عن أشد الناس عداوة، ويحتمل أن تكون (أشد) مفعولاً ثانياً، ويكون المراد الإخبار عن هاتين الطائفتين اليهود والنصارى، بأنهم أشد الناس عداوة.

فأيهما أعظم أن نجعل ﴿أَشَدَّ﴾ هي المفعول الأول،

و﴿ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾ هي المفعول الثاني، أو العكس؟ الأول أشد، يعني لو سألت عن أشد الناس عداوة لوجدتهم اليهود والذين أشركوا، إذاً نقول: ﴿أَشَدَّ﴾ هي المفعول الأول، وهي في محل مبتدأ؛ لأن وجد تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر، فحينئذٍ يكون المعنى الإخبار عن أشد الناس عداوة، وإذا جعلنا أشد مفعولاً ثانياً مقدماً صار المعنى الإخبار عن اليهود والذين أشركوا أنهم أشد الناس عداوة، لكن المعنى الأول أشد وأعظم.

وقوله: ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ﴾ العداوة ضد الولاية، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت: ٣٤]، أي: صديق مخلص.

وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: بذلك المؤمنين في عهد الرسول ﷺ هذا إذا جعلنا الخطاب للرسول ﷺ، وإن جعلناه للعموم فالمراد الذين آمنوا في كل وقت.

وقوله: ﴿ٱلۡيَهُودَ﴾ هم الذين يدَّعون أنهم أتباع موسى، ويقولون: نحن شعب الله المختار، ويحتقرون من سواهم من الشعوب، وقد عرفوا بالاستكبار والتعالي والتعجرف حتى على رسولهم موسى عليه الصلاة والسلام، سموا يهوداً قيل: إنه مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: ٤١]، وقولهم: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقيل: إنه اسم لجدهم، وأن اسمه يهوذا، ومع التعريب صارت الذال دالاً، وأياً كان فهم معروفون، هم طائفة من بني إسرائيل يدَّعون أنهم متبعون لموسى عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ الذين أشركوا من العرب وغيرهم، فهذان الصنفان من بني آدم هم أشد الناس عداوة للمؤمنين، أما اليهود فوجه عداوتهم، أنهم حسدوا العرب؛ لكون الرسالة العامة الخالدة فيهم، وكان اليهود من قبل يستفتحون على الذين كفروا، ويقولون: سيبعث نبي ونتبعه وننتصر عليكم، ولما بعث محمدٌ ﷺ من العرب حسدوهم، وأنكروا ذلك، أما الذين أشركوا فهم المشركون، وصاروا أشد الناس عداوة؛ لأنهم ضد التوحيد، والمؤمنون موحدون، والمشرك يبغض الموحد، ويكرهه، ويراه أنه أشد الناس عداوة له.

قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ ﴿لتجدن﴾: نقول فيها ما قلنا في الأولى، أي: نقول في إعراب «أقرب» ما قلنا في أشد، وهنا قال: ﴿أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾ ولم يقل: أشدهم مودة؛ يعني ليس عندهم مودة لكنهم قريبون، يعني أن الله عزّ وجل قال في اليهود أنهم: ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً﴾، لكن هؤلاء قال هنا: ﴿أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾، ومعلومٌ أن القرب ليس هو الوصول، فهم ليس عندهم مودة للمؤمنين أعني: النصارى، لكنهم أقرب من غيرهم مودة، ولو كان عندهم مودة لقال: أشد الناس مودة أو ما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿مَّوَدَّةً﴾ المودة من الود وهو: خالص المحبة، ومن أسماء الله تعالى الودود، بمعنى الوَادّ وبمعنى المودود.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾، النصارى في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام قريبون من المؤمنين، ولذلك أسلم منهم خلق كثير، وممن أسلم ملك الحبشة رحمه الله، فإنه آمن

بالرسول عليه الصلاة والسلام وآوى المهاجرين من أصحابه إيواءً يشكر عليه، ونسأل الله أن يثيبه عليه أتم الثواب، فقد آمن حتى وصفه النبي ﷺ بأنه أخ للصحابة، وأنه صالح حين توفي، قال: «**إنه توفي اليوم لكم أخ صالح**»[1]، فوصفه بالصلاح والأخوة رحمه الله، وكذلك أسلم من النصارى كثير؛ لأن النصارى أقرب عهداً بالرسالة من اليهود، فإنه ليس بين نبيهم عيسى عليه الصلاة والسلام ونبينا محمد ﷺ رسول.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ عبر القرآن بقوله: ﴿نَصَٰرَىٰۚ﴾ وكثير من المسلمين اليوم يسمونهم مسيحيين، وقد حدثت هذه التسمية بعد الاستعمار، وإلا تجد كلام العلماء رحمهم الله، إلى أن بدأ الاستعمار وذل المسلمون أمام قوة الاستعمار، تجدهم لا يعبرون إلا بالنصارى، انظر كتب العلماء السابقين إلى أن استعمر الغرب الدول الإسلامية، فقالوا: المسيحيين، والكُتَّاب الذين عاشوا تحت وطأة الاستعمار تابعوهم؛ لأن الغالب كما قال ابن خلدون في مقدمته: الغالب أن الذليل يخضع للعزيز ويتابعه، وإلا فليسوا بمسحيين، وإذا نزل المسيح في آخر الزمان يكسر الصليب ويقتل الخنزير، ولا يقبل إلا الإسلام، حتى الجزية لا تقبل في ذلك الوقت[2].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الصفوف على الجنازة، حديث رقم (١٢٥٧) عن جابر بن عبد الله.

(٢) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب كسر الصليب وقتل الخنزير، حديث رقم (٢٣٤٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ، حديث رقم (١٥٥) عن أبي هريرة.

وقوله: ﴿النصارى﴾ أي: الأنصار، هذا أحسن ما يقال في تفسيرها؛ لأنه يؤيده قوله في سورة الصف: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ [الصف: ١٤].

ثم علل الله عزّ وجل ذلك بعلل، فقال: «ذَلِكَ» المشار إليه كون النصارى أقرب الناس مودة للذين آمنوا، ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ هذه خمسة أسباب:

السبب الأول: «ذلك» أي: سبب كون هؤلاء أقرب مودة للذين آمنوا، بأن منهم قسيسين ورهبانا والقسيس هو العالم الكبير، والعالم عنده معرفة يعرف الحق ويعمل به، لا سيما أن التوراة والإنجيل فيهما وصف الرسول ﷺ وصفاً مطابقاً تماماً، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وقال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ﴾ [البقرة: ١٤٦]. وقال تعالى أيضاً: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، كل هذه الصفات موجودة في التوراة والإنجيل، فهم عندهم علم أعني القسيسين.

وأيضاً سبب كونهم أقرب مودة للذين آمنوا بأن منهم رهباناً، والرهبان العباد؛ لأن النصارى فرضوا على أنفسهم

رهبانية لم تفرض عليهم، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧] يعني ما فرضناها عليهم، لكن هم يبتغون رضوان الله، يريدون بذلك رضوان الله وهي غير مكتوبة عليهم.

نظيرهم عندنا في الملة الإسلامية الصوفية، عندهم رهبانية ابتدعوها ما فرضها الله عليهم، لكن هم يبتغون بذلك رضوان الله، ولو رجعوا إلى أنفسهم لعلموا أن رضوان الله إنما يكون في الاتباع لا في الابتداع.

السبب الثاني: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ليس عندهم استكبار، لكن المشركون عندهم استكبار، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان: ٤١]، والهمزة هنا للاستفهام الاحتقاري، ويقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، واللهِ هم يعلمون أن أعظم من في القريتين ومن في الأرض كلها هو محمدٌ ﷺ، لكنَّه العناد والاستكبار، ولما جمعهم ودعاهم إلى الله، قال أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا، أما اليهود فحدِّث ولا حرج في الاستكبار، حتى قالوا لنبيهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، قاعدون على الكراسي.. على الأرض.. على الفرش، وأنتم اذهبوا إلى القتال، أفبعد هذا الاستكبار شيء؟

الجواب: لا، فهم مستكبرون، وإذا كان هذا قولهم لنبيهم، فما بالك بنبي بعث من العرب.

السبب الثالث: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ

تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ نقل المؤرخون والمفسرون أيضاً أن الذين هاجروا إلى الحبشة، لما قرؤوا القرآن على النجاشي ومن حوله جعلوا يبكون، ﴿تفيض أعينهم من الدمع﴾، يعني: تمتلئ، من قولهم: فاض الإناء إذا امتلأ وخرج الماء من حافتيه، أعينهم قامت ترقرق بالدمع وتفيض مما عرفوا من الحق، وقالوا: هذا الذي نزل على عيسى، فعرفوا أن هذا هو الحق، كما قال ورقة بن نوفل للرسول عليه والصلاة والسلام حين أخبره بما نزل عليه من الحق، قال: هذا هو الناموس الذي نزل على موسى[1]، فهم عرفوا الحق وبكوا.

السبب الرابع: أنه ليس عندهم استكبار، مسلمون للحق من حين أن عرفوه، والمراد هنا الجنس، يعني: عموم النصارى ليس فيهم استكبار، فالمشركون واليهود قد يكون عند بعضهم أعظم من استكبار اليهود والمشركين.

السبب الخامس: يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، إقرار بالربوبية في قولهم: ﴿رَبَّنَآ﴾، وبدين الله في قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾، ﴿فَٱكْتُبْنَا﴾: الفاء هذه للسببية، أي: فبسبب إقرارنا بالرب عزّ وجل وإيماننا به اكتبنا مع الشاهدين، والذي يسأل الله أن يكتبه مع الشاهدين، هل يمكن أن يستكبر عن دين الشاهدين؟ لا يمكن، هم يسألون هذا، الشاهدون من هم؟

قال العلماء: الشاهدون هم محمدٌ ﷺ وأمته، الحمد لله؛

---

(١) رواه البخاري، كتاب التعبير، باب أول ما بديء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، حديث رقم (٦٥٨١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم (١٦٠) عن عائشة.

لأن الله يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] يعني: عدلاً خياراً، فلا أحد من الأمم أعدل من هذه الأمة، اللهم اجعلنا منهم، قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، نحن نشهد على الناس، والرسول ﷺ يشهد علينا أنه بلغنا وأننا أقررنا بتبليغه، إذاً قوله: ﴿مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: يعني مع محمدٍ ﷺ والمؤمنين، وكانوا شهداء؛ لأنهم هم آخر الأمم، كل الأمم ماضية وسابقة يعرفونها، لكن هل الأمة الأولى تشهد على من بعدها؟

الجواب: لا، لا تشهد، ولذلك لو سئلنا: مَنْ الأمة الشاهدة؟ لقلنا: أمة محمد ﷺ؛ لأنها آخر الأمم، تعرف ما جرى على الأمم وتشهد به.

قوله: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾، هذا الحديث ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ يحتمل أنه حديث نفس، بمعنى أن الواحد منهم يقول: كيف لا أؤمن والحق واضح، ويحتمل أنه دفع للوم وُجِّهَ إليهم، يعني قيل لهم: لماذا تؤمنون بمحمد؟ فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ﴾، هل يمكن أن يكون لهذا وهذا؟ يمكن أن يكون بعضهم يصارع نفسه ونفسه تقول له وتحدثه: لماذا تؤمن، فيقول: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ عندما يفكرون يرون أنهم لا بد أن يؤمنوا لأن الحق واضح، ويحتمل أنهم إذا ألقى إليهم أحدٌ لوماً، وقال: كيف تؤمنون، يقولون: ﴿وَمَا لَنَا﴾، يعني أي شيء يصدنا، وأي شيء يمنعنا ألا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق، وهذا يدل على كمال عقلهم.

وقوله: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، سبحان الله تعبير المؤمن، بقوله: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ والحكمة من التعبير بقوله ﴿نطمع﴾ لأن الإنسان لا يجزم، قال الله عزّ وجل: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] بل الإنسان إذا جزم لنفسه بأنه من أهل الجنة فهذا غلط عظيم، لكن يرجو ويطمع؛ لأنه لو جزم بأنه من أهل الجنة لكان يلزم من هذا أنه زكّى نفسه وشهد لها بالجنة، وهذا خطير جداً على الإنسان؛ لأن ذلك معناه أنه وثق بأن عمله مقبول وأنه ليس عنده خطأ يمنعه من دخول الجنة، والقوم الصالحون يشمل من كان صالحاً من هذه الأمة ومن كان صالحاً من غيرها، في الأول قالوا: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: من هذه الأمة سألوا الله أن يكتبهم الله مع الشاهدين، في الثاني طمعوا أن يدخلهم الله في القوم الصالحين، وهو الطمع بدخول الجنة؛ لأن الجنة دارٌ لهذه الأمة وللصالحين من غيرها، فلذلك قالوا: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، والفرق بين التعبيرين واضح.

لو قال قائل: قال الله تعالى حاكياً عن هؤلاء النصارى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ فكيف نجمع بين هذا وبين كون القرآن معجز يعجز البشر أن يأتوا بمثله، وهؤلاء القوم قد تكلموا بهذا؟

الجواب: هم لم يقولوا بهذا اللفظ، فالقرآن يحكي أقوال الآخرين بالمعنى، ولذلك انظر إلى قول السحرة: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢١ ـ ١٢٢]، وفي سورة طه: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]، والقول

واحد، لكن الله تعالى قدم ذكر هارون في سورة طه من أجل تناسب الآيات، فكل ما يحكيه الله عن السابقين فهو بالمعنى؛ لأننا نعلم أنهم ما تكلموا بالعربية، فلغتهم غير العربية، وترتيبهم ليس كترتيب القرآن فيما نعلم والله أعلم، وقد يقال: إن الله حكى قولهم، ولكنه صاغه عزّ وجل أو تحدث به على ما يريد.

وقوله: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أثابهم: بمعنى أعطاهم ثواباً، والثواب مكافأة العامل على عمله، قال الله تعالى: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٣٦﴾ [المطففين: ٣٦].

وقوله: ﴿بِمَا قَالُواْ﴾ أي: بسبب قولهم، وهو: ﴿ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ إلى آخره، والباء في قوله: ﴿بِمَا قَالُواْ﴾ للسببية، و﴿ما﴾ يحتمل أن تكون مصدرية، ويحتمل أن تكون موصولة، فإن جعلناها مصدرية صار التقدير أثابهم الله بقولهم، وإذا جعلناها اسماً موصولاً صار التقدير أثابهم الله بالذي قالوا، وحينئذٍ لا بد من عائد يعود إلى الموصول وهو هنا محذوف، والتقدير: بما قالوه.

وقوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ﴿جَنَّٰتٍ﴾: جمع جنة، والله عزّ وجل يعبر عنها أحياناً بالجنة مفردة وأحياناً بجنات، فأما إذا عبر عنها بالجنة مفردة فالمراد بها الجنس، وإذا عبر عنها بالجمع فالمراد بها أنواعها، ومن المعلوم أن الله ذكر في سورة الرحمٰن أربعة أنواع: جنتان، وجنتان، وفي الحديث: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة**

آنيتهما وما فيهما»[(١)].

وقوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ إن أردنا أن نردها إلى المعنى اللغوي، قلنا: الجنات هي: البساتين الكثيرة الأشجار، وسميت بذلك؛ لأن أشجارها تجن أرضها أي: تسترها، لكثرتها وانتشارها، لكن هذا التفسير لو فسر للعامة لهبطت قيمة الجنة عندهم، وتصوروا أنها من جنس بساتين الدنيا، ولهذا نقول في تفسيرها: إنها الدار التي أعدها الله عزّ وجل لأوليائه، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، حتى يعرف الإنسان أن هذه الجنة ليس لها نظير.

وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تحت قصورها وأشجارها، وليس المراد من تحت أرضها؛ لأن من تحت أرضها لا يستفاد منه، لكن من تحت أشجارها وقصورها، و﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جمع نهر، وهي أربعة ذكرت في سورة محمد، في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ [محمد: ١٥]، هذه الأنهار خلقها الله عزّ وجل في الجنة، وهي غير الأنهار التي خلقها في الأرض، فالماء في الأرض يخرج بحفر الآبار، أو بالأمطار والسيول، لكن في الجنة ليس هكذا، أنهار تجري بغير أخدود وبغير حَفْرِ سواقي، بل بقدرة الله عزّ وجل، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ ليس من بقر ولا من إبل، ولا من

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة الرحمٰن، حديث رقم (٤٥٩٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالىٰ، حديث رقم (١٨٠) عن عبد الله بن قيس.

غنم، بل هي أنهار خلقها الله عزّ وجل من هذا، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ [محمد: ١٥] ليس عصير عنب، ولا شعير، ولا غير ذلك، بل هو مخلوق هكذا، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ﴾ [محمد: ١٥] هل هذا العسل من نحل؟ لا، عسل خلقه الله عزّ وجل وصار أنهاراً يجري في الجنة، هذه أربعة أنواع من الأنهار مما ذكره الله لنا.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ الخالد هو الباقي، والأصل في الخلود البقاء الدائم، وقد يؤكد أحياناً بكلمة أبداً، وقد لا يراد به الأبد الدائم بقرينة.

فالخلود إذاً: هو في الأصل البقاء الدائم، قد يؤكد بالأبدية، وقد لا يراد به الأبدية، فأما ما يؤكد بالأبدية فهو كثير في القرآن، في أهل الجنة وفي أهل النار، وأما ما لا يراد به التأبيد بدليل آخر، فمثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣]، فقوله: ﴿خَٰلِدًا﴾: ليس المراد به التأبيد؛ لأن قتل المؤمن عمداً لا يخرج من الإيمان، اللهم إلا من استحله، فمن استحله فهو كافر باستحلاله لا بقتله؛ لأن من استحل قتل المؤمن فهو كافر، سواء قتل أم لم يقتل، المهم اجعل على بالك أن الخلود هو البقاء الدائم، قد يؤكد بالأبدية وقد لا يراد به الأبد لدليل كما تقدم.

وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ المشار إليه ما أثابهم الله به من الجنات ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: مكافأتهم على عملهم، والمحسن: يعم من أحسن في عبادة الله ومن أحسن إلى عباد الله، أما الإحسان في عبادة الله: فقد فسره النبي ﷺ في قوله: «**الإحسان: أن**

تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(١)]، فجعل للإحسان مرتبتين:

الأولى: أن يعبد الله كأنه يراه، وهذه عبادة رغبة؛ لأن الشيء الذي تراه ترغب فيه وتطلبه، **«فإن لم تكن تراه»** يعني: إن لم تصل إلى هذه الحال، **«فإنه يراك»** أي: فاعبده خوفاً منه وهرباً من عقابه، فجعل النبي عليه الصلاة والسلام للإنسان هاتين المرتبتين.

أما الإحسان إلى عباد الله: فهو بذل المعروف لهم بالمال والبدن والجاه وغير ذلك، فمن أعطاك درهماً فهو محسن، ومن بَشَّ في وجهك وأدخل السرور عليك فهو محسن، ومن شفع لك في أمر فهو محسن، إذاً: الإحسان يكون في عبادة الله ويكون في معاملة عباد الله.

ولما ذكر الله عزّ وجل جزاء هؤلاء المحسنين قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٨٦﴾، والقرآن الكريم مثاني تثنى فيه المعاني، إذا ذكر ثواب المحسنين ذكر ثواب المسيئين، وإذا ذكر ثواب المسيئين ذكر ثواب المحسنين، ليبقى الإنسان بين الرغبة والرهبة.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾ كفروا بالأمر وكذبوا بالخبر، كفروا بالأمر فلم يقوموا بطاعة، ولم ينتهوا عن معصية، وكذبوا بالخبر فلم يصدقوا، فمن أنكر البعث فهو مكذب، لكنه كافر فهو مكذب وكافر، قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ [التغابن: ٧]، ومن لم يصلِّ فهو كافر.

---

(١) تقدم في (١/ ١٥٢).

فإذا قال قائل: هل نقول: إنه لا بد أن يجتمع الكفر والتكذيب؟

الجواب: لا، إذا وجد الكفر ثبت الجزاء، وإذا وجد التكذيب ثبت الجزاء.

ولذلك لو قال قائل: الصلوات الخمس غير مفروضة، ولا أصدق أنها مفروضة ولكني أصلي، لا تفوتني الصلاة أبداً، ماذا نقول فيه؟ كافر؛ لأنه مكذب، فالجمع بينهما ليس بشرط، بل إذا وجد أحدهما ثبت الحكم.

وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يشمل الآيات الكونية والآيات الشرعية، فمن ادعى أن مع الله خالقاً فهو مكذب بالآيات الكونية، ومن أقر بالخالق لكن لم يقبل شريعته، فهو مكذب بالآيات الشرعية، وقد يوجد من يكذب بهما جميعاً، ومن كذب ببعض وصدق ببعض فهو كافر؛ لأن الله يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: ١٥١].

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ اسم الإشارة هنا للبعد أم للقرب؟ للبعد لكن البعد قد يكون بعداً سفولاً، وقد يكون بعداً عُلُواً، فإذا كان البعد مشاراً به إلى عالي المرتبة فهو بُعْدُ عُلُوٍ، مثل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢]، فالقرآن بين أيدينا الآن ليس ببعيد، لكن لعلو مرتبته وشرفه أشار إليه بإشارة البعيد، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ۝٣٣﴾ [الزمر: ٣٣]، فأشار إليهم إشارة البعد، لعلو منزلتهم، في هذه الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أيُّ: البعدين أراد؟ أراد السفل، أي: البعد سفولاً.

وقوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ اعلم أن الله إذا ذكر أصحاب

الجحيم أو أصحاب النار، فهؤلاء من الكفار الخُلص؛ لأن الصاحب هو الملازم، ولا أحد يلازم الجحيم يعني النار إلا إذا كان ممن لا يدخل الجنة.

من فوائد الآيات الكريمات:

الفائدة الأولى: أن أشد الناس عداوة للمؤمنين هم اليهود والمشركون، والمراد الجنس، ونعني بذلك: أنه قد يوجد من اليهود من لا يكون أشد عداوة، وكذلك من المشركين، نجد مثلاً أبا طالب مشرك، ومع ذلك كان يود الرسول عليه الصلاة والسلام، لكن بالنسبة للجنس فإن المشركين واليهود هم أشد الناس عداوة.

الفائدة الثانية: أن عداوة هؤلاء ظاهرة لقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً﴾، لكن اعلم أن الظهور والبطون أمران نسبيان، بمعنى أن بعض الناس يظهر له ما يخفى على آخر، وبعض الناس يخفى عليه ما يظهر للآخر، لكن من سبر الأمور ونظر باعتبار تبين له ذلك، وقد يقول قائل مثلاً: لا نجد هذا، نقول: إذا لم تجده فهذا لبلادتك؛ أي: لأنك بليد، وليس عندك علم.

الفائدة الثالثة: أن غير المسلمين يختلفون في العداوة للمسلمين، لقوله: «أشد» وأشد اسم تفضيل، تدل على أن هؤلاء الأعداء يختلفون، وهو كذلك، هذا هو الواقع، لكن بماذا نعرف الأشد؟ نعرفه بالآثار، إذا تظاهروا علينا وتحالفوا ضدنا، وما أشبه ذلك عرفنا أنهم أعداء.

الفائدة الرابعة: أن أقرب الناس مودة للمؤمنين هم النصارى، وقد بَيَّنا في التفسير السبب في ذلك.

الفائدة الخامسة: أن كل حكم له سبب، وهذا مطرد، فكل حكم شرعي أو قدري فله سبب، لكن من الأسباب ما يعلم ومن الأسباب ما لا يعلم؛ لأن الله تعالى لم يطلعنا على كل شيء، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ إلى آخره.

الفائدة السادسة: حسن تعليم الله عزّ وجل في كتابه العزيز؛ لأنه إذا ذكر الحكم ذكر العلة أحياناً، فهنا ذكر حكماً قدرياً، وهو قرب النصارى من مودة المسلمين، هذا حكم قدري وذكر له علة، وذكر الله سبحانه وتعالىٰ أحكاماً شرعية كثيرة مقرونة بحكمه، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، أي: هذا المطعوم، وغلط من قال: إنه عائد على لحم الخنزير، لأننا إذا أعدنا آخر الكلام على أوله فأوله: إلا أن يكون ذلك المطعوم، ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير، فإنه أي: المطعوم رجس، وليس عائداً على لحم الخنزير.

المهم أن من حسن تعليم الله عزّ وجل أنه إذا ذكر الحكم ذكر العلة سواء كان الحكم قدرياً أو كان شرعياً، وكذلك في السنة أحياناً تذكر العلة، فإن النبي ﷺ أمر أبا طلحة فنادى إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية، فإنها رجس[(١)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، حديث رقم (٣٩٦٢)، ومسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب تحريم أكل لحم الحمر الإنسية، حديث رقم (١٩٤٠) عن أنس بن مالك.

الفائدة السابعة: أن قرب مودة النصارى للمؤمنين، له أسباب:

أولاً: أن منهم قسيسين ورهباناً، فيستفاد من هذا: أن العلم نافع حتى لغير المسلمين، وكذلك العبادة ترقق القلب، أما الأول فيؤخذ من قوله: ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾، **وأما الثاني** فيؤخذ من قوله: ﴿وَرُهْبَانًا﴾ لأن الراهب إنما سلك هذا الطريق، يريد رضا الله، فليس مستكبراً، ولكنه طالب لرضا الله، فهو إذا تبين له فإنه يكون من أقرب الناس إلى العمل به.

الفائدة الثامنة: أن بني آدم ينقسمون إلى علماء وعباد، لكن هل يمكن أن يكونوا علماء عباداً؟ نعم وبكثرة، لكن من الناس من يغلب عليه العلم، ومن الناس من يغلب عليه العبادة، أعني الذين يتصفون بالعلم والعبادة، منهم من يغلب عليه جانب العلم، فتجده دائماً في بحث وفي تحقيق وفي مراجعة، ومنهم من يغلب عليه العبادة، ولهذا تجد في تراجم العلماء رحمهم الله أنهم إذا ترجموا لبعض العلماء قال: وكان كثير العبادة، فأيهما أفضل في العَالِم، أن يكون كثير العبادة، أو كثير المراجعة؟ كثير المراجعة لا شك أفضل، لكن يجب على كثير المراجعة أن يراجع قلبه، إذا وجد منه قسوة فليشتغل بالعبادة قليلاً؛ لأنه أحياناً مع كثرة المراجعة والمطالعة والمناقشة، يكون الإنسان كأنه بطل بين صفين، لا يلتفت مثلاً للصلاة والتهجد وما أشبه ذلك، إذا رأيت من نفسك أنها أبعد عن العبادة، فارددها حتى لا تغفل عن العبادة.

لو قال قائل: رجل يقوم آخر الليل لكنه يترك قيام الليل

لطلب العلم هل يدخل في قول النبي ﷺ: **«لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فتركه»**[(١)]؟

الجواب: العلم أفضل من التهجد، فقد ترك شيئاً مفضولاً لفاضل، لكن من الممكن أن يأتي بالأمرين جميعاً يعني: لا يجهد نفسه في أول الليل ولا يجهد نفسه في آخر الليل أيضاً، فيأتي من هذا بقليل ويأتي من هذا بقليل والأمر سهل، لو تقدم بنصف ساعة قبل الفجر تمكن أن يصلي ما شاء الله من الوتر.

لو قال قائل: ما هو الحد الأدنى الذي لا ينبغي لطالب العلم أن يقصر عنه في العبادة؟

الجواب: أقول: إن الحد الأدنى بالنسبة للصلاة، الصلوات الخمس برواتبها، والوتر، وما يوجد له أسباب، وكذلك بالنسبة لبذل المال الزكاة والصدقات، أما ما يقرؤوه من القرآن؟ قد أقول: على حسب نشاطه، لكن أخشى أن أقول هذا فيتهاون الإنسان؛ لأنه إذا قرأ على حسب نشاطه، سيقرأ في يوم مثلاً جزئين أو ثلاثة، ويومين لا يقرأ شيئاً، ويضيع عليه الوقت، ولهذا قال العلماء: ينبغي أن يكون له ورد معين يحرص عليه، وأظن أن جزئين في اليوم إن شاء الله فيهما بركة، إذا قرأ جزئين كل يوم يقرأ القرآن في الشهر مرتين هذه نعمة، وأما الصيام فهو ما كان رسول الله ﷺ يصومه: ثلاثة أيام من كل شهر، لكن أحياناً يكون

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه، حديث رقم (١١٠١)، ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوّت به حقّاً، حديث رقم (١١٥٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

الإنسان يحب الصيام، ولذلك كان من هدي الرسول عليه الصلاة والسلام أنه يصوم حتى يقال لا يفطر، ويفطر حتى يقال: لا يصوم[١]، لكن الشيء الذي ينبغي المواظبة عليه صيام ثلاثة أيام من كل شهر؛ لأن الرسول ﷺ كان لا يدع صيام ثلاثة أيام من كل شهر، ولا يبالي أن يصومها من أول الشهر أو وسطه أو آخره[٢].

لو قال قائل: هل من المشروع أن يتفرغ الإنسان للعبادة وطلب العلم ويترك الوظيفة وليس له مال؟

الجواب: أما إذا كان له ما يقيته فالتفرغ لا شك أفضل، إلا إذا كانت الوظيفة تصلح بوجوده؛ لأن بعض الوظائف تحتاج إلى الشخص، مثل وظائف القضاء وكُتّاب العدل وأشياء كثيرة، فالإنسان ينظر للمصالح.

الفائدة التاسعة والعاشرة: أن من أسباب قبول الحق والمودة للمؤمنين التواضع، لقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، وأن الاستكبار سبب لرد الحق، وهو كذلك، فالتواضع سبب لقبول الحق؛ لأن الإنسان لا يرى نفسه أنه معصوم من الخطأ، فإذا بان له الحق اتبعه، ولهذا كان في كتاب عمر رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «لا يمنعنك قضاء قضيته اليوم أن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب صوم شعبان، حديث رقم (١٨٦٨)، ومسلم، كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان...، حديث رقم (١١٥٦) عن عائشة.

(٢) رواه مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر...، حديث رقم (١١٦٠) عن عائشة.

ترجع إلى الحق غداً»[١] أو كلمة نحوها، بمعنى أنك تتبع الحق أينما كان، فتكون مطواعاً للحق، ذليلاً أمام الحق، وهل هذا الذل أمام الحق يوجب للإنسان أن يكون ذليلاً بين الناس؟

الجواب: ولا نقول: تواضع للعامي، يعني قدم له حذاءه وابسط له ظهرك يركب عليه، لا، لكن لاقيه بوجه طلق وسماحة، بعض الناس حتى من طلبة العلم تجده مع العامي يتكلم بأحد منخريه ليس بكل أنفه، فنقول: تواضع يا طالب العلم، الناس الآن يثنون على الذي يكون متواضعاً، نسمع أنهم يثنون على فلان وفلان لأنه متواضع، لكن ليس معنى ذلك أن تجعل نفسك ذليلاً أمامه، فالتواضع غير الذل، من تواضع لله رفعه الله، ومن تواضع للحق وفق للحق، وعلامة ذلك: أنك إذا بان لك الحق اتبعته فوراً بدون تردد وبدون جدال، إن ترددت أو جادلت فهو خطر عليك عظيم، قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ لماذا؟ ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ولذلك إذا بان لك الحق لا تجادل، ولا تحاول أن نذهب يميناً ويساراً لتبرر رأيك، فإنك على خطر، وقال عزّ وجل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [ق: ٥]، (مريج) يعني مختلط أي: يختلط عليهم الحق بالباطل، إذ كذبوا بالحق لما جاءهم.

فانتبه لهذه الفائدة وأنت طالب علم، وربما يخالفك من

---

(١) رواه الدارقطني (٤/٢٠٦)، البيهقي في السنن الكبرى (١٠/١١٩) (٢٠١٥٩)، ولفظهما: (لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن تراجع الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل).

يخالفك من الناس بمقتضى الدليل ولكن تريد أن تفرض رأيك، هذا غلط كبير، اتبع الحق أينما كان، يتبعك الناس أينما كنت؛ لأن الناس يطلبون الحق، فإذا رأوا منك أنه متى بان لك الحق رجعت، رجعوا، إذاً: التواضع للحق هو في الحقيقة علو، كما قال النبي ﷺ: «**من تواضع لله رفعه**»[1]، وضد ذلك الاستكبار، الاستكبار والعياذ بالله يوجب أن لا يقبل الحق ولا يتبع.

الفائدة الحادية عشرة: فضيلة هؤلاء القوم الذين يؤمنون بالرسول عليه الصلاة والسلام، وأنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع، ولا شك أن فيضها من الدمع دليل على الإيمان والتصديق والتأثر؛ لأن الإنسان كلما آمن فإنه يزداد خشوعاً، الآن إذا ذكرت آباءك وإخوانك وأصدقاءك الذين ذهبوا، وماتوا، ربما تبكي أكثر مما لو ذكرت شيئاً آخر يؤمن به؛ لأن هؤلاء أدركتهم إدراكاً حسياً، فالإيمان كلما قوي صار المؤمن كأنما يشاهد الشيء بعينه، فيزداد إيماناً وخشوعاً وبكاءً.

الفائدة الثانية عشرة والثالثة عشرة: أن القرآن نزل من عند الله لقوله: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾؛ لأن هذا مبني لما لم يسمَّ فاعله؛ لأن فاعله معلوم، وهو الله الذي أنزله، ويتفرع على هذه الفائدة: أن القرآن كلام الله، وهو كذلك، تكلم به الله سبحانه وتعالىٰ حقيقة، تكلم به على وجهٍ مسموع، سمعه جبريل، وهو أمين قوي، نزل به على قلب الرسول ﷺ، فوعاه وعقله، حتى قال له ربه عزّ وجل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٨/ ١٧٢) (٨٣٠٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٧٦) (٨١٤٠) عن عمر بن الخطاب.

﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة: ١٦، ١٧]، لا يتفرق أبداً، هو مجموع لك، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ [القيامة: ١٨]، أي: قرأه جبريل: ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٨]، يعني التزامات عظيمة من الله عزّ وجل لهذا القرآن مما يدل على عناية الله به عزّ وجل، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٩] يبين للناس لفظاً ومعنى، ولهذا نقول: لا يمكن أن يوجد في كتاب الله شيء لا يعرف الناس معناه، إن خفي على بعض علمه آخرون.

لو قال قائل: الذين يقولون: إن القرآن ليس كلام الله إنما هو عبارة عن كلام الله ما معنى قولهم هذا؟

الجواب: هم يقولون: إن الله سبحانه وتعالىٰ ولم يتكلم به، لكن خلق أصواتاً لتعبر عما في نفسه، فسمعها جبريل ونزل بها، وهذا قولٌ بلا علم، وحقيقةً أنك إذا تأملت كلامهم انتهيت إلى أن الله ليس بشيء، لا يتكلم، ولا يستوي على العرش، ولا ينزل ولا يأتي للفصل بين العباد، ولا يفرح، وليس له يد وليس له وجه وليس له عين، اللهم لك الحمد، نسأل الله لهم الهداية.

الفائدة الرابعة عشرة: التنويه بالرسول محمد ﷺ، لقوله: «الرَّسُولِ»؛ لأن «أل» هنا للعهد الذهني، يعني كونه رسول معلوم مفهوم لا يخفى على أحد.

الفائدة الخامسة عشرة: إثبات رسالة محمد ﷺ، وهو رسول الله حقاً، أرسله الله رحمة للعالمين، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

الفائدة السادسة عشرة: الثناء على من بكى لسماع القرآن، ولكن اعلم أن البكاء نوعان: بكاء متكلف ومصطنع فهذا لا يفيد،

والتباكي غير البكاء المصطنع، بعض الناس لا يبكي بل يجعل صوته كأنه يبكي، وليس التكحل بالعينين كالكحل، وبكاء آخر من لين القلب، هذا هو المفيد؛ لأنه صادر من القلب ومن الإيمان.

الفائدة السابعة عشرة: أن تأثر هؤلاء إنما كان بسبب معرفتهم الحق، ولهذا قال: ﴿مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾: والإنسان كلما علم بالحق ازداد إيمانه به وازداد تأثره به.

الفائدة الثامنة عشرة: الثناء على هؤلاء الذين آمنوا بما أنزل على الرسول ﷺ، بأنهم يعلنون الإيمان: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ لا يخفون إيمانهم؛ لأنهم مؤمنون، والمؤمن حقاً يعلن إيمانه، لا سيما إذا كانوا قسيسين ورهباناً لأنهم قدوة للناس لقوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾.

الفائدة التاسعة عشرة: اعتراف الأمم بأن هذه الأمة هي الشاهدة على الأمم، لقوله: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وهم أمة محمدٍ ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

تقدم أن التفسير له أربعة مراتب: **المرتبة الأولى**: تفسير القرآن بالقرآن، **والثانية**: تفسير القرآن بالسنة، **والثالثة**: تفسير القرآن بأقوال السلف، **والرابعة**: التفسير بمقتضى اللغة العربية.

والآن نتكلم على النسخ، فلو قال قائل: هل يمكن أن يقع النسخ في القرآن أو لا؟

الصحيح أنه يمكن النسخ، لكن الآيات التي هي أصول الدين لا يمكن أن تنسخ، فالنسخ واقع، وهذا هو ما عليه جمهور الأمة، ولا يعنينا أن ينكر ذلك من ينكره، فاليهود مثلاً قالوا: لا

يمكن نسخ الشرائع؛ لأننا لو جوزنا النسخ لجوزنا البداء على الله، أي: أنه تبدو له المصلحة بعد أن كانت خفية عليه، فيحكم بشيء ثم بعد ذلك يعدل عنه؛ لأنه لم يدرِ عن عواقب ما حكم به أولاً، ومعلوم أنه لا يجوز للإنسان أن يصف ربه عزّ وجل بالجهل، ثم البداء، ولكن الله عزّ وجل رد عليهم فقال: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾ [آل عمران: ٩٣]، فبيَّن أن نسخه واقع وهو كذلك.

ومن أجل إنكارهم النسخ أنكروا نبوة عيسى ونبوة محمدٍ ﷺ، وقالوا: إن شريعتهما نسخت شريعة التوراة، وهذا لا يجوز، فالمسلمون مجمعون على جواز النسخ، عقلاً ووقوعه شرعاً، إلا أن أبا مسلم الأصفهاني رحمه الله قال: لا نسخ في القرآن، وحمل النسخ الذي ثبت في القرآن حمله على التخصيص.

مثال ذلك: أوجب الله على المسلمين في الجهاد أن الواحد يصابر عشرة، ثم نسخ ذلك، وقال: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٦]، وهذا واضح أنه نسخ، وكذلك في الحديث: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**»[1]، هذا أيضاً نسخ واضح، ثبت بنص القرآن ونص السنة، ادعى رحمه الله أن هذا تخصيص وليس بنسخ، ووجَّه قوله: بأن الحكم المنسوخ كان عاماً في جميع الأزمان وفي جميع الأحوال، ثم نسخ فخرج بالنسخ الزمن الذي تبقى، وقال: هذا تخصيص.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عزّ وجل في زيارة قبر أمه، حديث رقم (٩٧٧) عن بريدة.

وبناءً على هذا التوجيه، يكون الخلاف بينه وبين جمهور الأمة خلافاً لفظياً لا فائدة منه، ما دمنا متفقين على أنه يمكن أن يكون هذا الحكم العام في كل زمن وفي كل مكان، وفي كل أمة وفي كل حال، يجوز أن يلغى في وقت من الأوقات، فهذا هو النسخ، سمه تخصيصاً أو سمه نسخاً.

ثم يقال له رحمه الله: ما الفائدة من أن نتحاشى كلمة نسخ، والله تعالى في القرآن يقول: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، نرجع إلى جواز النسخ عقلاً، أما وقوعه شرعاً فلا شك فيه، كيف يجوز عقلاً، ألا يجوز أن يرد ما أورده اليهود، بأن الله بدا له بعد أن كان خفياً عنه، أن الحكم المنسوخ ولا يستقيم؟

الجواب: لا، الأحكام تثبت بحسب أحوال الأمم، فقد يكون الوجوب مثلاً مصلحة للأمة في وقت غير مصلحة في وقت آخر، فأحكام الله تعالى يراد بها مصالح العباد وهي تختلف في كل زمان أو مكان أو حال، فلذلك كان مقتضى الحكمة نسخ الأحكام.

وقد يكون النسخ لابتلاء المكلف، يبتلي الله عزّ وجل المكلف هل يمتثل، أو لا يمتثل، ثم يأتي النسخ؛ لأن بعض الناس قد لا يقبل النسخ، كالذين ارتدوا حينما حولت القبلة؛ لأنهم قالوا: كيف أمس نتجه إلى بيت المقدس والآن نتجه إلى الكعبة، لا يمكن، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ويكفي هذه الحكمة.

فإذا كان تغيير الحكم ونسخه له حِكم لم يلزم على الله البداء؛ لأنه سبحانه يشرع لعباده من الأحكام ما تقوم به مصالح دينهم ودنياهم، أرأيت لو كلفت ولدك بعمل، ثم رأيت هذا العمل شاقاً عليه، فهل من المصلحة أن تبقيه في هذا العمل الشاق، أو تنقله إلى عمل آخر؟ تنقله إلى عمل آخر، هذا مقتضى العقل، فحينئذٍ يبطل ما ادعاه اليهود من أنه يلزم منه البداء على الله، أي: الظهور بعد الخفاء.

إذاً: فالنسخ جائز عقلاً وواقع شرعاً، ثم إن النسخ يكون على ثلاثة أقسام:

نسخ الحكم مع بقاء اللفظ، ونسخ اللفظ مع بقاء الحكم، ونسخهما جميعاً.

القسم الأول: نسخ الحكم مع بقاء اللفظ، وهذا كثير مثل قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٩]، هذا نسخ للقبلة الأولى، فاللفظ باقٍ؛ لأن الله قال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، ومثل قول الله تبارك وتعالى في الصوم: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ إلى قوله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ومثل قوله في الآية في مصابرة العدو، أن الله تعالى أوجب أن يصابر المسلمون عشرة أمثالهم، ثم نسخ الحكم مع بقاء اللفظ.

وهنا يرد سؤال: ما الفائدة من نسخ الحكم مع بقاء اللفظ، لماذا لم ينسخ اللفظ؛ لأن العمل باللفظ انتهى؟

فيقال: الفائدة بالنسبة للقرآن، **أولاً**: زيادة الأجر بالتلاوة، **وثانياً**: تذكير العباد بنعمة الله عليهم، حيث نقلهم من الأشد إلى الأخف أو بالعكس، أو بالمماثل لكن المهم التذكير بالنعمة.

القسم الثاني: عكس هذا القسم وهو: نسخ اللفظ مع بقاء الحكم، مثاله آية الرجم، آية الرجم كانت قرآناً يتلى، يقول عمر رضي الله عنه: «قرأناها ووعيناها ورجم النبي ﷺ ورجمنا بعده»[(١)]، سبحان الله! عمر رضي الله عنه موفق للصواب وعنده فراسة عجيبة، هو نفسه رضي الله عنه قال: «أخاف إن طال بالناس زمان: أن يقولوا لا نجد الرجم في كتاب الله»[(٢)]، وما توقعه رضي الله عنه حصل، وإلا فهو يعلن على منبر الرسول عليه الصلاة والسلام بهذا الكلام، هل يمكن أن يعلن على منبر الرسول عليه الصلاة والسلام ويكون الأمر على خلاف ما قال ويسكت الصحابة؟ لا يمكن.

الحاصل أن هذه الآية كانت موجودة في القرآن، لكن لفظها غير موجود، فليس في القرآن أن الثيب يرجم إذا زنا، فاللفظ غير موجود، أعني لفظ المنسوخ، ولفظ الناسخ موجود في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، والثيب جاء في السنة، فهنا لا يوجد آية الرجم في القرآن، لفظها غير موجود، فما هي الآية التي نسخت؟

ورد أن لفظها: «**الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة**

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحدود، باب رجم الثيب في الزنا (١٦٩١) عن عمر بن الخطاب.

(٢) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب الاعتراف بالزنا (٦٨٢٩) عن عمر.

نكالاً من الله والله عزيز حكيم»[١]، ولكن هذا لا يصح، هذا اللفظ لا يطابق الحكم؛ لأن الحكم منوط بالثيوبة، وليس منوطاً بالشيخوخة، وعمر رضي الله عنه يقول: وإن الرجم حق ثابت في كتاب الله على من زنا إذا أحصن، وكان الحبل أو الاعتراف[٢]، فقال: إنه حق ثابت في القرآن على من زنا إذا أحصن، لم يقل: إذا شاخ، قال: إذا أحصن، بهذا يتبين أن لفظ الآية المنسوخة ليس كما روي، ولذلك لو زنا الشيخ وهو بكر لم يرجم، ولو زنا الشاب وهو ثيب يرجم، إذاً: الآية غير معروفة اللفظ، لكننا نعلم أنها لفظ دالٌ على ما ذكره عمر رضي الله عنه.

فإن قال قائل: ما الحكمة من أنه ينسخ اللفظ ويبقى الحكم؟ لأننا ذكرنا أن بقاء اللفظ فيه فائدة وهي التلاوة، لكن هنا ما الفائدة؟ الفائدة والله أعلم ليتبين فضل هذه الأمة على من سبقها، فاليهود حاولوا إخفاء آية الرجم مع أنها موجودة في التوراة، لكنهم تركوا العمل بها، وسبب ترك العمل بها أنه كثر الزنا في أشرافهم، وشق عليهم أن يقتلوا أشرافهم، فأحدثوا حكماً جائراً ليس في شريعة الله، هذه الأمة ولله الحمد عملت بحكم لا يوجد نصه حيث عملت بالرجم مع أنه لا يوجد لفظه في

---

(١) رواه النسائي في الكبرى، كتاب الرجم، باب نسخ الجلد عن الثيب، حديث رقم (٧١٤٥) عن زيد بن ثابت، وابن ماجه، كتاب الحدود، باب الرجم، حديث رقم (٢٥٥٣) عن عمر بن الخطاب، وأحمد (٥/ ١٣٢) (٢١٢٤٥) عن أُبي بن كعب.

(٢) رواه البخاري، كتاب المحاربين، باب رجم الحبلى في الزنا إذا أحصنت، حديث رقم (٦٤٤٢)، ومسلم، كتاب الحدود، باب رجم الثيب في الزنا، حديث رقم (١٦٩١) عن عمر بن الخطاب.

كتاب الله، فأظهرت الحكم مع خفاء الدليل، واليهود بالعكس، أبطلوا الحكم مع وجود الدليل، حتى إنهم لما جاءوا بالتوراة وضع الذي يقرأ يده على آية الرجم حتى لا تبين[١]، هذا ما تبين من الحكمة.

وقد يقال: إن هناك حكمة أخرى وهي بشاعة الجريمة؛ لأن زنا الثيب لا شك أنه بشع، وأقبح من زنا الشاب، ولذلك كانت عقوبته الرجم، بخلاف غير المحصن، هذا الأخير الإنسان يتردد في أن هذه هي الحكمة؛ لأنه سيقول: إن هذا هو مراد الله عزّ وجل، وهذا صعب؛ لأن الله عزّ وجل ذكر ما هو أبشع من هذا، وهو إتيان الذكر: اللواط صريحاً قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ [الشعراء: ١٦٥ ـ ١٦٦]، لكن المعنى الأول، أو الوجه الأول، وهو بيان فضل هذه الأمة على من سبقها واضح.

بقي **القسم الثالث**: وهو نسخ اللفظ والحكم، هذا له مثال، وهو حديث عائشة رضي الله عنها في الرضاع: كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات يحرمن، فنسخن بخمس معلومات[٢]، الآن لا تجد عشر رضعات، لا في القرآن ولا في الحكم، عشر رضعات العمل بها منسوخ إلى خمس، الخمس منسوخة لفظاً لا حكماً، والعشر منسوخة لفظاً وحكماً.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب الرجم في البلاط (٦٨١٩)، ومسلم، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا (١٦٩٩) عن ابن عمر.

(٢) رواه مسلم، كتاب الرضاع، باب التحريم بخمس رضعات، حديث رقم (١٤٥٢) عن عائشة.

لو قال قائل: فيما يتعلق بالنسخ بعض العلماء يقول: إن اصطلاح المتقدمين من الصحابة وبعض التابعين للنسخ أوسع من اصطلاح المتأخرين؟

الجواب: صحيح، بعض السلف يطلق التخصيص على النسخ، مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦]، فأجاز بعض السلف أن يجمع الإنسان بين الأختين في ملك اليمين، يعني يطأهما، وقال: الآية عامة، لكن عبر بعض السلف فقال: هذه الآية نسختها آية: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣]، فقال: نسختها ويريد بذلك التخصيص، وله وجه؛ لأن التخصيص نسخ للعموم.

وأما قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فالظاهر والله أعلم إطلاق النص عليها من باب التخصيص أو التبيين أيضاً؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، هذا من الأمور العملية القلبية أما مجرد الفكر فقد تجاوز الله عنه.

لو قال قائل: ما المراد بنسخ القرآن بالسنة؟

الجواب: مثال ذلك: قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ﴾ أي: الفاحشة ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء: ١٦]، والحديث الذي صححه كثير من الأئمة: «**من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»[1]، فهذا

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الحدود، باب فيمن عمِل عمَل قول لوط، حديث رقم (٤٤٦٢)، والترمذي، كتاب الحدود، باب حد اللوطي، حديث رقم =

الحديث ينسخ الآية، هذا نسخ القرآن بالسنة، والمثال عزيز جداً قليلٍ جداً جداً، وكما أن السنة تخصص القرآن، فإن القرآن يخصص السنة، مثل اشتراط النبي عليه الصلاة والسلام في صلح الحديبية أن من جاء من المشركين مسلماً، فإنه يرد عليهم، وهذا عام للرجال والنساء، فقال الله عزّ وجل: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وهذا من الأمور العزيزة النادرة أيضاً أن يكون القرآن يخصص عموم السنة.

الفائدة العشرون والحادية والعشرون: دفع اللوم عن الإنسان، يعني الإنسان ينبغي أن يدفع اللوم عن نفسه، ولا يُبْقِي عرضه لعباد الله يعملون ما يشاءون فيه، لقوله: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾، ولهذا أصل من السنة، فإن النبي ﷺ لما قام يقلب إحدى زوجاته، وهي صفية رضي الله عنها، بعد أن بقيت عنده قام يقلبها، فمر به رجلان من الأنصار، فلما رأيا رسول الله ﷺ معه أهله خجلا وسارا بسرعة فقال لهما: «**على رسلكما، إنها صفية بنت حيي**»، فقالا: سبحان الله سبحان الله! ـ يعني: لا يمكن أن يقع في قلوبنا شيء ـ فقال لهما: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً ـ أو قال ـ شيئاً**»[1].

= (١٤٥٦)، وابن ماجه، كتاب الحدود، باب من عمِل عمَل قوم لوط، حديث رقم (٢٥٦١)، وأحمد (١/ ٣٠٠) (٢٧٢٧) عن ابن عباس.

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتكاف، باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد، حديث رقم (١٩٣٠)، ومسلم، كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة وكانت زوجته أو محرماً له أن يقول: هذه فلانة ليدفع ظن السوء به، حديث رقم (٢١٧٥) عن صفية بنت حيي.

وأيضاً على الوجه الثاني في قوله: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ﴾ حمل النفس عند الوسواس على الإيمان والعمل الصالح، يعني إذا رأيت من نفسك فتوراً؛ فقوِّها، أي: قوِّ عزيمتك؛ لأنه تقدم أن في قوله: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ﴾، احتمالين.

الفائدة الثانية والعشرون: أن ما جاء به الرسول ﷺ حق بشهادة من سبق من الأمم، لقوله: ﴿وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، وهل يعتد بشهادة الأمم السابقة؟

الجواب: نعم، يعتد، لقول الله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [يونس: ٩٤].

الفائدة الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون: أن الإنسان لا ينبغي أن يعجب بعمله، فيشهد لنفسه أنه من أهل الجنة، لقولهم: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا﴾، ولم يجزموا بذلك، ولهذا مهما عملت من عمل صالح مبني على الإيمان لا تزكِّ نفسك، لا تدري فلعل هناك سرّاً في القلب لا تشعر به ـ أعاذنا الله من النفاق ـ: «**وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار**»(١).

وأيضاً يمكن أن نأخذ من هذا أنه لا يشهد لأحد بالجنة لكونه مؤمناً عاملاً صالحاً، ولهذا من عقيدة أهل السنة والجماعة، أن لا نشهد لأحد بالجنة إلا من شهد له الرسول ﷺ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا يقول: فلان شهيد، حديث رقم (٢٧٤٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار، حديث رقم (١١٢) عن سهل بن سعد الساعدي.

الفائدة الخامسة والعشرون: أنه ينبغي اختيار الرفيق الصالح لقوله: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وهذا أمر دلت عليه السنة دلالة صريحة، فإن النبي ﷺ قال: «**مثل الجليس الصالح كحامل المسك، إما أن يبيعك أو يحذيك، أو تجد منه رائحة طيبة**»(١).

الفائدة السادسة والعشرون: بيان فضل الله عزّ وجل، حيث أثاب هؤلاء الذين مَنَّ عليهم بالإيمان بهذا الجزاء العظيم.

الفائدة السابعة والعشرون: إثبات الأسباب، لقوله: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ﴾.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذه الآية الكريمة وأمثالها، وقول النبي ﷺ: «**لن يُدخل أحد الجنة بعمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته**»(٢)، فنفى أن يدخل أحد الجنة بعمله، مع أن النصوص كثيرة في أن العمل يدخل به الإنسان الجنة؟

الجواب: أن يقال: (الباء) تكون للسببية أحياناً، وتكون للعوض أحياناً، فإذا قلت: بعت عليك هذا الثوب بدرهم، فالباء

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقاً فليطلبه في عفاف، حديث رقم (١٩٩٥)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، حديث رقم (٢٦٢٨) عن أبي موسى.

(٢) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب نهي تمني المريض الموت، حديث رقم (٥٣٤٩)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل الجنة أحد بعمله بل برحمة الله تعالى، حديث رقم (٢٨١٦) عن أبي هريرة.

للعوض، ولا يمكن أن تكون للسببية، وإذا قلت: أكرمتك بما أكرمتني، صارت للسببية، فالمنفي هو أن تكون الباء للعوض، فقوله ﷺ: «**لن يدخل أحد الجنة بعمله**»، يعني لا يمكن أن يكون العمل كالدرهم بالنسبة للثوب في البيع لا يمكن هذا؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ لو أراد أن يحاسبنا على أعمالنا، لكانت نعمة واحدة من نعمه تحيط بأعمالنا كلها، بل إن توفيقنا للعمل الصالح نعمة تحتاج إلى شكر.

فإذاً: لا يمكن أن يكون دخولنا الجنة ـ نسأل الله أن يجعلنا من أهلها ـ لا عوضاً عن العمل، لكن يكون سبباً، وبهذا الجمع يزول الإشكال، واعلم أنه لا يمكن أن يقع تعارض بين نصوص الكتاب والسنة، فإما أن لا يكون تعارض، وإما أن يكون تعارض بحسب فهم المستدل، أما أن يوجد تعارض بين كلام الله بعضه ببعض أو بين كلام الله جلَّ وعلا وما صح من سنة الرسول ﷺ، أو بين سنة الرسول بعضها مع بعض، فهذا مستحيل.

الفائدة الثامنة والعشرون: إثبات الجنة وأنها أنواع، لقوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾.

الفائدة التاسعة والعشرون: أن الجنة ذات أنهار، مطردة تحت هذه القصور والأشجار، ولا يمكن للإنسان أن يتصور ذلك المنظر العظيم البهيج السار أبداً؛ لأن الجنة فوق ما ندرك، كما قال الله عزّ وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]، هذا في القرآن، وكما قال تعالى: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن**

سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[١]، وهذا في الحديث القدسي.

الفائدة الثلاثون: أن الأنهار في الجنة أنواع، للجمع في قوله: ﴿الْأَنْهَارِ﴾، وقد تقدم أنواعها.

الفائدة الحادية والثلاثون: أن نعيم الجنة دائم، لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ وقد قررنا أن الخلود هو: المكث الدائم، إلا بدليل.

الفائدة الثانية والثلاثون: الحث على الإحسان، لقوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى عباد الله: **«ولا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طلق»**[٢].

الفائدة الثالثة والثلاثون: علو هذا الجزاء، لقوله: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ حيث أشار إليه بإشارة البعيد.

الفائدة الرابعة والثلاثون: أن الكفر والتكذيب بآيات الله من أسباب دخول النار والخلود فيها، لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

الفائدة الخامسة والثلاثون: بيان أن هذا القرآن الكريم مثاني، تثنى فيه المعاني والأحوال حتى لا يمل القارئ وحتى يكون سير الإنسان إلى ربه بين الخوف والرجاء، قال الله عزّ وجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣].

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، حديث رقم (٣٠٧٢)، ومسلم، أول كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم (٢٨٢٤) عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، حديث رقم (٢٦٢٦) عن أبي ذر.

الفائدة السادسة والثلاثون: أنه ينبغي للإنسان الواعظ للناس أن لا تكون موعظته بالترغيب دائماً أو بالترهيب دائماً؛ لأنه إن أدام الترغيب أوقعهم في الأمن من مكر الله، وإن أدام الترهيب أوقعهم في القنوط من رحمة الله، فالواعظ في الحقيقة كالطبيب، إن أعطى جرعة زائدة هلك المريض، وإن نقص لم يبرأ المريض، لا بد أن الإنسان يراعي الأحوال، لا يقتصر على الترغيب دائماً ولا على الترهيب دائماً، وإذا قلنا بهذه القاعدة تَبَيَّنَ لنا أن من الناس من الأولى في حقه الترغيب، ومن الناس من الأولى في حقه الترهيب.

فإذا رأيت شخصاً مقبلاً على طاعة الله حريصاً عليها، فهنا نقول: الأولى الترغيب، حتى نحثه على الطاعة وتقدمها ونؤمله القبول، وإذا رأيت أحداً بالعكس متهاوناً بالطاعة، مصراً على المعصية، فهنا جانب الترهيب أولى ومع ذلك نأمره بالتوبة ونرغبه في قبولها.

الفائدة السابعة والثلاثون: إثبات هذا الاسم للنار وهو الجحيم، ولها أسماء متعددة، وأسماؤها تعتبر أوصافاً لها، فجهنم والنار والحريق، وما أشبه ذلك، هذه كلها أسماء تعتبر أوصافاً.

لو قال قائل: ما صحة قول من يقول: إن النار درجات لها أسماء؟

الجواب: إذا كان المراد أن نجعل هذه الأسماء بحسب الدركات، فهذا ليس بصحيح، الصحيح أنها أسماء لمسمى واحد، كما أن البيت اسم واحد وفيه سطح ومصباح وبدروم وغيرهم.

هناك تقسيم آخر للنسخ: النسخ تارة ينسخ إلى أثقل، وتارة ينسخ إلى أخف، وتارة ينسخ إلى مساوي، ثلاثة أقسام.

الأول: النسخ إلى أثقل، مثال ذلك: الصوم، أول ما فرض الصوم كان الناس مخيرين بين أن يصوم الإنسان أو يفدي، ثبت ذلك في الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: **«أول ما نزل الصيام صام من شاء ومن شاء افتدى»**[(١)]، ثم تعين الصوم، أيهما أثقل؟ تعيين الصوم؛ لأن المخير إن شاء هذا أو هذا، فإذا تعين الصوم صار أثقل.

الثاني: النسخ إلى أخف، مثاله آيتا المصابرة قال تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥] إلى آخره، هذه نسخت إلى أخف، ومما نسخ إلى أخف الصلوات الخمس، نسخت من خمسين إلى خمس[(٢)].

الثالث: النسخ إلى مساوي بالنسبة لفعل المكلف لا فرق بين هذا وهذا، كنسخ استقبال بيت المقدس باستقبال الكعبة[(٣)]،

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، حديث رقم (٤٢٣٧)، ومسلم، كتاب الصيام، باب بيان نسخ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾ [البقرة: ١٨٤]... حديث رقم (١١٤٥) عن سلمة بن الأكوع.

(٢) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، حديث رقم (٣٤٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السمٰوات وفرض الصلوات، حديث رقم (١٦٣) عن أبي ذر.

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ ...﴾ [البقرة: ١٤٣]، حديث رقم (٤٤٨٨)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، حديث رقم (٥٢٦) عن ابن عمر.

فهنا الفعل بالنسبة للمكلف واحد، فلا فرق أن يتجه الإنسان يميناً أو شمالاً.

قد يقول قائل: ما الفائدة من ذلك؟ نقول: الفائدة: لا يمكن أن يكون هذا النسخ إلا لسبب، فمثلاً: أيما أشرف الكعبة أو بيت المقدس؟ لا شك أن الكعبة أفضل، لكن لو فرضنا أنه لا فرق بينهما إطلاقاً، فإن فائدته امتحان المكلف واختباره، هل هو تابع لشريعة الله أو هو تابع للهوى؟ فيقول: لماذا ينسخ الله هذا إلى هذا وهما سواء، أنا سأفعل ما شئت، ففائدة النسخ إلى المماثل: اختبار المكلف هل يكون منقاداً تماماً لشريعة الله أو هو متبع لهواه، وأما الحكمة من نسخ الأشد إلى الأخف واضحة جداً وهي: التخفيف على الأمة.

وإذا نسخ من أخف إلى أشد ففيه فائدتان:

الفائدة الأولى: زيادة الأجر؛ لأن العمل إذا شق على المكلف لا بفعل نفسه واختياره، فله أجر، يزداد أجره، ولينتبه للقيد، إذا شق على المكلف لا بفعله واختياره فهو أفضل، ولهذا قال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «**أجرك على قدر نصبك**»[1]، يعني: على قدر المشقة، أما ما كان بفعل المكلف واختياره فهو إلى الإثم أقرب منه إلى الأجر.

مثال الأول: إنسان قام يتوضأ في البر وليس عنده إلا ماء بارد، وليس عنده ما يسخن به، فتوضأ بالماء البارد، توجد مشقة أو لا؟ توجد مشقة، آخر قام يتوضأ وعنده ماء ساخن وماء بارد،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع والقران..، حديث رقم (١٢١١) عن عائشة.

فتوضأ بالماء البارد، أيكون أفضل مما لو توضأ بالماء الساخن؟

الجواب: لا، بل هو إلى الإثم أقرب منه إلى السلامة؛ لأن هذا باختياره.

إذاً النسخ من الأخف إلى الأشد فيه زيادة الأجر.

الفائدة الثانية: بيان حكمة التشريع، حيث يتبين للإنسان أن التشريع في هذه الشريعة الإسلامية يأتي بالتدريج الأسهل فالأسهل، حتى لا يصطدم الناس بالشريعة الكاملة، وانظر إلى تحريم الخمر، تحريم الخمر جاء على درجات:

درجة تعريض، درجة مؤقتة لوقت معين، درجة محرمة نهائياً، التعريض كما في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، فهنا لما قال: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ العاقل لا يفعل.

التحريم في وقت معين كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، فهنا حرم شرب الخمر في وقت قريب من الصلاة؛ لأنه إذا شربها في وقت قريب من الصلاة لزم أن تأتي الصلاة وهو سكران.

التحريم النهائي: في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

إذاً: يتبين بذلك حكمة التشريع في الشريعة الإسلامية، هل هذه الحكمة باقية إلى الآن، بمعنى لو رأينا شخصاً يشرب الخمر، هل لنا أن نقول: اترك الخمر بالتدريج، أو نقول: اتركه

الآن؟ إذا أمكن الثاني لا بأس، لكن قد لا يمكن، فإذا قلنا له بالتدريج وكذلك شرب الدخان بالتدريج، فهذا لا بأس به إذا لم يمكن إلا ذلك؛ لأنه إذا تعذر الكمال أخذنا به شيئاً فشيئاً.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة: ٨٧ ـ ٨٨].

هذه ثلاث جمل بل أربع جمل، **الأولى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وتصدير الخطاب بالنداء يدل على أهميته؛ لأن النداء يستلزم انتباه المخاطب، وإصدار الخطاب بوصف الإيمان يدل على أن ما سيذكر من خصال الإيمان، وأن مخالفته نقص في الإيمان، ثم إن فيه إغراء للامتثال؛ لأنك إذا وصفت شخصاً بوصف لتأمره أو تنهاه فهذا من باب الإغراء بهذا الوصف، ولذلك تقول لشخص: أنت رجل كيف تفعل كذا وكذا، فقولك: أنت رجل يعني مقتضى الرجولة أن لا تفعل، وتقول: يا فلان أنت كريم وهذا سائل، يعني: فأعطه.

الجملة الثانية: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ لا ناهية، ﴿لَا تُحَرِّمُواْ﴾ أي: لا تجعلوه حراماً، وتحريم ما أحل الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام، فلننظر أيها المراد: خبر، وإنشاء، وامتناع:

فالخبر: أن يقول: الضأن حرام، يخبر، هذا نقول له: إنك كاذب؛ لأن الضأن حلال، وهو قال: إنه حرام كاذباً.

الإنشاء: أن يحرم ما أحل الله، كما فعل أهل الجاهلية في السائبة والوصيلة والحام قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩]، هذا التحريم إنشاء، يعني أراد بأن يحكم بأن هذا الشيء حرام على جميع الناس، هذا هو الذي يراد بالآية الكريمة، وحقيقته الحكم بغير حكم الله عزّ وجل.

الامتناع: يعني أن يقصد الامتناع، لم يقصد أنه حرام، ولا قصد إنشاء الحكم عليه بالتحريم، ولا قصد الخبر، وإنما قصد الامتناع، فهذا حكمه حكم اليمين، لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ [التحريم: ١].

إذا قال إنسان: هذه الخبزة عليَّ حرام، يريد الامتناع ما قصد أن حكمها حرام في شرع الله ولا يخبر أنها حرام، لكن أراد أن يمتنع، فهذا حكمه حكم اليمين، الدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [التحريم: ١ ـ ٢]، هذه ثلاثة أقسام في التحريم: إخبار، وإنشاء، وامتناع، أيها المراد؟ الإنشاء، ولهذا قال: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ لأنه طيب؛ ولأنه حلال، فكيف تحرمونه.

قوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ أي: تجاوزوا حدودكم؛ لأن الإنسان له حد، فكونه يحلل ويحرم هذا اعتداء، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦].

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ هذه **الجملة الثالثة**، أخبر الله عزّ وجل أنه لا يحب المعتدين، لا يحب المعتدين في حقه ولا في حق عباده؛ لأن الله عدل، أحكم الحاكمين، فلا يحب أن يعتدي أحد لا في حقه ولا في حق العباد.

قوله: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، ﴿كُلُوا﴾: فعل أمر، وهو في معناه مشترك بين الإباحة وبين الوجوب وبين الندب، فمن توقفت حياته على الأكل فأكله واجب، ومن احتاج ولكن لا ضرورة، فأكله مستحب، ومن كان لا يحتاج وليس بمضطر فالأمر للإباحة.

قوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: مما أعطاكم، ﴿حَلَٰلًا﴾ أي: حال كونه حلالاً، أي: محللاً، فهو مصدر بمعنى اسم مفعول، ﴿طَيِّبًا﴾ أي: لا خبيثاً، وهل الوصف هنا وصف ملازم، وذلك لأن كل حلال طيب أو المعنى حلالاً طيباً في كسبه، أي: أنه حلال في ذاته طيبٌ في كسبه؟ الثاني أولى؛ لأنه إذا دار الأمر بين أن يكون الكلام مؤسساً أو مؤكداً فحمله على أن يكون مؤسساً أولى، فنقول: ﴿حَلَالاً﴾ أحله الله، ﴿طَيِّباً﴾ أي: من حيث الكسب.

قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: الزموا تقوى الله عزّ وجل، ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ هذا من باب الحث على التقوى، يعني: ما دمتم مؤمنين بالله عزّ وجل فاتقوه، وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ جملة اسمية تدل على الثبوت، يعني أنه قد تقرر عندكم الإيمان بالله، فإذا كان كذلك فاتقوا الله.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: النهي عن تحريم طيبات ما أحل الله، لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، وهذا التحريم، هل يعم الأقسام الثلاثة التي تقدمت؟ نعم يعمها، لكن بعضها أشد من بعض، فالتحريم الإنشائي أشدها؛ لأنه مشاركة لله في حكمه، والتحريم الخبري محرم؛ لأنه كذب، والتحريم الامتناعي أيضاً محرم؛ لأن الله عزّ وجل عاتب نبيه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ [التحريم: ١]؛ ولأن النبي ﷺ قال: «**من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**»[(١)].

الفائدة الثانية: النهي عن العدوان ـ يعني: عن الاعتداء ـ في حق الله وفي حق العباد.

الفائدة الثالثة: الإشارة إلى أن تحريم ما أحل الله من باب العدوان؛ لأنه قال: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ﴾، ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾، وهو إشارة إلى أن هذا من باب العدوان، وأيهما أشد أن يحرم الحلال أو أن يحلل الحرام؟ أن يحرم الحلال؛ لأن تحريم الحلال تضييق على عباد الله بدون علم، وتحليل الحرام إن قدر أنه حرام بناءً على الأصل؛ لأن الأصل في الأشياء الحل، إلا الشرائع فالأصل فيها الحظر.

الفائدة الرابعة: الإشارة إلى مِنَّة الله تبارك وتعالى على

---

(١) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف، حديث رقم (٢٥٣٣)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله، حديث رقم (١٦٤٦) عن ابن عمر.

عباده بما أحل لهم لقوله: ﴿طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، ولو شاء الله عزّ وجل لحرم علينا طيبات أحلت لنا، كما حرم ذلك على بني إسرائيل حيث قال الله عزّ وجل: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، يعني: بسبب ظلمهم وعصيانهم حرم الله عليهم الطيبات، وتحريم الطيبات الشرعي بسبب الظلم مثله التحريم القدري بسبب الظلم، فإن الإنسان قد يحرم الطيبات تحريماً قدرياً لمعصيته، مثل: أن يكون رجلٌ إذا أكل اللحم، تأثر ومرض، هذا يجب عليه أن يجتنب أكل اللحم وهذا تحريم قدري؟

إنسان مثلاً: مريض بمرض السكر، إذا أكل الحلو ازداد عليه السكر وآلمه، فيجب عليه أن يجتنب السكر، هذا تحريم قدري، فلا تظن أن التحريم بسبب المعاصي هو التحريم الشرعي فقط، بل حتى القدري، ومن التحريم القدري أن يمنع الله نبات الأرض بسبب المعاصي كما قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

الفائدة الخامسة: إثبات المحبة لله عزّ وجل لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

فإن قال قائل: هذا نفي وليس بإثبات؟

قلنا: نفيه محبة المعتدين يدل على ثبوت أصل المحبة، ولو كان لا يحب مطلقاً لم يكن لنفي محبته للمعتدين فائدة؛ لأنه أصلاً لا يحب، والذين قالوا: إن الله لا يحب لم ينكروا المحبة ولكن حرفوها، ففي الآية إذاً ردٌّ على منكري محبة الله عزّ وجل،

مثل الأشاعرة، الذين هم أقرب أهل التعطيل لأهل السنة ينكرون محبة الله، يقولون: إن الله لا يحب أحداً، قلنا: لا يحب وحتى الرسول ﷺ؟ قالوا: حتى الرسول، قلنا أليس الرسول ﷺ قال: «**إن الله اتخذني خليلاً**»(١) قالوا: نعم، لكن زاد ثوابه؛ لأن المحبة هي الثواب أو إرادة الثواب، ففسروها بالإرادة؛ لأنهم يثبتون الإرادة.

والحقيقة أننا نسأل الله لهم العفو وأن يهدي أحياءهم، أنهم حرموا لذة محبة الله عزّ وجل، الإنسان إذا شعر بأن الله يحبه يفرح ويزداد في محبة الطاعات وكراهة المعاصي؛ لأنه يعلم أن ربه عزّ وجل يحبه من فوق سبع سمٰوات، وإذا كان المعنى يثيبه، فهو يثيب أي واحد من العباد ممن يستحق الثواب، فحرموا لذة محبة الله؛ لأنهم أنكروها.

إذاً: المهم أن في الآية إثبات المحبة، وإذا قال قائل: ما طريق إثباتها؟ قلنا: لأن نفيها عن المعتدين يدل على ثبوت أصلها، إذ لو لم يكن أصلها ثابتاً لم يكن فائدة من نفيها عن معتديها، وهذا نظير استدلال الشافعي رحمه الله على رؤية الله بنفي الرؤية عن الفجار، حيث قال الله عزّ وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]، قال: لو كانت الخلائق محجوبة عن الله كلها لم يكن في نفي وحجب الرؤية عن الفجار فائدة، فنفي الرؤية عن الفجار دليلٌ على إثباتها للأبرار.

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها، حديث رقم (٥٣٢) عن جندب.

الفائدة السادسة: أمر الإنسان بالأكل مما رزق الله، ضده عدم الأكل، وعدم الأكل مما رزق الله ثلاثة أقسام:

الأول: أن يترك الأكل مع خوف الهلاك إذا لم يأكل، فهنا ترك الأكل حرام؛ لأنه يجب على الإنسان أن ينقذ نفسه، وبهذا نعرف سفه أولئك الذين يضربون عن الطعام نعرف سفههم في عقولهم وضلالهم في دينهم، بعضهم يضرب عن الطعام حتى يحمل إلى المستشفى كالميت، هذا حرام، لا شك في هذا.

الثاني: إذا كان ليس به ضرورة للأكل لكن يحتاج إلى الأكل لتقوية البدن فهنا الأكل مستحب؛ لأنه لو تركه لم يهلك، لكنه في حاجة نقول له: لا تمنع نفسك.

الثالث: أن يترك الأكل تنزهاً فهذا ينهى عنه، ويقال: كل مما أباح الله لك، وبعض الناس لا يأكل من طيب الطعام تزهداً وورعاً، فماذا نقول عنه؟ نقول: هذا خطأ، أفضل الخلق محمدٌ عليه الصلاة والسلام، كان يختار الطيب من الطعام، أليس قد جاءوا له بالتمر الطيب بدل التمر الرديء؟ بلى، ومع ذلك ما نهاهم ولم يقل: لماذا تأتوني بالطيب؟ بل أرشدهم إلى أن يأتوا بالطيب، لكن بطريق مباح، فتنزه بعض الناس عن الطيبات تورعاً وتزهداً نقول له: لا، أنت الآن مجانب للورع؛ لأن الورع اتباع الشرع، والزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، واتباع الشرع مما ينفع في الآخرة، فأنت الآن لا زاهداً ولا ورعاً.

نعم لو فرض أن الإنسان بصفة خاصة يجد من نفسه أنه لو اختار الطيبات لحصل الأشر والبطر، فهنا قد نقول: اترك الطيبات؛ لئلا تصاب بالأشر والبطر، لكننا نعالجك قبل ذلك

بعلاج آخر، نقول: لا يجوز أن يحملك التمتع بنعم الله على الأشر والبطر، فإن عجزت وأبيت إلا أن يحملك، نقول: الآن اترك؛ وفي الحقيقة أن بعض الناس إذا لبس ثياب الزينة ـ العباءة الزينة وغطاء الرأس الزين ـ انتفخ وصار فيه علو واستكبار، هذا نقول له: اترك هذا، ونأمره أولاً أن لا يتكبر، لكن يقول: أنا أعجز، نقول: الحمد لله اترك هذا لمن لا يتكبر إذا لبسها، ولكن هذا علاج خاص كما أننا نعالج الإنسان الذي يتأثر بأكل الطيبات من جهة أخرى، فنقول: اتركها ودعها لمن لا يتأثر بها.

الفائدة السابعة: أنه يجب على الإنسان أن يكون مأكله طيباً، لقوله تعالى: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، فالكسب الحرام وإن كان في ذاته حلالاً، يعني مثلاً: كسب الدراهم الأصل في اكتسابها أنها حلال، فإذا كسبها بحرام قلنا: هذا حرام عليك، يحرم عليك أن تأكل منها؛ لأنها ليست طيبة، ولهذا قال النبي ﷺ: «**من تصدق بطيب، ولا يقبل الله إلا الطيب**»[1]، فقوله: «**بطيب**» يعني: بطيب في كسبه وفي ذاته، فإن الله يقبل هذه الصدقة الطيبة.

لو قال قائل: إذا كان المال محرماً لكسبه، فهل يحل لغير الكاسب إذا اكتسبه بطريق مباح؟

الجواب: نعم، وهذه القاعدة دل عليها أن النبي ﷺ أكل من طعام اليهود، وهم معروفون بأكل الربا والسحت ومعروفون

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب لا يقبل الله صدقة من غلول ولا يقبل إلا من كسب طيب، حديث رقم (١٣٤٤)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، حديث رقم (١٠١٤) عن أبي هريرة.

بالرشوة ـ أكل منه؛ لأنه يأكل بطريق مباح إما بالإذن أي: أذن له في ذلك وإما أهدي إليه؛ إلا إذا علمت أن هذا المال هو عين مال رجل آخر كالسارق إذا سرق شاةً وذبحها لك ضيافة تعرف أنه سرقها، فهنا لا يجوز أن تأكلها؛ لأن هذا محرم لعينه، من حيث إن هذا الكاسب لم يملك هذه العين، فلا يجوز أن تأكلها، لكن لو دعاك إلى وليمة من عرف بأن ماله كله حرام؛ اكتسبه عن طريق الربا الصريح، أو عن طريق الربا الذي اتخذه بالحيلة، فهل لك أن تأكل منه؟ نعم، لي أن آكل منه، إلا إذا علمت أنني إذا امتنعت من إجابة دعوته وأكل طعامه صار ذلك سبباً لتوبته فحينئذٍ، نعم، لا يجوز أن أجيبه، ولا يجوز أن آكل من طعامه؛ لأنه إذا رأى الناس قد هجروه فلا يجيبون دعوته ولا يأكلون طعامه، لا شك أن هذا سيؤثر عليه إلا أن يكون قلبه ميتاً.

الفائدة الثامنة: أن الإيمان بالله عزّ وجل مستلزم لتقواه، لقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ أي: فلإيمانكم يلزمكم التقوى، فالإيمان الحقيقي مستلزم للتقوى، فمن قال: إنه مؤمن ولكن لم يتقِ الله، فهو إما فاقد للإيمان بالكلية، وإما ناقص الإيمان.

فإن قال قائل: إنه يفعل المعاصي، وإذا قيل له: يا فلان اتقِ الله لا تعصِ الله، قام يضرب على صدره، ويقول: التقوى هاهنا، التقوى هاهنا، التقوى هاهنا، ماذا نقول له؟ نقول: هذا كلام الرسول ﷺ لا شك فيه وليس عندنا في هذا شك، ولكن لو اتقى ما هاهنا لاتقت اليد والرجل والعين واللسان؛ لأن النبي ﷺ يقول: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله،**

وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[1] فلو كان فيما هاهنا تقوى لظهر ذلك على جوارحه.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة: ٨٩].

قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾، لا يؤاخذكم: أي: لا يعاقبكم ولا يحاسبكم، ﴿بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ اللغو: ما لم يُقْصَدْ، بدليل قوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾، وقد تقدم أن من طرق التفسير أن تقابل الكلمة إذا كانت خفية بشيء واضح فيتبين معناها بما قوبل بها، وذكرنا على هذا مثلاً: وهو قوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]، فإن ﴿ثُبَاتٍ﴾ لا يفهم معناها بسرعة، لكن إذا قرنتها بالمقابل، وهو قوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ تَبَيَّنَ أن معنى ثباتٍ أي: فرادى متفرقين.

و«اللغو» هو الذي لا يقصد، بأن يجري على اللسان بدون قصد، وهذا يقع كثيراً، يقول لك صاحبك: أتريد أن نذهب إلى فلان؟ تقول: لا واللهِ، لا أريد الذهاب إليه، أو يقول: اذهب فسلم على فلان؟ تقول: لا واللهِ لا أريد، على سبيل اللغو لا

---

(١) تقدم في (١/ ١٤٣).

القصد، فهذا على سبيل اللغو لا يترتب عليه حكم، ولأن هذا أيضاً من الأشياء التي قد يشق تجنبها.

لو قال قائل: هل يدخل في اللغو الحلف بغير الله؟

الجواب: الحلف بغير الله لا ينعقد أصلاً؛ لأن النبي ﷺ قال: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[1] والحلف بغير الله ليس عليه أمر الله ورسوله.

وقوله: ﴿فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ جمع يمين وهو الحلف.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ﴾ أي: بالذي عقدتم، وفي هذه الكلمة ثلاثة قراءات: ﴿عَقَّدتُّمُ﴾ بتشديد القاف، و﴿عاقدتم﴾ و ﴿عَقَّدتُّمُ﴾، بتخفيف القاف، والمعنى واحد، أي: بما نويتم عقده من الأيمان.

قوله: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ﴾ هل المراد فكفارته إذا حلفتم، أو إذا حلفتم وحنثتم؟ الثاني، يعني أن في الآية شيئاً محذوفاً التقدير: فكفارته إن حنثتم فيه، أي: التي تكفره ولا يقع فيه مؤاخذة، ﴿إِطۡعَامُ عَشَرَةِ﴾ وأطلق الله الإطعام فيرجع في ذلك إلى العرف؛ لأن لدينا قاعدة وهي أن ما جاء مطلقاً في الكتاب والسنة فإنه يحمل على عرف الناس.

قوله: ﴿عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ جمع مسكين: وهو الذي لا يجد كفايته، وسمي مسكيناً؛ لأن الفقر أسكنه؛ لأن العادة أن الغني يكون نشيطاً له شخصية، يقابل الناس ويتكلم معهم ويأخذ منهم ويرد، والغالب على الفقير العكس، فلذلك سمي الفقير مسكيناً.

---

(١) تقدم في (١/ ١١٠).

قوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي: لا من أجوده ولا من أردئه، بل من الوسط.

قوله: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ معطوفة على إطعام، والكسوة ما يكسو به الإنسان بدنه، وتختلف الكسوة باختلاف الأزمان والبلدان والأحوال، ولذلك ترون في مواسم الحج والعمرة اختلافاً كبيراً في كسوة الناس، فيرجع في هذا إلى العرف، ففي بلادنا الكسوة عبارة عن قميص وسروال وغترة وطاقية، هذه الكسوة، وإن نقص شيء من ذلك فالكسوة ناقصة.

وقوله: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ لم يقيد من أوسط ما تكسون، فيؤخذ بما يعد كسوة.

قوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: عتقها، وسمي العتق تحريراً؛ لأن الرقيق يتحرر به من ملك سيده الذي يفرض عليه أن يكون عبداً مطيعاً.

وفي الآية الترقي من الأسهل إلى الأشد؛ لأنك لو نظرت لوجدت في الغالب أن الإطعام أسهل من الكسوة، وأن الكسوة أسهل من العتق.

لو قال قائل: الرقبة هنا مطلقة لأنه قال: ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، فهل يصح إعتاق الكافر؟

الجواب: يرى بعض أهل العلم أنه يصح؛ لأننا نطلق ما أطلقه الله ونقيد ما قيده الله عزّ وجل، والرقبة وردت مطلقة هنا في كفارة اليمين، ووردت مطلقة في كفارة الظهار، ووردت مطلقة في كفارة الجماع في رمضان، ووردت مقيدة في كفارة القتل، فمن العلماء من قال: إنه يجب علينا أن نبقي النصوص كلها على

ما هي عليه، فيشترط الإيمان في كفارة القتل، ولا يشترط الإيمان في كفارة اليمين، وكفارة الظهار وكفارة الجماع.

ومنهم من قال: ما دام الحكم واحداً، فإنه يجب أن يقيد المطلق بالقيد الذي قيد به المقيد، وإن اختلف السبب، واستدل هؤلاء بحديث معاوية بن الحكم أنه لما أراد أن يعتق جاريته التي لطمها، فدعا بها النبي ﷺ وسألها: «**أين الله؟**» قالت: في السماء، قال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»[1] فإنه يستفاد من هذا أنه لو لم تكن مؤمنة ما شرع العتق، وعللوا أيضاً بتعليل جيد، قالوا: إنه إذا عتق الكافر فإنه لا يؤمن أن يرجع إلى أصله وأهله؛ لأنه الآن قد تحرر، فيمكن أن يذهب إلى أهله ويزيد سوادهم في محاربة المسلمين، فالصواب: أنه لا بد من الإيمان.

قوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: فمن لم يجد الإطعام أو الكسوة أو العتق، أو وجد لكن لم يجد من يطعمهم أو يكسوهم أو يعتقهم، بأن يكون المجتمع غنياً كلهم أغنياء لا يجد فيهم فقيراً ولم يوجد أرقاء يمكن إعتاقهم، فإنه يعدل إلى الرابع من أصناف الكفارة، وهو صيام ثلاثة أيام مطلقة لم يقيدها الله عزّ وجل بالتتابع، والصيام إذا أطلق فهو مطلق لا يشترط فيه التتابع، ودليل ذلك أن الله إذا أراد سبحانه وتعالىٰ أن يكون الصوم متتابعاً قيده، كما في آية الظهار قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [المجادلة: ٤]، وكما في آية القتل قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء: ٩٢]، وإذا أطلق فإنه لا يجب فيه التتابع، لكن قد ورد في قراءة عبد الله بن مسعود اشتراط

---

(١) تقدم في (١/ ٤٦٦).

التتابع، فقرأ رضي الله عنه: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات»، وعلى هذا فتكون قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مقيدة لهذا الإطلاق.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ ذلك المشار إليه هذه الأربعة: وهي إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة أو صيام ثلاثة أيام على حسب ما جاء في الآية من ترتيب وتخيير.

قوله: ﴿كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾ يعني: إذا حلفتم وحنثتم، أما إذا لم تحنثوا فإنه لا شيء عليكم، فإذا حلف الإنسان أن لا يفعل شيئاً ولم يفعل فلا شيء عليه، أو أن يفعل شيئاً ففعله فلا شيء عليه.

قوله: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ احفظوا أيمانكم لها ثلاثة معان:

المعنى الأول: احفظوها من الحنث، أي: حافظوا على أن لا تحنثوا.

المعنى الثاني: أي: لا تكثروا الحلف، فلا تجعلوها رخيصة، كل شيء تحلفوا عليه، فلا تحلفوا على شيء إلا إذا دعت الحاجة أو الضرورة لذلك.

المعنى الثالث: احفظوها بأن لا تَدَعُوا الكفارة، وهذه المعاني الثلاثة صحيحة ولا يناقض بعضها بعضاً وتكون الآية شاملة لها.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ كذلك أي: مثل ذلك البيان، وعليه فتكون الكاف مفعولاً مطلقاً؛ لأنه أضيف إلى المصدر، أي: مثل ذلك البيان يبين الله لكم آياته، والمراد بالآيات هنا الآيات الشرعية؛ لأن السياق يدل عليه، ولا شك

أن الله بيَّن لنا الآيات الشرعية والآيات الكونية، ففي مخلوقاته آيات عظيمة كما قال عزّ وجل: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١].

قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ «لعل»: للتعليل، أي: لأجل أن تشكروا الله عزّ وجل على بيان الآيات، والشكر هو القيام بطاعة المنعم، هذا أجمع ما قيل فيه، فيشمل القيام بطاعة المنعم فيما يقال، والقيام بطاعة المنعم فيما يُفْعَل، والقيام بطاعة المنعم فيما يعتقد، فيكون محل الشكر ثلاثة: القلب، واللسان، والجوارح، وعلى هذا قول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

يقول الشاعر يخاطب من يخاطب: إن نعماءكم عليَّ ملكتم بها فؤادي ولساني، فصار يثني عليكم وكأنكم أسياده، وكذلك الجوارح أخدمكم بها، يعني: ملكتم قولي وقلبي وعملي، والمعنى واضح، ويؤيده قوله: «والضمير المحجبا» بالنصب.

الحاصل أن هذه أوسع آية فيما يتعلق بالأيمان، وإلا فقد جاء في البقرة مثل قوله تعالى ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٢٥]، لكن هذه الآية مفصلة.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: سعة حلم الله وعفوه، حيث نفى المؤاخذة عن اللغو في الأيمان، وذلك لكثرة تكرارها ومشقة التحرز منها، وهذا بناءً على أن المراد بها: الأيمان التي لا تقصد والتي تكون في عرض الحديث.

وقال بعض أهل العلم: من اللغو في الأيمان أن يحلف على شيءٍ ماضٍ يظنه واقعاً ولم يقع، مثل أن يقول: والله لقد قدم فلان من البلد أمس؛ بناءً على أنه رأى رجلاً يشبهه فظنه إياه، فأقسم أنه قدم ولم يقدم، لكن الصواب خلاف ذلك، وأن هذا ليس من اللغو؛ لأن هذا قصد العقد حلف وأقسم، ولو قيل له: لم يأتِ الرجل لقال: والله لقد جاء، والله لقد رأيته، لكن هذا مما لا حنث فيه؛ لأن الرجل حلف على ما في ظنه وهو واقع، يقول: لا زلت أظن هذا، فهو حلف على ما في ظنه، ولهذا التعليل لا يفرق على القول الصحيح بين الماضي والمستقبل، المستقبل مثل أن يقول: والله ليقدمن زيد غداً بناءً على ما سمعه من الأخبار، أو ما سمعه من نطقه أنه سيقدم غداً، فقال: والله ليقدمن زيدٌ غداً، فمضى الغد ولم يقدم، فهذا لا حنث عليه، مع أنه عاقد حالف، لكن نقول: الرجل حلف على ما في ظنه وهو يقول: لا أزال أظن هذا حتى لو انتهى الغد ولم يأتِ فأنا على ظني، وكون الواقع يكون على خلاف ظني هذا ليس إليّ وليس من فعلي ولا من تصرفي، ولذلك لو قال: والله ليقدمن زيد غداً بناءً على أنه سيلزمه بالقدوم ولم يقدم فإنه يحنث.

إذاً: القول الراجح أن اليمين التي يحلفها على ظنه ليست من لغو اليمين وإنما لغو اليمين ما لا يقصد.

الفائدة الثانية: أن العبرة بما في القلوب، وهذا كقول النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى**»[1]، وينبني عليه مسائل كثيرة في الأيمان والطلاق والبيوع والأوقاف

(١) تقدم في (١/ ١١٧).

وغيرها، والدليل على أن العبرة بما في القلوب قوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾، وفي سورة البقرة: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

الفائدة الثالثة: أنه لا حنث في اليمين إلا إذا كانت منعقدة، قال العلماء: والمنعقدة هي التي يقصد عقدها على أمر مستقبل ممكن، فإذا لم يقصد العقد فهي لغو، وإذا عقدها على ماض فإنه لا يخلو من ثلاثة أقسام:

الأول: إما أن يعقدها على أمرٍ ماضٍ متيقن فهذا لا شيء عليه، لكنه لا ينبغي إلا عند الحاجة، مثل أن يقول: والله لقد نزل المطر أمس على بلدنا، وهو يعلم أنه نازل، هذا جائز، لكن الأولى أن لا يفعل إلا لحاجة.

الثاني: أن يقصد عقدها على ماضٍ يعلم أنه كاذب، فهذه حرام، مثل أن يقول: والله لقد صليت أمس في المسجد الحرام وهو لم يصلِّ، هذا لا شك أنه آثم؛ لأنه جمع بين إثمين، الإثم الأول: الكذب، والإثم الثاني: الاستهانة باليمين بالله عزّ وجل، واليمين كما نعلم جميعاً: تأكيد الشيء بذكر معظم، لكن هل هذا يمين غموس أو اليمين الغموس ما تتضمن أكل المال بالباطل، أو الاعتداء على الغير؟

الجواب: المذهب الأول، أن كل يمين كاذبة على ماض فهي يمين غموس، ولا شك أن اليمين على أمر ماض وهو يعلم أنه كاذب لا شك أنها محرمة وأشد مما لو أخبر بدون اليمين، لكن الذي يظهر أن اليمين الغموس: هي التي يحلف بها الإنسان فاجراً ليقتطع بها مال امرئٍ مسلم، مثاله: أن يدعي على شخص

بأن في ذمته له ألف ريال ويقيم شاهد زور ويحلف، فهنا يحكم له بالألف، هذه اليمين نسميها يميناً غموساً؛ لأنه اقتطع بها مال امرئ مسلم، أو يجحد بها مال امرئٍ مسلم، مثل: أن يُدَّعى عليه بألف ريال ويقول: أبداً ليس لك عندي شيء، ويحلف على هذا، فهذه يمين غموس، فالراجح: أن اليمين الغموس هي التي يقتطع بها مال امرئ مسلم.

القسم الثالث من الحلف على الماضي: أن يحلف على ماضٍ يظنه واقعاً وليس بواقع، فهذه يسميها فقهاؤنا رحمهم الله لغو اليمين، يعني: يجعلونها من لغو اليمين، والصحيح أنها ليست من لغو اليمين، وإنما هي من اليمين التي بر فيها؛ لأنه حلف على ظنه وهو لا يزال على ظنه، ولكن مع ذلك الأولى أن لا يحلف على شيء بناءً على الظن إلا إذا دعت الحاجة لذلك.

تقدم أن اليمين المنعقدة هي التي قصد عقدها على أمرٍ مستقبل ممكن، ضد الممكن المستحيل، المستحيل لا تنعقد عليه اليمين؛ لأنه بالنسبة لإيجاده، نقول: هذا غير ممكن؛ فيحنث في الحال وتلزمه الكفارة؛ لأنه لا يمكن أن يوجده، وإن كان على عدمه فليس فيه كفارة؛ لأن هذا هو الواقع، وقال بعض أهل العلم: إن الحلف على المستحيل لا كفارة فيه مطلقاً؛ لأن كونه يحلف على شيء يستحيل وجوده، هذا لغو فلا حنث فيه.

بقي علينا أشياء، هل يشترط أن يكون باختياره، أي: أنه يحلف مختاراً؟

الجواب: نعم، يشترط أن يكون حلفه اختياراً، فإن أكره على اليمين لم تنعقد اليمين.

ولكن هنا مسألة: لو أكره على اليمين فحلف قاصداً اليمين؛ لأنه إذا أكره وحلف، إما أن يقصد باليمين دفع الإكراه أو يقصد اليمين لكنه مكره عليه، هاتان مسألتان: أحياناً يحلف ليدفع الإكراه عن نفسه ويتخلص من عدوان المكره، وأحياناً يحلف يقصد اليمين، لكن حمله عليها الإكراه؟

أما إذا قصد دفع الإكراه فلا شك أنه لا حنث عليه؛ لأنه لم يقصد اليمين أصلاً، بل قصد الخلاص من هذا الذي أكرهه، أما إذا حلف يقصد اليمين لكن ألجئ إليه، فهذا فيه خلاف، والصواب أنه كالأول لا سيما إذا وقع من شخص عامي؛ لأن العامي إذا أكره على الشيء فعله ولا يخطر بباله أنه لدفع الإكراه، أو لأنه أكره عليه، وهذه المسألة إن وقعت فإنما تقع لطالب علم يفهم، فالصواب: أن المكره لا تنعقد يمينه، سواء نوى بذلك رفع الإكراه، أو عَقْدَ اليمين للإكراه.

لو قال قائل: هل ينعقد اليمين إذا صدر اليمين عن غضب؟

الجواب: هذه المسألة لا بد أن نذكر فيها قاعدة، وهي أن كل قول يكون عن غضب لا يملك الإنسان فيه نفسه فلا عبرة به، فلو طلق في غضب شديد لم تطلق امرأته، ولو أقسم في غضب شديد لم ينعقد اليمين، ولو ظاهر من امرأته في غضب شديد لم يكن ظهاراً، فهذه قاعدة ثابتة.

هل يشترط أن يكون مكلفاً، أو لا يشترط؟

الصواب: أنه يشترط أن يكون مكلفاً؛ لأن غير المكلف لا يلزمه شيء، لا بأصل الشرع ولا بإلزام نفسه، ولهذا لا ينعقد النذر من غير مكلف، وقد قال النبي ﷺ: «**رفع القلم عن**

ثلاثة»[١]، فلو حلف من له عشر سنوات أن لا يشتري شيئاً معيناً فبلغ واشتراه، هل يحنث أو لا؟

الجواب: لا؛ لأن يمينه غير منعقدة.

ولو حلف وهو مكلف بالغ، ثم حنث وهو غير مكلف، هل يحنث أو لا؟ ليس عليه شيء، وهذا يتصور في عاقل جُنَّ.

إذاً: اليمين لا تنعقد من غير البالغ العاقل؛ لأنه غير مكلف، واليمين فيه نوع إلزام.

الفائدة الرابعة: ما أشرنا إليه أولاً وهو اعتبار النية والقصد، وهذا ينبني عليه مسائل من أهمها ما يقع كثيراً: بأن يطلق الرجل زوجته بناءً على أنها تكلم الرجال بالهاتف، ثم يتبين أنها تكلم أقاربها ومحارمها، فهنا الطلاق لا يقع.

يحلف الرجل أن لا يقدم هذا البلد؛ لأنه يعتقد أن أميره ظالم، فيقول: ما لي وللأمير الظالم، ثم يتبين أن أميره ليس بظالم، فهل عليه شيء؟ لا؛ لأنه إنما حلف على نية أن هذا الوصف هو الذي يمنعه من دخول البلد، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾.

الفائدة الخامسة: أنه لا ينبغي الحنث إلا إذا كان خيراً، لقوله تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ والكفارة لا تكون إلا في مقابلة ذنبٍ أو ما يشبهه، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً، حديث رقم (٤٤٠٣)، والترمذي في كتاب الحدود، باب فيمن لا يجب عليه الحد، حديث رقم (١٤٢٣)، وأحمد (١/١١٦) (٩٤٠) عن علي بن أبي طالب.

الفائدة السادسة: أن كفارة اليمين على التخيير في أشياء ثلاثة: إطعام المساكين، وكسوتهم، وعتق الرقبة، هذا على التخيير، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، وما اشتهر عند العوام من أن كفارة اليمين هي الصيام فخطأ، فينبغي لطلبة العلم أن يبينوا للناس أن الصيام لا يجوز لمن يقدر على واحدة من الثلاث التي قبلها.

الفائدة السابعة: أن الإطعام مطلق لا يشترط فيه التمليك؛ لأن الله تعالى لم يقل: فللمساكين، لو قال: «فللمساكين» لكان يشترط فيه التمليك، كما قال في الزكاة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ [التوبة: ٦٠]، وذلك لأن الطعام ينتفع به مرة واحدة فلا يشترط فيه التمليك، أما الكسوة فيشترط فيها التمليك، وإلا لكان تعيره الثوب ثم تأخذه منه العصر.

لو قال قائل: ما ضابط ما يحصل به الإطعام؟

الجواب: يقول الله تعالى: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ﴾ فإذا كان إطعام عشرة، فما يحصل به الإطعام كافي، فلو غدَّىٰ المساكين أو عَشَّاهم، أجزأه بلا شك؛ لأنه يصدق عليه صدقاً تاماً أنه أطعمهم، وإطعامهم مطبوخاً أولى لموافقته ظاهر الآية، لكن الفقهاء يقولون: لا بأس أن يعطيه رزاً نياً، لكن يحسن أن يكون معه شيء يؤدمه كاللحم، فإن أعطاهم شيئاً يطعمونه بأنفسهم، أي: يصنعونه بأنفسهم، فهل يجزئ أو لا؟ الظاهر الإجزاء؛ لأنه إذا أعطاهم مثلاً ما يكفيهم من حب ولحم وما أشبه ذلك مما يطعم فإنه يصدق عليه أنه أطعم عشرة مساكين.

الفائدة الثامنة: أنه لو أطعم من يأكل الطعام ولو كان صغيراً كفى لقوله: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾، فإن كان المسكين صغيراً لا

يأكل الطعام فهل يجزئ أن يطعمه حليباً؟ **الجواب**: لا؛ لأن هذا خلاف الظاهر اللفظي.

لو قال قائل: إذا كان عندنا تسعة فقراء وفيهم امرأة ترضع، فهل يكفي أن نطعمها مرتين؟ **الجواب**: لا، لا بد من إطعام عشرة مساكين يتغذون بالطعام لا باللبن.

وإذا قال قائل: إذا لم أجد عشرة مساكين، يعني لم أجد في البلد إلا خمسة فهل أعدل إلى الصيام أو أكرر على الخمسة؟

فيه احتمال؛ لأن قوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ يعود إلى ما سبق، والذي سبق إطعام عشرة مساكين، فقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: من لم يجد عشرة ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ ويحتمل أن يقال: ما دام وجد مساكين، فإنه يكرر عليهم الإطعام، فإذا وجد خمسة يكرر مرتين.

لو قال قائل: لو وجدنا فقيراً وهو يعول عائلة من تسعة وهو العاشر، لكنهم ليسوا معه في البلد، فهل نعطيه الكفارة؟ الجواب: إذا علمنا أنه سيؤديها لهم فلا بأس، أما إذا لم نعلم فلا، لكن لو قيل: هو سيبيعها ويرسل إليهم ثمنها؟ قلنا: لا يجوز، لا بد من إطعام عشرة.

الفائدة التاسعة: أن لله تعالى الحكمة فيما يشرع لعباده؛ لأنك لو قارنت بين إطعام عشرة مساكين وكسوتهم وعتق الرقبة، لوجدت الفرق كبيراً، لكن لله الحكمة فيما يشرع، فلا يمكن أن يعترض معترض فيقول: لماذا لم يكونوا عشرين؟ لماذا لم يكونوا ثلاثة كالصيام مثلاً؟ نقول: هذا حكم الله عزّ وجل وهذا من الأمور التعبدية، يعني: تقدير من يعطون من الكفارات أمر تعبدي لا مدخل للعقل فيه كأعداد الصلوات.

الفائدة العاشرة والحادية عشرة: أن الواجب على الإنسان يكون الوسط، فالزكاة مثلاً على صاحب الغنم، الواجب الوسط، والزكاة في الثمار، الواجب الوسط، ويتفرع على هذه الفائدة العظيمة: عدالة الإسلام؛ لأن الوسط ليس فيه حيف لا على من يجب عليه ولا على من يجب له، وهذا لا شك أنه من العدالة.

فإن قال قائل: أرأيتم لو أطعمهم من أعلى ما يكون أيجوز أو لا؟ **الجواب**: يجوز لأن هذا أكمل.

الفائدة الثانية عشرة: وجوب الإنفاق على الأهل، لقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ يعني: كأن هذا أمر مقرر أن الرجل يطعم أهله، وهذا لا شك فيه أنه يجب على الرجل أن ينفق على أهله، قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

الفائدة الثالثة عشرة والرابعة عشرة: أن الكسوة مطلقة أيضاً كالإطعام، فما سمي كسوة حصل به الإجزاء، وهذا يختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأماكن والأمم.

لكن هل يمكن أن نقول: إن الآية أيضاً مناسبة بين الكسوتين الباطنة والظاهرة؛ لأن في الإطعام كسوة الباطن، وفي الكسوة كسوة الظاهر، يمكن أن نقول هذا؛ لأن الله تعالى قال لآدم عليه السلام: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ [طه: ١١٨]، الجوع وخلو المعدة، عري الباطن والعري: عري الظاهر، ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: ١١٩]، الظمأ: حرارة الباطن، ولا تضحى حرارة الظاهر، وقد يتبادر إلى

الأذهان الضعيفة أن يكون المعنى: أن لا تجوع فيها ولا تظمأ، ولا تعرى ولا تضحى؛ لأن العري يكشف البدن للشمس، والكسوة تستره، لكن البلاغة العظيمة فيما جاء في القرآن.

الفائدة الخامسة عشرة: أنه لا بد من إطعام هذا العدد وكسوتهم، أي: العشرة، فلو كرر الطعام على واحد عشرة أيام، لم يجزيء؛ لأن الله نص على العدد فيجب اتباع ما نص الله عليه، هذا وقد قال العلماء رحمهم الله: إنه قد يعين المدفوع إليه أو المعطى دون المدفوع كما في هذه الآية، المطعمون عشرة، والإطعام غير مقيد لا يقال: صاع ولا مد، هذا أولاً.

الثاني: قد يقيد المعطى، يعني: المدفوع، دون المدفوع إليه، كما في زكاة الفطر من رمضان، فإن المدفوع مقيد وهو صاع من طعام، والمدفوع إليه لم يقيد، ولهذا يجوز أن تعطي الصاع من الفطرة لعدة فقراء، ويجوز أن تعطي فطراً لواحد.

الثالث: أن يقدر المعطى والمدفوع إليه، أي: المدفوع والمدفوع إليه كما في فدية الأذى، فإن النبي ﷺ قال لكعب بن عجرة رضي الله عنه: «**تطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع**»[1] فقيد المعطى يعني المدفوع والمدفوع إليه.

الفائدة السادسة عشرة: أن كفارة اليمين لا تعطى للمؤلفة قلوبهم، ولا تعطى للغارمين وإنما هي: إطعام المساكين، كما

---

(١) رواه البخاري أبواب الإحصار وجزاء الصيد، باب الإطعام في الفدية نصف صاع، حديث رقم (١٧٢١)، ومسلم، كتاب الحج، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى ووجوب الفدية لحلقه، حديث رقم (١٢٠١) عن كعب بن عجرة.

نقول ذلك أيضاً في زكاة الفطر فإنها لا تدفع إلا للفقراء فقط.

الفائدة السابعة عشرة: تمام عدل الله عزّ وجل في إيجاد الأوسط؛ لأنه لو أوجب الأكمل والأعلى لكان في هذا ضرر على الحالف، ولو أوجب الأدنى لكان فيه ضرر على المعطى أي: المدفوع إليه.

الفائدة الثامنة عشرة: أن الكسوة مطلقة لم تخصص بشيء معين ولا بعدد معين، يعني: لا يعطى ثوبين أو ثلاثة أو عشرة، فما يحصل به هذا المسمى وهو الكسوة يحصل به براءة الذمة.

الفائدة التاسعة عشرة: الإشارة إلى أن الحنث باليمين أمره عظيم، ولهذا لا يكفره إلا عتق الرقبة، التي يحصل بها عتق المعتق من النار، لكن الله تعالى لحلمه ورحمته خفف عن العباد، دليل ذلك قوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

الفائدة العشرون: أن تقدير العبادات كمِّيةً ونوعاً وكيفيّةً موكول إلى الشرع، ولذلك لا يتقابل أو لا يتساوى إطعام عشرة مساكين مع صيام ثلاثة أيام، لو نظرنا إلى كفارة الظهار لكان الواجب صيام شهرين متتابعين، فإن لم يجد فإطعام ستين مسكيناً، فجاء إطعام كل فقير يقابل صيام يوم، لكن هنا يختلف الوضع، ولعل السبب والله أعلم أنه في كفارة الظهار الإطعام بدلٌ عن الصيام، فمن لم يستطع الصيام أطعم، وإذا كان بدلاً عن الصيام، فالحكم أن صوم كل يوم يطعم عنه مسكيناً كما في العاجز عن الصيام عجزاً لا يرجى زواله، فإنه يطعم عن كل يوم مسكيناً، أما في كفارة اليمين وفدية الأذى فليس الأمر كذلك؛ لأن الأمر فيهما على التخيير، فكل من خصال الكفارة نوع مستقل بنفسه،

فالإطعام في كفارة الظهار بدل عن الصوم شهرين، والغالب أن تكون ستين يوماً، فكان بدلها إطعام ستين مسكيناً، كما نقول في رمضان: إذا عجز الإنسان عن الصيام عجزاً مستمراً فإنه يطعم عن كل يومٍ مسكيناً؛ لأن الإطعام بدلٌ عن الصيام في كفارة اليمين، إطعام عشرة أو صيام ثلاثة أيام، لكن كل واحد مستقل بنفسه، فلما كان كل واحد مستقل بنفسه صار كل واحد مختص بوصف يناسبه حسب حكمة الله عزّ وجل.

ففدية الأذى إطعام ستة مساكين أو صيام ثلاثة أيام؛ لأن صيام ثلاثة أيام ليس بدلاً عن إطعام ستة مساكين، وإطعام ستة مساكين ليس بدلاً عن الصيام، إذ إن الإنسان مخير بين هذا وهذا، فكل واحد منهما مستقل بنفسه، يعني قسم مستقل بنفسه. هذا ما ظهر لنا والله أعلم بما شرع.

الفائدة الحادية والعشرون: دفع توهم العوام من أن كفارة اليمين صيام ثلاثة أيام؛ ولهذا تجد بعضهم يقول: أنا لن أصوم ثلاثة أيام، فيمنعه صيام ثلاثة الأيام من الحنث فيقال: الأصل أن الواجب إطعام عشرة مساكين.

لو قال قائل: هل يجوز أن نلزم الغني بصيام ثلاثة أيام لأنها أشق عليه من إطعام عشرة مساكين؟

الجواب: لا يجوز هذا، ولذلك غلط بعض العلماء الذين أوجبوا على أحد الملوك في كفارة الظهار أن يصوم شهرين متتابعين وقالوا: إن هذا أشق عليه من أن يعتق رقبة؛ لأنه سلطان وأمير يستطيع أن يعتق عشر رقاب، لكن صيام شهرين متتابعين أشق عليه، فيقال: هذا غلط؛ لأن هذا مخالف للنص،

والله سبحانه وتعالىٰ يحب أن يعتق العبيد، فليتبع ما فرضه الله عزّ وجل.

الفائدة الثانية والعشرون: أن المشروع احترام اليمين وحفظها وهو كذلك، ولكن جاءت السنة بالتفصيل، فقال النبي ﷺ: «**إني والله لا أحلف على يمينٍ فأرى غيرها خيراً منها، إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير**»(١).

وعلى هذا فنقول: الحنث في اليمين ينقسم إلى أقسام: تارة يجب الحنث، وتارة يحرم الحنث، وتارة يسن، وتارة يكره، فإذا حلف الإنسان على أن لا يصلي مع الجماعة، فالحنث واجب، يعني: يجب أن يصلي ويكفر، وإذا حلف شقي أن يشرب الخمر، فالحنث واجب ونقول: يجب عليك أن لا تشرب، وتكفر عن يمينك، لكن الفرق بينه وبين الأول، أن ذلك في ترك الواجب وهذا في فعل المحرم.

وإذا حلف أن لا يزور قريبه، وصلة الرحم واجبة، فما حكم الحنث؟ الحنث واجب، فيجب أن يزور قريبه وأن يكفر عن يمينه، وإذا حلف على فعل محرم فالحنث واجب، مثاله كما تقدم: حلف أن يشرب الخمر، نقول: الحنث واجب، يعني لا تشرب الخمر وكفر، وإن حلف أن لا يشرب الخمر، فالحنث حرام؛ لأنه لو شرب الخمر لكان فَعَلَ محرماً، لو حلف شخص أن لا يأكل بصلاً فالحنث مكروه؛ لأن أكل البصل مكروه لمن

---

(١) رواه البخاري أول كتاب الأيمان والنذور، حديث رقم (٦٢٤٩)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب نذر من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها أن يأتي الذي هو خير، حديث رقم (١٦٤٩) عن أبي موسى الأشعري.

أراد أن يصلي، وإذا حلف أن لا يصلي راتبة الفجر، فالحنث مستحب، نقول: صلِّ وكفر.

فالقاعدة إذاً: أنه يسن الحنث في اليمين إذا كان خيراً كما قال النبي ﷺ، وقد يجب الحنث وقد يحرم، والأصل أن الحنث جائز، ولكن عدم الحنث أولى لقوله: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾.

الفائدة الثالثة والعشرون: أن الله سبحانه وتعالىٰ بَيَّنَ لعباده من آياته كل ما يحتاجون إليه، لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

الفائدة الرابعة والعشرون: أنه يجب علينا شكر الله تعالى على بيان الآيات، لقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

الفائدة الخامسة والعشرون: محبة الله تعالى للشكر حيث بَيَّنَ الآيات من أجل الشكر.

الفائدة السادسة والعشرون: أن العلم من نعم الله التي يجب علينا شكرها؛ لأن بيان الآيات به يعلم الإنسان آيات الله، فإذا كان الله يبينها لنشكره عليها دل ذلك على أن العلم بالشريعة وبآيات الله نعمة يجب على الإنسان أن يشكرها، لقول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

الفائدة السابعة والعشرون: تعليل أحكام الله عزّ وجل، وأنها مقرونة بالحكمة؛ لأن قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ للتعليل، والتعليل يفيد الحكمة، فجميع أفعال الله وأحكام الله كلها لحكمة، لكن منها ما يعلم ومنها ما لا يعلم.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠ ـ ٩١].

هذه الآية جمعت بين خبر وطلب، الخبر قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ والطلب قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ في هذه الآية يبدأ الله تعالى الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وقد تكرر مثل هذا الخطاب، وبَيَّنَّا أنه إذا بدء الكلام بالخطاب فإن ذلك يدل على أهميته والعناية به.

ثم بدؤه بهذا الوصف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يدل على أن العمل به تصديقاً أو امتثالاً من مقتضيات الإيمان، كذلك أيضاً: يدل على أن مخالفته أو الشك فيه أو تكذيبه منافٍ للإيمان إما لأصله أو لكماله، وثالثاً: أن في هذا إغراءً للمخاطب، كأنه يقول: إن كنت مؤمناً فاستمع وامتثل.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أطلق الله عزّ وجل الإيمان ولم يذكر ما يؤمَن به؛ لأن ذلك معلوم، وقد سأل جبريل النبي ﷺ عنه، أي: عن الإيمان، فقال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**»[1].

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ﴾ «إنما» أداة حصر، والحصر: إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه، هذا هو الأصل، وقد يراد به تحقيق الحكم في المذكور، ولا يلزم أن ينفى عما سواه، كما سيتبين إن شاء الله في التفسير.

---

(١) تقدم في (١/ ١٥٢).

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ﴾ الخمر قال فيه النبي عليه الصلاة والسلام: «**إنه المسكر**»[1] كل ما أسكر فهو خمر، ولا نقول: كل ما أذهب العقل فهو خمر، أو كل ما أذهب الإحساس فهو خمر، بل نقول: الخمر ما غطى العقل على وجه اللذة والطرب؛ لأن الذين يشربون الخمر يجدون راحة ونشوة وطرباً، فالخمر له أصل في المعاني الحسية، ومنه الخمار تغطي به المرأة رأسها.

وعلى هذا فالبنج ليس بخمر، وإن كان يفقد الإحساس لكنه لا يجد الإنسان فيه النشوة والطرب، ومع ذلك لا يستعمل البنج إلا للحاجة والضرورة.

وقوله: ﴿وَٱلْمَيْسِرُ﴾ الميسر هو أخذ المال على وجه المغالبة، ويسمى قماراً، وسمي ميسراً: لتيسر الحصول عليه، مثاله: المراهنة والقمار مثل أن يقول: سنعمل عملاً سوياً ونجعل العوض مثلاً: عشرة آلاف ريال، فمن غلب أخذ العشرة، ومن غُلب أُخذت منه العشرة، إذاً: المسألة الآن غرر وجهالة، فيسمى هذا ميسراً لما فيه من المغامرة والغرر والمخاطرة، ولهذا قد يربح الواحد في المجلس الواحد مئات الآلاف، وقد كان هذا معروفاً عند العرب، وكذلك في أول الإسلام، ولكنه والحمد لله حُرِّمَ.

وقوله: ﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾ الأنصاب: هي ما ينصب ليعبد من دون الله.

وقوله: ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ الأزلام: هي ما يستقسم به، أي: يطلب به الإنسان ما قسم له، وقد كانوا يستعملون هذا في الجاهلية

---

(١) رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر..، حديث رقم (٢٠٠٣) عن ابن عمر.

فيضعون أقداحاً فيها: افعل ولا تفعل، والقدح الثالث ليس فيه شيء، ثم يخلطونها جميعاً ويقول القائل: خذ منها بدون أن تعلم، تجعل في كيس أو نحوه ثم يقال: أدخل يدك وأخرج قدحاً، إن خرج افعل فعل، وإن خرج لا تفعل لم يفعل، وإن خرج المهمل أعاد مرة أخرى، هذا العمل كان يستعملونه في الجاهلية، وهو مبني على أوهام لا حقيقة لها، ولذلك حرمه الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الرجس النجس، لكن يكون الرجس نجساً حسياً ويكون معنوياً، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقال: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]، وهنا الرجس معنوي، وقد يكون حسياً أي: نجس نجاسة حسية، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. هذه الآية من أي الرجسين: الحسي أم المعنوي؟ الصواب: أنها من الرجس المعنوي؛ لأنه وصف بقوله: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فقوله: ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ صفة لرجس وليست خبراً ثانياً؛ لأننا إذا جعلناها خبراً ثانياً، صار المعنى: أن هذه الأربعة: الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس وأنها من عمل الشيطان، وإذا جعلناها وصفاً لرجس صار المعنى أنه رجس عملي وليس رجساً حسياً، وهذا هو الصواب.

وقوله: ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يعني أن هذا العمل من عمل الشيطان إضافة إلى الشيطان؛ لأنه أوحى به وأمر به الإنسان،

والشيطان قيل: إنه مشتق من شَطَنَ إذا بعُد، أي: لبعده عن رحمة الله عزّ وجل؛ لأن الله طرده وأبعده عن رحمته، وقيل: إنه من شاط، أي: غضب، والغضب دائماً يكون التصرف فيه أهوج، والأول أصح، والدليل على هذا أنه مصروف، ولو كان من شاط لكان فيه زيادة الألف والنون فيكون غير مصروف.

وقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ أي: ابتعدوا عنه، كونوا في جانب وهو في جانب.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ «لعل»: للتعليل، أي: لأجل أن تصلوا إلى الفلاح، والفلاح: هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، فهو يجمع أمرين: الفوز بالمطلوب، أي: حصول مطلوب الإنسان أي: ما يطلبه، والنجاة من المرهوب، وهو كثير في القرآن.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾.

«إِنَّمَا» الجملة فيها حصر أداته «إنما» أي: ما يريد الشيطان إلا ذلك أن يوقع بينكم العداوة... إلى آخره.

وقوله: ﴿يُرِيدُ﴾ هنا بمعنى يحب، وإذا أحب سيفعل، ﴿أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ﴾ يعني: أيها المؤمنون.

قوله: ﴿ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ العداوة: ضد الولاية، والبغضاء ضد المحبة، ففي البغضاء تنفر القلوب، وفي العداوة تنفر الأبدان بعضها من بعض، فيريد أن تتشتت القلوب والأبدان، فلا يتولى أحد الآخر، وأيهما الناتج عن الثاني؟ العداوة ناتجة عن البغضاء؛ لأنهم يبغضون أولاً ثم يعادون ثانياً.

وقوله: ﴿فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ «في» هنا للسببية، وتأتي في للسببية في اللغة العربية في مواضع كثيرة، منها: قول النبي ﷺ: «**عذبت امرأةٌ في هرةٍ حبستها**»[1] أي: دخلت النار بسبب الهرة، وليس المعنى أنها دخلت في جوف الهرة، بل المعنى أنها عذبت بسببها.

وقوله: ﴿فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ وجه ذلك أنه يوقع العداوة والبغضاء، فصاحب الخمر والعياذ بالله إذا شرب صار كالمجنون، وربما يقتل أو يسرق أو يزني، وبذلك تحصل العداوة والبغضاء، وأما الميسر فوجه العداوة والبغضاء أن الميسر أَخْذُ المال فيه على وجه المغالبة، والمال محبوب إلى النفوس، فإذا أخذ هذا الإنسان منك مالاً كثيراً، من أجل أنه غلبك في شيء لا يساوي ولا ربع المال الذي أخذه، فسوف يبقى في قلبك بغضاء وتنتج العداوة.

قوله: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ نعم يريد الشيطان أن يصدنا عن ذكر الله باللسان وعن ذكر الله بالجوارح وعن ذكر الله بالقلب، هذا ما يريده الشيطان منا، فتجد الإنسان إذا هم أن يقوم يصلي يثبطه الشيطان ويسول له، ويأتيه التثاؤب ثم يبقى، وإذا أراد أن يذكر الله أو يقرأ القرآن فكذلك، تجده نشيطاً في شيء من الأشياء، فإذا أمسك بالمصحف ليقرأ أتاه الكسل، فإذا عجز الشيطان أن يصده عن القول والفعل، أتاه من ناحية ثانية وهي

---

(١) رواه البخاري، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، حديث رقم (٢٢٣٦)، ومسلم، كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة، حديث رقم (٢٢٤٢) عن ابن عمر.

الصد بالقلب، أن يصد قلبه عن ذكر الله، وهذه هي الفاجعة العظيمة؛ لأن القلب إذا غفل عن ذكر الله فإنه يضيع على الإنسان أمور دينه ودنياه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، ولهذا يجب على الإنسان أن يلاحظ نفسه في هذه الناحية، هل قلبه يكون حاضراً إذا جلس يقرأ القرآن، وهل إذا ذكر الله يكون قلبه حاضراً، وهل إذا صلى يكون قلبه حاضراً أم هو غافل؟ إذا كان غافل القلب عن ذكر الله باللسان والجوارح فقد فَقَدَ روح العبادة حقيقة.

ولذلك نجد الإنسان إذا غفل في صلاته خرج منها بقلب كما دخل فيها بقلب، يعني بنفس القلب، لا يزداد نوراً ولا إيماناً ولا كراهة للفحشاء والمنكر، وقد أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فلماذا لا يجد الإنسان إذا خرج من الصلاة كراهة للفحشاء والمنكر؟ لأنه إنما صلى صلاة جسد فقط لا صلاة قلب.

وهذه نقطة ـ نسأل الله أن يعيننا ـ عليها، أكثر الناس اليوم مبتلون بها ويسألون دائماً كيف يتخلصون منها؟ لكن الخلاص منها سهل، وهو أن تحاول حضور القلب في الصلاة من أولها إلى آخرها، عوِّد نفسك على هذا، أجبر نفسك على هذا، حتى تجد لذة العبادة.

قوله: ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ خص الصلاة بالذكر معيداً حرف الجر إشارة إلى شرفها وعظمها، يعني أعاد حرف الجر ولم يقل: ويصدكم عن ذكر الله والصلاة بل قال: ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إشارة إلى أهميتها، فالتنصيص عليها وهي من ذكر الله دليل على شرفها،

وإعادة العامل وهي معطوفة دليل آخر على شرفها وأنها جديرة بأن تكون قسماً مستقلاً برأسها.

قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ الاستفهام هنا بمعنى الإغراء لكن بأي شيء؟ بالانتهاء، فهو أبلغ من قوله: فانتهوا، يعني فهل بعد هذا البيان والإيضاح هل تنتهون؟

الجواب: نعم ننتهي، ولهذا قال عمر رضي الله عنه حين نزلت الآية: انتهينا، انتهينا[1].

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: أهمية الحكم وهو اجتناب الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، ووجه ذلك: تصدير الآية بالنداء.

الفائدة الثانية: أن اجتناب هذه الأشياء الأربعة من مقتضيات الإيمان، وأن الوقوع فيها من نواقص الإيمان.

الفائدة الثالثة: تحريم الخمر من أي شيء كان، سواء من العنب أو من الرطب، أو من الشعير، أو من البر، أو من أي شيء، لعموم الآية، والقول بأنه لا يحرم إلا خمر العنب قول ضعيف؛ لأن الآية مطلقة بل هي عامة؛ إذ فيها «أل» الداخلة على المفرد، وقد بيَّن الرسول عليه الصلاة والسلام أن الخمر كل مسكر[2].

---

(١) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، حديث رقم (٣٠٤٩)، والنسائي، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]، حديث رقم (٥٥٤٠)، وأحمد (١/ ٥٣) (٣٧٨) عن عمر.

(٢) رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام (٢٠٠٣) عن ابن عمر.

الفائدة الرابعة: أن الخمر قليله وكثيره حرام للعموم، ولكن إذا كان الشراب لو أقللت منه لم يحصل الإسكار ولو أكثرت لحصل الإسكار، فهل يحرم؟

الجواب: نعم يحرم لقول النبي ﷺ: «**ما أسكر كثيره فقليله حرام**»[1]، ولأن تناول اليسير الذي لا يسكر ذريعة إلى تناول الكثير الذي يسكر، فإن الإنسان إذا شرب هذا الشراب اللذيذ وهو لا يسكره فإن ذلك يتعدى إلى أن يزداد منه فيسكر.

وهل إذا كان هذا الشراب يَسْكرُ مَن شَرِبَهُ ولا يسكر من أدمن عليه كما يوجد الآن في الذين يدمنون على الخمر ـ نسأل الله العافية ـ لا يسكرهم، فهل يحرم عليهم أو لا يحرم؟ يحرم؛ لأنه إذا كان اليسير الذي لا يسكر يحرم فهذا مثله وعدم الإسكار في هذا باعتبار الشخص المعين، لا باعتبار قوة هذا الشراب، فإن هذا الشراب فيه القوة المسكرة لا شك، فيكون حراماً على من أسكره وعلى من لم يسكره.

الفائدة الخامسة: جواز النبيذ إذا لم يصل إلى حد الإسكار، والنبيذ: هو الماء ينبذ فيه العنب أو الرطب لمدة يوم أو يومين فيكتسب الماء طعم هذا الذي نبذ فيه دون أن يسكر، فهل هو حلال أو حرام؟

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأشربة، باب النهي عن المسكر، حديث رقم (٣٦٨١)، والترمذي، كتاب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام، حديث رقم (١٨٦٥)، وابن ماجه، كتاب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام، حديث رقم (٣٣٩٣)، وأحمد (٣/ ٣٤٣) (١٤٧٤٤) عن جابر بن عبد الله.

الجواب: حلال؛ لأن المحرم الخمر، وهذا لا يسكر، لكن لو طالت مدته بأن زاد على ثلاثة أيام فما دام لم يسكر فإنه حلال، لكن ينبغي إذا أتى عليه ثلاثة أيام ولا سيما في أيام الحر والمناطق الحارة أن لا يشربه؛ لأن الإسكار فيه قد يكون خفياً، ولكن علامة المسكر أن الشراب يرتفع؛ ويكون فيه الزبد، والزبد يرفع من مستواه.

والخلاصة أن النبيذ حلال؛ لأنه لا يسكر، لكن إذا كان في زمن أو مكان يغلب على الظن أنه وصل إلى حد الإسكار فالورع اتقاؤه ويعطى الحيوان أو ما أشبه ذلك.

الفائدة السادسة: تحريم الميسر قليله وكثيره للعموم، ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ حتى لو كانت المغالبة بقرش واحد، ولو يسيراً؛ لأننا نقول: قليل الميسر الذي يجحف بمال الإنسان ولا يهتم به كقليل الخمر الذي إذا كان قليلاً لم يسكر وإذا كان كثيراً أسكر، ولا شك أن المغالبة إذا كانت في شيء يسير تجر إلى المغالبة في شيء كثير، ويستثنى من ذلك ما مصلحته أعلى من مفسدته، وذلك في ثلاثة أشياء بَيَّنَها النبي ﷺ فقال: «**لا سبق إلا في نصل أو خف أو حافر**»[1] السَبَق بفتح الباء هو: العوض المأخوذ على السبق، والنصل: السهام، والخف: البعير، والحافر: الفرس،

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في السبق، حديث رقم (٢٥٧٤)، والترمذي، كتاب الجهاد، باب الرهان والسبق، حديث رقم (١٧٠٠)، والنسائي، كتاب الخيل، باب السبق، حديث رقم (٣٥٨٥)، وابن ماجه، كتاب الجهاد، باب السبق والرهان، حديث رقم (٢٨٧٨)، وأحمد (٢/ ٤٧٤) (١٠١٤٢) عن أبي هريرة.

قال أهل العلم: إنما استثنى النبي ﷺ ذلك؛ لأن بها يقوم الجهاد في سبيل الله الذي به إعلاء كلمة الله، وهذه مصلحة عظيمة، فالناس إذا علموا أنهم إذا تسابقوا في هذه الأشياء رُخص لهم في أخذ العوض عليها سوف يكثرون المسابقة، سَيُحَصِّلون عليها شيئاً.

فإن قال قائل: لو أن الناس عدلوا عن هذه الثلاث في الجهاد إلى وسائل أخرى فهل يبقى الحكم فيها أو ينتقل إلى الوسائل الأخرى؟

الجواب: تعارض هنا اللفظ والمعنى، فمن كان لفظياً قال: يبقى الحكم فيها وإن لم تستعمل في الحرب، ومن نظر إلى المعنى قال: إنها إذا كانت لا تستعمل في الحرب فلا فرق بينها وبين الأشياء الأخرى، وهذا هو الأقرب، إلا إن هذا يعكر عليه:

أولاً: أن الرسول ﷺ أخبر أنه في آخر الزمان تبطل وسائل الحرب، ويعود الناس إلى السهام.

ثانياً: أن الرسول ﷺ أخبر: «**أن الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**»[1].

ثالثاً: أنه ربما تسقط منفعة هذه الأشياء في مكان دون مكان، ففي المغارات والجبال لا ينفع فيها إلا الخيل.

فعلى كل حال: نحن نريد أن نحرر المسألة من الناحية الفقهية، نقول: إذا ثبت الحكم لعلة فإنه يزول بزوالها، فإذا قدرنا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، حديث رقم (٢٦٩٥)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، حديث رقم (١٨٧٣) عن عروة بن الجعد البارقي.

أن الناس لا يستعملون هذه الأشياء الثلاثة في الحرب فقد انتفت العلة فينتفي الحكم وتكون المغالبة فيها كالمغالبة في غيرها، فهي إذا بطلت لا بد أن ينتقل الناس إلى شيء آخر فهل تجوز المسابقة بعوض في هذا الشيء الآخر الذي حل محل هذه المذكورات؟

الجواب: نعم لا شك في هذا، وعليه فالوسائل الحديثة في الحرب تجوز فيها المغالبة بالعوض؛ لأنها قائمة مقام هذه الأشياء الثلاثة، يشبه هذا من بعض الوجوه أن زكاة الفطر جاء فيها ذكر التمر بعد الشعير والزبيب والأقط، وقد أخبر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن هذا هو طعامهم في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام فقال: كنا نخرجها على عهد النبي ﷺ صاعاً من طعام، وكان طعامنا يومئذٍ التمر والشعير والزبيب والأقط[1]، لو أن الناس عدلوا عن الشعير وصاروا لا يقتاتونه، فهل يبطل الحكم فيه أو لا يبطل؟

نقول: من كان لفظياً قال: لا يبطل؛ لأنه نص عليه في الحديث، ومن كان معنوياً قال: إنه يبطل، والصحيح أنه يبطل، وأنه إذا صار الشعير غير قوت فلا يجزئ في الفطرة؛ لأن السنة واضحة في هذا، واضحة في أنه لا بد أن يكون طعاماً، مثل قوله في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**فرض النبي ﷺ زكاة الفطر طهرةً للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين**»[2] فلينتبه

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل العيد، حديث رقم (١٤٣٩) عن أبي سعيد الخدري.

(٢) رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر، حديث رقم (١٦٠٩)، وابن ماجه، كتاب الزكاة، باب صدقة الفطر، حديث رقم (١٨٢٧)، والحاكم (١/٥٦٨) (١٤٨٨)، والدارقطني (٢/١٣٨) (١) عن ابن عباس.

لهذا، فالآن لدينا مثالان، الفطرة والمسابقة في الثلاثة.

أما المسابقة في العلم: فنحن نعلم أن الدين الإسلامي قام بالجهاد باللسان والسنان، فهل تجوز المغالبة في العلم الشرعي بعوض أو لا تجوز؟

المشهور من المذهب أنها لا تجوز، وقالوا: إن النبي ﷺ حصر «**لا سبق إلا في**»[1] وهذا حصر، والذين يذهبون إلى اعتبار المعاني، يقولون: تجوز المناضلة والمغالبة في العلوم الشرعية، واستدلوا بقصة أبي بكر رضي الله عنه مع قريش في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم: ١ ـ ٤]، والذي غلب الرومَ، الفرسُ، والفرس قوم مشركون، ويميل إلى جانبهم المشركون من قريش، والروم أهل كتاب، ويميل إليهم المؤمنون، ويفرحون بانتصارهم على الفرس مع أنهم كفار، لكنهم أقرب إلى المؤمنين من الفرس في ذلك الزمن؛ لقوة الفرس في ذلك الوقت، قال المشركون: لا يمكن أن يغلب الروم الفرس، وقال أبو بكر رضي الله عنه: بل يمكن، فأبو بكر يصدق بالقرآن وأخباره، وهم لا يصدقون، فضربوا أجلاً عشر سنين، إن غلبت الفرس في هذه العشر فالسبق على أبي بكر، وإن غلبت الروم فالسبق على قريش، فأقر النبي ﷺ هذه المغالبة؛ لأنها علم شرعي تصديق بالقرآن وعدم تصديق.

واختار هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بأن المغالبة في العلم بالسبق جائزة، لكن لينتبه لنقطة في هذه المسألة: إذا

---

(١) تقدم ص٣٣٥.

كانت المغالبة لقصد الوصول إلى الحكم الشرعي، أما إذا كانت المغالبة من أجل أن يكتسب مالاً من أخيه فلا تجوز؛ لأن هؤلاء لم يريدوا الدين إنما أرادوا المال وأرادوا الدنيا، بعض الناس استغل هذا القول على إطلاقه، وقال: ما دام المسألة مسألة علم نريد أن نتراهن، ولكن لا بد من التقييد: بأن يكون القصد بالمغالبة الوصول إلى الحق، لا الوصول إلى المال.

لو قال قائل: العلوم غير الشرعية، كعلم النحو مثلاً هل تجوز المغالبة فيه؟ الظاهر: لا؛ لأن النحو وإن قلنا إنه شرعي فإنما يكون شرعياً إذا كان المقصود به الوصول إلى معرفة الكتاب والسنة، ولهذا نقول: علوم العربية وسيلة ليست مقصودة لذاتها.

لو قال قائل: هل الفيزياء والكيمياء والجغرافيا والأشياء هذه، تجوز المغالبة فيها؟ لا تجوز المغالبة فيها.

الفائدة السابعة: تحريم الأصنام، لقوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ وهل يعم هذا كل ما اتخذ صنماً من أي مادةٍ كان؟

الجواب: نعم يعم؛ لأن الآية مطلقة، وقد أبدل الله تبارك وتعالى عبادة الأصنام بعبادة الرحمٰن؛ لأن الإنسان بطبيعته لا بد له من شيء يأوي إليه في طلب ما ينفعه ودفع ما يضره، فأبدل الله تعالى التعلق بالأصنام بالتعلق بالله عزّ وجل.

الفائدة الثامنة: تحريم الاستقسام بالأزلام، وهو صريح، ومثل ذلك ما يسمونه بحظك ونصيبك، فهي إن لم تدخل في هذا تدخل في الميسر، فهي محرمة.

وهل مثل ذلك أن يستقسم بالنجوم، فيقال: مثلاً: هذا

الرجل ولد في سعد السعود فحياته سعيدة، وهذا ولد في نجم الدبران، فحياته تعيسة دبور، وما أشبه ذلك؟

الجواب: نعم يدخل في هذا، بل هو نوع من الشرك؛ لأن إثبات سبب لم يجعله الله سبباً شرعياً ولا قدرياً من الشرك، وقد أبدل الله ـ والحمد لله ـ هذه الأزلام بصلاة الاستخارة، فإذا أشكل عليك أمر من الأمور تريد أن تفعله أَخَيْرٌ هو لك أم شر؟ فعليك بالاستخارة: تصلي ركعتين من غير الفريضة ثم إذا سلمت، تدعو الله تعالى بالدعاء المعروف: «**اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك... إلى آخره**»[1].

لو قال قائل: ما حكم المراهنة من طرف واحد في أمور ليست شرعية، كأن يقول مثلاً: أراهنك إن جاء فلان الليلة لك مائة ريال؟

الجواب: هذه ليست مراهنة، هذه إما جُعْل أو تشجيع إذا كان فيها خير، مثل أن أقول: إن عرفت كذا فلك كذا وكذا، أو إن جاء فلان أعشيكم الليلة، وفي الحقيقة الناس ارتكبوا مثل هذا، وارتكبوا أيضاً شيئاً آخر وهو أنهم يتلاعبون بالمال؛ لأن الله منعم عليهم، لو تريد أن تنادي واحداً اسمه محمد فتقول: يا عبد الله نسياناً قالوا: عليك حق، ولو تعطيه الفنجان ليس ممتلئاً، قالوا: لماذا لم تملأه يا أخي عليك حق؟ هذا في الحقيقة عندي من باب الترف والميوعة، وأنه في الحقيقة تلاعب بالمال، ولهذا نستفتى في هذه المسألة ونقول: لا يلزمك أن تلتزم بما قال، قل: لن أعطيك، وأما التحريم فصعب.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، حديث رقم (٦١٠٩) عن جابر بن عبد الله.

الفائدة التاسعة: التحذير البالغ من هذه الأعمال الأربعة، لقوله: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فإن هذا يقتضي التنفير التام؛ بوصفها رجساً ثم بوصف هذا الرجس من عمل الشيطان.

الفائدة العاشرة: وجوب اجتناب الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، لقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾.

الفائدة الحادية عشرة: أن اجتناب هذه الأشياء الأربعة سببٌ للفلاح، وكل إنسان منا يريد الفلاح؛ فليأتِ أسبابه، وجه ذلك قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الفائدة الثانية عشرة: إثبات تعليل الأحكام الشرعية، يعني: أن الأحكام الشرعية لها غايات حميدة وهي الحكمة لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، ولقوله أيضاً: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾.

الفائدة الثالثة عشرة: أن طريقة القرآن الكريم في بيان العلل، تارة يتقدم بيان العلة وتارة يتأخر، يعني: إذا ذكر الله حكماً وذكر له علة، فتارةً يذكر العلة قبلُ ثم يبني عليها الحكم، وتارةً يذكر الحكم ثم يأتي بالعلة، حسب ما تقتضيه الحال وقرائن السياق، فهنا ذكر العلة قبل الحكم، ما هي العلة؟ العلة: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، هل قدم العلة أو الحكم؟ قدم العلة، فقال: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ﴾، وفائدة تقديم العلة: هو أن الحكم يأتي إلى النفس وقد اطمأنت إلى الحكم وترقبت إلى الحكم؛ لأن من المعلوم أن العاقل إذا ذكرت له العلة فسوف يعمل بمقتضى هذه العلة، فقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟﴾ بمجرد ما يسمع الإنسان ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾

سوف يأتي إليه الحكم ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وهو قد ترقبه، فقوله: ﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ أيضاً مثله، فمن حين أن تأتي العلة رجس من عمل الشيطان، يكون الإنسان مترقباً لحكم النهي، وتارة تكون العلة بعد الحكم، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وذلك لأن الميتة والدم ولحم الخنزير تنفر منه الطباع، فقدم الحكم لأن النفوس السليمة تترقب هذا الحكم وربما تتجنبه بدون حكم شرعي، ثم تأتي العلة مطابقةً لما تقتضيه الفطرة.

الفائدة الرابعة عشرة: أن أعمال الشيطان التي يأمر بها رجس لقوله: ﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، ثم هل نقول: إن في الآية دليلاً على نجاسة الخمر؛ لأن الرجس هو النجس كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾؟

الجواب: نعم بعض العلماء استدل بهذه الآية على نجاسة الخمر، ولكن عند التأمل في الآية الكريمة لا تجد دليلاً فيها على نجاسة الخمر من وجهين:

الوجه الأول: أنه قال: ﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ﴾ فهو رجس عملي، والرجس العملي هو الرجس المعنوي كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

الوجه الثاني: أن الميسر والأنصاب والأزلام ليست رجساً حسياً، والخبر عن هذه الأربعة واحد، (الخمر) مبتدأ وعطف عليه الثلاثة ثم جاء الخبر رجس، فأين الدليل على أن هذه الأشياء

الأربعة مختلفة في الحكم؟ فيقال: في الثلاثة رجسٌ عملي، ويقال في الأول: رجس حسي، أين الدليل؟ يحتاج إلى دليل.

فإن قال قائل: دلالة الاقتران ضعيفة ولا يعمل بها؟

الجواب: أن الأصل في الاقتران أن يكون الحكم واحداً في الجميع إلا بدليل، مثال ذلك: قال أبو حنيفة: إن الخيل حرام، الخيل معروفة لقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]، فقرنها بالبغال والحمير فتكون حراماً، ولا شك أن الصواب معه؛ لأن الأصل في الاقتران التوافق في الحكم، لكن الخيل لها دليل يخرجها، وهو ما رواه البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «**نحرنا في المدينة على عهد النبي ﷺ فرساً وأكلناها**»[1]، وهذا يخرج الخيل عن حكم البغال والحمير.

وأكل الخيل عند الناس الآن غير معروف، والعامة يقولون في الخيل: يحرم صدرها ويحل دبرها، يعني مستقبل جسم الفرس حرام؛ لأنه يلقى به العدو، وأما مؤخره فهو حلال؛ لأن المؤخر يكون عند الإدبار، فلنتركه يؤكل.

الحاصل أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها تحدثت بهذا استدلالاً على حل الخيل، فلولا أن عندها علم بأن الخيل أكلت بعد خيبر وهو زمن تحريم الحُمُر ما ذكرته على وجه الاستدلال.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب النحر والذبح، حديث رقم (٥١٩١)، ومسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب في أكل لحوم الخيل، حديث رقم (١٩٤٢) عن أسماء بنت أبي بكر.

وأيضاً في الآية الكريمة ﴿ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ ليس عندنا دليل يخرج الخمر عن حكم ما قرن معها، وهو الميسر والأنصاب والأزلام، وعلى هذا فلا دلالة في الآية على نجاسة الخمر نجاسة حسية.

فإن قال قائل: وهل في السنة ما يدل على ذلك؟

الجواب: لا، ليس في السنة ما يدل على هذا، وأما حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله إنا بأرض قوم أهل كتاب أفنأكل في آنيتهم؟ قال: «**لا تأكلوا فيها، إلا ألا تجدوا غيرها فاغسلوها وكلوا فيها**»[1] ما الجواب عن هذا الحديث؟

نقول: هذا الحديث استدل به من يرى نجاسة الخمر نجاسة حسية، ولكن لا دليل فيه في الواقع؛ لأن في هذا الحديث إنما نهاهم الرسول عليه الصلاة والسلام عن الأكل فيها إلا بعد الغسل، وشرط آخر: أن لا نجد غيرها، مراده بلا شك في هذا الابتعاد عن مخالطتهم والأكل في أوانيهم، بدليل أنه لو كانت العلة في النجاسة لكان غسلها يكفي في جواز الأكل فيها، يعني أنه لا يشترط أن لا نجد غيرها، ولكن النبي ﷺ أراد منا أن لا نختلط بأهل الكتاب وأن نبتعد عنهم وأن لا نستعير منهم؛ لئلا يمنوا علينا بذلك، هذا أولاً.

ثانياً: أن نقول: ما هو وجه كون هذا دليلاً على نجاسة

---

(١) رواه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب صيد القوس، حديث رقم (٥١٦١)، ومسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الصيد بالكلاب المعلمة، حديث رقم (١٩٣٠) عن أبي ثعلبة الخشني.

الخمر؟ قالوا: لأن آنيتهم يكون فيها الخمر؛ لأنهم يستحلون الخمر، فنقول: ويكون فيها الخنزير؛ لأنهم يستحلون الخنزير، وما الذي أدرانا أن الرسول عليه الصلاة والسلام راعى الخمر دون الخنزير أو راعى الخنزير دون الخمر أو راعى الأمرين جميعاً؟ والذي يتبين لنا أن العلة في ذلك هي: أن لا نختلط بهم وأن لا نأكل في آنيتهم، إذاً: لا دليل في هذا الحديث.

فإن قال قائل: أليس النبي ﷺ سئل عن الخمر تتخذ خلاً؟ قال: «**لا**»[1] يعني إذا تخمر الشراب فهل يجوز أن نحبسه ليكون خلاً أو أن نضيف إليه مادة تجعله خلاً؟ قال: لا، قلنا: لا دليل على النجاسة، هذا دليل على أنه لا يجوز أن يبقي الخمر عنده بل يريقها، لئلا تدعوه نفسه إلى تناولها، وهو واضح، وليس فيه الإشارة إلى النجاسة بأي حال من الأحوال.

إذاً: من ادعى نجاسة الخمر نجاسة حسية فليأتِ بالدليل، وإلا فلا يمكن أن نلزم عباد الله بغسل الأواني من الخمر أو بغسل الثياب إذا أصابها أو بغسل الأبدان، ولا يمكن أيضاً أن نبطل صلاة عباد الله إذا كان في ثيابهم بقع من الخمر أو في أجسادهم إلا بدليل، فالمسألة ليست مسألة لفظية فقط: نجس أو غير نجس، المسألة يترتب عليها أشياء فلا بد أن يكون عندنا برهان من الله عزّ وجل، يمكننا أن نلزم عباد الله بشيء يقتضيه النص.

إذاً: نقول: الأصل عدم النجاسة، ومطلق التحريم لا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب تحريم تخليل الخمر، حديث رقم (١٩٨٣) عن أنس بن مالك.

يقتضي النجاسة، بدليل: أن السم والمأكولات الضارة حرام وليست نجسة، هذا دليل مأخوذ من القاعدة المعروفة وهي: أن الأصل براءة الذمة، ثم نقول: لدينا دليل إيجابي غير الدليل الأصلي الذي هو النفي أو العدم، دليل إيجابي على أنها طاهرة ـ أي: الخمر ـ وأن نجاستها معنوية، الدليل: الصحابة رضي الله عنهم لما حرمت الخمر خرجوا بها إلى الأسواق وأراقوها، ولو كانت نجسة لم يريقوها في الأسواق؛ لأنه لا يجوز أن نريق في أسواق المسلمين شيئاً نجساً كما لا يجوز البول والغائط.

أجاب القائلون بالنجاسة بناءً على أصلهم وإلا فالأصل عدم النجاسة، لكن قالوا: دِنان الخمر ـ يعني أواني الخمر ـ ليست بكثرة بحيث تسيل منها الطرقات، يعني: لم تبلغ كثرة تسيل منها الطرقات، فنقول: سبحان الله! هل هذه الأواني التي يستعملها الصحابة رضي الله عنهم قبل التحريم أهي أكثر أو نقطة من بول؟ هي أكثر لا شك، وهي أكثر من شيء صغير من العذرة، ونحن لا نقول: إن سكك المدينة صارت أنهاراً تجري منها الخمر، لا نقول بهذا، لو قالوا: ما الذي أدراكم أنهم أراقوها في الأسواق، لعلهم أراقوها في حافات السوق الذي ليس مُطَّرقاً للناس؟ فنقول: هذا خلاف الإطلاق، أراقوها في الأسواق، ولم يقل: أراقوها في جوانب الأسواق، وكون الشيء في الجانب شرط زائد على الإطلاق فيحتاج إلى ثبوت أنهم أراقوها في جوانب الأسواق، ثم هل نُقِلَ عن الصحابة أنهم لما أراقوها غسلوا الأواني؟ لم ينقل ذلك ولو كانت نجسة لغسلوا الأواني ونقلوا هذا للأمة.

دليل آخر: ما ثبت في صحيح مسلم: «أن رجلاً أهدى لرسول الله ﷺ راوية خمر ـ الراوية قربة كبيرة ـ كان يدخرها لرسول الله ﷺ لم يعلم أنها حرمت، فقال له رسول الله ﷺ: «**هل علمت أن الله قد حرمها؟**» قال: لا، ومعلوم أن الإنسان لا يجوز أن يقبل هدية محرمة سواء كانت محرمة لعينها أو لكسبها إذا علم صاحبها الذي أخذت منه، فكلمه أحد الصحابة سرّاً وقال له: بعها، فقال: النبي ﷺ: «**بم ساررته؟**» وإنما استفهم عن المسارة مع أنه لا ينبغي للإنسان أن يسأل رجلين يتساران: ماذا قلتما، لكن المقام يقتضي السؤال، ولعل النبي ﷺ سمع طرف الحديث، فقال: «**بم ساررته؟**» فقال: أمرته ببيعها، فقال: «**إن الذي حرم شربها حرم بيعها**»[1] أو كما قال ﷺ، ففتح الرجل فم الراوية وأراق الخمر بحضرة النبي عليه الصلاة والسلام، ولم يأمره النبي ﷺ بغسلها.

أرأيت لو كان الخمر نجساً أيسكت النبي ﷺ ولا يقول لهذا الرجل: اغسل الراوية؟ لا يسكت أبداً؛ لأن هذا الرجل لا يدري أنها حرمت كيف يدري أنها نجسة؟

فإذاً: يتبين أن الخمر نجاستها نجاسة معنوية، وهذا وإن كان لم يقل به إلا قليل من الأمة فالجماعة مع الدليل، والجمهور على أنه نجس نجاسة حسية، ولكن الأدلة واضحة أن نجاسته نجاسة معنوية، ينبني على هذا، الأشياء التي فيها الكحول الآن السبيرتو وكذلك أيضاً ما يدهن به الجروح وما أشبه ذلك، هل

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم بيع الخمر، حديث رقم (١٥٧٩) عن ابن عباس.

تكون نجسة أو طاهرة؟ طاهرة؛ لأنه إذا كان الأصل الذي هو الخمر طاهراً على ما تبين لنا من القرآن والسنة فكذلك ما كان فيه شيءٌ منه من باب أولى أن يكون طاهراً.

فإن قيل: فهل تبيحون أن يتطيب الإنسان بهذه الأطياب أو يتدهن بهذه الدهونات؟

نقول: أما عند الحاجة فنبيحها، ولا عندنا فيه والحمد لله إشكال، يعني مثل أن يحتاج الجرح إلى مسح بالسبيرتو أو غيره من أجل سهولة بطه بالإبرة، هذا لا شك أنه جائز؛ لأن الحكم المشتبه تبيحه الحاجة ولو كان أصله التحريم، فإن لم يكن محتاجاً وإنما يتطيب به، فهل هذا حرام أو لا؟ ننظر قوله تبارك وتعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾، هل المراد اجتناب شربه المؤدي إلى المفسدة أو الاجتناب مطلقاً؟

نقول: إذا كان الله يقول: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إلى آخره، علمنا أن المراد بالأمر بالاجتناب هو اجتناب الشرب لا شك في هذا، أما اجتناب غير الشرب فهذا محل اشتباه، والورع أن لا يفعل الإنسان إلا لحاجة، أن لا يتدهن بهذه الأشياء إلا لحاجة كالتعقيم للجرح وما أشبه ذلك.

فإن قال قائل: إذا كان في هذه الأطياب نسبة لكنها ضئيلة خمسة في المائة مثلاً، فهل يؤثر؟

الجواب: لا يؤثر إلا ما أثر في المخلوط معها، وأما إذا لم يؤثر فليس بحرام، بدليل: رجل عنده إناء من ماء سقطت فيه نجاسة لكن لم تغيره، ماذا يكون هذا الماء؟ يكون طهوراً؛ لأنه لم يؤثر، فعلى هذا نقول: إذا كانت النسبة ضئيلة حتى في هذه الأطياب فإنه لا شك في أنها مباحة؛ لأن النسبة الضئيلة لا تؤثر.

لو قال قائل: بعض الأشربة يكون فيها نسبة قليلة من الكحول فهل يجوز شربها؟

الجواب: إذا كان قليلاً فيجوز شربها، لكن أنصح السائل إذا شرب أن يقول: باسم الله، وإذا انتهى يقول: الحمد لله.

لو قال قائل: نهي النبي عليه الصلاة والسلام عن التداوي بالخمر[1] ألا يكون تحريم استعمال الخمر في غير التداوي من باب أولى؟

الجواب: المراد التداوي بها شرباً، ولهذا قال العلماء رحمهم الله إنه لا يجوز التداوي بها ولا يجوز أن تشرب الخمر للعطش، وعللوا ذلك بأن الخمر إذا شربها الإنسان للعطش لا تزيده إلا عطشاً، ويرى بعض العلماء أنه يجوز للعطش، ولا يستلزم أنها لا تزيده عطشاً، لكن إذا غص في اللقمة وليس عنده إلا كأس خمر إما أنه يموت وينخنق، أو يشرب الكأس ليبتلع اللقمة، ماذا يصنع؟ يستعملها للضرورة؛ لأن الله قال سبحانه وتعالىٰ في آية عامة: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، هذه أعم من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣] قال تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

الفائدة الخامسة عشرة: رحمة الله تبارك وتعالى بعباده الذين خلقهم لعبادته، حيث حذرهم من كل ما فيه ضرر، وبَيَّنَ لهم النتائج الطيبة، لقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب تحريم التداوي بالخمر، حديث رقم (١٩٨٤) عن طارق بن سويد الحنفي.

الفائدة السادسة عشرة: إثبات الإرادة للشيطان، لقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ولا شك أن له إرادة، أرأيتَ قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وجادل ربه عن إرادة، إذاً: الشيطان له إرادة.

الفائدة السابعة عشرة: سوء إرادة الشيطان ببني آدم، وهو أن يوقع بينهم العداوة والبغضاء التي توجب التفرق.

الفائدة الثامنة عشرة: أن تفرق الأمة من مرادات الشيطان؛ لأن العداوة والبغضاء تؤدي إلى التفرق بلا شك، فيكون كل ما يؤدي إلى الفرقة من مرادات الشيطان.

الفائدة التاسعة عشرة: القاعدة التي أشرنا إليها الآن: أن كل ما يؤدي إلى الفرقة فإنه من مرادات الشيطان، فيدخل في هذا آلاف المسائل، البيع على بيع المسلم يوجب البغضاء والفرقة، الاستئجار على استئجاره، الخطبة على خطبته، وما أشبه ذلك، فكل ما يؤدي إلى الفرقة فإنه من مراد الشيطان.

الفائدة العشرون: كراهة الله تبارك وتعالى للعداوة والبغضاء بين المسلمين؛ لأن قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ﴾ إلى آخره، هذا تحذير ليس بعده تحذير: وهذا واضح؛ لأن الله تعالى أمر بالاجتماع ونهى عن التفرق، فقال جلَّ وعلا: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ

أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

والدليلان الأصليان، بل الأصلان الكتاب والسنة مملوآن بهذا أي: بطلب الاجتماع والنهي عن التفرق، فهل يدخل في ذلك طلبة العلم؟ نعم من باب أولى، لكن مع الأسف أن طلبة العلم إذا اختلفوا في أمر اجتهادي صار بعضهم لبعضٍ عدواً إلا من شاء الله، وصار يتكلم في عرض أخيه بلا حق فيكون ظالماً لنفسه أولاً وظالماً لأخيه ثانياً، وظالماً لعباد الله الذين ينتفعون من أخيه؛ لأنه إذا سقطت هيبته وقيمته في أعينهم، لم ينتفعوا بعلمه، فيكون هذا ظالماً لنفسه وظالماً لأخيه وظالماً لكل من ينتفع بعلم أخيه، ولذلك يجب التنبه لهذا، وأن تعتقد أن من خالفك في أمر اجتهادي فقد وافقك في الحقيقة؛ لأن كليكما يريد الحق، فهو يرى أن الحق في هذا، وأنت ترى الحق في خلافه، مَن مِنْكُما رسول للآخر يجب عليه اتباعه؟ لا أحد، إذاً: فهو محق في اتباع ما ظن أن الدليل يدل عليه، وأنت محق في اتباع ما ظننت أن الدليل يدل عليه، ولتكن القلوب نزيهة.

لو قال قائل: الإنسان قد يجد في قلبه شحناء أو حسد بالنسبة لأخيه فكيف يعالج هذا؟

الجواب: يعالج هذا أن يقول لنفسه: أنتِ تريدين الحق؟ والمسألة ليست نصاً، المسألة اجتهاد، أما لو كانت نصاً لا نقبل أن نعذره، لكن إذا كان اجتهاداً، فالاجتهاد كلنا على اجتهاد.

الفائدة الحادية والعشرون: إثبات الأسباب، وجه ذلك: أن الله تعالى أخبر أن الخمر والميسر سبب للعداوة والبغضاء،

وهذا لا شك فيه ولا أحد ينكره إلا السفيه، كلٌ يعلم أن من غمس في البحر فإنه يغرق، وأن من ألقي في النار فإنه يحترق، لكن أنكر قوم الأسباب وغلا قوم في إثباتها، فأما الذين أنكروا الأسباب فزعموا أنهم بإنكارهم ينزهون الله تعالى عن الشريك فغلوا في التنزيه، وأما الذين أثبتوا الأسباب على أنها الفاعلة فهؤلاء أشركوا مع الله.

أما أهل الحق فقالوا: إن الأسباب لها تأثير ولكن الذي جعل لها تأثيراً هو الله، فتأثير الأسباب ليس بنفسها، ولكن بما أودع الله تعالى فيها من القوى المؤثرة، ويدل لهذا: أنه توجد أسباب موجبة للشيء بإيجاب الله إياه ومع ذلك قد يرتفع هذا الإيجاب، من ذلك: النار محرقة، ولما ألقي فيها إبراهيم قال الله لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فكانت برداً وسلاماً، فانتفى الإحراق وانتفت الحرارة، فصارت برداً وسلاماً، لو كانت الأسباب مؤثرة بنفسها، لاحترق إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كذلك الرجل الذي يقطعه الدجال جزلتين ثم يقول له: قم فيقوم[1]، نحن نعلم أن الدجال لم يكن هو السبب في إحيائه بل ذلك إلى الله عزّ وجل، ولهذا إذا أراد قتله في الثالثة لم يستطع أن يقتله فلا يسلطه الله عليه بعد ذلك.

إذاً نقول: الأسباب لها تأثير ولكن لا بنفسها بل بما أودع الله تعالى فيها من القوى المؤثرة، والأدلة على هذا شرعاً وعقلاً وواقعاً لا تحصى.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، حديث رقم (٢٩٣٧) عن النواس بن سمعان.

الفائدة الثانية والعشرون: أن كل ما صد عن ذكر الله فهو من أوامر الشيطان، وذكر الله تبارك وتعالى يكون بالقلب واللسان والجوارح، فكل ما صدك عن ذكر الله من هذه الأشياء فهو من أوامر الشيطان وإراداته.

الفائدة الثالثة والعشرون: فضيلة الصلاة لتخصيصها بالذكر من بين ذكر الله عزّ وجل، وهذا يدل على شرفها وفضلها على غيرها، كما في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، الروح: هو جبريل وهو من الملائكة، لكن خصه الله تعالى بالذكر لشرفه.

الفائدة الرابعة والعشرون: الحذر من صد الشيطان إيانا عن الصلاة، إما أن نتلهى عنها بأموالنا أو بأولادنا أو بِلَغْوِنَا أو بجدنا، بأي شيء، وإما أن نفعلها بأجسامنا دون قلوبنا، فاحذر أن يصدك الشيطان عن الصلاة.

الفائدة الخامسة والعشرون: أنه كل ما وقع في قلبك من التثاقل عن الصلاة فاعلم أنه من الشيطان ومراد الشيطان.

الفائدة السادسة والعشرون: تأكيد النهي عن الخمر والميسر، لقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وجه التأكيد: أنه أتى بصيغة الاستفهام، يعني: فهل بعد هذا البيان تنتهون أو تستمرون؟ ماذا كان جواب الصحابة؟ انتهينا انتهينا.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة: ٩٢].

قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها هي أن الله تعالى لما أمر بالانتهاء واجتناب الخمر والميسر والأنصاب والأزلام أمر بطاعته عموماً وحذر من مخالفته.

وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فعل أمر من الإطاعة وهي الانقياد، والمراد بالانقياد هنا: فعل الأوامر واجتناب النواهي، وعليه: فإذا قال الإنسان: ما المراد بطاعة الله؟ نقول: فعل أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ الخطاب لا شك أنه لهذه الأمة، وعلى هذا فتكون «أل» في الرسول للعهد الذهني، يعني: أطيعوا الرسول محمداً ﷺ الذي أرسله الله عزّ وجل.

فإن قال قائل: ما هو الدليل على أن الله أرسله؟

نقول: الدليل على أن الله أرسله ما أيده به من المعجزات التي أعظمها القرآن الكريم، ثم ما يشاهد من الآيات الحسية التي لا يقدر بشر أن يأتي بها لا الرسول ولا غيره، آيات واضحة على رسالته، وهي أكثر من أن تحصر، ومن أراد المزيد من ذلك فعليه بمراجعة آخر كتاب الجواب الصحيح لشيخ الإسلام ابن تيمية، فقد عقد فصلاً مفيداً جداً في آيات النبي ﷺ، ومن أراد المزيد أيضاً: فعليه بما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية في آخر سيرة النبي ﷺ، فقد ذكر كثيراً من الآيات في السماء وفي الأرض، في الإنسان وفي الحيوان، ولا حاجة إلى أن نذكر شيئاً كثيراً منها ولكنها موجودة والحمد لله.

وينبغي لنا أن نحرص على معرفة هذه الآيات؛ لأن الإنسان بشر، والشيطان حريص، قد يهاجم القلب ويضعف الإيمان

بالرسول عليه الصلاة والسلام، لكن إذا راجع الآيات ازداد بذلك إيماناً فعلينا بها.

قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟﴾ «احذروا»: أي من معصية الله ورسوله، يعني: احذروا معصية الله ورسوله، ولم يأمرنا الله تعالى بشيء إلا لمصلحتنا ولم ينهنا عن شيء إلا لمضرتنا.

قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم عن طاعة الله وعن طاعة رسول الله، فإنكم لن تضروا الله ولن تضروا رسول الله، أما كون الإنسان لا يضر الله بمعصيته فأمر ظاهر، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**»[(١)]، كذلك المتولي لا يضر النبي ﷺ لأن النبي ﷺ قد بلغ وأدى الأمانة، ولا يلام على معصية غيره كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤﴾ [الذاريات: ٥٤]، فهم لن يضروا الرسول ﷺ بمعصية الله؛ لأنه بلغ وأدى الأمانة ونصح الأمة.

ولهذا قال: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، اعلموا: أمر بالعلم، ومعلوم أننا يجب أن نعلم كل ما أخبر الله به عن نفسه وعن غيره؛ لكن هذا علمٌ خاص.

وإعراب: ﴿أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾:

أنما: (أنَّ) مكفوفة عن العمل، و«ما» كافة.

على رسولنا: على حرف جر، ورسول: اسم مجرور

---

(١) تقدم ص٢٢٦.

بـ(على)، وعلامة جره الكسرة، وشبه الجملة متعلق بمحذوف خبر مقدم، وهو مضاف و«نا» مضاف إليه، (البلاغ): مبتدأ مؤخر، و(المبين): صفة للبلاغ، هل يمكن أن يكون هناك وجه آخر للإعراب ونقول: إن الذي على رسولنا البلاغ المبين؟

ننظر إلى الرسم، «أنَّ» مقرونة بـ«ما»، لو كانت موصولة لفصلت عن «أنَّ»؛ لأن «ما» الموصولة إذا كانت اسماً لـ«أنَّ» أو لـ«إنَّ» فإنها تفصل عنها.

وهنا قد يقول قائل: لعل هذه القاعدة، وهي اتصال «ما» الموصولة بـ«إن» كانت قاعدة قديمة في خط المصحف، فنقول: الأصل بقاء ما كان على ما كان، وأن «ما» إذا اتصلت بـ«إن» أو «أن» فهي تكفها عن العمل وتجعل الجملة فيها حصر.

قوله: ﴿أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ البلاغ يعني التبليغ، وأصل التبليغ: من بَلَغَ الشيء كذا، أي: وصل إليه، أي: عليه أن يوصل الوحي الذي أوحاه الله إليه إلى المُرْسَل إليه، هذه وظيفته ليس له أكثر من هذه الوظيفة.

قوله: ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ من «أبان» المتعدي، وليست من «أبان» اللازم، مثال «أبان» اللازم تقول: «أبان الصبح»، كما تقول: «بان الصبح»، أبان المتعدي، تتعدى للمفعول به، فهنا نقول المبين من أبان المتعدي، يعني: البلاغ الذي أبان الحق وذلك لفصاحته عليه الصلاة والسلام، وحلاوة كلامه ووصوله إلى القلب حينما يصل إلى الأُذُن واقتناع النفس به فلهذه الأوصاف كان بلاغ النبي ﷺ مبيناً بما يبلغه صلوات الله وسلامه عليه.

وتأتي «الْمُبِينُ» بمعنى البَيِّن، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى

بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢]، فمبين يعني: بيّن.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: وجوب طاعة الله ورسوله، لقول الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

الفائدة الثانية: أن طاعة النبي ﷺ مستقلة بمعنى: أنه إذا أمر النبي ﷺ بشيء، لا نقول: هل يوجد في القرآن هذا الأمر أو لا يوجد، بل طاعته مستقلة، وجه ذلك: أنه أعاد فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وإعادة الفعل تدل على أن طاعة الرسول مستقلة، بمعنى أننا لا نحتاج إلى شاهد من القرآن فيما أمر به الرسول ﷺ.

لكن هل يمكن أن يكون أمر الله وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام متناقضين؟

الجواب: لا يقع التناقض؛ لأنه لو وقع لكانت طاعة الرسول معصية لله، وطاعة الله معصية للرسول ﷺ، وهذا تناقض؛ لأن التناقض يكون النقيض حكمه ضد حكم نقيضه، فلو قلنا: إنه يقع التناقض لزم من ذلك ما تقدم من أن طاعة الله تكون معصية للرسول، وطاعة الرسول تكون معصية لله.

الفائدة الثالثة: إثبات رسالة النبي ﷺ، لقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

الفائدة الرابعة: أن النبي ﷺ يمتاز عن غيره بالرسالة، ولا يمتاز عن غيره بأنه رب يفعل ما يشاء بل هو نفسه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً لقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

الفائدة الخامسة: أن الرسالة من أفخر الأوصاف التي يتصف بها العبد لقوله: ﴿ٱلرَّسُولَ﴾، ولا شك أن الرسول يفضل ويشرف بحسب منزلة مرسله، لو جاء رسول من عند رجل شريف عالي المنزلة، فهل يكون في نفوسنا كرسول جاء من عامة الناس؟ لا، أبداً، بل يكون في نفوسنا لهذا الرسول بمقدار ما يستحقه من منزلة من أرسله، فعليه تكون الرسالة فخراً لمن أرسل.

وهل مقام النبوة أفضل أو مقام الرسالة؟ مقام الرسالة؛ لأن الرسول نال مقام النبوة ومقام الرسالة، مقام النبوة بما أوحي إليه، ومقام الرسالة بما كلف بتبليغه فيكون أشرف، خلافاً لأهل الباطل الذين يقولون: أفضل بني آدم الولي ثم النبي ثم الرسول؛ معللين بأن الرسول خادم، والنبي من النَبْوة وهي العلو والارتفاع، والولي من الولاية وهي أخص، ويقول شاعرهم:

مقام النبوة في برزخٍ فويق الرسول ودون الولي

قاتله الله، فويق الرسولِ، يعني: ما هناك فرق بَيِّن، بالنسبة للولي بعيد، دون الولي، ولقد ضل ضلالاً مبيناً؛ لأن النبي ولي وزيادة، والرسول ولي ونبيٌ ورسول، لكن الله يقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

الفائدة السادسة: التحذير من معصية الله ورسوله لقوله: ﴿وَٱحْذَرُوا۟﴾، وكلمة «احذروا» التي حُذف مفعولها أشد وقعاً من «احذروا» إذا ذكر مفعولها؛ لأنه أبلغ في التخويف؛ لأن المتكلم مقتصر عليها دون متعلقاتها.

وقوله تعالى: «واحذروا» له ما يشبهه من القرآن، أي: ما يشبه هذا التحذير، وهو قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ

أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، قال الإمام أحمد رحمه الله: «أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك».

الفائدة السابعة: أن الأصل في أوامر الله ورسوله الوجوب؛ لأن التحذير لا يكون إلا من شيء يأثم به الإنسان، فإن ما لا إثم فيه لا يكون الحذر منه، وهذه المسألة فيها خلاف بين أهل الأصول، أعني: أصول الفقه، فمنهم من يقول: الأصل في الأمر الوجوب، ومنهم من يقول: الأصل فيه الندب، ومنهم من يقول: أما في الآداب فهو للندب، وأما في العبادات التي هي حق الله فهي للوجوب، والمسألة مبسوطة في أصول الفقه، لكن الشيء الذي يهمنا هو أن الإنسان إذا سمع أمر الله ورسوله، لا يتردد فيقول: هل الأمر للوجوب أو للاستحباب؟ هذه عبارة منتقدة، الأصل أن الأمر الموجه من خالقك أو رسوله الذي أرسله إليك أن يكون ملزماً، هذا هو الأصل، وإلى هذه الساعة لم يُعهد من الصحابة أن رسول ﷺ إذا أمرهم بأمر قالوا: يا رسول الله هل هذا واجب علينا أم مستحب؟ أبداً، وخير لنا أن نقتفي آثارهم، نعم لو أن الإنسان تورط في المخالفة؛ فإن السؤال عن الأمر هل هو للوجوب أو للاستحباب قد يكون وجيهاً؟ إذا كان واجباً وجب عليه أن يحدث منه توبة ويتوب إلى الله من ذلك، وأما إذا لم يكن واجباً فالأمر سهل، لكن الكلام على أول ما يرد عليك الأمر لا تتردد، افعل ما استطعت، أما إذا جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنك مخير فأنت مخير، كما أمر النبي ﷺ بريرة أن ترجع إلى زوجها مغيث، وكانت بريرة عتقت وزوجها رقيق، فلما عتقت ملكت نفسها، فخيرها النبي ﷺ قال: «**اختاري فإن**

شئت أن تمكثي تحت هذا العبد، وإن شئت أن تفارقيه»[١] فاختارت مفارقته، فحزن مغيث عليها وجعل يبكي وراءها في أسواق المدينة، يريد أن ترجع إليه، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**ألا تعجبون من حب مغيث لبريرة وبغض بريرة لمغيث!**»، ما جوابنا نحن؟ بلى: نعجب؛ لأن الغالب أن القلوب إذا تآلفت فهي تتآلف من الجانبين، «فقال النبي ﷺ: «**لو راجعته**»، قالت: «يا رسول الله تأمرني»، ولم تقل إن كان أمراً على سبيل الوجوب، «**قال: إنما أنا شافع**» قالت: «لا حاجة لي فيه»[٢]، هكذا، فصرح النبي عليه الصلاة والسلام بأن الأمر ليس للوجوب بل للمشورة، ولما قال: «**إن الله فرض عليكم الحج فحجوا**»، قال الأقرع بن حابس: يا رسول الله، أفي كل عام؟ قال: «**لا**»[٣].

فالحاصل: أن نقول: الأصل في الأمر الوجوب وأن تفعل ما أمرت، ولا تسأل وتتردد؛ لأن المسألة خطيرة إذا ترددت، قال الله عزّ وجل: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، أعاذنا الله من ذلك، وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [ق: ٥] بعدها ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]، متقلب غير مستقر؛ لأنهم كذبوا

---

(١) هذا اللفظ لأحمد (٦/ ١٨٠) (٢٥٥٠٧) عن عائشة.

(٢) رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي ﷺ على زوج بريرة، حديث رقم (٤٩٧٩) عن ابن عباس.

(٣) رواه مسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، حديث رقم (١٣٣٧) عن أبي هريرة، والتصريح باسم الأقرع عند النسائي (٢٦٢٠)، وأحمد (١/ ٢٥٥) (٢٣٠٤) عن ابن عباس.

بالحق لما جاءهم، فاقبل يا أخي الحق ولا تتردد ولا تقل: واجب أو مستحب، لكن كما تقدم إذا تورطت في شيء فلا بأس.

الفائدة الثامنة والتاسعة: أن تولي الناس عما يدعو إليه النبي ﷺ لا يضره، ولا يلام عليه، لقوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ لأنه إذا كان ليس عليه إلا البلاغ فإنه لن يضره توليهم ولا يلام عليه.

ويتفرع على ذلك: أن الداعية إلى الله في وقتنا وفيما قبله لا يضره ألا يقبل الناس منه؛ لأنه أدى الواجب وينبغي أن يُفَرِّح نفسه بأنه أدى الواجب، وألا يحزن بعدم قبولهم دعوته؛ لأن الله تعالى قال للرسول ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، لكن ربما نقول: يحزن لعدم قبول الشريعة لا لعدم قبولهم منه، والفرق بين هذا وهذا واضح.

الفائدة العاشرة: أن النبي ﷺ لا يستطيع أن يهدي أحداً؛ لأنه بلغ البلاغ المبين ومع ذلك حصلت المخالفة والتولي.

الفائدة الحادية عشرة: أن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين، ففيه إبطال لقول أهل التفويض فيما يختص بأسماء الله وصفاته، الذين قالوا: إن الرسول ﷺ، لم يبلغ البلاغ المبين، ولا يعرف ما قال، وإنما ألقى كلاماً للناس كأنه حروف هجائية أو ألغاز.

الفائدة الثانية عشرة: أن بلاغ الرسول ﷺ بلاغ مبين لا عيَّ فيه ولا تعقيد ولا إشكال، بل هو بَيِّنٌ في نفسه مبين لغيره لقوله: ﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

الفائدة الثالثة عشرة والرابعة عشرة: وجوب الرجوع إلى

قول النبي ﷺ، لقوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، وأنه عليه الصلاة والسلام قام بالواجب فعلينا نحن أن نقوم بالواجب، لكن هل يمكن أن نأخذ منه أن من لم تبلغه الرسالة فهو معذور؟ يمكن أن نأخذ منه أن من لم تبلغه الرسالة فإنه معذور، أو بلغته على وجه مشوش فإنه معذور، ولكن الثاني الذي بلغته على وجه مشوش يكون واجباً عليه أن يطلب الوصف الصحيح لهذه الرسالة التي بلغته، وألا يسكت ويقول: الأمر ما بان لي ولا يلزمني، بل يجب أن يبحث، أما إذا كان الأمر لم يعلم به إطلاقاً فهذا لم تقم عليه الحجة فهو معذور، فلو رأينا رجلاً لم يسمع عن الشرع وعن الإسلام شيئاً، في الكهوف والجبال والأدغال يرعى الغنم ويحلب الإبل ولا يعلم شيئاً، فهل نقول: إن هذا معذور أو غير معذور؟ معذور، لا شك إنه معذور، ولكن إذا ذُكِر له أن هناك رسالة وجب عليه أن يبحث وحينئذٍ قد نقول: إن هذا الذي بلغه ترتفع به الحجة؛ لأن الواجب أن يسأل.

لو قال قائل: الآية الكريمة: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ هل يمكن أن تتعارض طاعة الله ورسوله؟ لا يمكن، ولا يمكن أن تتعارض طاعة النبي ﷺ مع النصوص الواردة عنه، فإذا رأينا حديثاً يناقض ما في القرآن فإننا نحكم برده وإن لم نعرف سنده، بل ولو عرفنا سنده، فإننا نقول: هذا منكر، إذا خالف القرآن، فلا يمكن أن يكون الله يأمر بطاعته ـ وطاعته مقدمة على كل شيء ـ وبطاعة الرسول، ولو كان ذلك، أي: أننا نأخذ بما يتناقض من الكتاب والسنة لكان مستحيلاً.

من ذلك ما يذكر عن النبي ﷺ في لحوم البقر أنها داء،

وفي ألبانها دواء أو شفاء[١]، هذا بدعة، بدون أن ننظر إلى سنده نحكم بأنه باطل ولا يصح، لو كان لحومها داءً هل يمكن أن يُحلَّها الله لعباده؟ لا يمكن أبداً؛ لأن الله تعالى لا يحل لعباده ما كان ضرراً عليهم حتى لو قال قائل: يمكن أن نحمل هذا الحديث على أكل لحم البقر بدون طبخ، هل يصح هذا؟ لا، لأن أكله بدون طبخ نادر، ولا يمكن أن يحمل الحديث على الشيء النادر، والشيء بالشيء يذكر، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها: «**من مات وعليه صيام صام عنه وليه**»[٢]، بعض العلماء يقول: المراد: من مات وعليه صيام نذر صام عنه وليه، أما صيام الفرض كصيام رمضان والكفارة فلا يصام عن الميت، فيقال: سبحان الله! أنتم صححوا الحديث ثم نقحوا المراد، صيام النذر بالنسبة لصيام الفرض والكفارة كثير أو نادر؟ نادر، فكيف تحملون الحديث على شيء نادر وتتركون الشيء الكثير؛ ولهذا كان القول الراجح: أن من مات وعليه صيام سواء كان واجباً بالنذر أو بأصل الشرع فإنه يصام عنه.

لو قال قائل: ذكرتم أن الإنسان إذا بلغه الدين على وجه مشوش فإننا لا نعذره بالجهل، مع أن هذا البلاغ كالعدم؟

الجواب: نقول: قد لا نعذره لتركه الواجب وهو البحث.

لكن لو قال قائل: كيف يبحث وهو إنسان عامي أو عجوز في قرية نائية، أو ما أشبه ذلك والإعلام مغطي عليهم ولا يعرفون شيئاً؟

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٥/ ٤٢) (٧٩) عن مليكة بنت عمرو الزيدية.

(٢) تقدم في (١/ ٣٨٩).

الجواب: سبحان الله، كل شيء محتمل إذا بلغه أن محمداً رسول الله ﷺ وأنه أتى لجميع الخلق وأن من خالفه هو في النار ومن وافقه هو في الجنة، يسمع هذا، لكن إذا أُخْبِرَ كذباً بأن النبي ﷺ ليس بصادق وما أشبه ذلك، هذا قد يكون معذوراً خصوصاً إذا كان الذي أخبره ممن يعد من رؤسائهم في الدين، ولهذا لما أنكر عمر رضي الله عنه على الرجل الذي قرأ في سورة الفرقان خلاف ما كان يعرفه عمر أنكر آية من كتاب الله، ظاناً أن الرجل أخطأ فيها، حتى ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال: هكذا أنزل لقراءة الرجل وهكذا أنزل لقراءة عمر[1].

والمسألة هذه الناس فيها طرفان ووسط: طرف يغلو في التكفير ويُقْدِم على التكفير ويقول: لا يعذر بالجهل في أصل الدين، وهذا غير صحيح، قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣ ـ ٤٤]، وقسمٌ آخر: لا يغلو في رفع التكفير حتى وإن كان الإنسان في حال يحكم بكفره، والقول الوسط هو أن نقول: من لم تبلغه فهو معذور، ومن بلغته ولم يفهمها فهو معذور؛ لأن عدم الفهم كعدم العلم، لو أتى إليك إنسان أعجمي وقام يتكلم بأعجميته في شيء، هل تدري ما يقول؟ لا تدري ما يقول، هذا معذور، فالفهم شرط، يعني مجرد البلاغ لا يكفي، وأما قوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فهل المعنى ومن وصل إليه وإن لم يفهمه، أو من بلغه فأدركه؟ الثاني هو المراد.

---

(١) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب ما جاء في المتأولين، حديث رقم (٦٥٣٧) عن عمر بن الخطاب.

ما حكم الرافضة الذين يسبون أبا بكر وعمر وعائشة رضي الله عنهم؟

الجواب: لا شك أن الذي يسب أبا بكر وعمر وعائشة وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ليس من الدين في شيء، ويجب بغض من يفعل ذلك، هذا ليس فيه إشكال، لكن نسأل الله لهم الهداية. وأن يكفينا شرهم.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة: ٩٣].

قوله: ﴿لَيْسَ﴾ أداة نفي، وهي فعلٌ ماض جامد، والجامد عند النحويين: هو الذي لا يتصرف، والجمود: قد يكون جموداً كلياً وقد يكون جموداً جزئياً، بحيث يمتنع التصريف فيه من وجه دون آخر، وهنا الجمود كلي لأن «ليس» لا يمكن أن تتغير.

قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بقلوبهم: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بأبدانهم، وهذا شاملٌ للدين كله؛ لأن الدين كله إيمان وعمل.

وقوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: عملوا الأعمال الصالحات، والأعمال الصالحات لا يمكن أن تكون بهذا الوصف إلا إذا كانت موافقة للشريعة، لقول النبي ﷺ: **«ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل»**[1] يعني: فاسداً.

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب إذا اشترط شروطاً في البيع لا تحل، حديث رقم (٢٠٦٠)، ومسلم، كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق، حديث رقم (١٥٠٤) عن عائشة.

فالأعمال الصالحة: ما وافقت الشريعة، ولا يمكن أن توافق الشريعة إلا إذا وافقت الشريعة في أمورٍ ستة: **الأول**: السبب، **والثاني**: الجنس، **والثالث**: القدر، **والرابع**: الكيفية، **والخامس**: الزمان، **والسادس**: المكان.

فلا يمكن أن تكون العبادة شرعية صالحة إلا إذا وافقت الشريعة في هذه الأمور الستة.

فإذا خالفت الشريعة في واحد من هذه الأشياء الستة فليست شرعية، ولا مقبولة، هذه شروط الموافقة للشريعة.

أولها: السبب: فلو أحدث الإنسان سبباً يتعبد لله تعالى بمقتضاه وليس شرعياً فعمله مردود، ونضرب لهذا مثلاً: لو أن الإنسان إذا تجشأ قال: الحمد لله، والجشاء معروف، هنا أحدث عبادة لله عزّ وجل وهي الحمد، لسبب وهو الجشاء، فهل جاء في الشريعة أن الجشاء سبب للحمد؟ لا، إذاً لا يقبل منه؛ لأنه تعبد لله بما لم يشرعه.

الثاني: الجنس: من المعلوم أن الأضاحي تكون من بهيمة الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، فلو ضحى الإنسان بفرس لم يقبل منه؛ لأنه مخالف للشريعة في الجنس، لو ضحى بنعامة؟ لم يقبل منه، لو ضحى بحمامة؟ لم يقبل منه؛ لأنه مخالف للشريعة في الجنس، وإن كان الشرع قد أوجب في الحمامة إذا قتلها المُحْرِمُ شاة، لكن لم يأتِ الشرع بأن يضحي الإنسان بحمامة، وبه نعرف خطأ من قالوا: إنه تجوز التضحية بالدجاج والديكة؛ لأن النبي ﷺ قال: «**في الرجل يغتسل في بيته ويخرج إلى**

المسجد يوم الجمعة في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة»[١]، قالوا: هذا يدل على أن الدجاجة يصح التقرب بها.

وجوابنا على هذا: أن معناه تقرب إلى الله بالصدقة بها لا بذبحها، ولا شك أن الإنسان لو ذبح دجاجة وتصدق بها على الفقراء إنه يجزئه، إذاً لا بد من موافقة الشريعة في الجنس.

الثالث: القدر: لو تعبد الإنسان لله عزّ وجل بصلاة سادسة، جعلها عند ارتفاع الشمس قيد رمح وقال: إنه يتقرب إلى الله تعالى بهذه الصلاة لارتفاع الشمس قيد رمح، لا لأنها صلاة ضحى، فهذه عبادة لا تصح، يعني: أراد أن يجعلها صلاة سادسة مع الخمس فإنها لا تقبل؛ لأنه زاد صلاة لم ينزل الله بها من سلطان، ولو أنه صلى الظهر خمس ركعات لم تقبل لمخالفة الشريعة في القدر.

الرابع: الكيفية: لو تعبد لله تعالى بالوضوء، توضأ وضوءاً كاملاً مشتملاً على الأعضاء كلها؛ لكنه بدأ بالرجلين ثم الرأس ثم اليدين ثم الوجه، لم تقبل العبادة؛ لأنها مخالفة للشريعة في كيفيتها؛ وكذلك لو سجد قبل أن يركع لم تقبل الصلاة؛ لأنها مخالفة للشريعة في الكيفية.

الخامس: الزمان: لو أن الإنسان ضحى في عيد الفطر، وقال: عيد كعيد، فالقياس أن يضحي في عيد الفطر كما يضحي في عيد الأضحى، لم تقبل لمخالفة الشريعة في الوقت أو في الزمان.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب فضل الجمعة، حديث رقم (٨٤١)، ومسلم، كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة، حديث رقم (٨٥٠) عن أبي هريرة.

السادس: المكان: لو أن الإنسان اعتكف في رمضان في بيته، أو امرأة في مصلاها الذي في البيت، لم يجزئ؛ لأنه مخالف للشرع في المكان.

بقي أن يقال: وهل يأثم الإنسان لو تعبد لله عزّ وجل بما يخالف الشريعة في واحد من هذه؟

الجواب: يأثم لقول النبي ﷺ: «**إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[1].

قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تقدم أن الصالحات وصفٌ لموصوف محذوف، التقدير الأعمال الصالحات.

قوله: ﴿جُنَاحٌ﴾ أي: إثم، وهذا هو المنفي، فليس على المؤمن الذي يعمل الصالحات جناح أي إثم.

قوله: ﴿فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾، ﴿فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾: أعم من قولنا: فيما أكلوا، فيشمل الأكل والشرب؛ لأن الشرب يطعم ويذاق فهو طعام، ودليل ذلك قول الله تبارك وتعالى على لسان طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، من لم يطعمه: يعني النهر، والنهر يؤكل أم يشرب؟ يشرب.

إذاً: قوله ﴿فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ يعم كل ما له طعم في الفم من مأكول ومشروب، لكن بشروط، فليس عليهم جناح فيما طعموا بشروط:

---

(١) رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، حديث رقم (٤٦٠٧)، والترمذي، كتاب العلم، باب الأخذ بالسنة واجتناب البدع، حديث رقم (٢٦٧٦) عن العرباض بن سارية.

الشرط الأول: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾، الثاني: ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾، الثالث: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، الرابع: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾، الخامس: ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾، السادس: ﴿ٱتَّقَوا۟﴾، السابع: ﴿وَّأَحْسَنُوا۟﴾، هذه قيود سبعة وليست متكررة كل واحد له معنى، أو محمولة على معنى.

قوله: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾، يعني: اتقوا ما حُرِّم عليهم من المأكول وليست التقوى العامة، بل إذا ما اتقوا ما حرم عليهم من المطعوم.

وقوله: ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾ أي: آمنوا بالله؛ لأن الإيمان لا شك أنه أصل في قبول الأعمال.

وقوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هذا شرط: أي: عملوا الصالحات فيما يأكلون من المباحات فلم يستعينوا بها على محرم، فإن استعانوا بها على محرم وهي مباحة صارت حراماً؛ لأن الله اشترط أن يعملوا بها الصالحات.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟﴾ كلمة «ثم» تدل على أن هذا نوع آخر غير الأول؛ لأن العطف ولاسيما بـ«ثم» الدالة على المهلة والترتيب يدل على أن الثاني غير الأول، فيكون معنى: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟﴾ أي: ثم استمروا على تقواهم ما حرم عليهم من هذا الطعام.

وقوله: «آمنوا» أي: استمروا على إيمانهم، والأمر بالإيمان يصح مراداً به الثبوت عليه والاستمرار فيه كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

قوله: ﴿وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟﴾ هذه التقوى العامة، أي:

اتقوا جميع المحرمات وأحسنوا بفعل جميع الطاعات، هذه الآية يمكن أن نحملها على حالين:

الحال الأولى: حال من يذهب إلى التقشف ويخشى من الترفه المباح، فيتجنب الفواكه واللحم الشهي والشيء اللذيذ تعبداً لله، فتحمل على من تورعوا عما أحل الله لهم خوفاً من الإثم فيقال لهم: ليس عليكم جناح فيما طعمتم إذا تمت هذه الشروط.

ولها محمل آخر، فيمن توفوا قبل تحريم الخمر وأيضاً قبل أن يعلموا بتحريمها فهذا يشمل من ليس عليهم جناح، فهم قد شربوا الخمر وهي في النهاية حرام لكن حين شربهم إياها، حلال؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ لم يحرمها بتاتاً إلا بعد موتهم، وإن كانت قد نزلت الآيات تعرض بالتحريم وتقيد الحل، كما في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وفي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]، وهؤلاء أشكل على الصحابة حالهم لما حرمت الخمر، أي: أشكل على الصحابة حال الذين توفوا من قبل فأنزل الله هذه الآية، أنه ليس عليهم جناح؛ لأنهم لم ينتهكوا ما حرم الله، بل هم مؤمنون متقون محسنون.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، «المحبة» لو أردنا أن نحدها لم نستطع، فالإنسان لا يستطيع أن يحد المحبة أبداً، مع أنها بيننا وهي من حياتنا اليومية في داخل البيت وخارج البيت، ولا نستطيع أن نحدها؛ لأن تعريف المعروف يزيده جهالة أو يزيد به جهلاً، ولذلك لما ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه روضة المحبين

تعريف المحبة، قال: هذه الأمور الطبيعية لا يمكن تعريفها، لا تستطيع أن تعرف المحبة ولا الكراهة ولا البغضاء ولا الخوف ولا الفرح؛ لأن هذه أمور كامنة في النفس، كل إنسان يعرفها، نعم عليها علامات لا شك، فلو قلت مثلاً: المحبة أن تميل للشيء الذي ينفعك أو تدفع به ضرراً، أو تقول المحبة: أن ترى الرجل قد استنار وجهه واستبشر فرحاً، إذاً: المحبة معلومة، وإن شئت قل: معروفة، وتعريف المعروف يزيده جهالة.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: نفي الجناح في المطعومات من مأكول ومشروب بهذه الشروط.

الفائدة الثانية: أن على الكفار جناح فيما طعموا، وجهه: لأنهم غير مؤمنين، فالكافر لو رفع لقمة إلى فمه، أو شرب كأساً من ماء فإنه محاسب عليه وعليه الإثم فيه، ويؤيد هذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وهل هي لغير المؤمنين في الحياة الدنيا؟ أما قدراً فنعم، وأما شرعاً فلا، ولهذا قال بالنسبة للمؤمنين: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ ولغير المؤمنين غير خالصة.

الفائدة الثالثة: القيود الشديدة في نفي الإثم عمن أكل أو شرب في مأكوله ومشروبه، والتقوى ذكرت في الآية ثلاث مرات، والإيمان مرتين والإحسان مرة، قيود شديدة عظيمة فاحذر يا أخي المسلم أن يكون في مطعومك عليك إثم لأنك لم تتم هذه القيود، أسأل الله أن يعيننا عليها.

الفائدة الرابعة: أن من أكل حلالاً بكسب حرام فعليه الإثم؛ لأنه لم يتقِ الله في كسبه، ولا بد أن يتقي الله عزّ وجل، وهل يكون غير الكاسب كالكاسب في هذا الإثم؟ نقول: أما إذا كان الشيء المحرم معيناً فهذا يكون الآكل كالكاسب، مثل أن أعرف أن هذه الشاة التي ذبحها إكراماً لي قد سرقها من فلان فهذه حرام عليَّ أن آكلها.

أما إذا كان الإنسان يتعامل بالربا ويكسب من الربا برضا صاحبه المرابي، فإنه لا بأس أن تأكل من ماله إلا إذا كان امتناعك منه يؤدي إلى توبته فهنا امتنع، أما إذا كان كله على حدٍ سواء فكل ولا حرج عليك، ويدل لهذا أن رسول الله ﷺ أكل من مال اليهود واشترى من مال اليهود مع أنهم معروفون بأكل السحت وأخذ الربا ولم يستفصل ولم يقل لأي واحد منهم: هل كسبت بالربا.

وبناءً على ذلك إذا مات ميت ونحن نعرف أنه يتعامل بالربا، ويتعامل بالمباح فهل يلزم الورثة أن يبحثوا كيف كسب ذلك؟ لا يلزمهم، الإثم على الكاسب، إلا إذا علمنا أن هذا هو عين مال الغير، فيجب علينا أن نرده إلى صاحبه؛ لأننا علمنا أنه ليس ملكه، فإن شككت هل هو ملكه وأخذه بطريق شرعي أو سرقه فما الأصل؟ الأصل أنه له، ولا يلزمنا أن نقول لكل من أهدى إلينا هدية: من أين أتيت بها أنت سارقها أو جاءتك بطريق مباح؟ لو كنا مكلفين بهذا لشق علينا مشقة شديدة، لكن الحمد لله أن الأمور بظاهرها، مثلما سأل قوم النبي ﷺ عن أناس يأتونهم بلحم وهم حديثو عهد بالكفر أي: أسلموا قريباً، ولا يدري

المهدى إليه اللحم أذكروا اسم الله عليها أم لا؟ فقال لهم: «**سموا أنتم وكلوا**»[١] لأن الأصل الحل حتى يتبين التحريم.

لو قال قائل: النبي ﷺ أكل طعام اليهود وقبل هداياهم؛ لأنهم يهود كفار، ليسوا على ملة صحيحة، أما المسلمين فعُلم من الكتاب والسنة تحريم ذلك عليهم؟

الجواب: هذا جواب غير صحيح؛ لأن الله تعالى ذكر أنهم يأكلون السحت ويأخذون الربا، ذماً لهم ولهذا قال: ﴿وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦١] فهم منهيون عنه، لكن بعض الناس يريد أن يحرم مال من أكله مختلط بالحرام، ثم يدفع بهذا الدفاع الضعيف.

لو قال قائل: الذين يعملون في البلاد الأوروبية ويبيعون في محلاتهم الحلال ويبيعون المحرم كالخمر وغيره، فإذا دعي الإنسان عندهم، هل يأكل عندهم أم لا؟

الجواب: ليس عليه شيء إذا أكل المباح لكن كما تقدم، إذا كان في عدم إجابة الدعوة مصلحة فهنا لا تجب الدعوة.

الفائدة الخامسة: فضيلة الإيمان والتقوى وأنها سبب لطيب المطعم وحل المطعم.

الفائدة السادسة: فضيلة الإحسان إلى الخلق والإحسان في عبادة الخالق، فالإحسان إلى الخلق أن تبذل جاهك، تبذل مالك، تبذل خدمتك، تبذل منفعتك البدنية، والإحسان في عبادة الخالق فسره أعلم الناس بمعناه وهو النبي ﷺ بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٢].

---

(١) تقدم في(١/ ٧٤).

(٢) تقدم في (١/ ١٥٢).

الفائدة السابعة: إثبات أن الله يحب، لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والمحبة من الصفات الفعلية لأنها تتعلق بمشيئة الله، وكل صفة لها سبب فإنها من الصفات الفعلية؛ لأنها معلقة بهذا السبب، وهذه الصفة كسائر الصفات يجب على العبد أن يصدق ربه بها وأن يحمل كلام ربه على ظاهره وعلى ما تقتضيه اللغة العربية؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] يعني صيرناه باللغة العربية ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، لأجل أن نعقل هذا القرآن ونفهمه، وعليه فيجب أن نؤمن بأن الله يحب، ولو فسرناه بغير ظاهره لكنا معتدين على النص من وجهين: **الوجه الأول**: صرفه عن ظاهره، **الوجه الثاني**: إثبات معنىً على خلاف الظاهر، وهذه جناية على النصوص وتحريف للكلم عن مواضعه، ويوجد من هم مسلمون ـ لا شك في إسلامهم ـ يفسرون المحبة بأنها الثواب، أي: يثيب المحسنين، ونقول: عفا الله عمن مات ونسأل الهداية لمن بقي، هذا التفسير تحريف للكلم عن مواضعه؛ لأن الإثابة شيء والمحبة شيء آخر، وإن كانت المحبة يلزم منها الثواب، لكن لا يمكن أن نفسر شيئاً يلازمه إلا بدليل.

ثم أيما أبلغ في الحث على الإحسان، أن نقول: معنى الآية: والله يثيب المحسنين، أو أن نقول: والله يحب المحسنين؟

الثاني بلا شك، ولهذا لما قال الله عزّ وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ولم يقل: إن كنتم تحبون الله فاتبعوني تصدقوا في دعواكم، بل قال: يحببكم الله؛ لأن محبة الله هي المقصود ـ أسأل الله أن يجعلنا من أحبابه ـ فلذلك نقول أيضاً: في تفسيرها بالثواب نقص في دلالتها

ومضمونها؛ لأن النفس لا تتشجع، إذا كانت بمعنى الثواب، بل المحبة على ظاهرها ولا يجوز صرفها عن ظاهرها.

فهؤلاء القوم الذين صرفوا النصوص عن ظاهرها وصفهم شيخ الإسلام رحمه الله وصفاً دقيقاً، قال: إنهم أوتوا فهوماً ولم يؤتوا علوماً، فهم ليس عندهم علم من الكتاب والسنة، عندهم فهم، وأوتوا ذكاءً وما أوتوا زكاءً، فليس عندهم تقوى لله عزّ وجل وإلا لو اتقوا الله عزّ وجل لاحترموا نصوص الكتاب والسنة، أدنى ما نقول فيهم: إنهم جهلوا، قد لا يكون عدم التقوى عندهم عن عمد، لكن عن ظن أنهم على هدى ويحسبون أنهم على شيء وهم ضالون.

فإن قال قائل: فهل تطردون هذه القاعدة في كل النصوص؟

الجواب: نعم يجب علينا أن نطردها بجميع النصوص؛ لأن الصحابة أجمعوا على ذلك، ما منهم أحد يفسر القرآن بخلاف ظاهره أبداً، فعلينا فيما يتعلق بصفات الله أن نؤمن بها، لكن على أساس مهم ذكره الله عزّ وجل في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، كل شيءٍ أَثْبِتْهُ لله، فعلى هذه القاعدة وهي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وبهذا تستريح وتسلم من اعتراضات كثيرة، من ذلك أنه يكثر السؤال عن: هل نثبت لله الملل أم لا؛ احتجاجاً بقول النبي ﷺ: **«إن الله لا يمل حتى تملوا»**[1]؟

فيقال: ما الذي أجبرك أن تحك الشيء حتى يخرج العظم،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه، حديث رقم (٤٣)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، حديث رقم (٧٨٢) عن عائشة.

ما الذي أجبرك على هذا، هل تثبت لله الملل أم لا تثبت؟ إن من هو خير منك ممن سبقك من هذه الأمة وخير هذه الأمة لم يسألوا الرسول عليه الصلاة والسلام عن ذلك أبداً، عرفوا المعنى وأبقوا اللفظ على ما هو عليه، ما الذي دعاك إلى هذا؟ هل الحديث صريح في أن الله يمل؟ ليس بصريح، سياقه: «**اكلفوا من العمل ما تطيقون**» يعني تحملوا منه ما تطيقون، «**فإن الله لا يمل حتى تملوا**»[1]، يعني ما يمل من ثوابكم حتى تملوا من العمل، هذا معناه، وهو واضح، فإن كان يدل على ثبوت الملل لله فالملل كسائر الصفات ملل يليق بالله لا يماثل ملل المخلوقين، ملل المخلوق تعب وإعياء وضيق نفس لكن لا يثبت هذا لله عزّ وجل أبداً، مثل الغضب، أثبت الله لنفسه غضباً ولا إشكال، في القرآن في عدة مواضع وفي السنة كذلك.

لو قال قائل: الغضب: غليان دم القلب لطلب الانتقام، الغضب يحمل الغاضب على التصرف السيئ حتى إنه يكسر الأواني ويطلق النساء ويعتق العبيد ويوقف الأملاك ويمزق الأوراق، بعض الناس يصل به الحد إلى هذا.

لو قال قائل: هل غضب الله الذي نثبته حقاً كغضب المخلوق؟

الجواب: أبداً إن الله تعالى إذا غضب فإنه لن يفعل سبحانه وتعالىٰ إلا لحكمة، وغضبه دليل على قوته عزّ وجل وقوة سلطانه؛ لأن الغضب لا يصدر إلا من قادر على الانتقام، والعاجز لا يمكن أن يغضب، لو تضرب صبياً يغضب عليك لأجل أن ينتقم منك ماذا يفعل؟ يبكي ويحزن ويروح لأمه ويقول:

---

(١) تقدم الحديث السابق ص٣٧٥.

ضربني وفعل كذا وكذا، لكن ذو السلطان هو الذي يغضب وينتقم، فإغراق فرعون وقومه لا شك أنه غضب، وإنجاء موسى عليه السلام رضا.

فالغضب إذاً صفة حميدة، لكن بشرط أن لا تخرج الغاضب عن طوره، ولهذا نحن نقول: إن الله عزّ وجل يغضب، لكن ليس كغضب المخلوق الذي يخرج عن طوره حتى يتصرف تصرفاً لا يليق، وعلى هذا فقس، وأنت إذا أثبت لله ما أثبته لنفسه وتأدبت مع الله، بحيث لا تتجاوز ما ذكر الله عزّ وجل، وأثبت هذا على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فإنك ستسلم في عقيدتك وفكرك، وستسلم من التشويش الذي يلقيه الشيطان في قلبك، أما إذا كنت تتحرك في هذه النصوص يميناً وشمالاً فأنت على شفا جرف هارٍ.

الفائدة الثامنة: الحث على الإحسان إلى الخلق وعلى الإحسان في عبادة الخالق؛ لأن الله حين يخبرنا أنه يحب المحسنين ماذا يريد منا؟ يريد منا أن نفعل لننال هذه المرتبة العظيمة وهي محبة الله، أسأل الله أن يجعلنا من أحبابه.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [المائدة: ٩٤].

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تقدم في مثل هذا التعبير أثر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأرعها سمعك أي: فاستمع وانتبه، فإما خير تؤمر به وإما شر تنهى عنه.

قوله: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ إلى آخره، الجملة هنا خبرية، ومؤكدة بمؤكداتٍ ثلاث وهي: «اللام» و«نون التوكيد»، و«القسم المقدر»؛ لأن اللام موطئة للقسم.

ومعنى «يبلونكم»: يختبرنكم، بماذا يكون الاختبار؟ قال: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾.

وقوله: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾، أي: الذي تصطادونه وهو محرم عليكم في حال الإحرام.

قوله: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ أي: تصيدونه باليد وتصيدونه بالرماح، وهذا على اختلاف حال الصيد، فما كان زاحفاً كانوا ينالونه بأيديهم، وما كان طائراً كانوا ينالونه برماحهم؛ لأن الطائر أعلى، والطيران أسرع من الزحف؛ لكن مع ذلك يكون الطير نازلاً وهادئاً في طيرانه؛ لأن الذي يمسكه في جو السماء هو الله عزّ وجل، وهو قادر على أن يهبطه إلى قرب الأرض وأن يجعل طيرانه هادئاً.

وقلنا: إن الابتلاء هو الاختبار، لكن لأي شيء؟ قال: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾، ﴿لِيَعْلَمَ﴾ اللام هنا للتعليل، ويعلم: أي: يدرك عزّ وجل من يخافه بالغيب، أي: من يخاف الله بالغيب وهذه الجملة لها معنيان:

المعنى الأول: أنه يخاف ربه مع غيبته تبارك وتعالى عنه إذ إنه لم يرَ ربه لكنه عرفه بآياته، فيخافه وهو عزّ وجل غائب عن نظره، كقوله ﷺ: «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1]

---

(١) تقدم في (١/ ١٥٢).

والمعنى الثاني: ﴿بِٱلْغَيْبِۚ﴾، أي: حال غيابه عن الناس، مثل أن يكون في ليل أو في ظل شجرة أو من وراء أكمة أو في مجرى سيل أو نحو ذلك فقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِۚ﴾ أي: بغيبه عن الناس؛ لأن من الناس من يُظهر مخافة الله ظاهراً ولكنه باطناً لا يخاف الله عزّ وجل، والذي يُمدح من يخاف الله بالغيب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ١٢].

قوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: فمن اعتدى على محارم الله عزّ وجل بعد أن بيّن الله له الحكم فله عذاب أليم، أي: عذاب مؤلم إما في الدنيا وإما في الآخرة.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان امتحان الله تبارك وتعالى لعباده بتيسير أسباب المعصية لهم ليعلم من يخافه بالغيب ومن لا يخافه إلا في العلانية، وجهه من الآية ظاهر: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ﴾.

الفائدة الثانية: فضيلة الصحابة رضي الله عنهم، الذين هم مُقَدَّمُ هذه الأمة، وذلك بخوفهم من الله وعدم تحيلهم على محارم الله وعدم انتهاكهم لحرمات الله، فإن هذا الصيد الذي ابتلوا به، وقع ذلك فعلاً؛ لأن الله أخبر بأنه سيفعل وفعل عزّ وجل، لكن لم يذكر عن واحد منهم أنه أخذ صيداً واحداً، خافوا الله عزّ وجل وعظموا محارمه، وهذا فضل عظيم لهذه الأمة.

الفائدة الثالثة: أن هذه الأمة تفضل سائر الأمم وعلى رأسهم الأمة اليهودية؛ لأن الأمة اليهودية ابتلاهم الله تعالى بنحو

هذا، ولكنهم تحيلوا على محارم الله، ابتلاهم الله تعالى بالصيد البحري لا الصيد البري، فحرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت، فاحتالوا على ذلك وجعلوا شباكاً في يوم الجمعة ثم يأخذون السمك أو الحيتان يوم الأحد، فابتلاهم الله عزّ وجل بكون الحيتان تأتي يوم السبت «شرّعاً» أي: على سطح الماء من كثرتها، فتحيلوا هذه الحيلة، فقال الله تعالى لهم: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، فكانوا قردة والعياذ بالله، كل أهل القرية أصبحوا يتعاوون كما تعاوى القردة؛ لأنهم تحيلوا على محارم الله بما ظاهره الإباحة، فقلبهم الله تعالى إلى حيوان أقرب ما يكون من الإنسان.

الفائدة الرابعة: أن يتنبه الإنسان لنفسه إذا يُسرت له أسباب المعصية وألا يتدرج به الشيطان؛ لأن الإنسان قد تيسر له أسباب المعصية ولا يدري عن نفسه ثم ينهمك حتى يقع في المحظور، فليحذر الإنسان من تسهيل أو من تيسير أسباب المعصية له أن يقع في المعصية، ولهذا كان الإنسان إذا ابتلي بتيسير المعصية له وتركها لله عوضه الله تعالى خيراً منها، وانظر إلى يوسف عليه الصلاة والسلام فقد يسر الله له أسباب المعصية تيسيراً لا نظير له فيما نعلم، كان مملوكاً لعزيز مصر وكان له امرأة يُرى أنها من أجمل النساء؛ لأنها امرأة العزيز، وأعجبها يوسف وأحبته حباً شديداً حتى وصل حب هذا الرجل إلى شغاف القلب، يعني قعر القلب، وعجزت أن تصبر، في يوم من الأيام سولت لها نفسها أن تدعوه إلى فعل الفاحشة، فدعته وغلقت الأبواب، والأبواب جمع باب أقلها ثلاثة، في حجرة من وراء حجرة من وراء حجرة

والأبواب مغلقة، وليس عندها أحد فدعته لنفسها، وتوعدت أنه إن لم يفعل سجنته، وأهانته قالت: ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢] فدعا ربه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣]، ولا يُظَنُّ أنَّ الجمع في قوله: ﴿يَدْعُونَنِيٓ﴾ يعني أن مع المرأة أحداً، ولكن يريد الجنس؛ فإن هذه التي فتنته ربما يفتنه غيرها، فأراد أن يكون دعاؤه عاماً: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف: ٣٤]، يوسف عليه الصلاة والسلام هُيئت له أسباب المعصية، بل أكثر من ذلك، هدد بأن يهان ويسجن إن لم يفعل ومع ذلك لجأ إلى الله عزّ وجل، وفي هذه الضرورة استجاب الله تعالى دعاءه.

وفي السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «**رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله**»[1] لم يذكر أي مانع سوى خوف الله عزّ وجل، وهل خوفه بالغيب أو بالشهادة؟ بالغيب؛ لأنه ليس عنده أحد، لو عنده أحد لقال: إني أخاف أن يشهد فلان أو فلانة، فالمهم انتبه لنفسك سواء في البيع أو في الشراء أو في أي شيء، انتبه لنفسك إذا يُسرت لك أسباب المعصية فاعلم أن ذلك امتحان من الله.

الفائدة الخامسة: أن الصيد في حال الإحرام محرم؛ لقوله: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، حديث رقم (١٣٥٧)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، حديث رقم (١٠٣١).

الفائدة السادسة: أن من اعتدى بعد أن تبين له الحكم فله عذاب أليم، أي: مؤلم.

الفائدة السابعة: أن من كان جاهلاً فإنه لا إثم عليه إذا فعل المعصية، لقوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾.

الفائدة الثامنة: إثبات علم الله تبارك وتعالى؛ لقوله: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾، والله تبارك وتعالى علمه محيط بكل شيء.

فإن قال قائل: هذه الآية سياقها يدل على تجدد العلم لله عزّ وجل؛ لأنه قال: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ﴾ ثم قال: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾، وهو جلَّ وعلا عالم بذلك قبل أن يخلق هذا وقبل خلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة، وهذا إشكال واقع يشكل على كثير من الناس فالله عزّ وجل يقول: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾، أليس الله قد علم؟

الجواب: بلى، قد علم. والجواب عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن علم الله بالشيء قبل وقوعه علم بأنه سيقع، وعلمه بعد وقوعه علم بأنه واقع، وفرق بين كون الشيء معلوماً قبل أن يقع ومعلوماً بعد أن يقع.

فإن قال قائل: هذا مُسَلَّمٌ في علم الإنسان، فإن الإنسان إذا علم بأن الشيء سيقع غداً فهذا علم، لكن إذا وقع صار علمه الثاني أقوى من علمه الأول؛ لأن علمه الأول علم يقين، وعلمه الثاني عين يقين، ومعلومٌ أن الإنسان يتجدد علمه ويقوى علمه تارة ويضعف تارة لكن علم الله واحد؟

الجواب: نحن لا نقول: إن الله سبحانه وتعالىٰ إذا عَلِمَهُ واقعاً ازداد علمه بذلك؟ أبداً، هو عالم به؛ لكن عالم به أنه وقع لا أنه سيقع؛ لأن العلم الأول لا يترتب عليه جزاء بالنسبة للعبد، والعلم الثاني: يترتب عليه جزاء.

أما **الوجه الثاني** فنقول: علمه السابق لما وقع علم بأنه سيقع، ولكنه لا يترتب على هذا العلم أي ثواب أو عقاب، لكن متى يترتب الثواب والعقاب؟

الجواب: إذا عمل العبد، فيكون علمه الثاني الذي بعد وقوع الشيء علماً يترتب عليه الثواب والعقاب، ويتعين الجواب بهذا؛ لئلا يظن الجاهل أن علم الله يتجدد، ونحن نعلم أن علم ربنا عزّ وجل لم يزل ولا يزال موجوداً.

الفائدة التاسعة: الثناء على من يخاف الله بالغيب، جعلنا الله منهم؛ لأن كثيراً من الناس يخاف الله سبحانه وتعالىٰ، فعنده خوف من الله؛ لكن يَقِلُّ خوفه إذا لم يكن حوله أحد، وإذا علم أن الناس يعلمون به ازداد خوفه يعني أصل الخوف عنده، لكن إذا كان عنده أحد، ازداد خوفه من فعل المعصية خوفاً من عقاب الله وخوفاً من ملامة الناس، وهذا وإن كان محموداً لكنه ضعيف الخوف من الله، ويخشى عليه أن يداهن الناس ويراقبهم فيقع في الرياء، فعليك يا طالب العلم أن يكون خوفك لله واحداً في السر وفي العلانية.

لو قال قائل: بعض الناس يكون مستقيماً ثم يفتح الله عليه أو يبتليه بالغنى فيضعف إيمانه وتَقِلُّ عبادته وقد يقطع رحمه فما رأيكم في هذا؟

الجواب: صحيح ليس فيه شك، هذا واقع يعني إصابة الإنسان بذنبه وبإعراضه عن طاعة الله أشد من العقوبة؛ ولهذا قال الله عزّ وجل: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]، فكون الإنسان مستقيماً ثم يشعر بأن استقامته ضعفت، وصار يرتكب المعاصي هذه عقوبة، يقول بعض السلف: إن الإنسان ليحرم صلاة الليل بالذنب يصيبه، لكن أكثر الناس في غفلة عن هذا، يظنون أن المصائب التي على الذنوب هي المصائب الحسية وليس كذلك، مصيبة القلب أشد، نسأل الله السلامة.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة: ٩٥].

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ﴾ يقال فيها: كما قلنا في الآية التي قبلها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ﴾ [المائدة: ٩٤]، والمناسبة بين هذه الآية والتي قبلها ظاهرة، أنه عزّ وجل لما أخبر أنه سيختبرهم بهذا الصيد نهاهم أن يقتلوه، فقال جلَّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، جملة ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ في محل نصب على الحال، «والحرم» جمع حرام، والمراد به: الحرم في المكان والحرم في الحال، الحرم في المكان: بأن يكونوا في حرم مكة، والحرُم في الحال: بأن يكونوا محرمين

بحج أو عمرة، وعلى هذا لو أحرم الإنسان من ذي الحليفة فمن حين إحرامه من ذي الحليفة يدخل في الآية، ولو كان محلاً ووصل إلى مكة إلى حدود الحرم، فإذا دخل هذه الحدود فقد صار حراماً أي: يدخل في الآية أيضاً.

قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ﴾ «لا» ناهية، وعلامة كونها ناهية حذف النون.

وقوله: ﴿ٱلصَّيْدَ﴾، «أل» لبيان الحقيقة، فما هو الصيد المحرم؟

العلماء ولاسيما أهل الفقه رحمهم الله، بينوا ضابطاً لهذا، فقالوا: إنه الحيوان البري المأكول المتوحش طبعاً.

فقولنا: «الحيوان» هذا جنس، و«البري» ضده البحري، و«المأكول» ضده الحرام، و«المتوحش طبعاً» ضده المتأهل وهو الحيوان الإنسي، الذي يألف الناس في بيوتهم، هذا هو الصيد.

وعلى هذا: فحيوان البحر لا يدخل في النهي؛ لأنه ليس مراداً بهذه الآية، وإن كان صيداً لكنه بحري، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ﴾ [المائدة: ٩٦]، وهذه الآية صريحة فصَّل الله فيها وبيّن، فلو أن المحرم ذبح دجاجة فإنه ليس عليه إثم؛ لأن الدجاج من الإنسي ليس من المتوحش، ولو ذبح خروفاً فلا بأس، مع أنه بري مأكول، لكنه ليس متوحشاً، وإن كان برياً ومأكولاً، فالعبرة بالطبع وبالأصل، ولا عبرة بالوصف الطارئ، فلو توحش إنسيٌ أو استأنس وحشي، فالعبرة بالأصل، ولهذا لو أن إنساناً ربى أرنباً فهل يجوز إذا أحرم أن يذبحها؟

الجواب: لا، مع أنه رباها لأن العبرة بأصلها فهي متوحشة في الأصل، والتأهل طارئ عليها، ولو أن الدجاجة فرت وتوحشت وصارت تطير مع الطيور، هل هي حلال للمحرم أم غير حلال؟ حلال للمحرم لأن الأصل أنها متأهلة والعبرة بالأصل.

لكن لو قال قائل: الحيوانات المتوحشة هل هي محدودة أم معدودة؟

الجواب: الذي ينبغي أن يقال: يرجع للعرف إذا لم يكن معيناً بالشرع، بأنه صيد، فالجاموس مثلاً أُخبرت بأنه في بعض البلاد مستأنس وفي بعضها متوحش يخرج الناس لاصطياده في البر.

قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ﴾ النهي في قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ﴾ لئلا يَجُرَّ طلب الصيد المحرم عن نسكه، فينشغل القلب؛ لأنه لا أشد من لهو الصيود، والإنسان المبتلى باللهو بالصيد لا يقر له قرار حتى يتابع الصيد، ولهذا نسمع عن أهل الصيد أن الواحد منهم يتعب بالخروج إلى البر لطلب الصيد، ويلحقه الظمأ والجوع والشوك وحرارة الأرض وبرودة الشتاء، ولكنه لا يبالي؛ لأن قلبه مشغول، وإذا كان الله تعالى قال: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]؛ لئلا ينشغل الحاج، فانشغاله بالصيود أشد لهواً.

قوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ الجملة شرطية، «مَنْ» اسم شرط، وأسماء الشرط تفيد العموم، يعني: أي إنسان قَتَلَهُ مِنْكُمْ أيها المؤمنون متعمداً لقتله في حال إحرامه أو في حال كونه حراماً، فعليه جزاء مثل ما قتل من

النعم، وعلى هذا فقوله: ﴿فَجَزَآءٌ﴾ مبتدأ، وخبره محذوف والتقدير: «فعليه جزاؤه» أي: عليه جزاءٌ يجزي به عما قتل، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

و﴿مِّثْلُ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿فَجَزَآءٌ﴾، ولا يمكن أن نجعلها نعتاً؛ لأن (مثلُ) معرفة حيث أضيفت إلى اسم الموصول، و«جزاءٌ» نكرة، ولا تنعت النكرة بالمعرفة ولكن نجعلها عطف بيان، وعطف البيان قريب من الصفة، لكن لا يشترط فيه ما يشترط في النعت.

وقوله: ﴿مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ يعني: يكون مماثلاً له، والمراد بالمماثلة هنا: المقاربة في الخلقة؛ لأن التماثل بين الصيد وبين النعم مستحيل، أعني التماثل من كل وجه؛ لكن المراد بذلك التقارب في الخلقة.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ هي ثلاثة أشياء: الإبل والبقر والغنم وتسمى بهيمة الأنعام.

قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ﴾ أي: بهذا الجزاء، أو بهذا المثل: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ ذوا: مثنى وهي مضافة إلى عدل، أي: صاحبا عدل منكم، والعدالة: هي الاستقامة في الدين والمروءة، فمعنى ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ أي: ذوا استقامة في الدين والمروءة.

أما في الدين: ففسرها الفقهاء رحمهم الله بأن يأتي بالفرائض، وأن لا يفعل كبيرة ولا يصر على صغيرة، هذه الاستقامة في الدين.

الاستقامة في المروءة: أن لا يفعل ما يشينه عند الناس وأن يفعل ما يجمله عندهم، يعني يفعل الجميل ويدع المشين، وهذا

الأخير يختلف باختلاف الأحوال والبلدان والأزمان، قد يكون فعل شيء في بلد لا يخرم المروءة، وقد يكون في بلد آخر يخرم المروءة، والعبرة بأعراف الناس المستقيمة لا عبرة للهمج الذين حق عليهم قول النبي ﷺ: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت**»[1]، المراد: ذوو المروءة الحميدة.

قوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾: الخطاب للمؤمنين، فلا بد أن يكون الحَكم من المؤمنين، ويحتمل أن يكون الخطاب للصحابة رضي الله عنهم، فيرجع في ذلك إلى حكمهم، وسيذكر هذا في الفوائد إن شاء الله.

قوله: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾: «هدياً» حال يعني حال كون هذا الجزاء هدياً، ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾: أي: واصلاً إلى الحرم، وليس المراد إلى جوف الكعبة بإجماع المسلمين.

قوله: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ «أو» هنا للتخيير، وكلما جاءت «أو» في كتاب الله فهي للتخيير، وإن شرط الترتيب فإن الله يبيّنه عزّ وجل.

وقوله: ﴿طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ بيان للكفارة أنها طعام مساكين، وفي قراءةٍ ﴿كُفارةُ طعامِ مساكين﴾ بالإضافة، والكفارة: مأخوذة من الكَفْر بمعنى الستر، وهي الفدية التي تستر الذنب حتى لا يكون له أثر على الإنسان، لا في قلبه ولا في وجهه ولا في قومه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت، حديث رقم (٥٧٦٩) عن أبي مسعود.

وقوله: ﴿مَسَٰكِينَ﴾ المساكين: جمع مِسكين والمراد به الفقير، ويقال: فقير والمراد به المسكين؛ وذلك أن الفقير والمسكين من الكلمات التي إذا اجتمعت تفارقت وإذا تفارقت اجتمعت، أي: أنه إذا ذكر أحدها شمل الآخر، وإن اجتمعا فسر كل واحد منها بمعنى، فمثلاً هنا المسكين هو الفقير، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] المساكين غير الفقراء.

وقوله: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ ولم يبيّن الله عزّ وجل أن الطعام مماثل للصيد؛ وذلك لتعذر المماثلة؛ لأن الطعام إما بر أو شعير أو تمر أو ما أشبه ذلك، فلا يمكن أن يماثل الحمامة أو النعامة أو الظبي أو ما أشبه ذلك، بخلاف ما إذا كان من النعم فإنه يمكن أن يماثله، ولم يبيّن الله عزّ وجل مقدار هذا الطعام وسيأتي إن شاء الله بيانه في الفوائد.

قوله: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ عدل أي: معادل ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة، والإشارة تكون إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور الطعام، فيكون المعنى: أو عدل الطعام صياماً.

قوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ ﴿لِّيَذُوقَ﴾: «اللام» هنا للتعليل، و«يذوق» فعل مضارع فاعله مستتر جوازاً تقديره هو؛ لأنه يعود على «من» في قوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ﴾ و«من»: اسم موصول لفظه مفرد، ومعناه صالحٌ للمفرد والجمع، ويبيّن ذلك الضمير الذي يرجع إليه.

وعليه فنقول: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم﴾ واحد أو جماعة؟ واحد.

وقوله: ﴿لِّيَذُوقَ﴾ أي: القاتل ﴿وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي: عاقبة أمره الثقيلة؛ لأن الوبال أصله الشيء الثقيل، والمراد به هنا: العاقبة الثقيلة؛ لأن من المعلوم أن الإنسان إذا ألزم بهذا الجزاء وهو مثل ما قتل من النعم أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً، فإن ذلك يشق عليه حسب حاله.

وقوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي: وبال شأنه وحاله.

وقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ ـ الحمد لله ـ، ﴿عَفَا ٱللَّهُ﴾ أي: تجاوز ومحاه، ﴿عَمَّا سَلَفَ﴾: يعني من قتلكم الصيد؛ لأنه كان قبل التحريم، فلا يؤاخذ به العبد، وهذا نظير قول الله تبارك وتعالى فيمن ماتوا قبل تغيير القبلة وكانوا يصلون إلى بيت المقدس، فقال الله تعالى في حقهم: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أي: من عاد بعد أن تبيّن له الحكم.

قوله: ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ أي: فإن الله ينتقم منه، والانتقام الأخذ بالعقوبة، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي: ذو عزة، والعزة هي القهر والغلبة، والانتقام هو أخذ الجاني بما فعل، و«ذو» في قوله: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ خبر ثاني للفظ الجلالة، والخبر الأول ﴿عَزِيزٌ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تحريم قتل الصيد حال الإحرام أو في الحرم؛ لقوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ﴾.

الفائدة الثانية: أن قتله منافٍ لكمال الإيمان، وجه ذلك: أن الله تعالى وجه الخطاب بهذا النهي إلى المؤمنين.

الفائدة الثالثة: أن امتثال ذلك، أي: اجتناب قتل الصيد، من مقتضيات الإيمان.

الفائدة الرابعة: أن تركه: أي: ترك قتل الصيد يزيد في الإيمان؛ لأنه إذا كان قتله يُنقّص الإيمان فترك قتله يزيد فيه، وهنا نقول: من ترك المعصية هل يثاب عليها ويزداد بها إيماناً؟

الجواب: لا بد من تفصيله على النحو التالي:

الأول: أن يتركها لله عزّ وجل، بعد أن هَمَّ بها أو زُيّنت له بوساوس شياطين الإنس أو الجن، تركها لله فهذا يثاب عليها؛ لأنه تركها لله عزّ وجل، وإخلاصه لله بتركها طاعة يثاب عليها.

القسم الثاني: أن يتركها رغبة عنها، لا لله ولا لعجزه عنها، فهذا لا له ولا عليه، كإنسان هم بمعصية وتأهب لها ولكنه تركها تنازلاً، لماذا؟ قال: والله لقد ملّت نفسي، لا أريد، فهذا لا له ولا عليه، لا له؛ لأنه لم يحدث إخلاصاً، ولا عليه؛ لأنه لم يفعلها.

الثالث: من أراد المعصية وسعى لها سعيها، لكنه عجز عنها فهذا يكتب له مثل وزر فاعلها، ودليل ذلك قول النبي ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**»، قالوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه**»[1]. هذه أقسام ترك المحرم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، حديث رقم (٣١)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، حديث رقم (٢٨٨٨) عن أبي بكرة.

الفائدة الخامسة: أن ما صاده المحرم ميتة لا يحل أكله لا له ولا لغيره، سواء قتله بالسهم، أو أمسكه وذبحه فإنه ميتة، وجه الدلالة: أن الله عبر عن صيده بقتله، ومعلوم أن القتل ليس ذكاةً، فيدل هذا على أن ما قتله المحرم من الصيود فهو ميتة، هذا ما قتله المحرم، لكن ما صاده المحل فهل يحرم على المحرم؟

الجواب: الصحيح أن في هذا تفصيل وأنه إن صاده للمحرم فهو حرام على المحرم، وإن صاده لنفسه أو لغيره من غير المحرمين فهو حلال للمحرم، وعلى هذا تدل الأدلة، ففي حديث أبي قتادة رضي الله عنه أنه كان في غزوة الحديبية غير محرم، فرأى حماراً وحشياً فطلب من أصحابه أن يناولوه الرمح فأبوا عليه، ثم صاد الحمار وجاء به إليهم فأباحه النبي ﷺ مع أنهم محرمون[1]؛ لكنه لم يصده لهم وإنما صاده لنفسه، ويهدي إلى من شاء، وهذا ظاهر أنه لم يرده لهم؛ لأنه لما طلب منهم الرمح أبوا عليه، ومقتضى الطبيعة أن مثل هذه القضية لا يمكن أن يريده لهم وهم الذين منعوا أن يساعدوه.

أما الثاني: وهو إذا صِيد الصيدُ للمحرم، فدليله حديث الصعب بن جثَّامة رضي الله عنه نزل به النبي ﷺ ضيفاً، وكان رجلاً رامياً وسباقاً، فأخذ الرمح وذهب يصيد، فجاء بحمار وحشي، فرده النبي ﷺ عليه، فلما رأى ما في وجهه قال له: «**إنا لم نرده عليك إلا أنَّا حرم**»[2] يعني محرمين.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ...﴾ [المائدة: ٩٥]، حديث رقم (١٧٢٥)، ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم الصيد للمحرم، حديث رقم (١١٩٦) عن أبي قتادة.

(٢) رواه البخاري أبواب الإحصار وجزاء الصيد، باب إذا أهدي للمحرم =

الأول: حديث أبي قتادة أحله النبي ﷺ لهم، **والثاني**: امتنع منه؛ لأن الصعب إنما صاده لأجل النبي ﷺ إكراماً له؛ لأنه ضيفه، ويؤيد هذا التفصيل حديث جابر أن النبي ﷺ قال: «**صيد البر حلالاً لكم ـ يعني المحرمين ـ ما لم تصيدوه أو يصد لكم**»[1].

لو قال قائل: ما صيد للمحرم حرامٌ عليه، لكن هل يحرم على غيره، من المحرمين أو المحّلين؟

الجواب: لا؛ لأن الذي صاده حلال، وصيد الحلال حلال، فلو صاد الإنسان صيداً ولنقل صاد غزالاً وهو محل يريد أن يهديها لآخر محرم، فهي حرام على المحرم، لكن يوجد أناس محرمون آخرون تحل لهم وتحل للمحلّين من باب أولى.

الفائدة السادسة: أن اصطياد المحرم يعني أن ما صاده المحرم فهو حرام لقوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ﴾.

الفائدة السابعة: أن الجزاء إنما يلزم المتعمد، لقوله: ﴿مُتَعَمِّدًا﴾، فلو أخطأ بأن رمى شجرة وإذا فوقها صيد فأصابه، فوقع الصيد فليس عليه جزاء؛ لأنه ليس متعمداً، وإذا لم يكن متعمداً فإن مفهوم الآية الكريمة ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ﴾: فإنه لا جزاء عليه.

= حماراً وحشياً حيا لم يقبل، حديث رقم (١٧٢٩)، ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم الصيد للمحرم، حديث رقم (١١٩٣) عن الصعب بن جثامة.

(١) رواه الترمذي، كتاب الصوم، باب أكل الصيد للمحرم، حديث رقم (٨٤٦)، وأحمد (٦/ ٣٦٢) (١٤٩٣٧) عن جابر بن عبد الله.

لو قال قائل: لو كان ناسياً أنه محرم أو ناسياً أن قَتْلَ الصيد حرام فَقَتَلَ الصيد فهل عليه جزاء؟

الجواب: لا؛ ليس عليه جزاء؛ لأنه ناسي، وقد قيد الله ذلك بقوله: ﴿مُتَعَمِّدًا﴾، ويدل لهذا عمومات الأدلة الدالة على أن الجاهل والناسي ليس عليهما إثم ولا فدية ولا كفارة، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فقال الله: قد فعلت، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

وهذه القاعدة أنه لا مؤاخذة مع الجهل والنسيان وكذلك الإكراه، قاعدة عظيمة في الشريعة الإسلامية، ولا يجوز أن نخرج منها أي شيء إلا بدليل، وهذا الذي قررناه هو الصواب الذي تدل عليه الأدلة العامة والخاصة.

وقال بعض أهل العلم: إن المخطئ والناسي يرتفع عنه الإثم ولكن عليه الجزاء، وعللوا ذلك بتعليل عليل.

أولاً: لقضاء بعض الصحابة رضي الله عنهم في النعامة بدنة، وفي الحمامة شاة، وما أشبه ذلك، ولم يستفصلوا.

ثانياً: أن ما سبيله الإتلاف يستوي فيه العلم والذكر وضدهما، بدليل: أن الإنسان لو أتلف مالاً لشخص يظنه مال نفسه، فهل عليه الضمان أو لا؟ عليه ضمانه لا شك، وكذلك لو أتلفه ناسياً، فعليه ضمانه، لا إشكال في هذا، ولكن هذا التعليل عليل.

أما الأول: وهو قضاء بعض الصحابة رضي الله عنهم، ولم

يستفصلوا، فالصحابة إنما بيّنوا الواجب، يعني الواجب في قتل الصيد بقطع النظر هل على هذا القاتل جزاء أم لا؟ لأن هذا يحتاج إلى تحرير وإلى سؤال مناقشة، هل هو عالم؟، أو جاهل؟، أو ذاكر؟، أو ناسي؟ وحينئذٍ لا دليل فيما أطلقه الصحابة، إنما يريدون بيان الواجب فقط.

وأما الثاني: وهو أن الإتلاف يستوي فيه العمد والسهو والجهل، فهذا حق لكنه في حق الآدمي الذي حقه مبنيٌ على المشاحة ولئلا يتلاعب الناس بالحقوق؛ لأننا لو قلنا: إن من أتلف مال شخصٍ جاهلاً ليس عليه ضمان لتلاعب الناس بعضهم ببعض، وصار هذا يتلف مال هذا ويحرق مال هذا، ويقول: أنا ما دريت وما علمت، ولحصل بسبب هذا ضرر عظيم، فصار تضمين من أتلف مال آدمي جاهلاً أو ناسياً؛ لأن حق الآدمي مبني على المشاحة هذه واحدة؛ ولأننا لو لم نُضمِّنه لكان في ذلك فتح لأكل أموال الناس بالباطل، ونهب الناس بعضهم أموال بعض، أما حق الله عزّ وجل فهو مبني على المسامحة والمياسرة، والدين يسر، فافترقا.

إذاً: الصواب أن من قتل صيداً جاهلاً أو ناسياً أو مخطئاً فليس عليه جزاء، أما الصيد نفسه فهو ميتة لا يؤكل؛ لكن الكلام عن الجزاء.

الفائدة الثامنة: تعظيم الإحرام وتعظيم الحرم، أما تعظيم الإحرام: فإن منع المحرم من الصيد يعني احترام النسك وعدم اللهو وعدم الترف؛ لأنه لو أبيح للمحرم أن يصطاد لتلهى عن النسك، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا

فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، كل هذا لأجل أن يتفرغ الإنسان قلباً وقالباً لما هو متلبس به من النسك.

وأما حرم مكة فظاهر أيضاً أن في الآية دليلاً على تعظيمه وحرمته؛ لأن الحرم آمن كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال عزّ وجل: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: ٣]، هذا البلد آمِن فيه الآدميون والحيوان والأشجار؛ ولذلك يحرم صيده ويحرم قطع شجره إلا الميت ويحرم القتال فيه، كما قال عزّ وجل: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١].

ولأن النبي ﷺ أعلن عام فتح مكة أنه لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، وأجاب عليه الصلاة والسلام عن كونه استحلها بأنها إنما أحلت له ساعة من نهار[١]؛ لأن إحلالها يتضمن مصلحة كبرى أعظم من انتهاك حرمتها في تلك الساعة؛ ولأنه يؤدي إلى احترامها؛ لأن هناك فرقاً بين أن تكون بلاد كفر أو بلاد إسلام، ولا طريق لكونها بلاد إسلام في ذلك الوقت إلا بالقتال، فالقتال أحل للضرورة؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس**»[٢]،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحج، باب لا ينفر صيد الحرم، حديث رقم (١٧٣٦)، ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها، حديث رقم (١٣٥٥) عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري، كتاب الحج، باب لا يعضد شجر الحرم، حديث رقم (١٧٣٥)، ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها، حديث رقم (١٣٥٤) عن أبي شريح.

وقال: «**إن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ، فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم**»[١]، جواب سديد، ولله تبارك وتعالى أن يأذن لمن شاء من خلقه.

الفائدة التاسعة: أن الواجب في قتل الصيد يعني في جزائه، واحد من أمور ثلاثة: إما المثل وإما إطعام مساكين وإما صيام يعادل ذلك، على التخيير أو على الترتيب؟ على التخيير، وكلما وجدت «أو» في القرآن فهي على التخيير، كقوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وكقوله تعالى في كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّارَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩].

في هذه الآية جزاء مثل ما قتل أو ﴿كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾، فهو للتخيير.

فيخيّر الإنسان الذي قتل الصيد بين أن يهدي مثله إلى الحرم ـ وسيأتي كيف يعرف المثل ـ أو كفارة طعام مساكين، ولم يذكر الله تبارك وتعالى مقدار هذا الطعام، فهل نقول في قوله: ﴿كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾: إن أقل الجمع ثلاثة، وأنه لو أطعم ثلاثة مساكين كفى، أو نقول: ما دامت المسألة معادلة فلا بد أن يكون هذا الإطعام معادلاً إما للصيد نفسه وإما لمثل الصيد؟

الاحتمال الأول: وهو أن يكون طعام ثلاثة مساكين، هذا غير صحيح.

بقي عندنا أن يعادل بالصيد أو بمثل الصيد، هذا اختلف فيه العلماء، فقيل: إنه يقوّم الصيد بما يساوي من طعام ثم يطعم هذا

---

(١) تقدم وهو جزء من الحديث السابق.

الطعام للمساكين، وقيل: إنه يقوّم المثل ويشترى بقيمته طعامٌ يطعم المساكين، لكن أيهما أحظ للفقراء؟ يختلف، أحياناً يقوّم المثل، فيكون المثل أغلى، وأحياناً يكون الصيد أغلى، النعامة مثلاً كم تساوي؟ أحياناً ترتفع قيمتها حتى تكون قيمتها أكثر من قيمة البدنة عشر مرات، وأحياناً تكون رخيصة وقيمة البدنة أكثر منها.

فالعلماء رحمهم الله منهم من جنح إلى أن الذي يقوّم الصيد، ومنهم من قال: بل الذي يقوّم المثل، ولو ذهب ذاهب وقال: إنه يُنظر الأحظ للمساكين، فإن كان الأحظ تقويم المثل قوّمناه، وإن كان الأحظ تقويم الصيد قوَّمناه، لو ذهب ذاهب هذا المذهب لكان مذهباً جيداً، قياساً على قيمة عروض التجارة في الزكاة تقوّم بالدراهم أو بالدنانير؟ إذا كانت تبلغ النصاب بالذهب ولا تبلغه بالفضة، أو بالعكس بماذا نقومها؟ بالأحظ للفقراء، إن كان الأحظ أن تقوّم بالدنانير قومناها بالدنانير، وإن كان الأحظ أن تقوّم بالدراهم قومناها بالدراهم.

فلو قيل في هذه المسألة: إنه ينظر إلى الأحظ للمساكين؛ لأن الطعام طعامهم، فما كان أحظ عمل به، لكان له وجه، ولكن هذا الوجه يقابله وجه آخر وهو أن الأصل براءة الذمة، فلا نكلف القاتل أكثر مما يجب عليه، وعلى هذا التقدير يُنظر للأقل، إن كان تقويم الصيد أقل أخذ به، وإن كان تقويم المثل أقل أخذ به، فالآية عندي محتملة، والإنسان نرجو إذا أخذ بهذا لا يأثم وبهذا لا يأثم.

تقدم في قواعد التفسير:

أولاً: من أين تأخذ التفسير.

ثانياً: النسخ وقد تقدم.

ثالثاً: المكي والمدني.

المكي والمدني: نسبة إلى مكة وإلى المدينة، لكن قد يتبادر إلى الذهن أن المكي ما نزل بمكة، والمدني ما نزل بالمدينة، ولكن المشهور عند أهل العلم أن المكي ما نزل قبل الهجرة، وأن المدني ما نزل بعد الهجرة، حتى لو كان في مكة، هذا الذي عليه الجمهور، وهو أضبط من أن نقول: المكي ما نزل بمكة والمدني ما نزل بالمدينة؛ لأن هناك قسماً ثالثاً وهو: أن بعض الآيات نزلت في السفر لا في مكة ولا في المدينة، وأيضاً: انضباط هذا صعب، أي: أن نقول هذه الآية نزلت في مكة، وهذه الآية نزلت في المدينة، ووجه صعوبته أنَّ ترتيب القرآن الكريم ليس على حسب النزول، وإذا لم يكن على حسب النزول صعب التمييز، فما ذهب إليه الجمهور هو الصواب، أن المكي ما نزل قبل الهجرة ولو نزل في المدينة أو في أي مكان.

وقولنا: «ولو نزل في أي مكان» هذا على فرض، وإلا من المعلوم أن الرسول ﷺ ما ذهب إلى المدينة إلا بعد الهجرة، وأن المدني ما نزل بعد الهجرة ولو نزل في مكة أو أي مكان.

ثانياً: نرى بعض الأحيان أن بعض العلماء رحمهم الله يقول: هذه السورة مكية إلا آية كذا وكذا، هذه السورة مدنية إلا آية كذا وكذا، وهذا الاستثناء يحتاج إلى دليل، أما مجرد أنه اشتهر فهذا لا يقبل، لأنه مرسل، إذ لا بد من سند من الراوي إلى الرسول ﷺ وإلا فلا يقبل.

فالأصل أن جميع آيات السور المكية مكية، وأن آيات السور المدنية مدنية، إلا أن يكون هناك دليل صريح فحينئذٍ نوافق عليه، ثم إن الغالب في الآيات المكية التحدث عن التوحيد وعن البعث؛ لأن المقام يقتضيه، فقد نزل بين قوم ينكرون التوحيد وينكرون البعث، ولهذا نجد في الآيات المكية أكثر ما يكون التحدث عن التوحيد، لكن في الآيات المدنية أكثر ما يكون في فروع الدين والمعاملات وما أشبه ذلك؛ لأن الناس قد ثبت ورسخ في قلوبهم التوحيد والإيمان بالبعث، وبقية شرائع الإسلام الأخرى، فنجد السور المدنية تتحدث عن هذا.

هناك أيضاً أمر آخر وهو: أننا نجد أن قصة موسى عليه الصلاة والسلام تكررت كثيراً في القرآن أكثر من غيرها، على وجه الاختصار أحياناً وعلى وجه البسط أحياناً؛ وذلك لأن الرسول عليه الصلاة والسلام عَلِمَ الله عزّ وجل أنه سوف يرتحل إلى المدينة، والمدينة فيها أُناس من اليهود، واليهود أهل كبر وغطرسة، فكان من الحكمة أن النبي ﷺ يعلم عن قصة موسى جملة وتفصيلاً بسطاً واختصاراً، حتى يكون على أهبة الاستعداد لما سيواجه من هؤلاء اليهود، وحتى يكون ما ذكر في القرآن الكريم مطابقاً تماماً لما جاء في صحيح التوراة، فيشهد علماء بني إسرائيل على أن القرآن حق، كما قال عزّ وجل: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٧].

أيضاً: جميع الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم كلهم من الجزيرة وما حولها؛ لأن هذا هو الذي يعرفه العرب ويتداولونه، أما ما في المناطق والقارات الأخرى فإنه لم يأتِ

عنهم ذكر على وجه التفصيل، لكننّا نعلم أن الله قد بعث إليهم رسولاً، كما قال عزّ وجل: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، لكن الله لم يقصهم علينا؛ لأنه قصّ علينا ما كان الناس يعرفونه ويتداولونه، حتى يميز الصحيح من غير الصحيح، وحتى تكون الأخبار المتداولة مؤيدة لما في القرآن، والقرآن مؤيد لها.

أيضاً: بالنسبة لما يهمنا من العلم بالمكي والمدني، هو أن نعرف أن البلاغة تقتضي مخاطبة الناس بما تقتضيه أحوالهم، ففي المكي نجد الآيات شديدة قوية؛ لأنها تصادم أناساً أشداء أقوياء بلغاء فصحاء، ونجد الآيات المدنية في غالبها سهلة لينة؛ لأنها تخاطب أناساً قد رسخ في قلوبهم الإيمان ولا يحتاجون إلى شدة، وهذا ظاهر، اقرأ سورة القمر تجد كيف كانت آياتها عظيمة تزلزل القلب في الواقع لمن تأملها جيداً؛ لأنها تتحدث بين قوم عتاة مستكبرين، فكانت الآيات مناسبة تماماً لمقتضى الحال، وهذا هو غاية البلاغة.

أما هل تنسخ الآيات المكية بالآيات المدنية؟ نعم قد تنسخ؛ وقد قررنا أن المدني ما نزل بعد الهجرة، إذا كان فيه حكم مخالف لما في الآيات المكية ولم يمكن الجمع، قلنا: إن السور المدنية ناسخة للسور المكية، والله أعلم.

لكن بماذا تكون المماثلة هل هي بالحجم أو بالشبه أو بماذا؟

المماثلة تكون بالشبه ولكن لا تلزم المطابقة، حتى إن العلماء قالوا رحمهم الله بل الصحابة رضي الله عنهم قالوا: إن الحمامة فيها شاة، لكن في أي شيء تشبه الحمامة الشاة وكيف

تكون مثلها الحمامة تطير والشاة لا تطير، الشاة تختلف عن الحمامة بأنها ذات أربع أرجل والحمامة ذات رجلين؟ وجه المماثلة بينهما أنها تشبه الحمامة في الشرب، أي: شرب الماء، فالحمامة تعُب الماء، والشاة تعُب الماء، يعني هي لا تشرب جرعة جرعة، الآن نجد الدجاجة مثلاً لا تعب الماء بل تشرب جرعة جرعة، فالمماثلة نجدها أحياناً في شيء يسير.

فإن قال قائل: قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، هل هذا يختلف باختلاف الزمان؟ بمعنى أن نجعل في كل سنة حكاماً يحكمون بالمثل، أم ماذا؟

نقول: إن العلماء رحمهم الله قالوا: ما حكمت به الصحابة فإنه لا يغير؛ لأن الصحابة أقرب إلى فهم القرآن الكريم من غيرهم؛ ولأنهم يعيشون في الجزيرة ويعرفون المشابهة، فقولهم أحق بالاتباع من غيرهم، وعلى هذا فما قضت به الصحابة لا يغير، حتى لو جاء متحذلق وقال: هذا الجزاء ليس مثل الصيد فإننا لا نقبله مهما بلغ في الطب ومهما بلغ في الخبرة، وما حكم به الرسول عليه الصلاة والسلام من باب أولى، فإنه عليه الصلاة والسلام جعل في الضبع شاة، وعليه فتكون الشاة مماثلةً للضبع، ويستدل بهذا الحديث على أن الضبع حلال وأنها من الصيد، وبهذا استدل الإمام أحمد رحمه الله على حل الضبع، وأما ما لم تحكم به الصحابة فهل يرد إلى أقرب شيء حكمت به الصحابة، ونقول مثلاً: إذا كان هذا الصيد الذي لم تحكم به الصحابة مماثلاً للصيد الذي حكمت به الصحابة أو مقارباً له جعلنا فيه ما حكمت به الصحابة، أو نستأنف حكماً جديداً؟

الصواب الأول؛ لأن ما يشبه ما قضت به الصحابة يكون مقيساً عليه، والقياس أولى من الحكم المتجدد؛ لأنه قد يتجدد حكم يخالف تماماً ما قضت به الصحابة، أما ما لم يشبه ما قضت به الصحابة فإنه يرجع فيه إلى قوله: (شاهدين) أي: حَكَمين، ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، لكن ماذا يستلزم الحكم؟ يستلزم الخبرة، بأن يكون الحكمان ممن لهما خبرة بمعرفة الصيود وما يقاربها أو يشابهها من النعم هذا الأول.

والثاني: الأمانة، بأن يكون عندهما أمانة بحيث لا يحكمونها لشخص بهذا المثل ولشخص آخر بخلافه، لا بد أن يكونا أمناء خبراء؛ وذلك بناء على القاعدة المعروفة التي دل عليها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، ﴿القوي﴾: يعني ذا الخبرة أو القوي على العمل، وقوة كل شيء بحسبه، وقال الجني لسليمان، أي: عفريت من الجن قال له: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ أي: بعرش ملكة سبأ ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩]، فهذان الركنان في كل عمل: القوة والأمانة.

الفائدة العاشرة: أنه لا بد من العدالة في الحكمين؛ لقوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، والأمانة التي ذكرناها هي جزء من العدالة.

فإن قال قائل: وهل يصح أن يكون القاتل أحدهما، أي: أحد الحكمين، مثل أن يكون هذا القاتل عنده خبرة وعنده علم، وقال: أرى أن هذا الصيد مماثل لهذا النوع من النعم، فهل يقبل قوله مع واحد آخر؟

فيه خلاف، لكن لا بد من توبته، أما إذا لم يتب فمن المعلوم أنه ليس من ذوي العدالة فلا يقبل، ولكن إذا علمنا أن الرجل ندم وتأسف وتاب إلى الله وقال: أنا عندي معرفة، فمن العلماء من قال: يقبل قوله، ومنهم من قال: لا يقبل قوله؛ لأنه متهم، فهو في الحقيقة يحكم لنفسه فلا يقبل.

الفائدة الحادية عشرة: أن جزاء الصيد لا بد أن يصل إلى الحرم؛ لقوله: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾، فلو قدر أن إنساناً أحرم من ذي الحليفة وقتل صيداً في بدر، فإنه يجب عليه أن يجزي هذا الصيد في مكة ولا بد، بخلاف غيره من المحظورات، فإن غيره من المحظورات غير جزاء الصيد يكون في المكان الذي حصل فيه فعل المحظور، بدليل أن النبي ﷺ أمر كعب بن عجرة أن يفدي عن حلق رأسه في مكانه ليس في مكة[1]، وعلى هذا فيقال: جميع محظورات الإحرام يجوز أن يفدي عنها في مكانه، إلا الصيد فإنه يجب أن يكون في مكة، ولو كان قتله خارج الحرم.

فإن قال قائل: وهل يجوز أن ننقل فدية غير جزاء الصيد إلى مكة؟

قال العلماء رحمهم الله: إنه يجوز أن ينقل إلى مكة؛ لأن هذه الفدية إنما وجبت لشيء يتعلق بالإحرام، ومنتهى الإحرام

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ [البقرة: ١٩٦]، حديث رقم (٤٢٤٥)، ومسلم، كتاب الحج، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى...، حديث رقم (١٢٠١) عن كعب بن عجرة.

مكة، فيجوز أن يؤخر الفدية إلى الوصول إلى مكة، وليست كالزكاة تفرق في مكانها، ثم إن الغالب أن إيصاله إلى مكة أشق على الإنسان مما لو فداه في مكانه، وهذا صحيح، يعني معناه من وجبت عليه فدية محظور فله أن يفديها في مكانه، وله أن ينقلها إلى مكان آخر.

الفائدة الثانية عشرة: أن للإنسان أن يعدل عن جزاء الصيد من النعم إلى الكفارة بإطعام المساكين، لقوله: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾، وهل له ذلك على التخيير أو على الترتيب؟ على التخيير؛ لأن «أو» كلما جاءت في القرآن في الأحكام الشرعية فهي للتخيير.

الفائدة الثالثة عشرة: أن الفداء كفارة للذنب وستر له في الدنيا وفي الآخرة، لقوله: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾.

الفائدة الرابعة عشرة: أن هؤلاء المساكين لا يحصرون بعدد معين بل له أن يطعم ثلاثة أو عشرة أو عشرين أو ثلاثين؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ أطلق «كفارة طعام مساكين» وأقلهم ثلاثة.

الفائدة الخامسة عشرة: أن للإنسان أن ينتقل في جزاء الصيد عن المثل وعن الإطعام إلى الصيام، لقوله: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾، ولكن كيف المعادلة؟

قيل: المعادلة أن يصوم عن كل نصف صاع يوماً، واستدل هؤلاء العلماء بأن النبي ﷺ جعل نصف الصاع يعادل لما ذكر في فدية الأذى، قال لكعب بن عجرة رضي الله عنه: صُم ثلاثة أيام، بدل إطعام ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع.

وقال بعض أهل العلم: بل يقدر الطعام ثم يوزع على كل مسكين مُد، لكن إذا كان الطعام كثيراً لزم أن تكون أيام الصيام كثيرة، إذا قدرنا مثلاً أن الطعام قدر بخمسين صاعاً، وقلنا: المسكين يطعم بمُد، ستكون مائتي يوم، لكنَّ بعض أهل العلم قال: إنه لا يتجاوز بالصيام ستين يوماً؛ لأن أعلى ما ورد في الكفارة بالصيام شهران، وهي ستون يوماً، أما أن نلزمه بأن يصوم ستة أشهر أو ما أشبه ذلك فهذا يحتاج إلى دليل، فنقول: إننا نقدر الصيام ولكننا لا نتجاوز أكثر الكفارات وهي ستون يوماً، والمسألة لم تنضج عندي كثيراً.

الفائدة السادسة عشرة: جواز التعزير بالمال؛ لأن هذا القاتل أُلزم بهذه الفدية ليذوق وبال أمره، فهو نوع من التعزير، وهذه المسألة اختلف العلماء رحمهم الله فيها، فمنهم من قال: إنه لا تعزير بالمال إلا ما جاءت به الشريعة فقط، ولا يتجاوز، فالغال من الغنيمة مثلاً يحرق رحله كله إلا السلاح، وكاتم الضالة تضاعف عليه العقوبة، فما ورد به النص أخذنا به، وما لم يرد به النص فإننا لا نعزر بالمال؛ لأن المال إذا عزرنا به فقد أخذنا أموال الناس بغير حق، وأموال الناس محترمة، ولكنَّ الصواب المقطوع به بلا شك، أنه يجوز التعزير بالمال.

فإننا نقول: ألستم تجيزون أن نعزر بالضرب؟

الجواب: بلى، وهل الضرب محرم أو غير محرم في الأصل؟ محرم، فليس التعزير بالمال أشد من التعزير بالضرب، قد تكون إهانة الإنسان بضربه أمام الناس أشد عليه من آلاف الريالات، فالصواب أنه يجوز التعزير بالمال ويجوز التعزير

بالضرب ويجوز بالحبس ويجوز بعزله عن وظيفته، ويجوز بتخجيله بين الناس؛ لأن المقصود هو تأديبه، لكن لا يجوز التعزير بقطع عضو من أعضائه، هذا حرام لا يجوز؛ لأن قطع العضو لا يستخلف وهو جناية على النفس واضحة.

الفائدة السابعة عشرة: سعة عفو الله عزّ وجل، لقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾.

الفائدة الثامنة عشرة: أن من فعل محظوراً قبل العلم بالشرع فإنه لا إثم عليه ولا كفارة ولا جزاء، هل يمكن أن نأخذ هذه الفائدة من الآية أو لا يمكن؟ ننظر، قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾، «ما سلف» فَعَلَهُ الصحابة قبل نزول حكمه، فهو أصلاً لم يحرم، وأما إذا كان الإنسان جاهلاً فقد فعله بعد نزول حكمه ويكون هذا المانع من العلم خاصاً به، فبينهما فرق، يعني: هناك فرق بين شخص فعل محظوراً لم يحرم، وشخص آخر فعل محظوراً قد حرم ولكنه جاهل، فالصورتان لا شك أنهما مفترقتان، لكن يقال: لماذا عفا الله عنه؟ للجهل لا شك؛ لأن الحكم لم ينزل.

فالصواب: أن جميع الشرائع لا تلزم مع الجهل، لكن ربما يكون الإنسان قد فرط وقصر في الطلب، بمعنى أنه قيل له: إن هذا واجب أو إن هذا حرام وقصر في طلب الحق، وصار كما يقول العوام الذين يستدلون بالقرآن إذا كان موافقاً لهواهم: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، وهذا تنزيل للقرآن في غير محله، فالصحيح على كل حال أن الجاهل معذور لا يأثم، ولا تلزمه كفارة ولا غير ذلك.

فإن قال قائل: ينتقض هذا عليكم بقصة ذلك الرجل الذي جامع زوجته في رمضان[١]، وأتى يستفتي النبي ﷺ فإنه لا يدري ماذا عليه؟

الجواب: أن الرجل ليس جاهلاً، الرجل عالم بالحكم، لكنه جاهل بما يترتب على الحكم، والجهل بما يترتب على الحكم ليس بعذر؛ لأن الفاعل قد انتهك المحظور عن علم فليس له عذر، وعليه فيفرق بين الجهل بالحكم والجهل بما يترتب على الحكم.

ومثل ذلك لو أن رجلاً يعلم أن الزنا حرام فزنا وهو ثيب، فحده الرجم، فقال: أمسكوا، لو علم أن حده الرجم ما زنا، فنقول: لا نمسك؛ لأن الجهل بما يترتب ليس بعذر، أنت الآن فعلت الزنا معتقداً أنه حرام وتعلم أنه حرام، فلا عذر لك.

ولهذا لو سألك سائل، قال: ما تقول فيمن زنا وهو جاهل أتقيم عليه الحد أم لا؟ إن قلت: لا، أخطأت، وإن قلت: نعم، أخطأت، فأقول: إن كان جاهلاً بالحكم فلا يقام عليه الحد، وإن كان جاهلاً بالعقوبة أقيم عليه الحد.

لو قال قائل: ذكرتم أن الجاهل يعذر ألا يشكل على هذا قصة أسامة رضي الله عنه لما قتل الرجل الذي قال: لا إله إلا الله، قتله إما جاهلاً وإما مجتهداً ومخطأً، ومع ذلك غضب النبي ﷺ غضباً شديداً، نرجو الجواب عن هذا؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر، حديث رقم (١٨٣٤)، ومسلم، كتاب الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم...، حديث رقم (١١١١) عن أبي هريرة.

الجواب: أسامة رضي الله عنه متأول، وأما غضب النبي عليه الصلاة والسلام فلأن مسألة القتل مسألة خطيرة، أليس المخطئ عليه الكفارة؟

الجواب: بلى، فالقتل له شأن خاص، لكن لو قيل: هل غضب النبي ﷺ تأديباً أم تحذيراً؟

الجواب: تحذيراً، وإلا لقتله؛ لأنه قتل نفساً معصومة، هذا الرجل لما قال: لا إله إلا الله، عصم دمه حتى يتبين خلاف ما قال، ولذلك الآن في حرب الأفغان مع الروس بعضهم إذا أدركه المقاتلون يقول: أشهد أن لا إله إلا الله.

الفائدة التاسعة عشرة: إثبات العفو لله عزّ وجل، ومن أسمائه تعالى العَفُو، وفي الدعاء المأثور الذي ذكره النبي ﷺ لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين سألته: أرأيت يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: قولي: «**اللهم إنك عفوٌ تحب العفو فاعفُ عني**»[1] تحب العفو منك لعبادك والعفو من عبادك لإخوانهم فاعفُ عني، فما هو العفو؟

العفو: هو عدم المؤاخذة على الذنب، والأكثر أن العفو في ترك الواجب والمغفرة في فعل المحرم.

الفائدة العشرون: تهديد من عاد إلى قتل الصيد بعد علمه، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب، حديث رقم (٣٥١٣)، والنسائي في الكبرى، كتاب التعبير، باب العفو، حديث رقم (٧٧١٢)، وابن ماجه، كتاب الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية، حديث رقم (٣٨٥٠)، وأحمد (٦/ ١٧١) (٢٥٤٢٣)، والحاكم (١/ ٧١٢) (١٩٤٢) عن عائشة.

الفائدة الحادية والعشرون: إثبات الاسم الكريم، (العزيز) لله عزّ وجل، والعزيز بمعنى: الغالب الذي لا يغلبه أحد، والعزيز بمعنى: الذي يمتنع عليه النقص بأي وجهٍ من الوجوه، والعزيز: هو ذو العزة التي تكسب من اتصف بها قدرةً وسلطاناً وغير ذلك.

الفائدة الثانية والعشرون: أن الله تعالى ذو انتقام من المجرمين، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، ولهذا لا يوصف الله تعالى بالانتقام مطلقاً ولا يسمى بالمنتقم؛ لأن الله تعالى قيد الانتقام بالمجرمين، فنقيد ما قيده الله عزّ وجل، وهنا كلمة ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لا تدل على أنه وصف مطلق لله بل ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي: صاحب انتقام فقط، لكن ممن؟ من المجرمين.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المائدة: ٩٦].

قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ﴾ لما بيَّن الله عزّ وجل في الآيات الماضية حكم صيد البر للمحرم، ذكر حكم صيد البحر فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ والمحل هو الله عزّ وجل؛ لأنه هو الذي بيده التحليل والتحريم والإيجاب، وقوله: ﴿لكم﴾ الخطاب للمقيمين في البلاد بدليل قوله: ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ﴾ أي: السائرين، أي: المسافرين يتزودونه في أمتعتهم.

وقوله: ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ صيد بمعنى: مصيد وهو ما أخذ حياً، ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ ما يطعم بدون صيد، وهو ما يلفظه البحر من السمك والحوت، فيكون على هذا كل ما في البحر حلال كما سيأتي إن شاء الله في الفوائد.

وقوله: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ ﴿مَتَٰعًا﴾: مفعول من أجله، أي: من أجل أن تتمتعوا به، وقد بَيَّن الله تعالى في آيات أخرى أنه سخر البحر لنأكل منه لحماً طرياً، وكما هو مشاهد الآن أن لحم البحر من أطيب اللحوم.

قوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ ﴿وَحَرَّمَ﴾: المُحرِّم هو الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ هل المراد بصيد البر مصيده، أي: ما صيد، أو المراد: أن تصيدوه؟ الثاني هو المراد؛ لأن المصيد فيه تفصيل على ما سبق، يعني حرم عليكم أن تصيدوا صيد البر، وهذا المعنى يحتاج إلى تقدير، والتقدير: صيدكم صيد البر؛ لأن البر لا يصاد، فلا بد من تقدير، أما إذا قلنا: إن الصيد بمعنى المصيد، فإنه لا حاجة إلى التقدير، ويكون المعنى صيد البر، يعني ما صيد فيه، وقد سبق أن الصيد المحرم: كل حيوان، بري، حلال، متوحش.

وقوله: ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي: حالة كونكم محرمين حتى تحلوا.

قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ اتقوا الله: بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وهذا أعم ما قيل في تفسير التقوى أنها اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: صفة للاسم الكريم الله، و﴿إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾: صلة الموصول، وقدم الجار والمجرور على عامله لإفادة الحصر ولتناسب رؤوس الآيات، ففي ذلك فائدة معنوية وفائدة لفظية:

الفائدة المعنوية: الحصر، وهذه قاعدة معروفة عند البلاغيين والأصوليين أنه إذا قدم ما حقه التأخير فإنه يفيد الحصر.

والفائدة اللفظية: مناسبة رؤوس الآيات، ومعنى تحشرون: أي: تجمعون إليه وذلك يوم القيامة، فإن الناس يحشرون إلى الله تبارك وتعالى كما جاء ذلك في السنة مبيناً، وفي هذا تهديد يعني: أنه لا مفر لكم من الله عزّ وجل فاتقوه.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: حل صيد البحر للمحلين والمحرمين، لقوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمًاۗ﴾.

الفائدة الثانية: أنه لو وجد ماءٌ فيه سمك داخل حدود الحرم فإنه يكون حلالاً لعموم قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ ثم قال: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمًاۗ﴾ وهذا هو القول الراجح، وقال بعض أهل العلم: بل هو حرام وفيه الجزاء؛ لأنه في مكان آمن، وقال آخرون: هو حرام لكن لا جزاء فيه، ولكن ظاهر الآية الكريمة أنه حلال.

الفائدة الثالثة: أن جميع حيوان البحر حلال، يؤخذ من الإضافة في قوله: ﴿صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ﴾ والإضافة تقتضي العموم، فيشمل كل ما في البحر من سمك وحيتان صغير وكبير مشابه

للإنسان، أو مشابه للذئاب، أو مشابه للخنزير، أو مشابه لأي شيء؛ لأنه عام ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾.

الفائدة الرابعة: أن جميع ما في البحر مما يطعم من سمك وأشجار وغيرها حلال؛ لعموم قوله: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾.

الفائدة الخامسة: بيان حِكمة الله عزّ وجل في حل صيد البحر دون صيد البر؛ لأن الأول تناوله سهل، ولا يلهو به الإنسان كما يلهو به في صيد البر، ثم هو صيد خفي في باطن المياه فلا يكون كالصيد الظاهر على سطح الأرض.

وقد تقدم أن الحكمة من تحريم صيد البر لئلا يتلهى الإنسان وينساب وراء الصيود، وأما البحر فلا يتأتى فيه ذلك، **أولاً**: لأن البحر لا يكاد أحد يُحْرِمُ منه إلا من مر به، **وثانياً**: حتى لو فرضنا أن أحداً من الناس أحرم من البر فيجوز أن يخوض البحر ويصيد، لكن هذا نادر، ولهذا لا حكم له.

وحدود الحرم ليس فيها بحر، لكن لو فرض وجود بحيرة اصطناعية فيها سمك فإنه يكون حلالاً؛ لأنه من صيد البحر.

فإذا قال قائل: ما ضابط البري والبحري؟

الجواب: يقول العلماء: إذا كان أكثر حياتها في البحر فهي بحرية ولو عاشت في البر، وبعضهم يقول: ما دامت عاشت في البر فإنها غير بحرية، إلا إذا كان عيشها في البر كحركة المذبوح، فكثير من الأسماك الكبار لا تموت فور خروجها من الماء، بل تبقى ساعات لكنها تكون مضطربة مغماة عليها وتموت بعد ذلك، أما إذا كانت تعيش في البر والبحر فالمعتبر الأكثر؛ لأن الوصف الغالب هو الذي يعتبر، وبعضهم يقول: تحرم تغليباً لجانب الحظر، وأنا أرى الاحتياط أن يتركها، لكن لو فرض أنه وجد

ميتة من صيد البر أو ميتة مما يعيش في البر والبحر، فالتي تعيش في البر والبحر أولى.

الفائدة السادسة: الإشارة إلى جواز ادخار لحم البحر، لقوله: ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ يعني: السائرين في السفر، وهل مثل ذلك لحم صيد البر في غير الإحرام؟

الجواب: نعم، لكن يشترط في ذلك ألا يصل إلى حد الضرر، فإن وصل إلى حد الضرر بأن أنتن وقبحت رائحته، وخيف على الإنسان منه، صار إما مكروهاً وإما حراماً، لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

لكن لو قال قائل: هذه الآية والتي قبلها تدل على أن الشيء الذي يؤدي إلى الهلاك هو الحرام، وما دون القتل لا يدخل في الآية؟

الجواب: نقول: استدل عمرو بن العاص رضي الله عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ على جواز التيمم لخوف البرد أو المرض، فأقره النبي ﷺ على ذلك[1].

الفائدة السابعة: تحريم صيد البر على المحرمين، لقوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ وقد تقدم هل المراد مصيده أو صيده؟ فإن كان المراد صيده فالأمر ظاهر ولا إشكال فيه، أنه

---

(١) رواه البخاري معلقاً، كتاب التيمم، باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش تيمم، وأبو داود، كتاب الطهارة، باب إذا خاف الجنب البرد أيتيمم، حديث رقم (٣٣٤)، وأحمد (٤/ ٢٠٣) (١٧٨٤٥) عن عمرو بن العاص.

يحرم على المحرم أن يصيد صيد البر، لكن إذا قلنا: المراد المصيد، فهل نأخذ بعموم الآية، ونقول: إن المصيد من البر حرام على المحرم سواء صاده هو أو صيد لأجله أو صاده حلال لغيره؟ وقد تقدم الخلاف في هذا، وأن بعض العلماء يقول: إن المحرم لا يجوز أن يأكل من صيد البر سواء صيد له أو صيد لغيره أو صاده بنفسه، وتقدم فيما سبق أن القول الراجح من أقوال العلماء: أنه إن صاده المحرم فهو حرام، وإن صيد له فهو حرام، وإن صاده حلال لنفسه فهو حلال للمحرم، وهذا هو القول الراجح الذي تجتمع به الأدلة.

الفائدة الثامنة: أنه لا يحل صيد البر لمن حل التحلل الأول، وجه ذلك: أن من حل التحلل الأول لم يزل محرماً، باقٍ عليه من محظورات الإحرام النساء، هذا ما ذهب إليه بعض أهل العلم، وقال: إنه لا يحل الصيد بعد التحلل الأول كما لا تحل النساء، ولكن قد دلت السنة على أنه إذا حلَّ التحلل الأول حل له كل شيء إلا النساء.

بقي أن يقال: الذي يحلل التحلل الأول سيكون في منى، ومنى من الحرم، فهل تجيزون للمحرم في هذا المكان أن يصيد؟

الجواب: لا، لا نبيح له ذلك؛ لأنه في الحرم وصيد الحرم حرام على المحل وعلى المحرم، لكن لو فرض أن هذا المحرم خرج إلى عرفة وعرفة من الحل، فهل يجوز أن يصيد أو لا؟ ينبني على الخلاف، من قال: إن الصيد لا يحل بالتحلل الأول قال: لا يحل أن يصيد، ومن قال: إنه يحل له كل شيء إلا النساء وهو القول الراجح قال: له أن يصيد.

الفائدة التاسعة: وجوب تقوى الله والحذر من مخالفته فيما فرضه من هذه الأحكام، لقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

الفائدة العاشرة: التحذير من عقوبة اليوم الآخر، لقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

الفائدة الحادية عشرة: إثبات اليوم الآخر الذي يكون به الحشر إلى الله عزّ وجل، لقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

الفائدة الثانية عشرة: أن الحشر إلى الله لا إلى غيره فهو الذي يتولى عقاب عباده أو إثابتهم، وهو نظير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [المائدة: ٩٧].

هذه أربعة أشياء جعلها الله تعالى قياماً للناس:

الأول: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾، هذا الجعل هل هو جعل شرعي، أو جعل كوني، أو هما جميعاً؟ الظاهر الثالث، أن الله جعل ذلك كوناً وشرعاً.

قوله: ﴿ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ الكعبة في الأصل: هي البناء المربع، لكن قوله: ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ خرج به كل مربع سوى الكعبة المشرفة، وعلى هذا لو أن إنساناً بنى كعبة، يعني: بنى بناءً مربعاً وقال: هذه كعبة حجوا لها، قلنا: لا؛ لأن الكعبة التي جعل الله قياماً هي البيت الحرام، وهي الخاصة، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ وصفاً مخرجاً لغيره، وليس بياناً أو بدلاً بل هو وصف مخرج لغيره من الكعبات.

وقوله: ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي: ذا الحرمة، وحرمة مكة أمر معروف.

قوله: ﴿قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ وفي قراءة: ﴿قِيَمًا لِّلنَّاسِ﴾، ﴿قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ أي: تقوم به مصالح دينهم ومصالح دنياهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النساء: ٥]، أي: تقوم بها مصالح الدين والدنيا.

إذاً: الكعبة جعلها الله تعالى قياماً للناس، تقوم بها مصالح دينهم ودنياهم، أما مصالح الدين فظاهرة، حج وعمرة بما فيهما من الأنساك، وأما مصالح الدنيا فقد قال الله تعالى مشيراً إليها: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٢٨]، ثم إن هذه الكعبة يجبى إليها ثمرات كل شيء رزقاً من عند الله عزّ وجل.

الثاني: ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي: وجعل الشهر الحرام قياماً للناس، وهل المراد به الجنس أو شهر واحد؟ المراد به: الجنس، فيشمل الأشهر الأربعة، وهي: ذو القَعْدَة، وذو الحِجة، والمُحرَّم، ورجب، وإنما جعل الله الأشهر الحرم قياماً للناس؛ لأنهم يأمنون فيها، حيث إن القتال فيها محرم، حتى في الجاهلية لا يمكن أن يكون قتالٌ في هذه الأشهر الأربعة، أما الثلاثة الأولى؛ فلأنها أشهر الحج، يعني الأشهر التي يسافر الناس فيها إلى مكة ويرجعون منها، يسافرون في ذي القعدة، ويرجعون في المحرم، ومن المعلوم أن المحرم ليس من أشهر الحج لكن بدل عنه شوال، لكنه من حرمات الحج؛ لأن الناس يسافرون في شهر ذي القعدة للحج ويرجعون في شهر محرم، ولهذا كانوا في الجاهلية لا يمكن أن يعتدي أحد على أحد في هذه الأشهر أبداً، حتى لو وجد قاتل أبيه لم يقتله.

«رجب»: هذا أيضاً شهرٌ معظم في الجاهلية، كالأشهر الثلاثة، لا يمكن القتال فيه، فيأمن الناس في هذه الأشهر وتقوم مصالحهم، فيسافرون ويؤوبون إلى بلادهم لا أحد يتعرض لهم.

الثالث: «الهدي»: جعله الله تعالى قياماً للناس في دينهم ودنياهم، أما في دينهم فبالثواب الذي ينالونه من الله عزّ وجل، وأما في دنياهم فالبيع والشراء والأكل والانتفاع بالجلود وما أشبه ذلك، فالهدي إذاً قيام للناس.

الرابع: «القلائد» وفيها قولان:

القول الأول: أنهم كانوا في الجاهلية إذا حج الإنسان أو اعتمر صنع قلادة من لحاء الشجر من السمر أو غيره، قلادة يتقلد بها ليعلم أنه حاج فيحترم، عجائب! عادات غريبة، إذا حج أو اعتمر صنع قلادة يتقلدها إذا رآه أحد قال: هذا حاج أو معتمر.

القول الثاني: أن المراد بالقلائد ما يقلد الهدي؛ لأن الهدي يقلد في رقبته بما يشعر أنه هدي وهو آذان القِرب، والنعال، والخرقة البالية، تعلق في أعناق الهدي إشارة إلى أنه هدي فيحترم، حتى قال بعضهم: إن الرجل في الجاهلية يأكل العصب من الجوع، ولا يمكن أن يذبح أو ينحر هذا الهدي؛ لأن عليه علامة وهي: القلائد، والقلائد تكون في الغنم وتكون في الإبل وتكون في البقر، وتزيد الإبل بالإشعار، وهو شق سنامها حتى يسيل الدم، فيعرف الناس أن هذه من الهدي، هذه كلها جعلها الله عزّ وجل قياماً للناس.

لكن لو قال قائل: هل تعليق هذه القلائد من دينهم، أم من دين سابق؟

الجواب: لا أعلم أنه من دين سابق، لكنه جارٍ بينهم ومعروف.

قوله: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا﴾ فلننظر إلى الإعراب: مفعول (جعل) **الأول**: (الكعبة)، **والثاني**: (قياماً)، وقوله: ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ معطوف على الكعبة، وعلى هذا فيكون المفعول الثاني في المعطوفات مقدراً، أي: والشهر الحرام قياماً، والهدي قياماً، والقلائد قياماً للناس.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه الجعل، يعني جعلنا ذلك لا عن جهل بل هو عن علم، فقد جعل الله ذلك عن علم، لما في هذه الأربعة من المصالح فجعلها الله قياماً للناس، وإنما ذكر الله عزّ وجل هذا من أجل أن يطمئن الناس أن الله جعلها قياماً، وهذا الجعل صادر عن علم من الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (ما) من صيغ العموم، فيشمل كل ما في السمٰوات وما في الأرض، والسمٰوات: جمع سماء وعددها سبعة؛ ثبت ذلك في القرآن والسنة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦]، والسنة متواترة في هذا أو مشهورة في هذا.

وقوله: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ جاءت بالإفراد لكن عددها سبعٌ، لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، ومن المعلوم أن المثلية لا يمكن أن تكون في الحجم والسعة وما أشبه ذلك، للفرق العظيم بين السماء والأرض، لكن المثلية في

العدد بدليل ما جاء في السنة: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين**»[(١)]، إذاً: الأرض المراد بها الجنس فتشمل الأرضين السبع.

قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، يعني: ولتعلموا أيضاً ﴿أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فالله عزّ وجل لا يخفى عليه شيء، وعلم الله تبارك وتعالى من صفاته الذاتية، فهو عالم بما يكون إلى يوم القيامة، وإلى ما وراء يوم القيامة وهو لم يزل عليماً بذلك من الأزل لا يطرأ على علمه نسيان، ولا يسبقه جهل سبحانه وتعالىٰ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الله سبحانه وتعالىٰ عظم هذه الكعبة المشرفة، حيث جعلها قياماً للناس يقوم بها أمور دينهم ودنياهم.

الفائدة الثانية: أن لله سبحانه وتعالىٰ أن يفضل ما شاء من خلقه، وهذا أمر معلوم وله أمثلة في القرآن والسنة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤] فلله تعالى أن يفضل ما شاء من خلقه.

الفائدة الثالثة: أن الكعبة حرام أي: محترمة معظمة، ولهذا كان ما حولها حراماً لا يقتل صيده ولا يقطع شجره.

---

(١) تقدم في (١/ ٢٢٥).

الفائدة الرابعة: رحمة الله تبارك وتعالى بالخلق حيث يجعل لهم من مخلوقاته ما تقوم به من مصالح دينهم ودنياهم.

الفائدة الخامسة: تعظيم الأشهر الحرم وأنها قيامٌ للناس، وتعظيمها جاء في القرآن والسنة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وكذلك جاء في السنة كما قال النبي ﷺ مقرراً ذلك: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا**»(١).

لو قال قائل: هل ارتكاب المعاصي في الأشهر الحرم أعظم من ارتكابها في غير الأشهر الحرم؟

الجواب: هذا ينبني على قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] هل الضمير في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ يعود على الأشهر الحرم، أو يعود إلى قوله تعالى: ﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾؟ في هذا خلاف، لكن لا شك أن الذنوب في الأشهر الحرم أعظم؛ لأن الضمير سواء قلنا: عائد على الجميع أو عائد على الأشهر الحرم يدل على تأكيد النهي عن الظلم في هذه الأشهر الأربعة، وللعلماء قاعدة في هذه المسألة، يقولون: إن الحسنات والسيئات تضاعف في كل زمان ومكان فاضل.

فإن قال قائل: فهل يحرم فيها القتال؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحج، باب حجة الوداع، حديث رقم (٤١٤٤) عن أبي بكرة، ومسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، حديث رقم (١٢١٨) عن جابر.

الجواب: العلماء اختلفوا في هذا، فمنهم من قال: إن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ، ومنهم من قال: إنه محكم، فالأول الذي عليه الجمهور: أنه منسوخ؛ لعموم الأدلة الدالة على قتال المشركين بدون تقييد، والثاني وهو الراجح: أن الأشهر الحرم القتال فيها ممنوع، وما جاء عاماً أو مطلقاً في النصوص الأخرى فهو كغيره من العمومات والمطلقات، يكون مقيداً بما دل عليه الكتاب والسنة من تحريم القتال في الأشهر الحرم.

فإن قال قائل: أليس النبي ﷺ قاتل في الأشهر الحرم كغزوة حنين؟

فالجواب: بلى، لكن هذا كان امتداداً لفتح مكة، وفتح مكة لم يكن في الأشهر الحرم بل كان في رمضان، وعلى هذا فنقول: إذا اعتدى الكفار علينا في الأشهر الحرم، فلنا أن نقاتل ولو في الأشهر الحرم؛ لأن قتالنا هذا دفاع، والإنسان يجب عليه أن يدافع عن نفسه في أي مكان وفي أي زمان، حتى في مكة، وهل القتال في مكة حرام أو غير حرام؟

فالجواب: حرام إلى يوم القيامة، لكن لو قاتلنا أهل مكة أو قاتلنا أحد من غير أهلها في مكة فإننا نقاتله، لقول الله تعالى: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١].

إذاً نقول: إذا ابتدأ العدو بقتالنا في الأشهر الحرم فلنا أن نقاتله، ثم هل هذا على سبيل الوجوب أو الاستحباب أو الإباحة؟ ينظر فيه، لكن الكلام على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم باقٍ إلا إذا كان امتداداً لغزو قبله أو ابتدؤونا هم أي: أعداؤنا بالقتال.

الفائدة السادسة: تعظيم الهدي والترغيب فيه لقوله: ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ يعني: أن الله جعله قياماً للناس، ولكن هل الهدي مربوط بالنسك، أو يجوز أن يهدي الإنسان إلى البيت ولو لم يكن نسكاً؟

الجواب: الثاني، فيجوز للإنسان أن يبعث الهدي إلى مكة وإن كان في بلده كما كان النبي ﷺ يفعل[1].

فإن قال قائل: وهل الهدي يسن سوقه في العمرة كالحج؟

الجواب: نعم يسن كما فعل النبي ﷺ في غزوة الحديبية فإنه ساق الهدي في عمرة[2].

الفائدة السابعة: مشروعية القلائد، لقوله: ﴿وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ وجه ذلك: أن فيها إظهاراً لشعائر الله عزّ وجل؛ لأن كل من رأى هذه النَّعم المقلدة عرف أنها هديٌ فعظمها واحترمها.

الفائدة الثامنة والتاسعة: إثبات الحكمة في أحكام الله عزّ وجل، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ﴾، واللام هنا للتعليل، ومن أسماء الله تبارك وتعالى: الحكيم، الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويتفرع على هذه الفائدة العظيمة: أن نؤمن بأن كل ما شرعه الله أو فعله الله فهو لحكمة، وحينئذٍ لا يلزمنا أن نبحث عن الحكمة أو نتمحل حكمة بعيدة قد تكون غير مرادة لله عزّ وجل،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحج، باب فتل القلائد للبدن والبقر، حديث رقم (١٦١١)، ومسلم، كتاب الحج، باب استحباب بعث الهدي إلى الحرم...، حديث رقم (١٣٢١) عن عائشة.

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية...، حديث رقم (٣٩٢٦) عن مروان والمسور بن مخرمة.

إن تبينت لنا الحكمة بسهولة فلا شك أن هذا من نعمة الله ويزيد الإنسان طمأنينة، وإن لم تتبين فإننا نعلم أنها لحكمة، لكن عقولنا قاصرة عن إدراك حكمة الله عزّ وجل في كل ما شرع.

الفائدة العاشرة: الحث على معرفة صفات الله عزّ وجل، لقوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ فينبغي لك أن تبحث عن صفات الله تبارك وتعالى، سواء الصفات التي ليس لها أسماء، أو الصفات التي تتضمنها الأسماء، ابحث؛ لأنك كلما ازددت معرفة لأسماء الله وصفاته ازددت يقيناً.

الفائدة الحادية عشرة: التحذير من مخالفة الله عزّ وجل، وجهه إثبات العلم في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأن كل إنسان يهم بمعصية، سواء كانت ترك واجب أو فعل محرم إذا أيقن أن الله عالم به فإنه يخاف ويمسك.

الفائدة الثانية عشرة: بيان عموم علم الله سبحانه وتعالىٰ لما في السمٰوات والأرض، نأخذه من الاسم الموصول، في قوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

الفائدة الثالثة عشرة: إثبات أن السمٰوات ذات عدد، وهذا العدد بُيِّن في أدلة أخرى أنه سبع سمٰوات.

الفائدة الرابعة عشرة: تكرار الثناء على الله عزّ وجل؛ لأن الله كرر عموم علمه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ثم أكد العموم بما هو أعم بقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ لأن هذا يعم ما في السمٰوات وما في الأرض مما يكون بعد فناء السماء والأرض.

واعلم أن العلم أعني صفة العلم من أعم الصفات إن لم تكن أعم الصفات؛ لأن العلم يتعلق بالواجب والممكن

والمستحيل والسابق واللاحق، فهي أعم ما يكون من الصفات، أعني: العلم، فمن تعلقها بالمستحيل قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وهل يمكن أن يكون فيهما آلهة إلا الله؟ لا يمكن، ومع ذلك أخبرنا الله عزّ وجل بنتيجة هذا لو فرض، وأنهما أي: السمٰوات والأرض تفسدا.

لكن لو قال قائل: قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ هل المراد آلهة تدبر وتصرف شؤون الكون، أو المراد آلهة تعبد فقط؟

الجواب: المراد الأول، أو يقال: آلهة حق؛ لأن الآلهة التي تعبد من دون الله وإن سموها آلهة فهي كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [النجم: ٢٣]، فهي مجرد أسماء على غير مسمى.

ومن تعلقها أي: تعلق صفة العلم بالواجب، كل ما أخبر الله به عن نفسه من صفات الكمال، فهو علم بالواجب؛ لأنه يجب لله صفات الكمال، فإذا تحدث الله جلَّ وعلا عن كماله فهذا حديث عن علم بشيء واجب.

ومن تعلقها بالممكن، كل ما أخبر الله به عن مخلوقاته فهو من باب تعلق العلم بالممكن، فالله جلَّ وعلا يتحدث عن المخلوقات، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وما أشبه ذلك من الممكنات، وكذلك علمه بما يكون من عقوبات المذنبين وإثابة الطائعين هذا علم بالممكنات أيضاً، والجائز والممكن سواء، بعضهم يعبر بالجائز، وبعضهم يعبر بالممكن، ولا فرق.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٨﴾ [المائدة: ٩٨].

لما ذكر الله عزّ وجل عموم علمه بعد هذه الأحكام العظيمة قال: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، اعلموا: أي: علماً يحصل به الامتثال، فيجب علينا أن نعلم؛ لأن الله أمرنا بذلك، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي: المؤاخذة بالذنب، وسميت المؤاخذة بالذنب عقاباً؛ لأنها تعقبه، و﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي: قويه كماً وكيفاً، أو كيفاً فقط؟ نتأمل، كماً لا يمكن؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، لكن كيفاً صحيح.

وقوله: ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي: قوي العقاب إذا عاقب المذنب.

قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يعني: واعلموا أيضاً أنه مع شدة عقابه غفور للذنوب، رحيم بعباده جلَّ وعلا، لا يكلفهم ما يشق عليهم، وإذا أخلُّوا به فهو يرحمهم عزّ وجل بالعفو، قارن بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩﴾ [الحجر: ٤٩] ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجر: ٥٠]، تجد بينهما فرق، لأن قوله في الآية: ﴿نَبِّئۡ﴾ أمرٌ من الله إلى الرسول بأن ينبئ الخلق، وقدم الوصف بالمغفرة والرحمة على العذاب الأليم؛ لأن المقصود الإخبار عن صفة الله عزّ وجل، فقدم الجانب الذي فيه اللطف والإحسان، وهذه ذكرت عقيب أحكام عظيمة، قد يخل بها المرء فقدم فيها جانب التهديد.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: وجوب العلم عن يقين، لقوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾.

الفائدة الثانية: أن الله تعالى شديد العقاب لمن خالف أمره سواء بفعل ما حرم أو بترك ما أوجب.

فإن قال قائل: ظاهر هذه الآية أن الله سيعاقب من خالف أمره؟

على كل حال **الجواب:** أنك إذا قرأت آخرها تبين لك أنه في مقابل ذلك هو غفور رحيم، ثم اقرنها بالآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

الفائدة الثالثة: إثبات العقاب وهو مؤاخذة المذنب بما يستحقه من العقوبة.

الفائدة الرابعة: إثبات هذين الاسمين الكريمين وهما: الغفور والرحيم، الغفور: أي: ذو المغفرة كما قال عزّ وجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾ [الرعد: ٦]، والرحيم يعني: ذا الرحمة كما قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، فنثبت هذين الاسمين لله عزّ وجل، ونثبت ما دل عليهما من الصفة، وهي المغفرة في غفور، والرحمة في رحيم، وهل نثبت الأثر؟ يعني الحكم المترتب على هذه الصفة؟

الجواب: نعم، يغفر لمن يشاء، ويرحم من يشاء.

لو قال قائل: ما الذي يترتب على هذين الاسمين والإيمان بهما؟

الجواب: يترتب على ذلك: أن يتعرض الإنسان لمغفرة الله عزّ وجل بفعل الأسباب التي توجبها، ويتعرض للرحمة

بفعل الأسباب التي يحصل بها الرحمة، عكس ما يظنه بعض العوام، فبعض العوام إذا نهيته عن معصية قال: الله غفور رحيم، فيظن أن هذا من باب تهوين المخالفة على العبد وليس كذلك، بل هذا حث للعبد أن يفعل ما به المغفرة والرحمة.

الفائدة الخامسة: الجمع بين أسماء الله تبارك وتعالى التي ينتج من الجمع بينها وصفٌ زائد على الوصف الذي تفيده بدون اجتماع، فمثلاً: إذا قلنا: إنه غفور رحيم، صار المعنى: أنه غفور للذنوب ورحيم لحصول المطلوب في الطاعات.

ولهذا كانت المعصية الواحدة بواحدة، والطاعات الواحدة بعشر إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [المائدة: ٩٩].

قوله: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾ «ما»: نافية، و﴿عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾: خبر مقدم، و﴿ٱلْبَلَٰغُۗ﴾: مبتدأ مؤخر، وقوله: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾ «أل»: هنا للعهد الذهني.

فمن المعهود ذهناً بأنه الرسول بالنسبة لهذه الأمة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه الصلاة والسلام، و﴿ٱلرَّسُولِ﴾: بمعنى المرسل.

قوله: ﴿ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ أي: إلا تبيلغ ما أوحي إليه، وهذا الحصر إضافي، ومعنى إضافي أي: بالإضافة لما يجب لكم عليه، إذاً قوله: ﴿ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ أي: بلاغ الرسالة، وأما هداية الخلق فليست للرسول عليه الصلاة والسلام، عليه أن يبلغ، وإذا بلغ انتهت

وظيفته، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ أي: ما تظهرون، ﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ أي: تخفون، المعنى أن أعمالكم ليست إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وليس مسؤولاً عنها، وإنما الذي يحاسبكم عليها هو الله الذي يعلم ما تبدون وما تكتمون.

لو قال قائل: بعض العوام يقول: لو أن الله سخط على الكفار وأهل المعاصي ما أعطاهم الأموال والأولاد والصحة والعافية؟

الجواب: وبعض العوام بالعكس، أنا أسمع من العوام مثلاً، يقولون: عطاؤه ما يدل على رضاه، وهو كذلك، والله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢﴾ [الأعراف: ١٨٢]، وهذا استدراج من الله تبارك وتعالى، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام: «**أن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من يحب**»[(١)] جعلنا الله منهم.

وفي الآخرة يقول الله عزّ وجل للجنة: «**أنت رحمتي أرحم بك من أشاء**»[(٢)] وهم ليسوا من أهلها، فلا رحمة حتى أن الله عزّ وجل يقول لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] لكن

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٨٧) (٣٦٧٢)، والبزار (٥/ ٣٩٢) عن عبد الله بن مسعود.

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، حديث رقم (٤٥٦٩)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، حديث رقم (٢٨٤٦) عن أبي هريرة.

تعذيبهم رحمة بالمؤمنين وذلك بأن يروا أعداءهم وهم يعذبون في النار.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ هذا الذي يتفرع عليه الحساب ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ أي: ما تظهرونه من الأعمال القولية والفعلية، وهل علمها قبل أن تكون أو بعد أن كانت؟ علمها قبل أن تكون وبعد أن كانت، وقوله: ﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ أي: ما تخفون في نفوسكم، وتلك الأعمال القلبية، بل أشد من الأعمال القلبية ما يوسوس به القلب، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾ [ق: ١٦]، وهذا يعني أن حسابهم على الله عزّ وجل لا على الرسول ﷺ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: وجوب إبلاغ الوحي على رسول الله ﷺ؛ لأن «على» ظاهرة في الوجوب في قوله: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾.

لكن لو قال قائل: ألا يشكل على قولنا: وجوب البلاغ، أن بعض الأئمة يقول: لا أعطي علمي إلا لمن يستحق العلم ولا أبثه إلا في أهله؟

الجواب: إن صح هذا الخبر، فقصده الجلوس للناس لكي يعلمهم، يعني لا يجلس للناس إلا الذين هم يريدون العلم حقيقة، ويسعون لإدراكه.

الفائدة الثانية: أنه ليس على النبي ﷺ أن يجبر الناس على أن يهتدوا، ويؤيد هذا آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

الفائدة الثالثة: إثبات رسالة النبي ﷺ لقوله: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾.

الفائدة الرابعة: تحذير المُبَلَّغِينَ من المخالفة، لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ فإن إخباره بعلمه بعد أن قال: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ فيه التهديد والوعيد على من خالف.

الفائدة الخامسة: سعة علم الله وعمومه، لقوله: ﴿مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وهذا عام للأمة كلها، و«ما»: هنا كما هو معروف اسم موصول يشمل القليل والكثير.

الفائدة السادسة: أن أعمال العباد تنقسم إلى قسمين: قسم يبدو للناس وقسم لا يبدو، لقوله: ﴿مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

فإن قال قائل: هل الأفضل للإنسان أن يبدي ما عمل أو أن يكتم ما عمل؟ قلنا: إن كل ذلك خير؛ لأن الله مدح الذين ينفقون أموالهم سراً وعلانية، ولكن أيهما أفضل؟ ينظر للمصالح، إن كانت المصلحة في الإعلان أعلن، وذلك كإنسان يقتدى به ويتأسى به فالأفضل أن يعلن حتى يتأسى الناس به، ويعرفوا أن هذا حق، ويكون بذلك إماماً لمن اتبعه، وإذا كان الإخفاء خيراً فالإخفاء أفضل كما لو تصدق إنسان على شخص متعفف لا يحب أن يطلع عليه، فهنا الأفضل الإسرار، وإن تساوى الأمران والغالب أنهما لا يتساويان من كل وجه، لكن على فرض أنهما تساويا من كل وجه فالإسرار أفضل؛ لأنه أدل على الإخلاص وأقرب إلى الإخلاص.

الفائدة السابعة: الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان ليس له إرادة، وهذا مأخوذ من قوله: ﴿مَا تُبْدُونَ وَمَا

تَكْتُمُونَ﴾ فالإنسان يريد أن يبدي ويريد أن يكتم، وهذا هو إثبات الإرادة للعبد.

والجبرية: قومٌ يقولون: إن الإنسان غير مخير بل مجبر، ويستدلون بآيات منها قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص: ٦٨]، قالوا: إنه نفى أن يكون للعبد الخيرة، فشبهتهم قوية، ولكن لا شك أن هذه الشبهة باطلة؛ لأن المراد بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ يعني: في فعله عزّ وجل، مثلاً قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، يريدون أن يختاروا هم من يكون رسولاً، فقال الله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، فيكون معنى قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي: فيما يفعله الله، أما بالنسبة لأفعالهم فلهم الخيرة، والدليل على هذا آيات كثيرة، منها خصال الكفارة مثلاً في كفارة اليمين، ثلاثة منها على التخيير: إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، وغير ذلك من الأدلة.

الفائدة الثامنة: أن أهل العلم الذين هم ورثة الأنبياء إذا بَلَّغوا برئت ذمتهم، ولكن هل يجب عليهم التبليغ على كل حال أو إذا كانت هناك فائدة أو ماذا؟ نقول: الأصل أن التبليغ واجب بكل حال، هذا هو الأصل لقول النبي ﷺ: «**بلغوا عني**» أمر «**ولو آية**»[1] لكن قد لا يجب التبليغ، ويجوز أن يكتم العلم إلى وقت ما إذا رأى في ذلك مصلحة، كما فعل معاذ بن

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم (٣٢٧٤) عن عبد الله بن عمرو.

جبل رضي الله عنه حينما لم يبلغ قول النبي ﷺ: «**حق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به**»[(١)] لم يبلغها إلا عند موته تأثماً، وإلا فالأصل وجوب الإبلاغ، أما إذا سئل الإنسان عن العلم، فإذا كان السائل مسترشداً وجب أن يُبَلَّغ السائل، وأما إذا كان ممتحناً فإن الإنسان بالخيار إن شاء بلغ وإن شاء منع؛ لأن هذا السائل غير مسترشد، لا يريد العلم، يريد أن يمتحن هذا المسؤول فهو بالخيار، وهل الأفضل أن يبلغ أو الأفضل ألا يبلغ؟ في هذا تفصيل: إن كان هذا السائل إذا تُرك صار في ذلك إذلال له وخزي فليتركه، وإن كان إذا ترك ازداد شره وطغى طغيانه فإنه يجب أن يبلَّغ ويبيَّن له ضلاله، فالمسألة يرجع فيها إلى المصالح، فإن قلت: ما هو ميزان المصالح؟ قلنا: كل إنسان مسؤول عن نفسه، وكل قضية لها حكم، ولهذا أحياناً يمر في بعض الإجابات عن بعض الأدلة، يقال في بعضها إنها قضية عين، كل إنسان حسب ما يراه والله حسيبه.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المائدة: ١٠٠].

قوله: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ قل يا محمد ﴿لَّا يَسْتَوِى﴾ وتصدير الحكم بـ«قل» يدل على العناية به؛ وذلك لأن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار، حديث رقم (٢٧٠١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، حديث رقم (٣٠) عن معاذ بن جبل.

النبي ﷺ كان مأموراً أن يقول جميع القرآن للناس ويبلغه، لكن إذا نص على شيءٍ معين، دل هذا على أخصيته، فهو كالتخصيص بعد التعميم، قل: أي: قل يا محمد لكل من يصح خطابه ويدرك خطابك، ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾، صدق الله لا يستوي الخبيث والطيب من الأشخاص والأعمال والأعيان، لا يمكن أن يستوي هذا وهذا، هل تستوي الصلاة لله والسجود للصنم؟ لا تستوي، هذا من الأعمال.

من الأعيان: هل يستوي الشراب الطيب المستخلص من ثمرات طيبة، والخمر؟ لا يستوي.

بالنسبة للأشخاص: هل يستوي المؤمن الطيب والكافر الخبيث؟ لا، وهلمَّ جرًّا.

إذاً: لا يستوي الخبيث والطيب من كل شيء من الأشخاص والأعيان والأقوال والأفعال، هل يستوي ذكر الله والغيبة؟ لا، إذاً: هذا عام.

قوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ الخطاب هنا ليس للرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأننا نعلم علم اليقين أن الرسول لا يعجبه كثرة الخبيث، لكن ولو أعجبك، أي: قل للإنسان: لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك أيها المخاطب.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ أي: أعجبك، أي: بَلَغَ منك موقع الإعجاب، وهذا إذا طبقته على بني آدم فأيهما أكثر: الخبيث أو الطيب؟

الخبيث من بني آدم أكثر ولو أعجبك، كذلك لو أعجبك كثرة الخبيث بقوته وإنتاجه لا يهمنك، كما في قوله تعالى:

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١] لا يهمنك فالخبيث باطل، والله عزّ وجل يقول: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] انظر كلمات قوية ﴿نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني نرمي بشدة ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ يصيب دماغه ولا يفلت ولا يبقىٰ لحظة عين ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، والفاء للترتيب والتعقيب، وإذا فجائية تدل على مفاجأة الزهوق وأن الزهوق يكاد يكون قبل أن يدمغ، ولكن لا بد أن نلاحظ أن السيف بضاربه، يعني: لا بد أن يكون الحامل للحق قوياً في ذات الله لا يهمه أحداً في ذات الله، وحينئذٍ يندحر الباطل ويقوم الحق.

قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الفاء للتفريع، أي: فبناءً على ذلك وعلى كثرة الخبيث، اتقوا الله لا يعجبنكم كثرة الخبيث، وبتقوى الله يحصل المطلوب ويزول المرهوب.

وقوله: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ انظر النداء كيف يداخل القلب ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: يا أولي العقول، أي: يا أصحاب العقول، والمراد بالعقول ذوات الرشد وحسن التصرف وليس عقل الإدراك، قد يكون عند الكافر من عقل الإدراك أكثر مما عند المؤمن، لكن عقل الرشد منفي عن الكافر مطلقاً، ليس عنده عقل رشد؛ لأنه لو كان عنده عقل رشد لآمن ولم يكفر، إذاً يا أصحاب العقول، أي: العقول الراشدة التي تعرف ما ينفعها فتقوم به وما يضرها فتجتنبه.

قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: لتفلحوا، فـ«لعل» هنا للتعليل، والمعلل الاتقاء أي: تقوى الله، يعني: لأجل أن تفلحوا

إذا اتقيتم الله عزّ وجل «والفلاح» كلمة جامعة للفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، هذا الفلاح.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أنه لا يستوي الخبيث والطيب عند الله عزّ وجل ولا عند أصحاب العقول، وهذا في مراتبهم عند الله، وعند ذوي العقول، أما فيما يعملون من أمور الدنيا فإنه قد يكون الخبيث أكثر من الطيب عملاً، كما هو مشاهد الآن، فإن الدول الكافرة أقدم من الدول المسلمة فيما يتعلق بأمور الدنيا.

الفائدة الثانية: أنه لا ينبغي للإنسان أن يعتبر بالكثرة، وإنما يعتبر بالكيف لا بالكم، لقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾.

الفائدة الثالثة: أنه إذا اجتمع قوم للشورى ثم تنازعوا في شيء فإننا نعتبر من هو أقرب إلى الصواب، يعني: إذا كان الفرق يسيراً نعتبر من هو أقرب للصواب، فإن تساووا فهنا نعتبر الأكثر؛ لأن المقصود هو الحق، فإذا علمنا أن هؤلاء القلة في جانبهم الحق من حيث العلم والثقة والأمانة والمعرفة فإنهم يقدمون على الأكثر، لكن إذا تساووا اعتبرنا الأكثر؛ لأنه لا طريق لنا إلى الترجيح إلا هذا.

الفائدة الرابعة: أن وصف الخبث والطيب يكون في الأعمال ويكون في الأعيان، فالمؤمن طيب في ذاته وعمله، والكافر خبيث نجس في ذاته وعمله، لكن نجاسته في ذاته ليست نجاسة حسية كنجاسة البغل والحمار، ولكنها نجاسة معنوية.

الفائدة الخامسة: أن الإنسان قد يعجب بما ليس محلاً للإعجاب، لقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾.

الفائدة السادسة: وجوب تقوى الله عزّ وجل، وأن من تقوى الله ألا يعجب الإنسان بالخبيث ولو كثر؛ لأنه ذكر الأمر بالتقوى بعد قوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾.

الفائدة السابعة: أن الذين يخاطبون بالتقوى وبمثل هذه الأحكام العظيمة هم أصحاب العقول، لقوله: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، والمراد بالعقول هنا: عقول الرشد لا عقول الإدراك.

الفائدة الثامنة: أن التقوى سبب للفلاح، لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وسبق معنى الفلاح.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [المائدة: ١٠١].

الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبق الكلام عليه مراراً فلا حاجة لإعادته.

قوله: ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ ﴿أَشْيَآءَ﴾ هنا ممنوعة من الصرف، وعلل الصرفيون كونها ممنوعة من الصرف، أن الهمزة فيها للتأنيث وليست أصلية، لكن فيها إعلال بالتقديم والتأخير في حروفها، حيث قدمت الهمزة الوسطى إلى أولها فصارت أشياء، ولذلك لو أردت أن تزنها فوزنها فعلاء.

قوله: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ يعني إن يبد لكم الجواب عنها فإنه يسؤكم، وهذا يشمل كل ما سكت الشرع عنه ثم صار في السؤال عنه سبب للمشقة على الناس واستيائهم مما حصل.

ومن ذلك ما كان من بعض المسلمين حيث إنهم كانوا يسألون النبي ﷺ، الرجل منهم يسأل: من أبي، وأين أبي؟ وما أشبه ذلك، فإن هذا من الأمور التي يجب السكوت عنها، فلو أن رجلاً قال للرسول عليه الصلاة والسلام: من أبي؟ فقال: أبوك فلان غير أبيه؛ لكان في هذا فضيحة له ولأبيه ولأمه، فالسكوت عنه هو الأدب.

كذلك إذا قال: أين أبي؟ فإذا قال الرسول ﷺ: أبوك في النار، أساءه بلا شك، وكان ذلك أيضاً إساءة إلى الأب، كذلك في الأشياء الواجبة لما قال النبي ﷺ: «**إن الله كتب عليكم الحج**» قال الأقرع بن حابس: أفي كل عام؟[1] هذا السؤال غير وجيه؛ لأن النبي ﷺ لو قال: نعم لوجبت، ولشق ذلك على المسلمين أفراداً وجماعات، أفراداً؛ لأن الإنسان إذا فرض عليه أن يحج كل عام يشق عليه، جماعات؛ لو أن الأمة الإسلامية قيل لها: من قدر منكم أن يحج فليحج كل عام، ما الأرض التي تسعهم؟ لا تسعهم الأرض، فلهذا كان السؤال في غير وجهه، فما أعظم الجرم ممن سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته، أو أُوجب أو لم يجب من أجل مسألته؟

وقوله: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ﴾ أي: يُظْهَرُ لكم جوابها تسؤكم.

قوله: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ يعني إن سألتم عنها في زمن الوحي الذي ينزل فيه القرآن تبد لكم، يبديها الله على لسان رسوله ﷺ الذي وجه السؤال إليه.

---

(١) تقدم ص٣٦٠.

قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾ يعني: عفا الله عما سكت عنه ولهذا جاء في الحديث: «**وما سكت عنه فهو عفو**»[(١)].

قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿حَلِيمٌ﴾ في العقوبة فلا يعاجل عباده بالعقوبة كما قال الله عزّ وجل: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر: ٤٥].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن مما ينافي كمال الإيمان أن يسأل الإنسان عن شيء لم يكلف به، لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ﴾.

لكن لو قال قائل: هل كل ما ينافي الإيمان محرم؟

الجواب: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: كل شيء نُفِي الإيمان عن فاعله فهو من كبائر الذنوب.

وهل يشمل السؤال زمن الوحي وما بعده أو هذا خاص بزمن الوحي الذي يمكن أن يثبت به التحريم أو الإيجاب؟

الجواب: الثاني: في زمن الوحي، أما فيما بعد الوحي فلا بد أن يسأل الإنسان عن دينه، ولذلك نقول: إن ما يفعله بعض العوام إذا قيل له: هذا حرام، هذا واجب، اسأل العلماء،

---

(١) رواه الترمذي، كتاب اللباس، باب ما جاء في لبس الفراء، حديث رقم (١٧٢٦)، وابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب أكل الجبن والسمن، حديث رقم (٣٣٦٧)، عن سلمان الفارسي، ولفظهم: (وما سكت عنه فهو مما عفا عنه).

قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ هذا حرام؛ لوجهين:

الوجه الأول: أنه امتنع من السؤال مع وجود مقتضيه.

الوجه الثاني: أنه نزل الآية على غير تنزيلها أي على غير ما أراد الله.

لو قال قائل: ما حكم من يجعل قوله تعالى: ﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ كالمَثَل، كمدرس يقول لطلابه مثلاً: عليكم في الاختبار كذا وكذا من المنهج فيقول الطلاب: وهل هذا معنا؟ فيقول لهم: ﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾؟

الجواب: هذا لا يجوز؛ لأن السؤال الذي ورد لا يتناسب مع معنى الآية.

لو قال قائل: أحياناً يطرأ على ذهن الإنسان أسئلة قد تكون غريبة أو تُرى أنها بدعية، هل إذا سكت عنها يكون مخالفاً لأمر الرسول ﷺ، وقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]؟

الجواب: إذا كان مما يجب على الإنسان اعتقاده أو عمله لا بد أن يسأل ولو كانت غريبة، ولكن إذا كانت من التنطع والتكلف كالذي قال: كيف استوى على العرش مثلاً، هذا لا يصح.

الفائدة الثانية: أن الإنسان قد يسوؤه ما شرعه الله عزّ وجل من إيجاب أو تحريم، ولكن المؤمن وإن كره ذلك بطبيعته لا يكرهه من حيث كونه شرعاً لله عزّ وجل، ولهذا قال الله عزّ وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦] ما المكروه هل هو القتال أو فرضية القتال؟

القتال دون فرضيته، المؤمن يرضى بكل ما فرض الله وبكل ما أوجب الله وبكل ما حرم ومنع، لكن قد يكرهه من جهة مشقته وتعبه وما أشبه ذلك.

الفائدة الثالثة: أن أي سؤال يرد في عهد النبي ﷺ فلا بد أن يجاب عنه لقوله: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾، ولذلك نجد في القرآن الكريم أسئلة كثيرة موجهة للرسول عليه الصلاة والسلام فيجيب الله عنها كقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠] فلا بد أن يجاب لقوله: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾.

لكن إذا قال قائل: أليس النبي ﷺ يُسأل أحياناً فلا يجيب؟ قلنا: بلى، لا يجيب؛ لأنه لم ينزل عليه فيه وحي، ولو نزل عليه فيه وحي لأجاب.

الفائدة الرابعة: أن ما سكت الله عنه فهو عفو، لقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ نضرب لهذا مثلاً: يسأل كثير من النساء عن حكم إزالة الشعور من الساقين أو الذراعين فهل هو حرام أم حلال؟

الجواب: لننظر، الشعور تنقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم نُهي عن إزالته وقسم أُمر بإزالته وقسم مسكوت عنه، مما أمر بإزالته ما جاء في الفطرة، ومما نهي عن إزالته اللحية، ومما سكت عنه بقية الشعور، فهل نقول: إنها مما سكت عنه فتكون حلالاً، أو نقول: الأصل في تغيير خلق الله أنه حرام فتكون حراماً؟

الجواب: الأول: أنه مما سكت عنه، ولو شاء الله عزّ وجل لأنزل فيه قرآناً أو لتكلم فيه النبي ﷺ.

وأيضاً: الحشرات وأشباهها تنقسم ثلاثة أقسام: قسم أمر بقتله، وقسم نهي عن قتله، وقسم مسكوت عنه، مما أمر بقتله: العقرب والحية والكلب العقور، ومما نهي عن قتله: النملة والنحلة والهدهد والصرد.

ومما سكت عنه البقية، فهل نقول: إن البقية يجوز قتلها بدون إيذاء، أو نقول: لا، الأصل أنها حيوان خلقه الله عزّ وجل ليستدل به على قدرته وسعة علمه ورحمته، ولأنها تسبح بحمد الله، فلا تقتل إلا إذا كان فيها أذية؟

في هذا ثلاثة أقوال: قولان معلومان عندي إلى الآن لم أنسهما، والثالث: نسيته.

الأول: أنه يكره أن تقتل هذه الحشرات بدون أذية إذا لم يكن منها أذية، أما إذا كان منها أذية فتقتل.

أما القول الأول: فيكره أن يقتلها لأنها تسبح بحمد الله؛ ولأن فيها آية من آيات الله، وهي أن الإنسان كلما تأملها عرف بذلك سعة علم الله ورزقه ورحمته، فيكون فيها مصلحة للعباد فلا تقتل، ولكن على وجه الكراهة.

القول الثاني: أن ذلك مباح؛ لأنه مما سكت الله ورسوله عنه، وما سكت الله عنه فهو عفو.

والثالث: التحريم لكنني لم أجوده؛ لأنه إذا لم يكن منها أذية كان قتلها مجرد عبث وفيه أيضاً تعويد النفس على العدوان، هذا إذا لم تؤذِ، أما إذا آذت فلا شك في جواز قتلها، ولكن

الأفضل أن يدافعها بما هو أهون، فمثلاً: إذا دخلت الحية في جحرها وهي مما أمر بقتلها وصار قتلها إما بالماء يغرقها أو بالنار تحرقها أيهما أولى؟

الجواب: الأولى بالماء، هذه الحشرات أيضاً التي لم يؤمر ولم ينهَ عن قتلها نقول فيها إن كان فيها: نوع أذية فإن أمكن أن تطردها بدون أذية أي: حتى تسلم من الأذية بدون قتل فهو أولى، وإذا لم يكن إلا بالقتل فاقتلها ولا حرج عليك.

لو قال قائل: ما حكم الأجهزة الكهربائية التي تقتل الحشرات؟

الجواب: جائزة؛ لأنها لا تحرق، ثم هذا المؤذي إذا لم نتمكن منه إلا بالإحراق فلا بأس، كما أحرق النبي ﷺ نخل بني النضير[1] مع أن النخل في الغالب يكون فيه أفراخ الطيور وغيرها.

ولو قال قائل: بعض الحشرات بطبيعتها مؤذية لكن إذا لم يبدُ منها أذية هل نقتلها أم ماذا؟

الجواب: تقتل لعموم الأمر بقتلها، وقد أخبرتُ أن من الهوام نوع سريع وطويل ويسمى عندنا «الداب» فهذا لا يحصل منه أذية وهذا مجرب، فهذا النوع لا يلدغ مباشرة، حتى إني رأيتها أنا بعيني تمشي على رِجْلِ امرأة قد مدت رجليها ولم تنلها بسوء، وأما الحية وهي كما وصفت لي قصيرة ومتينة وذنبها

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب حرق الدور والنخيل، حديث رقم (٢٨٥٨)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها، حديث رقم (١٧٤٦) عن ابن عمر.

قصير، فهذه لا تترك أحداً، فهي مؤذية، ولهذا نهى النبي ﷺ عن قتل الجنان التي تكون في البيوت إلا الأبتر وذو الطفقتين[١]، وأما العقرب فياويل من مسته، فالعقرب لا تعطي فرصة إطلاقاً، ولم نسمع بعقرب لا تلدغ، ولا ندري عن عقارب أفريقيا، لكن أخبرني بعض الطلاب أن العقارب هنا وهناك سواء، وذلك من أجل طبيعتها فهي تلدغ مباشرة ولا تعطي مهلةً.

لو قال قائل: هل من الأذية أن يبني العنكبوت بيتاً في الجدار أو المسجد؟

الجواب: هذا في الحقيقة يختلف، بعض العناكب تبني البيوت وتأتي بأشياء مؤذية للنظر وتعلقها، هذه مؤذية لا شك، كذلك أيضاً في المكتبة قد تعشش على الكتب هذه مؤذية أيضاً، لكن الغريب أن الناس يقولون: إن العنكبوت لا يجوز قتله مطلقاً ولو عشش على رأسك، لماذا؟ قالوا: لأنها عششت على النبي ﷺ في الغار، وهذا ليس بصحيح، تعشيش العنكبوت على النبي ﷺ في الغار غير صحيح أبداً، ولم يمنع رؤية الكفار إلا حماية الله عزّ وجل، ولهذا قال أبو بكر رضي الله عنه: «**لو نظر أحدهم إلى قدميه لأبصرنا**»[٢].

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب قول الله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤]، حديث رقم (٣١٢٣)، ومسلم، كتاب السلام، باب قتل الحيات وغيرها، حديث رقم (٢٢٣٣) عن ابن عمر..

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم منهم أبو بكر...، حديث رقم (٣٤٥٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق، حديث رقم (٢٣٨١) عن أنس بن مالك.

وبعض العلماء أورد حديثاً لكنه ضعيف، أن النبي ﷺ أمر بقتل العنكبوت، نقول: لا أمر ولا نهي، هي من الحشرات التي تركها أولى، لكن إذا حصل منها أذية ولو قليلة فلا بأس أن تقتل، كما لو بَنَتِ العنكبوت بيتاً في مكان يشوه المنظر، وربما تأتي ما شاء الله بأشياء؛ لأنها من الحشرات التي تدخر قوتها.

ومن فوائد العنكبوت أنه يقتل الذباب، فتجده يختبأ له ويمسكه بنفسه، حتى إذا قرب قفز عليه، سبحان الله العظيم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى! وأما من يقول من الطلاب إن من فوائدها أنها تقتل النمل فإننا نقول له: عليك أن تثبت هذا؟ ائتنا بعنكبوت ونملة وننظر؟

الفائدة الخامسة: أن القرآن منزل من الله عزّ وجل لقوله: ﴿يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ﴾ لم يذكر الفاعل لكنه حذف للعلم به؛ لأن المنزل للقرآن هو الله عزّ وجل.

الفائدة السادسة: أن النبي ﷺ مبلغ عن الله لقوله: ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾ لأن المبدي للبشر مباشرة هو الرسول ﷺ.

الفائدة السابعة: البناء على الأصل في براءة الذمة، لقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ فالأصل عدم شغل الذمة بإيجاب أو تحريم.

الفائدة الثامنة: إثبات هذين الاسمين لله عزّ وجل «الغفور والحليم» فهو غفور للذنوب، حليم عند العقوبة فلا يعاجل وقد قال ابن القيم رحمه الله:

وهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان

❁ ❁ ❁

قال الله عزّ وجل: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [المائدة: ١٠٢].

لما نهى الله عزّ وجل هذه الأمة أن يسألوا عن أشياء سكت الله عنها، وأنهم إذا سألوا عنها فلا بد أن تبين لهم حين نزول القرآن لئلا يبقى المسلمون في حيرة من دينهم، ولئلا يكون في الدين نقص، بَيَّنَ عزّ وجل أن مثل هذه المسائل قد سألها قوم من قبل هذه الأمة ولكن لم يقوموا بما أُوْجِبُوا به، وأَبْيَنُ مَثَلٍ لذلك: قصة البقرة حين قتل قتيل وشكوا فيمن قتله، فأمرهم نبيهم موسى ﷺ أن يذبحوا بقرة، فظنوه يمزح معهم، ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] من الجاهلين يعني: من المعتدين، ليس من الجهل الذي هو ضد العلم، كما قال الله تبارك وتعالى في الإنسان: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فقوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يعني: ولن أعتدي فأَسْخَرَ بكم ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾ [البقرة: ٦٨] يعني: لا كبيرة في السن ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ ولا صغيرة ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة: ٦٨] هذا سؤال هل له داعي؟! لا، ليس له داعي، موسى عليه الصلاة والسلام قال: اذبحوا بقرة، يذبحون أي بقرة تكون ويحصل الامتثال؛ لأن البقرة معلومة الجنس، أما كونها معلومة اللون أو معلومة السن أو معلومة الفعل فليس بلازم، انتقلوا إلى سؤال آخر ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ [البقرة: ٦٩] سبحان الله! هل طولبوا بلون معين؟ لا ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ ليس فيها سوى الأصفر ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾

[البقرة: ٦٩] في حجمها ولحمها وسمنها وهيكلها، هل اقتصروا على هذا؟ لا، ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] لكن هم بقر وهل يتشابه البقر بعد هذا الوصف الأول والثاني؟ لا يتشابه، ومع هذا قالوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ فلم يجزموا بالهداية، ولا أظنهم والله أعلم ذكروا ذلك تبركاً ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧١] أربعة أوصاف شُدِّد عليهم ﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١] الآن، وقبلُ ما جاء بالحق؟ ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] يعني ذبحوها بعد التي واللُّتَيَّا وما قاربوا أن يفعلوا، لكن رأوا أنهم لا بد أن يفعلوا، هذا من التعنت، يعني: لو أنهم ذبحوا بقرة من أول الأمر انتهى الموضوع ولم يكن إشكالاً، والأمثلة على هذا كثيرة في القرآن والسنة لمن تدبرها، أن الذين سألوا سؤال التعنت ابتلوا والعياذ بالله بالإباء والاستكبار.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [المائدة: ١٠٢].

«أصبح» هنا مجردة عن الزمان فهي بمعنى صار كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣] هل تصبح في الصباح أو في أي وقت من الزمن؟ في أي وقت، لكن مثل هذا يعبر به في اللغة العربية مجرداً عن إرادة الزمان الذي هو الإصباح، و(أصبح) بينها وبين كان نسب ما هو؟ أنها أختها أخت كان، يعني: أنها تعمل عمل

(كان)، والأخوة تصدق بأدنى سبب، فتكون «الواو» اسمها و ﴿كَٰفِرِينَ﴾ خبرها.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: ضرب الأمثال بالأمم السابقين حتى نقتنع بأنه لا ينبغي لنا أن نسأل لأن غيرنا سأل وكفر.

الفائدة الثانية: أن من قبلنا كانوا يسألون ولكن يهلكون بالسؤال، ويؤيد هذا قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح عمن سبقنا ولفظ الحديث: «**إنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**»[1] يسألون ثم يختلفون عليهم ولا يوافقونهم.

الفائدة الثالثة: أن الإنسان لا ينبغي أن يتعرض لما قد يكون محنة عليه، ولهذا جاء في الحديث النهي عن أن يتعرض الإنسان لشيء لا يستطيعه فإن هذا من البلاء والذل[2]، وربما يؤخذ من هذا منهاجاً حسناً في كل شيء.

مثال ذلك: لو أن رجلاً ماله قليل وبنى له بيتاً وصار يمكن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ...، حديث رقم (٦٨٥٨)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه...، حديث رقم (١٣٣٧) عن أبي هريرة.

(٢) رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب، حديث رقم (٢٢٥٤)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٥]، حديث رقم (٤٠١٦)، وأحمد (٥/ ٤٠٥) (٢٣٤٩١) عن حذيفة، بلفظ: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه». قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: «**يتعرض من البلاء لما لا يطيقه**».

أن يستغني بفراش يجلس عليه وفراش ينام عليه ووسادة يتكئ عليها، لكنه أراد أن يفعل ما يفعله الأغنياء من أن يملأ البيت كله فراشاً وأن يأتي بفراش فخم، وما أشبه ذلك، نقول: لا تتعب نفسك فإن هذا من الإشقاق على النفس وأن يُلْحِقَ الإنسان دَيْن، في ذمته فيعجز، وفي الأمثال العامية: (مد رجلك على قدر لحافك)؛ لأنك لو مددتها مستطيلة واللحاف قصير، طلعت فأصابها البرد.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: ١٠٣ ـ ١٠٤].

قوله: ﴿مَا جَعَلَ﴾ ﴿مَا﴾ نافية، والجعل هنا بمعنى الشرع، أي: ما شرع الله، واعلم أن ﴿جَعَلَ﴾ تأتي بمعنى خلق وبمعنى صير وبمعنى شرع.

القسم الأول: تأتي بمعنى خلق مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ﴾ [الأنعام: ١] وجعل التي بمعنى خلق لا تتعدى إلا إلى مفعول واحد.

القسم الثاني: وتأتي بمعنى صَيَّرَ، وهذه تتعدى إلى مفعولين، مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ١٠ ـ ١١]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ﴾ [الأنبياء: ٣٢] والأمثلة في هذا كثيرة، وبهذا نعرف ضلال الجهمية

الذين استدلوا بقول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف: ٣] حيث قالوا إنَّ معنى قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: خلقناه، فيقال: هذا دليل على لُكْنَتِهِمْ وعدم معرفتهم باللغة العربية؛ لأن (جعل) إذا تعدت إلى مفعولين فإنها لا تكون بمعنى خلق أبداً، بل تكون بمعنى صير.

القسم الثالث: تأتي بمعنى شرع كما في هذه الآية، هنا يتعين أن تكون بمعنى شرع، ولا يجوز أبداً أن نجعلها بمعنى صير أو خلق؛ لأن الأمر واقع، فالبحيرة موجودة والسائبة والوصيلة والحام كذلك موجود، وعليه فنقول: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: ما شرع الله.

قوله: ﴿مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ ﴿مِنۢ﴾ هذه زائدة للتوكيد، أي: لتوكيد النفي، ولهذا نقول عند إعرابها: «من» حرف جر زائد زائد، كيف يحل هذا اللغز، هل زائد الثانية توكيد للأولى؟

الجواب: زائد في الإعراب يعني أنه لو حذف لاستقام الكلام، وزائد في المعنى؛ لأن كل شيء في القرآن لا يمكن أن يزاد بلا معنى إطلاقاً، إذ إن زيادة الكلمة أو الحرف بدون معنى لغو، والقرآن منزه عن هذا، إذاً: هي زائدة إعراباً زائدة معنىً، والذي زادته في هذا السياق توكيد النفي.

وقوله: ﴿مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ البحيرة والسائبة والوصيلة والحام هذه أسماء لها اصطلاحات مختلفة عند العرب، خلاصتها: أنها إما أن تكون لآلهتهم وإما أن يحرموها أكلاً وركوباً وانتفاعاً بلبنها وأصوافها وأوبارها، وهم على اختلاف بينهم متى تكون بحيرة... إلى آخره، لكن علامة البحيرة عندهم أن تشق أذنها

شقاً واسعاً مأخوذة من البحر، والبحر واسع، لكن متى يشقونها؟ لهم اصطلاح في هذا، إذا ولدت كذا وإذا ولدت كذا، المهم أنها اصطلاحات مختلفة.

وقوله: ﴿وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ السائبة: هي التي تترك سائبة، أي: متروكة مسيبة، وهذه أيضاً متى تسيب؟ عندهم في ذلك اصطلاح يختلف، لكن النهاية أنها تسيب ويُحرِّمون ألبانها وركوبها والانتفاع بها.

وقوله: ﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾ الوصيلة: هي التي تكون بكراً، وأول ما تلد تلد أنثى، ثم توصلها بأنثى أخرى، يعني: البكر تلد بطنين على التوالي كلاهما أنثى، فيكون هذه وصلت أنثى بأنثى فتحرم أو تجعل للآلهة.

وقوله: ﴿وَلَا حَامٍ﴾ نحتاج إلى إعراب «حام» هل هي اسم منقوص أو حرف صحيح؟ الجواب: منقوص وأصلها حامي، إذاً هو اسم منقوص محذوف الياء، والحامي من الحماية، وهو الذي حمي ظهره فلا يركب، إذاً هو جمل؛ ويختلفون فيه متى يكون حامياً؟ بعضهم قال: إذا أنجب عشرة أولاد، وبعضهم قال خلاف ذلك، المهم أن هذه أوصاف لأزواج من الأنعام؛ الإبل والبقر والغنم متى حصلت حرمت هذه البهيمة أو جعلت للأصنام.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ معطوفة على ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ حيث يقولون: إن هذه محرمة وهذه محللة افتراء على الله عزّ وجل.

قوله: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أكثر هؤلاء الكفار لا يعقلون؛ لأنهم همج رعاع تابعون لأكابرهم، فأكثرهم لا يعقلون، يعني: ليس لهم عقل يرشدهم، مع أن الله ذكر في أوصاف الكفار في

آيات أخرى أنهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] وقال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ لأن هنا إمام ومقلد، والأئمة عندهم هم أئمة الكفر الذين يحللون ويحرمون بأهوائهم والعوام يتبعونهم ويقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] ولهذا قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: قيل لهؤلاء الأكثر، هؤلاء من؟

الجواب: هؤلاء العوام، لما ذكر العلماء في الآية الأولى ذكر العوام.

قوله: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلى القرآن لنتحاكم إليه ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أيضاً ليكون التحاكم إليه، وهذا في حياته يؤتى إليه شخصياً ﴿قَالُواْ﴾ في جواب مَنْ يقول لهم: تعالوا، ﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ﴿حَسْبُنَا﴾ أي: كافينا ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ يعني: وليس لنا حاجة أن نأتي لنتحاكم إلى القرآن ولا إلى الرسول؛ لأن لدينا ما يكفينا وهو ما كان عليه آباؤهم، قال الله عزّ وجل: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ يعني: أيقولون هذا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون، وهذا في غاية التوبيخ أن يتبعوا آباءهم، وآباؤهم ليسوا على علم.

﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ يعني شيئاً من شريعة الله، وإلا فهم يعلمون كيف يأكلون وكيف يشربون وكيف يذهبون ويجيئون، ولكن لا يعلمون شيئاً من شريعة الله، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الطريق الذي يوصلهم إلى الله عزّ وجل، فنفى عنهم العلم والعمل، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا نفي العلم ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ نفي العمل.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: إطلاق الجعل على التشريع، لقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾.

الفائدة الثانية: بطلان ما كان عليه أهل الجاهلية في تحريم هذه الأنعام الموصوفة بهذه الصفات: البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

الفائدة الثالثة: الإنكار على الكفار حيث شرعوا هذه الشريعة وحرموا هذه الأشياء الأربعة.

الفائدة الرابعة: أن كل من أتى بشريعة ليست من عند الله فإنه يصدق أن نقول: إنه افترى على الله الكذب، لكن من اجتهد وبذل الوسع للوصول إلى الحق وحكم بغير الصواب فإنه لا يقال: إنه افترى على الله كذباً، بل يقال: إنه اجتهد وأخطأ وله أجر واحد، وهذا والحمد لله من سعة رحمة الله عزّ وجل.

الفائدة الخامسة: خطر الإفتاء، وأن الإنسان قد يفتي بالشيء فيكون ممن افترى على الله كذباً، وقد كان السلف رحمهم الله إذا استفتي أحدهم يقول: لا أفتي حتى أنظر الصراط بين يدي فهل أنجو منه أو لا أنجو؟ وكذلك الإجابة هل ينجو منها أو لا ينجو؟ ووالله إن هذا لدليل على تعظيم الله عزّ وجل وهيبته في القلب ألا يُقْدِمَ الإنسان حتى يعرف أنه سوف ينجو في العبور على الصراط، ولا شك أن الفتوى أمرها عظيم وخطرها عظيم، وما أشد زلة العالم وجدال المنافق بالكتاب، نسأل الله العافية.

الفائدة السادسة: ذم أولئك الذين يقولون بلا علم وأنهم قد فقدوا عقولهم، لقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وصدق الله عزّ وجل؛ كل إنسان يقدم على الفتوى بالتحليل أو التحريم أو الإيجاب بدون علم فهو غير عاقل وإن ظن أنه صار إماماً فإنه غير عاقل، وسيفضحه الله عزّ وجل إما في الدنيا وإما في الآخرة، يعني: قد يمهل الله له ويكون إماماً في وقت ما لغفلة الناس وعدم العلماء، ولكن النتيجة سوف يكون مخذولاً والعياذ بالله؛ لأن كل من ابتغى الإمامة في غير دين الله فإنه مخذول.

الفائدة السابعة: أن التحري في الإفتاء من العقل، ولقد كان السلف الصالح يتدافعون الإفتاء ويؤجلون المستفتي، حتى إنهم ذكروا أن قوماً أتوا من خراسان من المشرق إلى المدينة يستفتون الإمام مالكاً رحمه الله في مسألة فقال: أنظروني، وبقوا خمسة عشر يوماً ينتظرون الفتوى، وفي النهاية قال: ليس عندي علم، قالوا: سبحان الله! إمام دار الهجرة ليس عنده علم، ونحن قد أتينا من بلاد بعيدة وأقمنا في انتظار هذه الفتوى وتقول: ما عندي علم، قال: نعم، أقول: ما عندي علم، اذهبوا إلى قومكم قولوا: إن مالكاً يقول: ليس عندي علم. وهو إمام لكن الإنسان يعرف أنه سيقف بين يدي الله عزّ وجل، وسيسأله: لماذا حكمت في عبادي بما لم تعلم أنه حكمي أو يغلب على ظنك أنه حكمي، إذا كنت من أهل الاجتهاد.

فالمسألة خطيرة، نسأل الله أن ينجينا، الإنسان لولا أنه يقول: لعلي أكون إماماً في الخير لقال: ليتني لم أرزق هذا العلم، ولكن نقول: نرجو من الله عزّ وجل التوفيق للصواب، وأن

نكون أئمة في دين الله وندخل في قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

الفائدة الثامنة: أن هؤلاء العوام يوجهون ويرشدون ويدعون إلى الكتاب والسنة، لقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ وأبهم القائل إما لكثرة القائلين وإما لاختلاف مراتبهم؛ لأن كثرة القائلين توجب أن الإنسان ينصاع، والمرتبة العليا توجب أيضاً أن الإنسان ينصاع ويأتي.

الفائدة التاسعة والعاشرة والحادية عشرة: إثبات أن الله تعالى أنزل الكتاب وهو القرآن، ويتفرع على هذه الفائدة: أن القرآن كلام الله.

فإذا قال قائل: لا يلزم من كون الله أنزله أن يكون كلاماً؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] ويقول: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [البقرة: ٢٢]، فهل تجعلون الحديد من صفات الله أو الماء النازل من السماء؟

الجواب: لا، لا نقول هذا، وقول من يقول: القرآن مخلوق كما خلق الحديد وكما خلق الماء النازل من السماء، تمويه من أهل الباطل؛ لأن أهل الباطل يتبعون المتشابه.

فنقول لهم: هل الكلام عين قائمة بنفسها، جسم أو غير جسم قائم بنفسه، أو لا بد لكل كلام من متكلم؟

الثاني لا شك؛ لأن الكلام وصف لا بد أن يكون من موصوف، إذاً: إذا أضاف الله إنزال القرآن إلى نفسه علمنا أنه كلامه؛ لأن القرآن كلام، فيكون في هذا دليل واضح على أن القرآن كلام الله.

وفي الآية أيضاً دليل على علو الله عزّ وجل لقوله: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لأن النزول لا يكون إلا من أعلى، وعلو الله عزّ وجل أبين وأظهر من أن تقام عليه الأدلة، ولكن السلف وأهل السنة والجماعة اجتهدوا في تقرير الأدلة؛ لأن هناك من ينازع في علو الله عزّ وجل، وإذا وجد منازع فلا بد أن يكون له مقابل وإلا لضاعت الشريعة، يعني: أقول: العلو أَبْيَنُ من أن يحتاج إلى تكثير الأدلة، لكن لما كان في الأمة الإسلامية التي تستقبل قبلتنا وتنحر نسيكتنا من ينكر العلو، صار لا بد أن نأتي بالأدلة من كل وجه، ومن أدلة العلو القرآن فهو مملوء بالأدلة على علو الله عزّ وجل العلو الذاتي، والسنة كذلك مملوءة وعلى جميع وجوهها: القول والفعل والإقرار، وإجماع الصحابة موجود، ما منهم أحد قال: إن الله ليس في السماء وهم يقرؤون القرآن ويسمعون السنة، ما أحد منهم قال: إن الله ليس في السماء، وعلى هذا فيكونون مجمعين على ما دل عليه الكتاب والسنة، وهذا الطريق به نعرف إجماع الصحابة أن القرآن يتلونه والسنة يسمعونها، ولم يرد عنهم ما يخالفها.

فإذاً: هم قائلون بها، فإذا طالبك إنسان بإجماع الصحابة على مثل هذه الأمور فقل: إنهم يقرؤون القرآن ويسمعون السنة، ويشاهدون الفعل من الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم يرد عنهم ما يخالف ذلك، إذاً: هم مقرون بهذا لأنهم أهل اللسان وأعرف الناس بمعاني القرآن والسنة.

العقل أيضاً دليل على علو الله سبحانه وتعالىٰ؛ لأن كل إنسان يعلم أن العلو صفة كمال وليس في هذا إشكال، وأن السفل صفة نقص، والرب عزّ وجل يجب له الكمال من كل وجه، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ

تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: ٤٢] صنم تعبده لا يسمع دعاءك ولا يبصر حالك ولا يغني عنك شيئاً.

الفطرة أيضاً هل تحتاج إلى دليل؟ لا تحتاج، كل إنسان يؤمن بالله عزّ وجل وأنه حي موجود فإنه لا يمكن أن يتصور إلا أنه في السماء، لو أتيت العجائز اللاتي لم يقرأن ما كُتب حول الموضوع وقلت لإحداهن: أين الله، ماذا تقول؟ هل تقول: في السماء أم تقول: اتركني أطالع وأنظر؟ تقول: في السماء، حتى الجارية التي أعتقها معاوية بن الحكم رضي الله عنه لما سألها النبي ﷺ: «**أين الله؟**» قالت: في السماء، فأي حكم يكون أثبت من حكم دل عليه الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة.

الفائدة الثانية عشرة: وجوب الرجوع إلى ما جاء في الكتاب والسنة؛ لأن الله أنكر على هؤلاء الذين قالوا: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾.

الفائدة الثالثة عشرة: أن من تعصب لقول إمام والتزمه وأصر عليه مع وجود الكتاب والسنة ففيه شبه من هؤلاء الكفار؛ لأنه إذا قيل له: تعال إلى ما أنزل الله والرسول قال: حسبي إمامي، فيكون فيه شبه من هؤلاء الكفار، وقد أنكر قوم التقليد إنكاراً عظيماً، وقابلهم آخرون فأوجبوه وقالوا: إن باب الاجتهاد قد سد منذ زمن سابق ولا مناص للأمة للإسلامية الآن من التقليد، فصاروا طرفي نقيض، قسم ينكره إنكاراً عظيماً ويقول: التقليد شرك والتقليد دأب المشركين، ولا يمكن أبداً إلا أن يعرف الإنسان الحق بنفسه.

وقسم آخر بالعكس قال: ما في كتاب المذهب هو الحق، ولو بان لك بالكتاب والسنة أنه غير صحيح فالزم المذهب ولا

تخرج عنه، وقد أدركنا هذا، أدركنا من يقول: المرجع الإقناع والمنتهى، وإياك أن تخرج عما فيهما، حتى وشوا ببعض الناس إلى السلطات حين ذكر ما هو الراجح من الأقوال، وقالوا: هذا خارج عن المذهب، وهذا لا شك أنه خطأ عظيم، ومن اعتقد أن أحداً من الناس من العلماء وإن كبر بل من الصحابة يجب التزام قوله عزيمة ورخصة وتحليلاً وتحريماً، فإنه ضال مبتدع يستتاب، فإن تاب وإلا أدبه الحاكم بما يرى أنه يردعه وأمثاله.

القسم الثالث: تَوَسَّطَ في التقليد والاجتهاد، قالوا: من أمكنه الاجتهاد ومعرفة الحق بنفسه لم يحل له أن يقلد، ومن لا، فله أن يقلد، واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] ولم يأمر الله تعالى بسؤالهم إلا للرجوع إلى قولهم وإلا لكان سؤالهم لغواً لا فائدة منه، وبقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وبأن الله تعالى أباح التيمم عند عدم الماء، هذه ثلاثة أدلة، وبأن الله أباح الميتة عند الضرورة، إذا لم يجد الإنسان إلا ميتة فإما أن يأكلها فيبقى، أو لا يأكلها فيهلك، فيقال: يجب أن تأكلها وجوباً فإن لم تفعل فأنت آثم، وما أحسن ما قال شيخ الإسلام رحمه الله: اجعل التقليد كالميتة لا تحل إلا عند الضرورة.

الفائدة الرابعة عشرة: حسن الجدال في القرآن الكريم حيث أقام الحجة على هؤلاء الذين: ﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ بأن آباءهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ فهم ضالون في علمهم وفي عملهم.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [المائدة: ١٠٥].

الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تكرر كثيراً وعرفنا ما يترتب على هذا الخطاب.

قوله: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ أي ألزموا أنفسكم بالإصلاح ولهذا «على» تعتبر نائبة مناب اسم الفعل، أي: ألزموا أنفسكم بإصلاحها وطلب الهدى لها.

قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ لأن الناس قد يقولون: إذا كان هناك فسقة أو كفار فإننا نخشى على أنفسنا من هذا، فَبَيَّنَ الله عزّ وجل أن ذلك لا يضرنا إذا أصلحنا أنفسنا، وهذا كما جاء في الحديث: «**إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوىً متبعاً ودنياً مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العوام**»(١).

وقوله: ﴿إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ يعني إذا استقمتم على صراط الله، ومن الهداية أن يأمر الإنسان بالمعروف وينهى عن المنكر بقدر الاستطاعة، فليس في الآية ما يدل على إسقاط أو على سقوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن من أعظم الهداية وأتم الهداية أن يأمر الإنسان بالمعروف وينهى عن المنكر.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، حديث رقم (٤٣٤١)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، حديث رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾، حديث رقم (٤٠١٤) عن أبي ثعلبة الخشني.

قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾ يعني إلى الله مرجعكم أيها المؤمنون وكذلك غير المؤمنين، فالمرجع إلى الله عزّ وجل، ويوم القيامة يفصل الله تعالى بين الخلائق.

قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ أي: يخبركم.

قوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ينبئكم بما كنتم تعملون؛ إنباء يترتب عليه الثواب أو العقاب.

فإن قال قائل: أليس قد ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ استيقظ ذات ليلة محمراً وجهه يقول: «**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، قال: فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وأشار بالسبابة والإبهام**»، قالوا: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»[1]؟

قلنا: هذا لا يعارض الآية؛ لأنه إذا هلك الصالحون بسبب الفتنة التي حصلت من هؤلاء فإن ذلك لا يضر؛ لأن الهلاك مصير كل حي، لكنه لا يتضرر في دينه، كما قال الله عزّ وجل: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: ٢٥] وبهذا الوجه يتبين ألا معارضة بين هذه الآية وبين ما جاء في الحديث.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: فضيلة الإيمان وأن أهله أَهْلٌ لأن توجه إليهم الخطابات، لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «**ويل للعرب من شر قد اقترب**»، حديث رقم (٦٦٥٠)، ومسلم، كتاب الفتن أشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، حديث رقم (٢٨٨٠) عن زينب بنت جحش.

الفائدة الثانية: أن إصلاح النفس والعناية بها من مقتضيات الإيمان، فعليك نفسك، اعتنِ بها، وأصلحها ما استطعت.

الفائدة الثالثة: أن ضلال من يضل لا يترتب عليه ضرر المهتدي، يعني: الضرر المعين الشخصي، وأما الضرر العام وهي العقوبة العامة فهذه قد تكون وقد لا تكون أيضاً، أليس الله تعالى إذا أخذ الأمم السابقة ينجي النبي ومن معه؟ بلى، إذاً: ليس من الضروري أن الله سبحانه وتعالىٰ إذا أخذ المجرم بالعقوبة قد تشمل حتى المؤمن.

الفائدة الرابعة: انقسام الناس إلى ضال ومهتدٍ، لقوله: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ والضلال له سبب، والهداية لها سبب؛ سبب الضلال الإعراض عن دين الله وعما جاءت به الرسل، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، ومن أسباب الهداية الإقبال على الله عزّ وجل وعلى ما جاءت به الرسل.

الفائدة الخامسة: أن المؤمنين إذا لم يهتدوا فقد يسلط عليهم أعداؤهم فيضرونهم؛ لأن الله اشترط لعدم الضرر الهداية، فإذا لم يهتدِ المؤمنون فيوشك أن الله تعالى يسلط عليهم الأعداء فيضرونهم في أموالهم أو أهليهم أو أوطانهم.

الفائدة السادسة: أن المرجع إلى الله عزّ وجل لا إلى غيره، وجه الدلالة من قولي: «لا إلى غيره» تقديم ما حقه التأخير؛ لأن قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ خبر مقدم، وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر والاختصاص، فالمرجع إلى الله عزّ وجل، وهل المراد بالمرجع المرجع يوم القيامة أو المرجع حتى في الدنيا، فإننا عند النزاع نتحاكم إلى الله ورسوله؟

الجواب: المراد هذا وهذا، فالمرجع إلى الله عزّ وجل، لكن قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قد يقوي أن المراد به المرجع يوم القيامة.

الفائدة السابعة: الإيمان بالبعث، لقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والإيمان بالبعث أحد أركان الإيمان الستة فمن أنكره أو شك فيه فهو كافر؛ لأنه يجب عليه أن يؤمن إيماناً قاطعاً بأن الناس سيبعثون ويحاسبون.

الفائدة الثامنة: أن كل إنسان سيبعث صغيراً كان أم كبيراً، وذلك بتأكيد هذا في قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ ولكن هل من سقط من بطن أمه قبل أن ينفخ فيه الروح يبعث يوم القيامة؟

الجواب: لا، لا يبعث؛ لأنه لم يكن إنساناً، ويدل لهذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فَبَيَّنَ جلَّ وعلا أن الخلق بعد نفخ الروح غير الأول، وأن الأول عبارة عن قطعة لحم.

الفائدة التاسعة: أن كل شيء قد أحصي على الإنسان، لقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ «وما» هنا من صيغ العموم، فكل شيء فهو مكتوب، لكن هل يمحى بعد كتبه؟

الجواب: نعم، يمحى بعد كتبه، لكن القرار على ما في اللوح المحفوظ، أما الأعمال اليومية التي تتكرر فإنها قد تثبت وقد تمحى، لقول الله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩] وقول النبي ﷺ: «**أتبع الحسنة السيئة تمحها**»[1]، **وقوله تبارك وتعالى**: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]. لكن ما استقر في اللوح المحفوظ فإنه لا تغيير فيه لأنه انتهى.

---

(١) تقدم في (١/ ١٨٥).

الفائدة العاشرة: أن الإنسان لا يحاسب على حديث النفس لقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وحديث النفس ليس عملاً؛ ودليل ذلك قول النبي ﷺ: «**إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم**»[1] ولكن إذا ركن الإنسان إلى حديث النفس واطمأن إليه واعتقده فحينئذٍ يكون قد عمل عملاً قلبياً لا جوارحياً.

الفائدة الحادية عشرة: إحاطة علم الله تعالى بكل شيء لقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَءَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [المائدة: ١٠٦ ـ ١٠٨].

---

(١) رواه البخاري، كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه...، حديث رقم (٢٣٩١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب...، حديث رقم (١٢٧) عن أبي هريرة.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ هذه الآية لها قصة: سافر رجلان كافران مع رجل مسلم ثم حضرته الوفاة وليس معهم مسلم، فأشهدهما على وصيته، فهل تقبل شهادة هذين الرجلين أو لا تقبل؟

الجواب: الحكم يعرف من هذه الآية، والمسألة مسألة ضرورة؛ لأنه لا يوجد مسلم، فإذا لم يوجد مسلم اضطررنا إلى قبول شهادة الكافر، وللقصة سبب مذكور فلنفسر الآية ونقرأ السبب إن شاء الله.

قوله: ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ يعني إذا مرضتم مرض الموت، وليس المراد حضور الأجل بالفعل؛ لأنه إذا حضر الأجل بالفعل فقد لا يعتبر قول الإنسان.

قوله: ﴿حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ﴾ متعلق بالشهادة؛ لأن الشهادة مصدر تعمل عمل الفعل، فيصح أن يتعلق بها الظرف والجار والمجرور، يعني شهادتكم حين الوصية.

قوله: ﴿ٱثۡنَانِ﴾ أي: صاحبا عدل ﴿مِّنكُمۡ﴾ أيها المؤمنون، والخطاب في قوله: ﴿مِّنكُمۡ﴾ للمؤمنين عموماً، وهذا لا إشكال فيه أن يُشْهِدَ الإنسان على وصيته اثنين ذوي عدل.

قوله: ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ ذكر الله تعالى الصورة التي دعت الضرورة إلى إشهاد من ليس بمسلم، وكلمة ﴿مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ تشمل كل ملل الكفر وإن كانت القضية وردت في اثنين من أهل الكتاب، لكن العبرة بعموم اللفظ سواء كانوا من أهل الكتاب أو من غيرهم.

وقوله: ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ «أو» هل هي للتخيير أو للتنويع؟

الثاني: للتنويع، يعني أو آخران من غيركم، إن لم يوجد ذوا عدل منكم.

قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافرتم، ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وهي كقوله: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، يعني أيقنتم أنكم ميتون لكون المرض مرضاً مخوفاً لا يرجى برؤه.

قوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ هذا كالتفصيل لقوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ عند أداء الشهادة أي: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ أي: الآخران من غيرنا، والمراد بالحبس: الإيقاف، توقفونهما ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: من بعد صلاة العصر؛ لأن صلاة العصر: هي أفضل الصلوات، وهي الصلاة الوسطى، وآخر النهار أقرب في إجابة الدعاء من أول النهار، لا سيما إذا كان ذلك في يوم الجمعة، ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: صلاة العصر.

فإذا قال قائل: لماذا جعلتم «أل»: للعهد الذهني، ولم تجعلوها للجنس فتقولوا: ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: أيُّ صلاة؟ قلنا: لأن النبي عليه الصلاة والسلام حبس الرجلين الشاهدين من بعد صلاة العصر، فتكون السنة هي التي عينت هذه الصلاة.

قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ أي: يحلفان به، ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ يعني شككتم في شهادتهما، ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾ أي: لا نشتري بهذا اليمين ثمناً ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المشهود له ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: صاحب قرابة.

وحاصل هذا القسم أنهما يقسمان: بأننا على حق وشهادتنا حق، ولا يمكن أن نشهد بباطل؛ لأجل شيءٍ من الدنيا، ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ معطوفة على قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ أي: ونحن لا

نكتم شهادة الله، أي: الشهادة التي حملنا الله إياها على ما حصلت به الوصية، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْأَٰثِمِينَ﴾ يعني: إن كتمنا شهادة الله لمن الآثمين، والجملة هنا مؤكدة بمؤكدين وهما: إن، واللام، ومعنى ﴿لَّمِنَ ٱلْأَٰثِمِينَ﴾: أي: من الواقعين في الإثم، وإنما يقولان ذلك زيادة في التوكيد أنهما شهدا بحق.

قوله: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾، يعني: تبين أنهما ﴿ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ وذلك بشهادة الزور، أي: تبين أن شهادتهما زور وكذب، ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يعني: في الشهادة ليردا شهادتهما، من أين هذان الآخران؟ يقول: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾؛ لأن الشهادة بالوصية تستلزم أن يؤخذ من نصيب الورثة لمن أُوْصِي له، فيكون ما شهد به الأولان مستحقاً على هؤلاء الورثة، وقوله: ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ يعني: هما الأوليان، يعني أولى الناس بإرث هذا الذي شُهِدَ على وصيته، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ أي: الشاهدان اللذان هما من ورثة الموصي ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ (اللام) في قوله: ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ﴾ واقعة في جواب القسم.

ما هي شهادتهما؟

شهادتهما: نفي هذه الوصية، وشهادة الأَوَّلَين إثبات الوصية، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ وإذا كانت أحق لزم أن تبطل شهادة الشاهدين الأولين، وهما كما قررنا أولاً ليسا مُسْلِمَين، بل هما من غير المسلمين، ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ يعني: ما اعتدينا في الاعتراض وإبطال الشهادة، ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ يعني: إن اعتدينا، ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأن شهادتهما استلزمت شيئين:

الشيء الأول: القدح في شهادة الشاهدين الأولين.

الثاني: الظلم: ظلم المُوصى له، فلذلك قال: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾، أي: ذلك المذكور أقرب أن يأتوا بالشهادة على وجهها، يعني: على الوجه الصحيح، ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، يعني: أن الذين شهدوا أولاً، إذا علموا أنه لا بد أن يتعقبهم من الورثة من يتعقبهم فإنهم سوف يحرصون غاية الحرص أن يأتوا بالشهادة على وجهها، أو إن لم يأتوا بالشهادة على وجهها ﴿يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: أيمان الورثة ﴿بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: أيمان الشهداء، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟﴾ أمر الله تعالى بأن نتقيه بالتزام أحكامه، وأكد هذا بقوله: ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾: أي: اسمعوا ما أقول لكم وما آمركم به وهو تقوى الله عزّ وجل، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعته، وهذا سيأتي إن شاء الله في الفوائد أنه وعيد شديد وأن الفاسق عرضة لئلا يهديه الله عزّ وجل، هذا معنى الآية الكريمة.

سبب الآيات:

ولننظر ما قاله ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية ولينتبه له؛ لأنه يعين على فهم الآية.

قال رحمه الله: «اشتملت هذه الآية الكريمة على حكمٍ عزيز، قيل: إنه منسوخ، رواه العوفي»[1].

---

(١) النص المنقول.

[قول ابن كثير رحمه الله: «عزيز» يعني: قليل الجنس].

ثم قال رحمه الله: «رواه العوفي عن ابن عباس، وقال حماد بن أبي سليمان عن إبراهيم: إنها منسوخة، وقال آخرون وهم الأكثرون فيما قاله ابن جرير: بل هو محكم، ومن ادعى النسخ فعليه البيان».

[يعني: شهادة الكفار بل هي محكمة، أي: الآية، وهذا هو الصواب وقد تقدم أنه لا نسخ في سورة المائدة، بل كلها محكمة؛ لأنها آخر ما نزل، على أن بعض العلماء قال: إنها منسوخة ولكنه غير صحيح، وأي إنسان يدعي في أي نص من القرآن أو السنة أنه منسوخ فعليه الدليل].

ثم قال ابن كثير رحمه الله: «فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ﴾، هذا هو الخبر لقوله: ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ فقيل: تقديره شهادة اثنين، حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وقيل: دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان، وقوله: ﴿ذَوَا عَدۡلٖ﴾، وصف الاثنين بأن يكونا عدلين».

[يعني الذين قالوا: لا بد من تقدير، قالوا: إنه لا يمكن أن تكون الجثة خبر للمعنى والشهادة معنى، واثنان شخصان فقالوا: إنها على تقدير مضاف شهادة اثنين أو أن يشهد اثنان، والصحيح أنه لا حاجة إلى هذا، وأنه إذا فُهم المعنى فهو المقصود، ولهذا يقولون: الليلة الهلال، فيخبرون بالظرف عن الجثة؛ لأن المعنى مفهوم ولا حاجة إلى أن نقدر الليلة طلوع الهلال، فالصواب أنه لا تقدير في الآية، وأن الآية معناها واضح].

ثم قال ابن كثير رحمه الله: «﴿مِنكُمْ﴾ أي: من المسلمين، قاله الجمهور، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قال: من المسلمين، رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وروي عن عَبيدة وسعيد بن المسيب والحسن ومجاهد ويحيى بن يعمر والسدي وقتادة ومقاتل بن حيان وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم نحو ذلك.

وقال ابن جرير: وقال آخرون عنى ذلك ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: من حي الموصي، وذلك قول روي عن عكرمة وعبيدة وعدة غيرهما، وقوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾».

[لا شك أن القول الأول متعين؛ لأنه يخاطب المؤمنين يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ يخاطب المؤمنين، وليس يخاطب حي الذي وقعت فيهم القضية].

ثم قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾: «قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال حدثنا سعيد بن عون، قال: حدثنا عبد الواحد بن زياد قال: حدثنا حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال: من غير المسلمين، يعني: أهل الكتاب، ثم قال: وروي عن عبيدة وشريح».

[قوله: يعني: «أهل الكتاب» فيه نظر، والصواب: أنه شامل لأهل الكتاب وغيرهم؛ لأن كل من ليس بمسلم فهو من غيرنا].

ثم قال ابن كثير رحمه الله: «وروي عن عَبِيدَة وشريح وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين ويحيى بن يعمر وعكرمة

ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وإبراهيم النخعي وقتادة وأبي مجلز والسدي ومقاتل بن حيان وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم نحو ذلك.

وعلى ما حكاه ابن جرير عن عكرمة وعبيدة في قوله: «منكم» أي: المراد من قبيلة الموصي يكون المراد هاهنا، ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، أي: من غير قبيلة الموصي، وقد روي عن ابن أبي حاتم مثله عن الحسن البصري والزهري رحمهما الله.

وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافرتم، ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين: أن يكون ذلك في سفر وأن يكون في وصية كما صرح بذلك شريح القاضي، قال ابن جرير: حدثنا عمرو بن علي قال: حدثنا أبو معاوية ووكيع قالا: حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن شريح قال: لا تجوز شهادة اليهودي والنصراني إلا في سفر، ولا تجوز في سفر إلا في وصية، ثم رواه عن أبي كريب عن أبي بكر بن عياش عن أبي إسحاق السبيعي قال: قال شريح، فذكر مثله، وقد روي مثله عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وهذه المسألة من أفراده وخالفه الثلاثة فقالوا: لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين، وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضاً».

[ولا يضر أن ينفرد الإمام أحمد بالمسألة إذا كان معه دليل؛ لأن من معه الدليل فهو جماعة وإن كان واحداً، وغالب ما انفرد به الإمام أحمد رحمه الله بالتتبع هو الصواب، وليس كل ما انفرد به بل غالب ما انفرد به هو الصواب].

ثم قال ابن كثير رحمه الله: «وقال ابن جرير: حدثنا

عمرو بن علي، قال: حدثنا أبو داود، قال: حدثنا صالح بن أبي الأخضر عن الزهري قال: مضت السنة أنه لا تجوز شهادة كافر في حضر ولا سفر، إنما هي في المسلمين، وقال ابن زيد: نزلت هذه الآية في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام وذلك في أول الإسلام والأرض حرب والناس كفار، وكان الناس يتوارثون بالوصية، ثم نسخت الوصية وفرضت الفرائض وعمل الناس بها، رواه ابن جرير، وفي هذا نظر والله أعلم.

وقال ابن جرير: اختلف في قوله: ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، هل المراد أن يوصي إليهما أو يشهدهما؟ على قولين: أحدهما: أن يوصي إليهما، كما قال محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط، قال: سئل ابن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية، قال: هذا رجل سافر ومعه مال، فأدركه قدره، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته وأشهد عليهما عدلين من المسلمين، رواه ابن أبي حاتم وفيه انقطاع.

والقول الثاني: أنهما يكونان شاهدين، وهو ظاهر سياق الآية الكريمة، فإن لم يكن وصي ثالث معهما اجتمع فيهما الوصفان: الوصاية والشهادة كما في قصة تميم الداري وعدي بن بدَّاء كما سيأتي ذكرها آنفاً إن شاء الله وبالله التوفيق.

وقد استشكل ابن جرير كونهما شاهدين، قال: لأنا لا نعلم حكماً يُحَلَّفْ فيه الشاهد، وهذا لا يمنع الحكم الذي تضمنته هذه الآية الكريمة وهو حكم مستقل بنفسه، لا يلزم أن يكون جارياً على قياس جميع الأحكام، على أن هذا حكم خاصٌ بشهادةٍ

خاصةٍ في محل خاص، وقد اغتفر فيه من الأمور ما لم يغتفر في غيره، فإذا قامت قرائن الريبة، حُلِّفَ هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة.

وقوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: يعني: صلاة العصر، وكذا قال سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وقتادة وعكرمة ومحمد بن سيرين، وقال الزهري: يعني صلاة المسلمين، وقال السدي عن ابن عباس: يعني صلاة أهل دينهما، والمقصود أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ أي: فيحلفان بالله، ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي: إن ظهرت لكم منهما ريبة أنهما قد خانا أو غلَّا، فيحلفان حينئذٍ بالله ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ﴾ أي: بأيماننا، قاله مقاتل بن حيان».

[قوله: «بأيماننا» فيه نظر؛ لأنه قال: ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ﴾، وهذا مفرد كيف يجمع، لكن إذا جعلناه عائداً على اليمين، فالمعنى: لا نشتري به، أي: بالقسم الذي نقسم به، فهو عائد على القسم].

ثم قال ابن كثير رحمه الله: «﴿ثَمَنًا﴾ أي: لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: ولو كان المشهود عليه قريباً لنا لا نحابيه ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أضافها إلى الله تشريفاً لها وتعظيماً لأمرها، وقرأ بعضهم: ولا نكتم شهادة آلله، مجروراً على القسم، رواها ابن جرير عن عامر الشعبي، وحكي عن بعضهم أنه قرأ: ولا نكتم شهادةَ الله، والقراءة الأولى هي المشهورة، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ﴾ أي: إن

فعلنا شيئاً من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها بالكلية.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ أي: فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين أنهما خانا أو غلّا شيئاً من المال الموصى به إليهما وظُهِرَ عليهما بذلك ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ وهذه قراءة الجمهور: «اسْتُحِقَ عليهم الأوليان»، وروي عن علي وأبي والحسن البصري أنهم قرؤوها: «استَحَقّ عليهم الأوليان»».

[﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمْ الأَوْلِيَانِ﴾ هذه هي القراءة المشهورة، وفي قراءة ﴿استُحِق عَلَيْهِمُ الأَوْلِيَانِ﴾ وفي قراءة ﴿استُحِقَّ عَلَيْهِمْ الأَوَّلِينَ﴾].

ثم قال ابن كثير رحمه الله: «وروى الحاكم في المستدرك من طريق إسحاق بن محمد الفروي عن سليمان بن بلال عن جعفر بن محمد عن أبيه عن عبيد الله بن أبي رافع عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾[1] ثم قال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقرأ بعضهم ومنهم ابن عباس: «من الذين استحق عليهم الأوَّلين» وقرأ الحسن: «من الذين استحق عليهم الأولان» حكاه ابن جرير، فعلى قراءة الجمهور يكون المعنى بذلك أي: متى تُحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهما فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة، وليكونا من أولى من يرث ذلك المال:

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٥٩) (٢٩٣٢)، كتاب التفسير، باب قراءات النبي ﷺ مما لم يخرجاه وقد صح سنده.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أي: لَقُولُنَا: إنهما خانا، أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ أي: فيما قلنا من الخيانة ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: إن كنا قد كذبنا عليهما، وهذا التحليف للورثة والرجوع إلى قولهما، والحالة هذه، كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لَوَثٌ في جانب القاتل، فيقسم المستحقون على القاتل فيدفع برمته إليهم كما هو مقرر في باب القسامة من الأحكام.

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، قال: حدثنا الحسين بن زياد، قال: حدثنا محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق عن أبي النضر عن باذان يعني أبا صالح مولى أم هانئ بنت أبي طالب عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ قال: بَرِئَ الناس منها غيري وغير عدي بن بَدَّاء، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتيا الشام لتجارتهما، وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له: بُديل بن أبي مريم بتجارة ومعه جام من فضة يريد به المَلِك وهو عُظْم تجارته، فمرض فأوصى إليهما».

[يعني: هو أعظم التجارة التي معه، والجام: الإناء].

ثم قال ابن كثير رحمه الله: «فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله، قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم، ثم اقتسمناه أنا وعدي بن بداء، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، وفقدوا الجام فسألونا عنه فقلنا: ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره، قال تميم: فلما

أسلمت بعد قدوم النبي ﷺ المدينة تأثمت من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر، ودفعت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها، فوثبوا إليه أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه، فحلف فأنزل الله الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا فنزعت الخمسمائة من عدي بن بداء[1]، وهكذا رواه أبو عيسى الترمذي وابن جرير[2] كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب الحراني عن محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق به فذكره، وعنده: فأتوا به رسول الله ﷺ، فسألهم البينة فلم يجدوا، فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه فحلف فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ إلى قوله: ﴿أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۚ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا فنزعت الخمسمائة من عدي بن بداء، ثم قال: هذا حديث غريب وليس إسناده بصحيح، وأبو النضر الذي روى عنه محمد بن إسحاق هذا الحديث هو عندي محمد بن سائب الكلبي، يُكنى أبا النضر وقد تركه أهل العلم بالحديث وهو صاحب التفسير، سمعت محمد بن إسماعيل يقول: محمد بن السائب الكلبي يكنى أبا النضر ثم قال: ولا نعرف لسالم أبي النضر رواية عن أبي صالح مولى أم هانئ.

وقد روي عن ابن عباس شيء من هذا على الاختصار من

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٦٩٤١).

(٢) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة المائدة، حديث رقم (٣٠٥٩) عن تميم الداري، وابن جرير في تفسيره (٧/ ١١٥).

غير هذا الوجه: حدثنا سفيان بن وكيع قال: حدثنا يحيى بن آدم عن ابن أبي زائدة عن محمد بن أبي القاسم عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس قال: «خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء، فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة مخوصاً بالذهب].

[مخوصاً بالذهب يعني: مرصعاً عليه مثل الخوص من الذهب، يعني: مزركشاً وهو من فضة].

ثم قال ابن كثير رحمه الله: «فأحلفهما رسول الله ﷺ ووجدوا الجام بمكة فقيل: اشتريناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ وأن الجام لصاحبهم، وفيهم نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾»[1].

وكذا رواه أبو داود[2] عن الحسن بن علي عن يحيى بن آدم به، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب وهو حديث ابن أبي زائدة، ومحمد بن أبي القاسم كوفي قيل: إنه صالح الحديث وقد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من التابعين منهم عكرمة ومحمد بن سيرين وقتادة، وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر، رواه ابن جرير، وكذا ذكرها مرسلة مجاهد والحسن والضحاك، وهذا يدل على اشتهارها في السلف وصحتها، ومن

---

(١) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة المائدة، حديث رقم (٣٠٦٠) عن ابن عباس.

(٢) رواه أبو داود، كتاب الأقضية، باب شهادة أهل الذمة وفي الوصية في السفر، حديث رقم (٣٦٠٦) عن ابن عباس.

الشواهد لصحة هذه القصة أيضاً، ما رواه أبو جعفر بن جرير[١]، قال: حدثني يعقوب، قال: حدثنا هشيم، قال: أخبرنا زكريا عن الشعبي أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدَقُوقَا، قال فحضرته الوفاة ولم يجد أحداً من المسلمين يُشْهِدُه على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب قال: فقدما الكوفة فأتيا الأشعري، يعني: أبا موسى الأشعري رضي الله عنه، فأخبراه وقدما بتركته ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد النبي ﷺ، قال: فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدلا ولا كتما ولا غيرا، وإنها لوصية الرجل وتركته، قال: فأمضى شهادتهما.

ثم رواه عن عمرو بن علي الفلاس عن أبي داود الطيالسي عن شعبة عن مغيرة الأزرق عن الشعبي أن أبا موسى قضى بدقوقا[٢]. وهذان إسنادان صحيحان إلى الشعبي عن أبي موسى الأشعري، فقوله: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله ﷺ، الظاهر والله أعلم أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدي بن بداء، وقد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الداري رضي الله عنه كان في سنة تسع من الهجرة، فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخراً يحتاج مدعي نسخه إلى دليل فاصل في هذا المقام والله أعلم.

وقال أسباط عن السدي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ قال: هذا

---

(١) رواه ابن جرير في التفسير (٧/ ١٠٩ ـ ١١٠).

(٢) رواه ابن جرير في التفسير (٧/ ١٠٥).

في الوصية عند الموت يوصي ويشهد رجلين من المسلمين على ما له وما عليه، قال: هذا في الحضر ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ في السفر ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ هذا الرجل يدركه الموت في سفره وليس بحضرته أحد من المسلمين، فيدعو رجلين من اليهود والنصارى والمجوس، فيوصي إليهما ويدفع إليهما ميراثه فيقبلان به، فإن رضي أهل الميت الوصية وعرفوا مال صاحبهم تركوا الرجلين، وإن ارتابوا رفعوهما إلى السلطان، فذلك قوله تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كأني أنظر إلى العلجين حين انتهي بهما إلى أبي موسى الأشعري في داره، ففتح الصحيفة فأنكر أهل الميت وخونوهما، فأراد أبو موسى أن يستحلفهما بعد العصر، فقلت له: إنهما لا يباليان صلاة العصر، ولكن استحلفهما بعد صلاتهما في دينهما، فيوقف الرجلان بعد صلاتهما في دينهما فيحلفان بالله ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾ قليلاً: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾ إن صاحبهم لبهذا أوصى وإن هذه لتركته، فيقول لهما الإمام قبل أن يحلفا: إنكما إن كتمتما أو خنتما فضحتكما في قومكما ولم تجز لكما شهادة وعاقبتكما، فإذا قال لهما ذلك، فإن ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ رواه ابن جرير[1].

وقال ابن جرير[2]: حدثنا الحسين قال: حدثنا هشيم قال: أخبرنا المغيرة عن إبراهيم وسعيد بن جبير أنهما قالا في هذه

(١) رواه ابن جرير في التفسير (٧/ ١١٠ ـ ١١١).

(٢) رواه ابن جرير في التفسير (٧/ ١١٠).

الآيــة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا . . .﴾ الآيــة، قــالا: إذا حضر الرجل الوفاة في سفر فليشهد رجلين من المسلمين، فإن لم يجد رجلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب، فإذا قدما بتركته، فإن صدقهما الورثة قُبِل قولهما، وإن اتهموهما حلفا بعد صلاة العصر: بالله ما كتمنا ولا كذبنا ولا خُنَّا ولا غَيَّرنَا.

وقال علي بن أبي طلحة[1]، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: فإن ارتيب في شهادتهما استحلفا بعد الصلاة: بالله ما اشترينا بشهادتنا ثمناً قليلاً، فإن اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبا في شهادتهما، قام رجلان من الأولياء فحلفا: بالله إن شهادة الكافرين باطلة وإنَّا لم نَعْتدِ فذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ يقول: إن أُطلع على أن الكافرين كذبا ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾، يقول: من الأولياء، فحلفا بالله إن شهادة الكَافِرَيْنِ باطلة وإنا لم نَعْتَدِ فترد شهادة الكافرين وتجوز شهادة الأولياء.

وهكذا رواه العوفي عن ابن عباس رواهما ابن جرير، وهكذا قرر هذا الحكم على مقتضى هذه الآية غير واحد من الأئمة التابعين والسلف رضي الله عنهم وهو مذهب الإمام أحمد رحمه الله.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾ أي: شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي من تحليف الشاهدين الذميين وقد استريب بهما أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضي.

---

(١) رواه ابن جرير في التفسير (٧/ ١١٣).

وقوله: ﴿أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْۗ﴾ أي: يكون الحامل لهم على الإتيان بها على وجهها هو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه وإجلاله والخوف من الفضيحة بين الناس إذا ردت اليمين على الورثة، فيحلفون ويستحقون ما يدعون، ولهذا قال: ﴿أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْۗ﴾ ثم قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم، ﴿وَٱسْمَعُواْۗ﴾ أي: وأطيعوا، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ يعني الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته»[1] اهـ.

أطال ابن كثير رحمه الله على هذه الآية؛ لأن هذه الآية فيها إشكالات، لكنه وَجَّهَ حل جميع هذه الإشكالات، فيها إشكالات من جهة الإعراب ومن جهة السياق، ولكن الله عزّ وجل يتكلم بما شاء كيف شاء، حتى يعرف الناس أن هذا القرآن الكريم مناسب لمقتضى الحال، والقضية معقدة حكماً وإعراباً وغير ذلك، لكن الحمد لله بمثل هذا التفسير الذي تقدم يزول الإشكال.

خلاصة المعنى: أنه إذا سافر الإنسان وليس حوله مسلم، ليس حوله إلا كفار وأراد أن يوصي فليستشهد شاهدين اثنين على الوصية، فإذا وصلوا إلى البلاد الإسلامية أدلوا بالشهادة وقبلت الشهادة بدون أي شيء، إلا إذا حصل ارتياب، فإذا حصل ارتياب حينئذٍ نستعمل القسم، نحبسهما من بعد الصلاة، والصواب أنه من بعد صلاة العصر وإن لم يعظموها لأنها عظيمة عند الله؛ ولأن العقوبة أسرع إلى من شهد كاذباً، وأما قول ابن عباس رضي الله عنهما في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١١٢ ـ ١١٥).

عندما قال له: اجعلها بعد صلاتهما في دينهما، فهذا اختياره رضي الله عنه.

الحاصل: أننا نجعلهما يقسمان بالله أنهما صادقان وأنهما لم يشتريا بشهادتهما شيئاً من الدنيا، ويخوفان أن ترد أيمان بعد أيمانهم؛ لأن أولياء المقتول إذا أقسموا ردت شهادة الشاهدين، ومعلوم أنه إذا حكم برد شهادتهما صار ذلك عار عليهما وخزي، فربما إن لم يخافا من الله خافا من العار والخزي، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾، هذا مجمل معنى الآية الكريمة، لكن فيها فوائد كثيرة نذكر منها ما نسأل الله أن ييسره ويوفقنا فيه إلى الصواب.

من فوائد الآيات الكريمة:

الفائدة الأولى: جواز شهادة الكافر للضرورة، ولكن هل تخصص الضرورة بهذه الصورة أم بكل ضرورة؟

أولاً: في أصل المسألة وهي شهادة الكافر فيها قولان لأهل العلم:

القول الأول: أن شهادة الكافر لا تقبل، وهذا مبني على أن هذا الحكم منسوخ، وهذا القول مردود بأن النسخ يحتاج إلى دليل، وأن سورة المائدة قد قال كثير من العلماء: ليس فيها نسخ؛ لأنها من آخر ما نزل، فليطرح هذا، والعجب أن الذي قال بهذا القول أكثر العلماء.

وأن القول بشهادة الكافر هو قول الإمام أحمد رحمه الله، وما أكثر ما ينفرد بالشيء فيكون قوله هو الصواب، كقوله في

مسألة كفر تارك الصلاة، انفرد بهذا القول لكنه حقيقة لم ينفرد؛ لأن معه الكتاب والسنة، والصحابة.

على القول بقبول شهادة الكافر، هل يختص هذا بهذه الصورة والواقعة، بمعنى أنه يشترط أن يكون الشاهدان كتابيين؛ لأن الشاهدين في هذه القصة كانا من النصارى، فهل يشترط أن يكونا كتابيين أو لا يُشترط؟

المشهور من المذهب أنه يشترط أن يكونا كتابيين، ولكن سيأتي أن ظاهر الآية يخالف ذلك وأن الآية عامة في كل كافر.

وهل يختص ذلك بالوصية أو في كل شيء؟

هذا أيضاً محل خلاف، وسبب القول باختصاصها بالوصية أن هذه خارجة عن قواعد الشهادة، والخارج عن القواعد قاعدته أن يقتصر فيه على ما خرج فقط، يعني: على ما ورد فقط، وسيأتي إن شاء الله أن القول الراجح أنه تجوز شهادة غير الكتابيين وأنها تجوز الشهادة في الوصية وغيرها وفي السفر وغيره، وهذا قد يقع أحياناً، عندنا الآن كثير من المستشفيات القائمون على العلاج فيها نصارى، فإذا حضر الموت أحداً من هؤلاء المرضى وأشهد من عنده من الأطباء فهذا حكمه كذلك.

الفائدة الثانية: أنه ينبغي الإشهاد على هذه الوصية، لقوله: ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ﴾ وظاهر الآية الكريمة: أنه لا بد من رجلين، لقوله: ﴿ٱثۡنَانِ﴾ واثنان عدد للمذكر، فهل هذه الآية على ظاهرها؟

الجواب أن يقال: هذا الآية تقيد بآية البقرة وهي قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ

﴿وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ لأن الأموال وما يقصد به الأموال إذا لم يقر المدعى عليه يكفي في إثباته واحد من أمور ثلاثة: شهادة رجلين، شهادة رجل وامرأتين، شهادة رجل ويمين المدعي، هذه بينات المال وما يتعلق به المال، وعلى هذا فيكون قوله تعالى: «اثنان» هذا مبني على الأكمل، يعني أن الأكمل في الإشهاد على الوصية أن يكون الشاهدان رجلين.

لكن لو قال قائل: هل يخص هذا الحكم بشهادتهما بما في الوصية أو هو عام يشمل حتى غير الوصية كما لو شهد على أن الميت أقر بدين في ذمته لفلان؟

الجواب: هو عام، والعموم يؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ يعني: وأشهدتم على هذا حين الموت، وهذا يشمل ما لو شهد بالوصية أو شهد بإقرار الميت بدين أو غير ذلك.

الفائدة الثالثة: جواز الوصية عند حضور الموت، لقوله: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ﴾، وهذا مقيد فيما إذا لم يتغير تمييز الموصي، فإن تغير تمييز الموصي فلا عبرة بقوله، يعني: لو اضطرب عند موته، وصار كلامه غير مرتب، فإنه لا عبرة بهذا الكلام، وهذا معروف من قواعد الشريعة.

الفائدة الرابعة: أنه يشترط في الإشهاد أن يكون الشاهدان ذوي عدل، لقوله: ﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ﴾ وسبق تعريف العدالة، ولكن إذا لم يوجد عدل ووجد فاسق مأمون فهل يقوم مقام العدل؟ اختار بعض أهل العلم أنه يقوم مقام العدل، وأن اشتراط العدالة إنما هو عند التحمل، بمعنى أنك إذا أردت أن تشهد فلا تشهد

إلا عدلين، أما عند أداء الشهادة فالضرورات لها أحكام، فإذا لم نجد من يشهد إلا هذين الفاسقين، لكنهما في الأمانة موثوقان، فإننا نقبل شهادتهما، وهذا الأخير هو الصواب، أن العدالة شرط مع الإمكان، وأما إذا لم يمكن فإنه تقبل شهادة الفاسق بشرط، أن يكون ثقةً، وكم من إنسانٍ يكون فاسقاً في عبادته لكنه أمين في شهادته، ونعلم أننا لو اتبعنا اشتراط العدالة في أداء الشهادة معتبرين الشروط التي ذكرها الفقهاء في العدالة، أن كثيراً من الحقوق سوف تضيع؛ لأن كثيراً من الناس ليسوا على الاستقامة التي ذكرها الفقهاء رحمهم الله.

الفائدة الخامسة: جواز شهادة الكافر إذا عُدِمَ المسلم، لقوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ وهل يختص هذا بالكتابيين أم بكل كافر؟ ظاهر الآية بكل كافر، لقوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ سواء كان يهودياً أو نصرانياً أو بوذياً أو شيوعياً أياً كان، لقوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، وهذه المسألة اختلف فيها العلماء على أقوال:

القول الأول: أن شهادة الكافر لا تقبل مطلقاً، وأجابوا عن هذه الآية بأنها منسوخة؛ لأن الله تعالى اشترط العدالة في الشهود، والكافر ليس بعدل.

والقول الثاني: أن شهادة الكافر جائزة بشرط أن يكون كتابياً وأن يكون عند الضرورة، فاشترط شرطين: **الأول**: الضرورة بأن لا يوجد مسلم، **والثاني**: أن يكون الشاهدان كتابيين، وهؤلاء احتجوا لاشتراط الضرورة بقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخره، وقيدوا ذلك بالكِتَابِيِينْ؛ لأن القضية التي وردت فيها الآية كان الشاهدان من أهل الكتاب، وقالوا في

تقرير الاستدلال: إن عدم اشتراط الإسلام في هذه الصورة خرج عن الأصل، وما خرج عن الأصل وجب اختصاصه بما ورد فيه فقط.

ولا شك أن الجواب على هؤلاء سهل، نقول: الآية الكريمة عامة والعبرة بعموم اللفظ، ولذلك إذا أراد الله تعالى تخصيص الحكم بأهل الكتاب قيده، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] وقال تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، فأما أن نقيد ما أطلقه الله فهذا ليس بصواب، وهذه قاعدة يجب على طالب العلم أن يسلكها، كل شيء ورد مطلقاً في القرآن والسنة فلا يجوز إضافة قيد إليه أبداً؛ لأنه إذا فعل ضيق ما وسعه الله، واتخذ نفسه مشرعاً ومستدركاً على الحكم الشرعي، وهذا خطير، فالقاعدة إذاً: أن كل ما أطلقه الله ورسوله فالواجب إبقاؤه على الإطلاق، ولا يحل أن نضيف إليه قيداً إلا بدليل، والدليل لا بد من اتباع، وحينئذٍ نقول: الصواب أنه يجوز أن يشهد اثنان عند الوصية عند عدم المسلم، سواء كانا كتابيين أو غير كتابيين.

الفائدة السادسة: علو مرتبة المسلم على الكافر، وهذا لا إشكال فيه، وجه ذلك: أن شهادة الكافر لا تقبل إلا إذا لم يوجد مسلم، وهذا يدل على أن المسلم أعلى مرتبة ومنزلة من غير المسلم.

فإن قال قائل: فهمنا أن شهادة الكافر فيما يتعلق بأمور المسلمين لا تجوز إلا عند الضرورة، فهل تقبلون شهادة الكافر، أي: شهادة الكفار بعضهم على بعض؟

الجواب: نعم، سواء كان للضرورة أو لغير ضرورة، شهادة الكفار بعضهم على بعض مقبولة، لكن بشرط أن يكون عدلاً في دينه كما اشترطنا في شهادة المسلم أن يكون عدلاً.

الفائدة السابعة: أن السفر يطلق عليه: الضرب في الأرض؛ لقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والقرآن الكريم تارة يذكر السفر بلفظه وتارة يذكر بدلاً عنه الضرب في الأرض، فقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [المائدة: ٦]، فهنا ذكر السفر، ولم يقل: أو ضربتم في الأرض، وقال تعالى في الصيام: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [البقرة: ١٨٤].

الفائدة الثامنة: إطلاق الضرب في الأرض ولم يقيده بمسافة القصر أو أكثر أو أقل.

الفائدة التاسعة: أنه إذا أراد الشاهدان من غير المسلمين أداء الشهادة فإنهما يحبسان من بعد الصلاة، يعني يوقفان من بعد الصلاة وذلك لانتفاء التهمة؛ لأن الصلاة معظمة، والإنسان يخاف أن يشهد بباطل بعد هذه الصلاة التي ذكرها الله عزّ وجل، ولكن هل هذا مشروط بالارتياب في شهادتهما، أو نقول: إنهما يحبسان على كل حال ليظهر الفرق بين أداء الشهادة للمسلم وأداء الشهادة من غير المسلم؟ الآية فيها احتمال؛ لأن قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ يحتمل أن يكون قوله: ﴿ٱرْتَبْتُمْ﴾ قيداً في قوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ويحتمل أن يكون قيداً لقوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ فعلى الاحتمال الأول يكون حبسهما واجباً، وعلى الثاني: لا يكون حبسهما واجباً إلا إذا ارتبنا منه.

الفائدة العاشرة: أنه لا يحلف بغير الله، لقوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ فلو أقسم بغير الله حتى بمن يُعَظَّم عندهم كالمسيح مثلاً فإنها لا تقبل ولا يعتد بها.

الفائدة الحادية عشرة: أن إقسامهما لا يلزم إلا عند الارتياب في شهادتهما، لقوله: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾.

فهل يؤخذ من هذا أن للقاضي أن يحلف الشاهدين عند الارتياب في شهادتهما؟ نقول: نعم له ذلك، لكن لو قيل: إن هذا إنما ورد في ارتيابنا من شهادة الكفار؟

فالجواب: الحكم يدور مع علته؛ لأننا لم نحلفهما بالله إلا عند الارتياب لا لكونهما من الكفار، إذاً: للقاضي أن يُحلِّف الشهود إذا ارتاب في شهادتهما.

لو قال قائل: هل له ـ أي: للقاضي ـ أن يفرق الشهود أيضاً عند الارتياب، بأن يخلو بكل واحد منهما ويسأله سؤالاً تفصيلياً، حتى إذا اختلفا عرف أن شهادتهما غير صحيحة؟

الجواب: نعم له ذلك.

لو قال قائل: رجلان اشتركا في جريمة فهل يجوز للقاضي أن يفرق بينهما ويقول لأحدهما: إن صاحبك قد اعترف بهذه الجريمة، وهو لم يعترف؟

الجواب: لا يجوز لأن هذا كذب، وهل له أن يوري، فيظهر له خلاف ما يريد لاستظهار الحق؟

الجواب: نعم، ويدل لذلك قصة سليمان مع المرأتين اللتين خرجتا في حاجة لهما ثم أكل الذئب ولد إحداهما، فتخاصمتا إلى داود فقضى به للكبرى، ثم تخاصمتا إلى سليمان فدعا

بالسكين يريد أن يشق الولد نصفين، ويعطي الكبرى نصفه والصغرى نصفه، الكبرى وافقت على هذا؛ لأنها ليس في قلبها رحمة له، وولدها قد مات، قد أكله الذئب فليكن هذا تبعاً له، الصغرى قالت: يا نبي الله هو لها، فلشفقتها ورحمتها تنازلت، عن دعواها، وليس معنى قولها: «هو لها» أنه عبد لها، لا، هو لها: يعني أنها قد تنازلت عن الدعوى، فقضى به سليمان عليه الصلاة والسلام للصغرى[1].

المهم إذا ارتاب القاضي في شهادة الشهود فلا بأس أن يوري في الحكم من أجل استظهار الحق.

الفائدة الثانية عشرة: أن يكون صفة الإقسام على هذا: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾، فهل يكتفى بالمعنى أو لا بد من هذا اللفظ بعينه؟ الصواب أنه يكفي المعنى؛ لأن هذا اللفظ لا يتعبد به حتى نقول: لا يمكن أن يغير، بل عبر الله عزّ وجل عن المعنى بهذا اللفظ، إذاً: فالمرجع إلى المعنى.

الفائدة الثالثة عشرة: الإشارة إلى أن للقرابة تأثيراً في الميل والعاطفة، لقولهما: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ وهذا شيء فطري معروف، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذا في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

---

(١) تقدم في (١/ ٢٦).

الفائدة الرابعة عشرة: أن كتمان الشهادة إثم، لقوله: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْآثِمِينَ﴾ وقد قرر الله تعالى هذا بقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، ولا شك أن الشهادة إذا كتمها الإنسان لزم من ذلك إخفاء حق واجب لشخص، وإضافة باطل للشخص الآخر، فمثلاً إذا استشهده شخص بأن في ذمة فلان له كذا وكذا، فكتمه، ما الذي يحصل؟ إخفاء الحق وإضافة الباطل إلى من لم يشهد عليه.

الفائدة الخامسة عشرة: رد اليمين على المدعي لقوله: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ الآية، لكن كيف تُرَدُّ اليمين على المدعي؟ نقول إذا ادعى زيد على عمرو مائة ريال، فطلبنا البينة من زيد فقال: لا بينة عندي، ولكن أطلب يمين المدعى عليه، فإذا حلف المدعى عليه انتهت الخصومة؛ وليس معنى ذلك أنه بريء، بمعنى لو أن المدعي فيما بعد علم ببينة له لم يعلمها من قبل فإنه على دعواه، لكن انتهت الخصومة، لو قال المدعي: إذا نكل عن اليمين أحكم عليه لأن الخصومة انتهت وأنه لا يطالبني بشيء، فرأى القاضي أن يرد اليمين على المدعي، فهنا لا بأس؛ لأنه قد يكون المنكر صادقاً ولكن يحتاج إلى زيادة إثبات فيردها عليه، وهذا القول هو الصحيح، أنه يجوز أن ترد اليمين على المدعي كما في هذه الآية.

الفائدة السادسة عشرة: جواز تنقيب من عليه الحق عن القضية والتدقيق فيها حتى يعثر على الحق فيها، لقوله: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا﴾ والعثار لا يكون إلا بعد التحري.

الفائدة السابعة عشرة: أن الشاهدين إذا غيرا في الشهادة بزيادة أو نقص أو تبديل فهما آثمان لقوله: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ وذلك بكون الشهادة غير صحيحة؛ لأن هذا إثم.

الفائدة الثامنة عشرة: أنه يقام عند العثور على أن الشاهدين كاذبان اثنان ممن استحق عليهم، والقضية كما سبق كانت في وصية فيقوم اثنان ممن استحق عليهم، ويكون الاثنان هما الأوليان، يعني الأحقان بإرث الميت، والكلام في الآيتين عن الوصية.

الفائدة التاسعة عشرة: الإشارة إلى أن الإرث يكون للأولى فالأولى لقوله: ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ وقد جاء الحديث مقرراً ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر**»(١).

الفائدة العشرون: أن المدعى عليه لا يجزم ببطلان شهادة الشاهد التي تبين أن فيها شيئاً من الخلل، لقوله: ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ بهذا اللفظ ولم يقل: باطلة، لكنَّ قوله: ﴿أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ يستلزم أن تكون مردودة وأن القول قول المدعى عليه.

الفائدة الحادية والعشرون: أنه إذا احتيج في الشهادة أو في القسم إلى إثبات ونفي فلا بد من ذكر الإثبات والنفي، فقولهما ـ يعني الأوليين ـ: ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ هذا إثبات، ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ هذا نفي، فإذا احتيج إلى ذلك فلا بد من ذكر النفي والإثبات حتى تكون الشهادة خالصة.

الفائدة الثانية والعشرون: أن رد الأوليين لشهادة الشاهدين أعظم اعتداء من تغيير الشهادة من الشاهدين، وجه ذلك أنه في

---

(١) تقدم ص١٣.

تغيير الشهادة من الشاهدين قال: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْآثِمِينَ﴾، وهنا قال: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وسبق في التفسير بيان وجه الفرق بينهما.

الفائدة الثالثة والعشرون: أنه كلما كان الشيء أقرب إلى استنتاج الصواب والحق في الشهادة فهو أولى أن يتبع، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ لأن الإنسان إذا فهم أن من وراءه أناساً سيقومون برد شهادته والإقسام على بطلانها، فلا بد أن يتحرى الصدق فيما يشهد به.

الفائدة الرابعة والعشرون: وجوب تقوى الله والسمع والطاعة له، لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟﴾ ومعنى ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ هنا: استجيبوا كما سبق أيضاً في الشرح.

الفائدة الخامسة والعشرون: أن الله سبحانه أخبر بأنه لا يهدي القوم الفاسقين، أي: الخارجين عن طاعته، وخبر الله صدق، لكن يشكل على هذا أن الواقع أن الله قد يهدي الفاسقين وقد يهدي الكافرين، فكيف نجمع بين الواقع وهذا الخبر الصادق؟

الجمع أن نقول إن قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: الذين كتب الله عليهم الفسق، وأما من كتب عليه أن يؤمن فيؤمن ولا بد، ولكن الفائدة من هذا أي من إطلاق قوله: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الإشارة إلى أن عدم هداية الله للقوم الفاسقين؛ لأنهم اختاروا الفسق، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، نسأل الله الهداية وأن يعيذنا من أنفسنا والشيطان.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة: ١٠٩].

قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ كلمة «يوم» ظرف، والظرف والجار والمجرور لا بد لهما من عامل، ويسمى هذا العامل متعلق، ولهذا قال ناظم القواعد:

لا بد للجار من التعلقِ بفعلٍ أو معناه نحو مُرتقي

فقوله: (أو معناه) يعني اسم الفاعل واسم المفعول وما أشبهه، وعلى هذا يكون «يومَ» منصوباً وعامله محذوف؛ لأنه ليس بين أيدينا عامل يمكن أن نحيل العمل عليه فنقول: العامل محذوف، والتقدير: «اذكر يوم»، ويوم: هنا مضافة إلى جملة فعلية مضارعية فهي إذاً منصوبة، وليست مبنية؛ لأنها أضيفت إلى فعل معرب، وهي لا تبنى إلا إذا أضيفت إلى فعل مبني.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ الاسم الكريم فاعل، وبعضهم يقول: لفظ الجلالة فاعل، وبعضهم يقول: «الله» فاعل، لكن الأولى أن يقال: الاسم الكريم أو لفظ الجلالة، حتى لا يقع الشيء على ذات الله عزّ وجل، بل على الاسم، و«الرسل» مفعول به.

قوله: ﴿فَيَقُولُ﴾ معطوف على ﴿يَجْمَعُ﴾ ولهذا جاءت مرفوعة.

قوله: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ يحتمل أن تكون «ماذا» كلمة واحدة على أنها استفهام، ويحتمل أن تكون «ما» اسم استفهام، «وذا» بمعنى: الذي، كما قال ابن مالك رحمه الله في الألفية:

ومثل «ما» ذا بعد ما استفهام أو مَنْ إذا لم تلغَ في الكلام

فإذا قلنا: إن «ماذا» كلمة واحدة صارت «ماذا» اسم

استفهام، وإذا قلنا: «ما» اسم استفهام و«ذا» بمعنى: «الذي» صارت «ما»: اسم استفهام مبتدأ و«ذا» اسم موصول خبر المبتدأ، و﴿أُجِبْتُمْ﴾ مبني للمفعول، ويقال: مبني للمجهول، ويقال: مبني لما لم يسمَّ فاعله، والأخير هو الأولى؛ لأنه قد يبنى على هذه الصيغة وفاعله معروف، ولكنه لم يسمَّ، مثل قول الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، لا يمكن أن تقول: (خُلق) فعل ماض مبني للمجهول؛ لأن الخالق معلوم، ولهذا عبر ابن مالك رحمه الله في الألفية بقوله: ما لم يسمَ فاعله، وهذا أحسن.

قوله: ﴿قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾: هذا جواب قوله: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ وقوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ (لا) هذه نافية للجنس، وهي تعمل عمل «إن» لكن اسمها يكون مبنياً معها إذا كان مفرداً، والمفرد في باب لا النافية للجنس، ما ليس مضافاً ولا شبيهاً بالمضاف، وعلى هذا فيكون ﴿عِلْمَ﴾: مبني على الفتح في محل نصب، و«لنا»: جار ومجرور خبرها.

أما معنى الآية: فيقول الله عزّ وجل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ يعني: اذكر هذا اليوم العظيم، يوم يجمع الله الرسل وذلك في يوم القيامة، يجمعهم على أي كيفية وفي أي وقت، هل هو في أول يوم القيامة أو في آخره، أم ماذا؟

يجب علينا في مثل هذه المسائل الغيبية أن نقف حيث وقف النص؛ لأنه ليس للعقل في هذا مدخل، لا ندري هل يكون أول ما يبعث الناس في أثناء اليوم أو في آخر اليوم، علينا أن نذكر هذا الجمع.

وقوله: ﴿ٱلرُّسُلَ﴾ جمع رسول فيشمل الرسل من أولهم إلى آخرهم، وأولهم نوح وآخرهم محمدٌ ﷺ.

قوله: ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ يعني: ماذا أجابكم الذين أرسلناكم إليهم؟ وهذا كقوله تعالى في المرسل إليهم: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص: ٦٥]، وعلى هذا فيكون الله عزّ وجل يسأل الرسل، ويسأل المرسل إليهم، قال الله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: ٦]، سؤال الذين أرسل إليهم أن يقال لهم: ماذا أجبتم المرسلين؟ وسؤال المرسلين أن يقال: ماذا أُجبتم؟ وهل هذا السؤال للاستعلام؟

الجواب: لا؛ لأن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، هل هو للتوبيخ أي: توبيخ المرسل إليهم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩]؟

الموؤودة ليس لها ذنب وتسأل بأي ذنب قتلت، توبيخاً لقاتليها، فيكون قوله: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ المقصود به: توبيخ المرسل إليهم، وهذا لا شك أنه هو الصواب، أما الاستعلام فغير وارد، وقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ لا شك أن الإنسان يشكل عليه هذا النفي، وهو نفي مطلق عام؛ لأنه بـ«لا» النافية للجنس، فكيف لا يكون عند المرسلين علم؟

الجواب على هذا من وجوه:

الوجه الأول: إما أن يقال: لا علم لنا بما حدث بعدنا، كقول النبي ﷺ في الواردين على الحوض حين يردون فيذادون

عنه، فيقول: «**أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك**»[١] فيكون معنى قوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾، أي: فيما حدث بعدنا، وهذا حق.

الوجه الثاني: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ بما في بواطن الذين أجابوا؛ لأن من الذين أجابوا الرسل من كانوا منافقين لا تعلم الرسل ما في قلوبهم، وهذا أيضاً وجه قوي، فإن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يعلمون ما في قلوب الذين يظهرون اتباعهم، قال الله عزّ وجل: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، والمعرفة في لحن القول مبنية على قرينة ليس على شيء محسوس مقطوع به.

والوجه الثالث: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ إلا ما علمتنا وأنت تعلم ماذا أجبنا؛ لأنك علام الغيوب، وهذا وإن كان له وجه لكنه ليس بذاك القوي، فأحسن ما يقال: أنه لا علم لنا بما حدث بعدنا، أو لا علم لنا بما في بواطن الأمور.

هناك **وجه رابع**: أنهم قالوا: لا علم لنا تأدباً مع الله عزّ وجل، كما يقول التلميذ لأستاذه: ليس عندي علم؛ تأدباً معه، وإن كان عنده علم، وكأن ابن جرير رحمه الله يميل إلى هذا القول، أي: إلى أن المعنى: أنهم يقولون: لا علم لنا؛ تأدباً مع الله عزّ وجل؛ لأنهم يعلمون أن الله لم يسألهم استعلاماً؛ لأنه عالم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة المائدة، حديث رقم (٤٣٤٩)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، حديث رقم (٢٨٦٠) عن ابن عباس.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ جملة استئنافية تبين أنهم وَكَلُوا العلم إلى عالمه عزّ وجل وهو الله تبارك وتعالى، والغيوب: جمع غيب، و«إنَّ»: تنصب الاسم وترفع الخبر والكاف اسمها و«علَّام» خبرها وهو مضاف إلى الغيوب، «أنت» هنا، هل نقول: إنها توكيد للكاف في «إنك» أو نقول: هي ضمير فصل لا محل له من الإعراب، أو نقول: إنها مبتدأ وخبره علام؟ كل هذا محتمل، وأوجه الإعراب كثيرة، ولهذا يقولون: إن حجج النحويين كنافقاء اليرابيع، النافقاء: جُحر اليربوع، واليربوع ذكي يحفر له جحراً في الأرض، ويمضي فيه ثم يحفر في آخره، إلى فوق، حتى إذا لم يبقَ إلا قشرة رقيقة تركها باقية فإذا سد عليه أحد الباب، وإذا النافقاء يسهل الخروج منها فيخرج من النافقاء، فيقولون: إن النحويين كلما حجرتهم من جهة قلت: هذا لا يصح؛ أتوا بوجه آخر ولو كان الاحتمال بعيداً، ولذلك لا يغلب النحوي القوي في النحو أبداً لأنه يستطيع كلما أتيت له بحجة، أتى لك بما يسوِّغ قوله.

فنقول: كلمة «أنت» إما تكون ضمير فصل أو توكيداً للكاف أو مبتدأ، وخبره «علَّام» وعليه جملة المبتدأ والخبر تفيد الحصر؛ لأن الجملة إذا صار طرفاها معرفتين أفادت الحصر، لكن ضمير الفصل أقوى في الحصر.

وقوله: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ هذه صيغة مبالغة بمعنى: أنه عزّ وجل ذو علم بالغ بالغيوب، والغيوب جمع غيب، وهو ما يختفي على الخلق فالله جلَّ وعلا علام الغيوب، ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ [النمل: ٧٥]، يعلم حتى ما لم يكن كيف يكون، كما يعلم الموجود الذي يكون غائباً عن الخلق عزّ وجل.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أنه يجب على الإنسان أن يتذكر هذا اليوم العظيم لينظر ماذا أجابت به الرسل، وهو يوم القيامة حين يجمع الرسل ويسألون.

الفائدة الثانية: تمام قدرة الله تبارك وتعالى وذلك بجمعه الرسل في ذلك الموقف العظيم، الذي يختلط فيه الآدميون والوحوش والسباع والإبل وغيرها، فيجمع الله سبحانه وتعالىٰ الرسل بقدرته وإذنه.

الفائدة الثالثة: فضيلة الرسل عليهم الصلاة والسلام حيث إن الله سبحانه وتعالىٰ يعتني بهم هذا الاعتناء حتى إنه يسألهم يوم القيامة في هذا المشهد العظيم: ماذا أجيبوا؟ تكريماً لهم وإظهاراً لإبلاغهم الرسالة.

الفائدة الرابعة: إثبات القول لله عزّ وجل، وأن الله سبحانه وتعالىٰ يقول. لقوله: «فيقول»، وإثبات القول لله قد امتلأ به القرآن وامتلأت به السنة، وصار إثبات القول لله من الأمور القطعية اليقينية.

الفائدة الخامسة: أنه يقول عزّ وجل بحرف وصوت، وجه الدلالة: أن مقول القول هو قوله: «ماذا أجبتم»؟ وهذه حروف، ووجه الدلالة على الصوت: أنه يخاطب الرسل، فلا بد أن يكون الخطاب مسموعاً لهم، وإلا لم يكن له فائدة، وهذا الذي قررناه في إثبات القول لله عزّ وجل، وأنه بحرف وصوت هو الذي أجمع عليه أهل السنة أئمتهم ومقلدوهم، ومن قال سوى ذلك فهو مبتدع ضال، من قال: إن الله لا يوصف بالقول وإن الذي يضاف إليه

من الأقوال عبارة عن أصوات مخلوقة، خلقها الله عزّ وجل لتعبر عما في نفسه، فهذا القول من أبطل الأقوال، وقد أبطله شيخ الإسلام رحمه الله في رسالة تسمى التسعينية من تسعين وجهاً وهو جدير بالإبطال؛ لأنه متناقض وفاسد، والمشكل أن هذا عليه كثير من الناس اليوم؛ لأنه مذهب الأشعرية السائد بين كثير من الأمة الإسلامية، مع أنه باطل ولا يمكن أن يصدقه من كان على الفطرة السليمة.

الفائدة السادسة: تأدب الرسل عليهم الصلاة والسلام مع الله عزّ وجل، حيث قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ هذا وجه.

الوجه الثاني: أنهم عرفوا قدر أنفسهم وأنهم لا يعلمون الغيب.

الوجه الثالث: أنهم علموا أن الأمم بعدهم لا يعلمون عنها شيئاً حسب الاحتمالات التي ذكرناها في وجه قوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾.

الفائدة السابعة: إثبات علم الغيب لله عزّ وجل، لقول الرسل عليهم الصلاة والسلام وهذا القول إجماع منهم: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ يعني: لا غير، فمن ادعى علم الغيب فهو كافر؛ لأنه مكذب للقرآن الكريم، ولما أجمع عليه المسلمون، من قال: إنه سيحدث في يوم كذا، كذا وكذا فهو كاذب وهو كافر، والكهنة يخبرون عن الواقعات في المستقبل، لكنهم لهم أناس من الجن يستمعون الوحي ويسترقونه، ويلقونه إلى الكاهن، ويضيف الكاهن إليه كذبات كثيرة، ويصدُقُ في كلمة واحدة، وهذا لا ينافي القول بأن الله تعالى علام الغيوب وحده؛ لأن الله قال في

هؤلاء الذين يسترقون السمع: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ [الحجر: ١٨]، فاستثنى الله عزّ وجل، فقال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات: ١٠].

❁ ❁ ❁

□ قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١١٠﴾ [المائدة: ١١٠].

قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى﴾ نقول في ذلك كما قلنا في قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: أن «إذ» مفعول لفعل محذوف تقديره «اذكر».

وقوله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ هذا نداء وصف أو عطف بيان، «عيسى»: منادى مبني على الضم؛ لأنه عَلَمٌ، وكل علم ينادى وهو غير مضاف فإنه يبنى على الضم في محل نصب، فتقول: «يا زيدُ» ولا تقول: «يا زيداً»، وأما «ابن مريم» فهو وصف أو عطف بيان، ونصب؛ لأنه مضاف، و«مريم» اسم أمه، ونسب إليها؛ لأنه لا أب له، إذ إنه خلق من أم بلا أب.

قوله: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ هذا مقول القول، ثم فصل ذلك بقوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، «إذ» متعلقة بقوله: «نعمة»، و«نعمة» مفعول «اذكر» ﴿أَيَّدتُّكَ﴾ الفاعل مستتر

تقديره أنا، والفاعل إذا كان تقديره أنا أو نحن أو أنت، كان مستتراً وجوباً، وإذا كان تقديره هو أو هي فهو مستتر جوازاً إلا في بعض المسائل مثل فعل التعجب فإن تقدير الفاعل فيه هو، ومع ذلك يكون مستتراً وجوباً.

قوله: ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ متعلق بـ«أيَّد».

قوله: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ هذا بيان لـ«نعمة» فالجملة استئنافية، وقوله: ﴿تُكَلِّمُ﴾ الفاعل ضمير مستتر تقديره أنت، و﴿ٱلنَّاسَ﴾ مفعول به، ﴿فِي ٱلْمَهْدِ﴾ أي: حال كونك في المهد، «وكهلاً» وحال كونك كهلاً.

قوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ﴾ يعني: واذكر نعمتي عليك أيضاً إذ علمتك الكتاب، فتكون الواو حرف عطف، و«إذ» معطوفة على «إذ» الأولى.

وقوله: ﴿عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ «علَّم» ينصب مفعولين، المفعول الأول الكاف، والمفعول الثاني: الكتاب، والحكمة معطوف عليه، ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ معطوفان، ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ معطوفة على ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾، فهو من نعمة الله عليه فهي أيضاً في محل نصب. ﴿تَخْلُقُ﴾: أي أنت، ﴿مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ الكاف: اسم بمعنى «مثل»، أي: مثل هيئة الطير، وهو مضاف إلى «هيئة» وإن كان حرفاً، و«هيئة» مضاف إلى الطير، و﴿بِإِذْنِي﴾ متعلق بـ«تخلق»، ﴿فَتَنفُخُ﴾ معطوفة على تخلق، ﴿فِيهَا﴾ أي: في هذه المخلوقة التي خلقتها، ﴿طَيْرًا﴾ خبر تكون، واسمها مستتر جوازاً، والتقدير «فتكون» هي، و﴿بِإِذْنِي﴾: متعلقة بتكون، ﴿وَتُبْرِئُ﴾ معطوفة على «تخلق»، يعني: «وإذ تبرئ الأكمه

والأبرص بإذني»، ﴿وَتُبْرِئُ﴾ فعل مضارع، وفاعله مستتر وجوباً تقديره أنت، و﴿ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ مفعول به ومعطوف عليه، و«بإذني» متعلق بتبرئ، ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ نقول في إعرابها كما قلنا في إعراب «تبرئ الأكمه»، ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ معطوفة على «إذ» الأولى «إذ أيدتك» يعني: واذكر نعمتي عليك إذ كففت بني إسرائيل عنك، و﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مفعول كففت، و﴿عَنكَ﴾ متعلقة بكففت، ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ متعلقة بـ(كففت) أيضاً، و﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ صفة لموصوف محذوف، والتقدير: بالآيات البينات.

قوله: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي: من بني إسرائيل.

قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ في محل نصب مقول القول، و«إن»: نافية، و«هذا» مبتدأ، و«إلا»: أداة حصر، و«سحر»: خبر للمبتدأ، و«مبين»: صفته.

يقول الله عزّ وجل مذكراً عيسى عليه الصلاة والسلام بهذه النعم: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ وعيسى: هو ابن مريم وهو من بني إسرائيل، ومن ذرية إبراهيم، كما قال الله عزّ وجل: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ [الأنعام: ٨٤، ٨٥].

وقوله: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ مفعول «قال» والمعنى: اذكر النعمة التي أنعمت بها عليك وعلى والدتك، أما نعمته عليه فذكرها، وَعَدَّ منها ما عَدَّ، وأما نعمته على الأم فإنه هيئ لها ويسر لها المكان الذي تضع فيه حملها، وجعل عندها رطباً جنياً، ونهراً على قولٍ في معنى: ﴿سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤] ومن نعمته أيضاً

على أمه: أنه أنطق عيسى في المهد ليبين براءة أمه مما اتهمها به اليهود الذين قالوا لها: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾ [مريم: ٢٨] يعني: وأنت كيف صرتِ على هذه الحال.

وقوله: ﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ﴾ أي: إذ قويتك، وروح القدس: هو جبريل عليه السلام، يؤيده في كل ما يحتاج فيه إلى تأييد.

قوله: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ﴾ هذا من نعمة الله عليه، أنه كلم الناس وهو في المهد، أي: صغير يحمل باليد، والعادة أن هذا لا يتكلم، ﴿وَكَهۡلٗاۖ﴾: أي: كبيراً، والكهل قيل: ما بين الثلاثين إلى الخمسين، وقيل: ما بين الثلاثين إلى الأربعين، وإنما ذكر الله تكليمه في المهد، وتكليمه حين كان كهلاً ليبين أن كلامه حين كان في المهد، ككلامه حين كان كهلاً لا يختلف، والمعروف أن الصغير لا يتكلم وأنه لو تكلم لم يكن ككلام الكبير لا في الأداء ولا في الترتيب ولا في المعنى.

ولذلك لو قال قائل: ما الفائدة من قوله: ﴿وَكَهۡلٗاۖ﴾؛ لأن كلام الإنسان في حال الكهولة أمر معلوم؟ قلنا: ليبين أن كلامه حين كان كهلاً ككلامه حين كان في المهد.

وقوله: ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ﴾ يعني: اذكر إذ علمتك الكتاب والحكمة، و﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ قيل إنه الكتابة وليس المراد الكتاب المنزل، بدليل قوله: ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ﴾ فيكون الكتاب بمعنى: الكتابة، ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ هي العلم والفهم والعقل الراجح، حيث ينزل الأشياء في منازلها؛ لأنه أحد الرسل الكرام، فالحكمة إذاً: العلم والفهم والرشد، أي: تنزيل الأشياء في منازلها.

قوله: ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ﴾ التوراة: هي الكتاب الذي

أنزله الله على موسى، والإنجيل: هو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى، وهو فرع عن التوراة؛ لأن الأصل هي التوراة، لكن الإنجيل جاء فيه بعض الأشياء التي لم تكن في التوراة، كما قال الله عزّ وجل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

قوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ﴾ أي: تصنع من الطين شيئاً كهيئة الطير، ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ أي: فيما صنعت من هذه الهيئة، ﴿فَتَكُونُ طَيْرًۢا﴾ وفي قراءة: (طائراً بإذني) يعني: يخلق شكل طائر، ولنقل: شكل حمامة، فينفخ فيها نفخة واحدة فتكون طيراً، يعني: طيراً حياً، والقراءة الثانية: «طائراً»، أي: أنها تطير بالفعل، وهذا لا أحد يقدر عليه إلا الله عزّ وجل أو من أذن له بذلك.

قوله: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ تبرئ أي: تشفي، الأكمه: من مرضه، والأكمه: أحسن ما قيل فيه: أنه هو الذي ولد بلا بصر، إما لأن الأجفان لم تنفتح، وهذا وقع، يعني: وقع مولود في زماننا هذا أكمه، أجفانه منطبقة غير منفتحة، أو أن المراد الأعشى الذي يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار أو بالعكس، ولكن المعنى الأول أبلغ في الآية، أن يكون خلق بلا بصر فيبرئه بإذن الله عزّ وجل، وأما الأبرص فمعروف، وسيأتي إن شاء الله في الفوائد أن الله أعطاه هذه المعجزات؛ لأن الطب في زمنه ترقى إلى مكان بعيد، فآتاه الله من الآيات ما يعجز عنه الأطباء.

وقوله: ﴿بِإِذْنِى﴾ كررها لبيان أن هذه الآية العظيمة لم تكن إلا بإذن الله، في الآية التي في آل عمران كرر الإذن مرتين، لكن

مَنْ الذي قال ذلك في الآية التي في آل عمران هل الله خاطب عيسى أو عيسى خاطب قومه؟ عيسى خاطب قومه فافترقا.

لو قال قائل: في سورة آل عمران كان المتبادر إلى الذهن أن عيسى عليه السلام عند مخاطبة قومه أن يكرر الإذن أكثر من هذه الآية لئلا يغلوا فيه؟

الجواب: في سورة آل عمران أضافها إلى الله عزّ وجل حتى يبين أن الإله حقاً هو الله عزّ وجل، هذا هو المهم، أما في هذه الآية فلئلا يغتر أحد بكونه يحيي الموتى، فقال: ﴿بِإِذْنِي﴾، وسيأتي ذلك في الفوائد إن شاء الله تعالى، وأيضاً لأجل أن يعرف عيسى عليه السلام أنه إنما يتصرف بإذن الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ أي: من قبورهم فيقف على القبر، ويقول: يا فلان اخرج، فيخرج بإذن الله عزّ وجل، وفي آية آل عمران يقول: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فإذا جمعت هذه إلى تلك صار عيسى عليه السلام يحيي الميت قبل أن يدفن، ويحييه بعد أن يدفن.

وعن سؤال الطالب عن: الميت الذي يحييه عيسى عليه السلام هل يبقى ويعيش بعد إحيائه أم ماذا؟

فالجواب: أما أنا ما حضرت، لكن هل هذا جواب سليم أم غير سليم؟ سليم؛ لأن هذا السؤال في غير محله، والمقصود بيان أنه عليه الصلاة والسلام يحيي الموتى، أما كونه يبقى أو لا يبقى هذا البحث فيه غير سديد، والسؤال عنه غير جيد، وأنا دائماً أقول: مسائل الغيب نقتصر فيها على ما ورد، والشأن كل الشأن أن يحيا بعد الموت لا أن يموت بعد الحياة.

النعمة الأخيرة، ذكرها في قوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ أي: صددت، ﴿عَنكَ﴾ لأنهم أرادوا قتله، وقصة الصلب مشهورة، فإنهم اجتمعوا على قتله ثم انتدب بعضهم لذلك فألقى الله الشبه على واحدٍ منهم ورفع عيسى عليه الصلاة والسلام، وهذا الذي ألقي عليه الشبه يصيح: لست عيسى، ولكنهم كذبوه قالوا: أنت عيسى، فقتلوه وصلبوه، فادعى بنو إسرائيل أنهم قتلوا عيسى وصلبوه، ولكن الله كذبهم، فقال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧]، بل هو حي باقٍ وسينزل في آخر الزمان.

وقوله: ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ حين جئتهم بالبينات أرادوا قتلك، بعد أن ظهر الأمر وتبين وأتيت بآيات بينة، ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: قالوا: إن عيسى سحرنا، كيف يبرئ الأكمه؟ كيف يخلق شيئاً من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طائراً؟ ما هذا إلا سحر، وكذبوه، وهكذا المكذبون للرسل كلهم يقولون: إن الرسل سحرة؛ لأن الرسل تأتي بآيات لا يستطيعها البشر، فيموهون على الأعمى ويقولون: إنهم سحروه، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢]، وهذه الآية عامة فكل الرسل قيل لهم هذا: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بَيِّنٌ واضح؛ لأن «أبان» تستعمل متعدية ولازمة فيقال: أبان الفجرُ، أي: طلع، ويقال: أبان الأمرَ، أي: وضحه، وهي على حسب السياق، فتارة تكون بمعنى: أبان، وتارة تكون بمعنى: بان، وهنا مأخوذة من بان، أي: هذا سحر بَيِّنٌ ظاهر.

لو قال قائل: لماذا الصليب مقدس عند النصارى؟

الجواب: يقولون: إن عيسى عليه الصلاة والسلام ـ حسب زعمهم ـ أنه رضي بأن يفدي العالم بنفسه فرضي بالقتل والصلب، فمن أجل ذلك نعظمه، والحقيقة أنهم لو كانوا عقلاء لكانوا يكسرون الصليب؛ لأنه صلب عليه نبيهم على زعمهم، فكان يجب أن يكون أكره ما يكون إليهم النظر إلى الصليب، لكن كما هو معلوم النصارى ضالون ليس عندهم عقول.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تذكير هذه الأمة بما جرى لأنبياء الأمم السابقة قبلها ومن أرسل إليهم؛ لأن قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ متعلقة بمحذوف، والتقدير: واذكر إذ قال الله.

الفائدة الثانية والثالثة: إثبات أن الله يتكلم ويقول بحرف وصوت؛ لأن مقول القول هو: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ إلى آخره، وهذه حروف، والقول لا يوجه إلا لمن يسمعه، ولو كان قول الله هو ما قام بنفسه، لم يصح أن يقول: إذ قال الله: يا عيسى، وفي هذا رد على الأشاعرة، الذين قالوا: إن قول الله وكلام الله هو المعنى القائم بالنفس، وليس هو المسموع، والمسموع أصوات يخلقها الله عزّ وجل تعبر عما في نفسه، وهذا القول باطل من أوجه كثيرة، كتب عليه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله وجزاه الله خيراً عن هذه الأمة ـ رسالة تسمى التسعينية، أبطل هذا القول من تسعين وجهاً وهو جدير بأن يبطل ويطرح؛ لأنه متناقض، والعجب أنهم هم والمعتزلة اتفقوا على أن ما في المصحف مخلوق، لكن المعتزلة قالوا: هو كلام الله، وهؤلاء

قالوا: هو عبارة عن كلام الله، فكان المعتزلة والجهمية من هذا الوجه أسعد منهم بالصواب مع أنهم كلهم خطأ؛ لأن هؤلاء يقولون ـ أعني الأشاعرة ـ: الذي في المصحف هذا ليس كلام الله، بل عبارة عن كلام الله وهو مخلوق، وأولئك يقولون: كلام الله مخلوق، ومن تدبر هذا القول وجده في غاية البطلان.

الفائدة الرابعة: بيان تذكير الله سبحانه وتعالىٰ عباده بنعمه عليهم، وهذا جاء في القرآن في غير ما موضع، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [فاطر: ٣]، أحياناً يكون عاماً كهذه الآية، وأحياناً يكون خاصاً، مثل قوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وما أشبه ذلك، وإنما يُذكِّر الله العباد بالنعمة من أجل وجوب شكرها؛ لأن وجوب شكر المنعم ثابت سمعاً وعقلاً، أما السمع فمملوء به القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقوله: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وأما عقلاً: فلأنه ليس من المروءة أن تقابل النعمة بالإساءة والكفر، فشكر المنعم إذاً واجبٌ سمعاً وعقلاً، وفائدة التذكير بالنعم هو القيام بالشكر.

الفائدة الخامسة: جواز نسبة الإنسان إلى أمه إذا لم يكن له أب، لقوله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾، وهل يمكن أن يكون للإنسان أم بلا أب؟

الجواب: نعم، وذلك فيما إذا نفى الزوج الولد عن نفسه فإنه ينتفي عنه بالشروط التي ذكرها الفقهاء رحمهم الله، وكذلك ولد الزنا: إذا لم يستلحقه الزاني فإنه له أم وليس له أب، فإن استلحقه الزاني فالمسألة فيها خلاف معروف، وجمهور العلماء

على أنه لا يلحقه، لعموم قول النبي ﷺ: «**وللعاهر الحجر**»[١].

لكن لو قال قائل: إذا كانت نسبته إلى أمه توجب التساؤلات، وأن ينكسر قلبه، وأن يساء إلى أمه فهل يعدل عن هذا؟

الجواب: نعم يعدل عن هذا؛ لأن نسبته إلى أمه إذا لم يكن له أب على سبيل الإباحة والجواز، فإذا كان يستلزم ما يؤذي صاحبه فإنه يعدل إلى نسبته إلى آخر، لكن ننسبه إلى من؟ نقول: ننسبه إلى اسمٍ يصح لكل إنسان مثل: عبد الله، عبد الرحمٰن، عبد الكريم، عبد اللطيف، وما أشبه ذلك، فعلى هذا نقول: الأصل فيمن ليس له أب أن ينسب إلى أمه، فإن خشي من ذلك مضرة أو إيذاء نسب إلى من يصح أن ينطبق على كل أحد.

الفائدة السادسة: أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجب عليهم الشكر كما يجب على من أرسل إليهم؛ لأن الله أمر عيسى أن يذكر نعمته عليه وعلى أمه، ونقول: نعم يجب وهم ـ أي: الأنبياء ـ أشد الناس قياماً بشكر النعمة، فقد كان إمامهم محمدٌ ﷺ يقوم في الليل حتى تتورم قدماه وتتفطر، فيقال: «**يا رسول الله! أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيقول: أفلا أكون عبداً شكوراً**»[٢].

---

(١) تقدم في (١/ ٤٦٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ . . .﴾ [الفتح: ٢]، حديث رقم (٤٥٥٦)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم (٢٨٢٠) عن عائشة.

الفائدة السابعة: أن نعمة الله على الوالدين نعمة على الولد، لقوله: ﴿عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ ولا شك أنها نعمة على الولد كما هي نعمة على الوالد، وهل النعمة على الولد نعمة على الوالد من باب المساواة أو الأولى؟ من باب الأولى؛ لأن الولد بضعة من أبيه، كما قال النبي ﷺ في فاطمة رضي الله عنها «**إنها بضعة مني، يريبني ما رابها**»[1] فنعمة الله على الولد في الحقيقة نعمة من الله على الوالد.

الفائدة الثامنة: أن الله تعالى يؤيد البشر بالملائكة، لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

الفائدة التاسعة: هذه المزية لجبريل عليه السلام وأنه يؤيد الأنبياء والرسل.

الفائدة العاشرة: اللقب الفاضل لجبريل: روح القدس، فإن القدس بمعنى: الطهارة والنزاهة من كل عيب، فهو: أي: جبريل عليه السلام ذو مِرَّةٍ، أي: ذو هيئة حسنة، وهو قوي كما قال الله عزّ وجل: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ [التكوير: ٢٠]، وله مكانة عند الله عزّ وجل، كما قال الله تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠﴾ [التكوير: ٢٠]، واليهود يبغضون جبريل، والمسلمون يحبون جبريل؛ لأن جبريل موكل بالوحي ينزل به وفيه حياة الأمة، وأولئك يكرهون جبريل يقولون: إنه ينزل بالعذاب، ولكنه ينزل بالعذاب على من يستحقه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب ذب الرجل عن ابنته في الغيرة والإنصاف، حديث رقم (٤٩٣٢)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل فاطمة، حديث رقم (٢٤٤٩) عن المسور بن مخرمة.

الفائدة الحادية عشرة: هذه الآية العظيمة التي أعطاها الله تعالى عيسى وهي: أنه يكلم الناس في المهد وكهلاً على السواء، أي: أنه يتكلم بكلام رصين بليغ عجيب مع أنه في المهد، وعادة لا يتكلم الإنسان في المهد إنما ينبغ نبغاً لا يفهم، لكن هذا من آيات الله عزّ وجل، كما أن أصل عيسى من آيات الله، وسبق ما ذكره الله تعالى لنا من كلام عيسى في المهد، لما قال قوم مريم لها: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]، فأشارت إليه فقال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٣]، كلام عجيب بليغ، لكن الله على كل شيء قدير.

الفائدة الثانية عشرة: التنصيص على النعمة بالعلم والشرع والحكمة، وأنها أخص من مطلق النعمة؛ لأن مطلق النعمة سبق في قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ لكن العلم خصه فقال: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾، وعلى هذا فيجب على طالب العلم أن يشكر الله تعالى على نعمته عليه، حيث خصه بالعلم الذي حَرَمَهُ كثيراً من الناس، وإذا منّ الله عليه بالعبادة والدعوة إلى الله صار نعمة فوق نعمة، فكم من أناس ضلوا عن سواء السبيل، قال الله عزّ وجل: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، والإنسان إذا شعر بنعمة الله عليه بالعلم والعبادة والدعوة فإنه يزداد فرحاً وسروراً ومثابرة وصبراً على ما هو عليه من طلب العلم وازدياد العبادة وقوة الدعوة إلى الله عزّ وجل.

الفائدة الثالثة عشرة: التنصيص على الحكمة وهي معرفة أسرار الشريعة وغاياتها وثمراتها، فإن معرفة ذلك لا شك أنه يزيد الإيمان وأنه يزيد الإنسان بصيرة في شرائع الله، وأنها أي: الشرائع من لدن حكيم عليم، ولهذا نقول: إنه لا يمكن أن يوجد في صريح المعقول ما يخالف صحيح المنقول، هذه قاعدة خذها مضطردة، فإن وجدت ما ينافيه فاعلم أن الأمر لا يخلو من أحد أمرين ولا بد: إما أن عقلك ليس بصريح، يعني: فيه شبهات أوجبت إخفاء الحق عليك أو شهوات انطمس بها ـ نسأل الله العافية ـ وإما أن يكون النص غير صحيح، يكون حديثاً ضعيفاً أو مكذوباً على النبي ﷺ أو ما أشبه ذلك، أما أن يكون عقل صريح سالم من الشبهات والشهوات ونقل صحيح فلا يمكن أن يتناقضا أبداً.

الفائدة الرابعة عشرة: أن التوراة والإنجيل كتابان من عند الله عزّ وجل، وسبق أن قلنا: إن عطفهما على الكتاب من باب عطف الخاص على العام، إذا لم نقل: إن المراد بالكتاب الكتابة.

الفائدة الخامسة عشرة: بيان قدرة الله تبارك تعالى على إحياء الموتى وعلى إدخال الروح في الجماد، لقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾.

الفائدة السادسة عشرة: إطلاق لفظ الخلق على ما صنعه المخلوق، فمثلاً: لو صنعت باباً، تقول: خلقت باباً، ويدل لهذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقوله في الحديث الصحيح: «**يقال للمصورين: أحيوا ما**

خلقتم»[١]، **فإن قال قائل**: إذا أَثْبَتَ صفة الخلق للمخلوق، فأي فرق بين خلق الخالق وخلق المخلوق؟

الجواب: الفرق عظيم جداً، خلق الخالق إيجاد من عدم على ما يريد الله عزّ وجل: قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦]، خلق المخلوق: تحويل مخلوق الله إلى صفة أخرى، وإلا فالأصل من الله عزّ وجل، وهل يمكن لأحد أن يجعل من الحجر ذهباً؟ لا يمكن، لكن يمكن أن يجعل من الذهب حلياً، وأن يجعل منه على شكل حيوان، كما جعلت بنو إسرائيل الحلي الذي أخذوه من آل فرعون عجلاً، فافترق الخلق المنسوب للخالق والخلق المنسوب للمخلوق، خلق المخلوق يعني: تحويل الشيء من شيء إلى آخر، ليس ذاته ولكن صفاته، وأما خلق الخالق: فهو إيجاد من عدم، وهذا لا يستطيع أحد أن يفعله.

الفائدة السابعة عشرة: أن الله عزّ وجل جعل لعيسى آيةً تعجز علماء الفن الذي اشتهر في حياته، فقد قيل: إن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام اشتهر في وقته الطب وترقى ترقياً عظيماً، فجاء عيسى بآيات لا يستطيع الأطباء أن يقوموا بها، كما أن السحر في عهد موسى كان منتشراً فجاء موسى بآيات تبطل سحرهم، وكما أن البلاغة كانت منتشرة في العرب في عهد الرسول ﷺ فجاء الله تعالى بكتاب أعجزهم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب عذاب المصورين يوم القيامة، حديث رقم (٥٦٠٧)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة، حديث رقم (٢١٠٨) عن ابن عمر.

الفائدة الثامنة عشرة: أنه سبحانه وتعالىٰ يختار من الآيات أشدها إعجازاً، فإنه لم يَمُنَّ على عيسى بأن يخلق أرنباً أو قطاً أو ما أشبه ذلك بل طائراً؛ لأن الطيران في الجو أبلغ من المشي على الأرض، فاختار الله له أن يخلق طائراً، يعني: على صورة الطير.

الفائدة التاسعة عشرة: أن النفخ له تأثير في الأجساد إذا أراد الله عزّ وجل أن يؤثر؛ لأنه نَفَخَ في الطير الذي صنعه فصار طائراً كما في القراءة الأخرى، لما نفخ فيه صار حيواناً من الطيور ثم طار لتحقق أنه دخلته الروح، ومن ثَمَّ جاءت القراءة على المريض عن طريق النفث، والنفث كما نعلم جميعاً يتضمن نفخاً وريقاً، وهذا مؤثر بإذن الله عزّ وجل، ولهذا لو أن القارئ صار يقرأ ويأخذ بإصبعه من ريقه ويبل به مكان الألم أو يبل به المريض، فلا أظنه ينفع، لا بد من نفث مع ريق.

الفائدة العشرون: ما أعطاه الله تعالى عيسى من الآيات في إبراء الأكمه، وهو الذي خلق بلا عين ولا بصر، وهذا دليل على قدرة الله، والظاهر والله أعلم أنه يبرئه في الحال، ولا يحتاج إلى علاج وإلى انتظار، كما جرى للنبي ﷺ في عين أبي قتادة رضي الله عنه حين جرحت في أُحد وبرزت على خده ـ العين برزت على الخد ـ فأتي به إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فأخذ العين وردها في مكانها، وعادت كما كانت في الحال[1]،

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٤٠٠)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٨)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٣٣٤)، والبيهقي في دلائل النبوة (١/ ١١٨) عن قتادة بن النعمان.

سبحان الله العظيم هذه قدرة لا يبلغها الأطباء، فالظاهر أن إبراءه الأكمه والأبرص، يكون في الحال، بدون معالجة وتردد.

الفائدة الحادية والعشرون والثانية والعشرون: هذه الآية العظيمة لعيسى أنه يخرج الموتى من القبور لقوله: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ وهذه لا يقدر عليها أحد، أما هل يبقى الميت إذا خرج أو لا يبقى هذا ليس لنا فيه كلام ولا ينبغي أن نتكلم فيه؛ لأن الآية حصلت بإخراجه من قبره، أما هل يبقى ويعيش مع الناس، أو يموت بعد أن خرج وبرز للناس ثم يدفن؟ فهذا ليس لنا في معرفته مصلحة، وليس لنا أن نسأل عنه؛ لأن الآية حاصلة بدونه.

ففي هذه الآية الجمل الأربع: الطير، إبراء الأكمه، وإبراء الأبرص، وإحياء الموتى، فيه دليل على أنه لا يمكن لأي بشر مهما أوتي أن يحصل له مراده إلا بإذن الله عزّ وجل؛ لأن كل جملة أو كل كلمة قيدها الله تعالى بإذنه؛ لئلا يدعي مدعٍ أن الخلق لهم استقلال في أفعالهم، فيكون لهذه الفائدة فرع وهو الرد على القدرية: والقدرية هم الذين يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله، ليس لله فيه إرادة، الإنسان يأكل ويشرب ويدخل ويخرج ويتحرك ويسكن بإرادة تامة ليس لله فيها تعلق، وهذا يعني: إثبات خالق مع الله عزّ وجل، أو إثبات موجد للحوادث مع الله عزّ وجل، ولهذا سميت القدرية مجوس هذه الأمة؛ لأن المجوس يقولون: إن الحوادث الكونية لها خالقان: ظلمة ونور، وهؤلاء يقولون: الحوادث في الكون لها موجدان، كل واحد مستقل عن الآخر، أفعال العباد يستقل بها العباد حتى إن بعضهم يقول: إن الله لا يعلم من أفعال العباد إلا ما وقع، وأما ما لم يقع فلا يعلمه الله عزّ وجل، فوصفوا الله تبارك وتعالى بالجهل فيما هو في ملكه تبارك وتعالى.

الفائدة الثالثة والعشرون: إثبات إذن الله، وليعلم أن الإذن المضاف إلى الله عزّ وجل ينقسم إلى قسمين: إذن كوني قدري، وإذن شرعي تعبدي، مثال الإذن الكوني: هذه الآية: ﴿تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾، ومثال الإذن الشرعي: قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، ﴿مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ شرعاً أو قدراً؟ قدراً قد أذن فيه، فإنه مكن لهؤلاء من أن يشرعوا لأقوامهم ما لم يأذن به الله، ومكن الأقوام أن يتعبدوا بهذه الشريعة البدعية، لكن شرعاً لا، والفائدة من معرفة القسمين: أن نؤمن بأن ما أذن الله فيه قدراً فلا بد من وقوعه، وما لم يأذن به فلا يمكن وقوعه، أما شرعاً: فما أذن الله فيه شرعاً فقد يقع وقد لا يقع، وما لم يأذن فيه فقد يقع وقد لا يقع، هذا هو الفرق.

لكن لو قال قائل: ما الفرق بين الإذن والإرادة؟

الجواب: الإرادة والإذن متقاربان، لكن الإذن أبلغ في التأثير، فمثلاً: أنا أريد منك أن تفعل، وأذنت أن تفعل، هذا أبلغ، لكن بالنسبة لصفات الله عزّ وجل متقاربة.

الفائدة الرابعة والعشرون: أن الله يدافع عن المؤمنين وأن كف الأذى عن الإنسان من نعمة الله عليه، ولهذا امتن الله به على المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨]، نأخذ هذا من قوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فكلما كان الإنسان أشد إيماناً بالله عزّ وجل دفع الله عنه، وتسليط بعض الناس عليه بالإيذاء ما هو إلا كتسليط المرض على الرسل والأنبياء من باب رفعة الدرجات، وإلا فلا شك أن

هناك أئمة من هذه الأمة أوذوا أشد الإيذاء، بل الرسل عليهم الصلاة والسلام يؤذون، كما قال الله عزّ وجل: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ [الأنعام: ٣٤]، لكن هذا من باب رفعة الدرجات.

الفائدة الخامسة والعشرون: تشجيع الداعي إلى الله عزّ وجل الذي يأتي بالآيات البينات فإنه عرضة للإيذاء لقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، فكل إنسان يدعو إلى الله ويأتي بالبراهين والأدلة، لا بد أن يسلط عليه من يسلط، ولكن الله تعالى بقوته وقدرته يصرف عنه.

الفائدة السادسة والعشرون: تمرد بني إسرائيل الذين كفروا حيث ادعوا أن هذا سحر بل حصروا ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يعني: ولا يمكن أن يكون حقاً.

الفائدة السابعة والعشرون: أن السحر ما خفي سببه، فقالوا: كيف يكون عيسى يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله كيف يكون هذا؟ هذا سحر! لو أن أحداً وقف على جثةٍ هامدة وقال: قومي فقامت ماذا يقول الناس؟ يقولون: هذا ساحر، كيف يقوم الميت؟ فهم لَبَّسوا والعياذ بالله على عباد الله وقالوا في آيات الأنبياء: إنها سحر مبين.

الفائدة الثامنة والعشرون: أن المؤمنين يتبين لهم الحق ويعلمون أنه حق؛ لأن مثل هذا القول: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ إنما يصدر من أهل كفر، أما المؤمن فيؤمن بالآيات ويرى أنها حق ويزيد إيمانه بها.

الفائدة التاسعة والعشرون: أن عيسى عليه الصلاة والسلام

كغيره من الرسل جاء بالآيات البينات، يعني: الواضحات التي لا تشكل على أحد، وقد أخبر النبي ﷺ أنه ما من نبي بعثه الله إلا أعطاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، ولولا هذا لكان الناس معذورين، ألا يصدقوا، يعني: لولا الآيات مع الرسل عليهم الصلاة والسلام، لكان الناس لهم عذر ألا يصدقوا، وعليه فيكون قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، يكون مقيداً بأنهم أوتوا آياتٍ يؤمن على مثلها البشر، وآيات الأنبياء أنواع كثيرة يجمعها أنها معنوية وحسية، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله فصلاً قيماً جداً جداً في آخر كتابه: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ذكر فيه آيات النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: إن آياته نوعان: حسية ومعنوية، والحسية آفاقية وأرضية ووضح توضيحاً كاملاً، وأن من أعظم آياته بل أعظم آياته هذا القرآن، الذي كان آية في وقته وفيما بعده إلى يوم القيامة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**وإنما الذي أوتيته وحيٌ أوحاه الله إلي** ـ أو كلمة نحوها ـ **فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»[1] لأن القرآن بقي، وآيات الأنبياء انتهت بحياتهم فقط، ما لبث أقوامهم أن حرفوا الكتب من بعدهم، أهل التوراة وأهل الإنجيل والكتب الأخرى.

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي أول ما نزل، حديث رقم (٤٦٩٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا ﷺ إلى جميع الناس، حديث رقم (١٥٢) عن أبي هريرة.

□ قال الله عزّ وجل: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة: ١١١ ـ ١١٣].

قوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ (إذ): على حسب ما سبق مفعول لفعل محذوف، التقدير: اذكر إذ أوحيت.

وقوله: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى﴾ أن: هنا تفسيرية؛ لأنها إذا وقعت بعد فعل تضمن معنى القول دون حروفه سميت تفسيرية، والوحي فعل متضمن لمعنى القول دون حروفه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فـ(أن) هنا يعربها أهل النحو على أنها تفسيرية.

وقوله: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ أعاد حرف الجر في قوله: ﴿وَبِرَسُولِى﴾ وهو معطوف على قوله: ﴿بِى﴾ لأنه إذا عطف على ضمير متصل فإنه يؤتى بحرف الجر الذي كان في المعطوف عليه، هذا هو الأشهر في اللغة العربية، وربما يخرج الكلام عن الأصل مثل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١] «والأرحامِ» بالكسر، على قراءة، والقراءة المشهورة: ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] بالنصب، ومثل قوله تعالى: ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ولم يقل: وبالمسجد، وإلا فالأصل أنه إذا عطف على ضمير متصل فإنه يعاد حرف الجر.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ هذا جواب: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِي﴾.

قوله: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ يجوز في مثل هذا، أي: في قوله: ﴿بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾، أن تضعف النون وألا تضعف، إن ضعفت فلا بد من الإتيان بالضمير: بأننا، وإن لم تضعف أدغمت النون بنون الضمير فصارت: بأنا مسلمون، وقد جاء ذلك في القرآن.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ هذه أيضاً جملة استئنافية وعامل «إذ» محذوف، والتقدير: اذكر إذ قال الحواريون، ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ عيسى: منادى وهو في مثل هذا يبنى على الضم في محل نصب ولكن جاءت «ابن» وهي صفة أو عطف بيان منصوبة، ولم تتبع موصوفها؛ لأنها مضافة، ولهذا تقول: يا زيدُ بنَ عبد الله، ولا تقل: يا زيدُ بنُ عبد الله؛ لأن هذا أعني المضاف لو سلط عليه العامل لنصبه، فإذا كان العامل لو سلط عليه مباشرة لنصبه، فكيف والعامل لم يسلط عليه إلا بواسطة المعطوف عليه عطف بيان أو بدل.

قوله: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ فيها قراءتان: قراءة: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ وقراءة: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبَّكَ﴾، وكلاهما سبعية، أما: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ فهي فعل وفاعل، وأما «هل تستطيع رَبَّكَ» فهي فعل وفاعل مستتر متصل ومفعول به، الفاعل المستتر في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾، يعود على عيسى.

قوله: ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ جار ومجرور صفة لمائدة، وذلك؛ لأن الجار والمجرور والفعل إذا أتى بعد النكرة فهو صفة، وإن أتى بعد المعرفة فهو حال.

قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذه متعلقة بقوله: ﴿ٱتَّقُواْ

ٱللَّهَ﴾؛ لأن الإيمان يحمل على التقوى وهي شرط في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ (أوحيت) هنا، هل هو الوحي الشرعي أو الوحي الكوني الإلهامي؟ في هذا قولان للعلماء: فمنهم من قال: إنه الوحي الشرعي، يعني: أوحيت إليهم بواسطة عيسى، وإلا من المعلوم أن الوحي الشرعي لا يكون إلا للأنبياء والرسل، لكن أوحيت إليهم شرعاً بواسطة نبيهم عيسى عليه الصلاة والسلام، أما إذا كان وحياً كونياً: فالمراد به الإلهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، أوحينا وحي إلهام أو وحي شرع؟ وحي إلهام، وكما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨]، هذا وحي إلهام، وهو وحي كوني؛ لأنه يتعلق بالخالق.

فإن قال قائل: ألا يمكن أن نحمل الآية على المعنيين جميعاً، فيكون الله تعالى أوحى إلى نبيهم عيسى أن يبلغهم ذلك وألهمهم قبوله؟

الجواب: بلى يمكن أن يحمل الوحي على المعنيين جميعاً.

وقوله: ﴿ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ الحواريون: هم الخلص من الأصحاب، وقد قال النبي ﷺ: «**لكل نبي حواري، وحواري الزبير بن العوام**»[1]، وتأمل كيف كان هؤلاء هم الخلص من

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الطليعة، حديث رقم (٢٦٩١)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل طلحة والزبير، حديث رقم (٢٤١٥) عن جابر بن عبد الله.

أصحابه، ماذا صنعوا بعد ذلك وهم الخلص؟ اقرن هؤلاء الخلص بالخلص من هذه الأمة تجد الفرق العظيم، كما لو قرنت الخلص من قوم موسى لوجدت الفرق العظيم بينهم وبين الخلص من هذه الأمة، مما يدلك على فضل هذه الأمة، التي اختارها الله تعالى لاتباع هذا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

قوله: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ أن آمنوا بي: الإيمان بالله عزّ وجل يتضمن الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته والإيمان بأسمائه وصفاته، يعني يتضمن أربعة أشياء، والمراد الانفراد بهذه الأشياء.

فالإيمان بوجوده رد على أولئك الشيوعيين الذين يقولون: ليس هناك رب، وإنما هي طبائع تتفاعل، وينتج بعضها بعضاً وإلا فلا رب ـ والعياذ بالله ـ لأنه قد ختم على قلوبهم نسأل الله العافية.

الإيمان بربوبيته: رد على من يقولون: إن الله سبحانه وتعالىٰ له معين في الخلق أو له شريك، ولهذا نفى الله سبحانه وتعالىٰ ذلك في قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣].

الإيمان بألوهيته: المراد انفراده بالألوهية رد على الذين جعلوا مع الله إلهاً آخر يعبدونه كما يعبدون الله كمشركي قريش.

الإيمان بأسمائه وصفاته: رد على طائفتين المعطلة والممثلة.

الطائفة الأولى: الممثلة: أشركوا بالله، فقالوا مثلاً: إن لله وجهاً كوجوهنا، وله يد كأيدينا، وله عين كأعيننا، وما أشبه ذلك، هؤلاء مشركون.

الطائفة الثانية: المعطلة الذين نفوا الوجه واليد والعين والقدم والنزول والاستواء وما أشبه ذلك، هؤلاء معطلون، لهم نصيب من قول فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وإن كانوا لا يعطلون الألوهية لكنهم يعطلون الأسماء والصفات، فمن آمن برب لا يوصف بسمع ولا بصر ولا حكمة ولا عزة ولا قوة ولا مجيء ولا استواء هل آمن برب حقيقة؟ لا.

قوله: ﴿وَبِرَسُولِي﴾ أي: عيسى عليه الصلاة والسلام، والإيمان برسول واحد يتضمن الأمر بالإيمان بجميع الرسل؛ لأن تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الرسل، ألم تقرأ قول الله عزّ وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وهل أحد أرسل قبل نوح؟

الجواب: لا، ويجب أن تكون لا قوية، لا يوجد رسول قبل نوح، ومع هذا قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ لأنه إذا كذب بواحد من الجنس فقد كذب بالجنس كله، إذا آمنوا بعيسى فقد آمنوا بجميع الرسل ومنهم محمد عليه الصلاة والسلام؛ لأن عيسى بشر به.

قوله: ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ قالوا بألسنتهم، ﴿آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ قالوا لمن، لله أو لعيسى؟ إذا كان عيسى هو الذي أمرهم فسيكون قولهم: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ لعيسى فأقروا

واستشهدوا، وإذا أقر الإنسان واستشهد، صار استشهاده غيره مانعاً له من الإنكار فيما بعد؛ لأن الإنسان قد يقر بنفسه، لكن إذا لم يكن عنده من يشهد عليه ربما ينكر، لكن هم أقروا بألسنتهم واستشهدوا، استشهدوا عيسى إذا كان المراد بقوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي لعيسى، أما إذا كان المراد أنهم قالوا لله عزّ وجل، فإن المستشهد هنا هو الله تبارك وتعالى.

وقوله: ﴿بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ أي: منقادون لله عزّ وجل ولا انقياد إلا بإيمانٍ بأن الله تعالى آمرٌ وناهٍ، واعلم أن الإسلام إذا أطلق شمل الإيمان، والإيمان إذا أطلق شمل الإسلام، وإذا اجتمعا صار الإسلام علانية والإيمان سراً، يعني الإسلام الأعمال الظاهرة من أقوال اللسان وأفعال الجوارح، والإيمان: الأعمال الباطنة من اعتقادات القلوب وحبها ورجائها وغير ذلك.

قوله: ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾ يعني: اذكر يا محمد إذ قال الحواريون المنتخبون من قوم عيسى: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ انظر إلى هذا الخطاب الجاف، لم يقولوا: يا رسول الله أو يا نبي الله، قالوا: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾.

﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ قوله: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ﴾ فيه إشكال عظيم على هذه القراءة؛ لأن شكهم في قدرة الله يستلزم الكفر، فلهذا أشكل على أهل العلم كيف يقولون هذا وهم الحواريون؟

فنقول في الجواب عن هذا من وجهين: الوجه الأول: إما أن تحمل الاستطاعة على الإرادة، وهذا سائغ في كلام العرب، تقول لصاحبك: يا فلان هل تستطيع أن تمشي معي لفلان

سأزوره، وأنت تعرف أنه يقدر، لكن المراد: هل تريد أن تمشي معي، فيكون قوله: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ أي: هل يريد وليس عندهم شك في كونه قادراً عزّ وجل فتكون الاستطاعة بمعنىٰ القدرة.

الوجه الثاني: أن يكون عنده الإيمان بقدرة الله على كل شيء، لكن التفصيل قد يتردد الإنسان في حصوله ويحتاج إلى زيادة الطمأنينة، يعني هم يؤمنون بالقدرة العامة، لكن قد يحصل عند الإنسان شك في القدرة الخاصة، كحال الرجل الذي قال لأهله، وكان مسرفاً على نفسه: «**إذا أنا متُ فأحرقوني ثم ذروني في اليم** ـ يعني في البحر ـ **فوالله لأن قدر الله علي ليعذبني عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين**»[1] الرجل خائف من الله، وليس عنده شك بأنه قادر، لكن على سبيل العموم، أما على هذا الفعل بعينه، فإنه يقول: لعله إذا أحرق وذر في اليم لا يقدر الله عليه، وانظر إلى مريم، وانظر إلى زكريا، لما بشره الله تعالى بأنه سيهبه ولداً ماذا قال؟ ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم: ٨]، كيف يصير هذا؟ قال الله له: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: ٩]، يعني انظر لأصلك: ﴿خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ إذاً: فالله عزّ وجل قادر على أن يخلق ولداً، ومع هذا طلب آية على تحقق ما بشر به.

هناك **وجه ثالث** يقول: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾ ليس من الاستطاعة التي هي ضد العجز، بل من الاستطاعة التي هي الإطاعة، يعني:

---

(١) تقدم ص١٧٧.

هل يطيعك ربك إذا سألته أن ينزل علينا مائدة أو لا يطيع؟ وهذا القول يرجع إلى المعنى الأول: وهو: الإرادة؛ لأن الإطاعة بمعنى الانقياد، فالمعنى: هل إذا سألت ربك يطيعك؟ فتكون الاستطاعة هنا ليست من باب الطوق والقدرة، لكن من باب الإطاعة وهي الانقياد إذا سألته.

قوله: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، اتقوا الله: يعني: امتنعوا عن هذا الطلب أو عن هذا السؤال الذي يتضمن الطلب، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: مؤمنين بقدره راضين بقضائه، إن أغناكم أغناكم، وإن أعدمكم أعدمكم؛ لأن المؤمن حقاً والمتقي حقاً يرضى بقضاء الله وقدره ولا يسأل أشياء تكون خارجةً عن نطاق العادة، هذا على قراءة: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾.

أما على قراءة: «هل تستطيع رَبَّكَ» فالمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ فتكون الاستطاعة هنا عائدة إلى عيسى عليه السلام، يعني: هل تستطيع أن تسأل الله، أو تستحيي فلا تسأل؟ وعلى هذه القراءة ليس هناك إشكال، ـ والحمد لله ـ وعلى القراءة الأولى تقدمت الوجوه التي يجاب بها عن الإشكال.

قوله: ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ المائدة: تطلق أحياناً على الطعام، والأصل أنها تطلق على الكرسي الذي يكون عليه الطعام، لكن قد تطلق على الطعام، وهنا المراد والله أعلم الأمران جميعاً، يعني: كرسي الطعام وهو الخوان أو الخوّان ـ أنا لا أضبط اللفظة ـ وعليه الطعام، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من فوق، ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ﴿قَالُواْ نُرِيدُ﴾ يعني: أخبروه

بالسبب أنهم سألوا هذا السؤال العجيب، ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ إذاً هم جياع، وهو يشبه من بعض الوجوه وإن كان أحسن منها، ما قاله قوم موسى له: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: ٦١]، لكن هؤلاء طلبوا شيئاً ينزل من السماء، قالوا: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ ثانياً: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ (تطمئن): تستقر ولا يكون فيها قلق ولا ريب، هذا الغرض الثاني، الثالث: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ كيف نعلم أن قد صدقتنا؟ نعم هو قال لهم: إنه رسول الله، فإن جاء بآية بينة فقد صدقهم وإن لم يأتِ فلم يصدقهم، لكن كيف يقولون: ونعلم أن قد صدقتنا وهم قد صدقوه؟ هذا إشكال لكن الجواب: إما أن المعنى: ونزداد علماً أن قد صدقتنا، ولا شك أنه كلما وجدت الآيات الدالة على صدق القائل ازددت علماً بصدق القائل، أو يكون بعضهم عنده تردد، والعلم ينفي الشك والتردد، ولكن أيما أولى الإحسان بهم ظناً ونقول: نعلم أي: نزداد علماً، أو نقول: لعل بعضهم عنده تردد؟ الأول أحسن، ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي: أخبرتنا بالصدق، يقال: صدق بمعنى: أخبره بالصدق، ويقال: صدق بمعنى: أتى بما وعده به، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، يعني: تقتلونهم، بمعنى أتى بما وعد به، ويقال: صدقه؛ إذا أخبره بالصدق وإن لم يأتِ بما أخبر به، كقوله ﷺ في الشيطان: «**صدقك وهو كذوب**»(١).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز، حديث رقم (٢١٨٧) عن أبي هريرة.

﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ هذا أمر رابع، يعني: نشهده بأعيننا من غير أن نخبر عنه، وليس الخبر كالمعاينة.

من فوائد الآيات الكريمات:

الفائدة الأولى: إثبات وحي الله عز جل، لقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ﴾ ووحي الله ينقسم إلى قسمين: وحي شرع، ووحي إلهام، فالأول يتعلق بالشرع، والثاني يتعلق بالكون، وقد تقدمت الأمثلة في التفسير.

الفائدة الثانية: أن عيسى عليه السلام له حواريون، يعني: أصحاباً ذا صفاء في مودتهم، كما قال تعالى في آخر سورة الصف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]، وكما تقدم في الحديث: «**لكل نبي حواري، وإن حواري الزبير بن العوام**»[(١)] هذه منقبة لا شك للزبير، لكن أبو بكر رضي الله عنه قال عنه النبي ﷺ: «**لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً**»[(٢)].

الفائدة الثالثة: أن الإيمان بالله لا يتم إلا بالإيمان برسوله، لقوله: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى﴾، وقد بَيَّنَ النبي ﷺ أن الإيمان: هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، هذه الأركان لا بد منها في الإيمان، فمن نقص منها واحداً لم يكن مؤمناً.

---

(١) تقدم ص٥٢٠.

(٢) تقدم ص٥٦.

الفائدة الرابعة: استجابة الحواريين لما أوحي إليهم به، حيث قالوا: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾.

الفائدة الخامسة: جواز حذف المعلوم، حيث قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ ولم يقولوا: بك وبرسولك؛ لأن هذا معلوم، فالمطلق يحمل على المقيد إذا كان معلوماً، فإذا عقد الإنسان عقداً، وذكر عند الإيجاب شروطاً، فقال الآخر: قبلت البيع منك، مثال ذلك قال: بعتك هذا البيت على أن أسكن فيه سنة، فقال: قبلت البيع، هل يثبت الشرط؟ نعم يثبت؛ لأن قوله البيع يعني القبول بهذا الشرط وإن لم يذكر، لكنه معلوم من السياق.

الفائدة السادسة: جواز استثبات الشيء بالإشهاد عليه، لقوله: ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ وفي الدعاء المأثور: «**اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وأنبياءك وجميع خلقك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت وأن محمداً عبدك ورسولك**»[1] هذا من أذكار المساء والصباح على خلاف في ثبوت الحديث.

الفائدة السابعة: أن الإيمان هو الإسلام لقوله: ﴿ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ ولم يقولوا: مؤمنون، قالوا: مسلمون، فدل هذا على أن الإيمان هو الإسلام، وقد ذهب إلى هذا جماعة من

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، حديث رقم (٥٠٦٩)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب، حديث رقم (٣٥٠١)، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ثواب من قال حين يصبح وحين يمسي...، حديث رقم (٩٨٣٧) عن أنس بن مالك.

أهل العلم، وقالوا: لا فرق بين الإسلام والإيمان، واستدلوا بمثل هذه الآية، واستدلوا أيضاً بقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦]، ولكن هذا القول على إطلاقه فيه نظر، والصواب: أن الإسلام إذا أفرد دخل فيه الإيمان، وإذا ذُكر مع الإيمان صار له معنىً آخر، ويدل لهذا التفصيل قول الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، يعني: لم يدخل لكن قريباً يدخل؛ لأن: «لما» تفيد النفي مع قرب المنفي، إذاً كيف نُخَرِّج هذه الآية؟ نخرجها: أنهم جمعوا بين الإيمان والإسلام، فيكون الإيمان في القلوب، والإسلام في الجوارح، يعني: أنهم آمنوا وانقادوا انقياداً تاماً لأوامر الله ورسوله.

الفائدة الثامنة: أن الحواريين مع كونهم خُلصاً عندهم شيء من الجفاء، لقولهم: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾.

فإن قال قائل: لعل شريعتهم تبيح لهم أن ينادوا نبيهم باسمه، بخلاف هذه الشريعة، فقد قال الله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، قلنا: وليكن ذلك، لكن هل من الأدب أن يخاطبوا عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام باسمه مع أنهم يريدون أن يدعو الله لهم بحصول هذه المائدة، أو الأليق ما داموا يريدونه أن يسأل الله لهم أن ينادوه بوصف النبوة والرسالة؛ لأنه أنسب وأقرب إلى إجابة دعوتهم؟ الجواب الثاني لا شك، على كل حال هذا الخطاب لا شك أن فيه شيئاً من الجفاء.

الفائدة التاسعة: أن هؤلاء الحواريين يريدون من الآيات ما يملأ بطونهم، والدليل أنهم أول ما بدؤوا بالأكل قالوا: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ فيشبه قول اليهود لما قيل لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: ٥٨]، ماذا فعلوا؟ دخلوا على أستاههم أي: على أدبارهم، يقولون: حنطة، أمروا أن يقولوا: حطة، يعني: احطط عنا ذنوبنا، لكن قالوا: لا، نريد شيئاً ثانٍ، وهو ملئ البطن حنطة، هؤلاء قولهم يشبه هذا القول، والأصل واحد، فكلهم من بني إسرائيل، فلا عجب أن يكون سؤالهم متقارباً والله أعلم.

الفائدة العاشرة: أن وقوع الشيء يعطي يقيناً أكثر من الخبر به، ومنه قول النبي ﷺ: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[1] ولهذا أمثلة منها: قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، نأخذ هذا من قولهم: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾.

الفائدة الحادية عشرة: أن آيات الأنبياء يزداد بها تصديقاً، لقوله: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي: أخبرتنا بالصدق.

الفائدة الثانية عشرة: ثبوت الخبر بالتواتر وكثرة المخبرين، لقولهم: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، ويمكن أن يستدل بهذا أيضاً على أن الصحابة رضوان الله عنهم قولهم حق وحجة؛ لأنهم شاهدوا النبي ﷺ، وشاهدوا آياته، وأيقنوا بها أكثر من غيرهم، وفهموها أكثر من غيرهم.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢١٥) (١٨٤٢)، وابن حبان (١٤/ ٩٦) (٦٢١٣)، والحاكم (٢/ ٣٥١) عن ابن عباس.

□ قال الله عزّ وجل: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة: ١١٤].

قوله: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾ الإعراب في قوله: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾ هو أن لفظ الجلالة «الله» منادى مبني على الضم في محل نصب، و«رب»: بدل أو عطف بيان، وإن شئت فاجعله صفة، أي: نعتاً، وصار منصوباً؛ لأنه مضاف.

قوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ الجملة صفة لمائدة، و«عيداً»: خبر تكون، واسمها مستتر.

وقوله: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ بدل من قوله: «لنا»، لكنه بإعادة حرف الجر، أي: بإعادة العامل؛ لأن قوله: «لنا» يشمل الأول والآخر، لكن أتى بالتفصيل في قوله: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾.

وقوله: ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ معطوفة على «عيداً».

وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ الجملة تدل على أن الله تبارك وتعالى موصوف بهذا الوصف.

وقوله: «ارزقنا»: فعل أمر، لكن هل يقال في الأمر الموجه إلى الله أنه فعل أمر؟

الجواب: لا يقال تأدباً مع الله، ولكن يقال: فعل طلب أو فعل سؤال أو ما أشبه ذلك.

قوله: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني: قال عيسى ابن مريم مستجيباً لطلب هؤلاء الحواريين، سائلاً الله عزّ وجل أن ينزل عليهم مائدة من السماء، والسماء: يحتمل أن تكون العلو أو تكون السماء هي السقف المحفوظ، كما سبق.

وقوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي: نتذكرها كلما جاء وقتها؛ لأن العيد: اسم لما يعود ويتكرر، ومنه الأعياد الشرعية، وهي: عيد الفطر وعيد الأضحى، وعيد الأسبوع.

وقوله: ﴿لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أولهم: الذين كانوا في عهد عيسى، وآخرهم: الذين كانوا من بعده.

وقوله: ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ أي: علامة على قدرتك وعلى سمعك وعلمك، وآية على صدق عيسى عليه الصلاة والسلام؛ لأن هؤلاء طلبوا الآية ليعلموا أن عيسى قد صدقهم.

وقوله: ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ أي: أعطنا؛ لأن الرزق بمعنى العطاء، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨]، أي: أعطوهم منه.

وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ يعني: أخيرهم من جهة الكم والكيف، فلا أحد أكرم من الله، ولا أحد أجود من الله عزّ وجل.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يستطيعون أن يأتوا بكل ما يطلب منهم، وأنهم كغيرهم مفتقرون إلى الله يسألونه ويلجئون إليه.

الفائدة الثانية: أنه ينبغي للإنسان في حال الدعاء أن يذكر هذين المعنيين الألوهية والربوبية، لقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾ لأن هذا نوع من التوسل؛ يتوسل الإنسان بإلوهية الله عزّ وجل وربوبيته.

الفائدة الثالثة: أن عيسى عليه الصلاة والسلام أجاب الحواريين على وجه الأمانة التامة؛ لأنه قال: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما قالوا هم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢].

الفائدة الرابعة: أن هذه المائدة تكون عيداً للنصارى كلما جاء زمنها فهو عيد لهم.

فإذا قال قائل: هل هذا يقتضي أن نقول: كلما مر وقت المناسبات فإننا نجعله عيداً؟

الجواب: لا؛ لأن هذه الأشياء ليس فيها قياس وهي كانت عيداً بطلب نبيهم عليه الصلاة والسلام.

لو قال قائل: أيصح أن يدعو الإنسان بدعاء سورة المائدة: «اللهم أنزل علينا مائدة من السماء»؟

الجواب: أقول للسائل: أعندك شك في رسالة محمد ﷺ؟ فإذا لم يكن عندك شك، فإذا جئت تدعو فقل: اللهم ارزقني مائدة وتكفيك مائدة الأرض.

لو قال قائل: لو أن داعية سأل الله مثل هذه الأشياء التي سألها عيسى عليه السلام وذلك لِيُري الناس صدق دعوته؟

الجواب: هذا لا ينبغي إلا في مقام التحدي، في مقام التحدي لا بأس، كما يذكر عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه أكل السم، لكن بغير تحدي، لا، واصبر ولا تستعجل الآيات حتى تتم دعوتك، قد يكون الله عزّ وجل أخر عنك الآيات الدالة على صدقك وهي الكرامات؛ لأن الآيات للأولياء من الكرامات، قد يكون ذلك لرفعة درجاتك وصبرك، أما في مقام التحدي فنعم، وليعلم أن من الاعتداء في الدعاء أن يكون الشيء المسؤول مستحيلاً كوناً وشرعاً، مثال المستحيل كوناً: أن يسأل الله تعالى أن يجعله مغيراً للخلق، فهذا مستحيل؛ لأنه لا يملك التغيير إلا الله عزّ وجل، وكذلك أن يدعو أن يمكنه الله من

نفخ الروح في الأشياء، هذا إذا نظرنا إلى قدرة الإنسان، أما إذا كان بيد الله، فالله على كل شيءٍ قدير، ومثال المستحيل شرعاً يقول: اللهم اجعلني نبياً.

الفائدة الخامسة: أن ما جاء على خلاف المعهود وكان خارقاً للعادة فهو آية، لقوله: ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ وجه ذلك أنه لم يعهد أن المائدة تنزل من السماء عياناً يشاهدها الناس، فيكون نزولها ولا سيما أنه بطلب بعد اقتراح، فيكون نزولها آية ودليلاً على صدق من تكلم بالرسالة.

الفائدة السادسة والسابعة: أن عيسى ابن مريم مفتقر إلى الله تعالى وإلى عطائه، وينبني على هذه الفائدة بطلان دعوى النصارى: أنه إلههم.

الفائدة الثامنة: أن الله تبارك وتعالى خير الرازقين، وهذا فرد من قاعدة عامة وهي قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، فكل وصف كمال فلله منه الأعلى.

الفائدة التاسعة: إطلاق الرزق على غير الله عزّ وجل، بمعنى: أنه يصح أن نصف غير الله بأنه رازق؛ لأن الرزق بمعنى: العطاء، ولكن الرزق الأكمل والأوفى هو رزق الله تبارك وتعالى.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١٥].

قوله: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وفي قراءة: «مُنْزِلُهَا» هذا للحال أو للمستقبل، يعني: هل أن الله عزّ وجل وعد بإنزالها وأنزلها أو

هو وَعْدٌ لكن لم يتحقق؛ لأن الله تعالى اشترط شرطاً لم يلتزمه بنو إسرائيل؟

في ذلك قولان للعلماء: فمنهم من قال: إن الله أنزلها؛ لأن وعده حق وهو لا يخلف الميعاد، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ أو «مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ» ثم توعد من كفر بعد إنزال هذه الآية، وإن كان هذا مما يرجح أنها نزلت، لكن كونها لم تذكر في كتب النصارى ولم يعرفوها، وعيسى سأل الله تعالى أن تكون عيداً لأولهم وآخرهم يشكل على هذا، وإن كان ليس ذاك الإشكال البعيد؛ لأنه قد يقال: إن الله تعالى لم يجب عيسى في كل ما سأل.

وقال بعضهم: إنه لم ينزلها؛ لأن الله اشترط فقال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُۥ﴾ ولما رأوا هذا الشرط الثقيل الذي يصعب أن يحقق عدلوا عن طلبهم فلم تنزل مائدة، وهؤلاء أيدوا رأيهم بأن النصارى لا يعرفون عن هذه المائدة شيئاً في كتبهم، وقالوا: إنها لو نزلت لكانت عيداً لأولهم وآخرهم كما طلب عيسى عليه الصلاة والسلام، ولما لم يكن عندهم علم بهذه المائدة، علمنا أنهم لم يقبلوا الشرط الذي اشترطه الله، فلم ينزلها الله عزّ وجل، والآية في الحقيقة محتملة، يعني: لا يستطيع الإنسان يجزم بهذا ولا هذا.

فإن قال قائل: لماذا لا نجزم بأنها لم تنزل؛ لأنها لم توجد في كتبهم؟ فالجواب عن هذا سهل لعلها من جملة ما نسي وترك من دين النصارى فلم يكن عندهم علم منها، والله أعلم أنزلت أم لم تنزل، ومتى احتملت الآية معنيين على السواء ولا مرجح، فإن

كانا لا يتنافيان حملت عليهما جميعاً، وإن كانا يتنافيان فالتوقف، وهنا فيما أرى أن الآية محتملة هل نزلت أم لم تنزل، وأما ما ذكره ابن كثير رحمه الله من الإسرائيليات في تعيين هذه المائدة، لو أنه رحمه الله تركها لكان أحسن.

لكن لو قال قائل: أليس هذا التعيين يدل على أن كتبهم دلت على هذه المائدة؟

الجواب: لا أدري، لكن الأناجيل الموجودة بأيديهم ليس فيها ذكر المائدة، وإن كان أحبارهم قد حرفوا هذه الأناجيل، أنا ما قرأتها، لكن يذكرون أن فيها اختلافاً كثيراً، كل يدعي أن هذا الإنجيل الذي معه هو الذي نزل على عيسى.

قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ﴾ أي: بعد إنزالها، وبنيت «بعدُ» على الضم؛ لأنه حذف المضاف إليه ونوي معناه، و(قبل) و(بعد) إذا حذف المضاف إليه ونُوِيَ معناه بُنِيَا على الضم، وإذا حذف ونُوِيَ لفظه أعربا لكن بدون تنوين، وإذا حذف ولم ينوِ لفظه أعربا ولكن بتنوين، فمثلاً إذا قلت: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، هنا حذف المضاف إليه ونوي معناه.

وفي قول الشاعر:

فساغ لي الشراب وكنتُ قبلاً ... أكاد أغُصُ بالماءِ الفراتِ

لم ينوِ لا لفظه ولا معناه، وإذا قلت: «سأزورك من قبلِ ومن بعدِ مجيء فلان»، الأولى: حُذِفَ المضاف إليه ونوي لفظه، والثانية: وُجِدَ المضاف إليه، فصار إما أن يحذف المضاف إليه وإما أن يوجد في «قبل وبعد وأخواتهما»، إن وجد المضاف إليه فهما معربان بلا تنوين، وإن حذف ونوي لفظه فهما معربان بلا

تنوين أيضاً، وإن حذف ونوي معناه فهما مبنيان على الضم، وإن حذف ولم ينوِ لفظه ولا معناه فهما معربان منونان، فالأحوال إذاً أربعة، ففي قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ﴾؟ حذف المضاف إليه ونوي المعنى.

قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ﴾ الفاء: رابطة للجواب، أي: جواب الشرط في قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ﴾، وإنما ارتبطت بالفاء؛ لأن الجملة اسمية، وكلما وقعت جملة الشرط اسمية وجب قرنها بالفاء أو بـ(إذا) الفجائية.

قوله: ﴿فَإِنِّيٓ﴾ فيها قراءتان: ﴿فَإِنِّيٓ﴾، «فَإِنِّيَ»، فأما على قراءة السكون فالياء مبنية على السكون، وأما على الفتح فهي مبنية على الفتح؛ لأنها ضمير المتكلم.

قوله: ﴿أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾ الضمير يعود في قوله: ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾ أعني بذلك الهاء يعود إلى العذاب، يعني: لا أعذب أحداً مثل هذا العذاب.

قوله: ﴿أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فأعذب: نصبت هنا مفعولين، ليس أصلهما المبتدأ والخبر لأنك لو حذفت العامل، وجعلت ضمير المفعول به في: ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾ ضمير رفع لم يصح، لو قلت: هو أحد، ما صح؛ لأن الضمير يعود على العذاب.

لو قال قائل: قوله تعالى: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ألا يجوز أن يكون هذا خاص بعالمي زمانهم؟

الجواب: إذا دل دليل على هذا فلا بأس، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: ٤٧]، أما إذا لم يدل دليل فالأصل العموم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات الكلام لله عزّ وجل، لقوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾.

الفائدة الثانية: أن كلامه تبارك وتعالى بحرف وصوت؛ لأنه تعالى قال قولاً وصل إليه، ولا يمكن أن يصل إليه إلا بصوت.

الفائدة الثالثة: أن كلام الله تبارك وتعالى بحرف بل بحروف متتابعة؛ لأن الله قال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ﴾ وهذه حروف متتابعة لا إشكال فيها.

الفائدة الرابعة: إثبات أفعال الله الاختيارية بمعنى: أنه عزّ وجل يفعل ما يشاء اختياراً بلا مكره؛ لأن هذا الكلام المرتب بالحروف، أفعال أو غير أفعال؟ هو فعل وقول، فمن جهة إحداثه فعل، ومن جهة أنه كلام قول.

الفائدة الخامسة: خطر طلب الآيات من الأمم، وأنه إذا جاءت الآيات المطلوبة فقد عرضوا أنفسهم للهلاك، وقد ذكر أهل العلم رحمهم الله أنه متى طلبت الأمة آية معينة وحصلت لهم؛ حق عليهم العذاب.

فإن قال قائل: هذه القاعدة تنتقض بما تواتر عن انشقاق القمر، وذلك أن قريشاً طلبوا من النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر[1]؟

فالجواب عن هذا: أن قريشاً لم يطلبوا آية معينة، وإنما

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية...، حديث رقم (٣٤٣٨)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر، حديث رقم (٢٨٠٢) عن أنس بن مالك.

طلبوا آية فقط، والنبي ﷺ هو الذي عينها فأراهم انشقاق القمر.

الفائدة السادسة: إثبات أن العذاب له أعلى وله أدنى، لقوله: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهذا دليل على أن العذاب يتفاوت من شخص لآخر، وتفاوت العذاب أسبابه كثيرة، منها: قلَّة الداعي إلى الذنب فإن قلَّة الداعي إلى الذنب توجب شدة العقوبة عليه، وانظر إلى قول النبي ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، وهم: أشيمط زانٍ، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يبيع إلا بيمينه ولا يشتري إلا بيمينه**»[(١)].

الشاهد الأول: «أشيمط زانٍ»: يعني: رجلاً شمطه الشيب، وهذا يدل على ضعف قوته في طلب النكاح، وصَغَّرَهُ بقوله: أشيمط تحقيراً له، إذاً: زنا الشيخ أعظم عقوبة من زنا الشاب؛ لأن الداعي في الشيخ أقل.

الشاهد الثاني: «عائل مستكبر» عائل يعني: فقيراً مستكبراً، الفقير يجب أن يعرف نفسه وقدره، فكيف يستكبر؟ الاستكبار من الغني أهون بلا شك ومتوقع، كما قال الله عزّ وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦، ٧] أي: استغنى عن غيره، وهذا عائل فيستكبر فلذلك اشتدت عقوبته، فكلما قوي السبب في طلب المعصية صارت العقوبة عليها أهون، وكلما ضعف الطلب صارت العقوبة عليها أشد، هنا بيَّن الله عزّ وجل أنه: لا يعذب هذا العذاب أحداً من العالمين.

---

(١) هذا اللفظ للطبراني في الكبير (٦/٢٤٦) عن سلمان، ومعناه عند مسلم (١٠٧) عن أبي هريرة.

الفائدة السابعة: أن كفر من رأوا الآيات ليس ككفر من لم يروها، فالأول: أعظم أي: من رأى الآيات؛ لأن من رأى الآيات فقد رآها عين اليقين، ومن نقلت إليه فقد علمها علم اليقين أي: بواسطة.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦].

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾، مقول القول هو قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ﴾ إذاً: فالجملة في محل نصب، واعلم أن مقول القول لا يكون إلا جملة إلا إذا أجري مجرى الظن فإنه قد يسلط على المفرد، وإلا فلا يكون إلا جملة، والجملة هنا ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

في «أأنت» قراءتان: «أآنت»، بمد الهمزة الثانية، وبالقصر «أأنت» قلت للناس، ﴿ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ﴾ فيها قراءتان: «أميْ» بالسكون «وأميَ» بالفتح، و«اتخذ» تنصب مفعولين: الأول في هذه الآية هو «الياء»، في قوله: ﴿ٱتَّخِذُونِي﴾، والثاني قوله: ﴿إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك، فهو منصوب على أنه مفعول مطلق لفعل واجب الحذف، ولهذا لا تجد الفعل مع سبحان أبداً، وإنما قلنا: إنه مفعول مطلق؛ لأن المصدر تسبيح، وكل لفظ يكون بمعنى المصدر، ولكنه لا يشتمل على حروفه، يسمى مفعولاً مطلقاً، ويسمى اسم مصدر.

قـــولـــه: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ ﴿بِحَقٍّۚ﴾ الباء: حرف جر زائد، ومعنى: زائد، أي: إعراباً، إذ لا شيء في القرآن زائد معنى أبداً، ولكنها زائدة إعراباً، وأما معنىً فإن لها معنىً عظيماً وهو التوكيد.

كيف نعرب «بحق»؟

خبر ليس منصوب وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، واسم ليس مستتر يعود على «ما».

قوله: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ﴾ هذه جملة شرطية، فعل الشرط: (كنت)، و(التاء): اسم كان، ﴿فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ﴾ جواب الشرط، واقترن بالفاء؛ لأن الجزاء صدر بـ«قد».

قـولـه: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾ الإعـراب واضح.

قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ الجملة استئنافية تفيد عموم علم الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ يعني: اذكر يا محمد لهؤلاء القوم هذا الذي صدر من عيسى عليه الصلاة والسلام بل من الله إلى عيسى، ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ وهذا القول يكون يوم القيامة.

قـولـه: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ الاستفهام هنا لا شك أنه لا يراد به الاستعلام؛ لأن الله تعالى يعلم ولكن المراد به توبيخ من قالوا: إن عيسى وأمه إلهان، وهو نظير قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾ ماذا؟ ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ

قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨، ٩]، هي لم تفعل شيئاً، ولكنها تسأل توبيخاً لمن فعلوا، فهنا: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ، توبيخ من جعلوا عيسى وأمه إلهين من دون الله.

وقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ يقول علماء البلاغة: هناك فرق بين أن تقول: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ﴾ وبين أن تقول: «أقلت»، قالوا: إنه إذا وقع المستفهم عنه بعد همزة الاستفهام مصدراً باسم، فالمطلوب به تعيين الفاعل، وإذا جاء الفعل بعد الهمزة، فالمقصود به تعيين الفعل الحادث، إذا قلت: أقام زيد؟ تستفهم عن الفعل الحادث، يعني: هل قام أو قعد، وإذا قلت: أزيد القائم؟ المراد تعيين الفاعل، فهنا ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾، تعيين الفاعل.

وقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي﴾ أي: اجعلوني، ﴿وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: معبودين، وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من سوى الله عزّ وجل، وقد تأتي «دون» بمعنى أقل، لكن هنا بمعنى سوى، أي: من سوى الله عزّ وجل، كان جواب عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك، أنزهك عما لا يليق بك، ولا يليق بالله أن يكون له شريك في العبادة، كما أنه ليس له شريكٌ في الملك، واعلم أن تنزيه الله عزّ وجل يكون عن شيئين: الأول: النقص، والثاني: المشابهة للمخلوقين، ومشابهة المخلوقين وإن كانت نقصاً لكن ينبغي أن ينص عليها بعينها، لئلا يظن ظان أن الكمال الذي للخالق يكون مثل الكمال الذي للمخلوق، والمخلوق مهما كان ناقصاً، فلا بد من تنزيه الله عن مماثلة المخلوق.

وقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ يعني: لا يمكن، فنفي الكون في مثل هذا، يعني أنه مستحيل، ﴿أَنْ أَقُولَ﴾ يعني: للناس، ﴿مَا لَيْسَ

لِي بِحَقٍّ﴾ لأنه ليس من حق عيسى أن يقول للناس: ﴿ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بل إن رسالته إنما كانت من أجل النهي عن الشرك، وإخلاص العبادة لله وحده.

وقوله: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ هذه جملة تدل على أن عيسى عليه الصلاة والسلام يعلم أنه لو صدر منه ذلك لعلمه الله وهو حق، وسيأتي إن شاء الله في الفوائد أن هذا تنديد بالذين يعبدون عيسى؛ لأنه لو قال للناس: ﴿ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لعلمه الله ولم يُمَكِّنه من هذه الدعوة.

وقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ النفس هنا بمعنى: الذات، وكما في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [المائدة: ٣٢] وأيضاً قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] فالنفس بمعنى الذات، والمعنى: أن ما في نفسي تعلمه، وما في نفسك لا أعلمه، والفرق ظاهر؛ لأن الله هو الخالق، وعيسى مخلوق، والخالق يعلم مخلوقه، والمخلوق لا يعلم عن خالقه إلا ما أخبره به، وإلى هذا يشير قول الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ هذه الجملة استئنافية توكيد لمضمون ما سبق.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات القول لله لقوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ وفي القرآن إثبات الكلام، وإثبات النداء، وإثبات المناجاة، وكل هذا يدل على أن الله يتكلم بكلام حقيقة بحرف وصوت وهذا مذهب

أهل السنة والجماعة وهو الذي نعتقده وندين الله به، وهو الواجب على كل مؤمن.

الفائدة الثانية: أن قول الله بحرف وصوت، أما كونه بحرف: فلأن الكلمات التي جاءت بعد القول حروف، وأما كونه بصوت فلأن الله تعالى يخاطب به عيسى، وعيسى يرد عليه.

الفائدة الثالثة: توبيخ الذين اتخذوا عيسى وأمه إلهين، لقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾؛ وسبق أن المراد من هذا الاستفهام هو توبيخ الذين اتخذوا عيسى وأمه إلهين.

الفائدة الرابعة: بُعْدُ الرسل عليهم الصلاة والسلام عن الشرك، لقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ وهذا أمر مُسلَّم؛ لأن أصل بعثة الرسل من أجل تحقيق التوحيد.

الفائدة الخامسة: تنزيه الله تبارك وتعالى أن يكون له شريك، لقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ وتقدم أن قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ بمعنى: تنزيهاً لك عن كل ما لا يليق بك، والمقام الآن في اتخاذ الشريك؛ فيكون معناه: تنزيه الله عن كل شريك.

الفائدة السادسة: اعتراف عيسى عليه الصلاة والسلام بما لا يستحق، لقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ وهكذا إخوانه من الرسل؛ فإن النبي ﷺ لما قال له رجل: ما شاء الله وشئت؛ قال له: «**أجعلتني لله نداً بل ما شاء الله وحده**»[1] فكل الرسل يعرفون قدر أنفسهم فلا يمكن أن يقروا ما لا يستحقونه.

الفائدة السابعة: أن الألوهية حق خاص لله، لقوله: ﴿مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ وإذا كان الرسل بل خلاصة الرسل ليس لهم حق

---

(١) تقدم ص١٩٩.

في الألوهية فمن دونهم من باب أولى، فلا أحد يستحق أن يكون إلهاً، ولا أحد يستحق أن نعبده من دون الله عزّ وجل.

الفائدة الثامنة: أن الله عزّ وجل يعلم ما يصدر من الإنسان، لقوله: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾.

الفائدة التاسعة: تأدب الرسل عليهم الصلاة والسلام مع ربهم جلَّ وعلا لقوله: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ وإذا كنت علمته فإنه صادر عن علم من عندك يا رب وعن قضاء وقدر ولا يخفى عليك.

الفائدة العاشرة: إطلاق النفس على الذات، بل إن بعض العلماء يقول: إن إطلاق الذات على النفس غلط، وأن أصل «ذات» بمعنى: صاحبة فلا تقال إلا مضافة، كما قال الله عزّ وجل: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾ [البروج: ١]، أي: صاحبة البروج، وأن إطلاق الذات على النفس من الكلمات المحدثة، وقد صرح بهذا شيخ الإسلام رحمه الله، وقال: إنها ليست من كلام العرب العرباء، يعني: هذا تفسير لاحق، فلا يوجد لا في القرآن ولا في السنة إثبات الذات لله عزّ وجل، وأما قول خبيب رضي الله عنه: «وذلك في ذات الإله»، فالمعنى: في جنب الإله.

فشيخ الإسلام رحمه الله يقول: إطلاق الذات يراد به النفس، هذا دخيل على اللغة العربية؛ يعني تفسير ابن كثير مثلاً نسميه ذاتاً ونسميه نفساً، لكن أيهما الفصحى؟ النفس، فشيخ الإسلام رحمه الله يقر به؛ لأن الناس مشوا عليه، فقالوا: الذات والصفات، فهو رحمه الله يعبر به، لكن يقول: ليس من كلام العرب العرباء، أي: إطلاق الذات على النفس، وإنما يعبر عن

الذات بالنفس، بمعنى: أن ذات الرجل هي نفسه، ولكن الاصطلاح شيء آخر، واللغة العربية الفصحى شيءٌ آخر.

فإذاً: معنى قوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ يعني: ولا أعلم ما في ذاتك، وليست النفس شيئاً زائداً على الذات؛ يعني ليست كالعلم والقدرة والسمع والبصر وما أشبه ذلك، وقول بعض أهل العلم: أثبت الله لنفسه نفساً فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ من باب التسامح والتجاوز، وإلا فإن نفس الله هي ذات الله عزّ وجل.

الفائدة الحادية عشرة والثانية عشرة: إثبات علم الله بما في نفس الإنسان، لقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، فالله عزّ وجل يعلم ما في قلبك، فاحذر أن يكون في قلبك ما يخالف أمر الله عزّ وجل.

ومن هنا نأخذ فائدة ثانية: وهي وجوب الخشوع في الصلاة؛ لأنك إذا غفلت وفكرت في غير ما يتعلق بالصلاة فقد أعرضت عن الله عزّ وجل، هكذا قرره بعض أهل العلم، ولكن في مسألة وجوب الخشوع في الصلاة نظر؛ لأن النبي ﷺ أخبر أنه إذا أقيمت الصلاة ولى الشيطان وله ضراط، فإذا انتهت الإقامة جاء أي: المصلي، وجعل يحدثه حتى يقول: اذكر كذا في يوم كذا، فلا يدري كم صلى ثلاثاً أم أربعاً[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب فضل التأذين، حديث رقم (٥٨٣)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، حديث رقم (٣٨٩) عن أبي هريرة.

وقد يقال: إن النبي ﷺ أخبر عن الواقع، ولا يلزم من الإخبار عن الواقع أن يكون الواقع جائزاً، كما أخبر أننا نركب سنن من كان قبلنا: اليهود والنصارى[١]، ومع ذلك لا يحل لنا هذا، وكما أخبر أن الظعينة تذهب من كذا إلى كذا وحدها[٢]، ومع ذلك لا يحل للظعينة أن تسافر بلا محرم، لكن الذي يظهر لي أن إيجاب الخشوع في الصلاة فيه مشقة، يعني: كون الإنسان لا تأتيه الهواجس ولا يوسوس في شيء فيه مشقة شديدة.

الفائدة الثالثة عشرة: أننا لا نعلم ما عند الله عزّ وجل، فلا نعلم ما في نفسه مما يقدره جلَّ وعلا ويريده، ولا نعلم عن إرادة الله إلا بوقوع المراد، يعني نحن لا نعلم أن الله أراد أن تمطر حتى ينزل المطر، ولا نعلم أن الله تعالى قضى بحروب تقع بين الناس إلا إذا وقعت هذه الحروب، فإذا وقعت علمنا أن الله أرادها، إذ لا يكون في ملكه ما لا يريد.

الفائدة الرابعة عشرة: إثبات علم الله تبارك وتعالى بالغيب، لقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ ومعنى علَّام الغيوب: أي: أنك موصوف بهذا، وليس المراد الكثرة، بل المراد المبالغة في هذا الوصف بقطع النظر عن أفراده؛ لأنها لا تحصر، وقد ذكر بعض العلماء أن كل ما جاء بصيغة المبالغة في حق الله فليس معناه الكثرة وإنما معناه الكمال، لكن من تأمل وجد أنه يأتي لهذا وهذا.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»، حديث رقم (٦٨٨٩) عن أبي سعيد الخدري.

(٢) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٤٠٠) عن عدي بن حاتم.

الفائدة الخامسة عشرة: أن من ادعى علم الغيب فقد ادعى أنه شريك لله، وجه الدلالة أنه أتى بضمير فصل: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ وضمير الفصل يدل على الحصر، يعني: أنت لا غيرك علام الغيوب.

وليعلم أن الغيب نوعان: غيب نسبي، وغيب مطلق، فما هو الغيب الذي اختص الله به؟ هو الغيب المطلق، وأما الغيب النسبي الذي يعلمه فلان دون فلان فهذا يشترك في علمه من قَدَّرَه وهو الله عزّ وجل، ومن وقع منه.

لو قال قائل: ما حكم الذين يَدَّعون الغيب ويجمعون الأموال على هذا، وهل إذا مات واحد منهم هل يصلى عليه، وما حكم من قال لشخص نعرفه: أنت من أهل النار؟

الجواب: لا يصلى عليه، كل من ادعى علم الغيب فإنه كافر؛ لأن الله تعالى قال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وهذا نفي، يعني: حصراً، لا أحد يعلم الغيب في السمٰوات والأرض إلا الله عزّ وجل، لكن إن كان عندهم قرائن، فتكون دعواه خرصاً وتخميناً، مثل أن يتوسم في شخص أنه سيكون ضالاً، هذا ربما يُعْرَفُ من ملامح وجهه، وقد وقع هذا من رجلٍ تلمح في شخص له مؤلفات مفيدة جداً في الدين الإسلامي، ولكنه قال: إن هذا الرجل سيرتد، وفعلاً ارتد، ومات على ردته وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥]، أما مجرد علم الغيب، فهذا لا شك أنه كفر؛ لأنه تكذيب للقرآن.

وأما من قال لشخص: أنت من أهل النار، فلا بد أنه استند أيضاً إلى قرائن، يعني: أنه يفعل أفعالاً توجب أن يكون من أهل

النار فلا يكون هذا من علم الغيب؛ لأنه لم يقل هذا مستنداً إلى شيء، فيقال: المحذور في هذا أنك شهدت له أنه من أهل النار بعينه، وهذا لا يجوز.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٧].

قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ أي: للناس، ﴿إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ «أن» هذه تفسيرية؛ لأنها وقعت بعد ما تضمن معنى القول دون حروفه، وهو: ﴿أَمَرْتَنِي﴾.

قوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ﴾ ربي: هذه بدل أو صفة من لفظ الجلالة.

قوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ﴾ إعرابها واضح لا إشكال فيه.

قوله: ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ﴾ «ما دام» تعمل عمل «كان» إذا سبقت بما المصدرية الظرفية، أما إذا سبقت بما النافية فليست من أخوات (كان)، فإذا قلت: ما دمت قائماً، يعني: لم أقم قياماً دائماً، فهذه نافية، وإذا قلت: لا أجلس ما دمت قائماً، فهذه مصدرية ظرفية، الجملة الأخيرة إثبات، والجملة الأولى نفي، لكن هنا هل هي مصدرية ظرفية؟ نعم، فعليه تكون التاء اسمها والجار والمجرور خبرها.

قوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا إشكال فيها في الإعراب.

يقول عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ يعني: إلا الذي أمرتني به، وما هو؟ ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وأتى بقوله: ﴿إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ قبل أن يقول: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ليبين أنه عليه الصلاة والسلام رسول مبلغ، مأمور، فبدأ بما يدل على رسالته وأنه مأمور قبل أن يذكر ما أرسل به.

وقوله: ﴿أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ يعني: كلفتني بإبلاغه أمراً منك، ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟﴾ العبادة تطلق على معنيين: **المعنى الأول**: التعبد، **والمعنى الثاني**: المتعبد به، فإذا قلت: الصلاة عبادة، فالمراد بذلك المتعبد به، وإذا قلت: صلى هذا الرجل لعبادة الله عزّ وجل، فالمراد تعبده هو، وقال: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ من أجل أن يبرهن لهم أنه ليس برب.

وقوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ يعني: كنت أشهد عليهم بما هم عليه من التوحيد والإخلاص ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾، يعني: مدة دوامي فيهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أي: قبضتني، يقال: توفى الرجل حقه، أي: قبضه، ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أنت المراقب الذي تحفظ أعمالهم وتشهدها وتعلمها، ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ هذا التعميم بعد التخصيص، يعني: أنت على كل شيء شهيد من أفعالهم وغيرها.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام مكلفون بالرسالة أمراً من الله، لقوله: ﴿مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ وهذا له شواهد في القرآن كثيرة مثل قول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

الفائدة الثانية: حسن أدب الرسل مع الله عزّ وجل، حيث قال: ﴿إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ وجه ذلك أنه يشعر بأن عيسى رسول مأمور مكلف بالأمر.

الفائدة الثالثة: أن عيسى عليه الصلاة والسلام أمر أن يبلغ الناس بأنه عبدٌ والله تعالى رب، لقوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ والرب مقابله العبد.

الفائدة الرابعة: أنه لا حق لعيسى في الألوهية ولا الربوبية، ولذا تبرأ عيسى عليه السلام من ذلك وقال: إنه ليس بحق له، ونزه الله تعالى أن يكون له شريك، لقوله: «ربي»، ومن ليس له ربوبية ليس له ألوهية.

فإن قال قائل: أليس يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص؟
الجواب: بلى، ولكن بإذن الله.

الفائدة الخامسة: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام شهداء على أمتهم ما داموا فيهم، لقوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ ومع ذلك هم شهداء على ما يرون أو يسمعون، وليسوا شهداء على غائب بعيد لا يرونه ولا يسمعونه؛ لأن الرسل لا يعلمون الغيب.

الفائدة السادسة: أن عيسى عليه الصلاة والسلام قد توفاه الله لقوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ وقد جاء في ذلك آيات، منها قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران: ٥٥]، إلى آخره، فأثبت أنه متوفيه.

وقد اختلف العلماء رحمهم الله في هذه الوفاة.

القول الأول: أنها بمعنى: القبض ولا يلزم منها نوم ولا موت، والاستيفاء بمعنى: «القبض»، أو التوفي بمعنى: «القبض» وارد في اللغة العربية، إذ يقال: توفى الرجل حقه أي: قبضه، وعلى هذا المعنى لا إشكال في الآية إطلاقاً.

القول الثاني: إنه موت حقيقي، وهؤلاء أنكروا نزول عيسى في آخر الزمان، وقالوا: إنه مات كما مات الأنبياء، وهذا قول باطل يبطله ظاهر القرآن وصريح السنة.

القول الثالث: أن المراد بالوفاة النوم، وهو أن الله تعالى ألقى عليه النوم ثم رفعه إلى السماء، وهذا القول له وجهة نظر، لكنه ليس ظاهراً كثيراً، فإن صح هذا التفسير دل ذلك على أن محمداً ﷺ أقوى جأشاً من عيسى عليه السلام؛ لأن محمداً عُرِجَ به إلى السماء في حال اليقظة وشاهد من آيات الله ما شاهد، وعيسى ألقى الله عليه النوم ثم رفعه؛ لأنه سوف يشاهد مخلوقات عجيبة عظيمة، والمسافة بعيدة.

إذاً: عندنا ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه وفاة موت، وهذا ضعيف.

القول الثاني: أنه وفاة نوم وهذا له وجهة نظر.

القول الثالث: أنه بمعنى: القبض؛ لأن النوم أمر زائد على القبض، فيحتاج في ثبوته إلى دليل واضح أنه من القبض ولا إشكال فيه، وهذا القول لا إشكال فيه.

الفائدة السابعة: إحاطة علم الله تبارك تعالى ورقابته، لقوله: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾.

فإن قال قائل: إن الله قال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨]، والمراد المَلَك، والإشكال أن الله جلَّ وعلا أضاف الرقابة إليه في سورة المائدة، وفي سورة «ق» أضافها إلى الملكين، فكيف نجمع بين الآيتين؟

الجواب: أن الله رقيب عليهم بملائكته، أي: أن رقابة الملكين بأمر الله عزّ وجل، فيكون هو الرقيب كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٨] ومن المعلوم أن الذي يقرأ على الرسول جبريل عليه السلام، فأضاف قراءة الرسول إليه لأنه بأمره، وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، فإن كثيراً من العلماء يقول في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ أي: بملائكتنا، ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] وليس المراد قرب نفسه تبارك وتعالى، بخلاف قول النبي ﷺ: «**إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلة أحدكم**»[(١)] وفرَّق بين المعنيين بأن قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يعني إلى الإنسان عامة، ومعلوم أن قرب الله تعالى إلى العبد خاص بعابده أو داعيه، أي: بمن يعبده أو يدعوه، فالقرب ليس كالمعية ينقسم إلى قسمين بل القرب خاص بمن يعبده أو يدعوه، أما من يعبده فكقول الرسول ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[(٢)]، وأما داعيه فهو كقول الرسول عليه الصلاة

---

(١) هذا اللفظ لمسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، حديث رقم (٢٧٠٤) عن أبي موسى.

(٢) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم (٤٨٢) عن أبي هريرة.

والسلام: «**أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، وإنما تدعون سميعاً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»(١).

الفائدة الثامنة والتاسعة: إثبات أن الله تعالى شهيد على كل شيء، لقوله: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، وهذا يستلزم فائدة أخرى وهي: أنه يجب على العبد كمال مراقبة الله تبارك وتعالى، حيث لا يفقده عند أمره، ولا يجده عند نهيه؛ لأن الله رقيب عليك، فلا بد أن تتحاشى هذه الرقابة، وأن لا يفقدك الله تعالى حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك.

لو قال قائل: بعض العلماء فرقوا بين النبي والرسول بأن النبي هو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، والرسول هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، هل هذا صحيح؟

الجواب: نعم صحيح، هذا الذي عليه الجمهور وهو لا يسلم من النقض، شيخ الإسلام رحمه الله يرى أن النبي كالعالم في هذه الأمة، يعني: يكمل شريعة من سبق، ولكن يرد عليه أن آدم نبي ولم يسبقه شريعة، على رأي الجمهور لا إشكال؛ لأن آدم تعبد لله عزّ وجل بما أوحاه الله إليه، وكانت ذريته إذ ذاك قليلة تتأسى به، فلما كثر الناس وانتشروا اختلفوا، فحينئذٍ دعت الضرورة إلى الرسل، وأما على رأي شيخ الإسلام لا أدري

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير، حديث رقم (٢٨٣٠)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، حديث رقم (٢٧٠٤) عن أبي موسى.

لعله رحمه الله يرى أنه مستثنى وليس له وجه، وهذا رأي الجمهور وهو الصواب.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨].

قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ بمعنى: إن تقدر لهم ما يستحقون أن يعذبوا عليه فإنهم عبادك، وليس المراد أنه يعذبهم بدون جرم، فإنه سبحانه وتعالىٰ منزهٌ عن ذلك غاية التنزيه، لقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ولقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، لكن المعنى: إن تعذبهم بأن تُقَدِّرَ عليهم ذنباً يكون سبباً للعذاب فإنهم عبادك، ومع هذا نقول: إن الله تعالى لن يقدر لهم ذنوباً يستحقون عليها العذاب إلا إذا علم ما في قلوبهم من الإعراض وعدم قبول الحق، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]، فالذنوب سبب للإعراض والعياذ بالله، وقال الله عزّ وجل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، إذاً: كلمة: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ لا بد لها من مقدمات:

الأولى: فعل ما يستحقون عليه العذاب.

الثانية: أنه يقدر لهم ما يحصل به العذاب؛ لأنهم أهلٌ لذلك، إذ إن الله تعالى وعد فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥ ـ ٧]، لكن الذنب ذنب العبد، ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ هذه المراد بها العبادة الكونية لا الشرعية؛ لأن العبد بالعبودية الشرعية لا يستحق أن يعذب، ولكن

المراد العبودية الكونية؛ لأن الله تعالى يفعل ما يشاء، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الجملة لا يخفى أنها جواب الشرط واقترنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية، والجملة الاسمية إذا وقعت جواباً للشرط، سواء كان جازماً أم غير جازم فإنها تقرن بالفاء، وقد نظم بعضهم الجمل التي ترتبط بالفاء إذا وقعت جواباً للشرط في قوله:

اسميةٌ طلبيةٌ وبجامدٍ وبما وقد وبلن وبالتنفيس

سبعة مواضع، هنا من أي المواضع؟

الجواب: من الجملة الاسمية، لكنها جملة اسمية أكدت بـ«إن» فاقترنت بالفاء.

قوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، يعني: إن قدرت لهم أسباب المغفرة فغفرت لهم.

لو قال قائل: قولكم في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: قدرت لهم أسباب المغفرة، ألا يشكل عليه أن الله جلَّ وعلا قد يغفر الله لعباده بفضله ورحمته؟

الجواب: الله جلَّ وعلا يغفر ما دون الشرك بفضله ومَنِّهِ، لكن كونه لم يشرك من أسباب المغفرة التي تكون تحت مشيئة الله جلَّ وعلا.

وقوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (العزيز): الغالب، قالوا: العزة ثلاثة أنواع: عزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع، وعزة الشرف التي يعبر عنها بعضهم بعزة القدر.

أما **عزة الغلبة**: فظاهرة، مثل قول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن

رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: ٨]، ومثل قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، واضح أن المراد بها الغلبة هنا.

أما **عزة الامتناع**: قالوا معناها: إن الله عزّ وجل أعظم من أن يناله ما يكون عيباً أو نقصاً، يعني: يمتنع عليه النقص، رجعوا في ذلك إلى الاشتقاق، قالوا: لأنه يقال: أرضٌ عزازٌ، أي: صلبة لا تؤثر فيها المعاول لامتناعها وشدتها.

والثالث: عزة الشرف، يعني: أنه عزّ وجل ذو قدر عظيم وشرف عظيم، كما تقول لصديقك: أنت عزيز عليَّ، معناه أنت ذو قدر عظيم عندي.

قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الحكيم: مشتقة من حَكَمَ وأحْكَم، فإن كانت من حكم ففعيل بمعنى: فاعل، وإن كانت من أحكم، ففعيل بمعنى: مُحْكِمْ، وإتيان فعيل بمعنى فاعل كثير، كسميع بمعنى سامع، وبصير بمعنى باصر، وهكذا، لكن فعيل بمعنى مُفْعِل قليل في اللغة العربية، لكنه ثابت، ومنه قول الشاعر:

أمن ريحانة الداعِ السميعُ يؤرقني وأصحابي هجوعُ

فمعنى السميع: المسمع، إذاً: الحكيم: مأخوذة من الحُكْم والإحكام، فإذا كانت من الحكم فهي بمعنى: حاكم، أي: هو الحاكم في كل شيء، وإن كانت من الإحكام فهي بمعنى: محكم، والمحكم هو الذي منه الحكمة، فأحكم: أي: أتقن كل شيء، كما قال عزّ وجل: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، وما زلنا في شرح هذه الكلمة العظيمة، أولاً: يجب أن نعلم أن هذا وصف الله عزّ وجل أن له الحكم فهو الحاكم قدراً

وشرعاً، دنيا وأخرى، وأن نعلم أن له الحكمة في كل ما يفعله، وكل ما يحكم به من أمور كونية وأمور شرعية، وإذا علمنا هذا استسلمنا تماماً للأحكام الشرعية والأحكام الكونية، فلا نقول مثلاً: إذا قدر الله تعالى وباءً أو قدر زلازل وما أشبه ذلك، لا نقول: هذا عبث، بل نقول: هذا لحكمة، فالحكمة تكون في ذات الشيء، وتكون في غايات الشيء، وتكون في الشرع، وتكون في القدر، فالأقسام إذاً أربعة:

الحكمة في ذات الشيء: بمعنى: أن يقدر هذا الشيء إن كان قدرياً على وجهٍ مناسب تماماً، انظر في المخلوقات تجد كونها على هذا الوجه الذي خلقت عليه موافقة تماماً للحكمة، واسأل أهل التشريح للأجساد البشرية وغير البشرية، اسألهم: كيف ركب الله عزّ وجل هذه الأبدان على أبدع ما يكون وأدق ما يكون، كم في الإنسان من معامل في جسمه؟ معامل عظيمة! انظر إلى الطعام يدخل متنوعاً ويخرج نوعاً واحداً! انظر إلى الطعام يدخل على وجه الصعوبة أو الليونة ويخرج على مستوىً الواحد! كل هذا بسبب المعامل، ثم هذه المعامل ـ سبحان الله ـ تباشر العمل فلا تتأخر، فالمعدة من حين يصل إليها الطعام تبدأ تشتغل، والإفرازات عليها من المرارة أو غيرها شيء عجيب، كون الإنسان خلق على هذا الوجه، عَدَّله الله وجعله سوياً ليس كالأنعام، مناسب تماماً لما خلق له العبد من كونه مخلوقاً للطاعة والعبادة، حتى يتمكن من القيام والقعود والركوع والسجود وغير ذلك مما يكلفه الله به، وعلى هذا فقس.

كذلك أيضاً **الحكمة في الأمور الشرعية**، في ذات الأوامر

الشرعية حكمة عظيمة، فالصلاة صلة بين الإنسان وبين الله عزّ وجل، إنه يناجي ربه قائماً في قراءته وإنه يبتهل إليه في سجوده، وإنه يخشع له بقلبه، فكونه على هذا الوجه هذه حكمة.

أما **الغايات**: فالغايات أيضاً حكمة، الغايات فيما يقدره الله تعالى قدراً، غايات حميدة، انظر إلى قول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] الغاية من هذا ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الروم: ٤١]، والغاية من هذه العقوبة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]، فهذه غاية بعد غاية، مع أن الإنسان لو تصور الأمر من أول وهلة لقال: الفساد فساد، كيفما يكون، فنقول: إن له غاية حميدة.

فالمصالح لها غايات حميدة أيضاً، فهي بنفسها حميدة ولها غايات حميدة أيضاً، ومنها الشكر على النعم، فإن الله تعالى يبتلي بالشر والخير، إذا صبر الإنسان على الشر فهي غاية حميدةٌ، وإذا شكر على الخير فهي غاية حميدة أيضاً.

أيضاً المخلوقات لها غاية: إذا رأيت الشمس تطلع كل يوم من مطلع غير المطلع الذي بالأمس، وبين مطلعها اليوم ومطلعها بالأمس مسافات عظيمة ما يعلمها إلا الله عزّ وجل؛ لأن مع هذا البعد العظيم الذي نظنه مثل الشعرة تجد مساحته أعواماً، ونحن نظن: أن المساحة يسيرة ما هي إلا كشعرة انحرفت الشمس عنها وهي ليست كذلك، بل مسافات عظيمة جداً، وهذا كل يوم، وترجع في نفس الخط، لأجل المصالح العظيمة.

الناس تختلف مصالحهم في الشتاء عنها في الصيف، وفي الخريف عنها في الربيع، مصالح عظيمة، الشمس أيضاً في نضج

الأشجار وتدفئة الجو لها ـ سبحان الله ـ شيء لا يتصور، انظر مثلاً إلى الجو والأفق تجده ونحن في شدة الصيف تجده بارداً جداً جداً؛ لأن أضواء الشمس ليس لها ما يعكسها، هي تنعكس على الأرض ثم تولد حرارة، لكن في الجو لا يوجد شيء يعكس، تخرقه خرقاً وتمضي إلى الأرض، فلكل مخلوق غاية ولكل مشروع غاية حميدة، فالحكمة إذاً تكون في المقدور، أي: في ذات المقدور كونه على هذا الوجه حكمة. ثانياً: في الغاية منه. ثالثاً: في المشروع. رابعاً: في الغاية منه.

وتأمل الشرائع تجد أنها صلاحٌ للبدن وصلاح للقلب، صوم، صلاة، زكاة، حج، توحيد وإخلاص، مصلحة للبدن، وأَسَرُّ ما يكون الإنسان وأنشط ما يكون وأفرح ما يكون إذا اصطبغ قلبه بالإخلاص لله عزّ وجل، ولذلك يمر على الإنسان أحياناً وهو في العبادة، يمر عليه حالٌ يقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا النعيم فهو كافٍ، وتأتي الغفلة تستولي كثيراً، فربما يثقل عليه ما كان خفيفاً عليه بالأمس، والقلوب بيد الله عزّ وجل.

فالمهم أن الحكمة تكون على هذه الوجوه الأربعة: حكمة في المخلوق، حكمة في المشروع نفسه، حكمة في الغاية من المخلوق، حكمة في الغاية من المشروع، وهذا واضح.

والغريب أن هذه الحكمة العظيمة أنكرها الأشاعرة والجهمية وقالوا: إن الله لا يفعل لحكمة؛ لأن الحكمة غرض، والله منزهٌ عن الأغراض والأعراض والأبعاض، سجعٌ باطل.

منزه عن الأغراض يعني ليس له حكمة، لا يفعل لحكمة، هكذا مجرد مشيئة.

ومنزه عن الأعراض: يعني ليس له صفات، لا يضحك ولا يغضب.

ومنزه عن الأبعاض: يعني ليس له وجه ولا يد ولا عين وما أشبه ذلك.

لكن نقول: إن هذا باطل، فالله تعالى منزه عن النقص، أما الحكمة فليست غرضاً ينتفع بها الله عزّ وجل، إنما ينتفع بها الخلق لتظهر آثار رحمته وآثار حكمته في خلقه، حتى يعبدوه وإلا فالله غني عنا، لو أن أهل الأرض كلهم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منهم أينقص الله شيئاً؟ لا ينقصه، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين كلهم، لا ينتفع بالطاعة، ولا تضره المعصية، لكن تظهر آثار رحمته وحكمته وسلطانه وقوته، جعل هذه الشرائع، فليست الحكمة غرضاً ينتفع به الحكيم بالنسبة لله عزّ وجل، أو يدفع به ضرراً عنه.

أما قولهم: **منزه عن الأعراض**، يعني: أنه لا ينزل ولا يستوي على السماء ولا يضحك ولا يفرح ولا يحب ولا يكره، فنقول: هذا يعني: إبطال ما وصف الله به نفسه، وهذا الإبطال هو بمنزلة الجحد؛ لأنهم يبطلون أشياء واضحة المعنى، فهي كما لو قال الذي اشترى فرساً قال: اشتريت خبزاً هل يصدق بهذا؟ لا يصدق، هم تحريفاتهم للنصوص مثل تحريفات من قال: اشتريت خبزاً يريد اشتريت فرساً، لكنهم لا يصرحون بالنفي يقولون: إن الله لا يغضب، لا، يقولون: يغضب لكن المراد بغضبه الانتقام أو إرادة الانتقام.

الثالث: الأبعاض، يقولون: لا يمكن أن يكون لله وجه ولا عين ولا يد ولا قدم ولا ساق، فنقول: سبحان الله أأنتم أعلم أم الله؟ فإذا قالوا: الله أعلم، نقول: هل يُحَدِّث الله تعالى بالكذب؟ إذا قالوا: لا، لا يمكن أن يَكْذِب هو أصدق القائلين، قلنا: إذاً كيف تقولون إنه ليس له يد حقيقية، وليس له وجهٌ حقيقي.

فالحاصل أننا نقول: إن نفي الحكمة يعني: أن أفعال الله تعالى كلها سفه؛ لأنه إذا انتفت الحكمة حل العبث ضدها لا بد، إذ لا يعقل أن فاعلاً يفعل ما ليس له حكمة إلا وله ضدها، فالحمد لله الذي هدانا، نسأل الله أن يثبتنا، إذاً الآية هذه تفيد الحكمة على الوجوه الأربعة.

من فوائد الآية الكريمة:

نذكر ما يفتح الله علينا من فوائد هذه الآية:

الفائدة الأولى: أن عيسى عليه السلام وهو أحد أولو العزم من الرسل، يفوض الأمر إلى الله حيث قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، وهكذا يجب علينا نحن أن نفوض الأمر إلى الله عزّ وجل فيما يفعله ولا نعترض عليه، فالله يقول: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لكمال حكمته، ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ لأنهم عابدون لله عزّ وجل.

الفائدة الثانية: تسليم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتفويض الأمر إلى الله عزّ وجل؛ لأن هذا من عيسى عليه الصلاة والسلام وهو أحد الأنبياء أولي العزم.

الفائدة الثالثة: إطلاق العبودية على من استحق التعذيب، والعبودية نوعان: خاصة وعامة، والخاصة نوعان: أخص وأعم.

النوع الأول: العامة، هي عبودية القدر، يعني: عبودية التكوين هذه عامة لكل أحد، قال الله عزّ وجل: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣]، ولا يشذ عن هذه العبودية أحد، ولا يمكن أن يعارض هذه العبودية أحد، فلا يستطيع أكفر عباد الله أن يمنع قدر الله عزّ وجل فيه، وهذه عامة لكل الخلق للمسلم والكافر والبر والفاجر.

لو قال قائل: هل الحيوانات من عباد الله؟

الجواب: غير الآدميين والجن عباد لله تعالى بالشرع والقدر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

النوع الثاني: خاصة وهي العبودية للشرع، أي: العبودية لشريعة الله: أن يتذلل الإنسان لشريعة الله عزّ وجل وهذه خاصة بمن أسلم وجهه لله، فيخرج منها الكافر فليس بعبد لله بهذا المعنى، هذه العبودية الخاصة تنقسم إلى أعم وأخص، أخص هذه العبودية الخاصة، عبودية الرسل عليهم الصلاة السلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ١٠]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، والأمثلة كثيرة، وقال في نوح: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا

شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، هذه أخص أنواع العبودية وهي عبودية الرسالة؛ لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام مكلفون بأمرٍ زائد على ما كلف المرسل إليهم، في تبليغ الرسالة والصبر على إبلاغها والدعوة إلى الله وغير ذلك.

الفائدة الرابعة: أن لله تبارك وتعالى أن يعذب ويرحم، وإن شئت فقل: إنه يعذب ويغفر لتطابق الآية، ولكن هل هذا على ظاهره أو نقول: إنه يعذب من يستحق التعذيب؛ لأن الله تعالى لا يعذب أحداً لا يستحق التعذيب، كما قال الله عزّ وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢].

الفائدة الخامسة: حكمة الله عزّ وجل في جعل الخلق ينقسمون إلى قسمين: معذب ومغفور له، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، ولولا هذا الانقسام ما ظهر فضل الإيمان، ولا شرع الجهاد ولا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا أرسلت الرسل، لكن حكمة الله اقتضت أن يكون الناس قسمين.

الفائدة السادسة: إثبات المغفرة، أي: مغفرة الله عزّ وجل لمن شاء من عباده، لقوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وقد تقدم معنى المغفرة وهي: ستر الذنب والتجاوز عنه، نأخذ هذا من اشتقاق هذه الكلمة فإنها مشتقة من المِغْفر وهو الذي يتقى به السهام يجعل على الرأس، فهو ساتر وواقٍ.

الفائدة السابعة: إثبات هذين الاسمين الكريمين «العزيز» و«الحكيم»، وإثبات ما تضمناه من صفة وهي: العزة والحكم والحكمة، واعلم أن الأسماء الكريمة قد تستلزم معانٍ أخرى لا

يدل عليها اللفظ باشتقاقه، لكن تكون من اللوازم، مثلاً الخالق من أسماء الله، الخلاق من أسماء الله، يدل على صفة الخلق ويدل على صفات أخرى لازماتٍ لذلك وهي: العلم والقدرة، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢] وبهذا نعرف أن الصفات أكثر من الأسماء، وجه ذلك: أن كل اسم لا بد أن يتضمن صفة أو أكثر، وليس كل صفة يشتق منها اسمٌ، فلهذا نقول: صفات الله عزّ وجل التي بلغتنا أكثر من أسمائه.

فإن قال قائل: الإنسان إذا قرأ هذه الآية يتوقع أن يكون ختامها: فإنك أنت الغفور الرحيم؛ لأن قوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، جواب «إِن تَغْفِرْ لَهُمْ»، والمناسب أن يقول: إنك أنت الغفور الرحيم، فما الجواب؟

قيل: إن **الجواب**: أن الآية وإن كانت مركبة من شرطيتين فهما بمعنىً واحد، الآن الآية فيها شرطيتان: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ وجوابها، ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ جوابها: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لكنها في الحقيقة كشرط واحد، فيكون تعذيب الظالمين بظلمهم والمغفرة للذين يستحقون المغفرة مبنياً على العزة التي بها يعذب الكافرين، وعلى الحكمة التي بها يغفر لمن يستحقون المغفرة هذا من وجه، ومن وجه آخر: تقسيم الناس إلى هذا اقتضته العزة والحكمة، فكان هذا هو المناسب، هذا أقرب ما يكون والله أعلم بمراده.

❁ ❁ ❁

□ قال الله عزّ وجل: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٩].

قوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ﴾ «هذا»: المشار إليه يوم القيامة، و﴿يَوْمُ﴾: خبر المبتدأ، ولهذا جاء مرفوعاً، وليس ظرفاً، إذ لو كان ظرفاً لكان منصوباً، لكن فيه قراءة سبعية بالنصب: «هذا يومَ ينفع»، وعلى هذه القراءة يكون هذا الواقع يقع.

وقوله: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ﴾ الصدق: يكون بالقول وبالعمل، يعني: بالفعل والاعتقاد، أما الصدق بالقول: فهو مطابقة الخبر للواقع، وأما الصدق بالاعتقاد: فأن يكون اعتقاده مطابقاً لقوله، مثال ذلك: قول القائل: «لا إله إلا الله» هذا خبر، صدق أو كذب؟ صدق، لكن هل يصدقه القلب، بمعنى: هل القلب يؤمن بهذا: بأنه «لا إله إلا الله» أو لا؟ إن كان يؤمن بذلك اجتمع في حقه، صدق القول وصدق الاعتقاد.

وأما صدق الفعل بأن يكون الفعل متبعاً فيه الشريعة، ومطابقاً لما في القلب، وعلى هذا فالمبتدع ليس صادقاً، والمنافق ليس صادقاً؛ لأن فعله لا يطابق ما في قلبه، والمبتدع ليس بصادق؛ لأنه لو كان صادق الإيمان ما خرج عن شريعة الرحمٰن.

قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ﴾ الصديقية مرتبة هي أعلى المراتب بعد النبوة، وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى في الفوائد.

قوله: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم وهذا يقتضي الاختصاص، أي: لهم دون غيرهم، ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى﴾ الجنات: جمع جنة، وهي الدار التي أعدها الله عزّ وجل للمتقين، «**فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[1]، تأتي في القرآن مفردة ومجموعة ومثناة، أما الإفراد فباعتبار الجنس، فتشمل كل ما كان من الجنات، وأما الجمع فباعتبار الأنواع؛ لأنها درجات متعددة أعد الله للمجاهدين في سبيله مائة درجة، وأما التثنية فباعتبار الجنس، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن: ٤٦]، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرحمٰن: ٦٢].

قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الجريان معروف، و«الأنهار»: جمع نَهَرْ: وهو الماء، هذا ما نعرفه في الدنيا، لكنه في الجنة أنهار أصنافها أربعة، ذكرها الله تعالى في سورة القتال فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾، هذا في الشراب، وفي المأكل قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، في عدم المسؤولية عما أكلوا أو تركوا، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ يعني: لا من فوقها، ولكن هل معناه من تحت السقف؟

الجواب: لا، من تحتها، أي: من تحت هذه الأشجار، والقصور والخيام، وجريان هذه الأنهار كما جاء في السنة: بدون أخدود وبدون حفر[2]، تجري على السطح لا تحتاج إلى أخدود

---

(١) تقدم ص٢٩٤.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٠٥) عن أنس.

يُقَوَّم ولا حفر تحفر، وإنما تجري حسب رغبة الساكنين، يصرفها الإنسان كما يشاء.

قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ الخلود: هو المكث الطويل، فإن أكد بالأبدية صار أبدياً، وقيل: إن الخلود: هو المكث الدائم ما لم يقم دليلٌ على أنه مؤقت، وعلى كل حال فإن أكد بالأبدية انقطع القول بأنه خلودٌ طويل؛ لأنه أكد بالأبدية.

قوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بما قاموا به من طاعته، وتمام الرضا إذا دخلوا الجنة، فإن الله تعالى يسألهم ماذا يريدون؟ فيعدون عليه نعمه عليهم فيقول: إن لكم أن أحل عليكم رضواني فلا أغضب عليكم بعده أبداً[1]، وهذا الرضوان الدائم الكامل.

قوله: ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما وفقهم له من الأعمال الصالحة في الدنيا، وبما أثابهم عليه في الآخرة، فإن المؤمن لا شك مسرورٌ بطاعة الله راضٍ بها، فرحٌ بها.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ «ذلك»: المشار إليه ما ذكره الله عزّ وجل من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار والخلود فيها والرضا، وأشار إليه بإشارة البعد وذلك لعلو مرتبته وارتفاعها، وإلا فالذكر قريب، لكن أشار إليه لعلو مرتبته، فإنه فوز لا نظير له.

قوله: ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يقال: فاز الرجل إذا غلب غلبة

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة، حديث رقم (٧٠٨٠)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة...، حديث رقم (٢٨٢٩) عن أبي سعيد الخدري.

مرضية ولا يكون هذا إلا بالنجاة من المرهوب وحصول المطلوب، و﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: ذو العظمة البالغة التي ليس لها نظير.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات القول لله عزّ وجل، لقوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

الفائدة الثانية: أن قول الله تعالى بحروف وليس المعنى القائم بنفسه؛ وجه ذلك؛ لأن مقول القول حروف، والله تعالى يخاطب من يخاطب به فيكون مسموعاً، فيكون في هذا رد على القائلين بأن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، كما هو مذهب الأشعري، وقصدي بالأشعري المنتسب إلى أبي الحسن لا نفس أبي الحسن.

الفائدة الثالثة: أن قول الله تعالى بصوت مسموع؛ لأن كل هذا في سياق المحاورة مع عيسى عليه الصلاة والسلام، ثم اعلم أن القول عند الإطلاق لا يراد به إلا اللفظ المسموع، لا يمكن أن يراد بالقول عند الإطلاق المعنى القائم بالنفس أبداً، بل إذا أريد به المعنى القائم بالنفس قيد كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾ [المجادلة: ٨].

الفائدة الرابعة: الفائدة العظيمة في الصدق؛ لأن الإنسان في يوم القيامة أحوج ما يكون إلى ما ينفعه، والصدق يوم القيامة ينفع.

الفائدة الخامسة: الحث على الصدق والترغيب فيه؛ لأن ذكر كونه نافعاً في ذلك الوقت الحَرِج يدل على الترغيب فيه

والحث عليه، وقد حث عليه النبي ﷺ في قوله: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً**»(١) والصديقية: أعلى مراتب البشر بعد النبوة، ويكفيك اقتناعاً بفائدته وثمرته ما حصل للثلاثة الذين خلفوا، أي خلف أمرهم ولم يقضَ فيه بشيء حتى جاء الوحي وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، هؤلاء الثلاثة تخلفوا عن غزوة تبوك، ولما رجع النبي ﷺ منها، جاء المعذرون يعتذرون إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وقد أخبر الله عنهم قبل وصول النبي ﷺ إلى المدينة، وقال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٥ ـ ٩٦]، أما الثلاثة فصدقوا وأخبروه بالصدق، وأنزل الله سبحانه وتعالىٰ فيهم آيات تتلى في الصلاة وخارج الصلاة ويثاب على قراءتها، وحث على أن نكون مثلهم فقال له بعد ذكر الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩].

لو قال قائل: أحياناً إذا أراد الإنسان أن يصدق فإن الصدق

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾، حديث رقم (٥٧٤٣)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، حديث رقم (٢٦٠٧) عن عبد الله بن مسعود.

قد يدخله في إحراج، كأن يطلب منه رجل مالاً قرضاً فيقول له: ما عندي لأنه يخاف المماطلة؟

الجواب: هذه سهلة، يتأول، وفي التأويل مندوحة عن الكذب، يقول: ما عندي شيء أقرضك إياه، ينوي هذا، والنية تخصص العام، وليأخذ طالب العلم هذه الفائدة وينتفع بها، أن في التأويل لمندوحة عن الكذب.

الفائدة السادسة: إثبات الثواب بالجنة، لقوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾، وهذا أمر معتقد عند جميع الطوائف المسلمة.

الفائدة السابعة: أن هذا الثواب يختص به الصادقون، وجه ذلك تقديم الخبر على المبتدأ يدل على الحصر.

الفائدة الثامنة: وصف الجنات بأن الأنهار المضطردة تجري من تحت الأشجار والقصور، وما أجمله من منظر وما ألذه من مخبر، اللهم اجعلنا منهم.

الفائدة التاسعة: أن أهل الجنة مخلدون فيها أبداً، لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وهل هي موجودة الآن؟ نعم هي الآن موجودة في السمٰوات، قال الله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، والإعداد يكون مهيئاً لأهله، والنبي ﷺ دخلها حين عُرِجَ به، ورأى فيها ما رأى، ومثلت له حين قام يصلي صلاة الكسوف، هي والنار[١].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف جماعة، حديث رقم (١٠٠٤) عن ابن عباس، ومسلم، كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، حديث رقم (٩٠٤) عن جابر بن عبد الله.

الفائدة العاشرة: إثبات رضا الله عزّ وجل، لقوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، وهل الرضا صفة فعلية أو ذاتية؟ فعلية؛ لأنها تتعلق بمشيئته، وكل صفة تتعلق بالمشيئة فهي فعلية، وهل هي حقيقة أو هي كناية عن إرادة الثواب أو هي الثواب نفسه؟

الجواب: فيها قولان:

القول الأول: أنها حقيقة وهذا القول هو الذي يجب اتباعه؛ لأنه ظاهر الكتاب، والواجب إجراء الكتاب على ظاهره بدون تحريف.

فإن قال قائل: الرضا معنىً يقوم بالنفس، يقوى ويضعف ويزول ويبقى، قلنا: وما المانع أن نثبت هذا لله وقد أثبته لنفسه! لكن نعلم أن رضا الله ليس كرضا المخلوق الذي يزول بأدنى سبب أو يوجد بأدنى سبب بل له أسبابه المقتضيات له، وله ما يزيله على وجهٍ يختص بالله عزّ وجل؛ لأن لدينا قاعدة عامة، وهي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

القول الثاني: قول أهل التحريف، قالوا: إن الله لا يمكن أن يرضى، الرضا صفة عارضة، والله عزّ وجل منزهٌ عن الصفات العارضة؛ لأن الصفات العارضة صفاتٌ حادثة، والحادث لا يقوم إلا بمحْدَث، وكل هذه التعليلات وهمية لا عقلية، وهي مردودة بدلالة الكتاب والسنة على ثبوت ذلك، ولهذا أي: لكونهم لا يعتقدون رضا حقيقي، قالوا: معنى الرضا: إرادة الثواب، ولم يقولوا: إنه الثواب بل قالوا: إرادة؛ لأنهم يثبتون الإرادة، ومن المعروف أن الأشعرية يثبتون سبع صفات: الحياة، والعلم،

والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، فقالوا: الرضا إرادة الثواب، ومنهم من يقول ـ وهم الذين لا يثبتون الإرادة ـ يقولون: إن الرضا هو: الثواب، والثواب كما نعلم شيء منفصل عن الله مخلوق، يكون بالكلمة: كلمة الله عزّ وجل، ولا شك أن هذا تحريف، وكما هو معلوم مما ذكرنا في الحديث أن الرضا الذي يعطيه الله أهل الجنة أعظم مُناهم وأكمل من كل ما يجدوه في الجنة من النعيم، فكيف نفسره بما هو أدنى ونقول: هو الثواب أو إرادة الثواب!

الفائدة الحادية عشرة: رضا أهل الصدق عن الله عزّ وجل، وهذا فيه شيء من الإشكال، لكن هل للإنسان أن يرضى عن الله أو لا يرضى، أو الواجب الرضا بقضاء الله مطلقاً؟ الثاني، الواجب رضا الإنسان عن ربه مطلقاً، لا بد أن يقول: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ ﷺ رسولاً.

فهل نقول: إن هذا من باب المشاكلة في اللفظ، لما قال عزّ وجل: ﴿وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾، أو نقول: إن الرضا هنا ليس المراد به مقابل الغضب؛ لأنه إذا ثبت الرضا ثبت، وإذا لم يثبت فضده الكراهة والسخط والغضب، أو عدم الرضا بدون كراهة ولا سخط ولا غضب، فلا يلزم من هذا أن نقول: إن الإنسان له الخيار بين أن يرضى بقضاء الله وقدره وألا يرضى، بل نقول: إن الواجب أن يرضى الإنسان بقضاء الله وقدره؛ لأن هذا من تمام الرضا بالله رباً، لكن رضاهم عنه، إما أنه من باب مقابلة اللفظ بمثله، وإلا فالمراد برضاهم أنهم فرحوا بذلك واستبشروا به ولم يبغوا عنه حولاً كما قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ

لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٠٧ ـ ١٠٨].

الفائدة الثانية عشرة: أن الفوز حقيقة ليس بربح الدينار والدرهم والجاه والرئاسة، الربح العظيم أو الفوز العظيم هو فوز الإنسان بجنات النعيم ـ أسأل الله أن يجعلنا من الفائزين بها ـ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله عزّ وجل: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١٢٠].

لما ذكر الله عزّ وجل ما جرى بينه وبين عيسى عليه الصلاة والسلام وأن عيسى تبرأ مما يدعي النصارى فيه، بَيَّنَ عزّ وجل أن لله ملك السمٰوات والأرض، وأن عيسى لا يصلح أن يكون إلهاً لا هو ولا غيره؛ لأنهم لا يملكون شيئاً مما في السمٰوات والأرض، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿لِلَّهِ﴾ وحده، واستفدنا أن ملك السمٰوات والأرض لله وحده من تقديم الخبر، أي: لله وحده لا غير، يتصرف فيه كما يشاء ولا يشاركه أحدٌ في ملكه، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣].

وقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جَمَعَ السمٰوات؛ لأن عددها سبع، وأفرد الأرض باعتبار الجنس، وإلا فإن الأرضين سبع.

قوله: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾، (ما): هنا اسم موصول، وعبر بـ(ما)

التي يعبر بها عن غير العاقل، قالوا: لأن أكثر ما في السمٰوات والأرض من غير العقلاء، فلهذا قال: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾، وقيل: بل عبر بـ(ما)؛ لأنها تشمل الأعيان والأحوال فكأنه قال: وما فيهن من أعيان وأحوال، و(مَنْ): إنما يعبر بها في العاقل لتعيين الشخص نفسه، وهذه الفائدة لا تكاد تجدها عند كثير من النحويين، لكن ابن القيم رحمه الله في بدائع الفوائد أشار إليها، أن (مَنْ) للعاقل إذا قصدت التعيين، يعني: عينه، أما إذا قصد عموم الأعيان والأحوال فإنه يؤتى بـ(ما)، وأبين مثال لذلك قول الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]، ولم يقل: «مَنْ».

لكن لو قال قائل لشخص: تزوج من شئت من بناتي فـ«من» هنا جاءت لأجل التعيين، وهذا معنىً لطيف.

وأما قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥] هذا من باب التغليب لأجل العطف.

وقوله: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ من المخلوقات العظيمة، واسمع إلى قول النبي ﷺ: «**أطتِ السماء وحُقَ لها أن تَئِطَ**»[1] «أطت» يعني: صار لها صوت، كصرير الرحل عند ثقل الحمل، البعير إذا حملت عليه فإن رَحْلَه يكون له صوت يسمى: أطيطاً.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً**»، حديث رقم (٢٣١٢)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء، حديث رقم (٤١٩٠)، وأحمد (٥/ ١٧٣) (٢١٥٥٥) عن أبي ذر.

وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: مع عموم ملكه قدرته أيضاً عامة على كل شيء، ما من موجودٍ إلا وهو قادر على إعدامه، وما من معدوم إلا وهو قادر على إيجاده تبارك وتعالى، ولا يستثنى من هذا شيء هو قادر على كل شيء، وأخطأ صاحب الجلالين في تفسيره حيث قال عند هذه الآية: «وخص العقل ذاته فليس عليها بقادر» فإن هذا قول منكر، لكن هذا مقتضى مذهبه حيث ينفي أن تقوم الأفعال الاختيارية بالله، يعني: عنده أن الله لا ينزل ولا يستوي على العرش ولا يضحك ولا يفرح، ومن المعلوم أن الأفعال الاختيارية تكون بمشيئته فهو قادر على إيجادها وهو قادر على إعدامها، فالقول هذا منكر، مبني على عقيدة فاسدة، ونحن نقول: إن الله على كل شيء قدير ولا نستثني، يفعل ما يشاء عزّ وجل.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: اختصاص ملك السمٰوات والأرض وما فيهن بالله عزّ وجل، وجه الاختصاص: تقديم الخبر، والقاعدة: أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، سواء كان هذا الذي حقه التأخير خبراً أم مفعولاً أو غير ذلك مما حقه التأخير.

الفائدة الثانية: عموم ملك الله للسمٰوات والأرض يؤخذ من الإضافة، في قوله: ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والمفرد المضاف يفيد العموم، واقرأ قول الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٨]، فإن (نعمة) مفرد ولا يحتاج إلى عدد، لو أخذنا بظاهره لقلنا: النعمة واحدة، لكن لما كان المفرد المضاف يفيد العموم صح أن يقول: (لا تحصوها).

ولهذا لو قال الإنسان: عبدي حر، وعنده أعبد، يعتق الجميع إلا إذا كان له نية بعبد خاص، ولو قال: زوجتي طالق، وعنده أربع، تطلق الزوجات كلهن ما لم ينوِ واحدةً؛ لأن المفرد المضاف يكون للعموم.

الفائدة الثالثة: أن السمٰوات جمع، أي: عدد، وقد بَيَّنَ الله في كتابه أنها سبع سمٰوات، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦]، إذاً: فالسمٰوات سبع وهي طباق كما قال الله تعالى عن نوح: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح: ١٥]، أي: متطابقة بعضها فوق بعض، وبينها مسافات كما دل على ذلك حديث المعراج، حيث كان جبريل عليه السلام يصعد بالنبي ﷺ سماءً بعد سماء، كلما أتى سماءً استفتح واستفهم أهلها: من هذا، من معك، هل هو رسول؟ فعلينا أن نؤمن بهذا وأن ننكر قول أولئك الفلاسفة الذين يقولون: إنه ليس هناك شيء، ليس هناك سمٰوات، وإنما هي مجرات ونجوم وما أشبه ذلك وفضاء لا نهاية له فإن هذا كذب؛ لأنه يخالف ما جاء في الكتاب والسنة، وليسوا أعلم بخلق الله من الله عزّ وجل.

الفائدة الرابعة: بيان الحكمة من إفراد الأرض وجمع السمٰوات، فالأرض أفردها الله عزّ وجل في كل موضع ذكرها، وإن كان في القرآن إشارة إلى أنها سبع كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، ولعل من فائدة ذلك وحكمته أن الإنسان إذا ملك ظاهر الأرض ملك إلى تخومها، كل ما تحته من أراضين فهي ملكٌ له، ويشهد

لهذا قول النبي ﷺ: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أراضين**»[(١)]؛ لأنه يملك القرار إلى آخر الأرض السابعة.

وقد أخذ العلماء من هذا: أنه كما يملك القرار يملك الهواء إلى السماء، فلو أراد أحدٌ أن يبني على ساحة بيته رفاً ويسمونه في غير هذه البلاد برندة أو بلكونة، فلو أراد أن يبني على فناء بيت جاره بلكونة، فإنه يمنعه حتى لو كانت عالية، ولو أن أشجاره امتدت أغصانها إلى هواء جاره، طالبه بقطعها أو ليها إذا أمكن، إذاً: الهواء إلى أين؟ إلى السماء، والقرار إلى الأرض السابعة؛ لأنها كلها أرض واحدة عبر الله عنها بالإفراد.

الفائدة الخامسة: أن السمٰوات والأرض فيهنّ شيء، لقوله: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ وهذا أمر معلوم، السمٰوات فيها الملائكة، والأرض فيها الإنس والجن والشياطين، كذلك أيضاً هناك الجمادات التي ليس فيها حياة كالجبال، والسحب، والنجوم، كلها ملكها ثابت لله عزّ وجل.

الفائدة السادسة: عموم قدرة الله عزّ وجل على كل شيء، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذه الصفة مطلقة، وهل هو قدير على ما لا يشاء؟ نعم قدير على ما لا يشاؤه فإذا شاءه وقع، وبهذا نعرف خطأ من يعبر من الناس، يقول: إنه على ما يشاء قدير، لا يجوز هذا؛ لأنك إذا قلت: إنه على ما يشاء، وقدمت أيضاً المعمول خصصت قدرته بما يشاء دون ما لا يشاء، وهذا غلط فهو قادر على ما يشاء وما لا يشاء، لكن ما شاء الله كان

---

(١) تقدم في (١/ ٢٢٥).

وما لم يشأ لم يكن، قال بعض المتأخرين: وإذا قلت: إنه على ما يشاء قدير، فقد وافقت القدرية؛ لأنهم يقولون: إن الله لا يشاء أفعال العبد، وإذا كان لا يشاؤها لم يكن له قدرة عليها، فالجملة هذه أيضاً ترمي إلى قول مبتدع وهو قول القدرية، فإذا سمعت أحداً يقول: إنه على ما يشاء قدير، قل له: وعلى ما لا يشاء قدير، وليس لك حق أن تقيد ما أطلقه الله عزّ وجل من الصفة، الله تعالى أطلقها فقال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فلا تقيد.

فإذا قال قائل: إذا قررتم هذا فكيف تجيبون عن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]، قلنا: المشيئة هنا عائدة إلى الجمع، يعني: أنه إذا شاء جمعهم، فهو قدير عليه لا يعجز عنه، خلافاً لمن يقول: إنه لا يقدر على جمعهم وأنكروا البعث، فيكون التقييد بالمشيئة هنا للجمع لا للقدرة.

فإن قال قائل: ما تقولون في آخر رجل يدخل الجنة، فإذا قال الله له: هذا لك قال الله تعالى: **«إني على ما أشاء قادر»**[1]؟ نقول: نعم هنا المشيئة قيدت بفعلٍ معين، يعني: كأن الله يقول له: إني شئته فأنا قادر عليه مثل قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

والمهم أنه ليس لنا أن نقيد ما أطلقه الله عزّ وجل، بل

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجاً، حديث رقم (١٨٧) عن ابن مسعود.

نقول: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطلاق: ١٢]. والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

❁ ❁ ❁

وبذلك، وفي شهر ذي القعدة عام ١٤١٩هـ، انتهت الدروس العلمية المسجلة في تفسير سورة المائدة والتي كان يعقدها فضيلة شيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين في جامعه بمدينة عنيزة.

رحم الله شيخنا رحمة الأبرار، وأسكنه فسيح جناته، ومَنَّ عليه بمغفرته ورضوانه وجزاه عما قدمه للإسلام والمسلمين خير الجزاء.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾	٥
فوائد تصدير الخطاب بالنداء: تنبيه المخاطب	٥
إضافة الحكم إلى الجاهلية، هل ينافي أن أصل التحكيم هو إلى الله؟	٦
هل هناك تفرقة بين موالاة الكفار المحاربين وغيرهم من أهل الذمة؟	٦
معاملة أهل الذمة بالإحسان والعدل لا تعني الموالاة	٦
هل يجوز تقنين الشريعة وإلباسها ثوب القانون؟	٧
شبهة: كثرة المتشابه وقلة المحكم مدعاة لاختلاف الفقهاء وهذا لا ينفي وضوح أدلة الشرع	٧
معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾	٧
سبب تسمية اليهود بهذا الاسم، وسبب تسمية النصارى بذلك	٧
هل يصح الدعاء: اللهم إنّا هدنا إليك؟	٨
من كذّب رسولاً فقد كذّب جميع الرسل	٨
معنى «الولي»	٨، ٩
هل الولاية المحبّة؟	٩
معنى قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾	٩، ١٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾	١٠
توجيه الإشكال النحوي في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾	١١
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾	١١
«أل» إذا اقترنت بمشتق فهي اسم موصول لا حرف	١٢
قاعدة: الأسماء الموصولة تفيد العموم	١٢
هداية البيان وهداية التوفيق	١٢

الفائدة	الصفحة
من فوائد الآية الكريمة	١٢
هل يرث اليهودي من النصراني والعكس؟	١٣
اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من كبائر الذنوب	١٤
هل يجوز الاستعانة باليهودي أو النصراني في قضاء مصالح دنيوية؟	١٤
لا يُجعل غير المسلم أميناً على أحوال المسلمين	١٥
هل من الموالاة الاستعانة بغير المسلمين على أعدائنا؟	١٥
الاستعانة بغير المسلمين عند الضرورة جائزة بشرط أن نأمن خيانتهم	١٦
هل من موالاة غير المسلمين موادتهم؟	١٦
هل الولاية داخلة في محبة صنيعهم النافع للعباد؟	١٦
معاملة شركات الكفر لا تعتبر من الموالاة وإن كسبوا	١٧
هل من موالاة الكفار إكرام ضيافتهم؟	١٧
هل من موالاة الكفار مشاركتهم في أفراحهم؟	١٧، ١٨
هل من تولي الكفار التشبه بهم؟	١٩
الرد على القدرية في تأويلهم لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾	١٩، ٢٠
تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ ..	٢٠
أمراض القلوب تدور على شيئين: إما شبهة وإما شهوة .	٢٠
هل الموالاة لأهل البدع كموالاة الكفار؟	٢١
هل استخدام كثير من المسلمين للتاريخ الميلادي يعتبر نوعاً من الموالاة؟	٢١
فائدة: الالتزام بالتاريخ الهجري	٢٢
معنى قوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾	٢٢
«عسى» من الله واجبة على قول بعض المفسرين	٢٢
معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾	٢٣
معنى قوله تعالى: ﴿فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ ..	٢٣
معنى الندم	٢٤
من فوائد الآية الكريمة	٢٤
المنافق لا بد أن يفضحه الله	٢٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾	٢٥
أوجه القراءة في الآية	٢٥

الفائدة	الصفحة
الاستفهام في الآية للتعجيب	٢٦
الإقسام والحلف واليمين معناهم واحد	٢٦
معنى قوله تعالى: ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾	٢٦
معنى قوله تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾	٢٧
قرن العمل بالقول يصبح المراد به عمل الجوارح	٢٧
من فوائد الآية الكريمة	٢٧
يجوز للمرء إجراء الكلام على سبيل التعجيب فيما يتعجب منه دون أن يكون غيبة ..	٢٧، ٢٨
إكثار الأيمان بلا حاجة يشير إلى كذب صاحبها	٢٨
عمل المنافق حابط	٢٨
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ .	٢٩
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ﴾	٢٩
الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ﴾	٢٩
الارتداد عن الدين لا يخرج عن الجحود أو الاستكبار	٣٠
معنى قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾	٣٠
جميع الأشياء الانفعالية لا يمكن أن تحدّها بأكثر من لفظها ...	٣٠
معنى قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾	٣١
تعدية ﴿أَذِلَّةٍ﴾ بـ(على) دون اللام وفائدته	٣١
معنى قوله تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	٣١
دلالة إضافة السبيل إلى الله	٣٢
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾	٣٢
همّ المجاهد في سبيل الله تحصيل رضا الله دون أن يلقي بالاً للوم الناس	٣٢
معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾	٣٢
من فوائد الآية الكريمة	٣٣
وقائع الردة في عهد الرسول ﷺ وخليفته	٣٣
هل كل ردة يمكن التوبة منها؟ ..	٣٤
توبة الزاني بعد وصوله للقاضي لا تنفعه مع أن المرتد تنفعه التوبة حتى عند القاضي	٣٥
استثناءات العلماء فيمن لا تُقبل توبته	٣٥
توبة صاحب البدعة	٣٥

الفائدة	الصفحة
هل يأثم المبتدع التائب ببقاء تابعيه على بدعته؟	٣٥
من سبّ الله، هل تُقبل توبته؟ ...	٣٦
قول الراجح: من سبّ الله ورسوله ثم تاب فإن توبته مقبولة	٣٦
من سبّ الرسول ﷺ ثم تاب تقبل توبته ولكنه يُقتل مسلماً ..	٣٦، ٣٧
السحر نوعان: نوع يكفر به صاحبه ونوع لا يكفر به	٣٧
إذا تاب الساحر، هل تُقبل توبته؟	٣٨
المنافق نفاق كفر، هل يُقتل أم لا؟	٣٨، ٣٩
إذا تاب المنافق، هل تُقبل توبته؟	٣٩
هل يُستتاب المرتد إذ ثبت كفره؟	٤٠
الاستتابة ليست حقاً مطلقاً، بل هي حق إن دعت المصلحة إليه	٤٠
ارتداد طائفة أو قبيلة، هل يبرر قتالهم؟	٤٠
لا ينبغي اللجوء للقتال إلا إذا ملكت أدواته	٤١
إثبات أفعال الله الاختيارية والرد على منكريها	٤١
إثبات المحبة من الله ولله	٤٢
محبة الله عند أهل السنّة محبة حقيقية تليق بالله عزّ وجل ...	٤٢
التواضع صفة خليقة بمن يملك الإيمان والعلم	٤٣
عزة المؤمن على الكفار، هل تشمل فساق المسلمين؟	٤٤
أحِبّ العاصي لما معه من الإيمان وأكرهه لما معه من المعاصي	٤٤
حبوط العمل كلياً لا يكون إلا في النفاق الكامل	٤٥
ما هو الجهاد في سبيل الله؟	٤٦
هل للعمليات الانتحارية سند في الشرع؟	٤٦
إساءة البعض الأدب مع الصحابة باتهام بعضهم بالجبن أو ما لا يليق	٤٦
إثبات المشيئة لله عزّ وجل فيما يتعلق بفعل العبد، فهي من تمام الربوبية	٤٩
إثبات اسمي الله: الواسع والعليم	٥٠
كل أسماء الله حسنى، وهل كل أسماء الله مشتقة؟	٥٠
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾	٥١

الفائدة	الصفحة
جملة ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ في قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ ...	٥١
من فوائد الآية الكريمة	٥٢
ولاية الله عزّ وجل صالحة في كل زمان ومكان، فما الشأن بولاية الرسول؟	٥٢
لم تزداد الهواجس في الصلاة عن غيرها من العبادات؟	٥٣
مرتبة الزكاة في الإسلام بعد مرتبة الصلاة	٥٣
الصيام أشق على الإنسان من الزكاة فلِمَ لم يقدم عليها؟ ..	٥٤
مصلحة الزكاة متعدية، والصيام غير متعد	٥٤
الرافضة والمغالاة في مناقب الإمام عليّ	٥٥
تعدّد مناقب خلفاء الرسول التي تفردوا بها أو اشتركوا فيها ..	٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾	٥٦
من يتولَّ دين الله فقد تولَّ الله ...	٥٧
معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾	٥٧
دلالة التعبير بقوله: ﴿حِزْبَ اللَّهِ﴾	٥٧
من فوائد الآية الكريمة	٥٨
الحث على تولي الله ورسوله وسبيل المؤمنين	٥٨

الفائدة	الصفحة
لله حزب وحرب	٥٨
هل تجوز إقامة الأحزاب في الإسلام استناداً إلى قوله تعالى: ﴿حِزْبَ اللَّهِ﴾؟	٥٩
الحزبية بين المسلمين محرمة لكونها تؤدي إلى الفرقة	٥٩
هل يمكن أن نبيح التعدد الحزبي قياساً على تعدد المذاهب؟ ..	٦٠
غلبة غير المسلمين لا بد أن يكون لها حِكمة	٦١
تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾	٦٢
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿هُزُوًا﴾	٦٢
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿وَالْكُفَّارَ﴾	٦٢
لفظ «الدين» في القرآن يُراد به الجزاء ويراد به العمل	٦٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾	٦٤
معنى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾	٦٤
هل الشرط في الآية موصول بما قبلها؟	٦٥
من فوائد الآية الكريمة	٦٥

الفائدة	الصفحة
من له أقارب كفار، هل يؤمر بمدافعة الحب الطبيعي لهم؟	٦٦
العلم قد يكون وبالاً على صاحبه إن لم ينفعه ولم يعمل به	٦٦
هل التقوى خاصة بالله؟	٦٦
القول في عبارة «اتق شر من أحسنت إليه»	٦٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾	٦٧
إقرار النبي للأذان إعلاماً بوقت الصلاة	٦٧
الأذان شعيرة من شعائر الإسلام الظاهرة، وعلامة على بلاد الإسلام	٦٨
الصلاة في الآية عام أريد به الخاص أي الصلوات الخمس والجمعة؛ لأن هناك صلوات لا يؤذن لها كالاستسقاء والكسوف	٦٩
الفرق بين العقول المدركة والعقول الراشدة	٦٩، ٧٠
معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾	٧٠
من فوائد الآية الكريمة	٧١
شدة وقع الصلاة في أعدائنا الكفار	٧١
مشروعية الأذان وفضيلته	٧٢
هل الأذان أفضل أم الإمامة؟ ...	٧٢
الأذان أفضل من الإمامة على الراجح من أقوال العلماء ...	٧٣
ما حظ غير المؤذنين؟	٧٣
متابعة المؤذن تحصيلاً للأجر والثواب	٧٤
حكاية الأذان بصوت مسجل لا يحصل به أداء الفريضة (رأي الشيخ)	٧٤، ٧٥
قول «لا إله إلا الله» بعد الإقامة، ما مدى مشروعيته؟	٧٥
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾	٧٦
صور تأكيد المد بما يشبه الذمّ ..	٧٧
معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾	٧٨
توجيه عطف الجملة في الآية ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾	٧٨
من فوائد الآية الكريمة	٧٩
فضل أمة الإسلام على الأمم السابقة	٧٩
الاحتراز لمراعاة العدل بعدم التعميم في الحكم	٧٩
الفسق يراد به الكفر	٨٠
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾	٨٠

الفائدة	الصفحة
الفرق بين النبأ والخبر	٨٠
معنى قوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾	٨١
معنى قوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾	٨٢
غضب الله عزّ وجل أشدّ من لعنته	٨٢
اللعان وسببه	٨٢، ٨٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾	٨٤
تحايل اليهود على تحريم الله صيدهم الحيتان يوم السبت .	٨٤
هل بقي الممسوخون قردة لأزمان لاحقة؟	٨٤
قول أهل العلم: لا نسل لمن مسخوا حيواناً من أجل العقوبة	٨٥
حكمة الله في تحريم الخنزير وأكل لحمه	٨٥
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾	٨٦
المراد بالطاغوت	٨٦
معنى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ .	٨٧
قاعدة: كل اسم منصوب يأتي بعد اسم التفضيل فهو مميز له	٨٧

الفائدة	الصفحة
﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ هل المراد بالمكان ما يقابل الزمان أم المراد به المكانة والمنزلة؟ ..	٨٩
قد يأتي التفضيل بين شيئين لا يشتركان في شيء من المعنى	٨٩
القول في تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ باليهود والنصارى. حديث ضعيف ..	٩٠
من فوائد الآية الكريمة	٩٠
إتيان الخطاب بصيغة الاستفهام أمكن في النفس وأحضر للقلب	٩٠
هل صفات اليهود والنصارى ثابتة لهم إلى يوم القيامة	٩١
العبرة بالمنزلة عند الله	٩١
إثبات الغضب لله صفة ثابتة بلا تحريف	٩١
رد قول من أوّل الغضب بمعنى الانتقام	٩٢
مناقشة قول بعض المحققين: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم	٩٣
هل يجوز للإنسان أن يقول: اليهود والنصارى إخوان القردة والخنازير؟	٩٤

الفائدة	الصفحة
حكمة الله تعالى في إيراد العقوبة	٩٥
كل من عبد غير الله فقد عبد الطاغوت	٩٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾	٩٧
الباء في قوله تعالى: ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ﴾ للمصاحبة	٩٧
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾	٩٨
من فوائد الآية الكريمة	٩٨
ليس لنا الحكم إلا بما ظهر	٩٩
الحذر من أن يبطن القلب ما يخالفه اللسان	٩٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾	٩٩
المراد بالرؤية في الآية	٩٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾	١٠٠
معنى السحت، ودلالة وصفه المنفر	١٠٠
معنى قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾	١٠٠
معنى قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾	١٠٠
معنى الأحبار	١٠١
معنى قوله تعالى: ﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾	١٠١
معنى قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾	١٠٢
العلاقة بين الصنع والفعل	١٠٢
من فوائد الآيتين الكريمتين	١٠٢
من سارع في الإثم والعدوان وأكل السحت فيه شبه من اليهود	١٠٢
التعبير بالأكل مع السحت، هل يشمل المسكن والملبس وما ينتفع به؟	١٠٣
هل على العلماء والمربين هداية الناس؟	١٠٣
العلماء وواجبهم في تبيين الحق دون النظر إلى مكانتهم الشخصية	١٠٤
ما ضوابط إنكار المنكر؟	١٠٤
رغبة الإصلاح مع ضعف القدرة والعزم، كيف نعالجها؟	١٠٤
دعوة من حاله مع المعصية لا توحي بقبوله النصيحة	١٠٥
نصح القائم على المعصية	١٠٦
نصيحة الرفقة في السيارة وفقهها	١٠٦
هل لنا أن نتجسس على المنكر إن دلَّت لنا قرائن على إتيانه	١٠٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾	١٠٨
أصل كلمة اليهود	١٠٨

الفائدة	الصفحة
انتقاص اليهود من صفات الله تعالى	١٠٩
الأسلوب في قوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ خبر وليس دعاءً	١٠٩
الإضراب الإبطالي في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ .	١٠٩
معنى قوله تعالى: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾	١١٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾	١١٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾	١١١
معنى قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾	١١١
معنى: الحبل من الله والحبل من الناس	١١١
معنى قوله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾	١١٢
وقائع من فساد اليهود يذكرها ابن القيم في «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان»	١١٢
معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾	١١٢
من فوائد الآية الكريمة	١١٢
اليهود ابتلوا بالبخل واللعنة	١١٣
إثبات الأسباب، وأنواعها	١١٣
هل الأسباب مؤثرة بنفسها؟	١١٣
الأسباب لا تؤثر بذاتها وإنما بما أودع الله فيها من قُوى مؤثرة	١١٤
إثبات اليدين لله عزّ وجل	١١٥
اليد في القرآن بين الحقيقة والمجاز	١١٦
قاعدة: المفرد المضاف يعم ما يقتضيه مدلوله	١١٦
خطأ تحريف النص عن ظاهره ..	١١٧
هل يدا الله تماثلان أيدي المخلوقين؟	١١٧
هل تأخذ وتقبض وتهز أو لا؟ ..	١١٧
هل توصف اليدان بأنهما يمين وشمال؟	١١٧
الله، كلتا يديه يمين	١١٨
عطاء الله لا حدود له	١١٨
عطاء الله ومنعه تابع لمشيئته	١١٩
قاعدة: كل شيء قرنه الله بمشيئة فإنه مقيد بالحكمة	١١٩
هل يكشف الله للناس الحكمة يوم القيامة؟	١٢٠
لماذا نقف وقفاً لازماً على قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا قَالُوا﴾	١٢١
ما حد الكثير في قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾	١٢٢
أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم	١٢٤

الفائدة	الصفحة
هل محبة الله هي ثوابه أو إرادته أم هي صفة زائدة على ذلك؟	١٢٤
الوهابية، أصل نسبتها؟	١٢٥
أقسام الناس في الأرض: صالح، صالح مصلح، فاسد مفسد	١٢٦
القرآن كلام الله	١٢٧
الناس في تفسير علو الله عزّ وجل على ثلاثة أقسام	١٢٨، ١٢٩
خطورة قول القائل: «الله في كل مكان»	١٢٩
لا أحد من المسلمين ينكر علو الصفات	١٣٠
القول في القرب والمعيّة	١٣١
تقسيمات العلماء لعلو الله عزّ وجل	١٣١، ١٣٢
العبودية: كونية عامة وخاصة	١٣٢، ١٣٣
سبب تسمية يوم القيامة بهذا الاسم	١٣٤
البشرى للمسلمين بأن اليهود لن تقوم لهم قائمة في الحروب	١٣٤
إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى والرد على المشككين	١٣٤، ١٣٥
حوادث الله عزّ وجل حادثة لكنها قائمة بأزلي ليس بحادث	١٣٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾	١٣٦
العلاقة بين الإيمان والتقوى	١٣٦
معنى قوله تعالى: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾	١٣٦
تقع «اللام» في جواب «لو» كثيراً وقد تحذف	١٣٦، ١٣٧
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾	١٣٧
«الجنة» لغة	١٣٧، ١٣٨
هل يجوز التعبير عن بعض البلاد الجميلة بأنها جنة الله في الأرض؟	١٣٨
من فوائد الآية الكريمة	١٣٩
كمال عدل الله عزّ وجل	١٣٩
التائب من الذنب يثاب بثوابين في الدنيا والآخرة	١٣٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾	١٤٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾	١٤٠
معنى قوله تعالى: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ﴾	١٤١
قاعدة: الآية إذا احتملت أكثر من معنى دون منافاة فإنها تحمل على جميع المعاني	١٤١

الفائدة	الصفحة
معنى قوله تعالى: ﴿مِّنْهُمُ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾	١٤٢
معنى «أمة» في القرآن	١٤٢
معنى قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾	١٤٢
من فوائد الآية الكريمة	١٤٣
إقامة الشريعة في كل زمان سبب لكل خير	١٤٣
جواز ترغيب النفوس بفعل الطاعات بذكر ثواب الدنيا	١٤٣
يجب على أهل الكتاب إقامة القرآن كما يجب عليهم إقامة التوراة والإنجيل	١٤٤
إثبات علو الله، والرد على منكري علو الذات	١٤٥
انقسام أهل الكتاب إلى: مقتصد، وسيئ ومسيئ	١٤٦
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾	١٤٦
تصدير الخطاب بالنداء يدل على الاهتمام والعناية	١٤٦
تبليغ الرسول يكون مباشراً لمن رآه وسمعه، وغير مباشر يتولاه من خلفه من علماء الأمة	١٤٧
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾	١٤٧
الإيمان لا يتبعض	١٤٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾	١٤٩
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾	١٤٩
من فوائد الآية الكريمة	١٥٠
وصف العبودية شرف، ووصف الرسالة أشد	١٥٠
الرد على الرافضة القائلين بأن ثلث القرآن لم يبلغ وأنه مكتوم	١٥١
واجبات طالب العلم في نشر العلم وتبيينه للناس	١٥٢
كتم شيء من الشريعة ككتم جميعها	١٥٣
عناية الله تعالى برسوله، وهل هي مطلقة أم مقيدة	١٥٣
عصمة الرسول ﷺ تنقسم إلى قسمين	١٥٤
من علم الله منه الكفر لا يُهدى ولا يوفّق	١٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾	١٥٥
معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾	١٥٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾	١٥٦

الفائدة	الصفحة
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾	١٥٧
إعراب: ليزيدنّ	١٥٧
معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾	١٥٨
من فوائد الآية الكريمة	١٥٨
لا تتم إقامة التوراة والإنجيل إلا بإقامة القرآن	١٥٩
القرآن كلام الله غير مخلوق لأنه ليس عيناً قائمة بنفسها، بل هو وصف	١٥٩
يلزم من أقر بالربوبية أن يقر بالإلوهية والشريعة	١٥٩
إضافة ربوبية الله للكافرين ليست إضافة تشريف ولكنها إضافة إقامة حجة	١٦٠
القرآن الكريم قد يزيد سامعه طغياناً وكفراً وقد يزيده إيماناً وذلاً ..	١٦١
الكفر يزيد وينقص وكذا الإيمان	١٦١
الإيمان يزيد وينقص بالأقوال أو بالأفعال أو باليقين	١٦١
تسلية النبي ﷺ ألا يأسى على القوم الكافرين	١٦٢
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾	١٦٣
أصل الصابئين	١٦٤
الموقع الإعرابي لـ«الصابئين» ...	١٦٥
موقع «مَن» في قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ...	١٦٥
أركان الإيمان الخمسة	١٦٦
كل ما أخبر به الرسول ﷺ مما يكون بعد الموت داخل في الإيمان باليوم الآخر	١٦٧
هل تصح عبارة «افعل ما عليك والباقي على الله»؟	١٦٧
هل صح قول القائل بأن أمة الإسلام لن تقوم لها قائمة حتى ينزل الله عيسى ويبعث المهدي؟	١٦٧
ما هو العمل الصالح؟	١٦٨
الإخلاص وخطره ..... ١٦٨،	١٦٩
إعراب قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾	١٦٩
من فوائد الآية الكريمة	١٧٠
من اليهود والنصارى والصابئين من يؤمن بالله واليوم الآخر ..	١٧٠
ثواب الله لا ينبني على حسب أو نسب وإنما على الإيمان والعمل الصالح	١٧٠
ينبغي أن تعبر في تعبيرنا عن اليهود باليهود والنصارى بالنصارى لا المسيحيين فهو منهم بريء	١٧٠

الفائدة	الصفحة
إثبات اليوم الآخر	١٧٠
الإيمان وحده لا يكفي بل ينبغي أن يتبع بالعمل الصالح	١٧١
هل ترك العمل الصالح يكفر به الإنسان؟	١٧١
الحمل على الكفر الأصغر عند الشك	١٧٢
إطلاق الكفر لا يقتضي الخروج من الإسلام	١٧٢
نوعا الكفر: أصغر وأكبر	١٧٣
إذا ثبت الكفر هل نحكم به على شخص معيّن؟	١٧٣
كفر تارك الصلاة	١٧٤
تقييد كفر تارك الصلاة بجحده للفريضة غلط	١٧٤
هناك فرق بين الحكم بالكفر وبين الشهادة له بالنار	١٧٤
لا يُقال فلان شهيد	١٧٥
يُحكم بكفر المعين إذا تمت شروط التكفير	١٧٥
المكره على الكفر لا يكفر وكذا قائلها خطأ أو في شدّة الغضب	١٧٥، ١٧٦
الخطأ في التأويل بفعل لم يقصد به الكفر لا يكفر	١٧٦
قصة المسرف على نفسه الذي وصّى بإحراق جثته بعد موته وذره في اليم	١٧٦
اشتراط القصد في الحكم بالكفر، وهذا ما بنى عليه الإمام أحمد أن الخوارج ليسوا كفاراً: فليس كل خارج يكون كافراً	١٧٧
الجاهل غير قاصد المخالفة لا يكفر حتى يُعلم	١٧٧، ١٧٨
الحذر من تكفير من لم يكفره الله ورسوله	١٧٩
المستهزئ، أيكفر أم لا؟	١٨٠
شبهة الاستدلال بقول الرسول ﷺ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» في غير محلها	١٨١
تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾	١٨٢
ما معنى ﴿مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ .	١٨٢
معنى قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾	١٨٣
معنى قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ وتقدير بعض المفسرين للحذف في الآية	١٨٣
معنى قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾	١٨٤
دلالة الفعل المضارع في الآية على الاستمرار	١٨٤
من فوائد الآية الكريمة	١٨٥

الفائدة	الصفحة
تأكيد الكلام بالقسم وغيره ذلك إذا كان المخبر به صادقاً ...	١٨٥
حكمة الله تعالى بإرسال الرسل أفراداً وجماعات	١٨٥
المتكلمون الذين بنوا أصول عقيدتهم على العقل كالمعتزلة والجهمية فيهم شبه من اليهود بتحريفهم النصوص	١٨٦
أخبار الآحاد لا يمكن أن تثبت بها عقيدة لأنه يلحقها الظن .	١٨٦
الحذر من هوى النفس	١٨٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾	١٨٧
أوجه القراءة في الآية	١٨٧
الكلام في «أن» وما قبلها وما بعدها	١٨٨
معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ﴾	١٨٩
لا يصح أن نقول في القرآن بلغة «أكلوني البراغيث»	١٩٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾	١٩٠
من فوائد الآية الكريمة	١٩٠
اليهود أغبياء باعتبار فهم الحق لا بسبب الذكاء	١٩١
الكفار أغبياء باعتبار الشرع	١٩١
التحذير من الأمن من مكر الله ..	١٩١
قد يعود الإنسان لعماه بعد التوبة ورفع الفتنة عنه	١٩٢
تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾	١٩٢
فوائد ضمير الفصل «هو» من الآية	١٩٣
المسيح ابن مريم والمسيح الدجال كلاهما مسيح ولكن باختلاف الممسوح	١٩٤
إعراب قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ﴾	١٩٤
هل المقصود في قوله تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ الفرج الحقيقي أم جيب الدرع؟	١٩٥
القول في حديث مسلم أن النبي ﷺ رأى المسيح الدجال يطوف بالبيت	١٩٥
معنى قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾	١٩٦
على أي شيء تطلق العبادة؟	١٩٦
توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية	١٩٦
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾	١٩٧

الفائدة	الصفحة
من فوائد الآية الكريمة	١٩٨
توكيد الحكم بما يدفع الشك ...	١٩٨
لا كفر إلا بعد قيام الحجة	١٩٨
إقرار الإنسان على غيره غير مقبول	١٩٩
إقامة الحجة على أهل الشرك حيث أشركوا بالله مع أنه ربهم	٢٠٠
الاستدلال الملزم للخصم	٢٠٠
لا حظ لعيسى عليه السلام في الألوهية والربوبية	٢٠٠
الشرك موجب للخلود في النار ..	٢٠٠
هل المشرك شركاً أصغر يعذب في النار ثم يخرج أم يخلّد فيها؟	٢٠١
لا مأوى للخلق سوى أحد أمرين لا ثالث لهما: جنة أو نار ..	٢٠١
ما القول في أصحاب الأعراف؟	٢٠١
أصحاب الأعراف مآلهم إلى الجنة	٢٠٢
أصحاب الأعراف قسم تساوت حسناتهم وسيئاتهم	٢٠٢
هل نظر أصحاب الأعراف إلى النار يعتبر نوعاً من العذاب؟	٢٠٣
القبور ليست هي المثوى الأخير للخلق	٢٠٣

الفائدة	الصفحة
الكفار والمشركون قد ينصروا ولكن نصراً مؤقتاً ليبتلي الله به المؤمنين	٢٠٤
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾	٢٠٤
الثلاثة الذين عناهم القرآن هم الله والمسيح وأمه، والقول بأن الثلاثة هم: الابن والأب وروح القدس فيه نظر	٢٠٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وإعرابها	٢٠٥
تعدد الآلهة يفسر الدنيا كلها	٢٠٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ﴾ .	٢٠٦
من فوائد الآية الكريمة	٢٠٨
من قال بتعدد الآلهة فهو كافر ومكذب للفطرة	٢٠٨
إثبات أنه لا إله إلا الله .. ٢٠٨،	٢٠٩
كيف يستقيم إثبات إله واحد مع حكاية القرآن وتسميته لآلهتهم بالجمع؟	٢٠٩
باب التوبة مفتوح مهما عظمت الإساءة	٢٠٩
إثبات عدل الله عزّ وجل	٢٠٩
تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾	٢٠٩

الفائدة	الصفحة
إعراب الآية	٢١٠
أحسن ما قيل في المغفرة	٢١١
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾	٢١١
علة كثرة إقران الله تعالى بين اسمي الغفور والرحيم	٢١١
من فوائد الآية الكريمة	٢١٢
شروط التوبة	٢١٢ ـ ٢١٤
هل يجوز فعل الوسائل المحرمة للوصول إلى المصلحة، كغشيان أماكن المعصية لنصيحة أهلها؟	٢١٣
هل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؟	٢١٥
أعدل الأقوال: تقييد التوبة بالذنب، وعدم إطلاقها فلا ننفيها مطلقاً ولا نثبتها مطلقاً	٢١٦
تفسير قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾	٢١٧
إعراب الآية	٢١٧
لِمَ سُمّي المسيح مسيحاً؟	٢١٨
معنى قوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾	٢١٨
معنى قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾	٢١٨
معنى قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾	٢١٩
معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾	٢١٩
من فوائد الآية الكريمة	٢١٩
ينسب الإنسان إلى أمه إذا لم يكن له أب	٢١٩
من ينسب إلى أمه، هل ترثه أمه ميراث أب إن لم يُعلم أبوه؟	٢٢٠
عيسى بن مريم رسول، والرسل يموتون والإله لا يموت	٢٢٠
مريم عليها السلام من الطبقة الثانية من البشر	٢٢٠
الطبقات أربع: الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون	٢٢٠
الاستدلال بحال من يُتحدث عنه	٢٢١
الاستدلال بالجلي الواضح دون الخفي، فأكلهما للطعام أمر لا ينكر	٢٢١
الرد على أهل التفويض في أسماء الله وصفاته	٢٢١
السلف لا يفوضون المعاني بل يقرونها. وإنما يفوضون الكيفية	٢٢٢
أهل التفويض من شر أهل البدع والإلحاد، ومذهبهم باطل ...	٢٢٣
ما بيّنه الله عزّ وجل في كتبه المنزلة على الرسل كله آيات ودلائل	٢٢٣

الفائدة	الصفحة
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾	٢٢٤
قاعدة: إذا دار الأمر بين أن يكون في الكلام شيء محذوف أو لا يكون فالأصل عدم الحذف	٢٢٤
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾	٢٢٤
من فوائد الآية الكريمة	٢٢٥
الأصنام لا تملك نفعاً ولا ضراً	٢٢٥
الحذر من الوقوع في المعصية وإن تيسرت أسبابها	٢٢٦
الضرر والنفع من الله عزّ وجل	٢٢٦
السمع المضاف إلى الله عزّ وجل ينقسم قسمين	٢٢٧
كل علم يتعلق بالمخلوق فهو علم بالممكن	٢٢٨
الله تعالى يعلم الممكن والواجب	٢٢٨
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾	٢٢٩
معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾	٢٢٩
معنى قوله تعالى: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾	٢٣٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ﴾	٢٣٠
معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾	٢٣٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾	٢٣٠
من فوائد الآية الكريمة	٢٣٠
أهل الكتاب عندهم غلو واضح	٢٣١
تحذير النبي ﷺ من الغلو في الدين، وفيه نفسه	٢٣١
الغالب أن الغالي ينحرف، فيكون ظاهر الغلو وقلبه خال من حقيقة الإيمان	٢٣٢
التحذير من الإمامة في الضلال	٢٣٢
الرد على الجبرية في قولهم: إن ضلال الإنسان لا يُنسب إليه ولا اختيار له فيه	٢٣٢
المضلون الضالون جمعوا بين: ضلالهم لأنفسهم وإضلال غيرهم	٢٣٣
يمكن أن يكون الإنسان ضالاً غير مضل، ولا يكون مضلاً غير ضال	٢٣٣
الدين الصحيح وسط لا إفراط ولا تفريط	٢٣٣
تفسير قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ﴾	٢٣٣

الفائدة	الصفحة
لُعن: مبني لما لم يُسمَّ فاعله ...	٢٣٤
معنى قوله تعالى: ﴿بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾	٢٣٥
معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ﴾	٢٣٥
ما هو المنكر، وما المرجع فيه؟	٢٣٦
معنى قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾	٢٣٦
من فوائد الآيتين الكريمتين	٢٣٦
الأسباب وأنواعها	٢٣٧
العدوان على الغير أشد من مجرد المعصية	٢٣٧
ترك التناهي عن المنكر سبب للعنة الله وإبعاده	٢٣٧
شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ..... ٢٣٧،	٢٣٨
هل يجوز العمل بالقرائن في إنكار المنكر؟	٢٣٩
قصص في إثبات العمل بالقرائن لردع المنكر	٢٣٩
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هل يكون بالشدة أم بالرفق	٢٤٠
من شروط إنكار المنكر ألا يتحول إلى ما هو أنكر منه ..	٢٤١
الشرط الرابع من شروط الأمر والنهي بالمعروف والمنكر ..	٢٤٢
ليس معنى تعذرك ترك المنكر ألا تنهى عنه وإن كنت له فاعلاً دون أمن العذاب	٢٤٢
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير تغيير المنكر	٢٤٣
التغيير لا يكون إلا من ذي سلطة، ولكن الأمر والنهي لكل أحد، فالتغيير مقيد بالاستطاعة	٢٤٣
هل الدعوة إلى الله هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أم شيء آخر؟ ..... ٢٤٣،	٢٤٤
المراتب الثلاث: الدعوة إلى الخير ـ الأمر بالمعروف ـ التغيير بفعل المعروف	٢٤٤
تفسير قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾	٢٤٤
المراد بالذين كفروا	٢٤٥
معنى قوله تعالى: ﴿أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾	٢٤٦
معنى السخط والغضب وما علاقتهما بالانتقام	٢٤٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾	٢٤٦
من فوائد الآية الكريمة	٢٤٦

الفائدة	الصفحة
بنو إسرائيل قد يتولون الكفار صريحي الكفر أو خفيّة	٢٤٦
التحذير من موالاة الكافرين، وهي أنواع	٢٤٧
هل هناك فرق بين الموالاة والتولي؟	٢٤٧
عمل المسلم مع الإذاعات التي تبث من الدول غير المسلمة، هل هو من الموالاة؟	٢٤٧
ما حكم مساعدة الكفار للقتال ضد المسلمين ليس حباً في دين الكفار وإنما بغضاً للمسلمين؟	٢٤٨
الرد على الجبرية، لقوله: «قدمت لهم أنفسهم»	٢٤٨
إقامة الدليل الحسي مما جاء في القرآن الكريم	٢٤٨
إثبات سخط الله عزّ وجل والرد على من أخرجها عن ظاهرها	٢٤٩
عدم إدراكنا لشيء مخلوق «الروح» يؤكد قصور إدراكنا لما يتعلق بالخالق، فينبغي أن نقبله على ظاهره دون أن نجريه على العقل	٢٥٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾	٢٥١
الأكثر في جواب «لو» الشرطية إذا كان مثبتاً أن يقترن باللام وإذا كان منفياً أن يتجرد من اللام ..	٢٥١
من فوائد الآية الكريمة	٢٥٢
النبي يطلق على الرسول، وأكثر ما ذكر الرسل في القرآن بوصف النبوة	٢٥٢
القرآن منزل على محمد ﷺ حمله أمين الوحي جبريل وألقاه على قلب النبي	٢٥٣
ثبوت علو الله عزّ وجل بالكتاب والسنّة القولية والفعلية والإقرارية والإجماع .. ٢٥٣،	٢٥٤
دور طلبة العلم في تبيين عقيدة علو الله	٢٥٤
الاستدلال بالمحسوس على المعقول؛ أي: الاستدلال بالمشاهد على الخفي	٢٥٥
الفسق يطلق على الكفر	٢٥٦
الاحتراز في التعميم عند الكلام	٢٥٦
هل معرفة تفسير القرآن واجبة؟ ..	٢٥٦
ما الحد الأدنى للمعرفة التي يتطلبها من يقوم بالتفسير بنفسه؟	٢٥٧

الفائدة	الصفحة
إلام نرجع في التفسير؟	٢٥٧
تفسير القرآن بالقرآن ثم تفسير القرآن بالسنّة ثم تفسير الصحابة ثم التفسير بالمعنى .	٢٥٨
تفسير قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾	٢٥٩
الأوصاف في الآية عامة ولكنها لا تعم كل يهودي بعينه أو نصراني بعينه أو مسلم بعينه فالحكم فيها على سبيل العموم	٢٦٠
الخطاب في الآية يحتمل أن يكون للرسول ﷺ فيخص الحكم هؤلاء في عهده أو يحتمل العموم فيراد به الجنس وليس كل فرد	٢٦٠
معنى قوله تعالى: ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً﴾ وإعراب؟ ﴿أَشَدَّ﴾ .	٢٦١
من هم اليهود؟	٢٦١
﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾	٢٦٢
حال النصارى مع المسلمين في صدر الإسلام	٢٦٢
غلط تسمية النصارى بالمسيحيين	٢٦٣
أسباب كون النصارى أقرب الناس مودة للذين آمنوا	٢٦٤، ٢٦٦
معنى قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ..	٢٦٦
من هم الشاهدون؟	٢٦٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾	٢٦٧
خطورة أن يزكي الإنسان نفسه ويشهد لها جازماً بالجنة	٢٦٨
كيف نوفق بين كون القرآن معجزاً، وكونه يحكى أقوال النصارى وغيرهم؟	٢٦٨
التعبير بالجنة في القرآن	٢٦٩، ٢٧٠
معنى قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾	٢٧٠
معنى قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾	٢٧١
المقصود بالخلود	٢٧١
مرتبتا الإحسان	٢٧٢
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾	٢٧٢
هل اجتماع الكفر والتكذيب لازم؟	٢٧٣
معنى قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾	٢٧٣
معنى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾	٢٧٣
اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾	٢٧٣
من فوائد الآيات الكريمات	٢٧٤

الفائدة	الصفحة
اليهود والمشركون أشد الناس عداوة للمؤمنين والمراد الجنس	٢٧٤
عداوة اليهود والمشركين ظاهرة	٢٧٤
غير المسلمين تتفاوت عداوتهم للمسلمين	٢٧٤
النصارى أقرب الناس مودة للمسلمين	٢٧٤
كل حكم له سبب معلوم لنا أو غير معلوم	٢٧٥
من حسن تعليم الله عزّ وجل أنه إذا ذكر الحكم ذكر العلة	٢٧٥
أسباب قرب مودة النصارى للمؤمنين	٢٧٦
العلماء والعبّاد أيهما أفضل؟	٢٧٦
ما هو الحد الأدنى في الذي ينبغي ألا يقصر فيه طالب العلم في العبادة؟	٢٧٧
هل المشروع أن يتفرغ الإنسان للعبادة وطلب العلم ويترك الوظيفة ولا مال له؟	٢٧٨
الاستكبار سبب لرد الحق والتواضع سبب لقبوله	٢٧٨
اتبع الحق أينما كان يتبعك الناس أينما كنت	٢٨٠
كلما قوي إيمان المرء زاده خشية وخشوعاً	٢٨٠
الرد على من قال بأن القرآن ليس كلام الله وإنما هو عبارة عن كلام الله؟	٢٨١
الثناء على من يهزه سماع القرآن فيبكي	٢٨١، ٢٨٢
اعتراف الأمم بأن هذه الآية هي الشاهدة على الأمم	٢٨٢
مراتب التفسير	٢٨٢
هل يمكن أن يقع النسخ في القرآن أم لا؟	٢٨٢
اليهود يقولون لا يمكن نسخ الشرائع	٢٨٣
إنكار اليهود للنسخ جعلهم ينكرون نبوة عيسى ونبوة محمد عليهما السلام لأن شريعتهما نسخت شريعة التوراة	٢٨٣
المسلمون يجمعون على جواز النسخ عقلاً وشرعاً	٢٨٣
أحكام الله تثبت بحسب مصلحة الأمم وأحوالها	٢٨٤
قد يكون النسخ لابتلاء المكلف	٢٨٤
أقسام النسخ	٢٨٥
ما فائدة نسخ الحكم مع بقاء اللفظ؟	٢٨٥
فراسة عمر رضي الله عنه وموافقته الحق	٢٨٦

الفائدة	الصفحة
آية الرجم	٢٨٦
ما الحكمة في نسخ اللفظ وبقاء الحكم، كما في رجم الزاني المحصن؟	٢٨٧
مثال: نسخ اللفظ والحكم	٢٨٨
بعض السلف يطلق التخصيص على النسخ	٢٨٩
ما المراد بنسخ القرآن بالسنّة؟ ..	٢٨٩
دفع الإنسان اللوم عن نفسه بألا يدع الآخرين يخوضون فيه وفي عرضه	٢٩٠
هل يعتد بشهادة الأمم السابقة؟ .	٢٩١
ينبغي ألا يعجب المرء بعمله وألا يشهد لنفسه أنه من أهل الجنة	٢٩١
عقيدة أهل السنّة والجماعة ألا نشهد لأحد بالجنة إلا من شهد له الرسول ﷺ	٢٩١
اختيار الرفيق الصالح	٢٩٢
الباء في قول النبي ﷺ: «لن يدخل أحد الجنة بعمله» ودورها في التوفيق مع الأحاديث التي تذكر أن العمل يدخل به الإنسان الجنة	٢٩٢، ٢٩٣
إثبات الجنة وأنها أنواع	٢٩٣
نعيم الجنة دائم	٢٩٤
الحث على الإحسان	٢٩٤
القرآن الكريم مثاني تثني فيه المعاني والأحوال	٢٩٤
الواعظ وتنويع الأسلوب وفق حاجة المتلقي وحالته	٢٩٥
إثبات اسم الجحيم للنار	٢٩٥
تقسيم آخر للنسخ: النسخ إلى أثقل ـ النسخ إلى أخف ـ النسخ إلى مساوي	٢٩٦
فوائد النسخ أخف إلى أشد	٢٩٧
حكمة التشريع في التدرج بالحكم، مثال: (تحريم الخمر)	٢٩٨
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾	٢٩٩
تحريم ما أحل الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام: خبر ـ إنشاء ـ امتناع	٢٩٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾	٣٠٠
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾	٣٠١
معاني فعل الأمر في الآية: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾	٣٠١

الفائدة	الصفحة
معنى قوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾	٣٠١
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ .	٣٠١
من فوائد الايتين الكريمتين	٣٠٢
النهي عن تحريم طيبات ما أحل الله	٣٠٢
أنواع التحريم: التحريم الإنشائي والتحريم الخبري والتحريم الامتناعي	٣٠٢
تحريم ما أحل الله من باب العدوان	٣٠٢
أيهما أشد تحريم الحلال أم تحليل الحرام؟	٣٠٢
التحريم الشرعي والتحريم القدري للطيبات	٣٠٣
نفي محبة المعتدين دليل على ثبوت أصل المحبة	٣٠٣
الأشاعرة وإنكارهم محبة الله وتفسيرها بالإرادة	٣٠٤
حجب رؤية الله عن الفجار دليل على إثباتها للأبرار (استدلال الشافعي)	٣٠٤
ترك الأكل حرام إذا خشي الهلاك	٣٠٥
ترك الأكل تنزهاً منهي عنه فالنبي كان يختار أطيب الطعام	٣٠٥
لا يجوز أن يحملك التمتع بنعم الله على الأشر والبطر .	٣٠٦
إذا كان المال محرماً لكسبه، فهل يحلّ لغير الكاسب إن اكتسبه بطريق مباح	٣٠٦
لا يجوز أكل مال محرّم في ذاته	٣٠٧
الإيمان بالله مستلزم لتقواه	٣٠٧
إذا اتقى القلبُ اتقت الجوارح وإن فسد فسدت	٣٠٧
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾	٣٠٨
هل يدخل في اللغو الحلف بغير الله؟	٣٠٩
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ﴾	٣٠٩
معنى قوله تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾	٣٠٩
تعريف المسكين	٣٠٩
اختلاف الناس في الكسوة تبعاً للعرف	٣١٠
إطلاق الرقبة في قوله تعالى: ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ هل تشمل إعتاق الكافر؟	٣١٠
اشتراط الإيمان في الرقبة المعتقة في كفارة القتل وعدم اشتراطه في كفارة اليمين وكفارة الظهار وكفارة الجماع	٣١١

الفائدة	الصفحة
من لم يجد الإطعام ولا الكسوة ولا العتق فكفارته صيام ثلاثة أيام لا يشترط تتابعها	٣١١
معاني قوله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾	٣١٢
معنى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾	٣١٢
معنى الشكر ومحلّه	٣١٣
من فوائد الآية الكريمة	٣١٣
اليمين التي يحلفها المرء على ظنه ليست من لغو اليمين لأن لغو اليمين ما لا يقصد	٣١٤
العبرة بما في القلوب	٣١٤
ما هي اليمين المنعقدة؟	٣١٥
أقسام عقد اليمين على ماضٍ ثلاثة	٣١٥
كل يمين كاذبة على ماضٍ فهي يمين غموس	٣١٥
اليمين الغموس هي التي يقتطع بها مال امرئ مسلم	٣١٦
عند بعض العلماء الحلف على المستحيل لا كفارة فيه مطلقاً، فهو لغو	٣١٦
يشترط في اليمين المنعقدة الحلف مختاراً بلا إكراه	٣١٦
المكره لا تنعقد يمينه، سواء نوى بذلك رفع الإكراه أو عقد اليمين للإكراه	٣١٧
هل ينعقد اليمين إن صدر عن غضب؟	٣١٧
هل يشترك التكليف في اليمين المنعقدة؟	٣١٧
اليمين لا تنعقد من غير البالغ العاقل	٣١٨
لا ينبغي الحنث في اليمين إلا إذا كان خيراً	٣١٨
كفارة اليمين على التخيير في ثلاثة أشياء: إطعام المساكين وكسوتهم وعتق الرقبة وإلا فصيام ثلاثة أيام	٣١٩
ما ضابط ما يحصل به الإطعام؟	٣١٩
هل يكون الطعام مطبوخاً أم يجزئه نيئاً؟	٣١٩
إذا لم يجد العشرة ليطعمهم هل يعدل إلى الصيام؟ كأن وجد خمسة فقط	٣٢٠
تقدير من يعطون الكفارات أمر تعبدي لحكمة لا دخل للعقل في تقدير أعدادها	٣٢٠
خير الأمور أوسطها	٣٢١
وجوب النفقة على الأهل	٣٢١
الكسوة مطلقة كالإطعام، فما سمي كسوة يحصل به الإجزاء	٣٢١

الفائدة	الصفحة
الالتزام بالعدد فالكفارة، فلو كرر الإطعام لواحد عشرة أيام لم يجزئ	٣٢٢
كفارة اليمين لا تعطى للمؤلفة قلوبهم ولا للغارمين وكذا زكاة الفطر	٣٢٢
تمام عدل الله في إيجاد الأوسط	٣٢٣
الحنث باليمين أمره عظيم	٣٢٣
تقدير العبادات بالكم والنوع والكيفية موكول إلى الشرع ..	٣٢٣
دفع توهم العوام من أن كفارة اليمين صيام ثلاثة أيام	٣٢٤
هل يجوز إلزام الغني بصيام ثلاثة أيام لأنها أشق من إطعام عشرة مساكين؟	٣٢٤
أقسام الحنث في اليمين: واجب ـ محرم ـ مسنون ـ مكروه ...	٣٢٥
العلم نعمة يجب شكرها	٣٢٦
تعليل أحكام الله وأنها مقرونة بالحكمة	٣٢٦
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ﴾	٣٢٧
جمع الآية بين الخبر والطلب يدل على الأهمية والعناية ...	٣٢٧
تعريف الخمر والميسر والأنصاب والأزلام	٣٢٨
معنى قوله تعالى: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾	٣٢٩
الرجس في الآية حسي أم معنوي؟	٣٢٩
أصل لفظة «الشيطان»	٣٣٠
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾	٣٣٠
أيهما ناتج عن الثاني: العداوة أم البغضاء؟	٣٣٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾	٣٣١
صلاة بلا حضور وخشية صلاة جسد بلا قلب	٣٣٢
تكرار حرف الجر «عن» في قوله: ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إشارة لعظمها	٣٣٢
من فوائد الآيتين الكريمتين	٣٣٣
اجتناب الخمر والميسر والأنصاب والأزلام من مقتضيات الإيمان	٣٣٣
تحريم الخمر في أي صورة من صورها	٣٣٣
كثير الخمر وقليله حرام	٣٣٤
الخمر حرام على من سكر منها ومن لم يسكر	٣٣٤

الفائدة	الصفحة
النبيذ الذي لم يصل لحد الإسكار جائز	٣٣٤، ٣٣٥
تحريم الميسر قليله وكثيره	٣٣٥
إذا ثبت الحكم لعلة فإنه يزول بزوالها	٣٣٦
هل تجوز المسابقة أو المغالبة في الوسائل الحديثة في الحرب عوضاً عن القديمة؟ .	٣٣٧
هل تجوز المسابقة في العلم الشرعي بعوض أو لا تجوز؟	٣٣٨
اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية: تجوز المغالبة في العلم الشرعي إن قصد منها الوصول للحكم لا اكتساب المال والدنيا	٣٣٨
هل تجوز المغالبة في العلوم غير الشرعية	٣٣٩
تحريم الأصنام على أي صورة ..	٣٣٩
تحريم الاستقسام بالأزلام وكذا النجوم	٣٣٩، ٣٤٠
ما حكم المراهنة من طرف واحد في الأمور غير الشرعية؟	٣٤٠
طريقة القرآن في بيان العلل، تارة يقدمها، وتارة يؤخرها .	٣٤١
فائدة تقديم العلة	٣٤١
هل وصف الخمر بأنها رجس من عمل الشيطان دليل على نجاستها؟	٣٤٢
الرجس المعنوي والرجس الحسي	٣٤٢، ٣٤٣
أكل الخيل حلال، وخاصة دبرها	٣٤٣
لا دلالة على نجاسة الخمر نجاسة حسية	٣٤٤، ٣٤٥
إراقة الصحابة الخمر في الأسواق بعد أن حرمت دليل على أنها ليست نجسة	٣٤٦
الرجل الذي أراق الخمر بحضرة النبي بعد أن علم بتحريمها لم يؤمر بغسل إنائها	٣٤٧
نجاسة الخمر نجاسة معنوية وإن لم يقل به إلّا قليل من الأمة مع أن الجمهور على أن نجاستها حسية لكن الدليل يخالفهم	٣٤٧
ضآلة نسبة الأطياب في الأشياء بحيث لا تؤثر فيها مباح	٣٤٨
هل يجوز تناول بعض الأشربة التي بها نسبة ضئيلة من الكحول؟	٣٤٩
المقصود بتحريم استعمال الخمر في التداوي شربها	٣٤٩
إثبات الإرادة للشيطان وسوئها ببني آدم	٣٥٠

الفائدة	الصفحة
كل ما يؤدي للفرقة فهو من مرادات الشيطان	٣٥٠
كيف يعالج الإنسان ما في قلبه من شحناء وحسد لأخيه؟ ...	٣٥١
إثبات الأسباب والرد على منكريها ..... ٣٥١،	٣٥٢
تأثير الأسباب بما أودع الله فيها من قوى مؤثرة	٣٥٢
كل ما صد عن ذكر الله فهو من أوامر الشيطان	٣٥٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾	٣٥٣
الدليل على إرسال الله للرسول ..	٣٥٤
معنى قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾	٣٥٥
معنى قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ .	٣٥٥
إعراب قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ... ٣٥٥،	٣٥٦
ما الموصولة إذا كانت اسماً لأنّ، تُفصل عنها	٣٥٦
اتصال «ما» الموصولة بـ«إن» قاعدة قديمة في خط المصحف	٣٥٦
من فوائد الآية الكريمة	٣٥٧
طاعة النبي مستقلة لا تحتاج لشاهد من القرآن	٣٥٧
هل يمكن أن يتناقض أمر الله وأمر رسوله؟	٣٥٧
الرسالة من أفخر الأوصاف التي يتصف بها العبد	٣٥٨
أيهما أفضل، مقام النبوة أم مقام الرسالة؟	٣٥٨
النبي وليّ وزيادة، والرسول ولي ونبي ورسول	٣٥٨
الأصل في أوامر الله ورسوله الوجوب ..... ٣٥٩،	٣٦٠
تولي الناس عمّا يدعو إليه النبي لا يضره ولا يلام عليه	٣٦١
الداعية لا يضره انصراف الناس عنه ما دام قد أدى واجبه ...	٣٦١
النبي لا يستطيع هداية أحد ولكنه يبلِّغ بلاغاً مبيناً لا إشكال فيه	٣٦١
من لم تبلغه الرسالة، هل يعذر؟ ومن بلغته مشوشة هل يعذر؟	٣٦٢
لا يمكن أن تتعارض طاعة الله ورسوله	٣٦٣
من لم تبلغه الرسالة فهو معذور ومن بلغته ولم يفهمها فهو معذور، فعدم الفهم كعدم العلم	٣٦٤
ما حكم الرافضة الذين يسبون أبا بكر وعمر وعائشة رضي الله عنهم؟	٣٦٥

الفائدة	الصفحة
تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ﴾ ..	٣٦٥
حد الأعمال الصالحة	٣٦٦
شروط موافقة الأعمال للشريعة ستة: السبب ـ الجنس ـ القَدْر ـ الكيفية ـ الزمان ـ المكان ..... ٣٦٦ ـ	٣٦٨
معنى قوله تعالى: ﴿فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾	٣٦٨
الفرق بين طعموا وأكلوا	٣٦٨
قوله تعالى: ﴿وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟﴾ تحمل الآية على حالين	٣٧٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾	٣٧٠
حد المحبّة ..... ٣٧٠ ـ	٣٧١
من فوائد الآية الكريمة	٣٧١
نفي الجُناح في المطعومات	٣٧١
على الكفار جناح فيما طعموا ...	٣٧١
القيود الشديدة في نفي الإثم عن الآكل والشارب	٣٧١
من أكل حلالاً بكسب حرام فعليه الإثم	٣٧٢
لا يلزم الورثة بحث كيف كسب مورثهم، فالإثم على الكاسب، إلا إذا علمنا أنه عين مال الغير	٣٧٢
تلبية دعوة من يختلط الحلال بالحرام في مالهم جائزة إلا إذا كانت عدم إجابة الدعوة فيها مصلحة	٢٧٣
فضيلة الإحسان إلى الخلق والإحسان في عبادة الخالق .	٣٧٤
المحبة من الصفات الفعلية لله لتعلقها بالمشيئة	٣٧٤
المحبة تختلف عن الإثابة، وإن كان الثواب لازم لها	٣٧٤
تفسير المحبة بالثواب ينقص دلالتها ومضمونها	٣٧٥
ينبغي ألّا يفسر القرآن بخلاف ظاهره فيما يتعلق بصفات الله التي نؤمن بها	٣٧٥
هل نثبت لله الملل أم لا؟	٣٧٥
هل غضب الله الذي نثبته حقاً كغضب المخلوق؟	٣٧٦
التعاطي مع صفات الله تعالى حدّها قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾	٣٧٧
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾	٣٧٧
الابتلاء: اختبار لعِلَّة	٣٧٨

الفائدة	الصفحة
معاني قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾	٣٧٨، ٣٧٩
من فوائد الآية الكريمة	٣٧٩
فضيلة الصحابة رضوان الله عليهم	٣٧٩
فضل أمة الإسلام على سائر الأمم	٣٧٩
تحايل اليهود على محارم الله ...	٣٨٠
الحذر من الوقوع في المعاصي وإن تيسرت أسبابها	٣٨٠
قصة ابتلاء يوسف عليه السلام	٣٨٠، ٣٨١
الصيد في حال الإحرام محرم ...	٣٨١
إثبات علم الله تبارك وتعالى وأنه محيط بكل شيء	٣٨٢
علم الله لم يزل ولا يزال موجوداً	٣٨٣
الثناء على من يخاف الله بالغيب	٣٨٣
الإنسان يعاقب بالذنب يصيبه ...	٣٨٤
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾	٣٨٤
ضابط الفقهاء للصيد أنه الحيوان البري المأكول المتوحش طبعاً	٣٨٥
الحيوانات المتوحشة هل هي محددة أم معدودة؟	٣٨٦
علة النهي عن قتل الصيد للمحرم	٣٨٦
معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾	٣٨٦
معنى قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ ..	٣٨٧
النّعم ثلاثة أشياء: الإبل والبقر والغنم	٣٨٧
معنى قوله تعالى: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾	٣٨٨
معنى قوله تعالى: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾	٣٨٨
معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾	٣٨٨
المراد بالمسكين	٣٨٩
معنى قوله: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾	٣٨٩
معنى قوله تعالى: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾	٣٩٠
من فوائد الآية الكريمة	٣٩٠
تحريم قتل الصيد حال الإحرام ..	٣٩٠
قتل الصيد حال الإحرام مناف لكمال الإيمان	٣٩٠
من ترك المعصية، هل يثاب عليها ويزداد بها إيماناً؟	٣٩١
ما صاده المحرم ميتة لا يحل أكله لتعبير الله عنه بالقتل ...	٣٩٢
ما صاده المحرم لنفسه حرام عليه حلال لغيره من غير المحرمين	٣٩٢

الفائدة	الصفحة
ما صيد للمحرم حرام عليه، فهل يحرم على غيره من المحرمين أو المحلين؟	٣٩٣
الجزاء يلزم المتعمد لا المخطئ ولا الناسي	٣٩٣، ٣٩٤
قاعدة: لا مؤاخذة مع الجهل والنسيان وكذلك الإكراه	٣٩٤
الإتلاف يستوي فيه العمد والسهو والجهل خاصة فيما يتعلق بحق الآدمي	٣٩٥
تعظيم الإحرام وتعظيم الحرم	٣٩٥، ٣٩٦
الواجب في قتل الصيد يعني في جزائه، أمور ثلاثة: إما المثل أو إطعام مساكين أو صيام يعادل ذلك	٣٩٧
معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾	٣٩٧
بمَ يعادل طعام المساكين؟ بالصيد أم يقوّم بمثله؟	٣٩٧، ٣٩٨
قواعد التفسير: من أين نأخذ التفاسير ـ النسخ ـ المكي والمدني	٣٩٨، ٣٩٩
تعريف المكي والمدني وضوابطها	٣٩٩
استثناء بعض الآيات باعتبارها مكية في السور المدنية أو العكس يحتاج لدليل	٣٩٩
الأصل: جميع آيات السور المكية مكية، وآيات السور المدنية مدنية إلا بدليل صريح	٤٠٠
تكرار بعض قصص القرآن بين مكة والمدينة قبل الهجرة وبعدها	٤٠٠
جميع الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن من الجزيرة وما حولها مما يعرفه العرب	٤٠٠
خصائص الآيات المكية والمدنية	٤٠١
هل تُنسخ الآيات المكية بالآيات المدنية؟	٤٠١
المماثلة بين الآيات المكية والمدنية، في أي شيء تكون؟	٤٠١
قول العلماء: ما حكمت به الصحابة فإنه لا يُغير، فهم أقرب إلى فهم القرآن من غيرهم	٤٠٢
إذا كان الصيد الذي لم تحكم به الصحابة مماثلاً أو قريباً مما حكمت به، هل نعتمد حكم الصحابة أم نستأنف حكماً جديداً؟	٤٠٢
شروط الحكمَين	٤٠٣

الفائدة	الصفحة
هل يصح أن يكون قاتل الصيد أحد الحكمَين لما فيه من علم وخبرة	٤٠٣
جزاء الصيد لا بد أن يصل إلى الحرم ولو قتله خارج الحرم	٤٠٤
هل يجوز نقل فدية غير جزاء الصيد إلى مكة؟	٤٠٤
من وجبت عليه فدية محظور فله أن يفديها في مكانه أو ينقلها إلى مكان آخر	٤٠٥
الفداء كفارة للذنب	٤٠٥
للإنسان أن ينتقل في جزاء الصيد عن المثل وعن الإطعام إلى الصيام	٤٠٥
تقدير الصيام لا نتجاوز فيه أكثر الكفارات وهي ستون يوماً ..	٤٠٦
جواز التعزير بالمال وجواز التعزير بالضرب والحبس والعزل عن الوظيفة	٤٠٦
من فعل محظوراً قبل العلم بالشرع فلا إثم عليه ولا كفارة ولا جزاء	٤٠٧
الجاهل معذور ولكن ينبغي ألا يكون مفرطاً ومقصراً في الطلب	٤٠٧
فرق بين الجاهل بالحكم، والعالم بالحكم ولكنه يجهل ما يترتب على الحكم	٤٠٨
الجاهل بالحكم معذور والجاهل بالعقوبة غير معذور	٤٠٨
إثبات العفو لله عزّ وجل	٤٠٩
تهديد من عاد إلى قتل الصيد بعد علمه	٤٠٩
إثبات اسم الله العزيز	٤١٠
الله تعالى ذو انتقام من المجرمين وهو سبحانه لا يوصف ولا يسمى بالمنتقم	٤١٠
تفسير قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾	٤١٠
حكم صيد البحر في الآية	٤١٠
كل ما في البحر حلال	٤١١
المراد بصيد البر ما صيد فيه	٤١١
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾	٤١١، ٤١٢
الفائدة البلاغية لتقديم ما حقه التأخير الحصر	٤١٢
من فوائد الآية الكريمة	٤١٢
حلّ صيد البحر للمحلين والمحرمين	٤١٢
جميع حيوان البحر حلال	٤١٢
بيان حكمة الله عزّ وجل في حلّ صيد البحر دون صيد البر ...	٤١٣
ما ضابط البري والبحري؟	٤١٣

الفائدة	الصفحة
ما كان أكثر حياتها في البحر فهي بحرية ولو عاشت في البر	٤١٣
جواز إدخار لحم البحر	٤١٤
لا يحل الصيد بعد التحلل الأول كما لا تحل النساء	٤١٥
وجوب تقوى الله والحذر من مخالفته	٤١٦
الحشر إلى الله لا إلى غيره	٤١٦
تفسير قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا﴾	٤١٦
الجعل في الآية جعل شرعي أو كوني أو هما معاً	٤١٦
وصف الكعبة بالبيت الحرام يخرج منها كل بناء شبيه سوى الكعبة	٤١٦
معنى قوله تعالى: ﴿قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ والأشياء التي جعلها الله قياماً للناس أربعة:	٤١٧
﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ هل المراد به الجنس فيشمل الأشهر الأربعة الحرم أم المراد به شهر واحد؟	٤١٧
الأشهر الحرم: ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب	٤١٧
معنى القلائد	٤١٨
معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٤١٩
لِمَ جعلت الأرض بالإفراد مع أن عددها سبعة؟	٤١٩
من فوائد الآية الكريمة	٤٢٠
تعظيم الله لشأن الكعبة المشرفة	٤٢٠
لله سبحانه أن يفضل ما شاء من خلقه	٤٢٠
تعظيم الكعبة بجعل ما حولها حراماً لا يقتل صيده ولا يقطع شجره	٤٢٠
تعظيم الأشهر الحرم بأنها قيام للناس	٤٢١
هل ارتكاب المعاصي في الأشهر الحرم أعظم من ارتكابها في غيرها	٤٢١
قاعدة: الحسنات والسيئات تضاعف في كل زمان ومكان فاضل	٤٢١
هل يحرم القتال في الأشهر الحرم؟	٤٢١
الاحتجاج بوقوع غزوة حنين في الأشهر الحرم، وتوضيحه	٤٢٢
القتال في مكة، هل يحرم أم لا؟	٤٢٢

الفائدة	الصفحة
تحريم القتال في الأشهر الحرم باق إلّا إذا كانت امتداداً لغزو قبله أو ابتدأونا بالقتال ..	٤٢٢
تعظيم الهدي	٤٢٣
هل الهدي مربوط بالنسك أو يجوز أن يهدي الإنسان إلى البيت ولو لم يكن نُسكاً؟ ...	٤٢٣
هل يسن سوق الهدي في العمرة كالحج؟	٤٢٣
مشروعية القلائد لإظهار شعائر الله	٤٢٣
إثبات الحكمة في أحكام الله عزّ وجل	٤٢٣
الحث على معرفة صفات الله تعالى التي ليس لها أسماء أو التي تتضمنها الأسماء ...	٤٢٤
التحذير من مخالفة الله عزّ وجل	٤٢٤
صفة العلم من أعم الصفات لكونها تتعلق بالواجب والممكن والمستحيل والسابق واللاحق	٤٢٤، ٤٢٥
المراد بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ﴾ آلهة تدبر وتصرف شؤون الكون، أم آلهة تعبد فقط؟	٤٢٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾	٤٢٦
من فوائد الآية الكريمة	٤٢٧
وجوب العلم عن يقين	٤٢٧
إثبات العقاب لمن يستحق العقوبة	٤٢٧
إثبات اسمي: الغفور الرحيم لله عزّ وجل	٤٢٧
ما المترتب على الإيمان باسمي: الغفور الرحيم ٤٢٧،	٤٢٨
الجمع بين أسماء الله تعالى فيه زيادة وصف على وجودها بدون اجتماع	٤٢٨
تفسير قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾	٤٢٨
عطاء الله لا يدل دائماً على رضاه	٤٢٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾	٤٣٠
من فوائد الآية الكريمة	٤٣٠
إبلاغ الرسول للوحي واجب على رسول الله ﷺ	٤٣٠
تحذير المبلغين من المخالفة	٤٣١
سعة علم الله وعمومه	٤٣١
أعمال العباد تنقسم إلى قسمين: علانية وسر	٤٣١
إبداء الأعمال الصالحة أو كتمانها، أيهما أفضل؟	٤٣١

الفائدة	الصفحة
الرد على الجبرية القائلين بأن الإنسان ليس له إرادة	٤٣١
أهل العلم هم ورثة الأنبياء تبرأ ذمتهم بالتبليغ	٤٣٢
متى يجوز كتمان العلم؟ .. ٤٣٢،	٤٣٣
تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾	٤٣٣
لا يستوي الخبيث والطيب من كل شيء: الأشخاص - الأعيان - الأقوال - الأفعال .	٤٣٤
السيف بضاربه، وحامل الحق ينبغي أن يكون قوياً بما معه من حق	٤٣٥
معنى قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾	٤٣٥
من فوائد الآية الكريمة	٤٣٦
لا يستوي الخبيث والطيب وإن كثر أهل الخبيث	٤٣٦
الكثرة لا اعتبار لها وإنما الكيف	٤٣٦
الخبث والطيب يكون في الأعمال والأعيان	٤٣٦
قد يعجب المرء بما ليس محلاً للإعجاب	٤٣٦
التقوى واجبة وهي سبب الفلاح	٤٣٧
تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ ...	٤٣٧
علّة منع «أشياء» من الصرف	٤٣٧
ما سكت عنه الشرع، قد يسبب جوابه المشقة على الناس ...	٤٣٧
ما سكت عنه الله فهو عفو	٤٣٩
من فوائد الآية الكريمة	٤٣٩
ابن تيمية: كل شيء نُفي الإيمان عن فاعله فهو من كبائر الذنوب	٤٣٩
السؤال المنهي عنه هل يشمل زمن الوحي أم يتعداه إلى ما بعد الوحي؟	٤٣٩
الأسئلة الغريبة التي تطرأ على ذهن الإنسان، هل يسكت عنها؟	٤٣٩
كراهة ما شرع الله لا يكون من جهة فرضيته بل من جهة المشقة المتحصلة .... ٤٣٩،	٤٤٠
سؤال النساء عن حكم إزالة الشعور من الساقين أو الذراعين، حلال أم حرام؟ ..	٤٤١
المسكوت عن قتله من الحشرات، ما الموقف منه؟	٤٤٢
ما حكم الأجهزة الكهربائية التي تقتل الحشرات؟	٤٤٣
هل من الإيذاء أن يبني العنكبوت بيتاً في الجدار أو المسجد؟	٤٤٤

الفائدة	الصفحة
قصة تعشيش العنكبوت على باب الغار لا تصح أبداً	٤٤٤
من فوائد العنكبوت	٤٤٥
البناء على الأصل في براءة الذمة	٤٤٥
إثبات اسمي: الغفور والحليم لله عزّ وجل	٤٤٥
قصة بقرة بني إسرائيل وتشديدهم على أنفسهم بكثرة السؤال	٤٤٦، ٤٤٧
تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾	٤٤٧
أصبح، هل هي مختصة بالصباح أم بأي وقت من الزمان؟ ...	٤٤٧
من فوائد الآية الكريمة	٤٤٨
ضرب الأمثال بالأمم السابقة لنقتنع	٤٤٨
سؤال من قبلنا كان سبباً لهلاكهم في أمور كثيرة	٤٤٨
لا ينبغي التعرض لما يجلب عليك المشقة والبلاء	٤٤٨
تفسير قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ﴾	٤٤٩
معاني: ﴿جَعَلَ﴾	٤٤٩
ضلال الجهمية في تفسير جعل بمعنى خلق	٤٤٩، ٤٥٠
﴿مِن بَحِيرَةٍ﴾ حكمة زيادة (من) في الآية	٤٥٠
اصطلاحات العرب للأسماء: بحيرة، سائبة، وصيلة، حام ومعانيها	٤٥١
إعراب: حام	٤٥١
معنى قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾	٤٥١
معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾	٤٥٢
من فوائد الآيتين الكريمتين	٤٥٣
بطلان ما كان عليه أهل الجاهلية من تحريم الأنعام الموصوفة بـ: البحيرة والسائبة والوصيلة والحام	٤٥٣
كل من أتى بشريعة ليست من عند الله فقد افترى على الله الكذب	٤٥٣
خطر الإفتاء	٤٥٣
ذم القائلين بغير علم، فكل من ابتغى الإمامة في غير دين الله مخذول	٤٥٣
التحرّي في الإفتاء من العقل، وموقف الإمام مالك من التحري	٤٥٤
فساد قول القائلين بخلق القرآن واستدلالهم الباطل بخلق الحديد وخلق الماء النازل من السماء	٤٥٥

الفائدة	الصفحة
علو الله عزّ وجل أوضح من أن يحتاج إلى تكثير الأدلّة	٤٥٦
الدليل على علو الله عقلاً	٤٥٦
وجوب الرجوع إلى ما جاء به الكتاب والسنّة	٤٥٦
من تعصب لقول إمام وأصر عليه مع وجود الكتاب والسنّة ففيه شبه من الكفار	٤٥٧
انقسام الناس بين تأييد التقليد المطلق وتأييد الاجتهاد المطلق	٤٥٧، ٤٥٨
شيخ الإسلام: اجعل التقليد كالميتة لا تحل إلا عند الضرورة؟	٤٥٨
حسن الجدال في القرآن لإقامة الحجة	٤٥٨
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾	٤٥٩
معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾	٤٥٩
ليس في الآية ما يدل على إسقاط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٤٥٩
من فوائد الآية الكريمة	٤٦٠
فضيلة الإيمان	٤٦٠
إصلاح النفس من مقتضيات الإيمان	٤٦١
ضلال من يضل لا يترتب عليه ضرر المهتدي	٤٦١
المرجع إلى الله عزّ وجل لا إلى غيره	٤٦١
هل المراد بالمرجع، المرجع يوم القيامة أم حتى في الدنيا؟	٤٦١
الإيمان بالبعث من أركان الإيمان	٤٦٢
هل يمحى شيء مما كتب على الإنسان وأحصاه الملكان؟ ..	٤٦٢
لا يحاسب الإنسان على حديث النفس	٤٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾	٤٦٣
هل تقبل شهادة رجلين كافرين لم يوجد غيرهما في حضرة مسلم حضرته الوفاة؟	٤٦٤
معنى قوله تعالى: ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ يشمل كل ملل الكفر	٤٦٤
«أل» في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ لم جعلناها للعهد الذهني ولم نجعلها للجنس؟	٤٦٥
سبب الآيات	٤٦٧
لا نسخ في سورة المائدة، فهي كلها محكمة لأنها آخر ما نزل	٤٦٨

الفائدة	الصفحة
قول ابن كثير في تفسير هذه الآيات ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾	٤٦٩
معنى قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾	٤٧٠
شرطا جواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين: السفر والوصية	٤٧٠
من معه الدليل فهو جماعة وإن كان واحداً	٤٧٠
استشكال ابن جرير في الشاهدين واستغرابه من الحكم الذي يُحلَّف فيه الشاهد	٤٧١
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿فَءَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ ..	٤٧٣
رواية تميم الجاري وعدي بن بدّاء وقصتهما مع الرجل السهميّ	٤٧٤
صحّت هذه القصة من شواهد كثيرة	٤٧٦، ٤٧٧
معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾	٤٧٩
الإشكالات في الآية كثيرة لذا أطال ابن كثير في شرحها حكماً وإعراباً	٤٨٠
من فوائد الآيات الكريمات	٤٨١
جواز شهادة الكافر للضرورة	٤٨١
شهادة الكافر هل تختص بهذه الصورة والواقعة، أم تشمل غيرها؟	٤٨٢
تجوز شهادة غير المسلم في الوصية وغيرها وفي السفر وغيره	٤٨٢
الأكمل في الإشهاد على الوصية أن يكون الشاهدان رجلين ..	٤٨٣
هل يخص الحكم بشهادتهما في الوصية أم هو عام يشمل غير الوصية؟	٤٨٣
جواز الوصية عند حضور الموت	٤٨٣
اشتراط العدالة في الإشهاد	٤٨٣
عند تعذر العدالة تقبل شهادة الفاسق المأمون الثقة	٤٨٤
جواز شهادة الكافر إن عُدم المسلم	٤٨٤
اختلاف العلماء في قوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ وفي قبول شهادة الكافر	٤٨٤
قاعدة: كل شيء ورد مطلقاً في القرآن والسنّة لا يجوز إضافة قيد إليه أبداً	٤٨٥
هل تقبل شهادة الكفار بعضهم على بعض؟	٤٨٥، ٤٨٦

الفائدة	الصفحة
السفر يطلق عليه الضرب في الأرض	٤٨٦
إطلاق الضرب في الأرض دون تقييده بمسافة القصر	٤٨٦
الحلف لا يكون بغير الله	٤٨٦
الحكم يدور مع علته	٤٨٦
لا بأس أن يوري القاضي في الحكم إن ارتاب بشهادة الشهود ليستظهر الحق	٤٨٨
للقرابة تأثير في الميل والعاطفة	٤٨٨
إثم كتم الشهادة	٤٨٩
رد اليمين على المدّعي	٤٨٩
جواز البحث والتدقيق في القضية للعثور على الحق	٤٨٩
الإرث يكون للأوْلى فالأوْلى	٤٩٠
المدعى عليه لا يجزم ببطلان شهادة الشاهد	٤٩٠
ردّ الأوليين لشهادة الشاهدين أعظم اعتداءً من تغيير الشاهدين لشهادتهما	٤٩٠
تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ﴾	٤٩٢
إعراب الآية	٤٩٢
متى يجمع الله الرسل في يوم القيامة؟	٤٩٣
ينبغي الوقوف في المسائل الغيبية حيث وقف النص	٤٩٣
سؤال الله للرسل؛ ماذا أجبتم؟ هل هو للاستعلام؟	٤٩٤
أوجه التفسير في رد الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾	٤٩٤، ٤٩٥
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ وإعرابها	٤٩٦
حجج النحويين لها ما يسوغها	٤٩٦
من فوائد الآية الكريمة	٤٩٧
تمام قدرة الله في الموقف العظيم يوم القيامة	٤٩٧
فضيلة الرسل في المشهد العظيم	٤٩٧
إثبات القول لله عزّ وجل	٤٩٧
قول الله بحرف وصوت	٤٩٧، ٤٩٨
تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾	٤٩٩
إعراب قوله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ وبقية الآية	٤٩٩، ٥٠٠
معنى قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾	٥٠١
من نعمة الله على مريم أن أنطق ابنها في المهد ليشهد ببراءتها	٥٠٢
معنى قوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾	٥٠٢
ذكر كلامه في المهد وكهلاً ليبين أن كلامه في المهد ككلامه حين يكون كهلاً لا يختلف	٥٠٢

الفائدة	الصفحة
معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ﴾	٥٠٢
المقصود بالكتاب في الآية	٥٠٢
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا﴾	٥٠٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾	٥٠٣
دلالة تكرار قوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ في الآية	٥٠٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ والربط بينها وآية آل عمران: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾	٥٠٤
سؤال الطالب عن الميت الذي يحييه عيسى عليه السلام، هل يبقى ويعيش بعد إحيائه أم ماذا؟	٥٠٤
النعمة الأخيرة على عيسى عليه السلام في الآية: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾	٥٠٥
كل مكذبي الرسل يتهمون الرسل بالسحر لعجزهم عن إدارك الآيات التي يأتون بها	٥٠٥
لماذا يقدس النصارى الصليب؟ .	٥٠٦
من فوائد الآية الكريمة	٥٠٦
تذكير الأمة بما حدث لأنبياء الأمم السابقة	٥٠٦
إثبات أن الله يتكلم ويقول بحرف وصوت، والرد على الأشاعرة	٥٠٦
تذكير الناس بنعم الله عليهم ليشكروها	٥٠٧
جواز نسبة الإنسان إلى أمِّه وهو الأصل إن لم يُعلم أبوه أو ينسب إلى اسم يصح لكل إنسان، مثل: عبد الله، عبد الرحمٰن	٥٠٧
الأنبياء أشد الناس قياماً بشكر الله، ومع ذلك يجب عليهم الشكر	٥٠٨
نعمة الله على الوالدين نعمة على الولد والعكس صحيح	٥٠٩
اللقب الفاضل لجبريل: روح القدس	٥٠٩
اليهود يبغضون جبريل والمسلمون يحبونه	٥٠٩
الآية العظيمة: كلام عيسى في المهد وكهلاً على السواء ...	٥١٠
النعمة بالعلم والشرع والحكمة أخص من مطلق النعمة	٥١٠
قاعدة: لا يمكن أن يوجد في صريح المعقول ما يخالف صحيح المنقول	٥١١

الفائدة	الصفحة
إطلاق لفظ الخلق على ما صنعه المخلوق	٥١١
ما الفرق بين خلق المخلوق وخلق الخالق؟	٥١٢
خلق الخالق إيجاد من عدم وخلق المخلوق تحويل وتحوير إلى صفة أخرى	٥١٢
إعجاز عيسى عليه السلام في الطب	٥١٢
اختيار الآيات الأشد إعجازاً ليجريها على يد نبيه	٥١٣
النفخ له تأثير في الأجساد بإرادة الله لذا كانت القراءة على المريض عن طريق النفث	٥١٣
آيات الله ومعجزاته لأنبيائه حالية لا تتأخر نتيجتها	٥١٣
الآيات الأربع: خلق الطير وإحيائه: إبراء الأكمه، وإبراء الأبرص، وإحياء الموتى لا تكون لأحد إلا بإذن الله	٥١٤
الرد على القدرية الذين يثبتون الإرادة المستقلة للإنسان دون تعلق بإرادة الله	٥١٤
إثبات إذن الله، وهو نوعان: كوني قدري، وشرعي تعبدي	٥١٥
ما أذن الله فيه قدراً واقع حتماً، وما لم يأذن به لا يمكن أن يقع	٥١٥
ما أذن الله فيه شرعاً قد يقع وقد لا يقع، وكذا ما لم يأذن فيه شرعاً	٥١٥
ما الفرق بين الإذن والإرادة؟ ...	٥١٥
دفع الله الأذى عن المؤمنين، وإن وقع فهو ابتلاء ترفع به الدرجات ..... ٥١٥،	٥١٦
كل داع لله عزّ وجل بالبرهان والدليل لا يسلم من الأذى ..	٥١٦
عيسى عليه السلام كغيره من الرسل أيده الله بالآيات البينات	٥١٧
آيات الأنبياء أنواعها كثيرة: حسية ومعنوية، فصلها شيخ الإسلام في كتابه: الجواب الصحيح	٥١٧
عظم آية القرآن الخالدة	٥١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾	٥١٨
أن: إذا وقعت بعد فعل تضمن معنى القول دون حروفه سميت تفسيرية	٥١٨
الأشهر في اللغة: إذا عطف على ضمير متصل فإنه يؤتى بحرف الجر الذي كان في المعطوف عليه	٥١٨

الفائدة	الصفحة
إعراب الآية الكريمة	٥١٩
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾	٥١٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾	٥٢٠
الوحي: شرعي أو كوني إلهامي .	٥٢٠
الوحي الشرعي لا يكون إلا للأنبياء والرسل	٥٢٠
من هم الحواريون؟	٥٢٠
الفرق عظيم بين خُلَّص هذه الأمة وخُلّص الأمم السابقة .	٥٢١
الشيوعيون ينكرون وجود الله ويؤمنون بالطبيعة الفاعلة	٥٢١
الإيمان بأسماء الله وصفاته رد على المعطلة والممثلة	٥٢١
من هم الممثلة والمعطلة؟	٥٢٢
هل أرسل أحد قبل نوح عليه السلام؟	٥٢٢
الإسلام إذا أطلق شمل الإيمان، وكذا الإيمان إن أطلق شمل الإسلام	٥٢٣
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ﴾ وشك الحواريين في قدرة الله	٥٢٣
معنى قوله تعالى: ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾	٥٢٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾	٥٢٦
من فوائد الآيات الكريمات	٥٢٧
الإيمان بالله لا يتم إلا بالإيمان برسوله	٥٢٧
جواز حذف المعلوم	٥٢٨
جواز استثبات الشيء بالإشهاد عليه	٥٢٨
إذا أفرد الإسلام دخل معه الإيمان، وإن ذكر معه صار له معنى آخر	٥٢٩
الحواريون يريدون من الآيات ما يملأ بطونهم	٥٣٠
وقوع الشيء يزيد اليقين به عن الإخبار به	٥٣٠
الخبر يثبت بالتواتر وكثرة ناقليه .	٥٣٠
تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً﴾	٥٣١
إعراب قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾	٥٣١
الأمر الموجه إلى الله يقال له: فعل طلب أو فعل سؤال، تأدباً	٥٣١
من فوائد الآية الكريمة	٥٣٢
الأنبياء مفتقرون إلى الله	٥٣٢

الفائدة	الصفحة
التوسل في الدعاء بمعاني الألوهية والربوبية	٥٣٢
أمانة عيسى عليه السلام في إجابة الحواريين	٥٣٢
هل لنا أن نجعل للمناسبات كلما مرت عيداً؟	٥٣٣
هل لنا أن ندعو بدعاء عيسى: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؟	٥٣٣
سؤال الله يكون بالممكن كوناً وشرعاً	٥٣٣
افتقار عيسى عليه السلام إلى الله يبطل دعواهم بتأليهه	٥٣٤
إطلاق الرزق على غير الله عزّ وجل بمعنى العطاء	٥٣٤
تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾	٥٣٤
أوجه القراءة في الآية	٥٣٤
هل أنزل الله المائدة عليهم أم لا؟	٥٣٥
قبل وبعد إذا حذف المضاف إليه ونُوى معناه بُنيا على الضم، وإن حذف ونوى لفظه أُعربا بدون تنوين، وإن حذف ولم ينو لفظه أعربا بتنوين	٥٣٦
الفاء في قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ﴾ رابطة للجواب	٥٣٧
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿فَإِنِّيٓ﴾	٥٣٧
قوله تعالى: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هل هو خاص بعالمي زمانهم ...	٥٣٧
من فوائد الآية الكريمة	٥٣٨
خطر طلب الآيات من الأمم	٥٣٨
العذاب يتفاوت حسب أسبابه ...	٥٣٩
كفر من رأوا الآيات ليس ككفر من لم يروها	٥٤٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾	٥٤٠
أوجه القراءة في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ﴾ وقوله: ﴿ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ﴾	٥٤٠
قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ ..	٥٤١
إعراب ﴿بِحَقٍّ﴾	٥٤١
الاستفهام في قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ﴾؟ وغرضه البلاغي	٥٤٢
من فوائد الآية الكريمة	٥٤٣
إثبات القول لله حقيقة بحرف وصوت	٥٤٣
توبيخ من اتخذ عيسى وأمه إلهين	٥٤٤
بعد الرسل عن الشرك، وتنزيه الله مما لا يليق به سبحانه	٥٤٤

الفائدة	الصفحة
الرسل لا يقرون ما لا يستحقون	٥٤٤
الألوهية حق خاص لله تعالى ...	٥٤٤
إطلاق النفس على الذات، ويرى شيخ الإسلام أن إطلاق الذات على النفس دخيل على العربية	٥٤٥
إثبات علم الله بما في نفس الإنسان	٥٤٦
وجوب الخشوع في الصلاة	٥٤٦
علمنا بإرادة الله لا يكون إلا بعد وقوع المراد	٥٤٧
إثبات علم الله للغيب ﴿عَٰلِمُ ٱلْغُيُوبِ﴾	٥٤٧
صيغ المبالغة في حق الله ليست للكثرة وإنما لتأكيد الكمال ..	٥٤٧
من ادعى علم الغيب، فقد ادعى أنه شريك لله	٥٤٨
الغيب نوعان: نسبي ومطلق والأخير اختص به الله تعالى	٥٤٨
كل من ادعى علم الغيب كافر ولا يصلى عليه	٥٤٨
تفسير قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾	٥٤٩
إعراب الآية	٥٤٩
العبادة، علام تُطلق؟	٥٥٠
معنى قوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾	٥٥٠
من فوائد الآية الكريمة	٥٥٠
الرسل مكلفون بالرسالة	٥٥٠
لا حق لعيسى عليه السلام في الألوهية ولا الربوبية	٥٥١
عيسى عليه السلام قد توفاه الله، واختلاف العلماء في معنى الوفاة ..... ٥٥١ ـ	٥٥٢
كيف تجمع بين رقابة الله ورقابة الملَك؟	٥٥٣
القرب خاص بالعابد والداعي ...	٥٥٤
شهادة الله تقتضي من العبد كمال المراقبة لله	٥٥٤
الفرق بين النبي والرسول	٥٥٤
تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾	٥٥٥
الذنوب سبب لإعراض الله عزّ وجل	٥٥٥
المقدمات التي تستوجب العذاب	٥٥٥
الجملة الاسمية إذا وقعت جواباً للشرط تقرن بالفاء	٥٥٦
معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾	٥٥٦
أنواع العزة: عزة القهر والغلبة، عزة الامتناع، وعزة الشرف (القَدْر)، وأمثلتها	٥٥٦
«الحكيم» لغةً ودلالةً ..... ٥٥٧،	٥٥٨
الغايات تكون لحكمة	٥٥٩

الفائدة	الصفحة
إنكار الأشاعرة للحكمة، والرد عليهم	٥٦٠، ٥٦١
انتفاء الحكمة يؤصل لوجود العبث	٥٦٢
من فوائد الآية الكريمة	٥٦٢
الأنبياء وأولوا العزم من الرسل يفوضون أمرهم لله	٥٦٢
إطلاق العبودية على من استحق التعذيب	٥٦٣
نوعا العبودية: عامة وخاصة	٥٦٣
هل الحيوانات من عباد الله؟	٥٦٣
حكمة الله في جعل الخلق بين معذب ومغفور له	٥٦٤
إثبات المغفرة	٥٦٤
إثبات اسمي: العزيز والحكيم لله	٥٦٤
كل اسم من أسماء الله لا بد أن يتضمن صفة أو أكثر	٥٦٥
مناسبة ختام الآية بقوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بعد قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ﴾	٥٦٥
تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾	٥٦٦
أوجه القراءة في كلمة «يوم»	٥٦٦
الصديقيّة أعلى المراتب بعد النبوّة	٥٦٦
الجنة في القرآن تأتي مفردة ومجموعة ومثنّاة	٥٦٧
معنى قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾	٥٦٧
﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾	٥٦٨
من فوائد الآية الكريمة	٥٦٩
القول بإطلاقه لا يراد به سوى اللفظ المسموع	٥٦٩
فائدة الصدق، والترغيب فيه	٥٦٩
قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا عن غزوة تبوك، ونجاتهم بالصدق	٥٧٠
من يلجئه الصدق للحرج يتأوّل ففيه مندوحة عن الكذب	٥٧١
أهل الجنة مخلدون فيها أبداً	٥٧١
إثبات رضا الله عزّ وجل والرد على أهل التحريف	٥٧٢
رضا أهل الصدق عن الله عزّ وجل، ورضا الإنسان عن ربه مطلقاً	٥٧٣
الفوز العظيم في جنات النعيم	٥٧٤
تفسير قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾	٥٧٤
دلالة التعبير بـ«ما» دون «من» في قوله تعالى: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾	٥٧٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾	٥٧٦

الفائدة	الصفحة
خطأ صاحب الجلالين في تفسير هذه الآية	٥٧٦
من فوائد الآية الكريمة	٥٧٦
اختصاص ملك السمٰوات والأرض وما فيهن بالله عزّ وجل	٥٧٦
السمٰوات جمع وهي متطابقة بعضها فوق بعض	٥٧٧
الحكمة في إفراد الأرض وجمع السمٰوات	٥٧٧
عموم قدرة الله عزّ وجل على كل شيء	٥٧٨
خطأ قول الناس: إنّه على ما يشاء قدير	٥٧٨
ليس لنا تقييد ما أطلقه الله	٥٧٩

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الآية الواحدة والخمسون	٥
تفسير الآية الكريمة	٥
فوائد الآية الكريمة	١٢
الآية الثانية والخمسون	٢٠
تفسير الآية الكريمة	٢٠
فوائد الآية الكريمة	٢٤
الآية الثالثة والخمسون	٢٥
تفسير الآية الكريمة	٢٥
فوائد الآية الكريمة	٢٧
الآية الرابعة والخمسون	٢٩
تفسير الآية الكريمة	٢٩
فوائد الآية الكريمة	٣٣
الآية الخامسة والخمسون	٥١
تفسير الآية الكريمة	٥١
فوائد الآية الكريمة	٥٢
الآية السادسة والخمسون	٥٦
تفسير الآية الكريمة	٥٦
فوائد الآية الكريمة	٥٨
الآية السابعة والخمسون	٦٢
تفسير الآية الكريمة	٦٢
فوائد الآية الكريمة	٦٥
الآية الثامنة والخمسون	٦٧
تفسير الآية الكريمة	٦٧
فوائد الآية الكريمة	٧١
الآية التاسعة والخمسون	٧٦
تفسير الآية الكريمة	٧٦
فوائد الآية الكريمة	٧٩
الآية الستون	٨٠
تفسير الآية الكريمة	٨٠
فوائد الآية الكريمة	٩٠
الآية الواحدة والستون	٩٧
تفسير الآية الكريمة	٩٧
فوائد الآية الكريمة	٩٨
الآية الثانية والستون والثالثة والستون	٩٩
تفسير الآيتين الكريمتين	٩٩
فوائد الآيتين الكريمتين	١٠٢
الآية الرابعة والستون	١٠٨
تفسير الآية الكريمة	١٠٨
فوائد الآية الكريمة	١١٢
الآية الخامسة والستون	١٣٦
تفسير الآية الكريمة	١٣٦

الموضوع	الصفحة
فوائد الآية الكريمة	١٣٩
الآية السادسة والستون	١٤٠
تفسير الآية الكريمة	١٤٠
فوائد الآية الكريمة	١٤٣
الآية السابعة والستون	١٤٦
تفسير الآية الكريمة	١٤٦
فوائد الآية الكريمة	١٥٠
الآية الثامنة والستون	١٥٥
تفسير الآية الكريمة	١٥٥
فوائد الآية الكريمة	١٥٨
الآية التاسعة والستون	١٦٣
تفسير الآية الكريمة	١٦٣
فوائد الآية الكريمة	١٧٠
الآية السبعون	١٨٢
تفسير الآية الكريمة	١٨٢
فوائد الآية الكريمة	١٨٥
الآية الواحدة والسبعون	١٨٧
تفسير الآية الكريمة	١٨٧
فوائد الآية الكريمة	١٩٠
الآية الثانية والسبعون	١٩٢
تفسير الآية الكريمة	١٩٢
فوائد الآية الكريمة	١٩٨
الآية الثالثة والسبعون	٢٠٤
تفسير الآية الكريمة	٢٠٤
فوائد الآية الكريمة	٢٠٨
الآية الرابعة والسبعون	٢٠٩
تفسير الآية الكريمة	٢١٠
فوائد الآية الكريمة	٢١٢
الآية الخامسة والسبعون	٢١٧
تفسير الآية الكريمة	٢١٧
فوائد الآية الكريمة	٢١٩
الآية السادسة والسبعون	٢٢٤
تفسير الآية الكريمة	٢٢٤
فوائد الآية الكريمة	٢٢٥
الآية السابعة والسبعون	٢٢٩
تفسير الآية الكريمة	٢٢٩
فوائد الآية الكريمة	٢٣٠
الآية الثامنة والسبعون والتاسعة والسبعون	٢٣٣
تفسير الآيتين الكريمتين	٢٣٤
فوائد الآيتين الكريمتين	٢٣٦
الآية الثمانون	٢٤٤
تفسير الآية الكريمة	٢٤٤
فوائد الآية الكريمة	٢٤٦
الآية الواحدة والثمانون	٢٥١
تفسير الآية الكريمة	٢٥١
فوائد الآية الكريمة	٢٥٢
الآيات الثانية والثمانون إلى السادسة والثمانون	٢٥٩
تفسير الآيات الكريمات	٢٥٩
فوائد الآيات الكريمات	٢٧٤
الآية السابعة والثمانون والثامنة والثمانون	٢٩٩
تفسير الآيتين الكريمتين	٢٩٩

الموضوع	الصفحة
فوائد الآيتين الكريمتين	٣٠٢
الآية التاسعة والثمانون	٣٠٨
تفسير الآية الكريمة	٣٠٨
فوائد الآية الكريمة	٣١٣
الآية التسعون والواحدة والتسعون	٣٢٧
تفسير الآيتين الكريمتين	٣٢٧
فوائد الآيتين الكريمتين	٣٣٣
الآية الثانية والتسعون	٣٥٣
تفسير الآية الكريمة	٣٥٤
فوائد الآية الكريمة	٣٥٧
الآية الثالثة والتسعون	٣٦٥
تفسير الآية الكريمة	٣٦٥
فوائد الآية الكريمة	٣٧١
الآية الرابعة والتسعون	٣٧٧
تفسير الآية الكريمة	٣٧٧
فوائد الآية الكريمة	٣٧٩
الآية الخامسة والتسعون	٣٨٤
تفسير الآية الكريمة	٣٨٤
فوائد الآية الكريمة	٣٩٠
الآية السادسة والتسعون	٤١٠
تفسير الآية الكريمة	٤١٠
فوائد الآية الكريمة	٤١٢
الآية السابعة والتسعون	٤١٦
تفسير الآية الكريمة	٤١٦
فوائد الآية الكريمة	٤٢٠
الآية الثامنة والتسعون	٤٢٦
تفسير الآية الكريمة	٤٢٦
فوائد الآية الكريمة	٤٢٧
الآية التاسعة والتسعون	٤٢٨
تفسير الآية الكريمة	٤٢٨
فوائد الآية الكريمة	٤٣٠
الآية المائة	٤٣٣
تفسير الآية الكريمة	٤٣٣
فوائد الآية الكريمة	٤٣٦
الآية المائة وواحد	٤٣٧
تفسير الآية الكريمة	٤٣٧
فوائد الآية الكريمة	٤٣٩
الآية المائة واثنين	٤٤٧
تفسير الآية الكريمة	٤٤٧
فوائد الآية الكريمة	٤٤٨
الآية المائة وثلاثة والمائة وأربعة	٤٤٩
تفسير الآيتين الكريمتين	٤٤٩
فوائد الآيتين الكريمتين	٤٥٣
الآية المائة وخمسة	٤٥٩
تفسير الآية الكريمة	٤٥٩
فوائد الآيتين الكريمتين	٤٦٠
الآيات المائة وستة إلى الآية المائة وثمانية	٤٦٣
تفسير الآيات الكريمة	٤٦٤
فوائد الآيات الكريمة	٤٨١
الآية المائة وتسعة	٤٩٢
تفسير الآية الكريمة	٤٩٢
فوائد الآية الكريمة	٤٩٧

الموضوع	الصفحة
الآية المائة وعشرة	٤٩٩
تفسير الآية الكريمة	٤٩٩
فوائد الآية الكريمة	٥٠٦
الآيات المائة وأحد عشر إلى	
الآية المائة وثلاثة عشر	٥١٨
تفسير الآيات الكريمة	٥١٨
فوائد الآيات الكريمة	٥٢٧
الآية المائة وأربعة عشر	٥٣١
تفسير الآية الكريمة	٥٣١
فوائد الآية الكريمة	٥٣٢
الآية المائة وخمسة عشر	٥٣٤
تفسير الآية الكريمة	٥٣٤
فوائد الآية الكريمة	٥٣٨
الآية المائة وستة عشر	٥٤٠
تفسير الآية الكريمة	٥٤٠
فوائد الآية الكريمة	٥٤٣
الآية المائة وسبعة عشر	٥٤٩
تفسير الآية الكريمة	٥٤٩
فوائد الآية الكريمة	٥٥٠
الآية المائة وثمانية عشر	٥٥٥
تفسير الآية الكريمة	٥٥٥
فوائد الآية الكريمة	٥٦٢
الآية المائة وتسعة عشر	٥٦٦
تفسير الآية الكريمة	٥٦٦
فوائد الآية الكريمة	٥٦٩
الآية المائة وعشرون والأخيرة ..	٥٧٤
تفسير الآية الكريمة	٥٧٤
فوائد الآية الكريمة	٥٧٦
* **فهرس الفوائد**	٥٨١
* **فهرس المحتويات**	٦٢٧

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ

(١)

تفسير القرآن الكريم

سورة الأنعام

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

طبع بإشراف مؤسسة

الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

دار ابن الجوزي

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١)

تفسير القرآن الكريم

سورة الأنعام

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

دار ابن الجوزي

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير القرآن الكريم (سورة الأنعام الآية ١ ـ ٥٣). / محمد بن صالح العثيمين.
الرياض، ١٤٣٣هـ
٢٩٥ص؛ ١٧×٢٤سم. (مؤلفات الشيخ ابن عثيمين، ١)
ردمك: ٤ ـ ١٧ ـ ٨٠٣٦ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة الأنعام ـ تفسير أ. العنوان ب. السلسلة
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٣/٤٩٦٤

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
إلا لمن أراد طبعه لتوزيعه مجاناً بعد مراجعة
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
عنيزة ـ ص ب ١٩٢٩
هاتف: ٠٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ٠٦/٣٦٤٢٠٠٩
www.binothaimeen.com
info@binothaimeen.com
الطبعة الاولى
١٤٣٣

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - ٠٥٦٣٤٧٦٣٨٨ - بيروت - هاتف:
٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس:
٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:
aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

❑ قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنعام: ١ ـ ٥].

قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]. تقدم الكلام على البسملة كثيراً، فهي[1] آية من آيات الله ـ عزّ وجل ـ، تبتدأ بها كل سورة ما عدا سورة براءة فإنها لم تبتدأ بالبسملة؛ لأن أيَّ آية تنزل كان النبي ﷺ يبين موضعها، لكن في سورة براءة لم يذكر البسملة، فأبقاها الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بدون بسملة، ثم أشكل عليهم هل هي مستقلة، أو من الأنفال؟ فوضعوا بينهما حاجزاً بدون بسملة.

(١) انظر: تفسير سورة الفاتحة لفضيلة شيخنا المؤلف رحمه الله تعالى.

وأما من قال من العوام: إن الجن اختطفوها، فهذا لا أصل له إطلاقاً، ولا يجوز اعتقاده، ولهذا يقول بعض العوام ـ ورأيته في بعض المصاحف ـ: أعوذ بالله من النار، ومن غضب الجبار، ومن كيد الأشرار، بدل البسملة، وهذا حرام لا يجوز، نقول هكذا كتبها الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، وهم أسوتنا وقدوتنا.

وهي بعض آية من سورة النمل؛ لأن الله تعالى ذكرها على سبيل الحكاية. لكن إذا جعلناها آية فهل هي مستقلة، أو تابعة لما بعدها؟ هي مستقلة لا تابعة لما بعدها فلا تُعَدُّ من آياتها.

واختلف الناس في البسملة في سورة الفاتحة هل هي مستقلة، أو من آيات الفاتحة؟

والصواب أنها مستقلة؛ لدلالة السُّنَّة القولية والفعلية على ذلك. أما القولية ففي الحديث القدسي أن الله ـ تبارك وتعالى ـ قال: «**قَسَمْتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال: الحَمْدُ للهِ ربِّ العالمين، قالَ اللهُ: حَمِدَنِي عبدي**»[1]، وذكر الحديث، ولم يذكر البسملة.

وأما السُّنَّةُ الفعلية، فإن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم ـ كان لا يجهر بالبسملة، هذا هو الثابت عنه[2]، وتركه الجهر بالبسملة في الصلاة الجهرية يدل على أنها ليست من الفاتحة، وإلا لجهر بها كما يجهر في بقية آياتها.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة... (٣٩٥).

(٢) قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: صليت مع رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، فلم أسمع أحداً منهم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم. رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب: حجة من قال لا يجهر بالبسملة (٣٩٩).

بقي أن يقال: البسملة مبدوءة بحرف الجر، والمعروف أن حروف الجر لا بد لها من عامل يسمى المتعلق، فأين متعلقها؟

الجواب: متعلقها محذوف ويُقَدَّرُ بعدها؛ أما كونه محذوفاً فلأنه غير موجود، فلا بد أن يكون محذوفاً مقدراً، وأما كونه يقدر بعدها فلوجهين:

الوجه الأول: التَيَمُّن بالبداءة بـ «بسم الله».

والوجه الثاني: إفادة الحصر، كأنك تقول مثلاً: «لا أَقرأُ إلا ببسم الله».

إذاً فيقدر متأخراً للوجهين اللذين ذكرناهما.

وكيف نُقَدِّرَهُ، هل نُقَدِّرُهُ اسماً، أو فعلاً، وهل نقدره عامّاً، أو خاصّاً؟ هذه أربع احتمالات.

هل نقدره فعلاً أو اسماً؟

نقول نقدره فعلاً؛ لأن الفعل هو الأصل في العمل، ولذلك لا تجد اسماً يعمل عمل الفعل إلا بشروط، وإذا كان هو الأصل كان تقديره أولى من تقدير الاسم.

وهل نقدره عامّاً أو خاصّاً؟

نقول: نقدره خاصّاً؛ لأن الخاص أدل على المقصود من العام، فالآن نضرب أمثلة إذا قَدَّرْنَا «بسم الله ابتدائي» هذا مخالف للأَوْلَى من وجهين:

الأول: أنَّا قَدَّرْنَاهُ اسماً، **والثاني**: قدرناه عامّاً.

فإذا قلت: «بسم الله أبتدئ»، فهو مخالف من وجه واحد وهو تقديره عامّاً.

وإذا قلت: «بسم الله قراءتي»، فهو مخالف من وجه واحد وهو أنك قدرته اسماً.

وإذا قلت: «بسم الله أقرأ»، فهذا أحسن التقديرات؛ لأنه فعل، ومتأخر، وخاص فهو أدل، والدليل أنك تقدر الخاص الحديث «**من لم يذبح فليذبح بسم الله**»[1]. هذا يدل على أنك تقدر الفعل الخاص المناسب.

فعند الوضوء التقدير: «بسم الله أتوضأ»، وعند القراءة التقدير: «بسم الله أقرأ»، وعند الكتابة التقدير «بسم الله أكتب».

واسم الله، «اسم» مفرد مضاف إلى الله عزّ وجل، فيقتضي البداءة بكل اسم من أسماء الله، فأنت إذا قلت: بسم الله؛ كأنما قلت: بكل اسم من أسماء الله.

و«الله» كلمةٌ عظيمةٌ جداً، عَلَمٌ على الله جل وعلا لا يسمى به غيره، لا في الجاهلية، ولا في الإسلام، وهو أصلٌ لجميع الأسماء، ولهذا لا تأتي الأسماء إلا بعده تابعة له؛ لأنه الأصلُ.

فإن قال قائل: ما حكم البداءة بـ «بسم الله» في أثناء السورة؟

الجواب: ذكر بعض أهل العلم أن البداءة ببسم الله في أثناء السورة سُنَّة، يعني مستحبة، والصواب: أنها ليست مستحبة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨]، فمثلاً إذا قلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فقد زدت، إنما تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فقط.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب: كلام الإمام والناس في خطبة العيد إذا سئل (٩٨٥)، ومسلم كتاب الأضاحي، باب وقتها (١٩٦٠).

فإذا **قال**: أليس هذا فعلاً، وينبغي أن أبدأ كل فعل بالبسملة؟ قلنا: إذا قلت هذا فقل: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فالصحيح أنه لا يستحب البداءة بها، ولذا ينبه على الطلاب في المدارس لئلا يتخذوها سُنَّة.

قوله: **(الرحمٰن)** مشتق من الرحمة، ولكنه على صيغة فعلان، وهذه الصيغة تدل على السعة والامتلاء، فيكون معناه: أنه ذو رحمة واسعة، ولهذا فسرها بعضهم: بأن الرحمٰن ذو الرحمة العامة، ولكن الصواب: أنه ذو الرحمة الواسعة، يرحم من شاء عزّ وجل، فهي أدل على الوصف منها على الفعل.

وقوله: **(الرحيم)** صيغة مبالغة من الرحمة أيضاً، لكنها أدل على الفعل منها على الوصف، فسبقتِ (الرحمٰن)؛ لأنها وصف، وأتت (الرحيم)؛ لأنها فعل، فهو رحمٰن يرحم ـ عزّ وجل ـ، وقد ذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ: **أنه رحيمٌ بالمؤمنين**، والمراد الرحمة الخاصة.

وقسم العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ الرحمة إلى قسمين: عامة وخاصة.

فأما الرحمة العامة: فهي الشاملة لجميع الخلق، المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والصغير والكبير، والبهيم والعاقل، فكل الخلق تحت رحمة الله ـ عزّ وجل ـ، لا يشذ أحد عن هذه الرحمة العامة.

وأما الرحمة الخاصة: فهي التي تختص بالمؤمنين.

والفرق بينهما أن الرحمة الخاصة تتصل برحمة الآخرة، فيكون لله عزّ وجل على المؤمنين رحمة في الدنيا ورحمة في الآخرة، أما الرحمة العامة فلا أثر لها إلا في الدنيا، ولذلك

نقول: الكفار في الآخرة يعاملون بالعدل لا يعاملون بالرحمة، أيضاً البهائم وغير العاقل يعاملون بالعدل؛ لأن الله يقضي بين البهائم، ثم يأمرهن أن يكنّ تراباً فيكنّ تراباً ولا نعيم.

وذِكْرُ هذين الاسمين الكريمين عند البسملة التي تتقدم فِعْلَ العبد وقوله إشارةٌ إلى أن الله إذا لم يرحمك فلن تستفيد من هذا الفعل، ولا من هذا القول، ولهذا قال النبي ـ ﷺ ـ: «**لن يدخل أحد الجنة بعمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**»[1].

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١].

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (أل) هنا للاستغراق، أي: جميع الحمد من كل وجه ثابت لله ـ عزّ وجل ـ، و(اللام) في قوله: (لله): إما للاختصاص، وإما للاستحقاق، ولا تنافي بين المعنيين، وعلى هذا فتكون للاستحقاق والاختصاص؛ لأن (أل) في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ للعموم، ولا أحد يستحق الحمد على العموم إلا الله ـ عزّ وجل ـ.

ولكن ما هو الحمد؟

كثير من الناس يفسرون الحمد بالثناء على الله بالجميل الاختياري، ولكن هذا ليس بصحيح؛ لأن الثناء هو تكرار

---

(١) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب: تمني المريض الموت (٥٦٧٣)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله (٢٨١٦).

الحمد، والدليل على هذا قوله: ـ تبارك وتعالى ـ في الحديث القدسي: «**إذا قال العبد** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة]، قال الله: حَمِدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة] قال: أثنى عليَّ»[1]، وهذا يدل على أن الثناء هو تكرار الوصف الكامل، والاشتقاق يدل عليه؛ لأن الثناء: من الثني، وهو إعادة الشيء، أو رد الشيء بعضه إلى بعض.

وأما قولهم: «على الجميل الاختياري» فهو بالنسبة لله ـ عزّ وجل ـ غير صحيح؛ لأن الله يحمد على ما يفعله ـ عزّ وجل ـ، وهو يختار ما يشاء، ويحمد على كمال صفاته اللازمة التي لا تتعدى إلى أحد، فهو محمود على كمال حياته، ومحمود على كمال قيوميته، **الأول**: وصف لازم، **والثاني**: وصف متعدٍ ولازم أيضاً.

فالصواب: أن حمد الله يكون على أفعاله التي يختارها، وعلى صفاته الكاملة اللازمة له، فهو ـ جل وعلا ـ مستحق بأن يحمد، والحمد الكامل مختص به.

فبماذا نُعرِّف الحمد؟

نقول: (الحمدُ وصفُ المحمود بالكمال ـ اللازم والمتعدي ـ حباً وتعظيماً)؛ فقد تصف شخصاً ما بالكمال لا محبة له لكن رجاء لما سيجازيك به، وقد تحبه وقد تمدحه لا على سبيل المحبة والتعظيم ولكن خوفاً من شره، وكذلك قد يمدح الرجل سلطاناً، أو وزيراً أو ما أشبه ذلك لا محبة له ولا تعظيماً، لكن يرجو نواله، أو يخاف منه.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦).

أما الحمد فلا بد أن يُقيَّد بأنه على وجه المحبة والتعظيم، فإن لم يكن على وجه المحبة والتعظيم فهو مدح.

وانظر إلى عمق اللغة العربية كيف فَرَّقَتْ بين (حَمِدَ، ومَدَحَ) مع تساويهما في الحروف نوعاً وعدداً، الحروف ثلاثة، هذا العدد، والنوع نفس الحروف (حاء، ميم، دال)، لكن اختلف الترتيب في الحروف «حَمِدَ» «ومَدَحَ»، ولاختلافهما في الترتيب اختلف معناهما، والنسبة بينهما الخصوص والعموم فكلُّ حمدٍ مدحٌ، وليسَ كلُّ مدحٍ حمداً؛ لأن الحمد ـ كما تقدم ـ لا بد أن يكون على وجه المحبَّة، والتعظيم، والمدحُ بخلاف ذلك.

وقد ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ الفروق بينهما في كتابه «بدائع الفوائد»، وهذا الكتاب حَثَّنَا عليه شيخُنا عبد الرحمٰن السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ حين الطلب، وقال: إنه كتاب عظيم. وهو كذلك؛ يشبهه من بعض الوجوه كتابَ **«صيدِ الخاطر»** لابن الجوزي، لكن من حيث العمق والمعنى والفائدة لا سواء، ولا مقارنة، فهو ـ رحمه الله ـ بيَّن بياناً واضحاً الفروق بين الحمد والمدح، وبحث هذا المبحث حتى أنضجه طبخاً، وقال: إن شيخنا ـ يعني: ابن تيمية ـ رحمه الله ـ كان إذا بحث في مثل هذه الأمور أتى بالعجب العجاب[1] ولكنه كما قيل:

تَأَلَّقَ البَرْقُ نَجْدِيّاً فَقُلْتُ لَهُ إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ

لأن شيخ الإسلام ليس عنده التفرغ لكي يتكلم في مثل هذه الأمور، فهو يتكلم بما هو أعظم. وقد جمع أحدُ الطلاب ـ وهو أخونا: **فريد بن عبد العزيز الزامل** ـ المباحثَ النحويةَ التي تكلم

---

(١) بدائع الفوائد (١/١١٦)، طبعة مكتبة نزار مصطفى الباز.

عليها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ، وهذا طيب، جمعها في رسالة لكنها لم تُطْبَعْ بَعْدُ.

وقد تقدم لنا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم» على مثل هذا النوع لما تكلم على قوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة: ٦٩]. بحث ـ رحمه الله تعالى ـ بحثاً لا تجده في أي كتاب.

والخلاصة أن «الحمد» هو وصف المحمود بالكمال على وجه المحبة والتعظيم (لله) وتقدم أن اللام للاستحقاق والاختصاص، أي: لا أحد يستحق الحمد كله من كل وجه إلا الله ـ عزّ وجل ـ، وهذا الحمد المذكور خاص بالله ـ عزّ وجل ـ فهو ـ جل وعلا ـ مستحق لأن يُحمد، فالحمد الكامل مختص به.

أما (الله) فهو عَلَمٌ على الله ـ عزّ وجل ـ، والتعبير بها أحسن من التعبير بغيرها، بعض الناس الآن يعبر فيقول: قال الحق كذا وكذا، هذا صحيح، فإن الله هو الحق المبين، لكن اجعل عبارتك على عبارة السلف، فهم يقولون: قال الله، أو يقولون: قال ربنا، أما (قال الحق) فهذه يأتي بها الإنسان لأجل أن يفتح الأذهان، حيث إن الإنسان السامع يقول: مَن هذا الحق؟ لكن نقول: (قال الله) التي بُنيت عليها الألوهية والعبادة أحسن، لكن لا بأس أن تقول: قال ربنا، أو قال ربكم، كما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول لأصحابه أحياناً: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟**»[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب: يستقبل الإمام الناس إذا سلم (٨٤٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء (٧١).

(الله) مشتقة من الألوهية، وأَلِه، بمعنى: تعبد وليست بمعنى تحيّر كما زعمه بعضهم؛ لأن الإنسان إذا قال: الله، لا يجد تحيراً بل يجد ربّاً معروفاً ـ عزّ وجل ـ، لا حيرة فيه، يقولون: أصلها الإله، لكن حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، وقالوا: إن نظيرها (الناس)، وأصلها: الأُناس، وكلمة (خير) أصلها: أخير، و(شر) أصلها: أشر.

وهل هو مشتق أو جامد؟ الصواب أنه مشتق، وأنه لا يوجد اسم من أسماء الله، ولا من أسماء الرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، ولا من أسماء القرآن، يكون جامداً أبداً؛ لأن الجامد معناه: أنه لا معنى له إلا الدلالة على المعين فقط؛ لأن العَلَمَ كما قال ابن مالك ـ رحمه الله ـ:

اسمٌ يُعَيِّنُ المُسَمَّى مُطْلَقاً عَلَمُهُ كَجَعْفَرٍ وخِرْنَقا[1]

فلو قلنا: إن أسماء الله، أو أسماء الرسول، أو أسماء الكتاب العزيز جامدة فمعنى ذلك: أنها لا تدل إلا على تعيين المسمى فقط، ولكن نقول هي مشتقة، تدل على تعيين المسمى، وعلى المعنى الذي اشتقت منه، «فالله» مشتق من الإله أو الألوهية، وهي التعبد لله ـ عزّ وجل ـ.

قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ (الذي): وصف للفظ الجلالة.

وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: أوجدها على تقدير محكم؛ لأن الخلق في اللغة أصله: هو التقدير، كما قال الشاعر:

---

(١) البيت رقم (٧٢) من الألفية.

ولأنتَ تَفْري ما خلقتَ وَبَعْـ ـضُ الناسِ يخلقُ ثم لا يَفْري[١]

(يفري)، يعني: يفعل، (تفري ما خلقت): يعني: ما قدرته ولا يمنعك أحد، فالخلق هو الإيجاد على وجه التقدير المحكم.

وقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ (السماوات) مفعول (خَلَق)، ولا مانع من أن نقول: إنها مفعول، خلافاً لمن قال: إنها لا تصح أن تكون مفعولاً؛ لأن المفعول لا بد أن يرد الفعل عليه وهو موجود، وخَلْقُ السماوات والأرض ورد عليها قبل أن تخلق، ولكن نقول هذا تكلف، والصواب الذي عليه أكثر المعربين أن (السماوات): مفعول به.

وهي من سما يسمو إذا علا، وقد بَيَّن الله تعالى: أنها سبع، وأنها طباق، وأنها شداد، وأنها مبنية بأَيْدٍ، أي: بقوة

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ معطوفة على السماوات، وهي لفظ مفرد لكنه لا يمنع التعدد إذا ثبت أنها متعددة، ولينتبه لهذا القيد فلو لم يثبت أنها متعددة لقلنا إنها واحدة، هذا مقتضى اللفظ، لكن نقول: إن المراد بها الجنس، وحينئذ لا ينافي التعدد، وهي متعددة بدلالة ظاهر القرآن وصريح السُّنَّة.

أما ظاهر القرآن فقد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، أي: في العدد، ولا يمكن أن **يقول قائل**: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ في الكيفية والصفة؛ لأن الفرق بين السماء والأرض واضح، فيتعين أن يكون المراد العدد، وهو كذلك.

أما السُّنَّة فصريحة قال النبي ﷺ: «**من اقتطع شبراً من**

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه (ص٨٢).

الأرض ظلماً طَوَّقَهُ الله إياه يوم القيامة من سبع أراضين»[١]، فصار المراد بالأرض الجنس، فلا ينافي التعدد.

قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ (جعل)، بمعنى: خلق؛ ولكن إذا كانت بمعنى خلق فما هي الحكمة بأن عُبِّر عن الخلق بالجعل، قيل: إن الحكمة هي التفنن في العبارة، يعني: تغيير اللفظ مع اتحاد المعنى، وأحياناً يكون هذا من البلاغة، وقيل: إن الحكمة من ذلك أن النور لا يمكن أن يقوم إلا بغيره مثل نور الشمس فهو لا يمكن أن يتبين إلا إذا كان هناك جسم قابل له، ولذلك ما بيننا وبين الشمس ظلمة ليس هناك نور؛ لأن النور لا يمكن أن يظهر أثره إلا أن يكون مُقَابَلاً بجسم، ونجد الآن الفرق بين أن تقابل الشمس جسماً قابلاً للحرارة وجسماً غير قابل، أو تقابل جسماً قابلاً لنصاعة البياض وجسماً غير قابل؛ لأن النور لا يمكن أن يكون قائماً بنفسه، ولا يتبين إلا إذا كان منعكساً على جسم، فهذه هي الحكمة من قوله: ﴿وَجَعَلَ﴾.

وحكمة أخرى أن الظلمات والنور تكون حسية ومعنوية فظلمة الليل حسية، وظلمة الجهل معنوية، كذلك النور، فنور النهار حسي، ونور العلم والإيمان معنوي، ومن نور العلم والإيمان استنارة القلب بكلام الله ـ عزّ وجل ـ، وكلام الله تعالى غير مخلوق، مع أن القرآن يسمى نوراً كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ [النساء: ١٧٤]، فلذلك عبر الله ـ عزّ وجل ـ بالجعل؛ لأنه يتعلق بالمخلوق وغير المخلوق.

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساقاة، باب: تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها (١٦١٠).

قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (ثم) حرف عطف يفيد العطف والتراخي، وإن شئت فقل: يفيد الترتيب والتراخي، فيكون معنى الآية: (ثم مع ظهور الآيات، ومع ظهور هذا الأمر وهو خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور مع هذا الذين كفروا بربهم يعدلون)، ولا شك أن كفر الكافرين مع ظهور الآيات أشد في اللوم والتوبيخ ممن ليسوا كذلك.

وقوله: ﴿كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾:

هل الجار والمجرور (بربهم) متعلق بـ (كفروا)، أو متعلق بـ (يعدلون)؟ يحتمل التركيب أن يكون قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، أي: يعدلون به غيره. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ منفصل عن قوله: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، ويكون الذين كفروا يعدلون بربهم، أي: يجعلون غير الله معادلاً لله تبارك وتعالى، والأولى أن يكون متعلقاً بـ ﴿يَعْدِلُونَ﴾؛ لأن هذا هو المعنى المطابق، أما الذين كفروا فمعروف أن المراد كفروا بربهم، وإنما قُدِّمَ على عامله مراعاة لفواصل الآيات؛ لأن الفواصل إذا جاءت متناسقة فإن ذلك يكون ألذ للسمع، وأقبل للنفس، وأتى بـ (ثم) الدالة على التراخي، يعني: أنهم بعد أن تأملوا ونظروا وعلموا كفروا ـ والعياذ بالله ـ وعدلوا به غيره، فجعلوا له أنداداً.

من فوائد الآيات الكريمة:

الفائدة الأولى: ثناء الله على نفسه بل حَمْدُ الله تعالى نفسه أَنْ خلق السماوات والأرض، وهذا حمد عند ابتداء الخلق، أي: خلق السماوات والأرض وهناك حمد آخر عند انتهاء الحمد كما

في آخر سورة الزمر، حيث قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧٥]. (قيل): أي: قاله كل العالم (الحمد لله رب العالمين).

وحمِدَ نفسه ـ تبارك وتعالى ـ على كبريائه وعظمته وتنزهه من كل عيب ونقص فقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١].

وحَمِدَ نفسه ـ تبارك وتعالى ـ على إنزال القرآن الكريم فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ١، ٢].

فالله تعالى يحمد نفسه عند الأمور العظيمة؛ لأن هذه الأمور العظيمة توجب للعبد المتأمل أن يحمد الله ـ عزّ وجل ـ على كمال صفاته وعلى كمال إفضاله وإنعامه.

الفائدة الثانية: أن خالق السماوات والأرض هو الله ـ عزّ وجل ـ لقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، ولا أحد ادعى أنه يخلق السماوات والأرض، حتى المشركون لو سئلوا من خلق السماوات والأرض؟ لقالوا: الله.

الفائدة الثالثة: أن السماوات مخلوقة وليست أزلية لقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، فيكون في ذلك رد على الفلاسفة الذين قالوا بِقِدَمِ هذا العالم وأنه أزلي، فإن قولهم هذا مردود بالكتاب والسُّنَّة، وإجماع المسلمين.

الفائدة الرابعة: أن السماوات جمع؛ لأنها جمعت، وعددها سبع سموات بنص القرآن الكريم.

الفائدة الخامسة: التفريق بين ذكر السماوات والأرض، حيث تذكر السماوات جمعاً والأرض مفردة وذلك؛ لأن السماوات أعظم من الأرض بكثير لا من جهة ارتفاعها ولا سعتها، وكلّ ما في السماوات، فهو أعظم مما في الأرض قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات ٢٧، ٢٨]، إلى آخر الآيات.

الفائدة السادسة: أنه قد يُعبر بالمفرد ويراد به الجنس فيعم ما كان زائداً على المفرد لقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾.

الفائدة السابعة: أن من مَلَكَ ظاهر الأرض فقد مَلَكَ أسفلها، حتى لا يقال: إنه ليس لك إلا أرض واحدة فلا تملك الأرض إلى تخومها، وقد قرر هذا العلماء ـ رحمهم الله ـ فقالوا: إن مالك الأرض يملكها إلى الأرض السابعة، وعلى هذا دل الحديث: أن النبي ﷺ قال: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أراضين**»[1].

الفائدة الثامنة: التعبير المُختلِف بين خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور.

فإن لقائل أن يقول: لماذا اختلف التعبير، هل هو مجرد اختلاف لفظ أو هناك فرق؟

لننظر (جعل) تأتي بمعنى خلق. ويدل لهذا قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]،

---

(١) سبق تخريجه في (ص١٥).

فدل ذلك على أن (خَلَق) و(جَعَلَ) معناهما واحد، وعلى هذا فيكون التفريق هنا لمجرد اختلاف اللفظ فقط.

وقيل: بينهما فرق، فالخلق إنشاء لذات المخلوق وأصله، والظلمات وصف للمخلوق، وكذلك النور، ولهذا لا تجد للنور جسماً يشاهد أبداً، انظر إلى النور لا يظهر إلا على سطح، أما في الفضاء فلا يظهر النور وما نشاهده أحياناً من السهم الأبيض إذا ضربنا بشيء له قوة نفوذ في الضوء ليس هذا نوراً، لكنه انعكاس لذرات صغيرة في الفضاء. فلما كان النور والظلمة ليسا شيئاً محسوساً وإنما يظهران في غيرهما، عبَّر عنها بكلمة (جعل)، وهذا لا شك أنه أبلغ من أن نقول: إنه ليس بينهما فرق، وإنما اختلف اللفظ فقط.

الفائدة التاسعة: ما يحصل من جمع الظلمات وإفراد النور، بعضهم قال: إن النور أفرد؛ لأنه شيء واحد، فالنور نور، والظلمات جمعت؛ لأنها تختلف باختلاف الجرم الذي حصلت به الظلمة، فمثلاً لو كان معك زجاجة مشمعة، وجعلتها بين اللمبة وبين الأرض صار هناك ظلمة لكنها خفيفة، وإذا جعلت شيئاً ثخيناً صار ظلمة سوداء بيِّنة، فلذلك جمعت الظلمات من أجل أن الظلمة تختلف بحسب الجسم الذي أوجدها، أو الذي وجدت به.

وبعضهم قال؛ لأن الظلمات هي الأصل والنور طارئ عليها، والظلمات معروف أنها تختلف، فمثلاً الظلمات في وقتٍ تكون السماء فيه ملبدة بالغيوم، ليس كما إذا كانت السماء صحواً، والظلمات في قاع البحر ليست كالظلمات في سطح البحر، وهلم جرا هذا إذا قلنا أن المراد بالظلمات والنور ما كان

حسياً منهما، أما إذا قلنا ـ وهو الصحيح ـ إنه يشمل الظلمات الحسية والمعنوية، وكذلك النور الحسي، والمعنوي فالأمر ظاهر؛ لأن شُعَبَ الكفر كثيرة، والإيمانَ شيء واحد، وفروعه مجرد فروع، وإلا فإن أصله ثابت وصراط الله تعالى واحد، والطرق الأخرى متعددة، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

الفائدة العاشرة: سفه الكفار، وأنهم لا عقول لهم، وجهه أنه بعد ظهور هذه الآيات العظيمة، عدلوا بالله ـ عزّ وجل ـ، وجعلوا له عديلاً ونداً، وهذا يدل على سفههم وإن كانوا أذكياء، ويؤيد هذا قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وبأن الله تعالى دائماً ينعى على الكفار فقدهم العقل؛ كقوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ والآيات في هذا كثيرة، وهذا هو الحق أن الكفار ليسوا عقلاء، والمراد بنفي العقل هنا نفي عقل التصرف، لا عقل الإدراك فهم عقلاء من جهة الإدراك، ولهذا تلزمهم الطاعات ويلزمهم الإسلام، لكنهم ليسوا عقلاء من حيث التصرف، بل هم سفهاء، وما أحسن ما قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ عن المتكلمين قال: إنهم أوتوا فهوماً، ولم يؤتوا علوماً، وأوتوا ذكاء، ولم يؤتوا زكاء[1] فهم عندهم فَهم لكن ليس عندهم علم، يعني: بالشريعة، وعندهم إدراك لكِن ليس عندهم عقل.

الفائدة الحادية عشرة: أن ربوبية الله تعالى عامة للمؤمن

---

(١) الفتوى الحموية الكبرى (ص٥٥٦) طبعة دار الأصمعي، ومجموع الفتاوى (٧١/١٢٣) طبعة مجمع الملك فهد.

والكافر لقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، فجعل سبحانه وتعالىٰ نفسه رباً لهؤلاء ولا إشكال في ذلك، فهذه هي الربوبية العامة، وهناك ربوبية خاصة بالمؤمنين تقتضي الكلاءة والعناية والحفظ والتربية، وقد اجتمع النوعان في قول سحرة فرعون: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]، فالأولى عامة، والثانية خاصة.

❁ ❁ ❁

□ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنعام: ٢].

لما ذكر خلق السماوات والأرض ثنّى بخلقنا نحن فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، والطين هو: التراب المبلول بالماء، أو المخلوط بالماء، وهو معروف؛ وذلك بخلق أصلنا وهو آدم، أما الإنسان فقد خُلِق من ماء مهين، من النطفة، لكن آدم خُلِق من طين.

قوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾، أي: قدّر أجلاً انقضى وانتهى.

قوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾، أي: معلوم عند الله، وهنا الأفضل أن نقف على قوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ ولا نصل؛ لأن الوصل قد يُشْعِرُ بالتناقض، وَجْهُه: أن الأول منصوب (أجلاً)، والثاني مرفوع (وأجلٌ)، والحكم أيضاً مختلف، كما يتبين إن شاء الله في الفوائد.

وقوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾، أي: عند الله وهو قيام الساعة، فإن هذا مما يختص الله به ـ عزّ وجل ـ قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾

[الأعراف: ١٨٧] هذا علمه عند الله، لا أحد يعلمه، ولا أحد يعلم عن انقضائه، أما الأجل الأول فنحن نعرف انقضاءه إذا وجدنا الرجل أنشأه الله ثم أماته، فقد قضى الله أجله، لكن الأجل المسمى المعلوم عند الله ـ عزّ وجل ـ، فهذا يختص الله بعلمه.

قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، أي: بعد أن عرفتم أنكم خلقتم من طين وأن الآجال تنقضي بعلم منكم، وأجل آخر غير معلوم، بعد هذا ﴿تَمْتَرُونَ﴾، والامتراء: هو الشك، أي: تشكون في البعث، فانظر كيف ذكر الله ـ عزّ وجل ـ في الآية الأولى شرك هؤلاء الكفار بربهم، ثم ذكر نوعاً آخر وهو الكفر باليوم الآخر؛ لأن الشك بما يجب فيه اليقين كفر.

من فوائد الآيات الكريمة:

الفائدة الأولى: أن بني آدم حادثون بعد أن لم يكونوا؛ لقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾. وقد قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١]. (هل): بمعنى: (قد)، فمَنْ عُمْرُه عشرون سنة هو قبل إحدى وعشرين سنة لم يكن شيئاً مذكوراً، فأوجده الله، ففيه دليل على حدوث بني آدم وأنهم مخلوقون من العدم.

الفائدة الثانية: الإشارة إلى أصل بني آدم وأنهم من الطين، والطين من الأرض، وقد قال الله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥].

فإن قال قائل: ما الجمع بين قوله تعالى في هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ [الطارق: ٥، ٦]؟

الجواب: الطين باعتبار الأصل، والماء الدافق باعتبار الفرع المتولد من الأصل.

لو قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية وبين قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١]؟

فالجمع بينهما أن أصل بني آدم تراب صُبَّ عليه الماء فصار طيناً، ثم بقي زمناً، أي: مدة طويلة حتى صار صلصالاً؛ لأنه صار أسود، وإذا صنع منه الشيء صار صلصالاً له صوت، أي: إذا ضربته بإصبعك صار له صوت فلا خلاف، ولا تناقض.

واعلم أنه لا يمكن أن يقع التناقض بين دليلين قطعيين أبداً؛ لأنه لو وجد التعارض بينهما لم يكونا قطعيين؛ لأن القطعي، يعني: أن غيره لا يمكن، فلا يمكن التعارض بين دليلين قطعيين أبداً لا في القرآن، ولا في السُّنَّة، ولا فيما بين القرآن والسُّنَّة، ولا بين الأدلة العقلية وَالنقلية؛ لأنه لو تصورنا هذا فأحدهما قطعاً غير صحيح، إذ إن الدليلين القطعيين لا تكون النسبة بينهما التناقض، فالنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، لا بد من وجود أحدهما، ولا يمكن أن يجتمعا جميعاً ولا أن يرتفعا جميعاً، فإذا ترائى لك التعارض بين دليلين قطعيين فاعلم أن الخطأ من فهمك، وأنه يمكن الجمع بينهما، وإلا لا يكون أحدهما قطعياً، فيكون الحكم للقطعي، أما إذا كانا ظنيين فيمكن التعارض، وحينئذ ينظر للترجيح، فإذا كان في القرآن ما ظاهره التعارض على وجه قطعي فاعلم أن هذا لا يمكن أبداً، فإما أن تكون الدلالة غير قطعية، وإما أن يكون الحكم منسوخاً، أما أن يبقى الحكم والدلالة قطعية في الآيتين مثلاً فإن ذلك لا يمكن.

الفائدة الثالثة: أن الحكم لله ـ عزّ وجل ـ وحده لقوله: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾، ولا أحد يغيّر في هذه الآجال.

الفائدة الرابعة: أن من مات مقتولاً فقد مات بأجله الذي قدره الله له؛ لأن الله قضاه ولا يقال: (لولا أنه قتل لم يمت) هذا مستحيل؛ لأن الله قضى أن يموت بالقتل، فهو مقتول بأجل.

لو قال قائل: لولا أن هذا الرجل قتل مثلاً الساعة الثانية عشرة من النهار لأمكن أن يتغدى الساعة الواحدة فنقول: لا يمكن أبداً؛ لأن الله قضى هذا فلا بد أن يكون، فكل ميت ميت بأجله المقدر له، لا يتقدم ولا يتأخر، لكن السبب قد يتقدم وقد يتأخر بحسب نظر الإنسان، كما أن طول العمر بصلة الرحم أيضاً مقضيٌّ[1]، لا يمكن أن نقول لو كان هذا عاقّاً لمات قبل أن يموت إذا كان واصلاً؛ لأننا نقول: إن الله قدر أن يكون واصلاً وأن يتأخر عمره، قضى الله أجلاً ولا يمكن أن يتأخر.

الفائدة الخامسة: أن الأجل المعلوم الذي هو الساعة عند الله لا أحد يصل إلى العلم به، وهذا أمر متفق عليه بين المسلمين، حتى إن جبريلَ سألَ النبي ﷺ ـ وجبريل أفضل الملائكة، ومحمد أفضل البشر ـ عن الساعة فقال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل[2]، فإذا كان هذان الرسولان الكريمان لا يعلمان متى الساعة، فَمَنْ دُونَهما من باب أولى.

---

(١) لقول النبي ﷺ: «**من أحب أن يُبسَط له في رزقه ونسيئاً له في أثره فليصل رحمه**»، أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب: من بُسطَ له في الرزق بصلة الرحم، رقم (٥٩٨٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب: صلة الرحم وتحريها قطيعتها، رقم (٢٥٥٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٨).

الفائدة السادسة: النداء بالبلاهة والغفلة لأولئك القوم الذين عرفوا أصلهم ومنشأهم ثم يمترون، ويشكون في الأجل المسمى عند الله وهو يوم القيامة، ففي سورة الجاثية احتج الذين ينكرون البعث وقالوا: ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥]، فماذا نقول في هذه الدعوى؟ نقول غير صحيحة؛ لأن الذين أخبروا بالقيامة لم يقولوا: يبعثون الآن، ولكن هذا من باب التشبيه الذي يقصد به إضلال الخلق.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنعام: ٣].

قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ (الله) عَلَمٌ على الرب ـ عزّ وجل ـ، لا يكون لغيره، وهذا متفق عليه بين المسلمين، وهو علم مشتق من الألوهية، وأصله الإلـٰه، واعلم أن جميع أسماء الله مشتقة كما هو ظاهر، فليس هناك اسم، جامد لله ـ عزّ وجل ـ أبداً.

وقوله: في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ متعلقة بالاسم؛ لأننا قلنا: إن هذا الاسم مشتق، والمشتق يجوز التعلق به كما قال ناظم قواعد الإعراب:

لا بُدَّ للجارِّ من التَّعَلُّقِ بفعلٍ أو معناهُ نحو مُرْتَقِي

إذاً ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ متعلقة بلفظ الجلالة؛ لأنه مشتق، والمشتق يجوز تعلق الجار والمجرور به، لكن ما معنى قوله تعالى: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ المعنى: أنه على السماوات، وليس المراد أنه فيها وهي محيطة به؛ لأن هذا مستحيل، والله تعالى أكبر من كل شيء، أو نقول: إن المراد المعنى ليس الذات، بمعنى أنه مألوه في السماوات، يتأله إليه أهل السماء.

وقوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ الواو حرف عطف، والأرض معطوفة على السماوات، فيكون المعنى: الله في السماوات وفي الأرض، أي: مألوه في السماوات وفي الأرض، فتكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وعلى هذا التفسير لا إشكال فيها.

وذهب بعضهم إلى أن الآية فيها وقف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وهذا على جَعْل لفظ الجلالة (الله) علماً على الذات دون المتعبد لله، يعني: أن الله في السماوات كقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] ثم استأنف فقال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾، فتكون (في الأرض) متعلقة بما بعدها، أي: بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾.

أما على الوجه الأول، فيكون معنى الآية ظاهراً، أن الله مألوه في السماوات ومألوه في الأرض، كما أنه خالق السماوات والأرض، يراد بذلك إثبات الألوهية في السماوات والأرض، كما ثبتت الربوبية، بمعنى: أن مَن في السماوات يتألهه ومن في الأرض يتألهه، نظيرها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾؛ لأن الخلق من مقتضيات الربوبية، وهذا لا إشكال فيه.

أما على القول الثاني: فيكون المعنى: أن الله ذاته في السماوات لا من يألهه فتكون المناسبة أنه ليس كونه في السماوات مع بُعْدِهَا الشاسع بمانع عن علمه بكم وأنتم في الأرض، فهو في السماوات ومع ذلك في الأرض يعلم سركم وجهركم.

إذاً المعنى الثاني ليس فيه ذكر للألوهية لكن فيه ذكر للإحاطة، أي: إحاطة الله ـ عزّ وجل ـ بنا وإن كان في السماوات وهذا يفسره قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: ١] فقد وقع التحاور في الأرض، والله تعالى في السماء فتكون هذه الآية كالتفسير لقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾.

ولو قال قائل: بعض المبتدعة يقولون: إن الله موجود في كل مكان، ويستدلون بمثل هذه الآية وبقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، وبقوله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[(١)]، فكيف نرد عليهم؟

الجواب: نرد عليهم بكل سهولة. نقول: أنتم الآن اتبعتم المتشابه ـ يعني: أن في الآيات احتمالاً لِما قالوا ـ وتركتم الآيات المحكمات في أن الله تعالى بائن، فوق خلقه فأنتم من القسم الثاني الذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه منه.

لكن لو قيل: ما تقولون في قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ نقول: هي مثل قول الإنسان: فلان أمير في مكة والمدينة، يعني: إمرته ثابتة في مكة والمدينة، وليس المعنى أنه هو نفسه في مكة والمدينة؛ لأن هذا مستحيل. إذاً ألوهية الله في السماوات وفي الأرض، وليس هو في السماوات ولا في الأرض.

أما المعية فنقول: إنها لا تتنافى مع العلو حتى في

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢).

المخلوقات لا تتنافى مع العلو ففي اللغة العربية يقولون: ما زلنا نسير والقمر معنا، أو ما زلنا نسير والقطب معنا، وهو كلام سائغ رائج، فيكون معنى كون الله معنا: أنه مطلع علينا وإن كان بعيداً، فإن كان يمكن اجتماع العلو والمعية في حق المخلوق، فاجتماعها في حق الخالق من باب أولى.

ولو قال قائل: ما حكم عبارة المبتدعة التي تقول: الله موجود في كل الوجود؟

الجواب: حرام؛ أولاً لأن قولهم: (الله موجود في كل الوجود) لا يستقيم إلا إذا أرادوا بالوجود أصل المعنى، أي: أرادوا اسم المفعول فيكون الله موجوداً في كل مكان، وهذا مذهب الحلولية تماماً.

ولو قال قائل: الصوفية يقولون: إن قلتم إن الله مستوٍ على العرش، فأين الله قبل ذلك؟

الجواب: الصحابة سألوا الرسول ﷺ فقال: «**كان في عماء**»[1]، أي: في عمى، والعمى الغيم الخفيف، أو السحاب الخفيف في السماء.

وهؤلاء كلهم الذي يحملهم على هذا هو أنهم ظنوا أن الرب ـ عزّ وجل ـ تحيط به المخلوقات، وأنه مثل الإنسان، لكن لو قدروا الله حق قدره، وعلموا أن الرب ـ عزّ وجل ـ أكبر من كل شيء، ولا يمكن لأحد أن يتصوره، وهنا قال ابن عباس

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة هود (٣١٠٩)، وقال «حسن صحيح»؛ وابن ماجه في: المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية (١٨٢)، والإمام أحمد في مسنده (١٥٧٥٥).

ـ رضي الله عنهما ـ عبارة طيبة قال: «تفكروا في آلاء الله، ولا تتفكروا في ذات الله»[١].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾، أي: ما تسرون، والإسرار: نوعان: إسرار في النفس، وإسرار مع الغير، فمثلاً إذا حدّث الإنسان نفسه بشيء في نفسه، هذا إسرار مع النفس، وإذا حدث غيره سرّاً لا يسمعه من بجانبه، فهذا إسرار مع الغير، ولهذا نسمِّي القراءة في الظهر والعصر ـ مثلاً ـ سرِّية مع أن الإنسان ينطق ويسمع نفسه، ونسمي ما حَدَّث الإنسان به نفسه سرّاً.

إذن: فالسر يشمل المعنيين جميعاً ليعلم ما نسره في نفوسنا ولا نظهره لأحد، وما نخبر به الغير على وجه خفي لا يسمعه الآخرون.

وقوله: ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾، أي: ما تجهرون به وتعلنونه.

قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾، يعني: يعلم كسبكم من خير وشر، ودين ودنيا، وعلم وغيره كل ما يكسب فالله عالم به جل وعلا لا يخفى عليه، نسأل الله أن يعاملنا بعفوه.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن ألوهية الله ثابتة في السماوات والأرض، يألهه من في السماوات ومن في الأرض؛ لقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾.

الفائدة الثانية: أن الله ـ تبارك وتعالى ـ يعلم السر والجهر،

---

(١) أخرجه أبو الشيخ (١/ ٢٤١)، رقم (٢٢)، والطبراني في الأوسط (٦٤٥٦)، واللالكائي في السنة (١/ ١١٩)، رقم (١ ـ ٢).

يعلم ما يسر به الإنسان وما يجهر به، والإسرار تارة يكون إسراراً في النفس، وتارة يكون إسراراً مع الغير بصفة خاصة، والجهر هو الإعلان الذي لا يخفى.

الفائدة الثالثة: عموم علم الله ـ تبارك وتعالى ـ؛ لأن قوله: ﴿سِرَّكُمْ﴾ يشمل كل أحد، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

الفائدة الرابعة: ما يترتب على إيماننا بأن الله يعلم السر والجهر، فإيماننا بهذا يقتضي ألا نخالف أمر الله ـ عزّ وجل ـ، بترك واجب، أو فعل معصية؛ لأننا نعلم أن الله تعالى يعلمنا، ولو لم يثمر العلم هذه الثمرة الجليلة لكان علمنا لا فائدة منه، وليُنتبه لهذه المسألة؛ لأن كثيراً من الناس لا يعتني بالفوائد المسلكية المترتبة على الإيمان بأسماء الله وصفاته، وهذا أمر لا بد منه، هذه هي الثمرة، فإذا علمت أن الله يعلم سرك وجهرك استحييت منه، فلم تترك ما وجب، ولم تفعل ما يحرم.

الفائدتان الخامسة والسادسة: علم الله ـ تبارك وتعالى ـ بما نكسب؛ أي: بما نكسبه من الأعمال، سواء كان كسباً دنيوياً، أو كسباً أخروياً فإن الله تعالى يعلمه ولا يخفى عليه، ويترتب على هذه الفائدة، ألا نكسب شيئاً حَرَّمه الله علينا.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأنعام: ٤]

قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾ (ما): نافية.

وقوله: ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ (من): زائدة إعراباً وليست زائدة معنى؛ لأن لها معنى وهو توكيد النفي، فإنها تُحوِّل النفي الذي يحتمل العموم والخصوص إلى كونه للعموم، فهي تحوّل الجملة المنفية إلى نص في العموم، مثل (لا) النافية للجنس، فإنها نص في العموم؟

فإن أردنا إعرابها قلنا: (مِن): حرف جر زائد إعراباً، و(آية) فاعل (تأتي) مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحرف الزائد، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩] فإن (من): زائدة إعراباً، و(بشير): فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

وقوله: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ (الآية): هي في الأصل العلامة، لكنها هنا أخص من العلامة، لكونها نصاً في الدلالة، فالعلامة قد تكون أقل من ذلك، ولكن الآية نصّ في أنها علامة على ما جاءت من أجله، وآيات الله ـ عزّ وجل ـ تنقسم إلى قسمين: كونية وشرعية كما سيأتي إن شاء الله تعالى في الفوائد.

قوله: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ (من): هنا لبيان الجنس، لقوله: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾؛ لأن الآية قد تكون من عند الله، وقد تكون من عند غيره.

وقوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾، أي: خالقهم ومالكهم ومدبرهم؛ لأن الربوبية تشمل هذه المعاني الثلاثة.

قوله: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿إِلَّا﴾ هذه إثبات للنفي، يعني: ما تأتيهم إلا كانوا عنها معرضين، أي: معرضين عن

تدبرها، وعما تدل عليه، فكأنهم لم يروا الآيات وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

فإن قيل: وهل هم معرضون عنها بوجوههم أو بقلوبهم؟

الجواب: بالجميع فيشمل هذا وهذا، فإذا قيل له: تعالَ انظر آية الله، أعرض ولم ينظر، وقد يرى ولكن يعرض عن التأمل بالقلب؛ لأنه ـ والعياذ بالله ـ محجوب عن الخير، فلا يحب أن يصل إليه.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان عُتو هؤلاء المكذبين، ووجه ذلك أنه لا تأتيهم أي آية إلا كانوا عنها معرضين، وقد طلبت قريش من النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر، أشار إلى القمر فانفلق فرقتين وشاهده الناس[1]، وقد أشار الله إليه في قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١] وهو انشقاق حسي، والمراد بالقمر القمر المشاهد المعروف.

وقد أنكر الفلاسفة وعلماء الفلك أن القمر انشق، وقالوا: لا يمكن؛ لأن الأجرام السماوية لا يمكن فيها التفكك، فهل نقبل قولهم ونرد الأحاديث الصحيحة المشهورة المستفيضة أو نرد قولهم؟

نقول: الواجب على المؤمن أن يرد كل قول يخالف الكتاب والسُّنَّة مهما كان قائله، ـ سبحان الله ـ كيف نقول يستحيل أن

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب: سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية (٣٦٣٧)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: انشقاق القمر (٢٨٠٠).

تتغير الأجرام السماوية، والذي يغيرها هو الله ـ عزّ وجل ـ وهو خالقها، فالله ـ عزّ وجل ـ يفعل ما يشاء! فهو انشقاق حسي للقمر المعلوم الحسي، وليس كما قال علماء الفلك وحرفوا من أجله الكتاب والسُّنَّة، وقالوا: إن أخبار الانشقاق أخبار أحادية تحتمل التأويل أو الرد، وأما تحريفهم القرآن فقالوا معنى انشق القمر، أي: بان نور النبوة، وهذا غلط وليس بصحيح.

فإن قال قائل: قريش رأت هذه الآية والله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قضى بأن من أوتوا الآية التي يطلبونها ولم يؤمنوا أهلكهم فكيف لم يهلك الله قريشاً؟

الجواب: أن الذين يُهلَكون هم الذين يطلبون آية معينة فإذا أوتوا بها وكفروا بها أهلكهم الله؛ لأنهم بذلك يكونون مُتَحدِّين لله ـ عزّ وجل ـ، وأما من يطلب آية عامة وتُعيَّن من قبل الله ـ عزّ وجل ـ فهؤلاء لا يهلكون.

ويحتمل وجهاً آخر أن هذا العموم يجوز أن يخصص فيكون الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لم يهلكهم؛ لأن الأمر كما قال النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ لما جاءه ملك الجبال يقول له: إن شئت أطبقت الأخشبين عليهم ـ وهما الجبلان العظيمان المحيطان بمكة ـ ولكن النبي ﷺ قال: «**لا، أستأني بهم؛ فلعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً**»(١) ويكون عدم إهلاك قريش لما يعلمه ـ جل وعلا ـ من أن هؤلاء سيكون من أصلابهم المخلصون لله المجاهدون في سبيل الله، وقد وقع هذا بلا شك.

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢٣١)، ومسلم، باب: ما لقي النبيُّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٥).

الفائدة الثانية: أن الله سبحانه وتعالىٰ حكيم رحيم، وذلك لكونه يأتي بالآيات للخلق، فإن هذا من الحكمة الواضحة؛ لأنه ليس من المعقول أن يأتي رجل، ويقول للناس إنه رسول ويستبيح دماء من لم يؤمن به وأموالهم وذرياتهم ونساءهم، يعني: بدون أن يكون هناك آية تدل على صدقه، ولهذا قال النبي ﷺ: «**ما من نبي ـ بعثه الله ـ إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر**»[1] هذا من جهة الحكمة.

أما من جهة الرحمة: فإن الله رحم الخلق بكونه إذا أرسل إليهم الرسل آتاهم الآيات الدالة على صدق هؤلاء الرسل، ولو شاء لأرسلهم بدون آيات، ثم من كذب أخذه، لكن تأبى حكمته ورحمته أن يرسل رسلاً بلا آية.

الفائدة الثالثة: إثبات ربوبية الله تعالى للكفار؛ لقوله: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ وهذه هي الربوبية العامة، فربوبية الله ـ عزّ وجل ـ تنقسم إلى: عامة وخاصة، فربوبيته لأوليائه خاصة، ولأعدائه وأوليائه جميعاً عامةٌ، بإزاء ذلك تنقسم العبودية إلى: عامة وخاصة، فالعامة كقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣] والخاصة مثل قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢] وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١] والأمثلة كثيرة.

الفائدة الرابعة: خطر الإعراض عن الآيات، وأنه يخشى

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: كيف نزل الوحي وأول ما نزل (٤٩٨١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (١٥٢).

على من أعرض عن الآيات ألَّا يهتدي لها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ومما يدل على ذلك قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هنا للتعليل، أي: في قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وهذه مسألة خطيرة في الواقع، يجب على طالب العلم أن يجعلها نصب عينيه، إذا كان يمشي في طريق معين، وجاءت النصوص دالة على خلافه، فإن بعض الناس قد يتلكأ ويحاول أن يحرّف النصوص التي تخالف طريقه، وهذا خطر عظيم؛ بل الواجب على المؤمن أن يستسلم للنصوص من حين أن تأتيه، كما كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يفعلون هذا، فبمجرد ما يأمر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بشيء يفعلونه، وبمجرد ما ينهى عن شيء يتركونه، فكون الإنسان يتلكأ أول ما يأتيه الحق خطر عظيم، والآية واضحة في سورة الأنعام، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾، وقال الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: ٤٩].

❁ ❁ ❁

□ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنعام: ٥].

قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ (الفاء) عاطفة و(قد) تفيد التحقيق في الفعل الماضي وهو الأغلب، والأغلب في الفعل المضارع أنها تفيد التقليل؛ كقولهم قد يجود البخيل، وقد يصدق الكاذب،

لكنها قد تأتي للتوكيد مع المضارع، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨]. و(قد) هنا للتوكيد بلا شك، لكنها تفيد الاستمرار، أي: قد يعلم هذا في الحاضر والمستقبل.

و(قد) في ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ للتحقيق.

قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: ما جاءت به الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كله حق؛ لأنه من عند الله، والحق: هو الشيء الثابت، إن كان خبراً فبوقوعه، وإن كان حكماً فبثبوته، وضده الباطل؛ ففي الأخبار الباطل فيها الكذب، وفي الأحكام الباطل فيها ما خالف الشريعة، فالحق ما جاءت به الرسل من أخبار صادقة وأحكام عادلة

قوله: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ (لمّا) بمعنى: حين، أي: حين جاءهم، واعلم أن ﴿لَمَّا﴾ لها معانٍ.

فتأتي بمعنى (حين) فتكون ظرفية كما في الآية.

وتأتي (شرطية) فتشارك (إنْ) في الشرط، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يونس: ٧٦].

وتأتي بمعنى: (إلا) كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ [الطارق: ٤]، يعني: إلا عليها حافظ.

وتأتي (نافية) تجزم الفعل المضارع كما في قول الله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص: ٨].

وتأتي بمعنى: (لم) لكنها تفيد قرب مدخولها فـ (لم) للنفي المطلق أما، (لما) فإنها للنفي، لكنها تفيد قرب مدخولها، تقول مثلا: فلان لم يقم، هذا نفي مطلق، وتقول لمّا يقم فلان، هذا نفي يعني إلى الآن ما قام، لكنه سيقوم عن قرب.

وقوله: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ (لما) نعربها ظرفاً بمعنى (حين)، وفي هذه الحال تكون مبنية؛ لأنها حرف وليست مشابهة للحرف؛ لأن أصل البناء كما تقدم هو مشابهة الاسم للحرف، لكن هذه نفسها حرف فتكون ظرفاً لكنها مبنية على السكون في محل نصب بمعنى حين.

قوله: ﴿فَسَوْفَ﴾ (الفاء): عاطفة، ويحتمل أن تكون للسببية أيضاً، أي: سوف يأتيهم المَخْبَر الذي أُخْبِروا به، والأنباء أتتهم من قبل، فيكون المراد سوف يأتيهم عقوبة الأنباء التي كانوا يستهزئون بها.

قوله: ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أي: يتخذونهم هزواً ولعباً وضحكاً، وكما نعلم جميعاً أن الكفار يتخذون الدين هزواً، كما أنهم يتخذون أهل الدين هزواً أيضاً. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥]، وقال ـ عزّ وجل ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣١]، فقوله: ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يشمل استهزاءهم بالدين، واستهزاءهم بالرسل، وبأتباعهم، بل وبالله ـ عزّ وجل ـ، وسيجدون هذا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن هؤلاء ـ مع تواتر الآيات عليهم ـ كذبوا بالحق، ولم يستجيبوا له، والتكذيب بالحق بعد مجيئه أشد من التكذيب به قبل أن يأتي، بحيث يسمع الإنسان عنه ولكنه لم يتأكد، فإن هذا الذي أتاه الحق وكذب به يكون تكذيبه أعظم.

الفائدة الثانية: أن هذا الحكم لمن قامت عليه الحجة بمجيء الحق إليه، وأما من لم يعرف الحق فإنه على قسمين: تارة يدين بدين الحق لكنَّه لا يعرفه، فيصلي ويزكي ويصوم ويحج لكن يستغيث بالأموات، هذا نقول إننا نحكم بإسلامه إذا لم تقم عليه الحجة.

وتارة يدين بدين الباطل ولا ينتسب لدين الحق: فهو لا يدين بدين الإسلام أصلاً ولم تبلغه الحجة، ولم يدرِ أنه على ضلال، لكنه يدين بدين غير الإسلام فهذا نعامله بأنه كافر، ولهذا لو مات أحد الآن لم تبلغه الدعوة من غير المسلمين فإننا لا نصلي عليه ولا نترحم عليه؛ لأنه يدين بدين غير الإسلام، أما في الآخرة فإن أمره إلى الله ـ عزّ وجل ـ.

ولو كان مسلماً يدين بدين الإسلام ويقول: أشهد أنَّ لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة لكنه يأتي شركاً أكبر لا يدري أنه شرك أكبر فهذا نُعامله معاملة المسلم، نغسله ونكفنه ونصلي عليه وندفنه معنا ما دام لم تقم عليه الحجة.

الفائدة الثالثة: الإشارة إلى أن هؤلاء سوف يمهلون، ولا يأتيهم العذاب لقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

الفائدة الرابعة: أن هؤلاء كذبوا بالحق بعد أن جاءهم، فيكون تكذيبهم أشد قبحاً وأعظم إثماً، وذلك لقيام الحجة عليهم.

الفائدة الخامسة: تهديد هؤلاء بالعذاب لقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

الفائدة السادسة: أن تكذيب هؤلاء مَقْرُونٌ بالاستهزاء لقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. إذ إنهم يسخرون كيف

نُبْعَثُ وقد كنا عظاماً ورفاتاً؟ ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥]

الفائدة السابعة: أن هؤلاء الكفار عندهم عناد ـ والعياذ بالله ـ وذلك أنهم قرنوا كفرهم بالاستهزاء، فلم يسلم الشرع ولا من جاء بالشرع من استهزائهم.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦﴾ [الأنعام: ٦].

قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ الاستفهام هنا داخل على النفي (ألم)، وإذا دخلت الهمزة على النفي صار معناه للتقرير، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: ١٤]، يعني: قد علم من خلق؛ وكما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: ١]، يعني: قد شرحنا لك صدرك، فإذا أتى حرف النفي بعد همزة الاستفهام فهو للتقرير.

وقوله: ﴿يَرَوْا۟﴾ يحتمل أن يراد بالرؤية هنا: الرؤية العلمية أو الرؤية البصرية، فالبلاد التي مروا بها مدمرةً رؤيتها بصرية كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، والبلاد التي لم يروها ولم يمروا بها تكون رؤيتها علمية يتناقلها أهل الأخبار.

وقوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، أي: أتلفنا و(كم) هنا للتكثير يعني أمماً أهلكناهم من قبلهم.

وقوله: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ (القرن) بعضهم حدده بمائة سنة، أو أربعين سنة، وبعضهم حدده فقال: المراد بالقرن القوم الذين يهلكون، مثلاً في خلال سبعين سنة ربما يهلك هؤلاء الموجودون ويخلفهم غيرهم، وعللوا ذلك بقول النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم**»[1] قرنه: هم الصحابة هلكوا في حدود المائة.

قوله: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الضمير يعود على القرن باعتباره جنساً، أي: مكنَّا هؤلاء القرون في الأرض.

قوله: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾، يعني: جعلنا لهم ما يتمكنون به ويثبتون به ما لم نمكن لكم، والسابقون أشد قوة من اللاحقين وأكثر أموالاً وأولاداً، وعمروا الأرض أكثر مما عمروها.

وقوله: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ فيه التفات من الغَيبة إلى الخطاب وهو الحضور، والالتفات يكون من الغيبة إلى الحضور، ومن الحضور إلى الغيبة، ومن الإظهار إلى الإضمار، المهم أَنَّ له أنواعاً، وفائدته تنبيه السامع أو القارئ على ما سيأتي من بعد، وجه ذلك أن الكلام إذا كان على وتيرة واحدة انساب الإنسان معه، لكن إذا اختلف توقف ونظر ما الذي طرأ؟ فيكون هذا الالتفات منبهاً للقارئ والسامع، وهو من أساليب اللغة العربية، والقرآن نزل باللغة العربية.

قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾. المراد بالسماء هنا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب: لا يشهد على جور إذا أُشهد (٢٦٥٢)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ثم الذين يلونهم (٢٥٣٣).

المطر، وعُبِّر عنه بالسماء؛ لأنه ينزل من السماء، وقوله: ﴿مِّدْرَارًا﴾ حال من السماء، أي: حال كونه مدراراً يدر عليهم كلما احتاجت أرضهم إلى الماء نزل.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ (الأنهار) يحتمل أنها أنهار الثلوج التي تتسرب من قمم الجبال، ويحتمل أنها الأودية التي تكون من المطر، وسواء هذا أو هذا لا شك أن الأرض ستكون خصبة وستأكل منها أنعامهم وأنفسهم.

قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾، أي: أتلفناهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ والباء هنا للسببية، أي: بسبب ذنوبهم، والذنوب بمعنى المعاصي.

قوله: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾، أي: خلقنا من جديد، من بعدهم قوماً آخرين، وهل القوم الآخرون عصوا أو أطاعوا؟ منهم من عصى، ومنهم من أطاع، ولكن الله قال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تهديد المكذبين لرسول الله ﷺ أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة، وجه ذلك أن الله قرر أنهم قد رأوا الأمم التي أهلكت من قبل.

الفائدة الثانية: الاستدلال بالأعلى على الأدنى، وجه ذلك أنهم لما كانوا أقوى من هؤلاء، فقد أرسل الله عليهم السماء مدراراً، وجعل الأنهار تجري من تحتهم، ومع ذلك أهلكهم فمن دونهم من باب أولى.

الفائدة الثالثة: بيان عظمة الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وغَيْرَتِه، حيث أهلك أولئك القوم مع ما عندهم من القوة والنَعْمَةِ.

الفائدة الرابعة: أن ما يحصل من النعم، واندفاع النقم، فإنه من الله ـ عزّ وجل ـ لقوله: ﴿مَكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

الفائدة الخامسة: إثبات الأسباب لقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

الفائدة السادسة: أن الذنوب من أسباب الهلاك لكن هل المراد الهلاك الحسي بمعنى أن يموت الناس، أو يفقدوا الأموال، أو ما أشبه ذلك، أو يشمل الهلاك الحسي والمعنوي الذي هو موت القلوب؟ لظاهر أنه كلاهما، يعني: يشمل هذا وهذا؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩] فجعل توليهم من أسباب الذنوب.

الفائدة السابعة: تمام قدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ وسلطانه، حيث يهلك أقواماً وينشئ آخرين؛ لأن الأمر أمره ـ عزّ وجل ـ، والملك ملكه، والسلطان سلطانه، فهو ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يفعل ما يشاء من إهلاك وإنشاء.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام: ٧].

قال تعالى مبيناً عتو هؤلاء المكذبين لرسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، وقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ الخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ و(لو) هنا شرطية بدليل وجود فعل الشرط وجوابه، فعل الشرط ﴿نَزَّلْنَا﴾ وجواب الشرط ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾.

وقوله: ﴿كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ﴾، يعني: كتاباً عادياً يدركه الناس.

قوله: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾، يعني: لم يتخيلوه من بُعْدٍ بل هو بين أيديهم يلمسونه نازلاً من السماء إلى الرسول ﷺ.

فإذا قال قائل: وهل هناك لمس بغير اليد حتى يقول الله - عزّ وجل - ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾؟

فالجواب إن شئت فقل: نعم؛ لأن الإنسان يمس بقدمه، ويمس بلسانه، ويمس بكل أجزاء جلده؛ وإن شئت فقل إن اللمس يكون باليد لكن ذكرت اليدُ هنا من باب التوكيد؛ كقوله - تبارك وتعالى -: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ومعلوم أن الطائر لا يطير إلا بجناح.

قوله: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ هذا جواب الشرط، وفي قوله: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ إظهار في موضع الإضمار لم يقل لقالوا: إشارة إلى فائدتين فائدة متعدية وفائدة لازمة، الفائدة اللازمة هي الحكم عليهم بالكفر، والمتعدية هي أن من قال قولهم فهو كافر.

وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿إِنْ﴾ هنا نافية؛ بدليل قوله: ﴿إِلَّا﴾ فـ (إِنْ) إذا أتت بعدها (إلا) فهي للنفي، وقد تكون للنفي وإن لم تَأتِ بعدها إلا.

و(إنْ) تأتي نافية كما في هذه الآية، وتأتي شرطية مثل قوله تعالى ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وتأتي مخففة من الثقيلة؛ كقوله: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٦٣] أصلها إنَّ هذين لساحران، وتأتي زائدة كما في قول الشاعر:

بني غُدَانَةَ ما إنْ أنتمُ ذَهبٌ لا صريفٌ، ولكن أنتم الخزفُ[(١)]

والتقدير (ما أنتمُ ذهبٌ) لكنها جاءت زائدة، وهذا ليس بغريب، وهو مما يدل على أن اللغة العربية واسعة، خلافاً لمن قال: إنها ضيقة؛ لأن معانيها أكثر من ألفاظها، نقول كون الحرف الواحد أو الكلمة الواحدة تأتي بمعانٍ متعددة هذا يدل على مرونة اللغة العربية، لا على قلة مواردها، ولا شك أنه إذا كانت اللغة مرنة كان ذلك أوسع للمتخاطبين بها وأيسر عليهم.

وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ المشار إليه الكتاب في القرطاس.

وقوله: ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (السحر): كل شيء خفيٍّ يسمى سِحْراً، مأخوذٌ من السَحَر الذي هو آخر الليل، والغالب أن آخر الليل يكون خفياً، الناس لا يخرجون من بيوتهم، فيكون هناك خفاء في الأمور التي تحدث، لكنه في الاصطلاح: هو عبارة عن عُقد ورقى وأدوية تصدر من الساحر بواسطة الشياطين، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ في سورة البقرة: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، يعني: ويعلمونهم ما أنزل على الملكين ببابل ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ﴾، هذان اسمان لملكين ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ولذلك كثيراً ما يكون السحر مرتبطاً بالجن، حتى إن الجني يتكلم ويقول: إني لا أستطيع أن أخرج لأني مسحور، لكن إذا أراد الله ـ عزّ وجل ـ عُثِرَ على السحر وَأُتْلِفَ، ثم برئ المريض.

---

(١) البيت غير معروفٍ قائلهُ، وهو في شواهد شرح الكافية الشافية (١/ ٤٣١)، وخزانة الأدب (٤/ ١١٩)، ومغني اللبيب (ص٣٨).

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى بيّن ظاهر، وذلك؛ لأن (بان) و(أبان) يأتيان بمعنى واحد تقول: (بان الصبحُ) و(أبان الصبح) أبان رباعي وبان ثلاثي، (بان) يقال: بيِّن، و(أبان) يقال: مبين على أن أبان يأتي متعدياً لا بمعنى بان مثل أن تقول: أبان الحقّ، وأبان الأمرَ لي، بمعنى أظهره.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان عناد المكذبين للرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، وجه ذلك: أن الله ذكر أنه لو نُزِّل عليه كتاب في قرطاس ولمسوه بأيديهم لقالوا هذا سحر وليس بصحيح، وجه هذا الاستنتاج ـ مع أنه قد لا يكون من اللائق أن نقول استنتاج فنقول وجه ذكر الله ذلك عنهم ـ؛ أنه أتاهم من الآيات ما يؤمن على مثله البشر ومع ذلك ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر: ٢] فعلم الله من حالهم أنهم لو وصلت بهم الحال إلى هذا وأنزل إليهم كتاباً في قرطاس كما عهدوه ولمسوه بأيديهم قالوا: هذا سحر مبين.

الفائدة الثانية: الإشارة إلى أن الكتاب إذا كان في قرطاس فهو أبين وأظهر، وإلا يمكن أن يكتب على غير القرطاس في لوح من خشب، أو في لوح من عظام، أو في لوح من أحجار، أو في لوح من جريد النخل، كما كان في أول الأمر، لكن القرطاس أثبت وألين وأسهل.

الفائدة الثالثة: أن هؤلاء المكذبين لن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية؛ لأن من أعظم الآيات أن ينزل الكتاب يشاهدونه بقرطاس ويلمسونه ثم ينكرونه، ويفسر هذا قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ

ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [القمر: ٤ ـ ٦]، وهنا تقف على قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [القمر: ٦] ولا تصل؛ لأنك لو وصلت فسد المعنى فصار ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، متى؟ ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: ٦] هذه واحدة، وفي الآية التي بعدها ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾ [القمر: ٩] قف ولا تصل؛ لأنك لو وصلت ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩] صار قوله: ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ من قولهم، وليس كذلك لكن ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ معطوفة على قالوا، أي: قالوا مجنون وازدجروه.

ومثل هذه الأشياء في الواقع يجب أن ينتبه لها الإنسان؛ لأن القرآن الكريم ليس كالكلام الذي نكتبه نحن أو نقوله، نحن نحاول أن يكون الكلام على نسق واحد، لكن في القرآن ـ سبحان الله وهو من إعجازه ـ أنك ترى أحياناً الكلمة ليس بينها وبين الأخرى صلة من أجل أن ينتبه المخاطب أو القارئ ويتأمل ويتفكر، وهذه نقطة لا يحس بها كثير من الناس، تجده يقرأ قراءة مرسلة ولا ينتبه للمواقف، ونحن تعلمنا هذا من شيخنا عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله ـ كان يقوم بنا في رمضان التراويح والقيام، ويقف المواقف اللائقة فتتعجب كيف هذا؟ وكنا قبل ذلك نقرأ القرآن مرسلاً ولا نلتفت للمعنى، حتى إن قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون: ٤، ٥] تقف على ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾﴾

لأن الله جعلها موقفاً فإذا قلت: سبحان الله، كيف نقف على قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ قال الشاعر الملحد:

ما قالَ رَبُّكَ ويلٌ للأُلى سَكِرُوا بَلْ قالَ رَبُّكَ: وَيْلٌ للمُصَلِّينا

نقول قال ذلك لأنه ملحد لم يقرأ الآية الثانية، فالوقف على قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ [الماعون: ٤] فيه فائدة، قد لا تظهر لبعض الناس؛ لأنه إذا سمع القارئ يقرأ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ ووقف تجده يشوش كيف يكون الويل للمصلين؟ ثم تأتي الآية التي بعدها ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون: ٥]، فتكون كأنها الغيث نزل على أرض يابسة، وهذا هو السر في أن الأَوْلَى إذا أمكن أن تقف على كل آية ولو تعلق ما بعدها بها.

لو قال قائل: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥]، هل نقف على قوله تعالى: ﴿وَأَطَعْنَا﴾؟

الجواب: نعم تقف على قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ﴾؛ لأنك لو قلت: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ﴾ صرت سامعاً مطيعاً غفران الله، وليس كذلك.

لو قال قائل: في أثناء قراءة القرآن أو قراءة الحزب بسرعة من غير تأمل وتدبر هل يراعي الإنسان هذه الوقوف؟

الجواب: نعم ينبغي أن يراعي هذا ويقف حتى وإن كان مُدْرجاً.

الفائدتان الرابعة والخامسة: أنه ينبغي الإظهار في موضع الإضمار إذا دعت الحاجة، لقوله: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾، وهذا يقع كثيراً في القرآن في آيات متعددة، مثل قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ

لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٨]، لم يقل (عدو له) مع أن الآية فيها مناسبة أخرى وهي مراعاة فواصل الآيات.

ويتفرع على هذه الفائدة أن هؤلاء كفار؛ لقوله: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، وكان مقتضى السياق أن يقول: (لقالوا) لكنه أظهر في موضع الإضمار، والإظهار في موضع الإضمار له فوائد منها:

١ ـ الحكم على مرجع الضمير بما يقتضيه الوصف الظاهر، والوصف الظاهر في هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ومرجع الضمير لو كان ضميراً أولئك المكذبون.

٢ ـ القياس، بمعنى أن كل من قال قولهم فهو كافر؛ لأنه لو قال: (لقالوا) لم نستفد أن من قال مثل قولهم يكون كافراً بالنص، فإذا كان هذا الوصف ظاهراً قسنا عليه كل ما ماثله، أو كل مَنْ اتصف بهذا الوصف.

الفائدة السادسة: مكابرة أولئك المشركين الذين يكذبون النبي ﷺ بصرفهم الحق إلى باطل، الحق أنه قرآن من عند الله وهم يصرفونه إلى السحر، وهذا السحر هل هو في بلاغة القرآن، وفصاحة القرآن، وبيان القرآن، أو في كونه أتى بكتاب نزل من السماء فموّه على أبصارهم؟ الظاهر أنه يشمل الأمرين، يقولون هذا ليس بحقيقة، أي: سحرتنا يا محمد، أو يقولون إنه لِبيانه وفصاحته سَحرهم، وأياً كان فالجاحد ـ والعياذ بالله ـ يتشبث بكل شيء.

الفائدة السابعة: علم الله ـ تبارك وتعالى ـ بما سيكون لو كان؛ لأنه عَلِمَ ماذا سيكون قول هؤلاء لو نُزِّل عليهم الكتاب في قرطاس.

الفائدة الثامنة: تأكيد المعلوم بالمحسوس، وإن شئت فقل: تأكيد المعقول بالمحسوس، لقوله: ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾ وقوله: ﴿فَلَمَسُوهُ﴾؛ لأن هذا تأكيد بشيء محسوس ينظر إليه أنه في قرطاس ويُلْمَسُ باليد.

الفائدة التاسعة: أن للسحر تأثيراً، وهل التأثير يكون بقلب الحقائق أو بالتخييل على الحواس؟

الجواب: الثاني، وإلا فإنه لا يقلب الحقائق، فالعصي والحبال التي ألقاها سحرة فرعون لم تنقلب حيات، ولكن خيل للرائين أنها حيات، وإلا فهي على حقيقتها عصي وحبال.

وبهذا نجمع بين قول من قال: إنه لا يؤثر، وقول من قال: إنه يؤثر، فيقال: أما تأثيره بقلب الحقائق فهذا لا يمكن؛ لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله ـ عزّ وجل ـ، وأما تأثيره بالتخييل فإنه يمكن؛ لأن التخييل في الواقع مرض في الإدراك، والمرض قد ينتج من السحر؛ لأن السحرة أحياناً يسحرون الإنسان حتى يكون مريضاً، أو يختل ذهنه، أو ما أشبه ذلك.

لو قال قائل: ما حكم مَنْ يدعي أنه يستطيع أن يخبر بمكان السحر؟

قلنا: هذا يسمى نقض السحر بالسحر، وقد نقل شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ في كتاب «التوحيد» عن سعيد بن المسيب ـ رحمه الله ـ أنه قال: «لا بأس به، وقال: إنما يريدون به الإصلاح، وأما ما ينفع فلم ينهَ عنه»، ولعله أخذه من قوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ومن قوله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ونحن لا نفتي به؛ لأنه يخشى أولاً من دجل السحرة، وثانياً من تكاثرهم وخيانتهم وخداعهم، فيقول أحدهم للآخر: اسحر فلاناً وأنا أنقضه، ويأكلون أموال الناس بالباطل، ثالثاً: لا ينقض الساحر السحر إلا بتعلم السحر، ولذلك لا ينبغي فتح الباب للناس في هذه المسألة العظيمة[1].

❁ ❁ ❁

□ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٨، ٩].

قوله: ﴿قَالُوا۟﴾، أي: المكذبون للنبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ. وقوله: ﴿لَوْلَآ﴾، أي: هلَّا. وقوله: ﴿مَلَكٌ﴾ والملك واحد من الملائكة. وإنما طلبوا ذلك ليكون ذلك مصدقاً له، وهذا الاقتراح اقتراح تعنت، وإلا فقد جاء النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ بآيات واضحة، ولا أعظم من أنهم لما طلبوا آية أراهم انشقاق القمر، حيث انشق القمر نصفين وشاهدوه، وهذا تغيير في الأفلاك، فهي من أكبر الآيات، لكن قولهم هذا من باب التعنت والتحدي والإعجاز.

قوله: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾، أي: لقضي شأن هؤلاء وذلك بإهلاكهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾، أي: ثم لا يمهلون، بل يعاجلون بالعقوبة ـ والعياذ بالله ـ.

---

(١) القول المفيد شرح كتاب التوحيد، باب: ما جاء في النشرة لفضيلة شيخنا المؤلف ـ رحمه الله ـ.

يعني: لو أنزلنا ملكاً لانتهى الأمر بنزول العقاب بهم؛ لأن الأمم السابقة إذا اقترحت آية معينة، ثم أعطوا الآية المعينة التي طلبوها، ثم لم يؤمنوا أخذوا بالعقاب بدون إمهال، ولم تؤخذ قريش بآية انشقاق القمر؛ لأنها لم تطلب هذه الآية المعينة، بل قالوا: يا محمد أرنا آية فأراهم انشقاق القمر، هكذا قال أهل العلم، أما إذا اقترح المكذبون للرسل آية معينة، ثم جاءت ولم يؤمنوا نزل بهم العذاب.

قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾، يعني: لو جعلنا الرسول ملكاً ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ حتى لو فرض أننا جعلناه ملكاً فلا بد أن نجعله بشراً؛ لأنه لا يتلاءم المَلَكُ مع البشر، ولهذا قال الله ـ تبارك وتعالى ـ في سورة الإسراء: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٥] لكن ليس في الأرض إلا بشر، ولا يمكن أن يرسل إليهم ملائكة؛ لأن ذلك لا يناسب.

وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾، وحينئذٍ يبقى الإشكال ولهذا قال: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾، أي: خلطنا عليهم الأمر، كما خلطوه على أنفسهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تعنت المكذبين للرسل، وطلبهم آيات، مع أن الآيات كانت موجودة، لكنهم متعنتون.

الفائدة الثانية: أن المكذبين للنبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ يؤمنون بالملائكة لقوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾.

الفائدة الثالثة: أن المكذبين للنبي ﷺ يعلمون أن الملائكة في السماء، وأنها مقرهم ومسكنهم، والدليل ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾.

الفائدة الرابعة: أن المَلَك آية من آيات الله ـ عزّ وجل ـ إذا نزل مساعداً للبشر؛ لأنهم أقروا بأنه آية تدل على صدق النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ.

الفائدة الخامسة: أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يرد على المعاندين بمثل ما عاندوا به، ويحذرهم من اقتراح الآيات لقوله: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾.

الفائدة السادسة: أن المكذبين للرسل إذا اقترحوا آية معينة ولم يؤمنوا عجلت لهم العقوبة.

الفائدة السابعة: أن الله تعالى لو أراد أن ينزل ملكاً لم ينزل ملكاً بصورته الملكية، بل يجعله رجلاً من أجل تناسب الرسل والمرسل إليهم.

الفائدة الثامنة: حكمة الله ـ تبارك وتعالى ـ في إرسال الرسل من البشر، من أجل الركون إليهم وقبولهم، بل إن الله تبارك وتعالى يجعل الرسل من أوساط الأقوام وأشرافهم وأفاضلهم حتى يحتموا بهم، ولا يضر أن يجعل الله ـ تبارك وتعالى ـ للرسل من يحميهم من أقوامهم ويدل لذلك قول قوم شعيب له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ [هود: ٩١] مما يدل على أن الإنسان إذا كان من القوم صار له شأن كبير وهيبة، ويدل لعكس هذا قول لوط ـ عليه السلام ـ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، يعني: إلى قوم يكونون عماداً لي.

الفائدة التاسعة: حسن المحاجة في القرآن الكريم وهو أنه لو جاء الأمر على اقتراح هؤلاء لم يكن على ما اقترحوه، أي: لم يكن ملكاً لعدم المناسبة بين الرسول والمرسل إليهم، فإذا كان رجلاً عاد اللبس والاقتراح الذي اقترحوه، لقوله: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

□ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠].

قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (اللام) هنا موطئة للقسم ومؤكدة له، و(قد) للتحقيق وهذا يرد في القرآن كثيراً، وعلى هذا فالجملة تكون مؤكدة بثلاثة مؤكدات: قسم مقدر، والثاني (اللام)، والثالث (قد).

وقوله: ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾، أي: سُخِر، بدليل قوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾، أي: سخروا به، وقالوا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦] وقال تعالى أيضاً: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود: ٣٨].

وقوله: ﴿بِرُسُلٍ﴾ نكرة في سياق الإثبات لا تدل على العموم، أي: لا تدل على أن جميع الرسل سُخِر بهم، واعلم أن النكرة في سياق الإثبات لا تدل على العموم إلا إذا قام الدليل على هذا العموم، مثل قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ [الانفطار: ٥] وقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير: ١٤] فهنا (نفس) نكرة في سياق الإثبات، لكنها للعموم إذ معنى الآية: (علمت كل نفس).

وقوله: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾، أي: في الزمن.

قوله: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم﴾، أي: نزل بهم عقوبة ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أو جزاء ما كانوا به يستهزئون، وإنما عبر الله تعالى عن الجزاء بالفعل للإشارة إلى سببه من وجه، وليعلم أن الجزاء بقدر العمل من وجه آخر، فالعقوبة سببها العمل الذي استحق به العامل أن يعاقب، فأطلق العقوبة على نفس العمل الذي هو السبب، ثانياً: إذا كان الإنسان يجازى بنفس العمل فهذا يعني أن الجزاء والعقوبة بقدر عمله.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: توكيد الجملة بأنواع المؤكدات.

فإذا قال قائل: أليس خبر الله تعالى صدقاً سواء اقترن بالقسم وأدوات التوكيد أو لا؟

فالجواب: بلى، لكن يذكر التأكيد لأسباب، منها:

أولاً: أن القرآن الكريم جاء باللسان العربي، واللسان العربي، يحسن فيه التأكيد إذا اقتضت الحال ذلك، وإلا فمن المعلوم أن الله إذا أخبر بخبر ـ وإن لم يؤكد ـ فهو حق وصدق، كما نشاهد الشمسَ، لكن القرآن بلسان عربي مبين.

ثانياً: تأكيد الله له بالقسم يدل على أهميته، وأنه من الأمور التي لا بد أن يقبلها الإنسان ويصدق بها.

ثالثاً: أنه قد يراد به دفع إنكار من أنكر مدلول الخبر، ككون الله ـ عزّ وجل ـ يؤكد قيام الساعة بالمؤكدات الكثيرة لرد إنكار المكذبين.

الفائدة الثانية: أنه ليس بغريب أن يستهزئ المشركون

بالنبي ﷺ؛ لأن هذا قد سبق من الأمم السابقة، واستهزاء المكذبين للرسول بأنواع متعددة منها قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١] كأنهم يقولون: محمد لا يستحق هذا، وكما في قولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦] والاستفهام هنا للتحقير، يعني: مَنْ هذا الرجل الذي يذكر آلهتكم بالسوء؟ ليس بشيء وليس له قيمة، ومنها وصفهم إياه بأنه مجنون مخرف وما أشبه ذلك.

الفائدة الثالثة: عناية الله ـ تبارك وتعالى ـ بنبيه ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، حيث ينزل عليه من القرآن ما يسليه به، وجهه أن ذكر استهزاء الأمم السابقة برسلها تسلية لرسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ؛ لأن كونه يعلم بأن الأمم السابقة كَذّبت رسلها يهون عليه الأمر، فإن الإنسان يتسلى بالمصائب إذا أصابت غيره وتهون عليه مصيبته، وقد أشار الله إلى هذا في قوله: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف: ٣٩] مع أنه لو كان في الدنيا واشترك الناس في العذاب لهان عليهم ونفعهم وحملهم على الصبر، لكن في القيامة لا ينفع.

الفائدة الرابعة: تهديد المكذبين للنبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ لقوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾، يعني: فاحذروا أيها المكذبون لمحمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، المستهزؤون به.

الفائدة الخامسة: الإشارة إلى أنه لا رسول بعد محمد ﷺ، ولكن قد لا تؤخذ هذه الفائدة من هذه الآية؛ لأن قوله تعالى:

﴿بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذا تسلية للرسول ﷺ بما مضى، ولا يمنع لو كان ممكناً أن يوجد رسل آخرون بعد الرسول ﷺ، فليس فيها دليل على هذا.

الفائدة السادسة: أن السخرية والاستهزاء بالرسل موجب للعقاب، لقوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

فإن قيل: هل هذا العقابُ عقابٌ على كفر أو على فسوق؟

فالجواب: أنه عقاب على كفر، فكل من سخر بالرسل، أو استهزأ بهم فهو كافر، ولا إشكال في ذلك.

ولكن هل تقبل توبته؟

الجواب: نعم، تقبل توبته؛ لعموم قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

وكذلك هناك دليل عقلي، وهو أن سب النبي ﷺ إنما كان كفراً لنبوته لا لشخصيته، والنبوة والعمل بالشريعة التي جاءت بها من حقوق الله في الواقع، وحقوق الله تقبل فيها التوبة بالاتفاق، فالصحيح أن من سخر بالنبي أو استهزأ به فإنه إذا تاب إلى الله توبة نصوحاً ارتفع عنه وصف الردة، وصار مسلماً، وارتفع عنه القتل.

فإن قيل: إذا سب الرسولَ ثم تاب وقبلنا توبته، هل يرتفع عنه القتل أو لا؟

فالجواب: أن في هذا خلافاً، فمن العلماء من قال: إنها تقبل توبته؛ وذلك؛ لأن سب الرسول ﷺ ليس سبّاً شخصياً، وإنما السبُّ مُنْصَبٌّ على النبوة والرسالة، والنبوة والرسالة من حق الله فلا يقتل ما دام قبلنا توبته، واختار شيخ الإسلام ابن

تيمية ـ رحمه الله ـ أنها تقبل توبته، ولكنه يُقتل حداً، وعلل ذلك بأن سب النبي عليه الصلاة والسلام لا شك أنه عدوان على شخصه وعلى رسالته، فاعتبارها عدواناً على رسالته نقول: تقبل التوبة منه، وأما باعتبارها عدواناً على شخصه فلا بد أن نثأر لنبينا ﷺ، ونأخذ بالثأر ونقتله، فيتحتم قتل سابّ الرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وإن قبلنا توبته.

فإن قيل: ما الفائدة إذا قلنا (تقبل توبته) ويقتل؟

قلنا: الفائدة أنه يقتل مسلماً، يُغَسَّل ويكفن، ويصلى عليه، ويرثه أقاربه المسلمون، ويبقى على حكم الإسلام، بخلاف ما إذا قلنا إنه مرتد فلا يثبت له هذا الحكم.

فإن قال قائل: أليس قد وجد من سب النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ في حياته، وتاب وقبل النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ توبته؟

فالجواب: بلى.

أولاً: لأن الحق له فإذا عفى عنه فله الحق.

ثانياً: أن رفع القتل عنه ترغيباً له في التوبة.

ثالثاً: أنه إذا تاب فسيكون من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، وقد قال النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ حين استأذن في قتل المنافقين: «**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»[1].

أما بعد موته ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكل هذه العلل

---

(١) رواه البخاري كتاب المناقب، باب: ما ينهى من دعوة الجاهلية (٣٥١٨)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: نصر الأخ ظالماً، أو مظلوماً (٢٥٨٤).

منتفية، فيجب على أمته أن يقتلوا من سبّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

الفائدتان السابعة والثامنة: أن المعاصي سببٌ للعقوبة لقوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وأن العقوبة بقدر العمل ولذلك عُبِّر به عنها، وهذا من عدل الله ـ عزّ وجل ـ، أما المثوبة فالحسنةُ بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

❁ ❁ ❁

□ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ١١].

قوله: ﴿قُلْ﴾ الخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ.

قوله: ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (في) بمعنى (على)، وإنما أتت (في) بمعنى (على) لبيان أنه ينبغي أن يكون السير عميقاً، كأنما يسيرون في أجواف الأرض.

وهل السير هنا بالقلوب، أو بالأقدام؟

الجواب: يحتمل هذا وهذا، فالسير بالقلوب بأن يتأمل الإنسان ما جرى للأمم السابقة بما صح من تاريخهم، وأصح تاريخ للأمم السابقة ما جاء في القرآن، أو صحت به السُّنَّة، أو يكون المعنى سيروا في الأرض بأقدامكم، بأن ينظروا آثار المكذبين المهْلَكين كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] فصار السيرُ هنا يشمل السيرَ بالقلب، والسيرَ بالقدم لأجل الاعتبار.

فإن قال قائل: قولكم: (إن السير يشمل السير بالقدم لينظر

بالبصر) يشكل عليه أن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ نهى عن دخول ديار المكذبين أو المهلَكِين؟

فالجواب: أنه عليه الصلاة والسلام لم ينه عنها مطلقاً، بل نهى أن ندخل فرحين بطرين معجبين بالآثار، وما أشبه ذلك، أما أن ندخل معتبرين باكين خائفين فلا، ولهذا قال: «**لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين**»[1]، فهناك فرق بين من يدخل هذه الديار ليعتبر ويخاف ويبكي، وآخر يدخلها للبطر والأشر والنزهة والإعجاب بالآثار، فالأول محمود، والثاني مذموم، وبذلك يزول الإشكال.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿ٱنظُرُواْ﴾ بأبصاركم أو ببصائركم؟ إذا قلنا السير بالقلب فالمراد انظروا بالبصائر، وإذا قلنا بالقدم فالمراد بالبصر وينبني على ما سبق.

وقوله: ﴿كَيْفَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم، ويتعين أن يكون مقدماً؛ لأنه اسم استفهام، واسم الاستفهام له صدر الكلام؛ لأنه المقصودُ بالجملة، وإذا كان المقصودُ بالجملة كان حقه أن يقدم، ولهذا إذا قلت: أين زيد؟ تعين أن تكون (أين) خبراً مقدماً، ولا يجوز أن تقول: زيد أين، (فكيف) في محل نصب خبر (كان) مقدماً ﴿عَٰقِبَةُ﴾ اسمها مؤخر، باعتبار تقديم الخبر وإلا فهو في مكانه.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، فماذا كانت؟ كانت

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب: الصلاة في مواضع الخسف والعذاب (٤٣٣)، ومسلم، كتاب الزهد والرقاق، باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم...(٢٩٨٠).

أسوأ عاقبة ـ والعياذ بالله ـ دمرهم الله ـ عزّ وجل ـ، وجعلهم مثلاً للآخرين يعتبرون به.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدتان الأولى والثانية: الأمر بالسير في الأرض للاعتبار، سواء كان بالبصائر أو بالأبصار، لقوله: ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ويتفرع على هذه الفائدة أنه ينبغي أن نقرأ تاريخ الأمم السابقة، وأفضل نقرؤه منه هو القرآن وصحيح السُّنَّة؛ لأن من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة عن الأمم السابقة ما لا يحصيه إلا الله ـ عزّ وجل ـ، والعبرة بالصحيح، وما أكثر الأحاديث التي فيها الأخبار عن الأمم السابقة.

الفائدة الثالثة: فضل الاعتبار، وأنه أمر مطلوب لقوله: ﴿ٱنظُرُواْ﴾ وسواء كان الاعتبار بمن انتقم الله منهم أو بمن أثابهم، فإن كان بمن انتقم الله منهم فالإنسان يحذر، وإن كان ممن أثابهم فالإنسان يرغب، وفي هذه الآية الاعتبار بمن انتقم الله منه.

الفائدة الرابعة: أن الآثار تدل على المؤثر، وهذا أمر معلومٌ بالحس والواقع، وقد سئل أعرابي: بم عرفت ربك؟ قال: «الأثر يدل على المسير»، يعني: على السير، «والبعرة تدل على البعير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا تدل على الصانع الخبير؟»[1] **الجواب**: بلى والله تدل على الخلاق الخبير، السميع البصير.

---

(١) من خطبة لقس بن ساعدة، انظر: جواهر الأدب لأحمد الهاشمي (٢/ ١٩)، والبيان والتبيين للجاحظ (١/ ١٦٣).

الفائدة الخامسة: عقوبة المكذب، والتكذيب أحد شقّي ما يحصل به الكفر؛ لأن الكفر يحصل بأمرين، إما التكذيب وإما الاستكبار، مع أن التكذيب فرع عن الاستكبار؛ لأنه ما كذب إلا أنه يرى أنه فوق المرسل.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢].

قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ اسأل هؤلاء المكذبين المنكرين لتوحيد الألوهية: لمن ما في السماوات والأرض ألزيد أو لعمرو، أو لفلان أو لفلان؟ ثم أمر نبيه ﷺ أن يجيب عن هذا السؤال بنفسه فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ۚ﴾، وهنا نقول هل الجواب من الله أو من الرسول؟

الجواب: من الرسول بأمر الله، وعلى هذا يكون الجواب جواب الله ـ عزّ وجل ـ؛ لأن الله أمر رسوله أن يقول هذا.

قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ﴾ (كتب) بمعنى أوجب؛ لأن الكتابة بمعنى الإيجاب، قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣] كُتِبَ بمعنى فُرض وأوجب وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، أي: فريضة مؤقتة.

وقوله: ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾، أي: على ذاته، ونفس الله هي ذاته

وليست صفة بل هي الذات قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] وليس المعنى يحذركم صفة هي نفسه، بل المعنى يحذركم الله إياه، أي: ذات الله، فمعنى يحذركم نفسه، أي: يحذركم الله من عقابه؛ لأنه جل وعلا أمرنا أن نعلم علماً مهماً فقال: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة: ٩٨] فأمرنا أن نعلم هذا العلم المهم الذي فيه الترغيب والترهيب. الترهيب والتحذير في قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، والترغيب في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فأمرنا سبحانه وتعالىٰ أن نعلم عن أفعاله وصفاته ترهيباً وترغيباً، وهنا قال ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]؛ لأن المقام مقام تهديد وعقوبة ولأنه يخاطب المشركين المكذبين.

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَةَ﴾، يعني: أن يرحم عباده ـ عزّ وجل ـ، ففرض هذا على نفسه، ولهذا جاء في الحديث الصحيح القدسي: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»[1]، وهذه الرحمة فرضها الله تعالى على نفسه، ولسنا نحن الذين فرضناها عليه.

فإن قال قائل: إننا نجد من الناس من أصابه البؤس والبلاء، وفقد المال، وفقد الأولاد، وهو في غاية البؤس، أين الرحمة؟

فالجواب: كل ما أصاب الإنسان من شيء من بلاء وهو مؤمن فإنه رحمة؛ لأنه إذا صبر أثيب ثواب الصابرين، وإذا

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم (٧٤٢٢)، ومسلم كتاب التوبة، باب: في سعة رحمة الله، وأنها سبقت غضبه (٢٧٥١).

احتسب أثيب ثواب الشاكرين، فهو خير له، وكم من أناس لو أنهم رزقوا صحة ومالاً وأولاداً لبطروا، وأفسدهم الغنى وكم من أناس بالعكس، فكل شيء يصيب المؤمن ـ والحمد لله ـ فهو رحمة وكفارة، حتى لو أن الإنسان فزع من شيء قابله كتب له بذلك أجر، فاللهم لك الحمد ـ حتى جاء في الحديث لو أن الإنسان فقد شيئاً في جيبه، ثم فزع وخاف أن يكون قد ضاع منه فله أجر[1]، انظر إلى هذا الحد من الرحمة ولله الحمد والشكر.

وما أحسن قول رابعة العدوية: إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها[2]، والآلام والبؤس والتعب والهم والغم في الدنيا كلها تزول، إما أن تزول إلى ضدها، وإما أن تصل بصاحبها إلى الهلاك، لكن الأجر باقٍ.

فإذا قال قائل: ماذا عن الكافر؟

فالجواب أن نقول: إن الكافر هو الذي فوت الرحمة على نفسه، مع أن لله عليه رحمة بما يسره له من الأكل والشرب والنكاح والمسكن وما أشبه ذلك.

❁ ❁ ❁

---

(١) سألت عائشة ـ رضي الله عنها ـ النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، فقال: «يا عائشة! ذلك مثابة اللهِ العبدَ بما يصيبه من الحمى والكِبَر، والبضاعة يضعها في كمه فيفقدها فيفزع لها فيجدها في كمه، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه، كما يخرج التبر الأحمر من الكير»، أخرجه أحمد برقم (٢٥٣٠٧)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة، رقم (٢٩٩١)، وقال: حسن غريب.

(٢) ذكره في مدارج السالكين (٢/ ١٦٧).

□ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢].

صدق الله ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ هذه أيضاً جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، القسم المقدر، واللام الواقعة في جواب القسم، ونون التوكيد، والتقدير: والله ليجمعنكم، الخطاب للخلق، أي: ليجمعنكم أيها الناس كلكم، كما قال ـ عزّ وجل ـ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠] فَنُجمع مع آبائنا، وأجدادنا، وأجداد أجدادنا، إلى آدم ـ عليه السلام ـ كلنا نجمع، وكذلك ذرياتنا الأولون والآخرون مجموعون كلهم إلى يوم القيامة، ولما أورد المكذبون بالبعث قولهم: ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥] قيل لهم: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الجاثية: ٢٦]، فأنتم ما قيل لكم الآن تبعثون حتى تحتجوا وتقولوا (هاتوا آبائنا)، بل قيل لكم: إنكم مجموعون ليوم القيامة لا ريب فيه.

وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هو اليوم الآخر وسمي بهذا لأمور ثلاثة، هذا الذي علمناه ـ والله أعلم ـ إذا كان وراء ذلك شيء.

الأول: قيام الناس من قبورهم لرب العالمين، وهذا القيام قيام عظيم، فكل العالم بصيحة واحدة يُحضَرون، لا يتخلف أحد فهو قيام عظيم جداً جداً، حتى الذي أكلته السباع وأحرقته النار، وأغرقه الماء لا بد أن يخرج.

الثاني: لأنه يقام فيه العدل، فيقتص حتى للشاة الجلحاء من الشاة القرناء.

الثالث: أنه تقام فيه الأشهاد الذين يشهدون، هذه الأمة تشهد على الأمم السابقة، والرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ يكون شهيداً على هذه الأمة.

فلهذه الأمور الثلاثة سمي يوم القيامة، فإذا قيل ما هو الدليل؟

قلنا: أما الأول فدليله قول الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٦]، وأما الثاني: فقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، أي: لليوم الذي يقام فيه العدل، وأما الثالث فقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر: ٥١].

قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذا نفي يراد به تأكيد الإثبات السابق في قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾، أي: جمعاً مؤكداً لا ريب فيه، والنفي هنا ليس نفياً محضاً، بل لبيان كمال إثبات أنه أمر لا ريب فيه، وعلى هذا التقرير يكون النفي على بابه، وقيل إن النفي بمعنى النهي أي: لا ترتابوا فيه، والأول أبلغ؛ لأنه إذا قيل ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فإذا ارتاب إنسان فلخلل في عقله؛ لأن ما نُفِي فيه الريب مطلقاً لا يمكن أن يرتاب فيه عاقل، فجعلها للنفي على بابها أبلغ وأولى.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، والخبر قد يكون محذوفاً، والتقدير: الذين خسروا أنفسهم خاسرون، كما قال ـ عزّ وجل ـ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ١٥] فيكون المعنى الذين خسروا أنفسهم هم الخاسرون حقاً.

قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ توكيد، أو بيان للسبب الذي كان به الخسران، ويحتمل أن تكون جملة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبر المبتدأ، وقرنت بالفاء؛ لأن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول، وهو مفيد للعموم، والاسم الموصول يشبه الشرط في عمومه، فجاز اقتران الفاء بخبره.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن جميع مَن في السماوات والأرض لله ـ عزّ وجل ـ، والدليل: قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ﴾.

فإن قال قائل: كيف أخذتم العموم مع أن (مَنْ) للعاقل، و(ما) لغير العاقل؟

فالجواب: أن هذين الاسمين يتناوبان، بمعنى أن أحدهما يقع مكان الآخر، والدليل قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الجمعة: ١]، وفي آية أخرى ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهذا يدل على أن (مَنْ) و(ما) يتناوبان، وإن كان الأكثر استعمالاً أن (ما) لغير العاقل، و(مَنْ) للعاقل؛ وعليه فنقول: (مَنْ) هنا تشمل العاقل وغير العاقل، أو نقول: (من) للعاقل لكن عبر بـ (ما)؛ لأنه إذا كان الله تعالى يملك العاقل وهو مختار مريد فغيره من باب أولى.

الفائدة الثانية: إثبات السماوات والأرض، وهذا متكرر كثيراً، ومعلوم أن السماواتِ سبعٌ والأراضين سبع.

الفائدة الثالثة: أننا متى آمنا بهذا وأن من في السماوات والأرض لله، فإننا لن نلجأ إلا إلى الله، ولن نخاف إلا من الله ـ عزّ وجل ـ؛ لأنه مالكُ مَنْ في السماوات والأرض،

وليتنا نتوكل على الله حق توكله، فلو توكلنا على الله حق توكله لكان الأمر كما قال النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: **«لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطاناً»**[1] (تغدوا خماصاً)، أي: تطير في أول النهار وهي جائعة، وترجع في آخر النهار وهي ممتلئة البطون ـ سبحان الله ـ، وهذا شيء مشاهد، تجد الطيور في أول الصباح تطير في الجو، وقد أعطاها الله تعالى قوة النظر من رحمة الله ـ عزّ وجل ـ، تنظر للحَبِّ وهي في جو السماء، فتنزل عليه، وتنظر للحبة الصغيرة التي لا يدركها الإنسان إلا بمشقة، تنظرها بسهولة، تجد أنها تأخذ الحبة الصغيرة جداً في وسط القطيفة المفروشة من بين الخمل الذي فيها، لكن الله ـ عزّ وجل ـ أعطاها قوة بصر حتى تعيش، المهم أنك متى علمت أن من في السماوات والأرض لله فعلى من تتوكل؟ على الله ـ عزّ وجل ـ: وممن تخاف؟ من الله ـ عزّ وجل ـ. ومن ترجو؟ الله ـ عزّ وجل ـ.

الفائدة الرابعة: جواز إجابة السائل نفسه إذا كان الأمر واضحاً لقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ مع أن الله أمره أن يسأل ثم أمره أن يجيب، فإذا كان الأمر واضحاً لا نزاع فيه فأجب أنت؛ لأن المسؤول قد يمنعه من الإجابة استكباره وكبرياؤه.

الفائدة الخامسة: أن لله تعالى أن يكتب على نفسه ما شاء لقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾.

فإذا قال قائل: كيف يكون الشيء لازماً على الله؟

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب: في التوكل على الله (٢٣٤٤)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين (٤١٦٤)، والإمام أحمد في مسنده (٢٠٥).

فالجواب: أن الله ألزم نفسه به، وله أن يفعل ما شاء، نحن لا نلزم الله بشيء وليس لنا على الله حق إلا ما أوجبه على نفسه، لكن الله له أن يلزم نفسه بشيء، فكتابة الله على نفسه الرحمة لا تنافي كماله، بل هي من كماله ـ عزّ وجل ـ.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في النونية:

ما للعبادِ عليهِ حَقٌّ واجبٌ هو أوجَبَ الأجرَ العظيمَ الشانِ
إنْ عُذِّبوا فبعدلِه أو نُعِّموا فبفضلهِ والفَضْلُ للمَنَّانِ

قوله: «هو أوجب»: أي: هو سبحانه أوجب على نفسه، وليس نحن.

قوله: «فبعدله»: لأن الذنب ذنبهم.

الفائدة السادسة: أن الله يعبر عن نفسه بالنفس لقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، ولها نظائر قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] وقال عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وليست نفس الله كنفس الإنسان؛ فالإنسان له نفس، قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وهنا ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾، يعني: الروح التي في البدن وليست الجسم؛ لأنه عند موت الجسم لا يقبض الجسم في الأرض، بل يتولاه أهل الأرض، بل الذي يُقبض هو الروح، فالإنسان له نفس وهي الروح، ويعبر عن ذاته بالنفس فيقول: كلمتك بنفسي، وتقول: جاء الرجل نفسه، أما الله ـ عزّ وجل ـ فليس له نفس مستقلة عن الذات بل نفسه هي ذاته ـ عزّ وجل ـ.

الفائدة السابعة: إثبات البعث لقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

الفائدة الثامنة: تأكيد الشيء بالقسم وغيره من المؤكدات إذا دعت الحاجة إليه، وذلك في مواطن، منها إذا كان المخاطب منكراً، فهنا يجب أن يؤكد الكلام حسب البلاغة، ومنها إذا كان الأمر بعيداً يستغرب فإنه يؤكد ـ لكن ليس كالأول، فالأول يؤكد وجوباً ـ بل توكيده أحسن من عدمه، ونقول استحساناً كلما دعت الحاجة إلى توكيد الكلام أكد، ولا يعد هذا تطويلاً ولا إخلالاً بالبلاغة.

الفائدة التاسعة: حكمة الله ـ عزّ وجل ـ في جمع الأولين والآخرين، حتى يكون هذا اليوم يوماً مشهوداً كما قال ـ عزّ وجل ـ: ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] يشهده الأولون والآخرون، نحن نشهد هابيل وقابيل، ونشهد آخر واحد من هذه الأمة، كل العالم مشهود بل كل شيء مشهود، الجن والبهائم والوحوش، قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في الأرض ﴿وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ فوق الأرض ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] كل شيء، لو تصور الإنسان هذا اليوم لرأى مشهداً عظيماً، لا يستطيع أن يدركه الآن، لكننا نفهم معناه ولا ندرك حقيقته؛ لأن حقيقته أبلغ مما نتصوره، اللهم اجعله علينا يسيراً.

الفائدة العاشرة: تسمية يوم البعث بيوم القيامة، للوجوه التي تقدمت في التفسير.

الفائدة الحادية عشرة: أنه لا ريب في هذا اليوم، شرعاً

وعقلاً، شرعاً: لأن الله أخبر به وأكده وضرب له الأمثال، وعقلاً: لأنه ليس من المعقول أن الله تعالى يوجد هذه الخليقة، ويأمرها وينهاها، ويرسل إليها الرسل، وتستباح الأنفس والأموال والذرية في القتال في سبيل الله، ثم تكون النتيجة أن الأرض تبلعهم فقط، هذا ينافي الحكمة، فالعقل يوجب أن يكون هناك بعث، حتى وإن لم يكن نص، فكيف والنصوص كثيرة، ومن رحمة الله ـ عزّ وجل ـ وله الحمد والفضل والمنة ـ أنه يكثر من إثبات يوم القيامة ويضرب له الأمثال؛ لأن الإيمان باليوم الآخر هو الذي يحمل الإنسان حقيقة على الإيمان؛ إذ لولا اعتقاد المؤمن أنه سيبعث ويجازى (إن خيراً فخير وإن شراً فشر) ما عمل أبداً، ولصارت الأمة موطناً للسلب والنهب والأخذ والعدوان.

لو قال قائل: عبارة: (لولا البعث لبطلت الحياة) هل هي صحيحة أم لا؟

فالجواب: العبارة صحيحة، فلولا البعث لبطلت أهمية الحياة؛ لأن الحياة في الواقع ليست حياة كاملة، فليس من الأهمية في شيء أن الإنسان يُعمَّر ما يُعمَّر ثم يفنى إلى غير شيء، والذي ينكر البعث فإنه ينكر أن يكون للدنيا فائدة، لنفرض أن الإنسان فعل كل شيء وصار عنده إنتاجات واختراعات ماذا ينتفع إذا لم يكن له آخرة يجازى عليها؟ لو قيل: ستدر عليه الأموال، نقول: والأموال ما مآلها؟ مآلها بيت الخلاء، الآن أشد عموم الانتفاع هو الأكل والشرب، أين يذهب؟ إلى الأماكن القذرة هذه نهاية المال، ولهذا فإن إنكار البعث بقطع النظر عن كونه كفراً وضلالاً يعتبر سفهاً.

الفائدة الثانية عشرة: أن هؤلاء المكذبين خسروا أنفسهم، يعني: كأن لم يوجدوا على الأرض؛ لأنهم لم يستفيدوا من حياتهم، ولذلك لمّا لم يستفيدوا من حياة الدنيا لم يستفيدوا من حياة الآخرة، فكانوا مخلدين في نار جهنم والعياذ بالله.

الفائدة الثالثة عشرة: أنه من الفصاحة أن يذكر السبب بعد المسبَّب، هذا إذا جعلنا جملة: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبراً، لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ وجه ذلك: أن سبب خسرانهم هو عدم الإيمان، فأُخر السبب وقدم المسبّب، أما إذا جعلناها جملة مستقلة فلا تتأتى هذه الفائدة؛ لأنها على الترتيب.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [الأنعام: ١٣].

قوله: ﴿وَلَهُۥ﴾ الضمير يعود على الله ـ عزّ وجل ـ.

قوله: ﴿سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يصح أن تكون من السكنى، ويصح أن تكون من السكون الذي هو ضد الحركة، فإن كانت من السكون، بقي أن يقال: وأين المتحرك؟؛ لأن الأشياء إما ساكن وإما متحرك، وهنا قال: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾ والجواب عن هذا الإشكال أن يقال: إن هذا من باب الاستغناء بذكر أحد الضدين عن الآخر، ونظيره قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١] السرابيل تقي الحر والبرد، لكن ذكر الحر والبأس؛ لأن اللباسين متفقان، هذا يلبس عند حرارة الجو، والثاني يلبس عند حرارة القتال، فاستغنى بذكر الحر عن ذكر البرد.

أما إذا جعلناها من السكنى فالمعنى أن له كل شيء؛ لأن كل المخلوقات ساكنة في مقارّها.

فإن قيل: وإذا كان اللفظ صالحاً لهذا وهذا، فهل نستعمله في المعنيين؟

فالجواب: نعم، بشرط ألا يقع بينهما منافاة، فإن وقع بينهما منافاة أخذ بما يرجحه الدليل، تأمل قوله: ﴿فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ تجد أنه عام في الزمان، وقوله: في الآية التي قبلها: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ عام في المكان، فذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ عموم المكان وعموم الزمن.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ ذكر السميع لكل صوت، والعليم بكل حال، وأقسام السمع التي وصف الله بها نفسه قسمان: سمع إجابة وسمع صوت:

سَمْعُ الإجابة: في مثل قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وهذا يشمل سمع الإجابة وسمع الصوت، ومنه قول المصلي: «سمع الله لمن حمده».

وسمع الصوت: أقسام، وإن شئت قل «أنواع»؛ لأننا ذكرنا أنَّ الأول أقساماً:

النوع الأول: المقصود به التأييد والنصر، والثاني المراد به التهديد، والثالث المراد به الإحاطة.

مثال الذي يقصد به التأييد: قول الله ـ تبارك وتعالى ـ لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

ومثال الذي يقصد به التهديد: قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ﴾ [الزخرف: ٨٠].

ومثال الذي يراد به الإحاطة: قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١].

فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ المراد بالسمع هنا سمع الإجابة وسمع الصوت، إذاً يراد بها المعنيان، وكذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] يشمل سمع الصوت والإجابة؛ لأنه يسمعه ثم يجيبه، وأيضاً قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٢١﴾ [الأنفال: ٢١] هذا نص صريح؛ لأن قوله: ﴿سَمِعْنَا﴾، يعني: إدراك الصوت وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، أي: لا يستجيبون، وإلا فهم يسمعون بآذانهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: اختصاص الله تبارك وتعالى بملك كل شيء، وجه الاختصاص تقديم الخبر ﴿وَلَهُۥ﴾؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، ولهذا قلنا إن قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] توحيد خالص بمعنى: لا نعبد إلا إياك، وكذلك نقول: في إياك نستعين.

الفائدة الثانية: أن السكون والحركة بيد الله ـ عزّ وجل ـ؛ لأن مالك مَنْ يسكن ويتحرك مالك للحركة والسكون، فيكون في هذا دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، وهذا هو مذهب السلف وأهل السُّنَّة، وهو وسط بين مذهبي الجبرية والقدرية.

الفائدة الثالثة: إثبات هذين الاسمين (السميع والعليم)، وإثبات ما تضمناه من صفة، صفة السمع في السميع، والعلم في العليم.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤].

أمر الله ـ عزّ وجل ـ نبيه ﷺ أن يقول معلناً: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ أستنصر به، ويتولى أمري، وأتولى شرعه، والاستفهام هنا للنفي.

قوله: ﴿أَتَّخِذُ﴾ فعل ينصب مفعولين، المفعول الأول ﴿أَغَيْرَ﴾ مقدّماً، والثاني: ﴿وَلِيًّا﴾، ولو أردنا أن نرتب حسب العمل لكانت الآية (قل أتخذُ غيرَ الله ولياً).

وقوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: خالقهما على غير مثال سبق، والسماوات والأرض تقدم الكلام عليهما مراراً.

قوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، فالله ـ عزّ وجل ـ هو الذي يُطعِم، ما من طاعم يُطْعَمُ إلا والله الذي أطعمه، بأن يسر له الطعام، ولولا ذلك ما وصل إليه الطعامُ قال الله ـ عزّ وجل ـ مبيناً هذا ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

الجواب: بل أنت يا ربنا.

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الواقعة: ٦٥ ـ ٦٧]، ولو جعله الله حطاماً ما طعمناه، ثم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩] **والجواب**: بل أنت يا ربنا هذا الطعام وهذا الشراب، الزرع وهو طعام، والماء وهو الشراب، ثم ما يصلح به الطعام والشراب وهو الطبخ والطهي

الذي يكون بالنار ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الواقعة: ٧١، ٧٢]، إذاً الذي يطعم هو الله ـ عزّ وجل ـ، ثم لو شاء الله تعالى ما طعمنا، حتى مع وجود الطعام لو أراد الله لم يخلق لنا أفواهاً ولا أمعاء ولا معدات، فلا نطعم إذاً.

قوله: ﴿يُطْعِمُ﴾، أي: يُوجِد الطعامَ من مأكول ومشروب، وما يصلح به الطعام والشراب، وكذلك يُوجِد الآلات في بني آدم التي تقبل الطعام وتنتفع به، ذكر بعض أهل العلم رحمهم الله: أنه لا يصل إليك الطعام إلا بعد أن يعمل به أكثر من ثلاثمائة شخص؛ لأنك تبدأ من الحرث والسقي، وتصريف الماء والشراء والطحن والعجن وغير ذلك، تجد مراحل كثيرة لا يصل إليك الطعام إلا بعد أن يتجاوز هذه المراحل.

وقوله: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ إذاً غيره محتاج إليه، وهو لا يحتاج لأحد، فهو لا يُطعم لغناه عن كل أحد، ثم هو ـ جل وعلا ـ لا يَطْعم؛ لأنه أحد صمد، ولو طعم لكان محتاجاً لطعام، وهذا مستحيل على الله ـ عزّ وجل ـ.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

قوله: ﴿قُلْ﴾ إعلان آخر.

وقوله: ﴿إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ﴾، فالأمر الأول لتحقيق توحيد الربوبية، والثاني لتحقيق توحيد العبادة

﴿قُلْ﴾، أي: للناس معلناً ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ من هذه الأمة، لا من جميع الأمم، ومعنى ﴿أَسْلَمَ﴾، أي: استسلم لله ظاهراً وباطناً؛ لأن الإسلام يطلق على هذا، وإذا كان الإسلام بهذا المعنى دخل فيه الإيمان.

قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ معطوفة على ﴿قُلْ﴾، يعني: قل هذا ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، بل أخلص العبادة والإسلام لله - عزّ وجل -.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أمر النبي ﷺ أن يعلن أنه لن يتخذ ولياً من دون الله - عزّ وجل -، وهذا واجب عليه؛ لأنه رسول وإمام مقتدىً به، فلا بد أن يعلن تحقيق الربوبية.

الفائدة الثانية: أن لا يلجأ العبد إلَّا إلى الله - سبحانه وتعالىٰ -؛ لأن الله هو الولي، ثم ولاية الله - عزّ وجل - ولاية مبنية على الحمد، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

الفائدة الثالثة: أن الله وحده خالق السماوات والأرض على غير مثال، يعني: أنه سبحانه وتعالىٰ لم يخلق سماوات وأراضين قبلُ ثم أعادها مرة أخرى، بل هي على ما هي عليه.

الفائدة الرابعة: تمام قدرة الله - تبارك وتعالى - حيث فطر السماوات والأرض، وبقيت السماوات والأرض على حسب ما أراد الله - تبارك وتعالى -. قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ...﴾، ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٨، ٣٩] لم تختلف.

الفائدتان الخامسة والسادسة: أن الله - تبارك وتعالى - هو

المُطعِم لا مطعم سواه، وينبني على هذه الفائدة ألا نسأل الإطعام إلا من الله ـ تبارك وتعالى ـ، ولو أننا ـ ونستغفر الله ونتوب إليه ـ تمسكنا بهذا مع التوكل على الله والاستعانة به لكان رزقنا مضموناً، لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] لكن غلبت علينا الأمور المادية الحسية، فصار الإنسان ـ مع الأسف ـ يعتمد على الأسباب أكثر مما يعتمد على المسبِّب ـ عزّ وجل ـ وفي الحديث عن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً**»، أي: تذهب في أول النهار جائعة «**وتروح بطاناً ترجع في آخر النهار**»[1].

الفائدة السابعة: أن الله لا يطعمه أحد؛ لعدم حاجته إلى الطعام، وعدم حاجته إلى غيره؛ لأنه لا يحتاج للطعام، وأيضاً لأنه لا يحتاج إلى غيره، فهو غني عن كل من سواه وكل من سواه مفتقر إليه.

الفائدة الثامنة: وجوب إعلان النبي ﷺ عن نفسه أنه أول من أسلم؛ لقوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، يعني: من هذه الأمة وهذا الذي وقع.

الفائدة التاسعة: أن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ محتاج إلى الإسلام، وليس له حق في الربوبية، كما صرح بذلك ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث دعا عشيرته الأقربين، وجعل يناديهم بأسمائهم، يا فلان بن فلان إلى أن وصل إلى بنته فقال: «**يا فاطمة**

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٧).

بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً»[١].

الفائدة العاشرة: صحة النهي عما لا يمكن أن يقع لقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فشرك النبي ﷺ لا يمكن أن يقع شرعاً، ومع ذلك نُهي عنه.

إذا قال قائل: ما هي الحكمة مع أنه لا يمكن أن يقع؟

قلنا: الحكمة فيما نعلم من وجهين:

الوجه الأول: دعوته إلى الثبات على الإخلاص، وإن كان الشرك لا يقع منه، حتى لا يشرك في المستقبل.

والثاني: طمأنة أمته إذا نهوا عن الشرك، بأن ذلك ليس بمستنكر، وليس فيه بأس؛ لأن الله أمر إمامهم ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ألا يكون من المشركين.

وهل يؤخذ من هذا أنه يجوز أن نقول للشخص: (أنت مشرك) إذا فعل ما يكون شركاً؟

قلنا: يمكن أن نقول هذا، وذلك على حسب ما تقتضيه الحال، إن كنا نظن أننا إذا قلنا: (أنت مشرك) أخذته الحمية الجاهلية فاستكبر واستنكف؛ فإننا لا نخاطبه بهذا الأسلوب، وإن كنا نعلم أنه ممن يتقي الله، وأننا إذا قلنا: (هذا شرك فإن فعلت فأنت مشرك، وإن قلت فأنت مشرك) أخذه خوفُ الله ـ عزّ وجل ـ فأبعد عن ذلك إبعاداً كاملاً، فإننا لا بأس أن نقول له ذلك.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب: هل يدخل النساء والولد في الأقارب، رقم (٢٧٥٣)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، رقم (٢٠٦).

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام: ١٥، ١٦].

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: لهؤلاء وغيرهم معلناً هذا الإعلان المهم (إنك إن عصيت الله فإنك ستعذب).

وفي قوله: ﴿إِنِّيٓ﴾ قراءتان (إنِّي) و(إنْ) وهما سبعيتان. ﴿عَذَابَ﴾ مفعول.

قوله: ﴿أَخَافُ﴾، يعني: إني أخاف عذاب يوم عظيم إن عصيت ربي، واليوم العظيم هو يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: أنه يجب على النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أن يعلن الجزاء يوم القيامة وأنه يخافه إن عصى ربه.

الفائدة الثانية: أن المعصية سبب للعذاب، والمعاصي على نوعين معاصٍ لا يغفرها الله وهي الشرك، ومعاصٍ تدخل تحت مشيئة الله وهي الكبائر، وهناك معاصٍ أخرى تكفرها الأعمال الصالحة وهي الصغائر، هذا فيما يتعلق بينك وبين الله ـ عزّ وجل ـ، أما حقوق الآدميين فلا بد من إيصال حقهم إليهم، إما باستحلال منهم في الدنيا، وإما بأعمال صالحة تؤخذ من أعمال هذا الظالم.

فإن قيل: إذا تاب الإنسان من ذنب فيه جناية على غيره فهل يسقط حق الغير أم لا؟

فالجواب: ظاهر النصوص أنه يسقط إذا كان غير مال،

كالذي يزني بامرأة كرهاً ثم يتوب، فإن الله يتوب عليه ويُرْضِي التي أكرهت على الزنا.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام: ١٦].

قوله: ﴿يُصْرَفْ﴾ فيها قراءتان (من يَصْرِفُ)، و﴿مَّن يُصْرَفْ﴾ ﴿عَنْهُ﴾ يعني: العذاب.

﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾، أي: رحمه الله ـ عزّ وجل ـ والضمير في قوله: ﴿رَحِمَهُۥ﴾ يعود على الله ـ عزّ وجل ـ.

وقد يقول قائل: كيف نعرف أنه عاد إلى الله ـ عزّ وجل ـ؟

فيقال: لأنه تقدم ذكره في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قوله: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ هذا العذاب ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾، أي: ربي.

قوله: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ المشار إليه الصرف المفهوم من قوله: ﴿مَّن يُصْرَفْ﴾، واسم الإشارة في محل رفع مبتدأ وقوله: ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ خبر المبتدأ، و﴿ٱلْمُبِينُ﴾ صفة للفوز.

في هذه الآية دليل على أن الفوز الحقيقي هو الذي يحصل بصرفِ اللهِ العذابَ عن الإنسان يوم القيامة؛ لأن (أل) في قوله: ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ لبيان الحقيقة الذي هو الفوز الأعظم؛ لأن غير هذا الفوز فوز زائل، حتى من وُفِّق في الدنيا فإن فوزه ناقص، إلا أن يكون فوزه في الدنيا سبباً للأعمال الصالحة التي يفوز بها في الآخرة.

﴿ٱلْمُبِينُ﴾، أي: البين وهو اسم فاعل من (أبان)، وأبان يصح أن تكون لازمة ويصح أن تكون متعدية، فإذا قلت: أبان المعلمُ للطالب معنى الكتاب فهذه متعدية، وإذا قلت: أبان الصبحُ، بمعنى انجلى فهذه لازمة، فالمبين هنا بمعنى بيِّن.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: فوز من يصرف عنه العذاب يوم القيامة.

الفائدة الثانية: إثبات الرحمة لله ـ عزّ وجل ـ بلفظ الفعل لقوله: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ ورحمة الله ـ تبارك وتعالى ـ من الصفات الذاتية الفعلية، فباعتبار المرحوم تكون فعلية، وباعتبار كونها وصفاً ثابتاً لله تكون من الصفات الذاتية، والرحمة يكون بها حصول المطلوب والنجاة من المرهوب.

فإذا قال قائل: هل رحمة الله حقيقية، أم أنها عبارة عن الثواب، أو إرادة الثواب؟

فالجواب: هي حقيقية، ولكنها ليست كرحمة المخلوق التي يكون فيها نوع من الضعف، ولكنها رحمة الخالق الذي هو فوق عباده ـ عزّ وجل ـ.

وقد أنكر قوم الرحمة، وقالوا: إن الله لا يوصف برحمة حقيقية؛ لأنها تدل على الرقة واللين، وهذا لا يليق بالله ـ عزّ وجل ـ، فإذا قلنا لهم: فسروها لنا، قالوا: الرحمة هنا عبارة عن آثار الرحمة، وهي إما الإرادة وإما الثواب، والفضل الذي حصل برحمة الله، فإذا قيل لهم: ما الذي حملكم على صرف الكلام عن ظاهره؟ قالوا: لأن الرحمة على الوجه الذي ذكرنا تدل على الضعف، هذا منتهى تقريرهم.

فنقول لهم: هذه الثمرة من تقريركم جوابها لدينا سهل جداً، وهو أن نقول: هذه الرحمة التي ادعيتم أنها تدل على الضعف إنما هي رحمة المخلوق، أما رحمة الخالق فإنها لا تدل على هذا بوجه من الوجوه، بل تدل على كمال فضله وكرمه ـ عزّ وجل ـ، ثم إن لنا أن ننازعكم في دعواكم أن اللين والرقة يدلان على الضعف، فكم من ذي سلطان قوي يستطيع أن يبطش برعيته كما يشاء، ويكون رحيماً لمن يستحق الرحمة، فنمنع أولاً الدعوى، ثم لو سلمنا جدلاً بأن الرحمة تدل على اللين والرقة فهذه رحمة المخلوق.

الفائدة الثالثة: أن الفوز الحقيقي البيِّن الظاهر هو الفوز بالنجاة من العذاب يوم القيامة ـ نسأل الله أن يرزقنا ذلكْ ـ.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧].

قال الله ـ عزّ وجل ـ مسلياً رسوله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ومثبتاً له ومقوياً عزيمته: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾، والضر هنا يشمل الضر في البدن والعقل والمال وكل ما يكون به الضرر على الإنسان، وكلمة ﴿بِضُرٍّ﴾ نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم، فأيُّ ضرٍّ يمسسك الله به يعني يصيبك ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾، أي: لا مزيل له إلا الله ـ عزّ وجل ـ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ الخير هنا المراد به ضد الضرر، من الصحة والعقل والمال والأهل والأمن وشرح الصدر وغير ذلك، ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر على أن يزيل الضرر

الذي أصابك إلى خير، وفي الآية الأخرى ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧] ـ عزّ وجل ـ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أنه ينبغي للإنسان أن يعلق رجاءه بالله ـ عزّ وجل ـ؛ لأنه إذا علم مضمون هذه الآية فسوف يعتمد في أموره كلها على الله ـ عزّ وجل ـ.

الفائدة الثانية: تقوية النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ في الدعوة إلى الله، وأنه مهما حاول هؤلاء أن يصيبوه بضرر فإنهم لا يملكون ذلك إذا لم يكن الله أراده.

الفائدة الثالثة: الحث على الصبر؛ لأنك إذا علمت أن الذي أصابك بالضر هو الله فلا بد أن تصبر؛ لأنك عبده، يفعل بك ما شاء، فتصبر على ما يصيبك من الضرر.

الفائدة الرابعة: قوة رجاء العبد بالله ـ عزّ وجل ـ إذا أصابه الضرر أن يزول عنه الضرر، وجه ذلك قوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وكم من أضرار حدثت للإنسان حتى أوصلت إلى اليأس والقنوط فكشفها الله ـ عزّ وجل ـ، وكم من إنسان أصيب بمرض حتى وصل إلى حافة القبر ثم شفاه الله ـ عزّ وجل ـ، وكم من إنسان أصيب بالفقر حتى وصل إلى أن لا يجد قوت يومه فأغناه الله ـ عزّ وجل ـ، وكم من إنسان كان وحيداً فرزقه الله، وهلم جرًّا، لأن الله على كل شيء قدير.

الفائدة الخامسة: تمام سلطان الله ـ عزّ وجل ـ، وأنه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ هو المتصرف كما يشاء بعباده لقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾.

الفائدة السادسة: عموم قدرة الله تعالى لقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ويقابل **القدرةَ العجزُ**، وهنا صفتان متشابهتان أو متقاربتان، القوة والقدرة، والفرق بينهما يحصل بالتعريف، فالقدرة: التمكن من الفعل بلا عجز، والقوة: التمكن من الفعل بلا ضعف، والدليل قول الله ـ تبارك وتعالى ـ في القدرة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، والدليل في القوة قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ﴾ [الروم: ٥٤].

لكن أيهما أعم؟

نقول: أما القوة فهي أعم؛ لأنها تكون في ذي الشعور وغيره، يعني في ذي الإرادة وغيره، فتقول: فلان قوي وتقول: الحديد قوي، وأما القدرة فإنها لا تكون إلا من ذي الإرادة، إذ لا يصح أن تقول: الباب قادر؛ لأنه ليس له إرادة.

وأيهما أكمل؟

القوة أكمل؛ لأنه يلزم من وجود القوة القدرة ولا عكس، ونضرب مثلاً لهذا برجل قيل له: (احمل هذا الحجر) فحمله لكن بمشقة، فبماذا نصف هذا الرجل؟ نصفه بأنه قادر غير قوي، وإنسان آخر قلنا له: (احمل هذا الحجر) فأقبل ليحمله فعجز فنقول: هذا عاجز غير قادر، ورجل ثالث قلنا له: احمل هذا الحجر فأخذه وكأنه ريشة، فهذا قوي، وهو قادر من باب أولى.

فكل شيء حتى وإن بعد في ذهنك فالله قادر عليه، لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ولهذا نبه الله تعالى زكريا حين

قال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ [مريم: ٨] قال الله له: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]، فالذي خلقك من قبل ولم تكن شيئاً قادر على أن يخلق لك ولداً، وهذا قياس أولوية واضح، أو على الأقل قياس مثلي واضح، فالقادر على العدم قادر على الإيجاد، والقادر على الإيجاد قادر على العدم.

إذاً يا أخي لا تستكثر أن تسأل الله ـ تبارك وتعالى ـ شيئاً لا تكون فيه معتدياً في الدعاء، ولو كان في نظرك بعيداً؛ لأن الله ـ تعالى ـ على كل شيء قدير.

❁ ❁ ❁

□ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ١٨].

قوله: ﴿هُوَ﴾ الضمير يعود على الله ـ عزّ وجل ـ، ومرجعه ما سبق من الآيات.

وقوله: ﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ القهر: هو الغلبة مع السلطان يعني السُّلطة؛ لأن الغالب المطلق قد لا يكون له سلطة، لكن قهر الله ـ عزّ وجل ـ غلبة مع سلطة تامة.

وقوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ هل المراد فوقية المكانة، أو فوقية المكان، أو هما جميعاً؟ المراد هما جميعاً، فوقية المكان، وفوقية المكانة، وعليه فيكون المعنى: هو القاهر فوق عباده من حيث المعنى لا يمكن أن تغلبه قوة، ومن حيث المكان فالله ـ جل وعلا ـ فوق كل شيء.

وقوله: ﴿عِبَادِهِۦ﴾ جمع عبد، والمراد بالعبودية هنا العبودية العامة التي تشمل المؤمن والكافر؛ لأن العبودية ثلاثة أقسام: عامة، وخاصة، وأخص.

العبودية العامة: هي أن جميع المخلوقات لكونها ذليلة أمام الله ـ عزّ وجل ـ، فهي عابدة له، قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣]

والعبودية الخاصة: هي عبودية المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

والعبودية الأخص: هي عبودية الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، والمراد بها في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ العبودية العامة، أي: عبودية القدر، فكلٌّ خاضع لله ـ عزّ وجل ـ، لو كان من أقسى عباد الله فهو عبد لله، ففرعون عبدُ لله بالمعنى العام، وموسى عبدُ لله بالمعنى العام والخاص، واعلم أن الخاصة تدخل في العامة، بمعنى أنهم عباد لله العبودية القدرية والعبودية الشرعية، فالعبودية الشرعية خاصة، والعبودية الكونية عامة.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ تصح أن تكون بمعنى مُحكِم، والشاهد على مجيء (فعيل) بمعنى (مُفعِل) قول الشاعر[1]:

أَمِنْ ريحانَة الداعي السميعُ يؤرقني وأصحابي هجوعُ

---

(١) هو عمرو بن معديكرب، ديوانه، طبعة بغداد، (ص١٣٦).

السميع، أي: المُسْمِع ليس المعنى السامع؛ لأنه داعٍ والشواهد على ذلك كثيرة وحكيم أيضاً تكون بمعنى حاكم، إذاً هي مشتقة من الحِكمة ومن الحكم، والدليل على أنها من الحكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠] وأما الدليل على أنها مشتقة من الحكمة فقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: ٨] والجواب بلى؛ إذاً الحكيم مشتقة من الإحكام والحكم، فإذا كانت مشتقة من الإحكام أو الحكمة فهي بمعنى محكِم، وإذا كانت من الحكم فهي بمعنى حاكم، والله ـ تبارك وتعالى ـ موصوف بهذا وهذا.

ثم اعلم أن الحكم كوني وشرعي، فمن الكوني قول الله تعالى عن أخي يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف: ٨٠]، أي: يقدر لي، هذا حكم قدري.

وأما الشرعي فكما في قول الله ـ تبارك وتعالى ـ في سورة الممتحنة ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]، أي: شرعه.

فإن قال قائل: ما الفرق بينهما؟

قلنا: الفرق بينهما من وجهين:

الأول: أنه إذا حكم الله تعالى بشيء حكماً قدرياً فلا بد أن يقع، فإذا حكم ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بالخوف فلا بد أن يقع الخوف، وإذا حكم بالجدب فلا بد أن يقع الجدب، وإذا حكم بالرخاء فلا بد أن يقع رخاء، وهلم جرًّا.

أما الحكم الشرعي فإذا حكم بشيء فقد ينفذ وقد لا ينفذ،

فإذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ [البقرة: ١٧٣]، فهل نقول: إن هذه الآية تدل على أنه لا يمكن أن يأكل الميتة أحد؟

الجواب: لا، بل قد يأكل وقد لا يأكل.

الفرق الثاني: أن الحكم الشرعي سواء كان إيجاباً أو تحريماً لا يكون إلا فيما يرضي الله ـ عزّ وجل ـ، إذ لا يمكن أن يأمر الله تعالى عباده بما يكره، ولا أن ينهاهم عما يحبه، أما الحكم الكوني فيكون فيما يحبه ويرضاه، وفيما يكرهه ويسخطه.

والحكمة أيضاً نوعان:

الأولى: حكمة صورية؛ وهي أن يكون الشيء على هذه الصورة المعينة.

والثانية: حكمة غائية؛ وهي أن يكون هذا الشيء لغاية محمودة، فإذا تأملت المخلوقات كلها وجدت أنها في غاية الحكمة، شمس وقمر ونجوم ورياح وأمطار، كلها لحكمة، وإذا نظرت الغاية منها وجدتها غاية حميدة مطابقة للحكمة.

كذلك أيضاً الشرع، فإذا تأملت الشرائع وجدت كون هذا الشيء على صورة معينة حكمة، وكونه لغاية حميدة حكمة، في الزكاة.

مثلاً نجد الزروع ما سقي بمؤنة فيه نصف العشر، وما سقي بلا مؤنة فيه العشر، لماذا اختلف؟

لأن الواقع يقتضي ذلك، فما سقي بمؤنة فقد تعب عليه صاحبه وأنفق مالاً كثيراً في استخراج الماء، أما ما سُقي بلا مؤنة لم يكن على صاحبه مشقة ذلك.

كذلك إذا تأملت الحكمة في الزكاة أيضاً، وجدت أن المال القليل لا تجب فيه الزكاة؛ لأنه لا يحتمل المواساة، بخلافِ الكثير، ووجدت ما يشق إخراج الزكاة عنه لا تجب فيه الزكاة؛ كالثياب والمراكب والبيوت وما أشبهها، الآن عرفنا أن الزكاة على الصورة المعينة حكمة.

فإن قيل: ما الحكمة من الزكاة؟

قلنا: اقرأ قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] هذا أفضل شيء، تطهرهم من الذنوب؛ لأن الصدقة تطفئ الخطيئة، ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾، أي: تزكي أخلاقهم ودينهم؛ لأنه يبذل ما يحب فيما يحبه الله ـ عزّ وجل ـ، ولا يمكن أن يبذل الإنسانُ محبوباً له إلا لما هو أحب، كذلك تزكي أخلاقهم بالكرم والسخاء والرخاء.

وقد ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ أن من أسباب انشراح الصدر الصدقةَ والبذلَ، وهذا معنى خفي كلما كان الإنسان أشد بذلاً للمال كان أوسع صدراً، لا سيما إذا كان يؤمن بأنه يقربه إلى الله ـ عزّ وجل ـ، وأنه يكفر سيئاته، وما أشبه ذلك.

فالخلاصة أن الحكم كوني وشرعي، والإحكام صوري وغائي، وأيضاً الحكمة تكون في المشروعات وفي المخلوقات.

وقوله: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾، يعني: ذا الخبرة، قال أهل العلم: الخبرة هي العلم ببواطن الأمور، مشتقة من خبير الزرع الذي يدفن في الأرض ويكون خفياً، ولهذا جاء في الحديث **أن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ نهى عن المخابرة**[1]، يعني:

---

(١) رواه البخاري، كتاب المساقاة، باب: الرجل يكون له ممر أو شرب في =

المزارعة التي تشتمل على الغرر، حتى إن الله تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦] الذي يحدث به الإنسان نفسه يعلمه الله ـ عزّ وجل ـ قبل أن يحدث به لسانه، وقبل أن يعلم به إخوانه.

وهل نقول إذا كان خبيراً لزم أن يكون عليماً؟

نعم يلزم أن يكون عليماً، وقرن الله تعالى هنا بين الحكيم والخبير؛ ليعلم الناسُ أن حكمة الله ـ عزّ وجل ـ عن خبرة وعلم ببواطن الأمور، وعلى هذا فقد تكون الحكمة خفيةً على كثير من الناس؛ لأنه لا يدرك الحكمة إلا من كان خبيراً، ففي قرن هذين الاسمين فائدةٌ وهي أن الخبرة قد تكون خفية لا يعلمها إلا الله ـ عزّ وجل ـ.

ومن ثَمَّ قلنا: إن جميع أوامر الشرع ونواهيه حكمة، ولا حاجة أن نعرف العلة؛ لأننا نعلم أن الله حكيم، وأنه ما شرعه إلا لحكمة، وما موقفنا من الأوامر والنواهي إلا أن نقول: (سمعنا وأطعنا)، فإن تيسر لنا معرفة الحكمة فهذا منّة من الله ـ عزّ وجل ـ، ومساعدة ومعونة من الله، حتى يطمئن القلب ويقوى الإيمان، وإن لم تتبين فالمؤمن يكفيه أن هذا حكم الله ـ عزّ وجل ـ، ولذلك ربما تكون العبادة التي تخفى حكمتها أبلغ في التعبد؛ لأن الشيء إذا علمت علته قد يكون عقلك يأمرك به، لكن إذا كنت لا تعرف العلة فإن تذلُّلَك لله به وعبادتك إياه أبلغ في التذلل.

مثال ذلك: رمي الجمرات، وهي حصى تأخذها من

= حائط... (٢٣٨١)، ومسلم، كتاب البيوع، باب: النهي عن المحاقلة والمزابنة وعن المخابرة (١٥٣٦).

الأرض وترمي بها في مكان معين، الإنسان قد يعلم العلة وقد لا يعلم، أكبر علة فيها أنها ذِكر الله ـ عزّ وجل ـ كما جاء في الحديث: «**إنما جعل الطواف بالبيت وبالصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله**»[1]، فهذا كمال التعبد، إنسان عاقل مؤمن فاهم ذكي يأخذ حجرات، حصيات ويرميها في مكان معين، هذا لولا أنه مشروع لقيل إنه عبث، لكنه في وقته ومكانه مشروع؛ لأن فيه كمالَ التعبد والتذلل لله، وأن المؤمن يقول: (سمعنا وأطعنا)، مع أن فيه ذكراً لله بالقلب، وهو كمال التذلل والتعبد، وفيه ذكر الله باللسان؛ لأنه يشرع مع كل حصاة ترميها أن تقول: (الله أكبر).

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات اسم (القاهر) لله ـ عزّ وجل ـ؛ لأنه قال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ وجاء بصيغة أخرى: ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فيستفاد من إثبات الاسم إثبات الصفة وهي القهر؛ لأن أسماء الله كلها دالة على معنى واحد أو أكثر؛ لأنها أسماء وأوصاف؛ فهي باعتبار تعيين الذات أسماء، وباعتبار دلالتها على المعنى أوصاف، ولهذا نقول: أسماء الله ـ عزّ وجل ـ ليست كأسماء بني آدم، فإن بني آدم قد يُسمى الإنسان باسمٍ، وهو من أبعد الناس عن وصفه، بخلاف أسماء الله ـ عزّ وجل ـ.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الحج، باب: ما جاء كيف تُرمى الجمار (٩٠٢)، وأبو داود، كتاب المناسك، باب: في الرمل (١٨٨٨)، والإمام أحمد في مسنده (٢٣٨٣٠).

الفائدة الثانية: إثبات الفوقية لله ـ عزّ وجل ـ لقوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ وتقدم أنها فوقية مكان، وفوقية مكانة، أما فوقية المكانة فما أحدُ من المسلمين يتنازع فيها، وهي الفوقية المعنوية، أما فوقية المكان فقد تنازع المسلمون فيها على طرفين ووسط.

الطرف الأول: يقول إنه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في كل مكان في السماء وفي الأرض وفي الأسواق وفي المساجد وفي المدارس وفي كل مكان، ولا يخفى ما يلزم على هذا القول الباطل من اللوازم الفاسدة، كمخالفة النصوص ومخالفة الفِطَر، ومخالفة العقول، ووصف الله تعالى بما لا يليق بجلاله وعظمته.

ولو قال قائل: من يقول إن الله في كل مكان هل نعتبره مسلماً؟

فالجواب: هم ينتسبون للإسلام، ولذلك يعدون من الفرق الإسلامية، وبعض العلماء ـ رحمهم الله ـ أخرج الجهمية من الفرق الإسلامية.

والطرف الثاني: على العكس مما قاله الطرف الأول، فقالوا: لا يجوز أبداً أن نثبت أن الله في مكان، لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال، ومعلوم أن هذا القول؛ يعني العدم.

ولهذا قال محمود بن سُبَكْتَكِين ـ رحمه الله ـ، وهو من أقوى الأمراء والسلاطين في المشرق، لمحمد بن فورك لما سأله عن علو الله فقال: إننا لا نقول: فوق ولا تحت إلى آخره، قال: فرِّق لي بين هذا الرب الذي تصفه وبين العدم[1] وصدق ـ رحمه الله ـ.

---

(١) ذكرها ابن تيمية في درء التعارض (٦/٢٥٣)، والذهبي في السير (١٧/٤٨٦).

والوسط هو الذي هدى الله إليه سلف الأمة وأئمة الأمة وأهل السُّنَّة، أن الله تعالى في مكان فوق كل شيء، وليس معنى ذلك أنه في مكان يحيط به، كما لو كنا في مسجد تحيط بنا جدران المسجد، بل هو فوق كل شيء؛ لأن ما فوق المخلوقات عدم، ليس فوقها شيء حتى نقول: (إن الله قد أحاط به شيء من مخلوقاته)، فهو فضاء عدمي، والله تعالى فوق كل شيء.

وقد دل على فوقية المكان الكتابُ والسُّنَّة فقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾ [الملك: ١٦]، وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه: ٥].

ومن السُّنَّة أن النبي ﷺ لما سأل الجارية أين الله؟ قالت: في السماء، فأقرها، وقال: **«أعتقها فإنها مؤمنة»**[1].

ومن السُّنَّة الفعلية أن النبي ﷺ في حجة الوداع كان يقول: **«اللهم اشهد»** ويرفع إصبعه إلى السماء، ثم ينكتها إلى الناس يردها إليهم[2].

وأما الدليل العقلي على علو الله ـ عزّ وجل ـ: أن العلو صفة كمال، والله تعالى موصوف بصفات الكمال، فلزم أن يكون عالياً ولأن ضد العلو السفل؛ لأنهما متقابلان، فإذا انعدم علوه لزم ثبوت سفوله، وهذا مستحيل على الله ـ عزّ وجل ـ.

وأما من الفطرة: فإن الإنسان كلما دعا يجد من نفسه

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (٥٣٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب الحج، باب: حجة النبي ﷺ (١٢١٨).

ضرورة بطلب العلو، وما قال: (يا الله) إلا ويجد قلبه يرتفع إلى السماء بدون أي دراسة، وبدون أي تعليم، فهو دليل فطري حتى قيل: إن البهائم تقر بذلك، وفي الحديث الضعيف أن سليمان بن داود ـ عليهما الصلاة والسلام ـ خرج مرة يستسقي ـ أي: يطلب نزول المطر ـ فوجد نملة مستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء، تقول: اللهم إنَّا خلق من خلقك فلا تمنع عنا رزقك، فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم[1]، هذا الأثر ضعيف لكن لا نستبعد أن البهائم العجماء تعترف بعلو الله ـ عزّ وجل ـ.

وقد أخبرني أحد الطلاب أنه رأى ناقة من شدة الولادة ترفع رأسها إلى السماء، يقول كانت مضطجعة على جنبها وبين الحين والآخر ترفع رأسها إلى السماء، وهذا لا يُستبعد أنها رفعت رأسها إلى ربها ـ عزّ وجل ـ، وأخبرني طالب آخر أنه في سفر رأى حشرة كالجرادة تقف؛ كالإنسان على رجليها وتمد يدها وترفع رأسها إلى السماء، وكذلك من الحشرات نوع إذا آذاه أحد وقف على رجليه ورفع يديه، لكن بعض الطلاب يقول: إنه يرفع يديه ليبرز سلاحه؛ لأن يديه فيها شوك.

فتبين أن الأدلة كلها من الكتاب والسُّنَّة والعقل والفطرة وكذلك هناك إجماع على هذا، وكل هذه الأدلة متفقة على علو الله ـ تبارك وتعالى ـ علوَّ مكانٍ ليس فيه أي نقص، وأما تدجيل المنكرين على كتاب الله وسُنَّة رسوله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ بأنه يلزم من ذلك أن يكون جسماً، فنقول: إذا لزم هذا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٩٥)، والطبراني في الدعاء (٩٦٧، ٩٦٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٢٥).

من كتاب الله وسُنَّة رسوله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فليكن ولا يضرنا إذا لزم، ولا شك أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ له ذاتٌ مُخالِفةٌ لذوات المخلوقات من كل وجه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، حتى في الوجود والحدوث مخالفة، فإن الله لم يزل ولا يزال موجوداً بخلاف غيره من المخلوقات، ولكن إياك أن تتصور هذه الذات العلية؛ لأنك لا تستطيع أن تتصورها بصورة مطابقة إطلاقاً، كما قال ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]

الفائدة الثالثة: إثبات العبودية لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ وهذه هي العبودية الكونية، فكل الخلق عباد الله ـ عزّ وجل ـ، يفعل فيهم ما يشاء ولا يمكن لأي أحد براً أو فاجراً مؤمناً أو كافراً أن يستعصي على ربه ـ عزّ وجل ـ من هذه الناحية.

الفائدة الرابعة: إثبات اسمي الله (الحكيم والخبير) وما تضمناه من صفة، فالذي تضمنه الحكيم صفتان الإحكام والحكم، وإن شئت فقل: الحِكْمة والحُكْم، وقد سبق في التفسير أن الحكمة هي وضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، وقال بعضهم: (إن الشرع ما أمر بأمر فقال العقل: ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته لم ينه عنه)؛ لأن أوامر الشرع ونواهيه مطابقة تماماً للحكمة، كذلك الأمور الكونية كلها مطابقة للحكمة كما سبق في التفسير.

وأيضاً بالنسبة للحُكْم فحكم الله نوعان: شرعي وقدري، وإن شئت قل كوني، وهي أيضاً موافقة للحكمة، وتقدم أيضاً أن الحكمة

نوعان: حكمة غايةٍ وحكمةُ صورةٍ، فالغاية أن كل ما قضاه الله كوناً أو شرعه فإنه على وفق الحكمة، والغاية منه حكمة أيضاً.

الفائدة الخامسة: إثبات وصف الخبرة لله ـ عزّ وجل ـ، وهي العلم ببواطن الأمور، ويترتب على إيماننا بهذا أن نستسلم لحكم الله الشرعي، كما أننا مستسلمون لحكمه القدري، وأن لا نكلف أنفسنا بالاطلاع على الحكمة فيما لا تدركه عقولنا، بل نؤمن ونسلم، وكذلك يقال في الأحكام القدرية: (نؤمن بالله ونسلم لقضائه) إذاً يستلزم من جهة المنهج والمسلك أن الإنسان يرضى بالحكم الشرعي، فلا يقول: (ليته لم يحرّم، أو ليته لم يوجب)، وكذلك يستسلم للقَدَر.

ومن الفوائد المسلكية والمنهجية أنك تلتزم بأحكام الله الشرعية؛ لأن الحكم له، والحكمة فيما شرع، فلا مناص لك عن أحكام الله الشرعية.

فإن قيل: وهل هذا يمنع من أن نسأل عن الحكمة؟

قلنا: لا يمنع، لكن بشرط أن نستسلم تماماً قبل معرفة الحكمة، أما ألا نستسلم إلا إذا عرفنا الحكمة فهذا غلط عظيم.

وبالنسبة لقوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ متى علمت أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ خبير بكل شيء يقع منك، فإنك سوف تخاف من مخالفة الله ـ عزّ وجل ـ، وسوف ترغب بالقيام بأمره لأنك تعلم أنك لم تعمل عملاً إلا علم الله بك، وهذه نتيجة مهمة جداً، من يترك الزنا مثلاً في مكان لا يطّلع عليه إلا الله وبدون معارضة من المرأة والنفس تدعو لذلك لا يترك هذا في مثل هذه الحال إلا مؤمن يعلم أن الله يراقبه.

وتأمل في قصة يوسف ـ عليه السلام ـ، دعته سيدته إلى نفسها في مكان خالٍ، ولا يمكن الوصول إليه؛ لأنها غلقت الأبواب، وهي امرأة العزيز، ستكون على جانب كبير من الجمال أو التجمل، ولمّا همت به وهمّ بها رأى برهان الله ـ عزّ وجل ـ ـ أي: ما في قلبه من الإيمان ـ لأن الرؤية قد تكون بصريةً وقد تكون علمية، أما قولهم إنه تمثل له أبوه، أو ما أشبه ذلك فليس بصحيح، وإنما انصرف عنها وتركها خوفاً من الله ـ تبارك وتعالى ـ وقال الله في ذلك: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: كان الأمر كذلك ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

وتأمل قول النبي ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة، منهم: «**رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله**»(١)، فالمهم أنك متى آمنت بعلم الله ـ عزّ وجل ـ بجميع أحوالك، وبما في قلبك فإنك لن تخالفه فتعصيه، كيف تخالف الله ـ عزّ وجل ـ وتعصيه وهو يعلم؟ هذا لا يقع إلا ممن أزاغ الله قلبه، نسأل الله العافية.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٩].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب: فضل من ترك الفواحش (٦٨٠٦).
ومسلم، كتاب الأذان، باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد (٦٦٠).

قيل: إن هذه الآية لها سبب، وهو أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: من يشهد لك بأنك حق، اليهود والنصارى أنكروا، فمن يشهد لك؟ فأنزل الله هذه الآية، وسواء كان هذا هو السبب أو لم يكن فلا شك أن الشيطان يلقي في قلوب المشركين، ويقول: ماذا عند محمد من الآيات؟ وماذا عنده من الشهادة؟ فقال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ المعنى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين أي شيء أكبر شهادة فإن أجابوا خصموا، وإن لم يجيبوا فأجب أنت، ولهذا أمر الله نبيه أن يجيب قبل أن يجيب هؤلاء، لئلا يكابروا ويعاندوا فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ والمتبادر إلى الذهن أن قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ جواباً لهم لو قالوا: من الشاهد؟ لكن الرسول ﷺ يسألهم يقول: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ ربما يكابرون ويقولون: لا شاهد لك، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

نُعرب هذه الآية:

لأن فيها أوجهاً:

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ الإعراب الأول: أن يكون الاسم الكريم مبتدأ، والخبر محذوف، والتقدير (قل الله أكبر شهادة)، وعلى هذا التقدير يكون قوله: ﴿شَهِيدُۢ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير هو شهيد بيني وبينكم ليكون مطابقاً لقوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾.

الوجه الثاني: أن يكون الاسم الكريم خبراً لمبتدأ محذوف تقديره هو الله، وعلى هذا التقدير يكون قوله: ﴿شَهِيدُۢ﴾ يجوز فيها وجهان:

الوجه الأول: أن تكون خبراً ثانياً للمبتدأ المحذوف، ويكون التقدير (هو الله شهيدٌ).

الوجه الثاني: أن تكون (شهيد) خبر لمبتدأ محذوف، يعني: (هو الله هو شهيد بيني وبينكم)، هذه الأوجه في الإعراب يتوقف عليها الوقوف فتقف على كلمة ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾.

هناك وجه آخر منفصل عن هذه الوجوه، أن يكون الاسم الكريم مبتدأ خبره (شهيد)، وإذا كان الله شهيداً بينه وبين أعدائه فمن أكبر من الله، لا أحد أكبر، كل هذه الأوجه مهما تنوعت لا يعدو أن يكون المعنى: (الله أكبر شهادة من كل شيء)، ولا شك في هذا.

فإن قيل: وبماذا شهد الله للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ؟

قلنا: شهد الله للرسول ﷺ بصدقه باللفظ وبالفعل.

أما باللفظ: فقال الله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦] وقال ـ عزّ وجل ـ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ [المنافقون: ١]، فهذه شهادة قولية من الله على أن رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ حق.

وأما الفعل: فإن الآيات التي يظهرها الله على يده النبي ﷺ هي شهادة فعلية من الله والتمكين له في الأرض، وتمكينه من أن يضرب الأعناق، ويسبي الأموال والذرية، وتمكينه من أن يتلو القرآن على الناس، ويقول هذا كلام الله، وقد قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحاقة: ٤٤] بعضها ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٥، ٤٦]، فشهادة الله الفعلية كثيرة بأنه حق.

قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ ﴿وَأُوحِيَ﴾ أبهم الفاعل؛ لأنه معلوم، فالموحي هو الله ـ عزّ وجل ـ.

والوحي في اللغة العربية: هو الإعلام بسرعة وخفاء، أي: أن تُعلم صاحبك بسرعة فتعطيه كلمات يفهمها بسرعة وخفاء، لئلا يطلع عليها أحد، فأصل الوحي السر.

لكنه في الاصطلاح: هو عبارة عن تكليم الله ـ عزّ وجل ـ بواسطة أو بغير واسطة، لأحد من عباده بشريعة يبلغها الناس، وسُمي بذلك؛ لأن الوحي خفي، تارة يكون في روع الرسول ﷺ، وتارة يكون بتكليم الله للرسول من وراء حجاب، وتارة يكون بإرسال رسول يرسله الله ـ عزّ وجل ـ فيوحي بإذنه ما يشاء.

وقوله: ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ مصدر؛ كالغفران والشكران، وهل هذا المصدر بمعنى اسم المفعول، أو بمعنى اسم الفاعل؟ فالمصدر قد يأتي بمعنى اسم الفاعل، ويأتي بمعنى اسم المفعول، تقول: هذا عدل رِضَى، أي: عادل راضٍ، وفي الحديث «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[1]، أي: مردود.

وكلمة (القرآن) هنا مصدر يشمل المعنيين، فهو بمعنى اسم فاعل، أي: قارئ؛ لأنه جامعٌ آياته وكلماته وما يحتاج الناس إليه، وبمعنى مفعول، أي: مقروء، وكلا الوصفين ثابت للقرآن الكريم.

قوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ (اللام) هنا متعلقة بـ ﴿أُوحِيَ﴾، أي:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨).

أوحي إليَّ لأكون منذراً لكم، وهذه هي الحكمة من الوحي، أنَّ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يوحي للرسول ﷺ لينذر به، وإذا أورث الله ـ تبارك وتعالى ـ رجلاً هذا الوحي فإنما أورثه الله لينذر به، ويقول الحق، كما سيأتي إن شاء الله في الفوائد.

قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ (مَنْ) اسم موصول معطوف على الكاف في قوله: ﴿لِأُنذِرَكُم﴾، يعني: وأُنْذِر من بلغ، والفاعل يعود على القرآن، والمعنى فمن بلغه القرآن فكأنما خاطبه النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ إلى يوم القيامة؛ لأنه قال: (لأنذركم أيها المخاطبون ومن بلغ) فمن بلغه القرآن بأي واسطة فقد أنذر، ولكن من بلغه القرآن بغير اللغة العربية، ولم يفهم منه شيئاً فلا تقوم عليه الحجة، ومن بلغه باللغة العربية وهو لا يفهمها فإنها لا تقوم عليه الحجة، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف: ٣]، جعلناه يعني: صيرناه باللغة العربية.

قوله: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ﴾ هذا الاستفهام للإنكار، وهو استفهام داخل على جملة مؤكدة بـ (إنَّ) و(اللام)، فهي كقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ [يوسف: ٩٠]، فالهمزة داخلة على جملة مؤكدة بـ (إنَّ) و(اللام).

وقوله: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ﴾ يؤكد أنهم شهدوا أن مع الله آلـهة أخرى، وينكر عليهم هذه الشهادة؛ لأن هذه أكذب شهادة، ولقد قال هؤلاء: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ﴾ [ص: ٥، ٦]، أي: الأشراف

﴿أَنِ ٱمْشُوا﴾ دعوا هذه الدعوة لا تغرنكم ﴿وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ٦، ٧].

قوله: ﴿قُلْ لَّآ أَشْهَدُ﴾، يعني: إن شهدتم فأنا بريء منكم، لا أشهد أن مع الله آلهة أخرى، ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، كرر الأمر بالقول لأهمية الموضوع، فأمر أولاً بنفي شهادتهم، ثم أمر ثانياً بإثبات شهادته أن الله إله واحد.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿بَرِيٓءٌ﴾ البراءة بمعنى الخلو، ومنه أبرأ الرجل غريمه، أي: أخلاه من الدين الذي عليه، فمعنى ﴿بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، أي: أني خلي مما تشركون فأنبذه، ولا أقرُّ به.

وقوله: ﴿مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يعم كل ما يشركون به.

فإن قال قائل: هل هو بريء من عيسى؟

فالجواب: إن عيسى ـ عليه السلام ـ لا يتبرأ منه الرسولُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وبناءً على هذا فإما أن نجعل (ما) مصدرية، ويكون المعنى بريء من شرككم، وإما أن نجعلها موصولة ويستثنى من ذلك من يُعبَد من دون الله وهو صالح من الأنبياء والملائكة وغيرهم، وهذا نظير قول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠﴾ [الأنبياء: ٩٨ ـ ١٠٠].

لما نزلت هذه الآية احتج المشركون على النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، وقالوا: إذاً عيسى من أهل النار؛ لأنه

يُعبد من دون الله، فأنزل الله تعالى رداً لهذه الشبهة قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١]، فيكون عيسى ـ عليه السلام ـ مستثنى من هذا العموم، وكذلك نقول في هذه الآية، فصار المخرج أحد أمرين، إما أن نجعل (ما) مصدرية فيكون المعنى بريء من شرككم، أو نجعلها موصولة ويستثنى من ذلك من جُعل شريكاً مع الله وهو لا يرضى بذلك، من الأنبياء والملائكة والصالحين.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إطلاق اسم (الشيء) على الله لقوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ لأن اسم الاستفهام إذا أضيف إلى كلمة، صارت هذه الكلمة صادقة على جواب الاستفهام، وهنا جواب الاستفهام ﴿ٱللَّهُ﴾، فيكون الله تعالى شيئاً، يعني يصدق أن نسميه شيئاً، وقد قال البخاري ـ رحمه الله ـ: (وسمى الله نفسه شيئاً)[1]، ولكن يجب أن نعلم أنه يخبر بكلمة شيء عن الله، ولكن لا يسمى به، دليلُ هذا أن الله تعالى له الأسماء الحسنى، وكلمة (شيء) لا تدل على هذا المعنى.

لو قال قائل: هل يجوز أن نطلق على القرآن أنه شيء؟

فالجواب: نعم هو (شيء) بلا شك، قالت الجهمية: إذا أطلقتم على القرآن بأنه شيء فقد أقررتم بأنه مخلوق؛ لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] وجوابنا على هذا أن نقول: القرآن كلامُ الله ـ عزّ وجل ـ، وكلام الله هو

(١) ذكره في كتاب التوحيد، باب قل: (أي شيء أكبر شهادة قل الله).

وصفه، ووصف الخالق غير مخلوق؛ لأن الوصف تابع للذات، فكما أن الذات غير مخلوقة فكذلك الوصف، ثم لا يمنع أن يكون المراد بقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ [الرعد: ١٦] أن يكون المرادُ بهذا العمومِ الخصوصَ، أي: خالق كل شيء من المخلوقات، والعموم قد يراد به الخصوص كما في قول الله تعالى عن ريح عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ومعلوم أنها لم تدمر السماء ولا الأرض بل ولا المساكن، كما قال ـ عزّ وجل ـ: ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

الفائدة الثانية: أن شهادةَ اللهِ أكبرُ شهادةٍ، ونعم واللهِ إن شهادة الله أكبر شهادة، لأنها مبنية على علم ويقين وعدل، والخلل في الشهادة أن تكون مبنية على ظن أو على جهل أو على جور؛ لأن الشاهد إما أن يبني شهادته على أشياء ظنية، أو يشهد عن جهل تام، أو يشهد على جور، كل هذا يخل بالشهادة، وشهادة الله ـ عزّ وجل ـ منزهة عن هذا، صادرة عن علم يقيني، وعن عدل لا يمكن أن يجور في الشهادة ـ جل وعلا ـ.

ومما يدل لذلك القرآن، قال الله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾ [النساء: ١٦٦] يكفي شهادة الله، وقال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤﴾ [الحاقة: ٤٤]. انظر قوله: ﴿بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ ﴿بَعۡضَ﴾ هذه مضافة لأقاويل، يعني: قولاً من أقاويل كثيرة، فمثلاً لو أوحينا إليه ألفَ قولٍ فَتَقَوَّلَ قولاً واحداً ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦﴾ [الحاقة: ٤٥، ٤٦]، وهل قُطِعَ من الرسول ﷺ الوتين؟

الجواب: لا، بل بقي حياً إلى الأجل المحتوم له، ونصره الله، فدل هذا على أنه ﷺ حق، وشهادة الله كما سبق في التفسير أنها نوعان: قولية وفعلية، فالقولية كما تقدم في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾، والفعلية نصره إياه وتمكينه إياه.

الفائدة الثالثة: أن الله ـ تبارك وتعالى ـ حاكم بين النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وخصومه لقوله: ﴿شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

فإن قال قائل: وهل يطلق الشاهد على الحاكم؟

فالجواب: نعم واقرأ قول الله ـ عزّ وجل ـ في سورة يوسف: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧]، فقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾، يعني: حكم حاكم؛ لأنه لم يشهد إذ إنه يقول: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ الآية. ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ...﴾ الآية.

ثم نقول: الحاكم في الواقع شاهد من وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أنه يشهد بأن الحكم كذا وكذا.

الوجه الثاني: أنه يشهد على المحكوم عليه بأن الحق عليه.

الوجه الثالث: أنه يشهد للمحكوم له بأن الحق له.

فالحكم متضمن الشهادة بلا شك، فيصح أن يطلق على الحاكم أنه شاهد.

الفائدة الرابعة: أن هذا القرآن موحى إلى الرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ كله، ليس فيه ولا كلمة ولا حرف غير

موحى إليه، وأبهم الفاعل؛ لأنه معلوم؛ لأن الرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أُمِرَ أن يقول: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓۚ﴾ [سبأ: ٥٠].

الفائدة الخامسة: عظمة هذا القرآن؛ حيث أوحي من الله إلى رسوله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ولا شك في هذا ـ وآثار تعظيمه وعظمته كثيرة.

منها: أنه لا يقرأه جنب حتى يغتسل.

ومنها: أنه لا يمسه المحدث حتى يتوضأ.

ومنها: أنه لا يجوز أن تُدْخَلَ به الأماكن القذرة.

ومنها: أنه لا تجوز إهانته بأن يوضع بين القدمين مثلاً.

ومنها: أنه لا يسافر به إلى أرض العدو إذا كان يخشى عليه من الإهانة.

ومنها: أنه لا يجوز بيع المصحف على قول بعض العلماء، وعللوا ذلك بأنه ابتذال له، حتى قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «وددت أن الأيدي تقطع في بيع المصاحف»[1]؛ لأن الواجب على من استغنى عنه أن يبذله لغيره.

فالمهم أن تعظيم القرآن واجب وله صور، ذكرنا منها ما شاء الله.

الفائدة السادسة: أن القرآن الكريم كافٍ في الإنذار؛ لقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾، فمن لم يتعظ بالقرآن فلا وعظه الله، قال الله

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٦/ ١٦)، وسعيد بن منصور (٢/ ٣٨٥)، وأبو داود في المصاحف (١/ ٣٦٨)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢٨٧).

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس: ٥٧].

الفائدة السابعة: أن من بلغه القرآنُ فقد قامت عليه الحجة؛ لقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾، ولكن هل من بلغه القرآن وهو لا يعرف اللغة العربية هل يقال: إنه قامت عليه حجة؟

الجواب: لا، والدليل قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤].

الفائدة الثامنة: أنه يجب على علماء المسلمين أن يبلغوا القرآن كلَّ أحد؛ لأنهم ورثة الأنبياء، ولكن من لم يكن لسانه عربياً فإنه يُبلَّغ معنى القرآن بلسانه، ثم يُعطى القرآن فيقرؤه باللفظ العربي، ولهذا نرى بعض الذين لا ينطقون العربية يقرؤون القرآن بالعربية وهم لا يعرفون معناه، وهذا من آيات الله، أن الله تعالى يسر القرآن لهم حتى صاروا ينطقون به بالعربية مع أنك لو أعطيتهم قطعة من سطرين فقط ما استطاعوا أن يقرؤوها، لكن هذا من آيات الله، وربما نقول: إنه داخل في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ [القمر: ١٧].

عندنا أيضاً مسألة أخرى إذا بلغ القرآن قوماً يعرفون اللغة العربية ولكنَّهم عاشوا في أحضان أئمة الضلال ولا يدرون شيئاً، إذ إن أئمة الضلال عندهم هم المبلغون عن الله ورسوله، فهل هؤلاء معذورون، أو غير معذورين؟.

والذي أرى أنهم معذورون، ولكن عليهم إذا نُبِّهوا للحق أن يبحثوا عنه فإن أصروا مع التنبيه، وقالوا: (إنا وجدنا آباءنا على أمة) فهم كفار، وهذا هو الذي تجتمع به الأدلة عندي أنهم إن

بقوا على جهلهم، ولم ينبهوا للحق فهم معذورون وإلا فهم غير معذورين، وهذا فيمن يدين بدين الإسلام.

وأما من عَرَف أنه على غير الإسلام يتبع أئمته أئمة الضلال، وهو يعرف أنه غير مسلم؛ كالنصارى مثلاً واليهود، فهؤلاء كفرهم ظاهر، حتى هم بأنفسهم يعرفون أنهم من أمة الكفر، ولا ينتسبون إلى الإسلام.

ولو قال قائل: مسألة العذر مشكلة جداً، وأنتم ذكرتم أنه يجب على صاحب البدعة الكفرية أن يبحث إذا بلغته الحجة، فهذا المبتدع إذا أخبره أحد من أهل السُّنَّة سيقول: هذا سني كافر، كيف آخذ من كافر فهو لن يقبل منا صرفاً ولا عدلاً، فكيف نأمره بأن يبحث؟

الجواب: إذا بلغه الحق من القرآن والسنة، فإن الحق فيهما واضح والحمد لله، فإن قال: (الحق على خلاف ما أنت عليه أيها السني) قلت له: بيني وبينك كتاب الله ـ عزّ وجل ـ.

فإن قال المبتدع: ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢].

قلت: بلى أقرؤها لكن هذه الآية بالنسبة لهم ليس لك أنت.

فإن قال: لنا فَهْمُنا ولكم فهمكم، وفهمنا هو الصواب.

قلنا: معنى هذا أن هؤلاء مكابرون، مَنْ يفهم من قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أن هذا يعني: جواز عبادتهم، والله تعالى ملأ القرآن بالنهي عن عبادة غيره.

فإن قلت: كيف نحكم على هذا المبتدع أن الحجة بلغته حقاً أو لا؟

قلنا: المبتدع إذا كابر بعد ما أريناه الآيات فالسيف أمامه ونحكم بكفره في الدنيا ونقتله، وإن كان ما يقوله حقاً من أنه لم تبلغه الدعوة إلا مشوشة فأمره إلى الله ـ عزّ وجل ـ لا يجوز أن تقرن أحكام الدنيا بأحكام الآخرة، أحكام الدنيا لها حال وأحكام الآخرة لها حال؛ هذا الرجل الذي قتله أسامة بن زيد يقول: أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، فمن أحكام الدنيا أن نرفع عنه القتل مع أنه ربما يكون قد قالها تعوذاً ولا ندري، وعلى كل حال فلا شك أن المسألة عويصة، لكن الذي تبيَّن لي هو ما قررته.

لو قال قائل: ما حكم أتباع أهل الضلال من العوام، هل يعذرون بالجهل؟

فالجواب: هذا يختلف فيه الحكم، فإذا كان هؤلاء الأتباع لم يُذكر لهم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولم يعلموا أنه جاء رسول للخلق، وقادتهم كتموا عنهم هذا فهم معذورون، لكن إذا علموا فلا بد أن يتبعوا.

وليُعلم أن هناك فرقاً بين اليهود والنصارى وغيرهم، فغيرهم لا بد أن تبلغه الحجة ويفهمها، وأما اليهود والنصارى فبمجرد سماع الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ تقوم عليهم الحجة، ولهذا قال الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولا**

يؤمن بما جئت به إلا كان من أصحاب النار»[١]، ووجه ذلك أن اليهود والنصارى كتبهم مصرحة بوصف الرسول ﷺ، فما بقي عليهم إلا أن يسمعوا بخروجه، فإذا سمعوا بخروجه قامت عليهم الحجة.

ولو قال قائل: الذين يأتون الأفعال الشركية هل نتعامل معهم معاملة المسلمين؟

فالجواب: هؤلاء يتوقف فيهم، وإذا قدمت جنائزهم فالمصلي يستثني يقول: (اللهم اغفر له إن كان مؤمناً).

لو قال قائل: بعض العوام الذين اتبعوا أئمة الضلال هؤلاء قد طعنوا في مشايخ الحق أمثال: شيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ محمد بن عبد الوهاب، فكيف نبلغ لهم تفسير كتاب الله؟

فالجواب: نقول: دعونا من فلان وفلان، القرآن بيننا والسُّنَّة بيننا، وكما قال الله ـ عزّ وجل ـ يخاطب فرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، نقول لهؤلاء: كل من يُدعى من دون الله فلن يستجيب لأحد، ودعاؤه ضلال، قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف: ٥]، فإن لم يذعنوا صاروا مكابرين، وهذا جهل عظيم ولا عجب، فالكفار كان الواحد منهم يصنع الصنم بيده ثم يعبده، رغم أنه أعلى منه، ثم الغريب أن بعضهم يصنعه من التمر العبيط، ثم إذا جاع أكله، ثم خرج من دبره قذراً نسأل الله السلامة.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (١٥٣).

لو قال قائل: ما حكم قول العوام في بعض أشعارهم يا أبا الأفراج؟

فالجواب: هذه مشكلة، لأننا لو أخذنا بظاهرها فقد جعلوا الإلـٰه أباً، لكني أعلم أنهم يريدون بمعنى يا أبا الأفراج، أي: (يا صاحب الأفراج) فنقول: قولوا: يا صاحب الأفراج وأحسن من هذا أن تقولوا: يا مفرج الكُربات.

الفائدة التاسعة: الإنكار الشديد على من يشهدون أن مع الله آلـٰهة أخرى؛ لقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾، فالاستفهام للإنكار، وتأمل كيف أتت الجملة التي دخلها الاستفهام مؤكدة بـ (إنَّ) و(اللام)، حتى لا ينكروا، يعني: أؤكد أؤكد أنكم تشهدون أن مع الله آلـٰهة أخرى وأنكر عليكم.

الفائدة العاشرة: سفه أولئك المشركين الذين يشهدون أن مع الله آلهة أخرى، ولو سئلوا عنها: أتخلق شيئاً؟ لقالوا: لا، وهذا من سفههم، أن يعبدوا من لا يخلق.

الفائدة الحادية عشرة: وجوب التبرؤ من أهل الباطل وما هم عليه، لقوله: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾، يعني: أؤكد أنكم تشهدون، ولكني أنا لا أشهد، وهذا واجب أن يتبرأ الإنسان من كل ما يعبد من دون الله، فإن لم يشهد ببطلان الآلـٰهة سوى الله ـ عزّ وجل ـ فإنه لم يخلص ولم يوحد؛ إذ إن التوحيد مبني على النفي والإثبات.

الفائدة الثانية عشرة: وجوب البراءة مما عليه المشركون؛ لقوله: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، فيجب أن يتبرأ الإنسان مما يشرك به هؤلاء من المعبودات، أو من عملهم الشركي، ولا تجوز

المداهنة في هذا، ولا تجوز الموافقة، بل تجب البراءة، والعجب أن بعض الناس يداهن هؤلاء الكفار ويقول: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، يعني: فنحن مؤمنون بعيسى، يقولون ذلك أمام النصارى، وأمام اليهود يقولون: نحن مؤمنون بموسى والمسألة ليست هي الإيمان بموسى وبعيسى، نحن نؤمن بهذا، إنما المسألة هي الكفر بمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، هؤلاء كافرون بمحمد ﷺ، فهم غير مؤمنين لا بموسى ولا عيسى، وقد سبق أن من كذَّب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل، واستدللنا لذلك بقول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

لكن لو قال قائل: ما الفرق بين المداهنة والمداراة؟

فالجواب: المداهنة: أن الإنسان يُبقي لصاحبه على ما هو عليه ولا يتكلم معه، والمداراة: أنه يريد أن ينقله مما هو عليه لكن بتلطف.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾ [الأنعام: ٢٠].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ و﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ خبر.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هم اليهود والنصارى؛ لأنهم آخر أمة كان عندها أصل كتابها، فهم الذين أوتوا الكتاب.

وقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ يحتمل أن يكون المعنى يعرفون هذا الكتاب، ويحتمل أن يكون المراد يعرفون النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، والثاني أقرب، ويؤيده قوله: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾، فإن الأبناء بشر، والنبي ﷺ من البشر، يعني: أن الذين أوتوا الكتاب وهم اليهود والنصارى يعرفون النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ كما يعرف الرجل ابنه، وخص الأبناء؛ لأن تعلق الرجل بالأبناء أكثر من تعلقه بالبنات، فتكون معرفته للأبناء أكثر من معرفته للبنات، هذا وجه، ووجه آخر أن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ذَكَرٌ، فهو من الأبناء.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يحتمل أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف، والتقدير: هم الذين خسروا أنفسهم، ويحتمل أن تكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وخبره جملة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، والفاء دخلت على جملة الخبر، لمشابهة المبتدأ الشرط في العموم؛ لأن الاسم الموصول يشبه الشرط في العموم، ويكون تقدير الكلام بدون الفاء، الذين خسروا أنفسهم هم لا يؤمنون، ومؤدى الاحتمالين واحد، والمعنى أن الذين خسروا أنفسهم هم الذين لا يؤمنون، أي: الذين اختاروا الخسارة هم الذين لا يؤمنون، ومنهم الذين آتاهم الله الكتاب.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الحجة قائمة على اليهود والنصارى في صحة بعثة النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ لقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾.

فإن قيل: هذا كلام الله ـ عزّ وجل ـ فهل له من دليل؟

قلنا: سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله أن يُطلب الدليل على صدق خبر الله، خبر الله ـ تبارك وتعالى ـ هو الدليل، ومدلوله هو المدلول، ولا حاجة أن نقول: هل هناك شاهد يدل على أن الذين أوتوا الكتاب يعرفون محمداً كما يعرفون أبناءهم؟ لأن كلام الله أقوى شاهد.

ولكن مع ذلك لا مانع أن نقيم الحجة عليهم من كتبهم فقد قال الله تعالى في سورة الأعراف عن النبي ﷺ إنهم: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ومكتوباً وصفه عليه الصلاة والسلام: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] يعرفون هذا تماماً، وقد نقل الشيخ محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ في تفسيره النصوص من الإنجيل على هذا القول، بل على إقامة الحجة عليهم وأن هذا مكتوب عندهم في كتبهم.

الفائدة الثانية: أنه ينبغي أن يضرب المثل بأقرب مطابق للممثَّل لقوله: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾؛ لأن هذا أقرب إلى التصور وإلى الصدق.

الفائدة الثالثة: المِنَّةُ والتوبيخ على اليهود والنصارى، أما المنة فهي أن الله آتاهم الكتاب، وبيَّن لهم وصف النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ الذي سيرسل للناس كافة، وهذه نعمة، أن يبيِّن الله للعبد طريق الهدى، والتوبيخ أنهم كانوا كافرين به مع وضوح الدليل، فتكون الآية جامعة بين بيان المنة عليهم من الله، وتوبيخهم على الكفر بمحمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ.

الفائدة الرابعة: أن من لم يؤمن فقد خسر نفسه لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وهل خسر أهله؟ نعم، قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الزمر: ١٥]، وخسروا أيضاً أعمارهم، مضت في غير فائدة؛ لأن شخصاً مآله نار جهنم والعياذ بالله بعد أن عمِّر في الدنيا ما عمّر، قد خسر وقته وزمنه كما قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ [فاطر: ٣٧].

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۗ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: ٢١].

قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ (مَنْ) اسم استفهام، والمراد به النفي، أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، والنفي إذا جاء بصيغة الاستفهام صار أبلغ؛ لأنه يكون مُشْرَباً معنى التحدي، كأن المتكلم يقول: بيِّن لي إن كنت صادقاً أحداً أظلم ممن افترى على الله كذباً.

والظلم في الأصل النقص، كما قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: لم تنقص، لكنَّه تعدى إلى نقص الإنسان فيما يجب عليه من فعل الأوامر وترك النواهي فإنه نَقَصَ حق نفسه بذلك.

قوله: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، بمعنى: اختلق على الله الكذب؛ لأن الكذب على الله ـ عزّ وجل ـ أعظم الكذب؛ فمن قال: (إن لله ولداً) هذا افترى على الله الكذب، أو قال: (إن لله شريكاً) هذا افترى على الله الكذب، أو قال: (إن هذا الكون لم

يخلقه الله) افترى على الله كذباً، أو قال: (خلقته الطبيعة)، أو ما أشبه ذلك.

قوله: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۗ﴾ هذان صنفان الأول كذب على الله، والثاني كذب بآيات الله، لا أحد أظلم ممن جمع بينهما ويليه الكذب على الرسول ﷺ، كما قال ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: «**إنَّ كذباً عليّ ليس كَكذِبٍ على أحدكم**»[1] بل هو أعظم.

ويلي ذلك الكذب على علماء الشريعة، فإذا كَذَبَ عليهم بأنهم أفتوا في كذا، فهذا كذب؛ لأنه كذب على الشرع إذ إن علماء الشريعة هم الذين يبلغون الشريعة، فإذا كذب عليهم فقد كذب على الشرع.

وقوله: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۗ﴾، أي: كذب بالآيات الدالة على أن الله ـ عزّ وجل ـ حق كذب بالآيات الكونية والآيات الشرعية، والتكذيب بالآيات الكونية أن ينفي كون الله ـ عزّ وجل ـ خلقها، أو ينفي أن الله ـ تعالى ـ انفرد بخلقها، والشرعية أن ينفي إرسال الرسل بما جاءت به من الوحي. و﴿أَوْ﴾ هنا للتنويع، يعني: افترى أو كذب، وإن جمع بين الأمرين صار أشد، وإذا طبقنا هذه الآية على واقع المشركين من قريش، نجد أنها منطبقة عليهم تماماً، فقد افتروا على الله الكذب بأن أشركوا معه ما لم ينزل به سلطاناً، وافتروا على الله الكذب، فقالوا: (هذا حلال وهذا حرام)، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: ما يكره من النياحة على الميت (١٢٩١)، ومسلم في: المقدمة، باب: تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ (٤).

لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ [الأنعام: ١٣٩]، وهم أيضاً كذّبوا بآيات الله، فكذبوا بالآيات الشرعية التي جاءت على لسان محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، أما الآيات الكونية فهم لم يكذبوا بها.

لو قال قائل: ما حكم الكذب على الله في مدلول الأدلة لكن بدون قصد؟

فالجواب: إذا قال بتفسير الآية ننظر هل هو على قاعدة شرعية، هل هذا ما تقتضيه اللغة، أو ما تقتضيه الشريعة؟ فهو إذا أخطأ بعد بذل الجهد، فهو مغفور له، أما إذا عاند وقال: (المراد بكذا، كذا كذا) فلا عذر له، وأنت إذا أخبرت بمعنى آية، فقد شهدت على الله أنه أراد هذا.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هذا الحكم على من افترى على الله كذباً، أو كذب بآياته، ولكن لم يقل: (إنهم) بل أظهر في موضع الإضمار للعموم، ليعمهم وغيرهم. و(الفلاح) هو النجاح وحصول المطلوب فالظالم لن ينجح ولن يفلح.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الظلم يختلف، بعضه أشد من بعض؛ لأن المعاصي تختلف بعضها أعظم من بعض، فهناك كبائر، وهناك صغائر، والكبائر نفسها تختلف، فهناك أكبر من الكبائر، وما دونها، والصغائر كذلك تختلف، فمن أين نعرف أن الذنوب أو الأعمال المحرمة تختلف؟ لاختلاف الظلم؛ لأن كل فعل محرم، أو ترك واجب ظلم، وإذا كان يتفاوت لزم من ذلك تفاوت الأعمال.

ولو قال قائل: هل للمعاصي والظلم أثر حسي؟

فالجواب: نعم والصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لما عصوا الله في غزوة أحد وفي غزوة حنين عوقبوا، وهذا من حكمة الله ـ عزّ وجل ـ أن هؤلاء الجند الذين هم أشرف جند على وجه الأرض منذ خلق الله آدم حصلت لهم الهزيمة بمعصية واحدة فكيف بالمعاصي التي ملأت الأجواء.

ثانياً: حصلت لهم الهزيمة بافتخارهم بعددهم وكثرتهم وهم أشرف جند على وجه الأرض منذ خلق آدم إلى قيام الساعة، فهذه موعظة لنا إذا كنا نريد الانتصار على أعدائنا فلا يجوز أبداً أن ننغمس في المعاصي وبعضنا منغمس في الإلحاد والكفر والعياذ بالله وموالاة الكفار ومناصرتهم، فكيف يكون لنا نصر؟ فهذا في الواقع من حكمة الله ـ عزّ وجل ـ أنهما مثلان عظيمان تحصل بهما العبرة لآخر هذه الأمة.

ولو قيل: ما ضابطُ المناصرةِ، وهل تهنئة الكفار باحتلال بلاد المسلمين تعدّ من نواقض الإسلام؟

فالجواب: المناصرة أن يناصرهم على الكفر، وأما تهنئة الكفار باحتلال بلاد المسلمين، فإنه حرام ولا يجوز، وأما مسألة النواقض فإنها تحتاج إلى تحرير، ولا يكفيها تعليق موجز، لكن لا شك أن الذي يهنيء الكفار باحتلال بلاد المسلمين أنه على خطر عظيم، نسأل الله العافية.

لو قال قائل: أهل المعاصي الذين يصنعون آلات اللهو وغيرها هل يعاقبون بمثل ما يُفعل بالمصورين؟

فالجواب: لا نقدر أن نقول هذا، لكن كل مَنْ أساء بواسطة هذه الآلات فلهم نصيبهم من إثمه.

الفائدة الثانية: التحذير من أن يفتري الإنسان على الله الكذب؛ لأنه بيّن أنه في المرتبة العليا من الظلم، ومن الافتراء على الله كذباً أن يكذب الإنسان على ربه ـ عزّ وجل ـ في مدلول آياته، فيقول: (أراد الله بكذا، كذا وكذا)، هذا كذب على الله، ومن ذلك أن يفتري على الله كذباً في أحكامه فيقول: (هذا حلال وهذا حرام) كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦].

وعلى هذا فمن قال: المراد بقوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] استولى على العرش، فإنه يدخل في الآية لا شك؛ لأنه افترى على الله كذباً، ومن قال: (إن هذا الشيء حرام) وهو حلال، فقد افترى على الله كذباً، ومن قال: (هذا حلال وهو حرام فقد افترى على الله كذباً.

فالقاعدة إذاً في الافتراء على الله كذباً أن يحرف آياته إلى معانٍ لا يريدها الله ـ عزّ وجل ـ، أو يقول بأحكام لم يحكم الله بها، ومن ذلك التكفير، فإذا قال: (هذا كفر) وليس بكفر، فقد افترى على الله كذباً؛ لأن التكفير حكم شرعي يستدل عليه بالكتاب والسُّنَّة، وليس التكفير إلى الناس، من شاء كَفَّر ومن شاء لم يكفر، بل التكفير إلى الله ورسوله، فمن كفره الله ورسوله وجب علينا أن نكفره، ومن نفى الله ورسوله الكفر عنه، وجب علينا أن ننفي عنه الكفر.

فإن قال قائل: هناك إطلاقات في بعض الأحكام بالكفر، يعني: يطلق عليها الكفر، فكيف نعرف أنه كفر أكبر، أو أصغر؟

نعرف ذلك بقواعد الشريعة العامة، وينزّل الحكم بالكفر

على هذه القواعد وبذلك يتبين أنه أكبر أو أصغر، ولما كان تكفير ولاة الأمور من أشد الأشياء خطراً منع النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ من الخروج عليهم إلا أن نرى كفراً بواحاً ظاهراً بيِّناً عندنا فيه من الله برهان(١).

الفائدة الثالثة: عِظَمُ ظلم من كذب بآيات الله؛ لأنه دخل في الطبقة العليا من الظلم؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، فلا يحكم بظلمه، أو بكونه في المرتبة العليا إلا إذا تبينت له الآيات لقوله: ﴿كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، فإذا بيَّن لهم ما يتقون حكم بضلالهم ـ سبحانه وتعالىٰ ـ، وإلَّا فهم في عذر.

الفائدة الرابعة والخامسة: وجوب التصديق بكل آيات الله الكونية والشرعية، وجه ذلك أن (آيات) مضافة، والجمع إذا أضيف يفيد العموم.

ويتفرع على هذه الفائدة: أن من آمن ببعض وكفر ببعض فقد كفر بالجميع، فلا يعد مؤمناً؛ لأنه يوجد بعض الناس يؤمن ويصدق بما يرى عقله أنه حق، ويكذب بما يرى أنه ليس بحق، أو يؤمن بما يرى أنه مناسب، ويكفر بضد ذلك وهؤلاء بيّن الله حكمهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: سترون، رقم (٧٠٥٦)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، رقم (١٧٠٩).

لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، وقال تعالى منكراً على بني إسرائيل: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، وبَيَّن الله ـ عزّ وجل ـ أن من كفر برسول واحد فهو كافر بالجميع، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥] مع أن قوم نوح هم أول من أرسل إليهم رسول فليُنتبه لهذا، فلا يمكن لإنسان أن يُجزِّئ الشريعة فيؤمن ببعضها ويكفر ببعضها؛ لأننا نعلم أن مثل هذا متبع لهواه فقط.

الفائدة السادسة: نفي الفلاح عن الظالم، أي: لا يمكن أن يحصل له مقصوده، بل بالعكس.

فإن قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية الكريمة وبين نصوص أخرى يرد فيها مثل هذه العبارة في ذنب آخر غير هذا، وتدل أيضاً على أن هذا الفعل أظلم شيء.

مثل قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]، وقوله في هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، وقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه في الحديث القدسي: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**»[1] في المصورين فكيف نجمع بين هذه النصوص؟

فالجواب من أحد وجهين: إما أن نقول: اشتركت هذه الأشياء في المرتبة العليا من الظلم فكلها في مقام الأظلمية، وإما أن يقال: إن الأظلمية أظلمية نسبية، فمثلاً في هذه الآية ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، المعنى: أن الذين يفترون على الله الكذب أظلم من الذين يفترون على غيرهم الكذب، فلو افترى

---

(١) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب: نقض الصور (٥٩٥٣).

مثلاً على زيدٍ، وعلى فلانٍ وعلى فلانة هذا حرام لا شك، لكن أظلم شيء أن يفتري على الله ـ عزّ وجل ـ.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤] هذه أظلمية نسبية يعني: أي إنسان يمنع الناس من حقٍ لهم هذا ظلم، لكن أظلم شيء منع حقهم في المساجد.

يعني: مثلاً قد تمنع هذا الرجل أن يدخل المدرسة لكن هل هذا أشد أو منعه من دخول المسجد؟ **الثاني**: طبعاً منعه من دخول المسجد أشد، قد تمنعه من دخول السوق هذا ظلم، لكن أيما أظلم هذا أو من منع حق الإنسان في مساجد الله؟ الثاني.

وفي مسألة التصوير «**من أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**»، أي: الذين يقلدون غيرهم في التصوير إذا كان على وجه الظلم، فمن أظلم ممن ذهب يخلق كخلق الله، لا أحد.

الفائدة السابعة: بشرى للمظلومين لما تقدم من أن الظالم لا يفلح، فيبشر المجاهدون بالنصر، وبأن مآل من جاهدهم الخذلان، ويبشر من ظُلم بأخذ ماله أو جحد ماله، وما أشبه ذلك بأن هذا الظالم لن يفلح.

لكن لو قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية والواقع؛ لأننا نرى أن الظالم قد يفلح؟

قلنا: الجمع بينها وبين الواقع، أن يقال الفلاح نوعان: فلاح مطلق، وهذا لا يمكن للظالم أبداً، ودليل هذا قول النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»[1]، وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ =

ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]، فلا بد أن يعثر الظالم، ولا بد أن يخسر، طالت الدنيا أم قصرت فمن كان ظالماً بمبدأ من المبادئ فلا بد أن ينخذل هذا المبدأ حتى بعد موته، وإذا كان خاصاً فإنه، وإن لم يحصل له ذلك في الدنيا حسب ما نرى فهو في الآخرة، وربما يكون في قلب الظالم أشياء لا ندري عنها يبتلى بها من ضيق الصدر وكراهة الحق وما أشبه ذلك.

أما الفلاح المقيد بمعنى أن يفلح في زمن معين، أو مكان معين، أو قضية معينة فهذا يمكن أن يقع، ولا يخالف الآية؛ لأن الله تعالى قد يعطي الظالم فلاحاً حتى يغتر بهذا الفلاح فيتمادى في طغيانه، ثم يقصم الله ظهره، وقد أشار الله تعالى إلى هذا في سورة آل عمران قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤١] يمحص المؤمنين بكفارات الذنوب على ما حصل من هزيمة، ويمحصهم ألا يعودوا إلى المعصية مرة ثانية.

ولكن كيف يمحق الله الكافرين وهم منتصرون؟

الجواب: لأن الكافر إذا انتصر تجرأ وافتخر واعتز، فالظالم قد يفلح، ولكن فلاحاً مقيداً لحكمة، أو حِكَم لا نعلمها نحن ولكن يعلمها الله ـ عزّ وجل ـ، وموقفنا إذا سُلط الظالم علينا أن نصبر، وألا نيأس، وأن ننتظر الفرج من فاطر الأرض والسماوات، فإن الصبر مفتاح الفرج، كما قال النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفَرَج**

= أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ (٤٦٨٦)، ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم (٢٥٨٣).

مع الكرب وأن مع العسر يسراً»[١]، اللهم اجعلنا من المفلحين المتقين المحسنين.

لو قال قائل: بعض الناس خاصة من غير طلبة العلم، هم ملتزمون ويريدون إظهار غيرتهم على الإسلام، يتكلمون في ولاة الأمر ويتمنون زوالهم، وما أشبه ذلك من الأمور التي تخالف الأدلة، وتخالف مقتضى العقل، فما هو الموقف السليم لطلبة العلم؟

فالجواب: الواجب على طالب العلم أن يبيِّن ما يقتضيه الدليل مع السمع والطاعة لولاة الأمور إلا إذا أمروا بمعصية، وكذا يبين ما تقتضيه الأدلة من وجوب الكف عن مساوئهم، ومن أراد النصيحة فطريقها مفتوح.

لكن لو قيل: أنا إذا منعتهم تعودوا على الجبن، وعلى الذل.

فالجواب: لا بأس، عز النفس واجب لكن عز النفس لا بد أن يكون على مقتضى الشريعة حتى يكون متزناً وإلا لكان هذا يريد عزة النفس، وهذا يريد عزة النفس، وهذا يريد عزة النفس، وتكون فوضى عارمة يترتب منها فساد عظيم، فإذا واجه الإنسان أناساً على هذه الحال فالواجب النصيحة وأن تُضرب الأمثال لهؤلاء بما حصل من البلاء وإراقة الدماء وانتهاب الأموال فيمن سلك هذا المسلك منهم.

الفائدة الثامنة: التحذير من الظلم، وأن عاقبته الخسارة والدمار لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أعاذنا الله من الظلم.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٠٠).

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: ٢٢ ـ ٢٤].

قوله: ﴿وَيَوْمَ﴾ ظرف، والمعروف أن الظرف والجار والمجرور لا بد لهما من متعلق، كما قال ناظم القواعد[1]:

لا بُدَّ للجارِّ مِنَ التَّعَلُّقِ بفعلٍ أو معناهُ نحوَ مُرْتَقِي
واستثنِ كُلَّ زائدٍ لهُ عَمَلْ كَالبَا ومِنْ والكَافِ أيضاً ولَعَلْ

فمتعلق (يوم) محذوف والتقدير: (اذكر يوم نحشرهم)، أي: اذكر لهم ويجوز أن نقول: اذكر في نفسك حتى تتسلى بهذه الذكرى، ويهون عليك أمرهم.

وقوله: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾، أي: نجمعهم جميعاً لا يفلت منهم أحد.

قوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ نقول: ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾، أي: بالله ـ عزّ وجل ـ في الدنيا ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ والتبكيت، وإلا فمن المعلوم أنهم لن يأتوا بهم، لكن توبيخاً لهم وتبكيتاً لهم وتنديماً لهم أنهم لن ينتفعوا بهم.

قوله: ﴿شُرَكَآؤُكُمُ﴾، أي: ما أشركتم بهم في الله ـ عزّ وجل ـ، ونعلم أن المشركين كانوا أنواعاً وأصنافاً، منهم من يشرك مع الله حجراً، أو شجراً، أو قمراً، أو نجماً المهم فهم مختلفون،

---

(١) انظر: «شرح نظم الجمل» لفضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمٰن السعدي.

فيقال: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، أي: تزعمون أنهم آلهة، والإلـٰه ينفع من تألهه، فأين هو الجواب؟ بيّنه الله ـ عزّ وجل ـ فقال: ﴿ثُمَّ﴾، أي: بعد هذا السؤال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ الفتنة هنا بمعنى: الحجة ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾، أي: حجتهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أقسموا بالله أنهم لم يكونوا مشركين، وهل هم صادقون في هذا القسم؟

الجواب: لا، ولهذا قال: ﴿ٱنظُرْ﴾ أيها المخاطب ﴿كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، والمراد هنا نظر الاعتبار.

وهنا إشكال: كيف يقول: ﴿كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، والأمر لم يأت بعد، فإن هذا يكون يوم القيامة؟

والجواب: أن هذا على حكاية الحال، والله ـ عزّ وجل ـ دائماً يحكي الأشياء المستقبلة حتى يتصورها الإنسان وكأنها واقعة، وإنما يكون ذلك؛ لأن الشيء المستقبل المحقق يكون؛ كالواقع تماماً، ولهذا قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] مع أنه ما أتى، بدليل قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، فيكون التعبير بالماضي على حكاية الحال حتى يتصور الإنسان وكأن الشيء بين يديه، ﴿كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ في قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ (ضَلَّ)، بمعنى: ضاع فلم يجدوه؛ كالرجل الذي ضاع له المال فلم يجده، هؤلاء ضاعت عنهم الآلهة فلم يجدوها.

وقوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، أي: ما كانوا يفترونه من دعواهم

أن هذه آلهة مع الله، فإن هذا من أعظم الافتراء، كما سبق قبل آيتين.

القراءات في هذه الآية القراءة الأولى: (ثم لم يكن فتنتهم إلا أن قالوا)، والقراءة الثانية: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ الخلاف في الفعل، وفي اسم كان وفي خبر كان، الفعل ﴿تَكُن﴾ بالتاء؛ و(يكن) بالياء؛ فاسم كان على قراءة الياء مذكر، وهو قوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾؛ والمعنى: لم يكن فتنتهم إلا قولهم، وأيضاً في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ قراءة أخرى «**والله ربَّنا**»، يعني: والله يا ربنا ما كنا مشركين وهذا الاختلاف في القراءات لا يضر؛ لأنه فيما سبق في العهد الأول كانوا لا يحركون الحروف ولا يعجمونها، يعني: لا يجعلون نقطة ولا نقطتين لا فوق ولا تحت، فتكون القراءتان في الرسم واحدة إنما تختلف في النطق، وفي الإعجام والإعراب بعد أن أعجم القرآن وأعرب.

من فوائد الآيات الكريمة:

الفائدة الأولى: تسلية النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، حيث ذُكِرَ له مآل المكذبين له.

الفائدة الثانية: التحذير من الشرك؛ لأن المشرك سوف يوبخ في يوم لا يستطيع الخلاص فيه.

الفائدة الثالثة: إثبات يوم القيامة يوم الحشر.

الفائدة الرابعة: أن الحشر عام شامل لا يشذ عنه أحد لا مؤمن ولا كافر، ولا بر ولا فاجر، حيث أكده الله ـ عزّ وجل ـ بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾.

الفائدة الخامسة: إثبات القول لله؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ

﴿نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾، قد ينازع منازع ويقول: إن القائل هم الملائكة، وأضاف الله قولهم إلى نفسه؛ لأنهم رسله، القائلون بأمره، فهو كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٨] مع أن القارئ جبريل؟

نقول: هذا وارد بلا شك، أي: أنه يحتمل أن يكون الذي يقول لهؤلاء المشركين: ملائكة، وأضاف الله ذلك إليه؛ لأنهم يقولون بأمره، ولكن ظاهر القرآن أن القائل هو الله ـ عزّ وجل ـ، فإذا كان هذا هو ظاهر القرآن فليس لنا مندوحة عنه؛ لأن الله سوف يحاسبنا يوم القيامة، فيقول: كلامي ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾، فكيف يُصرف بأنَّ المراد به الملائكة بلا دليل، فالواجب الأخذ بظاهر القرآن ما لم يوجد دليل، فإذا وجد دليل ينقل الكلام عن ظاهره فعلى العين والرأس.

فإن قال قائل: أيقول بالحروف المسموعة المعقولة، أو بحروف أخرى؟

فالجواب: لا شك أنه يقول بحروف مسموعة معقولة.

فإن قال قائل: وهل يشبه صوته صوت المخلوقين؟

فالجواب: لا؛ لأن الله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ولأن الله ـ عزّ وجل ـ إذا تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة، وصعق الملائكة، ومثل هذا لا يقع في كلام الآدميين أبداً، ولا في كلام المخلوقين عموماً.

الفائدة السادسة: توبيخ أولئك المشركين، حيث يقال لهم في هذا المجمع العظيم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾.

الفائدة السابعة: أن هذه الآية تدل على أن الأصنام لا تنفع عابديها؛ لأنها لا تنصرهم في هذا الموقف، بل قد قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] تحصبون في وسطها ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ انظر هذه الآية فرح بها المشركون، وانتهزوا الفرصة، وقالوا: هذا محمد يقول: إن المعبودات في النار، وعيسى معبود، فيقتضي أن يكون عيسى في النار، فأنزل الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١].

الفائدة الثامنة: أن أولئك العابدين لهذه الأصنام ليس عندهم حجة ولا برهان، وإنما هي مجرد دعوى لقوله: ﴿تَزْعُمُونَ﴾، والزعم في الغالب يكون في قول لا دليل عليه.

الفائدتان التاسعة والعاشرة: أن أولئك القوم فتنوا بهذا الجواب واستحسنوه وظنوه مفيداً وهو قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة: أن الإنسان قد يفتن بالشيء، فيرى الحق باطلاً والباطل حقاً، فاسلم من هذه الفتنة وحاسب نفسك عليها، واستعذ بالله أن تكون من أهلها.

الفائدة الحادية عشرة: إقرار هؤلاء المشركين بألوهية الله، وربوبية الله، أما ألوهيته في قولهم: ﴿وَٱللَّهِ﴾، وربوبيته في قولهم: ﴿رَبِّنَا﴾، لكن هل ينفع هذا في ذلك الوقت؟ لا ينفع، بل لا ينفعهم لو أنهم وحّدوا حين نزل بهم الموت، كما قال ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨].

الفائدة الثانية عشرة: أن ما افتروه من الشريك لله ـ عزّ وجل ـ سوف يضل عنهم مع شدة طلبهم له، كما تضل الضالة عن صاحبها لقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين قولهم في هذه الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وبين قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: ٤٢]، فصرح الله في هذه الآية أنهم لا يكتمون الله حديثاً، وهنا كتموا وقالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؟

فالجواب أولاً: يجب أن نعلم ونؤمن ونتيقن أنه لا تناقض في القرآن أبداً فلا يمكن أن يتناقض، بل التناقض في قصور فهم الإنسان، وقد ألف العلماء رحمهم الله في هذه المسألة العظيمة مؤلفات، ومنها: تأليف الشيخ محمد الشنقيطي ـ رحمه الله ـ المفسر الأصولي المشهور «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب»، فإن رأيت متناقضاً فالخلل من عندك، إما لقصور في الفهم، أو تقصير في الطلب، أو سوء نية تريد أن تبحث عن الأشياء التي ظاهرها التعارض لتطعن في القرآن، أو قصور في العلم وإلَّا فلا تناقض، وهنا نقول: يوم القيامة خمسون ألف سنة وللناس فيه أحوال، ففي حال ينكرون أنهم مشركون، وفي حال يقرّون إذا رأوا أن أهل التوحيد نجوا، قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فإذا ختم على أفواههم وشهدت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون، حينئذٍ أقروا؛ لأنه لا يمكن أن ينكروا مع وجود الشهود من أنفسهم.

❁ ❁ ❁

□ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: ٢٥].

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ (مِنْ) هذه تبعيضية، وعلامتها أن يحل محلها بعض، أي: بعضهم الذي يستمع إليك.

وقوله: ﴿يَسْتَمِعُ﴾ هنا جاءت بصيغة الإفراد مراعاة لِلَفظ (مَن)؛ لأن (مَن)؛ الموصولة يجوز أن يراعى معناها، وأن يراعى لفظها، فإذا روعي معناها جُعِل العائد عليها حسب ما يراد بالمعنى، وإذا روعي اللفظ صار مفرداً.

وقوله: ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، أي: من يحضر ويستمع إلى قراءتك، ولكن لا ينتفع، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾، أي: صيَّرنا.

وقوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الأكنة جمع كنان؛ كزمام وأزمّة، وهو ما يغطي الشيء ويستره.

وقوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾، أي: إرادة أن يفقهوه، فهو على تقدير مضاف يعني: (لا نريد أن يفقهوه)، وإن شئت فقل: كراهة أن يفقهوه، وبعضهم قال: إنه على تقدير (لا) والمعنى: ألا يفقهوه، والمعنى واحد، لكن كوننا نفسرها بكراهة أن يفقهوه أولى من كوننا نفسرها بـ (لا)؛ لأننا إذا فسرناها بـ (لا) فسرنا المثبت بالمنفي وهذا بعيد، وإذا فسرناها بكراهة فهذا مطرد مثل قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]، أي: كراهة أن تضلوا.

وقوله: ﴿يَفْقَهُوهُ﴾ (الفقه) في اللغة: الفهم كما قال ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، أي: لا تفهمونه، والمعنى: أن الله جعل على قلوبهم ستراً واقياً من فقههم له، فلا يصل معناه إلى قلوبهم.

قوله: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، أي: وجعلنا في آذانهم حملاً وصمماً، بحيث لا ينتفعون بما سمعوا، ومن لا ينتفع بما سمع فهو كمن لم يسمع، فنفى الله ـ عزّ وجل ـ عنهم الفقه ومحله القلب، والسمع ومحله الأذن، وهذا كقوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم: ١٥]، يعني: لم يفهمها ولم يفقهها، وإنما يظنها أساطير، أي: حكايات، ليست ذات معنى مصلح للخلق.

قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا﴾ بأبصارهم، أو يروا بقلوبهم ﴿كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، والآية هي العلامة الدالة على صدق النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ كما، قال ـ عزّ وجل ـ في سورة القمر: ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر: ٢] ـ نسأل الله الهداية ـ الإنسان إذا طبع على قلبه ـ نعوذ بالله ـ لا يؤمن بأي آية، تأتيه الآيات مثل الشمس، ولكن لا يؤمن؛ لأن القلب مغلق عليه لا يصل إليه الهدى، هنا نفى الله عنهم الفقه، ومحله القلب والسمع ومحله الأذن، والإيمان بالآيات ومحله القلب مع مشاهدة العين.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هنا للغاية، ويحتمل أن تكون للابتداء، والفرق بينهما أننا لو جعلناها للغاية صار ما قبلها مُغَيّاً بها، أي: أنهم لا ينتفعون بالآيات حتى إنهم إذا

جاءوك جادلوك، ويحتمل أن تكون ابتدائية، والابتدائية هي مثل الواو الاستئنافية.

وقوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ المجادلة هي المخاصمة، وسميت مجادلة؛ لأن كل واحد من الخصمين يجدل الحجة لتقوم على صاحبه، مأخوذة من جدل الحبل، وهو فتله حتى يشتد ويقوى، فهم يجادلون النبي ﷺ بما يوردون عليه من الشبهات، ولكن الله تعالى يجيب عنه.

وقوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ الجملة في محل نصب على الحال من (الواو) في قوله: ﴿جَآءُوكَ﴾، أي: حال كونهم مجادلين لك.

قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ هذا جواب ﴿إِذَا﴾ ولم تجزم؛ لأن ﴿إِذَا﴾ الشرطية ليست جازمة، تقول: (إذا قدِم زيدٌ يقدمُ عمرو) ولا تجزم، وأما قول الشاعر:

..... **وإذا تُصِبْكَ مُصِيْبَةٌ فَتَحَمَّلِ**(١)

فهذا يعتبر شاذاً لا يحتج به.

قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هذه النهاية ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾، أي: ما هذا، ويدل على ﴿إِنْ﴾ هنا نافية أنه أتى بعدها (إلا)، وإذا أتى بعدها (إلا) فهي نافية، وقد تأتي نافية بدون (إلا)، ﴿إِنْ﴾ لها أربعة معان: فقد تأتي شرطية، وتأتي نافية، وتأتي زائدة، وتأتي مخففة من الثقيلة:

فتأتي شرطية: وهذا كثير مثال (إن) الشرطية قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [التوبة: ٥٠].

---

(١) البيت لعبد قيس بن خفاف، أو لحارثة بن بدر الغداني، انظر: شرح الأشموني (٢/ ٣٢٣)، ومعجم شواهد العربية (١/ ٣١٩)، وصدر البيت:

استغن ما أغناك ربك بالغنى .....

وتأتي نافية: مثاله قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدثر: ٢٥]، أي: ما هذا إلا قول البشر.

وتأتي مخففة من الثقيلة: مثاله قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [القلم: ٥١].

وتأتي زائدة: مثالها: قول الشاعر:

بَني غُدَانةَ مَا إنْ أنتمُ ذَهَبٌ ... ولا صَريفٌ ولكنْ أنتمُ الخَزَفُ(١)

فـ(إنْ) في هذه الآية الكريمة نافية.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ﴾ أساطير جمع أسطورة، والأسطورة هي ما يتحدث الناس به في المجالس من أجل قتل الوقت، ليس لها معانٍ، وتسمى عند العامة السواليف، لكن يريد الإنسان أن يزيل عنه الملل والكسل وقطع الوقت.

قوله: ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: السابقين.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أنه ليس كل مستمع بمنتفع لقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾. وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ [محمد: ١٦] لا يدرون ماذا قال.

الفائدتان الثانية والثالثة: التحذير من الاستماع بلا انتفاع، وأن هذا دأب الكفار، ويتفرع على هذا أنه ينبغي للإنسان إذا استمع أن يتأمل ويتفكر فيما استمع، لا سيما إذا كان الكتاب والسُّنَّة حتى يعرف معناهما.

---

(١) سبق عزوه.

الفائدة الرابعة: أن الفقه محله القلب؛ لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾.

فإن قال قائل: ما سبب هذه الأكنة التي تحجب الحق عن القلب؟

فالجواب: أن سببها المعاصي، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٣، ١٤]، فالمعاصي تحول بين الإنسان وبين الفقه في دين الله، ولهذا قال بعض العلماء: ينبغي لمن يُستفتى أن يستغفر الله قبل الإجابة، حتى يمحو الاستغفار ما كان على القلب من الرين، واستدل بقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ [النساء: ١٠٥، ١٠٦]، وهذا استنباط جيد، لا سيما إذا اشتبهت عليك المسألة وحيل بينك وبين معرفة الصواب فيها، فعليك بالاستغفار والدعاء ولا تتسرع؛ لأنك تعبر عن شرع الله ـ عزّ وجل ـ.

الفائدة الخامسة: أن عدم الانتفاع بالسماع كالصمم تماماً؛ لقوله: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ بل صاحب الصمم معذور، والذي لا ينتفع بما سمع غير معذور؛ لأن صاحب الصمم لم يسمع من آفةٍ حلَّت به.

الفائدة السادسة: أن هؤلاء الكفار لا ينتفعون بما سمعوا ولا ينتفعون بما شاهدوا؛ لقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ والآيات نوعان، آيات قدرية وآيات شرعية، فمن الآيات القدرية

ما يحدثه الله ـ عزّ وجل ـ في الكون؛ كانشقاق القمر، وهبوب الرياح التي أرسلها الله ـ عزّ وجل ـ على الأحزاب، وكذلك نزول المطر وامتناعه، وأشياء كثيرة لا تحصى، ثم الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب، كلها من آيات الله الكونية.

وأما آيات الله الشرعية فهي الوحي، إذا تأملت الوحي، وأشرفه القرآن، عرفت ما فيه من الآيات العظيمة في الأخبار والأحكام، فالمؤمن ينتفع، وغير المؤمن لا ينتفع، حتى قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الطور: ٤٤] لا يصدقون بأنه عذاب، ومن ذلك ما يحدث في زماننا الآن من العواصف القواصف والفيضانات والزلازل هي عند قوم من الأمور الطبيعية التي لا تدل على التهديد والتخويف، وذلك من رين القلوب ـ نسأل الله العافية ـ ومن مشابهة الكفار في أنهم ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾.

الفائدة السابعة: أن الله ـ عزّ وجل ـ يرسل الآيات تأييداً للرسل، وتخويفاً لمخالفيهم، كما قال ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١]، وقال ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، فالآيات التي يرسلها الله ـ عزّ وجل ـ هي تأييد للرسل وتخويف لمخالفيهم، ولكن كما تقدم أن هؤلاء المخالفين ـ نسأل الله العافية ـ لا ينتفعون بالآيات فلا يؤمنون بها.

الفائدة الثامنة: أن الكفار يجادلون المسلمين ويجادلون

النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ويجادلون من اتبع النبي ﷺ، لكن بالباطل ليدحضوا به الحق، ولكن ليبشر صاحبُ الحق الذي هو أهله أن النصر له، لقول الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٨] لكن هذا يحتاج إلى أمرين، إلى نية صادقة، وإلى علم يدفع به شبهة المحتج، ولا يجوز للإنسان أن يدخل مع صاحب باطل يجادله وليس عنده علم؛ لأنه لو فعل لكانت الهزيمة على الحق، فلا تدخل مع شخص في مجادلة إلا وأنت تعرف كيف تصيبه مع إحسان النية، أما أن تدخل في مجادلة مع شخص ذي بيان فصيح وشُبَهٍ قوية فلا تفعل؛ لأنك إن فعلت هزمت وصارت هزيمتك هزيمة للحق الذي تجادل عنه.

الفائدتان التاسعة والعاشرة: أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم طرق الجدل؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾، فتعلَّم يا أخي طرق الجدل، من أجل أن تجادل بها لنصرة الحق.

وربما يقال: يتفرع على هذا أن ما بثه بعض الناس من قولهم: إنه لا حاجة إلى أن نراجع جدل المتكلمين من الأشعرية والمعتزلة وأشباههم؛ لأن زمنهم انقضى، فإن هذا توهم واضح.

أولاً: أن هؤلاء لم ينتهِ زمنهم، فما زالوا موجودين (معتزلة، وجهمية، وأشعرية، وخوارج، وشيعة).

ثانياً: أن طرق الجدل مع هؤلاء تفيد الإنسان في مجادلة آخرين؛ لأنها تفتح للإنسان أبواب الجدل، ويعرف كيف يقضي على صاحبه بما يجادل به، ثم إننا بالنسبة لبلادنا هنا في المملكة العربية السعودية كنا لا نعرف عن هذه الطوائف شيئاً كثيراً، لكن

بما أننا اندمجنا مع الناس فذهبنا إليهم، وأتوا إلينا، وجد شيء من البدع وأقوال الفرق، وإلا كان الناس لا يعرفون شيئاً من هذا إلا من طالع الكتب، لذلك نقول: إن مطالعة الجدل مع المتكلمين فيه فائدة بلا شك، ولكن انتبه أن تطالع وأنت ضعيف في العلم؛ لأنك لو فعلت لضللت، لا بد أن يكون عندك حماية تحمي بها نفسك.

لو قال قائل: ما هي الكتب التي ينصح بها لمطالعة كلام المتكلمين والتي فيها ردود عليهم؟

فالجواب: أنا ما رأيت أحسن من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، لكن كلام ابن القيم ـ رحمه الله ـ أسهل وأقرب إلى الفهم، ولذلك تعتبر كتب ابن القيم ـ رحمه الله ـ سُلَّماً لكتب شيخ الإسلام، وأما بقية المتكلمين فأكثر ما يكون الجدل بين الأشاعرة والمعتزلة، وهذا لا يكفي فإذا أردت العقيدة السليمة فعليك بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم ـ رحمهما الله تعالى ـ هذا أحسن ما رأيت.

لو قال قائل: حديث النبي ﷺ: «**أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء، وإن كان محقاً**»[1] هل هو على إطلاقه حتى مع أهل البدع؟

فالجواب: ليس على إطلاقه، بل المراد المراء في غير الحق، أما المراء الذي يراد به إحقاق الحق وإبطال الباطل، فهو واجب، لكن مثلاً تَمَارَيْنا في شيء من أمور الدنيا، وأنا أعرف أن الصواب معي لكن لما رأيت صاحبي يريد أن يجادل تركته.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب: في حسن الخلق (٤٨٠٠).

الفائدة الحادية عشرة: أن المجادل بالباطل يلجأ إلى المكابرة، أو إلى التهديد إذا كان له سلطة، المكابرة كما في هذه الآية ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ هذه مكابرة؛ لأن دعواهم ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ مكابرة بلا شك، وكل أحد يعرف أن القرآن الكريم ليس قول البشر، فضلاً أن يكون أساطير الأولين، ولكن هذه نهاية المجادلة والمكابرة؛ مثل ما يوجد الآن بين أهل البدع وأهل السُّنَّة تجد الواحد منهم يقول: نحن ما ثبت عندنا هذا الحديث حتى لو كان في البخاري ومسلم، أو يقول فيما يحتج به لبدعته: هذا عندنا ثابت بنقل الرواة العدول، وهذا أكثر ما يكون في الرافضة، ولهذا يقال: إن بعضهم زاد في القرآن نحو الثلث وحذف من القرآن الكريم، وهذه مكابرة، الإشكال أن المكابر لا تستطيع أن تقنعه أبداً، لكن قد يهديه الله ـ عزّ وجل ـ، إذاً هؤلاء المجادلون المكابرون يقولون: إن هذا إلا أساطير الأولين وليس وحياً.

أما اللجوء إلى القوة فانظر إلى مجادلة فرعون وموسى حيث قال له فرعون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] فلجأ إلى القوة والإرهاب، وتأمل قوله: ﴿لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، ولم يقل: لأسجننك، إشارة إلى أنه يريد أن يظهر بمظهر القوي الذي يسجن الناس وعنده مساجين، فيهدد موسى بأنه سيكون منهم.

الفائدة الثانية عشرة: أن من جادل بالباطل لإدحاض الحق فهو كافر؛ لقوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، فأظهر في موضع الإضمار، وكان مقتضى السياق أن يقول: (حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقولون إن هذا إلا أساطير الأولين).

والإظهار في موضع الإضمار من فوائده أن هذا المُظهَر إذا كان معنى من المعاني فإنه يكون شاملاً محيطاً بكل ما ينطبق عليه، فمن جادل بالباطل لإدحاض الحق فهو كافر، ثم إما أن يكون كافراً كفراً أصغر، أو كفراً أكبر.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنعام: ٢٦].

قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ (هم) الضمير يعود على الكفار، المجادلين.

قوله: ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، أي: عمَّا جئت به من الوحي.

قوله: ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ﴾، أي: يبعدون، وقدم النهي على النأي مع أنه كان المتوقع أن يبدأ بالنأي الذي هو فعلهم بأنفسهم دون فعلهم بغيرهم، إشارة إلى شدة كراهتهم لما جاء به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حتى إنهم يبدؤون بنهي الناس قبل أن يبتعدوا عنه.

لو قال قائل: ذكر بعض المفسرين أن الآية نزلت في أبي طالب أن معنى (ينهون عنه)، أي: يدافع عنه، (وينئون عنه)، أي: أنه لا يؤمن؟

فالجواب: هذا غلط عظيم؛ لأن الآية في سياق الذم للنهي عنه والنئي عنه، ومعلوم أن الدفاع عن النبي ﷺ ليس ذماً بل هو محمود، لكنه لما وَجَدَ الصورة تشبه حال أبي طالب ظنها كذلك وهذا من تحريف القرآن، فالذم منصب على الأمرين.

قوله: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ (إن) هنا بمعنى (ما)، أي: ما يهلكون إلا أنفسهم وكما في آية أخرى ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ [النساء: ١١٣] فمجادلتهم ونهيهم الناس لا يضر النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ شيئاً، وإنما هو هلاك أنفسهم.

فإن قيل: هل المراد هنا الهلاك الحسي أو المعنوي؟

فالجواب: المراد الهلاك المعنوي؛ لأن هذا الكافر المجادل لا يموت بجداله، بل يبقى، لكنه حقيقة من الناحية المعنوية قد هلك.

قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: ما يشعر هؤلاء أنهم بهذا النهي عما جاء به الرسول ﷺ، والبعد عنه لا يشعرون أنهم بذلك أهلكوا أنفسهم، ولذلك تجدهم يفتخرون بما هم عليه من الكفر، حتى إن أبا سفيان قال في يوم أحد: (اعل هبل، اعل هبل)، يفتخر بالصنم الذي يعبده، ويقول: إنه علا على محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، فقال لهم النبي ﷺ: «**أجيبوه**»، قالوا بماذا نجيبه؟ قال: «**قولوا الله أعلى وأجل**»[1]، فالشاهد أن هؤلاء الكفار المجادلين لا يشعرون أنهم على ضلال ـ نسأل الله العافية ـ وهذا غاية ما يكون من الابتلاء، أن يرى الإنسان أنه على حق مع أنه على باطل، وكان من دعاء النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: «**اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب: ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، رقم (٣٠٣٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب: غزوة أُحد (٤٠٤٣).

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن أعداء الإسلام ينهون عن الإسلام، ونهيهم عنه يستلزم أن يسلكوا كل طريق يبعد الناس عنه؛ لأن نهيهم عنه نهي حقيقي عن قلب، وهذا يستلزم أن يسلكوا كل طريق يبعد الناس عن شريعة الله، والأساليب في هذا مختلفة وكثيرة، فقد تكون بإيراد الشكوك، أو بالأفكار الفاسدة، أو بالأخلاق الفاسدة، أو بالتحريش بين الناس، أو ما أشبه ذلك.

الفائدة الثانية: أن هؤلاء جمعوا بين الضلال والإضلال، الإضلال في قوله: ﴿يَنْهَوْنَ﴾، والضلال في قوله: (ينأون) وهذا أشد من العدوان والظلم.

الفائدة الثالثة: أن كل من حاول إبطال الحق وإبعاد الناس عنه فإنما جَنى على نفسه؛ لقوله: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ حتى لو برقت له الدنيا، وظهر له النصر الظاهري، فإنه في الحقيقة هالك، ومن ذلك ما تقدم من قول أبي سفيان في غزوة أحد: (اعل هبل)، وقال: (لنا العزى ولا عزى لكم)، فافتخر، وشمخ بأنفه، ولكن هذا الأمر لن يبقى، وستكون العاقبة عليه، هذا هو المتعين سواء في الدنيا، أو في الآخرة.

الفائدة الرابعة: التحذير من سلوك الإنسان سبل الهلاك وهو لا يشعر، وقد بَيَّن الله تعالى ذلك في قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [فاطر: ٨] فاحذر.

ولكن إذا قال قائل: ما الذي يدل الإنسان على كونه على صواب أم لا؟

الجواب: أن يرجع إلى الكتاب والسُّنَّة وإلى هدي السلف الصالح ومنهجهم، فيعرف أنه على صواب أو على خطأ.

❁ ❁ ❁

□ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧].

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾: (لو) شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع والجواب محذوف، تقديره: لو ترى إذ وقفوا على النار لرأيت أمراً فظيعاً عظيماً جسيماً، وإذا قلت: (لو جاء زيد لجاء عمرو) وفي مقابلها أداة الشرط (لما) كذلك إذا قلت: (لما جاء زيد جاء عمرو) فهي حرف وجود لوجود، وإذا قلت: (لولا زيد لجاء عمرو) (لولا) حرف امتناع لوجود، إذاً تقاسمت هذه الثلاث الوجود والعدم.

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ الخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، أو لكل من يتأتى خطابه، أي: لو ترى أيها الرائي ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ وقفوا عليها، أي: أوقفتهم الملائكة؛ لأنهم هم أنفسهم لا يريدون النار، لكن يوقفون عليها اضطراراً كما قال ـ عزّ وجل ـ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور: ١٣]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ [الملك: ٨].

قوله: ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ النار هي الدار التي أعدها الله ـ عزّ وجل ـ للكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣١].

قوله: ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ قالوا بألسنتهم أو بقلوبهم؟ الأصل أن القول باللسان بصوت وحرف.

وقولهم: ﴿يَٰلَيۡتَنَا﴾ (يا) للتنبيه، وليست حرف نداء، وإنما قلنا ذلك؛ لأن (ليت) حرف لا يصح أن ينادى، هذا هو الأسهل والأقرب، وقيل: إن (يا) حرف نداء، والمنادى محذوف، ويقدر بحسب ما يقتضيه السياق، فهنا يقدر بقول: (يا ربنا ليتنا نرد)، لكن ما قلناه أولاً أصح؛ لأنه أيسر، ولا يحتاج إلى تقدير، وإذا دار الكلام بين أن يكون فيه شيء مقدر أو لا، فإننا نأخذ بعدم التقدير؛ لأنه الأصل.

وقوله: (ليت) للتمني، والتمني يكون في المحال وفي الصعب، أما في المحال كقول الشاعر:

ألا ليتَ الشبابَ يعودُ يوماً فأخبرهُ بما فعلَ المشيبُ(١)

أما في العسير فكقوله:

قالت: ألا لَيْتَمَا هذا الحمامَ لنا إلى حَمَامَتِنا أو نِصْفَهُ فقدِ(٢)

وكقول الفقير: ليت لي مالاً فأتصدق منه، فهذا ليس بمحال لكنه عسير، وهنا قوله: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾ تمني محال أو تمني عسير؟ تمني محال؛ لأنه لا يمكن أن يردوا إلى الدنيا، مع أنهم لو ردوا لكان الأمر خلاف ما قالوه: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ وهذه داخلة في ضمن التمني، ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ كذلك فتمنوا ثلاثة أشياء:

الأول: الرد إلى الدنيا.

الثاني: ألا يكذبوا بآيات الله.

---

(١) البيت لأبي العتاهية، في ديوانه (ص٤٦)، طبعة دار بيروت.

(٢) البيت للنابغة الذبياني، في ديوانه (ص٢٤).

الثالث: أن يكونوا من المؤمنين.

ولهذا جاءت (لا نكذبَ) بالنصب؛ لأن الواو هنا واو المعية، فالثاني مع الأول، وكذلك (نكون) جاءت بالنصب؛ لأن الواو واو المعية. فهم تمنوا هذا كله، ولكنهم كاذبون فيما قالوا، ولذلك قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وفي قوله: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ قراءتان قراءة بالرفع وقراءة بالنصب، فعلى قراءة النصب تكون الواو واو المعية، يعني: أنهم تمنوا أن يردوا ولا يكذبوا بآيات الله، وعلى قراءة الرفع تكون داخلة في قوله: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾، أي: مقول القول، والمعنى يقولون: ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾، فتكون الواو عاطفة على الجملة السابقة ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ **وَلَا نُكَذِّبُ** (بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ والأول أبلغ، أي: قراءة النصب ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفاً عليها.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: شدة ندم الكافرين إذا وقفوا على نار جهنم، لكونهم يتمنون أمراً لا يمكن أن يكون.

الفائدة الثانية: إثبات النار، وهي الدار التي أعدها الله ـ عزّ وجل ـ للكافرين، وقد جاء في الكتاب والسُّنَّة من أصناف العذاب، فيها ما هو معلوم لكثير من الناس.

الفائدة الثالثة: إثبات القول للناس بعد البعث، وأن الإنسان بعد البعث يقول ويفعل، كما يقول في الدنيا ويفعل.

الفائدة الرابعة: إقرار هؤلاء بآيات الله ـ عزّ وجل ـ لقولهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾.

الفائدة الخامسة: إقرارهم بأنهم ليسوا مؤمنين؛ لأنهم تمنوا أن يكونوا مؤمنين، ولكنَّ هذا لا ينفع إذ قد انتهى كل شيء.

الفائدة السادسة: جواز حذف المعلوم، والمعنى جوازه لغةً، وفي هذا يقول ابن مالك ـ رحمه الله ـ:

وحَذْفُ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ كَمَا تَقُولُ زَيْدٌ بعد مَنْ عِنْدَكُمَا(١)

فحذف ما يعلم جائز سواء كان المبتدأ، أو الخبر، أو الفعل، أو الفاعل، أو في كل كلام، فما هو المقدر في هذه الآية؟ المقدر: لرأيت أمراً عظيماً.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨].

قوله: ﴿بَلْ﴾ إضراب لإبطال ما سبق من قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: بل لن يؤمنوا ولو ردوا.

قوله: ﴿بَدَا لَهُم﴾، أي: ظهر لهم ﴿مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾، فما الذي كانوا يخفونه من قبل، هل هو تصديق الرسل بما جاءوا به، ولكن جحدوا والجحد إخفاء ما كان معلوماً؟ أو ما كانوا يخفون من قبل من الكفر الذي كانوا يكتمونه، حيث إنهم كانوا يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر؟

فعلى الأول يكون السياق في الكافرين، وعلى الثاني يكون السياق في المنافقين.

---

(١) البيت رقم (١٣٦) في الألفية.

فإن قيل: هل يمكن أن نقول: إن الآية شاملة للمعنيين؟

فالجواب: نعم؛ لأنه لا منافاة.

لكن يشكل على كونها في المنافقين أن السورة مكية؛ لأن سورة الأنعام مكية نزلت في مكة جملة واحدة، فكيف يكون فيها إشارة للمنافقين؟

والجواب عن هذا الإشكال: أن لا إشكال؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أخبر عما يكون يوم القيامة، ويوم القيامة يكون قد حصل النفاق، وأيضاً يذكر الله المنافقين في السور المكية تحسباً لما يقع واستعداداً لهم، قال الله ـ عزّ وجل ـ في سورة العنكبوت: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾، وهي مكية وعليه فلا إشكال، وتكون الآية شاملة للمعنيين، والقرآن الكريم عظيم تأتي فيه الآيات والجمل والكلمات تحتمل معانيَ متعددة، ولكن القرآن لعظمته يتسع لكل هذه المعاني، ما لم يكن بعضها منافياً لبعض، فإن كان بعضها منافياً لبعض طلب الترجيح.

قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ﴾، يعني: إلى الدنيا ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ إذاً فليس قولهم حقيقة بل هو كذب، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، فيكون المعنى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾، أي: من تكذيب الرسل ومن النفاق وإنهم لكاذبون في قولهم: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الحقائق تظهر يوم القيامة وتبين، واقرأ قول الله ـ عزّ وجل ـ في سورة يس حيث قال الله ـ عزّ وجل ـ في

آخر السورة عند ذكر نفخ الصور: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ فيقولون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، أو يقال لهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، فيتبين الأمر جلياً في ذلك الوقت، ولكنه لا ينفع من لم يؤمن به في حياته.

الفائدة الثانية: تعلق علم الله بالمستحيل؛ لقوله: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾.

فإذا قال قائل: هذا ليس بمستحيل؛ لأن الله قادر أن يعيدهم إلى الدنيا؟

فيقال: إنه مستحيل حسب وعد الله ـ عزّ وجل ـ، فإن الله قد قضى أن الناس لا يرجعون إلى الدنيا، ولهذا إذا تمنى الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أن يرجعوا إلى الدنيا فيقتلوا مرة ثانية، كما فعل عبد الله بن حرام، حين قال له الله ـ عزّ وجل ـ: «**تمنّ، قال: أتمنى أن أعود إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى، قال: إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون**»[1] وهذا قضاء كوني قدري.

فإن قيل: هل هو مستحيلٌ حسب قدرة الله، أو حسب وعد الله؟

فالجواب: حسب وعد الله، كالظلم بالنسبة لله ـ عزّ وجل ـ مستحيل حسب وعد الله ـ عزّ وجل ـ، لكنه قادر على أن يظلم، فهناك شيء مستحيل لذاته، وشيء مستحيل لغيره، إذاً قوله: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ فيه دليل على تعلق علم الله تعالى بالمستحيل.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران (٣٠١٠)، وابن ماجه في: المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية (١٩٠)، والإمام أحمد في مسنده (١٤٤٦٧).

فإذا قال إنسان: وهل يمكن أن يستحيل الشيء لذاته ويعلمه الله ـ عزّ وجل ـ؟

فالجواب: نعم، اقرأ قول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وهذا مستحيل عقلاً، ولا يمكن، ومع ذلك عَلِم الله ـ عزّ وجل ـ أنه لو كان في السماوات والأرض آلهة سوى الله لفسدتا، إذاً عِلْم الله تعالى متعلق بالمستحيل، ومتعلق بالممكن مثل قوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ومتعلق بالواجب مثل عِلم الله تبارك وتعالى بما له من الصفات الكاملة، ولهذا نقول: أوسع الصفات في صفات الله ـ عزّ وجل ـ هي العلم.

الفائدة الثالثة: أن الكافرين لا يستنزهون من الكذب حتى في الآخرة، وكذلك المنافقون؛ لأن الله تعالى كذبهم وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾.

الفائدة الرابعة: تأكيد الشيء إذا دعت الحاجة إليه، إما لأهميته، وإما لكون المخاطب متردداً فيه، أو لغير ذلك من الأسباب، فالمهم أن من الفصاحة والبلاغة أن يؤكد الخبر إذا دعت الحاجة، والتأكيد في الآية هو قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، فهو مؤكد بـ (إنَّ) و(اللام).

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: ٢٩].

قوله: ﴿وَقَالُوٓا۟﴾، أي: المنكرون للبعث ﴿إِنْ هِىَ﴾، أي: ما هي. ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾، يعني: لا توجد حياة أخرى هناك إلا الحياة الدنيا.

ثم أكدوا هذه الجملة بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، وهذا إنكار صريح للبعث، مع أن البعث قد دل عليه الكتاب والسُّنَّة والعقل والإجماع، وسيأتي في الفوائد ـ إن شاء الله تعالى ـ.

وقوله: ﴿حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ هل هي من الدنو رتبة ومنزلة، أو من الدنو وقتاً وزمناً، أو منهما جميعاً؟

الجواب: هي منهما جميعاً، فهي بالنسبة للآخرة قبل الآخرة فتكون دنيا، وهي بالنسبة للمرتبة أيضاً دنيا، أي: دون الآخرة، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧]، ولهذا لا تجد في الدنيا سروراً دائماً أبداً، يعني سروراً للبدن وسروراً للقلب، أي: نعيماً للبدن والقلب لا يمكن دائماً، فإما نعيم في البدن، وهو الرفاهية التي يدعو إليها الناس؛ فكثير من الناس الآن يدعون إلى الرفاهية، وأهم شيء عندهم الترفيه والرفاهية وهو نعيم البدن، لكنه يُوَلِّدُ في القلب حسرة عظيمة وضيق صدر، وإما نعيم في القلب، وهذا للمؤمنين كما قال ـ عزّ وجل ـ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، ولكن مع ذلك لا بد للإنسان من وجود ما يُسَرُّ به وما يُساء به، فلا يمكن أن تجد في الدنيا شيئاً كاملاً من كل وجه، ولهذا انطبق الوصف تماماً عليها، نسأل الله أن يرزقنا الزهادة فيها والرغبة في الآخرة.

قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، أي: بمخرجين من القبور، وليس عندهم دليل على هذا الإنكار إلا مجرد الأهواء والمكابرة، وإلا فما المانع، وقد أقام الله الدلائل العقلية والحسية والشرعية على وجوب البعث، أو على إمكانه، وأنه ليس بممتنع، لكن هم

ـ والعياذ بالله ـ أنكروا هذا، ومن أجل إنكارهم له لم يعملوا للآخرة، وكان عملهم كله للدنيا، نسأل الله السلامة.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الكافرين ينكرون البعث؛ لأن قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ معطوفة على ما سبق، وقد صرح الله ـ عزّ وجل ـ بهذا في قوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

الفائدة الثانية: الإشارة إلى دنو الحياة الدنيا، وأنها ليست بتلك الحياة التي ينبغي للإنسان أن يحافظ عليها، وينسى الآخرة لقوله: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾، وقد جاء في الحديث «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء**»[1]، وفي هذا يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى[2] ـ:

لو سَاوَتِ الدُّنيَا جناحَ بعوضَةٍ ... لَمْ يَسْقِ منها الرَّبُّ ذا الكُفْرَانِ
لَـكِـنَّـهَـا واللهِ أَحْـقَـرُ عِـنْـدَهُ ... مِنْ ذَا الجَنَاحِ القَاصِرِ الطَّيَرَانِ

الفائدة الثالثة: أن إنكار هؤلاء للبعث إنكار مكابرة، وجه ذلك أنه لو صَدَق ما قالوه لأصبح خلق الخلق عبثاً لا فائدة منه، أمم تحيا وتموت وتتقاتل وتتناحر، ثم لا يكون بعث يجازى فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عزّ وجل (٢٣٢٠).

(٢) البيتان (٤٩٥٤ ـ ٤٩٥٥) من الكافية الشافية، (٤/٢٥٩) طبعة دار عالم الفوائد.

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٠﴾ [الأنعام: ٣٠]

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ هذا موقف آخر، والخطاب في قوله: ﴿تَرَىٰٓ﴾ إما للنبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، أو لكل من يتوجه إليه الخطاب.

وقوله: ﴿إِذْ وُقِفُواْ﴾، أي: حين وقفوا على ربهم.

قد يقول قائل: كيف عبر عن المستقبل بالماضي فقال: ﴿إِذْ وُقِفُواْ﴾، ولم يقل: إذ يقفون؟.

فيقال: الشيء المحقق يعبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ﴾ [النحل: ١]، فيكون هذا تصويراً للحال المستقبلة؛ كأنها شيء حاضر ماضٍ.

قوله: ﴿رَبِّهِمْۚ﴾، وهو الله ـ عزّ وجل ـ، وإنما أضاف ربوبيته إليهم مع أنهم من أراذل عباد الله إشارة إلى أنه ـ عزّ وجل ـ هو الخالق المالك المدبر لهم، فكان عليهم أن يقوموا بعبادته، فتكون إضافة الربوبية إليهم للإشارة إلى أن السلطان له عليهم ـ عزّ وجل ـ، ومع ذلك لم يؤمنوا به ولا برسله، ولا عملوا لهذا اليوم.

قوله: ﴿قَالَ﴾ جملة استئنافية لبيان ما حصل عند الوقوف، ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ﴾، أي: بالصدق الثابت الذي لا مرية فيه، والمُشار إليه هو البعث الذي كانوا ينكرونه، وفي هذه الجملة حرف جر زائد وهو (الباء) في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾، ويقول أهل العلم بالبلاغة في زيادة الحروف: إنها تدل على التوكيد، فعلى هذا تكون هذه الجملة مؤكدة بالباء الزائدة إعراباً.

قوله: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾، فأجابوا بالجواب مع الإقسام، وكانوا قبل ذلك يقولون: لا نبعث، وهنا أقسموا على أن هذا البعث حق، ولكن لو سألنا سائل هل ينفعهم هذا الإقسام؟

فالجواب: لا ينفعهم؛ لأن الدار الآخرة دار جزاء وليست دار عمل.

وقوله: ﴿وَرَبِّنَاۚ﴾ الواو هذه حرف قسم، والقسم كما سبق هو تأكيد الشيء بذكر معظم بأداة مخصوصة، وهي الواو، والباء، والتاء.

قوله: ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، يعني: قال الله ـ عزّ وجل ـ لما أقروا بأن هذا هو الحق، وتبين أن إنكارهم الأول كان كفراً بإقرارهم.

قوله: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ والأمر هنا للإهانة، وليس للتكريم؛ لأنه لا أحد يُكرم بالعذاب، وأطلق الذوق على العذاب لتحقق وقوعه، فإن ذوق الإنسان للشيء يعني أنه تيقنه تماماً، فلو قلت لك مثلاً: في جيبي لك تفاحة، تُصَدِّق، فإذا رأيتها ازداد يقينك، فإذا أكلتها ازداد أكثر، ويسمى الأول علم اليقين، والثاني عين اليقين، والثالث حق اليقين.

قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (الباء) للسببية و(ما) مصدرية، وعليه فيقدر ما بعدها بمصدر، ويكون التقدير بكونكم تكفرون، أي: تكفرون باليوم الآخر، وبمن أخبركم عن اليوم الآخر، وهم الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وبمن أرسلهم، لكن أين جواب (لو) في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾؟

الجواب محذوف، تقديره: (لرأيت أمراً عظيماً) وحذفه جائز، ولكن هل حذفه جائز مستوي الطرفين أو حذفه أبلغ؟

الجواب: من أجل أن يذهب الذهن كلَّ مذهب؛ لأنه لو ذكر الجواب تحدد بما ذكر، لكن إذا حذف صار الإنسان يتصور هذا الشيء المحذوف شيئاً عظيماً أكثر مما يوصف، فيكون حذفُ مثلِ هذا الشيء من باب البلاغة؛ لأنه مطابق لمقتضى الحال.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات ربوبية الله ـ عزّ وجل ـ لهؤلاء الكفار؛ لقوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

الفائدة الثانية: أن لله ملائكة يأتون بالناس إليه ـ عزّ وجل ـ، بدليل قوله: ﴿إِذْ وُقِفُوا۟﴾، ولم يقل (إذ وَقَفُوْا) فهم يؤتى بهم ويقفون.

الفائدة الثالثة: إثبات القول لله ـ عزّ وجل ـ لقوله: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾.

الفائدة الرابعة: أن قول الله بالحرف وبالصوت؛ الحرف في قوله: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ هذه حروف، وبالصوت؛ لأنهم سمعوا وأجابوا: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾.

الفائدة الخامسة: أن هذا القَسَم منهم يشعر بشدة الندم على إنكارهم الأول، فكأنهم كذبوا أنفسهم تكذيباً مقروناً بالقسم، ولا يخفى أن مثل هذا لا يخرج إلا من قلب متحسر، ولكن فات الأوان.

الفائدة السادسة: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، وإثبات الأسباب هو المطابق للواقع، واعلم أن الناس من أمة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ في إثبات الأسباب انقسموا ثلاثة أقسام:

الأول: من أنكر الأسباب نهائياً، وقال: إن الأشياء تأتي بمجرد الصدفة، وبمجرد أن الله خلقها.

الثاني: من أثبت الأسباب على أنها مؤثرة بذاتها، وهؤلاء هم الماديون، الذين يعتقدون أن الكون يتفاعل بنفسه، وإن انتسبوا للأمة، مثل بعض الفلاسفة أو المتفلسفة.

الثالث: من أثبت الأسباب لكنها تؤثر بما أودع الله فيها من القوة لا بنفسها، وهذا القول هو الوسط المتعين، ولذلك نجد أن الأشياء تتغير مسبباتها بتقدير الله ـ عزّ وجل ـ، فالنار التي أوقدت لإبراهيم كانت برداً وسلاماً، مع أننا لو رجعنا إلى السبب نفسه لكانت محرقة، لكن هي لا تكون محرقة إلا بإرادة الله ـ عزّ وجل ـ، ونجد أن الله ـ تبارك وتعالى ـ يحدث أشياء لا نعلم أسبابها، مما يدل على أن السبب ليس هو الفاعل، ولكن الفاعل هو الله ـ عزّ وجل ـ، ولكنه لحكمته جعل لكل شيء سبباً.

الفائدة السابعة: حذف ما كان معلوماً؛ كما سبق في الآيات السابقة.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام: ٣١].

قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ هذه الجملة مؤكَّدة بمؤكد واحد وهو (قد)، والحروف المؤكِّدة كثيرة، منها ما يسبق، ومنها ما يتأخر، فـ (اللام) في قولك: إن زيداً لقائم، هذه مؤكدة

لكنها متأخرة، وقد ذكرها علماء أهل البلاغة حينما تكلموا على الخبر وأقسامه، وأنه ابتدائي وطلبي وإنكاري، وتكلموا على حروف التوكيد، فمن أراد استيعابها فليرجع إليها.

قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أطلق الله ـ عزّ وجل ـ الخسارة، ولم يقل (خسروا أنفسهم)، ولا أهليهم، ولا شيء، فيكون ذلك خسراناً مطلقاً، وصدق الله ـ عزّ وجل ـ، فما أخسر الذين كذبوا بلقاء الله! لأن هؤلاء لن يعملوا للقاء الله، فيكون وجودهم في الدنيا خسراناً لا فائدة منه، بل فيه مضرة؛ لأن وجود الإنسان في الدنيا مع كفره بالله ـ عزّ وجل ـ شرٌّ من كونه لم يوجد أصلاً، وشرٌّ من وجود البهائم؛ لأن البهائم توجد في الدنيا ثم تفنى، ثم تبعث يوم القيامة ولا حساب عليها، وهذا عليه حساب، ولهذا تمنى بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، ومنهم عمر بن الخطاب أنه شجرة تعضد، أي: تقطع، وقال: «وددت أن أخرج منها ـ أي: من الدنيا ـ كفافاً لا عليَّ ولا لي»[1]، هذا وهو عمر ـ رضي الله عنه ـ، فما بالك بمن دونه؟ فكل من لم يعمر أوقاته بطاعة الله ـ عزّ وجل ـ ونعوذ بالله أن يجعلنا منهم ـ فإنه خاسر، فاته الربح.

وقوله: ﴿كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾، أي: باللقاء معه، والله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق: ٦] لا بد أن هذا الذي أمرك، ونهاك

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب: قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان (٣٧٠٠)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب: الاستخلاف وتركه (١٨٢٣).

وأرسل إليك الرسل وأعطاك العقل، لا بد أن تلاقيه، فيحاسبك، والمراد أنهم كذبوا بالبعث الذي يكون فيه لقاء الله.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائية، تفيد فصل ما بعدها عما قبلها. ﴿إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ هي ساعة القيامة، وقد يراد بالساعة ساعة فراقهم للدنيا؛ لأن من مات فقد قامت قيامته، وانتقل من دار العمل إلى دار الجزاء.

وقوله: ﴿بَغۡتَةً﴾، أي: من غير احتساب لها، والساعة الكبرى تكون بغتة، تأتي الناس والإنسان قد جهز حوض إبله ليسقيها فلا يتمكن[1]، وقد رفع اللقمة إلى فمه فلا يتمكن، والرجلان قد نشرا الثوب بينهما ليبيعه أحدهما على الآخر، فلا يتمكن من إتمام العقد[2].

قوله: ﴿قَالُواْ﴾ جواب (إذا).

﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾ (يا) ليست للنداء؛ لأن الحسرة لا تُنادى، والحسرة هي الندم والتحسر على الشيء الذي فات، وعليه تكون

---

(١) قال ﷺ: «**ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتاً، وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، فيصعق ويصعق الناس**» والليت هو صفحة العنق، أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: في خروج الدجال ومكثه في الأرض، رقم (٢٩٤٠).

(٢) قال ﷺ: «**ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعان ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه. ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها**»، أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب (٤٠)، رقم (٦٥٠٦)؛ ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة، رقم (٢٩٥٤).

(يا) للتنبيه، كأنهم قالوا: ما أعظم حسرتنا، وقيل: إن (يا) للنداء، وأن الحسرة تُخيَّل كأنها شيء عاقل يتوجه إليه النداء، وعلى هذا القول يكون المعنى يا حسرتنا احضري، فهذا أوانك، والمعنى لا يختلف بين هذا وهذا، غاية ما هنالك التقدير، وعدم التقدير.

قوله: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ التفريط: هو التقصير، و(فيها) الضمير يعود على الساعة، أي: فرطنا في الاستعداد لها؛ لأنهم أضاعوا أعمارهم بما لا فائدة فيه بل بما فيه مضرة أحياناً.

قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾، يعني: يوم القيامة يحملون أوزارهم على ظهورهم، أي: جزاء أعمالهم على ظهورهم، والله تعالى يعبر دائماً عن الجزاء بالعمل، لفائدتين:

الفائدة الأولى: أن يصلح الإنسان عمله.

والفائدة الثانية: أن يُعْلَمَ أن الجزاء من جنس العمل؛ لأن الجزاء على العمل دائر بين أمرين لا ثالث لهما، الأول: الفضل، والثاني: العدل، ولا ظلم؛ فإن كان العمل حسناتٍ فبالفضل، وإن كان سيئاتٍ فبالعدل؛ وربما يكون بالفضل حيث يعفو الله عنهم - عزّ وجل -.

وقوله: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾، أي: يحملون جزاء الأعمال على ظهورهم حملاً حقيقياً، فالواجب أن نحمل الآيات على ظاهرها.

ولا يقول قائل: كيف يحمل الجزاء على الظهر؟، فيوم القيامة لا يُقاس بأيام الدنيا؛ لأن الحال تختلف اختلافاً عظيماً، فمن الجائز الممكن أن الله تعالى يخلق هذه الجزاءات حتى تكون

أجساماً تحمل على الظهور، وما المانع؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، ولا يجوز أبداً أن نقيس أحوال الآخرة بأحوال الدنيا؛ لأنك إذا قرأت القرآن، وعلمت ما جاء في السُّنَّة من أحوال يوم القيامة تجزم أنه ليس هناك اتفاق، ولا يمكن أن يقاس بعضها على بعض.

ولو قال قائل: قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] أليست هذه الآية صريحة في أن الذي يُحْمَل الخطايا والأوزار لا جزاء الأعمال؟

فالجواب: يوم القيامة ليس هناك أعمال، بل لا يكون إلا الجزاء فقط.

قوله: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ (ساء) بمعنى بِئْسَ، و(ألا) أداة استفتاح وتنبيه، وربما نقول في هذا الموضع زيادة أخرى وهي التحذير من الأعمال السيئة.

وقوله: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ (ما) إن جعلتها اسماً موصولاً احتجت إلى عائد، وإن جعلتها مصدرية لم تحتج إلى عائد، فما هو التقدير؟ إذا جعلناها اسماً موصولا فالتقدير: ألا ساء ما يزرونه، وأما إذا جعلناها مصدرية فلا تحتاج إلى ضمير، ولكن تحتاج إلى سبك، أي: تحويل الفعل مصدراً، وعليه يكون التقدير: (ألا ساء وزرهم)، ولكنَّ المعنى لا يختلف وهو أن الله تعالى ذم هذا الذي يحملونه على ظهورهم من الأوزار.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان خسران الكافرين المكذبين بالبعث، وأنهم مهما ظنوا أنهم ربحوا فهم خاسرون، ولكن متى يعلمون

أنهم خاسرون؟ إذا جاء الأجل، أما الآن فهم في سكرة لا يدرون، ولهذا لو انتصروا اقتصادياً، أو عسكرياً، أو فكرياً لظنوا أنهم رابحون، ولكنهم خاسرون.

الفائدة الثانية: وجوب الإيمان بلقاء الله، بدليل ثبوت الخسران لمن كذب به، ومعلوم أنه لا يحل للإنسان أن يوقع نفسه في الخسران.

لو قال قائل: هل من لقاء الله ـ عزّ وجل ـ النظر إليه؟

قلنا: استدل بعض العلماء ـ رحمهم الله ـ على النظر إلى الله ـ عزّ وجل ـ بهذه الآية، وبقوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الإنشقاق: ٦]، وقالوا: إن اللقاء لا يكون إلا مواجهة، وعلى هذا فيكون في الآية دليل على ثبوت رؤية الله ـ عزّ وجل ـ، وثبوت رؤية الله ثابت بالنص القرآني والنبوي، والإجماع من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وأئمة الهدى من بعدهم، فمن أدلة إثبات النظر إلى الله في القرآن قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٣] فإن قال الخصم إنها على تقدير: إلى ثواب ربها ناظرة، أي: ما في الجنة من النعيم والحور العين، وكل شيء فيقال: لو أراد الله ـ عزّ وجل ـ أن يبيِّن أنها تنظر إلى ثواب الله، لقال ذلك، فكون الله ـ عزّ وجل ـ يريد ثواب الله ثم يأتي بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ هل هذا بيانٌ أو تعمية؟ هذا تعمية على الخلق والله ـ عزّ وجل ـ يقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، ويقول: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦]، ثم ما دليلك على أن تقحم هذه الكلمة في القرآن؟ أنت إذا أجزت هذا، أجزت لمن أراد أن يعبر عن القرآن بالمعنى أن يقول:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ [القيامة: ٢٢] إلى ثواب ربها ناظرة، وهذا التحريف ظاهر.

ومن السُّنَّة: قال النبي ﷺ: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته**»(١)، وهذا التشبيه للتحقيق، يعني: كما أنكم في أماكنكم المتباعدة ترون القمر ليلة البدر بدون انضمام بعض إلى بعض، فإنكم سترون الله ـ عزّ وجل ـ، ولما سأل أبو رَزين العقيلي النبي ﷺ قال: يا رسول الله كيف يحاسبنا الله تعالى جميعاً في يوم واحد وهو واحد؟ قال: «**ألا أدلك على شيء من آلاء الله؟** قال ما هو؟ قال: «**القمر كلكم يراه في مكانه وهو واحد، وأنتم جماعة كثيرون**»(٢)، إذاً الحديث دليل على ثبوت رؤية الله بالعين.

أما الإجماع فقد أجمع الصحابة والتابعون على رؤية الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لكن بماذا استدل العلماء على هذا الإجماع، يعني: كيف يكون السبيل، أو الطريق إلى إثبات هذا الإجماع؟

نقول طريقه أن يقال: إن الصحابة لمّا قرؤوا القرآن وسمعوا الأحاديث من الرسول ﷺ، ولم يأت عن أحد منهم أنه قال بخلاف ظاهرها فيكون هذا إجماعاً منهم إقرارياً، وليس سكوتياً إجماعاً منهم على أنها على ظاهرها، وهذه حجة لا إشكال فيها، هات واحداً من الخلفاء الراشدين، أو غيرهم من الصحابة يقول:

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾... (٧٤٣٤).

(٢) رواه ابن ماجه في: المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية (١٨٠).

(إن الرؤية ما أعد الله لهم من الجنة والثواب وليس برؤية الله)، لا تستطيع، أئمة الهدى من بعدهم تبعوهم، فالآية التي معنا وهي قوله: ﴿كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ استدل بها بعض العلماء على ثبوت رؤية الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ محتجاً بأن الملاقاة لا بد أن تكون مواجهة، فإن صح هذا الاستدلال وإلا فنحن في غنى عنه، وإذا لم يصح هذا الاستدلال فالمراد بلقاء الله البعث بعد الموت؛ لأن الكافر لن يرى الله سبحانه وتعالىٰ كما قال ـ عزّ وجل ـ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥].

ولو قال قائل: الذي يقول إن الله يُرى لكن لا من جهة هل يعتبر أثبت الرؤية؟

فالجواب: لا يمكن أن يرى الشيء بدون جهة أبداً، وهذا من غريب قولهم، والظاهر لي ـ بناءً على ما نعرف من ذكائهم ـ أنهم يريدون من قولهم: أنه لا يُرى من جهة، يريدون أنه يُرى ولكن لا تثبت الجهة، وبينهما فرق، فنحن إذا قلنا: (لا يرى من جهة) معناه: الإنكار، وإذا قلنا: (إنه يرى لا من جهة)، أي: لا تثبت الجهة؛ فليس كالأول، والذي يجب أن نقول: إن الله تعالى في جهة بلا شك، وهي جهة العلو، أليس الرسول ﷺ قال للجارية: «**أين الله؟**» قالت: في السماء[1] لكن جهة تحيط به ـ عزّ وجل ـ، أو جهة لا تليق به؛ كجهة السفل هذا ممنوع، وهؤلاء المتكلمون أوتوا ذكاء لكن يجب أن نعرف الفرق بين الذكاء والعقل، فالذكاء سرعة إدراك الشيء، لكن العقل حسن

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (٥٣٧).

التصرف، وليس كل ذكي عاقلاً، ولا كل عاقل ذكياً؛ فيوجد من العقلاء القائمين بأمر الله ـ عزّ وجل ـ على ما يرضي الله مَنْ هو بليد حتى رُويَ حديث ضعيف «أكثر أهل الجنة من البُلْه»[1] يعني الأبله لكنه موضوع، وبعض العلماء جعل له وجهاً قال: إنهم بُلْه في أمور الدنيا، ولكنهم أذكياء في أمور الآخرة، لكن الحديث موضوع ولا حاجة للجهد في تفسيره.

الفائدة الثالثة: أن الساعة تأتي بغتة، سواء كانت الساعة الكبرى، أو الساعة الصغرى، فالساعة الصغرى تأتي بغتة فتأتي الزلازل بغتة، وتأتي العواصف والقواصف بغتة، وقد حذر الله ـ عز وجل ـ من هذا فقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأعراف: ٩٧]، أي: سادرون، لا يفكرون في عذاب، فيأيتهم وهم نائمون، ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف: ٩٨] لاهون، لم يفكروا أن يأتيهم العذاب فيأتيهم العذاب ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩]، بما أنعم عليهم من الأمن والرغد والرخاء، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. فصارت البغتة هنا الساعة الكبرى والصغرى.

الفائدة الرابعة: شدة تحسر هؤلاء الذين كذبوا بلقاء الله،

---

(١) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٢/ ٤١١)، رقم (١٩٨٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٢٦)، رقم (١٣٦٨)، وقال الزين العراقي: «صححه القرطبي في التذكرة، وليس كذلك، فقد قال ابن عدي: إنه منكر، وسبقه له ابن الجوزي، فقال: حديث لا يصح». وقال القاري في المصنوع (٥٧)، رقم (٣٤)، «موضوع». وقال ابن عدي: «حديث باطل».

وإقرارهم على أنفسهم بأنهم فرطوا، ولكن هل هذا ينفعهم؟

الجواب: لا؛ فقد انتهى العمل، فلا ينفعهم شيء فات ولا يمكن رده، ولهذا أقروا أنهم مفرطون.

الفائدة الخامسة: أن أهل الأوزار يحملون أوزارهم على ظهورهم يوم القيامة حقيقة؛ لا مجازاً؛ لأن هذا هو الواجب، أن نجري النصوص القرآنية والنبوية على ظاهرها.

فإذا قال قائل: كيف يحملونها؟

فالجواب: أن هذا سؤال في غير محله؛ لأن أحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا.

الفائدة السادسة: أن الأعمال محل الثناء والقدح، لقوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ هذا قدح، ومحل الثناء مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمٰن: ٦٠]، فالأعمال محل القدح ومحل المدح.

وإذا ثبت القدح في العمل، أو المدح فهل يستلزم القدح في العامل أو المدح له؟

الجواب: نعم يستلزم قدحه إن أساء ومدحه إن أحسن، وهذا هو الأصل، لا سيما في أمور الدنيا، فإنه ليس لنا إلا الظاهر، أما أمور الآخرة فعند الله، ولهذا لو أننا رأينا شخصاً يسجد لصنم قلنا: كافر، مع أنه يحتمل أن يكون جاهلاً، فإن استقام ووحّد الله ارتفع عنه هذا الوصف وإلا فهو باقٍ، وليعلم أن بعض الناس توسعوا في مسألة التعيين والتعميم حتى إن بعضهم شك هل يجوز أن نقول: لمن سجد للصنم إنه كافر؟

فالله المستعان كيف لا تقول؟! قُلْ ولا تبالِ.

وأيضاً هل نقول لمن ترك الصلاة إنه كافر؟ نقول: قل ولا تبالِ، إذا لم تقل فمتى يكون كفراً؟!! ومتى يكون شركاً؟!! نعم إذا وجد مانع من التكفير فحينئذٍ يكون لكل شيء حكم، أما الأصل فإننا نحكم على كل من فعل ما يُكفر، أو قال ما يكفر، بأنه كافر بعينه، حتى نقيم عليه الحد. فإذا ادّعى مانعاً نظرنا هل هذا صحيح، أو غير صحيح، ونحكم لكل قضية بما تقتضيه الحال.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام: ٣٢].

قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا﴾ (ما) نافية و(الحياة) مبتدأ، وما بعد (إلا) هو الخبر، وهذا طريق من طرق الحصر بالنفي والإثبات، وهو أقوى طرق الحصر.

وقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ الحياة الدنيا هي حياتنا هذه، ووصفت بالدنيا لوجهين: الوجه الأول: دنو زمنها، والوجه الثاني: دنو مرتبتها، أما الأول فظاهر فإن الدنيا قبل الآخرة، وأما الثاني فظاهر أيضاً لمن كان ذا عقل فإن هذه الدنيا دنية، ليس فيها خير، وغاية ما فيها أن ينعم البدن دون القلب، فأهل الدنيا محرومون من نعيم القلب؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ﴾ [النحل: ٩٧]، فالحياة الطيبة لمن جمع بين هذين الوصفين، الأول: العمل الصالح، والثاني: الإيمان.

إذاً كما تقدم سميت دنيا لهذين الوجهين، الأول: دنو الزمن، والثاني: دنو القدر والمرتبة؛ فإنها دانية حتى إن النبي ﷺ

قال فيما رواه الإمام أحمد عن المستورد بن شداد قال: «**لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[١] من الدنيا كلها، من أولها إلى آخرها وما فيها، وهو موضع سوط، فكيف والإنسان في الجنة ينظر إلى أقصى ملكه، كما ينظر إلى أدناه مسيرة ألفي عام، اللهم اجعلنا من أهلها يا رب العالمين.

قوله: ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، أي: لعب بالأبدان، ولهو بالقلوب، فكل عمل الدنيا لعب، وكل عمل الدنيا لهو، لكنه لهو بشيء عن شيء، لهو بأعمال الدنيا عن أعمال الآخرة، ولعب لأن فاعله لا يحصل على شيء، فأدنى ما يقال إنه ليس له ولا عليه في هذا العمل، مع أنه قد يكون عليه، وإذا كان لا له ولا عليه فهل هو جد أو لعب؟ لعب بلا شك.

وإذا قال قائل: كيف يكون لعباً، وأهل الدنيا عندهم جد وعزيمة ونشاط في أعمالهم؟

قلنا: لكنه بالنسبة للثواب والأجر لعب لا خير فيه.

قوله: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ (اللام) هنا لام الابتداء، وتفيد التوكيد، والدار الآخرة فيها قراءتان: الأولى ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾، والثانية ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾ بالإضافة، والدار الآخرة هي عديلة الدنيا، وضرة الدنيا، وهي ما يكون بعد البعث، وسماها الله تعالى آخرة؛ لأنها آخر المراحل، فإن بني آدم لهم أربع مراحل.

المرحلة الأولى: في بطون الأمهات.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٨٩٢).

والمرحلة الثانية: في هذه الحياة.

والمرحلة الثالثة: في البرزخ بين البعث والممات.

والمرحلة الرابعة: في البعث بعد الممات إذا قامت الساعة، ولذلك سميت آخرة.

وقوله: ﴿خَيْرٌ﴾ من المعلوم أن سياق الكلام يقتضي أنها خيرٌ من الدنيا ولعبها ولهوها، وحذف المفضل عليه للعلم به، ومن قواعد البلاغة أن المعلوم الذي لا يحتاج إلى تكلف في تقديره حَذْفُه أولى، لما في ذلك من الاختصار، وقد يكون الأمر بالعكس، أن تقتضي البلاغة أن يبسط في القول.

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، أي: يتقون الله ـ عزّ وجل ـ، وتقوى الله تعالى يجمعها اتخاذ وقاية من عذاب الله، بفعل الأوامر واجتناب النواهي، على علم وبصيرة، وبعضهم يتفنن في تعريفها؛ كقوله[1]:

خَلِّ الذنوبَ صغيرهَا وكبيرهَا، ذاكَ التُّقَى
واعملْ كمَاشٍ فوقَ أرضِ الشَّوكِ يحذرُ مَا يَرَى
لا تَحْقِرَنَّ صغيرةً إنَّ الجبالَ مِنَ الحَصَى

وبعضهم يقول: «أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى الله، على نور من الله، تخشى عقاب الله»، لكن الأول أجمع وأوضح؛ لأنه يعرف به اشتقاق التقوى.

قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ، والمعنى:

---

(١) الأبيات لابن المعتز في ديوانه (٢/ ٣٧٦) طبعة دار المعارف.

اعقلوا هذه الحقيقة، واعرفوا قدر الدنيا وقدر الآخرة، والمراد بالعقل هنا عقل الرشد لا عقل التكليف؛ لأن هؤلاء يعقلون لكنها ليست عقول رشد.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة؛ وجه ذلك أنه وصف الدنيا بقوله: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، ووصف الآخرة بقوله: ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

الفائدة الثانية: أن الدنيا كلها لعب ولهو، لعب في الجوارح، ولهو في القلوب.

الفائدة الثالثة: أنه لا حال للدنيا سوى ذلك، وجه الدلالة الحصر في قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

الفائدة الرابعة: أن الدار الآخرة خير للمتقين من الدنيا، وعلى هذا فما يصيبهم في الدنيا من الأذى في الله ـ عزّ وجل ـ، أو أمراض تصيبهم، أو في فقد حبيب، أو ما أشبه ذلك، فإنه في الآخرة ينسى وكأنه لم يكن؛ لأن الدار الآخرة تمحو كل شيء سبق، وكأنه لم يكن.

الفائدة الخامسة: إثبات الدار الآخرة؛ لأن إثبات وصفها يدل على وجود أصلها.

الفائدة السادسة: أن الآخرة خير لهؤلاء المتصفين بالتقوى، ولغيرهم ليست خيراً، بل هي شر، ولهذا جاء في الحديث: «**أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»[1]، فهي بالنسبة للمؤمن سجن؛

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق (٢٩٥٦).

لأنه لو نَسَبَ نعيم الدنيا كله إلى نعيم الآخرة لم يكن شيئاً، أما الكافر فهي جنته؛ لأنه في الدنيا كان في أهله مسروراً، لكن في الآخرة على العكس من ذلك، ويروى عن الحافظ ابن حجر، وكان رئيس القضاة في مصر، أنه مَرَّ بيهودي زيَّات، قد تعب من أذى الزيت والحرارة وغير ذلك، وابن حجر ـ رحمه الله ـ تجره الخيول، أو البغال على العربة؛ لأنه كان قاضي القضاة في مصر، فاستوقفه هذا اليهودي، وقال: كيف تكون أنت في هذه الحال، وأنا في هذه الحال، والحديث عندكم «**إن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر؟**» فأجابه على البديهة، قال: ما المؤمن فيما فيه من النعيم بالنسبة للآخرة إلا سجن، وما البؤس، أو الشقاء الذي أنت فيه بالنسبة للآخرة إلا جنة، فعلم اليهودي الحقيقة وأسلم[1].

وقد ذكر الله تعالى في تفضيل الآخرة على الدنيا ثلاث آيات.

الآية الأولى: تتعلق بشخص معين.

والثانية: بمعين بوصفه.

والثالثة: مطلقة.

أما الآية المقيدة بشخص معين فهي قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى: ٤]، وهو الرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ.

والمعينة بوصف هي قوله تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقوله: ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧].

---

(١) ذكرها المناوي في فيض القدير (٣/٥٤٦)، والعجلوني في كشف الخطا (١/٤١١) طبعة مكتبة القدسي.

والمطلقة: كما في آخر سورة سبح ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣].

قوله: ﴿قَدْ﴾ للتحقيق، وقال النحويون إنها مع الماضي للتحقيق، ومع المضارع للتقليل، لكن نقول: أن هذا هو الغالب، أن تكون مع الماضي للتحقيق؛ كقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ﴾ [ق: ٤]، وتكون مع المضارع للتقليل؛ كقولهم: قد يجود البخيل فقد هنا للتقليل.

لكنها وردت في القرآن مقرونة بالمضارع مع دلالتها على التحقيق مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور: ٦٤]، ومثل هذه الآية ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ﴾ لكن عبر عن الماضي بالمضارع إشارة إلى أن الله ـ عزّ وجل ـ علم ويعلم ما يكون، فتكون دالة على الاستمرار، بخلاف (عَلِمَ) الماضي فهي دالة على شيء مضى وانتهى، لكن إذا كان الشيء مستمراً جاءت بلفظ المضارع.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ﴾ جاءت همزة (إنَّ) مكسورة مع أنها واقعة بعد العِلْم، وإذا وقعت بعد العِلم وجب أن تكون مفتوحة الهمزة، كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

فلماذا كسرت الهمزة هنا؟ ولماذا كسرت في قوله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٥]؟

الجواب: أنها كسرت لوجود لام التوكيد، وإذا وجدت لام التوكيد وجب كسر همزة (إنَّ) على كل حال، ولولا اللام لكان سياق الآية (قد نعلم أنه يحزنك).

وقوله: ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ فيها قراءتان: «**ليُحْزِنك**» و﴿لَيَحْزُنُكَ﴾، «**ليُحْزنك**» من الرباعي من أحزنه يُحزِنهْ؛ و(لَيَحْزُنُكَ) من الثلاثي حَزِنَهُ يَحزُنه، والحزن ضد السرور، وهو معنى قائم بالنفس يستلزم الانكسار والندم.

قوله: ﴿ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ وما الذي يقولون؟ إنهم يقولون قولاً منكراً عظيماً، يقولون: لله البنات، يقولون: نعبد الأصنام؛ لتقربنا إلى الله ـ عزّ وجل ـ، يقولون للرسول عليه الصلاة والسلام: إنه ساحر، وإنه مجنون، وإنه كاهن، فكل ما يقولونه مما ينافي التوحيد والرسالة لا شك أنه يحزن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ.

وهل هذا انتصار لنفسه، أو غضب لله ـ عزّ وجل ـ، أو حزن لله ـ عزّ وجل ـ؟

الجواب: أنه غضب لله ـ ـ عزّ وجل ـ بلا شك.

قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ وهذا قول: عالم السر وأخفى ـ عزّ وجل ـ الذي يعلم ما في القلوب فإنهم ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، أي: في قلوبهم، وأما في ألسنتهم فإنهم يقولون إنه ساحر كذاب، لكن في قلوبهم يعلمون أنه صادق، وأنه أمين، وكانوا يسمونه قبل الرسالة: الأمين، ويرضونه ويحكّمونه، ولما جاء بالحق شَرِقوا به وأنكروه ـ والعياذ بالله ـ.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والمراد بهم المكذبون لرسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، فهو ظلم الكفر.

وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾، وقُدِّم عليه لإفادة الحصر، ولتناسب رؤوس الآيات.

ففيها إذاً فائدتان معنوية ولفظية.

أولاً الفائدة المعنوية: هي إفادة الحصر كأن المعنى: (ولكن الظالمين لا يجحدون إلا بآيات الله) وإلا فهم يعترفون بأشياء كثيرة إلا آيات الله فإنهم لا يعترفون بها.

والفائدة اللفظية: لتناسب رؤوس الآيات؛ لأن تناسب رؤوس الآيات من البلاغة بلا شك، ولهذا تأمل قول الله ـ عزّ وجل ـ في سورة طه ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]، فقدم هارون مع أن موسى مقدم في جميع المواضع، لكن من أجل تناسب رؤوس الآيات.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات علم الله ـ عزّ وجل ـ بكل ما يقوله هؤلاء المكذبون؛ لقوله: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾.

الفائدة الثانية: تسلية النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، وتقوية روحه المعنوية، فإن في هذه الآية من تسليته وتقوية روحه المعنوية ما هو ظاهر، وهكذا ينبغي للإنسان أن يسلي أخاه بما يقع لمثله حتى يهون عليه الأمر؛ لأن الإنسان بطبيعته إذا وجد مشاركاً هان عليه الأمر، ألم ترَ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٩﴾

[الزخرف: ٣٩]، وكانوا في الدنيا إذا اشتركوا في العذاب هان عليهم، لكن في الآخرة لن ينفعهم، وانظر إلى قول الخنساء[١]:

ولولا كثرةُ البَاكينَ حولي على إخوانهمْ لقتلتُ نفسي
وما يبكونَ مثلَ أخي ولكنْ أُعَزِّي النفسَ عنهُ بالتَّأَسي

فإذا ذكر الله ـ عزّ وجل ـ لنبيه ﷺ ما يسليه ويقوي معنوياته، ويذهب عنه الحزن فإن هذا من فضل الله عليه ـ تبارك وتعالى ـ.

الفائدة الثالثة: حرص النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ على هداية الخلق، وأنه يحزنه إعراض الناس عن دين الله.

الفائدة الرابعة: علم الله تعالى بما في القلوب لقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ نظير هذه الآية قوله تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾ [النمل: ١٤] ﴿ظُلْمًا﴾ مفعول لأجله، عامله (جحدوا)، أي: جحدوا بذلك ظلماً وعلواً، وانظر إلى قول موسى وهو يجادل فرعون يقول له موسى ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] قال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾، ولم يكذبه فرعون في هذه المحاورة، لم يقل لا أعلم، بينما لما كان يجادل ويشرح لقومه يقول لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ﴾ [القصص: ٣٨]، والظاهر لي ـ والله أعلم ـ أن فرعون لم يقل لموسى إنني لا أعلم خوفاً من نزول العقوبة العاجلة، أو خوفاً من أن ينزل كتاب يكذبه، فالرجل أقر وطريق إقراره السكوت.

الفائدة الخامسة: أنه ينبغي للدعاة أن يتسلوا برسول الله ﷺ فيما إذا سمعوا ما يكرهون من هؤلاء المكذبين المعاندين،

---

(١) في ديوانها (ص٧٢) طبعة دار المعرفة.

فليتسلوا به ويقولوا في أنفسهم وبألسنتهم إن الله تعالى عالم بما تقولون وسيجازيكم.

الفائدة السادسة: أن الجحد بآيات الله كفر ولو استيقنها الإنسان ما دام جحدها، وإن كان مؤمناً بها في قلبه فإنه يكفر؛ لأن أحكام الدنيا تجري على الظاهر، فنحن نكفّر من أظهر الكفر وإن كان مؤمناً بقلبه، ونسكت عمن أظهر الإسلام، ولو كان كافراً بقلبه؛ لأن هذه هي أحكام الدنيا التي أوجبها الله ـ عزّ وجل ـ، إذ إننا لا نعلم ما في قلوب الناس، ومن ثَمَّ أنكر النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ على أسامة بن زيد، حيث قتل المشرك بعد أن قال: لا إلـٰه إلا الله، واحتج أسامة بأنه قالها تعوذاً، أي: خوفاً من القتل ـ لا عن يقين، فقال له النبي ﷺ: «**أقتلته بعد أن قال: لا إلـٰه إلا الله أفلا شققت عن قلبه**»[1]، فأمور الدنيا على الظاهر لا على الباطن، لكن في الآخرة ـ نسأل الله أن يستر علينا ـ على الباطن كما قال ـ عزّ وجل ـ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق: ٨، ٩]، وقال ـ عزّ وجل ـ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العاديات: ٩، ١٠].

وإذا قيل: هل هناك وصف آخر يكفر به الإنسان؟ **فالجواب**: نعم، بالاستكبار، فالردة لها أصلان فقط: **الأول**: الجحود. **والثاني**: الاستكبار. ولو عمل ولم يستكبر ظاهراً فإنه يكفر، كما لو قال: (الصلوات الخمس غير مفروضة، لكني أفعلها تورعاً واحتياطاً) ماذا نقول له؟

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إلـٰه إلا الله (٩٦).

نقول إنه كافر؛ لأنه جحد، والاستكبارُ أن يستكبر عن فعل ما تركه كفر، على أن الإنسان إذا ترك الطاعة استكباراً حتى ولو كانت نافلة فإننا في شك من إيمانه؛ لأن جنس الاستكبار علو على الله ـ عزّ وجل ـ وعلى أوامره ونواهيه؛ فيخشى إذا ترك المسنون استكباراً واستنكافاً أن يكون كافراً، وقولنا: يخشى، يعني: أنه ليس مؤكداً، لكن إذا صدر هذا الاستكبار عن كراهة لِما أنزل الله ـ عزّ وجل ـ فهو كفر، كما قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [محمد: ٩]، ولهذا لا بد من الذل في القلب والتذلل في الجوارح، لا إذا تركه عمداً متهاوناً به، وهناك فرق بين شخص يقول: (أنا لا أصلي الراتبة استكباراً)، وآخر يقول: (لا أصلي الراتبة؛ لأنها لا تجب عليَّ)، الثاني لا يكفر ولا يفسق، وأما الأول فإن الإنسان يكون في شك من إيمانه.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤].

ثم سلَّاه الله ـ عزّ وجل ـ بطريقة أخرى فقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾، وما أكثرهم حتى إن النبي ﷺ رأى في المنام أن النبي لا يتبعه إلا رجلان، أو رجل واحد، والنبي وليس معه أحد[1]، نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقي في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يذكرهم بآيات الله، ويجهر لهم بالدعوة، ويُسِرُّ بها،

(١) رواه البخاري، كتاب الطب، باب: من لم يرق (٥٧٥٢).

ولكن لم يزدهم ذلك إلا نفوراً، وهو صابر على الأذى والسخرية، وحين كان ـ عليه السلام ـ يصنع السفينة، فإذا مروا به قال تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨]، وتأمل قوله: ﴿مَلَأٌ﴾ والملأ الأشراف، وسخرية الأشراف ليست كسخرية آحاد الناس، يعني: أشد في قمع الإنسان واستهانته.

قوله: ﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾، ﴿فَصَبَرُوا۟﴾، أي: تحملوا الرسالة وأدوها على ما فيها من مصادمات وأذى. وقوله: ﴿وَأُوذُوا۟﴾ يحتمل أن تكون معطوفة على ﴿مَا كُذِّبُوا۟﴾، يعني: صبروا على ما كذبوا وعلى ما أوذوا، ويحتمل أن تكون معطوفة على ﴿كُذِّبُوا۟﴾، يعني: ولقد كذبت رسل من قبلك وأوذوا، والمعنيان لا يختلفان كثيراً.

فإن قيل: هل أوذوا بالقول، أو بالقول والفعل؟

قلنا: بهما جميعاً، حتى إن بعضهم قتل، وأوذوا بالقول، وذلك بأنهم كانوا يسخرون بهم خِلقة وخُلقاً وغير ذلك، حتى إن اليهود قالوا لموسى: إنه رجل آدر، أي: كبير الخصيتين، وهذا عيب عند الناس، وكان موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يبدي عورته لهم، فلما كان ذات يوم خلع ثوبه ليغتسل، ووضعه على حجر، فهرب الحجر بثوبه، وجعل يسعى وراءه ويقول: «**ثوبي حجر، ثوبي حجر**»، لكن الحجر لم يقف إلا في الملأ من بني إسرائيل، حتى شاهدوا أن موسى بريء مما قيل فيه[1]، وأظهر الله

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام (٣٤٠٤)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب: من فضائل موسى عليه السلام (٣٣٩).

ـ تعالى ـ كذبهم علناً؛ فموسى ـ عليه السلام ـ كُذِّب وأوذي، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

فالمهم أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أوذوا إيذاء لا يصبر عليه إلا أمثالهم، وقد قال الله لنبيه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] بل لما ذَكَرَ أنه أنزل عليه قال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٣، ٢٤] لم يقل: فاشكر نعمة الله، بل قال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى أنه سيناله ما يناله من الأذى من أجل هذا الكتاب الذي نزل عليه.

قوله: ﴿حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية، يعني: فكانت الغاية أن الله ـ تبارك وتعالى ـ نصرهم؛ لأن الله أخذ على نفسه أن ينصر رسله فقال ـ عزّ وجل ـ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال ـ عزّ وجل ـ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، ولا ينافي هذا ما يحصل لبعض الأنبياء من عدم النصر، وذلك لأننا نقول: هؤلاء الذين لم ينصروا إما (ألا يكونوا أمروا بالقتال أصلاً حتى يكون النصر)، وإما أن نقول: إن النصر نوعان: نصر عاجل للنبي ﷺ يجده في حياته، ونصر آجل لدعوته، فيكون لها انتصار من بعده، وآجل أيضاً يكون في الآخرة.

قوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾، أي: لا أحد يستطيع أن يبدل كلمات الله ـ عزّ وجل ـ، لا يبدل كلمات الله إلا الله وحده، كما أنه لا مبدل لحكمه فلا مبدل لكلماته، وكلماته هي وحيه

الذي أنزله على الرسل، وكذلك هي كلماته القدرية التي يكون بها النصر لأنبيائه والخذلان لأعدائه، ولا يرد على هذا ما جاء به النسخ؛ لأن مبدّل الحكم المنسوخ هو الله ـ عزّ وجل ـ، والآية تدل على أنه لا أحد يبدل كلمات الله، أما الله ـ تبارك وتعالى ـ فله أن يبدل كما قال ـ عزّ وجل ـ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]: وقال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النحل: ١٠١].

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، وهي القسم المقدر و(اللام) و(قد)، والخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، أي: لقد جاءك أيها الرسول من نبأ المرسلين، أي: من النبأ الذي يأتيهم وهو الوحي، هذا المعنى هو المتبادر.

أما المعنى الثاني: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: من قصصهم وأخبارهم وتبيَّن لك ما حصل للرسل من أتباعهم، وما حصل لأتباعهم، كما قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، وعلى هذا فيكون للآية معنيان.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان أن تكذيب الأنبياء ليس وليد عهد النبي ﷺ، بل هو سابق لقوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ﴾.

فإن قال قائل: ما الحكمة من إرسال الرسل مع تكذيبهم؟

فالجواب: أن ذلك لإقامة الحجة عليهم، أي: على المكذبين؛ لأن هؤلاء المكذبين لو لم يأتهم رسول لقالوا: رَبَّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً، ولو لم يأتهم رسول لكان لهم حجة، ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ إلى قوله: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥].

الفائدة الثانية: عتو بعض بني آدم حيث تأتيهم الآيات فيكذبون؛ لأنه ما من رسول بعثه الله إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهذا أمر لا بد منه لتقوم بها الحجة، فإذا كُذِّب الرسل مع هذه الآيات صار ذلك دليلاً على عظم عتو هؤلاء المكذبين.

الفائدة الثالثة: تسلية الله لنبيه ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ؛ لأن الإنسان إذا علم أن غيره قد أصابه ما أصابه هان عليه الأمر، وقد سبق في التفسير أمثلة لذلك من القرآن، ومن كلام العرب والواقع شاهد بهذا، لو أن الإنسان أصيب بحادث وانكسرت قدمه، ثم حُدِّث أن آخر أصيب، وانقطعت الرجل مع الفخذ، فإنه يتسلى وتهون عليه المصيبة.

الفائدة الرابعة: الثناء على الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بالصبر على ما كذبوا وعلى ما أوذوا.

فإن قال قائل: قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢١٤] ما وجه قولهم: ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾؟

فالجواب: قولهم: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ لا يقولونه: استبعاداً، ولكن يقولونه: استعجالاً يستعجلون نصر الله لا استبعاداً، ولا شكاً.

الفائدة الخامسة: أنه يجب علينا أن نتأسى ونتسلى أيضاً بما جرى للرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فنصبر على أذى من يقوم أمام دعوتنا، والعاقبة للمتقين؛ لقوله: ﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾.

الفائدة السادسة: أنَّ أعداء الرسل لا يقتصرون على مجرد التكذيب بل يؤذون الرسل وأتباعهم، والأذية قد تكون جسدية، وقد تكون مالية، وقد تكون فكرية، وقد تكون عسكرية، فهي أنواع متعددة، والكافر يرى أقرب وسيلة تحصل بها الأذية للمسلم ـ لا شك في هذا ـ ولو حصل له أن يبيد الأمم الإسلامية في ليلة بين عشية وضحاها لفعل ذلك.

الفائدة السابعة: أن فرج الله ـ عزّ وجل ـ يأتي مع شدة الكرب؛ فكلما اشتد الكرب فاعلم أنه دنا الفرج، ويؤيد هذا قوله ـ عزّ وجل ـ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥، ٦]، فجعل مقابل العسر الواحد يسرين، وقال النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً**»[1]، وهذا كلام الله وكلام رسوله فهو حق وصدق، لكن النفوس قد تبوء بالفشل فلا تصبر.

الفائدة الثامنة: ألَّا يرجى النصر إلا من عند الله لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾، ولم يقل: حتى نصرهم فلان أو فلان، فإذا

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٢٢).

علمنا أن النصر لا يكون إلا من عند الله، فممن نطلب النصر إلا منه الله ـ عزّ وجل ـ، ولهذا اختصر النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ في عريش له يوم بدر، يناشد ربه ـ تبارك وتعالى ـ النصر حتى نصره الله ـ والحمد لله[1]، ـ فلا تطلب النصر إلا من الله، حتى في المجادلة العلمية لا تطلب النصر من فلان يوافقك، أو لا يوافقك، بل اطلب النصر من الله، وإذا كنت وصلت إلى الحق فاطلب الله أن ينصرك، أو اطلب الله أن يهديك صراطه المستقيم.

الفائدة التاسعة: أنه لا مبدل لكلمات الله، أي: لا أحد يبدلها، إذا قَدَّرَ الله النصر فلا أحد يمنعه، وإذا قدر الخذلان فلا أحد يمنعه، أما الكلمات الكونية فعدم المبدل لها ظاهر؛ لأن الكلمات الكونية لا بد أن تقع، كن فيكون، فإذا قال الله تعالى: (كن) لنزول المطر نزل ولا أحد يمنعه، وإذا قال: (كن) لامتناع المطر امتنع ولا أحد ينزله، فالكلمات الكونية مفروغ منها، فلا أحد يستطيع أن يُبَدِّلَها، أما الكلمات الشرعية فمن الناس من يبدلها، لكن تبديله هذا باطل، والباطل لا وجود له شرعاً.

ولو قال قائل: وجد من بدّل الكلمات الشرعية في الأمم السابقة، وفي هذه الأمة.

فالجواب: وهل هذا التبديل غيَّر من خصائص هذه الكلمات؟ أبداً، فهم لا يستطيعون مهما حاولوا؛ لأنهم وإن بدلوها ظاهراً، فما بدلوه فإنه باطل، والباطل لا حكم لوجوده.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم، رقم (١٧٦٣).

الفائدة العاشرة: قوة عظمة الله وسلطانه ـ عزّ وجل ـ، حيث إنه لا مبدل لكلماته، أما غير الله فمهما بلغ من السلطان والقدرة والقوة والجنود، فإن كلماته تبدل.

فإن قال قائل: وما تقولون في النسخ، أليس فيه تبديل؟

قلنا: بلى، فيه تبديل، لكن مَنْ بدله؟ إنه الله ـ عزّ وجل ـ وكلماته الناسخة لا مبدل لها، فلا يمكن أن نلغي الناسخة؛ لأنها كلمات الله ـ عزّ وجل ـ، قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

الفائدة الحادية عشرة: إثبات أن الله يتكلم، وهذا قد مُلئ منه القرآن، وقد جاءت الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] مؤكدة ذلك؛ لأن ﴿تَكْلِيمًا﴾ مصدرَ مؤكَّد، والمصدر المؤكد ينفي احتمال المجاز.

وهل كلمات الله ـ عزّ وجل ـ بحروف، أم بغير حروف، وبأصوات، أم بغير أصوات؟

الجواب: بأصوات، فالله ـ عزّ وجل ـ يتكلم بصوتٍ مسموعٍ، ولا يمكن أن يكون الكلام معنىً قائماً في النفس؛ لأن المعنى القائم في النفس لا يسمى كلاماً، بل يسمى حديثَ نفس، فالكلام ما نطق به اللسان وليس ما حل بالجنان، ولهذا إذا أراد الله ـ عزّ وجل ـ حديث النفس عبر عنه كما في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ [المجادلة: ٨].

وقد خالف في الكلام طوائفُ ـ كما بيناه في شرح النونية ـ، من أبينها وأبرزها: مذهب المعتزلة الذين يقولون: إن كلام الله أصواتٌ مخلوقةٌ، خلق الله أصواتاً كما خلق أصوات الرعد

والصواعق، فهي مخلوقة وبائنة عن الله، وإنما نسبت إلى الله تشريفاً لها، كما في قوله: (ناقة الله، وبيت الله، ومساجد الله) وما أشبه ذلك.

الطائفة الثانية: الأشاعرة الذين يدَّعون أنهم هم الذين جادلوا المعتزلة، قالوا: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه لا يسمع، وليس له صوت، ولا حروف، ولكنه خلق أصواتاً وحروفاً لتعبر عما في نفسه.

بالله! أهناك فرق بين مذهبهم ومذهب المعتزلة؟ لا فرق، كما قال بعض علمائهم: إنه لا فرق بيننا وبين مذهب المعتزلة؛ لأننا متفقون على أن ما في هذا المصحف مخلوق، لكن المعتزلة، قالوا: هو مخلوق حقيقة، وهو كلام الله حقيقة، وأولئك الأشعرية قالوا: ليس كلام الله حقيقة، فكلام الله هو القائم بنفسه، وهذا عبارة عن كلام الله، فأيهما أقرب إلى الصواب من حيث القواعد؟ المعتزلة أقرب إلى الصواب، أما أهل الحق السلف وأتباعهم من الأئمة فقالوا: إن الله ـ عزّ وجل ـ نفسه يتكلم بكلام مسموع بحرف مرتب، ولا يعقل الكلام إلا على هذا الوجه.

فإذا قال قائل: هل كل ما خلقه الله قليلاً، أو كثيراً يكون بكلمة (كن)؟

الجواب: ظاهر النصوص أن كل ما خلقه الله يقول له: كن، ولهذا كانت كلمات الله لا نفاد لها، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩]، ويحتمل أنه ـ عزّ وجل ـ قال:

(كن) في أول الأمر، وصار المخاطب يقوم بما أمر به، كما قال: «للقلم اكتب ما هو كائن»[(١)]، فكتب ما هو كائن.

الفائدة الثانية عشرة: إثبات رسالة النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، كما ثبتت رسالاتُ مَن قبله لقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

الفائدة الثالثة عشرة: تأكيد رسالة النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، وذلك بالقسم و(اللام) و(قد).

الفائدة الرابعة عشرة: أن القرآن الكريم يُراعى فيه فواصل الآيات لقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، ومراعاة الفواصل ظاهر في القرآن الكريم، انظر إلى سورة طه، وانظر إلى سورة القمر: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ حتى قال: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: ١٣] دسر: جمع دسار، وهو المسمار كل ذلك لأجل أن تتناسب السورة في فواصل الآيات، وذلك؛ لأن هذا من البلاغة، ولأن هذا مما تصغي له الأسماع، ولأن ذلك مما تطرب له القلوب، فهذه ثلاث فوائد لتناسب الآيات الكريمة.

الفائدة الخامسة عشرة: أنه قد يكون فيها إشارة إلى أن محمداً ﷺ خاتم الرسل لقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، يعني: الذين أرسلوا، فإن صح أخذ هذه الفائدة من هذه الآية، وإلا فهو خاتم النبيين، وهذا أمر مجمع عليه، نص عليه القرآن

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧)، رقم (٢٢٧٥٧)؟ والترمذي: كتاب القدر باب (١٧)، وقال: حديث غريب.

الكريم في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] اللهم صلِّ وسلم عليه.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام: ٣٥].

قوله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ لا شك أن (كان) تحتاج إلى اسم وخبر، و(كَبُرَ) تحتاج إلى فاعل، فهل نقول إن اسم كان ضمير الشأن مستتر، و﴿كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ خبرها، أو نقول إن: ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ تنازع فيه (كان) و(كبر)، فـ (كان) يطلبه اسماً و(كبر) يطلبه فاعلاً، يحتمل هذا وهذا، لكن الأول أوجه، والمعنى: فإن كان الشأن في هذا الأمر أنه كبر عليك إعراضهم، أي: عَظُمَ عليك إعراضهم، وذلك بما كان في نفسك من الحزن والأسى فحاول أن يهتدوا على يدك ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾، يعني: فافعل، ولكن ليس عليك إلا الصبر.

وجملة ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أتى بعدها جملة شرطية أخرى ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾، وهذا من تداخل الجملتين الشرطيتين، فتكون الجملة الثانية في محل جزم جواب الجملة الأولى، وهذا يوجد في القرآن وفي كلام العرب، أما في القرآن كهذه الآية وكما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾

تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٦، ٨٧]، فهذا شرط داخل شرط، ومنه في قول شاعر العرب[١]:

إِنْ تَسْتَغِيثُوا بِنَا إِنْ تُذْعَرُوا تَجِدُوا ... مِنَّا مَعَاقِلَ عِزٍّ زَانَهَا كَرَمُ

فِعْلُ الشرط الأول، ثم الثاني قَيْدٌ فيه، و(تجدوا) جواب الشرط.

المهم أن قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ جملة شرطية في ضمن جملة شرطية، الجملة الأولى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، والثانية: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، وجواب الجملة الثانية محذوف تقديره: (فافعل) ولن يمكنك ذلك، فإذا كان لا يمكنك فإنه لا يمكنك أن تأتي بالآيات التي اقترحوها، وإذا كان لا يمكنك فلا تحزن عليهم؛ لأن الإنسان لا يحزن إلَّا على شيء يمكنه أن يفعله ولم يفعله.

وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، أي: عظم عليك وشق عليك.

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾، أي: قدرت على أن تبتغي نفقاً في الأرض، أي: تطلب نفقاً في الأرض، والنفق هو السرداب يحفر في الأرض ويدخل الإنسان فيه ليصل إلى أعماق الأرض، ﴿أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ تبتغي سلماً، أي: مصعداً تصعد به إلى الجو ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾، فبيَّن الله ـ عزّ وجل ـ لهم النزول والارتفاع، فلا يستطيع أن ينزل إلى نفق في الأرض فيستخرج الآيات، ولا أن يصعد إلى السماء فيأتي بالآيات، والمعنى واضح.

---

(١) البيت في «الخزانة» (١١/٣٥٨) ولا يعرف قائله، وكذلك ذكره الأشموني في شرحه الألفية (٣/٥٩٦)، والسيوطي في الهمع (٢/٦٣).

فإذا كان لا يمكنك هذا وَهو معلوم للجميع فإنه لا يمكنك أن تأتي بما اقترحوه من الآيات، كما قال ـ عزّ وجل ـ في آية أخرى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠].

قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ (لو) شرطية، وفعل الشرط (شاء)، وجوابه ﴿لَجَمَعَهُمْ﴾؛ لكن أين المفعول في (شاء)، هل نقدِّره مطابقاً للفظ الجواب، أو نقدره بمعنى آخر؟ قَدَّره بعضهم بقوله: لو شاء الله هدايتهم لجمعهم على الهدى، وقدره آخرون بقولهم: ولو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم على الهدى، لكن أيهما أنسب الثاني أم الأول؟

الجواب: الثاني أنسب، وهو أن نقدر المحذوف مطابقاً للموجود، أي: ولو شاء الله أن يجمعهم على الهدى، وجَمْعُهم على الهدى أعظم من مجرد الهداية، لأنهم قد يهتدون ولا يجتمعون، وينبغي أن نطرد هذا في كل ما كان مشابهاً؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣] فماذا نُقدِّر؟ نُقَدِّر ولو شاء الله ألا يقتتلوا ما اقتتلوا فتقدير الشيء مطابقاً للموجود أولى من تقدير شيء غير مطابق، ولا نعلم هل أراده الله أم لا، فما بين أيدينا هو المتعين.

إذاً ولو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم؛ لأن القلوب بيد الله ـ عزّ وجل ـ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]، أي: على دين الإسلام، وكقوله: ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]؛ لأن الأمر كله بيده ـ عزّ وجل ـ.

قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ نهيٌ مؤكد بنون التوكيد، يعني: ينهاه الله ـ عزّ وجل ـ نهياً مؤكداً، فأنت يا محمد لست جاهلاً حتى يكبر عليك إعراضهم، وحتى تحزن لعدم إيمانهم؛ لأن ذلك من حكمة الله ـ عزّ وجل ـ، والجهل نوعان: جهل سفاهة، وجهل انتفاء علم، والمراد هنا هو النوع الثاني، ومثال الجهل الذي هو السفاهة قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]، أي: بسفاهة وليس المراد بالجهالة انتفاء العلم؛ لأن انتفاء العلم يرتفع به الحرج والإثم، إذاً قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، أي: من ذوي الجهل الذين لا يعرفون سنن الله ـ عزّ وجل ـ في خلقه.

فإن قال قائل: هل يلزم من هذا النهي أن يكون النبي ﷺ فعل فعل الجاهلين؟

الجواب: لا، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]، وقال ـ عزّ وجل ـ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس: ٩٤]، فلا يلزم من هذا الشرط أن يقع المشروط.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن النبي ﷺ قد عظم عليه إعراض المدعوين إلى الإسلام، وهل هذا انتصار لنفسه، أم رغبة في هداية عباد الله؟ الثاني بلا شك، وهذا من تمام نصحه ﷺ للأمة ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

الفائدة الثانية: أن الإنسان ينبغي له ألا يهون عليه إعراض الناس، بل يكون كبيراً في نفسه، لكن لا تعصباً لما هو عليه، ولكن من أجل مصلحة الآخرين، فإذا رأينا مثلاً رجلاً عالماً عابداً كريماً، لكنه في الأسماء والصفات على غير ما يرام، فهل يشق علينا هذا أو لا؟ لا شكَّ أنَّه يشق علينا هذا، وإذا نظرنا إليه بعين القدر رحمناه، وقلنا: سبحان الله! كيف يكون هذا الرجل الفاضل على عقيدة غير سليمة؛ نرحمه حقيقة؛ لأنه محروم، لكن إذا نظرنا إليه بعين الشرع فإننا نجادله، فإن رجع إلى الحق فهذا المطلوب، وإن لم يرجع فإننا نفعل به كما قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في العشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسُّنَّة، وأقبل على علم الكلام»[1]، وكذلك لو زنا رجل وهو من علية القوم ومن أهل الخير، إذا نظرنا إليه بعين القدر رحمناه ورققنا له، كيف يصدر الزنا من هذا؟ لكن إذا نظرنا إليه بعين الشرع أقمنا عليه الحد ولا نرأف به، كما قال ـ عزّ وجل ـ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، لم يقل في قدر الله بل قال: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [النور: ٢]، ولهذا جاء في الحديث ـ وإن كان فيه نظر ـ: «**أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود**»[2].

الفائدة الثالثة: أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قد يبين الشيء

---

(١) ذكره ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص٢٠٩).

(٢) رواه أبو داود، كتاب الحدود، باب: في الحد يشفع فيه (٤٣٧٥)، والإمام أحمد في مسنده (٢٤٩٤٦).

المستحيل بضرب مثل له، دون أن يذكره بعينه، وجهه أن الله قال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾، يعني: فافعل، بدلاً من أن يقول: وإن كان كبر عليك إعراضهم فإنهم لن يؤمنوا، ولأن هذا هو المتوقع، لكن الله تعالى ضرب مثلاً حتى يكون مقنعاً للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولغيره أيضاً.

الفائدة الرابعة: طلب الشواهد لصحة ما يقول الإنسان: قد يكون من الأرض، وقد يكون من السماء، لأن الله إنما قال له: ذلك لا لأجل أن يلجأ، ولكن من أجل أن يأتي بما يشهد له، ولهذا قال: ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾.

الفائدة الخامسة: أنه لا بد لكل نبي من آية وهذا من حكمة الله ـ عزّ وجل ـ، أرأيت لو جاء رجل في غير هذه الأمة، وادعى أنه رسول، وقال: أنا رسول ومنهجي كذا، وعقيدتي كذا، وعبادتي كذا، فأطيعوني بدون أي آية، هل يكون هذا من الحكمة؟ ليس من الحكمة، ومن كذّبه فهو معذور، وإلا لكان كل كاذب دجال يدعي أنه نبي، وربما يدعي أنه رب، فالآيات فيها نصر للرسل، ورحمة بالمرسل إليهم حتى يؤمنوا عن يقين.

الفائدة السادسة: أن الهداية والضلالة بيد الله ـ عزّ وجل ـ لقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

الفائدة السابعة: إثبات مرتبة من مراتب الإيمان بالقدر وهي المشيئة، وأن الله تعالى قد شاء جميع أفعال عباده، ومراتب القدر أربعة، وهي: (العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق) مجموعة في قول الشاعر:

عِلْمٌ كِتَابَةُ مولانا مَشِيْئَتُهُ ... وخَلْقُهُ وَهْوَ إيجادٌ وتكوينُ

الفائدة الثامنة: حكمة الله ـ عزّ وجل ـ في جعل الناس صنفين: مؤمنين وكافرين، وهذا أمر لا بد منه؛ لأنه لولا الكفر لم يعرف فضل الإيمان، ولولا الإيمانُ لم يعرف قبح الكفر، كما أنه لولا الحلو ما عرف المر، وهذا واضح، فإن لم يكن هناك أشياء متضادة ما عرف فضل الأشياء المحمودة، ثم إنه لولا اختلاف الناس في الإيمان والكفر ما قامت راية الجهاد؛ لأنهم كلهم إما مؤمنون وإما كافرون، فمن يُجَاهِدُ؟ فلولا هذا الاختلاف ما قام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الناس سيكونون كلهم إما على منكر وإما على معروف، لولا هذا الاختلاف ما قامت الدعوة إلى الله ـ عزّ وجل ـ؛ لأنهم إن كانوا مؤمنين كلهم لم يحتاجوا إلى دعوة، وإن كانوا كافرين ما دعوا، إذاً فمن الحكمة أن الله جعل الخلق صنفين.

لكن قد يقول قائل: إذا كان أحد الناس من الصنف الآخر الكافر أفلا يكون في هذا ظلم له؟ وهذا قد يرد على النفس، ما دمنا نقول: إن الكفر بمشيئة الله، وأن الله ـ عزّ وجل ـ بحكمته قَسَّمَ الناس إلى قسمين، أفلا يقول الكافر إن في هذا ظلماً لي؟

فالجواب: لا، كما قال بعض أهل السُّنَّة وهو يجادل معتزلياً حين قال له: أرأيت إن منعني الهدى، وقضى عليَّ الردى أحسن إليَّ أم أساء؟ فقال له السني: إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو فضله فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[1].

---

(١) جرى ذلك في مناظرة بين أبي إسحاق الإسفراييني، والقاضي عبد الجبار المعتزلي، وذكرها تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية (٤/ ٢٦١ ـ ٢٦٢)، والتفتازاني مختصراً في شرح المقاصد (٤/ ٢٧٥)، والطبري في تاريخه (٨/ ١٢٥).

ونقول ـ أيضاً ـ لا حجة للعاصي على معصيته بقدر الله تعالى؛ لأن العاصي يقدم على المعصية باختياره، من غير أن يعلم أن الله تعالى قَدَّرها عليه، إذ لا يعلم أحد بقدر الله إلا بعد وقوع مقدوره ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]، فكيف يصح الاحتجاج بحجة لا يعلمها المحتج حين إقدامه على ما اعتذر بها عنه، وقد أبطل الله تعالى هذه الحجة بقوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨].

ونقول للعاصي المحتج بالقدر: لماذا لم تُقْدِم على الطاعة مقدراً أن الله تعالى قد كتبها لك، فإنه لا فرق بينها وبين المعصية في الجهل بالمقدور قبل صدور الفعل منك! ولهذا لمَّا أخبر النبي ﷺ الصحابة «**بأن كل واحد قد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار**»، قالوا: أفلا نتكل وندع العمل؟ قال: «**لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»(١).

ونقول للعاصي المحتج بالقدر: لو كنت تريد السفر إلى مكان معين وكان له طريقان أخبرك صادق عنهما، أحدهما مخوف صعب، والثاني آمن سهل، فإنك ستسلك الثاني، ولا يمكن أن تسلك الأول وتقول إنه مقدَّر علي وإلَّا عدَّك الناس في قسم المجانين.

---

(١) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾ (٤٩٤٥)، ومسلم، كتاب القدر، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٧).

ونقول له أيضاً: إذا أُصبت بمرض جسمي فإنك تطرق باب كل طبيب لعلاجك، وتصبر على ما ينالك من ألم عملية الجراحة وعلى مداواة الداء، فلماذا لا تفعل مثل ذلك في مرض قلبك بالمعاصي؟

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: ٣٦].

قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ يستجيب ويجيب معناهما واحد، والجملة فيها حصر، طريقه ﴿إِنَّمَا﴾، يعني: ما يستجيب لدعوتك يا محمد إلا الذين يسمعون، والمراد بالسماع هنا سماع الانقياد والقبول، وليس سماع الإدراك؛ لأن سماع الإدراك يدخل فيه البر والفاجر والمؤمن والكافر، ويدل على التفريق بين سماع القبول والإذعان، وسماع الإدراك قولُ الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال: ٢١]، أي: لا يستجيبون وينقادون.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعلُ ﴿يَسْتَجِيبُ﴾.

قوله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ هذه جملة مستأنفة لا يصح أن تعطف على ما سبق، ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ جمع ميت، وهل المراد موتى القلوب أو موتى الأجسام؟ في ذلك قولان للعلماء، بعضهم قال: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: موتى القلوب وهم الكفار يبعثهم الله فيجازيهم، وبعضهم قال: الموتى موتى الأجساد، يبعثهم الله رداً على الذين ينكرون البعث، وإذا كانت الآية تحتمل معنيين ليس أحدهما أظهر من الآخر ولا منافاة بينهما فالقاعدة أن تحمل

عليهما جميعاً، فالموتى من هؤلاء الكفار سيبعثهم الله ويجازيهم، وموتى الأجساد الذين فارقت أرواحهم أجسادهم سوف يبعثهم الله، فيكون في الآية تهديد ووعيد ورد على من ينكرون البعث.

وقوله: ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: يخرجهم من قبورهم يوم القيامة.

قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، يعني: ثم بعد البعث يرجعون إلى الله ـ عزّ وجل ـ، ويكون أمرهم إلى الله تعالى، وفي ذلك الوقت ليس هناك مخاصم ولا مجادل.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: حصر الاستجابة لدعوة الرسل بالذين يسمعون، لكن هل يسمعون سماع إدراك، أو سماع قبول وإذعان؟

الجواب: سماع قبول وإذعان.

الفائدة الثانية: أنه كلما صار الإنسان أسمع لكلام الله ورسوله صارت استجابته أقوى، وذلك مأخوذ من القاعدة المعروفة (أنَّ ما علق على وصف فإنه يزداد قوة بحسب هذا الوصف الذي علق عليه الحكم)، مثال ذلك قوله: ـ عزّ وجل ـ: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، فكلما كان أقوى كان أخير وأنفع، وكذلك الأمانة كلما كان آمن كان أخير، المهم أنَّ هذه القاعدة مفيدة في كل شيء عُلِّق على وصف، فإنه يزداد قوة بحسب قوة ذلك الوصف.

الفائدة الثالثة: إثبات البعث، والإيمانُ بالبعث أحد أركان الإيمان الستة، التي أخبر بها النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ

جبريل حينما قال: **أخبرني عن الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره»**[(١)].

الفائدة الرابعة: أن هؤلاء الكفار بمنزلة الموتى، وذلك لأنهم لا ينتفعون بما يسمعون، كما أن الميت لا ينتفع بما يسمع؛ لأنه جثة، فكذلك هؤلاء الكفار.

الفائدة الخامسة: تهديد أولئك الكفار الذين لا يسمعون بأن الله سيبعثهم ثم يجازيهم.

الفائدة السادسة: قدرة الله ـ عزّ وجل ـ الكاملة، وذلك بالبعث، والبعث ليس كالإحياء يكون شيئاً فشيئاً، وتجد البشر وغير البشر يخرج صغيراً ثم ينمو حتى يتكامل، أما البعث فيبعثون كلهم في لحظة واحدة، اقرأ قول الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣، ١٤] وقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس: ٥٣]، وقال ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠].

الفائدة السابعة: أن المرجع في النهاية إلى الله ـ عزّ وجل ـ لقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، وهذا الرجوع فيه حصر، طريقه تقديم المعمول في قوله: ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، وفائدة هذا التقديم في هذه الآية لفظية ومعنوية، أما المعنوية فهي إفادة الحصر وأنه لا مرجع إلا إلى الله، وأما اللفظية فلتناسب رؤوس الآيات؛ لأن تناسب رؤوس الآيات من البلاغة، انظر إلى سورة طه آخر آياتها الألف

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٨).

إلا قليلاً، ولما جاء ذكر موسى وهارون قدم هارون على موسى لتتناسب الآيات وإلا فإنه من المعلوم أن موسى أفضل من هارون.

❁ ❁ ❁

□ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام: ٣٧].

قوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾، أي: المعاندون المكذبون للرسول المتعنتون.

قوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وهم يريدون بذلك الآيات التي اقترحوها مثل قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣]، ومع ذلك يقولون ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣]، وغير ذلك من الآيات التي اقترحوها، ولكن من حكمة الله ـ عزّ وجل ـ أنه سد باب الاقتراح على الله ـ عزّ وجل ـ فإنما الآيات من عند الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ، فهو الذي يأتي بها، وليس باقتراح الخلق، والخلق إذا اقترحوا آية معينة، ثم أوتوا بها فلم يؤمنوا هلكوا، هذه سُنَّة الله ـ عزّ وجل ـ، ولا يرد على هذا أن قريشاً قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: أرنا آية يا محمد، فأشار إلى القمر فانشق نصفين، قال أهل العلم: إنما لم يهلكوا؛

لأنهم لم يقترحوا آية معينة، ولو اقترحوا آية معينة، ثم جاءت ولم يؤمنوا لهلكوا، هكذا قرر أهل العلم ـ رحمهم الله ـ.

وقوله: ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي: علامة تدل على صدقه وصحة رسالته، وهنا نريد أن نبيِّن أن بعض العلماء، وما أكثرهم يعبرون عن آيات الرسل بالمعجزات، وهذا نقص عظيم؛ لأننا لو سميناها بالمعجزات لورد علينا ما يفعله السحرة، فإن السحرة يفعلون ما يُعْجِزُ البشر، لكن تسميتها آية تحدد المعنى، وهو العلامة الدالة على صدقه وصحة رسالته، ولذلك لا تجد في القرآن أن الله عبر عن آيات الرسل بالمعجزات أبداً، إنما يعبر عنها بالآيات.

وقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعنون بذلك الله ـ عزّ وجل ـ، وفي هذا التعبير تكبرٌ وتعالٍ، حيث قالوا: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾، ولم يقولوا: من الله ولا من ربنا كأنهم في شق، والرسول ﷺ مع الله في شق آخر.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾، أي: ليس بعاجز على أن ينزل آية، بل هو قادر، ولما طلب الحواريون من عيسى أن ينزل عليهم مائدة من السماء، هل قدر الله عليها؟ نعم قدر الله عليها ـ على قول من يقول إنها نزلت ـ وكذلك آيات الرسل الحسية والمعنوية كلها من عند الله، فهو قادر على أن ينزل آية، ولكنه لا يريد أن يأتي بما يطلبه هؤلاء؛ لأنه لو جاءت الآيات حسب الاقتراح لكان كل واحد يقترح ما يرى أنه آية، وقد يقترح ما يرى أنه آية وليس بآية، لذلك نقول: الآيات عند الله ـ عزّ وجل ـ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾، ولكنَّه لا يريد، وإذا لم يرد لم يكن.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون أن الله ـ عزّ وجل ـ هو الذي ينزل الآيات، وهو قادر على أن يأتي بآية وقادر على أن لا يأتي بآية، فهم جهلة ولو كان عندهم علم، لعلموا أن النبي ﷺ لا يمكن أن يأتي بالآيات، بل الذي يأتي بها هو الله.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تعنت هؤلاء المكذبين، حيث احتجوا بأن الله لم ينزل عليهم آية، ولكن هل هذه الدعوى حق، أو باطل؟، واللهِ إنها باطل، فآيات النبي ﷺ مشاهدة معلومة، ومن آياته العظيمة هذا القرآن الذي جعل كبار قريش يتسللون لواذاً في الليل ليستمعوا قراءة النبي ﷺ؛ لأنها سحرت ألبابهم، وأعجبتهم إعجاباً كثيراً، لكنهم معاندون، كذلك آيات كثيرة حسية مثل ما حصل لعمه أبي طالب من البركات في أهله وماله بسبب حضانته للنبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، كذلك أيضاً صد أعدائه عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: ٩]، والآيات كثيرة يعرفونها لكنهم مستكبرون.

الفائدة الثانية: استكبار هؤلاء وترفعهم حيث قالوا: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾، ولم يقولوا من ربنا، ولم يقولوا من الله، كأنهم في جانب، والرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ والله في جانب آخر.

الفائدة الثالثة: انتصار الله ـ عزّ وجل ـ للنبي ﷺ، حيث إنه دافع عنه، لمّا قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ لا شك

إن هذا يوجب ضغطاً على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فالله تعالى يجيب عنه انتصاراً له ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾.

الفائدة الرابعة: إثبات قدرة الله ـ عزّ وجل ـ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾، وهذه القدرة قدرة كاملة لا يلحقها شيء من العجز، لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، فلكمال علمه وقدرته لا يعجزه شيء؛ لأن العجز عن الشيء سببه إما الجهل وإما الضعف، فالله عليم قدير، وهذه القدرة تتعلق بكل شيء فهو على كل شيء قدير، ولا تبحث كما بحث المتكلمون المتعمقون المتنطعون، هل تتعلق بالممكن والواجب والمستحيل، أم بالممكن والواجب فقط دون المستحيل؟ هذا كلام فارغ وليس ذا معنى؛ لأن الله ـ عزّ وجل ـ أطلق قدرته فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

توجد عبارة لبعضهم يقولون: خص العقل ذاته فليس عليها بقادر، أعوذ بالله، كلام فارغ؛ يعني: أن العقل دل على أن الله لا يقدر على نفسه، وهذا يعني: تعطيل الله ـ عزّ وجل ـ عن كل فعل؛ لأنه لا يقدر أن يفعل أي شيء فيما يتعلق بنفسه، ونحن نقول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فإذا قال قائل: هل تقول إن الله يقدر أن يهلك نفسه ـ نسأل الله العافية ـ؟

فالجواب: نقول إن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أثبت لنفسه الكمال من كل وجه، والهلاك نقص فلا يمكن، وهذا السؤال غير وارد، لكنَّ المتكلمين يوردونه حتى يصلوا إلى أن القدرة لا تتعلق بالمستحيل.

يُذْكَرُ أن الشيطان يضع كرسيه على البحر، ويرسل جنوده يضلون الناس، فإذا مات العابد لم يكترث بذلك، وإذا مات العالم فإنه يفرح فرحاً عظيماً، فقال له جنوده: لِمَ تفرح هذا الفرح بموت العالم، ولا تكترث بموت العابد؟ قال: لأن العالم أضر عليَّ من العابد؛ لأن العابد إذا مات لم يفقده إلا نفسه، والعالم تفقده الأمة؛ فالعالم إذا اهتدى هدى الله به أُمة والعابد في مسجده، فقال الشيطان: وإن شئتم ضربت لكم مثلاً، يقال: إنَّه أرسل إلى العابد، فقال له: يا فلان: هل يستطيع الله ـ عزّ وجل ـ أن يجعل السماوات والأرض كلها في بيضة؟ فقال العابد: لا، السماوات كلها في بيضة!! لسان حاله يقول: أنا لو قعدت في البيضة ما وسعتني كيف السماوات والأرض؟ لا يمكن، ثم أرسل إلى العالم وقال له: هل يقدر الله أن يجعل السماوات والأرض في بيضة؟ قال: نعم ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، فجاء المندوب قال: انظر، هذا العابد كفر وهو لا يعلم؛ لأنه أنكر قدرة الله ـ عزّ وجل ـ، وذاك، أي: العالم آمن؛ لأنه قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢] على كل حال أنا أقصد أنَّ التعمق في هذه المسائل غلط، أثبت ما أثبته الله لنفسه، وأن الله على كل شيء قدير، وأعرض عما سوى ذلك.

الفائدة الخامسة: أن أفعال الله ـ عزّ وجل ـ مقرونة بمشيئته، بمعنى: أَنَّ ما لم يشأ لم يكن، وإن كان قادراً عليه لقوله: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾، يعني: ولكنه لم يشأ.

الفائدة السادسة: أن أكثر هؤلاء المنكرين المكذبين لا يعلمون حقيقة الأمر؛ لأنهم لم يتفكروا، ولو تفكروا لعلموا، لكنهم معرضون.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨] اقرأ ـ سبحان الله ـ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ المراد بالدابة كل ما يدب على الأرض، بأرجل متعددة، أو أربع، أو اثنتين، أو يزحف على بطنه، أي: دابة في الأرض.

فإن قيل: وهل السيارات والطيارات تسمى دواب؟

فالجواب: لا، المراد ما فيه الروح.

لكن لو قال قائل: الرسول ﷺ كان إذا استوى على دابته حمد الله، وكذلك نحن إذا ركبنا السيارة نقول: هذا الدعاء مع أنها ليست دابة؟

فالجواب: هي ليست دابة، لكنها راحلة.

قوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾، فذكر المخلوقات الأرضية والمخلوقات الهوائية التي تسبح في الجو، فالطيور على اختلاف أنواعها، وكذلك الدَّوَاب التي على الأرض على اختلاف أنواعها كلها أممٌ أمثالنا تختلف في أجناسها، وتختلف في ألوانها، وتختلف في قدراتها، وتختلف في أرزاقها، وتختلف في لغاتها، كما أننا نحن كذلك أمم.

وقوله: ﴿طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ هذا من باب التوكيد؛ لأنه من المعروف أن الطائر لا يطير إلا بجناحيه، كما إذا قلت يمشي برجليه، أو ينظر بعينيه، أو يسمع بأذنيه، وما أشبه ذلك، وأما دعوى بعضهم أن هذا قيد تخرج به الطائرات؛ لأن الطائرات تطير لكن ليس بجناحيها، فهذا غلط؛ لأن شيئاً لم يكن معروفاً في ذلك الوقت لا يصح الاحتراز منه؛ لأنه غير واردٍ أصلاً، فالصواب أن قوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ من باب التوكيد، على أني أقول إن الطائرة مركبة على هيئة الطير فيها جناح يمين ويسار يمنعها من التأرجح، وفيها أيضاً هواء، والطير يطير بالهواء، وفيها أيضاً انخفاض الأجنحة عند النزول، وارتفاعها عند الطلوع، المهم أن الذي سمعناه وقرأناه ورأيناه في الصورة أن هذه الطائرات مركبة على حسب الطيور.

قوله: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ وهذه الأمم ـ سبحان الله ـ متنوعة متفرقة مختلفة، في الأحجام، وفي الألوان، وفي القوى، وفي كل شيء، أيضاً مختلفة في اللغات والألسن.

فإن قيل: هل تفهم البقرة ما تصدره الهرة من الصوت؟

فالجواب: لا تفهم، ولا العكس، لكن بقرة مع بقرة تفهم، وهرة مع هرة تفهم، وتأمل ـ سبحان الله ـ تجد أن الهرة لها أصوات مختلفة، فإذا كانت تريد الذَّكَر فلها صوت خاص، وإذا كانت تريد أن تدعو أولادها الصغار فلها صوت خاص، تجدها تدخل في المكان، ثم تموء لصغارها فإذا هم مجتمعون عليها ـ سبحان الله ـ بصوت غير العادي، كذلك غيرها مثلها، فكل واحد من هذه الأمم لا يفهم لغة الأمم الأخرى.

ثم إن الله ـ عزّ وجل ـ أعطى كل نوع من هذه الأمم هداية يهتدي بها كيف يعيش، ويقال: إن أذكى ما يكون النمل ـ سبحان الله ـ أعطاه الله تعالى ذكاء عجيباً، فهو من الحيوان الذي ينظر إلى المستقبل، فإذا جاء وقت الحَبّ جمع الحَبّ في جحوره وماذا يصنع؟ يأكل رأس الحبة من أجل ألا تنبت؛ لأنها لو نبتت فسدت عليه، ثم إذا جاءت الأمطار، ووصل المطر إلى الحب خرج به مهما كان ينشره لئلا يفسد ولاتقاء رائحته، فسبحان الله، وهذا شاهدناه وشاهده غيرنا.

فإن قال قائل: إذا رأيت هذا الحَبّ الذي أخرجه النمل، هل يجوز أخذه؟

فالجواب: يجوز أخذه عند الضرورة؛ لأن حرمة الآدمي أبلغ من حرمة النمل، ثم نقول أيضاً: يجوز إذا كان النمل يمكن أن يتغذى بغيره؛ لأن النمل في أيام الشتاء لا يخرج، بل يبقى في جحوره، وإذا لم يكن مضطراً نظرنا، إذا كان لا يمكن أن يجلب طعاماً غيره فلا بأس أن يأخذه وإلا فيبقيه لها؛ لأني أخشى أن يكون هذا من جنس حبس الهرة التي دخلت النارَ امرأةٌ بها لا هي أطعمتها، ولا أرسلتها تأكل من خشاش الأرض[1].

ونظير ذلك أيضاً لو وجدْت مع هرةٍ لحماً جاءت به من الجيران هل لك أن تأخذه من هذه الهرة؟

---

(١) للحديث الذي أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب: خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، رقم (٣٣١٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم تعذيب الهرة ونحوها من الحيوان، رقم (٢٦١٩).

الجواب: يؤخذ منها؛ لأن الهرة الآن سرقت، فيؤخذ منها ويرد إلى صاحبه لا سيما إذا كانت دجاجة حية فأنقذها وأعطها الجيران.

وهل يجوز أخذ نصف الحب الذي أخرجه النمل وترك نصفه؟

الجواب: إذا أخذت النصف يجب عليك أن ترده إلى صاحبه، أي: صاحب المزرعة التي بجوار النمل؛ لأنه في الغالب يأخذ مما حوله، فخذ هذا الحب وأعطه صاحب المزرعة، وقد أخبرني بعض الطلاب من دولة مجاورة لنا أن بعض الإخوة يأتي إلى بيت النمل ويكلمه، يقول: أسألكم بالله أن تخرجوا ويعطيهم زاداً، ويقرأ بعض آيات من سورة النمل، يقول: فخرج النمل من مزرعته لكن دخل في مزرعة جاره، وأيضاً مما أخبرني به قال: إنه كان عندنا في مسجد الحي عند باب المسجد نمل كثير، وهذا المسجد في دولة فيها صوفية فجاء أحد الإخوان المستقيمين من أهل السُّنَّة، وقال للنمل: أسألكم بالله أن تخرجوا من هذا المكان قال: فجئنا في اليوم الثاني فلم نجد النمل، وكان مؤذن المسجد صوفياً فلما رأى رحيل النمل قال لهذا الأخ: أنت ولي، وسمعنا أن بعض الإخوان كان يجلس على كرسي صغير، ثم يقرأ آيات من القرآن فيرحل النمل عن بيته ـ الله أكبر ـ وهذا يدل على أن النمل يفهم، وقصة سليمان دليل واضح على أنه يفهم.

لو قال قائل: ما حكم النمل الذي في البيت إذا كان يسبب أذية للصغار؟

الجواب: نقتله، ونحن جربنا القاز [الكيروسين]، فأنت إذا صببته على الجحر رحل النمل.

المهم أن هذه الدواب أمم أمثالنا، ولها عجائب، وقد ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتاب مفتاح دار السعادة العجب العجاب من هذه الأمم.

قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ فرطنا، يعني: أهملنا، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ، وليس الكتاب العزيز والسياق هو الذي يعين ذلك، ولأن الكتاب العزيز قال الله فيه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، فالمراد بالكتاب هنا اللوح المحفوظ، يعني: ما أهمل الله شيئاً إلا كتبه في اللوح المحفوظ، ولا يشكل عليك أن تقول: كيف يُكتب كل شيء حتى أصناف الدواب؟ نقول: الواجب على الإنسان أن يؤمن بما أخبر الله به سواء أدركه عقله أم لم يدركه، ولو كان الإنسان لا يؤمن إلا بما أدركه عقله لم يكن مؤمناً حقاً، فكل ما أخبر الله به من هذا وغيره يجب علينا أن نؤمن به، ولا نعترض ولا نورد إيرادات سواء أدركناه بعقولنا أم لم ندركه، على أنه وجد الآن من صنع البشر أشياء صغيرة تحمل كلمات كثيرة جداً، وهي من صنع البشر، هذه الأقراص التي يسمونها الليزر تحمل كثيراً جداً من الكلمات.

لو قال قائل: قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ هل يؤخذ منه أن دعاء: «اللهم لا أسألك رد القضاء، ولكن أسألك اللطف فيه»؟

فالجواب: لا يثبت، هذا الدعاء معروف أنه منكر، ولا يجوز الدعاء به فقولهم: «رب لا أسألك رد القضاء، ولكن أسألك اللطف فيه» هذا غلط، والدعاء به يدل على أن هذا

الإنسان كأنه يقول: لا أبالي، بل الواجب أن تسأل الله أن يعافيك، ولا يرد القضاء إلا الدعاء لكن هذه كلمة من صوفي، أو شبهه وسارت على الألسنة.

فإن قيل: هل الإنسان مسير أو مخير؟

قلنا: ـ سبحان الله ـ فهذا الذي سأل هذا السؤال مخير أو مسير؟

من المعلوم أن الإنسان: مخير، فهو الذي اختار أن يسأل.

وقوله: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ ﴿مِّن﴾ زائدة للتوكيد، وقد مرّ بنا أنه ليس في كتاب الله تعالى شيء زائد لغير معنى أبداً؛ لأن القرآن لفظ ومعنى، لكن قولنا (زائد)، يُراد به: الزيادة الإعرابية، يعني: زائداً إعراباً، أما معنىً فلا.

قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، يعني: ثم بعد أن تنتهي الدنيا ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الذي خلقهم ـ عزّ وجل ـ، وكتبهم في اللوح المحفوظ ﴿يُحْشَرُونَ﴾، أي: يجمعون كل شيء يحشر يوم القيامة، ولا تستغرب فتقول: كيف تحشر هذه الدواب والسباع والبهائم والطيور وغيرها؟ بل الواجب عليك أن تصدق، والمسألة فوق ما يدركه العقل، كلهم يحشرون إلى الله، وكلهم يقتص للمجني عليه من الجاني، حتى الشاة التي ليست لها قرون تقتص من الشاة التي لها قرون إذا نطحتها في الدنيا، وهذا من كمال العدل، ولهذا يظهر يوم القيامة من تمام عدل الله ـ عزّ وجل ـ ورحمته وغضبه أيضاً ما لم يكن سابقاً، حتى يظهر تمام العدل للخلائق جميعاً.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أنه ما من حيوان يدب على الأرض، أو يطير في السماء إلا وهو مكتوب عند الله ـ عزّ وجل ـ.

الفائدة الثانية: أن القرآن الكريم جاء بالأسلوب العربي، أي: أنه جرى على ما ينطق به العربُ في لغتهم، فإذا كان من لغة العربُ مثلاً: أن يؤكدوا الشيء بما يزيده قوة، جاء به القرآن، لذلك نجد في القرآن، الكريم كثيراً من الإقسامات على الشيء؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ [الطارق: ١]، وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾ [البروج: ١] هل هذا لشك فيما أخبر الله به؟ لا؛ لأن الله تعالى صادق، سواء أقسم أم لا، لكن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، فجرى في التعبير على ما كان العرب يعبرون به.

الفائدة الثالثة: أن الإنسان يجب أن يعرف قدر نفسه، فهو بالنسبة لعظمة الله ـ عزّ وجل ـ؛ كالنملة لقوله: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ إذاً لا تترفَّعْ ولا تتعالَ، فما أنت إلا مثل هذه الدواب بالنسبة لعظمة الله ـ عزّ وجل ـ، وإن كان الله ـ ـ عزّ وجل ـ قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠]، أي: لم يُفضِّل بني آدم على كلِّ ما خلق الله، بل على كثير مما خلق الله، وما يفهمه بعض الناس من أن بني آدم هم أفضل المخلوقات فخطأٌ؛ لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ قال: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ لم يقل على من خلقنا، وإياك أن تأتي بالتعليل مع وجود الدليل.

لو قال قائل: يَرِدُ كثيراً على ألسنة الخطباء وفي مقدمة بعض الكتب «والصلاة والسلام على أشرف خلق الله محمد ﷺ» هل هذا جائز؟

الجواب: هذا غلط، وإن كان بعضهم أطلق فقال[1]:

وأفضلُ الخَلْقِ عَلى الإطلاقِ[2] نبينا فَمِلْ عن الشِّقَاقِ

ولكن يجب أن يقيد الخلق ببني آدم؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**أنا سيد ولد آدم**»[3]، وأما ما جاء في الحديث «**خيرته من خلقه**»[4]، المراد خلق الآدميين.

الفائدة الرابعة: أن الله ـ عزّ وجل ـ لم يهمل شيئاً في اللوح المحفوظ، فكل شيء كتبه لقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾، ولأن الله تعالى أمر القلم أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.

الفائدة الخامسة: أن مآل هذه المخلوقات الطائرة والزاحفة وغيرها، إلى الله ـ عزّ وجل ـ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

---

(١) هو برهان الدين إبراهيم بن إبراهيم، صاحب جوهرة التوحيد في عقيدة الأشاعرة.

(٢) البيت رقم (٦٥) في التعليقات المفيدة علي جوهرة التوحيد (ص٣٠)، وفي تقريب البعيد إلى جوهرة التوحيد (ص١١١).

(٣) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب: تفضيل نبينا ﷺ... (٢٢٧٨).

(٤) ذكره الألباني في إرواء الغليل من حديث أم سلمة هند بنت عتبة (١٨١٤)، وقال: حديث ضعيف.

□ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٣٩].

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هذه الجملة معطوفة عطفَ جمل، أي: قالوا إنها كذب ولم يصدقوا بها، جاءوا للآيات الكونية وقالوا هذه سحر، مثل فرعون حينَ رأى آيات موسى قال: هذا سحر، وكما قال الله ـ عزّ وجل ـ عن قريش: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر: ١، ٢]، فكذبوا بالآيات الكونية، وكذبوا كذلك بالآيات الشرعية، ووصفوا الرسل بالكذبة وبالشعراء وبالكهنة وبالمجانين وبالمسحورين وما أشبه ذلك، وهذا تكذيب بالآيات الشرعية، هؤلاء الذين كذبوا بآيات الله ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، فلهم ثلاث أحوال، ﴿صُمٌّ﴾ بآذانهم لا يسمعون الكتاب سماع انتفاع، فانسد طريق الحق عنهم من جهة السماع، ﴿وَبُكْمٌ﴾ جَمْعُ أبكم وهو الذي لا ينطق، فلا ينطقون بالحق ولكنهم ينطقون بالباطل، ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ لا يبصرون، الظلمات محيطة بهم من كل جانب؛ لأن (في) تدل على الظرفية، والظرف محيط بمظروفه، فانسدت عليهم أبواب العلم والمعرفة: السمع والبصر والنطق، ـ والعياذ بالله ـ وفي هذا قال الله ـ عزّ وجل ـ في سورة البقرة: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٨].

قوله: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ الجملة شرطية، فعل الشرط ﴿يَشَإِ﴾، وجوابه ﴿يُضْلِلْهُ﴾، أي: من يشأ الله إضلاله يضلله؛ لأن الأمر أمره ـ عزّ وجل ـ، لا معقب لحكمه ولا اعتراض

عليه، ولا يُسأَل عما يفعل ـ فنسأل الله أن يهدينا فيمن هدى ـ ﴿يُضْلِلْهُ﴾، فيعمى عن الحق ولا يصل إليه.

قوله: ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ونقدر هنا ﴿وَمَن يَشَأْ﴾ هدايته ﴿يَجْعَلْهُ﴾، أي: يُصيره على (صراط مستقيم)، أي: لا عوج فيه وهو الإسلام.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان حال الذين كذبوا بآيات الله، وأنه لا سبيل إلى هدايتهم؛ لأنهم صم لا يسمعون الحق سماع انتفاع، وكذلك هم في الظلمات، وأنهم لا ينطقون بالحق.

ولو قال قائل: الذين يحرفون الآيات هل يدخلون في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؟

فالجواب: التحريف بمعنى: التأويل، فإذا كان تأويل إنكار فربما يدخلون في هذه الآية، أما إذا كان تأويلاً عن اجتهاد فهم لا يدخلون في هذه الآية، وليسوا بمعاندين والتأويل يُقبل إذا كان اللفظ يحتمله، وهناك ما يرجح المعنى الآخر، لكن إذا كان لا يحتمله اللفظ فهم معاندون فيشبهون الذين جحدوا.

وهل الذين لا يعملون بهذه الآيات يدخلون في الذين كذبوا بآيات الله؟

الجواب: لا يدخلون؛ هؤلاء مستكبرون.

الفائدتان الثانية والثالثة: أن من شاء الله هدايته اهتدى، وأن من شاء إضلاله ضل، ويتفرع على هذه الفائدة أن يلجأ الإنسان إلى ربه ـ تبارك وتعالى ـ بطلب الهداية والاستعاذة من الغواية؛ لأن الأمر بيد الله.

فإن قيل: وهل هذه المشيئة مشيئة مجردة بدون حكمة، أو أنها مشيئة مقرونة بالحكمة؟

فالجواب: أنها مشيئة مقرونة بحكمة، وهذا هو المتعين؛ لأن جميع أفعال الله ـ تبارك وتعالى ـ، وأحكامه كلها مقرونة بالحكمة، انظر في أحكام الله، قال الله ـ تعالى ـ في آية المواريث: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١]، وقال تعالى في الأمور القدرية ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠]، فلا مشيئة مجردة في أفعال الله وأحكامه، بل هي مقرونة بالحكمة.

فإن قيل: وهل هذه الحكمة معلومة للخلق؟

فالجواب: قد تكون معلومة، وهذا ـ والحمد لله ـ هو الأكثر، وقد تكون مجهولة لبعض الناس دون بعض، وقد تكون مجهولة لجميع الناس؛ لأنهم لا يحيطون بالله علماً.

الفائدة الرابعة: أن الصراط وهو دين الإسلام مستقيم، لا اعوجاج فيه، ولا انحراف فيه، ولا شقاء فيه، ويضاف إلى ذلك أنه لا تناقض فيه؛ لأنه لو كان فيه تناقض لم يكن مستقيماً.

فإن قال قائل: هل للإنسان حجة على الله إذا أضله وهدى آخرين؟

فالجواب: لا؛ لأن الهداية فضل من الله ـ عزّ وجل ـ، وفضل الله يؤتيه من يشاء، والإضلال لا بد أن يكون مبنياً على حال العبد؛ لقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ولقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩] فالحاصل

أن الله ـ تعالى ـ يضل ويهدي من يشاء لحكمة، ولا بد أن يكون الإضلالُ من جراء فعل العبد.

❁ ❁ ❁

□ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١].

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: يا محمد، وإن شئت فقل: إن الخطاب عامٌّ لكل من يصح خطابه ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ قال العلماء: أرأيت بمعنى أَخْبِرْني وإعرابها كالتالي: الهمزة: للاستفهام، والرؤيا هنا علمية، والتاء فاعل، والكاف للخطاب توكيداً، وليس لها محل من الإعراب، والميم علامة الجمع، وقوله: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ تحتاج إلى مفعول أول ومفعول ثانٍ؛ لأن الرؤية هنا علمية، و(رأى) العلمية تنصب مفعولين والمفعول الأول هنا محذوف ويقدر بما يناسب المقام، والذي يناسب المقام هنا حالكم عند الشدة، والجملة الاسمية ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ في محل نصب المفعول الثاني، يعني: أخبروني إذا وقعتم في شدة أتدعون غير الله؟

الجواب: لا، وهذا تفسير بالمعنى، أما التفسير المطابق للفظ: أعلمتم هذا فأخبروني.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، أي: إذا وقعوا في الشدة عرفوا الله، والعجب أن المشركين إذا وقعوا في الشدة دعوا الله، وأن بعض الطوائف المبتدعة في هذه الأمة إذا وقعوا في الشدة دعوا غير الله،

إذا وقعوا في الشدة دعوا عبد القادر الجيلاني ـ رحمه الله ـ، دعوا علي بن أبي طالب، أو الحسين ـ رضي الله عنهما ـ، وما أشبه ذلك، فصار حال المشركين خيراً من حال هؤلاء.

وقوله: ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ المراد أن الله قد لا يعذب هؤلاء المكذبين ويؤخر ذلك إلى قيام الساعة، يعني لا بد إما أن يصيبهم العذاب في الدنيا، وإما أن يصيبهم في يوم القيامة.

قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: إن كنتم صادقين في أن غير الله ينجيكم، ولكن إذا كانوا يدعون الله عند الشدة صاروا كاذبين في دعواهم أن هذه الآلهة تنجيهم.

❁ ❁ ❁

□ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤١].

قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ ﴿بَلْ﴾ للإضراب الإبطالي، إبطال أنهم يدعون غير الله و﴿إِيَّاهُ﴾ مفعول مقدم لـ ﴿تَدْعُونَ﴾، وتقديم المعمول يفيد الحصر، والمعنى: بل لا تدعون إلا الله.

قوله: ﴿فَيَكْشِفُ﴾ بمعنى: يزيل كما تكشف المستور فتزيل ستره حتى يظهر ويبدو، ﴿مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾، أي: ما دعوتم به إلى الله ـ عزّ وجل ـ، أي: يكشف الدعاء الذي أنهيتموه إلى الله ـ عزّ وجل ـ، ﴿إِن شَآءَ﴾، وإنما قال: ﴿إِن شَآءَ﴾ لئلا يطمع هؤلاء في كشف الكربة فإذا لم تكشف احتجوا على الله، فإذا قال: ﴿إِن شَآءَ﴾ صارت المسألة تحت مشيئة الله، قد يشاء الله ـ عزّ وجل ـ كشف هذه الكربة، وقد لا يشاء حسب ما تقتضيه حكمته ـ تبارك وتعالى ـ.

قوله: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾، أي: تذهلون عنه لشدة ما وقع بكم فتنسون كل شيء، وقيل: إن النسيان هنا بمعنى الترك، أي: أنهم يدعون الله ـ عزّ وجل ـ بحضور قلب وذكر وهما متلازمان في الواقع؛ لأن الإنسان عند الدهشة ينسى معبوداته، ولأنه أيضاً عند الشدة يعتقد أن معبوده لا ينفعه فهي صالحة للأمرين، وفسرها بهذا كثيرٌ من المفسرين بأن النسيان هنا بمعنى الترك كما قال ـ عزّ وجل ـ: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة: ١٤]، وقال ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، والنسيان المضاف إلى الله هو الترك في مثل هذا، وأما في قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] فالمراد بالنسيان هنا أن يغيب عنه ما كان ذاكراً له من قبل، فالنسيان المثبت لله يجب أن يكون بمعنى الترك لا بمعنى الذهول عن المعلوم، أما المنفي عن الله، فهو الذي يكون بمعنى الذهول.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: تقرير الإنسان بما لا يمكنه دفعه؛ وذلك بأن يقرر بشيء يقرّ به ولا يمكنه دفعه، وذلك في قوله: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾؛ لأنهم في هذه الحال لا يدعون إلا الله، فإذا كان كذلك فلماذا يخلصون في الشدة ويشركون في الرخاء؟!

الفائدة الثانية: أن هؤلاء المكذبين عند الضراء لا يلجئون إلا إلى الله لقوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾.

الفائدة الثالثة: أن الله تعالى يجيب دعوة المضطر ولو كان كافراً، بل ويعلم ـ عزّ وجل ـ أنه سيكفر إذا نجا؛ لأن الله ينجيهم

من الكرب، وهو يعلم أنهم إذا نجوا سوف يشركون، لكن وقوعهم في الشدة تقتضي رحمة الله ـ عزّ وجل ـ أن يجيب دعاءهم، ومثل ذلك المظلوم، فإن الله يجيب دعوته ولو كان كافراً، فهذان الصنفان تجاب دعوتهما: الأول المضطر، والثاني المظلوم، يجيب الله دعوتهما، أما المضطر: فلأن رحمة الله سبقت غضبه فيرحم المضطر، ويجيب دعوته، وأما المظلوم: فلكمال عدل الله ـ عزّ وجل ـ أن يجيب المظلوم انتصاراً له على الظالم.

الفائدتان الرابعة والخامسة: أنه لا يصرف السوء إلا الله ـ عزّ وجل ـ، ويتفرع على هذه الفائدة أنه إذا أصابك السوء فلا تلجأ إلا إلى الله ـ عزّ وجل ـ.

فإن قيل: وهل هذا اللجوء فطري أم هو شرعي عقلي؟

الظاهر أنه شرعي عقلي؛ وذلك لأن بعض الذين يصيبهم الضر لا يلجأون إلى الله؛ كالرافضة مثلاً: إذا أصابهم الضر يلجأون إلى أئمتهم علي بن أبي طالب، أو الحسين ـ رضي الله عنهما ـ، أو غيرهما من أئمتهم، ونحن لا ننكر أن لأئمتهم الحقيقيين درجة عند الله ـ عزّ وجل ـ على حسب عملهم، لكننا ننكر أن يدعى هؤلاء من دون الله ـ عزّ وجل ـ.

الفائدة السادسة: الحذر من ممارسة السيئات، فإن الإنسان ربما يتوب إلى الله ـ عزّ وجل ـ، ثم يعود، ولهذا قال: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿وَتَنسَوْنَ﴾ هنا بمعنى تتركون، يعني: أن الآلهة التي كنتم تشركون بها تتركونها، وقد تقدم في التفسير أنه يحتمل أن المعنى الترك، أو الذهول لشدة ما نزل بهم.

❁ ❁ ❁

□ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٢ ـ ٤٤].

قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ ما أكثر ما يرد في القرآن الكريم مثل هذا التعبير قال أهل العلم: و(اللام) للقسم، يعني: أنها تمهد للقسم فيكون قبلها قسم مقدر، واللام موطئة للقسم مؤكدة له و(قد) مؤكدة أيضاً، فيكون في هذه الآية مؤكدات ثلاث.

قوله: ﴿أَرْسَلْنَآ﴾، يعني: أرسلنا رسلاً.

قوله: ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ جمع أمة، والأمة في القرآن الكريم ترد على معانٍ متعددة، فهي ترد بمعنى الإمام، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠]، أي: إماماً، وترد بمعنى الوقت، مثل قول الله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، أي: بعد زمن، وترد بمعنى الطائفة، كما في هذه الآية، أي: طائفة وشَعْب وما أشبه ذلك، وترد لمعنى رابع وهو الدين كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، أي: على ملة، فلها في القرآن الكريم أربعة معانٍ.

قوله: ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ لأن كل الأمم التي أرسلت إليها الرسل قبل الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأنه خاتمهم.

قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ (الفاء) عاطفة، وهل هي عاطفة على إرسال الرسل بمعنى أن الرسل أرسلوا ليؤخذ هؤلاء بالبأساء والضراء؟ لا، لكن في الآية حذف تقديره: فكذبوا، أو

كفروا، أو ما أشبه ذلك، وهذا يسمى إيجاز حذف؛ لأن الإيجاز عند البلاغيين نوعان:

إيجاز قصر: وهو أن تكون الكلماتُ القليلةُ تحمل معانِيَ كثيرةً.

وإيجاز حذف: وهو أن يكون في الكلام القليل شيء محذوف يدل عليه السياق، فهنا لا شك أن في الكلام شيئاً محذوفاً تقديره فكذبوا.

وقوله: ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ (البأساء)، يعني: الشدة، و(الضراء) التضرر.

قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ (لعل) هنا (للتعليل)، أي: لأجل أن يتضرعوا إلى الله ـ عزّ وجل ـ، ولكن هل حصل هذا؟ يقول الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾، أي: عذابنا ﴿تَضَرَّعُواْ﴾، و(لولا) هنا بمعنى: هلّا، يعني: فهلا إذ جاءهم البأس تضرعوا؟.

الجواب: لا، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: صلبت ولم تلن، وبقوا على ما هم عليه.

قوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (زين)، بمعنى: حسّن لهم، ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، أي: من المعاصي والكفر والشرك، ولم يقتصر على تهوين الأمر في قلبه بل زينه لهم.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ (الشيطان) المراد هنا جنس الشياطين، وليس شيطاناً واحداً معيناً، كما تقول: (الإنسان) تريد به الجنس.

قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ (نسوا)، بمعنى: تركوا وأعرضوا عما ذكروا به.

قوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾، يعني: من نعيم الدنيا، فتح الله لهم أبواب كل شيء، من الرزق والأمن والرخاء، وغير ذلك من أنواع الترف.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟﴾، أي: فرح بطر ومرح، ﴿بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾، أي: بما أعطوا مما فتح الله عليهم ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾ بالعذاب ﴿بَغْتَةً﴾، أي: شيئاً مباغتاً لم يطرأ لهم على بال؛ لأنهم انغمسوا في الترف، ونسوا العذاب.

قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ (إذا) فجائية، والمعنى فاجأهم الإبلاس، وهو اليأس من رحمة الله ـ عزّ وجل ـ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدتان الأولى والثانية: إقامة الحجة على الخلق بإرسال الرسل، وهذه كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ [النساء: ١٦٣] إلى قوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾ [النساء: ١٦٥]، ومن تمام الحجة في إرسال الرسل أنهم أرسلوا بلسان قومهم، أي: بلغة قومهم الذين أرسلوا إليهم، وذلك من أجل أن يفهموا الحجة، ويتفرع على هذا أنه لا تقوم الحجة بمجرد البلاغ حتى يفهمها المرسل إليهم، وإلا فلا الفائدة، إلا أنه يجب على من بلغه ولم يفهم أن يبحث، وهذه النقطة الأخيرة ربما تكون سداً لعذرهم إذا قالوا: ما فهمنا، نقول: يجب عليكم أن تبحثوا، لكن أحياناً يتعذر البحث لكونهم لا يجدون من يثقون به فيبقون جاهلين.

الفائدة الثالثة: رحمة الله ـ تبارك وتعالى ـ بالخلق، حيث أرسل إليهم الرسل لإقامة الحجة، ولبيان المحجة، يعني: الطريق، فلولا الرسل ما عرفنا الطريق إلى الله ـ عزّ وجل ـ، فلولا أن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ بيّن لنا كيف نتوضأ، ما عرفنا كيف نصلي، وما عرفنا كيف نزكي، وكيف نصوم، وكيف نحج، وكيف نتعامل، فإرسال الرسل من رحمة الله ـ عزّ وجل ـ.

الفائدة الرابعة: حذف السبب وذكر المسبب والنتيجة، ليكون ذلك أشد وقعاً وهيبة في قلوب المخاطبين؛ لقوله: ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾، ولم يذكر التكذيب، حتى يكون أشد وأدعى لأن يبحث الذهن لماذا أخذوا؟ فيكون أشد هيبة ووقْعَاً في قلوب المخاطبين.

الفائدة الخامسة: أن الله تعالى يبتلي بالبأساء والضراء لكن لحكمة، لا لمجرد إلحاق الضرر بالخلق.

فإن قيل: وما الحكمة؟ قلنا: بيّنها ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، وإلا فإن الله لا يمكن أن يريد مجرد الإضرار، بل كل ما ضر الناس من تقديرات الله فالمراد به مصلحة الخلق.

الفائدة السادسة: أن الأخذ قد يكون بالبأساء، وقد يكون بالضراء، أي قد يكون بالشدة التي يتأذى بها الإنسان بدون ضرر، وقد يكون بالضرر، فمثلاً: الخوف والجوع وما أشبه ذلك، هذه شدة، أما المرض المباشر للشخص فهذا ضرر، فالأخذ إما بهذا وإما بهذا.

الفائدة السابعة: إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، وثبوت الحكمة لله ـ عزّ وجل ـ في أفعاله وفي شرعه أمر معلوم لكل ذي عقل؛ لأن كون الأفعال والأحكام تصدر عن حكمة يدل على كمال الفاعل والمشرع.

فإن قيل: هل كل فعل أو حكم جاء من عند الله يكون معلوماً لنا حكمته؟

فالجواب: لا؛ لأن عقولنا أقصر من أن تحيط بحكمة الله ـ عزّ وجل ـ، لكن نعلم علم اليقين أن ذلك لحكمة، ولهذا لما سئلت أم المؤمنين عائشة: «ما بال الحائض تقضي الصوم، ولا تقضي الصلاة؟» ما ذهبت تعلل، فتقول: الصوم لا يأتي في السنة إلا مرة وقضاؤه سهل، والصلاة تأتي في اليوم والليلة خمس مرات فقضاؤها صعب، والصوم لا نظير له ـ في السنة ـ يقوم مقامه، والصلاة لها نظير، وإذا لم تصلِّ اليوم صلّت غداً، لم تقل هذا، بل قالت: «**كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة**»[1]، فجعلت مجرد الحكم هو الحكمة، وهكذا يجب على كل مؤمن أن يؤمن بأن جميع أفعال الله، وجميع شرائع الله كلها لحكمة، لكن قد تُعلم وقد لا تُعلم.

والفقهاء ـ رحمهم الله ـ يعبرون عن الشيء الذي لا تعلم حكمته بأنه تعبدي، بمعنى أنه ليس علينا إلا أن نتعبد به، لا أن نعلم حكمته، وأحياناً يقولون: عن شيء أنه تعبدي، وهو معلوم الحكمة، وأحياناً يكون قولهم صواباً.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحيض، باب: وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة (٣٣٥).

ومن هذه الأمة من أنكر الحكمة، وقالوا: إن الله ـ عزّ وجل ـ يفعل ما يشاء لمجرد المشيئة، ويحكم بما شاء لمجرد المشيئة، وهذا غلط ونقص قالوا: لأنه لو فعل لحكمة لكان ذلك لغرض، وكونه يفعل الشيء لغرض نقص، ومن عباراتهم الفاسدةِ في المعنى الحسنةِ منظراً أو مسمعاً، (أن الله منزه عن الأعراض والأبعاض والأغراض)، أما الأعراض فمرادهم بذلك ما يعرض للفاعل من فعل، أو ترك، أو نحو ذلك، ولهذا ينكرون الاستواء على العرش، وينكرون النزول إلى السماء الدنيا، والأبعاض يقصدون بها الوجه واليدين وما أشبهها، والأغراض يريدون بها الحكمة، فيقولون: لو كانت أفعاله لحكمة وشرائعه لحكمة لكان له غرض، والله تعالى منزه عن الأغراض.

فنقول في الرد عليهم: هل الغرض الذي تتضمنه الحكمة لمصلحة الله، أو لمصلحة الخلق؟ ولا شك أنها في مصلحة الخلق، وإلا فإن الله يقول: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] فهذه الحكمة التي يتضمنها الفعل، أو الشرع، أو الحكم إنما هي لمصلحة الخلق، وحينئذٍ تكون كمالاً.

الفائدة الثامنة: وجوب التضرع إلى الله ـ عزّ وجل ـ، والتضرع بمعنى اللجوء والإنابة إلى الله تعالى، والقيام بما يجب له من عقيدة أو قول أو عمل.

الفائدة التاسعة: بيان شدة قسوة هؤلاء المعذبين، وذلك أنه لما جاءهم العذاب ليتضرعوا صار الأمر بالعكس، بل زاد ذلك قسوة في قلوبهم نسأل الله العافية، وكان ينبغي عليهم أن يتضرعوا

إلى الله ـ عزّ وجل ـ، وهذا قد يقع من الإنسان، أن لا تزيده البأساء والضراء إلا قسوة في القلب وسخطاً على الله ـ عزّ وجل ـ والعياذ بالله، وشعوراً بما لا ينبغي، فإن بعض الناس إذا ابتلي ببلاء قال: ما هذا؟ لماذا يظلمني؟ لماذا يصيبني بما لم يصب به غيري؟ ثم يقسو قلبه والعياذ بالله.

ومن ثَمَّ وجب الصبر على من أصيب بالمصيبة، حتى لا يقسو قلبه، فيقال: أنت عبد الله والعبد خاضع لفعل السيد، والله تعالى يفعل بعبده ما يشاء، كما أنه يفعل في السماء ما يشاء، ويفعل في الأرض ما يشاء، ويفعل في الرياح ما يشاء، كذلك أنت، فأنت خلق من المخلوقات يفعل بك ما يشاء، لكن عليك الصبر عند الضراء، والشكر عند السراء، ومع ذلك ـ والحمد لله ـ الضراء التي تصيب الإنسان تكون تكفيراً لسيئاته، وما أكثر السيئات! فأي شيء يصيبك ـ حتى الشوكة إذا أصابتك ـ فإنها تكفر السيئات، فإن احتسبت أُثْبِتَ ثواب الصابرين، فلم يفرط الله ـ تبارك وتعالى ـ بشيء فيما ينفع الخلق.

الفائدة العاشرة: إثبات قسوة القلب بعد لينه، لقوله: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وكما في آية البقرة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٧٤] فقسوة القلب تحدث، ولين القلب يحدث أيضاً فكلاهما حدثان، والواجب على الإنسان أن يلاحظ دائماً قلبه أَلَيِّنٌ هو أم لا، أمخبت لله أم لا، أمخلص لله أم لا؟ فكلٌّ يستطيع أن يأتي بالأعمال الظاهرة على أحسن وجه، المنافق يمكنه أن يأتي بالصلاة على أحسن وجه، ويمكن أن يتصدق، لكن أعمالَ القلوب هي والله الصعبة، فحرِّر قلبك من رق المعاصي حتى تتحرر.

فإذا قال قائل: ما دواء قسوة القلب؟

قلنا: هذا سؤال يرد كثيراً من بعض المستقيمين الذين مَنَّ الله عليهم بالاستقامة، ثم يحصل لهم هزة فيقسو القلب.

والجواب عليه: أن من أسباب إزالة القسوة كثرة قراءة القرآن بتدبر، وأَنْ تشعر وأنت تقرأ أن هذا كلام الله ـ عزّ وجل ـ كلام الله خالق السماوات والأرض، لا كلام البشر، وحينئذٍ تُعَظِّمُ هذا الكلام وتنتفع به.

ومنها: كثرة ذكر الله ـ عزّ وجل ـ، فأَكْثِر من ذكر الله، وذكر الله ـ عزّ وجل ـ ليس فيه صعوبة؛ لأن الذي يتحرك هو اللسان والشفتان، قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ومنها: مصاحبة الأخيار، فإن مصاحبة الأخيار تكسب الإنسان خيراً كثيراً، وفي الحديث «**أن الجليس الصالح كحامل المسك إما أن يحذيك**» ـ أي: يعطيك تبرعاً ـ «**وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه رائحة طيبة**»[1]، فاحرص على مصاحبة الأخيار وانتفع بهم وانفعهم؛ لأنه ليس كلٌّ أحد معصوماً.

ومن أسباب لين القلب: رحمة الصغار، ولا سيما اليتامى، فإنها توجب رقة القلب، وجرب تجد، ولقد قال النبي ﷺ: «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»[2]، وهذا يشمل

---

(١) رواه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب: المسك (٥٥٣٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: استحباب مجالسة الصالحين، ومجانبة قرناء السوء (٢٦٢٨).

(٢) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب: ما جاء في رحمة الناس (١٩٢٤)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب: في الرحمة (٤٩٤١).

كل شيء حتى الحيوان يجب أن ترحمه فلا تكلف البعير أكثر مما يطيق؛ لأنه يحس ولذا إذا ضربت الناقة فإنها ترغي.

وهناك أسباب أخرى تظهر للمتأمل في دواء قسوة القلب، أسأل الله تعالى أن يلين قلوبنا جميعاً لذكره ولطاعته إنه على كل شيء قدير.

لو قال قائل: هل تجويع النفس وتأديبها بقلة المال يُعد من أسباب لين القلب؟

فالجواب: واللهِ لا يظهر هذا، بل ليس من الشرع أيضاً، صحيح أن الإسراف في المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب غير محمود، أما كونه يُجوّع نفسه فهذا ليس من الشريعة، بل قَلِّل الأكل، اجعل ثلثاً للطعام، وثلثاً للشراب، وثلثاً للنَفَس، لكن الإشكال أن بعض الناس يقول: لقد شرب أبو هريرة اللبن حتى لم يجد له مسلكاً[1]، فنقول إن أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ فعل هذا مرة، وهؤلاء يجعلون ذلك في كل مرة، والعامي يقول: «الماء دقيق ينفذ»، لو كانت المعدة مملوءة بالطعام و«النَفَس حربة» يشق عن نَفْسِه، وكأن هذا العامي يقول املأ البطن، والحقيقة أن ملأ البطن دائماً يضر، والإنسان إذا خفف الطعام كان أصح له، وجرب تجد، نعم في بعض الأحيان يكون الطعام طيباً شهياً، ولا تستطيع أن تأكل قليلاً، أو تكون أتيت إليه وأنت جائع ومن شدة الجوع تقوى النهمة وتأكل كثيراً، لكن مرن نفسك.

الفائدة الحادية عشرة: أنّ الشيطان يزين لبني آدم سوء العمل

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب: فضل الفقرة، رقم (٦٤٥٢).

كما قال ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وفي آية أخرى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٧].

الفائدة الثانية عشرة: أن الله ـ تبارك وتعالى ـ قد يسلط على العبد من هو عدو له، ولا يعد هذا ظلماً من الله ـ عزّ وجل ـ، كلا؛ لأن الله قد بيَّن لنا هذا العدو وحذرنا من اتباع خطواته؛ فلا عذر لنا.

الفائدة الثالثة عشرة: أن الرجل إذا سلط عليه الشيطان صار السيء في نظره حسناً، وصار الحسن سيئاً لقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، ومن المعلوم أنهم يعملون بالمعاصي.

الفائدة الرابعة عشرة: أن الله تعالى عجل لهم بالعقوبة لكن على وجه الاستدراج؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

الفائدة الخامسة عشرة: أن يحذر الإنسان عقوبة الله ـ عزّ وجل ـ إذا منَّ الله عليه بتيسير أمور الدنيا من مأكل ومشرب ونكاح ومركبٍ ومسكنٍ، فلا يغتر بهذا؛ لأنه قد يكون استدراجاً، ولهذا رُوي «إذا رأيت الله ـ عزّ وجل ـ يُعطي العبدَ من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج»[1]، وصدقوا، فلا تغتر أيها الإنسان فقد تبتلى بالنعم كما تبتلى بالنقم، وقد تكون البلوى بالنعم أشد من البلوى بالنقم.

الفائدة السادسة عشرة: أن الذي بيده الرخاء والشدة هو الله ـ عزّ وجل ـ لقوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٦٨٦٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٢٨)، رقم (٤٥٤٠)، وحكى المناوي في الفيض (١/ ٣٥٥)، أن العراقي حسنه.

الفائدة السابعة عشرة: أنه يجب الحذر من الفرح الذي هو فرح البطر بنعم الله ـ عزّ وجل ـ لقوله: ﴿فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾، أي: فرح بطر أما إذا فرح الإنسان بما يَسُرُّهُ من أمور الدنيا، أو من أمور الآخرة فرح سرور وانبساط بنعمة الله، فإن هذا لا بأس به، قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨].

الفائدة الثامنة عشرة: أن الإنسان قد يأتيه العذاب بغتة، فبيْنا هو في نعيمه وسروره في الدنيا منغمساً في معاصي الله إذا بالعذاب يأتيه بغتة، وسواء كان هذا العذاب عاماً شاملاً أو كان خاصاً، فقد يبتلى بمرض، أو بحوادث تكسره وتحطمه أو بموت عاجل، ولهذا قال: ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾، أي: أَخْذَ بغتة، أي: مباغت والمباغت هو الشيء الذي لا يتوقعه الإنسان، فيقع من غير توقع له.

الفائدة التاسعة عشرة: أن هذا الأخذ الذي توعد الله ـ عزّ وجل ـ به أَخْذٌ مدمر؛ لقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، أي: آيسون من كل خير.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥].

قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾، (الفاء) عاطفة، وتدل على الترتيب والتعقيب، أي: هلكوا عن آخرهم؛ لأنه إذا قطع الدابر وهو الآخر فما سبقه من باب أولى.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ المراد الكفار؛ لأن كل إنسان كافر فهو ظالم في حق نفسه؛ كما قال ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، وهو في حق الله معتدٍ حيث لم يقم بالواجب عليه وقد أتى قوله تعالى: (قُطِعَ) بصيغة ما لم يُسمَّ فاعله؛ لأنه معلوم وهو الله ـ عزّ وجل ـ، ولكنَّ اللهَ ـ تبارك وتعالى ـ في الأمور التي تسوء يأتي بها بصيغة ما لم يسمَّ فاعله، وهو كقول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ١٠] الجن يؤمنون بأن مريد الشر هو الله ـ عزّ وجل ـ ويعرفون أن الخير والشر بيد الله ـ عزّ وجل ـ، وهو المدبر، لكن كرهوا أن يضيفوا الشر إلى الله فقالوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: إثبات الأسباب لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ لأن هذه العقوبة مرتبة على قوم اتصفوا بالظلم، فيكون الظلم سبباً للعقوبة، وهذا من كمال الله ـ تبارك وتعالى ـ أن تكون أفعاله لحكمة، وأحكامه الشرعية لحكمة.

الفائدة الثانية: أن الظلم سبب للعقوبة والهلاك؛ لأن الحكم إذا علق على وصف صار ذلك الوصف علة له يزداد الحكم قوة بقوته وينقص بنقصه.

الفائدة الثالثة: أن الله محمود على قطع دابر الظالمين لقوله: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وهو كذلك، فهو، ـ سبحانه وتعالىٰ ـ محمود على جلب النعم وعلى دفع النقم، والظالم إذا أهلكه الله فإن ذلك من تمام عدله ورحمته؛ لأنه يكون نكالاً لما بين يديه وما خلفه.

❁ ❁ ❁

□ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعام: ٤٦].

قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾، أي: (قل) يا محمد أخبروني ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ بحيث لا تسمعون الكلام، ﴿وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ بحيث لا ترون الأفعال، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾، بحيث لا يكون لديكم وعي ولا عقل، ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ﴾ سيكون جوابهم: لا أحد؛ لأنهم يقرون ويعترفون بربوبية الله ـ عزّ وجل ـ، وبما يترتب عليها.

قوله: ﴿ٱنظُرْ﴾، يعني: نظر اعتبار ونظر بصيرة ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾، أي: ننوعها، والآيات: جمع آية، وهي العلامة التي يحصل بها الطمأنينة لاشتمالها على الدليل، يعني: أن الآية ليست مجرد علامة، بل هي العلامة التي تكون دليلاً على الشيء، فهي أخص من مطلق العلامة، والآيات كالشمس والقمر والليل والنهار والرخاء والشدة والحر والبرد وهلم جرًّا، آيات منوعة ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، أي: ينصرفون عن الحق وعن الآيات، وتأمل قوله: ﴿ثُمَّ﴾ الدالة على التراخي، يعني: ثم بعد أن يتبيَّن لهم الأمر ويتضح هم يصدفون فلا ينتفعون.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تحدي هؤلاء الذين أشركوا بالله في هذه المسألة اليسيرة بالنسبة لغيرها، وهي أن الله إذا أخذ سمعهم وأبصارهم وختم على قلوبهم فإنهم لن ينصرفوا إلا إلى الله ـ عزّ وجل ـ، وهذا تحدٍّ لهم.

الفائدة الثانية: أن الإنسان إذا أصيب بسمعه، أو بصره، أو قلبه أو سائر جسده فليلجأ إلى الله ـ عزّ وجل ـ؛ لأنه لا أحد ينفعه.

فإن قال قائل: إذاً لا نذهب إلى الأطباء، ولا إلى القراء، ولا نستعمل الأدوية؟

فالجواب: لا، بل اذهب إلى الأطباء، واستعمل الأدوية، واذهب إلى القراء، ولكن الذين يَسْتَرْقُون تنقص درجتهم بالنسبة للذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فالإنسان مأمور بفعل الأسباب، بل جاء الأمر بالتداوي إلا أنَّا لا نتداوى بمحرَّم.

الفائدة الثالثة: خطورة انسداد هذه الأمور الثلاثة وهي السمع بحيث لا يسمعون الآيات، والبصر لا يراها، والقلب لا يعيها، فعلى الإنسان أن يراعي هذه الأمور الثلاثة.

الفائدة الرابعة: رحمة الله ـ ـ عزّ وجل ـ حيث صرّف الآيات للعباد، ولو شاء لترك التصريف وجعل الناس يتخبطون خبط عشواء، لكن من نعمة الله ـ عز وجل ـ ورحمته بعباده أنه يريهم الآيات ويصرفها وينوعها لهم فإذا لم يؤمن بهذه الآية آمن بالآية الأخرى وحصل المقصود، وكم من إنسان تفوته آيات كثيرة لا يعتبر بها، ثم يصاب بآية واحدة فيعتبر، حتى إن بعض المستقيمين حكوا عن أنفسهم أنهم كانوا منزلقين في الشهوات والتلهي، فلما مات قريب لهم استقاموا، كل الآيات السابقة لم ينتفعوا بها، لكن لما مات القريب استقاموا وعرفوا أن مآلهم كمآله فعادوا إلى الله ـ عزّ وجل ـ.

الفائدة الخامسة: التشنيع على هؤلاء الذين صُرِّفت لهم الآيات فأعرضوا؛ لقوله: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ

يَصۡدِفُونَ﴾، أي: ينصرفون عنها ولا يعتبرون بها، فيكون فيه الحذر من تولي الإنسان بعد ظهور الآيات؛ لأنه إذا تولى بعد ظهور الآيات صار من قسم المغضوب عليهم؛ لأن الأقسام عندنا ثلاثة: (المغضوب عليهم، والضالون، وأهل الاستقامة)، فيكون من المغضوب عليهم؛ لأنه علم الحق ولكنه تمرد عليه.

❁ ❁ ❁

❑ قال ـ عزّ وجل ـ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام: ٤٧].

قوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾، يعني: أخبروني، وقد مر بنا إعراب مثلها.

❑ قوله: ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾، أي: عقوبة الله ﴿بَغۡتَةً﴾، كما لو أتتكم وأنتم نيام ﴿أَوۡ جَهۡرَةً﴾، كما لو أتتكم وأنتم أيقاظ، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتًا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحًى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨] الأول بغتة والثاني جهرة.

قوله: ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ﴿هَلۡ﴾، بمعنى: (ما)، والاستفهام، بمعنى: النفي والاستفهام إذا كان بمعنى النفي صار أشد من النفي المجرد؛ لأنه يتضمن النفي والتحدي، كأن المتكلم يقول: (أثبت لي هذا الشيء)، والمعنى: إذا أتاكم عذاب الله على الوجهين فهل أنتم مظلومون؟

والجواب: لا.

وقوله: ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الجملة تقرير لأخذ العذاب وأنهم لم يؤخذوا ظلماً، بل لعملهم السيئ، والظلم ينقسم

إلى قسمين: ظلم في حق الله، وظلم في حق العباد، أما الظلم في حق الله: فدواؤه التوبة، مهما عظم حتى لو كان شركاً بالله تعالى، بل حتى لو كان سباً لله على القول الراجح فإنه يزول بالتوبة، وأما حق الآدمي فلا يزول إلا برده إليه، أو استحلاله منه، وإلا مهما تاب الإنسان وأخلص لله وندم، فإنه لا يكفيه حتى يرد الحقوق إلى أهلها، بل إن رد المظالم إلى أهلها من شروط التوبة، والتي من شروطها أيضاً أن يقلع الإنسان عن الذنب، ولا إقلاع عن الذنب مع استمرار أخذ مال الغير.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: التحذير من نزول العذاب إما بغتة وإما جهرة، فلا يأمن الإنسان إذا كان عاصياً أن ينزل به العذاب، لكن أيظن أن العذاب هو عقوبة الجسد فقط، فرغم أن عقوبة الجسد عذاب في حدِّ ذاتها إلا أنه هناك ما هو أكبر منها، وهو الإعراض عن دين الله ـ عزّ وجل ـ كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

ولهذا قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: «إن المعاصي بريد الكفر»[(١)]، ينزلها الإنسان مرحلة مرحلة، كما ينزل البريد المسافة مرحلة مرحلة حتى يصل إلى الكفر ـ والعياذ بالله ـ، ووجه ذلك ظاهر؛ لأن المعاصي تقسي القلب، وتسود القلب، وتيبس القلب، حتى يصبح ميتاً وتحل الكارثة، ولكن الحمد لله ـ جعل الله لكل داء دواء، فالمعصية اتبعها بالتوبة، فإذا تبت فالتوبة تهدم ما

(١) قاله أبو حفص النيسابوري، ذكره البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٣٨٤)، رقم (٦٨٣١)، والأصبهاني في حلية الأولياء (١/ ٢٢٩).

قبلها وتكون كأنك لم تذنب ـ ولله الحمد ـ، بل إن الإنسان إذا تاب إلى الله توبةً نصوحاً ربما تكون حاله بعد التوبة أكمل من حاله قبل المعصية.

انظر إلى قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]، فارتفعت منزلته حين تاب من المعصية، وهذا شيء مشاهد؛ لأن الإنسان إذا بقي مستمراً على حاله في طاعة الله بقي قلبه لا يتحرك، فصار يفعل العبادات وكأنها غريزة، وإذا أذنب خجل من الله ـ عزّ وجل ـ، واستحيا من الله وأخبت لله ـ تبارك وتعالى ـ، وصار يتذكر هذا الذنب في كل لحظة.

ولهذا قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه فقال به هكذا[1] ـ وأشار بيده فوق أنفه ـ.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنعام: ٤٨، ٤٩].

قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ﴾ (ما): نافية، و(إلا): أداة حصر، و(الإرسال) هو تحميل الغير إبلاغ رسالة ممن أرسله، ولهذا كان القول الراجح في المسألة أن الرسل هم مَنْ أوحي إليهم بالشرع،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب: التوبة، رقم (٦٣٠٨).

وأمروا، بتبليغه وأما النبي فمأخوذ من النبأ، وهو الخبر، أُخبِر بالوحي ولكنه لم يكلف بتبليغه، وإنما يتعبد به هو نفسه، ومن اتبعه فعلى هدى، لكن الرسول مكلف أن يبلغ ما أرسل به، وهذا الذي عليه جمهور العلماء وهو ظاهر؛ لأن آدم نبي وليس مكملاً لشريعة من قبله، بل شريعته مستقلة، فدل هذا على أن القول بأن النبي هو من تعبد بشريعة من سبقه قول ضعيف، وأن قول الجمهور أصح.

قوله: ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ لمن اتبعهم بالخير، أي: بالجنة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من خالفهم بالنار، هذه وظيفتهم، والبشارة هي الإخبار بما يسر، والإنذار هو التخويف بما يسوء.

لو قال قائل: كيف تقول إن البشارة هي الإخبار بما يسر مع أن الله تعالى جعلها إخباراً بما يسوء كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥]؟

فالجواب: أن الإنذار يؤثر في البشرة كما يؤثر التبشير وأصل تسميته تبشيراً؛ لأنه تتأثر به البشرة فتجد الرجل يستنير وجهه وينشرح صدره، أو يقال: إن قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ على سبيل التهكم حيث جعل الإنذار بلفظ البشارة، نظير هذا قول الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿ذُقْ﴾ أمر إهانة ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] قال بعض المفسرين: إن هذا من باب التهكم به حتى يزداد غماً إلى غمه، وقيل: المعنى أنت العزيز الكريم في الدنيا وليس لك في الآخرة إلا الإهانة.

ولو قال قائل: لماذا حصر وظيفة الرسل في البشارة والإنذار؟

فالجواب: حتى لا يدَّعي مدعٍ أن وظيفة الرسل تتعلق بالربوبية، وأن لهم نصيباً من تدبير الخلق، فالرسل ليس لهم إلا أن يبشروا الناس وينذروهم فقط، أما أن يهدوهم، أو يرزقوهم، أو يدفعوا عنهم السوء فليس من وظائفهم.

قوله: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ بقلبه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لكن قوله: ﴿ءَامَنَ﴾ هذه مطلقة لم تقيد بشيء، إلا أن النصوص الأخرى قيدت كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وكما قال النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ في جوابه لجبريل لما سأله عن الإيمان قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**»(١).

قوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾، أي: أصلح العمل وإصلاح العمل لا يتم إلا بأمرين:

الأول: الإخلاص لله ـ عزّ وجل ـ، فمن أشرك مع الله في العبادة فإنه لم يُصلح العمل حتى وإن كان الشرك أصغر؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»(٢).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥)

ولو قال قائل: إذا كان الإنسان يحلف بغير الله ـ عزّ وجل ـ معتقداً تعظيمه فهل يكفر؟

فالجواب: لا يكفر إلا إذا اعتقد أن له من التعظيم مثل ما لله ـ عزّ وجل ـ من التعظيم، أو أشد وكثير من الجهال قد يعتقدون أن رؤساءهم لهم من التعظيم أكثر من تعظيم الله جلَّ وعلا فهذا شرك أكبر، أما ما دون ذلك فليس أكبر.

لو قال قائل: هناك كثير من الناس إذا حلفوا بالمصحف صدقوا، أما إذا قلت لأحدهم قل والله لم يصدق هؤلاء؟

فالجواب: هذا من جهلهم؛ لأن تعظيم الحلف بالمصحف من تعظيم الله ـ عزّ وجل ـ إذ إن المصحف كلام الله تعالى لكن هذا من الجهل، كما أن بعضهم يحلف بالله ولا يبالي إن كان كذباً لكن إذا قلت له: احلف بالنبي لا يحلف إلا وهو صادق.

الثاني: المتابعة لرسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، فمن لم يتابع الرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ في العبادة فعبادته غير صحيحة، وهو غير مصلح، حتى لو خشع ورق قلبه، ودمعت عينه فإن ذلك لا ينفعه، لقول النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[1]، أي: مردود عليه والمتابعة لا تتحقق إلا إذا وافق العمل الشريعة في الأمور الستة التي سبقت وهي الموافقة، في السبب، والجنس، والقدر، والكيفية، والزمان، والمكان.

وقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، أي: لما يُستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، أي: لما مضى، فلا يحزنون على ما مضى من الدنيا؛ لأنهم استغرقوه في طاعة الله، ولا يخافون العذاب.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٩٩).

قـــال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ هذا القسم الثاني من الذين أرسل إليهم رسل، القسم الأول: الذي آمن وأصلح، والثاني: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، أي: ردوها ولم يقبلوها، ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، أي: يصيبهم إصابة مباشرة كمس الجسم للجسم ﴿ٱلْعَذَابُ﴾، أي: عقوبة الله ـ عزّ وجل ـ.

قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، أي: بما كانوا يخرجون عن طاعة الله و(الباء) للسببية و(ما) مصدرية، ويقدر الكلام بكونهم يفسقون.

لو قال قائل: بعض الناس إذا خوفوا من عذاب القبر، ومن العذاب عموماً قالوا: هل رأيت القبر، وهل رأيت عذاب القبر هل يدخلون في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾؟

الجواب: يدخلون في الآية فهم مكذبون؛ لأن الذي لا يؤمن إلا بما يحسه فهو كافر؛ لأنه لم يؤمن بالغيب، لكن إنكار عذاب القبر على نوعين: فالذي ينكر عذاب القبر على البدن هذا لا يكفر؛ لأن بعض العلماء من علماء الملة قال به، والذي ينكر عذاب القبر مطلقاً فيقول: العذاب لا يقع لا على البدن، ولا على الروح فهذا كافر؛ لأنه مكذب لما تواتر عن النبي ﷺ وتلقته الأمة بالقبول فكل مصلٍّ يقول: «**أعوذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر**»[1]، والقرآن الكريم أشار إلى هذا في عدة آيات.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: ما يُستعاذ منه في الصلاة، رقم (٥٨٨).

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: مِنة الله ـ عزّ وجل ـ على عباده بإرسال الرسل، ولا بد من إرسال الرسل، يعني: أن حكمة الله ـ عزّ وجل ـ تقضي بإرسال الرسل؛ لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ما يجب لله من الأسماء والصفات والأحكام، ولا يمكن أن يستقل بمعرفة العبادات، فالناس مضطرون غاية الضرورة إلى الرسل، قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: على دين واحد، فلما كثروا تفرقوا واختلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

الفائدة الثانية والثالثة: أن رسالة الرسل تتضمن هذين الشيئين وهما: البشارة والإنذار، فلمن تكون البشارة، ولمن يكون الإنذار؟ تكون البشارة لمن أطاع واتبع الرسل، والإنذار بالعقوبة لمن كذب، ويتفرع على هذه الفائدة أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لم يأتوا بمجرد الأحكام، أي: لمجرد أن يقولوا: (هذا حلال وهذا حرام)، بل قرنوا ذلك بالبشارة والإنذار؛ لأن البشارة تحمل الإنسان على فعل المأمور؛ لأنك لو بشرت إنساناً بأنه سيحصل على كنز في المكان الفلاني تجده يسابق فيفعل ما يوصله إليه، والإنذار يحصل به البعد عن المعاصي، وعلى هذا تتركب دعوة الرسل.

الفائدة الرابعة: أن الناس انقسموا في تقبل وقبول دعوة الرسل إلى قسمين: مؤمن ومكذب.

الفائدة الخامسة: حكمة الله ـ عزّ وجل ـ في انقسام الناس

بالنسبة إلى قبول دعوة الرسل إلى قسمين: مؤمن يعمل عملاً صالحاً، ومكذب يرتكب المعاصي، هذا من الحكمة بل ومن الرحمة؛ لأنه لو لم يكن كفرٌ لم يُعرف قدر الإسلام، ولهذا قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فيما يروى عنه: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية»[1]، فمن عرف الكفر لا يمكن أن ينقض الإسلام، ومن رحمة الله وحكمة الله أنه قسم الناس إلى قسمين؛ لأنه لولا هذا الانقسام لما حصلت فروض من الشريعة: مثل الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والامتحان والاختبار؛ لأن الناس كلهم كانوا سيصيرون على وتيرة واحدة، والإنسان لا يمكن أن يخرج عن الناس، لكن إذا انقسموا إلى مؤمن وكافر حصل الامتحان والاختبار للمؤمن والكافر، فلا تظن أن الله ـ عزّ وجل ـ إذا أزاغ قلوب الكافرين أن في ذلك لغوا بل هو عين الحكمة.

الفائدة السادسة: أن من جمع بين هذين الوصفين الإيمان والإصلاح فليبشر أنه لا خَوفٌ عليه ولا حَزَن، لقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فإن قال قائل: أليس المؤمنون المصلحون ينالهم خوف من الأعداء؟

فالجواب: بلى، ينالهم خوف من الأعداء، لكن ليس هذا الخوف المنفي في الآية؛ لأن هذا الخوف بعده أمن، ومع قوة الإيمان لا يرى المؤمن أن في هذا خوفاً، ولهذا نجد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في جهادهم وقتالهم مع النبي

---

(١) ذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠١).

ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وبعده أيضاً هم بأنفسهم يتلقون الموت بكل رحب وسعة.

الفائدة السابعة: تشجيع الإنسان على الإيمان والعمل الصالح، والحث على ذلك بذكر عاقبة هذا المؤمن المصلح.

الفائدة الثامنة: أن الإيمان وحده لا يكفي، بل لا بد معه من إصلاح، لكن هل نقول: إنه بمجرد الإفساد أو مجرد ترك العمل الصالح يكون الإنسان كافراً؟

نقول: لا نستطيع أن نحكم على شخص بأنه كافر أو مؤمن إلا بدليل من الكتاب والسُّنَّة، فالذي يحكم بالكفر ويحكم بالإيمان هو الله ـ عزّ وجل ـ ورسله، ونحن ليس لنا حق أن نقول: هذا كافر وهذا مؤمن إلا بدليل من الشرع، ولذلك نعتب على أولئك الذين يرددون الأسئلة: هل الأعمال شرط في كمال الإيمان، أو شرط في أصل الإيمان، أو ما أشبه ذلك من العبارات، ونرى أن كل هذا لا حاجة إليه، وبحثهم هذا ـ في الحقيقة ـ لا أصل له، ولو أنهم سلكوا في الأحكام الشرعية ما سلكوا في أسماء الله وصفاته، وقالوا: ما ذكره الله لنفسه أثبتناه، وما نفاه عن نفسه نفيناه، فكذلك نقول هنا من كَفَّرَهُ الله كفرناه، ومن لم يكفره لا نكفره، لو سلكوا ذلك لسلموا، وما ضر الناسَ إلا مثلُ هذا التأويل؛ هذا يقول: هذا كفر مخرج من الملة، وذاك يقول: غير مخرج، حتى إن بعضهم أنكر ما ورد عن ابن عباس ـرضي الله عنه ـ: «**كفر دون كفر**»[1]، وقال هذه الرواية لا

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب: ما جاء سباب المؤمن فسوق، رقم (٢٦٣٥).

تثبت، وقد حققها بعض تلاميذنا، وقال: إنها مشهورة عنه ثابتة، والعلماء كلهم ينقلونها عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مقرين لها.

المهم أن لدينا أدلة كفر واضحة من القرآن والسُّنَّة، وأدلة إيمان من القرآن والسُّنَّة، وإذا دار الأمر بين أن يكون هذا الرجل كافراً أو مؤمناً، وهو من المسلمين، فالأصل بقاء إسلامه، ولا يحل لنا أن نكفره، فكما لا يمكننا أن نجعل الأبيض أسود أو الأسود أبيض، كذلك الأحكام الشرعية، ما لنا حق أن نكفر أحداً إلا بدليل، ولا أن نقول: هذا مؤمن إلا بدليل، وبهذا نستريح من الخوض واللعب بآراء الناس وعقول الناس.

الفائدة التاسعة: القول بالمفهوم، فمفهوم قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أن من لم يكن كذلك فعليه الخوف والحزن.

الفائدة العاشرة: أن التكذيب بآيات الله سبب للعقوبة لقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾، وليُعلم أن آيات الله ـ عزّ وجل ـ تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية وآيات كونية، فالآيات الشرعية ما جاءت به الرسل من شرائع الله؛ لأنك لو تأملت هذه الأحكام سواء في الأمة الإسلامية، أو في الأمم السابقة لوجدتها مطابقة تماماً للحكمة والمصلحة، وأنه لو اجتمع كل أهل الأرض على أن يأتوا بمثل ذلك ما أتوا، قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠]، فلا تظن أن أي نظام، أو قانون يُصلِح من الخلق ما تصلحه الشريعة الإسلامية.

ولذلك ضل أولئك القوم الذين ذهبوا إلى تحكيم القوانين الوضعية التي وضعها بشر، فهذا البشر الذي وضعها معرض للخطأ بلا شك.

كما أنه غير محيط بجميع مصالح الخلق في جميع أقطار الدنيا، ولا بمصالحهم؟

لأن في جميع الأزمان المقبلة؛ لأن الأمور تتغير، إذاً فلا يجوز الاعتماد على هذه القوانين، ويجب أن تؤخذ القوانين من كتاب الله وسُنَّة رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ؛ لأن الله تعالى أعلم بالخلق حالاً ومستقبلاً، ولأنه أرحم بالخلق، ولأنه أحكم الحاكمين.

أما الآيات القدرية ـ يعني: المخلوقات ـ الليل والنهار والشمس والقمر وإحياء الأرض بعد موتها وغير ذلك، كيف يكون التكذيب بهذا وهذا؟

نقول: أما التكذيب بالشرائع فهو إما أن يكذب الأخبار، فيقول: هذا غير صحيح لا يدخل العقل ولا يمكن، وإما بتحريف النصوص مثل قول بعضهم: المراد بالاستواء استولى، والمراد باليد القدرة، أو القوة أو النعمة، أو ما أشبه ذلك، وهذا تحريف، وإما بالاستكبار عنها فلا يعمل بها، وأما التكذيب بآيات الله الكونية، فإما أن ينسبها لغير الله، كما يفعل السببيون الملحدون الذين ينسبون الأشياء لأسبابها المحضة ويرون أن السبب فاعل بنفسه، أو يقولون: هي من الله ومعه غيره، هذا أيضاً تكذيب بآيات الله الكونية؛ لأنه شرك، أو يقولون: هي لله وحده لكن له مُعِيْنٌ، فهذا أيضاً كفر بالآيات الكونية، فصارت

الآيات الكونية هي المخلوقات كلها، والشرعية ما جاءت به الرسل من الوحي.

الفائدة الحادية عشرة: أن هؤلاء المكذبين سيصيبهم العذاب مباشرة لقوله: ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، وإن أفلتوا من العذاب في الدنيا لن يفلتوا منه في الآخرة.

الفائدة الثانية عشرة: إثبات الأسباب لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾؛ لأن (الباء) للسببية، وإثبات الأسباب دل عليه العقل والسمع ولا ينكره إلا أحمق، والقرآن مملوء من هذا، وأنا أنصح طلاب العلم أن يتدبروا القرآن، ويستنبطوا الآيات التي فيها ذكر السبب؛ لأنه قد قيل إن في القرآن أكثر من ألف دليل يدل على إثبات الأسباب، وهذا حقيقة، والقرآن نفسه سبب، قال الله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦].

وقد انقسم الناس في الأسباب إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: جعلها مؤثرة بنفسها، وأنه متى وجد السبب لزم وجود المسبب، وهؤلاء هم الطبائعيون الذين لا يعترفون بالله ـ عزّ وجل ـ، ولا يخفى حكمهم أنهم كفرة.

القسم الثاني: أنكر تأثير الأسباب في مسبباتها، وقال: إن الأسباب مجرد علامات فقط، وأن المسبب حصل عند السبب لا بالسبب، وهؤلاء ضلوا سمعاً وعقلاً، حتى إنه لو رمى الإنسان زجاجة بحجر ثم تكسرت، لقال: الحجر لم يكسر الزجاجة؛ لأنك لو قلت هذا لكنت مشركاً ـ والله المستعان ـ، أنا لو قلت هذا لكنت موحداً في الواقع، مثبتاً لله الحكمة ـ سبحانه وتعالىٰ ـ،

لكن هؤلاء أناس ذوو عقول، أعني: عقول إدراك لا عقول رشد يقولون: الأسباب لا تؤثر بل حصل الشيء عند السبب لا بالسبب.

القسم الثالث: أثبتوا الأسباب لكن جعلوا تأثيرها في مسبباتها بما أودع الله فيها من القوى المؤثرة، وجعلوا الخالق أولاً وآخراً هو الله ـ عزّ وجل ـ، وقالوا: لو شاء الله لم تؤثر هذه الأسباب، فمثلاً النار محرقة لا إشكال، ولما ألقي فيها إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال الله لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فكانت برداً وسلاماً، وهنا لم يؤثر أثر هذا السبب في مسببه؛ لأن الله قال: كوني برداً وسلاماً، وهذا القول هو المتعين، ولا أقول الراجح، وما سواه فهو ضلال باطل.

الفائدة الثالثة عشرة: أن الفسق يطلق على الكفر لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، والتكذيب بالآيات كفر، ثم قال: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، واقرأ قول الله تعالى في تنزيل السجدة: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة: ١٩، ٢٠] الفسق هنا الكفر، وقد يطلق الفسق على ما دون الكفر وهذا هو المراد من كلام الفقهاء ـ رحمهم الله ـ، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، فهنا الفسوق ما دون الكفر وهو المتعين، وجه التعيين العطف على الكفر، والعطف يقتضي المغايرة.

لو قال قائل: ذكرتم أن الفسق يطلق على الكفر، فهل قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ والظالمون والفاسقون، من باب تغير الألفاظ فقط؟

الجواب: بعضهم يقول في هذه المسألة: إن هذا مُنزَّل على أحوال، فمن كان حاكماً بغير ما أنزل الله فهو كافر، ومن حكم بغير ما أنزل الله لمحبته للعدوان وظلم الناس فهذا ظالم، ومن حكم بغير ما أنزل الله لا رداً لحكم الله ولكن لأن نفسه تهواه فهذا فاسق.

ونضرب مثلاً لهذا بثلاثة حكام: حاكم حكم بالقانون المخالف للشرع وردَّ حكم الله وقال: (لا نقبله) فهذا كافر.

والثاني في نفسه شيء على شخص معين، وحكم عليه دون خصمه، فهذا ظالم.

والثالث: حكم بغير ما أنزل الله لا رداً لما أنزل الله ولا إرادةً لظلم، لكن تهواه نفسه بمعنى أنه لو حكم لشخص بأن له الأرض الفلانية ليس ظلماً لكن تهواه نفسه إما لصداقته له أو لقرابته له أو لأنه قال له: الأرض ستكون بيني وبينك، فهذا فاسق.

فتُنزل الآيات على أحوال، ومنهم من قال: إنها على حال واحدة، وأن الكافر فاسق وظالم، والأقرب عندي أنها منزلة على أحوال؛ لأننا لو قلنا: إن هذه الأوصاف لموصوف واحد صارت شبه مكررة.

الفائدة الرابعة عشرة: تمام عدل الله ـ عزّ وجل ـ حيث إنه لم يعذب هؤلاء؛ إلا لأنهم استحقوا العذاب لفسقهم جزاءً وفاقاً.

فإن قال قائل: جاء في الحديث الصحيح: «**أن الله لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم**»(١).

فالجواب، لا إشكال في هذا، يعني: أنه لو وقع تعذيب أهل الأرض والسماوات لكان هذا العذاب مستحقاً عليهم، وهو غير ظالم لهم، وليس المعنى أنه لو عذبهم بدون جرم لم يكن ظالماً؛ لأن تعذيبهم بغير ظلم قد أحاله الله ـ عزّ وجل ـ، ومنع منه نفسه فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] لكن لو عذبهم لكانوا مستحقين للعذاب وبهذا يزول الإشكال في هذا الحديث.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: ٥٠].

قوله: ﴿قُلْ﴾ الخطاب هنا للنبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، وهو أمر من الله إليه وهذا أمر بإبلاغ خاص، وإلا فكل القرآن قد أُمر النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أن يبلغه، كما قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] لكن تأتي بعض الأحكام مصدرة بـ (قل) إشارة إلى أهميتها؛ كقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]

---

(١) رواه أبو داود، كتاب السُّنَّة، باب: في القدر (٤٦٩٩)، وابن ماجه في: المقدمة، باب: في القدر (٧٧).

وكقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣١]، والأمثلة على هذا كثيرة فيكون في هذا الحكم المذكور وصية خاصة بإبلاغه.

قوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ الخطاب في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ للمشركين المكذبين للنبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ.

قوله: ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ هذا مقول القول، أي: لا أقول عندي خزائن الله، أي: خزائن رزقه فأرزقكم وأَحْرِمُ من أشاء.

قوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾، يعني: ولا أقول لكم إني أعلم الغيب، والغيب ما غاب، وهو نوعان غيب نسبي، وهذا قد يعلم فمثلاً الشارع فيه أناس أنا لا أعلمهم، والذي يشاهدهم يعلمهم هذا غيب نسبي، وغيب مطلق حقيقي، وهو ما غاب عن الناس كلهم، كالعلم بما سيحدث في المستقبل، فهذا لا يمكن أن يعلمه أحد لا الرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ولا غيره.

والدليل على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب النسبي ولا الحقيقي، لكن في النسبي ما شاهده عَلِمَ به، ولذلك لما انخنس منه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ وكان أبو هريرة جنباً، قال له: «**أين كنت؟**»[1] فالنبي ﷺ لا يعلم، كذلك لما دخل بيته وطلب الطعام وأتوا إليه بتمر، وطلب اللحم قال: «**ألم أرَ البرمة على النار؟**»[2] فلم يجزم بأن فيها لحماً مع أنها عنده في البيت، لأنه ﷺ لا يعلم الغيب.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الغسل، باب: عرق الجنب وأن المسلم لا ينجس، رقم (٢٨٣)، ومسلم: كتاب الحيض، باب: الدليل على أن المسلم لا ينجس، رقم (٣٧١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب: الحرة تحت العبد، رقم (٥٠٩٧).

قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ خاطبهم مخاطبة غير الأولى، يعني: كرر المخاطبة؛ لأن المقام هنا وهو نَفْي أن يكون مَلكاً أبلغ وأشد والإتيان بكاف الخطاب يدل على شدة توجيه الخطاب للمخاطب، ولهذا اقرأ في سورة الكهف قول الخضر لموسى في الآية الأولى ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾ [الكهف: ٧٢]، وفي الثانية: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الكهف: ٧٥].

قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ (الملك) مفرد الملائكة، إذاً النبي ﷺ هو بشر من بني آدم، ثم ذكر الله تعالى وظيفته بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ (إن) بمعنى (ما) فهي نافية، و(إن) في اللغة العربية لها معانٍ حسب السياق، فتأتي نافية، وتأتي شرطية، ومثالها: إن اجتهدت نجحت، وتأتي مخففة من الثقيلة مثل: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، أي: إنهم كانوا، وتأتي زائدة لا معنى لها إلا بالتوكيد كقول الشاعر:

بني غدانة ما إن أنتمُ ذهبٌ ولا صَريف ولكن أنتم الخَزَفُ(١)

الصريف الفضة، الشاهد في قوله: [ما إن أنتم ذهب] فـ (إن) زائدة، ولهذا لو قال الشاعر: (ما أنتم ذهبٌ) صحّ لكن ما الذي يعيِّن هذه المعاني؟ الذي يعينه السياق، فدل ذلك على أن الألفاظ يتعين معناها بالسياق، وهو مما يؤيد قول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ألا مجاز في اللغة؛ لأن الكلمة يتعين معناها بسياقها، حتى وإن استعملت بمعنى آخر في غير هذا السياق، وكذلك يعين المعنى القرينة الحالية؛ لأن السياق قرينة

(١) سبق عزوه.

لفظية، والقرينة الحالية وهي أن يدل حال المتحدث عنهم على المعنى، مثل قول الشاعر:

أنا ابنُ أباة الضيم من آل مالك وإنْ مالكٌ كَانتْ كرام المعادن(١)

هنا لا يمكن أن تكون (إنْ) نافية؛ لأنه كان يفتخر بقومه فيتعين أن تكون مخففة من الثقيلة.

وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾، أي: ما أتبع ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، يعني: إلا ما أوحاه الله إليَّ من العبادات والمعلومات، يعني: علم الغيب لا أعلمه فلا أتبع إلا ما أوحي إليَّ وكذلك لا أتعبد له إلا بما أوحاه إليَّ، و(الوحي): هو إعلام الله ـ تبارك وتعالى ـ لأحد أنبيائه بالشرع، وسمي بذلك من الإيحاء وهو السر والإخفاء؛ لأن الوحي يقع خفياً، ليس كل أحد يدري عنه، ولم يبين الموحي وذلك للعلم به كما قال ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَيَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ: ٥٠]، فالموحي هو الله ـ عزّ وجل ـ، فهذه وظيفة النبي ﷺ وتلك ما لا يختص بها ولا تقع منه.

قوله: ﴿قُلْ﴾، يعني: يا محمد بعد أن تُبيِّنَ هذا ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ (هل) بمعنى (ما) وجاءت أداة الاستفهام بمعنى النفي؛ لأنها مُشْرَبَةٌ معنى التحدي، يعني: لا يستوي الأعمى والبصير وإن كنتم صادقين فبينوا لي.

وقوله: ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ صفة مشبهة ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ مَنْ يبصر، فبصير من البصيرة، وبصير من البصر، ومن المعلوم أنه لا أحد يقول: إن الأعمى والبصير سواء، فما المراد بالأعمى هنا، وما المراد

---

(١) البيت للطرماح بن حكيم الطائي، والبيت في ديوانه (ص١٧٣)، وهو من شواهد شرح الكافية الشافية (١/ ٥٠٩)، وشواهد التوضيح (ص٥١).

بالبصير؟ المراد بالأعمى الكافر، كما قال تعالى ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٨] والمراد بالبصير المؤمن.

قوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ، يعني: أبعد هذا تعرضون فلا تتفكرون؟

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أنه يجب على النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أن يُعْلِنَ للأمة ما أمر الله به ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾.

الفائدة الثانية: أن كل ما صُدِّر بـ ﴿قُلْ﴾ بالنسبة للرسول ﷺ كان ذلك دليلاً على أهميته، وأن الله تعالى أوصى نبيه أن يبلغه خاصة مما يدل على العناية به.

الفائدة الثالثة: أن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ لا يملك خزائن الله ـ عزّ وجل ـ، أي: خزائن الرزق؛ ولذلك يعيش ﷺ الشهرين والثلاثة لا يوقد في بيته نار، ولو كان عنده خزائن الله لأدركها، مع أنه لو شاء دعا ربه أن يحقق له ما يريد، لكنه ﷺ خُيّر بين أن يكون عبداً نبياً، أو ملكاً نبياً، فاختار أن يكون عبداً نبياً.

الفائدة الرابعة: أنه إذا كان النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ لا يملك خزائن الله، فإنه لا يجوز أن يطلب الرزق من الرسول مباشرة؛ لأنه لو طلب الرزق من الرسول مباشرة لكان هذا شركاً وتجاوزاً لما هو ـ عليه ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ.

أما السؤال في حياته ففيه تفاصيل ليس هذا موضع ذكرها[١]، وقد يعطي وقد لا يعطي كما منع الأشعريين حين طلبوا رواحل يجاهدون عليها، قال: لا أجد ما أحملكم عليه.

الفائدة الخامسة: أن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ لا يعلم الغيب لقوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾.

فإن قال قائل: أليس النبي ﷺ يحدِّث عن أشياء مستقبلة؟

فالجواب: بلى، ولكن بوحي من الله ـ عزّ وجل ـ، والله تبارك وتعالى يعلم الغيب، ولهذا نقول: كل ما أخبر به النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ من أمور المستقبل فهو بوحي خاص من الله ـ عزّ وجل ـ، وحينئذٍ لا ينافي ما أخبر به من أمور الغيب ما ذكره الله تعالى في هذه الآية ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾؛ لأن علمه بالمستقبل بما أوحى الله إليه ليس علماً ذاتياً أدركه بنفسه، لكنه علم من عند الله، كما أن الإنسان يرى الرؤيا الصالحة في المنام وينتفع بها في المستقبل، و«**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة**»[٢].

الفائدة السادسة: الرد الصريح على من قالوا: أن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ يعلم الغيب، ثم لبَّسوا وشبهوا بما أخبر به من المغيبات التي أوحى الله إليه بها فيقال: الأصل أنه لا يعلم الغيب، وإذا جاء شيء تحدث به النبي ﷺ عن

---

(١) انظر: «فتاوى العقيدة» لفضيلة شيخنا المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التعبير، باب: الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً، رقم (٦٩٨٩)، ومسلم، كتاب الرؤيا، باب: (بدون)، رقم (٢٢٦٣).

المستقبل، فإننا نعلم كما تقدم أن ذلك وحي خاص من الله ـ تبارك وتعالى ـ.

لو قال قائل: بعض الناس يستعين بالجن فيخبر بأشياء بعيدة، فهل يكفر بهذا كفراً أكبر؛ لأنه يدعي علم الغيب النسبي؟

فالجواب: الذي يستعين بالجن فيخبرونه بأشياء بعيدة لا يكفر، وماذا فعل حتى يكفر؟ لكن إذا كان يتمتم وينزل رأسه فإنا نمنعه؛ لأنه شيء عارض، ولا نقول هذا شرك، والذي يراجع كلام شيخ الإسلام في الفتاوى في إيضاح الدلالة على عموم الرسالة وفي كتاب النبوات وبعض فتاويه في المجموع، عرف الموضوع وأن الجن ربما يُنتفع بهم على وجه مباح في أشياء مباحة.

الفائدة السابعة: أن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ بشر كغيره، لا يعلم الغيب، وينسى كما ننسى، ويلحقه الجوع والظمأ، والبرد والحر، وكل الخصائص البشرية تلحق النبي ﷺ.

الفائدة الثامنة: أن المَلَكَ قد يتصور بصورة إنسان لقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾؛ لأنه لولا أنه يمكن تصوره بصورة إنسان ما احتيج إلى النفي، إذ إنه معلوم بدون نفي، وهذا هو الواقع، وقد جاء جبريل ـ عليه السلام ـ بصورة البشر.

الفائدة التاسعة: الرد على الذين قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ فإن الملائكة لا يمكن أن ينزلوا ليكونوا رسلاً إلى البشر، كما قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٩].

الفائدة العاشرة: كمال عبودية النبي ـ صلى الله عليه وعلى

آله وسلم ـ لله ـ عزّ وجل ـ لقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ لا يزيد ولا ينقص، حتى لو كان الذي نزل إليه على شخصه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإنه لا يمكن أن يدعه، وانظر إلى قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] كلمات عظيمة، يوجهها الله ـ عزّ وجل ـ إلى نبيه ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، ولو كان كاتماً شيئاً مما أوحاه الله إليه لكتم هذا؛ لأنه شيء عظيم وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

الفائدة الحادية عشرة: أن الشرائع توقيفية، فلا يجوز لأحد أن يبتدع منها شيئاً لقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

ولهذا قرر أهل العلم أن الأصل في العبادات المنع والحظر، وأنه لا يجوز للإنسان أن يتعبد لله تعالى بشيء إلا ما أذن الله فيه شرعاً، وهذا حق مستند إلى آيات متعددة وإلى قول النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»(١).

فإن قيل: لو أن أحداً استحسن شيئاً يتعبد لله به هل يكون حسناً؟

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

فالجواب: لا يكون حسناً أبداً، وبذلك يبطل تقسيم من قسّم البدعة إلى نوعين: ضلالة وحسنى، أو إلى خمسة أنواع، فإن هذا باطل لاشك فيه؛ لأن أعلم الخلق بشريعة الله وأفصح الخلق وأنصح الخلق محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ قال: «**كل بدعة ضلالة**»[(١)] بصيغة العموم (كل) التي هي أعم صيغ العموم، وهذا العموم المحكم لا يخرج منه شيء، ولا يرد على هذا ما ثبت عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين جمع الناس في رمضان على أُبي بن كعب وتميم الداري، وكان الناس بعد أن امتنع النبي ﷺ من إقامة قيام رمضان بهم جماعة صاروا يقومون أفراداً، أو الرجل مع آخر، أو الرجل مع اثنين وما أشبه ذلك، فيحصل التشويش، فخرج عمر ذات ليلة وهم على هذا، فأمر أبي بن كعب وتميماً الداري أن يقوما للناس بإحدى عشرة ركعة ففعلاً، وقاما بالناس بإحدى عشرة ركعة، ثم خرج مرة أخرى ورآهم على هذه الحال فقال: «**نِعْمَ البدعة هذه**»[(٢)]، فسماها بدعة وأثنى عليها، فاستدل بهذا الأثر جميع أهل البدع على استساغة بدعهم، ونحن نجيبهم بأمرين:

الأمر الأول: أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ من الخلفاء الراشدين الذين بدعتهم ـ إن صارت بدعة ـ هي سُنَّة، فهل أنتم أيها الخلف المتخلف هل أنتم كعمر ـ رضي الله عنه ـ؟ طبعاً

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب صلاة التراويح، باب: فضل من قام رمضان، رقم (٢٠١٠).

لا، إذاً لو صح أنها بدعة شرعية لكان عمر ممن يُقتدى به وسُنَّته متبعة بأمر النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ.

ثانياً: أنها بدعة نسبية باعتبار هجرها من عهد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى أن أقامها عمر، ولا يصح أن نقول: إنها بدعة لغوية؛ لأن البدعة اللغوية لا بد تكون غير مسبوقة، لكن نقول: هي بدعة نسبية باعتبار أنها هجرت من عهد الرسول ﷺ ماراً بعهد أبي بكر، ثم أول خلافة عمر.

ثالثاً: هذه البدعة لها أصل في السُّنَّة، وهو أن النبي ﷺ صلى بأصحابه في قيام رمضان ثلاث ليالٍ وتخلف في الرابعة، وقال: «**إني خشيت أن تفرض عليكم وتعجزوا عنها**»[1]، هذه علة تأخر النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ عن إقامتها جماعة، وهل هي باقية في عهد عمر؟

الجواب: لا؛ لأن الحكم يدور مع علته وهذه العلة في عهد عمر لا يمكن أن تكون، فبطل تشبث أهل البدع بمثل هذه الكلمة من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

فإن قال قائل: ابتدعت أشياء أقرّها المسلمون؛ كجمع القرآن على مصحف واحد، وتبويب الأحاديث، وبناء المدارس، وأشياء كثيرة، ما تقول في هذا؟

فالجواب: هذه ليست مقصودة بذاتها، بل هي مقصودة لغيرها، فجمع الناس على مصحف واحد لئلا تتفرق الأمة، ولو

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب: من قال في الخطبة بعد الثناء أما بعد (٩٢٤)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦١).

كان الناس يقرؤون في المصاحف التي في عهد النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ لتمزقت الأمة تمزقاً عظيماً، ولقالت النصارى: إذا كان عندنا أربعة أناجيل، أو خمسة فعندكم عشرات، فلهذا كان توحيد المصحف مقصوداً لغيره وهو جمع كلمة المسلمين وعدم تنازعهم.

كذلك أيضاً تبويب الأحاديث، أو جمعها على المسانيد هو أيضاً مقصود لغيره حتى يتيسر على المسلمين أصول السُّنَّة، أرأيت لو أنها لم تبوب على الأبواب ولا على المسانيد لكان الإنسان إذا أراد مسألة أن يقرأ كل حديث ورد عن النبي ﷺ، ولا يخفى ما في هذا من التعب العظيم ومن تعطل الشريعة، فكان هذا مقصوداً لغيره.

ولو قال قائل: محاريب المساجد هذه بدعة لا بد أن نهدمها، ولو أن الإنسان أوصى أن يبنى له مسجد فيه محراب بطلت الوصية؛ لأن المحاريب نهى عنها الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في قوله محذراً: «**إياكم ومذابح النصارى**»[1]، أو كلمة نحوها فما الجواب؟

فالجواب فيما يلي:

أولاً: أن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ قيد فقال: «**كمذابح النصارى**»، فإذا كان المحراب على غير الشكل النصراني فلا بأس به، هذا إن صح الحديث مع أن الحديث فيه مقال.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٥٩)، ونحوه عند عبد الرزاق في المصنف (٢/ ٤١٣)، والبيهقي (٢/ ٤٣٩)، وانظر: السلسلة الضعيفة (٤٤٨).

ثانياً: أن نقول إذا انتفى أن تكون هذه المحاريب؛ كمحاريب النصارى بقي أن يقال: هل فيها مصلحة أو لا؟

الجواب: فيها مصلحة، منها: أنها تغني عن صف كامل؛ فإذا كان المسجد ضيقاً، ثم دخل الإمام في المحراب أغنى عن صف كامل؛ لأن مكانه الذي يفترض أن يقوم فيه لولا المحراب صف كامل هذه واحدة.

وثانياً: الدلالة على القبلة، ولهذا قال العلماء رحمهم الله: يستدل على القبلة بالمحاريب الإسلامية، وهذا أمر مشاهد فلو كانت المساجد كحجرة مغلقة ليس فيها إلا الزوايا الأربع ما عرف الناس القبلة وهذا واضح، إذاً فيها مصلحة، فإذا كان فيها مصلحة فكيف نقول: إنها بدعة محرمة يجب هدمها.

فإذا قال قائل: يمكن أن يستعاض عنها بالتلوين، أو بوضع بلاط يخالف بلاط المسجد؟

قلنا: ما الذي يحوجنا إلى هذا، ونحن نقول فيها غير هذه الفائدة، وهي التوسعة للمصلين إذا ضاق المسجد.

ولو قال قائل: تعليلكم لمسألة المحراب واعتباره مصلحة قد يفتح باباً عريضاً لأهل البدع؛ لأن أهل البدع يفعلون البدع ويقولون: فيها مصالح؛ كاجتماعهم على قراءة القرآن جماعة سيقولون: إن أحدنا لا يستطيع أن يقرأ القرآن وحده فمسألة المصالح قد تفتح باباً عريضاً؟

فالجواب: ينظر إذا كانت مصلحة حقيقية فلتتبع، لكن كونك تحدث عبادة ما أحدثها الرسول ﷺ وتتقرب بها إلى الله هذا لا يجوز، ونحن نضع المحاريب لا للقربة بها بذاتها، ولكن علامة على شيء مقصود شرعي.

بقي أن بعض الناس يكتب على المحراب ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ [آل عمران: ٣٧] فيحرفون الكلم عن مواضعه، وهل هذا المحراب هو الذي دخل زكريا على مريم فيه؟ طبعاً لا، ثم إن المحراب في اللغة القديمة مكان العبادة، سواء كان محراباً، أو حجرة، أو أي شيء، فأخطأ هؤلاء من وجهين:

الوجه الأول: أنه ليس المراد بالمحراب في الآية محراب القبلة.

والوجه الثاني: أن زكريا لم يدخل على مريم في هذا المحراب.

ولكن هذا هو الجهل الفاضح، ولذلك يجب على وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد أن تتتبع المساجد التي كتب فيها هذا وتطمسه، كيف يحرف كلام الله في قبلة المسلمين؟! والحمد لله فإنه لا يلزمنا أنَّ كل ما حدث لا بد أن يكون له شاهد من القرآن.

ولو قال قائل: ما حكم كثير من المساجد التي يكون مكتوباً فوق محرابها على اليمين (الله)، وعلى اليسار (محمد)؟

فالجواب: هذا أصلاً بدعة، وما كان السلف يفعلون هذا، ولو فرضنا أنَّ إنساناً لا يعرف هذه العبارة (الله) (محمد) يعرف فقط أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، وكتب أمامه على خط مستوٍ (الله محمد) فإنه يفهم أنهما متساويان.

فيجب على المسؤولين إزالة هذه الكتابة، لكن لو لم يفعلوا فلا يزيلها الأفراد، وهذه الأمور المتعلقة بالمسؤولين لا نفتي فيها، فلو أن أحداً من العسكر مثلاً جاء يشكو من شيء مفعول

على سبيل العموم لا نفتيه؛ لأنه يحدث باب شر وفتن، ولكن أقول لهذا السائل: هات كتاباً رسمياً من مسؤول يمكنه أن يغير، وإذا جاءنا بهذا الكتاب وجب على الإنسان أن يفتي بما يرى، وهذه المسألة أرجو أن ينتبه لها طلاب العلم الذين نرجو من الله أن يكون لهم مستقبل حافل بالمنافع، إذا أتاك أحد من الأفراد تحت مظلة إدارة أو وزارة، وسألك لا تُفْتِه؛ لأنك إذا أفتيته فسوف تحدث فتنة، هو نفسه قد يترك هذا الشيء الذي سألك عنه فيكون عليه علامة استفهام أو يجمع حوله أناساً، ثم يحدثون فتنة، فالواجب أن تقول له: اطلب من المسؤول الذي فوقك أن يكتب لي كتابة رسمية، وحينئذٍ يجب أن تفتيه.

الفائدة الثانية عشرة: كمال تعبد النبي ﷺ لله لقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

الفائدة الثالثة عشرة: إثبات وحي الله له لقوله: ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، وأنواع الوحي مذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

الفائدة الرابعة عشرة: أنه لا يستوي الأعمى والبصير ولا يمكن أن يستويا لقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى﴾، ووجهه أن الاستفهام هنا بمعنى النفي، والاستفهام بمعنى النفي مضمَّنٌ، أو مشرب معنى التحدي.

الفائدة الخامسة عشرة: أنه لا يستوي الأعمى والبصير حسّاً، كما لا يستويان معنىً، فالجاهل أعمى والعالم بصير.

الفائدة السادسة عشرة: الحث على التفكر لقوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

الفائدة السابعة عشرة: ذم من لم يتفكر؛ لأن الاستفهام هنا للتوبيخ، والمراد هو التفكر في الأمور على حسب الواقع، لا يتخيل أشياء لا تَمُتُّ للواقع بصلة، ولا يتفكر في أشياء لا يمكنه الوصول إليها، فلو أراد أحد أن يتفكر في ذات الله ـ عزّ وجل ـ فإنه لا يجوز، هذا ممنوع؛ لأنه لا يمكن الوصول إليه، ولو أراد أن يتفكر في كيفية النزول إلى السماء الدنيا فلا يجوز؛ لأن ذلك لا يمكن الوصول إليه، والله ـ عزّ وجل ـ قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فإذا كان البصر الذي يدرك الأشياء إدراكاً حسياً لا يمكن أن يدرك الله ـ عزّ وجل ـ فالفكر من باب أولى.

ومما يطلب أن نتفكر فيه من الأمور الواقعة آيات الله ـ عزّ وجل ـ الكونية والشرعية:

فالآيات الكونية: هي المخلوقات، وما أبدع الله فيها من الحكم والأسرار العظيمة.

والآيات الشرعية: هي الأحكام الشرعية التي شرعها الله للعباد، وجعلها صالحة لكل زمان ومكان، يعني: إذا طبقت الشريعة فهي صالحة لكل زمان ومكان.

وهنا نشير إلى من توسَّل بهذه العبارة إلى تكييف الشريعة حسب الواقع؛ فنقول: إنَّ هذا غلط عظيم، والواجب تكييف الواقع حسب الشريعة، وإذا كُيِّفَ الواقع حسب الشريعة صلحت الأمور، أما أن نكيف الشريعة حسب الواقع ويكون لنا في كل زمان شريعة، أو في كل مكان شريعة، أو في كل أمة شريعة، فهذا يعني: أن الشريعة تبدل وتعدل وتدخلها الأهواء، وهذا شيء

ممتنع، فالتفكر يكون في آيات الله ـ عزّ وجل ـ الكونية والشرعية، كذلك أيضاً التفكر في أسماء الله وصفاته، تفكر في الاسم، ماذا يدل عليه من الصفة، سواء كانت الدلالة دلالة تضمن، أو دلالة مطابقة، أو دلالة التزام.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥١].

قوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾، أي: بالقرآن، والإنذار الإعلام بالشيء على وجه التخويف.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، يعني: يؤمنون بالبعث ويخافون من اليوم الذي يبعثون فيه كما قال ـ عزّ وجل ـ في الأبرار: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، أي: لا يتولاهم أحد من دون الله ـ عزّ وجل ـ، ولا يشفع لهم أحد من دون الله، فالولاية: أن يتولاهم أحد بدون شفاعة، يعني هو يقوم بكشف الضر عنهم أو جلب النفع لهم، والشفاعة: أن يتوسط لهم إلى الله ـ عزّ وجل ـ؛ لأن الشفاعة هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

فشفاعة النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ لأهل الموقف أن يُقضى بينهم من دفع الضرر، لأن الناس يلحقهم من الغم والكرب ما لا يطيقون.

وشفاعته لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة من جلب النفع.

ومثاله في الواقع لو أن إنساناً شفع لشخص إلى مدير من أجل أن يوظفه في عمل فهذا جلب منفعة، ولو شفع في شخص إلى مدير من أجل أن يرفع عنه التعزير سواء بالمال أو بالحبس فهذا من باب دفع الضرر، فهؤلاء الذين أمر الله أن ينذر النبي ﷺ بالقرآن إياهم ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

قوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (لعل) للتعليل، يعني: لأجل أن يتقوا، والمراد؟ يتقون الله ـ عزّ وجل ـ، أو يتقون اليوم الذي يحشرون فيه إلى الله، وهما متلازمان، والتقوى مأخوذة من الوقاية، وتتكرر كثيراً في القرآن الكريم، ومعناها اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه وتصديق أخباره على علم وبصيرة.

ومنهم من قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى الله، على نور من الله، تخشى عقاب الله، وبعضهم نظم ذلك في أبيات فقال[1]:

خلِّ الذنوب صغيرها ... وكبيرها ذاك التقى
واعمل كماشٍ فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدتان الأولى والثانية: وجوب الإنذار بالقرآن، ويتفرع على هذا أن خير ما ينذر به هو القرآن، يعني هو أبلغ المواعظ في الإنذار، لكن كما قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

---

(١) سبق عزوها (ص١٦٨).

الفائدة الثالثة: أنه لا ينتفع بالإنذار بالقرآن إلا الذين يؤمنون باليوم الآخر لقوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

الفائدة الرابعة: إثبات الحشر إلى الله ـ عزّ وجل ـ، وهذا يكون يوم القيامة؛ تحشر الخلائق إلى ربها ـ عزّ وجل ـ ليقضي بينهم قضاء دائراً بين العدل والفضل، العدل للكفار، والفضل للمؤمنين.

الفائدة الخامسة: أنه لا أحد يمنع من الله؛ لقوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

الفائدة السادسة: إثبات الشفاعة؛ لأنه لولا وجودها ما صح نفيها، والشفاعة أنواع:

النوع الأول: الشفاعة العظمى ليقضي بين الناس، وهذه خاصة بالرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، فيعتذر أولوا العزم عنها، وتستقر لرسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، ولم ينكرها أحد من طوائف الملة بل يقرون بها.

النوع الثاني: الشفاعة في أهل الكبائر من المؤمنين أن يُخرجوا من النار، وهذه ينازع فيها طائفتان من أهل الملة حسب انتسابهم، وهم الخوارج والمعتزلة؛ لأن هاتين الطائفتين يرون أن فاعل الكبيرة مخلد في النار ـ والعياذ بالله ـ وإذا كان الله قد قضى عليه أن يخلد في النار فإن الشفاعة لا تنفعه، وهناك شفاعة أخرى ليس هذا موضع ذكرها.

الفائدة السابعة: إثبات العلل والأسباب؛ لقوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وهذا أمر سبق فلا حاجة إلى الإعادة، وكل إنسان يعرف أن الأمور لها أسباب ولها علل.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٢].

قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ﴾ هذه الآية تحتاج إلى إعراب فـ (لا) ناهية والفعل مجزوم بها، ولكنه حرك بالكسر لالتقاء الساكنين، الإعراب الثاني ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ قوله: (شيٌ) مبتدأ لكن دخل عليه حرف الجر الزائد فعمل فيه لفظاً لا محلاً، ولهذا نعرب (من) حرف جر زائد إعراباً، و﴿شَىْءٍ﴾ مبتدأ ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ (الفاء) للسببية، والفعل بعدها منصوب بها على رأي الكوفيين، و(أن) مضمرة بعدها على رأي البصريين.

فإن قيل: هل هي جواب للنفي، أو للنهي؛ لأنها سبقت بنفي ونهي، فقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ نهي وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ﴾ نفي؟

فالجواب: للنفي يعني: ليس من حسابك عليهم من شيء ولا من حسابهم عليك من شيء فتطردهم، فلماذا تطردهم.

قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الفاء) للسببية و(تَكُونَ) فعل مضارع منصوب بـ (أن) بعد فاء السببية على رأي البصريين، أو بها على رأي الكوفيين، وهي جواب لقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾، يعني: لا تطردهم فتكون من الظالمين.

نعود إلى المعاني ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ الطرد معناه الإبعاد، يعني: لا تبعدهم.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ يدعون دعاء مسألة ودعاء عبادة، ودعاء المسألة أن يقولوا: يا ربنا اغفر لنا، ودعاء العبادة أن يقوموا بعبادة الله ـ عزّ وجل ـ من صلاة وغيرها.

فإذا قال قائل: ما وجه كون العابد داعياً؟

فالجواب: للدليل الأثري والنظري، أما الأثري فقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠] فجعل الله الدعاء عبادة، وأما كون العبادة دعاء فلأن العابد لو سئل لماذا تعبد الله؟ لقال: أرجو ثوابه وأخاف عقابه، إذاً فهو دعاء بلسان الحال لا بلسان المقال، على أن كثيراً من العبادات لا يخلو من دعاء صريح.

وقوله: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ (الباء) هنا بمعنى: (في)، وتأتي (الباء) بمعنى: (في) كثيراً كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، يعني: (في) الليل فهل هناك من حكمة في أن تأتي (الباء) بمعنى (في)؟

الجواب: اعلم أن القرآن الكريم لا يمكن أن يَعْدل عن الشيء المتعارف لغةً إلا لسبب، والسبب هنا أن الباء التي للظرفية أشربت معنى الاستيعاب؛ لأن الباء تأتي للاستيعاب كما في قوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وكما في قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩] فـ(الباء) للاستيعاب، أي: أنهم قد استوعبوا الغداة والعشي بالدعاء، والغداة أول النهار، والعشي آخر النهار.

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ حال من الفاعل في ﴿يَدْعُونَ﴾ المعنى أنهم مخلصون لله، لا يريدون بذلك رياء ولا سمعة.

قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾، يعني: أن حسابك ليس عليهم وحسابهم ليس عليك، وإذا كان كذلك فلماذا تطردهم؟ دعهم يحضرون مجالس ينتفعون

بها وينفعون بها، ليس عليك من حسابهم من شيء ولا من حسابك عليهم من شيء ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ هذا مبني على قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

وقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ في هذه العبارة تلطف في مخاطبة النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، حيث لم يقل فتكون ظالماً بل قال: ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وهذا فيه شيء من التسلية أن هناك من هو ظالم، والظالمون كثيرون، ومعلوم أن كون الإنسان مع عَالَمٍ يشاركونه في الوصف أهون من كونه ينفرد بذلك.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تحريم طرد المؤمنين الصالحين.

الفائدة الثانية: الثناء على أولئك القوم الذين يحضرون جلسات النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ بما ذكر الله ـ عزّ وجل ـ أنهم يدعون الله بالغداة والعشي مع الإخلاص لله ـ عزّ وجل ـ.

الفائدة الثالثة: إثبات وجه الله ـ عزّ وجل ـ لقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، والوجه صفة حقيقية لله ـ عزّ وجل ـ، يجب علينا أن نؤمن بذلك ولكن على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وأما من فسر ذلك بأن المراد بالوجه الثواب فقد أخطأ؛ لأن ذلك مخالف لظاهر اللفظ ومخالف لإجماع السلف، ثم إن الله ـ عزّ وجل ـ قال في القرآن الكريم: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٦، ٢٧] جعله وصفاً للوجه ولا يمكن أن يقال: إن الثواب هو الموصوف بأنه ذو الجلال والإكرام.

وتأمل هذا مع قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ

﴿وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ [الرحمٰن: ٧٨] فـ (ذي) بالجر صفة لـ (رب)، ولم تكن بالرفع صفة للاسم، مع أن أسماء الله ـ عزّ وجل ـ لها من الجلالة والتعظيم ما لها، ولكن نسأل الله العافية: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وسبحان الله لا أدري؛ بماذا يلاقي الإنسان ربه يوم القيامة؟ إذا كان الله تعالى قد قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمٰن: ٢٧] وقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، وما أشبه ذلك من الآيات، ثم يقول: لا وجه لك يا رب، والمراد بوجهك الثواب، لا أدري كيف يستطيع الإنسان أن يجيب الله ـ عزّ وجل ـ؟

والمسألة ليست جدلاً دنيوياً ومغالبة دنيوية، المسألة عقيدة يجب على الإنسان أن يتهيأ للجواب عنها يوم القيامة، والإنسان قد يتخلص في الدنيا بالمجادلة والمغالبة، لكن عند الله لا ينفعه كما قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: ١٠٩] نقول: أنتم إذا غلبتم في الجدل في الدنيا فلن تغلبوا الله ـ عزّ وجل ـ يوم القيامة، والله لا يغلبون، والمسألة خطيرة.

وفي ظني أن هؤلاء المحرفين لمثل هذه الآيات، عند تلاوتها وتحريفها ينسون أنهم سيقابلون الله ـ عزّ وجل ـ، وإلا لو كانوا على ذكر ذلك، ما ذهبوا يحرفون الكلم عن مواضعه في أعظم الأشياء، إذا كانت آيات الأحكام وأحاديث الأحكام تجري على ظاهرها، وهي أحكام للعقل فيها مجال، فكيف لا تجري هذه الأخبار العظيمة على ظاهرها وهي تتعلق بالله ـ عزّ وجل ـ.

لو قال قائل: هل في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ دلالة على رؤية الله ـ عزّ وجل ـ؟

فالجواب: هذا سؤال جيد، نعم هذه الآية يصح أن نجعلها من الأدلة على إثبات الرؤية لله ـ عزّ وجل ـ؛ لأن أفضل شيء وأطيب شيء لأهل الجنة أن ينظروا إلى وجه الله ـ عزّ وجل ـ، اللهم اجعلنا ممن ينظر إليك؛ ولهذا يجب التنبيه من بعض المصنفين الأذكياء، فمثلاً الزمخشري صاحب الكشاف جيد في البلاغة واللغة وكل من بعده عيال عليه يأخذون من كلامه، قال في قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، أي فوز أعظم من هذا؟ هذا الكلام إذا قرأته وجدته عادياً لا تستنكر منه شيئاً، لكن هو يريد إنكار الرؤية لله ـ عزّ وجل ـ؛ لأن رؤية الله ـ عزّ وجل ـ أعظم من هذا الفوز، لكنَّه رجل ذكي قال: أي فوز أعظم من هذا؟ نقول: أعظم من هذا أن يرى الإنسان ربه ـ عزّ وجل ـ رؤية حقيقية.

الفائدة الرابعة: أن كل إنسان لا يحاسب عن الآخر لقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾، وهذا العموم مقيد بما إذا لم يفرط الإنسان في حق أخيه، فإن فرط جوزي على ذلك، ولهذا قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: يجب على الإنسان إذا رأى نائماً وقد ضاق الوقت عن الصلاة يجب أن يوقظه ويعلمه، مع أن النائم معذور ليس عليه إثم، لكن أنت أيها اليقظان يجب أن توقظه وتعلمه، لو لم تفعل صار عليك من حسابه؛ لأنك تركت الواجب، وكذلك قال العلماء: يجب على من رأى شخصاً يريد أن يتوضأ بماء نجس أن يعلمه، ويجب على من رأى في ثوب أخيه بقعة نجسة أن ينبهه عليها، لقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

الفائدة الخامسة: كمال عدل الله ـ عزّ وجل ـ؛ لأنه خاطب نبيه بهذا الخطاب القوي من أجل قوم من أصحابه، والنبي ﷺ

عند الله أعظم جاهاً وأعلى منزلة، لكن الله ـ عزّ وجل ـ حَكَمٌ عدل يقضي بالحق ـ سبحانه وتعالىٰ ـ.

الفائدة السادسة: أن منع الإنسان حقه ظلم وإن لم يكن عدواناً بضرب أو أخذ مال، لكن إذا منعه حقه فإنه ظالم، لقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا حق، ولهذا قال النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: «**مطل الغني ظلم**»[1] مع أن هذا لم يأخذ من مال الفقير لكن ماطله، يعني: منع حقه، فكل من منع صاحب حق حقه فهو ظالم له، كما لو اعتدى بأخذ شيء من ماله.

❁ ❁ ❁

❑ قال الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].

صلة الآية بما قبلها واضحة جداً؛ لأن الذين يأتون إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويجلسون إليه فقراء، وأما الملأ فلا يجلسون؛ لأنهم يحتقرون هؤلاء ويقولون: أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا.

وذكر التناسب بين الآيات لا بأس به لكن رأيت بعض المؤلفين يتكلف في هذا كلافة عظيمة، ثم إن هذا قد لا يتأتى في بعض الأحيان كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحوالات، باب: إذا أحال على ملي فليس له رد (٢٢٨٨)، ومسلم، كتاب المساقاه، باب: تحريم مطل الغني وصحة الحوالة... (١٥٦٤).

[البقرة: ٢٣٩] الآية التي بعدها ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ ما المناسبة؟! المهم أن بعض الآيات لا شك أن المناسبة قد تكون فيها واضحة وبعض الآيات لا تستطيع معرفة المناسبة مما يجعل الإنسان يستسلم استسلاماً كاملاً لترتيب الآيات، وأنها أمر توقيفي وليس عقلياً، وبعض الآيات تكون مقاربة غير واضحة.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، أي: أضللنا بعضهم ببعض ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، يعني: أن الأغنياء لا يؤمنون ـ فتنة ـ لماذا لا يؤمنون؟ يقولون: كيف يسبقنا إلى الإيمان هؤلاء؟ فنحن لن نؤمن، وهذه فتنة قد تقع من الإنسان، وذلك بأن يقول: أي شيء ابتدأه فلان أنا لا أشارك فيه، أو أي شيء عمله فلان لا أعمل فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ (اللام) هنا للعاقبة، وليست للتعليل، المعنى: فتنا بعضهم ببعض فقالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾.

الاستفهام هنا للتحقير، مثل قوله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان: ٤١]. قال الله ـ عزّ وجل ـ رداً عليهم: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾، يعني: وقد علم أن هؤلاء يشكرون الله إذا أنعم الله عليهم، وأما أنتم فلا فهو يرد عليهم.

بعضهم فسر (أعلم) بـ(عالم) وهذا خطأ، أكمل من (عالم) لأنها (أعلم) اسم تفضيل عَمِل عَمَلَ الفعل في (مَن)، فهي مفعول به، والغالب كما هو معروف أن تتعدى بـ (الباء)، أو بـ (مِن) و(أعلم) مجرورة بالفتحة؛ لأنها ممنوعة من الصرف للوصفية ووزن أفعل، وإذا قلنا: ووزن الفعل يكون أعم، والمعنى: إن ربك هو يعلم مَن يضل عن سبيله.

و(عالم) ليس اسم تفضيل فلا يمنع التساوي، قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] هل نقول: سبح اسم ربك (العالي)؟ فهم مخطئون، وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] يقولون: الله عالم ـ سبحان الله ـ الله يصف نفسه بالأكمل وهم يصفونه بالأدنى.

فإذا قال: أنت إذا قلت: (أعلم) قارنت بينه وبين العالمين الآخرين وفضلته عليهم؟

فالجواب: وأنتم إذا قلتم (عالم) وصفتموه بما يوصف به الآخرون بدون تفضيل، فانظر كيف صار تحريفهم حجة عليهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يفتن بعض الناس ببعض فيضل بسبب الآخر، وهذا واقع، مثلاً تفتح باب مساهمة في الخير فيسبق فلان وفلان، فيقول الآخرون: شيء تدخَّل فيه فلان لا نوافق عليه ولا نريده، ولا يمكن أن يسبقنا إليه.

الفائدة الثانية: إقرار الكافرين بأن الإيمان والإسلام مِنَّة من الله تعالى، لقولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾.

الفائدة الثالثة: أن أعداء المؤمنين يأتون بكل أسلوب للتنفير عن المؤمنين، لقولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، وهذا مشاهد في كل شيء، الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هل ذكر أعداؤهم ما ينفر عنهم من الأوصاف؟

الجواب: نعم، واقرأ الآية العامة الجامعة الشاملة: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، كذلك أيضاً أعداء أهل السُّنَّة والجماعة، يصفهم أهل التعطيل بأوصاف تنفر عنهم،

يقولون: هذا مجسم؛ لأنه أثبت الصفات، ويقولون: هذا تجسيم حتى ينفر الناس عنه، وأهل الكلام يقولون: هؤلاء حشوية لا خير فيهم وليس عندهم فَهم، وليس عندهم معرفة بالمعاني، ولا عندهم عقول، ويسمونهم نوابت، جمع نابتة، وهي التي تنبت في الزرع من ذات الأوراق التي لا خير فيها، وكذلك فإن ألقاب السوء لأهل الخير من أهل الشر لا تزال موجودة، ولكن هل يصمد صاحب الخير أمام هذه الألقاب، أو ينهزم؟ الواجب أن يثبت ولا ينهزم؛ لأنه إذا انهزم فانهزامه ليس انهزاماً لشخصه، بل هو انهزام للحق الذي جاء به، أو الذي كان عليه.

الفائدة الرابعة: تقرير علم الله ـ عزّ وجل ـ في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فالله عالم بمن هو شاكر، وهل المعنى عالم بمن هو شاكر الآن أو بمن سيشكر، أو بالجميع؟

الجواب: بالجميع.

والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

❁ ❁ ❁

وبذلك وفي الأسبوع الأخير من شهر صفر عام ١٤٢١هـ انتهت الدروس العلمية المسجلة صوتياً في تفسير سورة الأنعام والتي كان يعقدها فضيلة شيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين في جامعه بمدينة عنيزة[١].

رحم الله شيخنا رحمة الأبرار، وأسكنه فسيح جناته، ومَنَّ

(١) انظر: مقدمة اللجنة العلمية في المجلد الأول لتفسير سورة الفاتحة والبقرة.

عليه بمغفرته ورضوانه، وجزاه عما قدمه للإسلام والمسلمين خير الجزاء. وصلَّى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فهرس الفوائد والموضوعات

الفائدة والموضوع	الصفحة
تفسير قول الله تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾	٥
الكلام على البسملة	٥
«الله» علم على الله ـ عزّ وجل ـ وهو أصل لجميع الأسماء	٨
حكم البداءة بـ «بسم الله» في أثناء السورة	٨
قوله: (الرحمٰن)	٩
معنى (الرحمٰن): أي ذو الرحمة الواسعة	٩
قوله: (الرحيم)	٩
تقسيم الرحمة إلى قسمين	٩
قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾	١٠
معنى (أل) في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾	١٠
معنى ﴿ٱلْحَمْدُ﴾	١٠
الصحيح في معنى ﴿ٱلْحَمْدُ﴾	١١
كل حمد مدح وليس كل مدح حمد	١٢
قول البعض (قال الحق) بدل (قال: الله) أو (قال: ربنا)	١٣
لفظ الجلالة (الله) مشتق وليس جامد	١٤
قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾	١٤
تعريف الخلق لغة	١٤
إعراب ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾	١٥
الأدلة على تعدد الأرض	١٥
معنى (جعل)، ولماذا نجد جعل بدلاً من خلق؟	١٦

الفائدة والموضوع — الصفحة

قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ ١٧
معنى الآية إجمالاً ١٧
من فوائد الآية الكريمة ١٧
الله يحمد نفسه عند الأمور العظيمة ١٨
فائدة في ذكر السماوات جمع والأرض مفردة ١٩
من ملك ظاهر الأرض ملك أسفلها ١٩
فائدة: في الفرق في اختلاف التعبير بين خلق وجعل ١٩
سبب جمع الظلمات وإفراد النور ٢٠
الفرق بين عقل التصرف وعقل الإدراك ٢١
الفرق بين الربوبية العامة والخاصة ٢٢
تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ ٢٢
حكم الوقف على قوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ ٢٢
معنى ﴿تَمْتَرُونَ﴾ ٢٣
من فوائد الآية الكريمة ٢٣
الجمع بين قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ وقوله: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ ٢٣
الجمع بين قوله: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ وقوله: ﴿مِن تُرَابٍ﴾ ٢٤
استحالة وقوع التناقض بين دليلين قطعيين ٢٤
من مات مقتولاً فقد مات بأجله ٢٥
علم الساعة لا يعلمه إلا الله ٢٥
قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ٢٦
جميع أسماء الله مشتقة ٢٦
معنى قوله: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ٢٦
معنى قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ ٢٧
القول الثاني في معنى الآية وأن فيها وقف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ٢٧
الرد على استدلال بعض المبتدعة بالآية على أن الله موجود في كل مكان . ٢٨
حكم قول: (الله موجود في كل الوجود) ٢٩

الفائدة والموضوع | الصفحة

الرد على قول من قال: (إذا قلتم: إن الله مستوٍ على العرش فأين الله قبل ذلك؟) ٢٩
معنى قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ ٣٠
الأسرار نوعان ٣٠
من فوائد الآية الكريمة ٣٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ ٣١
إعراب ﴿من﴾ في قوله: ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ ٣٢
معنى: ﴿ءَايَةٍ﴾ ٣٢
معنى: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ ٣٢
من فوائد الآية الكريمة ٣٣
آية إنشقاق القمر ٣٣
الواجب على المؤمن أن يرد كل قول يخالف الكتاب والسنة ٣٣
لماذا لم يهلك الله قريشاً لما أوتوا آية انشقاق القمر؟ ٣٤
الفرق بين من يطلب آية عامة ومن يطلب آية خاصة ٣٤
حكمة الله ورحمته في الإيتاء بالآيات الدالة على رسله ٣٥
ربوبية الله تعالى عامة وخاصة ٣٥
خطر الإعراض عن الآيات ٣٥
تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ ٣٦
معنى (قد) في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ ٣٦
﴿لَمَّا﴾ لها معنيان ٣٧
استعمالات ﴿لَمَّا﴾ ٣٧
إعراب ﴿لَمَّا﴾ ٣٨
المراد في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ﴾ ٣٨
من فوائد الآية الكريمة ٣٨
التكذيب بالحق بعد مجيئه أشد منه قبل مجيئه ٣٨
التفصيل في إقامة الحجة على من لم يعرف الحق ٣٩

الفائدة والموضوع | الصفحة

تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ ٤٠
نوع الاستفهام إذا دخل على النفي ٤٠
المراد بالقرن ٤١
أنواع الالتفات وفائدته ٤١
نوع الباء في قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ ٤٢
من فوائد الآية الكريمة ٤٢
الاستدلال بالأعلى على الأدنى ٤٢
المراد بالهلاك في قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم﴾ ٤٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ ٤٣
استشكال وجوابه ٤٤
فائدة الإظهار في موضع الإضمار في قول: ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ٤٤
حكم (إنْ) ٤٤
اللغة العربية معانيها أكثر من ألفاظها ٤٥
تعريف السحر لغةً واصطلاحاً ٤٥
(بان) و(أبان) يأتيان بمعنى واحد ٤٦
من فوائد الآية الكريمة ٤٦
فائدة ذكر القرطاس دون غيره ٤٦
تنبيه الشيخ ـ رحمه الله ـ على أهمية الوقف عند قراءة القرآن ٤٧
استفادة الشيخ ـ رحمه الله ـ من شيخه عبد الرحمن السعدي في قراءته للقرآن في صلاة التراويح ٤٧
مراعاة الوقف في القراءة السريعة ٤٨
فائدة الإظهار في موضع الإضمار ٤٩
مكابرة المشركين للنبي ﷺ بصرفهم الحق إلى الباطل ٤٩
تأكيد المعقول بالمحسوس ٥٠
هل للسحر تأثير؟ ٥٠
حكم من يدعي أنه يستطيع أن يخبر بمكان السحر ٥٠

الفائدة والموضوع الصفحة

تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ٥١
طلب المشركين الآيات من باب التعنت والتحدي والإعجاز ٥١
الفرق بين طلب آية بعينها وطلب آية عامة ٥٢
من فوائد الآية الكريمة ٥٢
حكمة الله تعالى في إرسال الرسل من البشر ٥٣
حسن محاجة القرآن الكريم ٥٤
تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ ٥٤
مؤكدات هذه الجملة ٥٤
قاعدة: النكرة في سياق الإثبات لا تدل على العموم إلا إذا قام الدليل على العموم ٥٤
فائدة التعبير بالجزاء بالفعل ٥٥
من فوائد الآية الكريمة ٥٥
سؤال في السبب بتوكيد الجملة بأنواع المؤكدات مع أن خبر الله صدق ... ٥٥
تسلية الله - عزّ وجل - نبيه ﷺ بذكر استهزاء الأمم السابقة برسلها ٥٦
السخرية والاستهزاء بالرسل موجب للعقاب ٥٧
حكم من استهزأ بالرسل وهل تقبل توبته؟ ٥٧
هل يرتفع القتل بعد توبته؟ ٥٧
المعاصي سبب للعقوبة ٥٩
تفسير قول الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ٥٩
فائدة في قوله: ﴿في﴾ ٥٩
السير هنا يشمل القلب والقدم ٥٩
الفرق بين الدخول للاعتبار والدخول للنزهة والإعجاب ٦٠
إعراب ﴿كَيْفَ كَانَ﴾ ٦٠
من فوائد الآية الكريمة ٦١
فضل الاعتبار بمن انتقم الله منهم وبمن أثابهم ٦١
الكفر يحصل إما بالتكذيب وإما بالاستكبار ٦٢

الفائدة والموضوع | الصفحة

تفسير قول الله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ٦٢
الجواب من الرسول ﷺ بأمر الله ٦٢
معنى كتب ٦٢
نفس الله هي ذاته وليست صفة ٦٣
أين رحمة الله في وجود البلاء والبؤس؟ ٦٣
تفسير قول الله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ٦٥
مؤكدات الجملة ٦٥
السبب في التسمية بيوم القيامة والأدلة على ذلك ٦٥
معنى النفي في قوله: ﴿لَا رَيْبَ﴾ ٦٦
إعراب وتقدير قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ ٦٦
من فوائد الآية الكريمة ٦٧
استعمالات (من) و(ما) ٦٧
جواز إجابة السائل نفسه ٦٨
كيف يكون الشيء لازماً على الله ٦٩
لله أن يعبر عن نفسه بالنفس وشواهد ذلك كثيرة في القرآن الكريم ٦٩
تأكيد الشيء إذا دعت الحاجة إليه ٧٠
يوم القيامة واقع عقلاً وشرعاً ٧١
صحة عبارة (لولا البعث لبطلت الحياة) ٧١
من الفصاحة أن يذكر السبب بعد المسبب ٧٢
تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾ ٧٢
الاستغناء بذكر أحد الضدين عن الآخر ٧٢
استعمال اللفظ لأكثر من معنى ٧٣
أقسام السمع التي وصف الله بها نفسه ٧٣
أنواع سمع الصوت وأمثلته ٧٣
من فوائد الآية الكريمة ٧٤
تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر ٧٤

الفائدة والموضوع | الصفحة

أفعال العباد مخلوقة ٧٤
تفسير قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ ٧٥
نوع الاستفهام ٧٥
ما من طاعم يطعم إلا والله الذي أطعمه ٧٥
قوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ ٧٦
من فوائد الآية الكريمة ٧٧
ولاية الله ولاية مبنية على الحمد ٧٧
الله خالق السماوات والأرض على غير مثال سابق ٧٧
النبي ﷺ محتاج إلى الإسلام ٧٨
صحة النهي عما لا يمكن أن يقع ٧٩
الحكمة في ذلك ٧٩
هل يجوز أن نقول لمن فعل شركاً: (أنت مشرك) ٧٩
تفسير قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ ٨٠
القراءات الواردة في قوله: (لإني) ٨٠
من فوائد الآية الكريمة ٨٠
المعاصي أنواع ٨٠
سؤال: إذا تاب الإنسان من ذنب فيه جناية على غيره فهل يسقط حق الغير أم لا؟ ٨٠
قوله: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ ٨١
القراءات الواردة في قوله: ﴿يُصْرَفْ﴾ ٨١
(ال) في قوله: ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ لبيان الحقيقة ٨١
(أبان) تصح أن تكون لازمة ومتعدية ٨٢
من فوائد الآية الكريمة ٨٢
الرحمة من الصفات الذاتية والفعلية ٨٢
هل رحمة الله حقيقية أو أنها عبارة عن الثواب أو إرادة الثواب ٨٢
الرد على من تأول الرحمة ٨٢

الفائدة والموضوع | الصفحة

تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ﴾ ٨٣
النكرة في سياق الشرط تفيد العموم ٨٣
من فوائد الآية الكريمة ٨٤
الفرق بين القوة والقدرة ٨٥
الكلام عليهما من حيث العموم والكمال ٨٥
تفسير قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ ٨٦
فوقية الله فوقية مكانة ومكان ٨٦
أقسام العبودية ٨٧
﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ مشتقة من الأحكام والحكمة ٨٨
أنواع الحكم ٨٨
الفرق بين الحكم الكوني والشرعي ٨٨
أنواع الحكمة ٨٩
الحكمة من الزكاة ٩٠
معنى الخبير ٩٠
هل يلزم من الخبير أن يكون عليماً ٩١
فائدة اقتران الاسمين (الحكيم والخبير) ٩١
جميع أوامر الله ونواهيه حكمة ولا حاجة أن نعرف العلة ٩١
من فوائد الآية الكريمة ٩٢
قاعدة في أسماء الله ٩٢
الفرق التي خالفت أهل السنة والجماعة في علو الله ٩٣
الأدلة على علو الله ٩٤
ما تضمنه اسم ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ من صفات ٩٦
الفائدة المسلكية والمنهجية لاسم ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ ٩٧
حكم السؤال عن الحكمة ٩٧
تفسير قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ ٩٨
سبب نزول الآية ٩٩

الفائدة والموضوع | الصفحة

أوجه إعراب هذه الآية ٩٩
شهادة الله للرسول ﷺ بصدقه ١٠٠
تعريف الوحي لغةً واصطلاحاً ١٠١
تعريف القرآن ١٠١
لا تقوم الحجة بالقرآن إلا على من بلغه وفهمه ١٠٢
الإنكار على المشركين في شهادتهم أن مع الله آلهة أخرى ١٠٢
البراءة في كل من يشرك بالله ١٠٣
هل الرسول ﷺ بريء من عيسى؟ ١٠٣
من فوائد الآية الكريمة ١٠٤
هل يطلق على الله - عزّ وجل - اسم (الشيء)؟ ١٠٤
هل يجوز أن نطلق على القرآن أنه شيء ١٠٤
شهادة الله أكبر شهادة ١٠٥
هل يطلق الشاهد على الحاكم؟ ١٠٦
صور تعظيم القرآن الكريم ١٠٧
حكم من بلغه القرآن وهو لايعرف العربية ١٠٨
من بلغه القرآن وهو يعرف العربية ولكنه عاش في أحضان أئمة الضلال ... ١٠٨
الجواب على مسألة العذر ١٠٩
حكم اتباع أهل الضلال من العوام ١١٠
متى تقوم الحجة على اليهود والنصارى ١١٠
كيفية معاملة من يفعل الأفعال الشركية ١١١
حكم من طعن في شيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ محمد بن عبد الوهاب . ١١١
حكم قول يا أبا الأفراج ١١٢
وجوب التبرؤ من كل ما يعبد من دون الله ١١٢
وجوب البراءة مما عليه المشركون ١١٢
الفرق بين المداهنة والمداراة ١١٣
تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ١١٣

الفائدة والموضوع — الصفحة

المراد من قوله: ﴿يَعْرِفُونَهُمْ﴾ ١١٤
سبب تخصيص الأبناء دون البنات ١١٤
معنى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ١١٤
من فوائد الآية الكريمة ١١٤
كلام الله أقوى شاهد ١١٥
ما نقله الشيخ محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ في تفسيره ١١٥
تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ ١١٦
نوع الاستفهام ومعناه ١١٦
أعظم الكذب ١١٦
مطابقة هذه الآية لمشركي قريش ١١٧
حكم الكذب على الله في مدلول الأدلة ١١٨
الإظهار في موضع الاضمار في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ ١١٨
من فوائد الآية الكريمة ١١٨
المعاصي بعضها أشد من بعض ١١٨
هل للمعاصي والظلم أثر حسي؟ ١١٩
ضابط المناصرة ١١٩
هل تهنئة الكفار باحتلال بلاد المسلمين من نواقض الإسلام؟ ١١٩
هل يعاقب الذين يصنعون آلات اللهو بمثل ما يفعل بالمصورين ١١٩
قاعدة في الافتراء ١٢٠
الكفر الأكبر والكفر الأصغر ١٢٠
الجمع إذا أضيف أفاد العموم ١٢١
فائدة متفرعة مما سبق ١٢١
فائدة نفيسة في الجمع بين هذه الآية وغيرها من النصوص ١٢٢
عدم فلاح الظالم وربطه بالواقع ١٢٣
أنواع الفلاح ١٢٣
كيف يمحق الله الكافرين وهم منتصرون؟ ١٢٤

الفائدة والموضوع | الصفحة

النصيحة لولاة الأمور ١٢٥
تفسير قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ ١٢٦
التقدير في قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ ١٢٦
نوع الاستفهام في قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ ١٢٦
معنى الفتنة في قوله: ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ ١٢٧
إشكال وجوابه ١٢٧
القراءات في هذه الآية ١٢٨
من فوائد الآية الكريمة ١٢٨
قول الله تعالى يكون بالحروف المسموعة المعقولة ١٢٩
الجمع بين قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ وبين قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ﴾ . ١٣١
يستحيل أن يكون هناك تناقض في القرآن ١٣١
إشارة الشيخ ـ رحمه الله ـ لكتاب (دفع إيهام الاضطراب) للشيخ الشنقيطي ١٣١
تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ١٣٢
(من) التبعيضية و(من) الموصولة ١٣٢
تقدير المضاف قوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ ١٣٢
تعريف الفقه لغة ١٣٣
المراد من قوله: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ١٣٣
الفرق بين حتى الغائية والابتدائية ١٣٣
تعريف الجدل ١٣٤
استعمالات (إن) ١٣٤
تعريف الأساطير ١٣٥
من فوائد الآية الكريمة ١٣٥
ليس كل مستمع بمنتفع ١٣٥
الواجب عند الاستماع التأمل والتفكر ١٣٥
سبب حجب الحق عن القلب ١٣٦

الفائدة والموضوع — الصفحة

أنواع الآيات ١٣٦
الله يرسل الآيات تأييد للرسل وتخويف لمخالفيهم ١٣٧
لا يجوز للإنسان أن يدخل في مجادلة إلا بنية صالحة وعلم يدفع به الشبهة ١٣٨
حكم تعلم الجدل من أجل نصرة الحق ١٣٨
الجواب على من قال أنه لا حاجة لمراجعة جدل المتكلمين لأن زمنهم انقضى ١٣٨
الكتب التي ينصح بها لمطالعة كلام المتكلمين ١٣٩
الجواب على حديث النبي ﷺ فيهم: **«أنا زعيم ببيت في ربض الجنة..»** .. ١٣٩
المجادلة بالباطل إما أن يلجأ للمكابرة أو إلى التهديد ١٤٠
حكم من جادل بالباطل لإدحاض الحق ١٤٠
فائدة الإظهار في موضع الإضمار ١٤١
تفسير قول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ١٤١
غلط من ظن أن هذه الآية نزلت في أبي طالب ١٤١
المراد بالهلاك ١٤٢
الكفار المجادلين لا يشعرون بأنهم على ضلال ١٤٢
من فوائد الآية الكريمة ١٤٣
كل من حاول إبطال الحق فإنما يجني على نفسه ١٤٣
التحذير من سلوك سبل الهلاك ١٤٣
كيف يعرف الإنسان أنه على صواب ١٤٣
تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟﴾ ١٤٤
إذا دار الكلام بين التقدير وعدمه ١٤٥
التمني يكون في المحال والصعب ١٤٥
القراءة الواردة في قوله: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ ١٤٦
من فوائد الآية الكريمة ١٤٦
جواز حذف المعلوم لغة ١٤٧

الفائدة والموضوع | الصفحة

تفسير قول الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم﴾ ١٤٧
من المراد من قوله: ﴿بَدَا لَهُم﴾؟ ١٤٧
إشكال وجوابه ١٤٨
من فوائد الآية الكريمة ١٤٨
تعلق علم الله تعالى بالمستحيل ١٤٩
هل يمكن أن يستحيل الشيء لذاته ويعلمه الله؟ ١٥٠
تأكيد الخبر إذا دعت الحاجة اليه ١٥٠
تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ﴾ ١٥٠
لماذا سميت الدنيا دنيا؟ ١٥١
من فوائد الآية الكريمة ١٥٢
تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ١٥٣
فائدة في زيادة الحروف ١٥٣
مراتب اليقين ١٥٤
سبب حذف جواب (لو) ١٥٤
من فوائد الآية الكريمة ١٥٥
أقسام الناس في إثبات الأسباب ١٥٥
تفسير قول الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ ١٥٦
أنواع الخبر ١٥٧
الخسار المطلق للكافرين ١٥٧
المراد بالساعة ١٥٨
الياء في قوله: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا﴾ ١٥٨
الفائدة في تعبير الجزاء بالعمل ١٥٩
أحوال القيامة لا تقاس بأحوال الدنيا ١٥٩
حمل الأوزار حقيقة ١٦٠
التقدير في قوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ١٦٠
من فوائد الآية الكريمة ١٦٠

الفائدة والموضوع — الصفحة

الاستدلال بهذه الآية على النظر إلى الله - عزّ وجل - ١٦١
الأدلة على إثبات النظر من الكتاب والسنة والإجماع ١٦١
حكم إثبات الجهة لله تعالى ١٦٣
الفرق بين الذكاء والعقل ١٦٣
إجراء النصوص على ظاهرها ١٦٥
الأعمال محل الثناء والقدح ١٦٥
هل ثبت القدح والثناء في العامل ١٦٥
تنبيه هام في مسألة التعيين والتعميم ١٦٥
تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ ١٦٦
أقوى طرق الحصر ١٦٦
وجه وصف ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ بالدنيا ١٦٦
معنى اللعب واللهو ١٦٧
القراءة الواردة في قوله: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ ١٦٧
المراحل التي يمر بها الإنسان ١٦٧
الوجه البلاغي في قوله: ﴿خَيْرٌ﴾ ١٦٨
تعريف التقوى ١٦٨
المراد بالعقل في قوله: ﴿تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ ١٦٨
من فوائد الآية الكريمة ١٦٩
تفضيل الآخرة على الدنيا ١٧٠
تفسير قول الله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ﴾ ١٧١
دخول ﴿قَدْ﴾ على الفعل ١٧١
كسر همزة (إن) وفتحها ١٧١
نراجع علها فتحت ١٧١
القراءة الواردة في قوله: ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ ١٧٢
المراد بقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ ١٧٢
الفائدة في تقديم قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ١٧٣

الفائدة والموضوع | الصفحة

من فوائد الآية الكريمة ١٧٣
علم الله تعالى بما في القلوب ١٧٤
أحكام الدنيا تجري على الظاهر ١٧٥
الردة لها أصلان الجحود والاستكبار ١٧٥
حكم في فضل الصلاة وقال: أفعلها احتياطاً ١٧٦
تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ ١٧٦
الرسل أوذوا بالقول والفعل ١٧٧
نصر الله لنبيه ﷺ نصر عاجل وآجل ١٧٨
معنى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ١٧٨
المؤكدات في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ١٧٩
معنى الآية ١٧٩
من فوائد الآية الكريمة ١٧٩
الحكمة من إرسال الرسل مع تكذيبهم ١٧٩
وجه قوله: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ ١٨٠
الفرج يأتي مع الشدة ١٨١
لا يطلبن النصر إلا من الله ١٨١
لا تبديل لكلمات الله الكونية والشرعية ١٨٢
الجواب على نسخ في القرآن ١٨٣
المصدر المؤكد ينفي احتمال المجاز ١٨٣
اعتقاد أن الله يتكلم بكلام مسموع ١٨٣
أبرز من خالف أهل السنة ١٨٣
هل كل ما خلقه الله يكون بكلمة (كن)؟ ١٨٤
مراعاة الفواصل في القرآن الكريم ١٨٥
تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ﴾ ١٨٦
تداخل الجملة الشرطية مع جملة شرطية أخرى ١٨٦
تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ١٨٨

الفائدة والموضوع — الصفحة

تقدير الشيء مطابقاً للموجود أولى من تقديره على شيء غير مطابق ١٨٨
أنواع الجمل ١٨٩
استشكال وجوابه ١٨٩
من فوائد الآية الكريمة ١٨٩
النظر للمقصد بعين القدر والشرع ١٩٠
لا بد لكل نبي من آية ١٩١
مراتب القدر ١٩١
حكمة الله في جعل الناس صنفين ١٩٢
الرد على من احتج بالقدر ١٩٢
تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ ١٩٤
الفرق بين سماع الإدراك وسماع القبول والانقياد ١٩٤
المراد من قوله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ ١٩٤
من فوائد الآية الكريمة ١٩٥
قاعدة: في التقليد بالوصف بالوصف ١٩٥
الفرق بين البعث والإحياء ١٩٦
فائدة التقديم في هذه الآية ١٩٦
تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ ١٩٧
سنة الله في إنزال الآيات ١٩٧
خطأ من سمى الآيات بالمعجزات ١٩٨
قدرة الله على إنزال الآيات إذا شاء ١٩٨
من فوائد الآية الكريمة ١٩٩
آيات النبي ﷺ مشاهدة ومعلومة لكفار قريش ١٩٩
كمال علم الله وقدرته ٢٠٠
تنطع المتكلمين في بحوثهم أمثلة على ذلك ٢٠٠
مثال للعابد والعالم ٢٠١
أفعال الله مقرونة بمشيئته ٢٠١

الفائدة والموضوع الصفحة

تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ٢٠٢
المراد بالدابة ٢٠٢
هل السيارات والطائرات تسمى دواب ٢٠٢
فائدة التعبير بقوله: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ ٢٠٣
تنوع الأمم واختلافها في الأحجام والألوان واللغات ٢٠٣
كل واحدة من الأمم لا تفهم لغة الأمم الأخرى ٢٠٣
ذكاء النمل ٢٠٤
حكم أخذ الحب من النمل ٢٠٤
إذا أخذت الهرة لحماً من أحد هل يجوز أخذه منها؟ ٢٠٤
حكم أخذ نصف الحب الذي أخرجه النمل ٢٠٥
قراءة القرآن على النمل ٢٠٥
حكم قتل النمل الذي في البيت؟ ٢٠٥
المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ٢٠٦
وجوب الإيمان بما أخبر الله به سواء أدركه العقل أم لم يدركه ٢٠٦
دعاء: (اللهم لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه) حديث
منكر، ولا يجوز الدعاء به ٢٠٦
هل الإنسان مسير أم مخير؟ ٢٠٧
قوله: ﴿مِن﴾ زائداً إعراباً، أما معنىً فلا ٢٠٧
من فوائد الآية الكريمة ٢٠٨
خطأ من يفهم أن بني آدم هم أفضل المخلوقات ٢٠٨
خطأ يرد على كثير من ألسنة الخطباء ٢٠٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ٢١٠
انسداد أبواب العلم والمعرفة على من كذب بآيات الله ٢١٠
من فوائد الآية الكريمة ٢١١
الذين يحرفون الآيات هل يدخلون في هذه الآية ٢١١
جميع أفعال الله وأحكامه مقرونة بالحكمة ٢١٢

الفائدة والموضوع — الصفحة

هل الحكمة معلومة للخلق؟ ٢١٢
هل للناس حجة على الله إذا أضله الله؟ ٢١٢
تفسير قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ﴾ ٢١٣
معنى قوله: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ وإعرابها ٢١٣
حال مشركي العرب خير من حال بعض الطوائف المبتدعة ٢١٤
قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ ٢١٤
الفرق بين النسيان المثبت والمنفي لله ـ عزّ وجل ـ ٢١٥
من فوائد الآية الكريمة ٢١٥
استجابة الله لدعوة المظلوم والمضطر ولو كان كافراً ٢١٥
هل اللجوء إلى الله فطرة أم شرعي عقلي؟ ٢١٦
تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ ٢١٧
المؤكدات الواردة في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ ٢١٧
﴿أُمَمٍ﴾ لها أربع معان ٢١٧
أنواع الإيجاز عند البلاغين ٢١٨
من فوائد الآية الكريمة ٢١٩
لا تقوم الحجة بالبلاغ حتى يفهمها المرسل إليه ٢١٩
الحكمة من ابتلاء الله الناس ٢٢٠
هل لنا معرفة الحكمة؟ ٢٢١
تعبير الفقهاء بقولهم أنه (تعبدي) ٢٢١
من العبارات الفاسدة قولهم: (أن الله منزه عن الأعراض والأبعاض والأغراض) ٢٢٢
من الناس من لا تزيده البأساء والضراء إلا قسوة في القلب ٢٢٣
أهمية ملاحظة الإنسان لقلبه ٢٢٣
دواء قسوة القلب ٢٢٤
تجويع النفس هل يلين القلب؟ ٢٢٥
الحذر من الاستدراج ٢٢٦

الفائدة والموضوع | الصفحة

الفرح المذموم والفرح المحمود ٢٢٧
تفسير قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾ ٢٢٧
كل إنسان كافر فهو ظالم ٢٢٨
الأدب مع الله في الألفاظ ٢٢٨
من فوائد الآية الكريمة ٢٢٨
تمام عدل الله ورحمته في أخذ الظالم ٢٢٨
تفسير قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ ٢٢٩
الآية ليست مجرد علامة ٢٢٩
من فوائد الآية الكريمة ٢٢٩
حكم الذين يطلبون الرقية ٢٣٠
رحمة الله بتنوع الآيات ٢٣٠
تفسير قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ﴾ ٢٣١
إذا كان الاستفهام بمعنى النفي صار أشد ٢٣١
أقسام الظلم ٢٣١
من فوائد الآية الكريمة ٢٣٢
المعاصي بريد الكفر ٢٣٢
أهمية ملازمة التوبة ٢٣٣
تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ٢٣٣
الأرجح في تعريف الرسل والأنبياء ٢٣٣
تعريف البشارة ٢٣٤
الفائدة من حصر وظيفة الرسل في البشارة والإنذار ٢٣٥
شروط إصلاح العمل ٢٣٥
حكم الحلف بغير الله ٢٣٦
حكم الحلف بالمصحف ٢٣٦
قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ ٢٣٧
القسم الثاني من الذين أرسل الله إليهم رسل ٢٣٧

الفائدة والموضوع — الصفحة

حكم إنكار عذاب القبر ٢٣٧
من فوائد الآية الكريمة ٢٣٨
حكمة إرسال الرسل ٢٣٨
البشارة والإنذار في دعوة الرسل ٢٣٨
حكمة الله في انقسام الناس إلى مؤمن وكافر ٢٣٨
هل يحصل خوف للمؤمنين من أعدائهم؟ ٢٣٩
الجواب على من قال الأعمال شرط في كمال الإيمان أو شرط في أصل الإيمان ٢٤٠
لا نكفر أحداً إلا بدليل ٢٤١
آيات الله تنقسم قسمين ٢٤١
الخلق لا يصلحون إلا بالشريعة الإسلامية ٢٤١
التكذيب بالآيات الشرعية والكونية ٢٤٢
إثبات الأسباب ٢٤٣
نصيحة في تدبر الأسباب في القرآن ٢٤٣
انقسام الناس في الأسباب ٢٤٣
المراد بالفسق ٢٤٤
حكم الحاكم بغير ما أنزل الله ٢٤٥
حديث: «إن الله لو عذب أهل سمواته...» ٢٤٦
تفسير قول الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ ٢٤٦
أهمية الخطاب في قوله: ﴿قُل﴾ ٢٤٦
أنواع الغيب ٢٤٧
استعمالات (إن) ٢٤٨
الألفاظ يتعين معناها بالسياق ٢٤٨
تعريف (الوحي) ٢٤٩
من فوائد الآية الكريمة ٢٥٠
ما أخبر به النبي ﷺ من الغيب فهو بوحي الله ٢٥١

الفائدة والموضوع | الصفحة

حكم الاستعانة بالجن لمعرفة الأشياء البعيدة ٢٥٢
الشرائع توقيفية ٢٥٣
الرد على من قسم البدعة ٢٥٤
الجواب على قول عمر رضي الله عنه ٢٥٤
الجواب على جمع المصحف وتبويب الأحاديث وبناء المدارس ٢٥٥
حكم المحاريب في المساجد ٢٥٦
الجواب على من استدل بالمصالح في البدع ٢٥٧
المراد بالمحراب في قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ ٢٥٨
تعريف المحراب ٢٥٨
حكم كتابة (الله) و(محمد) فوق المحراب ٢٥٨
تنبيه في الإجابة على بعض الفتوى ٢٥٩
التفكر في آيات الله الكونية والشرعية ٢٦٠
الخطأ في تكيف الشريعة حسب الواقع ٢٦٠
تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ ٢٦١
قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ٢٦٢
تعريف التقوى ٢٦٢
من فوائد الآية الكريمة ٢٦٢
أنواع الشفاعة ٢٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ٢٦٤
إعرابها ٢٦٤
ما وجه كون العابد داعياً؟ ٢٦٥
الحكمة في كون (الباء) تأتي بمعنى (في) ٢٦٥
من فوائد الآية الكريمة ٢٦٦
المراد (بالوجه) ٢٦٦
الرد على من أول الوجه ٢٦٦
هل في قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ دلالة على رؤية الله ـ عزّ وجل ـ ٢٦٧

الفائدة والموضوع | الصفحة

تنبيه على ما جاء عند الزمخشري ٢٦٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا﴾ ٢٦٩
مناسبة الآية لما قبلها ٢٦٩
تكلف بعض المؤلفين في التناسب بين الآيات ٢٦٩
اسم التفضيل في (أعلم) أكمل من عالم ٢٧٠
استشكال وجوابه ٢٧١
من فوائد الآية الكريمة ٢٧١
تنفير أعداء الله، المؤمنين بأوصاف باطلة ٢٧١
نهاية تفسير سورة الأنعام عند الآية (٥٣) ٢٧٢
* **فهرس الفوائد والموضوعات** ٢٧٣

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين

١

تفسير القرآن الكريم

سورة الكهف

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

طبع بإشراف مؤسسة
الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

دار ابن الجوزي

تفسير
القرآن الكريم

ح مكتبة دار ابن الجوزي، ١٤٢٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير القرآن الكريم: سورة الكهف./محمد بن صالح العثيمين.
ـ الدمام، ١٤٢٣هـ
١٥٨ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٠ ـ ٤٥ ـ ٧٦٧ ـ ٩٩٦٠
١ ـ القرآن ـ التفسير بالمأثور ٢ ـ القرآن ـ سورة الكهف ـ تفسير
أ ـ العنوان
ديوي ٢٢٧,٣٢ ١٤٢٣/٦٠١٧

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
إلا لمن أراد طبعه لتوزيعه مجاناً بعد مراجعة
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
رحمه الله تعالى

الطبعة الأولى
شوال ١٤٢٣

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية
الدمام ـ شارع ابن خلدون ـ ت: ٨٤٢٨١٤٦ ـ ٨٤٦٧٥٨٩ ـ ٨٤٦٧٥٩٣
ص.ب: ٢٩٨٢ ـ الرمز البريدي: ٣١٤٦١ ـ فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الإحساء ـ الهفوف ـ شارع الجامعة ـ ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة: ت: ٦٥١٦٥٤٩
الرياض: ت: ٤٢٦٦٣٣٩

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلَّم تسليماً كثيرا.

أما بعد:

فإن من توفيق الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يسَّر لفضيلة شيخنا محمد بن صالح العثيمين ـ تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه ـ تفسير سورة الكهف وذلك في الدورة العلمية التي عقدها في شهر ربيع الأول من عام ١٤١٩هـ بالجامع الكبير في مدينة عنيزة.

وقد قام الدكتور صالح الصالح ـ عضو هيئة التدريس بجامعة الملك سعود ـ فرع القصيم ـ بنسخ أشرطة تفسير هذه السورة، وعرضها على فضيلة شيخنا، فراجع منها ـ رحمه الله تعالى ـ ستة دروس، وحررها واعتمدها، وبقي درس واحد وهو الأخير من قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ إلى آخر السورة.

ومن أجل إتمام الفائدة، واصل الدكتور صالح الصالح جهده المشكور ـ جزاه الله خيراً ـ فأكمل تفريغ محتوى الدرس الأخير المسجل، وألحقه ببقية المادة المحررة، وخرَّج أحاديث

الكتاب، وقد عاونه على ذلك العمل الأخ علي بن سالم باوزير ـ جزاه الله خيراً ـ وهو أحد طلاب فضيلة شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ، ثم باشرت اللجنة العلمية مراجعته للطباعة والنشر.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، موافقاً لمرضاته، نافعاً لعباده، وأن يجزي فضيلة شيخنا المؤلف عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ويضاعف له المثوبة والأجر، ويعلي درجته في المهديين إنه سميع قريب، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللجنة العلمية

في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد:

سورة الكهف مكيَّة واستثنى بعض المفسرين بعض الآيات: أولها (١ ـ ٨)، وآية رقم (٢٨) ومن (١٠٧ ـ ١١٠) على أنها مدنية، ولكن هذا الاستثناء يحتاج إلى دليل؛ لأن الأصل أن السُّور المكيَّة مكيَّةٌ كلها وأن المدنيَّة مدنيَّةٌ كُلُّها، فإذا رأيت استثناءً فلا بد من دليل.

والمَكِّي ما نزل قبل الهجرة والمدنِيُّ ما نزَل بعد الهجرة حتى وإن نزل بغير المدينة مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فقد نزلت بعرفة عام حجة الوداع.

❁ ❁ ❁

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ هو وصفُ المحمود بالكمال محبة وتعظيماً، وبقولنا محبةً وتعظيماً خرج المدح؛ لأن المدح لا يستلزم المحبة والتعظيم، بل قد يَمدح الإنسان شخصاً لا يساوي فلساً ولكن لرجاء منفعة أو دفع مضرة، أما الحمد فإنه وصف بالكمال مع المحبة والتعظيم.

﴿لِلَّهِ﴾ هذا اسمٌ عَلَمٌ على الله مُختَصٌّ به لا يوصف به غيره، وهو عَلَمٌ على الذات المقدَّسة تبارك وتعالى.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ جملة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾ هل هي خَبَرٌ، أراد الله سبحانه وتعالىٰ أن يُخبر عباده بأنه محمود، أو هي إنشاءٌ وتوجيهٌ على أنَّنا نحمدُ الله على هذا، أو الجميع؟

الجواب: الجميع، فهو خبرٌ من الله عن نفسه، وهو إرشادٌ لنا أن نَحمدَ الله عزّ وجل على ذلك.

﴿عَبْدِهِ﴾ يعني مُحَمَّداً ﷺ، وَصَفَهُ تعالى بالعبودية؛ لأنه أعبَدُ البَشَر لله عزّ وجل. وقد وصَفَه تعالى بالعبودية في حالات ثلاث:

١ ـ حالِ إنزال القرآن عليه كما في هذه الآية.

٢ ـ في حالِ الدفاع عنهُ ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣].

٣ ـ وفي حالِ الإسراءِ به، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١]، يعني في أشرف مقاماتِ النبي ﷺ وَصفهُ الله سبحانه وتعالىٰ بأنه عبدٌ، ونِعمَ الوصفُ أن يكون الإنسانُ عبداً لله، حتى قال العاشق في معشوقته:

لا تدعُني إلَّا بيا عَبدَها ... فإنه أشرف أسمائي

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن، سُمِّي كتاباً؛ لأنه يُكتب، أو لأنهُ

جامع، لأن الكَتْب بمعنى الجَمْع، ولهذا يقالُ: الكتيبةُ يعني المجموعةُ من الخيل، والقرآن صالح لهذا وهذا فهو مكتوبٌ وهو أيضاً جامع.

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ لم يجعل لهذا القرآن عوجاً بل هو مستقيم؛ ولهذا قال:

﴿قَيِّمًا﴾ وقيماً حال من قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني: حالَ كونه قَيِّماً. فإن قال قائل: «لماذا لم نجعلها صفة، لأن الكتابَ منصوبٌ وَقَيِّماً منصوب؟».

فالجواب: أن قيماً نَكِرة والكتاب معرفة ولا يمكن أن توصف المعرفة بالنَّكِرَة، ومعنى ﴿قَيِّمًا﴾ أي: مستقيماً غايةَ الاستقامة، وهنا ذَكَرَ نَفْيَ العيبِ أولاً ثم إثباتَ الكمال ثانياً. وهكذا ينبغي أن تُخلي المكان من الأذى ثم تَضع الكمال؛ ولهذا يقال: «التخلية قبل التحلية»، يعني قبل أن تُحلِّي الشيء أخلِ المكان عمَّا ينافي التحلي ثم حَلِّه، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمًا﴾. تنبيه. وهو أنه يجب الوقوف على قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ لأنك لو وصلت لصار في الكلام تناقضٌ، إذ يوهمُ أن المعنى لم يكن له عوج قَيِّم.

ثم بيَّن تعالى **الحكمة من إنْزال القرآن** في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

الضمير في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ يحتملُ أن يكون عائداً على ﴿عَبْدِهِ﴾ ويحتملُ أن يكون عائداً على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ وكلاهما صحيح، فالكتاب نَزل على الرسول ﷺ لأجل أن يُنذِر به، والكتاب نفسُه مُنذِر، ينذر الناس.

﴿بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي من قِبَلِ الله عزّ وجل، والبأس هو العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ [الأعراف: ٤]، يعني عذابنا، والإنذار: هو الإخبار بما يُخَوِّف.

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ التبشير: الإخبار بما يسر، وهنا نجد أنه حُذِف المَفعول في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ وذكر المفعول في قوله: ﴿وَيُبَشِّرُ﴾، فكيف نقدر المفعول بـ«ينذر»؟

الجواب: نُقدِّرُه في مقابل من يُبَشَّر وهم المؤمنون فيكون تقديره «الكافرين»، وهذه فائدة من فوائد علم التفسير: أنّ الشيء يعرَف بذكر قبيله المقابل له، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]. ﴿ثُبَاتٍ﴾: يعني «متفرقين» والدليل ذكر المقابل له: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يفيد أنه لا بدَّ مع الإيمان من العمل الصالح، فلا يكفي الإيمان وحده بل لا بد من عملٍ صالح.؛ ولهذا قيل لبعض السلف: «أليس مِفتاحُ الجنَّة **لا إله إلَّا الله؟**» يعني فمن أتى به فُتح له! قال: بلى، ولكن هل يفتحُ المفتاحُ بلا أسنان؟

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين آمنوا بما يجب الإيمان به، وقد بيَّن النبي ﷺ ما يجب الإيمان به لجبريل حين سأله عن الإيمان فقال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه**»[(١)].

---

(١) رواه مسلم: كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قَدَرِ الله سبحانه وتعالىٰ...، (٨)، (١).

﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يعني يعملون الأعمال الصالحات، ومتى يكون العمل صالحاً؟

الجواب: لا يمكن أن يكون صالحاً إلَّا إذا تضمن شيئين:

١ ـ **الإخلاص لله تعالى**: بألَّا يقصد الإنسان في عمله سوى وجه الله والدار الآخرة.

٢ ـ **المتابعة لشريعة الله**: ألّا يخرج عن شريعة الله عزّ وجل سواء شريعة محمد ﷺ أو غيره.

ومن المعلوم أن الشرائع بعد بِعثة الرسول ﷺ كلها منسوخة بشريعته ﷺ.

وضد الإخلاص: الشرك، والاتباع ضد الابتداع، **إذاً البدعة لا تقبل مهما ازدانت في قلب صاحبها ومهما كان فيها من الخشوع ومهما كان فيها من ترقيق القلب لأنها ليست موافقة للشريع**؛ ولهذا نقول: كُل بدعة مهما استحسنها مبتدعها فإنها غير مقبولة، بل هي ضلالة كما قاله النبي ﷺ، فمن عمل عملاً على وفق الشريعة ظاهراً لكن القلب فيه رياء فإنه لا يقبل لفقد الإخلاص، ومن عمل عملاً خالصاً على غير وفق الشريعة فإنه لا يقبل، إذاً لا بد من أمرين: إخلاصٍ لله عزّ وجل، واتباعٍ لرسول الله ﷺ وإلَّا لم يكن صالحاً، ثم بيَّن تعالى ما يُبَشَّر به المؤمنون فقال:

﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾ ﴿أَجۡرًا﴾ أي ثواباً، وسمى الله عزّ وجل ثواب الأعمال أجراً لأنها في مقابلة العمل، وهذا من عدله جلَّ وعلا أن يسمي الثواب الذي يثيب به الطائعَ أجراً حتى يطمئن الإنسان لضمان هذا الثواب؛ لأنه معروف أن الأجير إذا قام بعمله فإنه يستحق الأجر.

وقوله: ﴿حَسَنًا﴾ جاء في آية أخرى ما هو أعلى من هذا الوصف وهو قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وجاء في آية أخرى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠] فهل نأخذ بما يقتضي التساوي أو بما يقتضي الأكمل؟

الجواب: بما يقتضي الأكمل، فنقول: ﴿حَسَنًا﴾ أي هو أحسن شيء ولا شك في هذا، فإن ثواب الجنة لا يعادله ثواب.

وقوله: ﴿مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي باقين فيه أبداً، إلى ما لا نهاية، فلا مرض ولا موت ولا جوع ولا عطش ولا حر ولا برد، كل شيء كامل من جميع الوجوه.

واعلم أن من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الجنَّة موجودة الآن وأنها مؤبدة، وأن النار موجودة الآن وأنها مؤبدة، وقد جاء هذا في القرآن، فآيات التأبيد بالنسبة لأصحاب اليمين كثيرة، أما بالنسبة لأصحاب الشمال فقد ذُكر التأبيد في آيات ثلاث:

١ ـ في سورة النساء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [النساء: ١٦٨ ـ ١٦٩].

٢ ـ في سورة الأحزاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ [الأحزاب: ٦٤ ـ ٦٥].

٣ ـ في سورة الجن في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

وإذا كانت ثلاثُ آيات من كتاب الله عزّ وجل صريحة في التأبيد فلا ينبغي أن يكون هناك خلاف، كما قيل:

وليس كل خلاف جاء معتبراً إلَّا خلافاً له حظٌّ من النَّظرِ

وما ذكر من الخلاف في أبدية النار لا حظَّ له، كيف يقول الخالق العليم: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ ثم يقال: لا أبدية؟ هذا غريب، من أغرب ما يكون، فانتبهوا للقاعدة في مذهب أهل السنّة والجماعة: أن الجنَّة والنار مخلوقتان الآن لأن الله ذكر في الجنة ﴿أُعِدَّتْ﴾ وفي النار ﴿أُعِدَّتْ﴾. وثانياً: أنهما مؤبدتان لا تفنَيان لا هما ولا من فيهما كما سمعتم.

❁ ❁ ❁

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ كالإيضاح لما أبهم في الآية السابقة، فيه إنذار لمثل النصارى الذين قالوا: إن المسيح ابن الله، ولليهود الذين قالوا: العُزير ابن الله، وللمشركين الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله.

والعزير ليس بنبي ولكنه رجل صالح.

﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بالولد أو بالقول، ﴿مَا لَهُم بِهِۦ﴾ أي بهذا القول، أو ﴿مَا لَهُم بِهِۦ﴾ أي بالولد ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ فإذا انتفى العلم ما بقي إلَّا الجهل.

﴿وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ الذين قالوا مثل قولهم، ليس لهم في ذلك علم، ليسَ هناك إلّا أوهام ظنوها حقائق وهي ليست علوماً.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ قد يُشكل على طالب العلم نَصْبُ ﴿كَلِمَةً﴾.

والجواب: ﴿كَلِمَةً﴾ تمييز والفاعل محذوف والتقدير «كبرت مقالتهم كلمةً» تخرج من أفواههم: أي عَظُمت لأنها عظيمة والعياذ بالله، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٠ ـ ٩٣]. يعني: مستحيل غاية الاستحالة أن يكون له ولد.

فإن قال قائل: «أليس الله يقول: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: ٨١]».

الجواب: نعم. ولكن التعليق بالشرط لا يدل على إمكان المشروط، لأننا نفهم من آيات أخرى أنه لا يمكن أن يكون وهذا كقوله تعالى للرسول ﷺ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] وهو ﷺ لا يمكن أن يَشك، ولكن على فرض الأمر الذي لا يقع، كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢]. فإنه لا يمكن أن يكون فيهما آلهة سوى الله عزّ وجل، فتبين بهذا أن التعليق بالشرط لا يدل على إمكان المشروط، بل قد يكون مستحيلاً غاية الاستحالة.

قوله: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ هل لنا أن نستفيد من قوله: ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أن هؤلاء يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم وأنهم لا

يستيقنون أن لله ولداً؛ لأن أي عاقل لا يمكن أن يقول إن لله ولداً، فكيف يمكن أن يكون لله ولدٌ، وهذا الولد من البشر نراه مثلنا يأكل ويشرب ويلبس، ويلحقه الجوع والعطش والحر والبرد، كيف يكون ولدٌ لله تعالى؟ هذا غير ممكن؛ ولذلك قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ «إن» بمعنى «ما» ومن علامات «إن» النافية أن يقع بعدها «إلَّا» ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [فاطر: ٢٣]، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي ما يقول هؤلاء إلَّا كذباً. **والكذب**: هو الخبر المخالف للواقع، **والصدق**: هو الخبر المطابق للواقع، فإذا قال قائل: «قدِم فلانٌ اليوم» وهو لم يَقدُم، فهذا كذب سَواءٌ علم أم لم يعلم، ودليل ذلك قصة **سُبَيْعةَ الأسلمِيَّةِ** رضي الله عنها حينما مات عنها زوجها وهي حامل فوضعت بعد موته بليالٍ ثم خلعت ثياب الحداد، ولبست الثياب الجميلة تريد أن تُخطَب، فدخل عليها أبو السنابل فقال لها: «ما أنت بناكح حتى يأتي عليك أربعةُ أشهر وعشر»، لأنها وضعت بعد موت زوجها بنحو أربعين ليلة أو أقل أو أكثر، فلبست ثياب الإحداد ثم أتت إلى الرسول ﷺ وأخبرته بالخبر فقال لها: «**كذب أبو السنابل**»[1]، مع أن الرجل ما تعمد الكذب، يظن أنها تعتدُ بأطول الأجلين، فإن بقيت حاملاً بعد أربعةِ أشهر وعشر بقيت في الإحداد حتى تضع، وإن وضعت قبل أربعة أشهر وعشر بقيت في الإحداد حتى تتم لها أربعةُ أشهر وعشر، تعتد أطول الأجلين،

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤٢٧٣) وغيره وأصله في الصحيحين.

ولكن السنَّة بينت أن الحامل عِدَّتُها وضع الحمل ولو دون أربعةِ أشهر، فالشاهد أن النبي ﷺ أطلق على قول أبي السنابل «كَذب» مع أنه لم يتعمد.

❁ ❁ ❁

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ الخِطاب للرسول ﷺ ﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ مهلكٌ نفسَك، لأنه كان ﷺ إذا لم يجيبوه حَزِنَ حَزناً شديداً، وضاق صدره حتى يكادَ يَهلك، فسلَّاه الله عزّ وجل وبيّن له أنه ليس عليه من عدم استجابتهم من شيء، وإنما عليه البلاغ وقد بلَّغ.

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي باتباع آثارهم، لعلَّهم يرجعون بعد عدم إجابتهم وإعراضهم.

﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي إن لم يؤمنوا بهذا القرآن.

﴿أَسَفًا﴾ مفعول من أجله، العامل فيه: ﴿بَٰخِعٌ﴾ المعنى أنه لعلك باخع نفسك من الأسف إذا لم يؤمنوا بهذا مع أن الرسول ﷺ ليس عليه من عدم استجابتهم من شيء، ومهمة الرسول ﷺ البلاغ. قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وهكذا ورثته من بعده: العلماء، وظيفتهم البلاغ وأما الهداية فبيد الله، ومن المعلوم أن الإنسان المؤمن يحزن إذا لم يستجبِ الناس للحق، لكنَّ الحازنَ إذا لم يقبل الناس الحق على نوعين:

١ ـ نوع يحزن لأنه لم يُقبل.

٢ ـ ونوع يحزن لأن الحق لم يُقبل.

والثاني هو الممدوح لأن الأول إذا دعا فإنما يدعو لنفسه، والثاني إذا دعا فإنما يدعو إلى الله عزّ وجل، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥].

لكن إذا قال الإنسان أنا أحزن؛ لأنه لم يُقبل قولي؛ لأنه الحق ولذلك لو تبين لي الحق على خلاف قولي أخذت به فهل يكون محموداً أو يكونُ غير محمود؟

الجواب: يكون محموداً لكنه ليس كالآخرَ الذي ليس له همٌّ إلَّا قَبول الحق سَواء جاء من قِبَله أو جاء من قبل غيره.

❁ ❁ ❁

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾.

إذا تأملت القرآن تجد أنه غالباً يقدم الشرع على الخلق، قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٣]، وتأمل الآيات في هذا المعنى تجد أن الله يبدأ بالشرائع قبل ذكر الخلق وما يتعلق به؛ لأن المخلوقات إنما سُخِّرت للقيام بطاعة الله عزّ وجل، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال عزّ وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] إذاً المهم القيام بطاعة الله عزّ وجل، وتأمل هذه النكتة حتى يتبين لك أن أصل الدنيا وإيجاد الدنيا، إنما هو للقيام بشريعة الله عزّ وجل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ أي صَيَّرنا، وجعل تأتي بمعنى: خلق وبمعنى صيَّر، فإن تعدَّت لمفعولٍ واحدٍ فإنها بمعنى «خلق»، مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وإن تعدَّت لمفعولين فهي بمعنى صَيَّر، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]: أي صيَّرناه بلغة العرب،

وإنما نبَّهتُ على ذلك؛ لأن الجهمية يقولون: إنَّ الجعلَ بمعنى الخلق في جميع المواضع، ويقولون: معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾: أي خلقناه، ولكن هذا غلط على اللغة العربية.

﴿جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ هنا جعل بمعنى صَيَّر فالمفعول الأول «ما» والمفعول الثاني «زينة» أي أنَّ ما على الأرض جعله الله زينة للأرض وذلك لاختبار الناس. هل يتعلقون بهذه الزينة أم يتعلقون بالخالق؟ الناس ينقسمون إلى قسمين، منهم من يتعلق بالزينة ومنهم من يتعلق بالخالق، واسمع إلى قوله تعالى مبيناً هذا الأمر.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

إذاً جعل الله الزينة لاختبار العباد، سَواءٌ أكانت هذه الزينة فيما خلقه الله عزّ وجل وأوجده، أم مما صنعه الآدمي، فالقصور الفخمة المزخرفة زينة ولا شك، ولكنها من صنع الآدمي،

والأرض بجبالها وأنهارها ونباتها وإذا أنزل الله الماء عليها اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، هذه زينة من عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ أي نختبرهم.

وقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الضمير يعود للخلق، وتأمل قوله تعالى: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل: «أكثر عملاً»؛ **لأن العبرة بالأحسن لا بالأكثر**، وعلى هذا لو صلى الإنسان أربع ركعات لكنْ على يقين ضعيف أو على إخلال باتباع الشرع، وصلى آخر ركعتين بيقين قوي ومتابعةٍ قوية فأيهما أحسن؟ الثاني؛ بلا شك أحسن وأفضل، لأن العبرة بإحسان العمل وإتقانه إخلاصاً ومتابعة.

في بعض العبادات الأفضل التخفيف كركعتي الفجر مثلاً، لو قال إنسان: أنا أحب أن أطيل فيها في قراءة القرآن وفي الركوع والسجود والقيام، وآخر قال: أنا أريد أن أخفف، فالثاني أفضل؛ ولهذا ينبغي لنا إذا رأينا عامِّيًّا يطيل في ركعتي الفجر أن نسأله: «هل هاتان الركعتان ركعتا الفجر أو تحية المسجد؟». فإن كانت تحية المسجد فشأنه، وإن كانت ركعتي الفجر قلنا: لا، الأفضل أن تخفف، وفي الصيام رخَّص ﷺ لأمته أن يواصلوا إلى السَّحَر، وندبهم إلى أن يفطروا من حين غروب الشمس، فصام رجلان أحدهما امتد صومه إلى السحور والثاني أفطر من حين غابت الشمس، فأيهما أفضل؟ الثاني أفضل بلا شك، والأول وإن كان لا ينهى عنه فإنه جائز ولكنه غير مشروع، فانتبه لهذا ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولذلك تجد النبي ﷺ يفعل من العبادات ما

كان أحسن: يحث على اتباع الجنائز وتمر به الجنائز ولا يتبعها، يحث على أن نصوم يوماً ونُفطِر يوماً ومع ذلك هو لا يفعل هذا، بل كان أحياناً يطيل الصوم حتى يقال: لا يفطر، وبالعكس يفطر حتى يقال: لا يصوم، كل هذا يتبع ما كان أرضى لله عزّ وجل وأصلح لقلبه.

❁ ❁ ❁

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿صَعِيدًا﴾ هذه الأرض بزينتها، بقصورها وأشجارها ونباتها، سوف يجعلها الله تعالى ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي خالياً، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ [طه: ١٠٥]، أي نسفاً عظيماً ولهذا جاء مُنكَّراً: أي نسفاً عظيماً، قال تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٦ ـ ١٠٧] وبلحظة: كن فيكون! إذاً هذه الأرض يا أخي لا يَتعلَّق قلبك بها فهي زائلة، هي ستصير كأن لم تكن كما قال عزّ وجل: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

وتأمل الجملة الآن: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ﴾ فيها مُؤكِّدان، «إنَّ» و«اللام»، ثم إنها جاءت بالجملة الإسمية الدالة على القدرة المستمرة، إذا قامت القيامة أين القصور؟ لا قصور، لا جبال، لا أشجار، الأرض كأنها حجر واحد أملس، ما فيها نبات ولا بناء ولا أشجار ولا غير ذلك، سيحولها الله تعالى ﴿جُرُزًا﴾ خالية من زينتها التي كانت عليها.

❁ ❁ ❁

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ «أم» هنا منقطعة، فهي بمعنى «بل»، و﴿حَسِبْتَ﴾ بمعنى ظننتَ، هنا أتى بـ«أم» المنقطعة التي تتضمن الاستفهام من أجل شد النَّفس إلى الاستماع إلى القصة لأنها حقيقة عَجب، هذه القصة عجب.

﴿ٱلْكَهْفِ﴾ الغار في الجبل.

﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ بمعنى المرقوم: أي المكتوب لأنه كتب في حجر على هذا الكهف قصتُهم من أولها إلى آخرها.

﴿كَانُوا۟﴾ أي أصحاب الكهف والرقيم.

﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ من آيات الله الكونية.

﴿عَجَبًا﴾ أي محل تعجُّب واستغراب لأن هؤلاء سبعةٌ معهم كلب كرهوا ما عليه أهل بلدهم من الشرك فخرجوا متَّجهين إلى الله يريدون أن ينجوا بأنفسهم مما كان عليه أهل بلدهم، فلجأوا إلى هذا الغار، وكان من حسن حظهم أن هذا الغار له باب لا يتَّجه للمشرق ولا للمغرب، سبحان الله! توفيق؛ لأنه لو اتجه إلى المشرق لأكلتهم الشمس عند الشروق، ولو اتجه إلى المغرب لأكلتهم عند الغروب. كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [الكهف: ١٧] وسيأتينا إن شاء الله تعالى.

❁ ❁ ❁

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾ من هنا بدأت القصة، وعلى هذا يكون ﴿إِذْ أَوَى﴾ متعلق بمحذوف تقديره: «اذكر إذ أوى الفتية» وكان كفار قريش قد سألوا النبي ﷺ عن قصتهم وهو عليه الصلاة والسلام لم يقرأ الكتب، قال تعالى عنه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨]. فوعدهم فأنجز الله له الوعد.

و﴿ٱلْفِتْيَةُ﴾ جمع فتى، وهو الشاب الكامل القوة والعزيمة.

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أي لجأوا إليه من قومهم فارين منهم خوفاً أن يصيبهم ما أصاب قومهم من الشرك والكفر بالبعث، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ لجأوا إلى الله.

﴿ءَاتِنَا﴾ أعطنا.

﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أي من عندك.

﴿رَحْمَةً﴾ أي رحمة ترحمنا بها، وهذا كقول الرسول ﷺ لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ حين قال أبو بكر لِلنَّبِيِّ ﷺ: عَلِّمْنِي دُعاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلاتِي قَالَ: قُلِ «**اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»[1].

---

(١) متفق عليه. البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، (٨٣٤). مسلم: كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر، (٢٧٠٥)، (٤٨).

﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، ﴿وَهَيِّئْ﴾ اجعل لنا، وتهيئة الشيء أن يُعد ليكون صالحاً للعمل به.

﴿مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ الرشد: ضد الغيّ، أي اجعل شأننا موافقاً للصواب.

❁ ❁ ❁

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي أنمناهم نومة عميقة. والنوم نوعان:

١ ـ **خفيف**: وهذا لا يمنع السماع ولهذا إذا نمت فأول ما يأتيك النوم تسمع مَن حولك.

٢ ـ **عميق**: إذا نمت النوم العميق لا تسمع مَن حولك.

ولهذا قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي بحيث لا يسمعون.

﴿فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي معدودة، وسيأتي بيانها في قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: ٢٥].

❁ ❁ ❁

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ وذلك بإيقاظهم من النوم. وسمى الله الاستيقاظ من النوم بعثاً لأن النوم وفاةٌ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى

لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢] فالنوم وفاة.

وقوله: ﴿بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ﴾، قد يقع فيه إشكال؟ هو: هل الله عزّ وجل لا يعلم قبل ذلك؟

الجواب: لا، واعلم أن هذه العبارة يراد بها شيئان:

١ ـ علم رؤية وظهور ومشاهدة، أي لنرى، ومعلوم أن علم ما سيكون ليس كعلم ما كان؛ لأن علم الله عزّ وجل بالشيء قبل وقوعه علمٌ بأنه سيقع، ولكن بعد وقوعه علمٌ بأنه وقع.

٢ ـ أن العلم الذي يترتب عليه الجزاء هو المراد، أي لنعلم علماً يترتب عليه الجزاء وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد: ٣١]. قبل أن يبتلينا قد علم من هو المطيع ومن هو العاصي، ولكن هذا لا يترتب عليه لا الجزاء ولا الثواب، فصار المعنى لنعلم علم ظهور ومشاهدة وليس علم الظهور والمشاهدة كعلم ما سيكون، والثاني علماً يترتب عليه الجزاء.

أما تحقق وقوع المعلوم بالنسبة لله فلا فرق بين ما علم أنه يقع وما علم أنه وقع، كلٌّ سواء، وأما بالنسبة لنا صحيح أنَّا نعلم ما سيقع في خبر الصادق لكن ليس علمنا بذلك كعلمنا به إذا شاهدناه بأعيننا، ولذلك جاء في الحديث الصحيح: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٤٤٧) وغيره وصححه الألباني (الطحاوية، ٤٠١).

﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ قوله: ﴿ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ يعني الطائفتين.

وقوله: ﴿أَحْصَىٰ﴾ يعني أبلغ إحصاءً، وليست فعلاً ماضياً بل اسم تفضيل فصار المعنى: أي الحزبين أضبط لما لبثوا أمداً، أي: المدة التي لبثوها؛ لأنهم تنازعوا أمرهم فقالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]. وقال آخرون: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩]. ثم الناس من بعدهم اختلفوا كم لبثوا.

❁ ❁ ❁

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾.

نِعمَ القائل صدقاً وعلماً وبياناً وإيضاحاً؛ لأن **كلام الله تبارك وتعالى متضمن للعلم والصدق والفصاحة والإرادة، أربعة أشياء.** كلامه عزّ وجل عن علم وكلامه أيضاً عن صدق، وكلامه في غاية الفصاحة وإرادته في هذا الكلام خير إرادة، يريد بما يتكلم به أن يهدي عباده.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ قصُّ الله عزّ وجل أكمل القصص وأحسن القصص؛ لأنه صادر عن:

١ ـ علم.

٢ ـ عن صدق.

٣ ـ صادر بأفصح عبارة وأبينها وأوضحها ولا كلامَ أوضح من كلام الله إلَّا من أضل الله قلبه، وقال: هذا أساطير الأولين.

٤ ـ وبأحسن إرادة لم يرد الله تعالى بما يقص علينا أن نضل ولا بما حكم علينا أن نجور، بل أراد أن نهتدي ونقوم بالعدل.

وقوله: ﴿نَّحْنُ﴾ إذا قال قائل أليس الله واحداً؟

فالجواب: نعم واحد لا شك، لكن لا شك أنه جلَّ وعلا أعظم العظماء، والأسلوب العربي إذا أسند الواحدُ إلى نفسه صيغة الجمع فهو يعني أنه عظيم، ومعلوم أنه لا أحد أعظم من الله تعالى؛ ولهذا تجد الملوك أو الرؤساء إذا أرادوا أن يُصدروا المراسم يقولون: «نحن فلان بن فلان نأمر بكذا وكذا». إذاً كل ضمائر الجمع المنسوبة إلى الله تعالى المراد بها التعظيم.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي نقرأه عليك ونحدثك به ﴿نَبَأَهُم﴾ أي خبرهم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالصدق المطابق للواقع.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ فتية شباب ولكن عندهم قوة العزيمة وقوة البدن وقوة الإيمان.

﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ زادهم الله عزّ وجل هدى لأن الله تعالى يزيد الذين يهتدون هدى، وكلما ازددت عملاً بعلمك زادك الله هدى أي زادك الله علماً.

❁ ❁ ❁

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي ثبتناها وقويناها وجعلنا لها رِباطاً، لأن جميع قومهم على ضدهم، ومخالفة القوم تحتاج إلى تثبيت لا سيما أنهم شباب والشاب ربما يؤثر فيه أبوه ويقول له «اكفر»، ولكن الله ربط على قلوبهم فثبتهم، اللهم ثبتنا يا رب.

﴿إِذْ قَامُوا۟﴾ يعني في قومهم معلنين بالتوحيد متبرئين مما كان عليه هؤلاء الأقوام. ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وليس

رب فلان وفلان بل هو رب السمٰوات والأرض فهو سبحانه وتعالىٰ مالك وخالق ومدبِّر السمٰوات والأرض. لأن الرَّب الذي هو اسم من أسماء الله معناه الخالق المالك المدبر ولم يبالوا بأحد فهم كسحرة فرعون: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ [طـــه: ٧٢]. والدنيا كلها قاضية منتهية طالت بك أم قصرت، ولا بد لكل إنسان من أحد أمرين: إما الهَرَم وإما الموت، ونهاية الهرم الموت أيضاً؛ ولهذا يقول الشاعر:

لا طِيب للعيش ما دامت مُنغَّصةً لذَّاتُه بادِّكار الموت والهرم

الإنسان كلما تذكر أنه سيموت طالت حياته أم قصرت فإنه لا يطيب العيش له، ولكن من نعمة الله عزّ وجل أن الناس ينسَون هذا الأمر، ولكنَّ هؤلاء الناسين منهم من ينسى هذا الأمر باشتغاله بطاعة الله، ومنهم من ينساه بانشغاله بالدنيا.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ السمٰواتِ السبعِ والأرضُ كذلك سبعٌ كما جاءت بذلك النصوص، ولا حاجة لذكرها؛ لأنها معلومة والحمد لله.

﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ لن ندعو دعاء مسألة ولا دعاء عبادة إلهاً سواه، فأقروا بالربوبيَّة وأقرُّوا بالألوهية، الربوبية قالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والألوهية قالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ أي سواه.

﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ الجملة هذه مؤكدة بثلاثة مؤكدات وهي: «اللام» و«قد» و«القسم الذي دلَّت عليه اللام».

وقوله: ﴿إِذًا﴾ أي لو دعونا إلهاً سواه ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾

أي: قولاً مائلاً وموغلاً بالكفر، وصدقوا، لو أنهم دعوا غير الله إلهاً لقالوا هذا القول المائل الموغل بالكفر والعياذ بالله.

❁ ❁ ❁

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ﴾ يشيرون إلى وجهة نظرهم في انعزالهم عن قومهم، قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ﴾ أي صيَّروا آلهة من دون الله، عبدوها من دون الله.

﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ﴾ يعني هلَّا ﴿يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم﴾ أي على هذه الآلهة، أي: على كونها آلهة وكونهم يعبدونها. فالمطلوب منهم شيئان:

١ ـ أن يثبتوا أن هذه آلهة.

٢ ـ أن يثبتوا أن عبادتَهم لها حق، وكلا الأمرين مستحيل.

﴿بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ﴾ السلطان كلُّ ما للإنسان به سُلطة، قد يكون المراد به الدليل مثل قوله تعالى: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾ [يونس: ٦٨]، وقد يكون المراد به القوة والغلبة مثل قوله تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ١٠٠] وقد يكون الحجة والبرهان كمافي قوله تعالى: ﴿بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ﴾ أي بحجة ظاهرة يكون لهم بها سُلطة؛ ولهذا قالوا:

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ الفاء للتفريع، مَن: استفهام بمعنى النفي، أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، واعلم أن الاستفهام إذا ضُمِّن معنى النفي صار فيه زيادة

فائدة، وهي أنه يكون مُشْرَباً معنى التحدي لأن النفي المجرد لا يدل على التحدي، لو قلت: «ما قام زيد»، ما فيه تحدي، لكن لو قلت: «من أظلم ممن افترى على الله كذباً» فهذا تحدي، كأنك تقول: أخبرني أو أوجد لي أحداً أظلم ممن افترى على الله كذباً.

فقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي من أشد ظلماً ممن افترى على الله كذباً في نسبة الشريك إليه وغير ذلك، كل من افترى على الله كذباً فلا أحد أظلم منه، أنت لو كذبت على شخص لكان هذا ظلماً، وعلى شخص أعلى منه لكان هذا ظلماً أعلى من الأول، فإذا افتريت كذباً على اللهِ صار لا ظلم فوق هذا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، فإن قال قائل: «نجد أن الله تعالى يقول: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ويقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]. وأظلم تدل على اسم التفضيل، فكيف الجمع؟». نقول: إن الجمع هو أنها اسم تفضيل في نفس المعنى الذي وردت به، فمثلاً: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾: أي لا أحد أظلم منعاً ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وفي الكذب، أي الكذب أظلم؟ الكذب على الله، فتكون الأظلمية هنا بالنسبة للمعنى الذي سيقت فيه، ليست أظلمية مطلقة لأنها لو كانت أظلمية مُطلَقاً لكان فيه نوع من التناقض، لكن لو قال قائل: «ألا يمكن أن تقول إنها اشتركت في الأظلمية؟ يعني هذا أظلم شيء وهذه أظلم شيء»؟.

فالجواب: لا يمكن، لأنه لا يمكن أن تقرن بين من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وبين من افترى على الله كذباً،

فإن الثاني أعظم، فلا يمكن أن يشتركا في الأظلمية، وحينئذٍ يتعين المعنى الأول، أن تكون الأظلمية بالنسبة للمعنى الذي سيقت فيه.

❁ ❁ ❁

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ هذا من قول الفتية، يعني: قال بعضهم لبعض: ما دمتم اعتزلتم قومكم وما يعبدون إلَّا الله.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يحتمل أن تكون استثناء من قوله: ﴿يَعْبُدُونَ﴾ وعلى هذا يكون هؤلاء القوم يعبدون الله ويعبدون غيره، والفتية اعتزلوهم وما يعبدون إلَّا الله، ويحتمل أن تكون «إلَّا» منقطعة فيكون المعنى أن هؤلاء القوم لا يعبدون الله. ويكون المعنى: «وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون مطلقاً» ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي لكنِ الله لم تعتزلوه ولكنكم آمنتم به، ويحتمل أن تكون استثناء متصلاً على سبيل الاحتياط، يعني: أن هؤلاء الفتية قالوا: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يخشون أن يكون أحد من أقوامهم يعبد الله. و«ال» في الكهف تحتمل أن تكون للعهد، وكأنه كهف ألفوا أن يأووا، إليه أو أن المراد بها الكمال، أي إلى الكهف الكامل الذي يمنعكم من قومكم، أما الأول فيحتاج إلى دليل أن هؤلاء الفتية كانوا يذهبون إلى كهف معين يأوون فيه، وأما الثاني فوجهه أنه إنما يطلبون كهفاً يمنعهم ويحميهم فتكون «ال» لبيان الكمال، أي إلى كهف يمنعكم ويحميكم من عدوكم.

﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ يعني أنكم إذا فعلتم ذلك فإن الله سييسر لكم الأمر؛ لأن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، وهنا سؤال في قوله: ﴿فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ الفاء، يتبادر للذهن أنها في جواب الشرط، والمعروف أن «إذ» ليست للشرط وإنما الذي للشرط هو «إذا» أو «إذ» إذا اقترنت بـ«ما»، فإذا لم تقترن بـ«ما» فليست للشرط؟

والجواب عن ذلك أن يقال: إما أنها ضُمِّنت معنى الشرط فجاءت الفاء في جوابها ﴿فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أو أن «الفاء» للتفريع وليست واقعة في جواب الشرط، والمعنى: فحينئذ ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ فأووا إلى الكهف.

﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾: أي يهيّئ لكم من شأنكم ﴿مِّرْفَقًا﴾ أي مكاناً ترتفقون به.

❁ ❁ ❁

﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ في قوله: ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ قراءتان ﴿تَزَّاور﴾ بتشديد الزاي وأصلها تَتَزاور، و﴿تزَاور﴾ بتخفيف الزاي، والمراد بذلك أنها تميل: ﴿عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ تصور كيف يكون الكهف الآن إذا كانت تزاور عنه ذات اليمين؟ يكون وجه الكهف إلى الشمال.

ولهذا قال بعضهم: إن وجه الكهف إلى «بنات نعش» النجوم المعروفة في السماء، يعرفها أهل البر.

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ تكون على شمال الغار.

وقوله: ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ قيل: المعنى تتركهم وقيل: تصيب منهم، وهو الأقرب أنها تصيب منهم، وفائدة هذه الإصابة أن تمنع أجسامَهم من التغيُّر لأن الشمس كما يقول الناس: إنها صحة وفائدة للأجسام.

﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ الضمير يعود على هؤلاء الفتية، هذه الفجوة يعني الشيء الداخل، يعني ليسوا على باب الكهف مباشرة، بل في مكان داخل، لأن ذلك أحفظ لهم.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾ ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ دليل على أن الشمس هي التي تتحرك وهي التي بتحركها يكون الطلوع والغروب خلافاً لما يقوله الناس اليوم من أن الذي يدور هو الأرض، وأما الشمس فهي ثابتة، فنحن لدينا شيء من كلام الله، الواجب علينا أن نجريه على ظاهره وألا نتزحزح عن هذا الظاهر إلَّا بدليل بَيِّن، فإذا ثبت لدينا بالدليل القاطع أن اختلاف الليل والنهار بسبب دوران الأرض فحينئذ يجب أن نؤول الآيات إلى المعنى المطابق للواقع، فنقول: إذا طلعت في رأي العين وإذا غربت في رأي العين، تزاور في رأي العين، تقرض في رأي العين، أما قبل أن يتبين لنا بالدليل القاطع أن الشمس ثابتة والأرض هي التي تدور وبدورانها يختلف الليل والنهار فإننا لا نقبل هذا أبداً، علينا أن نقول: إنَّ الشمس هي التي بدورانها

يكون الليل والنهار، لأن الله أضاف الأفعال إليها والنبي ﷺ حينما غربت الشمس قال لأبي ذر: «**أتدري أين تذهب؟**»[١] فأسند الذَّهاب إليها، ونحن نعلم علم اليقين أن الله تعالى أعلم بخلقه ولا نقبل حدْساً ولا ظناً، ولكن لو تيقنا يقيناً أن الشمس ثابتة في مكانها وأن الأرض تدور حولها، ويكون الليل والنهار، فحينئذ تأويل الآيات واجب حتى لا يخالف القرآن الشيء المقطوع به.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الضمير يعود على حال هؤلاء الفتية:

١ ـ خروجهم من قومهم.

٢ ـ إيواؤهم لهذا الغار.

٣ ـ تيسير الله عزّ وجل لهم غاراً مناسباً.

لا شك أن هذا من آيات الله الدالة على حكمته ورحمته عزّ وجل، هل نعتبر أن هذا كرامة؟

الجواب: نعم نعتبره كرامة ولا شك.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ ﴿مَن يَهْدِ﴾ «**من**» شرطية والدليل على أنها شرطية حذف

---

(١) قال النبي ﷺ لأبي ذَرٍّ حينَ غَرَبَت الشمس: **أتدري أين تذهب؟** قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنها تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلَا يُقْبَلَ مِنْهَا وَتَسْتَأْذِنَ فَلَا يُؤْذَنَ لَهَا، يُقَالُ لَهَا ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَطْلُعُ مِنْ مُغْرِبِهَا فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾**». البخاري: كتاب: بدء الخلق، باب: صفة الشمس والقمر، (٣١٩٩).

الياء مِن يهدي، والجواب: «**فهو المهتدِ**» و«المهتد» أصلها «المهتدي» بالياء لكن حذفت الياء تخفيفاً كما حذفت في قوله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي يُقدِّر أن يكون ضالاً.

﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ أي من يتولاه ويرشده إلى الصواب، وفي هذا الخبر من الله تنبيه إلى أننا لا نسألُ الهداية إلَّا من الله، وأننا لا نجزع إذا رأينا من هو ضال لأن الإضلال بيد الله، فنحن نؤمن بالقدر ولا نَسخطُ الإضلال الواقع من الله لكن يجب علينا أن نُرشد هؤلاء الضالين، فهنا شرع وقدَر، القدر يجب عليك أن ترضى به على كل حال، والمقدور فيه تفصيل. والمشروع يجب أن ترضى به على كل حال، فنحن نرضى أن الله جعل الناس على قسمين مهتد وضال، ولكن يجب علينا مع ذلك أن نسعى في هداية الخلق.

❁ ❁ ❁

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ أيها الرائي: إذا رأيتهم ﴿أَيْقَاظًا﴾ لأنه ليس عليهم علامة النوم، فالنائم يكون مسترخياً، وهؤلاء كأنهم أيقاظ، ولذلك يُفرِّق الإنسان بين رجل نائم ورجل مضطجع لمَّا يراه، حتى لو أن المضطجع أراد أن يتناوم ويخدع صاحبه لعرف أنه ليس بنائم.

﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ جمع راقد.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ يعني مرة يكونوا على اليمين ومرة على الشمال، ولم يذكر الله الظهر ولا البطن، لأن النوم على اليمين وعلى الشمال هو الأكمل.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ فيه دليل على أن فعل النائم لا ينسب إليه، ووجه الدلالة أن الله أضاف تقلبهم إليه، فلو أنّ النائم قال في نومه: «امرأتي طالق» أو «في ذمتي لفلان ألف ريال» لم يثبت لأنه لا قصد له ولا إرادة له؛ لا في القول؛ ولا في الفعل، والحكمة من تقليبهم ذات اليمين وذات الشمال: بعض العلماء قال لئلَّا تأكل الأرض الجانب الذي يكون ملاصقاً لها، ولكن الصحيح أن الحكمة ليست هذه، الحكمة من أجل توازن الدم في الجسد لأن الدم يسير في الجسد، فإذا كان في جانب واحد أوشك أن ينحَرِم منه الجانب الأعلى، ولكن الله بحكمته جعلهم يتقلبون.

قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ يعني كأنه، والله أعلم، لم ينم.

﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ أي جالس على بطنه وقد مدَّ ذراعيه.

﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾ وهو فتحة الكهف أو فِناء الكهف يعني: إما أن يكون على الفتحة، وإما أن يكون إلى جنب الكهف في فِنائه ليحرسهم، وفي هذا دليل على جواز اتخاذ الكلب للحراسة، حراسة الآدميين، أما حراسة الماشية فقد جاءت به السنّة، وحراسة الحرث جاءت به السنة كذلك[1]. حراسة الآدمي من

---

(١) عن أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ أَمْسَكَ كَلْباً يَنْقُصُ مِنْ عَمَلِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ إِلَّا كَلْبَ حَرْثٍ أَوْ كَلْبَ مَاشِيَةٍ**». متفق عليه. البخاري: كتاب: الحرث والمزارعة، باب: اقتناء الكلب =

باب أولى لأنه إذا جاز اتخاذ الكلب لحراسة الماشية والحرث أو للصيد الذي هو كمال فاتخاذه لحراسة البيت من باب أولى.

قال الله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي لو اطَّلعت أيها الرائي عليهم لولَّيت منهم فراراً، رهبة ينْزِلها الله عزّ وجل في قلب من يراهم، حتى لا يحاول أحد أن يدنو منهم، ولهذا قال: ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ مع أنهم لم يلحقوه، لكنه خائف منهم.

﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ ملئت: لم يُملأ قلبُه فقط، بل كلُّه، وهذا يدل على شدة الخوف الذي يحصل لمن رآهم.

❁ ❁ ❁

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ أي كما فعلنا بهم من هذه العناية من تيسير الكهف لهم، وإنامتهم هذه المدة الطويلة، بعثهم الله، أي مثل هذا الفعل بعثناهم، فعلنا بهم فعلاً آخر، ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ كما جرت به العادة أن الناس إذا

= للحرث، (٢٣٢٢). مسلم: كتاب المساقاة، باب: الأمر بقتل الكلاب، وبيان نسفه، وبيان تحريم اقتنائها إلا لصيد أو زرع أو ما شبه ونحو ذلك، (١٥٧٥)، (٥٩). وورد في الصحيحين أيضاً: «أو كَلْبَ صَيْد». انظر المصدرين السابقين. م(٥٨).

ناموا يتساءلون إذا قاموا، من الناس من يقول: ماذا رأيت في منامك ومن الناس من يقول: لعلَّ نومك لذيذ أو ما أشبه ذلك ﴿بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ﴾ ليس المعنى أنهم بعثوا للتساؤل ولكن بعثوا فتساءلوا. فاللام جاءت للعاقبة لا للتعليل، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، اللام ليست للتعليل أبداً، ولا يمكن أن تكون للتعليل لأن آل فرعون لم يلتقطوه ليكون لهم عدواً وحزناً، ولكنهم التقطوه فكان لهم عدواً وحزناً.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ كما جرت العادة، أي كم مدة لبثتم؟ ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ أي كاملاً.

﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي بعض اليوم، ذلك لأنهم دخلوا في أول النهار وبُعثوا من النوم في آخر النهار، فقالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ إن كان هذا هو اليوم الثاني أو ﴿بَعْضَ يَوْمٍ﴾ إن كان هذا هو اليوم الأول، وهذا مما يدل على عمق نومهم.

﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي قال بعضهم لبعض، وكأن هؤلاء القائلين قد شعروا بأن النومة طويلة ولكن لا يستطيعون أن يُحدِّدوا، أمَّا الأولون فحددوا بناءً على الظاهر، وأما الآخرون فلم يحددوا بناء على الواقع، لأن الإنسان يفرق بين النوم اليسير والنوم الكثير، ثم قال بعضهم لبعض:

﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ الورق: هو الفضة كما جاء في الحديث: «**وفي الرِّقةِ رُبْع العُشْرِ**»[1]. كان معهم دراهم من الفضة.

---

(١) البخاري: كتاب: الزكاة، باب: زكاة الغنم، (١٤٥٤) وغيره.

﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ تضمن هذا:

أولاً: جواز التوكيل في الشراء، والتوكيل في الشراء جائز، وفي البيع جائز أيضاً، فإن الرسول ﷺ وكَّل أحد أصحابه أن يشتري له أضحية وأعطاه ديناراً، وقال: اشتر أضحية، فاشترى شاتين بالدينار ثم باع إحداهما بدينار فرجع بشاة ودينار، فدعا له النبي ﷺ أن يبارك الله له في بيعه، فكان لواشترىٰ تراباً لربح فيه[(١)].

وقد أخذ العلماء من هذا الحديث أنه يجوز تصرف الفضولي، أي يجوز للإنسان أن يتصرف بمال غيره إذا علم أن غيره يرضى بذلك، فهؤلاء وكلوا أحدهم أن يذهب إلى المدينة ويأتي برزق.

ثانياً: في هذا أيضاً دليل أنه لا بأس على الإنسان أن يطلب أطيب الطعام لقولهم: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾.

ثالثاً: فيه دليل أيضاً على ضعف قول الفقهاء: إنه لا يصح الوصف بالأفعل، أي لا يجوز أن أصف المبيع بأنه أطيب كل شيء، فلا تقول: «أبيع عليك برّاً أفضل ما يكون» لأنه ما من طَيِّب إلَّا وفوقه أطيب منه، ولكن يقال: هذا يرجع إلى العرف،

---

(١) عَنْ عُرْوَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَعْطَاهُ دِينَاراً يَشْتَرِي لَهُ بِهِ شَاةً فَاشْتَرَى لَهُ بِهِ شَاتَيْنِ فَبَاعَ إِحْدَاهُمَا بِدِينَارٍ وَجَاءَهُ بِدِينَارٍ وَشَاةٍ فَدَعَا لَهُ بِالْبَرَكَةِ فِي بَيعِهِ وَكَانَ لَوِ اشْتَرَى التُّرَابَ لَرَبِحَ فِيهِ. رواه البخاري: كتاب المناقب: باب... (٣٦٤٢) وغيره.

فأطيب: يعني في ذلك الوقت وفي ذلك المكان، وهل من السنّة ما يشهد لطلب الأزكى من الطعام؟ نعم، وذلك أن النبي ﷺ أقرَّ الصحابة الذين باعوا التمر الرديء بتمر جيد ليطعم النبي ﷺ منه[1]، ولم ينههم عن هذا، وما قال: هذا تَرَفُّه، اتركوا طلب الأطيب، فالإنسان قد فتح الله له في أن يختار الأطيب من الطعام أو الشراب أو المساكن أو الثياب أو المراكب، ما دام الله قد أعطاه القدرة على ذلك فلا يُلام.

﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ يعني يشتري ويأتي به، فجمعوا بالتوكيل بين الشراء والإحضار.

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي يتعامل بخفية لئلَّا يُشْعَر بهم فيؤذَون، وهذا يعني أنهم ظنوا أنهم لم يلبثوا إلَّا قليلاً. ثم علَّلوا هذا؛ أي الأمر بالتطلف والنهي عن الإشعار بقولهم:

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

أي أنهم لا بد أنهم يقتلونكم أو يردونكم على أعقابكم بعد

---

(١) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ بِلَالٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِتَمْرٍ بَرْنِيٍّ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**مِنْ أَيْنَ هٰذَا؟**» قَالَ بِلَالٌ: كَانَ عِنْدَنَا تَمْرٌ رَدِيٌّ فَبِعْتُ مِنْهُ صَاعَيْنِ بِصَاعٍ لِنُطْعِمَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «**أَوَّهْ أَوَّهْ عَيْنُ الرِّبَا عَيْنُ الرِّبَا لَا تَفْعَلْ وَلَكِنْ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْتَرِيَ فَبِعْ التَّمْرَ بِبَيْعٍ آخَرَ ثُمَّ اشْتَرِهِ**». متفق عليه. البخاري: كتاب: الوكالة، باب: إذا باع الوكيل شيئاً فاسداً فبيعه مردود، (٢٣١٢). مسلم: كتاب: المساقاة، باب: بيع الطعام مثلاً بمثل، (١٥٩٤)، (٩٦). واللفظ للبخاري.

إيمانكم ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ أي إذا عدتم في ملَّتهم أبداً، وفي هذا دليل على أخذ الحذر من الأعداء بكل وسيلة إلَّا الوسائل المحرمة؛ فإنها محرمة لا يجوز أن يقع الإنسان فيها.

❁ ❁ ❁

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني مثل بعثهم من نومهم، فإن الله أعثر عليهم يعني أطلع عليهم قومهم.

﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أطلع الله عليهم قومهم ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ إما أن المعنى بقيام الساعة الذي كان ينكره هؤلاء أو لأن الله تعالى يُنجي المؤمنين من الكفار، لأن هؤلاء السبعة نجوا من أمة عظيمة تقاتلهم وتنهاهم عن التوحيد.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾. ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ أي قيام الساعة. ﴿لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ أي لا شك، واقعة لا محالة.

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ متعلقة بأعثرنا، أعثرنا عليهم حتى تنازعوا أمرهم بينهم، تنازعوا فيما بينهم ماذا نفعل بهم؟ أنتركهم أم ماذا نصنع بهم؟

﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ يعني ابنوا عليهم بنياناً حتى يكون أثراً من الآثار وحماية لهم.

﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ يعني توقفوا في أمرهم كيف يَبقَونَ ثلاث مائة سنة وتسع سنين لا يأكلون ولا يشربون ولا يتغيرون أيضاً.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ وهم أمراؤهم ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ بدل من أن نبني بنياناً نحوطهم به ونسترهم به ولا يكون لهم أثر ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ أي لنجعلن عليهم مسجداً نتخذه مصلى، والظاهر أنهم فعلوا الأن القائل هم الأمراء الذين لهم الغلبة.

هذا الفعل، اتخاذ المساجد على القبور، من وسائل الشرك وقد جاءت شريعتنا بمحاربته حتى أن النبي ﷺ قال وهو في سياق الموت: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يُحذِّر ما صنعوا**»(١).

ثم قال عزّ وجل مبيناً اختلاف الناس في عددهم:

❁ ❁ ❁

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.

سيقولون ثلاثة، أربعة، خمسة، كيف يمكن أن يكون قولان لغائب واحد؟ هذا يخرج على وجهين:

الوجه الأول: أن المعنى سيقول بعضهم ثلاثة رابعهم

---

(١) متفق عليه. البخاري: كتاب: الصلاة، باب: الصلاة في البيعة. (٤٣٥، ٤٣٦). مسلم: كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: النهي عن بناء المساجد على القبور، واتخاذ الصور فيها، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، (٥٣١)، (٢٢).

كلبهم، ويقول البعض الآخر: خمسة سادسهم كلبهم، ويقول البعض الثالث: سبعة وثامنهم كلبهم.

والوجه الثاني: أن المعنى أنهم سيترددون؛ مرة يقولون: ثلاثة، ومرة يقولون: خمسة، ومرة يقولون: سبعة. وكلاهما محتمل ولا يتنافيان، فتَجدُهم أحياناً يقولون كذا، وأحياناً يقولون كذا؛ حسب ما يكون في أذهانهم.

قال الله تعالى: ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ قاله في الذين قالوا: ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ و﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، كلا القولين قال الله تعالى إنهم قالوه: ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي راجمين بالغيب، وليس عندهم يقين.

﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ولم يقل: رجماً بالغيب، بل سكت سبحانه وتعالىٰ، وهذا يدل على أن عددهم سبعة وثامنهم كلبهم، لأن الله عندما أبطل القولين الأولين، وسكت عن الثالث صار الثالث صواباً، نظيره قول الله تبارك وتعالى في المشركين إذا فعلوا فاحشة: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ هذا واحد، ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ هذا اثنان، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، فأبطل قولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ وسكت عن الأول؛ فدل على أن الأول: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ صحيح، وهنا لما قال: ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ في القولين الأولين، وسكت عن الثالث دل على أنهم سبعة وثامنهم كلبهم.

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ يعني إذا حصل نزاع فقل للناس: ﴿رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ وهل أعلمنا الله بعدتهم؟

الجواب: نعم؛ أعلمنا بأنهم سبعة وثامنهم كلبهم، يعني فإذا كان الله أعلم بعدتهم فالواجب أن نرجع إلى ما أعلمنا الله به، ونقول جازمين بأن عدتهم سبعة وثامنهم كلبهم.

﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي ما يعلمهم قبل إعلام الله أنهم سبعة وثامنهم كلبهم إلَّا قليل.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ أي في شأنهم، في زمانهم، في مكانهم، في مآلهم.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي لا يصل إلى القلب لأنه إذا وصل الجدال إلى القلب اشتد المجادل، وغضب وانتفخت أوداجه وتأثر، لكن لما لم يكن للجدال فيهم كبير فائدة قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ يعني إلَّا مراءً على اللسان لا يصل إلى القلب، ويؤخذ من هذا أن ما لا فائدة للجدال فيه لا ينبغي للإنسان أن يتعب قلبه في الجدال به، وهذا يقع كثيراً؛ أحياناً يحتمي بعض الناس إذا جودل في شيء لا فائدة فيه، فنقول: «يا أخي لا تتعب، اجعل جدالك ظاهراً على اللسان فقط لا يصل إلى القلب فتحتمي وتغضب»، وهذا يدل على أن ما لا خير فيه فلا ينبغي التعمق فيه، وهذا كثير، وأكثر ما يوجد في علم الكلام، فإن علماء الكلام الذين خاضوا في التوحيد وفي العقيدة يأتون بأشياء لا فائدة منها، مثل قولهم: «تسلسل الحوادث في الأزل وفي المستقبل» وما شابه ذلك من الكلام الفارغ الذي لا داعيَ له، وهم يكتبون الصفحات في تحرير هذه المسألة نفياً أو إثباتاً مع أنه لا طائل تحتها، فالشيء الذي ليس فيه فائدة لا تتعب

نفسك فيه، وإذا رأيت من صاحبك المجادلة فقل له: «تأمل الموضوع» وسدَّ الباب.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي ولا تستفت في أهل الكهف ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي من الناس سواءٌ من أهل الكتاب أم من غيرهم أحداً عن حالهم وزمانهم ومكانهم، وفيه إشارة إلى **أن الإنسان لا ينبغي أن يستفتي من ليس أهلاً للإفتاء، حتى وإن زعم أن عنده علماً فلا تَسْتَفْتِهِ إذا لم يكن أهلاً.**

❁ ❁ ❁

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾ الخطاب هنا للرسول ﷺ كالخطاب الذي قبله ﴿لِشَاْىْءٍ﴾ أي في شيء ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ذكروا[1] أن قريشاً أرسلت إلى اليهود في المدينة وقالوا: إن رجلاً بعث فينا يقول: إنه نبي، فقالوا: اسألوه عن ثلاثة أشياء:

١ ـ عن فتية خرجوا من مدينتهم ولجأوا إلى غار، ما شأنهم.

٢ ـ وعن رجل مَلَكَ مشارق الأرض ومغاربها.

٣ ـ وعن الروح، ثلاثة أشياء؛ فسألوا النبي ﷺ عن

---

(١) ورد هذا في السير في رواية لمحمد بن إسحاق، انظر: «السيرة النبوية» (١/ ٢٥ ـ ٢٦٦) لابن هشام، وانظر تفسير ابن كثير (٣/ ٩٩)، والقرطبي (١٠/ ٣٤٦ وما بعدها) في سبب نزول السورة.

أصحاب الكهف، فقال: «أخبركم غداً»، فتوقف الوحي نحو خمسة عشر يوماً، لم ينْزل عليه الوحي، والنبي ﷺ لا يدري عن قصص السابقين كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨]. ولكن الله اختبره، فأمسك الوحي خمسة عشر يوماً، كما ابتلى سليمان عليه الصلاة والسلام لما قال: «لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله»، فقال له الملك: «قل إن شاء الله». فلم يقل وطاف على تسعين امرأة يجامعهن، وما الذي حصل؟ أتت واحدة منهن بشق إنسان[1]، حتى يُري الله عباده أن الأمر أمره وأن الإنسان مهما بلغ في المرتبة عند الله تعالى والوجاهة؛ فإنه لا مفر له من أمر الله.

مكث الوحي خمسة عشر يوماً، ومن المعلوم أن النبي ﷺ سيلحقه الغم والهم لئلَّا يتخذ هؤلاء القوم مِن تأخرِ إخباره بذلك وسيلةً إلى تكذيبه، والحقيقة أن هذا ليس وسيلة للتكذيب، يعني

---

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**قَالَ سُلَيْمَانُ: لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ إِنْ شَاء الله فَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ الله فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعاً، فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَايْمُ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنْ شَاء الله لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله فُرْسَاناً أَجْمَعُونَ**». متفق عليه. البخاري: كتاب: الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ، (٦٦٣٩). مسلم: كتاب الأيمان، باب: الاستثناء. (١٦٥٤)، (٢٥). واللفظ للبخاري.

قد يقولون وعدَنا محمد بأن يخبرنا غداً ولم يفعل فأين الوحي الذي يدّعي أنه ينْزِل عليه؟ ولكن نقول: إنَّ تأخر الوحي وتأخر إخبار النبي ﷺ بذلك يدل على صدقه، لأنه لو كان كاذباً لصنع قصة فيما بين ليلة وضحاها، وقال: هذه قصتهم، فتأخر الوحي والنبي ﷺ لم يخبرهم يدل على كمال صدقه عليه الصلاة والسلام.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ إلَّا قولاً مقروناً بمشيئة الله، فقرْنُ ذلك بمشيئة الله يستفيد منه الإنسان فائدتين عظيمتين:

إحداهما: أن الله ييسر الأمر له حيث فوضه إليه جلَّ وعلا.

والثانية: إن لم يفعل لم يحنث.

فيستفاد من قوله: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ﴾ أنه لو قال: سأفعل هذا على سبيل الخبر لا على سبيل الجزم بوقوع الفعل، فإن ذلك لا يلزمه أن يأتي بالمشيئة، يعني لو قال لك صاحبك: «هل تمر عليَّ غداً؟» فقلت: «نعم» ولم تقل: إن شاء الله فلا بأس لأن هذا خبر عما في نفسكَ، وما كان في نفسك فقد شاءه الله فلا داعي لتعليقه بالمشيئة، أما إن أردت أنه سيقع ولا بد فقل: إن شاء الله، وجه ذلك أن الأول خبر عمَّا في قلبك، والذي في قلبك حاضر الآن، وأما أنك ستفعل في المستقبل فهذا خبر عن شيء لم يكن ولا تدري هل يكون أو لا يكون، انتبهوا لهذا الفرق؛ إذا قال الإنسان: سأسافر غداً، فإن كان يخبر عمَّا في قلبه فلا يحتاج أن يقول: إن شاء الله، لماذا؟ لأنه خبر عن شيء واقع، أما إذا كان يريد بقوله: سأسافر، أنني سأنشئ السفر وأسافر فعلاً، فهنا لا بد

أن يقول: إن شاء الله، ولهذا كانت الآية الكريمة: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ولم تكن إني سأفعل، بل قال: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ﴾، فلا تقل لشيء مستقبل إني فاعله إلَّا أن يكون مقروناً بمشيئة الله.

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ يعني اذكر أمر ربِّك بأن تقول: «إن شاء الله» إذا نسيت أن تقولها، لأن الإنسان قد ينسى وإذا نسي فقد قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال النبي ﷺ: «**من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها**»(١).

فالمشيئة إذا نسيها الإنسان فإنه يقولها إذا ذكرها، ولكن هل تنفعه، بمعنى أنه لو حنِث في يمينه فهل تسقط عنه الكفارة إذا كان قالها متأخراً؟ من العلماء من قال: إنها تنفعه حتى لو لم يذكر الله إلَّا بعد يوم أو يومين أو سنة أو سنتين، لأن الله أطلق: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، ومن العلماء من قال: لا تنفعه إلَّا إذا ذكر في زمن قريب بحيث ينبني الاستثناء على المستثنى منه، وهذا الذي عليه جمهور العلماء، فمثلاً إذا قلت: والله لأفعلن هذا ونسيت أن تقول: إن شاء الله، ثم ذكرت بعد عشرة أيام فقلت: إن شاء الله، ثم لم تفعل بناء على أن من قال: إن شاء الله لم يحنَث، فمن العلماء من قال: ينفعه لأن الله تعالى قال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا

---

(١) متفق عليه. البخاري: كتاب: مواقيت الصلاة، باب: من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها، ولا يعيد إلا تلك الصلاة، (٥٩٧) لكنه اقتصر على النسيان دون النوم، مسلم: كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، (٦٨٤)، (٣١٥)، إلا أنه قدم النسيان على النوم.

نَسِيتَ﴾، ومنهم من قال: لا ينفعه لأن الكلام لم ينبنِ بعضه على بعض، إذاً ما الفائدة من أمر الله أن نذكره إذا نسينا؟ قال: الفائدة هو ارتفاع الإثم، لأن الله قال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فإذا نسيت، فقلها إذا ذكرت، لكن هل تنفعك فلا تحنث أم يرتفع عنك الإثم دون حكم اليمين؟ الظاهر: الثاني؛ أن يرتفع الإثم، وأما الحنْث فإنه يحنَث لو خالف لأن الاستثناء بالنسبة للحِنْث لا ينبغي إلَّا أن يكون متصلاً، ثم الاتصال هل يقال: إن الاتصال معناه أن يكون الكلام متواصلاً بعضه مع بعض أو أن الاتصال ما دام بالمجلس؟

الجواب: فيه خلاف، بعضهم يقول: ما دام في المجلس فهو متصل، وإذا قام عن المجلس فقد انقطع، قالوا: لأن النبي ﷺ قال: «**البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا**»[1] فجعل التفرق فاصلاً، ومنهم من قال: العبرة باتصال الكلام بعضه مع بعض، والظاهر والله أعلم أنه إذا كان في مجلسه، ولم يذكر كلاماً يقطع ما بين الكلاميْن، فإنه ينفعه الاستثناء؛ فلا يحنث.

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ «عسى» بمعنى الرجاء إذا وقعت من المخلوق، فإن كانت من الخالق فهي للوقوع، فقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٨ ـ ٩٩]، نقول:

---

(١) متفق عليه. البخاري: كتاب البيوع، باب: كم يجوز الخيار، (٢١٠٨). مسلم: كتاب: البيوع، باب: الصدق في البيع والبيان، (١٥٣٢)، (٤٧).

عسى هنا واقعة، وقال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٨]. أما من الإنسان فهي للرجاء، كقوله: ﴿وَقُل عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى﴾ هذه للرجاء.

﴿أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى﴾ أي يدلني إلى الطريق، ولهذا قال: ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أي هداية وتوفيقاً، وقد فعل الله، فهداه في شأن أصحاب الكهف للرشد.

❁ ❁ ❁

﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَبِثُواْ﴾ يعني أصحاب الكهف ﴿فِى كَهْفِهِمْ﴾ الذي اختاروه لأنفسهم وناموا فيه.

﴿ثَلَٰثَ مِائَةٍ﴾ تكتب اصطلاحاً ثلاثمائة مربوطة: ثلاث مربوطة بمائة، وتكتب مائة بالألف، لكن هذه الألف لا يُنطَق بها، وبعضهم يكتب ثلاث وحدها ومئة وحدها، وهذه قاعدة صحيحة.

وقوله: ﴿ثَلَٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ ﴿مِائَةٍ﴾ بالتنوين و﴿سِنِينَ﴾ تمييز مبين لثلاث مائة لأنه لولا كلمة سنين لكنا لا ندري هل ثلاث مائة يوم أو ثلاث مائة أسبوع أو ثلاث مائة سنة؟، فلما قال: ﴿سِنِينَ﴾ بيَّن ذلك.

﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ ازدادوا على الثلاث مائة تسع سنين فكان مكثُهم ثلاث مائة وتسع سنين، قد يقول قائل: «لماذا لم يقل مائة وتسع سنين؟».

فالجواب: هذا بمعنى هذا، لكن القرآن العظيم أبلغ كتاب، فمن أجل تناسب رؤوس الآيات قال: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾، وليس كما قال بعضهم بأن السنين الثلاثمائة بالشمسية وازدادوا تسعاً بالقمرية، فإنه لا يمكن أن نشهد على الله بأنه أراد هذا، من الذي يشهد على الله أنه أراد هذا المعنى؟ حتى لو وافق أن ثلاث مائة سنين شمسية هي ثلاث مائة وتسع سنين بالقمرية فلا يمكن أن نشهد على الله بهذا، لأن الحساب عند الله تعالى واحد، وما هي العلامات التي يكون بها الحساب عند الله؟

الجواب: هي الأهلَّة، ولهذا نقول: إن القول بأن «ثلاث مائة سنين» شمسية، «وازدادوا تسعاً» قمرية قول ضعيف.

أولاً: لا يمكن أن نشهد على الله أنه أراد هذا.

ثانياً: أن عدة الشهور والسنوات عند الله بالأهلة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [البقرة: ١٨٩] وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾.

❁ ❁ ❁

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ قوله: ﴿قُلِ﴾ أي قل يا محمد: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾، وهذه الجملة تمسك بها من يقول: إنَّ قوله: ﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف: ٢٥] هي من قول الذين يتحدثون عن مكث أهل الكهف بالكهف وهم اليهود الذين يَدَّعون أن التوراة تدل على هذا، وعلى هذا القول يكون قوله: ﴿وَلَبِثُواْ﴾

مفعولاً لقول محذوف والتقدير: «وقالوا: لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً»، ثم قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ ولكن هذا القول وإن قال به بعض المفسرين فالصواب خلافه وأن قوله: ﴿وَلَبِثُوا۟﴾ من قول الله، ويكون قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ من باب التوكيد أي: توكيد الجملة أنهم لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً، والمعنى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ وقد أعلَمَنا أنهم لبثوا ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ وما دام الله أعلم بما لبثوا فلا قول لأحد بعده.

قال الله عزّ وجل: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي له ما غاب في السمٰوات والأرض، أو له علم غيب السمٰوات والأرض، وكلا المعنيين حق، والسمٰوات جمع سماء وهي سبع كما هو معروف، والأرض هي أيضاً سبع أرَضين[1]، فلا يعلم الغيب ـ علم غيب السمٰوات والأرض ـ إلّا الله، فلهذا من ادعى علم الغيب فهو كافر، والمراد بالغيب المستقبل، أما الموجود أو الماضي فمن ادعى علمهما فليس بكافر؛ لأن هذا الشيء قد حصل وعلمه من علمه من الناس، لكن غيب المستقبل لا يكون إلّا لله وحده، ولهذا من أتى كاهناً يخبره عن المستقبل وصدَّقه فهو كافر بالله عزّ وجل؛ لأنه مكذب لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، أما ما كان واقعاً؛

---

(١) لقوله ﷺ: «**مَنْ اقْتَطَعَ شِبْراً مِنْ الأَرْضِ ظُلْماً طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**». رواه مسلم: كتاب: المساواة، باب: تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها. (١٦١٠)، (١٣٧). وأصله عند البخاري: كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في سبع أرضين (٣١٩٨). وغيره.

فإنه من المعلوم أنه غيب بالنسبة لقوم وشهادة بالنسبة لآخرين.

﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ هذا يسميه النحويون فعل تعَجُّب.

﴿أَبْصِرْ بِهِۦ﴾ بمعنى ما أبصره.

﴿وَأَسْمِعْ﴾ بمعنى ما أسمعه، وهو أعلى ما يكون من الوصف، والله تبارك وتعالى يبصر كل شيء، يبصر دبيب النملة السوداء على الصخرة السوداء في ظلمة الليل، ويبصر ما لا تدركه أعين الناس مما هو أخفى وأدق، وكذلك في السمع، يسمع كل شيء، يعلم السر وأخفى من السر ويعلم الجهر ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه: ٧]. تقول عائشة رضي الله عنها في قصة المجادلة التي ظاهر منها زوجها، وجاءت تشتكي إلى الرسول ﷺ وكانت عائشة في الحجرة، والحجرة صغيرة كما هو معروف، وكان الرسول ﷺ يحاور المرأة وعائشة يخفى عليها بعض الحديث، والله عزّ وجل يقول: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١]. تقول عائشة رضي الله عنها «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، إني لفي الحجرة وإنه ليخفى عليَّ بعض حديثها»[1]، والله

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٤١٩٥) والنسائي: كتاب: الطلاق، باب: الظهار، (٣٤٩٠). وابن ماجه: كتاب: المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية، (١٨٨). وكلهم بأتم مما ذكر في البخاري. ولفظهم أن عائشة رضي الله عنها قالت: الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ ٱلْبَيْتِ تَشْكُو زَوْجَهَا وَمَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية.

عزّ وجل فوق كل شيء، ومع ذلك سمع قولها ومحاورتها للرسول ﷺ، **وفيه الإيمان بأن الله تعالى ذو بصر نافذ لا يغيب عنه شيء وذو سمع ثاقب لا يخفى عليه شيء**، والإيمان بذلك يقتضي للإنسان ألا يُري ربَّه ما يكرهه ولا يُسمعه ما يكرهه؛ لأنك إن عملت أي عمل رآه وإن قلت أي قول سمعه، وهذا يوجب أن تخشى الله عزّ وجل وألا تفعل فعلاً يكرهه ولا تقول قولاً يكرهه الله عزّ وجل، لكن الإيمان ضعيف، **فتجد الإنسان عندما يريد أن يقول أو أن يفعل؛ لا يخطر بباله أن الله يسمعه أو يراه إلَّا إذا نُبِّه**، والغفلة كثيرة، فيجب علينا جميعاً أن ننتبه لهذه القضية العظيمة.

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ قوله: ﴿مَا لَهُم﴾ هل الضمير يعود على أصحاب الكهف أو على من هم في السمٰوات والأرض؟

الجواب: الثاني هو المتعين، يعني ليس لأحد ولي من دون الله، حتى الكفار وليهم الله عزّ وجل وحتى المؤمنون وليهم الله عزّ وجل قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦١ ـ ٦٢]. والله ولي كُلِّ أحد، وهذه هي **الولاية العامة**، أليس الله تعالى يرزق الكافرين وينمي أجسامهم وييسر لهم ما في السمٰوات والأرض، وسخر الشمس والقمر والنجوم والأمطار؟! هذه ولاية، ويتولى المؤمنين أيضاً بذلك؛ لكن هذه ولاية عامة.

أما **الولاية الخاصة، فهي للمؤمنين**. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، والولاية الخاصة تستلزم عناية خاصة، **أن الله يسدد العبد فيفتح له أبواب العلم النافع والعمل الصالح**، ولهذا قال: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾. يخرجهم بالعلم، فيعلمهم أولاً ويخرجهم ثانياً بالتوفيق.

إعراب الجملة هذه: ﴿مَا﴾ نافية، و ﴿لَهُم﴾ خبر مقدم، و ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ مبتدأ مؤخر دخل على هذه الكلمة حرف الجر الزائد لأنك لو حذفت ﴿مِن﴾ وقلت: «ما لهم من دونه وليٌّ» لاستقام الكلام، لكن جاءت ﴿مِن﴾ من أجل التوكيد والتنصيص على العموم، يعني: لا يمكن أن يوجد لأهل السمٰوات والأرض ولي سوى الله.

قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ هذه كقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، والحكم كوني وشرعي، فالخلق والتدبير حكم كوني، والحكم بين الناس بالأوامر والنواهي حكم شرعي، وقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ يشمل النوعين. فلا أحد يشرك الله في حكمه لا الكوني ولا الشرعي، وفيه دليل على وجوب الرجوع إلى حكم الله الشرعي، وأنه ليس لنا أن نُشَرِّع في دين الله ما ليس منه، لا في العبادات ولا في المعاملات، وأما من قال: إن لنا أن نُشَرِّع في المعاملات ما يناسب الوقت، فهذا قول باطل: لأنه على قولهم لنا أن نجوز الربا ولنا أن نجوز الميسر وأن نجوز

كل ما فيه الكسب ولو كان باطلا، فالشرع صالح في كل زمان ومكان **ولن يُصلحَ آخر هذه الأمة إلَّا ما أصلح أولها**[(١)]، الحكم الكوني لا أحد يُشرك الله فيه ولا أحد يدعي هذا، هل يستطيع أحد أن يُنَزِّل الغيث؟! وهل يستطيع أحد أن يُمسك السمٰوات والأرض أن تزولا؟! ولكن الحكم الشرعي هو محل اختلاف البشر ودعوى بعضهم أن لهم أن يشرعوا للناس ما يرون أنه مناسب.

❁ ❁ ❁

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ هذا كالنتيجة لقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ يعني إذا كان لا يشرك في حكمه أحداً فاتْلُ: ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾.

فقوله: ﴿وَٱتْلُ﴾ يشمل التلاوة اللفظية والتلاوة العملية، أمّا التلاوة اللفظية فظاهر، تقول: «فلان تلا علي سورة الفاتحة»، والتلاوة الحكمية العملية أن تعمل بالقرآن، فإذا عملت به فقد تلوتَه أي تَبعتَه، ولهذا نقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [فاطر: ٢٩]، يشمل التلاوة اللفظية والحكمية، والخطاب في قوله: ﴿وَٱتْلُ﴾ للرسول ﷺ، ولكن اعلم أن الخطاب للرسول ﷺ ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) هذا الأثر مشهور عن الإمام مالك رحمه الله تعالى: [انظر الشفا للقاضي عياض ج٢ ص: ٨٧ ـ ٨٨].

الأول: ما دلَّ الدليل على أنه خاص به، فهو خاص به.

الثاني: ما دلَّ الدليل أنه للعموم، فهو للعموم.

الثالث: ما يحتمل الأمرين، فقيل: إنه عام، وقيل: إنه خاص، وتتبعه الأمة لا بمقتضى هذا الخطاب، ولكن بمقتضى أنه أسوتها وقدوتها.

فمثال الأول الذي دلَّ الدليل على أنه خاص به، قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] فهذا لا شك أنه خاص به، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: ٦]، فهو خاص به ﷺ.

ومثال الثاني الذي دلَّ الدليل على أنه عام، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، فقوله: ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ للجماعة؛ وهم الأمة، لكن الله سبحانه وتعالىٰ نادى زعيمها ورسولها لأنهم تابعون له فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، إذاً الخطاب يشمل النبي ﷺ وجميع الأمة، ومثال ما يحتمل الأمرين هذه الآية: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾، لكن قد يقول قائل: إن هذه الآية فيها قرينة قد تدل على أنه خاص به كما سنذكره إن شاء الله، ولكن الأمثلة على هذا كثيرة، والصواب أن الخطاب للأمة ولكن وُجِّه لزعيمها وأسوتها؛ لأن الخطابات إنما توجه للرؤساء والمتبوعين.

وقوله: ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ هو القرآن، وفي إضافة الرب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام دليل على أن ما أوحاه الله إلى رسوله من تمام عنايته به.

وقوله: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ يعني لا أحد يستطيع أن يبدل كلماته، لا الكونية ولا الشرعية، أما الكونية فواضح، لا أحد يستطيع أن يُبَدِّلها، فإذا قال الله تعالى: ﴿كُن﴾ في أمر كوني فلا يستطيع أحد أن يبدله، أما الشرعية فلا أحد يستطيع شرعاً أن يبدلها. والنفي هنا ليس نفياً للوجود، ولكن النفي هنا للإمكان الشرعي، فلا أحد يستطيع شرعاً أن يبدل كلمات الله الشرعية، فالواجب على الجميع أن يستسلموا لله، فلو قال قائل: وجدنا من يبدل كلام الله! فإن الله أشار إلى هذا في قوله في الأعراب، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]. قلنا: هذا تبديل شرعي، والتبديل الشرعي قد يقع من البشر فيحرفون الكلام عن مواضعه، ويفسرون كلام الله بما لا يريده الله، ومن ذلك جميع المعطِّلة لصفات الله عزّ وجل، أو لبعضها ممن بدلوا كلام الله.

﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ يعني لن تجد أيها النبي من دون الله عزّ وجل ملتحداً، أي أحداً تميل إليه أو تلجأ إليه لأن الالتحاد من اللحد وهو الميل، يعني لو أرادك أحد بسوء ما وجدت أحداً يمنعك دون الله عزّ وجل، إذاً عندما يصيب الإنسان شيء يتضرر به أو يخاف منه، يلتجئ إلى من؟ إلى الله، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١، ٢٢].

❁ ❁ ❁

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ أي احبسها مع هؤلاء الذين يدعون الله دعاء مسألة ودعاء عبادة، اجلس إليهم وقوِّ عزائمهم.

وقوله: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾ أي أول النهار.

وقوله: ﴿وَٱلْعَشِيِّ﴾ آخر النهار.

قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ مخلصين لله عزّ وجل يريدون وجهه ولا يريدون شيئاً من الدنيا، يعني أنهم يفعلون ذلك لله وحده لا لأحدٍ سواه.

وفي الآية **إثبات الوجه لله تعالى**، وقد أجمع علماء أهل السنة على ثبوت الوجه لله تعالى بدلالة الكتاب والسنة على ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧]. وقال النبي ﷺ: «**أعوذ بوجهك**»(١)، وأجمع سلف الأمة وأئمتُها على ثبوت الوجه لله عزّ وجل.

---

(١) عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**». **قَالَ**: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ». قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا أَهْوَنُ أَوْ هَذَا أَيْسَرُ». رواه البخاري: كتاب: التفسير، باب: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ الآية. (٤٦٢٨).

ولكن هل يكون هذا الوجه مماثلاً لأوجه المخلوقين؟

الجواب: لا يمكن أن يكون وجه الله مماثلاً لأوجه المخلوقين لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، أي شبيهاً ونظيراً، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وهكذا كل ما وصف الله به نَفْسَهُ فالواجب علينا أن نجريه على ظاهره، ولكن بدون تمثيل، فإن قال قائل: إذا أثبتّ لله وجهاً لزم من ذلك التمثيل، ونحمل قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ [الشورى: ١١]، يعني إلَّا في ما أثبته كالوجه واليدين؟

فالجواب: أن هذا مكابرة؛ لأننا نعلم حساً وعقلاً أن كل مضاف إلى شيء فإنه يناسب ذلك الشيء، أليس للإنسان وجه، وللجَمَلِ وجه، وللحصان وجه وللفيل وجه؟ بلى، وهل هذه الأوجه متماثلة؟ لا؛ أبداً! بل تناسب ما أضيفت إليه، بل إن الوقت والزمن له وجه، كما في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ [آل عمران: ٧٢]، فأثبت أن للزمن وجهاً، فهل يمكن لأحد أن يقول: إن وجه النهار مثل وجه الإنسان؟.

الجواب: لا يمكن، إذاً ما أضافه الله لنفسه من الوجه لا يمكن يكون مماثلاً لأوجه المخلوقين؛ **لأن كل صفة تناسب الموصوف**. فإن قال قائل: إنه قد جاء في الحديث الصحيح أن

النبي ﷺ قال: «**إنَّ الله تعالى خلق آدم على صورته**»[(١)]، فما الجواب؟

فالجواب: من أحد وجهين:

الوجه الأول: إما أن يقال: لا يلزم من كونه على صورته أن يكون مماثلاً له، والدليل أن النبي ﷺ أخبر بأن **أوَّل زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر**[(٢)]، ونحن نعلم أنه ليس هناك مماثلة بين هؤلاء والقمر، لكن على صورة القمر من حيث العموم إضاءةً وابتهاجاً ونوراً. الوجه الثاني: أن يقال: «**على صورته**» أي على الصورة التي اختارها الله عزّ وجل، فإضافة صورة الآدمي إلى الله على سبيل التشريف والتعظيم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]، ومن المعلوم

---

(١) رواه مسلم: كتاب: البر والصلة والأداب، باب: النهي عن ضرب الوجه، (٢٦١٠)، (١١٥). والبخاري: كتاب: العتق، باب: إذا ضرب العبدَ فليجتنب الوجه، (٢٥٥٩) مقتصراً على الجملة الأولى. وغيره عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبِ الْوجْهَ فَإِنَّ الله خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**». وفي الصحيحين: البخاري: كتاب: الاستئذان، باب: بدء السلام، (٦٢٢٧). مسلم: كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير، (٢٨٤١)، (٢٨). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خَلَقَ الله آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعاً**».

(٢) رواه البخاري: كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، (٤٢٤٦). ومسلم: كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، وصفاتهم وأزواجهم، (٢٨٣٤)، (١٤) وغيرهما.

أن الله ليس يصلي في المساجد، لكن أضيفت إلى الله على سبيل التشريف والتعظيم وعلى أنها إنما بنيت لطاعة الله، وكقول صالح عليه السلام لقومه: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣]، ومن المعلوم أن هذه الناقة ليست لله كما تكون للآدمي يركبها؛ لكن أضيفت إلى الله على سبيل التشريف والتعظيم، فيكون «**خلق آدم على صورته**» أو «**على صورة الرحمن**»[(١)]، يعني على الصورة التي اختارها من بين سائر المخلوقات، قال الله تعالى في سورة الانفطار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧]، أي الذي جعلك جعلا كهذا وهذا يشمل اعتدال القامة واعتدال الخلقة، ففهمنا الآن والحمد لله **أن الله تعالى له وجه حقيقي وأنه لا يشبه أوجه المخلوقين**. وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ إشارة للإخلاص، فعليك أخي المسلم بالإخلاص حتى تنتفع بالعمل.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني لا تتجاوز عيناك عن هؤلاء السادة الكرام تريد زينة الحياة الدنيا، بل اجعل نظرك إليهم دائماً وصحبتك لهم دائماً، وفي قوله: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارة إلى أنَّ الرسول ﷺ لو فارقهم لمصلحة دينية لم يدخل هذا في النهي.

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (رقم ٥١٧). وابن خزيمة في «التوحيد» (رقم ٤١). والبيهقي في «الأسماء والصفات» (رقم ٦٤٠). والدارقطني في «الصفات» (رقم ٤٨). وغيرهم. وصححه ابن راهويه وأحمد كما في «فتح الباري» (٥/ ١٨٣) وأعله ابن خزيمة (١/ ٨٧) بهذا اللفظ. وانتصر شيخ الإسلام ابن تيمية لتصحيح ابن راهويه وأحمد.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ يعني عن ذكره إيَّانا أو عن الذكر الذي أنزلناه، فعلى الأول يكون المراد الإنسان الذي يذكر الله بلسانه دون قلبه، وعلى الثاني يكون المراد الرجل الذي أغفل الله قلبه عن القرآن، فلم يرفع به رأساً ولم ير في مخالفته بأساً.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي ما تهواه نفسه.

﴿وَكَانَ أَمْرُهُ﴾ أي شأنه ﴿فُرُطًا﴾ أي منفرطاً عليه، ضائعاً، تمضي الأيام والليالي ولا ينتفع بشيء، وفي هذه الآية إشارة إلى أهمية حضور القلب عند ذكر الله، **وأن الإنسان الذي يذكر الله بلسانه لا بقلبه تنْزَع البركة من أعماله وأوقاته حتى يكون أمره فُرطا عليه**، تجده يبقى الساعات الطويلة ولم يحصل شيئاً، ولكن لو كان أمره مع الله لحصلت له البركة في جميع أعماله.

❁ ❁ ❁

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ. أي قلها معلنا ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ لا من غيره، فلا تطلبوا الحق من طريق غير طريق الله عزّ وجل، لأن الحق من عند الله.

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ والأمر في قوله: ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾ **للتهديد وليس للإباحة بل هو للتهديد** كما يهدد الإنسان غيره فيقول: «إن كنت صادقاً فافعل كذا»، ويدل عليه قوله تعالى

بعده: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾، يعني من كفر فله النار قد أعدت، وقوله: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المراد به الكافرون، والدليل على هذا قوله: ﴿فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾، فإن قال قائل: «هل الكفر يسمى ظلماً؟».

فالجواب: نعم، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ولا أحد أظلم ممن كفر بالله أو جعل معه شريكاً، وهو الذي خلقه وأمده وأعده.

قوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ﴾ أي بأهل النار ﴿سُرَادِقُهَاۚ﴾ أي ما حولها، يعني أن النار قد أحاطت بهم فلا يمكن أن يفروا عنها يميناً ولا شمالاً.

وقوله: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ يعني أن أهل النار إذا عَطشوا عَطشاً شديداً وذلك بأكل الزَّقوم أو بغير ذلك أغيثوا بهذا الماء ﴿بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ يكون كعَكَر الزيت يعني تَفَلَهُ الخاثر في أسفله أو ما أشبه ذلك مما هو منظر كريه، ولا تقبله النفوس كما قال تعالى: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧]، أي كالصديد يتجرعه ولا يكاد يُسيغه.

﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾، إذا قَرُبَ منها شَواها وتساقطت والعياذ بالله من شدة فيح هذا الماء، وإذا وصل إلى أمعائهم قطعها كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ١٥]، وما أعظم الوجع والألم فيمن تقطع أمعاؤه من الداخل، لكن مع ذلك تقطع وتعاد كالجلود ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء: ٥٦]، الله أكبر، سبحان القادر على كل شيء،

وبلحظة يكون هذا الشيء متتابعاً، كلما نَضَجت بُدِّلوا، وكلما تقطَّعت الأمعاء فإنها توصل بسرعة.

قوله: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ هذا قدح وذم لهذا الشراب، و«بئس» فعل ماضٍ لإنشاء الذم.

قوله: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي وقبح مرتفقها والارتفاق بها. والمرتفق ما يرتفق به الإنسان، قد يكون حسناً وقد يكون سيئاً، ففي الجنة ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١]، وفي النار ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

❁ ❁ ❁

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾.

هذا من أسلوب القرآن، فإن الله عزّ وجل إذا ذكر أهل النار ذكر أهل الجنة، وهذا من معنى قوله: ﴿مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣] أي تثنى فيه المعاني والأحوال والأوصاف ليكون الإنسان جامعاً بين الخوف والرجاء في سيره إلى ربه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قد سبق الكلام في معنى هذه الآية، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ولم يقل «إنَّا لا نضيع أجرهم»، ولكن قال تعالى: ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ وذلك لبيان العلة في ثواب هؤلاء وهو أنهم أحسنوا العمل، و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠]، هذا من الوجه المعنوي، ومن الوجه اللفظي أن تكون رؤوس الآية متوافقة ومتطابقة، لأنه لو قال: «إنَّا لا نضيع أجرهم» لاختلفت رؤوس الآيات.

وبماذا يكون الإحسان في العمل؟ يكون بأمرين:

١ ـ الإخلاص لله عزّ وجل ٢ ـ المتابعة لرسول الله ﷺ، ولا يخفى ما في الآية الكريمة من الحث على إحسان العمل.

❁ ❁ ❁

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ المشار إليه الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

﴿جَنَّٰتُ﴾ جمع جنة وهي الدار التي أعدها الله لأوليائه فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿عَدْنٍ﴾ بمعنى الإقامة، أي جنات إقامة لا يبغون عنها حِوَلا أي تحولا عنها، ومن تمام النعيم أن كل واحد منهم لا يرى أن أحداً أنعم منه، ومن تمام الشقاء لأهل النار أن كل واحد منهم لا يرى أحداً أشد منه عذاباً، ولكن هؤلاء، أهل الجنة، لا يرون أن أحداً أنعم منهم لأنهم لو رأوْا ذلك لتنغص نعيمهم حيث يتصورون أنهم أقل.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. الأنهار جمع نهر وهي أربعة أنواع ذكرها الله تعالى في سورة محمد، قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، وهنا قال: ﴿مِن تَحْتِهِمُ﴾، وفي آية أخرى قال: «تحتهم» وفي ثالثة ﴿مِن تَحْتِهَا﴾، وفي رابعة: ﴿تَحْتِهَا﴾ والمعنى واحد، لأنهم إذا كانت

الأنهار تجري تحت أشجارها وقصورها فهي تجري تحت سكانها.

قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ أي الجنات.

﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾، قال بعضهم: إن ﴿مِنْ﴾ هنا زائدة لقول الله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١]، فـ ﴿مِن﴾ زائدة. ولكن هذا القول ضعيف، لأن ﴿مِن﴾ لا تزاد في الإثبات كما قال ابن مالك رحمه الله في الألفية:

وزيد في نفي وشبهِهِ فَجَرّ نكرة كما لباغٍ من مفر

وعلى هذا فإما أن تكون للتبعيض: أي يحلونَ فيها بعض أساور، أي يحلى كل واحد منهم شيئاً من هذه الأساور وحينئذٍ لا يكون إشكال، وإما أن تكون «للبيان» أي بيان ما يحلون، وهو أساور وليس قلائد أو خُروصا مثلاً، وأما قوله: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ فهي بيانية، أي لبيان الأساور أنها من ذهب، ولكن لا تحسبوا أن الذهب الذي في الجنة كالذهب الذي في الدنيا، فإنه يختلف اختلافاً عظيماً، قال الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[1]، ولو كان كذهب الدنيا لكان العين رأته.

قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾،

---

(١) متفق عليه. البخاري: كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، (٣٠٧٢). مسلم: كتاب: الجنة، وصفة نعيمها وأهلها، باب: ... (٢٨٢٤)، (٢، ٣).

السندس: ما رَقَّ من الديباج والإستبرق ما غلظ منه.

وقوله: ﴿خُضْرًا﴾ خصَّها باللون الأخضر لأنه أشد ما يكون راحة للعين ففيه جمال وفيه راحة للعين.

قال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾.

قوله: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ حال من قوله تبارك وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي حال كونهم متكئين فيها، والاتكاء يدل على راحة النفس وعلى الطمأنينة.

قوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع أريكة، والأريكة نوع من المرتفق الذي يرتفق فيه، وقيل: إن الأريكة سرير في الخيمة الصغيرة المغطاة بالثياب الجميلة تشبه ما يسمونه بالكوخ.

قال الله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ هذا مدح لهذه الجنة وما فيها من نعيم، ففيها الثناء على هذه الجنة بأمرين: بأنها ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ وأنها ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾. قال الله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

❁ ❁ ❁

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ﴾ يعني اجعل وصيِّر.

﴿لَهُم﴾ أي للكفار: قريش وغيرهم.

﴿مَّثَلًا﴾ مفعول اضرب، وبَيَّن المثل بقوله: ﴿رَّجُلَيْنِ﴾ وعلى هذا يكون «رجلين» عطف بيان وتفصيل للمثل.

قـــولـــه: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أغلب ما في الجنتين العنب، وأطراف الجنتين النخيل وما بينهما زرع، ففيهما الفاكهة والغذاء من الحب وثمر النخل.

❁ ❁ ❁

قال الله تعالى:

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ ولم يقل آتتا أُكُلَهَا؟ لأنه يجوز مراعاة اللفظ ومراعاة المعنى في كلتا، وقد اجتمع ذلك في قول الشاعر:

كلاهما حين جدَّ الجري بينهما قد أقلعا وكلا أنفيهما رابي

يشير إلى فرسين تسابقا فيقول: كلاهما، أي كلا الفرسين، «حين جد الجري بينهما» أي المسابقة، «قد أقلعا» أي توقفا عن المجاراة، و«رابي» أي منتفخ، فقد قال: «قد أقلعا» ولم يقل: «قد أقلع»، وقال: «رابي» ولم يقل: «رابيان»، ففي البيت مراعاة المعنى ومراعاة اللفظ، وهنا آتت أُكُلَها مراعاة اللفظ.

قوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي ولم تنقص.

قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ كان خلال الجنتين نهر من الماء يجري بقوة، فكان في الجنتين كلُّ مقومات الحياة: أعناب، ونخيل، وزرع، ثم بينهما هذا النهر المطَّرِد.

❁ ❁ ❁

قال الله تعالى:

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ أي أن أحد الرجلين كان له ثمر، كأن له ثمر زائد على الجنتين أو ثمر كثير من الجنتين.

وقوله: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ وهما يتجاذبان الكلام.

قوله: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ افتخر عليه بشيئين:

١ ـ بكثرة المال ٢ ـ العشيرة والقبيلة. فافتخر عليه بالغنى والحسب، يقول ذلك افتخاراً وليس تحدثاً بنعمة الله بدليل العقوبة التي حصلت عليه.

❁ ❁ ❁

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ ذكرت بلفظ الإفراد مع أنه قال: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ فإما أن يقال: إن المراد بالمفرد الجنس، وإما أن يراد إحدى الجنتين، وتكون العظمى هي التي دخلها.

﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ هذه جملة حالية يعني الحال أنه ظالم لنفسه، وبماذا ظلم نفسه؟ ظلم نفسه بالكفر كما سيتبين.

قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ يعني ما أظن أن تفنى وتزول أبداً، أعجب بها وبما فيها من قوة وحسنِ المنظر، وغير

ذلك حتى نسي أن الدنيا لا تبقى لأحد، ثم أضاف إلى ذلك قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ فأنكر البعث، لأنه إذا كانت جنَّته لا تبيد فهو يقول: لا بعث وإنما هو متاع الحياة الدنيا.

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ يعني على فرض أن تقوم الساعة وأرد إلى الله.

﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي مرجعاً، فكأنه يقول بما أن الله أنعم علي بالدنيا، فلا بد أن ينعم علي بالآخرة، وهذا قياس فاسد؛ لأنه لا يلزم من التنعيم في الدنيا أن ينعم الإنسان في الآخرة، ولا من كون الإنسان لا يُنَعَّم في الدنيا ألا يُنَعَّم في الآخرة، لا تلازم بين هذا وهذا، بل إن الكفار يُنعمون في الدنيا وتُعجل لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، ولكنهم في الآخرة يُعذَّبون. وهذا كقوله تبارك وتعالى في سورة فُصِّلت: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٤٩، ٥٠] هذا مثلُ هذا.

❁ ❁ ❁

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي يناقشه في الكلام.

﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ ذكره بأصله.

والهمزة في قوله: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ للإنكار.

أما قوله: ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ فلأن آدم عليه السلام أبا البشر خُلق من تراب.

وأما ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ فلأن بني آدم خُلِقوا من نطفة، والمعنى: أنَّ الذي ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ قادر على البعث الذي أنت تُنكره.

وقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ﴾ أي عدَّلك وصيَّرك رجلاً، وهذا الاستفهام للإنكار بلا شك، ثم هل يمكن أن نجعله للتعجب أيضاً؟

الجواب: يمكن أن يكون للإنكار وللتعجب أيضاً يعني: كيف تكفر ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾! ويستفاد من هذا أن منكر البعث كافر ولا شك في هذا كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]

❁ ❁ ❁

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ أصلها «لكن أنا» وحذفت الهمزة تخفيفاً وأدغمت النون الساكنة الأولى بالنون الثانية المفتوحة فصارت لكنَّا، وتكتب بالألف خطّاً وأما التلاوة ففيها قراءتان إحداهما بالألف وصلاً ووقفاً، والثانية بالالف وقفاً وبحذفها وصلاً.

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أي هو الله ربي مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وعلى هذا فتكون ﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، يعني الشأن أن الله تعالى ربي.

و﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ وهذا كقول ابن آدم لأخيه قابيل:

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، يعني أنت كفرت ولكني أنا أعتز بإيماني وأؤمن بالله.

❁ ❁ ❁

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ يعني هلَّا ﴿إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ أي حين دخولك إيَّاها ﴿قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ حتى تجعل الأمر مفوضاً إلى الله عزّ وجل.

وقوله: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيها وجهان:

١ ـ أنَّ ﴿مَا﴾ اسم موصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره «هذا ما شاء الله».

٢ ـ أنَّ ﴿مَا﴾ شرطية و﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فعل الشرط وجوابه محذوف والتقدير «ما شاء الله كان».

وقوله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي لا قوة لأحد على شيء إلَّا بالله وهذا يعني تفويض القوة لله عزّ وجل، يعني فهو الذي له القوة مطلقاً، القوة جميعاً، فهذه الجنة ما صارت بقوتك أنت ولا بمشيئتك أنت ولكن بمشيئة الله وقوته، وينبغي للإنسان إذا أعجبه شيء من ماله أن يقول: «ما شاء الله لا قوة إلَّا بالله» حتى يفوض الأمر إلى الله عزّ وجل لا إلى حوله وقوته، وقد جاء في الأثر أن من قال ذلك في شيء يعجبه من ماله فإنه لن يرى فيه مكروهاً[1].

---

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أنعم الله عزّ وجل على عبدٍ نعمةً في أهل ومال وولدٍ، فيقول: ما شاء الله، لا قوة =**

قوله تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

﴿إِن﴾ شرطية وفعل الشرط ترى والنون للوقاية والياء محذوفة للتخفيف والأصل «ترني».

﴿أَنَا۠﴾ ضمير فصل لا محلَّ له من الإعراب.

﴿أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ أي إن احتقرتني لكوني أقل منك مالا وأقل منك ولدا ولست مثلك في عزَّة النفر.

❁ ❁ ❁

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ﴾ هذه الجملة هي جواب الشرط. وهل هي للترجي أم للتوقع؟

الجواب: فيها احتمالان:

الأول: أنها للترجي وأن هذا دعا أن يؤتيه الله خيراً من جنته وأن ينْزل عليها حسباناً من السماء؛ لأنه احتقره واستذله فدعا عليه بمثل ما فعل به من الظلم، ولا حرج على الإنسان أن يَدعوَ على ظالمه بمثل ما ظلمه، ويحتمل أنه دعا عليه من أجل أن يعرف هذا المفتخر ربه ويدعَ الإعجاب بالمال وهذا من مصلحته. فكأنه دعا أن يؤتيه الله ما يستأثر به عليه، وأن يتلف

= **إلَّا بالله، فيرى فيها آفة دون الموت، وقرأ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾**». أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٥٣٧٦ إتحاف الخيرة) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٠٦٠) والطبراني في «الأوسط» (٤٢٧٣) و«الصغير» (٥٨٨) وغيرهم.

هذه الجنة حتى يعرف هذا الذي افتخر بجنته وعزة نفره أن الأمر أمر الله عزّ وجل، فكأنه دعا عليه بما يضره لمصلحة هي أعظم. فكون الإنسان يعرف نفسه ويرجع إلى ربه خير له من أن يفخر بماله ويعتز به، هذا إذا جعلنا عسى للترجي.

الثاني: أن تكون عسى للتوقع، والمعنى أنك إن كنت ترى هذا فإنه يُتَوقع أن الله تعالى يُزيل عني ما عبتني به ويزيل عنك ما تفتخر به، وأياً كان فالأمر وقع إما استجابة لدعائه وإما تحقيقاً لتوقعه.

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾. والمراد بالحسبان هنا ما يدمرها من صواعق أو غيرها.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ خصَّ السماء لأن ما جاء من الأرض قد يدافع، يعني لو نفرض أنه جاءت أمطار وسيول جارفة أو نيران محرقة تسعى وتحرق ما أمامها، يمكن أن تُدافع، لكن ما نزل من السماء يصعب دفعه أو يتعذر.

﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا﴾ أي تصبح لا نبات فيها.

﴿زَلَقًا﴾ يعني قد غمرتها المياه.

❁ ❁ ❁

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ فلا يوجد فيها ماء.

و﴿غَوْرًا﴾ بمعنى غائر فهو مصدر بمعنى اسم الفاعل، فدعا دعوة يكون فيها زوال هذه الجنة إمَّا بماء يغرقها حتى تصبح ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾، وإما بغور لا سُقيا معه لقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ وكلا الأمرين تدمير وخراب. فالفيضانات تدمر المحصول، وغور الماء حتى لا يستطيع أن يطلبه لبعده في

قاع الأرض أيضاً يدمر المحصول، فماذا كان بعد هذا الدعاء أو هذا التوقع؟

❁ ❁ ❁

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي بثمر صاحب الجنتين فهلكت الجنتان.

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ من الندم، وذلك أن الإنسان إذا ندم يقلب كفيه على ما قد حصل.

﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ وهذا يدل على أنه أنفق فيها شيئاً كثيراً.

﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي هامدة على عروشها. و﴿عُرُوشِهَا﴾ جمع عرش أو عريش وهو ما يوضع لتمدد عليه أغصان الأعناب وغيرها.

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ ولكن الندم بعد فوات الأوان لا ينفع، إنما ينتفع من سمع القصة، أما من وقعت عليه فلا ينفعه الندم لأنه قد فات الأوان.

❁ ❁ ❁

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾

فالذي كان يفتخر به ويقول: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ لم تمنعه فِئَتُهُ من عقوبة الله ولم ينتصر هو بنفسه لأنه والعياذ بالله كفر وحاور المؤمن فعوقب بهذه العقوبة.

❁ ❁ ❁

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ فيها قراءتان:

١ ـ الوِلاية ٢ ـ الوَلايَة.

فالوَلاية: بمعنى النُّصرة، كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].

والوِلاية: بمعنى الملك والسلطة، فيوم القيامة لا نصرة ولا ملك إلَّا ﴿لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾، وإذا كان ليس هناك انتصار ولا سلطان إلا لله فإن جميع من دونه لا يفيد صاحبه شيئاً.

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾، ﴿هُوَ﴾ الضمير يعود على الله، ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ من غيره، إذا أثاب عن العمل فهو ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ لأن غير الله إن أثاب فإنه يثيب على العمل بمثله، وإن زاد فإنه يزيد شيئاً يسيراً أما الله فإنه يثيب العمل بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

كذلك هو ﴿خَيْرٌ عُقْبًا﴾ جلَّ وعلا، لأن من كان عاقبته نصر الله عزّ وجل وتَوَلِّيَهُ فلا شك أن هذا خير من كل ما سواه. جميع العواقب التي تكون للإنسان على يد البشر تزول لكن العاقبة التي عند الله عزّ وجل لا تزول.

إنَّ هذا المثل الذي ضربه الله في هذه الآيات هل هو مثل حقيقي أو تقديري؟ يعني هل هذا الشيء واقع أو أنه شيء مُقدَّر؟

الجواب: من العلماء من قال إنه مثل تقديري كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦]،

وكقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩]، وما شابه ذلك، فيكون هذا مثلاً تقديرياً وليس واقعياً. ولكن السياق وما فيه من المحاورة والأخذ والرد يدل على أنه مثل حقيقي واقع، فهما رجلان أحدهما أنعم الله عليه والثاني لم يكن مثله.

ثم ضرب الله تعالى مثلاً آخر فقال:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو المطر ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أن الرِّياض صارت مختلطة بأنواع النبات المتنوع بأزهاره وأوراقه وأشجاره كما يشاهد في وقت الربيع كيف تكون الأرض، سبحان الله، كأنه وَشْيٌ من أحسن الوشْيات، إذا اختلط من كل نوع ومن كل جنس.

﴿فَأَصْبَحَ﴾ يعني هذا النبات المختلف المتنوع.

﴿هَشِيمًا﴾ هامداً.

﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ أي تحمله، فهذا هو ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. الآن الدنيا تزدهر للإنسان وتزهو له وإذا بها تخمد بموته أو فَقدها، لا بد من هذا، **إما أن يموت الإنسان أو أن يفقد الدنيا**. هذا مثل موافق تماماً، وقد ضرب الله تعالى هذا النوع من الأمثال في عدة سور من القرآن الكريم حتى لا نغتر بالدنيا ولا نتمسك

بها، **والعجب أننا مغترون بها ومتمسكون بها مع أن أكدارها وهمومها وغمومها أكثر بكثير من صفوها وراحتها**. والشاعر الذي قال:

فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نُساءُ ويومٌ نُسَرْ

لا يريد، كما يظهر لنا، المعادلة، لكن معناه أنه ما من سرور إلَّا ومعه مساءة، وما من مساءة إلَّا ومعها سرور، لكن صفوها أقل بكثير من أكدارها، **حتى المنعمون بها ليسوا مطمئنين بها** كما قال الشاعر الآخر:

لا طِيبَ للعيش ما دامت مُنغَّصَةً ... لذَّاتُه بادِّكار الموت والهرمِ

قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ ما وجد فهو قادر على إعدامه، وما عُدِم فهو قادر على إيجاده، وليس بين الإيجاد والعدم إلَّا كلمة ﴿كُن﴾، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]. وفي قوله: ﴿مُّقْتَدِرًا﴾ مبالغة في القدرة، ثم قال الله عزّ وجل مقارناً بين ما يبقى وما لا يبقى:

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ﴾ من أي نوع سواء كان من العروض أو النقود أو الآدميين أو البهائم.

﴿وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ولا ينفع الإنسان في الآخرة إلَّا ما قدَّم منها، وذكر البنين دون البنات لأنه جرت العادة أنهم لا يفتخرون إلَّا بالبنين، والبنات في الجاهلية مهينات بأعظم المهانة كما قال الله عزّ وجل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا

وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل: ٥٨]، أي صار وجهه مسوداً وقلبه ممتلئاً غيظاً ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ يعني يختبئ منهم ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾، ثم يُقَدِّرُ في نفسه ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٩]. بقي قسم ثالث وهو أن يُمسِكَهُ على عِزٍّ وهذا عندهم غير ممكن، ليس عندهم إلَّا أحد أمرين:

١ ـ إما أن يمسكه على هون.

٢ ـ يَدُسه في التراب، أي يدفنه فيه وهذا هو الوأد، قال الله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي أن الإنسان يتجمل به يعني يتجمل أنَّ عنده أولاداً، قدر نفسك أنك صاحب قِرى يعني أنك مضياف وعندك شباب، عشرة، يستقبلون الضيوف، تجد أن هذا في غاية ما يكون من السرور، هذه من الزينة، كذلك قدر نفسك أنك تسير على فرس وحولك هؤلاء الشباب يَحُفُّونك من اليمين ومن الشمال ومن الخلف ومن الأمام، تجد شيئاً عظيماً من الزينة، ولكن هناك شيء خير من ذلك.

قال تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ هي الأعمال الصالحات من أقوال وأفعال ومنها سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، ومنها الصدقات والصيام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك، هذه الباقيات الصالحات.

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي أجراً ومثوبة.

﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي خير ما يُؤمِّله الإنسان لأن هذه الباقيات

الصالحات هي كما وصفها الله **بباقيات**، أما الدنيا فهي فانية وزائلة.

❁ ❁ ❁

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ أي اذكر لهم ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ وعلى هذا فإن ﴿يَوْمَ﴾ ظرف عامِلُهُ محذوف والتقدير اذكر ﴿يَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: اذكر للناس هذه الحال، وهذا المشهد العظيم ﴿يَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ وقد بين الله عزّ وجل في آية أخرى أنه يسيرها فتكون سراباً ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]، وتكون كالعهن المنفوش: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، وذلك بأن الله تعالى يدُك الأرض وتصبح الجبال كثيباً مهيلاً ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] ثم تتطاير في الجو، هذا معنى تُسَيَّرُ. ومن الآيات الدالة على هذا المعنى قول الله تبارك وتعالى في سورة النمل: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [النمل: ٨٨]. بعض الناس قال إنَّ هذه الآية تعني دوران الأرض، فإنك ترى الجبال فتظنها ثابتة ولكنها تسير، وهذا غلط وقول على الله تعالى بلا علم لأن سياق الآية يأبى ذلك كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ

خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٧ ـ ٨٩]. فالآية واضحة أنها يوم القيامة، وأما زعم هذا الرجل القائل بذلك بأن يوم القيامة تكون الأمور حقائق وهنا يقول: ﴿تَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا﴾ فلا حسبان في الآخرة، فهذا غلط أيضاً لأنه إذا كان الله أثبت هذا فيجب أن نؤمن به ولا نحرفه بعقولنا، ثم إن الله عزّ وجل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ١، ٢]. فإذا قلنا إن زلزلة الساعة هي قيامها، فقد بيَّن الله أن الناس يراهم الرائي فيظنهم سكارى وما هم بسكارى، وعلى كل حال **فإن الواجب علينا جميعاً أن نجري الآيات على ظاهرها وأن نعرف السياق لأنه يعين المعنى**، فكم من جملة في سياق يكون لها معنى ولو كانت في غير هذا السياق، لكان لها معنى آخر، ولكنها في هذا السياق يكون لها المعنى المناسب لهذا السياق.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: ظاهرة لأنها تكون قاعاً وصفصفاً، وهي الآن ليست بارزة لأنها مكورة، وأكثرها غير بارز، ثم إن البارز لنا أيضاً كثير منه مختفٍ بالجبال، فيوم القيامة لا جبال ولا أرض كروية بل تمد الأرض مدَّ الأديم، قال الله عزّ وجل: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ١ ـ ٣]، فقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ يدل على أن الأرض الآن غير ممدودة.

وقوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي الناس، بل إن الوحوش تحشر كما قال الله عزّ وجل: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]. بل جميع

الدواب أيضاً كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]. فكلُّ شيء يحشر، ولهذا يقول الله عزّ وجل هنا: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي: الناس، وفي الآية الأخرى ﴿ٱلْوُحُوشُ﴾ وفي الأخيرة جميع الدواب.

وقوله: ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ أي نترك، ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ كل الناس يحشرون، إن مات في البر حشر، في البحر حشر، في أي مكان، لا بد أن يحشر يوم القيامة ويجمع.

❁ ❁ ❁

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟﴾ أي: عرض الناس ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: على الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿صَفًّا﴾ أي: حال كونهم صفاً بمعنى صفوفاً، فيحاسبهم الله عزّ وجل، أما المؤمن فإنه يخلو به وحده ويقرره بذنوبه ويقول له عملت كذا وعملت كذا، فيقر فيقول له أكرم الأكرمين: «**إني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»[1] يغفر الله عزّ وجل له يوم القيامة، ولا يعاقبه عليها وفي الدنيا يسترها، فكم من ذنوب لنا اقترفناها في الخفاء؟ كثيرة، سواء كانت عملية في

---

(١) متفق عليه. البخاري: كتاب: المظالم، باب: قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، (٢٤٤١). مسلم: كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل، وإن كثر قتله، (٢٧٦٨)، (٥٢).

الجوارح الظاهرة أو عملية من عمل القلوب، فسوء الظن موجود، الحسد موجود، إرادة السوء للمسلم موجودة، وهو مستور عليه. وأعمال أخرى من أعمال الجوارح ولكن الله يسترها على العبد. إننا نؤمِّل إن شاء الله أن الذي سترها علينا في الدنيا، أن يغفرها لنا في الآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي يقال لهم ذلك. وهذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام وقد والقسم المقدر، يعني والله لقد جئتمونا ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ليس معكم مال ولا ثياب ولا غير ذلك، بل ما فقد منهم يرد إليهم، كما جاء في الحديث الصحيح أنهم يحشرون يوم القيامة «**حفاة، عراة، غرْلا**»[1] و«**غُرْلا**» جمع أغرل وهو الذي لم يختن، إذاً سوف يعرضون على الله صفا ويقال: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ويقال أيضاً:

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾، هذا إضراب انتقال، فهم يوبخون ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ فلا مفر لكم ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فلا مال لكم ولا أهل، ويوبخون أيضاً على إنكارهم البعث فيقال: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾، وهذا الزعم تبين بطلانه، فهو باطل.

❁ ❁ ❁

---

(١) متفق عليه. البخاري: كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، (٣٣٤٩). مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا، وبيان الحشر يوم القيامة، (٢٨٦٠)، (٥٨).

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي وزِّع بين الناس، فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله.

﴿فَتَرَى﴾ أيها الإنسان ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الكافرين ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: خائفين مما كتب فيه لأنهم يعلمون ما قدموه لأنفسهم، وهذا يشبه قول الله تعالى عن اليهود الذين قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، فتُحُدوا وقيل لهم: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]، قال الله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني يعرفون أنهم إذا ماتوا عُذِّبوا، ومن كان يعلم أنه إذا مات عُذب فلن يتمنى الموت أبداً، فهؤلاء مشفقون مما في كتاب الله، يعني يعلمون أنه مُحتوٍ على الفضائح والسيئات العظيمة.

ويقولون إذا علموا: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾.

﴿يا﴾ حرف نداء ﴿ويلتنا﴾ وهي الهلاك ولكن كيف تنادى؟

الجواب: إما أن «يا» للتنبيه فقط لأن النداء يتضمن الدعاء والتنبيه، وإما أن نقول إنهم جعلوا ويلتهم بمنْزلة العاقل الذي يوجه إليه النداء، ويكون التقدير «يا ويلتنا احضري»! لكن المعنى الأول أقرب لأنه لا يحتاج إلى تقدير، ولأنه أبلغ.

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي شيء لهذا الكتاب؟

﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ يعني أثبتها عدداً، كأنهم يتضجرون من هذا، ولكن هذا لا ينفعهم.

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ﴾ أي وجدوا ثواب ما عملوا.

﴿حَاضِرًا﴾ لم يغب منه شيء وعبَّر الله تعالى بالعمل عن الثواب لأنه مثلُه بلا زيادة.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ وذلك لكمال عدله سبحانه وتعالىٰ فلا يزيد على مسيء سيئة واحدة، ولا يَنقص من محسن حسنة واحدة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]. وهذه الآية ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ من الصفات المنفية عن الله، وأكثر الوارد في الصفات الصفات المثبتة كالحياة والعلم والقدرة. وأما ذكر الصفات المنفية فقليل بالنسبة للصفات المثبتة، **ولا يتم الإيمان بالصفات المنفية إلَّا بأمرين:**

الأول نفي الصفة المنفية.

والثاني إثبات كمال ضدها.

فالنفي الذي لم يتضمن كمالاً لا يمكن أن يكون في صفات الله. بل لا بد في كل نفي نفاه الله عن نفسه أن يكون متضمناً لإثبات كمال الضد، والنفي إن لم يتضمن كمالاً فقد يكون لعدم قابليته، أي قابلية الموصوف له، وإذا لم يتضمن كمالاً فقد يكون لعجز الموصوف، وإذا كان نفياً محضاً فهو عدمٌ لا كمال فيه، والله تعالى له الصفات الكاملة كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] أي الوصف الأكمل.

قلنا إذا لم يتضمن النفي كمالاً فقد يكون لعدم قابليته،

كيف ذلك؟ ألسنا نقول إن الجدار لا يظلِم؟ بلى، هل هذا كمال للجدار؟ لا، لماذا؟ لأن الجدار لا يقبل أن يوصف بالظلم، ولا يوصف بالعدل، فليس نفي الظلم عن الجدار كمالاً، وقد يكون النفي إذا لم يتضمن كمالاً نقصاً لعجز الموصوف به عنه، لو أنك وصفت شخصاً بأنه لا يظلم بكونه لا يجازي السيئة بمثلها لأنه رجل ضعيف لا يقدر على الانتصار لنفسه لم يكن هذا مدحاً له.

فالخلاصة أن كل وصفٍ وصف الله به نفسه وهو نفي، فإنه يجب أن نعتقد مع انتفائه ثبوتَ كمال ضده، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، فعلى هذه القاعدة نفى الله «العي» وهو العجز؛ لثبوت كمال ضد العجز وهو القدرة، إذاً نؤمن أن الله عزّ وجل له قدرة لا يلحقها عجز، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، أي من تعب وإعياء وذلك لكمال قدرته جلَّ وعلا.

قلنا: إن الله لا يظلم أحداً وذلك لكمال عدله، لكن الجهمية قالوا: «لا يظلم» لعدم إمكان الظلم في حقه، وليس لأنه قادر على أن يظلم ولكنه لا يظلم، قالوا لأن الخلق كلَّهم خلق الله، ملك لله، فإذا كانوا ملكاً لله فإنه إذا عذَّب محسناً فقد عذب ملكه، وليس ذلك ظلماً لأنه يفعل في ملكه ما يشاء، ولكن قولهم هذا باطل، لأنه إذا كان الله عزّ وجل قد وعد المحسنين بالثواب والمسيئين بالعذاب، ثم أحسن المحسن فعذبه وأساء

المسيء فأثابه فأقل ما يقال فيه: إنه وحاشاه سبحانه وتعالىٰ أخلف وعده. هذا أقل ما يقال، وهذا ولا شك مناف للعدل وللصدق، فنقول لهم: إنَّ الله عزّ وجل قال في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي**»[1]، وهذا يدل على أنه قادر عليه، لكن حرَّمه على نفسه لكمال عدله جلَّ وعلا، إذاً نحن نقول لا يظلم الله أحداً لكمال عدله لا لأن الظلم غير ممكن في حقه، كما قالت الجهمية.

❁ ❁ ❁

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ «إذ» هذه تأتي كثيراً في القرآن، والمُعرِبون يقولون: إنها مفعول لفعل محذوف، والتقدير: اذكرْ إذْ يعني اذكر هذا للأمة حتى تعتبر به ويتبين به فضيلة بني آدم عند الله.

وقوله: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ هم عالم غيبي خلقهم الله من نور. كما أعلمنا النبي ﷺ **أن الله خلقهم من نور**[2]. وأعلمنا الله تعالى في

---

(١) رواه مسلم: كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، (٢٥٧٧)، (٥٥).

(٢) قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**خُلِقَتِ الْمَلائِكَةُ، مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُم**». رواه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب: في أحاديث متفرقة، (٢٩٩٦)، (٦٠). وغيره.

القرآن أنه خلق الجنَّ من نار، وأنه خلق البشر من طين، إذاً المخلوقات التي نعلمها هي، الملائكة من نور، والجن من نار، والإنسان من طين، فالملائكة إذاً عالم غيبي والإيمان بهم أحد أركان الإيمان، والملائكة على خلاف الشياطين كما يتبين من الآية، وهم أقدر من الشياطين وأطهر من الشياطين، ولهم من النفوذ ما ليس للشياطين، فالشياطين لا يمكن أن يَلِجُوا إلى السماء، بل من حاول أُتبع بالشهاب المحرق، والملائكة يصعدون فيها، فهم يصعدون بأرواح بني آدم إلى أن تصل إلى الله، وهم أيضاً قد ملؤوا السمٰوات، فيجب علينا أن نؤمن بالملائكة إيماناً لا شك فيه، وأنهم عالم غيبي، لكن قد يكونون من العالم المحسوس بقدرة الله، كما كان جبريل عليه السلام، فقد رآه النبي ﷺ مرتين له ستمائة جناح قد سدَّ الأفق وهو واحد وهذا يدل على عظمة خِلقته، وعظمة خِلقة جبريل تدل على عظمة الخالق جلَّ وعلا، أحياناً يأتي جبريل الذي هذا وصفه وهذا خلقه على صورة إنسان، ولكن ليس تقلبه هكذا بقدرته هو، ولكن بقدرة خالقه جلَّ وعلا، والله أعطاه القدرة على التقلب والتكيف بقدرة الله جلَّ وعلا.

وقوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ قال بعضهم: سجود تحية، وليس سجوداً على الجبهة، قالوا ذلك فراراً من كونه سجوداً على الجبهة، لأن السجود على الجبهة لا يصح إلا لله، ولكن الذي يجب علينا أن نأخذ الكلام على ظاهره ونقول: الأصل أنه سجود على الجبهة. وإذا كان امتثالاً لأمر الله لم يكن شركاً كما أن قتل النفس بغير حق من كبائر الذنوب، وإذا وقع امتثالاً لأمر الله كان

طاعة من الطاعات، فإن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أُمر بذبح ابنه فامتثل أمر الله وشرع في تنفيذ الذبح، ولا يخفى ما في ذبح الابن من قطيعة الرحم، لكن لما كان هذا امتثالاً لأمر الله عزّ وجل صار طاعة، ولما تحقق مراد الله تعالى من الابتلاء نسخ الأمر ورفع الحرج، إذاً فالسجود لآدم لولا أمر الله لكان شركاً، لكن لما كان بأمر الله كان طاعة لله.

وآدم: هو أبو البشر خلقه الله عزّ وجل من طين وخلقه بيده[1]، قال أهل العلم لم يخلق الله شيئاً بيده إلا آدم وجنة عدن، فإنه خلقها بيده وكتب التوراة بيده[2] جل وعلا، فهذه ثلاثة أشياء كلها كانت بيد الله، أما غيرُ آدم فيخلق بالكلمة (كن)

---

(١) قالَ الله تعالى مخاطباً إبليس حين استكبَر عن طاعةِ أمرِ الله بالسجودِ لآدمَ بعد أن خلقَهُ تعالى بيده: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾. وَقَدْ جاء في الصحيحين وغيرهما كما في حديث محاجة آدم لموسى عليهما السلام قول موسى: «أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ...» رواه مسلم: كتاب القدر، باب: حجاج آدم وموسى عليهم السلام، (٢٦٥٢)، (١٥) وغيره. وفي حديث الشفاعة: «**يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده...**» رواه البخاري: كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾، (٣٣٤٠). ومسلم: كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، (١٩٤)، (٣٢٧) وغيرهما.

(٢) جاء في حديث محاجة آدم لموسى عليه السلام أن آدم قال لموسى: «**أَنْتَ مُوسَى اصْطَفَاكَ الله بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ...**». وفي رواية «**كَتَبَ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ...**» أخرجه مسلم: كتاب: القدر، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام، (٢٦٥٢)، (١٣).

فيكون، وهو نبي، وليس برسول؛ لأن أول رسول أرسل إلى البشرية هو نوح عليه الصلاة والسلام، أرسله الله لما اختلف الناس: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، أي كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. فكان أول رسول نوحٌ عليه الصلاة والسلام[١] وآدم نبي مُكلَّم[٢]. فإذا قال قائل كيف يكون نبياً ولا يكون رسولاً؟

الجواب: يكون نبياً ولا يكون رسولاً؛ لأنه لم يكن هناك داع إلى الرسالة، فالناس كانوا على ملة واحدة والبشر لم ينتشروا بعد كثيراً ولم يفتتنوا في الدنيا كثيراً، نفر قليل، فكانوا يستنون بأبيهم ويعملون عمله، ولما انتشرت الأمة وكثرت واختلفوا أرسل الله الرسل.

﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ امتثالاً لأمر الله ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ لم يسجد. وإبليس هو الشيطان ولم يسجد، بَيَّنَ الله سبب ذلك في قوله: ﴿كَانَ مِنَ

---

(١) كما في حديث الشفاعة الطويل، وفيه قوله ﷺ: «فيأتون نوحاً فيقولون: **يا نوح أنت أولُ الرُّسل إلى أهل الأرض**». متفق عليه واللفظ للبخاري: كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾، (٣٣٤٠). مسلم: كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة منها. (١٩٤)، (٣٢٧).

(٢) أخرجهُ الإمام أحمد في «المسند» (٥/١٧٨)، وأبو داود الطيالسي (١/ ٦٥)، وابن حبان في «صحيحه» (رقم ٣٦١) من حديث أبي ذَر قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الأَنْبِيَاءِ كَانَ أَوَّل؟ قَالَ: آدَمُ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله وَنَبِيٌّ كَان؟ قَال: نَعَمْ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ. وصححه الألباني في «المشكاة».

ٱلْجِنِّ﴾ فالجملة استئنافية لبيان حال إبليس أنه كان من الجن أي: من هذا الصنف وإلا فهو أبوهم.

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: خرج عن طاعة الله تعالى في أمره، وأصل الفسوق الخروج، ومنه قولهم فسقت التمرة إذا انفرجت وانفتحت.

فإذا قال قائل: إن ظاهر القرآن أن إبليس كان من الملائكة؟

فالجواب: لا، ليس ظاهر القرآن؛ لأنه قال: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ ثم ذكر أنه ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾، نعم القرآن يدل على أن الأمر توجه إلى إبليس كما قد توجه إلى الملائكة، ولكن لماذا؟ قال العلماء إنه كان ـ أي: إبليس ـ يأتي إلى الملائكة ويجتمع إليهم فوجه الخطاب إلى هذا المجتمع من الملائكة الذين خُلقوا من النور ومن الشيطان الذي خُلق من النار، فرجع الملائكة إلى أصلهم والشيطان إلى أصله، وهو الاستكبار والإباء والمجادلة بالباطل لأنه أبى واستكبر وجادل، ماذا قال لله؟ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، فكيف تأمرني أن أسجد لواحد أنا خير منه؟ ثم علل بعلة هي عليه قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وهذا عليه فإن المخلوق من الطين أحسن من المخلوق من النار، المخلوق من النار، خلق من نار محرقة ملتهبة فيها علامة الطيش تجد اللهب فيها يروح يميناً وشمالاً، ما لها قاعدة مستقرة، ولقد ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه «إغاثة اللهفان» فروقاً كثيرة بين الطين وبين النار، ثم على فرض أنه خلق من النار وكان خيراً من آدم أليس الأجدر به أن يمتثل أمر الخالق؟ بلى، لكنه أبى واستكبر.

قال الله عزّ وجل لما بين حال الشيطان:

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ الخطاب يعود لمن اتخذ إبليس وذريته أولياء من دون الله فعبدوا الشيطان وتركوا عبادة الرحمٰن، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

قوله: ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي: من ولدوا منه، سُئل بعض السلف ـ سأله ناس من المتعمقين ـ فقالوا هل للشيطان زوجة؟ قال إني لم أحضر العقد، وهذا السؤال لا داعي له، نحن نؤمن بأن له ذرية أما من زوجة أو من غير زوجة ما ندري، أليس الله قد خلق حواء من آدم؟ بلى، فيجوز أن الله خلق ذرية إبليس منه كما خلق حواء من آدم.

وهذه المسائل ـ مسائل الغيب ـ لا ينبغي للإنسان أن يورد عليها شيئاً يزيد على ما جاء في النص؛ لأن هذه الأمور فوق مستوانا، نحن نؤمن بأن لإبليس ذرية ولكن هل يلزمنا أن نؤمن بأن له زوجة؟

الجواب: لا يلزمنا.

﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ أي تتولونهم وتأخذون بأمرهم من دون الله ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ هذا محط الإنكار، يعني كيف تتخذون هؤلاء أولياء وهم لكم أعداء؟ هذا من السفه ونقص العقل ونقص التصرف أن يتخذ الإنسان عدوه وليا.

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ أي بئس هذا البدل بدلاً لهم، وما هو البدل الخير؟

الجواب: أن يتخذوا الله ولياً لا الشيطان.

وقوله: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ يمكن أن نقول إنها بمعنى الكافرين لأنهم هم الذين اتخذوا الشيطان وذريته أولياء على وجه الإطلاق، ويمكن أن نقول إنها تعم الكافرين ومن كان ظُلمهم دون ظلم الكفر، فإن لهم من ولاية الشيطان بقدر ما أعرضوا به عن ولاية الرحمٰن.

❁ ❁ ❁

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني أن هؤلاء الذين اتخذهم الناس أولياء من دون الله ليس لهم حق الكون وبالتدبير، فالله ـ عزّ وجل ـ ما أشهدهم خلق السمٰوات والأرض؛ لأن السمٰوات والأرض مخلوقتان قبل الشياطين.

﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني ما أشهدت بعضَهم خلق بعض. فكيف تتخذونهم أولياء وهم لا شاركوا في الخلق ولا خلقوا شيئاً بل ولا شاهدوه، وفي هذه الجملة دليل على أن كل من تكلم في شيء من أمر السمٰوات والأرض، بدون دليل شرعي أو حسي فإنه لا يُقبل قوله، فلو قال: إن السمٰوات تكونت من كذا والأرضُ تكونت من كذا وبعضهم يقول: الأرض قطعة من الشمس وما أشبه ذلك من الكلام الذي لا دليل على صحته.

فإننا نقول له: إن الله ما أشهدك خلق السمٰوات والأرض، ولن

نقبل منك أيَّ شيء من هذا، إلاَّ إذا وجدنا دليلاً حسياً لا مناص لنا منه، حينئذٍ نأخذ به؛ لأن القرآن لا يعارض الأشياء المحسوسة.

﴿وَمَا كُنتُ﴾ الضمير في ﴿كُنتُ﴾ يعود إلى الله.

﴿مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي: أنصاراً ينصرون ديني، لماذا؟ لأن المضل يصرف الناس عن الدين، فكيف يتخذ الله المضلين عضدا، وهو إشارة إلى أنه لا ينبغي لك أيها الإنسان أن تتخذ المضلين عضدا تنتصر بهم، لأنهم لن ينفعوك بل سيضرونك، إذاً لا تعتمد على السفهاء ولا تعتمد على أهل الأهواء المنحرفة؛ لأنه لا يمكن أن ينفعوك بل هم يضرونك، فإذا كان الله عزّ وجل لم يتخذ المضلين عضدا فنحن كذلك لا يليق بنا أن نتخذ المضلين عضدا؛ لأنهم لا خير فيهم خير، وفي هذا النهي عن بطانة السوء وعن مرافقة أهل السوء، وأن يحذر الإنسان من جلساء السوء.

❁ ❁ ❁

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أي اذكر يوم يقول: ﴿نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ فينادونهم ولا يستجيبون لهم، وهذا يكون يوم القيامة، يقال لهم: أين شركائي الذين كنتم تزعمون؟ نادوا شركائي الذين زعمتم أنهم أولياء شفعاء.

﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ فهذه الأصنام لا تنفع أهلها بل تُلقى هي وعابدوها في النار، قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨].

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ الموبق هو مكان الهلاك، يعني أننا جعلنا بينهم حائلاً مهلكاً حيث لا يمكن أن يذهبوا إلى شركائهم، ولا أن يأتي شركاؤهم إليهم، أرأيت لو كان بينك وبين صاحبك خندق من نار هل يمكن أن تذهب إليه لتنصره، أو أن يأتي إليك لينصرك؟

الجواب: لا يمكن، هؤلاء يجعل الله بينهم يوم القيامة ﴿مَّوْبِقًا﴾.

❁ ❁ ❁

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ المجرمون يعني الكافرين، كما قال عزّ وجل: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

﴿فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ ﴿فَظَنُّوٓا۟﴾ أي أيقنوا: ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ والظن يأتي بمعنى اليقين كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، أي: يوقنون أنهم ملاقو الله، وإلَّا فالظن الذي هو ترجيح أحد الأمرين المشكوك فيهما لا يكفي في الإيمان.

﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ يعني لم يجدوا مكانا ينصرفون عنها إليه، وهذه الجملة معطوفة على (رأى) وليست داخلة تحت قوله ظنوا، لأنه لو كان داخلاً في الظن لقال «ولن»، يعني أنهم لما رأوْها وظنوا أنهم مواقعوها لم يجدوا عنها مصرفاً أي مكاناً ينصرفون إليه لينجوا به منها.

❁ ❁ ❁

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿صَرَّفْنَا﴾ يعني نوعنا، تصريف الشيء يعني تنويعه كما قال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، أي تنويعها من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلى الغرب، إذاً ﴿صَرَّفْنَا﴾ أي نوعنا في هذا القرآن من كل مثل، وهكذا الواقع. فكلام الله صدق، أمثال القرآن تجدها متنوعة فتارة لإثبات البعث، وتارة لإثبات وحدانية الله، وتارة لبيان حال الدنيا، وتارة لبيان حال الآخرة، وتارة تكون مطولة، وتارة مختصرة، فهي أنواع. كل نوع في مكانه من البلاغة والفصاحة.

﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي من كل جنس وصنف، فهذا مثل لكذا وهذا مثل لكذا، لماذا؟

الجواب: من أجل أن يتذكر الناس ويتعظوا ويعقلوها. ولكن يوجد من الناس من لا يتعظ بهذه المثل، بل على العكس، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾، قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، بعض المفسرين يقول: ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني الكافر، ولكن في هذا نظر؛ لأنه لا دليل على تخصيصه بالكافر، بل نقول ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ من حيث الإنسانية.

﴿أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ يعني أكثر ما عنده، ولكن من حيث الإيمان فالمؤمن لا يكون مجادلاً، بل يكون مستسلماً للحق ولا يجادل فيه، ولهذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما أوتي قوم الجدل إلَّا ضلوا» وتدبر حال الصحابة رضي الله عنهم تجد أنهم مستسلمون غاية الاستسلام لما

جاءت به الشريعة، ولا يجادلون ولا يقولون لم؟ ولما قال الرسول ﷺ: «**توضؤوا من لحوم الإبل ولا توضؤوا من لحوم الغنم**»(١) هل قال الصحابة «لِمَ»؟ بل قالوا سمعنا وأطعنا، ما جادلوا، وكذلك في بقية الأوامر، لكن الإنسان من حيث هو إنسان أكثر شيء عنده الجدل. إذاً إذا مر بك مثل هذا في القرآن الكريم ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فلا تحمله على الكافر إلا إذا كان السياق يُعَيِّنُ ذلك، فإذا كان السياق يراد به ذلك، صار هذا عاماً يراد به الخاص، لكن إذا لم يكن في السياق ما يعين ذلك فاجعله للعموم، اجعله إنساناً بوصف الإنسانية، والإنسانية إذا غلب عليها الإيمان اضمحل مقتضاها المخالف للفطرة.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ هذا وقع في قول الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب وزوجته فاطمة رضي الله عنهما حين جاء إليهما ذات ليلة ووجدهما نائمين فقال: «ألا تصليان»، قال علي رضي الله عنه: «إنَّ أنفُسَنا بيد الله ولو شاء لأيقظنا»، فانصرف الرسول ﷺ وهو يضرب على فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾(٢) ولا شك أن الرسول ﷺ يعلم أن أنفسهما بيد الله، والرسول عليه الصلاة والسلام قال في الفريضة: «**من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا**

---

(١) رواه ابن ماجه: كتاب: الطهارة وسننها، باب: ما جاء في الوضوء من لحوم الإبل، (٤٩٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه. البخاري: كتاب: التهجد، باب: تحريض النبي ﷺ على قيام الليل...، (١٢٧). مسلم: كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، (٧٧٥)، (٢٠٦).

ذكرها»[١] فعذر الناسي والنائم وهو يعلم عليه الصلاة والسلام ذلك ولكنه يريد أن يَحُثَّهُما، وأراد علي رضي الله عنه أن يدفع اللوم عنه وعن زوجه فاطمة رضي الله عنها.

❁ ❁ ❁

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ يعني ما منع الناس عن الإيمان والاستغفار نقص البيان، فقد ذكر الله أنه ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل، وكان الواجب على الإنسان إذا ضربت له الأمثال أن يؤمن. لكنه ما منعهم من الإيمان نقصٌ في البيان، فالأمر والحمد لله بين واضح أتى بها النبي ﷺ **بيضاء نقية**[٢] لكنه العناد.

ولهذا قال جلَّ وعلا: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي ما ينتظرون إلَّا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلاً.

وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ يعني يطلبون مغفرته، فالمؤمن كثير الاستغفار لربه، والكافر إذا آمن لا بد أن يستغفر الله بما وقع

---

(١) رواه مسلم وغيره. سبق تخريجه ص(٣٩).

(٢) قال النبي ﷺ: «**تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلّا هالك...**» رواه أحمد (رقم ١٧١٤١) وابن ماجه في «المقدمة»، باب: اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، (٤٢). وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٢٧) وصححه الألباني.

فيه من الذنوب، فإذا آمن واستغفر زال عنه ما كان من الذنوب. قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ يعني مقابلة ومعاينة ومباشرة، وما هي سنة الأولين؟

الجواب: هي أخذهم بالعذاب العام، لكن لم يأخذ الله هذه الأمة بعذاب شامل لأن النبي ﷺ دعا ربه **ألا يهلك أمّته بسنة بعامة**[1] فأجاب الله دعاءه.

❁ ❁ ❁

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ هذه وظيفة الرسل ما نرسل المرسلين من أولهم نوح عليه السلام إلى آخرهم محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلَّم، إلَّا لهذين الأمرين: مبشرين ومنذرين، يعني ولم نرسلهم من أجل أن يجبروا الناس على الإيمان بل هم مبشرون ومنذرون، يبشرون المؤمنين وينذرون الكافرين.

﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ منصوبة على الحال من المرسلين، يعني إلَّا حال كونهم مبشرين ومنذرين.

﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ المجادلة

---

(١) رواه مسلم: كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، (٢٨٨٩)، (١٩) وغيره.

هي المخاصمة وسميت المخاصمة مجادلة؛ لأن كل واحد يَجْدُلُ حجته للآخر والجَدْل هو فتل الحبل حتى يشتد ويقوى، هذا أصل المجادلة، إذاً يجادل أي يخاصم، والمخاصمة بالباطل باطلة، مثال ذلك في الرسل يقولون: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤]، ويجادلون في البعث فيقولون: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، ويجادلون في الآلهة يقولون: إذا كان المشركون وما يعبدون من دون الله حصب جهنم، فعيسى عليه السلام من حصب جهنم، وغير ذلك من المجادلة، وقد أبطل الله مجادلتهم بعيسى عليه السلام قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، ومنهم عيسى عليه السلام ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] ويستفاد من الآية أن كل إنسان يجادل من أجل أن يدحض الحق فإن له نصيباً من هذه الآية، يعني أن فيه نصيباً من الكفر والعياذ بالله لأن الكافرين هم الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، فإذا قال قائل: «الشبهات التي يوردها من يوردها من الناس، كيف يقال إنها باطل وهي شبهة؟».

فالجواب: إذا كان غرضهم منها أن يُدحضوا الحق، مثل الذين ينكرون حقيقة استواء الله على العرش ويقولون: إنه لو استوى على العرش لكان «جسماً»، فهؤلاء جادلوا بالباطل من أجل أن يدحضوا الحق الذي أثبته الله لنفسه، وأما مسألة أن الله «جسم» أو غير «جسم» فهذه شيء آخر، المهم أنهم أتوا بهذه الكلمة من أجل إدحاض الحق، ونحن لا ننكر عليهم مسألة أنه «جسم أو غير جسم»، ننكر أنهم أنكروا حقيقة الاستواء، وأما

مسألة أنه «جسم أو غير جسم» فهذا مبحث آخر، وهو أننا لا نثبت اللفظ «جسم» ولا ننكره، أما المعنى فنقول: إن الله تعالى حق قائم بذاته موصوف بصفاته يفعل ما يشاء، يستوي على عرشه، وينزل إلى السماء الدنيا، وينْزِل ليفصل بين العباد، ويعجب ويفرح ويضحك، المهم أنه كلما رأيت شخصاً يجادل يريد أن يدحض الحق، فله نصيب من هذه الآية.

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾ ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾ أي صيروا. ﴿ءَايَٰتِي﴾ يعني القرآن.

﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ أي ما أنذروا به من العذاب اتخذوها ﴿هُزُوًا﴾ مثال ذلك أن الكفار استهزؤوا لما أخبر الله عزّ وجل عن شجرة الزقوم ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤]، يعني في قعره، فصاروا يضحكون كيف تخرج في أصل الجحيم، وهي شجرة أبعد ما يكون عن النار، النار حارة جافة والشجرة رطبة، فجعلوا يستهزئون ويقولون: هذا من هذيان محمد ﷺ، فاتخذوا ما أنذروا به هزواً والله عزّ وجل قال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَأٓكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الصافات: ٦٦] ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤، ٥٥]، يملؤون بطونهم من هذه الزَّقوم ملئاً تاماً ثم تحترق من العطش، فماذا يسقون؟ يسقون ماءً حاراً ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي على ما في بطونهم ﴿مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾، ومع ذلك يشربون شرباً ليس عادياً بالنسبة إلى البشر، ولكنه شرب الإبل الهيم، العطاش، هذه الشجرة التي يهزؤون بها هي التي يملؤون بها بطونهم في جهنم.

❁ ❁ ❁

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي ذكره الواعظ بآيات ربه الكونية، كأخذه الأمم المكذبين، أو الشرعية كالقرآن.

﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾، ولم يقبلها، أي لا أحد أظلم منه، فإن قيل: ما الجمع بين هذه الآية، وبين الآية التي في أول السورة وهي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ونحوها؟

فالجواب: بأحد وجهين:

الأول: أن الأفضلية باعتبار ما شاركه في أصل المعنى، فقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ يعني من أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها من الذين يُذَكَّرون فيُعرِضون، قد يذكر الإنسان فيعرض، لكن أشد ما يكون أن يذكر بآيات الله ثم يعرض عنها، وفي افتراء الكذب قد يفتري الإنسان الكذب على فلان وفلان، وأعظم ما يكون الافتراء عليه هو الله عزّ وجل، وأنت إذا أخذت بهذه القاعدة سلمت من إشكال كبير.

الثاني: وقيل: إن «أظلم» و«أظلم» يشتركان في الأظلمية ويتساويان فيها بالنسبة لغيرهما، وفيه نظر لأنه لا يمكن أن نقول: إنّ من ذكر بآيات ربه فأعرض عنها أنه يساوي من افترى على الله كذباً، أو من منع مساجد الله أن يُذْكر فيها اسمه يساوي من كذب على الله، ونحو ذلك.

قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ الكونية والشرعية؛ الكونية أن يقال له: إن كسوف الشمس والقمر يخوف الله بهما عباده فيعرض عنها ويقول: أبداً خسوف القمر طبيعي، وكسوف الشمس طبيعي، ولا إنذار ولا نذير، وهذا إعراض، أما الآيات الشرعية فكثير من يذكر بآيات الله ويعرض عنها.

﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يعني نسي ما قدمت يداه من الكفر والمعاصي والاستكبار وغير ذلك مما يمنعه عن قبول الحق، لأن الإنسان والعياذ بالله كلما أوغل في المعاصي، ازداد بعداً عن الإقبال على الحق كما قال الله عزّ وجل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ولذلك يجب أن يُعلم أن من أشد عقوبات الذنوب أن يعاقب الإنسان بمرض القلب والعياذ بالله، فالإنسان إذا عوقب بهلاك حبيب أو فقد محبوب من المال، فهذه عقوبة لا شك، لكن إذا عوقب بانسلاخ القلب فهذه العقوبة أشد ما يكون. يقول ابن القيم رحمه الله:

والله ما خوفي الذنوب فإنها ... لعلى طريق العفو والغفران
وإنما أخشى انسلاخ القلب من ... تحكيم هذا الوحي والقرآن

هذا هو الذي يخشاه الإنسان العاقل، أما المصائب الأخرى فهي كفارات وربما تزيد العبد إيماناً.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي صيرنا.

﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي قلوب من ﴿ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾، وأعيد ضمير الجمع على مفرد باعتبار المعنى؛ لأن «مَن» سواء كان اسماً موصولاً أو شرطية يجوز في عود الضمير

إليها أن يعود على لفظها فيكون مفرداً أو يعود على معناها فيكون مجموعاً أو مثنى حسب السياق، فإذا قلت: «يعجبني من قام» فهنا عاد على اللفظ، وإذا قلت: «يعجبني من قاما» فهنا يعود على المعنى، وكذلك لو قلت: «يعجبني من قاموا» وقد يراعى اللفظ مرة والمعنى مرة أخرى وتعود الضمائر لمراعاة الأمرين في سياق واحد، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ فهنا روعي اللفظ، وفي قوله: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ روعي اللفظ أيضاً، وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ روعي فيها المعنى، وفي قوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ روعي اللفظ، كل هذا جاء في سياق واحد: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]، فروعي اللفظ أولاً ثم المعنى ثانياً ثم اللفظ ثالثاً.

﴿أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية تمنعهم من ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أن يفقهوا القرآن فلا يفهمونه، وفي هذا الحث على فقه القرآن، وأنه ينبغي للإنسان أن يقرأ القرآن ويتعلم معناه، كما كان الصحابة رضوان الله عليهم لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل.

﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي صمماً. تأمل، والعياذ بالله، القلوب عليها غِطاء فلا تفقه، والآذان عليها صمم فلا تسمع، فلا يسمعون الحق ولا يفهمونه.

﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ يعني لو أرشدتهم يا محمد إلى الهدى.

﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا﴾ أي ما دامت قلوبهم في أكنة، وفي آذانهم وقرٌ لن يهتدوا، فمن أين يأتي الهدى، والآذان لا تسمع الحق والقلوب لا تنقاد للحق والعياذ بالله؟! فإن قال قائل: هل في هذا تيئيس للرسول ﷺ من أنه وإن دعا لا يقبل منه أو فيه تسلية له؟

فالجواب: في هذا تسلية له، وأنهم إذا لم يقبلوا الحق فلا عليك منهم ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾.

❁ ❁ ❁

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ هذا فيه تسلية للرسول ﷺ من وجه آخر، لأن النبي ﷺ يمكن أن يقول: لماذا لم يعاجلوا بالعقوبة، كيف يكذبونني وأنا رسول الله ولم يعاقبهم؟! ولكن بَيَّن الله له أنه هو ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ أي الذي يستر الذنوب ويتجاوز عنها.

﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي صاحب الرحمة الذي يلطف بالمذنب.

ولهذا قال: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ يعني لو أراد الله أن يؤاخذ الناس بما كسبوا لعجل لهم العذاب، وقد بين الله عزّ وجل هذا العذاب في آيات أخرى فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، أي لأهلكهم في الحال، ولكن ﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ «بل» هذه

للإضراب الإبطالي، يعني بل لن يسلموا من العذاب إذا أُخر عنهم، لهم موعد ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾، أي مكاناً يؤولون إليه، وهذا يوم القيامة، ويحتمل أن يكون ما يحصل للكفار من القتل على أيدي المؤمنين كما قال عزّ وجل: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، إذاً يحتمل أن يكون المراد ما سيكون عليهم من القتل، والأخذ في الدنيا، أو ما سيكون عليهم يوم القيامة الذي لا مفر منه.

❁ ❁ ❁

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أي: قرى الأمم السابقين، قد يقول قائل هنا إشكال: فإن القرى جماد، والجماد لا يعود عليه الضمير بصيغة الجمع، يعني أنك لا تقول مثلاً: «هذه البيوت عمرناهم» ولكن تقول: «هذه البيوت عمرناها»، فلماذا قال: «أهلكناهم»؟

فالجواب: قال هذا؛ لأن الذي يهلك هم أهل القرى، وفي هذا دليل واضح على أن القرى قد يراد بها أهلها، وقد يراد بها البناء المجتمع، فالقرية أو القرى تارة يراد بها أهلها وتارة يراد بها المساكن المجتمعة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: ٥٩]، فالمراد بالقرى هنا أهلها، وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ

﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] والمراد بالقرية هنا المساكن المجتمعة.

﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ المراد بالظلم هنا الكفر، أي: حين كفروا. ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ يعني جعلنا لإهلاكهم موعداً، والله يفعل ما يشاء، إن شاء عجَّل العقوبة وإن شاء أخر، لكن إذا جاء الموعد لا يتأخر: ولهذا قال نوح عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [نوح: ٤]، فهو أجل معين عند الله في الوقت الذي تقتضيه حكمته.

❁ ❁ ❁

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ﴾ مفعول لفعل محذوف والتقدير «اذكر إذ قال»، يعني واذكر إذ قال موسى لفتاه؛ أي: غلامه يوشع بن نون، وكان موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ابن عمران قام يخطب يوماً في بني إسرائيل فقام أحدهم وقال: هل على وجه الأرض أعلم منك؟ قال موسى: «لا»، وذلك بناء على ظنه أنه لا أحد أعلم منه، فعتب الله عليه في ذلك، لماذا لم يكل العلم إلى الله، فقال الله ـ عزّ وجل ـ إنَّ لي عبداً أعلم منك وإنَّه في مجمع البحرين، وذكر له علامة وهي أن تفقد الحوت، فاصطحب حوتاً معه في مِكْتَل[1] وسار هو وفتاه

(١) المكتل: شبه الزِّنبيل الذي يحمل فيه التمر أو العنب، يسع خمسة عشر صاعاً (انظر مختار الصحاح، ٣٢٨، ولسان العرب، ج١١كتل).

يوشع بن نون، جاء ذلك في البخاري[١]، لينظر من هذا الذي هو أعلم منه ثم ليتعلم منه أيضاً، كان الحوت في المكتل، فلما استيقظا مع السرعة لم يفتشا في المكتل، وخرج الحوت بأمر الله من المكتل ودخل في البحر.

﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ أي لا أزال، والخبر محذوف والتقدير «لا أزال أسير».

﴿مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ قيل: إنه مكان الله أعلم به، لكن موسى يعلم، وقيل: إنه ملتقى البحر الأحمر مع البحر الأبيض، وكان فيما سبق بينهما أرض، حتى فتحت القناة وهذا ليس ببعيد، وسبب ذلك أن الله أوحى إليه أن عبداً في مجمع البحرين أعلم منك.

﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾، أو هنا للتنويع، يعني إما أن أبلغ مجمع البحرين أو أمضي في السير حقباً أي: دهوراً طويلة، وقيل: ﴿أَوۡ﴾ بمعنى «إلَّا» أي حتى أبلغ مجمع البحرين إلَّا أن ﴿أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ أي: دهوراً طويلة قبل أن أبلغه، لكن الوجه الأول أسد، فتهيئا لذلك وسارا، وسبب قوله هذا أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن عبداً لنا هو أعلم منك عند مجمع البحرين، فسار موسى إليه طلباً للعلم.

❁ ❁ ❁

---

(١) متفق عليه. البخاري: كتاب: العلم، باب: ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم أن يكل العلم إلى الله، (١٢٢). مسلم: كتاب الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام، (٢٣٨٠)، (١٧٠)..

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ أي: موسى وفتاه.

﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: بين البحرين.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أضاف الفعل إليهما مع أن الناسي هو الفتى وليس موسى، ولكن القوم إذا كانوا في شأن واحد وفي عمل واحد، نسب فعل الواحد منهم أو القائل منهم إلى الجميع، ولهذا يخاطب الله ـ عزّ وجل ـ بني إسرائيل في عهد الرسول ﷺ فيقول: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٥٠]، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، مع أنهم ما قالوا هذا؛ لكن قاله أجدادهم.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ نسيان ذهول وليس نسيان ترك، وهذا من حكمة الله ـ عزّ وجل ـ، أن الله أنساهما ذلك لحكمة، وهذا الحوت قد جعله الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ علامة لموسى، أنك متى فقدت الحوت فثَم الخضر، وهذا الحوت كان في مِكْتَل وكانا يقتاتان منه، ولما وصلا إلى مكان ما ناما فيه عند صخرة، فلما استيقظا وإذا الحوت ليس موجوداً، لكنه أي: الفتى لم يتفقد المكتل ونسي شأنه وأمره، هذا الحوت ـ سبحان الله ـ خرج من المكتل، ودخل في البحر وجعل يسير في البحر، والبحر ينحاز عنه.

﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي اتخذ الحوت طريقه في البحر.

﴿سَرَبًا﴾ أي مثل السرب، والسرب هو السرداب يعني أنه يشق الماء ولا يتلاءم الماء، وهذا من آيات الله، وإلا فقد جرت العادة أن الحوت إذا انغمر في البحر يتلاءم البحر عليه، لكن هذا

الحوت من آيات الله، أولاً: أنه قد مات، وأنهما يقتاتان منه، ثم صار حياً ودخل البحر ثانياً: أنه صار طريقه على هذا الوجه، وهذا من آيات الله تبارك وتعالى.

❁ ❁ ❁

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ الفاعل موسى وفتاه ﴿جَاوَزَا﴾ يعني تعديا ذلك المكان، قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ وكان ذلك؛ لأن الغداء هو الطعام الذي يؤكل في الغداة.

﴿لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ أي تعباً.

وقوله: ﴿مِن سَفَرِنَا هَٰذَا﴾ ليس المراد من حين ابتداء السفر ولكن من حين ما فارقا الصخرة، ولذلك طلب الغداء، قال أهل العلم وهذا من آيات الله عزّ وجل فقد سارا قبل ذلك مسافة طويلة ولم يتعبا، ولما جاوزا المكان الذي فيه الخضر، تعبا سريعاً من أجل ألا يتماديا في البعد عن المكان.

❁ ❁ ❁

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ أي: قال الفتى لموسى: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ أي ما حصل حين لجأنا إلى الصخرة، والمراد بالاستفهام التعجب أو تعجيب موسى.

﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ يعني نسيت أن أتفقده أو أسعى في شأنه أو أذكره لك، وإلا فالحوت معروف كان في المكتل.

﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ قوله: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ هذه بدل من الهاء في «أنسانيه»، يعني ما أنساني ذكره إلا الشيطان.

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾، أي اتخذ الفتى أو موسى سبيل الحوت في البحر.

﴿عَجَبًا﴾ يعني محل عجب، وهو محل عجب، ماء سيال يمر به هذا الحوت، ويكون طريقه سرباً، فكان هذا الطريق للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً، ولنا أيضاً عجب؛ لأن الماء عادة يتلاءم على ما يمر به لكن هذا الحوت ـ بإذن الله ـ لم يتلاءم الماء عليه.

❁ ❁ ❁

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي: ما كنا نطلب؛ لأن الله أخبره بأنه إذا فقد الحوت، فذاك محل اتفاقه مع الخضر.

﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ يعني رجعا بعد أن أخذا مسافة تعبا فيها، ارتدا على آثارهما، يعني يقصان أثرهما؛ لئلا يضيع عنهما المحل الذي كانا قد أويا إليه.

❁ ❁ ❁

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ﴾ وهو الخضر كما صحَّ ذلك عن النبي ﷺ.

وقوله: ﴿ ﴾ هل هو عبدٌ من عباد الله الصالحين أو من الأولياء الذين لهم كرامات أم من الأنبياء الموحى إليهم؟ كل ذلك ممكن، لكن النصوص تدل على أنه ليس برسول ولا نبي، إنما هو عبد صالح أعطاه الله تعالى كرامات؛ ليبين الله بذلك أن موسى لا يحيط بكل شيء علماً وأنه يفوته من العلم شيء كثير.

﴿ ﴾ أي: أن الله جلَّ وعلا جعله من أوليائه برحمته إياه.

﴿ ﴾ يعني علماً لا يطَّلِع عليه الناس، وهو علم الغيب في هذه القصة المعينة وليس علم نبوة ولكنه علم خاص؛ لأن هذا العلم الذي اطَّلع عليه الخضر لا يمكن إدراكه وليس شيئاً مبنياً على المحسوس، فيبنى المستقبل على الحاضر، بل شيء من الغائب، فأطلعه الله تعالى على معلومات لا يطَّلع عليها البشر.

❁ ❁ ❁

متفق عليه. انظر تخريج الحديث السابق ص(٩١).

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦﴾.

قوله تعالى: ﴿ ﴾ أي قال موسى للخضر: هل أتبعك، وهذا عرض لطيف وتواضع، وتأمّل هذا الأدب من موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع أن موسى أفضل منه وكان عند الله وجيهاً، ومع ذلك يتلطف معه لأنه سوف يأخذ منه علماً لا يعلمه موسى، وفي هذا دليل أنَّ على طالب العلم أن يتلطف مع شيخه ومع أُستاذه وأن يُعامله بالإكرام، ثم بين موسى أنه لا يريد أن يَتَّبِعَه ليأكل من أكله أو يشرب من شربه، ولكن ﴿ ﴾ ولا شك أن الخضر سيفرح بمن يأخذ عنه العلم، وكل إنسان أعطاه الله علماً ينبغي أن يفرح أن يؤخذ منه هذا العلم، لأن العلم الذي يُؤخذ من الإنسان في حياته ينتفع به بعد وفاته كما جاء في الحديث الصحيح: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلاثٍ صَدَقَةٍ جَارِية أَوَ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**».

فقال له الخضر:

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨﴾.

﴿ ﴾ وبيّن له عذره في قوله هذا، فقال: ﴿ ﴾، وأين الدليل للخضر أن موسى لم يحط بذلك خُبرا؟

رواه مسلم: كتاب: الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، (١٦٣١)، (١٤) وغيره.

الجواب: لأنه قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ وهذا يدل على أنه لا علم له فيما عند الخضر.

فماذا قال موسى عليه السلام؟

﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ هذا الذي قاله موسى عليه السلام قاله فيما يعتقده في نفسه في تلك الساعة من أنه سيصبر، لكنه علَّقه بمشيئة الله لئلَّا يكون ذلك اعتزازاً بنفسه وإعجاباً بها.

وقوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هو كقول إسماعيل بن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما قال له أبوه: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وموسى قال للخضر: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾، وأيضاً أصبر على ما تفعل وأمتثل ما به تأمر ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾، وعده بشيئين:

١ ـ الصبر على ما يفعل.

٢ ـ الائتمار بما يأمر، والانتهاء عما ينهى.

قال الخضر:

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى﴾ ومعلوم أنه سيتبعه.

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ أي عن شيء مما أفعله.

﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هنا للغاية، يعني إلى أن

﴿أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: إلى أن أذكر لك السبب، وهذا توجيه من معلم لمن يتعلم منه، ألَّا يتعجل في الرد على معلمه، بل ينتظر حتى يحدث له بذلك ذكراً، وهذا من آداب المتعلم ألَّا يتعجل في الرد حتى يتبين الأمر.

❁ ❁ ❁

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا﴾ الفاعل موسى والخضر، وسكت عن الفتى، فهل الفتى تأخر عن الركوب في السفينة، أم أنه ركب ولكن لما كان تابعاً لم يكن له ذكر؟

الجواب: الذي يظهر ـ والله أعلم ـ أنه كان تابعاً، لكن لم يكن له تعلق بالمسألة، والأصل هو موسى طوي ذكره، وهو أيضاً تابع.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾ مرَّت سفينة، وهما يمشيان على شاطئ البحر، فركبا فيها.

﴿خَرَقَهَا﴾ أي: الخضر بقلع إحدى خشبها الذي يدخل منه الماء، فقال له موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وهذا إنكار من موسى على الخضر مع أنه قال له: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ لكنه لم يصبر؛ لأن هذه مشكلتها عظيمة، سفينة في البحر يخرقها فتغرق! واللام في قوله: ﴿لِتُغْرِقَ﴾ ليست للتعليل ولكنها للعاقبة، يعني أنك إذا خرقتها غرق أهلها، وإلَّا لا شك أن موسى عليه السلام لا يدري ما غرض الخضر، ولا شك أيضاً أنه يدري أنه لا يريد أن يغرق أهلها، لأنه لو أراد أن يغرق أهلها لكان أول من يغرق هو وموسى، لكن اللام هنا للعاقبة ولام العاقبة ترد في

غير موضع في القرآن، مثل قول الله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

لو سألنا أي إنسان: هل آل فرعون التقطوه ليكون لهم عدواً وحزناً؟

الجواب: أبداً، ولكن هذه للعاقبة.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ يعني شيئاً عظيماً، يعني كان موسى شديداً قوياً في ذات الله، فهو أنكر عليه، وبين أن فعله ستكون عاقبته الإغراق، وزاده توبيخاً في قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾، والجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكدات:

١ ـ اللام.

٢ ـ قد.

٣ ـ القسم المقدر الذي تدل عليه اللام، والإمر بكسر الهمزة الشيء العظيم، ومنه قول أبي سفيان لهرقل لما سأله عن الرسول ﷺ وبين له حاله وصفاته وما كان من أخلاقه، فلما انصرف مع قومه، قال أبو سفيان: «**لقد أَمِرَ أمرُ ابن أبي كَبْشَة إنه ليخافه مَلِكُ بني الأصفر**»[1]، يعني بابن أبي كبشة الرسول ﷺ. و: «أَمِرَ أمرُه» يعني عَظُم أمره.

❁ ❁ ❁

(١) متفق عليه. البخاري: كتاب: بدء الوحي، باب: . . . (٧). مسلم: كتاب: الجهاد والسير، باب: كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، (١٧٧٣)، (٧٤).

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾.

فاعتذر موسى:

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾.

وسبب نسيان موسى؛ أن الأمر عظيم اندهش له: أن تغرق السفينة وهم على ظهرها، وهذه توجب أن الإنسان ينسى ما سبق من شدة وقع ذلك في النفس.

وقوله: ﴿بِمَا نَسِيتُ﴾ أي بنسياني، ولهذا نقول في إعراب «ما» إنها مصدرية، أي: بنسياني ذلك وهو قولي: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾.

﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ يعني لا تثقل علي وتعسر علي الأمور؛ وكأن هذا والله أعلم توطئة لما يأتي بعده.

❁ ❁ ❁

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا﴾ بعد أن أرست السفينة على الميناء. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ ولم يقل «قتله»، وفي السفينة قال: ﴿خَرَقَهَا﴾ ولم يقل: «فخرقها»، يعني كأن شيئاً حصل قبل القتل فقتله.

﴿غُلَٰمًا﴾ الغلام هو الصغير، ولم يصبر موسى عليه السلام. ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾ وفي قراءة «زاكية» لأنه غلام صغير، والغلام الصغير تكتب له الحسنات، ولا تكتب عليه السيئات، إذاً

فهو زكي لأنه صغير ولا تكتب عليه السيئات.

﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يعني أنه لم يقتل أحداً حتى تقتله، ولكن لو أنه قتل هل يُقتل أو لا؟

الجواب: في شريعتنا لا يقتل لأنه غير مُكلَّف ولا عَمْد له، على أنه يحتمل أن يكون هذا الغلام بالغاً وسمي بالغلام لقرب بلوغه وحينئذٍ يزول الإشكال.

﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ هذه العبارة أشد من العبارة الأولى. في الأولى قال: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾، ولكن هنا قال: ﴿نُّكْرًا﴾ أي منكراً عظيماً، والفرق بين هذا وهذا، أن خرق السفينة قد يكون به الغرق وقد لا يكون وهذا هو الذي حصل، لم تغرق السفينة، أما قتل النفس فهو منكر حادث ما فيه احتمال.

فقال الخضر:

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ هنا فيها لوم أشد على موسى، في الأولى قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ﴾ وفي الثانية قال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ يعني كأنك لم تفهم ولن تفهم، ولذلك كان الناس يفرقون بين الجملتين، فلو أنك كلمت شخصاً بشيء وخالفك فتقول في الأول: «ألم أقل إنك»، وفي الثاني تقول: «ألم أقل لك» يعني أن الخطاب ورد عليك وروداً لا خفاء فيه، ومع ذلك خالفت، فكان قول الخضر لموسى في الثانية أشد: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾، فقال له موسى لما رأى أنه لا عذر له:

﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ﴾ أي امنعني من صحبتك، وفي قول موسى: ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ﴾ إشارة إلى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يرى أنه أعلى منه منْزِلة وإلَّا لقال: «إن سألتك عن شيء بعدها فلا أصاحبك».

﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ يعني أنك وصلت إلى حال تعذر فيها، لأنه أنكر عليه مرتين مع أن موسى عليه السلام التزم ألَّا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكراً.

❁ ❁ ❁

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ ولم يعين الله عزّ وجل القرية فلا حاجة إلى أن نبحث عن هذه القرية، بل نقول: قرية أبهمها الله فنبهمها.

﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ أي: طلبا من أهلها طعاماً.

﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ ولا شك أن هذا خلاف الكرم، وهو نقص في الإيمان؛ لأن النبي ﷺ قال: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ**»(١).

---

(١) متفق عليه. البخاري: كتاب: الأدب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، (٦٠١٨). مسلم: كتاب الإيمان، باب: الحث =

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: أنه مائل يريد أن يسقط، فإن قيل: هل للجدار إرادة؟

فالجواب: نعم له إرادة، فإن ميله يدل على إرادة السقوط، ولا تتعجب إن كان للجماد إرادة فها هو «أُحُد» قال عنه النبي ﷺ إنه: «**يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»(١) والمحبة وصف زائد على الإرادة، أما قول بعض الناس الذين يجيزون المجاز في القرآن: إنَّ هذا كناية وأنه ليس للجماد إرادة فلا وجه له.

﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ أي أقامه الخضر، لكن كيف أقامه؟ الله أعلم، قد يكون أقامه بيده، وأن الله أعطاه قوة فاستقام الجدار، وقد يكون بناه البناء المعتاد، المهم أنه أقامه، ولم يبين الله تعالى طول الجدار ولا مسافته ولا نوعه فلا حاجة أن نتكلف معرفة ذلك.

﴿قَالَ﴾ أي: موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ولم ينكر عليه أن يبنيه ولا قال: كيف تبنيه وقد أبوا أن يضيفونا؟! بل قال: ﴿لَوْ شِئْتَ﴾ وهذا لا شك أنه أسلوب رقيق فيه عرض لطيف ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي عِوَضاً عن بنائه.

❁ ❁ ❁

= على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير، وكون ذلك كله من الإيمان، (٤٧)، (٧٥).

(١) متفق عليه. البخاري: كتاب: الزكاة، باب: خرص التمر، (١٤٨١). مسلم: الحج، باب: أُحد جبل يحبنا ونحبه، (١٣٩٢)، (٥٠٣).

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ أي قال الخضر لموسى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ﴾ أي انتهى ما بيني وبينك فلا صحبة. ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ أي سأخبرك عن قُرب قبل المفارقة ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، وإنما قلنا: «سأخبرك عن قرب» لأن السين تدل على القرب بخلاف سوف، وهي أيضاً تفيد مع القرب التحقيق.

﴿بِتَأْوِيلِ﴾ أي بتفسيره وبيان وجهه.

❁ ❁ ❁

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ «ال» في السفينة هي للعهد الذكري أي: السفينة التي خرقتها.

﴿فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ أي: أنهم يطلبون الرزق فيها إما بتأجيرها، أو صيد السمك عليها، ونحوه وهم مساكين جمع، والجمع أقله ثلاثة، وليس ضرورياً أن نعرف عددهم.

﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ يعني أن أجعل فيها عيباً، لماذا؟ قال:

﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فأردت أن أعيبها حتى إذا مرت بهذا الملك، قال: هذه سفينة معيبة لا حاجة لي فيها؛ لأنه لا يأخذ إلا السفن الصالحة الجيدة، أما هذه فلا حاجة له فيها، فصار فعل الخضر من باب دفع أشد الضررين بأخفهما، ومنه يؤخذ فائدة عظيمة وهي إتلاف بعض الشيء

لإصلاح باقيه، والأطباء يعملون به، تجده يأخذ من الفخذ قطعة فيصلح بها عيباً في الوجه، أو في الرأس، أو ما شابه ذلك، وأخذ منه العلماء ـ رحمهم الله ـ أن الوقف إذا دَمَر وخرب فلا بأس أن يباع بعضه ويصرف ثمنه في إصلاح باقيه، ثم بين الخضر حال الغلام فقال:

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَبَوَاهُ﴾ أي: أبوه وأمه ﴿مُؤْمِنَيْنِ﴾ أي: وهو كافر.

﴿فَخَشِينَآ﴾ أي خفنا، والخشية في الأصل خوف مع علم، وأتي بضمير الجمع للتعظيم.

﴿أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ يعني يحملهما على الطغيان والكفر، إما من محبتهما إياه، أو لغير ذلك من الأسباب، وإلا فإن الغالب أن الوالد يؤثِّر على ولده ولكن قد يؤثر الولد على الوالد كما أن الغالب أن الزوج يؤثر على زوجته، ولكن قد تؤثر الزوجة على زوجها.

❁ ❁ ❁

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: يعني أنَّا إذا قتلناه؛ فإن الله خير وأبقى؛ نؤمل منه تعالى ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي في الدين، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي في الصلة، يعني أنه أراد أن الله يتفضل عليهما بمن هو أزكى منه في الدين، وأوصل في صلة الرحم، ويؤخذ من

ذلك أنه يقتل الكافر خوفاً من أن ينشر كفره في الناس.

❁ ❁ ❁

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِغُلَٰمَيْنِ﴾ يعني صغيرين.

﴿يَتِيمَيْنِ﴾ قد مات أبوهما.

﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: القرية التي أتياها.

﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ أي: كان تحت الجدار مال مدفون لهما.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ فكان من شكر الله ـ عزّ وجل ـ لهذا الأب الصالح أن يكون رؤوفاً بأبنائه، وهذا من بركة الصلاح في الآباء أن يحفظ الله الأبناء.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي: أراد الله عزّ وجل ﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي: أن يبلغا ويكبرا حتى يصلا إلى سن الرشد، وهو أربعون سنة عند كثير من العلماء، وهنا ما قال «فأردنا» ولا قال «فأردت»، بل قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾؛ لأن بقاء الغلامين حتى يبلغا أشدهما ليس للخضر فيه أي قدرة، لكن الخشية ـ خشية أن يرهق الغلام أبويه بالكفر ـ تقع من الخضر وكذلك إرادة عيب السفينة.

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ حتى لا يبقى تحت الجدار، ولو أن الجدار انهدم لظهر الكنْز وأخذه الناس.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ هذه مفعول لأجله، والعامل فيه أراد، يعني أراد الله ذلك رحمة منه جلَّ وعلا.

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ يعني ما فعلت هذا الشيء عن عقل مني أو ذكاء مني ولكنه بإلهام من الله ـ عزّ وجل ـ وتوفيق؛ لأن هذا الشيء فوق ما يدركه العقل البشري.

﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ﴾ أي ذلك تفسيره الذي وعدتك به ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ [الكهف: ٧٨]. أي: تفسيره، ويحتمل أن يكون التأويل هنا في الثاني العاقبة، يعني ذلك عاقبة ما لم تستطع عليه صبراً؛ لأن التأويل يراد به العاقبة ويراد به التفسير.

﴿مَا لَمْ تَسْطِع﴾ وفي الأول قال: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع﴾ لأن «استطاع واسطاع ويستطيع ويسطيع» كل منها لغة عربية صحيحة.

وقد ذكر شيخنا عبد الرحمن بن سعدي ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيره (تيسير الكريم الرحمن) فوائد جمة عظيمة في هذه القصة لا تجدها في كتاب آخر فينبغي لطالب العلم أن يراجعها لأنها مفيدة جداً.

وبهذا انتهت قصة موسى مع الخضر.

ثم ذكر الله تعالى قصة أخرى سألوا عنها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ سواء من يهود أو من قريش أو من غيرهم.

﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ أي: صاحب القرنين، وكان له ذكر في التاريخ، وقد قال اليهود لقريش: اسألوا محمداً عن هذا الرجل؛ فإن أخبركم عنه فهو نبي، ولماذا سمي بذي القرنين؟ قيل: معناه ذي الملك الواسع من المشرق والمغرب، فإن المشرق قرن والمغرب قرن، كما قال النبي ﷺ عن المشرق: «**حيث يطلع قرن الشيطان**»[(١)]، فيكون هذا كناية عن سعة ملكه، وقيل: ذي القرنين لقوته، ولذلك يعرف أن الفحل من الضأن الذي له قرون يكون أشد وأقوى، وقيل: لأنه كان على رأسه قرنان كتاج الملوك، والحقيقة أن القرآن العظيم لم يبين سبب تسميته بذي القرنين، لكن أقرب ما يكون للقرآن العظيم «المالك للمشرق والمغرب»، وهو مناسب تماماً؛ حيث قال النبي ﷺ عن الشمس إنها: «**تطلع بين قرني شيطان**»[(٢)].

﴿قُلْ﴾ لمن سألك: ﴿سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ وليس كل ذكره بل ذكراً منه، ثم قصَّ الله القصة:

❁ ❁ ❁

---

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: «**أَلَا إِنَّ الفِتْنَةَ هَاهُنَا يُشِيرُ إِلَى الْمَشْرِقِ مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ**». البخاري: كتاب: المناقب، باب: .... (٣٥١١). مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: الفتنة من الشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان، (٢٩٠٥)، (٤٩).

(٢) متفق عليه. البخاري: كتاب: بدء الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده، (٣٢٧٣). مسلم: كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الأوقات التي نهى عن الصلاة فيها، (٨٢٨)، (٢٩٠).

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وذلك بثبوت ملكه وسهولة سيره وقوته.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ أي شيئاً يتوصل به إلى مقصوده، وقوله: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا يعم كل شيء؛ لكن المراد من كل شيء يحتاج إليه في قوة السلطان، والتمكين في الأرض، والدليل على هذا أن «كل شيء» بحسب ما تضاف إليه، فإن الهدهد قال لسليمان عليه السلام عن ملكة اليمن سبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، ومعلوم أنها لم تؤت ملك السمٰوات والأرض، لكن من كل شيء يكون به تمام الملك، كذلك قال الله تعالى عن ريح عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ومعلوم أنها ما دَمَّرت كل شيء، فالمساكن ما دُمِّرت كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

❁ ❁ ❁

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: تبع السبب الموصل لمقصوده فإنه كان حازماً، انتفع بما أعطاه الله تعالى من الأسباب؛ لأن من الناس من ينتفع، ومن الناس من لا ينتفع، ولكن هذا الملك انتفع ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ وجال في الأرض.

❁ ❁ ❁

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ من المعلوم أن المراد هو المكان الذي تغرب الشمس فيه، وهو البحر؛ لأن السائر إلى المغرب سوف يصطدم بالبحر والشمس إذا رآها الرائي وجدها تغرب فيه.

﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ هي أرض البحر ﴿حَمِئَةٍ﴾ مسودة من الماء، لأن الماء إذا مكث طويلاً في الأرض صارت سوداء، ومعلوم أنها تغرب في هذه العين الحمئة حسب رؤية الإنسان، وإلَّا فهي أكبر من الأرض، وأكبر من هذه العين الحمئة، وهي تدور على الأرض، لكن لا حرج أن الإنسان يخبر عن الشيء الذي تراه عيناه بحسب ما رآه.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ أي عند العين الحمئة وهو البحر ﴿قَوْمًا﴾.

﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ يعني أن الله خيره بين أن يعذبهم بالقتل أو بغير القتل أو يحسن إليهم؛ وذلك لأن ذي القرنين ملك عاقل، ملك عادل، ويدل لعقله ودينه أنه:

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

حكمٌ عدل: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ وذلك بالشرك لأن الظلم يطلق على الشرك وعلى غيره، لكن الظاهر، والله أعلم، هنا أن المراد به الشرك لأنه قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

يقول: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ العذاب الذي يكون تعزيراً، وعذاب التعزير يرجع إلى رأي الحاكم، إما بالقتل أو بغيره.

﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ لأن العقوبات لا تطهر الكافرين، فالمسلم تطهره العقوبات، أما الكافر فلا، فإنه يعذب في الدنيا وفي الآخرة، نعوذ بالله من ذلك.

قوله: ﴿نُّكْرًا﴾ ينكره المُعَذَّب بفتح الذال، ولكنه بالنسبة لله تعالى ليس بنُكر، بل هو حق وعدل، لكنه ينكره المُعَذَّب ويرى أنه شديد.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ المؤمن العامل للصالحات له جزاء عند الله ﴿ٱلْحُسْنَىٰ ۖ﴾ وهي الجنة كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فسرها النبي ﷺ بأن: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ ۖ﴾ هي الجنة. **والزيادة هي النظر إلى وجه الله**[1].

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي سنقول له قولاً يسراً لا صعوبة فيه، فوعد الظالم بأمرين: أنه يعذبه، وأنه يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً، والمؤمن وعده بأمرين: بأن له ﴿ٱلْحُسْنَىٰ ۖ﴾

---

(١) رواه مسلم: كتاب الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالىٰ، (١٨١)، (٢٩٧، ٢٩٨) وغيره ولفظه: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئاً أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّض وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ. قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عزّ وجل. وزاد في رواية: ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَة: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾**».

وأنه يعامله بما فيه اليسر والسهولة، لكن تأمل في حال المشرك بدأ بتعذيبه ثم ثنى بتعذيب الله، والمؤمن بدأ بثواب الله أولاً ثم بالمعاملة باليسر ثانياً، والفرق ظاهر لأن مقصود المؤمن الوصول إلى الجنة، والوصول إلى الجنة لا شك أنه أفضل وأحب إليه من أن يقال له قول يُسر، وأما الكافر فعذاب الدنيا سابق على عذاب الآخرة وأيسر منه فبدأ به، وأيضاً فالكافر يخاف من عذاب الدنيا أكثر من عذاب الآخرة؛ لأنه لا يؤمن بالثاني.

❁ ❁ ❁

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: موضع طلوعها، أتبع أولاً السبب إلى المغرب ووصل إلى نهاية الأرض اليابسة مما يمكنه أن يصل إليه ثم عاد إلى المشرق، لأن عمارة الأرض تكون نحو المشرق والمغرب، ولذلك قال النبي ﷺ: «**إن الله زَوَى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها**»[1] دون الشمال والجنوب لأن الشمال والجنوب أقصاه من الشمال، وأقصاه من الجنوب كله ثلج ليس فيه سكان، فالسكان يتبعون الشمس من المشرق إلى المغرب، أو من المغرب إلى المشرق.

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ وجدها

(١) رواه مسلم وغيره. سبق تخريجه ص(٨٤) حاشية رقم (٢).

تطلع على قوم ليس عندهم بناء، ولا أشجار ظليلة ولا دور ولا قصور، وبعض العلماء بالغ حتى قال: وليس عليهم ثياب، لأن الثياب فيها نوع من الستر. المهم أن الشمس تحرقهم.

❁ ❁ ❁

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يعني الأمر كذلك على حقيقته.

﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أي قد علمنا علم اليقين بما عنده من وسائل الملك وامتداده، أي: بكل ما لديه من ذلك.

❁ ❁ ❁

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يعني سار واتخذ سبباً يصل به إلى مراده.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ السدين هما جبلان عظيمان يحولان بين الجهة الشرقية من شرق آسية، والجهة الغربية، وهما جبلان عظيمان بينهما منفذ ينفذ منه الناس.

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي: لا بينهما ولا وراءهما.

﴿قَوْمًا﴾ قيل: إنهم الأتراك.

﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ فيها قراءتان: «لَّا يَكَادُونَ يُفْقِهُونَ قَوْلاً» و«لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً» والفرق بينهما ظاهر: لا ﴿يَفْقَهُونَ﴾ يعني هم، لا «يُفْقِهُونَ» أي: غيرهم، يعني هم لا يعرفون لغة الناس، والناس لا يعرفون لغتهم، هذه فائدة

القراءتين، وكلتاهما صحيحة، وكل واحدة تحمل معنىً غير معنى القراءة الأخرى، لكن بازدواجهما نعرف أن هؤلاء القوم لا يعرفون لغة الناس، والناس لا يعرفون لغتهم.

❁ ❁ ❁

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ وحينئذٍ يقع إشكال كيف يكونوا ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ ثم ينقل عنهم أنهم خاطبوا ذا القرنين بخطاب واضح فصيح: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾؟

والجواب عن هذا سهل جداً، وهو أن ذا القرنين أعطاه الله تعالى ملكاً عظيماً، وعنده من المترجمين ما يُعرف به ما يريد، وما يَعرف به ما يريد غيره، على أنه قد يكون الله ـ عزّ وجل ـ قد ألهمه لغة الناس الذين استولى عليهم كلِّهم، المهم أنهم خاطبوا ذا القرنين بخطاب واضح ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾، نادَوه بلقبه تعظيماً له.

﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يأجوج ومأجوج هاتان قبيلتان من بني آدم كما صح ذلك عن النبي ﷺ، فإن النبي ﷺ لما حدَّث الصحابة بأن الله ـ عزّ وجل ـ يأمر آدم يوم القيامة فيقول:

«يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرِ، وَتَضَعُ كُلّ ذَاتِ

حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ الله شَدِيد» [فاشتد ذلك عليهم] قالوا: يا رسول الله، وأيُّنا ذلك الواحد؟ قال: «أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْكُم رَجُلٌ وَمِنْ يَأْجُوج ومَأْجُوج أَلْفٌ». ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ...» إلخ الحديث[١].

وبهذا نعرف خطأ من قال: إنهم ليسوا على شكل الآدميين وأن بعضهم في غاية ما يكون من القِصَر، وبعضهم في غاية ما يكون من الطول، وأن بعضهم له أذن يفترشها، وأذن يلتحف بها وما أشبه ذلك، كل هذا من خرافات بني إسرائيل، ولا يجوز أن نصدقه، بل يقال: إنهم من بني آدم، لكن قد يختلفون كما يختلف الناس في البيئات، فتجد أهل خط الاستواء بيئتهم غير بيئة الشماليين، فكل له بيئة، الشرقيون الآن يختلفون عن أهل وسط الكرة الأرضية، فهذا ربما يختلفون فيه، أما أن يختلفوا اختلافاً فادحاً كما يذكر، فهذا ليس بصحيح.

---

(١) رواه البخاري: كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج، (٣٣٤٨). وما بين معكوفتين إحدى رواياته.
ومسلم: كتاب الإيمان، باب: قوله: «يقول الله لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين»، (٢٢٢)، (٣٧٩). وما قوله في الحديث: «أبشروا إنكم...» إلخ.
فرواه الترمذي (٣١٦٩) وغيره في حديث طويل من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه نحو حديث أبي سعيد السابق. الترمذي: كتاب: تفسير القرآن، باب ومن سورة الحج، (٣١٦٩).

﴿مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الإفساد في الأرض يعم كل ما كان غير صالح، وغير أصلح، يفسدونها في القتل، وفي النهب، وفي الانحراف، وفي الشرك، وفي كل شيء، المهم أنهم يحتاجون إلى أحد يحميهم من هؤلاء.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ يعني حاجزاً يمنع من حضورهم إلينا، فعرضوا عليه أن يعطوه شيئاً، وهذا اجتهاد في غير محله، لكنهم خافوا أن يقول لا، ولا يمكنهم بعد ذلك، وإلَّا هذا الاجتهاد: كيف يقولون لهذا الملك الذي فتح مشارق الأرض ومغاربها: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ هذا لا يقال إلَّا لشخصٍ لا يستطيع. لكنهم قالوا ذلك خوفاً من أن يرد طلبهم، يريدون أن يقيموا عليه الحجة بأنهم أرادوا أن يعطوه شيئاً يحميهم به من هؤلاء، قال في الجواب:

﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ ﴿مَا﴾ مبتدأ و﴿خَيْرٌ﴾ خبر المبتدأ، يعني الذي مكَّني فيه ربي من الملك والمال والخدم، وكل شيء، خير من هذا الخرج الذي تعرضونه عليَّ، وهذا كقول سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ في هدية ملكة سبأ، قال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦] وهذا من اعتراف الإنسان بنعم ربه ـ عزّ وجل ـ التي لا يحتاج معها إلى أحد.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: بقوة بدنية لا بقوة مالية؛ لأنه عنده من الأموال الشيء العظيم.

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ يعني أكبر مما سألوا، هم سألوا سداً، ولكنه قال ردماً، يعني أشد من السد، فطلب منهم:

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ الزُّبَر يعني القطع من الحديد، فجمعوا الحديد وجعلوه يساوي الجبال، وهذا يدل على القوة العظيمة في ذلك الوقت، يعني أرتال من الحديد، تجمع حتى تساوي الجبال الشاهقة العظيمة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ يعني جانبي الجبلين ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾ يعني انفخوا على هذا الحديد، وليس المراد بأفواهكم؛ لأن هذا لا يمكن، ولكن انفخوا بالآلات والمعدات التي عنده؛ لأن الله أعطاه ملكاً عظيماً، فنفخوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ والحديد معروف أنه إذا أوقد عليه في النار يكون ناراً، تكون القطعة كأنها جمرة، بل هي أشد من الجمرة، ثم طلب أن يؤتوه قطراً يفرغه عليه، والقطر هو النحاس المذاب كما قال الله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ [سبأ: ١٢]، يعني النحاس أرسله الله تعالى لسليمان، بدل ما كان معدناً قاسياً يحتاج إلى إخراج بالمعاول ثم صَهْر بالنار، أسال الله له عين القطر كأنها ماء ـ سبحان الله ـ.

قال ذو القرنين: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ فأفرغ عليه القطر ـ النحاس ـ فاشتبك النحاس مع قطع الحديد فكان قوياً.

❁ ❁ ❁

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ﴾ و«ما استطاعوا» معناهما واحد، وسبق في قصة موسى مع الخضر ﴿مَا لَمْ تَسْطِع﴾ و﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع﴾.

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ يعني أن يصعدوا عليه؛ لأنه عالٍ؛ ولأن الظاهر أنه أملس، فهم لا يستطيعون أن يصعدوا عليه.

﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ لم تأتِ التاء في الفعل الأول (اسطاعوا) وأتت فيه ثانياً، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، أيهما أشق أن يصعدوا الجبل أو أن يَنقبوا هذا الحديد؟

الجواب: الثاني أصعب ولهذا قال: ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ لأنه حديد ممسوك بالنحاس، فصاروا لا يستطيعون ظهوره لعلوه وملاسته، فيما يظهر، ولم يستطيعوا له نقباً لصلابته وقوته، إذاً صار سداً منيعاً وكفى الله شر هؤلاء المفسدين وهم يأجوج ومأجوج.

❁ ❁ ❁

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ﴾ قالها ذو القرنين وانظر إلى عباد الله الصالحين، كيف لا يسندون ما يعملونه إلى أنفسهم، ولكنهم يسندونه إلى الله ـ عزّ وجل ـ وإلى فضله، ولهذا لما قالت النملة حين أقبل سليمان بجنوده على وادي النمل، قامت خطيبة فصيحة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى

بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٨، ١٩]، أيضاً ذو القرنين ـ رحمه الله ـ قال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ وليس بحولي ولا قوتي، ولكنه رحمة به ورحمة بالذين طلبوا منه السد، أن حصل هذا الردم المنيع.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ يعني بخروج هؤلاء المفسدين.

﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ يعني جعل هذا السد دكّاً، أي: منهدماً تماماً وسواه بالأرض، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا**»(١). يعني شيء يسير لكن ما ظهر فيه الشق لا بد أن يتوسع.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ فما هو هذا الوعد؟

الجواب: الوعد هو أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يخرجهم في آخر الزمان، وذلك بعد خروج الدجال وقتله يخرج الله هؤلاء، يخرجهم في عالم كثير مثل الجراد أو أكثر «**فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ**» ثم «**يُحصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ**» في جبل الطور، ويلحقهم مشقة ويرغبون إلى الله تعالى في هلاك هؤلاء، «**فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ**» يصبحون في ليلة واحدة على كثرتهم، ميتين مِيتة رجل واحد، حتى تنتن الأرض من رائحتهم، فيرسل الله تعالى أمطاراً

---

(١) متفق عليه. البخاري: كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج، (٣٣٤٦). مسلم: كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: اقتراب الفتنة، وفتح ردم يأجوج ومأجوج، (٢٨٨٠)، (٢).

تحملهم إلى البحر أو يرسل اللهُ طيوراً فَتَحْمِلُهُمْ إلى البحر[١]، والله على كل شيء قدير، وهذه الأشياء نؤمن بها كما أخبر بها النبي ﷺ، أما كيف تصل الحال إلى ذلك، فهذا أمره إلى الله عزّ وجل.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ يعني وعد الله تعالى في خروجهم كان ﴿حَقًّا﴾ أي: لا بد أن يقع كل ما وعد الله بشيء فلا بد أن يقع؛ لأن عدم الوفاء بالوعد، إما أن يكون عن عجز، أو إما أن يكون عن كذب، والله ـ عزّ وجل ـ منَزَّهٌ عنهما جميعاً عن العجز، وعن الكذب، فهو ـ عزّ وجل ـ لا يخلف الميعاد لكمال قدرته، وكمال صدقه.

❁ ❁ ❁

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ المفسرون الذين رأيت كلامهم يقولون: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني إذا خرجوا صار «يموج بعضهم في بعض»، ثم اختلفوا في معنى «يموج بعضهم في بعض» هل معناه أنهم يموجون مع الناس، أو يموج بعضهم في بعض يتدافعون عند الخروج من السد؟ وإذا كان أحد من العلماء يقول: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ يعني بعد السد، صاروا هم بأنفسهم يموج بعضهم في بعض، فإن كان أحدٌ يقول بهذا، فهو

(١) جزء من حديث طويل رواه مسلم: كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال وصفته وما معه، (٢٩٣٧)، (١١٠) وغيره.

أقرب إلى سياق الآية، لكن الذي رأيته أنهم يموج بعضهم في بعض يعني إذا خرجوا، ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومئذٍ يريد الله - عزّ وجل - خروجهم.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ النافخ إسرافيل أحد الملائكة الكرام، وكان النبي ﷺ يفتتح صلاة الليل بهذا الاستفتاح: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»(١)، هؤلاء الثلاثة الملائكة الكرام، كل واحد منهم موكل بما فيه الحياة، جبريل موكل بما فيه حياة القلوب، ميكائيل بما فيه حياة النبات وهو القَطْر، والثالث إسرافيل بما فيه حياة الناس عند البعث، ينفخ في الصور نفختين. **الأولى**: فَزَعٌ وصعق، ولا يمكن الآن أن ندرك عظمة هذا النفخ، نفخ تفزع الخلائق منه وتصعق بعد ذلك، كلهم يموتون إلَّا من شاء الله، لشدة هذا النفخ وشدة وقعه، ما يمكن أن نتصور لأن الناس يفزعون، بل فزع من في السمٰوات ومن في الأرض ثم يصعقون - الله أكبر -. شيء عظيم كلما يتصوره الإنسان، يقشعر جلده من عظمته وهوله.

النفخة **الثانية**: يقول الله عزّ وجل: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

النفخة الثانية يقوم الناس من قبورهم أحياء ينظرون، ماذا حدث؟! لأن الأجسام في القبور، يُنْزِل الله تعالى عليها مطراً

---

(١) رواه مسلم: كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، (٧٧٠)، (٢٠٠) وغيره.

عظيماً ثم تنمو في داخل الأرض[١]، حتى إذا تكاملت الأجسام تكاملها التام نفخ في الصور نفخة البعث: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ أي: جمعنا الخلائق ﴿جَمْعًا﴾ أي: جمعاً عظيماً، فهذا الجمع يشمَل: الإنس، والجن، والملائكة، والوحوش، وجميع الدواب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] كل الخلائق، حتى الملائكة ـ ملائكة السماء ـ كما قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]. يا له من مشهد عظيم، الله أكبر.

❁ ❁ ❁

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَعَرَضْنَا﴾ أي عرضناها لهم فتكون أمامهم ـ اللّهم أجرنا منها ـ.

---

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ قَالَ أَرْبَعُونَ يَوْماً. قَالَ: أَبَيْتُ قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْراً قَالَ: أَبَيْتُ قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً قَالَ: أَبَيْتُ قَالَ: ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ لَيْسَ مِنْ الإنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْماً وَاحِداً، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». متفق عليه. البخاري: كتاب: التفسير، باب: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، (٤٩٣٥). مسلم: كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ما بين النفختين، (٢٩٥٥).

﴿جَهَنَّمَ﴾ اسم من أسماء النار.

﴿عَرْضًا﴾ يعني عرضاً عظيماً، ولذلك نُكِّر يعني عرضاً عظيماً تتساقط منه القلوب، ومن الحكم في إخبار الله ـ عزّ وجل ـ بذلك أن يصلح الإنسان ما بينه وبين الله، وأن يخاف من هذا اليوم، وأن يستعد له، وأن يصور نفسه وكأنه تحت قدميه، كما قال الصِّديق رضي الله عنه:

كلنا مصبَّح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

فتصور هذا وتصور أنه ليس بينك وبينه، إلَّا أن تخرج هذه الروح من الجسد، وحينئذ ينتهي كل شيء.

❁ ❁ ❁

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي﴾ هؤلاء الكافرون كانت أعينهم في غطاء عن ذكر الله، لا ينظرون إلى ذكر الله، وقد ذكر الله تعالى فيما سبق ـ في نفس السورة ـ أنَّ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الكهف: ٥٧].

فالقلوب، والأبصار، والأسماع كلها مغلقة.

﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ هل المراد لا يريدون؟ كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢]، أي: هل يريد؟ أو المعنى أنهم لا يستطيعون ﴿سَمْعًا﴾ أي سمع الإجابة، وليس سمع الإدراك؟

الجواب: يحتمل المَعْنَيَيْن جميعاً، وكلاهما حق.

❁ ❁ ❁

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ أي: أفظن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ من هم عباده؟

الجواب: كل شيء فهو عبد الله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣] ومن الذي اتُّخِذَ ولياً من دون الله، أي: عُبد من دون الله؟

الجواب: عبدت الملائكة، عبدت الرسل، وعبدت الشمس، وعبد القمر، وعبدت الأشجار، وعبدت الأحجار، وعبدت البقر! نسأل الله العافية، الشيطان يأتي ابن آدم من كل طريق.

﴿مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني أربابا يدعونهم ويستغيثون بهم وينسون ولاية الله ـ عزّ وجل ـ يعني أيظن هؤلاء الذين فعلوا ذلك أنهم يُنصرون؟

الجواب: لا، لا يُنصرون، ومن ظن ذلك فهو مُخَبَّل في عقله.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ يعني أن الله عزّ وجل هيأ النار ﴿نُزُلًا﴾ للكافرين، ومعنى النُّزُل ما يقدمه صاحب البيت للضيف، ويحتمل أن يكون بمعنى المنْزِل، وكلاهما صحيح، فهم نازلون فيها، وهم يعطونها كأنها ضيافة، وبئست الضيافة.

❁ ❁ ❁

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد للأمة كلها: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾.

الجواب: نعم.

نريد أن نُخبَر عن الأخسرين أعمالاً، حتى نتجنب عمل هؤلاء، ونكون من الرابحين، وقد بين الله تعالى في سورة العصر أن كل إنسان خاسر، إلَّا من اتصف بأربع صفات:

١ ـ الذين آمنوا.

٢ ـ وعملوا الصالحات.

٣ ـ وتواصوا بالحق.

٤ ـ وتواصوا بالصبر.

وهنا يقول:

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني ضاع سعيهم وبَطل في الحياة الدنيا لكنهم: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ فَغُطي عليهم الحق ـ والعياذ بالله ـ وظنوا وهم على باطل أن الباطل هو الحق، وهذا كثير، فاليهود مثلاً يظنون أنهم على حق، والنصارى يظنون أنهم على حق، والشيوعيون يظنون أنهم على حق، كل واحد منهم يظن أنه على حق، ولذلك مكثوا على ما هم عليه، ومنهم من يعلم أنه ليس على حق، لكنه ـ والعياذ بالله ـ لاستكباره واستعلائه أصر على ما هو عليه.

❁ ❁ ❁

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ الكونية أو الشرعية؟

الظاهر كلتاهما، لكن الذين كذبوا الرسول ﷺ، كذبوا بالآيات الشرعية، ولم يكذبوا بالآيات الكونية، والدليل أن الله تعالى أخبر أنهم إذا سُئلوا: من خلق السمٰوات والأرض؟ يقولون: الله ـ عزّ وجل ـ، ولا أحد منهم يدعي أن هنالك خالقاً آخر مع الله، لكنهم كذبوا بالآيات الشرعية، كذبوا الرسول ﷺ؛ كذبوا بما جاء به، فهم داخلون في الآية.

﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ أي: كذبوا بلقاء الله، ومتى يكون لقاء الله؟

الجواب: يكون يوم القيامة، فهؤلاء كذبوا بيوم القيامة وجادلوا، وأُروا الآيات ولكنهم أصروا، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٨] يكذبنا فيه فقال: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨] تَحَدٍّ! من يحييها؟ رميم لا فيها حياة ولا شيء؟

﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾ [يس: ٧٩] ومن الذي أنشأها أوّل مرة؟

الجواب: هو الله، والإعادة أهون من الابتداء كما قال الله عزّ وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: ٢٧] هذا دليل، إذاً الدليل على إمكان البعث، وإحياء العظام وهي رميم:

١ ـ **أن الله تعالى ابتدأها**، ولما قال زكريا حين بُشِّر بالولد وكان قد بلغ في الكِبَر عتيا، إن امرأته عاقر، قال الله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]، فالذي خلقك من قبل، وأنت لم تكن شيئاً قادر على أن يجعل لك ولداً.

٢ ـ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] وإذا كان الله بكل خلق عليماً، فإنه لن يتعذر عليه أن يخلق ما يشاء، من الذي يمنعه إذا كان عليماً بكل خلق؟

الجواب: لا أحد يمنعه.

٣ ـ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠] شجر أخضر يخرج منه نار، فالشجر الأخضر يضرب بالزند ثم ينقدح ناراً، وكان العرب يعرفون هذا، فالذي يخرج هذه النار، وهي حارة يابسة من غصن رطب بارد، يعني متضادان غاية التضاد، قادر على أن يخلق الإنسان، أو أن يعيد خلق العظام وهي رميم، ثم حقق هذه النار بقوله: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

٤ ـ ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾؟ [يس: ٨١].

الجواب: بلى، قال الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] فالذي خلق السمٰوات والأرض بِكِبَرِهَا، وعظمها قادر على أن يعيد جزءاً من لا شيء بالنسبة للأرض، من أنت يا ابن آدم بالنسبة للأرض؟ لا شيء، أنت خلقت منها، أنت بعض يسير منها، فالذي قدر على خلق

السمٰوات والأرض، قادر على أن يخلق مثلهم، قال الله تعالى مجيباً نفسه: ﴿بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١].

٥ ـ ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١] الخلَّاق صيغة مبالغة، وإن شئت فاجعلها نسبة، يعني أنه موصوف بالخلق أزلا وأبدا، وهو تأكيد لقوله قبل: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

٦ ـ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] لا يحتاج إلى عمال ولا بنَّائين ولا أحد ﴿كُن فَيَكُونُ﴾؛ ولهذا قال عزّ وجل: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، كلمة واحدة.

٧ ـ ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس: ٨٣] كل شيء فبيده ملكوته ـ عزّ وجل ـ يتصرف كما يشاء، فنسأله ـ عزّ وجل ـ أن يهدينا صراطه المستقيم.

٨ ـ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣] فهذا هو الدليل الثامن. وإنما كان دليلاً؛ لأنه لولا رجوعنا إلى الله ـ عزّ وجل ـ لكان وجودنا عبثاً، وهذا ينافي الحكمة، فتأمل سياق هذه الأدلة الثمانية في هذا القول الموجز، ومع ذلك ينكرون لقاء الله.

في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ إلزام لهم بالإيمان؛ لأنه كونه ربهم ـ عزّ وجل ـ يجب أن يطيعوه وأن يؤمنوا به، لكن من حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يؤمن.

﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ يعني بَطَلَت ولم ينتفعوا بها، حتى لو أن الكافر أحسن وأصلح الطرق وبنى الرُّبط، وتصدق على الفقراء فإن ذلك لا ينفعه، إن أراد الله أن يثيبه عجل الله له الثواب في الدنيا، أما في الآخرة فلا نصيب له، نعوذ بالله نسأل الله الحماية

والعافية، لأن أعماله حبطت، ولكن هل يحبط العمل بمجرد الردة أم لا بد من شرط؟

الجواب: لا بد من شرط، وهو أن يموت على ردته، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. أما لو ارتد، ثم مَنَّ الله عليه بالرجوع إلى الإسلام، فإنه يعود عليه عمله الصالح السابق للردة.

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ يعني أنه لا قدر لهم عندنا ولا ميزان، وهو كناية عن سقوط مرتبتهم عند الله عزّ وجل.

وقيل: إن المعنى أننا لا نزنهم، لأن الوزن إنما يحتاج إليه لمعرفة ما يترجح من حسنات أو سيئات، والكافر ليس له عمل حتى يوزن، ولكن الصحيح أن الأعمال توزن كُلَّها، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٦ ـ ١١]. فيقام الوزن؛ لإظهار الحجة عليه، والمسألة هذه فيها خلاف.

❁ ❁ ❁

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ۝١٠٦﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني ذلك المذكور من أنه لا يقام لهم الوزن وأن أعمالهم تكون حابطة.

﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟﴾ الباء للسببية و(ما) مصدرية وتقدير الكلام: بكفرهم.

﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ قوله: ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟﴾ معطوفة على

﴿كَفَرُوا۟﴾ أي: بما كفروا واتخذوا، فهم ـ والعياذ بالله ـ كفروا وتعدى كفرهم إلى غيرهم، صاروا يستهزئون بالآيات، ويستهزئون بالرسل، ولم يقتصروا على كفرهم بالله.

﴿هُزُوًا﴾ أي: محلَّ هُزؤ، يسخرون منهم، ولهذا قال الله ـ عزّ وجل ـ للرسول ﷺ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الأنبياء: ٣٦] ويقولون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾! [الفرقان: ٤١]، والاستفهام هنا لا يخفى أنه للتحقير، أهذا الرسول! ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢]. أعوذ بالله؛ يفتخرون أنهم صبروا على آلهتهم وانتصروا لها.

ثم ذكر ثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾.

بدل ما كانت جهنم نزلا للكافرين، صارت جنات الفردوس نزلا للمؤمنين، لكن بشرطين:

١ ـ **الإيمان** ٢ ـ **العمل الصالح**. والإيمان محله القلب، والعمل الصالح محله الجوارح، وقد يراد به أيضاً عمل القلب، كالتوكل والخوف والإنابة والمحبة، وما أشبه ذلك.

و﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هي التي كانت **خالصة لله، وموافقة لشريعة الله**.

ولا يمكن أن يكون العمل صالحاً إلَّا بهذا، الإخلاص لله، والموافقة لشريعة الله، فمن أشرك؛ فعمله غير صالح، ومن ابتدع

فعمله غير صالح، ويكون مردوداً عليهما، ودليل ذلك قوله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١).

وقال النبي ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٢). أي: مردود عليه، فصار العمل الصالح ما جمع وصفين: الإخلاص لله، والمتابعة لشريعة الله، أو لرسول الله؟

الجواب: لشريعة الله أحسن، إلَّا إذا أريد بالمتابعة لرسول الله، الجنس، دون محمد ﷺ فنعم، لأن المؤمنين من قوم موسى وقوم عيسى يدخلون في هذا.

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ قوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ هل المراد بالكينونة هنا الكينونة الماضية، أو المراد تحقيق كونها نزلاً لهم؟ كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؟ نقول: الأمران واقعان، فكانت في علم الله نزلا لهم، وكانت نزلا لهم على وجه التحقيق؛ لأن «كان» قد يسلب منها معنى الزمان، ويكون المراد بها التحقيق.

﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ هل هذا من باب إضافة الموصوف إلى صفته، أو لأن الفردوس هو أعلى الجنَّات، والجنَّات الأُخرى تحته؟

---

(١) رواه مسلم: كتاب: الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله، (٢٩٨٥)، (٤٦) وغيره.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، (١٧١٨)، (١٧).

الجواب: الظاهر الثاني لأنه ليس جميع المؤمنين الذين عملوا الصالحات ليسوا كلهم في الفردوس، بل هم في جنات الفردوس، والفردوس قال النبي ﷺ: «**فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ**»[1] أعلى الجنة ووسط الجنة معناه أن الجنة مثل القبَّة، وفيه أيضاً وصف رابع: **ومنه تفجر أنهار الجنة**.

❁ ❁ ❁

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً، ولا نزاع في هذا بين أهل السنة.

﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي لا يطلبون عنها بدلاً، ﴿حِوَلًا﴾ أي: تحولا؛ لأن كل واحد راضٍ بما هو فيه من النعم، وكل واحد لا يرى أن أحداً أكمل منه، وهذا من تمام النعيم، أنت مثلاً لو نزلت قصراً منيفاً فيه من كل ما يبهج النفس، ولكنك ترى قصر فلان أعظم منه، هل يكمل سرورك؟

الجواب: من يريد الدنيا لا يكمل سروره، لأنه يرى أن غيره خير منه، لكن في الجنة، وإن كان الناس درجات، لكن النازل منهم ـ وليس فيهم نازل ـ يرى أنه لا أحد أنعم منه، عكس أهل النار، أهل النار يرى الواحد منهم أنه لا أحد أشد منه، وأنه أشدهم عذاباً.

---

(١) رواه البخاري: كتاب: الجهاد والسير، باب: درجات المجاهدين في سبيل، (٢٧٩٠).

﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ يعني لو قيل للواحد: هل ترغب أن نجعلك في مكان آخر غير مكانك لقال: «لا»، وهذا من نعمة الله على الإنسان أن يقنع الإنسان بما أعطاه الله ـ عزّ وجل ـ وأن يطمئن ولا يقلق.

❁ ❁ ❁

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل﴾ أي: يا محمد: ﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾ يعني حبراً يكتب به ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾.

﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ قبل أن تنفد كلمات الله ـ عزّ وجل ـ، لأنه المدبر لكل الأمور، وبكلمة ﴿كُن﴾ لا نَفاد لكلامه ـ عزّ وجل ـ، بل أن في الآية الأخرى ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾، أي: لو كان أقلاماً ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. لَنَفِد البحر وتكسرت الأقلام وكلمات الله ـ جلَّ وعلا ـ باقية.

﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ يعني زيادة، فإن كلمات الله لا تنفد، وفي هذا نص صريح على إثبات كلام الله ـ عزّ وجل ـ، وكلمات الله ـ عزّ وجل ـ كونية، وشرعية، أما الشرعية فهو ما أوحاه إلى رسله، وأما الكونية فهي ما قضى به قَدَرهُ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وكل شيء بإرادته، إذاً فهو يقول لكل شيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ومن الكلمات الشرعية ما أوحاه ـ عزّ وجل ـ إلى من دون الرسل، كالكلمات التي أوحاها إلى آدم، فإن آدم عليه الصلاة والسلام،

نبي وليس برسول، وقد أمره الله ونهاه، والأمر والنهي كلمات شرعية.

❁ ❁ ❁

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ يعني أعلن للملأ أنك لست ملكاً، وأنك من جنس البشر ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وذِكر المثلية لتحقيق البشرية، أي: أنه بشر لا يتعدى البشرية، ولذلك كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يغضب كما يغضب الناس، وكان ﷺ يمرض كما يمرض الناس، وكان يجوع كما يجوع الناس، وكان يعطش كما يعطش الناس، وكان يتوقى الحر كما يتوقاها الناس، وكان يتوقى سهام القتال كما يتوقاها الناس، وكان ينسى كما ينسى الناس، كل الطبيعة البشرية ثابتة للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكان له ظِلٌ كما يكون للناس.

أمّا من زعم أن الرسول ﷺ نُورَاني، ليس له ظل فهذا كذب بلا شك، فإن الرسول ﷺ كغيره من البشر له ظل ويستظل أيضاً، ولو كان الرسول ﷺ ليس له ظل، لنقل هذا نقلاً متواتراً؛ لأنه من آيات الله ـ عزّ وجل ـ إذاً الرسول ﷺ بشر مثل الناس، وهل يقدر الرسول ﷺ أن يجلب للناس نفعاً أو ضراً؟

الجواب: لا، كما أمره الله ـ عزّ وجل ـ أن يقول: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١]، ومن العجب أن أقواماً لا يزالون موجودين، يتعلقون بالرسول ﷺ أكثر مما يتعلقون بالله ـ عزّ وجل ـ إذا ذكر الرسول ﷺ اقشعرت جلودهم، وإذا ذكر الله

كأن لم يُذكر! حتى إن بعضهم يؤثر أن يحلف بالرسول ﷺ دون أن يحلف بالله ـ عزّ وجل ـ وحتى إن بعضهم يرى أن زيارة قبر الرسول ﷺ، أفضل من زيارة الكعبة، ولقد شاهدت أناساً حُجزوا عن المدينة في أيام الحج لقرب وقت الحج، لأنه إذا قرب وقت الحج منعوهم من الذهاب إلى المدينة، لئلَّا يفوتهم الحج، يبكي! يقول: أنا منعت من الأنوار، ومنعت من كذا وكذا ويعدد ما نسيته الآن، فيقال له: أنت لماذا جئت؟ قال: جئت لمشاهدة الأنوار كأنه ما جاء إلا لزيارة المدينة، ونسي أنه جاء ليؤدي فريضة الحج، وسبب ذلك الجهل؛ وأن العلماء لا يبينون للعامة، وإلّا فالعامي عنده عاطفة جياشة لو أنه أخبر بالحق لرجع إليه.

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ هذا هو الميزة للرسول ﷺ، أنه يوحى إليه، وغيره لا يوحى إليه، إلَّا إخوانه من المرسلين عليهم الصلاة والسلام.

﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ هذه الجملة حصر، كأنه قال: لا إلٰه إلا واحد، واستفدنا أنها للحصر من «إنَّما»؛ لأن كلمة «إنما» من أدوات الحصر، تقول: «إنما زيد قائم» يعني ليس له وصف غير القيام، وتقول: «إنما العلم بالتعلم» وليس هناك طريق للعلم إلَّا بالتعلم.

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: يُأمِّل أن يلقى الله ـ عزّ وجل ـ ويؤمن بذلك.

﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ دعوة يسيرة سهلة، أتريد أن تلقى ربك وقلبك مملوء بالرجاء؟ إذا كان كذلك ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾. كل إنسان عاقل يرجو لقاء الله ـ عزّ وجل ـ

ولقاء الله ـ عزّ وجل ـ ليس ببعيد، قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥]. قال بعض العلماء: إن قوله ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ﴾ بمعنى قولِهم «كل آتٍ قريب».

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ إذا قال قائل: ألستم قررتم أن العمل الصالح، لا بد فيه من إخلاص ومتابعة؟ قلنا: بلى، لكنه لما كان الإخلاص ذا أهمية عظيمة ذكره تخصيصاً بعد دخوله ضمن قوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾.

وتأمل قوله: ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾ ليتبين لك أنه جلَّ وعلا حقيق بأن لا يشرَك به؛ لأنه الرب الخالق المالك المدبر لجميع المخلوقات، إننا نقول بقلوبنا وألسنتنا: «ربنا الله» ونسأل الله تعالى الاستقامة حتى ندخل في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

والحمد لله الذي وفقنا لإكمال هذه السورة، وصلّى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

بحمد الله

الفهرس

الموضوع | الصفحة

* المقدمة ٥
- تفسير سورة الكهف ٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ... ﴿١﴾﴾ ٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ... ﴿٢﴾﴾ ٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا... ﴿٣﴾﴾. ١٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا... ﴿٤﴾﴾ ١٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ... ﴿٥﴾﴾. ١٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ... ﴿٦﴾﴾. ١٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا... ﴿٧﴾﴾. ١٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا... ﴿٨﴾﴾. ٢٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ... ﴿٩﴾﴾. ٢١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ... ﴿١٠﴾﴾. ٢٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ... ﴿١١﴾﴾. ٢٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ... ﴿١٢﴾﴾. ٢٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ... ﴿١٣﴾﴾. ٢٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا... ﴿١٤﴾﴾. ٢٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً... ﴿١٥﴾﴾. ٢٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ... ﴿١٦﴾﴾. ٣٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ... ﴿١٧﴾﴾. .. ٣٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ... ﴿١٨﴾﴾. ٣٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ... ﴿١٩﴾﴾. ٣٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ... ﴿٢٠﴾﴾. ٤٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟... ﴿٢١﴾﴾. ٤٠

الموضوع | الصفحة

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ... ﴿٢٢﴾﴾. ٤٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ... ﴿٢٣﴾﴾ ٤٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ ... ﴿٢٤﴾﴾. ٤٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ ... ﴿٢٥﴾﴾. ٤٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ... ﴿٢٦﴾﴾. ... ٥٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ... ﴿٢٧﴾﴾. ٥٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ... ﴿٢٨﴾﴾. ٥٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن ... ﴿٢٩﴾﴾ ٦٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ... ﴿٣٠﴾﴾. ٦٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ... ﴿٣١﴾﴾. ٦٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ ... ﴿٣٢﴾﴾. ٦٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ... ﴿٣٣﴾﴾. .. ٦٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ... ﴿٣٤﴾﴾. ٦٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ... ﴿٣٥﴾﴾. ٦٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ ... ﴿٣٦﴾﴾. ٧٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ ... ﴿٣٧﴾﴾. ٧٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ... ﴿٣٨﴾﴾. ٧١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ ... ﴿٣٩﴾﴾. ٧٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ... ﴿٤٠﴾﴾. ٧٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ... ﴿٤١﴾﴾. .. ٧٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ... ﴿٤٢﴾﴾. ٧٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ... ﴿٤٣﴾﴾ ٧٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ... ﴿٤٤﴾﴾. ٧٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ ... ﴿٤٥﴾﴾. ٧٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ... ﴿٤٦﴾﴾. ٧٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ... ﴿٤٧﴾﴾. ٨١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا ... ﴿٤٨﴾﴾. ٨٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ ... ﴿٤٩﴾﴾. ٨٥

الموضوع | الصفحة

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ . . . ﴿٥٠﴾﴾ ٨٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ . . . ﴿٥٠﴾﴾ ٨٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴿٥١﴾﴾ ٩٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ . . . ﴿٥٢﴾﴾ ٩٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا . . . ﴿٥٣﴾﴾ ٩٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ . . . ﴿٥٤﴾﴾ ٩٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ . . . ﴿٥٥﴾﴾ . .. ٩٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ . . . ﴿٥٦﴾﴾ ١٠١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ . . . ﴿٥٧﴾﴾ ١٠٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم . . . ﴿٥٨﴾﴾ ١٠٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ . . . ﴿٥٩﴾﴾ ١٠٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ . . . ﴿٦٠﴾﴾ ١٠٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا . . . ﴿٦١﴾﴾ ١١٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا . . . ﴿٦٢﴾﴾ ١١١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ . . . ﴿٦٣﴾﴾ ١١١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا . . . ﴿٦٤﴾﴾ ١١٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً . . . ﴿٦٥﴾﴾ ١١٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ . . . ﴿٦٦﴾﴾ ١١٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا . . . ﴿٦٧﴾﴾ ١١٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا . . . ﴿٦٨﴾﴾ ١١٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا . . . ﴿٦٩﴾﴾ ١١٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ . . . ﴿٧٠﴾﴾ ١١٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا . . . ﴿٧٢﴾﴾ ١١٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى . . . ﴿٧٣﴾﴾ ١١٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ . . . ﴿٧٤﴾﴾ ١١٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ . . . ﴿٧٥﴾﴾ ١١٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِىٓ . . . ﴿٧٦﴾﴾ ١١٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ . . . ﴿٧٧﴾﴾ ١٢٠

الموضوع | الصفحة

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ... ﴿٧٨﴾﴾. ١٢١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ... ﴿٧٩﴾﴾. ١٢٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ... ﴿٨٠﴾﴾. ١٢٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً... ﴿٨١﴾﴾. ١٢٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ... ﴿٨٢﴾﴾. ١٢٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ... ﴿٨٣﴾﴾. ١٢٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ... ﴿٨٤﴾﴾. ١٢٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا... ﴿٨٥﴾﴾. ١٢٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ... ﴿٨٦﴾﴾. ١٢٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ... ﴿٨٧﴾﴾. ١٢٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ... ﴿٨٨﴾﴾. ١٢٩
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ... ﴿٩٠﴾﴾. ١٣٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا... ﴿٩١﴾﴾. ١٣٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا... ﴿٩٣﴾﴾. ١٣١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ... ﴿٩٤﴾﴾. ١٣١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ... ﴿٩٥﴾﴾. ١٣٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ... ﴿٩٦﴾﴾. ١٣٤
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا... ﴿٩٧﴾﴾. ١٣٥
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي... ﴿٩٨﴾﴾. ١٣٦
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ... ﴿٩٩﴾﴾. ١٣٨
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا... ﴿١٠٠﴾﴾. ١٤٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي... ﴿١٠١﴾﴾. ١٤١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي... ﴿١٠٢﴾﴾. ١٤١
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا... ﴿١٠٣﴾﴾. ١٤٢
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... ﴿١٠٤﴾﴾. ١٤٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ... ﴿١٠٥﴾﴾. ١٤٣
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا... ﴿١٠٦﴾﴾. ١٤٧
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... ﴿١٠٧﴾﴾. ١٤٨

الموضوع الصفحة

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا . . . ﴿١٠٨﴾﴾ ١٥٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى . . . ﴿١٠٩﴾﴾ ١٥٠
تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ . . . ﴿١١٠﴾﴾ ١٥١
* الفهرس ١٥٥

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٢)

تفسير القرآن الكريم

سورة النور

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٢)

تفسير القرآن الكريم

سورة النور

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة الروم. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
٣٥٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٣٨)
ردمك: ٩ ـ ٥٥ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة الروم ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٣٧

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٣٧
ردمك: ٩ ـ ٥٥ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من :
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لِتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ) [1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[1]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخِ مُحَمَّد بنِ صالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراجِ ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَرِيمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضَاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ فِي المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ
فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ
٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

نُبْذَةٌ مُخْتَصَرَةٌ عَنْ
فَضِيلَةِ الشَّيْخِ العَلاَّمَةِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين
١٣٤٧- ١٤٢١هـ

نَسَبُهُ وَمَوْلِدُهُ:

هُو صاحِبُ الفضِيلةِ الشَّيخُ العالِـمُ المحقِّق، الفَقِيه المفسِّر، الوَرِع الزَّاهد، مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ آل عُثَيْمِين مِنَ الوهبَةِ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ.

وُلِد فِي ليلةِ السَّابعِ والعِشرينَ مِن شَهرِ رمَضانَ المبارَك، عامَ (١٣٤٧هـ) فِي عُنَيْزَةَ -إِحدَى مُدِن القَصِيم- فِي المملَكةِ العَربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.

نَشْأَتُهُ العِلْمِيَّةِ:

أَلْحَقَهُ والدُه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لِيتعلَّمَ القُرآنَ الكَريمَ عندَ جَدِّه مِن جِهةِ أُمِّه المعلِّم عَبْد الرَّحمن بن سُلَيْمان الدَّامِغ -رَحِمَهُ اللهُ-، ثمَّ تعلَّم الكِتابةَ، وشيئًا مِن الحِسابِ، والنُّصُوص الأَدبيَّة؛ فِي مدرسةِ الأُستاذ عَبْدالعزيزِ بن صالِحٍ الدَّامِغ -رَحِمَهُ اللهُ-، وذلكَ قبلَ أنْ يَلْتَحِقَ بمَدْرسة المعلِّم عليِّ بنِ عَبْدالله الشّحيتان -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- حيثُ حَفِظَ القُرآنَ الكَريمَ عندَه عن ظَهْرِ قَلْبٍ ولـمَّا يتجاوز الرَّابعةَ عَشْرَةَ مِن عُمُرِه بَعْدُ.

وبتَوْجيهٍ مِن والدِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَقْبَلَ علَى طلَب العِلم الشَّرعيِّ، وكانَ فضيلةُ الشَّيْخِ العلَّامةُ عَبْدُ الرَّحمن بنُ ناصرٍ السّعْـديُّ -رَحِمَهُ اللهُ- يُدرِّس العُلـوم

الشَّرعيَّة والعَربيَّة فِي الجامِع الكَبير بعُنَيْزَة، وقَد رَتَّب اثنَيْنِ[1] مِن طَلَبته الكِبار لِتَدريسِ المُبتدِئينَ مِنَ الطَّلَبة، فانضَمَّ الشَّيْخُ إلَى حَلقةِ الشَّيْخ محمَّدِ بنِ عَبْد العزيزِ المطوّع -رَحِمَهُ اللهُ- حتَّى أَدْرَكَ مِنَ العِلم -فِي التَّوْحِيد، والفِقه، والنَّحو- ما أَدْرَكَ.

ثُمَّ جَلَس فِي حَلقة شَيْخِه العلَّامَة عَبْد الرَّحمن بنِ ناصرٍ السّعْديِّ رَحِمَهُ اللهُ، فدرَس عليه فِي التّفسِير، والحَديث، والسِّيرة النَّبويَّة، والتَّوحِيد، والفِقه، والأُصول، والفَرائِضِ، والنَّحْو، وحَفِظَ مُخْتَصراتِ المُتُونِ فِي هذِهِ العُلُوم.

ويُعَدُّ فضيلةُ الشَّيْخ العلَّامَة عَبْدُ الرحمن بنُ ناصرٍ السّعْديُّ -رَحِمَهُ اللهُ- هُو شيخَه الأوَّلَ؛ إِذْ أَخذ عَنْهُ العِلْمَ -مَعْرفةً وطَرِيقةً- أَكْثَرَ ممَّا أَخذ عَنْ غَيرِه، وتَأَثَّر بمَنْهجِه وتَأصِيلِه، وطَرِيقةِ تَدْرِيسِه، واتِّباعِه لِلدَّليل.

وعِندَما كانَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرحمن بنُ عليٍّ بن عودانَ -رَحِمَهُ اللهُ- قاضيًا فِي عُنَيْزَةَ قرَأ عليه فِي عِلم الفَرائضِ، كما قَرأ علَى الشَّيْخ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَفِيفِي -رَحِمَهُ اللهُ- فِي النَّحو والبَلاغَة أَثناءَ وُجودِه مُدَرِّسًا فِي تِلكَ المَدِينة.

ولـمَّا فُتِحَ المَعْهَدُ العِلْمِيُّ فِي الرِّياضِ أَشارَ عليه بعضُ إِخْوانِه[2] أنْ يَلْتَحِقَ بِهِ، فاستَأْذَنَ شيخَه العلَّامةَ عَبْدَ الرَّحمنِ بنَ ناصرٍ السّعْدِيَّ -رَحِمَهُ اللهُ- فأَذِنَ له، والْتَحَق بالمَعْهَدِ عامَيْ (١٣٧٢-١٣٧٣هـ).

ولقَدِ انتفعَ -خلالَ السَّنتَيْن اللَّتَيْن انتظَم فِيهما فِي مَعهدِ الرِّياضِ العِلْمِيِّ- بالعُلماءِ الَّذِين كانُوا يُدرِّسونَ فِيه حِينذاكَ، ومِنْهُمُ: العلَّامَةُ المُفَسِّرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الأَمِين الشّنْقِيطِيُّ، والشَّيْخُ الفَقِيه عَبْدُ العزيزِ بنُ ناصرِ بنِ رشيدٍ، والشَّيْخُ المُحدِّثُ عَبْدُ الرحمنِ الإِفْرِيقِيُّ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى-.

---

(١) هما الشَّيْخان محمد بن عَبْد العزيز المطوع، وعلي بن حمد الصالحي رحمهما الله تَعَالَى.
(٢) هو الشَّيْخ علي بن حمد الصَّالحي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

وفِي أَثناءِ ذَلكَ اتَّصلَ بسَماحةِ الشَّيْخِ العلَّامةِ عَبْدِ العزيزِ بنِ عَبْدِ الله بنِ بَازٍ -رَحِمَهُ اللهُ-، فقرَأ عليه فِي المسجِد: مِن صَحِيح البُخارِيِّ، ومِن رَسائِل شَيخِ الإسلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ؛ وانتفَع به فِي عِلم الحَدِيث، والنَّظر فِي آراءِ فُقهاءِ المَذَاهِب والمُقارَنةِ بينَها، ويُعدُّ سماحةُ الشَّيْخِ عَبْدُ العزيزِ بنُ بازٍ -رَحِمَهُ اللهُ- هو شَيْخَهُ الثَّانِي فِي التَّحْصِيلِ والتَّأثُّرِ بِهِ.

ثُمَّ عـادَ إلَى عُنَيْزَةَ عـامَ (١٣٧٤هـ)، وصـارَ يَدْرُسُ علَى شَيْخِهِ العـلَّامةِ عَبْدِ الرَّحمنِ بنِ ناصرٍ السّعْدِيِّ، ويُتابعُ دِراسَتَهُ انتِسَابًا فِي كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ، الَّتِي أَصْبَحَتْ جُزْءًا مِنْ جامِعَةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإسْلامِيَّةِ، حتَّى نالَ الشَّهادَةَ العالِيَةَ.

تَدْرِيسُهُ:

تَوَسَّمَ فِيهِ شَيْخُهُ النَّجابَةَ وسُرْعةَ التَّحْصِيلِ العِلْمِيِّ فشَجَّعَهُ علَى التَّدرِيسِ وهُوَ ما زالَ طَالِبًا فِي حَلقتِه، فبَدَأ التَّدرِيسَ عامَ (١٣٧٠هـ) فِي الجامِع الكَبِيرِ بعُنَيْزَةَ.

ولـمَّا تخرَّجَ فِي المَعْهَـدِ العِلْمِيِّ فِي الرِّياضِ عُيِّنَ مُدَرِّسًا فِي المَعْهَـدِ العِلْمِيِّ بعُنَيْزَةَ عامَ (١٣٧٤هـ).

وفِي سَنَةِ (١٣٧٦هـ) تُوُفِّيَ شَيْخُهُ العلَّامةُ عَبْدُ الرَّحمنِ بنُ ناصرٍ السّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فتَولّى بعدَه إمامَةَ الجامِعِ الكَبِيرِ فِي عُنَيْزَةَ، وإمامَةَ العِيدَيْنِ فِيها، والتَّدْرِيسَ فِي مكتبةِ عُنَيْزَةَ الوَطَنِيَّةِ التَّابعةِ لِلجامِعِ؛ وهِي التِي أَسَّسَها شيخُه -رَحِمَهُ اللهُ- عامَ (١٣٥٩هـ).

وَلـمَّا كَثُرَ الطَّلبةُ، وصارَتِ المكتبةُ لا تَكْفِيهِم؛ بدَأ فَضيلةُ الشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ- يُدرِّسُ فِي المسجِدِ الجامِعِ نَفْسِهِ، واجتمَعَ إلَيْهِ الطُّلَّابُ وتَوافَدُوا مِنَ المملكَةِ وغيرِها؛ حتَّى كانُوا يَبْلُغونَ المِئاتِ فِي بعضِ الدُّرُوسِ، وهؤلاءِ يَدْرُسُونَ دِراسَةَ

تَحصيلٍ جادٍّ، لَا لِـمُجرَّدِ الاستِماعِ. وبَقِيَ علَى ذَلكَ -إمامًا وخَطيبًا ومُدرِّسًا- حتَّى وفاتِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-.

بَقِيَ الشَّيْخُ مُدرِّسًا فِي المَعْهَدِ العِلْمِيِّ مِن عامِ (١٣٧٤هـ) إلَى عامِ (١٣٩٨هـ) عندَما انتقَلَ إلَى التَّدرِيسِ فِي كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ وأُصُولِ الدِّينِ بِالقَصِيمِ، التَّابِعَةِ لجامِعةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإسلامِيَّةِ، وظَلَّ أُستاذًا فِيها حتَّى وفاتِه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-.

وكانَ يُدرِّسُ فِي المسجِدِ الحَرامِ والمسجِدِ النَّبَوِيِّ، فِي مَواسِمِ الحَجِّ ورمَضانَ والإجازاتِ الصَّيْفِيَّة، مُنذُ عامِ (١٤٠٢هـ) حتَّى وفاتِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-.

وَللشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ- أُسلوبٌ تَعْليمِيٌّ فَريدٌ فِي جَودتِهِ ونَجاحِهِ، فهُو يُناقِشُ طُلَّابَهُ ويَتقبَّلُ أسئِلَتَهُم، ويُلقِي الدُّرُوسَ والمُحاضَراتِ بِهِمَّةٍ عالِيَةٍ ونَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ واثِقَةٍ، مُبْتَهِجًا بنَشْرِهِ لِلعِلْمِ وتَقْرِيبِهِ إلَى النَّاسِ.

آثارُهُ العِلْمِيَّةُ:

ظَهَرَتْ جُهُودُهُ العَظِيمةُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- خِلالَ أَكْثَرَ مِن خَمسِينَ عامًا مِنَ العَطاءِ والبَذْلِ فِي نَشْرِ العِلْمِ والتَّدْرِيسِ والوَعْظِ والإرْشادِ والتَّوْجِيهِ وإلْقاءِ المُحاضَراتِ والدَّعْوةِ إلَى اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

ولقَدِ اهتَمَّ بالتَّأْلِيفِ، وتَحريرِ الفَتاوَى والأَجْوبة، التِي تَمَيَّزَتْ بالتَّأصِيلِ العِلْمِيِّ الرَّصِينِ، وصدَرتْ لَهُ العَشَراتُ مِنَ الكُتُبِ والرَّسائِلِ والمُحاضَراتِ والفَتاوَى والخُطَبِ واللِّقاءاتِ والمَقالاتِ، كَما صدَرَ لَهُ آلافُ السَّاعاتِ الصَّوْتيَّةِ التِي سَجَّلَتْ مُحاضَراتِه وخُطَبَهُ ولِقاءاتِهِ وبرامِجَهُ الإذاعِيَّةَ ودُرُوسَهُ العِلْمِيَّةَ؛ فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، والشُّرُوحاتِ المُتميِّزَةِ لِلحَديثِ الشَّرِيفِ والسِّيرَةِ النَّبوِيَّةِ، والمُتُونِ والمَنْظُوماتِ فِي العُلُومِ الشَّرْعيَّةِ والنَّحْوِيَّةِ.

وَإِنفاذًا لِلقَـواعِدِ والضَّـوابِطِ والتَّوْجِيهاتِ التِي قَرَّرهـا فَضيلتُهُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لِنَشْرِ مُؤَلَّفاتِه، ورَسائِلِه، ودُرُوسِه، ومُحاضراتِه، وخُطبِه، وفَتاواهُ، ولقاءاتِه؛ تَقُـوم مُؤَسَّسةُ الشَّيْخ مُحَمَّدِ بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةُ -بعَوْنِ اللهِ وتَـوْفِيقِه- بوَاجِبِ وشَرَفِ المَسْؤُوليَّةِ لإِخْراجِ كافَّةِ آثارِهِ العِلْمِيَّةِ والعِنايَةِ بِهَا.

وبِناءً علَى تَوْجِيهاتِه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أُنْشِئَ لَهُ مَوقِعٌ خاصٌّ علَى شَبَكَةِ المَعْلُوماتِ الدَّوْلِيَّةِ[1]، مِن أَجْلِ تَعْمِيمِ الفائِدَةِ المَرجُوَّةِ -بعَوْنِ اللهِ تَعَالَى-، وتَقدِيمِ جَمِيعِ آثارِهِ العِلْمِيَّةِ مِنَ المُؤَلَّفاتِ والتَّسْجِيلاتِ الصَّوْتِيَّةِ.

أَعْمَالُهُ وجُهُودُهُ الأُخْرَى:

إِلَى جانِبِ تِلكَ الجُهُودِ المُثْمِرَةِ فِي مَجالاتِ التَّدْرِيسِ والتَّأْلِيفِ والإِمامَةِ والخَطابَةِ والإِفْتاءِ والدَّعْوةِ إِلَى اللهِ -سبحانه وتَعَالَى- كانَ لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ أَعمالٌ كَثِيرةٌ مُوَفَّقَةٌ مِنْهَا:

- عُضوًا فِي هَيْئة كِبارِ العُلماءِ فِي المَمْلكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّة، مِن عام (١٤٠٧هـ) حتَّى وفاته.
- عضوًا فِي المَجْلِس العِلمِيِّ بجامِعةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإسلاميَّةِ، فِي العامَيْنِ الدِّرَاسِيَّيْنِ (١٣٩٨-١٤٠٠هـ).
- عضوًا فِي مَجْلِسِ كُلِّيَّةِ الشَّرِيعةِ وأُصُولِ الدِّينِ، بفَرْعِ جامِعةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإسلاميَّةِ فِي القَصِيمِ، ورَئِيسًا لِقِسْمِ العَقِيدةِ فِيها.
- وفي آخِرِ فَترةِ تَدرِيسِهِ بالمَعْهَدِ العِلْمِيِّ شارَكَ فِي عُضوِيَّةِ لجْنَةِ الخِطَطِ والمَناهِجِ لِلمَعاهِدِ العِلْمِيَّةِ، وأَلَّفَ عَدَدًا مِنَ الكُتُبِ المُقَرَّرَةِ فِيهَا.

---

(١) WWW.BINOTHAIMEEN.COM

- عُضـوًا فِي لجْنَةِ التَّوْعِيَةِ فِي مَوْسِـمِ الحَجِّ، مِن عـام (١٣٩٢هـ) حتَّى وفـاته -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، حيثُ كانَ يُلقِي دُرُوسًا ومُحاضراتٍ فِي مكَّة والمَشاعِر، ويُفْتِي فِي المَسائِلِ والأَحكامِ الشَّرعيَّة.
- تَرأَّسَ جَمعيَّةَ تَحفيظِ القُرْآنِ الكَريمِ الخَيريَّةَ فِي عُنَيْزَةَ مُنْذُ تَأْسِيسِها عامَ (١٤٠٥هـ) حتَّى وفاتِه.
- أَلقَى مُحاضراتٍ عَديدةٍ داخِلَ المملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ علَى فِئاتٍ مُتنوِّعةٍ مِنَ النَّاسِ، كَما أَلقَى مُحاضراتٍ عَبْرَ الهاتِفِ علَى تَجمُّعاتٍ ومَراكِزَ إسلاميَّة فِي جِهاتٍ مُختلفةٍ مِنَ العالَمِ.
- مِن عُلماءِ المملكةِ الكِبارِ الذِين يُجيبُونَ علَى أَسئلةِ المُسْتفسِرِينَ حولَ أَحكامِ الدِّينِ وأُصُولِه؛ عَقِيدةً وشَريعةً، وذَلكَ عَبْرَ البَرَامِجِ الإذاعيَّةِ فِي المملكةِ العَربيَّةِ السُّعُوديَّةِ، وأَشهرُها بَرْنامَجُ (نُورٌ عَلَى الدَّرْبِ).
- نَذَرَ نَفْسَهُ لِلإجابَةِ علَى أَسئلةِ السَّائِلِينَ؛ مُهاتَفةً ومُكاتَبةً ومُشافَهةً.
- رَتَّبَ لِقاءاتٍ عِلميَّةً مُجَدْوَلَةً، أُسْبُوعيَّةً وشَهْريَّةً وسَنَويَّةً.
- شارَكَ فِي العَدِيد مِنَ المُؤتَمَراتِ التِي عُقِدَت فِي المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.
- ولأَنَّه يَهتمُّ بالسُّلُوكِ التَّربويِّ والجانِبِ الوَعْظِيِّ اعتنَى بتَوْجِيهِ الطُّلَّابِ وإِرشادِهِم إِلَى سُلُوكِ المَنْهَجِ الجَادِّ فِي طَلَبِ العِلْمِ وتَحْصيلِه، وعَمِلَ علَى استِقْطابِهِمْ والصَّبْرِ علَى تَعْلِيمِهِمْ وتَحمُّلِ أَسئلتِهِمُ المُتَعدِّدةِ، والاهتمامِ بأُمُورِهِمْ.
- ولِلشَّيخِ -رَحِمَهُ اللهُ- أَعمالٌ عَديدةٌ فِي مَيادِينِ الخَيرِ وأَبوابِ البِرِّ ومَجالاتِ الإِحْسانِ إِلَى النَّاسِ، والسَّعْيِ فِي حَوائِجِهِمْ وكِتابَةِ الوَثَائِق والعُقُودِ بَيْنَهُمْ، وإِسداءِ النَّصِيحَةِ لهُمْ بِصِدْقٍ وإِخلاصٍ.

مَكَانَتُهُ العِلْمِيَّةُ:

يُعَدُّ فَضيلةُ الشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ الذِينَ وَهَبَهُمُ اللهُ -بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ- تَأْصِيلًا وَمَلَكَةً عَظِيمةً فِي مَعرِفَةِ الدَّلِيلِ واتِّبَاعِهِ واستِنْبَاطِ الأَحْكامِ والفَوائِدِ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ، وسَبْرِ أَغْوارِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مَعَانِيَ وإِعْرابًا وبَلاغَةً.

وَلِـمَا تَحلَّى بِه مِن صِفاتِ العُلَماءِ الجَليلةِ، وأَخلاقِهِمُ الحَميدَةِ، والجَمْعِ بَيْنَ العِلْمِ والعَمَلِ؛ أَحَبَّهُ النَّاسُ مَحبَّةً عَظِيمَةً، وقَدَّرَهُ الجَميعُ كُلَّ التَّقديرِ، ورَزَقَهُ اللهُ القَبُولَ لَدَيْهِمْ، واطْمَأَنُّوا لِاخْتِيارَاتِهِ الفِقْهِيَّةِ، وأَقْبَلُوا علَى دُرُوسِهِ وفَتاواهُ وآثارِهِ العِلْمِيَّةِ، يَنْهَلُونَ مِنْ مَعِينِ عِلْمِهِ، ويَسْتَفِيدُونَ مِنْ نُصْحِهِ ومَواعِظِهِ.

وقَدْ مُنِحَ جائِزَةَ المَلِك فَيْصَل -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- العَالَمِيَّةَ لِخِدْمَةِ الإِسلامِ عامَ (١٤١٤هـ)، وجاءَ فِي الحَيْثِيَّاتِ التِي أَبْدَتْها لجْنَةُ الاخْتِيارِ لِمَنْحِهِ الجائِزَةَ مَا يَأْتِي:

- **أَوَّلًا**: تَحَلِّيهِ بأَخْلاقِ العُلَماءِ الفاضِلَةِ التِي مِنْ أَبْرزِها: الوَرَعُ، ورَحابَةُ الصَّدْرِ، وقَوْلُ الحَقِّ، والعَمَلُ لِمَصْلحةِ المُسلمِينَ، والنُّصحُ لِخَاصَّتِهِم وعامَّتِهِم.
- **ثانِيًا**: انتِفاعُ الكَثيرِينَ بعِلْمِهِ؛ تَدْرِيسًا وإِفتاءً وتَأْلِيفًا.
- **ثالِثًا**: إِلقاؤُهُ المُحاضَراتِ العامَّةَ النَّافِعةَ فِي مُختلَفِ مَناطِقِ المملكةِ.
- **رابِعًا**: مُشاركتُه المُفيدةُ فِي مُؤتَمَراتٍ إسلاميَّةٍ كَثيرةٍ.
- **خامِسًا**: اتِّباعُه أُسلوبًا مُتميِّزًا فِي الدَّعْوةِ إِلَى اللهِ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظةِ الحَسَنةِ، وتَقْدِيمُهُ مَثَلًا حَيًّا لِـمَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ فِكْرًا وسُلُوكًا.

عَقِبُهُ:

لَهُ خَمْسَةٌ مِنَ البَنِينَ، وثَلاثٌ مِنَ البَنَاتِ، وبَنُوهُ هُمْ: عَبْدُ اللهِ، وعَبْدُ الرَّحْمَن، وإِبْرَاهِيمُ، وعَبْدُ العَزِيزِ، وعَبْدُ الرَّحِيم.

وَفَاتُهُ:

تُوُفِّيَ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي مَدِينَةِ جُدَّةَ، قُبَيلَ مَغْرِبِ يَومِ الأَرْبِعاءِ، الخامِسَ عشَرَ مِنْ شَهْرِ شَوَّال، عامَ (١٤٢١هـ)، وَصُلِّي عَلَيه فِي المسجِدِ الحَرَام بَعْدَ صَلاةِ عَصْرِ يَومِ الخَمِيسِ، ثُمَّ شَيَّعَتْهُ تِلكَ الآلافُ مِنَ المُصَلِّينَ والحُشُودِ العَظِيمَةِ فِي مَشاهِدَ مُؤثِّرَةٍ، ودُفِنَ فِي مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ.

وبَعْدَ صَلاةِ الجُمُعةِ مِنَ اليَوْمِ التَّالي صُلِّي عَلَيه صَلاةَ الغائِبِ فِي جَمِيعِ مُدُنِ المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.

رَحِمَ اللهُ شَيْخَنَا رَحْمَةَ الأَبْرارِ، وأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِهِ، ومَنَّ عَلَيهِ بمغْفِرَتِهِ ورِضْوَانِهِ، وجَزَاهُ عمَّا قَدَّم لِلإسْلامِ والمُسلِمِينَ خَيْرًا.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [النور:١-٥].

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

سُورَة النُّور: سُمِّيت بهذا الاسْم لقولِه تَعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]، وإذا تأمَّلتَ السُّورَة وجَدْت ذِكر النُّور فِيها، وأنَّ اللهَ نُورُ السَّمواتِ والأَرْض، وقولَه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠]، تبيَّن لكَ أنَّ العِفَّة مِن أسْبَاب نُور القَلْبِ، وأنَّ ضدَّها -وهُو الفُجورُ- مِن أسْبابِ ظُلْمَةِ القَلْبِ، ولِذلِكَ فإنَّ الزِّنا -سواءٌ كانَ بالعَيْن أو بالرِّجْل أو باليَد أو بِاللِّسانِ أو بالْفَرْجِ- تأثيرُه عَلى القَلْب وعلَى نُور القَلْب أعظَمُ مِن غيْرِه، وتأثِير العِفَّةِ فِي نُور القَلْبِ أبْلَغُ.

الآيــة (١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1] [النور:١].

قيل: «سُمِّيَ الْقُرْآنُ لِجَمَاعَةِ السُّوَرِ وَسُمِّيَتِ السُّورَةُ لأَنَّهَا مَقْطُوعَةٌ مِنَ الأُخْرَى فَلَمَّا قُرِنَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ سُمِيَ قُرْآنًا»؛ هذا المعْنَى عجِيبٌ للقُرْآن، كأنَّ هذا يقُولُ إنَّه مأْخُوذٌ مِنَ القَرْن، والسُّورة سُمِّيت سُورَةً مِن التَّسْوِيرِ؛ لأنَّها مُحاطَةٌ مِن أوَّلها إِلى آخِرِها، فكأنَّه علَيْها سُورٌ فَإِذا قُرِن بعْضُها إِلى بعْضٍ سُمِّيت قُرآنًا، كأنَّه أُخذ مِن القَرْن، وهذَا معْنًى لا تَكادُ تَجِدُه فِي أُصول التَّفْسير أكْثر مَا يقُولونَ: مِن الجَمْع لاجْتِماع كَلِماتِه بعضِها إِلى بعْضٍ، أَوْ مِن القِرَاءَةِ للتِّلاوَة، وهذَا عَلى كُلِّ حالٍ صحِيحٌ.

قال ابن عباس: «﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ بيَّنَّاها»[2]، هذا التَّفسير لا أعرف هل يصِحُّ عنِ ابْن عبَّاسٍ أوْ لا يَصِحُّ؛ لأنَّ الإِنْزال غيرُ التَّبْيينِ، لكِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لا شَكَّ أنَّه بيَّن القُرآنَ إِلَّا أنَّ الإِنْزالَ غيْرُ التَّبْيينِ؛ بدَلِيل قولِه تَعالى: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [المجادلة:٥]، فلَو كانَ الإِنْزالُ بمَعْنى التَّبْيينِ لكَان المعْنَى: «لقَدْ بيَّنَّا آياتٍ بيِّناتٍ»،

---

(١) لم يوجد تسجيل صوتي لتفسير هذه الآية، ولهذا نُقل تفسيرها من تسجيل صوتي لفضيلة الشيخ رحمه الله تعالى في تعليقه على صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

(٢) تفسير الطبري (١٩/ ٩٠)، صحيح البخاري (٦/ ١٢٤).

وهَذا لا يسْتَقِيم، فَالإِنْزالُ يدُلُّ علَى أنَّ هذِه السُّورَة مِن عنْدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّها كلامُه؛ لأنَّ القُرْآنَ كلامٌ، فإِذا أضافَ اللهُ إِنْزالَه إلى نفْسِه دلَّ علَى أنَّه كلامُه.

قوله تعالى: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ أي فرَضْنا الْعَمل بِما فِيها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ هذَا يدُلُّ علَى أنَّ الإِنْزالَ ليْس هُو التَّبيين، بلْ هُو شيْءٌ سِوى التَّبْيين.

قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أيْ لأَجْل أن تذَكَّروا، أيْ تتَّعِظُوا وتقُومُوا بِما أَوْجب اللهُ علَيْكم.

وقوله: «فرَّضْنَاهَا» أَنْزَلْنَا فِيهَا فَرَائِضَ مُخْتَلِفَةً، وَمَنْ قَرَأَ ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ يَقُولُ فَرَضْنَا عَلَيْكُمْ، وَعَلَى مَنْ بَعْدَكُمْ؛ أي فرَضْنا عليْكُم العَمل بِما فِيها تصْدِيقًا في الأَخْبار، وتنفيذًا في الأَحْكام، و«فرَّضْناهَا» بالتَّشديدِ، يعْنِي جعلْنَا فِيها فرائِضَ مختَلِفةً وهُو كذَلِك، يعْني فِيها حُدود القَذْف والزِّنا والاستِئْذانِ، وغير ذَلك كَثِيرٌ، ففِيها فرائِض متعدِّدةٌ، فلهَذا جاءَتْ بلفْظِ (فرَّض) التَّضعِيف يدُلُّ على التِّكْرار.

• • ❁ • •

الآيــة (٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾[1] [النور:٢].

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ ثبتَ عنِ النَّبيِّ ﷺ في ابْن الرَّجُل الَّذي زَنا بامرأةِ مَنِ استأجَره أنَّه قال له: «وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِئَةٍ وتَغْرِيبُ عامٍ»[2].

وعَن ابْنِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ جلَد وغرَّب، وأنَّ أبَا بكْرٍ جلَد وغرَّب، وأنَّ عُمر جلَد وغرَّب[3]، وهَذا القَوْلُ هُو الصَّحيح أنَّه يجْمَع بيْن الجَلْد والتَّغْريبِ.

وقالَ بعْضُ العُلَماءِ: إنّه لا يُغرَّب؛ لأنَّ التَّغريبَ لم يُوجَد فِي القُرْآنِ، وقَدْ قال اللهُ تَعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن

---

(١) لم يوجد تسجيل صوتي لتفسير هذه الآية، ولهذا نُقل تفسيرها من كتاب فضيلة الشيخ رحمه الله تعالى الشرح الممتع.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٦)، ومسلم: كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، رقم (١٦٩٧).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب الحدود عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في النفي، رقم (١٤٣٨).

كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور:٢] ولَم يذْكُرِ التَّغريبَ.

ولكِنَّ هذا القَوْل ضَعيفٌ؛ لأنَّ ما ثَبت بالسُّنَّة وجَب العَملُ بِه، كَما يَجِب العَمَل بِما فِي القُرْآن؛ لقَوْل اللهِ تَعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، ولقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]، وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

فيَجِب أنْ نَأخُذ بِما جاءَتْ بِه السُّنَّة، وإنْ كان زَائدًا عمَّا فِي القُرْآن، بَلْ إنَّ ما جاءَتْ بِه السُّنَّة هُو مما جَاء بِه القُرْآن، كما استدَلَّ بِذَلك عبدُ الله بْنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُجيبًا للْمَرأة الَّتي قالَتْ لَه: إنَّني لا أجِدُ اللَّعْن -أي لعْن النَّامِصة والمتنمِّصَة- فِي كِتاب اللهِ، فقَال: هُو فِي كِتاب اللهِ، ثُمَّ تلا علَيْها قولَه تَعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

والتَّغريب معْنَاه أنْ يُنْفَى عَن بلَدِه لمدَّة سَنَةٍ كامِلَةٍ، والحِكْمة منْه أنَّه إذا غُرِّب عنْ هَذا المكانِ الَّذي وقَع فِيه الزِّنا فإنَّه رُبَّما ينْسَى ذَلك، وأيْضًا فإنَّ الغُربَة تُوجِب أنْ يشْتَغل الإنْسانُ بنَفْسِه دُون أن يتطلَّب الشَّهوةَ واللَّذةَ؛ لأنَّه غرِيبٌ، ولا سيَّما إذا عُلِمَ أنَّه غُرِّب مِن أجْل الحدِّ، فإنَّه لن يكُون لدَيْه فُرصةٌ أنْ يَعُود إلى هذه المسْأَلةِ مرَّةً ثانيَةً، ولكِن يُشترَط في البَلَد الَّذي يُغرَّب إلَيْه ألَّا يُوجد فِيه إباحَةُ الزِّنا -والعياذُ بالله-، فلَا يُغرَّب إلى بِلادٍ يُمارِس أهلُها الزِّنا؛ لأنَّنا إذا غرَّبْناه إلى مِثْل هذِه البِلادِ فقَدْ أغْرَيْناهُ بذَلك، فيُغرَّب إلى بِلادٍ عُرِف أهلُها بالعِفَّة.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ﴾ [النور:٢] فإيَّاك أن تقُولَ: هَذا شيخٌ كَبيرٌ، نجْلِدُه مِئَة جلْدَةٍ!! وهَذا إنْ لم يتزَوَّج، وأمَّا إذا تزوَّج فالحِجارَةُ، فلَا تُقل:

أرحمُهُ، بَل قُل: لا أرحمُهُ؛ لأنَّ مَن هُو أرْحَمُ مِنِّي أمَر بجلْدِه، ونَهاني أنْ أرأَفَ بِه، فقالَ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النور:٢].

فإذا قال: اجْلِدوه في بيْتِه حتَّى لا يطَّلِع عليه أحدٌ، قُلْنا: قال تَعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والَّذي شرَّع هَذه الحُدودَ اللهُ، وهُو أرْحَم مِن الخَلق جَميعًا، فهو أرْحَم مِن الوالِدَة بولَدِها؛ لأنَّ في إقامَةِ الحُدودِ مصالِحَ عظِيمةً لا تُحْصى، فَفِيها ردْعٌ وتطْهِيرٌ.

وقولُه تَعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فسمَّى اللهُ الحَدَّ عذابًا، فإن لم تشْهَد وَجب الحدُّ علَيْها.

الآيــة (٣)

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [النور:٣].

هَذه الآيَةُ الكَريمة الَّتي ختَمها اللهُ بقولِه: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، تدُلُّ على تَحْريم نِكاح الزَّانِية، وتَحْريمِ نِكاح الزَّاني، بمَعْنى أنَّ الزَّانِيةَ لا يَجُوز للإِنْسان أن يتزوَّجها، وأنَّ الزَّاني لا يَجوزُ للإِنْسان أن يُزوِّجه ابْنَته، فإِذا عرَفْنا ذَلِك؛ فإِنَّ مَن ارْتَكب هذا العَمل فَلا يخْلُو مِن حالَيْن:

الحالُ الأُوْلى: أنْ يكُون مُلتَزمًا بالتَّحريمِ عالمًا بِه، ولكنه تزوَّج الزَّانِية لمجرَّد الهَوَى والشَّهوَة، فحِينئذٍ يكونُ زَانيًا لأنَّه عقَد عقدًا محرَّمًا، وهُو يعتَقِدُه محرَّمًا مُلتزمًا بتحْرِيمه، ومعلومٌ أنَّ العَقْد المحرَّم لا يُبيح الفَرْج ولا الاستمتاعَ بِه، فيَكُون هذا الرَّجُل باسْتحلالِه بُضْع المرْأَة المعْقُود علَيْها وهِي زانيَةٌ وهُو يعْلَم أنَّ ذلك حرامٌ، فيَكُون فعْلُه هذا زِنًا، وعلى هَذه الحالِ يتنزَّل قولُه: ﴿إِلَّا زَانٍ﴾.

الحالُ الثَّانية: ألا يلْتَزم بهذا الحُكْم، وأنْ يقُولَ: هَذا ليْس بحرَامٍ، بَل هُو حلالٌ، وحِينَئذٍ يكُون مُشرِكًا؛ لأنَّ مَن أحلَّ ما حرَّم اللهُ فقَدْ جَعل نفْسَه مُشرِّعًا مَع اللهِ، مُشرِكًا بِه سُبحانَه وتَعالى؛ ولهذا قالَ سُبحانَه وتَعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١]، فجَعل اللهُ المشرِّعِين لعبادِه دِينًا

لـم يأذَنْ بِه شُركَاء، فهَذا الَّذي شرَّع لنفْسِه حِلَّ الزَّانيَة ولم يلْتَزِم بالحُكْم الشرْعِيِّ يكُون مُشرِكًا، وعليْه يتنزَّل قوله: ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

وخُلاصة القَوْل: أنَّ ناكِح الزَّانِية إمَّا أن يكُونَ معتقِدًا لتحْريمِها مُلتزِمًا به فحِينئذٍ يكُون زانيًا، وإمَّا أن يكُون غيْر معْتَقِدٍ للتَّحريمِ ولا مُلْتزمًا بِه بَل هُو منْكِرٌ للتَّحريم وحِينئذٍ يكُون مُشرِكًا، لأنَّه أحَلَّ ما حـرَّم اللهُ، ولـهذَا قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾، فهُو زَانٍ إنْ كَان قد الْتَزم بالتَّحْريم واعتقَدَه، أو مشْرِكٌ إذا لم يعتَقِدِ التَّحريمَ ولم يلْتَزم بِه؛ وهكَذا نقُول أيضًا فيمَن زوَّج ابنتَه رجُلًا زانيًا.

ولكِنَّ هذَا الحُكْم يزُول بالتَّوبةِ فإذا تَاب الزَّاني مِن زِناه، وتابَتِ الزَّانِيةُ مِن زِناها، فإنَّه يزُول عنْهُما هَذا الوَصْف، أيْ وصْفُ الزَّاني، كما يَزُول وصْفُ الفِسْق عَن الفاسِق إذا تَاب إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وتَرك الفِسْق، فإذا تَاب الزَّاني مِن زِناه أو الزَّانِيةُ مِن زِناها حلَّ نِكاحُها.

• • ❁ • •

الآيــة (٤)

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٤].

اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يأمُر أنْ نَجْلِدَ الَّذين يرْمُون المحْصَنات، ومعْنَى يرمُونَهُن أي: يقذِفونهنَّ بِالزِّنا فيقولُون: هَذه المرْأَةُ زانِيَةٌ ومَا أشْبه ذَلك، والْمُحْصَنَةُ هِي المرْأَةُ الحُرَّة العفِيفَة عَن الزِّنا، فإذا قذَفها الإِنْسان بالزِّنا فإنَّه يكُون بذَلِك مُدَنِّسًا لعِرْضِها مُفتَرِيًا علَيْها، وحينَئذٍ يُجلَد ثمانين جلدْةً، وإنَّما قلت: مفتريًا علَيْها مع أنَّه قد يكُون صادقًا، لأنَّه إذا لم يأْتِ بأرْبَعةِ شُهداء فهُو كاذِبٌ عنْدَ اللهِ، كما قالَ الله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور:١٣].

وفي الآيَة الكَرِيمَة رَتَّبَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على القَذْف ثلاثَة أُمورٍ:

الأمْر الأوَّل: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾.

والأمْر الثَّاني: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾.

والأمْر الثَّالث: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

فهم يُجلَدون ثمانِين جلْدَةً حدَّ القَذْف، ولا تُقبل شهادَتُهم بعْد ذَلك أبدًا علَى أي شيءٍ شهِدُوا، وهُم فاسِقُون يُحكَم بفسْقِهم، ولا يتولَّوْن أمرًا تُشتَرط فِيه العدالَةُ،

إلَّا الَّذين تابُوا مِن بعْدِ ذَلك وأصلَحُوا فإنَّهم يزُول عنْهم وصْفُ الفِسْق، وكَذلك يزُول عنْهُم منْعُ الشَّهادة على القَوْل الرَّاجِح، وأمَّا الحدُّ فَلا يسقُط عنْهُم بتوبَتِهم، لأنَّه حقٌّ لآدَمِيٍّ، فلا بُدَّ من أن يَنْفَذَ.

الآيــة (٥)

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [النور:٥].

وهَذا الاستِثْناء لا يشْمَل أوَّل الجُمَل بالاتِّفاق، ويشْمَل آخر الجُمَل بالاتِّفاق، واختلَف العُلَماء في الجُمْلة الثَّانية، وهِي قولُه: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾؛ فقِيل: إنَّه يعُود إلَيْها، وقِيل: لا يعُود.

وبناءً عَلى ذَلِك إذا تَاب القاذِفُ: هَل تُقبَل شهادَتُه أمْ لا؟

الجَوابُ: اختَلف في ذَلِك أهْلُ العِلْم:

فمِنْهم مَن قال: لا تُقبَل شَهادتُه أبدًا ولَوْ تَاب، وأيَّدوا قولَهم بأنَّ اللهَ أبَّد ذَلك بقوْلِه: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ [النور:٤]، وفَائِدَةُ هَذا التَّأبِيد أنَّ الحُكْم لا يرْتَفع عنْهُم مطلَقًا.

وقالَ آخَرُون: بَل تُقْبل؛ لأنَّ مبْنَى قَبُول الشَّهادة وردِّها عَلى الفِسْق، فإذا زَال وهُو المانِعُ مِن قَبُول الشَّهادَة، زال ما يتَرتَّب علَيْه.

وينْبَغي في مِثْل هَذا أنْ يُقال: إنَّه يُرْجع إلى نَظر الحاكِم، فإذا رَأى مِن المصْلَحة عدَمَ قبُول الشَّهادة لرَدْع النَّاس عن التَّهاوُن بأعْرَاض المسْلِمين، فليَفْعل.

وإلَّا؛ فالأصْلُ أنَّه إذا زَال الفِسْق وَجب قَبُول الشَّهادة، وهَل قذْفُ المحصَنِين الغافِلِين المؤْمِنين كقَذْف المحصَناتِ مِن كَبائِر الذُّنوبِ؟

الجَواب: الَّذي علَيْه جُمهور أهْل العِلْم أنَّ قذْفَ الرَّجُل كقَذْف المرْأَة، وإنَّما خصَّ بذَلِك المرأةَ؛ لأنَّ الغالِب أنَّ القَذْف يكونُ للنِّساء أكْثر، إذ البَغايا كثيراتٌ قبْل الإِسْلام، وقذْفُ المرْأَةِ أشَدُّ؛ لأنه يستَلْزم الشكَّ في نسَب أولادِها مِن زوْجِها، فيلحق بهنَّ القَذْف ضررًا أكثر، فتخْصِيصُه مِن باب التَّخصيص بالغالِب، والقيْدُ الأغلَبِيُّ لا مفهومَ له؛ لأنَّه لبيان الواقِع.

• • ❁ • •

الآيــة (٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦﴾ [النور:٦].

قَالَ المُفَسِّر[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ بِالزِّنَا ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ﴾ عَلَيْهِ ﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ وَقَعَ ذَلِك لِجَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ﴾ مُبْتَدَأٌ «أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ» نَصْبٌ عَلَى المَصْدَر]. اهـ.

الَّذين يرْمُون أزواجَهُم وليْس عنْدَهم شُهودٌ، فهَؤُلاءِ ليْسَ لهم شهداءُ إلَّا أنفسُهم، وهَذِه الآيَةُ نزلَتْ بعْدَ قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٤]، فنزَلَتْ هَذه الآيَةُ بعْدَ ذَلك، وجُعل للزَّوج يرمي زوجتَه حكمًا خاصًّا؛ لأن رمْي الزَّوجِ زوجتَه بالزِّنا أمرٌ بَعيدٌ جدًّا، ولَا يُمكن أنْ يكُونَ هَذا إلَّا وهُو مُتأكِّدٌ، وأنَّ الأمْرَ واقِعٌ، فأنْزَل اللهُ عليْه هَذِه الآياتِ وهِي فرَجٌ للأَزْواج.

وأخْرَج البُخارِيُّ في صَحيحِه عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ: أَنَّ عُوَيْمِرًا أَتَى عَاصِمَ بْنَ عَدِيٍّ، وَكَانَ سَيِّدَ بَنِي عَجْلاَنَ، فَقَالَ: كَيْفَ تَقُولُونَ فِي رَجُلٍ وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ

(١) المقصود بـ(المُفَسِّر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رحمه الله تعالى، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

رَجُلاً، أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ، أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ سَلْ لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَأَتَى عَاصِمٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! فَكَرِهَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَسَائِلَ، فَسَأَلَهُ عُوَيْمِرٌ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَرِهَ الْمَسَائِلَ وَعَابَهَا. قَالَ عُوَيْمِرٌ: وَاللهِ لاَ أَنْتَهِي حَتَّى أَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَجَاءَ عُوَيْمِرٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! رَجُلٌ وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَدْ أَنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ**»، فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْمُلاَعَنَةِ بِمَا سَمَّى اللهُ فِي كِتَابِهِ، فَلاَعَنَهَا ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنْ حَبَسْتُهَا فَقَدْ ظَلَمْتُهَا، فَطَلَّقَهَا فَكَانَتْ سُنَّةً لِمَنْ كَانَ بَعْدَهُمَا فِي الْمُتَلاَعِنَيْنِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**انْظُرُوا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَسْحَمَ أَدْعَجَ الْعَيْنَيْنِ عَظِيمَ الأَلْيَتَيْنِ خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ فَلاَ أَحْسِبُ عُوَيْمِرًا إِلاَّ قَدْ صَدَقَ عَلَيْهَا، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أُحَيْمِرَ كَأَنَّهُ وَحَرَةٌ فَلاَ أَحْسِبُ عُوَيْمِرًا إِلاَّ قَدْ كَذَبَ عَلَيْهَا**»، فَجَاءَتْ بِهِ عَلَى النَّعْتِ الَّذِي نَعَتَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ تَصْدِيقِ عُوَيْمِرٍ، فَكَانَ بَعْدُ يُنْسَبُ إِلَى أُمِّهِ[(١)] [(٢)].

قَوْلُهُ: ﴿فَشَهَٰدَةُ﴾ مُبْتَدَأ و«أَرْبَعَ»[(٣)] بِقِراءَةِ النَّصب: نائبٌ مناب الْمَصْدَر، عاملُه قَوْلُهُ: ﴿فَشَهَٰدَةُ﴾، فَيبْقَى المبتدأُ يحتاج خبرًا، وخبرُه يَقُول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الآيَة بعدها: (تَدْفَعُ عَنْهُ حَدَّ الْقَذْفِ)، أي إنه محذوفٌ وهَذَا تقديرُه.

ومعناه فَأَنْ يشهد أحدُهم أربعَ شَهادَات باللهِ إلى آخرِه تدفعُ عنه حَدَّ القَذْفِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، أبواب سورة النور، باب قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النور:٦]، رقم (٤٧٤٥).

(٢) لم يوجد تسجيل صوتي لتفسير هذه الآية، ولهذا نُقل تفسيرها من تسجيل صوتي لفضيلة الشيخ رحمه الله تعالى في تعليقه على صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

(٣) البدور الزاهرة (ص:٢٤٥).

والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يذكر القِراءَةَ الثَّانيةَ، وهي قِراءَة الرفع ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾، وعلى قِراءَة الرفع نقول: ﴿فَشَهَٰدَةُ﴾ مُبْتَدَأٌ، وخَبَرُه ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾.

قَوْلُهُ: ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ أي: لا بُدَّ أنْ يقولَ: أشهدُ، قَوْلُهُ: ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلِّق بشهاداتٍ، فلا يكفي أنْ يقولَ: أشهدُ أنَّ امرأتَه كذا وكذا، بل لا بُدَّ أنْ يقولَ: أشهدُ باللهِ، لِتَتَضَمَّنَ الشَّهادة شَهادةً وقسمًا، ولهَذَا أُجِيبتْ بجواب القَسَمِ، وهو قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

إِذَنْ لا بُدَّ أنْ يشهدَ شَهادةً باللهِ لتكونَ شَهادةً مقرونةً بالقَسَمِ، والدَّليلُ على هَذَا أنَّه أُجِيبَ بما يُجابُ به القَسَمُ، وهو قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فهَذِهِ الجُمْلَةُ الخبريةُ مُؤَكَّدَةٌ بالشَّهادة والقَسَمِ و(إنَّ) و(اللَّام)، أرْبَعة مُؤَكِّدَاتٍ، وتُكرر أربعَ مراتٍ، فيصيرُ تأكيدًا من وراء تأكيدٍ، فإخبارُه عن زَوْجَته بأنَّها زنت مُؤَكَّدٌ بهَذِهِ الأرْبَعة.

والشَّهادةُ أربع شَهادَات يعني: أشهد باللهِ إني لمن الصَّادِقينَ.

وقَوْلُهُ: ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ والصَّادق هو المُخْبِرُ بما يُطابِقُ الواقِعَ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِيمَا رَمَى بِهِ زَوْجَتَهُ مِنَ الزِّنَا] أي: لا بُدَّ أنْ يقولَ هَذَا أو معناه، إما أنْ يقولَ فيما رميتُها به من الزِّنَا أو فيما قذفتُها به من الزِّنَا، أو ما أدى هَذَا المَعْنى، المُهِمّ لا يكفي أنْ يقولَ: أشهدُ باللهِ إني لَمِنَ الصَّادقينَ؛ لأنَّه قد ينوي به الصَّادِقينَ في غير هَذِهِ القَضيَّة.

وظاهر القُرْآن الكَرِيم أنَّه يُجْزي؛ لأَن الله لَـمْ يَقُلْ: «فيما رميتُها به من الزِّنَا»، فهَذَا جائزٌ، لكنَّه لو نوى أنَّه من الصَّادِقينَ في قَوْل آخر، فإنَّه لا ينفعه؛ لأنَّه كما جاء

في الحَديث: «يَمِينُكَ عَلَى مَا يُصَدِّقُكَ بِهِ صَاحِبُكَ»[1].

فأنتَ وإنْ نويتَ خلاف ذَلِك، فأنتَ إنما اسْتَشْهَدْتَ على ما رميتَها به من الزِّنَا، فسواءٌ ذكرتَه أم لم تذكُرْه لا يختلفُ الحُكمُ، ولهَذَا فالقرآنُ لم يُقَيِّدْهُ بِذَلِك، بناءً على أن المقام يُعَيِّنُه، وأن مَنْ نيتُه خلاف ذَلِك لا تنفعه نيتُه؛ لأَن الْيَمِين على ما يُصَدِّقُكَ به صاحبُكَ أي خَصْمُكَ.

لكن لو أنَّه قَالَ ذَلِك أو هي طلبَتْ ذَلِك مثلًا أو الحاكم طلب منه ذَلِك، فإنَّه أَوْلَى لأجل أن يطمئنَ الْإِنْسَان أكثر، فلو أن القَاضِي مثلًا خاف من أن يَتَأَوَّلَ وإن كَانَ تَأَوُّلُه لا ينفعه، فإنَّه إِذَا أمره أنْ يقولَ ذَلِك فَلْيَجبهُ للطُمَأْنينة.

ولكن لو قَالَ قَائِلٌ: هل يَجب على الزَّوج أنْ يقولَ: أشهدُ أربعَ شَهادَات باللهِ على ما رميتُها به من زنا؟

الجواب: لا يَجب أنْ يقولَ: على ما رميتُها به من زنا، وإن كَانَ لَيْسَ موجودًا في الآيَة، لكن المقام يعيِّنه.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: الْحِكْمَةُ في تَشْرِيع الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأَن هَذِهِ الآيَة مُستثناةٌ في الحُكْم من قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور:٤]، ولو أن هَذِهِ الآيَة بقيت على ما هي علَيْه لوجب أنْ يُجْلَدَ الزَّوجُ.

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الأيمان، باب يمين الحالف على نية المستحلف، رقم الحديث (١٦٥٣)، عن أبي هريرة.

والحِكْمَةُ هُنا أنَّه خص الزَّوج بهَذَا الحُكْم من حكم الَّذِينَ يرْمُون المُحْصَناتِ؛ لقَوْلهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ [النور:٤]، ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النور:٦].

وهَذَا من التَّخصِيص المنفصل؛ والتَّخصِيص نوعان:

١- تَخْصِيص متصل.

٢- تَخْصِيص منفصل.

أمَّا التَخْصِيصُ المتصلُ فيَكُون بالاسْتِثْناء أو الصِّفة أو الشَّرْطِ.

مثال التَّخصِيص بالاسْتِثْناء قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ﴾ [العصر:٢-٣].

ومثال التَّخصِيص بالصِّفَة: «أَكرِم الطَّالبَ المجتهدَ»، المجتهد خَصَّصْتُه بالصِّفَةِ المتصلةِ.

ومثال التَّخصِيص بالشَّرْطِ: «أَكرِم الطالبَ إنِ اجْتَهَدَ»، «قَرّر رَوْضَةَ النَّاظرِ إن كانوا يعرفون أصول الفِقْه».

التَّخصِيص الَّذِي في الآيَة هو منفصلٌ، حيث خَصَّصَتْ عمومَ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤﴾ لأنَّه لو بقيتِ الآيَة الأولى عَلى عُمومِها لكان الزَّوج إذَا قَذَفَ زوجتَه يثبتُ له الأَحْكامُ الثَّلاثَةُ السَّابقةُ، لكن الزَّوج انفرد عن غيره بهَذَا الحُكْم.

إِذَنْ تَخْصِيصُ الأَزْواج من عُمُوم قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ خُصِّص بمُخَصصٍ منفصلٍ لأنَّه نصٌّ مستقلٌ.

وما الحِكْمَةُ من تَخْصِيص الأَزْواج بهَذَا الحُكْم دون غيرهم من القَذَفَة؟

تَقَدَّمَ أن هَذَا من حِكمة التَّشْريع، والحِكْمَةُ أن الزَّوج لا يُمْكِن أن يَقْذِفَ زوجتَه بالزِّنَا إلا والْأَمْرُ كما قَالَ؛ لأَن زنا زَوْجَته عارٌ عليه؛ لأنَّها حَرْثُه، فإذا قذفَها بالزِّنَا أصبح الْأَمْر شديدًا وعَظِيمًا، إِذْ إنَّ هَذَا يُوجِبُ التشكيكَ في أولاده عند النَّاس، ويوجبُ العارَ علَيْه حيث يُقال: هَذَا الرَّجل ديوث كَانَ يقرُّ الْفَاحِشَة في أهله؛ لأَن النفوسَ قد تقول: لَيْسَت هَذِهِ أول مرةٍ يعثر، فهو لن يعثرَ إلا في المرة الثَّانية والثَّالِثَة، وما أشبه ذَلِك، إِذْ إنَّ الزِّنَا عادةً لا يأتي علنًا، بل يأتي سرًّا، والسِّرُّ لا يظهر في أول مرة.

فلمَّا كَانَ زنا الزَّوْجَة عارًا على الزَّوج صَارَ لا يُمْكِن أن يَقْذِفَ زوجتَه بالزِّنَا إلا والْأَمْر كما ذكر، ولهَذَا خُصَّ من بين سائر القاذِفين بهَذَا الحُكْم، وهل يُعتبر قذفُه رميًا أو شَهادةً؟ يُعتبر شَهادةً.

الفَائِدة الثَّانية: أنَّه لا يصِح اللِّعان إِذَا قَذَفَ أجنبيةً ثم تزوجها، أي: لو قذفَ امرأةً أجنبيةً ثم تزوَّجها فلا لِعانَ؛ لقَوْلهُ: ﴿يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ وإنما يُحَدُّ للقَذْفِ.

الفَائِدة الثَّالِثَة: عمومُ الآيَة في قَوْلهُ: ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾ يشملُ ما قبل الدُّخول وما بعده، فلو عَقَدَ على امرأةٍ ثم رماها بالزِّنَا أُجْرِيَ بينهما اللِّعانُ؛ لأنَّها زوجتُه.

الفَائِدة الرَّابِعَة: أنَّ رَمْيَ غيرِ الزَّوْجَة ولو كَانَت الأم أو البنت أو الأخت ممَّن يلحقهم عارُه فهو لَيْسَ كقذف الزَّوْجَة، بمَعْنى أن الرَّجل لو قَذَفَ أقربَ النَّاس إلَيْه بالزِّنَا طُبِّقَ علَيْه أحكامُ القاذِفين الثَّلاثَة السَّابقة بخلاف الزَّوج، ووجه ذَلِك ما سبق من الإِشَارَة إلى الحِكْمَةُ.

الفَائِدة الخَامِسَة: أنَّ البَدَلَ يُجْعَلُ له حُكم المُبْدَلِ منه، فلمَّا كَانَت البيِّنة على الزِّنَا أرْبَعة شهود، وكان الزَّوج إِذَا قَذَفَ زوجتَه بالزِّنَا يعتبر شاهدًا، والتعدد الشَّخْصِيّ في حقه ممتنعٌ، جُعل التعددُ في نفس الشَّهادةِ.

ويَكُون هَذَا تقريرًا للقاعِدَة المَشْهُورَة المعْرُوفة أنَّ البَدَلَ له حُكم المُبْدَلِ منه، فلمَّا كَانَت شهادةُ الزَّوج على زَوْجَته بالزِّنَا بمنزلة شهادةِ رجلٍ صَارَ تَكرارُها بمنزلة تَكرارِ الرِّجَال وتَعَدُّدِ الشُّهودِ.

الفَائِدة السَّادِسَة: تعظيم هَذَا الْأَمْر بحيث لا يُكتفى فيه بالشَّهادةِ المجرَّدَة؛ بل لا بُدَّ من شهادةٍ مقرونةٍ بيمينٍ فيقول: أشهدُ باللهِ! أشهدُ باللهِ!

لو قَالَ: أشهدُ باللهِ إني لَصادقٌ هل يُجْزِئُ أو لا بُدَّ أنْ يقولَ: إنه لَمِنَ الصَّادِقِينَ؟

قَالَ الفِقْهاءُ في هَذِهِ المَسْأَلَة: لا بُدَّ أن يَكُون باللفظ، وفي نفسي من ذَلِك شَيْء؛ لأنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ ألفاظَ ذِكْرٍ يَتَعَبَّدُ الْإِنْسَان بها، إنما هي ألفاظٌ يُقْصَدُ بها إِثْباتُ ما شهد به.

ولا شَكَّ أن الأَوْلَى والأَحْرى والأَبْرَأ أنْ يقولَ ذَلِك بلفظ القُرْآن، لكن لو قَالَ: إني لصادقٌ؛ فالظَّاهِر أنَّه يُجْزِئُ؛ لأَن المَقْصُودَ بقَوْلهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إِثْباتُ الصِّدق أو الشَّهادة باللهِ على صِدْقه.

• • ۞ • •

الآيــة (٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧﴾ [النور:٧].

قَوْلُهُ: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ مُبْتَدَأٌ و﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ﴾ خَبَرُهُ في تأويل مَصْدَرٍ، وقَوْلُهُ: ﴿لَعْنَتَ ٱللَّهِ﴾ اللعنةُ: هي الطَّرْدُ والإبعادُ عن رحمة الله.

وقَوْلُهُ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ هَذَا شرطٌ في الدُّعاء علَى نفْسِه بِاللَّعْنِة، أي: إن كَانَ كاذبًا فلعنةُ الله عليه، وإن كَانَ صادقًا فلا لعنةَ، وقَوْلُهُ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي فيما رمى به زَوْجَته من الزِّنَا فإنَّه مستحقٌّ للعنة الله الَّتِي هي الطَّرْد والإبعاد.

ومناسبةُ ذكر اللَّعنةِ هُنا في مقابل كذبه؛ لأَن كلامه في الحَقيقَة يتضمَّنُ إبعادَ زوجتِه واتهامَها بما هي بريئةٌ منه؛ ولِذَلك جاء بذكر اللَّعْنة، بخلاف المَرْأَة فإنها تأتي بأمرٍ آخَرَ، كما سيأتي إنْ شَاء اللهُ.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: وُجوبُ قَرن هَذِهِ الشَّهادة المؤكَّدة باليمين في الخَامِسَة بِاللَّعْنِة بالنِّسْبَةِ للزوج، وبالْغَضب بالنِّسْبَةِ للزوجة.

الفَائِدة الثَّانية: أنَّه يَجب البداءَة بشهاداتِ الزَّوج، والدَّليل من الآية أنَّه لـمَّا قَالَ: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ قَالَ: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ﴾ ولا يتم الْعَذَاب عَلَيْها إلا إِذَا شهد الزَّوج، هَذَا من جهة الأثر أو الدَّليل.

أما من جهة النَّظر أن الزَّوج مُدَّعٍ في الحَقيقَة، وأيهما يُبدأ به المدعِي أو المُنْكِر؟ الَّذِي يُطلَب منه إِثْبات الدعوى هو المُدعي، فيُقال له: هاتِ بيِّنةً، وإذا لم توجد بينة رجعنا إلى المُنْكِر؛ وهو المُدَّعَى عليه.

الفَائِدة الثَّالِثَة: أنَّه لا بُدَّ أن يُؤَكِّدَ الشَّهادةَ بـ(إنَّ) و(اللَّام) مع الْيَمِين السَّابقة؛ لقَوْلهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فلو قَالَ: «أشهدُ باللهِ أني صادقٌ»، فإنَّه لا يكفي، لا بُدَّ أن يأتي باللَّام؛ لأَن اللَّام تفيد زيادةَ تأكيدٍ وتقوية.

الفَائِدة الرَّابِعَة: جَواز الدُّعاء مُعَلَّقًا بالشَّرْطِ؛ لقَوْلهُ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وهي تقول: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، ففيه دليلٌ على جَواز الدُّعاء مُعَلَّقًا بالشرط، وقد جاء مثله أو قريبٌ منه في الاستخارة: «**اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْر خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي...**»[1].

وكما جاء الشَّرط مقيدًا في دُعاء الخالق، جاء مقيدًا في تَشْريع الشَّرع؛ أي في الأَحْكام الشَّرْعِيَّة، مثل ما قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لضُبَاعَةَ بنتِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لـمَّا قالتْ: يا رَسُول الله، إني أريدُ الحجَ وأَجِدُنِي شَاكِيَةً، قَالَ: «**حُجِّي وَاشْتَرِطِي أَنَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي فَإِنَّ لَكِ عَلَى رَبِّكِ مَا اسْتَثْنَيْتِ**»[2].

وَكَما يجوزُ الشَّرط في دُعاء المَسْأَلَة يجوزُ في دُعاء العِبادَةِ، كما في حديث ضُبَاعَةَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، حديث رقم (٦٣٨٢)، عن جابر بن عبد الله.

(٢) الحديث أخرجه بلفظه كاملًا النسائي كتاب مناسك الحج، باب كيف يقول إذَا اشترط، حديث رقم (٢٧٦٦)، عن ابن عباس، وأصل الحديث أخرجه البخاري كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، حديث رقم (٥٠٨٩)، ومسلم كتاب الحج، باب جواز اشتراط المحرم التحلل بعذر المرض ونحوه، حديث رقم (١٢٠٧)، عن عَائِشَة.

بنتِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وهَذَا يشهد لرؤيا رآها شيخُ الإِسْلام ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: إنه رأى النبيَّ ﷺ ذاتَ ليلة فسَأَله عن أشياءَ، منها الرَّجل يُقَدَّمُ إلى الإمامِ ليُصَلِّيَ علَيْه وهو يشكُّ في إسلامِه، فقال له النَّبِيُّ ﷺ: عَلَيْكَ بالشَّرطِ يَا أَحْمَدُ[1].

والشَّرط مثل قَوْل الإمام إِذَا شك في إِسْلام صاحبِ الجِنازةِ: اللهمَّ إنْ كَانَ مؤمنًا فاغفرْ له وارحمْه؛ وهَذَا جائزٌ، وشاهده هَذِهِ الآيَة وحديث الاستخارة في دُعاء المَسْأَلَة.

والدَّليل في دُعاء العِبادَة حديثُ ضُباعة بنتِ الزُّبَيْر، إِذْ قَالَ لها النَّبِيُّ ﷺ: «حُجِّي وَاشْتَرِطِي فَإِنَّ لَكِ عَلَى رَبِّكِ مَا اسْتَثْنَيْتِ».

• • ۞ • •

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٣٩٩).

الآيــة (٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾﴾ [النور:٨].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَدْرَؤُا۟﴾ أَيْ يَدْفَعُ ﴿عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ حَدَّ الزِّنَا الَّذِي ثَبَتَ بِشَهَادَاتِهِ] اهـ.

الرّجل إِذَا قذفَ زَوْجَته بالزِّنَا، وأتى بشهود أربع يشهدون أنَّها زنت، وأنهم رأوا ذكر الزَّاني في فرجها، فلا نحتاج لِعَانًا؛ لأنَّ اللِّعانَ ذُكِرَ فيمن لم يكن له شاهدٌ إلا نفسه.

وإذا شهد على ما رماها به وأَقَرَّتْ بِذَلِك أُقِيمَ عَلَيْها الحَدُّ، وإذا لم تُقِرَّ فإنها حينئذٍ تُلاعن.

فالخُلاصَةُ: أنَّه إِذَا رمى الرَّجل زوجتَه بالزِّنَا فلا يخلو الْأَمْر من ثلاث حالات:

- إما أنْ يُقِيمَ بينةً فنُقِيمَ عَلَيْها الحَدَّ.
- وإما أن تُقِرَّ فَيُقام عَلَيْها الحدُّ بالْإِقْرار.
- وإما أن تنكرَ، وهنا يُطلب اللِّعان.

فإذا شهد الرَّجل أربع شَهادَات باللهِ أُقيم عَلَيْها الحَدُّ، لكن لها أنْ تدفعَ هَذَا الْحَدَّ بشهاداتٍ تُنْقِضُ شهادَاتِه.

إِذَنْ المُراد بالْعَذابِ في قَوْلهُ: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ هو حَدُّ الزِّنَا، وأما قَوْل فقهائنا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: «إن المُراد بالْعَذابِ الحبسُ حَتَّى تُقِرَّ أو تُلاعِنَ»، فهَذَا قولٌ ضعيفٌ جدًّا لا دليلَ عليه؛ لأنَّه لا ذكر للحبس في الآيَة، بل هي صريحةٌ في أن الَّذِي يندفع هو الْعَذَاب؛ أي حَدُّ الزِّنَا؛ بِدَلِيل قَوْلهُ: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢].

ولو قَالَ قَائِلٌ: إِذَا أنكرتِ المَرْأَة ماذا نعمل؟

الجواب: نقول للرَّجُلِ: اشهدْ على ما قلتَ أربعَ شَهادَات باللهِ إنكَ لمن الصَّادِقينَ، والخَامِسَة أنَّ لعنةَ الله عليكَ إن كنتَ من الكاذِبين، فإذا شهدَ يثبتُ عَلَيْها الحَدُّ؛ أي حَدُّ الزِّنَا، وهو الرَّجْمُ إنْ كَانَت مُحْصَنَةً، والجلدُ مع التَّغْريب إنْ كَانَت غيرَ مُحصنةٍ.

ولو قَالَ قَائِلٌ: هل يُمْكِن أن تَكُون الزَّوْجَة غيرَ مُحصنةٍ؟

الجواب: يُمْكِن بأن يعقدَ عَلَيْها ولا يُجامِعها فتكونَ غيرَ مُحصنةٍ.

فإذا ثبتَ الْحَدُّ عَلَيْها بشَهادَة الزَّوج، فلها أنْ تُسْقِطَ هَذَا الْحَدَّ بشهاداتٍ تقابلُ شهاداتِه، ولهَذَا يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ﴾ أي: شهاداتها ﴿أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزِّنَا.

فإذا شهدَ عَلَيْها، فإنْ لاعنَتْ قبلنا منها، وإن أبَتْ لا نقيم عَلَيْها حد الزِّنَا، بل نحبسها حَتَّى تُقِرَّ بالزِّنَا أو تلاعنَ، وأمَّا الآيَة فتدل على أنَّه إِذَا لم تلاعن نقيم عَلَيْها الْحَدَّ مباشرةً.

يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فِيمَا رَمَاهَا بِهِ مِنَ الزِّنَا]. اهـ. مُقابِل قَوْلهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: ثبوتُ الحدِّ على المَرْأَة بِلِعَان الزَّوج إلا إِذَا أنكرتْ ولاعنتْ؛ لقَوْلهُ: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ﴾، وقد تقدَّم أن الْعَذَاب هو الحد، والدَّليل على ذَلِك قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢]، وأما من فسر الْعَذَاب بالحبس؛ أي أن تُحبس حَتَّى تُقِرَّ أو تُلاعِنَ، فلا دليلَ علَيْه ولا مُعَوَّلَ عليه.

إِذَنْ يثبتُ الْحَدُّ على المَرْأَة بلعان الزَّوج، ويثبتُ إِذَا أتى بالبَيِّنَة، وهَذَا مفهومٌ من الآيَة السَّابقة: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور:٤]، ويثبتُ بأمرٍ ثالثٍ وهو إقرارُ المَرْأَة، لكن إِذَا أنكرتِ المَرْأَة وقالت: هو كاذبٌ، حينئذٍ نقول: لَاعِنْ وأَجيبيهِ على شهاداتِه، فإذا أجابَتْهُ على شهاداتِه سَقَطَ عنها العَذابُ، وإن لم تُجِبْه أُقِيمَ عَلَيْها الحدُّ.

الآيــة (٩)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾ [النور:٩].

قَوْلُهُ: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ﴾، يعني: وتشهد الخَامِسَة ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

قَوْلُهُ: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾ في مقابل قَوْلُهُ: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، والغضبُ أشدُّ من اللَّعْنة، فالغضبُ -والعِيَاذ باللهِ- يَلْزَم منه اللَّعْنة وزيادة، بخلاف اللَّعْنة فهي طردٌ وإبعادٌ عن الرَّحمة، لكن هَذَا طردٌ وإبعادٌ مع غضبٍ، وإنما اختير لها ذَلِك -أي: الغَضَب- لسببين:

السَّبب الأوَّل: أن رَمْيَ الزَّوج إياها بالزِّنَا أقربُ إلى الصِّدق من إنكارها، ولأنَّهُ يبعد أن يرميَ الزَّوجُ زوجتَه بالزِّنَا وهي حليلته، فهَذَا بعيد جدًّا، إلا إِذَا تَيَقَّنَ ذَلِك، لكنَّ إنكارَها أمرٌ متوقع؛ لأنَّها تَدْرَأُ عن نفسها عارَ الْفَاحِشَة، وكَذلِك عن أهلها، كما قالتِ المَرْأَة: «لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ»[1].

السَّبب الثَّاني: أنَّه إِذَا كَانَ الزَّوجُ صادقًا والمَرْأَة تنكر صَارَت تَرُدُّ الحَقّ مع علمها به، ومن رَدَّ الحَقّ مع علمه به فجزاؤه الغَضَب، كحال اليهود الَّذِينَ ردوا

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة النور، حديث رقم (٤٧٤٧)، عن ابن عباس.

الحَقّ مع علمهم به، فاستحقوا الغَضَب، وأمَّا الضالون فهم الَّذِينَ لَمْ يقولوا الحقَّ لجهلهم به.

لو قَالَ قَائِلٌ: يستطيعُ الزَّوجُ أن يطلقَ زوجتَه ويتخلصَ؟

نقولُ: هو لا يريدُ أن يطلقَها، ولـو أَرَادَ ذَلِك ما احتاجَ أن يأتيَ ويرميَها، بل يطلقها.

ولو قَالَ قَائِلٌ: هل يُمْكِن أن يرمىَ الزَّوجُ زوجتَه كاذبًا؟

الجواب: لا يُمْكِن أن يُقْدِمَ الْإِنْسَان على رمي زَوْجَته بالزِّنَا لمجرد ظنون أبدًا، لا يَكُون ذَلِك إلا بشَيْء رآه ولا يسْتَطيع أن يصبرَ عليه؛ لأَن هَذَا عارٌ عليه، ولـهَذَا -كما سيأتي إِنْ شَاء اللهُ- فالْإِنْسَان العفيفُ -في الغالِب- لا يُمْكِن أن يبتليَهُ اللهُ بامرأةٍ تزني، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ [النور:٢٦]، فلهَذَا فالزَّوجُ نفسُه يجد أن مِنَ العَار أن يشهرَ عند النَّاس أنَّ امرأتَه زانيةٌ، لكن المَرْأَة تجد أنَّه مِنَ العَار أنْ تُقِرَّ علَى نفْسِها؛ ولذا فهي تحاول أن تنكر.

لو قَالَ قَائِلٌ: ما الحُكْم لو قالت المَرْأَة لزوجها: طلقني؟

الجواب: هو لن يطلقها لأنَّها ربما تُقِرُّ ويثبت عَلَيْها حد الزِّنَا، وحينئذٍ يتخلص بدون طلاق، لكن إِذَا كَانَ يُرِيد الطَّلاقَ لا يُمْكِن رَدُّهُ؛ لأَنَّه يجوز له أن يطلقها وإن لـم تزنِ.

ماذا يَجب على الرَّجل إِذَا زنت زَوْجَته وأَرَادَ إمساكها؟

الجواب: يَجب إِذَا حصل هَذَا أن يَسْتَبْرِئَها بحَيْضَةٍ، فإن قُدِّرَ أنَّه لـمَّا اسْتَبْرَأَها لـم تَحِضْ بل حَمَلَتْ فـالْوَلَد له؛ لأَن النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُول: «**الْوَلَد لِلْفِرَاشِ**

وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ»[1]، حَتَّى لو فرضنا أَنَّه حسب تقدير الله من هَذَا الزَّاني فهو ولده؛ لأَن الْوَلَد لِلْفِراشِ.

فإذا لاعنَ لنفي الْوَلَد انتهى الموضوع، لكن اللِّعَان لنفي الْوَلَد فيه خلافٌ، المذهبُ أَنَّه لا يجوز أن يُلاعن لنفي الْوَلَد، بل لا بُدَّ أن يقذفها أوَّلًا بالزِّنَا، ثم يُلاعِنُ وينفي الْوَلَد.

والصَّحيحُ أَنَّه يجوز أن يُلاعِنَ لنفي الْوَلَد فقط، بأنْ يقولَ: أنا لم أقل: زنت، لكن هَذَا الْوَلَد لَيْسَ مني، وأُلاعِنُ على ذَلِك، ويقول في اللِّعَان: أشهدُ باللهِ، ويشهد أربعَ شَهادَات إنه لَمِنَ الصَّادقينَ في أن الْوَلَد لَيْسَ منه، وأنَّ لعنةَ الله علَيْه إن كَانَ من الكاذِبين؛ لأَن المَرْأَة قد تَكُون مُكْرَهَةً لم تَزْنِ، أو مُشْتَبَهًا فيها مثلًا؛ لأنَّ مَسْأَلَة الزِّنَا صعبةٌ؛ ولهَذَا أوجبَ اللهُ فيه الحَدَّ.

وهَذَا الرَّجل لو نفى ولده لا يَجب علَيْه الحَدُّ، ولا على المَرْأَة، ولا يُقالُ لها: إن هَذَا الْوَلَد ابن زنا، ولا يُقالُ له: هَذَا العَمَلُ يُعَدُّ قَذْفًا.

فَعلَى القَوْلِ الصَّحيح، إِذَا حملتْ ولَيْسَ لها زوجٌ فإنها تُحَدُّ إلا إِذَا ادَّعَتْ شُبْهَةً، أما الَّتِي لها زوج فلا يُمْكِن أن نأتيَها أو نَقْرَبَها.

ولو قَالَ قَائِلٌ: هل ينتفي الْوَلَد عن الزَّوج باللِّعان أو لا ينتفي؟

الجواب: إن نفاه في لِعانه انتفى وإلا فهو ولدُه.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الفرائض، باب الولد للفراش حرة كانت أو أمة، حديث رقم (٦٧٤٩)، ومسلم كتاب الرضاع، باب الولد للفراش وتوقي الشبهات، حديث رقم (١٤٥٧)، عن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

إِذَنْ لا بُدَّ من أن يصرح بنفيه وإلا فهو ولده؛ لأنَّ «الْوَلَد لِلْفِرَاشِ»، كما قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ».

إذا سكتَ عن الْوَلَد فهو ولده، وإن نفاه انتفى، لكن إِذَا نفى الزَّوجُ الْوَلَد، فَمَنْ يَكُون أبوه؟

الجواب: لَيْسَ له أبٌ شرعًا، ويُنْسَبُ إلى أُمِّه، وهل ترثه أمه ميراثَ أُم أو ميراثَ أُم وأب؟ بما أنَّه يُنْسَب إلى أمه، فتكون أمُّه أمًّا وأبًا، وينبني على ذَلِك صُورَة: لو مات هَذَا الْوَلَد عن أمه الَّتِي ولدته وعن إخوتِه من أُمِّه، كَيْفَ يَكُون الميراثُ؟

الجواب: إِذَا قُلْنا: إن الأمَّ أمٌّ وأب، حَجَبَتْهُم الأم، وصَارَ الميراث لها ولَيْسَ لإخوته شَيْءٌ، فيَكُون لها السُّدس على أنَّها أم، والباقي لها تَعْصِيبًا على أنَّها أب، وهَذَا هو الصَّحيح لحديث: «تَحُوزُ المَرْأَة ثَلَاثَةَ مَوَارِيثَ: عَتِيقَهَا وَلَقِيطَهَا وَوَلَدَهَا الَّذِي لَاعَنَتْ عَلَيْهِ»[1].

والمَذْهَب يَقُولُونَ: إنها ترثُه ميراثَ أُمٍّ فقط، ويَكُون العاصبُ له عصبةَ أمه، وعلى هَذَا فيَكُون للأم هُنا السُّدسُ، والباقي لإخوته من أمه؛ لأنهم أبناؤها، فهم عصبة الأم، فيَكُون الباقي لهم.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الفرائض، باب ميراث ابن الملاعنة، حديث رقم (٢٩٠٦)؛ والنسائي في الكبرى، كتاب الفرائض، باب ميراث ولد الملاعنة، حديث رقم (٦٣٦٠)؛ والترمذي، كتاب الفرائض، باب ما جاء ما يرث النساء من الولاء، حديث رقم (٢١١٥)؛ وابن ماجه، كتاب الفرائض، باب تحوز المَرْأَة ثلاث مواريث، حديث رقم (٢٧٤٢)؛ وأحمد (٤/ ١٠٦) (١٧٠٢٢)؛ عن واثلة بن الأسقع.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: الْحِكْمَةُ فِي اللِّعان حيث خُصَّ الرَّجل بالدُّعاء علَى نفْسِه بِاللَّعْنِة، والمَرْأَة بالدُّعاء علَى نفْسِها بالْغَضب، وهَذَا سبقت الإِشَارَة إِلَيْه، فكَوْنُ الزَّوج يَلْعَن نفسه إنْ كَذَبَ لأَن في اتهامه إياها بالزِّنَا إبعادًا لها عن العفة وعن نفسه وأولاده، فناسب أن يدعو علَى نفْسِه بِاللَّعْنِ الَّذِي هو الطَّرْد والإبعاد.

الفَائِدة الثَّانية: الْحِكْمَةُ فِي الْمُغايَرَة بين الزَّوج والزَّوْجَة فيما يدعو أَحَدهما به علَى نفْسِه؛ المَرْأَة بالْغَضب والزَّوج بِاللَّعْنِة.

لو أَنَّه عكس وقال الزَّوج: غضب الله عليه، وقالت الزَّوْجَة: لعنة الله عَلَيْها، هل يصحُّ أو لا يصِحُّ؟

الجواب: لا يصِحُّ، حَتَّى قَالَ العُلَماء: لو أبدلتِ الغضبَ بالسّخطِ، أو أبدلَ اللعنةَ بالطَّرْدِ والإبعادِ عن رحمة الله، فإنَّه لا يصِح اتِّباعًا للفظ، وهَذَا في الحَقيقَة مَحَلُّ نظرٍ خصوصًا في الطَّرْد والإبعاد، وأما السّخطُ فقد يَكُون بينه وبين الغَضَب فرقٌ، لكن الطَّرْد والإبعاد عن رحمة الله هو معنى اللعن، إلا أَنَّنا مع ذَلِك نقول: لا يَنْبَغِي العُدولُ عما جاء به القُرْآن، ونقول للزوج: قل: لعنة الله عَلَيْك، وللزوجة: غضب الله عَلَيْها.

هل يُشترط أنْ يقولَ: فيما رميتُها به من الزِّنَا، وتقول هي: فيما رماني به من الزِّنَا، أو لا يُشترط؟

الجواب: ظاهرُ القُرْآن أَنَّه لا يُشترط، وكَذلِك ظاهرُ السُّنَّة؛ وَذلِك لأَنَّه حينما لاعنَ النَّبِيُّ ﷺ بين هِلالِ بن أُمَيَّةَ وزوجتِه لـم يقل: لمن الصَّادِقِينَ فيما رميتُها به،

ولا قالت هي: لمن الكاذِبين فيما رماني به، ولهَذَا فالصحيح أن هَذَا لَيْسَ بشرطٍ.

فإذا قِيل: أَلَيْسَ مِنَ الجَائِزِ أنْ يَتَأَوَّلَ (لَمِنَ الصَّادقينَ) في قَضيَّةٍ أُخْرَى؟

الجواب: بلى، لا شَك أنَّه مِنَ الجَائِزِ أنْ يَتَأَوَّلَ ويقولَ: إنه لَمِنَ الصَّادقينَ؛ أي: في أمرٍ آخَرَ، لكنَّ هَذَا التَّأويلَ لا ينفعُه؛ لأَن تأويلَ الظَّالِمِ لا ينفعه، فإن يمينَه على ما يصدق به صاحبُه[1] وعلى ما يَقْتَضيه المقامُ، ولكن لو قَالَ الزَّوج: فيما رميتُها به من الزِّنَا، وقالت هي: فيما رماني به من الزِّنَا، لكان هَذَا أَبْيَنَ وأوضحَ، إلا أنَّه لَيْسَ بواجبٍ.

وأما غير الظَّالِـم، فقد ذكرنا أن المظْلُوم ينفعه قولًا واحدًا، ومن لَيْسَ بظالـم ولا مظلوم محل خلاف بين العُلَماء، والأَوْلَى ألا يَتَأَوَّلَ لأنَّه يؤدي إلى تهمتِه؛ وإذا تَبَيَّنَ الْأَمْر على خلاف ما أظهر تبين تهمته وربما يسقط كلامُه، وكلما قَالَ شيئًا قالوا: نخشى أنَّه يَتَأَوَّلُ مثل تِلْك المرة، أما لو كَانَ مظلومًا فهَذِهِ ضرورةٌ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم كتاب الأيمان، باب يمين الحالف على نية المستحلف، رقم الحديث (١٦٥٣)، عن أبي هريرة.

الآيــة (١٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [النور: ١٠].

قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالسَّتْرِ فِي ذَلِك، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ بِقُبُولِهِ التَّوْبَةَ فِي ذَلِك وَغَيْرِهِ، ﴿حَكِيمٌ﴾ فِيمَا حَكَمَ بِهِ فِي ذَلِك وَغَيْرِهِ، لِيُبَيِّنَ الْحَقَّ فِي ذَلِك، وَعَاجَلَ بِالْعُقُوبَةِ مَنْ يَسْتَحِقُّهَا]. اهـ.

قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَا﴾ شرطيةٌ، ويُسمونها حرفَ امتناعٍ لِوُجود، يعني أنَّها منعت شيئًا لِوُجود شَيْء، هُنا ننظر ما الَّذِي امتنع لِوُجودِ الشَيْء؟ الَّذِي امتنع هو الجوابُ المحذوفُ أي جواب ﴿وَلَوْلَا﴾ وهو ما قدره الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقَوْلُهُ: [لِيُبَيِّنَ الْحَقَّ فِي ذَلِك، وَعَاجَلَ بِالْعُقُوبَةِ مَنْ يَسْتَحِقُّهَا]، هَذَا هو الَّذِي امتنع، لِوُجود فضل الله.

فالحاصِل: أن الَّذِي منع جواب ﴿وَلَوْلَا﴾ في هَذِهِ الآيَة هو فضلُ الله ورحمته.

وأما ﴿فَضْلُ﴾ فهو مُبْتَدَأٌ وخَبَرُه محذوفٌ والتَّقدير موجود، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ موجدان لَحَصَلَ كذا وكذا؛ لأَن ﴿لَوْلَا﴾ يُحذف بعدها الخبرُ وُجوبًا، قَالَ ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَبَعْدَ لَوْلَا غَالِبًا حَذْفُ الخَبَرْ ... حَتْمٌ.....

(١) البيت رقم (١٣٨) من الألفية.

يعني لازمًا، فهُنا لَوْلا تحتاجُ إلى جوابٍ، وجوابُها مُقَدَّرٌ، فما جوابُ لَوْلا في قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾؟

الجوابُ: يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِيُبَيِّنَ الحَقَّ فِي ذَلِك، وَعَاجَلَ بِالْعُقُوبَةِ مَنْ يَسْتَحِقُّهَا].

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَصَرَ هَذِهِ الآيَة، أي قَوْلهُ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ على قصَّة المُتَلَاعِنَيْنِ، يعني: لَوْلا أن الله تَفَضَّلَ علَيْنا ورحِمَنا لَبَيَّنَ الحقَّ في ذَلِك؛ أي: بَيَّنَ كَذِبَ الزَّوجِ إن كَانَ كاذبًا، وكَذِبَ المَرْأَة إن كَانَت كاذبةً، وعاجَلَ بالعُقوبَةِ من يستحقُّها من أحَدهما؛ لأَن أحَدهما كما قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما تلاعنا: «اللهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا لَكَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ»[1]، يعني يُعَرِّضُ لهما بالتَّوبةِ يَقُول: أحدُكما كاذبٌ؛ الزَّوجُ أو الزَّوْجَة، وهَذَا صحيحٌ، ويعرِض عليهما التَّوبةَ لعلَّ أحدَهما يتوبُ.

فالمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أن هَذِهِ الآيَة خاصةٌ بقصةِ المُتَلَاعِنَيْنِ، والصَّواب أنَّها عامَّةٌ فيها وفي غيرها؛ لأَن الله لم يقيِّدْها بل قَالَ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ولم يقل في ذَلِك، ثم العِبرةُ بعُمومِ اللفظِ لا بخُصوصِ السَّببِ.

إِذَنْ يَكُونُ الجوابُ المقدَّرُ غيرَ ما قدَّره المفسرُ، نقول: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ ما حصلَ لكم هَذِهِ المَصالِحُ، وما حصلَ الَّذِي حصلَ من هَذَا التيسيرِ وهَذَا التَّشْريع الحَكِيم، وما انتفت عنكم تِلْك المفاسدُ، وهَذَا أعَمُّ مما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الطلاق، باب يبدأ الرجل بالتلاعن، حديث رقم (٥٣٠٧)، عن ابن عباس، ومسلم، كتاب اللعان، حديث رقم (١٤٩٣)، عن ابن عمر.

قَوْلهُ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ إلى آخِره، الفضلُ من آثار الرَّحمة في الحَقيقَة، لكنَّ الرَّحمةَ تَكُون فيما يضطر إلَيْه العَبْد، وتكون في الزِّيادة أيضًا، والفضلُ في الزِّيادة فقط، فيَكُون عطفُ الرَّحمة هُنا على الفضلِ من باب عطف العامِّ على الخاصِّ؛ لأَن الفضلَ من آثار الرَّحمة، لكنَّه أخص منها؛ إِذْ إنه زائدٌ على ما يحتاج إلَيْه العبدُ ويضطر إلَيْه، وأما الرَّحمةُ فتكون فيما يحتاجُ إلَيْه العبدُ وفيما زادَ على ذَلِك.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالسَّتْرِ فِي ذَلِك]، هَذَا بناءً على خصوصِ الآيَة في المُتَلَاعِنَيْنِ، والصوابُ أن الآيَة عامَّةٌ يعني: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ في هَذَا وغيره، لحَصَلَ لكم ما لم يَحْصُلِ لكم الآن.

وقَوْلهُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ معطوف على ﴿فَضْلُ﴾ يعني: ولولا أيضًا أن الله توابٌ حكيمٌ.

قَوْلهُ: ﴿تَوَّابٌ﴾ سبق أن التَّواب هو كثير التَّوبة، وأن توبة الله علَى عِبَادِه تنقسم إلى قِسْمَيْن:

أحَدهما: التَّوفيق للتَّوبة.

والثَّاني: قبول التَّوبة.

ومنه قَوْله تَعَالَى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التَّوبة:١١٨]، وتُطلق التَّوبةُ من العَبْد إلى الله، وهي بمَعْنى الرُّجوع من مَعْصِيَته إلى طاعته، فالعبدُ توابٌ، والله توابٌ، لكنَّ هُناكَ فرقًا بين (تَوَّاب) الَّتِي يُوصفُ بها الله و(تَوَّاب) الَّتِي يُوصفُ بها العَبْد، فالتي يُوصف بها الله مَعْناها الموفِّق للتوبة القابلُ لها، والتي يُوصف بها العَبْد مَعْناها الرَّجّاع إلى الله عَزَّوَجَلَّ من مَعْصِيَته إلى طاعته.

وقَوْلهُ: ﴿حَكِيمٌ﴾، سبق القَـوْل إنها مُشتقةٌ من الحُكْـمِ والحِكْمَةِ، فتكـون بمَعْنى حَاكم وبمَعْنى مُحْكِم، وحُكْمُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينقسم إلى كونيٍّ وشرعيٍّ، والحِكْمَةُ تَكُون في الحُكم الكَوْنِيّ وتكون كَذلِكَ في الحُكم الشَّرعي، فمحل الحِكْمَةِ الحُكْمان؛ أي الحُكْم الكَوْنِيّ والحُكْم الشَّرعي، وتكون كَذلِكَ في الإِيجَاد وفي الصُّورة وفي الغَايَة، وحكمةُ الله لَيْسَت هي غايات الأُمُور، بل تَكُون في الإِيجَاد وفي الصُّورة وفي الغَايَة.

كَيْفَ تَكُون الحِكْمَةُ في الإِيجَاد وفي الصُّورة وفي الغَايَة؟

الجواب: يعني أن الله لا يُوجِد شيئًا إلا لحكمةٍ، ثم إيجاده على صُورَة معينة حكمةٌ أُخْرَى، ثم الغَايَة من هَذَا الإِيجَاد حكمةٌ ثالثة.

فمثلًا إيجاد الشَّمس يَكُون لحكمةٍ، وكونها على هَذِهِ الصُّورة المعينة، وبهَذِهِ الحرارة، وبهَذِهِ المسافة عن الأَرْض، وبهَذَا السَّير المعين، هَذِهِ تُعَدُّ حِكْمَة في الصُّورة، والغَايَة منها مصالحُ الخلق وهَذِهِ أيضًا حِكْمَة، كَذلِكَ إيجاد الإِنْسَان حِكْمَة، وكونُه على هَذَا الوجه المعين حِكْمَة، والغَايَة من إيجاده حِكْمَة، وهَكَذا في الأُمُور الكَوْنِيَّة والشَّرْعِيَّة فإن تَشْريع الشرائع حِكْمَة، وكونها على هَذَا الوجه المعين حِكْمَة والغَايَة منها وهو إصلاح الخلق حكمةٌ أيضًا.

قَوْلهُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾؛ الحَكِيم قُلْنا: إن معناه حَاكِم ومُحْكِم أي: متقنٌ ذو حِكْمَة، والحِكْمَةُ -كما تقدَّم- تَكُون في الشَّرع وفي القَدر؛ لأنَّها تَكُون في الحُكْمَيْنِ، وتكون في الإِيجَاد والصُّورَة والغَايَة.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: بَيان فضل الله ورحمته علَى عِبَادِه بالشَّرع والقَدر؛ لقَوْلهُ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ فإن هَذَا يَتعلَّق بالشَّرع وبالقَدر، أما بالشَّرع فلولا أن الله تفضل علَيْنا ورحمنا وشرع للأَزْواج ما شرع من اللِّعَان لكان الزَّوج يقع في حرج عَظِيم؛ لأَنَّه إن تكلم يُقام علَيْه حَدُّ القَذْفِ، وإن سكَتَ سكَتَ عن أمر عَظِيم، لكن من رحمة الله وفضله أَنَّه شرع اللِّعَان.

كَذلِكَ في القَدر في قَضيَّة الْمُتَلَاعِنَيْنِ، أَنَّه لَوْلا أن الله تَعَالَى يحب السَّتر لفضحَ المَرْأَة وأظهر آيةً تدُلّ على صدق الزَّوج، أو بالعَكْسِ إِذَا كَانَ الزَّوج كاذبًا، لكن من رحمة الله أَنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يستر علَى عِبَادِه في الدُّنْيَا مثل هَذِهِ الْأُمُور ثم يجازيهم عَلَيْها في الْآخِرَة.

في مَسْأَلَة اللِّعان لو عَيَّنَ الزوجُ مَنْ زنى بامرأته، فهل يُحَدُّ الأجنبيُّ للزنا؟ وهل يُحَدُّ الزَّوجُ لقذفِ الرَّجل؟

الجواب: إِذَا لاعن الزَّوج زَوْجَته لم نَحُدَّ الأجنبيَّ للزنا، ولا يُحَدُّ الزَّوج لقذف الرّجل، والدَّليل ما جاء في الحَديث، أن هِلال بن أُمية قذف امرأته بشَرِيك بن سَحْمَاء، فعين الرَّجل الَّذِي زنا بها ولم يَحُدَّه النَّبِيُّ ﷺ حَدَّ القَذْفِ.

لكن لا يَنْبَغِي في مثل هَذَا أن يقذفها بشخصٍ معين كي لا يدنسَ عرضه؛ لأَن المَسْأَلَة لَيْسَت ثابتة بشهود، فالأولى أنْ يقولَ: إنها زنت ولا يعين، لكن لو عين فإن السُّنَّة تدُلّ على أَنَّه لا يحد الرَّجل الأَجْنَبِيّ، والسَّبب في ذَلِك هو أن الأَصْل هُنا والمَقْصُود بِقَذْف الزَّوج الزَّوْجَة، لا الرَّجل الأجنبيُّ، وهو لم يعين الرَّجل إلا لزيادة إِثْبات قذف الزَّوْجَة.

لكن من راعى المَعْنى قَالَ: الآيَة السَّابقة تدُلّ على أن الرمي بالزِّنَا يوجب الحد، وهَذِهِ الآيَة تدُلّ على أن رمي المَرْأَة بالزِّنَا يوجب اللِّعَان، فتبقى الآيَة هُناكَ بالنِّسْبَةِ للأجنبي عَلى عُمومِها وهَذِهِ بالنِّسْبَةِ للزوجة على خصوصها، لكن السُّنَّة في الحَقيقَة هي الفاصِلَة، والنبي ﷺ لم يَحُدَّ الرَّجل الَّذِي قذف امرأته بشَرِيك بن سَحْمَاء.

لَكِنِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: يُحَدُّ، يجيبون عن هَذَا فيَقُولُونَ: مَنْ قَالَ إن شريك بن سَحْمَاء طالبَ بحقِّه، وحَدُّ القَذْف لا يَجب إلا بالمطالبة؟

لكنَّنا نقول رَدًّا على هَذَا: مَسْأَلَة كَوْنِ حَدِّ القَذْفِ لا يَجب إلا بالمُطالبة مَحَلُّ نَظَرٍ؛ لأَن عُمُوم الآيَة ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور:٤]، لا تقيد ذَلِك بالمطالبة، وكَوْنُ هَذَا حقًّا خاصًّا للمقذوف أيضًا مَحَلُّ نَظَرٍ وغَيْرُ مُسَلَّمٍ به؛ لأنَّ تدنيسَ أعْرَاضِ المُسْلِمِينَ لَيْسَ حقًّا شخصيًّا في الواقِع، بل يَتعلَّق بعُموم المجتمع الْإِسْلَامي، ولهَذَا أنا أميل إلى أن حَدَّ القَذْف يَجب وإنْ لم يطالب به المقذوفُ، المُهِمّ أن يثبت، حَتَّى لو كَانَ المقْذُوف لا خير فيه ولا يُرِيد أن يدافع عن عرضه وسكت، نقول: المُسْلِمُونَ هم الَّذِينَ يدافعون عن عرضك ويقام الحَدُّ عليه.

ولو قَالَ قَائِلٌ: ذكرتم إِذَا عين زوجُ المَرْأَة الرَّجل الأَجْنَبِيّ -الزَّاني- فإنَّه لا يُحَدُّ للحديث، لكن إِذَا وُجِدَتْ قَرائنُ وأماراتٌ هل يُحَدُّ أم لا؟

الجواب: الرَّسُول ﷺ لم يتبيَّن الْأَمْر، ورجحان قَوْل الزَّوج إلا بعد الوضع، فكَيْفَ نريد أن نُحِيلَ الحُكْم على أمر لم يتبيَّن من قبل؟ ثم لو فرض أنَّه توجد أمارات وقرائن -اللهم إلا إن كَانَت هَذِهِ الأمارات والقَرَائِن قد تؤدي إلى كون المقْذُوف لَيْسَ محصنًا- فلا يَجب الحَدُّ بِقَذْفه وإنما يَجب التَّعْزِيرُ؛ لأنَّ قَذْفَ غيرِ المُحْصَنِ يُوجِبُ التَّعْزِير.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ هَذِهِ الأماراتُ ما ظهرتْ إلا بعد.

الفَائِدة الثَّانية: إِثْباتُ الأَسْبابِ والموانعِ؛ لقَوْلهُ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ [النور:١٠]؛ لأَن هَذِهِ الآيَة فيها مانعٌ وفيها سببٌ، فالسَّببُ ذنوبنا وما نحنُ علَيْه من الأَخْطَاء، والمانعُ الَّذِي يمنع من العُقوبَة هو فضلُ الله ورحمته.

الفَائِدة الثَّالِثَة والرَّابِعَة: إِثْبات التَّواب اسمًا من أَسْماء الله؛ لقَوْلهُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ [النور:١٠]، وإِثْبات الحَكِيم اسمًا من أَسْمَائِه، والحكيم يتضمَّن معنى الحُكْمِ والحِكْمَةِ، والحُكْمُ كَونيٌّ وشرعيٌّ، والحِكْمَةُ في الإِيجَاد والصُّورَة والغَايَة، وهَذِهِ الأَشْيَاء الثَّلاثَة في الحِكْمَةِ في الحُكْم القَدَرِيّ والحُكْم الشَّرعي، وقد تقدَّم.

• • ۞ • •

الآيــة (١١)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور:١١].

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَسْوَأُ الْكَذِبِ عَلَى عَائِشَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، بِقَذْفِهَا، ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَتْ: حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ وَمِسْطَحٌ وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ]. اهـ.

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ (أَلْ) هُنا للعَهْدِ الذِّهني؛ أي الَّذِي هو معْلُومٌ عندهم.

ومفهوم قَوْلُهُ: ﴿بِٱلْإِفْكِ﴾ [أَيْ: أَسْوَأُ الْكَذِبِ] كما قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، نعم، هَذَا أسوأ كذبٍ يَكُون؛ لما يَتَضَمَّنُه من القَدْحِ بأمهاتِ الْمُؤْمِنين، وبالتالي بالنَّبي ﷺ كما يتبيَّن من الآيات في سِيَاقها.

وقَوْلُهُ: ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ أي: جماعةٌ، وقَوْلُهُ: ﴿مِّنكُمْ﴾ الخِطَاب للمُؤْمِنِينَ، وكونهم من الْمُؤْمِنِينَ يدلُّ على أنهم لم يخرجوا من الإِيمَان بِذَلِك؛ أي: بهَذَا القَذْفِ؛ لأنَّه صَدَرَ قبل أن يَتَبَيَّنَ الحُكْمُ في هَذَا، وإلا فمَن قَذَفَ واحدةً من زوجاتِ النَّبِيِّ ﷺ، عَائِشَة أو غيرِها، فإنَّه كافرٌ مرتدٌ يُستتاب، فإنْ تابَ وإلا قُتِلَ.

وعَدُّهُ؛ أي: عَدُّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عبد الله بن أُبَيٍّ من هَؤُلَاءِ العُصْبة على أساس أن عبدَ الله بن أُبَيٍّ كَانَ يتظاهرُ بالْإِسْلَام، ويتظاهر بأنه مع المُؤْمِنِينَ، ولكنَّه في الحَقيقَة منافقٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ [البقرة:١٤]، ثم إن عبد الله بن أُبَيٍّ لم يصرح بالقَذْفِ، وإنما لِخُبْثِهِ يجمعه ويشيِّعه بين النَّاس بلفظٍ لَيْسَ فيه تصريحٌ، ومع هَذَا فهو الَّذِي تولى كِبْرَ هَذَا الْأَمْر، كما سيأتي.

فالخِطَاب في قَوْلهُ: ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ للمُؤْمِنِينَ، ولا شَكّ أن مثل حسان بن ثابتٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ومِسْطَح بن أُثَاثَة وحَمْنَة بنتِ جَحْشٍ مُؤْمِنُونَ، وأنهم لم يخرجوا من الإِيمَان بما فعلوا؛ لأنَّه قبل تَبَيُّنِ الحُكْم.

قَوْلهُ: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَا تَظُنُّوهُ أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ غَيْر الْعُصْبَةِ ﴿شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾]. اهـ.

قَوْلهُ: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ نهى أن نظن بأن هَذَا الإِفْكَ شَرٌّ لنا قبل أن نثبتَ أنَّه خيرٌ؛ لأنَّه لا شَك أن المُؤْمِنِينَ، حين وقع هَذَا الإِفْكُ، أصابَهم ما أصابَهم من الأَذَى، وظنوا أن ذَلِك شَرٌّ، فأَرَادَ الله تَعَالَى أن ينتزعَ هَذَا الظَّنَّ من نفوسهم قبل أن يُبَيِّنَ حُكْمَه؛ لأَن هَذَا أول ما يَنْبَغِي معالجته بالنِّسْبَةِ لهَذَا الإِفْك، وهو انتزاع ما يظنه بعض المُؤْمِنِينَ من أن هَذَا الإِفْك شَرٌّ، وبعد ذَلِك تأتي المعالجةُ، ولذا يَقُولُونَ: إنَّ التَّخْلِيَةَ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ، أي تخلية الشَّيء من القبح والتَّشويه قبل تحليتِه بالشَيْء الجميل؛ لأنك لا بُدَّ أن تزيل الأشواك أولًا قبل أن تفرش.

فلهَذَا نهى الله أن نحسب هَذَا شرًّا حَتَّى يختلع ذَلِك من نفوسنا أولًا ثم تَكُون مستعدة للتحلية، ولإِثْبات ما يُثبت ويُحدَّث عنه في شأن هَذَا الإِفْك، فتبين بهَذَا أنَّه يَنْبَغِي عند معالجة الأَشْيَاء أن نزيل أولًا الأَذَى لنفتح الطَّريق أمام الخَيْر حَتَّى يَلِجَ.

وقَوْلهُ: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ فيه أيضًا أنَّه يَنْبَغِي أن يبدأ بأهم شَيْء، وهو أن يُزال ما في النُّفوس من ظَنٍّ أن يَكُون هَذَا الإِفْك شرًّا للنبي ﷺ ولآل أبي بكر وللمُؤْمِنِينَ عُمومًا؛ لأَن حَقِيقَة الْأَمْر لو وقع هَذَا -وحاشا لله أن يقع- لكان هَذَا شرًّا بالنِّسْبَةِ لآل أبي بكر وبالنِّسْبَةِ لنبي الله ﷺ.

ولهَذَا لا يُمْكِن للمُؤْمِنِينَ حقًّا أن يَظنُّوا هَذَا الظَّن، وأجِلَّاء المُؤْمِنِينَ من الصَّحابَة أنكروا ذَلِك وقالوا: لا يُمْكِن أن يَكُون، وممن أنكره أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره، أنكروا أن يَكُون هَذَا، ولكن بعض النَّاس لكثرة التَّرويج والإشاعات، وأيضًا مما ينفثُ الشَّيطان في قلوبهم، حصل منهم بعض الشَّك.

والصَّحابَة المُؤْمِنُونَ انقسموا بهَذَا إلى ثلاثة أقسام:

القِسْم الأوَّل: قسمٌ حصل منه ما حصل من الانحراف في هَذَا الْأَمْر.

القِسْم الثَّاني: قسمٌ منهم أنكر ذَلِك إنكارًا بالغًا وقال: هَذَا لا يُمْكِن.

القسمُ الثالثُ: توقَّفَ وشكَّ في الْأَمْر، لكن الأجلاء من الصَّحابَة والمعظم منهم أنكروا ذَلِك، كما ذكره أهْل العِلْم.

قَوْلهُ: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أولًا: كَيْفَ لا نحسبه شرًّا؟ نحنُ نُؤْمِن بِذَلِك لأَن الله قَالَ: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا﴾ وإن كَانَ الْإِنْسَان قد يظن بادئ ذي بدء أنَّه شر، وهَذَا شَيْء معْرُوف، رجل يقذف أهلك أول ما تظنه تعلم أن هَذَا شرٌّ مُوَجَّهٌ إليك، هَذَا أمر مُسلَّم به، فلمَّا قَالَ اللهُ: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ انتهت المشكلة هَذِهِ، وقُضِيَ عَلَيْها بنهي الله عَزَّوَجَلَّ العليم بما سيكُون، بأنه لَيْسَ بشَرٍّ.

بقي أن يُقال: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ نحنُ نُؤْمِن بهَذَا أيضًا وأنه خير لنا، لكن

ما الخَيْر الَّذِي ظهر في هَذَا الإِفْك؟

الجواب: نقول الخَيْر الَّذِي ظهر في هَذَا الإِفْك خيرٌ لَيْسَ له نظير؛ إِذْ ظهرت براءة أم المُؤْمِنِينَ عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ونزاهتها ظهورًا لا يعادله شَيْء، شهد الله لها بالبراءة من فوق عرشه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ثانيًا: ظهر بِذَلِك نَقاء وطُهر فِراش النَّبِيِّ ﷺ وأنه لا يُمْكِن لِفراشه ﷺ أن يتدنس بهَذَا.

ثالثًا: من الخَيْر، الأجر العَظِيم الَّذِي ترتب على ما أصاب المُؤْمِنِينَ في هَذِهِ الحادثة من الأَذَى والمشقَّة والجهد الجهيد، حَتَّى إنه من حِكْمَة الله عَزَّ وَجَلَّ أن الوَحْي انقطع شهرًا كاملًا، لم ينزل على النَّبِيّ ﷺ لأجل أن يَتَمَحَّصَ المُؤْمِنُ من المنافقِ، ولأجل أن يشتد اشتياقُ المُؤْمِنِينَ إلى بَيان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هَذِهِ القَضيَّة العَظِيمَة المهمَّة، ولأجل أن يَزدَاد أجرهم بهَذَا في هَذِهِ المدة.

ثم إن فيه أيضًا من الخَيْر رِفْعة شأن النَّبِيِّ ﷺ، وهَذَا فوق قولنا: نزاهة فِراشه وطهارته، لكونِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يدافع بنَفْسِه عنه، ثم فيه أيضًا من الخَيْر تأديبُ المُؤْمِنِينَ وعِظتهم بما يَنْبَغِي أن يَكُونوا علَيْه من عدم إطلاق القَوْل والتجريء على أعْرَاض الأعفاء، إلى غير ذَلِك مما سيتبيَّن إِنْ شَاء اللهُ في أثناء هَذِهِ القصَّة العَظِيمَة.

قَوْلهُ: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَأْجُرُكُمْ اللهُ بِهِ، وَيُظْهِرُ بَرَاءَةَ عَائِشَة، وَمَنْ جَاءَ مَعَهَا مِنْهُ، وَهُوَ صَفْوَانُ، فَإِنَّهَا قَالَتْ: كُنْتُ... إِلَى آخِرِهِ]. اهـ.

هَذَا أيضًا من الخَيْر لصَفْوَانَ بنِ المُعَطِّلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لأنَّه إِذَا أنزل الله براءةَ عَائِشَة من ذَلِك، وكانَ هُوَ الَّذِي رماه المُنافِقُونَ بها، تظهر براءتُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قَالَتْ عَائِشَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةٍ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ]. اهـ.

وهَذِهِ الغزوة تسمى غزوةَ الْمُرَيْسِيعِ أو غزوة بَنِي الْمُصْطَلِقِ، ولم يبين الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ متى كَانَت هَذِهِ الغزوةُ، لكنَّه يتبيَّن لنا متى كَانَت من قولها: بعد ما أُنزل الحجابُ، والحجابُ نزل سنةَ ستٍّ من الهِجْرَة، وعلى هَذَا فتكون هَذِهِ الغزوة في آخر السَّنَةِ السَّادِسَة، أو في السَّابِعَة.

وأما قَوْل بعض المؤرخين إنها في الخَامِسَة أو في الرَّابِعَة فهَذَا وَهْمٌ منهم، والصَّحيح أنَّها كَانَت في آخر السَّادِسَة؛ لأنَّها صرحت بأنَّها بعد ما أُنزل الحجاب، وأيضًا النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ استشار زينب في شأنها، وآية الحجاب نزلت عند زواج النَّبِيِّ ﷺ بزينب.

ثم يَقُول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سِيَاق القصَّة: [فَفَرَغَ مِنْهَا وَرَجَعَ وَدَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ وَآذَنَ بِالرَّحِيلِ لَيْلَةً، فَمَشَيْتُ وَقَضَيْتُ شَأْنِي، وَأَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ، فَإِذَا عِقْدِي انْقَطَعَ -هُوَ بِكَسْرِ الْمُهْمَلَةِ: الْقِلَادَةُ- فَرَجَعْتُ أَلْتَمِسُهُ، وَحَمَلُوا هَوْدَجِي -هُوَ مَا تَرْكَبُ فِيهِ- عَلَى بَعِيرِي يَحْسَبُونَنِي فِيهِ، وَكَانَتِ النِّسَاءُ خِفَافًا إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ -هُوَ بِضَمِّ الْمُهْمَلَةِ وَسُكُونِ اللَّام- مِنَ الطَّعَامِ؛ أَيِ: الْقَلِيلِ]. اهـ.

تحدثتْ عَائِشَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عن قصة الإفْكِ، تقول: إنها لما رجعَ النَّبِيُّ ﷺ من هَذِهِ الغزوة في ليلة من الليالي أذنَ بالرحيلِ، فذهبَتْ تقضي حاجَتَها، كشَأْنِ الْإِنْسَان إِذَا أَرَادَ أن يركبَ أو أَرَادَ أن ينامَ أو ما أشبه ذَلِك، ذهبتْ تقضي حاجَتَها؛ أي تبولُ أو تَتَغَوَّطُ، فلمَّا رجعتْ إِذَا بالعِقْد قد انقطعَ، فرجعتْ تَلْتَمِسُه، وقد ذكر المؤرِّخون

أن هَذَا العِقد كَانَ عاريةً عندها لأختها أَسْماء رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا فذهبتْ تَلْتَمِسُه؛ أي: تطلبه، فوجدت العِقد.

فلمَّا رجعتْ إلى مكانها إِذَا بالقوم قد حملوا هَوْدَجَها، وما ظنوا أنَّها لَيْسَتْ فيه؛ لأنَّها كَانَت خفيفةً كما قالت رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «**كَانَ النِّساءُ خفافًا ما كَانَ اللحم قد بني عليهنَّ؛ لأنهنَّ إنما يأكلن العُلْقَةَ من الطَّعام**»؛ أي: القليل.

ثم إن الَّذِي حمل الهَوْدَجَ لَيْسَ رجلًا واحدًا أو اثنين حَتَّى يميزوا خفته، إنما حمله جماعةٌ، والعادة أن الجَماعَة لا يحسون بِثقل الشَّيء ولا يهمهم، لِذَلك حملوه على أنَّها فيه وساروا، فلمَّا رجعت ولم تجدهم عرفت أن القوم سيفقِدُونها وسيرْجِعُون إلَيْها كما هو معْرُوفٌ، هي من ذكائِها وعقلِها لم تذهب يمينًا ولا شمالًا، لم تقل: ألحقهم وأبحث، بقيت في مكانها.

ومن العجيب أنَّها من طُمَأْنِينَتِها ورَبَاطَةِ جَأْشِهَا نامت في هَذَا المكان، ولما نامت كَانَ صَفْوَانُ بْنُ المُعَطَّلِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في أُخْرَيات القوم، وكان كثيرَ النوم وثقيلَ النوم أيضًا، فلمَّا استيقظ لَحِقَ القومَ، فلمَّا أقبل على مكانهم وجد سوادَ شخصٍ فَآوَى إلَيْه، وحصل ما حصل.

ثم يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ في سِيَاق القصَّة: [وَوَجَدْتُ عِقْدِي وَجِئْتُ بَعْدَمَا سَارُوا، فَجَلَسْتُ فِي المَنْزِلِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ سَيَفْقِدُونَنِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَغَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ قَدْ عَرَّسَ مِنْ وَرَاءِ الجيش فَادَّلَجَ -هُمَا بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ وَالدَّالِ، أَيْ نَزَلَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ لِلاسْتِرَاحَةِ- فَسَارَ مِنْهُ (أي: من مكانه) فَأَصْبَحَ فِي مَنْزِلِهِ (أي: في منزلِ الجيش) فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَان نَائِمٍ -أَيْ: شَخْصَهُ- فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ

حِينَ عَرَفَنِي -أَيْ: قَوْلُهُ إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ- فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي؛ أَيْ: غَطَّيْتُهُ بِالْمُلَاءَةِ، وَاللهِ مَا كَلَّمَنِي بِكَلِمَةٍ وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ وَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ... إِلَى آخِرِهِ]. اهـ.

لما رأى صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سواد الشَّخص أقبل إِلَيْه، فإذا بأم الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا نائمة ولم تُغَطِّ وجهها؛ لأنَّها لَيْسَ حولها أحدٌ، فعرَفها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان قد رآها قبل الحجاب فقال: إنا لله وإنا إِلَيْه راجعونَ، ثم أناخ بعيره ووطئ على ركبته حَتَّى ركبت، وذهب يقود بها حَتَّى أتى الجيش، ولم يكلِّمْها بكَلِمةٍ، وإنما استرجع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خوفًا مما وقع، توقَّع أمرًا فوقع؛ لأَن امرأة في فلاة من الأَرْض وحدها ويأتي بها رجل متأخِّر عن الجيش وهي متأخِّرة عنه، هَذَا لا شَك أنَّه بليةٌ وابتلاءٌ من الله عَزَّوَجَلَّ.

ولهَذَا رأى أنَّها مصيبةٌ فاسترْجَع، ولكن لعفته وتعظيمه النَّبيّ ﷺ وتعظيمه أم الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لم يكلمها ولا بكَلِمة حَتَّى لم يقل: اركبي، ولا قَالَ: ما الَّذِي خلَّفك؟ ولا قَالَ: لا بأس عَليْك، ما تكلم بكَلِمة إطلاقًا احترامًا لِفراش النَّبيّ ﷺ.

ثم يَقُول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، أَيْ: مِنْ أَوْغَرَ وَاقِفِينَ فِي مَكَانٍ وَغرٍ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ فِيَّ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ عَبْدَ اللهِ ابْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ. قَوْلَهَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ][1]. اهـ.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا، حديث رقم (٢٦٦١)؛ ومسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، حديث رقم (٢٧٧٠)، عن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

لما حَصَلَ الَّذِي حصلَ، وجد عبد الله بن أُبي بن سَلُولَ ونُظَرَاؤُه من المُنافِقِينَ مُتَنَفِّسًا يتنفسون منه الصُّعداء للقَدْح في النَّبِيِّ ﷺ، فجعلوا يتكلمون: ما الَّذِي أتى به؟ ما الَّذِي خلَّفه؟ ما الَّذِي خلَّف عَائِشَة؟ ثم صاروا يجمعون الحَديث ويصوغونه ويزخرفونه حَتَّى شاع الخبر وانتشر.

تَأَلَّـمَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولابُدَّ أن يَتَأَلَّـمَ، تَأَلَّـمَ في الحَقيقَة من وجهين:

أولًا: لأنَّ عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِراشُه وأَحَبُّ نسائِه إلَيْه، وهو يحبها وهي تحبه.

ثانيًا: أنَّها ابنةُ أَعَزِّ النَّاس إلَيْه أبي بكر الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكَيْفَ يقع هَذَا الْأَمْر وكَيْفَ يَكُون؟ ولذا ضاقت على النَّبِيِّ ﷺ الضَّائقة، حَتَّى إنه مع شدة صبره ومع فهمه لأهله ونزاهتهم وبعدهم عما رُموا به دخل علَيْه مما دخل، فصَارَ يستشير بعض أصْحابه: هل يُفارِق عَائِشَة أو لا يُفارقها؟ فمنهم من يشير علَيْه بعدم المفارقة ويقول: أهلك يا رَسُول الله لا نعلمُ إلا خيرًا، ومنهم من أشار علَيْه بالمفارقة لما رأى تأذيه ﷺ وقال: إنه إِذَا فارقها يستريح.

وممن أشار بِذَلِك عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابن عم النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنَّه قريب النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقد رأى من النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مشقَّةً عَظِيمةً وأذىً كبيرًا فقال: لعله إِذَا طلقها يستريح ويطمئن، لكن كبار الصَّحابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قالوا: هَذَا أمر لا يُمْكِن، وممن أشار علَيْه بأن يمسكها ولا يطلقها أسامةُ بن زيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

عَلَى كُلِّ حَالٍ بَقِيَ الْأَمْرُ هكذا في زعزعةٍ وقلق وشدة إلى تمام الشَّهر، عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ما كَانَت تعلم بما يقوله النَّاس، ولا تدري عنه شيئًا؛ لأنَّها كَانَت مريضةً،

وكانت في بيت والدها، ولم تعلم إلا في آخر الْأَمْر؛ إِذْ خرجت تقضي حاجتها فعثرت، فقالت أُمُّ مِسْطَح: تَعِسَ مِسْطَحٌ؛ لأنَّها أيضًا لَيْسَ في قلبها إلا ما حصل.

وإنما خَصَّتْ مِسْطَح بن أُثَاثَةَ من بَيْنِ الَّذِينَ قالوا ما قالوا؛ لأَنَّهُ كَانَ ابنَ خالة أبي بكر، وكان المفروضُ أنَّ مثله يُدافع عن هَذِهِ القَضيَّة لقرابته، لكن كَانَ أمر الله قَدَرًا مَقْدُورًا، فلمَّا قالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ؛ استغربت عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من قَوْل أم مِسْطَح، فسألت: ما الْأَمْر؟ فأخبرَتْها بالْأَمْر، وقالت: إن النَّاس يَقُولُونَ في هَذَا الْأَمْر منذ كذا وكذا، فازداد ألمها ومرضها حَتَّى جعلت تبكي ولا تنام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وحُقَّ لها أن تفعل هَذَا؛ لأَن الْأَمْر عَظِيم، فجاء النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذات يوم إِلَيْهم.

وتقول عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إنها أيضًا قد استنكرتْ من النَّبِيِّ ﷺ لأنَّها كَانَت تعتاد منه لِينَ الجانب والتَّحَفِّي عنها بالسُّؤال إِذَا مرضت، أما هَذِهِ المرة فلم يتحفَّ بل يَقُول: «كَيْفَ تِيكم؟» ويجلس قليلًا ثم يخرج.

وفي يوم من الأَيَّام جاء النَّبِيُّ ﷺ وقال: كَيْفَ تِيكم على العادة، فبينما هو جالس إِذْ نزل علَيْه الوَحْي بالفرج من الله عَزَّوَجَلَّ، وببراءة عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فلمَّا سُرِّيَ عنه، فإذا هو يضحك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقال لها: «أَبْشِرِي يَا عَائِشَة» فقالتْ: مِنْكَ أَوْ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟ قَالَ: «بَلْ مِنَ اللهِ» فقالت: الْحَمْدُ لله[1].

ثم انتهت قصةُ الإفْكِ، ولكن حَصَلَ ما حصلَ فيها من هَذَا البَلاء العَظيم.

قَوْلهُ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ عَلَيْهِ ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ فِي ذَلِك]. اهـ.

---

(١) تقدَّم تخريج الحديث كاملًا.

قَوْلهُ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم﴾ أي: من هَؤُلَاءِ العصبة ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: عَلَيْهِ] فتكون (اللَّام) بمَعْنى (على) هَذَا ما رآه المُفَسِّر، لكن إِذَا كَانَت مضمنة معنى (على) فلماذا عُدل عنها إلى (اللَّام)؟

الجواب: لِتُفِيدَ الاستحقاقَ؛ أي: لبَيان أن هَؤُلَاءِ العُصبة الَّذِينَ ارتكبوا ما ارتكبوا مستحقون لما عليهم من الإثم.

وقَوْلهُ: ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ﴾ في هَذَا العَدْل من الله عَزَّوَجَلَّ في المُجازاة على السَّيئة، وأن الْإِنْسَان لا يُحَمَّلُ إلا ما اكتسب بلا زيادةٍ، وفيه أيضًا دَليل على أنهم لَيْسَوا مشتركين في إثم واحد في هَذِهِ المَسْأَلَة، بل كُلُّ واحدٍ له إثمُه الكامل فيما اشترك فيه من هَذِهِ القَضيَّة.

وقَوْلهُ: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾، يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ تَحَمَّلَ مُعْظَمَهُ، فَبَدَأَ بِالخَوْضِ فِيهِ وَأَشَاعَهُ، وَهُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، هُوَ النَّارُ فِي الْآخِرَة]. اهـ.

وقَوْلهُ: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ أتى بالجُمْلَة على هَذِهِ الصِّفة للمُبالَغةِ، لم يقل: «وَلمنْ تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» بل قَالَ: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ جعلها في الحَقيقَة جملتين في جملة؛ لأَن ﴿ٱلَّذِى﴾ مُبْتَدَأٌ و﴿لَهُۥ﴾ خبرٌ مقدمٌ و﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مُبْتَدَأ ثانٍ، فكأن الجُمْلَة صَارَت جملتين، لبَيان الأهمِّيَّة والتَّأكيد والإِشَارَة إلى أن توليه هَذَا الشَّيء أمر عَظِيم.

قَوْلهُ: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ تولى الشَّيء بمَعْنى احتفى به وأولاه عنايته.

وقَوْلهُ: ﴿كِبْرَهُۥ﴾ أي: معظمه فكِبْر الشَّيء بمَعْنى معظمه، يعني ابتدأ به وصَارَ

يُغَذِّيه ويُنَمِّيه ويَذكره في المجالس ويُوغِرُ الصُّدور به، وهو عبد الله بن أُبي -لعنه الله- وهو جدير بمثل هَذِهِ الخِسَّة؛ لأَنَّه منافقٌ بل هو رأسُ المُنافِقِينَ، وهو يتمنى أن يقع مثل هَذَا الْأَمْر ليجدَ فيه مَنْفَذًا للطعن بالنبي ﷺ وبفِراشه وبخاصة أصْحابه.

وقَوْلهُ: ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، معنى الْعَذَاب العُقوبة، و﴿عَظِيمٌ﴾ أي عَظِيمٌ في قدره، وعَظِيم في نوعه وجنسه، وعَظِيم في أمده، فإنَّه -والعِيَاذ باللهِ- في الدَّرْكِ الأسفل من النَّار، ولا يوجد أحد من أهل النَّار أسفل من المُنافِقِينَ، ورأس المُنافِقِينَ في هَذِهِ الأُمَّة عبد الله بن أُبي، فيَكُون هو أسفل مَنْ في الدَّرْكِ الأسفل من النَّار؛ ولِذَلك عَظُمَ عَذابه -والعِيَاذ باللهِ- في شكله ومدته وفي قدره.

بقي: هل حُدَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تكلموا؟

الجواب: ما حَدَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ منهم إلا المُؤْمِنِينَ فقط، وهم: حسَّانُ بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومِسْطَح بن أُثَاثَة، وحَمْنَةُ بنت جَحْشٍ أختُ زَيْنَبَ بنت جَحْشٍ زوج الرَّسُول ﷺ.

وزينبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مع أنَّها ضَرَّةُ عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لما سألها النَّبِيُّ ﷺ عن عَائِشَة أَثْنَتْ عَلَيْها خيرًا، وأما أختها فهلكت فيمن هلك، فحَدَّهُم النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَدَّ القَذْفِ ثمانين جَلْدَةً.

وأما المُنافِقُونَ فلم يحدهم النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، رُبَّما لأَن الحَدَّ تطهيرٌ وكَفَّارة، والمُنافِقُونَ لَيْسَوا أهلًا للتَّطهير ولا للكَفَّارة، فعبد الله بن أُبي كَانَ رَسُول الله ﷺ يعلم نفاقَه، وهَذَا تعليلٌ واضح من حيث المَعْنى، لكن من حيث الواقِع قد يَكُون غير واضح؛ لأَن المُنافِقِينَ يظهرون أنهم مُسلِمونَ، فكان يَنْبَغِي أن تجري عليهم أحكامُ الإِسْلام الظَّاهِرة وتُوكَلُ سرائرُهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقال آخرون: لم يَحُدَّهُم النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأنهم لم يصرحوا، ولكنهم كانوا يجمعون الحَديث ويصوغونه بعبارات تعطي هَذَا المَعْنى لكن بدون تصريح.

فعبد الله بن أُبي خبيثٌ وخدَّاع لم يكن يصرح، كَانَ يجمع الحَديث ويقول: ماذا تقولون في امرأةٍ خلا بها رجل وجاء يقود راحلتها، وما أشبه ذَلِك، ومن شروط إقامة حَدِّ القَذْف أن يصرح القاذِف بالزِّنَا؛ فلِذَلك لم يَحُدَّهُم النَّبِيُّ ﷺ.

ويجوز أن يَكُون الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ترك حَدَّهُم لهَذَا أو لغيره، فقد يَكُون مثلًا ترك حَدَّ عبد الله بن أُبي؛ لأنَّه رأس المُنافِقِينَ وكان زعيمًا في قومه، فيخشى أن يَكُون بِذَلِك فتنة كَبيرَة، وحَدُّ القَذْف على القَوْل أنَّه يجوز للآدمي إسقاطه، فإنَّه يسقط إِذَا أسقطه مَنْ هو له، لكن الَّذِي يظهر -والله أعلم- أن السَّبب في ذَلِك أن المنافق كعادته يلوذ ولا يسْتَطيع أن يصرح، فعادته الخداع في كُلِّ شَيْء، فتجدهم لا يُصرِّحونَ ولكن يحومون حول الشَّيء حَتَّى يملئُوا قلوب النَّاس منه، ولهَذَا الصَّحابَة هم الَّذِينَ صرحوا بما ظنوه وإن كَانَ ظنًّا باطلًا، فحَدَّهُم النَّبِيُّ ﷺ حَدَّ القَذْفِ.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن الَّذينَ جاءوا بالإِفْك أُناسٌ من المُؤْمِنِينَ؛ لقَوْلهُ: ﴿مِّنكُمْ﴾ والأَصْل أن الإضافة حقيقيةٌ، ولأنهم لم يخرجوا من الإِيمَان بهَذَا الإِفْك.

الفَائِدة الثَّانية: أن المُنافِقِينَ مُؤْمِنُونَ باعتبار الظَّاهِر؛ إِذْ إنَّ من الَّذينَ جاءوا بالإِفْك منافقين، ومع ذَلِك قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾، وجه ذَلِك أن النَّبِيّ ﷺ كَانَ يعامل المُنافِقِينَ بحسب ظاهر حالهم على أنهم مُسلِمونَ،

ولهَذَا لم يفرق بينهم وبين نسائهم ولم يقتلهم ولم يأخذ منهم الجِزْية، فهَؤُلَاءِ خرجوا من الإِيمَان لكن ظاهرهم أنهم مُسلِمونَ.

فإذا قُلْنا: إن الإضافة بحسب الظَّاهِر لم يتعين أن يخرجوا من الإِيمَان، لكن لـمَّا قُلْنا: إن المُنافِقِينَ مُؤْمِنُونَ باعتبار الظَّاهِر.

فلا يُمْكِن أن نأخذ من الآيَة الفائدتين معًا، إمَّا أن تُؤخذ فَائِدَة أنهم لم يخرجوا من الإِيمَان، وتُترك فَائِدَة أن المُنافِقِينَ مُؤْمِنُونَ باعتبار الظَّاهِر، أو تُؤخذ فائدةُ أن المُنافِقِينَ مُؤْمِنُونَ، وتُترك فائدةُ أنهم لم يخرجوا من الإِيمَان.

الفَائِدة الثَّالِثَة: أن قَذْف أمهاتِ المُؤْمِنِينَ كغيرهم يُوجِبُ حَدَّ القَذْفِ ولا يُوجِبُ حَدَّ الكُفر، إلا مَنْ قَذَفَ عَائِشَة بما رُمِيَتْ به، فإنَّه يكفرُ؛ لأنَّه مُكَذِّبٌ للقرآنِ، ولهَذَا قَالَ بعض العُلَماء: إن مَنْ قَذَفَ عَائِشَة بما برَّأها الله به في الكتاب كَفَرَ، وجعلوا البقية لهنَّ حُكْمُ غيرِهنَّ؛ لعموم قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [النور:٤].

لكن الصَّحيح أنَّه يكفر لا من أَجْلِ قَذْفِ المَرْأَة ذاتِها، لكن من أَجْلِ حَقِّ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الفَائِدة الرَّابِعَة: أن الْإِنْسَان مُحاسَبٌ على ظنِّه الَّذِي يَجْزِمُ به؛ لقَوْله تَعَالَى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾، وحَقِيقَةً لا ندري هل هم ظنُّوا أنَّه شرٌّ، أو أن الله نهاهم عن أمر مُتَوَقَّع أن يظنوه، وإن كَانَت لَيْسَت صريحةً، لكن يوجد احتمالٌ، حسبوه أو يتوقع أن يحسبوه شرًّا لهم.

الفَائِدة الخَامِسَة: أن الخَيْرَ قد يَكُون فيما يَتَوَقَّعُ الْإِنْسَان منه الشَّرَّ، ومنه قَوْله

تَعَالَى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]؛ لأَن قَوْلهُ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا﴾ عامٌّ.

وكثيرٌ من الأَشْيَاء يكرهها الْإِنْسَان في أمور الدُّنْيَا، ويتبيَّنُ له الخَيْرُ فيها، ويُمْكِن أن نعبر عن هَذَا بأنَّ على الْإِنْسَان ألَّا يأخذَ بظواهر الْأُمُورِ، بل علَيْه أن يتأَنَّى ويتأمَّلَ وينظرَ ويفكرَ، فقد يحسَب الشَّيء شرًّا وهو خيرٌ له، فتبيَّنَ براءةُ عَائِشَة وصفوانَ، وبراءةُ فِراشِ النَّبيِّ ﷺ، وحصولُ الأجر العَظِيم لما حصل من الأَذَى لعَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بل للنبي ﷺ، بل ولآل أبي بكرٍ وللصحابة -رضي الله عنهم جميعًا- لا شَكَ أنَّه من الخَيْر.

الفَائِدة السَّادِسَة: أنَّ القَرَائِنَ لها تأْثِيرٌ، وأن الْإِنْسَان يحكمُ بالظَّنِّ بحسب القَرَائِنِ؛ لقَوْلهُ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، فهَذَا يدُلّ على أن القَرَائِنَ لها تأْثِيرٌ في الأَحْكام، وأن الْإِنْسَان يَجب علَيْه أن يبنيَ ظنَّه على قرائنَ.

الفَائِدة السَّابِعَة: كمالُ غَيْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ على رَسُول الله ﷺ؛ لأَنَّه جَلَّوَعَلَا يدافعُ عن نبيه وعن فِراشِ نبيه هَذِهِ المُدافعة البَليغة، وهَذَا أيضًا من الخَيْر، ولهَذَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [النور:٤].

قَالَ سعدُ بن عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَيْفَ أجد إنسانًا على أهلي وأنتظرُ حَتَّى آتيَ بأرْبَعة شهداء، والله لَأَضْرِبَنَّهُ بالسَّيف غير مُصْفِحٍ؛ يعني بِحَدِّهِ، فقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، وَاللهِ إِنِّي لَأَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب من رأى مع امرأته رجلًا فقتله، حديث رقم (٦٨٤٦)؛ ومسلم، كتاب اللعان، حديث رقم (١٤٩٩)، عن المغيرة بن شعبة.

الفَائِدة الثَّامِنَة: أن الأَوْلَى تَصْفِيَةُ الشَّيءِ وتَنْقِيَتُه، ثم جَلْبُ الصِّفاتِ المحمودة على القاعِدَة المعْرُوفة عند أهْل العِلْم: التَّخْلِيَةُ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ، نظف المكان أولا ثم افْرشه.

الفَائِدة التَّاسِعَة: كَمالُ عَدْلِ الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنَّه لا يُحَمِّلُ الْإِنْسَان أكثر مما يستحقُّ، ولا يُحَمِّلُ أحَدًا وِزْرَ أَحَدٍ، فهَذِهِ الآيَة دليلٌ على مسألتين: أن الْإِنْسَان يُجازى بقَدْر عمله، وأنه لا يُجازى بذَنْب غيره؛ لقَوْله تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾.

الفَائِدةُ العاشرةُ: أنَّ مَصلحةَ الجَماعَةِ مُقَدَّمَةٌ على مَصلحةِ الفَرْد، أما كون مصلَحَةِ الجَماعَةِ مُقَدَّمَةً على مصلَحَةِ الفرد، فهَذَا لا إِشْكالَ فيه، لكن هل يُستفاد هَذَا من الآيَة؟ يُمْكِن.

الفَائِدة الحَادِيَة عشرةَ: أنَّ المُؤْمِنِينَ يُجْزَوْنَ بالإثْمِ في الدُّنْيَا؛ لأنهم يُقامُ عليهمُ الحَدُّ، أما المُنافِقُونَ فعَذابُهم في الْآخِرَة، ولا يقام عليهمُ الحَدُّ؛ لقَوْله تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، فهَذَا جعل له الإثم، والَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ ثَبَتَ له عَذابٌ عَظِيمٌ.

الفَائِدة الثَّانية عشرة: أن زعماء الشَّرِّ يُعذَّبون أكثر من مقلِّديهم ولهَذَا قَالَ: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ جعله الله عَزَّوَجَلَّ عَظِيمًا لأَن فاتح الشَّرِّ والعِيَاذ باللهِ كُلُّ مَن عمل بشره فعلَيْه مثل وزره، كما أن فاتح الخَيْر كُلُّ مَن عَمِل بخير فله مثل أجره ولهَذَا قَالَ: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الآيــة (١٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور:١٢].

قَوْلهُ: ﴿لَّوْلَآ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هلَّا ﴿إِذْ﴾ حِينَ ﴿سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾ أَيْ: ظَنَّ بَعْضهمْ بِبَعْضٍ ﴿خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كَذِب بَيِّن] اهـ.

يَقُول الشَّارِحُ: ﴿لَّوْلَآ﴾ بمَعْنى (هلَّا) فهي أداة تحضيض وفيها شَيْء من التَّوبِيخ حيث ظنوا أمرًا لا يَنْبَغِي أن يَكُون، والمَعْنى هلَّا إِذْ سمعتموه أي: سمعتم هَذَا الخبر الَّذِي فَشَا ولا أصلَ له.

قَوْلهُ: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾:

أولًا: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِيهِ الْتِفَات عَنْ الخِطَاب] أي: إلى الظَّاهِر، انظر ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ مقتضى السِّياق أن يُقال ظننتم بأنفسكم خيرًا لكنَّه قَالَ: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فالتفت من الخِطَاب إلى الظَّاهِر يعني من ضمير الخِطَاب إلى الاسْم الظَّاهِر.

وقد تقدَّم أن للالتفات فائدتين على الأقل: الأولى: التَّنْبيه، والثَّانية: يُعَيِّنها السِّياق، فلا نستطيع أن نُعَيِّنها ونُحددها لكن يُعَيِّنها السِّياق وأما التحديد فلَيْسَ دائمًا.

فالالْتِفات عَلَى كُلِّ حَالٍ الفَائِدة المتيقنة المعينة منه هي التَّنْبيه؛ لأَن مجرى الخِطَاب إِذَا اختلف يقْتَضِي أن ينتبه الْإِنْسَان، ولهَذَا كَانَ بعض الخطباء يغير الأسلوب من خبر إلى إنشاء أو من إنشاء إلى خبر أو من استفهام إلى إِثْبات وما أشبه ذَلِك، حَتَّى في الصَّوْت والإلقاء تجده يُغير لأجل أن ينتبه النَّاس لأنهم إِذَا خوطبوا على وتيرة واحدة في الخِطَاب يُمْكِن أن يأتيهم النَّوْم لكن إِذَا تغير الأسلوب أو كَيْفِيَّة الأداء يحصل بِذَلِك الانتباه.

الفَائِدة الثَّانية والثَّالِثَة: بعد فَائِدَة التَّنْبيه الإِشَارَة إلى أنهم في ظنهم هَذَا لَيْسَوا بمُؤْمِنِينَ، ولِذَلك قَالَ: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾، ولم يقل ظننتم خيرًا؛ لأَن المُؤْمِنِينَ لا يظنون إلا الخَيْر، فكان يَنْبَغِي عليهم أن يَظنُّوا هَذَا الظَّن لأنهم يَقُولُونَ: إنهم مُؤْمِنُونَ وهم مُؤْمِنُونَ حقًّا فكان يَنْبَغِي لهم أن يَظنُّوا خيرًا فهم ظنوا ما ظنوا فكانوا بِذَلِك غير مُؤْمِنِينَ؛ لأنهم بظنهم هَذَا خرجوا من الإِيمَان، لكن لَيْسَ خروجًا مطلقًا إلا بعد نزول الآيَات، إِذْ المُؤْمِنُونَ لا يظنون إلا خيرًا.

قَوْلهُ: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ لأَن الواقِع أن القَضيَّة بين ذكر وأنثى، صفوان ابن معطل وعَائِشَة أم المُؤْمِنِينَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا فهي من الجنسين، فلِذَلك قَالَ: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ نص على الجنسين لأَن القَضيَّة أو التهمة في الجنسين جميعًا في صفوان وهو من المُؤْمِنِينَ وفي عَائِشَة وهي من المُؤْمِنات ولهَذَا قَالَ: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الَّذينَ هم بمنزلة صفوان ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ اللاتي هنَّ بمنزلة عَائِشَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

قَوْلهُ: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ هل المُراد ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ يعني أنفسهم هم يعني بأعينهم أو المُراد بأنفسهم أي: بعَائِشَة وصَفْوان والنَّبيّ ﷺ وجعلهم الله أنفسًا لأَن المُؤْمِنِينَ كلهم كنفس واحدة، فيَكُون المُراد بالأنفس هُنا

الجنس كما في قَوْلهُ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التَّوبة:١٢٨]؛ والمُراد هو المعنَى الأَخِير، واضح أن المُراد ظنوا أي بعضهم ببعض كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فمعنى قَوْلهُ: [ظنوا بأنفسهم] أي: بهَؤُلَاءِ المتهمين كذبًا وزورًا خيرًا لأنهم من أنفسهم يعرفونهم ويعرفون أحوالهم وهم إخوانهم في الإِيمَان، أو أن المَعْنى الَّذِي أشرنا إلَيْه ويَكُون المُراد بالأنفس أي: نفس الظان.

وكَيْفَ يتنزل المَعْنى؟

الجواب: المَعْنى يظنون بأنفسهم خيرًا أي: بأن هَذَا الْأَمْر لو كَانَ أمرًا متهمين به لكانوا يعرفون أنفسهم ولا يُمْكِن أن يصدقوا بهَذَا الْأَمْر لأنهم يعرفون أنهم نزيهون منه وبريئون منه، ويظنون بأنفسهم خيرًا وبراءة.

يعني كما أنكم لا تتهمون أنفسكم لو قِيلَ فيكم ذَلِك فالواجب كَذلِكَ أن تظنوا بعَائِشَة وصفوان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

عَلَى كُلِّ حَالٍ المعنيان محتملان وكلاهما له وجه صحيح، فعَائِشَة وصفوان من أنفس المُؤْمِنِينَ؛ لأَن المُؤْمِن مع أخيه كنفس واحدة، والَّذِي يظن بأم المُؤْمِنِينَ وصفوان خلاف ما يَنْبَغِي فكأنما ظن بنَفْسِه، يعني فَكَما أنك تعرف نفسك ولا تظن فيها مثل هَذَا الظَّن، فكَذلِكَ يَجب أن تعرف أم المُؤْمِنِينَ وصفوان فلا تظن فيهما إلا ما تظن بنفسك، يعني: كما أنك لا تظن بنفسك إلا خيرًا كَذلِكَ لا تظن بأم المُؤْمِنِينَ وصفوان إلا خيرًا.

قَوْلهُ: ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾؛ ﴿وَقَالُواْ﴾ معطوفة على (ظن) فهي داخلة في التَّحضيض أي: أن الله تَعَالَى يَقُول: الواجب أن يَظنُّوا الخَيْر وأن يبطلوا الباطل؛

أي: يَجب على المُؤْمِن إبطال الباطل بقَلْبِه وبلسانه، لا يكفي أنك تعتقد أن هَذَا لَيْسَ بصحيح، بل يَجب أن تبين بطلان هَذَا الشَّيْء؛ لأَن الَّذِي يعتقد أن هَذَا الْأَمْر غير صحيح ويسكت موقفه سلبي في الواقِع غايَة ما هنالك أنَّه برأ نفسه.

لكن الواجب أن يبطل الباطل ولهَذَا قَالَ: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ لا بُدَّ من ظن وقول، فلا يكفي أنك تعتقد أن ما قِيلَ في عَائِشَة وصفوان أنَّه إِفْك بل يَجب أن تقول: لأجل أن يقابل هَذَا الباطل بالإبطال، وأما أن نسكت نقول: نحنُ نبرأ إلى الله، ونقول: هَذَا لَيْسَ بصحيح أبدًا لا يكفي هَذَا، لا بُدَّ أن نظن الخَيْر ونبطل الباطل.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن توجيه الخِطَاب بأسلوب العتاب والحض إِذَا كَانَ في محله فهو من الرَّحمة، يعني إِذَا وجهت لشخص الخِطَاب باللوم والحض والمقام يقْتَضِي ذَلِك فهَذَا من الرَّحمة لأَن الله عاتب المُؤْمِنِينَ لكونهم لا يظنون الخَيْر بالمُسْلِمِينَ.

الفَائِدة الثَّانية: أن إنكار القَوْل لا يكفي أن ينكره الْإِنْسَان بقَلْبِه ويسكت، يعني لا بُدَّ أن يقابل الشَّيء بمثْلِه، فهَذَا القَوْل الَّذِي أشيع يَجب أن يُقابل بقول ضده ولا يكفي أن نقول: نحنُ لا نصدق هَذَا الشَّيء، بل يَجب أن نقول: هَذَا كذب لأَنَّه قَالَ: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ فلابُدَّ أن ينفي الْإِنْسَان بالْقَلْب هَذَا الظَّن ثم يدافع هَذَا القَوْل بمثْلِه.

الفَائِدة الثَّالِثَة: أن الإنكار يَكُون بالْقَلْب واللِّسَان؛ لقَوْلهُ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ﴾ يعني الشَّيء الَّذِي سمعتموه.

الفَائِدة الرَّابِعَة: أنَّ مِنْ فَوَائِدِ الإِيمَان أن صاحبه محل للثقة وأن الإِيمَان موجب للعدالة حيث إن الله نهى أن يُظن بالمُؤْمِنِينَ إلا الخَيْر.

الفَائِدة الخَامِسَة: أن المُؤْمِنِينَ بعضهم لبعض كالنَّفس الواحدة فهم شَيْء واحد ونفس واحدة؛ لقَوْلهُ: ﴿بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فالمُراد بقَوْلهُ: ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ المقذوفون أي: بعَائِشَة والنَّبيّ ﷺ وصَفْوان لأنهم مُؤْمِنُونَ، والمُؤْمِن مع المُؤْمِن كالنَّفس الواحدة. ويستدلون على ذَلِك بقول النَّبِيّ ﷺ: «مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالحُمَّى والسَّهَرِ»[1]، فنجعل المقذوفين هم أنفس هَؤُلَاءِ المتكلِّمين.

لكن يوجد قَوْل ثانٍ فِي المَسْأَلَة: أن المُراد بقَوْلهُ: ﴿بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ يعني إِذَا كانوا يظنون بأنفسهم خيرًا وهم يعرفون أنفسهم وطهارتهم ونزاهتهم فيَجب أن يَظنُّوا بعَائِشَة وهي فراش النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وبالنَّبيّ ﷺ وهو زوجها الَّذِي لا يُمْكِن أن يدنس فراشه بمثل هَذِهِ التهمة يَجب أن يَظنُّوا خيرًا مِنْ بَابِ أَوْلَى.

الفَائِدة السَّادِسَة: أن القَرَائِن لها تأْثِير وأن الْإِنْسَان يحكم بالظن بحسب القَرَائِن أي: أن الْإِنْسَان يَجب علَيْه أن يبني ظنه على قرائن،؛ لقَوْلهُ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

الفَائِدة السَّابِعَة: أن ظن السُّوء بمن يستحقه لا ينافي الإِيمَان؛ لقَوْلهُ: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فالمُؤْمِن لَيْسَ محلًا لسوء الظَّن، أما غيره من الفُسَّاق

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم (٦٠١١)، مسلم واللفظ له، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم (٢٥٨٦)، عن النعمان بن بشير.

إِذَا كَانَ محلًّا فلا بأس، فإذا دلت القَرَائِن مثلًا على أن هَذَا الرَّجل محل لسوء الظَّن فلا بأس أن نظن به بل قد يَجب على الْإِنْسَان أن يتهم الشَّخْصَ الَّذِي دلت القَرَائِن على اتهامه.

الفَائِدة الثَّامِنَة: وُجوب إنزال النَّاس منازلهم؛ لقَوْلهُ: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فالمُؤْمِن يظن به الخَيْر والفاسق الَّذِي هو محل التهمة يظن به ما يليق به.

الفَائِدة التَّاسِعَة: وُجوب احترام أعْرَاض المُؤْمِنِينَ وألا تعرض لما يسيء إِلَيْها وما يخدش المجتمع الْإِسْلَامي لأَن هَذَا الكَلام في الحَقيقَة لَيْسَ بضرر على المَقْذُوف فقط لا سيَّما إِذَا كَانَ المَقْذُوف له مكانة في المجتمع الْإِسْلَامي، فإن قذفه لَيْسَ عيبًا علَيْه شخصيًا بل عيبًا على الإِسْلام كله، فمثلًا إِذَا كنا نتكلَّم في علماء المُسْلِمِينَ هَذَا في الحَقيقَة لَيْسَ عيبًا شخصيًا بل عيب للإِسْلام كله؛ لأَنَّنا إِذَا عبنا واجهة الإِسْلام وهم علماؤه فقد عبنا الإِسْلام كله.

الفَائِدة العاشرة: بَيان كيد المُنافِقِينَ للإِسْلام وأهله واستغلالهم الفرص الَّتِي ينفذون منها إلى القَدْح في الإِسْلام والمُسْلِمِينَ وهَذَا صحيح، ولهَذَا نجد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَالَ في سورة المُنافِقِينَ: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ [المُنافِقُونَ:٤]، وهَذِهِ الجُمْلَة حسب ما تقدَّم تتضمن الحصر لأَن المبتدأ والخبر كلاهما جملة اسمية، والجُمْلَة الاسْمية إِذَا كَانَ طرفاها معرفتين فإنها تفيد الحصر، فقَوْلهُ: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ كأنه لَيْسَ هُناكَ أحد أبلغ منهم في العداوة فكأنه لا عدو سواهم، وهَذَا صحيح بلا شَك، أن عداوة المُنافِقِينَ أبلغ من عداوة الكافرين؛ لأَن الكافر يَقُول لك: أنا عدوك فتتحرز منه وتحاربه وتقاتله.

لكن هَذَا المنافق لا يُمْكِن التخلص منه؛ لأَنَّه بلاء ظاهر، ولهَذِهِ الحِكْمَةِ كَانَت عُقوبَة اللواط الإعدام بكل حال؛ والسَّبب لأَن اللواط لا يُمْكِن التحرز منه لأَنَّه ذكر مع ذكر ماذا تقول؟ تقول: لا تمشِ معه.

فلمَّا كَانَ التحرز منه صعبًا كَانَت عقوبته قطع هَذِهِ الجذور من الأَرْض، وكَذلِك المغتال الَّذِي يقتل غيلة التحرز منه صعب ولذا كَانَت عقوبته الإعدام، فمن جاء على غرة وقتل آخر حَتَّى لو قَالَ أولياء المقتول: عفونا ولا نريد دية ولا قصاصًا فإنَّه يَجب قتله؛ لأَن ذَلِك لا يُمْكِن التحرز منه بخلاف المتشاجر مع آخر وكل واحدٍ مستعد للآخر ويقتله، فهَذَا لا بأس، كما قَالَ ﷺ: «مَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ».

فعَلَى كُلِّ حَالٍ يُفرَّقُ بين الْأُمُور الَّتِي يُمْكِن التحرز منها والتي لا يُمْكِن التحرز منها.

الآيــة (١٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النور:١٣].

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: حماية الله عَزَّوَجَلَّ للأعْرَاض حيث جعل البَيِّنَة على الزِّنَا أرْبَعة رِجال.

الفَائِدة الثَّانية: أن القاذِف لا بُدَّ أن يأتي بأرْبَعة شهداء وإلا اتهم بِالكَذِب؛ لقَوْلهُ: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ فإذا لم يأتوا بأرْبَعة شهداء ثبت عليهم الحَدّ؛ لقَوْلهُ: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ لأنهم كاذبون في دعواهم.

الفَائِدة الثَّالِثَة: أن القَاضِي يحكم بالظَّاهِر؛ فإذا جاءت البَيِّنَة العادلة فلَيْسَ للقاضي أنْ يقولَ: يَجب أن نبحث، ويوجب أيضًا أن يتهم النَّاس أنفسهم ولا أحد يشهد إلا بعد استيفاء الشُّروط، هَذِهِ الفَائِدة قد تؤخذ من قَوْلهُ: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ فإن الإتيان بها ملزم للقاضي أن يحكم بِذَلِك بمقتضى الشَّهادة وإن كَانَ الشُّهود قد يتوهمون وقد يخطئون.

وقد تؤخذ من قَوْلهُ: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وَذلِك أن الله حكم فيهم بِالكَذِب، وإن كَانَ الواقِع قد يَكُون صادقًا في غير قَضيَّة عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فإذا قذف إِنْسَان

أحدًا ربما يَكُون صادقًا لكن إِذَا لم يأت بأرْبَعة شهداء فهو عند الله كاذب ولِذَلك قَالَ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ لم يقل: فأولئك هم الكاذبون، قَالَ: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني في حكمه وشرعه.

الفَائِدة الرَّابِعَة: أن النِّساء لا يقبلن في الشَّهادة في الزِّنَا، وقاس على ذَلِك أهْل العِلْـم جميع الحُدُود، فـلا تقبل فيها النِّساء بل لا بُدَّ من شهادة الرِّجَـال، أما النِّساء فلا يقبلن.

مَسْأَلَة: ما الفَرْق بين الشَّاهد والقاذِف؟

الجواب: الَّذي يتبَيَّن لي هو أن الفَرْق بين القاذِف والشَّاهد أن القاذِف ينشر الزِّنَا على سبيل العيب والقدح؛ أي: يُرِيد القَدْح بنشر عيبه بين النَّاس، والشَّاهد يشهد به عند القَاضِي، ولا يتكلم به عند النَّاس، بل يشهد لإِثْبات الحَدّ علَيْه لا لعيبه وقدحه.

ولهَذَا قَالَ الفُقَهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: لا فرق بين أن يأتي هَؤُلَاءِ الشُّهداء الأرْبَعة إلى الحاكم جملة أو متفرِّقين، ومن قَالَ: إِذَا جاءوا متفرِّقين صاروا قَذَفَةً، يرى أن القاذِف لا فرق بينه وبين الشَّاهد يعني مثلًا: لو جاء واحدٌ في الصَّباح عند القَاضِي وشهد، وجاء الثَّاني في الضُّحَى، والثَّالث بعد ذَلِك، والرَّابع بعد الظُّهر، فلا فرق يعني يصح أن يحكم بشهادتهم ويثبت الحد، هَذَا ما ظهر لي، والمَسْأَلَة تحتاج إلى تحقيق ونظر في كلام أهْل العِلْم في هَذَا الموضوع.

لو قَالَ قَائِلٌ: هل ثبت الزِّنَا في الإِسْلام عن طريق الشَّهادة؟

الجواب: ليعلم أنَّه لم يثبت في الإِسْلام زنا بطريق الشَّهادة أبدًا والحمد لله إنما

الَّذِي ثبت في الإِسْلام بطريق الإقرار لأَن الشَّهادة صعبة، الآن لو يَقُول إنسان: رأيت الرَّجل على المَرْأَة فخذه على فخذها وبطنه على بطنها ويهز عَلَيْها هَذِهِ لَيْسَت بشَهادَة حَتَّى يَقُول: إنه رأى ذَكَرَهُ في فَرْجَهَا، وهَذَا صعب جدًا.

الفَائِدة الخَامِسَة: عظم الزِّنَا وحماية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأعْرَاض المُؤْمِنِينَ؛ لقَوْلهُ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ فقال: ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ فحصر الكَذِب فيهم؛ أي: لا أحد يكذب سوى هَؤُلَاءِ، وإن كَانَ الحصر إضافيًا، فإنَّه يدُلّ على عظم هَذَا الْأَمْر وأنه لا أحدَ أكذب ممَّن رمى محصنًا بالزِّنَا.

• ● ۞ ● •

الآيــة (١٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [النور:١٤].

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن الأَسْباب قد يحصل لها من المَوانِع ما يمنع تأْثِيرها، فقد يجعل الله تَعَالَى من المَوانِع ما يمنع حصول الشَّيء مع تحقق أسبابه؛ لأَن الأَسْباب موجودة وهي المسُّ بعَذاب عَظِيم والمانع من هَذَا فضل الله ورحمته.

الفَائِدة الثَّانية: عظم مِنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على المُؤْمِنِينَ حيث يتفضل عليهم ويرحمهم بدفع الْعَذَاب المستحقين له، ومِنة الله عَزَّوَجَلَّ غير الفَضْل والرَّحمة؛ لأَن الفَضْل والرَّحمة أثبتناهما صفتين من صِفات الله جَلَّوَعَلَا، لكن مِنَّة الله على العباد شَيْء آخر.

الفَائِدة الثَّالِثَة: إِثْبات أن الأَسْباب الشَّرْعِيَّة مؤثرة بنفْسِها خلافًا لمن أنكر أن السَّبب مؤثر بنَفْسِه، وقد تقدَّم أن بعض الأَشَاعِرَة ينكرون أن يَكُون السَّببُ مؤثرًا بنَفْسِه حَتَّى إنهم قالوا: إن إحراق النَّار لما تحرق لَيْسَ بالنَّار وإنما يحصل الإحراق عنْدَه لا به.

الفَائِدة الرَّابِعَة: أن شِيوع المعْصِيَة بين النَّاس سبب للعُقوبَة العامَّة؛؛ لقَوْلهُ: ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الفَائِدة الخَامِسَة: إِثْبات أن الجزَاء من جِنس العَمَل؛ لقَوْلهُ: ﴿فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ لأَن ﴿فِي﴾ للسببية.

الفَائِدة السَّادِسَة: تفاضُل العُقوبَات حسب تفاضُل الأعْمَال؛ لقَوْلهُ: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لأَن بعض العُقوبَات أَشَدّ من بعض، وأَشَدّ اسم تفضيل، والأحْسَن أن نقول: تفاوت العُقوبَات حسب تفاوت الأعْمَال.

الآيــة (١٥)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور:١٥].

قَوْلهُ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ هَذَا التفات من الغيبة إلى الخِطَاب، وفَائِدَته التَّنْبيه وقوة التَّوبِيخ؛ لأَن الخِطَاب أبلغ في التَّوبِيخ فإنك إِذَا تحدثت لصاحبك بِصيغَة الغائب صَارَ ألطف وأهون، وإذا أتيت بعد ذَلِك بِصيغَة الخِطَاب صَارَ أبلغ سواء كَانَ ذَلِك مدحًا أم ثناء.

فمن الثَّناء قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة:٢-٤]، ثم قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥]، فأثنى المصلِّي على الله عَزَّوَجَلَّ في أول السُّورة بِصيغَة الغائب ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثم بِصيغَة المخاطب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ كأنه بعد الثَّناء صَارَ حاضرًا بين يدي ربه فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وانظر إلى قَوْله تَعَالَى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [عبس:١-٣]، فقَوْلهُ: ﴿عَبَسَ﴾ للغائب ثم قَالَ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ كأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يشأ أن يخاطب النَّبِيّ ﷺ بهَذَا اللَّفْظ عبست وتوليت قَالَ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾ حَتَّى تبين ثم قَالَ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾ فهَذِهِ مثلها.

المُهِمّ أَنَّه إِذَا انتقل من صِيغَة الغيبة إلى صِيغَة الخِطَاب فله فَائِدَة وهي التَّنْبيه

وأُخْرَى تُستفاد من السِّياق.

قَوْلهُ: ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ يَرْوِيهِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ وَحُذِفَ مِنْ الْفِعْلِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ]. اهـ.

أصله: (تتلقونه بألسنتكم)، ولا يُمْكِن أن نقول: إن قَوْلهُ: تلقى هُنا فعل ماضي لكن قَوْله تَعَالَى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤]، يُمْكِن أن يُقالَ إن ﴿تَلَظَّىٰ﴾ فعل ماضي مع أنَّها في الآيَة فعل مُضارِع لأَن أصلها تتلظى، لكن هُنا لا يُمْكِن أن نجعل (تتلقونه) فعلًا ماضيًا؛ لأَن (تلقى) تَكُون فعلًا ماضيًا إِذَا جاءت مجرَّدَة نحو (تلقيتُ) الحَديث؛ ولأن الفِعْل الماضي لا تتَّصل به الواو والنُّون، بل الواو فقط لأَن النُّون من الأفْعال الخمْسَة المضارِعَة.

وفي قَوْلهُ: ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ النُّون موجودة، فإِذَنْ هُنا لا يجوز أن تَكُون فعلًا ماضيًا فيقينًا أنَّه حذف منها إِحْدَى التاءين.

ثم قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [و﴿إِذْ﴾ مَنْصُوبٌ بِمَسَّكُمْ أَوْ بِأَفَضْتُمْ] اهـ. التَّقدير لمسُّكم ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ أو أفضتم ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ﴾.

ويُستفاد من كلام الْمُفَسِّر أن ﴿إِذْ﴾ هُنا اسم، وقد تقدَّم أن كثيرًا من المعربين يجعلون ﴿إِذْ﴾ التَّعليليَّة حرفًا لا اسمًا لأَن المَعْنى من أجل كذا، فقَوْلهُ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ يعني أنَّه يرويه بعضُكم عن بعض، تلقى الشَّيء بمَعْنى استقبله وأخذه فهم يتلقَّوْنه بألسِنَتهم ويَقُولُونَ بأفواههم ما لَيْسَ لهم به علم.

و(الباء) في قَوْلهُ: ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ للتَّعدِية، وأصل التَّلقِّي يَكُون بالسّمع في الحَقيقَة لكن عبر به هُنا على أساس أنَّه بمجرَّد ما يتلقَّاه يفيض به.

لو قَالَ قَائِلٌ: ما الفَرْق بين قَوْله تَعَالَى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ وقَوْلهُ: ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾؟

الفَرْق بين قَوْلهُ: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ وقَوْلهُ: ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أن التَّلقِّي أخذه من الغير، مثل «تلقي الجَلَب»[1] يعني استقبالهم، فالتَّلقي استقبال الكَلام.

وعبر بقَوْلهُ: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ ذَلِك لإلقاء الكَلام إلى الغير وفيه إِشارَة إلى أن هَذَا القَوْل لا يصل إلى الْقَلْب وإنما هو مُجرَّد كلام اللِّسَان وَذلِك لتشكك كثير من الصَّحابَة في هَذَا الخبر، وسبق أن جمهورَهم وفُضلاءَهم أنكروه من أول الْأَمْر.

قَوْلهُ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وفي هَذَا من التَّوبِيخ ما فيه و(أَفْوَاه) جمع (فَاه) وهو الفَمُّ، تقول بفمك ما لَيْسَ لك به علم.

إذا قَالَ قَائِلٌ: لماذا قَالَ: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ مع أن القَوْل لا يَكُون إلا بالفم؟

الجواب: لأَنَّه مُجرَّد كلام باللِّسَان وبالفم لم يستقر في الْقَلْب، ولم يصل إلى قَرارة النَّفس؛ لأَنَّه لَيْسَ عن علم؛ لأنهم وإن كانوا يَقُولُونَه لكن كأنهم يستبعدونه، مستريبون في حقيقته، وقد يُقالُ: إن هَذَا من باب التَّأكيد يُراد به تحقيق القَوْل وأنه لَيْسَ مُجرَّد ظن أو تخيل بل يَقُولُونَه صراحة بأفواههم، كما تقول: مشى برجله إلى فلان تحقيقًا للمشي، يعني أَنَّه قَوْل محقق تقولونه قولًا صريحًا ولَيْسَ ظنًّا في النَّفس، فإن القَوْل يطلق على الظَّن.

ومثله أيضًا قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨]، ومعْلُوم أن الطَّائر لا يطير إلا بجناحَيْه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البيوع، باب تحريم تلقي الجلب، رقم (١٥١٩).

وقَوْلهُ: ﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ما أكثر ما يقع هَذَا من النَّاس، وهَذَا يُفيد أن الْإِنْسَان لا يَقُول قولًا إلا وله به علم، لا يكفي أن تقول قولًا لمجرد الظَّن ولا لمجرد الوهم أو التَّخيُّل، لا تقل خصوصًا في الْأُمُور الخطيرة إلا ما لك به علم، ولهَذَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في سُورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يعني لا تتبعه ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]، فأنت مسْؤولٌ عن سمعِك وبصَرِك وقلْبِك الَّذِي هو محل الظَّن والاعتِقاد.

إِذَنْ لا تقل ما لَيْسَ لك به علمٌ، ولا تتَّبِعْ ما لَيْسَ لك به علم، فلا بُدَّ من أن يَكُون الْإِنْسَان على علم، وهَذِهِ تربية من الله عَزَّوَجَلَّ تفيد أن الْإِنْسَان يتثبَّت فيما يَقُول؛ ليَكُون قَوْلهُ معتبرًا؛ ولَيْسَلم من إثم القَوْل بلا علم، لا سيَّما إِذَا كَانَ القَوْل على الله، فإنَّه لا أحد أظْلَم ممَّن افترى على الله كذبًا أو كَانَ القَوْل في مثل هَذِهِ الْأُمُور الخطيرة الَّتِي فيها القَدْح بالنَّبيّ ﷺ وآل بيته وأصْحابه، وبالتالي القَدْح في الدِّين؛ لأنَّه إِذَا قُدح في الرَّسُول الَّذِي جاء به فهو قدح في نفس الدِّين الَّذِي أتى به هَذَا الرَّسُول المقدوح فيه.

قَوْلهُ: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَا إِثْمَ فِيهِ ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ فِي الْإِثْم] اهـ.

في هَذِهِ الجُمْلَة من تعظيم هَذَا الْأَمْر ما فيها يعني تحسبون أن القَوْل في هَذَا الْأَمْر هينًا وأنَّها كَلِمات تُقال وتُنقل لكنَّه عند الله عَظِيمٌ، ويتعاظَم كلما كَانَ الْإِنْسَان المقول فيه أبعدَ عما قِيلَ فيه، ولهَذَا قذف المحصن فيه الحَدّ وقذف غير المحصن فيه التَّعْزِير، يعني لو قذف إنسانًا متهمًا بالزِّنَا ولَيْسَ عفيفًا عُزر، ولو قذف إنسانًا معرُوفًا بالعِفَّة وجب فيه الحَدّ كاملًا ولهَذَا قَالَ: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

وقُلْنا: إنه يتعاظَم بحسَب حال المقْذُوف المُتكَلَّم فيه، وكَذلِك إِذَا لم يكن الكَلام قذفًا يَكُون أعظم بحسَب حال القَوْل، ولهَذَا يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [العنكبوت:٦٨]، فأعظم الكَذِب: الكَذِب على الله ثم على رسوله ﷺ، وهَكَذا يتعاظم الكَذِب بحسب من نمى إلَيْه الكَلام.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن قلوبَهم لم تستقرّ بهَذَا القَوْل، ولم تطمئِنَّ به، بل هي أقوالٌ بالألسُن؛ لقَوْلهُ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾.

الفَائِدة الثَّانية: التَّحذِير من القَوْل على الله بلا علمٍ؛ لقَوْلهُ: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

الفَائِدة الثَّالِثَة: التَّحذِير من صغائر الذُّنوب؛ لقَوْلهُ: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ ولهَذَا قَالَ أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمُوبِقَاتِ»(١).

الفَائِدة الرَّابِعَة: أن الْإِنْسَان يحافظ على ما يقوله في غيره مما يقْدَح فيه، وإن كَانَ هو لا يعتَقِده، بل هَذَا يَكُون أَشَدَّ؛ أي: أن يجمع الْإِنْسَان بين أنْ يقولَ شيئًا يعتقد أنَّه كذب وأيضًا يسيء إلى غيره.

الفَائِدة الخَامِسَة: تحْرِيم القَوْلِ على الله بلا علمٍ؛ لقَوْلهُ: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وهَذَا يشمل الفتوى والحُكْم والشَّهادة والأَخْبار الشَّائعة،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من محقرات الذنوب، حديث رقم (٦٤٩٢)، عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فالْإِنْسَان لا يَقُول إلا بعلم، ومثله تحْرِيم فتوى المقلد، ففتوى المقلد معْرُوف أنَّها حرام لأنَّها لَيْسَ عن علم، لكن إِذَا اضطر النَّاس ولم يجدوا إلا مقلِّدًا فماذا يصنعون؟

استفتاء المقلِّد خيرٌ من أن تستفتي إنسانًا جاهلًا لَيْسَ عنْدَه إلمام بالعلم أبدًا.

وأيُّهما أقرب للصَّواب في نفسِك: أن تستفتِيَ مقلِّدًا أو أن تستفْتِي عاميًّا جالسًا في السُّوق يسُبُّ النَّاس؟ لا شكَّ أن المقلِّد أقربُ للصَّواب، فإذا لـم نجد إلا مقلِّدًا فيكونُ الرُّجوع إليْه أفضلَ مِن أن نقول للنَّاس: لا تستفتوا، فيَبْقى هَؤُلَاءِ الجهال يُفتي بعضهم بعضًا.

فلا شَك أن المقلِّد خيرٌ من الْإِنْسَان العامِّيِّ إِذَا لم يكن سواه، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٣].

الفَائِدة السَّادِسَة: ظن الشَّيء العَظِيم هينًا لا شَك أنَّه من قُصور النَّظر؛ لقَوْلهُ: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

الآيــة (١٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور:١٦].

قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَآ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هَلَّا ﴿إِذْ﴾ حِينَ ﴿سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ﴾ مَا يَنْبَغِي ﴿لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ﴾ هُو للتَّعْجِيبِ هُنَا ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ﴾ كَذِبٌ ﴿عَظِيمٌ﴾] اهـ.

﴿لَوْلَآ﴾ بمَعْنى (هلّا) وهي للتَّحضيض المشرب بالتوبيخ ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ الضَّمِير يَعود على الإِفْك ﴿قُلْتُم﴾ هَذَا جواب ﴿لَوْلَآ﴾.

قَوْلُهُ: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ ﴿مَّا يَكُونُ﴾ يَقُول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَا يَنْبغِي] واعلم أن كَلِمة ﴿مَّا يَكُونُ﴾ وكَلِمة (ما يَنْبَغِي) تأتي للشَيْء الممتنع، فعنْدَما نعبر في كتب الفِقْه بقولنا: لا يَنْبَغِي أن يفعل كذا وكذا، المُراد أن ذَلِك لَيْسَ بمُسْتَحبّ فقط.

لكن عنْدَما تأتي (ما يَنْبَغِي) في كلام الله وكلام الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إنما يُراد بها الممتنع غايَة الامتناع الَّذِي لا يصِح ولا يَليق، كما في قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم:٩٢]، (ما يَنْبَغِي) يعني يمتنع غايَة الامتِنَاع ولا يَليق ولا يصِحّ، وكما في قَوْل النَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ

أَنْ يَنَامَ»[1] المَعْنى: أنَّه ممتنع لا يليق ولا يصِح أن ينام سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لكمال حياته.

عَلَى كُلِّ حَالٍ معنى قَوْلهُ: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ﴾ يعني ما يَنْبَغِي لنا أن نتكلَّم بهَذَا ولا يصِح منا أن نتكلَّم بهَذَا، وهو ممتنع لأنَّه لا يُمْكِن أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجعل هَذَا الْأَمْر واقعًا من أهل النَّبِيّ ﷺ لا يُمْكِن أبدًا، يمتنع حسب ما تقْتَضِيه حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجعل هَذَا الْأَمْر واقعًا من أهل الرَّسُول ﷺ لما في ذَلِك من الْأَمْر الَّذِي لا يليق بحِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ لخطورة الْأَمْر وعِظَمه، قَوْلهُ: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾؛ لأَن ذَلِك ينافي تنزيهك ولهَذَا قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ هو للتعجُّب، هَذَا لَيْسَ بصحيح أنَّه للتَّعجُّب، فهم لا يتعجَّبُون مما قِيلَ، ولكنه للتنزيه البالغ؛ أي: ينزهون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عما نُسب إلى أهله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، يعني نُنزِّهك يا ربَّنا أن يقع هَذَا من أهل بيتِ رسُولِك صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقَوْلهُ: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ يعني تنزيهًا لك عما لا يلِيق بِك، ومنْه أن يقع مثل هَذَا من أهل النَّبِيّ ﷺ، فكَلِمة (سبحانك) في هَذَا الموضِع من أحْسَن ما يَكُون، بل هي أحْسَن ما يَكُون في الحَقيقَة.

قَوْلهُ: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كَذِبٌ]؛ لأَنَّه خلاف ما تقْتَضِيه حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «إن الله لا ينام»، وفي قوله: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»، حديث رقم (١٧٩)، عن أبي موسى الأشعري.

ولماذا وُصف بالعظم؟

لأَن المقام في أهل بيت الرَّسُول ﷺ أيُّ بُهْتَان أعظم من بُهْتَان يَكُون فيه القَدْح بالنَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأهل بيتِه وأصْحَابِه، فهو بُهْتَان عَظِيم: واضح عظمه لو كَانَ هَذَا قذفًا لفلان أو لفلان أو لفلان كَانَ عَظِيمًا لكن لَيْسَ كعظم ما نُسب لأهل الرَّسُول ﷺ، فلِذَلك وُصف بالعظم لأَن محله أهل الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: أن القَوْل إِذَا أطلق فالمُراد به القَوْل باللِّسَان؛ لقَوْلهُ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم﴾ وإذا قيد فالمُراد به حديث الْإِنْسَان نفسه مثل قَوْله تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾ [المجادلة:٨].

الفَائِدة الثَّانية: تنزيه فراشه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأن حِكْمَة الله تأبى أن يقع ذَلِك في فراشه ﷺ؛ لقَوْلهُ: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ فدل هَذَا على أَنَّه لا يليق باللهِ عَزَّوَجَلَّ أن يقع مثل هَذَا في فراش النَّبِيّ ﷺ وهَذَا الَّذِي جعلهم يَقُولُونَ: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ وَذلِك لأَنَّه ينافي حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ.

الفَائِدة الثَّالِثَة: مُراعَاة المَصالِح العامَّة في الشَّرع والقَدَرِ أمر معْلُوم هَذَا بالنِّسْبَةِ للوِلَاية والتَّدبير، فإذا كَانَ واليًا على أمر يَجب علَيْه أن يُراعِي المَصالِح، فتُقدَّم المَصالِح العامَّة في الشَّرْعِ، وتُقدم المَصالِح العامَّة كَذلِكَ في القدر، فالمطر ينزل وربما يفسد بعض المزارع الَّتِي لا يتناسب معها المطر ولكنه للمصلَحَة العامَّة نزل.

أما نفس الْإِنْسَان هل يقدم مصلَحَة نفسه على مصلَحَة غيره في أمر لَيْسَ من باب الوِلايَة والتَّدبير؟

الجواب: هَذَا يرجع إلى القواعد الشَّرْعِيَّة في ذَلِك، فقد يَكُون الْإِنْسَان مأمورًا بتقديم نفسه كما لو كَانَ عنْدَه طعام وعنده جياع وهو جائع فلا نقول: قَسِّم الطَّعام عليهم بل نقول: ابدأ بنفسك، والرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُول: «**ابْدَأْ بِنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ**»(١).

وأحيانًا يَجب على الْإِنْسَان أن يقدم المصْلَحة العامَّة على مصلَحَة نفسه كما في المبارزة، ومثل ما حصل للرَّجُلِ المُؤْمِن الَّذِي قَالَ للملك: «**إِذَا كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي فَخُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ارْمِنِي بِهِ وَقُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الغُلَامِ**»(٢) فقتل نفسه لكن لمصلَحَة الدِّين.

الفَائِدة الرَّابِعَة: وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أو ذكره يَنْبَغِي أن يذكر في كُلِّ محلٍّ بما يناسبه، فعنْدَما يَكُون الْأَمْر يقْتَضِي انتقاص الله عَزَّوَجَلَّ نأتي بالتَّسبيح، وعنْدَما يَكُون الْأَمْر موجبًا لإظهار فضل الله ورحمته نأتي بالحمد وعنْدَما يشعر الْإِنْسَان في نفْسِه بعلو يأتي بالتكبير، ولهَذَا كَانَ الصَّحابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِذَا علوا نَشزًا كبروا وإذا نزلوا واديًا سبحوا(٣)، فالْإِنْسَان عنْدَما يعلو يشعر في نفْسِه بالكبرياء فيكبر الله، وعنْدَما يهبط، فيقْتَضِي أن يسبح الله لينزهه عن السُّفول.

---

(١) الحديث مركب من حديثين: فروى مسلم لفظ: «ابدأ بنفسك»، كتاب الزكاة، باب الابتداء في النفقة بالنفس ...، حديث رقم (٩٩٧)، عن جابر بن عبد الله. أما لفظ: «ثم بمن تعول» فقد رويت بلفظ: «وابدأ بمن تعول» عند: البخاري، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، حديث رقم (١٤٢٦)، ومسلم، كتاب النفقات، باب وجوب النفقة على الأهل والعيال، حديث رقم (٥٣٥٥)، عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر الراهب والغلام، حديث رقم (٣٠٠٥)، عن صهيب بن سنان الرومي.

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الجهاد، باب ما يقول الرجل إِذَا سافر، حديث رقم (٢٥٩٩)، عن ابن عمر.

الآيــة (١٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧﴾ [النور:١٧].

قَوْلُهُ: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَنْهَاكُمْ] اهـ.

الْأَمْر والنَّهي مَوْعِظَة؛ ولهَذَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ ثم قَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء:٥٨]، فجعل الْأَمْر مَوْعِظَة؛ لأَن الْإِنْسَان يتعظ بها، هكذا هُنا ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يحذركم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالمَوْعِظَة والتَّحذِير متضمن للنهي.

وعلى هَذَا فيَجب أن نعرف أن قَوْل المُفَسِّر: [يَنْهَاكُمْ] لَيْسَ تفسيرًا لها بمقتضى اللَّفْظ ولكن بما يدُلّ علَيْه المَعْنى، وإلا فالمَوْعِظَة هي التَّحذِير بما يلين الْقَلْب تخويفًا أو ترغيبًا.

قَوْلُهُ: ﴿أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ أي: من أن ترجعوا لمثله أبدًا يعني ما دمتم أحياء.

قَوْلُهُ: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هل هي شرط للمَوْعِظَة أي: لـ(يعظكم) أو جملة مستقِلَّة والتَّقدير «إن كنتم مُؤْمِنِينَ فاتعظوا بِذَلِك» يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تَتَّعِظُونَ بِذَلِكَ] اهـ.

هَذِهِ الجُمْلَة في الحَقيقَة إن قلت: إنها شرط في قَوْلهُ: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ فإنَّه يَجب أن نؤول المَوْعِظَة هُنا بالمَوْعِظَة النَّافعة لا بمجرد ذكر المَوْعِظَة؛ لأَن المَوْعِظَة لا تنفع إلا بشرط الإِيمَان.

وأما إِذَا قُلْنا: إن المَوْعِظَة بَيان لما يتعظ به المرء فلَيْسَ الإِيمَان شرط في ذَلِك، فإن مَوْعِظَة الله مُلقَاة لكلِّ أحدٍ سواء كَانَ مؤمنًا أم غير مُؤْمن، ولكن لا ينتَفِع بها إلا المُؤْمِنُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ هَذَا عام ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

فالحاصِل: أن قَوْلهُ: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن كَانَت قيدًا في قَوْلهُ: ﴿يَعِظُكُمُ﴾ فالمُراد بالمَوْعِظَة المَوْعِظَة النَّافعة فإنها هي الَّتِي تنفع المُؤْمِن، أو نقول: إن كَانَت المَوْعِظَة إلقاءُ ما به الوعظ للنَّاس سواء انتفعوا أم لم يَنْتَفِعوا فإن قَوْلهُ: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مستقلَّة وجوابها محذوف؛ أي: إن كنتم مُؤْمِنِينَ فاتَّعِظوا بها وعظكم اللهُ به، وعلى كلا الاحتمالَيْن فيه إِشارَة واضِحة على أنَّه لا يَنْتَفِع بمَوْعِظَة الله إلا المُؤْمِنُ، أما غير المُؤْمِن فإنَّه لا يَنْتَفِع.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: تحذير المُؤْمِنِينَ أن يقع منهم هَذَا العَمَل.

الفَائِدة الثَّانية: أن الوقوع في مثل هَذَا ينافي الإِيمَان؛ لقَوْلهُ: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ﴾ يعني يعظكم من العود ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ثم قد ينافي كماله أو أصله حسب ما تقْتَضِيه الحال.

الفَائِدة الثَّالِثَة: أن الإِيمَان منه أعمال ينتَفي بانتفائِها؛ لأَن الله جعل هَذِهِ الأَشْيَاء منافية لِلْإِيمَانِ.

لو قَالَ قَائِلٌ: هل يُمْكِن إِثْبات القياس من قَوْله تَعَالَى: ﴿أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ﴾؟

الجواب: المُراد بقَوْلهُ: ﴿لِمِثْلِهِۦٓ﴾ أي: لمثل هَذَا الكَلام أو لهَذَا الكَلام على أي صُورَة كَانَ سواء جاء بصُورَة القَذْف الَّذِي وقع لعَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أو بصُورَة أُخْرَى لكنَّه قَذْفٌ، فهو نفس الشَّيء، ومثل هَذَا قَوْله تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وكقولهم: «مثلك لا يبخل» فإِثْبات القياس من هَذِهِ الآيَة لَيْسَ بوجيه.

الفَائِدة الرَّابِعَة: أن المُؤْمِن هو الَّذِي يَنْتَفِع بالمَوْعِظَة أما غيره فإنَّه لا يَنْتَفِع؛ لقَوْلهُ: ﴿يَعِظُكُمُ﴾ وقَوْلهُ: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

الفَائِدة الخَامِسَة: فضل الله ورحمته بالعباد حيث كَانَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعظهم عما يضرهم وينافي إيمانهم، ولا شَكَّ أنَّ الَّذِي يَعِظُك ويُرشِدُك ويَنْصحُك له فضل عَلَيْك.

• • ۞ • •

الآيــة (١٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النور:١٨].

قَوْلهُ: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في الْأَمْر وَالنَّهْي ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِيهِ] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿يُبَيِّنُ﴾ بمَعْنى يظهر و﴿ٱلْآيَـٰتِ﴾ بمَعْنى العلامات الدالة علَيْه - وقد تقدَّم أن ﴿ٱلْآيَـٰتِ﴾ تنقسم إلى كونية وشرعيَّة.

فالآيَات الْكَوْنِيَّة: هي ما خلقه الله في الكون وقَدَرِه كالليل والنَّهار والشَّمس والقمر، وهَذِهِ ظاهرة للمُؤْمِنِينَ وغيرهم فهم يعرفون أن هَذِهِ آيَات لا يسْتَطيع البشر أن يأتوا بمثلها.

والآيَات الشرعيَّة: لا تتبين وتظهر إلا للمُؤْمِنِينَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ماذا؟ ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

فالآيَات الشَّرْعِيَّة الَّتِي تضمنها وحيه المنزل على رسله سواء القُرْآن أو غير القُرْآن لا يَستَفِيد منها إلا المُؤْمِن، أما الكافر والعِيَاذ باللهِ فإنَّه يَزدَاد بها رجسًا إلى رجسه ويموت على كفره، والآيَات الْكَوْنِيَّة حَتَّى غير الْمُؤْمِنِينَ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -يعني غير المنقادين والمذعنين لشرائعه- يؤمنون بأن مثل هَذِهِ الْأُمُور لا يُمْكِن

لبشر أن يأتي بها على اختلاف مشاربهم.

والحَقيقَة عند التأمل ربما يُقالُ: حَتَّى الآيَات الْكَوْنِيَّة ربما يعمى عنها بعض النَّاس؛ لأَن من النَّاس من يظن أن هَذِهِ الآيَات لَيْسَت ناتجة أو لَيْسَت من فعل خالق، وإنما هي طبائع تتفاعل ويتولَّد بعضها من بعض وبدون أن يَكُون لها مدبر أو خالق، وعلى هَذَا فتكون أيضًا الآيَات الْكَوْنِيَّة كالآيَات الشَّرْعِيَّة خلافًا لما قررناه سابقًا.

لهَذَا نقول: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: يُظهرها حَتَّى تَتَبيّن، ولا فرق في ذَلِك بين الآيَات الْكَوْنِيَّة والآيَات الشَّرْعِيَّة، ولهَذَا لما خسفت الشَّمس في عهد الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ماذا قَالَ ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ»[1].

حَتَّى خسوفهما من آيَات الله لأَنَّه لو أن البشر كلهم اجتمعوا على أن يكسفوا الشَّمس لا يستطيعون، فإِذَنْ الكُسوف من آيَات الله لأَن معنى الآيَة هو ما يدُلّ على ما كَانَت آية له، بمَعْنى أنَّها لا يُمْكِن أن يأتي بها أحد سوى من كَانَت آية له.

قول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في الْأَمْر والنَّهْي] كأنه حملها على الآيَات الشَّرْعِيَّة، والحَقيقَة أنَّها شاملة للآيات الشَّرْعِيَّة والآيَات الْكَوْنِيَّة.

وقَوْلهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي ذو علم واسع شامل فيما يَتعلَّق بفعله وفيما يَتعلَّق بفعل المخْلُوقين، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليم بما كَانَ وبما سيَكُون من فعله ومن فعل المخْلُوقين، و﴿حَكِيمٌ﴾ سبق أنَّها مشتقة من الحِكْمَةِ والحُكْم، وموضع الحِكْمَةِ ومحلها الشَّرع والقَدَر، ففي الشَّرع كُلُّ ما شرعه الله فإنَّه مطابق للحكمة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب صلاة الكسوف جماعة، حديث رقم (١٠٥٢)، عن ابن عباس، ومسلم، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، حديث رقم (٩٠١)، عن عَائِشَة.

وأيضًا في القدر، كُلُّ ما خلقه الله فهو مطابق الحِكْمَةِ، أما الحِكْمَةُ نفسها فتكون في ثلاثة أشْيَاء: في الإِيجَاد والصُّورَة والغَايَة، فإيجاد الشَّيء حِكْمَة لَوْلا أن الحِكْمة في وجوده ما وُجد، وكونه على هَذَا الشَّكل المعين أو بهَذِهِ الصُّورة المعينة هو أيضًا حِكْمَة، والغَايَة منه أيضًا حِكْمَة قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المُؤْمِنون:١١٥].

إذا ضربنا اثنين: (الشَّرع والقدر) في ثلاثة: (في الإِيجَاد أو في الصُّورَة أو في الغَايَة) يَكُون الجميع ستة.

أما الحُكْم فإنَّه ينقسم أيضًا إلى قِسْمَيْن: كوني وشرعي، مثال الشَّرعي قَوْله تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:١٠]، هَذَا حكم شرعي ولَيْسَ كونيًّا لأنَّه ذكره بعد أَنْ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الممتحنة:١٠]، هَذَا شرعي لأَن هَذِهِ الأُمُور الَّتِي سبقت كلها تَشْريعات.

ومثال الكَوْنِيّ قَوْل أخي يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠].

إذا كَانَ الحُكْم كونيًّا أو شرعيًّا مطابقًا للحكمة فهل يَلْزَم أن نعرف هَذِهِ الحِكْمة أو لا يَلْزَم؟

الجواب: لا يلْزَم، لكن يَجب علَيْنا أن نُؤْمِن بأنه ما من شَيْء أوجده الله أو شرعه إلا وله حِكْمَة، لكنَّنا لقُصورنا يخفى علَيْنا كثير من هَذِهِ الحِكَم.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: أَنَّه يَنْبَغِي للمُؤْمن إِذَا خفي علَيْه شَيْء أن يتأمَّل لأَن الآيَات مبينة وظاهرة، فمثلًا إِذَا خفي عَليْك حكم شَيْء من كتاب الله فأعد النَّظر لأَن الله قَالَ: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾ فالآيَات مبينات، وخفاؤها على الْإِنْسَان في بعض الأَحْيان يدُلّ على قُصوره إما في العِلْم أو الفَهْم أو التدبير.

الفَائِدة الثَّانية: بَيان الآيَات للْكافِر والمُسْلِم، فالآيَات ظاهرة لكل أحد للْكافِر والمُسْلِم، والآيَات الشَّرْعِيَّة لا تبين ولا يَنْتَفِع بها إلا المُؤْمِنون، أما الْكُفَّار فإنهم يَقُولُونَ هَذِهِ أساطير الأولين لأَنَّه ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، فلم يعرفوها وقد تقدَّم هَذَا في التفسير.

الفَائِدة الثَّالِثَة: إِثْبات الصِّفات والأَسْماء لأَن ﴿عَلِيمٌ﴾ من أَسْماء الله جَلَّ وَعَلَا و﴿حَكِيمٌ﴾ من أَسْمَائِه أيضًا وهما متضمنان لصفتين: العِلْم والحِكْمة.

لو قَالَ قَائِلٌ: هل يُمْكِن أن نثبت أَسْماء الله من مُجَرَّد الفِعْل؟

الجواب: لا يجوز إِثْبات الاسْم من مُجَرَّد الفِعْل، ولهَذَا لا يُمْكِن أن نثبت أن الله ماكر من قَوْله تَعَالَى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٠]، فما جاء بِصيغَة الفِعْل يبقى على الفِعْل، وما جاء بِصيغَة الاسْم هو الَّذِي يُمْكِن أن يؤخذ منه الفِعْل، فالسَّميع يُمْكِن أن نأخذ منه أن الله يسمع.

الآيــة (١٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور:١٩].

قَوْلهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِاللِّسَانِ]اهـ.

قَوْلهُ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قُلْنا: إن مثل هَذَا التَّرْكيب أي: كونه يأتي بالجُمْلَة على جملتين يُفيد ذَلِك التَّأكيد انظر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لم يقل: «إن للذين يحبون أن تشيع الْفَاحِشَة عَذاب» بل جعلها جملتين صُغرَى وكُبْرَى، فقَوْلهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جملة وقَوْلهُ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هَذِهِ الصُّغْرى، سميت صُغرَى لأنَّها قائمة مقام الاسْم المفرد إِذْ هي خَبرُ، والأَصْل في الخبر أن يَكُون مفردًا.

تقول مثلًا: «الطالب فاهم» فاهم خبر المبتدأ وهو مفرد، وتقول: «الطالب له فهم» صَارَ الخبر جملة، والجميع جُملتان كُبْرَى وهو مجموعهما، وصُغرَى وهي الجُمْلَة الَّتِي صَارَت خبرًا.

فـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأولى إِعْرابها اسم (إنّ) فهي في محل المبتدأ ﴿يُحِبُّونَ﴾ صلة الموصول ﴿أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مفعول يحبون ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم و﴿عَذَابٌ﴾ مُبْتَدَأ مؤخر والجُمْلَة خبر (إنّ).

وهَذَا يُفيد التَّوكيد، فهَذِهِ الجُمْلَة أوكد مما لو قِيلَ: إن للذين يحبون أن تشيع الْفَاحِشَة عَذابًا أليمًا، مثلًا هَذَا أبلغ لأنَّها تَكُون كأنَّها جملتان مكررتان.

قَوْلهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم من الأَسْماء المَوْصولَة، ومعْرُوف في علم الأصول أن الاسْم الموصول يُفيد العُموم، فيَكُون قَوْلهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ عامًّا.

وقَوْلهُ: ﴿تَشِيعَ﴾ بمَعْنى تَنتشرُ وتَظهرُ، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [باللِّسَان] هَذَا تفسير للشُّيوع يعني تَشِيعُ بالقَوْل وتظهر ويتداولها النَّاس، ولكن الأظهر أنَّها أَعمُّ من الشُّيوع باللِّسَان وأنَّها تشيع بالفِعْل بحيث يشاهدهم النَّاس، وبالقَوْل بحيث يشاع عنهم ذَلِك، فهَؤُلَاءِ ﴿ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ سواء يحبون أن تشيع بالقَوْل -كما أشار المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ باللِّسَان- أو يحبون أن تشيع بالفِعْل بمَعْنى أن يظهر أمرهم ويتبيَّن ويُرَون ويُشَاهَدون.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِنِسْبَتِهَا إِلَيْهِمْ] اهـ. هَذَا بناء على أن المُراد بالشّيوع: شيوع اللِّسَان، والأصح أنَّه أعم أي بنسبتها إلَيْهم فيما يُقَالُ فيهم أو برؤيتها منهم فيما فعلوا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَهُمُ العُصْبَةُ] اهـ. هَذَا لَيْسَ بصحيح لأنَّه أَرَادَ أن يفسر العامّ بالخاصِّ لأَن ﴿ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ هل هو خاص بالعصبة الَّذينَ جاءوا بالإِفْك أو عامٌّ في كُلِّ أحدٍ؟

الجواب: عَامٌّ في كُلِّ أحدٍ إلى يوم القِيامَة حَتَّى مثلًا من أحب أن تشيع الْفَاحِشَة في المُؤْمِنِينَ في زمنه فهو داخل في هَذِهِ الآيَة، وتَخْصِيص الآيَة بشَيْء لا دَليل علَيْه هَذَا لا يجوز، وقد قَالَ أهْل العِلْم: إن العبرة بعُموم اللَّفْظ لا بخصوص السَّبب.

ويَجب أن نعرف أن صُورَة السَّبب قَطْعيَّة الدُّخول لأنَّه لا يُمْكِن أن نخرجها عن العُموم وهو وارد من أجلها، يعني أنَّه إِذَا ورد لفظ عام على سبب خاص فإنَّ السَّبب الَّذِي وردت من أجله قطعيّ الدُّخول في هَذَا العامّ وغيره من أفراد العُموم لَيْسَ قطعيًّا ولكنه ظاهر فيه.

وبَيان ذَلِك أن دَلالَة العامّ على كُلِّ فرد من أفراده دَلالَة ظنية يعني لَيْسَت قطعًا إِذْ يجوز أن يَكُون بعض الأفراد قد خصص بحكم يخالف هَذَا العُموم، ولهَذَا نقول: دَلالَة اللَّفْظ العامّ على عمومه ظنية؛ لاحتمال أن يَكُون بعض أفراده قد خص إلا صُورَة السَّبب، أي: الصُّورة الَّتِي هي سبب هَذَا العُموم هي قطعية الدُّخول؛ كما تقدَّم.

فمثلًا لو قَالَ قَائِلٌ: قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾ [المجادلة:٢]، هَذِهِ الآيَة لا يدخل فيها أوس بن الصَّامت الَّذِي ظاهر من زَوْجَته وهو سبب النُّزول ماذا نقول له؟

نقول: هَذَا غير صحيح قطعًا هو داخل.

ولو قَالَ قَائِلٌ: إن الرَّجل الَّذِي رآه النَّبِيّ ﷺ قد ظلل علَيْه والنَّاس حوله وهو صائم في السَّفَر فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَيْسَ مِنَ البِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ**»[1]، لو قَالَ قَائِلٌ: هَذَا الرَّجل لا يدخل في هَذَا الحَديث؟

الجواب: نقول: غير صحيح ولا يُمْكِن لأَن الصُّورة الَّتِي هي سبب العُموم

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له، كتاب الصوم، باب قول النَّبِيّ ﷺ لمن ظلل...، حديث رقم (١٩٤٦)؛ ومسلم، كتاب الصوم، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر...، حديث رقم (١١١٥)، عن جابر بن عبد الله.

قطعية الدُّخول وغيرها لَيْسَ قطعيًّا لكنَّه ظني.

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآن فسر هَذَا العامّ بالخاصِّ، وهَذَا لا يجوز، فإذا وجد لفظ عام يَجب الأخذ بِعُمومِه وإن كَانَ دلالته على جميع أفراده كما تقدَّم ظنية، لكن يَجب الأخذ بِعُمومِه حَتَّى يرد دَليل على التَخْصِيص، فنقول: هَذِهِ الآيَة عامَّة في العصبة وغيرها.

قَوْلهُ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالحَدِّ للقَذْفِ ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ بِالنَّارِ لِحَقِّ اللهِ]. اهـ.

وفي نسخة: (بِحَدِّ القَذْفِ) والمَعْنى واحد، نعم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ من عَذاب الدُّنْيَا ما ذكره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد يَكُون لهم عَذاب أَشَدّ، لكن الآن المتبادر أن الْعَذَاب الأليم في الدُّنْيَا هو العُقوبَة والعَذاب كما أشرنا إِلَيْه سابقًا معناه العُقوبَة و﴿أَلِيمٌ﴾ بمَعْنى مؤلم، وأما عَذاب الْآخِرَة فهو عند الله أيضًا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَنَّه الحَدّ للْقَذْفِ وَعَذَابُ الْآخِرَة لِحَقِّ اللهِ] هَذَا يشكل علَيْه أَنَّه قد ثبت عن رَسُول الله ﷺ أن من أصاب من هَذِهِ الذُّنوب شيئًا وعوقب علَيْه في الدُّنْيَا كَانَ كَفَّارة له[1]، ولهَذَا قالوا: إن الحُدُود كَفَّارة لأصْحابها، الحُدُود كحدّ الزِّنَا وحدّ السَّرقة وغيرها، إِذْ إن الله تَعَالَى لا يجمع علَيْه عقوبتين.

لو قَالَ قَائِلٌ: الحَديث عامٌّ والآيَة خاصَّة؟

الجواب: الحَديث عامٌّ على عُمومه، والآيَة ظَاهِرها أَنَّه يجمع له بين الْأَمْرين،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب توبة السارق، حديث رقم (٦٨٠١)؛ ومسلم، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، حديث رقم (١٧٠٩)، عن عبادة بن الصامت.

والحَديث يدُلّ على أنَّه لا يجتمع له الْأَمْران، والتَّوفيق بينهما أن نقول: إنه إِذَا فاته عَذاب الدُّنْيَا أصيب بعَذاب الْآخِرَة.

الحاصل أن الحَديث في الحُدُود الشَّرْعِيَّة، لكن محبَّة إشاعة الْفَاحِشَة أو شيوع الْفَاحِشَة لَيْسَ هو القَذْف الموجب للحد، هَذَا إنما يوجب التَّعْزِير، والتَّعْزِير قد يختلف ويصير هَؤُلَاءِ مستحقون للعَذاب في الْآخِرَة، يعني قد لا يعزرون ويتخلف التَّعْزِير بسبب من الأَسْباب.

وأما عَذابهم في الْآخِرَة فباق، يعني لو تخلف عَذاب الدُّنْيَا لم يتخلف عَذاب الْآخِرَة، على أن المُراد بالْعَذابِ قد يَكُون ما هو أعم من الجلد وشبهه فقد يَكُون الْعَذَاب بأن يُجعل في قلبه ألمًا وحزنًا وقلقًا وما أشبه ذَلِك.

فعلى هَذَا نقول: إن الآيَة هَذِهِ فيمن يحب أن تشيع الْفَاحِشَة لا فيمن أشاعها، لكن هل علَيْه حدٌ في الدُّنْيَا أعني الَّذِي يحب أن تشيع الْفَاحِشَة فقط مع أنَّه هو ما أشاعها؟ نعم لَيْسَ علَيْه حد؛ لأَن مُجَرَّد محبَّة الْإِنْسَان لشيوع الْفَاحِشَة في الْمُؤْمِنِينَ لَيْسَ بِقَذْف، فلا يُقام علَيْه الحد، لكن يُعذب أو يُعاقب بما يسميه أهْل العِلْم التَّعْزِير.

فالتَّعْزِير يردعه وأمثاله عن هَذَا العَمَل، فإذا أُقيم علَيْه الْحَدّ لمعصية من المعَاصِي فإنَّه يَكُون كفارة له كما ثبت ذَلِك عن رَسُول الله ﷺ، فالحد يَجب إقامته؛ لأَن الحُدُود فرائض لا بُدَّ من إقامتها، والتَّعْزِير بعض العُلَماء يَقُول: لا يَجب، ومنهم من يرى أنَّه يرجع إلى اجتهاد الْإِمَام، فالْإِمَام إِذَا رأى أنَّه لا يُقام فلا يقيمونه، فإذا فرضنا أن الْإِمَام اجتهد سواء أخطأ في اجتهاده أم أصاب ولم يُقِم الْحَدّ علَيْه هَذَا معناه أنَّه يُعاقب في الْآخِرَة ولابُدَّ.

لو قَالَ قَائِلٌ: إِذَا عُزِّر بمحبته للْفَحْشَاء هل يُعذب في الْآخِرَة؟

الجواب: إِذَا عُزِّر بمحبته للْفَحْشَاء فلا يُعذب في الْآخِرَة؛ لأَن الله لا يجمع بين عقوبتين على العَبْد بذنب واحد، لكن إِذَا فاته التَّعْزِير إما لكون الحاكم اجتهد أو لكونه أخفى نفسه أو ما أشبه ذَلِك يبقى عَذاب الْآخِرَة.

لو قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ نعرف أَنَّه يحب أن تشيع الْفَاحِشَة؟

الجواب: نعرف أَنَّه يحب أن تشيع الْفَاحِشَة إما بإظهاره كأنْ يقولَ: عسى الله يبين عورة فلان؛ لأَنَّه إن أشاعها هو بنَفْسِه صَارَ مشيعًا، وإن كَانَ ما أشاعها فهو يحب ذَلِك، وأيضًا نعرف أَنَّه يحب بأن يتتبع النَّاس ويقول: ماذا قالوا في هَذَا؟ ماذا عملوا؟

لو قَالَ قَائِلٌ: هل التَّعْزِير يُكفِّر الذُّنوب؟

الجواب: لو عزره الإمام فإننا نقول: بمقتضى أن الْحَدّ يكفر؛ فالتَّعْزِير يكفر أيضًا إِذَا كَانَ مستوفيًا؛ لأَن حَقِيقَة الْأَمْر أن الْإِمَام بالنِّسْبَةِ للتعزير قد يتركه إطلاقًا مع وُجوبه وقد يفعله مع التهاون وقد يفعله على وجه الكمال، بمَعْنى أَنَّه يعاقب هَذَا المعتدي عُقوبَة تامَّة تَكُون كالحد الشَّرعي؛ لأَنَّنا نعلم أن الْحَدّ الشَّرعي عُقوبَة تامة لأَنَّه من الله، لكن التَّعْزِير قد ينقص عن مقابلة الذَّنب أو الجرم فيَكُون ناقصًا وقد يَكُون مساويًا ويَكُون تامًّا، وقد لا يُؤاخذ به الْإِنْسَان إطلاقًا، كأن يَكُون الحاكم مثلًا إما ظالم أو له قرابة مع هَذَا الشَّخص فيحابيه.

لو قَالَ قَائِلٌ: إِذَا كَانَ هَذَا الوعيد فيمن يحبون أن تشيع الْفَاحِشَة في الْمُؤْمِنِينَ فكَيْفَ يَكُون حال من أشاع الْفَاحِشَة؟

الجواب: الَّذِي يشيع أَشَدّ من الَّذِي يحب أن تشيع لأَن الَّذِي يشيع يحب ويفعل، إِذْ ما أشاع الشَّيء إلا لمحبَّته لشيوعه فيَكُون قد أحب وفعل، والَّذِي أَحَبَّ قد لا يفعل ومع ذَلِك له عَذاب أليم.

قَوْلهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [انْتِفَاءَهَا عَنْهُمْ ﴿وَأَنتُمۡ﴾ أَيُّهَا العُصْبَة بِمَا قُلْتُمْ مِنَ الإِفْكِ ﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وُجُودهَا فِيهِمْ] اهـ.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَعۡلَمُ﴾ انْتِفَاءَهَا عَنْهُمْ] سواء هَذَا أو قصة أُخْرَى لأَن الصَّحيح العُموم، يعني انتفاء الْفَاحِشَة الَّتِي أحب هَؤُلَاءِ أن تشيع في المُؤْمِنِينَ يعلم - أنَّها لَيْسَت فيهم أو أنَّها فيهم.

قَوْلهُ: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ هَذَا النَّفي هل هو على إطلاقِه، يعني لا تعلَمون شيئًا أو لا تعلَمون ما يعلمُه الله؟

الجواب: الأَخِير، يعني لا تعْلَمُون ما يعلَمُه الله وإلا فعند الْإِنْسَان علم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل:٧٨]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، لكن لا تعْلَمُون ما عند الله من العِلْم، ولا تعلَمُون كعِلْم الله لأَن عِلْم الله واسع شامل تام.

وعِلْم الْإِنْسَان قاصِر ناقص محدود بخلاف علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي هَذَا إِشارَة إلى أنَّه لا يجوز لِلإِنْسان أن يتكلم بمثل هَذِهِ الْأُمُور حَتَّى يَكُون لديه علم، وإذا كَانَ لديه علم أيضًا فإنَّه يَجب أن يتبع المَصالِح في ذَلِك.

لو فرَضْنا أنِّي أدْرِي أن هَذَا الرَّجل أصاب فاحِشَةً فهل من المسْتَحْسَن أن أرفعها إلى الْإِمَام لتبين وتبرز أو من المسْتَحْسَن ألا أرفعها؟

الجواب: هَذَا يَتعلَّق بالمصْلَحةِ إِذَا كَانَ هَذَا الَّذِي وقعت منه الْفَاحِشَة رجلًا معْرُوفًا بالعفة وبالصَّلاح وأن الْأَمْر بدر منه هكذا هفوة فإنَّه لا يَنْبَغِي أن يرفع إلى الْإِمَام ويُشْهر بل يُسْتر علَيْه ويُنصح، وإذا كَانَ الرَّجل معْرُوفًا بالشَّرِّ والفَسَاد كَانَ من الواجب أن يبين أمره ويظهر ويشهر.

ومثل ذَلِك أيضًا مَسْأَلَة العَفو عن الجناة هل العَفو أولى من الأخذ بالحقِّ أو الأخذ بالحقِّ أولى من العَفو؟ ينبني على هَذَا التفصيل إِذَا كَانَ في العَفو صلاح فالعَفو أفضل، وإلا فالأخذ بالحقِّ أفضل.

وكل الآيَات الَّتِي تندب إلى العَفو مقيدة بقَوْله تَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠]، فقيد الله تَعَالَى العَفو بالإصْلَاح وأيضًا من النَّاحية المعنويَّة يُقالُ: العَفو إحسان، والإصْلَاح واجب، أي: وطلب الإصْلَاح واجب، وإذا تعارض الواجب والإحسان يُقدم الواجب.

فعلى هَذَا إِذَا تعارض إصلاح الخلق أو العَفو عن هَذَا المجرم نقول: إن الإصْلَاح أولى لهَذَا المجرم، ولو عفوت عنه ذهب يفعل إجرامًا بغيرك، وإذا عفا آخر يذهب يفعل إجرامًا آخر وهَكَذا، فنقول: لا يَنْبَغِي العَفو هُنا إن لـم نقل بتحْرِيمه، وعلى هَذَا يتنزل فعل بعض النَّاس.

فبعض النَّاس إِذَا صدمه إِنْسَان مثلًا أو صدم له مالًا أو صدم له نفسًا تجده يبادر بالعَفو وهَذَا خطأ عَظِيم، فالواجب النَّظر هل هَذَا الرَّجل الَّذِي تَهَوَّرَ مثلًا وصدم هَذَا الآدمي أو هَذِهِ البهيمة أو هَذَا المال وأفسده هل هو إِنْسَان متهوِّر شرير، فإن كَانَ كَذلِكَ فإنَّه لا يَنْبَغِي العَفو عنه، وهل أيضًا من المصْلَحة أن نعفو عنه؟ أو ربما إِذَا عفونا أصبح النَّاس لا يبالون بهَذَا الشَّيء.

ولو أن كُلَّ من جرى منه مثل هَذَا الْأَمْر هُدِّد وحُبس وغُرِّم المال لـم يكن النَّاس على هَذَا الوجه الَّذِي نرى الآن، لكن مع الأسف أن بعض الإخوان تجده تأخذه العاطفة ويأخذه الزهد في الدُّنْيَا أمام الصَّدمة العَظِيمَة الَّتِي أصابته ثم يبادر ويسمح، عنْدَما يُصاب بهَذِهِ المصيبة الفادحة ترخص الدُّنْيَا كلها عنْدَه يَقُول مثلًا: إِذَا راح عزيزي لا يهمني، الدُّنْيَا كلها صَارَت عندي لَيْسَت بشَيْء، ثم يبادر ويسمح وهَذَا خطأ، فالواجب التعقل.

ولهَذَا الحَقيقَة أن الأخذ بالعاطفة دون العَقْل من شيم النِّساء ولَيْسَ من شيم الرِّجَال ولا من شيم أهل الإِصْلَاح أيضًا، فإن الواجب في هَذِهِ الْأُمُور أن ينظر ما هو الأَصْلح بالنِّسْبَةِ لهَذَا الشَّخص الخاص وبالنِّسْبَةِ للعموم.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن محبَّة الخَيْر للمُسْلِمين ودفع الضرر والفَواحِش عنهم فيه ثواب؛ لأَنَّه إِذَا كَانَ في محبَّة الْفَاحِشَة عَذاب عَظِيم ففي كراهة شيوع الْفَاحِشَة ثواب، ويكن أن نأخذ هَذَا من قَوْل الرَّسُول ﷺ: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»، قَالُوا: أَوَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ، كَذَلِكَ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَلَالٍ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»[1] يعني يُؤخذ القياس من العكس.

الفَائِدة الثَّانية: أنَّ مَنْ أَشَاعَ فاحشة فـله عَذاب عَظِيم في الدُّنْيَا والْآخِرَة أو ثبوت هَذَا العقاب لمن أشاع الْفَاحِشَة لأَنَّه إِذَا ثبت فيمن أحبها فكَذلِكَ فيمن أشاعها مِنْ بَابِ أَوْلَى.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب بَيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم (١٠٠٦)، عن أبي ذر.

الفَائِدة الثَّالِثَة والرَّابِعَة: التَّحذِير من محبَّة إشاعة الفَواحِش، ولَيْسَ المَقْصُود من ذَلِك الإخبار بأنهم يُعذبون بل المَقْصُود من ذَلِك التَّحذِير من محبَّة الْفَاحِشَة في المُؤْمِنِينَ فكَيْفَ بمن يشيعها بنَفْسِه.

لـو قَالَ قَائِلٌ: قَـوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هل المُراد أن يشيع فعلها وتكثر الفَواحِش في المُؤْمِنِينَ أو المُراد أن يشيع خبر الْفَاحِشَة؟

الجواب: كلاهما صحيح، وإن كَانَ المَعْنى الأَخِير لم يخطر على بالي أن المُراد من انتشار الْفَاحِشَة أن يشيع فعلها، لكن لو قَالَ قَائِلٌ: إنه هو ظاهر اللَّفْظ في قَوْلهُ: ﴿تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ ولم يقل: خبرها، وإشاعة خبرها يؤخذ من سِيَاق القصَّة؛ لأَن القَضيَّة فيمن جاءوا بالإِفْك أي فيمن أشاعوا الخبر، لكن قطعًا هَؤُلَاءِ الَّذينَ أشاعوا الخبر يحبون أن تشيع الْفَاحِشَة بين المُؤْمِنِينَ ولِذَلك نشروها فيَكُون ذَلِك مقياسًا لغيرهم.

فعَلَى كُلِّ حَالٍ يظهر أنَّ الآيَة عامَّة لهَذَا ولهَذَا، أن يشيع خبرها وتنتشر إِذَا فُعلت وأن يشيع فعلها وتكثر الفَواحِش في المُؤْمِنِينَ، كُلُّ هَؤُلَاءِ الَّذينَ يحبون هَذَا وهَذَا ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:١٢٧]، لكن لما كَانَ عَذاب الْآخِرَة أَشَدّ من جهة تأْثِيره على الْإِنْسَان فيَجب على المُؤْمِن أن يَكُون شعوره بعَذاب الْآخِرَة أَشَدّ من شعوره بعَذاب الدُّنْيَا، لكن لضعف إيماننا نشعر بعَذاب الدُّنْيَا أكثر مما نشعر بعَذاب الْآخِرَة، ولهَذَا يذكر الله عَذاب الدُّنْيَا لأَنَّه مباشر لِلإِنْسان ويُمْكِن أن يؤثر علَيْه أكثر مع ضعف إيمانه.

وقد احترقت طائرة قريبًا فعندنا يتصوَّر الْإِنْسَان نفسه أنَّه من أصْحاب هَذِهِ الطائرة الَّتِي احترقت وأغلقت عليهم الأبواب وهم يتصَارَخون: هل إلى خروج من سبيل فلا بُدَّ أنه ينزعِج، ولو تصوَّر نفسَه مع أهل النَّار: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر:٣٧]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾ [الهمزة:٨-٩]، هل يشعر بهَذَا الشُّعور؟ الواقِع لا.

فالنَّاس يقرؤون القُرْآن وفيه مثل هَذِهِ الآيَات ولكنهم لا ينفعلون، مثلًا لو تصوروا أنفسهم مع هَؤُلَاءِ، ولهَذَا يُذكر أن رجلين حاولا أن يركبا في هَذِهِ الطائرة ولكن لم يحصل لهما ذَلِك ولما احترقت مَرِضَا لأنهما انزعجا حيث تصورا أنفسهما لو كانا مع هَؤُلَاءِ لاحترقا.

فأقول: المُؤْمِن حَقِيقَة يشعر بعَذاب الْآخِرَة أكثر، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ [الطور:٧-٨]، كَانَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا قرأها مرض حَتَّى يُعاد[1]، الله أكبر، اللهم ارحم حالنا.

وعلَيْه فنأخذ من هَذَا فَائِدَة وهي وُجوب سد ذرائع الفَواحِش؛ لأنَّه إِذَا كَانَ الَّذِي يحب كثرتها في النَّاس يُعذب فكَيْفَ بمن حاول أن يكثرها بفعله فإنَّه يعذب مِنْ بَابِ أَوْلَى، عَلَى كُلِّ حَالٍ هَذَا فَهْم بعيد لكن له وجه.

الفَائِدة الخَامِسَة: فضل الله على المُؤْمِنِينَ في حماية أعْرَاضهم حيث توعد من أحبَّ أن تشيع الْفَاحِشَة فيهم.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٦٣١).

الفَائِدة السَّادِسَة: إِثْبات علم الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾.

الفَائِدة السَّابِعَة: وُجوب ردِّ الأَشْيَاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ وحكمها؛ لقَوْلهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾.

الفَائِدة الثَّامِنَة: قُصور علم المخْلُوق؛ لقَوْلهُ: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولِذَلك نفى الله عنه العِلْم؛ لأَن ما أوتي من العِلْم قليلٌ، وإن كَانَ الْإِنْسَان عنْدَه علم لكنَّه قليل لِذَلك نفاه الله عَزَّوَجَلَّ.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النور:٢٠].

قَوْلهُ: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيَّهَا الْعُصْبَة ﴿وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بِكُمْ لَعَاجَلَكُمْ بِالْعُقُوبَةِ] اهـ.

كرر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هُنا قَوْلهُ: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ...﴾؛ لأَن المقام كله مَقام عَظِيم، ففي الآيَة الأولى الَّتِي قبل قصة الإِفْك وكانت في القَذْف وهو أمر عَظِيم وتدنيس لأعْرَاض الْمُسْلِمِينَ قَالَ: فلولا فضل الله على الْمُسْلِمِينَ ورحمته بإقامة الحُدُود الَّتِي تردعهم وتمنعهم لحصل ما حصل، وكَذلِك ذكر ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ في قصة الإِفْك فقد ذكرت ثلاث مرات.

قَوْلهُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرأفة هي الرَّحمة المتضمنة للرِّقَّة البالغة، يعني أنَّها أخص من الرَّحمة المطلَقة، رحمة وزيادة ولهَذَا قَالَ: ﴿رَّحِيمٌ﴾ فجمع بين الأخص من حيث المَعْنى والأعم، فالرَّحمة أعم من الرَّأفة فكل رأفة رحمة ولا عكس لأنَّها أي الرَّأفة رحمة من نوع خاصٍّ تقتضي زيادة في الرَّحمة وعناية به، و(الرحيم) سبق أنَّه من أَسْماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقد قسم العُلَماء الرَّحمة إلى قِسْمَيْن: عامَّة وخاصة، فالعامَّة هي الشَّاملة لكل أحد من مُؤْمن وكافر وبر وفاجر وإنسان وبهيم.

ولهَذَا لو قَالَ قَائِلٌ: هل الكَافر مرحوم أو لا؟

الجواب: نقول: بالمَعْنى العامّ مرحوم، لَوْلا رحمة الله ما أكل ولا شرب ولا اكتسى ولا تزوج ولا وُلِد له، إلى آخِره، وأما الرَّحمة الخاصة فهي الخاصة بالمُؤْمِنِينَ الَّتِي تتضمن سعادة الدُّنْيَا والْآخِرَة، وأما العامَّة فهي سعادة في الدُّنْيَا فقط.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن ذكر العقاب على من أحب الْفَاحِشَة إِشارَة إلى أن هَذَا الْعَذَاب على من أحب الْفَاحِشَة من رأفة الله ورحمته بنا؛ لقَوْلهُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بعد أن ذكر العقاب على من أحب الْفَاحِشَة.

الفَائِدة الثَّانية: إِثْبات الفَضْل والرَّحمة؛ لقَوْلهُ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾.

الفَائِدة الثَّالِثَة: إِثْبات هَذَيْنِ الاسْمين وما تضمناه من صفة؛ لقَوْلهُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

الفَائِدة الرَّابِعَة: هَذَا البَيان وهَذَا الوعيد ذكره الله جَلَّ وَعَلَا لنحذر، فلا نقع في هَذِهِ الْأُمُور فقَوْلهُ: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ [البقرة:٦٤]، لَيْسَ معناه انتفاء الْعَذَاب بل معناه بَيان أن من أحب الْفَاحِشَة فله عَذاب أليم، ولهَذَا ذكر بعدها قَوْلهُ: ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهَذَا البَيان يقْتَضِي الحذر من الْمُؤْمِن، هَذَا من فضل الله ورحمته، ولهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وهَذَا يُناسِب هَذَا البَيان.

الآيــة (٢١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾ [النور:٢١].

قَوْلهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: طُرُق تَزْيِينِهِ] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ الخُطوات جمع الخُطْوة وهي عِبارَة عن المسافة الَّتِي بين القدمين في المشي، والمُراد بخُطوات الشَّيطان: طرقه، فعبر بالخُطْوة عن الطَّريق؛ لأَن الطَّريق أَثر الخُطَى.

وقول المُفَسِّر: [طُرُق تَزْيِينِهِ] هكذا الشَّيطان جميع طرقه مكروهة إلى النُّفوس لكنَّه يزينها لِلإنْسان حَتَّى يدخل فيها، وطرق الشَّيطان من حيث المَعْنى العامّ هي التَّكذيب والاستِكبار، فالشَّيطان مكذب ومستكبر، ومن أدلة استِكباره أَنَّه أَبَى أن يسجد لآدم، ومن أدلَّة تكذيبه أَنَّه ادعى أَنَّه خير من آدم؛ فإن هَذَا يقْتَضِي أَنَّه كذَّب بكون آدم خيرًا منه.

فطريق الشَّيطان على سبيل العُموم التَّكذيب والاستِكْبار، فالتَّكذيب يَتعلَّق بالأَخْبار، والاسْتِكْبار يَتعلَّق بالتَّكليف: الأوامر والنَّواهي، وإذا تأملت جميع المعَاصِي

وجدتها لا تخرج عن هَذَيْنِ الْأَمْرين إما تكذيب وإما اسْتِكْبار، فهو أي الشَّيطان طرقه أو طريقه مبني على هَذَيْنِ الْأَمْرين.

عنْدَما نأتي للتَّفصيل: هل البخل من خُطُوات الشَّيطان أم لا؟

الجواب: البخل من خُطُوات الشَّيطان؛ لأنَّه يأمر به قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨]، قَالَ كثير من أهْل العِلْم: إن المُراد بالفَحْشاء هُنا البخل لأَن الآيَة في سِيَاق الإنفاق، وإن كَانَ الأصح أنَّها أعم.

وكَذلِك الأكل بالشِّمال والشُّرب بالشِّمال من خُطُواته أيضًا؛ لأَن النَّبِيّ ﷺ أخبر بأن «الشَّيْطَان يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ»[1]، وعلى هَذَا فالأكل بالشِّمال والشُّرب بالشِّمال يَكُون حرامًا؛ لأَن الله نهى عن اتباع خُطُوات الشَّيطان، والنَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نهى أيضًا أن يأكل الْإِنْسَان بشماله ويشرب بشماله.

وإذا كَانَ النَّهي للتَّحريم، لا يسوغه ما يفعله بعض النَّاس الآن يَقُول: والله أنا آكل وأخاف إن شربت باليَمين أن ألوِّث الإناء، ومن ثَمَّ نأخذ خطر تهاون النَّاس اليوم بهَذِهِ المَسْأَلَة؛ لأَن كثيرًا من النَّاس -نسأل الله لنا ولهم الهداية- الآن يأكلون بالشِّمال ويشربون بالشِّمال، ويزعمون أن هَذَا تقدَّم ومدنية والسَّبب هو الشُّعور بالنَّقص؛ لأَن الْإِنْسَان مع الأسف متى شَعُر بنقصه فإنَّه لا بُدَّ أن يقلد من يرى أنَّه أكمل منه.

فهَؤُلَاءِ المغرورون ظنوا أن غيرهم من هَذِهِ الأُمَم الكافرة أرقى منهم وأَشَدّ تقدُّمًا، وصحيح أنهم أرْقَى منا في الصِّناعة وفي أمور الدُّنْيَا، لكن في الأخلاق والآداب

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامها، حديث رقم (٢٠٢٠)، عن ابن عمر.

الَّتِي أرشدنا إِلَيْها الإِسْلام لَيْسَوا أرقى منَّا، إلا أنَّه بالنَّظر إلى حال المُسْلِمِينَ اليوم لا شَكَّ أن عندهم من الآداب الْإِسْلَامية الَّتِي يطبقونها لا عن قصد ولكن لمجرد أنَّها أخلاق فاضِلة لا للتعبُّد لله، ومع الأسف فالمُسْلِم الَّذِي أمر بتطبيق هَذِهِ الآداب والأخلاق هو الَّذِي تقاعس عنها، مع أن المُسْلِم إِذَا طبقها يَكُون متصلًا بهَذِهِ الأخلاق الفاضلة.

وهَذِهِ الآداب لا شَكَّ أنَّها نبل وشرف، وزيادة على ذَلِك يَكُون مأجورًا لأنَّه يفعلها امتثالًا لأمر الله ورسوله، وأولئك إِذَا فعلوها لا يؤجرون؛ لأنهم إنما يفعلونها لأنَّها أخلاق فاضلة، فهم مثلًا عندهم صدق في المعاملة وعندهم بَيان وعدم غش وعندهم وفاء بالوعد، كُلُّ هَذِهِ من الصِّفات الَّتِي أمر الإِسْلام بها، وكثير من المُسْلِمِينَ الآن متخلٍّ عن هَذِهِ الصِّفات، لكن إِذَا اتصف بها المُسْلِم يَكُون محمودًا عَلَيْها ويَكُون مأجورًا عَلَيْها أيضًا؛ لأنَّه يفعلها امتثالًا.

أقول: إن خُطُوات الشَّيطان إِذَنْ طرقه الَّتِي يسير عَلَيْها والتي هي منهج سلوكه، وَذلِك دائر على أمرين هما التكذيب والاسْتِكْبار كما تقدَّم، وقد تَكُون خُطُوات الشَّيطان مُبَيَّنَةٌ مخصوصة كما قُلْنا في مَسْأَلَة الأكل بالشِّمال والشُّرب بالشِّمال.

قَوْلهُ: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَي: المُتَّبع ﴿يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أَيْ: القَبِيح ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ شَرْعًا باتِّبَاعِهَا] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿مَن﴾ كَيْفَ نعربها؟ شرطية، ﴿مَن﴾ اسم شرط و(مَن) الشَّرطية تحتاج إلى شرط وجزاء، يعني إلى فعل شرط وجواب شرط، أين فعل الشَّرط؟ ﴿يَتَّبِعْ﴾ وجواب الشَّرط جملة ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

قَوْلهُ: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ﴾ وقَوْلهُ: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الضَّمِير في قَوْلهُ: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ يَعود على أيهما؟ إن نظرنا إلى أصل الجُمْلَة والموضوع قُلْنا: إنه يَعود إلى ﴿وَمَن﴾ لأَن جواب الشَّرط يَعود على ما يَعود علَيْه فعل الشَّرط، وإذا نظرنا إلى السِّياق وإلى أقرب مذكور قُلْنا: إنه يَعود إلى الشَّيطان، وتكون الجُمْلَة دالة على جواب الشَّرط ولَيْسَت هي جواب الشَّرط.

ويؤيد هَذَا الرَّأْي أن السِّياق في النَّهي عن اتباع خُطُوات الشَّيطان؛ لأَن الله نهى عن اتباع خُطُوات الشَّيطان، ثم ذكر ما يؤيد هَذَا النَّهي من التَّحذِير حيث بيَّن أن الشَّيطان وقع في الفَحْشاء والمُنْكر؛ لأَن الشَّيطان ﴿يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ ولهَذَا كُلُّ عاقل إِذَا علم أن الشَّيطان يأمر بالفَحْشاء والمُنْكر لا يسوغ له أن يتبع خُطُواته، وهَذَا أظهر من وجهين: لأَن السِّياق يدُلّ علَيْه كما تقدَّم، هَذَا وجه، ولأن المتَّبع لخُطُوات الشَّيطان قد لا يأمر بالفَحْشاء والمُنْكر، بل يفعل الفَحْشاء والمُنْكر ولكن لا يأمر بهما، وكثير من أهل الضَّلال تجدهم ضالِّين في أنفسهم، لكن لَيْسَ عندهم دعوة لما هم عليه، وإن كنا نجد أيضًا أن كثيرًا من أهل الضلال عندهم دعوة يأمرون بالفَحْشاء والمُنْكر، أي: لما هم عليه.

الحاصل أنَّه لَيْسَ بلازم أنَّ من اتبع خُطُوات الشَّيطان أن يأمر بالفَحْشاء والمُنْكر نعم من اتبع اتباعًا مطلقًا لزم أن يأمر بالفَحْشاء والمُنْكر لأَن الشَّيطان يأمر بالفَحْشاء والمُنْكر.

أما على ما سلك المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإن جملة ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ﴾ تَكُون هي بعينها جواب الشَّرط إِذَا قُلْنا الضَّمِير عائد على ﴿وَمَن يَتَّبِعْ﴾ ويَكُون معنى قَوْلهُ: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ﴾ أي: المتبع كما قَالَ المفسر، فالجُمْلَة هي جواب الشَّرط، والضَّمِير يَعود في جوابه على

ما يَعود إلَيْه فعل الشَّرط.

فالصحيح إِذَنْ أن الضَّمِير في قَوْلهُ: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ يَعود على الشَّيطان.

وإذا قُلْنا: إنه يَعود على الشَّيطان يبقى النَّظر، أين جواب الشَّرط؟ إِذَا قُلْنا: فإنَّه -أي الشَّيطان- يَكُون الجواب محذوفًا تدُلّ علَيْه هَذِهِ الجُمْلَة تقديره ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وقع في الفَحْشاء والمُنْكر؛ لأَن الشَّيطان ﴿يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ فمن اتبعه وقع فيه، والله أعلم.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: العناية بهَذَا الحُكْم؛ لأَن الله جَلَّ وَعَلَا صدره بالنِّداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فإن النِّداء يُفيد التَّنْبيه، فإذا رأى طالب العِلْم من نفسه غفلة وتكاسلًا فسمع هَذَا ينتبه ويتحرك قلبه إلى حلقة العِلْم بعد ما كَانَ ذاهلا عنها، ووجَّه الله تَعَالَى الخِطَاب للمُؤْمِنِينَ لأنهم هم الَّذينَ يَنْتَفِعون بالْأَمْر والنَّهي ويمتثلون.

الفَائِدة الثَّانية: أن الإِيمَان يُراد به مطلق الإِيمَان؛ لقَوْله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فالله جَلَّ وَعَلَا يخاطب المُؤْمِنِينَ كلهم ولَيْسَ كلهم قد بلغوا درجة الكمال في إيمانهم، فحال توجيه الخِطَاب إلَيْهم قد لا يَكُونون متصفين بكمال الإِيمَان ما لم يُنفّذوا، فإذا نفّذوا صاروا كاملي الإِيمَان.

الفَائِدة الثَّالِثَة: أنَّه يَنْبَغِي ذكر الحوافز الَّتِي تحفز الْإِنْسَان وتحمله على الامتثال؛ لقَوْلهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كأنه يَقُول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لأنكم مُؤْمِنُونَ ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ففي هَذَا إثارة وحافز قوي يُحفّز الْإِنْسَان على ألا يتبع خُطُوات الشَّيطان.

الفَائِدة الرَّابِعَة: التَّحذِير من بَيان عاقبة اتباع خُطُوات الشَّيطان؛ لأَن الخُطُوات خطوة خطوة، فالَّذِي يأخذ خطوة لَيْسَ كمن يأخذ خطوتين.

الفَائِدة الخَامِسَة: أن من نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يبين للعباد أسباب الشَّرِّ ويحذرهم منها، يعني لا يَكِلهم إلى أنفسهم بل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يتولى بَيان ذَلِك بفضله ورحمته.

الفَائِدة السَّادِسَة: العَلامَة البَيِّنَة الظَّاهِرة لأوامر الشَّيطان، والعَلامَة هُنا واضحة، فإذا قَالَ الْإِنْسَان: ما هي العَلامَة على ما يأمر به الشَّيطان؟

الجواب: إِذَا وقع في قلبك الهم بفعل الفَحْشاء والمُنْكر فلا تحتاج أن تقول من الَّذِي أمرني بهَذَا؟ فالَّذِي أمرك به الشَّيطان، فهَذِهِ علامة ظاهرة على أوامر الشَّيطان، على العكس من ذَلِك إِذَا كَانَ أمر بالمعْرُوف ونهي عن منكر فهو من أوامر المَلَك الَّذِي وكله الله بالْإِنْسَان لأَن الله جعل لِلإنْسان قرينًا من الملائكة كما قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ لِلشَّيْطَان لَمَّة بِابْنِ آدَمَ وَللمَلَكِ لَمَّة»[1].

الفَائِدة السَّابِعَة: تحْرِيم التشبُّه بأعداء الله جَلَّ وَعَلَا؛ لقَوْلهُ: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ فالشَّيطان عدو لله جَلَّ وَعَلَا ولبني آدم أيضًا، فإذا كَانَ الله تَعَالَى نهى عن اتباع خُطُواته فكَذلِكَ غيره يُنهى عن اتباع خُطُواتهم.

الفَائِدة الثَّامِنَة: بَيان فضل الله وحكمته حيث يقرن الأَحْكام بعللِها لأَن قَوْلهُ: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ هَذَا حكم، عِلَّة النَّهي ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ وسبق أنَّ ذِكْر الأَحْكام بعللها له فوائد منها؛ زيادة اطمئنان الْإِنْسَان للحكم،

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، حديث رقم (٢٩٨٨)، عن ابن مسعود.

ومعرفة أسرار الشَّريعة وكمالها، وتعدي هَذَا الحُكْم بتعدي العِلَّة.

الفَائِدة التَّاسِعَة: تفاوت الأعْمَال في القبح؛ لأنَّه قَالَ: ﴿بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ والأَصْل في العَطْف المُغايَرَة.

الفَائِدة العَاشِرة: بَيان شدة عداوة الشَّيطان لبني آدم وأنه لا يأمر إلا بالفَحْشاء والمُنْكر ولا يأمرهم بالخَيْر أبدًا.

الفَائِدة الحَادِيَة عَشرة: إِثْبات الشَّيطان وإِثْبات أوامِره وأن له قصدًا؛ لأَن الَّذِي يأمر لا يأمر إلا عن قصد، فالشَّياطين موجودون ولهم إرادات ومقاصد؛ منها إيقاع النَّاس في الفَحْشاء والمُنْكر، وفي هَذَا رد على الَّذينَ ينكرون الشَّياطين ويَقُولُونَ: لا يوجد شياطين لكنها قوى نفسية تَتَصَارَعُ في الْإِنْسَان، وأما الشَّيطان الخارجي الَّذِي يجري من ابن آدم مجرى الدم فهَذَا لَيْسَ له أصل.

الفَائِدة الثَّانية عشرة: الَّذِي يتبع خُطُوات الشَّيطان لا بُدَّ أن يعمل عمله، والشَّيطان يأمر بالفَحْشاء والمُنْكر فهو مثله، ولهَذَا جعل المفسر كما تقدَّم معنى قَوْلهُ: ﴿فإنَّه يتبع﴾ أي: المتبع وبينَّا أن هَذَا التفسير خطأ؛ لأَن الله يَقُول: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨]، فالآمر بالفَحْشاء والمُنْكر هو الشَّيطان والمُراد بالْأَمْر هُنا طلب الفِعْل وإن لم يكن بالصيغة المعْرُوفة فالَّذِي يرغبك في الشَّيء وإن لم يقل: افعل فهو آمر في الحَقيقَة.

الفَائِدة الثَّالِثَة عشرة: بَيان فضل الله ورحمته على العَبْد بتزكيته.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور:٢٢].

قَوْلُهُ: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قَالَ أَبُو بَكْر: بَلَى أَنَا أُحِبّ أَنْ يَغْفِر الله لِي وَرَجَّعَ إِلَى مِسْطَح مَا كَانَ يُنْفِقهُ عَلَيْهِ] اهـ.

قَوْلُهُ: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ هل هَذَا عرض أو تحْضِيض؟

الجواب: هو عرض لكنَّه بمَعْنى التَّحضيض، يعني يحضنا أن نحب هَذَا الشَّيء وهو مَغْفِرة الله، ويلْزَم من محبَّة المغْفِرة السَّعي في أسباب حصولها، ولَيْسَ المَقْصُود أن نحب هَذَا الشَّيء فقط بل أن نسعى في أسبابه؛ لأَن من أحب شيئًا سعى في أسباب الحصول عليه.

فقد يَدَّعِي هَذَا كُلُّ واحدٍ يَقُول: أنا أحب أن يُغْفَر لي ومع ذَلِك هو منهمك في المعَاصِي مِنْ ترك الواجب وفعل المحرم وهو يَقُول: أنا أحب أن يغفر لي، ومحبته هَذِهِ لَيْسَت صادِقَة لأَن من أحب شيئًا سعى في الوصول إِلَيْه ولهَذَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني فإذا كنتم تحبون ذَلِك فاعفوا واصفحوا عن غيركم، فإن من عفا وصفح عن غيره غفر الله له.

وقَوْلهُ: ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْر مَعَ مِسْطَح بن أُثَاثَةَ ابْنِ خَالَتِهِ]. اهـ.

ولكن العبرة بعُموم اللَّفْظ لا بخصوص السّبب.

قَوْلهُ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الغَفور مأخُوذ من المغْفِرة، وهي ستر الذَّنب مع التَّجاوز عنه، ولَيْسَ مطلق السِّتر بل مع التَّجاوُز، أما السِّتر بدون تجاوز فلَيْسَ بمَغْفِرة، وإنما قُلْنا: إنما هي السِّتر مع التَّجاوُز لأَن التَّجاوُز هو الَّذِي به الوقاية من الْعَذَاب وأصل ذَلِك من المِغفر فإن المغفر يستر الرَّأْسَ ويقيه، ويدُلّ أيضًا على أن المغْفِرة هي السِّتر مع الوقاية أَنَّه جاء في الحَديث الصَّحيح عن النَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أَنَّ اللهَ يَخْلُو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، حَتَّى إِذَا أَقَرَّ بِهَا قَالَ اللهُ: قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْم»(١).

فدل ذَلِك على أن المغْفِرة غير السِّتر وإلا لكانت المغْفِرة من قبل في الدُّنْيَا لكنَّه ستر مع عدم العُقوبَة، يعني السِّتر مع التَّجاوُز، فالمغْفِرة شَيْء والسِّتر شَيْء آخر، لكن كُلّ مَغْفِرة تتضمن السِّتر، ولَيْسَ كُلُّ سترٍ يتضمَّنُ المغْفِرةَ؛ لأنَّ مَنْ غفر لك ولم يعاقبْكَ معناه أَنَّه ستر عَليْك، إِذْ لو عاقبك لفضحك.

إذا قَالَ قَائِلٌ: إِذَا فعل الْإِنْسَان خطيئة وافتضح في الدُّنْيَا هل يُعد هَذَا سترًا؟

الجواب: في هَذِهِ الحال إِذَا فُضح ثم غُفر له صَارَ سترًا؛ لأَنَّه إِذَا افتضح عند معاصريه وعند من حوله ولم يغفر له معناه أَنَّه افتضح عند جميع النَّاس، فإذا افتضح

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ﴾ ويقول: الأشهاد هَؤُلَاءِ الذين كذبوا، حديث رقم (٤٦٨٥)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، حديث رقم (٢٧٦٨)، عن ابن عمر.

عند قومه ثم غفر له فمعناه أنَّه ستر عن أكثر النَّاس لأَن أكثر النَّاس غير معاصرين له.

إذا قَالَ قَائِلٌ: ما الفَرْق بين العَفو والصَّفْح؟

الجواب: العَفو بمَعْنى التَّجاوُز، يعني أن الله إِذَا عفا عنه فقد تجاوز عنه، وقد يَكُون الصَّفح بدون عفو كما لو أعرض الْإِنْسَان عن هَذَا الاعتداء لكن قلبه مملوء على صاحبه ولم يعفُ عنه، وقد يَكُون العَفو بدون صفح بأن يتجاوز ولا يعاقبه على ذنبه ولكنه لَيْسَ معرضًا عن هَذَا الذم كلما جاءت مناسبة ذكره، ولهَذَا أمر الله بالْأَمْرين جميعًا.

قَوْلهُ: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ هَذَا نظير قَوْلهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [التغابن:١٤]، ففرق الله تَعَالَى بين العَفو والصَّفْح.

لو قَالَ قَائِلٌ: هل العَفو والصَّفْح يَكُون من الله جَلَّ وَعَلَا؟

الجواب: العَفو كما تقدَّم بمَعْنى التَّجاوُز، وعفا الله عنه بمَعْنى تجاوز عنه، والله جَلَّ وَعَلَا لا يَقُول: صفحت عنكم، وإنما الصَّفح فيما نؤمر به، وأما الله عَزَّ وَجَلَّ فلا أذكر الآن أن يقال: صفح الله عنه، بل يَقُول: عفا عنه، فالصَّفْح والعَفو إِذَا اجتمعا في حق المخْلُوق فإنَّه يُفَصَّل، العَفو بكذا أي بعدم المؤاخذة على الذَّنب، والصَّفْح بالإعراض عنه كلية، وكأنه لم يجر فيَكُون تكميلًا للعفو، وإذا نظرنا إلى معناه الأَصْلي فالعَفو عدم المؤاخذة على الذَّنب، لكن لا أدري هل يُمْكِن أن يَكُون العَفو في حق الله شاملًا الْأَمْرين؟! بمَعْنى أن الله يتجاوز عنه نهائيًا ولا يجعل هُناكَ أمورًا خلفية لهَذَا العَفو، يعني يُمْكِن أن نقول: إن العَفو في حق الله يشمل الصَّفح.

يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَجَّعَ] أو رجع؟ هل نشدد الجيم أو نخففها؟

الجواب: يصح التخفيف؛ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ [التَّوبة:٨٣]، ﴿رَّجَعَكَ﴾ بمَعْنى ردّك لأَن رَجَع في الحَقيقَة فعل ماض يستعمل متعديًا ولازمًا، فإذا قلت: «رَجَعْتُ من كذا»، فهَذَا لازم، وقلت: «رَجَعْتُ إلى فلان ما استعرته منه»، صَارَ متعديًا، إِذَنْ قَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [رَجَع إِلَى مِسْطَح مَا كَانَ يُنْفِقَهُ عَلَيْهِ] بمَعْنى رده فتصح بالتخفيف.

ولِذَلك يَنْبَغِي أن يمرن الطَّالب نفسه على كثرة الاسْتِنْباط من النُّصوص؛ لأَنَّه كم من نص واحد تأخذ منه صفحة من الفوائد والمَسائِل، ويأتي واحد آخر لا يحصِّل منه إلا سطرين، فلِذَلك يَنْبَغِي لطالب العِلْم كما أَنَّه يمرن نفسه على كثر المطالعة وقِراءَة الكتب يَنْبَغِي أيضًا أن يمرن نفسه على الاسْتِنْباط من الأدلَّة، وكم من دَليل واحد دل على مئات المَسائِل بحسب فهم الْإِنْسَان، فالَّذِي يرزقه الله فهمًا يستغني بِذَلِك عن نصوص كَثيرَة لا يحتاج إلى أن يجهد نفسه لتحصيلها ومطالعتها.

والشَّافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ استنبط من قَوْل النَّبِيّ ﷺ: «**يَا أَبَا عُمَيْر مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ**»[1] ألف فَائِدَة، وهو حديث كَلِماته قليلة، والنُّغير طائر صغير كَانَ مع الصَّبي الَّذِي يُكنى بهَذِهِ الكنية، يلعب به، فلمَّا مات اغتم هَذَا الصَّبي، مثل عادة الصَّبي إِذَا أمسك عُصفورًا

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس، حديث رقم (٦١٢٩)، ومسلم، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله، حديث رقم (٢١٥٠)، عن أنس ابن مالك.

يفرح به، فإذا مات عُصفوره يغتم به، حَتَّى إنه في بعض الأَحْيان يلعب به وهو ميت، فالنَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما دخل ذات يوم ووجد الصَّبي محزونًا على فقد هَذَا النُّغير قَالَ له: «يَا أَبَا عُمَيْر مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ».

عَلَى كُلِّ حَالٍ اتقوا الله ما استطعتم وفضل الله يؤتيه من يشاء، ولهَذَا لما قَالَ رجل لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هَلْ عَهِدَ إِلَيْكُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: مَا عَهِدَ إِلَيْنَا بِشَيْءٍ إِلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللهُ فِي الكِتابِ، وَما فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ...»[1] وذكر ما في هَذِهِ الصَّحيفة.

الحاصل: أن على طالب العِلْم أن يهتم ويتعلم كَيْفَ يستنبط الفوائد من النُّصوص، وهَذَا من أهم الأَشْيَاء؛ لأَن النَّاس يختلفون في التحصيل العلمي اختلافًا كثيرًا، لَيْسَ بحسب كثرة الاطِّلاع فقط ولكن بحسب كثرة الاطِّلاع وبحسب الفَهْم؛ ويزداد علمهم بسبب اختلافهم في ذَلِك، فالْإِنْسَان الَّذِي أعطاه الله فهمًا في نصوص الكتاب والسُّنَّةِ.

يُمْكِن أن يحصل من النُّصوص القليلة أحكامًا كَثيرَة؛ ولهَذَا تجد بعض العُلَماء يستعرض آية ويستنبط منها فوائد كَثيرَة جدًّا وهي واحدة، وعلى العكس من ذَلِك الْإِنْسَان الَّذِي لم يعطه الله فهمًا، قد تَكُون عنْدَه نصوص كَثيرَة، ولا يتفطن لما فيها من الأَحْكام، فيفوته علم كثير فالمهم تمرين الْإِنْسَان نفسه على أخذ الفوائد واسْتِنْباطها من الكتاب والسُّنَّةِ هَذَا يُفيد كثيرًا، ويكثر من علمه وهَذَا الاسْتِنْباط يَكُون من الدَّلالَة الضمنية ودَلالَة المطابقة ودَلالَة الالتزام؛ لأَن الدلالات كما تقدَّم دَلالَة تَضَمّن ومُطَابَقة والْتِزَام.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم (١١١).

فدَلالَة الكَلام على معناه كاملًا تسمى دَلالَة مطابقة، ودلالته على جزء معناه تسمى دَلالَة تضمن، ودلالته على أمر يلْزَم منه وقوع كذا وكذا يسمى دَلالَة الالتزام، فمثلًا إِذَا قلت: هَذَا بيت، هَذِهِ الكَلِمة تدلُّ على كُلِّ البَيْت بغرفه وحجره وسطوحه دَلالَة مطابقة، وكونها تدُلّ على أن فيه حجرة وفيه غرفة وفيه سطح هي دَلالَة تضمن، وكونها تدُلّ على أن له بانيًا بناه هَذِهِ دَلالَة التزام، يعني من لازم وجوده أن يَكُون له بانيًا، فهَذِهِ الدلالات الثَّلاث يختلف فيه النَّاس اختلافًا كثيرًا، وبحسب هَذَا الاختلاف يتسع علم الْإِنْسَان.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: إِثْبات أَسْماء الله تَعَالَى وما دلت علَيْه من الصِّفات في هَذِهِ الآيَة.

الفَائِدة الثَّانية: تحْرِيم الحلف على ترك واجب؛ لأَن إيتاء ذوي القربى من الحقوق الواجبة قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ [الروم:٣٨]، لكن هُنا يَجب التقييد، فإذا كَانَ الحلف مع ترك مستحب يَكُون الحلف مكروهًا.

لكن لو قَالَ قَائِلٌ: هل النَّفقة على القريب واجبة؟

الجواب: القريب له حق، والنَّفقة لَيْسَت لازمة، النَّفقة شَيْء ثان، النَّفقة لا تجب إلا على الوالد، وحق القريب أعم.

الفَائِدة الثَّالِثَة: أن الإساءة من الشَّخص لا توجب إسقاط حُقوقِه فإذا أساء فلَيْسَ معنى ذَلِك أَنَّنا نسيء إلَيْه بترك ما يَجب علَيْنا فتكون إساءته علَى نفْسِه، ونحن علَيْنا ما يَجب.

الفَائِدة الرَّابِعَة: وُجوب التعرُّض لمَغْفِرة الله ورضوانه؛ لقَوْلهُ: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

الفَائِدة الخَامِسَة: فضيلة أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حيث وصفه الله تَعَالَى بأنه ذو فضل وسعة.

الفَائِدة السَّادِسَة: أن الهِجْرَة لا تبطل بالمعصية وإن عظمت؛ لقَوْلهُ: ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهَذَا الوصف وصف مدح، ولو بطلت الهِجْرَة بفعل المعْصِيَة هَذِهِ، ما صح أن يبقى هَذَا الوصف في حق مِسْطَح بن أُثَاثَة.

الفَائِدة السَّابِعَة: أن كمال العَفو يَكُون بالصَّفْح؛ لقَوْلهُ: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾.

الفَائِدة الثَّامِنَة: قَوْلهُ: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ إما أنَّه عتاب يعني عتابًا لطيفًا لأبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أو نقول: إنه حث وحض على طلب المغْفِرة، إِذَا قُلْنا بالأول كَانَ فيه دَليل على فضل أبي بكر حيث خاطبه الله بهَذَا العتاب اللطيف ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ يعني ألستم تحبون ﴿أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

الفَائِدة التَّاسِعَة: أن العَفو عن المسيئين من أسباب مَغْفِرة الله لقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فدل هَذَا على أن العَفو عن الخلق من أسباب مَغْفِرة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

الفَائِدة العاشرة: طلب إظهار فضل الْإِنْسَان إِذَا كَانَ في ذَلِك مصلَحَة.

الآيــة (٢٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور:٢٣].

قَوْلهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالزِّنَا ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ العَفَائِف ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ عَنِ الفَوَاحِشِ بِأَنْ لَا يَقَعُ فِي قُلُوبِهِنَّ فِعْلُهَا ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ باللهِ وَرَسُولِهِ ﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ الرَّمْي هو القَذْف بالزِّنَا؛ وسمي رميًا لأنَّه يشبه الرَّمْي بالحجارة من حيث إيلامه للمقذوف.

وقَوْلهُ: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ تقدَّم أن المُراد بهنَّ العفائف عن الزِّنَا، وأن المُحْصَن في القُرْآن يطلق ويُراد به عدة معان: منها العفيفات عن الزِّنَا، ومنها ذوات الأَزْواج مثل قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٢٤]، ومنها الحرائر مثل قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: الحرائر ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ [النساء:٢٥].

وذكرنا أيضًا في سِيَاق هَذَا الكَلام أن الأَلْفاظ المشتركة الَّتِي تطلق على معان متعددة يعين المُراد منها السّياق.

قَوْلهُ: ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَنِ الفَوَاحِشِ بِأَنْ لَا يَقَعُ فِي قُلُوبِهِنَّ

فِعْلُهَا] هَذَا المُراد بالغافلات، وهَذَا القَيْد لَيْسَ بشرطٍ أي لَيْسَ بشرطٍ أن تكُون المرمية ممَّن هي غافلة، هكذا قَالَ بعض أهْل العِلْم، بِدَلِيل أن من قذف محصنة بالزِّنَا وجب علَيْه حد القَذْف وإن لم تكن غافلة.

ولكن الأَصْل في القَيْد أنَّه معتبر وأن مفهومه وهو مفهوم المخالفة غير داخل فيه، هَذَا الأَصْل، فمن قَالَ: إن هَذَا القَيْد لا يعتبر بناء على الغالِب أو ما أشبه ذَلِك لنا أن نطالبه بالدَّليل، نقول: هاتِ دليلًا على أن هَذَا القَيْد لبَيان الغالِب وأنه لَيْسَ بمقصود وإلا فالأَصْل أن القيود يُراد بها ما يخالف محترزاتها، أي يُراد بها أن ما يخالفها يَكُون مخالفًا لها في الحُكْم.

وبعض العُلَماء يَقُول: إن قَوْلهُ: ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ قيد لبَيان الواقِع ولَيْسَ مقصودًا، بمَعْنى أن من رمى محصنة فعلَيْه هَذِهِ اللَّعْنة، وإن لم تكن غافلة، لكن ما دليله؟ قَالَ: لأَن من قذف محصنة وجب علَيْه حد القَذْف وإن لم تكن غافلة، والغافلة هي الَّتِي لا يرد في ذهنها هَذَا الْأَمْر الَّذِي رميت به وهو أبلغ من كونها لم تفعله ولم تُتهم به؛ لأنَّها قد لا تتهم به، ولكن قد يرد في قلبها هَذَا الشَّيء إلا أنَّها لا تفعله، فالغافلات أكمل حالًا من مُجَرَّد المحصنات.

فقول هَذَا القائل الَّذِي ذهب إلى أن الغافلات قيد لبَيان الواقِع وأنه لا مفهوم له يؤيد رأيه هَذَا بأن المحصنة إِذَا قُذفت وجب على قاذفها الحد، وإن لم تكن غافلة نقول له ردًّا على كلامه وتقريره: ادعاؤك أن الغافلات قيد أغلبي وأنه لا مفهوم له واستدلالك على ذَلِك بأن رمي المحصنة بالقَذْف يوجب الحَدّ وإن لم تكن غافلة هَذَا غير مُسَلّم به؛ لأَن الأَصْل في القَيْد الاعتبار وأنه يخرج ما عداه بمفهوم المخالفة، هَذَا الأَصْل أن القيود الَّتِي ترد في القُرْآن أو السُّنَّةِ الأَصْل فيها أنَّها قيود

تخرج محترزاتها من هَذَا الحُكْم، فمثلًا عنْدَما نقول: إن الغافلات قيد أغلبي لا يخرج محترزه هَذَا خلاف الأَصْل وعلى مدعيه الدَّليل.

هو استدل على ذَلِك بأن قذف المحصنة يوجب الحَدّ وإن لم تكن غافلة، لكنَّنا نرد هَذَا الاستدلال أو هَذَا التأييد الَّذِي أيد به قَوْلهُ بأن الحُكْم مختلف فهناك حد القَذْف وهنا اللَّعْنة، قَالَ تَعَالَى: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ ويكُون من قذف محصنة استحق حد القَذْف لكن اللَّعْنة إنما تكُون على من قذف محصنة غافلة هَذَا هو الأَصْل.

ولِذَلك نؤيد أن (الغافلات) قيد اعتباري لا أغلبي وأن الحُكْم الَّذِي هو اللعن فِي الدُّنْيَا والْآخِرَة لا يَكُون إلا لمن قذف محصنة غافلة ذَلِك لأَن الأَصْل على حسب ما تقدَّم فِي هَذَا التقرير أن القيود اعتبارية تخرج عن الحُكْم محترزاتها فمن خرج عن هَذَا الأَصْل ألزم بالدَّليل.

أما من قَالَ: إن المُراد بهَذِهِ الآيَة عَائِشَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا مثلًا وأنَّها غافلة عن هَذَا الْأَمْر، فهَذَا صحيح، عَائِشَة غافلة لكنَّنا أيضًا نرد قَوْلهُ بأن الآيَة عامَّة، فهَذَا أيضًا كَذلِكَ أي: حمل العـامّ على الخصوص يحتاج إلى دَليل، فمن ادعـاه فعلَيْه الدَّليل وإلا وجب الأخذ بالعُموم.

وقَوْلهُ: ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [باللهِ وَرَسُولِهِ].

إذا قَالَ قَائِلٌ: لماذا قدم الله الوصف بالإحصان على الإِيمَان مع أن الإِيمَان أعظم وهو الأَصْل؟

الجواب: نقول: وجه تقديمه هُنا واضح؛ لأَن الرَّمي بالزِّنَا ينقض الإحصان وينافيه، فبدأ بالوصف الَّذِي ينقض ما رُميت به وهو الإحصان؛ لأَن المُؤْمِنة قد تكُون

مؤمنة ولَيْسَت محصنة، لكن المحصنة الَّتِي هي أبعد شَيْء عما رُميت به لَيْسَت مؤمنة فقط بل ومحصنة أيضًا.

فعلى هَذَا نقول: وجه تقديم المحصنة على المُؤْمِنة مع أن الإِيمَان أكمل وأولى بالاعتبار أن المَسْأَلَة في رد قولٍ يَتعلَّق بالإحصان فناسب أن يُذْكَرَ ما يَتعلَّق به من الحُكْم وهو وصف الإحصان قبل وصف الإِيمَان.

وقَوْلهُ: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾، هذه الجُمْلَة محلها من الإِعْراب خبر (إنَّ).

قَوْلهُ: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هُنا لم يقل: لعنهم الله، قَالَ: ﴿لُعِنُواْ﴾ لأجل أن يشمل ذَلِك لعنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وغيره وهَذَا مثل قَوْله تَعَالَى: ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]، يعني: أن الله يَلْعَنهم.

وكَذلِك اللاعنون يَلْعَنونهم، وبناء الفِعْل للمجهول مِنْ فَوَائِدِه العُموم، ولكن هَذَا لَيْسَ دائمًا، لكن في مثل هَذِهِ الآيَة يُفيد العُموم، ومثله قَوْله تَعَالَى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ماذا قَالَ؟ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦-٧]، لم يقل: غير من غَضِبْتَ عليهم مثل ما قَالَ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لأَن النِّعمة من الله، والغضب من الله ومن غيره، كُلُّ من استكبر عن الحَقّ فإنَّه مغضوب علَيْه لا من قِبل الله فحسب، ولكن من قبل الله وغيره فاللعنة هُنا من قبل الله وغيره ولِذَلك بنيت للمفعول.

وقَوْلهُ: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ اللَّعْنة الطَّرْد والإبعاد عن رحمة الله، هَذَا بالنِّسْبَةِ للعنة الله، فهم والعِيَاذ باللهِ مطرودون عن رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الدُّنْيَا والْآخِرَة وبالنِّسْبَةِ لغير الله يَلْعَنون في الدُّنْيَا بحيث يسبون ويقدح فيهم

ويبعد عن الاختلاط بهم، تجد النَّاس يبتعدون عنهم؛ لأنهم ممقوتون مَحْذُورون، كلٌّ يحذر منهم ويخاف أن يتهموه بما اتهموا به فلانًا وفلانًا.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ هل المحصنون الغافلون مثلهنَّ؟

الجواب: نعم بالإجماع أن المحصَنين مثل المحصَنات في هَذِهِ.

لكن ما وجه ذكر هَذَا خاصًّا بالنِّساء دون الرِّجَال ما داموا مشتركين في الحُكْم؟

الجواب: لأَن القَذْف في النِّساء أكثر من الرِّجَال، يعني كون المَرْأَة تقذف وتتهم بِالكَذِب أكثر من الرِّجَال لِذَلك ذكرت هي، والرّجل مثلها بالاتفاق.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: عظم القَذْف للمحصنات الغافلات، وقد ثبت عن النَّبِيّ ﷺ أَنَّه من الكبائر فقال: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ** -وذكر منهنَّ- **قَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلاتِ المُؤْمِناتِ**»(١).

الفَائِدة الثَّانية: تمام غَيْرة الله وأنه جَلَّ وَعَلَا غيور وقد جاء في الحَديث الصَّحيح: «**مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِي عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِي أَمَتُهُ**»(٢)، وكَذلِك قصة سعد بن عبادة لـما نزل قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور:٤]، ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور:١٣]، كأنَّ سعدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استشكل

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب رمي المحصنات، حديث رقم (٦٨٥٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بَيان الكبائر وأكبرها، حديث رقم (٨٩)، عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب الصدقة في الكسوف، حديث رقم (١٠٤٤)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، حديث رقم (٩٠١)، عن عَائِشَة.

كَيْفَ يجد الرَّجل على زَوْجَته رجلًا ثم يذهب يطلب أرْبَعة شهود لا يأتيه إلا وقد فرغ فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: والله لأضربنه بالسَّيف غير مصفح، أي أضربه بالسَّيف بحده حَتَّى أقتله، فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ وَاللهِ إِنِّي لَأَغْيَرُ مِنْهُ وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي**»(١).

ويدُلّك على صِحَّة هَذَا كَيْفَ أوجب الله لهَؤُلَاءِ القاذِفين أن يُلعنوا في الدُّنْيَا والْآخِرَة، وأن لهم عَذابًا عَظِيمًا، ولهَذَا جاء الشَّرع بما أَرَادَه سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإن الْإِنْسَان لو وجد والعِيَاذ باللهِ إنسانًا على امرأته فله أن يقتله سواء كَانَ هَذَا الفاعل محصنًا أو غير محصن، ولا يحتاج أيضًا إلى مدافعة، بل نقول إِذَا عجز عن انكفافه فله قتله، بل له مباشرة؛ لأَن هَذَا لَيْسَ من باب دفع الصَّائل، ولكنه من باب الغيرة على محارمه.

ولهَذَا وقعت قصة في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واختصموا إلَيْه ولم ينكروا ادعاء الزَّوج بأنه وجده على امرأته لأَنَّه قَالَ: يا أمير الْمُؤْمِنِينَ! أنا ما ضربت إلا فخذي امرأتي فإذا كَانَ بينهما أحد فقد قتلته، فأخذ السَّيف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال له: إن عادوا فعد(٢). ولم ينكر علَيْه هَذَا الفِعْل لأَن هَذَا الْإِنْسَان لا يتحمَّل أن يجد إنسانًا ينتهك محارمه إلى هَذَا الْحَدّ حَتَّى يقتله.

فعَلَى كُلِّ حَالٍ في هَذِهِ الآيَة إِثْبات غَيرة الله عَزَّوَجَلَّ ووجه هَذَا أَنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حمى أعْرَاض عباده الْمُؤْمِنِينَ المحصنين الغافلين بهَذِهِ العُقوبَة العَظِيمَة وهي اللعن في الدُّنْيَا والْآخِرَة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب من رأى مع امرأته رجلا فقتله، رقم (٦٨٤٦)، ومسلم: كتاب اللعان، رقم (١٤٩٩).

(٢) المغني (٩/ ١٥٣).

الفَائِدة الثَّالِثَة: هل يُستَفاد من الآيَة جَواز لعن القاذِف للمحصنة الغافلة المُؤْمِنة؛ لقَوْلهُ: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ أو أن هَذَا بَيان لواقع الْأَمْر أن النَّاس يَلْعَنونهم ويكرهونهم ويبعدونهم عن مجالسهم وعن مخالطتهم؟

الحَقيقَة أن الآيَة محتملة، ومثله قَوْلهُ ﷺ: «**اتَّقُوا المَلاعِنَ الثَّلاثَة: البُرَاز فِي المَوَارِدَ وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ وَالظِّلِّ**»[1]، ورواية مسلم «**اتَّقُوا اللَّعَانَيْنِ**»، قَالُوا: وَمَا اللَّعَانان؟ قَالَ: «**الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ فِي ظِلِّهِمْ**»[2]، فسمى ذَلِك لعنًا.

فهل المَعْنى أن هَؤُلَاءِ النَّاس الَّذينَ يفعلون هَذَا الفِعْل ينفر النَّاس منهم ويبعدونهم ويتخلون عن أخلاقهم أو يجوز أن نلعنهم ونقول: اللهم الْعَنْ من تخلى في طريق النَّاس أو ظلهم، وهنا نقول: اللهم العن من قَذف مُحصنة غافلة مؤمنة؟

الظَّاهِر أن الْأَمْر يتناول هَذَا وهَذَا، يتناول الْأَمْر الواقِع أن النَّاس يَلْعَنونهم بالفِعْل ويبعدون عنهم ويبعدونهم من مجالسهم وأنه يجوز لِلإنْسان أن يَلْعَن من قذف محصنة غافلة مؤمِنة لأَن الله لعنه، فالدُّعاء علَيْه بِاللَّعْنِ من باب تحقيق ما أخبر الله به.

• • ۞ • •

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الطهارة، باب المواضع الَّتِي نهى النَّبِيّ ﷺ عن البول فيها، حديث رقم (٢٦)؛ وابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب النهي عن الخلاء على قارعة الطريق، حديث رقم (٣٢٨)؛ وأحمد (١/ ٢٩٩) (٢٧١٥)، عن معاذ بن جبل.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب النهي عن التخلي في الطرق والظلال، حديث رقم (٢٦٩)، عن أبي هريرة.

الآيــة (٢٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤].

قَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نَاصِبُهُ الاسْتِقْرَارُ الَّذِي تَعَلَّقَ بِهِ ﴿وَلَهُمْ﴾]. اهـ. (يوم)، لـم يجعلها الْمُفَسِّر متعَلِّقة بـ(لعنوا في الدُّنْيَا والْآخِرَة) جعلها متعَلِّقة بالاستقرار الَّذِي تعلق به الجارّ والمَجْرور لأَنَّ لهم عَذابًا عَظِيمًا، إِعْرابها: (لهم) جار ومجرور خبر مقدم و(عَذاب) مُبْتَدَأ و(عَظِيم) صفة، والجارّ والمَجْرور إِذَا كَانَ خبرًا لا بُدَّ أن يَتعلَّق بمحذوف، إما أن تقدره فعلًا وإما أن تقدره اسم فاعل فتقول: استقر لهم أو مستقر لهم، قَالَ ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ[1]:

وَأَخْبَرُوا بِظَرْفٍ أَوْ بِحَرْفِ جَرْ ... اوِينَ مَعْنَى كَائِنٍ أَوِ اسْتَقَرْ

(كائن) هَذِهِ اسم فاعل و(استقر) فعل.

لكن هل الجارّ والمَجْرور هو الخبر أو متعَلِّق الجارّ والمَجْرور هو الخبر؟

الجواب: متعَلِّقه، لكن هم يَقُولُونَ: الجارّ والمَجْرور خبر من باب التسامح والتجوز، والخبر هو المحذوف الَّذِي تعلق به الجارّ والمَجْرور، تقديره كما تقدَّم مستقر لهم عَذاب عَظِيم أو استقر لهم عَذاب عَظِيم.

---

(١) البيت رقم (١٢٣) من الألفية.

والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُول في التفسير: [نَاصِبُهُ الاسْتِقْرَارُ] الَّذِي تعلق به الجارّ والمَجْرور (لـهم) وهو الاستقرار الَّذِي قدرناه وقُلْنا: تقديره مستقر لـهم أو تقديره استقر لهم يومئذٍ.

قَوْلهُ: ﴿تَشْهَدُ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّة ﴿عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مِنْ قَوْل وَفِعْل وَهُوَ يَوْم الْقِيَامَة] اهـ.

متى يَكُون هَذَا الْعَذَاب العَظِيم؟

الجواب: يَكُون ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ الآيَة، يعني اليوم الَّذِي تشهد فيه هَذِهِ الجَوارِح هو يوم القِيامَة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: ﴿تَشْهَدُ﴾ [بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّة] اهـ. يعني أن في الآيَة قراءتين: ﴿تَشْهَدُ﴾ و«يَشْهَدُ»[1]، وَذلِك لأَن أَلْسِنة جمع تكسير وجمع التكسير يجوز فيه التذكير والتأنيث تقول: «قَالَ الرِّجَال، وقالتِ الرِّجَال» فـ(تَشْهَدُ) مؤنث و(يَشْهَدُ) مذكر وكلاهما جائز.

قَوْلهُ: ﴿أَلْسِنَتُهُمْ﴾ جمع لسان ﴿وَأَيْدِيهِمْ﴾ جمع يد ﴿وَأَرْجُلُهُم﴾ جمع رجل ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ قَوْل وَفِعْل]، استفدنا من كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَائِدَة عَظِيمة وهي أن العَمَل يشمل القَوْل والفِعْل بخلاف الفِعْل، ولهَذَا نجعل القَوْل قسيمه الفِعْل، لا تقول: قَوْل وعمل، إِذَا أردت أن تحرر تمامًا تقول: قَوْل وفعل، ويجوز قَوْل وعمل، لكن على سبيل التَّجوُّز.

فإذا قِيلَ: قَوْل وعمل من باب التَّقسيم لكنَّه تَجَوَّز بإطلاق العَمَل على أحد معنييه وهو الفِعْل.

---

(١) حجة القراءات (ص:٤٩٦).

إِذَنْ العَمَل يطلق على القَوْل وعلى الفِعْل بل قَالَ أهل السُّنَّةِ والجَماعة في بحثهم في الإِيمَان: إن العَمَل يشمل عمل اللِّسَان وهو القَوْل وعمل الجَوارِح وهو الفِعْل وعمل الْقَلْب أيضًا، عمل الْقَلْب مثل خوفه ورجائه ومحبته وما أشبه ذَلِك، يعني الحركة الْقَلْبية.

فإذا قِيلَ: عمل يشمل القَوْل والفِعْل، وإذا أردت أن تُقَسِّم تقول قَوْل وفعل إِذَا سمعت عِبارَة فيها قَوْل وعمل فاعلم أن هَذَا من باب التجوُّز؛ تجوز بالعَمَل عن الفِعْل، وإلا فالأَصْل أن الفِعْل قَسيم القَوْل لا أن العَمَل قسيم القَوْل، والفَرْق عَظِيم إِذَا قلت: عمل يشمل القَوْل والفِعْل، وإذا قلت: فعل يختص بالفِعْل الَّذِي هو عمل الجَوارِح والقول عمل اللِّسَان، فالعَمَل يشمل قَوْل اللِّسَان وفعل الجَوارِح لكن الفِعْل يختص بفعل الجَوارِح فقط.

وقَوْلهُ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ اللِّسَان يشهد على الْإِنْسَان لكن كَيْفَ يشهد؟

يَقُول لهَذَا القاذِف للمحصنة الغافِلة المُؤْمِنة: إنك قذفتها، لسانه نفسه يَقُول: إنك قذفتها، مع أن العَمَل في الدُّنْيَا عمل اللِّسَان في الحَقيقَة، ومع ذَلِك يشهد اللِّسَان على صاحبه بهَذَا القَوْل الَّذِي هو القَذْف.

قَوْلهُ: ﴿وَأَيْدِيهِمْ﴾ أيضًا تشهد عليهم ﴿وَأَرْجُلُهُم﴾ كَذلِكَ تشهد عليهم، وقد ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن هَذِهِ الأعضاء تشهد على الْإِنْسَان يوم القِيامَة وكَذلِك ذكر أن الجلود تشهد أيضًا وأنه يحصل محاورة بين الْإِنْسَان وبين جلده قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت:٢١].

لو قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ الجمع بين قَوْلِه تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ وبين قَوْلهُ وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [يس:٦٥]؟

الجواب: المُراد بالخَتْم على الأفْواه بحيثُ لا ينكرون، ولا يُنافي أن تشهد الألْسُن بما يضاد مراده، يعني أن اللِّسَان يدافع عنهم ولكن يشهد بخلافه، فيصير اللِّسَان لسانين: لسان شاهد وموافق للجوارح وهو المَقْصُود بهَذِهِ الآيَة، ولسان آخر منكر وهو موافق لمراد صاحبه، فلو أنكر إِنْسَان باللِّسَان الَّذِي يتابعه بإرادته، نفس اللِّسَان يشهد عليه، والحِكْمَةُ والله أعلم من ذكر اللِّسَان لأَن القَذْف إنما حصل به، ولهَذَا قدمه على الأيدي والأرجل.

أو يُقالُ: إن القِيامَة مواقِف؛ لأَن يوم القِيامَة بخمسين ألف سنة، فتارة كذا، وتارة كذا، مثلما جمع ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بين قَوْله تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء:٤٢]، فقَوْلهُ: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ يعني: كُلُّ شَيْء يخبرون به، وقال في آية أُخْرَى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام:٢٣]، وهَذَا جُحود، فكَيْفَ نجمع بين الآيتين؟

الجواب: أن نقول إن القِيامَة مواقِف، وهَكَذا أيضًا جمع بعض العُلَماء بين قَوْله تَعَالَى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:١٠٢]، وقَوْلهُ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦]، فهُنا سواد وهناك زرقة.

والجمع: منهم من قَالَ هَذَا باعتبار مواقِف القِيامَة، ومنهم من قَالَ: إن الزرقة في العيون والسَّواد في الوجوه، ومنهم من قَالَ: إن النَّاس يختلفون، الْكُفَّار منهم أزرق ومنهم أسود، عَلَى كُلِّ حَالٍ أَهْل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ لجئوا إلى الجمع بين الآيَات

الَّتِي ظَاهِرها التعارض يوم القِيامَة بأن يوم القِيامَة لَيْسَ ساعة واحدة حَتَّى تتعارض فيه الآيَات، يوم القِيامَة خمسين ألف سنة تختلف فيه الأَحْوال.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: تمام قدرة الله عَزَّوَجَلَّ حيث إن هَذِهِ الأعضاء تنطق مع أن النُّطق في العادة باللِّسَان لكن يَكُون النُّطق بكل شَيْء إِذَا أَرَادَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولهَذَا تقول الجلودُ أنطقنا اللهُ الَّذِي أنطقَ كُلَّ شَيْء.

الفَائِدة الثَّانية والثَّالِثَة: إِثْبات البعث وإِثْبات الجزاء.

الفَائِدة الرَّابِعَة: أن الجزاء من جنس العَمَل؛ والدَّليل قَوْلهُ: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤]، استشهد بما كانوا يعملون لا بزيادة ولا بنقص.

الآيــة (٢٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور:٢٥].

قَوْلهُ: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يُجَازِيهِمْ جَزَاءَهُ الْوَاجِب عَلَيْهِمْ ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ حَيْثُ حَقَّقَ لَهُمْ جَزَاءَهُ الَّذِي كَانُوا يَشُكُّونَ فِيهِ وَمِنْهُمْ عَبْد الله بْن أُبَيّ، وَالْمُحْصَنَات هُنَا أَزْوَاج النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُذْكَر فِي قَذْفهنَّ تَوْبَة وَمَنْ ذُكِرَ فِي قَذْفهنَّ أَوَّل سُورَة التَّوْبَة غَيْرهنَّ] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿يُوَفِّيهِمُ﴾ بمَعْنى يعطيهم وافيًا، تقـول: وَفّيته حقه؛ أي: أعطيته إيـاه وافيًا.

وقَوْلهُ: ﴿دِينَهُمُ﴾ أي: جزاءهم، والدِّين كما أسلفنا كثيرًا يُطلق على العَمَل وعلى جزاء العَمَل، فمن إطلاق الدِّين على العَمَل قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، فلَيْسَ المُراد بالدِّين هُنا الجزاء وإنما المُراد العَمَل الَّذِي تدينون الله به، ومثل قَوْله تَعَالَى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة:٤]، ما المراد؟ المُراد: الجزاء.

فالدِّين إِذَنْ يُطلق ويُراد به العَمَل والجزاء على العَمَل ومنه قولهم: كَمَا تَدِينُ تُدَانُ، يعني كما تعمل تجازى، إِذَنْ معنى ﴿دِينَهُمُ﴾ أي: جزاء عملهم.

وقَوْلهُ: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ بمَعْنى العَدْل وَذلِك لأَن (الحَقّ) إن قِيلَ في مقابلة الخَيْر فهو بمَعْنى الصِّدق، وإن قِيلَ في مقابلة الحُكْم سواء كَانَ الحُكْم تَشْريعيًّا أو جزائيًّا فمعناه العَدْل، هُنا قِيلَ في مقابلة حكم جزائي، وعلَيْه فيكُون المُراد بالحقِّ يعني العَدْل الَّذِي لَيْسَ فيه ظلم ولا جور، وهَكَذا جزاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يكُون دائمًا حقًّا يعني عدلًا لَيْسَ فيه جور.

لو قَالَ قَائِلٌ: جزاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالحسنات الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كَثيرَة هل ينافي هَذِهِ الآيَة أو لا؟

الجواب: لا ينافيها؛ لأَن هَذَا عدل وزيادة، فكون الله يجازي العامِل أكثر من عمله هَذَا عدل وزيادة، لكن كون الإِنْسَان يجازي غيره على عمل سيئ فيعاقبه بأكثر مما يستحق هَذَا جَوْر، فالله تَعَالَى منزه عن الأَخِير لأَنَّه جَوْر، لكن الأَوَّل فضل من الله والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذو الفَضْل العَظِيم.

قَوْلهُ: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ في هَذِهِ الجُمْلَة مؤكدان وإن شئنا قُلْنا: ثلاث مؤكدات: (أنَّ)، وضمير الفصل والمؤكد الثَّالث الجُمْلَة المكونة من مُبْتَدَأ وخبر كلاهما معرفة، وكون المبتدأ والخبر معرفة هَذَا يُفيد التَّوكيد والحصر، إِذَنْ فالله تَعَالَى هو الحَقّ مؤكد بهَذِهِ المؤكدات الثَّلاث، لكن ما معنى كون الله حقًّا؟

الجواب: أولًا: وجوده حق أي: ما يستحقه من الحقوق حق كالعِبادَة مثلًا فهو الإله الحَقّ، ما صدر عنه من خبر أو حكم فهو حق.

إِذَنْ فهو الحَقّ في ذاته وجودًا واستحقاقًا وكَذلِك أحكامًا، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ موجود حقًّا وهو المستحق لِمَا يختص به حقًّا لا يشاركه أحد فيه، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يصدر عنه إلا الحَقّ يعني أحكامه، وأفعاله كلها حق.

إِذَنْ وجه الأحقية لله عَزَّوَجَلَّ من وجوه ثلاثة: أولًا: لِوُجوده فإن وجوده حق فهو أحق الأَشْيَاء وجودًا ولهَذَا جميع الفطر السَّليمة تشهد به وكَذلِك العقول الصَّريحة، يعني الخالصة من الشُّبُهَات والشَّهَوَات تشهد به، ثانيًا: وكَذلِك أيضًا ما يصدر عنه فهو حق، ما يصدر عنه من خبر أو حكم فما أخبر به فهو حق وما حكم به فهو حق سواء كَانَت الأَحْكام هَذِهِ تَشْريعية وهو ما يشرعه للعباد، أو جزائية وهو ما يجازي به العباد.

هل نقول: أو قدريًّا لأَن الأَحْكام القدريَّة أيضًا تعتبر حكمًا مثلما قُلْنا: إن الحُكْم قسمان: كوني وقدري؟

الجواب: في الحَقيقَة أنَّه لا بُدَّ أن يضاف أن ما يصدر عنه من أحكام جزائية أو كونية أو تَشْريعية فهي حق.

وأيضًا ما يستحقه من الْأُمُور فهو حق يعني من كمال الصِّفات والعِبادَة، يعني كون الله يختص بأشياء لا يشاركه فيها غيره هَذَا أيضًا حق، ولهَذَا يَقُول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الحج:٦٢].

والثَّالث: أفعاله كلها حقّ.

قَوْلهُ: ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ من (أَبَانَ) يعني من الفِعْل الرُّباعي، وهل (أبان) بمَعْنى أظهر أو بمَعْنى ظهر؟ (أبان) الفِعْل الرُّباعي يصح أن يستعمل متعديًا ولازمًا فيستعمل لازمًا بمَعْنى (بان) ومتعديًا بمَعْنى (بان) أي ظهر هُنا.

﴿ٱلْمُبِينُ﴾ هل المَعْنى البيِّن الأحقية أو المَعْنى الَّذِي أبان لخلقه أنَّه حق أو كلاهما؟

الجواب: كلاهما، الواقِع أن الله تَعَالَى بَيِّن الأحقية وقد أبان لعباده كونه حقًّا كما في قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩].

والحاصل أن كَلِمة مبين تستعمل من المتعدي واللازم؛ لأَن أصلها أبان رباعي والَّذِي يستعمل لازمًا ومتعديًا، فإن كَانَ لازمًا فهو بمَعْنى بَيِّن ومنه قَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وإن كَانَت من المتعدي فهي بمَعْنى مظهر، مظهر للشَيْء، فأبنته بمَعْنى أظهرته حَتَّى بان ومنه قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩]، أي: مظهر؛ لقَوْلهُ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس:٧٠].

وكَذلِك قَوْله تَعَالَى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء:١٩٥]، بمَعْنى مظهر وإن كَانَ من اللازم أنَّه إِذَا كَانَ مظهرًا فهو ظاهر في نفْسِه، فالمبين بمَعْنى المظهر لا بُدَّ أن يَكُون بينًا بنَفْسِه وإلا لما أظهر.

قَوْلهُ: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ هَذِهِ الآيَة هل ننزلها على المبين اللازم أو المبين المتعدي؟

الجواب: في الحَقيقَة تنزل على كليهما؛ لأَن الله تَعَالَى بَيِّن الأحقية ومبين ذَلِك لعباده، كَيْفَ أبان لعباده أنَّه حق؟ أولًا: بما ركب فيهم من الفطر السَّليمة والعقول، ولهَذَا دائمًا يحيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذِهِ الْأُمُور إلى العَقْل فقَوْلهُ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص:٦٠]، دَليل على أن العَقْل مرجع، لكن المُراد بالعقل العَقْل السَّليم الَّذِي لَيْسَ فيه شبهات ولَيْسَ فيه شهوات، وأما العَقْل الَّذِي استولت علَيْه الشُّبُهَات أو الشَّهَوَات فهَذَا عقل فاسد لا يحكم بشَيْء.

أيضًا أبان الحَقّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بغير العَقْل بالفطرة فإن الفطرة السَّليمة تشهد بالحق، وأبان الحَقّ بالوَحْي الَّذِي أرسل به الرُّسل، فتكون إبانة الله تَعَالَىٰ للحق بهَذِهِ الطرق الثَّلاث وهي: العَقْل والفطرة والوَحْي.

كُلُّ هَذِهِ الطرق الثَّلاث يتبَيَّن بها الحَقّ ولِذَلك يضرب الله الأمثال للنَّاس لأجل أنهم يعتبرون المورد والمضرب؛ أي: مورد المثل ومضربه، فيعتبرون بهَذَا على هَذَا، والله أعلم.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٢٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [النور:٢٦].

قَال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ ﴾ مِنَ النِّسَاءِ وَمِنَ الْكَلِمَاتِ ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ مِنَ النَّاسِ ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ ﴾ مِنَ النَّاسِ ﴿لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ مِمَّا ذُكِرَ ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ مِمَّا ذُكِرَ ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ مِنَ النَّاسِ ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾ مِنْهُمْ ﴿لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ مِمَّا ذُكِرَ أَيْ اللَّائِق بِالْخَبِيثِ مِثْلُه، وَبِالطَّيِّبِ مِثْلُه، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الطَّيِّبُونَ وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ النِّسَاءِ وَمِنْهُمْ عَائِشَةُ وَصَفْوَانُ ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أَيْ الْخَبِيثُونَ وَالْخَبِيثَاتُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِيهِمْ ﴿لَهُم﴾ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبَاتِ ﴿مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فِي الْجَنَّةِ وَقَدِ افْتَخَرَتْ عَائِشَةُ بِأَشْيَاءَ مِنْهَا أَنَّهَا خُلِقَتْ طَيِّبَةً وَوُعِدَتْ مَغْفِرَةً وَرِزْقًا كَرِيمًا].

مَن حَكمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّه جعل الأَشْياء مُتناسِبةً مُتشاكِلةً، كلُّ شيْءٍ لهُ ما يُناسِبُه في الدُّنيا وفي الآخِرَة، كَما قَال تَعالَى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾ [الصافات:٢٢]، أَزْواجَهم يعْنِي أشكالَهم ونُظَراءَهم، وكلُّ شيْءٍ مِن حِكْمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّه جعلَه يُشاكِل الآخَر ويَمِيلُ إلَيْه.

ومِن جُمْلة هذِه القَاعِدَة الَّتي ذكَرها اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعْدَ ذِكْر ما تقدَّم من قِصَّة الإِفْك، وما جَرى لهؤُلاءِ الَّذين أرادُوا أنْ يدنِّسوا فِراش رَسُولِ الله ﷺ،

ويطْعَنوا في أهلِه وفي أَصْحابِه كَما سبَق.

ومنَ المعْلُوم أنَّ أطيبَ الطَّيِّبين منَ الخلْق هُو النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلا يُمكِن أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجعَل تحْتَه امرأةً خَبِيثَة؛ ولهَذا قَال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفسَّره المُفسِّر: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ مِنَ النِّسَاء وَمِنَ الْكَلِمَات ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾) بمَعْنى أن الخَبيثَ يكونُ عنْدَه خَبِيثةٌ، ولا يُمكِن أن تكونَ الطَّيِّبة عنْدَ الخَبيثِ، وكذَلِك لا يُمكِن أن تكونَ خَبِيثَةٌ عنْدَ طيِّب.

مثالُ ذَلِك: لو فُرض أن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حصل منْها ما رُمِيَت به، لكانت خَبِيثَةً تحت طيِّبٍ، وهَذا لا يُمكِن؛ لأنَّ الخَبيثاتِ هُنَّ للخَبيثِين.

وقوْله: [منَ النِّسَاء] هَذا واضِحٌ، و[منَ الكَلِمات] يَعْني كذَلِك أيضًا لا يَنطق بالكَلِمات الخَبيثة ولا يستَحِقُّ أن يُوصَف بها إلا مَن كان خَبِيثًا، فعَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لا يُمكِن أن تُوصَف بما رُمِيت به؛ لأنَّها طيِّبةٌ ولا يلِيقُ بها إلَّا الطَّيِّب منَ الكَلِمات.

وهَكَذا أيضًا ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾، فلو أنَّ شخصًا رَمى بالزِّنا رجلًا عنْدَ امرأةٍ طيِّبة، نَقُول: هَذا أيضًا لا يُمكِن؛ لأنَّه لا يُمكِنُ أن يكُونَ خَبِيثٌ إلا لخَبِيثَةٍ، وهَذا من حِكْمَة الله عَزَّ وَجَلَّ.

إذَنْ فهَذِه قَاعِدَةٌ عامَّةٌ، وعلَيْها فقد صارَتِ المراحِيضُ ومواضِعُ الأَذى مأوَىً للشَّياطِينِ، والمساجِدُ والأماكِنُ الطيِّبة مأوىً للملائِكَة، بل نَزِيد على ذَلِك أن النَّفْس الطَّيِّبة يقْتَرِن بها الطَّيِّب، فتؤيِّدُها الملائِكَةُ، والنَّفْس الخَبيثَةُ يقْتَرِن بها الخَبيثُ، فالإِنْسان السيِّءُ الزَّائِغ يُسلَّط علَيْه قرينٌ حتَّى يكون مصاحبًا له فيُغْرِيهِ ويُضلُّه، والنَّفْس الطَّيِّبة يُعينُها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على قَرينِها، حتى يُسلِّم، وحتَّى لا يأمُرَها بشَرٍّ.

كل هَذا موافقَةً للقَاعِدَة الَّتي هي حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ.

قوْله: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ أي منَ النِّسَاء ومنَ الكَلِمات أيضًا ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ يَعْني ما يَلِيق بهم إلا هَذا، فلا يَلِيق بالطَّيِّب إلا الكَلِماتُ الطَّيِّباتُ والنِّسَاءُ الطَّيِّباتُ، ولهَذا فإنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ طيبٌ لا يقْبَل إلا طيِّبًا[1]، فلو تصدَّق إنسانٌ بمالٍ كَثيرٍ مِن كسْبٍ حرَامٍ فإنَّ اللهَ لا يقْبَلُه؛ لأنَّه خَبيثٌ والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ طيِّبٌ لا يقبَل إلا طيِّبًا.

وتأمَّلْ هَذِه القَاعِدَة العامَّة تجدْها في كلِّ شيْء.

فإن قِيل: ولكنَّ الآياتِ الَّتي قبلَ هَذِه الآيَةِ جاءَت فِيها مسألَةُ اللِّعان، وهِي لا شكَّ تنْتُج من اجتماعِ زوجَةٍ خَبِيثَةٍ تحْتَ زوْجٍ طيِّبٍ؟

قُلْنا: لا تكونُ المرأةُ خَبِيثَةً في مسألَة اللِّعانِ إلَّا لو ثبتَتْ علَيْها هذِه التُّهمَة، وإذا ثبتت فإنَّ هَذا أمرٌ نادر، وفي اللِّعان لو لَاعَن الزَّوجُ ثبَت الحدُّ حتَّى ولو لم يأتِ بأرْبَعة شُهداءَ، بخلَاف غيْرِه.

والقَواعِدُ العامَّةُ لا ينقُضها اختلافُ فرْدٍ مِن أفرَادِها، فقدْ تتوفَّرُ الأَسْباب لكِنْ تُوجَدُ معَها موانِعُ تمْنَع هَذه الأَسْباب، كما يَرِد علينا كَثيرًا أنَّ الشَّارِع جعَل هَذا الأمْرَ سببًا لكِن قد يتخلَّف حُكْمه لوُجودِ مانِعٍ أقْوَى منَ السَّبب، وكذَلِك في بعْضِ الأحْكَام الشَّرْعية قد تُوجد أَسْباب الصِّحَّة وأَسْباب الاستِحْقاق، لكِنْ يُوجَد مانِعٌ يمْنَعُها، وهَذا كَثيرٌ في الأحْكَام الشَّرْعية، وفِي الأخْبَار، وفِي القَواعِد العامَّة.

قوْله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الإشارَة إلى الطَّيِّبين والطَّيِّبات ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم (١٠١٥).

أيْ مما يُقَال فِيهم، ومثَّل المُفسِّر لـهم بعَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وصفوانَ بْن أميَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذي قد رُمي بها كما وَرد فِي القِصَّة.

لكِن قِصَّة الإِفْك في حَقِيقتها لَيْست طعنًا في عَائِشَة وصفوانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقَط، ولكنَّها طعْنٌ فِيهما وفي النَّبيّ ﷺ وفي أَبي بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهؤُلاءِ الطَّيِّبون مُبرَّؤون مما يُقَال فيهم.

قوْله: [﴿لَهُم﴾ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبَات ﴿مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فِي الْجَنَّة]، أي هؤُلاءِ لهم مَغْفِرة عَلى ذُنوبِهم، ورزقٌ كَريم على طاعَاتِهم، فإنَّ الذَّنب يناسِبُه المَغْفِرة، والأعْمال الصَّالحة يناسِبُها الرِّزق الكَريم؛ لأنَّ مَن فعل حسَنةً يُجْزى بعشْر حسناتٍ إلى سبْع مئة ضعفٍ إلى أضعافٍ كَثيرَةٍ، فنفهم من هَذا أن هؤُلاءِ الَّذين قِيل علَيْهم ما قِيل قد حَصل لهم تكْفِيرُ سيِّئات ومَغْفِرةُ ذُنوب وكذَلِك رِفعَة درجاتٍ، وهَذِه أيضًا فرْدٌ مِن أفْـراد القَاعِدَة العامَّة من أنَّه لا إنسانَ يُصيبُه هـمٌّ ولا غـمٌّ ولا أذَىً إلا كفَّر الله عنه بذَلِك حتَّى الشوكةُ يُشاكها[1]، يكفِّر الله بها عنه.

وهل يُرفع للْمَرء بما يُؤذِيه درجاتٌ؟

نَقُول: لو أنَّه تلقَّى هَذا الأذَى بالصَّبر علَيْه فإنَّه يُرفع لهُ بِها درجَاتٍ، وإلَّا كانت تكفيرًا لسيِّئاتِه فقط؛ ووجْه ذَلِك أنَّ ما أصابَهُ منَ الأَذى ليْسَ بيَدِه، وإنَّما منَ الله عَزَّوَجَلَّ، وعلَيْه فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لن يجْمَع على المرْء بيْن العُقوبَتَيْن، فيُكفِّر بها عنْه مِن سيِّئاتِه، ثم إذا هُو صَبر على هَذا الأَذى يكُون قد حصَل منْه فعِلٌ فيُجزى علَيْه خيرًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، رقم (٥٦٤٠)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن، رقم (٢٥٧٢).

وهنا قَال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فهؤُلاءِ أُصيبوا مُصيبةً عظيمةً، ولا شكَّ أنَّهم صَبروا حتَّى فرَّج الله عنهم هَذِه الغُمَّة، فكان جزاءُ ما أُصِيبوا بِه في هَذِه القضيَّة أن حصَلَتْ لـهم المَغْفِرة، وفي مُقابلَةِ الصَّبْر حصَل لـهم الرِّزق الكَريم.

ووَصْف الرِّزق هنا بأنَّه كَريمٌ ليْس لأنَّه ذو شُعُور فيُوصَف بالكَرم، فالرَّجُل مثلًا لَه شُعُور وإرادَةٌ فيَجُوز أن يُوصَف بالكَرم، لكنَّ اليَوْم قد وُصف هُنا بالكَرم رغم أنَّه لا إرادةَ له؛ لأنَّ المرادَ بالكَريم هُنا الشَّيْء الطَّيِّب الحَسَن، كما في قوْل النَّبيّ ﷺ لمعاذ: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»[1]، وكرائِم جمع كَريمة.

إذِن فالرِّزق الكَريم هو الرِّزق الحَسَن، ويشْمَل هَذا الشَّيْء الكَثير.

من فوائد هَذِه الآيَة:

الفَائِدَة الأُولى: إثبات الحِكْمَة لأحْكَام اللهِ عَزَّوَجَلَّ الشَّرْعيَّة والقدَرِيَّة؛ فهَذِه الآيَة جمعت بيْن أحْكَامٍ شرعيَّةٍ وقدَريَّةٍ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ منَ النَّاحية القدرِيَّةِ جعل لكلِّ شيْءٍ ما يُناسبه، وكذَلِك منَ النَّاحية الشَّرْعيَّة يَنْبغي أن نُنزل لكُلِّ شيْء ما يُناسِبُه.

الفَائِدَة الثَّانية: أنَّه يجِب عَلى الإِنْسان أن يُنْزِل النَّاس منازِلـهم، فلا يصِفُ الطَّيِّبَ بالخُبْث، ولا الخَبيثَ بالطَّيِّب؛ لأنَّ في هَذا معاكَسةً للقدَر والشَّرْع معًا، مع أنَّه يتضمَّن مفاسِد حين تصِفُ شخصًا خَبيثًا بالطَّيِّب فتكُون بذَلِك رفعْت عنه وصفه كذبًا وزورًا، ثم إنَّك لو فعلْت هَذا تكون قد خدَعت النَّاس به، فالطَّيِّب يُوصَف بالطَّيِّب، والخَبيث يُوصَف بالخُبْث، ولا يجوز للإِنْسان أن يتعدَّى ذَلِك.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في فقرائهم، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

الفَائِدَة الثالثة: فيها دَليلٌ على أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبَرِّئ أهل الرَّجُل الطَّيِّب العَفيف منَ الخُبْث؛ لأنَّ الطَّيِّبات للطَّيِّبين، والطَّيِّبون للطَّيِّبات، وهَذا من حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ، أن الإِنْسانَ كُلَّما كان طيِّبًا نظيفًا وطاهرًا، فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُهيِّئ له أهلًا بهَذِه المثابة جزاءً وِفاقًا، والأمْرُ كذَلِك بالعَكْس فيما لو كان خَبِيثًا، ولا سيَّما فيما يتعلَّق بالعِفَّة.

وهَذا شيْء لو تأمَّله الإِنْسانُ لوجده كَثيرًا، لا نَقُولُ أنَّه مُطلَقٌ وعامٌّ، فهَذا لا يمْنَع أن يكونَ هُناك حالاتٌ مسْتُثناة، وإنَّما هَذا هو الغَالِب في الواقِع، أنَّ المرْء ذا الخُلُق الخَبيث يكون أهلُه كذَلِك؛ لأنَّه لم يحْمِ نفسَه حتى يحمِيَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

الفَائِدَة الرَّابعة: وفيها دَليلٌ على أنَّ مِن رحَمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّه يدافِع عمَّن لا يستحِقُّ ما وُصِف به من أوْصافٍ خَبِيثَة؛ لأنَّ هَذِه الآيَة دِفاعٌ بيِّنٌ واضِح عنْ عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الفَائِدَة الخامِسَة: فيها دَليل على أنَّ مَن أُصِيب بمصيبةٍ قوْليَّة أو فعلَيَّه فإنَّ الله تَعالَى يَغْفر له، فإِنْ صَبر فلَهُ أجْر أيضًا.

الفَائِدَة السَّادسة: أنَّ مِن رحْمَة الله عَزَّوَجَلَّ بالإِنْسان الطَّيِّب أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يدْفَع عنه أَسْباب الشرِّ، كما أنَّه يحمِيه عن الفِتَن، ومنَ الدَّفع عنه بالأحكام الشَّرْعيَّة حدُّ القذف.

وكذلك يُهيِّئ له ما يحْمِيه منَ الأُمور القدرية، وأَذْكُر هنا قِصَّة جرَت على رجُلٍ مِن مدينَتِنا، وقدْ كان هَذا الرَّجُل معروفًا بالوَرَع، الَّذي يُعتَبر مِن أكْمَل ما يكُون، ذَهب في يوْمٍ ليَحْمِل من أرضِه خشبًا لأهْلِه، وكان جارُه في الأرْض قد جمَع كوْمَةً

لهُ مِن خشب، فأَنَاخ هَذا الرَّجُل عنْد خشب جارِه ليَحْمِله وهو يظنُّه خشبَه، فلمَّا حمله على بَعيرِه وأرادَ أن يُقوِّمه رفض البعيرُ أنْ يقُوم، فنزَّل الحِمْل كلَّه فقام البعير، فلمَّا تأمَّل حولَه عرف أنَّه كان قد حَمل على البَعِير خشبَ جارِه، فوقَاه الله عَزَّوَجَلَّ أن يحْمِل خشبًا ليْس له، وهَذا من حِمايَة الله عَزَّوَجَلَّ، وهَكَذا فإنَّ من حِماية اللهِ للعَبْد لو عرف من نيَّتِه الأمانَة والعِفَّة فإنَّه يُبعد عنه أَسْباب الفساد.

بخلَاف المرْء الخَبيثِ الَّذي يعلَمُ اللهُ منه أنَّه يَمِيل للشَّرِّ والفساد فإنَّه قد تتهيَّأُ له أَسْبابُ الشَّرِّ والفساد حتى يقَع فيه.

ومن أمْثِلة دفع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الخُبْث عن الطَّيِّب ما جاء في قِصَّة جُريجٍ العابِد، فقدِ اتهمَتْه امرأَةٌ بغِيٌّ في نفسِها، وجاءت بطِفْل مِن راعٍ فاتَّهمت جُريجًا فيه، لكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنطق الطِّفل في المهْدِ فأشار إلى الرَّاعي وقَال هَذا أبي، فبرَّأه الله مما اتَّهمته به[1]، وهَذا شيْءٌ قدرِيٌّ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَقَدْ افْتَخَرَتْ عَائِشَة بِأَشْيَاء مِنْهَا أَنَّهَا خُلِقَتْ طَيِّبَة وَوُعِدَتْ مَغْفِرَة وَرِزْقًا كَرِيمًا]، أي كأنَّها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا فهمت أن هَذِه الآيَة قد نزَلت فِيها، فكانَتْ تفتَخِر بها، والمرادُ بالافْتخار هنا التَّحدُّث بنعمة اللهِ، لا إظهارُ العُلوِّ على النَّاس.

فالافْتِخارُ يكونُ بوَجْهين:

الأوَّل: أن يتحدَّث المرءُ بنعمة الله عَزَّوَجَلَّ علَيْه، وهَذا افتِخار طيِّبٌ، وهو مما

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب إذا هدم حائطا فليبن مثله، رقم (٢٤٨٢)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة، رقم (٢٥٥٠).

أَمَر اللهُ به، ومنه قوْله النَّبيّ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ»[١]، ومنه ما رُوي عن صفيَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّها كانَتْ تفتَخِر على زوْاجَات النَّبيّ ﷺ أن اللهَ زوَّجَها في السَّماء[٢].

الثَّاني: أن يفتَخِر الإِنْسانُ ليُظْهر فضلَه على غيْره، ويعلوَ بِه على غيْره، وهَذا لا يجُوز، قَال الله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨]، فهَذا الفَخْر الَّذي منَ الخُيَلاء الَّذي لا يُحبُّه الله عَزَّوَجَلَّ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ، رقم (٢٢٧٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم، رقم (٧٤٢١).

الآيــة (٢٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور:٢٧].

قَال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ أَيْ تَسْتَأْذِنُوا ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ فَيَقُول الْوَاحِد السَّلَام عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ ؟ كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيث ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ مِنَ الدُّخُول بِغَيْرِ اسْتِئْذَان ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ «تَذَّكَّرُونَ»[1] بِإِدْغَامِ التَّاء الثَّانِيَة فِي الذَّال خَيْرِيَّته فَتَعْمَلُونَ بِهِ).

هَذا منَ الآداب الَّتي من شأْنِها حِماية الأعْرَاض، وهَكَذا تجِدُ أغْلَب هَذِه السُّورة في العِفَّة وما يتعلَّق بها من حِمايَة الأعْرَاض وغيْرِ ذَلِك.

ومِنْ جملة هَذا الأَدب الَّذي أدَّبنا اللهُ به: أنَّه عندما نُريد أن ندْخُل بُيوتًا غير بُيوتِنا، فيقُول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾، وتصْدِير الحُكم بالنِّداء يدُلُّ على أهميَّتِه؛ لأنَّ المقصُود بالنِّداء تنْبِيه المُخاطَب، فإذا قُلت: «يا فلان» وهو غيْرُ منتبهٍ فسينتبه، وكذَلِك فإنَّ تصدِيرَ الكَلام سواء كان أمرًا أو نهيًا أو خبرًا يدُلُّ على أهميَّة الكَلام.

---

(١) البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص:٢٢١)، والمحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها (٢/ ١١١).

وكذَلِك فإنَّ وصف المُخاطَبين هنا بالإِيمَان في قولِه تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يدُلّ على أن هَذا العَمل منَ الإِيمَان، وأن مخالَفتَه مما يُنقِص الإِيمَان، ويُراد به أيضًا الإغْرَاء على الْتِزَام الحُكْم، لأنَّ هَذا الوصْف معناهُ أنَّ الحُكم التَّالي من مُقتَضى الإِيمَان، مثل لو قِيل: «يَا رجُلُ افْعَل كذا» فهَذا يقْتَضي الحثَّ والإغرَاء لأنَّ مقتضاه أنَّ مِن رُجولَتِك أن تفْعَل هَذا الأمْر.

فصار الغَرَض مِن توْجِيه النِّداء إلى المُؤْمِنين بوَصْف الإِيمَان الحثُّ والإغرَاء على الْتِزام هَذا الحُكم، فكأنَّه يُقَال: إن كنْتَ مُؤْمِنًا فافْعَل كذا.

قَال تَعالَى: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾، (لا) ناهِيَةٌ، والأَصْل في النَّهي التَّحريم، وقوْله: ﴿بُيُوتًا﴾ عامٌّ لكونِه نكرِةً في سِياق نهْيٍ، فالمُرادُ: لا تدْخُلوا أيَّ بيْتٍ غير بُيوتِكم الَّتي تملِكُونها إلا بعْد أمْرَيْن:

الأوَّل: حتى تستَأْنِسوا.

الثَّاني: وتسلِّموا على أهلِها.

قَال المُفسِّر: [﴿تَسْتَأْنِسُواْ﴾ أَيْ تَسْتَأْذِنُوا]، وتفسِير الاسْتِئْناس بالاسْتِئْذان هو تفسيرُ الشَّيْء ببعْض أفْرادِه ليكُونَ ذَلِك كالمثَال؛ لأنَّ الاسْتِئْناس أعمُّ منَ الاسْتِئْذان، فقد يستَأْنِس الإِنْسان ولا يكونُ في قلبِه وحشَةٌ مِن دُخول هَذا البَيْت وإنْ لم يَستَأْذن، وحينها لا يكون علَيْه إلا السَّلام، كما لو دَعاك إنسانٌ إلى بيتِه بعد صلاة الظُّهر فلمَّا جئتَ وجدْتَ البابَ مفْتوحًا، فهُنا ليْس عليْك الاسْتِئْذان، ولكِن بَقِي عليْك أن تُسلِّم؛ لأنَّ الاسْتِئْذان هُنا لا محلَّ له؛ لأنَّ الرَّجُل قد دَعاك وعيَّن الوقت، وأنتَ جئْتَ فوجدْت الْباب مفتوحًا.

وبهذا نعرف أن هَذِه القِراءَة السبعيَّة أصحُّ منَ القِراءَة الَّتي وردَت عن ابْنِ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوْلِه: «حتى تسْتأذِنُوا»[1]، وكذَلِك ورَد عنه في الحَدِيث: «أنَّ كلمة ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾ خطأٌ منَ الكَاتِب»[2]، فهَذا لا يصحُّ عن ابن عباسٍ وإنْ كان قدْ ذُكر في نصِّ الحَدِيث؛ لأنَّ الكَاتِب لا يُمكِن أن يُخطِئ في حرفٍ من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ثم تتلقَّاه الأمَّةُ بالقَبُول، لأنَّه لو فُرِض هَذا الشَّيْء لاقْتضَى أنَّ الله لم يحفَظْ هَذا الذِّكر، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، فكيْف يخطِئ الكَاتِب وتتلقَّاه الأُمَّة بالقَبُول، وتقرأُ بِه في صلاتِها، وتعلِّمُه صِغارَها؟! هَذا لا يُمكِن.

ومثل هَذا الحَدِيث إذا وَرد يُمكِن إعلالُه ولو كان صحيحَ السَّند؛ لأنَّه مِن جملة ما يدُلّ على ضعْفِ الحَدِيث أن يكُون مخالفًا لما عُلم بالضَّرورة منَ الشَّرْع أن هَذا الحَدِيثَ لا يصِحُّ، فيجِب أن نحكُم ببُطلَانه؛ لأنَّه لا يُمكِن لرُواةٍ أن يأتُوا بما يخالِفُ المعلُوم بالضَّرورَة من أحكام الإِسْلام.

كما أنَّ تناقُل القرآنِ الكَريم لَيْست وسيلتُه الكتابةَ فقط، بل بالنُّطق أيضًا، ولو فرَضْنا بجَواز كِتابة شيْءٍ منْه خطأً، فإنَّ النُّطق سيَبْقى سليمًا، وهَذِه القِراءَة المرويَّة عن ابْن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لـم تصِحَّ في شيْءٍ منَ القراءاتِ السبعيَّة، بل هي شاذَّةٌ.

فتفسير الاسْتِئْناس بالاسْتِئْذان هـو من بَاب تفْسِير العـامِّ ببعْض أفـرَادِه، والمُفَسِّرون قـد يُفسِّرُون أحيانًا الشَّيْء ببعْض أفـرادِه مِن باب التَّمثيل، كما في قولِه

(١) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها (٢/ ١٠٧).
(٢) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها (٢/ ٣٩٣).

تَعالَى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾، قَال: [الباخل بالزَّكاة]، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ قَال: الباذِل للزَّكاة الواجِبَة، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [فاطر:٣٢]، قَال: البَاذل للصَّدقَة بعد الزَّكاة، فهَذا تفسِيرٌ بالمثال فقَط، لا عَلى أنَّ الآيَة يُراد بِها ما ذُكِر.

قوْله: ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ بدأ اللهُ بالاسْتِئْذان قبْلَ السَّلام، وهَذا هو التَّرتِيب الطَّبيعيُّ؛ لأنَّك لو استأذنْتَ علِمْت أنَّ في البَيْت أحدًا فتُسلِّم، فالآيَة مُرتَّبة على التَّرتيب الطبيعيِّ: الاسْتِئْذان أوَّلًا، ثم السَّلام ثانِيًا، قبل أن يتكلَّم الإِنْسان بأي شيْء.

وقَال المُفَسِّر: (فَيَقُول الْوَاحِد: «السَّلَام عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ؟»[1]، كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيث)، وهَذا الحَدِيث الَّذي ورد يُحمَل على ما لو كان المسْتَأْذِن عالمًا بأن صاحِبَه موجودٌ، فحينَئذٍ يُسلِّم علَيْه ثم يَستَأْذن، أمَّا لو كَان لا يَعْلم فيُقدِّم الاسْتِئْذان أوَّلًا ثم يُسلِّم.

ولهَذا اختلف العُلَماءُ في مسألَة: هل تسْتَأذِن أوَّلًا، أو تُسلِّم أوَّلًا؟ على أقوالٍ ثلاثَةٍ:

فمِنْهم مَن يرى تقديمَ الاسْتِئْذان على السَّلام؛ لظاهر الآيَة: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ ﴾.

ومنْهُم من يرى أن السَّلام قبل الاسْتِئْذان؛ لأحاديث وردت في ذَلِك.

ومنْهُم مَن يرى أنَّه لو علِم أنَّ صاحب البيْتِ موجودٌ فعلَيْه أن يُسلِّم أوَّلًا ثم يَستَأْذن، وأمَّا إذا لم يعْلَم بوُجودِه فإنَّه يَستَأْذن أوَّلًا ثُمَّ يُسلِّم، وهَذا القوْل أصحُّ الأقوالِ الثَّلاثَة؛ لأنَّ فيه جمعًا بين الآيَة والأحاديث الوارِدَة، ولأنَّه موافِقٌ تمامًا للنَّظر.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الاستئذان والآداب، باب ما جاء في أن الاستئذان ثلاث، رقم (٢٦٩٠).

وقوْلُه تَعالَى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الخِطاب هنا للمُؤْمِنين، ويتركَّب مِن (ذا) اسْم إِشارَة، و(كُم) للمُخاطَب الجَمْع، فاسْم الإِشارَة يكون حسَب المشَار إلَيْه، وضَمير الخِطاب يكُون حَسب المُخاطَب، فإذا كان المشَار إلَيْه مُفردًا والمُخاطَب جماعةً مُذكَّرة تقول: «ذَلِكم»، وإنْ كان المشَار إلَيْه مؤنَّثًا والمُخاطَب جمعَ مذكَّرٍ فتقول: «تلْكُم».

وفي لُغةٍ ثانيَةٍ: يجوز فِي كاف الخِطاب أن تبْقَى مفرَدَةً، مفتوحَةً للمذكَّر، مكسورَةً للمؤنَّث، سواء كُنت تخاطِب مفردًا أو مُثنًّى أو جماعَةً فتقُول: «ذَلِكَ» عنْد خِطاب مذَكَّر مفرَد أو أكْثر، وتقول: «ذَلِكِ» عند خِطاب مؤنَّثٍ مفرَدٍ أو أكثر.

وفي لغةٍ ثالثة: يجوزُ فتح الكافِ دائما، سواء كنت تخاطِب مذكَّرًا أو مؤنَّثًا، مفردًا أو جمعًا، وهَذِه أقلُّ اللغات الثلاثَةِ.

وما الخيريَّة الَّتي تترتَّب على الاسْتِئْذان والتَّسليم إذا أرَدْنا دُخول بُيوتٍ غيْر بُيوتِنا؟

فالجوابُ: الخيريَّة في هَذا فيما يلي:

١- أنَّك لا تكْشِف محارِم البَيْت، فإنَّ كلَّ أهل بيْتٍ لا يحبُّون أنْ يدْخُل علَيْهم أحدٌ وهُم في حالٍ لا يحبُّون أن يَنْظر إلَيْهم أحدٌ فيها.

٢- ألا يقع صاحِب البَيْت في إحراجٍ لو دَخل علَيْه أحدٌ دون اسْتِئْذان ولا على رغبَةٍ منه.

٣- لأنَّ هَذا أقرب لتهيُّؤِ صاحب البَيْت واستعدادِه؛ حتَّى لا يظُنَّ الدَّاخل أنَّه قد أهانَه.

٤- براءة الإِنْسان منَ التُّهمَة، وهَذا من أهَمِّ فوائِد الاسْتِئْذان، فلو دَخل المرْءُ علَى بيتٍ بدُون اسْتِئْذان فقَد يُتَّهم مثلًا بالسَّرقَة، أو بإرادَةِ الفاحِشَة.

٥- وفيه تأمينُ أهل البَيْت بالسَّلام من شرِّ هَذا الدَّاخل، مع الدُّعاء لهم بالسَّلامة، فالسَّلام معناه أنَّك تدعو لهم بالسَّلامَة، إذن فمِنَ الأحْرَى والأَوْلى أنَّك لن تضرَّهم، بل ستحرِص على سلامَتِهم، ولهَذا قَال العُلَماء: لو سلَّم المسْلِم على كافِرٍ فإنَّ هَذا تأمينٌ له.

٦- فيه الإحسانُ لأهل البَيْت بالسَّلام علَيْهم.

٧- وفيه أن الدَّاخل قد كسب أجرًا بهَذا السَّلام، فالمسْلِم إذا قَال لأخيه المسلِم: «السَّلام عليكم» فازَ بعشر حسناتٍ[1]، والعاقِلُ لا يفرِّط في عملٍ يفوز به بحسَنات، ولا يزْهَد في الحسَنات إلا جاهِلٌ أو متهاوِنٌ.

فهَذِه أُمور منَ الخير في الاسْتِئْذان تتبيَّن بالنَّظر، لكن بعدما أمر الشَّارع بالاسْتِئْذان فتكون الخيريَّة الحَقِيقيَّة هي امتثال الأمْر، وهَذِه هي الخيريَّة الَّتي لا معارِض فِيها، فكلُّ ما أمَر بِه الله عَزَّوَجَلَّ أوْ نهى عنْه فإنَّ الخيريَّة الحقَّ فِيه هي الامتثالُ لَه سواء كان أمرًا أو نهيًا، وهَذا هو الأمْر الَّذي من أجلِه خُلق الخَلْق، قَال تَعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

قوْلُه تَعالَى: ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾، في هَذا السِّياق يقتَضي العُموم، فهل لو كان أهلُها كُفَّارًا، أتسلِّم علَيْهم؟ ظاهر الآيَة أن تُسلِّم.

وهل هَذا الظَّاهر يُخصَّص بقولِ النَّبيّ ﷺ: «**لَا تَبْدَؤُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى**

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الاستئذان والآداب، باب ما ذكر في فضل السلام، رقم (٢٦٨٩).

بِالسَّلامِ»[1]، أم نَقُول: أن الحَدِيثَ في الملاقَاة أمَّا الآيَة فَفي الاسْتِئْذان؟

الظَّاهر أن الآيَة مخصوصَةٌ بمَنْ كان مِن أهل السَّلام، فلو كانَ مِن غيْر أهل السَّلام فلا يُسلَّم علَيْه، لكن يَستَأْذن فقط.

قوْله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، (لعل) إذا جاءَت في كَلام الله عَزَّوَجَلَّ فَهِي للتَّعليل، أي: إنَّا أمرْناكم بهَذا الأمْر لأجْل أن تذكَّروا، ويَقُول المُفَسِّر: [«لَعَلَّكُمْ تَذَّكَّرُونَ» بِإِدْغَامِ التَّاء الثَّانِيَة فِي الذَّال]، فقوْله: «تذَّكرون» أَصْلها (تتذكرون)، وعلى قِراءَة المُفسِّر: «تذَّكَّرون» بتشْدِيد الذَّال، ومعناهـا: تتَّعظون؛ لأنَّ التذكُّـر هـو اتِّعاظ الإِنْسان، وكوْن الأمْر يبْقَى على بالِه فلَا يسْهُو عنه.

وقوْل المُفسِّر: [خَيْرِيَّته فَتَعْمَلُونَ بِهِ] تُفيد أن مفعـولَ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ محذوفٌ وتقديرُه (خيريَّته)، على أن الحَقِيقة أن هَذا الفعل لا يظهر لي أنَّه متعدٍّ، بل الظَّاهر أنَّه لازِم، ما دام بمَعْنى اتَّعظ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الترمذي: كتاب السير، باب ما جاء في التسليم على أهل الكتاب، رقم (١٦٠٢).

الآيــة (٢٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور:٢٨].

قَال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا﴾ يَأْذَن لَكُمْ ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ﴾ بَعْد الِاسْتِئْذَان ﴿ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ﴾ أَيْ الرُّجُوع ﴿أَزْكَىٰ﴾ أَيْ خَيْر ﴿لَكُمْ﴾ مِنَ الْقُعُود عَلَى الْبَاب ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الدُّخُول بِإِذْنٍ وَغَيْر إِذْن ﴿عَلِيمٌ﴾ فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ].

قوْلُه تَعالَى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا﴾ أي إنْ جِئت بيتًا لصاحِبٍ لك، ولم تجِدْ في البَيْت أحدًا، وتعلم أنَّه لا يُوجد أحد.

قوْلُه تَعالَى: ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾، وهنا نسأَل: كيْف يُؤذَن لنا ونحنُ لـم نجد فيه أحدًا؟

فلو قِيل: المُراد (حتَّى يكون قد أُذِن لكم إذنًا سابِقًا).

قُلنا: لا يسْتَقيم الكَلام بهَذا التَّقدير، وهَذا يمنعه قوْلُه تَعالَى: ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ﴾، ولو كانَ المُراد الإِذْن السَّابق لقَال: «إِلَّا إِذا أُذِن لكم»، على أن احتِمال أن يكون المراد به الإذن المسْبَق هو وارِدٌ عقْلًا، لكنَّ التعبير الوارد في الآيَة لا يُساعِدُه.

لكنَّ المراد هـو أنَّ على المرءِ أن ينتظر، وإلا فطالما لـم يُؤذَنْ له فإنَّه يستحيل

الدُّخول، فكما أنَّه لا إذن مَع عدَم وُجود أحدٍ، فكذَلِك لا دُخول بدُون إذْنٍ، لكنَّها جاءت بهَذِه الصيغة -والله أعلم- إشارَةً إلى أن العِلَّة في الدُّخول وعدمه هو الإذن.

فـإن انتظرتُم حتَّى جاء صاحِبُ البَيْت وأَذِن لكـم فادْخُلوا، وإن انصرَفْتم فلا حرج.

قوْلُه تَعالَى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ﴾، فلو طلب منك صَاحِب البَيْت ارْجِع، فلَيْس لك أن تأْنَف من هَذا لو فَعله، أو تُصرَّ على الدُّخول، بل ترْجع؛ وفي هَذا دَليلٌ على أن هَذا الإنْسانَ صَريحٌ، ويجِبُ عَلى من استأْذَن لو طُلب منْه الرُّجوعُ أن يَرْجع.

ولما كان هَذا الرُّجوع شاقًّا على النُّفوس رَغَّب فيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوْله: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾، أي أن الرُّجُوع أزْكَى لكم منَ القُعود على البَاب، وقَال المُفَسِّر: [﴿ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ﴾ أَيْ الرُّجُوع ﴿أَزْكَىٰ﴾ أَيْ خَيْر ﴿لَكُمْ﴾ مِنَ الْقُعُود عَلَى الْبَاب] والمفضَّل علَيْه هُو القُعود على الباب، ولكن يَنْبغي أن نَقُول: إن الآية عامَّة، أي أن هَذا أزْكى لكم مُطلقًا، سواء قعدْتُم على البَاب، أو ألحَحْتم وأحْرَجْتم صاحبَ البَيْت.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿أَزْكَىٰ﴾ أي: هَذا الرُّجُوع أشدُّ زَكاءً للإنْسان، والزَّكَاء هو سُموُّ الأخْلاق وعُلوُّ الآداب، وكذَلِك من نَاحيَة العِبادَة، فزَكاء الإنْسان عبارَةٌ عنْ نماء أخلاقِه وآدابِه ودِينِه أيضًا.

قَال بعْضُ السَّلف: «لَقَدْ طلبتُ عُمْرِي كلَّه هَذِهِ الْآيَةَ فَمَا أَدْرَكْتُهَا: أَنْ أستأذِنَ عَلَى بَعْضِ إِخْوَانِي، فَيَقُولُ لِي: ارْجِعْ، فَأَرْجِعُ وَأَنَا مُغْتَبِطٌ»[1]، وذَلِك كي يحصُل

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٤١).

على الزَّكاء، ولكِن قلَّ أن تُوجد هَذِه.

وفي هَذِه الآيَة من بَيان صَراحَة الإِسْلام، وآدابِه، مَا فيها، وأنَّ الإِنْسان يَنْبغي أن يكُون صريحًا غير ملتَوٍ، فإن كُنت أرْغب أن تدْخُل فآذن لك، وإن كنْت لا أرغبُ أقول: ارْجِع، وهَذا كَثيرٌ منَ النَّاس لا يفعَلُه، ولكن الشَّرْع يُبيحه للإِنْسان، فيَجوز أن تقولَ لمن استأذَن عليْك: ارْجِع، وإذا رَجع كان ذَلِك أزْكَى له.

وكذَلِك عليْكَ لو استأذَنْت أحدًا فطلب منك الرُّجُوع أن ترْجِع، ولا تأْنَف من ذَلِك؛ لأنَّه أزْكى لك، وأوْلَى بك من أن يأْذن لك على مَضضٍ منه، أو يترك شيئًا مُهِمًّا يشغلُه فيلْقَاك وهو متأذٍّ.

قوْل المُفَسِّر: [﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الدُّخول بِإِذْنٍ وَغَيْر إذْن ﴿عَلِيمٌ﴾ فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ]، (ما) اسْم موْصُول، أي: بالَّذي تعمَلون، واسم الموصُول يُفيد العُموم، وتقييده بالدُّخول بإِذنٍ أو بغَيْر إذْنٍ مما لا يَنْبغي؛ أي نَعم هُو جاء كذَلِك في السِّياق، لكنَّ العِبْرَة بعُمومِ اللَّفظ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منَ الدُّخول بإذن وبغيرِ إِذْن، والرُّجُوع إذا قِيل: ارجعوا، وعدم الرُّجُوع، وغير ذَلِك أيضًا من أعمالِنا ﴿عَلِيمٌ﴾، حتى بأعمال القُلُوب.

والفَائِدَةُ من كوْن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلِّمُنا بأنَّه عليمٌ بأعمالِنا هِي الحَذَر، كما قَال تَعالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة:٢٣٥]، فالحَذر منْه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا عمِلْنا معصِيَةً، وكذَلِك يُوجب الرَّغبة فيما عنْدَه إذا عمِلْنا طاعةً لعلمنا أنَّه عَزَّوَجَلَّ يعلَمُ مَا نفْعَل من خَيْر وسيُجازِينا علَيْه، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُضِيع عمَلَ عامِلٍ.

الآيــة (٢٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [النور:٢٩].

قَال المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ﴾ أَيْ مَنْفَعَة ﴿لَّكُمْ﴾ بِاسْتِكْنَانٍ وَغَيْرِهِ كَبُيُوتِ الرُّبُط وَالْخَانَات الْمُسَبَّلَة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ تُظْهِرُونَ ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ تُخْفُونَ فِي دُخُول غَيْر بُيُوتكُمْ مِنْ قَصْد صَلَاح أَوْ غَيْره وَسَيَأْتِي أَنَّهُمْ إِذَا دَخَلُوا بُيُوتهمْ يُسَلِّمُونَ عَلَى أَنْفُسهمْ].

قوْلُه تَعالَى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ والجُناح الإِثم، فيُستفَاد منْه أن الأوَامِر السَّابقة للوُجوب؛ لأنَّها هِي الَّتي يأْثَم الإِنْسان بمخالَفَتِها.

قوْلُه تَعالَى: ﴿أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾، وقَال المُفَسِّر: [أي منفعة]، والصَّواب أن المراد هنا بالمتَاع أعمُّ منَ المنفَعة، بل هي المنافِع والأعْيَان، ككَوْن هَذا البَيْت مخزنًا فِيه أموالٌ، فهَذا أيضًا ليْس عليْكَ جُناحٌ أن تدْخُلَه بدُون اسْتِئْذانٍ، وإن كان البَيْت لغَيْرك، لأنَّ وُجودَ متاعِك فِيه بإِذْن صاحب البَيْت فهَذا إذنٌ لك في الدُّخول، وفي هَذِه الحالِ لا يظْهر أنَّه يجب لأنَّ البَيْتَ غيرُ مأذونٍ.

فالبُيوت على ثلاثَة أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: بُيوت مسكُونَةٌ فِيها أهلُها، فالواجِب فيها الاسْتِئْذان والسَّلام.

القسْم الثَّاني: بُيوت ليْس فيها أحدٌ، لكنَّها مسكُونَةٌ، فهَذِه أيضًا لا بُدَّ فيها منَ الاسْتِئْذان، ولا ندخُلُها حتَّى يُؤذَن لنا.

القسْم الثَّالث: بُيوت غيرُ مسكونَةٍ، فهَذِه إن كانَ فِيها متاعٌ لَنا فلَيْس علَيْنا جُناحٌ فِي دُخولِها، وظاهِرُه إنْ لم يكُنْ لَنا فِيها متَاعٌ فإنَّه لا يَجوزُ دُخولُها؛ والسَّبب أنَّها وإنْ كانت غيرَ مسكُونَةٍ لو دخلْنَاها وليْس لَنا فِيها متَاعٌ لأوْجَب ذَلِك التُّهمَة من جهَةٍ، ويُوجب أيضًا المخاصَمة مَع صاحِبها، إذ البَيْتُ لهُ وليْسَ لغيرِه دخولُه أو التَّصرُّف فيه بدُون إذْن صاحِبه.

قوْلُه تَعالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾، وقد قَال في الآيَة قبلها: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، و﴿يَعۡلَمُ﴾ فعل، أمَّا ﴿عَلِيمٌ﴾ فاسْمٌ وهِي باعتِبَار وصفِ اللهِ بالعِلْم، فالعِلْم صفة أزليَّةٌ أبديَّةٌ ولَيْست بحادثَةٍ، فعِلْم الله عَزَّوَجَلَّ لا يتجدَّد، فهو كَان ولم يزَلْ عالمًا بما كَان ومَا هُو كائِنٌ وما سيَكُون.

أمَّا قـوْله ﴿يَعۡلَمُ﴾ فقد قَـال العُلَماء: إن الجمْلَةَ الفعليَّةَ تـدُلُّ على التَّجدِيد والحدُوث، وحينَئذٍ يشكُل علَيْنا هَذا؛ لأنَّ القَاعِدَة عندَنا أنَّ علْمَ الله أزليٌّ أبديٌّ.

فنَقُول: إن المرادَ هُنا ربْطُ عِلْم الله بالعَمل، وربْطُ علمِه تَعالَى بالعَمَل يقَع كَثيرًا في القُرْآن، كما في قوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد:٣١]، وقوْله: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢]، وما أشْبه ذَلِك.

فهَذا يدُلّ على أنَّ علْم الله تَعالَى مقْرون بالعَمل، وليس قرْنه بالعَمَل مِن أجل أنَّه تجدَّد بعْد وقُوع العَمل، لكِنْ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلَمُ بالشَّيْء قبْل وجودِه أنَّه سيَقع، ويعْلَم بالشَّيْء بعْدَ وُجودِه أنَّه قد وَقع.

فالعِلْم المقارِن غيْرُ العِلْم السَّابق، فالعِلْم المقارِن هو الَّذي يترتَّب علَيْه الجزاء، والعِلْم السَّابق لا يترتَّب علَيْه جزاء؛ ولهَذا قَال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾، فهَذا منَ العِلْم المقارِن الَّذي يترتب علَيْه الجزَاء بالإثَابَةِ على الموافَقة، والعُقوبَة على المخالَفة.

فقوْله هنا: ﴿يَعْلَمُ﴾ قُرن للعِلْم بما يُبديه الإنْسانُ ويكْتُمه، يدُلّ على أنَّه العِلْم الَّذي يترتَّب علَيْه الجزاء؛ ولهَذا قَال: [﴿مَا تُبْدُونَ﴾ تُظْهِرُونَ ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ تُخْفُونَ فِي دُخُول غَيْر بُيُوتكُمْ مِنْ قَصْدِ صَلَاح أَوْ غَيْره]، وهَذا التَّفسير وإنْ كان موافِقًا للسِّياق، لكنَّه تقييدٌ للَّفظ، بيْنَما العِبْرة بالعُمومِ، فكلُّ مَا نُبديه من قوْلٍ وفِعْل، وكلُّ ما نُخفِيه من قوْل وفِعْل فإنَّ اللهَ تَعالَى عالِـمٌ به، والغَرضُ مِن بَيان عِلْم اللهِ بذَلِك هو التَّحذِير منَ المخالَفَة والتَّرغِيب في الموافَقَة.

أمَّا كوْنُه تحذيرًا منَ المخالَفَة فظاهِرٌ، وأمَّا كوْنُه ترغيبًا في الموافَقَةِ فذَلِك لأنَّني لو علِمْتُ أنَّ ما عمِلْتُ من خيرٍ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلَمُه وسيُجازِيني علَيْه فإنِّي أنشَط على العَمل، وأقُومُ به.

• • ۞ • •

الآيتان (٣٠، ٣١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣٠-٣١].

قوْله: ﴿قُل﴾ إن الرَّسُولَ ﷺ مأمُور في الأَصْل أن يبلِّغ القرآنَ كلَّه للنَّاس، قَال تَعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، لكنْ ما يُصدَّر منَ الأحْكام أو الأَخْبار بـ﴿قُل﴾ ينُصُّ على تبلِيغِه بخصُوصِه، والنَّصُ على تبلِيغِه بخُصوصِه يدُلّ على أهميَّتِه، فتكونُ هَذِه الرِّسالَةُ خاصَّة بشيْء معيَّنٍ، غير الرِّسالة العامَّة بتبليغ القُرْآن.

فيكونُ النَّبيّ ﷺ قد أُمِر أن يَقُول للنَّاس كلَّ القُرآن، بقوْله تَعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، ثم هو مأمُورٌ أن يبلِّغ ما يكونُ مُصَدرًا بقوْله تَعالَى: ﴿قُل﴾ لأهميَّتِه ووُجوب العِنايَةِ به.

مثال ذَلِك في الخبر: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ومثالُه في الأحْكام: مِثْل هَذِه الآيَة: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾، وما ذُكِر هُنا لا شكَّ أنَّه جدِيرٌ بالعنايَة.

وقوْله: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقُل: «للنَّاس» لأنَّ الإيمَان هو الَّذي يقْتَضي القَبُول، فالمُؤْمِن هو الَّذي يقْبَل ما كُلِّف به، وفِيه أيضًا منَ الإغْرَاء على الامْتِثال ما فِيه، أي أنَّه لإيمَانهم فهُم الجَدِيرون بهَذِه العنايَةِ وهَذا التَّوجيه الربَّاني، أمَّا غيرُ المُؤْمِن فلا يمْتَثل.

قَوْلهُ: ﴿يَغُضُّوا۟﴾ ما جازمها؟ ثلاثة آراء:

الأوَّل: إما أنَّها مجزومة بـ(اللَّام) المقدرة: قل للمُؤْمِنِينَ ليغضوا من أبصارهم، وذكرنا لِذَلك شاهدًا وهو (محمد تَفْدِ نَفْسَكَ كلُّ نفسٍ) يعني: لتفدِ.

الثَّاني: أنَّها جواب للأمر الموْجُود وهو ﴿قُل﴾ وأوردنا على ذَلِك ما يضعفه وهو أن مُجَرَّد القَوْل لا يلْزَم منه الغض اللهم إلا على فرض أن المُؤْمِن لا بُدَّ أنَّه إذَا قِيلَ له أن يغض غَضَّ.

الثَّالث: أنَّها جواب لأمر مقدر: قل للمُؤْمِنِينَ غُضوا من أبصاركم، يغضوا من أبصارهم، غُضوا يَغضوا.

ما معنى الغض؟ القصر والنَّقص قَوْلهُ: ﴿مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ (من) المُفَسِّر يرى أنَّها زائدة، والصَّحيح أنَّها للتبعيض ولَيْسَت زائدة، والَّذِي يضعف ما ذهب إلَيْه المُفَسِّر: أن المَشْهُور أن (مِنْ) لا تُزاد إلا في النَّفي وشبهه وهَذِهِ في الإثْبات.

لو قَالَ قَائِلٌ: هل غض البصر واجب دائمًا؟

الجواب: غض البصر لَيْسَ واجبًا دائمًا بل هو جائز، لكن لماذا كَانَ غض البصر جائزًا وحفظ الفرج كله واجب؟ قالوا: لأَن غض البصر من باب إيجاب الوسائل، يعني من باب سد الذرائع، تحْرِيم إطلاق البصر من باب سد الذرائع، ولِذَلك يجوز إِذَا كَانَت المصْلَحة في فعله بخلاف حفظ الفرج.

قَوْلهُ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ الكَلام فيها كالكلام في قَوْلهُ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾.

قَوْلهُ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ما المُراد بالزِّينَة هُنا؟

القَوْل الأوَّل: على رأي المُفَسِّر أن المُراد بالزِّينَة في قَوْلهُ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أو المستثنى الوجْه والكفَّان.

القَوْل الثَّاني: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ من اللباس الَّذِي لا بُدَّ من ظهوره.

تفسير المُفَسِّر الزِّينَة بأنَّها الزِّينَة الخِلقية الَّتِي زين الله بها البدن هل هَذَا صحيح أو غير صحيح؟

الجواب: غير صحيح، الحاصِل أنَّنا نريد أن نضعف أن الزِّينَة المُراد بها الزِّينَة الَّتِي خلق الله عَلَيْها المَرْأَة، والصَّحيح أن المُراد بالزينة: الزِّينَة الخارجية وهي ما تتزين بها المَرْأَة لا الزِّينَة الخِلقية الَّتِي خلق الله عَلَيْها المَرْأَة، والدَّليل قَوْله تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف:٣٢]، وفي آخر هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل:٨]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦].

فكل من تأمل الزِّينَة وجدها في الزِّينَة الخارجية لا فيما زين الله به المَرْأَة، وعلى هَذَا يَكُون الاستثناء عائدًا على ما يبدو من الثِّيابِ الَّتِي لا بُدَّ من ظهورها وَذلِك لأنَّها لو حُرِّم عَلَيْها حَتَّى الثِّياب الَّتِي تبدو ولابُدَّ من ظهورها لوجب عَلَيْها أن تبقى في البَيْت، إِذْ لا يُمْكِن تطبيق هَذَا الْأَمْر إلا بِذَلِك، وهَذَا أمر لم يكلف الله به.

إِذَنْ تبين أن الرَّاجح في قَوْلهُ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ما ظهر من اللباس يعني مثل ما مَثَّل به ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الجلباب والرداء والعباءة وما أشبهه، يعني الشَّيء الَّذِي لا بُدَّ من ظهوره وظهوره ضروري فهو مباح، ويدُلّ لِذَلك أيضًا ما تقدَّم من الأدلَّة على أن الزِّينَة لا تُستعمل إلا فيما يتزين به الْإِنْسَان من لباس وغيره، ويؤيده أيضًا أنَّه قَالَ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ولو كَانَ المُراد الوجه والكفين لقال: إلا ما أُظهر منها، أما ثياب الجمال فهي من الزِّينَة الخفية.

وكَذلِك الحلي وشبهه مما تتحلى به المَرْأَة لا يبدى إلا لمن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأَن الحلي يُمْكِن إخفاؤه لَيْسَ كالعباءة والجلباب وشبههما، لكن الآن في الحَقيقَة تطبيق الْأُمُور الشَّرْعِيَّة عند النَّاس صعب جدًّا؛ لأَن مَسْأَلَة الحلي موجودة الآن بكثرة في بيوت النَّاس، مع زوْجة الأخِ وزوْجة العمِّ، فالمشكلة يصعب التحرز منها.

وقَوْلهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ ضَرَبَ بالشَّيء على الشَّيء بمَعْنى ألقاه علَيْه لكن مع الإلصاق.

ومنه ضربت بيدي على يدي مثلًا أو على فخذي أو ما أشبه ذَلِك، هَذَا معنى الضرب على الجيوب.

قَوْلهُ: ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ جمع خِمار وهو ما تغطي به المَرْأَة رأسها.

قَوْلهُ: ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ (الجيوب) جمع جيب وهو طوق الثَّوب، فطوق الثَّوب يسمى جيبًا ولا زال النَّاس إلى الآن يسمونه بهَذَا الاسْم.

أوجب الله تَعَالَى في قَوْلهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ لأَن (اللَّام) لام الْأَمْر والسُّكون في قَوْلهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ لَيْسَ سكون إِعْراب ولكنه سكون بناء؛ لأَن الفِعْل متصل بنون النِّسوة فيَكُون مبنيًّا على السُّكون، مهما كَانَ الْأَمْر هُنا فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمر أن تضرب المَرْأَة بخمارها على جيبها، ولازم ذَلِك أن ينزل من رأسها إلى الجيب.

فهل المُراد بضرب الخِمَار على الجيب أن يَكُون من تحت الوجه بحيث يبقى الوجه مكشوفًا والجيب مستورًا، أو أن المَعْنى أن تضرب بالخِمَار على الجيب مارًّا بالوجه؛ لأَن هَذَا هو الأقرب لأَن الخِمَار ينزل من أعلى لأَنَّه فوق الرَّأْسِ، ثم الجيب إِذَا وجب ستره فالوجه مِنْ بَابِ أَوْلَى، وكان النِّساء في الجاهلية على حسب ما قاله بعض المفسرين كَانَت المَرْأَة تسدل الخِمَار من وراءها ولا يقرب وجهها ولا جيبها، ولهَذَا أمر الله تَعَالَى النِّساء أن يضربن بخمرهنَّ على جيوبهنَّ، وعند من يرى أن المُراد بالزِّينَة الوجه والكفان يَقُول: تضرب بخمارها على جيبها من أسفل فتغطي الجيب وتكشف الوجه مع أن الوجه أعظم فتنة من الجيب.

قَوْلهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ يَسْتُرْنَ الرُّءُوس وَالْأَعْنَاق وَالصُّدُور بِالمَقَانِعِ] اهـ.

المقانع جمع المِقْنَعَةُ وهي ما تُقَنِّعُ به المَرْأَة يعني ما نسميه عندنا الآن الغتفة.

قَوْلهُ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الخَفِيَّة وَهِيَ مَا عَدَا الْوَجْه وَالْكَفَّيْنِ ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ جَمْع بَعْل: أَيْ زَوْج] إلى آخِره. اهـ.

في قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، استثنى الزِّينَة الْمُبْدَاة، وفي قَوْلهُ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ استثنى مَن تُبدى له الزينة، فنهى عن إبداء الزِّينَة في موضعين استثنى من الموضع الأوَّل الزِّينَة الْمُبْدَاة ومن الموضع الثَّاني من يُبدى له الزِّينَة فهل نجعل الاستثناءين ينصبان على عمل واحد ونقول: فيكُون المَعْنى ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ولا يبدين هَذِهِ الزِّينَة أيضًا ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ وحينئذٍ نكون قد خصصنا عُمُوم ما سبق في الآيَة، ويَكُون غير هَؤُلَاءِ الَّذينَ استثنوا يحرم إبداء الزِّينَة لهم مطلقًا الظَّاهِرة والخفية؟

هَذَا احتمال، واحتمال آخر أن نقول: إن الزِّينَة زينتان: زينة ظاهرة تبدى لكل أحد؛ لأَن بُدوها ضرورة لا يُمْكِن التحرز منه، وزينة خفية لا تُبدى إلا لهَؤُلَاءِ، وعلى هَذَا مشى الْمُفَسِّر على أن الْمُراد بالزِّينَة هَذِهِ غير الزِّينَة الأولى، فالزِّينَة الأولى عامَّة وأُبيح منها ما ظهر لكل أحد، والثَّانية لَيْسَت عامَّة بل الْمُراد بها الزِّينَة الخفية الَّتِي لا تظهر أو الَّتِي لَيْسَ من الضروري أن تظهر.

هَذِهِ الزِّينَة الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُول: [وَهِيَ مَا عَدَا الْوَجْه وَالْكَفَّيْنِ] بناءً على تفسير قَوْلهُ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ بالوَجه والكفَّين، لكن الصَّحيح أن الْمُراد بها الزِّينَة الخفية وهي الَّتِي لَيْسَ من الضَّرورة أن تظهر يعني الثِّياب الداخلية كما يَقُول العامَّة هَذِهِ لا تبدى إلا لهَؤُلَاءِ المذكورين ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ إلى آخِره.

قَوْلهُ: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ البُعُولة جمع بَعْل وهو الزَّوج.

قَوْلهُ: ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ وهَذَا يشمل الْأَب الأدنى ومن فوقه كالأجداد.

واعلم أن باب التَّحْريم غير باب الإِرْث، باب الإِرْث الأبوة والبنوة لا تشمل إلا من يتصلون بك بطريق الْأَب يعني بطريق الذكورة، فابن البنت مثلًا وأبو الْأُمّ

لا علاقة لهما بالإِرْث، لكن في باب تحْرِيم النِّكاح وما يتصل به يشمل الآباء من قبل الْأَبّ ومن قبل الْأُمّ، لا فرق بين من بينك وبينهم أنثى ومن لَيْسَ بينك وبينهم أنثى، هُناكَ في باب الأصول والفروع في الإِرْث الَّذِي بينك وبينه أنثى من الآباء لا يرث ولا يدخل في الآباء، لكن هُنا الَّذِي بينك وبينه أنثى والَّذِي لَيْسَ بينك وبينه أنثى على حد سواء.

وعلَيْه فنقول: ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ يشمل الْأَبّ الأدنى والجد من قبل الْأَبّ ومن قبل الْأُمّ.

قَوْلهُ: ﴿أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ نفس الشَّيء آباء البُعولة يجوز للمَرْأة أن تبدي لهما الزِّينَة الخفية كما تبدى الزِّينَة الظَّاهِرة لكل أحد، وآباء البُعولة هُنا يشمل أبا الزَّوج وجده من قبل الْأَبّ ومن قبل الْأُمّ، ولهَذَا كَانَ أبو الزَّوج وإن علا مَحْرَمًا للزوجة يعني لزوجة ابنه وإن نزل سواء تزوجها ودخل بها أو تزوجها وطلقها قبل الدُّخول أو مات عنها فإن آباءه محارم لها.

قَوْلهُ: ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ الابن هُنا نقول فيه ما قُلْنا في الأب، يعني أنَّه لا فرق بين الابن للصلب الَّذِي يتصل بالْإِنْسَان بطريق الذكورة والابن الَّذِي يتصل بطريق الأنوثة، فابن البنت مثلًا يدخل في الأبناء ومثله أيضًا أبناء بعولتهنَّ، فابن الزَّوج يجوز للزوجة أن تبدي له الزِّينَة الخفية، وابن بنت الزَّوج كَذلِكَ.

وعلى هَذَا يَكُون جميع من تفرع عن الزَّوج من ذكور وإناث وإن نزلوا يَكُونون محارم لزوجة جدهم، إلا أنَّه في هَذِهِ المَسْأَلَة يشترط الدُّخول بالمَرْأَة؛ لأَن هَؤُلَاءِ ربائب، فلو أن رجلًا تزوج امرأة عقد عَلَيْها ثم طلقها أو مات عنها قبل

الدُّخول لم يكن أولاده محارم لها؛ والسَّبب لأنَّ من شرط ذَلِك الدُّخول كما قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النساء:٢٣].

لو قَالَ قَائِلٌ: هل زوج البنت يدخل في الآيَة؟

الجواب: بعل البنت لا يدخل في الآيَة، وقياس الطَّرْد على أبناء بعولتهنَّ منعناه وَذلِك بأن نقول: إِذَا كَانَ ابن زوجها يجوز فزوج ابنتها مثله، لكن قُلْنا: هَذَا لا يُمْكِن لأنَّنا لو فتحنا باب القياس لقُلْنا أيضًا: العم والخال يجوز إبداء الزِّينَة لهما مثل ابن الزَّوج وابن الأخت، وبعض العُلَماء يَقُول إنه يلحق بمن ذكر.

لو قَالَ قَائِلٌ: الرَّبيبة يعتبر الزَّوج بعل أمها فهل يدخل في الآيَة أم لا؟ هل تبدي الزِّينَة لبعل أمها أم لا؟

الجواب: لا يدخل إلا على سبيل الطَّرْد وإلا فلا يدخل، فإن قِيلَ: قد يشق التحرز في مثل هَذَا نقول: تبدي وجهها ويديها وما أشبه ذَلِك، لكن لا تأتي متجملة.

والقاعِدَة عندنا في مَسْأَلَة الـمَحرميَّة أن فرع الزَّوْجَة إن نزلوا هَؤُلَاءِ محارم للزوج، وفروع الزَّوج وإن نزلوا محارم للزوجة، يعني الرَّبيب وهو ولد الزَّوْجَة إِذَا كَانَ له بنات، وبنات بنات يُكشفن لزوج جدتهم.

قَوْلهُ: ﴿إِخۡوَٰنِهِنَّ﴾ سواء كانوا أشقاء أو لأب أو لأم.

قَوْلهُ: ﴿أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ﴾ وإن نزلوا، بنو إخوانهنَّ ماذا يكن لهم؟ عمات، فالعمة يجوز أن تبدي لابن أخيها ما يخفى من زينتها لأنَّه من محارمها.

قَوْلهُ: ﴿أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ ويكن لهم خالات، إِذَنْ فالخالة يجوز أن تبدي لابن أختها ما يخفى من زينتها؛ لأَنَّه من محارمها.

هل بقي أحد من الأقارب المحارِم لم يذكروا في هَذِهِ الآيَة؟

الجواب: الأعمام والأخوال لم يذكروا في هَذِهِ الآيَة مع أنهم من المحارِم، والآيَة صريحة استثناء، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ...﴾ إلى آخِرِهِ فعلى هَذَا العم والخال لا يجوز للمَرْأة أن تبدي لهم الزِّينَة الخفية؛ لأَن الآيَة حصر ولا يبدين زينتهنَّ إلا لهَؤُلَاءِ، وعلى هَذَا لَيْسَ كُلُّ محرم يجوز أن تبدي لهما الزينة؛ قالوا: لأَن إبداء الزِّينَة للعم والخال يخشى منه أن يصف ذَلِك لابنه؛ لأَن ابن العم يجوز أن يتزوج بنت عمه وابن الخال يجوز أن يتزوج بنت عمته، ولَيْسَ هُناكَ أحد من الأقارب أبناؤه يجوز لهم التزوج بهنَّ إلا العم والخال، وإلا فكل من ذكروا فإن فروعهم لا يُمْكِن أن يتزوجوا هَذِهِ المَرْأَة.

فلِذَلك قالوا: لا تبدي الزِّينَة للعم والخال وإن كانا من المحارِم، وفي هَذَا إِشارَة أو دَلالَة بينة على أَنَّه لَيْسَ المُراد بالزِّينَة هُنا كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما عدا الوجه والكفين؛ لأَن ما عدا الوجه والكفين يجوز إبداؤها للعم والخال؛ لأَنَّه من المحارِم، ولكن هَذِهِ الزِّينَة زينة اللباس الخفية، يعني ثياب التجمُّل، فلا تخرج على عمها وخالـها بثياب جميلة، فالزِّينَة لَيْسَت الَّتِي تعود إلى ما زين الله به المَرْأَة إنما الزِّينَة ما تتزين به المَرْأَة من الثِّياب، وعلى هَذَا فلا يجوز للمَرْأة أن تتجمل عند عمها أو خالـها.

ومَسْأَلَة الزِّينَة لا علاقة لها بمَسْأَلَة الحجاب، مَسْأَلَة الحجاب وما يَتعلَّق به في سورة الأحزاب، أما سورة النُّور كما تقدَّم فكلها في حفظ الفروج والتزكية والتطهير،

ولذا فالمَرْأَة لا تبدي الزِّينَة للعم والخال خوفًا من أن يحصل ما يحصل، فالعم لا يجوز له أن ينظر من المَرْأَة ما ينظره الأخ.

لو قَالَ قَائِلٌ: الرِّضاعُ لم يُذْكرْ في هَذِهِ الآيَة فهل حكمهم حكم المذكورين هُنا أو لا؟

الجواب: حَقِيقَة الْأَمْر أن إبداء الزِّينَة غير مَسْأَلَة المحرميَّة، الآيَة تدُلّ على أن إبداء الزِّينَة مَسْأَلَة منفصلة عن مَسْأَلَة الـمَحرميَّة، إِذَا كَانَ العم والخال ما ذكرا مع أنهما من المحارِم دل ذَلِك على أن مَسْأَلَة إبداء الزِّينَة غير الـمَحرميَّة نعم؛ لأَن المَسْأَلَة هُنا حساسة جدًّا.

الرضاع كله بجميع أقسامه لم يذكر فألحقه بعض العُلَماء مدعين أن ذكر البعض يدُلّ على البقية وأن العرب في كلامهم أحيانًا يقتصرون على ذكر البعض تنبيهًا على البقية، لكن هَذَا لَيْسَ بجيد؛ وجه ذَلِك أن ذكر البعض الَّذِي يُراد به إلحاق البقية يُكتفى منه بذكر واحد، ويَكُون هَذَا الواحد على سبيل التمثيل، أما أن يذكر عدد من جنس ويحذف الباقي وبطريق الحصر فهَذَا غير مُسلم.

لكن يبقى النَّظر في مَسْأَلَة إبداء الزِّينَة الَّتِي زينها الله بها يعني الوجه واليدين وما أشبه ذَلِك، فهَذَا له دَليل غير هَذِهِ الآيَة.

فنقول: هَذِهِ الآيَة في زينة اللباس وشبهه، ويَجب إبقاؤها على ما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأما مَسْأَلَة إبداء الوجه والكفَّين والسَّاق والرَّقَبة وما أشبه ذَلِك فهَذَا يؤخذ من أدلة أُخْرَى.

ولِذَلك الإخوة من الرِّضاع عند النِّساء الآن وعند النَّاس كلهم أن المَرْأَة تتجمل وتتزين لـهم، مع أن المَسْأَلَة في الحَقيقَة خطيرة جدًّا، وكم من أناس والعِيَاذ باللهِ

فجروا بأخواتهنَّ من الرِّضاعة؛ لأَن الصِّلة لَيْسَت صلة رحم ونسب، فصلة الرِّضاع أضعف من صلة النَّسب والرحم، ولِذَلك يحصل عند بعض النَّاس -والعِيَاذ باللهِ- الَّذينَ لا يخافون من الله من تحرك الشَّهوة والتمتع بالنَّظر إلى أخواتهنَّ أو خالاتهم من الرِّضاع ما هو معْلُوم.

لِذَلك كره بعض العُلَماء للمَرْأة أن تبدي زينتها لمحارمها من الرِّضاع وقال: إن ذَلِك خطأ، ولهَذَا لم يتعرض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هَذِهِ الآيَة للرضاعة إطلاقًا أبدًا ولَيْسَ هَذَا من باب التَّحْريم وإلا فالتَّحْريم يَقُول النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ**»(١).

فالمَسْأَلَة هُنا إبداء زينة وقد علم الآن بحسب هَذَا الحصر أنَّها لَيْسَ لها علاقة بمَسْأَلَة المَحرميَّة، المَحرميَّة إبداء الوجه واليدين وما أشبه ذَلِك هَذَا ثابت بالنَّص ولهَذَا قَالَ النَّبِيّ ﷺ لزوجاته: «**انْظُرْنَ مَنْ إِخْوَانُكُنَّ**»(٢) وأباح لإخوانهنَّ مِنَ الرِّضاعة أن يدخلوا على زوجاته، مع وُجوب الحجاب، فمَسْأَلَة النَّظر إلى الوجه والكفين وما أشبه ذَلِك غير مَسْأَلَة إبداء الزينة، هَذِهِ مَسْأَلَة مستقِلَّة عن هَذِهِ، ولهَذَا يَجب أن نعرف هَذَا الفَرْق، وأن هَذِهِ المَسْأَلَة لا علاقة لها بمَسْأَلَة المَحرميَّة لا طردًا ولا عكسًا، كَيْفَ لا طردًا ولا عكسًا؟ لأَنَّنا نظرنا إلى أن الأعمام من المحارِم ولم يستثنوا هَذَا بالنِّسْبَةِ للطرد.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض والموت، حديث رقم (٢٦٤٥)، عن ابن عباس، ومسلم، كتاب الرضاع، باب تحريم الرضاعة من ماء الفحل، حديث رقم (١٤٤٥)، عن عَائِشَة.

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض والموت، حديث رقم (٢٦٤٧)؛ ومسلم، كتاب الرضاع، باب إنما الرضاعة من المجاعة، حديث رقم (١٤٤٥)، عن عَائِشَة.

وبالعَكْسِ نظرنا فوجدنا أن فيها أناسًا لَيْسَوا من المحارِم كملك الْيَمِين والتَّابعين غير أولي الإربة أو الطفل الَّذينَ لم يظهروا على عورات النِّساء.

وعلى هَذَا فيَكُون الحُكْم في هَذِهِ الآيَة مستقلًّا عن مَسْأَلَة الـمَحرميَّة، فما استثني من إبداء الزِّينَة وجب استثناه وما لا فلا.

فهَذِهِ المَسْأَلَة لَيْسَ لها علاقة بمَسْأَلَة الـمَحرميَّة وإنما هي مَسْأَلَة مستقِلَّة تعود إلى أمر حساس دقيق؛ لأنَّنا قُلْنا: إن هَذِهِ الصُّورة كلها في حماية الأعْرَاض وتطهير النُّفوس وإبعادها عن الدنس، ولِذَلك تجد احترازات بالغة الأهمِّيَّة، فالَّذِي يظهرُ لي من سِيَاق الآيَة أنَّه يَجب إبقاؤها عَلى عُمومِها وعلى خصوصها أيضًا، وأن ما استثني فيها فله حكم الاستثناء وما لم يذكر فيها فهو باقٍ على النَّهي، فالعِلَّة الوَحْيدة هي أن الله لم يستثنه، والمَسْأَلَة كما تقدَّم لَيْسَت مبينة على الـمَحرميَّة فمن استثناه الله استثنيناه ومن لم يستثنه لم نستثنه.

قد يَقُول قائل: إِذَا كَانَ أبناء الأخ وأبناء الأخت يجوز إبداء الزِّينَة لهم لأَن المَرْأَة عمتهم أو خالتهم، لماذا لا يَكُون العكس؟ أَلَيْسَت المَرْأَة للعم هي بنت أخيه، وللخال هي بنت أخته، فإذا كَانَ يجوز لها إبداء الزِّينَة لابن أخيها ولابن أختها أفلا يجوز العكس لأَن الصِّلة واحدة؟ نقول: لا؛ لأَن ابن أخيها وابن أختها تشعر هي بأنَّها لها العلو عليهما؛ لأنَّها عمة وخالة لهما، فهما يحترمانها ولَيْسَت هي الَّتِي تحترمهما، لكن مَسْأَلَة العم والخال يشعران بعلو مرتبتهما على بنت أخيهما وبنت أختهما فهي تحترمهما وهما لا يحترمانها، فلِذَلك يَكُون القياس هُنا غير وجيه، والآيَة لَيْسَ فيها مجال للقياس أبدًا لأَن فيها تفصيل بالأعيان: إلا فلان وفلان وفلان، لَيْسَت قواعد عامَّة.

قَوْلهُ: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ هَذِهِ اختلف المفسرون فيها، فمنهم من قَالَ: إن الإضافة للنوع، ومنهم من قَالَ: إن الإضافة للجنس.

الَّذينَ قالوا: إن الإضافة للنوع قالوا: إن المُراد بنسائهنَّ المؤْمِنات لأنَّه قَالَ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فالمُراد بـ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ ما كَانَ من نوعهنَّ، فالإضافة من باب إضافة الشَّيء إلى نوعه، يعني نساء المُؤْمِنات فخرج بقَوْلهُ: ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ الكافرات بناء على أن الإضافة نوعية لا جنسية وأن المُراد بنسائهنَّ، أي: المُسْلِمات، ولذا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَخَرَجَ بِنِسَائِهِنَّ الْكَافِرَات فَلَا يَجُوز لِلْمُسْلِمَاتِ الْكَشْف لَهُنَّ وَشَمَلَ ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾، الْعَبِيد] اهـ.

وبعضهم قَالَ: من باب إضافة الجنس يعني أنَّه أضيف النِّساء إلَيْهنَّ باعتبار الجنس، يعني: أو النِّساء اللاتي من جنسهنَّ، يعني من النِّساء فلا تخرج الكافرات بل يشمل الكافرات والمُسْلِمات، وقد ذكروا أن الصَّحابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لما فتحوا الأمصار كَانَ فيها قوابل من الكافرات يولدن النِّساء فأقرهنَّ الصَّحابَة على ذَلِك[1]، وهَذَا مما يدُلّ على أن المُراد بنسائهنَّ النِّساء دون المُسْلِمات، يعني لَيْسَ بقيد المُسْلِمات، نعم إن خيف منها ضرر هَذَا شَيْء ثانٍ، وخوف الضرر حَتَّى في المُسْلِمات.

فَعلَى القَوْلِ الأوَّل لا يجوز للمَرْأة المُسْلِمة أن تبدي زينتها للكَافرة؛ لأنَّها لَيْسَت من نوعها ولأن الكَافرة في الحَقيقَة غير مؤتمنة، قد تغري بها الفُسَّاق والْكُفَّار إذَا رأتها تتجمل وتتزين وتبدي الزينة، والقول الثَّاني: أن المُراد بنسائهنَّ الجنس، يعني النِّساء اللاتي من جنسهنَّ، وعلَيْه فيجوز للمَرْأة أن تبدي ما خفي من زينتها لجميع النِّساء من مؤمنات وغير مؤمنات، وهَذَا هو الأقرب، واحتمال أن هَذِهِ المَرْأة

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٨).

الكافرة تغري بها الفُسَّاق والْكُفَّار وارد، لكن هَذَا الاحتمال أيضًا وارد في الْمُسْلِمة فإن الْمُسْلِمة وأقول: الْمُسْلِمة غير الْمُؤْمِنة لأَن الْمُسْلِمة ربما يحصل منها ذَلِك.

وهَذِهِ مسائل في الحَقيقَة دقيقة جدًّا وقد ترد حَتَّى مع النِّساء بعضهنَّ بعضًا، ولِذَلك المساحقة بين النِّساء موجودة؛ لأَن الْمَرْأَة تعشق الْمَرْأَة وتتعلق بها كما يَتعلَّق الرَّجل بالْمَرْأَة ويحصل منها هَذَا الفِعْل المحرم.

قَوْلهُ: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَيَجُوز لَهُمْ نَظَره إِلَّا مَا بَيْن السُّرَّة وَالرُّكْبَة فَيَحْرُم نَظَره لِغَيْرِ الْأَزْوَاج] اهـ.

الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشى على أن الْمُراد بالزِّينَة هُنا ما زين الله به الْمَرْأَة، يَقُول: من هَؤُلَاءِ الَّذينَ استثنوا ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أي: الْعَبِيد لأَنَّه لا يُمْكِن أن تتحرز من خادمها وملك يمينها، ومع ذَلِك هو لَيْسَ بمحرم، يعني لو أَرَادَ أن يسافر بها لم تسافر إلا بمحرم، لكن يجوز أن تبدي الزِّينَة الخفية له؛ لأَن هَذَا أمر لا يُمْكِن التحرز منه، وكَذلِك الإماء اللاتي ملكهنَّ النِّساء، ولا بُدَّ أن يَكُون تامًّا فإن كَانَ لها عبد مشترك فإنَّه لا يجوز لها إبداء الزِّينَة له؛ لأَنَّه لا يُقالُ حينئذٍ: ملكته وإنما ملكت بعضه.

ولهَذَا لا يجوز للرَّجُلِ أن يَتَسَرّى بالأَمة المشتركة، إِذَا كَانَت أمة مشتركة بينه وبين شخص لا يجوز له أن يتسرى بها لأَنَّها لَيْسَت ملكه، كما أَنَّه لا يجوز للمَرْأة أن تبدي شيئًا من زينتها الخفية لمملوك بينها وبين غيرها؛ لأَنَّه لا يصدق علَيْه أَنَّه ملكها بل إنه مشترك.

وقول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَيَجُوز لَهُمْ نَظَره إِلَّا مَا بَيْن السُّرَّة وَالرُّكْبَة فَيَحْرُم نَظَره لِغَيْرِ الْأَزْوَاج]، هُنا الْمُفَسِّر مشى على ما أشرنا إِلَيْه سابقًا أن الْمُراد بالزِّينَة ما زين الله به

المَرْأَة، يَقُول: إن هَؤُلَاءِ المستثْنَيْن يجوز للمَرْأة أن تبدي لهم ما بين السُّرَّة والرُّكبة، هَذَا على رأيه، يعني مثلما يجوز للمَرْأة أن تبدي لإخوانها وابن أخيها وابن أختها وابن زوجها يجوز أن تبدي صدرها وبطنها وثدييها وكل شَيْء ما عدا ما بين السُّرَّة والرُّكبة، يعني: يجوز تأتي بسروالها وتخرج على أبي زوجها وما أشبه ذَلِك، لكن هَذَا فيه نظر وفيه فتنة عَظِيمة، لو قُلْنا بجَواز هَذَا لحصل به فتنة كَبيرَة جدًّا، امرأة مثلًا شابة زوجة ابنه تأتي إلَيْه بهَذِهِ المثابة ولنفرض أيضًا أنَّه هو رجل شاب هَذَا لا أحد يَقُول به بشرط أن تؤمن الْفِتْنَة، يعني حَتَّى على رأي المُفَسِّر لا بُدَّ من أمن الْفِتْنَة، فإن لم تؤمن الْفِتْنَة حرم، لكن حَتَّى إِذَا أومنت الْفِتْنَة فإن هَذَا فتح باب لها بلا شَك، ولهَذَا الصَّحيح في هَذِهِ المَسْأَلَة بقطع النَّظر عن كون هَذَا المُراد بالآيَة أو غير المُراد بالآيَة.

فالصَّحيح أنَّه لا يجوز للمَرْأة أن تكشف للمحارم إلا ما جرت العادة به فقط؛ لأَن ما جرت العادة به لا يحتشم منه ولا يبالى به، في عرفنا الآن تخرج الكَفَّ والذِّرَاعَ والسَّاقَ وَالرَّأْسَ والرَّقَبَةَ كُلُّ هَذَا يخرج عادة للمحارم ولهَذَا لو زاد على هَذَا الْأَمْر لوجدت النَّاس ينكرونه؛ لأَنَّه إِذَا جاز كشف السَّاق فالذراع مِنْ بَابِ أَوْلَى، وانتقال الْإِنْسَان في التفكير من السَّاق إلى ما فوقه أقرب من انتقاله من الذراع إلى ما تحته.

فعَلَى كُلِّ حَالٍ الصَّحيح في هَذِهِ المَسْأَلَة أن يرجع في هَذَا إلى ما جرت به العادة إلا في الشَّيء الَّذِي لا يُمْكِن كشفه إلا بفتنة متوقعة أو لازمة فهَذَا لا يجوز.

يبقى النَّظر في غير المحارِم ممَّن تبتلى بهم المَرْأَة وهم غير محارم والمَرْأَة تبتلى بهم مثل أخي الزَّوج إِذَا كَانَ الْإِنْسَان عنْدَه في البَيْت أخ، وطبعًا كُلُّ واحدٍ من الأخوين له زوجة، على المَشْهُور من المَذْهب أنَّه لا يجوز أن تبدي لا كفًّا ولا وجهًا ولا قدمًا

ولا غيره، وأن هَذَا الرَّجل مثل الرَّجل الَّذِي في السُّوق، ولو أخذنا بهَذَا في الحَقيقَة لَلَحِق النَّاس حرج كبير تقول للمَرْأة: إِذَا صَارَ أخو زوجك موجودًا لازم لا يظهر منك ولا ظفر ولا شعرة؛ هَذَا في الحَقيقَة فيه مشقَّة وحرج، ولهَذَا الصَّحيح في هَذِهِ المَسْأَلَة أن مَسْأَلَة الكف والقدم مما يشق التحرز منه، لا بأس به.

أما الوجه فلا يجوز؛ لأَن التحرز منه ممكن بخلاف الكف والرجل، وهَذِهِ امرأة تعمل في البَيْت تغسل الأواني مثلًا وتفرش وتكنس كَيْفَ تتحرز من أخي زوجها؟ تقول: إِذَا أردت مثلًا تغطين الأواني وأخو زوجك موجود ضعي غطاء على اليدين، هَذَا فيه صعوبة، لهَذَا نقول: إن ما يشق التحرُّز منه من إظهار القدم والكف فالصحيح أنَّه لا بأس به، وقد مشى على ذَلِك بعض فقهاء الحنابلة، وقال في الإنصاف: إنه ما يسع النَّاس العَمَل إلا بهَذَا، وهَذَا صحيح ما يسع النَّاس العَمَل إلا بهَذَا الشَّيء والله الموفق.

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُول: [وَخَرَجَ بِنِسَائِهِنَّ الْكَافِرَات فَلَا يَجُوز لِلْمُسْلِمَاتِ الْكَشْف لَهُنَّ وَشَمَلَ ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ الْعَبِيد].

لو قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ يَقُول المُفَسِّر: شمل ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ الْعَبِيد، وهل هُناكَ أحد غير الْعَبِيد، فما الجواب؟

الجواب: نعم، على القَوْل بأن المُراد بنسائهنَّ المُسْلِمات فإن ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ يشمل الأَمة الكافرة فيجوز إبداء الزِّينَة لها وإن لـم تكن من نسائهنَّ لأنَّها مملوكة، أما إِذَا قُلْنا: إن المُراد بنسائهنَّ جميع النِّساء فإن قَوْلهُ: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ يختص بالذكور فقط؛ لأَن النِّساء معْرُوفات من قَوْلهُ: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ اضطر أنْ يقولَ ذَلِك لهَذَا السَّبب، على أن من أهْل العِلْم من قصر قَوْلهُ: ﴿مَا مَلَكَتْ

أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ على النِّساء الكافرات فقط وقال: إن العَبْد لا يجوز لسيِّدته إبداء الزِّينَة له، وإنما المُراد بما ملكت أيمانهنَّ لأجل أن تدخل الأَمة المملوكة إِذَا كَانَت كافِرة؛ لأنَّها خرجت بنسائهنَّ ودخلت فيما ملكت أيمانهنَّ.

لكن الصَّحيح أن (نسائهنَّ) كما أشرنا إِلَيْه سابقًا المُراد به الجنس، وأن جميع النِّساء من مسلمات وكافرات يجوز إبداء الزِّينَة لهنَّ إلا إِذَا خشي المحذور، إِذَا خشي المحذور فهَذَا لا يجوز ولو كَانَت مسلمة كما نهى النَّبِيّ ﷺ المَرْأَة أن تنعت المَرْأَة لزوجها حَتَّى كأنه يشاهدها[1]، أي تقول له: فلانة كذا وكذا وكذا، وتصفها حَتَّى كأنه يشاهدها، فإن الرَّسُول ﷺ نهى المَرْأَة أن تنعت المَرْأَة لزوجها على هَذَا الوجه، فإذا خشي المحذور فهَذَا شَيْء ثانٍ، لكن هَذِهِ الأَشْيَاء بدون محذور.

قَوْلُهُ: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي فُضُول الطَّعَام ﴿غَيْرِ﴾ بِالجَرِّ صِفَة وَالنَّصْب اسْتِثْنَاء ﴿أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ أَصْحَاب الحَاجَةِ إِلَى النِّسَاءِ ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ بِأَنْ لَمْ يَنْتَشِرْ ذَكَرُ كُلٍّ] اهـ.

قَوْلُهُ: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلتَّٰبِعِينَ﴾ فِي فُضُولِ الطَّعَام]، فالمُراد بهم الخدم وشبههم الَّذينَ يتبعون أهل البَيْت، أو المُراد بالتَّابعين أيضًا الَّذينَ يأتون إلى النَّاس ليأكلوا من فضول طعامهم وإن لم يَكُونوا خدمًا لهم، فهو شامل لـهَؤُلَاءِ وهَؤُلَاءِ، فالتَّابع هو الَّذِي يتبع أهل البَيْت إما لكونه خادمًا عندهم وإما لكونه يتلقى فضول الطَّعام منهم، فهَؤُلَاءِ يجوز إبداء الزِّينَة لهم بشرط ألا يَكُون لهم إربة يعني حاجة في النِّساء.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب لا تباشر المَرْأَة المَرْأَة فتنعتها لزوجها، حديث رقم (٥٢٤٠)، عن ابن مسعود.

وقول المُفَسِّر: [بِأَنْ لَمْ يَنْتَشِرْ ذَكَرُ كُلٍّ] لَيْسَ العَلامَة ألا ينتشر ذكره بل العَلامَة ألا يُعرف منه ميل إلى النِّساء؛ لأَن من النَّاس من يميل إلى النِّساء، وإن كَانَ ذكره لا ينتشر، فالعَلامَة أن لا يوجد منه ميل إلى النِّساء إطلاقًا لا عند قيام ذكره ولا عند عدم قيامه.

فالكلام على أنَّه لا يشتهي النِّساء ولا يميل إلَيْهنَّ فهو كالمَرْأَة؛ ولمشقَّة التحرز منه أباح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للنِّساء أن يبدين زينتهنَّ له، فصَارَ التَّابع معناه الَّذِي يتبع أهل البَيْت لتلقي فضول طعامهم إما لكونه خادمًا فيهم أو غير خادم، لكن اشترط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في التَّابع ألا يَكُون له إربة في النِّساء، والعَلامَة أنَّه يُعلم أنَّه لا يميلُ إلى النِّساء ولا يرغب فيهنَّ، والغالِب أنَّه لا يقوم ذَكَرُهُ، لكنَّه لَيْسَ بلازم قد يَكُون الْإِنْسَان ممَّن يميل إلى النِّساء ويحبهنَّ ويألفهنَّ لكن لا يقوم ذكره.

لِذَلك الصَّحيح في هَذِهِ المَسْأَلَة أنَّنا نعلم عدم حاجته وعدم ميله إلى النِّساء، ولهَذَا كَانَ في بيوت آل النَّبِيّ ﷺ رجل مخنث، يعني من غير أولي الإربة لم يَكُونوا يعلمون به حَتَّى إنه في يوم من الأَيَّام قَالَ لرجل من محارم إِحْدَى زوجات النَّبِيّ ﷺ: إِذَا فتحتم الطائف فعليكم بابنة غيلان الثَّقفي؛ فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان[1]، هم في أول الْأَمْر يحسبونه لَيْسَ بشَيْء، لكن هَذَا الَّذِي يصف المَرْأَة هَذَا الوصف يدُلّ على أنَّه يميل إلى النِّساء، فمنعه النَّبِيّ ﷺ من الدُّخول على أهل بيته لأنَّه يتبيَّن أنَّه يميل إلى النِّساء، فإذا وُجد أن هَذَا التَّابع يصف النِّساء ويذكر جمالهنَّ وما أشبه ذَلِك علم أنَّه صحاب حاجة، وأما مَسْأَلَة قيام الذكر فهَذِهِ لَيْسَ بعلامة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت، حديث رقم (٥٨٨٧)؛ ومسلم، كتاب السلام، باب منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب، حديث رقم (٢١٨٠)، عن أم سلمة.

ذكر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (كُلٍّ) فقال: «بِأَنْ لَمْ يَنْتَشِرْ ذَكَرُ كُلٍّ] لو قَالَ: «ذكره» لم يكن هُناكَ إِشْكال، لكن قَوْلهُ: [ذَكَرُ كُلٍّ] يقْتَضِي عددًا.

قَوْلهُ: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِمَعْنَى الأَطْفَال ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ﴾ أي: يَطَّلِعُوا ﴿عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ لِلْجِمَاعِ، فَيَجُوزُ أَنْ يُبْدِينَ لَهُمْ مَا عَدَا مَا بَيْنَ السُّرَّةِ وَالرُّكْبَةِ] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾ قَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الطفل بِمَعْنَى الأَطْفَال]، فهو اسم جنس بمَعْنى الأطفال، والدَّليل على أنَّه بمَعْنى الأطفال قَوْلهُ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ حيث وصفه بالجمع ولا يُوصف المفرد بالجمع، لكن فيه دَليل على أن اسم الجنس إِذَا حُلي بـ(أل) يَكُون للعموم ولو كَانَ مفردًا.

وقَوْلهُ: ﴿يَظْهَرُواْ﴾ بمَعْنى يطلعوا ﴿عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ للجماع، والمَعْنى أنهم لا يعرفون ما يَتعلَّق بالعورات، فقَوْلهُ: ﴿لَمْ يَظْهَرُواْ﴾ أي: لم يطلعوا بحيث لا يدرون ماذا يُصنع بالعورات ولا هي لهم على بال، فهَؤُلَاءِ الأطفال يجوز أن تُبدى لهم الزينة، هَذَا المراد، لَيْسَ المُراد الاطِّلاع بالعين لأَن الاطِّلاع بالعين هَذَا يَكُون في الأطفال وغيرهم، لكن المُراد أنهم لا يدرون.

وقول المُفَسِّر: [يُبْدِينَ لَهُمْ مَا عَدَا مَا بَيْن السُّرَّة وَالرُّكْبَة] بناء على أن المُراد بالزِّينَة هُنا ما زين الله به المَرْأَة لا أنَّها اللباس.

تقدَّم في هَذِهِ الآيَة اثنا عشر صنفًا يَقُول الله تعالى: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ اثنا عشر صنفًا

هَؤُلَاءِ هم الَّذِي تبدى لهم الزِّينَة الخفية ومن عداهم لا تُبدى لهم، هَذَا هو ظاهر الآيَة؛ لأَن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُول: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا﴾ والاستثناء هَذَا مفرغ يقْتَضِي أن من سوى هَؤُلَاءِ لا يجوز إبداء الزِّينَة لهم، لكنَّ بعض العُلَماء ألحق بهم بقية المحارِم من مصاهرة أو نسب أو رضاع؛ لأَنَّه يُوجد من المحارِم من النَّسب من لم يُذكر مثل الأعمام والأخوال وأيضًا من المصاهرة من لم يُذكر؛ لأَن قَوْلهُ: ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ معناه تكُون زوجة ابن أو ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ تكُون زوجة أب، أي أن زوجة الْأَبّ تبدي لأبناء زوجها الزِّينَة، وزوجة الابن تبدي لآباء زوجها الزينة.

لو قَالَ قَائِلٌ: هَـؤُلَاءِ الاثنا عشر هل هـم على حد سـواء فيما يُبدى من الزِّينَة أو لَيْسَوا على حد سواء؟

الجواب: لَيْسَوا على حد سواء بلا شَك، ولهَذَا بدأ الله بالزَّوج لأَنَّه أعلى من تُبدى له الزِّينَة بمطلقها، والباقين يُمكن أن يُقالَ: على الترتيب، ويُمْكِن ألا يُقالَ: على الترتيب بل يُنظر إلى ما جرت به العادة؛ لأَن حَقِيقَة الْأَمْر أن الأخ مثلًا إِذَا كَانَ عند أخته دائمًا في البَيْت لَيْسَ كما لو لم يكن يأتيها إلا نادرًا، أي الحالين أَشَدّ تحشمًا بالنِّسْبَةِ لها؟ إِذَا كَانَ لا يأتي إلا نادرًا تجدها تستحي منه وتحتشم أكثر مما إِذَا كَانَ دائمًا عندها، فيَنْبَغِي أن يُقالَ في ترتيبهم، أما الزَّوج فهو عَلَى كُلِّ حَالٍ في القمة، وأما البقية فعلى حسب ما يدعـو إِلَيْه العرف والعادة بالنِّسْبَةِ لإبداء الزِّينَة كاملة أو متوسطة أو أدنى ما يُقالُ إِنَّهُ زينة.

المَسْأَلَة الثَّانية: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ هل يَجب على المَرْأَة أن تحتجب عن الرجل، يعني: هل يحرم عَلَيْها أن تنظر إلى الرَّجل أو لا يحرم، يعني إِذَا

قُلْنا: إن المُراد بالزِّينَة هُنا ما زين الله به المَرْأَة أو ما زين الله به الرَّجل فهل يَجب عَلَيْها أن تغض الطرف عن الرَّجل أو لا يَجب؟

هَذِهِ المَسْأَلَة فيها خلاف بين أهْل العِلْم، منهم من قَالَ: إنه لا يجوز للمَرْأة أن تنظر إلى الرجل، كما لا يجوز للرَّجُلِ أن ينظر إلى المَرْأَة؛ لأَن الآيَة واحدة قَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ وأيدوا قولهم هَذَا بحديث أم سلمة والمَرْأَة الأُخْرَى الَّتِي لما دخل ابن أم مكتوم قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «احْتَجِبَا مِنْهُ» قالوا: يا رَسُول الله! إنه رجل أعمى، فقال: «أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا؟!»[1] فلمَّا أوردا علَيْه أنَّه أعمى قَالَ: أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا، وأمرهما بالاحتجاب، لكن هَذَا الحَديث لا يصِح عند أهْل العِلْم؛ لأنَّه من رِوايَة نبهان مولى أبي سلمة وهو مجهول، ولِذَلك ضعفه الإِمَام أحمد رَحِمَهُ اللهُ.

ولِذَلك الصَّحيح أنَّه يجوز للمَرْأة أن تنظر إلى الرَّجل إِذَا لم يكن هُناكَ فتنة أو شهوة، ويدُلّ لِذَلك أحاديث صحيحة صريحة منها حديث عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حينما كَانَت تطلع إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد والنَّبي ﷺ يسترها وهي تنظر إلَيْهم حَتَّى إنها هي الَّتِي تركت هَذَا الشَّيء[2]، وهَذَا دَليل واضح على جَواز نظر المَرْأَة إلى الرجل.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب اللباس، باب في قوله عزّ وجل: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾، حديث رقم (٤١١٢)؛ الترمذي، كتاب اللباس، باب ما جاء في احتجاب النساء من الرِّجَال، حديث رقم (٢٧٧٨)؛ وأحمد (٦/ ٢٩٦) (٢٦٥٧٩)، عن أم سلمة.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب الحراب والدرق يوم العيد، حديث رقم (٩٥٠)؛ ومسلم كتاب صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد، حديث رقم (٨٩٢)، عن عَائِشَة.

كَذلِكَ أيضًا قَوْل النَّبِيّ ﷺ لفاطمة بنت قيس: «اعْتَدِّي فِي بَيْتِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى تَضَعِينَ ثِيَابَكِ عِنْدَهُ»(١)، وهَذَا أيضًا صريح واضح في أن المَرْأَة يجوز أن تنظر إلى الرجل.

وأيضًا قَالَ فقهاؤنا رَحِمَهُمُ اللَّهُ: لو كَانَ يحرم على المَرْأَة أن تنظر إلى الرَّجل لوجب على الرِّجَال أن يحتجبوا مثلما أن المَرْأَة تحتجب عن الرَّجل لئلا ينظر إلَيْها، فنقول أيضًا: الرَّجل يتحجب عن المَرْأَة لئلا تنظر إلَيْه؛ لأنَّه لا يتم الواجب إلا بهَذَا؛ لأنَّه إِذَا صَارَ وجه الرَّجل مكشوفًا فالمَرْأَة لا بُدَّ أن تراه، لا يُمْكِن أن تعدم رؤيتها له إلا إِذَا احتجب مثلما أنَّها هي تحتجب، ولا قائل من أهْل العِلْم أنَّه يَجب على الرَّجل أن يحتجب عن المَرْأَة.

ولهَذَا الصَّحيح في هَذِهِ المَسْأَلَة مذهب الْإِمَام أحمد أنَّه يجوز للمَرْأة أن تنظر إلى الرجل، ولكن كل هَذِهِ المَسائِل وغيرها تجوز بشرط أَمْن الْفِتْنَة، أما إِذَا كَانَ هُناكَ فتنة فإنَّه لا يجوز أن تنظر ولا إلى صُورَة الرجل، حَتَّى صُورَة الرَّجل الَّتِي تَكُون في بطاقة أو الَّتِي تظهر في التلفزيون لا يجوز أن تنظر إلَيْها إِذَا كَانَ يُخشى منها الْفِتْنَة، وكَذلِك بالنِّسْبَةِ للرَّجُلِ أيضًا، وهَذِهِ مَسْأَلَة سنبحثها بحثًا مستقلًّا فنقول: هل يجوز للرَّجُلِ أن ينظر إلى صُورَة المَرْأَة الأجنبية منه أو لا يجوز؟

الرأي الأوَّل: متى جاز النَّظر إلى وجهها بغير صُورَة جاز النَّظر إلى صورتها، يعني متى جاز النَّظر إلى المَرْأَة لكونه محرمًا أو خاطبًا جاز النَّظر إلى صورتها، ومتى مُنع منع النَّظر.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها، حديث رقم (١٤٨٠)، عن فاطمة بنت قيس.

الرأي الثَّاني: يجوز النَّظر إلى صُورَة المَرْأَة لأنَّها لا تساوي النَّظر إلى المَرْأَة، فهَذِهِ الصُّورة لَيْسَت هي المَرْأَة، والنَّهي إنما ورد عن المَرْأَة فقط، نعم لو حصل فتنة مثل ما يفعله بعض النَّاس والعِيَاذ باللهِ، أنا أذكر مرة أن مجلة تسمى النَّهضة الكويتية، لكنها نهضة إلى الشَّرِّ، هَذِهِ المجلة وضعت مسابقة لملكة الجمال وصورت حسب ما تصورت أجمل من جاءها من النِّساء، طبعًا مثل هَذَا في ظني أن كثيرًا من النَّاس الَّذينَ لَيْسَ عندهم خوف من الله سيقتنون هَذِهِ الصُّور: صور الجميلات، يتمتعون بالنَّظر إلَيْها أو لأي غرض آخر، فهَذَا لا شَكَ في تحْرِيمه.

فنقول: إِذَنْ النَّظر إلى الصُّورة لا يساوي النَّظر إلى الحَقيقَة، ولَيْسَ هو الَّذِي ورد فيه النَّهي، ولكن متى تضمن ذَلِك فتنة لكونه يَتعلَّق بها أو يقتنيها فإن ذَلِك يَكُون حرامًا وإلا فلا يظهر التَّحْريم.

وبالنِّسْبَةِ للنظر إلَيْها في التلفزيون، في الحَقيقَة الفَرْق بينها وبين الصُّورة الأولى أنَّها تتحرك وفي الغالِب إِذَا كَانَ التلفزيون ملونًا فإنَّه يحكي حالـها أكثر وكَذلِك الصَّوْت، وكَذلِك التغنج والتمايل والرقص وما أشبه ذَلِك.

لكـن إِذَا قـدَّرنا أن امرأة عادية طبيعية تذيع مثلًا هـل يحرم النَّظـر إلَيْها أو لا يحرم؟

والله أنا أرى أن النَّفس لا تتعلق بها ولو رأتها في التلفزيون مثل ما تتعلق بها لو رأتها حَقِيقَة، وأرى أن هُناكَ فرقًا بين أن ينظر إلى امرأة في التلفزيون أو ينظر امرأة حقيقية، في الحَقيقَة بعض النَّاس يَقُول: إن الصُّورة في التلفزيون أَشَدّ من الصُّورة في البطاقة؛ لأنَّها تحكي الحركة والصوت فتكون الْفِتْنَة أعظم، ولكن عندي أيضًا أن

هَذِهِ تمتاز على الصُّورة الَّتِي بالبطاقة -كما تقدَّم- بأنَّها تتحرك ولها صوت، وهَذَا أدعى للفتنة، لكنها تختلف عنها بأنَّها لا تثبت، والصُّورَة الَّتِي في البطاقة تثبت، والْإِنْسَان يُمْكِن أن يجعل عنْدَه صُورَة بالبطاقة كلما اشتهى أن يتمتع بالنَّظر إلَيْها ذهب إلَيْها ونظر، لكن هَذِهِ لا يُمْكِن لأنَّها قد فاتت حيث إنه أغلق التلفزيون وذهب، وكما تقدَّم لا يُمْكِن أن يَتعلَّق قلب الْإِنْسَان بهَذِهِ الصُّورة مثلما يَتعلَّق بالمَرْأَة.

معْلُوم أن الوصف مهما بلغ لا يُمْكِن أن يَكُون مثل الصُّورة، لا شَك أن الصُّورة أَشَدّ حكاية للحَقِيقَة، لكن كلامنا إِذَا لم يكن هُناكَ فتنة ولا ضرر.

وصف نساء المُسْلِمينَ للكفار هَذَا ضرره عَظِيم، ولِذَلك نحنُ نقول: لَيْسَ عندنا شك أن الصُّورة إِذَا صَارَت تبتذل وتكون صُورَة بنت فلان مثلًا بأيدي الفُسَّاق هَذَا من المحرمات الَّتِي لا شَك فيها، ولهَذَا نرى أنَّه من أعظم الخطر ما يفعل الآن بالأعراس تصوير النِّساء حَتَّى لو كَانَت الَّتِي تصور من النِّساء؛ لأَن هَذِهِ الصُّور تبقى في أيدي النِّساء، ومن يأمن المَرْأَة أن تعطيها فلانًا أو فلانًا أو ولدها أو أخاها أو زوجها، لكن نقول: ربما يُحتج علَيْنا بالحَديث الَّذِي أوردته وهو نهي النَّبِيّ ﷺ المَرْأَة أن تنعت المَرْأَة لزوجها كأنما يشاهدها[1].

فإذا كَانَ الرَّسُول نهى المَرْأَة أن تباشر المَرْأَة فتنعتها لزوجها كأنما ينظر إلَيْها، فالصُّورَة مثل هَذَا بل أَشَدّ، هَذَا هو الَّذِي يُمْكِن أنْ يُقالَ: إن الصُّورة تدخل فيه؛ لأَن النَّعت في الحَقيقَة -يعني ذكر الأوصاف- لا يحكي المَرْأَة كما تحكيه الصُّورة، ولكن لَيْسَ بظاهر لي؛ لأَن الحَقيقَة حكاية الصِّفة بالنِّسْبَةِ للإغراء أَشَدّ لا سيَّما إِذَا

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب لا تباشر المَرْأَة المَرْأَة فتنعتها لزوجها، حديث رقم (٥٢٤٠)، عن ابن مسعود.

كَانَ الرَّسُول يَقُول: «تَنْعَتهَا لِزَوْجِهَا»، قد يُقالُ: إن كون الرَّسُول ﷺ يَقُول: «تَنْعَتهَا لِزَوْجِهَا» هَذَا لَيْسَ لبَيان الواقِع وأن الغالِب أن المَرْأَة لا تصف النِّساء إلا لزوجها.

وقد يُقالُ: إنه لَيْسَ لبَيان الغالِب، ولكن لما يترتب علَيْه من المفاسد حيث يظن الزَّوج أن هَذِهِ المَرْأَة لا تريده، ولِذَلك تصف له النِّساء لعله يَتعلَّق بهنَّ هَذَا من جهة، ومن جهة أُخْرَى ربما يَتعلَّق قلب الزَّوج نفسه إِذَا وصفت له زَوْجَته هَذِهِ المَرْأَة ويرغب عن زَوْجَته الَّتِي معه، ويتحول إلى الجديدة.

عَلَى كُلِّ حَالٍ وبعد هَذِهِ المناقشة لا أستطيع أن أجزم بتحْرِيم النَّظر إلى المَرْأَة في التلفزيون أو في الصُّورة إِذَا لم يكن في ذَلِك محذور، فإن كَانَ في ذَلِك محذور فلا شَك أَنَّه لا يجوز، وأيضًا قد يُقالُ: إن الشَّيء البعيد المنال قد لا تتعلق به نفس الْإِنْسَان لا سيَّما الْإِنْسَان العاقِل؛ لأَنَّه كَيْفَ يطمع الْإِنْسَان العاقِل بما لا يُمْكِن أن يناله بخلاف الأَشْيَاء الَّتِي يُمْكِن أن ينالها، ولـهَذَا - والله أعلم - أُبيح للمحارم أن يكشفن وجوههنَّ للمَحرم؛ لأَن نفسه لا يُمْكِن أن تتعلق بهنَّ أبدًا إلا والعِيَاذ بالله إذا قُـلبت فطرته، وأما الرِّجَال الأجانب فـلا، هَذَا من الحِكْمة، فالمدار على الْفِتْنَة أو خوفها.

وأما إِذَا كَانَ الْإِنْسَان طبيعيًّا ولا يهتز قلبه ولا مشاعره بهَذَا الَّذِي يشاهد فالتَّحْريم وتأثيم النَّاس به أمر فيه إِشْكال، والآن صور النِّساء منتشرة، حَتَّى بعض الأقمشة أظن فيها صور نساء يلصق علَيْه بطاقة صُورَة امرأة، وفي الصُّحف أيضًا وهَذِهِ مشكلة، يعني تأثيم النَّاس بشَيْء لا يتحققه الْإِنْسَان، أمر صعب، فلا يجوز لِلإنْسان أن يؤثم النَّاس إلا بشَيْء يعرف أَنَّه يغلب على ظنه أو يقطع به، وأما شَيْء يشك فيه فلا يَنْبَغِي أن يؤثم النَّاس به، ولا شَك أن التحرز من هَذَا أولى.

ولكن المَسْأَلَة لَيْسَت هي مَسْأَلَة التحرز، الأولوية مَسْأَلَة التَّحْريم نقول: هل حرام عَلَيْك أن تنظر أو لَيْسَ حرامًا؟ أما إِذَا كَانَ الْإِنْسَان يجوز له أن ينظر إلى المَرْأَة نفسها فهَذَا واضح أَنَّه يجوز أن ينظر إلى صورتها كما في مَسْأَلَة الخاطب، فلو أن رجلًا أَرَادَ أن يخطب امرأة فبدلًا من أن يذهب إِلَيْها وجد لها صُورَة فإِنَّه يراها ولا بأس بِذَلِك، وإن كَانَت الصُّورة في الحَقيقَة لا تحكي الواقِع تمامًا كما هو مشاهد الآن، تشاهد صُورَة لشخص أحيانًا تَكُون صورته مشوهة، وأحيانًا تَكُون صورته أحْسَن من الواقِع أيضًا، وأحيانًا تَكُون صُورَة مطابقة للواقع، الحَقيقَة أن الصُّورة هَذِهِ لا تحكي الواقِع تمامًا.

الحاصل أن خوف الْفِتْنَة هو المناط، أي هَذَا هو السَّبب سدًّا لـهَذِهِ الذريعة وهَذَا مطرد، فكل شَيْء حرم تحْرِيم الوسائل فإِنَّه تبيحه المصْلَحة لَيْسَ الضَّرورة؛ لأَن الحرام لذاته لا تبيحه إلا الضَّرورة، والمحرم تحْرِيم الوسائل تبيحه المصْلَحة، ولِذَلك يجوز في بعض الأَحْيان إِذَا كَانَت المصْلَحة أكثر، فمثلًا تحْرِيم ربا الفَضْل محرم تحْرِيم وسائل، وتبيحه الحاجة كمَسْأَلَة العرايا.

ومَسْأَلَة النَّظر التَّحْريم فيها من باب تحْرِيم الوسائل كما قاله أهْل العِلْم، ولِذَلك تبيحه المصْلَحة والحاجة مثل نظر الطبيب للمريضة ونظر الخاطب للمخطوبة ونظر الشَّاهد للمشهود عَلَيْها ونظر المعامل، حَتَّى المعامل يجوز أن ينظر لمن تعامله، مثل امرأة جرت العادة أن تبيع وتشتري أغراضًا من الدكان، فيجوز أنْ يقولَ لـها: اكشفي الوجه يُمْكِن أن يأتي غيرك وإن شككت أنظر إلى وجهك مرة ثانية، يجوز هَذَا.

نص العُلَماء على جَواز هَذِهِ المَسْأَلَة لأَن هَذَا لَيْسَ من باب تحْرِيم الذات، بل تحْرِيم الوسائل، ويدُلّك على أن هَذَا محرم تحْرِيم الوسائل بالنِّسْبَةِ للمحارم جَواز

الشريعة للمَرْأة أن تكشف لمحرمها؛ لأَن الذريعة في هَذِهِ المَسْأَلَة شبه منعدمة، ولِذَلك لو قدر أن وجد محرم والعِيَاذ باللهِ (مقلوب الفطرة) وأنه ينظر إلى محارمه نظر الأجنبيات؛ وجب منعه منهنَّ، ولا يستغرب أن ينظر أحد من الرِّجَال إلى محارمه نظرة الأجنبيات، لا يستغرب ذَلِك.

فأنا قد سُئلت هَذِهِ الأَيَّام عن رجل له أخت صغيرة من الْأَب لها سبع أو ثمان سنين، تقول المَرْأَة ولا أدري هل هي صادقة أو لا، تقول: أخوها من أبيها ذهب بها إلى بيته وفَجَرَ بها والعِيَاذ باللهِ، وهَذَا لَيْسَ بغريب، بعض النَّاس تَكُون طباعه طباع الكلاب ينزو على أمه ولا يبالي.

فالحاصِل: أَنَّنا نقول: إن تحْرِيم النَّظر أصله لَيْسَ تحْرِيمًا لذاته؛ لأَن المحرم الزِّنَا والْفَاحِشَة، لكن النَّهي عن قربان الزِّنَا لأجل ألا يَكُون لنا وسيلة إلَيْه، فتَحْريم النَّظر مِنْ أجل هَذَا مِنْ باب تَحْريم الوَسَائل.

قَوْلهُ: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ قَوْلهُ: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ﴾ يَعود على المُؤْمِنات.

قَوْلهُ: ﴿بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ ضَرَبَ برجله يعني حرَّكها على الأَرْض بقوة.

قَوْلهُ: ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ خَلْخَال يَتَقَعْقَع] اهـ، يعني بصوت القَعْقَعْة لأَن المَرْأَة إِذَا صَارَ عَلَيْها خَلْخَال وقد ستره السَّراويل فهو لا يَبين للنَّاس، لكن بعض النِّساء للفتنة -والعِيَاذ باللهِ- تضرب برجلها حَتَّى يُسمع الخَلْخَال ويعرف أن عَلَيْها خلخالًا، فنهى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المُؤْمِنات أن يفعلن ذَلِك؛ أي: أن يَضْربن بأرجلهنَّ لِيعلمَ ما يخفين من زينتهنَّ، والنَّهي هُنا للتَّحْريم، ولهَذَا قَالَ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

و(اللَّام) في قَوْلهُ: ﴿لِيُعْلَمَ﴾ هل هي للتَّعليل أو للعاقبة؟ المَعْنى يختلف، فإذا قلت: إنها للتَّعليل صَارَ النَّهْي منصبًّا على ما إِذَا قَصَدت ذَلِك؛ أي: ضربت برجلها لأجل أن يُعلمَ، وعلَيْه فلو ضربت برجلها على حشرة مثلًا أو على عقرب أو ما أشبه ذَلِك وسمع الخلخال فإنَّه لا حرج عَلَيْها في ذَلِك؛ لأنَّها لم تقصد أن يعلم ما تخفي من زينتها، وإذا جعلنا (اللَّام) للعاقبة، يعني: لا تضرب برجلها فإن عاقبة هَذَا الضرب أن يعلم ما تخفي من زينتها، فصَارَ النَّهْي عن الضرب بالرّجل مطلقًا سواء أَرَادَت ذَلِك أم لم ترده، لا شَكَ أنَّنا إِذَا نظرنا إلى المحذور من هَذَا الضرب وهو عِلْم ما أُخْفِي من الزِّينَة فإن هَذَا محذور.

لا فرق بين أن تكُون المَرْأَة قاصدة له أم غير قاصدة، هَذَا المحذور سيحصل إِذَا ضربت حَتَّى سُمِع صوتُ الخَلْخَال، وعلى هَذَا فيُرجَّح أن تكُون اللَّام للعاقبة؛ ذَلِك لأَن المحذور سيقع، وإذا نظرنا إلى أن المَرْأَة إِذَا لم ترد هَذَا الشَّيء فقد قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»[1]، وهي ضربت برجلها لا لهَذَا الغرض فلا تكُون آثمة به.

ولام التَّعليل وردت كثيرًا في القُرْآن كقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ [البقرة:٢٣١]، وقَوْله تَعَالَى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، هم لم يلتقطوه لِذَلك إنما التقطوه ليكُون قرة عين لهم، لكن العاقبة صَارَت هكذا.

فعَلَى كُلِّ حَالٍ الَّذِي يظهر أن ترجيح كون اللَّام للعاقبة أولى، وَذلِك لأَن المفسدة والْفِتْنَة حاصلة سواء أَرَادَات أو لم ترد، إِذَا كَانَ لا يجوز لها أن تضرب

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، حديث رقم (١)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «**إنما الأعمال...**»، حديث رقم (١٩٠٧)، عن عمر بن الخطاب.

بالرّجل خوفًا من ظهور صوت الخلخال فما بالك بمن تظهر الخلخال نفسه وتظهر الأسورة في اليدين وتظهر القلادة على العنق فيَكُون هَذَا أَشَدّ وأولى بالنَّهْي والتَّحْريم، ولِذَلك عمل النِّساء الآن لا شَك أنَّه محرم.

وإننا في الحَقيقَة نحنُ وهنَّ معرضون لِذَلك، كَيْفَ نرى هَؤُلَاءِ النِّساء ينتهكن ما نهى الله عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علنًا ولا نجد أحدًا ينهاهنَّ ويقول: هَذَا حرام، المَرْأَة في ظني تتقصد إظهار اليد ليرى ما عَلَيْها من الحلي؛ ولِذَلك تجدها أحيانًا لا تظهر إلا اليد الَّتِي في الحلي، وهَذَا أيضًا من العَمَل المشين الَّذِي استعمله النِّساء.

فكونها تملأ إِحْدَى اليدين بالحلي وتجعل اليد الأُخْرَى بيضاء أو لَيْسَ فيها إلا ساعة فيها سير أيضًا ففي النَّفس من هَذَا شَيْء؛ لأَن الظَّاهِر أنَّه من جنس الَّذِي يمشي بنعل واحدة، وقد نهى النَّبِيّ ﷺ أن يمشي الرَّجل بنعل واحدة[1]، لما في ذَلِك من عدم العَدْل بين الرجلين، والعَدْل مأمور به، فكونها مثلًا تريد أن تملأ يدًا من الحلي ويدًا خالية هَذَا في النَّفس منه شَيْء، فنقول: الأولى أن تلبس الحلي على حد سواء في اليدين، اللهم إلا إِذَا كَانَت إِحْدَى اليدين فيها ساعة وأَرَادَت أن تنقص من الأسورة بقدر ما تأخذه الساعة من المساحة فهَذَا ربما يقال: إنه عدل ولَيْسَ فيه شَيْء.

عَلَى كُلِّ حَالٍ إِذَا كَانَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نهى أن تضرب المَرْأَة برجلها خوفًا من أن يعلم ما تخفي من الخلخال لظهور صوته، وما علَيْه النِّساء اليوم أَشَدّ وأعظم، ولهَذَا لا يجوز للنِّساء أن يفعلن ذَلِك، حَتَّى عند القائلين بأن الوجه والكف لَيْسَ

(١) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب لا يمشي في نعل واحدة، حديث رقم (٥٨٥٥)؛ ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب استحباب لبس النعل اليمنى أولًا والخلع، حديث رقم (٢٠٩٧)، عن أبي هريرة.

بعورة يرون أن الذراع عورة، وأنه لا يجوز للمَرْأة أن تبدي ذراعها المحلى بالأسورة، لكن الْأَمْر مشكِل.

قَوْلهُ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِمَّا وَقَعَ لَكُمْ مِنْ النَّظَر الْمَمْنُوع مِنْهُ وَمِنْ غَيْره ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تَنْجُونَ مِنْ ذَلِك لِقَبُولِ التَّوْبَة مِنْهُ، وَفِي الآيَة تَغْلِيب الذُّكُور عَلَى الْإِنَاث] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هَذَا أمر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعباده الْمُؤْمِنِينَ موجه لكل النَّاس توبوا أيها الْمُؤْمِنُونَ، وإنما وجه الخِطَاب للجميع لأَن هَذِهِ الْمُنْكرات إِذَا أُظْهِرَت عم بلاؤها الجميع، فلهَذَا وجه الله الخِطَاب للجميع ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ ثم تأمل تأكيد هَذَا الْأَمْر بقَوْلهُ: ﴿جَمِيعًا﴾: ﴿أَيُّهَ﴾ النِّداء: ﴿أَيُّهَ﴾ كل هَذِهِ مغريات توجب إغراء الْإِنْسَان، أو هي لإغراء الْإِنْسَان على التَّوبة وأن تَكُون التَّوبة جماعية، لا يكفي أن يتوب واحد، والباقي يعلن فسقه ومخالفته.

ثانيًا: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ النِّداء سبق أَنَّه يدُلّ على أهميته، ولهَذَا وجه الخِطَاب بالنِّداء لبَيان الاعتناء به، وأيضًا وصف الْمُؤْمِنِينَ دَليل على أن الإِيمَان يقضي بتوبة الْمُؤْمِن وأنه لا يهمل ولا يغفل عن الذُّنوب، وأن عدم التَّوبة نقص في الإِيمَان.

ما هي التَّوبة؟

التَّوبة هي الرُّجوع من معْصِيَة الله إلى طاعته، وهي نوعان:

النَّوع الأوَّل: التوبة المطلقة يستحق التائب بها أن يوصف بأنه من التَّوابين الَّذينَ يحبهم الله، وهي التَّوبة من جميع المعَاصِي بحيث يقلع الْإِنْسَان عن كل معْصِيَة يعملها قولية كَانَت أو فعلية أو عقدية، هَذِهِ هي التَّوبة المطلَقة الَّتِي يستحق فاعلها الثَّناء وأن يَكُون من التَّوابين الَّذينَ يحبهم الله عَزَّوَجَلَّ.

النَّوع الثَّاني: التوبة المقيدة من ذنب معين فهَذِهِ لصاحبها من الثَّناء ما يستحقه، والصَّحيح أن هَذِهِ التَّوبة توبة مقبولة، فإذا تاب الْإِنْسَان من ذنب وهو مُصر على غيره فتوبته منه على القَوْل الراجح صحيحة ومقبولة؛ لأَن الإِيمَان يتبعض، والأعمال تتبعض، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكم عدل لا يظلم ولا يخذل، فهَذَا الرَّجل الَّذِي تاب من ذنب وهو مُصِرّ على غيره الصَّحيح أَنَّه تقبل توبته وأنه لا مانع من ذَلِك، لكن لا يستحق ما سبق من كونه تائبًا على وجه الإطلاق ومن التَّوابين الَّذينَ يستحقون الثَّناء المُطلق، فله من الثَّناء بحسب ما حصل له من التَّوبة.

هَذَا الْأَمْر ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يتوجه إلى أي القسمين المقيد أو العامّ؟

الجواب: العامّ المطلَق، يعني توبة مطلقة عامَّة من جميع الذُّنوب لأجل أن يحصل الفلاح، و(لعل) في قَوْلهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ للتَّعليل؛ أي: أن التَّوبة سبب للفلاح، والفلاح في الحَقيقَة لَيْسَ كَلِمة هينة، الفلاح مثل الفوز، هو عِبارَة عن النَّجاة من المرهوب وحصول المَطْلوب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، ففي قَوْلهُ: ﴿زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، النَّجاة من المرهوب، وفي قَوْلهُ: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ﴾ حصول المَطْلوب، .

الَى بالدُّنْيَا ولا بالْآخِرَة فدل ذَلِك على أن الفلاح بالتَّوبة يَكُون في الدُّنْيَا وفي الْآخِرَة، وهو كَذلِكَ فإن التائب يحصل له الفلاح في الدُّنْيَا وفي الْآخِرَة.

ولماذا أتى المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهَذِهِ الجُمْلَة، وفي الآيَة تغليب الذكور على الإناث، مع أن هَذَا كثير في القُرْآن؟

الجواب: لأَن الخِطَاب موجه للنِّساء في هَذِهِ الآيَة، لو كَانَ من الأَصْل موجهًا للذكور ما احتيج إلى هَذِهِ الجُمْلَة الَّتِي ذكرها المُفَسِّر، لكن لما كَانَ الخِطَاب في الآيَة

الْكَرِيمَةِ موجهًا إلى النِّساء ثم قَالَ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لم يقل: توبوا إلى الله جميعًا أيها المُؤْمِنات نقول: هَذَا لأجل التغليب.

ثم إن توجيه الخِطَاب مع أنَّه للذكور -فإنَّه يشمل النِّساء بلا شَكٍ- ففيه إِشارَة والله أعلم إلى رعاية الرَّجل للمَرْأة، وأنه لا بُدَّ من أن يتوب هو نفسه يُعَدِّل أهله وقد قَالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء:٣٤].

فنقول: توجيه الخِطَاب إلى الذكور مع أن الآيَة كلها خطاب للنِّساء فيه إِشارَة إلى رعاية الرَّجل للمَرْأة وأن المَرْأَة لا تستقيم إلا باستقامة الرجل، والواقِع شاهد لِذَلك الآن، ما أسباب تفريط النِّساء عندنا؟ هنَّ طبعًا مائلات لهَذَا الشَّيء، فالسبب المباشر النِّساء، لكن عدم رعاية الرِّجَال لهنَّ هَذَا هو الَّذِي أوجب لهنَّ هَذَا التوسع الَّذِي لا يقره الشَّرع، لِذَلك لو كَانَ كل واحد من النَّاس قد جند نفسه لحماية امرأته لم يحصل هَذَا الشَّرُّ، والعجيب أن الْإِنْسَان منا تجده مُجَنِّدًا نفسه لحماية ماله؛ الصُّندوق خزانة حديدية وله مفتاحان والمفاتيح في جيبه دائمًا، ولو كَانَ عنْدَه مثلًا واحد في الألف خوف على هَذَا المال قَالَ: أضعه في البنوك؛ حماية له، ويحسب، وينظر، ماذا نقص اليوم، وماذا حصل؟

والأهل الَّذينَ هم في الحَقيقَة حياة الْإِنْسَان لا يهتم بهم، أولاده سارحين، وبناته سارحات، ولا ينظر، لو أنَّنا اعتنينا بأهلنا نصف ما نعتني بأموالنا لحصل شَيْء كثير، مع العِلْم بأنَّنا نعتني بأموالنا لغيرنا، لا لنا؛ لأَن هَذَا المال المُكَدَّس لن يتبعك، سوف يرجع، لكن أهلك إِذَا أصلحهم الله على يديك كنت في الحَقيقَة تصلحهم لنفسك؛ فإن النَّبِيّ ﷺ يَقُول: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَان انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ

ثَلَاثٍ: -وذكر منها- ووَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[١].

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: وُجوب التَّوبة؛ لقَوْلهُ: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ولا حاجة إلى ذكر شروط التَّوبة لأنَّها سبقت عدة مرات وانها خمسة شروط، ففي الآيَة دَليل على وُجوب التَّوبة.

الفَائِدة الثَّانية: محبَّة الله للتوبة؛ لأنَّه أمر بها، والله عَزَّوَجَلَّ لا يأمر إلا بشَيْء يحبه، وأيضًا من عنايته بها أكدت بهَذِهِ التَّأكيدات ﴿جَمِيعًا﴾ ﴿أَيُّهَ﴾ ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وقد ثبت عن النَّبِيّ ﷺ أنَّه قَالَ: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»[٢].

الحَقيقَة نحنُ الآن نتخيل هَذَا الفرح لكن هل نحنُ نتصوره؟ لا نتصوره، يعني مهما بلغت مخيلتنا من القوة وإدراك الْأُمُور الغائبة لا يُمْكِن أن نتصور حقيقته، الآن نتخيل أنَّه فرح عَظِيم لأنَّه عِبارَة عن فرح بالحَياة بعد الموت، لكن عنْدَما يقع لِلإنْسان هَذَا الشَّيء يجد أنَّه لا نظير له ولا يُمْكِن أن يوجد له نظير، فالله

(١) أخرجه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الْإِنْسَان من الثواب بعد وفاته، حديث رقم (١٦٣١)، عن أبي هريرة

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة، حديث رقم (٦٣٠٨)؛ ومسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، حديث رقم (٢٧٤٧)، عن أنس بن مالك.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع كمال غناه عنا وكمال حاجتنا وفقرنا إلَيْه يفرح بتوبة عبده المُؤْمِن أَشَدّ من فرح هَذَا الرَّجل براحلته، ولهَذَا أمر الله تَعَالَى بالتَّوبة مع العناية بها بتأكيدها بهَذِهِ الوجوه الثَّلاثة.

الفَائِدة الثَّالِثَة: كرم الله تَعَالَى وفضله، نأخذ الكرم والفضل من محبته للتوبة، يعني كونه يحب أن يتوب النَّاس حَتَّى لا يعاقبهم يدُلّ على كرمه وفضله وأن رحمته سبقت غضبه، بخلاف من لا رحمة عنْدَه، لنفرض مثلًا مدرسًا أو ملكًا أمر بشَيْء أو نهى عن شَيْء، قد يَكُون بعض الآمرين أو النَّاهين يحب من النَّاس المخالفة لأجل أن يعاقبهم، فيُظهر بِذَلِك سيطرته عليهم، من أجل أن يعرفوا أنَّه له أمر وله نهي وله سلطة وله سيطرة، والله جَلَّ وَعَلَا مع كمال هَذَا الْأَمْر له كمال السلطان، مع ذَلِك يحب من عباده أن يتوبوا حَتَّى لا يعاقبهم، وبهَذَا نستدل على كمال رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعباده وفضله وإحسانه.

الفَائِدة الرَّابِعَة: أن التَّوبة من مُقتَضيات الإِيمَان؛ لقَوْلهُ: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، صحيح أن الإِيمَان لا بُدَّ أن يحمل صاحبه على التَّوبة، ولهَذَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[1]، انظر متى ينتفي عنه الإِيمَان؟ حين يزني، لا يُمْكِن لإنسان مُؤْمن حَقِيقَة إلا ويترك ما حرم الله علَيْه ويفعل ما أوجب الله عليه، واعلم أنَّه إِذَا وقعت منك معْصِيَة فإن ذَلِك من لازم نقص إيمانك، ولهَذَا كَانَ مذهب أهْل السُّنَّة والجَماعَة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أن الإِيمَان يزيد بالطَّاعة وينقص بالمعصية، هَذَا مذهب أهْل السُّنَّة والجَماعَة ونحن منهم إِنْ شَاء اللهُ.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب إثم الزناة، حديث رقم (٦٨٠٩)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب بَيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس، حديث رقم (٥٧)، عن أبي هريرة.

فعَلَى كُلِّ حَالٍ أقول: إن التَّوبة من مُقتَضيات الإِيمَان، وأن من فرط فيها فهو دَليل على نقص إيمانه، وإذا كَانَ المفرط بالتَّوبة يستدل بعمله هَذَا على نقص الإِيمَان فالفاعل للمعصية الَّذِي يباشر المعْصِيَة مِنْ بَابِ أَوْلَى، ولهَذَا أشرنا إلى الحَديث الَّذِي قَالَ فيه النَّبِيّ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُو مُؤْمِنٌ».

الفَائِدة الخَامِسَة: أن من لم يتب فهو ناقص الإِيمَان؛ لأَن التَّوبة من مُقتَضيات الإِيمَان، وعلى حسب مَعْصِيَته يَكُون نقص إيمانه.

الفَائِدة السَّادِسَة: أن التَّوبة سبب للفلاح؛ لقَوْلهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ والفلاح هو النَّجاة من المرهوب وحصول المَطْلوب.

الفَائِدة السَّابِعَة: إِثْبات الأَسْباب حيث جعل الله التَّوبة سببًا للفلاح، ففيه رد على من أنكروا الأَسْباب، وقالوا: إن الأَسْباب مُجرَّد عَلامَات لا موجبات، وهَذَا مذهب الأشعرية الَّذينَ يرون أن الأَسْباب عَلامَات لا موجبات، فهم يَقُولُونَ: الرَّجل إِذَا كسر الزجاجة لم تنكسر بكسره وإنما انكسرت عند كسرها، والنَّار إِذَا أحرقت لم تحرق يعني لم يحترق الشَّيء بسببها وإنما احترق عندها لا بها، الْإِنْسَان إِذَا أكل حَتَّى شبع لم يشبع بالأكل شبع عند الأكل لا به، لو وضع عنْدَه كثير من الطَّعام ولم يأكل هل يشبع أو لا؟ لا يشبع.

عَلَى كُلِّ حَالٍ هَذَا قَوْل باطل لَيْسَ له إطلاقًا محل من الصِّحة، وحتى العَقْل ينكره، لكن أقول: هَذِهِ الآيَة وكثير من الآيَات تثبت الأَسْباب وتدل على أن الأَسْباب مؤثرة في مسبباتها.

ولو قَالَ قَائِلٌ: إِذَا جعلتم الأَسْباب مؤثرة في مسبباتها ألستم أثبتم مع الله خالقًا وموجدًا؟

الجواب: لا، لم نثبت موجدًا؛ لأَنَّنا لا نقول إن الأَسْباب تستقل بتأْثِيرها، بل الأَسْباب إنما كَانَت أسبابًا بإرَادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهَذَا أحيانًا يوجد السَّبَب تامًا ولا يؤثر لِوُجود مانع معْلُوم أو غير معْلُوم، فلا يُمْكِن أنْ يقولَ قائل: إنكم إِذَا أثبتم الأَسْباب أثبتم مع الله شريكًا في الإِيجَاد والتكوين نقول: لا، الَّذِي جعل هَذَا السَّبَب سببًا مقتضيًا لمسببه هو الله عَزَّوَجَلَّ، ولهَذَا نرى كثيرًا ما تتخلف المسببات مع وجود الأَسْباب التَّامَّة مما يدُلّ على أن قدرة الله عَزَّوَجَلَّ فوق كل شَيْء وأن هَذِهِ الأَسْباب لَيْسَت مستقِلَّة، لكن لا يُمْكِن أن ننكر أمرًا أثبته الشَّرع وأثبته الواقِع من أن الأَسْباب تؤثر في المسببات.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٢)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور:٣٢].

قَوْلهُ: ﴿وَأَنكِحُواْ﴾ لو قرأنا: (وانْكَحُوا) هل يختلف المَعْنى أو لا؟

الجواب: يختلف اختلافًا عَظِيمًا جدًا، ولهَذَا لو أخطأ أحد في هَذِهِ الآيَة وقال: «وانْكَحُوا» وجب الرد عليه؛ لأَن هَذَا لحن يحيل المَعْنى ﴿وَأَنكِحُواْ﴾ بمَعْنى زوجوا، لكن (وانْكَحُوا) بمَعْنى تزوجوا، فرق عَظِيم بينهما.

قَوْلهُ: ﴿ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ الخِطَاب للأحرار بِدَلِيل قَوْلهُ: ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾.

وقَوْلهُ: ﴿ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾ جَمْع أَيِّم، وَهِيَ مَنْ لَيْسَ لَـهَا زَوْج بِكْرًا كَانَتْ أَوْ ثَيِّبًا وَمَنْ لَيْسَ لَهُ زَوْج وَهَذَا فِي الْأَحْرَار وَالْحَرَائِر] اهـ.

فقَوْلهُ: ﴿ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾ الأَيَّامى: جمع أَيِّم وهي الَّتِي لَيْسَ لها زوج سواء كَانَت ثيبًا مات عنها زوجها أو طلقها، أو كَانَت بِكْرًا فإنها تُسَمَّى أيمًا، وقد أمر الله تَعَالَى بإنكاحهنَّ وهو دَليل على أن المَرْأَة لا تزوج نفسها؛ لأَن قَوْلهُ: ﴿وَأَنكِحُواْ﴾ بمَعْنى زوجوا، فلو كَانَت المَرْأَة تزوج نفسها لم نحتج لأَن نقول لغيرها: زوجها؛ لأنَّها هي

تزوج نفسها، وهَذَا أحد الأدلَّة، ومنه قَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٢].

ولَيْسَ هَذَا موضع البسط في مَسْأَلَة الوليِّ وعدم الوليِّ، إنما هَذَا الخِطَاب توجيه لأولياء أمور النِّساء أن يزوجهنَّ، ولم يبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنْ يُنْكَح، يعني من الَّذِي نزوجه؛ لأنَّنا نحنُ مأمورون بالتزويج؟ بينت ذَلِك السنة فقال ﷺ: «إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ»(١)، فنزوج صاحب الدِّين والخلق، صحيحٌ أن المال مقصود حسًّا وواقعًا، وقد بيَّن النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن المَرْأَة تنكح لمالها(٢)، والرّجل كَذلِكَ ينكح لماله، لكن الأَصْل هو الدِّين والخلق.

وقَوْلهُ: ﴿ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ يعني النِّساء غير المتزوجات، لكن الرِّجَال غير المتزوجين كَيْفَ ننكحهم؟ هل معناه إِذَا خطب مني أزوجه، أو معناه أعينه على الزواج أو الْأَمْرين جميعًا؟

الجواب: الْأَمْران جميعًا؛ لأَن الأَيَّامى تطلق على الرِّجَال والنِّساء الَّذينَ لم يتزوجوا ولَيْسَ معهم زوجات، بالنِّسْبَةِ للإناث واضح أنَّنا مأمورون بتزويجهنَّ إنما نمنعهنَّ إِذَا خطبهم الْكُفَّار، لكن كَذلِكَ أيضًا الرِّجَال نحنُ مأمورون بتزويجهم، بمَعْنى إِذَا خطب منا الأيم نزوجه، والذي معه زوجة هل نزوجه؟ نزوجه لكن هَذَا أَشَدّ عناية.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب النكاح، باب ما جاء إِذَا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه، حديث رقم (١٠٨٥)، عن أبي حاتم المزني.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، حديث رقم (٥٠٩٠)؛ ومسلم، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، حديث رقم (١٤٦٦)، عن أبي هريرة.

يعني لو خطب رجلان امرأة أحَدهما معه زوجة والآخر لا زوجة معه وكلاهما في الدِّين والخلق سواء، من أقدم؟

الجواب: أقدم من لا زوجة له؛ لأنَّه أحوج ولأني أحصن فرجه، والمتزوج قد حصن فرجه من قبل.

فإِذَنْ قَوْلهُ: ﴿ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ بالنِّسْبَةِ للرجال لو كَانَ معهم زوجات مأمورون بالنِّكاح لكن إنما نص على الأيم لأنَّه أحوج، كَذلِكَ أيضًا يدخل في ذَلِك مساعدة الأيَّامى على الزواج أي: أن الْإِنْسَان يساعدهم، فإن هَذَا من الأعْمَال الَّتِي يؤجر الْإِنْسَان عَلَيْها؛ لأَن الزواج مقصود شرعًا وطبعًا، فإذا تزوج الْإِنْسَان فقد فعل ما أمر الله به وأدرك ما تطلبه نفسه أيضًا، ومع ذَلِك إِذَا ساعدناهم على هَذَا الْأَمْر فنحن ممتثلون لقَوْله تَعَالَى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ لأَنَّنا في الحَقيقَة زوجناه، فمساعدتنا له بالزواج هَذَا تزويج.

لو قَالَ قَائِلٌ: ما الحُكْم إِذَا أَرَادَت المَرْأَة زوجًا غير صالح؟

الجواب: إِذَا أَبَتْ الزَّوْج الصَّالح وأَرَادَت الزَّوج غير الصَّالح لا يقبل منها، لكن لو طلبت كُفْئًا لكن الولي يرى أن غيره أولى والذي طلبت لَيْسَ فيه قدح في دينه فيَجب أن يتبع ما تريد.

قَوْلهُ: ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي المُؤْمِنِينَ ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ وَعِبَاد مِنْ جُمُوع عَبْد» اهـ.

يعني: وأنكحوا الصَّالحين؛ أي: المُؤْمِنِينَ من عبادكم وإمائكم وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَعِبَاد مِنْ جُمُوع عَبْد] هَذَا بالنِّسْبَةِ للمملوكين يعني هَذَا خطاب للأسياد، يعني زوجوا الصَّالحين من عبادكم وإمائكم.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (المُؤْمِنِينَ) حمل المُفَسِّر الصَّلاح هُنا على صلاح الدِّين وصلاح الدِّين بالإِيمَان والعَمَل الصَّالح، لكن يحتمل أن يَكُون شاملًا لصلاح الدِّين والدُّنْيَا، يعني إِذَا كَانَ لِلإِنْسان رقيق صالح في دينه صالح في دنياه، بمَعْنى أَنَّه صالح لأَن يزوج لكونه بلغ سن الزواج ولكونه عارفًا بأمور الزواج ولكونه عاقلًا لا يحصل من تزويجه مفسدة وتعطيل لحق امرأته.

المُهِمّ أَنَّه يَنْبَغِي أن يفسر قَوْلهُ: ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بصلاح الدِّين وصلاح الدُّنْيَا يعني صالحًا لأَن يَتزوج ولأن يُزوج، أما أن يَكُون عنْدَه مثلًا معتوه مجنون فهَذَا لا نؤمر بتزويجه على الإطلاق، بل إننا ننظر إِذَا لزم من عدم تزويجه مفسدة زوجناه وإلا فلا؛ لأَن هَذَا جناية على غيره.

فالحاصِل: أن الصَّالح من العباد يزوج مطلقًا، وغير الصَّالح إن دعت الحاجة إلى تزويجه لكونه يلْزَم من عدم تزويجه مفسدة، والدَّليل لَيْسَ هَذِهِ الآيَة، ولكن من القاعِدَة العامَّة في الشَّريعة وهي دَرْأ المفاسد.

وقَوْلهُ: ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ عباد: جمع عبد، والمُراد الأرقاء لنا، وسماهم الله عبادًا لأنهم ذليلون لنا ونحن أسيادهم، ذليلون قدرًا وشرعًا، أما شرعًا فواضح أَنَّه عبدي أبيعه وأشتريه وآمره وأنَّهاه، وقدرًا كما هو معْلُوم أن الْعَبِيد أو العباد الأرقاء يرون أنفسهم في قُصور عن أسيادهم وهَذِهِ من نعمة الله أن الله أذلهم لأسيادهم وإلا لو أن العَبْد تمرد على سيده، كانوا يَقُولُونَ: الجمل إِذَا هاج والعبد إِذَا صاج والسيل إِذَا جاد، هَؤُلَاءِ لَيْسَ لأحد بهم قِبل.

قَوْلهُ: ﴿وَإِمَآئِكُمْ﴾ جمع أَمَةٍ وهي الرقيقة المملوكة، وفي هَذَا إِشارَة إلى أن العَبْد لا يزوج نفسه؛ لقَوْلهُ: ﴿وَأَنكِحُواْ﴾ أي: زوجوا، هَذَا إِذَا كَانَ الخِطَاب موجهًا

للأسياد، أما إِذَا كَانَ الخِطَاب موجهًا لعموم النَّاس بمَعْنى أن الْإِنْسَان لا يترفع عن تزويج العَبْد والأَمة، لكن هَذَا بعيد، الظَّاهِر أن الخِطَاب هُنا للأسياد يعني زوجوا الصَّالحين للزواج في دينهم ودنياهم، زوجوهم من إماء وعبيد.

وفي هَذِهِ الآيَة إِشْكال من جهتين:

الجهة الأولى في قَوْلهُ: «عباد»، والجهة الثَّانية في قَوْلهُ: «إماء» فإن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُول: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي»[1]، وهنا قَالَ: ﴿عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾، وقال ﷺ: «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ»[2]، فهل بين الحَديث وهَذِهِ الآيَة تعارض أو لا؟

الجواب: الحَقيقَة ظاهرهما التعارض، لكن التَّوفيق بينهما واضح، فالخِطَاب في قَوْلهُ: ﴿عِبَادِكُمْ﴾ من الله لِلإنْسان سمى رقيقه عبدًا له كما يصح أن أقول: هَذَا عبد فلان، وأضيفه إلى فلان، هَذِهِ أمته وما أشبه ذَلِك، لكن المحذور والذي وقع النَّهْي عنه إضافة السيد عُبُودِيَّة وإِمَائِيَّة هَؤُلَاءِ إلى نفسه هَذَا هو المحذور؛ لأَنَّه يتضمَّن الغرور بنَفْسِه والتكبر على عبده والترفع علَيْه عنْدَما يَقُول: يا عبدي تعالَ، ويا أَمَتِي تعالي، لا شَك أَنَّه يشعر بعظمة وعلو، والعبد يشعر أمامه بذل وخضوع، ولا يَنْبَغِي أن يَكُون الْأَمْر هكذا، ولهَذَا جاء النَّهْي عنه.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الألفاظ من الآداب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظ العبد والأَمة والمولى، حديث رقم (٢٢٤٩)، عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم، حديث رقم (٩٠٠)؛ ومسلم، كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إِذَا لم يترتب عليه فتنة وأنها لا تخرج مطيبة، حديث رقم (٤٤٢)، عن ابن عمر.

أما إِذَا كَانَ الْأَمْر بالعَكْسِ بأن جاءت الإضافة من غير السيِّد فهَذَا لا بأس به، كما أن العَبْد أيضًا منهي أنْ يقولَ: ربي لسيِّده، وليقل: مولاي، لكن لو أنك قلت: يا عبد كلم ربك، ادعُ ربك لي، هَذَا يجوز، نفس الشَّيء إِذَا خاطب العَبْد سيِّده بالرُبوبِيَّة نقول: هَذَا منهي عنه؛ لأَن السيِّد يتعاظَم والعبد يتواضَع، ولهَذَا جاء في الحَديث حديث جبريل في أمارات الساعة قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا، فَقَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا»[1]، هكذا ثبت بهَذَا اللَّفْظ المعْرُوف (رَبَّتَهَا) لكن في رِوايَة أُخْرَى: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّهَا»[2].

فالحاصِل: أنَّه يَجب أن نعرف الفَرْق بين الإضافة إلى ضمير المتكلِّم والإضافة إلى غيره، فالإضافة إلى ضمير المتكلِّم منهي عنها، بالنِّسْبَةِ للسيد لا يَقُول: عبدي وأمتي، والعبد لا يَقُول: ربي، وأما الإضافة إلى غير ياء المتكلِّم فهَذِهِ جائزة، والفَرْق بينهما من حيث المَعْنى واضح.

قَوْلهُ: ﴿إِن يَكُونُواْ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: الْأَحْرَار ﴿فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ بِالتَّزَوُّجِ ﴿مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ لِخَلْقِهِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِهِمْ] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ﴾ أي المتزوجين.

وقول المُفَسِّر: [أَيْ: الْأَحْرَار] لماذا خصها بالأحرار مع أنَّه في الآيَة يَقُول: ﴿ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ ثم قَالَ: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ﴾؟

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بَيان الإيمان والْإِسْلَام والإحسان، حديث رقم (٨)، عن عمر ابن الخطاب.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النَّبِيّ ﷺ، حديث رقم (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بَيان الإيمان والْإِسْلَام والإحسان، حديث رقم (٩)، عن أبي هريرة.

الجواب: لأَن الْعَبِيد والإماء لا يتصور منهم الغنى والفقر؛ لأنهم لا يملكون والدَّليل على أنهم لا يملكون قَوْل النَّبِيّ ﷺ: «**وَمَنْ ابْتَاعَ عَبْدًا وَلَهُ مَالٌ فَمَالُهُ لِلَّذِي بَاعَهُ إِلاَ أَنْ يَشْتَرِطَ الْمُبْتَاعُ**»[1]، ماله للذي باعه لم يقل له، فالعبد لا يملك، فهو فقير لا يُمْكِن أن يصير غنيًا، لكن قد يقال: إن الغني يَكُون لسيده.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري، كتاب المساقاة، باب الرجل يكون له ممر أو شرب في حائط أو في نخل، حديث رقم (٢٣٧٩)؛ ومسلم، كتاب البيوع، باب من باع نخلًا عليها ثمر، حديث رقم (١٥٣٤)، عن ابن عمر.

الآيــة (٣٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور:٣٣].

قَوْلُهُ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَا يَنْكِحُونَ بِهِ مِنْ مَهْر وَنَفَقَة عَنِ الزِّنَا ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ﴾ يُوَسِّع عَلَيْهِمْ ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ فَيَنْكِحُونَ] اهـ.

لما أَمَرَ الله بالتزويج وبيَّن أنهم إنْ كانوا فقراء أغناهم الله من فضله، أمر من كَانَ فقيرًا بأن يستعفف حَتَّى يغنيه الله من فضله، يعني لا يطلق لنفسه العَنَان بالنَّظر المحرم والمباشرة المحرمة وتتبع النِّساء وما أَشْبَه ذَلِك، بل يَجب علَيْه أن يستعفف عن الزِّنَا وأسبابه ومقدماته، فالمُراد بالْعِفَّة البُعْدُ عن الزِّنَا وأَسْبَابِه ومقدماته.

وقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ لأنَّه إِذَا أغناهم الله من فضله تزوجوا إِذْ لم يمنعهم من الزواج إلا ذَلِك.

وقَوْلُهُ: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ الْمُفَسِّر فسَّره بقَوْلُهُ: [مَا يَنْكِحُونَ به]، والصَّواب أن الآية أعمُّ من ذَلِك ولهَذَا قَالَ: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ فيشملُ ما ذَكَرَه الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، ويشمل ما إِذَا لم يَجِدْ امرأة يتزوجها، قد يَكُون الْإِنْسَان غنيًّا وعنده مَهْرٌ وعنده نفقة

ولكن يَخْطُب ولا يُقبل، فهَذَا لم يجد نكاحًا، فتَخْصِيص عدم النِّكاح بما ذكره المُفَسِّر فيه نظر، فالآيَة أعم، فقَوْلهُ: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يجدون نفقة له، ولا يجدون امرأة يتزوجونها أيضًا فإنَّه داخل في عُمُوم الآيَة.

لو قَالَ قَائِلٌ: في وقَوْلهُ: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أَرْشَد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى الْعِفَّة لمن لا يجد النِّكاح، فهل هَذَا يعارض قَوْل الرَّسُول ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ»[1] هل بين الآيَة والحَديث تعارض؟

الجواب: لا، فالآيَة أمر الله فيها بالْعِفَّة والنَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بَيَّنَ الطَّريق إلى العفة بأن يصوم الْإِنْسَان فإن ذَلِك يقطع شهوة النِّكاح، وإذا انقطعت شهوة النِّكَاح فهَذَا من أفضل أَسْبَاب الْعِفَّة، إِذْ الْإِنْسَان لا يَحْدُوه إلى عدم الْعِفَّة إلا الشَّهوة، فإذا انقطعت زالت أَسْبَاب وجود عدم الْعِفَّة

وبهَذَا نعرف أن الحَديث لا ينافي الآيَة؛ لأَن الله أمر بالاستعفاف والنَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بَيَّن لنا طريقًا من طرق الاستعفاف، ثم إن الَّذِي لا يجد نكاحًا قد يَكُون ذا شَهْوَة قوية ربما تغريه بانتهاك المحرم، فدواء ذَلِك بالصوم.

أما الْإِنْسَان الَّذِي شهوته عادية وبعيد أن تغريه فهَذَا لَيْسَ له أن يصوم؛ لأَن قَوْل النَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ» لو أخذنا بظاهره لقُلْنا: كل إِنْسَان فقير لا يجد نكاحًا وله شَهْوَة فإنَّه يصوم، ولكن الْأَمْر لَيْسَ كَذلِكَ، لكن

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب قول النَّبِيّ ﷺ: «من استطاع...»، حديث رقم (٥٠٦٥)؛ ومسلم كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد، حديث رقم (١٤٠٠)، عن ابن مسعود.

إِذَا لم يجد الْإِنْسَان طريقًا إلى الْعِفَّة سوى الصَّوم فليصم، أما إِذَا كَانَ الْإِنْسَان معتدلًا طبيعيًا ولا يخشى علَى نفْسِه المحذور فإنَّه لا حاجة إلى الصَّوم، ولهَذَا قَالَ: «فَعَلَيْهِ» و(على) هَذِهِ للإغراء، فدل ذَلِك على أنَّه في حالة يحتاج إلى ما يدُلّه على كبح جماح الشَّهْوَة وَذلِك بالصوم.

وفي قَوْلهُ: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إشارَة إلى أن الْعِفَّة سبب للغنى كما أن الزواج أيضًا سبب للغنى فكَذلِكَ الْعِفَّة، فإذا صبر الْإِنْسَان وأَعَفَّ نفسه وابتعد عما حرم الله علَيْه كَانَ ذَلِك سببًا للغنى، وقد قَالَ اللهُ تَعَالَى في القُرْآن: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

وقَوْلهُ: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ هل المُراد غنى المال أو غنى النِّكَاح؟

المُراد غنى النِّكَاح لأنَّه قَالَ: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ لماذا؟ لأنَّه مثل ما أشرنا إلَيْه قد يَكُون الْإِنْسَان غَنيَّ المال لكن لا يجد نكاحًا فلا يتزوج، فيشمل ذَلِك الغنى بالمال والغنى بالزَّوْجَة.

إن كَانَ عدم وجود النِّكَاح من أجل الفقر فالغنى يَكُون بالمال، وإن كَانَ عدم وجود النِّكَاح من أجل المنع فالغنى يَكُون بالطَّاعة؛ بأن يُيسر الله له مَنْ يُطيعه ويزوجه.

لما ذَكَرَ الله جَلَّ وَعَلَا أحكام النِّكَاح وما يَتعلَّق به انتقل إلى أمر آخر مهم وهو ما يَتعلَّق بالإماء، بل بالمماليك عُمومًا؛ لأنَّه قَالَ: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ فأشار إلى المماليك ثم انتقل إلى مَسْأَلَة مهمة جدًا وهي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِمَعْنَى المُكَاتَبَة ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ مِنَ الْعَبِيد

وَالْإِمَاء ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أَيْ أَمَانَة وَقُدْرَة عَلَى الْكَسْب لِأَدَاءِ مَال الْكِتَابَة وَصِيغَتُهَا مَثَلًا: كَاتَبْتُك عَلَى أَلْفَيْنِ فِي شَهْرَيْنِ كُلّ شَهْر أَلْف، فَإِذَا أَدَّيْتهَا فَأَنْت حُرّ، فَيَقُول: قَبِلْت] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾ بمَعْنى يطلبون و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بمَعْنى المكاتبة، والمكاتَبة هي أن يبيع السيدُ عبدهَ علَى نفْسِه، وسميت مكاتبة لأنَّها في الغالِب تجري بكتاب، يكتب السيد بينه وبين عبده كتابًا بهَذَا العقد فإذا طلب العَبْد من سيده أن يكاتبه فقد قَالَ اللهُ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾.

وقَوْلهُ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ الفاء رابطة للخبر بالمبتدأ، وربط الخبر بالمبتدأ لا يُحتاج إلَيْه تقول: «زيد قائم» «الكتاب جميل» «السَّماء رفيعة» لكن إِذَا كَانَ المبتدأ يشبه الشَّرط في العُموم فإنَّه يربط خَبَره بالفاء، وهنا المبتدأ اسم موصول يشبه الشَّرط في العُموم، وتقدَّم سابقًا أن النَّحويين يمثلون بقولـهم: الَّذِي يأتيني فله درهم، وأن هَذَا في القُـرْآن كثير منـه هَذِهِ الآيَة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾.

وقَوْلهُ: ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ (مِنْ) هَذِهِ بَيان للموصول في قَوْلهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾ لأَن الموصول حَتَّى وإن وجدت صلته فهو مبهم في الواقِع، فـ(مِنْ) بَيانية لبَيان المبهم في الموصول.

وقَوْلهُ: ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ في هَذَا إِثْبات الملك للبشر.

فإذا قَالَ قَائِلٌ: أَلَيْسَ الله يَقُول: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٨٩]، فحصر الملك لنفسه فكَيْفَ يتفق هَذَا مع إِثْبات الملك للبشر؟

فالجواب: أن الملك المطلَق لله وأن ملك البشر لِـمَا يملكون لَيْسَ مطلقًا بل هو مقيد بنوع الملك ومقيد بنوع التصرُّف ومقيد بكل شَيْء، عنْدَما يَكُون لي مال هل أملك مطلق التصرف فيه؟ لا، أتصرف فيه بنوع معين وعلى حدود معينة، لِذَلك لَيْسَ ملكي تامًا من كل جهة، فلهَذَا نقول: الملك المطلَق لله وحده، وملكي أنا يضاف إليَّ لكنَّه ملك مقيد محدد، فإن ملكت العين والمنفعة سميت مالكًا، وإن ملكت المنفعة دون العين سميت مستأجرًا، وهَكَذا كل نوع من الملك له اسم خاص.

وقَوْلهُ: ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ (الأيمان) جمع يمين وهي مقابل الشِّمال، لكن هل معنى ذَلِك أن الْإِنْسَان يملك عبدَه بيده اليمنى فقط واليَسْرى لا تملك؟ الجواب: لا، هَذَا تغليب مثل قَوْله تَعَالَى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]، فلمَّا كَانَ الغالِب في الأخذ والإعطاء والبيع والشِّراء والعَمَل باليد اليمنى قَالَ: ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فأضاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الملك إلى الْيَمِين، وإلا فالحَقيقَة أنا مالكه لَيْسَ بيميني فقط.

وقَوْلهُ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ هَذَا أمر، وهل الْأَمْر هُنا للوُجوب أو للاستحباب؟ اختلف فيه أهْل العِلْم، فالجمهور على أن الْأَمْر للاستحباب، وحجتهم في ذَلِك أن العَبْد مملوك لك، ولا يَجب عَليْك إخراج ملكك إلا برضًا منك، فَكَما أن الْإِنْسَان لا يَجبر على بيع بيته وعلى بيع دابته لا يَجبر كَذلِكَ على بيع عبده، فإذا طلب مني المكاتبة فأنا حر لأنَّه مالي، ولهَذَا سماه الله تَعَالَى ملكًا فلا يَجبر على إخراج ملكه من ملكه «لا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ»[1]، وإذا كَانَ كَذلِكَ فإن الْأَمْر هُنا للاستحباب.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٧٢) (٢٠٧١٤)؛ والبيهقي في الكبرى (٦/ ١٠٠) (١١٣٢٥)، عن عم أبي حرة الرقاشي.

وذهب بعض أهْل العِلْم ومنهم أهل الظَّاهِر إلى أنَّ الْأَمْر للوُجوب وأنَّ العَبْد إِذَا طلب المكاتبة فإنَّه يَجب على السيد إجابته، وَذلِك لأَن الأَصْل في الْأَمْر الوُجوب وقولهم: «إن المالك لا يَجبر على إخراج ملكه من ملكه» هَذَا لَيْسَ على إطلاقه؛ فإن المالك يَجبر على إخراج ملكه من ملكه في الْأُمُور الَّتِي أوجب الله، أَلَيْسَ يَجب على الْإِنْسَان أن يخرج الزَّكاة وهو إخراج شَيْء من ملكه، أَلَيْسَ يَجب علَيْه الْكُفَّارة، أَلَيْسَ يَجب علَيْه الإنفاق على غيره من أقارب وزوجات وغيرهم، أَلَيْسَ الْإِنْسَان إِذَا تعلق بماله حق الغرماء وصَارَ دينه أكثر من ماله يحجر علَيْه ويَجبر على أن يبيع ماله ويصرف إلى الغرماء.

فإِذَنْ عِبارَة: «لا يَجب على الْإِنْسَان أن يخرج ملكه من ملكه» لَيْسَت على إطلاقها، وما أكثر المَسائِل الَّتِي يَجبر فيها الْإِنْسَان على إخراج ملكه من ملكه.

فعَلَى كُلِّ حَالٍ نقول: هَذِهِ المَسْأَلَة لَيْسَت على إطلاقها وكم من مسائل صَارَت واجبة وهي متضمنة لإخراج الْإِنْسَان ملكه من ملكه، وهَذَا في الحَقيقَة دافع لما يحتج به الجمهور، ثم إنه يقوي أن الْأَمْر للوُجوب أنهم قالوا: إن الشَّارع متطلع إلى العتق، والرق وارد في الحَقيقَة على البشر ولَيْسَ أصيلًا فيهم، فإذا أَرَادَ الْإِنْسَان أن يتخلص من هَذَا الرق ويعيد نفسه إلى الأَصْل فإن الشَّارع يتطلع إلى ذَلِك.

ولهَذَا تجدون أن الشَّارع رغب في العتق كثيرًا حَتَّى إنه أخبر أن «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً أَعْتَقَ الله بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ»[1]، وهَذَا

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له، كتاب كفارات الأيمان، باب قول الله تعالى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وأي الرقاب أزكى، حديث رقم (٦٧١٥)؛ ومسلم، كتاب العتق، باب فضل العتق، حديث رقم (١٥٠٩)، عن أبي هريرة.

ترغيب عَظِيم، كَذلِكَ أيضًا أوجب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عتق الرقبة في كفارات متعددة مثل كفارة الظهار وكفارة الْيَمِين وكفارة القتل، كل هَذَا دَليل على أن الشَّارع له تَشَوّف لتحرير الْعَبِيد فكَيْفَ لا نجعل هَذَا الْأَمْر للوُجوب لا سيَّما مع طلب العَبْد، فالعبد هو الطالب الآن، ويعرف من نفسه أنَّه سيستغني عن سيده ويريد أن يخلص نفسه فكَيْفَ نمنعه؟

فإذا قَالَ السيد: هَذَا عبدي ولا أستطيع أن أتخلص منه قُلْنا له: إِذَا اتقيت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل لك من أمرك يسرًا، وإذا حررته تستأجره إِذَا كنت محتاجًا إلَيْه، أو ييسر الله لك سواه.

عَلَى كُلِّ حَالٍ ما دام أن الله أمر به، فالأَصْل في أوامر الله ورسوله الوُجوب.

قَوْلهُ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ هَذَا شرط في الْأَمْر فجعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَلِك مشروطًا بعلم الخَيْر فيهم، ولكن ما هو الخَيْر؟ يَقُول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ أَمَانَة وَقُدْرَة عَلَى الْكَسْب لِأَدَاءِ مَال الْكِتَابَة] اهـ.

فسره بعض السَّلف بقَوْلهُ: «صلاحًا في دينهم وكسبًا» ويُمْكِن أن يَكُون قَوْلهُ: [أمانة] يشير إلى ذَلِك، لكن إِذَا قُلْنا: «صلاحًا في دينهم» صَارَ أعم من كَلِمة أمانة، وهل الأمانة هي الصَّلاح في الدِّين أو من الصَّلاح؟ من الصَّلاح ولهَذَا نقول: الْمُراد بالخَيْر الصَّلاح في الدِّين والكسب، الصَّلاح في الدِّين بأن نعرف أنَّه مقيم للصلاة، مقيم للصوم، تارك للمحرمات، مستقيم، ومن الصَّلاح في الدِّين الأمانة، فنعرف أيضًا أنَّنا إِذَا أعتقناه لن يذهب يسرق من النَّاس؛ أي: أنَّه أمين، والكسب صلاح الدُّنْيَا؛ أي: نعرف أن هَذَا العَبْد إِذَا أعتق صَارَ قادرًا على الكسب ولَيْسَ كَلًّا على غيره؛ لأنَّه إِذَا كَانَ غير قادر على الكسب وأعتقه سيده فمن أين يأكل؟ يَكُون

كَلًّا على النَّاس، وربما يَكُون عنْدَه قوة فيسرق وينهب، لهَذَا لا بُدَّ من هَذَا الشَّرط الصَّلاح والكسب.

وأما قَوْل المُفَسِّر: [لأداء مال الكِتابَة] هَذَا فيه نظر، فلا يكفي أن يَكُون عنْدَه كسب لأداء مال الكِتابَة بل لأداء مال الكِتابَة وللإنفاق علَى نفْسِه في المستقبل.

إِذَنْ الوُجوب أو الْأَمْر مشروط بأن نعلم فيهم الخَيْر.

إذا لم أعلم فيه خيرًا هل يَجب عليَّ مكاتبته إِذَا طلب؟ لا يَجب.

وهل يجوز؟

إِذَا قُلْنا: يجوز، كَيْفَ يجوز وأنا أعرف أنَّه لَيْسَ فيه خير، أعرف أني إِذَا أعتقته يُرِيد أن يفسد إما أن يلحق بالْكُفَّار إِذَا كَانَ كافرًا أصلًا، وإلا فإنَّه يُفسد في الأَرْض بالمعاصي، وعندي محفوظ، لكن إِذَا صَارَ حرًا من الَّذِي يسْتَطيع أن يأمره وينهاه، لَيْسَ لأحد أمر عليه.

فالصحيح أن نقول: إِذَا لم نعلم فيه خيرًا لم نؤمر بمكاتبته هَذِهِ واحدة، ثم إِذَا لم نؤمر هل يجوز لنا أن نكاتبه؟

الجواب: إن علمنا أن في إجابته شرًا ومفسدة صَارَت إجابته حرامًا، وإن لم نعلم فيها شرًا ومفسدة فإجابته جائزة، فصَارَ المَفْهُوم فيه تفصيل: إِنْ علمنا أَنَّ فيه خيرًا فتجب المكاتبة، وضد ذَلِك أَنْ نعلم أَنَّ فيه شرًا فتحرم المكاتبة، وإن لم نعلم فيه لا هَذَا ولا هَذَا فهي محل جَواز.

بقي الجواب عن هَذَا السؤال: إِذَا قَالَ السَّيِّد: أنا لا أعلم فيه خيرًا فلا يَجب عليَّ كتابته ماذا نقول؟

نقول: أنت وأمانتك، الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الَّذِي سيحاسبك وقد وكل الْأَمْر إليك، فإذا قلت: أنا لا أعلم فيه خيرًا، بالنِّسْبَةِ لنا نوافق ولا نجبرك على الكِتابَة.

فعَلَى كُلِّ حَالٍ الْأَمْر موكول إلى السَّيِّد في علم الخَيْر وعدمه، بالنِّسْبَةِ لنا أحكام الدُّنْيَا على الظَّاهِر إِذَا قَالَ: أنا لا أعلم في هَذَا العَبْد خيرًا، وأنا أعرف إن تركته سيَفْسَد ويُفسد، نقول: بالنِّسْبَةِ للظاهر لا نجبرك، ولا نقول: يَجب عَليْك، لكن بالنِّسْبَةِ لله لا ينفعك إِذَا كنت تعلم أن فيه خيرًا وادعيت أنك لا تعلم أن فيه خيرًا، يعني إِذَا كَانَ الله يعلم أنك تعلم أن فيه خيرًا فإن دعواك هَذِهِ مردودة ولا تقبل، إلا إِذَا كَانَ الواقِع يكذبه بأن علمنا من هَذَا العَبْد أنَّه صالح دائمًا يصلي وأمين بين النَّاس ويعرف الكسب هَذَا طبعًا لا نقبل دعواه.

لو قَالَ قَائِلٌ: ما الحُكْم إِذَا طلبت الأَمة المكاتَبة ولَيْسَ لها كسب؟

الجواب: لا يَجب على سيِّدِها أن يُكاتبها، وهَذَا بخلاف المعتِق؛ لأنَّه إِذَا أعتقها إن كَانَ لها أقارب فهم أوْلياؤُها، وإن لم يكن له أقارب فهو وليُّها، ويزوجها إِذَا أَرَادَت أن تتزوج، فإن لم يكن أهلًا لِذَلك فوليها القَاضِي.

يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَصِيغَتُهَا مَثَلًا -يعني الكِتابَة- كَاتَبْتُك عَلَى أَلْفَيْنِ فِي شَهْرَيْنِ كُلّ شَهْر أَلْف فَإِذَا أَدَّيْتهَا فَأَنْت حُرّ، فَيَقُول: قَبِلْت] ذَلِك.

قول المُفَسِّر: [صيغتها مثلًا] يعني لَيْسَ هَذِهِ هي الصِّيغة الوَحْيدة بل كل ما دل على ذَلِك أجزأ، لكن قَوْلهُ: [على ألفين في شهرين] هل المُراد الألفان يحلان بنجم، واحد في الشَّهرين أو كل واحد في شهر؟

يَقُول العُلَماء: إنه من باب التيسير على العَبْد أن يَكُون المال الَّذِي يكاتب علَيْه

منجمًا بأجلين فأكثر، يعني لا يَقُول: كاتبتك مثلًا على عشرة آلاف تحل بعد سنة، لا؛ لأَن هَذَا فيه صعوبة على العَبْد بل يجعله منجمًا بأجلين فأكثر، مثلًا عشرة آلاف إما أنْ يقولَ: كل شهرين ألف ريال أو كل شهر ألف ريال، أو في ستة أشهر خمسة آلاف، المُهِمّ أنَّه لا بُدَّ أن يَكُون منجمًا بأجلين فأكثر؛ مُراعَاة لحال العَبْد ورفقًا به.

وظاهر كلام أهْل العِلْم في هَذِهِ المَسْأَلَة حَتَّى لو فرض أن العَبْد عنْدَه قدرة على أن يسلمها في أجل واحد فإنَّه لا بُدَّ من الأجلين، يعني لو فرضنا أن العَبْد جاءه إِنْسَان وقال له: تَعَالَى اشترِ نفسك من سيدك وأنا أنقدك دراهم حالَّة فإنَّه لا يصِح، ولكن في هَذِهِ المَسْأَلَة نظر، وقَضيَّة عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مع بريرة حيث كاتبت أهلها على تسع أواق فقالت عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إِنْ أَحَبَّ أَهْلُكِ أَنْ أَعُدَّهَا لَهُمْ وَيَكُونَ وَلَاؤُكِ لِي فَعَلْتُ»[1]، يدُلّ على الجَواز، وإن كَانَت عَائِشَة تريد أن تشريها شراء، لكن يدُلّ على أنَّه إِذَا أَرَادَ أحد أن يعجل ما كاتب علَيْه العَبْد لسيده واتفقا على ذَلِك فإنَّه يصح.

لكن في هَذِهِ الحال يلْزَم أن يحتاط العَبْد لنفسه لأَنَّه قد يأتيه هَذَا الرَّجل ويقول له ذَلِك ثم يتراجع، مع أنَّه لو تراجع لا يضر العَبْد شيئًا، وآخر أمره أنَّه إِذَا عجز عن أداء مال الكِتابَة يَعود إلى سيده رقيقًا، وهَذَا في الحَقيقَة لا يضر.

لو قَالَ قَائِلٌ: إِذَا كاتب العَبْد سيده هل يَجب على سيده أن ينفق عليه؟

الجواب: إِذَا صَارَ مكاتبًا لا يَجب على السَّيِّد الإنفاق عليه، بل يملك كسبه وكل شَيْء، والعتق يبدأ من بداية الكِتابَة لكن لا يتم إلا بأداء مال الكِتابَة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الولاء، حديث رقم (٢٧٢٩)؛ ومسلم، كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق، حديث رقم (١٥٠٤)، عن عَائِشَة.

قَوْلهُ: ﴿وَءَاتُوهُم﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَمْر لِلسَّادَةِ ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ مَا يَسْتَعِينُونَ بِهِ فِي أَدَاء مَا الْتَزَمُوهُ لَكُمْ وَفِي مَعْنَى الْإِيتَاء حَطّ شَيْء مِمَّا الْتَزَمُوهُ] اهـ.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَمْر لِلسَّادَةِ] ويجوز أن يَكُون الْأَمْر لغير السَّادة أو للسادة وغيرهم فيجوز أن يَكُون الْأَمْر للمُسْلِمين كلهم.

قَوْلهُ: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾ إِذَا كَانَ الْأَمْر موجهًا للسادة ففي كَيْفِيَّة الإتيان صورتان:

الصُّورة الأولى: إِذَا كاتبه أعطاه مالًا لأجل أن يَكُون أساسًا لكسبه.

والصُّورَة الثَّانية: إِذَا أدى ما علَيْه يحط عنه.

ولكن هل يحط عنه من النَّجم الأوَّل؛ أي: من القسط الأوَّل أو من النَّجم الأَخِير؟ بعض السَّلف اختار أن يضع عنه من النَّجم الأوَّل؛ لأَن ذَلِك أيسر له، وبعض السَّلف اختار أن يضع عنه من النَّجم الأَخِير، وقال: إنني إِذَا وضعت عنه من النَّجم الأوَّل أو أعطيته من النَّجم الأوَّل ثم عجز وعاد إليَّ عادت صدقتي إليَّ، بخلاف ما إِذَا أعطيته من النَّجم الأَخِير لأنَّه إِذَا أدى النَّجم الأَخِير يعتق، فإذا أعطيته من النَّجم الأَخِير لم يعد إلي شَيْء من صدقتي، وهَذَا هو الأرجح أنَّه يعطيه من النَّجم الأَخِير، والصَّحيح: أن الْأَمْر في قَوْله تَعَالَى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾ شامل للأسياد ولغيرهم، أي: إِذَا قُلْنا.

قَوْلهُ: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾ وإذا قُلْنا إن الزَّكاة تصرف لهم فالزَّكاة مال الله، وأنه أمر للسادة بالكَيْفِيَّة المذكورة، وأمر لغير السَّادة أيضًا أن يعينوا المكاتب في

مكاتبته ولِذَلك جُعل له سهم من الزَّكاة، فيجوز لِلإنْسان أن يصرف من زكاته شيئًا للمكاتبين، وهَذَا هو الصَّحيح.

وقَوْلهُ: ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ انظر قَوْلهُ: ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ لم يقل: «من مالكم» إِشارَة إلى أنكم وإن آتيتموهم فالمِنّة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأَن المال مال الله سواء قُلْنا: إنه مال شرعي لله وهو الزَّكاة -هَذَا إِذَا قُلْنا بأن الْأَمْر موجه لغير الأسياد- أو أن المال الَّذِي هو مال لله غير شرعي مال الله قدرًا، وهو مال الْإِنْسَان الَّذِي يتصرف فيه تصرف المالك في ملكه فإنَّه في الحَقيقَة مال الله، وكأنَّ في الآيَة إِشارَة إلى أنَّه لا فضل لكم، واحمدوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن أعطاكم مالًا فأعطوا هَؤُلَاءِ المكاتبين من مال الله الَّذِي آتاكم.

خُلاصَة الكَلام أن في هَذِهِ الآيَة مشروعية المكاتبة هُنا إِذَا طلبها العَبْد، والْأَمْر فيها للوُجوب على القَوْل الصَّحيح، ولكنه مشروط بعلم الخَيْر، والخَيْر هو الصَّلاح في الدِّين والكسب، وفي الآيَة أيضًا دَليل على وُجوب إتيان المكاتب من المال سواء كَانَ الخِطَاب موجهًا للسيد أو موجهًا لعموم النَّاس، أما إِذَا كَانَ الخِطَاب موجهًا لعموم النَّاس فإنهم يعطون من الزَّكاة، وأما بالنِّسْبَةِ للسيد فيعطيه من المال الَّذِي في يده؛ لأَن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الَّذِي مَنَّ به عليه.

قد يَقُول قائل: لماذا تمنعون أن يعطي السَّيِّد من زكاته مكاتبه، مع أنكم تجيزون أن يعطي غريمه إِذَا كَانَ الْإِنْسَان يطلب شخصًا دراهم وأعطاه من زكاته فلا حرج؟

الجواب: يقال: الفَرْق بيِّن، الغريم إِذَا أعطيته ربما يَستَفِيد وربما لا يَستَفِيد، وربما أيضًا يتصرف فيه كما يُرِيد، لكن المكاتب سيَستَفِيد مهما كَانَ إما يَعود المكاتب رقيقًا ويَعود المال إلَيْه، هَذَا هو الفَرْق بينهما.

قَوْلهُ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: إِمَاءَكُمْ ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ أَيْ: الزِّنَا ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ تَعَفُّفًا عَنْهُ، وَهَذِهِ الْإِرَادَة مَحَلّ الْإِكْرَاه فَلَا مَفْهُوم لِلشَّرْطِ] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ الفتيات كما قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإماء: ولَيْسَ الْمُراد بالفتيات هُنا الصَّغيرات من النِّساء يعني حَتَّى الحرائر، لا، هَذَا غير وارد، إنما الْمُراد بالفتيات الإماء.

والبِغَاء الزِّنَا، سمي بغاءً لأَنَّه يُطلب، يعني مطلوبًا، فالبِغَاء بمَعْنى الطلب والابتغاء بمَعْنى الطلب، فالزُّنَاة -والعِيَاذ باللهِ- والزَّانيات يطلبون هَذَا الْأَمْر.

وقَوْلهُ: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ تحصنًا عن الزِّنَا؛ أي: تعففًا عنه وامتناعًا منه، وهَذِهِ الإِرادَة محل الإِكْراه، فلا مفهوم للشرط.

فالآيَة الْكَرِيمَةِ فيها أن الله تَعَالَى نهى أن نُكره الفتيات على البِغَاء بشرط: أن يردن التَّحصُّن، فإن لم يردن التَّحصُّن فظاهر الآيَة أن نُكرههنَّ، لكن الْمُفَسِّر يَقُول: إن محل النَّهْي هو الشَّرط، ولا يتصور الإِكْراه إلا إِذَا أردن التَّحصُّن، وعلى هَذَا فلا مفهوم للشرط، هَذَا ما ذهب إِلَيْه الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفيه نظر.

ظاهر قَوْل الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَهَذِهِ الْإِرَادَة مَحَلّ الْإِكْرَاه فَلَا مَفْهُوم لِلشَّرْطِ] يعني الإِكْراه لا يتصور إلا مع وجود هَذِهِ الإِرادَة، فلا مفهوم للشرط، يعني: إِذَا كَانَ الإِكْراه لا يتصور إلا بهَذِهِ الإِرادَة، فالشَّرط لا مفهوم له؛ لأَنَّه لبَيان الواقِع الَّذِي هو واقع الإِكْراه، هَذَا ما ذهب إِلَيْه الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن فيه نظر ظاهر؛ لأَنَّه قد يكرهها على البِغَاء وهي لا تريد التَّحصُّن.

إِذَنْ ما هو الرأي في هَذِهِ المَسْأَلَة، يعني: ما هو القَوْل الراجح؟

الجواب: نقول: ذكر العُلَماء ثلاثة أوجه غير ما ذكره المُفَسِّر:

الأوَّل: أن هَذَا بناء على الأغلب أنهم يكرههنَّ وهنَّ يردن التَّحصُّن، ومعْلُوم أن القَيْد إِذَا كَانَ لبَيان الغالِب لا مفهوم له، يعني: أن الله ينهاهم عن أمر قد وقعوا فيه وهو أنهم يكرهون فتياتهنَّ على الزِّنَا وهنَّ يردن التعفف عنه، فيَكُون هَذَا بناءً على الغالِب فلا مفهوم له، وهَذَا ما ذهب إِلَيْه ابن كثير، على أن القَيْد -أي: الشَّرط- هَذَا لبَيان الغالِب لا لبَيان الواقِع.

الثَّاني: قَالَ بعض العُلَماء: إن الشَّرط هَذَا بمَعْنى (إذ) ولا تكرهوا فتياتكم على البِغَاء (إذ) أردن تحصنًا؛ أي: لأنهنَّ يردن التَّحصُّن، وهَذَا القَوْل في الواقِع قد يَكُون راجعًا إلى القَوْل الَّذِي قبله وهو أنَّنا نُخَّرج الشَّرط بناء على الغالِب، يعني أن الله ينهى عن حالة معينة كَانَ النَّاس يفعلونها في الجاهلية، ولهَذَا لا يجوز تمكينها من الزِّنَا فضلًا عن الإِكْراه، لكن النَّهْي وارد على قَضيَّة معينة كانوا يفعلونها في الجاهلية، هَذَا على رأي من يرى أن هَذَا القَيْد يتنزل على الغالِب أو على الحال الَّتِي كَانَت أسبق منه.

الثالث: أن المَقْصُود من الشَّرط المبالغة في تبكيتهم ولومهم وتوبيخهم كَيْفَ أن الفتيات وهنَّ مماليك يردن التَّحصُّن وأنتم تريدون عكسه؟! لكن هَذَا مقصود به المبالغة في تبكيت هَؤُلَاءِ الأسياد الَّذينَ يكرهون الفتيات على البِغَاء، مع أن المفروض أنهنَّ لو أردن البِغَاء لكنتم تريدون التَّحصُّن والتعفف.

والتخريج الَّذِي مشى علَيْه المُفَسِّر حيث زعم أن صُورَة الإِكْراه لا تتأتى إلا بهَذِهِ الإِرادَة؛ أي: صُورَة الإِكْراه لا يُمْكِن أن تَكُون إلا إِذَا أردن التَّحصُّن.

فيقال: تتأتى بهَذِهِ الإِرادَة وبإرادة أُخْرَى؛ لأَن صُورَة الإِكْراه تقع في غير هَذِهِ الإِرادَة، يعني يُمْكِن أن يكرهها وهي لا تريد التَّحصُّن، إِذَا أكرهها على شخص معين، لكن لا تريد هَذَا الشَّخص بعينه الَّذِي أكرهها عليه، مثل أنْ يقولَ مثلًا: تزنين مع هَذَا الرَّجل لكن هي لا تريد هَذَا الرَّجل تريد رجلًا آخر، فإذا أكرهها على أن تزني بهَذَا الرَّجل تحقق الإِكْراه مع أنَّها لا تريد التَّحصُّن في الحَقيقَة، فيُمْكِن الإِكْراه وإن لم ترد التَّحصُّن.

فقولهم: إن الإِرادَة هي محل النَّهْي؛ لأَنَّه لا إكراه بدون إرادة التَّحصُّن، يقال: لا، يُمْكِن أن يَكُون إكراه بدون إرادة التَّحصُّن، مثل أن تَكُون هي في ذَلِك الوقت لَيْسَ لها رغبة في الجِماع، أو في مكان لا ترغب أن تُجامع فيه أو في زمان لا ترغب أن تُجامع فيه، أو لا تريد من أكرهت علَيْه أو ما أشبه ذَلِك، فلَيْسَ الإِكْراه خاصًا بالزِّنَا حَتَّى نقول: إن هَذَا الشَّرط لبَيان الواقِع، فلا مفهوم له، أو لا تريد أن يقع منها هَذَا الْأَمْر في هَذَا الوقت، أو على هَذِهِ الحال، أو في مكان لا ترغب أن يجامع فيه، أو أنَّها تريد أن تراغم السَّيِّد ولا توافقه، أو ما أشبه ذَلِك، يعني لَيْسَ امتناع الفتاة من الزِّنَا محصورًا في إرادة التَّحصُّن؛ إِذْ إنه قد يَكُون له أغراض أُخْرَى.

الحاصل أن الإِكْراه لَيْسَ خاصًا بالزِّنَا حَتَّى نقول إن هَذَا الشَّرط لبَيان الواقِع فلا مفهوم له.

وفي قَوْلهُ: ﴿لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إِشارَة إلى انحطاط رتبة من أراد ذَلِك؛ أي: من أَرَاد عرض الدُّنْيَا، وهَذَا صحيح.

و(اللَّام) في قَوْلهُ: ﴿لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هل هي للتَّعليل أو للعاقبة؟ الظَّاهِر أنَّها للتَّعليل، وأن الَّذينَ يُكرهون فتياتهم على ذَلِك إنما يُريدُونَ عرض الحَياة

الدُّنْيَا أي: متاعها، وسمي متاع الدُّنْيَا عرضًا لأنَّه يزول، وهَذَا أمر واقع، فإن متاع الدُّنْيَا كما وصفها الله عَزَّوَجَلَّ قليل، فيزول عنك وتزول عنه، إِذَنْ فهو عرض يعني أمرًا عارضًا يزول.

وفي قَوْلهُ: ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارَة إلى أن هُناكَ حياة أُخْرَى وهي حياة الْآخِرَة، والدُّنْيَا هل هي من الدُّنو المعنويّ أو من الدُّنو الزَمَنِيّ أو منهما جميعًا؟ منهما جميعًا، فهي من الدُّنو الزمني لأنَّها سابقة على الْآخِرَة، ومن الدُّنو المعنوي لأنَّها أقل بكثير من الْآخِرَة، قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، وأخبر النَّبِيّ ﷺ: «**مَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»(١)، موضع السوط يعني ما يقارب مترًا خير من الدُّنْيَا وما فيها، أي دنيا هي؟ هل هي دنياك الَّتِي تعيشها أنت أو كل الدُّنْيَا؟ كل الدُّنْيَا من أولها إلى آخِرها مهما طاب عيشها، فموضع سوط أحدنا في الجَنَّة خير منها وما فيها، فهي دنية بالنِّسْبَةِ للمرتبة.

إِذَنْ الدُّنْيَا زمنًا ومعنى، أو إن شئت فقل: مرتبة وهي المَعْنى، فكَيْفَ يُرِيد الْإِنْسَان هَذَا العرض الزائل من هَذِهِ الحَياة الدُّنْيَا على حساب الحَياة الْآخِرَة، لا شَكَّ أن هَذَا نقص في العَقْل أو نقص في الإِيمَان، أما رجل مُؤْمن لا يُمْكِن يفضل الدُّنْيَا على الْآخِرَة إطلاقًا، ولـهَذَا خطب أمير المُؤْمِنِينَ عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذات يوم ووعظ النَّاس وقال: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِالْآخِرَة فَأَنْتُمْ حَمْقَى، وَإِنْ كُنْتُمْ مُكَذِّبِينَ بِهَا فَـأَنْتُمْ هَلْكَى»(٢)، هَذَا صحيح، يعني المخالف لشريعة الله بين أمـرين:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، حديث رقم (٣٢٥٠)، عن سهل بن سعد الساعدي.

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٢٩٠).

إما رجل لا يؤمن بالْآخِرَة فهو هالك، وإما رجل يؤمن بالْآخِرَة ويخالف فهو أحمق ولا يحسن التصرف.

فعَلَى كُلِّ حَالٍ لا يليق بالْإِنْسَان أن يبتغي عرض الدُّنْيَا على حساب الْآخِرَة.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ نَزَلَتْ فِي عَبْد الله بْن أُبَيّ كَانَ يُكْرِه جَوَارِيَهُ عَلَى الْكَسْب بالزِّنَا] اهـ.

يُمْكِن أن تَكُون نزلت في عبد الله بن أُبَيّ أوْ فِي غيره لكن الْمُفَسِّر لم يذكر له سندًا، وقد ذكر بعض المفسرين أنَّها نزلت في عبد الله بن أُبَيّ، ولكن يَنْبَغِي أن نعرف أن العبرة بعُموم اللَّفْظ لا بخصوص السَّبَب سواء عبد الله بن أُبَيّ أم غيره، وأشار بعض العُلَماء إلى أن العبرة بعُموم اللَّفْظ على الحالة الَّتِي نزلت أو الَّتِي ورد من أجلها العُموم لَيْسَ بعُموم كل الأَحْوال، عُمُوم اللَّفْظ بالنِّسْبَةِ لتقييدها بالشَّخص لكن على الحالة الَّتِي ورد من أجلها هَذَا النَّص، والفَرْق مفهوم، يعني: العبرة بعُموم اللَّفْظ لا في جميع الأَحْوال بل بعُموم اللَّفْظ بالنِّسْبَةِ لتقيده بالشَّخص، فلا يختص بالشَّخص الَّذِي ورد من أجله بل يعمه وغيره على الحالة الَّتِي وردت، مثال ذَلِك قَوْل النَّبِيّ ﷺ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ»[1].

لو أخذنا هَذَا على عمومه في الأشخاص والأَحْوال لكان الْإِنْسَان لا يصوم في السَّفَر مطلقًا، ولَيْسَ من البر أن يصوم، ولكنَّنا لا نأخذه على عُمُوم الأَحْوال بل على عُمُوم الأشخاص في مثل هَذِهِ الحال الَّتِي ورد من أجلها، وقد ورد الحَديث

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له، كتاب الصوم، باب قول النَّبِيّ ﷺ لمن ظلل...، حديث رقم (١٩٤٦)؛ ومسلم، كتاب الصوم، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر...، حديث رقم (١١١٥)، عن جابر بن عبد الله.

حينما رأى النَّبِيّ ﷺ زحامًا ورأى رجلًا قد ظُلِّل علَيْه فقال: «مَا هَذَا؟»، قَالُوا: صَائِمٌ، قَالَ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ».

فإذا وصلت الحال بالصائم في سفره إلى مثل هَذَا الرَّجل قُلْنا له: لَيْسَ من البر، وما عدا ذَلِك فلا نقول: إنه لَيْسَ من البر؛ لأَن النَّبِيّ ﷺ كَانَ يصوم في السَّفَر ولا يصنع شيئًا لَيْسَ ببر، وكان أيضًا يُقِرّ أصْحابه على أن يصوموا في السَّفَر إِذَا لـم يصلوا إلى حال هَذَا الرجل، فالعبرة بعُموم اللَّفْظ.

وقَوْلهُ: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ (من) هَذِهِ شرطية، وأَسْماء الشَّرط من صيغ العُموم، فَكَما أن الأَسْماء المَوْصولَة من صيغ العُموم كَذلِكَ أَسْماء الشَّرط، يعني: أي إِنْسَان يُكره فتاته ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وفي قَوْلهُ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ﴾ إِشارَة إلى أَنَّه لا بُدَّ من تحقق الإِكْراه، يعني بعد التحقق من الإِكْراه وألا يَكُون في قلبها أي ميل إلى ما أكرهها علَيْه فإن الله من بعد هَذَا الإِكْراه ﴿غَفُورٞ﴾ للمُكْرَهة لا للمُكْرِه، المُكْرِهُ عاص فلَيْسَ أهلًا للمَغْفِرة، ولهَذَا نقول: إن جملة الشَّرط هُنا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لم تعد إلى ما يَعود إلَيْه فعل الشَّرط؛ لأَن فعل الشَّرط يَعود على المُكْرِه لا المُكْرَه.

لكن جواب الشَّرط لـم يعد على المُكْرِه بل على المُكْرَه وَذلِك للتلازم بين المُكْرِه والمُكْرَه إِذْ لا مُكْرِه إلا بمُكْرَه، فلِذَلك صح أن يَكُون جواب الشَّرط لَيْسَ عائدًا إلى ما يَعود علَيْه فعل الشَّرط، إنما هو عائد إلى شَيْء ملابس له وملازم له وهو المُكْرَه.

فالقاعِدَة العامَّة أن جواب الشَّرط يَعود على ما يَعود علَيْه فعل الشَّرط، لكن لَيْسَ ذَلِك بلازم بل قد يَعود على ملابسه وملازمه كما في هَذِهِ الآيَة، ولـهَذَا نقول:

إن الله من بعد إكراههنَّ غفور لهنَّ لا غفور لهم أي المكرِهين، بل لهنَّ أي: المكرهات ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهنَّ.

وفي قَوْلهُ: ﴿غَفُورٌ﴾ إِشارَة إلى أن هَذَا الذَّنب لا عُقوبَة فيه.

وفي قَوْلهُ: ﴿رَّحِيمٌ﴾ إِشارَة إلى أن الله سيجعل لهنَّ فرجًا؛ لأَن الرَّحمة بها حصول المَطْلوب وزوال المرهوب، لِذَلك نقول: إن في هَذِهِ الآيَة إِشارَة إلى الفَرَج لمن أكره على فعل محرم، وأن الله تَعَالَى سيجعل له فرجًا، ويؤيد ذَلِك قَوْل النَّبِيّ ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»[1].

فإذا قَالَ قَائِلٌ: كثيرًا ما نسمع أن من النَّاس من أكره على أمر محرم ولم يحصل له الفرج بسرعة.

فنقول: إن هَذَا لا ينافي الآيَة، إِذْ قد يَكُون من جملة الفرج أن الله يهون الْأَمْر علَيْه في قلبه، ويَكُون التخلص الحسي من هَذَا الإِكْراه بعد ذَلِك بسبب من الأَسْبَاب فوق ما نعلمه.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدتان الأُولَى والثَّانية: أن المُكْرَه على فعل الشَّيء لا يلحقه إِثْمُه، ويَكُون في هَذَا رد على من فرق من أَهْل العِلْم بين الإِكْراه على القَوْل والإِكْراه على الفِعْل، فمن العُلَماء من فرق بين الإِكْراه على الفِعْل والإِكْراه على القَوْل، وقال: إن الإِكْراه على القَوْل لا يترتب علَيْه مقتضاه، والإِكْراه على الفِعْل يترتب علَيْه مقتضاه.

ولكن الصَّحيح أَنَّه لا فرق وأن كل من أكره على قَوْل أو فعل فإِنَّه لا حكم لفعله

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧) (٢٨٠٤)، عن ابن عباس.

ولا لقوله؛ يدُلّ على ذَلِك مع هَذِهِ الآيَة قَوْله تَعَالَى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل:١٠٦]، في هَذِهِ الآيَة الْكَرِيمَةِ هل قَوْلهُ: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ أي على الكفر بالقَوْل أو الكفر بالفِعْل أو بهما جميعًا؟ بهما جميعًا، ولم تخصص الآيَة القَوْل، ففي هَذِهِ الصُّورة الإِكْراه على البِغَاء، والبِغَاء فعل.

ولو سلمنا جدلًا أن قَوْله تَعَالَى في سورة النَّحل: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ خاص بالإِكْراه على القَوْل -لو سلمنا جدلًا مع أنَّنا لا نسلم- فإن هَذِهِ الآيَة لا يُمْكِن فيها التَّأويل ولا التَّخصِيص لأَن القَضيَّة في فعل.

فإن قَالَ قَائِلٌ: فماذا تصنعون فيما يذكر من حديث صاحب الذباب الَّذِي مر على صنم هو وصاحب له وقال أصْحاب الصَّنم لأحدهما: قَرِّب، قَالَ: ما كنت لأقرب لأحد شيئًا دون الله عَزَّوَجَلَّ فقتلوه، وقالوا للثاني: قرب ولو ذبابًا، فقرب ذبابًا فلم يقتلوه[1]؟

نقول في هَذَا: إن هَذِهِ القصَّة لا تصح، ثم لو فرض أنَّها صحيحة عن بني إسرائيل فإن ديننا ولله الحمد قد وضع الله فيه من الآصار والأغلال الَّتِي كَانَت على بني إسرائيل ما أوجب أن يَكُون دين السهولة والَيْسَر، ولهَذَا كَانَ من صِفات الرَّسُول ﷺ أنَّه يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال الَّتِي كَانَت عليهم، فكثير من الآصار والأغلال الَّتِي كَانَت على الأُمَم السَّابِقة رفعت عن هَذِهِ الأُمَّة.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٠٣).

لو قَالَ قَائِلٌ: لو أكرهت المَرْأَة وهي صائمة على الجِماع؛ أي: جامعها زوجها وهي صائمة بغيرِ اختيارِها ولم تتمكَّن أن تتخلَّص منه فما الحُكْم؟

الجواب: لا شَيْء عَلَيْها، لا تفطر ولا تكفر، وكَذلِك لو أكرهها على الجِماع وهي في إحرامها، يعني وهي محرمة، كَذلِكَ أيضًا لَيْسَ عَلَيْها شَيْء لا بالنِّسْبَةِ للنسك ولا بالنِّسْبَةِ للفدية، وهَذِهِ قاعِدَة عامَّة مقررة في الدِّين الْإِسْلَامي، لكن يلاحظ أن قَوْلهُ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ﴾ تقدَّم أن فيه إِشارَة إلى تحقق الإِكْراه، وأنه لو كَانَ في المكره أدنى ميل فقد يتخلف جواب الشَّرط، فتتخلف المغْفِرة والرَّحمة إِذَا كَانَ بعدما أُكْرِه مال إلى الشَّيء، فهَذَا يحصل فيه تخلف الشَّرط، ومن ثَمَّ زعم الفُقَهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أن الرَّجل لا يُمْكِن أن يُكْرَه على الزِّنَا، وقالوا: إن الرَّجل إِذَا أُكْرِه على الزِّنَا وجب علَيْه إقامة الحد، وإذا أُكْرِه على الوطء في رمضان وجب علَيْه كفارة والقضاء، وكَذلِك في النُّسك، وما السَّبَب؟

قالوا: الإِكْراه في الجِماع لا يُمْكِن؛ لأَنَّه لَيْسَ بفاعل إلا عن ميل، ما يفعل إلا بعد انتشار ذكره، ولا ينتشر ذكره إلا إِذَا مال، وعلى هَذَا فلا يتحقق الإِكْراه، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقُول: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ﴾ لكن خصوصًا في الحَدّ تدرأ الحُدُود بالشُّبُهَات، هَذَا وإن كَانَ فيه نظر، لكن عَلَى كُلِّ حَالٍ الْإِنْسَان إِذَا كَانَ شابًا وأكره أن يزني بامرأة جميلة شابة قد ينتشر ذكره، لكن الحَقيقَة أن الْإِنْسَان مع الكراهة الشَّديدة للشَيْء لا يُمْكِن أن ينتشر.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور:٣٤].

قَوْلهُ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِفَتْحِ الْيَاء وَكَسْرهَا فِي هَذِهِ السُّورَة بَيِّن فِيهَا مَا ذُكِرَ أَوْ بَيِّنَة] اهـ.

قَوْلهُ: «مُبَيَّنَاتٍ»[1] هل المَعْنى: بَيَّنت أو بُيِّن فيها ما ذكر؟ المَعْنى بُيِّن فيها ما ذكر، لكن ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: بَيَّنت.

قَوْلهُ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ (اللَّام) في قَوْلهُ: ﴿وَلَقَدْ﴾ واقعة في جواب القسم وهي للتَّوكيد و(قد) كَذلِكَ للتَّوكيد، وعلَيْه فهَذِهِ جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر واللَّام وقد، وإنما أكد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هَذَا بهَذِهِ المؤكدات الثَّلاثة للأهمية، وأنَّنا إِذَا علمنا أن هَذِهِ آيَات مبينة فإن ذَلِك سوف يستلزم منا الاعتناء بهَذِهِ الآيَات.

وقَوْله تَعَالَى: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ﴾ ما المُراد بالآيَات هُنا الشَّرْعِيَّة أم الْكَوْنِيَّة؟ الظَّاهِر أنَّها الشَّرْعِيَّة وهي الوَحْي الَّذِي نزل على الرَّسُول ﷺ؛ لأَن الإنزال يتفق

(١) حجة القراءات (ص:٤٩٨).

معها أكثر مما يتفق مع الْكَوْنِيَّة، وفي قَوْلهُ: ﴿أَنزَلْنَآ﴾؛ أي: بالوَحْي الشَّرعي لأنَّه ينزل حَقِيقَة من العلو إلى السُّفل؛ ولأنَّهُ ينزل من الله عَزَّوَجَلَّ على قلب النَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهو نزول حقيقي، وقد حرفه بعضهم إلى أن المُراد بالإنزال: الوَحْي، فقال: ﴿أَنزَلْنَآ﴾ يعني أوحينا، وقال: إن النُّزول لا يَكُون إلا من أعلى ولا يَكُون إلا في جُرم، يُقال: نزل الْإِنْسَان من السطح إلى الأَرْض، والقرآن لَيْسَ كَذلِكَ، ولا شَك أن الَّذِي يَقُول هَذَا الكَلام ينكر علو الله، ولهَذَا أهْل السُّنَّة والجَماعَة من جملة ما استدلوا به على علو الله: أن الله أنزل القُرْآن على النَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقالوا: يلْزَم من الإنزال أن يَكُون المُنزِل عاليًا، لكن الَّذِي يفسره بالوَحْي بحجة أن الشَّيء النَّازل ذو جرم، والقرآن لَيْسَ ذا جرم وإنما هو قولٌ ينزل، فهَذَا لا شَكَّ أنَّه محرف لكلام الله عَزَّوَجَلَّ.

ونحن نقول: إن القُرْآن ينزل كما قَالَ اللهُ جَلَّوَعَلَا، وإن كَلِمة ينزل غير كَلِمة يوحى بل لها معنى آخر خاص، ثم إنه ما المانِع من أن يَكُون النُّزول في الْأُمُور المعنويَّة ويَكُون النُّزول إِذَا أضيف إلى الْأُمُور الحسية فهو لذوات الأجرام، وإذا أضيف إلى الْأُمُور المعنويَّة فله معنى آخر، أَلَيْسَ الله يَقُول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:٤]، والسكينة ليست حجرًا يُلقى في الْقَلْب، بل هي أمرٌ معنويٌّ، فإِذَنْ النُّزول يَكُون في الْأُمُور المعنويَّة.

ثم ما المانِع أن يَكُون القُرْآن أيضًا له جرم، ولكنَّنا لا نعرف هَذَا الجرم؛ لأَن الله يَقُول للرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل:٥]، وقد ثبت أنَّه ﷺ نزل علَيْه الوَحْي وهو راقد على رجل حذيفة حَتَّى كاد يَرُضّها[1]،

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، رقم (٢٨٣٢).

وأنه كَانَ ينزل علَيْه الوَحْي وهو على الراحلة فتبرك به[١]، فما المانِع من أن يَكُون جُرمًا لكنَّه لَيْسَ كالأجرام المعْرُوفة، والله أعلم.

والله تَعَالَى يجعل الْأُمُور المعنويَّة أمورًا حسية، ألم تر إلى الموت يوم القِيامَة يُمثل بكبش يشاهده النَّاس من أهل النَّار ومن أهل الجَنَّة ويُذبح أمامهم[٢]، كما أن الأعْمَال توضع في الموازين يوم القِيامَة، والأعمال أصلها معانٍ لا أجرام، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كل شَيْء قدير، وقدرته تَعَالَى فوق عقولنا.

فهَذِهِ الآيَة فيها دَليل صريح على أن الله أنزل القُرْآن من عنْدَه وأن النُّزول لَيْسَ بمَعْنى الوَحْي فقط، بل هو معنى خاص أخص من الوَحْي.

وقَوْلهُ: ﴿ءَايَٰتٍ﴾ جمعها، وحَقِيقَة الْأَمْر أنَّها كَذلِكَ؛ لأَن القُرْآن لَيْسَ حكمًا واحدًا ولا خبرًا واحدًا، أَخْبار كَثيرَة وأحكام كَثيرَة، فهو ﴿ءَايَٰتٍ﴾ بمَعْنى عَلامَات، عَلامَات على عظمة من أنزلها وعلى صدق من جاء بها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ووجه كونها آيَات، أنك إِذَا تأملت الأَحْكام الَّتِي جاءت بها هَذِهِ الآيَات وجدتها مطابقة تمامًا فيما هو مراد ودفع المضرة فيما لَيْسَ بمراد، ووجدت أيضًا أن أَخْبارها في غايَة ما يَكُون من المصْلَحة والمنفعة، ووجدت لها تأْثِيرًا بالغًا، ومن جملة تأْثِيرها حفاوة الأُمَم الَّذينَ كانوا يناضلون الإِسْلام فدخلوا في دين الله أفواجًا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراءة على الدابة، حديث رقم (٥٠٣٤)؛ ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ذكر قراءة النَّبِيّ ﷺ سورة الفتح يوم فتح مكة، حديث رقم (٧٩٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: وأنذرهم يوم الحسرة، حديث رقم (٤٧٣٠)؛ ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها، حديث رقم (٢٨٤٩)، عن أبي سعيد الخدري.

بمجرد أنهم سمعوا القُرْآن ورأوا آدابه وأخلاقه، ثم إن هَذَا التأْثِير -لمن ألقى السمع أو كَانَ له قلب- تأْثِير لا يوجد له نظير.

فإذا صفي الذهن وأقبل الْإِنْسَان بقَلْبِه على القُرْآن مهما كَانَ حَتَّى ولو كَانَ غير مسلم لا بُدَّ أن يتأثر، قَدِمَ جبير بن مطعم المدينة، فسمع النَّبِيّ ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلمَّا بلغ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور:٣٥-٣٦]، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كاد قلبي أن يطير.

ومن ذَلِك الوقت ألقى الله الإِيمَان في قلبه ثم أسلم بعدُ[1]، الَّذِي أثار هَذَا الرَّجل كثيرًا أنَّه سمع القُرْآن، فهَذَا دَليل على أن القُرْآن آيَات عَظِيمة تدُلّ على عظمة من أنزلها، وعلى صدق من جاء بها وَذلِك لما تضمنته من الأَحْكام العادلة الَّتِي تبهر العقول، ولا يُمْكِن لبشر أن يأتي بمثلها.

ومن الأَخْبار الصَّادقة النَّافعة وأَخْبار موجعة للنَّفْس ومريحة لها ونافعة للقلب أيضًا ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].

وقَوْلهُ: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: تبين الحَقّ من الباطل وتفصل بينهما وتميز بينهما، ثم أيضًا تبين الأَحْكام بنفْسِها، لكن منها ما يحتاج إلى بَيان من غيره ومنها ما هو بَيِّن بنَفْسِه، ففي هَذَا إِشارَة إلى أنَّه لا يوجد في الشَّرع أمر مشكِل بحسب الواقِع؛ لأَن الإِشْكال الَّذِي يقع في المَسائِل الشَّرْعِيَّة لَيْسَ لقُصور في النُّصوص ولكن لقُصور في الفَهْم أو قُصور في العِلْم، قد يَكُون الْإِنْسَان قاصِر العِلْم لا يحيط بالنُّصوص كلها،

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة (والطور)، الحديث رقم (٤٨٥٤)، عن جبير بن مطعم.

وقد يَكُون قاصِر الفَهْم، ومن ثَمَّ يحصل الإِشْكال، أما مع العِلْم والفَهْم التام فإنَّه لا يُمْكِن أن يوجد إِشْكال في الشَّريعة، ولِذَلك أحيانًا تعرض لي مَسْأَلَة وأجد فيها إِشْكالًا، ثم في زمن آخر تعرض لي نفس المَسْأَلَة ولا أجد فيها إِشْكالًا؛ لأَن صفاء الذهن وأحوال الْإِنْسَان لها تأْثِير بالغ في فهم النُّصوص.

ولهَذَا أنا أرى أنَّه يَنْبَغِي لطالب العِلْم أن يقيد المَسائِل النَّافعة الَّتِي تعرض له ويخشى أن ينساها ولا يعتمد علَى نفْسِه، ويقول: هَذِهِ الفَائِدة واضحة ولا حاجة لتقييدها؛ لأَنَّه قد يأتي يوم من الأَيَّام ما فتح الله عَلَيْك بالأمس غير موجودٍ الآن، إما لتخلف السَّبَب أو لِوُجود المانِع، والْإِنْسَان بشر تتقلب به الأَحْوال فيُمْكِن أن تعرض له مشكلة في بيته فيخرج إلى النَّاس غضبان ولا يتحمَّل أي كَلِمة من النَّاس، ويُمْكِن أن يرضى في بيته ويخرج إلى النَّاس ويتحمَّل كل كلام منهم، فالْإِنْسَان بشر في جميع أحواله يتقلب ويتغير.

فإن القُرْآن -ولله الحمد- مُبَيِّن ومُبَيَّن أيضًا، ولكن الخفاء الَّذِي يحصل لِلإنْسان إنما هو من نفسه لا من حيث الأدلَّة وَذلِك لأحد أمرين كما تقدَّم، فمن أجل أحد هَذَيْنِ الْأَمْرين يحصل الخفاء في الأَحْكام الشَّرْعِيَّة، أما الآيَات الَّتِي أنزلها الله فهي آيَات مُبَيَّنة مُبَيِّنة لَيْسَ فيها إِشْكال.

وقد ذكر شيخ الإِسْلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عِبارَة في (العقيدة الواسطية) قَالَ: «وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ»[1]، هَذِهِ في الحَقيقَة عِبارَة تكتب بماء الذَّهب، وإن كَانَ الذَّهب لا يستعمل مدادًا لكن قصدي هَذِهِ عِبارَة ممتازة، من تدبر القُرْآن طالبًا الهُدَى منه تبين له طريق الحَقّ فلابُدَّ من هَذَيْنِ الْأَمْرين.

---

(١) العقيدة الواسطية: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة (ص:٧٤).

قَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ و«ومُبَيِّنَاتٍ» قراءتان سبعيتان[1].

قَوْلُهُ: ﴿وَمَثَلًا﴾: قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خَبَرًا عَجِيبًا وَهُوَ خَبَر عَائِشَة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أَيْ: مِنْ جِنْس أَمْثَالهمْ، أَيْ: أَخْبَارهمْ الْعَجِيبَة، كَخَبَرِ يُوسُف وَمَرْيَم] اهـ.

يعني أنزل الله أيضًا مثلًا من الَّذينَ خلقوا من قبلكم، المُراد بالمَثَل والله أعلم هُنا ما هو أعم من الواقِع، يعني أمثالًا من الَّذينَ خلوا، ولَيْسَ هَذَا خاصًا بخبر عَائِشَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ومريم ويوسف بل هو أعم من ذَلِك، لكن المُفَسِّر ذكره، كعادته رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه يذكر الآيَات عامَّة على المَعْنى حسب السِّيَاق، صحيح أن السِّيَاق قد يقيد المطلَق وقد يخصّص العامّ لكن بِدَلِيل، أما إِذَا لم يكن دَليل على أن هَذَا خاص فالأولى العُموم.

وما ذكره في قَوْلهُ: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ في الحَقيقَة قد يَكُون أعم مما ذكره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

إِذَنْ نزول القُرْآن أحكام شرعيَّة عُبر عنها بالآيَات المبينات وأَخْبار صادقة فيها العبرة عُبر عنها بقَوْلهُ: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ضرب لنا أمثالًا ممَّن خلا من قبلنا فيما يَتعلَّق بالْعِفَّة والصيانة وفيما يَتعلَّق بالْأَمْر بالدِّين والإِيمَان والقدوة الحسنة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد:١٠]، ولما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قصة لوط قَالَ: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣].

---

(١) حجة القراءات (ص:٤٩٨).

فالْإِنْسَان العاقِل يفيق؛ لأَن سَنَّة الله واحدة والله جَلَّوَعَلَا البشر بالنِّسْبَةِ إِلَيْه سواء إلا بالتَّقوى.

فإذا أهلك الله أمة من الأُمَم السَّابِقة بمخالفته فهل يمتنع أن يهلك هَذِهِ الأُمَّة أيضًا؟

لا يمتنع إلا أَنَّه يُستثنى من ذَلِك الإهلاك العامّ، الإهلاك العامّ رُفع عن هَذِهِ الأُمَّة(١).

وإلا فأصل العُقوبَة واردة في هَذِهِ الأُمَّة كغيرها، بل قَالَ بعض العُلَماء: إنه لـم يوجد من بعد إهلاك فرعون، واستدلوا على ذَلِك بقَوْلهُ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص:٤٣]، قالوا: فبعد ما نزلت التوراة على موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما كَانَ ذاك في الأُمَم السَّابِقة يعني إهلاكًا، هَذَا هو الواقِع في الحَقيقَة سواء الآيَة تدُلّ علَيْه أم لم تدُلّ، إنما هَذَا هو الواقِع.

قَوْلهُ: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ مثل قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رمى بما رمي به وانجاه الله مِنِ امرأة العزيز الَّتِي رمته بالْفَاحِشَة، والغريب أن امرأة العزيز هي الَّتِي راودته عن نفسه، وغلقت الأبواب وهيأت كل شَيْء، ولكنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بعد أن هم مع توفر الأَسْبَاب وانقطاع المَوانِع ووجود الطلب والهمة بعد ذَلِك امتنع، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف:٢٤]، وهَذَا أعلى ما يَكُون في الْعِفَّة، خلافًا لمن ذهب يحاول في كَلِمة ﴿وَهَمَّ﴾ ويقول: إن المُراد بقَوْلهُ: ﴿هَمَّتْ بِهِۦ﴾ بالزِّنَا ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ ليبطش بها.

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب إحياء الليل، حديث رقم (١٦٣٨).

لكن يقال: كمال الْعِفَّة أن تحصل مع وجود الطَّلب؛ ولهَذَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الَّذينَ يظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه قَالَ: «وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ»(١).

لا يوجد مانع إلا هَذَا، فلَيْسَ عندهما أحد، والشَّهْوَة متوفرة والعزيمة موجودة، ومعنى العزيمة الهم، لكن منعه خوف الله عَزَّوَجَلَّ، الحاصل أن يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بعد أن همت به وهم بها وجُد الآن الطلب والسبب وانتفى المانِع حينئذٍ ﴿رَءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فتح الله علَيْه فانصرف ثم تبين أن الخائن أخيرًا امرأة العزيز.

ظهر ذَلِك علنًا حَتَّى من يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فمن قوة صبره ومن حكمته لما دُعي أن يخرج من السجن قَالَ: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف:٥٠]، لم يخرج حَتَّى بان أمره، وهَذَا يعتبر من الصَّبر العَظِيم، وإلا فإن طبيعة الْإِنْسَان إِذَا كَانَ مسجونًا وقالوا له: اخرج، فإنَّه لا يتردد في الخروج، لكن هو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أبى حَتَّى يكُون بريئًا وفعلًا هَذَا الَّذِي حصل.

بالنِّسْبَةِ لمريم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حصل نفس الشَّيء، اليهود اتهموها لكن هل قالوا إنها زانية؟ عَرَّضوا تعريضًا قالوا: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم:٢٨]، يعني، أبوك لَيْسَ امرأ سوء وأمك لَيْسَت بغيًا فمن أين جاءك البِغَاء؟ هَذَا كلامهم.

ولهَذَا اختلف العُلَماء هل يُحد بالقَذْف إِذَا عرَّض أو لا يُحد؟

والصَّحيح أنَّه إِذَا كَانَ التَّعريض واضحًا يُحد، بل بعض العُلَماء يَقُول: إن

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب فضل من ترك الفواحش، حديث رقم (٦٨٠٦)؛ ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، حديث رقم (١٠٣١)، عن أبي هريرة.

التَّعريض بالزِّنَا أعظم من التَّصريح به لأنَّه يتضمَّن قذفًا ولومًا، مثل لو جاءك خصم وقال لك أنا الحمد لله لي أب، فهَذَا أعظم من التَّصريح.

قَوْلهُ: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢]، ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور:١٢]، إلى آخِره ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم﴾ [النور:١٦-١٧]، إلى آخِره، وَتَخْصِيصهَا بِالْمُتَّقِينَ لِأَنَّهُمْ الْمُنْتَفِعُونَ بها] اهـ.

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر هَذِهِ الآيَات بناءً على عادته وهو تَخْصِيص العامّ بالسِّيَاق لأَن عادته كما تقدَّم أنَّه يخصّص العُموم بالسِّيَاق.

والصَّحيح أن العُموم لا يخصّص بالسِّيَاق وأنه يشمل ما تضمنه السِّيَاق وغيره وعلى هَذَا فهو مَوْعِظَة للمتقين في هَذِهِ الآيَات الَّتِي عدها وفي غيرها، فالقرآن الكَرِيم مَوْعِظَة لكن لا يَنْتَفِع به إلا المتقون الَّذينَ اتخذوا وقاية من عَذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور:٣٥].

قَوْلُهُ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ مُنَوِّرهما بِالشَّمْسِ وَالْقَمَر ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أَيْ صِفَته فِي قَلْب الْمُؤْمِن] اهـ.

هَذِهِ الآيَة تضمنت عدة أَشْيَاء:

أولًا: قَوْلُهُ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هَذِهِ الجُمْلَة هل هي على ظَاهِرها وحقيقتها؟ أم هي تحتاج إلى تأويل؟

اختلف فيها أَهْل السُّنَّة وغيرهم كالعادة في بقية آيَات الصِّفات، فذهب أهل التَّأويل إلى أن الآيَة لها تأويل وجعلوا التَّأويل: إما أن ﴿نُورُ﴾ بمَعْنى منور كما ذهب إلَيْه الْمُفَسِّر أو أن ﴿نُورُ﴾ بمَعْنى ذي نور كما تقول: رجل عدل أي: ذو عدل، فمعنى ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: ذو نور السَّموات والأَرْض أي: صاحب نورهما أي: الخالق للنور فيهما وعلَيْه فيَعود هَذَا المَعْنى إلى المَعْنى الأوَّل لكن الاختلاف في التَّقدير، وهَذَا مذهب أهل التَّحريف الَّذينَ يُسمَّون أهل التَّأويل والأصح في تسميتهم أهل

التَّحريف؛ لأَن التَّأويل في الحَقيقَة منه صحيح ومنه غير صحيح، والأليق بالتَّأويل غير الصَّحيح أن يسمى تحريفًا؛ لأَنَّه صرف للفظ عن مدلوله بدون دَليل وهَذَا هو التَّحريف حَقِيقَة، أما أَهْل السُّنَّة والجَماعَة فقالوا: إن الآيَة على حقيقتها وعلى ظَاهِرها، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نور السَّموات والأَرْض لكن النُّور نوعان: نورٌ هو ذات الباري جَلَّ وَعَلَا وصفاته وآياته وأحكامه وكلامه لما يحصل به من الهداية، أي أن أصل النُّور هو الَّذِي يهتدي به كقول الخنساء[1]:

..... كَأَنَّـهُ عَلَـمٌ في رَأسِـهِ نـارُ

وهَذَا غير مخلوق، ونورٌ آخر حسي مخلوق، منفصل بائن عن الله، فالنُّور الَّذِي نراه في الشَّمس، وفي القمر، وفي النُّجوم، وفي السُرج هَذَا من النُّور الحسي المخْلُوق ثم النُّور المخْلُوق منه أيضًا: حسيّ ومعنويّ، فالحسي الَّذِي مثلنا به والمعنوي ما ذكره الله تَعَالَى بقَوْلهُ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ إلى آخِره.

فالطَّريق السَّليم أن نقول: نور الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَيْسَ مخلوقًا، لَيْسَ كنور القمر الَّذِي جعله الله تَعَالَى فيه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٦]، ولَيْسَ كنور المصباح، ولَيْسَ كالنُّور الَّذِي يَكُون في قلب المُؤْمِن من العِلْم والهداية والإِيمَان، ولكنَّ النُّور حقيقي لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو نورٌ وصفاته نور وكَذلِك آياته نور سماها الله تَعَالَى نورًا لأَن الله تَعَالَى وصف نفسه بهَذَا الشَّيء، ولكن لَيْسَ كالنُّور الَّذِي نتصوَّره أو نتخيَّله فإن النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُول: «حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[2]، يعني لأحرقت سُبُحـات وجهه كل شَيْء

(١) ديوان الخنساء (ص:٣٨٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن الله لا ينام»، رقم (١٧٩).

لأَن بصره ينتهي إلى كل شَيْء.

إِذَنْ أَهْل السُّنَّة والجَماعَة يَقُولُونَ: إن الله تَعَالَى نور السَّموات والأَرْض، فهو نورٌ بذاته، وكَذلِك أيضًا صفاته، وكَذلِك آياته سماها الله تَعَالَى نورًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤]، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نور لكن أهل التَّحريف لما ظنوا أن النُّور هو مادة الإضاءة أو الضوء نفسه قالوا: هَذَا عرضٌ يزول والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منزه عن العرض أو هَذَا جسمٌ يعني قابلًا للإضاءة والله تَعَالَى منزه عن الجسم على حد تعبيرهم وقواعدهم.

لكنَّنا نقول ما الَّذِي يسوغ لنا أن نعدل بالآيَة عن ظَاهِرها ولا نقول الله نور السَّموات والأَرْض؟

وقد قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ» فأثبت لوجهه نورًا.

إِذَنْ كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [أَيْ: مُنَوِّرهمَا] هَذَا لَيْسَ بصحيح، هَذَا تحريف وإنما معناه نورٌ في السَّموات والأَرْض نورٌ بذاته وصفاته وآياته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

لو قَالَ قَائِلٌ: الَّذينَ يحرفون نُصُوص الْكِتَابِ وَالْسُنَّةِ هل يعذرون؟

مَسْأَلَة العذر شَيْء آخر، نحنُ نبطل القَوْل ونعذر القائل، ونقول للرَّجُلِ إِذَا أخطأ أخطأت، ولكن مع ذَلِك لا نلومه إِذَا علمنا منه حسن النِّية، بل نحبه أيضًا، نحنُ نعرف الآن علماء أجلاء فضلاء ممَّن سلكوا هَذَا المسلك مسلك التَّحريف في أَسْماء الله وصفاته، ومع ذَلِك نُشْهِد الله على محبتهم؛ لأَنَّنا نعرف أنهم لم يسلكوا ذَلِك إلا عن اجتهاد وحسن نية، لـما لهم من قدم الصِّدق في الإِسْلام والنُّصح للإِسْلام

والمكانة، مثل النَّووي وابن حجر العسقلاني رحمهما الله تعالى، وغيرهما كثير، هَؤُلَاءِ لا أحد يكرههم أو يبغضهم أو يسيء الظَّن بهم.

لكن لا مانع من أن نقول إِذَا أخطئوا: قولهم خطأ، ونقول: قولهم باطل، لكن لا يَلْزَم من ذَلِك أن نلوم هَذَا الشَّخص إِذَا علمنا منه حسن النِّية وأن هَذَا هو الَّذِي أداه إِلَيْه اجتهاده، وهَذِهِ طريقة أهْل السُّنَّة والجَماعَة، ولِذَلك لا تجد بينهم عداوة ولا بغضاء إِذَا اختلفت أقوالهم؛ لأَن كل واحد منهم يعرف أن صاحبه معذور، لكن أهل الأهواء والعِيَاذ باللهِ هم الَّذينَ لا يعذرون أحدًا يخالفَهْم وإن كانوا هم على باطل ولِذَلك تجدهم يُكِنون العداوة والبغضاء لمن خالفَهْم.

قَوْلهُ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ صِفَته فِي قَلْب المُؤْمِن] اهـ. ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي مثل نور الله كمشكاة، المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: [فِي قَلْب المُؤْمِن ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ إلى آخِره]، لماذا لا نجعل ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ الَّذِي هو نور ذاته وصفته؟ يعني من الَّذِي أوجب لنا أن نؤول؟

لأَن الله لا مثل له، لا يُمْكِن أن نمثل نوره الَّذِي هو صفته بشَيْء من المخْلُوقات فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، إِذَنْ لا بُدَّ من التَّأويل.

وفي الحَقيقَة إِذَا قَالَ قَائِلٌ: ألستم تنكرون التَّأويل؟ نقول: لا ننكر التَّأويل مطلقًا، بل ننكر التَّأويل الَّذِي لا دَليل عليه، أما ما يَقْتَضيه العَقْل فإنَّه أمر معْلُوم لأَن عقلك هل يُمْكِن أن يصدق أن نور الله بهَذَا الحجم ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾؟ أبدًا حَتَّى العَقْل يمنع هَذَا، إِذَا كَانَ العَقْل يمنع هَذَا فالتَّأويل لا بُدَّ منه، يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ في ريح عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ عقلًا لم تدمر السَّموات ولم تدمر

الأَرْض وإنما دمرت كل شَيْء يَنْتَفِعون به بِدَلِيل قَوْلهُ: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥].

فعَلَى كُلِّ حَالٍ إننا نقول: مثل نوره، أي: مثل نوره الَّذِي يضعه في قلب المُؤْمِن، وبعضهم يَقُول: مثل نوره الَّذِي يهدي به، ويرى أن هَذَا من باب التقريب المعنويِّ للحسيِّ ويقول مثلًا: إن القُرْآن نور، مَثَلَ هَذَا النُّور كمشكاة... إلى آخِره، لكن الأسلم ما ذهب إلَيْه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المُراد بالنُّور هُنا: النُّور الَّذِي يضعه الله تَعَالَى في قلب المُؤْمِن.

قَوْلهُ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ ما هي المِشْكَاة؟ المِشْكَاة: الكوة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ سراج ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هي الْقِنْدِيل، و﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾ السِّرَاج، أَيْ: الْفَتِيلَة المَوْقُودَةُ، وَالمِشْكَاة: الطَّاقَة غَيْر النَّافِذَة، أَيْ: الْأُنْبُوبَة فِي الْقِنْدِيل] اهـ.

المشكاة كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الطَّاقَة غَيْر النَّافِذَة الَّتِي يسميها النَّاس عندنا الرُّوزَنَة هَذِهِ إِذَا كَانَ فيها مصباح، وهَذَا المصباح في زجاجة -وسيأتي أيضًا وصف هَذِهِ الزجاجة- يَكُون نوره أقوى لأَن النُّور ينعكس ولا يتبدد، وهَذَا في الحَقِيقَة أصل العَمَلية الَّتِي يسمونها الكُبْس الَّتِي تعكس النُّور فهي مأخوذة من القُرْآن؛ لأَن هَذِهِ المشكاة هي في الحَقِيقَة نظرية الكُبْس.

قَوْلهُ: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: وَالنُّور فِيهَا ﴿كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ أَيْ: مُضِيء بِكَسْرِ الدَّال وَضَمّهَا مِنْ الدَّرْء بِمَعْنَى الدَّفْع لِدَفْعِهَا الظَّلَام، وَبِضَمِّهَا وَتَشْدِيد الْيَاء مَنْسُوب إِلَى الدُّرّ: اللُّؤْلُؤ] اهـ.

فالآيَة فيها قراءات ثلاث:

﴿دُرِّيٌّ﴾ بضم الدال وتشديد الياء بدون همزة منسوب إلى الدر وهو اللؤلؤ لصفائه.

و«دِرِّيْءٌ»[1] بكسر الدال، فِعِّيل على وزن سِكِّين مبالغة من الدَرء بمَعْنى الدفع.

و«دُرِّيء»[2] بضم الدال، فُعِّيل، أيضًا من الدرء بمَعْنى الدفع، والكَوْكَب الدُري معناه العَظِيم النُّور والتوقد يعني: توقده ونوره عَظِيم، وَذلِك لأَن وصفه بهَذَا الدرء يدُلّ على قوة نوره ونفوذه، وكلما كَانَ أَشَدّ لمعانًا كَانَ أَشَدّ درءًا، فـ(دُريءٌ) مشتق من الدرء، درأ يدرأ فهو داريء، فـ(داريء) اسم الفاعل، لكن جاءت المَسْأَلَة على باب المبالغة؛ لأَن وزن فِعِّيل وفُعِّيل كلاهما من صيغ المبالغة؛ لأَن كل مشتق بمَعْنى اسم الفاعل إِذَا عُدل به عنه، فهو يدُلّ على أحد أمرين: إما المبالغة، وإما الصِّفة المشبهة، فهُنا يدُلّ على المبالغة يعني بسبب قوةِ توقده وقوة ضوئه يَكُون دِرِّيئًا أي: يدرأ الظلام بقوة نفوذه، ولا يدرأ الظلام بقوة نفوذه إلا وهو عَظِيم التوقد وعَظِيم النُّور؛ لأنك لو أتيت مثلًا بسراج أو لمبة صغيرة هل تدرأ الظلام؟ لا تدرأ إلا درءًا بسيطًا فيما حولها، لكن لو أتيت بلمبة كَبيرَة وعَظِيمة تدرأ الظلام بقوة ولِذَلك يَكُون ما حولها منيرًا جدًا، وكَذلِك أيضًا أوسع وأبعد.

القِراءَة الأُخْرَى: «دُرّيٌّ» منسوب إلى الدر كما تقدَّم، وهو اللؤلؤ لصفائه، يعني لا يوجد مثلًا قَتَم يحول بيننا وبين هَذَا الكَوْكَب بل هو صافٍ جدًا مثل الدر، هاتان القراءَتان قد سبق الإِشَارَة إلى أن القراءَتَين يَكُون مِنْ فَوَائِدِهما أحيانًا سعة

(١) تحبير التيسير في القراءات العشر (ص:٤٨١)، وحجة القراءات (ص:٤٩٩).
(٢) المصدر السابق.

المَعْنى، يعني اختلاف القراءتين قد يَكُون له مصلَحَة وفَائِدَة عَظِيمة منها مثلًا التفسير كقَـوْلهُ: «فتثبتوا»، «فتبينوا»[1] ومنهـا توسيع المَعْنى فمثلًا ﴿دُرِّيٌّ﴾ أو (دِريء) و(دُري) والذي وسع المَعْنى أنَّها بنفْسِها صافية بناءً على الدري وقوية الإضاءة بناءً على (دِرِّيءٌ) فهَذِهِ مِنْ فَوَائِدِ اختلاف القراءات أنَّه يظهر في كل قِراءَة معنى غير الَّذِي ظهر في القِراءَة الأُخْرَى فيكُون ذَلِك أوسع وأشمل.

قَوْلهُ: ﴿يُوقَدُ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المِصْبَاح بِالمَاضِي، وَفِي قِراءَة بِمُضَارِع أَوْقَد مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ بِالتَّحْتَانِيَّة، وَفِي أُخْرَى «تُوقَدُ»[2] بِالْفَوْقَانِيَّة، أَيْ: الزَّجَاجَة) اهـ.

إِذَنْ فِي الآيَة ثلاث قراءات هُنا كأنَّها كوْكب (دُرِّي تَوَقَّد) هَذَا على أنَّه فعل ماضي، أي: استمد الوقود من شَجرَة مُباركة إلى آخِره، وفيها أيضًا (يُوْقَدُ) أي: يوضع فيه الوقود، وفيه أيضًا (تُوْقَدُ).

على قِراءَة «تَوَقَّدَ» وعلى قِراءَة (يُوقَدُ) الضَّمِير يَعود على المصباح، ولا يصِح أن يَعود على الكَوْكَب لأَن الكَوْكَب لا يوقد من هَذَا الشَّيء أي: أن الكَوْكَب لا يوقد من الشَّجرة الَّذِي يوقد هو المصباح.

يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي أُخْرَى «تُوْقَدُ» بالفوقانية أي: الزجاجة] اهـ.

الضَّمِير يَعود على الزُّجاجة لا على المصباح وهنا لا يقال مثلًا: إن الضَّمِير يَعود إلى أقرب مذكور؛ لأَن القاعِدَة الضَّمِير يَعود على أقرب مذكور ما لم يوجد مانع لفظي أو معنوي فهُنا وجد مانع لفظي، والمانِع اللفظي هو أَن قَوْلهُ: [تُوْقَدُ] الضَّمِير فيه يَعود على مؤنث والمصباح مذكر، هُنا وجد مانع لفظي يمنع من عود

---

(١) تحبير التيسير في القراءات العشر (ص:٣٤٢)، وحجة القراءات (ص:٢٠٩).

(٢) حجة القراءات (ص:٥٠٠).

الضَّمِير إلى آخر مذكور، وربما يوجد مانع معنوي مثل قَوْله تَعَالَى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ قَوْلهُ: ﴿هُوَ﴾ أي: الله ﴿ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ [الحج:٧٨]، الضَّمِير يَعود على (الله) لأنَّه قَالَ: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ﴾ أي: الله ﴿سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا﴾ فإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يسمنا في هَذَا، يعني لو فرض أن قَوْلهُ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ يصح أن يَعود على إبراهيم لكن قَوْلهُ: [وفي هَذَا] مانع فلِذَلك نقول: هَذَا مانع معنوي؛ لأَن (هو) صالح لأَن يرجع إلى الله وصالح أن يرجع إلى إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لكن المَعْنى يمنع منه.

أما على قراءتنا فنقول: (تَوَقَّدَ) و(يُوْقَدُ) كلاهما الضَّمِير يَعود على الكَوْكَب، وأما (تَوَقدَ) فالضَّمِير يَعود على الزجاجة الَّتِي فيها المصباح ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِن﴾ زيت ﴿شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ بَلْ بَيْنهمَا فَلَا يَتَمَكَّن مِنْهَا حَرّ وَلَا بَرْد مُضِرَّانِ] اهـ.

يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِن شَجَرَةٖ﴾ من زيت شَجرَة]، كَيْفَ يَكُون من زيت شَجرَة؟ لأَن الشَّجرة نفسها لَيْسَت هي الوقود وإنما الوقود زيتها.

وقَوْلهُ: ﴿مُّبَٰرَكَةٖ﴾ أي: ذات بَرَكَة، والبَرَكَة هي الخَيْر الكثير الثّابت، مأخوذ من برْكَة الماء لكثرة مائها وثبوته.

وقَوْلهُ: ﴿زَيۡتُونَةٖ﴾ وهُناكَ شَجرَة غير الزَّيتون يُوقد منها، لكن زيت الزَّيتون هو أعلاها وأَشَدّها صفاءًا وأقواها نورًا.

وقَوْلهُ: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ كَيْفَ تكُون ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ ما معنى هَذَا؟ يَقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَلْ بَيْنهمَا فَلَا يَتَمَكَّن مِنْهَا حَرّ وَلَا بَرْد مُضِرَّينِ] هكذا في النُّسخة الَّتِي عندي، والظَّاهِر أن الصَّواب (مضران) ومعنى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: أنَّها في ربوة أو جبل لأنَّها إِذَا كَانَت في منخفض، فهي لا بُدَّ أن تكُون شرقية أو غربية.

فـإن كَانَت في المنخفض من جهة الشَّرق فهـي شرقية، شمس آخـر النَّهار لا تصيبها، وإذا كَانَت من جهة الغرب فهي غربية شمس أول النَّهار لا تصيبها، فهي إما في ربوة وَذلِك أكمل وأبين وأعلى وأطيب زيتًا، وإما في مكان مستوٍ، صحراوية، وفي هَذَا دَليل وإرشاد إلى أنَّه يَنْبَغِي لِلإنْسان إِذَا وضع الشَّجر ألا يضعه في مكان يحتجب عن الشَّمس شرقًا أو غربًا بل يَنْبَغِي أن يوضع الشَّجر في مكان يبرز للشمس شرقًا وغربًا.

قَوْلهُ: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يَقُول رَحِمَهُ اللهُ: لِصَفَائِهِ. اهـ. ﴿يَكَادُ﴾ بمَعْنى يقرب ﴿زَيْتُهَا﴾ أي: زيت هَذِهِ الشَّجرة، ﴿يُضِيٓءُ﴾ أي: يحدث إضاءةً ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ كَيْفَ يضيء ولم تمسسه نار؟ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِصَفَائِهِ] فإذا أصابته النَّار مع أن أصله صافٍ يكاد يضيء ماذا يحدث؟ ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

الآن يُمْكِن أن نعرف ما نوع هَذَا التَّمثيل وهل هَذَا التَّمثيل مركب أو مفرد؟ الظَّاهِر أنَّه مركب يعني مركبًا من هَذِهِ الأَشْيَاء، ولا يتحقق ولا يتم التَّمثيل إلا بتصور هَذِهِ الأَشْيَاء مجتمعة، لو قُلْنا: أنَّه مفرد كَانَ معنى ذَلِك أن كل تمثيل لا يتصل بما بعده، ننظر قَوْلهُ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ المشبه نور الله، والمشبه به المشكاة، ثم قَوْلهُ: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾.

وهل هَذَا التَّشبِيه مستقل عما قبله أو هو في ضمن ما قبله؟

الَّذِي أرى -وهو أبلغ- أن يَكُون في ضمن ما قبله؛ لأجل أن يَكُون التَّشبِيه مركبًا من الصُّورة كاملة، ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ﴾ إِذَنْ هَذَا تشبيه تمثيل بمَعْنى أن الله شبه النُّور الَّذِي في قلب المُؤْمِن بهَذِهِ القَضيَّة كلها (مشكاة فيها مصباح) والَّذِي يقابل المشكاة هو الْقَلْب، والنُّور الَّذِي يقذفه الله في قلبه مع نور الإِيمَان هو المصباح، لكن هَذَا المصباح مركب في زجاجة والزجاجة صافية لامعة ﴿كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ ووقود هَذَا النُّور ﴿مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ﴾ زيتها صافٍ وجيد، فصَارَت مادة النُّور جيدة، وكَذلِك محله جيد، وكذاك وقايته جيدة؛ لأَن الزجاجة تقي النُّور وتصفيه.

فالنُّور إِذَا لم يكن في زجاجة -كما هو معْلُوم- يَكُون مضطربًا ويَكُون غير صافٍ، فتجد أن هَذَا النُّور قد كملت فيه أَسْبَاب الصَّفاء من حيث الوقود والمكان، وكَذلِك أَسْبَاب الشُّمول والقوة من حيث كونه في مشكاة، النُّور الَّذِي في قلب المُؤْمِن مثل هَذَا، ولكن المُراد المُؤْمِن كامل الإِيمَان في الحَقيقَة.

فأما المُؤْمِن ناقص الإِيمَان فإِنَّه ينقص من نوره بمقدار ما نقص من إيمانه، يعني لا تظن أن هَذَا التَّشبِيه لكل قلب مُؤْمن، بل المُراد المُؤْمِن الكامل الإِيمَان، فإن الله تَعَالَى يجعل في قلبه هَذَا النُّور العَظِيم، وَذلِك أمر معْلُوم، كلما قوي إيمان العَبْد وكلما قوي طلبه للحق فإن الله تَعَالَى يهديه ويزداد نوره، وكلما ضعف إيمان العَبْد أو ضعف طلبه للحق فإِنَّه يضعف نوره، ولهَذَا قَالَ الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المَعَاصِي

(١) ديوان الشافعي (٧٢).

وأخبرني بأنَّ العِلْمَ نُورٌ ونُورُ اللهِ لا يُؤْتَاهُ عَاصِي

فكلما نقص الإِيمَان أو نقص طلب الحَقّ فإنَّه ينقص هَذَا النُّور، وكلما ازداد الْإِنْسَان في طلب الحَقّ وَذلِك بالتعلم وقوي إيمانه ازداد نوره، ولِذَلك تجد أن أهْل العِلْم تقوى معرفتهم بالشَّريعة بحسب ما أوثر عنهم من الإِيمَان والتَّقْوى.

قَوْلهُ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ ما هو النُّور الَّذِي على نور؟ النُّور نور هَذَا المصباح على نور ما في الزيت، فإن هَذَا الزيت أصله فيه إنارة يعني ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فكَيْفَ إِذَا أصابته النَّار؟ كَذلِكَ نور الإِيمَان في الْقَلْب، مثل نور الزيت، ونور العِلْم والهداية مثل النَّار الَّتِي تصيب هَذَا الزيت وهَذَا مثل تقريبي وإلا فنور الإِيمَان والعلم في قلب الْمُؤْمِن أَشَدّ وأبلغ لكن لضرب الأَشْيَاء المعقولة بالأَشْيَاء المحسوسة تقريبًا فقط لا تحقيقًا ومساواة بل بينهما فرق.

قَوْلهُ: ﴿نُّورٌ﴾ يَقُول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِهِ ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ بِالنَّارِ وَنُور الله أَيْ: هُدَاهُ لِلْمُؤْمِنِ نُور عَلَى نُور الْإِيمَان] اهـ.

إِذَنْ فالإِيمَان بمنزلة الزيت والهداية بمنزلة النَّار الَّتِي جُعل الزيت وقودًا لها.

قَوْلهُ: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾، يَقُول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: دِين الإِسْلام ﴿مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ﴾ يُبَيِّن ﴿ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ تَقْرِيبًا لِأَفْهَامِهِمْ لِيَعْتَبِرُوا فَيُؤْمِنُوا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ وَمِنْهُ ضَرْب الْأَمْثَال] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ هَذَا النُّور الَّذِي يهدي الله هل هو النُّور الَّذِي يقذفه في قلب الْمُؤْمِن أو النُّور الَّذِي ينزله للنَّاس؟ الَّذِي ينزله للنَّاس، يهدي الله الْمُؤْمِن إِلَيْه، فالذي ينزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى النَّاس من الوَحْي هو نور بلا شَك ويهدي إِلَيْه من يشاء.

وقَوْلهُ: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ تقدَّم أن أي شَيْء عُلق بالمشيئة فإنَّه مقرونٌ بالحِكْمة، فالله تَعَالَى يهدي من يشاء لكن إِذَا اقتضت الحِكْمَةُ هدايته، وَذلِك لكونه مستعدًا وقابلًا للهداية، وقد علمنا أن كل من طلب الحَقّ بنية صادقة فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يهديه، وكل من زاغ عن الحَقّ وتولى عنه فإن الله تَعَالَى يضله قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٩].

وقَوْلهُ: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ جمع مَثَلٍ وهو الشَّبَه، أو مِثْل وهو الشِّبْه أيضًا، و﴿ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ كل شَيْء يُشابه غيره أي: الأشباه والنَّظائر، ولا شَك أنَّ ضربَ الأمثال من نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علَى عِبَادِه؛ لأنَّ هَذَا لا شَك أنَّه من تَمام التَّعليم، وإلا فلو شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يضرب الأمثالَ للنَّاس ولَتَرَكَهُمْ حَتَّى يضلوا، ولكن من تمام رحمته أن كَانَ تعليمه على وجه الكمال والتَّمام؛ ولِذَلك ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾، لأَجْلِ أنْ يستدلَّ النَّاس بها على ما يريدُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إِثْباتَه لهم.

فالله تَعَالَى يضرب الأمثالَ للنَّاس، إما أن يضرب حسيًّا بحسيٍّ، أو معنويًّا بمعنويٍّ، أو معنويًّا بحسيٍّ، وأحيانًا يضربُ الغائب بالحاضر، والغالِبُ أن الله يضرب الأمثالَ بأمر حسيٍّ إِذَا كَانَ الْأَمْر معنويًّا، وإذا كَانَ الْأَمْر الحسيُّ أمرًا مستبعدًا أو منكرًا فإنَّه يضربه بحسيٍّ معْلُوم، وَذلِك لتقريب الْأَمْر إلى أذهان النَّاس، مثلًا نجد أن الله تَعَالَى ضرب مثلًا للذينَ يعبدون غير الله بالعنكبوت، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾، هَذَا ضرب أمرٍ معنويٍّ بأمرٍ حسيٍّ، فهم يلوذون بهَذِهِ الأصنام كما أن العنكبوت تلوذ ببيتها، لكن هل بيتها يقيها؟ لا، ولهَذَا قَالَ: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت:٤١].

ونجد أن الله تَعَالَى يضرب مثلًا لما ينكره الكافرونَ من إحياء الموتى بإحياء الأَرْض بعد موتها؛ فإن الأَرْض تكُون مَيْتَةً هامدةً، فإذا أنزل الله عَلَيْها الماء اهتزت ورَبَتْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

و نجد أنَّه هُنا في الْأَمْر المعنوي الَّذِي هو نور الله تَعَالَى في قلب الْمُؤْمِن، ونور الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الَّذِي ينزله فيهتدي به الْمُؤْمِن، نجد أن الله تَعَالَى ضرب به مثلًا بهَذَا المِصباح الَّذِي في المِشْكَاةِ إلى آخِره.

قَوْلهُ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ مناسبتُها للآية أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم العالمينَ بما يطابق المثلَ مَضْرَبًا ومَوْرِدًا؛ لأَن المَثَلَ له مَضْرِبٌ وله مَوْرِدٌ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو أعلم العالمين بهَذَا المَضْرِبِ والمَوْرِدِ، ومطابقة أحَدهما للآخر؛ لأنَّه قد يشبه الْإِنْسَان شيئًا بشَيْء، وعنْدَما تُمَحِّصُ الْأَمْر وتُحَقِّقُه لا تجد مشابهة، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إِذَا ضرب مثلًا بشَيْء فإنَّه بكل شَيْءٍ عليمٌ، لا يخفى علَيْه أوجه المشابهة الَّتِي يتضمَّنها هَذَا المثل، فالله عليمٌ بكل شَيْءٍ في نفس المثل وفيما ينتفع به، وفي هَذِهِ الآيَة إِشارَةٌ بل تصريحٌ إلى عُموم علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه عليمٌ بكل شَيْءٍ فيما يَتعلَّقُ بأفعاله، وفيما يَتعلَّقُ بأفعال العباد.

والَّذينَ أنكروا العِلْم بأفعال العبادِ من القَدَرِيَّة يستدلونَ بآيات من متشابه القُرْآن، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكيمٌ؛ ومن حكمته أن يجعل في وحيه متشابهًا، فيستدلونَ بمثل قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد:٣١]؛ قالوا: ﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية، ومعنى ذَلِك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يعلم المجاهدَ والصابرَ إلا بعد أن يجاهدَ ويصبرَ.

ولكن سبق الجواب عن مثل هَذَا الإِشْكال، وأن المُراد بالعلم العِلْم الَّذِي يترتب علَيْه الجزاء؛ لأَن عِلْمَ الله تَعَالَى بالشَّيء قبل وقوعه لا يترتب علَيْه الجزاء، يعني كون الله يعلم بأن هَذَا سيجاهد وهَذَا لن يجاهد، هَذَا لا يترتب علَيْه جزاءٌ، فيَكُون المَعْنى: «حتى نعلمَ العِلمَ الَّذِي يترتبُ علَيْه الجزاءُ»، وَذلِك لا يَكُون إلا بعد الامتحانِ والابتلاءِ.

وأيضًا فرق آخر: عِلْمُ اللهِ بالشَّيءِ قبل وقوعهِ علمٌ بأنه سيقع فلا يَتعلَّق به شَيْء، وعلمه بعد وقوعهِ علمٌ بأنه وَقَعَ، وفرقٌ بين مَدْرَكِ العِلْمَين؛

الأوَّل: علمٌ بأنه سيقع، ولا يترتب علَيْه شَيْء بالنِّسْبَةِ للمكلَّف.

والثَّاني: علمٌ بأنه وقع، وهو الَّذِي يترتب علَيْه ما رتَّبه الله تَعَالَى بالنِّسْبَةِ للمكلَّف، هَذَا هو ما أجاب به أهل السُّنة عن مثل هَذِهِ الآيَة.

• • ❁ • •

الآيتان (٣٦، ٣٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور:٣٦-٣٧].

قَوْلُهُ: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [متعلِّق بـ﴿يُسَبِّحُ﴾ الآتِي]. اهـ.

وما معنى المُتَعَلِّق في النحو؟ الفِعْلُ يتعدَّى إلى المفعول بنَفْسِه، وأحيانًا يتعدَّى إلى المفعول بحرف جرٍّ، إذَا تعدى إلى المفعول بحرف الجر يُقال: هَذَا متعلِّق به، وإلا فإن الجارّ والمَجْرور هو المتعلِّق، وكَذلِك الظرف وإن كَانَ هو المفعول في الحَقيقَة لكنَّه لا يتعدى إلا بنَفْسِه، فـ﴿يُسَبِّحُ﴾ تَعلَّق بها قَوْلهُ: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ يعني أن العامِل في الجارِّ والمجرور هو قَوْلهُ: ﴿يُسَبِّحُ﴾.

قَوْلهُ: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُعَظَّمُ ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ بِتَوْحِيدِهِ، إِلَى آخِرِهِ] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿أَذِنَ﴾ المرادُ هُنا الإذنُ الشَّرعيُّ، فمعنى (أذن) أي: شَرَعَ أنْ تُعظَّم، ولهَذَا قالت عَائِشَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِبِنَاءِ المَسَاجِدِ فِي الدُّورِ»، يعني في الحارات، «وَأَنْ تُطَيَّبَ»[1]، وهَذَا دليلٌ على أن الإذن هُنا بمَعْنى الشَّرع.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب اتخاذ المساجد في الدور، حديث رقم(٤٥٥)، والترمذي،

وقد سبق أن قررنا أن الإذن ينقسم إلى قِسْمَيْن: إذنٌ كونيٌّ وإذنٌ شرعيٌّ، فمثال الإذنُ الكَوْنِيِّ قَوْله تَعَالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ومثال الإذن الشَّرعي قَوْله تَعَالَى: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١]، هَذِهِ الآيَة لا تصح أن تكُون إذنًا كونيًّا قدريًّا؟ لأَن الإذنَ القدريَّ الكَوْنِيِّ لم يَنْتَفِ؛ لأنهم شرعوا، لكن ما شرعوا إلا بإذن الله كَوْنًا وقَدَرًا.

فإذن قَوْلهُ: ﴿مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: شرعًا ولابُدَّ.

وقد يأتي الإذن بمَعْنى الاستماع؛ كقوله ﷺ: «مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ إِذْنَهُ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ»[1]؛ معنى: «مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ» أي: ما استمع لشَيْء مثل استماعِه لهَذَا النَّبِيِّ الَّذِي يَتَغَنَّى بالقرآن ويجهر به.

إذن قَوْلهُ: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ﴾ في الآيَة الَّتِي معنا من الإذن الشَّرعي، وهل يتعين أن يَكُون للشَّرعي؟

الجواب: نعم، لأَنَّه لو أذن بِذَلِك قدرًا لكانتَ المَسَاجِد تُعَظَّم ولابُدَّ، وتُرفع ولابُدَّ؛ لأَن الإذن الكَوْنِيِّ أو القدري -والمَعْنى واحد- لا بُدَّ فيه من وقوع المأذون، فكل ما يَتعلَّق بالْأُمُور الْكَوْنِيَّة لا بُدَّ من وقوعها، فلو كَانَ المُراد بالإذن هُنا الكَوْنِيّ لكان رفع المَسَاجِد أمرًا حتميًا، مع أَنَّنا نجد أن المَسَاجِدَ أحيانًا لا تُرفع ولا تُعظم بل

= كتاب أبواب الصلاة، باب ما ذكر في تطييب المساجد، حديث رقم (٥٩٤)، وابن ماجه كتاب المساجد والجماعات، باب تطهير المساجد وتطييبها، حديث رقم (٧٥٩)، وأحمد (٦/ ٢٧٩) (٢٦٤٢٩)؛ عن عَائِشَة.

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول النَّبِيّ ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة» و«زينوا القرآن بأصواتكم»، حديث رقم (٧٥٤٤)، ومسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم (٧٩٢)؛ عن أبي هريرة.

تُمنع، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة:١١٤].

قَوْلهُ: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ الثَّابت عن السَّلف أن المُراد بالبُيُوت هُنا المَسَاجِد؛ ولهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ»(١).

قَوْلهُ: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ﴾ أي: شَرَعَ أنْ تُرفعَ وتُعَظَّمَ، وفي الحَقيقَة أنَّ رفعَها أعمُّ من التَّعظيم، فالمَسَاجِد تُرفع بالتَّعظيم وبغيره، لكن أظهر ما يَكُون الرَّفع بالتَّعظيم.

قَوْلهُ: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أي: اسم الله، والمُراد أن الله يُذكر بأسْمَائِه؛ لأنَّه إِذَا ذُكِرَ الاسْمُ ذُكر المُسمى، لكن بأي شَيْء يُذكر؟ بالقِراءَة والتَّسبيح، كما سيأتي أيضًا، المُهِمّ أن يُذكر بالثَّناء والتَّمجيد، وهَذَا يشمل الصَّلاة وغير الصَّلاة.

قَوْلهُ: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ وهَذَا التَّنزيه، فيَكُون في الآيَة إِشارَة إلى أمرين:

إلى إِثْبات الكَمال في قَوْلهُ: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ وإلى نفي النَّقص في قَوْلهُ: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ﴾ إِلَى آخِرِهِ.

قَوْلهُ: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يُسَبَّحُ -بِفَتْحِ المُوَحَّدَةِ وَكَسْرِهَا- أَيْ: يُصَلِّي]. اهـ.

﴿يُسَبِّحُ﴾ فيها قراءتان سبعيتان(٢)؛ الفتح والكسر، وسيأتي إِنْ شَاء اللهُ تخريج كلٍّ منهما فيما بعد.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، حديث رقم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة.

(٢) حجة القراءات (ص:٥٠١).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ يُصَلِّي]؛ هَذَا فيه نظرٌ إن قُصِدَ بِذَلِك حصرُ التَّسبيح بالصَّلاة، وإن قُصِدَ بِذَلِك التَّمثيل فهَذَا صحيحٌ؛ فإن قَوْلهُ: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ أعم من كونهم يصلون بل هم يسبحون الله بالصَّلاة وغيرها مما يَكُون به تنزيهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَوْلهُ: ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْغَدَوَات: أَيْ الْبِكْر ﴿وَٱلْآصَالِ﴾: الْعَشَايَا مِنْ بَعْد الزَّوَال] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ الغدو؛ يَقُول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنها مصدر] غدا يغدو غدوًا لكنَّه بمَعْنى الجمع؛ أي: بمَعْنى الغدوات، يعني: أول النَّهار، وإنما لجأ الْمُفَسِّر إلى جعل الغدو بمَعْنى الغدوات لمطابقة ﴿وَٱلْآصَالِ﴾؛ لأَن الآصال جمع أصيل؛ وهو آخر النَّهار، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هي العشايا]؛ العشايا: جمع عَشِيّ أيضًا، وهو ما كَانَ بعد الزوال، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قصة ذي اليدين: أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ صَلَّى إِحْدَى صَلَاتِي الْعَشِيِّ[1]، يَكُون بالغدو: صلاة الفجر، والعشي: صلاة الظهر والعصر، ويبقى المغرب والعشاء؛ وهما مما يُصلَّى في الليل.

وأن الصَّواب في ذَلِك أن التَّسبيح أعم من الصَّلوات، ثم إنه يحتمل أن يُقصد بـ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ جميع الوقت كما في قَوْله تَعَالَى في أهل الجَنَّة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢]؛ الرزق لأهل الجَنَّة دائم وليس في الصُّبح وآخر النَّهار فقط، فهو دائم، لكن يُقال: بكرة وعشيًّا والمُراد الدوام، فإما أن تُحمل ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، حديث رقم (٤٨٢)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، حديث رقم (٥٧٣)؛ عن أبي هريرة.

على معنى الدوام؛ أي: يسبحون دائمًا، أو على معنى أول النَّهار وآخِره، ويَكُون هَذَا إِشارَة للتسبيحات الَّتِي تُذكر في أول النَّهار وفي آخِره؛ ومنها صلاة الفجر وصلاة العصر؛ فإن الصَّلاتين هاتين أفضل الصَّلوات، كما جاء في الحَديث الصَّحيح: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ»(١)، وقال ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ كَمَا تَنْظُرُونَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ لَا يُغْلَبَ عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَلَا غُرُوبِهَا فَلْيَفْعَلْ»(٢)؛ يعني: الفجر والعصر.

على كل حال ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ إن أُريد بهما حقيقتهما؛ وهو أول النَّهار وآخِره، كَانَ في ذَلِك إِشارَة إلى ما يُقال من التَّسبيح والتَّعظيم لله والتهليل في أول النَّهار وآخِره، وكَذلِك أيضًا إلى صلاة الفجر وصلاة العصر، وإن قُلنا: المُراد بـ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ كل الدهر، وأن هَذَا من باب ذكر الطرفين الَّذِي يشمل الجميع، كما في قَوْلهُ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢]؛ فإنَّه يشمل كل ما يُسبَّح لله تَعَالَى في المَسَاجِد في أول النَّهار وآخِره وفي الليل أوله وآخِره ووسطه.

قَوْلهُ: ﴿رِجَالٌ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَاعِل يُسَبِّح بِكَسْرِ الْبَاء وَعَلَى فَتْحهَا نَائِب الْفَاعِل لَـهُ، و﴿رِجَالٌ﴾ فَاعِل فِعْل مُقَدَّر جَوَاب سُـؤَال مُقَدَّر كَأَنَّهُ قِيلَ: مَنْ يُسَبِّحهُ؟] اهـ.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر، حديث رقم (٥٧٤)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، حديث رقم (٦٣٥)؛ عن أبي موسى الأشعري.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، حديث رقم(٥٥٤)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي العصر والمحافظة عليهما، حديث رقم (٦٣٣)؛ عن جرير بن عبد الله.

ننظر الآن توجيه القراءتين: ﴿يُسَبِّحُ﴾ و«يُسَبَّحُ».

إذا كَانَ الفِعْل مبنيًا للفاعل يَكُون قَوْلهُ: ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل ﴿يُسَبِّحُ﴾. وعلى قِراءَة «يُسَبَّحُ» يَكُون الفِعْل مبنيًا للمفعول يحتاج إلى نائب فاعل، ولا يصِح أن يَكُون ﴿رِجَالٌ﴾ نائب فاعل؛ لأنَّه لو كَانَ نائب فاعل لكان الَّذينَ يُسبَّحون الرِّجَال وهَذَا شَيْء غير ممكن، إذن أين نائب الفاعل؟ نائب الفاعل الجارّ والمَجْرور في قَوْلهُ: «يُسَبَّحُ لَهُ»، وإذا لم يوجد المفعول في الفِعْل المبني للمجهول ناب عنه الظرف والجارّ والمَجْرور؛ مثلما لو قلت: ضُرِب الضربُ، وما أشبه ذَلِك؛ فإنَّ المصدر ينوب عن المفعول به، قَالَ ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَقَابِلٌ مِنْ ظَرْفٍ أَوْ مِـنْ مَصْـدَرِ أَوْ حَـرْفِ جَـرٍّ بِنِيَابَـةٍ حَـرِى

في الآيَة «يُسَبَّحُ لَهُ» إذا قُلنا: ﴿لَهُۥ﴾ يَكُون حرف الجر هو نائب الفاعل.

يبقى الإِشْكال في ﴿رِجَالٌ﴾ على قِراءَة «يُسَبَّحُ». نقول: ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل لفعل محذوف، هَذَا الفِعْل المحذوف أوجبه كَلِمة «يُسَبَّحُ» كأنه قِيلَ: من يُسبِّح له؟ فقِيلَ: ﴿رِجَالٌ﴾ وعلى هَذَا فتكـون ﴿رِجَالٌ﴾ فاعلًا لفعـل محذوف دل علَيْه الفِعْل المذكور.

إذن ﴿يُسَبِّحُ﴾ فيها قراءتان سبْعيَّتان؛ فتح الباء وكسرها، وتبيَّن الآن توجيه كل من القراءتين.

قَوْلهُ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [شِرَاء ﴿وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ حُذِفَ هَاءُ إقَامَة تَخْفِيفًا ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ﴾ تَضْطَرِب

(١) البيت رقم (٢٥٠) من الألفية.

﴿فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ مِنْ الخَوْف؛ ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ بَيْن النَّجَاة وَالهَلَاك ﴿وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ بَيْن نَاحِيَتَيْ الْيَمِين وَالشِّمَال: هُوَ يَوْم الْقِيَامَة] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾. كَلِمة ﴿رِجَالٌ﴾ تدُلّ على المدح والثَّناء كما يُقال: فلانٌ رجل أي: أنَّه اتصف بصفة الرجولة، ولِذَلك لا تُطلق إلا على البالغ العاقِل، وقَوْلهُ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ لم يقل: لا يبيعون ولا يشترون؛ لأَن الَّذِي لا يبيع ولا يشتري قد يأتي إلى المسجد لَيْسَد الفراغ، لكن الَّذِي يبيع ويشتري له عمل وتجارة، بخلاف الَّذِي لا عمل له ولا شغل، وهَذَا أبلغ في الثَّناء؛ فكونهم يبيعون ويشترون وهَذَا البيع والشِّراء لا يلهيهم عن ذكر الله.

وقَوْلهُ: ﴿تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّر التجارة بالشِّراء؛ لماذا؟ في مقابلة قَوْلهُ: ﴿بَيْعٌ﴾ ولكنه تفسير غير صحيح؛ لأَن الشِّراء مفهوم من قَوْلهُ: ﴿بَيْعٌ﴾؛ إِذْ لا يوجد بيع إلا بشراء، لكن التجارة أعم من البيع، قد يلهو الْإِنْسَان في تجارته بتصنيفها وتبويبها وحفظها وصيانتها وما أشبه ذَلِك.

ربما لا يلهو وهو يبيع ويشتري لكن يلهو بطريق آخر بهَذِهِ التجارة؛ لِذَلك نقول: المُراد بالتجارة في الآيَة ما يتَّجر به الْإِنْسَان، ولهوه به لَيْسَ بالشِّراء بل بما هو أعم، أما الشِّراء فمفهوم من البيع؛ لأنهم إِذَا اشتروا فقد باع عليهم غيرهم، وإذا باعوا فقد اشترى منهم غيرهم.

وقَوْلهُ: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يعني التجارة لا تلهيهم عن ذكر الله، يقدِّمون ذكر الله على تجارتهم، لكن النَّاس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام في مَسْأَلَة التجارة والذكر:

القِسْم الأوَّل: من يقدِّم التجارة على الذكر، وهَذَا خاسر؛ لقَوْله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ

هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المُنافِقُونَ:٩]، ولو ربحوا في الأموال والأولاد فهم خاسرون.

القسم الثّاني: مَن لا تلهيه التجارة ولا الأموال ولا الأولاد عن ذكر الله، لكن يعمل في محله، فهَذَا رابح، لم يفته ماله وولده ولم يفته ذكر الله، أتى لهَذَا بنصيبه ولهَذَا بنصيبه.

القسم الثّالث: من هو أعلى من هَذَا، يجعل تجارته وولده من ذكر الله، بحيث يقصد بهَذِهِ التجارة الاستعانة على طاعة ربه وعلى بذل أمواله فيما يُرضي ربه، وكَذلِك بالنِّسْبَةِ للأولاد يجعل اشتغاله بهم لتربيتهم والتأمل في نعمة الله علَيْه بهم وما أشبه ذَلِك؛ هَذِهِ هي المرتبة العليا، وعلى هَذَا يَكُون هَذَا الرَّجل رابحًا في الطرفين في آن واحد، والقسم الثَّاني: رابح في الطرفين لكن على التناوب، يربح في هَذَا ويعطيه ما يستحق ويربح في هَذَا ويعطيه ما يستحق، أما الثّالث والأخير -وهو من جعل اشتغاله بتجارته ذكرًا لله- هَذَا شأنه كبير، ولكن قلَّ من يوجد بهَذِهِ الصِّفة وهو نادر جدًّا، وأكثر النَّاس اليوم من القِسْم الأوَّل الَّذِي هو في الحَقيقَة أخيرًا في المرتبة، فهو أول في الذكر وآخر في المرتبة.

قَوْلهُ: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ﴾ إقام بمَعْنى إقامة، لكن حُذفت التاء تخفيفًا. ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ لَيْسَ مُجرَّد فعلها بل هو أمر فوق الفِعْل، فمعنى إقام الشَّيء جعله قيِّمًا مستقيمًا؛ وَذلِك بفعل شروطها وأركانها وواجباتها، فلَيْسَ كل مُصَلٍّ مقيمًا للصلاة، ولهَذَا نجد أن الثَّناء الَّذِي يذكره الله في القُرْآن بل والأوامر الَّتِي يأمر الله بها في القُرْآن غالبًا في الإقامة؛ لأَن ذَلِك هو الأَصْل لَيْسَ مُجرَّد فعل الصَّلاة.

ولهَذَا نجد أن المصلِّي رجلان: أفعالهما مع الْإِمَام واحدة ودخولهما في الصَّلاة واحد وخروجهما منها واحد، ولكن بين صلاتيهما كما بين السَّماء والأَرْض! لأَن

أحَدهما أقام الصَّلاة والآخر صلَّى فقط، لكن الأوَّل أقامها خاشعًا مستبصرًا مخلصًا يرجوا ثواب الله ويخاف عقاب الله.

﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ المذكورة في القُرْآن كثيرًا بُيِّنت بالسُّنَّة، توجد أشْيَاء مبينة في القُرْآن لكن غالب ذَلِك بينته سُنَّة الرَّسُول ﷺ وبهَذَا نعرف أن السنة ضرورية في الشَّرع وأن من أنكرها فقد هدم جانبًا كبيرًا من الشَّرع، وقد وُجد بعض النَّاس أنكر السنة والعِيَاذ وباللهِ.

وسَمِعْنَا أن بعض الزعماء من العرب صاروا يصادرون كتب السنة، قِيلَ لي أنهم يصادرون البخاري ومسلمًا من المكتبات حَتَّى لا تنتشر سُنَّة الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بين أمته -والعِيَاذ باللهِ-، وهَذَا لا شَك أنَّه كفر؛ لأَن الَّذِي يُبيح لنفسه أن يُصادر كتب الحَديث الَّتِي تلقتها الأُمَّة بالقبول، لو صادروا كتبًا مضلَّة ضعيفة موضوعة لكنا نحمدهم على هَذَا الْأَمْر، لكن يصادرون كتبًا صحيحة تلقتها الأُمَّة بالقبول وعلمها الْمُسْلِمُونَ واعتبروها سندًا؛ هَؤُلَاءِ لا شَك أنهم كفَّار؛ لأنهم كَفَرُوا بسُنَّة الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بل بالقرآن نفسه؛ لأَن الله يَقُول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١]، ويقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، ويقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، ويقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧]، ويقول: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

والآيَات في هَذَا كَثيرَة وبينة واضحة، فإقامة الصَّلاة ما بيَّنها بَيانًا كافيًا إلا سُنَّة الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وقَوْلهُ: ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي: إعطائها، والزَّكاة معْرُوفة لنا، وهي الجزء الَّذِي أوجبه الله تَعَالَى في أموالنا، ولم يبين المُؤْتَى له، لكنَّه مبيَّن في القُرْآن في سورة التَّوبة في قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [التَّوبة:٦٠]؛ هَؤُلَاءِ الَّذينَ تؤتى إلَيْهم الزَّكاة.

قَوْلهُ: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾. قَوْلهُ: ﴿يَخَافُونَ﴾ صفة لرجال لا تلهيهم، وهم أيضًا في هَذِهِ الأَحْوال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ يخافون حال تسبيحهم بالغدو والآصال، وفي حال إقامتهم الصَّلاة وإيتائهم الزَّكاة، وفي حال عدم لهوهم في التجارة والبيع؛ كل هَذِهِ الأعْمَال مبنية على هَذِهِ العقيدة والأساس.

وقَوْلهُ: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ خوفهم من هَذَا اليوم يدُلّ على إيمانهم به إذْ لا يخاف الْإِنْسَان من شَيْء لا يؤمن به، فهو يدُلّ على أن عندهم تمام الإِيمَان واليقين باليوم الآخر ولِذَلك يخافون هَذَا اليوم، هَذَا اليوم وصفه الله بقَوْلهُ: ﴿تَتَقَلَّبُ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تضطرب ﴿فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿تَتَقَلَّبُ﴾ التقلب معْرُوف؛ هو تغيُّر الهيئة من حال إلى حال، وهَذِهِ القلوب تتقلب وتضطرب وتنتقل من حال إلى حال؛ لكن كَيْفَ تتقلب؟ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من الخَوْف القلوب بين النَّجاة والهلاك] اهـ.

لا يدري الْإِنْسَان هل ينجو أو يهلك فقلبه متقلب مضطرب، أحيانًا يغلب علَيْه الرجاء وأحيانًا علَيْه الخَوْف، كَذلِكَ الأبصار تتقلب؛ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من ناحيتي الْيَمِين والشِّمال]. اهـ؛ لأَن النَّاس كثيرون وكأنهم لَيْسَوا بعقلاء؛ ولهَذَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾

[الحج:٢]، وقَالَ تَعَالَى:﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٣]، الواحد إِذَا رأيته كأنه مجنون أو كأنه سكران من شدة الـهول، وما ظنُّك بالْقَلْب حينئذٍ؟! لا شَك أَنَّه في الحَقيقَة سوف يتقلّب ويضطرب ولا يدري المآل، هَذَا الَّذِي يحصل يوم القِيامَة.

• ● ❁ ● •

الآيــة (٣٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور:٣٨].

قَوْلهُ: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ ثَوَابه وَأَحْسَن بِمَعْنَى حَسَن] اهـ.

(اللَّام) في قَوْلهُ: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ هل هي للعاقبة وأن عاقبتهم هَذَا؟ أو هي للتَّعليل؛ يعني أنهم يسبِّحون ويخافون لأجل أن يجزيهم الله أحْسَن ما عملوا؟

على قولنا: للتَّعليل سيكُونون جمعوا بين الخَوْف والرجاء، أو نقول: للعاقبة وأنهم يعملون تِلْك الأَشْيَاء خوفًا من الله عَزَّوَجَلَّ فتكون عاقبتهم الأَمْن التام مع الثَّواب الجزيل؛ فيه احتمالان.

ثم هُنا نناقش المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قَالَ المُفَسِّر: [أي: ثوابه]؛ لأنهم في الحَقيقَة لا يجزون بنفس العَمَل وإنما يجزون بثوابه، الجزاء: الثَّواب، لِذَلك احتاج المُفَسِّر أن يُقدِّر العَمَل بثواب العَمَل؛ لأنَّه هو الَّذِي به الجزاء؛ هَذِهِ واحدة.

الثَّانية: يَقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أحْسَن بمَعْنى حسن]؛ لأَن المُفَسِّر توهَّم أو ربما يتوهَّم المتوهِّم أن الجزاء إنما يقع على أحْسَن ما يعمل الْإِنْسَان، والحَقيقَة أن الجزاء يقع على الأحْسَن والحسن، عنْدَما يعمل الْإِنْسَان حسنًا فإن الجزاء يَكُون على الحسن والأحْسَن،

ولكن هَذَا التوهم لا يرد على تقدير المُفَسِّر؛ وهو أن المُراد ليجزيهم الله ثوابه، فيَكُون المَعْنى ليجزيهم الله أحْسَن ثواب ما عملوا، وعلَيْه فلا إِشْكال إطلاقًا ولا نؤول أحْسَن بمَعْنى حسن؛ لأَن تأول أحْسَن بمَعْنى حسن تحريف.

أيهما أكمل؟ ﴿أَحْسَنَ﴾. فلِذَلك نقول: الآية على ظَاهِرها، واسم التفضيل على بابه، والمَعْنى: أنهم يجزون أحْسَن ثواب لعملهم؛ لأَن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كَثيرَة، والْإِنْسَان لو عملت له عملًا وأعطاك أجرك مرتين يَكُون هَذَا أحْسَن ثواب، أي: ممتاز، لكن ثواب الله عَزَّوَجَلَّ أحْسَن وأحْسَن؛ لأَن الله يُضاعف لمن يشاء، فالأَوْلَى، بل الواجب، أن تبقى ﴿أَحْسَنَ﴾ على ما هي علَيْه من التفضيل، ونقول أحْسَن: أي أحْسَن ثواب لعملهم، ويَكُون هُنا الأحْسَن لَيْسَ للعمل؛ بل للثواب.

بقي علَيْنا التَّقدير الأوَّل: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ لماذا جعل الله تَعَالَى الحُسْنَ للعمل نفسه مع أن الحسن للثواب؟ إِشارَة إلى أن الجزاء بقدر العَمَل ولِذَلك عُبر به عنه، العَمَل كما تدين تُدان، والْإِنْسَان الَّذِي لا يُصلِّي مثلًا؛ هل يُثاب ثواب المصلِّي؟

الجواب: لا، والذي لا يُزكِّي لا يُثاب ثواب المزكِّي وهَكَذا، فالجزاء على العَمَل، ولِذَلك عُبِّر به أي بالعَمَل عن جزائه إِشارَة إلى أن الجزاء من جنس العَمَل لكنَّه جزاء أحْسَن ما يَكُون.

قَوْلهُ: ﴿وَيَزِيدَهُم﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الله تَعَالَى ﴿مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ يُقَال فُلَان يُنْفِق بِغَيْرِ حِسَاب: أَيْ يُوَسِّع كَأَنَّهُ لَا يَحْسُب مَا يُنْفِقهُ] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ هَذَا زائد على ثواب العَمَل، وَذلِك ما يحصل من زيادة الأعْمَال الصَّالحة وزيادة الرزق في الدُّنْيَا وزيادة ما يُدَّخر لهم عند الله في الجَنَّة؛ كالنَّظر إلى وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كما جاء في الحَديث الصَّحيح في قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، أن المُراد بالزِّيادة النَّظر إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ.

وقَوْلهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ المَعْنى أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعطي بغير تقدير، لكن ما معنى بغير تقدير؟ كَيْفَ نقول: بغير تقدير مع أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقُول: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨]؟

الجواب: أن هَذِهِ كناية عن كثرة العطاء، ولهَذَا يُقال كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فلانٌ يُنفق بغير حساب، يعني يعطي عطاءً كثيرًا لا حد له، وإلا فإن الله تَعَالَىٰ قد قدَّر بعلمه وحكمته كل شَيْء حَتَّى نقطة المطر إِذَا نزلت في الأَرْض فإنها بمقدار.

إذن يَكُون معنى قَوْلهُ: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير مقدار، وهو كناية عن كثرة ما يُنفق، لا عن كونه ينفق بدون أن يشعر بما ينفق، بل هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم ما يرزق وكَيْفَ يرزق وأين يرزق، ولكنه تَعَالَىٰ لكثرة عطائه كالذي لا يُحسب.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَات الكَريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: فضيلة وشرف المَسَاجِد؛ لأنَّها محل ذكر الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه فيه؛ لقَوْلهُ: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾؛ فإن قَوْلهُ: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ يدُلّ على شرفها؛ لأَن المكان يشرف بشرف العَمَل فيه، كما أن الزمان أيضًا يشرف بشرف العَمَل فيه.

لماذا كَانَ رمضان شريفًا؟

لمشروعية الصِّيام فيه وإنزال القُرْآن.

لماذا كَانَ الحج شريفًا؟

لأَن فيه المناسك وذكر اسم الله على ما رزقنا من بهيمة الأنعام.

الفَائِدة الثَّانية: مشروعية تعظيم شأن المَسَاجِد، ومن ذَلِك؛ أي من تعظيمها: أن تُطيَّب، ومن ذَلِك أيضًا: أن تُنظَّف من الأَذَى والأقذار.

هل نقول: ومن ذَلِك أن تُزخرف؟

الجواب: لا، ولهَذَا في الحَديث: «مَا أُمِرْتُ بِتَشْيِيدِ المَسَاجِدِ»[1]، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَتُزَخْرِفُنَّهَا كَمَا تُزَخْرِفُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى»[2]. فالزخرفة شَيْء لا يليق بالمَسَاجِد؛ لأَن المَسَاجِد لَيْسَت بيوت دنيا، وإنما هي بيوت عملٍ للآخرة لكن تنظف عن الأَذَى والأقذار، وفرق بين التنظيف عن الأَذَى وبين إحداث الزخرفة؛ فإن التنظيف عن الأَذَى تنقية، لكن الزخرفة إيجاد أَشْيَاء لا تتناسب مع المَسَاجِد.

لو قَالَ قَائِلٌ: بعض النَّاس يدخلون المسجد بالنَّعلين؛ هل هَذَا حرام؟

الجواب: تعظيم المَسَاجِد ألا تُدخل بالنَّعلين إلا وقد نظفتهما؛ فالسنة أن تُصلي في النَّعلين؛ لأَن النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أمر بِذَلِك وفعله بنَفْسِه[3].

الفَائِدة الثَّالِثَة: فضيلة ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في المَسَاجِد؛ لقَوْلهُ: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾.

الفَائِدة الرَّابِعَة: فضيلة تنظيف المَسَاجِد وحمايتها من الأَذَى؛ لقَوْلهُ: ﴿أَن تُرْفَعَ﴾؛

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب في بناء المساجد، حديث رقم (٤٤٨)؛ عن ابن عباس.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب في بناء المساجد، حديث رقم (٤٤٨).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز الصلاة في النعلين، حديث رقم (٥٥٥)؛ عن أنس بن مالك.

لأَن هَذَا من رفعها، ولـهَذَا جاء في الحَديث عن النَّبِيّ ﷺ أَنَّه قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أُجُورُ أُمَّتِي، حَتَّى الْقَذَاةُ يُخْرِجُهَا الرَّجل مِنَ الْمَسْجِدِ»(١).

الفَائِدة الخَامِسَة: أن الذكر الأفضل أن يَكُون بالْقَلْب واللِّسَان؛ لقَوْلهُ: ﴿أَن تُرْفَعَ﴾؛ لأَنَّه لا يُمْكِن أن يُذكر فيها اسمه إلا باللِّسَان.

الفَائِدة السَّادِسَة: فضيلة التَّسبيح؛ لقَوْلهُ: ﴿يُسَبِّحُ﴾.

الفَائِدة السَّابِعَة: الجمع بين إِثْبات الكمال لله ونفي النَّقص عنه؛ لقَوْلهُ: ﴿وَيُذْكَرَ﴾ وقَوْلهُ: ﴿يُسَبِّحُ﴾؛ فقَوْلهُ: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ هَذَا فيه إِثْبات صفة الكمال، وقَوْلهُ: ﴿يُسَبِّحُ﴾ فيه نفي صفة النَّقص، وسبقت قاعِدَة مهمة في باب التوحيد في الأَسْماء والصفات على أن النَّفي لا يُراد به مجرّد النَّفي، وإنما يُراد مع النَّفي إِثْبات كمال ضده، فإذا نفى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّه يظلم لَيْسَ معنى ذَلِك مُجَرَّد نفي الظُّلْم ولكن من أجل إِثْبات كمال العَدْل، فمن أجل كمال عدله لا يظلم؛ لأَن نفي الظُّلْم قد يَكُون من العجز على الظُّلْم وقد يَكُون لعدم قابلية هَذَا المحل لكونه ظالمًا فإنَّه يُقال مثلًا: الجدار لا يظلم لأَنَّه لَيْسَ قابلًا للظلم، القابلية معدومة، ولو قِيلَ لرجل ضعيف مهين: هو لا يظلم لعجزه، فلا يَكُون مدحًا، لكن إِذَا قِيلَ هَذَا لقادر قابل لأَن يَكُون ظالمًا من حيث هو ذاته؛ فهَذَا دَليل على كمال عدله، ولهَذَا نفى الله الظُّلْم عن نفسه متمدحًا به تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ولو كَانَ غير قابل للظلم كما قالت الجبرية ما صح النَّفي.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب في كنس المسجد، حديث رقم (٤٦١)، والترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب، حديث رقم (٢٩١٦)، وأحمد (٣/ ١٢٤٥) (١٢٢٨٠)؛ عن أنس بن مالك.

الفَائِدة الثَّامِنَة: فضيلة التَّسبيح في الصَّباح والمساء إِذَا قُلْنا إن المُراد بالغدو والآصال هَذَيْنِ الوقتين، فإذا قُلْنا المُراد بالغدو والآصال معناه: الاستمرار دائمًا وإنما ذكر هَذَان لأنهما طرفا النَّهار لم يكن في هَذَا دَليل على تَخْصِيص هين الوقتين، ولكن الظَّاهِر من الأدلَّة أن لـهَذَيْنِ الوقتين مزية؛ لأَن الله دائمًا يأمر بالتَّسبيح في هَذَيْنِ الوقتين.

الفَائِدة التَّاسِعَة: أَنَّه كلما قوي الصَّارف ولـم ينصرف الْإِنْسَان فهو أكمل ممَّن لا صارف له، فهَؤُلَاءِ الرِّجَال لو كانوا لا يعرفون التجارة ولا يستطيعون التجارة قُلْنا: إن لجوءهم إلى بيوت الله من باب الضَّرورة يعني لأجل أن يقضوا الوقت عن أنفسهم ويتسلوا بِذَلِك، لكنهم قومٌ لهم تجارة، فالصَّارف عن ذكر الله في المَسَاجِد موجود وهو التجارة، لكنهم مع ذَلِك لا تلهيهم.

الفَائِدتان العاشرة والحَادِيَة عشرة: جَواز الاتِّجار؛ وجهه أَنَّه أثبت أنهم يتّجرون في مقام المدح، ولو كَانَ الاتِّجار حرامًا أو مذمومًا ما صحّ أن يُؤتى به في سِيَاق المدح فالتجارة لا بأس بها، فلا يُقال لِلإنْسان لا تتّجر ولا تعمل، ولكن على كل حال للنَّاس أغراضٌ في تجارتهم، بعضهم يُرِيد بالتجارة أن تَكُون وسيلة له إلى الْآخِرَة، وبعضهم يُرِيدُونَ بالتجارة الدُّنْيَا فقط.

واختلاف النَّاس في هَذَا بابٌ واسع، فمن اتّجر ليكسب مالًا يُعين به محتاجًا ويتقرب به إلى الله ويفعل به مشاريع الخَيْر هَذَا يُحمد عليه، ولهَذَا جعله النَّبِيّ ﷺ قرينًا للعلم النَّافع؛ حيث قَالَ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ، رَجُلٌ أَعْطَاهُ الله مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَاكِهِ فِي حَقِّهِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَعْمَلُ بِهَا وَيَقْضِي بِهَا»[1]، ويتفرع على

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحِكْمة، حديث رقم (٧٣)، ومسلم،

الفَائِدة السَّابِقة فضيلة المال إِذَا كَانَ عونًا على طاعة الله.

الفَائِدتان الثَّانية عشرة والثَّالِثَة عشرة: فضيلة إقامة الصَّلاة، وأن لها مزية على غيرها، فالصَّلاة هي من ذكر الله، فخصَّها بالذكر من بين الذكر، والتَّخصِيص بعد التعميم يدُلّ على فضيلة المخصص ومزيته، قَالَ تَعَالَى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر:٤]، الروح: جبريل؛ خصَّه بالذكر مع أنَّه من الملائكة لشرفه وفضله، فتَخْصِيص إقامة الصَّلاة بعد ذكر ما هو أعمّ دَليل على مزيتها، وكَذلِك أيضًا فضيلة إيتاء الزَّكاة؛ وهاتان العبادتان هما أفضل العِبادات بعد التوحيد والرسالة، فإقامة الصَّلاة الركن الثَّاني، وإيتاء الزَّكاة الركن الثَّالث، ودائمًا يقرن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بينهما في القُرْآن.

الفَائِدة الرَّابِعَة عشرة: أن من تعبد لله خوفًا فهو محمود؛ لقَوْلهُ: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا ﴾، وقد أثنى الله على من تعبّد خوفًا منه من الْعَذَاب؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإِنْسَان:٧]، وهنا قَالَ: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾، وأثنى الله تَعَالَى على من تعبّد طلبًا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الفتح:٢٩].

وفي هَذَا ردٌّ على من ذهب من الصُّوفية أو غيرهم إلى أن الأفضل في التعبد ألا يقصد الْإِنْسَان حظًّا لنفسه وإنما يعبد الله لذاته فقد، يعني أنك إِذَا عبدت الله لا تقصد فضل الله أو تحذر عقابه، يَقُولُونَ: أعبد الله لله، فيقال لهم: لستم أكمل حالًا من النَّبِيّ ﷺ وأصْحابه، وقد ذكر الله عنهم أنهم كانوا ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾،

كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها، حديث رقم (٨١٦)؛ عن ابن مسعود.

ولستم أكمل حالًا ممَّن أثنى الله عليهم من الأبرار، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ إلى أن قَالَ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإِنْسَان:٥-٧].

ولا شَك أن الْإِنْسَان الَّذِي يعبد الله -سبحانه- لينال فضله وينجو من عقابه هو يُرِيد الوصول إلى رضوان الله وإلى رؤية الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأَن من جملة النَّعيم في الجَنَّة رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الفَائِدة الخَامِسَة عشرة: عِظَمُ يوم القِيامَة وأهواله الشَّديدة؛ لقَوْلهُ: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾، والقلوب هَذِهِ لَيْسَت خاصة، بل (ال) فيها للعموم، يعني كل القلوب تتقلب وكل الأبصار تتقلب، حَتَّى الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام- يخافون ويخشون، فالرُّسل -عليهم الصَّلاة والسَّلام- يعبرون الصِّراط ويَقُولُونَ: اللهم سلم[1].

فالأهوال عنْدَما تحدث، حَتَّى لو بُشّر الْإِنْسَان، فإما أن ينسى ما بُشّر به من شدة الهول، وإما أن يخاف من أمر يصيبه قبل أن يصل إلى ما بشّر به، فعنْدَما يَقُول المَلِك مثلًا - ولله المثل الأعلى-: أنت آمن، وترى أمامك الجلد في النَّاس والأخذ والأسر لا بُدَّ أن يحصل عندك خوف، مع أن هَذَا نقوله على سبيل التقريب وإلا فأهوال يوم القِيامَة لا يتصوّرها الْإِنْسَان.

ولكن مع ذَلِك أهل الخَيْر يُؤَمَّنون مع خوفهم، ومعْلُوم أن الَّذينَ يُؤَمَّنون يُهَوَّن عليهم هَذَا اليوم ولا شَك، ولهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى في يوم القِيامَة: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، حديث رقم (٦٥٧٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طرق الرؤية، حديث رقم (١٨٢)؛ عن أبي هريرة.

غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:١٠]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٦]؛ فيفهم منه أن هَذَا اليوم مع عظمته وأهواله وشدّته يَكُون على الْمُؤْمِنِينَ يسيرًا وإلا فهو في ذاته عَظِيم جدًّا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:١-٢].

الفَائِدة السَّادِسَة عشرة: أن الجزاء من جنس العَمَل بل هو في الطاعات أحْسَن من العَمَل؛ لقَوْلهُ: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ شيئًا فوق ما عملوه.

الفَائِدة السَّابِعَة عشرة: إِثْبات علم الله عَزَّوَجَلَّ، وجه ذَلِك لأنهم إِذَا كانوا يجزون بأحْسَن ما عملوا فلا مجازاة إلا بعد علم المجازِي ما عملوا ثم يجازيهم عليه.

الفَائِدة الثَّامِنَة عشرة: إِثْبات القدرة؛ وجه ذَلِك من إِثْبات الجزاء، فإِنَّه لا يجزي إلا من كَانَ قادرًا، ولو أنك صنعت إلى إِنْسَان معْرُوفًا فقد قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»(١)؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لتمام قدرته لا ينقصه ما أعطى العامِلين من ثوابهم وأجرهم.

الفَائِدة التَّاسِعَة عشرة: إِثْبات المشيئة لله؛ لقَوْلهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾،

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله، حديث رقم (١٦٧٢)، والنسائي، كتاب الزكاة، باب من سأل بالله -عز وجل-، حديث رقم (٢٥٦٧)، وأحمد (٢/ ٦٨) (٥٣٦٥)؛ عن ابن عمر.

وإِثْبات المشيئة لله في حقه، أي: فيما يتعلّق بفعله أمرٌ متفق علَيْه فيما أعلم، لم يخالف فيه المبتدعة ولا غيرهم، ومشيئة الله بالنِّسْبَةِ لما يتعلّق بأفعال الخلق خالفت فيها طائفة تُسمَّى القدرية؛ حيث زعموا أن العَبْد مستقلٌ بعمله وأنه لا تعلّق لمشيئة الله به، حَتَّى إن بعض غلاتهم أنكروا علم الله، وقالوا: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يعلم بأعمال العَبْد إلا بعد أن يفعلها، أما قبل ذَلِك فإنَّه لا يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنكروا النُّصوص الصَّحيحة الصَّريحة في إِثْبات علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كل شَيْء حَتَّى في أعمال الْإِنْسَان.

الفَائِدة العشرون: كثرة رزق الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلهُ: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعطي بلا حساب، ولَيْسَ معنى بلا حساب أي: بلا تقدير؛ لأَن الله يَقُول: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨]، حَتَّى القطرة الَّتِي تنزل من السَّماء إلى الأَرْض هي مقدَّرة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمعنى قَوْلهُ: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أي: أنَّه لا يكافئ الْإِنْسَان بحساب بل بكثرة كَثيرَة.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [النور:٣٩].

قَوْلُهُ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ ﴾ لـمَّا ذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أعمال هَؤُلَاءِ الرِّجَال، تِلْك الأعْمَال الفاضلة، ذكر أعمال الَّذينَ كَفَرُوا ما شأنَّها، وهَذِهِ طريقة الله تَعَالَى في كتابه؛ إِذَا ذكر وصف المُؤْمِن ذكره بعده وصف الكافر أو بالعَكْسِ، وإذا ذكر وصف الجَنَّة ذكره بعده وصف النَّار أو بالعَكْسِ؛ لأَن القُرْآن مثاني تثنى فيه المعاني ويقابل بعضها ببعض، هَذِهِ واحدة، ولأن الْإِنْسَان إِذَا ذُكرت له أوصاف أهل الخَيْر وأوصاف الجَنَّة قد يغلب علَيْه جانب الرجاء فيهلك، وإذا ذكرت له صِفات النَّار وصفات أهل الشَّرِّ يغلب علَيْه الخَوْف فيهلك.

ولهَذَا اختلف أهْل العِلْم: هل الأولى أن يُغلِّب الْإِنْسَان جانب الرجاء أو جانب الخَوْف أو يجعلهما سواء؟

فقال الْإِمَام أحمد: يَنْبَغِي أن يَكُون خوفه ورجاؤه واحدًا فأيهما غلب هلك صاحبه؛ لأنَّه إن غلّب الخَوْف وقع في القنوط من رحمة الله، وإن غلب الرجاء وقع في الأَمْن من مكر الله، وكلاهما طريق لا يليق بالمُؤْمِن.

وقال بعض العُلَماء: يَنْبَغِي للمريض أن يغلب جانب الرجاء؛ لقول النَّبِيّ ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ»(١)، ويَنْبَغِي للصحيح أن يغلب جانب الخَوْف.

وقال آخرون: يَنْبَغِي عند فعل المعْصِيَة أن يغلب جانب الخَوْف؛ لأجل أن يرتدع؛ لأنَّه لو غلب جانب الرجاء وقال: إن الله غفور رحيم وأرجو أن يغفر لي لأمن المعْصِيَة، وعند فعل الطَّاعة يغلب جانب الرجاء وأن الله تَعَالَى يقبل منه ويثيبه حَتَّى لا ييأس، ويدُلّ على ذَلِك قَوْل النَّبِيّ ﷺ: «ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ»(٢)، كَذلِكَ اعبد الله وأنت على رجاء أن يتقبل منك.

وعلى كل حال هَذَا القَوْل في ظنِّي أنَّه أرجح الأقوال أنَّه عنْدَما يَكُون الْإِنْسَان في جانب التعبّد وفعل العِبادَة يغلِّب الرجاء، ولَيْسَ المَعْنى أن يجزم بالرجاء بهَذَا؛ لأَن الله يَقُول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠]؛ يعني: خائفة ألا يقبل منها، لكن المَعْنى أن يغلّب هَذَا مع الخَوْف، وأما في جانب فعل المعْصِيَة فيغلب جانب الخَوْف؛ لأجل ألّا يُقدم عَلَيْها معتمدًا على الرجاء، وقصدنا مما ذُكر أن القُرْآن الكَرِيم يذكر الله تَعَالَى فيه هَذَا وهَذَا ليَكُونَ سيرُ الْإِنْسَان معتدلًا.

قَوْلهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جَمْع قَاع: أَيْ فِي فَلَاة وَهُوَ شُعَاع يُرَى فِيهَا نِصْف النَّهَار فِي شِدَّة الْحَرّ يُشْبِه الْمَاء الجَارِيَ] اهـ.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظَّن بالله تَعَالَى عند الموت، حديث رقم (٢٨٧٧)؛ عن جابر بن عبد الله.

(٢) أخرجه الترمذي؛ واللفظ له، كتاب الدعوات، باب ما جاء في جامع الدعوات عن النَّبِيّ ﷺ، حديث رقم (٣٤٧٩)، وأحمد (٢/ ١٧٧) (٦٦٥٥)؛ عن عبد الله بن عمرو.

هَذَا تفسير للسراب، والقيعة: هي الفلاة، والسراب بالقيعة معْرُوف؛ يَكُون عند شدة الحر عنْدَما تَكُون في فلاة من الأَرْض؛ وقيعة، يعني: قاعًا -بخلاف الرملية لا يَكُون فيها هَذَا الشَّيء- لكن القيعان ترى من بُعد كأنَّ في ذَلِك الجانب ماء فتظنّه ماءً، ولَيْسَ بماء لكن كَيْفَ ذَلِك؟ لأنهم يَقُولُونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]؛ فيظنون أن هَذَا الشِّرك الَّذِي يبعدهم عن الله حَقِيقَة يظنونه يقربهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، يظنون هَؤُلَاءِ الشُّفعاء الَّذينَ سيتبرؤون منهم شفعاء، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾ [البقرة:١٦٦]، ومن المعْرُوف أن النَّفس إِذَا تعلقت بالشَّيء على أَنَّه شفيعٌ أو على أَنَّه مقرِّب لها إلى الله تتبعه بلا شَك، هَؤُلَاءِ مثل السراب في القيعة.

قَوْلهُ: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَحْسَبُهُ﴾ يَظُنّهُ ﴿ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ أَيْ: الْعَطْشَان ﴿مَآءً﴾] اهـ.

هَذَا تشبيه بليغ، ووجه الشَّبه بين أعمال الْكُفَّار وبين السراب: أن هَؤُلَاءِ الْكُفَّار يعملون الأعْمَال ويظنون أنَّها تنفعهم وكَذلِك العطشان، يعني أَنَّه يقصد الماء بشدةٍ ولهف معتقدًا أَنَّه ينقذه لأَن العطشان محتاج للماء، إِذَا رأى ما يشبه الماء قصده بشدة ولهف؛ لأجل أن يدفع ضرورته به؛ لأَنَّه يظنه ينفعه، ولولا أَنَّه يظنه ينفع لم يذهب إِلَيْه، لكن النَّتيجة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾؛ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِمَّا حَسِبَهُ] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ ماذا تتصور حاله حينئذٍ؟ خيبة أمل عَظِيمة -والعِيَاذ باللهِ- لا يتصوّرها أحد، إِنْسَان عطشان جاء إلى هَذَا السراب من بعيد يُرِيد أن يشرب فتكون النَّتيجة أَنَّه لم يجد شيئًا مما حسبه، ولاحِظ أن السراب لا يتراءى في

الأماكن القريبة، بل في البعيدة، يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كَذَلِكَ الْكَافِرُ يَحْسَب أَنَّ عَمَلَه كَصَدَقَةٍ يَنْفَعهُ حَتَّى إِذَا مَاتَ وَقَدِمَ عَلَى رَبّه لَمْ يَجِد عَمَله، أَيْ: لَمْ يَنْفَعهُ] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: عِنْد عَمَله؛ ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾، أَيْ جَازَاهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، أَيْ: المُجَازَاة] اهـ.

هَذَا الكافر يظن أن عمله ينفعه، وتمثيل المُفَسِّر لِذَلك بالصدقة فيه نظر إلا إِذَا قصد بِذَلِك ضرب المثل؛ فهَذَا صحيح، فهي من جملة الأعْمَال الَّتِي يفعلها الْكُفَّار يظنون أنَّها تنفعهم وهي لا تنفعهم، ولكن يَنْبَغِي أن يُقال: هي أعم من ذَلِك لَيْسَ المُراد فقط الصَّدقة، بل حَتَّى عبادة الأصنام يظنونها تنفعهم؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، ومع ذَلِك هَذَا كله لا ينفعهم ولا يجدون شيئًا مما يظنونه ويحسبونه.

وقَوْلهُ: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ عند هَذَا السراب؛ لأَنَّه الآن وصل إلى الموت، فإذا مات فقد لاقى الله عَزَّوَجَلَّ، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾؛ هَذَا ظاهر السِّيَاق، أما على رأي المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فيجعل ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾، أي: عند عمله، فيَكُون الضَّمِير على رأي المُفَسِّر عائد على المشبّه دون المشبه به، ويحتمل أنَّه عائد على المشبه به، وقول المُفَسِّر: أي: عند عمله؛ تفريعًا على قَوْلهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ لأَن ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ عام فكأنه قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، أي: الكافر عمله كذا وكذا، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، ولكن ظاهر الآيَة أن الضَّمائر تعود على أقرب مذكور وهو هَذَا العطشان الَّذِي وصل إلى الماء عطشان فلم يجد شيئًا فسيهلك.

قَوْلهُ: ﴿حِسَابَهُۥ﴾، يعني: جزاء عمله، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، أي: المجازاة.

ما المُراد بالسُّرعة هُنا، هل المُراد قرب وقت المجازاة فتكون السُّرعة زمنية أو المُراد إنجاز الحساب فتكون السرعة عملية أو كلاهما؟ هل المَعْنى أنَّه في محاسبته سريع أو المَعْنى حسابه للعباد قرب أو كلاهما؟

الجواب: كلاهما؛ فالحساب قريب حَتَّى وإن طالت الدُّنْيَا بالْإِنْسَان، فإنَّه قريب؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء:٧٧]، وكَذلِك عنْدَما يحاسب الله الخلائق يوم القِيامَة يحاسبهم في نصف يوم[1]، كما قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾، ثم قَالَ بعدها: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤]؛ استنبط العُلَماء من ذَلِك أنهم سيقيلون في منازلهم في نصف ذَلِك اليوم.

ولكن اليوم الَّذِي أشار الله إلَيْه مقداره خمسين ألف سنة، ومهما يكن من شَيْء فالله قادرٌ على ما هو أبلغ من ذَلِك، لكن مع هَذَا، هَذِهِ سرعة عَظِيمة وقدرة بالغة حَتَّى لو كَانَت المدة خمس وعشرين ألف سنة، الخلائق من أولهم إِلَى آخِرِهِم ما بين آدمي وجنّي وطير وغيرهم يحاسبهم الله في نصف يوم، الآن لو يحاسب الْإِنْسَان شخصًا يعامله لمدة سنة كم تَكُون المدة إِذَا كَانَ الحساب دقيقًا وكثيرًا؟ يبقى مدة وقد يَكُون الحساب مضبوطًا وقد لا يَكُون مضبوطًا؛ أما حساب الله عَزَّوَجَلَّ؛ فهو مع سرعته ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩].

• • ۞ • •

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الملاحم، باب قيام الساعة، حديث رقم (٤٣٤٩)، وأحمد (٤/ ١٩٣) (١٧٧٦٩)؛ عن أبي ثعلبة الخشني.

الآيــة (٤٠)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

بعدما ضرب الله مثلًا لكافرٍ عمل يُرِيد التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ضرب مثلًا آخر وهو قَوْله تَعَالَى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾.

قَوْلهُ: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾.

﴿أَوْ﴾؛ هُنا لَيْسَت للشك بلا ريب؛ لأَن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منزَّهٌ عن الشَّك؛ لأَن الشَّك إنما يَكُون لقُصور علم الْإِنْسَان أو لقُصور علم الشَّاكّ، أما الله عَزَّوَجَلَّ فعلمه واسع، يعني لا يُمْكِن أنْ يقولَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾؛ إما مثل هَذَا أو مثل هَذَا على سبيل الشَّكّ؛ كما تقول مثلًا: أنا رأيتُ هَذَا الشَّيء وهو يشبه كذا أو كذا، هَذَا لا يُمْكِن أن يَكُون في حق الله عَزَّوَجَلَّ، إذن فـ(أو) للتنويع، في قَوْلهُ: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾، يعني: أو أعمالهم كظلمات... إِلَى آخِرِهِ.

قَوْلهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾؛ يَقُول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [السَّيِّئَة ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ عَمِيقٍ ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ﴾، أَيْ: المَوجُ ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ﴾، أَيْ: المَوجُ الثَّاني ﴿سَحَابٌ﴾، أي: غَيْمٌ؛ هَذِهِ ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظُلْمَة الْبَحْر

وَظُلْمَة المَوْج الْأَوَّل وَظُلْمَة الثَّانِي وَظُلْمَة السَّحَاب ﴿إِذَآ أَخْرَجَ﴾، أَيْ: النَّاظِر ﴿يَدَهُۥ﴾ فِي هَذِهِ الظُّلُمَات ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أَيْ: لَمْ يَقْرُب مِنْ رُؤْيَتهَا ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾، أَيْ: مَنْ لَمْ يَهْدِهِ الله لَمْ يَهْتَد] اهـ.

هَذَا قسم ثان من الْكُفَّار، وهَذَا التقسيم للتنويع كما تقدّم، فالأول والله أعلم: في حال الكافر المجتهد الَّذِي عنْدَه فهم واجتهاد الَّذِي يظن أن عمله ينفعه، والثَّاني: في حال المقلد الَّذِي لا يدري وعنده جهل وضلال؛ فهو في ظلمة يسير مع الْكُفَّار وهو لا يدري.

قَوْلهُ: ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ البحر: معْرُوف، واللجي: العميق، وكلما كَانَ البحر أعمق كَانَت ظلمته أَشَدّ.

قَوْلهُ: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ بمَعْنى يغطي هَذَا الكافر ﴿مَّوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ أيضًا أمواج عالية لكن ما حد الموج الثَّاني من الأوَّل؟ يعني ما الَّذِي يميز الموج الثَّاني عن الموج الأوَّل؟

الجواب: إما أن يُقال بالاتجاه يعني الأمواج تتلاقى، موج يأتي من هُنا والثَّاني أعلى منه أتى من جهة ثانية من أجل أن يتبيَّن علو هَذَا على ذاك، أو أنَّها أمواج متلاحقة، مثلًا موج مقبل كارتفاع الجبل ووراءه موجٌ آخر أعلى منه، فإذا لحقه صار موجًا من فوقه موج، وأما أنَّه موج واحد فلا يُمْكِن أن يفصل بعضه عن بعض، ومن شاهد البحر وجد الْأَمْر كَذلِكَ؛ تجد أمواجًا متلاحقة، أحيانًا إِذَا انعكس الهواء تتقابل وأحيانًا تتلاحق، لكن هَذِهِ الأمواج المتلاحقة أيضًا تجري، سبحان الله العَظِيم، مثل الدرج، يعني: بعضها فوق بعض، هَذَا هو ما ضربه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هَذَا المثل.

قَوْلهُ: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ السَّحاب في الحَقيقَة مراتب في الجو ولَيْسَ كما يغلب على ظننا أنَّه في طبقة واحدة، لا، بل في طبقات متباعدة جدًّا، وهَذَا يعرفه الْإِنْسَان إِذَا ركب الطَّائرة يجد أحيانًا سحابًا بينه وبين الطَّائرة من أسفل مثل ما بين السَّحاب والأَرْض، وسحاب فوقه بينه وبينه مثل ما بين الطَّائرة والأَرْض وهو بينهما، وهَذَا شَيْء معْرُوف ومشاهد، فالظَّاهِر والله أعلم أن قَوْلهُ: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ مثل قَوْلهُ: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ بمَعْنى أن السَّحاب يكاد يَكُون ملاصقًا لهَذِهِ الأمواج، ويُمْكِن أيضًا أن يُراد بالسَّحاب ما يشمل الضَّباب؛ لأَن حَقِيقَة الْأَمْر أن الضَّباب سحاب لأَنَّه ينسحب على الأَرْض، فإذا وجد ذَلِك صَارَت الظُّلْمة واضحة جدًا، ولا شَك أن الضَّباب يقرب من سطح البحر، سواء كَانَ قريبًا أو بعيدًا، لكن أيهما أَشَدّ؟ إِذَا قرب أَشَدّ.

قَوْلهُ: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ انظر التهويل في هَذَا المثل يعني كَانَ يكفي أنْ يقولَ: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾، لكن لأجل تهويله في النَّفس وبَيان عظمته، قَالَ: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾.

ثم ضرب مثلًا فقال: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾.

ما أقرب شَيْء لك؟ اليد مِنْ أقرب ما يَكُون إليك، بل هي أقرب شَيْء لك من الأعضاء المتحركة الَّتِي يُمْكِن أن تُرى، يُمْكِن أن تُخرج ويُمْكِن ألا تُخرج.

قَوْلهُ: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ هل معنى ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أنَّه يراها بصعوبة أو لا يراها؟

يَقُول النَّحويون: إن (كاد) إِثْباتها نفي ونفيها إِثْبات، فإذا قلت: «لم أكد أفعل» فمعناه: فعلت لكن بَعْدَ بُعْدٍ، فقَوْلهُ: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ على هَذِهِ القاعِدَة؟ رآها لكن

مع بُعْد الرؤية وصعوبتها، لكن الظَّاهِر كما قَالَ: آخرون من النَّحويين: إن (كاد) مثل غيرها نفيها نفي وإِثْباتها إِثْبات، لكن هي بمَعْنى قارب، فإذا قلت: كدتُ أفعل؛ أي: قاربتُ أن أفعل، لكن فأنت لم تفعل لكن قاربت، ولهَذَا هي عُدَّت عند النَّحويين من أفعال المقاربة، فمن نفى أن يقارب الشَّيء فإنَّه قطعًا لم يفعله، ومن أثبت أنَّه مقاربٌ له فهو أيضًا قطعًا لم يفعله؛ وهَذَا معنى قولك: قاربتُ الفِعْل؛ أي: ولم أفعل، فإذا قِيلَ: لم يكد يفعل كذا.

ولم يسبق ما يدُلّ على فعله فإنَّه لم يفعله؛ أي: إن وجدت قرينة تدُلّ على فعله فهَذِهِ القرينة هي الَّتِي تدُلّ على الفِعْل، فلو قلت: وصلت إلى البلد ولم أكد أصل، دل ذَلِك على وصولك، والقرينة قولك: وصلت، وأما قولك: ما كدت فلا يدُلّ على الوصول، لكن إِذَا قلت: سرت إلى البلد ولـم أكد أصل، لا يَكُون واصلًا ولا مقاربًا للوصول ما لم يوجد دَليل.

فإذا لم يسبق شَيْء يدُلّ على الفِعْل فإنَّه يقين لم يفعل، مثل قَوْل عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «مَا كِدْتُ أُصَلِّي الْعَصْرَ حَتَّى كَادَتْ الشَّمْسُ تَغْرُبُ»[1]، يعني: ما قاربت صلاة العصر، لكن هل صلّاها أو لم يصلّها؟ لم يصلّها، يعني: ما قاربت صلاة العصر حَتَّى قاربت الشَّمس الغروب، فلمَّا قَارَبَتْ الشَّمسُ الغروب قَارَبَتْ صلاة العصر، هو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لم يصل إلا بعد الغروب مع النَّبِيّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، لكن كأنه في الأوَّل لم يتهيأ له أن يقرب من الصَّلاة فضلًا عن أن يصليها، المَعْنى أنهم شغلهم الْكُفَّار عن قرب غروب الشَّمس فما قارب أن يصلي، ومقاربة الصَّلاة بالتهيؤ لها أي: ما تهيأتُ

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، حديث رقم (٤١١٢)؛ عن جابر بن عبدالله.

للصلاة حَتَّى قاربت الشَّمس أن تغرب، ولهَذَا صلى مع النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صلاة العصر بعد غروب الشَّمس، فالحاصِل: أن في قَوْلهُ: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أثبتت المقاربة، لكن علمنا انتفاء الفِعْل من المقاربة؛ فقَوْلهُ: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾، أي: لم يقرب أن يراها كما قَالَ المُفَسِّر.

إذن إِذَا كَانَ لم يقرب أن يراها فانتفاء الرؤية مِنْ بَابِ أَوْلَى.

وأما قَوْله تَعَالَى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١]، لَوْلا قَوْلهُ: (ذبحوها) لم تدُلّ الآيَة على أنهم ذبحوها، لكن المَعْنى أنهم ذبحوها بعد أن كانوا بعيدين عن الذبح لم يقصدوه ولا نووا أن يمتثلوا، بل قالوا لنبيهم: أتتخذنا هزوًا، بعد هَذَا البُعد عن الفِعْل وبعد أن أجيبوا بطلباتهم ذبحوها، فهم كانوا بعيدين عن الامتثال إلا أنَّه بعد الإلحاح وبعدما قالوا: ﴿يُبَيِّن لَّنَا﴾، وبُيِّن كما طلبوا بعد ذَلِك أُجيب، وهَذَا مَثَلٌ في الحَقيقَة يَنْبَغِي لِلإنْسان أن يعتبره بنَفْسِه وأنه عنْدَما يؤمر بالْأَمْر لا يَقُول: لماذا كذا ولماذا كذا؛ لأَن هَذَا خطير فقد قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، ولهَذَا يَجب على المُسْلِم إِذَا علم بالشَّرع أن يستسلم ولا بأس فيما بعد فيما يقرر علَى نفْسِه أنَّه ممتثل، لا بأس فيما بعد أن يسأل عن الحِكْمة؛ لأَن سؤال الحِكْمة لا ينافي الانقياد، لكن المُهِمّ أن يستسلم أولًا ولا يورد إيُرادات وشبهات، لماذا، ولماذا كذا وكذا، ثم بعد ذَلِك يفعل إِذَا شاء.

قَوْلهُ: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ يعني الَّذِي لم يجعل الله له نورًا لم يكن له نور، يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: مَنْ لَمْ يَهْدِهِ الله لَمْ يَهتدِ] اهـ.

جعل المُفَسِّر هُنا النُّور نورًا معنويًّا؛ أي: من لم ينوِّر الله قلبه بالعلم والإِيمَان فلا أحد ينور قلبه فما له من نور.

لو قَالَ قَائِلٌ: ما الغرض من مثل هَذِهِ الآيَات الَّتِي يذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد:٣٣]، وكقَوْلهُ: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف:١٨٦]، وكقَوْلهُ: «مَنْ يَهْدِ الله فَلَا مُضِلَّ لَهُ»[1]، وما أشبه ذَلِك، هل الغرض منها تقرير مذهب الجبرية كما استلوا بها أو الغرض شَيْء آخر؟

الجواب: قطعًا لَيْسَ الغرض من ذَلِك تقرير مذهب الجبرية؛ لأَن الجبرية مذهبهم باطل يبطله الحس والشَّرع والعقل والفطرة، لكن الغرض من ذَلِك ألا يعتمد الْإِنْسَان علَى نفْسِه وأن يلجأ دائمًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ في طلب الهداية وطلب النُّور وطلب التَّوفيق وغير ذَلِك، وإلا فمن المعْلُوم أن الله لا يقرر أمرًا باطلًا يبطله بالعقل والحس.

فعلى كل حال يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ: إِذَا لم يجعل الله لِلإِنْسان نورًا يهتدي به فما له من نور، وقد أتى بالجُمْلَة الاسْمية الدالة على الثُّبوتِ والاستمرار ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ وأكّد انتفاء النُّور عنه بـ﴿مِن﴾ الزائدة في قَوْلهُ: ﴿مِن نُّورٍ﴾؛ لأَن ﴿مِن﴾ زائدة و﴿نُّورٍ﴾ مُبْتَدَأ مؤخر؛ أي: فلَيْسَ له نورٌ.

فإذن نعلم بهَذَا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الَّذِي يتصرف في ملكه كما يشاء، وأن من أعطاه الله النُّور فهو على نور من ربه، ومن لم يعطه الله نورًا فما له من نور، ومن أين يأتيه النُّور وقد حجب الله النُّور عنه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

ولكن اعلم أيضًا أن حجب الله النُّور عن العَبْد لَيْسَ منعًا لفضله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فإنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذو الفَضْل العَظِيم والعطاء أحب إلَيْه من المنع، والهداية أحب إلَيْه من الإضلال، لكن لأَن المرء نفسه هو الَّذِي منع عن نفسه هَذَا النُّور، واقرأ قَوْل الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، واقرأ قَوْل الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ يعني عن الحَقّ وأعرضوا عنه ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩]، يتبَيَّن لك أن إضلال الله للعبد وحجب النُّور عنه بسبب نفسه فهو الَّذِي لم يهتدِ.

فعلى كل حال هَذِهِ الآيَة تدُلّ على أَنَّه يَنْبَغِي بل يَجب على المرء أن يلجأ إلى الله دائمًا بأنه يسأله أن ينور قلبه؛ لأَن ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ هَذَا منطوق الآيَة، مفهوم الآيَة من جعل الله له نورًا فلا أحد يحجب عنه نور الله عَزَّوَجَلَّ.

• • ۞ • •

الآيــة (٤١)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور:٤١].

قَوْلهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الهمزة للاستفهام الداخل على النَّفي، وإذا دخل الاستفهام على النَّفي أفاد التقرير، أي: إِثْبات ما ذُكر، قَالَ اللهُ للنَّبِيّ ﷺ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، يعني: قد شرحنا لك صدرك، يقرر الله تَعَالَى أَنَّه قد شرح صدر النَّبِيّ ﷺ.

قَوْلهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ﴾ يعني: قد رأيت، لكن هل الخِطَاب للرَّسول ﷺ أو لكل من يتأتى خطابه؟ الظَّاهِر العُموم ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المخاطب لا أيها النَّبيّ؛ لأَن ذَلِك أشمل وأعم.

وقَوْلهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ﴾ هل هَذِهِ الرؤية بصرية أو علمية؟ إِذَا جعلتها بصرية صَارَت هَذِهِ الرؤية خاصة بما يُفعل لا بما يُقال ولا بما يعلم بالعقل، وإذا جعلتهما علمية شملت ما يعلم بالقَوْل وبالبصر وبالذهن، وحينئذٍ أيهما أولى؟

الأولى أن تكُون علمية، يعني ألم تعلم سواء كَانَ علمك عن طريق المشاهدة بالبصر أو عن طريق السمع بالأذن أو عن طريق الاستنتاج بالعقل والتفكير، هَذِهِ الثَّلاثة هي طرق العِلْم كما قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

إذن (ألم تعلم) علمًا ناتجًا عن هَذِهِ الْأُمُور الثَّلاثة أو عن واحد منها.

قَوْلهُ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَمِنَ التَّسْبِيح صَلَاة] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن﴾ أتى بـ(مَن) الَّتِي للعاقل؛ لأَن التَّسبيح أظهر للعقلاء من غير العقلاء، وهَذَا التَّسبيح يشمل التَّسبيح بالقَوْل وبالحال، بالقَوْل مثل: سبحان الله، وبالحال أنك إِذَا تأملت خلقه وما جبلوا علَيْه علمت بِذَلِك أن الله تَعَالَى منزه عن العبث وعن النَّقائص، يسمى هَذَا التَّسبيح بالحال.

إذا قُلْنا: إن التَّسبيح بالمقال فمن المعْلُوم أن الكافر لا يسبح الله بمقاله، يعني لا يَقُول: سبحان الله لأَنَّه يصف الله بالعيب ويجعل مع الله شريكًا لكنَّه مسبح لله بحاله فإن حاله وما جبل علَيْه وانصرافه عن الحَقّ مع وضوحه وما أشبه ذَلِك، كل ذَلِك مما يدُلّ على تنزيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعلى حكمته.

وقَوْلهُ: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يشمل الملائكة، وتسبيح الملائكة نحنُ لم نعلمه عن طريق الرؤية ولكن عن طريق الوَحْي الَّذِي هو السمع، سَمِعْنَا من نبينا ﷺ أن الملائكة تسبح الله، وسَمِعْنَا قَوْل الله عَزَّوَجَلَّ أن الملائكة تسبح... إِلَى آخِرِهِ.

قَوْلهُ: ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جَمْع طَائِر بَيْن السَّمَاء وَالْأَرْض ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ حَال بَاسِطَات أَجْنِحَتهنَّ] اهـ.

﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ معطوفة على ﴿مَن﴾ يعني وتسبح له الطير و﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ حال من الطير، يعني هي أيضًا تسبح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في حال صفوفها، أي: صف أجنحتها، أي: بسطها، فإن صفوفها في الهواء بين السَّماء والأَرْض، وعدم سقوطها، واتجاهها

يمينًا وشمالًا، ولا تحجبها الرياح مع عصوفها عما تريد، هَذَا مما يدُلّ على كمال قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، فالريح الَّتِي تقلقل الجبال والسيارات لا تحجب الطائر عن اتجاهه فيتجه معاكسًا للرياح ولا يبالي، وهَذَا شَيْء مشاهد وهَذَا من تمام قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، فهَذَا الطير الضعيف الصَّغير الَّذِي يُمْكِن أن تقتله الرياح يتجه معاكسًا لها ولا ترده، وهَذَا من تمام قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، ومن تمام القدرة أيضًا أنك تجده في أيام الشِّتاء الباردة القارسة تجده يطير بين السَّماء والأَرْض بهَذِهِ السرعة وفوق أيضًا ولا يتأثر بهَذَا البرد، كل ذَلِك دَليل على كمال قدرة الله، لكن هَذَا التَّسبيح حالي أو مقالي؟

نحنُ نعلمه حاليًا، ولكن ربما يَكُون أيضًا مقاليًا، ربما أنَّها في حال مد أجنحتها وبسطها تسبح الله؛ لأَن الطير لها نطق قَالَ اللهُ تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل:١٧]؛ فكل شَيْء ينطق حَتَّى الحصى ينطق، وقد سُمع تسبيح الحصى بين يدي الرَّسُول ﷺ(١)، فكل شَيْء يسبح بل قَالَ اللهُ في آية أُخْرَى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، وهنا قَالَ: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ ولم يذكر السَّموات ولم يعمم كما في قَوْلهُ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾ بل هُناكَ قَالَ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، وهنا قَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ فأثبت علمنا بهَذَا التَّسبيح وهو لَيْسَ شاملًا كما في الآية الثَّانية ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، أما تسبيح ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ بلسان المقال فهَذَا لا نعلمه، ولكن بلسان الحال كما تقدَّم.

ثم أعظم من هَذَا قَالَ: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ ﴿عَلِمَ﴾ فعل ماضٍ، فيه

---

(١) أخرجه الخلال في كتابه السنة (٣٥١)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٤٨٥)؛ عن سويد ابن زيد.

ضمير مستتر يَعود -على كلام المُفَسِّر- على الله فمعنى قَوْلهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾، أي: قد علم الله صلاته وتسبيحه، هَذَا ما ذهب إِلَيْه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والقول الثَّاني: أن فاعل ﴿عَلِمَ﴾ يَعود على ﴿مَن﴾ وما عطف عَلَيْها، يعني: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾؛ كل من هَؤُلَاءِ المسبحين ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾، يعني: أن الله تَعَالَى ألهم هَذِهِ الأَشْيَاء حَتَّى عرفت كَيْفَ تسبح الله عَزَّوَجَلَّ وكَيْفَ تصلي له، وأما علم الله بِذَلِك فمفهوم من قَوْلهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾؛ فعلى رأي المُفَسِّر يَكُون في الآيَة شبه تكرار﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾؛ ولهَذَا الصَّحيح أن قَوْلهُ:﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ﴾، أي: كل من هَؤُلَاءِ المسبحين ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ هو نفسه ﴿صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ لكن بأي شَيْء علم؟ أما بالنِّسْبَةِ للبشر وكَذلِك الجن فقد علموا عن طريق الرُّسل، فالرُّسل أرسلهم الله ليُعلِّموا النَّاس كَيْفَ يصلُّون وكَيْفَ يسبِّحون الله عَزَّوَجَلَّ، وأما البهائم والحيوانات الأُخْرَى فإنها علمت صلاتها وتسبيحها بما ألهمها الله عَزَّوَجَلَّ، ولكلٍ منها صلاة وتسبيح خاص، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على لسان موسى ردًا على فرعون في قَوْلهُ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ فقال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٤٩-٥٠]، ثم إن هَذِهِ الهداية كما تشمل الهداية في الْأُمُور الَّتِي تحفظ أجسادها كَذلِكَ تشمل الهداية في الْأُمُور الَّتِي ألهمها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من التَّسبيح والصَّلاة.

وقَوْلهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِيهِ تَغْلِيب الْعَاقِل] اهـ. لأَن الواو في: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ للعاقل وعلوم أن قَوْلهُ: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يشمل العاقِل وغيره، لكن الآيَة غلب فيها العاقِل في الموضع الأَوَّل وفي الثَّاني، والسبب في ذَلِك

والله أعلم أن التَّسبيح والصَّلاة في العاقِل أظهر منها في غير العاقِل، فلِذَلك غلب وإلا فغير العقلاء في الأَرْض أكثر من العقلاء، فالحيوانات والحشرات أكثر.

فالصَّلاة من أهم الأعْمَال، وسبحان الله العَظِيم انظر حَتَّى الحيوانات تصلي، قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾، ولكن صلاتها لا ندري هل مثل صلاتنا أو تختلف، المُهِمّ أن لها صلاة ولها تسبيحًا ولكنه خاص بها قد عَلَّمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كَيْفَ تصلي وكَيْفَ نسبح، وعلمت صلاتها وتسبيحها.

الآية (٤٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [النور:٤٢].

قَوْلُهُ: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خَزَائِن الْمَطَر وَالرِّزْق وَالنَّبَات] اهـ.

وقَوْلُهُ: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، قَوْلُهُ: ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ هي خبر مقدم، و﴿ وَلِلَّهِ ﴾ مُبْتَدَأ مؤخَّر، والقاعِدَة عند أهْل العِلْم أنَّه إِذَا قدم شَيْء من حقِّه أن يؤخر دل ذَلِك على الحصر، الحصر في هَذَا المقدم يعني حصر المؤخر في المقدم؛ فقَوْلُهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ مَعْناها أي: لا نعبد إلا إيّاك، وقَوْلُهُ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥]؛ مَعْناها لا نستعين إلا إياك، فإذا قدم ما حقّه التأخير كَانَ ذَلِك دليلًا على حصر الشَّيء فيه، فبناءً على هَذَا القاعِدَة، يَكُون ملك السَّموات والأَرْض لله وحده، ولَيْسَ معه غيره بِدَلِيل الحصر في قَوْلُهُ: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾.

وقَوْلُهُ: ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ هَذَا شامل لملك الأعيان والتَّصريف، فـ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أعيانها لله والتَّصريف والتَّدبير أيضًا لله، وتَخْصِيص ذَلِك بخزائن الرزق والنَّبات والمطر لا وجه إطلاقًا، فالله تَعَالَى له ملك السَّموات والأَرْض خلقًا وتدبيرًا، فالأعيان والتَّصريف لله وحده ويدُلّ على ذَلِك ما فيها من الانتظام وعدم الاضطراب وعدم التَّناقض، ولهَذَا استدل الله تَعَالَى على وحدانيته بقَوْلُهُ: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا

كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ لو كَانَ معه إله ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ صحيح ما دام أنَّه إله لا بُدَّ أن تكُون مملكته له وحده، والنَّتيجة ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المُؤْمِنون:٩١]، فإذا علا بعضهم على بعض فلمن تكُون الأُلوهيَّة؟ للعالي بلا شَك، ونحن نرى بعين اليقين أنَّه لم يتميز الخلق بعضه على بعض وأن العالم العلوي والسفلي كله كتلة واحدة مسخر بعضه لبعض ويتمم بعضه ببعض ولا يتناقض، وهَذَا كَانَ العَقْل والمشاهدة دليلين على وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم لا يُمْكِن أيضًا تعدد الآلهة لا بُدَّ أن أحَدهما يغلب؛ لأنهما إن تمانعا وعجز كل واحد منهما عن الآخر صَارَ كلاهما غير مستحق للألوهية ما دام كل واحد منهما يعجز، والرب لا يَكُون عاجزًا، فلا يصلح كل منهما أن يَكُون ربًا؛ لأَن الرب لا بُدَّ أن يَكُون قادرًا، وهَذَا دَليل عقلي معْرُوف، وإن غلب أحَدهما الآخر صَارَ وحده الرب والإله فتكون الألوهية له، فإذا لا بُدَّ أن يَكُون الإله واحدًا، وهَذَا من أبين الأدلَّة وأوضحها.

إذا قَالَ قَائِلٌ: أَلَيْسَ الله تَعَالَى يَقُول: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المعارج:٣٠]، ويقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ [النور:٣٣]؛ فأثبت لِلإنْسان ملكًا وأنتم تقولون: إن ملك السَّموات والأَرْض خاص باللهِ بِدَلِيل الحصر فكَيْفَ الجمع؟

الجواب: الملك هَذَا مقيد لَيْسَ ملكًا مطلقًا ومن الَّذِي ملَّكك؟ الله تَعَالَى هو الَّذِي ملكك هَذَا الشَّيء بقدر محدود، أيضًا أنت إِذَا كنت تملك هَذَا المسجل مثلًا تملك أن تبيعه وتشتريه وتنتفع به هَذَا واضح، لكن هل تملك أن تكسره؟ بالنِّسْبَةِ للمخلوقين تملك، لكن بالنِّسْبَةِ لله لا تملك؛ لأنَّه لا يجوز لك أن تكسره؛ لأنك

ممنوع من قبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكن هل الله عَزَّوَجَلَّ يملك أن يتلف من على البسيطة؟

الجواب: نعم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥]، فتبين بهذا أن ملكي للشَّيْء من الله هو الَّذِي ملكني، والشَّيء الثَّاني: أن هَذَا ملك محدود مقيد، وعلى هَذَا فلا منافاة بين ما أثبت الله تَعَالَى لِلإنْسان من الملك وما أثبت لنفسه من الاختصاص بالملك، ولهذا قَالَ بعض أهْل العِلْم كل شَيْء أضيف ملكه لِلإنْسان فهو على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة؛ لأن المالك حَقِيقَة هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأنا مالك مجازًا لأني لا أتصرف في هَذَا الشَّيء إلا بما أمرت أو كما أذن لي، لا أتصرف تصرفًا مطلقًا.

قَوْلهُ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المَرْجِع] اهـ.

هَذَا فيه تنبيه على أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مالك للأول والآخر فـ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ابتداء ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ انتهاء؛ ففيه -والله أعلم- إشارَة إلى أنَّه إذَا كَانَ الملك لله والمرجع إلَيْه فإنَّه لا يحل لنا أن نتصرف إلا حسب ما شرع لنا ما دمنا ملكًا لله عَزَّوَجَلَّ، نحنُ الآن مِلْكًا لله ومصيرنا إلى الله، فما دمت تعلم أنك مِلْك له وهو الَّذِي يدبرك: افعل كذا، ولا تفعل كذا، وما دمت تعلمك أيضًا أن مصيرك إلَيْه فلابُدَّ أن تستعد لهَذَا المصير؛ لأنَّه سوف يحاسبك عليه.

وقَوْلهُ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

إعْراب ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ محلها من الإعْراب خبر مقدم و﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ مُبْتَدَأ مؤخر، وتقديم ما حقه التأخير يُفيد الحصر، فكل شَيْء من حقه أن يتأخر إذَا قدمته معناه أنك تريد أن يَكُون ما بعده محصورًا فيه، فإذن المصير إلى الله مهما طار الْإِنْسَان ومهما

حلّق في الخيال وفي التفكير ومهما بقي في الدُّنْيَا فإن مصيره إلى الله عَزَّوَجَلَّ، كما قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ [البقرة:٢٢٣]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق].

فملاقاة الله عَزَّوَجَلَّ، والمصير إِلَيْه أمر لا بُدَّ منه حتمي، كما أن وجودنا من الله فكَذلِكَ أيضًا انتهاؤنا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويحتمل أن قَوْلهُ: ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ لَيْسَ المُراد مصير النَّاس في الْآخِرَة فقط بل مصير الْأُمُور كلها، يعني لمرجع إلى الله في كل شَيْء، كل شَيْء صائر إلى الله، فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يدبر ويفعل ما شاء.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور:٤٣].

قَوْلهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَسُوقُهُ بِرِفْقٍ] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخِطَاب لكل مخاطب ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المخاطب و(ترى) هُنا بصرية أو علمية؟ إِذَا قُلْنا: إنها بصرية معنى ذَلِك أن الأعمى لا يدري عن شَيْء ومعناه أَنَّه لم يعتبر بهَذَا السَّحاب لأَنَّه لا يراه، فهي علمية؛ لأَن العلمية تتضمن البصرية، فالرؤية في قَوْلهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمَعْنى العِلْم، وتفسيرنا لها بالعلم أعم من تفسيرها بالرؤية البصرية لأجل أن يشمل رؤية الْإِنْسَان ببصره؛ أي: عن طريق المشاهدة؛ لأَنَّها تؤدي إلى العِلْم ورؤية الْإِنْسَان بسمعه بما يخبر به؛ لأَنَّها تؤدي أيضًا إلى العِلْم، ورؤية الْإِنْسَان بقراءته عن هَذَا الْأَمْر لأَنَّه يؤدي إلى العِلْم، والمهم أَنَّه ما دامت الرؤية محتملة لأَن تَكُون بمَعْنى العِلْم فتفسيرها بالعلم أولى؛ لأَنَّه أشمل وأعم من السماع.

قَوْلهُ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ يسوقُه برفْقٍ ومِن المفسِّرين من يَقُول: يسوقه ولم يقيده برفق، ولعل ذَلِك أولى، أي: أن نفسر الإزجاء بالسَّوق سواء كَانَ برفق أو بغير

رفق؛ لأنَّنا نشاهد أن السَّحاب يسير أحيانًا برفق، أي: يَكُون مشيه رويدًا رويدًا، وأحيانًا يسير بسرعة وهو سحاب يَقُول -أظن- المتنبي:

وَمِنَ الخَيرِ بُطْءُ سَيْبِكَ عَنِّي أَسْرَعُ السُّحْبِ في المَسيرِ الجَهامُ

الذي لَيْسَ فيه ماء.

والاستفهام في قَوْلهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتقرير مثل قَوْله تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، فهو للتقرير أيضًا، يعني قد شرحنا لك، وهَكَذا كلما دخلت أداة الاستفهام على النَّفي صَارَت للتقرير، لتقرير ذَلِك الشَّيء يَقُول الله تَعَالَى مقررًا هَذَا الْأَمْر المرئي: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾.

الخِطَاب في قَوْلهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هل هو للنبي ﷺ أو لكل من يصح خطابه؟ الظَّاهِر أنَّه لكل من يصحّ خطابه؛ يعني: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المخاطب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾... إِلَى آخِرِهِ؛ لأَن ذَلِك أشمل.

قَوْلهُ: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَضُمّ بَعْضَه إِلَى بَعْض فَيَجْعَل الْقِطَع المُتَفَرِّقَة قِطْعَة وَاحِدَة] اهـ.

وهَذَا أيضًا مشاهد؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يؤلِّف بين هَذَا السَّحاب ويجمع بعضه إلى بعض حَتَّى يَكُون قطعة كَبيرَة، وأحيانًا لا يؤلِّف بينه، بل نفس القطعة الصَّغيرة تتوسع وتكون قطعة كَبيرَة لكن التأليف أبلغ؛ لأَن المُفَسِّر أحيانًا يَكُون من غير جنس المُفَسِّر به فدائمًا تَكُون سحابة بيضاء وحمراء وسوداء، ثم تجتمع وتكون بلون واحد، وهَذَا أبلغ، هَذَا التأليف يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ فيقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَعْضَه فَوْق بَعْض] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿رُكَامًا﴾ يعني متراكمًا بعضه فوق بعض، وهَذَا أيضًا مشاهد برؤية العين، فإن السَّحاب تجد بعضه فوق بعض، وإذا كنت في الطائرة مرتفعًا فإنَّه يبدو لك ذَلِك ظاهرًا، تجد من السَّحاب ما هو تحتَك ومن السَّحاب ما هو فوقك، وإذا كنت في الأَرْض يتبيَّن لك أن السَّحاب بعضُه على بعضٍ، وَذلِك بكون بعضه يغطي بعضًا، لكن كَيْفَ يغطي بعضه بعضًا؟ تنظر مثلًا قطعة تمر تحت قطعة أُخْرَى تتجاوزها وتتعداها، مما يدُلّ على أن بعضه فوق بعض، هَذَا الركام له منظر عجيب إِذَا كَانَ الْإِنْسَان ينظر إِلَيْه من أعلى، منظر يبهج ويسر، ولِذَلك جعله الله تَعَالَى من الآيَات الدالة على كمال قدرته.

قَوْلهُ: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المَطَر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ مَخَارِجه] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿فَتَرَى﴾ ترى هُنا بمَعْنى تبصر؛ لأَن المطر يُرى بالعين.

قَوْلهُ: ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾، أي: من خلال هَذَا السَّحاب، لكن هَذِهِ الرؤية هل الْإِنْسَان يدركها أو بعض النَّاس دون بعض؟ حَقِيقَة لا يدركها إلا إِنْسَان قوي النَّظر، لكن نحنُ نعلم أن المطر ينزل من السَّحاب ويتخلله.

قَالَ بعض العُلَماء: إنه يَكُون مثل الغربال الَّذِي يغربل به القمح وما أشبه ذَلِك، ينزل هَذَا المطر من خلاله، لكن من أين يأتي المطر إِذَا كَانَ ينزل من خلاله؟ من السَّحاب نفسه ينعصر -بإذن الله- ثم يتخلل منه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ:١٤]؛ فإنَّه -بإذن الله- ينعصر وينزل هَذَا المطر.

وعلى كل حال الأَسْبَاب الطبيعيَّة لا نعرف عنها شيئًا لكن هَذَا ما نعرفه بالرؤية الحسيَّة.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن﴾ زَائِدَة ﴿جِبَالٍ فِيهَا﴾ فِي السَّمَاء بَدَل بِإِعَادَةِ الجَارّ ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾، أَيْ: بَعْضَه ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾] اهـ.

الغريب أن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مرتبك في هَذَا، قَالَ في الأَوَّل: ﴿مِن جِبَالٍ﴾ (من زائدة يعني زائدة إِعْرابًا، فعلى كلامة يَكُون التَّقدير (ويُنَزِّل من السَّماء جبالًا)، ثم بعد ذَلِك قَالَ: بدل ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بإعادة الجار، البدل قَوْلهُ: ﴿مِن جِبَالٍ﴾ (في السَّماء) إِذَا كَانَت بدلًا بإعادة الجار، فهل ﴿مِن جِبَالٍ﴾ تكُون زائدة في قَوْلهُ: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؟

الجواب: لَيْسَت زائدة؛ لأنَّها لابتداء الغَايَة؛ يعني إلى الأَرْض، والمَعْنى الأَخِير الَّذِي ذكره هو المَعْنى الصَّحيح، وهو أن قَوْلهُ: ﴿مِن جِبَالٍ﴾ بدل ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كأنه قَالَ: (يُنَزِّل من جبال في السَّماء) فهي بدل من السَّماء بإعادة الجار الَّذِي هو يعني: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، يعني: (من السَّماء إلى الأَرْض)، من أين ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؟ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾، أَيْ: فِي السَّمَاء ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾، أَيْ بَعْضه] اهـ.

لو قَالَ قَائِلٌ: ما الفَرْق بين (مِن) الزائدة والصلة؟

قُلْنا: صلة أو زائدة المَعْنى واحد.

بقي أن نقول: ﴿فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ ﴿فِيهَا﴾ الضَّمِير يَعود إلى السَّماء؛ يعني من جبال في السَّماء، وقَوْلهُ: ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُرِيد أن تَكُون (مِن) للتبعيض؛ يعني: (يُنَزِّل بعض برد من هَذِهِ الجبال)، ويحتمل أن تَكُون زائدة؛ ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾، أي: بردًا، ينزل من السَّماء من جبال بردًا، فتكون (مِن) زائدة، ويحتمل أن تَكُون (مِن) لبَيان الجنس، كَيْفَ تَكُون لبَيان الجنس؟ أي: من جبال من البرد، فتكون الجبال نفسها من البرد.

وعلى هَذَا يَكُون المَعْنى: وينزل من السَّماء من جبال من البرد؛ فيَكُون مفعول التنزيل محذوفًا يعني ينزل بردًا.

إِذَا كَانَ من الجبال الَّتِي من البرد فإذا نَزَّل من الجبال الَّتِي من البرد ماذا ينزل؟ ينزل بردًا، فيَكُون المفعول محذوفًا تقديره بردًا، على كل حال (يُنَزِّل) على رأي المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مفعولها ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾؛ لأنَّه قَالَ: أي بعضه، على أساس أن (مِن) للتبعيض، فهي بمَعْنى بعض، وعلَيْه فيَكُون هَذَا هو مفعول يُنَزِّل، وأما المُنَزَّل منه فهي الجبال الَّتِي في السَّماء؛ لأنَّنا قُلْنا ﴿مِن جِبَالٍ﴾ بدل ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فإعادة الجار، فيَكُون المُنَزَّل منه هَذِهِ الجبال والمُنَزَّل البرد.

وعلى الاحتمال بأن (مِن) زائدة يَكُون أيضًا المُنَزَّل البرد، لكن لَيْسَت (مِن) للتبعيض.

وعلى الاحتمال الثَّالث قُلْنا: إن (مِن) لبَيان الجنس، أي: جنس الجبال من البرد لكن ماذا ينزل من السَّماء؟ ينزل بردًا، فعلَيْه يَكُون المُنَزَّل الَّذِي هو المفعول محذوفًا تقديره بردًا، ودل علَيْه السِّيَاق.

على كل حال معنى الآيَة الْكَرِيمَةِ أن في السَّماء جبالًا من البرد يُنَزِّل الله تَعَالَى منها، أي: من هَذِهِ الجبال، هَذَا المنزَّل أحيانًا يَكُون كبيرًا وأحيانًا يَكُون صغيرًا، لكن من نعمة الله أنَّه لا يَكُون كبيرًا بحيث يهدم البناء، هَذَا شَيْء نادر جدًا إنما يَكُون كبيرًا بحيث يقتل بعض الزروع أو بعض الأشجار حسب حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ، أما أن يهدم المنازل ويقتل الآدميين فهَذَا قليل وإن كَانَ قد يوجد لكنَّه قليل، وفي هَذَا دَليل على قدرة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن هَذِهِ السَّماء تَكُون فيها هَذِهِ الجبال من البرد، وينزل

منها ما ينزل بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحكمته على هَذِهِ الأَرْض؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾.

هَذِهِ الجُمْلَة: هل هي لبَيان الامتنان أو لبَيان العُقوبَة أو تحتمل؛ لأَن قَوْلهُ: (يصرف) قد يتبادر لِلإنْسان أن المُراد بالإصابة في أول الآيَة إصابة العُقوبَة كما يُقال: صرف الله عنك السوء وكما جاء في الحَديث: «وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ»[1]؛ فلا يعبَّر بالصرف إلا عن شَيْء مكروه، وعلى هَذَا فتكون جملة ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ مسوقة لبَيان العُقوبَة الَّتِي تحدث بهَذَا البرد.

ويحتمل أن تكُون من باب الامتنان؛ فإن البرد قد يَكُون خيرًا وقد يحصل به ري الأَرْض ونبات الأشجار وغير ذَلِك، فيَكُون هَذَا من باب سِيَاق الامتنان يصيب بهَذَا البرد من يشاء فينتفع به ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فيفوته الانتفاع، ولا مانع من أن يُستعمل الصَّرف في صرف الشَّيء النَّافع، وإن كَانَ الأكثر أن يَكُون في صرف الأَشْيَاء الضارَّة، لكن قد يُستعمل أيضًا في صرف الأَشْيَاء الَّتِي تنفع، وهَذَا من بلاغة القُرْآن أن تكُون هَذِهِ الجُمْلَة صالحة للوجهين: وجه العُقوبَة ووجه الرَّحمة، فالإصابة بالبرد أحيانًا تكُون عُقوبَة تهلك بها الزروع وتموت بها المواشي، وأحيانًا بالعَكْسِ.

قَوْلهُ: ﴿يَكَادُ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يقرُب ﴿سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ لَمَعَانه ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ النَّاظِرَة لَهُ، أَيْ: يَخْطَفهَا] اهـ.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث رقم (٧٧١)؛ عن علي بن أبي طالب.

من قوة هَذَا البرق يكاد سناه، يعني: لمعانه يذهب بالأبصار، وفي هَذَا إِشارَة إلى أن السَّحاب الَّتِي فيها برد يَكُون برقها أَشَدّ لمعانًا من غيره، فهَذَا البرق يكاد لقوته يذهب بالأبصار، ولا شَك أن هَذَا البرق عَظِيم جدًّا، وقد ذكروا أن فيه طاقة كَبيرَة من الكهرباء وأنَّها تساوي كذا وكذا من الكيلوات، وهَذَا الْأَمْر واقع الآن تجد مثلًا الطّائرات قد تَكُون دون هَذَا السَّحاب ومع ما فيها من الإضاءة لا تكاد تبصرها، أما البرق فإنَّه كما يُشاهد يكاد يخطف البصر ويملأ الأَرْض ضياء، مما يدُلّ على كثرة الطّاقة الكهربائية الَّتِي في هَذَا البرق مع أنَّه -بإذن الله- يحدث في لحظة كأنه انفجار كهربائي، وهَذَا هو الظَّاهِر أنَّه من باب الاحتكاك، كما ذُكر أنَّه يَكُون سالبًا وموجبًا فيتولد من بينهما هَذَا البرق، ولا مانع إن صح الحَديث أن يَكُون أيضًا هَذَا من أَسْبَاب ضرب المَلَك الَّذِي يسوق السَّحاب.

فإذا صح الحَديث فإنَّه لا يُنافي ما ثبت من حيث العِلْم، الَّذِي يتَّصل بهَذَا الْأَمْر من كونه اجتماع سالب وموجب فيحصل به هَذَا اللمعان، إِذْ أن اجتماع السالب والموجب قد يَكُون بأَسْبَاب ضرب الملك.

إذن هَذَا من آيَات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الدالة على كمال قدرته، فسوق هَذَا السَّحاب بين السَّماء والأَرْض وكونه جبالًا من البرد وإصابة الله تَعَالَى به من يشاء وصرفه عمَّن يشاء، كل ذَلِك من آيَات الله، ولهَذَا جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِصيغَة الاستفهام الدال على التَّقدير.

فيَنْبَغِي لِلإِنْسان أن ينظر في آيَات الله الْكَوْنِيَّة ليعتبر بها، إِذْ أن الاعتبار بها يستلزم عبادة الله عَزَّوَجَلَّ.

قَوْلهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ إِلَى آخِرِهِ، إنما قرر الله تَعَالَى ذَلِك لا لأجل أن ينظر الْإِنْسَان إلى هَذَا الشَّيء بل لأجل أن يعتبر بهَذَا الشَّيء الَّذِي ينظر إِلَيْه ويعلمه لَيْسَتدل به على قدرة الفاعل، ومِن ثَمَّ على عبادته؛ لأَن القادر مستحق للعبادة؛ ولهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١].

• • ❁ • •

الآيــة (٤٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [النور:٤٤].

قَوْلهُ: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: يَأْتِي بِكُلٍّ مِنْهُمَا بَدَل الْآخَر ؛ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التَّقْلِيب ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾ دَلَالَة ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ لِأَصْحَابِ الْبَصَائِر عَلَى قُدْرَة الله تَعَالَى] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ التقليب معناه: تغيير الشَّيء من جهة إلى جهة، وهَذَا التقليب؛ هل المُراد به التقليب الحسِّي الَّذِي أشار إلَيْه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمَعْنى أنَّه يأتي بهَذَا بدل هَذَا وهَذَا بدل هَذَا، أو المُراد ما هو أشمل؛ يعني: التَّقليب الحسي والمعنوي؟

الجواب: المُراد ما هو أعمُّ من التَّقليب الحسي، والتَّقليب الحسي أن الله يقلِّب الأَرْض بدلًا من أن كَانَت ضياء ونهارًا إلى ليل ثم إلى نهار وهَكَذا، ومن التَّقليب أيضًا تقليب الفصول؛ حيث يَكُون الليل والنَّهار مرة في وقت الشِّتاء ومرة في وقت الصَّيف، كل هَذَا من التقليب.

والتَّقليب المعنوي: ما يحصل في هَذِهِ الأَيَّام من الحوادث والتَّغيرات والعز والنَّصر والإذلال والخذلان؛ كما قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠].

المُهِمّ أنَّه يَجب أن نعرف أن هَذَا التَّقليب عام لكل ما يحصل من تغيير في الليل والنَّهار من الْأُمُور الحسية والْأُمُور المعنويَّة، ووجه العبرة أن في ذَلِك التقليب ﴿لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾، أي: فصاحب البصيرة فالمُراد بالأبصار هُنا البصائر ولَيْسَ المُراد بالأبصار بصر العين، فكل ذي بصيرة يعرف ما في تقليب الليل والنَّهار من قدرة الله عَزَّوَجَلَّ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ [القصص:٧١].

لو اجتمع الخلق كلهم على أن يُخرجوا الشَّمس في نصف الليل مثلًا لا يستطيعون، ولو اجتمعوا كلهم على أن يأتوا بالليل في نصف النَّهار ما استطاعوا إلى ذَلِك سبيلًا، ولو أن الله تَعَالَى جعل الوقت دائمًا ليلًا أو نهارًا ما استطاع الخلق كلهم أن يُغيِّروا هَذَا الوضع؛ ولهَذَا بيَّن الله تَعَالَى مِنَّتَهُ على عِبَادِه فقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر:٦١].

كَذلِكَ ما يحصل في الليل والنَّهار من الحوادث وتقلبات الْأُمُور؛ فهَذَا أيضًا فيه عبرة، تجد مثلًا هَذَا المُلك لهَذَا الرَّجل مُلك تامٌّ وافٍ ونعم وافرة، ثم ينقلب ذَلِك المُلك إلى ذل وأسر، وتجد هَؤُلَاءِ القوم في عز ونصر وتمكين وإذا الْأَمْر بالعَكْسِ. كل هَذَا مما يستدل به الْإِنْسَان العاقِل ذو البصيرة على ما لله تَعَالَى من قدرة في تقليب الْأُمُور ومن حِكْمَة في تدبيرها.

قَوْلهُ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ إِذَا كنت لا تتخذ من ذَلِك عبرة ولم تجد في نفسك حركة لهَذَا التقلُّب وهَذَا التغيُّر فاعلم أنك لست من ذوي البصائر؛ لأَن كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ محكم لا يتغير، وقد أخبر أن في ذَلِك التقليب عبرة لأولي الأبصار؛ فإذا لم يكن لك في ذَلِك عبرة فاعلم أنك لست من ذوي البصائر.

إذن لا بُدَّ أن تُعالج نفسك حَتَّى تتأمل ما في هَذَا التقليب من العبر وتعتبر به، لا تظن أن قَوْلهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ مجرّد كَلِمة أُطلقت، وتقول: الْإِنْسَان صاحب البصيرة يعرف ما لله تَعَالَى في ذَلِك من القدرة والحِكْمة، ولكن يَجب أن تعتبر، فإذا لم تعتبر فإنك لست من ذوي البصائر.

الآيــة (٤٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور:٤٥].

قَوْلُهُ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ بعدما ذكر آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في العالم العلويِّ ذكر آياته في العالم السفلي؛ وهو قَوْلُهُ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾.

قَوْلُهُ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: حَيَوَان ﴿مِّن مَّآءٍ﴾، أَيْ: نُطْفَة] اهـ.

قَوْلُهُ: ﴿خَلَقَ﴾ بمَعْنى أوجد ﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾؛ الدابَّة: كل ما يدبّ على الأَرْض وإن كَانَت قد تُطلق على ذوات الأربع عُرفًا فيُقال دابة للتي تمشي على الأربع، هَذَا في العادة والعرف، ولهَذَا لا يُسمَّى الْإِنْسَان دابة في العُرف، فلو قَالَ لك إنسان: يا دابَّة، يُمْكِن أن تتخاصم معه، لكن الدَّابَّة في اللُّغَة: كل ما دبَّ على الأَرْض فهو دابَّة؛ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦].

قَوْلُهُ: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ هَذَا أصل خلقة الدَّوابِّ من الماء، وقول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من نطفة لَيْسَ بصحيح؛ لأنَّه لَيْسَ كل دابة من نطفة، بل كل دابة من ماءٍ نطفة وغير نطفة؛ فأما يتوالد فماؤه نطفة، وأما ما يتولَّد فماؤه رُطوبة، يعني الشَّيء الَّذِي يتولد

من العَفونات والرُّطوبات ماؤه رطوبة، وأما الَّذِي يتوالد من نطفة فنعم له نطفة يخلقه الله منهـا؛ فكَلِمة ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ أعـم من كَلِمة نطفة، والواجب إبقاء الآيَة عَلى عُمومِها.

وهَذِهِ الآيَة بعض من قَوْله تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَـا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠]؛ لكن أيهما أعم؟ هَذِهِ الآيَة أعم؛ لأَن كل شَيْء حي يشمل الدوابّ وغير الدواب، حَتَّى الأشجار وشبهها أصلها من الماء.

قَوْلهُ: ﴿وَجَعَلْنَـا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ﴾ النَّاس يستشهدون بهَذِهِ الآيَة على غير ما أَرَادَ الله بها، يستشهدون بها على أن الماء ضروري لبقاء الحَياة؛ ولَيْسَ الْأَمْر كَذلِكَ، بل الآيَة تدُلّ على أن أصل هَذِهِ الأَشْيَاء الحية أصلها من الماء، ولو كَانَ المُراد ما يستشهد به النَّاس من أجله لقال: «وجعلنا من الماء كل شَيْءٍ حيًّا»، أي: صيَّرناه حيًّا بالماء، ولكن معنى الآيَة -بلا شَك- أن أصل هَذِهِ الأَشْيَاء الحية أصلها الماء، ومن جهة ثانية نقول: إِذَا كَانَ أصلها الماء فهي مفتقرة إِلَيْه.

قَوْلهُ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كَالحَيَّاتِ وَالهَوَامّ] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿فَمِنْهُم﴾؛ هَذَا التقسيم يدُلّ على أن المُراد بالدَّابة العقلاء؛ لقَوْلهُ: ﴿فَمِنْهُم﴾ وإلا لقال: «فمنها»، أي: من هَذِهِ الدواب إلا أن العُلَماء قالوا: إن في ذَلِك تغليبًا للعقلاء، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَمِنْهُم﴾، أي: من هَذِهِ الدواب ﴿مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ لكن الَّذِي يمشي على بطنه؛ هل يمشي أو يزحف؟ يزحف فمشيه الزحف مثل الحيات والهوام، الحيات معرُوفة والهوام ما هي؟ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يظهر لي أن في كلامه نظر؛ لأَن الهوام منها ما يمشي على بطنه، ومنها ما يمشي على رجلين، ومنها ما

يمشي على أربع، فالتَّمثيل بها فيه نظر، أما الحيات فنعم تمشي على بطنها، وكَذلِك الدود والسَّرْوُ[1]، وغيرهم يمشي أيضًا على بطنه.

قَوْلهُ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كَالْإِنْسَان وَالطَّيْر] اهـ.

الْإِنْسَان يمشي على رجلين اثنتين، والطير يمشي على رجلين اثنتين، لكن هل توجد طيور تمشي على أكثر من رجلين؟ لا نعلم قد توجد ولا ندري، لكن نحنُ نعرف أن الطيور لَيْسَ لها إلا رجلان اثنتان.

قَوْلهُ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كَالْبَهَائِم وَالأَنْعَام] اهـ.

لكن هل هَذَا التَّقسيم من باب الحصْر أو من باب القَصر؟

من باب القصر، يعني الاقتصار على بعض الأَشْيَاء؛ لأَن من الحيوانات أو من الدواب ما يمشي على أكثر من أربع، يوجد شَيْء يسمّونه (أبو أربع وأربعين رِجل)؛ موجود، وتوجد أشْيَاء لها دون ذَلِك، منها ما له ستة أرجل أو أكثر من ذَلِك، إنما هَذَا التقسيم لَيْسَ للحصر ولكنه للقصر؛ أي: من باب الاقتصار على بعض الأنواع فقط، ويدُلّ على ذَلِك قَوْلهُ: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قَوْلهُ: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني من هَذَا الَّذِي ذكر من كونه يمشي على بطنه وعلى رجلين وعلى أربع وعلى ما هو أكثر من ذَلِك فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا أحد يحجزه فهو خالق لما يشاء حسب ما تقْتَضِيه حكمته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قَوْلهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ القدرة صفة يتَّصف بها القادر بحيث

---

(١) دود يقع في النبات. انظر: القاموس المحيط (ص:١٢٩٥).

يفعل ما يُرِيد بدون عجز، بخلاف القوة؛ فإنَّه يفعل بها ما يُرِيد بدون ضعف؛ فالقوة تقابل بالضعف، والقدرة تُقابل بالعجز، انظر إلى قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤]، وانظر إلى قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]؛ فجعل القدرة في مقابل العجز، فلقدرته لا يعجز.

على كل حال؛ القدرة صفة بها يتَّصف القادر بحيث يفعل ما يُرِيد بدون عجز، مثلًا رجل يصلي قائمًا لكن مع تعب، ما نقول في هَذَا: قادر أو قوي؟ قادر، ويوجد إِنْسَان يصلي قائمًا وهو لا يهمه، هَذَا نسميه قويًا وقادرًا، وأيضًا يوجد إِنْسَان يحمل هَذِهِ الصَّخرة كما يحمل الريشة لا يهمه، وإنسان آخر يحمل هَذِهِ الصَّخرة مع تعب ومشقَّة، فالأول قوي والثَّاني قادر؛ لأنَّه يحملها لكن مع التعب والمشقَّة، وأيضًا ثالث: لما جاء يحملها عجز؛ هَذَا لَيْسَ قويًا ولا قادرًا.

وقَوْلهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ توجد كَلِمة بين النَّاس يَقُولُونَ: «إنه على ما يشاء قدير»، هَذِهِ الكَلِمة لا يَنْبَغِي أن تُقال؛ لأنَّه إِذَا قُيِّدت القدرة بالمشيئة حصل بِذَلِك قُصور، فتكون قدرته على ما يشاء دون الَّذِي لا يشاء، مع أن الله قادر على ما يشاء وعلى ما لا يشاء، لكن ما شاء كَانَ وما لم يشأ لم يكن.

فبعض النَّاس يَقُول: إنه على ما يشاء قدير، فيَجب أن يُنهى عنه، ويُقال: قل إنه على كل شَيْء قدير لا على الَّذِي يشاؤه فقط، لا سيَّما وأنك إِذَا قلت: إنه على ما يشاء قدير وقدمت المعمول فإن تقديم المعمول يُفيد الحصر، وأنك حصرت القدرة بما شاء فقط؛ وهَذَا لَيْسَ بصحيح. فالذي يَجب على الْإِنْسَان أن يُطلق صفة القدرة لله

كما أطلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنفسه، ويقول: إنه على كل شَيْء قدير؛ كما وصف الله نفسه، لا يُقيِّدها بما شاء.

أمَّا قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩]؛ فالمشيئة هُنا لَيْسَت قيدًا في القدرة ولكنها قيد في الجمع، بعني أنَّه إِذَا شاء هَذَا الفِعْل فلَيْسَ بعاجز عنه، وهَذَا قاله الله تَعَالَىٰ ردًّا على من أنكروا البعث، قالوا: إنه لا يُمْكِن أن يجمع الله النَّاس بعد أن تفرَّقوا في الأَرْض كانوا رميمًا، ومثل ذَلِك أيضًا ورد به الحَديث في مسلم في الرَّجل الَّذِي أمره الله تَعَالَىٰ أن يدخل الجَنَّة بعد ما سبق عليه، فقال له الله تعالى: «إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[1]؛ فإنَّه هُنا يخاطبه لفعل شَيْء وقع، فكأنه قَالَ: إني على ذَلِك قادر إِذَا شئته، ولهَذَا عبَّر بقادر دون قدير، فإن القدير أبلغ في الصِّفة، بخلاف قادر فقد تتعلق بفعل شَيْء معين.

على كل حال الَّذِي يَنْبَغِي لِلإنْسان بل الَّذِي يَجب علَيْه أن يطلق صفة القدرة إِذَا وصف الله بها فيقول: إنه على كل شَيْء قدير فقط ولا يُقيِّدها بمشيئة.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن الله تَعَالَىٰ له التصرُّف المطلَق في خلقه؛ لقَوْلهُ: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

الفَائِدة الثَّانية: إِثْبات القدرة وعموم قَوْلهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وأشرنا في التفسير إلى أن ما يستعمله بعض النَّاس من تقييد القدرة بما يشاء غلط، وأن الواجب إطلاق صفة القدرة، وأجبنا عن مثل قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا، حديث رقم (١٨٧)؛ عن ابن مسعود.

جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩]، والحَديث الَّذِي فيه: «إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»، وقُلْنا: هَذِهِ المشيئة متعلِّقة بالفِعْل لا بالصِّفَة فالصفة مُطلقة، والفِعْل هو المقيد بالمشيئة إِذَا شاء فعل وإذا شاء لم يفعل.

الآيــة (٤٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦].

قَوْلُهُ: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: بَيِّنَات، هِيَ الْقُرْآن، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ طَرِيق ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾، أَيْ دِين الإِسْلام] اهـ.

قَوْلُهُ: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ﴾ سبق الكَلام على مثلها عدة مرات، وقُلْنا: إن هَذِهِ الجُمْلَة مؤكَّدة بثلاث مؤكِّدات: القسم واللَّام وقد؛ لأَن ﴿لَّقَدْ﴾ أصلها (والله لقد) وتكون الجُمْلَة هُنا مؤكّدَة بهَذِهِ المؤكِّدات الثَّلاث.

وقَوْلُهُ: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾، أي: بينات، لا شَك أن هذ التفسير لا يُطابق المفسَّر؛ لأَن ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ أبلغ من بينات؛ لأَن المبيِّن: البائن في نفْسِه المبيِّن لغيره فهو ظاهر في نفْسِه مظهر لغيره، والبين ظاهر في نفْسِه فقط، والأول أبلغ؛ لهَذَا تفسير المُفَسِّر يعتبر قاصِرًا.

والصَّواب: أن المبيِّنات بمَعْنى البَيِّنَة في نفْسِها المبينة لغيرها، فالآيَات الَّتِي أنزلها الله مبينات؛ تبيِّن كل ما يتعلَّق بمصالح العباد، تبين الخَيْر من الشَّرِّ، والحق من الباطل، والمتَّقي من الفاسق، وصفات الخالق من صِفات المخْلُوق، وكل ما يحتاج النَّاس إلَيْه ويتعلَّق بمصالحهم في دينهم ودنياهم؛ فإن هَذِهِ الآيَات بينات، لكن

التبيين له طرق: تارة يَكُون تبيينًا بالتفصيل، وتارة يَكُون بالإجمال، فمثلًا إِذَا تدبرت آيَات الفرائض وقسمة المواريث تجد أن الآيَات فيها بينة بالتفصيل.

وإذا تدبرت بعض الآيَات الأُخْرَى مثل أقيموا الصَّلاة وآتوا الزَّكاة تجد أنَّها مجملة لكن الْإِنْسَان يعرف ذَلِك من أدلة أُخْرَى؛ ولهَذَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، ما من شَيْء إلا بيَّنه هَذَا القُرْآن.

وقد تقدَّم ما ذُكر عن الشَّيخ محمد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه كَانَ في مطعم في أحد بلاد أوروبا وكان عنْدَه رجل من النَّصَارَى، فقال له: أنتم تقولون إن القُرْآن تبْيان لكل شَيْء؛ فهل بَيَّن كَيْفَ يُصنع هَذَا الطَّعام؟ طبعًا نحنُ لا نرى في القُرْآن هَذَا، أي: أنك إِذَا أردت أن تصنع الطَّعام ضع بصلًا وضع ملحًا وضع لحمًا وما أشبه ذَلِك لَيْسَ هَذَا موجودًا، فقال: نعم، هَذَا القُرْآن بيَّن لها كَيْفَ نصنع هَذَا الطَّعام، تعجب هَذَا الكافر النَّصراني، قَالَ: كَيْفَ؟ فدعا صاحب المطعم، وقال له: كَيْفَ صنعت هَذَا الطَّعام، فقال له: صنعته بكذا وكذا وبيَّن له تراكيبه، فقال: هكذا في القُرْآن فإن الله يَقُول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧].

القُرْآن لم يبين ذَلِك تفصيلًا لكن أرشدنا كَيْفَ نهتدي إلى معرفة الْأُمُور في قَوْلهُ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وطبعًا لا يُراد بأهل الذكر في هَذِهِ الآيَة أهل الطبخ، لكن إما أن نقول المُراد بأهل الذكر أهْل العِلْم وعلم كل شَيْء بحسبه، وإما أن نقول أهْل العِلْم بالشَّرع ونقيس ما عدا العلوم الشَّرْعِيَّة على العلوم الشَّرْعِيَّة؛ فيَكُون من باب العُموم المعنوي في الآيَة؛ لأَن الآيَة إن لم تشمل هَذَا بِعُمومِها اللفظي فهي شاملة له بِعُمومِها المعنوي.

والعُموم اللفظي: هو الَّذِي دخل في الكَلام لفظًا، ودل علَيْه الكَلام دَلالَة مطابقة، والعُموم المعنوي: هو الَّذِي دل علَيْه الكَلام بالقياس، يعني لم يدخل في اللَّفْظ لكنَّه يُقاس عليه؛ لأَن القياس عِبارَة عن اشتراك المقيس والمقيس علَيْه في العِلَّة الَّتِي من أجلها ثبت الحُكْم، فهَذَا عُمُوم معنوي.

ولِذَلك نجد في كلام العُلَماء يَقُولُونَ: هَذِهِ المَسْأَلَة يشملها النَّص بِعُمومِه اللفظي، بمَعْنى أنَّها فرد من أفراد هَذَا العُموم، وأحيانًا يَقُولُونَ: بِعُمومِه المعنوي، بمَعْنى أنَّها تُقاس على ما دل عليه.

ثم قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ لما بَيَّن حال الآيَات وأنَّها آيَات مبينات، لكن هل كل أحد يَستَفِيد من هَذِهِ الآيَات المبينات؟

الجواب: لا، قَالَ: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ يعني على الرغم من كون الآيَات مبينات واضحة مبينة، على الرغم من ذَلِك فلَيْسَ كل أحد يهتدي بها، وإنما الله تَعَالَى ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

وهَذِهِ الآيَة كغيرها من كثير من الآيَات؛ مثل قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ ثم قَالَ: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس:٢٥]؛ فعمم بالدعوة، لكن الهداية قَالَ: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ فهَذِهِ مثلها، فالآيَات مبينات موضحة للأمور، لكن لَيْسَ كل أحد يهتدي بها، والله تَعَالَى ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

قَوْلهُ: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ تقدَّم أيضًا الكَلام على أن كل شَيْء قيَّده الله بمشيئته فهو مقرون بالحِكْمة، والله تَعَالَى يهدي من اقتضت الحِكْمَةُ هدايته.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: بَيان أن الآيَات الَّتِي أنزلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مبينة موضحة لكل شَيْء مبينة الحَقّ من الباطل، وأهل الخَيْر من أهل الشَّرِّ، والأَحْكام الَّتِي بين النَّاس، وغير ذَلِك.

ومع كون الآيات مُبينَة هل اهتدَى بها كلُّ النَّاس؟

لا، وإنما يهتدي بها من شاء الله هدايته، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾، لكن لَيْسَ كل أحد يهتدي بها؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الفَائِدة الثَّانية: أنَّه لا يَنْبَغِي لِلإنْسان أن يعتمد علَى نفْسِه في الهداية، بل يسأل الله دائمًا أن يهديه ثم يثبته ما دام أن الله هو الَّذِي يهدي، فإذن لا تستقل أنت بهداية نفسك فاسأل الله دائمًا الهداية ثم الثَّبات عَلَيْها، ولا تغترّ بما معك من الإِيمَان؛ فإن إعجاب الْإِنْسَان بعمله قد يؤدي إلى حبوطه وبطلانه.

الفَائِدة الثَّالِثَة: أن الشَّرع كله -الَّذِي هو دين الإِسْلام- مستَقِيم لَيْسَ فيه اعوجاج؛ لقَوْلهُ: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ ولهَذَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ الَّتِي تذهب يمينًا وشمالًا ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

لو قَالَ قَائِلٌ: إِذَا قُلْنا: إن الهداية من الله عَزَّوَجَلَّ وأنَّها مُعلَّقة بالمشيئة يهدي من يشاء؛ فهل لهَذِهِ الهداية من سبب؟

الجواب: طلب الْإِنْسَان الحَقّ؛ هَذَا من أَسْبَاب الهداية، الدَّليل على ذَلِك قَوْله تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، والدَّليل ما سيأتي في الآيَات الَّتِي

بعدها؛ فإنها تُرشد إلى ما ذكرنا أن سبب الهداية هو إرادة الْإِنْسَان الحَقّ وطلبه له، فإذا أراده وطلبه فإن الله تَعَالَى يهديه إلَيْه، أما إِذَا أعرض وتولى فإن الله تَعَالَى لا يهديه إلَيْه.

• ● ۞ ● •

الآية (٤٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:٤٧].

قَوْلهُ: ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: الْمُنَافِقُونَ ﴿ءَامَنَّا﴾ صَدَّقْنَا ﴿بِٱللَّهِ﴾ بتَوْحِيدِهِ ﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ وَأَطَعْنَاهما فِيمَا حَكَمَا بِهِ ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ يُعْرِض ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ عَنْهُ ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الْمُعْرِضُونَ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الْمَعْهُودِينَ الْمُوَافِق قُلُوبهمْ لِأَلْسِنَتِهِمْ] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ هَذِهِ حكاية عن جماعة سواء كانوا من الْمُنافِقِينَ؛ كما قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أم من غيرهم.

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ ﴾ فسَّر الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإِيمَان بالتصديق، وقد سبق أن هَذَا التفسير قاصِر، وأن الإِيمَان هو التصديق مضافًا إِلَيْه القبول والإذعان، وَذلِك بأن يقبل الْإِنْسَان ما جاء به الرَّسُول ﷺ وأن يُذعن له، أما مُجَرَّد التصديق فلَيْسَ بإيمان، ولهَذَا نحنُ نعلم أن أبا طالب كَانَ مُصدِّقًا للنبي ﷺ وهو بنَفْسِه يُقرُّ علَى نفْسِه بِذَلِك بقَوْلهُ:

لقَـدْ عَلِمُـوا أنَّ ابْنَنـا لا مُكـذَّبٌ ... لَدَيْنا، ولا يُعْنى بِقَوْلِ الأباطِلِ[1]

---

(١) سيرة ابن هشام (١ / ٢٩١- ٢٩٩).

ويقول:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا[1]

لكنَّه لَيْسَ بمؤمن مع التصديق؛ لأنَّه لم يُذعن ولم ينقد، لم يُذعن للرَّسول ﷺ ولا انقاد له، كَذلِكَ أيضًا الْكُفَّار الَّذينَ حكى الله عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٩]؛ هم مُصدِّقون باللهِ، لكن لما لم يقبلوا ما جاء به الرَّسُول ﷺ ولم يُذعنوا له لم يَكُونوا مُؤْمِنِينَ؛ فتفسير الإِيمَان شرعًا بمجرد التصديق تفسير ناقص، بل نقول: الإِيمَان هو التصديق مع القبول والإذعان، ولابُدَّ من ذَلِك.

قَوْلهُ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ أعاد حرف الجر في قَوْلهُ: ﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾؛ لأَن الإِيمَان بالرَّسُول إيمان مستقل، يعني: لا بُدَّ لِلإنْسان أن يؤمن باللهِ إيمانًا كاملًا ﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾ إيمانًا كاملًا كما أن الطَّاعة لله طاعة كاملة وللرَّسول كَذلِكَ مثل قَوْله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء:٥٩]، قَالَ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ ثم قَالَ: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ عطفها على طاعة الله والرَّسُول بدون إعادة العامِل إِشارَة إلى أن طاعة ولاة الْأُمُور تبع لطاعة الله ورسوله، أما طاعة الرَّسُول فهي مستقِلَّة؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وطاعة الله كَذلِكَ؛ مثله أيضًا الإِيمَان باللهِ وبالرَّسُول إِذَا جاء حرف الجر معناه أن هَذَا إيمان مستقل؛ كأن هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ آمنا إيمانًا كاملًا باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وآمنا إيمانًا كاملًا بالرَّسُول أنَّه رَسُول الله.

وقول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: آمنا باللهِ [أي: بتوحيده]؛ هَذَا أيضًا فيه قُصور بل الإِيمَان باللهِ يشمل التوحيد وغيره، فيشمل التوحيد والتصرُّف والتدبير والتَّشْريع

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٤٢).

وغير ذَلِك، يشمل كل هَذَا وكَذلِك يشمل ما له من الصِّفات؛ يعني لا يتم الإِيمَان باللهِ إلا بالإِيمَان بصفاته؛ لا بُدَّ من ذَلِك.

وقَوْلهُ: ﴿وَأَطَعْنَا﴾ هَذَا الانقياد يعني أَنَّنا مُؤْمِنُونَ وأيضًا مطيعون، لكن ما معنى الطَّاعة؟

الطَّاعة؛ قالوا: مَعْناها موافقة الْأَمْر، بمَعْنى: ألا تخرج عمن أمرك ولا تخالفه، بل توافق أمره؛ إن كَانَ إيجابيًا فبالفِعْل، وإن كَانَ سلبيًا فبالترك، هَذِهِ هي الطَّاعة، ولهَذَا كَلِمة طاعة تشمل فعل الأوامر وترك النَّواهي؛ لأَن مَعْناها موافقة الْأَمْر، فمعنى ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أي: أَنَّنا وافقنا أمر الله ورسوله فلا نخرج عنه، وبعد هَذَا القَوْل: ﴿يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد إقرارهم بالإِيمَان باللهِ ورسوله يعرض فريق منهم.

قَوْلهُ: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: ما أولئك المعرضون بالْمُؤْمِنِينَ حقًا، ولكن هَذَا النَّفي، هل هو نفي لِلْإِيمَانِ أصله، أو نفي لِلْإِيمَانِ كمال؟

فيه تفصيل؛ إِذَا كَانَ التولِّي تولِّيًا مطلقًا فهو نفي لِلْإِيمَانِ كله؛ لأي: لأصله، وإذا كَانَ التولي توليًا غير مطلق، بل في بعض الْأُمُور فإنها تختلف، فبعض الْأُمُور إِذَا تركها الْإِنْسَان وأعرض عنها قد يَكُون كافرًا، وقد يَكُون مؤمنًا ناقص الإِيمَان. المُهِمّ أن توليهم يُنافي ما ادَّعَوه من الإِيمَان.

وفي هَذَا دَليل واضح على أن الْإِنْسَان إِذَا قَالَ إنه مُؤْمن وهو متولٍ ومُعرض؛ فهو كاذب في دعواه، وهو إما أن يَكُون لَيْسَ مؤمنًا أصلًا، وإما أن يَكُون مؤمنًا لكن ناقص الإِيمَان.

قَوْلهُ: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ ﴿فَرِيقٌ﴾ بمَعْنى: جماعة ﴿مِّنْهُم﴾ أي: من هَؤُلَاءِ القائلين وفريق آخر باقون على الإِيمَان والطَّاعة لا يُعرضون، فيكُون ما ادَّعَوه من الإِيمَان حَقِيقَة.

انظر المحترزات في القُرْآن الكَرِيم في أول الآيَة، قَالَ: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ﴾ لأنَّه لَيْسَ كل من قَالَ: آمنا باللهِ وأَطَعْنَا لَيْسَ كلهم يتولون بل منهم من هو مُؤْمن حَقِيقَة ولا يتولى، كَذلِكَ إِذَا دعوا إلى الله ورسوله، هل كلهم يتولون؟ لا؛ منهم من ينقاد لحكم الله ورسوله ويتخاصم إلى ورسوله ويقبل حكم الله ورسوله؛ فقَوْلهُ: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران:٢٣]، أي: عن المجيء إلَيْه أو عن حكمه، انظر قَوْلهُ: ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾ و﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ التولي بالجسم والإعراض بالْقَلْب؛ لأَن المتولي قد يتولى وفيه أمل أن يرجع، لكن إِذَا تولى وهو معرض -والعِيَاذ باللهِ-؛ فالمعرض كاره لِـمَا دُعي إلَيْه؛ لأنَّه لـم يُعرض عنه إلا وهو يكرهه وهَذَا أَشَدّ في التولي، فالتولي بالجسم والإعراض بالْقَلْب، يعني أنهم يتولون ولَيْسَ من نيتهم الرُّجوع.

وفي الآيَة دَليل على خطر من يتعصب للمذهب أو لقول واحد من أَهْل العِلْم إِذَا دُعي إلى الله ورسوله وقِيلَ: هَذَا كتاب الله وهَذِهِ سنة رَسُول ﷺ، فالواجب التحاكم إلَيْهما والرجوع إلَيْهما.

بعض النَّاس يَقُول: المَذْهب كذا وقال العالم الفلاني كذا وما أشبه ذَلِك، هَذَا فيه شبه من هَؤُلَاءِ المُنافِقِينَ الَّذينَ إِذَا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم تجده متوليًا ومعرضًا، وبعض النَّاس -والعِيَاذ باللهِ- لا يتأنى أبدًا بسرعة يغضب ويقول: أبدًا، لا نريد هَذَا، نريد أن نتبع فلانًا.

وهل فلان هو الرَّسُول؟

الجواب: لا، فلان بشر يأخذ من قَوْل الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، تارة يُخطئ وتارة يصيب، فإذا قِيلَ: وأنت أيضًا تخطئ وتصيب؟ أقول: صحيح أنا أُخطئ وأُصيب، لكن هَذَا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تأمله أنت، أنا لا أُلزمك أن تأخذ بما فهمتُ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لكني أُلزمك أن تنظر إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ثم تنظر في قَوْل من قلدت، هل يَكُون موافقًا أو مخالفًا، أما أن تُعرض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتقول: أبدًا لا أنظر فيهما لأني أتبع فلانًا وفلانًا، هَذَا لا أوافقك عليه.

فهُنا فرق بين أن أدعوك إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله لتنظر فيهما وتتبعهما، وبين أن أقول: هَذَا كلام الله وسنة رسوله ﷺ، ولكن ألزمك ما أفهمه أنا، أنا لا أُلزمك به لأني إِذَا ألزمتك به فقد دعوتك إلى ما نهيتك عنه، دعوتك إلى تقليدي.

ولكنَّنا ندعوك إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، المُهِمّ ألا تتحجر وتقول: أنا لا أتبع إلا فلانًا، بل يَجب عَليْك أن تتبع ما يدُلّ علَيْه الكتاب والسنة سواء وافق رأي مُقلَّدك أم خالفه، لكن البلية كل البلية هي مَسْأَلَة التقليد المحض، إلا أنَّنا ولله الحمد نبشر النَّاس بأن هَذَا بدأ يضعف في النَّاس، أعني التقليد المحض الَّذِي يَكُون حَتَّى مع ظهور الحَقّ وبَيانه هَذَا بدأ -ولله الحمد- يضعف في النَّاس وصَارَ النَّاس يتطلَّبون الأقوال الَّتِي تَكُون راجحة حسب دَلالَة الكتاب والسنة بقطع النَّظر عن كون فلان أخذ بها أو لم يأخذ بها.

قَوْلهُ: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إِعْراب هَذِهِ الجُمْلَة: (ما) نافية لكنها تعمل عمل لَيْسَ عند الحجازيين وعند جميع النَّحويين، لكن لغة بني تميم لا يُعملونها

عمل لَيْسَ، وفي القُرْآن ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف:٣١]؛ فأعملها عمل (لَيْسَ)، ولم يقل في الآيَة: «ما هَذَا بشرٌ»، لو لم تعمل لكانت الآيَة: «ما هَذَا بشرٌ»؛ يَقُول الشَّاعر[1]:

ومُهَفْهَفِ الأعْطافِ قلتُ له انْتسِبْ فأجابَ: ما قَتْلُ المحِبِّ حَرامُ

هَذَا الشَّاعر تميمي؛ لأنَّه قَالَ له: انتسب، لم يقل: أنا تميمي، بل أجاب: «ما قتل المحب حرام»؛ فعُرف أنَّه تميمي؛ لأنَّه لو كَانَ حجازيًا لقال: «ما قتل المحب حرامًا»؛ فالحجازيون يُعملون (ما)، والمُراد بالحجازيين والتميميِّين وغيرهم: العرب الأولون الَّذينَ لم تتغير ألسنتهم؛ أما الآن فالألسنة متغيرة في عصرنا، فالحجازيون والتميميون سواء، وليعلم أن قولنا: الكوفيون أو النَّحويون أيضًا لَيْسَ وصفًا للعرب النَّاطقين باللُّغَة العربي، بل وصف للعلماء الَّذينَ تولَّوا العناية بالنَّحو.

الحاصل أن (ما) الحجازية، ترفع الاسْم وتنصب الخبر (أولاء) اسمها لكنَّه لَيْسَ مضمومًا؛ لأنَّه مبني، وأَسْماء الإِشَارَة كلها مبنية هَؤُلَاءِ وأولاء، وما أشبه ذَلِك كلها مبنية.

وقَوْلهُ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الباء) حرف جار زائد، وهو زائد من حيث الإِعْراب، أمَّا من حيث المَعْنى ففيه تأكيد النَّفي في قَوْلهُ: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

وقَوْلهُ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ خبر (ما) والنَّحويون يَقُولُونَ: إنه خبرها لكنَّه غير مَنْصُوب بها؛ لأَن الباء الزائدة يَكُون العَمَل لها؛ لأَن عملها فيه ظاهر بمباشرتها إياه،

---

(١) روح المعاني (١٢/ ٢٣٢).

فيَكُون الباء حرف جر زائد و(المُؤْمِنِينَ) اسم مجرور بالباء وعلامة جره الياء نيابة عن الكَسْرة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، وبعضهم يَقُول: (المُؤْمِنِينَ) خبر (ما) مَنْصُوب بها، وعلامة نصبه ياء مقدّرة غير الياء الظَّاهِرة؛ لأَن الياء الظَّاهِرة لمناسبة الباء، وهَذِهِ الياء المقدرة منه من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

على كل حال هَذَا تعمُّق شديد لَيْسَ له داع، إنما يَجب أن نعرف أن (ما) نافية من حيث المَعْنى، و(الباء) حرف جر زائد، والغرض منه تأكيد النَّفي، أي: الإِيمَان عن هَؤُلَاءِ الَّذينَ قالوا: آمنا وأَطَعْنَا، ثم تولوا ولَيْسَوا بمُؤْمِنِينَ، وتقدَّم أن نفي الإِيمَان هُنا إما نفي لأصله وإما نفي لكماله.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٤٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [النور:٤٨].

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ الضَّمِير يَعود على هَؤُلَاءِ القائلين الَّذينَ يَقُولُونَ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ﴾ يتولون.

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: المُبَلِّغ عَنْهُ ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ عَنِ المَجِيء إِلَيْهِ] اهـ.

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ أي: دعاهم من يخاصمهم إلى الله وإلى رسوله ليحكم بينهم، أعرضوا.

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ هل المُراد أن يُدعَوا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليصلوا إلَيْه فوق عرشه؟

الجواب: لا، وإنما يَكُون الدُّعاء إلى الله بالدَّعوة إلى كتابِه؛ لأَن كتاب الله كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فالدُّعاء إلى الله هو الدُّعاء إلى كتاب الله.

وقَوْلُهُ: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ هل المُراد أن يصلوا إلى النَّبِيّ ﷺ في بيته أو في مسجده أو في سوقه؟

نقول: في حياته يصلون إلَيْه شخصيًا في المسجد أو في البَيْت أو في السوق، وبعد وفاته إلى سُنَّته؛ لأَن سنته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هي: قَوْلهُ وفعله وإقراره، فإننا نشاهده عنْدَما ندعوا إلى قَوْلهُ أو إلى فعله أو إلى إقراره.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [المبلغ عنه] أي: عن الله، وإنما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا لأجل أن يبين أن حكم الرَّسُول ﷺ هو حكم الله، وحتى لا يقع إِشْكال في قَوْلهُ: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ مع أنهم مدعوون إلى الله ورسوله.

ثم قَالَ المُفَسِّر: [المُبَلِّغ عَنْهُ أَوْ ذُكِر الله لِتَعْظِيمِهِ]. وقَوْلهُ: [أَوْ ذُكِر الله لِتَعْظِيمِهِ] غير موجود في النُّسخ الأُخْرَى، فهَذِهِ الحاشية إن صحت فيَكُون مراده رَحِمَهُ اللَّهُ أن ذكر الله لَيْسَ مقصودًا ولكن للتعظيم، أي لتعظيم حكم الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأَن الَّذِي سيحكم هو النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكن هَذَا لا وجه له.

وقَوْلهُ: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ (اللَّام) للتَّعليل، يعني دُعوا لـهَذَا الغرض ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الضَّمِير في قَوْلهُ: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ هل يَعود على الله أو على الرَّسُول ﷺ أو عليهما؟ لا يصِح أن يَعود عليهما، إِذْ لو كَانَ عائدًا عليهما لوجب أن يَكُون الضَّمِير بِصيغَة التثنية، أي: إِذَا دعوا إلى الله ورسوله ليحكما بينهم، لكنها تعود إلى واحد منهما، إلى الرَّسُول ﷺ لأَنَّه أقرب مذكور، لكن بالنِّسْبَةِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إما أن يُقدر جملة مثل هَذِهِ الجُمْلَة يعني مثل قَوْلهُ: «إلى الله ليحكم بينهم ورسوله ليحكم بينهم»، مثل ما قُلْنا في قَوْله تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التَّوبة:٦٢]، ولم يقل: أن يُرضوهما بل قَالَ: ﴿أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ فقالوا: إن التَّقدير: «والله أحق أن يُرضوه ورسوله أحق أن يُرضوه»، وإما أن يُقال: إن حكم الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو حكـم الله ويشير إلى هَذَا قَـوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي إلى رَسُول الله المبلغ عنه]؛

فإذا كَانَ النَّبِيّ ﷺ هو المبلغ عن الله صَارَ حكمه حكم الله.

وفي الحَقيقَة أن الحاكم المباشر هو الرَّسُول ﷺ فعند النِّزاع في حياته نرجع إلَيْه مباشرة لِذَلك نقول: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الضَّمِير يَعود على الرَّسُول ﷺ ولماذا؟ لأنَّه أقرب مذكور، ثم نقـول: إن حكم الرَّسُول ﷺ هـو حكم الله؛ لأنَّه مبلغ عنه، لا يحكم إلا بما حكم الله به.

هَؤُلَاءِ إِذَا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿إِذَا﴾ يسميها النَّحويون فجائية، يعني المفاجئة، ففي هَذِهِ الآيَة ﴿إِذَا﴾ الأولى في قَوْلهُ: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ شرطية جوابها ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ لكنَّه صدَّر بـ﴿إِذَا﴾ الفجائية؛ لأنَّه جملة اسمية، وإذا كَانَ الجواب جملة اسمية، فلابُدَّ أن يصدر بالفاء أو بـ(إذا) الفجائية.

إِذَنْ (إذا) فُجائية، يعني تدُلّ على مفاجئة ما بعدها لما قبلها فهَؤُلَاءِ إِذَا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم هل يُفكرون وينظرون هل يقبلون أو لا يقبلون؟

الجواب: لا، يردون مباشرة -والعِيَاذ باللهِ- لا يتأنون في الْأَمْر ويفكرون: بل ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ بسرعة يعني بدون تروٍ، فكأنهم من الأَصْل مستعدون لرد حكم الله ورسوله، وهَذَا -والعِيَاذ باللهِ- أَشَدّ في الاسْتِكْبار وفي العتو من رجل يَقُول: يتروى ثم يعرض، وإن كَانَ الحُكْم واحدًا؛ إِذْ الواجب قبول ما حكم به الله ورسوله، لكن كون الْإِنْسَان يُفَاجِئ بالإعراض دَليل على أنَّه مستكبر ولا يُرِيد أبدًا أن يخضع للحق، ولهَذَا قَالَ: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: أن الحُكْم لله ورسوله والتحاكم إلى الله ورسوله، قد أقسم الله تَعَالَى قسمًا مؤكَّدًا بأنهم لن يؤمنوا حَتَّى يُحكِّموا النَّبِيَّ ﷺ فيما شجر بينهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء:٦٥]، هَذِهِ مرحلة، المرحلة الثَّانية: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء:٦٥]، هاتان مرحلتان، يعني لا يَكُون في نفسك ضيق أو كراهة لما حكم به الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، المرحلة الثَّالِثَة ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، يعني: ينقادوا انقيادًا تامًّا.

والنَّاس مختلفون فيما يلتزمون من هَذِهِ المراحل، فمن النَّاس من لا يُحكِّم الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهَذَا من الأَصْل لم يدخل في المراحل الثَّلاث، ومن النَّاس من يحكم الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لكن يجد في نفْسِه حرجًا من حكم الله ورسوله؛ لأنَّه يخالف هواه فتجده متحرِّجًا، يعني يحكم الله ورسوله لكن مع ضيق وحرج، هَذَا أيضًا لَيْسَ بمؤمن، ومن النَّاس من يحكم الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولا يَكُون في صدره حرج من حكمه، لكن لا يستسلم، يَكُون مثلًا عنْدَه تأنٍّ وعنده تهاون أو تقصير في بعض التنفيذ، هَذَا أيضًا لَيْسَ بمؤمن.

إِذَنْ لا بُدَّ من الْأُمُور الثَّلاثة: التحكيم وانتفاء الحرج والتسليم، وتأمل قَوْلهُ: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ إشارَة إلى أنَّه تسليم كامل، ولهَذَا يُسمي النَّحويون هَذَا المَصْدَر مصدرًا مؤكِّدًا، يعني: أنهم يُسلِّموا تسليمًا كاملًا لَيْسَ فيه أي التواء أو إعراض، هَذِهِ الآيَة مثلها.

الآيــة (٤٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور:٤٩].

قَوْلهُ: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾، قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَعْنِي مُسْرِعِينَ طَائِعِينَ] اهـ.

إذا كَانَ الحَقّ لهم في حكم الله ورسوله لا يتولون وإنما يُسرعون وينقادون فدل ذَلِك على أنهم لا يُريدُونَ الحَقّ وإنما يُريدُونَه ما يوافق أهواءهم، إن كَانَ الحَقّ لهم قبلوا وانقادوا، وإذا كَانَ الحَقّ عليهم تولوا وأعرضوا، بل إن ظاهر الآيَة الْكَرِيمَةِ أنهم يُعرضون في حالين: إِذَا كَانَ الحَقّ عليهم وإذا لم يكن عليهم ولا لهم؛ لأنهم لا يذعنون إلا إِذَا كَانَ الحَقّ لهم.

وفي الحَقيقَة أن طاعتهم وإذعانهم هو لهوى أنفسهم لا للحق، وهَذَا أيضًا حال بعض النَّاس، تجده إِذَا دل الكتاب والسنة على ما يهوى ويريد ينشرح صدره ويذعن ويقبل، وإذا دل الكتاب والسنة على خلاف ما يُرِيد تجده يَكُون في نفْسِه حرج وربما يزيد على ذَلِك الإعراض والتولي، هَذَا في الحَقيقَة لَيْسَ بمؤمن وإنما يتبع من الحَقّ ما وافق هواه فقط، أما المُؤْمِن فله حال أُخْرَى ستأتي -إِنْ شَاء اللهُ-.

الآية (٥٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٥٠].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كُفْرٌ، ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ أَيْ: شَكُوا فِي نُبُوَّته ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ فِي الْحُكْم أَيْ: فَيَظْلِمُوا فِيهِ. لَا، ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ] اهـ.

يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا حال هَؤُلَاءِ الَّذينَ يَردُّون ما حكم الله به ورسوله بأنهم لا يخلون من هَذِهِ الأَحْوال الثَّلاثة:

الأوَّل: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والمرض هو عِلَّة تصيب الصَّحيح فيخرج عن الاعتدال، وهَذَا التعريف للمريض يشمل المرضي الجسمي والمرض الْقَلْبي، فالمرض الجسمي في الحَقيقَة عِلَّة تصيبه فيخرج عن الاعتدال، كَذلِكَ المرض الْقَلْبي عِلَّة تصيب الْقَلْب فتخرجه عن الاعتدال حَتَّى ينحرف ولا يقبل الحَقّ، والمرض المشار إلَيْه هُنا، المُفَسِّر فسّره بالكفر، والذي يظهر لي -والله أعلم- أن المُراد به الشَّهْوَة في الإِرادَة السيئة بِدَلِيل التقسيم سواء كَانَ كفرًا أو نفاقًا أو غير ذَلِك، المُهِمّ أن المرض هو الإِرادَة السيئة الَّتِي تصرفهم عن قبول الحَقّ.

الثَّاني: ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ هَذَا الشَّك، وهو مرض الشُّبهة؛ وقد تقدّم كثيرًا أن أَسْبَاب

الانحراف عن الحَقّ إما شبهة وإما شَهْوَة، يعني إما أن الْإِنْسَان يشتهي أمرًا مخالفًا للشَّرع فيتبعه، وإما أن يَكُون عنْدَه شبهة في هَذَا الحَقّ فيمتنع منه، فنقول هُنا: يَنْبَغِي أن يفسر المرض بالإِرادَة السيئة الَّتِي هي الشَّهْوَة، أي: اشتهاء ما يُخالف الشَّرع، فقَوْلهُ: ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ أي: شكوا، هَذَا مرض الشُّبهة الَّذِي يعرض لِلإنْسان حَتَّى لا يتبيَّن له الحَقّ.

ونضرب لِذَلك مثلًا برجل أُمِرَ بأمر من الْأُمُور، أمر أن يصلي ولكنه قدم أمرًا دنيويًا على صلاته، ما الَّذِي في قلبه من الْأَمْراض؟ في قلبه مرض الشَّهْوَة، وآخر أمر أن يصلي لكنَّه شك في فَائِدَة الصَّلاة أو شك في وُجوبها أو ما أشبه ذَلِك، هَذَا في قلبه مرض الشُّبهة، فقَوْلهُ: ﴿مَّرَضٌ﴾ أي: إرادة سيئة، ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ هَذَا الشَّك -والعِيَاذ باللهِ-.

الثَّالث: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ يعني: لَيْسَ عندهم إرادة سيئة ولا عندهم شك في حكم الله ورسوله فقط، لكن عندهم شك آخر، شك في عدالة الله ورسوله، ولهَذَا هم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله، فيخشون من الميل والجور، وفي الحَقيقَة أن الميل والجور عندهم هم لَيْسَ في حكم الله ورسوله، بل إن حكم الله ورسوله على الحَقّ والعَدْل، ولكنَّ الجور في ميزانهم هم؛ لأنهم هم الَّذينَ حادوا عما يَجب أن يَكُونوا علَيْه من الامتثال والطَّاعة.

قَوْلهُ: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿بَلْ﴾ هَذِهِ للإضراب، هَذَا الإضراب؛ هل هو إضراب إبطال أو إضراب انتقال؟ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ماذا يراه؟

موجب كلام المُفَسِّر أن الإضراب هُنا للإبطال ولِذَلك قدَّر، لا، بعد الاحتمالات الثَّلاثة السَّابِقة، وعندي أن الإضراب هُنا لَيْسَ للإبطال، وإنما هو للانتقال؛ لأَن

حَقِيقَة الْأَمْر أن الَّذِي لا يقبل حكم الله ورسوله لا يخرج عن هَذِهِ الْأُمُور الثَّلاثة: إما أن عنْدَه إرادة سيئة أو عنْدَه شك أو خوف، لا نتصوَّر أمرًا رابعًا يرد على هَذِهِ الاحتمالات الثَّلاثة.

ثم إن وصفهم بالظُّلْم لا يخرج عن هَذِهِ الاحتمالات الثَّلاثة أيضًا، فمن في قلبه مرض فهو ظالم، ومن في قلبه شبهة فهو ظالم، ومن خاف أن يحيف الله ورسوله علَيْه فهو ظالم، إِذَنْ فالمَسْأَلَة من باب الإضراب الانتقالي ولَيْسَ من باب الإضراب الإبطالي.

وقَوْلهُ: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ ﴿أَمِ﴾ في هَذِهِ المواضع هل هي للتسوية الَّتِي بمَعْنى (أو) أو للإضراب الَّذِي بمَعْنى (بل)؟ تقدَّم فيما سبق أن (أم) الَّتِي بمَعْنى (أو) هي الَّتِي تأتي بعد همزة التسوية مثل قَوْله تَعَالَى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]، وقَوْلهُ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المُنافِقُونَ:٦]؛ هَذِهِ هي الَّتِي بمَعْنى (أو) ويسمونها متصلة، وأما الَّتِي تأتي بمَعْنى (بل) فهي الَّتِي لا يسبقها همزة تسوية وتسمى منقطعة، وعلى هَذَا فـ﴿أَمِ﴾ في قَوْلهُ: ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ﴾ هَذِهِ منقطعة بمَعْنى (بل)، وقد وردت كثيرًا في آخر سورة الطور؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ ثم قَالَ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور:٢٩-٣٣]؛ فهمزة الاستفهام هُنا منقطعة بمَعْنى (بل) ولَيْسَت متصلة؛ لأَن المتصلة هي الَّتِي تأتي بعد همزة التسوية وتكون بمَعْنى (أو) وأما المنقطعة فهي الَّتِي لا تأتي بعد همزة التسوية وتكون بمَعْنى (بل).

وقَوْلهُ: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هُنا سجل عليهم الظُّلْم وأكده بنوعين من التَّأكيد، أكده بضمير الفصل وبكون الجُمْلَة اسمية مُعرَّفة الطرفين؛ لأَن الجُمْلَة إِذَا كَانَت اسمية معرفة الطرفين فإنها تفيد الحصر، هُنا (أولاء) مُبْتَدَأ وهي معرفة؛ لأنَّها اسم إِشارَة ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ خبر وهو معرفة لأنَّه محلى بـ(ال) وعلى هَذَا أكد الله ظلمهم بنوعين من التَّأكيد وقد تقدَّمت فوائد ضمير الفصل الَّذِي يرد كثيرًا في القُرْآن وفي غير القُرْآن.

• • ۞ • •

الآية (٥١)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١].

لـمَّا بين الله عَزَّوَجَلَّ حال المُنافِقِينَ وأنهم إِذَا كَانَ الحَقّ لهم في حكم الله ورسوله أتوا إِلَيْه مذعنين، يعني: منقادين مطيعين فصاروا إنما يتبعون أهواءهم فقط بيَّن حال المُؤْمِنِينَ، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

أولًا: إِعْراب قَوْلهُ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿قَوْلَ﴾ مَنْصُوب، والمعْرُوف أن (كَانَ) ترفع الاسْم وتنصب الخبر، وهنا الَّذِي يليها مَنْصُوب وجوابه أن هَذَا هو خبرها مقدمًا، أعني ﴿قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ خبرها مقدمًا، واسمها المَصْدَر المنسبك من (أن والفِعْل) في قَوْلهُ: ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يعني: ما كَانَ قولهم إلا هَذَا القَوْل: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وقَوْلهُ: ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى كتابه وإلى ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ إِلَيْه شخصيًا في حياته وإلى سنته بعد وفاته؛ ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يقال فيه ما سبق في الآية نظيرها ﴿بَيْنَهُمْ﴾ الضَّمِير يَعود على الرَّسُول ﷺ وإنما أسند الحُكْم إِلَيْه؛ لأَن حكمه تبليغ عن الله عَزَّوَجَلَّ فيكُون حكمه منتظمًا لحكم الله أيضًا؛ إِذْ هو المبلغ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقَوْلهُ: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يشمل ما تنازعوا فيه من الخُصومَات وما اختَلفُوا فيه من الأَحْكام، فإن الحاكم هو الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الخصومات الَّتِي تحدث بين المتشاجِرين وفي الأَحْكام الَّتِي يختلف فيها النَّاس، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:١٠]، وقَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء:٥٩]؛ فالمُؤْمِنُونَ إِذَا دعوا إلى الله والرَّسُول ليحكم بينهم فقولهم: أنْ يقولَوا: سَمِعْنَا وأَطَعْنَا، أنْ يقولَوا: سَمِعْنَا بآذاننا وأَطَعْنَا بجوارحنا، فهم يسمعون وينقادون.

والطَّاعة شاملة لفعل الأوامر وترك النَّواهي، فهي شاملة للأمرين جميعًا، عكس الَّذينَ يَقُولُونَ: سَمِعْنَا وهم لا يسمعون، أو يَقُولُونَ: سَمِعْنَا وعصينا، فيَقُولُونَ: سَمِعْنَا وهم لا يسمعون، أو يَقُولُونَ: سَمِعْنَا وعَصَيْنَا، فيَقُولُونَ: سَمِعْنَا ولا ينقادون أو يُصرِّحونَ بالعصيان يَقُولُونَ: سَمِعْنَا وعَصَيْنَا، المُؤْمِنُونَ يَقُولُونَ: سَمِعْنَا وأَطَعْنَا.

قَوْلهُ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَالْقَوْل اللَّائِق بِهِمْ ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بِالْإِجَابَةِ] اهـ.

يعني: أنَّه ما كَانَ قولـهم اللائق، فظاهر كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أن المَسْأَلَة على سبيل التَّقدير والفرض؛ أي: لا يفترض إلا أنْ يقولَوا هَذَا، ولكن الحَقيقَة أن هَذَا هو الواقِع، لَيْسَ هو بالقَوْل اللائق فقط بل هو القَوْل اللائق الواقِع، فالمُؤْمِنُونَ إِذَا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم فقولهم أنْ يقولَوا: سَمِعْنَا وأَطَعْنَا، مثل ما قَالَ اللهُ عنهم: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة:٢٨٥]، وكوننا نجعل هَذَا قولًا لائقًا، أي: مقدرًا ومفروضًا خلاف ظاهر القُرْآن؛ فإن قَوْل المُؤْمِنِينَ إِذَا دعوا إلى الله ورسوله

يَقُولُونَ: سَمِعْنَا وأَطَعْنَا، سمعًا وطاعة وعلى الرحب والسعة، فهَذَا قولهم اللائق الواقِع منهم، إِذَا دعوا إلى الله ورسوله لا يَقُولُونَ: رأي فلان خلاف ذَلِك، ورأي فلان خلاف ذَلِك، والنَّاس على خلاف ذَلِك وما أشبه ذَلِك، لا يَقُولُونَ هَذَا، بل يَقُولُونَ: سَمِعْنَا وأَطَعْنَا، وهَذَا الواجب على المؤمن، فمن لم يقل هَذَا فلَيْسَ بمؤمن، إما أنَّه قد انتفى عنه الإِيمَان بالكلية أو هو ناقص الإِيمَان.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ حِينَئِذٍ ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ النَّاجُونَ] اهـ.

قَوْلُهُ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، وقد تقدَّمت فوائده الثَّلاثة: الحصر والتَّأكيد وتمييز الخبر من الصِّفة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الَّذينَ يَقُولُونَ: سَمِعْنَا وأَطَعْنَا إِذَا دعوا إلى الله ورسوله هم المفلحون.

يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (أي النَّاجون)، والأصح أن الفلاح لَيْسَ نجاة فقط، بل نجاة من المرهوب وحصولٌ للمطلوب، فالمُفلح هو الَّذِي نجا مما يكره وأدرك ما يحب.

إِذَنْ هَؤُلَاءِ هم الَّذينَ نجوا من المرهوب لانتفاء العصيان منهم، وأدركوا المَطْلوب لحصول تمام الطَّاعة منهم، فبالطاعات حصول المَطْلوب واجتناب المعَاصِي النَّجاة من المرهوب، وحصر الفلاح في هَؤُلَاءِ يدُلّ على أن من سواهم غير مفلح، لكن إن انتفى عنه الإِيمَان كله انتفى عنه الفلاح كله، وإن انتفى عنه بعض الإِيمَان انتفى عنه بعض الفلاح.

إِذَنْ وظيفة المُؤْمِن فيما إِذَا دُعي إلى حكم الله ورسوله أو فيما إِذَا اطَّلع هو بنَفْسِه على حكم الله ورسوله وظيفته أنْ يقولَ: سَمِعْنَا وأَطَعْنَا، يلتفت يمينًا أو شمالًا

أو يؤول أو يحرف، لا، بل يَقُول: سَمِعْنَا وأَطَعْنَا انقيادًا تامًّا وسمعًا تامًّا؛ لأَن بِذَلِك يتحقق الإِيمَان، والْإِنْسَان الَّذِي ينقاد لحكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهَذِهِ السهولة وبِهَذِهِ المطابقة هو الَّذِي يستريح ولا يحصل عنْدَه قلق؛ لأَن من عوَّد نفسه التردد في قبول الأَحْكام الشَّرْعِيَّة ولو في حكم واحد؛ فإن النَّفس تجبره على أن يتردد في كثير من الْأُمُور الشَّرْعِيَّة، يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠].

فالْإِنْسَان إِذَا عوَّد نفسه قبول الحَقّ من أول وهلة وبدون أي قلق أو تردد في تنفيذه فإِنَّه يسهل علَيْه بعد ذَلِك الانقياد لجميع الأوامر وعدم الالْتِفات والتردد، ولكنه إِذَا فعل، ولو مرة، وتردد في أمر من الْأُمُور من الأَحْكام الشَّرْعِيَّة، بعد أن يثبت عنْدَه الحُكْم وأن هَذَا حكم الله ورسوله، فإن تردده في قبوله خطر علَيْه جدًّا؛ لأَنَّه يؤدي إلى التردد في الأَحْكام الأُخْرَى المستقبلة، دعنا من التردد في الثُّبوتِ، التردد في الثُّبوتِ شَيْء آخر، فالمكلف له أن يتردد في الثُّبوتِ إِذَا كَانَ الحَديث ضعيفَ السَّنَد مثلًا أو ما أشبه ذَلِك.

ونظير ذَلِك في الحُكْم القدري أيضًا، الْإِنْسَان الَّذِي لا يمرن نفسه على الصَّبر على أحكام الله وعلى قضائه وقدره يبقى قلقًا دائمًا متعبًا من الأَحْكام القدرية الَّتِي لا تلائمه، فإذا تمشى مع القضاء والقدر وصَارَ إن أصابه خير اطمأن به وإن أصابه شر صبر علَيْه ورضي بالقضاء والقدر؛ فإِنَّه بِذَلِك يستريح ولا يقلق أبدًا، تجد الْإِنْسَان الَّذِي يُرِيد من الله عَزَّوَجَلَّ أن يَكُون قضاؤه وقدره فيما يلائمه تجده دائمًا في قلق؛ لأَن القضاء والقدَر لَيْسَا على ما تريد، كما أن الشَّرع أيضًا لَيْسَ على ما تريد، الشَّرع لَيْسَ على ما يُرِيد النَّاس.

والقضاء والقدَر لَيْسَ على ما يُرِيد النَّاس، فمن تمشى مع هَذَيْنِ الحُكْمين فإنَّه سوف يجد الفلاح والطُّمأنينة والحَياة الطيبة، ومَن قَلِق منهما أو من أحَدهما فإنَّه سيبقى في قلق، إن كَانَ من الْأَمْر القدري بَقِي في قلق وحزن؛ لأَن الْأُمُور لا تأتي على ما يَنْبَغِي، وإن كَانَ من الْأُمُور الشَّرْعِيَّة كَذلِكَ أيضًا ينفتح علَيْه باب التردد في قبول أحكام الله وتنفيذها.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: بَيان صفة الانقياد للمُؤْمِنِينَ، وجه ذَلِك أنهم ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ يَقُولُونَ: سَمِعْنَا وأَطَعْنَا لا يتلْكؤون ولا يترددون.

الفَائِدة الثَّانية: ما يترتب على هَذَا السمع والطَّاعة من الفلاح الَّذِي هو الفوز بالمَطْلوب والنَّجاة من المرهوب.

• • ۞ • •

الآية (٥٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور:٥٢].

قَوْلهُ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَخَافُهُ ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ بِسُكُونِ الـهَاء وَكَسْرهَا، بِأَنْ يُطِيعُهُ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بِالجَنَّةِ] اهـ.

هَذِهِ الآيَة من أجمع الآيَات وأخصرها ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بانقياده لأحكام الله ورسوله، وسبق أن الطَّاعة موافقة الْأَمْر نهيًا كَانَ أو أمرًا، يعني طلب إيجاد أو طلب ترك.

قَوْلهُ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ الطَّاعة لله ورسوله، والخَشْيَة عبادة والتَّقْوى عبادة؛ لا تكُون إلا لله وحده، ولهَذَا قَالَ: ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾.

قَوْلهُ: ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ -بسكون الهاء وكسرها- «وَيَتَّقِهْ» و«وَيَتَّقهِ»[1].

وقَوْلهُ: ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ يَقُول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يخافه]، ولكن هَذَا التفسير قاصِر؛ لأَن الخَشْيَة أَشَدّ من الخَوْف، والفَرْق بينهما:

---

(١) حجة القراءات (ص:٥٠٣).

أولًا: أن الخَشْيَة لا تَكُون إلا عن علم؛ لقَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]؛ فالعالم هو الَّذِي يخشى الله؛ لأنَّه يخافه عن علم بحَقِيقَة المخوف وحال الخائف، فهو يعلم حال المخوف ويعلم حال الخائف.

ثانيًا: أن الخَشْيَة إنما تَكُون لعظم المخشي، وإن كَانَ الخاشي عَظِيمًا، والخَوْف يَكُون من ضعف الخائف؛ والفَرْق بينهما ظاهر.

ثالثًا: الخَشْيَة خوف بهيبة وتعظيم وإجلال، وهي متفرعة عن الفَرْق الثَّاني، والخَوْف لا يَكُون كَذلِكَ، أي: لا يَكُون عن رهبة وتعظيم وإجلال، ولِذَلك يُقال: خاف من الذئب، ولا يُقال خشي منه أو خشيه إلا على سبيل التوسع.

فهَذِهِ الفروق الثَّلاثة توجب ألا تَكُون الخَشْيَة بمَعْنى الخَوْف على وجه المُطابقة، نعم على وجه التقريب، لا بأس أن الْإِنْسَان يَقُول: إن الخَشْيَة بمَعْنى الخَوْف ليقربها إلى أفهام السامعين لا على أن الخَوْف هو المَعْنى المطابق للخشية.

قَوْلهُ: ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ نتكلَّم عن القراءات الَّتِي فيها:

﴿وَيَتَّقْهِ﴾، وفيها: «وَيَتَّقِهْ»، وفيها قِراءَة ثالثة لحفص لم يذكرها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي: ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ -بسكون القاف وكسر الهاء-.

أما قِراءَة «وَيَتَّقِهِ»، بالكسر؛ سواء أشبعنا الهاء أم لم نشبعها، وهما قراءتان أيضًا: «وَيَتَّقِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ» و«وَيَتَّقِهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ»؛ ففيها قراءتان: الإشباع، وعدمه. هَذِهِ القِراءَة واضحة ولَيْسَ فيها إِشْكال؛ لأنَّها متمشية على ما نعرف من القواعد العربيَّة (يتقه) مثل (يرمه): معطوفة على فعل الشَّرط ﴿يُطِعِ﴾ وهو مجزوم والمعْطُوف على المجزوم مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العِلَّة، يعني: حذف الياء، والكَسْرة

قبلها دَليل عَلَيْها، والهاء في قَوْلهُ: «وَيَتَّقِهِ» مفعول (يتَّق)، وهي: ضمير مبني على الكَسْرة، لكن على قِراءَة «وَيَتَّقِهْ» -سكون الهاء- على خلاف الَّذِي نعرف من اللُّغَة العربيَّة، فنقول: سكنت للتخفيف؛ لأَن «وَيَتَّقِهْ» أخف من «وَيَتَّقِهِ» فهي مسكنة للتخفيف.

على قِراءَة حفص ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ سكنت مع أنَّها مجزومة بحذف حرف العِلَّة؛ لأَن (يتَّقي) لا شَك أنَّه فاعل ناقص آخِره حر ف عِلَّة، فالإِشْكال الآن في تسكين القاف مع أن الفِعْل معتل آخِره لَيْسَ حرفًا صحيحًا، والمعتل يجزم بحذف حرف العِلَّة؛ فلماذا سكن؟

يُقال: إما أنَّه سكن تخفيفًا ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ أو سكن على تناسي حرف العِلَّة، كأن حرف العِلَّة نسي وصَارَ فعلًا صحيحًا، والفِعْل الصَّحيح يجزم بالسكون.

والتَّقْوى: تقدَّم كثيرًا في تفسير التَّقْوى بأنَّها اتخاذ وقاية من عَذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فما الرَّبط بينها وبين الخَشْيَة؟

يقال: التَّقْوى في الحَقيقَة نتيجة الخَشْيَة؛ لأَن من خشي الله اتَّقاه، الَّذِي يخافه بهيبة وتعظيم وإجلال لا بُدَّ أن يتقيه، فالرَّبط بينها وبين الخَشْيَة أنَّها فرع عنها ونتيجة منها؛ فمن خشي الله اتَّقاه بلا شَك؛ لأَن نفس الخَشْيَة عبادة فتحصل التَّقْوى، فكون الْإِنْسَان في قلبه خوف من الله وتعظيم له هَذِهِ عبادة من أعظم العِبادات، والطَّاعة في الغالِب لا تَكُون إلا عن محبَّة، فحينئذٍ تَكُون الخَشْيَة؛ لأنَّه لا يُمْكِن لِلإنْسان أن يطيع أحدًا في شَيْء إلا عن محبَّة للآمر أو للمأمور أو خوفًا منه، أما إِذَا كَانَ يبغض الْأَمْر فلا يُمْكِن أن يطيعه وهو يسْتَطيع أن يتخلص منه؛ لأَن من لم يحب شخصًا فلن يطيعه إلا خوفًا منه.

لو قَالَ قَائِلٌ: إِذَا قُلْنا: إن التَّقْوى اتِّخاذ وقاية من عَذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، أَلَيْسَت هَذِهِ الطَّاعة؟

الجواب: هي في الحَقيقَة الطَّاعة، ولكن ليكن عندنا قاعِدَة لا بُدَّ أن نفهمها، وهي: أن بعض الكَلِمات تفسَّر بمَعْنى عند الانفراد وبمَعْنى آخر عند الاقتران، فقد تَكُون عند الانفراد شاملة لهَذَا المَعْنى، وقد تَكُون عند الاجتماع بعضًا منه، وأمثال ذَلِك كثير؛ مثلًا: الفَقِير والمِسْكين، عند الانفراد الفَقِير يشمل المِسْكين، والمِسْكين يشمل الفَقِير، لكن عند الاجتماع يَكُون الفَقِير بعضًا من المِسْكين، والمِسْكين بعضًا من الفَقِير، بمَعْنى أنَّنا نقول: الفَقِير كذا والمِسْكين كذا؛ لأجل ألا يحصل التَّرادُف بين الكلمتين؛ فتضيع فَائِدَة العَطْف.

لو قَالَ قَائِلٌ: الكَلِمات الَّتِي إِذَا اجتمعت افترقت، هل يَكُون بينها صلة حال الافتراق؟

الجواب: ما دام أن الكَلِمة إِذَا انفردت تَكُون بمَعْنى الثَّانية لا بُدَّ أن يَكُون بينها صلة؛ فالفَقِير والمِسْكين بينهما صلة، وهي الحاجة، وكَذلِك التَّقْوى: ترك النَّواهي والطَّاعة فعل الأوامر بينهما صلة، وهي الامتثال.

لو قَالَ قَائِلٌ: هل التَّرادُف المطلَق يوجد في اللُّغَة العربيَّة؟

الجواب: التَّرادُف المطلَق لا يُمْكِن أن يوجد في اللُّغَة العربيَّة؛ لأنَّه تكرار بلا فَائِدَة لا سيَّما مع وجود العَطْف، أما مع عدم وجود العَطْف فقد يَكُون من باب التَّوكيد؛ لأَن العَطْف يقْتَضِي المُغايَرَة، فالاتفاق في الحُكْم والتغاير في المَعْنى، أي: أن الكَلِمة المعْطُوفة غير الكَلِمة المعْطُوف عَلَيْها لكن الحُكْم واحد، مثلًا: قام زيد وعمرو

وبكر وخالد، فالحُكْم على الجميع واحد، لكن عمرو وبكر وخالد غير زيد، فالمُغايَرَة تَكُون في المَعْنى.

أما موافقة الحُكْم فيما بين المعْطُوفات بعضها مع بعض فهو ضروري، فأصل العَطْف معناه أن هَذَا انعطف على ذاك فأصبح له حكمه، لكن هَذَا غير هَذَا، فلا تأتي وتقول: قام زيد وزيد، ويَكُون زيد الثَّاني هو الأوَّل، لكن يجوز أن تقول: قام زيد وزيد، ويَكُون زيد الثَّاني هو الأوَّل من باب التَّوكيد.

قَوْلهُ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ (الفاء) في قَوْلهُ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ واقعة في جواب الشَّرط؛ لأَن الجُمْلَة اسمية، وإذا كَانَت الجُمْلَة اسمية في جواب الشَّرط وجب قرنها بالفاء، ولا تسقط الفاء إلا عند الضَّرورة، مثل قَوْل الشَّاعر[1]:

مَنْ يَفْعَلِ الحسناتِ اللهُ يَشْكُرُها .....

ولم يقل: فالله يشكرها.

وقَوْلهُ: ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ فيها ما سبق في ضمير الفصل، والذي سبق أن مِنْ فَوَائِدِ ضمير الفصل والحصر والاختصاص والتمييز بين الخبر والصفة والتَّوكيد، وقَوْلهُ: ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالجَنَّةِ]. اهـ. يعني هَؤُلَاءِ الفائزون بالجَنَّة والنَّجاة من النَّار أيضًا، كما قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥]، واقتصار المُفَسِّر على الجَنَّة فقط؛ لأَن من دخل الجَنَّة فقد نجا من النَّار.

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٢٥٨).

فهَذِهِ الآيَة من أجمع الآيَات؛ لأنَّها جمعت إجمالًا أَسْبَاب الفوز، وهي هَذِهِ الْأُمُور الثَّلاثة: طاعة الله، وخشيته، وتقواه. فمتى حصلت هَذِهِ الْأُمُور لشخص فإنَّه يَكُون من الفائزين.

ويُستَفاد من هذِه الآيَةِ أنَّ الطَّاعة والخَشْيَة والتَّقْوى هَذِهِ الثَّلاث فَائِدَتها الفوز بالجَنَّة والنَّجاة من النَّار.

الآية (٥٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور:٥٣].

قَوْلُهُ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [غَايَتُهَا ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ بِالجِهَادِ ﴿لَيَخْرُجُنَّ قُل﴾ لَهُمْ: ﴿لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ لِلنَّبِيِّ خَيْرٌ مِنْ قَسَمِكُمْ الَّذِي لَا تَصْدُقُونَ فِيهِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾] اهـ.

قَوْلُهُ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ حلفوا به ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ هَذِهِ الآيَة استوعبت كل أركان القَسَم؛ لأَن القسم دائمًا يحذف منه بعض أقسامه، لكن هَذِهِ الآيَة استوعبت الأقسام كلها: المُقْسَمُ به، وحرف القسم، وفعل القسم، والمُقْسَمِ عليه. فعل القسم: ﴿وَأَقْسَمُوا﴾، حرف القسم: (الباء) في ﴿بِاللَّهِ﴾، المقسم به: (الله)، المقسم عليه: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾؛ هَذِهِ الجُمْلَة هي جواب القسم، وهي المقسم عليه.

أقسم هَؤُلَاءِ: لئن أمرهم النَّبِيّ ﷺ، يعني: بالجهاد، والدَّليل أن المُراد الجهاد قَوْلُهُ: ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾؛ لأَن الخروج المُراد به الجهاد؛ فهم أقسموا هَذَا القسم: أن الرَّسُول لو أمرهم لخرجوا، هَذَا القسم قسم نذر؛ لأَن القسم إِذَا تضمَّن إلزامًا من الْإِنْسَان لله صَارَ جامعًا بين القسم والنَّذر.

وعلى هَذَا لو قَالَ قَائِلٌ: والله لأصلِّينَّ ركعتَيْن وقصده بِذَلِك الالتزام، ماذا يَكُون هَذَا؟

الجواب: يَكُون قسمًا ونذرًا، مثل: عليَّ أن أصلي ركعتين، لكن أبلغ من ذَلِك قَوْلهُ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ [التَّوبة:٧٥]. وأما إِذَا قصد الْإِنْسَان بالقسم تحقيق الشَّيء دون التزامه؛ فإنَّه لَيْسَ بنذر، ففرق بين الْإِنْسَان الَّذِي يلتزم ويرى أن نفسه ملزمة بهَذَا الشَّيء وبين الْإِنْسَان الَّذِي يُرِيد تحقيق الشَّيء لكن بدون أن يرى نفسه ملزمة، مثلًا لو قَالَ: والله لأفعلن كذا أو لأخرجن إلى السوق أو لألبسن الثَّوْبَ وما أشبه ذَلِك ولَيْسَ قصده أن يُلزم نفسه، بل قصده أن يحقق، وأن يفعل من غير أن يَكُون ملزمًا، قصده أنْ يقولَ: أنا سأفعل، ويحقق أنَّه سيفعله، فهَذَا لَيْسَ بقسم، فالقسم إن تضمَّن إلزامًا صَارَ قسمًا ونذرًا أو نذرًا مقسمًا عليه.

قَوْلهُ: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ لا حاجة لأَن تقسموا وتقولوا: والله لئن أمرتنا لنخرجن، وإنما إِذَا أُمِرتم فاخرجوا بدون قسم.

قَوْلهُ: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خَيْرٌ مِنْ قَسَمِكُمْ] اهـ.

الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل حسب سِيَاقه ﴿طَاعَةٌ﴾ مُبْتَدَأ و﴿مَّعْرُوفَةٌ﴾ صفة له، وخَبَرُها محذوف تقديره (خير من قسمكم)، ولكن هَذَا لَيْسَ بظاهر، بل الظَّاهِر أن ﴿طَاعَةٌ﴾ مُبْتَدَأ والخبر محذوف تقديره: (عليكم)، أي: عليكم طاعة معْرُوفة، أو ﴿طَاعَةٌ﴾ خبر والمبتدأ محذوف، أي: طاعتكم معْرُوفة، فمعنى ذَلِك أن الْإِنْسَان علَيْه أن يطيع طاعة معْرُوفة.

والطَّاعة المعْرُوفة من الْمُؤْمِنِينَ تَكُون بدون حلف؛ لأَن الَّذِي يحلف على أن

يفعل كأنه لا يُرِيد أن يفعل، يفعل لكنَّه يَلْزَم نفسه، فالطَّاعة المعْرُوفة الانقياد بدون قسم وهَذَا أولى من تقرير المُفَسِّر، وهو أن نقول: عليكم طاعة معْرُوفة أو طاعتكم طاعة معْرُوفة، يعني: الطَّاعة المعْرُوفة للمُؤْمِنِينَ، وهي التزام أحكام الشَّرع بدون قسم.

قَوْلهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ طَاعَتكُمْ بِالْقَوْلِ وَمُخَالَفَتكُمْ بِالْفِعْلِ] اهـ.

هَذَا لَيْسَ بصحيح، فقَوْلهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: بكل ما تعملون سواء أقسمتم علَيْه أم لم تُقسموا عليه، قَوْلهُ: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ (ما) اسم موصول يُفيد العُموم، أي: جميع الأعْمَال.

﴿خَبِيرٌۢ﴾ بمَعْنى عليم، إلا أن الفَرْق بينه وبين العليم أن الخبير هو العليم ببواطن الْأُمُور، فيَكُون أدق من العِلْم المطلَق، فهو خبرة بالبواطن.

إِذَنْ قَوْلهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ عام لكل ما يعمله الْإِنْسَان بقَلْبِه أو لسانه أو جوارحه، لا يخفى على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من ذَلِك شَيْء.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: كراهة النَّذر؛ لقَوْلهُ: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْ﴾، وهَذَا نهي.

وقد اختلف أهْل العِلْم في النَّذر؛ هل هو مكروه أو حرام؟ على قولين:

فمن أهْل العِلْم من يرى أن النَّذر مكروه، ومنهم من يرى أنَّه محرم، وكأنَّ شيخ الإِسْلام يميل إلى التَّحْريم وهو أقرب، فالقول بالتَّحْريم أقرب من القَوْل بالكراهة؛ لأَن الله تَعَالَى نهى عنه بقَوْلهُ: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْ﴾ والأَصْل في النَّهْي التَّحْريم،

والنَّبيّ ﷺ نهى عنه، وقال: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ إِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ»(١)، والمَعْنى يَقْتَضيه أيضًا؛ لأنَّه كَانَ في عافية فكونه يُلزم نفسه بأمر لم يَلْزَم الله به؛ هَذَا من باب تكليف النَّفس بما لم تُكلَّف به.

ثم أيضًا المَعْنى يَقْتَضيه؛ فإن كثيرًا من النَّاس النَّاذرين يندمون على نذرهم، لا سيَّما إِذَا كَانَ النَّذر فيه نوع من المشقَّة، مثل رجل حلف إن شَفى الله مريضه أن يصوم من كل شهر عشرة أيام، وشفى الله مريضه؛ الآن يَجب أن يصوم عشرة أيام من كل شهر لقول النَّبيّ ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ»(٢).

وكثير من النَّاس النَّاذرين لا يُوفون بنذْرِهم من أجل أنهم يرون أن فيه مشقَّةً، ويقول: الحمد لله حصل لي المَطْلوب وشفى الله مريضي أو نجحت، فلا يوفِّي لله بما وفَّى الله له به، الله يوفِّي له بما اشترط على ربه، وهو -والعِيَاذ باللهِ- لا يوفِّي له، ولكن ما هي النَّتيجة والعاقبة؟ العاقبة عَظِيمة جدًّا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ ولم يتصدقوا ﴿وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، ولم يَكُونوا من صالحين، والذي حصل ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ﴾ أي بسبب ما ﴿أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التَّوبة:٧٥-٧٧]، وهَذِهِ نتيجة -والعِيَاذ باللهِ- سيئة عَظِيمة جدًّا أن يجعل الله نفاقًا في قلب هَذَا النَّاذر الَّذِي لم يفِ بما عاهد الله تَعَالَى عليه؛ لأنَّه عاهد الله على هَذَا الشَّيء.

---

(١) أخرجه مسلم بلفظه، كتاب النذر، باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئًا، حديث رقم (١٦٣٩)، وأصله في البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب الوفاء بالنذر.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة، حديث رقم (٦٦٩٦)؛ عن عَائِشَة.

وأما من نذر معْصِيَة فلا يجوز الوفاء بها؛ لأَنَّه لا طاعة لمخلوق في معْصِيَة الخالق، فنفسك وإن ألزمتك بفعلها فلا تطعها، كما أنك لا تطيع أمريك إِذَا ألزمك بأمر فيه معْصِيَة الله، كَذلِكَ أيضًا لا تُطع نفسك إِذَا ألزمتك بأمر فيه معْصِيَة الله. وقد ثبت عن النَّبِيّ ﷺ أَنَّه قَالَ: «وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ»(١)، ومع ذَلِك فعلى النَّاذر كَفَّارة يمين، حَتَّى لو قَالَ مثلًا: لله علي نذر فقط، ولم يقل شيئًا، مال الَّذِي يَجب عمله؟ يَجب علَيْه كَفَّارة يمين، وبِهَذَا نعرف خطورة النَّذر.

وأما ما يتوهَّمه بعض النَّاس من أن النَّذر يحصل به المَطْلوب؛ فإن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نفى هَذَا الوهم بقَوْلهُ: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ»(٢)؛ فمريضك قد قُدِّر له أن يُشفى قبل أن تنذر، ولَيْسَ نذرك سببًا للشفاء بالتَّأكيد؛ فالله عَزَّوَجَلَّ أكرم الأكرمين لَيْسَ يتوقف كرمه على شَيْء يخرجه الْإِنْسَان، إِذَا أنعم الله عَلَيْك بالنِّعمة فاشكره عَلَيْها بما جاءت به الشَّريعة.

وأما أن تقول: نذرت لله من أجل أن يشفيه، كأنك تقول: إن الله لا يشفي ها المريض إلا إِذَا نذرت له، ثم تأتي البلوى، فيحصل الْأَمْر عنْدَه لا به، وهَذَا من الابتلاء؛ لِذَلك يَنْبَغِي لنا، بل يَجب علَيْنا، أن نحذر من النَّذر، وأن نبين للنَّاس أن النَّذر لا يأتي بخير، والنَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهو لا ينطق عن الهوى في هَذِهِ الْأُمُور- أخبر بأنه لا يأتي بخير.

وكم من طالبٍ نَذَرَ أَنَّه إِذَا وفقه الله للنجاح أَنَّه يصوم ثلاثة أيام ونجح ولم يفِ بنذره ولم يصم، وهي ثلاثة أيام فقط؛ لأَن النَّفس في الحَقيقَة ضعيفة الإِيمَان

---

(١) تقدَّم وهو جزء من حديث عَائِشَة السابق.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب النذر، باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئا، رقم (١٦٣٩).

لا يهمها أن تُخالف، يَقُول: حصل المَقْصُود ولا يهمني، على كل حال هَذَا النَّذر يستدل على تَحْريمه بقَوْلهُ: ﴿لَّا تُقْسِمُوا۟﴾.

الفَائِدة الثَّانية: وُجوب تقييد الطَّاعة بالمعْرُوف، يعني أن تكُون طاعة بالمعْرُوف، وهل المُراد بالمعْرُوف هُنا المعْرُوف بين النَّاس أو من الشَّرع؟ طاعة معْرُوفة من الشَّرع لَيْسَت الَّتِي بين النَّاس؛ لأَن النَّاس قد يعرفون شيئًا يظنونه طاعة ولَيْسَ بطاعة.

الفَائِدة الثَّالِثَة: أنَّه لا تجوز الزِّيادة على الشَّرع في الطَّاعة ولا النَّقص؛ لقَوْلهُ: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ بدون غلو ولا تقصير.

الفَائِدة الرَّابِعَة: إحاطة علم الله بكل شَيْء؛ لقَوْلهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بكل ما تعملونه حاضرًا ومستقبلًا، والفَائِدة من ذكر علم الله بما نعلم لَيْسَ مُجرَّد أن يخبرنا بأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم، لكن الفَائِدة من ذَلِك هي الترغيب أو التخويف إلا إِذَا اقتضى السِّيَاق أن المُراد أحَدهما فقط، وإلا فكونك تعلم أن الله يعلم كل ما تعمل؛ فإن ذَلِك ينشطك على عبادتك.

• • ۞ • •

الآية (٥٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور:٥٤].

قَوْلهُ: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَنْ طَاعَته بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ خِطَاب لَهُمْ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ مِنْ التَّبْلِيغ ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ مِنْ طَاعَته ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: التَّبْلِيغ الْبَيِّن] اهـ.

يَقُول الله تَعَالَى للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ آمرًا له أنْ يقولَ للنَّاس: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وقد سبق أن الطَّاعة موافقة الْأَمْر بفعل الأوامر واجتناب النَّواهي.

وقَوْلهُ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ إعادة العامِل تدُلّ على أن طاعة الرَّسُول ﷺ طاعة مستقِلَّة، وأن ما جاء به الرَّسُول ﷺ فكَما جاء به عنه الله، ولهَذَا قَالَ العُلَماء: إن ما وجب في سُنَّة رَسُول الله ﷺ كالذي وجب في القُرْآن من أمر ونهي، وهَذَا واضح؛ لأنَّه جعل طاعة النَّبِيّ ﷺ طاعة مستقِلَّة حيث قَالَ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

وقَوْلهُ: ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ (ال) للعهد وهو عهد ذهني يعني الرَّسُول المعهود بينكم وهو محمد ﷺ الَّذِي تعرفونه، و(ال) هَذِهِ لَيْسَت كالتي في قَوْل الله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ

فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل:١٦]؛ لأَن (ال) في قَوْلهُ: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ للعهد الذكري، ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل:١٥]؛ فعصى فرعون رسوله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: عَنْ طَاعَته بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ خِطَاب لَهُمْ. معنى: ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ تُعرضوا، فالتولِّي الإِعْراض لكن من حيث اللَّفْظ أصلها تتولّوا، فإن تتولّوا، خطاب للنَّاس؛ فإن تتولوا -أيها النَّاس- ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ إِلَى آخِرِهِ، لكن حذفت منه إِحْدَى التاءين، وقد اختلف النَّحويون هل المحذوف تاء المُضارَعة أو المحذوف تاء الفِعْل؟ منهم من قَالَ: المحذوف تاء الفِعْل؛ لأَن تاء المُضارَعة جيء بها لمعنى فلا يَنْبَغِي حذفها، ومنهم من قَالَ المحذوف تاء المُضارَعة؛ لأَن تاء الفِعْل أصليَّة وأما تاء المضارَعة فهي زائدة، فهي أولى بالحذف من الحرف الأَصْلي، وعلى كل حال الخلاف في هَذَا لفظي لا يترتب علَيْه أمر معنوي، لكن المُراد بقول: ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ تتولوا، نظير ذَلِك؛ حذف إِحْدَى التَّاءَيْن، في قَوْله تَعَالَى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤]؛ ﴿تَلَظَّىٰ﴾ بمَعْنى: تتلظى، ولَيْسَ تلظى فعلًا ماضيًا، لو كَانَ ماضيًا لقال: تلظت، لكنَّه فعل مُضارِع حذف منه إِحْدَى التاءين.

قَوْلهُ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على الرَّسُول ﷺ ﴿مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ والبَيان والدعوة؛ فإنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بلغ بلاغًا مبينًا ودعا النَّاس، أيضًا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:١٠٨]؛ فالواجب على النَّبِيّ ﷺ أمران، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ اقتصر على أحدهما، الواجب علَيْه التبليغ والدعوة، وقد بلَّغ ودعا ﷺ، بلغ النَّاس ودعاهم وقام بما يَجب عليه.

قَوْلهُ: ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ ما الَّذِي حُمّلنا؟ حُمِّلنا طاعته واتِّباعه. وعلى هَذَا فإن أخل هو بما يَجب علَيْه صَارَ مستحقًا لما يترتب على ذَلِك، وإن أخللتم أنت بما

يَجب عليكم صرتم مستحقين لجزاء ذَلِك، والنَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بلغ البلاغ المبين؛ فقام بما حُمِّل، لكن الَّذينَ أعرضوا لم يقوموا بما حُمِّلوا، وفي هَذَا دَليل على أن الرَّسُول ﷺ لَيْسَ ملزمًا بهدايتهم، وهَذَا كثير في القُرْآن، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢٢]، وقَوْلهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، وقَوْلهُ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠].

فالرَّسُول لَيْسَ ملزمًا بل إن الله نهاه أن يَكُون في صدره حرج وضيق وحزن؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٧]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]؛ يعني مهلك نفسك لعدم إيمانهم، وهَكَذا أيضًا من ورث النَّبِيّ ﷺ -وهم العُلَماء- إنما عليهم البلاغ والدعوة، أما هداية الخلق فهو إلى خالقهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولَيْسَ عَلَيْك هداهم.

قَالَ اللهُ تَعَالَى مرغبًا في طاعته: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ أي: إن تُطيعوا الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿تُطِيعُوهُ﴾، وفي هَذَا إِشارَة إلى ما سبق من أن ما جاءت به السُّنَّة فهو حكم مستقل يَجب أن يُطاع ويتبع كما جاء في القُرْآن، ولهَذَا قَالَ: ﴿تَهْتَدُوا۟﴾ فالهداية مطلوبة؛ فإذا أمر النَّبِيّ ﷺ بأمر فلا يجوز لنا أن نقول: هل لهَذَا أصل في القُرْآن أو لا؟ إن كَانَ له أصل قبلناه وإن لم يكن له أصل لم نقبله؛ لأَن هَذَا حرام، وهو كفر بالقرآن نفسه؛ لأَن الله يَقُول: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ ثم قَالَ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ فدل هَذَا على أن كل ما جاء به فهو حق وهداية، لَيْسَ فيه باطل وضلال.

قَوْلهُ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ هَذَا الحصر حقيقيٌّ أو إضافيٌّ، وإذا قُلْنا: حقيقي كَيْفَ يَكُون حقيقيًا وهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَجب علَيْه أن يُصلي وأن يزكي وأن يصوم؟ فالحصر الحقيقي معناه أن ما سواه منتهٍ، فهل يُمْكِن أن نقول: إن الرَّسُول ﷺ لَيْسَ علَيْه إلا أن يبلغ النَّاس، وأما أنَّه يفعل الطاعات هو بنَفْسِه فلَيْسَ علَيْه منها شَيْء؟

الجواب: هَذَا الحصر إضافي؛ يعني بالنِّسْبَةِ لما يَجب علَيْه نحوكم؛ لأنَّه قَالَ: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾ بالنِّسْبَةِ إليكم ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، أما أن يهديكم ويرغمكم على الحَقّ فهَذَا لَيْسَ علَيْه كما قَالَ اللهُ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]؛ فيكُون هَذَا الحصر بالنِّسْبَةِ لما يَجب علَيْه نحو أمته؛ فإنَّه لا يَجب علَيْه إلا البلاغ المبين، وهو حصر حقيقي بالنِّسْبَةِ لما يَجب علَيْه لا بالنِّسْبَةِ للعموم.

لكن الحصر الحقيقيَّ هو الَّذِي يَكُون بالنِّسْبَةِ إلى العُموم، لا شَيْء علَيْه سوى هَذَا، ومعنى قولنا: إضافي أي: بالإضافة إلى كذا، كما لو قلت: لا جواد إلا فلان، هَذَا حصر، أي: أنَّه لا يوجد جواد سواه، مع أن الأجواد سواه كثيرون، لكن معنى لا جواد إلا فلان بالنِّسْبَةِ إلى قبيلته مثلًا أو بالإضافة إلى بلده أو ما أشبه ذَلِك، فإِذَنْ الحصر يَكُون إضافيًا إِذَا كَانَ بمَعْنى الإضافة إلى كذا، وإذا صَارَ الحصر بالإضافة إلى الكل فهو حقيقي.

قَوْلهُ: ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ بمَعْنى التبليغ، وأصل البلاغ: الوصول إلى الغَايَة، يقال: بلغ كذا بمَعْنى وصل، فالمُبلِّغ موصل إلى غايَة؛ وهي: الهداية الَّتِي أَرَادَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

من عباده أن يَكُونوا عَلَيْها، وقول المُفَسِّر: ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ (بمَعْنى البيِّن) فيه نظر؛ لأنَّه سبق أن ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ تصح بمَعْنى البيِّن، وتصح بمَعْنى المبيِّن؛ يعني: الَّذِي أظهر وأوضح ما دعا إلَيْه وبلغه؛ فالمبين بمَعْنى المظهر ولَيْسَت بمَعْنى البين كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأيهما أبلغ: المبين بمَعْنى المظهر أو المبين بمَعْنى البين؟ بمَعْنى المُظهر؛ لأَن المبين بمَعْنى المظهر، أي: بيِّن بنَفْسِه مبيِّن لغيره، والبيِّن بيِّن بنَفْسِه فقط، قد يبين غيره وقد لا يبين.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥].

قَوْلُهُ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَدَلًا عَنْ الْكُفَّار ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُول ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل بَدَلًا عَنْ الْجَبَابِرَة، ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وَهُوَ الإِسْلام بِأَنْ يُظْهِرهُ عَلَى جَمِيع الْأَدْيَان وَيُوَسِّع لَهُمْ فِي الْبِلَاد فَيَمْلِكُوهَا ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد، ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ مِنْ الْكُفَّار ﴿أَمْنًا﴾. وَقَدْ أَنْجَزَ الله وَعْده لَهُمْ] اهـ.

قَوْلُهُ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ الوعد معناه: أن يمني شخصًا بما يحب، وأما الوعيد: فأن يحذره مما يكره، ففرق بين الوعد والوعيد، الوعد لما يُرجى من المحبوب، والوعيد لما يُخشى من المكروه.

وقد قَالَ الشَّاعر[1]:

وَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُــه أَوْ وَعَدْتُــه لَمُخْلِفُ إيعادِي ومُنْجِزُ مَوْعِـدِي

قَوْله تَعَالَى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ أي: أَنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التزم لهم بما يحبون.

قَوْلهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي: جمعوا بين الإِيمَان والعَمَل الصَّالح، الإِيمَان محله الْقَلْب، والعَمَل الصَّالح محله الجَوارِح، والإِيمَان وحده لا يكفي، والعَمَل وحده لا يكفي، ولا يَكُون صالحًا إلا بالإِيمَان ولو كَانَ ظاهره الصَّلاح؛ فإذا لم يكن مبينًا على إيمان فإنَّه لَيْسَ بصالح، فالَّذينَ يجمعون بين الْأَمْرين: الإِيمَان والعَمَل الصَّالح، لهم هَذَا الوعد؛ ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ ومعنى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ أي: يجعلهم خلفاء لغيرهم يخلفون غيرهم في الأَرْض، وكَلِمة ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ المُراد بها الجنس، لَيْسَت أرضًا واحدة معينة بل أرض عامَّة، أي: الأَرْض كلها.

وَذلِك لأَن ﴿ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]؛ وقَوْلهُ: ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ الَّذينَ يشاء الله أن يورثهم؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، وعلى هَذَا؛ فمثلًا أرض العرب لَيْسَت للعرب وأرض لفرس لَيْسَت للفرس وأرض الروم لَيْسَت للروم، الأَرْض لله يورثها من يشاء من عباده؛ فيورثها العباد الصَّالحين الَّذينَ آمنوا وعملوا الصَّالحات؛ فمن كفر باللهِ وعتى عن طاعته فلا حق له في الأَرْض، فالحق لغيره، يورثها الله من يشاء من عباده الصَّالحين.

---

(١) المفردات للأصفهاني (ص:٨٢٦)، و لسان العرب (٣٠/ ٤٦٣).

وعلى هَذَا فإذا قَالَ بنو إسرائيل: أرض الشَّام لنا؛ لأَن موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة:٢١]، إِذَا قالوا هَذَا؛ نقول: إن موسى قَالَ هَذَا لأنكم في ذَلِك الوقت أنتم أهل الصَّلاح وأنتم عباد الله الصَّالحون، والأَرْض لله يورثها من يشاء من عباده الصَّالحين، فهي في هَذَا الوقت لكم.

لكن لما جاء الإِسْلام وكفرتم به صرتم لستم أهلًا لها، وصَارَ أهلها الصَّالحون؛ وهم الْمُؤْمِنُونَ بمحمد ﷺ المتبعون له، ثم احتلها من بعد اليهود النَّصَارَى الروم؛ لأنهم كانوا هم الصَّالحون بعد اليهود، ثم احتلها من بعد الروم الْمُسْلِمُونَ؛ لأنهم هم عباد الله الصَّالحون؛ فأرض الشَّام كتبت للصالحين، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾، ورثها بنو إسرائيل من الجبارين؛ لأنهم كانوا أهل الحَقّ، ثم ورثها النَّصَارَى من اليهود؛ لأنهم أهل الحَقّ، ثم ورثها الْمُسْلِمُونَ من النَّصَارَى؛ لأنهم أهل الحَقّ.

وعلى هَذَا فاليهود الآن لا حق لهم في فلسطين ولا غيرها من أرض الله، لَيْسَ لهم حق في الأَرْض أبدًا، لا هم ولا أي كافر؛ لأَن الأَرْض إنما يستحقها عبادُ الله الصَّالحون، لكن إن صلح الْمُسْلِمُونَ ورجعوا إلى دينهم الحقيقيِّ الَّذِي يورثهم الله به أرضه فإننا نجزم جزمًا بأنهم سوف يسترجعون الأَرْض، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

فنحن نجزم بأن الْمُسْلِمِينَ الآن لو رجعوا حَقِيقَة إلى دين الله بالإِيمَان والعَمَل الصَّالح فسوف يطردون اليهود من الأَرْض، بل سوف يطردون الأمريكان من

أماكنهم والروس من أماكنهم، نجزم بهَذَا جزمًا، لكن ما دام الْمُسْلِمُونَ على هَذَا الوصف فإنَّه حسب القواعد الشَّرْعِيَّة والنُّصوص لا يستحقون النَّصر؛ لأنهم لم يقوموا بجهاد أنفسهم فكَيْفَ يقومون بجهاد غيرهم ليدخلوه في الإِسْلام، الآن أقيموا الإِسْلام فيما بينكم، أقيموا دين الله فيما بينكم ثم بعد ذَلِك سوف ينصر الله دينه إِذَا قمتم به؛ لأَن الله لا ينصر فلانًا لأَنَّه فلان أو ينصر هَذِهِ الطائفة؛ لأنهم عرب أو ينصر هَذِهِ الطائفة؛ لأنهم فرس، بل ينصر من قام بهَذَا الدِّين.

صلاح الدِّين الأيوبي أصله غير عربي، ومع ذَلِك نصره الله على النَّصَارَى؛ لأَنَّه قام بدين الله، فالدِّين نفسه هو الَّذِي ينصر، هو الَّذِي سيشق عن نفسه، إن كمل فهو سلاح، وإن لم يكمل فلا يقوى لِلإِنْسان سلاح ولا يسْتَطيع أن يحكم النَّصر بما في يده من صلاح أبدًا، إِذَا كَانَ سلاح الدِّين بيد الْإِنْسَان يبقى هُناكَ السلاح المادي، لكن أيهما أقوى مادة؟

معْلُوم أن الْمُسْلِمِينَ أضعف الأُمَم مادة في الوقت الحاضر؛ لأنهم أمم متفرقة ومتناحرة والعداوات بينهم كَثيرَة والبغضاء بينهم كَثيرَة، هَذَا يدعو إلى كذا، وهَذَا يدعو إلى كذا، وهَذَا له منهج خاص، كلهم متفرقون وقد قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩]، وهَذَا الْأَمْر منطبق تمامًا على الْمُسْلِمِينَ في الوقت الحاضر فلا اجتماع على الإِسْلام، ولا دين قيم مقام للمُسْلِمين، قد يوجد في شرذمة قليلة لكنها لا تمثل الْمُسْلِمِينَ، يوجد فيها شَيْء من الصَّلاح ومن الإِيمَان والعَمَل الصَّالح لكن على ضعف أيضًا.

فالحاصِل: أن هَذَا الوعد الَّذِي وعده الله حق لكنَّه للذين آمنوا وعملوا الصَّالحات وهَؤُلَاءِ هم عباد الله الصَّالحون الَّذينَ قَالَ فيهم: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي

ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، فإذا قَالَ الَّذينَ يجاهدون اليهود: نحنُ سنطرد اليهود ونقيم على هَذِهِ البلاد المقدسة الَّتِي احتلوها برجسهم دولة إسلامية تقود النَّاس بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ثم مثلوا ذَلِك بأنفسهم قبل أن يفتحوا هَذِهِ البلاد حينئذٍ نتيقن لهم النَّصر، وفيما عدا ذَلِك فالنَّصر غير مضمون، بل قد يَكُون بالعَكْسِ الهزيمة هي المضمونة؛ لأَن من قام بشَيْء وجاهد به وهو على خلافه فإن ذَلِك نوع من خداع الله عَزَّوَجَلَّ، ومن يخادع الله يخدعه.

قَوْلهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تقدَّم أن الأَرْض المُراد بها الجنس يعني لَيْسَت أرضًا معينة كأرض مكة يستخلف الله فيها المهاجِرينَ بدلًا عن المشرِكينَ بل المُراد كل الأَرْض.

قَوْلهُ: ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ﴾ هَذَا في الحَقيقَة مثل قَوْلهُ: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ [البقرة:٢٦٠]، يعني: ذكر من باب التَّوكيد وطُمأنِينَة الموعود بما وعد به، يعني كأنه قَالَ: انظروا إلى هَذَا الوعد الَّذِي وعدكم الله فقد تحقق فيمن قبلكم.

قَوْلهُ: ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من بني إسرائيل بدلًا عن الجبابرة] اهـ.

هَذَا صحيح وأيضًا من بني إسرائيل بدلًا عن الفراعنة؛ فإن الله تَعَالَى يَقُول: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩]، ويقول أيضًا: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾ وهم بنو إسرائيل في ذَلِك الوقت ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣٧]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ

﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان:٢٥، ٢٦]؛ هَذِهِ الجنات والعُيون والزُّروع والمقام الكَرِيم الَّتِي هي جنة الدُّنْيَا تركوها وأورثها الله تَعَالَى لبني إسرائيل، كَذلِكَ المُسْلِمُونَ.

وقَالَ اللهُ تَعَالَى في اليهود الَّذينَ قضى عليهم بالقضاء على بني قريظة وبالتالي فتح خيبر، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ [الأحزاب:٢٧]، يعني: ما وطئتم عَلَيْها أبدًا أورثكم الله إياها، وهَذَا وعد حق، وقد علمنا في التاريخ أن المُسْلِمِينَ حينما كَانَ يمثلون الإِسْلام حَقِيقَة ملكوا مشارق الأَرْض ومغاربها، ودانت لهم الأُمَم إدانة كاملة، وفي الحَقيقَة أنهم فتحوا تِلْك البلدان قبل كل شَيْء بالدِّين والأخلاق.

فإن من سَبَرَ أحوال المُسْلِمِينَ دخل في الإِسْلام بدون أي قتال، ولكن مع ذَلِك استعانوا بالسلاح لئلا يقف أحد في وجه دعوتهم، واستعمال السلاح في الإِسْلام ما هو إلا مدافعة عن الإِسْلام فقط لا إرغامًا للنَّاس أن يدخلوا بالسيف؛ لأَن الله يَقُول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]، ويقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، يعني: صدًّا عن سبيل الله وقيامًا ضد الدعوة الْإِسْلَامية ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]، وهو الظَّاهِر وهو الغالِب.

فعلى كل حال، نقول: إن من سَبَرَ أحوال التَّاريخ فيما قبل هَذِهِ الأُمَّة وفي هَذِهِ الأُمَّة عرف تصديق هَذَا الوعد، وأنه وعد تحقق، ونزل وأنه إنما تخلف فيما تخلف النَّقص؛ إما في الإِيمَان وإما في العَمَل الصَّالح؛ فتخلف النَّصر في أُحد لترك العَمَل الصَّالح؛ وهو الامتثال؛ حيث قَالَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا تَبْرَحُوا مِنْ مَكَانِكُمْ،

إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا، فَلَا تُعِينُونَا»[1]، ولكنهم برحوا.

وتخلَّف النَّصر في غزوة حُنَين لنقص الإِيمَان؛ وهو الاعتماد على الله عَزَّوَجَلَّ بل اعتمدوا على قوتهم وكثرتهم، وقالوا: لن نُغلب اليْوم من قلة؛ فغلبوا من قلة، فهَذَا دَليل على أنَّه متى تخلف أحد الوصفين: الإِيمَان أو العَمَل الصَّالح، فإنَّه يتخلف من هَذَا الوعد بقدر ما تخلف من هَذَيْنِ الوصفين.

الْأَمْر الثَّاني: مما وعد الله به الْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، وهَذَا هو قرة أعينهم قرة أعين الْمُؤْمِنِينَ أن الله يُمْكِن لهم دينهم الَّذِي ارتضى لهم، وأن يَكُون الإِسْلام هو المتمكِّن وهو الظَّاهِر وهو الغالِب هَذِهِ قرة عيون الْمُسْلِمِينَ، وهي إن لم تكن مثل الأولى فهي أولى منها، بالنِّسْبَةِ للمُؤْمن حقًّا الَّذِي يُرِيد الإِيمَان والْإِسْلَام، فلو سُئل الْمُؤْمِن: ماذا تتمنَّى؟ لم يقل: أتمنى أن يَكُون لي سيارة فخمة وقصر مشيد وما أشبه ذَلِك، قَالَ أتمنى أن أجد الإِسْلام هو العالي وهو المتمكن في الأَرْض، هَذِهِ أمنيته، وهَذِهِ أمنية عليا لكل مُؤْمن.

وفي قَوْلهُ: ﴿دِينَهُمُ﴾ الإضافَة إلَيْهم فيها نوع من التَّخصِيص نوع من الفخر والإعزاز، يعني: الدِّين الَّذِي اختاروه لأنفسهم وصَارَ خاصًّا بهم.

ثم في قَوْلهُ: ﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ في هَذَا أيضًا ميزة أُخْرَى بأن هَذَا الدِّين الَّذِي اختاروه هو الدِّين الَّذِي ارتضاه الله لهم أيضًا، فصَارَ هَذَا الدِّين ميزة وغبطة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، حديث رقم (٣٠٣٩)؛ عن البراء بن عازب، ولفظه: جعل النَّبِيّ ﷺ على الرَّجالة يوم أحد، وكانوا خمسين رجلًا عبد الله بن جبير، فقال: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حَتَّى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هَزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حَتَّى أُرسل إليكم».

للمُؤْمِنِينَ من ناحيتين، أولًا: أنَّه هو الَّذِي سلكوه واختارُوه لأنفسِهم، والشَّيء الثَّاني: أن الله ارْتضاهُ لهم أيضًا ليدينوا لله به، فيَكُون فيه مزيتان: مزية من جهة السالك في قَوْلهُ: ﴿دِينَهُمُ﴾، ومزية من جهة الشَّارع في قَوْلهُ: ﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾؛ فهم رضوا هَذَا الدِّين، وربهم رضيه لهم، فكان هَذَا الدِّين الَّذِي ارتضوه لأنفسهم ورضيه الله لهم، فأعز شَيْء عليهم أن يُمْكِن الله لهم هَذَا الدِّين، وهَذِهِ نتيجة ثانية لِلْإِيمَانِ والعَمَل الصّالح: الأوَّل: الاستخلاف في الأَرْض، والثَّاني: أن يُمْكِن الله لهم الدِّين ويثبته ويقويه ويجعله الأعلى على غيره.

قَوْلهُ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فيها قراءتان: التخفيف «وَلَيُبْدِلَنَّهُمْ»[1] والتشديد ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾، وهما بمَعْنى واحد أو مع اختلاف يسير).

قَوْلهُ: ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ أتى بقَوْلهُ: ﴿مِّنۢ بَعْدِ﴾ ولم يقل: بخوفهم أمنًا لِتُحقق الخَوْف الأوَّل، ثم يأتي من بعده الأَمْن وظهور نعمة الأَمْن، وفَائِدَته بعد الخَوْف أبلغ من ظهور أمنٍ على أمن؛ لأنَّه لا تعرف قيمة الأَشْيَاء إلا بضدها، فإذا قدر أن هَذَا الإِنْسَان في خوف ثم أبدل بعد الخَوْف أمنًا ظهر لهَذَا الأَمْن من الأثر في نفْسِه ما هو أبلغ مما لو كَانَ أمنًا على أمن، ولِذَلك الآن هَؤُلَاءِ الشَّباب من بنينا الَّذينَ عاشوا في هَذَا الظل الوارف والنَّعيم الوافر من الإطعام من الجوع والأَمْن من الخَوْف؛ هل يقدِّرون نعمة الله هَذَا الأَمْن؟ أبدًا لا يقدرون نعمة الشِّبع، بالنِّسْبَةِ إلَيْهم كأنه أمر عادي خلقوا علَيْه ولن يتبدل، لكن من ذاق ألم الجوع ورهبة الخَوْف ممَّن سبقونا ثم أدركوا هَذَا النَّعيم يعرفون قدر هَذَا النَّعيم، الَّذينَ كانوا يبيتون ليالي

(١) البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ٢٢٥).

لا يقتاتون إلا من ورق الشَّجر إن تيسَّر لهم، ولا يأكلون اللَّحم إلا من خِفاف الإِبل المشويَّة إن تيسَّرت، هَؤُلَاءِ هم الَّذينَ عرفوا قدر هَذِهِ النِّعمة، والآن أصبحت اللحوم تلقى على المزابل من عدم أكلها.

فعلى كل حال: الأَمْن بعد الخَوْف أَشَدّ ظهورًا منه من الأَمْن على الأَمْن؛ لأنَّه لا يظهر في الحَقيقَة استمرار الأَمْن بين قوم لم يذوقوا رهبة الخَوْف، هَذَا قد لا يُشعر به، والَّذي يشعر بظُهور نعمة الأَمْن إنما يَكُون ذاقها من بعد الخَوْف، ولا شَك أن الَّذينَ خوطبوا بهَذِهِ الآيَة أولًا قد ذاقوا رهبة الخَوْف؛ لأنهم كانوا خائفين من أعدائهم الْكُفَّار لـما لاقوه من الأَذَى الشَّديد القولي والفِعْلي، حَتَّى النَّبِيّ ﷺ لـم يخرج من مكة إلا خائفًا متخفيًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حَتَّى أظهره الله عَزَّوَجَلَّ فاتحًا منصورًا مؤزرًا فإذا تصور الْإِنْسَان إبدال الخَوْف بالأَمْن يجد أن للخوف أثرًا كبيرًا في نفْسِه.

قَوْلهُ: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِنْ الْكُفَّار ﴿أَمۡنٗا﴾ وَقَدْ أَنْجَزَ الله وَعْده لَهُمْ بِمَا ذُكِرَ وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ بقَوْلهُ: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾] اهـ.

الحمد لله، نعم أنجز الله وعده وقد قَالَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو على باب مكة عام الفتح معلنًا للتوحيد الَّذِي كَانَ يُحارب في مثل ذَلِك المكان، قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ»[1]، وقد تحقق -ولله الحمد- فكانت الأصنام في جوف الكَعْبة وحول الكَعْبة، وهَذَا يُنافي تمامًا شهادة أن لا إله إلا الله، وقد كَانَ الْمُسْلِمُونَ منهم من لا يُمَكَّن من البَيْت أو من الصَّلاة حوله، وإذا صلى حوله سُخر منه وأوذي، حَتَّى إن إمامهم محمد ﷺ كَانَ ساجدًا وكان حوله أبو جهل ومَنْ معه من شرار قريش فقالوا: ألا رجل يأتي بسلا

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النَّبِيّ ﷺ، حديث رقم (١٢١٨)؛ عن جابر بن عبد الله.

جَزُور بني فلان، فيلقيه على محمد ﷺ وهو ساجد، فانبعث أشقى القوم فجاء به ووضعه على النَّبِيّ ﷺ وهو ساجد، فجعلوا يضْحَكُون ويهزؤون به، حَتَّى إن بعضَهم يسقط من الضَّحك والسُّخرية، إلى أن جاءت فاطمة ابنته وكانت صغيرة لا يجرؤون على أن يمنعوها، فأخذت هَذَا من على ظهره ﷺ(١).

فأقول: هَذَا البَيْت الَّذِي كَانَ حال المُسْلِمِينَ فيه على هَذَا الوضع بعد مدة وجيزة -ولله الحمد- وقف النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على عتبة الباب حكمًا في قريش الَّذينَ هم فعلوا به ما فعلوا وقال لهم: «مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُمْ؟» قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، وفي هَذَا المقام الَّذِي يسْتَطيع أن ينتقم كما يُرِيد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قَالَ لهم: «أَقُولُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ: لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»(٢)؛ فأي تمكين أقوى من هَذَا التمكين وأي عز أعلى من هَذَا العز، فصدق الله وعده تَبَارَكَ وَتَعَالَى في مدة وجيزة -ولله الحمد-، وإلا فمن كَانَ يفكر أنَّه في خلال ثمان سنوات من خروج النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى عام الوفود، كما هو معْرُوف، ثم يرجع فاتحًا منصورًا مؤزرًا.

يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَقَدْ أَنْجَزَ الله وَعْده لَهُمْ بِمَا ذُكِرَ وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ بقَوْلهُ: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾].

المُفَسِّر يرى أن هَذِهِ الجُمْلَة استئنافية للثناء عليهم، ويحتمل أن تَكُون هَذِهِ الجُمْلَة استئنافية لَيْسَ الغرض منها ثناء بل الغرض منها استمرار الصِّفة من الإِيمَان

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، حديث رقم (٢٩٣٤)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النَّبِيّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، حديث رقم (١٧٩٤)؛ عن عبد الله بن مسعود.

(٢) رواه ابن إسحاق في السيرة (٤/ ٣١ - ٣٢)، وعنه الطبري في التاريخ (٣/ ١٢٠).

والعَمَل الصَّالح، يعني: أن هَذَا التمكين وهَذَا الاستخلاف وهَذَا التبديل بالأَمْن بعد الخَوْف يَكُون إِذَا استمروا على عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من غير إشراك به، فتكون الجُمْلَة هَذِهِ حالية أو استئنافية، والغرض منها بَيان أن هَذَا الوضع الحاصل أو هَذَا الوعد الَّذِي وعد الله به حاصل ما استمروا على عبادة الله وعدم الإشراك به، ونضيف هَذِهِ الصِّفة، وهي إخلاص التوحيد لله والبقاء علَيْه الَّذِي هو شرط للتمكين مع قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج:٤٠-٤١]؛ هَذِهِ أربع صِفات مع هَذِهِ الصِّفة وهي العِبادَة بدون إشراك، فتكون أَسْبَاب النَّصر الَّتِي وعد الله به خمسة: عبادة الله بدون إشراك الَّتِي أعلاها التوحيد، ثم إقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، والْأَمْر بالمعْرُوف، والنَّهْي عن المُنْكر.

فهَذِهِ هي أَسْبَاب النَّصر الحقيقية الَّتِي بها ينصر الله عباده، وما عدا ذَلِك فلَيْسَ بسبب من أَسْبَاب النَّصر، ويلاحظ أن إعداد القوة داخل في ضمن هَذِهِ الأَشْيَاء؛ لأَنَّه من جملة عبادة الله حيث أمر الله به، وكل ما أمر الله به فهو من العِبادات، أما رجل يَقُول: أتمنى النَّصر لكن لا يقيم الصَّلاة من أين يأتيه النَّصر؟ ويقول: إنه يتمنَّى النَّصر لكنَّه لا يأمر بالمعْرُوف ولا ينهى عن المُنْكر، فمن أين يأتيه النَّصر؟ لا بُدَّ من أمر بمعْرُوف ونهي عن منكر، ولنثق أَنَّه لا يُمْكِن أن يقوم للمُسْلِمين قائمة إلا بالْأَمْر بالمعْرُوف والنَّهْي عن المُنْكر؛ لأَنَّهم إن لم يأمروا بالمعْرُوف وينهوا عن المُنْكر لزم ولابُدَّ التفرق بينهم، أنا أقول: إِذَا لم يأمر النَّاس بالمعْرُوف وينهوا عن المُنْكر؛ فإنَّه يَلْزَم لزومًا حتميًا مؤكّدًا أن يتفرقوا؛ لأَن مشرب النَّاس لَيْسَ واحدًا وهدفهم لَيْسَ واحدًا، هَذَا أمر بالضَّرورة؛ فمثلًا الَّذِي ارتد عن الإِسْلام إِذَا لم نرده إلى الإِسْلام

صَارَ مفارقًا لنا يسلك غير ما نسلك، ولهَذَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]، ثم قَالَ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٠٥]؛ فدَلَّ هَذَا على أنَّه بترك الْأَمْر بالمعْرُوف والنَّهْي عن الْمُنْكر يَكُون التفرق، وهو أمر واقع طبيعي.

قَوْلهُ: ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ ﴿شَيْئًا﴾ نكرة في سِيَاق النَّفي؛ فتعم أي شَيْء مما يُشرك به، ولَيْسَ الشِّرك خاصًّا بعبادة الوثن بأن يركع الْإِنْسَان ويسجد لشجر أو حجر أو قبر أو شمس أو قمر، لا، الشِّرك أعم من ذَلِك كله؛ حَتَّى إنه إِذَا أُطيع الْإِنْسَان في معْصِيَة الله يَكُون ذَلِك شركًا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التَّوبة:٣١].

قَالَ عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رَسُول الله، إنا لسنا نعبدهم! قَالَ: «أَلَيْسَ كَانُوا يُحِلُّونَ لَكُمُ الْحَرامَ فَتَسْتَحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْكُمُ الْحَلالَ فَتُحَرِّمُونَهُ؟»، قَالَ: نعم، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»[1].

الرَّجل يفضل الدُّنْيَا ويقدمها على الْآخِرَة؛ هل هو مشرك أو لا؟ نعم، مشرك؛ لقول النَّبِيّ ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ»[2]؛ لأَن أصل العِبادَة مأخوذ من الذُّلِّ، ومنه قولـهم: طريق مُعَبَّد، يعني مذللًا لسالكيه يمشون عليه، فكون

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، حديث رقم (٣٠٩٥)؛ عن عدي ابن حاتم، واللفظ للطبراني في الكبير (١٧/ ٩٢) (٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يُتَّقى من فتنة المال، حديث رقم (٦٤٣٥)؛ عن أبي هريرة.

الْإِنْسَان يذل للدرهم والدِّينار حَتَّى يقدمه على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ؛ هَذَا نوع من الشِّرك، ولهَذَا سمَّاه النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عابدًا له.

كَلِمة: ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ لَيْسَت بالكَلِمة الهيِّنة، إِذَا كنا نتصور مَعْناها كما جاء في الكتاب والسنة، أما إِذَا ضيقنا مَعْناها وقُلْنا لا يشركون به شيئًا، أي: لا يعبدون شجرًا ولا حجرًا، صَارَت ضيقة، ولا معنى للعُموم فيها.

فإِذَنْ عبادة الله حقًا لا تَكُون إلا بانتفاء الشِّرك مطلقًا؛ بحيث لا يشرك باللهِ أحدًا، لَيْسَ الشَّرك في العِبادَة فقط، بل في نفس العِبادَة والإِرادَة وغير ذَلِك، فإذا حقق هَذَا الْأَمْر فقد تحقق الإِخْلاص، وقد تقدَّم أن بعض السَّلف كَانَ يَقُول: ما جاهدت نفي على شَيْء مجاهدتها على الإِخْلاص، وهَذَا حَقِيقَة؛ فالإِخْلاص: أن لا يشرك الْإِنْسَان باللهِ شيئًا لا في العِبادَة الَّتِي لله وحده ولا في الإِرادَة وهَذَا أمر يصعب جدًّا على الْإِنْسَان أن يحققه، ولكن بعون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والاستعانة به يحصل المَطْلوب.

قَوْلهُ: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [هُوَ مُسْتَأْنَف فِي حُكْم التَّعْلِيل] اهـ.

هَذَا غريب من المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ جعله في الأَوَّل ثناء علَيْه ثم جعله تعليلًا، وفي الحَقِيقَة لا شَك أَنَّه تعليل كما قررناه، لكنَّه متضمن للثناء؛ لأَن من عبد الله استحق الثَّناء.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: الحث والتَّرغيب على الإِيمَان والعَمَل الصَّالح.

الفَائِدة الثَّانية: الوعد لمن اتصفوا بهَذَيْنِ الوصْفَيْن أن يستخلِفَهم الله تَعَالَى في الأَرْض كما استخلف الَّذينَ من قبلهم، يعني: يجعلهم خُلَفاء لأهلِها في إِرثها من بعدهم.

الفَائِدة الثَّالِثَة: حسن التَّعليل؛ حيث إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر الشَّواهد على وعده بالْأُمُور الواقِعة؛ لقَوْلهُ: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرَادَ بهَذَا المثال، وهو قَوْلهُ: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ طمأنة هَؤُلَاءِ الموعودين بذكر الْأَمْر واقعًا فيمن قبلهم، فيَكُون في ذَلِك زيادة تشجيع لهم على ذَلِك.

الفَائِدة الرَّابِعَة: أن الأَرْض لله يورثها من يشاء من عباده، وهو الَّذِي يستخلف فيها النَّاس بدل غيرهم، ولَيْسَ للنَّاس في هَذِهِ الأَرْض ملك، الملك في الأَرْض لله يؤتيه من يشاء لقَوْله تَعَالَى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

الفَائِدة الخَامِسَة والسَّادِسَة: أن الإِيمَان والعَمَل الصَّالح سبب لتمكين الدِّين في الأَرْض، وأن المخالفة سبب لنزع الدِّين من الأَرْض؛ لقَوْلهُ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾ فيفهم منه أنهم لو فسقوا ولم يؤمنوا ولم يعلموا صالحًا ما مُكِّن لهم الدِّين الَّذِي هو لهم والذي ارتضاه الله تَعَالَى لهم، ويتفرع على الفَائِدة السَّابِقة التَّحذِير البالغ من المخالفة والفُسوق، وأن ذَلِك سبب لنزع الدِّين منهم، وهَذَا هو المطَّرد في سنن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإن النِّعم إِذَا لم تُشكر زالت، وأكبر نعمة أنعم الله بها علَى عِبَادِه هي نعمة الدِّين، فإذا لم تُشكر فإنها تزول كغيرها من النِّعم.

الفَائِدة السَّابِعَة: كمال الدِّين الْإِسْلَامي حيث قَالَ: ﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ فهو الدِّين الَّذِي ارتضاه لعباده، وهو أكمل الأديان ولِذَلك ختمت به الرسالات.

الفَائِدة الثَّامِنَة: أن الإِيمَان والعَمَل الصَّالح سبب لاستمرار الأَمْن ولزوال الخَوْف، إِذَا كَانَ هُناكَ أمن سابق فهو يستمر ولزوال الخَوْف، فإذا كَانَ هُناكَ خوف فإنَّه يزول؛ لقَوْلهُ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.

الفَائِدة التَّاسِعَة: أن الْأُمُور الهامة يَنْبَغِي تأكيدها بأنواع المؤكِّدات، فإن هَذَا الوعد من الْأُمُور الهامة لما يترتَّب علَيْه من المَصالِح والمنافع في الدُّنْيَا والْآخِرَة، ولهَذَا أكَّده الله تَعَالَى بالقسم واللَّام والنُّون، كما في قَوْلهُ: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾، وقَوْلهُ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾، وأكَّده أيضًا بمؤكِّد معنوي لَيْسَ بأداة لفظية، وهو قَوْلهُ: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فإن المُراد بهَذَا التَّشبيه كما أسلفنا تأكيد هَذَا الوعد بذكر شواهده، فيكُون ذَلِك أيضًا تأكيد معنوي على تأكيد لفظي؛ فالأول كما تقدَّم المؤكِّد اللَّام والنُّون والقسم، هَذِهِ مؤكِّدات لفظية، لكن قَوْلهُ: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فيه مؤكِّد معنوي؛ حيث إنه يذكر ما يقوِّي الْقَلْب ويثبِّته.

الفَائِدة العاشرة: أن الإِيمَان والعَمَل الصَّالح هو عبادة الله؛ لقَوْلهُ: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾، وعلَيْه يَكُون تحقيق التوحيد من أَسْبَاب هَذَا الوعد الَّذِي وعد الله به.

الفَائِدة الحَادِيَة عشرة: التَّهدِيد للكَافِرين؛ لقَوْلهُ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فإن هَذَا تهديد لمن كفر بعد هَذَا الوعد أو بعد هَذَا الواقِع،

فمن كفر سواء كَانَ وقع له ما ذُكر من الاستخلاف في الأَرْض والأَمْن أو لم يقع له، ولكنه وُعد به؛ فإن كفره بعد ذَلِك يجعله فاسقًا.

الفَائِدة الثَّانية عشرة: عظم هَذَا الفسق الَّذِي يحصل بعد هَذَا الوعد أو بعد هَذَا الواقِع، ووجه عظمه حصر الفسق في هَؤُلَاءِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ مع أَنَّه يُوجَد أناس فاسقون غيرهم، لكن لِعِظَم فسقهم حصر الفسق فيهم.

الآية (٥٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦].

قَوْلهُ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: افعلوها قيمة على الوجه الَّذِي شرع الله تَعَالَى ورسوله، هَذَا معنى إقامة الصَّلاة، وإقامة الشَّيء يعني: تعديله وجعله قويمًا، وضد ذَلِك تعويجه بالإفساد والنَّقص، فإِذَنْ معنى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ افعلوها كاملة.

وقَوْلهُ: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعم الفرض والنَّفل؛ ولِذَلك إِذَا دخل الْإِنْسَان في نفل وجب علَيْه أن يأتي به كما شُرع.

فلو أَرَادَ الْإِنْسَان أن يتنفل بنافلة كصلاة نفل مثلًا، ويترك التَّسبيح أو يترك التكبير أو يترك التشهد ويقول: ما دام الْأَمْر نفلًا فلا بأس نقول له: هو نفل قبل أن تدخل فيه، فإذا دخلت صَارَ الإتيان به على الوجه المشروع أمرًا مفروضًا، لو قَالَ: سأصلي نفلًا لكن سأسجد قبل الركوع؛ لأنَّه نفل أو سأصلي وأسجد مرة واحد، أَلَيْسَ ذَلِك نفلًا؟ نقول له: هَذَا لا يجوز؛ لأنَّه إِذَا كَانَ نفلًا فإن إقامته على الوجه المشروع واجبة.

وقَوْلهُ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطوها لمستحقها، وقد بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المستحقين للزكاة بقَوْلهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ

قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [التَّوبة:٦٠].

قَوْلهُ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ الطَّاعة سبق أنَّها موافقة الْأَمْر فعلًا للمأمور وتركًا للمحذور.

وقَوْلهُ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ هَذَا من باب عطف العامّ على الخاص؛ فإن إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة من طاعة الرَّسُول، لكن هَذَا من باب التنويه بفضل إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة.

وقَوْلهُ: ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ (ال) للعهد الذهني؛ يعني: الرَّسُول الَّذِي هو معْرُوف لديكم، وهو محمد ﷺ.

قَوْلهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ رَجَاء الرَّحْمَة] اهـ.

وهَذَا يدُلّ على أن المُفَسِّر جعل (لعل) للرجاء لكن باعتبار الفاعل لا باعتبار المتكلِّم، يعني: أنكم تفعلون ذَلِك لأجل أن تُرحموا راجين بِذَلِك الرَّحمة، فتكون هُنا (لعل) للترجِّي، لكن باعتبار الفاعل الَّذِي هو المخاطب لا باعتبار المتكلِّم، فإن المتكلِّم، وهو الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأَن الله عَزَّوَجَلَّ لا يعجزه شَيْء حَتَّى يترجاه.

ويجوز أن نجعل (لعل) للتَّعليل وتكون باعتبار المتكلِّم، يعني: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾؛ لأَن ذَلِك سبب لرحمتكم، وهَذَا أقرب؛ فإن (لعل) في كلام الله بل في كلام كل مخاطب تُحمل على ما يُرِيد المتكلِّم لا على ما يريده المُخاطب، وعلى ها فنقول: (لعل) للتَّعليل، ويَكُون فيه دَليل على أن إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة وطاعة الرَّسُول سبب لرحمة الله، وقَوْلهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: من قِبَل الله عَزَّوَجَلَّ.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: وُجوب إقامة الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وطاعة الرَّسُول، ونأخذ الوُجوب من الْأَمْر؛ لأَن الأَصْل في الْأَمْر الوُجوب.

الفَائِدة الثَّانية: فضيلة الزَّكاة؛ حيث إنها قُرنت بالصَّلاة، وهي مقرونة بالصَّلاة في مواضع كَثيرَة من القُرْآن؛ وسبب ذَلِك -والله أعلم- أن الزَّكاة عبادة مالية محضة، والصَّلاة عبادة بدنية محضة، وكلاهما من جنس، ولِذَلك حث الله عليهما جميعًا.

الفَائِدة الثَّالِثَة: أن الذي ثبت في السنة كالَّذي ثبت في القُرْآن؛ لقَوْلهُ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وهَذَا شامل لما قاله النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ابتداء، ولما قاله تفسيرًا للقرآن؛ فيَكُون فيه دَليل على وُجوب العَمَل بالسنة كما يَجب العَمَل بالقرآن، والأدلَّة في ذَلِك كَثيرَة جدًّا، ولكن يَنْبَغِي التركيز عَلَيْها؛ لأَنَّه ظهر في وقتنا من الزَّنَادقة من يَقُولُونَ: إنه لا يَجب العَمَل بما في السُّنة، بل وُجد من صادروا كتب السنة، صادروا صحيح البخاري ومسلم وحجبوهما عن الأسواق؛ لأنهم يرون أن السنة لا يَجب العَمَل بها، بل على مقتضى عمله هَذَا أن السنة ضلال؛ لأَنَّه لا تُصادر الكتب وتُحجب عن النَّاس إلا إِذَا كَانَت سببًا لفسادهم وضلالهم.

الفَائِدة الرَّابِعَة: إِثْبات الأَسْبَاب وأن الأَسْبَاب موجبة بذاتها؛ لقَوْلهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ حيث جعل هَذِهِ الأَشْيَاء الثَّلاثة: إقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة وطاعة الرَّسُول سببًا للرحمة.

والصَّحيح، كما أشرنا إِلَيْه سابقًا، أن السَّبَب موجب بذاته، لكن هل هو مستقل

عن الله أو بإذن الله؟ بإذن الله، وأما من قَالَ: إن السَّبَب غير موجب وإنما هو أمارة وعلامة فقط فقوله يرده الشَّرع والواقِع.

الفَائِدة الخَامِسَة: فضيلة هَذِهِ الْأُمُور الثَّلاثة؛ حيث كَانَت سببًا لرحمة الله، والتي هي: إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة وطاعة الرَّسُول.

الفَائِدة السَّادِسَة: أن الصَّلاة أفضل من الزَّكاة، وَذلِك لتقديمها عَلَيْها في كل موضع، اللهم إلا أن يَكُون هُناكَ سبب خاص لتقديم الإنفاق، فقد يُقدَّم الإنفاق على الصَّلاة، لكن عنْدَما تُذكر الصَّلاة والزَّكاة معًا فإنها تُقدَّم.

الآية (٥٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النور:٥٧].

قَوْلُهُ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّة وَالْفَاعِلُ الرَّسُولُ ﷺ] اهـ.

أما قَوْلُهُ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ فهو خطاب على كلام المُفَسِّر للرَّسول ﷺ، ولكن يوجد احتمال ثانٍ؛ وهو أن يَكُون الخِطَاب لكل مَن يصح خطابه بمثل ذَلِك فيَكُون هَذَا أعم أي: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ أيها المُخاطب؛ النَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وغيره، وأما على قِراءَة «لَا يَحْسَبَنَّ»[1] فيقول المُفَسِّر أيضًا: إن الضَّمِير يَعود على الرَّسُول؛ يعني: لا يحسبن الرَّسُول الَّذينَ كَفَرُوا معجزين في الأَرْض.

ولكن عندي أن فيه احتمال أقرب، وهو: أن نجعل يحسبن فاعله ﴿ٱلَّذِينَ﴾ «لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا»، ويَكُون المفعول الأَوَّل لـ«يَحْسَبَنَّ» محذوفًا، والتَّقدير: لا يحسبن الَّذينَ كَفَرُوا أنفسهم معجزين في الأَرْض، ويَكُون في هَذَا تهديد لهم، أما على ما ذهب إِلَيْه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيَكُون المُراد بِذَلِك لَيْسَ تهديدَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّار، ولكن المَقْصُود بِذَلِك تثبيت الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وطمأنته وتسليته بأن هَؤُلَاءِ الكافرين

(١) المبسوط في القراءات العشر (ص:٣٢١).

لم يعجزوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكنه يملي لهم وقد يؤخر عقابهم.

وقَوْلُهُ: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَنَا] اهـ.

المعجز: هو الَّذِي يفعل ما يُعجز غيره؛ فهل الَّذينَ كَفَرُوا معجزين لله، أي: فاعلين ما يَعْجَز الله عنه؟

الجواب: لا، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

قَوْلُهُ: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِأَنْ يَفُوتُونَا] اهـ.

هَذَا تفسير الإعجاز. يعني: نعجز عنهم، فلا ندركهم بل يفوتوننا.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: مرجعهم] اهـ. الَّذِي يأوون إِلَيْه النَّار، وإنما قَالَ: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ لأَن هَذَا هو الواقِع، إِذْ أن هَذِهِ الحَياة الدُّنْيَا سوف تنقضي والمرجع الَّذِي لَيْسَ بعده شَيْء آخر هو ما يؤول إِلَيْه المُؤْمِن والكافر يوم القِيامَة؛ إما إلى نار وإما إلى جنة، هَؤُلَاءِ ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ -والعِيَاذ باللهِ- مرجعهم.

وقَوْلُهُ: ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: المَرْجِع هِيَ] اهـ. (اللَّام) واقعة في جواب القسم؛ أي: موطئة للقسم، يعني: والله لبئس المصير، و(بئس) كما هو معْرُوف فعل ذم أو فعل جامد لإنشاء الذم، و﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ فاعله لكن أين المخصوص؟ لأَن (بِئس) و(نِعم) يحتاجان إلى فاعل وإلى مخصوص، الفاعل في هَذِهِ الآيَة هو المصير، المخصوص محذوف، والتَّقدير: ولبئس هي المصير، ولا يصِح أن

نقول: مستتر؛ لأنَّنا لو قُلْنا: مستتر صَارَ هو الفاعل، بل نقول: محذوف، فإما أن نقول: ولبئس المصير النَّار، أو: ولبئس المصير هي.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: تمام قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وأن الكافرين مهما بلغوا من القدرة فلَيْسَوا بمعجزين الله، وكون الله تَعَالَى يُملي لهم لا يدُلّ على عجزه عنهم، بل يدُلّ على حكمته في تأخير الْعَذَاب عنهم.

الفَائِدة الثَّانية: أن أهل النَّار مخلَّدون فيها؛ لقَوْلهُ: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، ولو لم يُخلَّدوا لكان مأواهم ما بعد النَّار؛ لأَن المأوى معناه المرجع الأَخِير، وهَذَا دَليل على أن النَّار دائمة لهم وأنهم مخلدون فيها، وقد ثبت في القُرْآن الكَرِيم تأبيد أهل النَّار في ثلاث آيَات من القُرْآن، هي: قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]؛ هَذَا في سورة النِّساء، أما في سورة الأحزاب فقَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥]، وفي سورة الجن قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣]. فهَذِهِ ثلاث آيَات صريحة تنص على تأبيد خلودهم.

وبهَذَا يُعرف ضعف قَوْل من قَالَ من أهْل العِلْم: إنه لا تأبيد لأهل النَّار، واشتبه علَيْه قَوْلهُ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]، ولم يشتبه علَيْه قَوْله تَعَالَى في أهل الجَنَّة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨]؛ لأنَّه قَالَ:

﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، وقال في أهل النَّار: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

لكن لَيْسَ معنى قَوْلهُ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أنَّه سيرفع عنهم هَذَا الْعَذَاب، بل لما كَانَ هَذَا انتقام منه وهَذَا العَمَل لَيْسَ من الْأَمْر الَّذِي يختاره الْإِنْسَان حَتَّى تُذكَرُ منة الله علَيْه باستمراره، قَالَ في هَؤُلَاءِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ فلا يمنعه شَيْء أن يفعل ما يُرِيد، وقال في أهل الجَنَّة: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

وأما قَوْله تَعَالَى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ:٢٣]؛ فيُقال: الآيَة لَيْسَت صريحة، فقَوْلهُ: ﴿أَحْقَابًا﴾ متعَلِّقة بما بعدها، يعني: ﴿أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ [النبأ:٢٣-٢٤]؛ وهَذَا ضعيف عندي، أو يُقال: ﴿أَحْقَابًا﴾ أي: مددًا طويلة، وهَذَا لا يُنافي التَّأبيد؛ لأَن التَّأبيد لا ينقص عن الأحقاب، فالتَّأبيد أحقاب، مهما طالت، أي: أحقاب طويلة. والأحقاب: جمع (حُقب)، وهي المدة من السنين، يعني: أحقابًا أحقابًا أحقابًا متوالية، إلى ما لا نهاية له. فلو قُلْنا مثلًا: الحقب ثمانون سنة، وقُلْنا: الأحقاب يعني مددًا طويلة، كل حُقب ثمانون، ثمانون، إلى ما لا نهاية له، ونعم؛ لو قَالَ: «أحقابًا عددها كذا» كَانَ له وجه، فحتى المدة المؤبدة هي أحقاب في الحَقيقَة.

ومهما كَانَ الْأَمْر ومهما فهِمنا من كَلِمة (أحقاب) ومن التَّحقيب؛ فإنها لا تُعارِض الأدلَّة الصَّحيحة في التأبيد.

الفَائِدة الثَّالِثَة: عظم قبح النَّار وشُؤمها؛ لأَن الله تَعَالَى وصفها بهَذَا الوصف وذمها بقَوْلهُ: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

واعلم أن ما ذمَّه الله عَزَّوَجَلَّ أو ما مدحه فإنَّه أمر عَظِيم؛ فالعَظِيم لا يرى الشَّيء العَظِيم إلا وهو صحيح أنَّه عَظِيم، لكن غير العَظِيم قد يرى ما لَيْسَ عَظِيمًا عَظِيمًا،

أما العَظِيم فإنَّه لا يعظِّم إلا ما يستحق التَّعظيم، ولا يمدح إلا ما هو عَظِيم جدًّا، ولا يذمُّ إلا ما هو مذموم وذمه شديد.

لو قَالَ قَائِلٌ: في وصف النَّبِيّ ﷺ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، هل هَذَا العظم بالنِّسْبَةِ لأخلاق البشر أو ماذا؟

الجواب: الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَظِيم بالنِّسْبَةِ لأخلاق البشر، لكن هَذَا العِظَم عظم إلى الحَدّ الَّذِي يصل إلَيْه البشر، لكن ربما أنا أقول: هَذَا الرَّجل على خلق عَظِيم؛ لأني جلست معه مدة قليلة ووجدت منه أخلاقًا فاضلة ولَيْسَ الحال كَذلِكَ، أما إِذَا قَالَ ذَلِك إِنْسَان عَظِيم يعرف الْأُمُور ويقدر الْأُمُور عرفنا عظمه، وأما عظم ما في الجَنَّة فإن الجَنَّة فيها ما لا عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سِمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بشر، وما ذكر الله من الجَنَّة والنَّار فلَيْسَ مما نتصوره بل أعظم وأعظم؛ لأَن فيها شَيْء لا ندركه في الدُّنْيَا، ولهَذَا هي من الْأُمُور الَّتِي لا يعلمها إلا الله؛ أي: حقائق ما في الجَنَّة وما في النَّار من الْأُمُور الَّتِي لا يعلمها إلا الله.

ولهَذَا حسب مفهومِنا أن الْإِنْسَان إِذَا أُدخل في النَّار يحترق ويموت، لكن في نار الْآخِرَة لا، يذوق الْعَذَاب ويتألم، وقول من قَالَ: إنهم -والعِيَاذ باللهِ- لا يدركون حرّها ويتأقلمون معها، هَذَا قَوْل باطل بلا شَك، ولهَذَا يَقُول الله تعالى: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]؛ فدَلَّ ذَلِك على أنهم يحسون ويتألمون.

• • ۞ • •

الآية (٥٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [النور:٥٨].

قَوْلُهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖ﴾ تقدَّم فَائِدَة تصدير الحُكْم بالخِطَاب، يعني بالنِّداء؛ وهو: التَّنْبيه وبَيان أهميته.

ثم توجيهه إلى المُؤْمِنِينَ فيه أيضًا ثلاث فوائد:

الأوَّل: الإغراء والحث، يعني لإيمانك يوجه إليك هَذَا الخِطَاب.

الثَّاني: أن تنفيذه من مُقتَضيات الإِيمَان.

الثَّالث: أن الإخلال به نقص في الإِيمَان.

وقَوْلُهُ: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ (اللَّام) للأمر.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ مِنْ الْعَبِيد وَالْإِمَاء ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ﴾ مِنْ الْأَحْرَار وَعَرَفُوا أَمْر النِّسَاء ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖ﴾ فِي ثَلَاثَة أَوْقَات] اهـ.

هَذَا تفسير للمرات، فالمُراد بالمرات الأوْقات.

قَوْلهُ: ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ هو كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ الْعَبِيد وَالْإِمَاء]؛ لأَن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول يشمل الذكور والإناث.

وقَوْلهُ: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: ملكتم، وعبّر باليمين عن النَّفس؛ لأنَّها غالبًا أداة الأخذ والإعطاء.

وقَوْلهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ يعني: لم يبلغوا زمنًا يحتلمون فيه غالبًا، أو: لم يبلغوا الحلم بمَعْنى العقول، أي: لم يبلغوا أن يَكُونوا في حد العقلاء. وعلى كل حال المُراد به من دون البُلوغ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَعَرَفُوا أَمْر النِّسَاء]؛ كأن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخذ هَذَا القَيْد من وُجوب الاسْتِئْذان؛ لأَن من لم يعرف أمر النِّساء لو دخل على الْإِنْسَان في هَذِهِ الأوْقات لا يهمه، ففي هذا القَيْد نظر؛ لأنَّه لَيْسَ الغرض من ذَلِك دخولهم على النِّساء حَتَّى نقول: إِذَا عرفوا أمر النِّساء بل الغرض من هَذِهِ التوجيهات خوفًا من أن يدخلوا على الْإِنْسَان في حال لا يَجب أن يُطلع عَلَيْها فيها؛ لأَن هَذِهِ الأَحْوال الثَّلاثة عورات، فأي إِنْسَان يدخل عَلَيْك ولو كَانَ ممَّن لا يعرف أمر النِّساء لا شَك أنك تشمئز منه وتفر من هَذَا الدُّخول.

فالصحيح -كما تقدَّم- أن هَذَا القَيْد الَّذِي ذكره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَيْسَ بمراد، بل نقول: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾؛ لأنهم إِذَا بلغوا الحلم فسيأتي -إِنْ شَاء اللهُ- الحُكْم فيهم.

قَوْلهُ: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ يعني في ثلاثة أوْقات؛ فسّرها بقَوْلهُ:

﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾؛ لأَن الْإِنْسَان قبل صلاة الفجر يَكُون غير متهيئ لأَن يراه أحد ويدخل علَيْه أحد؛ قد يَكُون في ثياب النَّوم الَّتِي يكره أن يراه أحد وهي عليه، وقد تَكُون ثيابًا أبلغ من ذَلِك، مثل ثيابه مع أهله أو ما أشبه ذَلِك.

والثَّاني: قَالَ: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ أي: وقت الظهر.

والثالث: قَالَ: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾.

قَوْلهُ: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾ بِالرَّفْعِ خَبَر مُبْتَدَأ مُقَدَّر بَعْده مُضَاف وَقَامَ الْمُضَاف إِلَيْهِ مَقَامه، أَيْ: هِيَ أَوْقَات ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾] اهـ.

تقدَّم فيما سبق أن قَوْلهُ: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ يعني ثلاثة أوْقات، أي: يستأذنكم هَؤُلَاءِ في ثلاثة أوْقات.

قَوْلهُ: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ تقدير الكَلام أي: هَذِهِ الثَّلاث ثلاث عورات لكم.

يَقُول الْمُفَسِّر: إنها على حذف مضاف، أي: هي أوْقات ثلاث عورات لكم؛ لأَن هَذِهِ الأوْقات لَيْسَت هي العورات، اللهم إلا على سبيل التجوّز بأن نقول: الْمُراد بالعورة زمنها، ولهَذَا الْمُفَسِّر قدّر قبلها مضاف؛ لأَن الوقت نفسه لَيْسَ بعورة، وعلى هَذَا فلا تَكُون هَذِهِ الأوْقات هي العورات، وإنما تَكُون أوْقات عورات ولَيْسَت عورات، ولهَذَا قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أوْقات ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾.

والعورة في الأَصْل: كل ما يُستقبح ويُستحيى منه شرعًا أو عُرفًا.

هَذِهِ الأوْقات الثَّلاثة أوْقات عورات، لكن كَيْفَ كَانَت أوْقات عورات؟

الجواب: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ تَكُون عورة؛ لأَن الْإِنْسَان يَكُون علَيْه ثياب

أو لبس النَّوْم، والتي قد يكره الْإِنْسَان أن يطّلع علَيْه أحد.

﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ كَذلِكَ فالْإِنْسَان في وقت القائلة يضع ثوبه وينام عريانًا أو ينام على صفة لا يحب أن يطّلع علَيْه أحد.

﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِ﴾ يَكُون متهيئًا للنوم ولابسًا ثياب النَّوم ولا يحب أن يطّلع علَيْه أحد.

ولهَذَا قَالَ: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٍ لَّكُمۡ﴾ يعني: ثلاث أوْقات عورات لكم.

وتقدير المُفَسِّر صحيح؛ لأنَّه مفهوم من المَعْنى. يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَبِالنَّصْبِ بِتَقْدِيرِ أَوْقَات مَنْصُوبًا بَدَلًا مِنْ مَحَلّ مَا قَبْله قَامَ الْمُضَاف إِلَيْهِ مَقَامه وَهِيَ لِإِلْقَاءِ الثِّيَاب تَبْدُو فِيهَا الْعَوْرَات] اهـ.

يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيها قراءَتان: بالرَّفع على أنَّها خبر مُبْتَدَأ محذوف، وبالنَّصب[1]، ويُقال فيها ما سبق بأنَّها على تقدير مُضاف؛ أي: أوْقات ثلاث عورات لكم، وهي مَنْصُوبة بدلًا مما قبلها، والذي قبلها: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ لأَن قَوْلهُ: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ الأولى بمَعْنى ثلاثة أوْقات، فيَكُون أوْقات ثلاث عورات بدلًا منها وبدل المَنْصُوب يَكُون مَنْصُوبًا، ومع ذَلِك فهي نفسها لَيْسَت هي الأَصْل لا في كونها خبرًا ولا في كونها بدلًا، بل هي قائمة مقام مضاف، تقدير هَذَا المضاف أوْقات ثلاث عورات (أوْقات) بالنَّصب أو (أوْقات) بالرفع.

يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مجيبًا على سؤال مقدر: «لِمَ كَانَت هَذِهِ الأوْقات أوْقات عورات؟».

---

(١) حجة القراءات (ص:٥٠٥)، والسبعة في القراءات (ص:٤٥٩).

قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَهِيَ لِإِلْقَاءِ الثِّيَاب تَبْدُو فِيهَا الْعَوْرَات].

يعني: سمّيت هَذِهِ الأَوْقات أَوْقات عورة؛ لأَنَّها إِذَا أُلقيت الثِّياب فيها للنوم، أو للتهيؤ له أو لكونه أثر النَّوم كما هو الحال قبل صلاة الفجر، فإنَّه تبدو فيها العورة، وكأنَّ عادة النَّاس في ذَلِك الوقت أن الْإِنْسَان إِذَا نام يخلع ثيابه ويلتحف بلحاف وينام، وعلى هَذَا فالعورة تبدو؛ لأَن الْإِنْسَان لَيْسَ علَيْه إلا لحاف، وهو متهيئ للنوم؛ وهَذَا لا بأس به.

أما عادة النَّاس اليوم، فهل هي كَذلِكَ؟ يُمْكِن أن يوجد بعض النَّاس لا يلبس، لكن الظَّاهِر أن غالب النَّاس أنهم يلبسون ثوبًا ساترًا.

وكَذلِك أيضًا: كانوا في الزمن السَّابِق، البُيُوت لَيْسَت فيها حجاب ولا أستار، فإذا فاجأ العَبْد أو الصَّغير صاحب المنزل في هَذَا الأَوْقات اطّلع على عورته، أما الآن فالبُيُوت محجبة والستور مكثفة، ولهَذَا لو دخل البَيْت ولم يستأذن فإن الحُكْم قد زال، لأَن الحُكْم يدور مع علته؛ حيث قَالَ اللهُ تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾ ولأجل ذَلِك اختلف أَهْل العِلْم في هَذِهِ الآيَة.

فزعم بعضهم أنَّها منسوخة، وَذلِك لأَن النَّاس تركوا العَمَل بها من قديم.

وقال آخرون: بل هي محكمة وباقية، وروي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بسند صحيح أن هَذِهِ الآيَة محكمة لكن في حال دون حال.

وعندنا أن الحُكْم باقٍ وإن كَانَت البُيُوت محجبة؛ لأَنَّنا نقول: الْإِنْسَان عادة إِذَا أَرَادَ أن ينام فإنَّه ينام في مكان خاص، فإذا أَرَادَ أحد من هَؤُلَاءِ المماليك والصغار أن يستأذن علَيْه في محل النَّوم الخاص فإن الحُكْم باق، وماذا تُغني الأبواب إِذَا أَرَادَ

الْإِنْسَان أن يدخل عَلَيْك غرفة النَّوم؛ فإنَّه يفتح الباب بسرعة؛ هَذَا أَشَدّ، فالحُكْم باق في الحَقيقَة.

والاسْتِئْذان لدخول البَيْت عُمومًا صحيح أنَّه قد زال؛ لأَن النَّاس كانوا في الزمن السَّابِق الحجرة هي حجرة النَّوم وحجرة الأكل وحجرة الجلوس وكل شَيْء، لكن بعد أن وسَّع الله على المُسْلِمِينَ توسعت المباني؛ فصَارَ النَّوْمُ له غرفة خاصة والجلوس له غرفة خاصة وما أشبه ذَلِك، فنقول: الحُكْم باقٍ لكنَّه بالنِّسْبَةِ للغرف المعدَّة للنوم؛ فإن هَؤُلَاءِ لا يدخلون حَتَّى يستأذنوا في هَذِهِ الأوْقات الثَّلاثة.

أما لو دخل الْإِنْسَان الغرفة الَّتِي ينام فيها في غير هَذِهِ الأوْقات الثَّلاثة فالأَصْل أنَّه لم يدخل للنوم، فالاسْتِئْذان علَيْه لَيْسَ بلازم إلا إِذَا علم أن هَذِهِ الغرفة أيضًا محل لخلع الثِّياب ولبسها، فإنَّه إِذَا دخل غرفته فلابُدَّ أن يستأذن؛ لأنَّه يُخشى أن يَكُون خلع ثوبه ليلبس الثَّوْبَ الآخر فتدخل علَيْه على وجه تبدو فيه العورة. فبيّن الله في هَذِهِ الآيَة سبب تَخْصِيصها بهَذِهِ الثَّلاث، والحِكْمَةُ في الاسْتِئْذان في هَذِهِ الأوْقات الثَّلاثة أنَّها أوْقات عورة تُلقى فيها الثِّياب غالبًا للنوم؛ إما للتهيؤ له أو بعده أو من أجل الحَرّ، كما في قَوْلهُ: ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾.

ثم نقول: هل هَذِهِ الآيَة محكمة وباقٍ حكمها أو منسوخة؟

الجواب: اختلف فيها المفسرون كما تقدَّم؛ منهم من قَالَ إنها منسوخة ولَيْسَ له دَليل سوى الواقِع وهو تغير النَّاس وعدم اسْتِئْذانهم؛ فظنوا أنَّه نُسخت.

وقال آخرون: بل هي محكمة وباقية.

وقال آخرون: إنها محكمة ولكن ترك النَّاس العَمَل بها من أجل تغيُّر الحال،

وهَذَا هو الَّذِي صح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1]؛ من أجل تغيُّر الحال؛ لأنَّه في الزمن السَّابِق كَانَت البُيُوت غير محجّبة ولَيْسَ لِلإنْسان غرفة خاصة للنوم، وكان هَؤُلَاءِ الأطفال وهَؤُلَاءِ المماليك إِذَا دهموا النَّاس وفتحوا الباب بدون اسْتِئْذان قد يدخلون وهم على عورة، وقد يدخلون والْإِنْسَان على امرأته؛ فأُمروا بالاسْتِئْذان.

أما بعد أن وسّع الله الْأَمْر وصَارَت البُيُوت محجّبة وصَارَ النَّوْمُ له غرف خاصة؛ فإننا نقول: لا بأس من دخول المنزل عامَّة في هَذِهِ الأوْقات بدون اسْتِئْذان؛ لأَن العِلَّة الَّتِي أمر الله بالاسْتِئْذان من أجلها زالت، لكن حكم غرفة النَّوم في هَذِهِ الأوْقات الثَّلاثة باقٍ، فلا يجوز الدُّخول لهَؤُلَاءِ الأطفال والمماليك إلا بعد اسْتِئْذان؛ لئلا يدخلوا والْإِنْسَان على حال لا يحب أن يطّلع علَيْه فيها أحد.

قَوْلهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ المَمَالِيك وَالصِّبْيَان، ﴿جُنَاحٌ﴾ فِي الدُّخُول عَلَيْكُمْ بِغَيْرِ اسْتِئْذَان ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أَيْ بَعْد الْأَوْقَات الثَّلَاثَة هُمْ] اهـ.

(الجُناح) بمَعْنى الإثم، وقَوْلهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ واضح في نفي الجُناح عن الَّذينَ آمنوا؛ لأنهم مُكَلَّفون، فهم ممَّن يوصفون بالإثم وعَدَمِه.

منطوق الآيَة أن الدُّخول بغير اسْتِئْذان في غير هَذِهِ الأوْقات الثَّلاثة لَيْسَ فيه إثم لا على الأَوْلِياء ولا على الصِّغار والمماليك،؛ لقَوْلهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾، وهَذَا واضح لَيْسَ فيه إِشْكال؛ فمفهوم الآيَة الْكَرِيمَةِ ثبوت الجناح عليكم وعليهم في الدُّخول بغير اسْتِئْذان في هَذِهِ الأوْقات الثَّلاثة، الجناح على الأولياء والصغار والمماليك إِذَا دخلوا بغير اسْتِئْذان في هَذِهِ الأوْقات الثَّلاثة.

---

(١) تفسير القرطبي (١٢/ ٣٠٣)، وتفسير ابن كثير (٦/ ٨٢).

أما ثبوت الجُناح على الأولياء إِذَا دخلوا بغير اسْتِئْذان فالْأَمْر فيه ظاهر وجهه؛ أنهم لم يدخلوا بغير اسْتِئْذان إلا لأَن هَؤُلَاءِ قصّروا في واجب التربية والتأديب، ومن قصّر في واجب تَرَتَّبَ علَيْه ما يَتَرَتَّبُ على تركه؛ هَذَا بالنِّسْبَةِ للأولياء.

وبالنِّسْبَةِ للماليك أيضًا ظاهر أن عليهم جُناح؛ لأنهم تركوا الواجب وهم مكلّفون بالغون عاقلون؛ فيأثمون بما يُخالفون الشَّرع.

وبالنِّسْبَةِ للصغار هَذَا هو المشكل؛ فإن الصّغار لا إثم عليهم؛ فكَيْفَ يصح أن ينفي الإثم مع أنَّه لا إثم عليهم؛ فإن دَلالَة المَفْهُوم تدُلّ على أنَّه يثبت الجناح لهَؤُلَاءِ الصّغار إِذَا دخلوا في هَذِهِ الأَوْقات بغير اسْتِئْذان، وهَذَا وجه إِشْكال؛ فكَيْفَ يثبت الإثم على من لم يُكلّفوا؟

الجواب: على هَذَا أن يُقال: دَلالَة المَفْهُوم لا يُشترط فيها العُموم، وإنما تصح وتصدق بالدَّلالَة على فرد من أفراده، ولهَذَا يَقُولُونَ: المَفْهُوم لا عُمُوم له، بمَعْنى أنَّه يصدق بصُورَة واحدة، فيَكُون المَفْهُوم على حسب الأدلَّة، وهَذِهِ قاعِدَة مطردة.

وهنا صدقت بصورتين من ثلاث؛ فدَلالَة المَفْهُوم تصدق بصُورَة واحدة من مِئَة صُورَة أو مِئَات، فكَيْفَ وقد صدقت الآن بصورتين من ثلاثة، والصُّورَة الثَّالِثَة لَوْلا الأدلَّة على خروجها لم تخرج أيضًا، والأدلَّة على خروجها عمومات الأدلَّة على أن الصَّغير غير مكلّف وأنه لا إثم عليه.

قَوْلهُ: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِلْخِدْمَةِ ﴿بَعۡضُكُم﴾ طَائِف ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿طَوَّٰفُونَ﴾ خبر مُبْتَدَأ محذوف، والتَّقدير: هم طوّافون، والجُمْلَة هَذِهِ تعليل؛ لقَوْلهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾، لماذا لَيْسَ عليهم جُناح؟ لأنهم ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ يعني: مترددين، فالطَّائف بمَعْنى المتردد ومنه الطَّائف بالبَيْت لأنَّه يتردد عليه، ومنه قَوْل النَّبِيّ ﷺ في الهرة: «إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ»[1]، أي: من المترددين عليكم، ومنه قَوْل النَّاس للمساكين: طوّافين؛ لأنهم يترددون على النَّاس يسألونهم.

لماذا لم يكن علَيْنا ولا عليهم جناح بعدهنَّ؟ لأنَّهم طوّافون مترددون، فلو ألزموا بأن يستأذنوا كلما دخلوا لكان في ذَلِك مشقَّة عليهم وعلى أهل البَيْت أيضًا؛ لأَن أهل البَيْت قد يَكُونون مُنشغلِين ولا يسمعون المستأذن، وقد يثقل عليهم الردُّ لأنهم منشغلون، فيَكُون في ذَلِك مشقَّة على المُستأذن وعلى صاحب البَيْت، ولو ألزم الصَّبي الَّذِي له ستُّ سنوات أو عشرُ سنوات كلَّما خرج من البَيْت أو دخل نقول له: لا بُدَّ أن تستأذن.

وكَذلِك المملوك هَذَا فيه مشقَّة كَبيرَة علَيْه وعلى أهل البَيْت؛ لهَذَا انتفى الحرج لِوُجود المشقَّة، وسيأتي -إِنْ شَاء اللهُ- ذكر ذَلِك في الفوائد.

وقَوْلهُ: ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ قدّره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقَوْلهُ: [طَائِف عَلَى بَعْضٍ]، وعلى هَذَا فالجُمْلَة الثَّانية ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ تأكيد للجملة الأولى الَّتِي هي ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ فبعضكم يطوف على بعض، ويتردد على بعض.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الطهارة، باب سؤر الهرة، حديث رقم (٧٥)، والنسائي، كتاب الطهارة، باب سؤر الهرة، حديث رقم (٦٨)، والترمذي، كتاب الطهارة، باب ما جاء في سؤر الهرة، حديث رقم (٩٢)، وابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب الوضوء بسؤر الهرة والرخصة في ذلك، حديث رقم (٣٦٧)، أحمد (٥/ ٣٠٣) (٢٢٦٣٣)؛ عن أبي قتادة.

وكوننا نُلْزَم بالاسْتِئْذان كلما دخل هَذَا الصَّبي أو كلما دخل هَذَا المملوك مع أنَّه دائمًا في خدمة أهل البَيْت يأتي لهم بالحوائج وغير ذَلِك، يترتب على ذَلِك مشقَّة، كما تقدّم؛ ولهَذَا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَالجُمْلَة مُؤَكِّدَة لِمَا قَبْلَهَا] اهـ؛ وهو قَوْلهُ: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كَمَا بُيِّنَ ما ذُكِرَ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أَيْ الْأَحْكَام، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِأُمُورِ خَلْقه ﴿حَكِيمٌ﴾ بِمَا دَبَّرَهُ لَهُمْ. وَآيَة الِاسْتِئْذَان قِيلَ مَنْسُوخَة وَقِيلَ لَا وَلَكِنْ تَهَاوَنَ النَّاس فِي تَرْك الِاسْتِئْذَان] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تقع هَذِهِ الجُمْلَة أو يقع هَذَا التَّرْكيب في القُرْآن كثيرًا: ﴿يُبَيِّنُ﴾، وقَوْلهُ: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم:٥٥]، وما أشبهها. و(الكاف) اسم بمَعْنى (مثل) وهو في محل نصب على المفعوليَّة المُطلقة، وإن شئت فقل على أنَّه مفعول مطلق، العامِل فيه ما بعده، وتقدير الكَلام هُنا، أي: مثل ذَلِك البَيان يُبيِّن الله لكم الآيات، وكلما جاء هَذَا التعبير نقول فيه ما تقدَّم. وقَوْلهُ: ﴿يُبَيِّنُ﴾ أي: يوضح ويظهر.

وقَوْلهُ: ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: [الأَحْكام]؛ فالآيات هي الأَحْكام، ولـو فُسرت بما هـو أعم لكان أولى؛ لأَن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يبين الآيـات الْكَوْنِيَّة والشَّرْعِيَّة، لكن كأن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خصّها بالأَحْكام؛ لأَن السِّيَاق في الأَحْكام ولَيْسَ في الآيَات الْكَوْنِيَّة، ولكنَّ الأخذ بالعُموم أولى.

وقَوْلهُ: [الأَحْكام]؛ كَيْفَ تَكُون الأَحْكام آيَات الله؟

الجواب: لأَن هَذِهِ الأَحْكام إِذَا تأملها الْإِنْسَان وجدها في غايَة الإتقان، ووجدها في غايَة المناسبة للخلق في جلب المَصالِح لهم ودفع المضار عنهم، ولله المثل

الأعلى: لو أن رجلًا كتب له نظامًا: المادة الأولى، المادة الثَّانية... إِلَى آخِرِهِ، وتدبرنا هَذَا النِّظام وإذا هو نظام محكم متقن موافق للمصالح ومناسب، ماذا نقول عن هَذَا الكاتب؟ نقول: إنه حكيم ونعجب بحكمته، ويدُلّ ذَلِك على ذكائه وفطنته؛ فكَيْفَ بأحكام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الَّتِي لا يُمْكِن أن تتغيَّر ولا أن تتناقض؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

ومَن تدبّر أحكام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خلقه تبين له أنَّها من لدن حكيم خبير؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾.

وفي وصف الأَحْكام بالآيَات إرشَادٌ للخَلق إلى تأمل هَذِهِ الأَحْكام لَيْستدلوا بها على مشرِّعها.

لا تظن أنَّه إِذَا قِيلَ لك: الأَحْكام الشَّرْعِيَّة آيَات من آيَات الله، فلَيْسَ المَعْنى أن تقول: ما شاء الله؛ إنها آيَات! وتؤمن بأنَّها آيَات، لا، بل يَجب أن تبحث وتتأمل لأجل أن يتبيَّن لك كَيْفَ كَانَت آية من آيَات الله عَزَّوَجَلَّ لتستدل بها على مشرعها وعلى حكمته وعلمه ورحمته، وهَكَذا أيضًا في الآيَات الْكَوْنِيَّة؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧]؛ لا يكفي أن تقول: الليل من آيَات الله والنَّهار من آيَات الله والشَّمس من آيَات الله والقمر من آيَات الله، لا يكفي هَذَا؛ إنما يُقال لك إنها من آيَات الله ترغيبًا للبحث عن وجه كونها من آيَات الله؛ لتستدِلَّ بها عن اقتناع على خالِقها إن كَانَت كونيَّة، وعلى مشرعها إن كَانَت شرعيَّة.

وقَوْلهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إشارَة إلى أن هَذِهِ الأَحْكام صادرة عن علم وعن حِكْمَة، وإذا صدر الحُكْم عن علم وعن حِكْمَة صَارَ مطابقًا للحق؛ لأَن مخالفة

الحَقّ في الأَحْكام مرجعها أحد أمرين: إما الجهل، وإما السَّفَه؛ الجهل المنافي للعلم، أو السَّفه المنافي للحكمة؛ فقد يَكُون المشرِّع جاهلًا فلا يُشرِّع أحكامًا مناسبة لأنَّه جاهل، وقد يَكُون سفيهًا يعلم الأَحْكام ويعلم مصلحتها ولكن لا يريدها فيَكُون سفيهًا؛ فالله جَلَّ وَعَلَا متَّصف بالعلم والحِكْمة اللتين بهما تَكُون الأَحْكام مناسبة للمصالح، وباختلاف واحد منهما يختل من الأَحْكام بحسبه، والله أعلم.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: تصدير الحُكْم بالنِّداء دَليل على العناية به؛ لأَن النِّداء يقْتَضِي التَّنْبيه، وتوجيهه إلى المُؤْمِنِينَ يدُلّ على أن امتثال هَذَا الحُكْم من مُقتَضيات الإِيمَان وأن مخالفته من منافيات الإِيمَان.

الفَائِدة الثَّانية: توجيه الخِطَاب للمُؤْمِنِينَ والحُكْم لغيرهم يدُلّ على أنهم مسؤولون عنهم ومسؤولون عن تنفيذ هَذَا الحُكْم في أولادهم الصِّغار ومماليكهم، وأن هَذَا الصَّغير والمملوك إِذَا خالف فإن إثمه على من لم يقم بواجب التربية والتأديب.

الفَائِدة الثَّالِثَة: وُجوب اسْتِئْذان هَذَيْنِ الصِّنفين من النَّاس: الصِّغار والمماليك في ثلاثة أوْقات فقط وهي المذكورة، وأما من سواهم فيَجب عليهم الاسْتِئْذان دائمًا.

الفَائِدة الرَّابِعَة: تعليل الأَحْكام بمَعْنى أن أحكام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كلها مبينة على الحِكَم، وجه ذَلِك من الآيَة أن الله علل الحُكْم الأوَّل والحُكْم الثَّاني؛ الحُكْم الأوَّل: وُجوب الاسْتِئْذان في ثلاث أوْقات؛ لأنَّها عورات، والحُكْم الثَّاني: عدم الاسْتِئْذان فيما عداهم؛ لأنهم طوَّافون عليكم.

الفَائِدة الخَامِسَة: تَحْريم النَّظر إلى العورات، وجهه أنَّه إِذَا وجب الاسْتِئْذان في هَذِهِ الأوْقات الثَّلاثة خوفًا من أن يفاجئهم على عورة، فمن تعمد أن يرى العورة فهو أولى إِذَا ؛ فيُستَفاد منه تَحْريم النَّظر إلى العورة سواء كَانَ النَّاظر صغيرًا أو كبيرًا، وأما تهاون بعض النَّاس في نظر الصَّغير إلى العورة فهَذَا خطأ، وبعض النَّاس إِذَا كَانَ الصَّغير له ست سنوات أو سبع سنوات لا يبالي أن ينظر إلى عورته، وَذلِك لا يجوز لأنَّه لا بُدَّ أن يرتسم في ذهنه هَذَا المنظر، ثم ربما يذكره في يوم من الأيَّام.

الحاصل أن هَذَا فيه دَليل على تَحْريم النَّظر إلى العورة من الصَّغير والكبير، ولكن المُراد بالصغير الَّذِي يميز؛ لأن قَوْلهُ: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ دَليل على أنَّه يميز، فإذا أُمِرَ بالاسْتِئْذان استأذن، أما الصَّغير غير المميز فهو لا يدري عن ذَلِك شيئًا.

الفَائِدة السَّادِسَة: رفع الحرج والمشقَّة على النَّاس؛ وجه ذَلِك يؤخذ من رفع الحرج في عدم الاسْتِئْذان في غير هَذِهِ الأوْقات الثّلاث؛ لأنهم طوافون عليهم مترددون، والاسْتِئْذان فيه مشقَّة.

الفَائِدة السَّابِعَة: أن الوليّ آثِم بما ارتكبه موليه من معْصِيَة أو مخالفة إِذَا كَانَ قد فرّط في تربيته وتأديبه؛ لقَوْلهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾، هَذَا إِذَا لم يكن بالغًا، فإذا كَانَ بالغًا فقد استقل بنَفْسِه ويَكُون مثل غيره، إِذَا قدر على تغيير المُنْكر الَّذِي ارتكبه وجب عليه.

الفَائِدة الثَّامِنَة: طهارة بدن الطِّفل وإن غلب على الظَّن أنَّه نجس، نأخذه من قَوْلهُ ﷺ في الهرة إنها لَيْسَت بنجس، وعلل ذَلِك بأنَّها من الطوافين، وهَؤُلَاءِ من الطوافين، فربما يؤخذ من هَذَا طهارة بدن الطفل وأنه طاهر ما لم يتيقن النَّجاسة؛ فإذا تيقن النَّجاسة فهَذَا شَيْء ثان.

الفَائِدة التَّاسِعَة: منَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العباد ببَيان الآيَات الْكَوْنِيَّة والشَّرْعِيَّة حَتَّى لا يبقى للنَّاس على الله حجة بعد هَذَا البَيان؛ لقَوْلهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾.

الفَائِدة العاشرة: أنَّه لا يسْتَطيع أحد أن يأتي بمثل تَشْريع الله عَزَّوَجَلَّ ونظامه، تؤخذ من كونه جعل ذَلِك من الآيَات، وآيَات الله مَعْناها أنَّها لا تصلح لغيره، إِذْ لو صلحت لغيره لم تكن آية له؛ فهَذَا يدُلّ على أن شرع الله لا يُمْكِن أن يأتي أحد بمثْلِه وإلا ما صح أن يَكُون آية.

الفَائِدة الحَادِيَة عشرة: ثبوت ملك الْيَمِين للآدميين وأن الإِسْلام جاء بالرّق؛ لقَوْلهُ: ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، ولكن كما هو معْرُوف أن الإِسْلام حمى حقوق هَؤُلَاءِ المماليك ورغب في تحريرهم وعتقهم، وجعل للعتق أَسْبَابا متعددة.

الفَائِدة الثَّانية عشرة: جَواز وضع الثَّوب عند النَّوْم ويلتحف الْإِنْسَان بلحافه؛ لقَوْلهُ: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾.

لو قَالَ قَائِلٌ: ما الْحِكْمَةُ في تقييد الظهيرة بقَوْلهُ: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ ولم يقيدها بِذَلِك في قَوْلهُ: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ و﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾، ولم يقل: «وحين تضعون ثيابكم من الفجر أو من العشاء»؟

الجواب: لَيْسَتِ العورةُ في وقت الظُّهر حاصلةً لكل النَّاس، إنما تَكُون عورة لمن يضع ثيابه لينام عند الظَّهيرة، وبعضُهم قَالَ: لأَن نومة الظهر لَيْسَت طويلة، فبعض النَّاس لا يخلع ثيابه، ولهَذَا قيّدها بقَوْلهُ: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ بخلاف نوم الليل؛ فإن النَّاس يخلعون ثيابهم؛ لأَن مدته تطول.

الفَائِدة الثَّالِثَة عشرة: عناية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالخلق وأنهم وإن رضوا بما يُستقبح فلن يرضى الله به، فقد يَقُول قائل: أنا لا أبالي إِذَا دخل عليّ طفلي في هَذِهِ الأَوْقات الثَّلاثة؛ فنقول له: ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد اعتنى بك ومنع من الدُّخول عَلَيْك في هَذِهِ الأَوْقات الثَّلاثة.

الفَائِدة الرَّابِعَة عشرة: جَواز الدُّخول بدون اسْتِئْذان في غير هَذِهِ الأَوْقات الثَّلاثة.

وهنا بحث: هل هَذِهِ الآيَة محكمة أو منسوخة أو ترك العَمَل بها لزوال الحاجة إِلَيْها؟

تقدَّم أن الآيَة محكمة؛ لكن يَجب أن نعلم أَنَّه لا يجوز أن نقول عن آية أو حديث أَنَّه منسوخ إلا بعد أن يتعذر الجمع بينه وبين ما ادُّعيَ أَنَّه ناسخ، وأن يُعلم التاريخ بتأخر النَّاسخ، وإذا كنت لا تَسْتَطِيع أن تجمع فَكِل العِلْم إلى الله، أما أن تدَّعي النَّسخ فهَذَا لا يجوز؛ لأَن معنى النَّسخ إبطال هَذَا النَّصِّ، وإبطال النَّصِّ صعب؛ فلِذَلك يَجب على الْإِنْسَان أن يتورّع عن إطلاق النَّسخ فيما لم يثبت نسخه، ثم إن ترك العَمَل به لا يدُلّ على أَنَّه منسوخ حَقِيقَة؛ لأَنَّه كم من أَشْيَاء محكمة ترك النَّاس العَمَل بها، فترك النَّاس العَمَل بها إما تهاونًا وإما لزوال السَّبَب الموجب للاسْتِئْذان، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ له تعليق على هَذَا؛ يَقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَآيَة الِاسْتِئْذَان قِيلَ مَنْسُوخَة وَقِيلَ لَا وَلَكِنْ تَهَاوَنَ النَّاس فِي تَرْك الِاسْتِئْذَان] اهـ.

هَذَان القولان اللذان أشرنا إِلَيْهما.

والصَّحيح أن الآيَة محكمة وباقية، وأن ترك الاسْتِئْذان إما للتهاون وإما لزوال السَّبَب الموجب للاسْتِئْذان، وأما أن نقول: إن الأَحْكام الشَّرْعِيَّة تُنْسَخ بترك النَّاس العَمَل بهَذَا، فهَذَا لا وَجْهَ له.

الفَائِدة الخَامِسَة عشرة: إِثْبات العِلْم والحِكْمة لله من هَذَيْنِ الاسْمين: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والحِكْمَةُ سبق أنَّها وضع الأَشْيَاء في مواضعها، بل سبق أن (الحَكِيم)؛ لَيْسَ معناه ذي الحِكْمة فقط، بل معناه ذو الحِكَم والحِكْمة.

الفَائِدة السَّادِسَة عشرة: أن المشقَّة تجلِب التَّيسير.

• • ۞ • •

الآية (٥٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور:٥٩].

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيّهَا الْأَحْرَار ﴿ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ فِي جَمِيع الْأَوْقَات ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أَيْ: الْأَحْرَار الْكِبَار] اهـ.

قَوْلُهُ: ﴿مِنكُمُ﴾ يَقُول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيّهَا الْأَحْرَار]؛ وَذلِك لأَن المماليك كما سبق لا يستأذِنَون إلا في الأوْقات الثَّلاثة سواء كانوا كبارًا أو صغارًا، و تقييد الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالأحرار لمفهوم الآيَة أولى.

وقَوْلُهُ: ﴿بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ هو كِناية عن البُلوغ بالإنْزال، والحلُم بمَعْنى الاحتِلام أو بمَعنى العَقْل، وَذلِك لكمال عقولهم، لكن الأوَّل أولى؛ لأنَّه لا يشترط في هَذَا كمال العَقْل، وكمال العَقْل يحصل بكمال أربعين سنة.

وقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ لم يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سوى بلوغ الحلم، والمعْرُوف أن هُناكَ شيئين آخرين يحصل بهما البُلوغ هما تمام خمس عشرة سنة وإنبات شعر العَانَة، لكن هَذَان الْأَمْران فيهما خلاف بين العُلَماء فمنهم من يرى أنَّه لا بلوغ إلا بالإنزال وأن تمام خمس عشرة سنة لَيْسَ علامة على

البُلوغ بل علامة على قدرة الْإِنْسَان على الجهاد؛ لأَن الَّذينَ أخذوا بها إنما أخذوا بحديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حينما عُرض على النَّبِيّ ﷺ عام أُحد فلم يجزه، وعرض علَيْه عام الخندق فأجازه، وكان له عام الخندق خمس عشرة سنة[١]، لكن في رِوايَة للحاكم أنَّه قَالَ: «فَلَمْ يُجِزْنِي وَلَمْ يَرَنِي بَلَغْتُ»[٢]، والثَّاني: «فَأَجَازَنِي وَرَآنِي بَلَغْتُ»، لكن كَلِمة بلغت هل معناه بلغت سن التكليف أو بلغت الحالة الَّتِي يُمْكِنني فيها أن أجاهد؟ فيه احتمال.

لكنَّ عمر بن عبد العزيز -رَحِمَهُ اللهُ ورضي عنه- كتب إلى عماله أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة سنة ورآهم قد بلغوا، وقال: إِذَا كَانَ هَذَا السن حدًّا لصلاحهم للقتال فهو حد لبلوغهم[٣]، ويرى بعض العُلَماء كأبي حنيفة أن حد البُلوغ ثماني عشرة سنة لا خمس عشرة سنة، وهَذَا هو الَّذِي مشى علَيْه نظام العَمَل والعمال هُنا؛ لأَن واضعه فيما يظهر إِنْسَان أجنبي لا يعرف إلا المَذْهب المعْرُوف في الشَّارع عند عامَّة المُسْلِمِينَ وهو مذهب أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ الَّذِي يقيده بثماني عشرة سنة.

إنما مذاهب الأئمة الثَّلاثة أن البُلوغ يحصل بخمس عشرة سنة، أما إِنْبَات العَانَة ففيه خلاف أيضًا، والَّذينَ قالوا: إنه لَيْسَ علامة على البُلوغ قالوا: إن كون الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يكشف عن أُزُرِ بني قريظة فمن أَنْبَتَ قتله[٤]، لَيْسَ ذَلِك دليلًا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب بلوغ الصبيان وشهادتهم، حديث رقم (٢٦٦٤)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب بَيان سن البلوغ، حديث رقم (١٨٦٨)؛ عن ابن عمر.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب فرض الجهاد، ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن تمام خمس عشرة سنة للمرء لا يكون بلاغًا، حديث رقم (٤٧٢٨).

(٣) أخرجه الدارقطني (٤/ ١١٥) (٤٠)، وانظر: المغني (٤/ ٢٩٧).

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب الحدود، باب في الغلام يصيب الحد، حديث رقم (٤٤٠٤)، والنسائي، كتاب الطلاق، باب متى يقع طلاق الصبي، حديث رقم (٣٤٣٠)، والترمذي، كتاب السير،

على أنَّه مكلف بل هو دَليل على أنَّه من أهل القتال فيقتله النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكن المَشْهُور من المَذْهب ما هو معْرُوف من أن البُلوغ يحصل بواحد من ثلاثة أشْيَاء.

قَوْلهُ: ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ وجَّه الخِطَاب لـهم؛ لأنهم إِذَا بلغوا الحلم صاروا أهلًا للتكليف وتوجيه الخِطَاب إِلَيْهم.

وقَوْلهُ: ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من عامَّة النَّاس الَّذينَ يستأذنون في جميع الأوْقات.

قَوْلهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذَلِك البَيان يبين، وقد تقدّم أن (الكاف) اسم بمَعْنى (مثل) وهي مفعول مطلق بـ﴿يُبَيِّنُ﴾.

وهَذِهِ الآيَة الْكَرِيمَةِ مثل الَّتِي قبلها إلا أن الفَرْق في قَوْلهُ: ﴿ءَايَـٰتِهِۦ﴾ بدل ﴿ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾؛ ولعل هَذَا -والله أعلم- من باب التنويع في الخِطَاب أو في الأسلوب، وإلا فمعناهما سواء.

• • ۞ • •

= باب ما جاء في النزول على الحُكْم، حديث رقم (١٥٨٤)، وابن ماجه، كتاب الحدود، باب من لا يجب عليه الحد، حديث رقم (٢٥٤١)، وأحمد (٤/ ٣٨٣) (١٩٤٤٠)؛ عن عطية القرظي.

الآية (٦٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٠].

قَوْلُهُ: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قَعَدْنَ عَنْ الحَيْضِ وَالْوَلَد لِكِبَرِهِنَّ، ﴿ٱلَّتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾؛ لِذَلك ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ مِنْ الجِلْبَاب وَالرِّدَاء وَالْقِنَاع فَوْق الخِمَار ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ﴾ مُظْهِرَات ﴿بِزِينَةٍ﴾ خَفِيَّة كَقِلَادَةٍ وَسِوَار وَخَلْخَال ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾... إِلَى آخِرِهِ] اهـ.

قَوْلُهُ: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾ جمع قاعِدَة.

وقَوْلُهُ: ﴿مِنَ﴾ بَيان للقواعد؛ لأَن (ال) في قَوْلُهُ: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾ اسم موصول؛ لأَن (ال) إِذَا دخلت على اسم مشتق سواء كَانَ اسم مفعول أو اسم فاعل فهي اسم موصول؛ فالقواعد بمَعْنى (اللاتي قعدن)، وقَوْلُهُ: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بَيان للقواعد، لكن قعدن عن أي شَيْء؟

يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الحَيْضِ وَالْوَلَد]؛ فالقواعد مَعْناها: اللاتي لا يلدن ولا يحضن لكبرهنَّ، بل وقعدن أيضًا عن الأعْمَال لكِبَرهنَّ، وقِيلَ: (القواعد): الملازمات للبيوت لكِبَرهنَّ؛ لأنهنَّ لا يخرجن من العجز والضعف؛ فهنَّ قواعد،

وقِيلَ: إن (القواعد) اسم للعجائز مطلقًا، مثلما نقول: عجوز؛ مشتقة من (العجز)، نقول أيضًا: قاعِدَة بمَعْنى عاجزة عن القيام والذهاب والإياب.

وقَوْلهُ: ﴿ٱلَّتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحًا﴾ ﴿ٱلَّتِي﴾ هل هي صفة للقواعد أو للنِّساء؟

صفة للقواعد؛ لأنك إِذَا قلت: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ صَارَ يوجد قواعد من النِّساء اللاتي يرجون نكاحًا ولَيْسَ الْأَمْر كَذلِكَ.

وقَوْلهُ: ﴿لَا يَرۡجُونَ﴾ كَيْفَ يعبر بقَوْلهُ: ﴿ٱلَّتِي﴾ مع أن قَوْلهُ: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ مؤنث و﴿يَرۡجُونَ﴾ فعل مذكر؟

نقول: (الواو) واو الفِعْل و(النُّون) نون النِّسوة، ومعنى ﴿لَا يَرۡجُونَ نِكَاحًا﴾: لا يطمعن فيه وَذلِك لكبرهنَّ؛ لأنهنَّ لا يرجون أحدًا يتزوجهنَّ؛ لأنهنَّ عجائز لا يريدهنَّ أحد.

قَوْلهُ: ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ لا شَكَّ أن المُرادَ بقَوْلهُ: ﴿يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ لَيْسَ المُرادُ أن يضعن جميع الثِّياب، بمَعْنى: يبقين عراة، هَذَا لا يُمْكِن القَوْل به، إِذَنْ فما المُرادُ بالثِّياب؟

المراد: الثِّيابُ الظَّاهِرة الَّتِي جرت العادة بلبسها، يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مثل [الجِلْبَاب وَالرِّدَاء وَالْقِنَاع فَوْق الخِمَار]؛ الأَشْيَاء الظَّاهِرة. فيجوز للمَرْأة العجوز أن تلبس ثوبًا وتبدي يديها ورأسها ووجهها ورجليها وساقيها؛ لكن بشرط ألّا تَتَبَرَّج بِزِينَةٍ؛ لقَوْلهُ: ﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖ﴾؛ فإن كَانَ تريد إبداء الزِّينَة فلا يجوز؛ لأَن بعض العجائز، وإن كُنَّ لا يرجون النِّكَاح يُرِدْنَ أن يَظْهَرْنَ بمنزلة الشَّواب، تجدها تلبس سوارًا وخلخالًا وتختال بين النَّاس. لكن هَذَا؛ بشرط ألّا تَكُون بهَذِهِ الحال، إن كَانَت بهَذِهِ الحال فلا يجوز، لكن إِذَا كَانَ المَسْأَلَة طبيعية فيجوز لها أن تضع ثيابها.

لو قَالَ قَائِلٌ: إِذَا كَانَ فِي البَيْت خادم؛ هل يجوز للمَرْأة الكَبيرَة أن تكشف عن وجهها عنْدَه؟

الجواب: إِذَا كَانَت عجوزًا فلا بأس، لو أن إنسانًا أتى عجوزًا بخادم في البَيْت يجوز أن تكشف له، لَيْسَ هُناكَ مانع؛ لأَن البَيْت إِذَا لم تكن فيه خلوة فلا بأس، فَالمَحْرَم لَيْسَ بشرط، والمحرم الأحاديث فيه عامَّة، أما السَّفَر فلا يجوز أن تسافر إلا بمحرم.

قَوْلهُ: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ﴾ التبرج بمَعْنى التعلي والظهور، ومنه البروج الَّتِي في السَّماء؛ لعلوها وارتفاعها، ومعنى ﴿مُتَبَرِّجَٰتٍ﴾ أي: متعلياتٍ، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (مظهرات)؛ هَذَا من باب التفسير باللازم، وإلا فالتبرج معناه: التعلي، ويَلْزَم منه أن يظهرن الزينة.

وقَوْلهُ: ﴿بِزِينَةٍ﴾ أي: بزينة خفية يظهرنها إِذَا وضعن تِلْك الثِّيابَ.

قَوْلهُ: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِأَنْ لَا يَضَعْنَهَا ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾] اهـ.

لِمَا في ذَلِك من البعد عن مواضع الْفِتْنَة، وكما قِيلَ: لكل ساقطة لاقطة، قد تَكُون بنفْسِها لا ترجو النِّكَاح لكبرها، ولكن ربما يَتعلَّق بها إِنْسَان وهي بهَذِهِ الحال، ولهَذَا قَالَ: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

قَوْلهُ: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِقَوْلِكُمْ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَا فِي قُلُوبكُمْ] اهـ.

ختم الآيَة بالسمع والعلم؛ لأَن المقام قد يقْتَضِي قولًا كما في قَوْله تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الأحزاب:٣٢]، وبالعلم؛ لأَن قَوْلهُ: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ﴾ محله الْقَلْب

ومتعلِّقه العِلْم؛ لأَن ما في الْقَلْب لا يُسمع ولا يُرى، وإنما يُعلم علمًا؛ فهو سميع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما يُقال لَهُنَّ أو يَقُلْنَه هَؤُلَاءِ القواعد، وأما الجَوارِح فلا تتعلق بالعلم بل تتعلق بالرؤية؛ لأَن الزِّينَة قد تظهر بدون قصد التبرج فلا يَكُون في ذَلِك نية، و﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلوبهنَّ وقلوب من نظر إِلَيْهنَّ من الميل والْفِتْنَة.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: الحُكْم الظَّاهِر من الآيَة؛ وهو أن العجائز اللاتي يَئِسْنَ من النِّكَاح لكبرهنَّ يجوز لهنَّ وضع الثِّياب الظَّاهِرة، مثل: العباءات والجلباب والرداء والخِمَار وما أشبه ذَلِك، يعني: هَذِهِ الألبسة الظَّاهِرة يجوز للعجائز أن يضعنها؛ وَذلِك لأنهنَّ ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ فلا يخفن من الْفِتْنَة.

الفَائِدة الثَّانية: إن على غير القواعد أن يلبسن لباسًا ظاهرًا ساترًا لا تقول المَرْأَة: أنا سأخرج بالثَّوب وبدون خمار وما أشبه ذَلِك، فيَجب على غير القواعد أن يبقين ثيابهنَّ الظَّاهِرة عليهنَّ لـما في ذَلِك من التستر، ولأن عدمه يدخل في الحَديث الصَّحيح: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا بَعْدُ: نِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مَائِلَاتٌ مُمِيلَاتٌ، عَلَى رُءُوسِهِنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ، وَقَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ، لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ، وَلَا يَجِدُونَ رِيحَهَا»[1]؛ فإن المَرْأَة إِذَا كَانَ عَلَيْها ثياب ولكن تصف مقاطع جسمها ولا تزول بها الْفِتْنَة فهي كاسية عارية.

ويقاس على القواعد من لا تشتهي لغاية في قبحها كالعجائز؛ لأنَّها لا ترجو النِّكَاح ولا يطمع أحد فيها، ولهَذَا ألحق العُلَماء هَذَا الصِّنف من النِّساء بالقواعد.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات، حديث رقم (٢١٢٨)؛ عن أبي هريرة.

لو قَالَ قَائِلٌ: المَرْأَة العجوز لَيْسَ فيها شَهْوَة وهَذِهِ الشَّابة القبيحة فيها شَهْوَة لماذا تلحق بها؟

الجواب: لـم يقل الله تعالى: والقواعد من النِّساء اللاتي لَيْسَ فيهنَّ نكاحٌ، بل قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ يعني: يئسن من النِّكَاح؛ لأنهنَّ علمن أن النَّاس لا يرغبون فيهنَّ، ولو قَالَ: «والقواعد من النِّساء اللاتي لا نكاح فيهنَّ أو لا شَهْوَة فيهنَّ» لقُلْنا صحيح، لا يجوز تعدية الحُكْم إلى القبيحة الشَّوهاء، لكن لَـمَّا قَالَ: ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ يعني: لا يأملن نكاحًا لا لمجرد أنَّه لا شَهْوَة فيهنَّ، ولكن لأَن النَّاس لا يرغبونهنَّ.

الفَائِدتان الثَّالِثَة والرَّابِعَة: أن التبرج بالزِّينَة حرام على العجائز؛ لقَوْلهُ: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ فهَذَا الشَّرط إِذَا تخلف صَارَ عليهنَّ جناح في ذَلِك، وهَذَا يدُلّ على التَّحْريم، فإذا كَانَ التبرج حرام على العجائز، فيتفرع على هَذِهِ الفَائِدة تَحْريم التبرج على الشَّابات ومن هي محل الْفِتْنَة، وهل هَذَا القياس قياس أولوية أو قياس مساواة؟ قياس أولوية؛ لأنَّه معْلُوم إِذَا حرُم على القواعد اللاتي لا يرجون نكاحًا؛ فغيرهنَّ ممَّن يرجون النِّكَاح وتتعلق بهنَّ الْفِتْنَة أبلغ.

الفَائِدة الخَامِسَة: أن الحُكْم يدور مع علته وجودًا وعدمًا؛ لأَن الله إنما أباح وضع الثِّياب لهَؤُلَاءِ القواعد؛ لأَن الْفِتْنَة بعيدة فيهنَّ فيؤخذ منه أن المدار كله على خوف الْفِتْنَة في مثل هَذِهِ الْأُمُور، فالحُكْم يدور مع علته وجودًا وعدمًا.

الفَائِدة السَّادِسَة: ما نبه علَيْه كثير من أهْل العِلْم بأنه حَتَّى على القَوْل بجَواز كشف الوجه واليدين، إِذَا كَانَ ذَلِك ذريعة للفتنة والتوسع، كَانَ حرامًا؛ فمتى خِيفَ

الْفِتْنَة بكشف الوجه واليدين بناء على القَوْل به فإنَّه لا يجوز ذَلِك، وعلَيْه فيكُون هَذَا القَوْل لا محل له في عصرنا؛ لأنَّه لا يُمْكِن ضبط النِّساء أبدًا، لا يُمْكِن ضبطهنَّ لأَن الْفِتْنَة قائمة، وكونه ذريعة إلى التوسع قائم، ولهَذَا تجد المجتمعات الَّتِي أخذت بهَذَا القَوْل أصبحت لا تَسْتَطِيع أن تتخلص مما وقعت فيه من التبرج السافر الَّذِي لا يَمُتُّ إلَيْه هَذَا القَوْل بأي صلة، فلم تقتصر المَسْأَلَة على الوجه والكفين، بل تدرَّجت إلى الرَّأْسِ والرقبة والنَّحر والذراع بل والعضد أحيانًا والساق والقدم، كل هَذَا بأَسْبَاب أن النِّساء الآن، بل والمجتمعات الْإِسْلَامية مع الأسف لا يُمْكِن أن تنضبط بالحُدُود الشَّرْعِيَّة؛ لأنَّها مُدْبِرة عن الدِّين؛ إلا ما شاء الله.

وعلى هَذَا فنقول: القَوْل الَّذِي يُطنْطِن به بعض النَّاس المحبين للسفور لا محل له في هَذَا العصر؛ لأَن من شرطه ألا تتبرج بزينة وألا يُخاف منه الْفِتْنَة، وهَذَا موجود محقق؛ فالْفِتْنَة موجودة والتبرج موجود، ولهَذَا القواعد اللاتي رخّص الله تَعَالَى لهنَّ في وضع الثِّياب اشترط الله تَعَالَى هَذَا الشَّرط؛ فقال: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ ونجد كثيرًا من نساء هَؤُلَاءِ النَّاس تتبرج بزينة ولا شَك فتحمّر الخدين والشَّفتين وتكحل العينين وتزجج الحواجب، كل هَذَا مما يدُلّ على أن الموضوع أصبح الآن لَيْسَ ذا محل في هَذَا الوقت.

الفَائِدة السَّابِعَة: أن الأفضل البعد عن الريبة ومحل الْفِتْنَة، وإن بعدت؛ لقَوْلهُ: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾، ويجوز لهنَّ أن يضعن الثِّياب لبعد الْفِتْنَة بهنَّ، ولكن مع ذَلِك كلما بعُد الْإِنْسَان عن أَسْبَاب الْفِتْنَة كَانَ خيرًا له، والْإِنْسَان قد يشعر في نفْسِه أنَّه بعيد عن الْفِتْنَة ثم يقع فيها، وقد أمر النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من سمع الدجال أن ينأى عنه؛ لأنَّه يأتيه وهو يرى أنَّه مُؤْمن فلا يزال يقذف به بالحجج والشُّبُهَات

حَتَّى يتبعه[1].

الفَوائِد الثَّامِنَة والتَّاسِعَة والعاشرة: إِثْبات تفاضل الأعْمَال؛ لأَن قَوْلهُ: ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ يعني من عدم الاستعفاف؛ فدل ذَلِك على أن بعض الأعْمَال أفضل من بعض، ويتفرع على ذَلِك تفاضل الإِيمَان؛ لأَن الأعْمَال منه، فإذا ثبت تفاضل الأعْمَال فيما بينها ثبت تفاضل الإِيمَان وأنه يزيد وينقص، وهَذَا هو مذهب أهْل السُّنَّة والجَماعَة.

لو قَالَ قَائِلٌ: بعض طوائف المبتدعة يرون أن الأعْمَال لا تتفاضل؛ فهل معنى قولهم هَذَا أن الأعْمَال متساوية؟

الجواب: لا، هم لا يَقُولُونَ: الصَّلاة مثل الصِّيام، والصِّيام مثل كذا، بل يرون أن بعض الأعْمَال أفضل من بعض، لكن يَقُولُونَ: إنها غير داخلة في الإِيمَان؛ يخرجونها من الإِيمَان ولا أعلم أنهم يَقُولُونَ: إن الأعْمَال متساوية في فضلها، ما أعلم ذَلِك، ولا أظن أن أحدًا يَقُول به، لكن مَسْأَلَة إخراجها من الإِيمَان هو الَّذِي جعلهم يَقُولُونَ: إن إيمان أبي بكر وإيمان أفسق النَّاس واحد، وعندهم أن الإِيمَان هو مُجَرَّد الإقرار باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الفَائِدة الحَادِيَة عشرة: إِثْبات اسمين من أَسْماء الله؛ لقَوْلهُ: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وما تضمناه من الصِّفات؛ وهي: السمع والعلم، وقد تقدَّم أَنَّه لا يُراد من أَسْماء الله وصفاته مُجَرَّد معرفة ذَلِك الاسْم وتِلْك الصِّفة، بل المُراد والغرض التعبد لله بمقتضى ذَلِك، فإذا علمت أن الله ﴿عَلِيمٌ﴾ عملت بكل قَوْل يرضيه؛ لأنك تعلم أَنَّه

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، حديث رقم (٤٣١٩)، وأحمد (٤/ ٤٣١) (١٩٨٨٨)؛ عن عمران بن الحصين.

يسمعك ويثيبك عليه، وتجنبت كل قَوْل يسخطه؛ لأنك تعلم أنَّه يسمعك فيسخط عَلَيْك، وكَذلِك بالنِّسْبَةِ لسائر الأَسْماء والصِّفات فلَيْسَ المُراد أن تعلم هَذَا الاسْم أو هَذِهِ الصِّفة ومدلولها، بل المُراد أن تعمل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأن تتعبد لله بمقتضى ذَلِك الاسْم وتِلْك الصِّفة، ولهَذَا جاء في الحَديث الصَّحيح عن النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»[1]، والمُراد بإحصائها ثلاثة أمور: ضبط لفظها ومعناها والتعبد لله بمقتضاها.

• ● ۞ ● •

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحدًا، حديث رقم (٧٣٩٢)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تَعَالَىٰ وفضل من أحصاها، حديث رقم (٢٦٧٧)؛ عن أبي هريرة.

الآيـة (٦١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور:٦١].

قَوْلهُ: ﴿عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي مُؤَاكَلَة مُقَابِلِيهِمْ] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ هل هي اسم تفضيل أو صفة مشبهة؟

صفة مُشَبَّهة؛ لأَن وصفه ذَلِك، ولَيْسَ معناه أَنَّه أعمى من فلان مثلًا، فاسم التفضيل يدُلّ على شيئين؛ مُفَضَّلٌ ومُفَضَّلٌ عليه، لكن الأَلْفاظ نحو: الأعمى والأعرج وشبهه يسمونها الصِّفات المشبهة، يعني: باسم الفاعل.

وأما قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٧٢]؛ فإن ظاهره أن أعمى الثَّانية اسم تفضيل، يعني: أَشَدُّ عمًى وأَضَلُّ سبيلًا،

لكن المعْرُوف خصوصًا عند البصريين أن هَذِهِ صفة مشبهة، وأنه لا يجوز أن يُصاغ اسم التفضيل من ذي صفة مشبهة على وزن أَفْعَل، أما الكوفيون فيَقُولُونَ إنه لا بأس أن تقول: فلان أعرج من فلان، وفلان أعمى من فلان. وقولهم أصح؛ لأَن هَذَا شَيْء يدخله الذوق، فلا مانع منه، إنما المُراد هُنا بالأعمى الصِّفة المشبهة.

قَوْلهُ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ الأعرج: هو الَّذِي لا يمشي مشيًا مستقيمًا.

وقَوْلهُ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ﴾ المريض: هو الَّذِي خرجت صحته عن الاعتدال؛ فكل من خرجت صحته عن الاعتدال فهو مريض، وتختلف الْأَمْراض، لكن لَيْسَ على المريض حرج في أي شَيْء؟

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي مُؤَاكَلَة مُقَابِلِيهِمْ].

مقابل الأعمى البصير، ومقابل الأعرج السَّليم، ومقابل المريض الصَّحيح؛ يعني أَنَّه لَيْسَ على الأعمى حرج إِذَا أكل مع البصير لَيْسَ علَيْه حرج، لكن هل هَذَا فيه حرج؟

هَذَا شَيْء واضح لا يحتاج إلى نفي الحرج عنه، لكن يُقال: إنهم كانوا يتحرجون من مؤاكلة الأعمى؛ يَقُولُونَ: لأَنَّنا إِذَا أكلنا معه نأكل الزَّيْن ونُبْقِي الشَّيْن، ومن جهة أُخْرَى الأعمى أيضًا يتحرج من الأكل مع البصير؛ لأَنَّه يَقُول: إِذَا أكلت مع البصير أخاف أن آكل أكثر منه.

فعلى الرأي الأوَّل يَكُون قَوْلهُ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ يعني: لَيْسَ في الأعمى، أي: بمؤاكلته ﴿حَرَجٌ﴾.

كَذلِكَ المريض لَيْسَ على المريض حرج إِذَا أكل مع الصَّحيح، لا يُقال: إن في ذَلِك حرج؛ لأَن الصَّحيح يأكل أكثر، وكَذلِك الأعرج، الأعرج لا بأس أن يأكل

مع الصَّحيح ولا حرج عليه؛ لأنَّه قد يَقُول الأعرج: أنا رجلي مائلة، وإذا قعدت أخذت مكان رجلين، فلَيْسَ علَيْه حرج. هَذَا ما ذهب إلَيْه بعضهم؛ أن المراد: لَيْسَ عليهم حرج في الأكل مع غيرهم، وعلى هَذَا تكُون ﴿عَلَى﴾ في قَوْلهُ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ بمَعْنى: (في)؛ يعني: لَيْسَ في الأعمى حرجٌ في مؤاكلَتِه، ولا في الأعرج حرج، ولا في المريض حرج.

وقال آخرون: المراد: الجهاد؛ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ يعني: في ترك الجهاد، ولا على الأعرج حرج في ترك الجهاد، ولا على المريض حرج في ترك الجهاد، قالوا: والدَّليل على ذَلِك أن الله ذكر بعد هَذِهِ الآيَة قَوْلهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور:٦٢]، إلى آخر الآيَات؛ فإنها في الجهاد، وتكون هَذِهِ الآيَات مقدّمة لذكر الجهاد، ولكن صُدّرت بها آية الأكل من البُيُوت المذكورة للتمهيد والتوطئة والتَّنْبيه؛ لأنَّه إذَا جاء كلام في غير مَحِلِّه المرتقب لا بُدَّ أن ينتبه ويبحث عن السَّبَب، بخلاف ما إذَا جاء الكَلام على نسق واحد؛ فإنَّه قد ينساب معه، ولا يتفهم المعاني.

ومن فَائِدَة الالْتِفات هو تنبيه المخاطَب أو السَّامع، وهنا أيضًا وضعت هَذِهِ الجُمْلَة: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ في هَذَا المحل قبل ذكر آيَات الجهاد ليتنبه القارئ؛ حيث خرجت المَسْأَلَة عما هو متبادر ومتوقع.

المُهِمّ أن هَذَا قَوْل آخر؛ أن المراد: لَيْسَ عليهم حرج في ترك الجهاد، وقالوا: هَذَا كقَوْله تَعَالَى في سورة الفتح: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح:١٧]؛ فإنها في الجهاد بلا ريب.

وقال آخرون: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ في ترك أي عبادة تكُون فيها هَذِهِ الأعذار مانعة، فكل عبادة تمنع منها هَذِهِ الأعذار؛ فإنَّه لا حرج عليهم في تركها، فتكون الآيَة أعم من الجهاد وغيره، بل كل عبادة سبب تركها أو الإخلال بها أحد هَذِهِ الأوصاف الثَّلاثة؛ فإنَّه لا حرج عليهم فيها، قالوا: وهَذَا مقتضى الأدلَّة الشَّرْعِيَّة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]؛ فإذا ترك الْإِنْسَان عبادة أو أخلّ بها لعذر العمى فلا حرج عليه، أو لعذر المرض فلا حرج عليه، أو لعذر العرج فلا حرج عليه؛ فتكون الآيَة عامَّة في الأكل أو المؤاكلة، كما قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكَذلِك أيضًا في ترك الجهاد، وكَذلِك فيما يشترط له المشي وهو أعرج لا يسْتَطيع، أو يشترط له الصِّحة وهو مريض لا يسْتَطيع، أو يشترط له البصر وهو أعمى لا يسْتَطيع، فكل هَذَا لَيْسَ عليهم فيه حرج.

لكن على هَذَيْنِ الرَّأْيَيْنِ الآخرين يبقى ما هو وجه مناسبة صدر الآيَة مع آخِرها؟

المناسبة أنَّه كما هو معْلُوم أن هَؤُلَاءِ لا حرج عليهم فيما يشترط فيه السَّلامة من هَذِهِ الْأَمْراض؛ فإن كَذلِكَ لا حرج عليكم فيما يأتي، فيكُون الغرض التمهيد لنفي الحرج في الآتي، يعني: كما أنَّه معْلُوم أن هَذِهِ الأَشْيَاء أعذار تمنع من الحجر بدون أي مجادلة؛ فكَذلِكَ أيضًا لَيْسَ عليكم حرج في الأكل من بيوتكم... إِلَى آخِرِهِ.

إِذَنْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟﴾ لَيْسَت متعَلِّقة بالتي قبلها؛ لأنَّها لو كَانَت متعَلِّقة لكان الْمَعْنى: لَيْسَ على الأعمى حرج أن يأكل من بيته، ولا على الأعرج حرج أن يأكل من بيته؛ ولكنَّنا قُلْنا: إن الآيَة عامَّة، يعني لَيْسَ على هَؤُلَاءِ حرج فيما تكُون هَذِهِ العلل عذرًا لهم في تركه.

قَوْلُهُ: ﴿وَلَا﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ولا حَرَجَ ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أَيْ: بُيُوت أَوْلَادِكُمْ] اهـ.

لماذا لم يجعل الْمُفَسِّر الآيَة عامَّة؛ فيكُون معنى قَوْلُهُ: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ يعني: بيوت أنفسكم؟

لأَن هَذَا لا حاجة لنفي الحرج فيه.

لكن قد يَقُول قائل: إن في آخر الآيَة ما يدُلّ على أَنَّه يُراد بيوت الْإِنْسَان أيضًا، وهو قَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ يَكُون نفي الحرج عن الأكل من البُيُوت من حيث كونهم جميعًا أو أشتاتًا لا لمطلق الأكل؛ فقَوْلُهُ: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ الْمُفَسِّر حمل الآيَة على أن الْمُراد ببيوت الْإِنْسَان بيوت أولاده، ونحن نقول: لا مانع من أن يُراد بها بيته الحقيقي وبيت ولده.

فإن قَالَ قَائِلٌ: أي فَائِدَة في نفي الحرج عن أكله من بيتِه؟

قُلْنا: لأجل ما ذُكر في آخر الآيَة، وهو قَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ يعني: لَيْسَ عَلَيْك جُناح أن تأكلَ من بيتك؛ سواء أكلتَ أنت وأهلك أو أكلتم متفرقين، وإن كَانَ الأفضل الاجتماع على الأكل كما سنذكره -إِنْ شَاء اللهُ- آخر الآيَة، لكن مع ذَلِك لا جناح، يعني: لَيْسَ على الْإِنْسَان جناح أَنَّه يأكل فيَتَغَدَّى وحده وعياله وحدهم، أو يَتَغَدَّى وحده وزَوْجَته وحدها أو ما أشبه ذَلِك، ولا بأس أيضًا أن يأكلوا جميعًا، لا بأس بهَذَا وبهَذَا.

يبقى النَّظر في قَوْلُهُ: ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾... إِلَى آخِرِهِ، لم يذكر بيوت الأولاد؟

نقول: هي داخلة في قَوْلهُ: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾؛ فإن بيت الْوَلَد بيت لأبيه؛ لقول النَّبِيّ ﷺ: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ»(١)، ولقَوْلهُ: «أَنْتَ وَمَالُكَ لِوَالِدِكَ.»(٢)؛ فعلَيْه يَكُون بيت الْوَلَد بيت للوالد.

ونحن لـم ننتقد على الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إدخاله بيوت الأولاد في بيوت الْإِنْسَان؛ لأَن هَذَا صحيح، وإنما انتقدنا تَخْصِيصه البُيُوت ببيوت الأولاد.

الْمُهِمّ أن قَوْلهُ: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ أي: بيوت أنفسكم وبيوت أولادكم، بالنِّسْبَةِ لبيت الْإِنْسَان نفسه فَائِدَته ما ذُكر في آخر الآيَة، وبالنِّسْبَةِ لبيت ولده أعم من ذَلِك.

قَوْلهُ: ﴿أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ﴾ يشمل الْأَبّ الأدنى والأعلى، فإن الجد أب كما قَالَ اللهُ تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ [الحج:٧٨]؛ فسمّى الله إبراهيم أبًا لنا مع أنَّه جدٌّ بعيد، فالجدُّ مثل الأب، إلا أنَّه يخالف الْأَبّ في بعض المَسائِل؛ كمَسْأَلَة التملّك، فإن الَّذينَ قالوا بجَواز تملك الْأَبّ من مال ولده خصّوه بالْأَبّ الأدنى؛ لأَن حَقِيقَة الْأَمْر أن المَسْأَلَة ضعيفة لا تتوصل إلى أن يَكُون الجد وإن علا يتملك، بل الْأَبّ مختلف في تملكه من مال ولده.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الإجازة، باب في الرجل يأكل من مال ولده، حديث رقم (٣٥٣٠)، والنسائي، كتاب البيوع، باب الحث على الكسب، حديث رقم (٤٤٥٠)، والترمذي، كتاب الأحكام، باب ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده، حديث رقم (١٣٥٨)، وابن ماجه، كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، حديث رقم (٢٢٩٠)، وأحمد (٦/ ١٤) (٢٤١٨١)؛ عن عَائِشَة.

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، حديث رقم (٢٢٩١)، وأحمد (٢/ ٢٠٤) (٦٩٠٢)؛ عن جابر بن عبد الله.

قَوْلهُ: ﴿أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ يشمل الأم الدُّنْيَا الَّتِي ولدت الْإِنْسَان والأم العليا الَّتِي هي الجدة؛ فالجدة مثل الأم، لكن الأم أَشَدّ؛ يعني أوجب برًّا، وكلما دنا فهو أوجب برًّا كما قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ»[1]، فلهَذَا يَجب بِرُّهَا والإنفاق عَلَيْها، وكل ما يثبت للأم يثبت لها إلا أن الأم أحق وأولى.

قَوْلهُ: ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾ الأشقاء أو لأب أو لأم.

قَوْلهُ: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ﴾ لكن بشرط ألا تكُون ذات زوج؛ فإن كَانَت ذاتَ زوج والمال له، لم يكن بيتًا لأختي، بل لزوجها، لكن إِذَا كَانَت الأخت لها بيت فإنَّه لا بأس أن يأكل الْإِنْسَان من هَذَا البَيْت.

قَوْلهُ: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ﴾ يقال في عماتكم مثل ما قِيلَ في أخواتكم؛ يعني: ما لم تكن العمة ذات زوج، فلا يأكل الْإِنْسَان من بيت زوجها؛ لأنَّه له ولَيْسَ لها.

قَوْلهُ: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ بالنِّسْبَةِ للأعمام والأخوال والخالات يشمل الأدنى من هَؤُلَاءِ والأعلى، فالأدنى أخو أبيك بالنِّسْبَةِ للعم، والأعلى أخو جدك وإن علا، وبالنِّسْبَةِ للخال الأدنى أخو أمك، والأعلى أخو جدتك وإن علا فإنَّه خال.

قَوْلهُ: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [خَزَنْتُمُوهُ لِغَيْرِكُمْ] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ المَفَاتِح بمَعْنى: الخزائن، يعني ما ملكتم خزائنه، وقِيلَ:

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به، حديث رقم (٢٥٤٨)؛ عن أبي هريرة.

إنها بمَعْنى المَفَاتِيح ؛ وهي: ما يُفتح به، فالـمِفْتَاح غير المِفْتَحِ، (مِفْتَح) جمعه: مَفَاتِح، (مِفْتَاح) جَمْعُه: مَفَاتِيح، وقِيلَ: إنه يطلق المِفْتَح على المِفْتَاح، والمَفَاتِح على المَفَاتِيح، وقِيلَ: إن المُراد بالمَفَاتِح: الخزائن والمَفَاتِيح: ما يُفتح به، والقرآن يؤيد القَوْل الأوَّل؛ كما في قَوْل الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ [القصص:٧٦]؛ وعلى هَذَا فنقول هُنا في الآيَة الْكَرِيمَةِ ﴿مَفَاتِحَهُۥٓ﴾ أي: خزائنه أو مفاتيح خزائنه.

وقَوْلهُ: ﴿مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ معنى ﴿مَلَكْتُم﴾ أي: جُعلت مفاتيحه في أيديكم، وهي الخزائن؛ فلا جناح على الْإِنْسَان أن يأكل منها، لكن بالمعْرُوف، يعني مثلًا لو أن إنسانًا صاحب فاكهة أعطاك مفتاح المخزن لتحافظ عليه، فدخلت يومًا من الأيَّام المخزن، فيجوز أن تأكل منه، لكن بشرط أن يَكُون ذَلِك بالمعْرُوف، فلا تأخذ في جيبك وتحمله، ولا تتردد علَيْه دائمًا إلا إِذَا رضي بِذَلِك.

قَوْلهُ: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَهُوَ مَنْ صَدَقَكُمْ فِي مَوَدَّته، المَعْنَى يَجُوز الْأَكْلُ مِنْ بُيُوت مَنْ ذُكِرَ، وَإِنْ لَمْ يَحْضُرُوا إِذَا عَلِمَ رِضَاهُمْ بِهِ] اهـ.

الْمُفَسِّر يَقُول: [المَعْنَى يَجُوز الْأَكْلُ مِنْ بُيُوت مَنْ ذُكِرَ، وَإِنْ لَمْ يَحْضُرُوا] هَذَا صحيح.

وأما قَوْلهُ: [أي: إِذَا عَلِمَ رِضَاهُمْ بِهِ]؛ فهَذَا غير صحيح، وَذلِك أنَّه إِذَا علم رضا صاحب البَيْت بأكله فإنَّه لا فرق بين أن يَكُون من هَؤُلَاءِ أو من غيرهم، لكنَّه يؤكل من بيوت هَؤُلَاءِ ما لم يُعلم عدم رضاهم، فالمراتب ثلاثة:

المرتبة الأولى: أن تعْلم رضا صاحب البَيْت بأكلك؛ فهَذَا جائز من هَذِهِ البُيُوت ومن غيرها.

المرتبة الثَّانية: أن تعلم عدم رضاه؛ فلا تأكل لا من هَذِهِ البُيُوت ولا من غيرها؛ لقول النَّبيّ ﷺ: «لا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ»(١).

المرتبة الثَّالِثَة: ألا تعلم رضاه من عدم رضاه، فهُنا يُفَرّق بين من ذُكر وغيرهم، فيُقال: تأكل من بيوت هَؤُلَاءِ؛ لأَن الغالِب رضاهم، لِوُجود صلة بينك وبينهم من القرابة أو الصَّداقة أو الائتمان، يعني حَقِيقَة الْأَمْر أن الأكل من هَذِهِ البُيُوت ترجع إلى ثلاثة أَشْيَاء: إما قرابة أو ائتمان أو صداقة؛ فالقرابة ذُكروا، وأما الائتمان ففي قَوْلهُ: ﴿مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾، وأما الصَّداقة ففي قَوْلهُ: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾؛ ففي حالة عدم العِلْم بالرضا والسخط نقول: يجوز الأكل من هَذِهِ البُيُوت دون غيرها.

وأما اشتراط المُفَسِّر علم الرضا فلا وجه له؛ لأَنَّه لو اشترطنا ذَلِك لم يكن بينها وبين البُيُوت الأُخْرَى فرق، لو فُرض أن صديقًا لك أدخلك بيته ووجدت في مجلس القهوة أكلًا وأكلت بدون أن تستأذن؛ فهل يجوز أو لا؟

نقول: يجوز، وهَذَا هو معنى الآيَة. المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أَنَّه لا يجوز إلا إِذَا علمت أَنَّه يرضى بِذَلِك، والصَّحيح: أَنَّه لا يُشترط العِلْم بالرضا، لكن لو علمنا أن هَذَا الرَّجل شحيح لا يرضى أن تأكل شيئًا أبدًا من ماله إلا ما قدّمه ففي هَذِهِ الحال لا يجوز الأكل للحديث الَّذِي أشرنا إِلَيْه؛ فالصَّديق سواء دعاك أو لم يدعُك، وسواء أَرَادَ أن يقدم لك كرامة أو لم يرد، فمتى دخلت بيت صديقك فلك الأكل، ما لم تعلم أَنَّه لا يرضى بِذَلِك.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٧٢) (٢٠٧١٤)؛ والبيهقي في الكبرى (٦/ ١٠٠) (١١٣٢٥)، عن عم أبي حرة الرقاشي.

وفي قَوْلهُ: ﴿صَدِيقِكُمْ﴾ دَليل على أن للصداقة حقًا، وهو كَذلِكَ، والسبب: الصِّلة الَّتِي بينك وبينه.

لو قَالَ قَائِلٌ: ما تقولون في المصاهرة وفي صلة الرضاعة، هل تدخل في صلة النَّسب أو في الصَّداقة أو لا تدخل؟

الجواب: تدخل في الصَّداقة إن كَانَ صديقك؛ فإن لم يكن بينك وبينه صداقة فلا يجوز الأكل من بيته.

لأَن كثيرًا من النَّاس يَكُون له أب من الرضاعة وبينهما عداوة، وكثير من النَّاس يَكُون له صهر وبينهما عداوة.

الحاصل: ما لم يكن بين الصّهر وصهره أو بين الرضيع ومرضعه صداقة فإنَّه لا يجوز الأكل من بيته.

قَوْلهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ ﴿جَمِيعًا﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مُجْتَمِعِينَ ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ مُتَفَرِّقِينَ جَمْع شَتّ] اهـ.

شَتّ وأشتات مثل سبب وأَسْبَاب، إلا أن سبب غير مدغمة، وشَتّ مدغمة.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [نَزَلَ فِيمَنْ تَحَرَّجَ أَنْ يَأْكُل وَحْده وَإِذَا لَمْ يَجِد مَنْ يُؤَاكِلهُ يَتْرُك الْأَكْل] اهـ.

هَذِهِ يُقال: إنها كَانَت عادة لبعض العرب أنَّه لا يأكل إلا ومعه أحد، فإن لم يجد أحدًا يأكل معه لم يأكل شيئًا أبدًا، يموت من الجوع ولا يأكل إلا أن يجد أحدًا يأكل معه، وهَذَا لا شَك أنَّه دَليل على الكرم، لكنَّه كرم فيه إفراط.

القصد: أنك تأكل مع غيرك وتأكل وحدك؛ كما قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾، وهَذَا في باب الجَواز، وأما الأفضل فهو الأكل جميعًا كما أمر النَّبِيّ ﷺ بِذَلِك وأخبر أن في ذَلِك بَرَكَة، وَذلِك لما شكى إِلَيْه رجل أَنَّه كَانَ يأكل ولا يشبع؛ فقال له النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَلَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ، يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ»[1].

فاجتماع النَّاس على الأكل من أَسْبَاب البَرَكَة، كما أَنَّه أيضًا من أَسْبَاب الألفة والمودة؛ لأَن أهل البَيْت متفرقون في أعمالهم، فإذا لم يكن شَيْء يجمعهم، وهو الأكل، فمتى يجتمعون، لكن من المؤسف أن هَذِهِ السُّنَّة أصبحت مفقودة عند كثير من النَّاس، تجد الْأَبّ يأكل وحده، والْوَلَد الأكبر يأكل وحده، والمتوسط يأكل وحده، واللاتي يُمْكِن أن يجتمعن النِّساء، أما الرِّجَال فإن اجتماعهم فيما يظهر لي قليل، ولكن هَذَا خلاف السُّنَّة، السُّنَّة أن يجتمع النَّاس على الأكل، ينتظر بعضهم بعضًا، لا يضرّ إِذَا تأخر بعض الوقت في انتظار صاحبه؛ لأنهم يجتمعون ويتحدثون جميعًا وهَذَا يجلب المودة والألفة، لكن كون الْوَلَد لا يرى أباه أبدًا، يسهر الْوَلَد بالليل وأبوه ينام مبكرًا، وبالنَّهار أبوه يطلب المعيشة والْوَلَد يدرس، وفي الأكل أبوه يصلي مع الجَماعَة وهو قاعد يتغدّى مثلًا أو ما أشبه ذَلِك، إِذَنْ متى يَكُون الاجتماع ومتى تَكُون الألفة بين النَّاس؟!

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأطعمة، باب في الاجتماع على الطعام، حديث رقم (٣٧٦٤)، وابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب الاجتماع على الطعام، حديث رقم (٣٢٨٦)، وأحمد (٣/ ١٠٥) (١٦١٢٢)؛ عن وحشي بن حرب.

هل الأفضل الآن أن يأكل الرَّجل وأهل بيته من رِجال ونساء؟

هَذَا هو الأفضل أنهم يأكلون جميعًا حَتَّى الرِّجَال مع النِّساء، وقد شاهدنا من السَّلف السَّابِقين من يأكلون جميعًا هم وأبوهم، وقد كنا عند أخوال إِذَا أصبحنا عندهم نجدهم كلهم يجتمعون.

قَوْلهُ: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَكُمْ لَا أَهْل بِهَا ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ قُولُوا السَّلَام عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَاد الله الصَّالِحِينَ فَإِنَّ المَلَائِكَة تَرُدّ عَلَيْكُمْ وَإِنْ كَانَ بِهَا أَهْل فَسَلِّمُوا عَلَيْهِمْ] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿بُيُوتًا﴾ نكرة في سِيَاق الشَّرط، فتكون عامَّة في بُيوت الْإِنْسَان وبُيوت غيره.

وقَوْلهُ: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ إن كَانَ بها أهل وهي لغيره يسلم عليهم؛ أي: على من فيها، وسمّيَ سلامًا على النَّفس وهو على الغير؛ لأَن المُؤْمِنِينَ نفس واحدة، كما قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى بَعْضُهُ تَدَاعَى كُلُّهُ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى»(١).

ويُمْكِن أن يُقال: لكن على بُعد أنك إِذَا سلّمت علَيْه فقد سلّمت على نفسك؛ لأنك أنت السَّبَب في رده، والمتسبب كالمباشر مثل قَوْل الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «يَلْعَنُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَلْعَنُ أَبَاهُ»، بعد أن قالوا: كَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجل وَالِدَيْهِ(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم (٦٠١١)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم (٢٥٨٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، حديث رقم (٥٩٧٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بَيان الكبائر وأكبرها، حديث رقم (٩٠)؛ عن عبد الله بن عمرو.

فيُمْكِن أن نجعل وجْه كونِه على أنفسِنا أنَّنا إِذَا سلّمنا رد علَيْنا، لكنَّه في الحَقيقَة قد يتخلف فيما إِذَا لم يرد، لكن إِذَا سلّمت فقد سلّمت على نفسي رَدَّ أم لم يرد، حَتَّى لو فرض أنَّه لم يردّ عليّ؛ فقد امتثلت الْأَمْر، وإن كَانَت بيوتًا لَيْسَ فيها أحد فإن الْإِنْسَان يسلم علَى نفْسِه، يَقُول: السَّلام علَيْنا وعلى عباد الله الصَّالحين؛ لأَن هَذَا هو السَّلام الَّذِي علّمه النَّبِيّ ﷺ أمته أن يسلّموا على أنفسهم، كما في الصَّلاة.

قَوْلهُ: ﴿تَحِيَّةً﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَصْدَر حَيَّا] اهـ.

يعني تحيون تحية.

وقَوْلهُ: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أضافها الله إلَيْه؛ لأَنَّه هو الَّذِي شرعها وأمر بها؛ يعني: هَذِهِ التحية من عند الله، أو لأَنَّه غايتها، أي: الَّذِي تنتهي إلَيْه هَذِهِ التحية ليثيب علَيْها ويجيبها؛ لأنك تقول: السَّلام علَيْنا أو السَّلام عليكم، فهي تُطلب منه؛ فهو غايتها، أو هو مشرعها.

وقَوْلهُ: ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ معنى (مباركة) أي: ذات بَرَكَة، والبَرَكَة -كما تقدَّم-: هي الخَيْر الكثير الثَّابت.

قَوْلهُ: ﴿طَيِّبَةً﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُثَابًا عَلَيْهَا] اهـ.

وهَذَا من الطيب أن تكُون مثابًا عَلَيْها، لكن من الطيب أيضًا أن تكُون موافقة لشريعة الله؛ لأَن الأعْمَال الصَّالحة والطيبة هي الموافقة للشَّرع بأن تكُون مُخْلِصًا فيها لله مُتَّبِعًا فيها رَسُول الله ﷺ.

قَوْلهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: يُفَصِّل لَكُمْ مَعَالِمَ دِينكُمْ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لِكَيْ تَفْهَمُوا ذَلِك] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ﴾ تقدَّم أنَّنا نعرب (الكاف) اسمًا بمَعْنى (مثل)، على أنَّها مفعول مطلق لـ﴿يُبَيِّنُ﴾، أي: مثل ذَلِك البَيان يبين، و﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾ سبق أن المُراد بها الشَّرْعِيَّة والْكَوْنِيَّة، فالشَّرْعِيَّة ما جاءت بها الرُّسل، والْكَوْنِيَّة مخلوقات الله الَّتِي نشاهد ونسمع.

وقَوْلهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (لعل) هَذِهِ للتَّعليل، أي: لأجل أن تعقلوا، ومعنى العَقْل هُنا: الفَهْم، على ما مشى علَيْه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولكن الأصح أنَّه أعم من ذَلِك، وأنه الفَهْم وحسن التصرف؛ لأَن العَقْل كما تقدَّم نوعان: عقل الإدراك وعقل التصرف.

فعقل الإدراك هو مناط التكليف الَّذِي يتميز به الْإِنْسَان عن المجنون، وهو حاصل للمسلم والكافر والبر والفاجر.

وعقل التصرف هو إحسان التصرف، أن يتصرف الْإِنْسَان تصرفًا مبنيًا على عقل؛ لأنَّه من العقال؛ إِذْ يَعْقِلُ صاحبه فيحسن التصرف، هَذَا يخرج منه الكافر والفاسق؛ لأنهما لم يحسنا التصرف فهما غير عَاقِلَيْنِ، ولهَذَا دائمًا ينفي الله العَقْل عن الْكُفَّار، مع أنهم من أذكى النَّاس وأفهمهم، لكن لَيْسَ عندهم حسن التصرف، عندهم عقل الإدراك فقط، والذي يحمد علَيْه الْإِنْسَان هو عقل التصرف، أما العَقْل الأوَّل فلا يُحمد عليه؛ لأنَّه لَيْسَ من كسبه.

المُهِمّ أن المُراد بالعقل هُنا لَيْسَ مُجَرَّد الفَهْم؛ لأنَّنا إِذَا فسّرناه بمجرد الفَهْم حوّلناه إلى عقل الإدراك فقط، وعقل الإدراك لَيْسَ مناطًا للمدح، وإنما المناط للمدح عقل التصرف الَّذِي يحسن به الْإِنْسَان التصرف، وهَذَا هو المُراد بهَذِهِ الآيَة:

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تدركون ذَلِك وتحسنون التصرف بمقتضى هَذِهِ الآيَات الَّتِي بينها الله لكم.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: بَيان رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في نفي الحرج عمّن يستحقه؛ لقَوْله تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾، ويلحق بِذَلِك سائر العاهات؛ فلو فرضنا أن الْإِنْسَان كُلّف بالكتابة والكتابة واجبة إِذَا دُعي الْإِنْسَان إِلَيْها كما قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ [البقرة:٢٨٢]؛ يعني: لو دعاك إِنْسَان لِتَكْتُبَ بينه وبين آخر وثيقة وأنت قادر فقد وَجَبَت عَلَيْك الكِتابَة، فإذا كنت ضعيف النَّظر لا تَسْتَطِيع؛ فلَيْسَ علَيْه حرج، ولو لم تكن أعمى.

و العاهات إن كَانَت كاملة عذر الْإِنْسَان عذرًا كاملًا، وإن كَانَت ناقصة فبحسبه؛ فالحُكْم يدور مع علته.

الفَائِدة الثَّانية: بَيان سهولة هَذِهِ الشَّريعة بنفي الحرج عمّن لا يستحقه.

الفَائِدة الثَّالِثَة: أن الأَحْكام تدور مع عللها؛ فإذا وُجدت العِلَّة في الحُكْم ثبت، وإذا انتفت انتفى الحُكْم؛ لأَن نفي الحرج عن هَؤُلَاءِ إنما كَانَ لهَذِهِ العِلَّة الَّتِي فيهم؛ فإذا بَرِئَ المريض واسْتَقَام، ومَشى الأعرج، ورَدَّ الله البصر على الأعمى، انتفى هَذَا الحُكْم في حقهم، وثبت في حقهم ما يثبت في حق السالمين.

الفَائِدة الرَّابِعَة: جَواز الأكل من بيوت هَؤُلَاءِ المذكورين سواء بإذن أو بغير إذن، إلا إِذَا علمنا عدم رضاهم، فإذا علمنا أنهم لا يرضون؛ فإنَّه لا يجوز الأكل من بيوتهم.

الفَائِدة الخَامِسَة: أن مال ابن الْإِنْسَان مالٌ له؛ لقوله ﷺ: «**إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ**»(١)؛ وجه الدَلالَة من الآيَة أنَّه لم يذكر الأولاد، فدل على أن المُراد بالبُيُوت بيوتكم وبيوت أولادكم.

الفَائِدة السَّادِسَة: تحكيم العادة في الْأُمُور؛ لأنَّه إنما أبيح لنا الأكل من هَذِهِ البُيُوت؛ لأَن العادة والعرف الرضا بِذَلِك، ومعْرُوف أن القريب والصَّديق ومالك المفاتيح كلهم مما جرى العرف بأنهم مسامحون في الأكل، ولكن سبق أن الْإِنْسَان لا يحمل شيئًا، بل يأكل ولا يحمل، ولهَذَا أجاز الله الأكل فقط.

الفَائِدة السَّابِعَة: جَواز الأكل مجتمعين ومتفرقين؛ لقَوْلهُ: ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾، ولكن الأفضل كما تقدَّم الاجتماع.

الفَائِدة الثَّامِنَة: مشروعية السَّلام عند الدُّخول إلى البُيُوت؛ لقَوْلهُ: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾، وكان هَذَا من هدي النَّبِيّ ﷺ، إلا أن يبدأ الْإِنْسَان بشَيْء قبل السَّلام وهو السواك(٢)؛ فإذا دخل بيته يبدأ أولًا بالتسوك ثم يسلم على أهله؛ هَذَا لأَن الغالِب في وقتنا هَذَا أنهم لا يَكُونون عند الباب، لكن إن كانوا عند الباب فالسَّلام عليهم قبل.

الفَائِدة التَّاسِعَة: فضيلة السَّلام فقد وصفه الله تَعَالَى بثلاثة أوصاف ؛ تحية من عنْدَه مباركة طيبة، وَذلِك من الآيَات الَّتِي بيّنها الله تَعَالَى للعباد وأوضحها لهم؛ لما في ذَلِك من جلب المودة والمحبَّة والخَيْر، وقد أمر النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالسَّلام،

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب السواك، حديث رقم (٢٥٣)؛ عن عَائِشَة، ولفظه: سئلت عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: بأي شيء كان يبدأ النَّبِيّ ﷺ إِذَا دخل بيته؟ قالت: «بالسواك».

وقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، إِنْ شِئْتُمْ دَلَلْتُكُمْ عَلَى أَمْرٍ إِنْ فَعَلْتُمْ تَحَابَبْتُمْ؟» قَالُوا: أَجَلْ. قَالَ: «أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»[1].

وهَذَا -لا شَك- دَليل على فضله، فيدُلّ على أنَّه أفضل من قَوْل الْإِنْسَان: (أهلًا وسهلًا) وشبهه، وعلى أن الْإِنْسَان لو أجاب السَّلام بـ(أهلًا وسهلًا) لم يُجزِه؛ لأَن (أهلًا وسهلًا) لا توصف بأنَّها تحية من عند الله مباركة طيبة، أما (السَّلام عليكم) أو (وعليكم السَّلام) فإنَّه يوصف بأنه تحية من عند الله مباركة طيبة، وهَذَا تجدون هَذَا هدي الأنبياء في حديث المعراج؛ فإن الرَّسُول ﷺ كَانَ إِذَا سلّم على النَّبِيّ الَّذِي يواجهه في السَّماء رد علَيْه السَّلام وقال: مرحبًا بالابن الصَّالح؛ في آدم وإبراهيم، وبالأخ الصَّالح؛ فيمن عداهما: مرحبًا بالأخ الصَّالح والنَّبي الصَّالح[2]؛ فيرحبون بعد أن يردوا السَّلام، وكونه يَقُول في الحَديث: «فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ،...» دَليل على أن هَذَا لَيْسَ من رد السَّلام، وهَذَا أمر معْلُوم، ولكن مع الأسف أن النَّاس الآن هجروا هَذَا، وصَارَ غالب النَّاس إِذَا سلمت عليهم قالوا لك: أهلًا ومرحبًا أو هلا أو مرحبًا، وهَذَا لا يُجزئ ولا يجوز الاقتصار عليه.

لو قَالَ قَائِلٌ: هل فضيلة السَّلام تطبق على المحادثة التليفونية؟

الجواب: كلما حادثت أحدًا تسلم عليه؛ فالتليفون حَقِيقَة مواجهة، لكنها مواجهة غيبية، فتقول: السَّلام عليكم، ولكن أيضًا مما يؤسف له أن النَّاس الآن

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بَيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، حديث رقم (٥٤)؛ عنه أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب المعراج، حديث رقم (٣٨٨٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، حديث رقم (١٦٤)؛ عن مالك بن صعصعة.

كلهم صغيرهم وكبيرهم، ويُمْكِن أن نقول: عالمهم وجاهلهم لا يفعلون هَذَا، بل يَقُولُونَ: ألو.

لو قَالَ قَائِلٌ: أَلَيْسَ تعريب كَلِمة (تليفون) وتسميته هاتفًا أفضل؟

الجواب: أنا أرى أن الأَسْماء الواردة لا بأس أن تبقى على ما هي عليه؛ لأَن الأَسْماء المعرَّبة في اللُّغَة العربيَّة موجودة من قديم؛ فلا بأس أن نقول: تليفون ولا يَلْزَم أن نقول: هاتفًا، كَذلِكَ نقول: راديو، ولا يَلْزَم أن نقول: مذياع. لكن المُشْكِل الشَّيء المخالف للشَّرع؛ أن نبدل كَلِمة شرعيَّة واردة في مثل هَذَا المقام بكَلِمة غير شرعيَّة؛ هَذَا هو المشكل، وإلا: فالأَسْماء الَّتِي تَرِدُ هم الَّذينَ صنعوها وسمّوها بهَذَا الاسْم فلَيْسَ لنا شأن بهم، مع أن بعض العُلَماء يَقُول: لا، هم سمّوها بهَذَا الاسْم مُراعَاة للمعنى لا مُراعَاة لمجرد الصَّنعة، فهم يَقُولُونَ مثلًا: راديو، أظن بمَعْنى مذياع، فما دام أنهم يراعون المَعْنى يَجب أن نأتي باللفظ الَّذِي يدُلّ على هَذَا المَعْنى في لغتنا، والمَسْأَلَة هَذِهِ بسيطة، لكن الكَلام على الَّذِي يخالف الشَّرع، أما هَذِهِ المَسائِل فهي أهون.

الفَائِدة العاشرة: مطلق السَّلام فيه البَرَكَة، وهو أولى؛ لأَن تقييدنا إياه بما إِذَا قَالَ: «ورحمة الله وبركاته» يَكُون تقييدًا لشَيْء موسع؛ فالنَّبيّ- عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دائمًا يسلم يَقُول: «السَّلام عليكم»، ولكن مع ذَلِك نقول: إن الأفضل: «ورحمة الله وبركاته»، لا شَك في هَذَا، إنما إِذَا اقتصر على الأوَّل فإنَّه يصح أن نقول: تحية من عند الله مباركة طيبة؛ لأَن هَذَا وصف للتحية لا وصف لصيغتها، يعني نفس التحية مباركة طيبة ولَيْسَ يشترط أن تَكُون فيها لفظ البَرَكَة ولفظ الطيب، وإلا كنا نقول: وطيباته.

الفَائِدة الحَادِيَة عشرة: عناية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالخلق؛ حيث إنه يبين لهم الآيات لأجل أن يتصرفوا تصرف العاقِل فيتبعوا شريعته؛ لقَوْلهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وتقدَّم أن هَذَا العَقْل أو هَذَا البَيان بالنِّسْبَةِ للآيات الشَّرْعِيَّة ما يعرفه إلا المُؤْمِنُونَ الَّذينَ آمنوا بها وعقلوها، وأما الآيات الْكَوْنِيَّة فقد يؤمن بها حَتَّى الكافر؛ فالْكُفَّار يؤمنون بأن الله خالق السَّموات والأَرْض، وأنه بيده ملكوت السَّموات والأَرْض، وأنه منزل الغيث... إِلَى آخِرِهِ.

• • ۞ • •

الآية (٦٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٦٢].

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، والحصر يُفيد إِثْبات الحُكْم في المذكور ونفيه عما سواه، وعلى هَذَا فالإِيمَان ثابت لمن وصفوا بهَذِهِ الصِّفات ومنتفٍ عمَّن تخلَّف عنهم منها شَيْء.

قَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الإِيمَان باللهِ ورسوله لا يَكُون إيمانًا حَتَّى يتضمَّن القبول والإذعان، أما مُجرَّد التصديق فلَيْسَ إيمان، فلو صدق الْإِنْسَان باللهِ وبرسوله ﷺ، ولكن لم يقبل ما جاء به ولا أذعن له فلَيْسَ بمؤمن، ولهَذَا أبو طالب كَانَ مصدِّقًا بالنَّبيّ ﷺ ومع ذَلِك لَيْسَ بمؤمن به؛ لأنَّه لم يقبل ما جاء به ولم يذعن له.

وقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يعني: إيمانًا صحيحًا يتضمَّن القبول والإذعان.

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ الرَّسُول ﷺ ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ كَخُطْبَةِ الجُمُعَة ؛ ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟﴾ لِعُرُوضِ عُذْر لَهُمْ ﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾] اهـ.

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ يعني على أمر عامٍّ للمُسْلِمين من الجهاد والمشورة والجمعة وغيرها، كل أمر جامع عام للمُسْلِمين لَيْسَ أمرًا خاصًّا بهم إِذَا اجتمعوا لا يذهبون حَتَّى يستأذنوه؛ لأَن ذهابهم بدون اسْتِئْذان يؤدي إلى الفوضى واختلال النِّظام، فلو فُرض أَنَّه نودي: «الصَّلاة جامعة» واجتمع النَّاس للتشاور في أمر ثم بعد أن حضر النَّاس قام واحد وانصرف بدون اسْتِئْذان نقول: هَذَا حرام ولا يجوز؛ لأَن هَذَا يؤدي إلى تفكك هَذَا الاجتماع وإلى الفوضى وعدم النِّظام، فإذا اجتمع المُسْلِمُونَ على أمر جامع؛ يعني: عامًّا من خطبة الجمعة وغيرها؛ فإنَّه لا يجوز لأحد أن ينصرف إلا بعذر وبعد الاسْتِئْذان؛ لما في ذَلِك من إضعاف الباقين؛ لأنهم لو رأوا واحدًا يقوم، قام الثَّاني، وقام الثَّالث، وقام الرابع، وهَكَذا.

ولا شَكَّ -كما نُشاهد الآن- أَنَّه إِذَا قام واحد من المجتمعين فإنَّه يتبعه أناس ويَكُون هَذَا بمنزلة الحائط، أي: الجدار، الَّذِي انهدم منه ثلمة؛ لا يتماسك فيما بعد، والعوام لهم مثل؛ يَقُولُونَ: «إذا طاح من طي الركية طية لا تُعِدّ طي الركية إلا طاح» الركية: البئر، يعني إِذَا سقط منها حصاة فالباقي يتداعى ولا تعده إلا ساقطًا.

فالحاصِل: أن المُؤْمِنِينَ حَقِيقَة إِذَا كانوا مع الرَّسُول ﷺ على أمر جامع، ومعنى ﴿جَامِعٍ﴾ أي شامل وعام كالتجمع للجهاد والتجمع للمشاورة والتجمع لأمر هام يَتعلَّق بالمُسْلِمِينَ عُمومًا؛ فإنهم لا يذهبون من مكان الاجتماع حَتَّى يستأذنوا النَّبِيّ ﷺ.

ثم إن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قيّده بقيد لا بُدَّ منه؛ قَالَ: [لِعُرُوضِ عُذْرٍ لَهُمْ].

أيضًا لا يذهبون إلا لعذر، فلابُدَّ من العذر، والعذر أمر خفي لا يعلم، ولابُدَّ من الاسْتِئْذان ليتبيَّن لجميع الحاضرين عذرهم، ولا يَكُون في ذَلِك خلل.

وهَذِهِ قاعِدَة عامَّة لكل اجتماع؛ فكل الاجتماعات العامَّة الَّتِي لمصلَحَة الإِسْلام والمُسْلِمِينَ لا يجوز لأحد أن ينصرف إلا بعذر وبعد الاسْتِئْذان.

قَوْلهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لا شَكَ أن تركيب الجُمْلَة على هَذَا يدُلّ على الشَّرف ورِفْعَة المكانة؛ لقَوْلهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ فإن (أولاء) اسم إِشارَة يدُلّ على تعظيم المشار إِلَيْه؛ ولهَذَا جاء بِصيغَة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إِشارَة إلى علو مرتبتهم، ثم جاء مؤكَّدًا بـ(إِنَّ) ثم جاء السِّيَاق بالجُمْلَة الاسْمية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فحصر الإِيمَان باللهِ ورسوله في هَؤُلَاءِ الَّذينَ يستأذنون رَسُول الله ﷺ قبل أن ينصرفوا إِذَا كانوا معه على أمر جامع.

قَوْلهُ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَمْرِهِم ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ بِالانْصِرَاف ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فاشترط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَكُون الاسْتِئْذان لشأن من الشُّؤون؛ يعني لأمر من الْأُمُور الَّتِي يعذرون بها بالتخلف عن الجمع، ثم قَالَ للرَّسول: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ﴾ فجعله أيضًا مخيرًا في الإذن وعدمه؛ ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ﴾.

وهَذَا التَّخيير؛ هل هو تخيير تشهي وإرادة مطلقة أو تخيير مصلَحَة؟

تخيير مصلَحَة، لكن ما هو الضَّابِط لتخيير المصْلَحة وتخيير التشهي والإِرادَة المطلقة؟

إذا كَانَ التَّخيير من أجل الرفق بالمكلَّف؛ فهو تخيير تشهٍّ؛ مثل ما يوجد في بعض الكفارات: ككَفَّارة الْيَمِين قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ

أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة:٨٩]، وكما في قَوْله تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦].

فإذا كَانَ الغرض من التَّخيير مُراعَاة التسهيل على المكلف؛ فهو من باب التشهي، يعني الَّذِي تشتهيه افعله.

وإذا كَانَ التَّخيير من أجل مصلَحَة عامَّة أو خاصة؛ فإنَّه تخيير مصلَحَة، وَذلِك فيما إِذَا كَانَ يَتعلَّق بالغير؛ فتخيير ولي اليتيم في بَيْع مالِه أو حبسه أو إقراضِه أو عدم إقراضِه، هَذَا من باب تخيير المصْلَحة؛ لأنَّه يتصرف لغيره، وكَذلِك أيضًا تخيير النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قَوْلهُ: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ﴾ هَذَا تخيير مصلَحَة، إِذَا كَانَ إِذْن الرَّسُول ﷺ لهؤُلَاءِ لا يضر بالجمع.

وفيه أيضًا مصلَحَة بيِّنة أكثر من مصلَحَة بقائهم فهُنا يتعين الإذن، وإذا كَانَ يخشى إن أذن لهم أن يكثر المستأذنون وينهدم هَذَا الجمع أو أن بقاءهم في هَذَا الجمع أصلح لهم من ذهابهم لشأنهم؛ فهُنا يتعين ألّا يأذن لهم؛ فتخيير النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُنا يرجع إلى المصْلَحة: إِذَا اقتضت المصْلَحة الإذن أذِن، وإلا فلا.

وقَوْلهُ: ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ عبر بالبعض إشارَة إلى أنهم إِذَا استأذنوا لشَيْء مهم، وإن لم يكن شؤونًا متعددة فإنَّه يَكُون عذرًا في جَواز الاسْتِئْذان والإذن لهم، ثم مع ذَلِك قَالَ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾، هَذَا الاستغفار لهم لتطييب قلوبهم إِذَا انصرفوا عن هَذَا الجمع وفاتهم أجره فاستغفر لهم الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فإن قلوبهم تطيب بالانصراف ولا يبقى في قلوبهم حرج وقلق؛ هَذَا من جهة.

ومن جهة أُخْرَى يستغفر لهم؛ لأنَّه قد يَكُون في اسْتِئْذانهم هَذَا أمر لا يُعذرون فيه، هم ظنّوه عذرًا فاستأذنوا من أجله، وهو لَيْسَ بعذر عند الله، ويَكُون استغفارك

لهم ماحيًا لما عسى أن يَكُون من التقصير والتفريط في ذَلِك واستغفار الرَّسُول ﷺ كأنْ يقولَ: انصرفوا غفر الله لكم، أو: اللهم اغفر لهم.

وقَوْلهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هَذَا تقدّم الكَلام علَيْه مرارًا، وقُلْنا: إن المغْفِرة في جانب الذُّنوب، والرَّحمة في جانب حصول المَطْلوب؛ ففي المغْفِرة النَّجاة من المرهوب، وفي الرَّحمة حصول المَطْلوب.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن الإِيمَان ينقسم إلى ناقصٍ وكاملٍ؛ لأَن عدم الاسْتِئْذان في الْأَمْر الجامع لا يوجب الكفر، ولكنه معْصِيَة تنافي كمال الإِيمَان، فالإِيمَان قد يُراد به مطلق الإِيمَان ولو بإيمان ناقص، والإِيمَان المطلَق هو الإِيمَان الكامل، ففرق بين مطلق الإِيمَان؛ وهو: أن تضيف كَلِمة (مطلق) إلى إيمان، وبين أن تصف الإِيمَان بالمطلَق؛ فالإِيمَان المطلَق أي: الكامل، ومطلق الإِيمَان أي: أن يَكُون مع الْإِنْسَان أصل الإِيمَان، وإن لم يكن كاملًا؛ ففي قَوْله تَعَالَى في كَفَّارة القتل: ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢]، المُراد بالإِيمَان هُنا مطلق الإِيمَان؛ لأَنَّه لا يشترط في عتق الرقبة أن يَكُون المُعتَق كامل الإِيمَان، بل يكفي أن يَكُون مؤمنًا ولو أن معه أصل الإِيمَان فقط.

وفي قَوْلهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ كهَذِهِ الآيَة.

وفي قَوْلهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢]؛ المُراد بالإِيمَان: الإِيمَان المطلَق، يعني: الإِيمَان الكامل، هو الَّذِي يَكُون على هَذِهِ الأوصاف.

الفَائِدة الثَّانية: أن ولي الْأَمْر يَجب علَيْه التيسير على من تحت يده؛ لقَوْلهُ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾.

الفَائِدة الثَّالِثَة: أن الاسْتِئْذان بدون عذر لا يُقبل؛ لقَوْلهُ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾، أما إِذَا استأذنوا لمجرد أن يتركوا العَمَل؛ فإِنَّه لا يؤذن لهم.

الفَائِدة الرَّابِعَة: تفويض الْأَمْر إلى من له ولاية؛ لقَوْلهُ: ﴿لِّمَن شِئْتَ﴾، ولكن هَذَا التفويض كما أشرنا إِلَيْه تفويض للمصلَحَة لا لمجرد التشهي والإِرادَة، بل لا بُدَّ إِذَا رأى أن في الإذن لهم مصلَحَة أذِن لهم، وإذا رأى أن المصْلَحة في عدم الإذن فلا يجوز أن يأذن.

الفَائِدة الخَامِسَة: عناية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعباده المُؤْمِنِينَ؛ حيث أمر الله النَّبِيّ ﷺ أن يستغفر لهم ليطمئنوا على هَذَا الانصراف.

الفَائِدة السَّادِسَة: أن الأولى عدم الاسْتِئْذان حَتَّى وإن كَانَ لِلإِنْسان شأن؛ لأَن الْأَمْر بالاستغفار دَليل على أن هُناكَ شيئًا من التفريط الَّذِي أُمر النَّبِيّ ﷺ بأن يستغفر لهم عليه، وهَذَا صحيح؛ لا شَك وأن الأولى البقاء مع الجَماعَة، وأن الإذن أو الاسْتِئْذان للانصراف أمر قد يَكُون فيه ذم، ولهَذَا أمر الله نبيه أن يستغفر لهم؛ فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾.

الفَائِدة السَّابِعَة: انتفاع الْإِنْسَان بدُعاء غيره؛ لقَوْلهُ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ والشَّواهد على ذَلِك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كَثيرَة، ولكن هل يَنْتَفِع الْإِنْسَان بعمل غيره سوى الدُّعاء أو لا يَنْتَفِع؟

الجواب: إن كَانَ له أثر في ذَلِك العَمَل؛ فإِنَّه يَنْتَفِع به بلا شَك، مثل أن يَكُون

هو الَّذِي سَنَّ هَذِهِ السُّنة، يعني: ابتدع العَمَل بها للنَّاس ودَلَّ عَلَيْها؛ فإن النَّبِيّ ﷺ يَقُول: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلام سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١).

وكَذلِك إِذَا كَانَ له أثر في العامِل مثل أن يَكُون والدًا له لقوله ﷺ: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ»(٢)؛ فالوالد يَنْتَفِع بعمل ابنه إِذَا تبرع به له، ولهَذَا جاء رجل إلى النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقال: إِنَّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا، وَأَظُنُّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ فَهَلْ لَـهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»(٣).

وكَذلِك المَرْأَة الَّتِي سألت النَّبِيّ ﷺ أن على أمها صوم شهر؛ فهل يجزيء أن تصوم عنها؟ فأذن لها النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ(٤).

وكَذلِك الأضحية؛ فإن الرَّسُول ﷺ ضحى عن أمته، وفيهم من هو حي وميت(٥).

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، حديث رقم (١٠١٧)؛ عن جرير بن عبد الله.

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الوصايا، باب ما يستحب لمن توفي فجأة أن يتصدقوا، حديث رقم (٢٧٦٠)، ومسلم، كتاب الوصية، باب وصول ثواب الصدقات إلى الميت، حديث رقم (١٠٠٤)؛ عن عَائِشَة.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الصيام، باب قضاء الصيام عن الميت، حديث رقم (١١٤٨)؛ عن ابن عباس، ولفظه: أن امرأة أتت رَسُول الله ﷺ؛ فقالت: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، فقال: «أرأيت لو كان عليها دين، أكنت تقضينه؟» قالت: نعم، قال: «فدين الله أحق بالقضاء».

(٥) أخرجه ابن ماجه، كتاب الأضاحي، باب أضاحي رَسُول الله ﷺ، حديث رقم (٣١٢٢)؛ عن عَائِشَة وأبي هريرة، ولفظه: «أن رَسُول الله ﷺ كان إِذَا أرد يضحي اشترى كبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوءين؛ فذبح أحدهما عن أمته لمن شهد لله بالتوحيد وشهد له بالبلاغ، وذبح الآخر عن محمد وعن آل محمد ﷺ».

ولكن لقائل أنْ يقولَ: إن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أب للمُؤْمِنِينَ؛ فهو كالرّجل يضحي عن أهل بيته.

وكَذلِك الحج حيث إن امرأة سألت النَّبِيّ ﷺ، قالت إن أباها أدركته فريضة الله علَى عِبَادِه في الحج شيخًا، لا يسْتَطيع الركوب على الراحلة، أفأحج عنه؟ قَالَ: «نَعَمْ»[1]، وَذلِك في حجة الوداع؛ فإذا كَانَ للمهدي إلَيْه أو لِلإنْسان أثر في العَمَل أو في العامِل انتفع به.

لكن إِذَا لم يكن له أثر فيهما، مثل أن يتبرع قريب لقريبه أو صديق لصديقه بعمل صالح، فهل يجزئ ذَلِك أو لا يجزئ؟

اختلف في ذَلِك أهْل العِلْم؛ فالجمهور يَقُولُونَ: إنه يجزئ، وأن الْإِنْسَان لو عمل عملًا صالحًا وجعل ثوابه لشخص من المُسْلِمِينَ؛ فإنَّه يَنْتَفِع به، وهَذَا هو المَشْهُور من مذهب الْإِمَام أحمد، على أن أي قربة أو طاعة يتقرب بها العَبْد إلى الله ويجعل ثوابها لمسلم حي أو ميت؛ فإنَّه يَنْتَفِع بِذَلِك، ودليلهم على هَذَا قياس غير الأولاد على الأولاد، وقياس ما عدا الأموال على الأموال، ويَقُولُونَ: المُهِمّ أن يصل الثَّوابُ إلى الميت من غيره، قالوا: لأنَّه إِذَا جاز أن يصل عمل غير الْإِنْسَان فلا فرق بين أن يَكُون ولدًا أو غير ولد؛ الشَّأن: هل يَنْتَفِع الْإِنْسَان بعمل غيره.

والَّذينَ قالوا بالمنع، قالوا: إن الْوَلَد لَيْسَ كغيره؛ لأَن الْوَلَد من أثر الْإِنْسَان ومن كسبه وفعله، ولَيْسَ كالأخ والقريب والصَّديق ونحوه، أما الدُّعاء للمُسْلِمين

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب الحج عمن لا يستطيع الثبوت على الراحلة، حديث رقم (١٨٥٤)، ومسلم، كتاب الحج، باب الحج عن العاجز لزمانة وهرم ونحوهما أو للموت، حديث رقم (١٣٣٥)؛ عن العباس بن الفضل.

فهَذَا أمر مجمع عليه، وفيه نَصٌّ من الكتاب والسنة والإجماع، ولا أحد يُخالف في ذَلِك.

فإذا سألنا سائل: أيهما أولى؛ أن أصلي ركعتين وأتصدق بثوابهما لشخص من أقاربي غير الْأَبّ أو أن أدعو لهَذَا الشَّخص في صلاتي؟

نقول: الأفضل أن تدعو له في صلاتك؛ لأَن هَذَا أمر مجمع على نفعه، وأما أن تتصدق علَيْه بثواب صلاتك؛ فهَذَا مختلف فيه، من العُلَماء من يرى جَوازه، ومنهم من يرى أَنَّه لَيْسَ بجائز ولَيْسَ بمشروع، وأن الميت لا يَنْتَفِع به.

هَذَا في غير من استؤجر لعمل صالح ليهديه إلى غيره؛ كاستئجار بعض القراء ليقرؤوا قرآنا للميت، فإن هَذَا لا يَنْتَفِع به الميت قطعًا؛ لأَن هَذَا الرَّجل الَّذِي قرأ لأجل المال إنما قرأ للدنيا، ومن كَانَ يُرِيد الحَياة الدُّنْيَا وزينتها فلَيْسَ له حظ في الْآخِرَة، وعلى هَذَا فلا ثواب لهَذَا القارئ، وإذا لم يكن له ثواب هل يَنْتَفِع الميت بِذَلِك؟ لا؛ لأَنَّه إنما يَنْتَفِع بالثَّوابِ لا بمجرد القِراءَة.

فإذا قُلْنا هَذَا القارئ لا ثواب له؛ لأَنَّه أَرَادَ بعمل الْآخِرَة الدُّنْيَا بقي الميت غير مستفيد من هَذِهِ القِراءَة؛ فالمَسْأَلَة لَيْسَت من الْأُمُور الَّتِي يطمئن فيها الْإِنْسَان إلى صِحَّة القَوْل بأن كل الأعْمَال تنفع الميت إِذَا أُهديت له أو تنفع الحي إِذَا أهديت له، ولهَذَا نرى أن الدُّعاء للأموات خير من إهداء القُرب لهم إلا ما ورد فيه النَّص فيُتَّبع.

• • ۞ • •

الآيــة (٦٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

قَوْلُهُ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾، قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِأَنْ تَقُولُوا يَا مُحَمَّد بَلْ قُولُوا يَا نَبِيّ الله يَا رَسُول الله فِي لِين وَتَوَاضُع وَخَفْض صَوْت... إِلَى آخِرِهِ] اهـ.

قَوْلُهُ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ (دُعاء) على كلام الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمَعْنى نداء، ومنه قولهم: دعوت فلانًا أي: ناديته، وعلى هَذَا فدُعاء مضافٌ إلى مفعوله؛ لأَن (دُعاء) مصدر مضاف إلى مفعوله، وفاعله محذوف، والتَّقدير: لا تجعلوا دُعاءكم الرَّسُول، هَذَا الأَصْل؛ فحذف الفاعل وأضيف المَصْدَر إلى مفعوله، أي: دُعاءكم الرَّسُول.

قَوْلُهُ: ﴿كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ هَذَا مضافٌ إلى فاعلِه، ومفعوله: ﴿بَعْضًا﴾ يعني: كما إِذَا دعا بعضكم بعضًا؛ فإننا عنْدَما يدعو بعضُنا بعضًا نقول: يا فلان، لكن النَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له من الحَقّ والإكرام ما لا يليق بنا أن ندعوه باسمه، بل نقول: يا نبي الله، يا رَسُول الله.

وقد التزم الصَّحابَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ هَذَا الأدب فصاروا ينادون النَّبِيّ ﷺ بوصفه بالنُّبوة أو بالرسالة، وما ورد على خلاف ذَلِك من أقوال الصَّحابَة أو دعائهم؛ فإما أن يَكُون قبل النَّهْي، وإما أن يَكُون من جاهل كالذي يحصل من بعض الأعراب.

هَذَا ما ذهب إلَيْه المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ وبعض المفسرين.

وقال آخرون: المُراد من دُعاء الرَّسُول، أي: دُعاء الرَّسُول إياكم؛ فيَكُون المَصْدَر مضافًا إلى فاعله، أي: لا تجعلوا دُعاء الرَّسُول إِذَا دعاكم كدُعاء بعضكم بعضًا؛ إن شئتم أجبتم وإن شئتم تركتم، بل إن النَّبِيّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ إجابته فرض.

وعلَيْه فإذا أمرنا بأمر أو دعانا لأمر فإن إجابته فرض علَيْنا؛ فالنَّبِيّ ﷺ لَيْسَ كغيره؛ إن شئنا أجبنا وإن شئنا تركنا، وعلى هَذَا فيَكُون في الآيَة نهي عن معْصِيَة الرَّسُول ﷺ وأمر بطاعته، ويؤيد هَذَا قَوْلهُ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ فإن سِيَاق الآيَة يؤيد هَذَا القَوْل.

لو قِيلَ بأن الآيَة شاملة المعنيين يجوز أو لا؟

يجوز أن جعلها شاملة للمعنيين؛ لأنَّنا أسلفنا قاعِدَة في هَذَا، وهي: أن الآيَة إِذَا كَانَت تحتمل المعنيين بدون تناقض؛ فإنها تحمل عليهما جميعًا، أما إِذَا كَانَت تحتمل المعنين لكن معنى كل واحد يخالف الآخر؛ فإنَّه حينئذ يَجب طلب الترجيح الَّذِي يرجح أحد المعنيين؛ فيؤخذ به، وأما إِذَا كَانَت صالحة لهما ولا منافاة بينهما؛ فإن الواجب حملها على المعنيين جميعًا.

فعلَيْه نقول: إن هَذَا من باب الأدَب في مخاطبة الرَّسُول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ والأدَب

في إجابته؛ ففي مخاطبته لا نجعل مخاطبته ودُعاءنا إياه كدُعاء غيره، وفي إجابته لا نجعل دُعاءه وطلبه لأمر من الْأُمُور كطلب غيره.

ومن ثمَّ قَالَ أهْل العِلْم: لو دعاه النَّبِيّ ﷺ وهو يصلي؛ فهل تجب علَيْه الإجابة أو لا؟

تجب علَيْه الإجابة، ولو دعاه والده وهو يصلي؛ فإن كَانَ في فريضة لم يَجبه، وإن كَانَ في نافلة أجابه إلا أن يعلم رضا والده بِذَلِك بحيث يشعره بأنه يصلي ويعلم أنَّه لا يهمه إِذَا كَانَ يصلي ألّا يجيب؛ فهَذَا فلا يجيبه، وأما إِذَا كَانَ والده من النَّاس الَّذينَ لا يعذرون، وكَذلِك والدته؛ فإنَّه يجيبه في النَّفل ويقطع صلاته ويخفف الفريضة إِذَا علم أن والده له شغل، لكن لا على وجه يخل بها.

قَوْلهُ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ يَخْرُجُونَ مِنْ المَسْجِد فِي الخُطْبَة مِنْ غَيْر اسْتِئْذَان خُفْيَة مُسْتَتِرِينَ بِشَيْءٍ و﴿قَدْ﴾ لِلتَّحْقِيقِ] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ التسلل معناه الخروج بخفية، هَذَا معنى التسلل.

وقَوْلهُ: ﴿لِوَاذًا﴾ أي: لائذين بشَيْء؛ فهو مصدر في موضع الحال، يعني: يتسلل ويلوذ بشَيْء كالسارية مثلًا أو كالشَّخص الآخر يَكُون واقفًا ثم يذهب من وراءه وينسل وما أشبه ذَلِك.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في الجمعة]؛ هَذَا بناء على أن المُراد بالْأَمْر الجامع خطبة الجمعة، وإذا قُلْنا: إن المُراد به ما هو أعم فيَكُون المُراد أنهم يتسللون عن موضع

الجَمْع؛ سواء في الجمعة أو في غيرها؛ فالله تَعَالَى عالم بهَؤُلَاءِ الَّذينَ يتسللون لائذين بشَيْء؛ لأنهم خرجوا عما كَانَ علَيْه المُسْلِمُونَ وعما يَجب عليهم أن يَكُونوا عليه.

وقَوْلهُ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَدْ﴾ لِلتَّحْقِيقِ].

وإنما نص على ذَلِك؛ لأَن المعْرُوف في علم النَّحو أن (قد) إِذَا دخلت على ماضٍ فهي للتحقيق، وإن دخلت على مُضارِع فهي للتقليل؛ كقولهم: قد يجود البخيل، وقد يفهم البليد، وقد يسبق العاجز، وما أشبه ذَلِك، فـ(قد) هَذِهِ للتقليل، لكنها أحيانًا قد تأتي للتحقيق مثل هَذِهِ الآيَة: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾، ومثل قَوْله تَعَالَى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب:١٨]، وإنما أُتي بالمُضارِع هُنا لأجل أن يتبيَّن أن هَذَا العِلْم لَيْسَ لما مضى فقط بل ولما يُستقبل؛ فعلم الله في هَؤُلَاءِ المتسلِّلين لَيْسَ علمًا بمن سبق تسلله بل بمن سبق تسلله وبمن يتسلل في المستقبل، ولِذَلك توعدهم الله جَلَّ وَعَلَا على ذَلِك بأنه يعلم هَذَا العَمَل منهم، وإخباره بأنه عالـم به دَليل على أنَّه سيجازيهم عليه، إِذْ لا فَائِدَة من الإخبار بالعلم إلا وقوع المجازاة على ذَلِك.

قَوْلهُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ الله وَرَسُوله ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ بَلَاء، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فِي الْآخِرَة] اهـ.

﴿فَلْيَحْذَرِ﴾ (اللَّام) لام الْأَمْر، ولهَذَا سكنت بعد (الفاء)، ومعنى (يحذر): يخاف، وإنما يُقال الحذر في مخوف محقق، أما المخوف غير المحقق فيقال فيه: «فليخف»، لكن قَـوْلهُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ﴾ دَليل على أن هَذَا الخَوْف واقع ويَجب الحذر منه.

وقَوْلهُ: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ المتبادر أن يقال يخالفون أمره؛ لأَن المخالفة فعل

متعدٍ بنَفْسِه، لا بـ(عن)؛ فكَيْفَ تُخَرّج الآيَة؟

تخرّج الآيَة على حسب ما تقدَّم على أحد الوجهين:

- إما أن يُجعل التجوّز بالحرف.
- وإما أن يجعل التجوّز بالعامِل.

فهُنا إما أن نقـول: (عن) زائدة، وإما أن نقـول: إن ﴿يُخَالِفُونَ﴾ بمَعْنى: (يخرجون عن أمره)؛ وعلَيْه تَكُون (عن) أصلية لا زائدة؛ لأنَّنا ضمنَّا الفِعْل معنى يُناسِب هَذَا الحرف فصَارَ هَذَا الحرف في موضعه، وهَذَا الأَخِير هو الأصح، فكلما جاء حرف لا يَتعلَّق بمثل عامله ظاهرًا فإننا نؤول هَذَا العامِل إلى عامل يُناسِب ذَلِك الحرف، ويسمى هَذَا التضمين؛ يعني: تضمين الفِعْل فعلًا مناسبًا للمعمول، فنجعل ﴿يُخَالِفُونَ﴾ مضمنة معنى: يخرجون، يعني: يخالفون فيخرجون عن أمره، وإذا ضمن الفِعْل المَوْجُود فعلاً آخر صَارَ فيه دَليل على معنى هَذَا الفِعْل المَوْجُود ومعنى الفِعْل المضمن؛ فالمَعْنى يخالف ويخرج، أي: يخرج مخالفًا لأمرهما.

وقَوْلهُ: ﴿أَمْرِهِۦٓ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ الله وَرَسُوله].

(أو) هَذِهِ لَيْسَت للشك ولكنها للتنويع، ومعنى التنويع يعني: إما أن يَكُون الضَّمِير عائدًا إلى الله، وإما أن يَكُون عائدًا إلى الرَّسُول؛ لكن أيهما أرجح؟

إذا نظرنا إلى قَوْلهُ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾، وقَوْلهُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ قُلْنا: للرَّسول ﷺ، وإذا نظرنا إلى ما بعد قَوْلهُ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾، وهو قَوْلهُ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ قُلْنا: إنها عائدة إلى الله؛ فيَكُون هَذَا مفرع على ما يُفيده قَوْلهُ: ﴿يَعْلَمُ﴾

من التَّهدِيد، يعني: قد يعلم الَّذينَ يتسلَّلُون؛ فليحذر هَؤُلَاءِ أن يخالفوا أمر الله عَزَّوَجَلَّ؛ أي: عن أمر الله، والمعنيان لا منافاة بينهما؛ لأَن أمر الرَّسُول ﷺ من أمر الله تعالى؛ فمن خالف عن أمر الله فهو مهدد بهَذَا الوعيد، ومن خالف عن أمر الرَّسُول ﷺ فهو مهدد بهَذَا الوعيد، وهَذَا من بلاغة القُرْآن؛ حيث يأتي اللَّفْظ صالحًا لمعنيين فيشمل هَذَا وهَذَا، فالسِّيَاق يؤيد أنَّها للرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وآخر مذكور يؤيد أنَّها لله، ولكن مثل ما أشرنا إلَيْه سابقًا أن أمر الله وأمر رسوله ﷺ شَيْء واحد.

وقَوْلهُ: ﴿أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ فسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ الْفِتْنَة بالبلاء والعَذاب الأليم في الْآخِرَة، وفي هَذَا نظر ظاهر؛ فإن الْفِتْنَة لا تطلق على البلاء، إنما تُطلق -كما سبق- على الصَّدِّ عن دين الله؛ فمعنى الْفِتْنَة -كما قَالَ الْإِمَام أحمد رَحِمَهُ اللهُ-: الشِّرك؛ لأَن الْإِنْسَان إِذَا رد بعض قَوْل الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وخالف عن أمره فهو لهوى في نفْسِه، فيَكُون هَذَا الهوى معبودًا له، كما قَالَ اللهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣]، وإذا سهلت علَيْه المخالفة أول مرة سهل علَيْه أن يخالف بعد ذَلِك؛ لأَن المعَاصِي في الحَقيقَة بين الْإِنْسَان وبينها سياج منيع حائل؛ فإذا انتهك أول معْصِيَة سهلت علَيْه المعَاصِي، وجرِّب بنفسك حينما تُخالف في أمر من الْأُمُور تجدك أول مرة خائفًا ولا تُقدِم بسهولة، لكن بعد هَذِهِ المرة، أي: في الثَّانية والثَّالِثَة والرَّابِعَة يَكُون الْأَمْر عَلَيْك سهلًا.

فالصَّحيح: أن المُراد بالْفِتْنَة هُنا الشِّرك؛ كما قَالَ الْإِمَام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأنَّها من الصَّد عن دين الله، كما قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١].

قَوْلهُ: ﴿تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ﴾ ﴿أَوْ﴾ مانِعة اجتماعٍ أو مانعة خُلوٍّ؟ يعني هل المَعْنى إما هَذَا أو هَذَا ولا يجتمعان فتكون مانعة اجتماع، مثل: تزوج هندًا

أو أختها، هَذِهِ مانعة اجتماع؛ لأنهما لا يُمْكِن أن يجتمعا، فهل نقول: إن ﴿أَوْ﴾ هَذِهِ مانعة اجتماع أو مانعة خلو، بمَعْنى أنَّه لا يخلو من أحدهما وربما يجتمعان؟

الجواب: مانعة خلو؛ بمَعْنى أنَّه لا يخلو من أحد هَذَيْنِ الْأَمْرين المتوقعين أو منهما جميعًا، لا سيَّما إِذَا قُلْنا بأن الْفِتْنَة الشِّرك؛ فإن الْعَذَاب الأليم ملازم لها.

وقَوْلهُ: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿أَلِيمٌ﴾ بمَعْنى: مؤلم، ولم يقيده الله تَعَالَى بالْآخِرَة؛ فقد يَكُون في الدُّنْيَا، وقد يَكُون في الْآخِرَة، وقد يَكُون فيهما جميعًا، ولِذَلك استدل العُلَماء بهَذِهِ الآيَة على أن الأَصْل في أمر الله ورسوله الوُجوب؛ وجه الدَلالَة حيث إنه حذّر من هَذَيْنِ الْأَمْرين فيمن خالف أمر الله أو أمر رسوله ﷺ، والتَّحذِير من العُقوبَة دَليل على أن المخالفة حرام؛ لأنَّه لا يُحَذَّر من العُقوبَة إلا في أمر محرم، أما الْأَمْر الَّذِي لَيْسَ بمحرم فلا عُقوبَة فيه حَتَّى يُحَذَّر منه.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الفَائِدةُ الأُولَى: وُجوب احترام النَّبِيّ ﷺ وتعظيمه، وأنه لا يجوز لِلإنْسان أن يناديه كما ينادي غيره من النَّاس لما له من التَّعظيم والتوقير.

الفَائِدة الثَّانية: على الوجه الثَّاني في معنى الآيَة أن دُعاء النَّبِيّ ﷺ لَيْسَ كدُعاء غيره، فإذا دعاك النَّبِيّ ﷺ إلى أمر أو أمرك به يَجب عَلَيْك ألا تجعل هَذَا الدُّعاء كدُعاء غيره لما في إجابته من امتثال أمر الله ورسوله.

الفَائِدة الثَّالِثَة: تحذير المتسلِّلين في الْأُمُور الجامعة بدون عذر واسْتِئْذان؛ لقَوْلهُ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾، وهَذِهِ الجُمْلَة وهي قَوْله تَعَالَى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ﴾ لا شَكَ أنَّها تحذير لهَؤُلَاءِ الَّذينَ يتسللون، وأنهم سوف يجازون على هَذَا العَمَل المحرم.

الآيـة (٦٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النور:٦٤].

قَوْلُهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا] اهـ.

﴿أَلَآ﴾ أداة استفتاح، و﴿إِنَّ﴾ للتَّوكيد، و﴿لِلَّهِ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ مقدم، و﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اسمها مؤخر، وتقديم الخبر يدُلّ على الحصر، وتصدير الجُمْلَة بـ﴿إِنَّ﴾ للتَّوكيد، وبـ﴿أَلَآ﴾ للتَّنبُّه والتَّوكيد أيضًا؛ لأَن ﴿أَلَآ﴾ الاستفتاحية تفيد التَّوكيد والتَّنبُّه أيضًا؛ لأنك إِذَا قلت: ﴿أَلَآ﴾ فهَذَا قَرْع للسمع كأنك قرعت سمع المخاطب ثم تؤكّد ذَلِك، ولهَذَا نجد ﴿أَلَآ﴾ الاستفتاحية غالبًا ملازمة لأداة تأكيد؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:٦٢]، وأيضًا قَوْلُهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى:٤٥]، وقَوْلُهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّها تفيد التَّوكيد، وعلى هَذَا فالجُمْلَة هُنا مؤكّدة بمؤكّدين: الأوَّل بـ﴿أَلَآ﴾ الاستفتاحية، الثَّاني بـ﴿إِنَّ﴾ المؤكدة.

وقَوْلُهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هَذِهِ الآيَة جاءت بعد قَوْلُهُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ كالدَّليل على أن ما هدد الله به من الْفِتْنَة أو الْعَذَاب

الأليم أمر لا يعجز الله؛ لأَن الله تَعَالَى له ملك السَّموات والأَرْض، ومن كَانَ له ملك السَّموات والأَرْض فإنَّه لا يعجز عن تنفيذ ما هدد به وإيقاعه.

قَوْلهُ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيّهَا المُكَلَّفُونَ ﴿عَلَيْهِ﴾ مِنْ الْإِيمَان وَالنِّفَاق، وَيَعْلَم يَوْمَ ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾... إِلَى آخِرِهِ] اهـ.

قَوْلهُ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ﴾ تقدَّم أن ﴿قَدْ﴾ إِذَا دخلت على الفِعْل المُضارِع فإنها تفيد التَّقليل كما في قولهم: «قد يجود البخيل»؛ لكنها تدلّ على التَّحقيق إِذَا دلت القرينة على ذَلِك؛ فهُنا قَوْلهُ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ لا يُمْكِن أن نجعلها للتقليل؛ لأَن علم الله عَزَّوَجَلَّ ثابت مستقِر، فتكون ﴿قَدْ﴾ للتحقيق، ولم يعبر بقَوْلهُ: [قد علم ما أنتم عليه] إِشارَة إلى ما سيفعلونه في المستقبل، وأنه عليم بما صَدَرَ وبما يَصدر؛ فهُنا الاستقبال لَيْسَ للعلم، ولكن للمعْلُوم ؛ لأَن علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سابق أزلي، وإنما هو للمعْلُوم الَّذِي سيفعله هَؤُلَاءِ؛ فإن الله تَعَالَى يعلمه باستمرار.

وقَوْلهُ: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ يرى المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الخِطَاب للمكلفين؛ يعني: يعلم ما أنتم -أيها المكلفون- عليه، ولو جعله رَحِمَهُ ٱللَّهُ للنَّاس عُمومًا لكان أولى؛ أي: ما أنتم -أيها النَّاس- عليه؛ ليشمل المكلف وغير المكلف؛ لأَن غير المكلف أيضًا يُثاب على ما يفعل من الأعْمَال الصَّالحة، ولا يكتب علَيْه ما يعمل من الأعْمَال السيئة، وعلى هَذَا فالله تَعَالَى عليم بما هو علَيْه حَتَّى غير المكلف.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ الْإِيمَان وَالنِّفَاق]؛ يَنْبَغِي أن يَكُون هَذَا من باب التَّمثيل ولَيْسَ من باب الحصر؛ لأَن الله يعلم ما نحنُ عليه، لَيْسَ من الإِيمَان والنِّفاق فقط، بل من الإِيمَان والنِّفاق والعَمَل الصَّالح والعَمَل السَّيئ والرخاء والشِّدة وغير ذَلِك، كل ما نحنُ علَيْه من الأَحْوال والأعمال فإن الله تَعَالَى يعلمه.

قَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾؛ لـمَّا ذَكَر الله ما نحنُ علَيْه في الدُّنْيَا، ذكر ما نؤول إلَيْه يوم القِيامَة، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يعني: ويعلم يوم يرجعون إلَيْه، فعلمه تَعَالَى بالعَمَل بما نحنُ علَيْه في الدُّنْيَا حال العَمَل ويوم نرجع إلَيْه حال الحساب والجزاء فهو عالم بالحالين.

قَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِيهِ الْتِفَات عَنْ الخِطَاب أَيْ مَتَى يَكُون]. اهـ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَتَى يَكُون] لا بأس به، لكن لنا علَيْه مناقشة ستأتي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِيهِ الْتِفَات عَنْ الخِطَاب]؛ كَيْفَ ذَلِك؟

قَوْلُهُ: ﴿يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ هَذَا الخِطَاب ومقتضى السِّيَاق أنْ يقولَ: «ويوم ترجعون إلَيْه»، لكنَّه التفت عن الخِطَاب إلى الغيبة، وفائدة الالْتِفات تنبيه المخاطب؛ لأَن الأسلوب إِذَا تغير فلابُدَّ أن يتنبه المخاطب، بخلاف ما إِذَا كَانَ الأسلوب على نسق واحد فإن الْإِنْسَان ينسجم معه ولا يجد شيئًا يوجب الانتباه، وله أيضًا فوائد أُخْرَى لكن تُفهم من السِّيَاق، إنما الشَّيء المُهِمّ الدائم هو التَّنْبيه، ومن الفوائد الأُخْرَى ما ذكرنا في قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٣-٤]؛ هَذَا كله غيب، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥]، هَذَا خطاب الفَائِدة منه التَّنْبيه، والفَائِدة الثَّانية: هو أَنَّه لما وصفت الله بتِلْك الأوصاف صَارَ كأنه أمامك فخاطبته مخاطبة الحاضر؛ لقَوْلُهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وقَوْلُهُ: [مَتَى يَكُون] في هَذَا نظر؛ لأَنَّه لَيْسَ المُراد أَنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم ما يرجعون إلَيْه متى يَكُون فقط، بل يعلم حالهم حينما يرجعون إلَيْه مع علمه متى يرجعون أيضًا، فمتى يرجعون إلَيْه عالم به بلا شَكٍّ، لكن السِّيَاق لا يؤيده بل يؤيد

أنَّه عالم بهم حال عملهم وحال الجزاء على العَمَل، ويَكُون المَعْنى: ويعلم يوم يرجعون إلَيْه ماذا يَكُونون علَيْه من الحال، كما أن الله تَعَالَى يعلم متى يرجعون، سواء كَانَ رجوعًا عامًا كيوم القِيامَة أم خاصًا كموت الْإِنْسَان؛ هَذَا أيضًا مرجعه إلى الله عَزَّوَجَلَّ عَزَّوَجَلَّ.

وقَوْلهُ: ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِيهِ ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ مِنْ الخَيْر وَالشَّرّ ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ مِنْ أَعْمَالِهِم وَغَيْرَهَا] اهـ.

وقَوْلهُ: ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ أي: يخبرهم بما عملوا من خيرٍ وشرٍّ، وفائدة الإنباء هو الإقرار، يعني: يقررهم حَتَّى يَكُون جزاؤهم على وجه العَدْل الَّذِي أقروا به هم، فلا يَقُولُونَ: إننا ظُلمنا، بل الله يَقُول: علمتم كذا وعملتم كذا وعملتم كذا، حَتَّى يقرروا بِذَلِك، ثم بعد هَذَا الإقرار يترتب الجزاء فضلًا أو عدلًا؛ لأَن الجزاء إما فضل وإما عدل وإما جور؛ فالثَّالث الأَخِير منتفٍ عن الله، والأولان ثابتان؛ فإن جزاءه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين العَدْل والفضل، فجزاء الحسنات من قبيل الفَضْل، وجزاء السيئات من قبيل العَدْل؛ إِذَا جازى كل سيئة بمثلها، وإن عفا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو من باب الفَضْل.

وقَوْلهُ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ هَذَا عام في كل شَيْء من أعمال بني آدم؛ صغيرها وكبيرها ومن غيرها أيضًا؛ فإن الله تَعَالَى عليم بها، والعلم: إدراك الشَّيء على ما هو علَيْه إدراكًا جازمًا؛ فلَيْسَ في علمه شك ولا ظن، بل كل علمه علم يقيني.

لو قَالَ قَائِلٌ: هل يُمْكِن أن نجعل قَوْلهُ: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ متعلِّق بقوله ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾؟

الجواب: لا يصِح؛ لأَن الفاء تمنع من أن يَكُون ما قبلها متعَلِّق بما بعدها، ولو لم يكن في الآيَة (فاء)؛ يعني: (ويوم يرجعون إلَيْه ينبئهم)، لكان مستقيمًا، لكن الفاء هي الَّتِي منعت من أن يَكُون من قبلها معمولًا لما بعدها.

مِنْ فَوَائِدِ الآيَة الكريمة:

في هَذِهِ الآيَة من الفوائد فوائد لفظية وفوائد معنوية:

أما اللفظية:

الفَائِدةُ الأُولَى: أَنَّه يَنْبَغِي تأكيد الْأُمُور الهامة والتَّنْبيه عَلَيْها وأن تصدَّر الْأُمُور العامَّة بما يؤكّدها وينبه عَلَيْها؛ لقَوْلهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ فإن علمنا بِذَلِك وإقرارنا به واعتقادنا له هَذَا أمر مهم، ولهَذَا أكد بـ﴿أَلَآ﴾ وبـ﴿إِنَّ﴾.

الفَائِدة الثَّانية: فَائِدَة لفظية أيضًا، وهي تحويل الخِطَاب من الغيبة إلى الخِطَاب أو من الخِطَاب إلى الغيبة الَّذِي يسميه أهل البديع الالْتِفات، وهَذَا لا يخلو من فَائِدَة؛ وهي: تنبيه المخاطب، ومِنْ فَوَائِدِ مضافة إلَيْها حسب ما يَقْتَضيه السِّيَاق.

الفَائِدة الثَّالِثَة: عُمُوم ملك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما في السَّموات وما في الأَرْض؛ لقَوْلهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الفَائِدة الرَّابِعَة والخَامِسَة: عُمُوم علمه؛ لقَوْلهُ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، وأن علمه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الحاضر والمستقبل؛ لقَوْلهُ: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: ويعلم يوم يرجعون إلَيْه.

الفَائِدة السَّادِسَة: إِثْبات المعاد والبعث؛ لقَوْلهُ: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾.

الفَائِدة السَّابِعَة: إِثْبات الحساب؛ لقَوْلهُ: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ ثم هَذَا الإنباء؛ هل هو مناقشة أو هو مُجَرَّد إخبار؟

الجواب: لَيْسَ فيه مناقشة بل مُجَرَّد إخبار؛ لأَن النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ الحساب عذِّب -أو قَالَ: هَلَكَ-»[1]؛ لأَنَّه لو نوقش يُقال له مثلًا: عملت كذا وكذا من الأعْمَال الصَّالحة، وثبت ذَلِك علَيْه ثم قوبلت هَذِهِ الأعْمَال بنعمة من النِّعم استوعبتها النِّعمة وبقي الْإِنْسَان مطلوبًا؛ هَذَا معنى المناقشة، لكن الأعْمَال تعرض حَتَّى يُقرّ بها العَبْد ثم بعد ذَلِك يرتب الله الجزاء كما يُرِيد وكما يشاء.

أما بالنِّسْبَةِ للكفار؛ فإنهم لا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته؛ لأنهم لَيْسَوا لـهم حسنات وإنما تُعرض عليهم الأعْمَال على وجه العار والخزي - والعِيَاذ باللهِ-؛ حَتَّى يُقرّوا ويقولوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾، ثم يَكُون بعد ذَلِك مآلهم النَّار.

الفَائِدة الثَّامِنَة: عُمُوم علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقَوْلهُ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وفائدة ذكر عُمُوم العِلْم التَّحذِير من المخالفة؛ لأَن من علم بك ممتثلًا أو مخالفًا فسوف يجازيك على ذَلِك؛ فإن كَانَ الْأَمْر هكذا ففي كل آية فيها إِثْبات العِلْم تحذير من مخالفة الله عَزَّوَجَلَّ لئلا يقع الْإِنْسَان فيما يسخط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه.

• • ❁ • •

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، حديث رقم (٦٥٣٦)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إثبات الحساب، حديث رقم (١٤١٩)؛ عن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة
«يَمِينُكَ عَلَى مَا يُصَدِّقُكَ بِهِ صَاحِبُكَ»	٣١
«اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْر خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي...»	٣٦
«حُجِّي وَاشْتَرِطِي أَنَّ مَحِلِّيَ حَيْثُ حَبَسْتَنِي فَإِنَّ لَكِ عَلَى رَبِّكِ مَا اسْتَثْنَيْتِ»	٣٦
«عَلَيْكَ بالشَّرْطِ يَا أَحْمَدُ»	٣٧
«لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ»	٤١
«الْوَلَد لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ»	٤٢
«تَحُوزُ الْمَرْأَة ثَلَاثَةَ مَوَارِيثَ: عَتِيقَهَا وَلَقِيطَهَا وَوَلَدَهَا الَّذِي لَاعَنَتْ عَلَيْهِ»	٤٤
«اللهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا لَكَاذِبٌ فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ»	٤٨
«كَانَ النِّساءُ خفافًا ما كَانَ اللحم قد بني عليهنَّ؛ لأنهنَّ إنما يأكلن العُلْقَةَ من الطَّعام»	٥٩
«أَبْشِرِي يَا عَائِشَة»	٦٢
«أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، وَاللهِ إِنِّي لَأَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي»	٦٧، ١٣١
«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالحُمَّى والسَّهَرِ»	٧٣، ٤١٦
«مَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ»	٧٥
«إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمُوبِقَاتِ»	٨٥

«إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ» ٨٧
«ابْدَأْ بِنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ» ٩٠
«إِذَا كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي فَخُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ارْمِنِي بِهِ وَقُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الغُلَامِ» ٩٠
«إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ» ٩٥
«لَيْسَ مِنَ البِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ» ..... ١٠٠، ٢٢٣
«وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ» ١٠٦
«الشَّيْطَانُ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ» ١١٣
«إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ وَلِلمَلَكِ لَمَّةً» ١١٧
«أَنَّ اللهَ يَخْلُو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، حَتَّى إِذَا أَقَرَّ بِهَا قَالَ اللهُ: قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» ١٢٠
«يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ» ١٢٢
«هَلْ عَهِدَ إِلَيْكُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: مَا عَهِدَ إِلَيْنَا بِشَيْءٍ إِلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللهُ فِي الكِتَابِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ...» ١٢٣
«اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ - وذكر منهنَّ - قَذْفَ المُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ المُؤْمِنَاتِ» ... ١٣٠
«مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ» ١٣٠
«اتَّقُوا المَلَاعِنَ الثَّلَاثَةَ: البُرَازَ فِي المَوَارِدِ وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ وَالظِّلِّ» ١٣٢
«اتَّقُوا اللَّعَانَيْنِ، قَالُوا: وَمَا اللَّعَانَانِ؟ قَالَ: الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ فِي ظِلِّهِمْ» .....
«أنا سيد ولد آدم» ١٥٠
«يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ» ١٧٤

«انْظُرْنَ مَنْ إِخْوَانُكُنَّ» ١٧٤
«احْتَجِبَا مِنْهُ» ١٨٤
«اعْتَدِّي فِي بَيْتِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى تَضَعِينَ ثِيَابَكِ عِنْدَهُ» ١٨٥
«تَنْعَتُهَا لِزَوْجِهَا» ١٨٨
«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» ١٩١
«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَان انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: -وذكر منها- وَوَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» ١٩٥
«للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ» ١٩٦
«لا يزني الزَّاني حين يزني وهو مُؤْمن» ١٩٧
«إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ» ٢٠١
«لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي» ٢٠٤
«لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ الله مَسَاجِدَ الله» ٢٠٤
«أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا» ٢٠٥
«وَمَنْ ابْتَاعَ عَبْدًا وَلَهُ مَالٌ فَمَالُهُ لِلَّذِي بَاعَهُ إِلاَ أَنْ يَشْتَرِطَ الْمُبْتَاعُ» ٢٠٦
«يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ» ٢٠٨
«لا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ» ٢١١
«مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً أَعْتَقَ الله بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ» ٢١٢
«إِنْ أَحَبَّ أَهْلُكِ أَنْ أَعُدَّهَا لَهُمْ وَيَكُونَ وَلَاؤُكِ لِي فَعَلْتُ» ٢١٦
«مَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ٢٢٢

«وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» ٢٢٥
«وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ» ٢٣٥
«حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» ٢٣٨
«أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ» ٢٣٩
«أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِبِنَاءِ المَسَاجِدِ فِي الدُّورِ» ٢٥١
«مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ إِذْنَهُ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ» ٢٥٢
«مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ» ٢٥٣
«مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ» ٢٥٥
«إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ» ٢٥٥
«مَا أُمِرْتُ بِتَشْيِيدِ المَسَاجِدِ» ٢٦٥
«لَتُزَخْرِفُنَّهَا كَمَا تُزَخْرِفُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى» ٢٦٥
«عُرِضَتْ عَلَيَّ أُجُورُ أُمَّتِي، حَتَّى الْقَذَاةُ يُخْرِجُهَا الرَّجل مِنَ المَسْجِدِ» ٢٦٦
«لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ، رَجُلٌ أَعْطَاهُ اللهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَاكِهِ فِي حَقِّهِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَعْمَلُ بِهَا وَيَقْضِي بِهَا» ٢٦٧
«مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ» ٢٧٠
«لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ» ٢٧٣
«ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ» ٢٧٣
«مَا كِدْتُ أُصَلِّي الْعَصْرَ حَتَّى كَادَتْ الشَّمْسُ تَغْرُبُ» ٢٨٠
«مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ» ٢٨٢

«وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ» ٢٩٨
«إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ» ٣٠٨
«إِنَّهُ -النذر- لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ إِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ» ٣٤٥
«مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ» ٣٤٥
«لَا تَبْرَحُوا مِنْ مَكَانِكُمْ، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا، فَلَا تُعِينُونَا» ٣٥٨
«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ» ٣٦١
«مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُمْ؟ أَقُولُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ: لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ» ٣٦٢
«أَلَيْسَ كَانُوا يُحِلُّونَ لَكُمُ الْحَرَامَ فَتَسْتَحِلُّونَهُ» ٣٦٤
«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ» ٣٦٤
«إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ» ٣٨٦
«فَلَمْ يُجْزِنِي وَلَمْ يَرَنِي بَلَغْتُ» ٣٩٥
«صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا بَعْدُ: نِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مَائِلَاتٌ مُمِيلَاتٌ، عَلَى رُءُوسِهِنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ، وَقَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ، لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ، وَلَا يَجِدُونَ رِيحَهَا» ٤٠٠
«إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ» ٤٠٤
«إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ» ..... ٤١٠، ٤٢٠
«أَنْتَ وَمَالُكَ لِوَالِدِكَ،» ٤١٠
«ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ» ٤١١

«لا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ» ٤١٣
«فَلَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ؟» ٤١٥
«يَلْعَنُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَلْعَنُ أَبَاهُ،» ٤١٦
«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، إِنْ شِئْتُمْ دَلَلْتُكُمْ عَلَى أَمْرٍ إِنْ فَعَلْتُمْ تَحَابَبْتُمْ؟» ٤٢١
«فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ،...» ٤٢١
«مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلام سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ٤٣٠
«مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ الحساب عذِّب -أو قَالَ: هَلَكَ -» ٤٤٥

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة
قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فِيمَا رَمَى بِهِ زَوْجَتَهُ مِنَ الزِّنَا»	٣٠
هل يَجب على الزَّوج أنْ يقولَ: أشهدُ أربعَ شَهادَات باللهِ على ما رميتُها به من زنا؟	٣١
الحِكْمَةُ في تَشْريع الله جَلَّ وَعَلَا	٣١
التَّخصِيص نوعان	٣٢
الحِكْمَةُ من تَخْصِيص الأَزْواج بهَذَا الحُكْم	٣٣
لا يصِح اللِّعان إِذَا قَذَفَ أجنبيةً ثم تزوجها	٣٣
أنَّ البَدَلَ يُجْعَلُ له حُكم المُبْدَلِ منه	٣٤
يَجب البداءَة بشهاداتِ الزَّوج	٣٥
جَواز الدُّعاء مُعَلَّقًا	٣٦
رؤيا رآها شيخُ الإِسْلام ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ	٣٧
إِذَا رمى الرَّجل زوجتَه بالزِّنَا فلا يخلو الْأَمْر من ثلاث حالات	٣٨
المُراد بالْعَذابِ في قَوْلهُ: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ هو حَدُّ الزِّنَا	٣٩
إِذَا أنكرتِ المَرْأَة	٣٩
هل يُمْكِن أن تَكُون الزَّوْجَة غيرَ مُحصنةٍ؟	٣٩
ثبوتُ الحدِّ على المَرْأَة بلِعَان الزَّوج	٤٠
الغضبُ أشدُّ من اللَّعْنة	٤١

أن رَمْيَ الزَّوج إياها بالزِّنَا أقربُ إلى الصِّدق من إنكارها ٤١
يستطيعُ الزَّوجُ أن يطلقَ زوجتَه ويتخلصَ؟ ٤٢
هل يُمْكِن أن يرميَ الزَّوجُ زوجتَه كاذبًا؟ ٤٢
ما الحُكْم لو قالت المَرْأَة لزوجها: طلقني؟ ٤٢
ماذا يَجب على الرَّجل إِذَا زنت زَوْجَته وأَرَادَ إمساكها؟ ٤٢
هل ينتفي الْوَلَد عن الزَّوج باللِّعان أو لا ينتفي؟ ٤٣
الحِكْمَةُ في اللِّعان ٤٥
الحِكْمَةُ في المُغايَرة بين الزَّوج والزَّوْجَة ٤٥
أنْ يَتَأَوَّلَ (لِمَنَ الصَّادقينَ) في قَضيَّةٍ أُخْرَى ٤٥
قصَّة المُتَلَاعِنَيْنِ ٤٨
الفضلُ من آثار الرَّحمة ٤٩
الحُكْم الكَوْنِيّ والحُكْم الشَّرعي ٥٠
كَيْفَ تَكُون الحِكْمَةُ في الإِيجَاد وفي الصُّورة وفي الغَايَة؟ ٥٠
فضل الله ورحمته علَى عِبَادِه بالشَّرع والقَدر ٥١
لو عَيَّنَ الزوجُ مَنْ زنى بامرأته ٥١
مَسْأَلَة كَوْنِ حَدِّ القَذْفِ لا يَجب إلا بالمُطالبة ٥٢
إِثْباتُ الأَسْبابِ والموانعِ ٥٣
إنَّ التَّخْلِيَةَ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ ٥٥
ما الخَيْر الَّذِي ظهر في هَذَا الإِفْك ٥٦
غزوةَ المُرَيْسِيعِ ٥٨

قصة الإفْكِ ٥٨
هل حُدَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تكلموا ٦٤
المُنافِقُونَ لَيْسَوا أهلًا للتَّطهير ولا للكَفَّارة ٦٤
أن المُنافِقِينَ مُؤْمِنُونَ باعتبار الظَّاهِر ٦٥
قَذْف أمهاتِ المُؤْمِنِينَ ٦٦
أن الخَيْرَ قد يَكُون فيما يَتَوَقَّعُ الْإِنْسَان منه الشَّرَّ ٦٦
أنَّ القَرَائِنَ لها تأْثِيرٌ ٦٧
كمالُ غَيْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ ٦٧
الأَوْلَى تَصْفِيَةُ الشَّيءِ وتَنْقِيَتُه ٦٨
أنَّ مَصلحةَ الجَماعَةِ مُقَدَّمَةٌ على مَصلحةِ الفَرْد ٦٨
أنَّ المُؤْمِنِينَ يُجْزَوْنَ بالإثْمِ في الدُّنْيَا ٦٨
زعماء الشَّرِّ يُعذَّبون أكثر من مقلِّديهم ٦٨
فَائِدَة التَّنْبيه ٧٠
الخِطَاب بأسلوب العتاب والحض ٧٢
إنكار القَوْل لا يكفي أن ينكره الْإِنْسَان بقَلْبِه ويسكت ٧٢
أن المُؤْمِنِينَ بعضهم لبعض كالنَّفس الواحدة ٧٣
ظن السُّوء بمن يستحقه لا ينافي الإِيمَان ٧٣
إنزال النَّاس منازلهم ٧٤
وُجوب احترام أعْرَاض المُؤْمِنِينَ ٧٤
كيد المُنافِقِينَ للإِسْلام وأهله ٧٤

القَاضِي يحكم بالظَّاهِر ٧٦
النِّساء لا يقبلن في الشَّهادة في الزِّنَا ٧٧
الفَرْق بين الشَّاهد والقاذِف ٧٧
هل ثبت الزِّنَا في الإِسْلام عن طريق الشَّهادة ٧٧
عظم الزِّنَا ٧٨
الأَسْباب قد يحصل لها من المَوانِع ما يمنع تأْثِيرها ٧٩
الأَسْباب الشَّرْعِيَّة مؤثرة بنفْسِها ٧٩
تفاضُل العُقوبَات حسب تفاضُل الأعْمَال ٨٠
الخِطَاب أبلغ في التَّوبِيخ ٨١
الفَرْق بين قَوْلهُ: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ وقَوْلهُ: ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ ٨٣
لماذا قَالَ: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ مع أن القَوْل لا يَكُون إلا بالفم؟ ٨٣
التَّحذِير من صغائر الذُّنوب ٨٥
الْإِنْسَان يحافظ على ما يقوله في غيرِه مما يقْدَح فيه ٨٥
تحْرِيم القَوْلِ على الله بلا علمٍ ٨٥
المقلِّد خيرٌ من الْإِنْسَان العامِّيِّ ٨٦
عنْدَما تأتي (ما يَنْبَغِي) في كلام الله وكلام الرَّسُول ﷺ ٨٧
قَوْلهُ: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ﴾ ٨٨
القَوْل إِذَا أطلق فالمُراد به القَوْل باللِّسَان ٨٩
تنزيه فراشه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٨٩
مُراعَاة المَصالِح العامَّة في الشَّرع والقَدَرِ أمر معْلُوم ٨٩

هل يقدم مصلَحَة نفسه على مصلَحَة غيره ٩٠
الْأَمْر والنَّهي مَوْعِظَة ٩١
الإِيمَان منه أعمال ينتَفي بانتفائِها ٩٢
هل يُمْكِن إِثْبات القياس من قَوْله تَعَالَى: ﴿أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ﴾؟ ٩٣
الآيَات الْكَوْنِيَّة ٩٤
الآيَات الشرعيَّة ٩٤
الآيَات الْكَوْنِيَّة ربما يعمى عنها بعض النَّاس ٩٥
موضع الْحِكْمَةِ ومحلها الشَّرع والقَدَر ٩٥
أما الْحِكْمَةُ نفسها فتكون في ثلاثة أَشْيَاء: في الإِيجَاد والصُّورَة والغَايَة ٩٦
الحُكْم فإنَّه ينقسم أيضًا إلى قِسْمَيْن ٩٦
ما من شَيْء أوجده الله أو شرعه إلا وله حِكْمَة ٩٦
يَنْبَغِي للمُؤْمن إِذَا خفي علَيْه شَيْء أن يتأمَّل ٩٧
بَيان الآيَات للْكافِر والمُسْلِم ٩٧
إِثْبات الصِّفات والأَسْماء ٩٧
هل يُمْكِن أن نثبت أَسْماء الله من مُجَرَّد الفِعْل؟ ٩٧
في علم الأصول أن الاسْم الموصول يُفيد العُموم ٩٩
﴿ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ هل هو خاص بالعصبة الَّذينَ جاءوا بالإِفْك أو عامٌّ في كُلِّ أحدٍ؟ ٩٩
العبرة بعُموم اللَّفْظ لا بخصوص السَّبب ٩٩
دَلالَة اللَّفْظ العامّ على عمومه ظنية ١٠٠

لو تخلف عَذاب الدُّنْيَا لم يتخلف عَذاب الْآخِرَة ١٠٢
إِذَا عُزِّر بمحبته للْفَحْشَاء هل يُعذب فِي الْآخِرَة؟ ١٠٣
كَيْفَ نعرف أَنَّه يحب أن تشيع الْفَاحِشَة؟ ١٠٣
هل التَّعْزِير يُكفِّر الذُّنوب؟ ١٠٣
حال من أشاع الْفَاحِشَة ١٠٣
عِلْم الْإِنْسَان قاصِر ١٠٤
إِذَا تعارض إصلاح الخلق أو العَفو عن هَذَا المجرم ١٠٥
محبَّة الخَيْر للمُسْلِمين ودفع الضرر والفَواحِش عنهم فيه ثواب ١٠٦
مَنْ أَشَاعَ فاحشة فله عَذاب عَظِيم فِي الدُّنْيَا والْآخِرَة ١٠٦
التَّحذِير من محبَّة إشاعة الفَواحِش ١٠٧
وُجوب سد ذرائع الفَواحِش ١٠٨
الرأفة هي الرَّحمة المتضمنة للرِّقَّة البالغة ١١٠
هل الكَافر مرحوم أو لا؟ ١١١
البخل من خُطُوات الشَّيطان ١١٣
الأكل بالشِّمال والشُّرب بالشِّمال من خُطُواته ١١٣
التكذيب والاسْتِكْبار ١١٢
النَّهي عن اتباع خُطُوات الشَّيطان ١١٣
الإِيمَان يُراد به مطلق الإِيمَان ١١٦
عاقبة اتباع خُطُوات الشَّيطان ١١٧
العَلامَة على ما يأمر به الشَّيطان ١١٧

تحْرِيم التشبُّه بأعداء الله جَلَّ وَعَلَا ١١٧
قرن الأَحْكام بعللِها ١١٧
تفاوت الأعْمَال في القبح ١١٨
الَّذِي يتبع خُطُوات الشَّيطان لا بُدَّ أن يعمل عمله ١١٨
المغْفِرة غير السِّتر ١٢٠
الفَرْق بين العَفو والصَّفْح ١٢١
العَفو والصَّفْح يَكُون من الله جَلَّ وَعَلَا ١٢١
يَنْبَغِي أن يمرن الطَّالب نفسه على كثرة الاسْتِنْباط من النُّصوص ١٢٢
يُمْكِن أن يحصل من النُّصوص القليلة أحكامًا كَثيرَة ١٢٣
النَّفقة على القريب ١٢٤
الهِجْرَة لا تبطل بالمعصية وإن عظمت ١٢٥
الرَّمْي هو القَذْف بالزِّنَا ١٢٦
المُراد بالغافلات ١٢٧
الَّذِي ذهب إلى أن الغافلات قيد لبَيان الواقِع ١٢٧
لماذا قدم الله الوصف بالإحصان على الإِيمَان مع أن الإِيمَان أعظم وهو الأَصْل؟ ... ١٢٨
بناء الفِعْل للمجهول مِنْ فَوَائِدِه العُموم ١٢٩
القَذْف في النِّساء أكثر من الرِّجَال ١٣٠
إِثْبات غَيرة الله عَزَّوَجَلَّ ١٣١
متى يَكُون هَذَا الْعَذَاب العَظِيم؟ ١٣٤
المُراد بالخَتْم على الأفْواه ١٣٦

تمام قدرة الله عَزَّوَجَلَّ ١٣٧
جزاء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالحسنات الحسنة بعشر أمثالها ١٣٩
كَلِمة مبين تستعمل من المتعدي واللازم ١٤١
العَقْل مرجع ١٤١
الفطرة السَّليمة تشهد بالحق ١٤٢
مَن حَكمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنَّه جعل الأَشْياء مُتناسِبةً مُتشاكِلةً ١٤٣
منَ المعْلُوم أنَّ أطيبَ الطَّيِّبين منَ الخلْق هُو النَّبيّ ﷺ ١٤٤
في مسألَة اللِّعانِ ١٤٥
القَواعِدُ العامَّةُ لا ينقُضها اختلافُ فرْدٍ مِن أفرَادِها ١٤٥
قِصَّة الإِفْك في حَقِيقتها لَيْست طعنًا في عَائِشَة وصفوانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فقَط ١٤٦
الرِّزق الكَريم هو الرِّزق الحَسَن ١٤٧
إثبات الحِكْمَة لأحْكَام اللهِ عَزَّوَجَلَّ الشَّرْعيَّة والقدَرِيَّة ١٤٧
يجِب عَلى الإِنْسان أن يُنْزِل النَّاس منازِلهم ١٤٧
أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يبَرِّئ أهل الرَّجُل الطَّيِّب العَفيف منَ الخبث ١٤٨
قِصَّة جرَت على رجُلٍ مِن مدينَتِنا حِماية اللهِ للعَبْد ١٤٨
الافْتِخارُ يكونُ بوَجْهين ١٤٩
منَ الآداب الَّتي من شأْنِها حِماية الأعْرَاض ١٥١
الغَرَض مِن توْجِيه النِّداء إلى المُؤْمِنين بوَصْف الإِيمَان ١٥٢
تفسِير الاسْتِئْناس بالاسْتِئْذان ١٥٢
القِراءَة الَّتي وردَت عن ابْنِ عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في قوْلِه: «حتى تسْتأْذِنُوا» ١٥٣

تناقُل القرآنِ الكَريم لَيْست وسيلتُه الكتابةَ فقط ١٥٣
هل تسْتَأذِن أوَّلًا، أو تُسلِّم أوَّلًا؟ ١٥٤
الخيريَّة الَّتي تترتَّب على الاسْتِئْذان والتَّسليم ١٥٥
قوْلُه تَعالَى: ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾، في هَذا السِّياق يقتَضي العُموم، فهل لو كان أهلُها كُفَّارًا، أتسلِّم علَيْهم؟ ١٥٦
كيْف يُؤذَن لنا ونحنُ لم نجد فيه أحدًا؟ ١٥٨
لما كان هَذا الرُّجوع شاقًّا على النُّفوس رَغَّب فيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوْله: ﴿هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ﴾ ١٥٩
بَيان صَراحَة الإِسْلام ١٦٠
المتَاع أعمُّ منَ المنفَعة ١٦١
البُيوت على ثلاثَة أقسامٍ ١٦١
الجمْلَةَ الفعليَّةَ تدُلُّ على التَّجدِيد والحدُوث ١٦٢
العِلْم المقارِن ١٦٣
العِلْم السَّابق ١٦٣
ما يُصدَّر منَ الأحْكام أو الأَخْبار بـ﴿قُل﴾ ينُصُّ على تبلِيغِه بخصُوصِه ١٦٤
معنى الغض ١٦٥
هل غض البصر واجب دائمًا؟ ١٦٦
المُراد بالزِّينَة ١٦٦
كل من تأمل الزِّينَة وجدها في الزِّينَة الخارجية ١٦٧
(الجيوب) جمع جيب ١٦٧
المقانع جمع المِقْنَعةُ ١٦٨

باب التَّحْريم غير باب الإِرْث ١٦٩
هل زوج البنت يدخل في الآيَة؟ ١٧١
الرَّبيبة ١٧١
هل بقي أحد من الأقارب المحارِم لم يذكروا في هَذِهِ الآيَة؟ ١٧٢
مَسْأَلَة الزِّينَة لا علاقة لها بمَسْأَلَة الحجاب ١٧٢
إبداء الزِّينَة غير مَسْأَلَة المحرميَّة ١٧٣
الإخوة من الرِّضاع ١٧٣
مَسْأَلَة الـمَحرميَّة ..... ١٧١، ١٧٣
المُراد بنسائهنَّ المؤْمِنات ١٧٦
المساحقة ١٧٧
لا يجوز للرَّجُلِ أن يَتَسَرّى بالأَمة المشتركة ١٧٧
النَّظر في غير المحارِم..... ١٧٨
هل يَجب عَلَيْها أن تغض الطرف عن الرَّجل ١٨٤
لو كَانَ يحرم على المَرْأَة أن تنظر إلى الرَّجل لوجب على الرِّجَال أن يحتجبوا..... ١٨٥
هل يجوز للرَّجُلِ أن ينظر إلى صُورَة المَرْأَة الأجنبية منه ١٨٥
أن ينظر إلى امرأة في التلفزيون أو ينظر امرأة حقيقية ١٨٦
وصف نساء المُسْلِمينَ للكفار..... ١٨٧
خوف الْفِتْنَة هو المناط ١٨٩
مَسْأَلَة النَّظر التَّحْريم فيها من باب تحْرِيم الوسائل ١٨٩
رجل له أخت صغيرة من الْأَب لها سبع أو ثمان سنين ١٩٠

إِذَا ضربت حَتَّى سُمِع صوتُ الخَلْخَال ١٩١
لام التَّعليل وردت كثيرًا في القُرْآن ١٩١
التَّوبة..... ١٩٣
التوبة المطلقة ١٩٣
التوبة المقيدة ١٩٤
المَرْأَة لا تستقيم إلا باستقامة الرجل ١٩٥
وُجوب التَّوبة ١٩٦
محبَّة الله للتوبة..... ١٩٦
كرم الله تَعَالَى..... ١٩٧
التَّوبة من مُقتَضيات الإِيمَان..... ١٩٧
إِثْبات الأَسْباب ١٩٨
لا يُمْكِن أن ننكر أمرًا أثبته الشَّرع ١٩٩
قَوْلهُ: ﴿ٱلْأَيْمَىٰ﴾ ٢٠٠
لو خطب رجلان امرأة أحَدهما معه زوجة والآخر لا زوجة معه..... ٢٠٢
إِذَا أَرَادَت المَرْأَة زوجًا غير صالح ٢٠٢
الصَّالح من العباد يزوج مطلقًا ٢٠٣
عبدي وأمتي ٢٠٤
الْعَبِيد والإماء لا يتصور منهم الغنى والفقر ٢٠٦
المُراد بالْعِفَّة..... ٢٠٧
الْعِفَّة سبب للغنى..... ٢٠٩

المكاتَبة ٢١٠
الملك المطلَق لله وحده ٢١١
قَوْلهُ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ هَذَا أمر، وهل الْأَمْر هُنا للوُجوب أو للاستحباب؟ ٢١١
الشَّارع رغب في العتق كثيرًا ٢١٢
الأَصْل في أوامر الله ورسوله الوُجوب ٢١٣
المُراد بالخَيْر الصَّلاح في الدِّين والكسب ٢١٣
الْأَمْر موكول إلى السَّيِّد في علم الخَيْر وعدمه ٢١٥
إِذَا طلبت الأَمة المكاتَبة ولَيْسَ لها كسب ٢١٥
إِذَا كاتب العَبْد سيده هل يَجب على سيده أن ينفق عليه؟ ٢١٦
قَوْلهُ: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾ ٢١٧
مشروعية المكاتبة ٢١٨
البِغَاء الزِّنَا ٢١٩
الإِكْراه لا يتصور إلا مع وجود هَذِهِ الإِرادَة ٢١٩
الإِرادَة هي محل النَّهْي ٢٢١
الإِكْراه لَيْسَ خاصًا بالزِّنَا ٢٢١
كَيْفَ يُرِيد الْإِنْسَان هَذَا العرض الزائل ٢٢٢
لا يليق بالْإِنْسَان أن يبتغي عرض الدُّنْيَا على حساب الْآخِرَة ٢٢٣
العبرة بعُموم اللَّفْظ لا بخصوص السَّبَب ٢٢٣
جواب الشَّرط يَعود على ما يَعود علَيْه فعل الشَّرط ٢٢٤
من العُلَماء من فرق بين الإِكْراه على الفِعْل والإِكْراه على القَوْل ٢٢٥

حديث صاحب الذباب ٢٢٦
لو أكرهت المَرْأَة وهي صائمة على الجِماع ٢٢٧
قالوا: الإِكْراه في الجِماع لا يُمْكِن ٢٢٧
قَوْله تَعَالَى: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ﴾ ٢٢٨
النُّزول لا يَكُون إلا من أعلى ٢٢٩
ما المانِع أن يَكُون القُرْآن أيضًا له جرم ٢٢٩
الله تَعَالَى يجعل الْأُمُور المعنويَّة أمورًا حسية ٢٣٠
هو ﴿ءَايَٰتٍ﴾ بمَعْنى عَلامَات ٢٣٠
تبين الحَقّ من الباطل ٢٣١
الإِشْكال الَّذِي يقع في المَسائِل الشَّرْعِيَّة لَيْسَ لقُصور في النُّصوص ٢٣١
يَنْبَغِي لطالب العِلْم أن يقيد المَسائِل النَّافعة ٢٣٢
السِّيَاق قد يقيد المطلَق وقد يخصّص العامّ لكن بِدَلِيل ٢٣٣
قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ٢٣٤
معنى العزيمة الهم ٢٣٥
هل يُحد بالقَذْف إِذَا عرَّض ٢٣٥
العُموم لا يخصّص بالسِّيَاق ٢٣٦
آيَات الصِّفات ٢٣٧
الأليق بالتَّأويل غير الصَّحيح أن يسمى تحريفًا ٢٣٨
نور الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَيْسَ مخلوقًا ٢٣٨
الَّذينَ يحرفون نُصُوص الْكِتَابِ وَالْسُنَّةِ ٢٣٩

المِشْكَاة ٢٤١
«فتثبتوا»، «فتبينوا» ٢٤٣
الضَّمِير يَعود على الزُّجاجة لا على المصباح ٢٤٣
هُناكَ شَجرَة غير الزَّيتون يُوقد منها ٢٤٤
كَيْفَ يضيء ولم تمسسه نار؟ ٢٤٥
المُؤْمِن ناقص الإِيمَان فإنَّه ينقص من نوره ٢٤٦
ما هو النُّور الَّذِي على نور؟ ٢٤٧
﴿ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ كل شَيْء يُشابه غيره ٢٤٨
الَّذينَ أنكروا العِلْم بأفعال العبادِ من القَدَرِيَّة ٢٤٩
المُراد بالعلم العِلْم الَّذِي يترتب علَيْه الجزاء ٢٥٠
معنى المُتعَلِّق في النحو ٢٥١
الإذن ينقسم إلى قِسْمَيْن: إذنٌ كونيٌّ وإذنٌ شرعيٌّ ٢٥٢
الثَّابت عن السَّلف أن المُراد بالبُيُوت هُنا المَسَاجِد ٢٥٣
﴿يُسَبِّحُ﴾ فيها قراءتان سبعيتان ٢٥٣
التَّسبيح أعم من الصَّلوات ٢٥٤
الرزق لأهل الجَنَّة دائم ٢٥٤
توجيه القراءتين: ﴿يُسَبِّحُ﴾ و«يُسَبَّحُ» ٢٥٦
النَّاس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام في مَسْأَلَة التجارة والذكر ٢٥٧
﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ المذكورة في القُرْآن كثيرًا بُيِّنت بالسُّنَّة ٢٥٩
تغيُّر الهيئة من حال إلى حال ٢٦٠

الجزاء يقع على الأحْسَن والحسن ٢٦٢
ثواب الله عَزَّوَجَلَّ أحْسَن وأحْسَن ٢٦٣
الجزاء من جنس العَمَل ٢٦٣
فضيلة وشرف المَسَاجِد ٢٦٤
مشروعية تعظيم شأن المَسَاجِد ٢٦٥
الزخرفة شَيْء لا يليق بالمَسَاجِد ٢٦٥
بعض النَّاس يدخلون المسجد بالنَّعلين ٢٦٥
فضيلة تنظيف المَسَاجِد وحمايتها من الأَذَى ٢٦٥
إِثْبات الكمال لله ونفي النَّقص عنه ٢٦٦
فضيلة التَّسبيح في الصَّباح والمساء ٢٦٧
جَواز الاتِّجار ٢٦٧
فضيلة إقامة الصَّلاة ٢٦٨
عِظَمُ يوم القِيامَة وأهواله الشَّديدة ٢٦٩
إِثْبات المشيئة لله ٢٧٠
يَنْبَغِي للمريض أن يغلب جانب الرجاء ٢٧٣
تفسير للسراب، والقيعة ٢٧٤
وجه الشَّبه بين أعمال الْكُفَّار وبين السراب ٢٧٤
السَّحاب في الحَقيقَة مراتب في الجو ٢٧٩
(كاد) إِثْباتها نفي ونفيها إِثْبات ٢٧٩
الجبرية مذهبهم باطل يبطله الحس والشَّرع والعقل والفطرة ٢٨٢
الرؤية بصرية أو علمية ٢٨٤

كل شَيْء ينطق حَتَّى الحصى ٢٨٦
الرُّسل أرسلهم الله ليُعلِّموا النَّاس كَيْفَ يصلُّون وكَيْفَ يسبِّحون ٢٨٧
من الَّذِي ملَّكك؟ ٢٩٠
ملكي للشَيْء من الله هو الَّذِي ملكني ٢٩١
قَوْلهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ٢٩٣
الفَرْق بين (مِن) الزائدة والصلة ٢٩٦
أن في السَّماء جبالًا من البرد ٢٩٧
الإصابة بالبرد أحيانًا تَكُون عُقوبَة ٢٩٨
يَنْبَغِي لِلإنْسان أن ينظر في آيَات الله الْكَوْنِيَّة ٢٩٩
المُراد بالدَّابة العقلا ٣٠٥
التَّقسيم من باب الحصْر أو من باب القَصر ٣٠٦
القدرة صفة يتَّصف بها القادر ٣٠٦
المشيئة ٣٠٧
إِثْبات القدرة ٣٠٨
المبيِّنات بمَعْنى البَيِّنَة في نفْسِها المبينة لغيرها ٣١٠
عن الشَّيخ محمد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٣١١
مع كون الآيات مُبينَة هل اهتدَى بها كلُّ النَّاس؟ ٣١٣
لا يَنْبَغِي لِلإنْسان أن يعتمد علَى نفْسِه في الهداية ٣١٣
الشَّرع كله -الَّذِي هو دين الإِسْلام- مستَقِيم ٣١٣
أن أبا طالب كَانَ مُصدِّقًا للنبي ﷺ ٣١٥

أن الطَّاعة لله طاعة كاملة ٣١٦
خطر من يتعصب للمذهب أو لقول واحد من أهْل العِلْم ٣١٨
المُراد بالحجازيين والتميميِّين ٣٢٠
أن الحُكْم لله ورسوله والتحاكم إلى الله ورسوله ٣٢٥
التحكيم وانتفاء الحرج والتسليم ٣٢٥
طاعتهم وإذعانهم هو لهوى أنفسهم لا للحق ٣٢٦
المرض هو عِلَّة تصيب الصَّحيح فيخرج عن الاعتدال ٣٢٧
حال المُنافِقِينَ ٣٣١
﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ٣٣٢
الطَّاعة شاملة لفعل الأوامر وترك النَّواهي ٣٣٢
قَوْل المُؤْمِنِينَ إِذَا دعوا إلى الله ورسوله يَقُولُونَ: سَمِعْنَا وأَطَعْنَا ٣٣٢
إِذَا عوَّد نفسه قبول الحَقّ ٣٣٤
بَيان صفة الانقياد للمُؤْمِنِينَ ٣٣٥
الخَشْيَة لا تَكُون إلا عن علم ٣٣٧
الخَشْيَة خوف بهيبة وتعظيم وإجلال ٣٣٧
التَّقْوى في الحَقيقَة نتيجة الخَشْيَة ٣٣٨
التَّقْوى اتِّخاذ وقاية من عَذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه ٣٣٩
التَّرادُف المطلَق يوجد في اللُّغَة العربيَّة ٣٣٩
أركان القَسَم ٣٤٢
الطَّاعة المعْرُوفة من المُؤْمِنِينَ ٣٤٣

كراهة النَّذر ٣٤٤
كثير من النَّاس النَّاذرين لا يُوفون بنذْرِهم ٣٤٥
من نذر معْصِيَة ٣٤٦
ما يتوهَّمه بعض النَّاس من أن النَّذر يحصل به المَطْلوب ٣٤٦
وُجوب تقييد الطَّاعة بالمعْرُوف ٣٤٧
لا تجوز الزِّيادة على الشَّرع في الطَّاعة ولا النَّقص ٣٤٧
الواجب على النَّبِيّ ﷺ أمران ٣٤٩
الحصر الحقيقي ٣٥١
العَمَل الصَّالح محله الجَوارِح ٣٥٤
اليهود الآن لا حق لهم في فلسطين ٣٥٥
الوعد الَّذِي وعده الله حق لكنَّه للذين آمنوا وعملوا الصَّالحات ٣٥٦
غزوة حُنَين ٣٥٩
أَسْبَاب النَّصر ٣٦٣
الأَرْض لله يورثها من يشاء من عباد ٣٦٦
الإِيمَان والعَمَل الصَّالح سبب لتمكين الدِّين في الأَرْض ٣٦٦
كمال الدِّين الْإِسْلَامي ٣٦٧
الْأُمُور الهامة يَنْبَغِي تأكيدها بأنواع المؤكِّدات ٣٦٧
الإِيمَان والعَمَل الصَّالح هو عبادة الله ٣٦٧
التَّهدِيد للكَافِرين ٣٦٧
وُجوب إقامة الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة ٣٧٠

فضيلة الزَّكاة ٣٧١
الذي ثبت في السنة كالَّذي ثبت في القُرْآن ٣٧١
الصَّلاة أفضل من الزَّكاة ٣٧٢
تمام قدرة الله عَزَّوَجَلَّ ٣٧٥
أهل النَّار مخلَّدون فيها ٣٧٥
﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ٣٧٧
﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ﴾ ٣٨٠
أوْقات عورة ٣٨٠
الحُكْم باقٍ وإن كَانَت البُيُوت محجبة ٣٨٢
الجُناح على الأولياء إِذَا دخلوا بغير اسْتِئْذان ٣٨٥
الصّغار لا إثم عليهم ٣٨٥
دَلالَة المَفْهُوم لا يُشترط فيها العُموم ٣٨٥
كَيْفَ تَكُون الأَحْكام آيَات الله؟ ٣٨٧
الأَحْكام الشَّرْعِيَّة آيَات من آيَات الله ٣٨٨
تصدير الحُكْم بالنِّداء دَليل على العناية به ٣٨٩
تَحْريم النَّظر إلى العورات ٣٩٠
الوليّ آثِم بما ارتكبه موليه من معْصِيَة أو مخالفة ٣٩٠
طهارة بدن الطِّفل وإن غلب على الظَّن أنَّه نجس ٣٩٠
ثبوت ملك الْيَمِين للآدميين ٣٩١
لَيْسَتِ العورةُ في وقت الظُّهر حاصلةً لكل النَّاس ٣٩١

إِثْبات العِلْم والحِكْمة لله ٣٩٣
المُرادُ بالثِّياب ٣٩٨
القواعد من لا تشتهي لغاية في قبحها كالعجائز ٤٠٠
القواعد من النِّساء ٤٠١
التبرج بالزِّينَة حرام على العجائز ٤٠١
الحُكْم يدور مع علته وجودًا وعدمًا ٤٠١
الأفضل البعد عن الريبة ومحل الْفِتْنَة ٤٠٢
إِثْبات تفاضل الأعْمَال ٤٠٣
قَوْلهُ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ ٤٠٦
نفي الحرج عن أكله من بيتِه ٤٠٩
اجتماع النَّاس على الأكل من أَسْبَاب البَرَكَة ٤١٥
هل الأفضل الآن أن يأكل الرَّجل وأهل بيته من رِجال ونساء؟ ٤١٦
قَوْلهُ: ﴿فَسَلِّمُوٓاْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ ٤١٦
عقل الإدراك هو مناط التكليف ٤١٨
عقل التصرف هو إحسان التصرف ٤١٨
بَيان رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في نفي الحرج عمّن يستحقه ٤١٩
الأَحْكام تدور مع عللها ٤١٩
مال ابن الْإِنْسَان مالٌ له ٤٢٠
تحكيم العادة في الْأُمُور ٤٢٠
مشروعية السَّلام عند الدُّخول إلى البُيُوت ٤٢٠

فضيلة السَّلام ٤٢٠
هل فضيلة السَّلام تطبق على المحادثة التليفونية؟ ٤٢١
تعريب كَلِمة (تليفون) وتسميته هاتفًا ٤٢٢
عناية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالخلق ٤٢٣
الإِيمَان باللهِ ورسوله لا يَكُون إيمانًا حَتَّى يتضمَّن القبول والإذعان ٤٢٤
كل الاجتماعات العامَّة الَّتِي لمصلَحَة الإِسْلام والمُسْلِمِينَ لا يجوز لأحد أن ينصرف إلا بعذر وبعد الاسْتِئْذان ٤٢٦
الإِيمَان ينقسم إلى ناقصٍ وكامل ٤٢٨
الاسْتِئْذان بدون عذر لا يُقبل ٤٢٩
انتفاع الْإِنْسَان بدُعاء غيره ٤٢٩
أن يتبرع قريب لقريبه أو صديق لصديقه بعمل صالح ٤٣١
المُراد من دُعاء الرَّسُول ٤٣٤
لو دعاه النَّبِيّ ﷺ وهو يصلي ٤٣٥
إن الْفِتْنَة لا تطلق على البلاء ٤٣٨
المُراد بالْفِتْنَة ٤٣٨
فائدة الالْتِفات ٤٤٢
يَنْبَغِي تأكيد الْأُمُور الهامة والتَّنْبيه عَلَيْها ٤٤٤
إِثْبات الحساب ٤٤٥
عُمُوم علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٤٤٥

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة
تقديم	٥
نبذة مختصرة عن فضيلة الشيخ العلَّامة محمد بن صالح العثيمين	٧
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾	١٧
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾	١٩
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾	٢٢
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤﴾	٢٤
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾	٢٦
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦﴾	٢٨
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧﴾	٣٥
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨﴾	٣٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾ ٤١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ ٤٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ ٥٤

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾ ٦٩

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ ٧٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ ٧٩

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ ٨١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ ٨٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ ٩١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ٩٤

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ٩٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ ١١٠

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾ ١١٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ ١١٩

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ ١٢٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ ١٣٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾ ١٣٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ ١٦٤

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ ٢٠٠

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ ٢٠٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ ٢٢٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ ٢٣٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ ٢٥١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ٢٦٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ... ٢٧٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ ٢٧٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ٢٨٤

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ ٢٨٩

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ ٢٩٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ ٣٠١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٣٠٤

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ٣١٠

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٣١٥

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ ... ٣٢٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ ٣٢٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ٣٢٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ٣٣١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ .. ٣٣٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ٣٤٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ٣٤٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ٣٥٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ٣٦٩

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ٣٧٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ٣٧٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ٣٩٤

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ٣٩٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ٤٠٥

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ٤٢٤

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٤٣٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ ٤٤٠

فهرس الأحاديث والآثار ٤٤٧

فهرس الفوائد ٤٥٣

فهرس آيات السورة ٤٧٤

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٣)

تفسير القرآن الكريم

سورة الفرقان

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٣)

تفسير القرآن الكريم

سورة الفرقان

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة الفرقان. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
٣٨١ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٣٣)
ردمك: ٤ ـ ٤٧ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة الفرقان ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٢٩

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٢٩
ردمك: ٤ ـ ٤٧ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من :
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمَدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[1]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخ مُحَمَّد بنِ صالِح العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَريمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزَاء، ويُضَاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

الحمدُ لله ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

تَقَدَّمَ الكَلامُ على البَسْمَلَةِ، وما أكثرَ الكَلامَ عليها في المؤلَّفات؛ لِأَنَّهَا تكون في كل مؤلَّف. والجارُّ والمجرور متعلِّق بمحذوفٍ تقديره (اقْرَأْ)، ويُقَدَّر عندَ كلِّ فِعلٍ بما يُناسِبُه، فعندَ القراءةِ تقولُ: بِاسمِ اللهِ أَقرَأُ، وعندَ الأكلِ تقولُ: باسمِ اللهِ آكُل، وعندَ الشُّرْبِ تقولُ: باسمِ اللهِ أَشرَبُ، وعندَ الذَّبحِ تقولُ: باسمِ اللهِ أَذبَحُ، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللهِ»(١).

وقدَّروه فِعلًا، لا مصدرًا، يعني قالوا: (باسمِ الله أَقْرَأُ) ولم يقولوا: (باسمِ اللهِ قِراءتي) فيقدَّر فعلًا؛ لسَبَبين:

أَوَّلًا: التَّسْمِيَة على فِعْلٍ، والفعل يَقتضي التجدُّد والحُدُوث، وهَذِهِ فائدة مَعنويَّة.

ثانيًا: لأنَّ الأَصْلَ في العَمَلِ هو الفعلُ، فَهُوَ الَّذِي يَقْوَى على أنْ يعملَ محذوفًا،

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم (٧٤٠٠)، ومسلم: كتاب الأضاحي، باب وقتها، رقم (١٩٦٠).

وحينَئذٍ هو الَّذِي يَحسُن أن يُقدَّر دونَ الاِسمِ؛ لِأَنَّ عَمَلَ الاسمِ فرعٌ، ليسَ أصلًا، فاسم الفاعِلِ مثلًا يَعْمَلُ عَمَلَ فِعله لِأَنَّهُ مُشَبَّهٌ به.

وقدَّروه مؤخَّرًا، يعـني قالوا: يَنبغي أن تقـولَ: «باسمِ اللهِ أَقرَأُ»، لا «أقرَأُ باسمِ اللهِ»، والسَبَبُ:

أولًا: التبرُّك بالبداءةِ بـ(باسمِ اللهِ).

ثانيًا: إفادةُ الحَصْرِ؛ لِأَنَّ تقديمَ المعمولِ يَدُلُّ على الحَصْرِ.

وقدَّروه خاصًّا أيضًا، يعني لا تقـول مثلًا عندما تُرِيد أن تتوضأ: (باسمِ اللهِ أَبْتَدِئُ)، وعندما تُرِيد أنْ تقرأَ (باسمِ اللهِ أَبْتَدِئُ)؛ لِأَنَّهُ أدلُّ على المقصود.

إذَن الجـارُّ والمجرورُ متعلِّق بمحذوفٍ، يَكُون هَذَا المحـذوف فِعلًا متأخِّرًا خاصًّا، والبَسْمَلَةُ كثيرًا ما تقع؛ فعندما تُرِيد أن تتوضأَ تقول: (بِاسمِ اللهِ) التقدير (بِاسمِ اللهِ أَتَوَضَّأُ)، وهذا أحسنُ من أن تقدِّر (وُضُوئي بِاسْمِ اللهِ) مثلًا، وأحسن من أن تقدِّر (بِاسْمِ اللهِ أَبْتَدِئُ) فتقدِّر الفعل الخاصَّ المتأخِّر.

أمَّا (الله) فَهُـوَ عَلَمٌ على الذَّات المقدَّسة، ذات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويَخْتَـصُّ به، وأصله (الإِلَه)، لكِن لكثرة الاستعمالِ حَذَفوا الهمزةَ، مثلَما حذفوا الهمزة في (النَّاس)، وأصلها (الأُناس)، إذَن (إِلَه) فِعَالٌ بمعنى مفعولٍ، أي مَأْلُوه، ومعنى مألوه أي معبود، فهَذِهِ اللَّفظة إذَن مُشْتَقَّة وأصلها الإله، والأُلُوهِيَّة هي العِبَادَة.

وقوله: (الرَّحْمَنِ) من الأَسْماء المُخْتَصَّة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو صفة مُشَبَّهة، وإنما قدَّرناه صفةً مشبهةً لِأَنَّهُ على وزنها، مثل (فَعْلَان) على وزن (غَضْبَان)، ثُمَّ إن الصِّفة المشبَّهة تفيد الثُّبُوت والاستمرار، بخلاف اسْم الفاعل، وإنما جاءت (الرَّحمن)

بهَذِهِ الصيغة لِسَعَةِ رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبهذا فسَّرَه بعض العلماء بقوله: الرَّحمن ذو الرَّحمة العامَّة، والرَّحيم فَعِيل مُشْتَقٌّ مِنَ الرَّحْمَة أيضًا، لَكِنَّه يُفيدُ الفعلَ، أي: إيصال الرَّحمة إلى المرحومِ، والأوَّل الرَّحمن يُفيدُ الوَصْفَ. ولهذا قالَ تعالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ حينما أراد الصِّفَة المطلَقة، وقال: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ حينما أراد إيصال الرَّحمةِ إلى المرحومِ.

فالحاصِلُ: أنَّ الرَّحمنَ والرَّحيمَ إذا اجتمعا يُفَسَّرُ الرَّحمنُ بأنَّه دالٌّ على الصِّفة أكثر من دَلالتِه على الفعلِ، والرَّحيم دالٌّ على الفعلِ أكْثَر من دلالته على الصِّفةِ، وإنْ كانَ كلٌّ مِنْهُمَا يدُلُّ على صفةِ الرَّحمةِ، هَذَا إذا اجْتَمَعَا، أمَّا إذا افْتَرَقَا فمعناهما وَاحِدٌ.

الآيــة (١)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

قال المُفَسِّر [1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَبَارَكَ﴾ تَعَالَى]، ففسَّر المُفَسِّر التَّبارُكَ بالتعالي. ولا شكَّ أَنَّ هَذَا التفسير فيه نوعٌ من القُصُور؛ لِأَنَّ ﴿تَبَارَكَ﴾ تدل على التعالي بل وعلى كثرة الخير وسَعَتِه ودوامه، فمعناه أَنَّهُ كثُرتْ خيراتُه وعظُمتْ واستمرَّتْ للعِبادِ.

قوله: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ هَذَا من جُملة البَرَكَة الَّتِي هي من صفةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ نَزَّل الفُرقان على عبدِهِ محمَّدٍ ﷺ. وقوله: ﴿نَزَّلَ﴾ فَعَّل تُفِيدُ النُّزول شيئًا فشيئًا، وهكذا القُرْآن الكريم كان يَنزِلُ على النَّبيِّ ﷺ شيئًا فشيئًا، والكُتُب السابقة كانت تَنزل جُملةً وَاحِدةً؛ لقولِهِ تَعَالَى في هَذِهِ السُّورة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢].

وقوله: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ يفيد أَنَّ هَذَا القُرْآن كَلامُ الله.

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: ليس في هَذَا دليلٌ على أَنَّهُ كَلام الله؛ لِأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، والماء الَّذِي هو المطرُ ليس صفةً من صفات الله، فلا يَلْزَمُ إذا قال الله: إِنَّهُ نَزَّل القُرْآن أنْ يَكُونَ القُرْآن صفةً من صفاتِهِ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى يُضِيفُ التنزيلَ والإنزالَ إلى ما ليسَ من صِفَتِه؟

فالجواب عن ذلك أنْ يُقالَ: إذا أضاف الله تَعَالَى إنزالَ شَيْءٍ إليه فإنْ كانَ هَذَا الشَيْءُ عَيْنًا قائمًا بذاته فليس من صفات الله، أو كان صفةً في عينٍ قائمةٍ بذاتها فليس من صفات الله، وإن كان صفةً لا يُمْكِنُ أن تقوم بعَينِها، يعني ليس عينًا قائمًا بذاتِه ولا صفةً في عين قائمةٍ بذاتها؛ لَزِمَ أنْ يَكُونَ صفةً من صفات الله، فالقُرْآنُ كَلام هل يمكن أن يَكُون الكَلام عينًا قائمةً بذاتها؟ لا يُمكِنُ، وهنا لم يُضَفْ إلى أحدٍ من النَّاس حتى نقول: إِنَّهُ صِفَة في عينٍ قائمةٍ بذاتِها، فيَلْزَم أنْ يَكُونَ مخلوقًا كالعينِ القائمةِ به. وعلى هَذَا يَتَعَيَّن أنْ يَكُونَ كَلامًا لله وصفةً من صفاتِهِ.

وكذلك في قَوْلِهِ: ﴿نَزَّلَ﴾ دليلٌ على صفةِ العلوِّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ هو القُرْآنُ، وُصِفَ بذلك لِأَنَّهُ يُفَرِّقُ بين الخير والشرِّ، وبينَ الحقِّ والباطِلِ، وبينَ أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطِلِ، وأهل الخير وأهل الشرِّ، فَهُوَ فُرقان في كل شَيْءٍ، وكما أَنَّهُ فُرقان بذاتِهِ يُفرِّق فإنَّ مَن كان من أهلِهِ ولَازَمَه وعَمِلَ به أُوتِيَ هَذِهِ الصِّفَةَ، وصار له تفريقٌ بين الحقِّ والباطل؛ لِقَوْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩].

قوله: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ إذا كان القُرْآن فُرقانًا بين الحقِّ والباطلِ، وبين الخيرِ والشرِّ؛ لَزِمَ من ذلك أنْ يَكُون بَيِّنًا واضحًا، ليسَ فيه إجمالٌ وليس فيه إشكالٌ، كيف يَلْزَمُ ذلكَ؟ لِأَنَّهُ لو كان فيه إجمالٌ أو اشتباه لم يَكُنْ فُرقانًا؛ لِأَنَّ ما ليسَ بِمُشْتَبِهِ

كيفَ يَكُونُ فُرقانًا، فالفُرْقان يَحتاج أن يَكُونَ واضحًا موضِّحًا بيِّنًا.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: الله يقول: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر:٢٣]: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ وهذا يَقتضي أن يَكُون فيه اشتباهٌ؟

قُلْنَا: المرادُ بالمتشابِهِ هنا الموافِق بعضُه بعضًا، والمُشْبِه بعضُه لبعضٍ في الكمال والحُسْن، فهذا من المُتَشَابِه؛ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة:٢٥]، أي متوافقًا ومتشاكِلًا، هكذا القُرْآن متشابهًا، بمعنى أَنَّ بعضَه يُشْبِهُ بعضًا في الحُكْمِ ويُوافِقه ولا يُخالِفهُ، وَأَمَّا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧]، فقد بَيَّن الله أَنَّ هَـذِهِ المُحْكَمات إليها المَرْجِع: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وإذا كنَّ أُمَّ الكِتَاب لَزِمَ أن يُرَدَّ المتشابِه إلى المُحْكَمِ، وإذا رُدَّ المُتَشَابِهُ إلى المحكَم صار الجميع محكَمًا، وهَـذِهِ القاعدة الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ هي الَّتِي عليها الراسِخونَ في العِلم، وهي الَّتِي يَستريحُ بها الإنْسَانُ منْ الاِحْتِمَالات؛ لِأَنَّهُ يأتينا دائمًا في القُرْآن وفي السنَّة نصوصٌ فيها احْتِمَالاتٌ تَحتمِل كذا وتَحتمل كذا، وعندنا نصوصٌ أُخْرَى واضحة صريحة ليس فيها إشكالٌ، فالواجبُ عَلينا أنْ نَحْمِلَ هَذَا المُشْتَبَهَ على المُحْكَم، أيْ على ما يُوافِقُه ولا يُخالِفُه؛ ليَكُونَ الجميعُ مُحْكَمًا.

مثال رَدِّ المتشابِهِ إلى المحكَم:

أولًا: مثال في الخبر: قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، قد يَشْتَبِهُ على الإنْسَان أَنَّ الله تَعَالَى معنا بذاته، ولَكِن عندنا نصوصٌ محكَمَةٌ تدل على عُلُوِّ الله، وأن المَعِيَّة الذَّاتية الَّتِي يَكُون الله تَعَالَى معنا في كل مكان هَذِهِ مستحيلة، ولهذا الَّذِين في قلوبهم زَيْغٌ اتبعوا هَذَا المتشابِهَ وتركوا المحكَم، وقالوا: إن الله مَعَنا بذاتِهِ في كل مكانٍ.

ثانيًا: مثال في الحُكْم:

قال النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ**»(١)، ودخل رجل يوم الجمعة وهو يخطب فجلس فقال: «**أَصَلَّيْتَ؟**». قَالَ: لَا. قَالَ: «**قُمْ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ**»(٢) هَذَا مُحْكَمٌ واضِحٌ بَيِّن على طلب صلاة الركعتين لكل من دخلَ المسجدَ وألَّا يجلسَ حتى يصليَ ركعتينِ، وفيه حَديث الثَّلاثَةِ الَّذِينَ جَاؤُوا والرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في أصحابِهِ، فأَحَدُهم جلسَ وأحدُهم دخلَ الحَلْقَة، والثالث انصرفَ(٣)، وليس في الحديث ما يَدُلُّ على أنَّ أحدًا منهم صَلَّى ركعتينِ، فهذا مُشْتَبِهٌ؛ لِأَنَّهُ قد يَدُلُّ على أَنَّ تحيةَ المسجدِ ليستْ مطلوبةً، لَكِننا لا يمكن أنْ نَدَعَ الحديثَ المحكَمَ مِنْ أجْلِ هَذَا الاحْتِمَالِ، لاحْتِمَالِ أن هَؤُلَاءِ الرِّجالَ الثَّلاثَةَ صَلَّوْا والرَّسول ﷺ يَرَاهُم ولم يُنْكِرْ عليهم، ولاحْتِمَال أن يَكُونوا على غير وضوءٍ، ولاحْتِمَالاتٍ أُخرى، فلهذا لا نَدَعُ المحكَم مِنْ أجْل هَذَا المتشابِهِ، والأمثلةُ على هَذَا كثيرةٌ.

وقوله تَعَالَى: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ مُحَمَّدٍ ﷺ وهَذِهِ العُبُودية أَخَصُّ العُبُودِيَّاتِ الَّتِي يُوصَف بها النَّاس؛ لِأَنَّ العبودية تَنقسِم إلى ثلاثةِ أقسامٍ: عامَّة، وخاصَّة، وأخص:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس، رقم (٤٤٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحية المسجد، رقم (٧١٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب من جاء والإمام يخطب صلى ركعتين خفيفتين، رقم (٩٣١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب التحية والإمام يخطب، رقم (٨٧٥).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس، ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، رقم (٦٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس، ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، رقم (٢١٧٦).

▪ العامَّة: هي الَّتِي تَشمَل جميع الخَلْق، مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، كل الخَلْق عِبَاد الله، ومنها أيضًا قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ [الحجر:٤٢]، استثنَى مَنِ اتَّبَعَه من عِبادِهِ.

▪ الخاصَّة: مثل قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣].

▪ الأخَصّ: وهي عُبُودِيَّة الرِّسَالة؛ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في نوح: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]، وقوله في مُحَمَّد ﷺ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١]، هَـذِهِ أخص مِنَ الأُولى؛ لِأَنَّهَا عُبُودِيَّة خاصَّة بتكليفٍ خاصٍّ، وهو الرِّسَالة.

ووصفُ الإنْسَان بالعبوديَّةِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإضافتُه إلى اللهِ هل هَذَا تشريف أو إهانة؟

تشريف، ولا شكَّ أنَّ له الفخرَ كلَّ الفخرِ بأنْ يَكُونَ عبدًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. حتى إن الإنْسَان ليحب أن يُنْسَب إلى عبودية غيره من بني الإنْسَان إذا كان يُحِبُّه، وفي هَذَا يقول الشاعر في مَعْشُوقَتِه[1]:

لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِيَا عَبْدَهَا ... فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي

يعني: لا تقول: يا مُحَمَّدُ، يا بكرُ، يا خالدُ، يا عليُّ، لا، هناك اسْم أشرف عنده وهو أن تقول: يا عبدَ فُلانةَ؛ لِأَنَّهُ يَفْخَرُ أن يَكُونَ عبدًا لها.

---

(١) البيت من السريع، وأورده صاحب لطائف الإشارات (١/ ٤٩).

فالعُبُودية لله عَزَّوَجَلَّ لا شكَّ أنها مَفْخَرَةٌ للعابدِ إذا أُضيفتْ إلى الله.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ القُرْآن لِأَنَّهُ فَرَّق بينَ الحقِّ والباطلِ]، وكذلك بين الخيرِ والشرِّ، ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ مُحَمَّد ﷺ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي الإنس والجِنّ دونَ المَلائِكةِ].

قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ الضمير يعود على مُحَمَّدٍ ﷺ لقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٤٦]، فالنَّذير مُحَمَّد ﷺ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ الضمير في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ أي الفُرقان نذيرًا للعالمينَ؛ لِقَولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، فجعل الإنذارَ بالقُرْآنِ، ولَكِنْ هَذَا ليسَ براجِحٍ، بل الراجح الأوَّل.

أولًا: لِأَنَّ الضميرَ يعود إلى أقربِ مذكورٍ، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَكُونَ﴾ الَّذِي قبلَه مباشرةً: ﴿عَبْدِهِۦ﴾.

ثانيًا: أن الله وَصَفَ النَّبي ﷺ بذلك في قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ العَالَم، يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الإنس والجن دون الملائكة]، أَمَّا الإنسُ فظاهِرٌ، وَأَمَّا الجِنُّ فكذلك أيضًا دَلَّتِ النصوص عَلَى أَنَّ النَّبي ﷺ مُرْسَلٌ إليهم.

والدليل على هَذَا قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف:٢٩]، وقوله: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن:١]. وكذلك النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال لهم: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ

اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا»[1]، فقَيَّدَهُمْ بأحكامِ الشَّريعة.

أما الملائكة فالدليل على أَنَّهُ ليسَ رسولًا إليهم قولُ الله تَعَالَى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٥]، فأفادتِ الآية أن الملائكةَ يُرْسَلُ إليهم ملائكة، والنَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس بِمَلَك، ويَقْتَضِي ذلك ألَّا يَكُون رسولًا إلى الملائكة، لكِن على الملائكة أن يُصَدِّقُوا به، وهم بلا شكٍّ مُصدِّقون بالرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولَكِنَّه ليس مَبعوثًا إليهم، ولا مكلَّفًا بتبليغِهم، عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

إذَنْ يَكُون قوله تَعَالَى: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ من باب العامِّ الَّذِي أُريدَ به الخاص؛ لِأَنَّ الملائكةَ مِنَ العالَمِين، كما في قولِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:١]، فكلُّ مَن سِوَى الله عَالَم.

وقولُه: ﴿نَذِيرًا﴾ النَّذير هو المُخْبِر بما يُخَوِّفُ، والبَشير المُخْبِرُ بما يَسُرُّ وعلى هَذَا يَكُون الرَّسول ﷺ مُخْبِرًا بما يخوِّف، وهذا لا يُنافي أيضًا أن يَكُون بَشيرًا، وقد ذَكَرَ الله الحالينِ في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف:١-٣]، فإذَنْ الِاقتصار على البِشارة أو الإنذار في مكانٍ لا يَقتضي نفيَ الثَّاني؛ لِأَنَّ الرَّسول ﷺ موصوفٌ بهذا وهذا.

لكِن إذا وَرَدَتِ البِشارةُ مُقَيَّدةً بأمرٍ مَخُوفٍ مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١]، فبعضهم يقول: إن هَذَا على سبيل التهكُّم بهم؛ لأَنَّهُمْ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم (٤٥٠).

يُبَشَّرُونَ بالعذاب، وهو لا يبشَّر به عادةً، وبعضهم يقول: إذا قُيِّد بشَيْءٍ تُقيِّد به لكِن عند الإطلاق هو في الخيرِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأولى: استدلَّ أهل السُّنَّة والجَماعَة بمثل هَذِهِ الآية عَلَى أَنَّ القُرْآن كَلام الله، يُستفاد من قولِه: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾.

الْفَائِدَة الثَّانية: أنَّ الله في السماء، ووجهُ الدلالة أو وجه الْفَائِدَة أن النزول يَكُون من عُلُوٍّ، وإذا كان الله نزَّل الفُرقان فإن هَذَا يدل على عُلُوِّ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَة الثالثة: أنَّ القُرْآنَ كلَّه واضحٌ صريحٌ، ليس فيه إشكالٌ؛ لِأَنَّهُ لا يُمْكِنُ أن يَكُون فرقانًا إلا على هَذَا الوجهِ؛ لقولِهِ: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾. وقد أجبنا عمَّا أوردناه من قوله تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر:٢٣]، وبيَّنَّا أن المراد بالتشابُهِ ليس اشتباه المعنى، بل هو الموافَقة والمشاكَلَة في الكمال والحُسْن.

الْفَائِدَة الرابعة: إثبات الحِكمة في أفعال الله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لِيَكُونَ﴾ لِأَنَّ (اللام) في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ للتعليل، فإذا كانت للتعليل دلَّ هَذَا على أنها تُفِيدُ الحِكمة؛ إذ العِلَّة هي الباعثة على الشَيْء، أو هي غاية الشَيْء؛ لِأَنَّ العِلَّة إما غائِيَّةٌ أو باعِثة، وكل منها يدل على الحِكْمَة.

الْفَائِدَة الخامسة: عموم رسالة النَّبيِّ ﷺ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ﴾. وَأَمَّا مَن قال: إِنَّهُ رسولٌ إلى العرب فقطْ فَإِنَّهُ كافرٌ به، فالَّذِينَ قالوا: إِنَّهُ رسول إلى العرب قالوا: إن الله تَعَالَى يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢]، هَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُ رسولٌ للعربِ فقطْ، وَأَمَّا بنو إسرائيل فلا يُكَلَّفون باتباع الرَّسول ﷺ.

فما هو الجوابُ عن هَذِهِ الشُّبْهَةِ؟

الجواب: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ لو كان المراد منه تخصيصهم لقالَ: هو الَّذِي بَعَثَ لِلْأُمِّيِّين؛ كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء:٧٩]، لَكِنْ قوله: ﴿فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ معناه أن الرَّسول ﷺ مبعوث فيهم، بُعث فيهم، لا لهم، بُعث فيهم لهم ولغيرهم، وعندما أقول مثلًا: بُعث فلان في هَذَا البلد، أو مثلًا: خَلَقَ الله في هَذَا البلد رجلًا كريمًا أو رجلًا عالِمًا، أو ما أشبهَ ذلك، فإن هَذَا لا يعني أَنَّهُ لهَذِهِ البلد فقطْ، بل المراد: مكانه في البلد، لكِن ما يحصُل منه عامٌّ، فالتخصيص بالمكان أو التخصيص بالزمان لا يدل على تخصيص الدعوةِ.

الفائدتان السادسة والسابعة: فضل الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حيث كُلِّفَ الرِّسَالة إلى جميع الخَلقِ؛ لِأَنَّ هَذَا دليل على فَضْلِهِ وأنه أهل لهَذِهِ المهمَّة العظيمة، فلو أرسلتَ إنْسَانًا لِيُصْلِحَ بين شخصينِ فهذا دليل على فَضْلِه، لكِن لو أرسلتَ إنْسَانًا لِيُصْلِحَ بين طائفتينِ أو أُمَّتين فهَذِهِ زيادةُ فضلٍ، ولذلك لا يُرسَل لهَذِهِ المهمة الأخيرة إلا مَن هو جَديرٌ بها، فكون الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أُرسل لجميع الخَلْق دليل على فضله حيث حُمِّلَ الرِّسَالةَ إلى جميع الخَلق.

ثم إن فيه دليلًا على مِنَّة الله عليه أيضًا؛ لِأَنَّ كلَّ مَنِ انتفع برسالته نالَه -أي النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- من أَجْرِهِ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»[1] مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِ شَيْءٌ. ولهذا لو تُعَلِّم إنْسَانًا فيَعْمَل بعِلمه ويُعلِّم آخر ويعلم آخر ويعلم آخر فَإِنَّهُ يأتيك مِنَ الأجر والفضل بقَدْرِ مَنِ انتفعَ به.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، وخلافته في أهله بخير، رقم (١٨٩٣).

الآيــة (٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ من شأنِهِ أنْ يُخْلَق ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ سوَّاه تَسويةً].

قوله تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هَذِهِ صفة لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ فذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إنزال الفرقانِ، وهو تشريعٌ وتنظيمٌ، ثُمَّ أَعْقَبَهُ بقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى أَنَّهُ يَجِب العمل بما جاء في هَذَا الفُرقان؛ لِأَنَّهُ جاء من مالك السَّمواتِ والأرضِ، والمالك له حق التصرُّف في مَمْلُوكِهِ، بأن يُشَرِّعَ له ما شاءَ وينظِّم له ما شاء، وهَذِهِ هي الْفَائِدَة من قولِهِ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بعد قولِه: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ فأتى بالتشريع أولًا، أو بدستورِ التشريعِ كما يقولون، ثُمَّ أَتَى بعد ذلك بعموم المُلْك؛ لِأَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ إذا كان هو المالِكَ العامَّ للسماوات والأرض لَزِمَ أنْ يَكُونَ ما شَرَعَهُ حَتْمًا على المملوكينَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَذَا المُلْك مُلك أَعيانٍ فقطْ أو ملك أعيانٍ وتَصَرُّف؟

فالجواب: مُلك أعيانٍ وتصرف؛ لِأَنَّ المَلِكَ قد يَكُونُ مَلِكًا للعَيْنِ دون التصرُّف فيها، وقد يَكُون مَلِكًا للتصرف دون العَين، يعني: قد يملك الإنْسَان

التصرُّفَ في العين دون ذاتها، أو يملك عين الشَيْء دون التصرُّف فيه، فالمالك للشَيْء الَّذِي لم يَتَعَلَّقْ به حقُّ أحدٍ هَذَا مالِكٌ للعين والتصرف فيها، والموقوف عليه مالك للعين، لكِن لا يملك التصرف المطلَق فيها؛ لا يبيع ولا يَهَب ولا تورَث عنه، فالمستأجر مالك للمنفعة، أي التصرف في المنفعة فقط، دون العين، أَمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فإن له ملك السَّموات والأرض أعيانهما والتصرف فيهما.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لم يذكر ملك من فيهما؟

قُلْنَا: السَّموات والأرض يَدْخُلُ فيهما كلُّ من فيهما؛ لِأَنَّ مَنْ في السَّموات والأرض هم مِنَ السَّمواتِ والأرضِ، فأصلُهم مِنَ السَّموات والأرض، فالإنْسَان خُلِقَ من طين، والحيوانات الأخرى فيما يبدو -والله أعلم- أنها خُلقت مِنَ الأرض، لَكِنَّنا لا نَعْلَم عنها شيئًا؛ لأنَّ المهمَّ أن نَعرِفَ أصلنا، أمَّا هَذِهِ فخَلَقَها الله لنا، قال تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

قوله: ﴿وَلَدًا﴾ بمعنى: مَوْلُودًا، وقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أعمُّ من قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، لَكِنْ مع ذلك نفى الله عن نفسه اتِّخاذ الولد والولادة، فَهُوَ عَزَّوَجَلَّ لم يَلِدْ ولم يَتَّخِذْ ولدًا من عباده، وفي هَذَا إبطال لقول النَّصارى الَّذِينَ قالوا: إنَّ المسيح ابنُ الله، ولقول اليهودِ الَّذِينَ قالوا: عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ، وللمشركين الَّذِينَ قالوا: الملائكة بنات الله، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ما وَلَدَ شيئًا، ولم يَتَّخِذْ أحدًا من خلقه ولدًا.

وقد ذكرنا فيما سبق أن الله تَعَالَى إذا نَفَى عن نفسِهِ صفةً فليس المراد بذلك نفي الصِّفة فقط، بل نفي الصِّفة وإثبات كمال ضِدِّها، والضدُّ هنا كمال قُدْرَته وغِناه، وأنه غير محتاجٍ إلى الولدِ؛ لكمالِ غِنَاهُ عن غيرِهِ، فلا يحتاج للولد ولا اتِّخاذ الولد إلَّا مَن كان محتاجًا له، أَمَّا من كان غنيًّا عنه قادرًا على ما يريد فهذا لا يَتَّخِذُ ولدًا.

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس له شَريكٌ في المُلْك، فما شَارَكَه أحدٌ؛ لا أحدٌ مِنَ الملائكة ولا أحد مِنَ الأنبياء، ولا أحد مِمَّن دونهم، المُلْكُ لله وحدَهُ، لا شَريكَ له فيه، وفي هَذَا إبطالٌ للذين أشركوا بالله في الربوبيَّة، مثل الَّذِينَ يقولون: إن بعض الأولياء يَتَصَرَّفُونَ بالكون، هَؤُلَاءِ لا شكَّ أنَّهم خاطئون، وأنَّهم كاذِبون أيضًا، فهم خاطئون في عقيدتهم، كاذبون فيما أَخبَروا به، فالله عَزَّوَجَلَّ ليس له شريكٌ في المُلْكِ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَلَسْنَا نملِك بيوتَنا وثِيَابَنا ومواشيَنا، فهل هَذَا يَقْتَضِي أنْ يَكُونَ لله شريكٌ؟

فالجواب: لا؛ لِأَنَّ مِلْكَنَا لهَذِهِ الأشياءِ ليس مِلكًا مُطْلَقًا، صحيح أنا مالك لبيتي، ومالك لثوبي، ومالك لسيارتي، ومالك لماشيتي، لكِن مِلكي لهَذِهِ الأشياءِ ليس مِلكًا مطلقًا، بدليل أنني مقيَّد بالشرعِ في التصرُّف في هَذِهِ الأشياءِ، فأنا لا أملِك مثلًا أنْ أقومَ عليها فأُحْرِقها، وحرام عليَّ ذلك، كذلك لا أملِك مثلًا أن أَشُقَّ على الحيوانِ في الحمل والركوب وغير ذلك، إذَن فكوني مالكًا لا يَقتضِي أن أكونَ شريكًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ملكه؛ لِأَنَّ مِلكي هَذَا مقيَّد بحسَب إذنِ الشارع لي، فلا أتصرف فيه إلَّا بما أَذِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يقول المُفَسِّر: [مِن شأنِهِ أنْ يُخْلَقَ]، و﴿كُلَّ﴾ للعموم.

لكِن المُفَسِّر قيَّدها بقوله: [من شأنه أن يُخْلَق]؛ لكي لا يدخل القُرْآنُ أو نفسُه.

فَلَوْ قَالَ الإِنْسَانُ: هل خَلَقَ الله نفسَه.

قُلْنَا: مستحيلٌ أن يَخْلُقَ نفسَه، لَكِنَّهُ مع ذلك نقول: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مَن شأنُه أن يُخْلَقَ، أَمَّا ما ليس من شأنِه أنْ يُخْلَقَ كذات الله وصفات الله فهذا ليس داخلًا مِنَ الأَصْل؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى خالِقٌ، والخالقُ غير المخلوق، وصفات الخالق ليستْ مخلوقةً؛ لِأَنَّ الصِّفة تابعة للذَّات. ولهذا كأن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما يقول: [من شأنه أن يُخْلَق]، يُنَبِّهك لِتَرُدَّ بهَذِهِ الكلمة على من قالوا: إنَّ القُرْآن مخلوق، فتقول: القُرْآن ليس من شأنه أن يُخلَق؛ لأنَّه من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وصفات الله تَعَالَى غير مَخلوقةٍ.

ولَكِنْ يَنبغي أن لا نقيِّد الآية بهذا، نقول: هو خلق كل شَيْءٍ، والخالق لا يمكن أن يَكُونَ هو المخلوقَ، فإذا كان لا يمكن دَلَّ ذلك عَلَى أَنَّ الله تَعَالَى غيرُ مخلوقٍ، وعَلَى أَنَّ صفاتِه أيضًا غير مخلوقةٍ؛ لِأَنَّ الصِّفة تابعة للموصوف، وحينئذٍ لا نَحتاج أن نقولَ: من شأنِه أن يُخْلَقَ؛ لأننا إذا قُلْنا: من شأنه أن يخلق قيَّدنا الآيةَ الكريمةَ، ويمكن أن يَحتجَّ علينا الَّذِي يقول بخلق القُرْآنِ فيقول: مَن قَالَ لك: إنَّ الآية مقيَّدة بهذا، فنحن نقول: خلق كلَّ شَيْءٍ على سبيل الإطلاق، وعلى سبيل العموم، وهذا لا يَقتضي أن يَكُون القُرْآن مخلوقًا؛ لِأَنَّ الخالق غير المخلوق، والقُرْآن من صفات الله، وصفات الخالق قطعًا غير مخلوقةٍ؛ لِأَنَّ الصِّفاتِ تابعةٌ للذاتِ.

إذَنْ فلو احتجَّ علينا المُعْتَزِلة والجَهْمِيَّة الَّذِينَ يقولون: إن القُرْآن مخلوقٌ فبماذا نُجيبهم؟

نجيبهم بأحد وجهين:

الوجه الأول: ما أشار إليه المُفَسِّر؛ وهو أن يقال: إن هَذَا من باب العامِّ المراد به الخاصُّ، يعني: كلّ شَيْء من شأنه أن يخلق، هَذَا وجهٌ، وبهذا أجاب كثير مِنَ

السلف، وقالوا: إذا قَالَ قائل: إنَّ القُرْآن مخلوق واستدلَّ بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فقل له: إن الله قَالَ عن رِيح عادٍ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ ومع ذلك هي ما دمرتِ السَّمَاء ولا الأرضَ ولا المساكِنَ ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥].

والبعض الآخر مِنَ العلماءِ يقول: الآية على عُمومها، والقُرْآن غير داخلٍ إطلاقًا حتَّى نحتاج إلى إخراجه؛ لأنَّه إذا كان خالِقًا فالخالق غير المخلوق، والقُرْآن كَلام الله، وكَلام الله من صِفاتِه، وصفات الخالِقِ غير مخلوقةٍ؛ لِأَنَّ الصِّفة تابعة للموصوفِ.

قوله: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ الفاء تَدُلُّ على الترتيب، و(قدَّره) بمعنى سَوَّاه؛ لِأَنَّ الخَلْق قد يوجد لكِن بدون تسويةٍ، فالله تَعَالَىٰ خَلَقَ كل شَيْء ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: سوَّاه، والدليل على أنَّ التقدير هنا بمعنى التسوِيَة قولُه تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى:٢]، وعلى هَذَا فالترتيب في قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ﴾ حسَب الواقع، فالترتيب واقعي؛ لِأَنَّ التسوية تكون بعد الخَلْق، فأنت عندما تُوجِدُ بناءً فإنك أولًا تُوجِدُ الهيكل، ثُمَّ تُدخِل التعديلات والتسويَة، هكذا الله عَزَّوَجَلَّ خلق كلَّ شَيْءٍ فقدَّره؛ أي: سوَّاه تسويةً مناسبةً لِمَا خُلِقَ له.

وقال بعضُهم إن معنى (قَدَّرَهُ) أي: قضاه، فتدلّ الآية على القضاء والخَلْق. وعلى هَذَا القول الَّذِي يَجعل التقديرَ بمعنى القضاءِ يَكُون في الآية ترتيبٌ غير واقعيٍّ، والسَّبب أنَّ التقدير بمعنى القضاء سابِقٌ للخلق؛ لِأَنَّ الله يَقضي أولًا ثُمَّ يخلُق ثانيًا، ولَكِن الأَصْل أن يَكُون الترتيب واقعيًّا وأن الخَلْق قبل التقدير. ويدُلُّ على ذلك أيضًا الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى:٢]، فالقُرْآن يفسِّر بعضُه بعضًا.

فعلى ذلك نجعل التقدير هنا بمعنى التسوية. وكونه يأتي ترتيبه على خلاف الواقع هَذَا وإن جاء في اللغة العربية لَكِنَّهُ خلاف المعهود، وإلَّا فقد قيلَ:

إِنَّ مَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ[1]

فالسيادة للجَدِّ هي الأُولى، وهي في الترتيب هنا هي الأخيرة. فالأقرب والأَولى ما مشَى عليه المُفَسِّر مِن أنَّ التقدير هنا بمعنى التسويةِ؛ لِأَنَّ كَلام الله تَعَالَى يفسِّر بعضه بعضًا.

• ● ۞ ● •

(١) انظر ضياء السالك (٣/ ١٧٢-١٧٣)، والأشموني (٢/ ٤١٨).

الآيــة (٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣].

مناسبة هَذِهِ الآية لِمَا قبلَها أنَّ الله لَمَّا أَثنَى على نفسِه بما أثنى به؛ ناسبَ أن يَذْكُرَ تلك الأصنام الَّتِي اتُّخِذَتْ من دونه -يعني من دون الله آلهة- لِيَتَبَيَّنَ حالُها؛ لأنَّ الأشياء تَتَبَيَّن بما يَكُون لها من صفاتٍ.

قوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ أي الكفَّار ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي الله]، أَمَّا الضمير الأول في قوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ فلم يُذكَر له مَرْجِعٌ لَفْظِيٌّ، لكِن مَرْجِعُه معلوم بحسَب الحالِ؛ لِأَنَّ قولـه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: الكفار المتَّخِـذون، فَهُوَ لا مَرْجِعَ له لفـظًا، لكِن مرجعه معلوم بحالِ الواقعِ. وَأَمَّا قوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ فمرجعه ظاهر مما سبق؛ لأنَّ الله تَحَدَّثَ عن نفسه بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ إلى أن قال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾.

وقوله: ﴿ءَالِهَةً﴾ جَمْع إله، وهَذِهِ الآلهة إِنَّمَا كانت آلهةً باتخاذِهِم، أَمَّا في الحقيقة فليـستْ آلهةً؛ لِأَنَّهَا ليستْ مُسْتَحِـقَّةً للعبادة؛ لِقَوْلِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾

إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم:١٩-٢٣]، وقال يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف:٣٩-٤٠]، فهي آلِهة باسْمهم واعتقادهم، أَمَّا في الواقع فليستْ آلهةً، بمعنى أنها لا تَستحِقُّ أن تكون آلهةً، فعلى هَذَا مثلًا إذا قَالَ قائل: كيف أثبتَ اللهُ هنا أنَّها آلهةٌ ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ مع أنَّ الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ كلَّهم يقولون لأقوامهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣].

كيف نَجمَع بين هَذَا النفيِ وبينَ هَذَا الإثباتِ؟

نَجْمَعُ بين هَذَا النفيِ وبين هَذَا الإثبات بأنَّ النفيَ باعتبارِ الحقيقةِ والواقع، فَإِنَّهُ لا إلهَ إلا الله، ولا شكَّ في ذلك، وأمَّا الإثبات فَهُوَ بحسَب عمل هؤلاء، حيثُ جعلوا هَذِهِ آلهةً، أي مَعْبُودَةً، وهي لا شكَّ أنها تُعبَد، لَكِنَّها ليست مُستحِقَّة للعبادةِ، فبحسَب الاستحقاق يَكُون النفي، وبحسَب الواقع يَكُون الإثباتُ، بحسَب الاستحقاق يَكُون النفي يعني لا أحدَ يَستحِقّ ولا أحد يَكُون حقيقةً إلهًا سِوَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأمَّا باعتبار الاعتقاد، وباعتبار العمل؛ فإنَّ مِنَ النَّاس مَنِ اعتقد وعمِل فجعل مع الله إلهًا آخرَ، وحقيقة هَذِهِ الآلهة أنها ليست بشَيْءٍ، صحيحٌ أنها تُعبَد وتُدْعَى ويُركَع لها ويُسجَد ويُنذَر لها، لَكِنَّها في الواقع ليستْ مستحِقَّةً لهذا الأمرِ، فليستْ آلهةً.

ثُمَّ بَيَّنَ الله هَذِهِ الآلهة المُتَّخَذة، فقال: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾، وعدم خَلقهم دليلٌ على عجزهم، وعجزُهم دليل على أنَّهم لَيْسُوا آلهةً؛ لِأَنَّ الإلهَ لا بدَّ أن يَكُونَ

قادرًا؛ لِأَنَّ القُدرةَ من كمالِه، وهذا العجزُ الَّذِي اتصفتْ به هَذِهِ الآلهة يَمنَعُ أن تكون آلهةً.

ثُمَّ قال: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي هَذِهِ الآلهة إذَن هي حادِثة بعدَ أنْ لم تكنْ، والربُّ يَجِب أن يَكُونَ أوَّليًّا، ليس قبلَه شَيْء؛ لِأَنَّ الربَّ المستحِق للعبادة لا بدَّ أن يَكُون خالقًا، وإذا كان مخلوقًا فَهُوَ حادث، وإذا كان حادثًا فمَن قبلَه ليس من خلقه. وعلى هَذَا يَكُونُ في قوله: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ بيانٌ لعدمِ صلاحِيَتِهم أن يَكُونوا آلهةً من حيثُ انتفاءُ القُدْرَةِ ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾. فلا يَصْلُحون أن يَكُونوا آلهةً من وجهينِ:

الوجه الأول: الحُدُوث؛ لأَنَّهُمْ مُحْدَثون، والإله لا يُمْكِن أن يَكُونَ مُحْدَثًا.

الوجه الثَّاني: أن مَنْ قبلهم ومَن سبَقهم ليس من خَلْقِهم، على فرض أَنَّهُمْ يخلُقون، وهذا دليل على عدم صلاحيتهم للأُلوهيةِ.

قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾ أي دَفْعَه]، ونحن نقول: دفعه وجَلْبه أيضًا، والمانِع أَنَّهُمْ لو أرادوا أن يَضُّروا أنفسَهم ما ضَرُّوها، ولو أرادوا أن يدفعوا عنها ضررًا ما دفعوا عنها، فإبقاء الآية على العموم أَولى ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾ لا جَلبًا للضَّرِّ ولا دفعًا له، حتى الضرر الَّذِي يمكن أن يَكُونَ سهلًا لو أرادوه لأنفسهم ما استطاعوا، يعني لو أرادت هَذِهِ الأصنام أن تُتْلِفَ نفسها لا تستطيع، ولو أرادتْ أن تُمرِضَ نفسها إذا كانت مما يَلْحَقُه المرض هل تملِك ذلك أو لا؟ لا تملِك، ولو أراد أحد أن يَعْتَدِيَ عليها لا تملِك دَفْعَه، ولا تستطيع، ولهذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [الحج:٧٣]، وهذا يدل على أهميته، فأَمْرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنا بأن نَستمِعَ لهذا المثَلِ يدل على أهميَّته، المَثَل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ

مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾، الذباب الَّذِي هو من أهون الحيوانات وأضعفها لو أَنَّهُمْ اجتمعوا عَلَى أَنَّ يَخْلُقوه ما استطاعوا، أمرٌ آخَرُ: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ على ضَعفِه ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ لا يستطيعون أن يَسْتَنْقِذُوه، ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣]، فهَؤُلَاءِ لا يملكون لأنفسهم ضَرًّا؛ لا دَفْعه ولا جَلْبه.

قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي جَرَّهُ]، يعني لا يملِكون أن يَجُرُّوا لأنفسهم نفعًا، ولا يملِكون أيضًا أن يدفعوه عن أنفسهم، مثل الأُولى، يعني يَنْبَغِي أن نجعلها على سبيل العموم، وإن كان مُقتضَى الحال أن أيَّ وَاحِدٍ يريد دفع الضررِ ويريد جَلْب النفع، ولَكِنَّ إبقاءَ الآية على العمومِ أَولى، يعني: لا يستطيعون شيئًا لأنفسهم، وإذا كانوا لا يستطيعون ذلك لأنفسهم فمن باب أَوْلَى لا يَستطيعوه لِعَابِدِيهم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً﴾ أي إماتةً لأحدٍ وإحياءً لأحدٍ ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ أي بعثًا للأمواتِ].

قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً﴾ يعني: لا يملكون أن يُمَوِّتُوا أحدًا، وبهذا نعرِف أن الَّذِي حاجَّ إِبْراهِيم عَزَّوَجَلَّ في ربه وقال: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ أَنَّهُ كاذب، فهم لا يملكون أن يجلِبوا موتًا لأحدٍ ولا أن يجلبوا حياةً لأحدٍ مهما جَمَعُوا لذلكَ.

فَإِذَا قَالَ إِنْسَانٌ: أليسَ يُمكِن أنْ يَقْتُلُوا أحدًا؟

فالجواب: إن هَذَا سَبَب المَوْت، وليس هو المَوْتَ، يعني: يُمكِن أنَّ الإنْسَان يفعَل سَبَب المَوْت، لكِن لا يمكِن أن يُوقِعَ المَوْتَ، وبينَ الأمرينِ فرقٌ، ولهذا أحيانًا يوجد سَبَب المَوْت ولا يموت الإنْسَان، وأحيانًا يموت الإنْسَان بدون سَبَبٍ، يعني

بدون سَبَبٍ معلومٍ، فإذَن هَؤُلَاءِ لا يملِكون موتًا لأحد ولا حياةً، فلا يملكون أنْ يُحْيُوا أحدًا مِنَ الأمواتِ؛ لِأَنَّ ذلك إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وأمَّا إحياء عيسى للأموات فليس من هَذَا البابِ، ليس مِنَ الأمر الَّذِي نَفَاه الله؛ لِأَنَّ الَّذِي يُحْيِي الأموات حقيقةً هو اللهُ، ولهذا قيَّد الله إحياءَه للموتَى بقوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ [المائدة:١٠]، فعيسى لا يَسْتَقِلّ بهذا، وإنَّما يَكُون قوله سَبَبًا للحياة الَّتِي يخلُقها الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ النُّشُور هو بَعْث المَوْتى وتفريقهم، فمعنى نَشْرِهم أَنَّهُمْ يُفَرَّقون ويخرجون مِنَ الأجداثِ ويَنتشِرون في الأرض ويَتَفَرَّقون فيها، فهم لا يملِكون شيئًا من هَذَا كلِّه، فإذا تَبَيَّنَ عَجْزُهم الذَّاتيّ والعَرَضي تَبَيَّنَ أَنَّهُمْ لا يصلُحون أنْ يَكُونوا آلهةً، ففيهم عَجْزٌ ذاتيٌّ وعَرَضِيٌّ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين الحياة والنشور؟

قُلْنَا: الفرق بينهما أنَّ النُّشُورَ عامٌّ، ولهذا قُلْنا: إِنَّهُ مِنَ النشر بمعنى التفريق والانتشار، وأمَّا الحياة فهي خاصَّة، فالحياة لوَاحِد معيَّن، مثل أن يقال لهم: أَحْيُوا هَذَا الميِّت، ولهذا قُلْنا: إِنَّهُ مِنَ النشر بمعنى التفريق والانتشارِ، فَهُوَ أعمُّ.

قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ عطفه على قوله: ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ من باب عطف الخاصِّ على العامِّ، أو التفصيل بعد الإجمال، فنجد الآية الكريمة تَتَرَقَّى مِنَ الأَدنَى إلى الأعلى (ضَرًّا ولا نفعًا)، (موتًا وحياةً ونشورًا) لِأَنَّ الحياة أشدّ مِنَ المَوْت؛ فوجود سَبَب الحياة أو القُدرة على الحياة أعظمُ مِنَ المَوْت، كذلك أَيْضًا النفع والضرر؛ النفع أعظم لِأَنَّ الإنْسَان يريد مِنَ الضرر دَفْعَ الشَيْء، ودفع الشَيْء أسهلُ من جَلْبِه؛ لِأَنَّ الجلب

إيجابيٌّ، والدفع سلبيٌّ، وغالبًا يَكُون السلبيُّ أهونَ مِنَ الإيجابيِّ، فانتقل الله عَزَّوَجَلَّ في بيان عَجْز هَذِهِ الآلهةِ وأنها لا تصلُح مِنَ الأدنى إلى الأعلى، هَذَا بالنسبة للتفصيلِ، أمَّا بالنسبة للإجمالِ فقال: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأولى: أَنَّهُ يَنْبَغِي للإِنْسَان أن يسوق للخصم ما يقر به لزوما حتى تقوم الحجة عليه، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ جعلوها آلهةً لا يمكن أن يَدَّعوا أنها تخلق، ولا يمكن أن يدَّعوا أنها غير مخلوقة؛ لأَنَّهُمْ يعرِفون أنها موجودة وليستْ من قبل.

فهل يمكن أن يدَّعوا بأنها تنفع أو تضُر؟

نقـول: يُمْكِنُ أنْ يَدَّعوا ذلك، وفعلًا يَدَّعون ذلك، يقـولون: إن الأوليـاء يَنفعون، وإنهم يضرون، وإن مَن لم يذبحْ لهذا الوليِّ أو ينذِر له فَإِنَّهُ يضرُّه. وهَذِهِ دَعْوى، فإذا ادَّعوا هَذَا يُطَالَبُون بالدليلِ، والدليل أنْ يقالَ لهم مثلًا: ادعوا هَذَا الوليَّ بأمرٍ معـيَّن وانظروا هل يجلِب لكم ذلك أو لا يجلِـبه؟ وذلك مِثلما أَنَّهُمْ يُطَالِبُـونَ الرسُل بأشياءَ معيَّنةٍ، يقولون مثلًا لَمَّا قالتْ لهم الرُّسُل: إن الله يحيي المَوْتى: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥]، مع أن الرُّسُل ما قالت لهم: إن البعث في الدُّنْيا حتى يقولوا: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾، إِنَّمَا قالت لهم: إن البَعْث بعد المَوْت، وهذا غير ما طالَبَ به هَؤُلَاءِ الخُصماء للرسل، فقـولهم: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾ هو في الحقيـقة مكابَرة وطَلَب دليلٍ لشَيْءٍ لم يَقُلْه الرسُلُ عليهم الصلاة والسلام، إذ لم يقولوا: إنهم يُبعَثون الآنَ.

فعلى كلِّ حالٍ هَذِهِ الدَّعْوَى -وهي أَنَّهُمْ يملكون نفعًا أو ضَرًّا- دعوى تحتاج إلى بيِّنة، أَمَّا دعوى المَوْت والإحياء فهي أيضًا أوضحُ في البُطلان، بل ربما تُدَّعَى؛

لِأَنَّ الَّذِي حاجَّ إِبْراهِيم في ربِّه قَالَ له: ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فربما تُدَّعَى، وفي مناظرة إِبْراهِيم ﷺ -يمكن أنْ نَنْتَفِعَ بها هنا- دليلٌ على أَنَّهُ إذا ادَّعى المبطِل دعوى فإننا نَنْقُلُه إلى ما هو أوضحُ؛ لِأَنَّ المقصود ليس المجادَلة، إِنَّما المقصود إقامة الحجَّة على بُطلان هَذَا الأمر، وهو إذا بطل ولو من دليلٍ وَاحِدٍ كفَى، ولا حاجة أن نُبْطِله مِنَ الدليل الَّذِي يُعَيِّنه الخَصم، قد نبطِله من دليل آخرَ، فإِبْراهِيم ﷺ لو أراد أن يحاجَّ هَذَا الرجُلَ ويجادل هَذَا الرجل لقال له: لستَ تُحْيي وتميت، وإنَّما تفعل سَبَب الإحياء والإماتة، لَكِنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذهب إلى دليل أوضحَ وأبينَ، ولا تُمكِن المحاجَّة فيه؛ قطعًا للنزاع والمجادَلة؛ فالإنْسَان الَّذِي يجادِل قَابِلْهُ بدليلٍ لا يمكنه دَفْعُه، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، وهذا إلزامٌ لا يتمكَّن معه أن يَدَّعِيَ شيئًا، ولهذا قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

المهم الآن قوله: ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ هو مُسَلَّم، ولا يمكِن دَعْوَى نفيه حتى عند العابدين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، فحتى عند العابدين لا يمكن أن يَدَّعُوا هَذِهِ الصِّفة المنفِيَّة.

قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لا يمكن أيضًا أن يَدَّعوا أنها ليست مخلوقة وأَنَّهُمْ صَنَعُوها بأيديهم، يقول إِبْراهِيم لهم: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

قُلْنَا: إِنَّهُ يمكن أن يُدَّعَى خلافُ هَذَا النفي، وجوابنا عنه من أمرين: إما إبطال هَذِهِ الدعوَى بعينها ونقول: هَذَا أمرٌ لا يمكِن، وإذا شئتم فادْعُوا، وإمَّا أنْ يقالَ:

ننتقِل عن هَذَا النفي، ولا ننتقل عن هَذَا النفي لعدم إيمان به، بل يَجِب علينا أن نؤمن بأَنَّهُمْ لا يملكون ذلك، لكِن عند المخاصَمة ننتقل إلى أمر أعظم وأَبْيَنَ وأوضحَ، مثلًا لو نزلتْ أمطارٌ كثيرةٌ مُغْرِقَة، أو حصلتْ زلازلُ يُمْكِن أن نقولَ لهمُ: ادْعُوا هَذِهِ الأصنامَ وانظروا هل تمسك السَّمَاء وهل تتوقف الأرض عن الزلازل، وما أشبهَ ذلك، لَكِنْ مهما كان لو ادَّعَوْا ما يدعون فإننا ننتقل عند المجادَلة إلى أمرٍ أوضحَ لا يَتَمَكَّنُونَ من نفيِهِ.

• • ۞ • •

الآيــة (٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴾ [الفرقان:٤].

لَمَّا ذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما يعود إلى التَّوحِيدِ انتقلَ إلى ما يعود إلى الرِّسَالة؛ وذلك لِأَنَّ الشهادة: أشهد أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأشهدُ أن مُحَمَّدًا رسول الله.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ ﴾ أي ما القُرْآن ﴿إِلَّآ إِفۡكٌ﴾ كَذِب ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ مُحَمَّدٌ ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ وهم من أهل الكِتَاب]، هَذَا الأَصْل الثَّاني مِنَ الأُصُول: التَّوحِيد وإثبات الرِّسالة، وإثبات الرِّسَالة لا شكَّ أَنَّهُ أَحَدُ شَطْرَيِ التَّوحِيدِ: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأشهد أنَّ مُحَمَّدًا رسول الله، ولا يُمكِن أن يُعْبَدَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إلَّا بما جاءت به الرسُل؛ لِأَنَّ العِبَادَة طَرِيق للمرءِ إلى ربه، وهل يمكن أن نَتَوَصَّل إلى اللهِ بطَرِيقٍ لم يَجْعَلْه طَرِيقًا؟

فالجواب: لا، وهذا الطَّرِيق الَّذِي جَعَلَه الله طَرِيقًا إليه جاء بواسطة الرُّسُل، إذَن فالعِبَادَة لا بدَّ لها من رسالةٍ، ولا يمكِن أن يُعبَد الله بمجرَّد العقل؛ لِأَنَّ العِبَادَة طَرِيق يوصِّل إلى اللهِ، وهذا الطَّرِيق لا يمكن إلا بوضعٍ مِنَ اللهِ، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جَعَلَه بواسطةِ الرسُلِ.

والمكذِّبون للرسُل أيضًا قَدَحُوا بالرُّسُل وبما جاءوا به ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ

هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ هنا صرَّح بالاسْم الظاهر، قَالَ أوَّلًا: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ لِيَعُمَّ جميع المشركينَ مِنَ العرب وغيرهم، وهنا قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يعني منَ العربِ الذينَ رَدُّوا رسالةَ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أيْ: ما القُرآن]، المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ دَقيقٌ في التفسيرِ، فسَّر لنا ﴿إِنْ﴾ وفسَّر لنا اسْمَ الإشارةِ. ﴿إِنْ﴾ بمعنى (ما) فهي نافيةٌ، (هذا) يقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القُرْآن]، فالمشارُ إليه إذَنِ القُرْآنُ. فقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هَذَا القُرْآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ انْظُر -والعياذُ باللهِ- أَتَوْا بالحصرِ، يعني لا يمكن أن يَكُونَ إلَّا إفْكًا، لا يمكِن أنْ يَكُونَ فيه صِدْقٌ، فأَتَوْا بالحَصْرِ عن طَرِيقِ النفيِ والإثباتِ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾، ولا يُمْكِن أنْ يَكُونَ صِدْقًا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ كَذِبٌ]. ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ يعني اخْتَلَقَه، أي النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن أهلِ الكِتَابِ]، ومنه أيضًا الرجلُ الَّذِي قالوا: إنَّهُ يُعَلِّمُه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣]، يقولون: إن هَذَا ليسَ مِنَ اللهِ، بل هو من مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ افتراهُ معَ مُساعدةِ غَيْرِه، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُبْطِلًا لِكَلامِهِم: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كُفْرًا وكَذِبًا]، المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَسَّرَ الظُّلْمَ بالكفرِ؛ لأنَّ الكفرَ ظُلْمٌ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، ثُمَّ هو ظُلْمٌ بالنسبةِ للرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لِأَنَّهُ اعتداءٌ عليه، ووَصْفٌ له بالكَذِبِ، ولو أنَّ إنْسَانًا وصفَ أحدًا مِنَ النَّاسِ بالكَذِبِ لَقُلْنَا: إنَّه ظالمٌ له ومُعْتَدٍ عليه.

قوله: ﴿وَزُورًا﴾ الزُّور في الأَصْل كل ما انحرفَ عن الصراط المستقيم، كل انحراف فَهُوَ زُور ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف:١٧]، تميل،

فكل مَيل فَهُوَ زُور، وفي الحديث: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ»[1]، الزور المراد به كلّ قول منحرِف، فالزُّور إذَن الكذِب، فهُمْ مِن أكذبِ النَّاسِ، بل أكذب النَّاسِ فيما قالوا، فقولُهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ ليسَ فيه شَيْء مِنَ الصدق، بل هو كذِب وظُلم وعُدوان على الرَّسول ﷺ.

ثم نقـول لهم: إذا كان مُحَمَّد ﷺ هو الَّذِي افتراهُ، وأعانَه عليه قوم آخرونَ، فأْتُوا بسورةٍ من مِثْلِه، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور:٣٤]، وقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]. ثُمَّ إن مُحَمَّـدًا ﷺ عاش فيهم قبل الوحيِ أربعينَ سنةً وما قَالَ يومًا مِنَ الأيَّام: إِنَّهُ يُوحَى إليه، والَّذِي يريد أن يكذِبَ فَإِنَّهُ يكذب في عُنفوان شَبابِه لِيَكْسِبَ الأتباعَ من أول الأمرِ، فلمَّا لم يكنْ هَذَا إلَّا بعد مُضِيِّ أربعين سنةً دلَّ ذلك عَلَى أَنَّ دعواهم يُكَذِّبها الواقع.

أيضًا فإن هَذَا الوحي جاء والرَّسول ﷺ في سنِّ الأربعينَ، ولا يمكِن أن يَكُون الكذِب يَتَجَـدَّدُ له في هَذَا السنّ، ثُمَّ إننا نقـول: ممَّا يبيِّن أَنَّهُ زور أن هَؤُلَاءِ الَّذِيـنَ يقولون: إِنَّهُ افتراه هم بأنفسـهم يشهدون للرسول ﷺ بالصدق، وكانوا يُسَـمُّونه الأمين، ولا يشكُّون في صِدقه، ولا يشكون في عدالته ﷺ فأين كانوا من قبلُ؟!

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور، والعمل به في الصوم، رقم (١٩٠٣).

الآيـة (٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الفرقان:٥].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَقَالُوٓاْ ﴾ أيضًا هو ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾: أكاذيبهم، جمع أُسْطُورة بالضمِّ ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾ انتسخها من ذلك القوم بغيره ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ﴾ تُقرَأ عليه لِيَحْفَظَهَا ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ غُدوةً وعَشِيًّا].

قوله: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أساطير جمع أُسطورةٍ، وهي الأحاديث الرائِجَة الَّتِي لا أصلَ لها، وعند العامَّة يُسمُّونها (السَّبَاحين)، قالوا: إن الرَّسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أتى بأساطير الأوَّلين، يعني أقاصيصهم وأحاديثهم الَّتِي لا أصلَ لها. وهذا القول الَّذِي قالوه هل هو عن عقيدة كاذبة أو قالوه بحسَب الواقع، يعني هل ادعوا ذلك دعوى أو هَذَا الَّذِي يعتقدونه وهذا الَّذِي تبيَّنَ لهم؟

يُمْكِن هَذَا ويمكن هذا، والله عَزَّوَجَلَّ يقول في سورة المُطَفِّفِينَ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ۝٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين:٧-١٤]، هَذَا يدل عَلَى أَنَّ قولهم: أساطير الأولين ليس دعوى، بل اعتقاد، وأن هَذَا هو الَّذِي يعتقدونه، فإن كانت

دعوى وهم يعتقدون أنها وحي وصدق فهَذِهِ دعوى باطلة مثل غيرها مِنَ الدعاوى، وإن كان هَذَا ما يعتقدونه، وهو ما ظهر لهم مِنَ القُرْآن، فليس بغريبٍ أيضًا؛ لِأَنَّ الإنْسَان -والعياذ بالله- إذا حُجِبَ قلبُه رأَى الحقَّ باطلًا، والباطل حقًّا، فيمكن أن هَؤُلَاءِ لِظُلْمِهِم وكفرهم وعُدوانهم لم يَتَبَيَّنْ لهم حقيقة القُرْآن، وظنُّوها أساطير، وهذا الأخير في الحقيقة معنًى جيِّدٌ، أَنَّهُمْ يقولونه لا مجرد دعوى لتكذيب الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولَكِن بحسَب الواقع فيما يعتقدون؛ وذلك لأنَّهم ليس عندهم اتجاه سليم صحيح لقول الحقِّ، فأُروا الحقَّ باطلًا، فالآن لو قرأنا القُرْآن على إنْسَانٍ مُعْرِضٍ هل يتذوق حلاوتَه، وهل يُحِسُّ بأنه كَلام الله، هل يحس بأنه أصدق الأخبار وأنه أعدل الأحكام؟ لا، أبدًا، تجده مُعْرِضًا عنه، وليس بشَيْءٍ عنده حقيقةً باعتبار الواقع؛ لِأَنَّهُ -والعياذ بالله- كما قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، فقولهم: أساطير الأولين قد يَكُون ذلك عن عقيدةٍ، وأن هَذَا بحسب الواقع؛ لِأَنَّ حالهم تَقْتَضي ذلك، وكُلَّما أعرضَ الإنْسَان عن القُرْآن يَكُون أشدَّ خفاءً عليه وأبعد عن معرفته، وكُلَّما أقبلَ عليه ازداد به يقينًا ومعرفةً.

ولهذا أنا أدعوكم ونفسي إلى أن يتأمَّل الإنْسَان دائمًا في القُرْآن ويتدبَّر؛ لئلَّا يَكُونَ أُمِّيًّا، فالله عَزَّوَجَلَّ سمَّى الَّذِي لا يَعرِف المعنى، وإن كان يعرف اللفظ، سمَّاه الله أميًّا؛ كما قَالَ الله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة:٧٨]، فمعنى (أماني) قراءة، فسمى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لا يعلمون الكِتَاب إلا قراءةً سماهم أُمِّيِّينَ؛ لِأَنَّ مَن يقرأ ولا يَفهم فَهُوَ كمَن لا يقرأ، لا فرقَ بينَهما، إلَّا أن هَذَا عنده فَهمٌ للفظ، وذاك ليس عنده فهم، وماذا يستفيد المرء مِنَ اللفظ وهو لا يعرف معناه؟!

فاللَّفْظُ بمنزِلة الثوبِ للجِسْمِ، فإذا كان عند الإنْسَان ثِيَابٌ فهي ليستْ رِجالًا، فلو أنَّ وَاحِدًا عنده عشرونَ ثوبًا وقال: واللهِ أنا سأغزو هَؤُلَاءِ الجَماعَة وأريد أن أشُنَّ الحرب عليهم، فقيل: ماذا عندَكَ؟ قال: عندي عشرونَ ثوبًا. فهل تَنْفَعُه هَذِهِ الثياب؟

فالجواب: عشرون ثوبًا لا تكون عشرين رجلًا، فالمهمُّ أنَّنا نقولُ: إنَّ الواقعَ أن الرجلَ إذا لم يُقْبِل على القُرْآنِ وهو يتأمَّلُهُ ويحرِصُ على معرفةِ معناه فَإِنَّهُ لا يَستفيد منَ القُرْآنِ شيئًا، وكما هو معروفٌ مِن حالِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا يتجاوزون عشْر آياتٍ حتى يَتَعَلَّمُوها وما فيها منَ العِلمِ والعملِ، فتعلَّمُوا القُرْآنَ والعلمَ والعملَ جميعًا[1].

والَّذِي يَضُرُّنا نحن أننا نحرِص على تلاوة القُرْآن لفظًا، وهذا طيِّب، لكِن لا بدَّ أن نَعمَل أيضًا، ومِنَ الممكِن أن يقرأ الإنْسَان ما تَيَسَّرَ لفظًا، ثُمَّ إذا كان قد مَنَّ الله عليه بحفظِه يتأمَّله، فيتأمله وهو يمشي، وهو على فراشِه، وبتأمُّل القُرْآن يَفْتَح الله على الإنْسَان معانيَ ما كان يَعرِفها ولا تَخطُر له على البالِ، قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]، وجَرِّبْ تَجِدْ؛ لِأَنَّ القُرْآن تِبيانٌ لكل شَيْءٍ، وهذا كَلام الله عنه. والَّذِي يَحُول بيننا وبينَ هَذَا التِّبيانِ لكلِّ شَيْءٍ هو عدمُ إقبالنا على هَذَا القُرْآنِ، والتأمُّل فيه، والتفكُّر فيه، وإلَّا لو أنَّنا تأمَّلناه لَوَجَدْنَاهُ تِبْيَانًا لكلِّ شَيْءٍ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ يعني استنسخها من غيرِه، وأيضًا الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هم يعرِفون أَنَّهُ كانَ أُمِّيًّا، لا يقرأ ولا يكتب،

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١٠).

لَكِنَّه أَمَرَ غيرَه أن يكتبَها له، ولهذا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [انْتَسَخَهَا مِن ذلك القوم بغيرِه]، انتسخها بغيره لأَنَّهُمْ ما قالوا: كتبها، قالوا: اكتتبها، يعني أمرَ غيرَه أن يكتبها له؛ لأَنَّهُمْ يعرِفون الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَنَّهُ كان أُمِّيًّا، لا يَقرأُ ولا يكتُبُ، ولا شكَّ أنَّ كُبَراءَهُم يعرِفون الحقَّ، لَكِنَّ عوامَّهم قد لا يعرِفون، قد يَخْفَى عليهم هَذَا الأمر ويقولون: أساطير الأوَّلين.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ تُمْلَى عليه يعني تُقْرَأ عليه، ليس تملى عليه لِيَكْتُبَهَا؛ لِأَنَّهُ لا يكتب ولَكِن تُقْرَأُ عليه ﴿بُكْرَةً﴾ في أول النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾ في آخِر النهارِ، ثُمَّ يأتي بها للناس ويقول: هَذَا كَلام الله، وهذا وحيٌ يُوحَى إليَّ، وهو في ذلك على زَعْمِهِم ليسَ بصادِقٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ هل يُؤْخَذ منه أن لهذينِ الوقتينِ ميزةً في حفظ القُرْآن وغيره؟

الجواب: يؤخَذ من هَذَا العموم: عموم كل وقتٍ، دائمًا إذا أُريد العموم يُذْكَرُ البُكرة والعَشِيّ؛ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢]، معَ أنَّ رِزْقَهم لا يَنقطِع في الجنَّة ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣]، لكِن يُذكَر هذانِ الوقتانِ للدوام، أَمَّا بالنسبة للواقع والتجرِبة فإننا جرَّبنا أن الحفظ في أول النهار أسرع، والحفظ في آخِر النهار -حسَب ما جَرَّبْتُ أنا- ليس بسريعٍ، لَكِنك إذا قمتَ مِنَ النومِ وجدتَ أنك حافِظُه، فكل وَاحِدٍ منهما له مَزِيَّة بالنسبة للحِفظ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يجوز أن يكتب القُرْآن الكريم حسَب القواعد الإملائية الَّتِي في عصرنا؟

القول الأول: يقولون: لا يجوز مخالَفة الرسم العُثمانيّ، ويَجِب على الإنْسَان

إذا كتب القُرْآن لنفسِه أو لغـيره تعليمًا أو تلاوةً أو أيَّ حال مِنَ الأحوال؛ يَجِـب أن يَكُون على الرسم العثمانيّ؛ بناءً عَلَى أَنَّ هَذَا من باب التوقيف، فكما أنَّنا لا نغيِّر اللفظ فكذلك لا نُغَيِّر الكِتابة.

القول الثَّاني: يجوز أن يُكتَـبَ القُرْآنُ بحسَبِ القواعدِ الَّتِي يُكتَـب بها في أيِّ عصرٍ كان، ولا يَجِب التقيُّد بالرسْم العُثمانيّ. قالوا: لِأَنَّ الكِتَابة لها قواعد تَختلِفُ باختـلاف العصورِ والأُمم، والقُرْآن لم يَنْـزِلْ مكتوبًا، وإنَّما نزل مَقروءًا باللفـظ، لا بالكِتَابة، فالكِتَابةُ ليستْ تَوْقِيفِيَّة، ولأنه لو كانت قواعد الرَّسْم حينَ نُزُولِ القُرْآنِ على غير هَذَا الوجهِ لَكُتب بها، يعني لو فُرض أنَّ الرسمَ حينَ نُزولِ القُرْآنِ أو حينَ جَمْعه في عصرِ عُثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على غير هَذِهِ القواعد لكُتِبَ بها، ولم يُكْتَبْ بشَيْءٍ آخَرَ، فدَلَّ ذلك عَلَى أَنَّ الكِتَابةَ تابعةٌ للعصر الَّذِي تُكتَب فيه.

القول الثالث: التفصيل؛ إن كُتِبَ لعـالم فبالرسم العثمانيّ، وإن كتب لجاهلٍ فبالرسم العَصري الَّذِي هو فيه. قالوا: لِأَنَّهُ إذا كانَ جاهِلًا ثُمَّ كُتـب له على الرَّسم العُثمانيّ أخطأَ في اللفظِ، مثلًا الصلاة إذا أردنا أن نَكْتُبَهَا على الرسمِ العثمانيّ ففيها واو، فيقـرؤها الجاهل: الصلوات مثـلًا أو الصلوة، وكذلك الزكاة، وكذلك الرِّبا وما أشبهها، فهَؤُلَاءِ يُفَصِّلون بين أن يكتب لعالم وأن يُكتب لجاهل.

والصحيحُ القولُ الثَّاني؛ أَنَّهُ يجوز أن يُكتَب القُرْآن بحسَب القواعد العصرية الَّتِي كُتب بها؛ لِأَنَّ كتابته ليس بتوقيفيَّة؛ لِأَنَّهُ لم ينزِلْ مكتوبًا فنقولَ: يَجِب التوقُّف على ما نزل عليه، وإنما هو كُتب في عصرٍ كانت قواعد الرسم على هَذَا الوجه، فبقِيَ على هَذَا الوجه.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَذَا قد يؤدي إلى التحريف؟

فالجواب: القُرْآن يُتلَى، فالتِّلاوة تضبِط عن التحريف.

بناءً على هَذَا الخلافِ فهل كتابةُ القُرْآن بطَريقةِ برايل تجوز أو لا؟

لا تجـوز من باب أَولى؛ لِأَنَّ هَذِهِ النُّقط أبعـدُ ما تكون عن الحروف، وعلى هَذَا فلا يجوز إطلاقًا أن يُكتَب، وعملُ النَّاس الآنَ على خلاف ذلك، فالآن يوجد مصاحف كاملة مكتوبة بهَذِهِ الطَّريقة لفظًا لا ترجمةً.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما المانِع أن يُكتَب القُرْآن بطَريقة برايل بالرسم العثماني؟

فالجواب: الآن مثلًا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:١١٦]، ﴿قَالَ﴾ لا تكتب إلا حسب قواعد برايل، حسب رسمه بالنقاط. فَلَوْ قِيلَ: كتابة برايل أكْثَرها اختصارات، فمثلًا كلمة (كيف) يرمزون لها رمزًا؟

نقول: حتى لو فرض أنها تبقى على ما هي عليه وإذا كانت كتابة برايل أكْثَرها اختصارات بحيث يرمزون الكلمات رمزًا، فيُسقِطون بعض الحروف كتـابةً، فهَذِهِ تكون أبعدَ عن الجواز، وحتى لو قُلْنا بالجواز فينظر في هذا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كتابة المصحف على الرسم العُثمانيّ قد تشكل بالنسبة للقراءات؛ لِأَنَّهَا تَحتمِل أكْثَرَ من وجهٍ، فلو كتبت على الكِتَابة المعروفة لاحتملت وجهًا وَاحِدًا؟

نقول: القراءات على الرسم العثماني صحيح تأتي على وجوهٍ، لكِن قبل أن يوجد التشكيل والإعراب، فالإعجام الآن يَمنع، فقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ مثلًا بعد أن أُعجمـتْ ونُقطتْ لا يمكن أنك تقرؤها: (فتثبتوا)، وكلـمة ﴿مَٰلِكِ﴾ لو أردنا أن نَقْرَأَها على الرسم العُثمانيّ بدون تشكيل فورًا نَقْرَؤها (مَلِكِ)، ولا يمكن أن نقرأها (مالك)، وبالتشكيل نقرؤها (مالك)؛ لِأَنَّهُ يرمز للألف بالشرطة، فإذَن على كلِّ حالٍ

سَيَتَبَيَّن هَذَا وهذا، فبعد التشكيل -في الحقيقة- لا تتبين القراءة، يعني لا تكون الكلمة الوَاحِدة جامعة للقراءات.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أليس القُرْآن نزل ملفوظًا به، فالمقصود تَعَلُّم اللفظ، فما المانع على هَذَا أن تكونَ الكِتَابةُ على هَذِهِ الطَّريقةِ جائزةً؟

نحن نقول بناء على الخلاف، أَمَّا إذا قُلْنا بالجواز فطَريقة برايل جائزة، لكِن الَّذِي يوجِب علينا الإِشْكال قول مَن قال: إن فيها اختصارًا. المهم أننا إذا قُلْنا بالجواز سواء تفصيلًا أو إطلاقًا فطَريقة برايل هَذِهِ جائزة للحاجة، فعلى القول بجواز كتابة القُرْآن بغير الرسم العثماني الأمر فيها واسع، وما زال النَّاس الآن بالنسبة لتعليم الصبيان يكتبونه بالرسم العصري، وأنا ليس عندي إشكال في جواز الرسم العصري حتى وإن لم يحتج الإِنْسَان إليه، كما أشرنا إليه، وذكرنا ثلاثة أوجه للجواز:

الوجه الأول: أن القُرْآن نزل مَلفوظًا به لا مَكتوبًا، وحِينَئِذٍ يمنع التوقيف.

الوجه الثَّاني: أَنَّهُ إِنَّمَا كُتب على هَذَا الوجه لِأَنَّ القاعدة الرسميَّة في ذلك الوقت كانت على هَذَا الوصفِ، لا لأنَّ الرَّسول مثلًا قال: اكْتُبُوه على هَذِهِ الصِّفةِ، أو أن جِبريل نَزَلَ به على هَذِهِ الصِّفةِ، إلى آخِرِهِ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: في حديثٍ ذَكَرَه الزُّرقاني ذَكَرَ فيه كيفيَّة أمرِ النَّبيّ ﷺ لهم بكتابةِ القُرْآنِ على هَذِهِ الصِّفةِ، كأنْ يقولَ لَهُم: مُدُّوا الألفَ أوْ حرِّكوا اللامَ، ذكر فيه قواعد الرسم الخمسة: الحذف والوصل... إلخ؟

فالجواب: إذا قال: مُدُّوا الألف فهذا عليهم؛ لِأَنَّ (مَلِكْ يَومِ الدِينِ) إذا مُدَّتِ الألفُ ثَبَتَتِ الألفُ، معَ أني لا أَعتقِد أن هَذَا يَصِحُّ عن الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أبدًا،

يعني أن يقول: اكْتُبُوا الصلاة بالواوِ، واكتبوا الزكاةَ بالواوِ، واكْتُبُوا الربا بالواو، فالَّذِي يُغيِّر اللفظَ هو أن يأمر به الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لفظًا أي أمرًا خاصًّا، فهَذَا معلومٌ، أَمَّا الأحرف السبعة فباللفظ لا بالكِتَابةِ.

الوجه الثالث: أَنَّنا نَجْزِمُ أَنَّهُ لو كانتِ القواعد الرسميَّة في ذلك الوقت على غير هَذَا الشكل؛ لَكُتِبَ بها بلا شكٍّ، فلا يُمْكِنُ أن يُكتَب بغير القواعد الرسميَّة في ذلك الوقت، لَكِنَّهُ في عهد عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كَتَبُوه حسَب القواعد الرسميَّة -فيما يبدو لي- في المدينة في ذلك الوقت.

فعلى هَذَا نقول: هَذَا القول هو الراجِح؛ أَنَّهُ يجوز أن يُكتَب القُرْآن بحسَب القواعد العصريَّة، والَّذِي نراه أيضًا: أَنَّهُ لا يجوز أن يُكتَب بالرسم العُثماني للجاهِلِ، فالإنْسَان الجاهل لا يجوز أن نكتُبَ له بالرسمِ العثمانيّ، والسَّبب أَنَّهُ لو قَرَأَهُ على حسَب الرسم العُثماني وهو لم يُعلَّم إيَّاه في التلاوة سوف يُحَرِّفُ القُرْآنَ.

• • ۞ • •

الآيــة (٦)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٦].

ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الغيبَ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا﴾ للمؤمنينَ ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم].

قوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ﴾ أي القُرْآن، أمر للنبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأن يقول لهم في رد قولهم: ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ ونحن ذكرنا فيما سبق أن القُرْآن كله قد أُمر النَّبي ﷺ بتبليغِه، ولَكِن إذا جاء حُكْم مِنَ الأحكام أو خبر مِنَ الأخبار وأُمِرَ النَّبي ﷺ أن يقولَه فهذا يدل على الاهتمام به والعناية به، كأنه وصيَّة خاصَّة بهذا الأمر، وفي هَذَا المقام الَّذِي معنا فيه أيضًا زيادة على ذلك أَنَّهُ دَعْمٌ للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لِأَنَّهُ إذا كان الله هو الَّذِي يُلَقِّنُه الحُجَّة كان ذلك أبلغَ في دعمِه وتقويتِه، يعني كأن الله يُلَقِّنه الحجَّة لِيُحَاجَّ عنه، لكِن على لسانِه.

قوله: ﴿ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ قد يَبدو للإنْسَان لأوَّل وَهلة أن هَذَا الجواب غيرُ مقنِعٍ، كيف ذلك؟ لِأَنَّ الرَّسولَ ما زال يقـول: إن الَّذِي أنزلَهُ الله، فكيـف يَكُون هَذَا الجواب مفحِمًا لهم ومبـطِلًا لقولِهم؟

الوجه الأول: أن في القُرْآن أسرارًا وإخبارًا بالغيب لا يمكن أن يأتيَ بها بَشَرٌ. ولهذا قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾، ففي أخبار هَذَا القُرْآن ما هو مِنَ الأسرار الَّتِي لا يطَّلِع عليها مُحَمَّد ﷺ ولا غيره، ولهذا عدل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن قوله: قُلْ أنزله الله إلى قوله: ﴿ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾، يعني وَرَدَ في القُرْآن مِنَ الأخبار ما لم يكن معلومًا حينها، فيُخبِر بالخبر فيقع، فالرَّسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لا يمكنه أن يعلم ذلك، وإنما الَّذِي يعلمه الله، وهو الَّذِي أنزله، فنأخذ من قوله: ﴿ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ البُرهانَ القاطِعَ عَلَى أَنَّ هَذَا القُرْآن ليس من كَلام الرَّسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وليس أساطيرَ الأوَّلين؛ لِأَنَّ فيه إخبارًا عن أمورٍ مستقبَلةٍ تقع كما أخبر، ولا أظنّ أنَّ بشرًا يتمكَّن من ذلك، هَذَا وجهٌ بَيِّن جدًّا.

وجهٌ آخرُ يمكِن أن يؤخَذ، وهو أَنَّهُ إذا كان هَذَا القُرْآن من عند مُحَمَّد ﷺ وينسُبه إلى اللهِ، ويجاهد به وعليه أيضًا، فإن الله لا يمكِن أن يُقِرَّه على هَذَا الأمر؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى يعلَم السرَّ، وهذا الَّذِي فعله مُحَمَّد ﷺ على فرضِ أَنَّهُ ليس بصحيحٍ هل هو سرٌّ أو جهرٌ؟ هو جهرٌ، فإذا كان الله يعلم السرَّ فَإِنَّهُ يعلم الجهرَ من باب أَولى، وإذا كان يعلم الجهرَ، ومُحَمَّد عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يقول: إن هَذَا كَلام الله؛ فإن الله تَعَالَى لا يمكن أن يُهْمِلَه، ولكان الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يعاجله بالعقوبة؛ لِأَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ بعض الأقاويل ليس كلها ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة:٤٥-٤٦]، وهذا هو السِّرُّ في العُدُول عن قولِه: (قلْ: أنزله الله) إلى قوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ المُفسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ تَصَرَّفَ في إطلاق هَذِهِ الآية، فالآية ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وهو يقول هنا: [﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا﴾ للمؤمنين

﴿رَّحِيمًا﴾ بهم]، وهذا التصرف مِنَ المُفَسِّر في الحقيقة تخصيص لا وجه له، فالله تَعَالَى موصوف بهذا الوصف ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا﴾ لكل مَن يَستحِقّ المغفِرة من مؤمنٍ معه أصل الإيمان لَكِنَّهُ يعمل المعاصي.

الآيتان (٧، ٨)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان:٧-٨].

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾.

قُلْنَا: إن (ما) استفهاميَّة، و(لهذا) جار ومجرور خبر المبتدأ، و﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ الجملة ما محلها مِنَ الإعراب؟ نأتي بآيةٍ تُشْبِهُها حتى يَتَّضِحَ لنا: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر:٤٩]، كيف نعرب ﴿مُعْرِضِينَ﴾؟ حال. إذن قوله: ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ الجملة حاليَّة، يعني ما باله آكِلًا للطعام، كأَنَّهُمْ يقولون: لو كان رسولًا لم يأكل الطعام. هَذِهِ وَاحِدةٌ.

ثانيًا: ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ يمشي في الأسواق مع النَّاس لا يَتَرَفَّع ولا يَحتبئ في بيته، ولا يمشي ومعه جنوده يمينًا وشِمالًا وأمامًا وخلفًا.

ثالثًا: لماذا يمشي في الأسواق؟ ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾، يعني كأَنَّهُمْ يقولون: ولماذا لم يكن معه مَلَك؛ لِأَنَّ ﴿لَوْلَآ﴾ بمعنى (هلَّا)، وهي للتحضيضِ.

وقوله: ﴿مَلَكٌ﴾ أحد الملائكة، وهو مشتقٌّ مِنَ الأَلُوكَة، وهي لغة الرِّسَالة، وقد قَالَ الله تَعَالَى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١].

قوله: ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ﴾ مع الرَّسول ﷺ ﴿نَذِيرًا﴾ يعني منذرًا؛ لِيُعْلَم بذلك أَنَّهُ صادق.

الوجه الرابع: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنَ السَّمَاء ينفقه، ولا يحتاج إلى المشيِ في الأسواق لطلبِ المعاشِ].

قوله: ﴿يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ يعني يُنزل كَنْزٌ مِنَ السماءِ، وإنما قُلْنا: مِنَ السَّمَاء لِأَنَّ قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ يدل على الانتهاء والغاية، وإلا مِنَ الجائز أن يَكُونَ معنى قوله: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ يعني يجد كَنزًا في الأرض، ولَكِنَّ (إلى) تفيد الانتهاء والغاية، فيَكُون معنى هذا: يُلْقى إليه مِنَ السماء، أي يُنْزَلُ إليه مِنَ السَّمَاء كَنز ليَكُونَ ذا مالٍ كثيرٍ؛ فلا يَحتاج إلى المشيِ في الأسواق، ولا يُصيبه الفقر كما هي حال النَّبي ﷺ الآن يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾.

﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بستان ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي من ثمارها فيَكتفي بها، وفي قراءةٍ: «نأكل» بالنون، أيْ نحنُ، فيَكُون له مَزِيَّة عَلَيْنَا بها]، قوله [وفي قراءة]، أي سَبْعِيَّة؛ لِأَنَّ قاعدة المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ إذا قال: «وفي قراءة» فهي سبعيَّة، وإذا قال: (وقُرِئ) فهي شاذَّة. إذَن فيها قراءتان ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ و«نأكُل مِنهَا»[1]. فهَذِهِ خمسةُ أشياءَ اعْتَرَضُوا بها.

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص٢٦٤).

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي الكافرون للمؤمنين ﴿إِن﴾ ما ﴿تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾ مخدوعًا مغلوبًا على عقله].

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أولًا في هَذَا إظهار في مَقام الإضمارِ؛ لأنه قَالَ قبلُ: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾، وهنا ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ والإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ له فوائدُ:

الْفَائِدَة الأُولى: أَنَّهُ يُسجِّل على هَؤُلَاءِ وصفهم بهذا الظاهر، إن كان كفرًا فَهُوَ كفر، أو كان ظلمًا فَهُوَ ظلم، أو فسقًا فَهُوَ فِسق، أو إيمانًا فَهُوَ إيمان، إلى آخرِه.

الْفَائِدَة الثَّانية: أن هَذَا الحكم أو هَذَا القول أو هَذَا الفعل ظلمٌ من أيِّ إنْسَانٍ وقع؛ لِأَنَّهُ للتعليل، فهذا القول يُعتبر مِنَ الظلم، فيَكُون الأمر شاملًا، يعني أن كلَّ مَن قالَ فَهُوَ ظالِمٌ.

الْفَائِدَة الثالثةُ: التنبيه: تنبيه المخاطَب؛ لِأَنَّ اختلاف الكَلام أو اختلاف النسق في الكَلام يُوجِب الانتباه، فالكَلام إذا كان على نَسَق وَاحِدٍ فإن الإنْسَان يَنسجم، وربما يسرح، فإذا جاءه شَيْءٌ على خلافِ النمطِ الأولِ حَصَلَ بذلك الانتباه، وهَذِهِ الْفَائِدَة لفظيَّة، والفائدتانِ الأُوليانِ معنويَّتان.

قوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِن﴾ ما]، (ما) هَذِهِ تفسير لـ﴿إِن﴾، يعني أن ﴿إِن﴾ نافية، وإذا كانت نافيةً فالمسألة فيها حَصرٌ، يعني ما تتبعون إلا رجلًا، وهذا أبلغُ من قولهم: إنكم تتبعون رجلًا مسحورًا، يعني كأَنَّهُمْ قالوا: إن الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس له حال مِنَ الأحوال إلا أَنَّهُ مسحورٌ، أي: مخدوع مغلوب على عقله ومختل العقل بالسحر. ومِنَ العجائب أَنَّهُمْ أحيانًا يقولون: إِنَّهُ ساحرٌ، وأحيانًا يقولون: إِنَّهُ مسحورٌ، وبينهما فرقٌ، لكِن مع هَذَا المبطِلُ كلُّ ما يمكِنه

مِنَ الدعاوي الباطلة يأتي بها، ولو تناقضتْ.

فننظر الآنَ إلى هَذِهِ الأشياءِ الستِّ الَّتِي قَدَحُوا في النَّبيِّ ﷺ بها:

أوَّلًا: قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ نجيبهم بأنه بشر، فَهُوَ محتاج إلى الطعام، وهذا ليسَ بقادحٍ ما دامت القرائنُ أو البيِّنات شهِدتْ بصدقِه، فإن كونه يأكل الطعام لا يَمنعُ من صدقِه؛ لِأَنَّهُ بَشَرٌ.

ثانيًا: قولهم: ﴿وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ نَرُدّ عليهم بأن هَذَا مما يؤيِّد كونَه رسولًا، لا مما يناقِض كونه رسولًا؛ لِأَنَّ هَذَا يَدُلُّ على تواضُعِهِ وعلى مَحَبَّتِه لأنْ يَكُونَ بين أُمَّته يفيدهم ويَسْتَفِيدون منه، إذَن فهَذِهِ كونها دليلًا على الرِّسَالةِ أوضحُ من كَوْنِهَا مانعًا منَ الرِّسَالةِ.

ثالثًا: قولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ﴾ كأنَّهم يقولون: ولماذا لم يُنْزَلْ عليه مَلَكٌ؟ فيُقال: أولًا: إِنَّهُ أُنْزِلَ إليه مَلَك لَكِنَّه ليس كما طَلَبُوا يَمْشِي معَه ويُنذِر، فإنَّ جِبريلَ قد أُنزل إلى النَّبيِّ ﷺ ومعه الوحيُ، وهذا هو ما يقوله النَّبيّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأمَّا كونه معه مصاحِبًا له فهذا لا يَقدَح في الرِّسَالةِ إذا لم يَكُنْ مصاحبًا؛ لِأَنَّهُ لو كانَ مصاحِبًا وجاء على غير صفةِ الملائكةِ عاد الأمرُ كما كان، وصارت الحُجَّة الَّتِي يَحتجُّون بها أو الشُّبهة الَّتِي يَحتجون بها موجودةً، ولو جُعِلَ في صورة الملَك لكان يُقضَى عليهم إذا لم يُؤمِنوا؛ لِأَنَّ الآياتِ المعيَّنة إذا طُلِبَت ولم يُؤمِن مَن طَلَبها فَإِنَّهُ يُهْلَكُ، وأمَّا آية انشقاق القمرِ فليستْ معيَّنة، ولهذا قيَّدناها بالآياتِ المعيَّنة إذا طُلِبَتْ، أمَّا إذا قالوا: أَرِنا آيةً ولم يُعَيِّنونها فهذا قد لا يَهْلِكون به.

رابعًا: قولهم: ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ﴾ يقولون: لماذا لم يكنْ هَذَا غنيًّا، فكونه قليلَ ذاتِ اليدِ يدُلُّ على أَنَّهُ غير رسولٍ، يقولون: أنت رسول فلماذا لم يَنزِلْ عليك

كَنز تَستغني به عن طلب الرزق؟ بماذا نُجيبهم؟ دَفع قولهم أنَّ النَّبيَّ ﷺ خُيِّر بينَ أن تُسيَّر معه الجبال ذَهَبًا أو خُيِّر بين أن يَكُونَ ملِكًا نبيًّا أو عبدًا نبيًّا، فاختار هذا.

لَكِنْ هَذِهِ ليستْ مقنِعةً لهم، فنقول: الرِّسَالة لا تَتَوَقَّف على المال، وليس المال دليلًا للرسالة؛ لِأَنَّ هناك أُناسًا كثيرينَ أغنياء ولَيْسُوا برسلٍ. ثُمَّ نقول: إن عدم المال معه قد يَكُون أكْثَر لتأييد كونه رسولًا؛ لِأَنَّهُ لو نزل إليه مال وكان عندَه كَنزٌ واتبعه النَّاس مِنْ أجْلِهِ لصارت المسألة أَنَّهُمْ ما اتَّبعوه مِنْ أجْل رسالته، ولقيل: اتبعه النَّاس مِنْ أجْل كَنزه وغِناه. إذَن نقول: كونه لم يُنزَل عليه كَنز ليس مانعًا مِنَ الرِّسَالة؛ لِأَنَّ ثبوت الرِّسَالة لا يتوقف على الكنز، بل تَثْبُتُ بدونه، فهذا إبطال لقولِهم.

خامسًا: قولهم: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ نقول فيها مثل ما قُلنا في مسألة الكَنْز؛ أن هَذَا ليس بلازمٍ للرسالةِ، وأنه لو كان له جَنَّة يأكل منها أو (نأكل) على القراءة الثَّانية، وهي أَولى، لقيل: إنهم اتَّبعوه لأجل الأكل من هَذِهِ الجنَّة.

سادسًا: قولهم: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ بماذا نَرُدُّ عليهم؟ نرد عليهم بأن المسحور لا يُمكِن أن يأتيَ بمثل هَذَا الكَلام الَّذِي يعجِز عنه العقلاء، فيقال: فهل يمكن لإنْسَان مسحور مخبول العقل بالسِّحر أن يأتي بكَلام يعجِز عنه العقلاء ويُتَحَدَّى العقلاء أن يأتوا بمثله ولا يستطيعون؟ لا يمكن، هَذَا واضح جدًّا، ولهذا قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، فالمسحورُ لا يُمْكِن أنْ يأتيَ بمثلِ هَذَا الكَلام، فنحنُ لا نقولُ: إِنَّهُ يأتي بكَلامٍ يُمْكِن نَقْضُه أو لا يُمْكِن، بل لا يُمْكِن إلَّا أن يأتيَ بكَلامٍ غيرِ متوازنٍ، فكيف بكَلامٍ مُعْجِزٍ؟!

الآيـة (٩)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴾ [الفرقان:٩].

الاستفهام في قولِهِ: ﴿كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ﴾ للتعجُّب والإنكارِ.

وقوله: ﴿ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ يعني الأشباهَ أوِ الأوصاف، فالمَثَل يأتي بمعنى الشَّبَه ويأتي بمعنى الصِّفة، قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ﴾ [محمد:١٥]، معنى ﴿مَّثَلُ﴾ صفة الجنة، قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ﴾ [البقرة:١٧]، شَبَهُهُمْ كشَبَهِ، فالأمثال إما بمعنى الأشباه أو بمعنى الأوصاف. يعني كيف جَعَلوا هَذِهِ الأوصاف الَّتِي يقدَحون برسالتِك بها، انظُر إليها متعجِّبًا، والتعجُّب يَقتضي في الغالب الإنكارَ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ بالمسحورِ والمحتاج إلى ما يُنفِقُه، وإلى مَلَكٍ يقوم معه بالأمْر ﴿فَضَلُّواْ﴾ بذلكَ عن الهُدَى ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ طَريقًا إليه].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ﴾ الخطاب للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكونه يخاطِب الرَّسول ﷺ بهذا الإنكارِ عليهم لا يَخْفَى ما فيه من التأييدِ والتقويَةِ للرسول ﷺ، وعناية الله تَعَالَى به ﷺ، وهذا أمرٌ معلومٌ.

وقوله: ﴿فَضَلُّوا﴾ الفاء هَذِهِ عاطِفـةٌ، لَكِنَّها تفيد السَّببـيَّة، أي فبسَبَب ما ضَرَبُوه لكَ منَ الأمثال ضَلُّوا. وفي هَذَا دليلٌ على أنَّ الإنْسَان إذا أوردَ الشُّبُهاتِ على نفسه أو على مَن أتى بالحقِّ فَإِنَّهُ يَكُون سَبَبًا لضلالِهِ إذا لم يَقْبَلِ الإنْسَانُ الحقَّ ويَدَع ما يَرِدُ على خاطِرِه من الشُّبُهات حول ذلك الحق، فَإِنَّهُ يَكُون سَبَبًا لضلالِه، ولهذا قال: ﴿فَضَلُّوا﴾ الفاء عاطفة وتفيد السَّببيةَ.

وقد ذكر ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (مِفتاح دار السَّعادة) أَنَّهُ تكلم مع شيخِه ابن تيميَّة في مسائل فجعل يُورِد عليه بالنقض، فقال له: «لا تَجْعَلْ قَلْبَكَ للإيرادات والشُّبُهاتِ مثلَ السفنـجة فيَتَشَرَّبها فلا ينضح إلَّا بِهَا، ولَكِن اجْعَلْهُ كالزُّجاجة المُصْمَتَة، تَمُرُّ الشُّبُهَات بظاهرها ولا تَسْتَقِرّ فيها، فيراها بصفائه ويَدْفَعها بصَلابتِه»[1] وهذا صحيحٌ؛ لِأَنَّ الإنْسَان إذا فتح على نفسِه بابَ الشُّبُهات والتساؤلات فإنَّهُ يَضِلّ، وانظُرْ إلى إرشاد النَّبي ﷺ الرجل حينما يتساءل النَّاس: مَن خَلَقَ كذا؟ من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقولوا: من خلق الله؟ فأمر النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الإنْسَـان إذا وصل إلى هَذَا الحدِّ أنْ يَستعـيذَ بالله ولْيَنْتَهِ، وأَرشدَه إلى أن يقرأ «**اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَـدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُـوًا أَحَدٌ**»[2] وفي حديـثٍ آخرَ: «**هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**»[3] فهَذِهِ الأشياء الَّتِي تَرِدُ على القلب إذا استرسلَ الإنْسَان معها فسوف تكونُ سَبَبًا لضلالِهِ كما تفيده هَذِهِ الآية وآيات أخرى كثيرة، مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن قيم الجوزية (١/ ١٤٠) ط. دار الكتب العلمية.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في الجهمية، رقم (٤٧٢٢).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في رد الوسوسة، رقم (٥١١٠).

فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، فالإنْسَان يَجِب عليه أن يَكُون قابلًا للحقِّ متشوِّفًا له، ولا يُورِدُ على نفسِه شُبُهاتٍ؛ لِأَنَّ الشبهات ما لَهَا حدٌّ، والشيطان يحبُّ من ابن آدم أن يَرِدَ على قلبه هَذِهِ الشبهات لِيَضِلَّ.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالمسحور والمحتاج إلى ما ينفقه]، المسحور واضح، وقوله: ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ كلها مندرِجة في قوله: [والمحتاج إلى ما ينفقه وإلى مَلَكٍ يقوم معه].

الخلاصة: أن هَؤُلَاءِ الكفار جعلوا مع الله آلهةً، وهذا قَدْحٌ في التَّوحِيدِ، ثُمَّ زَعَمُوا أنَّ القُرْآنَ أساطيرُ الأوَّلينَ، وهذا قَدْحٌ في القُرْآنِ مباشرةً، ويَتَضَمَّن القَدْحَ في الله أيضًا، والقدح في الرَّسول ﷺ، ثُمَّ بعد ذلك ذكر الله قَدْحَهم في الرَّسول ﷺ؛ القدح المباشر بهَذِهِ الأوجه الستةِ، وتَبَيَّنَ -ولله الحمد- أن هَذِهِ الأوجه الَّتِي أوردوها قدحًا في النَّبي ﷺ كلها ليستْ بقدحٍ، بل منها ما يؤيِّد أَنَّهُ رسولٌ.

وقدِ استدلَّ بعضُ العلماءِ بهَذِهِ الآية عَلَى أَنَّ النَّبي ﷺ لم يُسْحَرْ، وكذَّبوا بذلك الأحاديثَ المشهورةَ -بل المتواترة- أن النَّبيَّ ﷺ سُحر، وأن الله أنزل عليه المعوِّذتينِ لنقضِ هَذَا السحرِ، وهذا أمر لا شكَّ فيه؛ لِأَنَّ الأحاديث في ذلك متواترة، لكِن هم يقولون: هَذِهِ الأحاديث كلها كذِب ليستْ صحيحةً؛ لِأَنَّ القول بأنه مسحور هو قول الكفَّار، فهل لاستدلالهم بهَذِهِ الآية وجهٌ أو لا؟

الردُّ عليهم بأنْ نقولَ: إنَّ هَـؤُلَاءِ الظالمينَ الَّذِينَ قالوا: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أرادوا بذلك أن السحرَ وَصْفٌ لازِمٌ له، وأن كل هَذَا الكَلام الَّذِي يقوله كَلامٌ مسحور مخبول، أَمَّا السحر الَّذِي طرأ على النَّبي ﷺ فَهُوَ سحر طارئٌ، ثُمَّ مع ذلك ما أثَّر في الرِّسَالة أبدًا، عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تقول: الَّذِي حصل أَنَّهُ كان يخيَّل إليه

أَنَّهُ فعل الشَيْء ولم يفعلْه، هَذَا الَّذِي حصل، وهي مدة وجيزة أيضًا، ولم يؤثر هَذَا في الرِّسَالة، فما قَالَ شيئًا في الرِّسَالة مما يمكِن أن تتغير به الرِّسَالة في هَذِهِ المدَّة.

فالحاصِلُ: أنَّ الاستدلالَ بهَذِهِ الآيةِ على إبطال أحاديثَ صحيحةٍ متواترةٍ لا شكَّ أَنَّهُ جُرأةٌ عظيمة، فلو كانت الأحاديث ضعيفةً أو كانت الأحاديث مثلًا من الأحاديث الَّتِي في أَدنَى مراتب الصحة لَكِنَّا نقول: إن هَذَا له وجهٌ، وَأَمَّا أحاديث صحيحة مشهورة متواتِرة ونُبطِلها بمثل هَذَا الأمر فلا يمكن، ولذلك الصواب، بل اليقين المتيقَّن المتعيَّن أن ذلك وقع للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولَكِنَّ الله تَعَالَى أنزل عليه سورتينِ ثُمَّ هُدِيَ إلى مَحَلّ السِّحر، وسِحره كان في بِئْرِ أَرِيسٍ، وكان في مُشْطٍ ومُشَاطَةٍ وجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ[1] يعني كافورًا، كافور الفَحل يَكُون كبيرًا ويَسَع، هَذَا السحر وُضِعَ للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في مُشط: الَّذِي يكَد به الرأسُ، والمُشاطة: الشَّعر الَّذِي يتناثر مع الكد، وجُعل هَذَا الكافورُ في البئر الَّذِي كان الرَّسول ﷺ يأتي إليه، وذهب النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأمر بأن يُخرَج هَذَا السحر فأُخرِجَ السحرُ فنُقِضَ، فعافاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: ﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾: ﴿سَبِيلًا﴾ بمعنى طَريقًا، وهو طَريق إلى الهدى، والعياذ بالله، وفي هَذَا تحذير -كما أشرنا إليه أولًا- من أن يتابع الإنْسَان الشُّبه الَّتِي تَرِد عليه، وأنه يَجِب على الإنْسَان أن يَبْتَعِدَ عن هَذَا كلِّه.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب السحر، رقم (٥٧٦٣)، ومسلم: كتاب السلام، باب السحر، رقم (٢١٨٩).

الآيــة (١٠)

* قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴾ [الفرقان: ١٠].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ تَبَارَكَ ﴾ تكاثَر خَيْر ﴿ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ﴾]، المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أول السورة فسَّر تبارك بـ(تَعَالَى)، وهنا فسَّرها بـ(تكاثر خَيْرُه)، فهل معنى ذلك أن هَذِهِ الكلِمة خاضعة للسياق، وأنها تفسَّر في سياقٍ بمعنى (تَعَالَى) وفي سياق بمعنى (تكاثر خيرُه)؟ ظاهر صَنيع المُفَسِّر أنها كذلك وأن هَذِهِ الكلمة (تبارك) إن جاءت في سياق فُسِّرَت بمقتضاهُ وإنْ جاءت في سياق آخَر فسرت بمقتضاه، ولَكِنَّنا أشرنا فيما سبق إلى أنها وإنْ دلَّتْ على التعالي فهي دالَّة أيضًا على كَثرةِ الخير؛ لِأَنَّهَا مِنَ البَركة، والبركة هي كثرة الخير مع دوامِهِ، مأخوذةٌ من البِرْكة الَّتِي هي مَجْمَعُ الماءِ، ففيها ماء ثابتٌ وكثيرٌ.

قوله: ﴿ تَبَارَكَ ﴾ أي تَعالَى معَ كثرةِ الخيراتِ ﴿ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ إلى آخره، جُملة صلة الموصول هنا شرطيَّة، أي الجملة الَّتِي وُصل بها الموصول شرطية؛ وهي ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ﴾، فنستفيد من ذلك أن صلة الموصول تأتي شرطيةً، وإذا أتتْ شرطيةً فلا بدَّ من وجود فعل الشرطِ وجواب الشرط، ثُمَّ نقول: الجملة من فعل الشرط وجوابه صلة الموصول لا محلَّ لها من الإعرابِ.

قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ﴾ والمراد به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الَّذِي قالوه من الكَنز والبُستان]، ما هو الخير؟ أبدل منه قوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي في الدُّنْيا؛ لِأَنَّهُ شاءَ أن يُعْطِيَهُ إيَّاها في الآخرة ﴿وَيَجْعَل﴾ بالجزم ﴿لَّكَ قُصُورًا﴾ أيضًا، وفي قراءة بالرفع استئنافًا[1]].

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي في الدُّنْيا؛ لِأَنَّهُ شاء أن يعطيَه إياها في الآخِرة]، ليس له داعٍ؛ لِأَنَّ السياق يُغني عن هَذَا القيد؛ إذ إن هَؤُلَاءِ يَقترِحون أنْ تكونَ هَذِهِ الأمور السابقة لهم في الدُّنْيا، فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا﴾، فالقيد الَّذِي ذكره المُفَسِّر كأنه يقول جوابًا عن الإيراد الَّذِي يرِد علينا؛ وهو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد شاء أن يعطيَ رسوله جنة الآخرة، فقيَّد الآية بالدُّنْيا.

نقول: لا حاجة لهذا القيد؛ لأَنَّهُمْ هم لا يريدون أن الله يجعل له كنزًا وجنةً في الآخرة، يريدون أن تكون له في الدُّنْيا، فيقول الله: لو شاء أن يجعل لك ذلك لجعل لك خيرًا منه؛ وهي هَذِهِ البساتين، وهم يقولون: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ والَّتِي يجعل الله بدلًا عنها لو شاء جناتٍ ليست جنَّةً وَاحِدةً.

قوله: ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ الجَنَّة ربما يُؤكَل منها، وهي ليس فيها أنهارٌ، يعني يمكن أن يشربَ النخيلُ والأشجار بعروقِه، لكِن قوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أبلغ وأَتَمُّ؛ لأنَّ لِجريانِ الماءِ في أنهارِهِ شَهوة بَصَرِيَّة يَتَلَذَّذُ بها الإنْسَان عند رؤيته إيَّاها زيادةً على كثرة الماء على البُستان الَّذِي يَكُون سَبَبًا لكثرة نَمائِهِ وقوَّتِه.

وقوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ فيها قراءتان (يَجْعَلْ) بالسكون و«يجعلُ» بالرفع،

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٤).

فعلى قراءةِ السكونِ تكون معطوفةً على جوابِ الشرطِ ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ﴾ ﴿وَيَجْعَل﴾، وعلى قراءة الرفع يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [استئنافًا]، ولَكِنَّه ليس متعينًا على قراءة الرفع، يعني كأنَّه يقول: وهو يجعل لك قُصورًا، وليس كذلك، يعني لا يُفهَم منه هَذَا الأمرُ، فَهُوَ استئناف من حيثُ الإعرابُ، لا من حيثُ المعنى؛ لَكِنَّه من حيثُ الإعراب يجوزُ فيه الجَزْم اتِّبَاعا للفظِ، ويجوز الرفعُ استئنافًا، ويَكُون عَطْفَ جملةٍ على جملةٍ، يقول ابن مالكٍ في أَلْفِيَّتِه[1]:

وَبَعْدَ مَاضٍ رَفْعُكَ الجَزَا حَسَن .....

يعني إذا كان فعل الشرط ماضيًا فرفع الجزاء إذا كان مضارعًا حسنٌ.

..... وَرَفْعُهُ بَعْدَ مُضَارِعٍ وَهَنْ

يعني: ضَعْفٌ، فَهُوَ جائزٌ لَكِنَّه ضعيفٌ.

فائدة: عِناية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالرَّسولِ ﷺ في الدفاعِ عنه، وعنايةُ الله بالرَّسولِ في الدفاعِ عنه ليستْ عنايةً به وحدَهُ، بل حتى بالأُمة؛ لِأَنَّ ذلك يُزِيلُ الشُّبَهَ الَّتِي يَحْتَجُّ بها المبطِلون، وإزالةُ الشُّبَه عن الأُمَّة هَذَا من رَحمة اللهِ تَعَالَى بهم.

• • ۞ • •

(١) ألفية ابن مالك (ص٥٨)، ط. دار التعاون.

الآيــة (١١)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان:١١].

لَمَّا ذَكَرَ الله عَزَّوَجَلَّ ما جَنَى به هَؤُلَاءِ عليه وعلى وحيه وعلى رسولِه والجواب عنْ ذلك؛ ذَكَرَ أمرًا آخَرَ، وهو تكذيبهم بالساعةِ، وأتى بـ(بل) الدالَّة على الانتقالِ، وهذا الانتقال ليس إبطالًا لِمَا سبقَ، بل إضافة شَيْء آخَرَ إليه، وهو قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ﴾، والمرادُ بالساعةِ يومُ القيامةِ، وكلمةُ الساعةِ تُطْلَق في اللُّغة على كل أمرٍ هامٍّ، كأنه لا يوجَد إلا هَذِهِ الساعة الَّتِي يُشار إليها بهذا الزمنِ، وإلا فهي في الأَصْل لكلِّ مُدَّةٍ من الزمان؛ قليلة كانت أم كثيرة، لَكِنها تُطلَق كثيرًا على ما يَحْدُثُ فيه أمر هامٌّ، وذلك كما في هَذِهِ الآية.

والتكذيبُ بالساعةِ يَشمَلُ التكذيبَ بوقوعِها رأسًا، بأن يقولَ: لا بعثَ، أو التكذيب بما يَقَع فيها من الأمور؛ كالحساب والكُتُب والصِّراط والحوض والشفاعة وما أشبهَ ذلك؛ لِأَنَّ الإيمان باليوم الآخِر يَتَضَمَّن الإيمان بوقوعِه وبما يقع فيه، فإذا كَذَّبَ به الإنْسَان رأسًا فقد كذَّب به، وإذا صدَّق به ولَكِن كذَّب بما يقع فيه فَهُوَ أيضًا مكذِّب له.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ نارًا مُسعرةً، أي مُشْتَدَّة]،

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ بمعنى هَيَّئْنَا ﴿لِمَن كَذَّبَ﴾ بالساعةِ منهم ومن غيرهم، ولهذا أتى بـ(مَنْ) الدالَّة على العمومِ، ولم يَقُلْ: وأَعْتَدْنَا لهم، وهذا إظهارٌ في موضِعِ الإضمارِ، وقد سبقَ أنَّ من فوائدِ الإظهارِ في مَوْضِعِ الإضمارِ العمومُ والتصريحُ بالعِلَّة؛ عِلة الحُكم، فقوله: ﴿لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ كأن هَذَا تعليلٌ للحُكْمِ الَّذِي هو قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾؛ لأَنَّهُمْ كذَّبوا بالساعة.

وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ﴾ يستفاد منه أن النار مَخلوقةٌ الآن، وهو كذلك، وقد دلَّت على ذلك نصوصُ الكِتَابِ والسنَّة؛ قَالَ الله تَعَالَى عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦]، وهذا نصٌّ صريحٌ في أنها مخلوقةٌ. وفي الأحاديث الصحيحة ما يَدُلُّ على ذلك؛ مثل: «اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: يَا رَبِّ، أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ؛ نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ»[1].

وقوله: ﴿سَعِيرًا﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نارًا مُسَعَّرَة]، فجعل فَعيلا بمعنى مفعول، أي مسعَّرة، ويَحتمِل أنْ تكونَ بمعنى فاعلٍ؛ أي حارقة تُحْرِق مَن دخل فيها، والمعنى لا يَتنافَى؛ لِأَنَّهَا إذا كانت مُسَعَّرة يعني مشتَدَّة الحرارة، أو كانت هي بنفسها تَسْعَرُ بالنَّاس وتأكلهم، فهذا وهذا متلازمانِ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٦٠)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يمضي إلى جماعة، ويناله الحر في طريقه، رقم (٦١٧).

الآيــة (١٢)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا﴾ غَلَيانًا كالغضبانِ إذا غَلَى صَدرُه منَ الغَضَب ﴿وَزَفِيرًا﴾ صوتًا شديدًا أو سماعَ التغيُّظ رُؤْيته وعِلمه].

قوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، الفاعل هي السَّعير، وفيه دليلٌ على أنها تَرَى، وهَذِهِ الرؤيةُ يجِب أن نَحْمِلَها على المعنى الحقيقيِّ، ولا يمكِن أن نقولَ: إن هَذَا من باب الاستعارة، وإنه معنًى مجازيٌّ؛ لِأَنَّهُ من الجائز أن يخلُق الله تَعَالَى فيها إدراك الرؤيَة، وإن كانتْ هي ليستْ من ذواتِ الرؤيةِ في العادةِ، ولَكِن الله عَزَّوَجَلَّ على كـلِّ شَيْءٍ قدير، كما أن الأرضَ تَسمَـع وتحدِّث: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:٤]، والمؤذِّن لا يسمع صوته شَجَرٌ ولا مَدَرٌ إلا شَهِدَ له يومَ القيامةِ[1]، فنحن نقولُ: ليسَ في هَذِهِ الآية استعارة، بل هي على المعنى الحقيقيِّ، وأن النار ترَى؛ لِأَنَّ الله أخـبرَ أنها ترى ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ [الفرقان:١٢]، وما المانِع مِن أن الله يخلُـق بها هَذِهِ الحاسَّة، بدليل قوله أيضًا: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا﴾ [الفرقان:١٢]، التغيُّظ من المعروف أَنَّهُ لا يَكُون إلا من ذواتِ الشُّعور، ولَكِنْ مع هَذَا يجِبُ أن نقولَ: إِنَّهُ في هَذِهِ الآية على ظاهره، وإنها تَتغيَّظ ويُسمَع لِتغيُّظِها صوتٌ مثل تغيُّظ الإنْسَان الغضبانِ، إذا امتلأَ

(١) أخرجه ابن خزيمة (١/ ٢٠٣، رقم ٣٨٩).

صدرُه غَضَبًا فإنك تَسمَع له صوتًا من الغَضَبِ، وهذا دليل على شِدَّة حَنَقها - والعِيَاذُ بالله- على أهلها، وأنها كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة تبارك: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك:٨]، فما ظنُّك بشَيْءٍ يُلقَى الإنْسَانُ في جوفِه وهو ممتلِئٌ عليه غيظًا وحَنَقًا، ماذا يَصنع به؟ هَذَا دليل على شِدَّة عَذابها والعياذُ باللهِ، وأنها لا تَرْحَمُهم ولا تألو فيهم أيّ شَيْء إلَّا ولا ذِمَّةً.

قوله: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا﴾ [غَلَيانًا كالغضبان إذا غلَى صدره غليانًا من الغضبِ]، ﴿وَزَفِيرًا﴾، وهو من مكان بعيدٍ، مِمَّا يدلُّ على أنَّ هَذَا التغيُّظ والزفير شديد، ما دام يُسمَع من محَلٍّ بعيدٍ فَإِنَّهُ شديد.

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [أو سماع التغيُّظ: رُؤْيَتُه وعِلْمُه]، هَذَا ليس بصحيحٍ، وإن كانَ محتمَلًا، لكِن المعنى الأوَّل أن تُحمَل الرؤية على الحقيقةِ، هَذَا هو الواجب، وقد مرَّ من قواعد التفسير، بل من قواعد كل كَلام، أَنَّهُ يَجِب أن يُحمَل على ظاهِرِهِ وعلى حقيقتِه ما لم يوجدْ دليل يَصرِف عن الحقيقةِ أو الظاهرِ، وليس أَيَّ دليلٍ، بل لا بدَّ أنْ يوجدَ دليلٌ صحيحٌ، وَأَمَّا ما يظنُّه الإنْسَان دليلًا وليس بدليلٍ فهذا غير مقبول.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعضهم يقول إن المراد بقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ أي: إذا رآهم زَبَانِيَتُها؟

هذا من التحريفِ في الواقعِ؛ لأَنَّنا قُلْنا: جائِزٌ أنَّ الله تَعَالَى يخلُق فيها حاسَّة الرؤية.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وردت أحاديثُ ضعيفةٌ في أن النار لها عينانِ، وهَذِهِ الأحاديث تؤيدنا؟

فالجواب: هَذِهِ الأحاديث الضعيفة نحن لا نحتاج إلى تأييدها ما دام عندنا اللفظ صريح ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤]، فالَّذِي خَلَقَ العينَ في الإنْسَانِ لا يَمتنِع عليه أن يَخْلُقَها في النار، لكِن بعض النَّاس إذا لم يُدْرِكْ عقلُه الشَيْءَ ذَهَبَ يحرِّفه إلى ما يدركه، ثُمَّ إِنَّهُ يَجِب أيضًا أن نعرِف أن أحوال الآخِرة لا يُمكِنُ أن تُقاس بأحوال الدُّنْيا، نحن نعلم أن النَّاس يُحشَرون منهم من يَسعَى نورُه بين يديه، ومنهم من هو في ظُلْمَةٍ، وهم في مكانٍ وَاحِدٍ مستوٍ يُسْمِعُهم الداعي ويَنْفُذُهُمُ البصرُ، ونعلم أن من النَّاسِ من يَعْرَق فيصل العرقُ إلى كَعْبَيْه وركبتيه وحِقْوَيْه، ومنهم من يُلْجِمُه إلجامًا، ومع ذلك فهم في مكانٍ وَاحِدٍ، ولا يمكن أنْ تُقاسَ أحوالُ الآخِرةِ بأحوالِ الدُّنْيا أبدًا.

• • ۞ • •

الآيتان (١٣، ١٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان:١٣-١٤].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ بالتشديد والتخفيف]، يعني قراءتينِ سَبْعِيَّتَيْنِ[1]، ثم قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بأن يضيَّق عليهم و﴿مِنْهَا﴾ حال من ﴿مَكَانًا﴾؛ لِأَنَّهُ في الأَصْل صفة له ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾]، إلى آخره.

قوله: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ﴾ في هَذَا دليل على أَنَّهُمْ -والعِياذُ بالله- لا يُعامَلون معاملةَ رحمةٍ، بل يُلقَوْنَ إلقاءً ويُطرَحون طرحًا. وقوله: ﴿مَكَانًا﴾ ظرفٌ عاملُه قوله: ﴿أُلْقُواْ﴾، وقوله: ﴿مِنْهَا﴾ في الأَصْل صفة، ولَكِن القاعدة عند أهل النحو أن الجارَّ والمجرور إذا تقدمَ على مَوْصُوفِهِ صار حالًا منه؛ لِأَنَّ الصِّفةَ لا تَتَقَدَّمُ على الموصوفِ، تقول مثلًا: (جاء رجل على بعيرٍ راكبًا)، فتعرب (راكبًا) حالًا، لكِن لو قدمتها على رجل (جاء راكب) لوجبَ أن تكون صفة بالمعنى، كذلك الجارّ والمجرور إذا قلت (جاء رجل على بعير) (على بعير) صفة لِرَجل، فإذا قدمتَ (على بعير): (جاء على بعير رجل) وجب أن تكون الصِّفة هَذِهِ حالا؛ لِأَنَّ الصِّفة لا تَتَقَدَّمُ على الموصوفِ، ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [و﴿مِنْهَا﴾ حال من ﴿مَكَانًا﴾ لِأَنَّهُ في الأَصْل صفة له].

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٥).

وفي قوله: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ أيضًا دليل عَلَى أَنَّ هَذَا المكان الَّذِي يُلقَوْن منه لا يَكُون واسعًا، بل يُضَيَّقُ عليهم، وهذا قبل دخولها، فكيف إذا دخلوها، ويَحتمِل أنَّ نفس الأمكِنة الَّتِي هم فيها في نفس النار تكون ضيِّقةً إذا أُلقوا مكانًا منها ضيقًا، فتكون (مِنْ) هَذِهِ قريبةً من معنى (فيها)، فالمكان نفسه في النار يَكُون ضيِّقًا، يعني تضيَّق عليهم؛ لِأَنَّ كل وَاحِد منهم -والعياذ بالله- يَكُون في تابوتٍ كما جاء في الحديثِ؛ في تابوتٍ مغلَق عليه[1].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ألا يُشكِل على هَذَا أنَّ بعضَ أجسادهم تُفَخَّم في النار؟

نقول: هو نفسه يُفخَّم، ولَكِن لا يَمنَع أن يُفخَّمَ وهو في مكانٍ ضيِّقٍ، ويمكن أن يَكُونَ تفخيمُه هَذَا من أسباب التضييقِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ مصفَّدين قد قُرِنَتْ أي جُمِعَتْ أيديهم إلى أعناقِهم في الأغلالِ، والتشديدُ للتكثيرِ]، التشديد في قوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ لِأَنَّ (مُقَرَّن) مأخوذٌ من (قَرَّنَ) أو من (قُرِّنَ)، قُرِّن فَهُوَ مقرَّن، وأصلها من (قَرَنَ) بالتخفيف: قَرَنْتُ هَذَا الرجل أَقْرِنَهُ فَهُوَ مقرون، لَكِنها أتتْ بالتشديد للتكثيرِ، أو للمبالَغة في هَذَا القَرْن، وأَنَّهُمْ يُقَرَّنون بشدة، فهم إذا ﴿أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هلاكًا فيقالُ لهم ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾]، هَذَا في الحقيقة تصويرٌ بَيِّن لحالِ النارِ وأهلِها يوم القيامةِ، أَنَّهُمْ قبل أن يدخُلوها يَسمعون لها تغيُّظًا وزَفيرًا، وهذا بلا شكٍّ يَخلَع قلوبهم ويُرعِبهم، ثم إذا أُلقوا فيها لا يُلقَون على سبيل الكرامةِ، بل يُلقَون إلقاءً، ثم إنهم لا يلقون هكذا مطلَقين، ولكن مقرَّنين، يعني مجموعة أَيديهم إلى أعناقِهم،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٢١٠، رقم ٣٥٤١٤).

ثم إذا أُلقُوا على هَذَا الوصف يُدْعَوْنَ بالثُّبور والعياذ بالله ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ يعني: يقولون واهَلَاكَنا واثُبُورَنا، وما أشبهَ ذَلِكَ، فيقال لهم: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾، هَذَا على سبيل التوبيخِ؛ لِأَنَّ العادةَ أن الرجلَ إذا دَعَا بالثبورِ في الدُّنْيا رُحِم، ولكنَّهم هناك لا يُرحَمون، يقال لهم: إِنَّ دَعْوَاكُم بالثبورِ لا تفيدكم شيئًا ﴿وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ فالعذاب سَيَسْتَمِرّ، وكل هَذَا يُوجِب لأهلِ النارِ -نسأل الله السلامة منها- أَنَّهُمْ يُعذَّبون عذابًا قلبيًّا وعذابًا جسميًّا، والعذاب القلبيّ قد يَكُون في بعض الأحيان أشدَّ من العذاب الجسميِّ، والعياذ بالله، فهم لا يُكَرَّمون لا بالفعلِ ولا بالاستقبالِ ولا بالقولِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما ذُكِرَ عن هَـؤُلَاءِ الكفارِ فيما سبقَ من الآياتِ يَدُلّ على أَنَّهُمْ لا يؤمنون بالبَعث، فلماذا نصَّ على تكذيبهم بالبَعث؟

صحيحٌ أن ما ذكر عنهم مما سَبَقَ يدل على أَنَّهُمْ لا يؤمنون بالبعثِ؛ لِأَنَّ مَن آمَنَ بالبَعث لَزِمَ أنْ يَعْمَلَ له، ولكن هَذَا في الحقيقة من جملةِ ما قالوه؛ أَنَّهُمْ كذبوا بالبعث، فَهُوَ إضافة إلى ما سبقَ، لكِن يَنبغي أن نقولَ: لماذا ذُكِرَ بـ(بل) دون (الواو)، مع أن المعائب أو المساوئ الَّتِي سبقت كلها ذُكرت بالواو، وهَذِهِ ذكرت بـ(بل)؟ قد يوحي هَذَا بأن من أسباب أقوالهم السابقة أَنَّهُمْ كذبوا بالساعةِ، يعني أَنَّهُمْ ليس عندهم إيمان بالساعة، ولو آمنوا بها ما قَالُوا ما سبق.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل كل كفَّار العرب يُنكِرون الساعة؟

الجوابُ: الظاهرُ لَيْسُوا كلهم ينكرون هذا، فبعضهم يُقِرّ بهذا، لَكِنَّهُ يُشرِك بالله، ولكن يذكر الله عَزَّوَجَلَّ الأفعالَ منسوبةً إلى الأُمَّة جميعًا، حتى إِنَّهُ أحيانًا يخاطِب آخِرَ الأُمة بما فعل أوَّلُها؛ لِأَنَّهَا تَرضَى به وتُقِرّه، انظر مثلًا يخاطب الله بني إسرائيل

في عهـدِ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بما فَعَـلَ أَوَّلُهم: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة:٧٢]، وقوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٥٤]، معَ أن هَذَا الخطاب لا يتأتَّى لهؤلاء؛ لأَنَّهُمْ لَيْـسُوا هم الَّذِينَ فعلـوا، لكِن الأُمَّة الوَاحِـدة يَكُون فِعل بعضِها فِعلًا للجميعِ؛ لِأَنَّهَا تَرضَى به.

• • ۞ • •

الآيتان (١٥، ١٦)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان:١٥-١٦].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ أَذَٰلِكَ﴾ المذكور من الوعيد وصفة النار ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ﴾ ها ﴿ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ﴾ في علمه تَعَالَى ﴿جَزَآءً﴾ ثوابًا ﴿وَمَصِيرًا﴾ مَرْجِعًا].

الخِطَاب في ﴿قُلْ﴾ للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وكذلك لغيرِهِ، ولهذا يمكِن أن نقول: إنَّ الخِطابَ لكل من يَتَأَتَّى خِطابه، يعني الرَّسول ﷺ وغيره، ولكن الأقرب أَنَّهُ للنبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومع ذلك الخطاب للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولأُمته ما لم يَدُلَّ الدليلُ على تخصيصِه، فنحن كل وَاحِد يمكن أن يقولَ مثل هذا، فيقول للمكذِّبين الَّذِينَ وُعِدوا بالنار: أذلك المذكورُ من الوعيد الَّذِي لا بدَّ أنْ يقعَ ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾؟ فالجوابُ: بل جنة الخلد بلا شك.

وهنا إشكال، وهو أَنَّهُ قال: ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾، معَ أنَّ ذلك لا خيرَ فيه إطلاقًا، فكيف يُمكِن أن يُقارَنَ بما فيه الخيرُ المطلَقُ؟

الجواب: أنَّ هَذَا من باب التنزُّلِ مع الخَصْم، ولا بأسَ أن تأتيَ مثل هَذِهِ المقارنة،

وقد قارن الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بينَ شيئينِ بينهما من التبايُنِ أعظم من التباين في وَعيد أهل النار ووعد أهل الجنة؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]، ومعلوم أن الله خيرٌ وأنه لا يمكِن لأيِّ عاقلٍ أن يقارِن بين هَذَا وهذا، لكِن لَمَّا كان المخاطَبون يُساوون غير الله بالله صارَ من بابِ التنزُّل معهم أن نخاطِبَهم بهذا ونقول: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ أضافها إلى الخُلد من باب إضافةِ الموصوفِ إلى صِفتِه، يعني الجنة الَّتِي هي مكان الخُلد، والخلد معناه المُكث، وقد صَرَّح الله تَعَالَىٰ كثيرًا بالتأبيدِ في خلودِ أهلِ الجنَّةِ، وأمَّا أهل النار فالتأبيدُ وَرَدَ في ثلاثِ آياتٍ من القُرْآنِ؛ في سورة النساءِ وفي سورة الأحزابِ وفي سورة الجنِّ؛ ففي سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]، وفي سورة الأحزاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥]، وفي سورة الجِنّ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

وفي هَذَا ردٌّ واضِحٌ على من قالَ: إن عذابَ النار غير مؤبَّد، وممن مال إلى هَذَا القول -وهو من أغرب ما يَكُونُ- ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث كان يميل إلى أن عذاب النار لا يؤبَّد، وأنه لا بد أنْ يَنتهيَ، ولكن لا يقول: إِنَّهُ يَنتهي ثم يَنتقل أهل النار إلى الجنة، لا، لكِن ينتهي بمعنى أنها تَفنَى ومَن فيها، وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكره في شفاء العَليل، وجَزَمَ به في أولِ الكَلامِ، ثم ساق الآثارَ في هذا[1].

(١) (ص٢٥٥ وما بعدها)، ط. دار المعرفة.

والصواب الَّذِي لا شكَّ فيه ما عليه جمهورُ أهلِ السنَّة، وحُكي إجماعًا أن النارَ مؤبَّدة هي وأهلها، وهذا لا ينافي رحمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى قد أَعذرَ إلى هؤلاءِ وأقامَ عليهم الحُجَّة، فهم الَّذِينَ جَنَوْا على أنفسِهم.

وأما الاستثناء في هُود فقد استثنى من قولِه: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٧]، فَإِنَّهُ لو قيدت بدوامِ السَّمواتِ والأرضِ لكانَ لها أَمَدٌ، فلمَّا قال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ فهذا ما خرج عن دوام السَّموات والأرض، فهذا معنى الاستثناء.

وأما قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:١٢٨]، نقولُ: هَذَا الاستثناء: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ دلت النصوصُ على أَنَّهُ لا يشاء أن لا يُخلَّدوا، فكأن هَـذَا الاستثناءَ يُشِيرُ إلى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لو شـاء لَمَنَعَ العذابَ عنـهم، وأنه ليس أمرًا محتَّمًا عليه، بل هو في مشيئته، فالاستثناء إذَنْ مُفَـسَّرٌ بالآيات الصريحةِ الواضحةِ أَنَّهُ تَعَالَى لا يشاء أنْ يرفعَ العذابَ عنهم؛ لِأَنَّهُ أخبرَ، ولا يخلِف الله الخبرَ بأن عذابهم مؤبَّد.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما مناسبة قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]، بعد قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٧]؟

الجواب: كأنه يُشْعِر أن أحدًا لو قال: كيف يفعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هَذَا مع أَنَّهُ عذاب دائم، ورحمته وسعتْ كل شَيْء؟ فقال: إِنَّهُ فعَّال لما يريد، مثلما قال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨]، وفي الحقيقة هَذِهِ الاحْتِمَالات، وإنْ كانتْ قد يَكُونُ لها وجهٌ، لكِن ما دام عنـدنا نصوصٌ صريحةٌ محكَمَة، فالواجـب على المؤمنِ أنْ يَحمِلَ المتـشابِهَ على المحكَمِ، ما دام أن المسائلَ في الآياتِ الثـلاثِ هَذِهِ احْتِمَال فإن عندنا

شيئًا لا يَحتمِل وهو التصريح بالتأبيدِ، وكما هو معروف أن هَذَا خبرٌ، والخبرُ لا يَدْخُلُه النَّسْخُ ولا التعيينُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: العربُ تَتَمَدَّحُ بإخلافِ الوعيدِ دونَ إخلافِ الوعدِ؟

الجواب: الله جَلَّ وَعَلَا يُتَمَدَّح بأنه لا يُخلِف، وأن خبره صِدْق، والوعيد الَّذِي يتمدح الله به هو ما يدخل تحت المشيئةِ، ما سوى الشرك، مثلًا يوجد وَعيد على المعاصي الَّتِي دون الشرك، فإذا عفَا الله عنها فهذا طيِّب ويُمدَح عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما تقولون في قول عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو لَبِثَ أهلُ النارِ كقَدْرِ رَمْلِ عَالِجٍ لكانَ لهم على ذلك يومَ يخرجون فيه»[1]؟

الجواب: لكِن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغير عمر، يخاطَب بقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

لَوْ قِيلَ: كَلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس صريحًا.

نقول: حتى لو كانَ كَلامه صريحًا وقال: سيخرجون، نقول: لا يخرجونَ، ما دام توجد آياتٌ صريحةٌ، وأيضًا قوله تَعَالَىٰ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ:٢٣]، هَذِهِ لا تدل على التقييد؛ لِأَنَّ أحقابًا يعني طويلة لا مُنْتَهى لها، هَذَا هو المعنى، والإنْسَان إذا تَصَوَّرَ أَنَّهُ يَبْقَى في النار ليس أحقابًا بل ثانية من الزمن، وهو عاقلٌ، فسوف يَتَجَنَّبُ عَمَلَ أهل النارِ، فكيف بمن يَلْبَثُون فيها أحقابًا؟! فهي لا تدل على التَّقييد، ومَن زَعَمَ أنها تدُلّ على التقييدِ وقال: إن الأحقابَ هَذِهِ مقيَّدة بما بعدَها، يعني أحقابًا لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا وأحقابًا أخرى يذوقون،

(١) الدر المنثور (٤/ ٤٧٨) وعزاه لابن المنذر.

فهذا ليس بصحيحٍ، بل إن المعنى المبالَغة في ذلك، وأَنَّهُمْ لَابِثون فيها دُهُورًا عظيمةً طويلةً لا مُنْتَهى لها.

قوله: [﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ﴾ ها ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾]، أتى المُفَسِّر بـ(ها) وهي مفعولٌ ثانٍ لـ﴿وُعِدَ﴾ لأن (وَعَدَ) مما ينصب مفعولينِ ليسَ أصلهما المبتدَأ والخبر، فالمفعولُ الأوَّلُ محذوفٌ، والمفعولُ الثَّاني نائبُ الفاعل ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾، وقد سَبَقَ كثيرًا أن المتَّقِيَ هو مَنِ اتَّخَذَ وِقايةً من عذابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بفعلِ أوامرِهِ واجتنابِ نواهِيهِ، وأن هَذَا أجمع ما قيل في التقوَى وأنسَب ما يَكُون لِلَفْظِها؛ لِأَنَّهَا من (اتقى) من الوقاية.

وقوله: ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الَّذِي وَعَدَهُمُ الله عَزَّوَجَلَّ، وحذف الفاعل هنا للعلمِ به؛ كقولِه تَعَالَىٰ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، والخالِق هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ في عِلمه]، تقييدُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكَينونة في عِلمه لِأَنَّ (كان) فعلٌ ماضٍ، والجنة ستكون مصيرًا، فلهذا قيَّد الكَينونةَ الَّتِي عُبِّر عنها بالفعلِ الماضي، قيَّدها في علمِ اللهِ، يعني لا بِحَسَبِ الواقعِ؛ لِأَنَّ الواقعَ لم تَكُنْ، وإنَّما سَتَكُون، ولكن هَذَا بناءً عَلَى أَنَّ (كان) يُراد بها الزمنُ، مع أنَّ (كان) إذا تأمَّل الإنْسَان مَوَاضِعَها في القُرْآنِ وفي السنَّة وَجَدَها أنها أحيانًا تَدُلُّ على مجرَّدِ الحَدَثِ، لا على الزمنِ؛ لِأَنَّ الفعلَ كما هو معروفٌ يَدُلّ على زمنٍ ومعنًى، فـ(كان) دائمًا تأتي للدَّلالة على مجرَّد المعنى فقط، يعني الَّتِي وُعد المتقون وهي لهم جزاء ومصيرٌ، وعلى هَذَا فلا حاجةَ إلى التقديرِ الَّذِي ذَكَرَهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا هو الأوضحُ، ولا حاجةَ إلى أن نقدِّر أنها كانت في عِلم اللهِ، بل هي كانت، أي: هي جزاء، فنُجَرِّد (كان) من الدَّلالةِ على الزمنِ، وإذا جَرَّدناها كما تَرِد كثيرًا في اللغةِ العربيَّة سلِمنا من هَذَا التقديرِ

الَّذِي جاء به المُفَسِّر. ومثلـها قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٢٣]، مجردة عن الزمنِ؛ لِأَنَّ الله ما زالَ ولا يزال غفورًا رحيمًا، عندما نأتي بـ(كان) ونقول: المراد بها الزمَنُ والحَدَث تكون معـفرة الله ورحمته فيما سبق، أمَّا الآنَ فليسَ غفورًا رَحيمًا! لكِن هَذِهِ يُرادُ بها مجرَّدُ الحَدَثِ، يعني أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بالمَغْفِرَةِ والرَّحمةِ، ومثلها هَذِهِ الآية. و(كان) دائمًا تَدُلُّ على مجرَّد الحَدَث، لا على الزَّمَن.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إنَّ قولَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يؤتَى بها لكي تتناسب مع رُؤوس الآيِ؟

فالجواب: ليس بلازمٍ، أحيانًا تأتي متناسبةً وأحيانًا تأتي غيرَ متناسبةٍ. المهم أنَّ (كان) تأتي دائمًا في اللغة العربيةِ لا يُرادُ بها الزمَنُ، وإنما يُرادُ بها مطلَق الحَدَث، يعني أن هَذَا الأمرَ هو الواقع، فهنا قوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ من المعلومِ أنَّ المتقينَ الآنَ ما دَخَـلُوا الجنةَ ولا صاروا إليها، ولكنَّهم سَيَصِيرُونَ لذلك، فاحتـاج المُفَسِّر أن يُقَدِّر (في عِلمه) إذ كانت في علمِ اللهِ، ولكنَّنا نقول: لا حاجة لهذا التقديرِ؛ لِأَنَّ (كان) مسلوبة الدلالة على الزمنِ.

وقولـه: ﴿جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثوابًا]، والَّذِي جعـلَ هَذَا الثوابَ لهم هو الله عَزَّوَجَلَّ. ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَصِيرًا﴾ مَرْجِعًا]، متى تكون مصيرًا؟ تكون مصيرًا مِن حين يموتون، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النحل:٣٢]، وليسَ المراد أنهم يدخلون الجنَّة الَّتِي في السماء فور موتهم، ولهذا يُفتَح له بابٌ إلى الجنَّةِ ويُفرَش له فِراش من الجنَّة، ويُلبس بلِباسٍ من الجنة، فالمتقونَ من حينِ يموتونَ يدخلون الجنةَ، كما أنَّ أهلَ الجَحِيم من حين يموتون يذوقون عذابَ الجحيمِ.

وأنا قد سمِعت البارحةَ وَاحِدًا يَقْرَأُ في كُتُبِ المواعظ، وفي كتب المواعظ يأتون بالمَوْتِ والدُّود مثل أكله الدود والصَّديد وهَذِهِ الأشياء، في الحقيقة إِنَّما تكون على الجسم فقط، والنَّاس إذا شعروا بهذا الشَيْء لا يفرحون بالمَوْت، بل ينفرون منه كثيرًا، فالَّذِي يَنْبَغِي أن يُوعَظ الإنْسَان بما يَكُون على رُوحه، فيقال مثلًا: إِنَّهُ إذا مات وهو ليس من أهل التقوى يَكُون له من العذاب كذا وكذا إلى آخِره، وإذا كان من أهل التقوى يَكُون في نعيمٍ، ومن أهل الجنَّةِ، لأجلِ أنَّ المؤمنَ يَفرَح، أمَّا أننا نَذهَب ونُوَجِّه النَّاسَ إلى التخويفِ مِنَ الأَمْرِ الحِسِّي الماديّ فقطْ فهذا في الحقيقةِ مما يُسِيءُ إلى النَّاسِ، فعندما يسمع الإنْسَان هَذَا الشَيْءَ هل يَكُون مطمئنًّا للموت؟ لا، أبدًا، يَنْفِرُ منه، لكنْ عندما يَسمَع أَنَّهُ إذا كان مؤمنًا دخلَ الجنَّةَ من حين ما يموت، تجده لا أقول: يفرح بالمَوْت، لَكِنَّهُ يَستبشِر بهذا الوعدِ الَّذِي يَكُونُ له، فهذا هو الَّذِي يَنبغي أن يُنَشَّأُ النَّاسُ عليه، ما يَنبغي أَنَّهُمْ يُذْكَرُ لهم من الأمور المادية فقطْ، ولذلك لو تأملتَ القُرْآنَ كلَّه لَوَجَدْتَ أنَّ هَذِهِ الأمور المادِّيَّة ليس لها ذِكْرٌ في القُرْآنِ، إِنَّما يُذْكَر في القُرْآنِ ما يَكُون على الرُّوحِ مِنَ النَّعيمِ أو العذاب، حتى يَسْتَبْشِرَ الإنْسَانُ ويَفْرَح ويعمل لهذا النعيم ويخاف ويَرْهَب ويَهْرَب مِن هَذَا الجَحيم.

هَذِهِ المسألة أَحْبَبْنَا أنْ نُنَبِّه عليها لِأَنَّهَا توجد كثيرًا في كتب الوَعظ، فمثلما يوجد في كتب الوعظ أشياء كثيرة تُرَغِّب فيما نهى عنه الشرع، فإنها ترغِّب في الأمور الَّتِي نهى عنها الشرعُ، مثلما يذكرون عن بعض العُبَّادِ الَّذِينَ يُعذَرون بجهلهم أَنَّهُمْ كانوا يقومون الليل كله في جميع أعمارهم، وقالوا: إن فلانًا بقِي أربعين سنةً يصلي الفجر بوضوء العشاء، قصدهم بهذا الترغيب، هَذَا ضد ما أمر به الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فيَكُون هَذَا من المحادَّة لله ورسوله، فهم يأتون بأمورٍ منكَرة لا يعرفونها، وأنا أبيِّن ذلك لِأَنَّ طلَّاب العلمِ يَسمعون مثل ما أسمع، فإذا حصل أنَّ قارئًا مثلًا من الأئمَّة

يقرأ في مثل هَذِهِ الكتب فَإِنَّهُ يَجِب علينا أن نتكلم معه، ليس أمام النَّاس، لا؛ لِأَنَّ العوامَّ كما هو معروف يَكُونون مع إمامهم، فيمكن أن تقوم بحقٍّ وهم يقومون عليك، لكِن من الممكن إذا انتهى تقول: يا أخي، فتأتي به بطمأنينة وتقول: أنت إمام يُقتدَى بك والعوامّ يقولون: (ما قيل في المِحْراب فَهُوَ صواب)، فيَجِبُ أن تعرفَ أن هَذَا خِلافُ الشرع. وتُبيِّن له ما استطعتَ مِنَ البيان حتى يَكُون الأئمَّة الَّذِينَ يُقتدَى بهم الآن على صوابٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل حديثُ ضَغطةِ القبرِ صحيحٌ؟

الجواب: ضَغطة القبرِ لا أَعْرِف في صِحَّتها دليلًا، وَرَدَ في قِصَّة سَعْدِ بنِ مُعاذ[1]، ولكن لا يَحْضُرني الآن هل هو صحيح أم لا؟ هو قَطعًا ليس في الصحيحينِ، لكِن لا أدري هل يصل إلى درجة الصحة أم لا، لكِن مهما كان ضغطة القبر ليست بشَيْءٍ بالنسبة لما يقولون وما يصفونَ من حال الميتِ، وهم يركِّزون على مسألةِ الجسمِ، حتى إن النَّاسَ مهما كانت أعمالُهم الصالحةُ يَقَعُون في القُنوط.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل فَناء الجسم أو بقاؤه دليل على الصلاح؟

فالظاهر: أن بقاءَه يدل على الصلاح؛ لِأَنَّهُ ما يَبْقَى إلا كَرامة؛ لِأَنَّ الأَصْل أن الأجسام تأكلها الأرض إلا الأنبياء؛ فإنهم لا تأكلهم الأرض[2]، وفناؤه لا يدل عَلَى أَنَّ الإنْسَان ليس من أهلِ الخيرِ، لكِن بقاء الجسم قد يَقَعُ كرامةً لبعضِ أهلِ الخيرِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: وهل الأرض لا تأكل أجساد الشهداء؟

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب الجنائز، باب ضمة القبر وضغطته، رقم (٢٠٥٥).

(٢) أخرجه أبو داود: تفريع أبواب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، رقم (١٣٧٤)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة، رقم (١٠٨٥).

قُلْنَا: الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء فقط، وهو من باب الكرامة، وكذلك قصة عمر لما حفروا القبور، لكِن في شهداء أُحد مَن وُجد أن الأرض قد أكلتْ بعضَ جِسْمِه، ليس كل جِسْمه.

وقوله: ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ هَذِهِ الآية تدل عَلَى أَنَّ كل ما يشاءون فَهُوَ لهم، وفي سورة (ق) أن الله قال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، يعني عند الله مَزيد على ما يشاؤه الإنْسَانُ؛ لِأَنَّ الإنْسَان مهما بلغَ فإن تصوُّره وإرادته قاصرة، فقد يشاء أشياءَ ويَخفَى عليه من النعيم أشياء فيكملها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له، ولهذا قال: ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ﴾ حال لازمة]، الحال اللازمة (خالدين)، ما معنى حال لازمة؟ هل هناك حال لازمة وحال عارضة؟

فالجواب: نعمْ، إذا كانت الحال ليستْ لازمةً لصاحبها فهي حال عارضةٌ، تقول: أقبل الرجلُ راكبًا، هَذِهِ حالٌ عارضةٌ؛ لِأَنَّهُ قد يُقبِل غيرَ راكبٍ، ماشيًا.

الآيات (١٧- ٢٤)

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان:١٧-٢٤].

الآيــة (٢٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان:٢٥].

قوله: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾ أمر الله عَزَّوَجَلَّ أن يذكرَ هَذَا اليومَ العظيمَ، وهو يوم تَشَقُّقِ السماءِ بالغَمام لِنُزُول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ من كل سماء ﴿تَنزِيلًا﴾ هو يوم القيامة، ونصبه بـ(اذْكُر) مقدَّر، وفي قراءة بتشديد شينِ تَشَّقَقُ بإدغام التاء الثَّانية في الأَصْل فيها، وفي أخرى: (نُنْزِلُ) بنونين، الثَّانية ساكنة وضم اللام ونصب (الملائكة)].

القراءات:

في ﴿تَشَقَّقُ﴾ قراءتان: أولًا: القراءة المشهورة ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾، القراءة الثَّانية: «تَشَّقَقُ»، وأصلها تَتَشَقَّق، فأُدغمت التاء في الشين فصارت تَشَّقَقُ، وأيهما أبلغ: ﴿تَشَقَّقُ﴾ أم «تَشَّقَقُ»؟ «تَشَّقَقُ» أبلغُ[1].

وأما ﴿وَنُزِّلَ﴾ ففيها قراءتانِ سَبعيَّتان: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ على أنها فعل ماضٍ، و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ نائب فاعل، والثَّانية «نُنْزِلُ المَلائكَةَ» على أنها فعل مضارع والملائكة مفعول به، والفاعل هو الله[2].

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٥).

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

ومن بلاغة القُرْآن أن القراءات يُستفاد منها إما التفسير وإما زيادة المعنى، فقراءة «تَشَّقَّقُ» فيها زيادة المعنى، وعلى قراءة: «نُنْزِلُ المَلائكَةَ» فيها تفسير؛ لِأَنَّ قوله: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مبني للمجهول، فالفاعل غير معلوم، وَأَمَّا قوله: «نُنْزِلُ المَلائكَةَ» فمبنيَّة للفاعل، فالفاعل فيها معلوم، وعلى هَذَا إذا سُئلت: مَنِ الَّذِي ينزل الملائكة؟ تقول: هو الله، والدليل أمر مفهوم بالأذهانِ، ودليل آخر من لفظ الآية؛ القراءة الثَّانية: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

قوله: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ كل سماء أكْثَر ملائكة من السَّمَاء الَّتِي تحتها، كذلك أيضًا هَؤُلَاءِ الملائكة الَّذِينَ يُحيطون بالعالم، كل دائرة أكْثَر عددًا من الدائرة الَّتِي قبلَها، وإنما يُنَزَّلُونَ بَيانًا لعظمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وإحاطة بالخَلْق، وحينئذٍ يَصدُق قول الله تَعَالَى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرَّحمن:٣٣]؛ لأَنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ معَ إحاطةِ الملائكة بهم أن يهربوا من أهوالِ هَذَا اليومِ.

وقوله: ﴿تَنزِيلًا﴾ مصدر نُزِّل، وهو كما أسلفنا يدل على أَنَّهُمْ ينزلون شيئًا فشيئًا، لا ينزلون جملةً، فتنزل ملائكة السَّمَاء الدُّنْيا أولًا، ثم الثَّانية، ثم الثالثة، إلى السابعة، وأشرنا إلى الآية الَّتِي في سورة الرَّحمن دفعًا لقولِ بعضِ النَّاسِ الَّذِينَ يفسِّرونها بهَذِهِ الأقمار الصناعيَّة أو المراكب الفضائيَّة الَّتِي صعِد النَّاس بها إلى الفضاء، ويزعمون أن قولَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ إلا بعِلمٍ، وأن هَذَا العلم أَوصَلَهم إلى النفوذِ، وهذا لا شكَّ تحريفٌ للقرآنِ، ولا حاجةَ إلى أن نَتكَلَّف فنقول: كل ما يحدث فإن في القُرْآن له شاهد، لا حاجة إلى هَذَا التكلُّف؛ لِأَنَّ هَذِهِ الحوادث شواهدها حصولها، متى حَصَلَت فإننا نؤمنُ بها، سواء دلَّ عليها القُرْآنُ

أو سكت عنها القُرْآن، إلَّا إذا دل القُرْآن على نفيِها؛ فَإِنَّهُ لا يجوز لنا أن نُصَدِّقَها، وكل ما يحدث من هَذِهِ الاختراعات وهَذِهِ الصناعات فَإِنَّهُ داخلٌ في قوله تَعَالَى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بعد أن قال: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨]، هَذِهِ الآية يدخل فيها كل ما حَدَثَ وكل ما يحدُث من مثل هَذِهِ الأمور، وَأَمَّا أن نحرِّف القُرْآن إلى ما يوافق هَذَا الواقع فهذا حرامٌ علينا، ولا يجوزُ، وأمَّا قوله: ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ فليس المراد به العلم، المراد به السُّلطة الَّتِي تتمكَّنون بها من النفوذ؛ لِأَنَّ السلطان في كل موضع بحسَبه، وأصله السلطة الَّتِي يتمكَّن بها الإنْسَان من الوصول إلى ما يريد، فمثلًا إذا كانت في دعوى مدَّعٍ نقول: لا سلطان لك بهذا، يعني لا حُجَّة لك، كما قال الله تَعَالَى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ﴾ [يونس:٦٨]، يعني ما عندكم من حُجة؛ لِأَنَّ الحُجَّة السلطة يتمكن بها المدَّعي من إثباتِ دَعْوَاهُ، ثم إن الآية ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وهَؤُلَاءِ لم ينفُذوا من أقطار السَّموات، حتى لو قُلْنا: إنهم نَفَذُوا من أقطار الأرض وخرجوا عن محيط الأرضِ، فإنهم لا يستطيعونَ أن ينفُذوا من أقطارِ السَّموات، ثم إن الآيةَ ظاهرةٌ في التحدِّي ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، والتحدي بما يُمكِن غير صحيحٍ؛ لِأَنَّهُ يُبْطِل التحديَ، ثم إن قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ [الرَّحمن:٣٥]، يكذِّبه الواقع، يعني يكذب دَعْوَى هَؤُلَاءِ الواقع؛ لأَنَّهُمْ صعِدوا إلى الفضاءِ ووَصَلُوا إلى ما وصلوا إليه ولم يرسَل عليهم شُوَاظٌ من نار ولا نُحاس.

فالمهمُّ أنا قصدي بذلك أن بعض النَّاس من أهل العلم بالطبيعة يحاولون أن يُوجِدوا لكل حادثٍ دليلًا خاصًّا من القُرْآن، وهذا لا يجوز؛ لِأَنَّهُ يَصرِف القُرْآنَ

عمَّا أراد الله به، ويَقتضي أنْ يَتلاعَب النَّاس بالقُرْآن، ثم إنهم قد يَستدِلُّون بالآيات الكريمة على ما رأوْا من النظرياتِ، وتأتي بعد ذلك نظريات أخرى تُبطِلها، فيكُون القُرْآن حينئذٍ باطلًا حسَب ما استدلَّ به الأوَّلون، ونحن -ولله الحمد- في غِنًى عن هَذَا الأمر، فهَذِهِ الأمور والحوادث الَّتِي تحدث من صنائع الإنْسَان أمرٌ لا حاجة إلى إقامةِ الدليلِ عليه من القُرْآنِ؛ لِأَنَّ واقعها يُثْبِتُها.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هم يريدون إثباتَ إعجازِ القُرْآنِ؟

فالجواب: إعجاز القُرْآنِ يَكفي أن نقولَ فيه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨]، وَأَمَّا الحقائق إذا دل عليها القُرْآن فلا بأسَ، لكنْ كوننا نُحرِّف القُرْآن مِنْ أجْل أن نُخضِعَه للدلالة على هَذَا الأمر فلا، فمثلًا لو استدلَّ أحد على تطوُّر الجنين وخِلقته بالآية الكريمة وبالحديث الصحيح فهذا لا بأسَ، فالشَيْء الَّذِي يدلُّ عليه القُرْآنُ لا بأس به، لكِن شَيْء يحرَّف القُرْآنُ مِنْ أجْلِه فلا.

المهمُّ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يخلُق الشَيْء ولا نعلمه في وقتنا نحنُ، وهذا يَجري على كل هَذِهِ الحوادث، فقبل أن تقعَ لا يعلمها الإنْسَانُ، وبعد وُقُوعها يعلمها؛ لِأَنَّهُ قال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ وهذا شَيْء معلوم ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨]، يعني أشياء لا تعلمونها، وفعلًا خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أشياء ما كانوا يعلمونها في عهد الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وسيخلق أشياءَ لا نعلمها نحن في وقتنا، ويخلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى آخِر الدَّهر شيئًا لا يعلمه مَن سبق، لكِن يعلمه مَن أَدْرَكَهُ؛ لِأَنَّ كونه يخلق معناه يُوجِد، والموجود لا بد أن يُعلم؛ فالله يتحدث عن أمرٍ سيَكُونُ لنا ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ فإذا كان يتحدث عن أمرٍ سيَكُون لنا فمعنى ذلك سنَعْلَمُه إذا خَلَقَه الله جَلَّ وَعَلَا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: استدلَّ بعضهم بأن الأعصاب الخاصَّة بالإحساس موجودة في القشرة الرقيقة الَّتِي على العظم، يقول تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء:٥٦]، هل يقالُ: هَذَا من بيان إعجازِ القُرْآنِ؟

هَذَا أيضًا غير صحيحٍ؛ لِأَنَّ أحوال الآخِرة لا تُقاس بأحوال الدُّنْيا، والإنْسَان مثلًا لو احترقَ الآنَ جلدُه وانكشطَ وأحرقنا اللحمَ يتعذب الإنْسَان بلا شكٍّ، ولا يقال: نجربه، بل يتعذب الإنْسَان به يقينًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا دخلت إبرة في جسم الإنْسَان فَإِنَّهُ عند دخولها يُحِسّ، ثم بعد ذلك لا يُحِسّ؟

نقول: صحيح، هَذَا معقول، وكل الداخليّ في الغالب ليس فيه إشكال، ولهذا لا يحس الإنْسَان بنزول الطعام في بطنِه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام:٣٨]، فهَذِهِ الأحداث لا بد أن تكون في القُرْآن؟

فالجواب: لا إشكال، لكِن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ ما المراد بالكِتَابِ؟ المقصود اللوح المحفوظ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾، لكِن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل:٨٩]، أوضح إن أرادوا أن يستدلوا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ لكننا نعلم أن التبيان إما مجمَل وإما مفصَّل، والقضية المشهورة عن الشيخ مُحَمَّد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع الرجل النصراني حينما سأله عن كيفية صنع الطعام الَّذِي قُدم لهم في المطعم، قال النصراني:

القُرْآن تبيان لكل شَيْء، أين يوجد في القُرْآن كيف يُصنع هَذَا الطعام؟ فقال: هَذَا موجود في القُرْآن. فدعا الطباخ وقال: كيف تصنع هَذَا الطعام؟ قال: أصنعه بكذا وكذا، فقال: هكذا الطَّريق في القُرْآن، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، وكل قومٍ ذِكْرُهم خاصٌّ بهم، فأنا سألتُ هَذَا الرجلَ لأني لا أعلم، فالقُرْآنُ قد يَدُلُّنا على الشَيْءِ مباشرةً أو بالوسيلةِ والطَّريقةِ، فكل شَيْءٍ لا تَعلمه فالطَّريق إلى الوصول إليه أن تسألَ أهلَ ذِكْره، فالمرادُ أهلُ العلمِ، لكِن هل المراد أهل العلم الشرعيّ أو كل علم بِحَسَبه؟ لنفرِضْ أننا خصصناه بالعلم الشرعيِّ أفلا يُقاس غيرُه عليه؟ فهي إما أن تدل على العمومِ وتكون شاملةً لمثل هَذِهِ القضية بدلالة التضمُّن، وإما بدلالة الشمول المعنويّ، لا اللفظيِّ، وهو القياس، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [النحل:٤٣-٤٤]، فهذا يدل عَلَى أَنَّ المرادَ العلمُ الشرعيُّ، والآية الثَّانية: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧]، وهو عامٌّ، لم يَقُلْ: بالبيِّنات والزُّبُر. ومثلما قلت: إن كانتْ شاملةً لكلِّ شَيْءٍ وأن أهل كل ذِكر بِحَسَبه فهي شاملةٌ، وإلا فهي شاملةٌ شمولًا معنويًّا، وهو القياس، فنقول: إذا كان الله أحالَنا على أهل الذكر الشرعيّ لمعرفة الحُكْم الشرعيِّ، فكذلك نحن نتحوَّل إلى أهلِ العلمِ غيرِ الشرعيِّ لمعرفةِ هَذَا العلمِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، هَذِهِ الآية ذُكرت على العمومِ، وأوَّلها يبيِّن أن المراد العلمُ الشرعيُّ؟

لكِن مثلما ذكرنا الآن أن العموم قدْ يَكُون شمولًا لفظيًّا وقد يَكُون شمولًا معنويًّا، فهم لا يَستوون، لكِن الَّذِي يُثنى عليه أهل العلم الشرعيّ، والشمول اللفظيُّ

معناه أن هَذَا اللفظَ يدُلّ على هَذَا بخصوصِه، يعني من جملة الأفراد الدالَّة، والعموم المعنـويّ معناه أن هَذَا اللفظ لا يدخل فيه ما ذكر، لَكِنَّهُ يقاس على ما ذكر فيـه، فيكُون هَذَا عمومًا معنويًّا؛ لِأَنَّ العِلَّةَ في الجميعِ وَاحِدةٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأولى: إثبات نُزولِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِأَنَّ هَذَا التشقُّق إِنَّمَا يَكُون لِنُزُولِه، والغرض من ذِكره التحذيرُ منه، والاستعدادُ له؛ لِأَنَّهُ كلَّما ذُكر الشَيْءُ حَذِرَهُ الإِنْسَان واستعدَّ له.

الْفَائِدَة الثَّانية: استدلَّ شيخ الإسلامِ ابن تيميَّة وغيره من أهل العلم بهَذِهِ الآيةِ على نزولِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للقضاءِ بينَ عِبَادِهِ. ووجه الدلالةِ من الآيةِ في الحقيقةِ ليس في لفظِ الآيةِ ما يدل عليه، لكِن الآية مفسَّرة بالحديث أنها تَشَقَّق بالغَمام لنزولِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهي لا يَتِمُّ الاستدلال بها بمجرَّد لفظها، إلا بالإضافة إلى ما صحَّ عن النَّبي ﷺ في ذلك في تفسيرِ الآيةِ؛ أنها تَشَقَّق بالغمامِ لنُزول اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للفصلِ بين عبادِهِ[1].

الْفَائِدَة الثالثة: أن الملائكة في السماءِ؛ لقولِه: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾.

الْفَائِدَة الرابعة: عَظَمَة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وكثرة مخلوقاتِه؛ لِأَنَّ الملائكةَ تنزِل وتُحيط بالخَلْقِ؛ مما يَدُلّ على كثرتهم.

الْفَائِدَة الخامسة والسادسة: الاستعداد لهذا اليوم الَّذِي لا يجد الإِنْسَان فيه مفرًّا؛ فمثلا -ولله المثل الأعلى- لو أحاطتْ بك جنود الملك من كلِّ جانبٍ وبأعدادٍ

(١) أخرجه مجاهد في تفسيره (ص٤٩٨).

كثيرةٍ وبصفوفٍ متعدِّدة، هل يمكِن أنْ تَفِرَّ من قَبْضَتِه؟

فافرِض مثلًا -ولله المثل الأعلى- أن النَّاس حشروا في مكان وجاءت الجنود -الشُّرَط- وأحاطت بهم صفوفا صفا من وراء صف، هل يمكن للناس أن يفروا من هذا؟

لا يمكن، فيوم القيامة كذلك لا يمكن أن يفر النَّاس من هَذَا اليوم وأهواله وأحكامه وفيه التحذير من هَذَا اليوم.

الآيــة (٢٦)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٦].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ لا يَشْرَكُه فيه أَحَدٌ].

قوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ الحق صفة للمُلْك، يعني الملك الثابت المؤكَّد المحقَّق في ذلك اليوم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ والملك للرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ذلك اليوم وفي غيرِه، لكِن ملكيته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في ذلك اليومِ أظهرُ وأبينُ؛ لِأَنَّ الدُّنْيا فيها مُلُوكٌ، وفيها مَن يَمْلِكُ التصرُّفَ، وفيها مَن يقال له: مَلِك، لكِن في الآخِرة لا يوجد مَلِك، النَّاس على حدٍّ سواء، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، فالملك في ذلك اليومِ لا يَكُونُ لأحدٍ سِوَى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وفي قوله: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ ولم يقلْ: (لله) إشارة إلى كثرة رحمةِ اللهِ في ذلكَ اليوم، كما جاء في الحديثِ الصحيحِ: «إِنَّ لله مئة رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1]، فيظهر من رحمة الله

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مئة جزء، رقم (٦٠٠٠)، ومسلم: كتاب الرقاق، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم (٢٧٥٢).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ذلك اليومِ ما لا يَظْهَر في غيرِه؛ ولهذا عبَّر بقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾، وقد سبق أنَّ الرَّحمنَ صِفة متضمِّنة للرحمةِ، ولكنَّها تدلُّ على عظمة هَذِهِ الرَّحمةِ، وعلى سَعَتِها؛ لِأَنَّ كلمةَ فَعْلَان تدلُّ على الوصفِ المالِئِ الَّذِي يَمْلَأُ موصوفَه، كما يقال: غَضبانُ؛ لِأَنَّهُ ممتلِئ غَضَبًا، ومِن ثَمَّ فسَّر بعضُ العلماءِ الرَّحمنَ بأنه ذو الرَّحمةِ الواسعة، والرَّحيم بأنه ذو الرَّحمة الخاصَّة بالمؤمنين، ولكن الصواب أن الرَّحمنَ باعتبارِ وصفِه، فلهذا جاءت فَعْلَان صفة مشبَّهة، والرَّحيم باعتبار فِعله، يعني إيصال الرَّحمة إلى مَن شاء.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿وَكَانَ﴾ اليوم ﴿يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ بخلاف المؤمنين]، هنا قيَّد الله عَزَّوَجَلَّ العُسْر على الكافرينَ، فقال: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ يعني دون المؤمنينَ، وفي آية أخرى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر:٩]، ولم يقيِّدْه، يقال: إن اليومَ نفسه عسيرٌ جِدًّا بالنظر إلى ذاتِ اليومِ، لكنْ هَذَا العُسر لا يتناول المؤمن، بدليل قوله: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:١٠]، فمفهومه أَنَّهُ على المؤمنينَ يَسيرٌ، فبالنظرِ إلى ذاتِ اليومِ وأهوالِه نَصِفُهُ بالعُسر في حدِّ ذاته على الكافرين، ثم إن هَذَا العُسر لا يَسري إلى المؤمنينَ، بل ييسِّره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليهم، بدليل قوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾، وبدليل قوله: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

فالحاصِل: أَنَّهُ بالنظرِ إلى ذاتِ اليومِ فاليومُ عَسيرٌ وشديدٌ، ويجعل الوِلدانَ شِيبًا، وبالنظرِ إلى مَن يتأثَّر به أو بعُسره يَكُون هَذَا للكافرين فقطْ؛ لقولِهِ: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾، أمَّا على المؤمنِ فَإِنَّهُ يَسيرٌ.

وفي هَذَا دليل، أي: في كونِه عَسيرًا، ولكن عُسره يَكُون على الكافرينَ فقطْ، ففيه دليل على اختلافِ النَّاسِ في ذلك الموقفِ، وأن يُسْرَ ذلك اليومِ وعُسْره بحسَب

حالِ الإنْسَانِ، فكلَّما كان الإنْسَانُ أشدَّ إيمانًا وأشدَّ تَقوى لله عَزَّوَجَلَّ كان ذلك اليومُ أيسرَ له، ولهذا ثَبَتَ في الحديث الصحيح: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»[١]، وأن «كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ»[٢] في يوم القيامة.

وعلى هَذَا نقول: كُلَّما كان الإنْسَانُ أَقوَى إيمانًا باللهِ، وأشدَّ تقوى لله، كان يُسْرُ ذلك اليومِ عليه بحسَبه، وكلَّما كان الإنْسَانُ أَعتَى وأكفرَ يَكُون أشدَّ وأعظمَ. وقد أخبر النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ رأى في النار عَمْرَو بنَ لُحَيٍّ يَجُر قُصْبَه وأمعاءَه[٣] مما يدلُّ على أَنَّهُ كلَّما زاد عُتُوُّ الإنْسَان وكُفْره زاد عُسْر ذلك اليومِ عليه.

ثم إن هناك أيضًا قاعِدَة في الأُصُولِ أَنَّهُ إذا عُلق الحُكم على وصفٍ كان أثر ذلك الحُكم بحسَب ذلك الوصفِ، يعني أن تأثير الوصفِ في الحكمِ بحسَب الوصفِ، فإذا كان العُسر معلَّقًا بالكفرِ فكُلَّما كان الكفرُ أشدَّ كان العُسْر أشدَّ، وإذا عُلق اليُسر بالإيمانِ صارَ كلَّما كان الإيمان أقوى كان اليُسرُ أقوى.

فالحاصلُ: أن كلَّ حُكْمٍ عُلِّق على وصفٍ فَإِنَّهُ يَختلف أثرُ ذلك الحُكْم بحسَب ذلك الوصفِ، يعني أن تأثير الوصفِ في الحُكم بحسَب الوصفِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: في حديثِ الشفاعةِ الأنبياءُ كلُّ وَاحِدٍ منهم يقولُ: نفسي نفسي[٤]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم (٦٦٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٧).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ [المائدة:١٠٣]، رقم (٤٦٢٣)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٥٦).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ﴾، رقم (٣٣٤٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤).

فهذا دليلٌ على أنَّ في هَذَا اليومِ عندهم شِدَّة وخوف؟

والجواب: لا شكَّ أن في هَذَا اليـومِ يوجَد شِدَّة وخـوف: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل:١٧]، لكِن هَذِهِ الشدة والخوف يتحملها الإنْسَانُ بحسَب ما معه من الإيمانِ، يعني أَنَّهُ لا يَكُون شديدًا عليه بحسَب ما معه من الإيمان، فهم يخافون لكنَّه ليس شديدًا عليهم، يعني أَنَّهُمْ يَتوقَّعون أَنَّهُمْ يقعون في شَيْءٍ ولَكِنَّهُم لا يقعون.

الحاصِل: أن وَصْفَ اللهِ تَعَالَى يومَ القيامة بأنه عَسيرٌ وصفٌ مقيَّد بالكافرين، وفي آية أخرى وصفه وصفًا مطلقًا بأنه عَسيرٌ، وذكرنا فيما سَبَقَ أَنَّهُ وإنْ كانَ عَسيرًا لَكِنَّهُ بالنسبة للمؤمنين يَكُون يسيرًا، فالوصف المطلَق لذلك اليوم أَنَّهُ عسير، ولكن الَّذِي يتأثَّر به ويَكُون عَسيرًا عليه هم الكافرون، أَمَّا المؤمنون فلا.

وتأمَّلْ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾، قد يقـول قائل: أين الرَّحمة مـع عُسْرِه على الكافرينَ، فيقـالُ: إن عذاب الكافرين وشدته عليهم هو رحمة بالمؤمنينَ؛ لِأَنَّ المؤمن يرى عدوَّه الَّذِي كان يسخَر منه في الدُّنْيا وعَدْلُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَمضِي فيه، فلا شكَّ أن ذلك سرورٌ له ورحمةٌ؛ كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٣٤-٣٥]، فهم على أرائكهم ينظرون إلى هَؤُلَاءِ يعذَّبون، فيُسَرُّون بهم ويضحكون بهم، مثلما أن أعداءهم في الدُّنْيا كانوا يضحكون منهم ويسخرون بهم.

ثم إننا نقول أيضًا: تنفيذ العدل يُعتبَر رحمةً، أَمَّا في الدُّنْيا فظاهرٌ، فإننا إذا أقمنا الحدَّ على السارقِ أو أقمناه على الزاني، أو ما أشبهَ ذلك، فَهُوَ رحمةٌ بالنَّاس عمومًا، وبه خصوصًا، حتى بهذا الَّذِي جُلِدَ أو قُطِعَتْ يده هو رحمة به، كيف ذلك؟ لأننا نَمْنَعُه من ممارسة العمل مرَّةً ثانيةً، كلَّما تذكر هَذَا الألم، ولأن الحدَّ يَكُون كفَّارة له،

فلا يعذَّب عليه في الآخِرة؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى لا يَجمَع له بين عقوبتينِ.

فائدتان:

الْفَائِدَة الأولى: تخويف وتحذير من تسلُّط الملوك؛ فإنهم يَجِبُ أنْ يَذْكُرُوا هَذَا اليومَ الَّذِي تَزولُ فيه مِلْكِيَّتُهم، ولا يَبْقَى إلا مُلْكُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَة الثَّانية: تَبشير للناس عمومًا في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، حيث يشيرُ إلى أَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ يُظهِر من رحمته في ذلك اليوم ومن مُلكه ما لا يَظْهَر في غيره.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٢٧].

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ يعني واذكُر ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾، ﴿يَعَضُّ﴾ من أيِّ بابٍ من أبوابِ الصرفِ؟ عندنا في الصرف الأبواب ستة، فهنا ﴿يَعَضُّ﴾ هل من باب (نَصَرَ، يَنْصُرُ)، أو (سَمِعَ، يَسْمَعُ) أو (فَتَحَ، يَفْتَحُ)، فَهُوَ من باب (فَتَحَ)، وعند العامَّة يجعلونه من باب (نَصَرَ) يقولون: يَعُضُّ (فلانٌ يَعُضُّ فلانًا)، والصواب: (فلانٌ يَعَضُّ فلانًا)، فهي من باب فَتَحَ، يعني يُفتح فيها المضارِع، كما أن الماضيَ كذلك مفتوح لكِن الماضي مشدَّد.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [المشرِك]، والآية قد نقول: إنها أعمُّ من المشرِكِ؛ لِأَنَّ الظُّلم يَشمَل الشِّركَ فما دونَه، ولكن ننظر السياق الآن: هل يعيِّن أن يَكُونَ الظُّلمُ بمعنى الشركِ أو لا؟ ثم إن المُفَسِّر خَصَّصها تخصيصًا آخرَ فقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عُقْبَة بن أبي مُعَيْط؛ كانَ نَطَقَ بالشهادتينِ ثم رَجَعَ إرضاءً لِأُبَيِّ بنِ خَلَفٍ]، قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عقبة] هَذَا تخصيصٌ لعمومٍ، فإنْ كان المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يريد أن يجعلَه مثالًا مما تنطبِق عليه الآية فالأمر سهلٌ، وإنْ كان يريد المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن

يجعلَ الآيةَ من باب العامِّ الَّذِي أُريد به الخاصُّ، فهذا غير مسلَّم؛ لِأَنَّهُ لا دليل على ذلك؛ فلا دليل عَلَى أَنَّ المراد به الخاصّ، بل الآيةُ عامَّة، لكِن تشمل عُقبةَ وغيرَه، فالصواب أنها عامَّة لكلِّ ظالمٍ؛ وذلك لأنَّ الأَصْل بقاء العموم على ما هو عليه حتى يقومَ دليلٌ عَلَى أَنَّ المراد به الخاصُّ، وهنا قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ عامٌّ لِعُقْبَة وغيره.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ نَدمًا وتَحَسُّرًا في يوم القيامةِ، ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي﴾] إلى آخره، ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ العَضُّ على اليد يدلّ على الندم والتحسُّر، ولهذا بعض النَّاس إذا فاته الأمرُ تراه يَعَضّ يده ثم يُصَفِّق بيدِه، يعني أَنَّهُ فاته، فَهُوَ دليلٌ على التحسُّر والندَم، وما أعظمَ الحسرةَ والندمَ حينَ يرى المؤمنين في حال والظالمين في حال، وهذا أعظمُ ما يَكُون.

ففي هَذِهِ الآية أمَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن تذكر حال المجرمين يومئذٍ من الندم والتحسُّر العظيم والعَضّ على الأيدي.

وقوله: ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ زَعَمَ علماءُ البيانِ أنَّ في الآيةِ مجازًا؛ لِأَنَّ الإنْسَانَ لا يَعَضّ على يده كلِّها، ولو أراد أن يَعَضَّ على يدِه كلِّها ما استطاعَ، يقولون: المراد باليدينِ الأصابع؛ لِأَنَّهُ لا يمكِن أنْ يَعَضَّ على اليد كلِّها، ولكننا نقول: في الحقيقة لا مجاز في الآية؛ لِأَنَّهُ إذا دلَّ السياقُ على معنىً فَهُوَ المرادُ، كلٌّ يعرِف أن المرادَ: يَعَضّ الظالم على يديه يعني على أصابعِه، فهي لم تدلَّ على اليدِ كلِّها من الأَصْل بحسَب السياقِ حتى نقول: إنها نُزِّلت عن معناها إلى المعنى الثَّاني، وهذا الَّذِي قرَّرناه هو الَّذِي أوجبَ لشيخِ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ينكِر وجودَ المجازِ في اللغةِ العربيَّة؛ لِأَنَّ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يرى وجود المجاز في اللغة العربية إطلاقًا؛ لا في القُرْآنِ

ولا في غيرِه؛ لِأَنَّهُ يقول: إن دلالة اللفظ على المعنى ليستْ ذاتيَّة، يعني ليس اللفظ نفسه يدل بذاته على المعنى، وإنما يدل بالسياق، وأبرز مثال يبيِّن لك ذلك الألفاظ المشتركة الَّتِي تصلح لمعنيينِ فأكْثَر، يعيِّن المعنى السياقُ، وهكذا غيرها أيضًا، فبناءً على ذلك يقول: لا يوجد مجازٌ في اللغةِ العربيةِ؛ لا في القُرْآن ولا في غيره، ولكن أكْثَر النَّاس يَرَوْنَ أَنَّهُ يوجد المجاز في القُرْآن وفي غيره من كَلام العرب، وبعضُ العلماءِ يرى أَنَّهُ لا مجازَ في القُرْآن، وفي اللغة العربية يوجد المجازُ.

والَّذِي أوجبَ لهؤلاءِ التوسُّطَ أَنَّهُمْ قالوا: إن ميزان المجاز الَّذِي لا أحدَ يمانِع فيه صِحَّة نفيه، أي صحة نفيِ المجازِ، وليس في القُرْآن ما يَصِحّ نفيُه، يعني عندما تقول: رأيت أسدًا يقرأ، المراد بالأسدِ الرجلُ الشجاعُ، كأنما قلتَ: رأيت شجاعًا يقرأ، لكنْ عبَّرتَ بالأسد لِأَنَّ الشجاعة فيه أظهرُ، هم يَقُولُونَ: إنك إذا قلتَ: رأيتُ أسدًا يقرأ فَإِنَّهُ يجوز للمخاطَب أن يقولَ: هَذَا ليس بأسدٍ، فينفيه، وهذا صحيحٌ، ليس بأسدٍ، فهم يَقُولُونَ: إذا كان المجاز علامته الكبرى أَنَّهُ يَصِحُّ نفيُه فليسَ في القُرْآنِ ما يَصِحُّ نفيُه، أمَّا غيرُه من كَلامِ العربِ فيُمْكِنُك أنْ تَنْفِيَه، ولا تُبالي.

وأمَّا الحديثُ النبويُّ فالظاهرُ أَنَّهُ لا يقالُ فيه هذا؛ لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ هَذَا فقط في القُرْآنِ؛ لِأَنَّ الحديث النبويَّ تجوز روايتُه بالمعنى، فيجوز أن الراويَ غَيَّر الكَلِمَة، ونفى هَذِهِ الكلمة، لا أصل المعنى.

ولكن إذا رَجَعنا إلى ما قالَه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو أن الألفاظ ليست دلالتها على المعنى ذاتيَّة حتى نقول: إنها إذا دلتْ على معنًى آخرَ في مكانٍ آخرَ فهي مجازيَّة، بل دلالتها على الألفاظ بحسَب السياقِ، فعلى هَذَا نقول في الآية الَّتِي معنا: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ لا مجاز فيها؛ لِأَنَّهُ لا يمكِن أن يفهمَ أحدٌ أن المرادَ بذلك

في الأَصْل أن يَعَضَّ على اليد كلّها، كلٌّ يعرف أن المراد بقولنا: يعض على يديه أي: ما يعض عليه عادةً، وهي الأصابع.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إن قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾؛ ﴿يَدَيْهِ﴾ يعني على بعض يديه واستفدنا البعضية من كلمة ﴿عَلَىٰ﴾، ولم يقل: يعض يديه؟

فننظر: هل (عض) تتعدى بـ(على) أو بنفسها، ومثلها «**وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ**»[1]، عضَّ تتعدى بنفسها وبـ(على)، قال ﷺ: «**يَعَضُّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ كَمَا يَعَضُّ الفَحْلُ؟!**»[2] في الرجل الَّذِي عَضَّ يدَ إنْسَانٍ فانتزعها فسقطتْ أسنانُه. ويوجد احْتِمَالٌ أن نقولَ: إنها لا تدلُّ على الكلِّيَّة، حتى لفظ اليد لا يُرادُ بها الكلُّ هنا، حتى ولو كانت تدل على الجزئيَّة فلا يراد بها الكلُّ.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل العض على اليدين أو على يد وَاحِدة؟

فالجواب: الظاهر كُلَّمَا قوِيَ الندم عضَّ على اليدين كلتيهما.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله تَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥]، ما معنى: لا نقيم لهم وزنًا؟

فالجواب: لا نقيم لهم وزنًا يعني لا يُعتبَر لهم وزنٌ، لكِن لا توزن سيئاتهم مثلما توزن سيئات المؤمنين؛ لِأَنَّ سيئات المؤمنينَ توزَن لأجلِ الموازنة بينها وبين الحسناتِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦٠٦)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، رقم (١٨٤٧). واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الديات، باب إذا عض رجلا فوقعت ثناياه، رقم (٦٨٩٢)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب الصائل على نفس الإنسان أو عضوه، إذا دفعه المصول عليه، فأتلف نفسه أو عضوه، لا ضمان عليه، رقم (١٦٧٣)، واللفظ للبخاري.

فما رَجَحَ اعتُبر، وَأَمَّا أولئك فلإقامةِ الحجَّة عليهم فقط، والله جَلَّ وَعَلَا لو ناقشك في حسابِه هلَكتَ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لو ناقشك على نعمةٍ وَاحِدةٍ من نِعَمِه لكانتْ جميعُ أعمالِكَ الصالحة لا تُقابِلها.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾ مُحَمَّد ﴿سَبِيلًا﴾ طَرِيقًا إلى الهدى]، يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الجملة حالٌ من ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ يعني أَنَّهُ يَعَض، وهذا دليل على الندم بالفعل.

قوله: ﴿يَـٰلَيْتَنِى﴾ من علامات الاسْمِ النداء، فـ(يا) لا تدخل إلَّا على اسْمٍ، وإذا دخلتْ على حرفٍ كما في هَذِهِ الآية أو على فعلٍ فإنها تفيد التنبيهَ فقطْ، هَذَا أحد القولينِ في إعرابها.

القول الثَّاني: أنها للنداء، وأن المنادى محذوف، والتقدير في مثل هَذِهِ الآية: يقول: يا رب ليتني أو يا قوم ليتني، ولكن نقول: إن الأَصْل عدم التقدير، وإذا كان الأَصْل عدم التقدير فالأَولى أن لا نقدِّر شيئًا هنا وأن نجعل (يا) لمجرَّد التنبيه، وإنما كانت لمجرد التنبيه لِأَنَّ أصل النداء للتنبيه، عندما تقول: يا فلان تنبِّهه لِيَنْتَبِهَ لك ويُقبِل إليك بوجهه، فهي للتنبيه، ولا حاجة إلى أن نقدِّر المنادى.

وقولـه: ﴿يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾: (ليتَ) للتمنِّي، والتمني هو: طلب ما لا يمكِن حصوله أو ما يَعْثُر حصولُه، فالشَيْء الَّذِي يَتَعَذَّر أو يَتَعَثَّر حصوله يُسمَّى طلبه تمنيًا.

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُـودُ يَوْمًـا فَأُخْبِرَهُ بِمَـا فَعَـلَ المَشِـيبُ[1]

---

(١) ديوان أبي العتاهية (ص٤٦).

هذا متعذِّر.

ويقول الفقير: ليت لي مالًا فأتصدقَ به. هَذَا عَسيرٌ وليس متعذِّرًا.

قوله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ من أيِّ القسمين؟ هَذَا من المستحيل؛ لِأَنَّ الأمرَ فات.

قوله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ أي سلكتُ سبيلًا، وهو الطَّريق الموصِل إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾ مُحَمَّد]، بناء عَلَى أَنَّ الآيَةَ يُقْصَدُ بها عُقبة بن أبي مُعَيْط، فعلى هَذَا تكون (أل) للعهد الذِّهنيِّ، وإذا قُلْنا بالعموم -وهو الأرجحُ- فإن المرادَ بالرَّسول هنا من أُرسِلَ إلى قومِه، فتكون (أل) للجِنسِ، للعموم؛ لِأَنَّ المرادَ بها جِنْس الرَّسول الشامل لمُحَمَّد ﷺ وغيره.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأولى: أَنَّهُ يَجِب على المرءِ أنْ يختارَ لنفسِه الأصحابَ: أهل العلم والدِّين، ويؤخَذ من قوله: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ إلى قوله: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾.

الْفَائِدَة الثَّانية: بيان حال الظالِم يوم القيامةِ، وأنه يندَم ندمًا عظيمًا، ويظهر ندمُه بالقول وبالفعل. والدلالة على أَنَّهُ بالقول في قوله تَعَالَىٰ: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾، وبالفعل في قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾.

الْفَائِدَة الثالثة: التحذير من الظُّلْم الَّذِي يَصُدُّ به الإنْسَانُ عن دِينِ اللهِ، أو التحذير من الظُّلْم الَّذِي يُوجِب أو يُوقِع الإنْسَان في مخالفةِ الرسُلِ؛ لِقَوْلِه عَزَّوَجَلَّ:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّـٰلِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾؛ لِأَنَّ الغرضَ من ذلكَ التحذيرُ، ليس مُجَرَّد القصة، بل الغرض أن يحذر الإنْسَان من هَذَا الأمرِ الَّذِي يَكُون مآلُ صاحبِه إلى هَذَا الحالِ.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ [الفرقان:٢٨].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ ألفه عِوَضٌ عن ياء الإضافةِ، أي: ويلتي، ومعناه: هَلَكَتي ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا﴾ أي أُبَيًّا ﴿خَلِيلٗا﴾]، إلى آخِرِه.

قوله: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ (يا) حرف نداء، و﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ منادى، وأصله: ويلتي فقُلِبَتِ الياءُ ألفًا فصارتْ: يا ويلتى، وهذا جائزٌ لغةً، يعني يجوز لغةً أن تقولَ: يا ويلتي ويجوز أن تقول: يا ويلتى. والويلُ: الهَلاك، وكأنه يقول: يا هلاكي احْضُرْ، يا هلاكي احضُر، ليتني لم أتَّخِذْ، إلى آخره. في التمني الأول لم يَقُلْ: يا ويلتى، لكِن في التمني الثَّاني قال: يا ويلتى؛ لِأَنَّهُ زاد تحسُّرُه، في الأول يُعَبِّر لأول مرَّةٍ عن تحسُّره، والثَّاني للمرة الثَّانية، فيكُون ذلك أبلغَ في التحسُّر، فلهذا قال: يا ويلتى.

وقوله: ﴿لَمۡ أَتَّخِذۡ﴾ لم أُصَيِّر ﴿فُلَانًا﴾ هَذِهِ اسْم جنس يُكْنَى به عن الوَاحِد من بني آدمَ، وفلانة يكنى بها عن الوَاحِدةِ من بني آدم، ولم يذكر هنا فلانًا باسْمه؛ لِأَنَّهُ كما أشرنا إليه للعمومِ، ففي عُقْبَة بن أَبي مُعَيْط يَكُون المراد بفلانٍ: أُبَيّ بن خَلَف، وفي غيره يَكُون المراد به مَن أضلَّه عن ذِكر الله.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ الخَلِيل هو الحَبيب الَّذِي بلغتْ محبَّتُه الغايةَ؛ لِأَنَّ الخِلَّة أعلى أنواعِ المحبَّة، وسُمِّيَتْ بذلك لِأَنَّ المحبَّة تَخَلَّلَتْ مسالِكَ البَدَنِ؛

كما قال الشاعر[١]:

قَدْ تَخَلَّلْتِ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَبِـذَا سُـمِّيَ الخَلِيـلُ خَلِـيلَا

وعلى هَذَا فالخُلة أعلى من المحبَّة، وبه نعرِف خطأ من قال: مُحَمَّد حبيب الله، وإِبْراهِيم خليل الله، وموسى كَليم الله؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ نَزَّلُوا مرتبة النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حيـث وصفوه بأنه حبيب الله وإِبْراهِيـم خليل الله؛ فإن الخُلة أعلى، والنَّـبي ﷺ خليل الله كما أن إِبْراهِيم خليل الله، قال النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»[٢]. وأمَّا كونُ موسَى كَليمَ اللهِ فنقولُ أيضًا: مُحَمَّدٌ كَليم الله، وإذا كان موسى كليم الله في الأرض فإن مُحَمَّدًا ﷺ كَليم الله في السَّمَاءِ.

• • ۞ • •

(١) ديوان بشار بن برد (٢/ ٤٧٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد، على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، رقم (٥٣٢).

الآيــة (٢٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان:٢٩].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي القُرْآن ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾].

قوله: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي﴾ اللام مُوَطِّئَة للقَسَم، و(قد) للتحقيقِ، فالجملة إذَن مؤكَّدة بثلاثةِ مؤكِّدات: القسم و(اللام) و(قد)، وهو يؤكد في هَذَا اليوم أن ذلك الخليل أضلَّه تأكيدًا يُراد به لومُ نفسه، ولكن ذلك لا ينفعه الآن، لو كان هَذَا التأكيد في الدُّنْيا لَنَفَعَه، أَمَّا الآن فلا ينفعه، ولكنَّه يزيد في تحسُّره.

قوله: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي القُرْآن]، وهو بناءً منه عَلَى أَنَّ المرادَ بالظالمِ كما سَبَقَ هو عُقْبَة بن أبي مُعَيْط، فيَكُون المراد بالذكر القُرْآن، وإذا قُلْنا بالعموم -وهو الراجح- يَكُون المراد بالذكر الكِتَاب المنزَّل على ذلك الرَّسولِ، ففي عهد موسى التوراة، وفي عهد عِيسى الإنجيل، وكذلك في العُهُود الأُخْرى الكُتُب المنزَّلة على الرُّسُل.

قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ هَذَا الظرف له فائدته العظيمة، يعني بعد أن حصل لي الذكر وعَلِمته وفهِمته؛ حَصَلَ الإضلالُ، وهذا أبلغ ممَّا لو أضلَّه عن أمرٍ متوقَّع

غير واقع، هَذَا أمر واقع أقرَّ بأن الذِّكر جاءه وقامتْ عليه الحجَّة وأضلَّه هَذَا الخليل بعد إذ جاءه.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بأنْ رَدَّني عنِ الإيمان به، قال الله تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ﴾ الكافِر ﴿خَذُولًا﴾ بأنْ يَتْرُكَه ويَتَبَرَّأ منه عند البلاءِ].

قوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ كأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشَى عَلَى أَنَّ هَذِهِ الجملة ليستْ من قول الظالمِ، وأن قول الظالمِ انتهى عند قولِه تَعَالَى: ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾، وعلى هَذَا فينْبَغِي الوقفُ على قوله: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ فتقف ثم تستأنِف وتقول: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾.

وقوله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يُرادُ به الجِنْسُ؛ لِأَنَّ الشياطينَ كثيرونَ، قال الله تَعَالَى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء:٢١٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات:٦٥]، فالمراد به هنا الجِنس، وهم أنواع.

والظاهرُ -والله أعلم- أنَّ لكلِّ نوعٍ من المعاصي شيطانًا؛ كشيطان الشركِ، وشيطانِ الجحودِ، وشيطان البخلِ، وغيرِ ذلك، فلكلِّ نوعٍ شيطانٌ هَذَا ما يَظْهَر، والله أعلَمُ.

وقوله: ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ المراد به على كَلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكافِرُ، وهو عُقْبَةُ بنُ أبي مُعَيْطٍ، أو عامٌّ؛ لِأَنَّ هَذَا الكَلام من كَلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس من كَلام الظالم، فيَحتمِل أنْ يَكُونَ عامًّا للكافرِ والمؤمنِ؛ فإن الشيطان أيضًا يُغوِي المؤمنَ، ثم بعد ذلك يَتَخَلَّى عنه، فالظاهرُ أنَّ المرادَ بالإنْسَانِ هنا الجنس، يعني المؤمن أو الكافر، وإنَّما قُلْنا: إن ذلك هو الظاهِر لِأَنَّهُ كما يُغوِي الكافرينَ بالكفرِ كذلك يُغْوِي المؤمنينَ بالفِسْقِ.

وقوله: ﴿خَذُولًا﴾ هَذِهِ إمَّا أن تكون صفةً مشبَّهةً، وإما أن تكون صيغةَ مبالغةٍ، وعلى الأمرينِ يَكُون وصفُ الشيطانِ بالنسبةِ للإنْسَانِ الخِذلان، أو يَكُون خذلان الشيطان للإنْسَانِ دائمًا؛ لِأَنَّ المبالَغةَ تَقتضي الكثرةَ، والخِذلان معناه إذلال الإنْسَانِ في مَوْطِنٍ يَحتاج معَه إلى النصرِ، فهذا الخذلان أنك تتخلَّى عن إنْسَانٍ في موطِنٍ يحتاج فيه إلى النصرِ، والشيطانُ عندما نتأمَّل ما ذكر اللهُ عنه في القُرْآنِ نجِد أَنَّهُ يخذُل الإنْسَانَ في مواطن النصرِ، فزَيَّنَ لِقُرَيْشٍ أنْ يَخرجوا لقتالِ النَّبيِّ ﷺ فخرجوا ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال:٤٨]، زيَّن للإنْسَان الكفر، ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر:١٦]، هَذَا في الدُّنيا، وفي الآخرة: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ ۖ﴾ بمُغيثِكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم:٢٢]، هَذَا أيضًا خِذلان عظيمٌ، فالشيطان في مواطِنِ النصرِ يخذُل الإنْسَانَ ويتبرَّأ منه.

وهذا الوصف ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ نقول: هل كان في عِلم الله، أو كان فيما مَضَى وانتهى؟ تقدَّم قريبًا نظيرها (كان) مجرَّدة عن الزمن، يعني أن (كان) تارَةً يُراد بها الدلالة على الزمنِ، وتارةً يُراد بها مجرَّد الحَدَث، يعني مجردة عن الزمنِ، فتقول مثلًا: (كان زيدٌ قائمًا) يعني فيما مضَى، ثم جلس، وأيضًا مثل قولِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٦]، وقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب:٢٧]، ليس المعنى (كان) فيما مضَى، بل المعنى أنَّ هَذَا وصفٌ لله مستمِرٌّ

وهو صفة المغفرة والرَّحمة والقُدرة، وكذلك هنا ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ ليس المعنى أن الشيطان كان خذولًا للإنْسَانِ فيما مضَى وأصبحَ غيرَ خَذولٍ، بل المعنى أن هَذَا وصف ملازِمٌ للشيطانِ بالنسبة للإنْسَانِ، فالشيطان وَصْفُه الخِذلان لبني آدمَ دائمًا، ليس معناه فيما مضَى فقطْ، وإنما أخبرنا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأنَّ الشيطانَ خَذُولٌ للإنْسَانِ لأجلِ أنْ نتَّخِذَه عدوًّا، وألَّا نَغْتَرَّ به، فَإِنَّهُ سوف يخذُلنا في موطنٍ نحتاجُ فيه إلى نَصرِه فنَحْذَر منه.

فإذا قال إنْسَان: ما علامة كونِ هَذَا الفعلِ من أوامرِ الشيطانِ، وما الَّذِي يدرينا أن الشيطان أَمَرَنا بهذا، وأن هَذَا من عملِ الشيطانِ؟

الضابط قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨]، فإذا رأيْنا أن النفسَ تُرِيد منَّا أنْ نقعَ في هَذَا العملِ إذا كان مخالفًا للشرعِ؛ علِمنا أنَّ هَذَا من أمر الشيطانِ، فوجبَ علينا الحَذَر منه؛ لأننا نَعْلَم أن هَذَا الشيطان سَيَخْذُلنا في موطنٍ نحتاجٍ فيه إلى النصرِ، هَذِهِ هي العلامة الفارِقة بينَ ما يَكُون من أمر الشيطانِ وما يَكُون من أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وأيضًا النفسُ الأمَّارة بالسُّوء تَأْتَمِر بأمرِ الشيطانِ؛ لأنك لا تُحِسّ بأن الشيطانَ نزل بك وجاء بك، لكِن نفسك تأمرك بهذا، فهي تأتمِر بأمرِ الشيطانِ، فيجعلها كالوسيط بينَه وبين قلبِ المرءِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأولى: التحذير من قُرَنَاء السّوء؛ لقولِه: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي﴾.

الْفَائِدَة الثَّانية: أن الكافرَ، بل عموم الظالمينَ، في يوم القيامة يُؤمِنون بالحقِّ؛

لِقَوْلِهِ: ﴿عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾، فأقرَّ بأن الذكر قد جاءه، وأقرَّ بأن ما جاءه ذِكر يتذكَّر به المرءُ.

الْفَائِدَة الثالثة: أن الشيطان يأمر الإنْسَان ثم يَخْذُله أحوجَ ما يَكُون إليه؛ لقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾. ومن الأمثلة لِخذلان الشيطان لأصحابِه في الدُّنْيا من القُرْآنِ ما تقدَّم في قوله تَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٤٨]، ومن أمثلة خِذلانه لهم في الآخرة قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم:٢٢]، وَأَمَّا قوله تَعَالَى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر:١٦]، فربما يَكُون في الدُّنْيا والآخرة، فالآية ليست بصريحةٍ أنها في الآخرة.

الْفَائِدَة الرابعة: أن الغَرَض من إخبار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن الشيطانِ بأنه خَذُول لبني آدمَ أو للإنْسَانِ التحذيرُ، والعلامة عَلَى أَنَّ هَذَا من أوامرِ الشيطانِ قولُه تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٨-١٦٩]، ومثل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨]، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ هَذَا مثال للتفريط في الأوامر، ومتى يَعِدُ الفقر؟

يعـد الفقر عندما يريد الإنْسَانُ أن يَبْذُلَ المالَ يقـول: لا تبذل المال؛ لأنك سَتَفْتَقِر، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي المنكر.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمَّدٌ ﴿يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى﴾ قُريشًا ﴿ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾]، هنا المُفَسِّر أيضًا خَصَّها بالنَّبي ﷺ، وهنا قد نوافق المُفَسِّر على أنها خاصَّة بالنَّبي ﷺ؛ بدليل قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١]؛ لِأَنَّ المراد بهَذِهِ الجملة التسـليَة، وهذا هو الَّذِي يؤيِّد ما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أمَّا مسـألة القُرْآن فإن القُرْآنَ يُطلَق على المصدر فيشـمل كل ما يُقرأ من التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب، لكِن الَّذِي يجعله خاصًّا بهذا الَّذِي نزل على مُحَمَّد ﷺ ما بعدَه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: يقول الله تَعَالَى: ﴿هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ والوحي ما زال ينزل؟

الجواب: لِأَنَّ الرَّسول يقوله والقُرْآن بين يديه، فمثلًا موسى إذا قال والتوراة بين يديه صحَّ أن يُشير إليها.

قوله: [﴿يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى﴾ قريشًا]، وأضافهم إلى نفسِه لِأَنَّهُ أبلغُ في توبيخهم؛ لِأَنَّ الأمر الواقع يَقتضي أن قومَه أسبقُ النَّاس إلى تصديقِه، وإلى قَبُول ما جاء به، ولكن الأمر كان بالعكسِ، وهذا نظير قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ

وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:١-٢]، حيث أضافهم إليه، كأنه يقول: يَنْبَغِي أن تكونوا أنتم أوَّلَ من يصدِّق؛ لِأَنَّهُ صاحبُكم، كذلك قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير:٢٢]، فالمهمُّ أن الإضافة هنا الغرضُ منها زيادة التوبيخ، يعني بدل أن يقول: إن قريشًا قال: إن قومي؛ للمبالغة في توبيخِهم، حيثُ إنَّ مُقْتَضَى كونِهم قومَه أن يصدِّقوا به ويَقبَلوا ما جاء به.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ متروكًا]، مأخوذ من الهَجْر، والهجر تَرْك الشَيْء رغبةً عنه، فهم اتَّخذوه مهجورًا، يعني جعلوه شيئًا مهجورًا، يعني لا يلتفتون إليه، وهذا أبلغ من قولِه: إن قومي هَجَروا القُرْآنَ، ووجهُ ذلك أن (هجروا) فعل، والجملة الفعلية لا تدلُّ على الثُّبُوتِ والاستمرار، ولكن قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ جملة اسْميَّة؛ لِأَنَّ (الهاء) و(مهجورًا) أصلهما المبتدأ والخبر، فكأَنَّهُمْ جعلوا هَذَا القُرْآن الَّذِي تجب العناية به والإقبال إليه جعلوه أمرًا مهجورًا مرغوبًا عنه، كأنه ليس مستحقًّا للإقبال عليه إطلاقًا، فصيَّروه من الأمور المهجورة المتروكة الَّتِي ليس من شأنها أن يُقْبَلَ إليها، وهو أبلغ من كونهم هجروه؛ لأَنَّهُمْ قد يهجرونه وهو مستحِقّ لأن يُقْبَلَ، أمَّا إذا اتَّخذوه مهجورًا فإن اتِّخاذهم إيَّاه مهجورًا يَكُون معناه أَنَّهُمْ هَجَروه مع استحقاق أنْ يُهجَر.

وهَجْرُ القُرْآنِ ينقسِم إلى قسمينِ: هَجر لَفْظِيّ، وذلك بترك تلاوتِه رغبةً عنه، وهذا ما حذَّر منه النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في قوله: «بِئْسَمَا لِلرَّجُلِ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ سُورَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، أَوْ نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ هُوَ نُسِّيَ»[1]؛ لِأَنَّ نَسِيت تدل

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب نسيان القرآن، وهل يقول: نسيت آية كذا وكذا، رقم (٥٠٣٩)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأمر بتعهد القرآن، وكراهة قول نسيت آية كذا، وجواز قول أنسيتها، رقم (٧٩٠).

على الرغبة والهَجر، ونُسِّيت تدلُّ على أَنَّهُ ليس باختيارِه، لكنَّه قد قُدِّر عليه هَذَا الهَجْر.

الهجر الثَّاني: هجر العمل به، يعني أن الإنْسَان يتلوه ولم يقصِّر في تلاوتِه، لكنَّه لا يعمل به.

ويمكن أن يتولَّد قسم ثالث: القسم الثالث: هَجْرٌ لفظيٌّ وعمليٌّ، يعني أَنَّهُ لا يَقْرَؤه ولا يعمل به.

فإذَنِ الأقسامُ ثلاثةٌ: هجر لفظيّ، وهو هجر تلاوتِه، وهجرٌ عمليّ، وهو هجر العمل به، وهجر لفظيّ عمليّ، وأيُّهم أشدُّ؟ اللفظيّ العمليّ، يليه الهجر العمليّ، والثالث اللفظيّ، وكل منها محرَّم، حتى الهجر اللفظيّ، فإذا ترك الإنْسَان تلاوتَه رغبةً عنه وزُهدًا به فَإِنَّهُ لا يجوز، نعم لو ترك تلاوتَه تشاغلًا بأمورٍ لا بد منها فهذا لا بأسَ به، فالهجر اللفظيّ موجودٌ في المؤمنينَ، ولكن لا يوجد الهجر المطلَق بالنسبة للمؤمنِ، يعني لا يمكن للإنْسَانِ أن يتركَ تلاوتَه تركًا مطلَقًا؛ لِأَنَّ عنده الصلاة، وقد فُرض عليه أن يقرأَ فيها سورة الفاتحة، فالهجر المطلَق لا يمكِن للمؤمنِ أبدًا؛ لِأَنَّ أهمَّ شَيْءٍ قِراءة الفاتحةِ في الصلاةِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما حُكْم هَجْر المصحَفِ، وذلك بأن يَكُونَ عنده عِدَّة نُسخ من القُرْآنِ في البيتِ، ويقرأ في وَاحِدةٍ فقطْ؟

ليس بحرامٍ، ولا يوجد مانعٌ، لكنَّه مع الحاجة لا يجوز للإنْسَانِ أنْ يَحتكِرَها والنَّاس محتاجون إليها، أمَّا الآن فلا توجد حاجة، والتحذير الَّذِي كان يوجد في كَلام بعضِ أهلِ العلمِ لَمَّا كانت المصاحف قليلةً، حيث يَكُون الإنْسَان ليس عنده إلا نسخة ويحجزها لنفسِه ولا يَنتفِع بها ولا ينتفع بها غيرُه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل عدم تدبُّر القُرْآن يَكُون هجرًا له؟

هجر التدبُّر قد يَكُون هجرًا؛ لِأَنَّ التلاوةَ بدون تدبُّر لا شكَّ أنها تلاوة ناقصة؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى أمَر بتدبُّره، وأخبر أَنَّهُ ما أُنزلَ إلا للتدبُّر والتذكُّر ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، والتدبُّر معناه أن الإنْسَانَ يتأمَّل معناه ويفكِّر فيه، ويَسعَى في الوصول إليه، وإذا كان قاصرًا عن فَهم المعنى يسأل، وإذا كان يمكِن أن يُراجِعَ هو بنفسِه كُتُبَ التفاسيرِ فلْيُرَاجِعْ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل استماع القُرْآن يُغني عن القراءةِ؟

فالجواب: ما أظنُّ أن الاستماع يُغنِي عن القراءة، لكِن على كلِّ حالٍ الاستماع فيه خيرٌ، ولكن القراءة أفضل، وبالنسبة للاستماعِ إذا كان مشغولًا فلا يَنبغي أنْ يستخدمه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأولى: ما وصلتْ إليه حال قريشٍ مِنَ العِناد والمكابَرة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾، فهم اتخذوه مهجورًا. وكونهم اتخذوه مهجورًا أبلغ من كونهم هَجَروه.

الْفَائِدَة الثَّانية: عِظَم هَذَا القُرْآن؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ لِأَنَّ الإشارة تفيد التعظيم، يعني هَذَا القُرْآن العظيم الَّذِي لا يَنبغي أنْ يُهْجَر هَؤُلَاءِ اتخذوه مهجورًا، فقولُه: اتخذوه مهجورًا أبلغُ من: هَجَروه، كيف ذلك؟ اتخذوه مهجورًا يعني جعلوه من الأمورِ الَّتِي تَستحِقّ أن تُهجَر، فاتخذوه أمرًا مهجورًا يعني مرغوبًا عنه ومتروكًا هو في حدِّ ذاته، على زعمهم، هَذَا وجهٌ، والوجه الثَّاني: يعني هم

صيَّروه مهجورًا، والهاء المفعول أول محل المبتدأ، ومهجورًا محل الخبر.

الْفَائِدَة الثالثة: بشاعة هَذَا العمل من قريش، وجه ذلك الإضافة في قوله: ﴿قَوْمِي﴾؛ فإن هَذَا يدلّ على بشاعة هَذَا العمل منهم؛ لِأَنَّ المفروض أن قومَه يَكُونون أَولى النَّاس بالعنايةِ به وقَبُول ما جاء به، ولكن الأمر مع الأسف صار بالعكسِ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٣١)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان:٣١].

لَمَّا قال الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ وهذا من الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ شِكاية لقومِه؛ لِأَنَّهُ تضايَقَ بهم، فأنزل الله عليه تسليةً له وجوابًا لِشِكايتِه ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ (الكاف) اسْم بمعنى (مثل)، وهي تأتي في القُرْآنِ كثيرًا، فكُلَّما جاءت فإننا نُعرِبها هَذَا الإعراب، على أنها اسْم بمعنى مثل، وَأَمَّا إعرابها فهي مفعول مطلَق، وعاملها الفعل الَّذِي بعدَها، أي: ومِثْل ذلك الَّذِي جعلناه جعلناه لكل نبي، فهَؤُلَاءِ المشركون الَّذِينَ جعلوا القُرْآن مهجورًا ونَبَذُوه وراءَ ظُهُورهم ودَعَوْا إلى هجره وسخِروا به لَيْسُوا بِدَعًا من غيرهم، فقد سبقَ لكلِّ نبيٍّ كذلك.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما جَعَلْنَا لكَ عدوًّا من مُشْرِكِي قومِك ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ قبلَك ﴿عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين، فاصبِرْ كما صَبَرُوا]، وفي هَذَا من تسليةِ النَّبي ﷺ ما هو ظاهرٌ؛ لِأَنَّ الإنْسَانَ يَتَسَلَّى إذا كان غيرُه قد أُصِيبَ بمثلِ مُصِيبَتِه، تقول الخَنْسَاءُ وهي تَرْثِي أخاها صَخْرًا[1]:

(١) نهاية الأرب للنويري (٥/ ١٧٩)، والبيتان في الديوان.

وَلَـوْلَا كَثْرَةُ الْبَـاكِينَ حَـوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِـي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِـي وَلَكِـنْ أُسَـلِّي النَّفْسَ عَـنْهُ بِالتَّـأَسِّي

فإذا عَلِمَ النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن هَذَا دَأْبُ قومِ الأنبياءِ من قِبَلِه فَإِنَّهُ يَتَسَلَّى ويُهَوِّنُ عليه الأمرُ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ لك ﴿وَنَصِيرًا﴾ ناصرا لك على أعدائك].

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ (الباء) يَقُولُونَ: إنها زائدة إعرابًا فقطْ، ولها معنى، و(ربك) فاعل (كفى)، يعني: وكفى رَبُّكَ، و(هاديا) تمييز محوَّل عن الفاعلِ، يعني كفت هدايته ونصره، والتمييز قد يحول عن الفاعل، وقد يحول عن المفعول، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ محوَّل عن المفعولِ؛ لِأَنَّ الأَصْلَ: وَفَجَّرْنَا عيونَ الأرضِ، هنا ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ الأَصْل: وكفتْ هدايةُ ربِّك ونصرُه.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي: ناصرًا لك على أعدائِك. ووجه المناسبةِ بين قولِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أقول: المشركون الَّذِينَ يُنابِذون الرُّسُلَ يَقصدون بذلك أمرينِ؛ إضلالَ النَّاسِ للحيلولةِ دونَ وصولِ الهِدايَةِ إليهم، والعُدوان على الرُّسُلِ حتى بالحرب والقتال، فبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن هَذِهِ المحاولة ليستْ بشَيْءٍ؛ لِأَنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كَفَى به هاديًا، فلا يستطيع هَؤُلَاءِ الأعداءُ أن يُضِلُّوا أحدًا، وكفى به نصيرًا، فلا يستطيع هَؤُلَاءِ الأعداءُ أن يَقضُوا على دعوةِ الرسُلِ.

• • ❀ • •

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأولى والثَّانية: عناية الله تَعَالَى بالرَّسول ﷺ، ووجهُ ذلك أن كونَ اللهِ يَعتني بالرَّسولِ ويُسَلِّيه بما وَقَعَ لغيرِه، هَذَا دليلٌ على العنايةِ به، وكون الرَّسول ﷺ يحتاج إلى أن الله يسلِّيه بِمَنْ سَبقَه يدلُّ عَلَى أَنَّ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَشَرٌ يَنتابُه ما ينتابُ البشرَ مِنَ الحزن والأسى، فيحتاج إلى التسليةِ، وأن مَن دون الرَّسول من باب أَولى، فعندما يأتي إلينا مثلًا أحد دُعاة الخير ويشكو إلينا ما أصابه من النَّاس نقول له: انظر مثلًا إلى فلان وانظر إلى فلان وانظر إلى فلان، ولا يقال: إن هَذَا قُصُور في حقّه، هَذَا لا بدَّ منه، فالطبيعة البشريَّة تَقتضي أن الأمر يهوَّن على النفس إذا أصاب الغيرَ مثلُ ما أصابَه.

ومناسبة قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ لِذِكر أن الله جعلَ لكل نبيٍّ عدوًّا من المجرمين، يعني: هَؤُلَاءِ المجرمون يحاولون القضاء على الرِّسَالة أو النبوَّة بوَاحِد من أمرينِ؛ إما بإضلال النَّاس وصدِّهم عمَّا جاءت به الرُّسُل، وإمَّا بقتالهم وإهلاكهم، فيَعتدون على النَّاس بالقتالِ، فقال الله تَعَالَى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ في مقابلة محاولة الإضلال، ﴿وَنَصِيرًا﴾ في مقابلة محاولة القضاء على الأنبياء وأُممهم.

وهَذِهِ العداوة الَّتِي تكون للأنبياء تكون لورثتهم؛ لأَنَّهُمْ يدعون لِما يدعو له النَّبي، ونحن نعلمُ أن هَذِهِ العداوة ليستْ شخصيةً، وإنما هي معنويَّة بسَبَب النبوَّة، ودليلنا عَلَى أَنَّ العداوة ليستْ شخصيَّة، يعني أن عداوة الأمم المكذبين للرسل ليست لأشخاص الرُّسُل، بل لِمَا جاءوا به من الحقِّ؛ دليلنا أن قريشًا ليستْ تعادي الرَّسول ﷺ قبلَ أن يُبعَث، بل هي ترى أَنَّهُ من أشدّ الرِّجال أمانةً وصدقًا.

الْفَائِدَة الثالثة: أَنَّهُمْ لا يستطيعون أن يُضِلّوا النَّاس إذا أراد اللهُ عَزَّوَجَلَّ هدايتَهم،

ولا أن يقضوا عليك إذا أراد الله نَصْرَكَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾، هَذِهِ العداوة حسَب ما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وما عرض من القُرْآنِ، هل تكون لأتباعِ الرُّسُلِ أو لا؟

الجواب: تكون لأتباعِ الرُّسُلِ؛ لأَنَّهُمْ عادَوُا الرُّسُلَ لدعائهم للحق، يعني ما عادَوا الرُّسُل لأشخاصهم، ولهذا كان الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قبل البعثة عند قُريشٍ ليس عدوًّا، بل هم يسمُّونه الأمينَ، فما دامتِ العداوةُ مِنْ أجْلِ الدعوةِ إلى الدينِ فسوفَ تكونُ لكلِّ مَن دعا إلى الدينِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يدعو مثلًا إلى شريعةِ النَّبي ﷺ هو يدعو إلى ما دعا إليه النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلا بدَّ أن يَكُونَ له أعداءٌ كما كان للأنبياء أعداء، وعليه فالواجبُ على مَن دعا إلى الهدى وأُوذي أنْ يَصبِر، وأن يَتَأَسَّى بما جَرَى للرسلِ من قبله، والرُّسُلُ أعظمُ منزِلةً عند الله منه، ومع ذلك مَكَّنَ أعداءهم مما فعلوه.

فَلَوْ قِيلَ فِي الجَوَاب: إنهم عادوا الرُّسُلَ، وهم أفضلُ الخَلق، كيف لا يعادون من سواهم؟

فالجواب: قد يقال: إنهم عادوا الرُّسُل واشتدت عداوتهم لهم لِأَنَّ تأثيرهم أشد، فَعَادَوهم أشد.

الْفَائِدَة الرابعة: أن الحقَّ يَتبيَّن بضدِّه؛ لِأَنَّ الله جعل عدوًّا من المجرمينَ يُنابِذ الدعوةَ، فمِنَ الحِكْمَةِ في ذلك أن تتبيَّن الدعوة؛ لِأَنَّهُ إذا لم يكنْ لها معارِضٌ ما تَبَيَّنَتْ، لكِن إذا كان لها معارِض، وكلَّما أُتي بشُبهةٍ رُدَّ عليها، صار ذلك أَبْيَنَ وأوضحَ.

الْفَائِدَة الخامسة: ابتلاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمؤمنِ؛ فَإِنَّهُ إذا كان الإيمانُ قويًّا فَإِنَّهُ يصمد أمام هَذِهِ الشُّبُهات، وأمام هَذِهِ العداوة، وإذا كان ضعيفًا فَإِنَّهُ يتأثَّر، فهذا من

حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن الله يقيِّض للإنْسَانِ ما يَكُون سَبَبًا للحيلولةِ بينه وبين دعوتِه لِيَبْلُوَه، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ يعني اطمئنَّ بحالِه الَّتِي هو عليها، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج:١١]، وإن أصابته فتنة وأمر يشغله انقلبَ على وجهِه.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٢)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان:٣٢].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ هَذِهِ السورة فيها طابع التحدث عن القُرْآنِ والردّ على المكذِّبين له، فأوَّل ما ابتدأتْ هَذِهِ السورة ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾، فهذا الفرقان الَّذِي تمدَّح الله نفسه بإنزاله إلى رسوله لا بدَّ أن يُعْنَى به ويُجاب عن المعارِضين له بالأساليب المختلفة الَّتِي مرتْ علينا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا﴾ هَلَّا ﴿نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ كالتوراة والإنجيل والزَّبور]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هَذَا من جملة الشُّبَه الَّتِي أَوْرَدَهَا المكذِّبون للرسول ﷺ، قالوا: الكتب السابقة تنزل على الأنبياء جملةً وَاحِدةً، مثل التوراة والإنجيل والزَّبور، لا مفرَّقةً، فقال هؤلاء: لو كان مُحَمَّد ﷺ صادقًا وأنه نبي من الأنبياء لكان شأنه شأنَ الأنبياءِ السابقينَ؛ ينزل عليه القُرْآن جملةً وَاحِدةً، وأَتَوْا بـ(لولا) الدالة على التحضيض، يعني أَنَّهُ كان يَنْبَغِي أو يَجِب أن ينزل عليه القُرْآن جملةً وَاحِدةً على زعمهم كما نزل على الأنبياءِ السابقينَ، وهنا قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لا شك أَنَّهُمْ من قريشٍ؛ لِأَنَّهُ يتحدث عن أمرٍ وقعٍ، ولا يمكن أن تكونَ عامَّةً لجميعِ الكفارِ، يعني لا يمكن أن تكون عامَّة لكفار الأمم السابقينَ،

لكِن ربما يَكُون هَذَا القول موروثًا عن قريشٍ، ويقوله من يقوله بعدهم تمويهًا وتضليلًا للناس.

قوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾، كلمة ﴿نُزِّلَ﴾ وكلمة ﴿جُمْلَةً﴾ قد يُفهَم منهما التعارضُ؛ لِأَنَّ المعروف أَنَّهُ إذا كانت بالتشديد (نُزِّلَ) فهي لِمَا ينزل شيئًا فشيئًا، وإذا كانت (أُنْزِلَ) فهي لما نزل جملةً وَاحِدةً، وهنا قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً﴾ وكان مُقتَضَى ما أَشرنا إليه أن يقولوا: لولا أُنزل عليه القُرْآنُ؛ فقيل: إن (أُنْزِل) و(نُزِّل) يتناوبانِ؛ فالمضعَّف يَكُون بمعنى المهموز، ونظيره من الأفعال (أَخْبرَ) و(خَبَّرَ)، فتقول: خَبَّرَني وأَخْبَرني، ومعناهما وَاحِد، وإن كون (نُزِّل) لِما ينزل شيئًا فشيئًا و(أُنْزِل) لِمَا ينزل جملةً وَاحِدةً هَذَا ليس من مدلولِ اللفظِ بذاتِه، ولَكِنَّهُ مما يُعيِّنه السياقُ والقرائن والحالُ، وعلى هَذَا فلا فرقَ بينهما، ويَكُون المراد بـ(نُزِّلَ) هنا (أُنزل)، ولكن نابتْ عنها.

ويَحتمِل أن يَكُون قوله: ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ أَنَّهُمْ قالوه على حكاية ما ينزل، ثم اقترحوا أن يَكُون جملةً، بمعنى أَنَّهُ نُزِّل حسب الواقع؛ فالواقع أن القُرْآن ينزل على الرَّسول ﷺ متفرِّقًا، فكأَنَّهُمْ قالوا: هلَّا كان تنزيله الَّذِي ينزل الآن شيئًا فشيئًا جملةً وَاحِدةً، فيَكُون التنزيل هنا باقيًا على القاعِدَة، وهو أَنَّهُ ينزل شيئًا فشيئًا، كأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هَذَا التنزيل الَّذِي كان صفةً للوحي الَّذِي ينزل على مُحَمَّد ﷺ لولا كان هَذَا التنزيل جملةً وَاحِدةً.

فأمامنا الآن جوابان:

الجواب الأول: أن (نُزِّل) و(أُنْزِل) يتناوبان، ويُعَيِّن المعنى السياقُ والقرائنُ.

ثانيًا: أنهما لا يتناوبان، ولكل وَاحِدة منهما معنًى، لَكِنَّهُم قالوا: نُزِّل باعتبار

واقع الأمر؛ فإن الوحي كان يَنزِل على النَّبي ﷺ شيئًا فشيئًا، فكأَنَّهُمْ قالوا: لولا كان هَذَا التنزيل جملة وَاحِدةً.

هَذِهِ الشُّبهة قد تكون شبهة في بادئِ الأمرِ، يعني لماذا لم يكن الوحي النازل عليه كالوحي النازلِ على مَن قبله؟ هَذَا قد يَكُون شبهة في بادئ الأمر، ولَكِنَّهُ في الواقع ليس بشبهةٍ، بل هو حُجَّة، ولهذا أجاب الله عنه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾. قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نزَّلناه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي متفرِّقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ نقوِّي قلبك ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي أتينا به شيئًا بعد شَيْء بتمهُّل وتُؤَدَةٍ لتيسير فَهمه وحِفظه].

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يَنْبَغِي أن تقفَ عند التلاوة على قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾؛ لِأَنَّهُ إلى هنا انتهى كَلام الكفارِ، ثم تبتدئ فتقول: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ﴾؛ لِأَنَّ هَذَا الأخير من كَلام الله جَلَّ وَعَلَا، فيَجِب الفصل بينه وبين كَلام الكفار؛ لِأَنَّهُ جواب عن الشبهة.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مفعول لفعلٍ محذوفٍ، مَفْعُول مطلق، يعني أنزلناه مثل ذلك التنزيل، و(اللام) في قوله: ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ للتعليل، وهي متعلقة بالفعل المحذوف، يعني أنزلناه لأجل التثبيتِ، والتثبيتُ معناه التقويةُ والإقرارُ، يعني ليست مجرد تقوية؛ لأنك تقول: ثَبَّتُّ الشَيْء بمعنى أقررته لا يَتَزَعْزَع ولا يتحرَّك، ومنه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ﴾ تميل ﴿إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٧٤]، فالتثبيت بمعنى التقوية والإقرار؛ لِأَنَّهُ يقرره ويجعله مستقرًّا، فَقَلْبُ الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذا التنزيل يَتَقَوَّى ويثبت ويستقرّ ولا يتزعزع.

وقوله: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ كيفية التثبيت هنا من وجهينِ:

أولًا: أَنَّهُ إذا نزل عليه فترة بعد فترة استقرَّ فؤادُه، وعرف استمرار رسالته، وانظُرْ إلى حال النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عند فترة الوحي ماذا كان يصنع؟ كان يخرج إلى الجبالِ حتى يوشك أنْ يَتَرَدَّى من الجبالِ؛ لِأَنَّهُ فقد ما كان أحسَّ به أوَّلًا، فهذا تثبيتٌ يثبِّت قلب الرَّسول؛ لِأَنَّهُ رسول ولأن رسالته لم تَنقطِع، هَذَا وجهٌ.

وجهٌ آخرُ: أَنَّهُ يُثَبِّتُ قلبَ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كلَّما أُورِدَ عليه شُبهة، فينزل القُرْآنُ مُجيبًا عنها، وهذا بلا شكٍّ تَثبيتٌ، إذَن يَكُونُ التثبيتُ هنا من ناحيتينِ؛ تثبيته على أَنَّهُ رسولٌ، وتثبيتٌ آخرُ لدفعِ الشُّبُهات الَّتِي تُورَدُ عليه، وهذا الأمرُ الأولُ ضَرَبْنَا له مثلًا بفترةِ الوحيِ، والأمر الثَّاني نَضْرِب له مثلًا بهَذِهِ الآيةِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، جاء الجواب: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، وأيضًا قوله: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ﴾ [الإسراء:٩٠-٩١]، إلى آخره، وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ [العنكبوت:٥٠-٥١]، فهذا وغيره كثير يَكُون من جملة تثبيت قلبِ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِأَنَّهُ إذا كان الإنْسَان يُمَدُّ بما يدافع به خصمه، فإن ذلك من أقوى ما يَكُون من التثبيتِ.

وهنا بَيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحِكمة بأنه تثبيت فؤاد الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وفي آيةٍ أُخرى قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [الإسراء:١٠٦]، فَبَيَّن حِكمة أخرى وهي أن يقرأه النَّبي ﷺ على النَّاس على مُكث؛ ليَكُون أسهلَ لحفظه وأَوعى لفهمِه، فما هي الحِكْمَة في أن الله عَزَّوَجَلَّ اختارَ في هَذَا الموضعِ أن يقول: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، وهناك قال: ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾؟

الحِكْمَة في هَذَا ظاهرة؛ لِأَنَّهُ هنا جواب لشبهة أوردت عليه، فناسب أن يُبيِّن الحِكْمَة فيما يختص بالنَّبي ﷺ؛ لِأَنَّهُ كما هو معروف أن البشرَ بشر، يمكن أن يتأثَّر بما يورَد عليه من الشبهات؛ كما قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ﴾ [الإسراء:٧٤].

وقوله: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أتينا به شيئًا بعد شَيْءٍ]، وعلى هَذَا يَكُون الترتيل بمعنى التنزيل، وعندي أن الترتيل أخصُّ، يعني أن المعنى جعلناه مرتَّلًا، يعني بعضه يعقب بعضًا، وكل آية منه منفصِلة عن الأخرى، فكأن هَذِهِ الآيات مراحل للمسافر، والمسافر إذا كان له مراحل في سفرِه يهوَّن عليه السفرُ، وتَنْقُض هَذِهِ المراحل تعبَ سفرِه، لكِن إذا كان دائمًا في مَسيرٍ وَاحِدٍ يَشُقُّ عليه، وكون النفس ترتاح للقرآن بسَبَب هَذِهِ الآيات والترتيل أمرٌ معلومٌ، وتجزئة القُرْآن أيضًا لهذا السَّبب؛ أي لأجل أن يقطع الإنْسَان القُرْآن مرحلةً مرحلةً، فيهون عليه ويقوى في قراءته، وكذلك أيضًا جَعْلُهُ سوَرًا، كل سورة مستقلَّة عن الأخرى، هَذَا أيضًا من أسباب تنشيط القارئ واستمراره في قراءته، إذَن ترتيل القُرْآن بالآيات والسور هَذَا مما يفيد القارئ ويُكْسِبه نشاطًا وقوةً على القُرْآنِ حفظًا وفهمًا.

وكذلك أيضًا من فوائد الترتيل أيضًا أن العمل يأتي للناس شيئًا فشيئًا، ما ظنك لو أنَّ القُرْآن الكريم نزل جملةً وَاحِدةً على النَّاس بجميع أحكامه، هل يستوعب النَّاس هَذِهِ الأحكام ويقومون بها أو لا؟ لا يمكن، هَذَا صعب جدًّا، وليس من طَريق التربية أو التنشئة، ولكن بحكمة الله عَزَّوَجَلَّ كما هو شأن الله جَلَّوَعَلَا في كل شَيْء من الأمور القدرية والأمور الشرعية أَنَّهُ يُنَشِّئُها تَنْشِئَةً، حتى الأمور الكونية تُنَشَّأ تَنْشِئَةً، فالجنين في بطن أمه يبقى مدة، في بني آدم تسعة شهور، وفي غيره من الدواب بحسبها، المهم لا بد من تنشئة، الليل والنهار لا يأتي دفعة وَاحِدة،

بل شيئًا فشيئًا، وهكذا الشرائع أيضًا تأتي إلى النَّاس شيئًا فشيئًا، لاسيما هَذِهِ الأُمـة، وإن كانت الأمم السابقة شرائعهم نزلتْ جملةً وَاحِدةً، وهذا من الآصار والأغلال الَّتِي كانت عليهم أن شَرْعَهم ينزل جملةً وَاحِدةً، ويلزمون به دفعةً وَاحِدةً، لكِن هَذِهِ الأُمـة من رحمة الله بها أَنَّهُ رتَّل القُرْآن ترتـيلًا، حتى يُنَشِّئَهم على الإسـلام وعلى شريعة الله تنشئةً شيئًا فشيئًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما العيب في كون القُرْآن لم يَنْزِلْ جملةً وَاحِدةً؟

العيب أَنَّهُ ليس برسولٍ لِأَنَّهُ لو كان رسولًا لكان مثل غيره ينزل عليه القُرْآنُ جملةً مثلما نزل على من سبقه جملةً. وهي شُبهة في الحقيقة وليست بحجَّة، هي شبهة يريدون التمويهَ بها، وإلا فليس هَذَا -أنه يأتي بالوحي شيئًا فشيئًا- إطلاقًا بشَيْءٍ يَمنـع من صدق رسولِ الله ﷺ، لكِن هم يَقُولُونَ هَذَا بالإضافة إلى ما سبق في سورة النحل حيث قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣]، إذا أضفتَ هَذَا إلى ما سبق كأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هو يُلقَّن القُرْآن تلقينًا، وإلا لنَزَل عليه جملةً وَاحِدةً كغيره من الأنبياء.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَا يَكُون قول المشركين: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ اعترافًا منهم بأن القُرْآن منزل من عند الله؟

الجواب: لا، هم لم يعترِفوا، يعني على حسَب دعواه، حيث إنهم يَقُولُونَ: إذا كان نازلًا من عند الله، إذَن لماذا لم ينزل عليك من الله جملةً وَاحِدةً إنْ كنتَ صادقًا، فهذا ليس إقرارًا منهم بالإنزالِ، لكِن يَقُولُونَ: هَذَا الَّذِي يقول: إِنَّهُ نَزَلَ عليه القُرْآن من الله لماذا لم ينزل عليه جملة وَاحِدة؟ وأيضًا لا يوجد تناقض بين هَذِهِ الآية وبين قولهم: إن هَذَا كَلام ساحر يسحر النَّاس.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأولى: حِرص الكفار على إبطالِ ما جاء به الرَّسول ﷺ وإيراد الشُّبه عليه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ فإنَّ هَذِهِ ليستْ حجَّة وإنما هي شُبهة.

الْفَائِدَة الثَّانية: عناية الله برسوله ﷺ بردِّه على هؤلاء.

الْفَائِدَة الثالثة والرابعة: إثبات الحِكْمَة في أفعال الله؛ لقولِه: ﴿لِنُثَبِّتَ﴾؛ لِأَنَّ اللام للتعليل، والتعليل معناه الحِكْمَة، ففيه ردٌّ على طائفةٍ من طوائف البِدع، والأَصْل أن هَذَا القول عند المجبرة، يرون أن أفعال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غير معلَّلة، وأنه عَزَّوَجَلَّ يخلق الخلائق أو الخَلْق، ويشرع الشرائع لمجرد المشيئة، لا لحكمة، ويَستدلّون بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، ولكن أَنَّى لهم ذلك من هَذِهِ الآية. إذَن هَذِهِ الآيات تفيد بيان الحِكْمَة من إنزالِ القُرْآن مفرَّقًا وأن أفعال الله تَعَالَى معلَّلة مقرونة بالحِكْمَة، لكِن هَذِهِ الحِكْمَة الَّتِي تكون لأفعال الله عَزَّوَجَلَّ سواء كانت شرعية أو غير شرعية منها ما هو معلوم ومنها ما هو مجهول لنا، ولَكِنَّهَا معلومة عند الله.

الْفَائِدَة الخامسة: أن من الحِكْمَة في إنزال القُرْآن تثبيت قلبِ الرَّسولِ ﷺ، سواء كان ذلك تثبيتًا في تقرير الرِّسَالةِ أو تثبيتًا في ردِّ الشُّبه الَّتِي تُعرَض عليه.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ في إبطالِ أمرِكَ ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الدافع له ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ بيانًا]، هَذَا من تثبيت قلب الرَّسول ﷺ، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ المراد بالمثل هنا الصِّفة؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد:١٥]، والمَثَل كما هو معروف يُطلَق على الشبه ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٧]، ويُطلَق على الصِّفة، أو الوصف العظيم العجيب ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ [محمد:١٥]، ويُطلَق على المثل المعروف بين الأدباء وهو القول السائر الَّذِي يراد به تشبيه الحال الواقع بما سبق، أو ما أشبه ذلك، فالمراد بالمثل هنا الصِّفة، يعني لا يأتونك بصفةٍ من القولِ يريدون بها إبطال دعوتك إلا جئناك بالحق.

إذَن فهم يأتون بباطلٍ لِأَنَّهُ قابل قولهم بالحقِّ، فهذا دليلٌ أيضًا عَلَى أَنَّ كلَّ شُبهةٍ يَحتجّ بها المكذِّبون للرسول ﷺ، فهي باطلٌ، ولكن هَذَا الباطل باطل في ذاته، قد يظهر لبعضِ النَّاسِ بطلانُه، وقد يَخفَى على بعض النَّاس بطلانه، وهذا من الفِتَن، أي فتنة الشبهة، يعني ليس كل ما كان باطلًا معلومًا لكل أحدٍ، ولهذا أنت أحيانًا

وأنت شخص وَاحِد يَنجلي لك الأمرُ واضحًا في بعض الحالاتِ، ويَلتبِس عليك في بعضِ الحالاتِ، حَسَب ما يَكُونُ قلبُك صافيًا مطمئنًّا، أو غير ذلك، ومن ثَمَّ نُهي عن القضاء في حالِ الغضبِ، وعن الإفتاء في حال الغضبِ، وفي حالِ الحَرِّ المزعِج، والبرد المؤلِم، وَمَا أَشْبَهَ ذلك؛ لِأَنَّ الإنْسَان تَحُولُ هَذِهِ الأمور بينَه وبين العلمِ بالحقِّ، أو إرادة الحق؛ لِأَنَّهُ عند الغضبِ يَشْتَبِه عليكَ الحقُّ، أو ربما لا تُرِيد الحقَّ بل تُرِيد أن تنفذ غضبك فيمن غضِبت عليه مثلًا.

فالحاصل الآن نقول: كل شُبهة يُورِدُها الكفَّار في عهد الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وفيما بعده فهي باطلٌ، وما جاء أحدٌ بباطلٍ في عهدِ الرَّسولِ ﷺ إلَّا جاء الله بالحقِّ.

وقوله: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أيْ بيانًا].

وهنا (أحسن) هل هي على بابها أو من باب مقابلة الخصمِ؟ على بابها؛ لأَنَّهُمْ عندهم بيانٌ وإيضاحٌ للأمورِ، وإيراد للشُّبه، وهم في غايةِ ما يَكُون من الفصاحةِ، ولهذا ما تحدَّى الله أحدًا في عهد الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بمثلِ ما تحدَّاهم بالقُرْآن، إذَن فـ(أحسن) هنا على بابِها، يعني أَنَّهُمْ يأتون بكَلامٍ حسنٍ جدًّا وبَيِّن وواضِح، ولكننا نأتيك بما هو أحسن وأبين وأوضح، وفي هَذَا من مدافعة الله تَعَالَى عن رسوله ﷺ ما فيه.

قوله: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كَلامهم ما دام باطلًا هل فيه بيانٌ؟

فالجواب: نعم؛ لأَنَّهُمْ يأتون بكَلامٍ جيدٍ في فصاحتِه، وقد قال رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إن من البيان لسحرا»[1]، لكِن بيانهم هَذَا وفصاحتهم وسحرهم

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب إن من البيان سحرا، رقم (٥٧٦٧).

اللفظي يأتي الله تَعَالَى بما هو أحسنُ منه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأولى: أن كلَّ ذي باطلٍ نجد جواب باطلِه من القُرْآنِ، أو نقول ما هو أعمّ: نجد بيان باطله من الوحيِ المنزَّل على مُحَمَّد ﷺ، نأخذه من قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣]، فما من شُبهة إلى يومنا هَذَا تَرِد إلا وفي كتاب الله وسنَّة رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما يَدْحَضُها، ولكن كما هو معروف ليس كلُّ أحدٍ يُدرِك ذلك، فالسيف في يدِ إنْسَانٍ لا يغني شيئًا ولا ينفعه، كالعصا أو أقلَّ، وفي يد إنْسَانٍ هو سيفٌ بتَّار يضرِب به ويقتل به، هكذا أيضًا الوحيُ المنزل على الرَّسولِ ﷺ ليس كلّ أحدٍ يعلمه، ولا كلّ أحدٍ يستطيع إقامة الحجَّة منه، ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء، ولهذا سئل عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هل عندكم شَيْءٌ من الوحيِ إلَّا ما في كتابِ اللهِ؟ قال: «لَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ما أَعْلَمُه إلَّا فَهْمًا يُعْطِيه اللهُ رَجُلًا في القُرْآنِ، وما في هَذِه الصَّحِيفَةِ». قيل: وما في الصَّحِيفَةِ؟ قال: «الْعَقْلُ، وَفَكَاكُ الْأَسِيرِ، وَأَنْ لا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ»(١).

فالحاصلُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُؤتِي فضلَه من يشاء بالنسبة لفهم القُرْآنِ، وكم من آيةٍ تمرّ بشخصٍ يَستنبِط منها عدة مسائل، وآخر لا يستطيع أن يأتيَ منها بمسألةٍ. ويُذكَر أن الإمامَ أحمدَ رَحِمَهُ اللَّهُ استضافَ الإمامَ الشافعيَّ ذات ليلةٍ، فقدَّم إليه العشاءَ، فأكل العشاء كلَّه، ثم نامَ واضطجعَ على فراشه، ولم يَقُمْ لصلاة الليلِ، ثم قام إلى الفجرِ ولم يطلبْ وَضُوءًا، فقالت إحدى بنات الإمام أحمد لأبيها: هَذَا الشافعي الَّذِي كنت تقولُ عنه كيت وكيت، ما رأيناه عمِل ولا رأيناه أيضًا اقتصرَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، رقم (٣٠٤٧).

على ثُلُث لطعامِه. فقال: آتيكم بالخبرِ. فسأل الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أولًا: لماذا أكل كل الطعام؟ فأجاب قال: إني لا أرى أحدًا في هَذَا البلد أحلَّ طعامًا من الإمام أحمدَ، فأحببتُ أن يمتلئَ بطني من هَذَا الطعامِ الحلالِ، هَذِهِ وَاحِدةٌ، إذَن له غرضٌ، والشبع أحيانًا جائزٌ -فأبو هريرة شَرِبَ اللبنَ وقال له النَّبي ﷺ: «اشْرَبْ». فقال: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا[1]، ولكن نحن نحدِّث أنفسَنا بالحديث عند كل أكلةٍ، كل أكلة نقول مثل ما قال أبو هريرة! وهذا عارض، والعوارض كثيرة- وسأله: لماذا لم يَقُمِ الليلَ؟ فقال: إني كنتُ أتدبَّر قول النَّبي ﷺ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟»[2]، وإني استنبطتُ من الحديثِ ألفَ فائدةٍ. وَأَمَّا كوني أصلي الفجر بدونِ وضوءٍ فأنا لم أنمْ، أتدبَّر هَذَا الحديثَ. لكِن ما أظنُّه أخذها من لفظِ الحديثِ فقط، فالله أعلم أَنَّهُ كُلَّمَا رأى فائدةً جرَّ حديثًا آخرَ يدلّ عليها، ثم استنبط منه.

فالحاصِلُ: أن النَّاس يَختلفون في فَهْم الكِتَابِ والسنَّة، واستنباط الأحكام من الكِتَاب والسنَّة، ولهذا تجد بعض النَّاس يأتي لك بالآيةِ ويسوقُ فوائدَها ويمكن أن يُحصِّل خمس أو عشْر فوائد حسَب ما في الآيةِ، وآخرُ يأتي بدلًا من الخمس بخمسين، وذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاء.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه، وتخليهم من الدنيا، رقم (٦٤٥٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الكنية للصبي وقبل أن يولد للرجل، رقم (٦٢٠٣)، ومسلم: كتاب الأدب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه، وجواز تسميته يوم ولادته ... رقم (٢١٥٠).

الآيــة (٣٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الفرقان:٣٤].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ يقول المفسِّر: [هم ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ﴾]، فجعل (الذين) خبر مبتدأ محذوف، والتقديرُ: هم ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾، يعني هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبوك وعارَضوا ما جئتَ به هم الَّذِينَ يُحشَرون على وجوههم، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: يُساقُون ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾]، ولو قال المُفَسِّر: يُحشَرون بمعنى يُجمَعون؛ لِأَنَّ الحشر بمعنى الجمعِ، يعني يُبعَثون -والعياذُ بالله- يومَ القيامةِ على وُجُوهِهم، لكنْ كأنَّه لَمَّا عُدِّيَ بقوله: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ صار مُضمَّنًا لمعنى السَّوق؛ لمعنى يُساقُون، ولكنَّه لا مانعَ أن نقولَ: يُحشَرون ويساقون؛ لِأَنَّ الفعل إذا ضُمِّن معنى فعل آخرَ ليس معناه أَنَّهُ يَسْلُب دلالتَه الَّتِي يدلُّ عليها لفظُه، بل يُضاف إليه معنًى آخرُ، فمثلًا ﴿يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦].

قُلْنَا: إن يشرب مضمَّن معنى يَرْوَى، وليس معنى ذلك أَنَّهُ سلب معنى الشرب؛ لِأَنَّهُ لا رِيَّ إلَّا بعدَ الشُّرب، وهذا واضحٌ، كذلك أيضًا لا سَوْقَ إلى جهنَّم إلا بعد الحشر الَّذِي هو الجَمْعُ.

وقوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ﴾ على رأيِ المُفَسِّر تكون: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف،

ويَكُون قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ حالًا؛ جملةً حاليَّةً، أو أنها مبتدأ وخبر مستأنَف، ويَحتمل أن تكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ خبر المبتدأ، فتكون من باب المبتدأِ المخبَر عنه بجُملةٍ.

وقوله: ﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ كيف يمشون على وجوههم؟ نقول: كما قال النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»[1]، ليس ببعيدٍ، وإذا كان المتكبِّرون يُحشَرون يوم القيامة أمثالَ الذَّرِّ يَطَؤُهُمُ النَّاسُ بِأَقْدَامِهِم[2] فاللهُ على كلِّ شَيْءٍ قديرٌ، فإنْسَانٌ بَشَرٌ قد يَكُون من أكبرِ النَّاسِ جُثَّةً في الدُّنْيا، وهو متكبِّر، إذا كان يوم القيامة يُحشَر أمثالَ الذَّرِّ، والله تَعَالَى على كلِّ شَيْء قدير، وهذا مثالٌ مِمَّا سبق الإشارةُ إليه بأن أحوال الآخِرة لا تُقاس بأحوال الدُّنيا.

إذا قيل: ما وَجْهُ العقوبة بحَشْرهم على وُجوههم؟

فالجواب: إهانةً لهم؛ لِأَنَّ الوجه أشرفُ الأعضاءِ، فإذا جُعل هو محَلّ الوَطْء فهذا إهانةٌ، لكِنْ ما هي الحِكمة من ذلك؟ لا شكَّ أَنَّهُ فيه إهانة وعذاب؛ لأَنَّهُمْ قَلَبُوا الحقائقَ فَقُلبوا، وأيضًا لَمَّا كانوا ينطِقون بِأَلْسِنَتِهِمْ، وهي في وُجُوههم، صار العذابُ عليها، كلُّ هَذِهِ وُجُوه محتمَلة، وعندي زيادة احْتِمَال أن الإنْسَان يُقبِل على الشَّيْءِ بوجهه ويُعرِض عنه بوجهه، فلمَّا كان الوجه محلَّ الإعراضِ والإقبالِ، وهم قد أَعرضوا، صار العذابُ عليها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم (٦٥٢٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب يحشر الكافر على وجهه، رقم (٢٨٠٦).

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، رقم (٢٤٩٢).

كل هَـذِهِ المعاني مناسِبة، والله أعلـمُ بما أرادَ، وقد تكون كل هَذِهِ المعـاني مقصودةً، ولا يقال: إن الوجـهَ أشدُّ مواطنَ الجسدِ إحساسًا، نقول: ليس على كلِّ حالٍ؛ لِأَنَّهُ توجد مواطنُ أشدُّ إحساسًا من الوجهِ. على كلِّ حال هَذِهِ المعاني الَّتِي ذكرتُ يمكِن أن تكونَ كلُّها من أسباب أَنَّهُمْ يحشَرون على وجوههم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ هو جهنم ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أَخْطَأُ طَرِيقًا من غيرهم، وهو كُفْرهم].

قوله: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ يعني منزِلَةً، وهي جهنَّم، فهي شرٌّ مكانًا من كلِّ أحد؛ لِأَنَّهُ لم يذكر المفضَّل عليه، وعدم ذِكر المفضَّل عليه يفيد العموم، يعني ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من جميع الأمكنة ومن كل أحد.

قوله: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يعني طَرِيقًا عن الصواب، فهم أضلُّ طَرِيقًا من كل أحدٍ، فهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُحشَرون على وُجُوهِهم إلى جَهنَّم -والعياذُ بالله- هم شرُّ النَّاسِ مَنْزِلَةً، وهم أضلُّ النَّاسِ طَرِيقًا.

وقوله: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ جَهَنَّم هَذِهِ اسْم من أَسْماء النار، وأصلها من الجُهْمَة، والنون فيها زائدة، وعلى هَذَا فوزنها فَعَنَّل؛ لِأَنَّ النون زائدة، وسُميت بهذا الاسْم لِأَنَّهَا سوداء اللون، بعيدة القَعْر، وهَذِهِ هي الجُهمة والظُّلمة، نعوذ بِاللهِ منها.

ويستفاد من الآية إثباتُ البَعْث؛ لِقَوْلِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

الآيــة (٣٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٥].

هَذِهِ الجملة ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا ﴾ فيها مؤكِّدات عددها ثلاثة: (اللام)، و(قد)، والقَسَم؛ لِأَنَّ اللام مُوَطِّئَةٌ للقَسَم، والتقدير: واللهِ لقد، والتأكيد في القُرْآنِ سَبَبُه أحدُ أمرينِ: إمَّا أن يَكُون في مقابلةِ إنكارِ المنكِر، وإما أن يَكُون لأهميةِ الموضوعِ، وإما للأمرينِ جميعًا، فيَكُون أمرًا مُهِمًّا، ويَكُون هناك مُنْكِرٌ له، فيؤكِّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك الأمرَ، فهنا إيتاء موسى الكِتَابَ هَذَا أمرٌ واقِعٌ ولا يُنْكَر، لكنْ لأهميَّة الموضوعِ أكَّده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِيَعْرِضَ للرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ صُوَرًا من تكذيبِ السابقينَ حتى يَكُون ذلك أبلغَ في تسليتِه، ففيما سَبَقَ يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان:٣١]، وهذا قولٌ مجمَل، ثم شَرَعَ هنا في تفصيلِ ذلك وبيانِ ما وَقَعَ على سبيل التَّعْيين.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التَّوْرَاةَ]، وآتَيْنَاهُ بمعنى أَعطيناه إيَّاها، أنزلها الله تَعَالَى عليه مكتوبةً بألواحٍ، فهي ألواحٌ مكتوبٌ فيها التوراة، جاءَ بها مُوسَى منَ الله، وليس المراد أنها تنزل من السماء، أنزلها الله على موسى فجاء بها إلى قومِه، وقِصَّتُها في الأعرافِ مبسوطةٌ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا﴾ مُعِينًا]، ﴿أَخَاهُ﴾ من أبيه وأمِّه، وأمَّا قوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ [طه:٩٤]، فهذا من باب التلطُّف والتعطُّف؛ لِأَنَّ الأمَّ أشدُّ حنانًا من الأبِ، وإلَّا فَهُوَ أخوه من أبيه وأُمِّه، ومسألة القرابة وأنه شقيقه ثابتةٌ.

قوله: ﴿هَـٰرُونَ وَزِيرًا﴾ قال الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُعِينًا].

وقوله: ﴿وَزِيرًا﴾ من الأَزْرِ؛ وهو العَـوْن، يعني أَنَّهُ كان وزيرًا، أي مُعِيـنًا له، وذلك بِطَلَبٍ من موسى؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَـٰرُونَ أَخِى ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه:٣١]، ويقال: إِنَّهُ لا يُوجَد أحد من الإخوة أشدّ مِنَّةً وفضلًا من موسى على هارون؛ لِأَنَّهُ طلب أن يَكُونَ رسـولًا، والرِّسَالة أعلى المقـامات الَّتِي يتوصَّل إليها البَشَر.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٦)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٦].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ أي القِبْط فِرْعَون وقَوْمه، فذَهَبَا إليهم بالرِّسَالةِ فكَذَّبُوهما ﴿فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أهلكناهم إهلاكًا].

قوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ في كلمة ﴿كَذَّبُوا۟﴾ إشكالٌ؛ وهو أَنَّهُ يَقْتَضِي أن التكذيبَ سابقٌ للرسالةِ، ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ فكيف يَكُونون مكذِّبين مع أَنَّهُمْ لم يأتِ إليهم رسولٌ؟

والجواب: أن الفعلَ الماضيَ هنا بمعنى المستقبَل، بمعنى: الَّذِينَ يكذبون بآياتنا؛ لِأَنَّ الآياتِ لم تَصِلْ إليهم بعدُ، فمعنى ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي يكذبون بها في المستقبَل.

أو يقال: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ بحسَب عِلْمِ الله عَزَّوَجَلَّ، يعني: قَدَّرنا أَنَّهُمْ يكذِّبون.

ويَحتمِل وجهًا ثالثًا، لَكِنَّهُ احْتِمَال لا يوجد ما يؤيِّده، أَنَّهُمْ قد أُرْسِل إليهم رسولٌ فكَذَّبُوه، وهذا يؤيِّده قول المؤمن من آلِ فِرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ

مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗا﴾ [غافر:٣٤].

فَإِذَا قِيلَ: إن يُوسُفَ سابقٌ جِدًّا على موسى، ولا ندري هل أدركه فرعون أم لم يُدْرِكْه؟

فيقال: لعلَّ آثار رِسالته قد بَقِيَتْ، ولهذا خاطَبَهُم المؤمن: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ﴾، ولم ينكروا، ما قالوا: ما جاءنا، ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ يعني إلى الآن.

فصار عندنا الوجوه ثلاثةً؛ إما أن الماضيَ هنا بمعنى المضارعِ، واستعمالُه بمعنى المضارع كثيرٌ في اللغة العربيةِ، ولا يَحْضُرني الآن أمثلة، وربما يأتي، وإمَّا أن يَكُونَ كَذَّبُوا في علمِ اللهِ أي حَسَب علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتقديره، وإما أن يَكُون بِحَسَب الرِّسَالةِ السابقةِ الَّتِي هي رسالة يُوسُف.

وقوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ المراد بالآياتِ هنا الكونيَّة أو الشرعيَّة؟ الظاهر أنها تَشْمَل الآيات الكونية والشرعية؛ لِأَنَّ آيات الله عَزَّوَجَلَّ كما هو معروفٌ آياتٌ شرعيَّة وآيات كونيَّة، فما تَعَلَّقَ بالخَلْق والتقدير فَهُوَ آيات كونيَّة؛ لِأَنَّ في انتظامِه ودِقَّته وصُنعه ما يدلّ على حِكمة صانعِه وقُدرته، وما يتعلَّق بالوحي فَهُوَ آيات شرعيَّة؛ لِأَنَّ إصلاح هَذَا الوحي لِمَن نزل إليه على حَسَب ما شُرِعَ هَذَا من الآيات العظيمة الدالَّة على أَنَّهُ من عند الله، قال تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:٨٢].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا﴾ اذهبا إليهم فدمَّرناهم؛ من المعروف أن في الآية تقديرًا، والتقدير: فذَهَبَا إليهما فكذَّبوهما فدمَّرناهم تدميرًا، وإنما يَتَعَيَّن هَذَا التقدير لِأَنَّهُ لا يمكِن التدمير بمجرَّد ذَهاب

الرَّسولِ إليهم، لا بدَّ من تكذيبٍ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى لن يُهْلِكَ أحدًا إلا بذنبٍ.

وقوله: ﴿تَدْمِيرًا﴾ مصدر يُراد به التعظيم، يعني تدميرًا عظيمًا، ولا شك أنَّ التدميرَ الَّذِي وقع لفرعونَ وقومِه من أعظم التدميرِ؛ لِأَنَّ الله يقول: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ [الدخان:٢٥-٢٧]، هَذَا النَّعيم العظيمُ الَّذِي كان فيه قومُ فِرعونَ إذا جاء الهلاك من بعده يَكُون وَقْع الهلاك فيهم شديدًا؛ لِأَنَّ الهَلَاكَ إذا وقع للبائسِ فَهُوَ أهونُ مِمَّا إذا وقع للناعِم، هو أَهْوَن بكثيرٍ، ولهذا وَصَفَ الله هَذَا التدمير بقوله: ﴿تَدْمِيرًا﴾؛ يعني عظيمًا بالغًا، وهذا التدميرُ لا يُنافي ما أَشَرْنا إليه من أنَّ الله تَعَالَى أنجَى فرعونَ بِبَدَنِه، يعني لا بِرُوحِه، فإن رُوحَه هلكتْ مع مَن هلكَ، لَكِنَّهُ أنجاهُ ببدنِه ليَكُونَ آيةً لبني إسرائيلَ وعلامةً على أَنَّهُ هلك؛ لِأَنَّ الرجلَ قد أَرْعَبَهُم وأَرْهَبَهُم، فلا يَطْمَئِنُّون تَمامَ الطُّمأنينة حتى يشاهدوا جُثَّتَه ميِّتة، وبذلك يَكُون آية وعلامة على أَنَّهُ ما بَقِيَ له بقيَّة.

هل في هَذَا تعيين لِمَا يَتَسَلَّى به الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

الجواب: نعم فيه؛ لِأَنَّ فرعونَ من أعظم النَّاس عُتُوًّا وتكبُّرًا، ومعَ ذلك أهلكه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إهلاكًا بالغًا هو وقومه، فهكذا أيضًا تكون العاقبةُ للرسول ﷺ مثلَما كانت العاقبةُ لموسى وقومِه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل قوم الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعرِفون حكاية فرعونَ؟

فنقول: نعم يَعرِفونها؛ إمَّا من قَبل نزول القُرْآنِ أو من بعدِه؛ لأَنَّهُمْ يعرفون في أنفسِهم أن القُرْآنَ حقٌّ.

الآيــة (٣٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان:٣٧].

بدأ بذكر موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، معَ أَنَّهُ متأخِّر بالنسبةِ إلى قومِ نوحٍ، فما هي الحِكمة من ذلك؟ فالجواب: لِأَنَّ فرعونَ أقربُ عَهْدًا، وأشدُّ عُتُوًّا من قوم نوحٍ.

قوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ الناصب لها موجودٌ، ليس مقدَّرًا، وهو قوله: ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾، فَهُوَ من باب الاشتغالِ، ولكن لماذا نَصَبَ مع أن الراجحَ في ظاهر القول الرفعُ؟ نقول: لِأَنَّهُ عُطِف على جملةٍ فعليَّة، وإذا كان معطوفًا على جملة فعلية فتقديرُ الفعلِ أَولى من المبتدأ؛ لأجل أن تتناسب الجملتانِ، يُعْطَف فعل على فعلٍ، يعني: فدمَّرناهم تدميرًا، وأغرقنا قوم نوح لَمَّا كذَّبوا الرُّسُل، فدمَّرنا وأغرقنا قوم نوح.

وعلى رأيِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإن ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ منصوب بتقدير: اذْكُرْ قوم نوحٍ لَمَّا كذَّبوا الرُّسُلَ أغرقناهم، ولكننا نقول: لا نحتاج إلى تقدير، والمسألةُ من بابِ الاشتغالِ، والاشتغالُ معروف، والاشتغال مثل النِّكاح، فالنكاح تَجري فيه الأحكامُ الخمسةُ، والاشتغال أيضًا تَجري فيه الأحكامُ الخمسةُ، أحيانًا يَجِب الرفع، وأحيانًا يَجِب النصب، وأحيانًا يَتَرَجَّح النصب، وأحيانًا يَتَرَجَّح الرفع، وأحيانًا يَتساوَى الأمرانِ، فتجري فيه الأحكام الخمسة، أحكام النحو، لا أحكام التكليف في الشرع،

وفي مثل هَذَا التركيب يَتَرَجَّح النصبُ؛ لِأَنَّهُ معطوف على جملةٍ فعليَّة، وإذا عطف على جملة فعلية فالأرجح النصبُ؛ لأجل أن نقدِّر فعلًا يَكُون مناسبًا لِمَا عُطِفَ عليه.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ بتكذيبهم نوحًا لِطُول لُبْثِه فيهم، فكأنَّه رُسُل، أو لِأَنَّ تَكْذِيبَه تكذيبٌ لِباقي الرسُلِ؛ لاشتراكِهِم في المجيءِ بالتَّوحِيدِ]، المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حلَّ الآية الكريمة على وجه جوابٍ لإشكال في قوله: ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾، فمعلوم أن نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو أول الرُّسُل ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]، وكذلك أيضًا في حديث الشفاعة: «وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ»[1]، فإذا كان أول الرُّسُل فكيف الجواب عن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ معَ أَنَّهُ ما سَبَقَه رسول ولا جاء معه رسول؟

أجاب المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بوَاحِد من أمرينِ: إما أَنَّهُ لِطُول مُكْثِه في قومِه صار كأنه رُسُل كثيرون؛ لِأَنَّهُ لَبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عامًا، وهَذِهِ مدَّة تَستوعب رسلًا كثيرينَ، فكأنه لِطُول المُكْث صارَ متعدِّدًا، هَذَا وَاحِد.

الجواب الثَّاني: أو لِأَنَّ تكذيبَه تكذيبٌ لباقي الرُّسُلِ؛ لاشتراكِهِم في المجيءِ بالتَّوحِيدِ، فيَكُون هَذَا من بابِ الجنس؛ لِأَنَّ مَن كَذَّب رسولًا فكأنَّما كذَّب جميعَ الرُّسُلِ؛ لِأَنَّهُ كما أَسلَفنا أعداء الرسُل لا يُعادونهم لِشَخْصِهِم، وإنما يُعادونهم لِمَا يَدْعُونَ إليه، وما جاءوا به، وهذا جِنسٌ، فيَكُون تكذيبهم لرسولٍ تكذيبًا لجميع الرُّسُل، وهذا أقرب، ولذلك مَن كذَّب رسولًا وَاحِدًا فَهُوَ مكذِّب لجميعِ الرسُلِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾ [البقرة:٣١]، رقم (٤٤٧٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

وبهذا نعرِف أن اليهودَ الآن مكذِّبون لِموسى، وأن النصارى الَّذِينَ يزعُمون أَنَّهُمْ متبِّعون لعيسى مكذِّبون لعيسى؛ لأَنَّهُمْ مكذِّبون للرسول ﷺ، فهم مكذِّبون حتى لأنبيائِهم.

وبهذا نعرِف أيضًا أن ما اشتهر بين النَّاسِ الآنَ من تسمية النصارى بالمسيحيِّين أَنَّهُ خطأ، وأنه لا يَنبغي أنْ نُسمِّيَهم بالمسيحيين؛ لِأَنَّ المسيحَ منهم بريءٌ، ولا يجوز أن يُنسَبوا إليه، ولا إلى دينِه، وإنما يقالُ لهم ما قال الله فيهم؛ وهو النصارى، وما زال المسلمونَ في كُتُبهم يُسَمُّونهم بهذا الاسْم بالنصارى إلى أن استعمروا البلاد الإسلاميَّة وأدخلوا على المسلمينَ هَذَا التعديلَ تلطيفًا وتمويهًا؛ لِتَصْطَبِغَ مِلَّتُهم بالوصف الشرعيّ وهو المسيحيَّة، ونحن نقول: نُشهِد الله عَلَى أَنَّ المسيح ﷺ منهم بريءٌ، وأَنَّهُمْ كافرون به كما هم كافرون بمحمَّدٍ ﷺ، بل إنَّهم في الحقيقة كافرونَ به، لا من حيثُ العمومُ والجنسُ، بل من حيثُ التعيينُ؛ لِأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول عن عيسى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف:٦]، يخاطب بني إسرائيل فيبشِّرهم بهذا الرَّسول، وهل يمكن أن يُبَشَّرَ أحدٌ بما لا يتَّصل به؟ لا يمكن، فإذا كان يبشِّرهم برسول يأتي إلى العرب ويحاربهم ويقاتلهم هل هَذِهِ بشارة؟ أبدًا، البشارة برسول يأتي إليهم لِيُنْقِذَهم من الضلالِ، ومُحَمَّد ﷺ لَمَّا جاء إلى هَذِهِ الأُمَّة صار يحارب النصارَى، وأوجبَ اللهُ عليه محاربَتَهم ومحاربة اليهود، ومحاربة جميع الكفارِ، هل يمكن أن يَكُونَ عيسى مبشِّرًا للنصارى برسول يأتي من بعده اسْمه أحمد ليقاتِلَهم؟!

لا يمكن، وبهذا نعرِف أَنَّهُمْ كَذَّبُوا عيسى على التعيينِ، لا على جنسِ الرِّسَالةِ، كما أسلفنا أولًا.

وَإِذَا قِيلَ: إنهم لا يعلمون بهَذِهِ البشارةِ.

نقول: هَذِهِ البشارة موجودةٌ في أصلِ الكِتَابِ، ولا أظنها تحرّفتْ، لا بدَّ أن تكون باقيةً؛ لِأَنَّهُ مُبَشِّرٌ لهم، ولا يبشَّر إلا من تصل إليه البشارة، فالظاهر أَنَّهُ ما جَرَى عليها التحريف وأنها باقية، فقد يحرِّفون المعنى أو بعض الأمور كتموها، أو ما أشبه ذلك، ولهذا اليهود لما أرادوا ألا يطبِّقوا الحدَّ في التوراة لم يُزيلوها من التوراة، هي باقية، لكِن يحاولون أن يكتموها عن النَّاس كما هو معروف[1]، وأنا عندي أن ذلك لا بد أن يَكُون هَذَا موجودًا لم يَجْرِ عليه تحريفٌ؛ لِأَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ﴾ [الصف:٦]، ولأنه إِنَّمَا يُبَشَّرُ بالرَّسول مَن كان في وقت الرَّسول، وهذا معناه أَنَّهُ سيبقَى، وَأَمَّا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ [الأنعام:٢٠]، فإن هَذَا مما يؤيِّد ما قُلْنا، لكِن نفس البشارة تدلّ عليه؛ لِأَنَّ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يؤيِّد، وليس نصًّا في الموضوع، فقد يَكُون المراد أوائلهم قبل التحريف، لكِن الظاهر أن المراد الأوائل والأواخِر، كذلك وفد نَجْرَان لَمَّا أَتَوُا النَّبي ﷺ.

والخلاصة في الكَلام على قوله: ﴿لَمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ أَنَّهُ جمع، مع أَنَّهُمْ ما كذَّبوا إلا نوحًا، والجواب عن ذلك من أحد وجهين كما تقدم: إما أَنَّهُ لطول مُكْثِه كأنه رُسُل، وإما أَنَّهُمْ لَمَّا كذبوا هَذَا الرَّسول مِنْ أَجْلِ الرِّسَالة صاروا مكذِّبينَ لِجميع الرسُلِ.

والَّذِي حصل ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ فَهُوَ جواب ﴿لَمَّا﴾، قال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ وقصَّتهم معروفة، حتَّى إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أغرقَ من قومِ نوحٍ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب أحكام أهل الذمة وإحصانهم، إذا زنوا ورفعوا إلى الإمام، رقم (٦٨٤١)، ومسلم: كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزِّنى، رقم (١٦٩٩).

ابنَه ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود:٤٥]، فقال الله له: إِنَّهُ ليس مِن أهلِك؛ لِأَنَّهُ كافر وأنتَ مؤمِنٌ.

وَقَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ﴾ بعدَهم ﴿ءَايَةً﴾ عِبرةً ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ في الآخِرة ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرينَ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾].

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ﴾ بعدهم ﴿ءَايَةً﴾ عِبرة]، كيف كانوا عبرةً؛ لِأَنَّ الآية لا بدَّ أن تكون معلومةً، فكيف كان ذلك؟ عن طَريق الخبرِ، سواء كان عن طَريق الوحيِ أو عن طَريقِ النقلِ بين النَّاسِ، وأيضًا الفُلْك أوَّل مَن صَنَعها نوح، فبَقِيَتْ آيةً إلى يومِنا هذا، ولكنَّها تطوَّرت بحسَب الزمن، كما في قوله تَعَالَى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٣-١٥].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ في الآخِرة ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾]، قوله: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ هَذَا إظهارٌ في موضِع الإضمارِ؛ لِأَنَّ مُقْتَضَى السياق أن يقول: وأَعْتَدْنَا لهم، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ [نوح:٢٥]، ولكن الإظهارُ هنا له فائدةٌ، بل فوائدُ، نَعُدُّها:

الأُولى: إرادة الشمول والعموم؛ لِيَشْمَلهم هم وغيرهم، حتى الظالمون من قريشٍ يدخلون في هذا؛ لِأَنَّهُ إذا قال: (وأَعتدنا لهم عذابًا أليمًا) صار العذابُ الأليمُ لهم فقطْ، لكِن لَمَّا قال: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ صار لهم ولغيرِهم.

والثَّانية: تسجيل هَذَا الوَصْف عليهم، وهو الظُّلم؛ لِأَنَّهُ وصفهم بأَنَّهُمْ ظالمون.

والثالثة: إظهار الحِكمة من هَذِهِ العقوبة وهي أَنَّهُمْ كانوا ظالمين، يعني أعدَّ لهم عذابًا أليمًا؛ لأَنَّهُمْ ظالمون.

والرابعة: التنبيه: تنبيه المخاطَب؛ لِأَنَّ تَغَيُّر السياق يُوجِب انتباهَ المخاطَب، مثل الالتفاتِ، قال تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾ [المائدة:١٢]، ولم يَقُل: وبَعَثَ. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٢-٥]، لم يقلْ: نعبد، بل قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، لكِن المراد بالمخاطَب هنا الَّذِي يَكُون في قلبه حياة، أمَّا الَّذِي يقرأ القُرْآن بدون تدبُّر فَإِنَّهُ لا يَنْتَبِهُ للإظهار في موضِع الإضمار، والالْتِفات، والتنبيه، فكله عنده وَاحِدٌ، لكِن الكَلام للذي يقرَأ بتدبُّر؛ فَإِنَّهُ لا بد أن يَنْتَبِهَ كيف تغيَّر السياقُ، وكيف عُدل عن الضمير إلى الظاهرِ.

قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فَعِيل بمعنى مُفْعِل، يعني مُؤْلِمًا، وعذاب جهنم -والعياذ بالله- أو عذاب الآخرة يَشمَل الألمَ البَدَنِيَّ والألم القلبيَّ، فالألم البدني يحصُل بنوع العذاب، والألم القلبيُّ يحصُل بما يقارن عذابهم من التوبيخ؛ لأَنَّهُمْ يوبَّخون ويُقرعون ويُقرَّرون بإتيان الرُّسُلِ، وهذا من أشدِّ ما يَكُون من العذاب القلبيّ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٣٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:٣٨].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿عَادًا﴾ قومَ هُـودٍ ﴿وَثَمُودَاْ﴾ قومَ صالحٍ، ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ اسْم بِئْرٍ، ونبيُّهم قيل: شُعَيْب، وقيل: غيرُه، كانوا قعودًا حولَها فانهـارتْ بهم وبمنـازلهم، ﴿وَقُرُونًۢا﴾ أقوامًا ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾، أي بين عـاد وأصحاب الرَّسِّ].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنها على تقدير (اذْكُر)؛ لِأَنَّهُ لم يذكر فعلًا بحيثُ يُحالُ العملُ عليه، وعادٌ قومُ هودٍ، وكانوا في الأحقافِ في جنوب الجزيرة العربية، وكانوا ذوي قوَّة وشِدَّة، حتى إنهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مجيبًا لهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾، انْظُر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ لها فائدة؛ لأَنَّهُمْ مخلوقون ضعفاء ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، وبماذا أُهْلِكُوا؟ أهلكوا بألطفِ الأشياءِ، وهي الريحُ؛ رِيحٌ دَمَّرَتْهُم، قال تَعَالَىٰ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥].

قوله: ﴿وَثَمُودَاْ﴾ فيها قراءتانِ: (وَثَمُودًا) ﴿وَثَمُودَاْ﴾ بدون تنوينٍ، فعلى قراءة التنـوينِ يَكُون غير ملاحَظ فيها اسْم القبيـلة، يعني ليس فيها تأنيث، وعلى قراءة

عدم التنوين ﴿ثَمُودَ﴾ منعت من الصرف للعلميَّة والتأنيثِ، فأَسْماء القبائل كلها يُحْذَى بها هَذَا الحَذو، يعني يجوز أن تمنعها من الصرف باعتبارِ اسْم القبيلة، ويجوز ألَّا تَمْنَعَها إذا لم يكنْ فيها مسوِّغ غير التأنيث المعنويّ؛ لِأَنَّهَا ليستْ فيها سَبَبٌ.

وثمود هم قوم صالحٍ، كذَّبوا صالحًا وعَقَرُوا الناقةَ الَّتِي جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آية، وأخيرًا أُهلِكوا بصيحةٍ ورَجفةٍ، صِيحَ بهم مع الرَّجْفَة، فماتوا والعياذُ باللهِ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر:٣١]، وفي آية أخرى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف:٧٨].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل نبيّ الله صالح عربيّ؟

فالجواب: الظاهرُ أَنَّهُ عربيّ، وهُود أيضًا، لكنهما ليسا من العرب المستَعْرِبَة الَّذِينَ هم بنو إسماعيل من العربِ العاربةِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لكِن ذكر ابنُ كثيرٍ[1] حديثًا عن أبي ذرٍّ قال: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ فذكر فيه: «**وَأَرْبَعَةٌ مِنَ الْعَرَبِ: هُودٌ، وَصَالِحٌ، وَشُعَيْبٌ، وَنَبِيُّكَ يَا أَبَا ذَرٍّ**»[2]؟

فالجواب: الأَسْماء تدل على أنها عربيَّة، لكِن لا أدري عن هَذَا الحديث، لكنِ المعروف أَنَّهُ لا يوجَد إلا هَؤُلَاءِ الأربعة، حتى شُعَيب لا أدري عنه إلا مِن هَذَا

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٧٠)، ط. دار طيبة.

(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٦، رقم ٣٦١-الإحسان). وقال ابن كثير عقبه في التفسير: «قد روى هَذَا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم ابن حِبَّان البُسْتي في كتابه الأنواع والتقاسيم، وقد وسمه بالصحة، وخالفه أبو الفرج ابن الجوزي، فذكر هَذَا الحديث في كتابه الموضوعات، واتهم به إبراهيم بن هشام هذا، ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل مِنْ أَجْل هَذَا الحديث، فالله أعلم».

الحديثِ، أمَّا هود فمعروف عند المؤرِّخين أَنَّهُمْ عَرَب عاربةٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل أحدٌ تَعَرَّض لتعريبِ أَسْماءِ الأنبياءِ، أي معرفة معناها؟

فالجواب: من المعروف أنَّ الأعلامَ قد تكونُ أَسْماء جامدةً، ليس لها اشتقاقٌ، لكنْ فيما يبدو لي -والله أعلم- أن أَسْماء الأنبياء في الغالبِ لها معانٍ، لكِن لا أعرِفُ عنها شيئًا.

قوله: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ الرَّسُّ اسْم للبئر؛ إمَّا للبئر مطلقًا، أو لبئر غير مَطْوِيَّة، ولم يبيِّنِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَنْ أصحابُ الرسِّ، ولذلك اختلفَ المفسِّرون فيهم اختلافا كثيرًا، فقيل: إنهم -كما يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ- قومُ شُعَيْب، ولكنَّ هَذَا ليسَ بصحيحٍ، وقيل: إنهم من قومِ ثَمود، ولَيْسُوا قومَ ثمود، وعلى هَذَا فيَكُونُ عَطْفُهم على ثمودَ من بابِ عَطْف البعضِ على الكلِّ، ولَيْسُوا هم ثمود أصحاب البئر، يعني بئر الناقة؛ لِأَنَّهُ معروفٌ أَنَّهُمْ ثمود مستقِلُّون، وهلاكهم معروف، وجوابهم لرسولهم معروف، فالأَصْل في العطف التغايُر.

وقيل: إنَّ أصحابَ الرَّسِّ -ورجَّحه ابنُ جَرِير[1]- هم أصحابُ الأُخدود الَّذِينَ ذَكَرَ الله تَعَالَى في سورة البُرُوج، ولكن الأَولى التوقُّف في تَعْيِينهم؛ لِأَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يُعَيِّنْهُم، ولكننا نَعْلَم أن هَؤُلَاءِ القوم كانوا معلومينَ للعربِ حين نُزُولِ القُرْآنِ؛ لِأَنَّ اللهَ تعالى لم يَكُنْ لِيَضْرِبَ لهم المَثَلَ بقومٍ لا يَعرِفون ما جَرَى عليهم، الآن نحنُ نَتَكَلَّم عن تعيينهم بأشخاصهم، أو بقبائلهم، نقول: الأَولى التوقُّف.

لكنْ لماذا سُمُّوا أصحابَ الرَّسِّ؟

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (١٩/ ٢٧٠)، ط. الرِّسَالة.

قيل: إنهم رَسُّوا نبيَّهم، يعني دفنوه في هَذِهِ الرسِّ، يعني في البئر، فسُمُّوا بأصحاب الرسِّ من باب إضافة الشَّيْءِ إلى العملِ الشَّنيع المنكَر.

وقيل: إنهم كانوا حولَ هَذِهِ البئرِ، وإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خَسَفَ بهم وببئرهم، فانهارت البئرُ بمَن حولها، فذهبوا عن آخِرِهِم. وكيفيَّة العقوبة الَّتِي جرتْ عليهم أو كيفية العمل الَّذِي عمِلوه فأُهلِكوا به على الأوَّل تكونُ الإضافة إشارة إلى الفعلة القبيحة الَّتِي فعلوها، فكانت سَبَبًا في إهلاكهم، وعلى الثَّاني تكون إشارة إلى نوع العقوبة الَّتِي عُوقِبوا بها، فتكون من باب الإضافة إلى العقوبةِ.

نقرأ كَلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ اسْم بئرٍ، ونبيُّهم قيل: شُعيب، وقيل: غيرُه، كانوا قعودًا حولَها فانهارتْ بهم وبمنازلهم]، المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ اقتصرَ على ذكر كيفيَّة إهلاكهم، فهم أُضيفوا إلى البئرِ؛ لِأَنَّ إهلاكَهم كان بما حولها، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقُرُونًا﴾ أقوامًا ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ أي بينَ عادٍ وأصحابِ الرَّسِّ]، هَذَا ما ذهب إليه المُفَسِّر، ويَحتمِل أنَّ الإشارةَ تعودُ إلى ما سبقَ من قومِ نوحٍ، يعني من قوم نوح إلى أصحاب الرسِّ قرون كثيرة أَهلَكهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقُرُونًا﴾ أقوامًا] كأنه يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن المرادَ بالقرنِ الجِيل، والقوم والأُمَّة الَّتِي كانت في عصرٍ وَاحِدٍ، وهذا أحد الأقوالِ في القرن؛ أن المراد به الأُمة والطائفة الَّذِينَ كانوا في عصر وَاحِدٍ، وعلى طَريقٍ وَاحِدةٍ، واستدلوا بقول النَّبي ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم (٢٦٥٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣).

ويُطلَق القرنُ على الزمنِ، واختلفوا في مِقدارِه؛ فمنهم مَن قال: إِنَّهُ مئة، وهذا هو المشهور، ومنهم من قال: مئة وعشرونَ، ومنهم من قال: ثمانونَ سنةً، وهَذِهِ الأقوال الَّتِي تُقَدِّرُ بالزمنِ هي مقارِبةٌ للأقوالِ الَّتِي تقدِّر بالأُمَّة؛ لِأَنَّ الغالبَ أن مثل هَذَا الزمن يَفنى به الأوَّلون ويأتي بعدَهم قومٌ آخرونَ، ولهذا قال النَّبي ﷺ في آخِرِ حياتِه: «أَرَأَيْتُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّ رَأْسَ مئة سَنَةٍ مِنْهَا، لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَدٌ»[1]، فهذا مما يُشِيرُ إلى أن القرنَ مئة سنةٍ، ولكنَّ السياقَ هنا يدل عَلَى أَنَّ المرادَ بالقرون الأُمم؛ لِأَنَّ الإهلاك للقرونِ يَكُون لأهل الأزمان، فالآيةُ هنا سياقها يدلّ عَلَى أَنَّ المراد بالقرونِ الكثيرةِ الأممُ، وما أَكْثَرَ القرونَ الَّتِي أَهْلَكَهَا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين نوحٍ وأصحابِ الرَّسِّ، وقد جاء في الحديث الَّذِي رواه أبو ذَرٍّ وهو حَسَنٌ، وصحَّحه الحاكِم[2] أن عدد الرُّسُلِ ثلاثُ مئة وبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، وأمَّا الأنبياء فكثيرون؛ مئة وأربعة وعشرون ألفًا، هَذَا عددٌ كبيرٌ، فإذا كان غالب الرُّسُل مُكَذَّبًا، فمعنى ذلك أن القرونَ الَّتِي أُهْلِكت كانتْ كثيرةً، والنَّبي ﷺ رأى رؤيا: رأى الأنبياء، فرأى النَّبيَّ ومعَه الرَّهْطَ، والنَّبيَّ ومعه الرجلُ والرجلانِ، والنَّبي وليس معَه أحدٌ[3]، ممَّا يدلّ عَلَى أَنَّ غالبَ الأنبياءِ كُذِّبَ فيما سَبَقَ ولم يَتْبَعْه إلَّا القليل، وهذا نوحٌ كما هو معروف لبِث في قومِه ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عامًا، قال الله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠]، هَذِهِ المدَّة العظيمة وهو يكابدهم ويناظرهم

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب ذكر العشاء والعتمة، ومن رآه واسعا، رقم (٥٦٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب قوله ﷺ: «لا تَأْتِي مئة سَنَةٍ، وَعَلَى الأَرْضِ نَفْسٌ مَنْفُوسَةٌ الْيَوْمَ»، رقم (٢٥٣٧).

(٢) مستدرك الحاكم (٢/ ٦٥٢، رقم ٤١٦٦).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب من لم يرق، رقم (٥٧٥٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢٢٠).

ويجادلهم ويَقُولُونَ: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود:٣٢]، أي: لن نُطِيلَ، الَّذِي عندك ائتِ به -والعياذ بالله- ونحن الآنَ إذا كابَدْنَا وَاحِدًا في الدعوةِ إلى اللهِ لُمِدَّة دقيقةٍ وَاحِدةٍ تَطَاوَلْنَاها، نقول: لماذا لم يَسْتَجِبْ من أوَّل مرَّة دعوناه فيها؟! والرُّسُلُ -عليهم الصلاة والسلام- الَّذِينَ وَعَدَهُمُ اللهُ بالنصرِ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]، يكابِدون أقوامَهم ثم لا يؤمن إلا القليلُ منهم.

فالحاصِل أننا نقول: هَؤُلَاءِ القرون العظيمةُ الكثيرةُ كلُّها أهلكها الله عَزَّوَجَلَّ بتكذيبِها لِرُسُلهم، أفلا يَكُون قادرًا على أن يُهلِك المكذِّبين للرسول؟ بلى، هو قادرٌ عليه، وهذا هو الَّذِي حَصَلَ، لكِن الله تَعَالَى جعل إهلاكَ أعداءِ الرَّسولِ ﷺ على يد الرَّسولِ ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:١٤]. فهَذِهِ المصالح العظيمة لو أُهلكت قريشٌ بعذابٍ من عند الله لم تَحصُل، ولهذا إذا هلك عدوُّك على يدِك كان أشفَى لك وأشدَّ سرورًا وفرحًا أن الله يُهلِكه على يدك، أمَّا إذا هَلَكَ بعذابٍ من الله فهذا لا شكَّ أن الله كَفَاكَ شَرَّهُ ولكنْ كونه على يدِك أبلغ وأشدّ فَرَحًا وسرورًا.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان:٣٩].

تقدَّم أنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا جعل لكل نبيٍّ عدوًّا مِنَ المجرمينَ؛ تسليةً للنبي ﷺ وإنذارًا لقومِه، وأنه بَيَّنَ أقوامًا على التعيينِ ليَكُونَ ذلك أبلغَ؛ لِأَنَّ التعيينَ كضربِ المثلِ، ومِمَّن عَيَّنَ وأوَّلُ مَن بدأ اللهُ بهم قومُ موسَى، ثم بعد ذلك نوح، وبعد ذلكَ عادٌ وثمود، كل هَذَا ذَكَرْنَاهُ وذَكَرنا أن الله عَزَّوَجَلَّ أهلكَ فِرعونَ المكذِّبَ للرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالغَرَقِ في البحرِ الأحمرِ، وأنَّ الحِكمةَ من إغراقِه بالماءِ أَنَّهُ افتخرَ بالماء، حيثُ قال لقومِه: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [الزخرف:٥١]، فافتخرَ بالماء فأهلكه الله تَعَالَى بما افتخرَ به. وقومُ نوحٍ أُهلِكوا بالغرقِ العامِّ الَّذِي هو من آياتِ اللهِ، حيثُ فجَّر الله الأرض عيونًا وفتح أبواب السماءِ بماءٍ مُنْهَمِرٍ.

وأمَّا عاد فأُهلكوا بالريحِ، والحِكمة من ذلك هو أَنَّهُمْ كانوا يَفتخِرون بالقوَّة، يَقُولُونَ: مَن أشدُّ مِنَّا قوَّةً، فأهلكهم الله تَعَالَى بالأشياءِ اللطيفةِ الَّتِي ليستْ بشَيْءٍ لِيَتَبَيَّنَ للناسِ أن الإنْسَانَ مَهْمَا كان من القوَّةِ فَإِنَّهُ ضعيفٌ أمامَ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وثمود أُهلِكوا بالرَّجفة مع الصيحةِ، فإن الله عَزَّوَجَلَّ رجف بهم وصاح بهم جِبريلُ حتى تَقَطَّعَتْ قلوبُهم في أجوافِهم، وكانوا كهَشِيم المُحْتَظِر، ثم الصيحة أيضًا

ليستْ كصفَّارات الإنذار تتكرر، ولعلَّ أحدًا يدخلُ في الملاجئ، بل هي صيحةٌ وَاحِدةٌ فقطْ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر:٣١]، يعني مثل هَشيم الحِظَار، وهَشيم الحظار معروفٌ، يَكُون متفتِّتًا باليًا، والحِكْمَة من ذِكر هَؤُلَاءِ الرسُلِ وما جَرَى لِقَوْمِهم أمرانِ: التسليَةُ للرسول ﷺ، والإنذار لهَؤُلَاءِ المكذِّبين له أن يُصيبَهم ما أصاب مَن قبلهم، ولهذا قال شُعَيْب لقومِه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٩].

قوله: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ لماذا نُصبت ﴿وَكُلًّا﴾، والاسْم إذا ابتُدِئَ به يَكُون مبتدأً؟ هَذَا يسمونه باب الاشتغالِ، وفي باب الاشتغال يَكُونُ الفعل منصوبًا بالعامل بعدَه، أو بعاملٍ مقدَّر مناسِب، وهنا لا يصلُح بالعامل بعده؛ لِأَنَّ العامل بعده متعدٍّ بحرف الجرِّ، فالضمير (له) يعود على ﴿وَكُلًّا﴾ فالعامل اشتغل بضمير، لكِن بواسطة حرف الجرِّ، إذَن لا بد أن نقدِّر فعلًا مناسبًا، والتقدير: وأنذرنا كلًّا ضربنا له الأمثال، فَهُوَ مَفْعُول لفعلٍ محذوفٍ، وهو من باب الاشتغالِ، وإنما تَرَجَّحَ النصبُ هنا لِأَنَّهُ معطوفٌ على جملةٍ فعليةٍ، وباب الاشتغال من مرجِّحات النصبِ فيه أن يعطف على جملةٍ فعليَّة.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ في إقامة الحجَّة]، ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ يعني بَيَّنَّا له الأمثالَ، يعني الوقائع الَّتِي أوقعها الله تَعَالَى بمن قبلَهم، كل أُمَّة تُنْذَرُ بمَن قبلها، ويُضرب لها المَثَل، يقال: هَذَا مَثَلُ المكذِّبين حَصَل عليهم كَيْت وكيت، فكل أُمَّة أَنْذَرَها الله تمامَ الإنذارِ، بحيثُ لا يَبقَى لها حُجَّة: أُمَّة مُحَمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وغيرها.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴾ في إقامة الحجَّة عليهم، فلم نهلكْهم إلا بعد الإنذارِ]، وهذا من عَدْل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِأَنَّ الله قادِر على أن يُهلِكَ عبادَه بمجرَّد مَعْصِيَتِهم؛ إذ إِنَّهُ قد أخذَ عليهم العهدَ والميثاقَ الفِطريَّ أو الحسيّ، على الخلاف في ذلك، بأنه ربُّهم وأَنَّهُمْ عابدون له، ولكن مع ذلك ما يُهْلِكُ أحدًا إلا بعدَ إرسالِ الرسُل ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥]، فلم يَكِلِ اللهُ العبادَ إلى فِطَرِهم، ولا إلى العهدِ الَّذِي أخذه عليهم، وإنما بعث إليهم رُسُلًا مبشِّرين ومنذرين، بعد هَذَا البعث هل يبقَى لأحدٍ حُجَّة؟ لا يبقى، حتى المحتجُّون بالقَدَر لا يستطيعون أن يحتجُّوا به مع إقامة الحجَّة عليهم بالرُّسُلِ، ولهذا لو كان القَدَر حُجَّةً لم تنتفِ بإرسالِ الرُّسُلِ؛ إذ القدرُ قائمٌ مع وجودِ الرُّسُلِ، فلو كان القَدَر حُجَّةً للعاصينَ ما كان إرسالُ الرُّسُلِ حجَّةً على الخَلْقِ؛ لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: يا ربَّنا القدر موجود حتى مع إرسالِ الرُّسُلِ، فَهُوَ لنا حُجَّة. ولكنَّ النَّاسَ قد أُنذروا وأُتوا بالآيات «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ»[1]، فكلُّ رسولٍ أيضًا ما أتَى فقطْ ليقولَ للناسِ: أنا رسولٌ، افْعَلْ كذا، حتى لو جاء الإنْسَانُ وقال: أنا رسول، افْعَلْ كذا، ولم يأتِ بآياتٍ فللناس الحُجَّة في أن يردوا قولَه، يَقُولُونَ: هاتِ بيِّنةً أنك رسول، وإلَّا لا نقبلَ، لكِن مع ذلك ما من رسولٍ إلَّا أتى بآيةٍ يؤمِنُ على مثلِها البَشَر، ثم مع ذلك أُنْذِروا؛ فشعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كما أشرنا سابقًا قال لقومِه: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ﴾ [هود:٨٩]، وهود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال لقومِه:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول ما نزل، رقم (٤٩٨١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، رقم (١٥٢).

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩]، وصالح قال لقومِه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف:٧٤]، وكلُّ رسولٍ يضرب المثل لقومِه بمَن سَبَقَهم، إذَن فالحجَّة قائمةٌ.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أهلكنا إهلاكًا بتكذيبهم أنبياءَهم]، ﴿وَكُلًّا﴾ مَفْعُول مقدَّم لـ(تبَّرنا)، وليس من بابِ الاشتغالِ؛ لأنَّ باب الاشتغال يَكُون فيه العامل مشتغِلًا بضمير ما سَبَقَه، هَذَا باب الاشتغال، يعني إذا قلت: (زيدا ضربتُ) لا يَكُون من باب الاشتغال؛ لِأَنَّ العامل ما اشتغل بضميرِه، يَكُون هَذَا من باب المَفْعُول المقدَّم، لكِن إذا قلت: (زيد ضربته) صار الآن من باب الاشتغال، إن شئتَ فارفعْه على أَنَّهُ مبتدأ، والجملة بعده خبر، وإن شئتَ فانصِبْه، لكِن كما تقدَّم أن الاشتغال تَجري فيه الأحكام الخمس؛ تارَةً يَجِب النصب، وتارة يَجِب الرفع، وتارة يَترجَّح الرفع، وتارة يترجَّح النصب، وتارة يَتساوَى الأمرانِ، والأَصْل فيه الرفع، لكِن إذا كان الفعل لم يَشْتَغِلْ بالضميرِ صار السابق مَفْعُولًا، لا يَكُون من باب الاشتغالِ، فهنا ﴿وَكُلًّا﴾ لو قال الله عَزَّوَجَلَّ: وكلًّا تبَّرناه تتبيرًا لصارتْ من باب الاشتغالِ؛ لِأَنَّ العامل اشتغلَ بضميرِه، لكِن قال: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ فيكُون من باب تَقَدُّمِ المَفْعُولِ، لا من بابِ الاشتغالِ.

قوله: [﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أهلكنا إهلاكًا]، الإتيان بالمصدر هنا للتوكيدِ؛ كقولِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، ﴿تَكْلِيمًا﴾ فَضْلَة في هَذَا السياقِ، لو قال: وكلَّم الله فهِمنا الموضوع، لكِن ﴿تَكْلِيمًا﴾ من باب التوكيدِ، وَأَمَّا التنكير فَهُوَ للتعظيم، يعني تتبيرًا لا بقاء معه، أي هلاكًا كاملًا لا بقاء معه، وهو كذلكَ.

الآيــة (٤٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:٤٠].

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ﴾ هَذِهِ الجملة مؤكَّدة بثلاثةِ مؤكِّدات؛ بـ(اللام) و(قد) والقَسَم المقدَّر، والمقصود بالتوكيدِ تقريرُ الأمرِ الواقعِ، فليس الخبر كالمعايَنة، فهم الآن يعاينون ما حلَّ بهَذِهِ القريةِ من عذابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأَنَّهُمْ يمرون عليها، قال تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ أي مَرَّ كفَّار مكَّة ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ مصدر ساء، أي: بالحجارة، وهي عُظمَى قُرى قومِ لُوطٍ، فأهلكَ اللهُ أهلَها لِفِعْلِهِمُ الفاحشةَ]، يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مر كفار مكة] (مر) تفسير لـ(أتى)، (كفار مكة) تفسير (للضمير: للواو) يعني أن كفار مكة مرُّوا على القرية الَّتِي أُمطرت مَطَرَ السَّوء، وهي قرية قوم لوطٍ، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وهي عُظمَى قُرَى قوم لوط] عُظمَى قرى يُستفاد منه أن القرى أكْثَر من وَاحِدةٍ.

وقد قيل: إنها سَبْعُ قُرى، ولكن ظاهر القُرْآن أنها قريةٌ وَاحِدةٌ؛ كما قال الله تَعَالَى في الرُّسُل: ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت:٣١-٣٢]، إلى آخِره، فكون القُرْآن يأتي باسْم

قريةٍ وَاحِدة لا يَنْبَغِي لنا أن نقول: إنها أكْثَر من وَاحِدة إلا بدليلٍ ثابتٍ عن الرَّسول ﷺ وما جاء عن بني إسرائيل في ذلك، أي في أنها سبع قرى، هَذَا مرفوض؛ لِأَنَّ دلالة كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ تدلّ عَلَى أَنَّ ظاهرها أنها قرية وَاحِدة، فعلينا أن نَتَمَسَّكَ بهذا الظاهرِ ما لم يوجدْ دليل ينفي هَذَا الظاهرَ، إنْ وُجِدَ دليل فنعم، أمَّا مجرَّد أخبار بني إسرائيلَ فليستْ مقبولةً في هَذَا الموضعِ. أقول: إن المُفَسِّر وكثيرًا من المفسِّرين يَقُولُونَ: إن قرى قوم لوط ليست قريةً وَاحِدةً، بل قرى متعددة، فنحن نقول: لا، هي قرية وَاحِدة ما لم يوجدْ دليلٌ على تَعَدُّدِها؛ لِأَنَّ ظاهر القُرْآن أنها قرية وَاحِدة، فإذا قال قائل: إنها سبع قرى نقول له: هاتِ الدليلَ، ولو فُرِضَ أن المسألةَ فيها دليلٌ صريحٌ صحيحٌ فَإِنَّهُ يمكِن أن يقالَ كما قال المُفَسِّر، يعني يُذْهَبُ إلى ما ذَهَبَ إليه المُفَسِّر، فيقال: المراد بالقرية هنا عُظمى القرى، ولكن نحن نقول: لا حاجةَ أن نقولَ: عظمى القرى، بل نقول: هي قرية وَاحِدة، ولا مانعَ مِن أن الله يُرسِل رسولًا إلى قريةٍ وَاحِدةٍ، بل كان فيما سبقَ يوجد رسولانِ في أُمَّة وَاحِدة، فموسى وهارون كانا في أمَّة وَاحِدةٍ، وداود وسليمان، وزكريَّا ويَحيى، وهكذا كثيرٌ.

هَذِهِ القرية موجودة الآن، يَقُولُونَ: إن البحر الميِّت هو مكان قُرَى قوم لُوط، وصار بحيرةً مالحةً، وهذا مشهور.

قوله: ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ﴾ القرية اسْم للبلد، سواء كان كبيرًا أو صغيرًا، بل لو كان أُمًّا للقرى فَهُوَ قريةٌ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد:١٣]، نحن نغضب إذا قيل: عنيزة مثلًا قرية، وبريدة قرية، والرياض قرية، لكِن هَذَا الغضب في الحقيقة بناء على اللغة العُرفيَّة في أن القرية اسْم للبلد الصغير، والمدينة اسْم للبلد الكبير، ولذلك بعضهم يحترِز يقول: بلدية مدينة عنيزة،

بلدية مدينة بريدة، بلدية مدينة الرس، ولا حاجة أن تأتي بإضافات زائدة: بلدية الرس، بلدية عنيزة، بلدية بريدة، بلدية الرياض، لكِن كل هَذَا خوف من أن يَكُون عيبًا عليهم أن تُسمَّى قرية، ولكن نحن نقول: أُمّ القرى سماها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قرية، وكفى بذلك أُسوةً، وإنما سُمِّيَ البلد قرية لِأَنَّهُ من القَرْي، يعني الجمع؛ إذ إِنَّهُ يَجمَع أُناسًا، فالنَّاس يَجتمِعون فيه، فلذلك سُمِّيَ قريةً.

قولـه: ﴿ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ﴾ المَطَر نوعانِ؛ مطر سَوْء، يعـني: عذابٍ، يَسُوءُ المُمْطَرِينَ، ومطر رحمة يَسُرُّهم، فالغَيْثُ الَّذِي يَنزِل من السَّماء بالماء هَذَا مطر رحمةٍ، وإذا كان يَضُرُّ صارَ مطرَ سَوْءٍ، وقرية قومِ لوطٍ أُمطِرت بمطر سَوء، والمطر الَّذِي أُمطِرت به حِجَارة من سِجِّيل -والعياذ بالله- مُسَوَّمة عند الله مُعْلَمَة للمسرفين الَّذِينَ جاوزوا حدَّهم، وهذا المطر -والعياذ بالله- جعل عالِيَهَا سافِلَها، فكيف هَذَا المطر جعل عاليَها سافِلَها؟

لَوْ قِيلَ: إنها قُلِبَتْ.

نقول: ليس في القُرْآنِ آية وَاحِدة تدلُّ على أنها قُلِبَتْ.

وَإِنْ قِيلَ: ورد حديث أن جِبريلَ رَفَعَها إلى السماءِ ثم قَلَبَها[1].

نقول: هَذَا أَنَّى له الصحَّة، لو صحَّ لكان الأمرُ واضحًا، لكِن جَعْلُ عاليها سافلَها لأنَّ الحجارةَ هَذِهِ لَمَّا ضَرَبَتْها صارتِ المباني تتهدَّم، فصار أعلاها أسفلَها، فهَذِهِ الحجارة -والعياذ بالله- الَّتِي دمَّرتها بهذا التدمير يقول الله فيها: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان في تأويل القرآن (١٥/ ٤٤٠، رقم ١٨٤٥٨) عن مجاهد قال: «أخذ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ قوم لوط من سَرْحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم أكفأهم».

ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣]، يعني من الَّذِينَ يَفعَلون هَذَا الفعلَ ليستْ ببعيدٍ منهم.

ولهذا ذهب بعضُ الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أن فاعل الفاحشة هَذِهِ يُفعَل به هكذا، يُلقَى من شاهقٍ ويُرمَى بالحجارة بناءً على أنها رُفِعت ثم قُلبت ثم أُتبعت بالحجارة، وقال بعض العلماء: بل إنهم يُرجَمون رجمًا بالحجارةِ بدون أنْ يُلْقَوْا من الشاهقِ، بناء على أَنَّهُ لم يَثْبُتْ أنها رُفِعَتْ وقُلِبَتْ.

وعلى كلِّ حالٍ فهَذِهِ الفاحشة المنكَرة الَّتِي عبَّر الله عنها بالفاحشة، قال تَعَالَى في الزنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء:٣٢]، انظُرْ: كان فاحشةً من الفواحشِ، وَأَمَّا هَذَا فقال لهم نبيهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف:٨٠]، فدخول (أل) عليها يدل على أنها قد بلغتْ في الفُحْش غايتَه، وهو كذلك، وهذا لِأَنَّ الفِطَر تنفُر منه ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦]، انظُرْ التقريع والتوبيخ -والعياذ بالله- تترك ما خلق لك إلى ما لم يُخْلَقْ لك، فتأتي -والعياذ بالله- الذكر، وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: وقد أجمعَ الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ عَلَى أَنَّ فاعل هَذِهِ الفاحشةِ يُقتل فاعلًا كان أو مَفْعُولًا إذا كان قد بلغَ. والحقيقةُ الإجماعُ ليسَ إجماعًا قطعيًّا، بل إجماعٌ سكوتيٌّ، والإجماع السكوتيّ ليس إجماعًا قطعيًّا، لَكِنَّهُم اختلفوا في قتلِه؛ فمنهم من قال: يُحَرَّق، ومنهم من قال: يُرجَم بالحجارة. ومنهم مَن قال: يُلقَى من أعلى شاهقٍ؛ وذلك لقول النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ، وَالْمَفْعُولَ بِهِ**»[2].

---

(١) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٢٢).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الحدود، باب فيمن عمِل عملَ قوم لوط، رقم (٤٤٦٢)، والترمذي: أبواب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطيّ، رقم (١٤٥٦)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب من عمِل عملَ قوم لوط، رقم (٢٥٦١).

ولا يُشترَط الإحصان، فلا يشترط أن يَكُونَ محصَنًا، في الزِّنا لا يُرجَم ولا يُعدَم إلَّا المحصَن، أمَّا هَذَا فَإِنَّـهُ لا يُشترَط فيه الإحصانُ، متى كان بالغًـا عاقلًا وجبَ إعدامُه؛ وذلك لِأَنَّ هَذَا الفعلَ المنكَر لا يمكن التحرُّز منه في الحقيقةِ، فالزنا يمكن التحرُّز منه ويمكن مراقبة مَن حاول الزنا، فإنك لو رأيتَ رجلًا مع امرأةٍ تقولُ: من هَذِهِ المرأة؟ لكِن لو رأيتَ رجلًا مع ولدٍ ليسَ بمستغرَبٍ، ولذلك مِنْ أجْلِ أنَّ فسادَه خفيٌّ لا يمكن التحرُّز منه؛ صار لا يمكِن إصلاح الخَلْق إلَّا بإعدامِه، وهو مصلحة له ومصلحة لغيرِه، أمَّا كونُه مصلحةً له فإن الحدَّ كفَّارة، ولأنه إذا بقِيَ في الدُّنْيا متماديًا في هَذِهِ الفاحشةِ صار يزدادُ إثمًا، فنحن في الحقيقةِ قد قطعنا الطَّريقَ على الشيطانِ بالنسبةِ لهذا الرجلِ، ثم هو أيضًا إصلاح لغيرِه.

وهذا القول الَّذِي ذكره شيخُ الإسلامِ وأجمعتْ عليه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هو القول المتعيّن، لاسيَّما إذا كثُر هَذَا الأمرُ؛ لِأَنَّهُ كلَّما كثُرتِ الفاحشةُ وجبَ أن تُقابَلَ بعقوبةٍ أشدَّ، إلَّا ما حدَّده الشرعُ فيَجِب الوقوفُ عليه، وتجد أن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أكْثَرَ النَّاسُ من شُربِ الخمرِ ماذا صنعَ؟ زاد الضعف إلى ثمانينَ[1]، ولما كثُر الطلاقُ الثلاثُ في عهدِه عاقبَ المطلِّقين بتنفيذِ قولِهم، أمضاهُ عليهم[2].

فعلى هَذَا نقول: إِنَّهُ إذا كثُرتْ هَذِهِ الفاحشةُ وجبَ على وُلاةِ الأمورِ أنْ يَكُونوا أشدَّاءَ على فاعليها، وأن يقتلوهم إعدامًا بدون أيّ توقُّف؛ لِأَنَّ ذلك هو الَّذِي يُصلِح الخَلْقَ، وإلَّا فانتـشارها مثلما قُلْنا: إِنَّهُ لا يمكن التحرُّز منه، وانتشارها عظيم، كل وَاحِد مثلًا -والعياذُ باللهِ- مبتلًى بهذا الأمر، يُمسِك أيّ صبيّ ويعاشره ثم يفعل به

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحدود، باب حد الخمر، رقم (١٧٠٦).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب طلاق الثلاث، رقم (١٤٧٢).

الفاحشةَ، ليس مثل النساء، هَذَا هو القول الصحيح المتعيّن.

يوجد قول آخر وهو أن حكم اللُّواط حُكْم الزنا، وهذا هو المشهور من مذهب الإمامِ أحمدَ، وهو ضعيفٌ، فعلى هَذَا إن كان الفاعل محصَنًا، والمَفْعُول به محصَنًا، وجبَ الرجمُ، وإلَّا فالجلدُ والتغريبُ.

وذهب بعض العلماء إلى أَنَّهُ يُعَزَّر تعزيرًا بدون حدٍّ؛ لِأَنَّهُ لم يَثْبُتْ عنده حديثُ: «فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ»[1]، وليس فيه حدٌّ ثابت، فيُرجَع فيه إلى التعزيرِ، والتعزيرُ إذا قُلْنا بأن وليّ الأمر له أن يعزِّر بالقتل فما دونه صارَ قتلُ اللائط والملُوط به عائدًا إلى اجتهاد الإمام.

وذهب بعض العلماء إلى أَنَّهُ ليس فيه حدٌّ ولا تعزيرٌ، لكنَّه حرام، حُجَّته يقول: إِنَّهُ يُكتفَى بالنفور الفِطريّ عن العقوبة الرادعةِ، يعني أن هَذَا النفور منه أمر فطريّ، فلا يحتاج إلى عقوبةٍ رادعةٍ، ولهذا جعل الشرعُ في شُرب الخمرِ عقوبةً؛ لِأَنَّ النفوسَ تميل إليها، ولم يجعل في شربِ البولِ عقوبةً؛ لِأَنَّ النفوسَ تنفِر منه بالطبيعةِ، فهذا مثله.

فيقال: هَذَا رجل سليم الفطرة ولا يعرف الواقع، فإذا كانت فِطرته سليمةً تنفِر من هَذَا الأمر، فإن هناك فِطَرًا مقلوبة تَهْوَى هَذَا الأمرَ وتميل إليه، فماذا نَصنَع بهَذِهِ الفِطَر؟ ثم إن قوله: إن شُرْبَ البولِ لا تعزيرَ فيه لِأَنَّ النفوسَ تنفِر منه؛ غير مُسَلَّم، فلو أن رجلًا ابتُلِيَ بشربِ البولِ هل نتركه يشرب بولَ النَّاسِ أو نعزِّره؟ نعزِّره ونمنعه من ذلك، وإن كانت الفطرة تأبَى هَذَا الأمرَ.

---

(١) سبق تخريجه.

فالحاصل: أن هَذِهِ الأقوالَ الأربعةَ أصحُّها القولُ الأوَّل، لكِن مَن أُكرِه على فعل الفاحشةِ فلا شَيْءَ عليه في هذا، ولا في غيرِه؛ لأن من شروط إقامةِ الحدِّ أن يَكُونَ غير مكرَه، حتى المرأة لو أُكرِهت على الزنا لا يُقام الحدُّ عليها، وهذا هو الَّذِي أوجبَ لبعضِ أهلِ العلمِ أن المرأةَ إذا حَمَلَتْ لا تُحَدّ، قال: لِأَنَّهُ يَحتمِل أن تكون مكرَهةً، وهذا الاحْتِمَال يَدْرَأُ الحدَّ، ولكن الصحيح أن المرأةَ إذا حملتْ وليس لها زوجٌ ولا سيِّد يقام عليها الحدُّ؛ لخطبة أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقوله: «إِذَا قَامَتِ البَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ الْحَبَلُ أَوْ الِاعْتِرَافُ»[1] أمام النَّاس، ولا أحد أنكر عليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهي يقام عليها الحد، يعني تؤخذ ويقال: هيا أقيموا الحدَّ عليها، لكنْ إن ادَّعت شُبهةً ممكِنة ارتفع عنها الحدُّ؛ لِأَنَّ الأمرَ محتمِل، وكثير من النساءِ يغلب على نفسه ويُفعل به الفاحشةُ.

واعْلَمْ أنَّ الزنا كما قَسَّمه الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وكذلك اللواط أنواع: زِنا الفَرْج، ولواط الفَرْج، وفيه أيضًا زِنا العين ولواط العين، وفيه أَيْضًا زِنا الأُذن ولواط الأذن، وزنا اليد ولواط اليد، وزنا الرِّجْل ولواط الرجل، يعني لا تظنَّ أنَّ اللواطَ خاصٌّ بفعل الفرج، بل حتى العين لو أن أحدًا تلذَّذ بالنظر إلى أمردَ قُلْنا: هَذَا الرجل تلوط به، لكِن تلوط به فعلا أو نظرًا؟ نظرًا، ولذلك يَجِب الحذرُ من هَذَا الأمرِ، حتى إن النَّوَوِيَّ[2] وجَماعَةً من أهل العلمِ قالوا: إِنَّهُ لا يجوز النظرُ مُطلَقًا إلى الأمردِ الحَسَنِ إلحاقًا له بالمرأةِ، ولكن الصواب أَنَّهُ يجوز إلَّا مع التلذُّذ بذلك، فهذا حرامٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب الاعتراف بالزنا، رقم (٦٨٢٩)، ومسلم: كتاب الحدود، باب رجب الثيب في الزنى، رقم (١٦٩١).

(٢) المنهاج (٤/ ٣١).

قوله: [قوم لوط] عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَوْ قَالَ قَائِلٌ: (قوم لوط) ألا يوجد إشكال في أن النسبةَ صارتْ إلى المضافِ إليه وهو نبيُّهم؟ فيقال والله أعلم: إن السَّببَ في ذلك أن هَذِهِ الفاحشة اختصَّتْ بها هَذِهِ الأمَّة، ولهذا قال لهم نبيهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٨٠]، ما أحد سَبَقَهم، يعني أول مَن سنَّ هَذِهِ الفاحشة والعياذُ باللهِ هم قومُ لوطٍ، وعلى هَذَا فعليهم وِزْرُها ووِزر مَن عمِل بها إلى يوم القيامةِ، نسأل الله السلامةَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لا يَنبغي أن ننسُب اللُّواط لاسْم النَّبيِّ ﷺ ونقول ما ورد في الحديثِ: «عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ»[1].

نقول: هَذَا طيِّب في الحقيقةِ، لكنْ أنا أرى العلماء الكبار يَقُولُونَ هذا، مثل ابن القيِّمِ وشيخ الإسلام، رَحِمهما اللهُ ومَن قَبْلَهُما ومَن بعدَهما.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَن أوَّل مَن أنشأ اللغة العربية إذا قُلْنَا: إن لغة آدم ليستْ عربيَّةً؟

فنقول: أوَّل ما نشأتْ مِنَ العربِ العاربةِ حينما جاءوا إلى مكَّة -القحطانيون- واتصلوا بإسماعيلَ، ونشأ بينهم، فصار عربيًّا، ولهذا بنو إسماعيل هم العربُ المستعرِبة، وطبعا اللغة العربية مثلُ غيرها يحصُل عليها تطوُّرات وتحسيناتٌ، فبعد الفتوحِ دخلَ عليها تغييرات، كذلك فيما سبقَ دخل عليها تطوُّرات وتحسيناتٌ، حتى وصلتْ إلى الكمالِ في عهدِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قول سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل:١٦]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ

(١) سبق تخريجه.

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:١٨]، ذكر بعض المفسِّرين أن الحيوانات تنطِق؟

نقول: إلى الآنَ هي تنطِق، ولهذا قال: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ في سَفَرِهم إلى الشامِ فيَعتبِرون، والاستفهامُ للتقريرِ].

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ هَذِهِ تأتي في القُرْآن كثيرًا: (أفلم) (أولم) يعني يأتي حرف الاستفهام الهمزة وبعده حرف عطف، فاختلف النحْويُّون في ذلك؛ فمنهم من يقول: إن حرف الاستفهام داخلٌ على جملةٍ مقدَّرة مفهومة من السياق تقدَّر حسَب ما يليها.

ومنهم مَن قالَ: إنَّ حرفَ الاستفهامِ داخلٌ على الجملةِ المذكورةِ، لكِن محَلّه بعدَ حرفِ العَطْفِ، فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾، يَقُولُونَ: أصله (فألم يَكُونوا يرونها)، فقدمت أداة الاستفهام؛ لِأَنَّ لها الصَّدَارَة.

فالآنَ أمامنا رأيانِ فيما إذا وجد حرفُ استفهامٍ بعدَه حرفُ عطفٍ، هل يَكُون داخلًا على الجملةِ المذكورةِ مقدَّمًا على حرف العطفِ، أو يَكُون داخِلًا على جملةٍ مقدَّرة تُستفاد من السياقِ، كيف نقدر: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ على رأي الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ داخل على جملة مقدَّرة مفهومة من السياق؟ يَكُون التقدير: أَعَمُوا فلم يَكُونوا يرونها؛ لِأَنَّ انتفاء الرؤية معناه العمَى، وعلى الرأي الثَّاني لا نحتاج إلى تقدير؛ نقول: التقدير (فألم يَكُونوا يرونها)، والأول رأيُ سِيبَوَيْهِ، والثَّاني رأي الكِسَائِيّ، والثَّاني أهونُ وأسلمُ؛ لِأَنَّهُ في الحقيقة في بعضِ الأحيانِ تأتيك أمثلةٌ لا تستطيع أن تقدِّر هَذَا المحذوفَ ولا كيف تقدِّره، ثم إن الأَصْل عدم التقدير والحذف،

ونحن إذا ذهبنا إلى الرأي الثَّاني لم نرتكِبْ إلا شيئًا وَاحِدًا فقطْ وهو تقديمُ الهمزةِ عن مكانها، وهذا شَيْءٌ بسيط، فالَّذِي يَنبغي سُلُوكُه أن نقول: إن همزة الاستفهام هنا داخلةٌ على الجملةِ الموجودةِ بدونِ تقديرٍ، لكنَّها مقدَّرة بعد حرفِ العطفِ، إلا أنها قُدِّمت لأجلِ الصدارةِ، وهنا ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ إذا دخلت همزة الاستفهام على (لم) فالمراد به التقرير، ومعنى التقرير حَمْل المخاطَب على الإقرارِ، مثلًا قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، نقول: الهمزة للاستفهام، المراد به التقرير، المهم أن هَذِهِ ليست للاستفهام والاستخبار، فالله جَلَّ وَعَلَا لا يَسأَلُ ولكنَّه يُقَرِّر أَنَّهُ شرح له صدره، ومعنى التقرير حَمْلُ المخاطَبِ على الإقرارِ، وكأنَّ ذلك متقرِّر ولا يمكِن إنكارُه؛ لِأَنَّهُ معلوم، فيَجِب عليكَ أنْ تُقِرَّ به.

في الآية الكريمةِ: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ نقول: الاستفهام للتقريرِ، يعني أَنَّهُمْ قد رَأَوْهَا، وإذا كان بمعنى التقريرِ فَإِنَّهُ يقدَّر بفعلٍ ماضٍ مَقْرُونٍ بـ(قد)، يعني مثلًا قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ [الشرح:١]، معناها قد شَرَحنا لكَ، لكنْ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ أبلغُ، فقوله: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ معناه أَنَّهُمْ قد رَأَوْها، وهم يُقِرّون بذلك، ولا يمكن إنكارُه، لكِن الإتيان بالاستفهام أبلغُ لِأَنَّهُ يحمل المخاطَبَ على أن يقرَّ، وهذا أبلغُ من أن أُصدِّره بأمرٍ على سبيلِ التحقيقِ بـ(قد).

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصف الرؤيا: [﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ في سَفَرِهم إلى الشامِ فيعتبرون]، وهذا صحيح أن الإنْسَان إذا عاينَ آثارَ العذابِ يَكُون أشدَّ في يقينِه وتصديقِه؛ لِأَنَّهُ (ليس الخبر كالمُعاينة)، وإِبْراهِيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يشكُّ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادرٌ على إحياءِ المَوْتَى، ومعَ ذلكَ قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠]، وقال النَّبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ**

مِنْ إِبْرَاهِيمَ»[1]، وجئتُ بهذا الحديثِ لأجلِ أن نَفْهَمَ معناه حقيقةً، ما معنى «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»؟ لو أخذنا بظاهرِه لقُلْنا: إن إِبْراهِيم قد شك ونحن أَولى بالشك منـه، ولكن ليس المراد ذلك، المراد كما أننا نحن نَتَيَـقَّن أَنَّ اللهَ يُحيي المَوْتى وقادر عليه، فإِبْراهِيم أَوْلَى باليقينِ، ولو كان ثمة شَكّ لكنَّا أَولَى به.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ﴾ لا يخافـون نُشُورًا]، ﴿بَلْ﴾ للإضرابِ، وكأنه إضراب عن توبيخٍ إلى أشدَّ منه ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾.

قُلْنَا: الاستفهام للتقريرِ، والإنْسَان الَّذِي يَرَى الشَّيْءَ ثم لا يَعتبِر به مستحِقٌّ للتوبيخِ، انتقل إلى ما هو أعظم إلى حالٍ أشدَّ يستحقون التوبيخ عليها، فالإضراب هنا للانتقالِ من سيئٍ إلى أسوأ، ومن خفيفٍ إلى أغلظَ منه، معناه أن هَؤُلَاءِ لَيْسُوا تاركينَ للاعتبارِ بما شاهدوا، بل إنهم أبلغ من ذلك، لا يرجون نُشُورًا، وفسَّرَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرجاءَ بالخوفِ؛ لِأَنَّ الرجاءَ يأتي بمعنى الخوف، مثل قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن نوحٍ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣]، ولكن إتيان الرجاء في موضِع الخوفِ لا يَكُونُ إلا حيـثُ تَعَذَّرَ أن يُفَسَّر بمعناه الحقيقيّ، وهنا لا يَتـعذَّر؛ لِأَنَّ معنى ﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:٤٠]، يعني لا يؤمِّلونه ولا يُقِرُّون به؛ لِأَنَّ مَن لا يؤمِّل شيئًا لا يقـرّ به، وكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حَمَلَه على معنى الخـوفِ؛ لِأَنَّ حالَهم تَقتـضِي ذلك، تقتضي أَنَّهُمْ لا يخـافون؛ إذ لو خافوا لأَقَرُّوا وآمنـوا، ولكن يقـال أيضًا: الرجـاء، لو كانوا يرجون هَذَا النشور ويؤمِّلونه لعمِلوا له؛ لِأَنَّهُ قيل لهم: إن صدقتم الرُّسُل فلكم كذا، وإن كذَّبتم الرُّسُل فعليكم كذا، فهم موعَدون ومتوعَّدون، فلا يَتَعَيَّن

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾، رقم (٣٣٧٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، رقم (١٥١).

أن نَحمِل الرجاءَ على الخوفِ، بل لا يَنبغِي ما دام أن معنى الرجاء الحقيقيّ له مَحَل، فَإِنَّهُ يَجِب أن يُحمَل على معناه الأَصْليّ، فنقول: ﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أي لا يؤمِّلون النشور الَّذِي فيه ما وعدَتْهم به الرُّسُل من كرامةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإدخال الجنة، وهذا أشدُّ من عدم اعتبارهم بما رأوْا من إهلاك المكذِّبين، حيثُ ينكرون البعثَ الَّذِي دلَّ عليه العقل، فالعقلُ يدلُّ عَلَى أَنَّ للناسِ بعثًا، ولهذا يقرِّر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هَذَا المعنى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، يعني لا يأمر ولا ينهى ولا يجازَى، هَذَا سَفَهٌ، لو كانت هَذِهِ الخَليقة الَّتِي خَلَقَها اللهُ وأرسلَ إليها الرُّسُلَ وأباحَ دماءَ بعضِها لبعضٍ وأموالَهم ونساءَهم لأجلِ الدين الَّذِي بُعِثَ به الرُّسُلُ، وهذا القتال العظيم بينهم والعداوة والبغضاء، لو كانت لا لشَيْءٍ إلَّا أن الإنْسَان يحيا ويموت، ماذا يَكُون هَذَا الفعل؟ يَكُون سَفهًا يُنزَّه الله عنه، ولهذا قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، ما أنزل الله هَذَا القُرْآنَ إلا لمعادٍ يَكُون النَّاس يوم القيامة يرجعون إليه، ثم يُجازَون بأعمالِهم، فالعقلُ دلَّ على أَنَّهُ لا بدَّ من بعثٍ، ولا بدَّ من جزاءٍ، ومعَ ذلك هَؤُلَاءِ ينكرونه ولا يَرْجُون نُشورًا بحُجَجٍ واهيةٍ باطلةٍ، مثل قولهم: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، فهَذِهِ ليست بحُجَّة، هِي شُبهةٌ في الواقع، هي شُبهة باطلةٌ، فهذا الإنكارُ مبنيٌّ على استبعادِ عقلِه، لذلك أبطله الله تَعَالَى كما يظهر من القصةِ من نحوِ عشَرة أوجهٍ؛ أولها: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، هَذَا يكفي العاقلَ، أليست هَذِهِ العظامُ كانت ماءً مَهينًا، بل قبل ذلك لم تكنْ شيئًا مذكورًا، ثم خلقها الله إلى عظامٍ، فالَّذِي أحياها أوَّلَ مرَّةٍ قادرٌ على إعادتها، وهو عقلًا أهونُ منْ الابتداءِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

على كلِّ حالٍ لسنـا بصددِ إثباتِ هَذَا الشَيْءِ، لكِن نقـولُ: إن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لا يَرجُون نُشـورًا معَ قيامِ الأدلَّة على وجودِه، لا شكَّ في سَفَهِهم وأَنَّهُمْ لَيْسُوا على صوابٍ.

• • ۞ • •

الآيتان (٤١، ٤٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤١-٤٢].

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ انتقل إلى حالاتٍ أخرى يقابل بها هَؤُلَاءِ المشركون رسول الله ﷺ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ مهزوءًا به].

قوله: ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾ يصيِّرونك ويجعلونك مهزوءًا به، وتجد أن الآية فيها حَصْرٌ طَرِيقُه النفيُ والإثباتُ، يعني لا يجعلون لكَ أيّ حالٍ من الأحوالِ إلا الهُزْء، وهُزُؤًا مصدر، لكِن المُفَسِّر يقول: [مهزوءًا به] يعني أَنَّهُ بمعنى اسْمِ المَفْعُولِ، والمصدرُ بمعنى اسْمِ المَفْعُولِ كثيرٌ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤].

ووجه الاستدلال بهذه الآية أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (حَمْل) مصدر بمعنى محمولٍ، فَهُوَ مصدر بمعنى اسْمِ المَفْعُولِ، وفي الحديث عن النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١)، يعني مردودًا. هنا هُزُؤًا أو هُزُوًا مصدر،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

لَكِنَّهُ بمعنى اسْمِ المَفْعُولِ على رأيِ المُفَسِّر، ويمكن أن يقال: إِنَّهُ مصدر على بابِه، ويَكُون من باب المبالغةِ، كأَنَّهُمْ ما جَعَلُوا الرَّسولَ مَحَلًّا للهُزو، يعني مهزوءًا به، بل جعلوه نفسه هو نفس الهزو، وهذا من باب المبالغةِ، كما تقول: فلان عدلٌ، وفلان رِضًا، يعني من باب المبالغةِ، كأنه هو العدل، لا أَنَّهُ مَحَلّ العدل، وكأنه الرضا، لا محلّ الرضا، وكذلك فلان ثِقَةٌ، فثقة مصدر بمعنى موثوقٍ به، لكنَّه من باب المبالغةِ، المعنى أن هَؤُلَاءِ لا يرونَ الرَّسول ﷺ إلا محلَّ استهزاءٍ، والعياذُ باللهِ، كأنه لُعبة عندهم.

يَقُولُونَ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في دعواه مُحْتَقِرِينَ له عن الرِّسَالةِ]، والعياذ باللهِ، ﴿أَهَٰذَا﴾ تفيد التحقيرَ، فمحلُّ الاستفهامِ للتحقيرِ، وهو متضمِّن للنفيِ، يعني لا يمكن أنْ يُبعثَ مثل هَذَا الرَّسول، وهذا كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]. ولا شكَّ أن هَذَا من جملةِ الشُّبَه الَّتِي يَحتجُّون بها، وهي لا تَنطَلِي على أحدٍ؛ لأننا نعلمُ أن مُحَمَّدًا ﷺ أعظمُ الخَلْقِ، وأحقُّهم بالرِّسَالةِ؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، فللرسالة محلٌّ، فهذا النَّبي ﷺ نؤمن بأنه أعظمُ الخَلق وأحقُّهم بالرِّسَالة، ولهذا جعلها الله فيه، جعل الله فيه أعظمَ الرسالاتِ، فَهُوَ أعظم من كلِّ ما يختلِقونه، لكِن من المعلوم أن المكابِرَ والمكذِّب يأتي بكل شُبهةٍ، سواء كانت حقيقةً أم غير حقيقةٍ.

وقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى﴾ (هذا) اسْم إشارة للقريبِ احتقارًا أيضًا؛ لِأَنَّ اسْم الإشارة يأتي للقريبِ أحيانًا للاحتقار، وأحيانًا للتعظيم والمودَّة، وكذلك اسْم الإشارة للبعيد يأتي لما هو قريب من باب التعظيمِ، مثل قوله تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ

لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢]، ذلك الكِتَـاب يعني القُرْآن، لَكِنَّهُ أتى بـ(ذلك) اسْم الإشارة للبعيدِ تنبيهًا لعلوِّ مَرتبتِه، فهـم أَتَوْا بهذا للتحقيرِ، يعني: أهذا القريب الَّذِي لدينا ونتصوَّره ونشاهده أهذا يُبعَث رسولًا، هكذا يَقُولُونَ، وأَرْدَفُوا ذلك بقولِهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان:٤٢].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِن﴾ مخفَّـفة من الثقيلة، واسْمها محـذوف، أي إِنَّـهُ ﴿كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ يصرِفنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾]، بئس الصبرُ هذا.

قوله: ﴿إِن كَادَ﴾ بمعنى قَرُب، و﴿إِن﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنها مخفَّفة من الثقيلة؛ لِأَنَّ ﴿إِن﴾ كما هو معروف لها معانٍ كثيرة، والَّذِي يعيِّنها السياقُ، تأتي نافيةً، وتأتي شرطيَّة، وتأتي زائدةً، ولا تأتي ناصبةً، الَّتِي تأتي ناصبة (أن)، لكنها هنا مخفَّفة من الثقيلة؛ لِأَنَّ أصلها (إنَّ) فخُففتْ، وإذا خُففت من الثقيلة لزِم أن يَكُون اسْمها محذوفًا، ولا نقـول: مستتِر؛ لِأَنَّ الاستتارَ يَكُون بالفعلِ، أو بما هو بمعنـاهُ، لكِن نقولُ: محذوف، والتقدير: إِنَّهُ كاد لَيُضِلّنا، و(كاد) بمعنى قرُب، والصواب أن كاد تأتي بمعنى قرب، سواء كانت منفيَّة أو مثبَتة، وَأَمَّا قول بعض النحْويين: إن نفيَها إثبات، وإثباتها نفيٌ، فليس بصحيحٍ، كما حقَّقه ابن هشام في المُغْنِي[1]، بل هي دائمًا بمعنى القُرب، يعني: لقد قرب أن يُضِلَّنا عن آلهتنا، لكِن منع من هَذَا مانعٌ، وهو الصبرُ عليها، فهم في الحقيقة يُقرّون أن رسالة الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خطيرة بالنسبة إليهم، لَكِنَّهُم يَتَمَـدَّحون بأَنَّهُمْ ذوو صبرٍ بالغٍ عظيـمٍ ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ -يعني على عِبادتها- لكان الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يُضِلُّنا، والصواب

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص٨٦٨ وما بعدها)، ط. دار الفكر.

أَنَّهُمْ لو تركوها لكان الرَّسول قد هداهم الله به، لَيْتَهُمْ لم يَصبِروا هَذَا الصبرَ؛ فإن هَذَا الصبرَ صَبْرٌ على معصيةِ اللهِ، لا عن معصيةِ اللهِ، وهو مذمومٌ، لا شكَّ أَنَّهُ مذمومٌ، فأقول: هَذِهِ الجملة تدلّ على أَنَّهُمْ مُقِرّون بخطرِ رسالةِ النَّبي ﷺ عليهم، ولكنَّهم يَتَمَدَّحون بالصبر عليها، وأنه مع قوَّة تأثير الرِّسَالة هم صبروا على آلهتهم، فلم يُضِلَّهم النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فهم مقرّون بخطر الرِّسَالة، ولإقرارهم بخطر الرِّسَالة بَذَلوا مُهَجَهم ورِقابهم لقتالِ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأَنَّهُمْ لو كانوا يعرِفون أنها ليستْ مؤثِّرةً ما احتاجوا إلى أَنَّهُمْ يخرجون لقتال الرَّسولِ، ولقالوا: الأمر هيِّن، هَذَا مثل المجنون الَّذِي لا يؤثّر ولا يتبعه أحدٌ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ أي معبوداتنا، والآلهة تطلَق على المعبودِ، لكِن تطلق إطلاقًا مجازيًّا على المعبود بغير حقٍّ، وإطلاقًا حقيقيًّا على المعبود بحقٍّ، ولهذا الرُّسُل -صَلَّى الله عليهم وسلم- يَقُولُونَ لأقوامهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، ما معنى ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؟ أي من معبود حقيقة غير الله، أَمَّا معبوداتكم الَّتِي تعبدونها فهَذِهِ معبودات لكنها ليستْ حقًّا، وقولنا: لكِن تطلق إطلاقا مجازيًّا هَذَا التعبير خطأ، ما دام أَنَّا قُلْنا: إِنَّهُ لا مجاز في القُرْآن، لكِن تنزُّلًا على حَسَب كَلامهم هم يدَّعون أنها آلهة، ولكنها حقًّا ليست آلهةً، فالتعبير الصحيح أن نقولَ: إن آلهتهم سَمَّوْها آلهةً باعتقادِهِم، وإلَّا فليستْ آلهةً.

قوله: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ يعني حَبَسْنا أنفسَنا عليها، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَصَرَفَنا عنها]، استفدنا من قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لصرفنا] أن ﴿لَوْلَآ﴾ شرطية، وأن جوابها محذوف، و﴿أَن صَبَرْنَا﴾ مَحَلّها من الإعراب مبتدأ محذوف الخبر وجوبًا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لصرفنا عنها]، الأصحُّ أن نقول: لأَضَلَّنا عنها؛ لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا ﴾، والتقدير: لولا صبر موجود على هَذِهِ الآلهة لأَضَلَّنا عنها، قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَبَعْدَ لَوْلَا غَالِبًا حَذْفُ الخَبَرْ ... حَتْمٌ.....

(لولا) هَذِهِ شرطيَّة، وتأتي غير شرطية للتحضيضِ، ومرَّتْ قريبًا في هَذِهِ السورة، وكون (لولا) وهي لفظ وَاحِدٌ يأتي أحيانًا بمعنى التحضيضِ، وأحيانًا بمعنى الشرطِ، وكذلك (إن) وغيرها من الحروفِ؛ فهذا مما يؤيِّد ما ذهبَ إليه شيخ الإسلام ابن تيميَّة أَنَّهُ لا مجازَ في اللغةِ، وأن الَّذِي يُعَيِّن المعنى ويجعله حقيقةً أو غير حقيقةٍ السياقُ، فالكلمة في سِيَاقها، أو الجملة في سياقها حقيقة، لا تحتمل غير ما يُرادُ، وإنْ كانتْ قد تطلَق إطلاقًا آخرَ في معانٍ أُخرى، فـ(لولا) وجودها بجانب الفعل جعلها للتحضيضِ، ووجودها بجانب الجملةِ الاسْميَّة جعلها للشرطيَّة، فليست المعاني في الكلمات صفات ذاتيَّة، وإنما هي صفات إضافيَّة، ومعنى إضافية أي بحسَب ما تُضاف إليه، يعني حسب السياقِ، وبذلك نتخلَّص من الإِشْكالِ الَّذِي يَرِد علينا كثيرًا في بعض كلماتٍ في القُرْآنِ، حيث ننفي المجازَ ثم تأتينا كلمات أو جُمَل تُشكِل علينا، فإذا قُلْنا بهذا القول وقُلْنا: إن المعاني للألفاظ ليستْ من الصِّفات الذَّاتيَّة، وإنما هي من الصِّفات الإضافيَّة الَّتِي يعيِّنها السياق؛ نتخلص بهذا، ونقول مثلًا: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:٢٤]، الجَناح إذا أُضِيف إلى الطائرِ صارَ له معنًى، وإذا أضيف إلى الذلِّ صار له معنًى، وكذلك قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف:٧٧]، معناه: مائل للانقضاض، فالإرادة إذا أُضيفت

(١) ألفية ابن مالك (ص١٨)، ط. دار التعاون.

للإنْسَانِ صار لها معنًى، وإذا أُضيقت للحيوانِ صار لها معنًى، وإذا أُضيفت للجماد صار لها معنًى، بحسَب الإضافاتِ، وحينَئذٍ نتخلَّص، لا نقول: الإرادة الأَصْل أن تكون حقيقة لذوي الشعور، فإذا أُضيفت إلى غيرهم صارت مجازًا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ عِيانًا في الآخِرة ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أَخْطَأ طَريقًا، أهم أم المؤمنونَ]، لو قال: أَمِ الرَّسول لكان أَولى؛ لِأَنَّ الكَلام بالرَّسول ﷺ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عِيَانا في الآخِرة]، وهذا ليس بلازمٍ أن يقيّد بالآخرةِ، نقول: إنهم يَرَوْنَ العذابَ في الآخرة وعند المَوْتِ، فعند المَوْتِ يشاهدون، وإذا قالوا: إنهم تابوا عند المَوْت فالتوبة لا تنفعُهم: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨]، ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٢]، هم أم الرَّسول ﷺ، وجملة ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ فيها من التهديد ما هو ظاهرٌ، يعني سوف يعلمون في تلك الحالِ هل هم الأضلُّ أم الرَّسول ﷺ، والواقع أَنَّهُمْ سيعلمون أَنَّهُمْ هم الأضلُّ إذا رأَوُا العذاب.

الآيــة (٤٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣].

بعد أنْ بَيَّن أمثلةً لكفَّارِ قريشٍ من الأممِ الَّذِينَ أهلكهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بسبب تكذيبهم للرسل، وبَيَّنَ أن من هَذِهِ الأُمَم من كانوا أتوْا عليها، وهي قرية قوم لوطٍ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوء؛ انتقل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد ذلك إلى ما هو أقبحُ وأشدُّ في التوبيخِ، وهو كونهم لا يَرجُون نشورًا، يعني لا يرجون بَعثًا، لا يؤمِّلونه ولا يخافونه، ثم انتقل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد هَذَا إلى حالِ هَؤُلَاءِ مع الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الَّذِي كان يَجِب علينا أن نُجِلَّه ونُعظِّمه ونوقِّره، وذكر أن هَؤُلَاءِ المكذِّبين اتَّخذوه هُزُوًا، وقوله: (اتَّخَذُوهُ هُزُوًا) أشدُّ وأبلغُ من قوله: هزِئوا به، يعني جعلوه كأنه صورة يُهْزَأُ بها، لكِن لو قال استهزءُوا به صار فعلًا، والفعل المطلَق يدلّ على المرَّة الوَاحِدة، بخلاف الأوَّل الَّذِي جعلوه كالصورة الَّتِي يُهْزَأُ بها.

ثم بَيَّن أَنَّهُ مع اتخاذهم إياه هُزُوًا أَنَّهُمْ يَسخَرون به في القول، يَقُولُونَ: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان:٤١]، احتقارًا له، ثم يَفتخِرون مع احتقارِهم له بأَنَّهُمْ صبروا على آلهتهم، وأن دعوة النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان لها تأثير قوي، ولولا أَنَّهُمْ صبروا على آلهتهم لكانوا متأثِّرين بها: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ

أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان:٤٢]، ثم توعَّدهم الله عَزَّوَجَلَّ بأَنَّهُمْ حين يرون العذابَ سيعلمون من هو أضلُّ، هم أم النَّبي ﷺ؟

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ استفهامًا مشربًا بالتعجُّب فيمن اتَّخذ إلهه هواه، فقال: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

قوله: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الخطاب للرسولِ ﷺ؛ لِأَنَّ السياق يدل عليه، ولا أظنّه هنا يصحّ أن نجعلَه لكلّ مَن يتأتَّى خطابه؛ لِأَنَّ قوله: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ إِنَّما يناسب الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢٢].

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَرَءَيْتَ﴾ بمعنى أَخْبِرني]، كيف تكون بمعنى أخبِرني، هل الرؤية هي الخبر؟ لا، لكِن أُريد لازِمُها، يعني هل رأيتَ فأخبرني، يعني هَذَا ليس هو المعنى الحقيقيّ له، لَكِنَّهُ معنًى لازِم للرؤية الَّتِي بمعنى العِلم، فإن المستفهِم لا يريد من المخاطَب إذا قال: (أرأيت) لا يريد أن يَستفهِم عن كونه رأى، إِنَّما يريد أن يستفهِمَ عن لازمِ هَذِهِ الرؤية، وهو الإخبار، ولهذا يَقُولُونَ: إنها بمعنى أخبِرني، من بابِ إطلاق الملزومِ من لازمِه.

أمَّا بالنسبة لإعرابها، فهذا التركيب ﴿أَرَءَيْتَ﴾ يأتي كثيرًا في القُرْآن، ويَكُون ناصبًا لمَفْعُولينِ؛ الأول منهما اسْم، والثَّاني منهما جملة استفهاميَّة أو قَسميَّة، ولْيُنْتَبَهْ لإعرابها؛ لِأَنَّهَا مشكِلة، المَفْعُول الأول قُلْنا: إِنَّهُ يَكُون اسْمًا؛ إمّا مذكورًا وإما محذوفًا، هَذَا وَاحِد، المَفْعُول الثَّاني جملةٌ إمَّا استفهاميَّة أو قَسميَّة. (التاء) في ﴿أَرَءَيْتَ﴾ فاعل، وتكون مفردةً دائمًا، أو مجموعةً، مثل قوله تَعَالَىٰ: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٤٦]، أو مثناةً، مثل قولنا: أرأيتُما إن كان كذا وكذا، وقد يَلْحَقُها ضميرٌ، أي تلحقها الكاف لمجرَّد الدلالة على المخاطَب، ولا محلَّ له من الإعراب، يَكُون حرف خطابٍ لا محل

له من الإعراب، وتبقى (التاء) مفردةً، ولنضرب لهذا أمثلة: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٦٢].

فقوله: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ﴾ هَذَا المَفْعُول الأول، والمَفْعُول الثَّاني الجملة القسمية: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾، والكاف في قوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ حرف خطابٍ لا محلَّ لها من الإعرابِ، إذَن المَفْعُول الأول موجود، والمَفْعُول الثَّاني جملة قسمية موجودة.

ومن الأمثلة قوله تَعَالَى: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام:٤٦]، المَفْعُول الأول محذوف؛ لِأَنَّ المَفْعُولَ الأوَّل لا يمكِن أن يَكُونَ جملةً، فَهُوَ إذَن محذوفٌ، تقديرُه: أرأيتُم حالَكم، يعني أَخْبِروني عن حالِكم إن أخذَ اللهُ سمعَكم وأبصارَكم إلى آخره، وجملة ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ هي المَفْعُول الثَّاني.

وأيضًا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنعام:٤٧]: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ الكاف للخطابِ، والتاء للمفرد، والمخاطَب جَماعَة، والدلالة على أَنَّهُ جَماعَة الكاف والميم، ومَفْعُولها الأول محذوف، ومَفْعُولها الثَّاني ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

ومن الأمثلة -أيضًا- قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ [الكهف:٦٣]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم:١٩-٢٠]، والآيات كثيرة، لكِن أحيانًا -كما تقدَّم- يُذكَر المَفْعُول الثَّاني، وكثيرًا يحذف المَفْعُول الثَّاني لدلالة السياق عليه؛ فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ لا يمكن أن يَكُون الجواب ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ﴾،

لكِن المعنى: هل تغنيكم شيئًا، هل تنفعكم، هل تستحقّ أن تُعبَد؟ وما أشبهَ ذلكَ، وللبحث بقيَّة تأتي إن شاء اللهُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: على رأيِ النُّحَاةِ بأنَّ الَّتِي تَنصِب المَفْعُولينِ هي الرؤيةُ القلبيَّةُ، فهنا تصبح القضية ليست مجرد رؤية للإخبار، كأنها اعتقاد؟

نقول: نعم يقولُ: أَعَلِمْتَ هَذَا فأخبِرني به.

إذَن القُرْآن -سبحان الله العظيم- ليسَ مثل بقيَّة الكَلامِ، تجد فيه استفهاماتٍ، أمرًا، تحدياتٍ في السياق، وهذا من إعجازِه في الحقيقةِ؛ لِأَنَّ كل هَـذِهِ الاختلافات في الكَلام تُوجِب إثارةَ الإنْسَانِ وإقبالَه، ولكن -كما أسْلَفنا- لِمَن يَقْرَؤُه عن قلبٍ، أمَّا مَن يَقرؤه عن بَصَرٍ فقطْ بدونِ بَصيرةٍ فهذا لا يَستفيدُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: في قوله: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم:٤٩]، لماذا كُررت (من قبل) مرتين؟

الجواب: قوله تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ التكرار هَذَا يَكُون لفائدةٍ وغرضٍ، ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ فيها خلاف هل هي الأُولى أو ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ غير الأولى، وعلى هَذَا فيَكُون معنى قوله: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل أن يُنَزَّل عليهم، أي من قبل هَذَا التنزيل، فيَكُون من باب التكرار توكيدًا، وإن كان معنى قوله: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ يعني من قبل هَذَا الأمر الَّذِي حدث لهم، ليس من قبل أن يُنَزَّل، بل من قبل حالهم، فلا يَكُون فيها تكرار.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل الإنْسَانُ المؤمِنُ يُمكِن أنْ يَضِلَّ عند المَوْتِ؟

الجواب: لا يَضِلّ ويَفقِد الإيمان عند المَوْت إلا إنْسَان سَرِيرَتُه باطلةٌ، أَمَّا الإنْسَان

الَّذِي عَمَلُه صالحٌ ومبنيّ على عقيدةٍ صحيحةٍ، فلا يمكن، لَكِنَّهُ على خَطَرٍ؛ لِأَنَّهُ يَخْشَى أن يَكُونَ عَمَلُه مبنيًّا على سَريرةٍ باطلةٍ، نحن نقول: لا يمكن أن يضلَّ؛ لِأَنَّ الله ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧]، إِنَّمَا يَكُون الإضلال عند المَوْتِ، بناءً عَلَى أَنَّ الإنْسَان في عِبادته غير مستقيم، كما جاء في الحديث الصحيح: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ»(١).

فلا بدَّ أن تكون السَّريرة باطلةً؛ لأننا نعلمُ أن الإنْسَانَ لو بَنَى عملَه على عقيدةٍ سليمةٍ، سواء بإخلاصٍ، أو بغير إخلاصٍ، فلا يمكِن أن يَخْذُلَ الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنَ أبدًا، المؤمنَ حقيقةً، وهذا هو ما كنَّا ندعو إليه دائمًا؛ أن نحرِص على عملِ القلبِ، أمَّا الأعمال الظاهرة -عَمَل الجوارِح- فهي بمنزلةِ السُّور للبُستان تَحميه وتُحيطه، وَأَمَّا العملُ الأساسيُّ فَهُوَ عملُ القلبِ، فلا بدَّ أنْ نَحْرِصَ دائمًا على أن يَكُونَ الإنْسَانُ مطهِّرًا لقلبه، ومُصْلِحا لقلبِه، هَذَا أهمُّ شَيْءٍ، والأعمال الظاهرة هي في الحقيقةِ رسوم مصلحة، ومُنْمِية، مثل السَّقي للبستانِ، والرَّسول ﷺ شبَّه أعظمَ العباداتِ الظاهرةِ، وهي الصلاةُ، بالنهرِ الَّذِي يطهِّر الإنْسَان من أوساخِه(٢)، فهَذِهِ صقالات للقلب، ومادة يَنتفع بها القلب، إِنَّمَا الأَصْل هو القلبُ، ولهذا يَجِب علينا دائمًا أن ننظرَ إلى قلوبنا، أحيانًا يَكُون في القلب سَريرة الحسد مثلًا، وسَريرة الحسد

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم (٤٢٠٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، وأن من قتل نفسه بشَيْء عُذب به في النار، وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، رقم (١١٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، رقم (٥٢٨)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا، وترفع به الدرجات، رقم (٦٦٧).

هَذِهِ ليستْ بهيِّنة؛ لِأَنَّهَا مَوْرُوثَة عن اليهودِ، فهل تَرْضَى أنْ تكونَ شَبيهًا باليهودِ؟ لا أحد يَرضَى، ومع ذلك تجدها في قلوب كثيرٍ من المؤمنينَ، والرياء في العِبَادَة أو في المظهَر موجودٌ أيضًا.

قوله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي مَهْوِيَّه]، المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّر هَوى بمعنى مَهْوِيّ يعنى فسر المصدر بمعنى اسْم المَفْعُولِ، يعني اتخذ إلهه هَذَا الحجر مثلًا، أو هَذِهِ الشجرة، يعني جعل الإلهَ الشجرةَ، والشجرة أو الحجر هي المَهْوِيّ، ولهذا فسَّر الهوى بـ(المهويّ)؛ لِأَنَّهُ يريد أن يجعلَ الإلهَ هنا هو المعبودَ، ولكن الصواب أن الآيةَ على ظاهِرِهَا، وأن الإله هو الهوى، ومعنى ذلك أَنَّهُ جعل المتبوع الهوى، وكون الإنْسَان يَتْبَع غيرَه، سواء هوى نفسه أو كونه يتبع غيره، هَذَا من اتِّخاذِه إلهًا، ولهذا قال الله تَعَالَى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]، فقال عَدِيُّ بنُ حَاتِمٍ: يا رسولَ اللهِ، إنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ. قالَ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟». قال: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»[1].

فإذَن نقولُ: الآية على ظاهِرِها، يعني أنَّ الإلهَ هو الهَوَى نفسه، والهوى يَقُودُهُ إلى عِبَادةِ الشجَرِ والحَجَر، ويقوده إلى استحلالِ الزِّنا، وإلى استحلالِ الرِّبا، وإلى غير ذلك، فعليه الأَوْلَى جَعْل الآيةِ على ظَاهِرِهَا، وألَّا تُصْرَفَ إلى المعبودِ، خِلافًا للمؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قدَّم المَفْعُولَ الثَّانيَ لِأَنَّهُ أهمُّ]، أين المَفْعُول الثَّاني؟

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥)، واللفظ للطبراني في الكبير (١٧/ ٩٢، رقم ٢١٨).

أصلُه (من اتَّخذ هواه إلهًا) فالمُتَّخَذُ إلهًا هو هوى، لا الإله متّخذًا هوى، الإلهُ ما اتّخذ هوًى، ولكن الهوى متَّخذ إلهًا، فلِهَذَا قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قدَّم المَفْعُول الثَّانيَ لِأَنَّهُ أهمّ] يعني لِأَنَّهُ هو محلّ التعجُّب، فمحلّ التعجّب أن يَكُون هَذَا الشَيْءُ إلهًا، لا محلّ التعجُّب مجرَّد الهوى، فمجرد الهوى ليس محلَّ تعجُّب، إِنَّمَا مَحَطُّ التعجُّب أن يُتَّخذ إلهًا، فعلى هَذَا نقولُ: المَفْعُول الأول (إلهًا) والثَّاني (هواه).

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وجملة (مَنِ اتَّخذ) مَفْعُولٌ أوَّل لـ(رأيت)]، قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جملة ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾] ننظُرُ هل كَلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ صحيحٌ أو غيرُ صحيحٍ؟ يعني قوله: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾ هو على كلِّ حالٍ مفردٌ، إلَّا على طَريقةِ ابنِ جِنِّي، لكنْ هل يُعَبَّر عن الموصول وصلته بالجملةِ؟ إذا قلت مثلًا: (قدِم الَّذِي سافر)، هل تقول: (الَّذِي سافر) جملة؟ لا؛ لِأَنَّ الاسْمَ الموصولَ مُفْرَدٌ، لكِن صِلَته جملةٌ، ويَدُلُّ على ذلك أنَّ الاسْمَ الموصول يَقَعُ فاعلًا، والفاعل لا يَكُونُ جملةً، تقول: (جاء الَّذِي سافر) (الذي) فاعل، ولا يمكن أن يَكُون جملةً، وعلى هَذَا فيَكُون قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وجملة مَنِ اتَّخذ] فيه تسامُحٌ، والصواب أن يقال: و(مَنْ) في قوله: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾ مَفْعُول أوَّل لـ(رأيت).

والثَّاني: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ الاستفهام هنا للنفيِ، يعني: فلنْ تكونَ عليه وَكِيلًا، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيْ حافظًا تَحْفَظُه مِنِ اتِّباعِ هَوَاهُ؟ لا]، يعني لستَ وكيلًا عليه، وإذا لم تكنْ وكيلًا عليه فلستَ مسئولًا عنه، وإذا كان هَذَا الكَلام للنبي ﷺ فمَن دُونَهُ أَولَى، فنحنُ لَسْنَا وُكَلَاءَ على مَن عَصَوُا اللهَ، ولا على مَن فَسَقُوا عن أَمْرِه، إِنَّمَا علينا البلاغ والدعوة، وعلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحِساب، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾، وبهذا نعرِف أَنَّهُ لا يَنبغي للإنْسَانِ

أن يَحْزَنَ على ضلالِ مَن ضلَّ إذا كان قد قامَ بما أوجبَ اللهُ عليه من البلاغِ والدعوةِ، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٧]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]، يعني مهلكًا نفسَك ألا يَكُونوا مؤمنينَ، وآيات كثيرة بهذا المعنى، وأن الإنْسَانَ لا يَحزَن؛ لِأَنَّ ضلال مَن ضَلَّ بفعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفِعله تَعَالَى لِحِكْمَةٍ، ولهذا قال أهل العلمِ: إننا ننظُر إلى أهلِ المعاصي نظرينِ؛ نظرًا شرعيًّا، ونظرًا كونيًّا، فالنظر الشرعيُّ نحاول إلزامَهم بما أوجبَ الله ونعاقبهم على ذلك، ونُعَزِّرهم بما يليق بهم، ونُقيم الحدود عليهم، ولا نرحمهم في ذلك؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور:٢]، هَذَا النظر الشرعيُّ، نظر قـوَّة وحَزْم، أمَّا النظر الثَّاني فَهُوَ النظر القَدَرِيّ الكونِيّ، فإنَّنا نَرِقّ لهم ونرحمهم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ابتلاهم بهذا الأمرِ، ومِنَ النَّاس مَن يتحمَّل هَذَا وهذا، ومِنَ النَّاس من لا يتحمَّل إلَّا وَاحِدًا منهما، وأيُّهما أكمل؟ الَّذِي يتحمَّل هَذَا وهذا أكمل، لكِن من النَّاس مَن لا يتحمَّل الأمر القدريَّ، وتجده يغضَب ويصير عنده غَيرة، ينفعِل فيها انفعالًا بالغًا، ويندفِع اندفاعًا كثيرًا، ومن النَّاس من ينظر إلى الأمر القدريّ فيقول: هَذَا بقـضاءِ اللهِ وقَدَره، ولا يَكُون عنده غَيرة أبـدًا إطلاقًا، وهذا أيضًا خطأ، فالواجب على المرءِ أنْ يَنْـظُرَ إلى الأمورِ مِنَ النافذتينِ: نافذة القَدَر ونافذة الشَّرْع؛ لِيَكُونَ مُستقيمًا، وهذا هو العدلُ.

إذَن مَن ضَلَّ منَ النَّاس فلَسـنا وُكَلاءَ عليه، ولكنْ له علينا الدعوة إلى اللهِ، ومحاولة إصلاحِه بما نستطيعُ.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا] إشارة إلى أن الاستفهامَ هنا بمعنى النفيِ، يعني فلنْ تكونَ عليه وكيلًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: يُشكِل على هَذَا أنَّ الإنْسَان يجد في نفسِه حزنًا على القريبِ؟

نقول: هَذَا الحزن على القريبِ من باب الرقَّة والرَّحمة، ومع هَذَا يَجِب أن يَكُونَ عنده حَزْم في الدعوة إلى اللهِ، وتبليغ شَرْعِه، وإقامة ما يَجِب إقامتُه منَ الحدودِ على هَـذَا المخالِفِ؛ لِأَنَّ بعضَ النَّاسِ يَرِقُّ لِقَرِيبِهِ وصاحبِـهِ وأخيه، وما أشبهَ ذلكَ، ولا يقوم بالواجبِ بالنسبةِ لتأديبِهِ ومحاولةِ إصلاحِهِ، وهذا خطأٌ.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ سَماعَ تَفَهُّمٍ ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ما تقولُ لهم، ﴿إِنْ﴾ ما ﴿هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أخطأُ طَريقًا مِنها؛ لِأَنَّهَا تنقادُ لِمَن يَتَعَهَّدُها، وهم لا يطيعون مولاهم المنعِمَ عليهم].

قوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ الخطاب إما للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وإما لكل مَن يتأتَّى خِطابُه مِمَّن يصِحُّ خطابُه، وقوله: ﴿أَمْ﴾ بمعنى (بل) وهمزة الاستفهام، لكِن هل هي متَّصِلة أو منقطِعة؟ هي منقطعة؛ لِأَنَّهَا بمعنى (بل)، والمتصلة هي الَّتِي تكون بين أمرينِ متعادلينِ، مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون:٦]، هَذِهِ متَّصلة، فالَّتِي تأتي بين شيئينِ متعادلينِ يُسمُّونها متصلةً؛ لِأَنَّهَا تصل الأوَّل بالثَّاني، وإذا لم تكنْ كذلكَ فهيَ منقطِعة، فقوله هنا: ﴿أَمْ﴾ ليس فيها معادِل، فتكون إذَن منقطِعةً بمعنى (بل) وهمزة الاستفهام.

وقوله: ﴿تَحْسَبُ﴾ بمعنى تَظُنّ ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ يعني أَنَّهُمْ لا يسمعون ولا يعقلون، وما المرادُ بالسمعِ؟ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا: [سماع تفهُّم] وإنما قيَّده بسماع التفهُّم لأَنَّهُمْ يسمعون سَمْعَ إدراكٍ، لكنَّه لا ينفعهم؛ لأنَّهم

لا يتفهَّمون، ولو أن المُفَسِّر أبقَى الآيةَ على إطلاقها بدون تقييدٍ لكانَ أَولى، ويَكُون نَفَى السمع لانتفاءِ فائدتِه؛ لِأَنَّ ما لا يُستفاد منه كالمعدومِ، فهم لا يَسمعون وإنْ كانوا يدرِكون ما يقالُ إدراكًا حِسِّيًّا، لكنَّهم لعدمِ انتفاعِهِم بهذا السماعِ صاروا كالذينَ لا يَسمعونَ.

وقوله: ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ يقـول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ما تقـول لهم] وفي هَذَا نَظَرٌ ظاهرٌ، بل المراد: يعقـلون كل ما ينفعـهم، يعني أَنَّهُمْ ليس عنـدهم عقلٌ لِمَا تقول ولا لغيرِه، فالعقلُ هنا ليس العقـلَ الَّذِي هو الذكاء، وهو إدراك الأمورِ، فإنهم يعقِلون بهذا المعنى، لكِن المراد العقل الَّذِي يمنع صاحبَه ويعقِله مِنَ التصرُّف بما لا يليق، هَذَا العقل الحقيقيّ، وليس العقل أنْ يُدرِكَ الإنْسَانُ المعقول، فإنَّ العقلَ الَّذِي معناه أنْ يُدْرِكَ المعقولَ هو مَناط التكليفِ، وليس مَناط المدحِ أو الذمِّ. فالآنَ صار العقلُ عقلينِ:

أحدهما: مناط التكليف، الَّذِي به يدرِك الإنْسَان ويتميَّز عن الحيوانِ.

والثَّاني: العقـل الَّذِي هو مَناط المدح، وهو الَّذِي يَمنَـع صاحبَه ممَّا لا يَليق، والمنفيُّ عن الكفَّار هو الثَّاني، الَّذِي هو العقل بمعنى ما يَمنع صاحبَه عمَّا لا يليق، أمَّا الأوَّل الَّذِي هو إدراك المعقـولات فهذا ثابتٌ لهم، ولذلك كُلِّفـوا وخُوطِبوا بالشرعِ، ولولا ذَلِكَ لَمَا كُلِّفوا ولَمَا وَجَبَ عليهم التزامُ الشرعِ.

هل العقل الَّذِي نفاه الله عن الكفَّار يَقتضي نفيَ الذكاء عنهم؟

لا، هم أذكيـاء يَفهَمون الَّذِي يَنفَعهم، ويفهمـون الَّذِي يضرُّهم، لكنَّهم ما عقَلوا، يعني ما مَنَعَهم هَذَا العقل عمَّا لا يليقُ، فلذلك صحَّ أنْ نقولَ: إنهم لا يعقِلون، فأبو جهل مثلًا عاقل أو غير عاقل؟ نقولُ: بالنسبة إلى العقل الَّذِي هو مناط تكليف

فَهُوَ عاقل بلا شكٍّ، ومن أَذكى النَّاس، وبالنسبة للعقل الَّذِي هو مَحَطّ المدح الَّذِي يَمتنِع الإنْسَان به عمَّا لا يليق فليس عاقلًا، ولذلك بقِي على كفرِه، مع وضوح الأدلَّة والبيِّنات على صِدق ما جاء به الرَّسول ﷺ. وهنا المراد بالعقل الَّذِي نفاه الله العقلُ الَّذِي يَمنَع صاحبه عمَّا لا يليق.

قوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ هَذَا حَصْرٌ، يعني ما هم إلا كالأَنْعامِ، أي مثل الأَنْعام، والأَنْعام هي البهائمُ، ومن المعلومِ أنك لو قلتَ لأيِّ إنْسَانٍ: أنت بهيمةٌ يَغضَب بلا شكٍّ، فالله يقول: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾، أيضًا لم يقل: إن هم إلا أَنْعام، قال: ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾، والتشبيه يَقتضي أن المشبَّه أقلُّ من المشبَّه به، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ﴾ هَذَا انتقال للصريح ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يعني: أخطأ طَريقًا مِنَ الأَنْعامِ؛ لِأَنَّ الأَنْعام تَهتدي لِما ينفَعُها، وهَؤُلَاءِ لم يَهْتَدُوا لِمَا ينفَعُهم، فالأَنْعام إذا دعاها الراعي إلى المرعَى تأتي، وإذا دعاها إلى المَحْلَب أتتْ، وإذا دعاها إلى المأوَى أتتْ، كذلك أيضًا تنفِر ممَّا يضرُّها، لكِن هَؤُلَاءِ بالعكسِ؛ تدعوهم الرُّسُل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إلى ما ينفَعُهم وتحذِّرهم مما يضرُّهم، ومعَ ذلك لا يَهتدون سبيلًا، ولا يَنقادون، فصاروا إذَنْ أَضَلَّ سبيلًا مِنَ الأَنْعامِ، ولهذا بَيَّنَ الله تَعَالَى في آياتٍ متعدِّدة أنَّ الكفَّارَ شرُّ البَرِيَّة؛ شَرّ ما بَرأ الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال:٥٥]، يعني شَرًّا منَ الكلابِ والخنازير، وقلْ ما يُمكِن أن تقولَ مِنَ الخِسَّة في مخلوقات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الَّتِي خلقها، فهم شرٌّ من ذلك، ومع هَذَا نجد من المسلمين الآنَ مَن يُكْرِمهم، بل مَن يقدِّمهم على المؤمنين، وهَذِهِ مِحنة عظيمة، فبهذا السَّبب استطالَ أعداء الله على المسلمينَ، رأَوْا أنفسَهم عند كثيرٍ من المسلمينَ مَحَلّ التبجيل

والتعظيم، ففخروا بأنفسِهم، بل أنكى من ذلك وأدهَى أَنَّهُمْ صاروا محلَّ التقليدِ عنـد بعضِ النَّاسِ، يعني يقلدونهم، ومعروف أن الإنْسَانَ إذا قُلِّدَ فسـوف يفخَر ويرى نفسه إمامًا، وهذا في الحقيقة من سُوء التصرُّف، ومن ضعف الشخصيَّة، وإلَّا فالواجب أن نُنَزِّلُ هَؤُلَاءِ الكفَّارَ مَنْزِلَتَهُمُ الَّتِي أَنزلَهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وألَّا نجعلَ منهم قدوةً، وأَنَّهُمْ إذا فتحوا لنا أبوابًا مِنْ الإختراعات والصناعات وغيرِها، نعم نستـفيد من عِلمهم، لكِن لا عَلَى أَنَّنا نُظهِرهم بمظهرِ البارزِ المتـقدِّمِ المعظَّم، إنَّما نقول: هَؤُلَاءِ مثلما تَهتدي الشاةُ إلى العَلَفِ الجيِّد وتأكله هم اهتدَوْا إلى هَذِهِ الصنائعِ وعَلَّمَهم الله مهنة لهم ولغيرهم، لكِن كوننا نُقَدِّمُهُمْ وَنَجْعَلُهُم محَلَّ إعجابٍ وإكرامٍ هَذَا خطأ. وبَيَّنَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: [لأنها تنقاد لِمَن يَتَعَـهَّدها، وهم لا يطيعون مولاهم المنعِمَ عليهم].

وقد تقـدَّم قولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة:٢٩]، فإذا قال هَـؤُلَاءِ الكِتَابيُّون: نحن نَدِين دِينَ الحقِّ لأننا نتَّبع رسولًا، والله عَزَّوَجَلَّ قيَّد ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ فهم يَقُولُونَ: نحن نؤمن بالله واليومِ الآخِر ونحرِّم ما حرَّم الله ورسوله، وندين دين الحقِّ لأننا على دين رُسُلٍ؟

نقول: الحمد لله، سياق هَذِهِ الآيات بيَّن ما هو دين الحق؟

ففي آخر الآيات ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ

قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٠-٣٣]. فنقول: دين الحقّ ما جاء به الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإذَن اليهوديّ الكِتَابيّ إذا بقِيَ على دينه، وإن كان دينُه حقًّا حينما كان هو الثابت، لكنَّه الآن ليسَ بدين حقٍّ؛ لِأَنَّ دين الحقِّ ما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ، فيَكُون في آخِرِ الآياتِ ما يدل على أن هَؤُلَاءِ وإنْ زَعَموا أَنَّهُمْ على شريعةٍ وعلى دينٍ، فإن دينَهم ليس دينَ حقٍّ بعد أنْ جاء دينُ الرَّسولِ ﷺ، قال تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣].

وهذا نظير ما يحتجّ به هَؤُلَاءِ في قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [البينة:٦]، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وهم يَقُولُونَ: نحن ما كَفَرنا، بل نحن مؤمنونَ، فيَجعلونَ (من) للتبعيضِ، لا لبيانِ الجِنس، ونحن نقول: إن (من) لبيانِ الجِنس، فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أيِّ طائفةٍ؟ ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾، هَذَا بيان للاسْمِ الموصول (الذين) في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾.

فالحاصِلُ: أَنَّهُ توجَد آياتٌ في القُرْآن كما أَسْلَفْنَا مشتَبِهات يتبعها الَّذِينَ في قُلُوبهم زَيْغ، ولكنَّ المؤمنين يَرُدُّونها إلى المحكَمِ، فتكون كلها محكَمةً.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]، ألا يَكُون دليلًا صريحًا على كُفْرِهِم، لكِن إذا قالوا: نحن لا نقولُ: عُزيرٌ ابنُ الله،

نقول: نَرُدُّ عليهم بقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٨]، نقول: هم سيقُولُونَ: نحن أَقَمْنَا التوراةَ والإنجيلَ، وأمَّا قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ سيقُولُونَ: وما أنزل إلينا من ربِّنا من غير التوراة والإنجيل؛ لِأَنَّ الرُّسُل جاءوا بأمرٍ غيرِ التوراةِ والإنجيل، وأمَّا قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم﴾ سيقُولُونَ: ﴿كَثِيرٗا مِّنۡهُم﴾ ونحن لَيْسُوا من هَذَا الكثيرِ، فالآية ليستْ صريحةً، لكنْ توجد آيات صريحة -الحمد لله- واضحة جدًّا، وهذا في الحقيقة ما يهوِّن على بعض النَّاس مسألة اليهود والنصارى.

وأنا قرأتُ مقالًا تقول: لماذا تصنعون هَذِهِ الضجَّة العظيمة لتوريد المربِّيات، ما السَّبب؟! تقول: دين تُقِرّ به -هكذا تخاطب المسلم- كيف تنكِر على مَن قام به وكيف تنكر على المرأةِ النصرانيَّة الَّتِي تجيء عندك بيتك تقيم شعائر دينها؟! هَذَا ليس بمنكَرٍ؛ لأننا نحن عندهم هناك في بلادهم نقيم ديننا، حتى إنهم -هكذا تقول- يقدِّمون لنا وجبة الإفطار في الصوم، فهم يساعدوننا على ديننا، ونحن الآن ننكر دينَهم ونقول: لماذا نأتي بمربيات ونَفتعِل هَذِهِ الضجة. مع أَنَّهُ لم تحدُثْ ضجَّة مع الأسف، يا لَيْتها حدثَت ضجَّةٌ ضدها.

وفي الحقيقة مما يهوِّن عليهم مسألة النصارى واليهود أَنَّهُ يوجد في بعض الآيات أشياء متشابِهة، يتبعها مثل هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أزاغَ اللهُ قلوبَهم، والعياذُ باللهِ، وإلَّا لو عَقِلوا لَفَهِمُوا خَطَرَ النصارى في هَذِهِ البلاد بالذَّات؛ لِأَنَّ هَذِهِ البلاد بالذَّات مغزوَّة من أعداء المسلمينَ، حيث إِنَّهُ لم يبقَ فيها نعلَمُ أحدًا من بلادِ الإسلامِ يطبِّق من الإسلام ما تطبِّقه هَذِهِ البلاد، فهي مغزوَّة من ناحيتينِ؛ من ناحية التزامِها بالإسلام

التـزامًا فائقًا على غيرِها، هَذِهِ وَاحِـدة، ومن ناحية أخرى أنها هي مَهْبَـط الوحيِ ومَنْبَع الرِّسَالةِ، وإذا قُضي على الرِّسَالة في مَهدِها ومَنْبَعِها فالأطراف من باب أَوْلَى، على أن الأطراف قد أُكِلت الآن، فما بقي إلَّا هَذَا الصُّلْب، فركَّزوا جُهُودَهم على هَذِهِ البلادِ، ولكن مع الأسفِ أن كثيرًا منَّا لا يَعُونَ خطرَ هَذَا الأمر، وهم في غفلةٍ، وما همّهم إلا الدُّنْيا، ولذلك يريدون أن يحصُلوا عليها بأيِّ وسيلةٍ. والواجبُ علينا الحَذَر من هَؤُلَاءِ الأعداء، وأن نعلمَ أَنَّهُ مهما حصلَ منهم مِن نُصح كما يقولونَ، وإخلاصٍ في العملِ، فما ذلك إلا شبكة يَصطادون بها مَن لا يفهمون.

على أَنَّهُمْ في الحقيقة مهما بَلَغوا من النـصحِ، إن صح ذلك، فإنَّ الله يقـول: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١]، ويقول: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَـةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَـتْكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١]، ولاحـظْ أن الآيةَ تقـول: ﴿مُّؤْمِنٌ﴾ و﴿مُّؤْمِنَـةٌ﴾، لا مسلم ومسلمة؛ لِأَنَّ من المسلمين مَن لا خيرَ فيه، لكِن الكَلام على المؤمنِ، ولهذا يَنبغي للإنْسَانِ أنْ يحرِص في مربِّيَات أولادِه وفي خَدَمِه أن يَكُونوا مؤمنينَ، وأن يَحذَر من هَؤُلَاءِ الأعداءِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يَحْرُم استخدام الكافر؟

نقول: أمَّا في الأَصْلِ فيجوز استخدام الكافرِ، لكِن بالنظر إلى مفاسدِه، وأن هَذِهِ البلاد خالِيَة منهم، فإننا نَميل إلى أن منعَهم أَولى؛ لِأَنَّهُ من المعروفِ أن الثوبَ الوَسِخ لا يَهُمُّ أنْ يَتَوَسَّخ، لكِن الثوب النظيف أيُّ وَسَخٍ يُدَنِّسه، فبلادنا لَمَّا كانت خاليةً منهم فهي أطهرُ، كما هو معروف في حديثِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ استيقظَ ليلةً فَزِعًا مُحْمَرًّا وجُهه يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ». قالتْ:

أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ»[1] ومَنْ هم الخَبَث؟ الكفَّار؛ قال تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة:٢٨].

فالكفَّار همُ الخَبَثُ، وإنْ كان مِنَ الخبيثِ ما قد يُرادُ به ما هو أعمُّ من ذلكَ، لكِن فُتِحَ اليومَ من رَدْم يَأجوجَ يدلّ على ما أَشَرْنا إليه، وهو كثرةُ غير المسلمينَ في المسلمينَ، وقد يراد بالخَبَث كلُّ المعاصي، فالمعاصي كلُّها خَبَثٌ، والطاعات طُهْرٌ، لكِن لعلَّ الحديثَ يَشمَل هَذَا وهذا، ويؤيِّد الأوَّلَ فَتْحُ رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كلُّ الآياتِ يمكِن أن تقبل الإِشْكالَ، حتى هَذِهِ الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [المائدة:٦٩].

نقول: الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الَّذِينَ يكذبون بالرَّسول لَيْسُوا بمؤمنينَ؛ لِأَنَّهُ كلَّما جاء نبيٌّ وكذَّبوه صاروا كافرينَ بالجميعِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: في قولِه تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ نجد أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ مرفوع بين منصوباتٍ، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء:١٦٢]، هَذِهِ عكس الآية السابقة؛ فهذا منصوب بين مرفوعات، وذاك مرفوع بين منصوبات، فما إعراب هاتين الكلمتينِ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «ويل للعرب من شر قد اقترب»، رقم (٧٠٥٩)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، رقم (٢٨٨٠).

نقول: الإعراب: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ هَذِهِ على تقـدير: وأخصّ أو أمدَح المقيمينَ للصلاة.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: ما الحِكْمَةُ في قَطْعِ العطف إلى هَذَا التقدير؟

نقول: العِنَاية بالصلاةِ، هَذِهِ فائدةٌ مَعنويَّة، وتُوجَدُ أيضًا فائدة لفظيَّة، وهي التَّنْبيه؛ لأنَّ تغيُّرَ الأسلوبِ يُوجِب الانتباهَ، لو قَرَأْنَا الآيةَ كلَّها على نَسَقٍ وَاحِدٍ مَشَيْنا، لكِن حِينَما تَقِف يَكُونُ في هَذَا التنبيهُ.

وأمَّا إعرابُ قولِه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ هنا لماذا رُفعت؟ نقول: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ يجوز أنَّ النصارَى مرفوعة أيضًا، ويمكِن أن تكونَ منصوبةً، فهي مُحْتَمِلة، لكِن لا يَتعيَّن أن تكونَ منصوبةً، فتكون (الواو) هنا للاستئنافِ، (والصابئون والنصارَى كذلكَ) هَذَا التقدير، وتكون هَذِهِ الجُملة مستأنَفةً بين الكَلِمَتينِ، أو نقول: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ هو الخبر، وحُذف الخبرُ مِنَ الجُملةِ الأُولى.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين هَذِهِ الآية وقوله في سورة الحج: ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ [الحج:١٧]؟

الجواب: في هَذِهِ الآية قال: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، واليهود مؤمنون بالله واليوم الآخِرِ، في سورة الحج ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الحج:١٧]، فلم يذكرْ أن جزاءهم الجنَّة مثلًا، ذكر أن الله يفصِل بينهم، والفصل شامِل للمؤمنينَ والمشركينَ والمجوسِ وغيرِهم، ففرق بين الآيتينِ.

الآيتان (٤٥، ٤٦)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان:٤٥-٤٦].

لَمَّا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ الَّذِينَ كذَّبوا الرُّسُلَ السابقينَ، وما أحلَّ الله بهم من العذاب والعقوبة، أراد عَزَّوَجَلَّ أن يبيِّن شيئًا من آياتِه يدل على قُدرتِه ووَحدانِيَّته، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تنظر ﴿إِلَىٰ﴾ فِعل ربِّك ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾]، إلى آخِرِه.

أولًا: كلمة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الاستفهامُ للتَّقرير؛ كقولِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، وقوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات:١٦]، وما أشبهَ ذلك مِنَ الأمثلةِ، ويقدِّر بعض العلماء مثل هَذَا التركيب بقولِه: قد فعلْنا ذلك، قد رأيت ذلك، فمثلاً ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني أنك رأيت ذلك، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تنظر] فسَّر الرُّؤية بالرؤية البصرية، مع أَنَّهُ يَحتمل أن تكون رؤيةً بصريةً ورؤيةَ بَصيرةٍ، يعني رؤية عِلمية، أي تعلم هَذَا الأمر الَّذِي سيُذكَر.

والخطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هل هو للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أو لكل ما مِن شأنِهِ أن يخاطَب؟

الجواب: أَنَّهُ لكل مَنْ مِنْ شأنِه أن يخاطَب؛ النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وغيره؛ لِأَنَّهُ كما أسلَفنا في القاعِدَة التفسيريَّة أَنَّهُ كلَّما كانتِ الآية أدلَّ على العموم كان القولُ به

أَولى، وأنه لا يَنبغي أن تُجعَل خطابات القُرْآن للخصوصِ إلا بدليلٍ يَمنع العمومَ، يعني ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيُّها الإنْسَان ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قدَّر مضافًا فقال: [﴿إِلَىٰ﴾ فعل ﴿رَبِّكَ﴾] لِأَنَّهُ ليس المراد أن ينظر الإنْسَان إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بذاته، إِنَّمَا المراد أن ينظُر إليه من هَذِهِ الحيثيَّة، فيَكُون مصبّ النظر هو الفِعل.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ من وقتِ الإسفارِ إلى وقتِ طلوعِ الشمسِ]، هَذَا تفسيرٌ للظلِّ، وليس تفسيرًا للمدِّ، فالظلُّ من وقتِ الإسفارِ إلى وقتِ طلوعِ الشمسِ، وسُمِّيَ ظِلًّا لِأَنَّهُ ذو نورٍ، ولَكِنَّهُ بدون شعاع شمس، فكان ظلًّا، وهذا هو الَّذِي فسَّره به ابن عبَّاس وغيره، وعليه جمهور المفسِّرين؛ أن الظلَّ ما بين طلوعِ الفجرِ إلى طلوعِ الشمسِ؛ لِأَنَّهُ كما قُلْنا: نور بدون شعاعٍ، ومدُّه يعني تطويله؛ لِأَنَّ الفرق بين هَذَا وهذا معروف، ولكن أيّ شَيْء يَكُون فيه من آيات الله؟ قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ يعني غير ممدودٍ، بحيث تطلُع الشمس مباغتةً بدون مدٍّ، والواقِع بخلافِ ذلكَ، بل هو ممتدٌّ، وكونه لا يزول بطلوع الشمس هَذَا غير ممكِن، ولذلك يقول في تفسير الجَمَل في تفسير قول المُفَسِّر: [مقيمًا لا يزول بطلوع الشمس]: (بألا تطلع الشمس)، ليس المعنى تطلع ولا يزول؛ وذلك لِأَنَّ زواله بطلوع الشمس، فإذا طلعت فلا بدَّ أن يزول، المعنى أن النفيَ مسلَّط على قوله: [بطلوع الشمس]، فمعنى قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي أن الشمس لا تطلُع، ويبقى باستمرار، يعني يبقى الأمرُ لا ليلٌ ولا نهارٌ، إسفارٌ بدون شمس.

فكَلام صاحب الجلالين يَصِحّ بأنْ نجعلَ النفيَ مسلَّطًا على قولِه بطلوعِ الشمس، يعني فلا تطلع الشمس. على كلِّ حالٍ المعنى مفهوم الآن؛ لو شاء لجعله ساكنًا فلا تطلع الشمس، أو إنْ صحَّ أن يقال: لو شاء لجعله ساكنًا فتطلع الشمس

غيرَ مضيئةٍ، وهذا خلاف المعهودِ أن تطلُعَ غير مضيئة، ولكن الله قادِر على أنْ يُخرِجَها غيرَ مضيئةٍ، كما يُعلم ذلك في الكسوفِ.

فالحاصلُ: أن السكونَ الآن يفسَّر بحسَب ما يفسَّر به الظلُّ. هَذَا أحد الأقوال في تفسير الظل.

والقول الثَّاني في الظل: أن المراد به الليلُ كلُّه، وأنَّ المراد بمدِّه تطويله، ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ بمعنى بعد أن كان طويلًا كان ينقُص شيئًا فشيئًا، فيَكُون في هَذَا إشارة إلى تغيُّر الفصول؛ لِأَنَّ الفصول تتغيَّر بتغيُّر الليلِ والنهارِ.

والقول الثالث: أنَّ المرادَ بالظلِّ ظلُّ كلِّ شاخصٍ إذا طلعتِ الشمسُ، فإنَّ الله تَعَالَى يَمُدُّه ثم يَقْبِضُهُ شيئًا فشيئًا، ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ فتكون الشمس مُسْتَقِرَّةً ثابتةً في مكان لا تَرتفِع ولا تَنخفِض.

فالآنَ صار المرادُ بالظلِّ على الخلاف ثلاثة آراءٍ؛ إمَّا أَنَّهُ ما بين طلوعِ الفجرِ إلى طلوعِ الشمسِ، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [من وقت الإسفار] لأجل أن يتحقق الظل. أو أَنَّهُ الليل كله، ويَكُون مَدُّهُ تطويلَه ثم يَنقُص، ففي هَذَا من قُدرة الله تَعَالَى: تغيُّر الفصول بسَبَب طول الليل وقِصره. أو أن المراد به ظِلّ كلِّ شاخصٍ، فَإِنَّهُ أوَّل ما تطلُع الشمس يَكُون الظلُّ طويلًا ممدودًا، ثم يُقبَض شيئًا فشيئًا، ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، والسكون هنا يَختلِف معناه بحسَب اختلاف معنى الظلِّ، فإذا قُلْنا: المراد بالظلِّ ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، كان المراد بالسكون أن الشمس تخرج دَفعةً وَاحِدةً بدون أن يَكُون ظِلُّها شيئًا فشيئًا، وإذا قُلْنا: إن المراد به الليل كان المراد بسكونِه أن يبقَى الليل دائمًا، لا يزيد ولا ينقُص، وإذا قُلْنا: إن المراد بالظلِّ ظِلُّ الشاخصِ، صار المراد بسكونِه أن الشمسَ لا تتحرَّك،

وتبقى في مكانٍ وَاحِدٍ، ويَكُون الظلُّ ساكنًا، لا يزيد ولا يَنقُص، ففي كون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادرًا على هَذَا وهذا دليلٌ على كمال قُدرتِه ووحدانِيَّتِه في التفرُّد؛ لِأَنَّهُ لو كان معه إلهٌ آخرُ لم يكنْ له المشيئة المطلَقة في هَذَا وفي هذا.

ثمَّ فيه أيضًا من نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العبادِ في اختلاف هَذَا الظلِّ ما هو معلوم؛ لأننا لو قُدِّر أن الشمسَ تخرج هكذا بَغتةً بعد ظلام دامسٍ فقد يؤثر النور الساطع في المواشي في إبصارها، وفي بني آدم، وفي الأشجار والنبات، بخلاف ما إذا كان الشَيْء يأتيها تدريجيًّا، وكذلك أيضًا لو كان الليل والنهار دائمًا لا يزيد أحدهما ولا ينقُص، لم يكنْ في ذلك اختلاف في الفصول، ولم يكن في ذلك اختلافٌ في الأشجارِ؛ لِأَنَّ كثيرًا من الأشجار تختلِف ثِمارُها وإيناعها بحسَب اختلاف الفصولِ.

كذلك أيضًا إذا قُلْنا بأنَّ الظلَّ ظلُّ كلِّ شاخصٍ؛ فإنَّ كونَ الشمسِ تَدُورُ وتختلف الأفياءُ والأَظِلّة بحسَب سَيْرِها هو أيضًا من نعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومن تمام قُدرته.

فالحاصل: أن هَذَا الأمر الَّذِي قرَّر الله تَعَالَى بأننا ننظر إليه في كل وقت دالٌّ على أمرينِ: تمام القُدرة، وتمام الرَّحمة؛ لِأَنَّهُ متضمِّن لهما.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: ما الَّذِي تختارون من هَذِهِ الأقوال؟

نقول: ما دام أن هَذِهِ المعانيَ لا تَتنافَى، فالواجب أن تُحمَل الآية على الجميعِ، وهَذِهِ قاعِدَة قرَّرناها سابقًا، وهي قد قُرِّرت أيضًا من قبلنا، قررها شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ بأنه إذا كانت الآية تَحتمِل المعانيَ المذكورةَ فيها، فالواجبُ أن تُحمَل على كل هَذِهِ المعاني؛ لِأَنَّ كَلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يحيط به شَيْءٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين الظلِّ والفيءِ؟

هَذِهِ الْفَائِدَة قد سبقتْ، والفرق بينهما: أن الفيءَ ما نَسَخَ الشمسَ، والظل ما نسختْه الشمسُ، مثل قولنا: الظل ما قبلَ الزوال، والفيء ما بعد الزوال؛ لِأَنَّ الظلَّ الَّذِي قبلَ الزوالِ الَّذِي يُزيلـه ويَنسَخه الشمسُ، والفيء الَّذِي بعـد الزوال ينسخ الشمسَ؛ لِأَنَّهُ يمتدّ، وكلَّما امتدَّ إلى شَيْءٍ أزال ضوءَ الشمسِ عنه.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾ أي على الظلِّ ﴿دَلِيلًا﴾]، قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾ الجملة الفعليَّة هَذِهِ هل هي معطوفة على قوله: ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، أو على قوله ﴿مَدَّ﴾: ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ﴾؟

فالجواب: معطوفة على قوله: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾؛ لِأَنَّ قوله ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ لو جُعِل معطوفًا على ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ لكانت الشمس ليستْ دليلًا عليه، والأمر بخلاف ذلك، فالمعنى يفسُد، فهي إذَن معطوفة على قوله: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، يعني: وكيف جعلنـا الشمس عليه دليلًا، ولكنَّ فيه الْتفاتًا من الغَيـبة إلى التكلُّم؛ لِأَنَّهُ قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾، ولم يقـل (ثم جعل). وقوله: ﴿ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ يعني على الظلِّ، وكيف كانت دليلًا على الظلّ؟ يقول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فلولا الشمس ما عُرف الظلُّ]، المراد بالظلِّ هنا الَّذِي يأتي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ليس ظلّ الأنوار حيث يضع الإنْسَان له كشَّـافًا، ويَكُون له ظِلال؛ لِأَنَّ هَذَا الظلّ الَّذِي يَكُون من مصباحي أنا ومصباحك أنت هَذَا ظِلٌّ نسبيّ، حتى ظِلّ الشاخِصِ إذا جَعَلْناه هو الأنوار؛ لِأَنَّهُ ليس المقصود معرفة الظل الَّذِي يَكُون بمجرَّد تسلط ضوء على جسمٍ، المراد الظلُّ العامُّ الَّذِي يعمُّ كلَّ النَّاس، وهذا لا يمكِن إلا بِجعلِ الشمسِ وحدَها هي الدليلَ عليه، لكِن قد يقول قائل: القمرُ أيضًا دليل عليه؟ فنقول: إن نور القمر

مستفادٌ من نورِ الشمسِ، وليس مستقلًّا بالإضاءة، فالَّذِي يدل على الظلِّ أصلًا هي الشمس.

قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ جَعْلُ الشَّمْس دليلًا عَلَى الظلِّ فِيهِ دليلٌ ليسَ عَلَى مجرَّدِ وجودِ الظلِّ، بل دليل عَلَى ما فِيهِ من المصالحِ، وَهِيَ أَيْضًا مدلولٌ عَلَيْهَا به، فالشَّمْس الآنَ يُستدَلُّ بها عَلَى ما فِي الظِّلِّ مِنَ المصالحِ، ويُستدَلُّ بالظِّلِّ عَلَى ما فِيهَا من المصالحِ أَيْضًا؛ لأنَّ غُيُوبَ الشَّمْسِ عنِ الْأَرْض قد يؤثِّر، وبقاءَها دائمًا عَلَى وجهِ الْأَرْضِ قد يؤثِّر، مثل قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧١-٧٢]، فكونُ هَذَا دليلًا عَلَى هَذَا، وهذا دليلًا عَلَى هَذَا؛ هو أَيْضًا من رحمةِ اللهِ؛ لِأَنَّهُ لَولَا الشَّمْس ما عَرَفْنَا فائدةَ الظِّلِّ، ولولا الظِّلّ ما عرفنا فائدة الشَّمْس، فكلٌّ منهما فِي الحقيقةِ دالٌّ ومدلولٌ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ أيِ الظِّلّ الممدود إلينا ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ خفيًّا بطُلُوعِ الشَّمْسِ].

قوله: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ هل المرادُ باليَسِير هنا صفة للفعل، يعني أَنَّ قَبْضَنَا إيَّاه يَسيرٌ علينا؛ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق:٤٤]، أو أن المراد بقولِه: ﴿يَسِيرًا﴾ يَعْنِي أن القبضَ كَانَ شَيْئًا فشيئًا؟

الأخير أظهرُ، وهو المتبادَرُ؛ أن اللهَ تَعَالَى قَبَضَ هَذَا الظِّلَّ قبضًا يسيرًا، شَيْئًا فشيئًا، وهو مُنْطَبِقٌ عَلَى كلِّ التفسيراتِ السابقةِ.

إِذَا قُلْنَا: الظِّلّ ما بَيْنَ طلوعِ الفجرِ أو ما بَيْنَ وقتِ الإسفارِ إِلَى وقتِ طُلُوعِ الشَّمْسِ، فَإِنَّهُ يُقْبَضُ هَذَا الظِّلُّ شَيْئًا فشيئًا، لا يزال النورُ يَسْطَعُ تدريجيًّا حَتَّى تطلع الشَّمْس. هَذِهِ وَاحِدةٌ.

إِذَا قُلْنَا: المراد به الليلُ؛ فَهُوَ أَيْضًا يُقْبَضُ شَيْئًا فشيئًا، يَعْنِي لا يَكُون الليل فِي هَذَا اليومِ اثني عشْرة ساعةً، ويَكُون تسع ساعاتٍ فِي اليومِ الَّذِي يَليهِ، وإنَّما يُقْبَضُ شَيْئًا فشيئًا.

كَذَلِكَ إِذَا قُلْنَا: إن المرادَ بِالظِّلِّ ظِلُّ الشاخِصِ، فَهُوَ نفسُ الشَّيْءِ، إنَّما يَتَنَاقَص شَيْئًا فشيئًا، وليسَ فِي الآيةِ إشكالٌ سِوَى قولِهِ: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، ﴿إِلَيْنَا﴾ هَذِهِ الغايةُ فِيهَا إشكالٌ؛ لِأَنَّهُ كَانَ من المُمْكِن أنْ يُقْتصَر عَلَى قولِه: ثم قبضناه قبضًا يسيرًا، فما الحِكْمَةُ من هَذِهِ الغايةِ فِي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾؟

بعضهم يَرَى أنَّ الضميرَ فِي قوله: ﴿قَبَضْنَٰهُ﴾ أي الشَّمْس، باعتبارها دليلًا ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، أي: قبضنا هَذَا الدليلَ ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾.

وعلى كلِّ حالٍ يوجد احْتِمَالٌ أنَّ المرادَ مِن جَعْلِ الغايةِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إشارة إِلَى أَنَّهُ هو المتصرِّف به، وأنه لا أحدَ يَستطيعُ أنْ يَتَصَرَّفَ بخلافِ ذلكَ.

ويوجد احْتِمَالٌ أَنَّهُ يُجْعَل المراد بقولِه: ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا﴾ يَعْنِي الدليل، أي الشَّمْس، ويَكُون المراد بالقبضِ إليه ما أشارَ إليه النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فِي قولِه فِي حديث أبي ذَرٍّ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣١٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم (١٥٩).

ويوجد احْتِمَالٌ ثالثٌ ذَهَبَ إليه الزَّمَخْشَرِيُّ[(١)]، وَقَالَ: إنَّ المرادَ بالقَبْضِ هنا ما ذَكَرَهُ اللهُ بقولِهِ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير:١-٢]، وإنَّ المرادَ به قَبْضُ هَذِهِ النيِّرات؛ الشَّمْس وغيرها يوم القيامة، وجَعَلَ اليسيرَ لَيْسَ صفةً للقبضِ، يَعْنِي أَنَّهُ يَكُون شَيْئًا فشيئًا، بل هو صفة للفِعل؛ لِفعل الله، يَعْنِي أَنَّهُ يسير عليه كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق:٤٤]، لكِن الأخير بعيدٌ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى إِنَّمَا يَمْتَنّ بذلكَ عَلَى أمرٍ يُدرِكُ النَّاسُ فائدتَهُ فِي الدُّنْيا، وتمام قُدْرة الله تَعَالَى فِيهِ، فيكُون عَلَى هَذَا إمَّا أنْ يقالَ: إن الغايةَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إشارة إِلَى أن ذلك من تَصَرُّفِه وحدَه، وأن الأمرَ إليه وحدَه، لا إِلَى غيرِهِ، فيكُون دليلًا عَلَى عَظَمَة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو أنَّ المرادَ بالقَبْضِ إليه أنَّ الشَّمْسَ تُقْبَضُ إِلَى اللهِ، بمعنى أنها تَذْهَب وتسجُد تحتَ العرشِ؛ كما جاء به الحديثُ عن النَّبيِّ ﷺ[(٢)].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: تَقريرُ الْإِنْسَانِ بالنِّعَم الَّتِي يُشاهِدُها؛ لِقَوْلِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

الْفَائِدَة الثَّانية: إثباتُ رُبُوبِيَّةِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، والربُّ هو الخالِق المتصرِّفُ.

الْفَائِدَة الثالثة: بَيـان كمالِ قُدْرة الله ورحمته بِمَدّ الظِّلِّ، وجعل الشَّمْس دليلًا عليه، وقبضه قبضًا يَسيرًا، بهَذِهِ الأمور الثَّلاثَةِ.

الْفَائِدَة الرابعة: إثبات الاستدلالِ بالشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ.

---

(١) الكشاف (٣/ ٢٨٣)، ط. دار الكتاب العربي.

(٢) سبق تخريجه.

الْفَائِدَة الخامسة: الاستدلال بالشَّيْءِ عَلَى ضِدِّهِ، وبِضِدِّهِ يُعْرَفُ الضِّدُّ، ويقولُ بعضهم[1]:

وَبِضِـــدِّهَا تَتَبَـــيَّنُ الْأَشْـــيَاءُ

وذلك في قولِه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾. وقولنا: الاستدلال بالشَّيْءِ عَلَى ضِدِّهِ مُرادنا النِّعَم، ففيه معرفة قَدْر النعم بمعرفة ضِدِّها، وأن الْإِنْسَان يستدلّ عَلَى مقدار هَذِهِ النعمة بِضِدِّها.

الْفَائِدَة السادسة: إثباتُ مَشيئة الله؛ لقولِه: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾.

الْفَائِدَة السابعةُ: أَنَّهُ يَنبغِي للإِنْسَانِ أَلَّا يَجعلَ النِّعم أمورًا عاديَّةً لا بدَّ منها، بل يُقَدِّرها بِضِدِّها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، فإذا قَالَ الْإِنْسَان مثلًا: طلوع الشَّمْس عَلَى هَذِهِ الْأَرْض وغروبها عنها أمرٌ مُعتادٌ، نقول: نعم، هو أمرٌ معتادٌ، مِن أجلِ كونِه مُعتادًا لا يُحِسُّ الْإِنْسَان بأنه نِعمة، لكِن قَدِّر هَذَا الشَّيْء بضده ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، إنَّ خروجَ النَّفَسِ من جسم الْإِنْسَان أمرٌ معتادٌ، ولهذا لا يُحِسُّ الْإِنْسَانُ بِقَدْرِ هَذِهِ النعمةِ، لكِن قَدِّر أن الله لو شاء الله لَحَبَسَهُ، وحينئذٍ يَتبيَّن قَدْرُ النعمةِ. وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ يَنْبَغِي أن يُجعَل هَذَا قاعِدَة لنا فِي كلِّ النِّعَم المعتادة الَّتِي نحنُ عِشنا عَلَيْهَا واعتدناها؛ فإننا لا نشكُّ بكونها نعمًا، لكِن علينا أن نقدِّر ضِدَّها حَتَّى نعرِفَ بذلك قدرَ نعمةِ الله عَزَّوَجَلَّ بهَذِهِ النعمِ المعتادَةِ.

الْفَائِدَتان الثامنة والتاسعة: إثبات رحمة الله بوجود هَـذِهِ النِّعم، لكنْ تنبيه الْإِنْسَان عَلَى الشكرِ إِنَّمَا يَكُونُ بذِكر ضدِّ هَذِهِ النعمِ.

---

(١) ديوان المتنبي، وصدر البيت: (نَذُمُّهُمْ وَبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ)، في ديوانه (ص١٢٧).

الْفَائِدَة العاشرة: فائدة الالتِفَات، وَهِيَ تغيير الأسلوبِ لِتَنْبِيهِ المخاطَبِ؛ لقولِه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:٤٧].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ ساترًا كاللِّباسِ ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ راحةً للأبدانِ بِقَطْعِ الأعمالِ، ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ منشورًا فِيهِ لِابتغاءِ الرزقِ وغيرِهِ]، هَذَا أَيْضًا مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لا يستطيعُ أحدٌ أن يأتيَ بها إلَّا الله.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ (اللام) للتعليلِ، أي: مِنْ أجْلِكم، جعل مِنْ أجْلِكم الليلَ لِباسًا، ومعنى لِباسًا ساترًا كاللِّباس، وذلك لظلامِهِ، ولهذا الْإِنْسَان ربَّما يخرُج فِي الليلِ بثيابٍ لا يستطيعُ أنْ يخرجَ بها فِي النهارِ، فربما يخرج بثياب ليأتيَ بحوائجَ فِي الليلِ لا يستطيعُ أن يخرجَ بها فِي النهارِ؛ لِأَنَّ الليلَ يَستُر، فَهُوَ لِباسٌ، وهل هو لِباسٌ للأرضِ أو لباسٌ لنا؟ للجميعِ؛ لِأَنَّهُ يكسو الْأَرْض ويكسو الْإِنْسَانَ فِي الواقعِ، فَهُوَ كاسٍ للأرضِ وكاسٍ أَيْضًا للإنْسَانِ.

وقوله: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ السَّبْتُ بمعنى القَطْع، والمُفَسِّر فسَّره بالراحةِ، وهو من باب تفسيرِ الشَّيْءِ بلازمِهِ، وإلَّا فَهُوَ قطعٌ لِتَعَبِ البدنِ، ولذلك يُكسِب البدن راحة، ففيه هَذِهِ الْفَائِدَةُ العظيمةُ؛ أَنَّهُ يَقطَع التعبَ السابقَ، وليس كما قَالَ المُفَسِّر: [بقطع الأعمالِ]، وقصده رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إذا نامَ لا يعمَل، هَذَا وجهٌ كونه سُباتًا،

ولكننا نقول: لَيْسَ كَذَلِكَ، لَيْسَ قطعًا للأعمالِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قد يَقطَع أعمالَه وهو يَقْظَان، أي مع وجودِ الصحوِ واليقظةِ، ولكنَّه يقطع التعبَ كما هو مشاهَد، فالْإِنْسَان يَكُون مُتْعَبًا ثم ينام، فإذا نام انتقضَ تعبُـه، فَهُوَ فِي الحقيقةِ قطعٌ للتعبِ الماضي وتجديدٌ للنشاط المستقبَلِ.

قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ يَعْنِي محلًّا للنشورِ، ولهذا قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [منشورًا فيه] يَعْنِي أنَّ النهارَ مَحَلُّ النشورِ وابتغاء الرزقِ، وغيره من الأعمالِ، وهذا من نعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يرد عَلَى هَذَا ما نحن فِيهِ اليومَ منْ كونِ الليلِ لَيْسَ لِباسًا؛ لِأَنَّ هَذَا أمرٌ طارئٌ بسَبَبِ الأنوارِ الْمُحْدَثة الَّتِي صَنَعَها الْإِنْسَانُ، هَذِهِ الأنوارُ لو فاتتْ لعادَ الظَّلَامُ عَلَى الْأَرْضِ، ثم إنَّ هَذَا النور والإضاءة الَّذِي يمنع كون الليل لباسًا لَيْسَ بعامٍّ فِي الواقعِ، بل هو أمرٌ نِسبيّ، ثمَّ هو أَيْضًا ضعيفٌ لا يَشمَل الظِّلّ، فالظِّلّ الَّذِي يحدث ضَوْء هَذِهِ الشَّمْعَة مَثَلًا يَكُونُ أسودَ لِباسًا.

وكَذَلِكَ أَيْضًا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ لا يرد عليه بعض الحالات الطارئة؛ كالحرَّاس مَثَلًا، فالحراس ينامونَ بالنهارِ وبالليلِ، فهم يَعْمَلُون، لكِن هَذِهِ الأمور نادرةٌ، والنـادرُ لا يقطَع القواعد، فالقواعد لا يمكن أن تَنـخرِم بالأمور النادرة، إنَّما الكَلام عَلَى العامِّ.

هَذَا أَيْضًا مِن نِعمَة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهل أحد يستطيعُ لو لم يجعلِ اللهُ الليلَ أنْ يأتيَ بالليلِ؟ لا أحد يستطيع، يَعْنِي لو اجتمعَ الخَلْق كلُّهم من أوَّلهم إِلَى آخِرِهم بجميعِ صنائِعِهم ما استطاعوا أنْ يأتوا بنصفِ ليلٍ ولا بساعةٍ من ليلٍ، كَذَلِك أَيْضًا النومُ، هل يستطيع أحدٌ أنْ يُنَوِّمَ أحدًا؟ أبدًا لا يستطيع، وحبوب النوم هَذِهِ لا ترد علينا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يُعطِي حُبوب النَّوم، ويقول: أنا استطيع أن أُنَوِّم الْإِنْسَان

بإعطائِهِ جرعاتِ النوم، نقولُ: هَذَا مِثل الَّذِي قَالَ لإِبْراهِيمَ: ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فإن هَذَا الَّذِي يُعطِي جُرعات النوم لَيْسَ هو الَّذِي ينوِّم، وإنما يفعل السَّبب الَّذِي يَكُون به النومُ، أرأيتَ لو أن الله تَعَالَى جعلَ هَذَا الجسمَ غيرَ قابلٍ للنـومِ، هل تستطيع هَذِهِ الجرعات أن تنومه؟ لا، إذَن فالنـوم لا يستطيع أحد أبدًا أنْ يأتيَ به إِلَى بدنِ الْإِنْسَانِ، وحتى لو أتَى به مثلًا فقد يأتي به ولا يَكُون قاطعًا للتَّعَبِ، ولهذا امتنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به عَلَى العبادِ، وهو أمرٌ لا يستطيع أحدٌ فِعْلَه. كَذَلِك جَعَلَ النهارَ نشورًا، مَن يَستطيعُ أنْ يَخْلَعَ هَذَا اللِّباس؛ لباس الليل، حَتَّى يَكُون الإسفار وينتشر النَّاس فِي مَصالِحِهم؟

الجواب: لا أحدَ يستـطيعُ سِوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولهذا امتنَّ الله عَزَّوَجَلَّ عَلَى عِبَـادِهِ بهَذِهِ الأمورِ الثَّلاثَةِ؛ بالنومِ والليلِ والنهارِ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الليـلَ لِباسًا، وجعلَ النـهارَ نُشُورًا، وجعلَ النومَ سُباتًا، محَلّ النوم هل هو فِي الليلِ أوْ فِي النهارِ؟

الأَصْلُ أَنَّهُ فِي الليلِ، لكنْ قد يَكُونُ فِي النهارِ أيضًا، فقد يَتْعَب الْإِنْسَانُ فِي النهارِ وينام ثم يَستريح؛ كوقت القائلةِ مثلًا، ولذلك لا يقول قائلٌ: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ذَكَرَ نعمتينِ فِي الليلِ ونعمةً وَاحِدةً فِي النهارِ، بل نقولُ: إن الله ذَكَرَ فِي الليلِ نعمةً، وهو كونه: ﴿لِبَاسًا﴾، وَفِي النهارِ نعمةً، وهو كونه: ﴿نُشُورًا﴾، وجعل فِي النومِ مطلقًا نعمة، وهو أَنَّهُ سُباتٌ، يَعْنِي قاطعًا للتعَبِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل النوم بكل أنواعِه قاطعٌ للتعَبِ؟

نقول: نعم النومُ الطبيعيُّ الَّذِي من خِلقةِ الْإِنْسَان، فأمَّا النومُ الَّذِي يحدُث بسَبَب المرضِ -لأنَّ الْإِنْسَانَ قدْ يمرضُ فيكثر معه النومُ- فالظاهرُ أَنَّهُ لا يَدْخُلُ

فِي الآيَةِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعض النَّاس لا يَرتاح إذا نامَ بعد الفجرِ؟

الجواب: الظاهر أَنَّهُ أمرٌ نِسبيٌّ، وبعض النَّاس يرتاح له كثيرًا، وأنا إذا لم أَنَمْ قبل أنْ آتيَ ما استطعتُ أنْ أعملَ، ولكنت أنام دائمًا، مثلَما جَرَّبناه فيما سبقَ، والنوم يتعب أكْثَر ما يتعب إذا كَانَ الْإِنْسَان مُمْتَلِئَ البَطْنِ، فإذا نامَ ممتلئَ البطنِ فيمكِن أنْ يَتْعَبَ، لكِن الكَلام عَلَى العمومِ من حيثُ هو.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل النوم فِي بعض الأوقاتِ مكروهٌ؟

شرعًا لا أدري إِلَّا أنْ نقولَ: يُكرَه النوم قبلَ صلاةِ العشاءِ؛ لسَبَبٍ شرعيٍّ، لا سَبَب جِسميّ، وأمَّا نوم العصرِ فهم يَقُولُونَ قول الشاعرِ[1]:

أَلَا إِنَّ نَوْمَاتِ الضُّحَى تُورِثُ الْفَتَى ... خَبَالًا وَنَوْمَاتُ الْعُصَيْرِ جُنُونُ

وهذا لَيْسَ بصحيحٍ، كثيرٌ مِنَ النَّاسِ ينامون بعد العصرِ باستمرارٍ، ولم يصابوا بجنونٍ، ولا قِيلَ: إنهم مجانين، وإذا أشغلَ عن ذِكْرٍ يمكن أن يَقضيَه الْإِنْسَان؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ أحيانًا لا يستطيع أن ينامَ فِي نصف النهارِ، وأيضًا لا يستطيع أنْ يبقَى إِلَى الليلِ، فلا بدَّ أنْ ينامَ بعدَ العصرِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: حديث: «قِيلُوا فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ»[2] هل هو صحيحٌ؟

ما أَظُنُّه حَديثًا، والظاهرُ أَنَّهُ حديث عامَّةٍ، والعوامُّ أَيْضًا يقولونَ: (أَقِلْ فإنَّ الشياطينَ لا تَقِل) فيحذفون الياء.

---

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري (٥/ ٢٩١).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي (١/ ٢٦١، رقم ١٥١).

الآيــة (٤٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨].

هَذِهِ الآيةُ فِيهَا عِدَّة قراءاتٍ: أولًا (الرياح) فِيهَا قراءتانِ سَبْعِيَّتانِ، والدليل أن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا قَالَ: وَفِي قراءة، فهي سَبْعِيَّة، وإذا قَالَ: وقُرِئَ فهي شاذَّة، ففيها قراءتانِ: (الرياح) و(الريح)[1]، وبهذا نَعْرِف أن ما اشتهر من قولهم: إن الريح لا تكونُ إِلَّا فِي العذابِ، والرياح تكون فِي الرَّحمةِ، لَيْسَ عَلَى إطلاقِهِ، وأنه قد يُؤتَى بالرِّيحِ مُفْرَدًا فِي ريحِ الرَّحمةِ، لَكِنَّهُ له قَرينة، فهنا لما قال: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ عَرَفْنَا أنها ريح رحمةٍ، وكَذَلِك قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ﴾ ماذا بعدَها ﴿طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢]، هَذِهِ ريح رَحْمة، لكنها وُصِفَتْ، فأمَّا عند الإطلاقِ فالغالبُ أن الريحَ للعذابِ.

وقوله: ﴿بُشْرًۢا﴾ فِيهِ عدة قراءات: أوَّلًا (نُشُرا) بضم النون والشين، ومعنى نُشُرًا يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُتَفَرِّقة]، يَعْنِي أنها تكون أحيانًا جنوبًا، وأحيانًا شمالًا، وأحيانًا غربًا، وأحيانًا شرقًا، وبهذا التفرُّقِ يَتَوَلَّد السَّحاب ثم المطر.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قراءةٍ بسكونِ الشينِ تخفيفًا: نُشْرًا]، وقوله (تخفيفًا)

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص٢٦٥).

يَعْنِي أنها لا يتغير بها المعنى، وإنما تُسَكَّنُ للتخفيفِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي أُخْرَى بِسُكُونِها وفتحِ النونِ مَصْدرًا]، (نَشْرًا) حينئذٍ يَتَغَيَّر المعنى. (نُشُرا) و(نُشْرا) معناهما وَاحِدٌ لا يختلف؛ لِأَنَّ التسكينَ للتخفيفِ، لكِن (نَشْرا) يَعْنِي يَنْشُرها نَشْرًا، هَذِهِ مختلِفةٌ، تكون مصدرًا.

ثم قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي أُخرى: بسكونها وضمِّ الموحَّدة بدل النونِ]، سكون الشين وضمّ الموحدة بدل النون، وَهِيَ (بُشْرًا)، والموحَّدة هي (الباء)، وهَذِهِ هي القراءة المشهورة، ومعنى (بُشْرًا) عَلَى هَذَا أي مبشِّرات، يَعْنِي هي تبشِّر وليستْ مصدرًا وأن الله يبشِّر بها، وإنما هي نفسها بُشْرًا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ومفرد الأُولى نَشُور؛ كرسول]، الأُولى «نُشُرًا» كرَسُول ورُسُل، ورسول ورُسْل، هَذَا مُفرد الأولى ما لم تكنْ مصدرًا، وَهِيَ «نَشْرًا»، فإن كَانَ مصدرًا فهي مفرد وليست جمعًا، والأخيرة «بُشْرًا» يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [والأخيرة مفردها بَشير]، صارت القراءات فِي هَذِهِ الكلمة أربعًا: «نُشُرًا» و«نُشْرا» و«نَشْرا» و«بُشْرا»[1] وهذا من إعجاز القُرْآن.

وفائدةُ اختلافِ القراءاتِ أنْ يُؤخَذَ من كلِّ قراءةٍ معنًى، وعلى هَذَا فتكونُ الرياحُ الآنَ جامعةً بَيْنَ كونِها بِشارةً وكونِها منشورةً متفرِّقة بَيْنَ يَدَيِ المَطَرِ.

وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ المراد بالرَّحمةِ هنا المطرُ، أو آثارُه، وهَذِهِ رحمةٌ مخلوقةٌ؛ لِأَنَّ الرَّحمةَ المضافةَ إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَنقسِم إِلَى قسمينِ؛ رحمة هي صِفَتُه، فهي غيرُ مخلوقةٍ، ورحمةٌ هي من آثارِ الصِّفةِ، فهي مخلوقةٌ، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للجنَّة:

---

(١) المصدر السابق (ص:٢٦٦).

«أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1] هَذِهِ مخلوقة، وقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، هَذِهِ الصِّفة الَّتِي ليست مخلوقة.

فإذَن الرَّحمةُ المضافةُ إِلَى اللهِ تَنقسِم إِلَى قِسمينِ؛ مخلوقة، وسُمِّيَتْ رحمةً لِأَنَّهَا من آثارِ الرَّحمةِ، وغير مخلوقةٍ، وَهِيَ صِفَتُه، والَّتِي معنا فِي قوله: ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾ هل هي المخلوقة أو غير المخلوقة؟ يَحتمِل أنَّ قولَه: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾ معناه إذا أرادَ أنْ يَرْحَمَ، فتكون من غير المخلوقةِ، ويَحْتَمِلُ ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾ بَيْنَ يَدَيِ المَطَرِ نفسِه، فتكون الرَّحمة هنا مخلوقةً؛ لأنَّ إطلاقَها عَلَى المَطَرِ يَقتَضِي ذلكَ، والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فَسَّرَها عَلَى أنها الرَّحمة المخلوقةُ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: [قُدَّامَ المَطَرِ].

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ من المعروفِ أنَّ الَّذِي يَكُونُ به المطرُ بإذنِ اللهِ هي الرِّياحُ الجَنُوبِيَّة، ولذلك يَقُولُونَ لنا: إنَّ الأوَّلينَ مِن آبائنا وأَجدادِنا إذَا هَبَّتِ الرِّيحُ الجنوبيَّة أَوْضَعُوا السواني وقالوا: الآن يأتي المطرُ، ولا حاجةَ لِأَنْ نَسْقِيَ الزرعَ، وكأنه شَيْءٌ مُعتادٌ عندَهم.

قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي مِنَ السحابِ؛ لِأَنَّ كلَّ ما عَلاكَ فَهُوَ سماءٌ، ولا شكَّ أن المطرَ إِنَّما يَنزِلُ مِنَ السحابِ، فيَكُون المراد بالسماءِ هنا العُلُوّ.

وقوله: ﴿مَآءً طَهُورًا﴾ يَعْنِي به المطر، و(الطَّهور) بفتح الطاء هو ما يُتَطَهَّرُ به، أو ما تَحْصُلُ به الطهارةُ، وأمَّا (الطُهور) بِضَمِّها فَهُوَ التطهُّر.

هنا يقولُ: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾، وقبلَها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾، ففيه من علمِ البَديع

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ [ق:٣٠]، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٦).

ما يُسَمَّى بالالتفاتِ، وفائدتُه -كما مرَّ كثيرًا- تنبيهُ المخاطَبِ؛ لأنَّ تَغَيُّرَ الأسلوبِ يُوجِب التنبُّهَ، وفيه أَيْضًا العنايةُ بما حَصَلَ الالتفات إليه؛ لِأَنَّهُ احتاجَ إِلَى أنْ يُنَبَّهَ بهذا الالتفاتِ إليه، ولَا شَكَّ أنَّ إنزالَ المطرِ هو المقصودُ من إرسالِ الرِّياح ولذلك جاء الالتفاتُ إليه بصورةِ المتكلِّم ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. وقوله تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كلمة (نا) للوَاحِد أو للجَماعَة؟ تصلح للوَاحِدِ المعظّم نفسه، وَهِيَ هُنَا كَذلكَ.

• • ❁ • •

الآيــة (٤٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّنُحْيِـَۧ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:٤٩].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِّنُحْيِـَۧ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ بالتخفيفِ، يَسْتَوِي فِيهِ المذكَّر والمؤنَّث، ذَكَّرَهُ باعتبارِ المكانِ، ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ أي الماء ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا﴾ إبِلًا وبقرًا وغنمًا، ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ جمع إنْسَانٍ، وأصلُه أَنَاسِين، فأُبْدِلَتِ النونُ ياءً وأُدغِمَتْ فِيهَا الياءُ، أو جمع إِنْسِيٍّ].

ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من فوائد هَذَا المطر فائدتينِ: أَوَّلًا: إحياء البَلْدَةِ المَيْتَة؛ لِأَنَّهُ قال: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾، ولم يقل: ميتة، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [بالتخفيف، يَستوي فِيهِ المذكَّرُ والمؤنَّثُ باعتبار المكانِ] كذا عندي، لكِن الصواب أن يقال: (أو ذَكَّرَه باعتبارِ المكان)؛ لِأَنَّهُ إذا استوى فِيهِ المذكَّر والمؤنَّث لا يَحتاج إلى أن نُعَلِّلَ أَنَّهُ ذُكر باعتبارِ المكانِ.

فنقول: الصواب أن يقالَ: «أو ذكَّره باعتبار المكان»، فكلمة (ميتًا) إذا كَانَ يستوي فِيها المذكَّر والمؤنَّث صار قولك ميتًا أو ميتةً عَلَى حدٍّ سواء، وَأَمَّا إذا قُلْنَا: إِنَّهُ للمذكَّر فحينئذٍ نحتاجُ إِلَى الجوابِ عن كونِه وُصِف بِهِ مؤنَّث (بلدة) فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إِنَّهُ ذكَّره باعتبار المكان].

قوله: ﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ﴾ (الباء) هنا للسَّبَبِيَّة، والمحيي هو اللهُ، ولكنَّ المطرَ سَبَبٌ.

وقوله: ﴿مَّيْتًا﴾ وَصْفُ البلدةِ هنا بالمَيْت هل المراد نفسُ الْأَرْضِ تكونُ ميتةً أو ما عليها؟

الجواب: ما عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ الْفَائِدَةَ مِنَ الْأَرْضِ هي ما عَلَيْهَا والَّذِي ترعاه الإبل والبقرُ والغنمُ هو ما عَلَى الْأَرْض، فإنها لا تأكل الترابَ والحَصَى، فإحياؤها باعتبارِ ما فِيهَا أَنَّهُ يَحْيَا وينمو ويكبر، فنفس الْأَرْض لا يدخلها الحياة والمَوْت، نفس الْأَرْض يَعْنِي الأحجار والطِّين لا يدخلها الحياة والمَوْت، إِنَّمَا تدخل الحياة والمَوْت ما فِيهَا، ولهذا قَالَ فِي آية أخرى: ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج:٥]، والاهتزاز والرُّبُوُّ إِنَّمَا يَكُون فيما عَلَيْهَا، أمَّا هِيَ فلا تَهْتَزُّ.

قوله: ﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ أنزلَهُ لِيُحْيِيَ بِهِ البلدةَ، فيَقتضِي هَذَا التعليلُ أَنَّهُ ما منْ قطرةٍ تَنزِلُ مِنَ السماءِ إِلَّا ويَحْصُلُ بِهَا حياة الْأَرْض، وإِلَّا لَفَسَدَتِ العِلَّة، ولكن يقالُ: هَذَا سَبَبٌ، والأَسْباب قد تَتَخَلَّف لوجودِ الموانِعِ، وقد لا تؤثر لوجودِ الموانعِ، فذنوب بني آدمَ من موانعِ إحياءِ الْأَرْضِ لو نزلَ المطرُ، ويَكُون هَذَا أشدَّ وأَنكَى وأبلَغَ فِي التذكُّرِ؛ إذا نزل المطرُ ولم تُنْبِتِ الْأَرْضُ، ولهذا جاء فِي الحديث: «لَيْسَتِ السَّنَةُ بِأَنْ لَا تُمْطَرُوا، وَلَكِنِ السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَتُمْطَرُوا، وَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شَيْئًا»[1]. وهذا هو الصحيحُ، أحيانًا تأتي أمطارٌ كثيرةٌ ولا تجد حياةً فِي الْأَرْض، وأحيانًا تأتي أمطار قليلة وتَحْيَا بِهَا الْأَرْضُ حياةً طيِّبةً، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أن هَذَا المطرَ سَبَبٌ لحياةِ الْأَرْضِ، ولكن الأَسْباب قد تَتَخَلَّف مُسَبَّبَاتُها لوجودِ الموانِعِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في سكنى المدينة وعمارتها قبل الساعة، رقم (٢٩٠٤).

قوله: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا﴾ هَذِهِ فائدةٌ أُخْرَى لِلْمَطَرِ؛ أَنَّهُ يُسقَى بِهِ الأَنْعامُ والنَّاسُ، لكِن كيف ذلكَ؟ هل هو بالغُدرانِ الَّتِي تَبْقَى عَلَى وجهِ الْأَرْضِ، أو أن هَذَا الماءَ يُخْزَنُ فِي الْأَرْض، أو بهما؟ بهما جميعًا؛ لأنَّ سَقْيَ المطرِ يَكُونُ عَلَى هذينِ الوجهينِ؛ إما غدران تكون فِي قِيعانٍ لا تشرب فيَنْتَفِع النَّاس بِهَا، وإمَّا أنَّ الْأَرْض تشربه ويُخْزَن فِيهَا؛ كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر:٢٢]، بل الَّذِي يَخْزُنُهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: ﴿أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ﴾ هنا قَالَ: ﴿أَنْعَٰمًا﴾، وما قَالَ: أَنْعامًا كثيرةً، والأناسِيُّ قال: ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ وَفِي هَذَا التعبيرِ إشكالانِ:

الإِشْكال الأَوَّلُ: لِماذا وصفَ الأناسيَّ بالكثيرِ ولم يَصِفِ الأَنْعامَ بالكثيرِ؟

الإِشْكال الثَّاني: أننا نعلمُ أن اللهَ تَعَالَى يَسقِي بهذا الماءِ كلَّ الأَنَاسِيّ، فكلُّ النَّاسِ يشربونَ منه، فلماذا قَالَ: ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾، يَعْنِي كأنه يُفهم أنَّ مِنَ الأناسيِّ من لا يُسقَى بماءِ المطرِ، فما هو الجواب عن الإِشْكال الأول: وصف الأناسيّ بالكثرةِ دونَ وَصف الأَنْعامِ؟

إِذَا قُلْنَا: إن ﴿كَثِيرًا﴾ صفة للأناسيّ والأَنْعام زالَ الإِشْكالُ، وقد يقال -واللهُ أَعْلَمُ-: إن بعض الأَنْعامِ لا يحتاجُ إِلَى الماء حَسَب ما نَسمَع، وبعضها لا يحتاج إِلَّا قليلًا جدًّا، فهناك أشياءُ كثيرةٌ يَعُدُّونها علينا يقولون: لا تَحتاج إِلَى ماءٍ، أو إذا شَرِبَتْ لا تشربُ إِلَّا قليلًا جِدًّا، تقريبًا مرة فِي السنة، فإذا صحَّ هَذَا فَهُوَ من الحِكْمَةِ، قد يَكُون هَذَا من الحِكْمَةِ بعدمِ وصفها بالكثرةِ.

لكِن يَبْقَى عندنا الإِشْكالُ الثَّاني فِي قوله: ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ مع أن جميع الأناسيّ يشربون؟ ممكن أن نقول: إن الله عَزَّوَجَلَّ يبيِّن أن الأناسيَّ كثيرون، ولا يلزم

من هَذَا أن بعضهم لا يذكر وأن تكون هَذِهِ الكثرة كثرة شاملة، مثلما تقول: الجُنْد كثيرون، أو عند الأمير جُنْدٌ كثيرٌ، كلمة (جُند كثير) تَشْمَل جميع الجنود وتصفهم بالكثرةِ، و(أناسيّ) أَيْضًا تَشمَل جَمِيع النَّاسِ وَتَصِفُهم بِالْكَثرةِ.

إذَنِ الإِشْكالُ الَّذِي يَتبادَرُ فِي الأَوَّل نتخلص منه بأن نجعلَ (كثيرًا) صفة للأمرينِ؛ أَنْعامًا كثيرًا وأناسيّ كثيرًا، وليس كقول الله تَعَالَى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء:١]؛ فإن ﴿كَثِيرًا﴾ لا تَصِحُّ أنْ تكونَ صفةً للأمرينِ لِأَنَّهَا مقدَّمة عَلَى النساء، أَمَّا هَـذِهِ فيمكن أن يقال بأنها وصف للمعطوف والمعطوف عليـه، وأمَّا ﴿كَثِيرًا﴾ فَإِنَّهُ لبيان الواقع وليس لإخراج البعض، ونَظيرُهُ فِي التمثيل -كما تَقَدَّمَ- أن تقولَ مثلًا: عندَ الأميرِ جُنْدٌ كثيرٌ، أو خرج إِلَى العدوِّ جيشٌ كثيرٌ، فَهُوَ وصفٌ له بالكثرةِ، يَعْنِي أناسي لَيْسُوا بالقليلينَ، فهَذَا هو المعنى: أَنْعامًا ليستْ قليلةً وأناسيّ لَيْسُوا قليلين، بل كثيرون، ويَكُون هَذَا بيانًا لِشُمُول انتفاعِ الخَلْقِ ناطقهم وبَهِيمهم بهذا الماء؛ أَنْعاما كثيرًا وأناسيّ كثيرًا.

الآن تَوَصَّلْنا إِلَى أنَّ الكثيرَ صِفَة للأَنْعامِ، والأناسيّ بالنسبةِ لكثرةِ الأَنْعامِ هل نقـول: كثرة الجِنْس والأنـواع، أو كثرة الأفراد، أو الجميع؟ نقول: الجميـع، وبالنسبة للأناسيّ كثرة الأفراد؛ لِأَنَّ الأناسيَّ جِنسٌ وَاحِدٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لماذا ذكر الأَنْعامَ قبلَ الأناسيّ؟

الجواب: الظاهرُ -واللهُ أَعْلَمُ- للكثرةِ؛ لِأَنَّهَا أَكْثَرُ أنواعًا وأفرادًا، والكَلام عَلَى إفادتها مِنَ المطرِ، فتقديمها لِأَنَّهَا أَكْثَرُ.

وقد يقالُ: إن إحيـاءَ الْأَرْضِ لمصلحةِ الْإِنْسَـانِ، وسقي الأَنْعـامِ لمصلحـةِ الْإِنْسَـانِ، وسقي الْإِنْسَانِ هَذِهِ لمصلحـة نفسِه، فقدّم ما يَكُون انتـفاعًا غير مباشرٍ

للإنْسَانِ، ثم أَخَّر الانتفاعَ المباشِرَ من باب الأبعدِ فِي المصالح، فالأبعد لِأَنَّ الأَنْعام من مصلحة الْإِنْسَانِ، والْأَرْض إحياؤها من مصلحة الْإِنْسَان، وإحياء الأَنْعام أشدّ مباشرةً والتصاقًا بالْإِنْسَانِ من إحياء الْأَرْضِ؛ لأنه كم من أراضٍ تُحْيَى بالمطرِ لا ينالها الْإِنْسَان ولا يَنتفِع بها، بخلافِ الأَنْعامِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: إثباتُ الأَسْبابِ؛ لقولِهِ: ﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانيةُ: إرسالُ الْمُبَشِّرات والمقدِّمات بَيْنَ يَدَيِ الأشياءِ؛ لقوَّة الرجاء؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثالثة: قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ فِي إرسالِ الرياحِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الرياحَ لوِ اجتمع الخَلْقُ كلُّهم بالتأكيدِ عَلَى أن يأتوا بوَاحِدةٍ منها ما استطاعوا إِلَى ذلك سبيلًا، مع أن هَذِهِ الرياح فِي بعض الأحيانِ تَقتلِع الأشجارَ وتدمِّر المنازلَ، هَذِهِ القوة العظيمة لو أتيتَ بمُوَلِّداتِ الدُّنْيا كلها لِتَخْلُقَ مثلَ هَذَا الهواء ما حَصَلَ هذا.

الْفَائِدَةُ الرابعة: حِكمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بكونِ المطرِ يَنزِل مِنَ السَّمَاءِ، لو كَانَ هَذَا المطرُ الَّذِي تَحيا بِهِ الْأَرْض يأتي جريًا عَلَى سطح الْأَرْض ما كَانَ فِيهِ هَذَا النفع؛ لِأَنَّهُ لا يصل إِلَى قِمَم الجبال إِلَّا بعدَ أنْ يُغْرِق ما تحتها، لكنَّه إذا نزل من فوق أتى عَلَى قِمَمِ الجبالِ وأتَى عَلَى ما هو أسفلُ منها، وهذا من حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ بذلك.

الْفَائِدَةُ الخامسة: أن الأَصْل فِي الماءِ الطهارةُ؛ لِقولِه: ﴿مَآءً طَهُورًا﴾ ونحن نعرف الآنَ حَسَبَ ما تَلَوْنَا أنَّ الماء الموجود فِي الْأَرْض كلّه منَ السَّمَاء ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر:٢٢]، فإذا كَانَ من السَّمَاء فإن الأَصْل فيما نبع من

الْأَرْض أو فيما نزل من السَّمَاء أنْ يَكُونَ طَهُورًا.

الْفَائِدَةُ السادسةُ والسابعةُ: إثبات الحِكمة فِي أفعالِ اللهِ؛ لِقولِه: ﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ﴾ وهَذِهِ اللام هي لام التعليل، وهذا دليل من مئاتِ الأدلَّة عَلَى إثباتِ الحِكمةِ، فيَكُون فِيهِ ردّ عَلَى طائفةٍ من طوائفِ المبتدِعَةِ، وهم الجَهْمِيَّة؛ لأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أن فعل الله لمجرَّد المشيئةِ، لَيْسَ لعِلَّة؛ فَإِنَّهُ لا يرجِّح شَيْئًا عَلَى شَيْءٍ لِحكمةٍ، إِنَّما لمجرَّدِ المشيئةِ، ولا يفعَل شَيْئًا إِلَّا لمجرد المشيئة. ولَا شَكَّ أنَّ هَذَا القَوْلَ مردودٌ بالأدلَّة النقليَّة والعقليَّة؛ لِأَنَّ مَن يفعل لحكمةٍ أكملُ ممَّن يفعل لغيرِ حكمةٍ، وَهُم يَرَوْنَ نفيَ الحِكْمَةِ، يَقُولُونَ: لأنَّ الحِكْمَةَ غَرَضٌ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنَزَّه عن الأبعاضِ والأعراضِ والأغراضِ، انظُرْ إِلَى حُسْن هَذَا التعبيرِ، فالَّذِي يَسمَع هَذَا التعبيرَ يقول: هَذَا مثل تعبير القُرْآن: منزَّه عن الأبعاض والأغراض والأعراض، يريدون بالأبعاضِ اليدَ والوجهَ والعينَ، وَمَا أَشْبَهَ ذلك، ويريدون بالأعراضِ الصِّفاتِ الفعليَّةَ: الأفعال الاختيارية؛ كالنزول والاستواء، وَمَا أَشْبَهَ ذلك، ويريدون بالأغراض الحِكْمَة؛ لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لو فعل لحكمةٍ لكان ناقصًا بدونها. وهذا من قلبِ الحقائقِ، فإذا فعل لحكمةٍ فَهُوَ دليل عَلَى كمالِه، وأنه لا يفعلُ شَيْئًا سَفَهًا لمجرَّد المشيئةِ.

الْفَائِدَةُ الثامنة: جوَاز ذِكْرِ بعضِ الفوائدِ؛ لأنَّ الاقتصارَ عَلَى البعضِ لا يُعَدُّ نَقْصًا؛ فهنا ذكر اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من فوائدِ المطرِ فائدتينِ فقطْ؛ إحياء الْأَرْضِ، وسَقْي الأَنْعام والأناسيّ، معَ أنَّ للمطرِ فوائدَ أُخرَى؛ كالتطهُّر بِهِ مثلًا، فالتطهر بِهِ لَيْسَ سقيًا وليس إحياءً للأرضِ، وغير ذلك أَيْضًا من الفوائدِ، لكنَّه لَمَّا كَانَ أشدّ ما يَكُون ضرورةً للمطر هو إحياء الْأَرْض بالنباتِ؛ ليأكلَ النَّاسُ والأَنْعامُ، وكَذَلِك السقيُ؛ فالطعام والشراب ضرورة مِن ضروريَّات الحياةِ بالنسبةِ للأَنْعامِ وبالنسبةِ للناسِ،

فاقتصرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى ذكر هاتينِ الفائدتينِ فقطْ؛ لأنهما هما الفائدتانِ الضروريَّتانِ الحاصلتانِ بنزولِ المطرِ: إحياء الْأَرْض للنباتِ، والأكلُ والسقيُ للشُّرب.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان:٥٠].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ أي الماءَ ﴿بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أصله (يَتَذَكَّروا) وأُدْغِمَتِ التاءُ فِي الذالِ. وَفِي قراءة «لِيذْكُروا» بسكونِ الذالِ وضمِّ الكافِ[1]، أي: نعمةَ اللهِ بِهِ، ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ جحودًا للنعمةِ حيث قالوا: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كذا].

قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ التصريف هنا معناه: صَرَفْتُ الشَّيْءَ يَعْنِي غيرته وصرفته عن وَجْهِهِ، يَعْنِي أنَّ الله تَعَالَى غَيَّرَ هَذَا المطرَ بالنسبةِ للناسِ ووَزَّعَه بينهم ما بَيْنَ مُقِلّ ومستكثِر، فمنهم مَن يكثر المطر عنده، ومنهم من يَقِلُّ، هَذَا بالنسبةِ للبَيْنِيَّة، كَذَلِك أَيْضًا صَرَّفه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بينهم بالنسبةِ لكلِّ أحدٍ، أحيانًا يَكُونُ المطرُ كثيرًا فِي عامٍ وقليلًا فِي عامٍ.

وقوله: ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ المُفَسِّر جعل التذكُّرَ هنا تذكُّر النِّعمةِ فقطْ، ولكن الأصحّ أَنَّهُ أعمّ، ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي نعمة الله فيما إذا نزل عليهم، و﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ يتَّعِظُوا ويذكروا ما هم عليـه من المعاصي والآثام فيما إذا لم ينزِلْ، وكَذَلِك أَيْضًا «لِيذْكُروا» بذلك

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢١٨).

قدرة الله، حيث صُرِّف فِي محل دون محلٍّ، فالمهم أن تصريف هَذَا المطر فِي محل دون محل أو فِي سنة دون سنة هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ سَبَب لتذكُّر الْإِنْسَان، إمَّا تذكّر النعمة إذا كَانَ ناسيًا، وإما تذكّر النقمةِ ومعاصيه إذا كَانَ ممتنعًا، وإمَّا تذكر القُدرةِ حينما يَعرِف أَنَّهُ فِي مكانٍ يَكُونُ غزيرًا وَفِي مكان يَكُون قليلًا.

وقوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ يَعْنِي امتنعَ أَكْثَرُ النَّاسِ عنِ التذكُّرِ ولم يَزِدْهُمْ إِلَّا كُفرًا.

وقوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ أي أَكْثَرُ النَّاسِ أَبى، والأقلّ شَكَرَ وتَذكَّر واتَّعَظَ، ولكن أَكْثَر النَّاس أبى إِلَّا أنْ يَكْفُرَ، والكُفْرُ ذَكَر الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ منه مثالًا وَاحِدًا، وهو قولُه: [مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا]، ويُستدَلّ لِمَا مَثَّلَ بِهِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقولِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فِي حديث زَيْدِ بنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ حينَ صلَّى بهم عَلَى إثرِ سماءٍ كانتْ مِنَ اللَّيْلِ فِي الحُدَيْبِيَةِ فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»[1]، فَهَذَا كُفْرٌ، وكيف يَكُونُ كُفرًا؟ لِأَنَّهُ أضافَ المطرَ إِلَى أمرٍ لَيْسَ بسَبَبٍ، وجعل هَذَا من فضلِ هَذَا النَّوْءِ، وليس من فضلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو حرامٌ وكُفْرٌ كما جاء بِهِ الحديثُ.

أمَّا لو قَالَ الْإِنْسَان: (مُطِرنا فِي نَوْء كذا)؛ فيجوز لِأَنَّهَا للظرفية، وَأَمَّا (بنوء) فلا يجوز؛ لِأَنَّهَا للسَبَبيَّة، لكِن عند العامَّة -عامتنا هنا فِي نَجْدٍ- يجعلون (الباء)

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم (٤١٤٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء، رقم (٧١).

بمعنى (في)، يَقُولُونَ: مُطِرْنا بالشبط، مُطِرْنا بالمربعانية، وَمَا أَشْبَهَ ذلك، فهذا لَيْسَ بِكُفْرٍ، نقول: إن (الباء) تأتي للظرفيَّة كثيرًا، وهم يريدون بِهَا الظرفيَّة، فلا بأسَ به، حَسَب النيَّة.

ومِنَ الكُفْرِ بِهَذَا المطرِ مِمَّا لم يَذْكُرِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنْ يُجْعَلَ ذلك سَبَبًا للأَشَر والبَطَر، مثلما يَحْصُل من بعضِ النَّاسِ إذا نزلتِ الأمطارُ وكَثُرَتِ الأبيارُ؛ صارتْ سَبَبًا لِأَشَرِهِ وبَطَرِه وفُسُوقه، فهَذَا من أسبابِه، ومِن أسبابِ الكفرِ أَيْضًا أَنَّهُ إذا امتنعَ المطرُ صار امتناعُه سَبَبًا لِقُنُوطِ الْإِنْسَانِ من رحمةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والقُنُوط من رحمةِ اللهِ من كبائرِ الذنوبِ، وَلَيْسَ بالأمرِ الهيِّن، فلا يجوزُ للإنْسَانِ أنْ يَقْنُطَ من رحمةِ اللهِ، ولا أنْ يأمَن مَكْرَ اللهِ، لا هَذَا ولا هذا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ فِي هَذَا دليلٌ عَلَى أن النَّاس يَنقسِمون إِلَى قسمينِ: كافر ومؤمِن، وهو كَذَلِك، لكِن لَيْسَ فِي هَذِهِ النعمةِ فقطْ، بل بجميعِ النِّعَم، فمِن النَّاسِ مَن يُؤمِن بِهَا، ومن النَّاس مَن يَكْفُر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبهَذِهِ النِّعَمِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: كَمَالُ القُدرة؛ لِقولِه: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانيةُ: ثُبُوتُ الحِكمة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ فـ(اللام) للتعليلِ.

الْفَائِدَةُ الثالثةُ: بُلُوغ الغايةِ فِي الكُفْرِ من بعضِ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ إذا كَانَ الله تَعَالَى يُرِيهم آيةً لِيَتَذَكَّروا بِهَا، فلا يزدادون إِلَّا كُفُورا، فهذا -والعياذُ باللهِ- فِي غايةِ ما يَكُونُ مِنَ الكفرِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إذا لم تَحْصُلْ له الآياتُ فقد يُعْذَرُ بِكُفْرِهِ، لكِن إذا حَصَلَتِ الآياتُ ولم يَنْتَفِعْ صارَ أشدَّ.

الْفَائِدَةُ الرابعةُ: استعمال المؤكِّدات فيما يَنبغي تأكيدُه، نأخذه من القَسَم في قولِه: ﴿وَلَقَدْ﴾؛ لِأَنَّ مثل هَذَا التعبيرِ كما مرَّ كثيرًا يُعتبَر مؤكَّدًا بثلاثةِ مؤكِّدات؛ بـ(اللام) و(قد) والقسم، واللهُ أَعْلَمُ.

الْفَائِدَةُ الخامسة: إبطالُ مَذهَب الجَبْرِيَّة؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ فجعل هَذَا باختيارِهِم، أَبَوْا إِلَّا أنْ يَكْفُروا بذلك، وهذا الكفر عامٌّ، يَشمَل كلَّ ما يُتَصَوَّر من أنواعِ الكفرِ، حَتَّى الكفر الأصغرُ، وذلك سَبَب فِي الأَشَر والبَطَر؛ حيثُ يَمْرَحُ النَّاسُ مثلًا ويَفْسُقُون ولا يُؤَدُّون ما أوجبَ اللهُ عليهم من صلاةِ الجَماعَةِ وغيرِ ذلكَ، فهذا مِن هَذَا النوعِ.

• • ۞ • •

الآيتان (٥١، ٥٢)

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان:٥١-٥٢].

الآيــة (٥٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٥٣].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ إنِ احْتَمَلَتِ الآيةُ أن يَكُونَ هناكَ شَيْءٌ فاصلٌ لا نَعرِفه نحن؛ لأنَّ الفصلَ هنا بَيْنَ المِلْحِ والحُلْو بذاتِها، يَعْنِي لَيْسَ أمرًا يَحْجُزُ هَذَا عن هَذَا، إنَّما الفاصل فِي نفسِ الحلاوةِ ونفس المرّ، فليسَ بينَهما شَيْءٌ، إنَّما طبيعةُ هَذَا وطبيعةُ هَذَا تَقتِضي أنْ يَنْفَصِل بعضُهما عن بعضٍ، فإذا كَانَ القُرْآنُ استنبطَ هَذَا فهذا لَا شَكَّ أنَّهُ من أعظمِ الآياتِ أنْ يَكُونَ مثلًا نهر يَمشِي مسافةً طويلةً فِي وسطِ الماءِ المالحِ ولا يَختلِط به.

أنا أقول: إنَّ السَبَبَ كثرةُ هَذَا وكثرةُ هَذَا، أو مُلُوحة هَذَا وحلاوة هَذَا، لَكِن كَلِمَة ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ تدل عَلَى أن الفاصلَ في الحَقِيقَة هي أن حقيقة هَذَا لا تَتَلاءَم معَ حَقِيقَةِ هَذَا، ويَكُون البَرْزَخُ شيئًا ثالثًا بينَهما، فالبَيْنِيَّة تَقْتَضِي طَرَفَيْنِ وشيئًا بينَهُما.

على كلِّ حالٍ نقولُ: إذا كَانَ القُرْآنُ يَحتمِل هَذَا المعنَى -واللهُ أَعْلَمُ- لكِن ليسَ لنَا أنْ نَتَعَدَّى اللفظَ، فِي الحقيقةِ كلمةُ البَيْنِيَّة تَقتضِي أنها ثلاثةُ أطرافٍ؛ اثنان ووسط بينَهما، فإذا كَانَ القُرْآنُ يَحتمِل أنْ نجعلَ بينَهما بمعنى: فِي حَقِيقَتَيْهِما وتَكْوِينِهما؛ لأننا فَهِمنا أن سَبَبَ عَدَمِ البَغْيِ لَيْسَ شَيْئًا فاصلًا بينَهما، إنَّما حقيقة تكوين هَذَا وهذا،

فقِطعة الثلجِ لا تَستطيعُ أنْ تقولَ: بينها وبَيْنَ الماءِ بَرْزَخٌ، وحقيقةً لَيْسَ بينَهما شَيْءٌ.

فَلَوْ قِيلَ: هَذَا من آياتِ اللهِ؟

نقول: نحنُ لا نقولُ: هَذَا لَيْسَ من آياتِ اللهِ، لكِن الكَلام عَلَى دَلالةِ القُرْآنِ عَلَى هَذَا، فهل لنا أنْ نَتَجَاوَزَ البَيْنِـيَّة: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرَّحمن:٢٠]، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، هل لنا أن نتجاوز هَذَا ونقول: إن البينيَّة هنا كِنايةٌ عن أن حقيقة هَذَا لا تندمِج بهذا؟

من العلماء مَن قَالَ: دخول الأنهارِ فِي البحارِ، لكِن يُشْكِل عليه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَيْنَهُمَا﴾، ولهذا ضَعَّفنا هَذَا القَوْلَ، وقُلْنا: هَذَا لا يمكِن. وَفِي الحقيقةِ الَّذِي ينظُر إِلَى كلِمة ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ هي مانع، أَمَّا كَوْنُها لا يَختلِطانِ فهذا واضِحٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله: ﴿بَرْزَخٌ﴾ بَرْزَخ هل هو حاجِزٌ حِسِّيٌّ أو مجرَّد قولِه: حاجز يَعْنِي مانعًا، فالمانِعُ قد يَكُونُ مِنَ الشَيْءِ نفسِه، وقد يَكُون من غيرِه؟

فأنت إذا قُلْتَ: بينَك وبينَ صاحِبِكَ حَجَرٌ، أي مكان، فالبحرُ أَيْضًا ماءٌ، فكيف يَكُون بينهما حيز، وَأَمَّا قولُك: بينَه وبينَ فلانٍ مِنَ العِلْمِ، فصحيحٌ؛ لأنَّ العلمَ أصلًا معنًى، لكِن الماء والماء جِسم يَشغَلَانِ حَيِّزًا.

على كلِّ حالٍ، أنا لا أستـطيعُ أنْ أَجْزِمَ الآنَ، نحنُ نُفَسِّرُ كَلامَ اللهِ، فإذا كَانَ القُرْآنُ يَحتـمِل هَذَا المعنَى الَّذِي تَقَدَّمَ فهذا لَا شَكَّ أَنَّهُ مِن إعجازِ القُرْآنِ؛ إذا كَانَ كَلِمَة ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ تَمْنَع هَذَا الاحْتِمَالَ، ونقول: إن البَرْزَخِيَّة هنـا فِي الحقيقةِ تَقتضِي شيئًا ثالثًا غيرَ البحرينِ، نحن نقولُ: الحمدُ لله هَذَا الَّذِي اطَّلَعْنَا عليه بالعلمِ يَكُونُ من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإنْ كَانَ القُرْآنُ لا يَدُلُّ عليه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَا يُمْكِن أنْ نقولَ: إنَّ البرزخَ جُزْءٌ ضَئيلٌ مِن هَذَا وهذا انْدَمَجَا فكانَ كالحاجِزِ؟

نقول: إذا ثبتَ هَذَا فيُمكِن أنْ نقولَ: النسبة مثلًا الَّتِي بينهما لا تكون حُلوًا خالصًا ولا مِلحًا خالصًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل كلمة بَرْزَخ تُقاسُ بالنسبةِ لِلْبَرْزَخِ المعروفِ فِي الدُّنيا والآخِرَةِ؟

نقول: يُمْكِنُ، واللهُ أعلمُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أحيانًا عَلَى ضَوْءِ مُكْتَشَف عِلْمِيّ لا بأسَ من إعطاءِ مَعْنًى معيَّن؛ لِأَنَّهُ أحيانًا فِي غِيَابِ هَذَا الواقِعِ العلميِّ قد يُشْكِل معنى آيةٍ، وأَذْكُرُ أنا تفسيرَ آيةٍ فِي سورةِ النـورِ: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ [النور:٤٠]، فأكْثَر المفسِّرينَ قالوا: بما أنَّه لا يُوجَدُ مَوْجَانِ فوقَ بَعْضِهما، فالفوقُ هنا يُحْمَلُ عَلَى معنى ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾، وهذا تأويلٌ لا تَحْتَمِلُه كثيرًا اللغةُ العربيَّةُ.

وقد قرأتُ بحثًا مِن مُدَّةٍ حوالي خمس سَنَوَاتٍ لِعَالِمٍ فِي أَمْرِيكا، أَصْلُه مِصْرِيٌّ وأخذ جِنْسِيَّة أمريكيَّة، مشهور فِي أبحاثِ الفضاءِ، نـزل فِي غَوَّاصَةٍ مِنْ أجْلِ اكتشافِ أعماقِ المحيطاتِ، فَقَالَ: إن الرأيَ الغالبَ كَانَ عندَ العلماءِ قبلَ هَذِهِ التَّجْرِبَةِ أنَّ باطنَ المحيطاتِ والبحارِ ساكنٌ تمامًا، قَالَ: وإذا بِنَا نُفَاجَأ أنَّ فِي قاعِ المحيـطاتِ أمواجًا، والأمواج الَّتِي عَلَى السَّطْحِ لا تُـذْكَرُ أمامَ تِلك الأمواج مِـن شِدَّتِها وعَظَمَتِها، فالآن كلمة ﴿فَوْقِهِۦ﴾ لم يَعُدْ هناك مُبَرِّر لتأويلِها، وإنما (فوق) أي هناك موجٌ فِي الأسفلِ يَعْلوه مَوْج فِي الأعلَى، فوجود الظاهرةِ الكونيَّة العلميَّة يُساعِد عَلَى تَوْجِيهِ المعنى فِي اتجاهٍ معيَّن بدونِ تَعَسُّفٍ فِي المعنى، فحَتَّى الأمواج الظاهريَّة الَّتِي عَلَى سطحِ البحرِ يَكُونُ الموجُ قليلَ الارتفاعِ ثم يأتي موجٌ أكبرُ منه.

عَلَى كلِّ حالٍ الآيةُ تَحتمِل ثلاثةَ معانٍ:

- المعنَى الَّذِي ذَكَرَهُ كثيرٌ من المفسِّرين.

- والمعنى الَّذِي ذَكَرْنَاهُ.

- والمعنى الثالثُ: أَيْضًا رجلٌ عِراقيٌّ فِي كتابٍ اسْمُه: (حقائق جُغْرَافِيَّة)، ذكر هَذَا المعنَى الَّذِي أشرنا إليه. والمعنى الثالث إذا كانت الآيةُ تَحْتَمِله، وَهِيَ هَذِهِ الأنهارُ الَّتِي تكون فِي وسطِ المحيطاتِ، وسَمِعنا النقاش الآن فِي كلمةِ: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ وما تَحْتَمِلُه، وإذا كانت هناك طَبَقَة عند اختلاطِهما تكون بَيْنَ الحُلْو وبينَ المَالِح أمكنَ أنْ يقالَ: هَذَا بَرْزَخٌ، عَلَى ثِقَلٍ؛ لِأَنَّ ظاهِرَه أنَّ البَرْزَخَ هو المانِعُ، فيُمْكِن أنْ يقالَ: هو مانِعٌ منْ أنْ يَخْتَلِطَا لأجلِ المقاربةِ.

على كلِّ حالٍ هَذِهِ البَيْنِيَّة في كَلِمَةِ ﴿بَيْنَهُمَا﴾ تَقْتَضِي أن هناك شيئًا ثالثًا، لا من هَذَا ولا من هذا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: البحَّارة يجدون عُيُونًا فِي البحرِ حُلوةً، ما صِحَّة هذا؟

نقول: سمِعنا هذا، أن العينَ تَخْرُجُ من قاعِ البحرِ، لَكِنْ تَختلِط بعد ذلك، وهم يأخذون من نفس العين، لكِن هَذَا الَّذِي ذَكَرُوه أنَّ أنهارًا فِي وَسَطِ الماءِ هَذَا غريبٌ.

الآن -الحمدُ لله- صارَ فِي الآية ثلاثةُ معانٍ، ويبقى المعنى الثالثُ مُحْتَمَلًا من جهةِ البينيَّة، وإذا صحَّ نقول: إِنَّهُ عند مُلَاقَاتِهِمَا لا بدَّ أنْ يَكُونَ بينَهما برزخٌ، لَيْسَ حُلْوًا ولا مالحًا، واللهُ أَعْلَمُ.

والحقيقة أن كونه لا يَخْتَلِطُ عندَ المَصَبِّ هَذَا لَيْسَ بواضِحٍ، أنا لَيْسَ عندي شكٌّ فِي المعنَى الَّذِي أشرتُ إليه سابقًا أن هَذَا من آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهذا الحاجز طبيعيٌّ،

ولو قربا من بعضهما فلا يفسد المعنى، هَذَا لَيْسَ عندي فِيهِ شكٌّ، لكِن الَّذِي عندنا فِيهِ شكٌّ قد يوجد احْتِمَال أن هَذَا الفاصلَ الَّذِي ذَكَرْناه يَصِحُّ أنْ نَجْعَلَه بَرْزَخًا؛ لِأَنَّهُ فِي الحقيقة لَيْسَ منَ المالحِ وليسَ من العَذْبِ.

على كلِّ حالٍ الآيةُ فِيهَا احْتِمَالٌ، ويمكن أنْ نقولَ أَيْضًا: إن الفاصلَ هَذَا الَّذِي يَكُونُ لَيْسَ بِحُلْوٍ ولا مُرٍّ، إنه: حِجْرًا مَحْجُورًا، واللهُ أَعْلَمُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله تَعَالَى: ﴿بَرْزَخًا﴾ ثم قال: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أليسَ معناهما وَاحِدًا؟

فالجوابُ: لَا، الْفَائِدَة التقويَة، حَتَّى قوله: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ فِيهِ فائدة، والمعنى أَنَّهُ مُحْكَمٌ حَجَرُه.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان:٥٤].

من كمالِ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ خَلَقَ من الماءِ بَشَرًا وقسمه إِلَى قسمينِ، هما: النَّسَب، والصِّهر أي الزوجية، وقُلْنا: إن هَذِهِ أسباب الصِّلَة بَيْنَ النَّاسِ؛ إمَّا صلة بالوِلادة؛ النَّسَب، أو بالنِّكاح وهو المصاهَرَة.

وقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قادرًا عَلَى ما يشاءُ]، نحن نناقش المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي تفسيرِ قَدِير بقادِر، وَفِي تقييد المطلَقِ بما يشاءُ:

أوَّلًا: أمَّا تفسيرُ قَدِيرٍ بقادِرٍ فهذا يُعْتَبَرُ نقصًا فِي التفسيرِ؛ وذلك لأنَّ ﴿قَدِيرًا﴾ إمَّا أنْ تكونَ صفةً مُشَبَّهَةً، وإمَّا أنْ تكونَ صيغةَ مبالَغَةٍ، أمَّا قادِر فهي اسْمُ فاعلٍ مجَرَّد، لا تدلّ عَلَى ما تدل عليه الصِّفةُ المشبَّهة، ولا عَلَى ما تدلُّ عليه صيغة المبالغةِ، فهذا نوعٌ مِنَ القُصُور فِي تفسيرِ القُرْآنِ.

ثانيًا: إنَّ القُرْآن مطلَقٌ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾، وهنا قيَّده بقوله: [على ما يشاء] وكلمة (على ما يشاء) نحن نعرِف أن من النَّاسِ من يَكُون هَذَا القيد عنده دالًّا عَلَى بدعةٍ ارتكبها؛ لِأَنَّ القَدَرِيَّة يَقُولُونَ: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَقدِر إِلَّا عَلَى ما يشاء، وإنَّه لا يشاء أفعالَ العبادِ، وعلى هَذَا فلا يَكُونُ قادرًا عليها، ولَا شَكَّ أنَّ هَذَا قولٌ تُبْطِلُه

النصوصُ والعقلُ، فالله هو الَّذِي يَهْدِي ويُضِلّ، وما معنى الهِدايَة والإضلال إلَّا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يفعل ما يشاءُ حَتَّى فيما يَتَعَلَّق بأفعالِ العبدِ، لهذا نرى أن تقييدَ القُدْرَةِ بالمشيئةِ لا يَنبغِي ولا يَلِيقُ للوجوهِ الآتيةِ:

أولًا: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أطلقَ هَذَا الوصفَ لنفسِهِ بدونِ قَيْدٍ، ولا يَنْبَغِي لنا أنْ نُقَيِّدَ ما أَطْلَقَهُ اللهُ؛ لأنَّ صِفَاتِ اللهِ تَوْقِيفِيَّة يُتوقف فِيهَا عَلَى ما وَرَدَ.

ثانيًا: أَنَّهُ خِلاف طَرِيقةِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأصحابِهِ، بل طَرِيقة الرُّسُلِ كلِّهم؛ لأَنَّهُمْ يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم:٨]، لا يَقُولُونَ: إنَّكَ عَلَى ما تَشاءُ قَدِير، بل يَقُولُونَ: إنك عَلَى كلِّ شَيْءٍ قديرٌ.

ثالثًا: أَنَّهُ يُوهِم أن القُدرةَ تَتَعَلَّقُ بما يشاءُ فقطْ، وعلى هَذَا فيَكُونُ ما لا يشاؤه لَيْسَ بمقدورٍ عليه، وهذا معنًى باطلٌ، فَهُوَ قادرٌ عَلَى ما يشاءُ وعلى ما لا يشاءُ، لَكِنَّ ما شاء كَانَ وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ، فَهُوَ قادرٌ عَلَى الأمرينِ جميعًا، لَيْسَ عَلَى ما يشاءُ فقطْ.

مِنْ أجْلِ هَذِهِ الوجوهِ الثَّلاثَةِ نَرى أنَّ التعبيرَ بِهَا لا يَنْبَغِي، وأنه مِمَّا يُرْشَدُ إليه العبدُ ويقالُ لهُ: لا تَقُلْ هكذا، لا تقيِّد ما أَطْلَقَهُ اللهُ لنفسِهِ، عَلَى أساسِ أنَّ الَّذِي يَقُولُه لا يريدُ هَذَا المعنى، نقولُ: يُرْشَدُ ويقالُ: هَذَا لا يَنبغِي.

وَإِذَا قِيلَ: ما الجمعُ، أو ما هو الجوابُ عن قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩]، فهنا قال: ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾، ونحن نَمنَع تعليقَ القُدْرَةِ بالمشيئةِ؟

فالجواب: أنَّ تقييدَ المشيئةِ بالجمعِ؛ لِأَنَّ الجمعَ فعلٌ، وهذا الفعل يُنْكِرُه الكفَّار المكذِّبونَ بالبعثِ، فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: إنَّ المانعَ مِن ذلكَ لَيْسَ العَجْز،

ولَكِنَّه عَدَمُ المشيئةِ، فإذا شاء أنْ يَجْمَعَهُم جَمَعَهم، خِلافًا لِمَن يُنكِرون ذلكَ، لِمَن يَقُولُونَ: إِنَّهُ لا يُمْكِنُ أنْ يَجْمَعَهُمْ، فيَكُون التقييد هنا بالفعلِ، أي أن تقييدَ المشيئةِ عائدٌ عَلَى الفعلِ، لا عَلَى القُدرة، فَهُوَ قادر عَلَى جَمْعِهِم كلَّ وقتٍ، لَكِنَّه لَمَّا كَانَ عَزَّوَجَلَّ لا يريد أنْ يَجْمَعَهُمْ إِلَّا فِي وقتٍ معيَّن ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ مؤقَّت ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود:١٠٤]، كل الدُّنْيا أَجَل مَعْدُود، ناهيك عن قِصَرِها مهما طالتْ.

فنقول: إن هَذَا عائدٌ عَلَى الجمعِ، وهو فِعْل، فكأنَّ اللهَ يقولُ: إِنَّهُ إذا أرادَ هَذَا الفعلَ فَهُوَ قادرٌ عليه، فعلى هَذَا لا يرد ما ذُكِرَ فِي سابقا ولا ما جاءَ فِي الآيةِ الكَريمةِ مِنْ تَقييدٍ بالمشيئةِ؛ لأنَّ هَذَا التقييدَ عائدٌ عَلَى الفِعلِ، وَلَمْ يُرَد بِهِ الصِّفةُ المطلقةُ: صفةُ القُدرة، وهو ظاهر جِدًّا بالنسبة للحديثِ؛ لِأَنَّهُ قال: «عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[1].

إذَن نَرْجِع إِلَى كَلامِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فنقول: كَلام المُفَسِّر فِيهِ نظرٌ من وجهينِ: الوجهُ الأوَّلُ: تفسير القديرِ بالقادرِ، والثَّاني: تَقْيِيد ذَلِكَ بالمشيئةِ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجا، رقم (١٨٧).

الآيــة (٥٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان:٥٥].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ أي الكفَّار ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ بِعِبَادَتِهِ ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ بِتَرْكِها، وهو الأصنامُ]، والمراد بالجُملة هنا التوبيخُ واللَّوْمُ وإقامة الحُجَّة عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعبُدون من دونِ اللهِ مَنْ هَذَا وَصْفُه؛ ما لا يَنْفَعُهُمْ إذا عَبَدُوه، ولا يَضُرُّهم إذا عَصَوْه، وقد قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي سورة الأَحْقَافِ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥]، يَعْنِي لو ظلَّ يدعو هَذَا الصنمَ إِلَى يومِ القيامةِ ما استجابَ له، هل أحدٌ أضلّ من هذا؟ لا يوجد أحدٌ أضلّ من هَذَا أبدًا، إنْسَان يحاوِل أن يَنْفَعَهُ الصنمُ أو يَضُرّه، ويبقى يدعوه إِلَى يومِ القيامةِ وما استجاب له، فهَذَا من أبلغ ما يَكُونُ فِي الضلالِ.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾ فِيهَا إظهارٌ فِي مَقامِ الإضمارِ، قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ السياق يَقتضي أن يقول: وكانوا عَلَى ربِّهم، لكِن قال: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾ إشارة إِلَى أن هَذِهِ العِبَادَة أَوْصَلَتْهُمْ إِلَى الكفرِ، وأيضًا لفائدةِ التعميمِ، يَعْنِي أنَّ كل كافرٍ، حَتَّى ولو كَانَ بغيرِ العِبَادَةِ، يَعْنِي بغيرِ الشركِ، حَتَّى الْإِنْسَان الدَّهْرِيّ الَّذِي لا يعبدُ شيئًا أبدًا، فَهُوَ ظَهيرٌ عَلَى ربِّه.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ مُعِينًا للشيطانِ بطاعتِه]، أي بطاعةِ الشيطانِ، فالكافرُ عَلَى ربِّه ظَهير: مُعِين عَلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا لله، ومُعينٌ عليه لا له يَعْنِي حربًا عَلَى اللهِ، فالكافرُ كلَّما وجدَ عدوًّا لله أعانَهُ عَلَى ربِّه، وهذا كما أَنَّهُ مِثْلما قَالَ الْمُفَسِّر: إِنَّهُ يُعين الشيطانَ عَلَى معصيةِ اللهِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَعصي اللهَ مُعين للشيطانِ فِي تَمَرُّدِهِ عَلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هو أَيْضًا يَشمَل مَنِ اتَّصفَ بِهَذَا الوصفِ من غيرِ الكفَّارِ، فكلُّ مَن أعان عَلَى باطلٍ فَإِنَّهُ مُعينٌ عَلَى اللهِ، كلُّ إِنْسَانٍ يُعين أحدًا فِي باطلٍ فَإِنَّهُ ظَهير عَلَى ربِّه؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى هو الحقُّ، وهو يريد الحقَّ، فإذا أعنتَ صاحبَ باطلٍ عَلَى صاحبِ الحقِّ فإنك مُعينٌ عَلَى اللهِ؛ لِأَنَّ معنى الظَّهير: الْمُعِين، كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، يَعْنِي مُعِينًا، فالكافرُ دائمًا يُعينُ عَلَى اللهِ، وكلُّ مَن أعانَ فِي باطلٍ عَلَى حقٍّ فَإِنَّهُ مُعِينٌ عَلَى اللهِ، يَعْنِي معينًا للباطلِ عَلَى الحقِّ؛ لأنَّ اللهَ هو الحقُّ، وهو يحبُّ الحقَّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كل عاصٍ حالَ مَعْصِيَتِهِ فَهُوَ مُعِينٌ عَلَى اللهِ بِمَعْصِيَتِه، فلماذا خصَّه فِي الآيةِ بالكافرِ؟

صحيحٌ، لَكِنَّه قَالَ هنا: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾ لِأَنَّهُ يتحدث عمَّن يعبدون معَ اللهِ.

مناسبةُ الجملةِ هَذِهِ للتي قبلها ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ يَعْنِي كأنه جَعَلَ هَذَا الصنمَ نِدًّا لله يَعْبُدُه كما يعبد الله، ومعلومٌ أنَّ الصنمَ ضِدّ ما جاءتْ بِهِ الرُّسُلُ، فيَكُون نُصْرَة هَذَا الصنمِ عونًا عَلَى اللهِ.

الآيــة (٥٦)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الفرقان:٥٦].

لَمَّا عاب عَلَى هَؤُلَاءِ ما يَتَعَلَّق بتحقيقِ التَّوحِيدِ، وَهُو عبادةُ غيرِ اللهِ، انتقلَ بعد ذلكَ إِلَى تحقيقِ الرِّسَالةِ؛ لِأَنَّ الإسلامَ شهادةُ أنْ لا إلهَ إِلَّا اللهُ، وأن مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ، فتحقيقُ العِبَادَةِ أتى بلومِهِم عَلَى عبادةِ غيرِ اللهِ، ثم جاء تحقيقُ الرِّسَالةِ؛ قالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا﴾ بالجنَّة ﴿وَنَذِيرٗا﴾ مخوِّفًا مِنَ النارِ].

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا﴾ (إِلَّا) للاستثناءِ لِأَعَمّ الأحوالِ، يَعْنِي ما حالُك فِي الرِّسَالة إِلَّا هذينِ الأمرينِ، وهما البِشارة والإنذار، والبشارة للمؤمنينَ بالجنةِ، والدليل عَلَى هَذَا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب:٤٧]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي سورة الكَهْفِ: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ﴾ [الكهف:٢-٥]، وقد سبقَ أنَّ النذيرَ بمعنى المخبِرِ بما يُخَوِّف، إذَن وصفُ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالنسبةِ لِمَا يتعلق بالرِّسَالةِ هذانِ الأمرانِ فقطْ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: أليسَ الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ معلِّمًا يُعَلِّمُ النَّاسَ الأحكامَ، كيف يَكُون هَذَا الاستثناء من أعمِّ الأحوالِ؛ لأننا قُلْنَا: إن هَذَا مُسْتَثْنًى من أعمِّ الأحوالِ،

يَعْنِي ما حالـه إِلَّا هَذَا، هل نقـولُ: إنَّ هَذَا التعليمَ من وسـائلِ الإنذارِ والبِشارةِ، أو نقولُ: إنَّ هَذَا الحَصْرَ إضافيٌّ؟

نقول: كَلامُ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أحيانًا يُخْبِر النَّاس ويُعَلِّمُهم بدونِ أنْ يَحُثَّهُمْ، أو يُرَغِّبُهم أو يُخَوِّفهم كما هو معروفٌ، وأحيانًا يخوِّف ويُنْذِر عَلَى سبيلِ العمومِ، وأحيانًا يخوِّف ويُنْذِر عَلَى المخالفةِ فِي هَذَا الأمرِ المعيَّن، فنقولُ فِي الجوابِ عَن هَذَا: إنَّ تعليمَ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو من وسائلِ أو من طُرُقِ ما يَحْصُلُ بِهِ المُبَشَّرُ بِهِ، أو ما يَحْصُلُ بِهِ المُنْذَرُ بِهِ، فعندما يأمرنا بشَيْءٍ معنى ذلك أننا إذا فَعَلْنَاه وَصَلْنَا إِلَى ما بَشَّرَ بِهِ، وعندما يَنهانا عن شَيْءٍ فمعناهُ أنَّنا إذا وَقَعْنَا فِيهِ وَقَعْنَا فيما أنذر بِهِ ﷺ. وهذا أحسـنُ مِن أنْ يُقـالَ: إنَّ الحصرَ إضافيٌّ؛ لأنَّكَ إذا قلـتَ: إن الحصرَ إضافيٌّ أخرجـتَ الكَلامَ عن حقيقتِه، وإذا قلتَ: إنَّ هَذَا مِنَ اللَّوَازِمِ بَقِيَ عَلَى حقيـقتِه، ولَكِن يَكُون دالًّا عَلَى هَذَا الشَيْءِ بالمَلْزُومِ.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٥٧].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أيْ عَلَى تَبليغِ ما أُرْسِلْتُ بِهِ من أجرٍ ﴿إِلَّا﴾، لكِنْ ﴿مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ طَريقًا بإنفاقِ مالِه فِي مَرضاتِهِ تَعَالَى، فلا أَمْنَعُه من ذلكَ].

قوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ معروفٌ أنَّ (ما) نافية، وأن (مِنْ) فِي قوله: ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ زائدة إعرابًا، لا معنًى، ولهذا يعبِّر عنها بعضُ العلماءِ بقولِه: صلة؛ تَحَرُّزًا من أنْ يقول: إنها زائدةٌ، وَفِي الحقيقةِ إذا فُهِمَ المعنَى زالَ الإِشْكالُ، ما دُمنا نقول: إنها زائدةٌ إعرابًا فلا حرجَ علينا فِي ذلكَ، أمَّا معنًى فليستْ بزائدةٍ، فائدتها التنصيصُ عَلَى العمومِ؛ لِأَنَّ (أجر) نَكِرة فِي سياقِ النفيِ، وهذا مِن صِيَغِ العمومِ، لكِن عندما تَدْخُل عَلَيْهَا (مِن) تكون أدلَّ وأنصَّ عَلَى العمومِ، فلو قال: (ما أَسْئَلُكم عليه أجرًا) فإنَّ هذا صحيحٌ أَنَّهُ لا يوجدُ أجرٌ أبدًا، لكِن ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ كأنك تُشعِر أَنَّهُ لا يوجد أجرٌ لا قليلٌ ولا كثيرٌ، ففائدتها إذَنِ التنصيصُ عَلَى العمومِ.

وقوله: ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ إذا قُلْنَا: إن (مِنْ) زائدة إعرابًا فكيف نُعْرِب (أجرٍ)؟ نقولُ: (من) حرف جرٍّ زائدٌ إعرابًا، و(أجر) مَفْعُولٌ ثانٍ لـ(أسأل)، منصوب بفتحةٍ مقدَّرة

عَلَى آخِرِهِ، مَنَعَ من ظُهورِها اشتغالُ المَحَلّ بحركةِ حرفِ الجرِّ الزائدِ، هَذَا إعرابها عندَهم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعضهم يقولُ: منصوبٌ مَحَلًّا مجرورٌ لفظًا؟

هَذَا فِي الحقيقة فِيهِ احْتِمَالٌ، يَعْنِي أن محلَّها منصوب، لكِن هَذَا إِنَّمَا يَكُون فِي المَبْنِيَّات، فيوجد احْتِمَال أن تقولَ: (أجر) مَفْعُول بِهِ منصوب وحُرِّك بالكسرِ لِمناسبةِ حرفِ الجرِّ، والمسألة كلُّها اعتباريَّة، المهم أن نعرفَ أن الفعلَ الآنَ مسلَّط عَلَى (أجر) مباشرةً، لَيْسَ بواسطةِ حرفِ جرٍّ؛ لأنَّ هَذَا الحرف من حيثُ الإعرابُ زائدٌ، لكِن من حيثُ المعنَى له فائدةٌ كبيرةٌ، والله الموفِّقُ.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٨].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: وجوبُ التوكُّل عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبيَّنَّا أن مَرْتَبَتَهُ من الدينِ نصف الدين؛ لِأَنَّ الله يأمُر بالعِبَادَةِ والتوكُّل.

الْفَائِدَة الثَّانية: كمال الله عَزَّوَجَلَّ وانتفاءُ النقصِ عنه؛ لِقَوْلِه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ لأنَّ التسبيحَ تَنْزِيهٌ، والحمدَ إثباتُ كمالٍ.

الْفَائِدَة الثالثةُ: إثباتُ العِلمِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

الآيــة (٥٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان:٥٩].

قوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وعندي مكتوبٌ فِي نسختي قبل قولِه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [هو]، ومكتوبةٌ داخل القوس ومشكولة أَيْضًا، وهذا لَيْسَ بصحيح، فـ(هو) ليستْ منَ القُرْآنِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾]، قدَّر المُفَسِّر هَذَا المبتدأَ لِيَجْعَلَ الجملةَ مستأنَفةً منفصِلة عمَّا قبلَها من حيثُ الإعرابُ، مع أَنَّهُ يجوزُ فِيهَا وجهٌ آخرُ؛ أنْ تكونَ صفةً لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾، يَعْنِي: وتوكَّلْ عَلَى الحيِّ الَّذِي لا يموتُ الَّذِي خلقَ السَّمواتِ والْأَرْضَ، فيكُون فِي قوله: ﴿ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ بيانٌ لصفتِه الذَّاتيَّة، وَفِي قولِهِ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ بيانٌ لصفتِه الفعليَّة، وبهذا يَتَحَقَّق أنْ يَكُونَ عَزَّوَجَلَّ أهلًا للاعتمادِ والتوكُّل؛ لِأَنَّ مَن هَذَا وَصْفُه وهذا فِعْلُه جَديرٌ بأنْ يُخَصَّ بالتوكُّلِ، أمَّا عَلَى ما ذهبَ إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَهُوَ يَجعَل الجملةَ مستأنَفةً، وَهِيَ أَيْضًا وإنْ كانتْ مستأنفةً من حيثُ الإعرابُ؛ فإنها مِن حيثُ المعنى متَّصِلَة بما قبلها، تدلُّ عَلَى كمالِ قُدرتِه، وأنه جَديرٌ بأن يُخَصَّ بالتوكُّل، تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أَوجَدَهَا، وإنما يُسَمَّى الإيجادُ خَلقًا إذا كَانَ

مسبوقًا بتقديرٍ؛ لِأَنَّ أصلَ الخَلْقِ التقديرُ، لَكِنَّه يُطلَق عليه وعلى الفعلِ، فإذا أُطلق الخَلْقُ عَلَى الفعلِ صارَ معناهُ أَنَّهُ فِعْلٌ بتقدير، فيكُون الإحكامُ سابقًا، ثم الفعلُ عَلَى مِنهاج ذلك الإحكامِ، فَخَلَقها مُحْكَمَةً، ومَن تَدَبَّرها وتأمَّلَها وجدَ فِيهَا غايةَ الإحكامِ.

قوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ومِمَّا نراه مما بينهما الشَّمْس والْقَمَر والنجوم، وغير ذلك؛ لأنَّ القَوْلَ بأن هَذِهِ فِي نفس السَّموات لَيْسَ عليه دليلٌ من الكِتَابِ ولا من السُّنةِ، وإنما ظاهر القُرْآنِ يَدُلّ عَلَى أنها فِي فَلَكٍ بَيْنَ السَّماءِ والْأَرْضِ، والواقعُ يَشْهَدُ لذلكَ أَيْضًا، فإنهم وَصَلُوا إِلَى الْقَمَرِ، ولو كَانَ فِي نفسِ السَّماءِ ما وصلوا إليه؛ لِأَنَّ الله يقول: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢]، فإذا كانت السَّماءُ محفوظةً حَتَّى عن أشرفِ الرُّسُلِ وأشرفِ الملائكةِ إِلَّا باستئذانٍ، فمَن دونَهم من باب أَوْلَى.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٥-١٦]، ما معنى قولِهِ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾؟

الجواب: يَعْنِي فِي جِهَتِهِنّ، يَعْنِي ليستْ مظروفاتٍ له، والمظروف الجهة، كما سيأتينا إنْ شاء اللهُ فِي قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان:٦١]، نفس الشَّيْء.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من أيامِ الدُّنْيا، أي فِي قَدْرِها؛ لِأَنَّهُ لم يكنْ ثَمَّ شمس، ولوْ شاءَ لَخَلَقَهُنَّ فِي لَمحَةٍ، والعدول عنه لتعليمِ خَلقِه التثبُّت]، العدول: عَدَلَ يَعدِل عَدْلًا وعُدُولًا، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي ستةِ أيامٍ من أيام الدُّنْيا] هَذَا هو القَوْل المشهورُ، وهو الراجِحُ، وَأَمَّا مَن قَالَ: فِي ستَّة أيامٍ من أيامِ الآخِرةِ، وإن اليومَ كألفِ سنةٍ، أو من قَالَ: إن المرادَ بالأيامِ مطلَق الزمنِ، أي فِي لحظاتٍ، فكَذَلِك أَيْضًا قول مرجوحٌ؛ لِأَنَّ القُرْآنَ إِنَّما يخاطِب النَّاسَ بما يَعرِفونَ،

فالصحيحُ أن المرادَ سِتَّة أيامٍ من أيامِ الدُّنْيا كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أوَّلها يومُ الأَحَد، وآخِرها يوم الجُمُعة، فَإِنَّهُ بِهِ تم خَلْق السَّموات والْأَرْض وخُلِق آدمُ فِي آخِرِهِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أخبرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بنصِّ القُرْآنِ بأنَّ اليومَ عندَه كألفِ سنةٍ ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧]، ألا يُرَجِّح هَذَا قولَ مَن قَالَ: إنها من أيامِ الآخِرَةِ؟

الخَلْق نفسُه من صفاتِ اللهِ، لكِن الأيَّام الَّتِي أضافَ اللهُ الخَلْقَ إليها وجعلَه فِي هَذِهِ الأيامِ معلومة لنا، وَأَمَّا قوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ قال: ﴿يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ لا نَدري عنه يومًا وَاحِدًا أو أيَّامًا، حَتَّى ﴿يَوْمًا﴾ قد يقول قائل: إِنَّهُ يومٌ معيَّن عند الله كألفِ سنةٍ، لو قال: (وإن اليوم عند ربك) وأتى بـ(أل) الجِنْسِيَّة فيُمْكِن أنْ يُقالَ، فالأقربُ هو هَذَا واللهُ أَعْلَمُ، حَتَّى المسألة ليستْ هي بالأمرِ اليقينِ، لكِن الَّذِي يَتَرَجَّح حَسَبَ مُقْتَضَى اللفظِ العربيّ، وأننا خُوطِبنا باللفظِ العربيّ، وأن الأَصْلَ حَمْلُ اللفظِ عَلَى ما دلتْ عليه اللغةُ إِلَّا بدليلٍ، فهَذَا الأَصْلُ، والواجبُ أنَّ القُرْآنَ تكونُ دِلالتُه بِمُقْتَضَى اللغةِ العربيَّةِ ما لم يوجدْ دليلٌ يَصْرِفُه.

وقولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي فِي قَدْرِها؛ لِأَنَّهُ لم يكنْ ثَمَّ شَمْس] وتقدير الأيام بالشَّمْسِ، والشَّمْسُ غيرُ موجودةٍ حين الخَلْقِ؛ لِأَنَّ الشَّمْسَ إِنَّمَا خُلِقَتْ بعدَ ذلك؛ لقولِه تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت:١٢]، بعدما خَلَقَها أوحَى فِيهَا أمرَها، وهذا يَشْمَل كلَّ ما يَتَعَلَّق بالسَّماءِ، فعلى هَذَا يَكُونُ المرادُ بقولِه: ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي فِي قَدْرِ هَذِهِ الأيَّام الستَّة.

ثم أَوْرَدَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جوابًا عن سؤالٍ يَفْرِضُه الذِّهنُ، وهو أنْ يقولَ قائلٌ: لماذا لم يَخْلُقْهُنَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بكلمةٍ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ

كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]، يَكُون عَلَى مرادِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

أجاب المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه فَعَلَ ذلك لتعليمِ خَلْقِه التثبُّتَ، هَذَا ما جَرَى عليه أهلُ العلمِ؛ أنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا خَلَقَها فِي ستَّةِ أيامٍ لِيُبَيِّن للعبادِ أنَّ المقصودَ الإحكامُ، لا الإسراعُ، فيَتَثَبَّت النَّاس فيما يَفعلُون، حَتَّى فيما قَدِروا عليه، فَإِنَّهُ يَنبغي أنْ يُلاحِظوا فِيهِ الإحكامَ دونَ الإسراعِ فِي تنفيذِه.

ورأيتُ كَلامًا لبعضِهم حَسَنًا؛ قَالَ: إن خلق السَّمواتِ والْأَرْضِ له أسبابٌ، وهو عبارة عن تكوينٍ، والتكوينُ هَذَا يَحتاجُ إِلَى مدَّةٍ، مثلَما يَنْشَأ الجَنين فِي بطنِ أُمِّه شيئًا فشيئًا فِي مدَّةٍ، كَذَلِك هَذَا الخَلْقُ له أسبابٌ كَوَّنَتْه، هَذِهِ الأَسْبابُ كانتْ فِي هَذِهِ المدَّةِ: فِي سِتَّة أيام، لَكِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِهَذَا القَوْلِ يرجِّحون القَوْلَ بأن المرادَ بالأيامِ أيامُ الآخِرة الطويلةِ، حَتَّى تكون التطورات الَّتِي أدَّتْ إِلَى الكمالِ مناسبةً، وعندي أن هَذَا لَيْسَ بلازمٍ؛ لِأَنَّ اللهَ قادِرٌ عَلَى أنْ يَجعَلَ هَذِهِ الأَسْبابَ الَّتِي مِن شأنِها أنْ تَمْتَدَّ لِعِظَمِ المخلوقِ أنْ يَكُونَ ذلكَ بهَذِهِ السرعةِ، واللهُ أَعْلَمُ.

وإنما التعليلَ الأخيرَ يَكُونُ معناه سَبَب تأخُّرها، وأنها لم تَنْتَهِ إِلَّا فِي سِتَّةٍ؛ لِأَنَّهَا تحتاجُ إِلَى تَطَوُّرات، هَذِهِ التطوراتُ شيئًا فشيئًا حَتَّى تَنتهِيَ إِلَى الكمالِ، كما هو معروفٌ فيما نُشاهِد مِمَّا يخلُقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من غيرِ السَّمواتِ والْأَرْضِ، نجد أن هَذِهِ المخلوقات لا تأتي دَفْعَةً، وإنما لها أسباب وأحوال تَتَطَوَّر إليها، حَتَّى تَصِلَ إِلَى درجةِ الكمالِ.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: ﴿ثُمَّ﴾ هَذِهِ هل هي للترتيبِ الذِّكري أو المعنويّ؟ المعنويّ؛ لِأَنَّ هَذَا هو الأَصْلُ أنها للترتيبِ المعنويّ، لا للترتيب الذكريِّ، والفرقُ بينهما أَنَّهُ في الترتيبِ الذكريِّ لا يَلْزَمُ أنْ يَكُونَ ما بعدَها متأخِّرًا عمَّا قبلها،

بل قد يَكُون قبله ولَكِنَّه ذُكِرَ بعده، هَذَا يُسمِّيه العلماء الترتيب الذكريّ، ولَكِنَّهم لا يَلْجَئُون إليه إِلَّا عندَ الضرورةِ، إذا لم يُمْكِنِ الترتيبُ المعنويُّ قالوا: هو ترتيبٌ ذِكْرِيٌّ، وأنشدوا عليه البيتَ المشهورَ الَّذِي لا أعلمُ قائِلَه، وهو[1]:

إِنَّ مَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ... ثُمَّ قَدْ سَادَ بَعْدَ ذَلِكَ جَدُّهُ

قالوا: إنَّ هَذَا من بابِ الترتيبِ الذكريِّ؛ لِأَنَّ سِيادةَ الجدِّ متقدِّمةٌ عَلَى سيادةِ الأبِ، وسيادةَ الأبِ متقدِّمَةٌ عَلَى سيادةِ الِابْنِ، هَذَا هو المعروفُ والمعهودُ، وإن كَانَ قد يَكُونُ الأمرُ بالعكسِ؛ قد يَسُودُ الحفيدُ وبسيادتِهِ يسودُ أبوه ثم يسود جدُّه، لكِن المعروف بالعكسِ.

عَلَى كلِّ حالٍ هَذَا الترتيبُ فِي الآيةِ ترتيبٌ معنويٌّ؛ لِأَنَّهُ الأَصْل، ولا يُلْجَأُ إِلَى الأوَّلِ إِلَّا عند الضرورةِ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ يَعْنِي عَلَا عَلَى العرشِ، وهذا العلوُّ عُلُوٌّ خاصٌّ، لَيْسَ كالعلوِّ عَلَى سائرِ المخلوقاتِ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عالٍ عَلَى جميعِ المخلوقاتِ علوًّا مُطلَقًا، لكِن هَذَا العلوّ عَلَى العرشِ علوٌّ خاصٌّ، وأنه من الصِّفاتِ الفعليَّة، وأن أهل السنَّة والجماعَة يؤمنون بذلكَ عَلَى الوجهِ الَّذِي يَليق باللهِ عَزَّوَجَلَّ، لا يُكَيِّفُونَ ولا يُحاوِلونَ أنْ يُكَيِّفوا أَيْضًا؛ لأنَّ ذلكَ أمرٌ مُستحيلٌ، وهو يدلُّ عَلَى كمالِ العالي؛ لِأَنَّ هَـذِهِ المادة ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ تدلّ عَلَى الكمالِ مِن حيثُ هي، تقول: استوَى الثَّمَرُ بمعنى كَمُلَ نُضْجُه، وتقولُ: استوى الرجلُ بمعنى كَمُلَ عَقْلًا: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤]، هنا إذا تَعَدَّتْ بـ(على) صارتْ دالَّةً عَلَى العلوِّ، لكِن متضمِّنة للكمالِ، فعلى هَذَا يَكُونُ (استوى) بمعنى عَلَا علوًّا خاصًّا عَلَى وجهِ الكمالِ.

---

(١) من شواهد مغني اللبيب (ص١٥٩). وانظر الجنى الداني (ص٤٢٦).

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ هو فِي اللُّغَةِ سَرِيرُ المَلِك]، هَذَا العرش، يَعْنِي لَيْسَ كلّ كرسيٍّ يُسَمَّى عَرْشًا، كرسيُّ المُعَلِّم لا نُسمِّيه عرشًا، لكِن الكُرْسِيّ الخاصّ بالمَلِك يُسَمَّى عرشًا، هَذَا هو الأَصْل فِي اللُّغة، قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن مَلِكَةِ سَبَأ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠]، فِي قِصَّة يُوسُفَ، لكِن المراد بالعرش هنا ما هو أعظمُ من ذلكَ، هو عبارة عن هَذَا المخلوقِ العظيمِ الَّذِي وَسِعَ السَّمواتِ والْأَرْض والكُرْسيّ؛ لِأَنَّهُ جاء فِي الحديث: «مَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا فِيهِنَّ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ أَلْقَاهَا مُلْقٍ فِي أَرْضِ فَلَاةٍ»، (حلْقة) يَعْنِي حَلْقة المِغْفَر، أو الدِّرع، وَهِيَ بالنسبةِ للفلاةِ لا شَيْء، «وَمَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ أَلْقَاهَا مُلْقٍ فِي أَرْضِ فَلَاةٍ»[1]. إذَن ما يَعْلَم قَدْرَه إِلَّا الله عَزَّوَجَلَّ.

وَهُنَا مِنَ التَّعَمُّق والتَّنَطُّعِ أنْ نَبْحَثَ ونسألَ عن ماهيَّة هَذَا العرشِ، يَعْنِي من أيِّ شَيْءٍ هو؛ من ذهبٍ، من فضةٍ، من زَبَرْجَد، من كذا، وهَذَا وردتْ فِيهِ آثارٌ لَكِنَّها ليستْ بصحيحةٍ، وليست واردةً عن معصومٍ، ولا يَنبغِي أَيْضًا الخوضُ فِي ذلك؛ لأنَّه ما لنا وله من أين مادته، المهمُّ أنْ نَعرِفَ عِظَمَ هَذَا العرشِ وأنه هو الَّذِي اسْتَوَى عليه الله عَزَّوَجَلَّ.

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بَدَل من ضمير (استوى)، أي استواء يَلِيق به]، قوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يَعْنِي لا تَقُل: إن الرَّحمن فاعل (استوى)؛ لِأَنَّهُ سبقهما ما يدل عَلَى رجوعِه إليه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، فكَلام المُفَسِّر يقول: إِنَّهُ لا يُعْرَبُ عَلَى أَنَّهُ

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٣٥).

فاعل (استوى)؛ لِأَنَّهُ سَبَقَ ما يَرجِع إليه الضميرُ فِي (استوى)، ولَكِن لا مانعَ من أنْ نَجْعَلَهُ فاعلًا عَلَى أن يَكُونَ إظهارًا فِي مَقامِ الإضمارِ، وإلَّا صحيحٌ أنَّ ظاهرَ السياقِ يَقتضي أن يَكُونَ (خلق السَّموات ثم استوى)، يَعْنِي (هو)؛ لِأَنَّ الفاعلَ ضَميرٌ مُسْتَتِرٌ، ويَكُون (الرَّحمن) بدلًا؛ كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هَذَا وجهٌ، لَكِننا نقولُ: إِنَّهُ لَيْسَ بِمُتَعَيِّن؛ لجوازِ أنْ يَكُونَ (الرَّحمن) -كما تَقَدَّمَ- فاعلًا، عَلَى أَنَّهُ إظهار فِي مَقامِ الإضمارِ.

وذكروا فِيهِ أَيْضًا وَجْهًا ثالثًا، وهو أنْ يَكُونَ مبتدأً، وخبره ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، وأن يَكُونَ خبرًا لمبتدأٍ محذوف تقديرُه: هو الرَّحمن، ولَكِن ما ذَهَبْنَا إليه أَوْلَى، ويَكُون فائدة الإضمار هنا بيان أن هَذَا الاستواءَ والعلوَّ الخاصَّ لَيْسَ كعُلُوِّ المُتَجَبِّرِينَ المتكبِّرِينَ، بل هو علوّ رَحْمَن واسع الرَّحمة؛ لأنَّ عادةَ البشرِ أو الملوكِ إذا اسْتَوُوا عَلَى عُرُوشِهم أنْ يَكُونَ لديهم فِي الغالبِ مِنَ الجَبَرُوت والعَظَمة ما يَتَخَيَّلُونه إذا استووا عَلَى عروشهم، ولَكِن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع عُلُوِّهِ العظيمِ عَلَى عرشِه العظيمِ هو رحمنٌ واسِعُ الرَّحمةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾.

وقول المُفَسِّر: [أي استواء يَليق به] السؤال الأوَّل عَلَى هَذِهِ الجملة: هل هَذِهِ الجملةُ تدلُّ عَلَى أن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يحرف؟

أنا راجعتُ عِدَّة مواضع يقول: [استواء يليق به]، وفِي رأيي أنها فِي الحقيقةِ لا تُثبِت ولا تَنفي؛ لِأَنَّهُ ما ذَكَرَ إِلَّا صفةَ الاستواءِ فقطْ، يَعْنِي لم يَتَعَرَّضْ إِلَّا لِأَنَّ صفة الاستواء تَلِيقُ بِهِ، لكِن معنى الاستواء ما تَكَلَّمَ عنه، لكِن فِي الحقيقةِ أَنَا أَرَى أن هَذَا يُومِئُ إِلَى مَذْهَبِ أهلِ السنَّة والجَماعَةِ؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ يَرَى أن ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعنى استولَى ما قَالَ: [استواء يليق بِهِ]؛ إذ لا يُمْكِن أنْ يَكُونَ المعنى استولَى

استيلاءً يَلِيق بِهِ، وإنما يَكُون مثل هَذَا التعبيرِ فيما إذا جُعل الاستواءُ صفةً، ليستْ صِفَة ملك، بل صِفَة فعل، فيقول: [استواء يليق بِهِ]، لكِن مع هَذَا لَيْسَ هَذَا التفسيرُ بكاملٍ، وكان عليه أن يقولَ: عَلَا عَلَى وجهٍ يَليق به.

وَلَوْ قِيلَ: إن المُفَسِّر يجمع بَيْنَ الرأيينِ؟

نقول: لا، لو أرادَ استوى بمعنى استولَى لصرَّحَ بِهِ، مثلما قَالَ فِي قوله تَعَالَى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢]، فسَّرَهَا بقولِه: جاءَ أمرُ رَبِّكَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُؤَوِّلُ آياتِ العُلُوّ، فكيف نُوَجِّه قولَه: [استواء يليق به]؟

على كلِّ حالٍ كَلامه هنا لا يدلُّ لا عَلَى إثباتٍ ولا عَلَى نفيٍ، لكِن فيما أَعتقِدُ أَنَّهُ يدل عَلَى التفسيرِ، بمعنى العلوِّ؛ لِأَنَّ الاستيلاءَ لا يُقال: إِنَّهُ استيلاء يَلِيق بِهِ، لا يُتَصَوَّر هَذَا، لو أراد استولَى لقالَ: استوى بمعنى استولَى، مثل قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢]، فقد فسَّره بقولِه: جاء أمرُ ربِّك، لكِن معَ ذلك ما فسَّرها كما يَنْبَغِي، وكان الَّذِي يَنبغي أن يقولَ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ عَلَا عليه علوًّا يَلِيق بِهِ، وأنا تَتَبَّعْتُ الَّتِي قبلها فِي مواضعَ وجدتُه يقول هَذَا، فأقول: إني استغربتُ هَذَا، معَ أَنَّـهُ هو لا يُقِرُّ بالعلوِّ الذَّاتيِّ، وهذا من الغرائبِ، يَعْنِي تعتـبر طَريقة متناقضةً بالنسبةِ للمؤلِّف.

عَلَى كلِّ حال قوله: [استواء يليق به] معناه صحيحٌ، لكِن يحتاج إِلَى تكميلٍ، وهو أن يصرِّح ويوضِّح معنى الاستواء، ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ علا عليه عَلَى وجهٍ يَليق به.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أليسَ اللهُ عاليًا عَلَى جميعِ المخلوقاتِ؟

فالجواب: بلى، لكِن هَذَا العلوّ علوٌّ خاصٌّ بالنسبة للعرشِ، وقد مرَّ فِي العقيدةِ، ولا حاجةَ إِلَى التكرارِ أن أهل التعطيلِ حَرَّفوا معنى الاستواءِ إِلَى معنى الاستيلاءِ، وبَيَّنَّا هناك أن هَذَا التحريفَ باطلٌ من عدة أوجهٍ لُغَوِيَّة وشرعيَّة وعَقليَّة، وأنه يَلْزَم عَلَى هَذَا التفسيرِ لوازمُ باطلةٌ، لا تليق باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي المتَّصف بالرَّحمةِ، وَهِيَ إذا أُفردتْ عن الرَّحيم دلتْ عَلَى الصِّفةِ والفعلِ، والرَّحيم أَيْضًا إذا أُفردَتْ عنها دلَّ عَلَى الصِّفةِ والفعلِ، وإذا اقترنتا فُسِّر الرَّحمنُ بما يَتَعَلَّق بالصِّفةِ، والرَّحيم بما يَتعلَّق بالفعلِ، فعلى هَذَا هنا انْفَرَدَت ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فتَشْمَل الصِّفةَ والفعلَ؛ لِأَنَّ (فَعِيل) تدلُّ عَلَى إيقاعِ الفعلِ، سميع بمعنى سمع الصوت، رحيم بمعنى رحم الخَلْق، والرَّحمن يُشْبِهُها كلمة غَضْبَان، يَعْنِي مُمْتَلِئًا غَضَبًا، كَذَلِك الرَّحمن يَعْنِي واسِع الرَّحمةِ، ولهذا فسَّرَهُ بَعْضُ السلفِ بقولِه: الرَّحمن ذو الرَّحمةِ العامَّةِ، والرَّحيم بالمؤمنينَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كيف الجمعُ بَيْنَ قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي آيةِ الكُرسيّ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وبين قولِه تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؟

الجواب: لا يوجدُ خلافٌ بينهما، فالكرسيُّ شاملٌ للسماواتِ والْأَرْضِ، يَعْنِي لِعِظَمِه وكِبَرِه يَكُون واسعًا لهما جميعًا، أي لكل السَّموات والْأَرْضِ، والعرش فوقَه.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَسْـَٔلْ﴾ أيُّها الْإِنْسَان ﴿بِهِۦ﴾ بالرَّحمنِ ﴿خَبِيرًا﴾ يُخْبِرُك بصفاتِه]، الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعلَ الخطابَ فِي قولِه: ﴿فَسْـَٔلْ﴾ لَيْسَ للرسولِ ﷺ بل لجميعِ مَن يَصِحُّ خِطابُه؛ لِأَنَّ الأَصْلَ أنَّ الخطابَ الَّذِي يُفْرَدُ فِي القُرْآنِ لجميعِ النَّاسِ، إِلَّا إذا دلّ الدليلُ عَلَى أَنَّهُ خاص بالرَّسولِ؛ لِأَنَّ القُرْآنَ نَزَلَ للجميعِ، فَهُوَ يخاطب الكلَّ ما لَمْ يدلُّ دليلٌ عَلَى أَنَّهُ خاصٌّ بالرَّسولِ، مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]،

هَذَا معروفٌ أَنَّهُ خاصٌّ بالرَّسولِ ﷺ، ومثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة:٤١]، صرَّح أَنَّهُ ينادي الرَّسولَ وحدَه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ [المائدة:٦٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ [الأحزاب:٤٥].

﴿فَسْـَٔلْ﴾ أيُّها الْإِنْسَان ﴿بِهِۦ﴾ بالرَّحمنِ ﴿خَبِيرًا﴾ يَعْنِي بذاتِهِ وأسمائِهِ وصفاتِه وأفعالِه وأحكامِه.

وقوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ﴾ قد يقول قائلٌ: إن المتبادَر أنْ يقولَ: اسأَلْ عنه خبيرًا؛ لِأَنَّ السؤالَ بمعنى الاستفهامِ يُعَدَّى بـ(عن)، فهل تقول: سألتُ بفلان أو عن فلان؟ تقول: سألتُ عن فلانٍ، فكيف نُجِيبُ عن التعديَةِ بـ(الباء)، مع أن المتبادر أن يتعدى بـ(عن)؟

الوجه الأول: أنْ تكونَ (الباء) بمعنى (عن)، وهذا واضحٌ: فاسأل عنه خبيرًا.

الوجه الثَّاني: أن تكونَ (الباء) مُتَعَلِّقَةً بمحذوف تقديره: معتنيًا أو مهتمًّا بِهِ، حال من الضمير المستتِر فِي قولِه: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾. وعندي أَيْضًا أَنَّهُ يوجد احْتِمَال أنَّ المعنى: فاسأَلْ تجب بِهِ خبيرًا، يَعْنِي كأَنَّه ضمَّن السؤالَ ما يَدُلُّ عَلَى الجوابِ، مثل ما قِيلَ في: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج:١]، سأل سائلٌ وأُجيبَ بعذابٍ واقعٍ، ويَكُون عُدِل عن (عن) بـ(الباء)؛ لِأَنَّ (عن) إِنَّمَا تدل عَلَى مجرَّد السؤال، و(الباء) تَدُلُّ عَلَى الإجابةِ أَيْضًا. وعلى كلِّ حالٍ فالمعنى أن الرَّحمنَ الَّذِي خلقَ السَّمواتِ والْأَرْضَ واستوى عَلَى العرشِ اسْأَلْ عنه خبيرًا يُخْبِرُكَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يَصِحُّ أن يَكُون (به) متعلِّقًا بـ(خبيرًا)؟

نقول: صحيحٌ، إذا قُلْنَا: متعلقة بـ(خبيرًا) فواضح ولا نحتاج إِلَى أيِّ تقديراتٍ، يَعْنِي فاسألْ خبيرًا بِهِ يُخْبِرك عنه، ويَكُون هَذَا وجهًا رابعًا، وهذا الوجهُ فِي الحقيقةِ عندي الآنَ أَنَّهُ أحسنُ الأوجهِ، وليس فِيهِ تكلُّفٌ، ويَكُون تقديمُه عليه لِمُرَاعَاةِ الفواصلِ، والأَصْلُ: فاسأل خَبيرًا به.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يُمْكِنُ أنْ نَحْمِل معنى قولِهِ تَعَالَى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ عَلَى التعظيمِ؟

يُمْكِن أنْ تتضمن هَذَا بمعنى ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، يَعْنِي: اسألْ مَن هو مِن أعلمِ النَّاسِ خِبرةً بما يُخْبِرُكَ بِهِ معناهُ، إِنَّمَا أخبرناك بذلكَ ونحنُ أعلمُ مَن يُخبِرك بِهِ، فكأنه من بابِ التعظيمِ والمبالغةِ، قَالَ: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ ولَيْسَ المرادُ حقيقةَ السؤالِ، إِنَّمَا المراد التعظيم، يَعْنِي: ما أعظمَ مَن أَخبرَكَ خِبرةً. وهَذَا وجهٌ جيِّدٌ، ولا تُمانِعُهُ الآيةُ.

لَكِنْ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَنِ المرادُ بِهَذَا الخَبِيرِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى أنْ نَسْأَلَهُ؟

الخبيرُ هو اللهُ، فكأنه عَزَّوَجَلَّ يقولُ: فاسألْ بِهِ خبيرًا، يَعْنِي خُذِ الخِبْرَةَ والعلمَ منِّي؛ لأنِّي خبيرٌ بنفسي، هَذَا المعنى، ومنه قولُ عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطْتَ»[1] تعني نفسَها حينما سُئِلَتْ عن مسألةٍ.

فالمعنَى: اسألْ عنِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ خَبيرًا بِهِ وهو نفسُه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحيض، باب نسخ الماء من الماء ووجوب الغسل بالتقاء الختانين، رقم (٣٤٩).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى والثَّانيةُ: إثباتُ خلقِ السَّمواتِ والْأَرْضِ، وأنها كانتْ معدومةً، فيكُون فِي هَذَا ردٌّ لقولِ الفلاسفةِ القائلينَ بِقِدَمِ الأفلاكِ؛ لِأَنَّ ما كَانَ مخلوقًا فَإِنَّهُ لَيْسَ بقديمٍ، والمراد بقولنا: لَيْسَ بقديمٍ بالمعنى المصْطَلَح عليه عندَ الفلاسفةِ؛ أن القديمَ هو الأزليّ، لا أن المراد القِدَم اللُّغَوي؛ لأنَّ القديمَ فِي اللغةِ هو الشَّيْءُ المتقدِّم، وإن كَانَ حادثًا، كما قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، لكِن فِي اصطلاح الفلاسفةِ إذا قالوا: قديمٌ، فمَعْنَاهُ أزليٌّ، لَيْسَ بحادثٍ. نقولُ: هَذِهِ الآية تَرُدُّ عليهم؛ لِأَنَّ الله يقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

الْفَائِدَة الثالثة: أن الَّذِي يَنبغي أن يلاحظَه الفاعلُ هو الإتقانُ والتثبُّت فِي الأمورِ؛ حَتَّى يخرجَ الشَّيْءُ المَفْعُولُ عَلَى الكمالِ، وهذا ما أشارَ إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الْفَائِدَة الرابعةُ: حِكمة الله عَزَّوَجَلَّ بِتَسْيِيرِ الأمورِ حَسَبَ أسبابها، عَلَى الوجهِ الَّذِي أَشَرْنا إليه؛ لِأَنَّ خلقها امتدَّ إِلَى ستةِ أيامٍ؛ لِأَنَّهَا تَتطَوَّر وتَتَعَلَّق بأسبابٍ معيَّنةٍ تكمُن فِي هَذِهِ المدَّةِ.

الْفَائِدَة الخامسة: كمالُ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ هَذِهِ السَّمواتَ والْأَرْضَ وما بينَهما أمورٌ عظيمةٌ، لا يستطيعُ الخَلْقُ أن يَخْلُقُوها أبدًا، لا فِي ستَّة أيامٍ ولا فِي ستِّينَ قَرنًا، الَّذِينَ صَنَعُوا الأقمارَ الصناعيَّةَ أوَّل ما أَخْرَجوها نعلم ماذا حصل من الضَّجَّة العظيمة، والتعظيم العظيم لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ صَنَعُوها، معَ أنها ليستْ بشَيْءٍ بالنسبةِ لأقربِ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ، لا بذاتِه ولا بالحجمِ، ولا بالكيفيَّة، ولا بالقوَّة، ولا بالانتظامِ، فإنها تزول فِي آخِر الأمر ويَختلف نِظامها وتَتْلَف.

الحاصلُ: أن فِي خلقِ السَّمواتِ والْأَرْضِ، ولو فِي الأيَّام الستَّة، فِيهِ دليلٌ عَلَى

كمالِ قُدْرة اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وعَظَمَتِه؛ لِأَنَّ عِظَم المخلوقِ يَدُلّ عَلَى عِظَمِ الخالِقِ، كما أنَّ عِظَم الفعلِ فِي غيرِ الخالقِ يدلّ عَلَى عَظَمَةِ الفاعلِ ومَهارتِهِ وقُدْرَته، ولهذا النَّاس إذا رَأَوْا بناءً مُحْكَمًا يُثْنُونَ عَلَى البانِي أوَّلًا، ثم عَلَى البِناء.

ويُذْكَر فِي (الحَيْدَة) الَّذي يُنْسَبُ إِلَى عبد العزيز الكناني، إنْ صَحَّ عنه، أن أحدَ الَّذِينَ ناظروه عند الخليفةِ انتقدَ خِلْقَته، فَقَالَ له: عبد العزيز الكناني: أنت ما انْتَقَدْتَنِي، إِنَّما انتقدتَ الخالِقَ. ثم ضربَ مثلًا بأنه لو كَانَ الجِدَار الَّذِي عند الخليفةِ مُشَوَّهًا ومائلًا، ثم عِيبَ الجِدار، فالعَيْب يَقَع حقيقةً عَلَى الباني الَّذِي بناه، فخِلْقَة الْإِنْسَانِ ليستْ مِنِ اختيارِهِ، فلا يُذَمُّ عَلَيْهَا[1].

ولذلك ما وَرَدَ من الأحاديثِ الَّتِي تُعَلِّق الذمَّ عَلَى الخِلقة فإنما ذلك لَيْسَ للخلقةِ نفسِها، ولَكِنه دليلٌ عَلَى ما تُحْمَل عليه هَذِهِ الخِلْقَة من الصِّفاتِ الَّتِي يُذَمُّ عَلَيْهَا العبدُ؛ لِأَنَّهُ وُجِدَ فِي بعضِ الأحاديثِ ذَمٌّ، ثمَّ يُفَسِّره العلماءُ بِصِفَاتٍ خلقيَّةٍ، هَذَا الذمُّ المعلَّق عَلَى صفةٍ نقولُ: إذا صحَّ أنَّ الحديثَ يُفَسَّر بهَذِهِ الصِّفاتِ الخَلْقيَّة فليس ذلك لأجلِ هَذِهِ الصِّفات الخَلْقية، ولَكِنْ لِمَا تَتَضَمَّنَهُ غالبًا من صفاتٍ فعلية أو خُلقية للإنْسَان؛ إذِ الْإِنْسَانُ لا يُذَمُّ عَلَى ما خَلَقَ اللهُ فِيهِ، وإنما يُذَمُّ عَلَى ما كَانَ باختيارِهِ.

الْفَائِدَة السادسةُ والسابعةُ: استواء اللهِ عَلَى عَرْشِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، وأنَّ الاستواءَ مِن الصِّفاتِ الفعليَّةِ، لَيْسَ مِن الصِّفاتِ الذَّاتيَّة؛ لِأَنَّهُ مرتَّب بعد خلقِ السَّمواتِ، يَعْنِي حادثًا، وهل الاستواء قبلَ خلقِ السَّمواتِ والْأَرْضِ

---

(١) الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن، لأبي الحسن عبد العزيز بن يحيى بن مسلم ابن ميمون الكناني المكي (ص٣١).

ثابتٌ أو لَيْسَ بثابتٍ؟ نقول: الاستواءُ عَلَى العَرْشِ قبل الخَلْق لا نَتكلَّم فيه، اللهُ أعلمُ به، لَكِن الاستواء عَلَى العرشِ حِينَ الخَلْق لَيْسَ بموجودٍ؛ لِأَنَّ ذلكَ ينافي قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾، أمَّا قبل الخَلْقِ فالواجبُ السكوتُ عنه؛ لِأَنَّ ذلك لَيْسَ بِوُسْعِنا، والله تَعَالَى لم يُخْبِرْ عن نفسِهِ بِهِ.

الْفَائِدَة الثامنة: ثُبُوت صفةِ الرَّحمةِ لله؛ لقولِهِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، وإضافة الاستواء إِلَى الرَّحمنِ فِي قولِه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ففيه إشارةٌ إِلَى أَنَّهُ تَعَالَى مع عُلُوِّهِ عَلَى جميعِ مخلوقاتِه فإنَّ رحمتَه شاملةٌ لجميعِ الخَلْقِ، وليس كعُلُوِّ غيرِهِ مِمَّن إذا علا تَجبَّر وتَكبَّر وأخذ بالعُنْف والغِلظة.

الْفَائِدَة التاسعة: عِظَم صفاتِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾.

الْفَائِدَتان العاشرةُ والحاديةَ عشْرةَ: أَنَّهُ لا تُطْلَبُ معرفةُ اللهِ إِلَّا مِنَ اللهِ: مِنَ الخَبيرِ بِهِ، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقولِهِ: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، وأن هَذِهِ الآية تَشْهَد لِمَا عليه أهلُ السنَّة والجَماعَة من أن أَسْماءَ اللهِ وصفاتِه تَوْقِيفِيَّةٌ، لا يجوزُ لأحدٍ أنْ يُثْبِتَ منها إِلَّا ما أَثْبَتَهُ الله ورسوله، يَعْنِي أن وصفَ اللهِ تَعَالَى لا يَكُون إِلَّا بِحَسَبِ ما عَلِمْنَاهُ منه، فلا يُمْكِن أنْ نَصِفَ اللهَ تَعَالَى بِمَا لم يَصِفْ بِهِ نفسَه، ولهذا قَالَ العلماءُ: إن أَسْماءَ اللهِ وصفاتِهِ توقيفيَّة، هَذَا هو القَوْلُ الصحيحُ الراجِحُ، وإِنَّه لَيْسَ لنا أنْ نَصِفَ الله تَعَالَى بما لم يَصِفْ بِهِ نفسَه؛ لِأَنَّ ذلك ينافي كمالَ الأدَبِ معَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:١]، وكما أَنَّهُ لَيْسَ لنا أنْ نُحْدِثَ فِي شَرْعِه شَيْئًا فليسَ لنا أن نَصِفَهُ بشَيْءٍ لم يَصِفْ بِهِ نفسَه، ولله المثلُ الأعلَى.

فَلَوْ قِيلَ لإنْسَانٍ: تَحَدَّثْ عن رجلٍ، وهذا الرجلُ غائبٌ عنه، هل يملِك أنْ يَتَحَدَّث عن شَيْءٍ من صفاتِهِ إِلَّا ما يَعْلَم من الصِّفات البشرية، بأن يقول: هو إنْسَان

مخلوق يحيا ويموت، إِلَى آخِره، لكِن يتحدث عن صفةٍ ليست من الصِّفات العامَّة للصفاتِ البشريَّة فلا يجوز له، فكيف باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَلِ التَّوْرَاةُ والإنجيلُ يُقَرِّرَانِ ويُثْبِتَانِ المَعادَ كما يُثْبِتُهُ القُرْآنُ؟

الجواب: القُرْآنُ تكلَّم عنِ المعادِ وتقريرِهِ وإثباتِهِ أكْثَرَ مِمَّا تكلمتْ بِهِ التوراةُ والإنجيلُ، وشيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي الحَمَوِيَّة كَلامُه يدلُّ عَلَى أن القُرْآنَ تَكَلَّم عَنِ المَعَادِ وتقريره وإثباته أكْثَر مما تكلمتْ بِهِ التوراةُ والإنجيلُ، وإلَّا فهو معلومٌ ومصرَّح بِهِ فِي كل الكتبِ، لكِن تقريرها لَيْسَ كتقـريرِ القُرْآنِ، ولا يمكن أن يَستـقيمَ عملُ النَّاسِ إِلَّا بالإيمانِ بالمعادِ، ولذلك الَّذِينَ يُنْكِرون المعادَ الآنَ ما دام أَنَّهُمْ يقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية:٢٤]، لن يعملوا، فالمراد تقريره عَلَى أوجهٍ شتّى؛ لِأَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قرَّر المعادَ فِي القُرْآن لَيْسَ بطَرِيقٍ وَاحِدٍ، بل بعِدَّة طُرُقٍ، ونحن أشرنا مرةً إِلَى أن آخِـرَ سورةِ يس فِيهَا عَشَرَةُ أَوْجُهٍ كلّها تقرِّر المَعـاد، لكِن بعضها أصرحُ من بعضٍ.

• • ۞ • •

الآيــة (٦٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان:٦٠].

بعدَ أنْ ذَكَرَ اللهُ جَلَّوَعَلَا عَظَمَتَه ورُبُوبِيَّتَه فِي خَلْقِ السَّمواتِ والْأَرْضِ واستواءَه عَلَى عَرْشِه قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ لِكُفَّارِ مكَّة ﴿ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾]، هَذَا السجـودُ يَحتمِل أنْ يُرادَ بِهِ السجـودُ الخاصُّ الَّذِي هو خُـرُور الْإِنْسَانِ عَلَى أعضائِه السبعةِ، ويَحتمِل أنَّ الْمُراد بِهِ السجودُ العامُّ الَّذِي هو الخُضُوع المطلَق؛ لِأَنَّ السجودَ يُطلَق بالمعنيينِ؛ السجود العامّ الَّذِي هو الخُضُوع والذُّلّ مُطْلَقًا، أو السجود الخاصّ عَلَى هَذِهِ الأعضاءِ المعروفةِ، إذا قِيلَ لهم ذلك: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فأَنْكَرُوا المسجودَ له، ثم اسْتَكْبَرُوا عن السجودِ ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾، وهذا الاستفهامُ استفهامُ إنكارٍ واستبعادٍ، ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾، والأوَّل ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ استفهام إنكارٍ، يَعْنِي أنَّهم يُنْكِرُون الرَّحمنَ، والمراد بإنكارِهِمُ الرَّحمنَ إنكارُ هَذَا الاسْمِ، لا إنكار اللهِ، يَعْـنِي أنكروا الاسْمَ دونَ الذَّاتِ، فهم يؤمنون باللهِ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ولَكِنَّهم أَنْكَرُوا الرَّحمنَ، أنكروا هَذَا الاسْمَ لله عَزَّوَجَلَّ وقالوا: لا نَعْرِفُ الرَّحمنَ إِلَّا رحمن اليَمامَةِ، لا نَعْرِفُ أنَّ هناك أحدًا اسْمُه الرَّحمنُ إِلَّا هَذَا الموصوف برحمنِ اليمامةِ، فأنكروا هَذَا الوصفَ العظيمَ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الَّذِي هو مِن أعظمِ أوصافِه وأعظم أسمائِه، وَهِيَ الرَّحمة الَّتِي وَسِعَتْ جميعَ المخلوقاتِ،

وهذا الإنكارُ لا وجهَ له؛ لِأَنَّهُ ما دامَ قد أثبتَ بطَريقِ الرِّسَالةِ فلا وجهَ له لِكَوْنِهم لا يَعْرِفُونـه؛ لأنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي لا يُؤْمِن إِلَّا بما يَعْرِف هو تابعٌ لهواهُ، وليـسَ مؤمنًا بالرُّسُلِ، ومنه ما يَفْعَلُه بعضُ العامَّةِ الآنَ إذا أُحْيِيَتْ سُنَّة مِن السننِ الَّتِي أُميتت، قالوا: ما هذا؟! هَذَا دينٌ جديدٌ، لا نَقبَـله ولا نريدهُ، نقولُ لِهَؤُلَاءِ: إنهم يُشْبِـهون هَؤُلَاءِ الكُفَّارَ من بعضِ الوجوهِ، حيث أنكروا ما لا يَعرِفونه وقالوا: لن نَقْبَلَ، أين المَشايخ مِن هَذَا الدينِ، وأين فلان وأين فلان؟! وهذا لَيْسَ بحُجَّة؛ لِأَنَّ الحقَّ يَجِب أنْ يُقبَل وأن يَكُونَ هَوَى الْإِنْسَانِ تابعًا للحقِّ، لا أن الحقَّ تابعٌ لِهَواه: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١].

والواجـبُ عَلَى المؤمنِ إذا رأَى ما لا يَعـرِفه أو سمِـع ما لا يَعرِفه التَّثَبُّتُ، صحيحٌ أن الْإِنْسَانَ يَستنكِر ما لا يعرِف، ولَكِن الواجب عليه نحوَ ذلك أنْ لا يُنكِر، والواجـب عليه التثبُّت، وأنْ يَعْرِفَ مصـدرَ هَذَا الشَيْءِ، أمَّا أن يقولَ: أتيتـم بدينٍ جديدٍ ولا نَقْبَله، فليسَ كَذَلِك، بل إن الَّذِي يحيي سُنَّة هو الَّذِي أتى بالدينِ القديمِ، وما خالَفَ السنَّة فَهُوَ الدينُ الجديدُ المُحْدَث، أَمَّا السنة فهي الدينُ القديمُ الَّذِي عليه الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأصحابه.

والحاصِلُ: أنك لا تكاد تجد معصيةً مِنَ المعاصي إِلَّا وَفِيها مُشابَهة من جنسها من الكُفْرِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل نأخُذُ من الآيةِ فضيلةَ السجودِ من بَيْنِ العباداتِ؟

هَذَا إِذَا قُلْنَا: إن السجودَ خاصٌّ، لكِن الآية محتمِلة أن المرادَ بالسجودِ ما هو أعمُّ؛ أي الخُضُوع المطلَق، لا الخضوع بالسجود المعروف، وما دام وجد احْتِمَال لا يَتِمّ الاستدلالُ.

قوله: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ هَذَا أَيْضًا إنكارٌ واستكبارٌ، يَعْنِي كيف نسجدُ لِمَا تَأْمُرنا، قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالفوقانيَّة والتحتانيَّة، والآمِر مُحَمَّد ﷺ].

قولـه: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ (ما) هَذِهِ هل هي بمعنى (مَنْ) أو (ما) مصدريَّة، يَعْنِي هل المعنى: لِمَن تأمُرنا بالسجودِ له، فتكون موصولةً، بمعنى (مَن)، أو أنها مصدريَّة؛ أي لِأَمْرِك؟ كلاهما ممكِن، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: [ولا نَعْرِفه]، يشير إِلَى أن (ما) اسْـم موصول، يَعْنِي للذي تأمرنـا أن نسجدَ له، ونحن لا نعـرِفه، فعلى مُقْتَضَى تفسيرِه تكون (ما) بمعنَى (مَن)، وحينئذٍ التعبيرُ بـ(ما) بَدَل (مَن) فِي غير الجمادِ أو فِي غير مَن لا يَعقِل -كما يَقُولُونَ- خِلافُ الأَصْلِ؛ لِأَنَّ الأَصْلَ أنْ يُعَبَّر عن ذي العلـمِ بـ(مَنْ)، لا بـ(ما)، ولا يُعَبَّر بـ(ما) إِلَّا لملاحظـة شَيْء، مثل قولـه تَعَالَى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣]، لم يَقُلْ: (مَنْ طابَ)، فما هو هَذَا الشَيْء؟ نقول: في قوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ هو لا يريد امرأةً بعينِها حَتَّى يعبر عنها بـ(مَنْ)، إِنَّما يريد الجنسَ الَّذِي يُتَزَوَّج لِطِيبِه، فيَكُون فِي ذلك مراعيًا للصفةِ، لا للموصوفِ، ولهذا أتى بـ(ما) ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم﴾، كَذَلِك أَيْضًا قوله: ﴿لِمَا تَأْمُرُنَا﴾؛ إذا جَعَلْنا (ما) بمعنى (مَنْ) نقول: عَدَلُوا عن الموصوفِ إِلَى الإشارةِ إِلَى الصِّفةِ؛ لأَنَّهُمْ يُنكِرون هَذَا الوصفَ الَّذِي هو الرَّحمنُ، فكأَنَّهُمْ قالوا: أنسجُدُ لأمرٍ مجهولٍ غير معلومٍ، وهو ما تأمرنا بالسجودِ له، أمَّا عَلَى أن تكون (ما) مصدريَّة فالأمرُ واضحٌ جدًّا، يَعْنِي كأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: أَنَسْجُدُ لِأَمْرِكَ وأنتَ لستَ بشَيْءٍ عندنا؛ لأَنَّهُمْ قالوا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان:٤٢]، فيَكُون هنا جَمَعُوا بَيْنَ الإنكارِ والاستكبارِ، الإنكار لصفةٍ من صفاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واسْمٍ من أسمائِه، ثم الإنكار لِمَا أُمِرُوا بالسجودِ له،

ثم الاستكبار عن أمرِ النَّبيِّ ﷺ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ فِيهَا قراءة؛ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالفوقانيَّة والتحتانيَّة]، قراءتان سَبعِيَّتانِ[1]، أمَّا عَلَى قراءةِ التحتانيَّة: «لِمَا يَأْمُرنا» فلا إشكالَ فِيهَا؛ لِأَنَّ التقديرَ: أنسجد لِمَا يَأْمرنا القائِل، لكِن عَلَى قراءة ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ هنا خَصَّص، ويقصدون بقولهـم: ﴿لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ فما الحِكْمَة فِي أَنَّهُ عَبَّر فِي الأوَّل بالعمـوم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أَبْهَمَ القائلَ لعمـومِه، وهنا قَالَ: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾؟ يَعْنِي كأنَّ كلَّ أحدٍ يَأْمُرُهم بالسجودِ، يَعْنِي مهما قِيلَ لهم يَقُولُونَ للقائلِ: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾، فيَكُون فِي الأَوَّل حكَى ما يُقال، وهنا حكاها عَلَى سبيلِ المخاطبةِ، هم يَقُولُونَ لكلِّ إنْسَانٍ: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾.

فعلى هَذَا التقدير الَّذِي قُلْنَا لا يَكُونُ المرادُ بقولِهم ﴿لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ الرَّسول، بل ﴿لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أيُّها القائل، فيَكُون هنـا عُدُولٌ عن الغَيْبَة إِلَى الخِطاب، يَعْنِي إذا قِيـلَ لهم: ﴿ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ قَالُوا لِمَن قَالَ لهم: اسْجُدُوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾.

وعلى رأي المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقولُ: الآمِرُ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فيَكُون فِيهِ عُدُولٌ عن العمومِ إِلَى الخصوصِ، إذا كَانَ المعنى: أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنا يا مُحَمَّدُ يَكُون عدولًا عن العمومِ إِلَى الخصوصِ، فإذا أَنْكَروا ذلكَ مِنَ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإنكارُهُم إيَّاه من غيرِه من باب أَوْلَى.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ عامٌّ فِي كفَّار مكَّة وغيرهم من الكفارِ الَّذِينَ سيأتون وهَذِهِ صِفَتُهم؟

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٦).

فالجواب: نحنُ لَا نَعْلَم القضيَّة إِلَّا فِي كفَّارِ مَكَّة؛ لِأَنَّهُ وَرَدَ سَبَب نزول الآيةِ.

فَلَوْ قِيلَ: هَذَا هو موقِف الكفارِ.

نقول: هَؤُلَاءِ الكفـارُ أنكروا أمرينِ؛ أَنْكَرُوا السجـودَ، قالوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾، كأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ولو جاء الأمر من غيرِكَ لَكِنَّا نَنْظُر. والثَّاني: إنكار الرَّحمنِ ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، فهل كل كافِرٍ ينكر الرَّحمنَ، لا نَدْرِي.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَزَادَهُمْ﴾ هَذَا القَوْلُ لهم ﴿نُفُورًا﴾ عن الإيمانِ]، والعياذ بالله، يَعْنِي ما زادهم إقبالًا ولا امتثالًا، بل زادهم نفورًا، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ واجبَ الداعِيَةِ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى اللهِ، سواء امتثلَ المدعوُّ أَمْ نَفَرَ، وقد كَانَ بعضُ النَّاسِ يسألُ يقولُ: إذا كَانَ هَذَا المدعوُّ إذا دَعَوْتُه يزدادُ نفورًا وكراهِيَةً للشرعِ، ولِمَا يُؤْمَرُ بِهِ، هل يجـوزُ أنْ أَدْعُوَهُ أو يَحْرُم أنْ أدعـوَهُ؛ لأني أكونُ سَبَبًا لنفورِهِ واستكبـارِهِ، ونفورُهُ واستكبـارُهُ أعظمُ من مَعْصِيَتِهِ المجرَّدة، يقول: أنا إذا دعـوتُ أخي أو عمِّي أو أبي ازدادَ نفورًا واستكبـارًا، فأكون سَبَبًا لاستكبـارِهِ ونفورِهِ وكراهِيَتِهِ للحقِّ، وذلك أعظمُ من مجردِ المعصيةِ أو تَرْك الواجبِ، فهل أَتْرُكُهُ أو أدعوه؟ وحينَئِذٍ أَرَى نفسِي فِي حَرَجٍ أَنِّي تَسَبَّبْتُ له فوقعَ فِي هَذَا الأمرِ العظيمِ؟

نقول: في الآيةِ الَّتِي مَعَنَا يقول اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾، هل الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَمَّا رأى هَؤُلَاءِ يَزْدَادُونَ نفورًا تركَ الدعوةَ؟

الَّذِي نرى أَنَّهُ يَجِبُ أنْ تدعـوَ عَلَى العمومِ، وليس عليكَ هُداهـم، ولَكِن الله يَهْدِي مَن يشاء؛ لأَنَّكَ إذا سَكَتَّ عنه استمْرَأَ المعصيَةَ ولم يَرَهَا معصيةً، ولم يَسْتَقِمْ، ثم هو أَيْضًا ربما يَستكْبِر، ولَكِنَّه بعدَ ذلكَ يَرجِع ويحاسِب نفسَه، والكلمة الَّتِي تقالُ للهِ لا بدَّ أن تؤثِّر تأثيرًا بالغًا، وما نحن ببعيدٍ عن تكرارِ قضيَّة موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

حينما تكلمَ للناسِ جميعًا وللسَّحَرَةِ بالأخصِّ، فَقَالَ لهـم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ [طه:٦١]، فهـذا كَلامٌ قاسٍ وتَوَعُّـد ووعيد، ومع ذلك قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ [طه:٦٢]، و(الفاء) تَدُلُّ عَلَى التفريعِ والتعقيبِ، يَعْنِي صارت هَذِهِ الكلمة بمنزلةِ ما يُسَمُّونَهُ بالقنبلةِ الَّتِي فَرَّقَتْهُمْ، فأنتَ لا تَظُنُّ أنَّ كَلِمَتَكَ الَّتِي تَقُولُها لله تَضِيع سُدًى، لا بدَّ لها من تأثيرٍ، وهذا التأثيرُ وإنْ كَانَ قد لا يَكُونُ فِي الوقتِ الحاضِرِ، ولَكِنَّه لا بدَّ أن يؤثِّر.

والنَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَعَا قَوْمَه وأُوذِيَ إِلَى حَدٍّ أَنَّهُم يَضَعُونَ السَّلَا عليه وهو ساجدٌ(١)، وإلى حدٍّ أَنَّهُمْ يُلْقُونَ العَذِرَاتِ والأقذارَ عندَ عَتَبَتِه.

وأنتَ إذا كنتَ مؤمنًـا بقولِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]، ما يَضُرُّكَ هذا، فالعاقبـةُ للمتَّقين، وأنا قلتُ قبـلَ ذلك: إن المرادَ بنجاح الدعوةِ نجاحُ الجنسِ، لا الشخص، قد لا تَنْجَح أنتَ بشخصِكَ وتموت وأنت ما نِلْتَ المقصودَ، لكِن الكَلام عَنِ الدَّعوة أنها نجحتْ وأثرت، وهذا لا بدَّ أنْ يَكُونَ، ونحنُ قُلْنَا هَذَا مِن قبل، ثم اقْرَأْ قولَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان:٢٣]، ماذا بعدها؟ لم يقل فاشكر نعمة ربك عَلَى هَذَا الإنزال قال: ﴿فَاصْبِرْ﴾ [الإنسان:٢٤]، معنى ذلك أن الَّذِي يَتَحَمَّل هَذَا القُرْآن، سواء نزل عليه أو حَفِظه، لا بدَّ أنْ ينالَهُ ما يناله، سواء بالنسبةِ لنفسِهِ الَّتِي تأمُرُه بالسُّوء وبمخالفة هَذَا الوحيِ، أو بالنسبة لغيرِه، أَمَّا هَذِهِ الأشياء فهي جُبْنٌ فِي الحقيقةِ ومن الشيطانِ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، رقم (٢٩٣٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤).

ونحن نقول هَذَا ونقرِّره، وإنْ كنَّا مقصِّرين، لكِن لا بدَّ من بيانِ الحقِّ، والتقصير عَلَى أنفسِنا فِي الحقيقةِ، لَكِنَّنا نرى أن الداعيةَ إِلَى اللهِ، بل والعالِمِ الَّذِي أعطاهُ اللهُ علمًا، لا بدَّ أنْ يَنْشُرَهُ وأن يدعوَ إليه، وإلا صار حجَّةً عليه، وربما لا يكرهونه إِلَّا فِي الظاهِرِ؛ لِأَنَّ فِي أنفسهم مِنَ الحَسَدِ أو ما فِي أنفسهم من كراهةِ مخالفةِ هواهُمْ ما يؤدِّي إِلَى أَنَّهم يعادونه ظاهرًا وإنْ كانتْ قلوبهم تحبّه، فربما يَكُون هَذَا أيضًا.

عَلَى كل حالٍ فالمسألة أَنَّهُ إنْ أصابكَ ما أصابكَ مِنَ الأذى مع الاستقامةِ، فإن هَذَا لِرفْعَةِ درجاتِكَ، وإنْ أصابَكَ ما أصابكَ من الأذى معَ عدمِ الاستقامةِ، يَعْنِي إما خطأ فِي سبيل الدعوةِ فما استعملتَ ما أرشد الله إليه مِنَ الحِكْمَةِ والموعظةِ الحسنةِ والمجادلةِ بالَّتِي هي أحسنُ، فإن هَذَا الأذى يَكُون تكفيرًا لسيئاتِكَ الَّتِي وقعتْ منكَ، فأنتَ عَلَى كل حالٍ لا بدَّ أن تُنالَ بأذًى، لَكِنه إما رفعة للدرجاتِ أو تكفير للسيئاتِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعض النَّاس يَقُولُونَ: كيف نَدْعُو النَّاسَ ونحن عاجزونَ عن إصلاحِ أنفسِنا؟

فنقول: إذا لم تَدْعُ النَّاسَ فأنتَ أفسدتَ نفسَكَ باختيارِكَ؛ لِأَنَّ من إصلاح نفسِكَ الدعوةُ إِلَى اللهِ، فإذا لم تدعُ إِلَى اللهِ أفسدتَ نفسَكَ باختيارك، فاتقِ اللهَ ما استطعتَ، أمَّا أنْ تَتْرُكَ واجبًا لأنك تترك واجبًا آخرَ فهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ. ولَا شَكَّ أَنَّهُ من سُوء الأدبِ، ومن عدمِ الحِكْمَةِ أن الْإِنْسَانَ يدعو إِلَى أمرٍ وهو متلبِّس بضدِّ ما يأمر به:

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ[1]

---

(١) مجمع الأمثال (٢/ ٢٣٨).

لكِن لَيْسَ معنى ذلك أنك تتركُ الواجبَ، فحاوِلْ أنْ تُصْلِحَ أمرَكَ، وأن تُصْلح أمرَ غيرِكَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أنَّ مِن عادةِ الكفارِ إنكارُ ما لا يَعرِفون، سواء كَانَ عمليًّا أو اعتقاديًّا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾.

الْفَائِدَة الثَّانية: أن تعطيلَ الجَهْمِيَّة وشُبههم أعظمُ مِن تعطيلِ هَؤُلَاءِ، فإذا كَانَ هَؤُلَاءِ كفرهم بإنكارِ الرَّحمنِ فكيف بمَن يُنْكِر جميعَ الأَسْماءِ من الجَهْمِيَّة ونحوهم! ومعروفٌ أن المُعْتَزِلةَ لا ينكرون الأَسْماءَ، لكِن ينكرها غُلَاةُ الجهميَّة، ومعلوم أن الَّذِي ينكر الأَسْماءَ أعظمُ مِنَ الَّذِي ينكر اسْمًا وَاحِدًا، والكفار يُقِرّون باللهِ ويقرون بالرَّحيمِ، لم ينكروا إِلَّا الرَّحمنَ، قالوا: ما نعرِف إِلَّا رحمنَ اليَمامَةِ.

الْفَائِدَة الثالثة: أن الشرعَ لا يُقاس بالهوى والعقل، وإنما الشرعُ متبوعٌ وليس بتابعٍ.

الْفَائِدَة الرابعة: أنَّ نفورَ المدعوّ من الدعوةِ لا يَستوجِب التوقُّف، ولا يَمنع الدعوةَ، وهَذِهِ الْفَائِدَة مهمَّة جِدًّا؛ لِأَنَّهَا مجال نقاش أو تساؤل من بعض الإخوان.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قولُه تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى:٩]، يقولُ بعض المفسِّرين: يَعْنِي تذكِّر الشخصَ إذا كانتِ الذكرَى نافعةً، فإذا رأيتَه لم يَنْتَفِعْ فاتْرُكْهُ لوقتٍ آخرَ ترى فِيهِ انتفاعَه، فهل تترك الدعوةَ عامَّةً فِي الوقتِ الحاضرِ أم ماذا؟

الجوابُ: هَذَا عَلَى كل حالٍ تَبَع الحِكْمَة؛ ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ [النحل:١٢٥]، قد يَكُون لَيْسَ من الحِكْمَةِ أنك تدعوه فِي وقتٍ قد يَكُونُ فيه ضَجِرًا

أو مالًّا أو مُتْعَبًا، فلا يَكُون مناسبًا للدعوة، فاتْرُكْه وائْتِهِ فِي وقتٍ آخرَ، أَمَّا قوله تَعَالَى: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ فالعلماءُ مختلِفون هل (إنْ) شرطيَّة أو أنها لبيانِ حالِهم، يَعْنِي إن كانت الذكرى سَتَنْفَعُهم فذَكِّرْهُم، يَعْنِي هَؤُلَاءِ لَيْسَ فيهم خيرٌ، ولا تنفعهم الذكرى، مثلما تقول: عَلِّمه إذا كَانَ العلمُ يَنْفَعه، ولَكِن عَلَى كل حالٍ الأَصْل أن الشرطَ مقصودٌ، وأيضًا قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ»[1] من هَذَا النوع، فهَذَا منَ الحِكْمَةِ، وليس المعنى: لا تحدِّثُونهم بما لا يعرفون؛ لِأَنَّهُ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ»، فالمعنى: اسْلُكُوا سبيلَ الحِكمةِ.

الْفَائِدَة الخامسة: أن عَلَى الداعي أَلَّا يَرْبِطَ دَعْوَتَه بنتائجها، بمعنى أَنَّهُ لا يقولُ: إنْ وَجَدْتُ نتيجةً وإلَّا وقفتُ.

الْفَائِدَة السادسةُ: أن عدمَ استجابةِ المَدْعُوِّينَ للداعي لا يدلُّ عَلَى فسادِ قَصْدِهِ أو عَمَلِهِ، ولا يدل أَيْضًا عَلَى تقصيرِهِ، يَعْنِي إذا دعا الْإِنْسَانُ ولَكِنَّه لم ينجحْ، فلا يجوزُ لنا أنْ نَتَّهِمَهُ ونقول: هَذَا لو كانتْ نيَّتُه صالحةً لانتفعَ النَّاسُ بِهِ. إذَن هَذِهِ فائدة عظيمةٌ؛ لِأَنَّهُ ربما يَكُونُ من بعض النَّاس اعتراضٌ عَلَى الداعي، يقول: هَذَا الداعي نيَّته باطلةٌ، لو أن نِيَّته صحيحةٌ ما نفرَ النَّاسُ منه. فهَذِهِ فائدةٌ طيِّبةٌ.

الْفَائِدَة السابعة: تسليةُ الدُّعاة إذا قُدِّرَ أَنَّهُمْ لم يَنْجَحُوا مثلًا، فيقال: هَذَا النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ دعا هَؤُلَاءِ القومَ، وزادهم نفورًا، لَكِنْ كانتِ العاقبةُ له، فأنتَ اصْبِرْ وستكون العاقبة للمتَّقين.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا، رقم (١٢٧).

الْفَائِدَة الثامنة: إثبات صفةِ الرَّحمةِ وإثباتُ اسْمِ الرَّحمنِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ أنكروه.

الْفَائِدَة التاسعة: أن المعاصيَ يجرُّ بعضها بعضًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾.

الْفَائِدَة العاشرة: أن السجودَ من أسبابِ الرَّحمةِ، ولهذا قال: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾، سواء السجود العامّ أو السجود الخاصّ، فَإِنَّهُ من أسباب الرَّحمةِ، ولهذا لم يقل: اسجدوا لله، بل قال: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ يَعْنِي لتصلوا إِلَى رحمةِ هَذَا المسجودِ له.

الْفَائِدَة الحاديةَ عشْرةَ: وجوب امتثالِ أوامرِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مأخوذ من ذمِّ المشركين بعدم استجابتهم لأمر الرَّسول ﷺ بالسجود لله.

الْفَائِدَةُ الثَّانيةَ عشْرةَ: بُلُوغ المشركينَ الغايةَ فِي الاستكبارِ، ولهذا ما قالوا: لا نريدُ السجودَ، بل قالوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ يَعْنِي: عَلَى فَرْضِ أَنَّنا يُمْكِنُ أَنْ نَسْجُدَ فلا يُمْكِن أن نسجدَ لِأَمْرِكَ.

الْفَائِدَتان الثالثةَ عَشْرَةَ والرابعةَ عشْرةَ: أَنَّهُ لا يجوزُ للإِنْسَانِ أنْ يَقِيسَ الحقَّ بقائِلِهِ، وإنما يُعْرَف الحقُّ بالحقِّ، لا بالقائلِ؛ لِأَنَّ بعضَ النَّاسِ إذا قُلْنَا مثلًا: هَذَا قاله فلانٌ، قَالَ: مَن فلان بالنسبةِ لفلانٍ؟ فيريدون أنْ يعرفوا الحقَّ بالرِّجالِ، والواجبُ -كما قَالَ النَّوَوِيُّ وغيرُه- أنْ يُعْرَفَ الرِّجالُ بالحقِّ.

فكأنَّهم يَقُولُونَ: لو فُرِضَ أَنَّنا سَجَدْنا، ما سَجَدْنا لأمرِكَ، فيَكُون فِي هَذَا أَيْضًا دليلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أنْ يَنقادَ للحقِّ مهما كَانَ قائلُه، حَتَّى لو كَانَ من أَرْذَلِ النَّاس فِي نظرِه، فالواجبُ عليه أنْ يَنقادَ للحقِّ لِأَنَّهُ حقٌّ، لا لأنَّ قائلَهُ ذاكَ الرجُل.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لَمَّا قرأ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سُورةَ النَّجْم هل صَحيح أنَّ

الكفَّارَ سَجَدُوا[1] لسجود النَّبي ﷺ؟

نقول: صحيح، لَكِنْ هل ذلك مِنْ أجْلِ ما ذُكِر أو لِقُوَّة ما أَخَذَهُمْ، يَعْنِي لَمَّا كَانَ فِيـها التهديـدُ فِي الأوَّل ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ [النجم:٣٣-٣٤]، وقبلها أَيْضًا ذمّ الأصنامِ إِلَى آخِره، ثم جاءت أوصاف الله ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم:٤٨]، ثمَّ جاءَ التهديدُ بِذِكْرِ الأمثالِ فِي الأُمَم السابقينَ، فكأنَّ هَذَا أخذَ بألبابهم حَتَّى نَسُوا ما هُمْ عَلَيْهِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كيف كَانَ كُفَّار مكَّة يَطَّلِعُون عَلَى القُرْآنِ؟

فمعروفٌ أنَّ الرَّسولَ كَانَ يَقْرَأُ وأبو بكرٍ كَانَ يقرأ، وكان الصغارُ والنساءُ مِنَ الكفَّار يأتـون إِلَى أبي بكرٍ يَستمِعون لقراءَتَهُ، ويَسْتَـمِعُون أَيْضًا لقراءةِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهم يطَّلِعُون لأنَّ الرَّسولَ ﷺ يُبَلِّغُها والصحابة يبلِّغونها.

• • ❁ • •

(١) أخرجه البخاري: أبواب سجود القرآن، باب سجود المسلمين مع المشركين والمشرك نجس ليس له وضوء، رقم (١٠٧١).

الآيــة (٦١)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان:٦١].

قوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ تَبَارَكَ ﴾ تَعَاظَمَ]، وتَقدَّم أَنَّهُ لا يَنبغي الاقتصارُ فِيهَا عَلَى تَعَاظَمَ؛ فإنَّها تدُلّ عَلَى كثرةِ الخيراتِ وسَعَتِها؛ لِأَنَّ هَذِهِ البُرُوجَ الَّتِي سَتَأْتِي فِيهَا مِنَ الخيرِ للناسِ والمصلحةِ والمنفعةِ ما يُناسِبُ هَذَا الوصفَ.

وكلمة ﴿ تَبَارَكَ ﴾ مبالَغةٌ مِنَ البَرَكَةِ لزيادةِ (التاء)، وَهِيَ تقالُ لله عَزَّوَجَلَّ، والعامَّة عندنا يقولونها لغيرِ اللهِ، يَقُولُونَ: تباركتَ علينا، وَمَا أَشْبَهَ ذلكَ، فبعضُ النَّاسِ يَقُولُونَ: إن هَذَا الوصف خاصٌّ باللهِ، ولا يجوزُ أنْ تقولَ للإنْسَانِ: تباركتَ، ولَكِن الَّذِي نَرَى أَنَّهُ لا بأسَ بِهِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يريدون بـ(تباركت) أن الله وضعَ فيك بركةً، لا أنها بركة ذاتيَّة، فلا بأس بِهَا، والعِبرة بالمعاني، واللفظ إذا لم يكنْ فِيهِ محذورٌ شرعيٌّ فلا بأسَ به.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ هل قوله: ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى صيَّر أو بمعنى وَضَعَ؟ بمعنى وضعَ، وعلى هَذَا يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، وهو قوله: ﴿بُرُوجًا ﴾.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بُرُوجًا﴾ جمع بُرْج، والبرج فِي الأَصْلِ البناءُ العالي المرتفِع، وهَذِهِ البروجُ الشاملةُ للنجومِ لِعُلُوِّها هي فِي الحقيقةِ مثل الأبنيَةِ الشامِخَةِ العاليةِ، يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [اثْنَي عَشَرَ]، هَذِهِ بَـدَلٌ من ﴿بُرُوجًا﴾، يقول: [اثني عشر: الحَمَل، والثَّور، والجَوْزاء، والسَّرَطَان، والأَسَد، والسُّنْبُلة، والمِيزَان، والعَقْرَب، والقَوْس، والجَدْي، والدَّلْو، والحُوت]، اثنا عشر برجًا، بدأ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالحمل لِأَنَّهُ وقتُ اعتـدالِ الزمانِ الربيعيّ؛ لِأَنَّهُ إذا حلَّتِ الشَّمْسُ أوَّل يومٍ من بُرج الحَمَل تَساوَى الليـلُ والنهارُ ربيعًا عند ابتداءِ برج الحمل، يَعْنِي يَكُون الليـل اثنتَي عشْرةَ ساعةً، ويَكُون النهار اثنتَي عشْرةَ ساعةً.

هناك ثلاثةُ بُرُوج -الحَمَل والثَّور والجوزاء- إذا تمَّت الجوزاءُ وبدأَ السرطانُ انتـهى الليلُ فِي القِصَرِ، والنهار فِي الطُّول، يَعْنِي أن الشَّمْس تَنتـهي إِلَى البُروج الشماليَّة بعد هَذِهِ الثَّلاثَـة: الحمل والثور والجوزاء، ثم بعد ذلكَ تَنصرِف الشَّمْس إِلَى الجنـوبِ: السَّرَطَان والأسد والسُّنبلة، هَذِهِ الثَّلاثَة إذا مضت تَسـاوَى الليل والنهارُ خريفًا بعد انتهاءِ طُولِ النهارِ. والميـزان والعقرب والقوس هَذِهِ الثَّلاثَة إذا انْتَهَتْ يَنْتَهِي طُولُ الليلِ وقِصَر النهار، ثم تعود الشَّمْسُ فِي الجَدْي والدَّلْو والحُوت، إذا انتهى الحوت تَساوَى الليلُ والنهارُ ربيعًا.

وقد اختـلف النَّاسُ هل يُبْدَأ بالحَمَـل لِأَنَّهُ أحسنُ أيامِ السنـةِ، حيث إن فِيهِ الاعتدالَ الربيعيَّ، أو يُبْدَأ بالمِيزان؛ لِأَنَّهُ هو وقتُ اعتدالِ الزمانِ الخريفيِّ المعروف والمشهور. والأَكْثَرُ الَّذِي مَشَى عليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ يَبْتَدِئ بما فِيهِ الاعتدالُ الربيعيُّ، لكِن بعض النَّاس يَبتدِئ بالطرفِ الثَّاني ويزعُم أن هَذِهِ هي طَرِيقةُ العربِ، واللهُ أَعْلَمُ، لكِن الَّذِي أَرَى أنَّ التقاويمَ أَكْثَرُها يبدأ بِهَذَا، ويَقُولُونَ: إن العرب يَبْتَدِئون

منْ الِاعتدالِ الخريفيّ، وإن العَجَمَ يبتدئون من الاعتدالِ الربيعيّ، وكون العجم يبتدئون من الاعتدال الربيعي هَذَا واضحٌ، والعجم -إيران وتوابعها- تؤرِّخ ابتداء السنة بالحمل؛ لِأَنَّ السنينَ عندهم شمسية ويَبْدَأونها ببُرج الحَمَل.

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهي مَنازل الكواكبِ السبعةِ السَّيَّارة؛ المِرِّيخ، وله الحَمَل والعقرب. والزُّهْرَة، ولها الثَّور والميزان. وعُطَارِد، وله الجَوزاء والسُّنْبُلة. والْقَمَر، وله السَّرَطان، والشَّمْس، ولها الأَسَد. والمُشْتَرِي، وله القَوْس والحُوت. وزُحَلُ، وله الجَدْي والدَّلْو].

على كلِّ حالٍ هَذَا التقسيمُ الأخيرُ لا أعرِف وجهَه، ولا أَدري عنه، لكِن هَذِهِ البُرُوج الشَّمْس تَقْطَعُها فِي السنَةِ كما سمِعنا قريبًا، والْقَمَر يَقْطَعُها فِي الشهرِ، كل شهر يَقطع الْقَمَر هَذِهِ البروجَ، وله منازل: ثمانٍ وعشرونَ منزِلةً، تَشتَمِل عَلَى هَذِهِ البروجِ الاثْنَي عَشَرَ، أمَّا الشَّمْس فإنما تَقْطَعُها فِي السنة. وهَذِهِ البُرُوج يدلّ عَلَى عَظَمَتِها أن اللهَ قال: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ [الفرقان:٦١].

وقوله: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ المراد بِهِ العُلُوّ، وليس المراد بِهِ السَّقْف المحفوظ، بل هو العُلُو؛ لأنَّ هَذِهِ البروج دُونَها.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَعَلَ فِيهَا ﴾ أَيْضًا ﴿سِرَٰجًا ﴾ هو الشَّمْس ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾، وَفِي قراءة: سُرُجًا[1] بالجمع، أي نيِّرات، وخصَّ الْقَمَرَ منها بالذِّكر لنوعِ فضيلةٍ]، عَلَى هَذِهِ القراءة خص الْقَمَر منها بالذِّكر لنوع فضيلة، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عُطِفَ القمر عَلَى سُرُج وهو منها لنوعِ فضيلةٍ، ولَكِن عَلَى قراءةِ الإفرادِ المرادُ بالسراجِ الشَّمْسُ، وسُمِّيَتْ سِراجًا والْقَمَر مُنِيرًا؛ لِأَنَّ الشَّمْسَ نورها ذاتيّ وحارّ،

(١) كتاب الحجة في القراءات السبع (ص٤٦٦).

والْقَمَر نوره مكتسَب مِنَ الشَّمْس، فليسَ بنفسِه سِراجًا، وإنما هو مُنيرٌ أو نورٌ، لَكِنَّ نورَه مكتسَب.

وعلى قراءةِ (سُرُج) يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يعني نيِّرات] ومنها الْقَمَر نيِّر، لكِن خصَّه لنوع فضيلةٍ، لكِن أقول: إن كَلامَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِيهِ نَظَرٌ، فعطفُ الْقَمَرِ المنير عَلَى السُّرُج من بابِ عَطْفِ المُتَغايِرَيْنِ، لا من بابِ عطفِ الخاصّ عَلَى العامّ، فالْقَمَرُ لَيْسَ من السُرُج، ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح:١٦]، فالشَّمْسُ بلَا شَكٍّ سراجٌ، ولَكِن الْقَمَر نُور، فعليه لا يَكُونُ منها، ولا يحتاج إِلَى الجوابِ الَّذِي ذكر المُفَسِّر: خصَّ الْقَمَر لنوع فضيلةٍ، بل نقول: إن هَذَا لَيْسَ من بابِ التخصيصِ، ولَكِن من بابِ عطفِ المتغايِرَيْنِ، لكِن قراءة الجمع (وَجَعَلَ فِيهَا سُرُجًا) تدلّ عَلَى أنَّ غير الشَّمْسِ من الكواكبِ فِيهِ حرارة وفيه إضاءة أَيْضًا، لَكِنها لا تصل إِلَى الْأَرْض لِلْبُعد، ولَكِن هَذِهِ الآية تدلّ عَلَى أنَّ فِيهَا الحرارة والإضاءة. وإنما ذكر السُّرُج والْقَمَر المنير مع البروج لِأَنَّ البروج منازلُ، وهَذِهِ الأشياء نازلةٌ، فذكر المنازل والنازِل جميعًا، وكلاهما مما يدلّ عَلَى آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العظيمة الَّتِي لا يُمْكِن أنْ يُقابِلَها أيُّ أحدٍ.

• • ۞ • •

الآيــة (٦٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي يَخْلُفُ كلٌّ مِنهما الآخَرَ ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ بالتشديد والتخفيفِ[1] كما تقدَّم]، (يَذْكر) أو (يَذَّكَّر) [ما فاته فِي أَحَدِهما من خيرٍ فيفعله فِي الآخَر ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي شكرًا لنعمة ربِّهِ عليه فيهما].

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ الضمير فِي قولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ يعـود عَلَى ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ يَعْنِي: ومن آياتِـه ونِعَمِه أَنَّهُ جعلَ الليـلَ والنهارَ خِلْفَة، يَعْنِي يَخْلُف بعضُهما الآخرَ، هَذِهِ الخِلفة فِيهَا فائدةٌ عظيمةٌ جِدًّا، بل فائدتانِ عظيمتانِ:

أَوَّلًا: التذكُّر والاتِّعاظ.

ثانيًا: شُكْر النعمةِ.

ففي التـذكُّرِ يقول المُفَسِّر: [ما فاته فِي أحدهما من خير فيفعله فِي الآخَر]، وهذا نوع من التـذكُّر فِي الواقعِ، لكِن من التذكر أنْ تَتَـذَكَّر بذلك قُدْرَةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ

(١) السبعة في القراءات (ص٢٧٢).

حيث أتى بالليلِ بدل النهارِ، وبالنهار بدل الليلِ، ولوِ اجتمعَ الخَلْق عَلَى أنْ يغيِّروا هَذَا النظامَ فيأتوا بالليلِ بدلَ النهارِ أو بالعكسِ ما استطاعوا إِلَى ذلك سبيلًا.

ثانيًا: مِمَّا تتذكره فِي هَذَا الليل والنهار تَذَكُّر المَوْتِ والحياة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠]، وَفِي الحقيقةِ أن الْإِنْسَان إذا قامَ مِنَ الليلِ يشعر كأنه خُلِق من جديدٍ، يَعْنِي لو يتصور الْإِنْسَان أن الوقتَ كله نهار أو كله ليلٌ ما حَصَلَ هَذَا النشاط الَّذِي يَتَجَدَّد له كلَّ يومٍ، ويشعر بأنه دخلَ فِي حياةٍ جديدةٍ، ولهذا سمَّاه الله تَعَالَى بَعْثًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠]، حيثُ تتذكر البَعْث بعدَ المَوْت.

كَذَلِك أَيْضًا مما يتذكَّر ويتَّعظ بِهِ أَنَّهُ يتذكر مُطلَق البَعْث وأن الله قادِر، يتذكر أَنَّهُ لا بدَّ من يَقَظَةٍ بعد الرَّقْدة، وذلك فِي يوم القيامةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس:٥٢]، فلا بدَّ مِن هَذَا؛ لِأَنَّ هَذِهِ سُنَّة الله، لكِن يوم القيامةِ يوم وَاحِدٌ، لا ليلَ فِيهِ، بل هو دائمًا عَلَى ما هو عليه.

كَذَلِك أَيْضًا ما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنَ التذكُّر العمليّ أن الْإِنْسَانَ إذا نَسِيَ عبادةً فِي ليلٍ قَضاها فِي النهارِ، أو فِي نهارٍ قَضاها فِي الليلِ، أو إذا لم يَتُبْ فِي النهار تابَ فِي الليل «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ»[1] والنَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَانَ إذا غَلَبَهُ نومٌ أو وَجَعٌ فما يُصَلِّيه فِي الليلِ قَضَاهُ فِي النهارِ[2] فهذا أَيْضًا من التذكُّر العَمَلِيّ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم (٢٧٥٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض، رقم (٧٤٦).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل الوِتْرُ يُصَلَّى عَلَى صِفتِه إذا كَانَ قضاءً؟

الصحيحُ أَنَّهُ لا يَقضيه عَلَى صفتِه، وأنه يشفعه؛ لِأَنَّ هَذَا حديثٌ ثابتٌ فِي مسلم، وهل يُسَمَّى وِترًا؟ نقولُ: يُسمَّى قضاءً، لكِن أصل الوتر «اجْعَلُوا آخِرَ صَلَاتِكُمْ بِاللَّيْلِ وِتْرًا»[1]، فصلاة الليلِ انتهتِ الآنَ، فلا فائدةَ من الوترِ، لكِن ما كَانَ الْإِنْسَانُ يَتَعَبَّد بِهِ لربِّه يحبُ أَلَّا يَفُوتَه، وهذا ما تَرَكَه عمدًا، بلْ تَرَكَه نسيانًا، وترك قَضَاءَه، وهو أهونُ من فعله، ولَكِن مع هَذَا نقولُ: لا يَنبغِي لِلإنْسَانِ إذا كَانَ عادته أَنَّهُ يوتر بثلاث يصلي أربعًا، ولْيَتَذَكَّرِ الْإِنْسَانُ عندَما تقولُ لَهُ نفسُه: لا تَفْعَلْ هَذِهِ الطاعةَ أَنَّهُ سيحتاجُ إليها حاجةً عظيمةً.

وأمَّا قوله: ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ فـ(أَوْ) هنا هل هي للتقسيمِ والتنويعِ، بمعنَى أنْ يَجْعَلَ هَذَا قَسيمًا للأوَّلِ، فتكون مانعة اجتماع أو هي مانعة خلوّ؟

الجواب: مانعة خلوّ؛ لأنَّ مانعةَ الاجتماعِ معناها أَنَّهُ إذا وُجِدَ الأوَّلُ امتنعَ الثَّاني، لكِن مانعة الخلوِّ معناها إمَّا أن يوجدَ هَذَا أو هَذَا، أو هما ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ فهل يمكن أنْ يَجتمعِا؟ نعم إذَنْ هي مانعةُ خلوٍّ.

قوله: ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ يَعْنِي أنَّ مَن أرادَ أنْ يَشْكُرَ نعمةَ ربِّه عليه فِي هَذَا النهارِ والليلِ فَإِنَّهُ له المجالُ، ولَا شَكَّ أن مَن تَذَكَّرَ نعمةَ اللهِ فِي هَذَا الليلِ والنهارِ لا بدَّ أنْ يَشْكُرَ اللهَ، ففي الليلِ سكونٌ وهدوءٌ، وكلٌّ راقِدٌ، وكلٌّ ساكنٌ، فيَطِيبُ النومُ، ويَلَذُّ، وتَحْصُل الراحةُ الكاملةُ، هَذِهِ نعمةٌ عظيمةٌ، وَفِي النهارِ الأمرُ بالعكسِ، فَفِي الْإِنْسَانِ نشاطٌ وقوَّةٌ ورَغْبَةٌ فِي الكَسْبِ والعملِ، فيَزداد بذلك شكرًا لله عَزَّوَجَلَّ

(١) أخرجه البخاري: أبواب الوتر، باب ليجعل آخر صلاته وترا، رقم (٩٩٨)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل مثنى مثنى، والوتر ركعة من آخر الليل، رقم (٧٥١).

عَلَى هَذِهِ النعمةِ، وليس هَذَا المجالُ أو هَذَا المكانُ بمحيطٍ لِمَا يَتَصَوَّرُه الْإِنْسَان من نعـمةِ اللهِ تَعَالَى عليه بِهَذَا الليلِ والنهارِ، فالْإِنْسَـان أحيانًا يُفتح عليه عند التأمُّل والتفكُّر ما يَتَبَيَّن بِهِ نعمةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أكْثَر مما نقول وممَّا نستطيع أن نقـولَ، ولو أنَّ الْإِنْسَانَ سَهِرَ ليلةً مِنَ الليالي لَتبيَّنَ له نعمةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى النَّاسِ بِهَذَا الليلِ وهذا النهارِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قولُه: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون:٨٨-٨٩]، السؤال بـ(مَنْ) الجواب: لله؟

هَذِهِ فِيهَا قراءتانِ؛ هَذِهِ القراءة الَّتِي ذُكرت فِي السؤالِ، وَهِيَ الَّتِي فِي المصحف، وقراءة ثانيةٌ سَبْعِيَّة: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾؛ ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾، أَمَّا الأُولى ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون:٨٤]، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:٨٥]، يَعْنِي الأولى ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾؛ لِأَنَّ السؤال ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾، الثَّانية ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [المؤمنون:٨٦]، فِيهَا قراءتان: الجواب ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، وقراءة ثانية سبعيَّة ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾، والثالثة أَيْضًا ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الجواب: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أو ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾[1]، أَمَّا ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ فلا إشكال فِيهَا، لكِن عَلَى قراءة ﴿لِلَّهِ﴾ يَكُون المعنى: سيقُولُونَ: ذلك لله، أي الربوبيَّة العظيمة الَّتِي هي رُبُوبية السَّمواتِ والْأَرْضِ لله، أمَّا عَلَى قراءة ﴿ٱللَّهُ﴾ فالمعنى: سيقُولُونَ: هو اللهُ.

• • ۞ • •

(١) المبسوط في القراءات العشر (ص٣١٣).

الآيــة (٦٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣].

مرَّ فيما سبقَ أنَّ الله تَعَالَى أَثْنَى عَلَى نفسِه بمخلوقاتِهِ العظيمةِ؛ الْبُرُوج الَّتِي جعلها فِي السَّمَاء لِمَا تَتَضَمَّنَه مِنَ الدلالةِ عَلَى قُدْرَتِهِ وعلى رَحْمَتِه بعبادِهِ، وكَذَلِك الْقَمَرُ والشَّمْسُ، ففيهما من مصالحِ العبادِ الدينيَّة والدنيويَّة ما هو معلومٌ، فالْقَمَر جَعَلَهُ الله تَعَالَى مِيقاتًا للحجِّ وللصومِ ولآجالِ النَّاسِ فِي بَيْعِهِم وشِرَائِهِم ودُيُونِهِم، وغيرِ ذلكَ، والشَّمْسُ فِيهَا منافعُ أَيْضًا كثيرةٌ؛ مِن إنضاجِ الثمارِ وتعاقُبِ الليلِ والنهارِ والفصولِ وغيرِها، ثمَّ بَيَّن أَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ جَعَلَ الليلَ والنهارَ خِلْفَةً، يَخْلُفُ أحدُهما الآخَرَ، ولَكِنَّ هَذِهِ الآيةَ لا يَنْتَفِعُ بِهَا إِلَّا مَن أرادَ أنْ يَذَّكَّر أو أرادَ شُكُورا، ﴿يَذَّكَّرَ﴾ يَعْنِي ما فيهما من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والإشارة إِلَى ما هو أعظمُ من البعثِ والنشورِ يوم القيامةِ، فإنَّ الليلَ والنوم فِيهِ بمنزلة المَوْتِ والنهارِ، والاستيقاظُ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ البَعْثِ، وَأَمَّا الشُّكُور، فَإِنَّهُ لَمَّا تَضَمَّن هَذَا التخالُف بَيْنَ الليلِ والنهارِ مِن مصالحِ العبادِ ما تَضَمَّنَهُ صارَ مُسْتَوْجبًا عَلَى العبدِ أنْ يشكرَ نعمةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عليه بذلكَ.

ثم بَيَّن اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدَ أنْ ذكرَ ما سبقَ عن المشركينَ المجادِلينَ للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والمكذِّبين له الَّذِينَ لم يَنْتَفِعُوا بآياتِ اللهِ، ولم يُؤْمِنُوا بِهِ، ولا برسولِهِ؛

ذَكَرَ أو خَتَمَ هَذِهِ السورةَ بذِكْرِ مَن كانوا عَلَى خلافِ هَؤُلَاءِ، وهكذا القُرْآنُ جَعَلَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مثانيَ تُثَنَّى فِيهِ المعاني المتقابِلَة والمتماثِلَة أَيْضًا، ولهذا دائمًا تجدُ أنَّ اللهَ إذا ذكرَ النارَ يذكُر الجنَّة، وإذا ذكرَ الجنَّةَ ذكرَ النارَ، وإذا ذكرَ صفاتِ أهلِ النارِ ذكرَ صفاتِ أهلِ الجنَّة، وهكذا؛ لِأَنَّهُ مثانٍ، وهذا من الحِكْمَةِ؛ لأنَّ الْإِنْسَانَ إذا رَأَى النارَ وصِفات أهلِهَا قد يُؤَدِّي ذلكَ إِلَى القُنُوط من رحمةِ اللهِ، فيأتي بعده ذِكْر الجنَّة وأهلها فيَنْشَط ويَرْجُو رحمةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والعكسُ بالعكسِ.

وَمِنَ المعلومِ للإنْسَانِ أَنَّهُ إذَا كَانَ عَلَى وَتيرةٍ وَاحِدةٍ لَحِقَه السَّأَم والمَلَل، فإذا تنوَّعتْ له الأحوالُ وتنوَّعَ الخطابُ نَشِطَ فيبدأ بالجنَّة أحيانًا وبالنار أحيانًا حَسَبَ ما يَقْتَضِيه السياقُ، إِنَّمَا فِي الغالبِ إذا ذكر الصِّفاتِ لهذا ذكر الصِّفاتِ لهذا؛ ليَكُون الْإِنْسَانُ غيرَ مالٍّ وغيرَ قانطٍ من رحمةِ اللهِ، وغير آمِنٍ من مَكْرِه.

قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾: (الرَّحمن) كُرِّرت فِي مَوَاضِعَ قريبةٍ جدًّا ثلاثَ مرَّات.

- فِي قولِه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

- وَفِي قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

- والثالثةُ هُنا فِي قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، ثم السُّورة كُلّها مُصَدَّرة بالقُرْآنِ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾؛ مِمَّا يدلّ عَلَى أنَّ نُزُولَ هَذَا القُرْآنِ مِن رحمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مبتدأٌ، وما بَعْدَهُ صفاتٌ له، إِلَى أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ غير المُعْترضِ فِيهِ].

قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عِبَادٌ جمعُ عبدٍ، وأضافهم إِلَى الرَّحمنِ ولم يَقُلْ: عباد اللهِ، أو عباد الربِّ، وَمَا أَشْبَهَ ذلكَ إِشَارَةً إِلَى أنَّ هَذِهِ العُبُودِيَّة الَّتِي اتَّصَفُوا بِهَا من آثارِ رحمةِ اللهِ، وأن الله تَعَالَى رَحِمَهُمْ حَتَّى صاروا عبادًا له. وَفِي الإضافةِ أَيْضًا معنًى آخرُ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي أَنَّهُمْ عبادٌ يَتَعَبَّدُونَ لله لِرَجَاءِ رحمتِه، وبرحمتِه أَيْضًا عَبَدُوه، لا يَتَعَبَّدُون رِيَاءً ولا سُمْعَةً، فهذا وجهُ الإضافةِ من الناحيتينِ؛ من ناحيةِ أنَّ عِبَادَتَهُم لله كانتْ مِن مُقْتَضَيَاتِ رحمتِه، ومن ناحيةٍ أُخرى أَنَّهُمْ يَرْجُونَ بهَذِهِ العِبَادَةِ رحمةَ ربِّهم، لا يرجونَ بذلك دنيا ولا دَفْعَ مَذَمَّةٍ عنهم، وإنما يَرْجُونَ بِهَذَا رحمةَ اللهِ.

وهَذِهِ العُبُودِيَّة خاصَّةٌ؛ لِأَنَّ المرادَ بِهَا عُبُوديَّةُ الشَّرعِ، وعبودية الشرع خاصَّة بِمَن أتى بالشرعِ. أمَّا العامَّةُ فهي عُبوديَّة القَدَر، وَهِيَ الخُضُوع لِقَدَرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهَذِهِ عامَّة، كل أحدٍ خاضِعٌ لِقَدَرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لا يُمْكِن أنْ يَسْتَعْصِيَ عليه، وَأَمَّا قول المُفَسِّر: [مبتدأ وما بعده صفات له] يَعْنِي: والخبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان:٧٥]، ففيه نَظَرٌ، بل الصواب أن (عباد) مبتدأٌ، وخَبَرُه ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، وما بعدَه معطوف عليه، يَعْنِي عباد الرَّحمن هم الَّذِينَ يَمشُون عَلَى الْأَرْضِ هونًا إِلَى آخِرِهِ، ويَكُون قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ جملةً مُسْتَأْنَفَةً لبيانِ جزائِهم وثوابِهم؛ وذلك لأَنَّنا إذا مَشَيْنا عَلَى ما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لَزِمَ مِن هَذَا الفصلِ بَيْنَ المبتدأِ والخبرِ بفواصلَ طويلةٍ، لا داعيَ لها، ولَزِمَ أنْ يَكُونَ الكَلامُ غيرَ تامٍّ حَتَّى نهاية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أيْ بِسَكِينَةٍ وتَوَاضُعٍ]، قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أبلغُ من (الماشون عَلَى الْأَرْض هونًا)؛ لأَنَّ الجملةَ الفعليَّة تَدُلُّ عَلَى الحُدُوثِ والتَّجَدُّدِ، يَعْنِي الذينَ فِي حالِ مِشْيَتِهم يَمشُون

عَلَى الْأَرْض هونًا، وَفِي تعريفِ المبتدأِ والخبرِ دليلٌ عَلَى الحَصْرِ كما هو معروفٌ فِي القواعدِ؛ أَنَّهُ إذا عُرِّف المبتدأُ والخبرُ كَانَ ذلك دليلًا عَلَى الحَصْر، يَعْنِي أَنَّ عبادَ الرَّحمنِ هم هؤلاءِ.

قولـه: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في سَكِينَةٍ وتَوَاضُعٍ] يَعْنِي ليستْ مِشْيَتُهم مِشْيَةَ الْإِنْسَانِ الَّذِي لَيْسَ بِمُتَّزِن، وإنما مِشْيَتُهم مِشْيَةُ اتِّزانٍ، هَوْنًا بِدُونِ سُرْعَةٍ، ولا ينافي ذلك ما ثَبَتَ عن النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من أَنَّهُ كَانَ يَمْشِي بِقُوَّةٍ وجَلَد كأنما يَنْحَدِرُ مِن صَبَبٍ[1]، فإنَّما ذلك لِقُوَّتِه، وليس هَذَا من بابِ العَجَلَة الَّتِي تُقَبَّح، ففَرْقٌ بَيْنَ إنْسَانٍ يمشي كمِشيةِ المجنونِ غير المهذَّب، وإنْسَان يَمشي بقوَّةٍ ولَكِنَّه يمشي مشيًا مُتَّزِنًا، فالأوَّلُ مذمومٌ، والثَّاني محمودٌ؛ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى النشاطِ وعلى القوَّة، وأريحُ للبَدَنِ وأسرعُ فِي بلوغِ الغايةِ، كما كَانَ الرَّسولُ ﷺ يَفْعَلُ، وأيضًا كَانَ عمرُ إذا رأَى الرجل يَتَوَانَى فِي مِشْيَتِه ضَرَبَه.

ثمَّ إنَّ هَذَا المشيَ هل هو المشيُ الحِسِّيّ أو يَعُمُّ المشيَ الحِسِّيَّ والمَعْنَوِيَّ؟

الجواب: يَعُمُّهُما جميعًا، حَتَّى المشي المَعْنَوِيّ، بدليل قولِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾، وهذا من هَوْنِ المشيِ المعنويّ، أَنَّهُمْ إذا خاطَبَهُمُ الجاهلونَ لا يَتَسَرَّعُونَ فيقابلونه بمثلِ جَهْلِه، ولَكِنَّهم يَقُولُونَ: سلامًا.

قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ وليسَ المرادُ بالجاهلِ الَّذِي لَيْسَ بعالمٍ، بل المرادُ السَّفِيهُ؛ لأنَّ الجَهَالَة تُطْلَق عَلَى السَّفَه، قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء:١٧]، يَعْنِي السَّفَه، ثم يَرْشُدُون.

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب المناقب، رقم (٣٦٣٧).

يقول المُفَسِّر: [﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ بما يَكْرَهُون ﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾، أي: قولًا يَسْلَمُونَ فِيهِ مِنَ الإثم]، وليس المراد (سلاما) يَعْنِي: السلام عليكم، كما يَظُنُّ بعضُ العامَّة، ولذلك تَسَلَّط الفعلُ عَلَيْهَا فَنَصَبَها، ولو كَانَ المرادُ بالسلامِ الجملة السلامية لقال: (قالوا: سلام)، ولَكِن المراد مثلَما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قولًا يسلمون فِيهِ من الإثمِ] ومن التطاوُلِ فِي الأذيَّةِ؛ لأنَّ الرجلَ إذا قابلَ الجاهلَ بمثلِ قولِه فالجاهلُ لا حدودَ له، لا يَحُدُّه شَرْعٌ ولا عقلٌ، إذا قَالَ كَلِمَةً أتاهُ بكلمتينِ، أو بعشَرةٍ، لَكِنه إذا كَانَ عاقلًا مؤمنًا مُتَّزِنًا فَإِنَّهُ يقولُ قولًا يَسْلَمُ فِيهِ مِنَ الإثمِ ومن الأذيَّة، وهذا القَوْلُ يَحْفَظُ للإنْسَانِ كَرَامَتَهُ؛ لِأَنَّهُ لم يَقُلْ: إنهم يَسْكُتُون، بل قَالَ: قَالُوا قولًا، فلا بدَّ من قولٍ لَكِنَّه قولٌ يَسْلَمُون بِهِ من أذيَّة هَذَا الجاهلِ ومن إثمِه، ومن النزاع والخصومةِ، ويَنتصِرون لأنفسِهِم، فلا يحسبهم الجاهلُ جُبَنَاءَ ولا يحسبهم مُتَّصِفِينَ بما يقـول إذا سَكَتُوا؛ لأَنَّهُمْ إذا سكتـوا مع القُدْرَة عَلَى الإنكارِ فَإِنَّـهُ يدلُّ عَلَى أَنَّهُمْ راضونَ بما وُصِفُوا بِهِ، ولا بدَّ من مُقَابَلَتِهِم، ولَكِنْ كما قَالَ الله تَعَالَى بقولٍ يَسْلَمُ فِيهِ الْإِنْسَانُ منَ الإثمِ فيما بينَه وبينَ اللهِ، ومن اللَّجاج والخُصُومة فيما بينَه وبينَ هَؤُلَاءِ الجاهلينَ.

قوله: ﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ مثـالُ ذلك لو قَالَ له: أنت فاسِقٌ، أنت سَروقٌ، أنـت كَذوبٌ، أنت كذا، ولا نستطيع أنْ نحدِّد؛ لِأَنَّ هَذَا يَرْجِعُ تحديدُه إِلَى الحالِ أو المقامِ الَّذي يَكُون فِيهَا الْإِنْسَانُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ إذا سكت عنه سَيَنْتَهِي؟

نقول: الآيةُ ما تعرضتْ لهذا، لكِن لو رُوعِيَتِ المصلحةُ فلا بأسَ، فهم هنا وَصفهم أَنَّهُمْ يَقُولُونَ قولًا يَسلَمون فِيهِ مِنَ الإثمِ، لكِن القَوْل أحسن فِي الغالبِ،

وليس معنى القَوْلِ أن يردَّ عليه، فمن القَوْلِ أن يَنْصَحَهُ؛ يقول: يا أخي، اتقِ اللهَ، مثلما قَالَ الرَّسول ﷺ فيمَن شُتِمَ وهو صائمٌ، قال: «فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ»[1] فالمهمُّ أنْ يَسْلُكَ الطَّريقَ؛ لِأَنَّ سكوتَه قد يؤدِّي إِلَى استطالةِ الآخرِ عليه ويَعْتَقِد أَنَّهُ ضعيفٌ أمامَه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قولُه تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥]، هل هَذِهِ الآيةُ مثل قَوْلِه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾؟

نقول: هَذِهِ الآية غير تِلْكَ، فَقَوْلُه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ﴾ الخِطَاب مَعَهم، وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ﴾ يَعْنِي أنَّ الكَلامَ لَيْسَ فِيهِ فائدةٌ فقَامُوا وَتَرَكُوهم وقالوا: سلامٌ عليكمْ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب فضل الصوم، رقم (١٨٩٤)، ومسلم: كتاب الصيام، باب حفظ اللسان للصائم، رقم (١١٥١).

الآيـة (٦٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٤].

قَالَ المُفَسِّر: [﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا ﴾ جَمْع سَاجِد ﴿وَقِيَـٰمًا﴾ بمعنى قائمينَ، أي يُصَلُّون الليلَ]، قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يصلون الليل] أَخَذَهُ من قَوْلِهِ: ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾.

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا ﴾ هَذَا معطوفٌ عَلَى ما سَبَقَ، وتقديم المعمولِ أو المُتَعَلِّق يَدُلّ عَلَى الحَصْرِ، يَعْنِي: لا يَسْجُدُون رِيَاءً ولا سُمْعَةً، وإنَّما يَسْجُدُون لله وَحْدَهُ: لِرَبِّهِم، وَفِي قوله: ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ دونَ قولِهِ: (لله) إشارةٌ إِلَى أنَّ هَذَا السجودَ يُرِيدُونَ بِهِ ثوابَ اللهِ ورِضْوَانَه؛ لِأَنَّ الربَّ هو المالِكُ المتصرِّف، ومِن مُلْكِه وتَصَرُّفِه مُجَازَاة هَؤُلَاءِ عَلَى أعمالِهم.

وقوله: ﴿سُجَّدًا﴾ الساجِدُ معروفٌ، ﴿وَقِيَـٰمًا﴾ والقائم أَيْضًا معروفٌ، يَعْنِي قائمينَ، ولم يَذْكُرِ اللهُ الركوعَ، ولم يَذْكُرِ القعودَ؛ لِأَنَّ القيامَ أشرفُ ما فِي الصلاةِ من حيثُ ذِكْرُه؛ أي مِن حيثُ الذِّكْرُ الَّذِي هو القُرْآنُ، والسجودُ أشرفُ ما فِي الصلاةِ من حيثُ الحالُ والهيئةُ، قَالَ ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»[1]، فَذَكر القيامَ لِشَرَفِه بِذِكْرِه، أي: بما يُقالُ فِيهِ، وذكرَ السجودَ لِشَرَفِه بِهَيْئَتِهِ، فدلَّ ذلكَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢).

عَلَى أنَّ هَذَا أفضلُ حالاتِ الصلاةِ، وهوَ كذلكَ.

وقولـه: ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ قد يقـولُ قائلٌ: إنَّ ظاهرَ الآيةِ الكريمـةِ أنَّهم يَسْهَرُون الليلَ؛ لِأَنَّهُ ذكرَ أنَّ وَصْفَهم فِي حالِ البياتِ القيامُ والسجودُ، فهل معنى ذلك مشروعيَّة قِيَامِ الليلِ كلّه؟

نقولُ: إذا أَخَذْنَا بظاهرِ الآيةِ فَهُوَ كَذَلِك، ولَكِن ما جاءتْ بِهِ السنَّةُ يدلُّ عَلَى خلافِ هَذَا، وأنَّ أفضلَ ما يَكُونُ أنْ ينامَ الْإِنْسَانُ نصفَ الليلِ ويقوم ثُلُثَه، وينام سُدُسَه[1] كما كَانَ ذلك صلاة داود عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وصلاة النَّبي ﷺ، فَإِنَّهُ كَانَ ينامُ سَحَرًا ويقوم فِي جوفِ الليلِ ﷺ، فيكُون عَلَى هَذَا معناهُ أنَّهم يَبِيتُونَ غالبَ لَيْلِهم، أو أن الله يَكْتُبُ لهم أَجْرَ الصلاةِ والقيامِ، وإنْ كانوا بائتينَ، ما داموا عَلَى هَذِهِ النيَّة، وعلى هَذَا الفعـلِ، ما داموا يفعلون ويَنْوُون أَنَّهُمْ إذا ناموا إِنَّما ينـامون لِيَتَقَوَّوْا عَلَى القيامِ، فيكتب لَهُمْ أَجْره وإنْ كانوا نائمينَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله: ﴿يَبِيتُونَ﴾ لا يَلْزَمُ منه القيامُ بالليلِ، بل المرادُ مُطْلَق القيامِ؟

الجواب: لكِن قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَبِيتُونَ﴾ والبياتُ لا يَكُونُ إِلَّا باللَّيْلِ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود: كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يوما ويفطر يوما، رقم (٣٤٢٠)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا أو لم يفطر العيدين والتشريق، وبيان تفضيل صوم يوم، وإفطار يوم، رقم (١١٥٩).

الآيــة (٦٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان:٦٥].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أيْ لَازِمًا]، هَذَا مِمَّا يَدْعُونَ اللهَ به.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ فِي قولِهم: رَبَّنا اصْرِفْ عنَّا عذابَ جَهَنَّم دليلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لا يُدِلُّون عَلَى الله بأَعمالِهم، وأَنَّهُمْ معَ قيامهم بِهَذَا العملِ خائفونَ منَ النارِ، ولذلك يسألون الله تَعَالَى أن يَصْرِفَ عنهم عذابَ جَهَنَّم، وجهنمُ اسْمٌ من أَسْماءِ النارِ، وسُمِّيَتْ بِهِ لِأَنَّهَا بَعِيدةُ القَعر مُظْلِمَة.

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أيْ لَازِمًا كملازمةِ الغَريمِ لِغَرِيمه، وهذا بالنسبةِ للعذابِ المطلَقِ، لا لِمُطْلَقِ العذابِ؛ لِأَنَّ مطلقَ العذابِ لَيْسَ بلازِمٍ، فالمؤمنُ يعذَّب بالنـارِ عَلَى حَسَب ذُنُوبِه، ثم يخرج مِنـها إِلَى الجنَّة، لكِن عذابها المُطْلَق غَرَامٌ ملازِمٌ لها، فهم يسألون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ يَصْرِفَهُ عنهم، ويُبَيِّنُونَ مِقْدَار هَذَا العذابِ الَّذِي استعاذوا باللهِ منه أَنَّهُ ملازِم لِمَن أُخِذوا به.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ يخبر الله تَعَالَى أن من صفاتِهم أَنَّهُمْ يَتَوَسَّلُون إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِرُبُوبِيَّتِه لِيَصْرِفَ عنهم عذابَ جَهَنَّم، والغالبُ

أنَّ الأدعِيَةَ تُصَدَّرُ بالتوسُّلِ بالربوبيَّةِ: (رَبَّنا)؛ لِأَنَّ فِيهَا التصرُّف والتدبير. وَفِي قولهم: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ توسُّل أَيْضًا؛ لِأَنَّ شِدَّة هَذَا العذابِ وَمُلَازَمته يُوجِب للمرءِ الفِرار منه والاستعاذة باللهِ مِنْهُ.

• • ۞ • •

الآيــة (٦٦)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان:٦٦].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ ﴾ بِئسَتْ ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ هي أي مَوْضِع استقرار وَإِقَامَة].

قوله: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ ﴾ هَذِهِ الجملةُ يَحتمِلُ أنَّها مِن كَلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ويحتمل أنها من كَلامهم، يَعْنِي أنَّهم استجاروا من النارِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَبَيَّنوا سَبَبَ ذلكَ بأن عَذَابَهَا دائمٌ، وأنها أَيْضًا بئست المَحَلّ للاستقرارِ والمُقام، فكأَنَّهُمْ بيَّنوا سَبَبَ استعاذتهم باللهِ مِنها بهذينِ الأمرينِ؛ بدوام عذابِهَا وبِسُوء مُقامها، والعياذُ باللهِ، مِمَّا يَحْفِزهم لسؤالِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنْ يَصْرِفَ عنهم هَذَا العذابَ.

قولـه: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ عكس أهل الجنَّـة ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان:٢٤]، وقوله: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ قد يدلُّ أنَّ فِي النارِ خَيْرِيَّة كما هو مُقْتَضَى اسْم التفضيلِ، وليسَ كذلكَ.

الآيــة (٦٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ﴾ عَلَى عِيَالِهم ﴿لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ بفتحِ أَوَّلِه وضَمِّه، أي يُضَيِّقُوا]، فتح أوله ﴿يَقْتُرُواْ﴾ وضَمِّه أي ضمّ أَوَّله، المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يُفْصِحْ فِي القراءةِ، يَعْنِي لم يَذْكُرْ حُكْمَ التاء فِي المسألةِ الأخيرةِ؛ لِأَنَّ ﴿يَقْتُرُواْ﴾ ليست بظاهرةٍ من جهةِ التصريفِ، قَالَ: بفتحِ أَوَّله وضمه: «ولم يَقْتُروا»، «ولم يُقْتُروا»، هَذَا ظاهر كَلامه، وليس كَذَلِك، وإنما إذا قُرِئَ بضمِّ الياءِ كُسِرَتِ التاءُ: «ولم يُقْتِروا» من أَقْتَرَ الرُّبَاعِيّ، لكِن فِي الثلاثيّ: «ولم يَقْتُروا» قراءة ثانية بكسر التاء: «ولم يَقْتِروا»، فتكون القراءات عَلَى هَذَا ثلاثةً: «ولم يَقْتُروا» «ولم يَقْتِروا» «ولم يُقْتِروا»[1]، والإقتار بمعنى الإقلال والتضييق.

قوله: ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ﴾ قول المُفَسِّر: [على عِيَالِهم] تَخْصِيصُه بالإنفاقِ عَلَى العِيَالِ فِيهِ نَظَرٌ، اللَّهُمَّ إِلَّا أنْ يُرِيدَ بذلكَ المَثَل، يَعْنِي مِثل الإنفاقِ عَلَى العِيالِ، وإِلَّا فَهُوَ شاملٌ للإنفاقِ عَلَى العيالِ والإنفاقِ فِي سبيلِ الله، وَفِي الزَّكَوَات والصَّدَقَات، والإنفاق فِي وُجُوهِ الخيرِ، وَفِي كلِّ ما يَكُونُ إنفاقًا؛ لِأَنَّهُ لم يُبَيِّنِ المُتَعَلّق، لم يَقُلِ اللهُ:

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٦).

(أَنْفِقُوا عَلَى عِيالِهِم)، بل أطلقَ، فيَشْمَل كلَّ ما أنفقوهُ؛ عَلَى العِيَالِ وعلى غيرِهِم، فهَؤُلَاءِ إذا أَنْفَقُوا لم يُسْرِفُوا، والإسرافُ مُجَاوَزَةُ الحَدِّ كمِّيَّة أو كيفيَّة، ﴿وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ يُضَيِّقوا، فالإقتارُ هو الإقلالُ والتضييقُ، وفُهِم معناهُ مِمَّا قُوبِلَ بِهِ؛ وهو قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَمْ يُسْرِفُواْ﴾، مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١]، ﴿ثُبَاتٍ﴾ لا يستطيعُ الْإِنْسَانُ أنْ يَعْرِفَ ما معناها أبدًا، لَكِن لَمَّا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ عَرَفْنَا أنَّ معنى (ثُبات): مُتَفَرِّقِينَ، وهذا مِمَّا يُعرف بِهِ تفسير القُرْآن، فيُعرف تفسير الكلمةِ بِمُقارنتها بما يُقابِلها.

قوله: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ قَالَ المُفَسِّر: [﴿وَكَانَ﴾ إنفاقُهُمْ بَيْنَ ذلكَ الإسرافِ والإقتارِ ﴿قَوَامًا﴾ وَسَطًا].

وقوله: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ الإشارةُ تعودُ إِلَى الإسرافِ والإقتارِ، يَعْنِي كَانَ الإنفاقُ بَيْنَ ذلكَ المذكورِ؛ وهو الإسرافُ والإقتارُ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَوَامًا﴾ أي مُستقيمًا، وإنما قال: ﴿قَوَامًا﴾ يَعْنِي مُستقيمًا لِأَنَّهُ قد يميل إِلَى الإسرافِ وقد يميلُ إِلَى الإقتارِ بِحَسَبِ الحالِ، يَعْنِي ما بَيْنَ الإسرافِ والإقتارِ مَنْزِلةً، لَكِنْ قد يَكُون الأمرُ يَقتضِي أنْ يميلَ إِلَى الإسرافِ، وقد يَكُون الأمرُ يَقتضي أنْ يميلَ إِلَى الإقتارِ، ولهذا قَالَ: ﴿قَوَامًا﴾، فلم يَقُلْ: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وسكتَ، بل قَالَ: ﴿قَوَامًا﴾؛ يَعْنِي مُستقيمًا، إنْ كَانَ الأمرُ يَتطَلَّب أنْ يَزِيدُوا قليلًا عَلَى الوسَطِ زادوا، وإن كَانَ الأمرُ يَتطَلَّب أنْ يَنْقُصُوا نَقَصُوا، مثالُ ذلكَ إذا قَدَّرنا أن الإنفاقَ فِي هَذِهِ الجهةِ إنفاق ألف دِرْهَم يُعْتَبَر إسرافًا، وإنفاق أربع مئة دِرْهم يُعتبر إقتارًا، بينهما الآن ست مئة دِرهم، أحيانًا تكون الحال تَقتضي أنْ يجعلوها تسعَ مئة، ويَكُون الفرق مئة، وأحيانًا تكون الحال تَتَطَلَّب أن يجعلوها خمس مئة،

فيَكُون الفرق مئة، وأحيان تكونُ الحالُ تَقتضِي أنْ يَكُونَ سَبْع مئة، المُهِمُّ أَنَّهُ بَيْنَ ذلكَ قـوامًا، يَعْنِي عَلَى وَجْـهٍ تقـومُ بِهِ الحالُ، سواء ارتفعَ وقـرُب مِنَ الإسرافِ، أو انخفضَ وقربَ منَ الإقتارِ، فهَذَا معنى قولِهِ: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾؛ يَعْنِي لا تُسْرِف، لكِن أحيانًا تَتَطَلَّب الحالُ أن تزيدَ، مثل لو أنَّ أحدًا دعا أُناسًا ذوي جاهٍ ومكانةٍ، هَؤُلَاءِ يُزادُ لهم بعض الشَيْء، ومَن كَانَ دونَ ذلكَ فالحِكْمَةُ تَقتضي أنْ يُعْطَوْا بِقَدْرِ حالِهِمْ.

والإنفاقُ بَيْنَ الإسرافِ والإقتارِ هو داخلٌ فِي قوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، إذا جَعَلْنَا المشيَ مَشْيًا معنويًّا؛ لِأَنَّ هَذَا من المشيِ المعنويِّ الهَيِّن الَّذِي لا يَميلُ إِلَى السرعةِ ولا يميلُ إِلَى الانحطاطِ.

• • ۞ • •

الآيتان (٦٨، ٦٩)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان:٦٨-٦٩].

قولـه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾: ﴿إِلَٰهًا﴾ بمعنى: معبـودًا، و﴿لَا يَدْعُونَ﴾ هل المراد دعاءُ المسألةِ أو دعاءُ العِبَادَةِ أو هما؟

المرادُ كِلاهما، يَعْنِي لا يَدْعُون دعاءَ مَسألةٍ ولا يدعون دعاءَ عِبادةٍ، قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، فدلَّ ذلك عَلَى أنَّ الدعاءَ عِبادةٌ، وقد جاء فِي الحديثِ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»(١) وهو ضعيفٌ، لَكِنَّه فِي الحقيقةِ واضحٌ، فدعاء الطلبِ واضحٌ أَنَّهُ يُسَمَّى دعاءً، يَعْنِي تقول: يا ربِّ اغْفِرْ لي.

ودعاء العِبَادَة كيف كَانَ دعاءً؟

نقولُ: لأنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَعْبُدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ هو داعٍ بلسانِ الحالِ؛ لِأَنَّهُ إِنَّما يرجو

---

(١) أخرجه أبو داود: تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء، رقم (١٤٧٩)، والترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، رقم (٢٩٦٩)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، رقم (٣٨٢٨).

رحمةَ اللهِ، ويخافُ عذابَه، فالْإِنْسَان إذا صلَّى وزكَّى وصامَ وحجَّ وبرَّ والديْه ووصلَ رَحِمَهُ ماذا يريد بذلك؟ يريد بذلك ثوابَ اللهِ، فكأنَّه يقولُ: رَبِّ أَثِبْنِي وأَعْطِنِي الجنَّة وأَنْجِنِي منَ النارِ، وَمَا أَشْبَهَ ذلك، لهذا سُمِّيَتِ العِبَادَةُ دعاءً، فحقيقةُ الأمرِ أنَّ التعبُّدَ لله دعاءٌ بلسانِ الحالِ، فإنَّ الْإِنْسَانَ العابدَ لو سألتَه: لِماذا عَبَدْتَ اللهَ؟ قَالَ: رجاءَ ثَوَابِهِ وخوفَ عِقابِه، فَهُوَ فِي الحقيقةِ داعٍ.

وَأَمَّا دُعاءُ المسألةِ فواضِحٌ، لكِن كيفَ كَانَ دعاءُ المسألةِ عبادةً؟ نقول: لِأَنَّهُ يدلُّ عَلَى الذلِّ والخُضُوعِ، فَهُوَ راجٍ خائِف لِمَن دعاهُ، ولأنه مُقِرّ بأنه لا يقدر عَلَى الإجابةِ إِلَّا الله، فكأنه ثناءٌ عَلَى اللهِ، والثناءُ عَلَى اللهِ مِنَ العِبَادَةِ، وهَذِهِ هي حقيقةُ العِبَادَةِ، فهم لا يَدْعُون معَ اللهِ إلهًا آخرَ، لا دعاءَ عبادةٍ ولا دعاءَ مسألةٍ، ولا يُنافي هَذَا أن يسألوا المخلوقينَ ما يقدِرون عليه، فإنَّ ذلكَ باعتقادِهِمْ أنَّ هَؤُلَاءِ المسؤولينَ سَبَبٌ، ولَيْسُوا مُسْتَقِلِّين، فعندما يسألُ الْإِنْسَانُ غنيًّا أو سلطانًا شَيْئًا منَ الدراهمِ فهو يَعتقِد أنَّ هَذَا المسؤولَ مجرَّد وسيلةٍ فقطْ، وليسَ مستقِلًّا بالعطاءِ والمنعِ، وإنما العطاءُ والمنعُ بِيَدِ اللهِ، وهذا الَّذِي أعطاكَ أو مَنَعَكَ إِنَّما هو وسيلةٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ذكرتُمْ أنَّ عِبادَ الرَّحمنِ يجوزُ لهم سؤال المخلوقينَ ما يَقدِرونَ عليه، فكيف نَجمَعُ بَيْنَ هَذَا وقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة:٢٧٣]، وكَذَلِك ما وردَ فِي الأحاديثِ فِي النهيِ عن السؤالِ؟

الجواب: السؤالُ أحيانًا يَكُونُ محمودًا، وأحيانًا يَكُونُ مذمومًا، وأحيانًا يَكُون مكروهًا؛ إمَّا كَرَاهة أو تَحريما، لأنَّ الْإِنْسَانَ قد يسألُ عندَ الضرورةِ، فمُباحٌ له أنْ يسألَ عندَ الضرورةِ، يَعْنِي لو أنَّ الْإِنْسَانَ جاعَ حَتَّى وصلَ إِلَى حدٍّ إمَّا أن يموتَ وإما أن يسألَ فهنا يجوز له أنْ يسألَ، يجوز فِي الأَصْلِ وقد يَجِب.

المهمُّ أننا نتكلمُ عَلَى حالةٍ لا يُذَمّ فاعِلُها.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ كَلِمة فِعَال دائمًا تأتي بمعنى مَفْعُولٍ، مثل بِناء بمعنى مَبْنِيّ، وغِرَاس بمعنى مَغْرُوس، وفِراش بمعنى مفروشٍ، فإِلَه بمعنى مَأْلُوه، والمألوهُ هو المعبودُ المتقرَّب إليه بالعِبَادَةِ، وعلى هَذَا فأصنامُ المشركينَ تُعتبر آلهةً باعتبارِ فِعْلِهم، أمَّا باعتبارِ الحقيقةِ فإنها ليستْ آلهةً فِي الحقيقةِ؛ لأنَّ الأُلُوهِيَّة حقًّا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قتلها إِلَّا بالحقِّ]، المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إن المَفْعُولَ محذوفٌ تقديره (قتلها)، ويمكن أن نجعلَ المَفْعُول المحذوف ضميرًا فقطْ، فيكُون صِلَة الموصول حُذف منه العائدُ، أي: الَّتِي حَرَّمها اللهُ، والمراد بِتَحْرِيمِها تحريمُ قَتلِها وأَذِيَّتها، والنفس الَّتِي حَرَّمَ اللهُ أربعةُ أنفُسٍ؛ المُسلِمُ، والذِّمِّيّ، والمعاهَد، والمستأمَن، هَذِهِ هي الأنفسُ الَّتِي حرَّم اللهُ، فهَذِهِ الأربعة أنفس محرَّمَةٌ.

ثمَّ إنَّ المسلمَ أَيْضًا قد يُبيحُ اللهُ قتلَه معَ إسلامِهِ؛ كالزاني المحصن، والقاتِل عَمدًا، فإن قتلَه مُباحٌ، معَ أَنَّهُ مسلِمٌ، لَكِنَّنا نقولُ: إن قتلَ المسلِمِ بهَذِهِ الأَسْبابِ طارئٌ، وإلَّا فوَصْف الإسلامِ مُحَرِّم لِقَتْلِه.

والذِّمِّي هو مَن عُقد معَه عَهْدٌ عَلَى بَذْلِ الجِزْيَةِ والحماية. والمعاهَد مَن وَقَعَ بيننا وبينه عهدٌ بعدمِ القتالِ مُدَّةً معيَّنةً، أو غيرَ معينةٍ، بدون حمايةٍ وبدونِ جِزيةٍ.

والمستأمَن مَن دخلَ ديارَ المسلمينَ مِنَ الكفارِ بأمانٍ منهم، هَذَا هو أضعفُهم؛ لِأَنَّهُ عبارة عن تأمينٍ بدونِ عقدٍ، ولهذا يَصِحُّ من كلِّ إنْسَانٍ، فكل إنْسَانٍ يَصِحُّ

أنْ يُؤَمِّنَ الكافرَ؛ لقولِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ»[1].
وَأَمَّا المعاهَدَة والذِّمَّة فلا تكونُ إِلَّا مِنَ الإمامِ أو نائِبِهِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله ﷺ: «أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ»، أَلَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لا يدخلُ فِي الإجارةِ حَتَّى يوافق الإمامُ؟

الجواب: لا، لا يدلُّ عَلَى هَذَا؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ كَذَلِك لَمَنَعَ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غيرَها أنْ يُجيرَ بعدَ ذلكَ، فهذا لَيْسَ معناهُ إنشاء، بل معناه أَنَّهُ حُكْم، فالإنشاء حَصَلَ بإجارتها الأُولَى، يَعْنِي كأنه يقولُ: قد ثَبَتَتْ إجارتُكِ إيَّاه؛ لأننا لا نعلم أَنَّ الإجارة ثابتة إِلَّا بِهَذَا، فليسَ هَذَا إنشاءً، وإنما هو عبارة عن بيانِ حُكم أَنَّهُ أَنْفَذَ إجارتَها.

قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ مستثنًى من الأَنْفُسِ المحرَّمة؛ لِأَنَّ هَذِهِ الأنفس المحرَّمة قد تُستباحُ بالحقِّ، فمِنَ الحقِّ ما أَشَرْنَا إليه من كونِ المسلمِ يَزْنِي وهو مُحْصَن، وكَذَلِك الذِّمِّيُّ فَإِنَّهُ يُقامُ عليه الحَدُّ كما فعلَ النَّبيُّ ﷺ بِرَجْمِ الزانيينِ المحصَنينِ، وكَذَلِك مِنَ الحقِّ أنْ يَكُونَ ذلكَ قِصاصًا، ومِنَ الحقِّ إذا كَانَ قاطِعَ طَرِيقٍ، فهَذِهِ فِي الأَصْلِ أنفُسٌ محرَّمة، لكِن وُجِدَ حقٌّ يُبيحُ قَتْلَها.

وَأَمَّا إذا ارتدَّ فلا يدخل فِي الاستثناءِ، بل يدخُل فِي المفهوم ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ فإن المرتدَّ مباح الدمِ، وليسَ هو ممن يَحْرُم قتلُه إِلَّا لسَبَبٍ، بل هو مِمَّن يجوز قتله، فيَكُون المرتدُّ داخلًا فِي مفهومِ قولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ لِأَنَّ المرتدَّ لَيْسَ مُحَرَّمًا؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجزية، باب أمان النساء وجوارهن، رقم (٣١٧١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى، وأن أقلها ركعتان، وأكملها ثمان ركعات، وأوسطها أربع ركعات، أو ست، والحث على المحافظة عليها، رقم (٣٣٦).

لِأَنَّهُ لَيْسَ ممَّن حرم مِنَ الأَصْلِ، فلمَّا ارتدَّ صارَ وَصْفُه كافرًا، فلا يدخل فِي الأربعةِ، لكِن الزاني يَبْقَى عَلَى إسلامِهِ معَ زِنَاهُ، والقاتل يَبقَى عَلَى إسلامِهِ معَ قَتْلِهِ، فالمُرْتَدُّ نقولُ: سُلِبَ عنه وَصْفُ الإسلامِ، يَعْنِي زالَ عنه الوَصْفُ نَهَائِيًّا، فيَكُون غيرَ مُحْتَرَمٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هلِ المرادُ بقولِهِ ﷺ: «التَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»(١) المُرْتَدُّ التارِكُ لدينِه المفارِقُ للجَماعَةِ بعضُهم قَالَ: المرادُ قُطَّاع الطَّرِيقِ؛ لأنَّ قَطْعَ الطَّرِيقِ تَرْكٌ للديـنِ؛ لأجلِ أنْ يَكُونَ الاستثناءُ مُتَّصِلًا، وبعضُهم قَالَ: إنَّ التارِكَ لِدِينِهِ هو المرتَدُّ، ويَكُون الاستثناءُ بالنسبةِ إليه منقطِعًا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مسلمًا حينَ يَتْرُكُ دينَه إِلَّا باعتبارِ وصفٍ زالَ، والمفارق للجَماعَةِ هو الخارِجُ عَلَى الإمامِ.

قوله: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ لَمَّا ذكرَ انتهاكَ الأنفسِ، ذكرَ انتهاكَ الأعراضِ، والزِّنا فِعْلُ الفاحشةِ فِي قُبُل أو دُبُر، فإن كَانَ بِذَكَرٍ سُمِّيَ لُواطًا، وإنْ كَانَ بِأُنْثَى فَهُوَ زِنا، وإنما لم يَذْكُرِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اللُّواط لِأَنَّهُ أمرٌ مُسْتَكْرَه مُسْتَبْعَد؛ لأنَّ الطبيعةَ لا تدعو إليه إِلَّا مَن نكس اللهُ عَزَّوَجَلَّ طَبِيعَتَه وفِطْرَتَه؛ لِأَنَّهُ أخبثُ، ولأنَّ اللواطَ لا يَحِلُّ بحالٍ، والفرجُ يَحِلُّ بالزَّواجِ، ولهذا كانتِ عقوبةُ اللواطِ عَلَى القَوْلِ الراجحِ الإعدامَ بكلِّ حالٍ، سواء كَانَ مُحْصَنًا أم غيرَ محصنٍ؛ لِأَنَّهُ فرج لا يُباح بحالٍ، ثم إنَّه أمر لا يُمْكِن التحرُّز منه، فلا يُمْكِن تَطهيرُ المجتمعِ إِلَّا بإعدامِ الفاعلِ والمَفْعُولِ به.

وكَذَلِك أَيْضًا عَلَى القَوْلِ الراجحِ الزِّنا بذواتِ المحارِمِ يُوجِبُ القتلَ بكلِّ حالٍ؛ لِأَنَّ هَذَا الفرج لا يُباح بحالٍ مِنَ الأحوالِ، وقد وردَ فِي ذلكَ حديثٌ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾، رقم (٦٨٧٨)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، رقم (١٦٧٦).

فِي السُّنَن[1]، وهو صحيحٌ، والزِّنا بذواتِ المَحَارِمِ -كما لو زَنَا بأُخْتِه، والعياذُ باللهِ، ولو مِنَ الرَّضاعِ- يُوجِبُ قَتْلَه بكلِّ حالٍ، سواء كَانَ مُحْصَنًا أمْ غيرَ مُحْصَنٍ.

وقد وَصَفَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الزِّنا بأنه فاحِشةٌ، ووصفَ اللُّواط عَلَى لسانِ لُوطٍ بأنه الفاحشةُ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف:٨٠]، فدَخَلَتْ عليه (أل)، أما بصيغة النكرة أي: كَانَ فاحشةً مِنَ الفَوَاحِش، لكِن كأنَّ هَذَا انحصرتِ الفاحشةُ فِيهِ لِعِظَمِهِ وقُبْحِهِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا زَنَا المُسْلِمُ فأُقِيمَ عليه الحدُّ هل يَكُونُ كفَّارة له؟

الجواب: نعم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا أُطْلِقَتِ النفسُ هل تُخَصّ ببني آدمَ أم يدخل الحيوان فِي الأنفسِ الَّتِي نُهي عن قَتلِها؟

الجواب: تَخْتَصّ ببني آدمَ، أمَّا نفس الحيوان فلا تدخلُ فِي هذا، لكِن هي عَلَى كلِّ حالٍ تدخُلُ فِي المعاصي الأُخرى، لكِن إذا قِيلَ: لا يقتل النفس، أو من قتل نفسًا فعليه كذا وكذا، فالمراد نفسُ الآدمِيّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل قاعدةُ: ما آذَى طبعًا قُتِلَ شرعًا مستقيمةٌ؟

الجواب: هي مُستقيمةٌ، فكلُّ ما آذى طبعًا فَإِنَّهُ يُقتَل شرعًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الجِنُّ لو عَمِلوا هَذِهِ الأعمالَ، أي القتل، هل يقتل بعضهم بعضًا قِصاصًا؟

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الحدود، باب ما جاء فيمن يقول لآخر: يا مخنث، رقم (١٤٦٢)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب من أتى ذات محرم ومن أتى بهيمة، رقم (٢٥٦٤).

الجواب: الظاهرُ أن أحكامَهم مثل أحكامِ الإنسِ، فالرَّسولُ بُعِثَ إليهم، وهذا من الاعتداء، ولهذا يُذكَر أنَّ شيخَ الإسلامِ ابن تَيْمِيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان إذا أُتِيَ إليه بمصروعٍ وَعَظَهُ وزَجَرَهُ[1]، وبَيَّنَ له أنَّ الاعتداءَ عَلَى المسلمِ محرَّم، ممَّا يدلُّ عَلَى أَنَّهُمْ يَعتقِدون تحريمَ ذلك، وأَنَّهُمْ مُلْزَمُون بِهِ.

وقد سبقتْ هَذِهِ المسألةُ، وَهِيَ: هل تكليف الجنِّ كتكليفِ الإنسِ؟

قُلْنَا: إن ظاهرَ النصوصِ أَنَّهُمْ مساوون لهم؛ لِأَنَّ الرَّسولَ بُعِثَ إليهم جميعًا، ولم نعلمْ أن شريعةً تَخُصُّهم، ولَكِن مَن نظر إِلَى الحِكْمَة مِنَ التشريعِ وجدَ أن الله يَشْرَعُ لكلِّ أحـدٍ ما يُناسِبُهُ، فعلى هَذَا يَكُونُ تكليـفُ الجنِّ يخالفُ تكليفَ الإنسِ، ويُكَلَّفُون بما يَلِيق بهم، ويدل عَلَى هَذَا أَنَّ اللهَ جَعَلَ لهم كلَّ عظمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليه يَجِدُونه أوفرَ ما يَكُونُ لَحْمًا[2]، مِمَّا يدلُّ عَلَى أَنَّهُمْ يُخالِفُونَ الإنسَ؛ لِأَنَّ الإنسَ لا يَحْصُل لهم ذلك. وأيضًا الإنسُ أنفسهم يختلفونَ فِي التكليفِ بِحَسَبِ الحالِ؛ فتكليفُ الغنيِّ بالزكاةِ لا يساويـه تكليفُ الفقيرِ؛ لِأَنَّهُ لا مالَ عنده، وتكليـف القادر عَلَى العِبَـادَةِ لا يساويه تكليف العاجزِ عنها؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ الوصف الَّذِي لَزِمَ فِيهِ التكليفُ.

فالظاهرُ -واللهُ أَعْلَمُ- أنْ يقالَ: أُصُولُ العِبَادَةِ لَا شَكَّ أَنَّهُمْ مكلَّفون بِهَا، وَأَمَّا صفاتُ العِبَادَةِ، وفروع العِبَادَةِ، فَإِنَّهُ لا يَلْزَمُ أن يَكُونوا مُساوِينَ للإنسِ؛ لأَنَّهُمْ يَختلِفون عنهم فِي الحقيقةِ، والشريعة تَقتضِي أنْ يُشْرَعَ لكلِّ إِنْسَانٍ ما يناسبه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَؤُلَاءِ الجنُّ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لَقُوا النَّبيَّ ﷺ مرَّةً وَاحِدةً، فهل أعطاهم النَّبيُّ ﷺ تشريعاتٍ أمِ انقطعَ تكليفُهُمْ؟

(١) الفتاوى الكبرى (٥/ ٣٤٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم (٤٥٠).

الجواب: لا يَلْزَمُ أنْ يَكُونَ هَؤُلَاءِ الجَماعَةُ الذينَ اتَّصلوا بِهِ انقطعَ تكليفُهُمْ، فقد يَكُونون مُلْزَمِينَ بما يَسْمَعُونه ويَعْلَمُونه مِنَ الشريعةِ، وإن كَانَ الرَّسولُ ما باشرهُ؛ لِأَنَّ قولَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن:١-٢]، يَقتضي أنَّهم يَهتدون بالقُرْآنِ كلِّه؛ لِأَنَّهُ قال: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾، وهم لم يَسْمَعُوا القُرْآنَ كلَّه؛ لِأَنَّ السورةَ مكِّيَّة، والقُرْآن ما نَزَلَ كله فِي مَكَّة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إنَّ الجنَّ مُخَاطَبُونَ بالتصديقِ فقطْ؟

نقول: لا، هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، هم مخاطَبون بالفروعِ بلَا شَكٍّ.

لكِن هل يَلْزَم من هَذَا أن يَكُونوا مساوينَ لنا؟

بعضُ العُلَماءِ يَقُولُونَ: يَلْزَمُ؛ لِأَنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بُعِثَ إِلَى الجنِّ والإنسِ، ولم نَعْلَمْ أنَّ تَشْرِيعًا خاصًّا بالجنِّ قد جُعل لهم، فما دَامُوا مُكَلَّفِينَ بالرِّسَالةِ فإنها تَلْزَمُهُمْ عُمُومًا.

وبعضُ العلماءِ يقولُ: مَن نظرَ إِلَى الحِكْمَةِ فِي التشريعِ قَالَ: إنَّ كلَّ قومٍ يُشْرَعُ لهم ما يُناسِبُهم، فإذا كَانَ الإنسُ يَختلِفَ بعضُهم عن بعضٍ بنوعٍ مِنَ التكليفِ خُصَّ بِهِ، فما بالُكَ بالجنسِ الآخَرِ، وهذا أقربُ إِلَى الحِكْمَةِ فِي التشريعِ أنَّ لهم شرائعَ خاصَّةً بهم، أمَّا أُصُولُ الدينِ فلَا شَكَّ أَنَّهُمْ مِثْلُنا، يَعْنِي مثل الصلاة وأصل الزكاة وَمَا أَشْبَهَ ذلكَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أفعالُ الصلاةِ والحجِّ بالنسبةِ للجنِّ هل تَختلِفُ عَنِ الإنسِ؟

الظاهر: أن هَذِهِ العبادات لا تَختلِفُ؛ لأَنَّهُمْ يُمْكِنُهم أنْ يُصَلُّوا، ويُمْكِنُهُم أنْ يَحُجُّوا، وهم مَخْلُوقُونَ من نارٍ، وأيضًا هم لا يَرَوْنَ، وإلا فهم أجسامٌ، والعوامُّ يَقُولُونَ:

لَيْسَ لهم عظامٌ ولا عَصَبٌ، ولا ندري هل هَذَا صحيحٌ أو لا، المهمُّ أَنَّهُمْ أجسامٌ يأكلون ويشربون ويَبُولُون، والرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُ: «ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ»(١) وذكر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ إذا لم يسمِّ الْإِنْسَانُ عَلَى الطعامِ فَإِنَّهُ يُشارِكُه الشيطانُ: الجن(٢)، وأخبرَ بأن «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا»(٣).

ومَسْكَنُهم فِي ظاهرِ الْأَرْضِ، لكِن حَسَب ما نَعْرِفُ مِنَ التَّتَبُّعِ أَنَّهُمْ يَأْوُون دائمًا إِلَى الأماكنِ الخاليةِ فيَكُونون فِيهَا، وهذا من رحمةِ اللهِ بِنا وبهم؛ لأَنَّهُمْ لو كانوا فِي الأماكنِ المسكونةِ فيُمْكِن أنْ يَتَأَذَّوْا، أو نحن نَتَأَذَّى بهم، وأحيانًا إذا سَكَنَ أحدٌ فِي أماكنَ خاليةٍ يأتونه ويَقُولُونَ: اذْهَبْ عنَّا. وقيل: إِنَّهُ كان يوجد مَحَلٌّ مهجورٌ لا يُسْكَن، فجاء إِنْسَانٌ وسَكَنَه، فثاروا عليه بالليلِ فقالوا: لا بدَّ أنْ ترحلَ عنَّا وإلا نقتل أولادك. فخرجَ وذهبَ وتركَه، وأنا -والحمد لله- سالمٌ مِنهم، ما عُمُري سَمِعْتُ منهم تهديدًا، لكِن هَذَا الشَيْء مَعروفٌ عندَ النَّاسِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يجوزُ للإِنْسَانِ أنْ يَتَزَوَّجَ مِنهم؟

بعضُ العلماءِ يقولُ: إِنَّهُ يجوزُ، وبعضُ العلماءِ يقولُ: لا يجوزُ أن الْإِنْسَان يَتَزَوَّج منهم؛ لأنَّ من شرطِ الزواجِ مثلما قَالَ الله: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم:٢١]، فهم أولًا لَيْسُوا من أنفسهم، وثانيًا: لا يُمْكِن أنْ يُسْكَنَ إليهم،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب إذا نام ولم يصل بال الشيطان في أذنه، رقم (١١٤٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، رقم (٧٧٤).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام، رقم (٣٧٦٨).

(٣) سبق تخريجه.

فبينهما غاية النفور، فكيف يمكن أنْ تكونَ زوجة له، لكِن صحيحٌ أنَّ الجنَّ يتناكحون، والدليل قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: ٥٠]، فهذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ يَتَزَاوَجُونَ ويتوالدونَ، وهذا صريحُ القُرْآنِ، والواقعُ أَيْضًا يَشْهَدُ له، أمَّا كونُ الجنيِّ يَتَزَوَّج الإنسيَّة، أو الإنسيّ يَتَزَوَّج الجِنِّيَّة؛ فهذا فِيهِ نظرٌ، فالصواب قولُ مَن يَمْنَع ذلكَ، ولهذا الفقهاء قالوا: لو قالتِ امرأةٌ: إنَّ بِهَا جِنِّيًّا يُجامِعُها كالرجل، وجب عَلَيْهَا أنْ تَغْتَسِلَ، ولَكِن هَذَا أولًا يُنْظَر فِي إمكانه ووُجُوده ثم يُنْظَر فِي حُكْمِه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يُقام عَلَيْهَا الحدُّ؟

نقول: لا، إِلَى هَذَا الحدّ لا أَظُنّه، ونقول للسائل: انْتَبِهْ لهم الليلةَ، فالظاهرُ أنَّ هَذَا البحثَ الدقيقَ قد يَجْعَلُهُم يَتَّصِلُونَ بِكَ الليلةَ!

والغالبُ أنَّهم يُكَلِّمون، وقد ذَكَرنا -كما تَقَدَّم- أنَّ الجِنِّيَّ يُكَلم شيخَ الإسلامِ ويخاطبه، ويأخذ عليه العهدَ، وأنه يَضْرِبه، لكِن يقول: إن الضربَ يَقَعُ عَلَى المصروعِ فِي الظاهرِ، وهو فِي الحقيقةِ عَلَى الصارعِ، فإذا أفاقَ المصروعُ لا يُحِسّ.

وأذكُرُ أن وَاحِدًا من الإخوانِ قُدِّمَ إليه رجلٌ قالوا: إِنَّهُ مَصروعٌ، فَقَالَ: أَعْطُونِي الْعَصَا، وبدأ يَضْرِبُه حَتَّى ازْرَقَّ جِلْدُه، ولم يَسْتَفِدْ المصروع من هَذَا الشَيْءِ أبدًا، الْمسكين يَصْرُخُ ويقولُ: آلْتُمُونِي. ولَمَّا قام إذا الضربُ واقعٌ عليه. فهو يريدُ أنْ يفعلَ مثلما فعلَ ابن تيميَّة، فظنَّ أنَّ كلَّ إنْسَانٍ يَحْصُل له مثلُ هَذَا الأمر يُفْعَل بِهِ هَذَا الفعلُ!

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أيْ وَاحِدًا من هَذِهِ الثَّلاثَةِ ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾]، قول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي وَاحِدًا من الثَّلاثَة] فِيهِ نظرٌ؛ لأنَّ الأَصْلَ فِي الإشارةِ

أنْ تعودَ لِمَا سبقَ كلّه، فيقتضي أنْ يَكُونَ: ومن يفعل ذلك المذكور من دعاءِ غيرِ اللهِ، وقتلِ النفسِ، والزنا، ثلاثة ﴿يَلْقَ أَثَامًا يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾، وهذا الَّذِي قَرَّرناه من عَوْدِه عَلَى الجميعِ نَسْلَمُ بِهِ من إيرادٍ سيأتي عندَ قولِه: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ﴾ [الفرقان:٦٩]، فإن الزِّنا لَيْسَ موجِبًا لِلْخُلُودِ فِي النارِ.

والقتلُ ذَكَرَ الله تَعَالَى فِي سورة النساءِ أَنَّهُ مُوجِب للخلودِ فِي النار، وسيأتي إنْ شاءَ اللهُ ذِكْرُه قَريبًا.

فعَوْدُ الكَلامِ عَلَى الثَّلاثَةِ نَسْلَمُ بِهِ من الإيرادِ الآتي إن شاء الله، وَأَمَّا إذا فَعَلَ وَاحِدًا منها عَلَى الِانفرادِ فيُؤْخَذ حُكْمُه من دليلٍ آخرَ لَيْسَ بلازمٍ أنْ نَأْخُذَهُ من هَذِهِ الآيةِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ أي عقوبة]، والأَثَام والنَّكال بِمَعْنًى وَاحِدٍ، والعقوبةُ والنَّكال بمعنًى وَاحِدٍ أَيْضًا، فالمرادُ بالأثام هنا العُقُوبة، وهو مفرَد وليسَ بِجَمْعٍ؛ لِأَنَّ الجمع (آثَام) جَمْع إثمٍ، وَأَمَّا قوله: ﴿أَثَامًا﴾ فمُفْرَد.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُضَٰعَفْ﴾ وَفِي قراءة «يُضَعَّفُ» بالتَّشْدِيد[1]]، وَهِيَ سَبْعِيَّة «يُضَعَّفُ» و«يضاعَف»، والمضاعَفَةُ والتضعيفُ بمعنَى تكريرِ الشَّيْءِ، وإنما ضُوعِفَ له العذابُ لِأَنَّهُ فَعَلَ ثلاثةَ أسبابٍ للعذابِ، وَهِيَ الإشراكُ باللهِ، وقتلُ النفسِ، والزِّنا، ومعلومٌ أنَّ الأَسْبابَ إذا اجْتَمَعَتْ صارَ لكلِّ وَاحِدٍ منها أَثَرُه، فمَن فعلَ شَيْئًا وَاحِدًا من ثلاثةٍ فعليهِ إثمُه، ومن فعل اثنينِ فعليه إثمهما، ومَن فعلَ ثلاثةً فعليه إِثْمُهُنّ، فهذا وجهُ التضعيفِ.

قوله: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾ العذابُ والنَّكَال بمعنًى وَاحِدٍ، وهو العقوبةُ.

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٦).

قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يومُ القيامةِ هو اليومُ الَّذِي يُبْعَثُ فِيهِ النَّاسُ، وَسُمِّيَ يوم القيامة لأسبابٍ ثلاثةٍ:

- لقيام النَّاسِ من القبورِ.

- وإقامةِ العدلِ.

- ولأنه تُقام فِيهِ الشهادةُ ويقومُ الأشهادُ فِيهِ: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١]، وَهُمُ الملائكةُ والرسُلُ، وكَذَلِك الأُمَمُ.

إذَن سُمِّيَ يومَ القيامةِ لهَذِهِ الوجوهِ الثَّلاثَةِ.

قوله: ﴿وَيَخْلُدْ﴾ يَبْقَى ﴿فِيهِۦ﴾ أيْ فِي العذابِ، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِجَزْمِ الفعلينِ بدلًا، وبِرَفْعِهِمَا استئنافًا[1]]، الفعلانِ ﴿يُضَـٰعَفْ﴾ ﴿وَيَخْلُدْ﴾، يَعْنِي أن فيهما قراءتينِ ﴿يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾ (يُضَاعفُ له العذابُ)، ﴿وَيَخْلُدْ﴾ (وَيَخْلُدُ). أمَّا قوله: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ فليسَ فِيهَا سِوَى قراءةٍ وَاحِدةٍ، وَهِيَ الجزمُ؛ لِأَنَّهَا جوابُ الشرطِ، وجوابُ الشرطِ لا بدَّ أنْ يَكُونَ مجزومًا، لَكِنْ فِيهَا إشكالٌ، وَهو أنَّها مفتوحةٌ (يَلْقَ)، فيقال: هي مجزومةٌ بحذفِ الألفِ، وهَذِهِ الفتحةُ ليستْ بفتحةِ الإعرابِ، ولَكِنَّها فتحةُ الفعلِ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ﴾ ﴿فِيهِۦ﴾ هَذِهِ خارجةٌ عن شَبِيهَاتها، فيجوزُ فِيهَا وجهانِ[2]: ﴿فِيهِۦ﴾ بالمدِّ، و﴿فِيهِۦ مُهَانًا﴾ بالصِّلة: بالوصل، بدونِ مدٍّ، أمَّا ﴿فِيهِۦ مُهَانًا﴾ بدون مدٍّ فهَـذِهِ عَلَى أَصْلِها، وَأَمَّا ﴿فِيهِۦ مُهَانًا﴾ بالمدِّ فهَذِهِ عَلَى خـلافِ

---

(١) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

الأَصْلِ، لَكِنها جائزةٌ؛ لِأَنَّهَا مسموعة عن النَّبي ﷺ، ولها نظيرٌ خارجٌ عن العادة أيضًا، وهو قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:١٠]، وَفِي قراءةٍ أُخْرَى سبعيَّة (عَلَيْهِ الله)[1]، يَعْنِي عَلَى الأَصْلِ، فهذانِ حرفانِ فِي القُرْآنِ خَرَجَا عن الأَصْلِ المتَّبَعِ فِي القراءةِ المشهورةِ فِي المصاحِفِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُهَانًا﴾ حالٌ]، هَذَا قُصُورٌ من المُفَسِّر حقيقةً، أعربَ ﴿مُهَانًا﴾ عَلَى أنها حالٌ منَ الضميرِ فِي قولِهِ: ﴿وَيَخْلُدْ﴾، أو منَ الضميرينِ فِي قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُضَٰعَفْ﴾ ﴿وَيَخْلُدْ﴾، لَكِنَّها للأقربِ أقربُ، إِلَّا أَنَّهُ لم يُفَسِّر ما معنى ﴿مُهَانًا﴾، ونحن إِلَى تفسيرِ الكلمةِ أحوجُ مِنَّا إِلَى إعرابِها؛ لِأَنَّنا سَنَقْرَؤُها كما هي لكِن لا نَفْهَم معناها، فما معنى ﴿مُهَانًا﴾؟ المُهَانُ المُحْتَقَرُ الذَّلِيلُ، يَعْنِي مُحْتَقَرًا ذَلِيلًا، لا يُقامُ له وَزْنٌ ولا إكرامٌ.

• • ۞ • •

(١) المصدر السابق (ص٣٢٩، ٣٣٠).

الآيـة (٧٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفُرقان:٧٠].

قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ هلْ هَذَا الاستثناءُ مُتَّصِلٌ أو مُنْقَطِعٌ؟

الاستثناءُ متَّصِلٌ، يَعْنِي: من تابَ من دعاءِ غيرِ اللهِ معَه، ومَن تابَ من قَتْلِ النفسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بالحقِّ، ومَن تاب منَ الزِّنا، أمَّا الأول، وَهُوَ التوبةُ من دعاءِ غيرِ اللهِ معَه، فلا شُبْهَةَ فِيهِ ولا إشكال؛ لِأَنَّهُ حقٌّ لله، فإذا تابَ الْإِنْسَانُ منه إِلَى اللهِ قَبِلَهُ إذا كانتِ التوبةُ نَصُوحًا، ولا حاجةَ إِلَى أنْ يَسْتَأْذِنَ أحدًا، فلا شك أنه لا يحتاج أن يَستأذن ويَسْتَرْخِص مِنَ الصَّنَم.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ منهم]، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنهم] أيْ من فاعلِ هَذِهِ الأمورِ الثَّلاثَةِ: الشِّرك وقَتْل النَّفْس والزِّنا، وإنَّما قَيَّدها بذلك لقرينةِ السياقِ، ولِئَلَّا تَتكَرَّر معَ ما بعدَها.

وما هي التوبةُ؟ التوبةُ هي الرجوعُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقد ثَبَتَ فِي الحديثِ الصحيحِ فِي قصةِ الرجلِ الَّذِي قتلَ تسعًا وتسعينَ نفسًا ثم سألَ عابدًا: هل له من توبةٍ؟ فَقَالَ العابدُ: لَيْسَ لكَ توبةٌ، فالعابدُ جاهلٌ، واستعظمَ تسعًا وتسعينَ نفسًا، قَالَ: لَيْسَ لكَ توبةٌ، فَقَالَ: نُكْمِل بكَ المئة، فَقَتَلَهُ، وهذا من الجَرِيرَةِ الَّتِي يَجُرُّها الْإِنْسَانُ

عَلَى نفسِه إذا أَفتى بغيرِ علمٍ، ثم سأَلَ عالِمًا: هل له من توبةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، ومَن يَحُولُ بينَكَ وبينَ التوبةِ؟! ولَكِنَّه أرشدَهُ إِلَى أنْ يَخْرُجَ من قريتِه هَذِهِ إِلَى قريةٍ أخرى يَكْثُرُ فِيهَا الصالِحُون[1] إِلَى آخِرِ الحديثِ، فإذا كَانَ هَذَا فِي بني إسرائيلَ، فما بَالُكَ بهَذِهِ الأُمَّةِ الذينَ وَضَعَ اللهُ عنهم الآصَارَ والأغلالَ، يقولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ﴾ [يوسف:١١١]، والنَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يَقُصَّها علينا مِنْ أجْلِ أنْ نَفْهَمَ القصةَ فقطْ، لَكِنْ لِنَعْتَبِرَ بِهَا، وإلَّا لكانتْ لَغْوًا، أمَّا كونُها فِي شريعةٍ منسوخةٍ فإنَّ مثلَ هَذِهِ الأمورِ لا يَدْخُلُها النسخُ، يَعْنِي كون الله يتوب عَلَى مَن تاب هَذَا من صفاتِه الَّتِي لا تَتَخَلَّف، ثم إنَّ نَسْخَها لا يُمْكِن أنْ يُنْسَخَ إِلَى أسوأ فِي هَذِهِ الحالِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الأُمَّة أكملُ مِن غَيْرِها، فقد رفعَ اللهُ عنها الآصارَ والأغلالَ، ولو كانتِ التوبةُ لا تُقْبَل مِنَ القاتلِ لكانَ هَذَا مِن أعظمِ الآصارِ والأغلالِ الَّتِي عَلَى هَذِهِ الأُمَّة، ولهذا بنو إسرائيلَ ما يَقُصُّ اللهُ علينا شيئًا من قَصَصِهِم، ولا كَذَلِك النَّبي ﷺ إلَّا للتحذيرِ مما يُكرَه والترغيبِ فيما يُحَبّ.

والتوبةُ مِن قَتْلِ النفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ هل يَتَعَلَّقُ بِهَا حقٌّ آخَرُ لغيرِ اللهِ؟

الجواب: نعم يَتَعَلَّق بِهَا حقانِ آخرانِ؛ أَحَدُهما حقُّ المقتولِ: الميِّت، والثَّاني حقُّ أولياءِ المقتولِ، فلا تَصِحُّ التوبةُ إلَّا بتمكينِ ذَوِي الحقوقِ أنْ يأخذوا بِحُقُوقِهِم. فنقولُ: الميِّت لا يُمْكِنُ الوصولُ إِلَى أَخْذِهِ بحقِّه، لا يمكن لِأَنَّهُ مات ولا نعلم عنه وربما نعلم فِي الحقيقة أحيانًا إذا لم يَمُتْ حَتَّى أَبَاحَ صَاحِبَهُ، ربما نَعْلَمُ لَكِنْ فِي الغالبِ أَنَّهُ لا يعْلَم، وَأَمَّا أولياءُ المقتولِ فالتمكينُ مِن حَقِّهِم مُمْكِنٌ، فيذهب إليهم ويُسَلِّم

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٧٠)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٦).

نفسَه لهم، ويقول: أنتُمُ الآنَ بالخيارِ: تُريدون الدِّيَة، تُريدون القَتْل، تُريدون العَفْوَ.

إذَنْ نقول: التوبةُ مِن قتلِ النفسِ يَتَعَلَّق بِهَا حقَّـانِ آخرانِ غير حق الله؛ حقٌّ مُمْكِنٌ تحقيقُه، وهو حقّ الوَرَثَة: أولياء المقتول، وحقٌّ يمكِن أو لا يمكِن، وهو حقُّ المقتولِ؛ فإنْ أمكنَ تحقيقُه فِي الدُّنْيا وأسقطه فذاك، وإلَّا فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا عَلِمَ من هَذَا القاتلِ أَنَّهُ تابَ إليه توبةً نصوحًا فإنَّ مِن تمامِ توبةِ اللهِ عليه أنْ يعطيَ المقتولَ حقَّه حَتَّى لا يأخذَ من حَسَنات القاتلِ شيئًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا لم يَتُبِ القاتلُ هل هو تحتَ المشيئةِ؟

نقول: إذا لم يَتُبِ القاتلُ فعليه الوَعِيدُ الَّذِي ذَكَرَهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالقتلُ من الكبائرِ، فَهُوَ تحتَ المشيئةِ، لَكِنْ لا نجزم أَنَّهُ سَيُغْفَرُ له.

ننتقل إلى الزِّنا فِي قولِهِ: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ هل يَتَعَلَّقُ بِهِ حقٌّ آخرُ سِوَى حقِّ اللهِ؟ وهل يَحتاجُ إذا تابَ أنْ يَستبيحَ أو أنْ يَسْتَحِلَّ المزنيّ بِهِ أو لا يَحْتَاجُ؟

إذا كَانَ باختيارِها وهي الَّتِي جَنَتْ عَلَى نَفْسِها، إذا كانتْ ذاتَ زوجٍ فنَعَمْ، لَكِنْ إذا لم يَكُنْ لها زوجٌ فإذا كَانَ باختيارِها فلا حقَّ لها؛ لِأَنَّهَا هي الَّتِي انتهكتْ عِرْضَها، وإذا كانتْ مُجْبَرَةً فلها حَقٌّ، فلا بدَّ مِنِ استحلالِها. وقد يقالُ: إن التوبةَ إذا صارتْ نَصُوحًا وتابَ إِلَى اللهِ فلا حاجةَ إِلَى الاستحلالِ؛ فإن الله تَعَالَى يتوبُ عليه كما ثَبَتَ فِي الحديثِ الصحيحِ؛ أنَّ الحدَّ يَكُونُ كفَّارةً للذَّنْبِ[1]، ولم يَذْكُرِ النَّبيُّ ﷺ شَيْئًا فوقَه بدونِ استحلالٍ، فمَن نظر إِلَى أن هَذَا فِيهِ حقّ انتهاك عِرْضِها وإكراهها عَلَى الفاحشةِ وسُوء سُمْعَتِها وسمعة أهلها قَالَ: لا بدَّ مِنِ اسْتِحْلَالِهَا من هَذَا الأمرِ؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب الحدود كفارة، رقم (٦٧٨٤)، ومسلم: كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، رقم (١٧٠٩).

لِأَنَّهُ أمرٌ عظيمٌ، ومَن نظرَ إِلَى عُمُوماتِ الأدلَّة الدالَّة عَلَى أنَّ الزانيَ إذا أُقيمَ عليه الحدُّ وإذا تابَ تابَ اللهُ عليه قُلْنَا: إن الله تَعَالَى يَتَحَمَّل عنه حقَّ هَذِهِ المرأةِ المزنيّ بها؛ وعلى هَذَا فاستحلالُه أَوْلَى وأحسنُ.

إذَن نقول: الأوَّل حـقٌّ لله مَحْض، ولا إشكالَ فِيـهِ، والثَّاني حقٌّ لله ولغـيره، ولا إشكالَ فِيهِ، والثالث حقّ لغيرِ الله، ولَكِن مَن نظرَ إِلَى عمومات الأَدلَّة الدالَّة عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بشرطٍ أنْ يَسْتَحِلَّ مَن زنا بِهَا قَالَ: لا حاجةَ إِلَى الاستحلالِ، ولَكِن الأَوْلَى والأحوط أنْ يَسْتَحِلَّ كما تَقَدَّمَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يُفَرَّق بَيْنَ البِكْر والثَّيِّب؟

نقول: كله وَاحِدٌ.

ولَوْ قَالَ قَائِلٌ: ذكر الفقهاءُ أن البِكر تُعْطَى بغِشاء البَكَارة؟

هَذَا من جهةِ المالِ، وليسَ من صحَّة التوبة، لكِن لا بدَّ أنْ يُبْذَلَ لها النقصُ الَّذِي حَصَلَ، مثل ما لو أتلفَ مالها، وإذا لم يَبْذُلْ تَصِحّ، ويَكُون ذنبًا آخرَ مستقِلًّا، وقد نقول: إِنَّهُ من تمامِ التوبةِ، ولا تَصِحُّ؛ لِأَنَّ هَذَا الفعلَ ناشئٌ عن ذلكَ، إِنَّما عَلَى كل حالٍ هَذَا لا يَدْخُلُ فِي مسألةِ العِرض، إِنَّما يدخل فِي مسألة المالِ، فالبكارة من جهةِ المالِ، لا من جهةِ العِرضِ.

قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ وشروط التوبة خمسة:

الأول: النَّدَم عَلَى الذنب، أي عَلَى فِعلِه.

الثَّاني: الإقلاع عن الذَّنب والإقلاع عن المعصيَةِ، ويَشْمَل إعادةَ الحقِّ؛ لِأَنَّهُ ما دام الحقّ عندك ما أَقْلَعْتَ، ولهذا نقول: لَيْسَ بشرطٍ إذا كَانَ الحق لآدميٍّ أن نزيدَ

لأنَّ هَذَا الشرطَ دخلَ فِي قولنا: الإقلاع.

الثالث: العَزْم عَلَى عدمِ العودةِ، لو قَالَ قائل: العَزْم عَلَى عدمِ العودةِ ألا يَدْخُلَ فِي الإقلاعِ عن الذنبِ؟

الجواب: لا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قد يُقْلِع ويقول: أنا اليوم لن أفعلَ، لكِن غدًا أفعله.

الرابع: الإخلاصُ لله؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان قد يتوب رِياءً.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: العزم عَلَى عدم العودة أَلَا يدخُل أَيْضًا فِي الإخلاصِ؟

نقول: الكَلام عَلَى أنْ تكونَ التوبةُ لله هَذَا معنى الإخلاصِ، وإلَّا فَإِنَّهُ إذا أخلصَ سَيُقْلِع وسيَنْدَم، وهكذا فِي كل الشروطِ ما عدا أن تكونَ فِي الوقتِ، لكِن المراد أن يَكُون الحامِل لها الإخلاص، يَعْنِي أَنَّهُ ما تاب رِياءً ولا سُمعةً ولا خوفًا من سلطانٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قد يَكُون العَزْم عَلَى ألَّا يعودَ إخلاصًا؟

نقول: لا يَلْزَمُ، يُمْكِن أن يَعْزِمَ عَلَى ألَّا يعودَ نَظَرًا لأنَّ السُّلطة قويَّة ولا يستطيع، فلا بدَّ من الإخلاصِ، فكل عملٍ صالح لا بدَّ فِيهِ مِنَ الإخلاصِ.

الخامس: أن تكونَ التوبةُ فِي وقتِ قَبُولِها، أمَّا كونها فِي مَحَلِّها فهي بالنسبةِ لكلِّ وَاحِدٍ أنْ يتوبَ قبلَ أنْ يُعَاينَ المَوْتَ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨]، وبالنسبةِ لِعُمُوم النَّاسِ أنْ تكونَ قبلَ طلوعِ الشَّمْسِ مِن مَغْرِبها، فإن بعد طلوعِ الشَّمْسِ من مغربِها لا تُقْبَل لو تابَ الْإِنْسَانُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كيفَ يُجْمَعُ بَيْنَ قولِهِ: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ وبينَ آياتِ التوبةِ؟

نقول: الآيةُ الَّتِي ذَكَرْتَ فِي قولِه تَعَالَى: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ هَذِهِ لغيرِ التائبينَ، وهَذِهِ الآيةُ معَ آياتِ التوبةِ لَيْسَ فِيهَا إشكالٌ.

فَلَوْ قِيلَ: كيف الجوابُ عن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣]؟

نقول: هَذَا جزاؤه، وقد قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦]، ومعَ ذلكَ إذا أَسْلَمُوا وتابوا قُبِلَت تَوْبَتُهم، فنقول: حَتَّى الشرك وَرَدَ فِيهِ الخلودُ الأبديّ، ومعَ ذلكَ لو تابَ منه قُبِلَتْ توبتُه، هَذِهِ مثلها، لكِن الكَلام عَلَى أَنَّهُ إذا تابَ هل نقولُ: إن التوبةَ قُبلتْ مُطْلَقًا أو نقول كما قَالَ ابن القيِّم مثلما فَصَّلْنا: إن التوبةَ يَتَعَلَّقُ بِهَا ثلاثةُ أشياءَ ولا بد من تَحْقِيقِها.

فَلَوْ قِيلَ: كيف الجواب عن قول ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عمَّن سألَه: أَلِمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا من توبةٍ؟ قال: لا[1]؟

الجواب: هَذَا يُحْمَلُ مثلما قَالَ ابن القَيِّم[2] عَلَى أَنَّهُ لا يَجِدُ له توبةً بالنسبةِ لحقِّ المقتولِ؛ لِأَنَّ الله يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣]، وحقيقةً فَإِنَّهُ بالنسبةِ للميِّت ففِي الغالبِ لا يُمْكِنُ الوصولُ إِلَى تحقيقِ التوبةِ، والسَبَب لِأَنَّهُ فاتَ، ولا يُمْكِن استحلالُه، كما تَقَدَّم، وَأَمَّا بالنسبةِ لحقِّ اللهِ فلَا شَكَّ فِيهِ أبدًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، رقم (٤٧٦٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، رقم (٣٠٢٣).
(٢) انظر مدارج السالكين (١/ ٣٩٥ وما بعدها).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله فِي سُورَةِ طه: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ [طه:١٦]، وَفِي سورة القَصَص ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ [القصص:٨٧]، ما الفرقُ بَيْنَهُما؟

نقول: آيةُ طه قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ ﴿مَن﴾ هَذَا الفاعل ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ﴾، إذَن هل الفعلُ مُفْرَد أو مجموعٌ؟ مفردٌ، وإذا كَانَ مفردًا يُبنى عَلَى الفتحِ لاتصالِهِ بنونِ التوكيدِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بينه وبين التوكيدِ شَيْءٌ، وَأَمَّا قوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الَّتِي قبلَها ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ يَعْنِي المجرمين، فَهُوَ عائد إِلَى جمعٍ، فيَكُون الفعل الآنَ غيرَ مباشرٍ لنونِ التوكيدِ، أصله يصدوننك، فحذفت النون للجازمِ، وبقِيت عندنا (الواو) ساكنة والنون المشدَّدة ساكن أَوَّلها، فحذفت الواو لالتقاء الساكنينِ، ثم بَقِيَت الدال عَلَى ما هي عليه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يَلْزَمُ التائبَ مِنَ الزِّنا أنْ يَطْلُبَ إقامةَ الحدِّ عَلَى نفسِهِ مثلما فعلَ ماعزٌ والغَامِدِيَّة؟

نقول: لا يَلْزَمُ، بلِ الأَوْلَى أنْ يَسْتُرَ عَلَى نفسِهِ، وفِعْلُ هَؤُلَاءِ اجتهادٌ مِنهم، ولا مانعَ منه، والرَّسول ﷺ لاحِظ أَنَّهُ يراعي أشياءَ يَفْعَلُها الْإِنْسَان اجتهادًا ولا يُنْكِر عليه إذا كانتْ غيرَ مخالفةٍ للشرعِ، مثل الصدقة عن الميِّت، والحجّ عن الميتِ، وَمَا أَشْبَهَ ذلكَ مِمَّا لم يَأْمُرْ بِهِ الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهَذَا جائزٌ وليس من المشروعِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كَانَ الذنبُ مثلًا غِيبَةً لأحدٍ، هل يَلْزَمُ أنْ نَطْرُق عليه بابَه ونقول له: واللهِ يا أخي قدِ اغتبناكَ ونريدُ أنْ نَسْتَحِلَّكَ؟ وإذا كَانَ مالًا: افرض أَنَّهُ مال، أخذ من إنْسَانٍ مالًا وتـاب إِلَى اللهِ، هل يَلْزَمُ أنْ يَذْهَبَ ويقول: هَـذَا مالك؟ يَلْزَمُه؛ لِأَنَّ من تمامِ التوبةِ أن يُعِيدَ المالَ، والرَّسول ﷺ يقول: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ

وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ»[1]، فإذا اغتابَه فليسَ هناكَ فَرْقٌ بَيْنَ المالِ والعِرض والرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَمَعَ بينهما، إذَن نقول: اذْهَبْ إليه واسْتَحِلَّهُ. وإلى هَذَا ذهبَ الفقهاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ، فالمذهَبُ أَنَّهُ إذا تابَ مِنَ الغِيبة يَجِب عليه أن يُخْبِرَ المغتابَ ويقول له: أنا حَصَلَ مِنِّي كذا وكذا، فأَرْجُوكَ أنْ تَسْمَحَ لي.

القَوْل الثَّاني: لا؛ لأنَّ الغِيبة عبارةٌ عن قَدْحٍ فِيهِ وَرَدُّها بِمِثْلِها، وذلك بأنْ تُثْنِيَ عليه فِي المكانِ الَّذِي اغْتَبْتَهُ فِيهِ بما يُزِيلُ هَذِهِ الغِيبةَ، وهذا رَدُّه فِي الحقيقةِ؛ لأنَّ كَوْنَك تَذْهَب إليه وتقول له: حَلِّلني هَذَا لَيْسَ بِرَدٍّ اعتبارِهِ الَّذِي سَقَطَ حينما اغتبتَه فِي المجلِسِ، فلا يزول إذا حلَّله، بل يَبْقَى، فرَدُّ الغِيبة أنْ تُثْنِيَ عليه بالخيرِ فِي مقابلِ الثناءِ بالسُّوء، وهذا أصحُّ؛ لأنك فِي الحقيقةِ لو ذَهَبْتَ تُعْلِمُه يُمْكِن أنْ تأخُذَهُ العِزَّة بالإثم ويقول: لا، ثم إنَّك لو قلتَ له: إنِّي قلتُ: فلانٌ بخيلٌ، قَالَ: لا، ما قَالَ: بخيل فقطْ، بلْ قَالَ: بخيل وشِرِّير وفاسِق وفاجِر؛ لِأَنَّ الشيطانَ يقولُ له هَذَا، فيَتَصَوَّر أنَّ الأمرَ أكْثَرُ من هَذَا، ولا يُسامِحك، فما دام ما وَصَلَه العلمُ فلا حاجةَ لأنْ تُخْبِرَه، نعم لو وَصَلَهُ العلمُ وعَرَفْتَ أنَّ الرجلَ قد أُخْبِرَ عنك بأنَّك اغْتَبْتَه فهنا لا بدَّ أنْ تَسْتَحِلَّه.

فالخُلاصة أن يقالَ: إنَّ المغتابَ إن كَانَ عالِمًا بِغِيبَتِكَ فَهُوَ الآنَ قد صارَ فِي نفسِهِ عليك شَيْءٌ، فلا بدَّ أنْ تَسْتَحِلَّه لِيَزُولَ ما فِي نفسِهِ، وإنْ كانَتْ ما بَلَغَتْهُ، يَعْنِي أنَّك ما تَكَلَّمْتَ إلَّا بِهَذَا المجلِسِ، وعَرَفْتَ أَنَّهُ ما وَصَلَهُ العلمُ، فهنا لا حاجةَ إِلَى أنْ تَذْهَبَ وتقول له، وإنما تُثْنِي عليه بالخيرِ مقابلَ ثنائِكَ عليه بالشرِّ، وهذا القَوْلُ هو الصحيحُ، وهو اختيارُ شيخِ الإسلامِ ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، رقم (١٧٣٩).

قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ التوبةُ تَقَدَّم الكَلامُ عَلَيْهَا، والإيمانُ فِي اللغةِ: التصديقُ والإقرارُ، ولكِنه فِي الشرعِ تصديقُ القلبِ المستلزِم للقَبول والإذعانِ، وليسَ مجرَّد التصديقِ، بل هو تصديقٌ مُسْتَلْزِمٌ لهذا، فإن لم يَسْتَلْزِمْهُ فليسَ بإيمانٍ، فيقبل ما جاء بِهِ الشرعُ ويُذْعِن له فيُصَدِّقه إنْ كَانَ خبرًا ويقوم بِهِ إن كَانَ طَلَبًا.

وقوله: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ هنا ذَكَرَ العملَ ووَصَفَهُ بالصلاحِ؛ لِأَنَّ العملَ غيرُ الصالحِ لا يَنْفَعُ صاحِبَهُ، والعمل الصالح ما جمع شرطينِ، وهما الإخلاصُ لله والمتابعةُ لرسولِ اللهِ ﷺ، فإنْ لم يَكُنْ فِيهِ الإخلاصُ فليسَ بمقبولٍ، وإنْ لم يَكُنْ فِيهِ المتابَعَةُ فليسَ بمقبولٍ، ففي الصحيحِ من حديثِ أبي هُريرة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1]، هَذَا دليلٌ على أنَّ غيرَ المُخْلِص فِيهِ مَرْدُودٌ، وَأَمَّا غيرُ المُتابع فِيهِ فلقولِ النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[2]، ويَجْمَعُهُما قولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [منهم] أي من فاعلِ هَذِهِ الأمورِ الثَّلاثَةِ: الشِّرك وقَتْل النفسِ والزِّنا، وإنما قَيَّدَها بذلكَ بِقَرِينَةِ السِّيَاقِ، ولِئَلَّا تَتَكَرَّرَ معَ ما بَعْدَهَا.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ هَذَا مُسْتَثْنًى من قولِهِ: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾، وما أُبدل منه، يَعْنِي ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ فَإِنَّهُ لا يَلْقَى أثامًا، ولا يُضَاعَف

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

له العذاب، ولا يَخْلُد فِيهِ، وتَقَدَّمَ أن شروطَ التوبةِ خمسةٌ: الإخلاصُ لله، والندَمُ عَلَى ما وَقَعَ، والعَزْم عَلَى أنْ يُقْلِعَ عنها، وأنْ يَعْزِمَ عَلَى ألَّا يعودَ، وأن تكونَ فِي وَقْتِها، أي فِي الوقتِ الَّذِي تُقْبَل فِيهِ التوبةُ، وتَقَدَّمَ أَيْضًا أنَّ هَذَا الاستثناءَ يَشْمَلُ كلَّ الذنوبِ الثَّلاثَة: الشِّرك، وقَتْل النفسِ، والزِّنا، وأنَّ ما ذُكِرَ عنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ القاتلَ لا تَوْبَـةَ له، فإنْ أرادَ عَلَى وجهِ الإطلاقِ فليسَ بصحيـح، وإن أرادَ لا توبة له فيما يَتَعَلَّق بحقِّ المقتولِ فهذا صحيحٌ، عَلَى أنَّنا نقولُ: لا يَبْعُدُ أنَّهُ إذا تابَ توبةً نصوحًا أنْ يَتَحَمَّلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عنه حقَّ المقتولِ فيُرْضِيه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما رَأْيُكم فِي قولِ ابنِ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي إعلامِ الموقِّعين[1] أنَّ الحدودَ تَسْقُطُ بالتوبـةِ، استدلَّ بحديثِ النَّسائي، وفيه أَنَّ امْرَأَةً وَقَعَ عَلَيْـهَا رَجُلٌ فِي سَوَادِ الصُّبْحِ وَهِيَ تَعْمِدُ إِلَى المَسْجِدِ عَكُورَةً[2] عَلَى نَفْسِهَا، فَاسْتَغَاثَتْ بِرَجُلٍ مَرَّ عَلَيْهَا، وَفَرَّ صَاحِبُهَا، ثُمَّ مَرَّ عَلَيْهَا ذَوُو عَدَدٍ، فَاسْتَغَاثَتْ بِهِمْ فَأَدْرَكُوا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَتِ اسْتَغَاثَتْ بِهِ، فَأَخَذُوهُ، وَسَبَقَهُمُ الْآخَرُ، فَجَاءُوا بِهِ يَقُودُونَهُ إِلَيْهَا، فَقَالَ لَهَا: أَنَا الَّذِي أَغَثْتُكِ، وَقَدْ ذَهَبَ الْآخَرُ. قَالَ: فَأَتَوْا بِهِ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ وَقَعَ عَلَيْهَا، وَأَخْبَرَ الْقَوْمُ أَنَّهُمْ أَدْرَكُوهُ يَشْتَدُّ، فَقَالَ: إِنَّمَا كُنْتُ أُغِيثُهَا عَلَى صَاحِبِهَا فَأَدْرَكُونِي هَؤُلَاءِ فَأَخَذُونِي. قَالَتْ: كَذَبَ، هُوَ الَّذِي وَقَعَ عَلَيَّ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «انْطَلِقُوا بِهِ فَارْجُمُوهُ». فَقَامَ الرَّجُلُ مِنَ النَّاسِ فَقَالَ: لَا تَرْجُمُوهُ وَارْجُمُونِي، فَأَنَا الَّذِيُ فَعَلْتُ بِهَا الْفِعْلَ. فَاعْتَرَفَ، فَاجْتَمَعَ ثَلَاثَةٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: الَّذِي وَقَعَ عَلَيْهَا، وَالَّذِي أَغَاثَهَا، وَالمَرْأَةُ، فَقَالَ: «أَمَّا أَنْتِ فَقَدْ غُفِرَ لَكِ»، وَقَالَ لِلَّذِي أَغَاثَهَا قَوْلًا حَسَنًا،

---

(١) (٣/ ١٥)، ط. دار الكتب العلمية.

(٢) أي قد غُلبت على نفسها.

فَقَالَ عُمَرُ: أَرْجُمُ الَّذِي اعْتَرَفَ بِالزِّنَى؟ فَأَبَى رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لَا، إِنَّهُ قَدْ تَابَ إِلَى اللهِ»(١).

هذا صحيحٌ، ففِي القُرْآنِ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣٤]، لا يُقامُ عليه الحدُّ إذا تابَ قبلَ القُدْرَةِ عليه، إذا كَانَ هَذَا فِي قُطَّاع الطَّرِيقِ وذَنْبُهم من أعظمِ الذنوبِ، فهذا من باب أَوْلَى، إِلَّا حدّ القَـذْف، فهو حقٌّ للآدميّ فلا يَسْقُط إِلَّا بإسقاطِ المقذوفِ، فاعترافُ الرجلِ علامةٌ عَلَى التوبةِ، أو أن الرَّسول ﷺ علِم منه ذلك، المهمُّ أَنَّهُ إذا تابَ قبلَ القُدْرَة فَإِنَّهُ لا يُقامُ عليه الحدُّ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ المذكورةَ ﴿حَسَنَٰتٍ﴾ فِي الآخِرَةِ]، يُبَدِّلها، التبديلُ: جَعْلُ شَيْءٍ مكانَ شَيْءٍ، وهذا التبديلُ هل هو تبديلٌ قَدَريَ أو تبديل جَزائيّ؟

اختلف فِي ذلك أهلُ العلمِ؛ فمِنهم مَن قَالَ: إِنَّهُ تبديل قَدَريّ، ومنهم مَن قَالَ: إِنَّهُ تبديل جزائيٌّ، كيف ذلك؟ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ تبديل قَدَرِيّ يَقُولُونَ: إن معنى تبديلِ السيئاتِ حسنـاتٍ أَنَّهُ لَمَّا آمنَ وعَمِلَ عملًا صالحًا صارَ بَدَل الشرك إيمانٌ، وصار بدل الزنـا وقتل النفس عَمَل صالح، معناه أن هَذَا الإيمانَ والعمـلَ الصالحَ صار بدلًا عن الكفرِ والزنا وقتل النفس، فالمعنى أن إيمانَه وعَمَلَه الصالحَ الَّذِي فَعَلَه هو الحسناتُ الَّتِي أبدلَ اللهُ السيئاتِ بِهَا، فيَكُون هَذَا التبديل قَدَرِيًّا.

وقيل: بل هو جزائيٌّ، بمعنى أنَّ هَذِهِ المعاصيَ نفسَها تكون حسناتٍ، يبدِّل الله السيئاتِ السابقةَ يَجْعَلُها حسناتٍ، بالإضافة إِلَى حسناتِه الأخيرةِ الَّتِي قُدِّرَتْ له

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٤، رقم ٧٢٧٠).

فَفَعَلَها، وكيف ذلك؟ يَقُولُونَ: لأنَّ هَذِهِ السيِّئاتِ لَمَّا تابَ منها صارَ له بكلِّ توبةٍ من هَذِهِ السيئاتِ حسنة، فأُبدِلَتِ السيئاتُ حسناتٍ بالتوبةِ منها، ولأنه كلَّما تَذَكَّر ما سبقَ من أعمالِه السيئةِ أحدثَ لها توبةً، فصارت هَذِهِ الأعمالُ السابقةُ حسناتٍ بالتوبةِ منها، والصحيحُ شُمُولُ الآيةِ لهذا وهذا، وأن الآيةَ شاملةٌ للأمرينِ، فإنَّ مَن تابَ وآمَنَ وعمِلَ عملًا صالحًا تَبَدَّلَتْ سيئاتُه السابقةُ فصارتْ حسناتٍ، لَكِنَّها لَيْسَ هي الأُولَى نفسها، وكَذَلِك إذا تابَ منـها جُوزِيَ عَلَى هَذِهِ التوبةِ بالثـوابِ، فصارت السيئاتُ بالتوبةِ منها حسناتٍ.

وكَلامُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَميلُ إِلَى الثَّـاني؛ إِلَى أن هَذَا التبـديل تبديل جزائيٌّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ قَدَرِيًّا ما كَانَ فِي الآخرةِ؛ إذ التبديلُ القَدَرِيّ إِنَّما يَكُونُ فِي الدُّنْيـا؛ لِأَنَّهُ عَمله، والصحيـح شمولُ الآيةِ للأمرينِ، فبالإيمانِ والعَمَـلِ الصالِحِ تَبَدَّلَتْ أعمالُهُ إِلَى أعمالٍ صالحةٍ، وبالتوبةِ من السيئاتِ صارتِ السيئاتُ السابقةُ حسناتٍ؛ لِأَنَّهُ يَزدادُ بهَذِهِ التوبةِ رِفْعَةً ومَقَامًا عند اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَـفُورًا رَّحِيـمًا﴾ أيْ: لَم يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ]، (كان) هنا -كما مرَّ- مجرَّدةٌ من الزمنِ، والمرادُ بِهَا اتصافُ اسْمِها بِخَبَرِها صفة لازمة، ولهذا قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي لم يَزَلْ متَّصِفًا بذلك] أي بالمغفرةِ والرَّحمةِ. والغَفُورُ صِيغةُ مبالغةٍ، أو صفة مُشَبَّهَة، وكلاهما يدلّ عَلَى الثُّبُوتِ والدوامِ والكثرةِ. والمَغْفِرَة: سَتْرُ الذنبِ معَ التجاوُزِ عنه، يَعْنِي ستر الذنبِ وإسقاط عُقُوبَتِه، وليسَ مُجَرَّد الستر؛ لِأَنَّها مأخوذة مِنَ المِغْفَر، وبِالمغفرِ يَكُونُ السترُ والوِقَايَةُ.

وَأَمَّا الرَّحيمُ: فَهُوَ ذو الرَّحْمَةِ الواصلة إِلَى المرحومينَ؛ لِأَنَّهَا تدلُّ عَلَى الفعلِ معَ الصِّفةِ أيضًا، والرَّحمة صفةٌ من صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يَكُون بِسَبَبِها الإنعامُ والإحسانُ

إِلَى الخَلْقِ بِجَلْبِ المنافعِ ودَفْعِ المضارِّ، وَأَمَّا مَن فسَّر الرَّحمةَ بالإحسانِ أو بإرادته فقولُه خطأٌ؛ لأنَّ إرادةَ الإحسانِ أَثَرٌ من آثارِ الرَّحمةِ، وكَذَلِك الإحسانُ، وليس هو الرَّحمةَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله: ﴿غَـفُورًا﴾ صفة مُشَبَّهَةٌ، معَ أنها منصوبةٌ ولم تَعْمَلْ؟

نقول: لَيْسَ بلازمٍ أنْ تعملَ، وَأَمَّا نَصْبُها فللعامِلِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: وَرَدَ حديثٌ ما معناه: ما يزال العبدُ يَرَى سَيِّئاتِه تُوضَع فِي كِفَّة موازين حسناته حَتَّى يَتمنَّى أنْ لو أكْثَرَ منَ السيِّئات؟

الجواب: لا أعرِف هَذَا الحديثَ، لكِن نظرًا إِلَى تبديلِ السيئاتِ بالحسناتِ يُمْكِن من هَذَا الوجهِ.

• • ❁ • •

الآيــة (٧١)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان:٧١].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن تَابَ﴾ من ذُنُوبِه غيرَ مَن ذُكِرَ]، ولهذا قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيمن سبق: [﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ (منهم)]، من هَؤُلَاءِ، وإنما قَالَ: [غير مَن ذُكر]؛ لِئَلَّا يَلْزَمَ التكرارُ، ولَكِن لا مانعَ من أنْ نقولَ: لا حاجة للاستثناءِ، وتكون الآيةُ الثَّانيةُ عامَّة، فيَكُون من باب ذكر العامِّ بعد الخاصِّ؛ لِأَنَّ إخراجَ مَن سبقَ من عمومِ الآيةِ هَذِهِ لا وجهَ له، فالأَولى أن يقال: إن الآيةَ الثَّانيةَ عامَّةٌ تَشمَلُ مَن سبقَ وغيرَهم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ أي يَرْجِع إليه رُجُوعًا فيُجازيه خيرًا].

قوله: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: ﴿تَابَ﴾ رَجَعَ من ذَنْبِه ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ استزادَ مِنَ العملِ الصالحِ، فيَكُون هَذَا الرجلُ استعتبَ مِمَّا فعلَ وازدادَ خيرًا، يقول: ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ أيْ مَتابًا تامًّا، فالمصدرُ هنا لتعظيمِ هَذِهِ التوبةِ، أي مَتابًا عظيمًا؛ لكمالِ هَذِهِ التوبةِ، وإلَّا لو قَالَ قائل: هَذَا تحصيل حاصل، مَن تابَ فَإِنَّهُ يَكُونُ تائبًا؟ نقول: لا، المقصودُ أنَّ تَوْبَتَهُ هَذِهِ توبةٌ كاملةٌ عظيمةٌ، فالإتيانُ بالمصدرِ ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ للدلالةِ عَلَى أنَّ هَذِهِ التوبة وَقَعَتْ مَوْقِعَهَا وأنها كاملةٌ، وهذا حقٌّ،

فإن الرجلَ إذا تابَ وازدادَ عَمَلًا صالحًا تَبَيَّنَ بذلك صِحَّة توبتِه وكَمالها.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ لَيْسَ كقولِ القائلِ: الْأَرْضُ تَحْتَنَا والسَّمَاءُ فوقنا، يَعْنِي تحصيل حاصل، بل إن المعنى أنَّ هَذِهِ هي التوبة الصادقة الحقيقيَّة الكامِلَة.

وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَعْنِي يَرْجِع إِلَى اللهِ رُجُوعًا تامًّا كاملًا، كما قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد اختلفَ العلماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ هل يُشْتَرَطُ للتوبةِ إصلاحُ العملِ، أو لا يُشْتَرَط؟

فمِنهم مَن قَالَ: إِنَّهُ يُشترط لها إصلاحُ العملِ، وعلى هَذَا فيَكُونُ ذلكَ شرطًا سادسًا زائدًا عَلَى الشروطِ الخمسةِ، وأن من تاب ولم يَصْلُحْ عَمَلُه فَإِنَّهُ لَيْسَ بتائبٍ.

وقالَ بعضُ العلماءِ: بل تَصِحُّ التوبةُ معَ عدمِ إصلاحِ العملِ، وَقَالَ بعضهم: إنْ كَانَ العملُ من جنسِ ما تابَ منه فلا بدَّ من إصلاحِهِ، وإلَّا فلا تَصِحُّ التوبةُ، مثال ذلك: رجلٌ تابَ مِنَ الزنا ولَكِنه يَسرِق، فعلى القَوْلِ الأوَّل لا تَصِحُّ توبتُه من الزنا؛ لِعَدَمِ إصلاحِ العملِ، وعلى القَوْل الثَّاني تَصِحُّ؛ لأنَّ السَّرِقَة ليستْ من جنسِ الزِّنا، وعلى القَوْلِ الثالثِ من باب أَولى أَنَّهُ لا يُشترَط إصلاحُ العملِ مُطْلَقًا وأن مَن تابَ مِن ذَنْبٍ قُبِلَتْ توبتُه، ورجلٌ آخرُ تابَ من الزِّنا ولَكِنه استمرَّ فِي النظرِ المحرَّمِ، فاستمرَّ ينظر إِلَى النساءِ نظرًا محرَّمًا، فهذا عَلَى القَوْلِ بأنه لا يُشترَطُ إصلاحُ العملِ تَصِحُّ توبته من الزنا، وعلى القَوْل بأنه لا بدَّ من إصلاحِ العملِ لا تَصِحُّ توبتُه مِنَ الزِّنا، وعلى القَوْلِ الوَسَطِ الَّذِي يقولُ: إذا كَانَ من جِنْسِ ما تابَ منه لم تُقْبَلْ أَيْضًا لا تَصِحّ؛ لِأَنَّ هَذَا زِنا العينِ، كما قَالَ النَّبي ﷺ[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج، رقم (٦٢٤٣)، ومسلم: كتاب القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره، رقم (٢٦٥٧).

ولَكِن الصحيح أنْ يُقالَ: أمَّا إنْ أُريدَ بالتوبةِ وَصْف هَذَا الرجلِ بأنه مِنَ التائبينَ الَّذِينَ يَلْحَقُهُمُ الثناءُ، ويَصْدُقُ عليهم أَنَّهُمْ تائبونَ، فهذا لا يُمْكِن أنْ تَصِحَّ منه التوبةُ، أو أنْ يَسْتَحِقَّ وصفَ التوبةِ، إلَّا بإصلاحِ العملِ؛ لِأَنَّهُ لم يَتُبِ التوبةَ المطلَقَةَ، وإنما عنده مُطْلَق توبة، وَأَمَّا إنْ أُريدَ بالتوبةِ التوبةُ مِنَ العملِ المعيَّنِ، فالصوابُ الجَزْمُ بأن توبتَه تُقبَل؛ لِأَنَّ هَذَا مُقْتَضَى عدلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مَن عَمِلَ خيرًا فله، ومَن عمِل شرًّا فعليه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، فكيف نقول: إن هَذَا الرجلَ لا تَصِحُّ توبتُه مِن عملٍ تابَ منه ورَجَعَ ونَدِمَ؛ لِأَنَّهُ مُصِرّ عَلَى غيرِه؟! لا يَصِحّ.

فالصوابُ فِي هَذَا أنْ يقالَ: أمَّا استحقاقُ وصفِ التائبينَ عَلَى وجهِ الإطلاقِ فهذا لا يَسْتَحِقُّهُ التائبُ إلَّا بإصلاحِ العملِ؛ لِأَنَّهُ كيف يَكُونُ تائبًا إِلَى اللهِ مَن هو مُصِرٌّ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، ولو من غيرِ جنسِ ما تابَ منه، أو من جِنْسِهِ، وَأَمَّا إذا كَانَ المقصودُ التوبة من هَذَا العملِ المعيَّن، يَعْنِي مطلَق توبةٍ لا توبة مطلقة، فإن هَذِهِ تَصِحُّ جَزْمًا؛ لِأَنَّ هَذَا مُقْتَضَى عدلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: وَرَدَ فِي الحديثِ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»[1]؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، رقم (٧٥٠٧)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم (٢٧٥٨).

نقول: هَذِهِ غيرُ مَسْأَلَتِنا، نحن نقولُ: هَذَا الرجلُ تابَ مِنَ الذنبِ، ولم يَرْجِعْ إليه، لَكِنَّه عاصٍ لله من جهةٍ أُخْرَى، هَذَا هو بَحْثُنا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا قُلْنَا بأنه جَزْمًا تَحْصُلُ له التوبةُ، فهناك أحكامٌ كثيرةٌ تَتَرَتَّب عَلَى التوبةِ، مثل قلب السيئات حسناتٍ؟

نقول: نعم، بالنسبة لهذا العملِ المعيَّن إذا تاب منه صارَ حسنةً.

وهل هو قلبٌ جزائيٌّ أو قلبٌ قَدَرِيٌّ؟

لَوْ قِيلَ: هَذَا إذا تابَ توبةً نَصُوحًا تامَّةً.

قُلْنَا: لا، تابَ من هَذِهِ الأشياءِ: الشرك والزنا وقتل النفس، المهمُّ أَنَّهُ حَتَّى مَن تابَ توبةً خاصَّةً مِن ذَنبٍ خَاصٍّ بُدِّلَتْ سيِّئاتُه حَسَناتٍ، فالسيئةُ الَّتِي تابَ مِنها تكونُ حَسَنَةً؛ لِأَنَّهُ تَرَكَهَا لله، وقد ثَبَتَ عن النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ «مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً»[1] لِأَنَّهُ تَرَكَها لله، فهذا مَثَلُه، ثمَّ إِنَّ مُجَرَّد أَنَّه يتوبُ إِلَى اللهِ ويَعرِف أنَّ له ربًّا يُؤَاخِذُهُ ويعاقبه ويَشْعُر بالخجلِ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ والحياءِ منه؛ هذا من الحسناتِ العظيمةِ.

فَلَوْ قِيلَ: لَكِنه وُصف بالعاصي والفاسِق.

نقول: عاصٍ بالنسبةِ لكذا، تائب بالنسبةِ لكذا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرقُ بَيْنَ الزنا والسَّرِقَة؟ هل كلاهما من الكبائرِ؟ وهل كلاهما فِسْقٌ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب، رقم (١٣١).

الفرق بينهما هَذَا يُجلَد وهذا تُقطَع يدُه، وهذا يَكُونُ فاسقًا من وجهٍ، وذاك فاسقٌ من وجهٍ آخرَ، هَذَا باعتبارِ الأعراضِ، وهذا باعتبارِ الأموالِ، فبينهما فروق، لَيْسَ كل الذنوب عَلَى حدٍّ سواء، لا فِي النوعِ، ولا فِي القَدْر، ولا فِي الإثمِ.

وَلِهَذَا قُلْنَا: إن الوصفَ المطلَقَ للتوبةِ لا يَسْتَحِقُّه؛ لِأَنَّهُ حقيقةً لَيْسَ بتائبٍ؛ إذ إِنَّهُ عاصٍ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من وجهٍ، لكِن كوننا نقولُ: لا تُقبَل توبتُك من الزنا لأنك تَسْرِق، فهَذَا لَيْسَ بصحيح، فالَّذِي تابَ مِنه يُغْفَر له، والَّذِي أصرَّ عليه يَبْقَى عليه، صغيرةً كانتْ أم كبيرةً؛ لِأَنَّ هَذَا مُقْتَضَى عدلِ اللهِ، أليس هَذَا عَمِلَ خيرًا بتوبتِه.

وَقُلْنَا: إن قلبَ السيئةِ حسنةً بالتوبةِ؛ لِأَنَّ مجرَّد رُجوعِه إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتركه لها وتَوْبَته منه حَسَنَةٌ، هَذَا إذا قُلْنَا: إنَّ المرادَ بالحسنةِ الجزائي، يَعْنِي أَنَّهُ يُجازَى عَلَى نفسِ السيئةِ حسنةً. إذا قُلْنَا: إِنَّهُ قَدَرِيّ، بمعنى أن إقلاعَ هَذَا الرجلِ عن هَذَا الذنبِ واستقامته هَذَا منه، فالقدريُّ واضحٌ، والجزائيُّ أَيْضًا؛ لأنَّ كَرَمَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أسرعُ وأسبقُ من عقوبتِه، وقولنا: قَدَرِيّ من القَدَرِ، بمعنى أَنَّهُ يُقَدِّر له حَسَنات جديدة غير الأُولى، والجزائيّ أَيْضًا من القَدَر، لَكِنه ثواب بمعنى أَنَّهُ يُجْزَى عَلَى نفسِ السيئاتِ حسناتٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: (الواو) فِي قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ﴾ هل هي عاطفةٌ؟

نقول: نعم عاطفة.

فَلَوْ قِيلَ: إذا كانت عاطفةً نَرجِع إِلَى الشرطِ السادسِ الَّذِي يقولُ: لا بدَّ من صلاحِ العملِ؟

نَحْنُ قُلْنَا: إِنَّهُ لا يَسْتَحِقّ وصفَ التوبةِ المطلَق، إِلَّا بهذا: بالعملِ الصالحِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هناك آياتٌ من القُرْآنِ تَصِفُ الْإِنْسَانَ بالتوبةِ، ولو ما عَمِلَ عملًا صالحًا؟

نقول: نعمْ، مثل قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٤].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كَانَ مثلًا العاصي يَعرِف من نفسِهِ ضعفَ إيمانٍ وتسلُّط عدوِّه عليه، وأنه سوف يعودُ إِلَى هَذِهِ المعصيةِ، أيُّهما أَوْلَى؛ كلَّما يَعْمَل معصيةً يتوب أو يترك التوبةَ؛ لئلَّا تكونَ تَوْبَة كَذب؟

يتوب، ما يُدْرِيهِ، نقول: توبته هَذِهِ لا تَصِحُّ، لكِن مجرَّد شُعُورِهِ بأنه مخطِئٌ قد يَنْفَعُه هذا، أمَّا أنْ يقولَ: سَأَسْتَمِرُّ فهَذَا لا يجوزُ، هو مُعْتَرِفٌ أَنَّهُ مُخْطِئٌ، لكِن هو يقول: أريدُ أنْ أَسْتَمِرَّ، لن أُقْلِعَ لا بِقَلْبِي ولا بِفِعْلِي، كلَّما سَنَحَتْ لي الفرصةُ سأفعلُ، فهَذَا شرٌّ، لكِن كونـه يَتُوبُ إِلَى اللهِ ويَخْجَل ويَصْير عنـده نوعٌ مِنَ التقرُّب إِلَى اللهِ أَحْسَن من عَدَمِه، ولو تَعَدَّدَتْ تَوْبَتُه، لكِن الواجب عَلَى المؤمنِ أنْ يتوبَ جَزْمًا، وإِذَا قُدِّر فيما بعدُ أن أسباب المعصيةِ تَوَفَّرَتْ لديهِ وأن نفسَه غَلَبَتْه، فإن ذلك لا يَنْقُض توبتَه الأُولى، فَإِنَّهُ يُؤَاخَذ من جديدٍ بالمعصيةِ الجديدةِ ثم يتوب.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قول: أَسْتَغْفِر اللهَ وأتوبُ إليه بعضهم يقولُ: إن قولَك: وأتوبُ إليه دائمًا توبة كذَّابين، واستغفارك أَيْضًا استغفارُ كذابينَ؟

عَلَى كلِّ حالٍ نسألُ اللهَ أنْ يتوبَ علينا، حَتَّى قول الْإِنْسَان إذا انْتَهَى مِنَ الأكلِ: الحمدُ لله، لا أحدَ يَشْعُر معنَى هَذِهِ الكَلِمَةِ تمامًا، إِلَّا أنَّها رُوتِينِيَّة، وباسْمِ اللهِ كَذَلِك، وأيضًا الصلاة عادة، وهذا الَّذِي فِي الحقيقة يُفسِدنا أن أعمالَ القلوبِ لا نشعُر بِهَا، تجد الكثيرَ مِنَّا يحافِظ عَلَى سنَّة رفعِ الإصبعِ عند الدعاءِ، لكِن رفع القلب عند الدعاء

لا أحدَ يَهْتَمّ بِهِ، معَ أنَّ هَذَا أهمُّ، الحقيقة أنَّ اللهَ يتوبُ علينا إذا فكَّرنا فِي أنفسنا، وإذا بنا ظاهريُّون لا باطنيُّون.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: فِي هَذِهِ الآيةِ فِي التوبةِ العامَّة قال: ﴿مَن تَابَ﴾، ولم يَذْكُرِ الإيمانَ، وَفِي الآيةِ الَّتِي قبلَها فِي التوبةِ الخاصَّة ﴿مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾، فذكر الإيمان، ما وجهُ ذلك؟

لِأَنَّهُ ذكرَ الشركَ هناك؛ فلا بدَّ مِنَ الإيمانِ مُقابِلَ الشِّرْكِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما حُكْمُ إنْسَانٍ ابتُلِيَ بذنبٍ فأخذَ يَستغفرُ اللهَ ويتوبُ، وظلَّ عَلَى هَذَا، وعَجَزَ أنْ يُقْلِعَ عنه؟

فالجواب: مسألةُ العجزِ هَذِهِ أمرٌ غيرُ وارِدٍ، إلَّا عَلَى مَذْهَبِ الجَبْرِيَّة، لا أحد يَعْجِز عن التركِ، فالتروك أهـون من الأفعالِ، ولهذا لا تَجِد التَّرك رُتِّـبَ عليه مثلًا الثوابُ المطلَقُ، بخلافِ الفعلِ، فالفعلُ أشقُّ عَلَى النفسِ؛ لِأَنَّهُ جِهادٌ للنفسِ من وجهينِ، لكِن الترك من وجهٍ وَاحِدٍ، فكلمةُ عَجَزْتُ ليستْ بصحيحةٍ، ولو أنَّ سَوْطَ السلطانِ فِي ظَهْرِهِ مرَّة وَفِي بطنه مرَّة لا يَعْجِز.

لَكِنْ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الَّذِينَ يَشربون الدُّخَان إذا نَصحناهم يقولون: واللهِ عَجَزْنا؟

هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، أنا أَشْهَدُ أَنَّهُ يكذِب؛ لِأَنَّهُ وُجِدَ أُناسٌ صَدَقُوا العَزيمة وتابوا وأَقلَعوا عنه، فالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قبلَ أنْ يَنزِلَ الخمرُ كانوا مُدْمِنِينَ عَلَى الخمرِ، وإمساك الخمر لِشَارِبِها أكْثَـرُ من شُرْبِ الدخَانِ، ومع ذلك فِي يـومٍ وَاحِدٍ كلهمُ امْتَثَلُوا، فالكَلام عَلَى صِدق العزيمة، الآن فِي غيرِ الصيامِ هَذَا الشارِبُ لا يَستطيعُ أنْ يَتَوَقَّفَ النهارَ كلَّه عَلَى زَعْمِهِ عن الدخانِ، وَفِي الصيامِ حيثُ إِنَّهُ عازِمٌ يَستطيعُ.

الآيـة (٧٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان:٧٢].

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ هَذِهِ مَعْطُوفَةٌ عَلَى قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ﴾، وسَبَقَ أنَّ الصحيحَ أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ﴾ خبرٌ وليستْ صِفَةً كما قَالَ المُفَسِّر.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي الكَذِبَ والبَاطِلَ]، معنى الزُّور مِنِ ازْوَرَّ، أي: مالَ وانْحَرَفَ، ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الكهف:١٧]، فالزُّور كل مَيْل قَوليّ أو فِعليّ إنْ كَانَ قولًا وُصِفَ بالكَذِبِ، وإنْ كَانَ فِعْلًا وُصِفَ بالباطلِ، فكل قولٍ أو فعلٍ مائلٌ عنِ الطَّريقِ فَإِنَّهُ زُورٌ، فالكَذِبُ زُورٌ، والشَّتْمُ واللَّعْن والغِيبة زورٌ أيضًا، والغَصْب والسَّرِقَة والزِّنَا وغير ذلك زورٌ أَيْضًا، لكِن قد نُسَمِّيهِ باطِلًا إذا كَانَ فِعْلًا.

فالمهمُّ أنَّهم لا يَشهَدون الزُّور، وإذا كانوا لا يَشهَدون الزورَ فهل يفعلونه؟ من باب أَولَى؛ لأنَّهم إذا كانـوا لا يَحْضُرُونَهُ فإنهم لا يَفْعَلُونه قَطْـعًا؛ إذ لوْ فَعَلوه لَحَضَرُوه، كلُّ فاعلٍ حاضِر، وليس كل حاضرٍ فاعلًا عَلَى وجه الحقيقةِ، لَكِنه فاعلٌ حُكْمًا؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡ﴾ [النساء:١٤٠]،

فدلَّ هَذَا عَلَى أنَّ المُشَاهِدَ لِلْعَاصِي -سواء كَانَ قاعدًا أو مُضْطَجِعًا أو واقفًا- مثل العاصي حُكْمًا عندَ اللهِ، وهذا فِي كلِّ المعاصي، إِلَّا مَن أُكْرِهَ عَلَى الحضورِ فهذا شَيْءٌ آخَرُ لا حُكْمَ له، كمَن أُكرِه عَلَى الفعلِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ﴾ مِنَ الكَلامِ القبيحِ وغيرِهِ ﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾ مُعْرِضِينَ عنه].

قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ﴾ اللغوُ الصوابُ أَنَّهُ لَيْسَ الكَلامَ القبيحَ؛ لأنَّ الكَلامَ القَبيحَ داخلٌ فِي الزُّور، لكِن المراد باللَّغْوِ ما لا فائدةَ فيه، فكلُّ ما لا فائدةَ فِيهِ فَهُوَ لَغْوٌ؛ وذلكَ لِأَنَّهُ لا يُقْصَد، ومَا لَا يُقْصَدُ فَهُوَ لغوٌ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة:٨٩]، فاللَّغْوُ ما لا فائدةَ فِيهِ، سواءٌ كَانَ قولًا أو فِعْلًا.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ لم يَقُلْ مثلَما سَبَقَ ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾؛ لِأَنَّ هناك خِطَابًا معيَّنًا مباشرًا، فلا بدَّ أنْ يقولوا قولًا يَسْلَمُونَ بِهِ، لكِن هنا يَمُرُّون بالشَيْءِ بدونِ أنْ يُخَاطَبُوا بِهِ، والمراد بِالْمُرُورِ بِهِ سواء كانوا مارِّينَ فِي طَرِيقٍ أو جالِسِينَ، فجاء شَيْءٌ لَغْوٌ لا فائدةَ فِيهِ، فإنهم يَمُرُّونَ كِرَامًا، ومعنى مرّ الكِرَام هنا أي أَنَّهُمْ لا يَلْحَقُهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ، بل يُحاوِلون الإصلاحَ؛ لأنَّ الكريمَ يُعْطِي غيرَه، يَنْفَعُ نفسَه وغيرَه، فهم إذا مَرُّوا باللَّغْوِ يَمُرُّونَ كِرامًا، يحاولونَ أنْ يُفِيدُوا من وُجُودِهِمْ، وذلك بأنْ يَنْقُلُوا هَذَا اللغوَ إِلَى أمرٍ مفيدٍ، ولهذا قال: ﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾، لم يَقُلْ: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾؛ لِأَنَّ هناك يخاطبون بما يُسِيءُ إليهم، فيَقُولُونَ قَوْلًا يَسْلَمُونَ بِهِ؛ لأنَّ المَقَامَ يَقْتَضِي أنْ تُسَلِّمَ فقطْ، لَكِنْ هنا لا يُؤْذَوْنَ إِنَّما يمرُّونَ بِلَغْوٍ لا فائدةَ منه، فيمرون كِرَامًا مُفِيدِينَ ومُسْتَفِيدِينَ.

قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مُعْرِضِينَ عنه] هَذَا غير صحيح أَيْضًا، قد لا يُعرِضون عنه لكِن يفيدون ويَستفيدونَ، والْإِنْسَان الموفَّق يَستطيعُ أنْ يُفيد ويَستفيدَ، حَتَّى إذا كَانَ المجلسُ مَجْلِسَ لَغْوٍ، يَعْنِي كَلامًا مباحًا يَستطيعُ أنْ يُحَوِّلَهُ إِلَى كَلامٍ مطلوبٍ، وذلك بما يَستعرِضه مثلًا من كونِ هَذَا الشَيْءِ الَّذِي يَتَحَدَّثُونَ بِهِ دليلًا عَلَى قُدْرَةِ اللهِ، أو عَلَى رحمة اللهِ، أو عَلَى حِكمةِ اللهِ مثلًا، فيُفيد ويَستفيد، لكِن هَذِهِ الأمور فِي الحقيقةِ تُرِيدُ رِجَالًا يَعْتَبِرُونَ أنفسَهم قادةً مُصْلِحِينَ، لا تُرِيد رجالًا يَعتبرونَ أنفسَهم مِن جِنْسِ مُجْتَمَعِهِم، يَمْشُونَ الهُوَيْنَى بدونِ إصلاحٍ؛ ولهذا يَفُوتُنا كثيرٌ فِي هَذِهِ الأمورِ، فنَجْلِسُ مجالسَ اللَّغْو لا نُفيد ولا نَستفِيد، غاية ما هُنالِكَ إنْ كَانَ الْإِنْسَانُ استحضرَ نيَّةَ التأليفِ وعدمِ الِانْزِوَاءِ، وَمَا أَشْبَهَ ذلكَ، وهذا خيرٌ، لكِن ولو، الخيرُ والأكملُ أنْ تُحَاوِلَ الإفادةَ والاستفادةَ.

وبعضُ النَّاسِ أَيْضًا يريدُ مِنَ المجالِسِ التسلِّي فقطْ، لا يريدُ معنًى وراءَ ذلك، وهذا فاتَهُ خَيْرٌ كثيرٌ، وعلى كلِّ حالٍ النَّاسُ يَختلِفون، والمسائلُ تعودُ عَلَى النيَّاتِ، وكم من عملٍ عَمِلَهُ شخصٌ وعمِله آخرُ، فصار بينهما مثلُ ما بَيْنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ، فالسجودُ يَكُونُ شِرْكًا ويَكُونُ طاعةً، إن سَجَدْتَ لِصَنَمٍ كَانَ شِرْكًا، وإن سَجَدْتَ لله كَانَ طاعةً، وهكذا جميعِ الأعمالِ، فالنيَّةُ فِي الحقيقةِ لها تأثيرٌ كبيرٌ فِي إصلاحِها أو فِي إِفْسَادِها.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أنا أريدُ أنْ أُسافرَ معَ شبابٍ فِي بعضِ النوادي، وهَؤُلَاءِ الشبابُ لا يُريدونَ إِلَّا اللَّهْوَ، وأريدُ أنْ أَذهبَ معَهم إِلَى الأماكنِ الَّتِي يَذهَبون إليها، هم عَلَى قصدٍ وأنا عَلَى قصدٍ، وأنا لي هدفٌ، أنا قَصدي أريدُ إصلاحَهم، وأُحاولُ أنْ أُعالِجَهُم، وهم قَصْدُهم أني داخلٌ معهم؟

الجواب: لا بأسَ، فإذَا قَصَدْتَ الإصلاحَ فهذا طيِّب، لكِن نَخْشَى أنْ يَتَغَلَّبُوا عليكَ، لكِن لا تُحَوِّلهم قَفْزَةً، لكِن تستطيع رُوَيْدًا رُويدًا، الآن مثلًا عندما تحاولُ أنْ تمنعَ الماءَ الكثيرَ المنحدِرَ مرَّةً وَاحِدةً لا تستطيعُ، ضعْ أمامَهُ مَثَلًا نقطةَ طينٍ لا تَرُدّه، لكِن ضَعْها فِي الجوانبِ رُويدًا رويدًا يُمْكِن أنْ تَقْضِيَ عليه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل هَذِهِ النوادي الَّتِي يَذْهَب إليها الشبابُ محرَّمة؟

النوادي ليستْ محرَّمةً، مَن يقولُ: إن النواديَ محرَّمة! بعضُ الأفعالِ فِيهَا قد تكونُ غيرَ مَرْضِيَّة، لَكِنَّنا لا نقولُ: إن هَذَا مُحَرَّم؛ لِأَنَّ تَرْكَهم وتركَ الاختلاطِ بهم مُشْكِلة أَيْضًا، معناه أَنَّهُمْ يُتْرَكُونَ والشياطين.

عَلَى كلِّ حالٍ لَيْسَ هناك شكّ أنَّ المرادَ منها -وهو أصل المؤسِّسِينَ لها-: صَدُّ النَّاسِ عن دينِ اللهِ، وهذا هو الواقِعُ؛ لَكِنْ معَ ذلكَ لا نقولُ: إنَّها مَعْدُومةُ الخيرِ مئةً بالمئةِ، فنحاولُ أنْ نَنْصَحَهُمْ، وليس إصلاحها إزالتـها، نحن لا نُؤَيِّدهم عَلَى أَعمالِهم ولا عَلَى نواديهم فِي الحقيـقةِ، ونَرَى أَنَّهُ مِنَ المصلحةِ أنْ يُصْرَفَ الشبابُ إِلَى شَيْءٍ آخرَ؛ إِلَى تَعَلُّمِ الرِّمايةِ وإلى تعلُّمِ السِّباحة وإلى السباق وإلى الأشياءِ المفيدةِ، حَتَّى لو نجعلهم يَقْطَعون حصا، المهمُّ يفيدون النَّاسَ.

أمَّا أنا فلا أقولُ: إنِّي أُؤَيِّدُ النواديَ، بل أقولُ: إن ضَرَرَها أكْثَرُ مِن نَفْعِها، وإن كَانَ مع ذلكَ لا نقولُ: إن ضررها مئة بالمئة، نقول: ضَرَرُها أكْثَرُ من نفعِها، لكِن أَلَا ترى هَؤُلَاءِ الشبابَ الكثيرَ لو بَقِيَ مُسَرَّحًا فِي الأسواقِ ألا يحصُل من ذلك مَفْسَدَةٌ؟ واللهِ أنا عِندي أنها كافَّة عن أشيـاءَ كثيرةٍ، وأن الشباب لو بَقُوا مسرَّحينَ فِي الأسـواقِ لكانَ أفسدَ وأفسدَ، واتفـقنا عَلَى هَذَا؛ عَلَى أنها تحتاج إِلَى توجيهٍ، وأن وجودَ النوادي ضررٌ، لكِن لا نقولُ: إنها ضررٌ مَحْضٌ؛ لِأَنَّهَا كافَّة عن أشياءَ كثيرةٍ،

فلو أنَّ الشبابَ مثلًا قامَ يَتَجَوَّل فِي الأسواقِ ويتجمعون تَجَمُّعات كَانَ يَحْصُل شَيْءٌ عظيمٌ، نقول: إن هَذِهِ ليستْ بفكرةٍ جيِّدةٍ، وليست سليمةً أبدًا، وليسَ المقصودُ بِهَا الخيرَ للمسلمينَ أيضًا، أنا أَجْزِمُ -واللهُ أَعْلَمُ- أَنَّهُ ما قُصد بِهَا الخيرُ للمسلمينَ، إِنَّما قُصِدَ بِهَا إلهاءُ النَّاسِ وصَدُّهم عن دينِ اللهِ، لكِن معَ ذلك لا نقولُ: إنها شرٌّ مَحْضٌ، الكَلام الآنَ الَّذِي هو مَوْضِع نِقاشٍ هل هي شرٌّ مَحْضٌ أو فِيهَا خيرٌ، وأَقْصِد بالخيرِ لَيْسَ الخير الإيجابيّ، لكِن أقصد الخيرَ السلبيّ، بمعنى أنها تَكُفُّ عن مَفَاسِدَ -فِي ظنِّي- أكْثَرَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أَحَدُهم يكتُب فِي الجرائدِ يَستدِلّ بقولِه تَعَالَى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة:١١١]، ويذكر أدلَّةً من القُرْآنِ عَلَى أنَّ الكُرَةَ السعودية غيرُ مُتَدَهْوِرَة، ويقول: مَن يقولُ: إن الكرةَ السعودية متدهورة أو ضعيفة، رغم أنَّ عَلَمَ السعودية (لا إلهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ)، وكذلك تجمعهم الكرةُ مع لاعبي الكرة الآخرين، ولو كَانَ مع يهوديٍّ؟!

فهَذَا لَيْسَ فِيهِ شكٌّ، ولهذا تجدُ أنَّ بعضَهم يشجِّع أُناسًا من النصارى واليهودِ من هَؤُلَاءِ اللاعبين، وتجدهم إذا جاءتِ المباراةُ فِي التلفزيون لو أُقيمَتِ الصلاةُ يَسْمَع إقامةَ الصلاةِ ولا يقومُ للصلاةِ، هَذَا صحيحٌ، بل ربما يحبّون مَن يشجِّعون من هَؤُلَاءِ أشدَّ مِن حُبِّ اللهِ ورسولِهِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل تُعْتَبَرُ كرةُ القدمِ صَنَمًا؛ لأَنَّهُمْ قدَّموا طاعتها عَلَى طاعةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟

صحيحٌ، يَنْطَبِقُ عَلَيْهَا عبدُ الدِّينار والدِّرهم؛ لأَنَّهُمْ إن أُعطوا رَضُوا، وإنْ لم يُعْطَوْا سَخِطُوا، إنْ نَجَحُوا رَضُوا، وإلا سَخِطُوا وقالوا: ما هَـذَا الحظّ! ما هَذَا

النصيبُ! ما هَذَا التقديرُ؟! حَتَّى يقال: إنَّ أَحَدَهم فِي البدائعِ ماتَ فَرَحًا لانتصارِ فريقِه الَّذِي يراه، اللهُ أكبرُ، سبحانَ اللهِ العظيمِ!

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَؤُلَاءِ إذا طَلَبُوا من أحدِ طُلَّاب العلمِ أنْ يُلْقِيَ عندهم محاضرةً، هل يذهب إليهم؟

نقول: يَذهَب إليهم، ولا يَكُونُ إِلَّا خيرًا، فإذا كانوا همُ الذينَ طَلَبُوه، وهم لم يَطْلُبُوه إِلَّا وهم يَظُنُّون أَنَّهُمْ سَيَسْتَفِيدُونَ منه.

لَوْ قِيلَ: هم ما طَلَبُوه إِلَّا مِنْ أجْلِ أنْ يُبَارِكَ هَذَا العملَ؟

أنا أَخْشَى أَيْضًا أن يَكُون هَذَا خطيرًا، فيَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أنْ يُرَاعِيَ الَّذِي بينه وبين اللهِ، فإذا طلبوا منكَ ذلك وقالوا: تعالَ ذكِّرْنا، وهم مجتمعٌ.

فَلَوْ قِيلَ: يوجد فِي هَذِهِ الأماكنِ منكَرات كصُور مجسَّمة وغيرها.

نقول: لا نريد هَذَا المكان، نذهب إِلَى مكان آخرَ، ثم بعد ذلكَ تَنْصَحُهم.

• • ۞ • •

الآيــة (٧٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان:٧٣].

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ لم يُبيّن مَنِ المُذَكِّر؛ لِيَشْمَل كلّ مذكّر، وليبيِّن أنَّ قبولَهم للتذكيرِ لَيْسَ مِنْ أجْلِ شخصِ المُذَكِّر؛ لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَن لا يَقبَل الحقَّ إِلَّا من شخصٍ معيَّن، وإذا جاءَهُ من شخصٍ آخرَ لم يَقْبَلْهُ، مثلَما فعلَ أهلُ الكِتَابِ وغيرُهم بالنَّبيِّ ﷺ، فلا يَقْبَلُون الحقَّ إِلَّا من طائفةٍ معيَّنةٍ أو شخصٍ معيَّن ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة:١٤٥]، فهنا قال: ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ ولم يُبَيِّنِ المُذَكِّرَ إشارةً إِلَى أَنَّهُمْ إِنَّما يَقْبَلُونَ الحقَّ لِأَنَّهُ حقٌّ، لا مِنْ أجْلِ مَن قَالَ بِهِ، فهم لا يَقبَلون التذكيرَ لأجلِ شخصِ المذكِّر، أو يَرُدُّونه مِنْ أجْلِ شخصِ المذكِّرِ، وإنما يَقبلونه لِأَنَّهُ تذكيرٌ، وهَذِهِ هي الْفَائِدَةُ فِي حذفِ الفاعِلِ.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ وُعِظُوا ﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أيِ الْقُرْآنِ].

قوله: ﴿ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ هل المرادُ (ذُكِّروا بها) أي أنها جُعِلَتْ وسيلةً للذِّكْرَى أو التذكير، أو (ذُكِّروا بها) أي بما حكمت بِهِ لِيَعْمَلُوا به؟ شاملة للجميع، يَعْنِي سواء ذُكِّروا تذكيرًا بواسطةِ الآياتِ بأن قُرِئَتْ عليهم لِيَذَّكَّروا، أو ذُكِّروا بِهَا أي قِيلَ لهمُ: اذكروا أحكامَ اللهِ واعْمَلُوا بِهَا، فَهُوَ شامِلٌ للأمرينِ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي القُرْآن] الصوابُ العُمُومُ؛ القُرْآنُ وغيرُ القُرْآنِ، وأنه أَيْضًا أعمُّ من جهةِ كونِ الآياتِ كونيَّة أو شرعيَّة، فنحن نقول: بالقُرْآنِ وغيرِه من الكتبِ السابقةِ، ونقول أَيْضًا: بالقُرْآن والكتب أو بالآيات الكونيَّة؛ فإن الآيات الكونية مُذَكِّرة؛ لِقَـوْلِ النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فِي الكُسُوف: «يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ»[1]، فالآياتُ الكونيَّة مخوِّفة ومذكِّرة باللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا دائمًا يَحُثُّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى النظَرِ فِي هَذِهِ الآياتِ الكونيَّة؛ لِمَا فِيهَا مِنَ الدلالةِ عَلَى الخالقِ، وعلى ما تَشتمِل عليه من صفاتِه من الحِكْمَة والرَّحمةِ وغيرِ ذلك، فالآنَ عندنا عمومانِ فِي التذكيرِ بالآياتِ:

العمومُ الأوَّل: أنها تَشمَل الآياتِ الكونيَّة والشرعيَّة.

العموم الثَّاني: أنها تَشمَل القُرْآن وغير القُرْآن من الكتب السابقةِ؛ لأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ لَيْسَ خاصًّا بعبادِ الرَّحمنِ من هَذِهِ الأمَّة، بل هو عامٌّ لكلِّ عبادِ الرَّحمنِ من كلِّ أُمَّة.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَمْ يَخِرُّوا۟﴾ يَسْقُطوا ﴿عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ بل خَرُّوا سامعينَ ناظرينَ مُنْتَفِعِينَ].

قوله: ﴿صُمًّا﴾ جمع أَصَمّ، وهو الَّذِي لم يَسْمَعْ، ﴿وَعُمْيَانًا﴾ جمع أَعْمَى، وهو الَّذِي لم يرَ، وإنما قَيَّده بهاتينِ الحاسَّتيْنِ لأنهما الوسيلة إِلَى وصولِ الشَيْءِ إِلَى القلبِ؛ إذ الأشياء إمَّا مرئيَّة فوسيلتها النظرُ، وإما مسموعة فوسيلتها السمعُ، فنفى أنْ يَكُونوا صُمًّا، ونفَى أن يَكُونوا عُميَانًا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف الصلاة جامعة، رقم (٩١١).

وقوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا﴾ يقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [لم يسقُطوا] وإنما يُقْبِلون عَلَيْهَا إقبالَ سامعٍ مُبْصِرٍ، لا أَنَّهُمْ يسقطون عَلَيْهَا عَلَى هَذَا الوجهِ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذِهِ الصِّفة سلبيةٌ، والصِّفاتُ الثُّبُوتِيَّة أبلغُ فِي الثناءِ، فلماذا لم يَقُلْ: إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهم أَقْبَلُوا عَلَيْهَا مُبْصِرِينَ سَامعينَ؟

نقول: حَتَّى إذا قُلْنَا: إن هَذَا النفيَ يَتَضَمَّن إثباتًا، والنفي -كما تَقَدَّم- لا يَكُون مَدْحًا إِلَّا إذا تَضَمَّنَ إثباتًا، لَكِنَّنَا نقول: لِماذا لم يُثْبِت أصلًا فلا يَرْتَفِع الإِشْكالُ؟ إِنَّما يقال: إِنَّهُ تَعْرِيض بِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهم خَرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وعُميانًا، فهم عَلَى نَقِيضِهم، لكِن نقول: لِماذا لم يَقُلْ: خَرُّوا عَلَيْهَا مُبْصِرِينَ سَامعينَ؟ مِنْ أَجْلِ السَبَبِ الَّذِي ذكرتُ، ومن المعروفِ أنَّ هَذِهِ السُّورة من أَوَّلها إِلَى آخِرِها فِي مُجَادَلَةِ المنكِرِينَ لِمَا جاءَ بِهِ الرَّسولُ ﷺ، وهم إذا كانوا مُنْكِرِينَ يَخِرُّونَ عَلَى الآياتِ صُمًّا وعميانًا، فهذا -واللهُ أَعْلَمُ- وجهُ المناسبةِ فِي العدولِ عن ذكرِ الصِّفةِ الثبوتيَّة إِلَى ذِكرِ الصِّفةِ السلبيَّةِ، ولهذا قَالَ المُفَسِّر: [بلْ خرُّوا سامعينَ ناظرينَ منتفعينَ].

• • ۞ • •

الآيــة (٧٤)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ بالجمعِ والإفرادِ]، ﴿وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ جَمْعٌ، و(ذُرِّيَّتِنَا) إفراد. ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ لنا بأن نَراهُمْ مُطِيعِينَ لكَ ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ فِي الخيرِ].

بعد أنْ ذكرَ الله عَزَّوَجَلَّ صلاحَ هَؤُلَاءِ فِي أنفسِهِمْ، ذَكَرَ أنَّهم أَيْضًا يَسْعَوْنَ فِي إصلاحِ غيرِهِمْ مِمَّن يتَّصِلُ بهم من الأزواجِ والذرِّيَّة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا﴾، وَفِي هَذَا دليلٌ واضحٌ عَلَى أنَّ دأبَ المؤمنينَ دُعَاء اللهِ، وَأَمَّا مَن قالَ: (عِلْمُه بحالِي يَكْفِي عن سُؤَالِي) فهذا قولٌ باطلٌ، وليسَ بصحيحٍ؛ لأننا نقولُ: إن الله وصفَ الرُّسُلَ وأتباعَهم بأَنَّهُمْ يَدْعُونَ اللهَ، وهم يعلمون علمَ اليقينِ بأنَّ الله يعلمُ بحالِهم، ومَن قَالَ مثلَ هَذَا القَوْل فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى استكبارِهِ عن دعاءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وعَدَم خُضُوعِهِ لِرَبِّهِ، وإلَّا فمِنَ المعلومِ أن اللهَ عالمٌ بحالِ كلِّ أحدٍ، فلماذا لم تَقُلْ: يا ربِّ؟ ولَكِنَّ هَذَا -والعياذُ بالله- من الطرق الشيطانيَّة الَّتِي أَرْسَلَها الشيطانُ عَلَى مُتَّبِعِيهَا من الصُّوفيَّة وغيرهم.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا﴾ الهِبَة بمعنى العَطِيَّة.

قوله: ﴿مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ هل (مِنْ) للتبعيضِ أو لبيانِ الجِنْسِ؟ لبيانِ الجنسِ، فهم لا يَقُولُونَ: بعض أزواجنا تهَب لنا منهم قُرَّةَ أَعْيُنٍ، بل الجميع، ولكِنها للبيان، فـ(من) بيانيَّة وليستْ تَبْعِيضِيَّة.

وقوله: ﴿مِنْ أَزْوَٰجِنَا﴾ جمع زوجٍ، فيَشمَل الذَّكَرَ والأُنثى، فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ الرجل يقوله؛ لأن (الذين) للمذكَّر، والمرأة تقوله أَيْضًا؛ لأن الخطاب أو التحدُّث بصيغةِ جمعِ المذكَّر يشمل المؤنَّث أَيْضًا، فالمرأة تقوله والرجل يقوله أيضًا.

قوله: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ قراءتانِ[1]: «ذُرِّيَتِنَا» و﴿وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾، أمَّا عَلَى قراءة ﴿وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ فالوجهُ فِيهَا ظاهرٌ لفظًا ومعنًى، أَمَّا لفظًا فلِمُنَاسَبَةِ الجمعِ قبلها: ﴿مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾، وَأَمَّا معنًى فلأنه أشملُ، فشموله ظاهِرٌ مِنْ أجْلِ الجمعِ، وَأَمَّا «ذُرِّيَّتِنا» فإنها لا تَتَلاقَى معَ ما قبلَها من حيثُ الصِّيغةُ؛ لِأَنَّهَا مفرَدٌ، لَكِنَّها تُلاقيها من حيثُ المعنى؛ لِأَنَّهَا مفرد مضاف، والمفرد المضاف للعموم، ويَدُلُّ عَلَى أن المفردَ المضافَ للعمومِ من القُرْآنِ قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، يقينًا أن المرادَ بالنعمةِ هنا الجمعُ؛ لِأَنَّهُ قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾ والنعمة الوَاحِدةُ أوَّلًا: لا تُعَدُّ، والشَيْء الثَّاني: تُحْصَى، والله يقول: ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ فهذا مثالٌ واضحٌ جِدًّا عَلَى أن المفردَ المضافَ يَكُون للعمومِ والشمولِ، إذَن (ذُرِّيَّتنا) عَلَى قراءةِ الإفرادِ يلاقي ما قبله من حيثُ المعنى؛ لِأَنَّهُ يشمل جميع الذُّرِّيَّة.

ومَنِ المرادُ بالذُّرِّيَّة؟

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٦).

المراد بالذريَّة الأولادُ؛ ذُكُورُهُم وإناثُهم، وأولاد الأبناءِ دونَ أولادِ البناتِ، فإن أولاد البناتِ لَيْسُوا من الذريةِ لُغةً ولا شرعًا عند كثيرٍ مِنَ الفقهاءِ، وقيل: بل أولادُ البناتِ من الذُّرِّيَّة؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَالَ فِي إِبْراهِيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ [الأنعام:٨٤-٨٥]، وعيسى ولد بنت وليس ولدَ ابنٍ، فجعله اللهُ مِن الذريةِ، فدلَّ هَذَا عَلَى أنَّ أولادَ البناتِ من الذريةِ، ولَكِنَّنا نقولُ: لَيْسَ فِي الآيةِ دَلالةٌ؛ لأنَّ عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُمُّهُ أبوه، يَعْنِي لَيْسَ له نَسَبٌ من قِبل الأُبُوَّةِ، مُنْقَطِع؛ ولهذا المرأة المُلَاعِنة -أوِ المُلَاعَنة- إذا نفَى زوجُها ولدَها منه صارتْ هي أُمًّا أبًا، فالصوابُ أن الذرية لا يَدْخُلُ فِيهَا أولادُ البناتِ، هَذَا من حيثُ ناحية اللُّغَة والشَّرْع.

أما من حيثُ الوَقْفُ والهِبَةُ، وَمَا أَشْبَهَ ذلكَ مِمَّا يَتَصَرَّفُ فِيهِ الْإِنْسَانُ بنفسِهِ، وله الحرِّيَّة فِيهِ، فهذا حَسَبَ ما ينصّ عليه، لو قَالَ مثلًا: هَذَا وَقْفٌ عَلَى ذُرِّيَّتِي الذكور والإناث، ومَن مات منهم عن ولدٍ فنصيبه لولدِهِ، يَكُون هَذَا للجميعِ.

وكَذَلِك لو قَالَ: هَذَا وَقْفٌ عَلَى ذُرِّيتي ومَن تَفَرَّعَ منهم، وليس له إلَّا بنات، فيدخل أولاد البناتِ بِلَا شَكٍّ، أو قَالَ مثلًا: عَلَى ذُرِّيَّتِي، وأولاد البنات يَنزِلون منزلة أُمَّهَاتهم، فكَذَلِك إذا نصَّ عَلَى الشَيْءِ أو دلَّت القرينةُ عليه دَخَلَ أولادُ البناتِ، لكِن هَذَا الدخول بِحَسَبِ ما تَقْتَضِيهِ الصِّيغة عُرْفًا أو نُطْقًا، لا بِحَسَب الشرعِ واللُّغة العربيَّة.

قوله: ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ ما معنى قُرَّة العَيْن، قرة العين هل معناها الاستقرارُ، يعني أنَّها مأخوذة من الاستقرارِ، أو مأخوذة من القُرّ، وهو البَرْد؛ لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إن دُمُوع العين الحزينة حارَّة، والعَيْنُ القَرِيرَة باردةٌ؟

هَذَا هو الأقربُ، وليس منْ الِاستقرار، وليس المعنى أنَّ الْإِنْسَانَ إذا فَرِحَ قَرَّت عينُه، وإذا حَزِنَ اضْطَرَبَتْ وتحركتْ، لَيْسَ الأمر كَذَلِك، لَكِنها من القُرّ الَّذِي هو البرودة؛ لأن الْإِنْسَان إذا حَزِنَ حَمِيَتْ عَيْنُه، ولهذا يقالُ: دموع الحزينِ حارَّة، فالمعنى السرور والاطمئنان، وَمَا أَشْبَهَ ذلك، وكُني بالعينِ لِأَنَّهَا تَتَأَثَّر.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بأنْ نَراهُمْ مُطِيعِينَ لكَ] هَذَا فِي الحقيقةِ من جُملةِ ما تَقَرُّ بِهِ عينُ المؤمِن، أن يَرَى أزواجَهُ وذرِّيَّاتِهِ مُطِيعِينَ لله، والغريبُ أنَّ الْإِنْسَانَ المسلمَ إذا رأى أزواجَهُ وذرياتِه مطيعينَ لله تَقَرُّ عينُه وإنْ كَانَ هو فَاسِقًا، الغريب أن الوالدَ يَفْرَح أن وَلَدَهُ يصيرُ مُطيعًا لله مُجْتَنِبًا للمعاصي، وهو فاسِقٌ، ويُحِبّ أنَّ وَلَدَهُ يصلي مع الجَماعَةِ، ولو كَانَ هو لا يصلي، وكَذَلِك يحبُّ أنَّ وَلَدَهُ لا يشرب الدخَانَ، ولو كَانَ هو يشرب الدخانَ؛ لأن المسلمَ مجبولٌ عَلَى مَحَبَّة طاعةِ اللهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ يَعْنِي بأن نراهم مطيعينَ لكَ، هَذَا وَاحِد. والصواب أَيْضًا (ولنا)؛ لأن الْإِنْسَانَ أَيْضًا إذا كَانَ ولدُه وزوجتُه موافِقِينَ لطاعتِهِ تَقَرُّ عينُه، هَذَا إذا أُضيفت إِلَى طاعةِ اللهِ، لكِن إذا كانوا مطيعينَ لله وعاصِينَ له تَقَرُّ عينُه من وجهٍ، إذا ذَكَرَ طاعتهم لله وقِيامَهم بطاعةِ اللهِ رَضِيَ وفَرِحَ، وإذا رآهُم عاصِينَ له فإن هذا يسوءه، كأنْ يقولَ للولدِ: اجْلِسْ فِي القهوةِ وانتظِرِ الرِّجالَ، ولَكِنَّه يخرج، ويقول للمرأةِ: أَصْلِحِي الطعامَ، ولَكِنَّها لا تُصْلِحُه، فلَا شَكَّ أن هَذَا الشَيْءَ يَسُوءُه، ولا تَقَرّ عَيْنُه بِهِ، معَ أن هَذَا الأمرَ معصيةٌ لله.

يَعْنِي لَوْ شِئْنَا لَقُلْنَا: إن قولَه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بأنْ نَراهُمْ مُطِيعينَ لكَ] يَشْمَلُ حَتَّى طاعتهم لأبيهم وطاعة المرأة لِزَوْجِها، يَشمَل هَذَا وهذا، وكَذَلِك قيامُ الرجلِ بما يَجِب لزوجتِهِ يدخلُ فِي ذلكَ، فلو شِئنا أنْ نقولَ هَذَا لَقُلْنَاه، لَكِنَّه خِلافُ ظاهرِ الكَلامِ،

فالصوابُ أن نراهم مُطيعينَ لكَ قائمينَ بما يَجِبُ عليهم لنـا؛ لأنَّ بذلك يَتِمُّ قَرار العَيْن.

قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾: ﴿إِمَامًا﴾ يَعْنِي قُـدْوَةً، والإمامُ هو القُدْوَةُ المُتَّبَعُ.

وقوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ سَبَقَ الكَلامُ عَنِ التَّقوَى عِدَّةَ مَرَّاتٍ، وأن المرادَ بالتقوى اتِّخاذ وِقايـة من عذابِ اللهِ، وذلكَ بِفِعْلِ الأوامرِ واجتـنابِ النواهي، ومعنى كونه للمتَّقين إمامًا أي قُدوةً، لاتِّصافهم بالتقوَى، واتصافهم بالعلمِ؛ لِأَنَّهُ لا يُمْكِنُ أن يَكُونَ الْإِنْسَانُ قُدوةً إِلَّا إذا عُلِم فِيهِ العلمُ والتقوى، فإذا لم يكنْ عالِمًا لم يَثِقِ النَّاسُ بِهِ من حيثُ العلمُ، فالجاهلُ لا يَقْتَدُونَ بِهِ، وإذا كَانَ عالِمًا لكِن عنده انحرافٌ قوليّ، أو عمليّ، أو اعتقاديّ، فَإِنَّهُ أَيْضًا لا يَكُون قدوةً للمتَّقين، لا لعدمِ عِلْمِه، ولَكِن لِعَدَمِ نُصْحِه.

فهذا الدعاء ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ يَتَضَمَّنُ ثلاثةَ أمورٍ: العلم والتقوى والتأثير؛ لأنَّ مَن لم يَكُـنْ عَالِمًا لم يَكُنْ قُدْوَةً، ومَن لم يكنْ مُتَّـقِيًا لم يكنْ قُدوةً، ومَن لم يكـنْ مُؤَثِّرًا لم يكن قدوةً أَيْضًا، والتأثـير بالقَوْلِ والفعلِ له دورٌ كَبـيرٌ، تَجِدُ مثلًا رجلينِ متقاربينِ فِي العلمِ لَكِنَّ أحدَهما يَصْرِفُ اللهُ القلوبَ إليه فيَتَّخِذُونَه قُدوةً، والآخر لا يحصُل له هَذَا الأمرُ، فلهذا نقولُ: نَزِيدُ عَلَى العلمِ والتقوَى التأثيرَ، والتأثيرُ كما هو معروفٌ يَكُونُ سَبَبه قوَّة البيانِ والفَصَاحَة، إذا كَانَ التأثير بالقَوْلِ، ويَكُون سَبَبه أَيْضًا الاستقامة وحُسْن السُّلُوك، إذا كَانَ تأثيرًا بالفعل. وعلى كلِّ حالٍ فلا تَتِمُّ الإمامةُ إِلَّا بهَذِهِ الأمورِ الثَّلاثَةِ: العِلْم والتقوى والتأثير بِالْقَوْل أو بالفِعْلِ.

وَفِي الآيةِ إشكالٌ لفظيٌّ، وهو قوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ لأنَّ (اجعلنا)

فِعل يَنْصِبُ مَفْعُولينِ، أحدُهما مبتدأ والثَّاني الخبرُ، ومِن شروطِ المبتدأِ والخبرِ أنْ يَكُونَا متطابقينِ إفرادًا وتثنيةً وجَمعًا، هنا المبتدأ جمع، أي فِي قوله: (واجعلنا) فـ(نا) جمع ﴿لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (إمامًا) هَذَا الخبر، وهو المَفْعُول الثَّاني، وهو مفرَد، فيبقى إشكالٌ وهو عَدَمُ مطابقةِ الخبرِ للمبتدأِ، والمطابقة أنْ يقالَ: واجْعَلْنا للمتقينَ أَئِمَّةً، فما هو الجوابُ عَنْ هَذا؟

بعضُهم قَالَ: إنَّ (إمامًا) لفظٌ صالحٌ للمفردِ وغيرِهِ، مثل فُلْك وجُنب وأشياءَ كثيرةٍ من هَذَا النوعِ، وعلى هَذَا لا إشكالَ لأنَّ (إمامًا) بمعنى أَئِمَّة، صالحة للجَمع.

ومنهم مَن قَالَ: إنَّ (نا) فِي قوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ نائبةٌ عن كلِّ وَاحِدٍ، لَيْسَ عن المجموعِ، يَعْنِي اجْعَلْ كلَّ وَاحِدٍ مِنَّا إمامًا، يَعْنِي كل وَاحِدٍ يدعو بمفردِهِ، فعلى هَذَا لا إشكالَ أَيْضًا إذا جَعَلْنَا الضميرَ فِي (اجعلنا) لَيْسَ عائدًا للمجموعِ، إنَّما عائد لكلِّ فردٍ مِنَ الجميعِ، فلا إشكال فِي المسألةِ، وهذا أقربُ؛ لأنَّ كلَّ وَاحِدٍ مِنَ المؤمنينَ لا يَسأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ يَجْعَلَ المجموعَ أئمَّةً، هو يريد أن يجعلَ كلَّ وَاحِدٍ إمامًا.

وفي هَذَا دليلٌ عَلَى فَضيلةِ الإمامةِ فِي الدينِ، ومنها إمامةُ المساجِدِ، فإنَّ الإمامَ فِي المسجدِ إمامٌ للمتَّقين؛ لأن الَّذِينَ يأتون للصلاةِ متَّقون إنْ شاء اللهُ، فَهُوَ إمام لهم، فيدلّ ذلك عَلَى فضيلةِ تولِّي الإمامةِ فِي المساجِدِ، وأمرُ ذلكَ معلومٌ، يَعْنِي فضل الإمامة فِي المساجد معلوم، ولو لم يَكُنْ منها إلَّا أنَّ الْإِنْسَانَ يَكُون قُدوةً، وأن الإمامة تُعِينه عَلَى أداءِ الصلاةِ، فالإمامُ لا تَفُوتُه الصلاةُ كلَّ يومٍ، وغيرُه تفوتُه أو يفوته بعضُها، كَذَلِك الإمامُ إذا تكلَّم يَسْمَع له أكْثَر، وكم من إنْسَانٍ ما بَرَزَ وظهرَ إلَّا بسَبَبِ إمامتِهِ، لاسِيَّما إذا تَوَلَّى الخَطابة.

المهمُّ أنَّ إِمَامَةَ المساجِدِ يَنْفِرُ النَّاسُ مِنها معَ الأسفِ، الآنَ تَجِدُ حَتَّى بعض طَلَبَة العلمِ لا يُمْكِن أنْ يَتَوَلَّوْا إمامةَ مسجدٍ، حَتَّى معَ الضرورةِ إِلَى ذلكَ، وهذا يُتِيحُ الفُرصةَ لِمَن هم دُونَهم فِي العلمِ والاستقامةِ وحُسْن التوجيهِ والإرشادِ والقُدوة أنْ يَتَوَلَّوْا إمامةَ المساجِدِ، حتى إِنَّ منهم مَن يخرُج عَلَى ما اعتادَهُ أهلُ البلدِ، مثل أنْ يَجْهَرَ بِالْبَسْمَلَةِ ويَقْنُت فِي صلاةِ الفجرِ، وهذا وإنْ كَانَ جائزًا عندَ بعضِ أهلِ العلمِ أو مُسْتَحَبًّا، لَكِنِ السنَّة عَلَى خِلافه، والسنَّةُ أَوْلَى، لاسيَّما إذا كَانَ الْإِنْسَانُ فِي بَلَدٍ لا يَفْعَلُون هَذَا، لكِن أولئك يَرَوْنَ أنَّهم عَلَى حقٍّ، وأن الْإِنْسَانَ يَجِبُ أنْ يَتَمَسَّكَ بالحقِّ مَهْمَا كَانَ الأمرُ، وهم مَعْذُورون؛ لأَنَّهُمْ مُجْتَهِدون، ولَكِننا نَأسَفُ لطلبةِ العلمِ أنْ يُفْسِحُوا المجالَ لمثلِ هَؤُلَاءِ، فالْمُسْتَحَبُّ المؤكَّد الَّذِي يَنبغي أنْ يَتَوَلَّوْا هم هَذِهِ الإمامةَ؛ لِيَنْتَفِعُوا ويَنْفَعُوا غيرَهم ويَسُدُّوا الفراغَ الَّذِي رُبَّما يَشْغَلُه مَن لا يُوثَقُ فِي دينِه وعملِه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لو أنَّ الأوقافَ تقومُ بحملةٍ توعيةٍ وإرشادٍ للناسِ فِي فضلِ وأهميَّةِ الإمامةِ لِأَجْلِ أَلَّا يَنْفِرَ طُلَّاب العلمِ مِنَ الإمامةِ؛ لأنَّ الأشخاصَ الَّذِينَ يَرْغَبُون فِي الإمامةِ يأتيهم مثلًا آباؤهم أو أقاربهم ويَقُولُونَ لهم: كيف تَتَحَمَّل الجَماعَةَ يومَ القيامةِ؟!

نقول: صحيحٌ، بعض النَّاسِ يَظُنُّون أنَّ الإمامَ مسؤولٌ عن جماعتِهِ، ولَكِنه لَيْسَ مَسْؤُولًا أبدًا، هو مسؤولٌ عن صلاتِه، صحيح أن عليه مسؤولية من جهةِ إتمامِ الصلاةِ، يَعْنِي مثلًا إذا صليتُ وحدِي ممكِن أن أَقْتَصِر عَلَى الواجباتِ فقطْ، لكِن إذا كنت إمامًا لغيري لا يجوز أن أَقْتَصِرَ عَلَى الواجباتِ، يَجِبُ أنْ آتيَ بالصلاةِ كاملةً، وهَذِهِ مسألة أَيْضًا يَجِب أنْ يُلاحِظَها الأئمَّة؛ لأن بعضَ النَّاسِ يقولُ: ما دام

أني إمامٌ أنا سآتي بأدنى الواجبِ، نقول: نعم، لو كنت تُصَلِّي وحدَكَ فلا حرجَ عليكَ أن تَقْتَصِرَ عَلَى أدنى الواجبِ، ولا حرجَ عليك أنْ تُطَوِّلَ ما شئتَ كما قَالَ الرَّسول ﷺ (١) لَكِنْ إذا كنتَ إمامًا فأنتَ الآن فِي ولايةٍ، والوَلِيّ عَلَى الشَيْءِ يَجِبُ عليه أنْ يَفعَلَ ما هو أحسنُ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

فما دام أنك وَلِيّ يَجِب عليكَ أنْ تفعلَ فِي صلاتِكَ أكملَ ما يَكُونُ، فلا تَقْتَصِرْ عَلَى الواجِبِ. والفقهاءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يَقُولُونَ: يُكْرَهُ سُرعةٌ تَمْنَعُ المأمومَ فعلَ ما يُسَنّ، وتَحْرُم السرعةُ الَّتِي تَمْنَع المأمومَ فِعلَ ما يَجِبُ. هَذَا صحيحٌ، لكِن أنا عندي أن السرعةَ الَّتِي تمنعُ المأمومَ فعلَ ما يُسَنّ ليستْ مكروهةً فقطْ بل حرام؛ لأنك الآن وليّ، ويَجِب عَلَى الوليِّ أنْ يفعلَ ما هو الأَصْلحُ لِمَن وُلِّيَ عليه، ولَا شَكَّ أن الأَصْلحَ هو اتِّبَاعُ السُّنَّةِ مثلما قُلْنَا فِي الأمورِ الَّتِي يُخَيَّر فِيهَا الْإِنْسَان، فالأمورُ الَّتِي يخيَّر فِيهَا الْإِنْسَان إن كانتْ مِنْ أجْلِ ما يَتَعَلَّق بنفسِهِ فالتخييرُ الَّذِي يَشتهي يَفْعَله، كالتخييرِ فِي خِصال الكفَّارة مثلًا إطعـام عَشَرة مساكين أو كِسْوَتهم أو تحرير رَقَبَة، وإذا كَانَ التخيـير فيما يتعلق بمصلحةِ الغيرِ فالتخييرُ تخييرُ مصلحةٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل عَلَى الإمامِ مسؤوليةٌ من جهةِ الذينَ لا يُصلُّون مع الجَماعَةِ؟

الإمامُ لَيْسَ عليه مسؤولية فِي هَذَا إِلَّا مثل ما عَلَى غيرِه، كل إنْسَان رأى مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ، ولا تزيد مسؤوليتُه أبدًا، فَهُوَ مثل غيرِه، لو كَانَ فِي المسجدِ إنْسَانٌ وَجِيهٌ كَلِمَته مسموعةٌ صارَ عليه من السلطةِ أكْثَر من الإمامِ، نحن نقول: هو مثل غيرِهِ بِحَسَبِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب إذا صلى لنفسه فليطول ما شاء، رقم (٧٠٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، رقم (٤٦٧).

الحالِ، فالْإِنْسَانُ الَّذِي يَقْدِر أنْ يُغَيِّرَ بِيَدِهِ يُغَيِّر بيده، والَّذِي لا يَقْدِر يغيِّر بلسانِهِ، والَّذِي لا يقدِر يغيِّر بقلبِه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل واجبٌ عَلَى الإمامِ قِيَامه بالعددِ؟

قُلْنَا: لا يَجِب عليه العددُ أبدًا.

وَلَوْ قِيلَ: هَذَا من التعاونِ.

نقول: كل النَّاسِ يريدون أنْ يَتَعَاوَنوا عَلَى هَذَا الأمرِ، حَتَّى لو فُرِضَ أن الرجلَ قَالَ: إن كنتُ إمامًا أَلْزَمْتُ نفسي بِهَذَا، فهل هَذَا من الخيرِ أو من الشرّ؟ الحمدُ لله إن كَانَ من الخيرِ فليكنْ مما يدعو إِلَى الإمامةِ ويُشَجِّع عَلَيْهَا، والحقيقة أن الله ﷺ جعلَ للأشياءِ شُرُوطا ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩]، لا يُهدَى الْإِنْسَانُ سَبِيلَه إِلَّا بعدَ أنْ يُجاهِدَ فِيهِ، لكِن لا يُمْكِن أنْ تَصِلَ إِلَى شَيْءٍ بِهِ السرورُ والأُنْسُ والحُبُور عَلَى جَناحِ الرِّيح! فلا بد من شوكٍ ومن حَصًا ومن كلِّ شَيْء: «حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ»(١).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الآن توجد للإمامةِ مُرتَّبات وعدم قيامه بالعدد، فقطْ يَرْكَع الركعاتِ صار كأنه من الجَماعَةِ، فما دام ما شعّ النُّور وصارَ المسجدُ مدرسةً، فما فائدةُ الإمامِ؟

لَيْسَ بلازمٍ، لَكِنْ لا يوجدُ شكٌّ أَنَّهُ مِنَ الكمالِ أنْ يَكُونَ الإمامُ عالِمًا أو طالِبَ علمٍ يَستطيع أنْ يَتَكَلَّم، لَكِنْ إذا لم يكنْ.

أنا أقول: إِنَّهُ يَجِب أنْ نَسُدَّ الفَراغَ عن غَيْرِنا؛ لأَنَّهُمْ إذا كَثُر الأجانبُ عِندَنا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم (٢٨٢٢).

وصارتْ مساجدُنا كلها أئِمَّة أجانبَ فالإمامُ يؤثِّر، ولولا أن النَّاسَ عِنْدَهم تَمَسُّك وعدم ثِقَة بالأجانبِ وعندهم ثقةٌ كبيرةٌ فِي المواطنينَ لكانَ كل الَّذِينَ يصلون وراء هَؤُلَاءِ الأجانبِ يَجْهَرُون بِالْبَسْمَلَةِ ويَقْنُتُونَ فِي الفجرِ، وهكذا، لكِن الحمد لله أَنَّهُمْ إِلَى الآنَ ما صارَ لهم قَبُول فِي البلدِ، وهَذِهِ من نعمةِ اللهِ، وإلَّا كانوا يؤثِّرون تأثيرًا بالغًا، فالإمام لَا شَكَّ أَنَّهُ يؤثِّر في مَن خَلْفه، نحن نقولُ: يَجِب عَلَى المواطنينَ عِندنا أن يَسُدُّوا هَذَا الفراغَ لِئَلَّا يَشْغَلَه مَن لا يُوثَق بِهِ، وبعضهم يُدَخِّنُونَ، لكِن الدخان أهون من العَقِيدة؛ لأن المشكِلة فِي العقيدةِ، الآن المهمُّ هو العقيدةُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الأوقافُ لها لوائحُ ويَجِب عَلَى الإمامِ كذا وكذا، فصارتِ الإمامةُ وظيفةً؟ هي وظيفةٌ، حَتَّى الفقهاء يُسَمُّونها وظائف، وإذا قُلْنَا: إِنَّهُ يَجِب عَلَى الإمامِ كذا بِمُقْتَضَى الإمامةِ، هل هَذَا يَمْنَع أَيْضًا لأنك أنتَ إذا ما قمتَ بِهَذَا قامَ بِهَا الأجنبيُّ.

لَوْ قِيلَ: الأَجْنَبِيُّ يُرْشِدُ النَّاسَ وسيقول كَلِمَةَ خَيْرٍ؟

قُلْنَا: ما الَّذِي يُدْرِيكَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ كَلِمة خير.

لَوْ قِيلَ: هَذَا واضح.

نقول: قبل أن يتكلم وهو غير معروف لك ليس بواضح.

ثم أَيْضًا هَذَا الإمام نفسُه قد لا يَكُونُ عِنْدَهُ إدراكٌ، فهذا الَّذِي يقولُ كَلِمَةَ خيرٍ يمكن أنْ يأتيَ بحديثٍ موضوعٍ؛ كقولِهم: الَّذِي يَتْرُكُ الصلاةَ له خَمْسَةَ عَشْرَةَ خَصْلَةً[1]

(١) قال الحافظ في لسان الميزان (٧/ ٣٦٦) في ترجمة محمد بن علي بن العباس البغدادي العطار: «زعم المذكور -صاحب الترجمة- أن ابن زياد أخبره عن الربيع، عن الشافعي، عن مالك، عن سُمَيّ، عَن أبي صالح، عَن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رفعه: من تهاون بصلاة عاقبه الله بخمس عشرة خصلة ... الحديث. وهو ظاهر البطلان من أحاديث الطرقية».

وهو حديث موضوعٌ، ما الَّذِي يُدْرِيكَ، واتقاءُ الشرِّ قبلَ الوُقُوعِ فِيهِ أحسنُ مِن علاجِه بعدَما يَقَع.

لَوْ قِيلَ: الأَصْلُ الإباحةُ، والرَّسول ﷺ لم يَمْنَعْ أحدًا؟

أولًا ما أظُنُّ أنَّ أحدًا يَتكلَّم والرَّسول ﷺ حاضرٌ، هَذِهِ وَاحِدةٌ، وكَذَلِك أَيْضًا ما عَهِدنا أنَّ أحدًا يتكلَّم معَ وجودِ الأئمَّة، والشَّيْء الثَّاني نحن لا نقول: إن الحقَّ يَجِب أنْ يمنع لكِن نقولُ: مَنْ يقولُ: إن هَؤُلَاءِ يريدون الحق؟ نجدُ كثيرًا يتكلمونَ وإذا انْتَهَوْا قالوا: أَعْطُونا. فهَؤُلَاءِ يَجِبُ أَنْ يُمْنَعُوا ويُضْرَبُوا أيضًا، فهم يَصطادون الدُّنْيا بالدِّين، فبعدما يُوَجِّه يقولُ: واللهِ أنا فِي الحقيقةِ مستح منكم وخجلان، لكِن عليَّ كذا وكذا. أنت مستحٍ وخجلان فلماذا تَعِظُهم وتقول: أَعْطُوني قروشًا؟! وهَذِهِ حَصَلَتْ عندنا بالجامعِ، وتحصُل عند غيرِنا، ونَسْمَع عن هَذَا، وهذا الشخص لَيْسَ معروفًا، وإذا كَانَ معروفًا لا يُمْنَع، وأنا لم تَأْتِنِي تبليغاتٌ من هَذِهِ، لكِن أَجْزِم جَزْمًا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ الَّذِي لا تَعْرِفُونَه، فلا تَسْمَحُونَ لهم.

المهم أن هَذَا غير مانعٍ من تولِّي الإمامةِ، وأنت إذا كُنْتَ غيرَ إمامٍ وتَوَلَّى الإمامةَ غيرُك هل سَيَسْمَح للناس أن يَتكَلَّموا؟ أبدًا، أنا قَصْدي أن الإمامةَ فِيهَا مصالحُ كثيرةٌ بالنسبة للشخصِ نفسِه؛ لِأَنَّهُ يَقْدِر أنْ يَتكَلَّم بما يشاءُ ويوجِّه النَّاسَ، وعندما لا يَكُون إمامًا لو جاء يتكلم قَالَ له الإمام: لا تَتَكَلَّم، لكِن لو صارَ هو الإمامَ هل أحدٌ يَمْنَعُه ويقول له لا تتكلم؟ إذَن يَنْفَع النَّاس بِعِلْمِه، ثم هي أَيْضًا ممَّا يُعِين عَلَى الطاعةِ، فأنا أشعُر بِهَذَا عندَما كنتُ غيرَ إمامٍ، فيَفُوتني بعضَ الأحيانِ بعضُ الصلاةِ، وأتكاسَلُ، وأحيانًا أذهَبُ إِلَى هَذَا المسجدِ، وأحيانًا أذهب إِلَى هَذَا المسجدِ، لكِن لَمَّا صِرْتُ إمامًا لم تَفُتْنِي صلاةُ الجَماعَةِ.

لَكِنْ لَوْ قِيلَ: الَّذِي جَعَلَهُ مُنْضَبِطًا الإمامةُ فهل يَنْقُصُ أَجْرُه؟

لا ينقص أبدًا؛ لأن كونَ الْإِنْسَانِ يَصيرُ له مُشَجِّعَاتٌ عَلَى الخيرِ لا يُبْطِل هَذَا أَجْرَه، ما جَعَلَ اللهُ المُرَغِّبات الَّتِي فِي الكِتَابِ والسنَّة عَلَى الخيرِ إِلَّا لأجلِ أنْ يُسْعَى له.

لَكِنْ لَوْ قِيلَ: بعض النَّاس يَأْتُون الصلاةَ مُبَكِّرين بدونِ إمامةٍ، لماذا لم تُبَكِّر إِلَّا لَمَّا صِرْتَ إمامًا؟

المسألةُ ليستْ مسألةَ التبكيرِ، المسألة أنها تُعِينني لَيْسَ عَلَى التبكيرِ فقطْ ولَكِن عَلَى إدراكِ الجَماعَةِ أَيْضًا إذا كنت لا أُبَكِّر، فهذا ممَّا يُعِينُ، أليس الله جعلَ للناسِ من الغنيمةِ شيئًا، وأليس الأئمَّة والمؤذِّنون جعلَ لهم رصدًا من بيتِ المالِ، وأليس النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُشَجِّع بإعطاءِ المؤلَّفة قلوبهم وغير ذلك؟

فكون الْإِنْسَان يَكُون له مُشَجِّعات عَلَى الخيرِ لا يُبْطِل أجرَه، فالأَصْل والكَلامُ عَلَى النِّيَّة، إذا كنتَ تَفْعَل هَذَا للدنيا فهَذَا صحيحٌ يؤثِّر فيك كثيرًا، أَمَّا إذا يَسَّرَ الله لكَ من أسباب الطاعة ما يُعِينُكَ عَلَيْهَا؛ فهذا طَيِّبٌ، ولا يَنْقُصُ الأجرُ، بل إن الرَّسول ﷺ يُشَجِّعُ عَلَى ما يُعِينُ: «تَسَحَّرُوا؛ فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً»[1] وكان يَصُبُّ عَلَى رأسِه الماءَ وهو صائمٌ مِنَ الحَرِّ[2]، كل هَذَا يُعِينُه عَلَى الطاعةِ، فالمشَجِّعَاتُ عَلَى الخيرِ لا تَنْقُصُ الخيرَ، الكَلام عَلَى النيَّة فقطْ، إنْ فعلتَ هَذَا الشَيْءَ للدنيا فيَكُون صحيحًا وحَبِطَ عَمَلُكَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب بركة السحور من غير إيجاب، رقم (١٩٢٣)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل السحور وتأكيد استحبابه، واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر، رقم (١٠٩٥).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصوم، باب الصائم يصب عليه الماء من العطش ويبالغ في الاستنشاق، رقم (٢٣٦٥).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما حُكْمُ مَن يُبَكِّر ويُسْرِع لإدراكِ الجَماعَةِ خَجَلًا مِنَ النَّاسِ؟

إذا كَانَ يُرائِي النَّاسَ فهَذَا شَيْءٌ ثانٍ، حَتَّى الَّذِي لَيْسَ بإمامٍ قد يَرَى أَنَّهُ يُفقَد فِي الجَماعَةِ ويحب ألا يُفْقَدَ، ولو لم يكن إمامًا، فالكَلام عَلَى النيَّة، إذا كَانَ يَخْجَل من النَّاس فهذا لَا شَكَّ أَنَّهُ يَنْقُص الأجرَ، لكِن إذا كَانَ يقولُ: أنا أُسْرِع لأقومَ بالواجبِ عليَّ ولا أُربك النَّاسَ، مرَّة أتقدَّم ومرة أتأخَّر، فهَذَا طيِّب، فهذا أسرع لإحسانِ عَمَلِهِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعـضُ الأئمَّة عوامٌّ، ولا يَستطيعونَ أنْ يَتكَلَّمُوا، مع أَنَّهُ يصلي خلفهم طلَّابُ عِلْمٍ، ولا يُمْكِن أنْ يتركوا الإمامةَ، فيوجد أربعة شباب من طلاب العلم يصلون خلفَ إمامٍ عاميٍّ؟

نقول: نحن نريد أن يأتوا هَؤُلَاءِ عندنا، وإنْ كَانَ تلاميذُنا هَذِهِ السنَةَ أَحْسَن ونَفَعَ بعضُهم فِي التراويحِ، وقاموا ببعضِ الواجبِ، لكِن نَحْتَاج المزيدَ، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الأئمَّة مَنْ صَلَّى بهم إمام لا يُمْكِن أنْ نقولَ له: تَأَخَّر لأنَّ اختيارنا الأَوْلى عند ابتداءِ الإمامةِ، فإذا وُجد إمامٌ لا يمكن أنْ نَعْزِلَه إِلَّا بسَبَبٍ شرعيٍّ، ولنْ يَرْضَى، ولو كَانَ مُتَطَوِّعًا، لكِن يجوز عَزْلُه إذا رَضِيَ، فليس هناك مانعٌ، لاسيما إذا كَانَ الَّذِي سَيَتَوَلَّى الإمامةَ خيرًا منه، فإذا كَانَ الَّذِي سَيَتَوَلَّى خيرًا منه فهذا طيِّبٌ، لكِن الإمام الأول هل يجوز أن يأخذَ المرتَّب؟ نعم؛ لأن هَذَا تنازَلَ له؛ لأن المرتبَ للثاني، والثَّاني تنازلَ عنه، وهَذِهِ وَقَعَتْ حسبَ ما سَمِعْتُ، مؤذِّن الجامع الكبيرِ فِي الرياضِ ابن ماجد كَانَ يؤذِّن فِي مسجدٍ فِي أحد الجِهات، ولَمَّا عُمِر هَذَا المسجد الجديد الكبير طَلَبُوا منه أن يَكُونَ هو المؤذِّنَ، لكِن إمامـه الأول لم يكن راضيًا بذلكَ، فجعـلوا له المرتَّب والوظائف الَّتِي للمسجدِ وهذا جعلوا له مُرَتَّبًا جديدًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعضُ الأئمَّةِ عنده ظُرُوف فِي البيتِ مثلًا، كأنْ يَكُونَ كبيرًا فِي السنِّ أو شيئًا من هَذَا القَبيل، يقول: أنا أريد أن أُصَلِّيَ أوقاتي الَّتِي أستطيعُ أن أَحْضُرَ فِيهَا إِلَى المسجدِ، ويجعل شخصًا آخرَ من أهلِ البلدِ يساعده، هل يجوز هذا؟

لا يوجد مانعٌ إذا قَالَ لشخصٍ: إذا تَخَلَّفْتُ فَصَلِّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعضُهم يقول: الإمامةُ ارتباطٌ ولا أستطيعُ السفرَ؟

هَذَا أَكْثَرُ ما يَعْتَذِرون بِهِ، يَقُولُونَ: واللهِ الإمامةُ تَربُط وتُشْغِل، وأنا أريدُ يومًا أتمشَّى هنا ويومًا أتمشى هنا؟ أنا أقولُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق:٤]، كلُّ هَذِهِ عَقَبَات الأَصْلُ عَدَمُها، فأنتَ اجْزِمْ واحْتَسِبِ الأجرَ مِنَ اللهِ، وسَيُسَاعِدُكَ اللهُ ويُهَيِّئ اللهُ لكَ مِن أمرِكَ يُسْرًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: رَجَّحْتُمْ أنَّ الأذانَ أفضلُ منَ الإمامةِ؟

إِذَا قُلْنَا: إنَّ الأذانَ أفضلُ مِنَ الإمامةِ فلَيْسَ معنى ذلكَ أنَّ الإمامةَ لَيْسَ فِيهَا فضلٌ، ثم نقولُ: جزاك اللهُ خيرًا كنْ مؤذِّنًا وإمامًا، فإذا كنتَ حَريصًا عَلَى الخيرِ فكنْ مؤذِّنًا وكنْ إمامًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما معنى حديث: «الْإِمَامُ ضَامِنٌ»[1]؟

حديث: «الْإِمَامُ ضَامِنٌ» الحديث فِيهِ مقال، لكِن إذا صحَّ فالمعنى أنَّ الإمامَ مسؤولٌ عمَّن وَرَاءَهُ، يَعْنِي ضامنًا لهم، فيَجِبُ أنْ يَكُونَ فِي صلاتِه مثلَما قُلْنَا قبل قليلٍ: أن يأتي بِهَا عَلَى الوجهِ الأكملِ إذا صَلَّى بهم، أَمَّا ما وراء ذلك فليسَ عليه شَيْءٌ،

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يجب على المؤذن من تعاهد الوقت، رقم (٥١٧)، والترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء أن الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، رقم (٢٠٧).

فلو صلَّى وَاحِدٌ مُحْدِثًا فالإمامُ لَيْسَ عليه شَيْءٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هلِ الأحسنُ أخذُ المُرَتَّب أم عدم أَخْذِه، خاصَّةً أنَّ الإمامَ غيرُ محتاجٍ، لكِن جَماعَة المَسْجِد قالوا: لا بدَّ أن تأخُذَه حَتَّى لا يَنْقَطِعَ عنِ المسجِدِ؟

نرى أنَّ الأحسنَ أن يأخذَ المرتَّب، وكذلك الوظائف الَّتِي عَلَى المسجدِ، فَهُوَ عَلَى خيرٍ، يَأْخُذه ما دامتْ نِيَّته أصلًا أَنَّهُ ما جاءَ إِلَّا لله، أليسَ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأصحابه يَأْخُذُون مِنَ الغنائمِ، وهل يوجدُ أحدٌ أخلَص منهم؟! لا، لم يَقُولوا: نحن لن نأخذَ من الغنائمِ، هَذَا شَيْءٌ جاءَ مِن بيتِ المالِ «إِذَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا المَالِ شَيْءٌ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ، فَخُذْهُ»[1].

وإذا شِئْتَ فَخُذْهُ واصْرِفْهُ فِي شَيْءٍ نافعٍ لَكَ، يَعْنِي حقيقة الأمر مثلما قالوا: إنَّك لو لم تَأْخُذْ أنتَ يَتَعَطَّل المَسْجِد، وإذا جاء إمامٌ جديدٌ بعدَكَ يَحتاج إِلَى معاملةٍ جديدةٍ، وكَذَلِك أَيْضًا الوظائف، بعضُ النَّاسِ يقولُ: والله أنا لن أُطَالِبَ النَّاسَ، أقول: أَعْطُوني حقِّي، مثل بَعْض الصُّبَر الَّتِي تكون للإمامِ أو المؤذِّن، نقول: هَذَا باختيارِكَ، يَعْنِي كونك تأخذ أو لا تأخذ هَذَا شَيْءٌ ثانٍ، لكِن نظرًا لأنك إذا تركتَه وتناساهُ هَؤُلَاءِ ذهب لَيْسَ عليك فقط؛ لأنك أنتَ تقول: لا أُريده، بل يذهب عَلَى غيرِك أَيْضًا؛ لأنَّ الإمامَ فِي الحقيقةِ وأيضًا المؤذن كلاهما لَيْسَ مُسْتقِلًّا بما يُعْطَى من كلِّ وجهٍ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب من أعطاه الله شيئا من غير مسألة ولا إشراف نفس، رقم (١٤٧٣)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إباحة الأخذ لمن أعطي من غير مسألة ولا إشراف، رقم (١٠٤٥).

الآيــة (٧٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٧٥].

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ جزاءُ عِبَاد الرَّحمنِ أَنَّهُمْ يُجْزون الغرفةَ بما صَبَرُوا. وأنواع الصبرِ: صَبْرٌ عَلَى أحكامِ اللهِ القَدَرِيَّـة، وصبرٌ عَلَى أحكامِه الشرعيَّة، والصبرُ عَلَى الأحكامِ الشرعيَّة يَنْقَسِمُ إِلَى قسمينِ؛ صبر عَلَى ما حَرَّمَ اللهُ، وصبرٌ عَلَى ما أمرَ اللهُ به.

قوله: ﴿يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ (الباء) للسَبَبيَّة، و(ما) مصدريَّة، أي بِصَبْرِهِم، إذا قُلْنَا: إن الباءَ للسَبَبيَّة فكيف نَجْمَعُ بينَها وبينَ قولِهِ تَعَالَى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]؟

الجواب: هما مُتَّفِقانِ، فقوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ مثلُ قولِهِ: ﴿يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾، فلا تَعَارُض بينَهما، فـ(الباء) للسَبَبيَّة فِي هذا وهذا، لكِن نَحتاجُ إِلَى الجمعِ بينَهما وبينَ الحديثِ الصحيحِ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»[1]، نقول: إن (الباء) فِي قوله: «لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ» لِلْعِوَض، فالمنفيُّ (باء)

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم (٦٤٦٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، واللفظ لأحمد (٢/ ٢٥٦).

العِوَض، يَعْنِي لا يُمْكِن أنْ يَكُونَ العملُ عِوَضًا؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ عِوَضًا وأرادَ اللهُ أنْ يَقْتَصَّ مِنَ العاملِ لكانَ العملُ لا يكافِئ نِعْمَةً مِنَ النِّعَم، وَأَمَّا الآياتُ والأحاديثُ الَّتِي تُثْبِتُ أنَّ العملَ يَدْخُلُ الْإِنْسَانُ بِهِ الجنَّةَ وينجو بِهِ من النارِ، فهَذِهِ للسَبَبِيَّة، إذا قلت: بِعْتُ عليكَ ثَوْبًا بِدِرْهَم (الباء) هنا معلومٌ أنها لِلْعِوَضِ، لَيْسَ بسَبَبِ الدرهمِ، لو كَانَ الدرهمُ مَعَكَ ما أَعْطَيْتُكَ الثوبَ، لكِن إذا عَوَّضْتَنِي بِهِ أَعْطَيْتُكَ الثوبَ، فهذا هو الفرقُ.

قوله: ﴿تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ هل هما مترادفانِ أو مُتَغَايِرانِ؟

التحيَّة أعمُّ، فكل سلامٍ تحيَّة، ثم أَيْضًا التحيَّة كما تكون بالقَوْلِ تكونُ بالفعلِ، ولهذا يقالُ: حيَّاه بالتُّحَفِ وبِطِيب المنزِل، وَمَا أَشْبَهَ ذلكَ.

قوله: ﴿تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ يُلَقَّوْنَ بالتحيةِ قَوْلًا، وبالسلامةِ بقاءً، يَعْنِي يَبْقُونَ سالِمِينَ، وهَذِهِ المعاني ثابتةٌ بالنسبةِ لأهلِ الجنَّةِ؛ فإنهم يُحَيَّوْنَ بأنواعِ التحيَّاتِ المرضيَّة المُفْرِحَة المُسِرَّة، وكَذَلِك أَيْضًا يُسَلَّمُونَ من كلِّ الآفاتِ، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ مِنَ الملائكةِ]، هَذَا فِيهِ نقصٌ؛ فَإِنَّهُ يُحَيِّي بعضُهم بعضًا، وَيُحَيِّيهِمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكَذَلِك الملائكةُ، لكِن كأنَّ المُفَسِّر خَصَّصَها بقولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤]، لكِن هَذَا ما يُعْطِي التخصيصَ.

• • ۞ • •

الآيــة (٧٦)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان:٧٦].

قوله: ﴿ خَـٰلِدِينَ ﴾ أي ماكِثِينَ، وهنا أطلقَ الخلودَ وقيَّده بِالأَبَدِيَّة فِي مواضعَ مُتَعَدِّدَةٍ بالنسبةِ لأهلِ الجنَّةِ، وكَذَلِك بالنسبةِ للنارِ ذكر الله تَعَالَى فِيهَا الخلودَ مُطْلَقًا ومُقَيَّدًا بالأبديَّة.

قوله: ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي فِي هَـذِهِ الغُرْفَة، أي ماكِثِـينَ أبدًا، ثم أَثْنَى اللهُ عَلَى هَذِهِ الغُـرفةِ بقولِهِ: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَوْضِع إِقَامَة لَهُم]، فهم ضِدُّ أهلِ النارِ الَّذِينَ قَالُوا فيها: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان:٦٦]، لكِن فِي هَذِهِ الآيةِ: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَوْضِع إقامةٍ]، وَفِي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ مَوْضِع استقرارٍ وإقامةٍ]، وهَذِهِ الآيةُ يَنْبَغِي أنْ تكونَ مِثْلَها، لكِن هل بينَهما فرقٌ، أي بَيْنَ المُسْتَقَرّ والمُقام؟ المُسْتَقَرُّ الشَيْء الثابِت، والمُقَام الَّذِي يُقِيم فِيهِ الإِنْسَانُ، سواء استقرَّ أمْ لَمْ يَسْتَقِرَّ. فإنْ قيلَ: لا حاجةَ إِلَى قولِهِ: (وَمُقَامًا)؛ لأن الجنَّة أو النارَ مُسْتَقَرٌّ دائمٌ ﴿وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ [غافر:٣٩]؟ نقول: المُسْتَقَرُّ باعتبارِ المكانِ، والمُقَام باعتبارِ ما يَحْصُل لهم من النَّعِيم والسُّرور والتحيَّة، وغير ذلك، تقول: مُقامي فيكم سُرُور، أو مقامي فِي هَذَا المكانِ حُزْنٌ، أو ما أشبهَ ذلكَ، ويمكن أَيْضًا أن يقال:

المُقام بالنسبةِ للزمنِ، يَعْنِي أنَّ اللهَ أَثْنَى عَلَيْهَا مكانًا وزمنًا، وكوننا نُحاوِل أنْ يَكُونَ بَيْنَ اللفظينِ تغايُر أَوْلى من الترادُف؛ لأننا إذا قُلْنَا بالترادُفِ فِي هَذَا وغيرِه صارَ فِي المسألةِ تكرارٌ، والأَصْلُ عَدَمُ التكرارِ، فحاوِلْ ما استطعتَ أنْ تَجْعَلَ اللفظينِ متغايريْنِ إذا أمكنَ فِي كلِّ آيةٍ، فِي آياتِ القُرْآنِ وغيرِ القُرْآنِ، فحاوِلْ فِي كلِّ كَلامٍ فصيحٍ أنْ تكونَ الألفاظُ مُتَمَيِّزًا بعضُها عن بعضٍ فِي المعنى؛ لأن الترادفَ لا يُصارُ إليه إلَّا عندَ الضرورةِ؛ لِأَنَّهُ مجرَّد تكرارٍ.

قوله: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وأُولَئِكَ وما بعدَه خبرُ عِبَادِ الرَّحمنِ المُبْتَدَأ]، وعِبَاد الرَّحمنِ أولئك يُجْزَوْنَ الغرفةَ هَذَا بعيدٌ جِدًّا أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَذْكُرُهم لِيُبَيِّنَ جَزَاءَهم، وإنما يَذْكُرُهم لِيُبَيِّنَ صِفَاتِهم أولًا، ثم يأتي بالجزاءِ كالخاتمةِ، فالصوابُ، بل المتعيّن، أن تكونَ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ وما عُطِفَ عليه، وتكون جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ استئنافيةً لِبَيَانِ جزائهم عَلَى هَذِهِ الأعمالِ.

بعدَ أنِ انتهتْ هَذِهِ الصِّفاتُ الجليلةُ لم نَأْخُذْ فوائدَها، وعَمْدًا فَعَلْنَا ذلكَ؛ لأجلِ أنْ نَسْتَنْبِطَ الفوائدَ بعدَ استكمالِ الصِّفاتِ؛ لأنَّ الكَلامَ مُتَّصِلٌ بعضُه ببعضٍ، ولَكِن إذا رأَى الطالبُ أنْ يَمْتَحِنَ عَضَلاتِه العقليَّة والفكريَّة بأنْ يَسْتَنْبِطَ ما يُستفادُ مِنَ الآياتِ، ومِنَ الأحكامِ العمليَّة والعِلمية والسلوكيَّة، وصفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وغير ذلك، ويُعِدّ الطالب عِدَّة ورقاتٍ: ورقة لِمَا فِي الآياتِ من صفاتِ اللهِ مثلًا، وورقة لِمَا فِيهَا مِنَ الأخلاقِ، ووَرَقَة لِمَا فِيهَا مِنَ العملِ؛ لأن الآياتِ فِيهَا عمل وفيها أخلاق، وإذا شاء أنْ يسيرَ عَلَى ترتيبِ الآياتِ فلا بأسَ، لكِن ربما تَخْتَلِفُ أفهامُ النَّاسِ فيَظُنّ هَذَا من بابِ السلوكِ، وذاك يقولُ: من باب العملياتِ، إذَن نسير

عَلَى ترتيبِ الآياتِ، فَهُوَ أسهلُ بِلَا شَكٍّ وأضمنُ، ويمكن أنْ يَستعينَ الطالبُ ببعضِ الكتبِ، لكِن لا ينقُل نقلًا، وموضع البحث كما تقدَّمَ من قولِهِ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إِلَى قولِهِ: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٧٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ [الفرقان:٧٧].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ قُلْ ﴾ يا مُحَمَّدُ لأهلِ مكَّةَ، ﴿مَا﴾ نافِيَةٌ ﴿يَعْبَؤُاْ﴾ يَكْتَرِث ﴿بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ إيَّاه فِي الشدائدِ فيَكْشِفها، ﴿فَقَدْ﴾ أي فكيف يَعْبَأ بكم وقد ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ الرَّسولَ والقُرْآنَ ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾].

قوله: ﴿ قُلْ ﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ يَعْنِي ما يَكْتَرِث بكم، أي بإهلاكِكُم والقضاءِ عليكم، لَيْسَ ذلك مِمَّا يَثْقُل عليه، ولا مما يَعْجِز عنه، بل هو قادرٌ عليه، ولَكِن الَّذِي يَمْنَعُ هو الدعاءُ ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ يَعْنِي ودعاؤكم هَذَا يَمْنَع من أَخْذِكُم، ولَكِنَّه إِلَى أجلٍ، ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ وحينئذٍ يَحُلُّ بكم العقابُ، فقد كذَّبتم النَّبي ﷺ وما جاء بِهِ، وهذا التكذيبُ موجِبٌ للعقابِ، ولهذا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ العِقَاب لكم ﴿لِزَامًا﴾ مُلازِمًا لكمْ فِي الآخرةِ بعدَما يحل بكم فِي الدُّنْيا]، معنى الآية الكريمة أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لو شاءَ لَأَهْلَكَكُمْ، ولم يَعْبَأْ بكم؛ لأنكم لا تُعْجِزُونَ اللهَ، ولَكِن المانع دعاؤكم فِي الشدائدِ؛ لأَنَّهُمْ إذا أُصِيبُوا بشِدَّة دَعَوُا اللهَ عَزَّوَجَلَّ أنْ يَكْشِفَها عنهم ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [العنكبوت:٦٥]، هَذَا الدعاءُ مانع معَ كُفْرِهِم، فعلى هَذَا يَكُونُ الخِطاب للكفارِ،

والمعنى كما تَقَدَّمَ: لولا دعاؤهم الله لَعَاجَلَهُمْ بالعذابِ، ويَكُون هَذَا الدعاء إذا نزلَ بهم العذابُ، هَذَا هو ظاهرُ الآيةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾.

وقيل: إنَّ الخطابَ للمؤمنينَ، وإن المرادَ بالدعاءِ العِبَادَةُ، يَعْنِي ما يَصنَع اللهُ بكم لولا عِبَادتكم، ويَكُون قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ انتقال إِلَى خطابِ آخرينَ، لكِن فِي هَذَا تشتيتُ الضمائرِ فِي الواقعِ، واختلاف السياقِ بعضه مع بعضٍ، وما دام المعنى صحيحًا مع وجودِ التناسُقِ بَيْنَ الكَلامينِ فَهُوَ أَولَى.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَذَا الدعاءُ لَيْسَ دليلًا عَلَى مَحَبَّتِهِمْ للهِ، بل لِحَاجَتِهم؟

لكِن فِي هَذِهِ الحالِ دعاء مُضْطَرّ، والله سبحانه يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]، وهذا عامٌّ، فدعاء المضطرّ ودعاء المظلومِ يُجاب؛ لأن المضطرَّ فِي تلك الحالِ يعلم أَنَّهُ مضطرّ إِلَى اللهِ، ويسأله سؤالَ افتقارٍ، وسؤالَ حاجةٍ، والله عَزَّوَجَلَّ أكرمُ الأكرمينَ، ما أحد يَحتاج إليه ويدعوه، ولو كَانَ كافرا؛ إِلَّا أجابَه، فالكافرُ لو دعا عَلَى ظالمٍ يُستجاب، ولو كَانَ كافِرًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَا يُشْكِل عَلَى هَذَا قولُه تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]؟

هَذَا تَقَبُّل العملِ؛ لِأَنَّهَا فِي سياق عَمَلٍ، قَرَّب أحدُهما قُربانًا فتُقُبِّلَ منه، والثَّاني لم يُتَقَبَّل، فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

لَوْ قِيلَ: والدعاء أَيْضًا عملٌ، لكِن الدعاء سؤالٌ وإلحاحٌ، يَعْنِي أَنَّ وَاحِدًا محتاجًا يَسْأَلُكَ، والكريم إذا سأله السائلُ، ولو كَانَ أعدَى عدوٍّ له، فَهُوَ يعطيه؛ لِكَرَمِهِ، لَيْسَ لذاتِ الشخصِ السائلِ، كما أَنَّ المظلومَ يُجاب ولو كَانَ كافرًا، لَيْسَ لِشَخْصِهِ،

ولَكِن إقامةً للعدلِ، ولهذا يقبل الدعاء حَتَّى من غيرِ المتَّقي مثلما ذَكَرْنَا، ثم إن اللهَ تَمَدَّحَ فقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢]، ثم الله بَيَّن ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥].

ثم تَهَدَّدَهُمُ اللهُ تَعَالَى بقولِهِ: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ يَعْنِي فالآنَ لا يَنْفَعُكم الدعاءُ بعد أنْ كَذَّبْتُمْ، بل يَحُلّ بكم العقابُ الملازِمُ لكم فِي الآخِرَةِ. يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بعدَما يَحُلُّ بكم فِي الدُّنيا]، وعلى هَذَا التفسيرِ يَكُون فِي الآيةِ دليلٌ عَلَى عذابِ القبرِ؛ لأَنَّهُمْ إذا لَازَمَهُمُ العذابُ مِن حينِ يَحُلُّ بهم إِلَى الأبدِ كَانَ ذلك دليلًا عَلَى عذابِ القبرِ، والأدلَّةُ عَلَى عذابِ القبرِ كثيرةٌ وأصرحُ من هَذَا وأبينُ.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فقُتل منهم يومَ بدرٍ سبعونَ]، الَّذِي قُتِلَ من أهل مكَّة يوم بدر سبعونَ كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأُسِرَ سبعونَ. وجواب (لولا) فِي قوله: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ دلَّ عليه ما قبلَه، فهَذِهِ شرطيَّة، وجوابها ما سبقَ، المعنى: لولا دعاؤكم ما عبأ الله بكم، ولَكِن الدعاء يَمْنَعُ، واللهُ أَعْلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: كمالُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ وأنه لا يَعْبَأُ بأحدٍ مِن خَلْقِه مهما كَثُروا عددًا وعُدَّةً؛ لقولِه: ﴿مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى﴾.

الْفَائِدَة الثَّانية: أن الدعاءَ مانعٌ من العقوبةِ، كما أن فِي الدعاءِ أَيْضًا جالبًا للمصالحِ «وَإِنَّ الدُّعَاءَ وَالْبَلَاءَ لَيَعْتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١) فيَمْنَع أحدُهما الآخرَ.

---

(١) أخرجه الطبراني في الدعاء (١/ ٣١، رقم ٣٣).

فالحاصلُ: أن الدعاء مانعٌ مِنَ العذابِ وجالِبٌ للرحمةِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ورد فِي الحديث: «**وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ**»(١) كيف يُوَفَّق بَيْنَه وبين ما وَرَدَ، سواء فِي الكِتَابِ أو فِي السنَّة أنَّ القَضَاء لا يَرُدُّه شَيْءٌ؟

فيَجِبُ أنْ تعرفَ أنَّ القضاءَ هو وُقُوعُ الشَيْءِ عَلَى ما كَانَ، فالدعاء إذا وقعَ فهناك قضاءٌ كَانَ يقع لولا الدعاءُ، فإذا وقعَ الدعاءُ كَانَ مِنَ القضاءِ، فيَكُون إخبار النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِهَذَا هو حثّ النَّاس عَلَى الدعاءِ، مثلَما ذكر «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»(٢).

فَهُنَا إِذَا قَالَ قَائِلٌ: أليسَ الأَجَلُ مُقَدَّرًا، والرزق مقدَّرًا؟

قُلْنَا: بلَى، هو مُقَدَّر ولا يَتَغَيَّر، فيَكُون المقصود من الحديثِ حَثّ النَّاسِ عَلَى البرِّ والصلةِ، ولا بدَّ أنْ يَقَعَ ما أرادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِن بِرِّك وصِلَتِك، وتكون النتيجةُ أنْ يَكُونَ عُمُرك ممدودًا بسَبَبٍ، كما ما لو وَقَعَ الْإِنْسَانُ فِي هَلَكَةٍ وجاء إنْسَانٌ وأنقذَهُ، هَذَا الإنقاذُ صارَ سَبَبًا لحياتِهِ وطُول عُمُره، لكِن معَ ذلك هو مقدَّر، لا بدَّ أنْ يَقَعَ، فيَكُون معنى «**لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ**» أن الدعاءَ من الأَسْبابِ الَّتِي تَمْنَعُ القضاءَ الَّذِي يَكُون لولا هَذَا الدعاء، ولَكِن لن يَكُونَ هَذَا القضاء لِأَنَّهُ سَيَسْبِقُه دعاءٌ مُقَدَّر مِن قبلُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قولُه ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**» أَلَا يَكُون تفسير الحديثِ معنويًّا بأنْ يُبَارِكَ له فِي عُمُرِهِ، وطِيب العُمُر،

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الفتن، باب العقوبات، رقم (٤٠٢٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق، رقم (٢٠٦٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم (٢٥٥٧).

وَمَا أَشْبَهَ ذلكَ؟

فالجواب: لِنَقُلْ ذلك. والمباركَة فِي العُمُر وعَدَم المباركةِ مكتوبةٌ.

إذَن ما الفرقُ، ولماذا نُحَرِّف الحديثَ؛ لأنَّ يَنْسَأ بمعنى يُؤَخِّر معروف، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:٣٧]، لماذا نحرِّف الحديثَ ونجعل (ينسأ) كنايةً عن بركةِ العُمُر فِرارًا من امتدادِ الأجلِ، معَ أنَّ البَرَكَة فِي العُمُر ونَزْع البركة من العُمُر كِلاهما مكتوبٌ؟ إذَن لا فرقَ.

وَكَمَا قُلْنَا: إِنَّهُ أَجَلٌ مُقَدَّر لا يَتَغَيَّر؛ لأن هَذَا الرجلَ الَّذِي صار عُمُره خمسينَ سنةً كُتِبَ عُمُره خمسين سنةً لِأَنَّهُ بَرٌّ بوالديْهِ، وكُتب بِرُّه أَيْضًا، لكِن أنا غيرُ معلومٍ عندي أني بارٌّ، ولا أنَّ عُمُري خمسونَ مثلًا، فيَكُون المقصود من هَذَا الحديثِ هو حثّ النَّاس عَلَى البرِّ، وإلَّا فكلُّ شَيْءٍ مكتوبٌ، فالَّذِينَ فَرُّوا من ذلك يقال أَيْضًا لهم: هذا كما فِي الحديثِ أنَّ الجَنِينَ فِي الرَّحِمِ يَكْتُبُ المَلَكُ رِزْقَه[1]، والبركة فِي الرِّزْقِ أَيْضًا مكتوبةٌ من قبلُ، مع أنَّ الرَّسولَ يقولُ: «يُبْسَط لَهُ فِي رِزْقِهِ» يَعْنِي يُوَسَّع، فلا حاجةَ إِلَى هَذَا التحريفِ.

لَكِنْ لَوْ قِيلَ: أَلَا يُمْكِن أن يَكُونَ هَذَا القدرُ الَّذِي كَانَ سَيَحْدُث مكتوبًا وغُيِّر؟

لا، هو بِصَدَدِ أنْ يقعَ، لكِن ما كُتِبَ أن يقعَ، هو بصددِ أن يقعَ لكِن وُجِدَ مانعٌ مقدَّر أَيْضًا، ومثلما قلتُ لكَ: إذا قَالَ قائل: ما الْفَائِدَة إذَن؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، رقم (٧٤٥٤)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٣).

نقول: الْفَائِدَةُ هي حَثُّ النَّاس عَلَى الدعاءِ، وأن يَحْرِصَ الْإِنْسَان عَلَى الدعاءِ؛ لأجلِ أن يَمْتَنِعَ بِهَذَا الدعاءِ ما كَانَ موجودًا أسبابُه من القضاءِ.

لَكِنْ لَوْ قِيلَ: هَذَا يخالِفُ الظاهرَ، ولو قُلْنَا بظاهِرِهِ لَخَالَفْنَا أَيْضًا القدرَ؛ لأن الدعاء مقدَّر، وعدم الدعاء مقدَّر، حَتَّى دعاؤك أنت مقدَّر، بل كل شَيْءٍ مقدَّر، فمعناه: لا بد أنْ تَدْعُوَ فيرد القضاء الَّذِي انعقدتْ أسباب وجوده، فالدعاء مانعٌ، وأسبابُ وجودِ القضاءِ الَّذِي كَانَ سَيَقَع لولا هَذَا المانع موجودةٌ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: الإِشْكالُ إذا قَالَ قائل: إذا كَانَ الدعاء مقدَّرًا فمعناه أن هَذَا الَّذِي قُدِّر لن يقعَ؟

فيقال: إن أسبابَ هَذَا الَّذِي قُدِّر موجودةٌ، والدعاء مانعٌ، فيَكُون عندنا أسبابٌ انعقدتْ لِحُصُولِ هَذَا الواقعِ الَّذِي مَنَعَهُ الدعاءُ، وكلٌّ منها مقدَّر.

الْفَائِدَة الثالثة والرابعة: إثباتُ الأَسْبابِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾، وإثبات الموانعِ أَيْضًا؛ لقولِهِ: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾، ففيها إثباتُ الموانعِ لِمَا انعقدَ سَبَبُه، وإثباتُ الأَسْبابِ لِمَا لم يوجدْ حَتَّى يَكُون، وإثبات الموانع أَيْضًا موجود بكثرةٍ، الرَّسول ﷺ أمرَ عندَ الكسوفِ بالصلاةِ والدعاءِ والاستغفارِ[1]، وهذا مانعٌ للعذابِ الَّذِي انعقدَ سَبَبُه ووُجِدَ الإنذارُ بِهِ، فيمنع هَذَا العذابَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قد تكونُ المصيبةُ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا للعبدِ ابتلاءً لِرَفْعِهِ دَرَجَتَه، كما حصل عَلَى الأنبياءِ؛ كنُوح ولُوط، حيث ابتلاهما اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِزَوْجَتَيْهِمَا، وهما مِنَ الأنبياءِ، وكما حصل للرسولِ ﷺ من عُمُومتِه؟

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب الكسوف، باب الصلاة في كسوف الشمس، رقم (١٠٤٠).

قُلْنَا: هَذَا صحيحٌ، لكِن قد لا يَكُون الكَسْب هَذَا من يدِ الْإِنْسَانِ نفسِه؛ لأن البلاءَ إذا نَزَلَ يَعُمُّ، فقد يَكُونُ ما أُصيبَ بِهِ الْإِنْسَانُ من ذنوبِ غيرِه؛ ليَكُونَ موعظةً له، فيُبتلَى بِهَذَا وهذا؛ بالحُكم الشرعيِّ والقَدَريّ، وربما يَكُون هناك ذنوب خَفِيَّة ليست بيِّنة، فيُبتلَى بِهَا، والذنوب لَيْسَ معناها فِعل المعاصي لُزُومًا، قد يَكُون الذنب تقصيرًا فِي واجبٍ، لكِن الآية عامَّة: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى:٣٠]، ولْيُعْلَمْ أنَّ البلاءَ مِنَ المصائبِ، والمصائبُ من الذنوبِ، قَالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، هَذِهِ الذنوبُ لِآثَارِها موانعُ، وهي الاستغفارُ والتوبةُ والرجوعُ إِلَى الله.

الْفَائِدَة الخامسة: إثباتُ عذابِ القبرِ، كما أشار إليه المُفَسِّر أَنَّهُ سَيُلازِمُهُمُ العذابُ بعدَما يَحُلُّ بهم فِي الدُّنْيا، فيَكُون فِي هَذَا إثبات لعذاب القبرِ، وقد دلَّتْ عليه السنَّة الصريحةُ، وظاهرُ القُرْآنِ، كما مرَّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾ [الأحقاف:١٥]، بعض العوامّ يقول: الْإِنْسَان لا يَكُونُ صالحًا إِلَّا إذا بلغَ أربعينَ سنةً، وهَذَا ليس صحيحًا أبدًا، لكِن المعنى أن الْإِنْسَان لا يَرجِع فِي الغالبِ ويَتبيَّن ويَتفَطَّن الأمر إِلَّا إذا بلغَ أربعينَ سنةً، فكل إنْسَان مكلَّف يعقل، وكَوْنه لم يبلُغِ الأربعينَ لَيْسَ بعُذْرٍ، لكِن يقال: إنك لا تعقِل الأمورَ، فأنتَ الآنَ فِي الحقيقةِ فِي حالةِ سَفَهٍ، وكما يَقُولُونَ: الشباب جنونٌ، لا تعقِل هَذَا الأمرَ إِلَّا إذا بلغتَ أَشُدَّكَ وعَرَفْتَ ما يَحْصُل من أولادِك. ولهذا قال: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ [الأحقاف:١٥]، فهنا يَتبيَّن مدى عُقُوقِ الوالدينِ، إذا كبِر الْإِنْسَان وجاءه أولادٌ ورأى مَنْزِلَةَ البِرِّ بالوالدينِ من أولادِهِ، فأنتَ لا تشعُر فِي الحقيقة بمودَّة الوالدينِ لكَ،

وبِمَنْزِلَتِكَ عندهم حَتَّى يَكُونَ لكَ أولادٌ، ولا تَشْعُر بقيمة البِرّ حَتَّى يَكُون لكَ أولاد يَعُقُّونَك، حينَئذٍ تَشْعُر.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله تَعَالَى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ هل معنى ذلك أَنَّهُ الآنَ بدأ يشكُر؟

لا، لَيْسَ معناه الآن بدأ يَشكُرُ، معناه الآنَ بدأ يَصْحُو.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَذِهِ الآيةُ قِيلَ: إنها نزلتْ فِي أبي بكرٍ؟

قُلْنَا: لا، والعِبرة بعُمُومِ اللفظِ، لا بِخُصُوصِ السَبَبِ، حَتَّى لو نزلتْ فِي أيِّ إنْسَانٍ؛ لأن صحوةَ الْإِنْسَانِ حقيقةً بعدَما يَكْبَر ويُولَد له أولادٌ، فيعرف قَدْر الوالدينِ، وإلا قبلُ فَهُوَ طائشٌ، ويؤاخَذ عَلَى ذلكَ؛ لأن التكليفَ فِي سنِّ خَمْسَةَ عَشَرَ عامًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قولُ ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ العقلَ يَكْمُلُ عندَ خمسٍ وعشرينَ وسبعٍ وعشرينَ، أَلَا يَتَعَارَضُ معَ الآيةِ؟

الجواب: لا أعرِفُ عنِ ابنِ عبَّاس هَذَا القَوْل، إِنَّمَا الآياتُ تَدُلُّ عَلَى أنَّ الكمالَ بالأربعينَ، ويدلُّ عَلَى هَذَا أنَّ اللهَ ما بَعَثَ نبيًّا إِلَّا بعدَ سِنِّ الأربعينَ، فالرَّسول ﷺ لـمَّا تمَّ له أربعونَ بُعث، وَهِيَ فِي الحقيقةِ استكمال العقل والقوى، فبعد الأربعينَ بعشر سنوات وَمَا أَشْبَهَ ذلك يَضْعُفُ.

• • ۞ • •

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة
«أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ»	٢٥٧
«أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ»	٢٨٥
«اجْعَلُوا آخِرَ صَلَاتِكُمْ بِاللَّيْلِ وِتْرًا»	٢٦٦
«إِذَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا المَالِ شَيْءٌ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ، فَخُذْهُ»	٣٣٨
«إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ»	١٤
«إِذَا قَامَتِ البَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ الحَبَلُ أَوْ الِاعْتِرَافُ»	١٥٨
«أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي»	٣١٠
«أَرَأَيْتُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّ رَأْسَ مئة سَنَةٍ مِنْهَا، لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَدٌ»	١٤٦
«اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: يَا رَبِّ، أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ»	٦١
«أَصَلَّيْتَ؟»	١٤
«أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»	٢٧٤
«الْإِمَامُ ضَامِنٌ»	٣٣٧
«التَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»	٢٨٦
«الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»	٢٨٢
«اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»	٥٤

«أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» ١٢٩
«أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟» ١٧٦
«أَمَّا أَنْتِ فَقَدْ غُفِرَ لَكِ» ٣٠٤
«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ» ١٧٥
«إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا» ١٠٠
«إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ» ٢٦٥
«إِنَّ للهِ مئة رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالهَوَامِّ» ٨٧
«إن من البيان لسحرا» ١٢٥
«أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ» ٢٠٥
«انْطَلِقُوا بِهِ فَارْجُمُوهُ» ٣٠٤
«بِئْسَمَا لِلرَّجُلِ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ سُورَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، أَوْ نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ هُوَ نُسِّيَ» ١٠٨
«تَسَحَّرُوا؛ فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً» ٣٣٥
«حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ» ٢٥٧
«حديث الثَّلاثَةِ الَّذِينَ جَاؤُوا والرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في أصحابِهِ، فأَحَدُهم جلسَ وأحدُهم دخلَ الحَلْقَة، والثالث انصرفَ» ١٤
«حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ» ٣٣٢
«خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» ١٤٥

«ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ» ٢٩٠
«سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ» ٨٩
شَرِبَ اللبنَ وقال له النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اشْرَبْ» ١٢٧
«عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطْتَ» ٢٤٤
«عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ» ٢٢٦
«فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ» ١٥٥
«فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ» ٣٠١
«فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ» ١٩٥
«فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ» ١٧٦
«فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللهِ» ٧
«فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ» ٢٧٣
«قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» ٣٠٣
«قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ» ٢١٥
«قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ» ٢٨٥
«قُمْ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ» ١٤
«قِيلُوا فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ» ٢٠٢
«كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ» ٨٩

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» ١٨٦
«لَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ما أَعْلَمُه إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيه اللهُ رَجُلًا في القُرْآنِ» .. ١٢٦
«لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ» ٣٣٩
«لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ» ٣٤٧
«لَا، إِنَّهُ قَدْ تَابَ إِلَى اللهِ» ٣٠٥
«لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا» ..... ١٧، ٢٩٠
«لَيْسَتِ السَّنَةُ بِأَنْ لَا تُمْطَرُوا، وَلَكِنِ السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَتُمْطَرُوا، وَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شَيْئًا» ٢٠٩
«مَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا فِيهِنَّ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ أُلْقَاهَا مُلْقٍ فِي أَرْضِ فَلَاةٍ» ٢٣٩
«مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ» ١٥٠
«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» ٣٤٧
«مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ» ١٩
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ..... ١٦٥، ٣٠٣
«مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ» ٣٦
«مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً» ٣١١
«مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ، وَالْمَفْعُولَ بِهِ» ١٥٥
«نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ» ١٦١
«نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ» ١٨٧

«هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» ٢١٥
«هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ» ٥٤
«وَأَرْبَعَةٌ مِنَ الْعَرَبِ: هُودٌ، وَصَالِحٌ، وَشُعَيْبٌ، وَنَبِيُّكَ يَا أَبَا ذَرٍّ» ١٤٣
«وَإِنَّ الدُّعَاءَ وَالْبَلَاءَ لَيَعْتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ٣٤٦
«وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ» ١٣٧
«وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ» ٩٥
«وَمَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ أَلْقَاهَا مُلْقٍ فِي أَرْضِ فَلَاةٍ» ٢٣٩
«يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟» ١٢٧
«يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ» ٣٢٢
«يَعَضُّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ كَمَا يَعَضُّ الفَحْلُ؟!» ٩٥

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة
الكَلامُ على البَسْمَلَةِ	٧
(الله) هُوَ عَلَمٌ على الذَّات المقدَّسة	٨
(الرَّحْمَنِ) من الأَسْماء المُخْتَصَّة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى	٨
الرَّحمنَ والرَّحيمَ إذا اجتمعا	٩
﴿نَزَّلَ﴾ فَعَّل تُفِيدُ النُّزول شيئًا فشيئًا	١١
﴿نَزَّلَ﴾ دليلٌ على صفةِ العلوِّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى	١٢
﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ هو القُرْآنُ	١٢
المرادُ بالمتشابِهِ هنا الموافِق بعضُه بعضًا	١٣
وإذا رُدَّ المُتَشَابِهُ إلى المحكَم صار الجميع محكَمًا	١٣
مثال رَدِّ المتشابِهِ إلى المحكَم	١٣
العبودية تَنقسِم إلى ثلاثةِ أقسامٍ	١٤
وصفُ الإنْسَان بالعبوديَّةِ	١٥
الضميرَ يعود إلى أقربِ مذكورٍ	١٦
﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ العَالَم، يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الإنس والجن دون الملائكة]	١٦
النَّذير هو المُخْبِر بما يُخَوِّفُ، والبَشير المُخْبِرُ بما يَسُرُّ	١٧
إذا وَرَدَتِ البِشارةُ مُقَيَّدةً بأمرٍ مَخُوفٍ	١٧

القُرْآنَ كلَّه واضحٌ صريحٌ ١٨
فضل الرَّسول ﷺ حيث كُلِّفَ الرِّسَالة إلى جميع الخَلقِ..... ١٩
لو تُعَلِّم إنْسَانًا فيَعْمَل بعِلمه ويُعلِّم آخر ويعلم آخر ويعلم آخر فَإِنَّهُ يأتيك من الأجر والفضل بقَدْرِ مَنِ انتفعَ به ١٩
السَّموات والأرض يَدْخُلُ فيهما كلُّ من فيهما ٢٠
إذا نَفَى عن نفسِهِ صفةً فليس المراد بذلك نفي الصِّفة فقط، بل نفي الصِّفة وإثبات كمال ضِدِّها..... ٢٢١
الَّذِينَ يقولون: إن بعض الأولياء يَتَصَرَّفُونَ بالكون ٢٢
الخالق لا يمكن أن يَكُونَ هو المخلوقَ ٢٣
لو احتجَّ علينا المُعْتَزِلة والجَهْمِيَّة الَّذِينَ يقولون: إن القُرْآن مخلوقٌ فبماذا نُجيبهم؟ ... ٢٣
التسوية تكون بعد الخَلْق ٢٤
التقدير بمعنى القضاء سابِقٌ للخلق ٢٤
كيف نَجمَع بين هَذَا النفيِ وبينَ هَذَا الإثباتِ؟ ٢٧
الَّذِي يُحْيي الأموات حقيقةً هو اللهُ..... ٣٠
النُّشُور هو بَعْث المَوْتى وتفريقهم..... ٣٠
ما الفرق بين الحياة والنشور؟ ٣٠
إذا ادَّعى المبطِل دعوى فإننا نَنْقُلُه إلى ما هو أوضحُ؛ لِأَنَّ المقصود ليس المجادَلة، إِنَّمَا المقصود إقامة الحجَّة على بُطلان هَذَا الأمر ٣٢
عند المخاصَمة ننتقل إلى أمر أعظم وأَبْيَنَ وأوضحَ ٣٣
إثبات الرِّسَالة لا شكَّ أَنَّهُ أَحَدُ شَطْرَيِ التَّوحِيدِ ٣٤

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كُفْرًا وكَذِبًا]، المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَسَّرَ الظُّلْمَ بالكفرِ ٣٥
الزُّور في الأَصْل كل ما انحرفَ عن الصراط المستقيم..... ٣٥
إن مُحَمَّدًا ﷺ عاش فيهم قبل الوحيِ أربعينَ سنةً وما قَالَ يومًا من الأَيَّام: إِنَّهُ يُوحَى إليه ٣٦
أساطير جمع أُسطورةٍ، وهي الأحاديث الرائِجَة الَّتِي لا أصلَ لها ٣٧
الإنْسَان -والعياذ بالله- إذا حُجِبَ قلبُه رأَى الحقَّ باطلًا، والباطل حقًّا ٣٨
وكُلَّمَا أعرضَ الإنْسَان عن القُرْآن يَكُون أشدَّ خفاءً عليه وأبعد عن معرفته ٣٨
وماذا يستفيد المرء من اللفظ وهو لا يعرف معناه؟! ٣٨
الَّذِي يَحُول بيننا وبينَ هَذَا التِّبيانِ لكلِّ شَيْءٍ هو عدمُ إقبالنا على هَذَا القُرْآنِ، والتأمُّل فيه، والتفكُّر فيه، وإلَّا لو أَنَّنا تأمَّلناه لَوَجَدْنَاهُ تِبْيَانًا لكلِّ شَيْءٍ..... ٣٩
هل يجوز أن يكتب القُرْآن الكريم حسَب القواعد الإملائية الَّتِي في عصرنا؟ ٤٠
يجوز أن يُكتَب القُرْآن بحسَب القواعد العصرية الَّتِي كُتب بها؛ لِأَنَّ كتابته ليس بتوقيفيَّة ٤١
هل كتابةُ القُرْآن بطَريقةِ برايل تجوز أو لا؟ ٤٢
كتابة المصحف على الرسم العُثمانيّ قد تشكل بالنسبة للقراءات ٤٢
حديثٍ ذَكَرَه الزُّرقاني ذَكَرَ فيه كيفيَّة أمرِ النَّبيّ ﷺ لهم بكتابةِ القُرْآنِ على هَذِهِ الصِّفةِ، كأنْ يقولَ لَهُم: مُدُّوا الألفَ أوْ حرِّكوا اللامَ ٤٣
أن في القُرْآن أسرارًا وإخبارًا بالغيب ٤٦
إظهار في مَقام الإضمارِ ٥٠
الرِّسَالة لا تَتَوَقَّف على المال، وليس المال دليلًا للرسالة؛ لِأَنَّ هناك أُناسًا كثيرينَ أغنياء ولَيْسُوا برسلٍ ٥٢

الفاء عاطفة وتفيد السَّبَبيةَ ٥٤
ابن القيِّم في (مِفتاح دار السَّعادة) أَنَّهُ تكلم مع شيخِه ابن تيميَّة في مسائل فجعل يُورِد عليه بالنقض ٥٤
الشيطان يحبُّ من ابن آدم أن يَرِدَ على قلبه هَذِهِ الشبهات لِيَضِلَّ ٥٥
السحر الَّذِي طرأ على النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ٥٥
وإزالةُ الشُّبَه عن الأُمَّة هَذَا من رَحمة ٥٦
كلمةُ الساعةِ تُطْلَق في اللُّغة على كل أمرٍ هامٍّ ٦٠
التكذيبُ بالساعةِ يَشمَلُ التكذيبَ بوقوعِها رأسًا ٦٠
النار مَخلوقةٌ الآن ٦١
والمؤذِّن لا يسمع صوته شَجَرٌ ولا مَدَرٌ إلا شَهِدَ له يومَ القيامةِ ٦٢
إن قال قائلٌ: وردت أحاديثُ ضعيفةٌ في أن النار لها عينانِ، وهَذِهِ الأحاديث تؤيدنا؟ ... ٦٣
العادةَ أن الرجلَ إذا دَعَا بالثبورِ في الدُّنْيا رُحِم ٦٧
هل كل كفَّار العرب يُنكِرون الساعة؟ ٦٧
من قالَ: إن عذابَ النار غير مؤبَّد ٧٠
مناسبة قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ بعد قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ٧١
العربُ تَتَمَدَّحُ بإخلافِ الوعيدِ دونَ إخلافِ الوعدِ ٧١
مما ينصب مَفْعُولينِ ليسَ أصلهما المبتدَأ والخبر ٧٣
الفعلَ كما هو معروفٌ يَدُلّ على زمنٍ ومعنًى ٧٣
من المعلومِ أنَّ المتقينَ الآنَ ما دَخَلُوا الجنةَ ولا صاروا إليها، ولَكِنَّهم سَيَصِيرُونَ لذلك ٧٤

كتب المواعظ ٧٥
في كتب الوعظ أشياء كثيرة تُرَغِّب فيما نهى عنه الشرع ٧٥
هل حديثُ ضَغطةِ القبرِ صحيحٌ؟ ٧٦
هل فَناء الجسم أو بقاؤه دليل على الصلاح؟ ٧٦
هل الأرض لا تأكل أجساد الشهداء؟ ٧٦
معنى حال لازمة ٧٧
كل سماء أكْثَر ملائكة من السَّمَاء الَّتِي تحتها ٨٠
الحُجَّة السلطة يتمكن بها المدَّعي من إثباتِ دَعْوَاهُ ٨١
بعض النَّاس من أهل العلم بالطبيعة يحاولون أن يُوجِدوا لكل حادثٍ دليلًا خاصًّا من القُرْآن، وهذا لا يجوز ٨١
أحوال الآخِرة لا تُقاس بأحوال الدُّنْيا ٨٣
القضية المشهورة عن الشيخ مُحَمَّد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع الرجل النصراني حينما سأله عن كيفية صنع الطعام الَّذِي قُدم لهم في المطعم ٨٣
الملائكة في السماءِ ٨٥
كُلَّمَا كان الإنْسَانُ أَقوَى إيمانًا باللهِ، وأشدَّ تقوى للهِ، كان يُسْرُ ذلك اليومِ عليه بحسَبه ٨٩
في حديثِ الشفاعةِ الأنبياءُ كلُّ وَاحِدٍ منهم يقولُ: نفسي نفسي، فهذا دليلٌ على أنَّ في هَذَا اليومِ عندهم شِدَّة وخوف؟ ٨٩
تنفيذ العدل يُعتبَر رحمةً ٩٠
شيخ الإسلام لا يرى وجود المجاز في اللغة العربية إطلاقًا؛ لا في القُرْآنِ ولا في غيرِه ٩٣

ميزان المجاز الَّذِي لا أحدَ يمانِع فيه صِحَّة نفيه، أي صحة نفيِ المجازِ، وليس في القُرْآن ما يَصِحّ نفيُه ٩٤
من علامات الاسْمِ النداء ٩٦
يَجِب على المرءِ أنْ يختارَ لنفسِه الأصحابَ ٩٧
حال الظالِمِ يوم القيامةِ ٩٧
التحذير من الظُّلْم ٩٧
الخَلِيل هو الحَبيب الَّذِي بلغتْ محبَّتُه الغايةَ ٩٩
لكلِّ نوعٍ من المعاصي شيطانٌ ١٠٢
الخِذلان معناه إذلال الإنْسَانِ في مَوْطِنٍ يَحتاج معَه إلى النصرِ ١٠٣
ما علامة كونِ هَذَا الفعلِ من أوامرِ الشيطانِ، وما الَّذِي يدرينا أن الشيطان أَمَرَنا بهذا، وأن هَذَا من عملِ الشيطانِ؟ ١٠٤
لَوْ قَالَ قَائِلٌ: يقول الله تَعَالَى: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ والوحي ما زال ينزل؟ ١٠٧
هَجْرُ القُرْآنِ ينقسِم إلى قسمينِ ١٠٨
ما حُكْم هَجْر المصحَفِ ١٠٩
هل عدم تدبُّر القُرْآن يَكُون هجرًا له؟ ١١٠
هل استماع القُرْآن يُغني عن القراءةِ؟ ١١٠
الحقَّ يَتبيَّن بضدِّه ١١٥
ابتلاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمؤمنِ؛ فَإِنَّهُ إذا كان الإيمانُ قويًّا فَإِنَّهُ يصمد أمام هَذِهِ الشُّبُهات ١١٥
الشُّبهة قد تكون شبهة في بادئِ الأمرِ ١١٩

قوله: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ ١١٩
من فوائد الترتيل ١٢١
ما العيب في كون القُرْآن لم يَنْزِلْ جملةً وَاحِدةً؟ ١٢٢
ألَا يَكُون قول المشركين: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ اعترافًا منهم بأن القُرْآن منزل من عند الله؟ ١٢٢
إثبات الحِكْمَة في أفعال الله ١٢٣
من الحِكْمَة في إنزال القُرْآن تثبيت قلبِ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ١٢٣
كل شُبهة يُورِدُها الكفَّار في عهد الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وفيما بعده فهي باطلٌ .. ١٢٥
كم من آيةٍ تمرّ بشخصٍ يَستنبِط منها عدة مسائل، وآخر لا يستطيع أن يأتيَ منها بمسألةٍ ١٢٦
ويُذكَر أن الإمامَ أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ استضافَ الإمامَ الشافعيَّ ذات ليلةٍ ١٢٦
النَّاس يَختلفون في فَهْم الكِتَابِ والسنَّة، واستنباط الأحكام من الكِتَاب والسنَّة... ١٢٧
قوله: ﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ كيف يمشون على وجوههم؟ ١٢٩
ما وَجْهُ العقوبة بحَشْرهم على وُجوههم؟ ١٢٩
ما اشتهر بين النَّاسِ الآنَ من تسمية النصارى بالمسيحيِّين أَنَّهُ خطأ، وأنه لا يَنبغي أنْ نُسمِّيَهم بالمسيحيين ١٣٨
ثمود هم قوم صالحٍ ١٤٣
هل نبيّ الله صالح عربيّ؟ ١٤٣
هل أحدٌ تَعَرَّض لتعريبِ أَسْماءِ الأنبياءِ، أي معرفة معناها؟ ١٤٤
قيل: إنَّ أصحابَ الرَّسِّ -ورجَّحه ابنُ جَرِير- هم أصحابُ الأُخدود الَّذِينَ ذَكَرَ الله تَعَالَى في سورة البُرُوج ١٤٤

لماذا سُمُّوا أصحابَ الرَّسِّ؟ ١٤٤
يُطلَق القرنُ على الزمنِ، واختلفوا في مِقدارِه ١٤٦
الإهلاك للقرونِ يَكُون لأهل الأزمان ١٤٦
غالبَ الأنبياءِ كُذِّبَ فيما سَبَقَ ولم يَتْبَعْه إلَّا القليل ١٤٦
أنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا جعل لكل نبيٍّ عدوًّا مِنَ المجرمينَ ١٤٨
وأمَّا عاد فأُهلكوا بالريحِ ١٤٨
ثمود أُهلِكوا بالرَّجفة مع الصيحةِ ١٤٨
الاسْم إذا ابتُدِئَ به يَكُون مبتدأً ١٤٩
لم يَكِلِ اللهُ العبادَ إلى فِطَرِهم ١٥٠
ليس الخبر كالمعايَنة ١٥٣
قرى قوم لوط ليست قريةً وَاحِدةً ١٥٣
البحر الميِّت هو مكان قُرَى قوم لُوط، وصار بحيرةً مالحةً ١٥٣
المَطَر نوعانِ ١٥٤
الإجماع السكوتيّ ليس إجماعًا قطعيًّا ١٥٥
إذا كثُرتْ هَذِهِ الفاحشةُ وجبَ على وُلاةِ الأمورِ أنْ يَكُونوا أشدَّاءَ على فاعليها ١٥٦
مَن أُكرِه على فعل الفاحشةِ فلا شَيْءَ عليه ١٥٨
الزنا كما قَسَّمه الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وكذلك اللواط أنواع ١٥٨
لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لا يَنبغي أن ننسُب اللُّواط لاسْم النَّبيِّ ﷺ ونقول ما ورد في الحديثِ: «عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ» ١٥٩
لا يشكُّ أن الله تَعَالَى قادرٌ على إحياءِ المَوْتَى ١٦١

الاستفهام للتقريرِ ١٦١
لا يَتَعَيَّن أن نَحمِل الرجاءَ على الخوفِ ١٦٢
الآلهة تطلَق على المعبودِ، لكِن تطلق إطلاقًا مجازيًّا على المعبود بغير حقٍّ، ١٦٨
الكلمة في سِيَاقها، أو الجملة في سياقها حقيقة ١٦٩
هل الإنْسَانُ المؤمِنُ يُمكِن أنْ يَضِلَّ عند المَوْتِ؟ ١٧٤
أن الإنْسَانَ لو بَنَى عملَه على عقيدةٍ سليمةٍ، سواء بإخلاصٍ، أو بغير إخلاصٍ، فلا يمكِن أن يَخْذُلَ الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنَ أبدًا، المؤمنَ حقيقةً ١٧٥
العملُ الأساسيُّ فَهُوَ عملُ القلبِ ١٧٥
قال أهل العلمِ: إننا ننظُر إلى أهلِ المعاصي نظرينِ؛ نظرًا شرعيًّا، ونظرًا كونيًّا ١٧٨
فالواجب على المرءِ أنْ يَنْظُرَ إلى الأمورِ مِنَ النافذتينِ: نافذة القَدَر ونافذة الشَّرْع ... ١٧٨
العقل الَّذِي هو مَناط المدح ١٨١
هل العقل الَّذِي نفاه الله عن الكفَّار يَقتضي نفيَ الذكاء عنهم؟ ١٨١
إذا قال الكِتَابيُّون: نحن نَدِين دِينَ الحقِّ لأننا نتَّبع رسولًا ١٨٣
توجَد آياتٌ في القُرْآن كما أَسْلَفْنَا مشتَبِهات يتبعها الَّذِينَ في قُلُوبهم زَيْغ، ولَكِنَّ المؤمنين يَرُدُّونها إلى المحكَمِ، فتكون كلها محكَمةً ١٨٤
هل يَحْرُم استخدام الكافر؟ ١٨٦
الكفَّار همُ الخَبَثُ ١٨٧
الَّذِينَ يكذبون بالرَّسول لَيْسُوا بمؤمنينَ ١٨٧
كلَّما كانتِ الآية أدلَّ على العموم كان القَوْلُ به أَولى ١٨٩
ما الفرق بين الظلِّ والفيءِ؟ ١٩٣

إنَّ خروجَ النَّفَسِ من جسم الْإِنْسَان أمرٌ معتادٌ، ولهذا لا يُحِسُّ الْإِنْسَانُ بِقَدْرِ هَذِهِ النعمةِ ١٩٧
السَّبْتُ بمعنى القَطْع ١٩٩
هل أحد يستطيعُ لو لم يجعلِ اللهُ الليلَ أنْ يأتيَ بالليلِ؟ ٢٠٠
هل يستطيع أحدٌ أنْ يُنَوِّمَ أحدًا؟ ٢٠٠
هل النوم بكل أنواعِه قاطعٌ للتعَبِ؟ ٢٠١
هل النوم فِي بعض الأوقاتِ مكروهٌ؟ ٢٠٢
حديث: «قِيلُوا فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ» ٢٠٢
فائدةُ اختلافِ القراءاتِ ٢٠٤
الرَّحمةُ المضافةُ إِلَى اللهِ تَنقسِم إِلَى قِسمينِ ٢٠٤
لماذا ذكر الأَنْعامَ قبلَ الأناسيّ؟ ٢١٠
إن إحياءَ الْأَرْضِ لمصلحةِ الْإِنْسَانِ ٢١٠
إرسالُ المُبَشِّرات والمقدِّمات بَيْنَ يَدَيِ الأشياءِ؛ لقوَّة الرجاء ٢١١
حِكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكونِ المطرِ يَنزِل مِنَ السَّمَاءِ ٢١١
الأَصْل فِي الماءِ الطهارةُ ٢١١
جوَاز ذِكْرِ بعضِ الفوائدِ؛ لأنَّ الاقتصارَ عَلَى البعضِ لا يُعَدُّ نَقْصًا ٢١٢
حديث زَيْدِ بنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ حينَ صلَّى بهم عَلَى إثرِ سماءٍ كانتْ مِنَ اللَّيْلِ فِي الحُدَيْبِيَةِ ٢١٥
لو قَالَ الْإِنْسَان: (مُطِرنا فِي نَوْء كذا) ٢١٥
النَّاس يَنقسِمون إِلَى قسمينِ: كافر ومؤمِن ٢١٦

استعمال المؤكِّدات فيما يَنبغي تأكيدُه ٢١٧
إبطالُ مَذهَب الجَبْرِيَّة ٢١٧
قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ ٢١٩
هل كلمة بَرْزَخ تُقاسُ بالنسبةِ لِلْبَرْزَخِ المعروفِ فِي الدُّنيا والآخِرَةِ؟ ٢٢١
لو قَالَ قائل: البحَّارة يجدون عُيُونًا فِي البحرِ حُلوةً، ما صِحَّة هذا؟ ٢٢٢
نرى أن تقييدَ القُدْرَةِ بالمشيئةِ لا يَنبغِي ولا يَلِيقُ ٢٢٥
تقييدَ المشيئةِ عائدٌ عَلَى الفعلِ، لا عَلَى القُدرة ٢٢٦
كلُّ إنْسَانٍ يُعين أحدًا فِي باطلٍ فَإِنَّهُ ظَهير عَلَى ربِّه ٢٢٨
كل عاصٍ حالَ مَعْصِيَتِهِ فَهُوَ مُعِينٌ عَلَى اللهِ بِمَعْصِيَتِه، فلماذا خصَّه فِي الآيةِ بالكافِرِ؟ ..٢٢٨
أليسَ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ معلِّمًا يُعَلِّمُ النَّاسَ الأحكامَ ٢٢٩
وجوبُ التوكُّل عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٢٣٣
الخَلْق نفسُه من صفاتِ اللهِ ٢٣٦
إن خلق السَّمواتِ والْأَرْضِ له أسبابٌ ٢٣٧
مِنَ التَّعَمُّق والتَّنَطُّعِ أنْ نَبْحَثَ ونسألَ عن ماهيَّة هَذَا العرشِ ٢٣٩
المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يُؤَوِّلُ آياتِ العُلُوّ، فكيف نُوَجِّه قولَه: [استواء يليق به] ٢٣٩
أليسَ اللهُ عاليًا عَلَى جميعِ المخلوقاتِ؟ ٢٤١
الجمعُ بَيْنَ قولِه تَعَالَى فِي آيةِ الكُرسيّ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، وبين قولِه تَعَالَى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ٢٤٢
كمالُ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ٢٤٥
أنَّ الاستواءَ مِن الصِّفاتِ الفعليَّة ٢٤٦

هَلِ التَّوْرَاةُ والإنجيلُ يُقَرِّرَانِ ويُثْبِتَانِ المَعادَ كما يُثْبِتُهُ القُرْآنُ؟ ٢٤٨
الواجبُ عَلَى المؤمنِ إذا رأَى ما لا يَعرِفه أو سمِع ما لا يَعرِفه التَّثَبُّتُ ٢٥٠
لا تكاد تجد معصيةً مِنَ المعاصي إِلَّا وَفِيها مُشابَهة من جنسها من الكُفْرِ..... ٢٥٠
يَجِبُ أنْ تدعوَ عَلَى العمومِ، وليس عليكَ هُداهم ٢٥٣
العاقبةُ للمتَّقين ٢٥٤
بعض النَّاس يَقُولُونَ: كيف نَدْعُو النَّاسَ ونحن عاجزونَ عن إصلاحِ أنفسِنا؟ ... ٢٥٥
أن الشرعَ لا يُقاس بالهوى والعقل ٢٥٦
أن عدمَ استجابةِ المَدْعُوِّينَ للداعي لا يدلُّ عَلَى فسادِ قَصْدِهِ أو عَمَلِهِ ٢٥٧
أن السجودَ من أسبابِ الرَّحمةِ ٢٥٨
بُلُوغ المشركينَ الغايةَ فِي الاستكبارِ ٢٥٨
كيف كَانَ كُفَّار مكَّة يَطَّلِعُون عَلَى القُرْآنِ؟..... ٢٥٩
مِنَ التذكُّر العمليّ أن الْإِنْسَانَ إذا نَسِيَ عبادةً فِي ليلٍ قَضاها فِي النهارِ، أو فِي نهارٍ قَضاها فِي الليلِ ٢٦٥
هل الوِتْرُ يُصَلَّى عَلَى صِفتِه إذا كَانَ قضاءً؟..... ٢٦٦
مَن أرادَ أنْ يَشْكُرَ نعمةَ ربِّه عليه فِي هَذَا النهارِ والليلِ فَإِنَّهُ له المجالُ ٢٦٦
الله تَعَالَى أَثْنَى عَلَى نفسِه بمخلوقاتِهِ العظيمةِ..... ٢٦٨
أنَّ الجملةَ الفعليَّة تَدُلُّ عَلَى الحُدُوثِ والتَّجَدُّدِ ٢٧٠
ليس المراد (سلاما) يَعْنِي: السلام عليكم، كما يَظُنُّ بعضُ العامَّة ٢٧٢
أَنَّ القيامَ أشرفُ ما فِي الصلاةِ من حيثُ ذِكْرُه؛ أي مِن حيثُ الذِّكْرُ الَّذِي هو القُرْآنُ، والسجودُ أشرفُ ما فِي الصلاةِ من حيثُ الحالُ والهيئةُ ٢٧٤

الغالبُ أنَّ الأدعِيَةَ تُصَدَّرُ بالتوسُّلِ بالربوبيَّةِ: (رَبَّنا) ٢٧٧
قولُه: ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ﴾ قول المُفَسِّر: [على عِيَالِهم] تَخْصِيصُه بالإنفاقِ عَلَى العِيَالِ فِيهِ نَظَرٌ... ٢٧٩
الإقتارُ هو الإقلالُ والتضييقُ..... ٢٧٩
الإنفاقُ بَيْنَ الإسرافِ والإقتارِ هو داخلٌ فِي قوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، إذا جَعَلْنَا المشيَ مَشْيًا معنويًّا ٢٨١
دعاء العِبَادَة ٢٨٢
دُعاءُ المسألةِ ٢٨٢
السؤالُ أحيانًا يَكُونُ محمودًا، وأحيانًا يَكُونُ مذمومًا..... ٢٨٣
النفس الَّتِي حَرَّمَ اللهُ أربعةُ أنفُسٍ؛ المُسلِمُ، والذِّمِّيّ، والمعاهَد، والمستأمَن ٢٨٤
الذِّمِّيُّ فَإِنَّهُ يُقامُ عليه الحَدُّ كما فعلَ النَّبيُّ ﷺ بِرَجْمِ الزانيينِ المحصَنينِ ٢٨٥
المُرْتَدُّ التارِكُ لدينِه المفارِقُ للجَماعَةِ ٢٨٦
إذا زَنَا المُسْلِمُ فأُقِيمَ عليه الحدُّ هل يَكُونُ كفَّارة له؟ ٢٨٧
إذا أُطْلِقَتِ النفسُ هل تُخَصّ ببني آدمَ أم يدخل الحيوان فِي الأنفسِ الَّتِي نُهي عن قَتلِها؟..... ٢٨٧
قاعدةٌ: ما آذَى طبعًا قُتِلَ شرعًا مستقيمةٌ ٢٨٧
هل تكليف الجنِّ كتكليفِ الإنسِ؟ ٢٨٨
الجنُّ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لَقُوا النَّبيَّ ﷺ مرَّةً وَاحِدةً، فهل أعطاهم النَّبيُّ ﷺ تشريعاتٍ أمِ انقطعَ تكليفُهُمْ؟..... ٢٨٨
لو قَالَ قائل: إنَّ الجنَّ مُخَاطَبُونَ بالتصديقِ فقطْ؟..... ٢٨٩
أفعالُ الصلاةِ والحجِّ بالنسبةِ للجنِّ هل تَختلِفُ عَنِ الإنسِ؟ ٢٨٩

هل يجوزُ للإنْسَانِ أنْ يَتَزَوَّجَ مِنهم؟ ٢٩٠
هل يُقام عَلَيْهَا الحدُّ؟ ٢٩١
الزِّنا لَيْسَ موجِبًا لِلْخُلُودِ فِي النارِ ٢٩٢
يومُ القيامةِ هو اليومُ الَّذِي يُبْعَثُ فِيهِ النَّاسُ ٢٩٣
قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ هلْ هَذَا الاستثناءُ مُتَّصِلٌ أو مُنْقَطِعٌ؟ ٢٩٥
ما هي التوبةُ؟ ٢٩٥
التوبةُ مِن قَتْلِ النفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ ٢٩٦
إذا لم يَتُبِ القاتلُ هل هو تحتَ المشيئةِ؟ ٢٩٧
قولِهِ: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ هل يَتَعَلَّقُ بِهِ حقٌّ آخرُ سِوَى حقِّ اللهِ؟ ٢٩٧
هل يُفَرَّق بَيْنَ البِكْر والثَّيِّب؟ ٢٩٨
شروط التوبة خمسة ٢٩٨
كيف الجواب عن قول ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عمَّن سألَه: أَلِمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا من توبةٍ؟ ٢٩٥
هل يَلْزَمُ التائبَ مِنَ الزِّنا أنْ يَطْلُبَ إقامةَ الحدِّ عَلَى نفسِهِ مثلما فعلَ ماعزٌ والغَامِدِيَّة؟ .. ٣٠١
الغِيبة ٣٠٢
إنَّ المغتابَ إن كَانَ عالِمًا بِغِيبَتِكَ فَهُوَ الآنَ قد صارَ فِي نفسِهِ عليك شَيْءٌ، فلا بدَّ أنْ تَسْتَحِلَّه لِيَزُولَ ما فِي نفسِهِ ٣٠٢
ما رَأْيُكم فِي قولِ ابنِ القَيِّم فِي إعلامِ الموقِّعين أنَّ الحدودَ تَسْقُطُ بالتوبةِ ٣٠٤
هل يُشْتَرَطُ للتوبةِ إصلاحُ العملِ ٣٠٩
إنْ أُرِيدَ بالتوبةِ وَصْف هَذَا الرجلِ بأنه مِنَ التائبينَ الَّذِينَ يَلْحَقُهُمُ الثناءُ ٣١٠

استحقاقُ وصفِ التائبينَ عَلَى وجهِ الإطلاقِ فهذا لا يَسْتَحِقُّهُ التائبُ إِلَّا بإصلاحِ العملِ ٣١٠
ما الفرقُ بَيْنَ الزنا والسَّرِقَة؟ ٣١١
لو قَالَ قائل: هناك آياتٌ من القُرْآنِ تَصِفُ الْإِنْسَانَ بالتوبةِ، ولو ما عَمِلَ عملًا صالحًا؟ ٣١٣
ما حُكْمُ إنْسَانٍ ابتُلِيَ بذنبٍ فأخذَ يَستغفرُ اللهَ ويتوبُ، وظلَّ عَلَى هَذَا، وعَجَزَ أنْ يُقْلِعَ عنه؟ ٣١٤
الزُّور كل مَيْل قَوليّ أو فِعليّ ٣١٥
المراد باللَّغْوِ ما لا فائدةَ فيه ٣١٦
هل هَذِهِ النوادي الَّتِي يَذْهَب إليها الشبابُ محرَّمة؟ ٣١٨
هل تُعْتَبَرُ كرةُ القدمِ صَنَمًا ٣١٩
عندنا عمومانِ فِي التذكيرِ بالآياتِ ٣٢٢
الصِّفاتُ الثُّبُوتِيَّة أبلغُ فِي الثناءِ ٣٢٣
المراد بالذريَّة الأولادُ؛ ذُكُورُهُم وإناثُهم، وأولاد الأبناءِ دونَ أولادِ البناتِ ٣٢٥
الوَقْفُ والهِبَةُ ٣٢٦
معنى قُرَّة العَيْن ٣٢٦
الكَلامُ عَنِ التَّقوَى ٣٢٨
دليلٌ عَلَى فَضيلةِ الإمامةِ فِي الدينِ ٣٢٩
لو أنَّ الأوقافَ تقومُ بحملةٍ توعيةٍ وإرشادٍ للناسِ فِي فضلِ وأهميَّةِ الإمامةِ لِأَجْلِ أَلَّا يَنْفِرَ طُلَّاب العلمِ مِنَ الإمامةِ ٣٣٠

هل عَلَى الإمامِ مسؤوليةٌ من جهةِ الذينَ لا يُصلُّون مع الجَماعَةِ؟..... ٣٣١
هل واجبٌ عَلَى الإمامِ قِيَامه بالعددِ؟ ٣٣٢
الإمامُ يؤثِّر ٣٣٣
الأوقافُ لها لوائحُ ٣٣٣
لو قِيلَ: الأَجْنَبِيُّ يُرْشِدُ النَّاسَ وسيقول كَلِمَةَ خَيْرٍ؟ ٣٣٣
أن الإمامةَ فِيهَا مصالحُ كثيرةٌ بالنسبة للشخصِ نفسِه..... ٣٣٤
كون الْإِنْسَان يَكُون له مُشَجِّعات عَلَى الخيرِ لا يُبْطِل أجرَه ٣٣٥
ما حُكْمُ مَن يُبَكِّر ويُسْرِع لإدراكِ الجَماعَةِ خَجَلًا مِنَ النَّاسِ؟..... ٣٣٦
بعضُ الأئمَّة عوامُّ ٣٣٦
بعضُهم يقول: الإمامةُ ارتباطٌ ولا أستطيعُ السفرَ؟ ٣٣٧
أنَّ الأذانَ أفضلُ منَ الإمامةِ..... ٣٣٧
ما معنى حديث: «الْإِمَامُ ضَامِنٌ»..... ٣٣٧
جزاءُ عِبَاد الرَّحمنِ..... ٣٣٩
قوله: ﴿تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ هل هما مترادفانِ أو مُتَغَايِرانِ؟ ٣٤٠
الَّذِي قُتِلَ من أهل مكَّة يوم بدر سبعونَ ٣٤٦
أنَّ القضاءَ هو وُقُوعُ الشَّيْءِ عَلَى ما كَانَ ٣٤٧
إثباتُ الأَسْبابِ..... ٣٤٩
إثباتُ عذابِ القبرِ..... ٣٥٠

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة
تقديم	٥
سورة الفرقان	٧
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾	١١
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾	٢٠
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾	٢٦
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤﴾	٣٤
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾	٣٧
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾	٤٥
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾	٤٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ ٥٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ ﴾ ٥٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ﴾ ... ٦٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ ٦٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾ ٦٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾ ٦٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾ .....

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾ ٧٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ٨٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ ٩٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ ٩٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ ١٠١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ ١٠٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ ١١٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ ١١٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ ... ١٢٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾ ١٢٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ ١٣١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾ ١٣٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ ١٣٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ ١٤٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ ١٤٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ ١٥٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ ١٦٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ ١٧١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ ١٨٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ ١٨٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ ١٩٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ ٢٠٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ ٢٠٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ ٢١٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ .....

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ٢١٩

" وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ ٢٢٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ ٢٢٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾ ٢٢٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ ٢٣١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ ٢٣٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ ٢٣٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ ٢٤٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ ٢٦٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ

أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ٢٦٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ ٢٦٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾ ٢٧٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ ٢٧٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ ٢٧٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ ٢٧٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ ٢٨٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ ٢٩٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ ... ٣٠٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ ٣١٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ ٣٢١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ ٣٢٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥﴾ ٣٣٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾ ٣٤١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ٧٧﴾ ٣٤٤

فهرس الأحاديث والآثار ٣٥٣

فهرس الفوائد ٣٥٩

فهرس آيات السورة ٣٧٥

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٤)

تفسير القرآن الكريم

سورة الشعراء

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٤)

تفسير القرآن الكريم

سورة الشعراء

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة الشعراء. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
٣٤٢ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٣٤)
ردمك: ٢ ـ ٥٤ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة الشعراء ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٣٦

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٣٦
ردمك: ٢ ـ ٥٤ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[1]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخ مُحَمَّد بنِ صالِح العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَرِيم؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضَاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِح العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سُورة الشُّعَراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

قال المُفَسِّر[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: [سُورَة الشُّعَرَاء [مَكِّيَّة إِلَّا آيَة ١٩٧ و٢٢٤ إِلَى آخِر السُّورَة فَمَدَنِيَّة وَآيَاتهَا ٢٢٧ آيَة نَزَلَتْ بَعْد الْوَاقِعَة].

الشُّعَرَاء: جمع شاعرٍ، وسُمِّيَتْ به لِأَنَّهُ ذُكِرَ فِي آخِرِها، والتَّسميةُ للسُّوَرِ منها شيْءٌ تَوْقِيفِيٌّ منَ النبيّ ﷺ ومنها شيْء اجتهادِيٌّ، فالنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أحيانًا يذكرُ السُّورَةَ بعينها، مثلما قَالَ: «اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ؛ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ»[2]، وأحيانًا لا يَذْكُرُهَا ولا يُبَيِّنُ اسْمها، ولكن يَجْتَهِدُ الصَّحابةُ فِي تَسْمِيَتِها.

وتَسميةُ السُّور أيضًا قد تكون واحدة، بمَعْنى: أن تُسَمَّى السورةُ باسْمٍ واحدٍ، وقد يكونُ للسورةِ عِدَّةُ أسماء.

ومن السُّور ذوات الأسماء العدة سُورَةُ الإسراء، فهي تُسَمَّى أيضًا سُورَةَ بني إِسْرَائِيلَ، لكنَّ بعض القَوْمِيِّينَ أنكروا ذلك، وحجتُّهم في هذا الإنكار: أنَّه

---

(١) المقصود بـ(المُفَسِّر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رحمه الله تعالى، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، رقم (٨٠٤).

لا يمكنُ أن تكونَ سُورَةٌ باسْم بني إِسْرَائِيل، يعني سُورة اليَهود، فأنكروا هَذَا الشَّيْء.

وقلنا: إن القومِيِّين أثبتوا أن اليَهودَ قتَلُوا عيسى بنَ مَرْيَمَ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [النِّساء:١٥٧].

يقول المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَكِّيَّة]، والمكيُّ هُوَ الَّذِي نزلَ قبلَ الهجرةِ عَلَى القولِ الصَّحيحِ، يعني: فالمُعْتبَر الزمنُ لا المكانُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إلا ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ إِلَى آخِرِها]، وهي أربع آيات: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٤-٢٢٧]، وهذا الاستثناء لَيْسَ بمقبولٍ إلَّا إذا دلّ الدَّليلُ عليه، والدَّليل عليه تارَةً يكون بالنقلِ، وتارَةً يكون بالمَعْنى، والمَعْنى قد يكون واضحًا وقد يُنازَع فيه.

فهنا المُفسِّرُ استثنى هَذِهِ الآيَاتِ الأربعَ بقرينةِ السياقِ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧]، قيل: لَـمّا نزلت ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء:٢٢٤]، تأثر لها حَسَّان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٧][1]، والانْتِصار بعد الظُّلم كَانَ فِي المدينةِ وليسَ بمكَّةَ، ومِن ثمَّ قالوا: إن هَذِهِ الآيَات مَدَنِيَّة.

---

(١) تفسير الطبري (١٩/ ٤١٨).

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهي مائتانِ وسبعٌ وعشرونَ آيةً]، وتقسيم الآيات أيضًا توقيفيٌّ، حَتَّى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَيْسَ له شأنٌ فِي تقسيمِ الآياتِ، فتنزل الآيات من عند الله مُقَسَّمةً، وأيضًا الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يأمر بوضعها فِي مكانها من السورة، فهي توقيفيَّة أيضًا فِي الترتيبِ.

قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ والبَسْملَة متعلِّقة بفعل محذوف متأخِّر مناسِب لما يُسَمَّى عليه، فمثلًا: عِندَما تريد أن تقرأ تقول: بسم الله الرَّحْمن الرحيم، فالتَّقدير: «بسْم الله الرَّحْمن الرحيم أقرأُ».

وقُدِّر فعلًا لِأَنَّهُ الأَصْل فِي العمل.

وقدِّر متأخرًا لإِفادة الحصر والتبركِ بتقديم اسْم الله.

وقُدِّر مناسبًا لِأَنَّهُ أخفُّ، وإلا فيجوزُ أن تقدِّر: باسْم الله أبتدئُ، ولكنّه إذا قُدِّر خاصًّا فهو أخصُّ وأدلُّ عَلَى المقصود.

الآيـة (١)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿طسٓمٓ﴾ [الشعراء:١].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿طسٓمٓ﴾ اللهُ أعلمُ بمُراده بذلك]، ويَحتمِل قوله: [بمرادِهِ بذلكَ] أَنَّهُ يَقصد أن لهذه الكلمةِ أو لهذه الحروف معانيَ واللهُ أعلمُ بها، ويَحتمِل أن مراده (الله أعلم بذلك) أي: بالغَرَضِ الَّذِي من أجلِهِ أَتَى بهذه الحروف الهِجائيَّة، وبين المعنيينِ فرقٌ، يعني: عَلَى التَّقديرِ الأوَّل تكون هَذِهِ الكَلِمَةُ لها معنًى لكن لَيْسَ معروفًا، وعلى التَّقديرِ الثَّاني يكونُ لا معنَى لها، ولكن الحِكمة فِي الإتيان غير معروفة.

أمَّا احتمال أن يكون لها معنًى فهذا بعيدٌ، ووجهُ البُعْدِ أنَّ القُرآن أَتَى بلِسانٍ عربيٍّ، وأن هَذِهِ الحروف الهجائيَّة لمجرَّد كونها حروفًا لَيْسَ لها معنًى، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُنْزِل لنا حروفًا هجائيَّةً ويَقصِد بِهَا المَعْنى؛ لِأَنَّ هَذَا خِلاف أن يكون القُرآن بيانًا وخُروجًا عن مُقْتَضَى اللُّغة العربيَّة.

وأمَّا الاحتمال الثَّاني فَهُوَ أن يُقالَ: اللهُ أعلمُ بما أرادَ؛ بالغرضِ الَّذِي من أجلِهِ أتى بهذه الحروف الهجائيَّة؛ فهذا حقٌّ؛ فإذا قال الْإِنْسَانُ: أنا لا أعلم واللهُ أعلمُ فهذا حقٌّ، ولكن بعض أهل العلم أَبْدَى مناسبةً، وقال: إن منَ المناسباتِ أن القُرآنَ الكريمَ المعجِزَ للناسِ أجمعينَ أَنَّهُ لن يأتيَ بأمرٍ غريبٍ، وإنَّما أَتَى بكلماتٍ من

هَذِهِ الحروف، الَّتِي يتكَوَّن منها كَلام النَّاس، ومع ذلك أَعْجَزَهُمْ؛ لِأَنَّهُ لو أَتَى بحروفٍ جديدةٍ غيرِ معلومةٍ للناسِ لقِيلَ: إن إعجازَه ظاهرٌ، ولا أحدَ يَقدِر، لكن وجه الإعْجاز وتمام الإعْجاز أن يأتيَ بحروفٍ هِيَ من حروفِ الكَلامِ الَّذِي يتكلَّم بِهِ النَّاس، ومع ذلك يُعجِزهم، واستأنسوا لإِثْبات هَذِهِ المناسبةِ بأَنَّكَ لو تَدَبَّرْتَ هَذِهِ السُّوَرَ الَّتِي ابتُدِئت بالحروف الهجائيّة لوجدتَ أَنَّهُ يذكر بعد الحروفِ ما يَتَّصِل بالقُرآنِ:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١-٢].

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [آل عمران:١-٣].

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف:١-٢].

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس:١].

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١].

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [يوسف:١].

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الرعد:١].

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١].

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:١].

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم:١-٢].

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه:١-٢].

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [الشعراء:١-٢].

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:١].

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [القصص:١-٢].

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:١-٣].

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الروم:١-٣].

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [لقمان:١-٢].

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة:١-٢].

وسِيروا عَلَى هَذا.

بَقِيَ أَنَّهُ يجب أن يُرَدَّ بأنَّ الآياتِ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١-٢]، و﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الروم:١-٣]، و﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم:١-٢]، لَيْسَ فيها ذِكْرٌ للقرآنِ؟

فيُقال: فيها ذِكْر للقرآن: فـ ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ هَذَا وَحْيٌ، و﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فإنَّ قصصَ وأخبار الأوَّلين إنَّما كانتْ بالوحيِ، و ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ إخبارٌ أيضًا عن أمرٍ مُسْتَقْبَلٍ من أمور الغيبِ لا يُعْلَم إلا بالوحيِ.

ثم لو فُرِضَ أن هَذَا لَيْسَ بواضحٍ؛ فإن النادرَ لا حُكْمَ له، وهذا المَعْنى -الذي أَشرنا إليه- ذَكَرَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ، وأيّده شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٢) ط دار الفكر.

الآيــة (٢)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء:٢].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تِلْكَ﴾ أي: هَذِهِ الآيَات ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾]، وتعبيرُ القُرآن: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ وهناك فرق بين التعبير القُرآنيّ وتعبير المفسِّر؛ الفرقُ بينهما أن التعبيرَ القُرآنيَّ أتَى بالإشارةِ للبَعيد، والمُفسِّر أتى بالإشارة للقريبِ.

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: هَذِهِ الآيَات ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾]، أيضًا لِيُبيِّن أن آيات الكِتاب هِيَ الخبرُ.

والصَّوابُ أن نقولَ: لو قال المُفسِّر: (تلك الآيَاتُ آيات) لكَانَ أحسنَ؛ لِأَنَّ كونه يعدِل عن الإشارةِ بالبعيدِ إِلَى الإشارةِ بالقريبِ، معَ أن الله تعالى أثبتَ الإشارةَ للبعيدِ، فهذا لَيْسَ تفسيرًا، والصَّواب بلا شكّ: القُرآن هُوَ الصَّوابُ، والإشارة بالبعيدِ هنا مع قُربِ القُرآنِ الكريمِ وكَوْنه بينَ أيدينا إشارةٌ إِلَى عُلُوّ مَرْتَبَتِه، فهو للتَّعْظيمِ، وإذا صِرنا عَلَى ما قال المُفسِّر فاتنا هَذَا المَعْنى الَّذِي أُرِيدَ بالإشارة للبَعيد.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ القُرآن، والإضافة بمَعْنى (مِن)]، يعني: آيات من الكِتابِ.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ بمَعْنى: المكتوب، كاللِّبَاسِ بمعنَى: المَلْبُوس، والغِرَاس:

بمَعْنى المَغْرُوس، والبِنَاء بمَعْنى: المَبْنِيّ، والفِرَاش: بمَعْنى المَفْرُوش. وسُمِّيَ كِتابًا لِأَنَّهُ كُتِبَ فِي اللَّوْح المَحْفُوظ، وكُتِب بالصُّحُف الَّتِي بأيدي الملائكة، وكُتِبَ فِي الأرض بين النَّاس، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١١-١٦]

وقوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآيَات جمع آيةٍ، وهي فِي اللُّغة: العَلامَة، والمُراد بِهَا هنا العَلامَةُ الدالَّةُ عَلَى منزِّل هَذَا القُرآنِ، وَهُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذن كلُّ آيةٍ منْ هَذِهِ الآيَاتِ فيها إعجازٌ؛ لِأَنَّهُ لو لم يكنْ فيها إعجازٌ لم تكنْ آيةً؛ لِأَنَّ الآيةَ العَلامَةُ الفارقةُ، ولا يكون القُرآن عَلامَةً فارقةً بينه وبين كَلامِ الآدميِّين إلا إذا كَانَ مُعْجِزًا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْمُبِينِ﴾ المُظْهِر الحقّ من الباطِل]، وأحيانًا يفسِّرون المُبِينَ بالبَيِّن، قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل:٧٩]، يعني: البيِّن الواضِح؛ وذلك لِأَنَّ أَبَانَ تُستعمل قاصرةً ومُتَعَدِّيَةً، يعني: فتستعمل قاصرةً: بَانَ الشَّيْءُ وأبانَ الشَّيْءُ، وتُسْتَعْمَل مُتَعَدِّيَةً، فيُقال: أبنتُ الحقَّ، يعني: أظهرته، فالمبين إذا فُسِّرَتْ بالبَيِّن فمعناه أن السِّياق لا يَقتضي سوى ذلك، فتكون منَ اللازم، فإذا كَانَ المعنَى يَحتمِل أن تكونَ من المتعدِّي -يعني: بمَعْنى مُظْهِر- وجبَ أنْ تُفَسَّرَ به؛ لِأَنَّ تفسيرها بالمُظْهِر يَشْمَل أو يَتَضَمَّن تَفسيرها بالبَيِّن؛ إذِ المُبِين معناه: بيِّنٌ بنفسِهِ، مُبِينٌ لِغَيْرِهِ، خلاف البيِّن بنفسه فقد لا يُبين غيرَه.

إذن كلَّما جاءتْ (مُبين) فِي القُرآنِ إنْ أمكنَ أنْ تُفَسَّرَ بالإبانةِ، الَّتِي هِيَ الإظهارُ وَجَبَ؛ لِأَنَّ ذلكَ أشملُ، وإذا لم يمكنْ فُسِّرت بالبيِّن الَّذِي هُوَ اللازمُ دونَ المتعدِّي؛ كقولِهِ: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢]، فهِي بمَعْنى (بيّن)

منَ اللازمِ، ويمكن عَلَى بُعدٍ أن تكونَ بمَعْنى (المُبِين)، يعني: المُظهر لِضَلَالِهم، ولكن المعْنَى الأوَّل أَبينُ.

على كلِّ حالٍ نقول: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ هنا بمَعْنى: المظهِر للحقِّ، ولا يكون مُظهرًا للحقِّ إلَّا وَهُوَ بيّن بنفسه.

وترك المفعول فِي قوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ لإفادة الْعُموم والشُّمولِ، فهو مُبينٌ لكلِّ شيْءٍ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وهذا يدلُّ عَلَى أنَّ القُرآن شاملٌ لكلِّ شيْءٍ، وأمّا: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، فليسَ المُراد بِهِ القُرآن، وإنْ كَانَ كثيرٌ منَ النَّاس تَسمعهم يَستدِلّون بهذه الآيةِ عَلَى أن القُرآن شاملٌ لكلِّ شيْءٍ، ولكن المُراد ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾: اللوح المحفوظ.

و﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أبلغ، فهو مذكور فيه بيانُ كلِّ شيْءٍ، فالقُرآن تِبيان لكل شيْءٍ، ولا يَخفَى عَلَى أحدٍ تبيان القُرآنِ إلا لعلَّةٍ فيه ليستْ فِي القُرآن، لعلة فِي نفس الَّذِي خفِيَ عليه؛ لأنّا نَجزِم بصِدْقِ هَذِهِ القضيّة ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، وما خفي عَلَى أحدٍ منَ النَّاسِ ما خفِيَ من الأحكامِ، إلا لِقُصُورٍ فِي فَهمهم، أو فِي عِلمهم، أو فِي إرادتهم، فهو إمّا قاصرٌ فِي الفهم لا يفهم، وهذا لا يَتبيَّن له الشَّيْء، وإما قاصِر فِي العلم لَيْسَ لديه معلوماتٌ، وإما قاصر فِي قصده، أي نِيَّته.

ولهذا قال شيخ الإسلامِ: «مَن تَدَبَّرَ القُرآنَ طالبًا الهُدَى منه تَبَيَّنَ له طريقُ الحقِّ». ذَكَرَه فِي (العقيدة الواسطية)[1]، حينما تكلَّم عن الآيَاتِ القُرآنيَّة الدالَّة عَلَى

(١) العقيدة الواسطية: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص:٧٤) ط. أضواء السلف.

الصِّفات، وهي كلمة لها معناها.

إذن فقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: المُبين لكلِّ شيْءٍ، وخَفاء بعضِ الأمورِ عَلَى النَّاس منَ القُرآن لَيْسَ من قصورِ القُرآنِ، ولكن من قصورهم؛ إما لقصور فِي الفهم، أو العلم، أو القصد.

قد يقول قائل: إننا لا نجد كل شيْء فِي القُرآن؟ وأوّل ما يُعترض علينا أنّنا لا نجد كمّ عددِ الرَّكَعَات فِي الصلاةِ، فأينَ البيانُ؟

فيُرَدُّ عليه بأنَّ القُرآنَ أتَى بتِبيانِ كلِّ شيْءٍ عَلَى الْعُمومِ، والسنَّة أنزلها اللهُ عليه ﷺ لِتُبَيِّنَ للناس موضوعَه، والرسول ﷺ قد فسَّر القُرآن، ولكن عَلَى الصِّيَغ العامَّةِ والإشارات العامَّة بالقُرآن، وأمَّا التفريعات فبينها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فنقول: بيان القُرآنِ نوعانِ:

أحدهما: أنْ يُبَيِّنَ الشَّيْءَ بِعَيْنِه.

والثَّاني: أن يُبَيِّنَه بِوَسِيلَتِهِ وطَريقته. يعني: يقول: الطَّريق إِلَى مَعْرِفَةِ هَذَا كذا.

فتَارَةً يُبَيِّن الشَّيْء بعينِه، والغالب أن ذلك فيما لا يُمْكِن إدراكُه، وتارَةً يبيِّن الشَّيْءَ بطريقته ووسيلتِهِ، يعني: يقول الطَّريقة إِلَى كَذَا هِيَ كذا، فمثلًا: بيَّنَ لنا الطَّريق إِلَى معرفةِ عددِ الصلاةِ بقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر:٧]، وبقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النِّساء:١١٣]، وبقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النِّساء:٨٠]، وبقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، وغير ذلك.

وقد نُقلت قصةٌ عن الشيخِ مُحَمَّد عَبْدُه معَ رجلٍ نَصرانيّ اعترضَ عليه،

حيث قَالَ النصرانيّ: إنَّنا لا نجد فِي القُرآنِ كيف نصنعُ هَذَا الطعام؟ فدعا الشيخُ محمَّد عبده بصاحبِ المطعمِ وقال له: كيف صنعتَ هَذَا الطعامَ؟ فقال صاحبُ المطعم: فعلت كَذَا وكذا. فقال الشيخ محمد عبده: هكذا علَّمَنا القُرآن. فقال النصرانيُّ: كيف عَلَّمَكُم القُرآن؟ قَالَ: لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

فالتِّبيان فِي القُرآنِ تارَةً يُبيِّن الشَّيْءَ بِعَيْنِهِ، وتارَةً يُبين وسيلتَه الَّتِي تُظْهِرُه وتُبيِّنه.

ومن فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

بيانُ عُلُوّ شأنِ القُرآنِ؛ للإشارةِ بقوله: ﴿تِلْكَ﴾، وأنه آياتٌ، والآيةُ هِيَ العَلامَةُ الخاصَّة أو المُعْجِزَة مثلًا؛ لِأَنَّ عَلامَة الشَّيْء معناها: ما يَخْتَصّ به، ولو كَانَ هَذَا الشَّيْءُ لا يختصُّ باللهِ ما صارَ آيةً له، فالآية هِيَ العَلامَةُ الخاصَّةُ الَّتِي لا تكونُ لغيرِ مَن كانتْ له، فالشَّمْسُ والقمرُ لا يمكِن لأحدٍ أنْ يأتيَ بِمِثْلِهِمَا، والقُرآن لا يمكن لأحدٍ أنْ يأتيَ بمثلِه.

فالعَلامَة الخاصَّة لمن كانتْ له، بحيثُ لا يستطيعُ أحدٌ أن يأتيَ بمثلِه، سواء كانت كونيَّة أو شرعيَّة، وفي هَذِهِ الآيةِ أن جميعَ آياتِ القُرآنِ معجِزات، ولو كانتْ آيةً واحدةً فإنها مُعْجِزةٌ، وقد تكون معجزةً بذاتها وقد تكون معجزةً بسياقِها؛ لِأَنَّ مثلًا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المدثر:٢١]، قد لا يستطيع أحدٌ أن يقولَ: إنها معجزةٌ، وإن كل إِنْسان ممكِن أن يأتيَ بكلمة (ثُمَّ نَظَرَ)، لكنها مُعجزةٌ فِي سياقها وفي مَوْضِعها، فالآيَات حَقيقةً قلنا: إنها حروفٌ، ومن كلماتِ النَّاسِ، وهذه الحروفُ ليستْ معجزةً؛ لأنها من كَلامهم ويستطيعونها، لكن مكانها وسياقها وما تدلُّ عليه هَذَا هُوَ المعجز.

ومنَ المذاهب الباطلةِ: (مَذْهَب أهل الصرفة) وَهُوَ مذهب لَيْسَ بصحيحٍ؛ ومعناه أن باستطاعةِ الْإِنْسَان أن يفعلَ لولا المانعُ، يقولون: إن النَّاس مَصْرُوفون عن معارضةِ القُرآنِ، لا عاجزون، وفَرْق بين مَن يكون باستطاعته أن يفعلَ لولا المانعُ، ومن يقول: لَيْسَ باستطاعته أن يفعله، فالأخير أبلغ. ولهذا (مذهب أهل الصرفة) يقولُ العلماء: مذهبٌ باطلٌ، وإنه لَيْسَ باستطاعةِ أحدٍ أن يفعلَ أبدًا.

فَإِنْ قِيلَ: يأتي بكَلامٍ رَكيكٍ.

قلنا: بل أتى بكَلامٍ يَضْحَك منه النَّاسُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَلام بعضِ البشرِ، هل يُنقَل فِي القُرآنِ عَلَى حقيقتهِ أم حكايةً؟

فالجَواب: لَيْسَ هُوَ لفظه الحقيقيّ، ولهذا مثلًا: كَلام مُوسَى باللُّغة العِبْرِيَّة، وكَلام فِرْعَوْن باللُّغة القِبْطِيَّة، وما أشبهَ ذلك، ثم إن الكَلِمات أيضًا تختلف، يعني: نفس الآيَات تُنْقَل مرةً كَذَا ومرةً كذا، فالله يعبّر، ويكون السياق هُوَ الَّذِي يقتضي هَذَا التعبيرَ دون ذاك.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٣)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَعَلَّكَ﴾ يا محمدُ ﴿بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ﴾ قاتِلُها غَمًّا من أجلِ ﴿أَلَّا يَكُونُواْ﴾ أي: أهل مكة ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ و(لعلَّ) هنا للإشفاقِ، أي: أَشْفِقْ عليها بتخفيفِ هَذَا الغَمِّ].

(لعل) للإشفاق، وتكون للتعليلِ وتكون للتَّرجِّي. فإذا تعلقتْ بمكروهٍ فهي للإشفاقِ، وإذا تعلَّقت بمحبوبٍ تكونُ للترجِّي، وإذا تعلقتْ بعلَّةٍ مِنَ العِلَلِ فهي للتعليلِ، وهي هنا للإشفاقِ، مثل أن تقول: (لعلَّ الحبيبَ هالِكٌ) فلا يمكن أن يكون قَصْدُك ترجِّيَ أنْ يَهْلَكَ حَبِيبُك، لكنَّك تُشفِق.

والله تعالى أشفقَ عَلَى نبيِّه ﷺ من أن يُهلِك نفسَه -يَقْتُلها منَ الغمِّ- بسببِ عدمِ إيمانهم، والرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يعاني من عدمِ إيمانهم، ومنَ المشقَّة الشديدةِ، ويحزن، ويضيق صدرُه ولكن الله تعالى يُسَلِّيهِ بمثل هَذِهِ الآية: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [النمل:٧٠]، وهنا يقول: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ﴾ مهلكها ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ ففي هَذَا دَليل عَلَى أن الْإِنْسَان الداعيَة لا يَنبغي أنْ يُهْلِكَ نفسَه فِي الهَمِّ والغَمِّ لعدم قَبُولِ النَّاسِ للحقِّ؛ لِأَنَّهُ إذا أتَى بما يَجِبُ عليه انشرحَ صدرُه، وكفى. فأنت أتيت بما يجب عليك من الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكَرِ، ثم إنِ

امتثلَ النَّاس فهو نِعمةٌ عَلَى الجميعِ، وإنْ لم يَمتثِلوا فلا تَغْتَمَّ؛ لأنك إذا اغتممتَ اشتغلتَ بغيرِكَ عن نفسِكَ، وصار هَمُّكَ وَلاء النَّاس، وهذا يُفسِد عليك أنت عباداتِكَ الخاصَّةَ، فاشتغِلْ بنفسِكَ، وغيرك أدِّ ما أوجبَ اللهُ عليك لهم، ثم إنِ اهتدوا، وإلَّا لستَ عليهم بِمُسَيْطِر. وبهذا يَستريح الْإِنْسَان راحةً عظيمةً ويكون مُقْبِلًا عَلَى عبادتِهِ، مُحْسِنًا لها.

فإن قالَ قائلٌ: بعض النَّاس الَّذين لا يَدْعون النَّاس لهم حُجَّةٌ فِي ذلك، ويقولون حديثًا عن الرسول ﷺ: «إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ العَوَامَّ»[1].

فالجَواب: قال «عَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ» فمِن خاصَّةِ نفسِكَ أن تأمرَ بالمعروفِ وتَنهَى عنِ المنكَر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة:١٠٥]. فلا تَدَعْ نفسَكَ فِي ملاحقةِ النَّاسِ والاشتغال بهم عن دِينك.

ويُستفاد من الآية الكريمة: تَسلِيَة الرسول ﷺ لعدم إيمان قومه.

• • ۞ • •

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٤١)، والترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾ [المائدة:١٠٥]، رقم (٤٠١٤).

الآيــة (٤)

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ [الشعراء:٤].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ﴾ بمَعْنى المضارعِ، أي: تَظَلّ، أي: تَدُوم ﴿أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ فيؤمنون].

قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ﴾ جملة شَرطيَّة، فِعل الشَّرط: (نَشَأْ) وجَوابه: (نُنَزِّلْ)، وفي الإتيانِ بهذه الصيغةِ: ﴿نَّشَأْ نُنَزِّلْ﴾ من تعظيمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِنَفْسِهِ ما لا يَخْفَى؛ لِأَنَّهُ جعلَ الأمرَ هنا يَسيرًا عليه إذا شاءه، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بإرادته لم يفعلْ، ثم الإتيان بنونِ العظمةِ هُوَ تَعظيمٌ آخرُ أيضًا، فالله تعالى ما قَالَ: إذا شِئنا نَزَّلْنَا، قَالَ: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ﴾.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ﴾ أي: عَلامَة، وهذه العَلامَة لا شكَّ أَنَّهُ لا يمكنُ لأحدٍ أنْ يأتيَ بمثلها -كما أشرنا إليه قريبًا- ثم إنها عَلامَة أيضًا ليستْ عَلَى قُدرة مَن هِيَ له، أو عَلَى انفرادِهِ بالخلقِ، ولكنها آيةٌ أيضًا عَلَى أَنَّهُم لم يُؤمِنوا، وعلى تهديدهم بالوعيدِ، ولهذا قَالَ: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ فلا تستطيع أن تمثّل هَذِهِ الآية لِأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نكّرها، فهي آيةٌ ليستْ معلومةً لنا؛ لِأَنَّ الله لم يُنْزِلْها، لكنها آيةٌ تُخْضِعُهم، ولهذا قَالَ: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هل المُراد بِهَا السَّقْف أم المُراد بِهَا العُلُوّ؟ مُحْتَمَلٌ هَذَا وهذا، يَحتمِل أَنَّهَا بمَعْنى العلوِّ، ويَحتمِل أن المُرادَ بِها السَّقف الَّذِي هُوَ عَلَى الأرضِ. وأيًّا كَانَ فإن إتيانَ الشَّيْءِ من فوق أبلغُ فِي التهديدِ؛ لِأَنَّ مَن فوقَكَ فقد علاكَ، ومَن علاك فلا طاقةَ لك به، بخِلاف مَن كَانَ بحذائِكَ فقد تفرّ وقد تناضِل، ولكن المشكِل إذا جاء الأمر من فوق.

وقوله: ﴿فَظَلَّتْ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بمَعْنى المضارع، أي: تَظَلّ)، وإنَّما قال المُفسِّر: (بمَعْنى المضارع) لِأَنَّ قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ﴾ مضارع، فناسبَ أن يكون ﴿فَظَلَّتْ﴾ مضارعًا، لكنه عدلَ عنه لبيانِ أَنَّهُ كالأمرِ الواقعِ، مثل قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، مع أَنَّهُ سيأتي، فالمَعْنى: فإذا نزلتْ بهم ظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ.

وقوله: ﴿أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا﴾ أي: لهذه الآية، فيَحتمِل أن تكونَ اللامُ هنا للتعدِّيَةِ، أي: خاضعينَ لها، أو للتعريف، أي: من أجلها. وقوله: ﴿خَـٰضِعِينَ﴾: أي ذَلِيلِينَ. قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ولَـمّا وُصِفَتِ الأعناقُ بالخضوعِ الَّذِي هُوَ لأربابها، جُمعتِ الصِّفَةُ منه جمعَ العُقَلَاء]، المُراد بـ(الصِّفَة منه) هنا الخبر ﴿خَـٰضِعِينَ﴾، والخبر صفة فِي المَعْنى، وإن كَانَ فِي الإعرابِ لا يُسَمَّى صفةً، لكنَّه فِي المَعْنى صفةٌ. وهنا ﴿أَعْنَـٰقُهُمْ﴾ المعروف الكثير فِي اللُّغة العربيَّة أن تكون (خاضعة): (أعناقهم لها خاضعة)، مثل: ﴿خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ [القلم:٤٣]، لكنَّه لما كَانَ الخُضُوع من أوصافِ العُقَلاء لا من أوصافِ غيرِ العاقلِ جُمع جَمعَ عاقلٍ؛ لِأَنَّ جمع المذكر السالم يَختَصّ بالعقلاء، فجمعت جمع العاقلِ لهذا السَّبَبِ.

ولا يُمْكِن أن نقولَ: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا﴾ (لَهَا) هِيَ الخبر، وتكون (خَاضِعِينَ)

حالًا من الضَّميرِ المُسْتَتِرِ فِي الخبر، نقول: هَذَا بعيد، لِأَنَّهُ لا مَعْنى لـ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا﴾، فإذا قال إِنْسان: ربما يكون التَّقديرُ: ناظرةً لها؛ أي: ظلتْ أعناقهم ناظرةً لها، فَرَدُّ هَذَا بأنْ يُقالَ: إن المتعلّق إذا كَانَ خاصًّا فَإِنَّهُ لا يُحذَف، وإنَّما يُحذَف إذا كَانَ عامًّا، يعني: تقديره كائن أو مستقِرّ، هَذَا الَّذِي يُحذَف، أمّا إذا كَانَ خاصًّا كراكبٍ وجالسٍ، وما أشبهَ ذلك؛ فَإِنَّهُ لا يُحذَف.

فَوَائِدُ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: إِثْباتُ المشيئةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿إِن نَّشَأْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثْباتُ القُدْرَة؛ لِقوله: ﴿نُنَزِّلْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التهديد لـهَؤُلَاءِ المكذِّبين؛ لقوله: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فيها دليلٌ عَلَى أن الأسْبابَ مؤثِّرة؛ لِأَنَّهُ إذا نزلتِ الآيةُ خَضَعوا، وهذا دليلٌ عَلَى ثُبُوت الأسْباب، وأنها مؤثِّرةٌ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فيها دَليل عَلَى إِثْبات الحكمةِ؛ لِأَنَّ الله لم ينزلْ هَذِهِ الآيَةَ؛ لِأَنَّهُ لو أَنزَلَها لكانَ الإيمان اضطراريًّا، والإيمانُ الاضطراريُّ لا مَدْحَ فيه ولا ثناء، بل لا يَنفَع صاحبَه، فلهذا إذا آمنَ الْإِنْسَان عند ملاقاةِ الموتِ ما نَفَعَهُ، وبعد طلوعِ الشَّمْسِ من مَغْرِبها ما نَفَعَه، نعم، لا ينفع إلا إذا كَانَ الإيمانُ اختياريًّا، ولمّا نَتَقَ اللهُ الجبلَ فوق بني إِسْرَائِيل آمنوا، ولكن هَذَا الإيمان لا شكّ أَنَّهُ ضعيفٌ؛ لِأَنَّهُ إيمان اضطراريٌّ، فمِن حِكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ لم يُنَزِّل هَذِهِ الآية ليكونَ الإيمانُ عنِ اختيارٍ، لا عن اضطرارٍ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل تَدُلُّ الآيةُ عَلَى أنَّ الله فِي السَّمَاءِ؟

فالجَواب: لا، فنزول الآيةِ منَ السَّمَاءِ لا يُستدَلّ بِهِ عَلَى أن الله فوقُ.

وإن قيل: هل يدل تنكيرُ الآيةِ عَلَى عَظَمَتِها؟

قلنا: نعم، يدلُّ عَلَى عظمةِ مَن هِيَ له، وعلى تعظيمِ الآيةِ نفسِها، ولهذا تظلُّ أعناقهم لها خاضعينَ.

الآيــة (٥)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء:٥].

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ قرآنٍ ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ صِفَة كاشِفَة ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾]، (ما): نافية؛ بدليل قوله: ﴿إِلَّا كَانُوا۟﴾، وهذا الاستثناء مفرّق من عُمومِ الأحوالِ، يعني: لا يكونُ لهم من أيِّ حالةٍ منَ الأحوالِ سِوَى الإِعْراضِ.

وقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾، (مِنْ) زائدةٌ إعرابًا للتَّوكيدِ، والتَّقدير: ذِكرٌ، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ قال المُفسِّر: (قرآن)، وسُمِّيَ القُرآنُ ذِكرًا لِأَنَّ بِهِ التذكُّرَ والتَّذكير أيضًا، فهو تذكيرٌ منَ اللهِ وتذكُّر من سامِعِهِ، ولهذا سُمِّي ذِكرًا، ووُصِف القُرآنُ مرَّةً ثانيةً بأنه ذو الذِّكْر، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩]، والقُرآن للذكرِ؛ فمرةً جعله ذِكرًا، ومرةً جعله ذا ذَكرٍ، ولا فرقَ بينهما فِي الواقع؛ لِأَنَّهُ ذِكْرٌ بِنَفْسِهِ وتذكيرٌ، ولأنه ذو ذِكرٍ، أي: ذو تذكُّر، فمَن قرأهُ وحفِظه وتدبَّره تذكّر به، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ألا يكون كذلك القُرآنُ مُشْتَمِلًا عَلَى الذِّكر؟ أي فيه آياتٌ فيها أذكارٌ.

فالإجابة: لا، فحتى الأذكارُ المقصودُ بِهَا تذكيرُ النَّاسِ. فالمقصود بكونه ذِكرًا أَنَّهُ مُذكِّر، ويتذكر بِهِ مَن تَذَكَّرَ.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، وفي آية أخرى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم﴾ [الأنبياء:٢]، فذِكْر الرَّحْمن هنا إشارة إِلَى أن نزولَ هَذَا القُرآنِ وإتيانه من مقتضى رحمةِ اللهِ، وأن الله تعالى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رَحِمَ العبادَ بهذا القُرآنِ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، أي ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ﴾ مِنَّا ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، وليس المَعْنى -كما يَفهم كثيرٌ منَ العوامّ- ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ﴾ يعني: أنك أنت الرحمة، لا، يعني: وما أرسلناك إلا لِنَرْحَمَ العِبَادَ، هَذَا هُوَ المَعْنى، وليس هُوَ نفسه رحمةً كما يقول أهل الغُلُوِّ فِي النبي ﷺ والجاهلون أيضًا.

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [صفة كاشفة]، والصِّفَة الكاشفةُ هِيَ الَّتِي تُبيِّن الواقِعَ، ولا تُقَيِّد الموصولَ؛ لِأَنَّ الصِّفات منها صفةٌ مقيِّدة تُخرِج ما سواه، ومنها صفة كاشفة تبيِّن حقيقةَ أمرِهِ.

فهنا يقول المُفسِّر: إن كلمة (مُحْدَث) صفة كاشفة؛ فكلمة: (مَا يَأْتِيهِمْ) تدل عَلَى (مُحْدَثٍ)، فلا مفهوم لها؛ لِأَنَّهُ إذا كَانَ يأتيهم وجبَ أن يكونَ محدَثًا؛ لِأَنَّ بإتيانِهِ إيَّاه صار مُحْدَثًا، ووجه ذلك ظاهرٌ أَنَّهَا صفةٌ كاشفة؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ غيرَ مُحْدَثٍ ما صحَّ أن يقول: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم﴾، إذ هُوَ آتٍ من الأَصْل.

وقوله: ﴿مُّحۡدَثٍ﴾ ظاهرُ الآيةِ الكريمةِ أن المحدَثَ هُوَ الذِّكر نفسُه، فيكون فِي الآيةِ دَلالة عَلَى أنَّ الله تعالى يَتكَلَّم بالقُرآنِ حينَ إنزالِهِ، وأنه لَيْسَ -كما رُوي عنِ ابنِ عبَّاس- أَنَّهُ نـزل إِلَى بيتِ العِـزَّة منَ اللَّـوْح المحفـوظ[1]، وإنَّما يَتكلَّمُ

(١) أخرج النسائي فِي السنن الكبرى (٧/ ٢٤٧، رقم ٧٩٣٧) عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «فُصِلَ

الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ حينَ إنزالِه.

وقيل: ﴿مُحْدَثٍ﴾ إنزالُه، ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ إنزالُه، فلا تكون الصِّفَة هنا حقيقيةً، وإنَّما هِيَ صفةٌ سببيَّة؛ لِأَنَّ الموصوفَ فيها حقيقةً لَيْسَ الذِّكر، بل هُوَ الإنزالُ، هَذَا إذا قلنا: ﴿مُحْدَثٍ﴾ إنزالُه، كما إذا قلتَ: مَرَرْتُ برجلٍ قائمٌ أبوه، فـ(قائم) هَذِهِ الصِّفَة من حيثُ الإعرابُ لـ(رجل)، لكن من حيثُ المَعْنى صفةٌ لـ(أبوه)، وهذا الوصف عَلَى هَذَا الوجه يُسمّى بالنَّعْت السَّبَبِيّ.

فعلى هَذَا عَلَى القول بأن المُراد: ﴿مُحْدَثٍ﴾ إنزالُه يكون النَّعْت هنا سَبَبيًّا لا حقيقيًّا، ولكن إذا دار الأمرُ بين أن يكون النَّعْتُ صفةً حقيقيَّة أو صفة سببيَّة؛ فالواجب أن يكون صفة حقيقيةً؛ لِأَنَّ الصِّفَة السَّبَبيَّة تحتاج إِلَى تقديرٍ، وكلُّ ما يحتاج إِلَى تقديرٍ يَحتاج إِلَى دليلٍ، فهنا نقول: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ ظاهر اللفظ أن القُرآنَ نفسَه مُحْدَث، ثم إن ﴿مُحْدَثٍ﴾ إنزالُه لا مَعْنى لها فِي الواقعِ بعد قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾؛ لِأَنَّهُ لا يمكن أن يَأْتِيَهُمْ إلا وإنزالُه مُحْدَث؛ لِأَنَّ (أَتَى) معناه (حدث). فعلى هَذَا نقول: الصَّوابُ أنّ المُرادَ بالمُحْدَث نفسُ الذِّكر، وليس إنزاله.

قالَ تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾، (عَنْهُ) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّق بـ(مُعْرِضِينَ)، و(مُعْرِضِينَ) خبر (كان)، وفائدة تقديمه عليه هنا لفظيَّة ومعنويَّة؛ أمَّا اللفظيَّة فمراعاة الفواصلِ -فواصل الآيات- وأمَّا المعنويَّة فلإفادة الحَصر، كأنه يقول: ما تكون حالهم إلا الإعْراض عنه دون غيرِه، يعني: عنه فقط وحدَهُ مُعْرِضِينَ، وهذا

= الْقُرْآنُ مِنَ الذِّكْرِ فَوُضِعَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَجَعَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْزِلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يُرَتِّلُهُ تَرْتِيلًا».

أبلغُ فِي الذمِّ ممَّا لو قَالَ: إلا كانوا مُعرِضين عنه؛ لِأَنَّهُ يَحتمِل أن يُعْرِضوا عنه وغيره، ولكنه لما قَالَ: ﴿عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ كأنَّهم لا يَتَّصِفُون بالإِعْراض إلا عنْ هَذَا الذِّكر.

وهذا الإِعْراضُ معنويٌّ وحِسِّيٌّ، يَشمَل الأمرين؛ فهم مُعْرِضون وإنْ حَضَروا بأبدانهم، ومُعْرِضون أيضًا بأبدانهم يقومون عنه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]، فهم مُعْرِضون -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- فِي قُلُوبِهِم وأبدانهم.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٦)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الشعراء:٦].

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ به]، أي: بهذا الذكرِ، والجُملة مُحَقَّقَة بـ(قد)، والمَعْنى أَنَّهُ معَ وُضُوح كون هَذَا الذِّكر منَ الرَّحْمنِ ما انتَفَعوا به، بل كَذَّبُوا به، والتَّكذيبُ بِهِ يَعُمُّ التَّكذيبَ بِهِ رأسًا، بأنْ يقولوا: إن هَذَا القُرآنَ لَيْسَ منَ اللهِ، كما قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣]، أو التَّكذيب ببعض الآياتِ منه، كما لو كذّبوا بقصَّة أَحَد الرُّسُل، أو بقصةٍ قَصَّها الله تعالى عَن أحدٍ؛ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ، أو ما أشبه ذلك.

فهو إما أن يكون التَّكذيب بِهِ رأسًا فيُقال: أنت لا يُوحى إليك، وهذا القُرآن لَيْسَ بوحيٍ، أو التَّكذيب ببعضِ الآيَات الَّتِي جاءتْ بهذا، فكله تكذيبٌ، والتَّكذيبُ أبلغُ منَ الإِعْراضِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان قد يُعْرِض تهاونًا وتكاسلًا ولسببٍ منَ الأسْبابِ ولا يكذِّب، لكن المكذِّب أشدُّ؛ لِأَنَّ المكذِّبَ لا يُمْكِن أن يُقبِل، وكيف يُقبل عَلَى أمرٍ يَعْتَقِده كَذِبًا؟! ولهذا قَالَ: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ ما قَالَ: فقد أعرضوا، قَالَ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ وهذا شاملٌ للإعراض والتَّكذيب.

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ بِهِ ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟﴾ عواقب ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾]، الفاء عاطفةٌ، وتفيد الترتيبَ، والسين تفيدُ التقريبَ أيضًا، والمَعْنى:

فبسببِ تَكذِيبِهِم فَسَيَأْتِيهِمْ عن قُرْبٍ، و﴿أَنبَٰٓؤُاْ﴾ بمَعْنى: أخبار، والأنباء: جمعُ نَبَأٍ، وَهُوَ الخبرُ مِنَ الأمورِ الهامَّة، والمُراد بالخبرِ هنا العواقبُ، كما قال المُفسِّر؛ لِأَنَّ العواقبَ أخبارٌ فِي الحَقِيقَةِ، فمثلًا: فِي القُرآنِ أنَّ الله تعالى يَنْصُر رسوله ويُهْلِك المكذِّبين، هَذِهِ أنباء هِيَ فِي الحَقِيقَة ستكونُ عواقبَ: سَينتصِر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وسيُهزَم أعداؤُه، وهذه هِيَ الحَقِيقَة، وهي العاقبة.

وقوله: ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي يَسْخَرون، وتقديمُ المعمولِ فِي قوله: ﴿بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ للفائدتينِ السابقتينِ: اللفظيَّةِ والمعنويَّةِ. وقوله: ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ﴾ يَحتمل أن تكون مجرَّدة عنِ الزَّمان، أي: ما يستَهْزِئُون به، ويحتمل أن تكونَ للزَّمانِ، أي: ما كانوا فِي الماضي يستَهْزِئُون بِهِ عند وقوعِ العاقبةِ، فإنَّ استهزاءَهم بِهِ سابقٌ لهذه العاقبةِ، ولكن الظَّاهر أَنَّهَا مجرَّدة عن الزَّمانِ، وَهُوَ غالبُ ما تأتي (كان)، قال تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الحجر:١١]، أي: يَسْخَرون ويضْحَكون منه.

والتَّكذيب بالشَّيْءِ الحَقّ نوعٌ منْ الاستهزاء به؛ لِأَنَّهُ مثلًا إذا كَانَ مع الرسول وعدٌ ووعيد، وأمرٌ ونهيٌ، وخبر واستخبار، وإرشاد وتوبيخ، ثم كُذِّب بِهِ فمعناه أَنَّهُ يُستهزأ به، وبأحكامِه، وبأخباره، وبما تَضَمَّنَهُ مِن هَذِهِ الأمور.

فائدة: يقولون: إن زيادةَ المَبْنَى تدلُّ عَلَى زيادةِ المَعْنى، فإذا وجدتَ بالكلمةِ حروفًا زائدةً فمَعْنى ذلكَ أن هناك معانيَ زائدةً، والزيادةُ هنا للْمُبالَغةِ، مثل: (استكبَرَ وتكبّر)، (استكبر) أبلغ من (تكبّر)، وهنا: (استهزأ به) أبلغ من (هزئ به)، فلذلك نقول: السين والتاء هنا للْمُبالَغة.

الآيــة (٧)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٧].

قال اللهُ تعالَى مُبيِّنًا دليلًا واضحًا عَلَى آياتِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ينظروا ﴿إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: كثيرًا ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ نَوْعٍ حَسَنٍ]. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: هَؤُلَاءِ المكذِّبُون. و﴿يَرَوْا﴾ يقول المُفسِّر: (ينظروا)، فجعلها من الرُّؤْيَة الحِسِّيَّة، لا من الرؤية العِلمية، ولكن نقول: إنها تَحتمِل المعنيينِ؛ الرؤية الحِسِّيَّة: إذا نظر بعينه هو، والعلميَّة: إذا علِم بذلك من غَيْرِهِ؛ لِأَنَّ هناك أشياءَ لا نَعْلَمُها ممَّا يَنْبُتُ فِي الأرضِ، يعني: لا نراها ولكنَّنا نُخبَر بها، فالأَوْلَى أن يُقالَ: إنه شاملٌ للنظرِ بالعَيْنِ، والنظرِ بالقلبِ الَّذِي هُوَ العِلْمُ.

قال تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا﴾ يقول المُفسِّر: (أي كثيرًا)، و(كثيرًا) هَذِهِ تفسيرٌ لـ(كم)، يعني أن (كم) هنا تكثيريَّة، المَعْنى: كثيرًا أَنبتنا فيها، مثل قوله تعالَى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩]، أي: كثيرًا تَغْلِب الفئةُ القليلةُ الفئةَ الكثيرةَ.

وقوله: ﴿كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أضافَ الإنباتَ إليه تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَنَّهُ هُوَ الفاعل حقيقةً، وإذا أُضيفَ الإنباتُ إِلَى المطرِ فإنَّما ذلك لِأَنَّهُ سببٌ.

وقوله: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي: صِنف، والكريمُ فِي الأَصْلِ: كثيرُ البَذْل، ولكنَّه يُطلَق أحيانًا عَلَى الحسنِ، ومنه قوله ﷺ لِمُعَاذٍ: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»[1] أي: حَسَنَها، وليسَ مَعْنى كرائمها الَّتِي تُعْطي كثيرًا؛ لأنها لا تعطي البهائم، ولكن المُراد بِهَا الحسنة. فهنا الكريم نقول: الحَسَن، والزوج بمَعْنى: الصنف والنوع.

وهذه الأصنافُ والأنواعُ الحسنةُ البهيجةُ تدلُّ عَلَى قُدْرَةِ خالقها تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وعلى فَضْلِهِ وإحسانه، وعلى حِكْمَته، فانظرْ إِلَى الأرضِ وفيها هَذَا النباتُ تجده مختلفًا فِي حَجْمِه، ومختلفًا فِي لونه، ومختلفًا فِي نفعِه، ومختلفًا من جميعِ الوُجُوهِ، والأرضُ واحدةٌ والماءُ واحدٌ، بل أحيانًا تجد النوعَ الواحدَ من هَذَا النباتِ يَختلِفُ، كما إذا نظرنا إِلَى البُرِّ، فالبُرُّ نوعٌ واحدٌ بالنِّسبة للحُبُوبِ، ومعَ ذلكَ يَختلِف، وإذا نظرنا أيضًا إِلَى النخلِ وَجدناه يَختلفُ، وإذا نظرنا إِلَى البِطِّيخِ وغيرِه نجدُه مختلِفًا، ممَّا يدلُّ عَلَى كمالِ قُدرةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، كما قال الله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤]، فالماء واحدٌ، والأرضُ واحدةٌ، فتأخذ من هَذَا شيئًا تَذُوقه وإذا هُوَ مُرّ، وتأخذُ من هَذَا تَذُوقه وإذا هُوَ حُلوٌ، معَ أن الأرضَ واحدةٌ والماءَ واحدٌ، ولكن هَذِهِ هِيَ قُدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الَّتِي يَسْتَدِلُّ بِهَا الموفَّقون عَلَى كمال قدرته.

• • ❁ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد فِي الفقراء حيث كانوا، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إِلَى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

الآيــة (٨)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٨].

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ دلالةً عَلَى كمالِ قُدرته تعالى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: فِي ذلك المَذْكُور منَ الإنباتِ، ومنَ الأنواعِ، ومن الحُسن، فتكون (آية) هنا بمَعْنى (آيات)، و(آية) يقول المُفسِّر: (دلالة عَلَى كمال قُدْرَتِهِ تعالى)، هَذَا صحيحٌ، فأبرزُ ما فيها القُدرة، لكن فِي الآيَات أيضًا الدَّلَالَةُ عَلَى الحِكْمَةِ البالغةِ فِي تَنويعِ هَذِهِ الأشياءِ واختلافها؛ فَإِنَّها لحكمةٍ أرادها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فالقُدرة -مِثلما قال المُفسِّر- هِيَ أبينُ ما يكونُ فِي هَذَا النباتِ من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكنَّها أيضًا آية عَلَى أُمور أُخْرَى.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قال المُفسِّر: [في عِلْمِ اللهِ]، يَقصِد (كان)، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأنَّهم إِلَى الآن ما آمَنُوا، وليسَ معناه أَنَّهُم لم يَكُونوا مُؤمِنينَ فيما سبقَ والآن هم مؤمنونَ. فيقول المُفسِّر: [في علم الله]، ما كانوا فِي علمِ اللهِ [و(كان) قال سِيبَوَيْهِ: زائدةٌ].

وهذا إدخالٌ مِنَ المُفسِّرِ لقولٍ فِي قولٍ؛ لِأَنَّ الَّذِي يقول فِي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾: إنَّ (كان) زائدةٌ لا يقولُ: (في علمِ اللهِ)، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾

يعني: حَسَبَ الواقعِ والحالِ، أمّا الَّذِي يقولُ: (فِي علمِ اللهِ) فلا يحتاج إِلَى كونها زائدةً، ومن يقول: إن (كان) فعل ماضٍ عَلَى حقيقتها، يَحتاجُ إِلَى أنْ يقولَ: «في علم الله».

ولكنَّنا نَتَخَلَّص من هَذَا كلِّه بأن نقولَ: إن المُراد بـ(كان) هنا مجرَّد الحَدَث، أي الدلالة عَلَى الحدثِ فقطْ، فهي مجرَّدة عنِ الزَّمانِ، وإذا كانت مجردةً عن الزَّمانِ فلا نَحْتاج إلى أنْ نقولَ: إنها زائدةٌ، ولا نَحْتاج إلى أنْ نقولَ: فِي علمِ اللهِ، نقول: إن الواقعَ أَكْثَرُهم لَيْسَ بمؤمنٍ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ لا يَتَوَجَّه عَلَى كَلامِ الشارحِ، إلَّا أن يكون قولًا آخرَ؛ لأنك إذا قلتَ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فِي علمِ اللهِ، لا يصلح أنْ تقولَ: (كان) زائدةٌ.

ومَعْنى قوله: [و(كان) قال سِيبَوَيْهِ: زائدةٌ]، أنَّ سِيبويهِ يَرى أَنَّهَا زائدةٌ، والمُفسِّر يرى أَنَّهَا أصليَّة لكنْ باعتبارِ علمِ اللهِ، ونحن نقول: إنها أصليَّة مجرَّدة عنِ الزَّمانِ، بل للدلالةِ عَلَى الحدثِ فقطْ.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فيه دليلٌ عَلَى أنَّ بعضَهم مؤمنٌ، وَهُوَ كذلكَ؛ فإن بعضهم مؤمنٌ وآمَنَ بالفعلِ.

قال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فلا يَنتفعُ بالآيةِ إلَّا المؤمنُ، فإذا لم ينتفعْ بِهَا أحدٌ ما صارتْ بالنِّسبةِ إليه آيةً، ولهذا قيَّدها بقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: لا يَنتفعون بها.

الآيــة (٩)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء:٩].

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ ﴾ الربوبيَّة هنا خاصَّة؛ لِأَنَّ الله تعالى ربُّ النبيِّ ﷺ وغيرِه، لكنَّه للعناية بِهِ ﷺ وبيان أَنَّهُ لن يَخْذُلَهُ معَ هَذَا التَّكذيبِ، بل لا بدَّ أنْ يَتَوَلَّاه بربوبيَّته وعنايته الخاصَّة.

وقوله: ﴿لَهُوَ﴾ اللام للتَّوكيدِ، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: ذو العِزَّةِ يَنْتَقِمُ مِنَ الكافرينَ، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ يَرْحَم المُؤمِنينَ]، والعِزَّة: بمَعْنى الغَلَبَةِ، ويُقال: عزّ بِمَعْنَى: غَلَبَ وقَهَرَ، وقد قالوا: إنَّ العِزَّةَ تَنْقَسِم إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ: عِزة القَدْر، وعِزة القَهْر، وعِزَّة الامتناعِ.

فمَعْنى عِزَّة القَدْر: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عزيزٌ لا يَبْلُغُ أحدٌ قَدْرَهُ.

وعزَّة القهر: عزيزٌ لا يُقهَر، بل هُوَ الغالبُ.

وعزَّة الامتناع أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُمْتَنِعٌ عليه النقصُ فِي أيِّ وجهٍ مِنَ الوُجُوهِ، يعني: عبارة عن القوَّة، ومنه: الأرض العَزَاز، يعني الصُّلبة القويَّة.

على كلِّ حالٍ، العِزَّة بجميعِ أنواعها هَذِهِ الثلاثة كاملةٌ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ومن عِزَّتِهِ أَخْذُ المكذبينَ، ولهذا قال المُفسِّر: [يَنتقم من الكافرينَ]، وهذا يعود -من الأنواع الثلاثة- إِلَى عِزَّة القَهر.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ يَرْحَم المُؤمِنينَ]، ولو أنّ المُفسِّرَ أَبقاها عَلَى عُمُومِها لكان أَولى، لكنه لما قالَ الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، أخذ المُفسِّر يُقيِّد كلمةَ الرَّحيمِ بالمُؤمِنينَ، ولكنَّه يَنبغي أنْ يكونَ عامًّا؛ لِأَنَّ عِزَّته لا تَقتضي انتقامَه، بل قدْ يَمنع الانتقامُ هَذِهِ الرحمةَ الَّتِي تخصّص بها.

فالجمعُ هنا بين هاتينِ الصفتينِ العِزَّة والرحمةِ للتناسُب البالغِ؛ لِأَنَّ مِنِ اجتماعهما يحصُل الكمالُ، فهو بعِزَّتِهِ ذو رحمةٍ؛ فلو قارنّا بين العزّةِ والرحمةِ فِي صفاتِ المخلوقينَ، لوجدنا أنَّهما لا يجتمعانِ فِي الغالبِ، وأن العزيزَ الَّذِي يَرَى نفسَه قاهرًا فِي الغالبِ لا تكونُ فيه رحمةٌ، فاجتماعُ الصفتينِ يَحْصُلُ بهما كمالٌ عَلَى الكمالِ: عِزَّة ورحمة، ثم اجتماعهما كمالٌ، فيكون معَ العِزَّة رحيمًا لا يؤاخِذ ولا يَنتقم، ولهذا لم يُعَجِّلِ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العُقوبةَ للظالمِ، ولكنَّه بحِكْمَتِه يُمْلِي له حَتَّى إذا أخذَه لم يُفْلِتْهُ.

وفي هَذِهِ الآيةِ خَتَمَ اللهُ تعالى بِعِزَّتِهِ ورحمته؛ لِيَجْمَعَ بينَ الترغيبِ والترهيبِ؛ الترهيب بالعِزَّة، والترغيب بالرحمةِ.

الآيتان (١٠، ١١)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٠-١١].

يُكْثِرُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي القُرآنِ الكريمِ مِن ذِكْرِ قِصَّة مُوسَى، وما جَرَى له معَ فِرْعَوْن ومعَ بني إِسْرَائِيلَ؛ وذلك ليستعدَّ النبيُّ ﷺ لليَهُودِ الَّذين فِي المدينةِ؛ حَتَّى يَعرِفَ مِن أَمْرِهِم ما لم يكنْ معروفًا عندَه، ولهذا كَانَ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا بَعَثَ أحدًا أَخبره بكَلامِ اليَهودِ له، ثم قال لمعاذٍ: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ**»(١)؛ لِيَسْتَعِدَّ لهم، وقد كرَّر الله تعالى قِصّة مُوسَى مختصرةً ومبسوطةً لهذا الغرضِ؛ لِيُبَيِّنَ حالَ هَؤُلَاءِ اليَهودِ الَّذين هم من سكَّان دار الهِجرة.

وقد بدأ الله تعالى بذِكر قصصِ الأَنْبياءِ مقدِّمًا ذِكْرَ قصة مُوسَى؛ لِطُولها ولأهميتها بالنِّسبةِ لنبيِّه ﷺ فقال: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ (إذ) هَذِهِ ظرفٌ، عاملُها محذوفٌ تقديرُه ما قَدَّرَهُ المُفسِّر: [﴿وَ﴾ اذْكُرْ يا محمدُ لقومِكَ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ ليلةَ رَأَى النارَ والشَّجرةَ...]، إِلَى آخِرِهِ.

قال: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ ناداه: أي: دعاهُ بصوتٍ مرتفِعٍ؛ لِأَنَّ النداءَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إِلَى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

لا يكونُ إلّا بصوتٍ عالٍ، قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]، فالنداءُ يكونُ للبعيدِ، ويَلْزَم أن يكونَ بصوتٍ عالٍ، وأمّا المناجاةُ فهي للقريبِ.

قال: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ هُوَ ابنُ عِمران عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقوله: ﴿رَبُّكَ﴾ الإضافةُ هنا للتخصيصِ، فهي ربوبيَّة خاصَّة؛ لِأَنَّ ربوبيَّةَ اللهِ نوعانِ، كما أنَّ عُبُودِيَّته نوعانِ.

قال: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، (أن) تفسيريَّة؛ لأنها سُبقت بمَعْنى القولِ دونَ حُروفه، و(أنْ) إذا سُبقت بمَعْنى القولِ دونَ حروفِه تُسَمَّى تفسيريَّة، ومثلها ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون:٢٧]؛ لِأَنَّ الوحيَ فيه مَعْنى القولِ دونَ حروفِه، فيُعْرِبُونَ مثلَ هَذِهِ بأنها تفسيريَّة. ولهذا قال المفسِّر: [أي بأنِ ﴿ٱئْتِ﴾].

وقول المُفسِّر: [ليلة رأى النارَ والشَّجرةَ]، فكونه (ليلة رأى النارَ) صحيحٌ، قال تعالى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه:١٠]، وكذلك الشَّجرةُ، ولكن التزام أَنَّهُ رآها فيه نظرٌ؛ لِأَنَّ سُورَة القَصَص لا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ رآها، قال تعالى: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القَصَص:٢٩-٣٠]، فلا يَتبيَّن منَ القُرآن أَنَّهُ رأى الشَّجرةَ، إنَّما يَتبيَّن أن الصوتَ سَمِعَهُ مِن قِبَل الشَّجرةِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ رسولًا]؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ المُراد أَنَّهُ يأتيهم فقطْ، بل يأتيهم بالرِّسالَة، و(الْقَوْم): الجماعة، و(الظَّالِمِينَ) سيأتي ذِكر المُفسِّر لمَعْنى الظُّلم.

قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ معه، ظَلَمُوا أنفسهم بالكفرِ باللهِ وبني إِسْرَائِيل باستعبادهم]، فهم منَ الظالمينَ المعتدِين الناقصينَ حق الله وحق العباد، أما حقُّ الله فإنهم كَفَروا بِهِ وأَشركوا به، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وأمَّا حَقُّ الْإِنْسَان فقدِ استعبدوا بني إِسْرَائِيلَ، وصاروا يذبّحون أبناءَهُمْ، ويَسْتَحْيُونَ نِساءَهم.

وفي قوله: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ تخصيص بعد تعميمٍ، أو بيانٌ بعد إجمالٍ؛ لِأَنَّ ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مُبْهَم، لكن: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ مُبَيَّن.

وفائدة الإبهام ثم البيان بعده التَّأكيدُ من وجهٍ، وبيانُ الاهتمامِ بِهِ من وجهٍ آخَرَ، وتلقّي السمعِ له بالقَبولِ من وجهٍ ثالثٍ.

أما التَّأكيد فلأنه كُرر مرتينِ: مرَّةً مُجْمَلًا، ومرَّةً مُبَيَّنًا، وهذا التَّأكيد، وأما الاهتمام بِهِ فلأنَّ ذِكْرَه مؤكدًا دليلٌ عَلَى أَنَّهُ مهتمٌّ به، وأمَّا تلقِّي السمع له بالقبولِ فلأنه إذا جاء اللفظُ له مُجْمَلًا بَقِيَ الذهنُ يدورُ: ما هذا؟ ومَن هَؤُلَاءِ مثلًا؟ فإذا أتى البيانُ إليه بعد ذلك أتَى إِلَى ذِهْن مُتَشَوِّق حَريص عَلَى معرفةِ هَذَا المبهَم، فيَتَلَقَّاه بالقَبول أكثر؛ لِأَنَّهُ مُتَشَوِّقٌ إليه، ومُتَطَلِّعٌ إليه، فهذه فوائدُ البيانِ بعدَ الإجمالِ.

وفي وَصْفِهِمْ بالظُّلمِ قبلَ بيانهم -أي فِي هَذِهِ الآية- إشارة إِلَى عِظَم أَمْرِهم، حيث قدّم الوصفَ عَلَى الموصوفِ فِي الحَقِيقَة؛ لِأَنَّهُ عِندَما يُقال: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يَتَصَوَّر الْإِنْسَان ويَعْرِف أَنَّهُم ظَلَمَةٌ، فإذا جاء بيانُهم جاء بعدَ الحُكْمِ عليهم بهذا الوصفِ، ممَّا يدلُّ عَلَى قُبح ما هم عليه من هَذَا الأمرِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَلَا﴾ الهمزة للاستفهامِ الإنكاريِّ ﴿يَتَّقُونَ﴾ اللهَ بِطَاعَتِهِ فيوحّدونه]. قوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ يَحتمل أَنَّهُ من المرسَل به، يعني: يقول لهم ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾، ويَحْتَمِل أَنَّهُ من كَلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِمُوسَى، لِيُبَيِّنَ له حالهم، وأنَّهم يَتَجَنَّبُون التَّقْوَى، وأن الأليقَ بهم أن يَتَّقُوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: [﴿أَلَا﴾ الهمزة للاستفهامِ الإنكاريِّ]، مُقْتَضَى كَلامه أن يقولَ: الهمزةُ للاستفهامِ، و(لا) نافية، يعني: أهُم لا يَتَّقُون، وأنه لا يَصِحّ أنْ يَجْعَلَها للعرْض، نحو (ألا تَنْزِل عندنا فتُصِيبَ خيرًا)، ويكون المقصود بقوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ عرَض التَّقْوى عليهم.

فعلى كَلام المُفسِّر تُعْرَب الهمزةُ وَحْدَها، و(لا) وحدها، فتكون الهمزةُ للاستفهامِ، و(لا) نافيةً.

وعلى الاحتمال الَّذِي ذَكَرنا أن تكون للعرض، يعني: اعْرِضْ عليهم التَّقْوى مُلْزِمًا لهم بها، وسبقَ أن المُرادَ بالتَّقْوَى اتِّخاذ الوقايةِ مِن عذابِ اللهِ.

فوائد الآيتينِ الكريمتينِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: إِثْبات النداء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ﴾، فيكون كَلامه بصوتٍ عَلَى هذا، وأنه بحرفٍ؛ قال تعالى: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ كلها حروف.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي هَذَا دليلٌ عَلَى فضلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى الخَلْق؛ لإرسالِهِ الرُّسُلَ، فإرسال الرُّسُلِ دليلٌ عَلَى فضلِ اللهِ عَلَى الخلقِ، وعنايته بهم؛ لِأَنَّ الخلقَ مَهما أُوتوا من ذَكاءٍ لا يُمْكِنُهُم أنْ يُدْرِكوا ما يجبُ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى التفصيلِ.

والعاقلُ يُدْرِك ما يجبُ لله عَلَى وجهِ الإتمامِ، فإدراكه أن له الكمالَ المطلَق، وأنه المستحِقّ العبادةِ، لكن عَلَى وجهِ التفصيلِ، لا يمكن إلا عن طريق الرُّسُل، ولهذا قَالَ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النِّساء:١٦٥].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفي هَذَا دليلٌ عَلَى سُوء حالِ فِرْعَوْن وقومِه؛ لقوله: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفيه دليلٌ عَلَى أَنَّهُ لا بأسَ فِي الإجمالِ فِي الكَلامِ، بشرطِ أن يأتيَ التفصيلُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾. وفائدةُ الإجمالِ ثم التفصيل بعده الاهتمامُ، فيكون مُتَشَوِّقًا ومُتَطَلِّعًا إذا كَانَ هَذَا المُجْمَل سيأتيهم وَهُوَ عَلَى شَفَقَةٍ.

الآيــة (١٢)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [الشعراء:١٢].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ مُوسَى ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾]، هَذَا جَوابُ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للهِ مُبَيِّنًا له حالَه حَتَّى يكون الأمرُ لَدَى مُوسَى واضحًا، فينشط ويقوَى، وليس المُراد بهذا معارضة أَمْرِ اللهِ؛ فإن مُوسَى لن يعارضَ أمرَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولكن يريدُ أنْ يَستبينَ الأمرَ؛ ماذا تكون حالُهُ مع فِرْعَوْن وقدِ اتَّصف بهذه الصِّفة، وهي الخوفُ، قَالَ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، و(أن) هَذِهِ مصدريَّة، يعني: أخاف تَكْذِيبَهم إيَّايَ، والمُراد بالخوفِ هنا أَنَّهُ يَتَوَقَّع ذلك: ﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَعْلَم منهم هَذَا الأمرَ، وعُتُوَّهُم، واستكبارَهم، والتزامَهُمْ بعبادةِ فِرْعَوْن.

الآيــة (١٣)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ [الشعراء:١٣].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ مِن تَكْذِيبِهِم لي]، قوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ فيه إشكالٌ، حيث رُفع معَ أَنَّهُ يلي المنصوب: ﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾؛ لِأَنَّ (أنْ) هَذِهِ مصدريَّة، و(يُكَذِّبُونِ) منصوبة بِهَا بحذفِ النونِ، والنونُ المَوْجودةُ للوقايةِ، وأصلها: يكذبونني، ثم حُذِفت النون الأُولى للناصبِ، وحُذفت الياء للتخفيفِ، لكن قَالَ: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ ولم يقلْ: «ويضيقَ صدري».

والجَواب أنّ (الواوَ) عاطفةٌ عَلَى قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، يقول: أنا أخاف أن يُكذِّبوني وأخافُ أن يضيقَ صدري ولا يَنطلِق لِساني بتكذيبهم.

و﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾ لا تعدو أن تكونَ مفعولًا به، مثل: ضربتُ زيدًا وأكرمتُه.

قال تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾، وضِيق الصَّدرِ: عدمُ انشِرَاحِهِ وانبساطِهِ، وهذا أمرٌ فِطريٌّ أن الْإِنْسَان إذا خُولِفَ فسوف يَضيق صدرُه، كما كَانَ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَضيق صدرُه، ولكن الله تعالى يُسَلِّي رُسُلَه؛ لِئلَّا تَضيقَ صُدُورُهم، ولا يَحْزَنُوا عَلَى هَؤُلَاءِ المكذِّبين؛ لِأَنَّ لهم يومًا يحاسبهم الله تعالى فيه والرُّسُل يُبَلِّغون فقطْ.

ويقولون: إنَّ ضِيق الصَّدرِ من أسْبابِ حدوثِ الضغطِ، ولهذا يَنصحون المصابينَ بالضغطِ بأن يَتَجَنَّبُوا الغضبَ، وما يحزنهم ويضيق صُدُورهم، فهذا فِي الحَقِيقَةِ هُوَ الواقعُ؛ لِأَنَّ الضغطَ يَستلزمُ ضِيقَ الصَّدرِ، وضيق التنفُّس، وضيق الأرض عَلَى الْإِنْسَانِ، فإذا عرّض نفسَه لِـمَا يفعل بِهِ ذلك ازدادَ عليه الضغطُ، فإذا عوّد نفسَه الانبساطَ والانشراحَ وعدمَ الاكتراثِ فِي النوازلِ؛ فَإِنَّهُ يحصلُ خيرٌ كثيرٌ، ويبقى دائمًا فِي سرورٍ، لا سيَّما إذا كَانَ مُحْتَسِبًا ومؤمنًا بالقَدَرِ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ بأداء الرِّسالَةِ للعُقدةِ الَّتِي فيه]، وهذه العقدة معنويَّة وليستْ حِسِّيَّة.

فَإِنْ قِيلَ: هَذِهِ العقدة لِأَنَّهُ أخذَ الجمرةَ وَهُوَ صغيرٌ.

قلنا: لا، قِصَّة أَخْذ الجَمرة باطلةٌ، فقصة إِسْرَائِيلَ ليستْ مقبولةً، لكن يَحتمِل أنَّ العُقْدَةَ مَعنويَّة، بمَعْنى أَنَّهُ لا يَستطيعُ التَّعبير بانطلاقٍ وفصاحةٍ. وقوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه:٢٧-٢٨]، وقول فِرْعَوْن فِي وصفه ﴿ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥٢]، يَحتمل -وهو الأقرب- أن تكونَ فيه لُثْغَة؛ إمَّا سُرعة القول بِنُطْق الحروفِ، بحيث تُتابع الحروف حَتَّى لا تَفْهَم؛ لِأَنَّ منَ النَّاس من يكونُ كذلك، لَيْسَ فِي لِسانِهِ عُقْدَة حِسِّيَّة، لكن تَتَرَادَف الحروفُ فِي كَلامِهِ بحيثُ لا تدري ما يقول.

أو لِأَنَّهُ فيه لُثْغَة لا تَتَبَيَّن الحروف من كَلامِه، وكلُّ هَذَا مُحْتَمَل، وهذه العُقْدَة ليستْ كما ذكر من الجمرةِ، وأن لها أثرًا حِسِّيًّا يَمْنَعُه منَ الكَلامِ، بل هِيَ أثرٌ خَلْقِيّ، يعني بأصلِ الخِلقة.

ويَحتمِل أَنَّهَا جَهْلُ البَيَانِ، يعني: لَيْسَ فصيحًا فِي خِطابه وبيانِه وإقناعِه، لكن الأوَّل أَولى، وأنها عُقدة معنويَّة، وذلك بصفةِ الكَلامِ، بحيثُ لا تَتبَيَّن الحروفُ فِي كَلامِهِ؛ إما لِعَجَلَتِهِ، وإما لِلُثْغَتِهِ، أو غير ذلك.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ﴾ أخي ﴿هَٰرُونَ﴾ معي]، أرسل إليه يعني: ابعثْ له بالرِّسالَةِ؛ حَتَّى يكونَ مُعِينًا ووزيرًا له، وقد قيلَ: إنه لا يوجدُ أحدٌ أشدّ مِنّةً عَلَى أخيه من مُوسَى عَلَى أخيه هارونَ؛ لِأَنَّهُ طلبَ أَن يكونَ أخوه فِي المقامِ الأعلى من مَقاماتِ بني آدمَ الَّذين أنعمَ اللهُ عليهم، وهي الرِّسالَةُ.

فَوَائِدُ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي الآيةِ دليلٌ عَلَى جوازِ بيانِ الْإِنْسَانِ حالَه إذا لم يَقْصِدْ بِهِ الشكوَى؛ لقولِهِ: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾، فإنَّ هَذَا وصفٌ له فِي الضعفِ، وعدم التحمُّل نفسيًّا بضِيق الصَّدرِ، وعدم الكَلام المتقَن؛ لكونِهِ لا يَنطلِق لِسانُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِي الآيةِ دليلٌ عَلَى جوازِ ذِكْر الوسائلِ الَّتِي تَسْتَوْجِب القَبولَ فِي الدُّعاء؛ حيث ذكر معلوماتٍ كثيرةً بكونِه يَضيق صدرُه ولا يَنطلِق لسانُه، وهذا من باب التوسُّل الزائد، فذِكر حالِه من الوسائلِ الَّتِي تَستوجِب قَبُولَ دُعائِهِ.

• • ❁ • •

الآيــة (١٤)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء:١٤].

ذكر الرِّسالَة حيث قَالَ: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ ثمّ بَيَّن مانعًا آخرَ غيرَ التَّكذيبِ، فقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بقتلِ القِبْطِيّ منهم ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾]، هَذَا خوفٌ آخرُ ناتجٌ عن معاملتِه معهم، والأوَّل خوفٌ يَتعَلَّق بالرِّسالَةِ، فهذا خوفٌ متعلِّق بالمعاملةِ معهم، ولهذا فِي الأول قَالَ: ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، ما قَالَ: أن يقتلونِ، ولا كَانَ يتصوَّر أن يُقتل إذا جاء بالرِّسالَة، ولهذا قال فِي الثَّاني: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بأيِّ شيْءٍ؟ مثلما قال المُفسِّر: [بقتل القِبطيّ منهم]، وقصتُه مشهورةٌ فِي سُورَة القَصَص.

حيث إنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَانَ رجلًا قويًّا وشديدًا، فخرج باكرًا فوجدَ فِي المدينة رجلينِ يَقتتلانِ؛ أحدهما من شِيعته من بني إِسْرَائِيلَ، والثَّاني من عدوّه: الأقباط، فاستنجدَ بِهِ الإِسْرَائِيلِيُّ، فوكَزَ مُوسَى القبطيَّ حَتَّى ماتَ، وفي اليوم الثَّاني خرج فوجد صاحبَه الإِسْرَائِيلِيّ معَ رجلٍ آخرَ، وقال له مُوسَى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القَصَص:١٨]، وأراد أن يَبْطِشَ بالعدوِّ، فظنَّ الإِسْرَائِيلِيُّ أَنَّهُ يريدُ أنْ يَبْطِشَ به؛ لِأَنَّهُ وَبَّخَهُ وقال: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، فلمَّا تَهَيَّأَ للبَطْشِ ظنَّ أَنَّهُ سَيَبْطِش به، فقال الإِسْرَائِيلِيُّ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القَصَص:١٨-١٩]، -اللهُ يَكْفِيكَ شرَّ مَن تُحْسِن

إليه!- فلمّا قال هكذا انتبهَ له القِبْطِيُّ، فدلّ عَلَى مُوسَى بهذا السَّبَبِ، فخرج مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خائفًا يَتَرَقَّب ولَجَأَ إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القَصَص:٢١]، فنجّاه الله ومَنَّ عليه بالرِّسالَةِ.

قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أي: يقتلوني به، وحُذِفت الياء للتخفيفِ، والنون من الفعلِ حُذفت للنصبِ.

وفي الآيةِ دليلٌ عَلَى جوازِ الخوفِ الطبيعيّ، وأنه لَيْسَ بشِرْكٍ، وقد ذكر الخوف مرتينِ؛ قال: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، وقال: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾، والمقصود الخوفُ الثَّاني، والمُراد بالأوَّل مُلازِمُه وَهُوَ التوقُّع، يعني يتوقع هذا، فقوله: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ لَيْسَ معناه أَنَّهُ يخافُ خوفَ الذُّعْر الَّذِي يقع فِي النَّفسِ، بل المَعْنى التوقُّع.

• • ❁ • •

الآيــة (١٥)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:١٥].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ تعالى: ﴿كَلَّا﴾ لا يَقْتُلُونَكَ ﴿فَاذْهَبَا﴾ أي: أنت وأخوك، ففيه تغليبُ الحاضرِ عَلَى الغائبِ]، وفيه أيضًا أن الله تعالى أجابَ دعاءَ مُوسَى، كما قال فِي سُورة طه: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه:٣٦]، أجابه وأرسلَ إِلَى هارونَ بالرِّسالَةِ.

قال: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ الباء للمصاحبةِ، أي مصاحبيْن بآياتِ اللهِ، أي: العلامات الخاصَّة به، الَّتِي تدل عليه وحدَه دون غيره، والآيَات الَّتِي ذهب بِهَا هِيَ الوحيُ، والثَّانيةُ قَلْبُ العصا، والثالثة اليَدُ.

هَذِهِ الآيَاتُ الَّتِي كانتْ عندَ الوحيِ إليه ثم تلاها بعدَ ذلكَ تسعُ آياتٍ كما هُوَ واضحٌ. وهذه الآيَات ثلاثٌ: منها آيةٌ مَعنويَّة، وآيتانِ حِسِّيَّتَانِ مناسبتانِ للسحرةِ؛ لِأَنَّ انقلابَ العصا حَيَّةً يُشْبِه السِّحرَ وليسَ بسِحر، لِأَنَّ هَذَا حقيقة، والسِّحر خيالٌ، وأيضًا كون اليد إذا أَدخلها فِي جَيْبِهِ تَخْرُج بيضاءَ من غير سُوء، يعني: من غير ضررٍ ونقصٍ، هَذَا أيضًا يشبه السِّحرَ، ولكنه لَيْسَ بسحرٍ، ففيه آيةٌ من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المعجزة لهَؤُلَاءِ أنْ يأتوا بِمِثْلِها.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ ما تقولونَ وما يُقال لكم، أُجْرِيَ

مجرَى الجماعةِ]. قَالَ: إنّ الضَّمير لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بلفظ الغلبةِ، مع أَنَّهُ فِي سُورَة طه قَالَ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، لكن هنا ذكر ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾، وكانت المُبالَغة حصلتْ بانضمامِ الأمرينِ: السمع والرُّؤية، وهنا ما ذكر إلا الاستماع فقطْ، ولهذا جاء فِي صورةِ العَظَمَةِ بالنِّسبةِ للمبتدأِ، فقال: ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ ولم يقلْ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ كما قال فِي سُورَة طه، يقول المُفسِّر: [أجري مجرى الجماعة].

فالجَواب عن هَذَا ما قال المُفسِّر: [أجري الاثنان مجرى الجماعة]، وإذا قلنا: إن أقلَّ الجمعِ اثنانِ نقول: هَذَا وإن كَانَ بلفظِ الجمعِ لكنَّه دالٌّ عَلَى الاثنينِ باعتبارِ الوضعِ اللُّغويّ، فلا حاجةَ إِلَى التعيينِ.

وقيل: الجمعُ باعتبارِ ما مع مُوسَى وهارونَ من الآيَاتِ؛ كأنَّهم ثلاثٌ، وإن كانت الآيَات ليست آدميّة، ولكنها مؤيِّدة؛ لِأَنَّ التأييدَ يكون بالأدلَّة وبقوَّة الداعي والمستدلّ.

ويحتمل أيضًا أَنَّهُ جمع باعتبار أن مُوسَى وهارونَ سيكون لهما قومٌ وسيكونُ اجتماع مُوسَى وهارون بِقَوْمِهما.

فَوَائِدُ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: إِثْبات المَعِيَّة للهِ عَزَّوَجَلَّ، والمعيَّة فِي الحَقِيقَة معناها: المصاحَبَةُ المُطْلَقَة، ولكنها فِي كلِّ شيْءٍ بِحَسَبِهِ، فنقول مثلًا: سَقَاني لبنًا معَه ماءٌ، فهذه تَقتضي الامتزاجَ والاختلاطَ.

فتفسيرُ مَعِيَّة الله عَزَّوَجَلَّ بالإحاطةِ عِلمًا وقدرةً وسلطانًا وبصرًا وسمعًا، وغير ذلك من معاني الربوبيَّة، لَيْسَ تفسيرها بذلك من بابِ التأويلِ، بل من بابِ ذِكر الحَقِيقَةِ؛ لأنها حَسَب ما تُضاف إليه.

إذن إذا كانت من بابِ ذكر الحَقِيقَةِ فيَمتنِع أنْ تكونَ مَعِيَّة الله مشاركةً فِي المكانِ؛ لِأَنَّهُ لو أَثبتنا أَنَّهَا مشاركة فِي المكانِ، لَأَبْطَلْنَا أَنَّهُ عالٍ فِي السَّمَاءِ؛ لِأَنَّهُ لا يمكنُ أن يشاركَ فِي المكان فِي الأرضِ وَهُوَ عالٍ فِي السَّمَاءِ، لهذا مَن زَعَمَ أن الإمامَ أحمدَ تأوّل وأثبت عنه رواية بجوازِ التأويلِ فِي الصِّفاتِ استنادًا إِلَى تفسيره المعيَّة بالعلم، فقد أخطأ خطأً بيّنًا؛ لِأَنَّ تفسيرَ الإمامِ أحمدَ للمعيَّة فِي العلمِ أراد بِهِ الردَّ عَلَى الجَهْمِيَّة، الَّذين يقولون: إنه معنا بذاك، فيقول: إن دخلت الحُشّ فالله فِي الحُشّ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- وإن دخلت المسجدَ فالله فِي المسجدِ، وإن دخلت البيتَ فاللهُ فِي البيتِ.

وهكذا يَصِفون الله تعالى بما لا يَلِيق أن يُوصَف بِهِ بناءً عَلَى ظاهرِ الآيةِ الَّتِي لم يَفْهَمُوا حقيقةَ معناها، فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّرها بالعلمِ؛ ردًّا عَلَى هَؤُلَاءِ، وتفسيرُه لها بالعلمِ لَيْسَ إخراجًا لها عن معناها، لكنَّه تفسيرٌ لها ببعضِ لَوَازِمِها؛ لِأَنَّ من لازِمِ المعيَّة أن يكون عالمًا بالأمرِ.

ولا تَقْتَرِنُ المعيَّة بالمشاركةِ بالمكانِ؛ لِأَنَّ اللهَ مُحيطٌ بكلِّ شيْءٍ سمعًا وبصرًا، ولهذا سَمِعَ قولَ المُجَادِلَة الَّتِي تُجادِلُ الرسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فِي زوجها، وتقول عائشة: «لقد جاءت المجادلة إِلَى النبي ﷺ، وأنا فِي ناحيةِ البيتِ، تشكو زوجها، وما أسمعُ ما تقولُ»[1].

وفرقٌ بينَ قولنا: إنَّ المعيَّة (تَقتضي) المشاركة فِي المكانِ أو (تَستلزِم)، فإذا قلنا: تقتضي، فمعناه أن هَذَا من معانيها، وإذا قلنا: تَستلزم، فمعناه أَنَّهُ لازِم، فهذا هُوَ الفرق.

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٢٠٦٣).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي هَذِهِ الآيةِ دليلٌ عَلَى مبدأ تشجيعِ الْإِنْسَانِ فِي مهمتِه؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ فهنا التشجيعُ من دون ثلاثةٍ: إبطال الخوف بقوله: ﴿كَلَّا﴾، واستصحاب الدَّليلِ بقوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾، والعلم بالمدافع وَهُوَ قوله: ﴿مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾، فكلُّ شيْءٍ يحتاج إِلَى تشجيعٍ، فينبغي للإِنْسانِ أن يظهرَ تشجيعَ صاحبِه؛ حَتَّى يَنْشَطَ، ويؤديَ الرِّسالَةَ عَلَى الوجهِ الأكملِ.

• • ۞ • •

الآيــة (١٦)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦].

قال: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾، وقال قبلها: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء:١٠-١١]، فدلَّ ذلك عَلَى أنَّ القومَ والآلَ إذا أُضيفت إِلَى الشخصِ فَإِنَّهُ يدخلُ معَ مَن أُضِيفَ لهم، فقوله: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، لا يدلُّ عَلَى نجاةِ فِرْعَوْن؛ لقولِه: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود:٩٨]، فهو أَوَّلُهم، وهنا أيضًا ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثم قَالَ: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ ممَّا يدلُّ عَلَى أن القومَ إذا أُضيفت فأوَّل ما يدخل فيها مَن أُضيفت له، ما لم يَمْنَعْ مِن ذلك مانعٌ حِسّيّ كمَوْتِهِ مثلًا، فإذا مات لم تَعُدْ توجد فائدة، لكن إذا كَانَ موْجودًا فهو أوَّل مَن يدخل فِي قومه.

قال تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولم يُبيِّنِ اللهُ تعالى صفةَ القولِ، بل بَيَّنَ هنا المَقُولَ، لكنَّه بيَّن فِي آية فِي سُورَة طه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤]، فأمر مُوسَى وهارون بأنْ يقولا: إنهما رسول من اللهِ، وذلك بلهجةٍ ليِّنةٍ لا بِلهجةٍ قاسيةٍ؛ لِأَنَّ القاسيَ إذا قُوبِلَ بلهجةٍ قاسيةٍ قَسَا أكثرَ، فإذا قُوبلَ بلهجةٍ ليِّنةٍ اجتمع ليّن وقاسٍ، فلا يحصل الصدامُ والاصطدامُ بينهما، وهذا منَ الحكمةِ فِي الدعوةِ، أمَّا الْإِنْسَان إذا كَانَ عاتيًا جبارًا فلا ينبغي أن يُقابَلَ

بالعُتُوِّ والجَبروتِ؛ وذلك لِأَنَّهُ لا يزيد الأمر إلا شدَّة، فيقابل باللين حَتَّى تقوم عليه الحُجَّة.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا ﴾ كُلًّا مِنَّا ﴿رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾]، قدّر المُفسِّرُ (كلًّا مِنّا) لأجل التناسُبِ مع المبتدأِ الَّذِي هُوَ اسْم (إن)، والخبر الَّذِي هُوَ رسول: ﴿إِنَّا رَسُولُ ﴾، وفي آيةٍ أُخرى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه:٤٧]، هكذا بالتثنيةِ، وهنا بالإفرادِ، فخرّج المُفسِّرُ الآيةَ عَلَى أنّ المَعْنى: كلّ واحد منّا، كما فِي قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان:٧٤]، أي: اجعل كلَّ واحدٍ منهم. هَذَا أحدُ الوجوهِ.

وجهٌ آخرُ أنَّ ﴿رَسُولُ ﴾ بمَعْنى الرِّسالَةِ، أي بمَعْنى اسْم المصدرِ، والمصدرُ إذا وُصِفَ بِهِ يَستوي فيه المفردُ وغيرُه.

ووجه ثالثٌ أن يُقالَ: إنّ الأَصْل فِي الرِّسالَةِ مُوسَى، وَهُوَ واحدٌ، وهارون مُعِين ووَزير، وإلَّا فالأَصْل أن مُوسَى هُوَ الرسول، كما يوجد فِي آياتٍ كثيرةٍ ذِكْر مُوسَى بدونِ ذِكر هارونَ.

وقوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ولم يقلْ: «إنا رسول الله»؛ لأنَّهما سيقابلان شخصًا يدّعي الربوبيَّة وأنه الربّ، فيتبين له من أولِ الأمرِ أنَّ الربوبيَّة ليستْ له وإنَّما هِيَ لله.

والعالَمون: كل مَن سِوى الله فهو عالم، وكلُّ المخلوقاتِ عالمٌ، ومع ذلك رُبّما تُضاف إِلَى أنواعِها، ويُقال: عالم البشر، عالم الجنّ، عالم الإبل، عالم كَذَا وعالم كذا، لكن إذا جمعتَ هكذا شملتْ جميع أنواعها، فكل مَن سوى الله فَإِنَّهُ عالمٌ، قالوا: وسُمُّوا عالمًا لأنَّهم علَم عَلَى خالقهم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إليك]، قدّر المُفسِّرُ (إليك) للإيضاحِ، وإلَّا فلا حاجةَ؛ لأنَّهما يخاطبانِه، فهما ﴿رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إليه.

فَوَائِدُ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي الآية دَليل عَلَى أن القَوْم والأَهْل، وما أشبه ذلك، إذا أُضيفتْ دخل فيها مَن أضيفت له، ونأخذه من قوله: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ ثم قال هنا: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ دلّ ذلك عَلَى أن فِرْعَوْن منهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي الآية أيضًا دَليل عَلَى أَنَّهُ يَنبغي أن يخاطَب الْإِنْسَان بما تَقتضيه حالُه، فمنكِر الربوبيَّة نخاطبه بإِثْباتِ الربوبيَّة، ومنكِر الألوهيَّة نخاطبه بإِثْبات الألوهيّة؛ لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فَإِنْ قِيلَ: ما الَّذِي دلَّنا أن فِرْعَوْن كَانَ يَعتقد بربوبيّة الله؟

فالإجابة: من قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤].

فَإِنْ قِيلَ: هَؤُلَاءِ قوم فِرْعَوْن؟

فالإجابة: فِرْعَوْن معهم، وقال له أيضًا مُوسَى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢].

الآيــة (١٧)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٧].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنْ﴾ أي: بأن ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا﴾ إِلَى الشامِ ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾].

قوله: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الإرسال بمَعْنى الإطلاقِ، يعني: أطلقهم؛ لِأَنَّهُ كَانَ قد ضيّق عليهم الخِناقَ وعَذَّبَهم بكونِه يقتلُ أبناءَهُم ويَستحيي نِساءَهم، فاضطرَّ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يطلبَ منه أن يرسلَ معه بني إِسْرَائِيل، ويُطْلِقهم. وستأتي المناقشةُ بينه وبين مُوسَى فيما بعد إن شاء الله.

الآيــة (١٨)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ذكر جَوابِ فِرْعَوْن لِمُوسَى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْن لِمُوسَى ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾]، فِي الآيةِ إيجازٌ، والإيجازُ عندَ البلاغِيِّين مُنْقَسِمٌ إِلَى قسمينِ: إيجاز حَذْف، وإيجاز اختصارٍ، والموْجود هنا إيجازُ الحذفِ، ولهذا قَالَ: [فأَتَيَاهُ فقالَا لَهُ ما ذُكر ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْن لِمُوسَى...]، إِلَى آخره.

ومُوسَى لَـمّا أدّى الرِّسالَةَ هُوَ وأخوه، قال فِرْعَوْن مُجيبًا لهذه الدعوة: [﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ فِي مَنازِلنا ﴿وَلِيدًا﴾ صغيرًا قريبًا من الولادة بعد فِطامه]، هَذِهِ واحدة، ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني: أفبعد هَذَا الأمر تأتي وتدّعي أنك رسول رب العالمين؟! ومَعْنى ذلك أَنَّهُ ينكر ربوبيَّة فِرْعَوْن، فكأنه يقول بعد هَذِهِ الأمور الثلاثة: كَانَ الأليق بك أن تأتيَ معتذِرًا، وأن تأتيَ خاضعًا؛ لأنّنا مَنَنّا عليك، ولأنك أخطأتَ علينا.

والمنّة قَالَ: [﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ فِي منازلنا ﴿وَلِيدًا﴾ صغيرًا قريبًا من الولادة بعد فِطامه]، والقصة معروفة فِي سُورَة القَصَص، أن الله تعالى أوحى إِلَى أُمِّه إذا خافتْ عليه أن تجعله فِي تابوت، وتُلْقِيَه فِي اليَمِّ، وفعلتْ؛ إيمانًا منها بوعدِ اللهِ، ثم قدّر الله

تعالى أنْ وقعَ هَذَا التابوتُ فِي قبضةِ آل فِرْعَوْن فالتقطوه؛ لحكمةٍ يريدها الله عَزَّوَجَلَّ وهم لا يشعرونَ، فلمّا التقطوه أرسلتْ أمُّ مُوسَى أختَه لتقصَّ الخبرَ ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ [القَصَص:١١]، عن بُعد، ثم رأتهم يطلبون له مرضعةً، فعرضتْ عليهم ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القَصَص:١٢]، فرُد إِلَى أُمِّه، ولم يَرْتَضِعْ ثديَ أُنثى غيرها، وهذا من تمامِ قُدرة اللهِ عَزَّوَجَلَّ ووفائه بوعدِهِ، أَنَّهُ ردّه إِلَى أُمه قبلَ أنْ يَتَغَذَّى بشيْءٍ سِوى لَبنها، وبقِي معها حَتَّى فَطَمَتْهُ.

وبحسب الحال سوف يرجع إِلَى آل فِرْعَوْن الَّذين التقطوهُ، فرجع إليهم فنشأ فيهم، وهذا من تمامِ قُدْرَة اللهِ أن يَنْشَأ هَذَا الصبيُّ الَّذِي كَانَ هلاك فِرْعَوْن بسببه فِي حجْرِهِ.

وقد قيل: إن فِرْعَوْن كَانَ يُقتّل أبناءَ بني إِسْرَائِيل خوفًا من هَذَا الولدِ؛ لِأَنَّ الكَهَنَة قالوا له: إنه سيظهرُ رجلٌ فِي بني إِسْرَائِيل يكون زوالُ مُلْكِكَ عَلَى يدِه، فصار يقتل أبناءَهم.

هَذِهِ عَلَى كلِّ حالٍ مِن الإِسْرَائِيليات الَّتِي لا نَدري هل تُصَدَّق أم لا؟ إنَّما كونه يقتل الأبناء ويَسْتَحْيي النِّساء هَذَا فِي القُرآن، لكن هل هُوَ إذلال للشَّعب واستعبادٌ لهم، أم خَوْفًا مِن هَذَا الوَلَدِ؟ اللهُ أعلمُ.

على كلِّ حالٍ، تَرَبَّى عندهم فكان يَمُنّ عليه فِرْعَوْن بهذه المِنَّة ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ يعني: فكيف تأتي ضِدَّ ما نريدُ، وتدّعي أنَّ لك ربًّا أَرْسَلَكَ، ثانيا: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ -وليسَ سِنينًا؛ لِأَنَّهُ ملحَق بجمعِ المذكَّر السالِم-.

وقوله: ﴿مِنْ عُمُرِكَ﴾ فِي الأَصْل صِفة للسِّنين، أصلها: لَبِثْتَ فينا سِنينَ مِن عُمُرِكَ، ولكن القاعدة فِي النحوِ أن الصِّفَةَ إذا قُدّمت أُعْرِبَتْ حالًا؛ لِأَنَّ الحالَ

صفةٌ فِي المَعْنى، والصِّفَة للمَعْنى -الذي هُوَ النَّعْت- لا يمكن أن تَتَقَدَّم عَلَى المنعوتِ، لهذا قالوا: إنّ الصِّفَةَ -صفة النكرة- إذا قُدّمت عليها أُعْرِبَتْ حالًا منها، هَذِهِ قاعدةٌ عندَ النحْوِيِّينَ.

قال: ﴿مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ هَذِهِ السنونَ ثلاثونَ سنةً، حَسَبَ ما قال المُفسِّر وأكثرُ المُفَسِّرِينَ، ولكن الأَولى أنْ تُبهَم كما أبهمَ اللهُ، لكن هم قَدّروا هَذِهِ الثلاثينَ لِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نُبِّئَ عَلَى رأسِ الأربعينَ عَلَى ما هِيَ عادةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي إرسالِ الرُّسُلِ، فقالوا: إن الثلاثينَ كانتْ عند فِرْعَوْن، ثم إنَّه ذهبَ إِلَى مَدْيَنَ وبَقِيَ فيهم عشْرَ سنواتٍ، ثم أرسلهُ الله.

فمِن هنا صارتِ السنونَ ثلاثينَ، ولكن هَذَا لَيْسَ بلازمٍ؛ لِأَنَّهُ قد يكون تَرَبَّى عند فِرْعَوْن أقلَّ مِن هذا، ثم انضمَّ إِلَى بني إِسْرَائِيل، فلهذا لا يَنبغي أنْ نَجْزِمَ بأنها ثلاثونَ سنةً، فلنقلْ كما قال الله: ﴿سِنِينَ﴾ وهي جمعٌ، وأقلُّ الجمعِ ثلاثُ سنواتٍ، ولكن يبدو أَنَّهَا أكثر؛ لِأَنَّ الثلاثَ سنواتٍ قد لا تكون بِهَا تلك المِنّة الَّتِي يَمُنّ بِهَا فِرْعَوْن.

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَلْبَسُ من ملابس فِرْعَوْن، ويَرْكَب من مَرَاكِبِهِ، وكان يُسَمَّى ابنه]، ولذلك قالتِ امرأة فِرْعَوْن: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القَصَص:٩].

فهذا دَليل عَلَى أَنَّهُم اتَّخذوه ولدًا، يعني: عسى أن يَنْفَعَنا مُطْلَقًا وإنْ لم يَتْبَنَّهْ أو نَتَّخِذه ولدًا، ومن المعلومِ أن الولدَ سوف يَنْفَع، ولكن الله يقول: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القَصَص:٩] لم يكنِ الأمرُ كما تَوَقَّعُوه، بل كَانَ بالعكسِ.

الآيــة (١٩)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ وهي قَتْلُهُ القِبْطِيَّ]، ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ أبهمها تعظيمًا لها، والإبهامُ يأتي للتَّعْظيمِ أحيانًا، كما فِي قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٢]، وقوله: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨]، هَذَا إبهامٌ يُراد بِهِ التعظيمُ، وهنا قَالَ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ ولم يَقُلْ: قَتَلْتَ القِبْطِيَّ؛ إشارةً إِلَى تعظيمها، وأضافها إليه من بابِ التقريرِ، يعني: إنك فعلتَ تلك الفعلةَ الَّتِي لم يَفْعَلْهَا سِواك، وهي قَتْلُهُ القِبْطِيَّ، الَّذِي كَانَ فِي مشاجرةٍ معَ الإِسْرَائِيلِيّ.

قال تعالى: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، الجُملة حالٌ من الضَّميرِ فِي ﴿فَعَلْتَ﴾.

قال: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الكافرين: لَيْسَ بالله؛ لِأَنَّهُ لا يؤمنُ باللهِ، ولكن من الكافرينَ بفِرْعَوْن؛ لِأَنَّ مُوسَى لم يَتَّخِذْهُ إلهًا كما اتَّخَذَهُ الأقباطُ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الجاحدينَ لِنِعْمَتِي عليك بالتربيَة وعدمِ الاستعبادِ]، فهذا ما ذهبَ إليه المُفسِّر؛ أنَّ المُرادَ بالكفرِ هنا كفرُ النعمةِ، وذلك جحده لما مَنَّ بِهِ فِرْعَوْن عليه من التربيةِ، وعدم الاستعباد، كما استعبد بني إِسْرَائِيل، ولكن الَّذِي ينبغي أن نقولَ: هِيَ أعمُّ ممَّا قال المُفسِّر، بل كذلك -وهي الأهم عند فِرْعَوْن- أَنَّهُ كفرَ بِعُبُودِيَّتِهِ، فلم يَتَعَبَّد له.

الآيــة (٢٠)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء:٢٠].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ مُوسَى ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ أي: حينئذٍ ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ عمَّا آتاني اللهُ بَعْدَها مِنَ العِلْم والرِّسالة].

قوله: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ كلمة (إِذًا) للمستقبَل؛ لِأَنَّ أصلَها: (إذَا)، فَنُوِّنَتْ، و(حينئذٍ) تكون للماضي، فتفسير المُفسِّر (إِذًا) بـ (حِينَئذٍ) من باب التفسير بالمعنَى، لا التفسير باللفْظ؛ إذْ لا يُفسَّر حرف بحرفٍ يقابله فِي المَعْنى، ولكن من باب التفسيرِ بالمَعْنى، يعني: فعلتُها حينئذٍ فعلتُها فيما مَضَى ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وذهب بعضُ المفسِّرين إِلَى أنَّ (إذًا) عَلَى ما هِيَ عليه جَواب لفِرْعَوْن كالمتهكِّم به، كأنه يقول (إذن أفعلها) يعني: ولا أُبالي بك، ولكنّي مِنَ الضَّالِّينَ الجاهلين لحُكْم القتلِ. ولعلَّ هَذَا أقرب أن تكونَ: (إذًا) عَلَى بابها ليستْ بمَعْنى الماضي، وكأنَّ ذلك جَوابٌ لفِرْعَوْنَ عَلَى سبيلِ الاستهانةِ بِهِ وعدمِ الاكتراثِ، وأنَّه لا يُبالي به.

وقوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ جَوابٌ لقولِ فِرْعَوْنَ له: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩]. وقوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ يقولُ الشارح -أو المفسِّر-: [عمَّا آتاني الله بعدها من العلمِ والرِّسالَةِ]، فيكون المُراد بالضَّلالِ هنا الجَهْل. وعلى هَذَا فيكونُ الضَّلالُ يَنْقَسِم إِلَى قِسمينِ:

- ضلال يُذَمّ عليه الفاعلُ أو الضالُّ.
- وضلال لا يُذمّ عليه.

والضَّلالُ الَّذِي حَصَلَ أو الَّذِي اتَّصَفَ بِهِ مُوسَى حينَ قَتْلِه القِبْطِيَّ ضَلالٌ لا يُلام عليه؛ لِأَنَّهُ لم يأتِهِ وحيٌ ولا رسالة حينئذٍ، فهو معذورٌ، ومن هنا نعرِف أَنَّهُ يَصِحّ أنْ نصِفَ المخالفينَ للصوابِ من أهلِ العلمِ بالضَّلالةِ، لكن لا الضَّلال المُطْلَق الَّذِي يُذمّون عليه إذا عُرف أَنَّهُم أهلُ نُصحٍ فِي الإسلامِ، لكن أَخْطَئُوا بعدَ الاجتهادِ.

مثال ذلك: أنَّ كثيرًا من أهلِ العلمِ أَشَاعِرَة منَ الَّذين عُرفوا بالإخلاصِ للإسلام، وبمَقام الصِّدق فيه، ومعَ ذلك نَصِفُهم بأنَّهم ضَالّون، لكن لا الضَّلال المطلَق الَّذِي يُشمّ منه، أو يُشْعِر بالذمِّ والقَدْح، لكن المُراد مخالفة الصَّوابِ، وإلا سَنَجِدُ مَنْ يُشنِّع إذا قلنا مثلًا: ابنُ حَجَرٍ ضالٌّ، والنَّوَوِيُّ ضالٌّ، وكثير من أكابرِ العلماءِ مُخْطِئُون للصوابِ، أو مُخْطِئُون فيما يقولون، مجانِبُون للصوابِ، لكن لا نقول: لَيْسَ الضَّلال المطلَق الَّذِي يُذمُّ عليه الفاعلُ؛ لِأَنَّ الضَّلالَ مع الاجتهاد وتَحَرّي الحَقّ لا يُذَمّ عليه المرءُ وإنْ وُصِفَ به.

فائدة: قوله: ﴿إِذًا﴾ فِي جَواب للحالِ باعتبارِ جَوابِه لفِرْعَوْن. وقوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الجُملةُ الحاليَّة حالٌ منَ الفاعلِ ﴿فَعَلْتُهَآ﴾، فـ ﴿إِذًا﴾ لا تكونُ متعلِّقة بـ(فعلتُ)، وتكون متعلقة بجَواب: أُجِيبك إذن، ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ يعني: باعتبار جَوابِهِ لفِرْعَوْن، لا باعتبارِ أَنَّهُ فَعَلَها.

فكأنه يُشعر بعدمِ الاكتراثِ وبالتحدِّي لفِرْعَوْن، وأنه لم يبالِ به. يقول ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ والمُراد بالضَّلال: الجهلُ الَّذِي لَيْسَ عن عمْدٍ.

الآيـة (٢١)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:٢١].

قال: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾. وسببُ فِرارِهِ منهم أن رجلًا جاءه يسعى وقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القَصَص:٢٠]، وهذا الرَّجُلُ مجهولٌ، لكن قَبِلَ مُوسَى خَبَرَهُ لوُجودِ القَرينة؛ وهي قَتْلُهُ القِبْطِيَّ، وإلَّا فَإِنَّهُ ما يُقْبَل خبرُ رجلٍ مجهولٍ. ثم إن هَذَا الرَّجُل أكَّد خبره بقوله: ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فخرجَ وفرّ منه خائفًا.

قال: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾، (لَـمَّا) ظرفٌ بمَعْنى: (حينَ)، وتُستعمَل عدَّةَ استعمالاتٍ، فتُسْتَعْمَل ظرفًا بمَعْنى: (حين)، وتُسْتعمل بمَعْنى أداةِ استثناءٍ، بمَعْنى: (إلَّا)، وتُستعمَل شرطيَّةً، وتُستعمَل نافيةً، أمَّا استعمالها نافيةً ففي مثل قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحُجُرات:١٤]، يعني: لم يدخلْ.

وأمَّا استعمالها شرطيَّة ففي مثلِ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠١]، فهذه الشَّرطيَّة، وأمَّا استعمالها بمَعْنى

(إلَّا) ففي مثلِ قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤]، يعني: ما كلّ نفس إلَّا عليها حافظ.

وهنا ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ اسْم بمَعْنى: (حين)، فهي ظرفٌ يعني: حين خِفْتُكُمْ.

وهذا ممَّا يؤيِّد ما سبقَ أنْ أشرنا إليه بأن الكَلِمات تعتبر حقيقةً بِحَسَبِ السياقِ، وأنَّ هَذَا هُوَ مأخَذُ شيخِ الإسلامِ ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي أَنَّهُ لَيْسَ فِي اللُّغة العربيَّة ما يُسَمَّى بالمَجازِ مُطْلَقًا؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ لَيْسَ أمرًا ذاتيًّا للكلمةِ، بل الكلمة لها مَعْنى بحسَب قِياسها وقرائن أحوالِها.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ عِلمًا ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾].

﴿فَوَهَبَ لِي﴾: أعطاني، قَالَ: [﴿حُكْمًا﴾ عِلمًا]، ولكن تفسير الحُكْم بالعلمِ قد يقول قائلٌ: إنَّ فيه نظرًا؛ لِأَنَّ الله تعالى يَعْطِف بَعْضَهما عَلَى بعضٍ؛ كما فِي قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢]، والعطفُ يَقْتَضِي المُغَايَرَة، وإذا كَانَ كذلك، فَإِنَّهُ لا يمكن أن يفسَّر أحدهما بالآخرِ.

ولننظرْ: هل هَذَا الاعتراضُ صحيحٌ، أم يُقال: إنهما من الألفاظِ الَّتِي إذا اجتمعتِ افترقتْ، وإذا افترقتِ اجتمعتْ، فإذا اجتمعتا تَغَايَرَتَا، وإذا انفردتْ إحداهما صارَ مَعْنى كلِّ واحدةٍ مَعْنى الأخرى.

قال تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الحُكم: القضاءُ بالشَّيْءِ، ويُسمَّى حُكمًا، ولا حكم إلا بعلمٍ، فتفسير الحكمِ بلازِمِهِ، وإذا جمع معَ العلمِ صار العلمُ ضدَّ الجهلِ، والحكم تطبيق ذلك العلمِ، فالذي يَظْهَر أن المُرادَ بالحكمِ هنا أخفّ منَ العلمِ، يعني: الحكم: القضاء، أو ما بِهِ يَقضي الْإِنْسَان بينَ النَّاسِ،

ولا يكون ذلك إلَّا بعلمٍ، فتفسير المُفسِّر له تفسير بلازِمِهِ؛ لِأَنَّ مِن لازِمِ الحكمِ العلم، وليس من لازمِ العلمِ الحُكْم؛ لِأَنَّهُ قد يَعْلَم ولكنْ لا يَحْكُمُ.

وقوله: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هَذَا بعدَ أنْ أَوحى اللهُ إليه وآتاه منَ العلمِ والحُكم جعله أيضًا مُرْسَلًا وكُلِّفَ بالرِّسالَةِ.

وفي قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ولم يقلْ: وجَعَلَني رسولًا، كالتنبيه لِفِرْعَوْن أَنَّهُ لَيْسَ بِبِدْعٍ مِنَ الرسُل، وأنه لم يأتِ بأمرٍ جديدٍ، بل إن أمامَه رُسُلًا، وقد ذكر الله تعالى فِي سُورَةِ غَافِرٍ أن الرَّجُل المؤمنَ يقولُ لهم: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ [غافر:٣٤]، فكأنَّه يقول له: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الَّذين عندَكَ خَبَرُهُمْ، فلستُ بِبِدْعٍ مِنَ الرُّسُلِ.

الآيــة (٢٢)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٢٢].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ أَصْلُها: تَمُنّ بِهَا عَلَيَّ]، أي: تَجْعَل بِهَا مِنّة عليّ، ولكن حُذف حرفُ الجرِّ وعُدِّي الفعلُ إليها. قَالَ: ﴿تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ أي: تجعلها مِنّة ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يقول: [بيان لـ(تلك)، أي: اتَّخَذْتَهُمْ عَبيدًا]، وإذا كانتْ بيانًا لـ(تلك) فتكون (أنْ) تفسيريَّة، تفسير لاسْم الإشارة فِي قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ أي: حين عبَّدتَ بني إِسْرَائِيل جعلتَ تَربيتي عندكَ وليدَ النعمةِ، وفي الحَقِيقَة هَذَا لَيْسَ بنعمةٍ؛ لِأَنَّ كَوْن الْإِنْسَان لا يقتلُ هَذَا الرَّجُل وَهُوَ يقتلُ غيرَه عُدوانًا لَيْسَ بنعمةٍ؛ لِأَنَّ أصلَ قتلِ أولئكَ ظُلْمٌ وجَوْرٌ، فكونه لا يقتلُ هَذَا الرَّجُلَ لَيْسَ نعمةً.

وغايةُ ما هنالكَ أَنَّهُ لم يَظْلِمْهُ، فهو لنْ يدفعَ عنه ضررًا نازلًا بِهِ من غيرِه، ولم يَجْلِبْ إليه نفعًا. فمُوسَى يقول: كيف تَمُنُّ عليّ بهذه النعمةِ أنْ عَبَّدْتَ بني إِسْرَائِيل، يعني: ولم تَسْتَعْبِدْنِي، فهذه ليستْ نعمةً؛ لِأَنَّ كون الْإِنْسَان لا يظلمُ هَذَا الرَّجُلَ ويظلمُ ذاك، فهذا لَيْسَ نعمةً عَلَى مَن لم يُظْلَمْ؛ إذ لم يُسْدِ إليه نفعًا، ولم يَدْفَعْ عنه ضررًا، غايةُ ما هنالك أَنَّهُ امتنعَ عن ظُلْمِهِ.

وفي الواقع امتناعُه عن ظُلمِهِ نعمةٌ عَلَى نفسِ الظالمِ؛ أن الله تعالى أنعمَ عليه

فمَنَعَهُ مِن ظُلْم هَذَا الرَّجُلِ، ولهذا يقول المُفسِّر: [﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ولم تَسْتَعْبِدْنِي، لا نعمةَ لك بذلكَ لِظُلْمِكَ باستعبادهم]، فأنت ما أعطيتني منّةً جديدة ونعمةً جديدةً حَتَّى تمُنّ بها، فهو يُنكر عليه، ولهذا يقول المُفسِّر: [وقدَّرَ بعضُهم أوَّل الكَلام همزةَ استفهامٍ للإنكارِ]، يقول: كيف تمنُّ عليّ بهذا الشَّيْء؛ بأنك عبَّدتَ بني إِسْرَائِيل، هَذَا لَيْسَ بنعمةٍ.

ففِرْعَوْن يراها نعمةً، قَالَ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ فهو جعل هَذِهِ مِنَ النِّعم.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كونك عَبَّدْتَهُم، أي: جَعَلْتَهم عبيدًا لكَ، ووجهُ الاستعبادِ أَنَّهُ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- كَانَ يقتّل الرِّجالَ، فتبقى النِّساء بدون قيِّمٍ، والمرأةُ إذا بَقِيَتْ بدون قيِّم تضطرُّ إِلَى أن تَخْدُمَ، ولهذا قال العلماءُ: إنه كَانَ يستخدِم النِّساء فيُبْقِيهِنَّ بالضرورة، وإذا لم يكن لهنّ قيِّم سوف يَلْجَأْنَ إِلَى الأقباطِ لاستخدامهنَّ.

وسبقَ أن قال مُوسَى: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء:٢٠]، ثم قَالَ: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:٢١]، فكأنه يقول: أنتم لم تألوا جُهْدًا فِي معاقبتي، ولكنَّني فَرَرْتُ منكم فلم تُدْرِكُوني فنجوتُ، فالعُقوبة نجوتُ منها بالفرارِ، والجهلُ تَنَزَّهْتُ منه بالرِّسالَةِ.

فكأنه يقول: تَرْك الظلمِ بالنِّسبةِ إليّ لا يُعَدُّ نعمةً؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان لَيْسَ مُسْتَحِقًّا له حَتَّى نقول: إنه عَفَا عنه وتركه، فهذا ما صار عليه المُفسِّرُ، لكن هناك احتمالٌ آخرُ، فالإساءة إِلَى قومه إساءةٌ له، فكأنَّه يؤكِّد نفيَ النعمةِ، يعني: أين النعمة وأنت قد

عبّدت بني إِسْرَائِيل وهم قومي، فإذا قُدّر أنِّي سلِمتُ منَ التَّعبيد والظُّلم، فأنا فَرْدٌ من قبيلةٍ وقومي قد عبَّدتَهم، فأين النعمة؟!

وقوله: [قدَّر بعضهم أوَّل الكَلام همزةً]، لَيْسَ ببعيدٍ أَنَّهُ قَالَ: أوَتلك نعمةٌ تَمُنّها عليَّ أنْ عَبَّدْتَ بني إِسْرَائِيل. يعني: فليس لك عليّ نعمة.

و(أنْ) تبين المبهَم فِي قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ فكأنه يقول: تَمُنّ عليّ بهذه النعمةِ حينَ عبَّدتَ بني إِسْرَائِيل، يعني: ولم تَسْتَعْبِدْهُمْ، هَذَا هُوَ المَعْنى.

ولولا أنَّ هَذَا المَعْنى ظاهرٌ لَقُلنا: إن مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صَرف نعمتَه عليه كالمتهكِّم به، يعني: يقول: أين النعمة الَّتِي أنعمتَ بِهَا عليّ وأنتَ تُعَبِّد بني إِسْرَائِيل؛ لِأَنَّ تعبيدَ بني إِسْرَائِيل خلافُ النعمةِ فِي الواقع، ومنَ المعلومِ أن مُوسَى مِن بني إِسْرَائِيل، فتعبيدُ بني إِسْرَائِيل -وهم قومُه- إذلالٌ له، وهذا مَعْنى جيِّد فِي الحَقِيقَةِ، نقول: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ يعني: كيف تمنّ عليّ بهذه النعمةِ وأنت تعبِّد بني إِسْرَائِيل، ويكون هَذَا من بابِ ما يُسَمُّونه بـ(تأكيد الذمّ بما يُشْبِه المَدْحَ)، وحينئذٍ تكون ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تفسيرًا لـ(تِلْكَ)، يعني: أهذه النعمة الَّتِي تَمُنُّها عليّ أنْ تُعَبِّد بني إِسْرَائِيل، فأين النعمة؟! فهذا مَعْنى جيِّد.

• • ۞ • •

الآيتان (٢٣، ٢٤)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٣-٢٤].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لِمُوسَى ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الَّذِي قلتَ: إنَّك رسوله؟ أي: أيُّ شيْءٍ هو؟ ولَـمَّا لم يكنْ سَبيل للخَلْقِ إِلَى مَعْرِفَةِ حَقيقتِهِ تعالى، وإنَّما يَعْرِفُونه بصفاتِهِ، أجابه مُوسَى ببعضِها ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾].

هذا الكَلام الَّذِي قاله المُفسِّر فِي تفسيرِ الجُملةِ بعيدٌ منَ الصَّوابِ كلَّ البُعْدِ؛ قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من المعروف أن (مَا) يُستفهَم بِهَا عن الحَقِيقَةِ، فتقول: ما الذهَب؟ يُقال مثلًا: هُوَ مَعْدِنٌ نَفيس.. إِلَى آخره، تقول مثلًا: ما العِلم؟ تقول: إدراكُ الشَّيْءِ عَلَى ما هُوَ عليه إدراكًا جازمًا، فـ(ما) يُسْتَفْهَم بِهَا فِي الأَصْلِ عنِ الحَقِيقَةِ.

ويدّعي المُفسِّر أنَّ فِرْعَوْن استفهمَ عن ذلك -عن الحَقِيقَة- ولكنَّه لَيْسَ كذلكَ، ففِرْعَوْن استفهمَ عن هَذِهِ الربوبيَّة؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فما هَذِهِ الربوبيَّة الَّتِي زعمتَ أنَّ الله تعالى أرسلكَ وَهُوَ ربُّ العالمين؟!

لأننا لو قلنا: إنَّه يَسْتَفْهِم عن حقيقةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَلَزِمَ منْ ذلك أن يكونَ قد أقرَّ به، وَهُوَ لم يُقِرَّ بِهِ حَتَّى يسأل عن حقيقةِ هَذَا الربِّ، وإنَّما يُنْكِر الربَّ أصلًا،

فالاسْتِفهام للإنكارِ: أيّ شيْءٍ هُوَ ربُّ العالمينَ الَّذِي زَعَمْتَ أَنَّهُ أرسلكَ؟! يعني: لَيْسَ هناك ربٌّ، فالتفسيرُ الَّذِي ذهبَ إليه المُفسِّرُ بِناءً عَلَى ما هُوَ معروفٌ مِن أنَّ (ما) -وهو عندَ المناطِقِ أيضًا، لَيْسَ معروفًا فِي اللُّغةِ العربيَّة، بل عند أهل المنطِق- يُسْتَفْهَم بِهَا عن كُنْهِ الشَّيْءِ وحَقِيقَتِه، فقال: إن فِرْعَوْن يَستفهِم عن كُنه الخالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحقيقته، ولكن مُوسَى لَـمَّا لم يمكنْ أن يجيبَ عن ذلك، عَدَلَ إِلَى بيانِ صفةٍ من صفاتِهِ، فيكون الجَواب من مُوسَى غيرَ مُطابِقٍ للسُّؤالِ، ويُسَمَّى هَذَا بأسلوبِ الحكيمِ، أن يُجابَ السائلُ بغيرِ ما يَتوقَّع.

ولكن ما قاله وما ذهبَ إليه لَيْسَ بصحيحٍ، كما أنكره ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي تفسيره[1]، وقال: إن هَذَا معناه إقرار فِرْعَوْنَ باللهِ، لكن يسأل عن حقيقةِ هَذَا الإلهِ، فالصَّوابُ أنَّ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أجابَهُ بجَوابٍ مطابِقٍ للسُّؤالِ، وأنَّ فِرْعَوْن يسألُ عن هَذِهِ الربوبيَّة الَّتِي زعمَ مُوسَى أَنَّهُ مُرسَل من ربِّ العالمينَ فقال ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟! أيّ شيْءٍ ربُّ العالمينَ الَّذِي أرسلكَ؟! وليس معناه: أي شيْء هُوَ مادتُه.

والجَواب: [﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي: خالِق ذلك]، ولا يكفي أن يفسَّر بالخالق، بل خالق ذلك ومدبِّره، والمتصرِّف فيه؛ لِأَنَّ الربَّ لا يَكفي أن يكونَ خالقًا، بل لا بدَّ مِن خَلْقٍ وتدبيرٍ وتصرُّفٍ.

قال: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ وليست ربوبية فِرْعَوْن كهذه الربوبيَّة؟ وفِرْعَوْن يدخل فِي ذلك؛ لِأَنَّ الله ربُّه، لِأَنَّهُ لا يخرجُ عنِ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، فهو فِي الأرضِ، وكأنه أيضًا أجاب بهذا إشارةً إِلَى إبطالِ عُبُودِيَّةِ فِرْعَوْن؛

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٣٨) ط. دار طيبة.

لِأَنَّ فِرْعَوْنَ لا خَلَق سماواتٍ ولا أرضًا، ولا ما بينهما، فالذي يَسْتَحِقّ الربوبيَّة هُوَ الله.

ويَنبغي الوقوف: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، ثم يُقال: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ فالأمرُ بيِّنٌ.

ولهذا المُفسِّر قدّر الجَواب، وقال: [﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بأنه تعالى خالِقُه فآمِنوا بِهِ وحدَه].

وإنَّما قلنا: إنها لا تَعلّق لها بما قبلُ؛ لِأَنَّهُ لو تَعَلَّقَتْ بما قبلها لكانَ مَعْنى أَنَّهُ ربُّ السماواتِ والأرضِ إنْ أَيْقَنُوا بذلك وإلَّا فليس ربَّ السماواتِ والأرضِ، وهذا الكَلامُ لا يَستقيمُ.

والتَّقدير: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ -أي: من ذوي الإيقانِ- فأَيْقِنُوا بذلك؛ لِأَنَّهُ لا أحدَ يَقْدِر عَلَى خَلْق السماواتِ والأرضِ، فـ(إنْ) هنا شرطيَّة، وجَوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، وقدَّرَ المُفسِّر: (فآمنوا بِهِ وحدَه). و(آمنوا) و(أيقنوا) معناهما واحد.

• • ❁ • •

الآيـة (٢٥)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء:٢٥].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ قَالَ ﴾ فِرْعَوْن ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ مِن أشرافِ قومِه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ جَوابَه الَّذِي لم يُطابِقِ السُّؤالَ]، وهذا غريب! فالاسْتِفهامُ هنا للتهكُّم بلا شكّ، يعني: أَلَا تَستمعونَ إِلَى هَذَا الَّذِي زَعَمَ أنّ ربَّ العالَمِينَ ربُّ السماواتِ والأرضِ، والواقع -على حَسَب زَعْمِه- أنّ ربّ العالمينَ هُوَ فِرْعَوْن، فهو يَتَهَكَّم به، يقول: استمعوا إِلَى هَذَا يقول: إن ربَّ العالمينَ ربُّ السماواتِ والأرضِ وما بَينَهما. فيكون عَلَى هَذَا خاطئًا فِي تَهَكُّمِهِ، وقصدُه بهذا حقيقةَ التهويلُ، وتحطيمُ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وبيانُ أنَّ ما جاء بِهِ لَيْسَ بصوابٍ، أمَّا عَلَى رأيِ المُفسِّر فجَوابُه لم يُطابِقِ السُّؤالَ، ولو كَانَ الأمرُ كذلك لكانَ فِرْعَوْن مُحِقًّا فِي اعتراضِهِ؛ لِأَنَّ كلَّ أحدٍ إذا عرفَ أن الْإِنْسَان أجابَ بغيرِ ما سُئل عنه فمَعْنى ذلك أَنَّهُ مُنْقَطِع عن الحُجَّة، وعاجزٌ عن دَفعها، فهذا من أبعد ما يكون.

ونحن نقولُ للمؤلِّف ولغيرِ المُفسِّر ممَّن نَشَأَ عَلَى طريقته: إنّ جَوابَ مُوسَى ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ مطابِقٌ للسُّؤالِ، وإن فِرْعَوْنَ لم يسألْ عن حقيقةِ وكُنْهِ الخالِقِ أبدًا، ولا دارَ فِي فِكْرِهِ هذا، ولا يبالي بِهِ مِن أيِّ شيْءٍ هو.

فلهذا نقول: إن الجَوابَ مطابِق للسُّؤالِ، و﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ الاسْتِفهامُ للتهكُّمِ؛

لِأَنَّ مُوسَى أَتَى بأمرٍ بعيدٍ عمَّا يريده فِرْعَوْن، ففِرْعَوْن الَّذِي يقول: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يريدُ مِن مُوسَى أن يقول: ربُّ العالمينَ فِرْعَوْن، ولكنه قَالَ: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، ثم أيضًا اسْتَبْلَهَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ يعني: إن كنتُم من ذوي الإيقانِ والعلمِ فأيقِنوا بذلك.

والاسْتِفهامُ هنا فِي ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ فِي هَذَا المقام لا شكَّ أَنَّهُ سَيَصْدُرُ مِن مثلِ فِرْعَوْن، حيث يَتَهَكَّم بمُوسَى الَّذِي جاء بالحَقِيقَةِ ولا يستطيعُ فِرْعَوْن أنْ يَدْفَعَها.

• • ❁ • •

الآيــة (٢٦)

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:٢٦].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهذا وإنْ كَانَ داخلًا فيما قبلَه يَغِيظُ فِرْعَوْن].

مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أسلوبه أسلوبٌ حكيمٌ: أتى أوَّلًا بالربوبيَّة العامَّة للسماوات والأرضِ وما بينهما، ثم أتى للربوبيَّة الخاصَّة لِفِرْعَوْنَ الَّذِي يَدَّعي أَنَّهُ ربُّه، وقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، إشارة إِلَى أنكم أنتم أتيتم مِن آبائكُم، ومَن أتى مِن أبٍ فكيفَ يُمْكِن أنْ يكونَ رَبًّا؟! هُوَ مخلوقٌ مِن نُطْفَةٍ.

فكأنه يقول: ارْجِعُوا إِلَى أَصْلِكُم، فالله تعالى ربُّكم أنتم الَّذين تَدَّعُونَ أَنَّكم أربابٌ وربُّ آبائكم الأوَّلين الَّذين أتيتم منهم، فيذكّرهم بأصلِهم؛ لِيَذْكُروا أَنَّهُم كانوا محدَثين، وأنَّهم لا يَصْلُحُونَ لِأَنْ يكونوا أربابًا، وهذا مِن حُسن الجَوابِ، وفي الحَقِيقَةِ كلُّ جَوابٍ يقوله مُوسَى فهو حُجَّةٌ قاطعةٌ تَدْمَغُهم، ولكن -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- مَن لم يُوَفَّقْ بالحقِّ فَإِنَّهُ لا يَنْتَفِع بِهِ ويَسْتَكْبِر عنه.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهذا وإنْ كَانَ داخلًا فيما قبلَه يَغيظ فِرْعَوْن]، وفي الحَقِيقَة هَذَا كَلامٌ لَيِّن من المُفسِّر، ولو قَالَ: هَذَا أيضًا إقامة حُجَّة أُخرى عَلَى فِرْعَوْن أَنَّهُم مَرْبُوبُونَ، وأنَّهم مخلوقونَ من أصلابِ آبائهم

الأوَّلين، ومَن كَانَ كذلك مولـودًا فلا يَسْتَحِقّ أنْ يكـونَ ربًّا وإلـهًا -اللهُ أكبرُ- لو قال ذلك لكان أَولى، فالرُّسُلُ يعانون من أقوامهم شَيئًا كثيرًا.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٢٧)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:٢٧].

(إنّ) للتَّوكيد، و(لَمَجْنُونٌ) اللام أيضًا للتَّوكيدِ، فأكّد جنون مُوسَى بأمرينِ؛ بـ(إنّ) واللام، وفي قوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾ منَ التهكُّم ما هُوَ غيرُ خفيٍّ، يَتَهَكَّم بِهِ لِأَنَّهُ يُنْكِر رسالتَه وينكر ربوبيَّة ما أرسله، فهذا من بابِ التهكُّم به، ثم إنه لم يُضِفْهُ إِلَى نفسِهِ تكبُّرًا، فما قَالَ: إن الرسول الَّذِي أرسلَ إلينا أو إن رسولنا، قَالَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾، وهذا عُلُوٌّ منه وتكبُّر وتهكُّم بمُوسَى.

فالعلوُّ والتكبُّرُ والترفُّعُ حيث أضافه إليهم، فكأنَّه هُوَ فِي شأنٍ أعلَى مِن أنْ يُرسَل إليه ولا عَلَى سبيلِ التهكُّم، ثم إنَّ إضافةَ الرِّسالَةِ إليهم وَهُوَ ينكِر ذلك تهكُّمٌ بمُوسَى ظاهرٌ، فقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ﴾ ولم يقلْ: أرسله ربُّ العالمينَ، مع أن مُوسَى قَالَ: إنِّي رسول ربِّ العالمينَ؛ لِأَنَّهُ ما سَمَحَ لنفسِه أن يصفَ اللهَ تعالى بالربوبيَّة ولا عَلَى سبيلِ التهكُّم.

وقوله: ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ المجنونُ: فاقدُ العقلِ، وهذا دَأْبُ جَميعِ الَّذين كذّبوا الرُّسُلَ، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، يقولـون: ساحر أو مجنون، و(أو) هَذِهِ مانعةُ خُلُـوّ وليستْ مانعةَ جمعٍ؛ لأنَّهم قد يقولون: ساحرٌ فقط، أو مجنونٌ فقطْ، أو ساحرٌ ومجنونٌ، وهذا ما وَقَعَ لِمُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما سيأتي قريبًا إن شاء الله.

الآيــة (٢٨)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء:٢٨].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾]، يعني: هُوَ ربُّ المشرِق والمغربِ، ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ﴾ لَيْسَ المُراد منْه الجِهة فقط، ولكن المُراد الجِهَة وما يَحْدُثُ فيها مِن شُروقِ الشَّمْسِ والقمرِ والنجومِ، وما إليها.

قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ وهذا كقولِ إِبْرَاهِيم للذي حَاجّه، قال إِبْرَاهِيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فكأنَّ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَدَلَ إِلَى أمرٍ ظاهرٍ بيِّن لا يُمْكِن المماراةُ فيه أبدًا؛ قَالَ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ والذي بينهما وما يحدُث مِنَ السَّحاب والرِّياح وغيرِ ذلك، فهذا أمرٌ لا أحدَ يُنْكِره، ولهذا قال لهم: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ لِأَنَّ هَذَا الأمرَ ظاهرٌ للعقلاءِ.

ثم فِي قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تَعريضٌ لـهم كَرَدٍّ عَلَى قولـهم: إنَّ رَسولَكم لمجنونٌ، كأنه يقول: المجنونُ مَن يُنْكِر هَذِهِ الأشياءَ.

ولهذا قَالَ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وفي قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ من ظهورِ القوَّة مِن مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأنه لم يَكْتَرِثْ بهم، فهو رجلٌ وحدَه أمامَ جبّار عَنيد، وهذا

كَلامٌ مُزْعِج فِي الواقعِ أنْ يقوله الْإِنْسَانُ لِمَن كَانَ نِدًّا له، ولكن مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَـمَّا قالَ اللهُ له فِي الأوَّل: ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:١٥]، كَانَ واثقًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وموقنًا بأنَّه لن يَضُرَّهُ فِرْعَوْن، والأمرُ كذلك.

الشَّاهدُ أن المشرقَ والمغربَ وما بينهما لظهورِ الآياتِ فيهما؛ قال لهم: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فهذا من وجهٍ.

ثانيًا: أراد أن يقابل قول فِرْعَوْن: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:٢٧]، فكأنه يقول: المجنون مَن لم يستدلَّ بهذه الآيات عَلَى الربِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَنَّهُ كذلك فآمنوا بِهِ وحده]، مثلما قال المُفسِّر فيما سبق: [﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٤]، بِأَنَّهُ تَعَالَى خَالِقه فَآمِنُوا بِهِ وَحْده].

• ● ۞ ● •

الآيــة (٢٩)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾]، بعد أنِ انقطعَ بِهِ سُلطانُ الحُجَّة والبُرهان عدَلَ إِلَى سلطانِ القوَّةِ والتهديدِ؛ فهكذا العاجزُ عن ردِّ الحجةِ بالحجةِ يَعْمِد إِلَى القوةِ إذا كَانَ له سلطانٌ، وهذا له سلطانٌ عَلَى مُوسَى، ولهذا هَدَّدَهُ بقولِهِ: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾ لم يقلْ: لَئِنْ دَعَوْتَ إِلَى اللهِ فقطْ، يعني: يريد منه أن يَمْتَنِع عنِ الدعوةِ إِلَى اللهِ بالأولى، وأن لا يَتَّخِذَ إلهًا سواه، وفي هَذَا دليلٌ عَلَى أنَّ فِرْعَوْن كَانَ ينكرُ أن يكون هناك ربّ سواه، وأن قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، صفة كاشفةٌ وليستْ صفةً مُقَيِّدَةً؛ لِأَنَّهُ لا يَعْتَقِد أن هناك ربًّا سِواهُ.

وقوله: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ﴾ فيه شيئانِ يَحتاجانِ إِلَى جَوابٍ: الشَّرطُ والقَسَم، والمَوْجودُ هنا جَوابُ القسمِ وليسَ جَوابَ الشَّرطِ؛ فكلمة ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ﴾ ليستْ جَوابَ شرطٍ، بل جَواب قَسَم، ولهذا أُكِّدَتْ بالنونِ واللامِ، فهي جَوابُ قَسَمٍ، وهذه هِيَ القاعدة؛ يقول مالك[1]:

(١) ألفية ابن مالك - عوامل الجزم، (ص:٥٩) ط. دار التعاون.

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

وهنا اجتمعَ شرطٌ وقسمٌ: الشَّرط (إنْ)، والقسم (والله) المحذوف، يقول: «احذِف لَدَى اجتماعِ شرطٍ وقسمٍ جَوابَ ما أخرت» والمؤخَّر هُوَ الشَّرط، فيكون الجَواب المَوْجود للقسمِ، وَهُوَ كذلك.

وقوله: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾ (إِلَهًا) بمَعْنى: مألوهٍ، أي: معبود، والمُراد بالمعبودِ هنا المعبودُ الَّذِي يَستحِقّ أن يُعْبَد، وذلك لربوبيَّتِهِ، فهو يعتقد أَنَّهُ الرب، فيجب أن يكون هُوَ الإله الَّذِي يُعْبَد.

قال: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ انظر: ﴿مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ ولم يقلْ: لَأَسجنَّنك، كما قال الله تعالى فِي قصة يُوسُف: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾ [يوسف:٣٥]، بل قَالَ: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ زيادة فِي تهديدِ مُوسَى، كأنه يقول: إن هناك سُجَناء، وأنا قادرٌ عَلَى سجنِ النَّاسِ، فإذا لم تَتَّخِذْنِي إلهًا واتخذتَ إلهًا غيري، جعلتُكَ فِي جملةِ هَؤُلَاءِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ كَانَ سِجْنُه شديدًا؛ يَحْبِسُ الشخصَ فِي مكانٍ تحتَ الأرضِ وحدَه، لا يُبْصِر ولا يَسْمَع فيه أحدًا]. وهذا لَيْسَ شديدًا بما نَعْرِفُ من السجونِ، فهي أشدُّ من هَذَا بكثيرٍ، وفِرْعَوْن إنَّما قَالَ: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ أما كيف يَسْجُنُهُ فالآيةُ لم تَتَعَرَّض له، وأيضًا إذا كَانَ معروفًا أنَّ سَجْنَهُ بهذه الكيفيَّة فهذا السِّجْنُ لَيْسَ شديدًا، بل فِي السُّجُون مِنَ التعذيبِ ما هُوَ أشدُّ، فنسمع أَنَّهُ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- يُؤْتَى بالشخصِ ويُجْعَل فِي مِثل برميل، وفيه مساميرُ وتحته نارٌ، فهذا الرَّجُلُ لا يستطيع أنْ يَجْلِس؛ إن جلسَ خَرَقَتْهُ المساميرُ، وإنِ اتَّكَأَ عَلَى أحدِ الجُدران كذلك، فهذا -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- من الأساليب الَّتِي يَفْعَلُونها.

ونسمع أيضًا أَنَّهُ من الأساليب أَنَّهُم يجوّعون السِّبَاع الضارِيَةَ ثم يرسلونها عَلَى السجناءِ تَنْهَشُهُم، ولا يستطيعون الدفاعَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عندهم القُدْرَة، مثلما فعل الحَجَّاج بِجَحْدَرِ بنِ مالِكٍ، فَإِنَّهُ كَانَ منَ الخوارِجِ، فقَبَضَه، وكان شُجاعًا جِدًّا، فلمّا قَبَضَه حَبَسَه وأتى به، وقال: إنّا مُلْقُوك إِلَى الأسدِ، وإنّا سنقيِّد يَدَكَ، وأنت وشأنك، فأتى بأسدٍ فأجاعه ثلاثة أيامٍ، ثم قال له جَحْدَر: أَعطِني سيفًا، وشُدَّ إِحدى يَدَيَّ، فأعطاه السيفَ وشدّ إحدى يديه، ثم ألقاه إِلَى الأسد والأسد جائعٌ ثلاثةَ أيامٍ لم يأكلْ، يقولون فِي ترجمته: فلمّا وثبَ عليه الأسدُ ضَرَبَه فِي نَحْرِهِ بالسيفِ بيدٍ واحدةٍ، فخرَّ الأسدُ صَريعًا، فأطلقه الحجاجُ؛ لقوتِه وشجاعته[1]. فهذه الأساليبُ أيضًا ممَّا يَعْمِدُ إليه أهلُ الظلمِ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- بالسجناءِ.

والمهمُّ أنَّ الآيةَ الكريمةَ لَيْسَ فيها ذِكْر ما يُفعل بمُوسَى، إنَّما فيها أَنَّهُ سيكونُ مِنَ المسجونينَ؛ أي من جملةِ مَن يُسْجَن.

• • ۞ • •

(١) تاريخ دمشق (١٢٢/ ١٤٨)، والبداية والنهاية لابن كثير (٩/ ١٤٥) ط إحياء التراث.

الآيات (٣٠- ٣٥)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء:٣٠-٣٥].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ لـه مُوسَـى: ﴿أَوَلَوْ﴾ أي: أَتَفْعَـل ذلك ولـو ﴿جِئْتُكَ﴾]، إذا اقترنتْ همزةُ الاسْتِفهامِ بالعاطِفِ فإمَّا أن تقدّر بعدها جملةً يعطف عليها ما بعد الهمزة، أو تقدَّر الهمزة متأخرةً بعد حرفِ العطفِ، وجهانِ لأهلِ العلمِ، والوجهُ الأخير أسهلُ؛ لِأَنَّ الأول -كما يمر بك- قد لا يمكنُ فيه التَّقديرُ، وأما هَذَا فتقول: الهمزة للاستفهامِ، وهي مقدَّمة، والواو حرفُ عطفٍ، وَهُوَ مقدَّم حُكمًا، مؤخَّرٌ لَفظًا، والجُملة معطوفةٌ.

أمَّا عَلَى ما ذهبَ إليه المُفسِّرُ هنا فَإِنَّهُ جعل الهمزةَ داخلةً عَلَى شيْءٍ محذوفٍ: [أتفعل ذلك ولو ﴿جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾]، كأن مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال له: عَلَى رِسلكَ، لا تَسْجُنَنِي، فأنا ما جئتُ بباطلٍ وسأُقيم البرهانَ عَلَى ما أتيتُ به: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾.

ومن لُطْفِ الله أنَّ فِرْعَوْنَ قَالَ: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾، وكان مُقْتَضَى جَبَرُوتِهِ وطُغْيَانِهِ

أن يقولَ: ولو جِئْتَنِي بشيْءٍ مُبِينٍ إنِ اتَّخَذْتَ إلهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ، ولكن القلوب بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فأَلَان اللهُ قلبَ هَذَا الرَّجُلِ المتكبِّر الجبَّار لِمُوسَى حين قَالَ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾، وهذا اللِّين قد يكون له سبب حِسِّيٌّ، فهو لِئَلَّا يَنْقَطِعَ أمامَ المَلَأِ الَّذين عنده؛ لِأَنَّ مُوسَى إذا عرضَ عليهم خطَّة الرُّشْد ثم تَعَسَّف، وقال: ولو جِئْتَنِي بهذا، فربَّما حينئذٍ يَظْهَرُ أمامَ مَلَئِهِ أَنَّهُ مُعانِدٌ وأنه منقطِع، فقال: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾.

ثم إنه أيضًا قد يكونُ ممَّا حَمَلَه عَلَى ذلك أَنَّهُ أرادَ أن يأتيَ بِهِ ليكونَ إبطالُه أو دَعْوَى بُطْلانِهِ عَلَى يَدِهِ؛ لِأَنَّهُ ربَّما يأتي بِهِ مُوسَى فِي مكانٍ آخرَ فيغترّ بِهِ النَّاس -على زَعْمِه- فأراد أن يأتيَ بِهِ أمامَه؛ لِيَتَمَكَّنَ مِن دَعْوَى بُطلانِهِ.

نقول: ووجهُ التليين -أو أن الله ألانَه له- أَنَّهُ ما قَالَ: لا تأتِ بشيْءٍ وسَأَسْجُنك ولو لم تأتِ؛ فقد عَرَضَ عليه أَنَّهُ يأتِي بشيْءٍ مُحْتَمَلٌ أنْ يأتيَ به، ولكن فِرْعَوْن لَانَ بعضَ الشَّيْءِ للأسْبابِ الَّتِي ذكرناها:

أولًا: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ألانَه، والله عَلَى كل شيْء قديرٌ.

ثانيًا: الأسْباب الحِسّيّة لأجلِ ألّا يُقال: إن حُجَّته انقطعتْ، وإنّ الرَّجُل عرَض عليه خطّة رُشْد فأَبَاها.

ثالثًا: لأجلِ أنْ يكونَ إبطالُ ما يأتي بِهِ مُوسَى عَلَى يدِهِ حَتَّى يُبينَ، وأنه أراد أن يتحدّاه، وإنْ كَانَ هَذَا ما يَمْنَع أن يقول: لا تأتِ به؛ لِأَنَّهُ هُوَ قادرٌ عَلَى أن يقولَ: لا تأتِ بِهِ بدون أن يتحدّاه؛ لِأَنَّ تحديَه له فيه احتمالٌ أنْ يأتيَ به، وحينئذ تَنْقَطِع حُجَّة فِرْعَوْن.

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ بُرهان بيِّن عَلَى رِسالتي]، شيْء: فَسَّرَهُ المُفسِّرُ بِبُرْهانٍ، (مُبِينٍ): بِـ(بَيِّن)، إذنْ فهي من (أبان) اللازِمِ؛ لأننا نقول: أبانَ بمَعْنى أظهرَ مُتَعَدٍّ، وأبانَ بمَعْنى بانَ.

وقوله: [بيِّن عَلَى رِسالتي]، المُفسِّر قيَّدها بقولِهِ: (على رِسالتي) والأَوْلى أن يُقالَ: إنها أعمُّ مِن ذلكَ؛ عَلَى كلِّ ما قلتَ من الرِّسالَةِ، ومن وصفِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأنه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، و﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، و﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، و﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾، ولكن كَلام المُفسِّر لا يأباهُ إذا قلنا: إن المُرادَ بالرِّسالَةِ كلّ ما جاء بِهِ مُوسَى.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْن له: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾]، أي: بهذا الشَّيْءِ المُبين [﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيه].

والجُملةُ الشَّرطيَّة موصولةٌ فيما قبلها وليستْ منقطِعةً، يعني: إن كنتَ منَ الصادقينَ فأتِ به، وفي مثلِ هَذَا التركيبِ يقول بعضُ النَّحْويين: إنه لا حاجةَ إِلَى جَوابِ الشَّرطِ؛ لِدَلالةِ ما قبلَه عليه، وبعضهم يقول: إن جَوابَ الشَّرطِ محذوفٌ، ودلّ عليه ما قبلَه، ولا أعلمُ أن أحدًا قَالَ: إن جَوابَ الشَّرطِ ما سبقَ؛ وذلك لِأَنَّ جَوابَ الشَّرطِ لا يَتَقَدَّم عَلَى العاملِ، ولكن الصَّحيح الأَوَّل: أنَّ التركيبَ فِي مثلِ هَذَا لا يحتاجُ إِلَى جَوابٍ، والفرقُ بينَ هَذَا وبينَ الَّذِي بعدَه أن الَّذِي بعده يقول: يجبُ أنْ يقدَّر الجَواب، ولكنه حُذِف للعلمِ به، ونحن نقول: إنَّ ما عُلِم فلا يحتاجُ إِلَى جَوابٍ إطلاقًا، فهذا هُوَ الصَّحيحُ، ومثلُ هَذَا يقعُ أيضًا فِي القَسَمِ.

وقوله: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، ذَكَرْنا أنَّ هَذَا الخُضُوعَ من فِرْعَوْن يَتَضَمَّنُ ثلاثةَ أمورٍ، ومنها أن الله ألانَ قلبَه، فقد تَحَدَّاه بقولِهِ: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن

كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، مع أَنَّهُ فِي الحَقِيقَةِ هَذَا التحدي لولا أنَّ الله ألانَه لكانَ ما تَحَدَّاه به؛ إذ مِنَ الجائزِ أن يقولَ له: لا تأتِ به، ومنَ الجائزِ بعدَ أنْ تَحَدَّاهُ أنْ يأتيَ بِهِ مُوسَى، فيكون كذلك حُجَّة عَلَى فِرْعَوْنَ.

فأتى بالآيتينِ العظيمتينِ، وهما آيةُ العصا، وآية اليَدِ، وقابَلَهُما فِرْعَوْن بمثلِ ما قابلَ بِهِ أوَّلًا، وَهُوَ التمويهُ، وادّعاءُ السِّحْر، وأنه ساحرٌ عَليمٌ جيِّدٌ فِي سِحْرِهِ. ثم قَالَ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء:٣٥]، ما قَالَ: أنْ يُخْرِجَنِي مثلًا، أو أنْ يُخْرِجَنا؛ تَرَفُّعًا وتعظُّمًا أن يبدوَ أمامَ مُوسَى بِمَظْهَرِ الضعفِ الَّذِي يهدِّد، ولكنه خاطبَ بِهِ قومَه.

ثم قَالَ: ﴿مِّنْ أَرْضِكُم﴾ ؛ تهييجًا لهم؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لا شكّ أَنَّهُ لا يمكّن أحدًا لِيُخْرِجَهُ مِن أرضِهِ، ولهذا قَالَ: ﴿يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ ولم يقلْ: من أرضِ مِصْرَ، ولا: منَ الأرضِ؛ تهييجًا لهم عَلَى مقابلةِ مُوسَى بما يقابلونه به، ولأجلِ أن يَكْرَهوا مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويَرَوْا أَنَّهُ عدوٌّ مُسْتَعْمِرٌ.

وقوله: ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾ الباء للسببيَّة، أي: بسببِ سِحره، وفِرْعَوْن هنا قَالَ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾، والمَلَأُ ما قالوا: (بِسِحْرِه)، أما هُوَ فقال: (بِسِحْرِهِ)؛ لأجل أن يُشَدَّهُمْ إلَى طلبِ السَّحَرَة الَّذين يقابلون فِرْعَوْن، قال فِي سُورَة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٠]، ولم يقل: (بسحره)، والفرق أن فِرْعَوْن أراد أن يشدّهم، وأن يُغريَهم بما يقابلون بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ لَيْسَ المُراد بالأمرِ هنا هُوَ طلب الفعلِ عَلَى وجهِ الاستعلاءِ؛ لِأَنَّ فِرْعَوْن لنْ يَخْضَعَ لقومِهِ حَتَّى يطلبَ منهم أمرًا، ولكن المُراد بالأمرِ

المَشُورَة، يعني: فبماذا تشيرونَ عليّ؟ وسُمي المُشيرُ آمِرًا لِأَنَّهُ مُوجِّه؛ فإنَّ مَنِ استشاره لا شك أَنَّهُ يطلبُ توجيهه، فتكون مشورتُهُ بالأمرِ أمرًا به.

والإشارة هنا لمصلحتِهِ؛ لِأَنَّهُ إذا استشارهم فَإِنَّهُ يريد أن يَخْتَبِرَهُمْ ماذا يكون عندهم، ويريد أيضًا أن لهم وزنًا لأجلِ أن يَتَشَجَّعوا عَلَى هَذَا الأمر.

فائدة: قال تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القَصَص:٣٢]، وقال: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل:١٢]؛ لِأَنَّهُ -والله أعلم- أن الجيبَ فِي مقدِّمة الجسم، ويمكن لو أَنَّهُ ألقاها خَلْفَ ظَهْرِهِ ثم أَخرجها أن يقول قائل: إنه عمِل فيها عملًا لم نشاهدْه، لكن هَذَا أمامهم وظهرَ.

وكنت أتصوَّر بالأوَّل أَنَّهُ لَـمَّا كَانَ فِي العادةِ أنّ اليدَ إذا أُدخلتْ وتغيبتْ عن الشَّمْسِ والهواء ابيضتْ، فالظَّاهر أن الجِلْد كلَّه المسْتُور من الْإِنْسَان أبيض، والبارز للشَّمْس والهواء أسمر، ولكن أنْ يتغيَّر بهذه السُّرعةِ فهذا خلافُ العادةِ، ففي العادةِ لا يتغيَّر إلا بعدَ مدَّة طويلةٍ، وهذه السُّرعة تدلُّ عَلَى أَنَّهَا ليستْ أمرًا عاديًّا، بل هُوَ أمرٌ خلافُ العادةِ، وهذه من آياتِ اللهِ.

الآيتان (٣٦، ٣٧)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ﴾ [الشعراء:٣٦-٣٧].

إذا أرادَ الله أمرًا هَيَّأَ أسْبابَه، لو سُلِّطَ فِرْعَوْن عَلَى مُوسَى وأخِيه لَقَضَى عليهما، ولكن الله تعالى جعلَ لكلِّ شيْءٍ سببًا.

أشار المَلَأُ عَلَى فِرْعَوْنَ أنْ يُؤَخِّرَ أمرَ مُوسَى وهارونَ، وأنْ يَبعثَ فِي ﴿ٱلۡمَدَآئِنِ﴾ جمع مَدِينة ﴿حَٰشِرِينَ﴾ جامعينَ، يعني: يُرسل إِلَى مَدَائِن مِصْرَ مَن يَجْمَع السَّحَرَة.

ولهذا جاء الجَواب: ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ﴾، وكان من المتوقَّع أن يقولَ: (يأتونك)، فما هُوَ الفرقُ بينَ (يَأْتُوكَ) وبين (يأتونك) من حيثُ المَعْنى؟

لو قَالَ: (يأتونك) لكانتْ صفةً لـ(حَاشِرِينَ)، أي: حاشرينَ يأتونك بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ، لكن المُراد خِلاف ذلك؛ لأن: (يَأْتُوكَ) أبلغُ من: يأتونك، حيثُ كانتْ جَوابًا للأمرِ، الَّذِي هُوَ لِلْمَشُورة، إذن (ابعث) أيضًا ليستْ أمرًا حقيقيًّا، فهي أمرٌ للمشورةِ: (ابعث يأتوك)؛ لِأَنَّهُ بمجرَّد بعْثك يأتونك به.

لكن لو كانتْ صفةً لـ(حَاشِرِينَ): (حاشرين يأتونك) لكان من الجائزِ ألَّا يأتوا، فصفةُ الحاشرِ مَن يَجْمَعُ ويأتي بالسَّحَرَة، لكن قد يَتَهَيَّأ له ذلك وقد لا يتهيَّأ،

أمّا إذا قَالَ: ابْعَثْ يأتوك، صار هَذَا مثلَ الشَّرطِ والجزاءِ، يعني: إنه إذا حصلَ بَعْثُكَ لَزِمَ منه النتيجةُ، وَهُوَ أنْ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ.

و(سَحَّار) هِيَ من بابِ المُبالَغةِ، أو هِيَ من بابِ النِّسبة، كما يُقال: بنّاء ونجّار وصنّاع، يعني: لِأَنَّ صنعتَه السِّحرُ، ولا يكون ذلك ولا يُنْسَبُ الْإِنْسَان إِلَى هَذِهِ الصِّفَةِ إلّا إذا كَانَ مُجيدًا فيها، فلا يُقال لِمَن بَنَى مرَّةً واحدةً: إنه بنّاء، ولا لِمَنْ نجَر مرةً واحدةً: إنه نجّار، وإنَّما يُقالُ ذلك فيمَن أتقنَ المِهْنَةَ والصَّنعة.

إذن فالسحّارُ إمّا صيغةُ مبالغةٍ أو صيغةُ نِسبةٍ، والفرقُ بينهما ظاهرٌ؛ لِأَنَّ (سَحَّار) على مَعْنى المُبالَغة بمَعْنى كَثير السِّحر، ولكن (سَحَّار) على مَعْنى النِّسبة بمَعْنى أَنَّهُ مُتْقِن لهذه الصنعة؛ لِأَنَّهُ نُسب إليها.

والظَّاهرُ أنّ النِّسبةَ أَولى، يعني: بذي سحر قد أتقنَ هَذِهِ المهنةَ، فتكون للنسبةِ، ويُغْنِي عن المُبالَغةِ قولهم: (عَلِيم) يعني فائِق السِّحر، وقد يُقال: إن هَذَا يُغْنِي عن النِّسبةِ وإن (سَحَّار) صيغة مبالغة لكثرة سِحْرِه وإتقانه.

قال: ﴿سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ أي سَحَّار وعليم، ولهذا قد يَتَرَجَّح أَنَّهَا للْمُبالَغةِ وتكونُ النِّسبةُ مفهومةً من قولِه: ﴿عَلِيمٍ﴾.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ يَفضُل مُوسَى فِي عِلْم السِّحر]، يعني: يَزِيد عليه، فعلى هَذَا طَلَبُوا أنْ يأتوا بسَحرةٍ يفوقون مُوسَى فِي الكمّ وفي الكيفِ، وفعلًا حصلَ هذا، وأتوا بِمَهَرَةٍ سَحَرَةٍ وبعددٍ كبيرٍ، ولكن لَيْسَ الأمر الَّذِي من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مثل السِّحر الَّذِي هُوَ خَيال لا حقيقةَ له.

الآيــة (٣٨)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء:٣٨].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ وَهُوَ وقتُ الضُّحى من يَوْمِ الزِّينَةِ].

﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾ (أل) للعُمومِ، والجامعُ إما فِرْعَوْن وإما الحاشرونَ الَّذين ذهبوا إِلَى المدائنِ يَحشُرون النَّاس.

وقوله: ﴿لِمِيقَٰتِ﴾ اللامُ للتوقيتِ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١]، أي: لوقتِ عِدَّتِهِنَّ.

جُمِعوا لهذا اليوم ﴿لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ لدى النَّاس، والذي فَرَضَ هَذَا اليوم -سبحان الله- مُوسَى والذي اقترحه مُوسَى، انظر كيف التَّفصيل! فمُوسَى هُوَ الَّذِي يُحَدِّدُ الزَّمانَ والمكانَ، ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾ [طه:٥٩]؛ لِأَنَّهُ واثقٌ بنصرِ اللهِ، ولهذا وَعَدَهُمْ يومًا يُسَمُّونه (يوم الزِّينة) بمنزلة عيدِ المسلمينَ، وأَمَرَهم أيضًا أن يكونَ فِي واضحةِ النَّهارِ ضُحًى؛ لِيَتَمَكَّنَ النَّاسُ من الرؤيةِ والمشاهدةِ عَلَى وجهِ التأنِّي والطُّمأنينة.

الآيتان (٣٩، ٤٠)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء:٣٩-٤٠].

القائل مُبهَم؛ لِأَنَّ القائلينَ كثيرون، يقولون: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ والاسْتِفهام هنا للأمرِ، يعني: اجْتمِعوا، أو هُوَ للتشويقِ؛ كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف:١٠]، لكن الأمر أوضح، يعني: أُمروا أنْ يَجتمِعوا ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الاسْتِفهام للحَثّ عَلَى الاجتماعِ والترجِّي عَلَى تقديرِ غَلَبَتِهم، لِيَسْتَمِرُّوا عَلَى دِينهم، فلا يَتَّبِعُوا مُوسَى]، وما ذكره المُفسِّرُ مُحْتَمَلٌ، وَهُوَ التشويقُ الَّذِي أشرنا إليه، ويَحتمل أَنَّهُ للأمرِ، يعني: يأمرون النَّاسَ أنْ يَجْتَمِعوا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قولهم: ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ أَلَا يُفهَم منه أَنَّهُم شاكُّون فِي انتصارِ السَّحَرَة عَلَى مُوسَى؟

فالجَواب: يمكن هَذَا أَنَّهُم شاكُّون، فهذا من بابِ التحرُّز، فما قالوا: لعلَّنا نَتَّبِعُ الغالبَ، أو الحقَّ، ثم إنَّه يَحتمِل قولهم: ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ أن هَذَا من بابِ الشَّرطِ المبيّن الواقِع؛ لأنَّهم سيغلبون.

وقال: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾، (لَعَلَّنَا) يعني مَعْشَر الأقباط جميعًا ﴿نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ دون مُوسَى، لكن بشرط: ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾، وهذا الشَّرطُ فِي ظَنِّهم أَنَّهُ مُتَحَقِّق، وأن السَّحَرَة سوفَ يَغلبون.

وفي قولهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ من إظهار التعصُّب ما لا يَخفَى؛ لِأَنَّ الواجبَ عليهم أن يقولوا: لعلَّنا نَتَّبع الغالبَ، لا أن يقولوا: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾، فقد يكونُ الحَقّ مع مُوسَى وقد يكون الحَقّ مع السَّحَرَة، فلو وُفِّقوا لقالوا: لعلَّنا نَتَّبعُ الغالبَ أو الحَقَّ، ولكنهم قالوا: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾.

ثم استدركوا فقالوا: ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ وهذا ما يُسَمَّى بـ(التحفُّظ) -في لُغَة العصر- يعني: كأنَّهم حَكَمُوا بأنَّ الغلبةَ للسحرةِ، لكن معَ تحفُّظ لِقَوْلِهم: ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾.

وفي قولِهم: ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ إشكال من الناحيةِ الإعرابيَّة؛ لأن: (هُمْ) ضمير، والخبر يكون مرفوعًا، فلماذا نُصب؟

نقول: (هُمْ) هنا ضميرُ فَصْلٍ لَيْسَ لها مَحَلّ منَ الإعرابِ، و(الْغَالِبِينَ) خبر (كانَ)، ومعلوم أنَّ خبر (كَانَ) يكون منصوبًا. وضميرُ الفَصْلِ له فوائدُ:

أولًا: تمييزُ الصِّفَةِ عنِ الخبرِ، مثل أن تقولَ: زيدٌ الفاضلُ، وزيدٌ هُوَ الفاضلُ، فإذا قلتَ: زيدٌ الفاضلُ، قد يكون (الفاضل) نعتًا والخبرُ لم يأتِ، أمَّا إذا قلتَ: هُوَ الفاضلُ فقد حَدَّدنا أن (الفاضِل) خبرٌ.

ثانيًا: وكذلك من فَوائده حَصْرُ المبتدأِ بالخبرِ، (زيدٌ هُوَ الفاضل) يعني: لا غَيْرُه.

ثالثًا: التَّأكيد، يعني أنَّك إذا قلتَ: زيد هُوَ الفاضلُ، كأنك تؤكِّد ذلك: أَنَّهُ الفاضلُ دون غيره.

قال: [﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ الاسْتِفهام للحَثِّ عَلَى الاجتماعِ]، قوله: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ يعني: اجتمعوا كترغيب وحَثٍّ [والترجي عَلَى تقدير غلبتهم]، الترجي فِي قوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ [ليستمِرُّوا عَلَى دِينهم فلا يَتَّبِعُوا مُوسَى].

وهل هَؤُلَاءِ الَّذين ذهبوا يجمعون النَّاسَ هل فيهم نوعٌ مِنَ الإنصافِ؟

قالوا: ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ فيه نوعٌ من الإنصافِ؛ لِأَنَّهُ ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ اتَّبَعْنَاهُم، وإلَّا فلا. لكن تقديم اتِّباع السَّحَرَةِ وترجّي اتباعهم هَذَا هُوَ الَّذِي فيه نوعٌ من التعصُّب، وكان عليهم ألَّا يذكروا السَّحَرَةَ إطلاقًا، وأن يقولوا: لَعَلَّنا نَتَّبعُ الغالِبَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فِي قوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ هل يمكنُ أن تكون للتعليلِ؟

فالجَواب: يُمْكِن، لكِن للترجِّي أَبْيَنُ.

الآيـة (٤١)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء:٤١].

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ يعني: لِفِرْعَوْن ﴿قَالُواْ﴾ له: ﴿أَئِنَّ﴾ قَالَ: [بتحقيقِ الهمزتينِ، وتسهيلِ الثَّانيةِ، وإدخالِ ألفٍ بينهما عَلَى الوجهينِ]، التَّحقيق والتسهيل، ﴿أَئِنَّ﴾ هَذَا تحقيقٌ، وتسهيل الثَّانية (أَيِنَّ)، وإدخال الألف بينهما على الوجهين: (آئِنَّا)، (آيِنَّا)، فتكون القِراءَة عَلَى هَذَا أربعًا[1].

قال: ﴿لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ هَذِهِ اللامُ للتَّوكيدِ: ﴿لَأَجْرًا﴾، والمُراد بالأجرِ هنا المَثُوبَة الدُّنْيَوِيَّة والقُربى والزُّلْفَى منه، أو نقول: المثوبة الدنيويَّة فقط، لكن هُوَ زادَهُمُ القُربى والزُّلْفَى منه: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، وهنا يقول: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ وقد يُقال: كيف دخلتْ لامُ التَّوكيدِ عَلَى الاسْتِفهامِ والاسْتِفهامُ إِلَى الآنَ ما وقع بعدُ، فكيف يؤكد؟

ولهذا نظائر فِي القُرآن، مثل قوله تعالى: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف:٩٠]، فكيف يَصِحُّ التَّوكيدُ معَ الاسْتِفهامِ والمستفهِم يسأل فإلى الآن ما تَبَيَّن له الأمرُ أَنَّهُ واقع، فكيف يؤكَّد؟

---

(١) السبعة في القراءات (ص:٢٨٩).

فيُقال: إن التَّأكيد هنا يُراد بِهِ تأكيدُ الجَوابِ، كأنه يقول: أتؤكّد لنا الأجرَ؟ أتؤكد لنا أنك أنت يوسف؟ أمَّا بالنِّسبة للسائل فلا يمكِن التَّوكيد؛ لِأَنَّهُ سائل مُسْتَفْهِم، ولا جمع بين الاسْتِفهامِ الَّذِي هُوَ جَهْل وبين التَّوكيدِ الَّذِي هُوَ عِلم مُحَقَّق.

فعليه نقول: الاسْتِفهام هنا عَلَى تقدير: أتؤكِّد لنا أنَّ لنا لأجرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ؟ الجَواب: قَالَ: نَعَمْ.

فهَؤُلَاءِ يُريدون الراكبَ قبلَ المَرْكَبَةِ، يَبْغُونَ الأجرَ، مثلما يقول بعض النَّاسِ إذا طُلب منه أن يكون إمامًا فِي مسجد: هل هناك شيْء؟ أو مؤذنًا، أو ما أشبه ذلك، فكذلك هَؤُلَاءِ؛ لِأَنَّ المقام مَقام انتصار حقّ عَلَى زَعْمِهِم، ومع ذلك قالوا: إنِ انتصرنا عَلَى الباطلِ -كما يَزْعُمُون- بالحقِّ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا؟ فقال لهم: نَعَمْ؛ يعني: لكم أجر.

و(نَعَمْ) حرف جَوابٍ، ويُقال: إن الجَواب سؤالٌ مُعادٌ، فالحرف نائبٌ عن السُّؤالِ، يعني: نعم لكم أجرٌ، ولهذا فِي هَذِهِ القاعدةِ، وَهُوَ أن حرف الجَواب إعادة لسؤال، لو قيل للرجل: أطلّقتَ امرأتك؟ فقال: نعم، وما قَالَ: هِيَ طالق، قَالَ: نعم، فهل تطلق؟

نقول: تطلق، لِأَنَّ حرف الجَوابِ إعادةٌ للسُّؤالِ، كذلك أيضًا لو قيل له: أقَبِلْتَ النِّكاح؟ فقال: نعم، انعقدَ النِّكاحُ. ولو قيل له: أعتقتَ عبدَكَ؟ فقال: نعم، عَتَقَ، أوقفتَ بيتَكَ؟ قَالَ: نعم. فلو أراد الكذِبَ فِي مثلِ هَذِهِ الأحوالِ، إنْ قلنا: أوقفتَ بيتَكَ؟ قَالَ: نعم، وَهُوَ يكذب، أطلقتَ امرأتك؟ قَالَ: نعم، وَهُوَ يكذب، فهل يقع الطلاقُ والوقفُ والعِتقُ، وما أشبهَ ذلك، أم لا يقع؟

نقول: أمّا الطلاق ففيه تفصيلٌ، وحقُّ الغيرِ يَقَعُ؛ لِأَنَّهُ يُؤْخَذ بالظَّاهِرِ، فيُقال: هَذَا يدين، حُكْمًا لا يُقبل، وأمَّا فيما بينه وبينَ اللهِ إذا لم يُحاكَم فَإِنَّهُ يُقْبَل، يعني: لو أنَّ زَوْجَتَه وَثِقَتْ بِهِ وقالتْ: إن الرَّجُلَ لَـمّا قيل له: أطلقتَ امرأتَكَ؟ قَالَ: نعم، أراد أنْ يَكذِب عَلَى صاحبِهِ، فإنها تَبقَى معه؛ لِأَنَّ ما ادّعاه مُحْتَمَلٌ، وإذا كَانَ محتملًا ولم ينازِع فيه مَن له الحَقّ وصدَّقه؛ فَإِنَّهُ يُقبل منه.

فـ(نعم) حرفُ جَوابٍ لُغةً وعُرفًا، ولا تأتي فِي اللُّغة ولا فِي العُرف استفهاميَّة، إلا إذا قُرِنت بشيْءٍ، مثل: نعم ماذا تقول؟ يعني: كأنه يقول: نعم هاتِ ما عِندَكَ، يعني: يستجيب.

فَإِنْ قِيلَ: هم يُسَمُّونَ العالِمَ عندهم ساحرًا؛ استدلالًا بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف:٤٩]، أو أَنَّهُ اتِّهام لِمُوسَى بأنه ساحرٌ؟

فالجَواب: لا، هَذَا غير صحيحٍ، فهم مُعْتَقِدُونَ أَنَّهُ ساحرٌ، وقولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ من بابِ التهكُّم.

الآيــة (٤٢)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء:٤٢].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا ﴾ أي: حِينَئِذٍ]، ولكن هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، فتفسير (إِذًا) بـ(حينئذٍ) غيرُ صحيحٍ؛ لِأَنَّ (حينئذٍ) للماضي، لكن (إِذًا) أي: إذا غلبتموه إذا كنتم الغالبين ﴿ لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ يعني: لديّ، فكأنه زادهم عَلَى ما طلبوا القُربى منه، وإنَّما وعدهم بذلك تشجيعًا لهم عَلَى هَذَا الأمر، فأجابهم عَلَى ما سألوا وزيادةً؛ تشجيعًا لهم.

والتنوين فِي (إِذًا) عِوَض عن جمعٍ، يعني: إذا غلبتموه.

وقوله: ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ اللام للتَّوكيدِ.

وقال: ﴿ لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ إشارةً إِلَى أَنَّهُ سَيَجْعَلُهُمْ فِي حاشِيَتِهِ؛ لِأَنَّهُ ما قَالَ: لَأُقَرِّبَنَّكُمْ، قَالَ: ﴿ لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ يعني: إنكم تكونونَ فِي جملةِ الحاشيةِ الَّذين هُم أقربُ النَّاس إليّ.

الآيــة (٤٣)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [الشعراء:٤٣].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ -بعدما قالوا له: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف:١١٥]-: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾، فالأمر فيه للإذنِ بتقديمِ إلقائِهِمْ تَوَصُّلًا بِهِ إِلَى إظهارِ الحقِّ].

قوله: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ مِثْلَمَا قال المُفسِّر: بعدَ أن قالوا: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف:١١٥]، قَالَ: ﴿أَلْقُواْ﴾، هَذَا الأمر يقول المُفسِّر: إنه للإذنِ.

ويَحتمل أن يكون للتحدِّي، ولهذا قَالَ: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾. و(ما) لصلة الْعُمومِ، يعني: ألقوا ما تريدون ممَّا تُلْقُونه، فأنا لا أَكْتَرِث بِهِ ولا أَهْتَمّ به، ويدلُّ عَلَى ذلك أَنَّهُ طَلَبَ أن يكونوا هم المُلْقِينَ؛ لأجلِ أن يكونَ هُوَ الغالبَ بعدهم؛ لِأَنَّهُ لو أَلقى عصاهُ فصارتْ ثعبانًا مُبِينًا فماذا تَصْنَع وليسَ أمامها شيْء؟

فأمرهم أن يُلْقُوا هم أولًا؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ واثقٌ بوعدِ اللهِ، فهو يَنْطِق من مَنْطِقِ القوّة، يقول: أنا لا أَكْتَرِث بكم، أَلْقُوا ما تريدون: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾، والإبهامُ هنا للْمُبالَغة، يعني: ألقوا الَّذِي تريدون ممّا تُلْقُونه، وفي قوله: ﴿مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ بالجُملةِ الاسْميةِ دليلٌ عَلَى أَنَّهُ مهما كانوا متَّصِفين بِهِ من الإلقاء؛ فَإِنَّهُ لا يهتمّ به.

الآيــة (٤٤)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الشعراء:٤٤].

يقول: ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ ﴾ أعوذُ باللهِ ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾. ﴿حِبَالَهُمْ ﴾ يعني: الَّتِي يَسْحَرُون النَّاس بها، ﴿وَعِصِيَّهُمْ ﴾ الَّتِي يسحرون النَّاس بِهَا، وهم يُلْقُون هَذِهِ الحبالَ وهذه العِصِيّ فتكون فِي أَعْيُن النَّاسِ ثَعابينَ وحيَّاتٍ، وأيضًا تَظْهَر بِمَظْهَر الكثرة وتملأ الواديَ، وهي حقيقةً ليستْ ثعابينَ وحيَّاتٍ، إذن السِّحرُ هُوَ حقيقة، وليس خيالًا.

والحِبال: جمعُ حبلٍ، والعِصِيّ: جمعُ عَصًا، وتلك الحبال والعِصِيّ يُلْقُونها لِيُوهِمُوا النَّاسَ بِسِحْرِهِم أَنَّهَا حيَّات وثعابين، حَتَّى مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خاف وأوجسَ من هَذَا خِيفةً لَـمَّا رأى هَذِهِ الحيَّات والثعابين تُقبِل إليه، ولكن الله قال له فِي تلك الساعة: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ [طه:٦٨-٦٩]، وقالوا لَـمَّا أَلْقَوْها: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ والباء للسببيَّة، وعِزَّة فِرْعَوْن: غَلَبَتُه وقَهْرُه، وفي تقديمهم هنا للعزةِ دليلٌ عَلَى أَنَّهُم لا يَعْتَزُّون بغيرِه، وأنَّهم لا يَرَوْنَ أنَّهم يَنْتَصِرون بِسِوَى عِزته.

والسِّحر حقيقةٌ، لكن باعتبارِ ما سُحِر بِهِ خيالٌ، حقيقةٌ لِأَنَّهُ أثّر فِي الرؤيةِ،

وأثّر بدلًا مِن أن يَرَى الْإِنْسَان هَذِهِ الحبالَ حِبَالًا وعِصِيًّا صار يراها ثعابينَ وحيَّاتٍ.

إذن فهذه حقيقةٌ، لكن بالنِّسبةِ لِمَن يراهُ فليسَ مُتَغَيِّرًا عن حقيقتِه، فالحبالُ حبالٌ، والعِصِيّ عِصِيّ، ولو رآها مَن لم يَصِلْ إليه السِّحرُ لرآها حقيقةً: حِبَالًا وعِصِيًّا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل يُقْتَلُ العائنُ؟

فالجَواب: لا، الصَّحيحُ أَنَّهُ لا يقتلُ إلَّا إذا تَعَمَّدَ القتلَ، إذا قَالَ: أنا أقتلُ فلانًا.

فإذا أكّد يُحْبَس، وَهُوَ يجب حبسه عَلَى كل حالٍ، مثلما قال أهل العلم، ولكن الغريب أن هَذَا مشهورٌ فِي الزمنِ السابقِ بينَ النَّاسِ، والوُلاة أقوياءُ والأمراءُ أَقوى مركزًا من اليومِ، حَتَّى أمراء البُلدان، والقضاةُ موْجودونَ وكَلامُ الفقهاءِ أيضًا الحنابلة، فالمذهب أَنَّهُ يجب أن يُحْبَس هَؤُلَاءِ، ولكن مع ذلك ما فِي عُمُرنا سمِعنا أَنَّهُم حُبِسوا، وإلَّا لو حُبسوا لقلَّ الشرُّ.

وأمَّا إذا كَانَ ما قَصَدَ قَتْلَه ولكن ماتَ، فهذا خطأٌ، يَرْمُونَه بالدِّيَة، عَلَى أن بعض العلماء يقولون: لا يُقتل حَتَّى وإنْ كَانَ تعمَّد قتلَه؛ لِأَنَّ هَذَا السلاح سلاح خَفِيّ باطنٌ، وبعضهم قَالَ: يقتل بمثله بإيجاد واحد يحسده قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل:١٢٦]، لكن نخاف أن يُشَجِّع هَذَا الَّذينَ يصيبون الناس بالعين.

فإن قال قائل: فبِمَ يعالَج الْإِنْسَان إذا أُصيب بعينٍ؟

فالجَواب: بالقِراءَة، ويعالج بالحِسّ معالجةً حِسِّيَّة، فيُؤتَى بالعائنِ ويتوضأ، ويُؤخذ ما يتناثر منه، ويسقى عَلَى هذا، ويُرشّ بِهِ رأسُه من فوق عَلَى جهةِ ظَهره،

وبإذن الله يَبْرَأُ. وعند النَّاسِ شيْء لَيْسَ معروفًا فِي السنّةِ لكنَّه مُجَرَّب، أَنَّهُ يأخذ من ثِيابه التي تحمل من عرقه إن كانت طاقية أو غُترة أو (فنيلة) أو سروالًا، ويغسل، ويُؤخذ غُسالته ويشربه المصابُ، ويَنْتَفِعُ.

والعَيْنُ لا تأتي إلَّا عَلَى غَفْلَةٍ، وأكثر ما تأتي أيضًا مَن يخافُ منها.

إذن فالعلاج أَنَّهُ يتوضأ ويرش عَلَى بدنه؛ عَلَى الأعضاءِ زِيَادَةً عَلَى الوضوء.

ويَزْعُمُونَ أن الْإِنْسَانَ العائِنَ إذا صُلِّيَ عليه صلاةَ الجنازةِ أَنَّهُ يكفِّر، ولكن هَذَا لَيْسَ بصحيح.

والعَيْن مَنْشَؤُها الحسدُ، ولهذا قيل فِي قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:٥]: العائن إذا عان.

الله يرحمه شيخنا، كَانَ يدرسنا باللَّيلِ بينَ العشاءينِ، ومرَّت الطيورُ هَذِهِ الَّتِي تَصِيح باللَّيل، وأظنُّها يسمونها البطّ، ورفعت رأسي، فقال هو: إن صَيدَ العلمِ أفضلُ -أو خيرٌ- من صيدِ الطيورِ! وَهُوَ صحيحٌ ما فيه شكّ، وأنا أَجزِم جَزمًا أن الْإِنْسَان الَّذِي يَلْتَفِت يقينًا (بيروح)، وَهُوَ ما يَلْتَفِت إلا مُؤْتَمِرًا بأمرِ قلبِه، لا يمكن أنْ يلتفتَ إلا بهذا.

وقولهم: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أكَّدوها بـ(إنّ) واللامِ؛ لأنَّهم يَعْتَقِدُون تلكَ الساعةَ أَنَّهُ لا أحدَ أقوَى مِن فِرْعَوْنَ، وأنَّهم بِعِزَّتِهِ سَيَغْلِبُون لا مَحَالَةَ، ولهذا أكَّدوها بقولهم: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وأتَوْا بالجُملةِ الاسْميَّة إشارةً إِلَى أن هَذِهِ الغَلَبَة ستدومُ وتستمِرُّ؛ لِأَنَّ الجُملةَ الاسْميَّةَ تَدُلُّ عَلَى الثبوتِ والاستقرارِ والدوامِ.

وفي قولهم: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ﴾ إذا أَعْرَبْنَا (نحن) ضميرَ فصلٍ ففيه ما يُستفادُ من

ضميرِ الفصلِ، وَهُوَ التَّأكيدُ والحصرُ والفصلُ، يعني: إنا لنحنُ الغالبونَ دونَ غيرنا بهذه العزةِ العظيمةِ، الَّتِي كانوا يَعْتَقِدُونَهَا حينذاكَ.

ومن فوائد الآيةِ:

أن مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما قَالَ: ﴿أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ أَلْقَوْا حِبَالهم وعِصِيَّهم، واستعانوا بغيرِ مُعِين؛ فقالوا: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

الآيــة (٤٥)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء:٤٥].

قال الله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ ألقى مُوسَى عصاه بوحيٍ خاصٍّ منَ اللهِ، كما فِي سُورَةِ طه: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ [طه:٦٨-٦٩]، فألقى مُوسَى عصاهُ، ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بحذفِ إحدى التاءينِ من الأَصْلِ، تَبْتَلِع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾]: (تَلَقَّف)[1] ولم يُشِرْ المُفسِّر إِلَى القِراءَة الثَّانيةِ، وهي (تَلْقَف)، أمَّا قِراءَة: (تَلْقَفُ) فليس فيها حذف إحدى التاءينِ، وأما (تلَقَّف) ففيها حذف إحدى التاءين، وأصله: (تَتَلَقَّف)، ومعناهما واحد، يعني: تَبْتَلِع، لكن (تلقّف) تفيد معنًى زائدًا عَلَى (تلْقَف)، فهي تفيد التَّتَبُّعَ، يعني: كأنها جَعَلَتْ تتبع حَتَّى أَفْنَتْهَا كلَّها؛ لِأَنَّهُ إذا كانتِ الحبالُ أمامَها كثيرةً فلا تتبعها، فأيُّ جهةٍ تأخذُ تلقفُ، لكن لَـمَّا فَنِيَتْ وقلّتْ صارتْ حَبلًا هنا وحبلًا هنا، فهي تَتَلَقَّفُهُ: تتبعه.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ يَقْلِبُونه بِتَمْوِيهِهِمْ، فيُخَيِّلُون حِبَالَهم وعِصِيَّهم أَنَّهَا حَيَّاتٌ تَسْعَى]، ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ الإفكُ: الكَذِب، وهذا كَذِب بالفعلِ وليسَ بالقولِ، فهذا كذب فعليٌّ؛ لِأَنَّ الكذبَ القوليَّ يكون باللسانِ، وَهُوَ إخبارُ

(١) السبعة فِي القراءات ص٢٩٠.

الْإِنْسَانِ بما لا يُوافِق الواقعَ، والكذبُ الفعليُّ يكون بالفعلِ، وَهُوَ إظهارُ الْإِنْسَانِ الفعلَ بخلاف الحَقِيقَةِ، فهَؤُلَاءِ أظهروا الحبالَ والعِصِيَّ حَيَّاتٍ، لكنها ليستْ كذلك، ليستْ حياتٍ، وإنَّما هِيَ حبال وعصيٌّ.

وقد زعم بعضُ العلماءِ أن السِّحرَ لا حقيقةَ له، واستدلُّوا بقوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦]، والصَّوابُ أن له حقيقة، وحقيقتُه هَذَا التخييلُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل يؤثِّر السِّحرُ؟

فالجَواب: نعم، يؤثِّر فِي التصوُّر، وفي الإحساسِ، وما أشبهَ ذلك، أمَّا أن يؤثِّر بقلب الحقائق، فلا؛ لِأَنَّ هَذَا من صفاتِ الخالِقِ.

الآيات (٤٦- ٤٨)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الشعراء:٤٦-٤٨].

لَـمَّا رأى السَّحَرَة، وهم أعلمُ النَّاسِ بالسِّحرِ وآثارِه وتأثيرِه، لَـمَّا رَأَوْا ما تَفْعَلُه هَذِهِ العصَا الَّتِي وَضَعَها مِن يَدِهِ وهم يُشاهِدون، عرَفوا أن الأمر لَيْسَ بسحرٍ؛ لِأَنَّ سِحْرَهم أقوى ما يكونُ من السِّحرِ وأكثره.

وكان السِّحرُ فِي ذلك الوقتِ أيضًا شائعًا، ولهذا جاءتْ آيةُ مُوسَى بشيْءٍ يُشْبِهُه؛ بنوعٍ منه، ولكن هم عرَفوا أن هَذَا لَيْسَ بسحرٍ، وأنه فوقَ طاقةِ السَّحَرَةِ، فماذا حصل؟ ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾.

قال: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ ولم يقلْ: فسجدَ السَّحَرَةُ، كأن هَذَا السُّجود أمر اضطراريّ؛ لقوّة ما دَفَعَهم إليه، يعني: لا كأنه أمر اختياريّ، لكن لقوة الدافعِ صار كأنَّهم أُلْقُوا إلقاءً بدونِ اختيارٍ.

و﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ (أل) للعُمومِ، يعني: جميع السَّحَرَة مع مَهَارَتِهم ومَعْرِفَتِهم أُلْقُوا سَاجِدِينَ لله، بدليل قولهم: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾، وليسوا ساجدينَ تعظيمًا لعصا مُوسَى؛ لِأَنَّ تصريحهم بالإيمانِ دليلٌ عَلَى أَنَّهُم ساجدونَ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ هَذَا البدلُ من أحسن ما يكون بعد الْعُمومِ

﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لِأَنَّ مُوسَى كَانَ يقول: إنه رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فقالوا: ربّ العالمينَ، وكان فِرْعَوْن أيضًا يقول: إنه ربُّ العالمينَ، فأخرجوا ربوبيَّة فِرْعَوْن بقولهم: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ وإنْ كَانَ يدّعي أَنَّهُ ربّ العالمينَ، لكنّه لَيْسَ ربَّ مُوسَى وهارونَ؛ لِأَنَّ مُوسَى وهارون يُنكرانِ رُبُوبِيَّتَه، فلذلك كَانَ هَذَا البدلُ من أحسن ما يكون فِي بيانِ المُرادِ.

وإتيانهم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ دون أن يأتوا مباشرةً بربّ مُوسَى وهارونَ، إشارة إِلَى أَنَّهُم آمَنُوا برسالةِ مُوسَى؛ لِأَنَّ مُوسَى قَالَ: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ما قَالَ: أنا رسولُ ربي، قَالَ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هَذِهِ هِيَ فائدةُ البدلِ بقوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، والترتيب هنا بين مُوسَى وهارون ترتيبٌ يطابقُ الواقعَ؛ فإنَّ مَرْتَبَةَ مُوسَى أعلى من مرتبةِ هارونَ؛ لِأَنَّ مُوسَى من أُولي العزمِ.

ولكن الترتيب اختلفَ فِي سُورَة طه: ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠]، من أجل مراعاةِ الفواصلِ، وفي هَذَا دليلٌ عَلَى أنَّ القُرآنَ الكريمَ وكل كَلام فصيح قد تُراعى فيه الفواصلُ والنغماتُ، لكن فِي الأمرِ المعلومِ، فمن المعلوم أن مُوسَى أفضلُ من هارونَ، وترتيبه فِي الذكرِ لا أحدَ يَتَوَهَّمُ منه أن هارونَ أعلى منه مرتبة، فالتقديمُ له غايةٌ، ولهذا قال الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ»[1].

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ لِعِلْمِهم بأنّ ما شَاهَدوه منَ العَصا لا يتأتّى بالسِّحرِ]، فلما آمنوا هَذَا الإيمانَ أَعْلَنُوه إعلانًا غيرَ مُبالينَ بما يَنْتُجُ وراءَ ذلك؛ لِأَنَّ الإيمانَ الصادقَ يَقضي عَلَى كلِّ عاطفةٍ، فعاطفةُ حبِّ النَّفسِ أمرٌ جِبِلِّيٌّ فِطْرِيّ، لكن الإيمان يَقضي عليها، ولهذا الْإِنْسَان يُعَرِّض نفسَه للهلاكِ حينما

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

يخرجُ مجاهدًا فِي سبيلِ اللهِ وَهُوَ يعرِف أن سيوفَ القومِ قد تَبْتُرُ رَقَبَتَهُ، لكنه لا يبالي، وكذلك الْإِنْسَان يَنسَى العاطفةَ بينه وبين أقاربِه، حَتَّى إن الرَّجُل لَيَقْتُلُ أباهُ إذا كَانَ من الكفّار.

فهنا قالوا معلنينَ هَذَا الإعلانَ غيرَ مُبالينَ بما يَنْتُجُ، وفي ظنِّي أَنَّهُم سَيَعْلَمُون أَنَّهُ سَيَنْتُجُ عن ذلك أمرٌ عظيمٌ؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ جاء بهم كسلاحٍ له، فإذا خَانُوه فِي هَذَا المجتمعِ العظيمِ، وَهُوَ يومُ الزِّينة، فسَيَنْتُجُ عن هَذَا العُقوبات، إلا أَنَّهُم غيرُ مبالينَ بهذا؛ لِـمَا أشرنا إليه قبلُ.

فائدة: فِي سُورَة طه قال تعالى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه:٧٢-٧٤]، قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ تَبعٌ مِن كَلامهم هم، لكن: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ قد يَحْتَمِل أن يكونَ من كَلامهم أو من كَلام اللهِ.

فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أن الحَقّ إذا تَبَيَّنَ كَانَ أعلم النَّاس بِهِ مَن يَعْرِف هَذَا الحقَّ؛ فإن مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أوَّل مَن تَبَيَّنَ له أن ما جاء بِهِ الحقّ، وأنه لَيْسَ بسحرٍ؛ هم السَّحَرَةُ الَّذين عَرَفُوا السِّحرَ وباطلَه، فالذي يعرِف الحَقّ هُوَ الَّذِي يعرِف الباطلَ، أما مَن لا يعرف الباطلَ فَإِنَّهُ قد تَلْتَبِس عليه الأمورُ، ولهذا قيل: «بِضِدِّها تَتَبَيَّنُ الأشياءُ»(١).

---

(١) ديوان المتنبي (١/ ٢٢).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: مُبادَرَةُ السَّحَرَة إِلَى الإيمانِ، حَتَّى إن الإيمانَ كَانَ كأنَّه أمر اضطراريّ؛ لقوله: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾؛ لقوَّةِ ما شاهدوا من الآيَاتِ الَّتِي لم يَتَمَكَّنُوا معها أن يتأخَّروا، فلمَّا رَأَوُا الآيَاتِ ما أَمْكَنَهُمْ أن يتأخَّروا عنِ الإيمانِ، فكأنَّهم أُلقوا اضطرارًا.

• ● ❁ ● •

الآيتان (٤٩، ٥٠)

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٤٩-٥٠].

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ﴾ هَذَا قول فِرْعَوْن، وكلمة ﴿قَالَ﴾ أتتْ بالفصلِ وليسَ بالوصلِ؛ لِأَنَّ الوصلَ هُوَ العطفُ بالواوِ، ومعَ ذلك فهي مفصولةٌ لكن تدلُّ عَلَى وقوعِ هَذَا الشَّيْءِ مباشرةً كأنه جَوابٌ عن فِعلهم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ ءَامَنتُمْ﴾ بتحقيق الهمزتينِ، وإبدال الثَّانيةِ ألفًا ﴿لَهُۥ﴾ لِمُوسَى ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ﴾ أنا ﴿لَكُمْ﴾]، هَذَا أمرٌ لا يكونُ عادةً من هَؤُلَاءِ ولا من غيرهم أن يؤمنَ أحدٌ لعدوِّ فِرْعَوْن بدونِ إذنِه، وفي قوله: ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ إشارة إِلَى أن الرَّجُلَ قد سيطرَ عليهم سَيطرةً تامَّةً، وأنَّهم لا يَتَصَرَّفون بشيْءٍ إلا بإذنِهِ. والاسْتِفهامُ فِي قوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ للإنكارِ والتوبيخِ.

فَإِنْ قِيلَ: فِي سُورَة الأعراف: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [الأعراف:١٢٣]، وهنا: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾؟

فالجَواب: فِي الأَصْل بينهما فرقٌ: آمَن به: أقرَّ بِهِ واعترفَ الإيمان الكامل، وآمن له: مُضَمَّنة مَعْنى انقاد. فإذا جمعتَ بين الآيتينِ هنا صارتْ أبلغَ، يعني:

كأنَّهم آمَنُوا إيمانًا به، ثم آمنوا له فانقادوا له.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ انظر التمويه، هَذَا غريبٌ، فهذا فِي الحَقِيقَةِ مظهرُ ضعفٍ منه، كيف يكون كَبيرَهم الَّذِي عَلَّمَهُمُ السِّحرَ وهم قد حُشِروا من المدائنِ وليسوا مع مُوسَى فِي مدينتِه، وكيف يُقال: إنه علَّمَهُم، بل إنهم فِي مدائنَ متباعدةٍ، وكيف يمكن أن يُقال: إنه كبيرهم الَّذِي علّمهم السِّحرَ وهم قد وضعوا حبالَهم وعِصِيَّهم لِيَقْضُوا عليه؟! فإن مَن عَلّمهم السِّحرَ لا بدَّ أن يخافوا منه، وكيف يُقال: إنه علّمهم السِّحرَ وهم قد استعزُّوا بعِزَّة فِرْعَوْنَ ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وهم يعلمون أن فِرْعَوْن خَصمٌ لِمُوسَى، لكن هَذَا من باب التمويهِ عَلَى قومه، كما قال الله فيهم: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف:٥٤]، يعني: عقولهم بالنِّسبة لِفِرْعَوْن لا شيْء، فهم خَفِيفُو العقولِ والتفكيرِ، ولا يعرفون شيئًا سوى فِرْعَوْن، أَنَّهُ إِلَهُهم!

قال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وقلنا: إن هَذَا باطلٌ من الأوجهِ الَّتِي ذَكَرْنا، وإنه لا يُمْكِن، لكن هَذَا مَظْهَر ضعفٍ من فِرْعَوْنَ بلا شكّ، يعني: كأنَّه يقول الآن: أنتمُ اجْتَمَعْتُمْ عليّ، وتحاشدتُمْ عليّ، أنتم ومُعَلِّمُكُمْ، ثم لجأَ إِلَى التهديدِ كعادته قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما ينالكم مني ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾].

قوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هَذَا تهديدٌ بأمرٍ مُبْهَمٍ، والإجمالُ ثم التفصيلُ من فوائدِهِ تشوّقُ المخاطَب إِلَى تَبَيُّنِ هَذَا المُجْمَل، وإذا كَانَ وَعيدًا فَإِنَّهُ يَتَشَوَّقُ ذلك لكنه يكون خائفًا جِدًّا؛ لِأَنَّهُ لا يَدْرِي ما هَذَا المبهَمُ الَّذِي وُعِدَ به، بَيَّنَهُ بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ واللامُ واقعةٌ فِي جَوابِ القَسَمِ، بدليل أَنَّهُ مؤكّد ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾.

وقوله: ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ يعني: مُتَخَالِفَةً؛ إذا قطعَ اليدَ اليُمنى قطعَ الرجلَ اليسرَى، وإذا قطعَ اليدَ اليسرَى قطعَ الرجلَ اليمنَى، وليس مَعْنى: ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أني أُخالِفُ بينكم فمِنكم مَن أُقطّع يديه ومنكم من أُقطع رِجليه، بل هَذَا واقعٌ عَلَى مَحَلٍّ واحدٍ، فالخلافُ فِي محلٍّ واحدٍ، يعني: كل واحدٍ مِنكم أُقَطِّعُ يَدَهُ ورجلَه متخالفتينِ، وهذا فِي شَريعتنا حدّ قطّاع الطَّريقِ، يعني: أحدُّ ما يُحَدّ بِهِ قُطّاع الطَّريقِ هُوَ هذا؛ أنْ تُقَطَّع أَيْدِيهم وأَرْجُلُهُمْ مِن خِلافٍ.

قال تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: بعد أنْ أفعلَ هَذَا لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أجمعينَ، يعني: كما قال فِي آيةٍ أُخرى: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]، وهنا يشيرُ إِلَى أنَّ فِي مِصْر نَخْلًا، فهو وَعَدَهُمْ بذلكَ. والصَّلْبُ: الرَّبْطُ، وهل يُشْتَرَطُ أنْ يكونَ المصلوبُ ممدودَ اليدِ أو لا؟ لَيْسَ بشرطٍ، فالمهمُّ أن يُرْبَطَ رَبطًا محكمًا عَلَى خشبةِ الصَّلِيب.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الصَّلْبُ بعدَ الموتِ أم قبله؟

فالجَواب: قبلَ الموتِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾.

وإنْ قالَ قائلٌ: الصَّلْبُ فِي آياتِ قُطَّاع الطَّريقِ قبلَ الموتِ أم بعدَه؟

فالجَواب: الصلبُ فِي آياتِ قُطَّاع الطَّريقِ اختلفَ فيه العلماءُ: هل يكونُ قبلَ الموتِ أم بعدَهُ، والمشهورُ فِي مَذْهَبِنا أَنَّهُ بعد الموتِ، ولكن الصَّحيح أَنَّهُ قبلُ؛ لأنَّهم إذا صُلبوا قبلُ نالُوا الأَلَمَيْن: الحِسِّيّ والنَّفسيّ، أو القلبيّ، لكن إذا صُلِبوا بعد الموتِ فلا يُؤْلِمُهم شيْءٌ أبدًا.

ثم إن تَصْلِيبِهِمْ بعدَ الموتِ لا فائدة منه، لهذا لَـمَّا قيل لأسماء بنتِ أبي بكرٍ -رضِي الله عنه وعنها-: إن الحَجَّاج فعلَ كَذَا وكذا بعبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ بعدَ موتِهِ،

قالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَمَا يَضُرُّ الشاةَ سَلْخُ جِلْدِها بعد موتِها؟»[١]؛ لِأَنَّ هَذَا الشَّيْءَ لا يؤثِّر.

فكان جَوَابهم أن قالوا: ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَا ضَيْرَ﴾ لا ضررَ علينا فِي ذلكَ]، ما شاء الله! يعني: لقوَّة إيمانهم قالوا: هَذَا لا يَضُرُّنا، ولا يؤثِّر، وفي هَذَا من التحدِّي وإظهار القوَّة والشجاعة ما هُوَ ظاهرٌ؛ لأنَّهم يخاطبون أعتَى أهل الأرضِ، وَهُوَ فِرْعَوْنُ، يقولون: لَا ضَيْرَ، افعلْ ما تريدُ، لا يُهِمُّنَا، وصَدَقُوا أَنَّهُ لا ضيرَ عليهم فِي ذلك ما دامَ تَعذِيبُهم هَذَا فِي ذاتِ اللهِ، فهم هنا إنَّما يعذَّبون فِي ذاتِ اللهِ فقطْ، وهذا لا يَضُرُّهُمْ أبدًا، بل يَزيدهم رفعةً، ولذلك كَانَ ذِكْرهم إِلَى يومِ القيامةِ، فأشادَ اللهُ تعالى بذِكْرِهِمْ فِي القُرآنِ، وسَيَبْقَى إِلَى يومِ القيامةِ، وهذا فيه أكبرُ منفعةٍ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ بعدَ مَوتِنا بأيِّ وجهٍ كَانَ ﴿مُنقَلِبُونَ﴾ راجعونَ فِي الآخرةِ]، يعني: يقولون: مهما كَانَ حَتَّى لو بَلَغْنَا إِلَى الموتِ فإنَّ النهايةَ أننا سَنَرْجِعُ إِلَى رَبِّنا، ورُجُوعُنا إِلَى ربِّنا خيرٌ من الدنيا؛ لأنَّهم يَرْجِعُون إِلَى نَعيمٍ أَبَدِيٍّ لا يُمَاثِلُه شيْءٌ من نَعيم الدُّنيا، وفي سُورَةِ طه: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه:٧٢]، يعني: اقضِ ما تريدُ، غاية ما يكونُ أنْ يكونَ تَعْذِيبُكَ مُوصِلًا إِلَى الموتِ، وإذا أوصلَ إِلَى الموتِ فالنتيجةُ ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾، ممَّا يدلُّ عَلَى أَنَّهُم صادقونَ فِي الإيمانِ، وأن إيمانَهم راسخٌ جِدًّا.

وفي هَذَا من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبيانِ قُدْرَتِهِ ما هُوَ ظاهرٌ، ففي لحظةٍ واحدةٍ انقلبَ الكفرُ العظيمُ إِلَى إيمانٍ عَميقٍ، فبمجرَّد أنْ رَأَوْا ما تَفْعَلُه عَصَا مُوسَى انقلبوا

---

(١) شرف المصطفى لأبي سعد الخركوشي (٢/ ٣٣٠).

بعدَ الكفرِ مُؤمِنينَ، ولهذا قال بعضُ العلماءِ: أَصْبَحوا كفّارًا سَحَرَةً، وأَمْسَوْا شُهَدَاءَ بَرَرةً[1]. وهذا صحيحٌ أَنَّهُم كانوا بَرَرَةً وأتقياءَ، وكانوا من أقوى النَّاسِ إيمانًا وجِهادًا فِي سبيلِ اللهِ.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، وفي هَذَا أيضًا دليلٌ عَلَى إيمانهم بالبَعْثِ؛ لِقَوْلِهِم: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، فهم مؤمنونَ بِلِقاءِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَهُوَ من أصولِ الإيمانِ.

فوائد الآيتينِ الكريمتينِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: شِدَّة تَمويهِ فِرْعَوْن حينَ قَالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ معَ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ بينَ مُوسَى وبينَ هَؤُلَاءِ السَّحَرَةِ شيْءٌ مِنْ الِاتصالِ، ولكنَّه لقوَّةِ تمويهِهِ أرادَ أنْ يُمَوِّهَ بهذا الكَلامِ الَّذِي لَيْسَ بمعقولٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قوَّة جَبَرُوته حِينَ هَدَّدَهُمْ بقطعِ الأيدي والأرجلِ مِن خِلاف ثم الصَّلب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قوَّة إيمانِ هَؤُلَاءِ السَّحَرَةِ الَّذين تَحَدَّوْا فِرْعَوْنَ بِجَبَرُوتِهِ، وقالوا: إنه لا ضررَ علينا فيما هَدَّدْتَنَا به؛ لأَنَّنا سَنَنْقَلِبُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسيُعْطِينا منَ الأجرِ والثوابِ أكثرَ ممَّا فَقَدْنَا من هَذِهِ الحياةِ الدنيا، كما قال فِي سُورَةِ طه: ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه:٧٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الإيمان إذا صَدَقَ صارَ أقوى من العاطفةِ، فَحُبُّ النَّفسِ أمرٌ فِطريٌّ، ولكن الإيمان يؤدِّي إِلَى أن ترخصَ النَّفسُ عند المرءِ بجانبِ دينِه.

---

(١) ذكره السمرقندي فِي بحر العلوم (١/ ٥٤١) عن عبيد بن عمير، وعزاه فِي في تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥٩) لابن عباس وعبيد بن عمير وقتادة.

الآيــة (٥١)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٥١].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ نَرْجُو ﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن﴾ أي: بأنْ ﴿كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فِي زَماننا].

﴿نَطْمَعُ﴾ يعني: نرجو ونؤمِّلُ، وهذا الطمعُ مما يُمْدَحُ عليه العبدُ، لكن إذا فعل أسْبابه، أمَّا إذا لم يفعلْ أسْبابَه فَإِنَّهُ منَ الأمانيّ الباطلةِ، كما جاء فِي الحديثِ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ»(١).

هم أكَّدوا أَنَّهُم يَطمعونَ فِي مَغْفِرَةِ اللهِ؛ لأنَّهم فعلوا السَّبَبَ، وَهُوَ الإيمانُ بعدَ الكفرِ، وقد قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]، فهم طَمِعُوا هَذَا الطمعَ معَ وُجودِ سببِه، وَهُوَ مدحٌ، وقولهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ الغَفْر معناه: سَتْر الذَّنْب والعفو عنه، وقولهم: ﴿خَطَٰيَٰنَآ﴾ جمع: خطيئةٍ، وهلِ الخطايا والسيئاتُ واحدةٌ، أم بينهما فرقٌ، أم يفرق بينهما عند الاجتماع فقطْ؟

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، رقم (٢٤٥٩)، ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم (٤٢٦٠).

يُفَرَّق بينهما عندَ الاجتماعِ فقطْ، وأمَّا إذا أُفردت إحداهما فإنها تشملُ الأخرى، ففي سُورَة آلِ عِمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١]، إِلَى أن قالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عمران:١٩٣]، ففرّقوا بين الذُّنوبِ والسيئاتِ، فالذُّنوبُ طَلَبُوا مَغْفِرَتَها، والسيئاتُ طلبوا تَكفِيرَها؛ لأنها من الصغائرِ الَّتِي تكفّرها الأعمالُ الصَّالحةُ، والسيئاتُ المُرادُ بِهَا هنا الكبائرُ، الَّتِي لا تزولُ إلا بمغفرةٍ، لا بتكفيرٍ.

قال تعالى: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هَذَا لَيْسَ من بابِ الإدلالِ عَلَى اللهِ والمِنَّة عليه بكونهم أولَ المُؤمِنينَ، ولكن من بابِ التحدُّثِ بنعمةِ اللهِ الَّذِي يَرَوْنَهُ سببًا ووسيلةً لمغفرةِ الذُّنوبِ؛ لِأَنَّ السبقَ إِلَى الإيمانِ وإلى العملِ الصَّالحِ مَنْقَبَةٌ، ومن أسْبابِ الرُّتَبِ العاليةِ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد:١٠]، فالسبقُ إِلَى الإيمانِ والعمل الصَّالح له مَزِيَّتُه، ولصاحبِهِ مرتبةٌ عاليةٌ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَؤُلَاءِ السَّحَرَةُ هم الَّذين أَتعبوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعدُ؟ أم هَؤُلَاءِ قُتلوا؟

فالجَواب: لا، هَؤُلَاءِ إيمانهم صحيحٌ، وهَؤُلَاءِ إما أَنَّهُم قُتِلُوا مباشرةً، أو أَنَّهُم لم يحدثْ لهم شيْءٌ، أما الَّذين آذَوه فهم قومُه.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل كَانَ بنو إِسْرَائِيل مُؤمِنينَ؟

فالجَواب: فِي هَذِهِ المعالجةِ الظَّاهرُ ما كانوا مُؤمِنينَ، أو كَانَ بعضُهم مؤمنًا، لا أدري؛ لِأَنَّ أصلَ إنزالِ التوراةِ بعدَ ذلكَ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القَصَص:٤٣].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل قتل جميع السَّحَرَة؟

فالجَواب: الظَّاهرُ أَنَّهُم كلّهم؛ لِأَنَّ قولَ بعضِ العلماء: «شُهَدَاء بَرَرَة» يدلُّ عَلَى أَنَّهُم قُتِلُوا، وعلى كلِّ حالٍ نَحتاج إِلَى التثبُّتِ.

وإنْ قال قائلٌ: هل آمنوا جميعُهم؟

فالجَواب: كلهم آمنوا، قال تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الشعراء:٤٦]، فكلهم آمنوا إيمانًا كاملًا.

فَوَائِدُ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: قوَّةُ رجاءِ هَؤُلَاءِ السَّحَرَةِ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فيها دليلٌ عَلَى أن السبقَ إِلَى الإيمانِ من أسْبابِ المغفرةِ والرفعةِ؛ لِقَوْلِهِم: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقد دلَّ عَلَى ذلكَ الكِتابُ فِي قولِهِ تعالَى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠]، ولما تخاصمَ عبدُ الرَّحْمنِ بنُ عوفٍ وخالدُ بنُ الوليدِ قال النبيُّ ﷺ لخالدٍ: «**لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ**

لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»[١].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفيها أيضًا أن الإطلاق تُقَيِّدُهُ قَرِينَةٌ؛ لقولهم: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لِأَنَّ الْمُراد أَوَّل الْمُؤْمِنِينَ فِي وَقْتِهِم، وإِلَّا فقد آمن أحدٌ قبلَهم، أو أوَّل الْمُؤمِنينَ من آلِ فِرْعَوْن؛ لِأَنَّهُ قد آمن أحدهم قبلَهم، فقولهم: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: من آل فِرْعَوْنَ، والْمُفسِّر يقولُ: [في زَماننا]، ولكن هَذَا لَيْسَ بظاهرٍ، بل الظَّاهرُ أَنَّهُ من آلِ فِرْعَوْن؛ لِأَنَّ من بني إِسْرَائِيل مَنْ آمَنَ قبلَ ذلك.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٥٤١).

الآيــة (٥٢)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء:٥٢].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ بعدَ سِنينَ أقامها بينَهم يدعوهم بآياتِ اللهِ إِلَى الحقِّ، فلم يَزِيدُوا إلَّا عُتُوًّا].

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ والوحيُ فِي اللُّغةِ: الإعلامُ بسرعةٍ وخَفاءٍ، وأمَّا فِي الشرعِ: فهو إعلامُ اللهِ تعالى بالشرعِ لأحدِ أنبيائِهِ، ثم إنَّ الوحيَ قد يكونُ بواسطةٍ، وقد يكون بغيرِ واسطةٍ، وقد قسمَ اللهُ ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى:٥١]، فقوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ هَذَا الإلهامُ (الوحي الإلهامي)، ﴿مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ مكالمة صريحة، لكن مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، والثالث: ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾.

قال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ (أَنْ) تفسيريةٌ؛ لأنَّهم يقولون: إذا سَبقَها مَعْنى القولِ دونَ حُروفِهِ فهي تفسيريَّة، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القَصَص:٧]، وقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون:٢٧]، وهنا: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾؛ لأنها تفسّر ما يوحَى به.

وقوله: ﴿بِعِبَادِىٓ﴾ المُراد بهم بنو إِسْرَائِيلَ، وهي عبوديَّة شرعيَّة.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ﴾ بني إِسْرَائِيل، وفي قِراءَة[1] بكسرِ النونِ ووصلِ همزةِ ﴿أَسْرِ﴾ مِن سَرَى لغة فِي أسرَى، أي: سِرْ بهم ليلًا إِلَى البحرِ]، يعني: يُقال: أَسْرَى وسَرَى، فالأمر من أسرى الرباعي: أَسْرِ، والأمر مِن سَرَى: اسْرِ بهمزةِ وصلٍ، فعلى أَنَّهُ من الرباعي تكون ﴿أَنْ أَسْرِ﴾، تظهر (أنْ) وتبقى ساكنةً، وعلى أَنَّهَا من (سَرَى) تكسِر النونَ؛ لملاقاةِ الساكنِ، وتكون الهمزة همزةَ وصلٍ: (أنِ اسْرِ بعبادي).

والمَعْنى: سِر بهم ليلًا، يقول المُفسِّر: [إلى البحرِ]، والدَّليلُ أَنَّهُ إِلَى البحرِ قولُه تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدخان:٢٤].وكذلك أيضًا ما جاء فِي سياقِ هَذِهِ الآيَاتِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يَتَّبِعُكُمْ فِرْعَوْنُ وجنودُه فيَلِجُونَ وراءكم البحرَ، فأُنْجِيكم وأُغْرِقهم]. أمَرَهمُ اللهُ أن يَسيروا ليلًا، وإنَّما أُمِرُوا أن يسيروا ليلًا؛ لئلَّا يَظْهَرَ أمرُهم، لأنَّهم لو أرادوا أن يَسيروا نهارًا وتجهّزوا، لشَعَرَ بهم آلُ فِرْعَوْن، وحينَئذٍ يَمْنَعُونَهم أو يُؤْذُونَهم، فلذلك أُمِرُوا أنْ يَسِيروا باللَّيلِ.

قال: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أُكدتْ هَذِهِ الجُملةُ بـ(إنّ) معَ أَنَّهَا جملةٌ اسْميَّةٌ أيضًا، إشارة إِلَى أَنَّهُ لا بدَّ أن آل فِرْعَوْن يتبعونهم بدونِ تردُّد، فاتباعهم لهم أمرٌ مؤكَّدٌ، ولكنهم يَتَّبِعُونَهم طلبًا لهم؛ لأجلِ أن يَقْضُوا عليهم.

• • ۞ • •

(١) الحجة للقراء السبعة (٥/ ٣٥٩).

الآيــة (٥٣)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ [الشعراء:٥٣].

بعدما سَرَوْا ليلًا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ ﴾ حينَ أُخْبِرَ بِسَيْرِهِم ﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾ قيل: كَانَ له ألفُ مدينةٍ، واثنا عشرَ ألفَ قَرْيَةٍ ﴿حَٰشِرِينَ﴾ جامعينَ الجيش]، فلمَّا علِم بهم فِرْعَوْنُ تَحَفَّز وخاف أنْ يَخْرُجوا إِلَى مكانٍ آخرَ، فيكوّنوا أُمَّةً فيَغْزُوه، فأراد أنْ يَقْضِيَ عليهم، فأرسلَ فِي المَدَائِنِ حَاشِرِينَ، والمدائنُ مدائنُ مِصْرَ، وكَوْنُها بهذا العددِ الَّذِي قال المُفسِّرُ يحتاجُ إِلَى ثُبُوتٍ، ونحن ما علينا إلَّا أن نقولَ ما قاله الله، ولكنَّنا نَفْهَم أن هَذِهِ المدائنَ كثيرةٌ، ووجهها أن (فعائل) صيغةُ مُنْتَهَى الجُمُوع، فهي تدلُّ عَلَى الكثرةِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿حَٰشِرِينَ﴾: جامعينَ الجيش]، وفي هَذَا دليلٌ عَلَى أَنَّهُم لَيْسُوا يقولون: اخْرُجُوا، بل يُجْبِرُونَهم عَلَى أنْ يَخْرُجوا.

الآيــة (٥٤)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴾ [الشعراء:٥٤].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿حَٰشِرِينَ﴾: جامعينَ الجيش قائلًا: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ ﴾ طائفةٌ ﴿قَلِيلُونَ﴾]، هَذَا من بابِ الإغراءِ عَلَى الخروجِ أنْ يُقَلِّلَ الْإِنْسَان عدوَّه فِي مسامع القومِ؛ لأجل أن يَتَشَجَّعُوا.

فإذا قيلَ: أليسَ من الأَولى أنْ يُكَثِّرَهُمْ لأجلِ أنْ يَسْتَعِدُّوا؟

فالجَواب: الأَولى من حيثُ التجهيزُ العسكريُّ التقليلُ، هَذَا هُوَ الظَّاهرُ، وإن كَانَ البعضُ قد يَتَبَادَر إِلَى ذِهْنِه أن يقول: لماذا لم يُكَثِّروا لأجلِ أن يَسْتَعِدُّوا ويَخْرُجوا؟

فيُقال: إن المفاسدَ الَّتِي تَتَرَتَّب عَلَى التكثير أكثرُ من المفاسدِ الَّتِي تترتَّب عَلَى التقليلِ.

فَإِنْ قِيلَ: من المقصود بقوله: (شِرذمة)؟

فالجَواب: المقصود مُوسَى وقومه.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَشِرۡذِمَةٞ﴾ طائفة ﴿قَلِيلُونَ﴾]، وكلمة: (شِرْذِمَة) ليستْ بمَعْنى طائفة فقط، كما قال المُفسِّر، بل بمَعْنى التحقِير، يعني: أبلغ مِن كَلِمة طائفة،

و﴿قَلِيلُونَ﴾ تدلُّ عَلَى قِلَّة العدد، و(شِرذمة) تدلُّ عَلَى قلة القوَّة، ففيها هنا التقليلُ الكَمِّيّ والكيفيّ، فالكميّ بقوله: ﴿قَلِيلُونَ﴾، والكيفيّ بقوله: (شِرْذِمَة)؛ لِأَنَّ الشرذمةَ الشَّيْءُ الَّذِي لا يُعبَأ به؛ لضعفِهِ مثلًا أو عدمِ استعدادِهِ، وما أشبهَ هذا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قيل: كانوا سِتَّ مئةِ ألفٍ وسبعينَ ألفًا، ومُقَدِّمة جيشه سبع مئة ألفٍ]، هَذَا نقول: لا أصلَ له ولا صِحَّة له؛ لِأَنَّهُ يَبْعُدُ أن يكون بنو إِسْرَائِيل بهذا المبلغِ الكبيرِ الَّذِي ذكَر، بل كانوا قليلينَ مُسْتَضْعَفِينَ بِمِصْرَ، حَتَّى إن فِرْعَوْن كَانَ يقتّل أبناءَهُمْ ويَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ، فليسوا إِلَى هَذَا الحدِّ بكثرةٍ، فنحنُ نقول: إن هَؤُلَاءِ وإنْ كانوا ليسوا كما وصفَ فِرْعَوْن بكونهم شِرْذِمَةً قليلينَ، لكن نعلم أَنَّهُم ليسوا بهذه الكثرةِ.

ويقول: [فَقَلَّلَهُمْ بالنظرِ إِلَى كثرةِ جَيْشِهِ]، وليس كذلك أيضًا، وإنَّما قَلَّلَهُمْ بمسامعِ النَّاسِ من أجلِ ألَّا يَتَأَخَّرَ أحدٌ، ومن أجلِ أنْ يَتَشَجَّعُوا للخروجِ، فيقول: هَؤُلَاءِ شِرْذِمَةٌ قليلونَ، فهم لُقْمَةٌ سائغةٌ لا يحتاجونَ مِنَّا كثيرَ عَناءٍ.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٥)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ [الشعراء:٥٥].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾: فاعلونَ ما يَغِيظُنا]، هَذَا أيضًا من بابِ الإغراءِ، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا ﴾ يعني: لنا آلَ فِرْعَوْن ﴿لَغَآئِظُونَ ﴾ فاعلونَ ما يغيظنا، وهذه نقطةٌ أُخرى للتيسيرِ عَلَى الخروجِ إليهم؛ لِأَنَّ أحدًا من النَّاسِ لا يَرضى أنْ يَغِيظَه أحدٌ، فهو إغراءٌ لبني إِسْرَائِيل.

فَإِنْ قِيلَ: قوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ هَذَا الكَلامُ قائلُه فِرْعَوْن نفسه أو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَحْكِيه؟

فالجَواب: فِرْعَوْن الَّذِي قاله، ولكن لَيْسَ يقولُه أمامَ النَّاسِ، يقوله لرسلِهِ الَّذين أرسلَهم إِلَى المدائنِ، يقول: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ كل هَذَا مما أُرسل بِهِ الرُّسُلُ؛ لأجلِ أنْ يَنْشَطَ النَّاسُ عَلَى الإقبالِ.

وإن قيل: القَصَصُ فِي القُرآنِ يكونُ من كَلام القاصِّ، يعني: من كَلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أو من كَلام المتحدِّث؟

فالجَواب: من كَلام مَن أُخبر عنه، لكن لَيْسَ بلفظِه؛ لِأَنَّ فِرْعَوْن لُغته قِبْطِيّة ولكن الله ترجمَ كَلامَه إِلَى اللُّغةِ العربيَّة.

الآيــة (٥٦)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء:٥٦].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ متيقِّظون، وفي قِراءَةٍ: «حَاذِرُونَ»[1] مُسْتَعِدُّون]، بدأ بنفسه، وأخبر أَنَّهُ هُوَ وقومه حَذِرون، أو «حَاذِرُونَ»، واجتماع القراءتينِ يفيد المعنيينِ جميعًا، أي: إننا متيقِّظون، ولِتَيَقُّظِنَا كنَّا مستعدينَ، فهاتان القراءتانِ تفيدانِ معنيينِ: المَعْنى الأول: التيقُّظ، وَهُوَ استعدادٌ نفسيٌّ، والمَعْنى الثَّاني: الاستعدادُ الحِسِّي؛ لقوله: (حَاذِرُونَ)؛ لِأَنَّ الحاذرَ اسْمُ فاعلٍ، وَهُوَ الَّذِي فعلَ ما يَحْذَرُ به، وَهُوَ الاستعداد فقط.

فَإِنْ قِيلَ: ألا تشمل (حَاذِرُونَ) كلا المعنيينِ؟

فالجَواب: لا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قد يَسْتَعِدّ ويُحْسِن الإعدادَ والأجهزةَ لكن لا يكونُ مُتيَقِّظًا، فقد يستعدّ ولا يَتيَقَّظ. أليس أهل مِصْر فِي حربِ الأيَّام الستَّة كانوا مُسْتَعِدِّينَ، ولكنَّهم ليسوا مُتيَقِّظِينَ، فالطائراتُ قد ملأتِ المطارَ والدعايات من الإذاعات كثيرةٌ جدًّا، ومع ذلكَ لعدمِ تَيَقُّظِهِمْ قُضِيَ عليهم، فلا بدَّ مِنِ استعدادٍ وتَيَقُّظٍ.

---

(١) الحجة فِي القراءات السبعة (ص:٢٦٧).

الآيتان (٥٧، ٥٨)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء:٥٧-٥٨].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم ﴾ أي: فِرْعَوْن وقَوْمَه من مِصْرَ لِيَلْحَقُوا مُوسَى وقومَه ﴿مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾: بساتينَ كانتْ عَلَى جانبي النيلِ، ﴿وَعُيُونٍ ﴾: أنهارٍ جاريةٍ فِي الدُّور منَ النيلِ، ﴿وَكُنُوزٍ ﴾: أموالٍ ظاهرةٍ منَ الذهَب والفِضَّة، وسُمِّيَتْ كُنوزًا لِأَنَّهُ لم يُعط حقّ الله منها، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾: مجلسٍ حَسَنٍ للأمراءِ والوُزراء، يَحُفُّه أتباعُهم].

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم ﴾ الضَّمير يعود عَلَى آلِ فِرْعَوْنَ، وفي قوله: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم ﴾ بصيغة العظمةِ لمناسبةِ المقامِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذين تعَاظَموا فِي أنفسهم وتكبَّروا قُوبلوا بما هُوَ أعظمُ، وَهُوَ قوّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ ﴾ يقول المُفسِّر: [بساتين كانت عَلَى جانبي النيلِ]، ولا يُقالُ للبساتين: (جَنَّات) إلَّا إذا كانت كثيرةَ الأشجارِ والزروعِ، بحيثُ تَسْتَتِر أرضها بِهَا ويستترُ مَن فيها بها، وأما ما فيه نخلات قليلة أو زرعٌ قليلٌ فلا يُسَمَّى جَنَّةً. وفي قولِهِ: ﴿مِّن جَنَّٰتٍ ﴾ إشارة إِلَى كَثرتها، ولعلَّ الكثيرَ منهم كَانَ له بستانٌ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَعُيُونٍ﴾: أنهار جارية فِي الدورِ من النيلِ]، وينبغي أن يُقالَ: فِي الدورِ وغيرها، حَتَّى الجنات الَّتِي هِيَ البساتينُ إذا كانت فيها أنهارٌ مختلفةٌ؛ فإن ذلك لا شكّ ممّا يُبْهِجُ ويَسُرّ القلبَ، فهو أعمُّ من كونها فِي الدورِ، أو فِي هَذِهِ الجناتِ.

وقوله: ﴿وَكُنُوزٍ﴾ يقول المُفسِّر: [أموال ظاهرة]، ولكن فِي هَذَا نظرٌ كونه يفسّرها بالأموالِ الظَّاهرةِ، ولو فَسَّرْنَاها بالأموالِ الَّتِي تُكنَز سواءً كانتْ مكنوزةً بالفعلِ؛ لكثرةِ المالِ ووفرتِه، فهم لا يحتاجون إِلَى إنفاقه، وإنَّما يكنزونه فِي الأرضِ لِيَرْصُدُوه لِما يُستقبل؛ أقول: سواء كانت مكنوزةً بمَعْنى مدفونةٍ أو غير مدفونة؛ لِأَنَّ الذهب والفضة يُسمَّى كَنزًا إذا لم تؤدّ زكاته، وهذا كنزٌ شرعيٌّ، وإذا دُفن سُمِّيَ كنزًا؛ لُغويًّا.

المهم أننا نقول: الكنوز هِيَ الأموالُ العظيمةُ الكثيرةُ من الذهبِ والفضّة، وسواء كانت هَذِهِ الكنوز نقودًا أو كانت حُليًّا يتحلَّون بها.

يقول: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ المقام نقول: المجلسُ، ويمكن أن يكونَ المُراد بِهِ مَحَلّ الإقامةِ، يعني: المُراد بالمقام المَسْكَن، فهو أعمُّ من أنْ يكونَ المجلس. والكريم: الحَسَن، ولهذا قال النبي ﷺ: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»[1] يعني: أَحَاسِنها، فصار هَؤُلَاءِ ممتَّعين من كلِّ وجهٍ: مقام كريم بأمنٍ وطمأنينةٍ، وراحة، وحسن، وباللون والكيفية، وكذلك أيضًا من حيثُ الأموالُ الوفيرةُ الَّتِي تَوَفَّرَتْ لهم حَتَّى صَاروا يَكْنِزُونَها.

---

(١) سبق تخريجه.

فوائد الآيتينِ الكريمتينِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: بيانُ عُقوبةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للطاغِينَ، وذلك بإزالةِ النِّعَم عنهم؛ إما بإخراجهم منها، وإما بإزالتها هي، وتُؤخَذ من قوله: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ العُقوبةَ بعد التنعيمِ أشدُّ، ولذلك نصَّ عليه، فما قَالَ: فأخرجناهم من أماكنهم فقطْ، أو من دِيَارِهِمْ، ولكن بيَّن عَلَى سبيلِ التعيينِ ما هم فيه منَ النَّعيم؛ لِأَنَّ الأخذَ بالعُقوبةِ بعدَ النعيمِ يكونُ أشدَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تحذير للطُّغاة من أنْ تزولَ نِعَمُهُم بسببِ طُغيانهم، ففي عَصْرِنا هَذَا فتحَ اللهُ عَلَى النَّاسِ من أنواعِ النعيمِ ما لم يكنْ مَوْهومًا من قبلُ، وبالأَولى لَيْسَ معلومًا، فيُخْشَى أنْ يخرجَ هَؤُلَاءِ من هَذَا النعيمِ إذا طَغَوْا وعَتَوْا عن أمرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفي ذلك دليلٌ عَلَى أنَّ الْإِنْسَانَ قد يُؤْخَذ من حيثُ يَرَى أَنَّهُ عَلَا وظهرَ؛ فإن فِرْعَوْنَ بعثَ فِي المدائنِ حاشرينَ يَدْعُوهم إِلَى قتالِ مُوسَى وقومه، فخرجوا تابعينَ لهم عَلَى أَنَّهُم سيدركونهم، فصارَ فِي هَذَا الخروجِ حَتْفهم وهلاكهم، ونظيرُه فِي هَذِهِ الأمّة ما صنعتْ قُريش حينَ خَرَجَت إِلَى بَدْر، وكان أبو جهلٍ يقول: واللهِ لا نَرْجِع حَتَّى نَقْدَمَ بدرًا فنَسْقِي فيها الخُمُور، وتَعْزِف علينا القِيَان، ونشرب الخمور، حَتَّى تسمعَ بنا العربُ، فلا يزالون يهابوننا أبدًا[1]. فأُخذوا من حيثُ أَتَوْا.

---

(١) مغازي الواقدي (١/ ٤٤).

الآيــة (٥٩)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: إِخْراجنا كما وَصَفْنا، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾]، يعني أنّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تكون خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، يعني: إخراجنا لهم كَانَ كذلك، أو يكون التَّقدير: الأمر كذلك. المهمُّ أن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، فهي جملةٌ مستقلَّة عما قبلها وعما بعدها.

ثم قَالَ: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ يعني هَذِهِ الجنَّات والعيون والكُنُوز والمقام الكريم، أورثناها [﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بعد إغراق فِرْعَوْن وقومه]، فصارتْ لهم.

وقوله: ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إِسْرَائِيل: هُوَ يعقوبُ بنُ إسحاقَ، ومعناه: عبدُ اللهِ، وإنَّما نُسبوا إليه لِأَنَّ بني إِسْرَائِيل تَفَرَّعُوا منه.

وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فيه من الإشكالِ أن النبيَّ ﷺ يقول: «أُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي»[1]، وهنا أورثَ اللهُ دِيَارَ فِرْعَوْنَ وقومه وأموالهم بني إِسْرَائِيل؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، باب قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أُحِلَّتْ لَكُمُ الغَنَائِمُ»، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»، رقم (٥٢١).

والجَواب: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أهلك فِرْعَوْن فِي البحرِ بدونِ حربٍ، والغنيمةُ هِيَ ما أُخذَ من مالِ الكفّارِ بقتالٍ وما أُلحِق به، هَذَا تعريفها شرعًا، وهذا ما أخذَ بقتالٍ فهَؤُلَاءِ هَلَكُوا، فبَقِيَتْ دِيَارُهُم لبني إِسْرَائِيلَ، وحتى لو لم يَسْكُنْها بنو إِسْرَائِيل لَسَكَنَهَا آخرونَ غيرُهم، فالمسألة هَذِهِ ما غَنِمُوها بأيديهم، ولكنها من الله عَزَّوَجَلَّ لهلاكِ هَؤُلَاءِ، يعني: كَانَ الأمر أَنَّهُم لَـمَّا هَلَكُوا صارتْ إرثًا لبني إِسْرَائِيل: إرثًا قدريًّا؛ لِأَنَّهُ لا بد أن يكون كذلك.

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، فهذا شيْء كتبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من بَدْءِ الخَليقة أن الأرضَ للمُؤمِنينَ، فهذه هِيَ القرينة الَّتِي تخرجها عن الغنائم فلا تكون غنيمةً.

فالجَواب: لا، هِيَ ليست أرضًا فقطْ، بل جنَّات وعيون، وكنوز، ومقام كريم، وهذه الكنوز مما يُنْقَل.

وإن قيل: هل كان بنو إِسْرَائِيلَ يسكنون معهم؟

فالجَواب: ساكنون فِي جانبٍ من مِصْرَ، من جانب المدينةِ، لكن اهم أخذوا كنوز فِرْعَوْن وآل فِرْعَوْن.

المهم أن الجَواب الصَّحيح هُوَ الأول، وَهُوَ أن يُقال: إن الغنيمة هِيَ ما أُخِذَ بقتالٍ وما ألحقَ به، وما عدا ذلك لا يُسَمَّى غنيمةً شرعًا.

إذن نقول: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ظاهرها مُشْكِل مع قوله: «أُحِلَّتْ لِـيَ الْغَنَائِمُ»، ونحن نقول: أصلًا ليس هناك غنيمة، يعني: كوننا نقول: هَذِهِ من الغنائم

لَيْسَ بصحيحٍ، فليستْ غنيمةً، لكن قد يَتَبادَر لِذِهْنِ أحدٍ عِندَما يقرأ الآية: كيف يؤتيها الله بني إِسْرَائِيل وقد قال النبي ﷺ: «**إن الغنائم لم تَحِلّ لأحدٍ قبلي**»؟ فجَوابه أن نقول: إن هَذِهِ ليستْ من بابِ الغنائمِ.

فنقول: إن هَذَا التوريث لَيْسَ من بابِ الغنيمةِ؛ لِأَنَّ الغنيمةَ ما أُخِذَ من كفّارٍ بقتالٍ، وما أُلْحِقَ به.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل مُوسَى بعد إِبْرَاهِيم -عليهما السلام- مباشرة؟

فالجَواب: لا، بينهما مدة طويلة، هناك إسحاقُ ويعقوبُ، وجاء بعدهم يوسفُ بنُ يَعْقُوبَ إِلَى أهلِ مِصر رسولًا، ولهذا المؤمن قَالَ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ [غافر:٣٤].

وإن قيل: هل بنو إِسْرَائِيل خرجوا كلهم من مصر؟

فالجَواب: نعم، الظَّاهر أَنَّهُم خرجوا مع مُوسَى كلهم، قال تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء:٥٢]، فهذا عامٌّ. وبعد ذلك عادوا ورجعوا إِلَى مصر وصاروا فيها.

• • ❁ • •

الآيـة (٦٠)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ [الشعراء:٦٠].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ لَحِقُوهم ﴿مُّشْرِقِينَ ﴾ وقتَ شُرُوقِ الشَّمْسِ]. والواوُ فِي قوله: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ تعودُ إِلَى فِرْعَوْنَ، والهاءُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وعلى هَذَا فقولُهُ: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ من حيثُ المَعْنى جملةٌ مُعْتَرِضة؛ لِأَنَّ توريثَ بني إِسْرَائِيلَ كَانَ بعدَ أنْ غَرِقَ فِرْعَوْنُ وقومُه.

فيصير ذِكْرُ ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مناسبةً تَقْدِيمُها فِي الترتيبِ عَلَى ما بعدها؛ لِأَنَّهُ لَـمَّا قَالَ: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ كأنَّ قائلًا يقولُ: مَنِ الَّذِي حلَّ محلَّهم؟ فقال: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فلمناسبةِ الإخراجِ قُدِّمَتْ، وإلَّا كَانَ مُقْتَضَى الترتيبِ أنْ تكونَ بعد ذِكرِ إهلاكِ فِرْعَوْنَ وقومِهِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ لَحِقُوهم]، يُقال: تَبِعه واتَّبعه وأَتْبَعَهُ بمعنًى واحدٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٥]، (فأتْبَعَهُ) يعني: تَبِعه أوِ اتَّبَعَه، فكلُّ الثلاث بمعنًى واحدٍ، فقولُهُ: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ يعني: اتَّبَعُوهم أو تَبِعُوهم، بمَعْنى: لَحِقُوهم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُّشْرِقِينَ ﴾ وقتَ شُرُوقِ الشَّمْسِ]، وإلى جهةِ المَشْرِقِ أيضًا، مِثْلَمَا نقولُ نحنُ: مشرّق، يعني: نحوَ المَشْرِقِ، فهم فِي الحَقِيقَةِ ﴿مُّشْرِقِينَ ﴾

إمَّا كما قال المُفسِّرُ: [وقتَ شروقِ الشَّمْسِ] أو مُتَّجِهِينَ نحوَ المشرقِ، وكِلَا المعنيينِ صحيحٌ، فمُشْرِقٌ: مُتَّجِهٌ نحوَ المشرقِ باعتبارِ المكانِ، ومُشْرِقٌ وقتَ الشُّرُوقِ باعتبارِ الزَّمانِ، والعادةُ أنَّ الخُرُوجَ أوَّلَ النَّهارِ أنشطُ للناسِ وأَولى، وكان الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يخرج مبكِّرًا، ولكنَّه يَبْقَى حَتَّى تَفِيءَ الأفياءُ، وتزولَ الشَّمْسُ، وتَهُبَّ الرِّيَاحُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لماذا مُوسَى ومَن مَعَه خَرَجُوا فِي اللَّيل وفِرْعَوْن ما خَرَجَ بعدَهم إلَّا بعدَ خُرُوجِ الشَّمس؟

فالجَوابُ: خرجَ مُوسَى وقومُه ليلًا اختفاءً؛ خوفًا عَلَى أنفسهم من فِرْعَوْنَ فخَرَجُوا باللَّيلِ، أمَّا هَذَا فما خرجَ خائفًا حَتَّى ينتظرَ قدومَ اللَّيلِ، فخرجَ مُعْلِنًا أنَّه ظاهرٌ منتصِرٌ لنفسه.

• • ۞ • •

الآيتان (٦١، ٦٢)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦١-٦٢].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ رأى كلٌّ مِنهما الآخرَ]، والمُرادُ بهما جَمْعُ مُوسَى وجَمْعُ فِرْعَوْنَ [﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ يُدْرِكُنا جَمْعُ فِرْعَوْنَ، ولا طاقةَ لنا به].

قال: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أكَّدوا الإدراكَ بـ(إنّ) واللامِ، يعني: مُدْرَكُون يَقينًا؛ وذلك لِأَنَّ البحرَ أمامَهم وآلَ فِرْعَوْنَ خَلْفَهم، فلا بدَّ أنْ يُدْرِكُوهم، فأينَ يَذْهَبُون؟ فليسَ أمامَهم إلَّا البحر؛ إنْ خاضوا البحرَ غَرِقُوا، وهم لنْ يَخُوضُوه بِحَسَبِ اعتقادِهِمْ فِي تلكَ الساعةِ؛ لأنَّهم لا يَعْلَمُون بالأمرِ، فهم لنْ يَخُوضوا البحرَ، فما بَقِيَ إلَّا أنْ يُدْرِكَهُمْ آلُ فِرْعَوْنَ.

ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ بالجُملةِ الاسْميَّةِ المؤكَّدة بـ(إنّ) واللامِ، ولكن مُوسَى أجابَهُم بقولِهِ: ﴿كَلَّآ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: لن يُدْرِكُونا]، قال ذلك مُوسَى إيمانًا باللهِ تعالى، وثِقَةً بوعدِهِ، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما أمرهم بالخروجِ إلّا لِيَحْمِيَهُمْ مِن فِرْعَوْن وآلِهِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ بِنَصْرِهِ ﴿سَيَهْدِينِ﴾ طريقَ النَّجاةِ].

أولًا: ما قَالَ: كلَّا إنِّي سأُهدَى، بل قدّم مَعِيَّةَ اللهِ؛ لأنها أَقْوَى فِي تَثْبِيتِ قومِهِ، قَالَ: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، وكلُّ إِنْسانٍ يكونُ اللهُ معَه فلنْ يَضُرَّهُ شيْءٌ، ثم قال أيضًا مؤكدًا أثر هَذِهِ المعيَّة: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ والسينُ تدلُّ عَلَى التَّحقيقِ والقُرْبِ، ومَعْنى ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: سَيَدُلُّنِي عَلَى طريقٍ أَنْجُو به، ومُوسَى لم يكنْ عالمًا بهذا الطَّريقِ حينَ ذاكَ، ولكنَّه واثقٌ منَ النَّجاة، ولهذا أَتَى بالسِّينِ الدالَّة عَلَى التَّحقيقِ وعلى القُرْبِ أيضًا؛ لِأَنَّ المَقامَ يَقْتَضِي ذلكَ.

فهَؤُلَاءِ أكَّدوا أَنَّهُم مُدْرَكُون، فقُوبِلُوا بالتَّأكيدِ أَنَّهُم لنْ يُدْرَكُوا، وتأكيدُ ذلك أَوَّلًا بذِكْرِ مَعِيَّةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، وتأكيدُه ثانيًا بقوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾؛ لِأَنَّ السِّينَ كما هُوَ معروفٌ عند أهلِ النَّحْوِ تدلُّ عَلَى التَّحقيقِ والقُرْبِ، قَالَ: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ وفِعلًا حصلَ ما تَيَقَّنَهُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أنَّ اللهَ سُبْحَانَه سَيَهْدِيه طريقَ النجاةِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ما توجيهُ المَعِيَّة هنا فِي قول المُفَسِّر: [﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بنصرِه]؟

فالجَواب: المُرادُ بالمعيَّة هنا المعيَّةُ الخاصَّةُ الَّتِي تَقْتَضِي النصرَ والتأييدَ؛ فإنْ قصَدَ المُفسِّرُ بنصرِهِ أَنَّهُ تفسيرٌ بالمعيَّة بالمَعْنى العام فهذا لَيْسَ بصحيحٍ، وإنْ أرادَ بِنَصْرِهِ أَنَّهُ أثرٌ لذلكَ، فهذا صحيحٌ، فالمُفسِّر لا يُعْتَرَضُ عليه؛ لِأَنَّ هناكَ احتمالًا أَنَّهُ يقولُ: معي بِنَصْرِهِ، بمَعْنى أن هَذِهِ المعيَّة سيكونُ أَثَرها النَّصْر.

فوائدُ الآيتينِ الكريمتينِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي هَذَا دليلٌ عَلَى قوَّة إيمانِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي قولِهِ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، ووجهُ قوَّةِ الإيمانِ أَنَّهُ فِي هَذَا المَقامِ المُحْرِجِ الَّذِي لا يرى الْإِنْسَان فيه إلا أَنَّهُ هالِكٌ، ولهذا قال أصحابُه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي هَذَا دليلٌ عَلَى أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما يَهدي إِلَى الطَّرِيقِ المعنويّ يَهدي أيضًا إِلَى الطَّرِيقِ الحِسِّيّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، وليس المُراد هنا هداية العلمِ والتوفيقِ للعملِ الصَّالحِ، وإنَّما المُرادُ بالهدايةِ لِطَرِيقِ النَّجَاةِ الَّتِي يَنْجُو بها، فهداه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

• • ❁ • •

الآيــة (٦٣)

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء:٦٣].

قال تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِب﴾ وهذه لا يَصْلُحُ فيها: (أَنْ أَضْرِب)؛ لِأَنَّ (ضَرَبَ) لا يأتي رُبَاعِيًّا، ولهذا يجب كسرُ النونِ: ﴿أَنِ ٱضْرِب﴾، و(أَنْ) هَذِهِ تفسيرية.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ فَضَرَبَهُ ﴿فَٱنفَلَقَ﴾]. تقديرُ المُفسِّرِ (فضربه) صحيحٌ؛ لِأَنَّ البحرَ لم يَنْفَلِقْ بمجرَّد الوحيِ، بل بالضَّرب، وفي قوله: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ إشارة إِلَى أن مُوسَى ﷺ بادرَ بضربِ البحرِ، وأن البحرَ انفلقَ حالًا بدونِ تأخُّر.

ومَعْنى ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فانشقَّ اثني عَشَرَ فِرقًا، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الجبل الضخم، بينهما مسالِكُ سَلَكُوها، لم يبتلَّ منها سَرْجُ الراكبِ ولا لِبْده].

يقول: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ وهذه العصا الَّتِي كَانَ يَحْمِلُها دائمًا يَتَوَكَّأ عليها، ويَهُشّ بِهَا عَلَى غَنَمِه، وله فيها مآرِبُ، فتكون هَذِهِ العصا فيها مصالحُ عظيمةٌ، وفيها من آياتِ اللهِ ثلاثُ آياتٍ، هَذِهِ إحداها.

والثَّانية: الثُّعبان، أَنَّهُ إذا ألقاها صارتْ ثعبانًا مُبينًا.

والثالثة: إذا ضَرَبَ بِهَا الحَجَرَ تفَجَّر عُيونًا.

فهذه ثلاثُ آياتٍ، أما البقيَّة: فالاتِّكاء عليها، والهَشّ بِهَا عَلَى الغنم، ودفع الصَّائل، وما أشبهَ ذلك، فهذه ليستْ منَ الآيَاتِ، بل من الأمورِ المعتادَة.

وقوله: ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ المُراد بِهِ البحرُ الأحمرُ، ويُسَمَّى بَحْرَ القُلْزُم، هَذَا البحرُ انفلقَ ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ كالجبلِ العظيمِ، يعني: لِكِبَرِه وارتفاعه؛ لِأَنَّ قاعَ البحرِ قويٌّ عميقٌ، فيكون كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ للكِبَرِ وللارتفاعِ، وظاهرُه أَنَّهُ عريضٌ؛ لِأَنَّ الطودَ العظيمَ يتناولُ الكِبَرَ والارتفاعَ والعَرْض، وَهُوَ كذلك، وهذا من آياتِ اللهِ؛ لِأَنَّ العصا إذا ضربت لا تَتَّسِع لمكانٍ واسعٍ، وهذه الأطوادُ -الاثنا عَشَرَ- مكانها بلا شكّ واسعٌ، والطرقُ أيضًا ستكونُ واسعةً.

ثم إن فِي هَذِهِ الضربة من آياتِ اللهِ -غير انفلاق البحر- أَنَّهُ صارَ يَبَسًا، يَبِسَ فِي الحالِ، قال تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:٧٧]، وهذا أيضًا من آياتِ اللهِ، أن الله أزال عنهم الخوفَ وألقاه عنهم، وإلَّا فطبيعة البشرِ تَقتضي إذا كَانَ الماءُ عَلَى يمينِه ويسارِه كالأطوادِ أن يخافَ، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألقى عنهمُ الخوفَ، فلم يَخَافُوا أبدًا.

وفي قوله: ﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ظاهرٌ أنَّ الماءَ لم يَتَغَيَّرْ، يعني: لم يتجمَّدْ بالمَعْنى المعروفِ، فيكون أبيضَ جامدًا، ولكنَّه بقِيَ جامدًا عَلَى طبيعته أسودَ، وهذا أعظمُ ممّا لو تَجَمَّد وَهُوَ عَلَى غيرِ طبيعتِه لصارتْ فيه آيةٌ واحدةٌ، وهي سرعةُ التجمُّد بهذه اللحظةِ، فكونه لا يَسيل وَهُوَ جامدٌ أمرٌ طبيعيٌّ عاديّ، لكن كونه يبقى مائعًا ولكن لا يَسيل، فهَذَا أبلغُ من ذلك. ففيه آيتان: أَنَّهُ لا يسيل، وأنه لا يسيل وَهُوَ عَلَى طبيعته، والله تعالى عَلَى كل شيْءٍ قديرٌ.

وفيه أيضًا دَليل عَلَى أنّ كلّ شيْءٍ يَمتثِل لأمرِ اللهِ، وأن الله تعالى قادرٌ عَلَى قلبِ الأمورِ عن طبائعها، فضلًا عن تغيّر صفاتها، فهذه النارُ الَّتِي من طبيعتها الإحراقُ والحرارةُ كانت بردًا وسلامًا عَلَى إِبْرَاهِيم فِي الحالِ، وهذا الماءُ الَّذِي من طَبيعته الإغراقُ والسَّيَلان صارَ أمْنًا وجامدًا لا يسيلُ بالنِّسبةِ لبني إِسْرَائِيلَ.

قال أهل العلم: إنه ما من آيةٍ أُعْطِيَها أحدٌ من الأَنْبياءِ إلَّا وكانتْ للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والآية المقابلةُ لهذا الأمرِ ما جَرَى لِسَعْدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ لَـمَّا أرادَ الغزوَ حيث خاضَ الماء[1]، ولكن ما صار يَبَسًا، وهذا أبلغُ؛ أَنَّهُ يكونُ باقيًا عَلَى طبيعته يجري كما هو، وهذه الخيولُ والإبلُ والمُشاةُ يمشون عليها.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَذِهِ ليست بعهدِ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

فالجَواب: كرامةُ أتباعِهِ مُعْجِزَةٌ له.

فالحاصلُ أن يُقالَ: إن ما جَرَى لبني إِسْرَائِيلَ جَرَى لهذه الأُمَّة مثله؛ وذلك لِأَنَّ كرامةَ أتباعِ النبيِّ مُعْجِزة له؛ إذ مَعنَى الكرامةِ الشهادةُ بأنَّ ما عليه هَذَا المكرَم حقٌّ، فإذا كَانَ أتباعُ النبي ﷺ جاء لهم شهادة بأنَّ ما هم عليه حقّ، كَانَ مَعْنى ذلك أنَّ ما جاء بِهِ الرسولُ ﷺ هُوَ حقٌّ.

فَإِنْ قِيلَ: قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ ﴾ اثني عَشَر فرقًا، الاثنا عشرَ هَذِهِ ضرب اثنتي عشرة مرةً أم ضربة واحدة فانفلقَ اثني عشرَ؟

فالجَوابُ: لا، ضَرْبَة واحدة، فانفلقَ اثني عشرَ.

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم (١/ ٥٧٤، رقم ٥٢٢).

وإنْ قيلَ: كل اثني عَشَر ألفًا يدخلونَ من طريقٍ؟

فالجَوابُ: لا نَدْرِي، كلّ اثني عشر ألفًا يدخلونَ من طريقٍ أو عشرة آلاف أو ألف

وإنْ قيلَ: كم عَدَدُهُمْ؟

فالجَواب: لا ندري، هم عَلَى كلِّ حالٍ اثنتا عشْرَةَ قبيلةً، فالأسباطُ فِي بني إِسْرَائِيلَ مثلُ القبائلِ فِي العربِ، وهم اثنتا عَشْرةَ، لا نَعْرِفُ كم عَدَدُ القبيلةِ؛ قد تَقِلُّ أو تَكْثُرُ، فيمكنُ كل قَبيلة مثلًا خَمْسُ مئةِ نفرٍ أو أكثرُ أو أقلُّ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قوله: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ دَليلٌ عَلَى الكثرةِ؛ لِأَنَّهُ ينافي الحكمةَ لو أخبرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ الطَّريقَ عظيمٌ وهم قليلٌ؟ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعلَ اثني عشرَ طريقًا لقبائلِ بني إِسْرَائِيل، وهم قليلونَ وينافي الحكمةَ، فلا بدَّ أَنَّهُم كثيرونَ، وكلُّ واحدٍ كالطَّوْدِ العظيمِ؟

فالجَواب: كلُّ فِرقٍ لَيْسَ معناهُ الطَّريق، فالماءُ الَّذِي بينها مثلُ الجبالِ وليسَ نفس الطَّريق، فـ﴿كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يعني: من الماء، فالماء الَّذِي بينها مثل الجبال. وذكر بعضُ الَّذينَ يَنْقُلُونَ الإِسْرَائِيليَّات أَنَّهُ صار بهذه الأطواد فُرَج ينظرُ بعضُهم إِلَى بعضٍ؛ زيادةً فِي الأمنِ، ولكن الله تعالى أعلمُ هل هَذَا صحيحٌ أو لا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فمَنِ المقصودونَ فِي قوله تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف:١٥٥]؟

فالجَواب: هم الَّذين قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النِّساء:١٥٣]، هَؤُلَاءِ المختارون.

فَإِنْ قِيلَ: كيف يكونون المختارينَ ثم يقولون: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ ؟!

فالجَواب: نعمْ، لا شكَّ أن هَذَا فِي الحَقِيقَةِ مما يدلُّ عَلَى أَنَّهُم مهما بَلَغُوا بالكمالِ أَنَّهُم ليسوا كهذه الأمَّة.

فَإِنْ قِيلَ: الظَّاهرُ أنَّ إيمانَهم ضعيفٌ؛ لأنَّهم وَصَلُوا إِلَى حدّ عبادةِ الصنمِ؟

قلنا: لا، هم طلبوا إلهًا، لكن مُنعوا، وقد عبَدوا العجلَ بعدَ أنْ غاب عنهم مُوسَى. وهم عَلَى كلِّ حالٍ حَتَّى لو كَانَ إيمانهم ضعيفًا فِي أوَّل الأمر، ونحن لا نعلم عن إيمانهم، لكن ظاهرُ الآيَاتِ أَنَّهُم مُنّ عليهم بهذا لكمالِ إيمانهم، والْإِنْسَان إذا توفرتْ لديه النعمةُ قد يَختلف حالُه، فهم خرجوا فِي الأوَّل وهم فِي قِلّة وفي ضعف وفي خوفٍ، وهم أقربُ إِلَى الإيمان مما إذا نُعِّمُوا هَذَا النعيم؛ لِأَنَّ العادة أن الْإِنْسَان إذا نُعّم فَإِنَّهُ يَحْصُلُ منه الأَشَرُ والبَطَر، هَذَا هِيَ العادة.

فَإِنْ قِيلَ: هل يُمْكِنُ أنْ يُقالَ: إن هَؤُلَاءِ الَّذينَ حَصَلَ منهم هَذِهِ الأشياءُ أَنَّهُم ذُرِّيَّتُهُمْ؟

فالجَواب: الظَّاهر أَنَّهُم عَلَى حَسَبِ الأجيالِ المعروفةِ يَتَوَالَدُون، والَّذين صاروا فِي التِّيهِ وحُرِّمَتْ عليهم الأرضُ المقدَّسة أربعينَ سنةً فلأجلِ أنْ تَتَغَيَّر أوضاعهم وأحوالهم بإنشاءِ خلقٍ آخرَ.

المهم نَجْزِم أن إيمانَهم فِي ذلك اليومِ كَانَ إيمانًا جيِّدًا قويًّا حينما أغرقَ فِرْعَوْنَ، ولهذا نُصِروا هَذَا النصرَ العظيمَ عَلَى فِرْعَوْنَ؛ لِأَنَّ سياقَ الآيَاتِ يدلُّ عَلَى هذا.

فَإِنْ قِيلَ: إن إيمانهم ضعيفٌ بقرينةِ ما حصلَ؟

قلنا: ما حصلَ بعدُ، والْإِنْسَان يَتَغَيَّر.

فَإِنْ قِيلَ: المهاجرونَ لَـمَّا آمنوا إيمانًا قويًّا، والأنصار لما آمنوا إيمانًا قويًّا ما صار منهم شيْء مثلما حصلَ من بني إِسْرَائِيلَ؟

قلنا: لا نقارنُ بني إِسْرَائِيلَ بهذه الأمَّة، فمسألة المقارنةِ غيرُ واردةٍ؛ لِأَنَّهُ لا سـواء، بنو إِسْرَائِيلَ ابْتُلُوا بالحِيتان فلـم يَصْبِرُوا وتحيّلوا، وهذه الأمَّة ابتُلـوا بالصَّيد وهم مُحْرِمون فصَبَروا، وغيره، وغيره، فلا تقارن إيمان هَذِهِ الأمة بإيمان مَن سبقَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أنا لا أقصدُ المقارنةَ، ولكن أقصدُ أن الإيمان إذا كَانَ جيِّدًا فِي البدايةِ فالغالبُ أَنَّهُ تصرف عنه مثل هَذِهِ الأشياء الخطيرةُ، وإلا فالصغائر أمرها أقل خطرًا.

قلنا: عَلَى كل حالٍ هم حينَذاك لا شكّ أَنَّهُم مؤمنونَ؛ لأنَّهم شاهدوا الإيمان وورثوا الأرض، ولا مانع أن تطرأ لهم أحوال يتغيَّرون بها.

فَإِنْ قِيلَ: لو لم يكونوا مُؤمِنينَ لَـمَا صَبَروا عَلَى أذى فِرْعَوْن حينما قطَّعَ أرجلَهم وأيديَهُمْ من خلافٍ، وهذا دَليلٌ عَلَى قوة إيمانهم العظيمِ.

قلنا: لا، هَؤُلَاءِ السَّحَرَةُ لا شكّ فِي قوة إيمانهم، والسَّحَرَة من آلِ فِرْعَوْن. وهم غير الَّذين ذهبوا مع مُوسَى، فالكَلامُ عَن بني إِسْرَائِيلَ، وبنو إِسْرَائِيل غير السَّحَرَة، فالسَّحَرَة من القِبط من آلِ فِرْعَوْن.

فنقول: الأَصْلُ أن إيمانهم فِي تلكَ الساعةِ قويٌّ، هَذَا هُوَ الأَصْلُ، وإنَّ النصرَ إنَّما يَسْتَحِقُّه المؤمنونَ، وإنَّما يَرِثُ الأرضَ عبادُ الله الصَّالحون، لكن لا مانعَ من أن تطرأَ أحوالٌ، وتَتَجَدَّد أعمالٌ، فيَنْصَرِفون هم أو بعضهم عن الحقِّ.

فهذا الجدلُ لا فائدةَ فيه، نحن نقولُ: إنّ مَنِ انتصرَ فهو مؤمنٌ حقًّا، ومَن نصرهُ اللهُ وأورثهُ الديارَ فهو من عبادِ اللهِ الصَّالحينَ، هَذَا الأَصْلُ. ثم إذا طرأتْ أحوالٌ نقول: الله أعلمُ كيف تطوَّرت هَذِهِ الأحوال، ففي الحَقِيقَةِ لَيْسَ فِي هَذَا فائدةٌ، وليست المسألة عَمَلِيَّة نُطَبِّقُها حَتَّى نُحَقِّق كيف نعملُ، فقد قصّ الله علينا فِي هَذِهِ المسألةِ أحوالًا لبني إِسْرَائِيلَ تدلُّ عَلَى أن هَؤُلَاءِ القوم آمنوا وطرأتْ عليهم أحوالٌ، وبالنظرِ إِلَى أحوالهم العامَّة نَعْرِف أن إيمانهم لَيْسَ كإيمان هَذِهِ الأمَّة، وأن هَذِهِ الأمَّة أكملُ فِي إيمانها، وأكملُ عملًا.

فَإِنْ قِيلَ: هل نستنتج من هَذَا أَنَّهُ من الممكنِ أن يكونَ هناك إيمان كامل فِي البدايةِ ثم يَنْقُصُ نقصًا شديدًا إِلَى أن يصلَ إِلَى حدِّ ما وصلوا إليه؟

فالجَواب: هَذَا ممكنٌ، وليس هناك إشكال أن الإيمان حاصل، لكن الَّذِي أشكل أَنَّهُ كيف تطورتِ الأحوالُ إِلَى أن يقولوا: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ [الأعراف:١٣٨]، وهذا لا يمنع أن بعضهم قال هذا، أو تقلَّبت بهم الأحوالُ، فالله أعلمُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ما المقصود بالفِرق؟

فالجَواب: الفِرق: الطائفةُ من الماءِ، فصار كل فِرقٍ وقطعة منه مثل الطَّوْد العظيم.

فَإِنْ قِيلَ: ما الغرضُ من ذِكْر عهدِ أسلافهم؟

فالجَوابُ: مِنَ المُمْكِنِ أنَّ اللهَ يُذَكِّرهم بِعُيُوبِهِم السابقةِ لَعَلَّهم يَرْتَدِعوا، أو يُذَكِّرهم بهذا لبيانِ أن هَذَا من عادتهم وسَجِيَّتِهِم، فهو بين أمرينِ:

■ إما أن يبيِّن عَيْبَهُم لعلَّه يُصْلِح من أحوالهم، ويكون ما صلحَ من أحوال باقيهم كالهادمِ لَمَا سَبَقَ.

■ وإمَّا أن يُقالَ: إن هَذَا بيان؛ لِأَنَّ هَذِهِ طبيعتهم وسَجِيَّتهم مثلًا، فيكون فيه مع التوبيخ لهَؤُلَاءِ تسليةٌ للرسولِ ﷺ وأصحابه.

فَإِنْ قِيلَ: وماذا عن أحوالهم الآن؟

فالجَواب: ما صاروا عليه أخبثَ؛ لأنَّهم صاروا كفّارًا؛ لِأَنَّهُ بعد بعثةِ الرسولِ ﷺ، بل بعد بعثة عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وكفرهم بِهِ صاروا كفّارًا وليس فيهم إيمان أبدًا.

ولا شكَّ أن عندهم عُتُوًّا، ومَن أراد أن يعرِفَ عن أحوالهم شيئًا فليراجِعْ (إغاثة اللَّهْفان) لابن القَيِّم، لكن الكَلام عن الَّذين أُورِثُوا أرضَ فِرْعَوْن فِي ذلك الوقتِ، ما لنا فِي الحَقِيقَة حقٌّ أن نقولَ: إيمانهم كاملٌ، أو إيمانهم ناقصٌ، إنَّما نعرِف من قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، أَنَّهُم فِي ذلك الوقت صالحونَ فقطْ، وتغير الأحوال بعد ذلك الوقت واضحٌ.

فَوَائِدُ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: تمام قدرة الله عَزَّوَجَلَّ بفَلْقِ البحرِ، وتَيْبِيسه فِي الحالِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فيها دَليلٌ عَلَى أن لكلِّ شيْءٍ سببًا، حَتَّى الآيَات الَّتِي يجعلها اللهُ عَلَى يدِ الشخصِ لها سببٌ؛ فإن الله تعالى لم يَفْلِقِ البحرَ إلَّا بعد أن أَوحى إِلَى مُوسَى أنِ اضْرِبِ البحرَ بعصاكَ، فضربه فانفلقَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفيها أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل هَذَا الماء كالأطوادِ -كالجبالِ العظيمةِ- عَلَى إيمانهم وشَمَائِلِهم، ليكونَ فِي عُبُورِهِم؛ حَتَّى لا يأخذهم العُجْبُ والعُلُوُّ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الأطواد هِيَ فِي الحَقِيقَةِ بمنزلةِ نواقيس الإنذار، يخافون ويرهبون إذا كَانَ الماءُ عَلَى إيمانهم وشمائلهم مثل الأطوادِ؛ فإنهم لا يَرَوْنَ فِي أنفسهم استغناءً عن الخوفِ، فيكونون بين الخوفِ وبين الرجاءِ؛ وذلك فِي قوله: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فيها أيضًا مِن آياتِ الله -فوقَ تَفْلِيقِ الماءِ- إِثْباتُ الماءِ جامدًا حَتَّى لا يسيلَ، واللهُ تعالى عَلَى كلِّ شيْءٍ قديرٌ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

• • ❁ • •

الآيات (٦٤- ٦٦)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ [الشعراء:٦٤-٦٦].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ قرّبنا ﴿ثَمَّ﴾ هناكَ ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾ فِرْعَوْن وقومَه حَتَّى سَلَكُوا مَسَالِكَهُم]، الإزلافُ: بمَعْنى الإقرابِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء:٩٠]، أي: قُرِّبت

وقوله: ﴿ثَمَّ﴾ أي: هناكَ عِندَ البَحْرِ. وقوله: ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾ يعني فِرْعَوْن وقومَهُ، قرّبهم اللهُ تعالى إِلَى البحرِ، فرَأَوْا هَذِهِ الطُّرُقَ مفتوحةً أمامهم، فما كَانَ منهم إلَّا أنْ دَخلُوها؛ لِأَنَّها طُرُقٌ أمامَهم رَأَوْا مُوسَى وقومَه قد عَبَرُوا منها، فاتَّبَعُوهم، فلمَّا تكاملَ هَؤُلَاءِ داخلينَ وهَؤُلَاءِ خارجينَ، يقول الله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ يقول المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بإخراجِهِمْ منَ البحرِ عَلَى هَيْئَتِهِ المذكورةِ]، وهذا إنجاءٌ من أعظمِ المِنَنِ، ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك ﴿أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ يقول المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِرْعَوْن وقَوْمَه بإطباقِ البحرِ عليهم لما تمّ دُخُولُهم فِي البحرِ وخروج بني إِسْرَائِيل منه]، فانتقم اللهُ تعالى من فِرْعَوْن وقومِهِ، وأَغْرَقَهُم بالماءِ الَّذِي كَانَ يَفْخَرُ بِهِ فِرْعَوْنُ من قبلُ، فَإِنَّهُ كَانَ يقولُ لقومِهِ مُفْتَخِرًا: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١]، فهو افتخر عَلَى قومه بأن الأنهارَ تَجْرِي من تحته، وهي ماءٌ، فأُغْرِقَ بما كَانَ يَفتخرُ به.

وهذا من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن الله يُغْرِق المُعْجَبِين؛ إمَّا بما أُعجِبوا به، وإما بما هُوَ أهونُ شَيئًا. فعادٌ لما قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، أُهلِكوا بألطفِ الأشياءِ، وهي الرِّيحُ.

• • ۞ • •

الآيــة (٦٧)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٦٧].

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ إغراقِ فِرْعَوْنَ وقَوْمِهِ ﴿لَآيَةً ﴾]، وتفسيرُ المُفسِّر لِلمشارِ إليه فيه قُصُورٌ؛ لِأَنَّهُ ليستِ الآيةُ بإغراقِ فِرْعَوْنَ وقومِه فَحَسْب، ولكن بِفَلْقِ البحرِ، وكونه يَبَسًا، وإنجاء مُوسَى وقَوْمِه، وإغراق فِرْعَوْن وقومِه، ولو قيل: إنّ الإشارةَ تعودُ إِلَى كلِّ ما ذكرَ، يعني: إن فِي ذلك المذكور من قِصَّة مُوسَى ﴿لَآيَةً ﴾ عَلامَة عَلَى قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعلى نَصْرِهِ لِأَوْلِيَائِهِ، فيكون مُتَضَمِّنًا لتسليةِ النبيِّ ﷺ وتحذير المُخَالِفِينَ له؛ لكانَ أَولى.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَآيَةً ﴾ عِبرةً لِمَن بَعْدَهم]، واللامُ للتَّأكيدِ، ومَحَلُّها لام الابتداء الَّتِي تكونُ فِي أَوَّلِ الجُملةِ: (لئِنّ فِي ذلك)، لكن قال النَّحْوِيُّونَ فِي تَعليلهم لهذا: إنَّه لا يَنبغي أنْ يَجتمِعَ مؤكِّدان متواليانِ، فأخّروا اللامَ إِلَى ما تأخّر من خبر إنّ واسمها، والله أعلم هل هَذَا حقيقة أمْ أنَّ العربَ نَطَقُوا بِهَا هكذا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ باللهِ، فلم يؤمنْ منهم غير آسِيَةَ امرأةِ فِرْعَوْنَ، وحِزقِيل مؤمن آل فِرْعَوْن، ومَرْيَم بنت ناموصى، الَّتِي دلَّتْ عَلَى عِظَام يُوسُفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ]. يجوز أن يكون: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ يعني: أكثر قومِ مُوسَى الَّذين أُرسل إليهم، ويجوزُ أن يكون: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثر النَّاس

المخاطَبِينَ بهذا القُرآنِ، يعني: هَذَا فيه آيةٌ لكن ما كَانَ أكثر المخاطَبين بِهِ مُؤمِنينَ به.

والأَولى أن يُقال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أَنَّهُ يعود عَلَى الَّذين نزلَ عليهم القُرآنُ، لا عَلَى بني إِسْرَائِيل، أو آل فِرْعَوْن.

وأمَّا ما ذكرهُ المُفسِّر فنقول: أمَّا امرأةُ فِرْعَوْنَ، فصحيحٌ أَنَّهَا آمنتْ، وأمَّا مؤمنُ آل فِرْعَوْنَ فصحيحٌ أَنَّهُ آمن، لكنْ تَسْمِيَتُه بحِزْقِيل يَحتاجُ إِلَى دَليلٍ، والثالثة مَرْيَمُ بنتُ ناموصى، هَذِهِ لا ندري بعدُ من أين جاءتْ؟! وما سَمِعنا بِهَا إِلَى الآنَ، وقوله: [التي دَلَّتْ عَلَى عِظَام يُوسُفَ]، هُوَ ابنُ يَعقوبَ، ولا نَدري أين عِظَامُه، ثم إذا دلَّتْ عَلَى عِظامه فهي إِلَى الذمِّ أقربُ مِنَ المَدْحِ؛ لِأَنَّ العظامَ مُحْتَرَمَةٌ، والمفروضُ أَنَّهَا لا تُنبَشُ ولا يُسألُ عنها، ثم إن قولَه: [عِظَام يوسف]، هَذَا خطأ؛ لِأَنَّهُ ثَبَتَ أن اللهَ حرَّم عَلَى الأرضِ أن تأكلَ أجسادَ الأَنْبياءِ[1]، فكيفَ يُقالُ: ما بَقِي إلا عِظَامُه؟!

الحاصلُ أنَّ مثل هَذِهِ الإِسْرَائِيليَّات يُؤسَفُ مِنَ المُفسِّر ومن غيرِه أنْ يَنْقُلُوها.

فَإِنْ قِيلَ: بإمكان فِرْعَوْن أن يعومَ فِي الماء؟

فالجَواب: هَذَا لَيْسَ مَحَلّ العومِ؛ لِأَنَّهُ انطبقَ عليهم الماءُ فِي أعماقِ البحرِ، فلا يستطيعونَ، ثم إنّ العذابَ إذا نزلَ لا تَنْفَع فيه سباحةٌ ولا غيره، فأظنُّ قبل ثلاث سنوات نزل عَلَى مَحَطَّة الكهرباء فِي نيويورك صواعِقُ معَ أن عندهم مانعاتُ صواعقَ فقَلَعَتِ الأعمدةَ، فما نَفَعَها.

---

(١) أخرجه أبو داود: تفريع أبواب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، رقم (١٣٧٤)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة، رقم (١٠٨٥).

الآيــة (٦٨)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٦٨].

قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هَذَا ممَّا يؤيِّد ما ذَهبنا إليه؛ أنَّ المُرادَ بأكثرهم: الَّذين نزلَ عليهم القُرآنُ، ولهذا أضافَ الربوبيَّة إِلَى النبيِّ ﷺ فِي قولِهِ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾؛ لأنها تَقْتَضِي العنايةَ الخاصَّة بالرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وفي قوله: ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أتى باللامِ الدالَّة عَلَى التَّأكيدِ؛ لتكونَ الجُملةُ مؤكدةً بمؤكديْنِ.

فإذا قال قائل: الخطاب للنبي ﷺ وحاله لا يَقتضي التَّأكيدَ؛ لِأَنَّهُ مقرّ، ومن قواعدِ البلاغةِ أَنَّهُ لا يؤكَّد الكَلامُ إلَّا لِلْمُتَرَدِّد أو للمُنْكِر؛ فإن كَانَ للمتردِّد فهو استحسانٌ، وإنْ كَانَ للمنكِر فهو وجوبٌ، يعني التَّأكيد، وهنا أكَّد بمؤكدينِ معَ أن الخطابَ للنبيِّ ﷺ وَهُوَ مُقِرٌّ بذلك؟

فيُقال: إن هَذِهِ القاعدة الَّتِي ذكروها ليستْ عَلَى إطلاقها، بل فيها قُصُورٌ؛ فإنّ الشيْء يُؤَكَّد باعتبارِ حالِ المخاطَبِ، وحينَئذٍ نقولُ: إذا كَانَ مُتَرَدِّدًا فَيَحْسُنُ تأكيدُه، وإذا كَانَ مُنْكِرًا فيجبُ تأكيدُه، كذلك يؤكَّد الكَلامُ باعتبارِ أَهَمِّيَّتِهِ، فإذا كَانَ الكَلامُ موضعَ اهتمام فَإِنَّهُ يؤكَّد حَتَّى وإنْ كَانَ المخاطَبُ مُقِرًّا به؛ لبيانِ اعتناءِ المتكلِّم به، فهنا هَذِهِ المسألةُ مُهِمَّة جدًّا.

ثم يُقال أيضًا: إن الآية ذكرتْ تسليةً للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ومن جهةٍ أُخرى تهديدًا للكفّارِ، والكفّار قد يشكّون -أو يُنْكِرون- فِي عِزَّة اللهِ ورحمته، فلهذا جمعَ بينهما مؤكّدًا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فانتقم من الكافرينَ بإغراقِهِمْ، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمُؤمِنينَ، فأنجاهم مِنَ الغَرَقِ]، يَقْرِنُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ دائمًا بينَ العِزَّةِ والحِكْمَة، وأحيانًا فِي مثلِ هَذِهِ السُّورة بينَ العِزَّة والرَّحمة.

وبينَ الوصفيْنِ أو الاسمينِ تناسبٌ ظاهرٌ، أمَّا العِزَّة والحِكمة فالتناسُبُ بينهما هُوَ أنَّ الْعَزِيز هُوَ الغالبُ القاهرُ، والغالبُ القاهرُ إنْ لم تكنْ فِي غَلَبَتِهِ حِكْمَةٌ صار تَصَرّفه غيرَ محمودٍ؛ لِأَنَّهُ يَتَصَرَّفُ مِن مصدرِ القوَّةِ، وإذا كَانَ يَتَصَرَّفُ من مصدرِ القوةِ ولا حِكْمَة عنده صار يَبْطِشُ بطشًا فِي غير محَلِّه، وربَّما يَتْرُكُ ما يَنبغي فيهِ البَطْشُ، فجاءتِ الحكمةُ مقترِنةً بالعزّةِ، وأمّا هنا فلمَّا كَانَ فِي سِياقِ الآيَاتِ يَتَضَمَّن ما تَقتضيه الرحمةُ ويَتَضَمَّن ما تَقتضيه العزَّةُ، فإهلاك فِرْعَوْن يَقتضي أن يُقابَل بالعزَّةِ، وإنجاء مُوسَى يَقتضي أن يُقابَل بالرَّحمةِ لِأَنَّهُ من مقتضاه؛ جمعَ اللهُ تعالى بينهما.

• • ۞ • •

الآيتان (٦٩، ٧٠)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء:٦٩-٧٠].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كفّار مكَّةَ]، والصواب: أي: عَلَى النَّاسِ الَّذين أُرسِلتَ إليهم. والرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تلا عَلَى النَّاسِ، حَتَّى إننا نقول: هُوَ تلا عليهم، حَتَّى فِي هَذَا العصرِ وفيما بعدَه فقد تلا رسول الله ﷺ عَلَى النَّاس هَذَا النبأ.

وقوله: [﴿نَبَأَ﴾: خبر]، ولكن لا يكون النبأُ إلَّا فِي الأمورِ الهامّة، والخبرُ يكونُ فيها وفي غيرِها، لكن النَّبأ لا يكون إلا فِي الأُمُور الهامَّة، وهذا النبأُ هامٌّ جِدًّا؛ لِـمَا يَتَضَمَّنه منَ التوحيدِ والمناظرةِ، وما يَتعلَّق بذلك مِنَ الثوابِ والعقابِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿نَبَأَ﴾ خبر ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ ويُبْدَل منه]، أي: من ﴿نَبَأَ﴾ [﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾]، فتكون (إِذْ) هنا فِي مَحَلّ نَصْب بدلًا من (نَبَأَ). وإِبْرَاهِيم هُوَ خليلُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَهُوَ معروف.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أبوه اسمه: آزَرُ، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام:٧٤]، وأما قومُه فالَّذينَ بُعِث إليهم، وفي هَذَا دَليلٌ عَلَى أن إِبْرَاهِيمَ لم يُبْعَثْ إِلَى النَّاسِ عامَّةً، وإنَّما بُعِثَ إِلَى قومِه كسائرِ الأَنْبياءِ.

فَإِنْ قِيلَ: ورد فِي بعض التفاسير أنَّ (آزر) لَقَب[1]؟

فالجَواب: لَيْسَ بصحيح.

وقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ (ما) للاستفهامِ، والمُراد بِهِ الإنكارُ والتعجُّب أيضًا، أي أَنَّهُ ينكر متعجبًا.

• • ۞ • •

(١) انظر تفسير القرطبي (٧/ ٢٢).

الآيــة (٧١)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء:٧١].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ صَرَّحُوا بالفعلِ؛ لِيَعْطِفُوا عليه: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾]، (أَصْنَامًا) جمع صنمٍ، والمُرادُ بالصنمِ كلُّ ما اتُّخِذَ إلهًا معَ اللهِ، سواءً كَانَ شجرًا أو حَجَرًا، أم غيرَهما، ولكن هل يُشْتَرَطُ أن يكونَ منصوبًا؟

الظَّاهرُ عدمُ اشتراطِهِ وأنه لَيْسَ شرطًا، وأنه قد لا يكونُ منصوبًا، فقد يكون مَبْطُوحًا ومُضْجَعًا، وغيرَ قائمٍ.

وقول المُفسِّر: [صرَّحوا بالفعل لِيَعْطِفُوا عليه ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾]. هَذِهِ مناسَبَةٌ لَفْظِيَّةٌ قد تكونُ مقصودةً وقد لا تكون مقصودةً. قد يقول قائل: لو قالوا: (أصنامًا فنظل)، لكان المَعْنى مُستقيمًا، ولا حاجة إِلَى ذِكر الجُملةِ ليعطفَ عليها؛ لأننا نرى أَنَّهُ تأتي أحيانًا جُملٌ عُطِفَ عليها جُمل وهي محذوفةٌ، مثل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ [الروم:٩]، ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [السجدة:٢٦]، عَلَى أحد الوجهينِ.

ولكن الصَّحيح أَنَّهُم صَرَّحُوا بالفعل؛ إظهارًا لِفِعْلِهِمْ كأنَّهم يَفْتَخِرون به، يعني: يُحَقِّقون العبادة ويفخَرون بعبادتهم؛ لِأَنَّ التصريحَ بالعبادةِ للمعبودِ تدلُّ عَلَى أن الْإِنْسَان فخورٌ بها: قالوا: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾، يعني: فهم أظهروها تأكيدًا وافتخارًا بها، هَذَا الَّذِي لا شكَّ فيه، وأمَّا لأجلِ العطفِ فهذا العطفُ نقول:

يَصِحُّ بدون ذِكْرِه، وهذا لَيْسَ بمقصودِهِ فيما يبدو، وإنَّما المقصود هُوَ تأكيدُ هذا، والافتخارُ به، مثلما يقول لك القائل: «أنت تفعل كذا؟»، فتقول: «نعم أفعله»، لو قلت: «نعم» لَكَفَى، لكن: «أَفْعَلُه» من بابِ تأكيدِهِ والافتخارِ به، فهم كذلك يقولون: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ مؤكِّدين لعبادتها مفتخرينَ بها.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ نقيم نهارًا عَلَى عِبادتها، زادوه فِي الجَوابِ افتخارًا به]، صحيح، قالوا: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ وَهُوَ ما سَأَلَهُمْ: هل أَنْتُم تَدُومُونَ عَلَى عِبَادَتِها أم لا؟ لكنهم زادوا عَلَى هَذَا وقالوا: ﴿فَنَظَلُّ﴾ يعني: نَسْتَمِرّ ﴿لَهَا عَٰكِفِينَ﴾.

وقوله: ﴿لَهَا﴾ مُتَعَلِّق بـ﴿عَٰكِفِينَ﴾ وتقديمُه عليه يفيد الحصرَ، يعني: إننا نَعْكُفُ لها لا لغيرها. ويقول المُفسِّر: [زادوه فِي الجَوابِ افتخارًا به]، وَهُوَ كذلك، ثم إصرارًا وعنادًا، يعني: لسنا نعبدها وقتًا دونَ وقتٍ، بل نعبدها ونستمرُّ عَلَى عِبادتها.

وقول المُفسِّر: [نهارًا]، أخذها من قولهم: إنَّ (ظلَّ) فعلٌ يدلُّ عَلَى وقوع الشيْء نهارًا، وهذا هُوَ المعروفُ عندَ النَّحْوِيِّينَ، والذي يَظْهَر أَنَّهَا تدلُّ عَلَى وقوعِ الفعلِ باستمرارٍ، نحو قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل:٥٨]، أيّ وقتَ يُبَشَّر بِها يَسْتَمِرُّ وجهُه مُسْوَدًّا ليلًا ونهارًا، فالصوابُ أن هَذَا الفعلَ يُشعِر بالاستمرارِ، ولا يَخْتَصّ بالنَّهارِ كما قاله المُفسِّر وغيرُه.

الآيــة (٧٢)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ [الشعراء:٧٢].

قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ﴾ حينَ ﴿تَدْعُونَ﴾]، (إذ) هَذِهِ ظرفٌ للفعلِ (يَسْمَعُون)، و(هَلْ) للاستفهامِ المُراد بِهِ الإنكار معَ التحدِّي، يعني: يَتَحَدَّاهُم، يقول: هَذِهِ الأصنامُ الَّتِي تَعْبُدُونَها وتسألونها الحوائجَ ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾؟ والجَوابُ: لا.

الآيتان (٧٣، ٧٤)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٧٣-٧٤].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ إن عبدتموهم ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ كُمْ إن لم تعبدوهم]، أي: أو يضرونكم إن لم تعبدوهم؟ والجَواب: لا.

هم أقروا: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ يعني أنَّها لا تَسْمَعُ ولا تَنْفَع ولا تضرُّ، وإنَّما فعلنا ذلك تَقليدًا فقطْ مَحْضًا لآبائنا.

وقوله: ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ قدَّرَ المُفسِّرُ المفعولَ بقولِهِ: (يَضُرُّونكم) وحينَئذٍ نسألُ: ما الحكمةُ فِي حذفِ المفعولِ؟

الحكمة هِيَ بالنِّسبةِ لآخر الآيةِ لفظيَّة، وهي مراعاةُ الفواصلِ، وبالنِّسبةِ للعُمومِ معنويَّة؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَعْبُدُ الشيْءَ لا يريدُ أن يضرَّه، بل يريد أن يَنْفَعَهُ، ولهذا قَالَ: ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾، أما أَنَّهُ يريد أن يضرَّه فلا، نعم يريدُ أن يضرَّ غيرَه، فقد يعبد هَذَا الشيْءَ لِيَدْعُوَهُ أن يضرَّ عدوَّه، فالحذف هنا للعُمومِ، يصير إما: أو يضرونكم إنْ لم تَعْبُدُوهُمْ، أو: أو يضرون عدوَّكم إذا عَبَدْتُمُوهُم.

وجَوابُ هَؤُلَاءِ: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ معناه أَنَّهُم أَنْكَروا أنْ

تَسْمَعَهُم هَذِهِ الأصنامُ، أو تنفعهم، أو تَضُرَّهم، ولكنهم وَجَدوا آباءَهُمْ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، يعني: يفعلون كذلك، يَعْبُدُونَ هَذِهِ الأصنام.

والكافُ اسمٌ بمَعْنى (مثل)، و(ذا) اسمُ إشارةٍ تعودُ إِلَى الفعلِ، يعني: مثل ذلك الفعل يَفْعَلُونَ. ومحلُّ الكافِ بقولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ النصبُ عَلَى أَنَّهَا مفعولٌ مُطْلَقٌ، أي: يفعلون مثلَ فِعْلِنا، وليتَ أنَّ المُفسِّرَ جَعَلَ [أي مثل فعلنا]، قبل ﴿يَفْعَلُونَ﴾؛ لِأَنَّ تأخيرَه عن الفعلِ يُوهِم أَنَّهُ يريدُ أنْ يكونَ مفعولُ الفعلِ مَحْذُوفًا، أي: مثل فعلنا، والصوابُ أَنَّهُ موْجودٌ، وَهُوَ قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، فيَحْسُن بِهِ أنْ يُقَدِّمَ [مِثل فعلنا]، عَلَى قوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل فعلنا ﴿يَفْعَلُونَ﴾. ولصار ما لهم حُجَّة إلا التقليد الأعمى فقطْ، أَنَّهُم وجدوا آباءهم عَلَى هَذِهِ المِلَّة فسَلَكُوها.

• • ۞ • •

الآيات (٧٥- ٨٦)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الشعراء:٧٥-٨٦].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ ﴾ لَا أَعْبُدُهُمْ ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فَإِنِّي أَعْبُدُهُ، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ إِلَى الدِّينِ، ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ﴾ أَرْجُو ﴿أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ الْجَزَاءِ، ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ عِلْمًا ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ النَّبِيِّينَ، ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ﴾ ثَنَاءً حَسَنًا ﴿فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ الَّذِينَ يَأْتُونَ بَعْدِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ مِمَّنْ يُعْطَاهَا، ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ بِأَنْ تَتُوبَ عَلَيْهِ فَتَغْفِرَ لَهُ وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ كَمَا ذُكِرَ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ] اهـ[1].

---

(١) لم يوجد تسجيل صوتي لتفسير هذه الآيات، ولهذا نُقل تفسيرها من تفسير الجلالين رحمهما الله تعالى.

الآيــة (٨٧)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء:٨٧].

فَوَائِدُ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي الآية إِثْباتُ البَعْثِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفيها أيضًا أنَّ كلَّ إِنْسانٍ مُفْتَقِرٌ إِلَى الدُّعاءِ حَتَّى الأَنْبياء؛ لِأَنَّ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دعا اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذلكَ.

الآيتان (٨٨، ٨٩)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُبَيِّنًا أَنَّهُ لا ينفعُ الْإِنْسَانَ يومَ القيامةِ إلَّا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ، فالمالُ والبنونَ لا ينفعونَ إلَّا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ، وفي هَذَا الاستثناءِ دَليلٌ عَلَى أنَّ المدارَ عَلَى القَلْبِ، وَهُوَ أن يكونَ سَليمًا، وسلامتُهُ يقولُ المُفسِّر: [مِنَ الشِّرْكِ والنِّفَاق]، ولكن هُوَ أعمُّ مِن ذلكَ: سلامتُهُ منْ كلِّ عملٍ أو قولٍ، وللقلبِ قولٌ وعملٌ، أمَّا قولُه فإقرارُهُ، وأمَّا عَمَلُه فهو تَحَرُّكُهُ مِن رجاءٍ، وخوفٍ، ومَحَبَّةٍ، وغيرِ ذلكَ.

فوائدُ الآيتينِ الكريمتينِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي ذلكَ دَليلٌ عَلَى أَنَّهُ فِي يومِ القيامةِ لا تنفعُ الأموالُ ولا البنونَ؛ لقولِهِ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، خلاف ما كَانَ النَّاسُ عليه فِي الدُّنيا؛ فإن الأموالَ والبنينَ تنفعُ، لكن فِي الآخرةِ لا تنفعُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفيهما كذلكَ دَليلٌ عَلَى فضيلةِ القلبِ السَّليمِ؛ لِأَنَّهُ سببٌ لاستفادةِ الْإِنْسَانِ من مالِهِ وبَنِيهِ، بِناءً عَلَى أنَّ الاستثناءَ مُتَّصِلٌ، وَهُوَ كذلك.

الآيات (٩٠- ٩٣)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء:٩٠-٩٣].

قوله: ﴿تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يقول المُفسِّر: [أي غيره]؛ لِأَنَّ (دون) تأتي بمَعْنى: غير وسوى، وتأتي بمَعْنى: أقلّ، فعِندَما تقول: هَذَا دونَ هذا، يعني: أقلّ منه، حَسَبَ السِّياق.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ بِدَفْعِ العذابِ عنكم]، والجَواب: لا، معَ أَنَّهُم يَزْعُمُون أَنَّهَا تَنْفَعُهم، ولكنَّها فِي الواقعِ لا تَنْفَعُهُم، بل تَضَرُّهُم [﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ بِدَفْعِهِ عن أنفسِهم؟ لا].

فإذا كانوا لا ينصرون ولا يَنْتَصِرون، فلا خيرَ فيهم ولا فِي عبادتهم.

وفي قوله: ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ دَليلٌ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الأصنامَ تُعذَّبُ وتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ، كما جاءَ فِي الآيَاتِ الأُخْرَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]، لكن إذا كَانَ الَّذِي يُعبَد مِن دونِ اللهِ ممَّا كُلِّفَ فإنْ رَضِيَ بعبادتهم فهو معَهُم، وإنْ لم يرضَ فقدْ قالَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١]، أي: لا يدخلونَ النارَ.

فإذا قيل: ما فائدةُ إدخالِ الأصنامِ النارَ وتعذيبها معَ أَنَّهَا لا تَفْهَم؟

قلنا: إهانةً لعابديها؛ لِأَنَّ هَذَا فيه من الإهانةِ وبيان أَنَّهَا لا تنفعُ ما هُوَ ظاهر.

فوائدُ الآيَاتِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى والثَّانيةُ: فِي ذلكَ دَليلٌ عَلَى إِثْباتِ الجنَّةِ؛ لقولِهِ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾، وأنَّ أهلها هم المتَّقُونَ، وهم الَّذين فَعَلوا ما يَقِيهم من عذابِ اللهِ بفعلِ الأوامرِ واجتنابِ النواهِي.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفي ذلك دَليلٌ عَلَى إِثْباتِ النارِ؛ لقولِهِ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فرّق اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بينَ التعبيرينِ فِي إزلافِ الجنةِ وإظهارِ النارِ، وَهُوَ دَليلٌ عَلَى أن الرحمةَ سَبَقَتِ الغَضَبَ؛ لِأَنَّ الجنَّةَ تُدنَى للمُؤمِنينَ، أمّا أولئك فتَظْهَر لهم فيرونها من بعيدٍ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢]؛ لأجلِ أن يكونوا فِي خَوْفٍ وذُعرٍ من قبْلِ أنْ يَصِلوا إليها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وفي ذلك دَليلٌ عَلَى أنَّ أصحاب الجَحِيمِ: كلّ غاوٍ، والغِوَايةُ ضدُّ الضَّلالِ، والغوايةُ: ضدُّ الرُّشْد، فالمُرادُ بالغاوينَ هم الَّذينَ جَانَبُوا الصراطَ المستقيمَ، جانبوه لا ضَلُّوا عنه، يعني: عَلِمُوه ولكن جَانَبُوه، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وفي ذلك دَليلٌ عَلَى التعذيبِ البدنيِّ والقلبيِّ لأصحابِ النارِ؛ البَدَنِيّ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾، والقلبيّ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾.

الآيتان (٩٤، ٩٥)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء:٩٤-٩٥].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَكُبْكِبُوا۟﴾ أُلْقُوا ﴿هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾]، (هُمْ) الضَّميرُ يعودُ عَلَى ما يَعْبُدُونَ من دونِ اللهِ، وقولُه: ﴿فَكُبْكِبُوا۟﴾ بمَعْنى: أُلقوا، ولكن هَذَا التكرارُ يدلُّ عَلَى معنًى أدقَّ من الإلقاءِ فقطْ، يعني: كأنَّهم يُكَبُّون فيها عَلَى وُجُوهِهِم، وبدون أيضًا ترتيبٍ، وبدونِ نظامٍ، كأنما يحثون حثيًا -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- ويُلقَون.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾: أتباعُه ومَن أطاعَهُ مِنَ الجِنّ والإنسِ ﴿أَجْمَعُونَ﴾]، أعوذُ باللهِ! جنودُ إبليسَ هم الَّذين يَتَّبِعُونَه ويُغْوُونَ النَّاسَ، فكلُّ مَن سَعَى فِي إغواءِ النَّاسِ والإفسادِ بينهم؛ فإنهم جنودُ إبليسَ، ومعلومٌ أن جنودَ إبليسَ عَلَى عكسِ جنودِ الرَّحْمنِ، فجنودُ الرَّحْمنِ يَدْعُون إِلَى الخيرِ، ويأمرونَ بالمعروفِ ويَنهونَ عنِ المُنْكَر، وأولئك يَدعونَ إِلَى الشرِّ، ويأمرونَ بالمنكَرِ وينهونَ عن المعروفِ.

وفي هَذَا دَليلٌ عَلَى أنَّ كلَّ مَن نَصَرَ أحدًا فهو من جُنُودِهِ ولو بالاتباعِ؛ فَإِنَّهُ يكونُ من جُنْدِهِ، ولهذا قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب علامة حب الله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٦١٦٨)، ومسلم: كتاب البر والصلاة والآداب، باب المرء مع من أحب، رقم (٢٦٤٠).

ومنْ أحبَّ شخصًا أطاعَهُ واتَّبَعَهُ.

قوله: ﴿هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ المُراد بـ(الغاوون) هنا الغاوونَ الأوَّلونَ الَّذين سَبَقوا، ولكن كَرَّرَ ذلك الوصفَ، ما قَالَ: فكُبْكِبُوا فيها هم وأولئك، كَرَّرَهُ لإظهارِ ذمِّ الغوايةِ، ولكن قوله: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ هَذَا هل هُوَ من بابِ عطفِ المتغايرينِ وأن الغاويَ لَيْسَ من جنودِ إبليسَ، أم أَنَّهُ من بابِ عطفِ المترادفينِ؟

نقول: الأَصْلُ فِي العطفِ: التغايُرُ، والظَّاهرُ أنَّ الغاويَ هُوَ الفاسِدُ فِي نفسِهِ، وأنَّ جنودَ إبليسَ عَلَى اسمِهِم جنود يَنْصُرُونَه ويَدْعُونَ لِـمَا يَدْعُو إليه، يقول المُفسِّر: [أتباعه ومَن أطاعَهُ]، يقيّد بمَن أطاعه فِي إغواءِ النَّاسِ ودَعوتهم إِلَى الضَّلالةِ، فيصيرُ هنا من بابِ عطفِ الخاصِّ عَلَى العامِّ؛ لِأَنَّ كلَّ مَن دعا النَّاسَ إِلَى الباطلِ فهو غاوٍ ولا عَكْس.

فوائدُ الآيتينِ الكريمتينِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي قولِهِ: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ دَليلٌ عَلَى إغاظةِ هَؤُلَاءِ العابدينَ للأصنامِ بإهانةِ أصنامِهِم، ويُسْتَثْنَى من ذلكَ مَن عُبد وَهُوَ صالحٌ، فَإِنَّهُ لا يُكَبْكَبُ؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء:١٠١-١٠٢].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي هَذَا دَليلٌ عَلَى أنَّ مَنِ اتبعَ الشيطانَ لم يَكُنْ مِن أتباعِهِ فحَسْب، بل من جنودِهِ المناصرينَ له؛ لقوله: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾؛ وذلك لِأَنَّ المُتَّبعَ للشخصِ مقوٍّ له، وناصرٌ له، وناشرٌ لما يريدُ، فيكون كالجنديِّ المسخَّرِ له.

• • ❁ • •

الآيات (٩٦- ٩٨)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٦-٩٨].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُواْ﴾ أي الغَاوُونَ ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ معَ مَعْبُودِيهم ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾]، لكن هَذَا الإقرار يَنْفَعُ لو كَانَ فِي الدُّنيا، فهم يَتَخَاصَمُونَ: العابد والمعبودُ، والتابعُ والمتبوعُ يومَ القيامةِ، كما قالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ [البقرة:١٦٦]، وكذلك أيضًا: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ﴾ [سبأ:٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٦٤]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨]، وهكذا ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].

فهَؤُلَاءِ الَّذين كانوا فِي الدنيا عَلَى ضلالٍ وعلى باطلٍ يومَ القيامةِ كما قالَ الخليلُ: ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥]، ونحنُ نَسْتَعْرِضُ مثلَ هَذِهِ الآيَاتِ ونعِظ النَّاس بها، ونقول لكلِّ قوم اجتمعوا عَلَى فسادٍ: سَتَزُولُ يومَ القيامةِ هَذِهِ المَحَبَّةُ بينَهم، وهذه الرابطةُ، ويَتَبَرَّأُ بَعْضُهم مِن بعضٍ، ويَلْعَن بعضُهم بعضًا، ونذكّرهم بهذا الأمرِ الَّذِي فِي الحَقِيقَةِ لَيْسَ ببعيدٍ، فما بينَهم وبينَه إلَّا أنْ تَخْرُجَ أَرْوَاحُهُم من

أَجسامِهِم، ثم يَجِدونه، وخروجُ الرُّوحِ منَ الجَسَدِ لَيْسَ بِبَعيدٍ، فقد يكونُ قَريبًا جِدًّا، وكما قال أبو بكرٍ[1]:

كُـلُّ امْـرِئٍ مُصَـبَّحٌ فِي أَهْلِـهِ وَالمَـوْتُ أَدْنَـى مِـنْ شِرَاكِ نَعْلِـهِ

وقد يكونُ غير قَريب جدًّا، ولكنَّه مؤخَّر لِأَجَلٍ مَعدودٍ، فإذا كَانَ اللهُ تعالى يقولُ فِي يوم القيامةِ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٖ﴾ [هود:١٠٤]، فكيفَ إذن بِأَجَلِ الْإِنْسَانِ نفسِهِ فيكون من باب أَولى!

قال: ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ٩٦ تَٱللَّهِ﴾ (تَاللهِ) هَذَا قَسَمٌ بحرفِ التاءِ. وحروفُ القَسَمِ ثلاثةٌ: الباءُ والواوُ والتاءُ، والأَصْلُ الباءُ، فهذه الحروفُ لَيْسَتْ كُلُّها أُصُولًا، فكلُّها يُقْسَمُ بها، لكن بعضها أَصْلٌ وبعضها غيرُ أصلٍ، مثل أنْ يُقال: كَانَ وأَخَوَاتُها مثلًا.

والدَّليلُ عَلَى أنَّ الباءَ الأَصْلُ أنَّ الباءَ تأتي معَ القَسَمِ وبدونِهِ، وتكون فِي الضَّمير والظَّاهر: (أُقْسِمُ باللهِ) و(أُقْسِمُ به) و(أُقْسِمُ بكَ يا ربِّ).

فلهذا نقولُ: هِيَ الأَصْلُ، حَتَّى ما تأتي إلا مَعَ الظَّاهرِ وبدونِ فِعْلِ القَسَمِ، وأيضًا ليستْ معَ كلِّ ظاهرٍ، وإنَّما تكونُ باللهِ فقطْ، وقد يُقْسَمُ بالرَّحْمنِ، فيُقال: (تَالرَّحْمنِ) وقد يُقْسَمُ بربِّ الكَعْبَةِ، لكن عَلَى قِلَّةٍ، والواوُ تدخُلُ عَلَى كلِّ ظاهِرٍ، فيُقْسَم بِهَا بكلِّ اسمٍ ظاهرٍ، سواء الله أو الرَّحْمن أو العَزِيز، وما أشبهَ ذلكَ، ولكنْ لا يُقْسَمُ بِهَا فِي المُضْمَرِ، ولا يأتي مَعَها غير القَسَم، وبهذا يَتَبَيَّنُ أنَّ الأُمَّ من هَذِهِ الثلاثةِ: الباءُ، ثُمَّ الواوُ، ثُمَّ التاءُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل المدينة، باب كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة، رقم (١٨٨٩).

قال: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (إِنْ) يقولُ المُفسِّرُ: [مُخَفَّفة مِنَ الثَّقيلة، واسمها محذوفٌ، أي: إنه]، أي: الفعل [﴿كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّنٍ]، كلها بفعلٍ ماضٍ، ولم يُسْلَبْ منها الدلالة عَلَى الزمنِ؛ لِأَنَّ المُرادَ: كنَّا فِي الدنيا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّنٍ ﴿إِذْ﴾ حَيْثُ ﴿نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فِي العِبَادَةِ]، وهذا صحيحٌ، فهذه غاية ما يَكُونُ مِنَ الضَّلالِ أنْ يُسَوِّيَ الْإِنْسَانُ المخلوقَ بالخالِقِ فِي العِبَادَةِ، وليستِ العبادةُ هِيَ الركوعَ والسجودَ فقطْ، بل حَتَّى مَن أطاعَ أحدًا فِي تَحريمِ ما أحلَّ اللهُ، أو تحليلِ ما حَرَّمَ اللهُ؛ فَإِنَّهُ عابدٌ له، كما قال الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة:٣١]، قال عَدِيُّ بنُ حَاتِمٍ للنبيِّ ﷺ: إنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ -يعني: ما نعبدُ أَحبارنا ورُهْبَانَنا، يعني: عُلماءنا وعُبَّادنا- فقال النبي ﷺ: «**أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟**». قال عَدِيٌّ: بلى. قَالَ: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**»(١).

فهَؤُلَاءِ الَّذينَ يُطَبِّقُونَ أَنْظِمَة وضعيَّة معَ مُخَالَفَتِها للشَّرع، فيكون مآلهم يومَ القيامةِ كهَؤُلَاءِ، يعني: يَتبَرَّءُونَ منهم ويُخاصِمُونهم، ويقولون مُقِرِّينَ عَلَى أنفسهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فمثلًا: الْإِنْسَان يقولُ له اللهُ فِي كِتَابِهِ وعلى لسانِ رسولِهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: هَذَا حلالٌ، فيقول له الحاكِمُ: هَذَا حرامٌ مَمْنُوعٌ، فيَمْنَعُه، ويَرَى أَنَّهُ مُحَرَّمٌ؛ معَ تحليلِ اللهِ له، فلا شكَّ أَنَّهُ اتَّخَذَ هَذَا الحاكِمَ إلهًا معَ اللهِ مُشَرِّعًا، كذلك يقولُ له مثلًا ربُّه:

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥)، واللفظ للطبراني فِي الكبير (١٧/ ٩٢، رقم ٢١٨).

هَذَا حرامٌ، فيأتي هَذَا الحاكِمُ ويقـولُ: النِّظَامُ أو الدُّسْتُورُ يَقْتَضِي الحِلَّ، فيُحِلّه، فلا شكّ أيضًا أَنَّهُ اتَّخَذَ هَذَا الحاكِمَ إلهًا معَ اللهِ، وسيكونُ مآلُهُ مآلَ هَؤُلَاءِ القومِ، سَيُخَاصِمُهُ يومَ القيامةِ ويقولُ له: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

ولهذا جاء فِي الحديثِ الصَّحيحِ أنَّ النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ**»[1]، يعني طاعة وَلِيِّ الأمرِ فِي المعروفِ، الَّذِي عَرَّفَهُ الشرعُ.

فَإِنْ قِيلَ: كيف يتصوَّر أن أصحاب النارِ يَتجادلون حالَ العذابِ؟

فالجَواب: أحوالُ الآخِرَةِ لا تُقاسُ بأحوالِ الدنيا، أليستِ الشَّمْسُ تَدْنُو مِنَ الخَلائقِ يومَ القيامةِ بِمِقْدَارِ مِيلٍ؟! لو قُرِّبَتِ الشَّمْسُ مِقْدَار أُنْمُلَة عن مَكانها، لَأَحْرَقَتِ الدنيا إِحراقًا، وتكون يومَ القيامةِ بمقدارِ مِيلٍ ولا تُحْرِق النَّاسَ! فلا يُمْكِن أنْ تُقاسَ أحوالُ الآخِرَةِ بأحوالِ الدنيا أبدًا، كما أنَّ أحوالَ البَرْزَخِ إذا ماتَ الْإِنْسَانُ وأُقعِدَ وسُئِلَ وعُذِّب، فلا تُقاسُ بأحوالِ الدنيا.

الحاصلُ أنَّ اللهَ تعالَى يقولُ لِهَؤُلَاءِ الَّذينَ اتَّخَذُوا معبودينَ سِواه، سواء كانتْ عبادةَ التذلُّل، أم عبادة الحُكْم، يقول لهم: إنهم يُكَبْكَبُونَ فِي نارِ جَهَنَّم، ويَخْتَصِمون فيها، ويقول التابعونَ للمتبوعينَ: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، رقم (٧١٤٥)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء فِي غير معصية، وتحريمها فِي المعصية، رقم (١٨٤٠).

فوائدُ الآيَاتِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فيها دَليلٌ عَلَى نَدَمِ أهل النارِ نَدَمًا عَظيمًا، حين قالوا وهم يَختصِمون -يُخاصِم بعضُهم بعضًا-: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ﴾، وهنا أَقسموا وأكَّدوا: ﴿تَٱللَّهِ﴾ قسَم، ﴿إِن كُنَّا﴾ إنْ مُخَفَّفة منَ الثقيلة، وتفيد التَّوكيدَ، واللام، و﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ كذلك، وإن كَانَ بعض النَّحْويين يُسمِّي اللامَ هنا الفارِقَةَ، ولكنها معَ كَونها فارقةً هِيَ أيضًا مؤكِّدة، ومَعْنى فارقةٍ أَنَّهَا تُفَرِّق بين (إنِ) النافيةِ و(إنِ) المخفَّفة؛ لِأَنَّ الصورةَ واحدةٌ، ولا يَتبيَّن أنَّ المُرادَ هَذِهِ أو هَذِهِ إلَّا بوُجودِ اللامِ؛ فإن عُدِمَتِ اللامُ امتنعَ الكَلامُ إلَّا إذا دلَّتِ القرينةُ عَلَى خلافِ ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي قولهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ اعترافٌ ضِمْنِيٌّ بأنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا شَبيهَ له؛ لأنَّهم أنكروا وبَيَّنُوا أَنَّهُم فِي ضلالٍ مُبينٍ حينَ سَوَّوْا هَذِهِ الأصنامَ بالربِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الَّذِي لا يُماثِلُه أحدٌ فِي هَذَا الوصفِ؛ ربّ العالمينَ، هَذِهِ الأصنام الَّذين يَعْبُدونها يَعْتَقِدون أنَّ رُبُوبِيَّتَها، أو أُلُوهِيَّتَها بالأصحّ، أَنَّهَا محصورةٌ فِي عَابديها، أمَّا ربُّ العالمينَ فهو ربٌّ لكلِّ أحدٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِي قولِهِ: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارة إِلَى بيانِ الضَّلالِ؛ إذ لا يمكِن التسويةُ بينَ مَن هَذَا وصفه -ربّ العالمين- بِمَن لم يَسْتَحِقّ من هَذَا الوصفِ شيئًا، وهذه الأصنام لا تَسْتَحِق وَصْفًا منَ الربوبيَّة إطلاقًا، فضلًا عن الربوبيَّة العامَّة لجميعِ العالَمِينَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِي ذلكَ أيضًا اعترافُهم البالِغ بضلالِهم: ﴿إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يعني: بيِّن ظاهِر، حيثُ نُسَوِّيكُم، ولكن هَذَا الاغترار وهذا الإقرارُ بالربِّ،

وهذا التنزيهُ له عن المساواةِ فِي ذلكَ المكانِ لا يَنْفَعُ؛ لِأَنَّهُ فاتَ الأوانُ -وقت العمل فِي الدنيا- أمَّا الآن فهو وَقْتُ الجزاءِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: انتفاءُ التَّشْبِيهِ عنِ اللهِ؛ يُؤْخَذُ من قَوْلِهم: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ففي هذا نفيُ تشبيهِ المخلوقِ بالخالِقِ.

• • ۞ • •

الآيــة (٩٩)

❁ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء:٩٩].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ﴾ عنِ الهُدى ﴿إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: الشياطين]، يعني: شياطين الإنس والجِنِّ، هكذا يَجِبُ، والمُجْرِمُ: فاعلُ الإجرامِ، ويُطْلَقُ كثيرًا فِي القُرآنِ عَلَى الكافرِ، والمَعْنى: ما أَضَلَّنَا إلَّا أهل الكُفْر والإجرام، الَّذين اعْتَدَوْا علينا بهذا الإضلالِ، ولكن حقيقةً هم ما اعْتَدَوْا عليهم؛ لأنَّهم هم الَّذين انقادوا لهذا الكُفْرِ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٧-٤٨]، وفي سُورةِ سَبأ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣].

فالكفَّار الَّذينَ تَبِعُوا المُسْتَكْبِرِينَ لا عُذْرَ لهم عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حَتَّى وإنْ سبُّوهم، وقالوا: إنهم مُجْرِمُونَ؛ فإن ذلكَ لَيْسَ بِعُذْرٍ، فإنهم قد أعطاهم اللهُ تعالى العقولَ والإدراكَ، وأرسلَ إليهم الرُّسُلَ، وأنزلَ عليهم الكتبَ، فما بَقِيَتْ لهم حُجَّة فِي أنْ يَحْتَجُّوا بأن هَؤُلَاءِ أضلُّوهم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: الشياطين، أو الأَوَّلون الَّذين اقْتَدَيْنَا بهم]، فهذا إذا كَانَ المُراد بالمجرِمِ الضالّ، سَوَاء اعتدى أو لم يَعْتَدِ؛ لِأَنَّهُ إذا كانوا آباءهم الَّذين اقتدوا بهم فإنَّهم لم يُضِلُّوهم، ولم يُجْرِمُوا عليهم، فهَؤُلَاءِ هم الَّذين أَجرموا عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

ولا يَبْعُدُ أنْ يُرادَ بالآيَاتِ المعنيانِ جَميعًا؛ فإنهم ضَلُّوا بأمرينِ:

الأوَّل: بِمَن يدعونهم وهم أحياءٌ إِلَى الضَّلالِ.

والثَّاني: بِمَن يُقَلِّدُونهم وهَؤُلَاءِ من الأموات.

لكن فِي المسألةِ الأُولى يكون الجُرمُ عليهم وعلى مَن أضلَّهم، وفي الثَّانية عليهم وَحْدَهم؛ لِأَنَّ أولئكَ الأموات فِي الحَقِيقَةِ ما جَنَوْا عليهم؛ إذ إن الرُّسُل جاءتهم وبيَّنَتْ لهم.

ويستفاد من الآية:

سبُّ هؤُلاءِ بعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، فهذا قَدْحٌ فيهم من جهةِ أنَّهم أَضَلُّوهم، ومن جهةِ أنَّهم مُجْرِمُون.

الآيــة (١٠٠)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ [الشعراء:١٠٠].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ كما للمُؤمِنينَ منَ الملائكة والنبيِّين والمُؤمِنينَ].

كلمة (ما) نافية وليستِ استفهاميَّة، والدَّليلُ إتيانُ (مِن) المؤكِّدة: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾، وأصلها: فما لنا شافعونَ، ولكن أُتِي بـ(مِنْ) للتَّوكيدِ.

والشَّافع: هُوَ المتوسِّطُ للغَيْر بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ أو دَفْعِ مَضَرَّةٍ، فشفاعةُ النبيِّ ﷺ لأهلِ المَوْقِفِ أنْ يُقضَى بينهم من بابِ الشَّفاعةِ؛ لدفعِ المضرَّةِ والمشقَّة، وشفاعته لأهلِ الجنَّة أن يَدْخُلوا الجنَّة من باب جَلْبِ المنافِعِ، فالشَّفاعةُ هِيَ التوسُّطُ للغَيْرِ بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ أو دَفع مَضَرَّة، وإنْ شئتَ فَقُلْ: لِدَفْعِ الضَّيْر أو جَلْب الخَير، فهذه هِيَ الشَّفاعةُ.

فهم لَيْسَ لهم شافعونَ؛ لِأَنَّ من شَرط الشَّفاعةِ أنْ يكونَ المشفوعُ له مؤمنًا، والدَّليلُ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]. وهَؤُلَاءِ لا يَرْتَضِيهِمُ اللهُ، فهم يقولونَ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ يعني: ما لنا أحدٌ يَشْفَعُ إطلاقًا لا منَ الأَنْبياءِ ولا من غيرهم؛ لِأَنَّ من شرطِ الشَّفاعةِ أنْ يرضى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنِ المشفوعِ له، وعنِ الشافِعِ من باب أَولى، فإذا كَانَ لا بدَّ مِن رِضَا الله عن المشفوعِ له، فعن الشافِعِ من باب أَولى.

وأمَّا الإذنُ فهو شَرْطٌ أيضًا حَتَّى معَ رضا اللهِ عن هَذَا وهذا، فلا بدَّ أيضًا منَ الإذنِ، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يَأْذَنُ بالشَّفاعةِ إلَّا لِمَن يَرضاه، فصارَ لا بدَّ منَ الشَّرطينِ، فلا يُقال مثلًا: إنه إذا ارتضى شخصًا فَإِنَّهُ لا بدَّ أن يأذنَ له، فقد يأذَنُ وقد لا يأذنُ، ولكن نَعْلَم أَنَّهُ لن يأذنَ إلَّا لِمَنِ ارْتَضَى، وهَؤُلَاءِ لا يَرْتَضِيهم اللهُ.

فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: انْتِفَاءُ الشَّفاعَةِ عن المكذِّبين للرُّسل وأنَّه لا يُشفع لهم، وتُؤْخَذ من قَوْلِهِ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثْبات الشَّفاعَة للمُؤمِنينَ، ويُؤْخَذ من قولِهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾، فنَفَوْا أن يكونوا منَ الشافعينَ، ومفهومُ هذا أن المُؤمِنينَ لهم شفاعة، كَأَنَّهم لَـمَّا رَأَوْا أن المُؤمِنينَ يَشفعونَ بعضهم لبعضٍ، قالُوا: نحن ما لنا مِن شافعينَ ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠١].

• • ۞ • •

الآيــة (١٠١)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠١].

قوله: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ معطوف على: ﴿شَفِعِينَ﴾ باعتبارِ اللفظِ، ولو عَطَفْتَ الآيةَ هنا باعتبارِ المَحَلّ لكانتْ: (وَلَا صَدِيقٌ)؛ لأن: (شَافِعِينَ) فِي مَحَلّ مبتدأٍ.

قال: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ الصَّديق: مَن صَدَقَكَ الوُدَّ، يعني: الصَّاحب الصَّادق فِي وُدِّه يُسَمَّى صَديقًا، وَهُوَ أخصُّ مِنَ الصَّاحِبِ، فكلُّ صديقٍ صاحبٌ، وليسَ كلُّ صاحبٍ صَديقًا، وأمَّا الحَمِيم فَإِنَّهُ القَريب، أو أَنَّهُ البالِغُ فِي الصَّداقةِ، بحيث يَحْنُو عليكَ كما يحنو القريبُ.

والمُفسِّر يقولُ: [﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ يُهِمُّهُ أَمْرُنا]؛ لِأَنَّ الصَّديقَ الحميمَ الحانيَ العاطفَ أوِ القريبَ يُهِمُّهُ أمرُ صَاحِبِهِ وصَدِيقِهِ، وهل هَذِهِ الصِّفَةُ -حميم- صِفَة كاشفةٌ أمْ صفة مقيِّدة؟

هي صفة كاشفةٌ، إذا قلنا: ما من صديقٍ إلا وَهُوَ حميمٌ، فهي صفةٌ كاشفةٌ، وإذا قلنا: قد يكون صَديقًا لكنه لَيْسَ بِحَمِيمٍ، فهذه تكونُ صفة مقيِّدة، بشرطِ أنْ نجعلَ الحميمَ هنا بمَعْنى القريبِ؛ لِأَنَّهُ قد يكونُ صَديقًا وليسَ قريبًا، فإذا جعلنا الحَمِيم بمَعْنى الحانِي الَّذِي يكونُ كالقَريبِ بِحُنُوِّهِ وعَطْفِهِ، فهي صفةٌ كاشفةٌ، لكن إذا قلنا: حَميم قَريب، صارَتْ مقيِّدةً؛ لِأَنَّهُ ما كلُّ صَدِيقٍ يكون قَريبًا.

الآيــة (١٠٢)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٠٢].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رَجْعَة إِلَى الدُّنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (لو) هنا للتمنِّي، و(نكون) جَوَابُه]، يعني: ليتَ لنا كَرَّة، أي رَجْعَة إِلَى الدنيا، (فَنَكُونَ) الفاء للسببيَّة، و(نكون) مَنْصُوبةً بأنْ مُضْمَرَةً بعدَ فاءِ السَّبَبِيَّة بتقدُّمِ التمنِّي، ولهذا يقول: [(لو) هنا للتمنِّي و(نكون) جَوابه].

قال: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ يعني: ليتَ أنَّ لنا كَرَّة ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقولوا: (ليتَ)؛ لِأَنَّ المَقامَ مَقَامُ تَذَلُّلٍ وخُضُوعٍ، و(لو) للتمنِّي أقلّ مِن (ليت)؛ لِأَنَّ (ليتَ) صَرِيحةُ الطَّلَب، و(لو) فيها نوعٌ منَ اللِّين والعرْض، مثلما تقول للإِنْسانِ الَّذِي تَتَمَنَّى أنْ يَزُورَكَ: (لو أنَّك تَزُورنا)؛ فإن (لو) هَذِهِ للتمنِّي بلا شكّ، لكنها تَمَنٍّ بلِينٍ وعَرْض ولُطفٍ، والمَقامُ هنا يَقتضيه؛ لِأَنَّهُم فِي مَقامِ ذُلٍّ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- وخُضُوع، فلم يَقُولوا: لَيْتَنا نَرْجِع، ولكنهم يقولون: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

عَلَى أَنَّهُ فِي سُورةِ الأنعام يقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧]، فيُقال: الجمعُ بينهما أن لهم حالاتٍ، فأحيانًا يقولون بهذا وأحيانًا يقولون بهذا، لكن أيُّهنَّ أوَّل؟ ليت أم لو؟

الظَّاهر (ليت) هِيَ الأُولى، يعني: كأنه يكونُ بالأوَّل بِعَزْمٍ عَلَى التمنِّي، ثم إذا لم يَحْصُلْ لهم رَجَعُوا إِلَى الخُضُوعِ والخُنُوعِ والعَرْض.

ولو أَنَّهُم رُدُّوا هل يَرجعون؟

يقول الله تعالى فِي سُورَة الأنعام: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨]، هَذَا الخبرُ الصادقُ، يعني: لَيْسَ قولـهم: إننا إذا رجعنا نكون من المؤمنين، فهذا خبرٌ كاذبٌ، والخبرُ الصادقُ: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فِي قولـهم: ﴿نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧].

فَإِنْ قِيلَ: فِي نَفْسِ المَقامِ يَسْتَشْعِرُونَ أَنَّهُم كاذبونَ أم فِي عِلم اللهِ أَنَّهُم لو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه؟

فالجَواب: الظَّاهرُ أَنَّهُ فِي عِلم اللهِ، فيمكِن أَنَّهُم حِينما يقولونه فِي تلك الساعة يقولونه صِدقًا، ولكن الله أخبر بأنَّهم إذا رَجَعوا فسيعودون إِلَى الكفرِ.

قال: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من المصدِّقين المُقِرِّينَ المُلْتَزِمِينَ بالعملِ؛ لِأَنَّ الإيمانَ وَحْدَهُ لا يَنفَعُ، فإذا لم يَسْتَلْزِمِ العملَ فليسَ بإيمانٍ، ولهذا نقول: إن الكفّار الَّذين أتتهم آيات الله كان بها مؤمنين ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤]، ولكن لكونهم لا يَنقادون لم يَنْتَفِعوا بإيمانهم، فإبليسُ بمَعْنى التصديقِ مؤمنٌ، لكنه مستكبِر، فلم يَنْفَعْهُ إيمانه.

وأذكر أَنَّهُ حينما صَعِدَ أَوَّلُ رَجُلٍ إِلَى الفضاءِ مِنَ الرُّوس وشاهَدَ الكونَ أعلنَ أن هَذَا الكونَ له مدبِّر، فجاء أصحابُه الروس وقالوا: ما تقول؟!

فإذا لم يَنْقَدِ الإِنْسانُ فليسَ بمؤمنٍ، ولهذا نقولُ: إنَّ الإيمانَ هو التصديقُ المستلزِمُ لِلْقَبُولِ وللانقيادِ: قَبُول الخَبَرِ والانقياد للأَمْرِ والنَّهْيِ، هذا هو الإيمانُ. وأمَّا مُجَرَّد أنَّ الإِنْسانَ يقول: أنا مُؤْمِن بالله، وأنا أَعْتَرِف بأنَّ اللهَ موْجودٌ، وأن له رُسُلًا، لكنَّه لا يَعْمَل، فلا يَنْفَعُهُ هذا الإيمانُ.

فالإيمان الَّذي يَنْفَعُ هو ما ذكرتُ، وقد يُطْلَقُ الإيمانُ لغةً على مجرَّد التصديقِ، ويُقال: هذا مؤمنٌ بشيْءٍ، لكنَّه كافرٌ بأشياءَ، فهذا ليسَ الإيمانَ الشرعيَّ.

وكلُّ مَن كَانَ مُسْتَكْبِرًا فهو أشدُّ؛ لأنَّ الَّذي يَتَبَيَّن له الحقُّ ويَسْتَكْبِر عنه، يكون كُفْرُه كفرَ عِنادٍ، والذي لا يَعْرِف الحقَّ وهو الآن يَعْمَل بعملِ أهلِ الكُفْرِ، هذا كُفْرُه كُفْرُ جَهْلٍ.

فالنَّصارَى في عهدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قبلَ بَعْثَتِهِ يُعْتَبَرُونَ ضالِّينَ، وبعد أنْ بُعِثَ وتَبَيَّنَ لهمُ الحقُّ يكونونَ مَغْضُوبًا عليهم؛ إذ لا فرقَ بينهم وبينَ الْيَهُودِ، فكلٌّ مِنهم بُشِّر بمُحمَّدٍ ﷺ، واللهُ تَعالَى يقولُ في وَصْفِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧]، معروفٌ، وكُفْرُهم على حدٍّ سواءٍ، ولهذا لا يَصْلُحُ أنْ نقولَ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة:٨٢]، فهذه لا تَنْطَبِق على زَماننا هذا، ولا على ما قبله بأزمنةٍ؛ لأنَّ اللهَ بَيَّنَ هذه العِلَّة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ المائدة: [٨٢-٨٣]، الآن منهم قِسِّيسُونَ ورُهبان مُسْتَكْبِرون عنِ الحقِّ، داعونَ إلى الضَّلال -والعياذُ باللهِ- فلا يُمْكِن

أن يَنْطَبِقَ عليهم هذا الوصفُ، وعداوتُهُمُ الآنَ لِلمسلمينَ والَّذينَ آمنوا أيضًا، خاصَّةً للذين آمنوا لا للمسلمينَ فقطْ، ظاهِرَةٌ، وهم لا يَنْسَوْنَ أبدًا غَزَوَاتِ المسلمينَ لهم في عُقْرِ دارهم، ولا يَنْسَوْنَ أبدًا الحروبَ الصليبيَّة، ولا يَنسونَ الافتتاحَ العظيمَ الَّذي حَصَلَ في دارهم؛ فإنَّ بلاد الرُّوم كلّها أُخِذَتْ، والروم كُلّهم نَصَارَى، فأخذت على أيدي المسلمينَ.

وفي الآية الكريمة دَليلٌ على النَّدَمِ البالغِ الَّذي يُصيبُ هؤُلاءِ في ذلكَ اليومِ، وتَمَنِّيهم لو أَنَّهم رَجَعُوا إلى الدُّنيا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذا التمنِّي ليسَ بصَحِيحٍ؛ فإِنَّهم لو رَجَعُوا لما كَانوا مُؤمِنينَ؛ والدَّليل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

• ● ❁ ● •

الآيتان (١٠٣، ١٠٤)

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٠٣-١٠٤].

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذْكُور مِنْ قِصَّة إبْرَاهِيم وَقَوْمه].

يقول اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المُشار إليه هو المذكورُ مِن قِصَّة إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقومه ﴿لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، وقد سبق الكَلام عليها.

لكن يجبُ علينا أنْ نَعْـرِفَ أنَّ اللهَ تَعالَى إذا قالَ عن شَيْءٍ: إنَّ فيه آيةً، يَجِب ألَّا نَأْخُذَه مَأْخَذَ الظَّاهِرِ فقطْ، بل يَجب أنْ نَتَأَمَّل ما هذه الآيات.

وقَوْلُهُ: ﴿فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ هل المُـرادُ بذلكَ جُملةُ القِصَّة، أم في كلِّ جـزءٍ مِنَ القِصَّة؟

فنقول: إنَّ الإشارةَ إلى المجموعِ بلا شَكّ، ففي كلِّ قطعةٍ منها آيةٌ، وفي اجتماعِ هذه القِطَعِ بَعْضها إلى بعضٍ أيضًا آيةٌ، فتكون الآيةُ مُوَزَّعَةً على كلِّ قطعةٍ، ويكون أيضًا اجتماعُ هذه الأشياءِ جميعًا فيه آيةٌ.

وإنَّما المهمُّ أن الله تَعالَى إذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يجبُ عليك أنْ تَتَأَمَّلَ وتَتَفَكَّرَ وتَعْتَبِر؛ لِتَظْهَرَ لكَ هذه الآيةُ.

وقَوْلهُ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الضَّميرُ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ الراجِح أنَّه يعودُ إلى مَن كَانوا في عَهْدِ النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و(ما) فيها قولانِ:

الأوَّل: أنها حِجَازِيَّة على الصَّوابِ، وليستْ هي العاملةَ، بلِ الصَّوابُ أنَّ الَّذي عَمِلَ (كان)؛ لأنك إذا جعلتَ (ما) هي العاملة صارت (كان) زائدةً، والأَصْلُ عَدَمُ الزيادةِ.

والثَّاني: أنها نافيةٌ، فيكون قَوْلهُ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يَعْني: لـم يكنْ أكثرُهُمْ مُؤْمِنًا.

الآيــة (١٠٥)

❁ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء:١٠٥].

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بِتكْذِيبِهِمْ لَهُ لِاشْتِرَاكِهِمْ فِي المجِيءِ بِالتَّوْحِيدِ، أَوْ لِأَنَّهُ لِطُولِ لُبْثِه فِيهِمْ كَأَنَّهُ رُسُل، وَتَأْنِيث (قَوْم) بِاعْتِبَارِ مَعْنَاهُ وَتَذْكِيرُه بِاعْتِبَارِ لَفْظِهِ].

قَوْلهُ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ﴾ ذَكَرَ المُفَسِّر جوابًا على تأنيثِ الفعلِ معَ أنَّ الفاعلَ مذكَّر.

قَوْلُهُ: ﴿نُوحٍ﴾ نوحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو أوَّل رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إلى أهلِ الأَرْضِ، يُؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النِّساء:١٦٣]، أما آدمُ فهو أوَّل نَبِيٍّ نُبِّئَ؛ فإنَّه كَان نبيًّا بلا شَكّ، ونوح كَان أوَّل رَسُولٍ، وإنَّما كَان آدمُ نبيًّا للضَّرورَةِ؛ لأنه لا بُدَّ أنْ يَتَعَبَّد لله، ولا عِبادَة للهِ إلَّا بما شَرَعَ، ولا شَرْعَ إلا بوحيٍ، لكنَّه لم يرسَلْ؛ لعدمِ دعاءِ الحاجةِ إلى ذلكَ؛ إذِ النَّاسُ كَانوا مُتَّفِقِينَ، فلمَّا اختلفوا بعثَ اللهُ الرُّسُلَ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، في قِراءَة ابن عباس: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فاخْتَلَفُوا»[1]، وهذه الجُملة لا داعيَ لها؛ لأنها مأخوذةٌ مِن قَوْلِهِ: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩٦، رقم ٤٠٠٩).

فعلى كُلِّ حالٍ، في عَهْد آدمَ لم يكنْ حاجةٌ إلى الرِّسَالَةِ، إنَّما النبوَّة فقطْ، وهو يَتَعَبَّد للهَ وأبناؤُه، بل أولاده يَتَّبِعُونَه في ذلك على وجهِ الاتِّفاقِ بينَهم.

ولـمَّا كَثُرَتِ الأُمَّةُ وانتشرتْ في الأَرْض اختلفوا، فصارتِ الحاجةُ والضَّرورَةُ داعيةً إلى إرسالِ الرُّسُلِ، فبعث اللهُ تَعالَى نوحًا، وهو أَوَّلُ رَسُولٍ أرسلَهُ اللهُ إلى الأَرْضِ، كما يُشيرُ إلى ذلك قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النِّساء:١٦٣]، وكما هو صَحِيحٌ صريحٌ في حديثِ الشَّفاعَةِ: «**وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ**»(١).

وإذا قلنا: إنَّه أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَه الله إلى أهلِ الأَرْضِ، فهل نقولُ: إنه أُرسِلَ إلى النَّاسِ كافَّةً، فيُحتاج حينئذٍ أنْ نجمعَ بينَه وبينَ قَوْلِ النَّبيِّ ﷺ: «**وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً**»(٢)؟

قلنا: هو أَوَّلُ رَسُولٍ؛ لأنه لو شارَكَهُ غيرُه ما كَان هو الأَوَّلَ، لكَانَ هو وغيره هو الأَوَّل. وقد يقول قائلٌ: لعلَّ أحدًا بُعِثَ في حياة نُوحٍ، لكن في غيرِ مكانِه، وقد نقولُ بظاهرِ الأَوَّل، وإنه إنَّما بُعِثَ إلى النَّاسِ لأن النَّاس كَانوا في ذلكَ الوقتِ أُمَّةً واحدةً قليلينَ، لم يَنتشروا كثيرًا في الأَرْض، فكَان هؤُلاءِ النَّاس بمنزلةِ القومِ في الرُّسُلِ الَّذينَ بعدَهم، وعلى هذا الطريق نَسْلَمُ منَ الإشكالِ الآخَرِ، وهو أنَّ الله تَعالَى أغرقَ جميعَ أهلِ الأَرْضِ في عهدِ نوحٍ، إلا مَن آمَنَ معه، إذ يُقالُ: كيف يُغْرَقُون ولم يَبْعَثْ إليهم رسولًا؟ فلولا أنَّ نوحًا كَان رسولًا إليهم ما أُغرقوا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «**جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**»، رقم (٤٣٨)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢١).

جميعًا، وإنْ كَان منَ الجائزِ أنْ يُقال: لعلهم أيضًا -الَّذين بُعِث إليهم في زَمَنِه- كذّبوا رُسُلَه، لكنْ ظاهرُ الآيَاتِ أنَّ الَّذينَ غَرِقوا إنَّما غَرِقوا بسؤالِ نوحٍ.

وعلى كُلِّ حالٍ، هذا إشكالٌ دائرٌ بين العُلَماءِ من قَدِيم، وقد أجابوا عنْ ذلكَ بأنَّ نوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانت رسالتُه إلى النَّاسِ كافَّةً في ذلكَ الوقتِ؛ عرَضًا لا أصلًا.

وفرْقٌ بينَ ما يأتي إلى أُمَمٍ مُخْتَلِفَةٍ أُرْسِل إلى كلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ، ثم يُقال لهؤُلاءِ الأمم كلِّهم: يجب أن تَتَّبِعوا هذا الرَّسُولَ، لتكونَ الأُمَّةُ واحدةً، وبينَ مَن لم يُبْعَثْ إلَّا في قومِه فقطْ؛ في أُمَّة واحدةٍ فقطْ، فإنَّ كونَه مبعوثًا إليهم جميعًا على سبيلِ الاتِّفاقِ والعُرْف لا على سبيلِ القصدِ، وبهذا تَظْهَرُ المَيْزَةُ بينَ مُحَمَّدٍ ﷺ وبين نوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ونَسْلَمُ منَ الإشكالِ.

فنقول: نوح أُرْسِل إلى قومِهِ وليس هناك أُمَمٌ مختلفةٌ يجبُ أنْ يَتوحَّدُوا على رَسُولٍ كما كَان في عهدِ النَّبيِّ مُحَمَّد ﷺ، وكونه مُرْسَلًا إلى جميعِ النَّاسِ في ذلك الوقتِ ليسَ من بابِ القَصْدِ، بل هو من بابِ الاتِّفاقِ والعَرَض، أي أنَّه اتَّفَقَ أن النَّاسَ كلَّهم انْحَصَرُوا في قومِ نوحٍ، فهنا ما قصدَ من رسالتِهِ أن تكونَ شاملةً لجميعِ الأُمَمِ، بخلاف رسالةِ النَّبيِّ ﷺ فإنَّه قصدَ أن تكونَ شامِلَةً، وأن يتوحَّد الْيَهُودُ والنَّصارَى والمَجُوسُ والوَثَنِيُّونَ، كلهم يَتَوَحَّدُون في أُمَّةٍ واحدةٍ، بفرق بين الْعُمومَيْن: الْعُموم القَصْدي والْعُموم الاتفاقي.

فهذا نوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول لهم: إن قومَه كذبوا المُرْسَلِينَ، ونحن نعلمُ أنَّهم ما كذَّبوا إلا رَسولًا واحدًا، فليسَ قبلَ نوحٍ أحد حتى نقول: كذبوا هذا وهذا.

وكيف نَجْمَعُ بينَ ما جاء في حديثِ الشَّفاعَةِ: «فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ»[1]، وبين قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، مع أنه أوَّل الرُّسُلِ؟

يقول المُفسِّرُ في الجَوابِ عن هذا: [بِتَكْذِيبِهِمْ لَهُ لِاشْتِرَاكِهِمْ -أي: المرسلين- فِي المَجِيءِ بِالتَّوْحِيدِ]؛ إذِ اشتركوا كلُّهم في المجيءِ بتوحيدِ الله عَزَّوَجَلَّ والقيام بطاعتِه، فصاروا جنسًا واحدًا، وتكذيبُ واحدٍ منَ الجنسِ تكذيبٌ للجميعِ؛ إذ إنهم لم يُكَذِّبوا نوحًا لأنه نوحٌ، لكن كذَّبُوه لأنه جاء بالتوحيدِ، فلو جاءَ كلُّ نبيٍّ بالتوحيدِ لَكَذَّبُوه، وعلى هذا فإذا جاءهم هُودٌ كذّبوه، إذ لا فرق، وإذا جاءهم صالحٌ كَذَّبُوه، وإذا جاءهم مُوسَى كذَّبوه، وإذا جاءهم مُحَمَّدٌ كذَّبوه؛ لأنَّهم كذَّبوا الجِنْسَ لا الشخصَ؛ لأنه أَتَى بما يُخالِفُ ما هم عليه فكذَّبوه، لذلك يكونونَ مكذِّبين لِجَمِيعِ الرُّسُلِ.

ولهذا نقولُ للنَّصارى الَّذينَ يَدَّعُونَ أنَّهم مُؤْمِنُونَ بِعِيسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: إنكم كافرونَ به، مكذّبون له؛ لأنَّهم كذَّبوا مُحَمَّدًا ﷺ، لا سِيَّما وأن رسولهم عِيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بشَّرَهُم به كما حَكَى عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، ولا شكَّ أنه لن يُبَشِّرَهُمْ بمَن ليسَ لهم.

أرأيتَ لو أنَّ مَولودًا لِفلانٍ وُلِد فهل آتي إليك وأقول: أَبْشِرْ بمولودِ فلانٍ وليس بينك وبينه ارتباطٌ؟!

---

(١) سبق تخريجه.

ولو أن إِنْسانًا قدِمَ لِيُوَزِّعَ جوائزَ على آلِ فلانٍ، فهل أُبَشِّرُكَ بقُدُومِهِ؟! ولو حدثَ هذا لكان سَفَهًا.

إذن لم يُبَشِّرْهُمْ عِيسى إلَّا لأنه رَسُولٌ إليهم، ولهذا قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، يَعْنِي: عَيّنه بالاسمِ حتى لا يَبْقَى فيه إشكالٌ فيما بعدُ، ولكن -والعياذُ باللهِ- هم كَفَرُوا، وكفروا بالنَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فيكونونَ كافرينَ بعِيسى بنِ مَرْيَمَ.

وكذلكَ الْيَهُودُ كُفْرُهم بمُحمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كفرٌ بِمُوسى وبالتَّوراة الَّتي وُجِد فيها رَسُولُ الله مكتوبًا عندَهم: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦]، مثلما أنَّ الإِنْسان يَعْرِف ابنَه فهم يَعرِفونَ مُحَمَّدًا ﷺ بوصفه، ولكنه الاستكبارُ والعياذُ باللهِ.

فإن سأَلَ سائلٌ: إن كانَ نوحٌ نُبِّئَ ولم يُرْسَلْ برسالةٍ، فكيف اتَّبَعَهُ أولادُه؟

فالجَوابُ: رَأَوْا ما يفعل ففعلوا؛ لأنَّه عادةً أنَّ الإِنْسانَ يُقَلِّدُ مَن هو أكبرُ منه، وليسَ هناك موانِعُ وفوارقُ تَمْنَعُهُم وتَصرِفُهُمْ عن تقليدِهِ.

فإن كانَ في عِبادته أشياءُ قَوْلِيَّة تَحتاج إلى تفسيرٍ، فإِنَّه سَيُفَهِّمُهُمْ مِن فِعْلِهِ ومن قولِهِ، لكن هذا لا يَعْنِي أنه صارَ رسولًا؛ لأن المرسَلَ هو المبلِّغُ المكلَّفُ، أمَّا هذا فليسَ بمكلَّفٍ، ولهذا نقول مثلًا: إن الجنَّ لم يَنتفعوا برسالةِ نوحٍ؛ إذِ المعروفُ عند أهلِ العِلْمِ أنه لم يُرسَلْ إليهم، وأنه ما أُرْسِلَ إلى أحدٍ من الجنِّ إلا مُحَمَّدٌ ﷺ، مع أنَّهم يقولونَ: ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف:٣٠]، وهذا يدلُّ على أنَّهم كَانوا مُنْتَفِعِينَ بكتابِ موسى.

فإنْ قيلَ: وما دَليلُ أهلِ العِلْمِ على أنَّ الرُّسُلَ السَّابقينَ لم يُرْسَلُوا إلى الجنِّ ما دامَ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]؟

قلنا: هم يقولونَ: إنَّ النَّبيّ يُبعَث إلى قومِه، وقومُه قبيلتُه وما يَتَّصِل بهم، والجنُّ ليسوا من جِنْسِهِ حتى يكونوا من قومه.

لكن رسالة النبي ﷺ إلى الجنِّ لا تدلُّ على عُمومِ رسالتِهِ إلى الجنّ؛ لأن الجنَّ لَيسوا منَ النَّاسِ، لكن في كونِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَجتمِع بهم ويُواعِدُهُمْ، ويَقْرَأُ عليهم القُرآنَ، ويُخْبِرُهم بما فيه يدلُّ على أنه مُرْسَلٌ إليهم.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، هل يَعْنِي أنَّ الجنّ يَعْبُدُونَ بِشَرْعٍ؟

قلنا: الأَصْلُ أنَّ مَن يعبدونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أنَّهم يَعبدون بالشرعِ، فهم يَتَعَبَّدُونَ بالشرعِ بلا شَكّ.

وهل منهم رُسُلٌ أو ليسَ منهم رسلٌ؟

هذه المسألة موضع نزاع بين العلماء؛ فمنهم من قال: منهم رُسُلٌ؛ لقَوْلِهِ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ [الأنعام:١٣٠]، فقال: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، والرَّسُول لا بُدَّ أنْ يكونَ من جِنس مَن أُرْسِلَ إليه؛ لقَوْلهُ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩]، ولا يمكن أن يرسل إلى الجِنّ بشرٌ.

ومنهم من قال: إن قَوْلهُ: ﴿مِّنكُمْ﴾ يعود إلى المخاطَبينَ باعتبارِ المجموعِ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يخاطب اثنينِ، والضَّميرُ في: ﴿مِّنكُمْ﴾ يعود إلى أحد الاثنين،

مثلما قالُوا -على زعمهم-: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرَّحمن:١٩-٢٢]، وزَعَمُوا أنَّ اللُّؤْلُؤَ والمَرجان لا يخرجانِ إلَّا مِنَ المالِحِ.

وعلى كُلِّ حالٍ فإن عَوْد الضَّميرِ على واحدٍ من المجموعِ إذا خُوطِبَ الجميعُ شائعٌ في اللُّغة.

وبعضهم يقول: إن المُرادَ بالرُّسُلِ هنا النُّذُر، فقلنا: رُسُل؛ لِمُشابَهَتِهم له، والنُّذُر لا شكَّ أنَّهم يأتونَ إلى الجنِّ كما يأتونَ إلى الإنسِ.

والراجحُ أنه ليسَ منهم رَسُولٌ؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف:١٠٩]، والجنُّ ليسوا من (رِجَالًا).

والنَّبيُّ غيرُ الرَّسُولِ، فالنَّبيُّ مَن أُوحِيَ إليه؛ لأنَّ الوحيَ الَّذي يُشَبَّه بوحيِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو مِن نوحٍ فأقلَّ فما دُونَه، فالوحيُ المشبَّه بوحيِ اللهِ إلى رسولِه مُحَمَّد ﷺ هو ما كَانَ إلى نوحٍ ومَن بَعْدَه؛ لأنه وحيٌ مَقرونٌ بالإرسالِ.

ونقول: إنَّ اللهَ تَعالَى بَشَّرَ النَّصارَى على لسانِ عِيسَى نَبِيِّكم بمُحمَّدٍ، فالذي لا يَعتقِد إلَّا أنه مُخْبِر بأنه سوفَ يُبْعَثُ رَسولًا؛ فإن هذا من ضلالِ قومِه الَّذينَ أَضَلُّوه، وإلَّا ما عندنا شك أن عيسى بشَّر قومه بمُحمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حتى يَتَّبِعُوه، وإلَّا ما الفائدةُ من البشارةِ؟!

ومَن كذّب أيَّ رَسُولٍ فهو منكِرٌ لله، أو واصفٌ اللهَ بما لا يَسْتَحِق؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى يؤيِّد الرَّسُولَ بالآيَاتِ، فإذا كَان كاذبًا لزِمَ أنْ يكونَ اللهُ تَعالَى غيرَ موْجودٍ، أو أنه تَعالَى -والعياذ بالله- خائن أو ما أشبهَ ذلك.

فوائدُ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أنَّ التَّكذيبَ بالحقِّ من شخصٍ تكذيبٌ به من جميعِ الأشخاصِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، معَ أَنَّهم ما كَذَّبُوا إلَّا واحدًا، لكن في الحَقِيقَةِ هم كَذَّبُوا الحقَّ، سواء جاءَ به نوحٌ أو غيرُه، ولهذا صاروا مُكَذِّبِينَ لِجَمِيعِ الرُّسُلِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فيها دَليلٌ على أنَّ نوحًا أُرسلَ إلى جميعِ النَّاسِ في وقتِه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وجه الدلالة أنَّهم قد كَذَّبوا عامَّة المُرْسَلِينَ، ونوح هو أوَّل الرُّسُلِ، وليس من رسولٍ قبله.

وقد تَقَدَّمَ أنَّ هذا لا يُنافي عُمومَ رسالةِ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأن في ذلك الوقت لم يَكُنْ في الأرضِ إلَّا قومه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧]، وهذا أمرٌ ليس قصدًا، وإنَّما هو وَقَعَ اتِّفَاقًا، ومَعْنى وقعَ اتِّفاقًا أنَّ اللهَ تَعالَى لَـمَّا أرسله لـم يكنْ في الأَرْضِ سِوَى قومِه. أمَّا الرَّسُول ﷺ فإن الأقوام كثيرونَ: بنو إسرائيلَ، والعرب، والأجناس الأخرى، ومع ذلك فإِنَّه مبعوثٌ إليهم جميعًا.

• • ۞ • •

الآيات (١٠٦- ١١٠)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء:١٠٦-١١٠].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ ﴾ نَسَبًا ﴿نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ اللهَ، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ عَلَى تَبْلِيغ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ مِنْ تَوْحِيد اللهِ وَطَاعَته، ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ عَلَى تَبْلِيغه ﴿مِنْ أَجْرٍ إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِيَ﴾ أَيْ ثَوَابِي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا].

قَوْلُهُ: ﴿أَلَا﴾: في الأَصْلِ تكونُ للعرضِ، وهو الطلبُ برِفْقٍ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات:٢٧]، ولكنِ المُرادُ به هنا التَّحْضِيضُ، وهو الطَّلَبُ بحثٌ.

قَوْلُهُ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تَتَّقُونَ اللهَ، يَعْنِي أنه يَحُثُّهم على أنْ يَتَّقُوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ ويَتَّخِذُوا وِقايةً مِن عذابِهِ بفعلِ أوامرِهِ واجتنابِ نواهيهِ.

ثم بَيَّن لهم أنَّه إنَّما قامَ بهذه الموعظةِ لأنه رَسُولٌ أمين: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، فقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ يَعْنِي: لا لِغَيْرِكُم، والخطابُ لِقَوْمِهِ، وفي قَوْلِهِ: ﴿لَكُمْ﴾ ولم يقل: إني رَسُولٌ، حَضٌّ لهم على قَبولِهِ؛ لأنه إذا كَان رسولًا مُطْلَقًا قد يقولونَ: إنَّكَ لم

تُرْسَلْ إلينا، فإذا قال: ﴿لَكُمْ﴾ تَعَيَّن.

ثمَّ إنَّه إذا قال: ﴿لَكُمْ﴾ يُشْعِرُهم بأنَّ الله تَعالَى قد اعْتنَى بهم، حيثُ بَعَثَ إليهم هذا الرَّسُول، فيكون فيه هنا حَمْلٌ على أن يَقْبَلُوا رِسالته.

وقول: ﴿رَسُولٌ﴾ أي: من الله، وهذا معروفٌ مِن سِيَاق هذه الآيَاتِ، ومن غيرِها منَ الآيَاتِ الأُخرى.

وقَوْلُهُ: ﴿أَمِينٌ﴾ الأمين: هو مَن كَانَ مَحَلّ أمانةٍ، والرُّسُلُ -عليهم الصلاة والسلامُ- كلُّهم مَحَلُّ أمانةٍ لِرِسَالَتِهم، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [على تَبليغِ ما أُرْسِلْتُ به]، واضحٌ، فالذي ائْتَمَنَهُ على ذلكَ هو اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إظهارٌ لِوَصْفِهِ الخاصِّ المناسِبِ لِلْمَقَامِ، وهي الرِّسالَةُ، بأمانةٍ لا خِيَانَةَ فيها، لا بزيادةٍ ولا بنقصٍ.

وقد يقولُ قائلٌ: أيُّ فائدةٍ لِوَصْفِهِ نَفْسَهُ بأنه: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ وهو يُخاطِبُ قومًا قد أَنْكَرُوه، فإذا كَانوا قد أَنْكَرُوا رِسَالَتَهُ فبالأَولى يُنكِرون أمانَتَهُ؟

والجَواب: أنَّه لم يَدَّعِ أنه رَسُول أَمِينٌ فقط، ولكنه جاءهمْ بآياتٍ، فـ«مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ»[1]؛ لأن الله

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول ما نزل، رقم (٤٩٨١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، رقم (١٥٢).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليمٌ حكيمٌ، ولا يُمْكِنُ أنْ يُرْسِلَ أحدًا إلى أقوامٍ فيُسَفِّه أحلامَهم، ويُفْسِد أديانَهم، إلَّا ومعَه منَ الآياتِ ما يُؤْمِنُونَ على مِثْلِهِ لو لم يَسْتَكْبِرُوا.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ هذا في المَعْنى مُكَرَّر مع ما قبلَه، لكنَّه في الأسلوب أشدُّ منَ الأوَّل، فالأوَّل حضٌّ بصفةِ العَرْض: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وهنا أمر: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، وفي هذا دليلٌ على قوَّة جانبِ الأَنْبياءِ -عليهم الصلاةُ والسلامُ- بحيثُ تَوَصَّلُوا إلى أنْ يَأْمُرُوا أقوامَهُم، معَ أنَّهم في الواقعِ يَتَحَدَّثُونَ من مصدرِ المُلْتَمِسِ، لكن هم بأنفسِهِمْ أَعِزَّاء، وقد يكونُ أنَّهم يَتَكَلَّمُونَ من مصدرِ القُوَّةِ، أمّا هم بالنِّسبةِ لإخوانهم فإنَّ أقوامَهم مُسْتَكْبِرُونَ عنهم، ليسوا مُبالِينَ بِهِم.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، وهم إذا اتَّقوا اللهَ وأطاعوا رسولَه، فقد حَقَّقُوا شهادةَ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ هذا رَسُولُ اللهِ، وهو أمرهم بهذا، ولا يَتِمُّ الإسلامُ في أيِّ زمانٍ أو مكانٍ إلَّا بذلكَ -شهادة أن لا إله إلا الله، وأن هذا رَسُولُ الله- أمَّا بعدَ بَعْثَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فتَعَيَّنَ: وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله.

قال المفسِّر: [فيما آمُرُكُمْ به]، أي: من توحيدِ اللهِ وطاعتِهِ. وفي أَمْرهم بهذا إشارةٌ إلى أنه أُرسِلَ بذلكَ، أي: أُرْسِلَ بأنْ يَأْمُرَهُمْ بِتَقْوَى اللهِ؛ لأنَّه قال: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، والفاءُ لِتَرْتِيبِ ما بعدَها على ما قَبْلَها، يَعْنِي: هذه الرِّسالَةُ الَّتي أُرْسِلْتُ بها تَتَضَمَّنُ التَّقْوَى، وطاعةَ الرَّسُولِ؛ لأن طاعةَ الرَّسُولِ طاعةٌ لِلْمُرْسِلِ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

قَوْلهُ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما قلتُ، أي: على تبليغِ الرِّسالَةِ، و(مِنْ): زائدةٌ، و(أَجْرٍ): اسمٌ منصوب على أنه مفعول ثانٍ لـ(أَسْأَلُكُمْ)، وهو منصوبٌ بفتحةٍ مُقَدَّرَةٍ على آخِرِهِ، منعَ مِن ظُهُورِهَا اشتغالُ المَحَلّ بحركةِ حرفِ الجرِّ الزائِدِ.

وأتت (مِنْ) هنا في سياق النفيِ داخلة على نكرةٍ؛ للتنصيصِ على الْعُمومِ، يَعْنِي: من أجرٍ قليلٍ أو كثيرٍ، والمُرادُ بالأجرِ هنا أجرُ الدنيا، وهو المعاوَضَةُ، يَعْنِي: ما قلتُ لكم: أَعْطوني أَجْرًا، ولو أَمَرْتُكُمْ بهذا لقِيلَ: هذا رجلٌ يريدُ أنْ يَسْتَجْدِيَ بما يَدَّعِيهِ منَ الرِّسالَةِ.

وهناك أُناسٌ يَتكَلَّمُونَ في المساجدِ، ويَعِظُون النَّاسَ ويُوَجِّهُونَهُم؛ فإذا انْتَهَوْا مَدُّوا أَيْدِيَهُم يسألونَ النَّاسَ، وهؤلاء حالُهم خلافُ حالِ الرُّسُلِ، ولهذا تجدونَ النَّاسَ لو كَانوا قد تَأَثَّروا بِمَوْعِظَتِهِمُ الأُولى، فإذْا مَدُّوا أَيْدِيَهم بعدَ أنْ وُعِظوا ذهبَ كلُّ ما كَان في نُفُوسهم من هذا التأثُّر؛ لأنَّ الإِنْسانَ إذا طلبَ الدنيا بما يُرَاد به الآخرةُ، فسَدَ أَمْرُه، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [هود:١٥-١٦].

ويُسْتَفَادُ من هذا: أنَّ مَن طَلَبَ العِلْمَ الَّذي جاءتْ به الرُّسُلُ لِيَنَالَ به أمرًا منَ الدُّنيا، فليسَ طريقُه طريقَ الرُّسُل؛ لأن الرُّسُلَ إنَّما يَأْمُرُونَ النَّاسَ ويَنْهَوْنَهُم؛ لِـمَا يرجونه منْ ثوابِ اللهِ لا لـما ينالونه من الأجرِ، ففي هذا دليلٌ على وُجُوبِ تصليحِ النيَّة لِمَنْ قامَ مَقَامَ الرُّسُلِ بالدعوةِ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

يقول المُفَسِّر: [﴿إِنْ﴾ ما ﴿أَجْرِىَ﴾]، ففَسَّرَ (إنْ) بـ (ما)، فهي نافيةٌ، وفسَّرَ ﴿أَجْرِىَ﴾ بقَوْلِهِ: [ثَوَابِي]، فالمَعْنى: ليسَ أَجْرِي عليكم ولا على غَيْرِكُم منَ الخلقِ، وإنَّما هو: ﴿عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهو اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي هذا إخلاصُ المرءِ للهِ عَزَّوَجَلَّ وأنه لا يُرِيدُ ثوابًا منْ أحدٍ ولا مَنالًا إلَّا منَ اللهِ، وفيه أيضًا دليلٌ على أنَّ عملَ الإِنْسانِ لِيَنَالَ الثَّوابَ ليسَ أَمرًا مَمْقُوتًا، بل هو طريقُ الرُّسُلِ -عليهم الصلاةُ والسلامُ- وأَتْبَاعهم.

وقَوْلهُ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مالِكِهم المدبِّرِ لهم بما يشاءُ، وأصلُ المالِكِ: المتصرِّفُ في الشيْءِ، ومنه سُمِّيَ ربُّ البيتِ، وربُّ البهيمة، وربُّ كذا، ويُطلَق بمَعْنى (صاحب) كقولِهِ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:١٨٠]، ورَبّ الْعِزَّةِ يَعْنِي: صاحب العِزَّة، ولا يُمْكِن أنْ تكونَ الربُّ هنا مثلَ الربِّ في قولِ: ربّكم؛ لأنَّ العزَّة من صفاتِ اللهِ، ولا تكونُ مخلوقةً.

فهنا: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: خالقهم ومالكهم ومدبِّر أَمْرِهِمْ بما شاءَ، و(الْعَالمينَ) معناها: كلُّ ما سِوَى الله.

وقَوْلهُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كُرِّر تأسيسًا؛ لأنه بناهُ على قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَعْنِي: فإذا انتفى ذلك فأنتم اتَّقُوا اللهَ وأطيعوني، فيكون هذا تأسيسًا، ولا يُستفاد المَعْنى المقصود منه لو حُذِفَ.

والفرقُ بينَ التَّأكيدِ والتأسيسِ: أن التَّأكيدَ لو حُذِفَ لاستُفِيدَ المَعْنى منه ممَّا بَقِيَ دونَ التَّأكيدِ، أي أن المؤكَّد لا يُستفاد منه سِوَى التَّأكيدِ، فلا يَحْمِلُ معنًى جديدًا، أمَّا التأسيسُ فيحملُ معنًى جديدًا، وهو: وعلى أنني لا أريدُ الأجرَ، وإنَّما ألتمسُ الثَّوابَ منَ اللهِ، فيَجب عليكم أنْ تتَّقُوا اللهَ وتُطِيعُوني.

ويُستفاد من قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أنَّ التَّقوَى لا تُضافُ إلى المخلوقِ، بِخِلاف الطَّاعةِ، فلا بأس أن أقولَ: أنا أطعتُ فلانًا، لكن لا يجوزُ أنْ تقولَ: اتقِ فلانًا، بمَعْنى التَّقْوى المُسْتَلْزِمَة للتَّذَلُّل.

الآيات (١١١- ١١٥)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوۡ تَشۡعُرُونَ ١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الشعراء:١١١-١١٥].

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ﴾ نُصَدِّق ﴿لَكَ﴾ لِقَوْلِكَ ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: «وَأَتْبَاعك»[1] جَمْع تَابِع مُبْتَدَأ ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ السَّفِلَة كَالحَاكَةِ وَالْأَسَاكِفَة، ﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي﴾ أَيّ عِلْمٍ لِي ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ﴾ مَا ﴿حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ فَيُجَازِيهِمْ ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ مَا عِبْتُمُوهُمْ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤ إِنۡ﴾ مَا ﴿أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ بَيِّن الْإِنْذَار].

قوله تعالى: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ﴾ إجابةٌ صريحةٌ قَبيحةٌ في الواقعِ؛ لأنَّ الاسْتِفهامَ هنا من إنكارٍ، وإتيانُ الاسْتِفهامِ منَ الإنكارِ والنفيِ أبلغُ منَ النفيِ المجرَّدِ، يَعْنِي: كيف نُؤْمِنُ لك، ولا يُمْكِنُ أنْ نُؤْمِنَ لكَ؟ وقَوْلُهُ: ﴿لَكَ﴾ ما قال: بِكَ، وقولُ المفسِّر: (لِقَوْلِك) فيه نَظَرٌ؛ لأنَّهم يُرِيدُونَ الاستكبارَ لا نفيَ مجرَّد التصديقِ، فيكون قولُهم: ﴿أَنُؤۡمِنُ﴾ ضُمِّن مَعْنى (ننقاد).

قَوْلُهُ: ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ حاليَّة على تقديرِ (قد)، يَعْنِي: وقدِ اتَّبَعَكَ الأرذلونَ، يَعْنِي:

(١) النشر في القراءات العشر (٢/ ٣٣٥).

لا يُمْكِن أنْ نُؤْمِنَ لكَ.

قوله: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ أي الأنقصون من الخلق، وقَوْلُهُ: ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ فيها قراءتان: (وأتباعك) جمع: تابع، مبتدأ، و(الْأَرْذَلُونَ) خبرُه، أمَّا على قِراءَة ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ فـ(الأرذلونَ) فاعلٌ.

والمَعْنى: أنَّهم قالُوا: لو كَان أتباعُكَ المَلأ والأشراف لاتَّبَعْنَاكَ، لكن أَتْبَاعك أراذلُ النَّاسِ، مِنَ الفُقَرَاءِ والسُّوقة، والَّذينَ لا يُقَدِّرُونَ الأمورَ ولا يَعْرِفُونها؛ فهم أراذلهم من حيثُ المالُ -على زَعْمِهِم- ويُمْكِنُ أنْ نقولَ: إنَّهم أراذلُهم من حيثُ الثقافةُ أيضًا والجاهُ والشرفُ، فهم أرذلُ الأراذلِ عندهم.

وهل هذا مانعٌ، فهو يوجه الخطابَ إليكم أيها الأكملونَ، فكيف تقولونَ: لا نؤمن وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ؟ فالخطابُ موجَّه لكم؛ لأنكم لو آمنتم ما احتيجَ إلى توجيهِ الخطابِ والأمر لكم بتقوى اللهِ، وطاعته، ولكنَّكم مُعانِدونَ.

وهنا قالُوا: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ على سبيلِ الإطلاقِ بدونِ إضافةٍ إلى أحدٍ، وفي سُورةِ هُود قالُوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هود:٢٧]، فكَانت العبارةُ هناك أهونَ من هذه من جهتينِ:

أوَّلًا: لأنَّهم أَضافوا الأمرَ إليهم، وهنا أَطلقوا.

ثانيًا: أنَّهم هناكَ قالُوا: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ يَعْنِي: ولعلَّه عند التأمُّل لا يكونُ الأراذلُ همُ الأتباعَ، وهنا أَطلقوا فما قالُوا: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ ولا آخر الرأيِ، فإمَّا أن تكونَ هذه الآيةُ قبلَ تلكَ أو تلكَ قبلَ هذهِ.

ويَحتمِل أنَّ هذا قولُ طائفةٍ، وهذا قالَتْهُ طائفةٌ أُخرى، لكن حمْله على حالينِ

أحسنُ من حملِهِ على طائفتينِ، فأوَّلُ التبليغِ يكونُ الإنكار أَشَدّ، و﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ على الْعُموم، ثم قالُوا: ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ للتخصيص.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا عِلْمِى﴾ أيّ عِلْـم لـي ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾]، فقد يُقال في بادئ الأمر: إن اعتذارهم منه يَعْنِي: كَوْنهم آمنوا وهم على زَعْمِكم ﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ أنا لا أدري أنَّهم الأرذلون؟ يَعْنِي: فأنا ما قَصَدتهم حتَّى آمنوا لعلمٍ بهم، ولكن هكذا جَرَتِ الدعوةُ، فاتَّبعها هؤُلاءِ، فهذا ما يَتَبَادَرُ إلى الذِّهن في أوَّل الأمرِ.

ولكن الظَّاهر -واللهُ أعلمُ- أن نفيَه العِلْم هنا نفيٌ للتَّبَعِيَّةِ، يَعْنِي: أيّ شَيْء يكون عليَّ وأيّ شَيْء يلحقني بعملهم؟ فلـو كانوا هـم الأراذلَ على زَعْمِكُم، فأنا لا يَضُرُّنِي ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عِلْمِى﴾ أي: ما حسابي، وما التَّبِعَةُ الَّتي تُلحِقوني بها فيما كَانوا يَعْمَلُونَ؟

وقال المفسِّر: [﴿وَمَا عِلْمِى﴾ أيّ علم لي ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾]، أي أنَّهم يَدَّعُونَ أنَّهم إنَّما تابَعُوه لِيَنَالُوا بذلك جاهًا ومالًا، فيكونون غيرَ مخلصينَ في إيمانهم، فالمَعْنى: بما كَانوا يَعْمَلُونه من أعمالِ القلوبِ، على أنَّ هذا ليسَ بظاهرٍ، ولكن هذا خلاف الظَّاهرِ فيما يَبْدُو.

بل إن المَعْنى: إن عَمَلَهُم هذا ليس عليَّ فيه تَبِعة مهما عَمِلوا، ولو كَانوا في زَعْمِكُمُ الأراذلَ؛ فإن ذلك لا يلحقني بشيْءٍ ما دامتْ رِسالتي قائمةً، وآياتي بيِّنة، فالحُجَّة عليكم قائمةٌ، أمَّا هم حتى وإن كَانوا الأراذلَ عندكم، فحِسابُهم على رَبِّي.

و﴿إِنْ﴾ بمَعْنى (ما): فما حِسَابُهُمْ -كما قال المُفَسِّر- ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ فيُجَازِيهم، وأمَّا أنا فما عليَّ مِن حِسابهم مِن شَيْءٍ، كما أنه ليْسَ عليَّ أيضًا من حسابِكم مِن شَيْءٍ.

أمَّا كونُ عَمَلِ هؤلاءِ بالقلوبِ فليسَ بظاهرٍ؛ يَعْنِي: حِسَابهم على ربِّي حتى لو عَمِلُوا هذه الأعمالَ؛ لأنَّ أعمالَ البواطنِ لا يُمْكِنُ أنْ يُقدَحوا بها، ولو قُدِحُوا بهم ما قُبِلَ، فيقول: حسابُهم على اللهِ ليس عليَّ، وأنا ما عليّ إلا تَبْلِيغ الرِّسالة.

وقَوْلهُ: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ الشُّعورُ هنا بِمَعْنى: العِلْم، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ما عِبتموهم]، يَعْنِي: ما قَدَحْتُم فيهم، يَعْنِي: لو أنَّكم تَشْعُرُونَ بالأمرِ وتَعْلَمُونه ما عِبْتُمُوهم بِقَوْلِكُمْ: أَرَاذِلُنَا، ولكن عَيبهم إيَّاهم في الواقعِ لأنَّهم آمَنُوا بِنُوحٍ، فهم أراذلُ عنْدَهُم لأنَّهم آمَنُوا بمَن يَرَوْن أنَّه ليسَ على حقٍّ، ومعلومٌ أنَّ مَنِ اتَّبعَ مَن ليسَ بحقٍّ فهو مِن أراذلِ النَّاسِ معنًى، وإنْ لم يكنْ من أراذلهم حِسًّا، فالذي يَتَّبِعُ مَن لم تَقُمْ عليه البَيِّنَةُ، فهو من أراذلِ النَّاسِ معنًى، وإنْ كَان فيما بينَ النَّاسِ قد يكونُ له جاهٌ، ويكون عزيزًا.

فالمَعْنى: لـو تَشْعُرون بالأمرِ على حقيقتِهِ لَعَرَفْتُم أنَّهم ليسـوا بأراذلَ، وأن حِسَابَهم ليسَ عليَّ، وأنَّ عليَّ واجبًا وعليهم واجب.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا يُشْعِر بأنَّه عَلِم إخلاصَهُم، وأنَّهم إنَّما قالُوا: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ تَلميحًا لِطَرْدِهِمْ بلا شكّ، فهذا الَّذي قالُوه كَأنَّهم يقولون: نحنُ نَأْنَفُ أن نكونَ معَكَ ومعك هؤُلاءِ الأرذلونَ، فنكون نحنُ على اليمينِ وهم على اليَسارِ، أو على اليسارِ وهم على اليمينِ، فلا بُدَّ أنْ تَطْرُدَهُمْ لِنُؤْمِنَ،

فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فأكَّد قولَه بالباءِ، يَعْنِي: لا يُمْكِن أنْ أَطْرُدَهُمْ أبدًا؛ لأنني أنا دَعَوْتُهم إلى الإيمانِ فآمَنُوا، فكَانَ حَقّهم عليَّ الإكرام.

وهذا الَّذي قالَه قومُ نوحٍ، وهو أوَّل الرُّسُل، قالَه قومُ مُحَمَّدٍ ﷺ وهو آخِر الرُّسُلِ، فقال الله تَعالَى له: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢]، فهذا دَأْبُ المُكَذِّبينَ للرُّسُلِ، ما عنْدَهُم شَيْءٌ يَعْتَمِدُونَ عليه سِوَى التَّمْوِيهِ والتضليلِ وزخارِفِ القولِ، الَّتي لا تَنْطَلِي إلَّا على العُميانِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنْ﴾ ما ﴿أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾]. والنَّذيرُ هو المُخْبِرُ بما يخوِّف، يَعْنِي الإعلامَ المَقْرُون بالتَّخْوِيف.

وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَيِّن الْإِنْذَار]، فجعلَهُ المُفَسِّر مِن (أبَانَ) اللازِمِ، معَ أنه يَحْتَمِل أنه مِن (أبانَ) المتعدِّي، فتكون بمَعْنى: مُظْهِرٍ، يَعْنِي: إني مُظْهِرٌ لِـمَا جِئتُ به، فأنا نَذير مبيّن للناسِ.

فوائدُ الآيَاتِ الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: وفي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دليلٌ على أنه يَنْبَغي للإِنْسانِ أنْ يقرّبَ منه كلَّ مؤمنٍ، وأنْ يختارَ لنفسِه أصلحَ الأصحابِ، كما جاء في السنَّة في الحثِّ عليه، فهذا اختيارُ الجَليسِ الصَّالحِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفيه أيضًا دليلٌ على أنه يَنْبَغي موالاةُ المُؤمِنينَ، والقُرب منهم، وأن هذا دأبُ الأنْبياءِ؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفيه أيضًا الصبرُ على ما يَجِدُ من المؤمنِ من الجفاءِ، ومن دَناءة المهنةِ، وغير ذلك؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾..

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفيه أيضًا التواضُعُ للمُؤمِنينَ، وعدمُ إبعادِهِمْ ولو كَانوا مَن كَانوا فيما بينَ النَّاسِ؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. فالرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أشرفُ الخلقِ جاهًا عندَ اللهِ، وأعظمُهم منزلةً، عاتبه الله في رجل أعمى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ [عبس:١-٤].

• • ❁ • •

الآيات (١١٦- ١١٨)

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١١٦-١١٨].

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عَمَّا تَقُول لَنَا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ بِالحِجَارَةِ أَوْ بِالشَّتْمِ، ﴿قَالَ﴾ نُوحٌ: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أَيِ احْكُمْ، ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾].

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ يَعْنِي: لـمَّا رَأَوْا تَصْمِيمه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأنه لنْ يَطْرُدَ المُؤمِنينَ لِقَوْلِهِم، وأنَّ هؤُلاءِ الأراذل ليس عليهم من حِسَابِهِم مِن شَيْءٍ، وإنَّما حِسَابُهم على اللهِ وهم مؤمنونَ، فلجَئُوا إلى القُوَّةِ، فقالُوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عمَّا تقولُ لنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ بالحجارةِ أو بالشَّتم].

وقَوْلهُ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ في الآية إشكالٌ من حيثُ الإعرابِ؛ لأنَّ فيها قَسَمًا وشَرْطًا، وكلاهما يَحتاجُ إلى جَوابٍ، فأين جَوابُ الشَّرطِ؟ وأين جَوابُ القسمِ؟

والجَواب: أن ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ جَوابُ القَسَمِ، وابنُ مالِكٍ يقولُ[1]:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

(١) ألفية ابن مالك - عوامل الجزم، (ص:٥٩) ط. دار التعاون.

وأيضًا: ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ لا تَصْلُح جَوابَ شرطٍ؛ لأن اللامَ لا يُمْكِن أنْ تَقْتَرِنَ بجَواب الشَّرطِ، إنَّما تَقترن بجَوابِ القَسَم.

والقاعدةُ عند أهلِ العِلْم في النحوِ يقولون: إنه إذا اجتمعَ شَرْطٌ وقَسَمٌ، فاحذِفْ جَوابَ المتأخِّر، فإذا قلت: «إنْ قمتَ واللهِ ضَرَبْتُكَ»، جاز أن تقول: «لَأَضْرِبَنَّكَ»؛ لأن الشَّرطَ متقدِّم، ولكن لو قلتَ: «واللهِ إنْ قمتَ ضَرَبْتُكَ» فلا يجوزُ أن تقولَ: «لَأَضْرِبَنَّكَ».

وقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ أكدوا فيه -والعياذُ باللهِ- ما أرادوا من رَجْمِهِ بثلاثةِ مُؤَكِّدات: القَسَم، واللام، ونون التَّوكيد، ثم أَوْغَلُوا في الوَعِيد والتهديدِ، حيث قالُوا: ﴿مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ ولم يقولوا: لَنَرْجُمَنَّك، كأنَّهم يقولون: هناك مَن سَبَقَكَ فرُجِم، فنحنُ نَرْجُمُكَ معَهم، فهذا أبلغُ مِن لو أنَّهم قالوا: (لَنَرْجُمَنَّكَ)؛ لأن فيه تَخويفًا؛ حيثُ إنه ليس أوَّلَ مَن يُرْجَم، بل هناك مَن رُجِمَ قبلَه.

وهل يَقصِدون أنَّهم يَرْجُمُونه بالحجارةِ أو بالقولِ؟

الظَّاهرُ والأقربُ أنَّهم يَقْصِدون رَجْمَه بالحجارةِ؛ لأنَّ الرجمَ بالقولِ قليلُ الاستعمالِ، ثم إنَّ التهديدَ به من هؤُلاءِ الَّذينَ يَرَوْنَ أنَّهم يَتكَلَّمُونَ من مصدرِ القُوَّة ليس بلائقٍ في المَقامِ، فالصَّوابُ أنَّهم يُهَدِّدُونَه بالرَّجْم بالحجارةِ، واللهُ أعلمُ.

حينئذٍ لجأَ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ﴾، وهذا الدُّعاءُ جمَعَ بين أسْبابِ الإجابةِ الثلاثةِ، وهي:

الأوَّل: دُعاء الله تَعالَى باسمِ الربوبيَّة: ﴿رَبِّ﴾.

الثَّاني: ذِكْر الحالِ الداعيَةِ المُقْتَضيَةِ في الدُّعاءِ: ﴿إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾.

الثالثُ: الطَّلَب، ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أولًا: قَوْلهُ: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى﴾، والربوبيَّة تَنقسِم إلى قِسمينِ: عامّة وخاصّة، وهذه من الربوبيّة الخاصّة، بل هي من أخصِّ الرُّبُوبيَّات؛ لأنّها رُبوبيّة اللهِ تَعالَى في رُسُلِه.

ثانيًا: قَوْلهُ: ﴿إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ إظهارٌ للأضعفِ، يَعْنِي: لما هو أضعفُ؛ لأن قَوْلهُ: ﴿إِنَّ قَوْمِى﴾ كَان مُقتضى الحالِ أن يكونوا مُصدِّقين له؛ لأنَّهم قومه، ولكنهم -والعياذُ باللهِ- صاروا مُكذِّبين له، فصارتْ حالُه تَقتضِي رأفةً أكثرَ، حيثُ إنَّ قومَه هم الَّذينَ كَذَّبوه، ثم إنه يَقتضي أن تكونَ النِّكاية فيهم أعظمَ أيضًا؛ لأنَّهم قومُه.

وهذه الإضافةُ فيها فائدتانِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: بيان أنه مُسْتَحِق للرأفةِ أكثر؛ لأنَّ قومَه هم الَّذينَ كذَّبوه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ قَومَه مستحِقّون للتنكيلِ بهم أكثر؛ لأنَّهم قومُه، وكَان عليهم أنْ يُصدِّقوه ويَمنعوه، يَعْنِي: من أنْ يُؤْذَى، فكيف يكونون هم الَّذينَ يُؤْذُونه؟!

وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:١-٢]، ولم يقلْ: «ما ضلَّ النَّبيّ أو الرَّسُول»، بل قال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾، يَعْنِي: الَّذي تَعرِفونه، وتعرِفون رَجَاحَةَ عقلِهِ، وتعرفون أمانتَه، فكيف تُنكِرون ما جاءكم به منَ المِعراج؟!

قال: ﴿إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ يَعْنِي: نَسَبُوني إلى الكَذِب، وقالُوا: كذّبه، وكذَبه، والفرق بينهما أن (كذَبه) أخبره بخلافِ الواقعِ، و(كذّبه) أنه لم يُصَدِّقْ ما جاء به.

ثالثًا: الفاءُ للسببيَّة في قَوْلِهِ: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ﴾، وهذا القولُ ظاهرُهُ الأمرُ، لكنَّه في جانبٍ له يُسمَّى دُعاءً؛ إذِ الأمرُ لا يكونُ إلَّا ممَّن يَستعلي على المأمورِ، وليس الطالبُ بمُسْتَعْلٍ على مطلوبِه، ثم إن الله جَلَّ وَعَلَا فوقَ كلِّ شيْءٍ.

وقَوْلُهُ: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي: احْكُمْ، وسُمِّيَ الحُكْمُ فَتحًا؛ لأنه يَنْفَتِحُ به الأمرُ ويَتَبَيَّن، فينفصِل هذا عن هذا، وهذا الفتحُ بأنْ يُنْجِيَه ومَن معَه من المُؤمِنينَ، ويُهْلِكهم، أمَّا نجاتُه ومَن معه من المُؤمِنينَ فمصرَّح بها، وأمّا إهلاكُهم فلا نجاةَ إلَّا مِن هَلَكة، هذا هو الفتحُ الَّذي سأله نوحٌ أن يُهْلِكَ الله تَعالَى قومَه وأن يُنْجِيَه هو ومن معَه منَ المُؤمِنينَ.

وقد قال تَعالَى عنه في سُورَة نوح: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

وقد يقول قائلٌ: هل يُخْبِرُ نوحٌ اللهَ تَعالَى بالواقِع؟ أليس الله تَعالَى عالمًا به؟

فالجَوابُ: بلى، هو عالـمٌ به، لكن قَصْده عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بيانُ الحاملِ له على هذا الدُّعاءِ أنه يَعتقِد أنه إذا أبقاهم لا يَلِدُوا إلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا، وإلَّا فاللهُ تَعالَى عليمٌ به، فيكون هذا كالاعتذارِ عن هذا السُّؤالِ العامّ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾.

قَوْلُهُ: ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه المَعِيَّةُ لَيْسَتْ مَعِيَّةَ اختلاطٍ كما هو معروفٌ، بل هي مَعِيَّةُ اشتراكٍ في عملٍ وعقيدةٍ؛ فإنَّ الَّذي معَ نوحٍ من المُؤمِنينَ

كَانوا مشارِكينَ له في العقيدةِ والعملِ، وهذا ممَّا يدلُّ على أنَّ المعيَّة ليستْ كما فَهِمَه المحرِّفون في معيَّة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنها تَقتضي المشاركةَ في المكَانِ، أو الاختلاط، فهذا ليسَ بلازمٍ.

وقَوْلهُ: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لِبيانِ المُبْهَمِ فيمَن معي؛ لأن (مَن) اسمٌ موصولٌ، والاسمُ الموصولُ يَحتاجُ إلى بيانٍ، وبيانُه إمَّا من صِلَته وإمَّا من غيرها.

ويُستفادُ منه أنه عندَ اليأسِ يجوزُ أنْ يدعوَ الإِنْسانُ على المكذِّبين والمعانِدِينَ.

وهل أقرَّ شَرْعُنا هذا أم خالَفَه؟

الجَواب: إنَّ شرعنَا أقرَّه، لكنَّه فضّلَ عدمَ الدُّعاءِ، إلَّا إذا كَان ثَبتَ أنَّهم لا يَستقيمون، ولا يُؤمِنون، فيُشْرَع الدُّعاء، والدَّليلُ على ذلك أنَّ الله رأى النَّبيّ ﷺ عِندَما نادى عليه جِبريلُ وقال له مَلَكُ الجبالِ: إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ. فقال: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[1]. لكنه لم يمنعْ أحدًا.

ودليلٌ أصرحُ منه أن النَّبيَّ ﷺ لـمَّا دعا عليهم في الصلاة قال: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ... اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا» لأحياءٍ منَ العَرَبِ؛ نزل عليه قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [آل عمران:١٢٨][2] فكفَّ عن هذا، فشَرْعُنا أمرَ بالصبرِ، وعدمِ الدُّعاءِ عليهم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم (٣٢٣١)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾،

ولكن قد يُقال: إنَّ نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ شَريعته تخالِف شَريعَتَنَا، ولا مانعَ منْ أنْ تختلفَ الشرائعُ بمثلِ هذا، وأيضًا فإن نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مكَثَ في قومِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، وكلَّما دَعَاهُم ازدادوا إصرارًا واستكبارًا، فما كانَ للصبرِ عليهم فائدةٌ، لكنَّه لم يهاجرْ منهم كما فعل يونسُ، بل بَقِيَ فيهم، حتى عَذَّبَهُمُ اللهُ.

وهل كون الرَّسُولِ ﷺ دعا على المَلَأِ من قُريشٍ، يدلُّ هذا على جوازِ الدُّعاءِ؟

نقول: نعم، لكنَّه مُنِع منه في آخِرِ الأمرِ، وهو دعا على الملأِ من قريشٍ في مكَّة قبلَ أن يُهاجِرَ، ففي الأخيرِ مُنِع ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨].

• • ❁ • •

= رقم (٤٥٦٠)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، رقم (٦٧٥).

الآيات (١١٩- ١٢٢)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١١٩-١٢٢].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ المَمْلُوء مِنَ النَّاس وَالحَيَوان وَالطَّيْر، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ بَعْد إنْجائِهم ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ مِنْ قَوْمِه، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾].

قال الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ الفاءُ للسببيَّة، أي: فبسبب دعائِهِ أنجيناهُ، وهي معَ إفادتها السَّببيَّة تفيد أيضًا التَّعْقِيبَ، ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ معَ أنَّ دعاءه: ﴿وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١١٨]، فكلمة: ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أعمُّ.

فما هي الحكمة في ذلك؟

ذلك لأنَّه صَحِبَ معه بعض الحيواناتِ والمخلوقات، وأخذَ من كلِّ زوجينِ، فهذه لا تلصقُ في الإيمانِ أو عَدَمه.

وقد نقول: لعلَّه ما قَصَدَها أيضًا من نوحٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في دُعائه، فما كَان -فيما يظهر- يَدُور في ذِهْنِهِ أن الله يُنجي هذه المخلوقاتِ الأخرَى، بل قال: ﴿وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقد نقول: إن قَوْلَهُ: ﴿وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من بابِ التَّغْليب؛ لأنه هو أيضًا إنَّما دعا مَن معَه، فكَأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غلَّب جانبَ العُقَلاء؛ لأنه هو إنَّما دعا بإنجائهم، فصار هذا أنسبَ لمطابقةِ الإجابةِ للطلَبِ.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، الفُلْك الَّذي بناه أو صنعه نوحٌ بأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:١٣]، وهنا قال: ﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾.

وأيُّهما أخطر؛ قَوْلُهُ: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾، أم قَوْلُهُ: ﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾؟

الفُلك بلا شك أخطر من: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾، لكن في السُّورة: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]، كما هو معروف في تَواصُل آياتها ومَقاطعها وجُمَل الآيات المناسِبة لها: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾.

كما أنَّ فيه فائدةً معنويةً، وهي بيان موادّ هذه السَّفينة، أنَّها منَ الألواحِ والمَسَامِير، ليكونَ في ذلك دليلٌ على أنَّها مُحْكَمة، ولأجلِ أنْ يَتَعَلَّم صناعةَ السُّفُن مَن لم يَعْرِف، والصناعةُ في ذلكَ الوقتِ ما تَطَوَّرَتْ إلى هذا التطوُّرِ.

وقَوْلُهُ: ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المملوء منَ النَّاسِ والحيوانِ والطَّير]، فهو مشحونٌ مملوءٌ منَ الحيوانِ، ومِن النَّاس، والطير، والطيرُ مِن الحيوانِ، لكن عطْفُه عليه من باب عَطْف الخاصِّ على العامِّ، وكَأنَّه يريدُ أنَّ الحيوانَ هو ما يَمشي على رِجْلَيْهِ، والطير ما يَطِير بِجَنَاحَيْهِ، وإلَّا لو قالَ: الحيوان لَكَفَى.

وقَوْلهُ: ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ اسمُ جِنسٍ يَشمَل بلفظِه الواحدَ والجمعَ، يَعْنِي هذا اللفظ صَالِحٌ للجمعِ والمُفرد، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ

طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢]، فقال: ﴿وَجَرَيْنَ﴾ هنا أراد بالفُلْكِ الجمعَ، وقال في موضعٍ آخر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾ [لقمان:٣١]، فهنا أرادَ المفردَ، ولو كَان بالجَمْع لقالَ: تَجْرِين.

فإنْ قيلَ: وهل هذا الفُلْك يَشْمَل الطائراتِ والسياراتِ؛ لِقوله تعالى: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [يس:٤١]، ولم يقلْ: أنّا حَمَلْنَاهُم؟

قلنا: الَّذي يَمْنَع من هذا هو قَوْلهُ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، والذُّرِّيَّة تأتي بعدُ، فكيف تكونُ آيةً لهم وهم سابقونَ عليها، ولذلك أكثر المُفَسِّرين على خلافِ هذا الرأيِ، يقول: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يَعْنِي ذُرِّيَّةَ أبيهم، أي نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وبعضُهم قال: إنَّ الذُّرِّيَّة هنا بِمَعْنى الآباءِ، لكن استعمال الذريَّة بمَعْنى الآباءِ بعيدٌ في اللُّغة العربيَّة، لكن استعمالها بمَعْنى الذُّرِّيَّة الَّتي نَشئوا منها، ليس في الإضافة للذرية الَّتي نشأتْ منهم، وهي ذُرِّيَّة أبيهم نُوح، وهذا أنسب؛ لأن الحَقِيقَة أننا لو جعلنا: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ لِذُرِّيَّةٍ ما بعدُ جاءَت تكون آيةً لَمن قد ماتَ، فهذا بعيدٌ.

لكنَّها ربما تُطْلَق على الطائراتِ وغيرها من وسائلِ النقلِ الحديثةِ؛ لأن الفُلْكَ هو كلُّ مركوبٍ مخلوقٍ، ولهذا حصرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المركوباتِ في هذا: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف:١٢]، فالْفُلْك ما نَصْنَعُه نحنُ، وَالْأَنْعَامُ ما يَخْلُقُه الله.

لكن الكَلام هُنا على كونِ هذه الوسائلِ آيةً لهم، وهم موْجودونَ، والذُّرِّيَّة ما بعدُ أتتْ، فنفسُ الآيَاتِ الموْجودةِ في عهدِه إذا حَمَلْنَاها نحن على الطائراتِ والسياراتِ وسائرِ المراكبِ، لا يكون آيةً لهؤُلاءِ.

ثم إن كلمة: ﴿حَمَلْنَا﴾ يُحتاج إلى تَأْوِيلها إلى: سَنَحْمِل، وحينئذٍ إذا كَانتْ سَنَحْمِلُ لا تَصيرُ آيةً لهم إلا باعتبارها وعدًا منَ اللهِ ليس مشاهدًا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يخاطب هؤُلاءِ المعاندين بما يقتضيه وعده فقطْ، وإنَّما يُخاطِبُهُم بآياتٍ يُشاهِدونها، أو تكون معلومةً لديهم، بحيثُ لا يُتمكَّن مِنَ الإنكارِ.

فالقولُ بأنَّ الفُلْكَ المشحونَ هنا يُراد به الطائراتُ وغيره ليسَ له وجهٌ، والصَّوابُ أن نقول: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١]، يَعْنِي الذُّرِّيَّة الَّتي كَانوا منها، فالإضافةُ -كما يقولُ النحْويُّون- لِأَدْنَى مُلابسةٍ، فآباؤهم بالنِّسبةِ لنوحٍ ذُرِّيَّة، وأمَّا عادةُ الإطلاقِ أنَّ الذريَّة تأتي بالمَعْنى الحقيقيِّ للآباءِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي: بعد إنجائِهم ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ من قومه]، والَّذينَ هم نَجَوْا كما قال الله تَعالَى في سُورَةِ هودٍ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠]، وابنُه -أحد أبنائه- ما نَجَا؛ لأنه كَان كافرًا، وهو قد سأَلَ: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١١٨].

وفي الآيَات الأُخْرَى أنَّ اللهَ تعالَى قال له: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ ثم استثنى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود:٤٠]، ولكنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ دَعَا الله تَعالَى مُشْفِقًا وراجيًا رحمتَه: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود:٤٥]، فقال اللهُ تَعالَى له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود:٤٦]، والجَوابُ هنا فيه إشكالٌ، إنَّما قال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾؛ لأنه كَان مُقْتَضَى ما سبق أن يقولَ: إنه ليس من أهلِكَ؛ لأنّه استثى قبلًا: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾.

لكن لو قيل كذلك -لأنه سبق عليه القول- لقالُوا: ولماذا سبقَ عليه القولُ؟

فذكر النتيجةَ الأخيرةَ، وهو أنه: ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ إلى آخره، ولها توجيهانِ:

التوجيهُ الأوَّل: أنه، أي: سؤالك ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾؛ لأنك سألتَ ما لا يجوزُ في عِلْمِ اللهِ.

التوجيه الثَّاني: أنه، أي: الولد ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ من بابِ المُبالغةِ، يَعْني: عاملٌ غيرُ صالحٍ، فأطلق عليه المصدر كما يُقال: فلانٌ عدْل، وفلانٌ رِضًا، بمَعْنى ذي عدلٍ ورِضًا، فالمَعْنى أنه ذو عَمَلٍ غَيْرِ صَالِحٍ، ويؤيِّد هذا الاحتمالَ قِراءَةُ: (إنَّه عَمِلَ غيرَ صالحٍ)[1].

فإنْ قيلَ: هؤُلاءِ الَّذينَ نَجَوْا هل هُمُ الَّذينَ بَقُوا منْ أهلِ الأَرْضِ؟

قلنا: لا، ليسوا هم، بل ذُرِّيَّة نوح هم الَّذينَ بَقُوا، وأمَّا مَن كَانَ معَه منَ المُؤمِنينَ فإنَّهم فَنُوا، وما بَقِيَ لهم نسلٌ، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧].

ولهذا يُقال: إنَّ نُوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو الأبُ الثَّاني للإِنْسانِ؛ فالأبُ الأوَّلُ آدمُ، ونوحٌ هو الأبُ الثَّاني؛ لأن جميعَ بني الإِنْسانِ ماتُوا، وما بَقِيَت إلَّا ذُرِّيَّتُه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾، و﴿هُمُ﴾ ضميرُ فصلٍ يفيد الحصرَ والاختصارَ، فهم الَّذينَ بَقُوا.

ويقول المؤرِّخون: إنهم ثلاثة: سامٌ، وحامٌ، ويَافِثُ، واللهُ أعلمُ إنْ كانتْ هذه أسماءَهم أم لا؟ وهل هم ثلاثة أم أكثرُ أو أقلُّ؟ إنَّما هذا كَلام المؤرِّخِينَ.

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:١٨٧).

والمهمُّ أنَّ المتيقَّنَ أنه ما بَقِيَ أحدٌ منْ أهلِ الأَرْضِ إلَّا ذُرِّيَّة نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيكون هو الأبَ الثَّانيَ.

قَوْلهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي أنَّ إغراقَهم آيةٌ عظيمةٌ، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر:١١]، وفيها ﴿فَفَتَحْنَا﴾، و«فَفَتَّحْنَا»[1]: قراءتانِ سبعيَّتانِ، و(فَفَتَّحْنَا) أبلغُ من ﴿فَفَتَحْنَا﴾. ففتحَ اللهُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ، يَعْنِي: نازِلٍ بقوَّة وشدَّة وكثرةٍ.

قال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر:١٢]، المعربون يقولون: إن الأَصْل: (فجرنا عيونَ الأَرْض)، وإنها تمييزٌ مُحَوَّلة عن مفعولٍ، وفي الحَقِيقَةِ أن ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أبلغ وأعظم، يَعْنِي: كَأَنَّ الأَرْضَ كلها صارتْ عُيُونًا، فهو أبلغُ من: (فجّرنا عيونَ الأَرْضِ)، فعيونُ الأَرْضِ نَفْرِضُ أنَّها عشْرُ عُيُونٍ، فلا تفيدُ لو كَانت: (فجَّرنا عيونَ الأَرْضِ)، لكن ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ كلها، حتى إن التَّنُّور بدأَ يفورُ منَ الماءِ، والتنورُ أبعدُ ما يكون عن الماءِ؛ لأنه مَحَلُّ تفجيرِ النارِ، ومحلُّ تفجيرِ النارِ يكونُ يابسًا يُبُوسًا بالِغًا، ولكن مع ذلك صارَ بإذنِ اللهِ يفورُ.

قال تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١٢]، حتى بلغ قِمَمَ الجبالِ، وغَرِقَ النَّاسُ كلُّهم إلَّا مَن في هذه السَّفينة، وحينئذٍ صَدَقَ قولُ نوحٍ لقومِه: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود:٣٨-٣٩]، فصارتِ السُّخْرِيَةُ السخريةَ الحقيقيَّةَ لهؤُلاءِ

---

(١) حجة القراءات (ص:٦٨٩).

الَّذينَ على السَّفِينَةِ، وكَأنِّي بهم يَطَّلِعُونَ إليهم من نوافذها، وهم يَعُومُونَ في هذا الماءِ ويَغْرَقُون، وهؤُلاءِ في مَنجاةٍ منه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ على رأي المُفَسِّر المُراد أكثر قوم نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكن الأصح: ﴿أَكْثَرُهُم﴾ أي: الَّذينَ بُعِثَ فيهم الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، (ما) نافية، و(كَان) أصليَّة، فالعملُ لـ(كَان)؛ لأن الأَصْلَ عدمُ الزيادةِ، وإذا جعلتَ العمل لـ(مَا) لزِم أنْ تجعلَ (كَان) زائدةً، وإذا جعلتَ العملَ لـ(كَان) بقِيت (ما) نافيةً على ما هي عليه.

قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الجامع بين العزَّة الغالبة القاهِرة والرَّحمة البالغة، لكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِجمعِهِ بينَ العزّ والرحمة صارتِ الرحمةُ تكون في مواضعها، والعزّ يكون في مواضعِهِ.

وأقسامُ العِزَّةِ الَّتي يَتَّصِفُ الله بها ثلاثةٌ: عِزَّة قَدْر، وعِزَّة قهْر، وعزة امتناعٍ.

وعزة القَدْر: هي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له القَدْر العالي، وهو الَّذي لا يُشْبِهُهُ أحدٌ منَ المخلوقاتِ؛ لأنه إذا صار عزيزَ القَدْر يَعْنِي أنَّ قَدْرَه لا نظيرَ له، مثل أن تقولَ: هذا عَزيزٌ، يَعْنِي: لا يوجدُ له مَثيلٌ.

وعِزَّة القَهْر: هي أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قاهرٌ لِمَن سواهُ منَ المخلوقاتِ، وغالبٌ له.

وعزةُ الامتناعِ: هي أنه لا يُمْكِن لأحدِ المخلوقاتِ أن يَتوصَّل إليه، يَعْنِي: يَمْتَنِع عليه دون سوء أو نقص.

وقالُوا في المَعْنى الأخير: منه قولُهم: أرضٌ عَزَازٌ، يَعْنِي: صُلبة قويَّة مُمْتَنِعة، ليستْ رِخْوَةً ليِّنة.

وأمَّا الرَّحِيمُ فمعناهُ: ذو الرحمةِ الواصلة إلى خَلْقِه؛ لأن: (الرَّحِيم) غيرُ (الرَّحْمن)، وأهل السنَّة والجماعة يُثْبِتُون الرحمةَ للهِ حقيقةً، وغيرُهم يُؤَوِّلُها بأنَّ المُرادَ بها الإحسانُ، أو إرادة الإحسانِ، يَعْنِي أنَّهم يُثْبِتُونها إلى لازِمِها؛ لأن الرحمةَ هي الرِّقَّة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منزّه عن الرِّقَّة! فيُقال: مَن قال لكم: إن اللهَ منزَّه عن رِقَّة الرحمةِ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَرْحَمُ عبدَه، بمَعْنى أنَّه يَعْطِف عليه، وأيّ مانعٍ يَمْنَع اللهَ منَ العطفِ؟! فالقاسي ليس بمحمودٍ، أمَّا اللَّيِّن فهو المحمودُ لا شكّ.

ثم إننا نقول: إنَّ لِينَ الإنْسانِ غيرُ لينِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ لِينَ الإنْسانِ سَبَبُه الضعفُ أحيانًا، وعدمُ القُدْرَةِ، ولهذا يَرْحَمُ الإنْسانُ أحيانًا مَن لا يَسْتَحِقّ الرحمةَ؛ لأنه ما عنده إلا مجرَّد العاطفة؛ عاطفة اللِّين، الَّتي سببها الضعفُ، أمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فإنّ رحمته رحمةُ قوّةٍ، ورحمة حِكْمة، ولهذا يُعذِّبُ أهلَ النارِ ذلك العذابَ العظيم، وهو أرحمُ الراحمينَ.

فإن الأدلَّة على رحمة الخالِقِ ليستْ كرحمةِ المخلوقِ.

فوائدُ الآيَات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنجَى مَن معَه منَ المُؤمِنينَ بناءً على دعائِه، وأنجى غيرَهم أيضًا ممَّا يحتاجونَ إلى وُجودِهِ ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الإشادة بهذا الفُلك، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، وهذا من وجوهٍ:

أولًا: وَصْفُه بالمشْحُون، وكونه مَشحونًا يدلُّ أيضًا على قوَّته؛ لأنَّ ما ليس بقويّ لو شُحِنَ لَغَرَقَ.

ثانيًا: تعريفُ (الفُلك) بـ(أل) التعريف الدالَّة على الكمالِ.

ثالثًا: وفي قَوْلِهِ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ يَعْنِي: كان من على مَتْنِهِ كثيرينَ، ومع ذلك استقامَ، وأنجى اللهُ فيه مَن معَه.

• ● ۞ ● •

الآيات (١٢٣- ١٢٨)

❁ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء:١٢٣-١٢٨].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ ﴿ءَايَةً﴾ بِنَاءً عَلَمًا لِلْمَارَّةِ ﴿تَعْبَثُونَ﴾ بِمَنْ يَمُرّ بِكُمْ وَتَسْخَرُونَ مِنْهُمْ، وَالجُمْلَةُ حَالٌ مِن ضَمِير (تَبْنُونَ)].

قَوْلُهُ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عادٌ هم قومُ هُودٍ، ولهذا قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، ومَحَلُّ هؤُلاءِ القومِ في الرَّبْع الخَالِي في الأَحْقَافِ، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١]، فهؤُلاءِ القومُ معروفونَ بالقُوَّةِ والشدَّة إلى حَدٍّ أنَّهم قالُوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]؛ فإنَّهم مُسَيْطِرونَ.

وأمَّا المبالغةُ الَّتي يَذْكُرها المُفَسِّرون والمؤرِّخون في كِبر أَجسادِهِم وقوَّتِهم، فاللهُ أعلمُ بها، ولكنَّهم بلا شَكّ قومٌ أقوياءُ، وعُتَاة، يَعْنِي: جُفاة القُلوب، أقوياء الأبدان، فهم مَعروفونَ بالقُوَّة، ولكن الله تَعالَى أرادَ أنْ يوبّخهم ويُقِيمَ الحُجَّة عليهم في قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ [فصلت:١٥]، جعلهم يَطْمَئِنُّونَ، يَعْنِي: يُخْفِضُون رُءُوسهم، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ فهم مخلوقونَ، وهو خالِق، فلا بُدَّ ضرورةً

أن يكون الخالِقُ أعلى منَ المخلوقِ، وأنْ يكونَ المخلوقُ في قَبْضَتِه، وهذه هي الحكمةُ في قَوْلِهِ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾، ولم يقلْ: إنَّ الله الَّذي خلق السماواتِ والأَرْضَ، مع أن ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، لكن لأجلِ أن يُخفِضَ رُءوسَهم أكثر ﴿خَلَقَهُمْ﴾، فهم بأنفسهم مخلوقون مَرْبُوبُونَ ذَلِيلُونَ.

وكلٌّ منَ القومينِ كذَّبَ نبيَّه، كذب قومُ نوحٍ نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكذَّب قومُ هودٍ هودًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، معَ أنَّه نَصَحَهُمْ هذه النصيحةَ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وهذا الاسْتِفهامُ إمَّا للتحضيضِ، أو أنه استفهامٌ بمَعْنى التوبيخ، يَعْنِي: يُوَبِّخُهُم على عدم التَّقْوَى.

وقَوْلهُ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أيِ اللهَ؛ لأن هذه الجُملة مُخْتَصَرَة، ومعروفٌ أنه كَان يَأْمُرُهُم ويقول: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يؤيِّد أنَّ قولَه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، ليسَ المقصود أنه أرسلَ للناسِ كافَّة.

قَوْلُهُ: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، أي: مُرْسَلٌ من قِبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتقديم ﴿لَكُمْ﴾ يدلُّ على الاختصاصِ، أي: مُرْسَلٌ لكم خاصَّة؛ لأنَّ كلَّ رَسُولٍ يُبْعَثُ إلى قومِهِ فقطْ.

وقَوْلهُ: ﴿أَمِينٌ﴾ أي: ذو أمانة، ائتمنني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على رسالته.

فإذا قال قائل: هذان الوصفان: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ مجرَّد دعوى، وهم ينكرونَ أنْ يكونَ رَسولًا أمينًا، بل يقولون: إنه كاذبٌ خائنٌ، فهل بمجرَّد الدعوَى تقومُ عليهم الحجَّةُ؟

فالجَوابُ: لا، لكن هذه الدَّعْوَى مؤيَّدة من آيات من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ»[1]، فهي ليست مجرَّد دَعوى؛ لأنها لو كانتْ مجرَّد دعوى لكانَ سهلًا رفضُها، لكنها دَعوى مؤيَّدة ومدعَّمة منَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بآياتٍ بيِّنة، يُؤمِن على مِثلها البشرُ.

وفي قوله لهم هذا القولَ، جازِمًا به، دليلٌ على قوَّة آياتِه، وأنَّ معه منَ الآيَاتِ ما جَعَلَه يعبِّر هذا التعبيرَ الجازِمَ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، وفي هذا دليلٌ على أنّ الرِّسالَةَ أكبرُ دليلًا على أمانةِ الشخصِ؛ لأنه لولا أنه أمينٌ ما ائتمنه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الوحيِ، الَّذي فيه الحُكْمُ على النَّاسِ بالسعادةِ والشقاءِ، بل الحكم عليهم باستباحةِ أموالِهم، واستباحة نِسائِهم، واستباحة دِمائهم.

فلولا أنَّ الرُّسُل -عليهم الصلاةُ والسلامُ- هم أعظمُ النَّاسِ أمانةً ما ائتمنهمُ اللهُ على هذا الوحيِ العظيمِ.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ هذا عَودٌ في المَعْنى على قَوْلِهِ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٢٤]، يَعْنِي: فلأني رَسُولٌ أمينٌ افْعَلُوا ما آمركم به منَ التَّقْوَى، وأَحُثُّكُم عليه.

وإنَّما قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، وما قال: (واتقوني)؛ لأنه لا يَمْلِك لنفسِهِ نفعًا ولا ضَرًّا، لا هو ولا غيرُه، فوظيفة النَّاس بالنِّسبةِ للرسلِ ليستْ تَقْوَى الرُّسُل، بل طاعة الرُّسُل، ولهذا ما جاء على لسانِ أيّ واحدٍ منَ الرُّسُلِ أنه قال لقومِه: (اتقوني)، بل يأمرونهم بالطَّاعةِ، وأما التَّقْوى والخشية والخوفُ فهي لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) سبق تخريجه.

والتَّقْوى هي اتِّخاذ وِقاية من عذابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بفعلِ أوامرِهِ، واجتنابِ نواهيهِ، وهذا أجمعُ ما قيل في التَّقْوى، ولهم فيها عباراتٌ كَثِيرَة.

أمَّا الطَّاعة فأصلُها الانقيادُ، ومنه قولهم: هذه الناقةُ طَوْعُ صَاحِبِها، أي: مُنقادة له وذليلةٌ، وتفسّر بأنها موافقةُ الأمرِ تَذَلُّلًا للآمِرِ؛ لأن موافقةَ الأمر قد تكونُ تَذَلُّلًا للآمرِ، وقد تكون كالإكراهِ، والتي تكونُ كالإكراهِ لا تكونُ طاعةً.

ويُستفاد من قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وجوبُ تقوى الله، ووجوبُ طاعةِ رسولِه؛ لأن طاعةَ رسولِه من طاعتِه؛ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النِّساء:٨٠].

قَوْلهُ: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾: أي: على ما أقولُه لكم، أو: على تبليغِ الرِّسالَةِ، والمَعْنى متقارِبٌ، يَعْنِي: أنا لستُ أقولُ: أَعْطوني شيئًا، وإنَّما آمُرُكم بما فيه خَيْرُكم، لو كنتُ أسألكم أجرًا على ذلك لكَانَ لكم الحُجَّة في أنْ تَرُدُّوا، لكنِّي لا أسألكم عليه أجرًا، يَعْنِي ثوابًا وعِوَضًا.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾]، وفي هذا كمال الإخلاص، يَعْنِي: أنا لا أريدُ الأجرَ إلَّا منَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقَوْلهُ: ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول العلماءُ: إنَّ (عَلَى) تفيدُ الوجوبَ؛ لأنه ما قال: إن أَجْرِي إلَّا مِن ربِّ العالمينَ، بل قال: ﴿عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وهلِ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَجِبُ عليه شيْءٌ؟

الجَواب: أمَّا أنْ نُوجِب عليه فلا، وأما أنْ يُوجِب على نفسِه تَكَرُّمًا، فهذا لا مانعَ منه.

قال ابن القيِّم[1]:

مَـا لِلْعِبَـادِ عَلَيْـهِ حَـقٌّ وَاجِـبٌ ... هُوَ أَوْجَبَ الْأَجْـرَ الْعَظِـيمَ الشَّـانِ

كَـلَّا وَلَا عَمَـلٌ لَدَيْـهِ ضَـائِعٌ ... إِنْ كَـانَ بِـالْإِخْلَاصِ وَالْإِحْسَـانِ

إِنْ عُـذِّبُوا فَبِعَدْلِـهِ أَوْ نُعِّمُـوا ... فَبِفَضْـلِهِ، وَالْفَضْـلُ لِلْمَنَّـانِ

قيّد بقَوْلِهِ: «إن كَانَ بِالْإِخْلَاصِ وَالْإِحْسَانِ»، والإحسانُ هو المتابعةُ، أمَّا إذا لم يكنْ بالإخلاصِ والإحسانِ فيَضِيع: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ ﴿ءَايَةً﴾ بِنَاءً عَلَمًا لِلْمَارَّةِ ﴿تَعْبَثُونَ﴾ بِمَنْ يَمُرّ بِكُمْ وَتَسْخَرُونَ مِنْهُمْ]، ففسَّر هنا الآيةَ بأنها العَلامَةُ، لكنها تَحتمل أن تكونَ عَلامَة على الطريقِ كما قال المُفَسِّر، معَ أن السياقَ لا يؤيِّده، لكنه كذلك لا يَمْنَعُه.

وكذلك قد يكون المُراد آيَة أي: عَلامَة على قُوَّتِكُم ومَقْدِرَتِكُم، وهذا هو الأقربُ، ولهذا قال: ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾ يَعْنِي أنَّكم تريدون من هذه البِناياتِ أن تكونَ آيةً ودليلًا وبُرهانًا على قوتكمْ.

وقَوْلهُ: ﴿تَعْبَثُونَ﴾ تَتَّخِذُونَ ذلك عَبَثًا؛ لأنه لا مصلحةَ لكم فيه إلا مجرَّد العَبَث، وإظهار العَظَمَة، وإظهار القُوَّة، وهذا بلا شَكّ كون الإنْسان يُظْهِر قوَّتَه أنه عبَث وفسادٌ.

---

(١) نونية ابن القيم الكافية الشافية (ص:٢٠٨-٢٠٩) ط. مكتبة ابن تيمية.

وعلى هذا يَتبَيَّن لنا أن هؤُلاءِ الَّذينَ يحاوِلون أنْ يَصِلُوا إلى الكواكبِ، ويُطْلِقوا هذه الأقمارَ الَّتي لا يَستفيدون منها في الأَرْض مثل قوم عادٍ تمامًا، يَعْنِي: الطريقة هي الطَّريقة، وإنْ كَانَ الأسلوبُ مختلِفًا، يَعْنِي: يفعلون هذه الأشياءَ آيةً وعَبَثًا؛ إذ لا يَستفيدونَ منها فيما خُلِقَ لهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، وليس الَّذي في السماء، لكن الَّذي في الأَرْضِ هو الَّذي مخلوقٌ لنا، فانْتَفِعُوا به مباشرةً، أمّا الذي في السَّماء فمُسَخَّر لِمصالحنا، ولكنَّنا لا نَنْتَفِع به مباشرةً، فالَّذي يُنْتَفع به مباشرةً هو ما في الأَرْضِ.

ولهذا يقول بعضُ النَّاسِ: لماذا تحاولونَ أنْ تَصِلُوا للسماءِ وأنتم عاجزونَ عن حلّ مشاكلكم في الأَرْضِ؟ وهذا صَحِيحٌ، لكنَّهم يَعْمَلُونَ هذا لمجرَّدِ العَبَثِ والفَخْرِ، وأنَّهم أقوياءُ، معَ أنّ قومَ هُودٍ، وهؤُلاءِ القوم أيضًا المعاصرونَ يَخْسَرون على هذه الأمورِ خسائرَ باهظةً، فصارتْ عَبثًا؛ لأن كلَّ شَيْءٍ يُتْعِب الإِنْسان فيه جِسْمَه ومالَه وفِكْرَه بدون فائدةٍ، فهو عَبَثٌ، ولا فائدةَ منه.

بل إنه إذا أرادَ ما وراءَه من إظهارِ العَظَمَةِ والكِبرياء على الخَلْق، صار أيضًا فَسادًا، فصار إيجابيًّا لا سلبيًّا فقطْ، إيجابيًّا لأنه فسادٌ، وهو ينكِر عليهم هذا الأمرَ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾.

وأمَّا ما سَلَكه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أنَّهم يَجْعَلُون علاماتٍ للمارَّة لأجل إذا مَرُّوا بهم يَسْخَرُونَ منهم؛ فهذا بعيدٌ عن السِّياق، وإن كَان السياقُ لا يَمْنَعُه لكنَّه لا يؤيِّده، فالصَّوابُ في هذه الآيةِ أنَّهم يبنونَ بناياتٍ عظيمةً، تدلُّ على قُوَّتهم وقُدْرَتهم عَبَثًا؛ لأنَّهم لا يَستفيدون منها سِوَى إظهارِ العَظَمَةِ فقطْ، وهذا لا شكّ أنه عَبَثٌ.

وإذا تأمَّلتَ الإِنْسان الأوَّل هو الإِنْسان الأخير، أو الإِنْسان الأخير هو الإِنْسان الأوَّل، لكن يَختلف الأسلوبُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٢]، وهذه الأمورُ إذا طبَّقْناها في الوقتِ الحاضرِ فهي موْجودةٌ.

فقولهم: ﴿لَضَآلُّونَ﴾ قديمًا، يُساويه قولُهُمُ الآنَ: رَجْعِيُّونَ! أو مُحافِظُونَ! أو ما أشبهَ ذلك، وهو نفسُ الشيْءِ، فالفِكْر هو هو، لكن الأسلوب يَختلف مُسايرةً للزمَنِ.

وهل صَحِيحٌ قولُ بعضِ النَّاسِ: إن الحيوانات في زَمَنِ نُوحٍ كانتْ أقلَّ أنواعًا من هذا الزمنِ، وسبب كثرتها بسببِ نزولِ بعضها على شكلِ آخرَ، فتولَّدَتْ منها أشكال؟

أمَّا الآيةُ فلا تُصَرِّح، لكن الذي وَرَدَ أنه حمل معه ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود:٤٠]، يَعْنِي: من كلِّ الموْجوداتِ، لكن لا شكّ أنه ما وُجدَ أصلٌ جديدٌ أبدًا، لكن ربَّما صارتْ زيادة الأنواع بالتوالُد، أو بِنُزُولِ بعضها على بعضٍ فاختلفتْ، مع أنّ المعروفَ عنْدَهُم أنه ما حصلَ من توالدٍ من نَزْو بَعْضِها على بعضٍ أنه لا يتوالدُ، والحاصلُ بالتوالُدِ لا يتوالد، كل شَيْء نشأَ منَ التوالُد لا يتوالدُ، فهذا معروفٌ عندهم، ولهذا البَغْلُ لا يُمْكِن أنْ يَصِيرَ له ذُرِّيَّة أبدًا.

فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: ويُستفاد من هذه الآيةِ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ جوازُ وصفِ الإِنْسانِ بالثناءِ على نفسِه للمصلحةِ، وهذا أيضًا وردَ عنِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه

قال: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ»[١]، ووردَ أيضًا عنِ الصَّحَابَةِ مثل هذا المَدْح في قول ابن مسعودٍ: «لَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»[٢]، لكنْ بِشَرْط أنْ يكونَ غَرَض الإِنْسان مِن ذلك المَصْلَحَة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي هذا دليلٌ على إخلاصِ الرُّسُل لله في قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفيها أيضًا الاحتسابُ؛ احتسابُ الإِنْسانِ عَمَلَهُ على اللهِ، فليس هذا للإدلالِ على اللهِ بهذا العملِ والمنّة عليه به، ولكن الاحتساب به عليه لرجاءِ ثوابِهِ؛ لقَوْلهُ: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفي هذا دليلٌ على جَبَروت عاد، ومحبَّتهم للكِبرياء والعظمة فيما أنكره عليهم نبيُّهم: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وفيها دَليل على أنه يَنْبَغي للإِنْسانِ أنْ يكونَ غَرَضه من عمله، لا سِيَّما العمل الجبَّار العظيم، أن يكونَ غَرَضُه غَرَضًا صَحِيحًا، لا عَبَثًا ومُباهاةً؛ لقَوْلِهِ: ﴿تَعۡبَثُونَ﴾، وهذا هو مَحَطّ الانتقادِ، ليسَ بأن يَبْنُوا ﴿بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ﴾، ولكن كون ذلك عَبَثًا هو مَحَلُّ الانتقادِ ومَحَطّ اللَّوْم.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل، رقم (٣١٤٨)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، رقم (٤٣٠٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم (٥٠٠٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رقم (٢٤٦٣).

الآيتان (١٢٩، ١٣٠)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء:١٢٩-١٣٠].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ لِلْمَاءِ تَحْت الْأَرْض ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ كَأَنَّكم ﴿تَخْلُدُونَ﴾ فِيهَا لَا تَمُوتُونَ، ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ بِضَرْبٍ أَوْ قَتْل ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ مِنْ غَيْر رَأْفَةٍ].

ثم قالَ اللهُ تَعالَى في سِيَاق ما قالَه هود لقومه: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾: جمع مَصْنَع، وهو مَحَلّ الماء، كما قال المُفَسِّر، فالمصانعُ عِبارة عن الخزَّانات الَّتي تحت الأَرْض يَتَّخِذُونها لعلَّهم يَخلُدُونَ، يَعْنِي: كَأَنَّهم خالدون في هذه الدُّنيا غير مَيِّتِينَ.

وقَوْلهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ذكر المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه أتى بها للتَّشْبِيه: [كَأَنَّكم]، ولكن ما رَأَيْنَا أحدًا ذكرَ أنَّها تأتي للتَّشبيه، بل إنَّما قال: إنها تأتي للإشفاقِ والتعليل والترجِّي، هذا هو المعروف من معاني (لَعَلَّ).

وأيُّ هذه المعاني الثلاثة هو أَولى بها؟

الأَولى أنها للتَّرَجِّي، يَعْنِي: يَتَرَجَّوْنَ أنْ يَخْلُدُوا في ذلكَ، وقد تُفيدُ التوقُّعَ، أيْ أنَّهم يَتَوَقَّعُونَ الخُلُودَ، لكنَّها للترجِّي أقربُ. يَعْنِي أنَّهم يتَّخِذون هذه المساكنَ لأجلِ أنْ يَبْقُوا فيها، كَأَنَّما يَخْلُدُونَ فيها.

وقَوْلُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَصَانِعَ﴾ لِلْمَاءِ تَحْت الْأَرْض]، قد يُنازَع فيها أيضًا، بأن يُقالَ: إن المُراد بالمصانِعِ مكَانُ الصناعةِ، يَعْنِي أنَّهم أيضًا اتَّخذوا مصانعَ كَثِيرَةً، كما تدلُّ عليه صِيغة مُنْتَهَى الجُمُوع (مَفَاعِل)، ثم إنها قويَّة؛ لقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾؛ لأنه لا أحدَ يَبني شيئًا للبقاءِ الكثير إلا ويُحكِمه ويُتْقِنُه.

فيكون هودٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنبَهم في أمرينِ:

الأمرُ الأوَّلُ: اتِّخاذ الآيَاتِ -الأبنية القويَّة العظيمة- عَبَثًا وإظهارًا للقوة والفخر.

الأمر الثَّاني: هذه المصانع العَظِيمة الَّتي اتَّخَذُوها لأجْلِ أن يَخْلُدُوا ويَبْقُوا فيصنعوا فيها، وقد قالَ الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر:٦-٨]، وهذه العماد العظيمةُ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ لا بُدَّ أنْ تكونَ ناتجةً عن مصانع قويَّة لِتُوَلِّدَ هذه الموادَّ ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾.

ثم قال: من جَبروتهم أيضًا العدوانيّ ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾؛ لأن الأوَّل جَبَرُوت مِعْمَارِيّ، والثَّاني مَصْنَعِيّ، والثالث الجَبَرُوت العُدواني.

وقِس هذه الأشياء على وَقْتِنا الحاضِرِ، فتَجِدها مُنْطَبِقَةً تمامًا، فهناك مَن يَتَّخِذُونَ من هذه القُوَّة آيةً للفَخْرِ والعَبَث، ثم هذه المصانع أيضًا الَّتي يَتَّخِذُونها -مصانع القنابل الذَّرِّيَّة والنَّوَوِيَّة وغيرها- لأجْلِ أن يَخْلُدُوا؛ حتى لا يَتَسَلَّط عليهم أحدٌ، وحتى تكون لديهم السيطرةُ في هذه المصانعِ.

وكذلك الثالث، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ يَعْنِي: إنكم تَبْطِشُون، فهو موْجودٌ كذلك.

وإنَّما قلت: إنَّكم تبطِشون؛ لأن (إذَا) تُفِيد تحقُّق وُقُوعِ الشَّرط، بخِلاف (إنْ)، فإذا قلت: (إنْ قام زيدٌ فَقُمْ)، لا تدلّ على تَحَقُّق وُقُوع الشَّرط، لكن إذا قلت: (إذا قام زيدٌ فقُمْ)، فهذا معناه كَأَنَّه سيقومُ، ولكن لِيَكُنْ وقتُ قِيَامِك وقتَ قيامِه.

فقَوْلهُ: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ يَعْنِي: وأنتم تَبْطِشون، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ بضربٍ أو قتلٍ ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ من غيرِ رأفةٍ]، فهذا الوصفُ الثالثُ -والعياذُ باللهِ- العُدْوَان، والذي حَمَلَهُم على هذا العدوان -الإِنْسان بَشَر- لما رَأَوْا أنفسهم أقوياءَ في البناءِ والصناعةِ، قالُوا: ليس أَحَدٌ فَوْقَنا، فبَطَشُوا -والعياذُ باللهِ- بدونِ رأفةٍ؛ لأن الإِنْسانَ بطبيعتِهِ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

• • ❁ • •

الآيات (١٣١- ١٣٤)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء:١٣١-١٣٤].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فِي ذَلِكَ، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فِيمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم﴾ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ، ﴿بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ﴾ بَسَاتِينَ ﴿وَعُيُونٍ﴾ أَنْهَارٍ].

قَوْلُهُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في ذلك ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ كرَّره تأسيسًا، إذا كَان يعود على ما بعد قَوْله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، وإذا كَان لا يعودُ عليه، وأنه قال ذلك إبلاغًا للرِّسالَةِ، فإنَّه يكونُ معَ الأوَّل تأكيدًا.

وفي الحَقِيقَةِ أنّ المَقام يَقتضي التَّأكيدَ، وأنَّ المَقَامَ أيضًا في الأمورِ الثلاثةِ الَّتي وَبّخهم عليها يَقتضي أنْ يُخَصَّصَ بزيادةِ العِنايةِ في قَوْلِهِ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

ثم قال لهم: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ﴾، هنا أتى بالوصفِ لأن ﴿ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم﴾ الاسم الموصول وَصِلَته بمنزلةِ الاسمِ المشتَقّ، يَعْنِي: واتَّقُوا المادَّ لَكُمْ، والاسم المُشْتَقّ أو اسم الفاعل وَصْف.

وهنا انتقلَ من وَصْف الأُلُوهِيَّة إلى وصف الرُّبُوبِيَّة الخاصَّة، الَّذي نالَه منه، وهو: ﴿ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم﴾؛ لأن إمداد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالنِّعَم من مُقْتَضَى الربوبيَّة.

وقَوْلهُ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أتى بهذا الوصفِ أيضًا إقامةً للحُجَّة عليهم؛ لأنَّ مَن أَمَدَّكَ بهذه النعم كَان أَولى بأن تَتَّقِيه.

وقَوْلهُ: ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ مُبْهَم؛ لأن (ما) اسم موصولٌ، والاسمُ الموصولُ مُبْهَم وعامّ، ثم فصّله بقَوْلِهِ: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ﴾. والتفصيلُ بعدَ الإجمالِ، أو البيان بعد الإبهامِ، له فوائدُ، منها:

١- **تَنبيهُ السامِعِ أو القارئِ**؛ فإذا كَان مثلًا يقرأ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ﴾ يشعر براحةٍ ثم بِتَنْبِيهٍ؛ لأن السياقَ تَغيّر، فمِن المُبْهَم إلى المخاطبينَ بَيِّن وواضح، فهذا فيه تنبيهٌ.

٢- **التشويقُ**؛ لأن الإِنْسان يحبّ الاستطلاعَ، فإذا أُبهم إليه الأمرُ ووَضَحَ، اشتاقَ إليه ورَسَخَ في ذِهنه؛ ترسيخ الكَلام في الذِّهن؛ لأنه إذا جاء مُبْهَمًا تَشَوَّق له الذِّهْنُ، فإذا بُيِّنَ له بعدَ ذلكَ تَرَسَّخَ فيه.

٣- **العِناية**؛ لأن كونَه يُبْهِمُه ثم يُبَيِّنه أو يُجْمِلُه ثم يُفَصِّله؛ لأجل أن الإِنْسان يتشوَّق إليه ويَرتقي من معناه أنه أمر يُعتنَى به، كما أنَّ فيه أيضًا تأكيدًا؛ لأنه ذُكِر مرتينِ: مرَّةً مُبْهَمًا، ومرَّةً مُفَصَّلًا أو مُبَيَّنًا.

٤- **تأكيده**؛ بذِكره مرتينِ: مَرَّةً مُجْمَلًا، ومَرَّةً مفصَّلًا، أو مبهمًا ثم مُبَيَّنًا.

قَوْلهُ: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ما قال: (أمدَّكم بأنعامٍ وبَنينَ)، بالنِّسبة لهذه الآية بالذاتِ، فبيَّن لهم أن اللهَ أمدَّهم بأمرٍ لا يُمْكِنُهم إنكارُه؛ لأنَّهم يعلمونَ، فقدَّم: ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ على ذِكر المُنْعَم به بإقامةِ الحجَّة عليهم، حيثُ إنَّ هذه نِعَم مفهومة ومعلومة لهم، فلا يُمْكِنُهم إنكارُها.

قَوْلُهُ: ﴿بِأَنْعَٰمٍ﴾ الأنعامُ: جمعُ نَعَم، يَعْنِي الإبل، وإذا قلتَ: إنَّ نِعْمَة جَمْعُها نِعَم، وجَمْع نِعم: أَنْعَام، صار المُراد بالأنعامِ ما هو أعمُّ منَ الإبلِ، يَعْنِي: كَأَنَّه يقول: بنِعَمٍ كَثِيرَة، والمعروف أنها للإبلِ فقطْ، لكن إذا قيلَ: بَهِيمة الأنعامِ، فتَشْمَل الثلاثة، وفي الحديث: «خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[1].

وقَوْلُهُ: ﴿وَبَنِينَ﴾ الذكور منَ الأولاد، وخصّ البَنين؛ لأنَّهم أبلغُ في شَرَف الإِنْسانِ، ولأنَّ أولادَهم يُكَوِّنون قَبيلةً، لكن أولاد البنات من غَيْرِهم، فلا يكونونَ قبيلةً ولا يكونونَ أسرةً.

وقَوْلُهُ:[(﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهارٍ]، وهذا ممّا يَدُلُّ على أنّ هذا الرَّبْع الخالِي الآنَ منَ الماءِ أنه كَان فيه بساتينُ، وكَانَ فيه أنهارٌ، ولعلَّ هذا يُوحِي به أيضًا قولُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا»[2]، فإنَّ قَوْلَهُ: «حَتَّى تَعُودَ» العَوْد بعدَ البَدْء، فهذه الجنَّات ليستْ مجرَّد بساتينَ فقطْ؛ لأنه لا يُسَمَّى البستانُ جنَّةً إلا إذا كَان كَثِيرَ الأشجارِ والزُّرُوع، حيث يُجِنّ مَن فيه ويَسْتُرُه، والعيونُ جَمْعُ عَيْنٍ.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّها أنهارٌ فباعتبارِ جَرَيَانِها، وإلَّا فالعُيُون هي الَّتي تَنْبُع من الأَرْض، والأنهار كما هو معروفٌ لا تَنْبُع منَ الأَرْض، وإنَّما تأتي منَ الأمطارِ والسيول وغيرها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، رقم (٢٩٤٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها، رقم (١٥٧).

فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أنَّ الداعِيَةَ يَنْبَغي له أن يذكِّر المدعوَّ بِنِعَمِ اللهِ عليه، وتُؤْخَذ من قولِه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، والحكمةُ من تذكيرِه بالنعمِ أنَّ النعمَ تَستوجِب الشكرَ وطاعةَ الرَّحْمنِ، وتضمن ذلك عقلًا؛ لأنَّ مَن أحسنَ إليكَ؛ فإنّه مِنَ المُسْتَحْسَن عَقلًا أنْ تُطِيعَه بما يَأْمُرُكَ به.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذه النعم الَّتي يمدّ الله بها العبدَ تَستوجب أنْ يقومَ بتقوَى اللهِ؛ لأن قَوْلَهُ: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ في التعليلِ للأمرِ بالتَّقْوَى، فتكون النعمُ مُسْتَوْجِبَةً لِتَقْوَى العبدِ لِرَبِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا للأشرِ والبَطَرِ والبُعْد عن اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم﴾ حيث عَدَل عن قَوْلهُ: (وَاتَّقُوا الله) إلى ما ذُكر؛ إشارةً إلى أن هذا السَّبَبَ كبيرٌ لِوُجُوبِ التَّقْوى.

• • ❁ • •

الآيات (١٣٥- ١٣٨)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:١٣٥-١٣٨].

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة إنْ عَصَيْتُمُونِي، ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾ مُسْتَوٍ عِنْدنَا ﴿أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ أَصْلًا، أَيْ لَا نَرْعَوِي لِوَعْظِك، ﴿إِنۡ﴾ مَا ﴿هَٰذَآ﴾ الَّذِي خَوَّفْتنَا بِهِ ﴿إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[1] اخْتِلَاقُهمْ وَكَذِبُهمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِضَمِّ الخَاء وَاللَّام، أَيْ مَا هَذَا الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ إنْكَارٍ لِلْبَعْثِ إلَّا خُلُق الْأَوَّلِينَ، أَيْ طَبِيعتهم وَعَادَتهم، ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾].

قول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة إنْ عَصَيْتُمُونِي]، يَعْنِي: إنِ اسْتَمْرَرْتُم على ما أنتم عليه منَ الكُفْر بهذه النِّعَم العظيمة؛ فأخاف عليكم عذابَ هذا اليومِ.

وقَوْلهُ: ﴿عَظِيمٖ﴾ صفة لليوم، لكن يقول: [في الدنيا والآخرة]، ووَصْف هذا العذاب بالعِظم في الدنيا باعتبارِ ما عدَاهُ، وأمَّا وصْفه بالعِظَم في الآخرة فظاهرٌ؛

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٨).

لأنه عظيمٌ أعظم ما يكون في الآخرةِ.

وإن قيل: قولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ ألا يدلُّ هذا على أنه يوم القيامة خاصة؟

قلنا: لا، فإنَّ اليومَ الَّذي يقع عليه العذابُ بالدنيا يُوصَف أيضًا بأنه يَوْم عَظِيم؛ وهو أيضًا لم يُعَيِّن يومًا.

﴿قَالُواْ﴾ في الجَوابِ بعد هذا التذكيرِ بالنِّعم، وبعد هذا الوعظِ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ أعوذ بالله! فهذا كِبرياء عَظيم! و﴿سَوَآءٌ﴾ بمَعْنى مستوٍ، وهي خبرٌ مُقَدَّم، و﴿أَوَعَظۡتَ﴾ الجُملةُ الاسْتِفهاميَّةُ هذه في تأويلِ مَصْدَر لمبتدأٍ مؤَخَّرٍ، يَعْني: وَعْظُك وَعَدَمُه سَوَاءٌ.

وهذا من المواضعِ الَّتي تكون مؤوَّلة بالمصدرِ بدون حرفٍ مصدَرِيٍّ؛ مع أنَّ الَّذي دخلَ عليها أداة الاسْتِفهام، لكن بعد (سَوَاءٌ) هكذا تؤول وما بعدها بالمصدر، كقولِهِ تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [المنافقون:٦]، أي: استغفارُكَ وعدمُه، وكقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]، أي: إنذارُك وعدمُه.

فهم قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ أي: لا نَرْعَوِي لِوَعْظِكَ، وهذا مِنَ الجَبَرُوتِ ﴿أَوَعَظۡتَ﴾ بالفعلِ ﴿أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ لم يَكُنْ وَصْفك الوَعْظ، ﴿سَوَآءٌ﴾ تركتَ الوعظَ أم لم تَتْرُكْه؛ لأنَّهم ما قالُوا: سواء عَلينا أوعظتَ أم لم تَعِظْ بل ﴿أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾.

فالمقصودُ من هذا أنه لا يُهِمُّهم أن يكونَ وَاعِظًا، أو غيرَ واعظٍ، ولا أن يَعِظهم

بالفعلِ أو لا يَعِظهم، كلّ الأمرِ عنْدَهُم سواءٌ، وإنَّما قالُوا ذلكَ لأنَّ الإِنْسانَ قد لا يَكْتَرِث بالواعظِ لكونِه غيرَ أهلِه، وقد لا يَكترث به عِنادًا، وهؤُلاءِ لما قالُوا: ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ دلّ ذلك على أنَّهم مُعانِدُون، حتى وإنْ كان من غيرِ أهلِ الوعظِ، أو وعظت وأنتَ مِن أهلِ الوعظِ، وفي هذا من بلاغةِ القُرآنِ ما هو ظاهرٌ؛ لأنَّهم قالُوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ﴾ أم لم تعظْ، لكن ربَّما يقولون: إنه قد يَعِظ وليسَ أهلًا للوعظِ، ولكنهم قالُوا: ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ يَعْنِي: لـم تكن ممَّن يَسْتَحِقُّون أنْ يُوصَفوا بهذا الوصفِ.

فيؤخَذ من هذا أنه حُذِف من كلّ واحدةٍ ما يُقابلها؛ اختصارًا للوضوحِ، فيصير التَّقدير على هذا: (أوعظتَ أم لم تَعِظْ، أو أكنتَ واعظًا تَسْتَحِقّ أنْ يَنْصَرِف النَّاس لك، ويأخذوا منك، أم لم تكنْ واعظًا)، وهذه غاية ما يكون من بلاغةِ القُرآنِ، وبالنِّسبة لهم غاية ما يكون منْ الِاستكبارِ، وعدم الاكتراثِ بِوَعْظِهِمْ.

قوله تعالى: ﴿إِنْ﴾ فسرها المفسِّر بـ[ما]، يَعْنِي نافية، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هَٰذَآ﴾ الَّذِي خَوَّفْتنا بِهِ ﴿إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ اخْتِلَاقُهمْ وَكَذِبُهمْ]، يَعْنِي: إنَّك أنتَ يا هودُ ما جِئتنا إلَّا بأمرٍ اختلقه مَن قَبْلَكَ، فكذَّبوه هو ومَن قبله أيضًا، وقالُوا: هذا خَلْق الأوَّلين، خَلْقُهُم أي: اخْتِلَاقُهم وافْتِرَاؤُهم وكَذِبُهم، كما قال الله تَعالَى عن إبراهيمَ: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت:١٧]، يَعْنِي: تَخْتَلِقُونه وتُزَوِّرُونَه.

قال: [وفي قِراءَةٍ بضمّ الخاءِ واللّام: ﴿خُلُقُ﴾]، وهذه القِراءَةُ سَبْعِيَّة بناءً على قاعدةِ المُفَسِّر، فإذا قال: «قُرِئَ» فهي ليستْ سبعيَّة، وإذا قال: «فيه قِراءَة» فيريد أنها سبعيَّة، قال: [أَيْ مَا هَذَا الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ إنْكَارٍ لِلْبَعْثِ إلَّا خُلُق الْأَوَّلِينَ، أَيْ طَبِيعتهم وَعَادَتهم].

والمُفَسِّر -على القِراءَة الثَّانية- يَرَى أنَّ اسمَ الإشارةِ يعودُ إلى ما كَانوا عليه، وعلى قِراءَة: (خَلْق) فهو عائد على قولِ هودٍ، وسياقُ الآيةِ يدلُّ على أنه راجعٌ إلى قولِ هودٍ، سواءٌ بضمّ الخاءِ أو بِفَتْحِها، أمَّا فتحها فظاهرٌ: (إن هذا إلا خَلْق الأولين)، وأما ضَمُّها فهو أيضًا ظاهر كَأنَّهم يقولونَ: إنَّ ما جئت به هو خُلُقُ الْأَوَّلِينَ من قَبْلِكَ -يَعْنِي بعضهم- الَّذي كَانوا عليه، يَعْنِي الأَنْبِياء السابقين، فعلى هذا يكون مَرْجِع الإشارةِ واحدًا.

أمَّا على رأيِ المُفَسِّر: (إن هذا إلا خَلْق الأولين) فيُريد أنَّهم يحتجون به، كَأنَّهم يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢]، وهذا ما عليه آباؤنا، فسنبقى عليه، والآيةُ محتمِلة، ولكنها في الأوَّل أظهرُ:

أولًا: لأن القراءتينِ يفسِّر بعضهما بعضًا.

ثانيًا: إنهم يريدونَ أن يَرُدُّوا على قوله هو، لا أن يُبَرِّروا فِعلَهم.

قَوْلُهُ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ هذا إنكارٌ لقَوْلِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ كَأنَّهم يقولونَ: ما تَخَوَّفْتَ ليسَ له أصلٌ، فما نحنَ بمعذَّبين.

وتأمَّل هذا التعبيرَ الَّذي أتى مؤكَّدًا بالباء في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لم يقولوا: «وما نحن معذبون»، وكذلك أتوا بالوصفِ: ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾ في الجُملة الاسميَّة؛ للدَّلَالَةِ على انتفاءِ هذا أبدًا؛ لأن الجُملةَ الاسميَّة تَدُلّ على ثُبُوت مَدْلُولِها، فعليه يكونون قد أَنكَروا أنْ يُعَذَّبُوا، وادَّعَوْا أنَّهم لن يعذَّبوا أبدًا، ولكن هذا كما قال النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «العَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ»[1]، فهؤُلاءِ

(١) سبق تخريجه.

-والعياذُ باللهِ- أَتبَعوا أنفسَهم هواها، وتَمَنَّوا على اللهِ الأمانيّ إن كَانوا مصدِّقين بالبعثِ، ولا ندري ربما يكونونَ مكذِّبين به، وأنه لا بعثَ ولا جزاءَ ولا عذابَ.

فوائدُ الآيَاتِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: بيانُ أنَّه يَنْبَغي للداعيةِ معَ القَرْن بذِكْر النِّعَم أن يَقْرِنَ الدعوةَ بالتخويفِ، وتُؤخَذ من قَوْلِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه يَنْبَغي إذا كَان المَقامُ أنسبَ أن يكون غير مُصَرَّح بذلك؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ ولم يقل: إنكم ستُصابون بيومٍ عظيمٍ، فالمتوقَّع له غير الجازِم به؛ لأن المَقامَ يَقتضي ذلكَ، ولكلِّ مَقامٍ مَقالٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفي الآيَات دليلٌ على أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يَطْبَع على قلبِ العبدِ فلا يَستفيد بموعظةٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾، هذا إذا لم يكنْ هذا القولُ منه كَذِبًا.

فإن كَان كذبًا فلا شاهدَ فيه لذلكَ، يَعْنِي: إنْ كَان الأمر حقًّا كما يقولونَ أنَّهم سَواء وُعِظوا أم لم يُوعَظوا؛ فإنَّه يدل على أن العبدَ -والعياذُ باللهِ- إذا رانَ على قَلْبِهِ ما يَعْمَل، لم يَسْتَفِدْ من موعظةٍ، أمّا إن كَان كذبًا فإنَّه يدلُّ على عُتُوّ هؤُلاءِ القومِ، وشِدَّة استكبارهم عن الحقِّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفي التعبيرِ بقَوْلِهِ: ﴿أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ دليلٌ على بلاغةِ القُرآنِ، حيث الجمع في جملةٍ واحدةٍ بين أربعةِ معانٍ: وَعَظْتَ أم لم تَعِظ.. كنتَ منَ الواعظينَ أم لم تكنْ. وذلك في كلمتينِ؛ لأنه حَذَف من كل كلمةٍ ما يقابلها في دلالة أُخْرَى عليها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وفي الآيَات دليلٌ على أنه لا حُجَّةَ للمُعانِدِ للرسُل سوى التمسُّك بما كَان عليه أسلافُهم، تُؤْخَذُ من قولِه تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هذا على حَسَب ما فَسَّره المُفَسِّر، وعلى حَسَب ما صارَ عليه.

أما على القِراءَة الثَّانية: «إِلَّا خَلْق الأَوَّلِينَ»؛ فإِنَّه يُستفاد منه أن هؤُلاءِ لم يَقتصروا على تكذيبِ نبيِّهم، بل تَعَدَّوْا إلى تكذيبِ غيرِهِ أيضًا، مع أنَّهم لم يُطالَبوا به، فلم تُطالِبهم الرُّسُل السابقونَ بذلك، إلا أنَّهم بعنادِهِمْ واستكبارِهِم كذّبوا حتى السابقينَ، ولأجلِ أن يقولوا: إن هذا ليس بالأمرِ المجرَّب، وإنَّما ذلك دَأْبُ مَن كَان من قبلهم.

• • ۞ • •

الآيتان (١٣٩، ١٤٠)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٣٩-١٤٠].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا بِالرِّيحِ، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾].

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ يَعْني: فبهذا القولِ الَّذي صَدَرَ منهم يَصْدُقُ عليهم هذا الوصفُ، أنَّهم كذَّبوا هُودًا، فيكونون مُسْتَحِقِّين للعذابِ، ولهذا أتى بالفاء ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾.

قال المُفسِّر: [﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ في الدنيا بالرِّيح]، أهلكهم اللهُ تَعالَى بالريحِ، ومنَ العجائبِ أن الله -سبحانه وبحمده- أهلكهم على حين تَشَوُّق منهم للرَّحمة؛ لأنَّهم أُصيبوا بالجدْبِ والقَحْط، وبَقُوا مدَّةً، وصاروا ينتظرونَ الفَرَجَ بالمطرِ، فلمَّا أَرسلَ اللهُ هذه الريح ﴿عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف:٢٤]، استفرحوا بذلك وظَنُّوا أنَّ الفَرَج قريبٌ، ولكنه كَان فَرَجًا لهُودٍ ونِقمةً عليهم.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥]، وهذه الريحُ الَّتي بَعَثَها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عادٍ فيها من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ هؤُلاءِ القوم الأشدَّاء الأقوياء

الفخورينَ بقُوَّتِهم على غيرِهم أُهلكوا بألطف الأشياءِ، وهي الرِّيح.

ثم إنهم أُهلكوا في حالِ الرجاءِ؛ لأنَّ النِّقْمَة إذا أَتَتْ والإِنْسان يَتَوَقَّع النعمةَ، فتكون أشدّ، وكذلك إذا أتتِ النقمةُ والإِنْسانُ في نعمةٍ تكون أيضًا أشدَّ وأنكَى، والعياذُ باللهِ.

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ إلى آخره موعظةٌ لنا لِـمَا نَسْمَعُه أحيانًا من هذه الأعاصيرِ المدمِّرة الَّتي تُقْلِع الأشجارَ، وتَخْرِب الدِّيارَ، وتُهلِك الثِّمار، وتهلِك الإعمارَ أيضًا، ولكن -مع الأسفِ- فإنَّ الكثيرَ منّا يَصْدُقُ عليهم قولُ الله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤]، فهذا أمرٌ طبيعيٌّ.

والنَّاسُ الآنَ يَسمَعون بالزلازل، ويَسمعون بالأعاصيرِ، ويَسمعون بالفَيَضانات العظيمةِ، ولكنَّهم لا يرونها أنها غَضَب من اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولكن يرون أنها أمرٌ طبيعيّ، ولهذا لا يتأثَّر الإِنْسان بها إطلاقًا، وكأنَّها لا شيْء، بينَما ونحنُ صِغار كنَّا إذا سمِعنا أنَّ الأَرْضَ زُلزلت في أُحُدٍ نَرْتَجِف ونحن في بُيُوتنا آمنونَ؛ لأنه ما كَان أحد يقول لنا: إنه هذا أمر طبيعيّ، وهذا أمر لا يُهِمّ، وهذا أمرٌ كائن لا محالَةَ.

ومثل ذلك الكسوفُ، كَان النَّاس في الماضي إذا كَسَفَ القمرُ تَحْصُل منهم رَهبةٌ عظيمةٌ، ويحصُل منهم خوفٌ، ويَحْضُرون بأعدادٍ كبيرةٍ إلى المساجدِ من رجالٍ ونساء، وتحصُل صلاةٌ، وبكاءٌ، وخوفٌ، وقد رأيتُ هذا، أما الآنَ فلا ترى شيئًا من هذا، بل تجد هذا يشاهَد في التِّلفاز أغنيةً، وهذا يسمع أغنيةً من الراديو!

ويُستفاد من الآية أنَّهم قد عَصَوْا وكذَّبوا برسالةِ هودٍ، فهذه الآيةُ فيها العِنادُ،

وفي آياتٍ أُخْرَى ثَبَتَ أنَّهم لم يُصَدِّقوا بهود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود:٥٩]، رسل الله، ولم يصدقوا عنادًا.

وإن سأل سائل: ما الحِكمة في كونِ بعضِ الرُّسُلِ أو بعض الأُمَم تَكَرَّر ذِكرها في القُرآنِ كثيرًا، وبعض الرُّسُل لم يأتِ له ذِكْرٌ قطُّ؟

فالجَواب: ما ذكرَ إلا الرُّسُل المحيطينَ بالعرب، الَّذينَ كَانوا يَعرفون أنباءَهم، فيكون هذا أقوَى، لكن الَّذي يكون بعيدًا عنِ العربِ ما ذُكر، لكن نَعْلَم أنّ الله بعثَ إليهم رسلًا: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، لكن ما ذكرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الرُّسُل إلَّا ما كَان حولَ الجزيرةِ.

ولا يدلُّ هذا على أن الَّذينَ ذُكروا في القُرآن أفضلُ من غيرهم؛ لأن غيرَهم ما ذُكروا؛ فلا نعرِف عنهم شيئًا، إنَّما أُولو العزم الخمسة هؤُلاءِ لا شكّ أنَّهم أفضلُ من غيرِهم.

حتى الأماكن والقرى التي ما اكتَشَفُوها إلّا حَديثًا، لكن هي موْجودةٌ من قبلُ، فهي موْجودةٌ من زمانٍ بلا شَكّ، وموْجود فيها أُناسٌ، ويُذكر أنّ شيخَ الإسلام تكلَّم عن هذا، وقال: لا بُدَّ أن هناك أحدًا في المقابلِ لوجهِ الكرةِ الأَرْضيَّة، فلا بُدَّ أن هناك أُناسًا، فلا يُمْكِن أن تُتْرَكَ الأَرْضُ بدون عِمارةٍ.

وفي قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ دَليل على أن التَّكذيب سببٌ للإهلاكِ، فيَنبغي للمؤمنِ الَّذي يَعتبر بِقصصِ الأَنْبياءِ السابقينَ أنْ يَحْذَرَ من هذا -أي: منَ التَّكذيبِ- لأنه إنْ فَعَلَ أُهلِك.

الآيات (١٤١- ١٤٥)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٤١-١٤٥].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾].

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وهذه هي القِصَّةُ الثالثةُ الَّتي يَذْكُرُها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ دائمًا عندَ ذِكر قصَص الأَنْبياءِ، فهم يكونون في الترتيبِ بعد قومِ هودٍ: يكون هودٌ قبلَ صالحٍ، وصالِحٌ بعدَه.

وثَمُودُ هي القبيلة المعروفة مَساكنهم في شَمالِ المَمْلَكَةِ العربية السُّعُودِيَّة، وتُسمَّى الآن (مَدَائِن صالِح)، وهي تُسَمَّى في الأَصْل (الحِجج)، هؤُلاءِ القومُ أعطاهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قوَّةً وقُدرةً وإبداعًا في الصُّنْع، ولهذا أُوتوا بِآيَةٍ تُناسِبُ حالَهم، وهي الناقةُ؛ كما سيُذكر إن شاء اللهُ.

قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهم إنَّما كذّبوا رَسُولًا واحدًا لكن سَبَقَ أنْ قُلنا: إنَّ المُرْسَلِينَ جاءُوا بدعوةٍ واحدةٍ، وتكذيبُ الواحدِ مِنهم تكذيبٌ للجِنْسِ عُمومًا؛ لأن هؤُلاءِ الَّذينَ يكذّبون رسولًا لم يكذِّبوه لِعَيْنِهِ وشَخْصِهِ، ولكن كذّبوه

لدعوتِهِ، وهذه الدعوةُ الَّتي جاء بها هذا الرَّسُولُ المعيَّن هي دعوةٌ لجميعِ الرُّسُلِ، فكَأنَّهم كذَّبوا جِنْسَ هذه الرِّسالَةِ، فصَدَقَ عليهم أنَّهم مكذِّبون لجميعِ الرُّسُلِ.

قَوْلهُ: ﴿إِذْ﴾ هذه إمّا للتعليلِ أو ظَرف للتكذيبِ، يَعْنِي: إنَّ التَّكذيبَ حَصَلَ بهذه القصَّة، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وسمَّاه أخًا لهم مع بُعد ما بين المؤمنِ والكافرِ؛ لِأُخُوَّة النَّسَب، لا لأُخُوَّة الدِّين.

قَوْلهُ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، كلُّ هذه الجُمَل تَقَدَّمَ الكَلامُ عليها، وذِكْرُ الإيراداتِ على قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ والجَوابُ عنها.

الآيات (١٤٦- ١٥٢)

❁ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء:١٤٦-١٥٢].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ مِنَ الخَيْرَات ﴿ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ لَطِيف لَيِّن، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ بَطِرِينَ، وَفِي قِرَاءَة: (فَارِهِينَ) [1] حَاذِقِينَ، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فِيمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بِالمَعَاصِي ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ بِطَاعَةِ اللهِ].

قَوْلُهُ: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ (فِي مَا): أي في الَّذي (هَاهُنَا): الإشارة إلى مكَانِهم؛ لأنَّ مكَانَهم كما وَصَفَهُ صالحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾.

والاسْتِفهام في قَوْلِهِ: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ للتَّحذيرِ، يَعْنِي: أتظنُّون أن تُتْرَكُوا؟ لا، فلن تُتْرَكوا، فهو للنفيِ المُتَضَمِّن للتحذيرِ.

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٨).

وقَوْلُهُ: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ مبنيٌّ للمجهولِ للعلمِ بالفاعلِ، والفاعلُ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، يَعْنِي: أَيَتْرُكُكُمُ اللهُ ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ﴾؟

وقَوْلُهُ: ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ إلى آخرِه، تذكيرٌ بنعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم، وأنَّهم لا يُمْكِنُ أنْ يُتْرَكوا في هذا الحالِ بدونِ أمرٍ ولا نَهْيٍ، فهو كقولِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، وقَوْلِه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

وقَوْلُهُ: ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ حالٌ منَ الواوِ في: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾، يَعْنِي حالَ كونِكم آمِنِينَ، والآمِنُ هو الَّذي أَمِن منَ الخوفِ، وفيه دليلٌ على استقرارِهِم في أوطانِهم، وأَمْنِهم، والأمنُ معَ الرِّزق الواسعِ هما غايةُ النعمةِ في هذه الحياةِ.

قَوْلُهُ: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ والجنَّات جمع جنَّة، وهي البساتينُ الكَثِيرَةُ الأشجارِ؛ لأنها تَسْتُرُ مَن فيها، وقَوْلُهُ: ﴿وَعُيُونٍ﴾ جمعُ عينٍ، وهي المياهُ الجاريةُ بدونِ دوالٍ ولا نواضِحَ.

قَوْلُهُ: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ عطفَ ما ذكرَ على الجنَّات من بابِ العطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للعنايةِ به، وإلَّا فهو داخلٌ في الجنات؛ فإنَّ الزُّروع منها والنخيل كذلك.

والطَّلْع يَعْنِي: ما تطلعه، وقَوْلُهُ: ﴿هَضِيمٌ﴾: يقول: [لطيف لَيِّن]، والأمرُ كذلك؛ فإنَّ طَلْعَ النَّخيل من أَلين ما يكونُ وألطفه.

وقيل: إنَّ الهَضِيم بمَعْنى النَّضِيد، كما قال الله تعالى: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ [ق:١٠-١١]، يَعْنِي أنه منضودٌ ليسَ متفرِّقًا لأجلِ أنْ يَسْهُلَ أخذُه وَجَنْيه.

وإنَّما نصَّ على الطَّلْع دونَ غيره من الفوائدِ معَ كثرةِ فوائدِ النخيلِ؛ لأنه غاية ما يُنْتَفَعُ به منها، وإلَّا ففيها منافِعُ كَثِيرَةٌ، ولهذا شبّه النَّبيُّ ﷺ المؤمِنَ بها؛ لكثرةِ خيراتِه وفوائدِهِ، هذا من حيثُ الزُّرُوعُ والتنميةُ.

أما من حيثُ البناءُ والمساكنُ فقال: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَطِرين، وفي قِراءَة: (فَارِهِينَ) حاذقينَ].

قَوْلُهُ: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ المُراد بالنَّحْت منَ الجبال أنَّهم يَجعلون البيتَ من الجبلِ، وليس معناه أنَّهم يَنحِتُون الحَصَى ثم يَبْنُونَها، ولكنهم يجعلون البيتَ نفسَه منَ الجبلِ، فيكيّفون الجبلَ كما يريدونَ، وهو دَليل على مَقْدِرَتِهم، وعلى كمالِ مَعْرِفَتِهم بالهندسةِ؛ لأن شيئًا ليسَ أمامك، بل هو في باطنِ الحصَى والجبال والصخور، فتحتاج إلى تفكيرٍ قويٍّ كيف تَصْنَعُه؟ وكيف تجعلُ مَدْخَلَه؟ وكيف تجعل منه استراحةً؟... إلى آخرِهِ. فهو دليلٌ على قُوَّتِهم، وعلى حَذْقِهم في الهَنْدَسَةِ.

وكلمة: ﴿فَٰرِهِينَ﴾ يَعْنِي: بَطِرِينَ، فهي صفةٌ مُشَبَّهة، و(فَارِهِينَ) بالمَدّ اسمُ فاعلٍ، والمُرادُ به الحَذْقُ.

واختلافُ القراءَتَيْنِ تكون فيه فائدةٌ، وهي اجتماعُ المعنيينِ من هذه الكلمةِ، فيكونون متَّصِفينَ بالأمرينِ: بالبَطَر بِناءً على قِراءَةِ القَصْرِ، وبالحَذْقِ بناءً على قِراءَةِ المدّ، وهذا من فوائدِ تنوُّعِ القِراءَةِ؛ لأن تنوُّعَ القِراءَةِ له فوائدُ كَثِيرَة؛ منها أن تكونَ الكلمةُ جامعةً لمعنيينِ.

قَوْلُهُ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ هذه الجُملةُ مثلما تَقَدَّمَ في قِصَّة عادٍ؛ إما أنْ تكونَ مبنيةً على ما ذُكِر، وإما أن تكونَ مكرَّرةً لما سَبَقَ، فعلى الأوَّل تكون تأسيسًا، وعلى

الثَّاني تكون تأكيدًا، والمَقام مهمٌّ جدًّا، ويَحتاج إلى أن تُكرَّر فيه هذه الكلمةُ، وهي تقوى الله، وطاعة الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقَوْلُهُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ هذا أمرٌ ونهيٌ: أمرٌ بِتَقْوَى اللهِ وطاعته، ولكنَّه نهيٌ عن طاعةِ أَمْر المسْرِفِينَ، واحد الأوامر، يَعْنِي: لا تُطيعوا أمرَهم.

ولماذا قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وما قال: وأَطِيعوا أمري، وهنا قال: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، ولم يقلْ: لا تُطيعوا المسرفينَ في إفسادِهِمْ؟

والجَواب: أنَّه يَنهاهم عن طاعةِ أمرِ المسرفينَ، في أنَّهم كِبار القومِ ووُجَهاؤُهُمْ، وأنَّهم يأمرونَ، فهذا أبلغُ مِن لو قالَ: ولا تُطِيعُوهم.

ولو قال: لا تطيعوا المسرفينَ أنفسَهم، ربما يُقالُ: إن هذا لِعَدَاوَةٍ بينه وبينهم، فهو لا يريدُ أن يُطاعوا، وأمرَ بطاعةِ نفسِه، لكن لـما قال: ﴿أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ فكأنَّه يقول: أنا لا يُهِمُّنِي أن يكونَ هذا من فلانٍ أو من فلانٍ، ولكن الكَلام على أنه أمرٌ من مُسْرِف؛ لأجلِ أنْ يُبعِد اتِّهامَه بأنَّه لا يريدُ المسرفينَ أنفسهم، حيث وجّه النهيَ عن طاعتهـم لأنفسِهـم، فجعلَ النهيَ عن طاعةِ أمرِهِـمُ الَّذي هـو أمرُ إسرافٍ وفسادٍ.

وقَوْلهُ: ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ يَعْنِي المُتجاوِزِينَ للحَدّ، فالمسرِفُ: مَن جاوَزَ حدَّه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف:٣١]، أي لا تَتَجاوَزُوا الحَدَّ كَمِّيَّةً ولا كيفِيَّة.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهذه الصِّفَةُ كاشفةٌ وليستْ قَيْدًا؛ لأن كلَّ مُسْرِفٍ مُفْسِد في الأَرْض، فالصِّفَةُ كاشفةٌ، وقَوْلهُ: ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: يكونون سببًا في فسادِها، أو أنَّ المعاصيَ نفسَها فسادٌ.

يَعْنِي: إما أنْ تكونَ هي الفسادَ فيفسدون، من بابِ إضافةِ الشيْءِ إلى سببِهِ، وإمّا أن تكونَ المعاصي سببًا للفسادِ، أو أنها هي نفسها فسادٌ.

قَوْلهُ: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ في طاعةِ اللهِ، ولا بغيرِها أيضًا.

وفي قَوْلهِ: ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ دليلٌ على فسادِهِم، وأنه ليس فيها صلاحٌ، فالنفيُ هنا يُقْصَدُ به النفيُ للإصلاحِ معَ إِثْباتِ كمالِ ضِدِّه، وهو الفسادُ: ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بطاعة اللهِ]، الطَّاعة نفسها إصلاحٌ بلا شَكّ، وهي أيضًا سببٌ للإصلاحِ؛ فإنَّ طاعةَ اللهِ تَعالَى سببٌ لِصَلاح كلِّ شيْءٍ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

الآيتان (١٥٣، ١٥٤)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء:١٥٣-١٥٤].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ الَّذِينَ سَحَرُوا كَثِيرًا حَتَّى غَلَبَ عَلَى عَقْلِهِمْ، ﴿مَآ أَنتَ﴾ أَيْضًا ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فِي رِسَالَتك].

هذا جَوابُهُم، حيثُ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ اتَّهَمُوه بأنَّه مسحورٌ، ومُسَحّر أبلغُ من مَسْحُور أيضًا.

وقَوْلهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ حصرٌ لأعمّ الأحوالِ، يَعْنِي: ما حالُك أبدًا تَخْرُجُ عن هذا الوصفِ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾.

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الَّذينَ سُحِروا كثيرًا حتى غلب على عقلهم]، هذا -والعياذُ بالله- جَوابُهم، مثلما أجابَ به كثيرٌ منَ النَّاس، بل إنَّما كلّ الأَنْبياء يُقالُ لـهم مثلُ هذا: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]؛ وذلك لأنَّه لا حُجَّة لهم، وكلُّ إِنْسانٍ ليس عنده حُجَّة إنَّما يَذْهَب إلى السَّبِّ والشَّتْم، ويظنُّ أنه بذلك يُنَفِّر عَمَّن خَصَمَه وعَجَزَ عن مُقَابَلَتِه، وأمَّا الإِنْسان الَّذي عنده حُجَّة فإِنَّه لا يَلْجَأُ إلى الشَّتم، وإلى السبِّ، ولهذا يُعابُ على

بعضِ العُلَماء أن يكونَ دأْبُهُ السَّبّ والشتم معَ خُصُومهم.

وكان ابنُ حَزْمٍ -رحِمه الله، وعَفَا عنه- شديدًا في المناقشةِ، ولو كَان يُناقِشُ بهدوءٍ لكَان أحسنَ له، وأمّا السبُّ والشَّتم في قومٍ هم مثلُه أرادوا أنْ يَصِلُوا إلى الحقّ، فهذا لا يَنبغي، ولا يَليق به، ولا يَليق بالإِنْسانِ العامِّيِّ، فضلًا عن العالِـمِ، فالمقصودُ ليسَ هو التهجُّم على الشخصِ، فالمقصودُ أن يردّ على المقالةِ وتَبطُل، لكن أعداء الرُّسُل ليس عنْدَهُم ما يُقاوِمُون به ما جاءتْ به الرُّسُل، فلهذا يلجئُون دائمًا إلى السبّ والشتمِ.

ولا شـكّ أنّ اتِّهامه بأنه مِن المسحَّرين كَـذِب، بل هـو من أعقلِ النَّاسِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولولا أنه أعقلُ قومِهِ ما جعلَ اللهُ الرِّسالَةَ فيه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، فهو أعقلُهم، وأكثرُهم أمنًا، وأقواهم صَبرًا.

أما قولهم: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فهذا صَحِيحٌ، لكن هذه العِلَّة غير مانعةٍ من أن يكونَ رسولًا، ولهذا قالتِ الرُّسُلُ لقومِهم الَّذينَ احتجوا عليهم بهذه الحجة: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:١١]، وهذا جَوابُ هذه الشُّبهة، فهي شُبهة جعلوها حُجّةً، فيُقال: وإذا كَان بشرًا مثلكم، فلا مانعَ من أنْ يَمُنَّ اللهُ عليه بالرِّسالَةِ.

وأيضًا لا يُمْكِن أن يرسِلَ اللهُ أحدًا إلى البَشَرِ إلَّا مِنَ البَشَرِ، حتى ولو جُعِل مَلَكًا كما اقترحَ لجُعِل بسُورَةِ الرَّجُل، ثم عاد الأمرُ على هؤُلاءِ مُلْتَبِسًا مُشْتَبِهًا، فلم يَستفيدوا من ذلك شيئًا.

قَال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في رِسالتك]، لو اقتَصَرُوا على قَوْلِهِم: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ لكَانَ هذا كَلامًا سليمًا؛ لأنَّ كلَّ إِنْسانٍ يَأتيه بَشَرٌ مثله ويقول: إنني رَسُولُ ربِّ العالمينَ، فسيقول: هاتِ آيةً ودَليلًا، وإلَّا لأمكنَ كلَّ كذّابٍ أنْ يدَّعِيَ النبوَّةَ، وأنْ يَسْتَحِلّ دماءَ غيرِه وأموالهم بهذه الدعوَى الكاذبةِ.

فقولُهم: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ صَحِيحٌ، لكن ما المُرادُ منه، هل يُرادُ به التحدِّي أم الاسترشادُ؟

يَظهَر من حالِهم أن المُرادَ به التحدِّي، يَعْنِي أنَّه لا يُمْكِن أنْ يأتيَ بآيةٍ، على حدِّ قولهم: إنه مُسَحّر، وقولهم: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ يدلّ على استبعادهمْ أنْ يكونَ كذلكَ، وعلى أنَّهم يُريدون بهذا التحديَ له.

• ● ۞ ● •

الآيات (١٥٥- ١٥٩)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٥٥-١٥٩].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾ نَصِيبٌ مِنَ المَاءِ، ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بِعِظَمِ الْعَذَاب، ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عَقَرَهَا بَعْضُهمْ بِرِضَاهُمْ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾ عَلَى عَقْرِهَا، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المَوْعُودُ بِهِ فَهَلَكُوا، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾].

أجابَهُمْ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقَوْلِهِ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾، فهذه الناقةُ آيَةٌ أعظمُ مِمَّا يَصْنَعُونه منَ الحِجَارة، وما يَزْرَعُونه مِنَ الزُّرُوع، ويَغْرِسُونه منَ الأشجارِ؛ لأنها خَرَجَتْ عنِ النُّوق الأُخرى، فلم تكنْ مثلَ النُّوقِ المعروفةِ المألوفةِ.

ووجهُ كَوْنِها آيةً بَيِّنَةً في قَوْلِهِ: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، هذا وجهُ الآيةِ في هذه الناقةِ.

وأمّا ما جاءَ في الإسرائيليَّاتِ مِن أنَّها خَرَجَتْ من صخرةٍ، فهذا لا أصلَ له،

ولو كَانَتْ كذلك لذُكِرَ في القُرآنِ؛ لأن خُرُوجَها من صخرةٍ -وهي من الحيوانِ- أشدُّ وأظهرُ وأجلَى في الآيةِ مِن كونها لها شِرب ولهؤُلاءِ شِرب.

والصَّوابُ أن يُقال: إن هذه الناقةَ ناقةٌ وُلدتْ من نُوق، ولكن لها مَزِيّة على غيرِها، وهي هذه المزيّة العظيمةُ: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، يَعْنِي أنها هي تَشْرَب منْ هذا البِئر، فتأتي وتَشرب، واليوم الثَّاني تَذهب وتَرعى، لكن في اليومِ الَّذي تَشرب قال أهلُ العِلْم: إنَّ كلَّ مَن أعطاها دَلوًا منَ الماءِ أَعْطَتْه دَلوًا منَ اللَّبَن، فصاروا هم يَشربون يومًا لَبنًا، ويومًا ماءً، وهذا اللَّبَن يأخذونه من هذه الناقةِ، وهذا بلا شَكّ من آياتِ اللهِ؛ إذ لا توجدُ ناقةٌ على هذه الصِّفَةِ.

وقَوْلهُ: ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ كَان هذا الشِّرب مُؤَقَّتًا بوقتٍ جَعَلُوه لأنفسهم، بحيثُ لا يَلْتَبِس على مَن ليسَ في البَلَد حتى لو كَان الإِنْسان في خارجِ البلدِ يعرف أن اليومَ يومُ الناقةِ، أو أنَّ اليومَ يومُ النَّاسِ، فيأتي ويَرِد هذه البئرَ ويَشرب منها، أو يَرد الناقة بيومها فيَشرب مِن لَبَنِها، وهذه هي الفائدةُ من قَوْلِهِ: ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

قَوْلهُ: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يقول المُفَسِّر: إنه عَظيمٌ في عِظَم العذابِ، يَعْنِي: وليسَ اليوم نفسه هو العظيم، ولكن لِوُقُوع العذابِ فيه صارَ عَظيمًا، و﴿عَظِيمٍ﴾ وصفٌ لليومِ.

وهل هو وصفُ مَدْح أم وصف ذمٍّ؟

هو في الحَقِيقَة وصفُ مَدْح، ودليلٌ على القُوَّة فيما وصف به، حتى إنْ كَان عذابًا فهو دليلٌ على قوّة العذاب، وإنْ كَان خيرًا فهو دليلٌ على قوَّة هذا الخيرِ،

فالعَظَمَةُ مِن حيثُ هي مَعْنى من المعاني تدلُّ على الكمالِ والمدحِ، سواء كَان هذا في عذابٍ أو في نعمةٍ.

وقَوْلهُ: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ كثيرٌ منَ النَّاسِ يَتَحَاشَوْنَ أنْ يَصِفُوا المخلوقَ بـ(العظيم)، ولكن الحَقِيقَة لا وجهَ لهذا، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:١-٢]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٦]، فوصَفَ اللهُ تَعالَى بالعِظَم نفسَه وكَلامَه ووحيَه، ووصفَ به أيضًا بعضَ مخلوقاتِهِ، ممّا يدلّ على أنّه لا بأسَ به.

وقد كَان النَّاسُ يَتَحاشَوْن أيضًا قَول (المُعَظَّم)، وهذا أيضًا لا يُتحاشى منه، والسَّبَبُ أنه معظَّم ليس عظيمًا، فـ(المعُظم) قد لا يكون عظيمًا، فقد يُعَظَّم مَن ليس بِعَظيمٍ، وهو أقلّ رُتبةً من العظيم؛ فإذا كَان (العَظيم) جائزًا إطلاقُه، فـ(المعظَّم) من باب أَولى.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: عَقَرَها بعضُهم بِرِضاهم، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾ على عَقرها، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الموعود به، فهلكوا]، فهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال لهم: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾، ولكنَّهم مَسُّوها بأسوأ السُّوء -والعياذُ بالله- فعَقَروها، والظَّاهرُ أنّ المُرادَ بالعقرِ القتلُ، وليس قطعَ الأرجُل فقطْ، بل أنّهم أَهلكوها، فعُوقِبوا بمثلِ ما جَنَوْا.

وهل أصبحوا نادمينَ على ما فَعَلُوا من ذنبٍ، أم أنَّهم نَدِموا على ما فَاتَهُمْ من مَصلحتها؟

الظَّاهر أنَّهم نَدِموا على المصلحةِ؛ لأنَّهم ما بعدُ أَتاهمُ العذابُ، فالظَّاهرُ أنَّهم نَدِموا على ما فاتَهُمْ منَ المصلحةِ الدنيويَّة؛ لأنّهم لو ندِموا على الذّنْب لكَانوا تائبينَ،

ولَمَا استحقُّوا العذابَ، لكن نَدِموا على مَصْلَحَتِهِم فقد كانوا يَشربون مِن لَبَنِها، ثم فاتَهم هذا.

وقد بَقُوا بعد ذلك ثلاثةَ أيامٍ، والحكمةُ من هذه الأيّام الثلاثةِ -واللهُ أعلمُ- لعلَّهم يَتُوبُونَ، ولكنَّهم لم يَتُوبوا، وقد أُخِذ منْ هذا استتابة المرتَدّ ثلاثةَ أيّام، فإنْ تابَ وإلا أُجري عليه الحدُّ، على خِلافٍ بينَ أهلِ العِلْم في هذه المسألةِ.

والمهمُّ أن هؤُلاءِ لم يَنْدَمُوا على فِعل المعصيَةِ، ولو ندِموا لكَانَ توبة، ولكنهم ندِموا على ما فاتهم من حَظِّ الدنيا فقطْ.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ الموعودُ به، فهَلَكُوا]، إلَّا أنَّ اللهَ تَعالَى أنجَى صالحًا ومَن معَه.

وقولُه تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ معلومٌ أنّهم لم يكونوا كلّهم عَقَروها، ولكن لَـمَّا كَان برِضا الجميعِ، ومِن زُعَمائِهم، فنُسِب إليهم جَميعًا، ففِعل الطائفةِ منَ الأُمَّة يُعتبَر فعلًا للجميعِ إذا لم يُنكِروه، فإذا سَكَتُوا ولم يُنْكِروه فهو فِعْل الجَميع، ولهذا يذكِّر اللهُ تَعالَى الْيَهُودَ في عهد الرَّسُولِ ﷺ بما فعلَ أسلافُهم، ويُخاطِبُهم به مُخاطَبَةَ الفاعلِ؛ لأنها أُمَّة واحدة، فإذا لم تُنْكِر ما كَان عليه أسلافُها، نُسب للجميعِ.

وما هو العذابُ الَّذي أَخَذَهُم؟

الجَواب: صَيْحَة ورَجْفَة، يَعْنِي: رَجَفَ اللهُ بهم الأَرْضَ وصاحَ بهم جِبريلُ، فماتوا، ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود:٦٧]، -والعياذُ باللهِ- صَرَعى كنفسٍ واحدةٍ.

وفي هذا دليلٌ على كمالِ قُدرة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنّ الله تَعالَى قادرٌ على كلِّ شيْءٍ، ولا يُعْجِزُه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي

ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر:٤٤]، ولو أنَّنا عَقَلْنَا -نحن المسلمينَ- وآمنَّا حقيقةَ الإيمانِ، ما كنّا بهذه الحالِ الَّتي نحن عليها، يَعْنِي: ما كنّا نخاف النَّاس أكثر ممّا نخاف الله.

فالإِنْسانُ لا بُدَّ أنْ يخافَ ويَرْجُو، لكن إمّا أن يخاف اللهَ أو يخاف غيرَه؛ فإنْ خافَ اللهَ خافَهُ النَّاس، وإنْ خاف غيرَ اللهِ استولَى عليه هذا الخوفُ، وهذا صَحِيحٌ وحقّ، فإنَّ مَن خافَ اللهَ خافَه كلّ شيْءٍ، ومَنِ اتَّقَى اللهَ اتَّقاه كلُّ شيْءٍ، والعكسُ بالعكسِ.

فعلينا جميعًا أنْ نكـونَ واثقينَ بوعدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ غيرَ ناظرينَ إلى الأسْبابِ الحاضرةِ، ولو نَظرنا نظرةً مادِّيَّة مَحْضَةً، لكنّا لا يُمكِن أنْ نَتكَلَّم معَ هؤُلاءِ، أو أنْ نَتَحَدَّاهم في تنفيذِ الشريعةِ ومُحاربتهم، لكن يجبُ أنْ لا نَنْظُر إلى هذه الأسْبابِ الحاضرةِ، ويجب أن ننظرَ إلى أسْبابٍ أُخْرَى فوق المادَّة.

ولـهذا مَن نَظَرَ إلى هذه الأسْبابِ -المشاهدة الطبيعيَّة- لا يَستقيمُ له أمرٌ، فالصَّحَابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ عِندَما جاءتِ الفُرْسُ والرُّوم لم يَنْظُروا إلى هذه الأسْبابِ، فقد كَانوا يحاصِرون المدينةَ العظيمةَ لمدَّةٍ، ثم يَخْرُجون في الصَّبَاح، فيكبّرون اللهَ، فإذا كبّروا تصدّعتِ الأسوارُ، وهذا شَيْءٌ مُتواتِرٌ في التاريخِ عنهم، أنَّهم يُحاصِرون المدينةَ مُدَّةً، ثم إذا كبَّروا اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كَأنَّها صَوَارِيخ وقنابل تَصَدّع هذه الجُدران، ولكنه تكبيرٌ يَخْرُج منَ القلبِ.

قَوْلهُ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، فقومُ صَالِحٍ بِغَضِّ النظَرِ عن عَقْرِ الناقةِ قدْ آمَنَ قليلٌ مِنهم باللهِ.

فإنْ قيلَ: كيف أخذت منهم أحكام المُرْتَدّ وهم أصلًا لم يُؤْمِنوا؟

قلنا: أخذ هذا من إمهالِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم ثلاثةَ أيامٍ، فصار أننا نُمْهِل الكفّار ثلاثةَ أيامٍ، لكنّ الكفّارَ الأَصْليِّينَ في الشريعةِ الإسلاميَّة لهم أحكامٌ خاصَّة، كإقرارهم بالجِزْيَة مثلًا، وغيرهم ممَّن لا يقرّ على دينه وهو المرتدّ يُنْظَر ثلاثةَ أيَّام، والمسألةُ خِلافيَّة، ثم إنَّ الرِّدَّة أيضًا تختلف: فمِن الرِّدَّة ما يمكِن أن يُمهَل، ومنها ما لا يمكن أن يُمهَل.

وهل كان قومُ صالحٍ كلّهم يَشربون من بِئرٍ واحدةٍ؟

نقول: لعلَّ هذه البِئر هي الصَّالحةُ في الشُّربِ، وغيرها لا تَصْلُحُ للشُّرب، المهمُّ أنَّ أصلَ شُربهم من هذهِ البئرِ، ولهذا قسّم وقتها: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، ولا مانعَ أيضًا من أنْ تكونَ هذه البِئْر تَسقي كلَّما أمكن، لكن الأقرب -والله أعلم- أنَّ البساتينَ مُنْتَشِرة فيها العيونُ، وأنَّ هذه البِئر هي الَّتي يأخذون منها ماء الشُّرب.

فإنْ سألَ سائلٌ: لماذا منع الرَّسُولُ ﷺ منَ الشُّرب من مائهم حين مَرَّ بدِيارهم؟

فالجَواب: لأنَّ استعمالَ هذا الماءِ يؤدِّي إلى النزولِ فيه والطُّمأنينة، والرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَـمَّا مرّ بها مرَّ مقنِّعًا رأسَه وأسرَعَ، وقال: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ القَوْمِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ**»[1]، فالمسألةُ ليستْ هيِّنَةً، والعجيبُ أنَّ كثيرًا منَ النَّاس اليومَ يذهبونَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر:٨٠]، رقم (٤٧٠٢)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين، رقم (٢٩٨٠).

إليها مَذْهَبَ الفُرْجَة والنُّزْهَة، وهذا حَرامٌ، لا يجوزُ.

ولا يُعارِضُ هذا قولَ اللهِ تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم:٤٥]؛ لأنَّهم كافرونَ، أي أنّ فِعْلَهم لا يدلُّ على الجَواز.

أو يُقال: إنَّ شَرِيعَتَنَا وردتْ بخلافِ ذلكَ في التحريمِ، وأمَّا قولُ بعض النَّاس: الأَرْض كلّها لا تَخلو من أممٍ مكذِّبة، فأنا أقول: نعم، الأَرْضُ كلُّها لا تخلو من أممٍ مكذِّبة، لكن مَن قال: إن هذا المكَان المعيَّن مكَان أُمَّة مكذِّبة.

والأحقافُ في الأَصْلِ يجوزُ أن نَزُورَها؛ لأننا لا نَعْلَم مَساكِنَهم بعينها، لكن ثَمُود مساكنهم موْجودةٌ بعينها، فإذا دخلها الإِنْسانُ كَأَنَّه داخلها بذلك الوقتِ، ولهذا منعَ الرَّسُولُ ﷺ منَ الدخولِ إلَّا والإِنْسان باكٍ، فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ»، لكن عندنا اليومَ يدخلون ومعهم آلاتُ التصويرِ.

فإن قيل: وهل شَدُّ الرَّحْل لِزِيَارَةِ مساكنِ ثَمُودَ محرَّم؟

قلنا: شدُّ الرَّحْل لغيرِ التعبُّد ليسَ فيه مانعٌ، فكلُّ النَّاسِ يَشُدُّون الرِّحال للتِّجارة ولغيرِ التجارةِ، لكن شَدّها للنُّزهة فهذا حرامٌ.

أمَّا أنْ يذهبَ للخُشُوع والتعبُّد بتذكُّر مآلِ هؤلاءِ الجبَّارين لَـمَّا عَصَوْا أمرَ ربِّهم، فقد يُقال: إن هذا لا بأسَ به، على أنَّ المسألةَ فيها نظرٌ، فقد يُقال: إنّ الاعتبارَ بما في القُرآنِ أبلغُ بما في البُنيان، لكنَّه أهونُ منَ الَّذي يذهب للنُّزهة والفُرجة، فزيارةُ هذه المساكنِ مَشروطةٌ بأنْ يَعْتَبِرَ الإِنْسانُ.

وهل يجوزُ الشُّرب من مائهم؟

يقول العلماء: إنَّه يجوز، حتى من بِئْر الناقةِ؛ لأن المُسلمينَ كَانوا يشربونَ منها، فبئرُ الناقةِ كانتْ معروفةً في الزمنِ السابقِ، أمَّا الآنَ فلا نَدري أمعروفةٌ أم لا، وإلَّا فقد كَانتْ معروفةً في الماضي، وحَسَب كَلام الفُقهاء أنها كَانت بئرًا كبيرةً، يَرِدُها الحجّاج الَّذينَ يَقْدَمُونَ منَ الشامِ.

من فوائد ذِكر قومِ صالحٍ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فيها دليلٌ على عدمِ البقاءِ في حالِ الرفاهيَةِ عِقابًا لِمَنِ الْتَزَمُوا شِرْكَهم، أيْ أنَّه لا يمكِن أنْ يُتركوا بدونِ رُسُلٍ وشكرٍ للنعمةِ، ويُؤْخَذُ من قولِه تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾، والمُراد بالاسْتِفهامِ هنا للنفيِ والتوبيخِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فيها دَلالةٌ على عِظَم نعمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنَّها تَستوجِب الشكرَ العظيمَ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأنه هو مُعْطِي الأمان وآخِذه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ءَامِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عِظَم نِعمةِ الأمنِ، وهذا صَحِيحٌ، فإنَّ نِعمة الأمنِ قد تُقابِل نِعمة الشِّبَع والشُّرب والرِّيّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ النَّخيل من أطيبِ أنواعِ الفواكهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، فهي ليِّنة وسهلة الهَضم، ووجهُه أنَّها مفضَّلة على غيرِها، وأنها تُؤْتِي أُكُلَها كلَّ حِينٍ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيان قُوَّة قومِ صالحٍ، ويُستفاد من قَوْلِهِ: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾، إذ بَلَغُوا من القوَّة أنْ كانوا يَنْحِتون بيوتهم في الجبالِ، وأيُّ قوَّةٍ بعدُ؟!

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فيه دليلٌ على دِقَّتِهم في العملِ، والحِذق في الهَندسة؛ لأن

هذا يَتَطَلَّب حِذقًا، حيثُ إنه أمرٌ مُغَيَّب ليسَ شيئًا أمامَك كي تَحْصُلَ على ما تريدُ، ويُؤْخَذُ من قِراءَة: (فارهين) بمَعْنى حاذِقينَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: يُؤْخَذ من قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ فائدتانِ: لفظيَّة ومعنويَّة، الفائدةُ المعنويَّةُ أنَّهم لا يُشارِكُ فَسادَهم صلاحٌ، فيكون في هذا نفيُ إِثْباتٍ لكمالِ الفسادِ، والفائدةُ اللفظيَّةُ أنّ فيها طِباقًا، فهذا لا شكّ أنه من الأسلوبِ اللفظيِّ الحَسَن، مع ما فيه من معنًى.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ ما أصابهم هو نتيجةُ فَسادهم؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فيها تَسْلِيَة لكلِّ داعيةٍ إذا دعَا إلى حقٍّ لو أُصيب بمثل هذا، فإنَّ كلَّ مُفْتَرٍ على أهلِ الحقِّ أو رافِض له فِعْلُهُ شَبيهٌ بِعَقْرِ هذه الناقةِ، ولكن الواجب على الداعيةِ أن يَصْبِرَ، وأن يقولَ: جَرَى للأنبياءِ مثلُ هذا وأشدُّ، وَهُمْ أَشْرَفُ عندَ اللهِ منِّي ما هو أَعْظَم.

الآيات (١٦٠- ١٦٤)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦٠-١٦٤].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ﴾ ما ﴿أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾].

قوله تعالى: ﴿قَوْمُ لُوطٍ﴾ هؤُلاءِ في قَريةٍ يُقالُ لها: (سَدُوم) من أرضِ فِلَسْطِينَ، ولوطٌ هو -كما يقول المؤرِّخون- ابنُ أخي إبراهيمَ، فيكون إبراهيمُ عمَّه، أرسلهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلى أهلِ هذه القريةِ.

وكَانوا معَ كُفرهم باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَعْمَلُون عَمَلًا فاحشًا، يُعْتَبَرُ من أسفل الأعمالِ -والعياذ بالله- وقد سمّاه اللهُ تَعالَى خَبيثًا في قَوْلِهِ: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ [الأنبياء:٧٤]، فهو خَبَثٌ ورِجْسٌ؛ لأنه قَبيح عَقْلًا، وفِطرةً، وشَرعًا، والَّذي يعملونه هو أنَّهم يأتون الذُّكران -والعياذُ باللهِ- كما يأتون النِّساءَ.

وهنا يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وكل هذا تَقَدَّم الكَلامُ عليه.

الآيتان (١٦٥، ١٦٦)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ النَّاسِ، ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ أَقْبَالَـهُنَّ، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ مُتَجَاوِزُونَ الحَلَالَ إِلَى الحَرَامِ].

كلُّ الرُّسُلِ يُرْسَلون أوَّلًا بتحقيقِ التوحيدِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل:٣٦]، لكن هناك أنواع مُعَيَّنة منَ المعاصي يَرْتَكِبُها بعضُ الأممِ ويركز عليها الرُّسُل عليهم الصلاة والسلامُ، ففيما ذكر في قومِ لوطٍ كَان جُرمهم هذه الفاحشة، ولهذا قال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ و هذا الاسْتِفهامُ للتوبيخِ والإنكارِ.

قَوْلهُ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ﴾ أي: الذُّكور، جَمْع ذَكَر، ﴿مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بيان للذُّكران، أي: منَ النَّاسِ، سواء كَانوا من قَبيلتكم أو من غيرِ قَبليتكم، ولهذا لم يقلْ: «أتأتونَ الذُّكران مِنكم»، بل قال: ﴿مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّهم -والعياذُ بالله- لا يَتَحَاشَوْنَ عن أحدٍ، فهم مثل الكِلابِ.

ثم معَ ذلك -زيادةً على قُبحهم- أنَّهم تَركوا النعمةَ الَّتي خَلَقَها اللهُ لـهم ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾، فلو كُنْتُم تأتونَ الذكران من العالمينَ؛ لأنكم مُضْطَرُّونَ لذلك، وليس لكم منَ الحلالِ ما يُغْنِيكم، لكَان الأمرُ أهونَ، لكن لكم منَ الحلال ما يُغنيكم، فكيف تأتونَ الخبائثَ وتَدَعُونَ الطيِّبات؟!

ولهذا قال: ﴿وَتَذَرُونَ﴾ وهي داخلةٌ في مَضمونِ الاسْتِفهامِ، يَعْنِي: وأَتَذرونَ، بمَعْنى: تتركون ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أقبالَهن]، وهذا تفسيرٌ لِقَوْلِهِ: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ يَعْنِي: تأتونَ الَّذي خلقَ لكم منَ الأزواجِ، وهو القُبُل، هذا ما ذهبَ إليه المُفَسِّر، والصَّوابُ خلاف هذا، والصَّوابُ أن (مِن) بيانٌ لـ(مَا) أي: ما خلقَ لكم ربُّكم منَ الأزواجِ، يَعْنِي: وتذرون الأزواجَ، هذا هو المَعْنى.

وفرْقٌ بينَ ما ذكرتُ وبينَ ما ذهبَ إليه المُفَسِّر، يَعْنِي: كَأنَّه يقول: تَذَرُونَ فُرُوجَ النِّساءِ، ولكن لو قال: (أتأتونَ أدبارَ الذُّكور) لكَان صوابًا، وتذرونَ فروجَ النِّساءِ، لكن لما قال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ﴾ صار المناسِب أنَّ المَعْنى: وتَدَعُونَ النِّساءَ.

لكن قال: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ دونَ قَوْلِهِ: ﴿أَزْوَٰجِكُم﴾؛ إشارةً إلى أن الله تَعالَى هَيَّأَ هذه الزوجةَ للذَّكر يَتَمَتَّع بها كما يشاءُ، إلَّا فيما حرّم اللهُ مِنَ الدُّبُر مثلًا، ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون:٥-٦]، وهذا يدلُّ على إباحةِ استمتاعِ الرَّجُلِ بامرأتِهِ إباحةً مُطْلَقَةً بلا حدودٍ، ما عدا أمرينِ: الدُّبُر، والفَرْج في الحَيْض، وما سِوَى ذلك فكلُّ شَيْءٍ مُباحٌ.

وهذا يزيدُ الأمرَ قُبحًا إلى قُبْحِهِم، حيث يَدَعون الطيِّبَ ويأتونَ الخبيثَ.

وفي قَوْلِهِ: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ و﴿وَتَذَرُونَ﴾ الفائدةُ المعنويَّة الَّتي أَشرنا إليها، وهي زيادةُ القُبْح، والفائدةُ اللفظيَّة، وهي الطِّبَاق بذِكْر الأمرِ ومقابلِهِ.

وقولُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ اللامُ للإباحةِ أو للتعليلِ، أي: خَلَق لِأَجْلِكُم، أو: أباح لكم.

وقَوْلهُ: ﴿رَبُّكُم﴾ إشارة إلى أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المتصرِّف فيهم الَّذي يُحْيِيهِم.

وقَوْلهُ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، (بَلْ) للإضرابِ، والإضرابُ هنا كَأَنَّه قال: لا تأتونَ الذُّكران فِطرةً ولا عَمَلًا عادِيًّا محبوبًا إلى الفِطَر، ولكن الَّذي حَمَلَكُم على هذا هو العُدوان المجرَّد -والعياذ بالله- متجاوزينَ الحلال إلى الحرامِ، فبيّن لهم لُوطٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ ما فَعَلُوه أمرٌ مُسْتَنْكَرٌ عَقْلًا، ومستنكَرٌ شَرعًا وعُرفًا؛ لأن العدوانَ لا شكّ أنّ كلّ أحدٍ يُنْكِره، وهؤُلاءِ مُعْتَدُونَ.

ومنَ الغَريبِ أنّ الفاعلَ مِنهم اليومَ قد كَانَ مَفعولًا به بالأمسِ! والمفعول به اليومَ يكونُ فاعلًا في المستقبَل! وهذا غاية ما يكونُ مِنَ العُدوان.

وسبحان اللهِ! كيف هؤُلاءِ الجماعة -نسأل الله السلامةَ- يرى الإِنْسانُ ولدَهُ أو أخاهُ الصغيرَ تُفعَل به الفاحشةُ ولا يبالي بهذا؟! والظَّاهرُ أنَّهم يَفعلونها جَهرًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت:٢٩]، فهم لا يُبالُونَ -والعياذُ باللهِ- أن يَرْكَبَ بعضُهم بعضًا جِهَارًا، وهذا غايةُ ما يكون منَ السُّخْط.

• • ❁ • •

الآيات (١٦٧- ١٧٥)

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٦٧-١٧٥].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ عَنْ إنْكارِكَ عَلَيْنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ مِنْ بَلْدَتِنا، ﴿قَالَ﴾ لُوطٌ ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ المُبْغِضِينَ، ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ مِنْ عَذابِهِم، ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا﴾ امْرَأَتَهُ ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الْباقِينَ أَهْلَكْناها، ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أَهْلَكْناهُمْ، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ حِجارَةً مِنْ جُمْلَةِ الْإِهْلاكِ ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ مَطَرُهُمْ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾].

هذا الجَوابُ القَبيح منهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ عنِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكَرِ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾، وهذا أبلغُ مِن لو قالوا: (لَنُخْرِجَنَّكَ)، كأنَّهم يُهَدِّدُونَهُ بما هو أعظمُ؛ ترويعًا له، يَعْنِي: إنَّنا أَخرجنا غيرَكَ وستكونُ أنتَ من جملةِ المُخْرَجِينَ؛ لأنَّ لنا قُدْرَةً وسُلطةً على إخراجِكَ.

وفي قَوْلِهِ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ تأكيدٌ بالقَسَمِ واللامِ ونونِ التَّوكيدِ: فاللامُ في

﴿لَئِن﴾ مُوَطِّئَةٌ لِلْقَسَم، أمَّا اللام في ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ فهي واقعةٌ في جَوابِ القَسَم، والجَوابُ الموْجودُ هنا لِلْقَسَمِ، قال ابن مالك[1]:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

قالَ لهم لوطٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [المُبْغِضِين]، وهذا فيه نوعٌ مِنَ التحدِّي لـهم. يَعْنِي: إنْ أَخْرَجْتُمُونِي فأنا راضٍ بذلكَ، ولا يُهِمُّنِي إخراجي؛ لأني ﴿لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ والإِنْسانُ المبغِض لعملِ قومٍ لا يحب أنْ يَبقَى معَهم، فكَأنَّه يقولُ: أنا لا يُهِمُّنِي إذا خرجتُ؛ لأنني لا أرغبُ بالمُقامِ معَكم وأنتم على هذا العملِ الخبيثِ الَّذي أُبْغِضُه، والإِنْسانُ أشدّ ما يكونُ عليه أنْ يَبْقَى مع قومٍ يَكْرَهُهُمْ، يقول المُتَنَبِّي[2]:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى ... عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

وهذا صَحِيحٌ، فأنْ تَبْقَى معَ قومٍ تكْرَه أفعالَهم، هذا صعبٌ على النفوسِ، فكَأنَّه يقول: أنا أرغبُ بهذا، ومُسْتَعِدٌّ له، ولا أُبالي بإخراجِكُمْ.

وفيه دليلٌ على أنه يَجِبُ على كلِّ مؤمنٍ أنْ يُبْغِضَ عملَ هؤُلاءِ القومِ؛ لأن الرُّسُلَ يُبْغِضُونه، وهذه هي فائدةُ الجمعِ في قَوْلِهِ: ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أي: من المُبْغِضِين له، وإنْ كَان هو ما فيه إلّا قليل منَ الَّذينَ آمنوا معه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦]، يَعْنِي أنه ما آمنَ معه أحدٌ إلا أهلُ بَيْتِهِ، وليس كلّ أهلِه؛ فامرأتُه كَانتْ من الكَافِرينَ.

---

(١) ألفية ابن مالك - عوامل الجزم، (ص:٥٩) ط. دار التعاون.

(٢) ديوانه (١/ ٣٧٥).

قوله تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قال المفسِّر: [﴿مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من عَذابِهِم]، ولا شكّ أنّ هذا التأويلَ قاصِرٌ؛ لأن: ﴿مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من فِعْلِهم ومن عذابِهِم أيضًا.

ولا يَمْتَنِع أن يَسألَ اللهَ تَعالَى أنْ يُنْجِيَهُ مِن هذا العملِ، وإنْ كَانَ الرُّسُل لا يُمْكِن أنْ يَعْمَلُوهَ؛ لأنَّ الصَّوابَ المقطوعَ به أنَّهم معصومونَ ممَّا يُخِلُّ بالشَّرَفِ والكرامةِ، وعملُ قومِ لوطٍ هذا يُخِلّ بالشرفِ، لكنه هو دعا لنفسِه وأهلِه: ﴿نَجِّنِي وَأَهْلِي﴾، وأهلُه ليسوا مَعصومينَ.

والصَّوابُ أنَّه سألَ اللهَ أن يُنْجِيَه من عَمَلِهِم، ومن عَذَابِهِم.

قال الله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ الفاءُ للتفريعِ، يَعْنِي: فتفريعًا على دعوتِه أُجيب.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ امْرَأَتَهُ، ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الْبَاقِينَ أَهْلَكْنَاهَا]، وفي بعض النسخ: [أَهْلَكْنَا]، وكَأَنَّه يريد أنَّ (أهلكنا) مُسَلَّطٌ على قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ يَعْنِي: إلَّا أنّا أَهْلَكْنَا ﴿عَجُوزًا﴾، و(أهلكناها) أيضًا لها مَعْنى أوضح؛ لأنه إذا قال: (الباقين أهلكنا) قد يظن الظانّ أنَّ المُرادَ أهلكَ الباقينَ. وعلى كُلِّ حالٍ استجاب الله دعوتَه، فنجّاه وأهلَه.

قَوْلهُ: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ الأهلَ كَانوا عددًا كثيرًا، والصَّحِيحُ أننا لا نَدري كم عَدَدُهم، إنَّما أهله، ولكن: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يدلُّ على الكثرةِ؛ لأن: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ هذه جمعٌ، وأدنى ما يُقال فيه ثلاثةٌ، معَ أنَّ هذه الكلمةَ: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تدلُّ على جماعةٍ مُسْتَكْثَرَةٍ.

وقَوْلهُ: ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ -والعياذُ باللهِ- هذه المرأة عَجُوز كبيرة في السِّنِّ، وكَان الَّذي يَنْبَغي لكبيرِ السنِّ أن يكونَ مُنِيبًا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنّه قَريبٌ مِنَ الموتِ، وأقرب إلى الموت من الشابِّ، ولكن هي صارتْ خبيثةً -والعياذُ باللهِ- كافرةً باللهِ، لكنَّها كاتمةٌ لذلكَ، ولهذا قال اللهُ تَعالَى في سُورة التَّحريم: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم:١٠]، ليستْ خيانةَ شَهوةٍ وزِنًا، لكن خِيانة كُفْر، ولهذا قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم:١٠]، ثم قال: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، لم تُشْعِرَاهُما بالكُفْر، فما عَلِمَا بِكُفْرِهِما.

وهي لَـمَّا كَانتْ مُؤَيِّدَةً لِفعلِ القومِ كانَ هذا إقرارًا بالكفرِ، فهي كافرةٌ ومؤيِّدة أيضًا زيادة.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقينَ]، والغابِرُ: يُطْلَق على مَعَانٍ، منها: الباقي، ومنها: الماضي أيضًا، فيكون مِنَ الأضدادِ؛ وهي الكَلِمات التي تَصْلُحُ للشيْءِ ولِضِدِّه.

قَوْلهُ: ﴿ثُمَّ﴾ بعدَ أنْ أَنْجَيْنَا لُوطًا وأهلَه ﴿دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾؛ لأنه بعدَ أَنْ أُمِر أنْ يسيرَ بأهله ليلًا، وأن يخرج من البلدة إلا امرأته، دمر الله هذه البلدة، يَعْنِي: فخرجَ ثمَّ دُمِّرَتْ، وقَوْلهُ: ﴿ٱلْءَاخَرِينَ﴾ المُرادُ به قومُه.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَهلكناهم، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ حِجَارَةً، من جملةِ الإهلاكِ]، والظَّاهرُ لي أن قَوْلَهُ: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ عطْفُ تَفسيرٍ على قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾؛ لأنَّ هذا هو الَّذي دُمِّروا بِهِ، أنَّ اللهَ أمطرَ عليهم مَطَرًا، وهذا المطر هو ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود:٨٢]، مُتَتابع، ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ [هود:٨٣]، عندَ اللهِ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: مَطَر هؤُلاءِ القومِ، وإنَّما قال: ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾؛ لِبيانِ أنها قد قامتْ عليهم الحُجَّة ولم يُنْذَرُوا بالعذابِ إلَّا بعدَ أنْ أعذرَ مِنهم.

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في هذه الآيةِ وغيرِها منَ الآياتِ ما يدلُّ على أنَّ قومَ لُوطٍ أُهلِكوا بهذه الحِجارةِ: بالتدميرِ بالحجارةِ وليسَ بالقلبِ كما هو مشهورٌ عندَ أهلِ العِلْمِ وكثيرٍ من المُفَسِّرينَ، أنَّ بلادهم حُملتْ إلى عَنانِ السَّماء ثم قُلِبت، فهذا ليسَ في القُرآنِ ما يدلُّ عليه، والّذي في القُرآنِ قَوْلُهُ: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر:٧٤]، وجَعْلُ العالي سافلًا يكونُ بغيرِ القلبِ؛ فإنَّ هذه الحجارةَ إذا نزَلتْ على المنازلِ وهَدَّمَتْهَا صار العالي منَ المنازلِ سَافلًا، ثم إنها إذا قُلبتْ -مثلًا- وصارَ النَّاسُ في باطنِ الأَرْضِ، فليسَ للحِجارة حِينَئذٍ قيمة.

والمهمُّ أنَّه ليس في الأمرِ عنِ النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما يدلُّ على أنّ أرضَهم حُملتْ فقُلبتْ، وما دام أنَّه ليسَ في الأمرِ ما يدلُّ على ذلكَ، فالأَولى أنْ يُقال: إنّهم دُمِّروا بهذه الحجارةِ.

ويُستفاد من قِصَّة لُوطٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: الدُّعاءُ إلى توحيدِ اللهِ والأمر بِتَقْوَاهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الإخلاصُ في الدَّعوة إلى اللهِ تعالى، وأنَّه لا يَنْبَغي للدَّاعي أنْ يأخذَ على دَعْوَتِهِ أَجْرًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ مِن بني آدمَ مَن تُقلَب طَبِيعَتُه وتُصْرَف حتى يَسْتَحْسِنَ الخبيثَ؛ لأنَّ هؤُلاءِ هذا حالُهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: زيادةُ الإنكارِ فيما إذا كَان للإِنْسانِ مَنْدُوحَةٌ عنِ الحرامِ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جوازُ الاستمتاعِ بالزوجةِ استمتاعًا مُطْلَقًا؛ لقَوْلِهِ: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ مَن تجاوزَ الحلالَ إلى الحرامِ، فهو عادٍ ظالـمٌ لنفسِهِ ولغيرِه؛ لقَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: في الآيات دليلٌ على أنَّ المعانِدِينَ لِلرُّسُل إنَّما يَلْجَئُون إلى قُوَّتِهم وسُلْطَتِهم، لا إلى العقلِ والإقناعِ، قالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء:١٦٧]، وقال ذلكَ قومُ نوحٍ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء:١١٦]، لكنَّه عذابٌ آخرُ، وكذلك أيضًا قالَهُ فِرعون لِموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩]، وقالَه آزرُ لابنِه إبراهيمَ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم:٤٦].

كلُّ هذا ممَّا يدلُّ على أنَّ هؤُلاءِ الَّذينَ يُهَدِّدُونَ بالسُّلطة لا بالإقناعِ والعقلِ، هؤُلاءِ لا حُجَّةَ لهم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّه يَجِبُ على الإِنْسانِ أن يُبغِضَ ما أبغضَهُ اللهُ؛ لأنَّ هذه طريقةُ الرُّسُلِ؛ قال: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [الشعراء:١٦٨].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنه لا غِنى لأحدٍ عن دعاءِ اللهِ: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:١٦٩]، وأمَّا قولُ بعضِ العارِفِينَ الجاهلينَ: «عِلْمُهُ بِحالي يُغْنِي عن سُؤَالِي»[1]،

---

(١) يُروى عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما ألقي في النار، انظر تفسير البغوي (٥/ ٣٢٧)، وانظر تنزيه

فهذا قولٌ باطلٌ، فالله يعلمُ بحالِ كلِّ أحدٍ، ومع ذلك ما زالتِ الرُّسُلُ وأَتْبَاعُهم يَدْعُون اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: وُجودُ الربِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقَوْله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي﴾ [الشعراء:١٦٩]، وقَوْلِه: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ [الشعراء:١٧٠]، وهذا دليلٌ حِسِّيٌّ ظاهرٌ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إجابةُ اللهِ للدُّعاء، وهذه الإجابةُ تَتَضَمَّن عِدَّةَ صفاتٍ، فتتضمَّن العِلْمَ، والقُدْرَة، والرَّحمة.

الْفَائِدَةُ الثَّانيةَ عَشْرَةَ: في الآيَات دليلٌ على أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُنْقِذ أهلَ الحقِّ من إهلاكِ الكَافِرينَ، ويُهْلِك الكَافِرينَ ولو كَانوا في أحضانِ أهلِ الحقّ؛ لأنّ اللهَ أنجَى لُوطًا، وأهلكَ امرأتَه، وهي في أحضانِهِمْ، وهذا هو السرُّ في قَوْلِهِ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦]، فالتعبيرُ القُرآنيُّ أنَّ المُؤمِنينَ نَجَوْا، لكن البيت المُسْلِم ما نَجَا كله، فالمرأةُ الَّتي كَانتْ تَتظاهَرُ بالدِّين وهي مسلمةٌ ظاهرًا؛ ما نَجَتْ، ولهذا قال: ﴿غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، فهذا البيت أهلُه مُسْلِمُونَ، لكن ليسَ كلّهم مُؤمِنينَ، بل فيهم هذه المرأةُ العَجُوز كَانت كافرةً، وليسَ في الآيةِ دليلٌ -كما يقول بعضُ النَّاسِ- على أنَّ الإيمانَ هو الإسلامُ؛ لأن فَرْقًا بينَ هذا وهذا.

الْفَائِدَةُ الثَّالثةَ عَشْرَةَ: أنّ القُربَ من الأَنْبياء والأولياءِ لا يُغْنِي الإِنْسانَ شيئًا، لأنَّ هذه زوجة نبيّ، ومعَ ذلك هَلَكَتْ معَ مَن هلكَ، فكونُ الإِنْسانِ قَريبًا من إِنْسانٍ وليٍّ للهِ لا يُفِيدُه شيئًا، فأبو لَهَبٍ عمُّ النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ومعَ ذلك ما نزلَ

= الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة (١/ ٢٥٠). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: ليس له إسناد معروف وهو باطل. مجموع الفتاوى (١/ ١٨٣).

مِنَ القُرآنِ في أحدٍ مُعيَّن منَ الكفَّار سِوَى أبي لَهَبٍ عمّ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وما نزلَ القُرآنُ في تَسْمِيَةِ شخصٍ بعينِه منَ المسلمينَ إلَّا في زَيْدِ بنِ حَارِثَةَ، مَوْلًى منَ الموالي، من أبعد ما يكون عنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وبهذا يَتبيَّن أنَّ قُرب النسَبِ وقرب المصاهرةِ وغيره لا يُغني عنِ الإِنْسان شيئًا.

وتأمَّل ما نزل في سُورَةِ التحريمِ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم:١٠]؛ لأنَّ عائشةَ وحَفْصَةَ اللَّتَيْنِ تَظَاهَرَتَا على النَّبيّ ﷺ قد يَغْتَرَّانِ بِقُربهما إلى النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيَعْمَلَانِ ما عَمِلاه، وبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّه لا تَنْفَعُهما صِلَتُهما بالنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ عُقوبة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَتَنَوَّع حَسَبَ العملِ؛ لأن هنا تُمْطِر مطرًا حتى هَدَّمَتْ مَنازِلَهم، وصار عاليها سافلها، ثم خُسِف بها فيما بعدُ، ولذلكَ الآن هي بُحيرة اسمها (بُحيرة لُوط) معروفة، وهي البحر الميِّتُ؛ وسُمِّيَتِ البحرَ الميِّتَ لأنه غيرُ مُتَّصِل بالبِحار، ويقولون أيضًا: إنه لا يعيشُ فيه السمكُ والحوتُ بمثل ما يعيشُ فيه غيرُه، فهو فيه سمكٌ لكنه ليسَ مثلَ غيرِه؛ لأنه ليسَ مُتَّصِلًا بالبحارِ العميقةِ، فلا يكون فيه ذلك الشيْءُ الكثيرُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: استدلَّ بعضُ العُلَماءِ -أخذًا من هذه القصّة- أنَّ اللُّوطِيَّ يُقتَل بأنْ يُرمَى بالحجارةِ حتى يموتَ؛ قياسًا على رَمْيِ اللهِ تَعالَى لهؤُلاءِ بالحجارةِ.

وهذه المسألة فيها خلافٌ:

فالقولُ الأوَّل: أنَّ اللُّوطيّ لا يُتعرّض له ولا يُقال له شيْءٌ.

والقول الثَّاني: أنَّه يُعَزَّر بالضربِ والحَبْس، وما أشبهَ ذلك.

والقولُ الثالثُ: أنه كالزاني: إنْ كَان مُحْصَنًا رُجِمَ، وإنْ كَان غيرَ مُحْصَنٍ جُلِدَ وغُرِّبَ.

والقولُ الرابعُ: أنه يُقْتَل بكُلِّ حالٍ، سواء كَان مُحْصَنًا أم غيرَ مُحْصَنٍ، ولكن اختَلفوا في كيفيَّة قَتلِه، فقيل: بالرَّجْم، وقيل: بالسَّيف، وقيل: بالتَّحْرِيق، وقيل: بإلقائه منَ الشاهِق وإتباعه بالحِجارة، وهذا القولُ هو الَّذي اتَّفَقَ عليه الصحابة أنه يُقْتَل.

وهذا القولُ هو الصَّحِيح المتعيَّن، أنه يُقتل بكُلِّ حالٍ؛ فاعلًا كَان أمْ مفعولًا به، إذا كَان بالغًا عاقلًا؛ لأنَّ هذا ليسَ كالزِّنا، بل أشدّ وأعظم، ولأنه أمرٌ لا يُمْكِن التحرُّزُ منه، بخلافِ الزِّنا، فالزنا يمكن التحرُّز منه، لكن هذا لا يُمْكِن؛ فإنَّه لو أنَّ خَبيثًا أمسكَ بِيَدِ أمردَ لا أحدَ يقولُ: ما الأمردُ هذا؟ ولماذا تُمْسِك يدَه؟ وما أشبهَ ذلك، فهو أمرٌ لا يُتَحَرَّز منه، فيأتي في نوادي الرِّجال وغيرها.

وقد ذَكَرَ شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الصَّحَابَة أجمعوا على قَتْلِه[1].

أمّا مَن قال: إنه لا يُتَعَرَّض له، فحُجَّتُه أنَّ هذا ممَّا تَنْفِرُ عنه الطِّباع، وما تنفر عنه الطباعُ يُكتَفَى بالرَّدْع الطبيعيّ، كما أنَّ شاربَ البَوْلِ لا يُتعرّض له، وشارب الخَمْر يُجْلَد؛ لأن الخمرَ تَدْعُو النَّفسُ إليه، وهذا لا تَدعو النفوس إليه.

ولكن هذا قولٌ باطلٌ مِن وجوهٍ:

أوَّلًا: فإن قولَـهم: «إنها لا تدعو النفوسُ إليه» هذا صَحِيحٌ لكن النفوس

(١) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٣٣٤).

السَّليمة بلا شَكّ هي التي لا تَدعو إليه، وتَسْتَهْجِنه وتَسْتَقْبِحه، لكن النفوس الخَبيثة تَهواه أكثر مِنَ النِّساء، فيَهْجُرُونَ نِساءَهم في فُرُشِهِنَّ، ويَذْهَبُونَ إلى فِعْل هذه الفاحشةِ!

ثانيًا: قولهم: «إنَّ البولَ لا يُعَزَّر على شُربه، ويُكتفى برادعٍ طبيعيّ»، هذا باطلٌ أيضًا، بل يجبُ أنْ يُعَزَّرَ على فِعله، ومَن رأيناهُ يَشرب بولًا يجبُ أن نُعَزِّرَهُ؛ لأنه فعَلَ محرَّمًا، والتعزيرُ واجبٌ لكلِّ مَعْصِيَةٍ لا حدَّ فيها ولا كَفَّارة، فالصَّوابُ أنه يُقْتَل في كُلِّ حالٍ. واللهُ المستعانُ.

فإنْ قيلَ: كيف أجازَ الصَّحابة تَحْرِيقَه، وقد وردَ النهيُ عنِ التعذيبِ بالنارِ في قولِهِ ﷺ: «**لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ**»[1]؟

قلنا: كَأنَّهم رَأَوُا ذلك لِعِظَم هذا الفِعل، وأنّ المقصودَ بتعذيبِ النارِ في الأمورِ الَّتي دونَ هذا، وإلَّا فقد وقعَ ذلك من أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]، وعليّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومن هشام بن عبدِ المَلِكِ بنِ مَرْوَانَ، ثلاثة مِنَ الخُلَفَاء كلّهم اتَّفقُوا عليه.

والراجِحُ أنَّ حَدَّه القتلُ في كُلِّ حالٍ، يَعْنِي: لو يَتَلَوَّط مَن له سبعَ عشْرةَ سنةً بِمَن له ستَّ عشْرةَ سنةً، قُتِلَا جميعًا، وإن كَانا غيرَ مُحْصَنَيْنِ، أو كانا مُحْصَنَيْنِ.

وقد وردَ في مواطنَ أُخْرَى منَ القُرآنِ الكريمِ أنَّ لُوطا عَلَيْهِ السَّلَامُ قالَ لقومِه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر:٧١]، يَعْنِي: تَزَوَّجُوهُنَّ.

وبعضُ المُفَسِّرين قالُوا: ﴿بَنَاتِيٓ﴾ يَعْنِي: بنات الأُمَّة؛ لأن الرَّسُولَ أبٌ لِقَوْمِه،

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، رقم (٢٦٧٥).

(٢) ذم اللواط للآجري (ص:٥٨).

فيكنّ له بِمَنْزِلَة بناتِه. والَّذي دعاهم إلى هذا أنَّهم قالُوا: إن بناتِه مسلمات مُؤْمِنات، وهؤُلاءِ كفَّار، والكافرُ لا يتزوَّج بالمؤمنةِ.

فيُقال: الجَواب عن هذا: إمَّا أنَّ شَريعتهم تُبيح ذلك، أو أنَّ مَعْنَى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ يَعْنِي: فأَسْلِمُوا وتَزَوَّجُوهُنَّ.

وهذا في الحَقِيقَةِ كَأَنَّه يقول: أنا أُحَافِظ على ضيوفي أكثر ممَّا أحافظ على أيّ شيْءٍ آخرَ، يَعْنِي: فإني أَحْمِيهم حتى إني أَتَنَازَلُ عن بناتي وتتزوجوهنّ؛ من أجل المحافظةِ على هؤُلاءِ المسلمينَ.

• • ۞ • •

الآيات (١٧٦- ١٨٠)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٧٦-١٨٠].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ بِحَذْفِ الهَمْزَةِ وَإِلْقَاءِ حَرَكَتِهَا عَلَى اللَّامِ وَفَتْحِ الـهَاءِ[1]، هِيَ غيضَةُ شَجَرٍ قُرْبَ مَدْيَنَ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾، لَـمْ يَقُلْ لَـهُمْ: أَخُوهُمْ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾].

قوله: ﴿لْـَٔيْكَةِ﴾، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قِـراءَةٍ بحذفِ الـهمزةِ وإلقاءِ حَرَكَتها على اللَّام وفتحِ الـهاءِ]: (لَيْكَةَ)، هذه هي القِراءَةُ الثَّانيةُ، وعلى قِراءَةِ الهمزةِ إنَّما كُسِرَتِ الهاءُ لأجلِ (أل) التعريفِ؛ فإنَّ القِراءَةَ الثَّانيةَ الَّتي أشارَ إليها بالتفسير: (كذب أصحاب لَيْكَةَ) حُذِفَتِ الهمزةُ معَ (أل) المعرفة، وعلى هذا تكون ممنوعةً منَ الصرفِ؛ لأنه لم يوجدْ فيها (أل) الَّتي تحوِّل غيرَ المصروفِ إلى مُنْصَرِفٍ.

---

(١) حجة القراءات (ص:٥١٩).

وما هي الأيكةُ؟

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هِيَ غيضَةُ شَجَرٍ قُرْبَ مَدْيَنَ]، أي أَرْض مَمْلُوءَة بالشجرِ، والغالبُ أنْ تكونَ هذه الأشجار المُلْتَفَّة بعضها على بعض.

و(مَدْيَن) يَظْهَر أنَّه في طُور سِيناء، من قِصَّة مُوسى.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لم يقلْ: أخوهم؛ لأنه لم يكن منهم]، بينما قالَ في غيرِه ممَّا مَضَى مِنَ القَصَصِ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف:٨٥]، فتبيَّن بهذا أن أصحابَ الأيكةِ لَيْسُوا أهلَ مَدْيَنَ.

ولهذا قال المُفَسِّر: [قُرب مَدْيَن]، وليسوا منَ القريةِ الَّتي بُعِث فيها شُعَيْب؛ لأنَّ أهلَ القريةِ الَّتي بُعِثَ فيها مَدْين مِن قَبيلته، ولهذا لَـمَّا ذكرَ مَدْيَنَ قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، وأمَّا هنا فقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقلْ: أَخوهم.

وممّا يدلُّ على أنَّهم ليسوا أصحابَ مَدْيَنَ، أنَّ العذابَ الَّذي أُخِذوا به غيرُ العذابِ الَّذي أُخِذَ به أصحابُ مَدْيَنَ، فأصحابُ مَدْيَنَ أُخِذوا بالصَّيْحَة، وهؤُلاءِ أُخِذُوا بعذابِ الظُّلَّة، كما سيأتي إن شاء الله.

وهل مَعْنى هذا أنَّ شُعيبًا أُرسلَ مرّتينِ؟

الجَواب: لا، بل أُرسل مرَّةً واحدةً، لكن إلى قومينِ؛ إلى هؤُلاءِ وهؤُلاءِ، ويجوزُ أن يكونَ هذا من بابِ التبع، يَعْنِي: هذه القرية صغيرةً مثلًا، وكَانت تابعةً لبلدتِهِ، ويدلُّك على هذا أن عَمَلَهم واحد؛ عمل هؤُلاءِ، وعمل أهل مَدْيَنَ.

قَوْلُهُ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هذا المَعْنى عامّ لكلِّ الرُّسُل، فالذّنبُ الخاصُّ لهؤُلاءِ كما سيأتي: [﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أَتِمُّوه ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ [الشعراء:١٨١]، الناقِصِينَ].

الآيات (١٨١- ١٨٤)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٨١-١٨٤].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ أَتِمُّوهُ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ النَّاقِصِينَ، ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ المِيزَان السَّوِيِّ، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ لَا تَنْقُصُوهُمْ مِنْ حَقِّهِمْ شَيْئًا ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ مِنْ (عَثِيَ) بِكَسْرِ المُثَلَّثَة: أَفْسَدَ، و(مُفْسِدِينَ) حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِمَعْنَى عَامِلِها، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ﴾ الخَلِيقَةَ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾].

هؤُلاءِ القومُ الَّذينَ بُعث إليهم شُعيب، سواء كَانوا قومَه أو أهلَ هذه القريةِ، كَانوا يَبْخَسُون المِكيال والميزان -والعياذُ باللهِ- فإذا وَزَنُوا للناسِ نَقَصُوه، وإذا اتَّزَنُوا منهم اسْتَوْفَوْهُ، هذا الظاهِرُ، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين:١-٣]، وقال هنا: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ وبينهما مُقابَلَةٌ؛ لأجل ألّا يُقالَ: إن مَن أوفَى في أكثر الأعمال يكونُ مُوفِيًا، مِثل قَوْله: ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء:١٥٢].

فـ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ يَعْنِي: في كلّ فَرْد من أفرادِ معاملاتكم، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ أي: من المتَّصِفين بالإقساط، والإقساطُ بمَعْنى النَّقْص.

قولُه تعالى: ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ هذا الوزنُ، والفرقُ بين الوزنِ وبين الكيلِ: أنَّ ما قُدِّر بالحَجْم فهو كيْل، لأنَّ المكيالَ تَضَع فيه الشيْء فيكون حَجْمُه هكذا، وأمَّا ما يُقَدَّر بالثّقل فيُسمى وَزْنًا، وقَوْلُهُ: ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ يقول المُفسِّر: [المِيزان السَّوِيّ]، فَعَلى هذا القِسطاس بمَعْنى: المِيزان، والمستقيم بمَعْنى: السَّوِيّ.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ قال: [لا تَنْقُصُوهم من حَقِّهم شيئًا]، هذا عامٌّ حتى فيما يُزرَع، وفيما يُعَدُّ.

مثل هؤُلاءِ القوم ذَنْبُهم الخاصّ الَّذي بُعِث هذا الرَّسُولُ لإصلاحِه، مع عِبادَة اللهِ، هو بَخْسُ النَّاسِ في الكيلِ والميزان وغيرهما، ولهذا عَمَّمَ: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ لا تَنْقُصُوهم حُقُوقَهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالقتلِ وغيرِه]، ولم نعرِفْ أن هؤُلاءِ القوم -أي: قوم شُعَيْب- كَانوا يَقْتُلون النَّاسَ، بل المعروف من ذَنْبهم أنَّهم كَانوا يَبْخَسُون النَّاسَ أشياءَهم، فيمكِن أن يكونَ المقصودُ هو الإفسادَ بالقتلِ أو غيره. إنَّما الإيعاد سواء بالحَبْس أو بالضربِ أو بغيرهما، فهو من الفسادِ، ومن الفسادِ أيضًا نقصُ النَّاسِ أشياءَهم.

وقَوْلُهُ: ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ حالٌ مؤكِّدة؛ لأن العُثُوَّ هو الفسادُ، كما لو قلتَ: «لا تَقُمْ قائمًا»؛ فإنَّ قائمًا حالٌ مؤكِّدَةٌ لقَوْلكَ: «لا تَقُمْ».

قَوْلُهُ: [﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ﴾: الخَلِيقَة ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾]، ذَكَرَهُم الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالذي خَلَقَهُم، وخَلَقَ الخَلْقَ الأوَّلَ أيضًا، إشارة إلى أنَّكم سَتَزُولُون كما زالَ مَن قبلَكم، فأنتم مَخْلُوقُونَ مِنَ العَدَمِ، وتعودونَ إلى العَدَمِ.

• ● ۞ ● •

الآيات (١٨٥- ١٩١)

۞ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٨٥-١٩١].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن﴾ مُخَفَّفَة مِنَ الثَّقِيلَة، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ إِنَّهُ ﴿نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ بِسُكُونِ السِّين وَفَتْحهَا[1]: قِطَعًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فِي رِسالتك، ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ هِيَ سَحَابَة أَظَلَّتْهُمْ بَعْد حَرٍّ شَدِيدٍ أَصَابَهُمْ فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ نارًا فاحترقوا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾].

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ مثل جَواب قومِ صالحٍ.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ مثلهم تمامًا، فالجَوابُ واحدٌ، و(إنْ) مخفَّفة منَ الثقيلة، واسمها محذوفٌ، أي: إنه -أي: الشأن- ﴿نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

---

(١) حجرة القراءات (ص:٥٢٠).

والدَّليلُ على أنها مخفَّفة ليستْ نافيةً: أمرانِ:

الأمر الأوَّلُ: لَفظيّ، وهو اللامُ؛ لأن اللامَ لا تَقْتَرِن إلَّا في خبرِ (إنْ) المخفَّفة.

والأمر الثَّاني: المَعْنى: فلو قال قائل: إنّ (إنْ) نافية، قلنا: ليس كذلك؛ لأنَّهم لو قالُوا: ما نَظُنُّكَ مِنَ الكاذبينَ، لكَانوا مُصدِّقينَ به، والأمرُ ليس كذلكَ، بل هم يريدونَ: إننا نظنُّك منَ الكاذبينَ، وهذا الظنُّ حَسَب اعتقادهم إنْ كَانوا جاهلينَ بالأمرِ، أو حسب عِنَادِهِم إنْ كَانوا عالِـمينَ وكاتمينَ، مثل قول فِرعونَ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر:٣٧]، وهو يعلمُ أنه صادقٌ.

قَوْلهُ: [﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ بسكون السين وفتحها: قِطَعًا: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في رسالتك]، أعوذ بالله! هؤُلاءِ أخبثُ من قومِ صالحٍ؛ لأن أولئك قالُوا: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ [الشعراء:١٥٤]، لكن هؤُلاءِ قالُوا: إنْ كنتَ صادِقًا بما تُوعِدُنا به فَأْتِ بالعذابِ: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، كقولِ قريشٍ للرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين قالُوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال:٣٢]، وهذا من سَفَاهَتِهِمْ، وكَان الواجب أنْ يقولوا: اللَّهمَّ إنْ كَان هذا هو الحقَّ مِن عندِكَ، فاهْدِنا إليه ووَفِّقْنا.

وما فعله أصحابُ الأيكةِ في تكذيبهم لِشُعَيْبٍ هو ما فَعَلَهُ غيرُهم من أقوامِ الأَنْبياءِ، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام:١٤٨]، وهذا التشابهُ تشابهٌ في القلوبِ والأفعالِ.

قوله تعالى: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، (إنْ) شرطيَّة، والغَرَضُ منها التحدِّي.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فيجازيكم به]، يَعْنِي: أنتم فعلتُم كلَّ قبيحٍ، وقابلتموني بكلِّ إثمٍ صَريحٍ، ولكن الَّذي يَعْلَم ذلك هو اللهُ، وهو يُهَدِّدُهُمْ بلازِمِ العِلْمِ. ولهذا قال المُفسِّر: [فيجازيكم به].

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ قال المُفسِّر: [هي سَحابةٌ أظَلَّتْهُم بعدَ حرٍّ شديدٍ أَصابَهم، فأمطرتْ عليهم نارًا، فاحْتَرَقُوا، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾]، فهم -والعياذُ باللهِ- أُصيبوا بحرٍّ شديدٍ عظيمٍ جدًّا ما أطاقوهُ، فأنشأ اللهُ السَّحابة تُظِلُّهُمْ، فخرجوا من بلادهم عن بَكْرَةِ أَبيهم إلى هذا الظلِّ.

ولكن -والعياذُ باللهِ- لَـمَّا وَصَلُوا وإذَا هي نارٌ -والعياذ بالله- أَحْرَقَتْهُمْ عن آخِرِهِم، وهذا من أشدّ ما يكون -والعياذُ باللهِ- منَ العذابِ؛ لأنَّهم جاءُوا هاربينَ من عذابٍ، فوَقَعُوا في أشدّ منه -والعياذُ باللهِ- فكَانوا حينما أقبلوا يظنُّون أنَّهم نَجَوْا من الحرِّ بهذه الظِّلال، ولكنه -والعياذ بالله- صارَ حَتْفَهم: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾.

ولهذا وصف الله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: هذا العذاب ﴿كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ فصدقَ اللهُ.

وهذه القَصَص عِبَرٌ في الحَقِيقَةِ، يَعْتَبِر بها الإِنْسانُ من عدَّة نواحٍ.

أولًا: يَعْلَم بها صبرَ الرُّسُلِ -عليهم الصلاةُ والسلامُ- وجَلَدَهُم، وإخلاصَهم للهِ، وأنَّهم لا يُبالون بما نالَـهُمْ في ذاتِ اللهِ.

ثانيًا: يُعتبر بها في التَّسَلِّي بما أصابَ الرُّسُلَ؛ لأن الإِنْسانَ يتسلَّى بما أصاب غيرَه، بأنْ يَصبِر هو على الدعوةِ إلى اللهِ، ولا يَمَلّ ولا يكِلّ؛ لأن العاقبةَ تكونُ

للصابرينَ والداعينَ إلى اللهِ، فكلُّ العواقب الَّتي رأيناها في القَصَصِ للرسُلِ عليهم الصلاة والسلامُ.

ثالثًا: إن فيها عِبْرة تحذِّر المخالفينَ للرسُلِ، فإنّ كلّ المخالِفينَ للرسلِ -كما رأيتم كلهم- عُوقِبوا، وأَخَذَهُمُ العذابُ.

رابعًا: بيان قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ حيثُ يَنزِل العذاب، فينجو منه مَن يَنجو، ويَهلِك به مَن هَلَكَ، وأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على كلِّ شَيْء قديرٌ: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر:٦١].

خامسًا: إن الإِنْسان يَتَعَجَّب كيف يصل بنو آدمَ إلى هذا العُتُوّ والعنادِ والاستكبارِ.

سادسًا: إنك تَقيس حاضرَكَ بغائبكَ، فإِنَّه يوجد الآنَ أمثال هؤُلاءِ؛ لأن طبيعةَ البشرِ واحدةٌ من آدمَ إلى اليومِ، فيوجد مِن هؤُلاءِ وإنِ اختلفَ الأسلوبُ، فالأسلوبُ قد يَختلف، لكن المَعْنى واحدٌ: العُتُوّ والاستكبارُ.

فيوجَدُ الآنَ مِن بَنِيَ آدمَ مَن يقولُ: إنَّ الدِّين خُرافة!

ويوجَد من بني آدمَ مَن يقولُ: إنَّ الله يَجِبُ أنْ يُوضَعَ في قَفَصِ الاتِّهام! لأنَّه لماذا يُشْبع هذا، ويَجُوعُ هذا؟! ولماذا يؤمَّن هذا ويخوَّف هذا! وهذا يَصِحّ وهذا يَمْرَض؟ والعياذ بالله.

فهذه الأشياءُ يجب أن تَعْتَبِر بها، وأنه ما سبقَ قبل زمانِكَ وُجِد مثلُه في زمانِكَ، والعِظَة من هذا كَثِيرَة.

ولوْ أنَّ الإِنْسانَ كَتَبَ هذه العِبَرَ لكان أفضل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي

قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]؛ لأنك كلما استنتجتَ عبرةً ازددتَ عقلًا؛ لأنّ الله جعل العِبَرَ لِأَولي الألبابِ، فكلّما كَان اللُّبُّ أقوى كَانتِ العبرةُ الَّتي تؤخَذ من هذا أكثرَ.

وفي سُورةِ هُودٍ الكثيرُ مِن قصصِ الأَنْبياءِ، وذَكَرَ اللهُ في آخِرها: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠].

ويُستفاد من قِصَّة شُعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: بَيان ما قابَلَ الرُّسُل من صَبرهم، وجلدهم، وتحملهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بلاغةُ شُعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حتى كأنَّه خَطيب الأَنْبياء، لكن لا نقدِر أن نقولَ: إنه خَطيب الأَنْبياءِ، فقد يكون منَ الأَنْبياء من هو أخطبُ منه.

• • ۞ • •

الآيات (١٩٢- ١٩٦)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٦].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أَيِ الْقُرْآنَ ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ جِبْرِيلُ، ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ بَيِّن وَفِي قِرَاءَة بِتَشْدِيدِ «نَزَّلَ» وَنَصْب «الرُّوحَ» وَالْفَاعِل اللهُ[1]، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ذِكْرَ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّل عَلَى مُحَمَّد ﴿لَفِى زُبُرِ﴾ كُتُبِ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، الضَّميرُ في قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعودُ إلى القُرآنِ -كما قال المُفَسِّر- وإنْ لم يَسْبِقْ له ذِكْرٌ، لكن يعيِّنه السياقُ، ومَرجِع الضَّمير -كما هو معروف- قد يكونُ مَشهورًا وقد يكون مَعلومًا، والمذكور قد يَتَقَدَّم وقد يتأخَّر، إلّا أنه من القواعدِ المقرَّرة أنه لا يعودُ الضَّميرُ على متأخِّر لَفظًا ورُتبةً، إلَّا في مَسائِل معيَّنة.

قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اللامُ للتَّوكيدِ، فيكونُ هذا الخبرُ مؤكَّدًا بأداتينِ، وهما: (إنّ) و(اللام).

---

(١) حجة القراءات (ص:٥٢١).

و(تَنْزِيل) مصدر، لكنَّه بمَعْنى اسم المفعولِ، أي: لُمنَزَّل؛ لأن القُرآنَ نفسَه ليسَ تَنزيلًا، بل التنزيل فِعل الله، والقُرآنُ عِبارة عن شَيْء منزَّل، كما قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان:١].

وقَوْلهُ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه الربوبيَّة العامَّة إشارة إلى أنه مِن مُقتضى ربوبيَّته أن يكون منزِّلًا لعبادِهِ هذا الكتابَ المفيدَ لهم.

ويشير أيضًا إلى عُمومِ شريعةِ هذا الكتابِ، كما عمّت ربوبيّة منزلِهِ، فهو أيضًا عامٌّ في التشريع.

قولُه تعالى: ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ هو جِبريلُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقد وُصِف بالرُّوح لأنه يَنزِل بما فيه الحياةُ، وهو الوحيُ الَّذي به حياةُ القلوبِ، ووُصِف بالأمانةِ لأن المَقامَ يَقتضيه، وأمانة جبريلَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من عِدَّة أوجهٍ بالنِّسبة للقرآنِ:

أولًا: أمينٌ بحيثُ لا يَنزِل به إلا على مَن أُمِرَ به، وعلى هذا فيكونُ قولُ الرافضةِ -قبَّحهم الله-: إن جِبريلَ أُمر أنْ يَنزل بالقُرآنِ على عليٍّ، ولكنه خانَ فنزَل به على مُحمَّدٍ ﷺ منافيًا لوصفِ جبريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالأمانةِ.

ثانيًا: مُقتضَى الأمانةِ أنْ يَنزلَ به كما سمِعه منَ اللهِ؛ لا يزيدُ فيه ولا يَنْقُصُ، ولا يُقدِّم ولا يؤخِّر.

ثالثًا: أن ينزلَ به في الوقتِ الَّذي أُمرَ بإنزالِهِ فيه، فلا يتأخَّر إذا أوحي إليه به إلَّا بإذنِ اللهِ.

فهذه الأوصافُ الثلاثةُ مِن مُقتضَى أمانةِ جِبريلَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وقَوْلهُ: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ خصَّ القلبَ؛ لأنه مَحَلّ الوعيِ، وفيه دليلٌ على عِنايةِ اللهِ

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالقُرآنِ، وعلى كمالِ حِفظ الرَّسُولِ له ﷺ؛ لأنَّ ما نزَلَ على القلبِ يَثْبُتُ ويَرْسَخُ، بخِلافِ ما سمِعتْه الأُذُنُ، فإنّ الأذنَ قد تُوصِل إلى القلبِ وقد لا تُوصِل، فقد يكون قلبُه غافلًا، ولكن هنا كَان على القلبِ.

وقَوْلهُ: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ اللامُ هنا للتعليلِ وللعاقبةِ معًا، فهما متلازِمانِ، فإذا قلنا: للتعليلِ، صار مكلَّفًا بذلكَ، وإذا كَانتْ في العاقبةِ كَانتْ عاقبتُه أن يكونَ مُنْذِرًا، وإنْ لم يكنْ هناك تَكليف، ولكن الصَّحِيح أنها شاملةٌ للأمرينِ.

وقَوْلهُ: ﴿مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي: الرُّسُل، كما قال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النِّساء:١٦٥].

وقَوْلهُ: ﴿بِلِسَانٍ﴾ بلغةٍ، وأطلقَ اللِّسان على اللُّغةِ؛ لأنه مَحَلّ الكَلامِ الَّذي هو عنوانُ اللُّغةِ.

وقَوْلهُ: ﴿عَرَبِيٍّ﴾ نِسبةً إلى العربِ؛ وذلك لأنَّ النَّبيّ ﷺ كَان عربيًّا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

وفي هذا إشارةٌ إلى أنه يَنْبَغي أن تكونَ اللُّغةُ العربيّة لغةَ جميعِ الخلقِ؛ لأن الشرْعَ الَّذي نزلَ بها شرعُ جميعِ الخلقِ، فكَان يَنْبَغي أنْ تكونَ اللُّغةُ العربيّة لغةَ جميعِ الخلقِ، خلافًا لمن يريدونَ أن يُذِيبُوها في عَصْرِنا الحاضرِ، بأن يطالِبوا بجعلِ اللُّغَة العامِّيَّة مكَانَ اللُّغةِ العربيّةِ في المكاتَباتِ والمراسَلات وغيرهما!

وأقبحُ من ذلك مَن يحاولونَ أن يتكلَّموا باللُّغةِ الأعجميّة، كما يوجد من بعضِ النَّاسِ الَّذينَ يَفخَرون بلغةِ الإنجليزِ وغيرهم، فتجدهم يَتَشَدَّقُونَ بالكَلام بها.

ثمّ إنّ قَوْلَهُ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ متعلّق بقَوْلِهِ: ﴿نَزَلَ بِهِ﴾.

وقَوْله: ﴿مُّبِينٍ﴾ بيّن، وفي قِراءَة بالتشديد: (نزّل)، بتشديد (نزل)، ونصب (الرُّوحَ)، فالفاعلُ الله: (نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينَ).

وفي اختلافِ القراءتينِ فائدةٌ، وهي أن الَّذي أمرهُ بالنزولِ هو اللهُ فنزلَ، فيكون جمعتَ بين فِعل جبريلَ الصادر عن أمر اللهِ، وبين الدلالةِ على أمرِ اللهِ له بذلك: (نزّلَ به).

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ذِكر القُرآن المنزَّل على مُحَمَّد ﷺ ﴿لَفِى زُبُرِ﴾ كُتُب ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كالتوراةِ والإنجيلِ]، المُفَسِّر جعلَ الضَّميرَ يعودُ على القُرآنِ، يَعْنِي: إنَّ ذكرَ القُرآنِ موْجودٌ في ﴿زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كُتُبهم، والمُرادُ وصفُ القُرآنِ؛ لأن النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وصف صفات التَّوْرَاة والإِنْجِيل بصفاته وصفات الكِتاب الَّذي نزَل به.

وقَوْلهُ: ﴿لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ظاهرُ الآيةِ الكريمة الْعُمومُ، وأن كل الكتبِ السابقةِ ذُكِرَ فيها القُرآنُ، وبشر إليه، ومنها: التوراة والإنجيل، فتكون الكاف هنا للتشبيهِ، وفي هذا دليلٌ واضحٌ على عِناية اللهِ تَعالَى بهذا القُرآنِ، وتَشريفه، وتَعظيمه، حيثُ ذُكِر في كلّ كتابٍ سَبَقَ.

وفيه أيضًا دليلٌ على أنَّه لو جاءَ هذا الكتابُ لَوَجَبَ على جميعِ مَن يَعْتَنِقُونَ الكتبَ السابقةَ أنْ يُؤْمِنُوا به.

الآيات (١٩٧- ٢٠٤)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الشعراء:١٩٧-٢٠٤].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ﴾ لِكُفَّارِ مَكَّة ﴿ءَايَةً﴾ عَلَى ذَلِكَ ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا فإِنَّهُمْ يُخْبِرُونَ بِذَلِكَ، وَ(يَكُنْ) بِالتَّحْتَانِيَّةِ وَنَصْبِ آيَة، وَبِالْفَوْقَانِيَّةِ وَرَفْعِ آيَة[1]، ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ جَمْع أَعْجَم، ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ كُفَّار مَكَّة ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ أَنَفَةً مِن اتِّبَاعه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ مِثْل إِدْخَالِنا التَّكْذِيب بِهِ بِقِرَاءَةِ الْأَعْجَمِيّ ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ أَدْخَلْنَا التَّكْذِيب بِهِ ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كفّار مكّة بقراءة النبيّ، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ لِنُؤْمِن فَيُقَال لَهُمْ لا فقالوا متى هذا العذاب، قال تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾].

قَوْلُهُ: [﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ﴾ لِكُفَّار مكّة ﴿ءَايَةً﴾ على ذلك]، يَعْنِي: عَلامَة على أنه حقّ ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

---

(١) حجة القراءات (ص:٥٢١).

وقَوْلهُ: ﴿ءَايَةً﴾ بالنصبِ خَبَر ﴿يَكُن﴾ مقدَّمًا، و﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ اسمها مؤخَّر، يَعْنِي: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ أي: عِلْمُهُ، من ﴿عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فبنو إسرائيلَ هم بنو يَعْقُوبَ بنِ إسحاقَ، الَّذينَ تفرَّعوا منه، وهذا من الآيَاتِ البيِّنة على أنه مذكورٌ في الكتبِ السابقةِ وأنَّ عُلماء بني إسرائيلَ يَعْلَمُونه؛ لأنه لو لم يكنْ مذكورًا في كُتُبهم، ما علِموه، وإنَّما يَعلَمونه لأنه مذكورٌ في كُتُبِهم.

وفي هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ المَرْجِعَ في مثل هذه الأمورِ إلى العُلَماءِ أهلِ العِلْم.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كعَبْدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ وأصحابِه ممَّن آمنوا؛ فإنَّهم يُخْبِرون بذلك]، هذا ليس بلازِمٍ؛ لأن كونَهم يعلمونَ به فهم عالِمونَ سواء أَخبروا أو لم يُخْبِروا، ولذلك القُرآنُ ما قال: (أولم يَكُنْ لهم آيَةٌ أنْ يُخْبِر به) بل قال: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ ومجرَّد عِلْمِ هؤُلاءِ به هو آيةٌ وإنْ لم يُخْبِروا به.

ونقول: إنّ عبد الله بن سلَام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ومَن آمَنَ، هم من علماء بني إسرائيلَ، فعَلِموا وأَخبروا، وغيرُهم منَ العُلَماء الَّذينَ لم يُؤمِنوا علِموا ولكنَّهم لم يُخبِروا.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وبالفوقانيَّة ورَفْع (آيةٌ)]، وعليه يكون: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ خبر (تكن)، و(كان) في القراءتينِ ناقصةٌ.

قَوْلهُ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ هذا اللسانُ العربيّ، سواء بلسان العربِ أو بغيرِه: ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ ما آمنوا به، فالمَعْنى أنَّهم لم يُؤْمِنُوا سواء جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ وهو من صَميم العربِ، ويَعرفونه، أو جاء من رجل أعجميٍّ؛ ذلك لأنَّهم معانِدون، والمعاند -والعياذ بالله- لو جِيءَ بكلِّ آيةٍ ما آمَنَ؛ لأنه فرقٌ بين الإِنْسانِ الَّذي يَتَحَرَّى الحقَّ، والإِنْسانِ الَّذي يُعانِد الحقَّ.

فالمعانِدُ المُكابِر يَصْعُب عليه أنْ يَرجِع إلى الحقّ، والمَعْنى أنه لو نزّل اللهُ هذا القُرآنَ على بعض الأَعْجَمِينَ إنْ كَان بِلُغَتِهِم؛ فإنَّهم لن يُؤْمِنوا به؛ لأنَّهم لم يَفْهَمُوه، وهو بلغةِ العَجَمِ، وإنْ كَان باللُّغة العربية ما آمنوا أيضًا؛ أنفةً من أنْ يَتَّبِعُوا رجلًا أعجميًّا.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل إدخالنا التَّكذيبَ به بقِراءَةِ الأعجميّ، ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ أَدْخَلْنا التَّكذيبَ به ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كُفَّار مكَّة لِقراءَة النَّبيّ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾]. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإسلاك أو السَّلْك، والمُراد بالسلك: الإدخال، و(كذلك) مفعول مُطْلَق لـ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾، يَعْنِي: مثل ذلك، وهي تأتي دائمًا في القُرآن: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ﴾ وما أَشْبَهَهُما.

فيقولون: إنَّ الكافَ اسمٌ بمَعْنى (مثل)، وهي مضافةٌ إلى اسمِ الإشارةِ العائدِ على المصدرِ المفهومِ مِنَ الفعلِ.

وعليه فيكون إعراب الكاف: اسم بمَعْنى (مثل)، مفعولًا مُطْلَقًا، عاملها الفعلُ الَّذي بعدها. يَعْنِي: إن الله جَلَّ وَعَلَا أدخلَ التَّكذيبَ في قلوبِ المجرمينَ، والمُرادُ بـالمجرمينَ ما هو أعمُّ من كفارِ مكَّة، خِلافًا لِما قالَ المُفَسِّر، فالمجرمُ كافرٌ، سواء كَان من أهلِ مكَّة أو من غيرها.

ولمّا دخلَ التَّكذيبُ في قُلُوبهم والاستكبارُ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ إلى آخره.

وليس في هذه الآيةِ حُجَّة لأهل الكُفْر والمَعْصِيَة، الَّذينَ قالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيّن في آيةٍ أُخْرَى أنّ سببَ كُفرهم وشِرْكِهم هو أنّهم كَانوا لا يريدون الحقّ، فلمّا زَاغُوا أزاغَ اللهُ قلوبَهم، ولو كَانوا يُريدونَ الحقَّ لَشَرَحَ الله صدورَهم له، لكنّهم عِنْدَهُم -والعياذُ باللهِ-

أَنَفَةٌ وكِبْرِيَاءُ وغَطْرَسَةٌ، فلذلك حُرِموا منَ الوصول إلى الصَّوابِ.

قَوْلهُ: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي: بالقُرآنِ، وإذا قلنا: إن ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ عامّ فإنّ ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي: بما نزل من عند الله.

وقَوْلهُ: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟﴾ للغاية، والمَعْنى: إنهم إذا رأَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فقدْ يؤمنونَ، ولكن يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ﴾ [غافر:٨٥]، وقَوْلهُ: ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ هذا هو الغالب على المكذِّبين المعانِدين أنّ اللهَ يُملي لهم فيُوغِل -والعياذُ باللهِ- في الكُفْر وفي الفِسْق وفي المَعْصِيَة، حتى إذا جاءهمُ العذاب أتاهم بَغتةً على غِرَّة، كما قال الرَّسُول ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»(١)؛ لأن هؤُلاءِ لو أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أذاقَهُمُ البأسَ شيئًا فشيئًا لرُبَّما آمنوا ورَجَعُوا، ولكنَّه -والعياذُ باللهِ- يُمْهِلُهم، حتى إذا وَصَلُوا إلى قِمَّة الكُفْر والفِسْق أُخذوا.

وهذا شَيْءٌ مشاهَدٌ حتى في عصرنا الحاضرِ، فنَرَى بعضَ البلادِ لَـمَّا أوغلتْ في الكفرِ ووَصلتْ إلى غايتِهِ أُخِذَتْ والعياذُ باللهِ.

قال: ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ قال المُفسِّر: [لِنُؤْمِن؟ فيُقال لهم: لا، قالُوا: متى هذا العذابُ؟ قال الله تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾]، يَعْنِي أنَّه إذا أتاهم العذابُ بَغتةً يقولون: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾؟ وهذا الاسْتِفهامُ للتمنِّي، أي: لَيْتَنا نُنظَر، هذا هو الظاهِرُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ﴾ [هود:١٠٢]، رقم (٤٦٨٦)، ومسلم: كتاب البر والصلاة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣).

والمُفَسِّر حَمَلَه على ظاهرِهِ؛ على أنه الاسْتِفهام الاستخباريّ، ولهذا قالَ: [فيُقال لـهم: لا]، يَعْنِي: لن تُنظَروا، ولكن إذا جَعلناه للتمنِّي -أنَّهم يَتَمَنَّوْنَ أن يُنْظَروا- لَـمَا احتاجَ إلى جَوابٍ.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ الهمزةُ في مثلِ هذا التركيبِ إمّا أنّها داخلةٌ على جملةٍ مقدَّرة بحسَبِ السِّياق، أو أنّها داخلةٌ على الجُملة المَوْجودة.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ هذا من باب التَّوبيخ والإنكار عليهم، يَعْنِي: أَيَسْتَعْجِلُون بعذابِ اللهِ وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قريبُ الأخذِ، فهو يُنْكِر عليهم هؤُلاءِ الَّذينَ يَستعجلون بعذابِ الله.

وكيفيَّة استعجالهم بالعذابِ، هل هو بالفعلِ أم بالقولِ؟

نقول: بالقولِ وبالفعلِ، أمّا القول فإنَّهم يقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس:٤٨]، وأمَّا الفِعل فإنّ إيغالَهم بالكفرِ والمعاصي مُوجِبٌ بأنْ يُعاجَلوا بالعُقُوبة، فصار هذا الإنكارُ عليهم، سواء كَانوا يَستعجلون قولًا -كما قال المُفَسِّر، قالُوا: متى هذا العذاب؟- أو كَانوا يَستعجلون فعلًا، بأنْ يُوغِلوا ويَتَعَمَّقُوا في الكُفر والمعاصي؛ فإن ذلك مِن استعجالِ عُقوبةِ اللهِ.

• • ۞ • •

الآيات (٢٠٥- ٢٠٧)

❁ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ أَخْبِرْنِي ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ مِنَ الْعَذَابِ، ﴿مَآ﴾ اسْتِفْهَامِيَّة بِمَعْنَى أَيّ شَيْء ﴿أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ فِي دَفْع الْعَذَاب أَوْ تَخْفِيفه، أَيْ لَمْ يُغْنِ].

قال المفسِّر: [﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ أَخْبِرْنِي]، والخطابُ ليسَ للرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بل لِكُلِّ مَن يَتَوَجَّهُ إليه الخِطاب.

قال: ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ قال المُفَسِّر: [منَ العذابِ، ﴿مَآ﴾ استفهامية بمَعْنى أي شيْء ﴿أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ فِي دَفْع الْعَذَاب أَوْ تَخْفِيفه، أَيْ لَمْ يُغْنِ]، يقول الله تَعالَى: أَخْبِرْني أيُّها المخاطَب إنْ مَتَّعنا هؤُلاءِ سِنينَ وأَمهلناهم ولم نُعاجِلْهُمْ بالعُقوبةِ حتى بَلَغوا غايةَ المُتعة في هذه الدنيا ثم جاءهم ما كَانوا يُوعَدون ماذا يَنْفَعُهُمْ هذا التَّمْتِيع؟ فهو في الحَقِيقَة لا يَزيدهم إلّا حسرةً والعياذُ باللهِ، وإلَّا زيادة في العُقوبةِ في النارِ؛ لأنه كلَّما كَثُرَتِ المعاصي في الإِنْسان ازداد عُقوبةً.

وهذا مَثَلٌ في الحَقِيقَة يُطبَّق على كلِّ مَن قال لنا: إن هؤُلاءِ الكَفَرَة قد أنعمَ اللهُ

عليهم وفتحَ عليهم الدنيا، فالأمطارُ تأتيهم كلَّ وقتٍ، والأَرْضُ مُخَصَّبَة، فنقول له: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾؟!

ونقول: إنَّ هذا أشدّ في وَقْعِ العذابِ في قُلوبهم؛ لأن الإِنْسانَ الذي يُنَعَّم في رَغَدٍ مِنَ العَيْش بهناءٍ وطُمأنينة إذا أُخذَ فهو أشدّ منَ الَّذي يُؤخَذ على بَأْسِهِ، بل الذي في البأساءِ والضرَّاء قد يَرَى أن الموت أريحُ له، أمّا المأخوذُ -والعياذ بالله- على شِدَّة النِّعمة وقوَّتها فهو أشدّ.

وقد ذُكر عنِ ابنِ حَجَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو قاضي القُضاة في مِصْر، أنَّه كان يَمشي بموكبه، وعلى يمينه ويَسَارِهِ النَّاسُ والخَدَمُ، فمرّ برجلٍ زَيَّات يَهُودِيّ كله وَسَخٌ مِنَ الزَّيتِ، فأوقفه الْيَهُوديّ وقال له: إن نبيَّكم يقول: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**»(١)، وأنتَ مؤمنٌ وأنت في هذا النَّعيم، وأنا يهوديٌّ وأَحْيَا فيها ترى منَ الفقر والعذابِ؟! فقال له ابن حَجَر: نعم صَحِيح، لكن ما مُتِّعْتُ به مِنَ النِّعمة هو بالنِّسبة إلى نَعيم الآخرةِ سِجنٌ، وما أنتَ فيه مِنَ البَأْسَاءِ هو بالنِّسبةِ إلى عَذابِ الآخِرَةِ نَعيمٌ وجَنَّةٌ(٢).

فالحاصل: أن هؤُلاءِ إذا مُتِّعُوا طَويلًا في الدُّنيا ونعيمها ثم جاءهمُ العذابُ فإِنَّه لا يُغْنِي عنهم هذا المتاعُ شَيئا.

وقَوْلهُ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ لك أن تقولَ: إنَّ (ما) هنا نافيةٌ، ولك أن تقول: إنها استفهاميَّة بمَعْنى النفيِ، والأبلغُ أن تكون استفهاميةً بمَعْنى النفيِ؛ لأن الاسْتِفهامَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦).
(٢) فيض القدير (٣/ ٥٤٦).

الَّذي بمَعْنى النفي يَتَضَمَّن النفيَ وزيادةً؛ إذ إنه مُشْرَبٌ مَعْنى التحدِّي.

وقَوْلهُ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ يَعْنِي: يَتَحَدَّاهم أنْ يُغْنِيَ عنهم شيئًا، فإذا كَانت (ما) صالحةً للنفيِ والاسْتِفهامِ، حُمِلت على الاسْتِفهامِ أَولى وأبلغُ؛ لأنه يدلُّ معَ النفيِ على زيادةِ المَعْنى والتحدِّي.

• ● ❁ ● •

الآيتان (٢٠٨، ٢٠٩)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الشعراء:٢٠٨-٢٠٩].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ رُسُل تُنْذِر أَهْلَهَا، ﴿ذِكْرَىٰ﴾ عِظَة لَـهُمْ ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فِي إِهْلَاكِهِمْ بَعْدَ إِنْذَارِهِمْ، وَنَزَلَ رَدًّا لِقَوْلِ المُشْرِكِينَ].

قَوْلُهُ: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [رسل تنذر أهلها]، وقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ صفة لـ﴿قَرْيَةٍ﴾، يَعْنِي: ما أهلكناها إلا في هذا الحالِ، يَعْنِي: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾.

وهل المُراد أن الله تَعالَى يُنْذِر على ألسنةِ رسلِه؟ يَعْنِي: إلَّا ونحن لها مُنْذِرُونَ؟ أو أن: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ يَعْنِي: رسل تُنْذِر؟

يقول المُفَسِّر: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ يَعْنِي: رسل تُنْذِر. يَعْنِي: إلَّا ولها رُسُل تُنْذِرها، ولكنها مِنْ قِبل اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَوْلُهُ: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ قال المُفَسِّر: [عِظَة لهم]، يَعْنِي: إننا نُرسِل هؤُلاءِ المنذِرينَ لأجلِ الذِّكْرَى، يعنى: المَوْعِظَة لهؤُلاءِ.

قال المُفَسِّر: [﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في إهلاكهم بعد إنذارهم]، وهذا صَحِيح، ويَحتمِل: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: مُهْلِكِينَ بدون إنذارٍ، والمَعْنى صَحِيح على هذا الوجهِ وعلى الوجهِ الَّذي ذكرَهُ المُفَسِّر؛ فاللهُ تَعالَى إذا أَهلكهم بعدَ إِنذارهم وقد عَصَوْا، فهو لم يَظْلِمْهُمْ، وكذلك لا يمكِن أنْ يُهْلِكَ مَن لا يُنْذَر؛ لأن ذلك ظُلْمٌ.

فوائد الآيتينِ الكريمتينِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أنَّ الشرائعَ لا تُلْزَم إلَّا بعدَ العِلْم، وأنه ما دامَ الإِنْسان غيرَ عالمٍ بالشرعِ؛ فإِنَّه لا يُكَلَّف به، ولهذا شواهِدُ:

منها: قِصَّة المُسِيءِ في صَلاتِه؛ فإن الرَّسُول ﷺ لم يُلْزِمْه بقَضاءِ ما فاتَه[1]؛ لأنه ما علِمَ.

ومنها: المرأةُ الَّتي كَانَتْ تُسْتَحَاضُ فلا تُصَلِّي، فما أمرها النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالقَضاء[2].

ومنها: حديث عَدِيِّ بنِ حاتمٍ، حيثُ أَكَلَ بعدَ طُلوعِ الفجرِ[3].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب أمر النبي ﷺ الذي لا يتم ركوعه بالإعادة، رقم (٧٩٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب من قال إذا أقبلت الحيضة تدع الصلاة، رقم (٢٨٧)، والترمذي: أبواب الطهارة، باب في المستحاضة أنها تجمع بين الصلاتين بغسل واحد، رقم (١٢٨)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب ما جاء في المستحاضة التي قد عدت أيام أقرائها، قبل أن يستمر بها الدم، رقم (٦٢٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، رقم (٤٥٠٩)، ومسلم: كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، وأن له الأكل وغيره حتى يطلع الفجر، وبيان صفة الفجر الذي تتعلق به الأحكام من الدخول في الصوم، ودخول وقت صلاة الصبح وغير ذلك، رقم (١٠٩٠).

إلى غير ذلك أشياء كَثِيرَة من هذا، إلا أنه قد يُلْزَم الإِنْسانُ بالشيْء إذا كَان مُفَرِّطًا مُهْمِلًا، مثل لوِ انقدحَ في ذِهنه أو قيل له: إن هذا الشيْء واجبٌ، ولكنه قال -كما يقول العامَّة-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة:١٠١]، لا تُفَتِّشْ، غدًا يقول لك: هذا واجبٌ ويُحْرِجُونَني، أو هو يفعل شيئًا وانقدحَ في ذِهنه أنه حرام، أو قيل له: إنه حرام، وقال: لا، أخافُ إنْ سألتُ العُلَماء أن يقولوا: هذا حرامٌ، فهذا لا يُعْذَر؛ لأنه ليسَ بغافلٍ، واللهُ تَعالَى يقول: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ [الأنعام:١٣١]، يَعْنِي: ما طرأَ على بالِهم شيْءٌ، ولا يَعْلَمُون شيئًا، وأما الإِنْسان الَّذي طرأَ على بالِهِ لكنه فرّطَ في ترْكِ السُّؤالِ، فهذا يَنْبَغي أن يُلْزَم.

فإن قيلَ: بعض العوامّ صَعْبٌ أن يَتَغَيَّروا، فهل نُعْطِيهم العلمَ؟!

قلنا: أَعْطِه العِلْمَ، قُلْ له مثلا: إذا قمتَ للصلاةِ فكبِّر، ثمّ اقْرَأْ فاتحةَ القُرآنِ، ثم ما تَيَسَّر منَ القُرآن، وعلِّمه ما يَلْزَمْه، فكون اللهِ يُنْعِم عليك بالعلمِ أشدّ تَبِعَةً منَ المالِ، فالعلمُ أشدُّ تبعةً؛ لأنه في الحَقِيقَةِ نشرٌ للرِّسالَةِ، وتبليغٌ لِشريعة اللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ إشارة إلى إمكَان الظُّلْم، ولكنه مُستحيلٌ شَرعًا، لا لِذَاتِه؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادرٌ على أنْ يعذِّب المطيعَ، وإنْ أطاعَ، فهذا ليس مُستحيلًا، ولكنّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ منزَّه عنه لكمالِ عدلِهِ.

وهذا فيه الردُّ على الجَهْمِيَّة، الَّذينَ يقولون: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَستحيل في حقِّه الظلم، يَستحيلُ لذاتِهِ، ومُحالٌ لذاتِه.

وعلى رأيِهم يَصير لا مَعْنى لقولِه تعالى في الحديث القُدُسِيّ: «يَا عِبَادِي إِنِّي

حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»[1]، فلا يصير فيه مدحٌ لأنَّ الظُّلْمَ -على مُقتضَى قولِهم- مُحالٌ لِذاتِهِ، والمحالُ لذاتِه لا يُمْدَحُ اللهُ به؛ إذِ المُحالُ به غير واقعٍ، ولا يكون لقولِهِ تَعالَى في الحديثِ القُدُسِيّ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي» معنًى.

فالصَّوابُ أنَّ الظُّلم من الأمور المُمْكِنة لكنَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ منزَّه عنه.

• • ❁ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

الآيات (٢١٠- ٢١٢)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء:٢١٠-٢١٢].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي﴾ يَصْلُح ﴿لَهُمْ﴾ أَنْ يَنْزِلُوا بِهِ ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذَلِكَ، ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ لِكَلَامِ الْمَلَائِكَة ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ بِالشُّهُبِ].

قد يكون ما قاله المُفسِّر حقًّا من أنَّ هذا ردٌّ لقولِ المشركينَ، وقد يكونُ هذا من تكميلِ قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٣]، فقال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي: [بالقُرآنِ ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي﴾ يصلح ﴿لَهُمْ﴾ أن ينزلوا به، ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك]، أي أن الشياطينُ ما تنزلتْ بالقُرآنِ، بخِلاف أقوالِ الكهَّان، فإن الشياطينَ تَنَزَّلَتْ بها، أمَّا القُرآنُ فما تنزلَّتْ به الشياطين.

ثم قال: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ﴾ يَعْنِي ما يَليق أبدًا أن يَنزِلوا به، ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، وهذا تدرُّج، يَعْنِي ما يمكِن أن ينزِلوا بالقُرآنِ.

فهو أوَّلًا قال: إنَّهم ما نَزَلوا، وكونهم ما نَزلوا ما يدلُّ على أنَّ هذا غيرُ لائقٍ بهم، ثم إنه غير مُمكِن في حَقِّهم. فهذا فيه ترتيبٌ:

أوَّلا: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ نفيٌ لِتَنَزُّلِهم به، لكن لا يَنفي أن يكونَ مُمكِنًا في حقِّهم،

ولا أن يكون لائقًا في حقِّهم.

ثانيًا: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ فهذا يَعني أنه غيرُ لائقٍ أنْ يَنزِلوا به.

ثم ارتقَى إلى ما هو أعظمُ فقال: ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ أن ينزِلوا به؛ لأنَّهم عنِ السَّمْعِ لَمعزولُون، مَعْزُولون قَدَرًا وشَرْعًا.

قَوْلهُ: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ القُرآنَ تَفِرُّ منه الشياطينُ، وأنه لا يمكِن أن تقْرَبَه، وقد أخبرَ النَّبيّ ﷺ في بعض الآياتِ أنَّها تَطْرُدُ الشياطينَ؛ كما في البَقَرَة[1] وفي آية الكُرْسِيّ[2] وما أشبهَ ذلك.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ﴾ لِكَلامِ الملائكةِ ﴿لَمَعۡزُولُونَ﴾ بالشُّهُب]، على قولِ المُفَسِّر يكونُ المُرادُ هنا بـالسَّمْع سَماع الملائكةِ بالوحيِ.

وهم مَعْزُولون عنه، لا يُمْكِن أن يَقْرَبوا منه، قال المُفَسِّر: [بالشهب]، يَعْنِي هذه الشهب الَّتي تَرْمِيهم تَطْرُدُهم عنِ استراقِ السمعِ، فلا يَسْتَطِيعون أنْ يَسْتَرِقُوا السَّمْعَ، ولا أن يأتوا به، رُبّما يُدْرِك الكلِمة أحيانًا قبلَ أنْ يُدْرِكَه الشِّهاب فتنةً منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فيأخذ الكلمة ويُضيف إليها عشراتِ أو مئاتِ الكَلِماتِ من عنده، فإذا وافقَ واحدٌ بالمائةِ صَدَّقه النَّاسُ في التسع والتسعينَ.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الإنْسانَ كلَّما انقادَ للشيطانِ ابتعدَ عن فَهْم القُرآنِ، ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾؛ لأنَّهم شَيَاطِينُ، فمَن كَان شيطانًا -والشيطانُ مِن بني آدمَ هو الَّذي يَتَلَقَّى ما تأمرُه الشياطينُ به- فإنَّه يُعْزَل أيضًا عن فَهْم القُرآن.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، وجوازها في المسجد، رقم (٧٨٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة، رقم (٥٠١٠).

الآية (٢١٣)

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٣].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ إنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ الَّذِي دَعَوْكَ إليه].

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخِطاب للرسولِ ﷺ، ولا يَلْزَم منَ النهيِ عنه إمكَانُ وُقُوعِه، كما أنَّ الله تَعالَى يأمرُ المُؤمِنينَ بالثَّبَات على الإيمانِ، ويَنهاهم عنِ الشِّرْكِ وهو لم يَقَعْ منهم.

والدُّعاءُ هنا يَشمَل دعاءَ المسألةِ ودعاءَ العِبادَة.

دعاء المسألة: مثل ما يقولَ لغيرِ الله: يا فلانُ أَعْطِني، يا فلان ارْزُقْنِي، وما أشبهَ ذلك، شخصٌ وقفَ عندَ قبرِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقال: يا رَسُولَ اللهِ، ارزقني، يا رَسُول الله، هَيِّئْ لي زوجةً، يا رَسُول اللهِ، أَعْطِني ولدًا، فهذا شِرْكٌ أكبرُ مُخْرِجٌ عنِ المِلَّة.

دعاءُ العِبادَة: أنْ يقفَ عندَ قبرِ النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويعبُدُ النَّبيَّ، ويركَع له ويسجدُ له، وما أشبه هذا.

والنهيُ عنِ الدُّعاءِ معَ اللهِ إلى آخرَ شاملٌ للنوعينِ.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ الفاءُ للسببيَّة، ﴿فَتَكُونَ﴾ أي: إنْ دعوتَ معَ اللهِ إلهًا آخَرَ ﴿مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾، ولم يَقُلْ: مُعَذَّبًا، أو: ستُعَذَّب؛ إشارةً إلى أنَّ المشركينَ الكفَّار كثيرونَ، والذي يدعو معَ الله إلهًا آخَرَ يكون منهم.

الآيات (٢١٤- ٢١٦)

❁ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:٢١٤-٢١٦].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وَهُمْ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو المُطَّلِبِ، وَقَدْ أَنْذَرَهُمْ جِهَارًا، رَوَاهُ الْبُخَارِيّ(١) وَمُسْلِمٌ(٢)، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ أَلِنْ جَانِبَكَ ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المُوَحِّدِينَ، ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ عَشِيرَتُكَ ﴿فَقُلْ﴾ لَـهُمْ: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ].

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وهم جماعاتٌ من بني المطَّلِب، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وقد أَنْذَرَهُمْ جِهارًا، رواه البخاريُّ ومسلمٌ]، وهذا في أوّل الدعوة، أُمِر أنْ يُنْذِرَ عَشيرته الأقربينَ؛ لأنَّهم أحقُّ النَّاسِ بِبِرِّهِ، ولأنَّهم بِمُقْتَضَى القَرابة، لا بِمُقتضى الواقعِ، أقربُ النَّاسِ إلى الإيمانِ به، ولأنَّهم أيضًا بمقتضى القرابةِ هم أشدُّ النَّاسِ غَيْرَةً عليه، ولأنَّهم أيضًا بِصِلة القرابةِ هم أعظمُ النَّاسِ حقًّا عليه.

فلذلك الإِنْسان مسؤولٌ عن أهلِهِ أكثرَ مما هو مسؤولٌ عنِ الأجانبِ، ومسؤولٌ عنِ القُرْبَى أكثر مما هو مسؤولٌ عمَّن هو ممَّن ليس بينه وبينه قرابةٌ.

---

(١) كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (٤٧٧١).

(٢) كتاب الإيمان، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (٢٠٦).

وقَوْلهُ: ﴿ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ اسمُ تفضيلٍ، فيَقْتَضِي أنه ما دام أنَّ الحُكْم مُعَلَّق بالأقرب، أنه كلَّما كَان أقربَ كَان أَولى وأحقَّ.

وقول المُفَسِّر: [هم بنو هاشم وبنو المطَّلِب]، هذا ليس بصَحِيحٍ؛ إذْ لَيسوا كلّهم منَ الأقربِ، على أنَّ مِنهم من هو من الأقربِ بلا شَكّ، ومنهم مَن أجابَ ومنهم مَن لم يُجِبْ، وقدِ امتنعَ عنِ الإجابةِ عمُّه أبو لَهَبٍ، وهو من أقربِ النَّاسِ إليه؛ لأن «عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ»[1]، وامتنعَ عن الإجابةِ عمُّه أبو طالبٍ أيضًا، وهو صِنو أبيه، لكنَّ عمَّه أبا طالِبٍ وَالَاهُ وناصَرَهُ، وعمه أبو لَهَبٍ عاداه وخَذَلَهُ، والعياذ بالله. وقد صار أمامَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ثلاثةُ أقسامٍ:

١- قِسْمٌ آمَنَ به.

٢- وقسم نصَره ولم يؤمنْ به.

٣- وقسم لم يؤمنْ به ولم يَنْصُرْه.

وهذا من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّهم لو نَاصَرُوه كلُّهم وآمنوا به، لقِيل: هذا رجلٌ يريدُ المُلْك والسِّيادة، ولهذا تَبِعَهُ أقاربُه، وهم متَّفِقون على هذه الخطَّة، ولكن من حِكمة الله أن الله تَعالَى قدّمهم هذا التقديمَ.

وفي هذا دليلٌ على أنَّه يجب على الإِنْسانِ أنْ يُرْشِدَ ويَعِظَ الأقربَ منه فالأقرب، وهو مسئولٌ سُؤالًا مباشِرًا بالنِّسبةِ إلى أهلِهِ.

قَوْلهُ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ألِنْ جانِبَكَ، ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموحِّدين]، والإنذارُ لِلْعَشيرة، وخَفْضُ الجَناحِ للمؤمنِ، سواء كَان

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، رقم (٩٨٣).

من عشيرتِهِ أو ليسَ من عشيرتِهِ.

ففي هذا دليلٌ على أنَّه يَجِبُ على الإِنْسانِ أَلَّا يَتَعَاظَم على أحدٍ، لكن بالأخصّ للمؤمنِ، وأن يُلِينَ له جانبًا، لكن غير المؤمن لا يُلِين له جانبًا.

فإن قيل: كيف نقولُ: لا يُلِين للكافرِ جانبًا، بينما يقول الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [طه:٤٤]؟

قلنا: الآيةُ يُرادُ بها جانِبُ الدَّعوة.

وقَوْلُهُ: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في هذا دليلٌ على أنَّ تَحقيقَ الإيمانِ إنَّما يكونُ في اتِّباع الرَّسُول ﷺ؛ لأنه لَـمَّا قالَ: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ﴾، فهو إذَا أنذرَ إمَّا أنْ يُتَّبَعَ وإمَّا ألّا يُتَّبَعَ.

قَوْلهُ: ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ﴾ قال المُفَسِّر: [عَشِيرَتُك]، والأصحُّ هم أو غَيْرُهم، قال: [﴿فَقُلۡ﴾ لهم: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن عِبادَة غيرِ اللهِ]، ولم يقلْ: «بريء منكم»؛ لأنه لو قال: «مِنكم» لكَان هذا أشدَّ صدمةً، ولاحتملَ أن تكون هذه براءةً شخصيَّةً، وأيضًا يَحْصُل منهم النفورُ عن العملِ، لكنه لما قال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ عَرَفُوا أن السَّبَبَ في البراءة العملُ، ولربما يكون ذلك سببًا لِئَنْ يَرْتَدِعُوا عنه، ولأجلِ أنْ يَنالوا الوَلاءَ دُون البَرَاء.

• • ۞ • •

الآيات (٢١٧- ٢٢٠)

❁ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَتَوَكَّلْ﴾ بِالْوَاوِ وَالْفَاءِ[1] ﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اللهِ، أَيْ: فَوِّضْ إِلَيْهِ جَمِيعَ أُمُورِكَ، ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إِلَى الصَّلَاةِ، ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ فِي أَرْكَانِ الصَّلَاةِ قَائِمًا وَقَاعِدًا، وَرَاكِعًا وَسَاجِدًا، ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ الْمُصَلِّينَ، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾].

قَوْلُهُ: [﴿وَتَوَكَّلْ﴾ بالواو والفاء]، وهذه من المسائلِ النادرةِ في القراءاتِ؛ لأن الغالبَ في القِراءَةِ أنْ يكونَ الخِلاف في صفةِ الكلمةِ أو في الحرفِ، ليسَ في ذاته أو عينه، لكن هذا قد يأتي أَحيانًا في ذاتِ الحرفِ، وأحيانًا أيضًا بإسقاطِ الحرفِ من عَدَمِهِ، في قولِه تَعالَى في سُورَة البقرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [البقرة:١١٥-١١٦]، في قِراءَة بإسقاط الواو: (قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ)[2]، وهذه من المسائلِ النادرةِ في القراءاتِ، فالقِراءَةُ قد تكونُ في نوعِ الحرفِ، وفي وُجودِ الحرفِ، وفي شكل الحرفِ، وأكثرُها في شَكْلِ الحرفِ وهَيْئَتِهِ؛ يُمَدّ أو لا يُمَدّ، يُفْتَح أو يُضَمّ.

---

(١) حجة القراءات (ص:٥٢٢).

(٢) حجة القراءات (ص:١١٠).

والتوكُّل: هو الاعتمادُ على اللهِ معَ الثِّقَةِ به في جَلْبِ المنافِعِ ودَفْعِ المضارّ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الله، أي: فَوِّضْ إليه جميعَ أمورِكَ]، ولم يَقُلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «على الله» بل قال: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ لأنَّ المقامَ يَقتضيه؛ يَقتضي عِزَّة في مقابلِ المكذِّبين له، ورحمةً في مقابلِ قيامِه بواجبِ الإنذارِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى الصلاةِ]، بعضُهم يقولُ: حينَ تقومُ مِن مَنامِكَ، ولكن هذا المَعْنى الَّذي ذكرَه المُفَسِّر أعمُّ، وقيل: إنَّ المَعْنى: حينَ تقومُ في شُئُونِكَ منَ الإنذارِ وغيرِ الإنذارِ، يَعْنِي: يَرَاكَ حينَ تقومُ مُنْذِرًا، ويراك حين تقومُ مُصَلِّيًا، ويراك حين تقوم صَائمًا، وحين تقوم حَاجًّا، وفي جميعِ الأحوالِ، يَعْنِي: حِينَ تَقُومُ إلى عِبادَة اللهِ.

ويَرَاكَ أيضًا حين تَقَلُّبِكَ ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قال المُفَسِّر: [المصلِّين]، أي: في جُمْلَتِهم، وهذا المَعْنى الأخيرُ أعمُّ منَ الجميعِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ تَقَصَّد الصلاةَ؛ لأنها أصلُ العباداتِ البدنيَّة.

وقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ جملةٌ استئنافيَّةٌ؛ لِبَيَانِ أنه معَ رُؤْيَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فهو أيضًا سميعٌ عليمٌ.

إذنِ اجتمعَتْ ثلاثُ صِفاتٍ: الرؤيةُ، والسمعُ، والعلمُ.

• • ۞ • •

الآيات (٢٢١- ٢٢٣)

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٣].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ يَا كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ مِنَ الْأَصْل، ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كَذَّاب ﴿أَثِيمٍ﴾ فَاجِرٍ، مِثْل مُسَيْلِمَة وَغَيْرِه مِنَ الْكَهَنَةِ، ﴿يُلْقُونَ﴾ الشَّيَاطِينُ ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ مَا سَمِعُوهُ مِنَ الْمَلَائِكَة إِلَى الْكَهَنَة ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ يَضُمُّونَ إِلَى الْمَسْمُوعِ كَذِبًا كَثِيرًا، وَكَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ حُجِبَتِ الشَّيَاطِينُ عَنِ السَّمَاءِ].

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ هذا كلُّه يدورُ حولَ قولِ الكفارِ: إن الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَان كاهنًا، والكاهنُ مَن تنزَّل عليه الشياطينُ، وهذا القُرآنُ تنزيلُ ربِّ العالمينَ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء:٢١٠]، فبيّن اللهُ بعد ذلكَ بهذا الاسْتِفهامَ للتشويقِ، أو لإقامةِ الحجَّة والتحدِّي، يَعْنِي: إنّ الشياطين إنَّما تَنْزِلُ ليسَ على مثلِ الرَّسُولِ ﷺ الصادقِ الأمينِ، البعيد عن الفَحشاء، إنَّما تَتَنَزَّل ﴿عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾.

وإتيانُ الكَلامِ بمثلِ هذه الصيغةِ -استفهام ثم خَبَر- أبلغُ في رُسُوخه في القلب.

قَـالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَفَّاكٍ﴾ كـذَّاب ﴿أَثِيمٍ﴾]، و﴿أَفَّاكٍ﴾ هـذه للنسبـةِ والمُبالغةِ أيضًا، أي: كثير الإفك، والإفكُ بمَعْنى الكذِب، والأثيمُ بمَعْنى الآثِمِ، أي: الجامع بينَ سُوءِ القولِ وسُوء العملِ.

وقول المُفَسِّر: [مثل مُسَيْلِمَة وغيرِه منَ الكَهَنَة]، هذا تمثيلٌ، أي مثل كذا.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُلْقُونَ﴾ الشياطينُ، ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ ما سمِعوه منَ الملائكةِ إلى الكهنةِ، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾]، الضَّمير في ﴿يُلْقُونَ﴾ يعودُ على الشياطين، و﴿ٱلسَّمْعَ﴾ أي: المَسْمُوع، وهو مصدرٌ بمَعْنى اسمِ المفعولِ. يُلْقُونه على الكهنةِ، فيأخذون منَ السمعِ ما أخذوه، ولكنهم يَزيدون إلى هذا كذباتٍ كَثِيرَةً، ولهذا قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ قال المُفَسِّر: [يَضمُّون إلى المسموعِ كَذبًا كثيرًا، وكَان هذا قبلَ أنْ حُجِبَتِ الشياطينُ منَ السماءِ].

وكَانت الشياطينُ قبلَ بَعثةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تَستمِع إلى شيْءٍ منَ السماءِ، ولكنها حينَ البعثةِ صاروا لا يَستمِعون؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْأَنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن:٩]، لا يَستَطِيعون، فلو قَعَدوا مقاعدَهم كما كانوا يَقعدُون أوَّلًا لِيَسْتَمِعوا أَتَتْهُمُ الشُّهُبُ.

وهل هذا انقطعَ بانقطاعِ الوحيِ؛ لأن الحكمَ يدورُ معَ عِلَّتِه، أم بَقِيَ؟

الظَّاهرُ -والله أعلمُ- انقطعَ بانقطاعِ الوحيِ؛ لأنه في ذلك الوقتِ مُنِعَتِ السماءُ مِنَ الشياطين، أما بعدَ ذلك فإنَّها لا تُمنَع، ولكن قد تُمنَع أحيانًا بما نرى من الكثيرِ منَ الشهبِ.

الآيات (٢٢٤- ٢٢٦)

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٤-٢٢٦].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ فِي شِعْرهمْ فَيَقُولُونَ بِهِ وَيَرْوُونَهُ عَنْهُمْ فَهُمْ مَذْمُومُونَ، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعْلَم ﴿أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ﴾ مِنْ أَوْدِيَة الْكَلَام وَفُنُونه ﴿يَهِيمُونَ﴾ يَمْضُونَ فَيُجَاوِزُونَ الحَدَّ مَدْحًا وَهِجَاءً، ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ فَعَلْنَا ﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ يَكْذِبُونَ].

قال الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ مناسبةُ ذِكر هذا أنّ كفّار قُرَيْش عارَضوا النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأنه كاهِنٌ، وعارَضوه بأنه شاعرٌ، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور:٣٠]، فنفى الله تَعالَى أن يكونَ كاهنًا بما سبقَ، ثم قال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ أي: في شِعرهم، فيقومونَ به ويَرْوُونَه عنهم، فهم مذمومونَ، سواء الشُّعراء أو الغُوَاة الَّذين يَتَّبِعُونَهم.

فإِنَّه لا يَتَّبِعُ الشعرَ غالبًا إلا الغواةُ، فهو باطلٌ، وهذا القُرآنُ ليس كذلك، هذا القُرآنُ لا يتبعه إلا أهلُ الرُّشْدِ والسَّدادِ، فدَلَّ ذلك على أنه ليسَ بالشعرِ؛ لأن الغالبَ أن الشعرَ لا يَتَّبِعُه إلّا الغاوونَ.

والشعرُ المذمومُ هنا هو الذي لم يُؤْخَذ منَ الكتابِ والسنَّة؛ فإنْ أُخِذ من

الكتابِ والسنّة فإنَّه يَتَّبِعُهُ الراشدُ، مثل بعض القصائدِ الَّتي نَظَمَها أهلُ العِلْم والإيمانِ، فهذا لا يُعْتَبَر شِعرًا يَتَّبِعُهُ الغاوونَ.

قال: [﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعلم، ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ﴾ من أوديةِ الكَلامِ والفنونِ، ﴿يَهِيمُونَ﴾ يمضون فيجاوِزون الحدّ مدحًا وهجاءً]، هذا صَحِيحٌ، فحالُ الشعراءِ: شاعرٌ يقولُ ما لا يَستَطِيعُ أنْ يَمْلِكَ نفسَه فيه؛ لأنه يبالغُ في المدحِ، ويبالغُ في الذمِّ؛ لأنه -بإذنِ اللهِ- كَأنَّه يَتكَلَّم من غير شعورٍ، وإنْ كَان يُوصَف الشِّعرُ بأنه يأخذُ في الشُّعور، لكن الشَّاعِر يتكلَّم من غيرِ شُعورٍ.

والمُرادُ بالشعراءِ غيرُ الَّذينَ آمَنُوا وعمِلوا الصَّالِحات، ولهذا استثنى فيها بعدُ فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وقول المُفَسِّر: [﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ فعلنا ﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ يَكْذِبون]، فيه نظرٌ، لكن: ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فيما إذا امْتَدَحُوا أو هَجَوْا، فيقولون: نحنُ نفعلُ كَذا وكَذا إذا كَانوا يريدونَ أنْ يَتَقَرَّبُوا إلى الشخصِ، ونحن نَخْدُمُكَ، ونحنُ نُواسيكَ بأنْفُسِنا، ونَفديك بأهلنا، وما أشبهَ ذلك. لكنهم لا يَفعلون هذا؛ لأنَّهم غُواةٌ، وغيرُ راشدينَ.

كذلك أيضًا: ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾، فيقولون في هِجَاءِ عَدُوِّهِم: نحن لا نَخشاهُ، ونحن سَنُيَتِّمُ أولادَهُ، ونحن سَنُرَمِّلُ نِساءَه، وما أشبهَ ذلك، وهم لا يَفعلون ذلك.

فيُمْكِن أنْ يَصِيرَ الشَّاعِرُ الَّذي يُغَيِّر الأُمَّة بِشِعْرِهِ في الخلفِ، فلا يكون في المقدِّمَةِ عندَ التقاءِ الصَّفَّيْنِ.

الآيــة (٢٢٧)

❁ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧].

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِن الشُّعراء ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ لَمْ يَشْغَلهُمُ الشِّعْرُ عَنِ الذِّكْر ﴿وَٱنتَصَرُواْ﴾ بِهَجْوِهِمُ الْكُفَّارَ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ بِهَجْوِ الْكُفَّارِ لَـهُمْ فِي جُمْلَة الْمُؤْمِنِينَ فَلَيْسُوا مَذْمُومِينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النِّساء:١٤٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤]، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ مِنَ الشُّعَراء وَغَيْرِهِمْ ﴿أَيَّ مُنقَلَبٖ﴾ مَرْجِع ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ يَرْجِعُونَ بَعْد الْمَوْت].

قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ هذه أربعةُ أوصافٍ: الإيمان، والعملُ الصَّالحُ، وذِكر اللهِ كثيرًا، وهذا يشيرُ إلى أنَّ الشَّاعِر يَقِل ذِكرُه لله، فما امتلأَ قلبُه منَ الشعرِ إلّا بَعُد عنه ذِكرُ الله.

قال ابن القَيِّم[1]:

حُبُّ الكِتَابِ وحُبُّ أَلحَانِ الْغِنَا ... في قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

(١) نونية ابن القيم الكافية الشافية، فصل في سماع أهل الجنة، ص٣٢٦، ط. مكتبة ابن تيمية.

والصِّفَة الرابعةُ: ﴿وَٱنتَصَرُواْ﴾ يَعْنِي: لِأَنْفُسِهِم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى:٣٩]، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ إمَّا بهجاءِ الكفارِ لهم إذا كَان شاعرًا مقابلَ شاعرٍ، أو باعتداء الكفارِ عليهم أيضًا.

قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ منَ الشُّعراء وغيرهم، ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ﴾ مَرْجِع، ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ يَرجعون بعدَ الموتِ]. وهذه الجُملةُ فيها من التهديدِ ما لا يَخفى، يَعْنِي أن ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ سَيَعْلَمُونَ عن قُربٍ ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ﴾ يكونُ انقلابهم، وهو المَرْجِع إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهذا تهديدٌ بيِّن للظالمينَ.

والظُّلْم مَرْتَعٌ مُبْتَغيه وَخِيم، فالظلمُ من أقرب ما يكونُ في معاجلةِ العُقوبةِ، لا سِيَّما إنْ دعَا المظلومُ على ظَالِـمِهِ؛ فإن الأمرَ يكونُ إليه سريعًا.

ثم إنّ الظُّلم نوعانِ:

أحدهما: ظُلم مُتَعَدٍّ للغيرِ.

الثَّاني: ظُلْمٌ للنفْسِ.

فإنْ كَان في مَعصيةِ اللهِ فهو ظُلْمٌ للنفسِ، وإنْ كَانَ فيه الاعتداءُ على الغَيْرِ، فهو ظُلْم للغيرِ، كما لو أخذَ مالَه أو أفسدَ عليه شأنَه؛ فإن هذا منَ الظُّلْم المتعدِّي، واللهُ أعلمُ.

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث **الصفحة**

«اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ؛ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ» ٧

«إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ العَوَامَّ» ٢١

«إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ» ..... ٣٣، ١٢٦

«إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ» ٣٨

«أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ» ١٠٦

«الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ» ..... ١١٤، ٢٣٤

«لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» ١١٦

«أُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي» ..... ١٢٨، ١٨٣

«المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» ١٦٣

«أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟» ١٦٧

«إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ» ١٦٨

«وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ» ١٨٦

«مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ» ١٩١

«بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» ٢٠٥
«اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ... اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا» ٢٠٥
«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ» ٢٢٣
«لَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ» ٢٢٣
«خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ» ٢٢٩
«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا» ٢٢٩
«لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ القَوْمِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ» ٢٥٥
«لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ» ٢٧٢
«إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ٢٩٢
«الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ» ٢٩٥
«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي» ٣٠٠
قصة المسيء في صلاته ٢٩٨

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة

التَّسميةُ للسُّوَرِ منها شيْءٌ تَوْقِيفِيٌّ منَ النبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ومنها شيْء اجتهادِيٌّ ٧

قد يكونُ للسورةِ عِدَّةُ أسماء ٧

سُورةَ بني إِسْرَائِيلَ ٧

الاستثناء لَيْسَ بمقبولٍ إلَّا إذا دلّ الدَّليلُ عليه ٨

وتقسيم الآيَات أيضًا توقيفيٌّ ٩

البَسْملَة ٩

الحروف الهِجائيَّة ١١

﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ بمَعْنى: المكتوب ١٤

كلُّ آيةٍ منْ هَذِهِ الآيَاتِ فيها إعجازٌ ١٥

أبَانَ تُستعمل قاصرةً ومُتَعَدِّيَةً ١٥

كلَّما جاءتْ (مُبين) فِي القُرآنِ إنْ أمكنَ أنْ تُفَسَّرَ بالإبانةِ ١٥

ترك المفعول فِي قوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ لإفادة الْعُموم والشُّمولِ ١٦

ما خفي عَلَى أحدٍ منَ النَّاسِ ما خفِيَ من الأحكامِ، إلا لِقُصُورٍ فِي فَهمهم، أو فِي عِلمهم، أو فِي إرادتهم ١٦

يقول قائل: إننا لا نجد كل شيْء فِي القُرآن ١٧

القُرآنَ أتَى بتِبيانِ كلِّ شيْءٍ عَلَى الْعُمومِ، والسنَّة أنزلها اللهُ عليه ﷺ لِتُبَيِّنَ للناس موضوعَه ١٧

قصةٌ عن الشيخِ مُحَمَّد عَبْدُه معَ رجلٍ نَصرانيّ..... ١٧
التِّبيان فِي القُرآنِ ١٨
منَ المذاهب الباطلةِ: «مَذْهَب أهل الصرفة» ١٩
(لعل) للإشفاق، وتكون للتعليلِ وتكون للتَّرجِّي ٢٠
الْإِنْسَان الداعيَة لا يَنبغي أنْ يُهْلِكَ نفسَه فِي الهَمِّ والغَمِّ لعدم قَبُولِ النَّاسِ للحقِّ..... ٢٠
«عَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ» ٢١
قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هل المُراد بِهَا السَّقْف أم المُراد بِهَا العُلُوّ؟ ٢٣
أن الأسْبابَ مؤثِّرة..... ٢٤
إِثْبات الحكمةِ ٢٤
هل تَدُلُّ الآيةُ عَلَى أنَّ الله فِي السَّمَاءِ؟ ٢٥
هل يدل تنكيرُ الآيةِ عَلَى عَظَمَتِها؟..... ٢٥
سُمِّيَ القُرآنُ ذِكرًا لِأَنَّ بِهِ التذكُّرَ والتَّذكير..... ٢٦
أن نزولَ هَذَا القُرآنِ وإتيانه من مقتضى رحمةِ اللهِ..... ٢٧
الصِّفَة الكاشفةُ..... ٢٧
أن المحدَثَ هُوَ الذِّكر نفسُه..... ٢٧
رُوي عنِ ابنِ عبَّاس- أَنَّهُ نزل إِلَى بيتِ العِزَّة منَ اللَّوْح المحفوظ ٢٧
الصِّفَة السَّبَبيَّة ٢٨
مراعاة الفواصلِ..... ٢٨
الإِعْراضُ معنويٌّ وحِسِّيٌّ ٢٩
التَّكذيب ببعض الآيَاتِ ٣٠
التَّكذيب بالشَّيْءِ الحَقّ نوعٌ منْ الاستهزاء به ٣١

زيادةَ المَبْنَى تدلُّ عَلَى زيادةِ المَعْنى ٣١
الرُّؤْيَة الحِسِّيَّة ٣٢
الرؤية العِلمية ٣٢
قوله: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ٣٣
الدَّلَالَةُ عَلَى الحِكْمَةِ البالغةِ ٣٤
(كان) قال سِيبَوَيْهِ: زائدةٌ ٣٥
لا يَنتفعُ بالآيةِ إلَّا المؤمنُ ٣٥
إنَّ العِزَّةَ تَنْقَسِم إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ ٣٦
أن العزيزَ الَّذِي يَرَى نفسَه قاهرًا فِي الغالبِ لا تكونُ فيه رحمةٌ ٣٧
قِصّة مُوسَى ٣٨
بدأ الله تعالى بذِكر قصصِ الأَنبياءِ مقدِّمًا ذِكْرَ قصة مُوسَى؛ لِطُولها ولأهميتها ٣٨
(أن) تفسيريَّة ٣٩
فائدة الإبهام ثم البيان بعده ٤٠
﴿أَلَا﴾ الهمزة للاستفهامِ الإنكاريِّ ٤١
فضلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى الخَلْق ٤١
لا بأسَ فِي الإجمالِ فِي الكَلامِ ٤٢
ضِيق الصَّدرِ ٤٤
قِصَّة أَخْذ الجَمرة باطلةٌ ٤٥
جَهْلُ البَيَانِ ٤٦
جوازِ بيانِ الْإِنْسَانِ حالَه إذا لم يَقْصِدْ بِهِ الشكوَى ٤٦
جوازِ ذِكْر الوسائلِ الَّتِي تَسْتَوْجِب القَبولَ فِي الدُّعاء ٤٦

قتل القِبطيّ ٤٧
جوازِ الخوفِ الطبيعيّ ٤٨
انقلابَ العصا حَيَّةً ٤٩
(أجري الاثنان مجرى الجماعة) ٥٠
إِثْبات المَعِيَّة للهِ عَزَّوَجَلَّ ٥٠
تفسير الإمامِ أحمدَ للمعيَّة فِي العلمِ ٥١
لا تَقْتَرِنُ المعيَّة بالمشاركةِ بالمكانِ ٥١
تشجيعِ الْإِنْسَانِ فِي مهمتِه ٥٢
القاسيَ إذا قُوبِلَ بلهجةٍ قاسيةٍ قَسَا أكثرَ ٥٣
الْإِنْسَان إذا كَانَ عاتيًا جبارًا فلا ينبغي أن يُقابَلَ بالعُتُوِّ والجَبروتِ ٥٣
الأَصْل أن مُوسَى هُوَ الرسول ٥٤
العالَمون ٥٤
القَوْم والأَهْل ٥٥
ما الَّذِي دلَّنا أن فِرْعَوْن كَانَ يَعتقد بربوبيّة الله؟ ٥٥
الإرسال بمَعْنى الإطلاقِ ٥٦
ذكر جَوابِ فِرْعَوْن لِمُوسَى ٥٧
الإيجازُ عندَ البلاغِيِّين مُنْقَسِمٌ إِلَى قسمينِ ٥٧
أن الصِّفَةَ إذا قُدِّمت أُعْرِبَتْ حالًا ٥٩
أقلُّ الجمعِ ثلاثُ ٥٩
أن الولدَ سوف يَنْفَع ٥٩
الإبهامُ يأتي للتَّعْظيمِ أحيانًا ٦٠

(إِذًا) للمستقبَل ٦١
الضَّلالُ يَنْقَسِم إِلَى قِسمينِ ٦١
الضَّلالُ الَّذِي حَصَلَ أو الَّذِي اتَّصَفَ بِهِ مُوسَى حينَ قَتْلِه القِبْطِيَّ ضَلالٌ لا يُلام عليه ٦٢
يَصِحّ أنْ نصِفَ المخالفينَ للصوابِ من أهلِ العلمِ بالضَّلالةِ ٦٢
أَنَّ الضَّلالَ مع الاجتهاد وتَحَرّي الحَقّ لا يُذَمّ عليه المرءُ وإنْ وُصِفَ به ٦٢
الجهلُ الَّذِي لَيْسَ عن عمْدٍ ٦٢
وُجودِ القَرينة ٦٣
(لَـمّا) ظرفٌ بمَعْنى: (حينَ) ٦٣
لَيْسَ فِي اللُّغة العربيَّة ما يُسَمَّى بالمَجازِ ٦٤
العطفُ يَقْتَضِي المُغَايَرَة، ٦٤
كَوْن الْإِنْسَان لا يقتلُ هَذَا الرَّجُل وَهُوَ يقتلُ غيرَه عُدوانًا لَيْسَ بنعمةٍ ٦٦
المرأةُ إذا بَقِيَتْ بدون قيِّم تضطرُّ إِلَى أن تَخْدُمَ ٦٧
تَرْك الظلمِ بالنِّسبةِ إليّ لا يُعَدُّ نعمةً ٦٧
تأكيد الذمّ بما يُشْبِه المَدْحَ ٦٨
(ما) يُسْتَفْهَم بِهَا فِي الأَصْلِ عنِ الحَقِيقَةِ ٧٠
أسلوبِ الحكيمِ ٧٠
إبطالِ عُبُودِيَّةِ فِرْعَوْن ٧٠
﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ ٧٣
الربوبيَّة العامَّة ٧٤
كَلامٌ لَيِّن من المُفسِّر ٧٤

المجنونُ: فاقدُ العقلِ ٧٦
﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ﴾ لَيْسَ المُراد منْه الجِهة فقط ٧٧
العاجزُ عن ردِّ الحجةِ بالحجةِ يَعْمِد إِلَى القوةِ إذا كَانَ له سلطانٌ ٧٩
اجتمعَ شرطٌ وقسمٌ ٨٠
المُراد بالمعبودِ ٨٠
ما فعل الحَجَّاج بِجَحْدَرِ بنِ مالِكٍ ٨١
من لُطْفِ الله ٨٢
الجُملةُ الشَّرطيَّة ٨٤
آيةُ العصا، وآية اليَدِ ٨٥
الْإِنْسَانَ لا شكّ أَنَّهُ لا يمكّن أحدًا لِيُخْرِجَهُ مِن أرضِهِ ٨٥
المُراد بالأمرِ ٨٥
المَشُورَة ٨٦
الشَّرطِ والجزاءِ ٨٨
(سَحَّار) هِيَ من بابِ المُبالَغةِ، أو هِيَ من بابِ النِّسبة ٨٨
الاسْتِفهام ٩٠
الأقباط ٩١
ضميرُ الفَصْلِ ٩١
كيف يَصِحُّ التَّوكيدُ معَ الاسْتِفهامِ ٩١
(نَعَمْ) حرف جَوابٍ ٩٤
حرف الجَوابِ إعادةٌ للسُّؤالِ ٩٤
(نعم) حرفُ جَوابٍ لُغةً وعُرفًا ٩٥

التنوين فِي (إِذًا) عِوَض ٩٦
السِّحر حقيقةٌ ٩٩
هل يُقْتَلُ العائنُ؟ ١٠٠
بِمَ يعالَج الْإِنْسَان إذا أُصيب بعينٍ؟ ١٠٠
العَيْنُ لا تأتي إلَّا عَلَى غَفْلَةٍ ١٠١
العَيْن مَنْشَؤُها الحسدُ ١٠١
الجُملةَ الاسْميَّةَ تَدُلُّ عَلَى الثبوتِ والاستقرارِ والدوامِ ١٠١
هل يؤثِّر السِّحرُ؟ ١٠٤
ربوبيَّة فِرْعَوْن ١٠٦
مراعاةِ الفواصلِ ١٠٦
الْإِنْسَان يَنسَى العاطفةَ بينه وبين أقاربِه ١٠٧
الحَقّ إذا تَبَيَّنَ كَانَ أعلم النَّاس بِهِ مَن يَعْرِف هَذَا الحقَّ ١٠٧
مُبادَرَةُ السَّحَرَة إِلَى الإيمانِ ١٠٨
الصَّلْبُ بعدَ الموتِ أم قبله؟ ١١١
في لحظةٍ واحدةٍ انقلبَ الكفرُ العظيمُ إِلَى إيمانٍ عَميقٍ ١١٢
شِدَّة تَمويهِ فِرْعَوْن ١١٣
قوَّة إيمانِ هَؤُلَاءِ السَّحَرَةِ ١١٣
الإيمان إذا صَدَقَ صارَ أقوى من العاطفةِ ١١٣
هلِ الخطايا والسيئاتُ واحدةً ١١٤
أَنَّ السبقَ إِلَى الإيمانِ وإلى العملِ الصَّالحِ مَنْقَبَةٌ ١١٥
هل كَانَ بنو إِسْرَائِيل مُؤمِنينَ؟ ١١٦

هل قتل جميع السَّحَرَة؟ ١١٦
أن السبقَ إِلَى الإيمانِ من أسْبابِ المغفرةِ والرفعةِ ١١٦
أن الإطلاقَ تُقَيِّدُهُ قَرينةٌ ١١٧
الوحيُ ١١٨
(أَنْ) تفسيريةٌ ١١٨
أليسَ من الأَولى أنْ يُكَثِّرَهُمْ لأجلِ أنْ يَسْتَعِدُّوا؟ ١٢١
من المقصود بقوله: (شِرذمة)؟ ١٢١
القَصَصُ فِي القُرآنِ يكونُ من كَلام القاصِّ، يعني: من كَلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أو من كَلام المتحدِّث؟ ١٢٣
ألا تشمل (حَاذِرُونَ) كلا المعنيينِ؟ ١٢٤
صيغة العظمةِ ١٢٥
الكنوز هِيَ الأموالُ العظيمةُ الكثيرةُ من الذهبِ والفضّة ١٢٦
بيانُ عُقوبةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للطاغِينَ ١٢٧
أنَّ العُقوبةَ بعد التنعيمِ أشدُّ ١٢٧
تحذير للطُّغاة ١٢٧
أنَّ الْإِنْسَانَ قد يُؤْخَذ من حيثُ يَرَى أَنَّهُ عَلَا وظهرَ ١٢٧
أورثَ اللهُ دِيَارَ فِرْعَوْنَ وقومه وأموالهم بني إِسْرَائِيل؟ ١٢٨
هل كان بنو إِسْرَائِيلَ يسكنون معهم؟ ١٢٩
هل مُوسَى بعد إِبْرَاهِيم -عليهما السلام- مباشرة؟ ١٣٠
هل بنو إِسْرَائِيل خرجوا كلهم من مصر؟ ١٣٠
قولُهُ: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ١٣١

خرجَ مُوسَى وقومُه ليلًا اختفاءً ١٣٢
المُرادُ بالمعيَّة ١٣٤
قوَّة إيمانِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ١٣٤
أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما يَهدي إِلَى الطَّرِيقِ المعنويّ يَهدي أيضًا إِلَى الطَّرِيقِ الحِسِّيّ ١٣٥
(ضَرَبَ) لا يأتي رُبَاعِيًّا ١٣٦
أَنَّ البحرَ لم يَنْفَلِقْ بمجرَّد الوحيِ ١٣٦
قوله: ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ المُراد بِهِ البحرُ الأحمرُ ١٣٧
النارُ الَّتِي من طبيعتها الإحراقُ والحرارةُ كانت بردًا وسلامًا عَلَى إِبْرَاهِيم ١٣٨
ما جَرَى لبني إِسْرَائِيلَ جَرَى لهذه الأُمَّة ١٣٨
مَنِ المقصودونَ فِي قوله تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ ١٣٩
عبادةِ الصنمِ ١٤٠
الْإِنْسَان إذا توفرتْ لديه النعمةُ قد يَختلف حالُه ١٤٠
الجدلُ لا فائدةَ فيه ١٤٢
ما المقصود بالفِرق؟ ١٤٢
ما الغرضُ من ذِكْر عهدِ أسلافهم؟ ١٤٢
أن لكلِّ شيْءٍ سببًا ١٤٣
تَفْلِيقِ الماءِ ١٤٣
ليستِ الآيةُ بإغراقِ فِرْعَوْنَ وقومِه فَحَسْب، ولكن بِفَلْقِ البحرِ، وكونه يَبَسًا ١٤٧
امرأةُ فِرْعَوْنَ ١٤٨
عِظَام يُوسُفَ ١٤٨
بإمكان فِرْعَوْن أن يعومَ فِي الماء؟ ١٤٨

من قواعدِ البلاغةِ أَنَّهُ لا يؤكَّد الكَلامُ إلَّا لِلْمُتَرَدِّد أو للمُنْكِر ١٤٩
العِزَّة والحِكمة ١٥٠
لا يكون النبأُ إلَّا فِي الأمورِ الهامّة ١٥١
(آزَر) ١٥٢
قولِهِ تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ١٥٤
(هَلْ) للاستفهامِ ١٥٥
ما الحكمةُ فِي حذفِ المفعولِ؟ ١٥٦
إِثْباتُ البَعْثِ ١٥٩
أنَّ كلَّ إِنْسانٍ مُفْتَقِرٌ إِلَى الدُّعاءِ حَتَّى الأَنْبياء ١٥٩
لا ينفعُ الْإِنْسَانَ يومَ القيامةِ إلَّا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ ١٦٠
فضيلةِ القلبِ السَّليمِ ١٦٠
أنَّ هَذِهِ الأصنامَ تُعذَّبُ وتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ ١٦١
فائدةُ إدخالِ الأصنامِ النارَ ١٦٢
إِثْباتِ الجنَّةِ ١٦٢
إِثْباتِ النارِ ١٦٢
أصحاب الجَحِيمِ ١٦٢
جنودُ إبليسَ هم الَّذين يَتَّبِعُونَه ويُغْوُونَ النَّاسَ ١٦٣
أنَّ كلَّ مَن نَصَرَ أحدًا فهو من جُنُودِهِ ولو بالاتباعِ ١٦٣
الأَصْلُ فِي العطفِ: التغايُرُ ١٦٤
مِنَ الضَّلالِ أنْ يُسَوِّيَ الْإِنْسَانُ المخلوقَ بالخالِقِ فِي العِبَادَةِ ١٦٧
طاعة وَلِيِّ الأمرِ فِي المعروفِ ١٦٧

كيف يتصوَّر أن أصحاب النارِ يَتجادلون حالَ العذابِ؟ ١٦٨
أحوالُ الآخِرَةِ لا تُقاسُ بأحوالِ الدنيا ١٦٨
دَليلٌ عَلَى نَدَمِ أهل النارِ نَدَمًا عَظيمًا ١٦٩
انتفاءُ التَّشْبيهِ عنِ اللهِ ١٧٠
الكفَّار الَّذينَ تَبِعُوا المُسْتَكْبِرِينَ لا عُذْرَ لهم ١٧١
الشَّافع: هُوَ المتوسِّطُ للغَيْرِ بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ أو دَفْعِ مَضَرَّةٍ ١٧٣
إِثْبات الشَّفاعَة للمُؤمِنينَ ١٧٤
الصَّديق: مَن صَدَقَكَ الوُدَّ ١٧٥
لو أَنَّهُم رُدُّوا هل يَرجعون؟ ١٧٧
إذا لم يَنْقَدِ الإِنْسانُ فليسَ بمؤمنٍ ١٧٨
النَّصارَى في عهدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ١٧٨
مِنْ قِصَّة إبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ١٨٠
نوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو أوَّل رَسُولٍ ١٨٢
في عَهْد آدمَ لم يكنْ حاجةٌ إلى الرِّسَالَةِ ١٨٣
نوح أُرْسِل إلى قومِهِ وليس هناك أُمَمٌ مختلفةٌ ١٨٤
إن كانَ نوحٌ نُبِّئَ ولم يُرْسَلْ برسالةٍ، فكيف اتَّبَعَهُ أولادُه؟ ١٨٦
دَليلُ أهلِ العِلْمِ على أنَّ الرُّسُلَ السَّابقينَ لم يُرْسَلُوا إلى الجنِّ ١٨٧
هل يَعْنِي أنَّ الجنّ يَعْبُدُونَ بِشَرْعٍ؟ ١٨٧
المُرادَ بالرُّسُلِ ١٨٧
النَّبيُّ غيرُ الرَّسُولِ ١٨٨

مَن كذّب أيَّ رَسُولٍ فهو منكِرٌ لله ١٨٨
أنَّ التَّكذيبَ بالحقِّ من شخصٍ تكذيبٌ به من جميعِ الأشخاصِ ١٨٩
أنَّ نوحًا أُرسلَ إلى جميعِ النَّاسِ في وقتِه ١٨٩
﴿أَلَا﴾: في الأَصْلِ تكونُ للعرضِ ١٩٠
إذا اتَّقوا اللهَ وأطاعوا رسولَه، فقد حَقَّقُوا شهادةَ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ هذا رَسُولُ اللهِ ١٩٢
مَن طَلَبَ العِلْمَ الَّذي جاءتْ به الرُّسُلُ لِيَنَالَ به أمرًا منَ الدُّنيا، فليسَ طريقُه طريقَ الرُّسُل ١٩٣
الفرقُ بينَ التَّأكيدِ والتأسيسِ ١٩٤
النَّذيرُ هو المُخْبِرُ بما يخوِّف ١٩٩
يَنْبَغي موالاةُ المُؤمِنينَ ١٩٩
التواضُعُ للمُؤمِنينَ ٢٠٠
إذا اجتمعَ شَرْطٌ وقَسَمٌ، فاحذِفْ جَوابَ المتأخِّر ٢٠١
هل يَقصِدون أنَّهم يَرْجُمُونه بالحجارةِ أو بالقولِ؟ ٢٠٢
هل يُخْبِرُ نوحٌ اللهَ تَعالَى بالواقِع؟ أليس الله تَعالَى عالـمًا به؟ ٢٠٤
هل كون الرَّسُولِ ﷺ دعا على المَلَأِ من قُريشٍ، يدلُّ هذا على جوازِ الدُّعاءِ؟ ٢٠٦
هل هذا الفُلْك يَشْمَل الطائراتِ والسياراتِ ٢٠٩
هؤُلاءِ الَّذينَ نَجَوْا هل هُمُ الَّذينَ بَقُوا منْ أهلِ الأَرْضِ؟ ٢١١
إنَّ نُوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو الأبُ الثَّاني للإِنْسانِ ٢١١
أقسامُ العِزَّةِ الَّتي يَتَّصِفُ الله بها ثلاثةٌ ٢١٣

الرَّحِيمُ ٢١٤
عادٌ هُمْ قومُ هُودٍ ٢١٦
الأَحْقَافِ ٢١٦
التَّقْوى ٢١٩
الطَّاعة ٢١٩
لماذا تحاولونَ أنْ تَصِلُوا للسماءِ وأنتم عاجزونَ عن حلّ مشاكلكم في الأَرْضِ؟ ... ٢٢١
الحيوانات في زَمَنِ نُوحٍ ٢٢٢
جوازُ وصفِ الإِنْسانِ بالثناءِ على نفسِه للمصلحةِ ٢٢٢
يَنْبَغي للإِنْسانِ أنْ يكونَ غَرَضه من عمله، لا سِيَّما العمل الجبَّار العظيم، أن يكونَ غَرَضُه غَرَضًا صَحِيحًا ٢٢٣
قَوْلُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿مَصَانِعَ﴾ لِلْمَاءِ تَحْت الْأَرْض ٢٢٥
الاسم الموصول وَصِلَته بمنزلةِ الاسمِ المشتَقّ ٢٢٧
التفصيلُ بعدَ الإجمالِ، أو البيان بعد الإبهامِ، له فوائدُ ٢٢٨
الداعِيَةَ يَنْبَغي له أن يذكِّر المدعوَّ بِنِعَمِ اللهِ عليه ٢٣٠
يَنْبَغي للداعيةِ معَ القَرْن بذِكْر النِّعَم أن يَقْرِنَ الدعوةَ بالتخويفِ ٢٣٥
قد يَطْبَع على قلبِ العبدِ فلا يَستفيد بموعظةٍ ٢٣٥
لا حُجَّةَ للمُعانِدِ للرسُل سوى التمسُّك بما كَان عليه أسلافُهم ٢٣٦
النِّقْمَة إذا أَتَتْ والإِنْسان يَتَوَقَّع النعمةَ، فتكون أشدّ ٢٣٨
كنَّا إذا سمِعنا أنَّ الأَرْضَ زُلزلت في أُحُدٍ نَرْتَجِف ٢٣٨
الحِكمة في كونِ بعضِ الرُّسُلِ أو بعض الأُمَم تَكَرَّر ذِكرها في القُرآنِ كثيرًا،

وبعض الرُّسُل لم يأتِ له ذِكْرٌ قطُّ ٢٣٩
(مَدَائِن صالِح) ٢٤٠
اختلافُ القراءَتَيْنِ تكون فيه فائدةٌ ٢٤٤
لا تطيعوا المسرفينَ ٢٤٥
الطَّاعة نفسها إصلاحٌ بلا شَكّ ٢٤٦
كان ابنُ حَزْمٍ -رحِمه الله، وعَفَا عنه- شديدًا في المناقشةِ ٢٤٨
جاءَ في الإسرائيليَّاتِ مِن أنَّها خَرَجَتْ من صخرةٍ ٢٥٠
إن هذه الناقةَ ناقةٌ وُلدتْ من نُوق ٢٥١
كثيرٌ منَ النَّاسِ يَتَحَاشَوْنَ أنْ يَصِفُوا المخلوقَ بـ(العظيم) ٢٥٢
كَان النَّاسُ يَتَحاشَوْن أيضًا قَول (المُعَظَّم) ٢٥٢
العذابُ الَّذي أَخَذَهُم ٢٥٣
علينا جميعًا أنْ نكونَ واثقينَ بوعدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ غيرَ ناظرينَ إلى الأسْبابِ الحاضرةِ ... ٢٥٤
أحكام المُرْتَدّ ٢٥٥
هل كان قومُ صالحٍ كلّهم يَشربون من بِئرٍ واحدةٍ؟ ٢٥٥
لماذا منع الرَّسُولُ ﷺ منَ الشُّرب من مائهم حين مَرَّ بدِيارهم؟ ٢٥٥
هل شَدُّ الرَّحْل لِزِيَارَةِ مساكنِ ثَمُودَ محرَّم؟ ٢٥٦
من فوائد ذِكر قومِ صالحٍ: ٢٥٧
عِظَم نِعمةِ الأمنِ ٢٥٧
النَّخيل من أطيبِ أنواعِ الفواكهِ ٢٥٧
قُوَّة قومِ صالحٍ ٢٥٧

كلُّ الرُّسُلِ يُرْسَلون أوَّلًا بتحقيقِ التوحيدِ ٢٦٠
(بَلْ) للإضرابِ ٢٦٢
يَجِبُ على كلِّ مؤمنٍ أنْ يُبْغِضَ الكافرين ٢٦٤
﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، لم تُشْعِرَاهُما بالكُفْر ٢٦٦
أنَّ قومَ لُوطٍ أُهلِكوا بهذه الحِجارةِ ٢٦٨
أنَّ المعانِدِينَ لِلرُّسُل إنَّما يَلْجَئُون إلى قُوَّتِهم وسُلْطَتِهم ٢٦٨
لا غِنى لأحدٍ عن دعاءِ اللهِ ٢٦٨
أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُنْقِذ أهلَ الحقِّ من إهلاكِ الكَافِرِينَ ٢٦٩
أنّ القُربَ من الأَنْبياء والأولياءِ لا يُغْنِي الإِنْسانَ شيئًا ٢٦٩
عُقوبة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَتَنَوَّع حَسَبَ العملِ ٢٧٠
أنَّ اللُّوطِيَّ يُقتَل ٢٧١
الأيكةُ ٢٧٤
هل مَعْنى هذا أنَّ شُعيبًا أُرسلَ مرّتينِ؟ ٢٧٥
القومُ الَّذينَ بُعث إليهم شُعيب ٢٧٧
هذه القَصَص عِبَرٌ ٢٨٢
في سُورةِ هُودٍ الكثيرُ مِن قصصِ الأَنْبياءِ ٢٨٤
يُستفاد من قِصَّة شُعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ٢٨٤
الربوبيَّة العامَّة ٢٨٦
قولُه تعالى: ﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ٢٨٦
مِن مُقتضَى أمانةِ جِبريلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٢٨٦

يَنْبَغي أن تكونَ اللُّغةُ العربيّة لغةَ جميعِ الخلقِ ٢٨٧
عَبْد اللهِ بنِ سَلَامٍ وأصحابه ممَّن آمنوا ٢٨٩
المعانِدُ المُكابِر يَصْعُب عليه أنْ يَرجِع إلى الحقّ ٢٩١
كيفيَّة استعجالهم بالعذابِ ٢٩٣
ذُكر عنِ ابنِ حَجَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو قاضي القُضاة في مِصْر ٢٩٥
أنَّ الشرائعَ لا تُلْزَم إلَّا بعدَ العِلْم ٢٩٨
أنَّ القُرآنَ تَفِرُّ منه الشياطينُ ٣٠٢
أنَّ الإِنْسانَ كلَّما انقادَ للشيطانِ ابتعدَ عن فَهْم القُرآنِ ٣٠٢
الدُّعاءُ هنا يَشمَل دعاءَ المسألةِ ودعاءَ العِبادَة. ٣٠٣
بنو هاشم وبنو المطَّلِب ٣٠٦
من المسائلِ النادرةِ في القراءاتِ ٣٠٨
التوكُّل ٣٠٩
كَانت الشياطينُ قبلَ بَعثةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تَستمِع إلى شيْءٍ منَ السماءِ ٣١١
لا يَتَّبِعُ الشعرَ غالبًا إلا الغواةُ ٣١٢
الشعرُ المذمومُ ٣١٢
المُرادُ بالشعراءِ ٣١٣
الظلم مرتعٌ مبتغيه وخيم ٣١٥

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة
تقديم	٥
سورة الشعراء	٧
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾	١١
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾	١٤
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾	٢٠
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾	٢٢
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾	٢٦
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾	٣٠
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾	٣٢
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾	٣٤
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾	٣٦
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾	٣٨
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾﴾	٤٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾﴾ ٤٤
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ ٤٧
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ ٤٩
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ ٥٣
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾﴾ ٥٦
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ ٥٧
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ ٦٠
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ ٦١
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ ٦٣
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ ٦٦
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ ٦٩
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ٧٢
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ ٧٤
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ ٧٦
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ٧٧
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ٧٩
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ

مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ٨٢

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ ٨٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾ ٨٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ ٩٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾﴾ ٩٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ ٩٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ٩٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ٩٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾ ١٠٢

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ١٠٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ١٠٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾. ١١٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ ١١٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ ١١٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ ١٢٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ١٢٢

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ ١٢٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ ١٢٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ ١٢٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ ١٣٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ ١٣٢

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ ١٣٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ ١٤٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾ ١٤٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ ١٤٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ١٥٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ ١٥٢

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ١٥٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ١٥٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ ١٥٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ ١٥٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ . ١٥٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ ١٦٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ ١٦٢

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ ١٦٤

" قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ ١٧٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ ١٧٢

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ ١٧٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ ١٧٥

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ ١٧٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ ١٨١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾ ١٨٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ ١٩٤

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ .. ٢٠٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾ ٢٠٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ ٢١٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ ٢٢٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ ٢٢٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ ٢٣٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ ٢٣٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ ٢٣٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ ٢٤١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ ٢٤٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾ ٢٤٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ ٢٥٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ ٢٥٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ ٢٦٢

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ ٢٧٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ ٢٧٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ ٢٧٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾. ٢٨٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ ٢٨٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ ٢٩٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ ٢٩٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ ٣٠٠

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ ٣٠٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ ٣٠٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ ٣٠٧

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ ٣٠٩

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ ٣١١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ ٣١٣

فهرس الأحاديث والآثار ٣١٥

فهرس الفوائد ٣١٧

فهرس آيات السورة ٣٣٣

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٥)

تفسير القرآن الكريم

سورة النمل

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٥)

تفسير القرآن الكريم

سورة النمل

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة النمل. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
٥٨٢ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٣٥)
ردمك: ٠ ـ ٤٥ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة النمل ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٢٧

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٢٧
ردمك: ٠ ـ ٤٥ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من :
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ) [1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[١]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخ مُحَمَّد بنِ صالِح العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَرِيم؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضَاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

الآيــة (١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ [النمل:١].

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

قال المُفَسِّر[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هَذِهِ سُورةُ النَّمل، وسُمِّيَتْ به لِذِكْرِ النملِ فيها]، وتسميةُ السُّورِ يَكُونُ بأدنَى مناسبةٍ؛ ولهَذَا البقرة سُمِّيَتْ سُورة البقرة لذِكْرِ البقرة فيها، ولا يَمْتَنِعُ أنْ تُسَمَّى سورةٌ بِعِدَّةِ أسماءَ لِعِدَّةِ مناسباتٍ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّها مكِّيَّة، الصَّواب فِي المكِّيّ والمَدَنِيّ أن الفرقَ بينهما: ما نزل قبل الهجرةِ فَهُوَ مكّيّ، وما نزلَ بعدها فَهُوَ مدنيّ، وَقِيلَ: المكِّيُّ ما نزل بمكَّة، والمدنيّ ما نزل بالمَدينَةِ، وَقِيلَ: المكيُّ ما فِيهِ ذِكر الأصول -أصول الإِسْلام أو الإِيمان- والمدنيّ ما فِيهِ ذِكْر الفُرُوع.

فعلى الأوَّل يَكُون المُعْتَبَر الزمَن، وَعَلَى الثاني المعتبَر المكان، وَعَلَى الثَّالث المعتبَر الموضوع، ولكِن الَّذِي عليه المحقِّقون أن ما كَانَ بَعْد الهِجرةِ فَهُوَ مدنيّ، وما قبلها فَهُوَ مكّيّ، وقد ذَكروا فِي أصولِ التفسيرِ لذلكَ ضوابطَ يُرجَع إليها.

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

أمَّا البَسْمَلَةُ فقد تَقدَّم الكَلامُ عليها عدَّة مراتٍ، وبيَّنَّا أنَّ أحسنَ ما تُقَدَّر به: أنْ يَكُونَ فعلًا مناسبًا متأخِّرًا.

(أن يَكُون فِعلًا) لِأَنَّهُ الأَصْل فِي العواملِ، وَهُوَ أيضًا أدلّ عَلَى الحُدُوث.

(متأخِّرًا) لفائدتينِ هما:

الأوَّل: التبرُّك بتقديمِ اسمِ اللهِ.

الثاني: إفادة الحصرِ، يَعْنِي: باسم الله لا باسمِ غيره.

(ومناسبًا) لِأَنَّهُ أخصُّ من العامِّ.

فـ(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) التَّقْدير: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَقْرَأُ، ويجوز أنْ تقدِّر: أقرأُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ويجوزُ أن تقدِّر: قِرَاءتي بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أو بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قِراءتي، لكِـنْ ما ذَكَرْنَا أوَّلًا هُوَ الأرجحُ. وأشار شيخ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَى رُجحانه بقولِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللهِ»[1] فذكر فعلًا، ولم يقل: فليكنْ ذَبْحه، بل قَالَ: «فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللهِ»[2].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿طسٓ﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بذلك]. هَذَا ما سَلَكَه المُفَسِّر وجماعةٌ من أهلِ العلمِ، بأن هَذِهِ الحروفَ الهِجائيَّة الموجودة فِي أوائل بعضِ السُّوَر مَوْقِفنا مِنْهَا أن نَقُولَ: اللهُ أَعْلَمُ بمرادِهِ بذلكَ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب قول النبي ﷺ: «فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللهِ»، حديث رقم (٥١٨١)؛ ومسلم، كتاب الأضاحي، باب وقتها، حديث رقم (١٩٦٠)، عن جندب بن سفيان البجلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٣١).

وقد سبقَ فِي درسِ التَّفسيرِ أنَّ الراجحَ من ذلك: أن هَذِهِ الحروفَ هِجائيَّة، وَأَنَّهُ بِمُقْتَضَى كون الْقُرْآن بلسانٍ عربيٍّ يقتضي أَنَّهُ لا مَعنى لها، وذكَرنا أنَّ هَذَا قد رُوِيَ عن مُجاهِدٍ[1]، وأنها حروفٌ هجائيَّة ابْتَدَأَ اللهُ بها لَيْسَ لها معنًى، وَعَلَى هَذَا نَجْزِم بأَنَّه لا مَعْنَى لها ولكِنْ لها مَغْزى، وهوَ: أنَّ هَذَا الْقُرْآن الَّذِي أَعجزَ هَؤُلَاءِ الفُصَحَاءَ البُلَغَاء، إِنَّمَا هُوَ من هَذِهِ الحروف الهجائيَّة الَّتِي يَكُون مِنْهَا كلامهم، يعني ما أَتَى بحروفٍ جديدةٍ؛ لِأَنَّهُ لو أتى بحروفٍ جديدةٍ سيَقُولُونَ: واللهِ هَذِهِ حروفٌ لا نعرِفها، فأَتى بنفس الحروف الَّتِي هم يَتكلَّمون بها.

ويؤيِّد ذلك أَنَّهُ ما من حروفٍ هجائيَّة إِلَّا ويأتي بعدها ذِكْر الْقُرْآن، اللَّهُمَّ إِلَّا فِي سورتينِ أو شِبههما، عَلَى أن هاتينِ السورتينِ مثل: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١-٢]، ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم:١-٢]، فيها ما يدلُّ على القرآنِ، كالإخبار في قولِهِ: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم:٢-٣]، وهَـذَا من خصـائصِ الوحيِ، وقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [العنكبوت:٢]، فيها أيضًا إخبار عمَّن مضَى فِي قوله: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [العنكبوت:٣]... إِلَى آخرِه.

وأمَّا ما زَعَمَه المتأخِّرُون الخالفونَ من أن هَذِهِ الحروفَ تدلّ عَلَى إعجازٍ من نوعِ العددِ والحُسْبَان، حَيْثُ زَعَمُوا أن هَذِهِ الحروف الهجائيَّة يوجد نظيرُها فِي السُّورَة الْمُفْتَتَحَةِ بها، ويَكُون مجموع هَذَا مُنْقَسِمًا عَلَى تسعةَ عشَرَ، ويزعُمون أنَّ هَذَا أكبر آيَة عَلَى أن الْقُرْآن كلام اللهِ. ويَحتجُّون لذلكَ بأنَّ أوَّل آيَة نزلتْ -على زَعْمِهم- هي: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وأنها مكوَّنة من تسعةَ عشَرَ حرفًا، وأن هَذَا

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٠٨).

هُوَ معنى قوله تَعَالَى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠]، وأن التسعةَ عشرَ هِيَ هَذِهِ الحروف.

كُلّ هَذَا -والعياذُ باللهِ- كذِب، ولا يَنطبِق، وَهُوَ متناقِضٌ أيضًا وغير مُطَّرِد، لكِن هم فَرِحوا بهَذَا الكمبيوتر الَّذِي أخرجَ لهم عددَ الحروفِ، وأنها بمجموعها تنقسم. ونحن نَقُول: لا يَمتنِع أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أراد هَذَا، ولَكِنَّنَا نَقُول: لا نَجْزِم بأنَّ الله أراد هَذَا؛ أوَّلًا: لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي ذلكَ إعجازٌ.

والبَشَر قد يَصنَع خطبةً مثلًا أو كلامًا تتكون الحروف الموجودة فِيهِ وتَنقسِم عَلَى هَذَا العدد، أو عَلَى أيّ عددٍ شاء، وَلَيْسَ بِمُعْجِز.

ثُمَّ إن البَسْمَلَة ليستْ أوَّلَ ما نزلَ منَ الْقُرْآن، أوَّل ما نزل ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق:١]، ثُمَّ إنَّ البَسملةَ أيضًا حروفها ليستْ كما قَالُوا: إِنَّهَا تسعةَ عشَرَ؛ لِأَنَّ الْقُرْآن إِنَّمَا نزلَ مَقروءًا، لا مَكتوبًا، وهي بحروفها باعتبار القراءةِ ليستْ كذلكَ، والكتابة كما هُوَ معلومٌ هِيَ صناعةٌ، وربما يُمْكِن أنَّ الكِتابةَ فِي عهد الرَّسُول ﷺ بل وَفِي عهد الخلفاءِ ليستْ عَلَى هَذَا الشكلِ.

فالْآنَ تُوجَد بعضُ اللُّغات يجعلون فيها الحركةَ حرفًا، ويجعلون الحرفَ حرفينِ، أو يَختصرون ويجعلون الحرفينِ حرفًا واحدًا.

فالحاصلُ: أن الْقُرْآن ما نزل مكتوبًا، وإنما نزلَ مقروءًا، ولا حُجَّة فِي ذلك.

إِذَنْ نَقُول: اللهُ أَعْلَمُ بمرادِهِ بذلك، هَذَا أحد الأقوالِ فِي المسألةِ.

والقَوْل الثاني: إِنَّهَا رموز لأَشْيَاء معيَّنة، مثل ما ذهب إليه هَؤُلَاءِ المتأخِّرون، أو مثل ما يَذْكُر بعضُهم أَنَّهَا إشارة إِلَى حروب وملاحمَ تكون فِي آخِرِ الزمان، وما أَشْبَهَهَا.

والثَّالث أن يُقال: إِنَّهُ لَيْسَ لها معنى.

وإذا أُورد علينا: كيف نَجزِم بذلك؟

فالجوابُ: أنَّ هَذَا الْقُرْآن نزل بلغةِ العربِ، ولغةُ العربِ لا تجعل لهَذِهِ الحروفِ معنًى، لكِن إذا قُلْنَا بأنه لَيْسَ لها معنى فَإِنَّما لها مَغزى، يَظهرُ -واللهُ أَعْلَمُ- أن اللهَ أراد بها ذلك.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تِلْكَ﴾ هَذِهِ الآيات ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ آيَاتٌ منه ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مُظْهِر لِلْحَقِّ مِنَ الباطِل، عَطْف بزيادةِ صِفة، هُوَ ﴿هُدًى﴾ هادٍ مِنَ الضَّلَالةِ].

قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ المشارُ إليه لاحِق وَلَيْسَ بسابقٍ، وهَذَا ممَّا تعود فِيهِ الإشارةُ عَلَى متأخِّرٍ لفظًا ورُتْبَةً، وَهُوَ جائزٌ إذا دلَّ الدَّلِيل عليه.

وقوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ يَقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [آيَاتٌ منه]، وإنما لَجَأَ الْمُفَسِّر إِلَى قوله: [آيَاتٌ منه]؛ لأَنَّنا لو أخذنا بظاهرِ الآيَةِ: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ لكان فِي ذلك حَصرٌ للقرآنِ بهَذِهِ الآيات، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ يَعْنِي: هَذَا الَّذِي نشير إليه، ومعلومٌ أنَّ هَذَا لَيْسَ آيَاتِ الْقُرْآن كلَّها، ولكِنَّه بعضٌ منها.

ويجوز أيضًا أن نجعلَ الآيَةَ عَلَى ظاهِرِها ولا حاجة إِلَى التأويلِ، ونَقُول: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ يشار إِلَى بعض الجنسِ بإشارة الجنسِ كلِّه، كما تقول مثلًا: هَذَا البشر، وتشير إِلَى رجل واحدٍ، أو هَذَا الْإِنْسَان وتشير إِلَى رجلٍ واحدٍ.

فالمَعْنى أنَّ الإشارة إِلَى بعضِ الجنسِ بالجنسِ كلّه هَذَا سائغٌ، ولا يحتاج إِلَى تأويلٍ كما قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ يَقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عطف بزيادة صِفَة، هُوَ ﴿هُدًى﴾]، عطف عَلَى (الْقُرْآن).

قال: ﴿طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ وإنَّما وَصَفَ هَذَا الْقُرْآن بالْقُرْآنِ والكتاب؛ لِأَنَّهُ مقروءٌ ومَكْتوبٌ. فَهُوَ مكتوبٌ فِي اللَّوْح المحفوظ، وَهُوَ مقروء بالأَلْسُن، وَهُوَ مكتوبٌ فِي المصاحِفِ أيضًا، فكتابته سابقةٌ ولاحقةٌ، وقراءته لاحقةٌ؛ لِأَنَّهَا بَعْد أنْ تَكَلَّمَ الله به ونزل به جِبريلُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٧-١٨].

قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ الْقُرْآن هل هُوَ مصدر أو مُشْتَقّ؟

مصدر؛ لِأَنَّهُ مثل: الغُفران والشُّكران، فَهُوَ مَصْدَر: قرأ يقرأ، بمعنى: تلا. وَقِيلَ: إِنَّهُ بمعنى جَمَعَ؛ لِأَنَّ القافَ والراءَ تدلّ عَلَى الجمع، ومنه القَرْيَة؛ لِأَنَّهَا مُجْتَمَع النَّاس.

وفي الحقيقة أن الْقُرْآن جامعٌ للوصفينِ، فَهُوَ مَتْلوٌّ وَهُوَ مجموع أيضًا.

وأما قوله: ﴿كِتَابٍ﴾ فهي فِعَال بمعنى مَفْعُول، أي: مَكْتوب. وفِعَال بمعنى مَفْعُول تأتي كثيرًا فِي اللُّغة العربيَّة مثل: بِنَاء بمعنى: مَبْنِيّ، وغِرَاس بمعنى: مَغْرُوس، وفِراش بمعنى: مَفْرُوش، وأمثلتها كثيرة. وسُمِّي كتابًا لِما أَشرنا إليه قبلُ.

وقول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُّبِينٍ﴾ مُظْهِر للحقِّ مِنَ الباطِلِ]، كلمة ﴿مُّبِينٍ﴾ فِعْلُها: (أبانَ)، وأبانَ يأتي لازمًا ويأتي متعدِّيًا، أي: يأتي بمعنى أظهرَ، ويأتي بمعنى بانَ، ولهَذَا تجد المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحيانًا يفسِّر مُبين بمعنى: بَيِّن، وَعَلَى هَذَا التفسير تكون من اللازِمِ. ويُفَسِّرُهَا أحيانًا بمعنى: مُظهِر، فتكون من المتعدِّي.

كما فِي قوله تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة:٢]، معنى (مبين) أي: بَيِّن، أي: فِي ضلالٍ بيّن، فهي من (أبان) اللازِم. وَأَمَّا مثل هَذِهِ الآيَة أن الْقُرْآن مُبين فَهُوَ بمعنى: مظهِر.

وهل يَستلزِم كونه مُظْهِرًا أن يَكُون هُوَ بيِّنًا؟

نعم يَستلزِم، أو نَقُول: إنَّهُ من باب استعمالِ المشترَك فِي مَعْنَيَيْه، والصَّحيح جوازه. وقد سبق هَذَا، فيجوز استعمال المشترك فِي معنييه، والمشترك هُوَ ما اتَّحَدَ لفظُه وتَعَدَّدَ معناه، وسُمِّي بذلك لِأَنَّ المعانيَ مُشْتَرِكة فِي لفظٍ واحدٍ.

والمشترَك الصَّحيحُ أَنَّهُ يجوز استعماله فِي معنييه بشرطينِ، وهما: ألَّا يَقَعَ بينهما تعارُضٌ وأن يَكُون مُحْتَمِلًا لهما.

فإن كَانَ لا يَحتملهما فلا يمكن أن يُحمَلَ عليهما، وإن وقعَ بينهما تعارُضٌ فلا يُمْكِن، لَا بُدَّ أن يَكُون أحدُهما هُوَ المقصودَ.

فِي هَذِهِ الآيَة إذا قُلْنَا: إن مُبين من أبانَ اللازِم، ومن أبان المتعدِّي هل يجوز أو لا يجوز؟

يجوز، وإن كَانَ هَذَا مُشْتَرَكًا لَكِنَّهُ إذا استُعمل فِي مَعْنَيَيه فَإِنَّهُ مستعمَل عَلَى وجهٍ لا تعارُضَ فيه، فالْقُرْآنُ بَيِّن والْقُرْآن أيضًا مُظْهِر. وَعَلَى هَذَا التفسيرِ تكون دلالة (مُبين) عَلَى أن الْقُرْآن بَيِّن دلالةَ مطابَقَةٍ، يَعْنِي: إذا جَعَلْنَا (مبين) مستعملةً فِي المعنيين فالدلالة مطابقةٌ، لكِن لو قُلْنَا: إن (مبين) بمعنى: مُظهِر فدلالته عَلَى كونِه بَيِّنًا من بابِ دلالةِ الالتزامِ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مُظْهِر للحقِّ منَ الباطِل]، هل هُوَ عَلَى عُمُومه أو خَاصّ بما نزلَ به الْقُرْآن؟

يَقُول الله تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وَهُوَ عامٌّ فِي كُلّ شيءٍ، لكِن البَيَان قد يَكُونُ بَيَانًا للشيءِ عَلَى وجهِ التفصيلِ، وقد يَكُون

بَيَانا لأَسْبابِهِ وطُرُقِهِ وأنت امشِ فيها، فالْقُرْآن فِي الحقيقةِ تِبيَان لكلِّ شيءٍ، حَتَّى فِي غيرِ الأُمُورِ الشَّرْعِيَّة يُبيِّنها، لكِن ما يُبيِّن تفصيلَها؛ لِأَنَّ غير الأُمُور الشَّرْعِيَّة خاضع للزمانِ والمكانِ وأفهامِ النَّاسِ وقوَّتهم، لَكِنَّهُ يذكر الأَسْبَاب والطرقَ، وأنت استعمِلْها فِي نفسِكَ.

ولِهذَا إِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيف يَصِحُّ هَذَا القَوْلُ منكم ونحن لا نرَى فِي الْقُرْآن عدد ركعاتِ الصَّلَاة، ولا نرى فيها أَنَّهَا خمسُ صلواتٍ، ولا نرى أنصباءَ الزكاةِ، ولا مقاديرَ الواجبِ فيها، فما هُوَ الجواب؟

فالجواب أن نَقُول: يَكُون الْقُرْآن دالًّا عَلَى هَذَا ببيَان سببِه وطريقِه، فعندنا الْآنَ طريق العلمِ بهَذَا الشَّيْءِ هُوَ ما فسَّره الرَّسُول ﷺ وهَذَا بيَّنه الْقُرْآن، ولا يلزم أن يَكُون هَذَا الْقُرْآن لَا بُدَّ أن يذكر كُلّ التفاصيلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النِّسَاء:٨٠]، وقال تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل:٤٤].

وابنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِصَّة لعنِ النامصةِ والْمُتَنَمِّصَةِ حَيْثُ جاءتْ إليه امرأةٌ فقالت: إنَّا لا نجد هَذَا فِي كتاب الله. فقال: بلى هُوَ فِي كتاب اللهِ. ثُمَّ تلا عليها قوله تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧][1].

فالحاصل: أن الْقُرْآنَ مُبِينٌ لكلِّ شيءٍ، لكِن البَيَان قد يَكُون تفصيليًّا، وهَذَا فِي بعض الأُمُور موجود، كما فِي المواريثِ مثلًا، وَفِي المطلَّقات، فتجد ما يَشِذُّ عن هَذَا إِلَّا مسائل قليلة جدًّا، ومع ذلك بَيَانها موجودٌ عند التأمُّل.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب المتنمصات، حديث رقم (٥٥٩٥)؛ صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة والمتفلجات والمغيرات خلق الله، حديث رقم (٢١٢٥).

فتَفْصيل الفرائضِ تفصيلٌ ما شذَّ عنه شَيْء إِلَّا مسألةٌ واحدَةٌ، وهي الجَدَّة، فهَذِهِ ليستْ مذكورةً فِي الْقُرْآن، لكِن جاءت بها السُّنَّة، وَأَمَّا ما عدا ذلك -حَتَّى المسائل الخلافيَّة، المُشَرَّكَة مثلًا، وكالعُمريتينِ- نجد أَنَّهَا موجودةٌ فِي الْقُرْآن، وكالجدِّ والإخوة نجد أَنَّها موجود بَيَانها فِي الْقُرْآن، لَكِنَّهُ يحتاج إِلَى تأمُّل.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مظهِر للحقِّ من الباطل، عطف بزيادة صفةٍ، هُوَ ﴿هُدًى﴾]، الصِّفة هي ﴿مُّبِينٍ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الْقُرْآنَ آيَة لِما تَضَمَّنَهُ من الأخبارِ الصادقةِ والأحكامِ العادلةِ ... إلخ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الْقُرْآن مكتوبٌ سابقًا ولاحقًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الْقُرْآن مُبَيِّنٌ لكلِّ شيءٍ، وتوجد آيَة صريحةٌ فِي هَذَا الموضوع، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: يُستفاد من هَذِهِ الآيَةِ -وإن كانتْ بعيدةً، ولكِنّي سأبيِّنها- أن الْقُرْآن لا يخرج عن كونِهِ قرآنًا، وإن كُتِبَ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، فَهُوَ كلام الله، سواء قُرِئَ أو كُتِب، وذلك مفهومٌ من قولِهِ: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾، ولا يَكُون آيَة إِلَّا إذا كَانَ من كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

• • ۞ • •

الآيــة (٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:٢].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو ﴿هُدًى﴾]، قدَّرَ المُفَسِّر (هو) لِيُبَيِّن لنا إعرابَ (هدى) فعلى تقديرِه يَكُون (هدى) خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، التَّقْدير: (هو هُدًى).

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هادٍ مِنَ الضَّلالةِ]. ومعلوم أن هُدى مَصْدَر، وأن هادٍ اسمُ فاعلٍ، فيَكُون المُفَسِّر هنا فسَّر المصدرَ باسمِ الفاعلِ، وَفِي تفسيرِهِ نظرٌ؛ لِأَنَّ الأَولى أن يُجْعَل المصدر عَلَى بابه؛ لسببينِ:

السَّبَب الأول: أن تحويل اسْم الفاعل إِلَى المصدر أبلغُ، فإنَّك إذا قلتَ: فلان عَدْلٌ، وفلان عادلٌ، أيُّهما أبلغ؟ عَدْلٌ أبلغُ، يَعْنِي كأنه مصدر العَدْل، لكِن (عادل) متَّصِف بالعدلِ الموجودِ فِي غيرِه، فلَا شَكَّ أن المصدر أبلغُ.

السَّبَب الثاني: أن جعله هدًى معناه: أن الْقُرْآن نفسه هُدًى يَهتدِي به الْإِنْسَان، لَيْسَ هاديًا، بل هُوَ هُدًى يَهتـدي به، فَهُوَ كالعَلَمِ الَّذِي يسير الْإِنْسَان وراءهُ حَتَّى يَصِلَ إِلَى غايته، مثلمـا سمَّاه الله تَعَالَى نُورًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النِّسَاء:١٧٤].

قوله: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بُشرى أيضًا بمعنى: بِشارة، وقَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدِّقين به بالجنَّة].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالجنة]، سَيَأْتي.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدِّقين به]، لا يكفي هنا أن الإيمان مجرَّد التَّصْديق، بل الإيمان الموجود فِي الْقُرْآن لَا بُدَّ فِيهِ من قَبول وإذعانٍ مَعَ التَّصْديقِ، أَمَّا مجرَّد التَّصْديق فلا يَكفي، والدَّلِيل عَلَى أن مجرَّد التَّصْديق لا يكفي: أنَّ أبا طالبٍ كَانَ مصدِّقًا لِمَا جاء به الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويقول[1]:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ

ويقول[2]:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا

لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينًا

فإِذَنْ: هُوَ ما قَبِلَ ولا أذعنَ فليس بمؤمنٍ.

فكلَّما وجدتَ الإِيمانَ فِي كتابِ اللهِ فالمُراد به التَّصْديقُ المستلزِمُ للقبولِ والإذعانِ، فليس مجرَّد تصديق.

فإِذَنْ نَقُول: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدِّقين به القَابِلِين له المُذْعِنين لأحكامِه، لَا بُدَّ من هَذَا.

وقوله: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يُستفاد من ذلك: أَنَّهُ كلَّما كَمُلَ الإيمان فِي العبدِ كمُل اهتداؤُه بالْقُرْآن؛ لِأَنَّ الشَّيْء إذا عُلِّقَ بوصفٍ زاد بزيادة ذلك الوصف ونَقَصَ بنقصِه. فالحُكْم إذا عُلِّق بوصفٍ فإن هَذَا الوصفَ يَزيدُ الحكمُ بزيادتِه ويَنْقُص

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠).

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٨٨).

بِنُقْصَانِه، وهَذَا معلومٌ حَتَّى فِي المحسوسِ، تجد أن الشَّيْء المعلَّق بشيء يزيد بزيادتِه، ويَنْقُص بنُقصانِه، فنَقُول: كلَّما ازداد الْإِنْسَان إيمانًا ازداد اهتداءً بالْقُرْآن، ويدلك عَلَى هَذَا قول الله تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤]، ويدل أيضًا عَلَى هَذَا قولُه تَعَالَى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣].

وأيضًا ﴿وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ البِشَارَة هِيَ الإخبارُ بما يَسُرُّ، وقد تُطْلَق عَلَى الإخبارِ بما يَسُوء، لكِن بقرينةٍ.

وهنا يَقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بُشرى بالجنَّة، ولكِن الصَّحيح أَنَّهَا بُشرى بما هُوَ أعمُّ؛ بالجنَّة وبالعزَّة والكرامة وبالنصرِ، والدَّلِيل قوله تَعَالَى فِي سورة الصفِّ بعدما ذكر الجنة لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ﴾ [الصف:١١-١٢]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصف:١٣]، يَعْنِي: بَشِّرهم بما لهم فِي الجنَّة، وبَشِّرْهُم بما لهم فِي الدُّنْيا مِنَ النصرِ، وكلُّ إِنْسَانٍ بطبيعتِه البَشَرِيَّة يحبّ أنْ يَنتصِرَ عَلَى عدوِّه، ويحب أن يَكُون له العزُّ والكرامة، هَذَا لا يمكِن أن يَكُون إِلَّا بالإيمانِ، وكلَّما ازددنا إيمانًا ازددنا انتصارًا عَلَى عدوِّنا، وكلَّما تَخاذَلْنَا فِي الإيمانِ خُذِلنا، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد:١١].

وإذا أردنا دليلًا عَلَى هَذَا فلننظُرْ إِلَى الَّذِينَ يُطَنْطِنُونَ بالقوميَّة العربيَّة، منذُ مَتَى وهم يطنطنون بها؟

أظنُّه من أوَّل القرن، ومع ذلك لا يزدادونَ إِلَّا تأخُّرًا وضعفًا؛ لِأَنَّهَا ليست

عَلَى إيمانٍ، ولمّا ظهرتْ بادرة الدَّعْوَة إلَى الإسْلام والتضامُن الإسْلاميّ ماذا حصل؟

حاولوا بكلِّ ما يَستطيعون أنْ يَقْضُوا عَلَى هَذَا، لَيْسَ من الدولِ الكافرةِ، بل حَتَّى من الدولِ المسلِمة العربيَّة، وصاروا يَقُولُونَ: إن هَذِهِ دعوة رجعيَّة.. إلَى آخره.

فالحاصل: أننا الْآنَ إذا أردنا أن نرجعَ إلَى العزَّة والكرامة والنصر فلا يَكُون ذلك إلَّا بالإيمانِ.

وقد يَقُول قائلٌ: كيف نَنتصر بالإيمانِ وحدهُ على من لديهم أسلحة فتّاكة متطورة لم نَصل بعدُ إلى امتلاكِ أمثالها؟

نقولُ إنَّ أسبابَ النَّصر هِي:

أولًا: إخلاصُ النِّيَّة لله، بأنْ ننْوي بجهادِنا إعلاءَ كلِمَةِ اللهِ، وتثبيتَ شريعَتِه، وتحكيمَ كِتابه وسُنَّةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثانِيًا: أن نلْتَزم بالصَّبر والتَّقوى، فإنَّ اللهَ مَع الصَّابرين، وإنَّ اللهَ مع المتَّقينَ، علينا أنْ نصبر عَلى الجهادِ، وأنْ نتقِيَ اللهَ تَعالى بامتِثَال أوامِره واجْتناب نواهِيه، فإنَّ مخالَفة أمْر اللهِ ورسولِه مِن أسْباب الخِذْلانِ، فهؤُلاءِ صَحابَةُ محمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَع رسُولِ اللهِ ﷺ خالَف بعْضُهم في أمْر واحِدٍ مِن أوامِر رسُولِ اللهِ ﷺ فِي غزْوَة أُحُدٍ فكانَتِ الهزيمَةُ علَيْهم بعْدَ أنْ كانَ النَّصرُ لـهم فِي أوَّل الأمْر، ولكِن بعْد ذَلك تدارَكَهُم عفْوُ اللهِ فعَفا اللهُ عنْهُم.

ثالِثًا: أنْ نعرف قدْرَ أنفُسِنا وأنَّ لا حوْلَ لَنا ولا قُوَّة إلَّا باللهِ، فلا يأخُذْنا العجبُ بقوَّتِنا وكثْرَتِنا فإنَّ الإعْجابَ بالنَّفْس والاعتِزاز بها مِن دُون اللهِ سبَبٌ للخِذْلان، ولقَد أُعْجِب الصَّحابَة بكَثْرتِهم في يَوْم حُنَيْنٍ فلَمْ تُغْن عنْهُم شيْئًا ثُمَّ ولَّوْا مُدبِرينَ،

ولكِنَّ اللهَ أنْزَل سَكِينتَه عَلى رسُولِه وعَلى المؤْمِنينَ وأنْزَل جُنودًا مِن الملائِكَة فكانَتِ العاقِبَةُ للمُؤمِنين.

رابعًا: أن نُعِدَّ العُدَّة للأعْدَاء مستعمِلِين في كُلِّ وقتٍ وحالٍ ما يُناسِب مِن الأسلِحَة والقُوَّة لنرُدَّ على سِلاح العدُوِّ بالمثْل، فإذا تحقَّقتْ هَذه الأمُورُ الأَرْبعَةُ فإنَّ اللهَ تَعَالَى يقُول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد:٧].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الْقُرْآن هُدًى للناس، والمُراد بالهداية هنا هدايةُ الإرشادِ، كُلّ النَّاس يَسْتَرْشِدُون به لو شاءوا، يعني أن الْقُرْآن لا نَقْصَ فِي دلالته، لكِن هداية التَّوفيق خاصَّة بالمُؤْمِنِينَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الْقُرْآن بُشرى للمُؤْمِنِينَ، بشرى فِي الدُّنْيا بالنصرِ وَفِي الآخِرَة بالجنةِ وبما أُعِدَّ لهم منَ الثواب بالجنَّة، وبالعِزَّة وبالكَرامَةِ وبالنَّصْر.

الآيــة (٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل:٣].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يأتون بها عَلَى وَجْهِها]، أقام الشَّيْءَ: أَتَى به مُستقيمًا، ولا تكون الصَّلَاة مستقيمةً إِلَّا إذا أتى بها عَلَى وَجهها.

وإقامة الصَّلَاة نوعانِ: نوع لَا بُدَّ منه، وَهُوَ الإتيان بالأركانِ والواجباتِ والشروطِ، ونوع يَكُون عَلَى وجهِ الكمالِ، وَهُوَ الإتيان بالمُكَمِّلات من السُّنن وغيرها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يأتون بها عَلَى وَجهها ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ يعطون ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾...]، إِلَى آخِره.

قوله: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هل المُراد الفريضة أو النافلةُ؟

نَقُول: عامٌّ؛ لِأَنَّهُ لا يجوز للإِنْسَانِ أن يأتيَ بالسنَّة مثلًا عَلَى وجهٍ يُنافي الكمالَ الواجبَ، لو قَالَ واحد: أنا سأتطوَّع، لكِن لن أقرأ الفاتحةَ، أليستْ سُنَّة. يجوز أو لا يجوز؟ لا يجوز، نَقُول: الْآنَ يَجِب عليك أن تقرأَ الفاتحة، لو قَالَ: لن أركعَ، لن أسجُدَ لا يمكِن هَذَا، فإذن فِي الآيَةِ الصَّلَاة إقامتها عامَّة فِي الواجب وَفِي التطوُّع.

وقوله: ﴿يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لم يبيِّن المَفْعُول الثانيَ لـ(يؤتون)، لَكِنَّهُ معلومٌ،

والتَّقْدير: (يؤتون الزكاة مُسْتَحِقَّها) وقد بيَّن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مستحِقَّ الزكاة فِي سورةِ بَرَاءَة ببيَان واضحٍ مفصَّلٍ.

وقوله: ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لا حاجة إِلَى تعريفها عندكم لِأَنَّهَا معروفةٌ، وسُمِّيَتْ زكاةً لِأَنَّهَا تُزَكِّي الْإِنْسَان، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ هَذَا ثناء عَلَى الْمُؤتِينَ للزكاة، والسُّورَة كما تقدَّم مكّيّة، فهل معنى ذلك أن الزكاة فُرضت بمَكَّة أو فِي المَدينَة؟

المعروف عند أهلِ العلمِ أَنَّهَا فُرضت فِي المَدينَة، ولكِن الصَّحيح أَنَّهَا فُرضت بمكَّة، ولكِنَّ تقديرَ أنصبائها وبَيَان الأموال عَلَى وجه التفصيلِ كَانَ ذلك فِي المَدينَةِ، هَذَا هُوَ الصَّحيح، وَهُوَ الَّذِي به تَجتمع الأدلَّة.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: تأخّر بَيَان أَنْصِبَة الزكاة إِلَى ما بعدَ الهجرةِ أَلَا يَكُونُ من بابِ تأخيرِ البَيَان عن وقتِ الحاجةِ؟

فالجواب: لا، هَذَا من باب التطوُّر فِي التشريع، فبيَّن الزكاة وتركها موكولةً للإِنْسَان يختار ما يُخْرِج، فيُخْرِج ما شاءَ؛ لأجلِ أن تتعوَّد النفوس، ثُمَّ بَعْد ذلك يَفْرِض عليها الشَّيْءَ الَّذِي أراد اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وهَذَا مِثْلُ غيرِه منَ الأَشْيَاء الَّتِي تطوَّرت: الصَّلَاة فُرِضَتْ ركعتينِ، ثُمَّ أُقِرَّت صلاةُ السفرِ وزِيد فِي صلاة الحَضَر[1].

والزكاة هَكَذَا فُرِضَت أَوَّلًا عَلَى اختيار الْإِنْسَان، ثُمَّ حُددت، والصِّيَام فُرض عَلَى سبيل التخيير ثُمَّ عُيِّن، والحجُّ هُوَ الَّذِي ما أعلمُ فِيهِ إِلَّا أَنَّهُ فُرض مرَّةً واحدةً،

---

(١) رواه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم (٣٥٠)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٦٨٥).

ولكِن السَّبَب فِي ذلك أَنَّهُ أتى فِي السنة التَّاسعةِ أو العاشرةِ بعدَ أنِ استقرَّ الإِيمان فِي القلوبِ، فلا حاجة إِلَى أن تُدَرَّج النفوس من مرحلة إِلَى مرحلة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كيف نَجْمَعُ بينَ حديثِ ابنِ عبَّاس: «**إِنَّ اللهَ فَرَضَ الصَّلَاةَ عَلَى نَبِيِّكُمْ فِي الحَضَرِ أَرْبَعًا وَفِي السَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ**»[1]، وبينَ حديثِ عائشةَ؟

قُلْنَا: أنا لا أَدري صِحَّة هَذَا الحديثِ، وَعَلَى فَرض صِحَّته وقد قالَه ابنُ عبَّاسٍ، فحديثُ عائشةَ أصحُّ، فحديثُ عائشةَ: «**أَوَّل مَا فُرِضَتِ الصَّلَاةُ رَكْعَتَيْنِ**»[2] صَريح صحيحٌ، وَعَلَى هَذَا فالجمعُ أنْ يُقالَ: فُرِضَتْ أربعًا ثُمَّ فُرضتْ ركعتينِ ثُمَّ قُسم إِلَى حَضَر وسفرٍ.

مسألة: هل يجوز التدريجُ فِي الأحكامِ لِمَن يُسْلم؟

الظَّاهر لي أَنَّهُ يجوزُ، وأن نأمرَه بالأهمّ فالأهم، مثلما أمر الرَّسُول ﷺ مُعَاذَ بنَ جَبَلٍ، مَعَ أنَّ الأحكام مستقرَّة. قَالَ: «**أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ إِقَامُ الصَّلَاةِ، ثُمَّ إِيتَاءُ الزَّكَاةِ**»[3] مَعَ أنَّ كُلّ هَذِهِ كانتْ

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم (٦٨٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب التاريخ من أين أرخوا التاريخ، حديث رقم (٣٧٢٠)؛ ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم (٦٨٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النَّبِيّ ﷺ أمته إلى توحيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حديث رقم (٦٩٣٧)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩)، عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ولفظ مسلم: لما بعث النَّبِيّ ﷺ معاذ بن جبل إلى نحو أهل اليمن قال له: «**إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس**».

مفروضةً، وحتى الصوم والحجُّ أيضًا مفروض.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يَعْلَمُونها بالاستدلالِ، وأُعيدَ (هم) لما فُصِلَ بينه وبين الخبر].

قوله: ﴿وَهُم﴾ مُبتدأ و﴿يُوقِنُونَ﴾ خَبَره، و﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾ متعلِّق بـ(يُوقِنون)، ولكِن كلمة ﴿هُمْ﴾ أُعيدتْ مرَّة ثانيةً، فهل هَذَا من بابِ التَّوْكيدِ ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يعني ﴿وَهُم﴾ همُ الَّذِينَ يوقنون دونَ غيرِهم، أو أَنَّهُ كما قَالَ المُفَسِّر: للفصلِ بينه وبين الخبرِ، والفاصلُ قوله: ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾؟

يَحتمل هَذَا وهَذَا، وقد يجوز أن يَكُونَ المُراد الجميع، فبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُم هم أهلُ الإيقانِ، حَيْثُ كرَّر الضَّمير مرتينِ، وكُرِّرَ أيضًا مرتينِ لِطُول الفصلِ بين الخبرِ وبين المبتدأِ بالفاصلِ.

ولكِن الإيقان يَقُول المُفَسِّر: [يعلمونها بالاستدلالِ]، إِنَّمَا قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بالاستدلال؛ لِأَنَّ الْيَقين أخصُّ منَ العلمِ؛ إذ إن الْيَقين معناه: العِلم الَّذِي لا يَتطَرَّق إليه الاحتمالُ، فَهُوَ أعلى درجاتِ العلمِ، وهَذَا إِنَّمَا يَكُون بالاستدلالِ، يعني بالأدلَّة المُبيِّنَةِ المقنِعة، فلهَذَا فسَّر المُفَسِّر الْيَقينَ بأنه: العِلم بالأَشْيَاء عن طريق الاستدلالِ.

وقوله: ﴿بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ هل المُرادُ بالآخِرَة أَنَّهُ يُبعث النَّاس فقطْ؟

نَقُول: لا، فكُلّ ما أخبرَ الله تَعَالَى به ممَّا يَكُون فِي هَذَا اليوم أو أخبر به رسولُه فَإِنَّهُ داخلٌ فِي الآخِرَةِ، بل إن شيخ الإِسْلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُول: إِنَّهُ يدخل فِي الإِيمان باليوم الآخِر كُلّ ما أخبر به النَّبِيّ ﷺ مما يَكُون بَعْد الموت[1].

(١) انظر: العقيدة الواسطية ضمن مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٥).

فعلى هَذَا يَكُون المُراد بالآخِرَة: ما بعدَ الدُّنْيا، فتَشمَل عذابَ القبرِ ونعيمَ القبرِ، وتشمل كذلك الموازينَ فِي يوم القيامةِ والحوضَ المورودَ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وما ذُكِر.

وهل بَقِيَ شيءٌ منَ الإِيمـانِ؟ لِأَنَّهُ ذكر إقام الصَّـلَاة وإيتاء الزكاة والإيقان بالآخِرَة؟

وتقدَّم أن الإِيمـانَ باللهِ يَتضمَّن الإِيمـانَ بالرُّسُل ويَتَضَمَّنُ الإِيمانَ بالكُتُبِ، ويَتَضَمَّنُ الإِيمـانَ بالملائكةِ، بل ويتضمَّن الإِيمانَ باليومِ الآخِرِ، ويتضمَّن الإِيمانَ بالقَدَر؛ لِأَنَّ الإِيمان بالقدرِ من الإِيمانِ بالله؛ لِأَنَّ القَدَر قَدَر الله.

نَقُول: بقِي الصِّيَام والحجُّ، وهما من أركانِ الإِسْلامِ، والجواب عَن ذلك: أن السُّورَة مكّيّة، والصِّيَام والحجّ لم يُفرضا بمكَّة بالاتِّفاقِ، فالصِّيَام فُرض فِي السنة الثَّانِيَة، والحج فُرض فِي السنة التَّاسعة أو العاشرة عَلَى القَوْل الراجِحِ، وَعَلَى هَذَا فليس فِي الآيَة إشكالٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فَضل إقامة الصَّلَاة، وأنها من أوصاف المُؤْمِنِينَ، وفضل إيتاء الزكاة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن محلّ الثَّناء لِلْمُصَلِّين فِي إقامتِها والإتيان بها عَلَى الوجهِ الأكملِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قَرْنُ الصَّلَاة بالزكاة يَدُلّ عَلَى أهميتها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الزَّكاةَ فُرضت بمَكَّة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الأَعْمال من الإِيمان.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن تضييع الصَّلَاة والبُخل بالزكاة ينافي الإِيمان؛ لِأَنَّ الله جعل من أوصاف المؤمنين إقامة الصَّلَاة وإيتاء الزكاة، فمَن لم يكن يقيم الصَّلَاة ولم يؤتِ الزكاة فَهُوَ ناقصُ الإِيمانِ، وقد يَكُون معدومَ الإِيمان بالكُلِّيَّة كما فِي ترك الصَّلَاة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات اليوم الآخِر؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الْإِنْسَان إذا آمَنَ بالشرائعِ الْمُنْزَلَة فَهُوَ كامل الإِيمـانِ، وإن لم يُدْرِكِ الفرائضَ المتأخِّرة، فالَّذِينَ ماتوا من الصحابة قبل فرضِ الصِّيَامِ إسلامهم كاملٌ، بل إن الرجل يمكنُ أن يؤمنَ ويموت قبل أنْ يصلِّيَ صلاةً واحدةً، ويَكُون بذلك كاملَ الإِيمان. يعني إيمانه كامِل وإن كَانَ غيرُه الَّذِي أدركَ أكملَ منه، لَكِنَّهُ هُوَ بالنِّسْبَةِ إليه ما يقال: إيمانه ناقِص -أي أَنَّهُ ناقص نقصًا يُخِلّ به-.

• • ❁ • •

الآيــة (٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل:٤].

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ القَبِيحَةَ بتركيبِ الشَّهْوةِ حَتَّى رَأَوْها حَسَنَةً ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يَتَحَيَّرون فيها لِقُبْحِها عِنْدَنَا].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ أي: لا يُصدِّقون بها؛ لِأَنَّ مَن لم يُصَدِّقْ لا يُمْكِن أن يَقبَلَ أو يُذْعِنَ.

إِذَنْ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ يشمل نفي التَّصْديقِ ونفيَ القبولِ ونفي الإذعانِ. والفَرْقُ بينَ القَبُول والإذعانِ مَعروفٌ، فمثلًا أَقْبَلُ أنَّ هَذَا الشَّيْءَ فُرِض، وأَعْتَقِدُه فرضًا، لكِنْ لا أَفْعَلُه، فالذي تَخَلَّف الإذعانُ.

وأمَّا عَدَمُ القَبولِ فهو أنْ يَرْفُضَ هَذَا ويقول: هَذَا لَيْسَ بِوَاجبٍ ولا نَعْتَرِف بأنَّه فَرْضٌ، وَأَمَّا التَّصْديقُ فَهُوَ الإنكارُ المطلَقُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين التَّصْديقِ والقَبُولِ؟

نَقُول: التَّصْديق: أَنَّهُ يُصَـدِّق بأنَّ هَذَا حقٌّ لَكِنَّهُ لا يَقبَـلُه، يَقُول: نعمْ، هَذَا الرجلُ جاءَ بالحقِّ، لكِن أنا لا أقبله. والقَبـول فِي الغالـبِ يَكُون فِي المعتـقَدات، والإذعان فِي الأَعْمالِ الظَّاهرةِ كأعمال الجوارِحِ.

وقوله: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ﴾ هَذِهِ الجملةُ ﴿زَيَّنَّا﴾ خبرُ إنَّ، وتفيد أن العِلَّة فِي التزيينِ عدم الإيمانِ بالآخِرَةِ، وأن الله تَعَالَى لم يُزَيِّن لهم[1] هَذِهِ الأَعْمـال إِلَّا بسبب عدمِ إيمانِهِم، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

ومن هنا نعرِف أن الَّذِي يزيَّن له سُوءُ عَمَلِه يَكُون ذلك دليلًا عَلَى نقصِ إيمانِه بالآخِرة؛ إذ لو كمُل إيمانُه بالآخِرَةِ لكانَ يعرف الحسن من السَّيِّئ، فيفعل الحسن ويَتَجَنَّب السَّيِّئ، ولكِن لضعفِ إيمانِه بالآخِرَة يحصُل له هَذَا الفِعْل القبيح ويراه حسنًا. ولا حاجة إِلَى أن نُعَدِّد أنواعًا من ذلك؛ لِأَنَّ الأنواع ممَّن زُيِّنَ له سُوءُ عَمَلِه كثيرةٌ جدًّا، فبلَا شَكّ من العَمَل السيِّئ أَنَّهُ إذا نزل فِي أرضٍ أخذَ أربعةَ أحجارٍ ووضعَ ثلاثةً للقِدْرِ وواحدًا يَعْبُده[2].

ولَا شَكَّ أنَّ من العَمَلِ السيِّئ المُزيَّن أن الْإِنْسَان يَتَّخِذُ تمرًا عَلَى صورة صَنَمٍ فيَعْبُده، فإذا جاع أكلَه.

ولَا شَكَّ أنَّ من سُوء العَمَلِ المزيَّن أنَّ الْإِنْسَان يأتي بابنتِهِ -وهي ثَمَرَة فُؤَادِهِ- ويَحفِر لها الحُفرة ويَغْمِسها وهي حيَّة. هَذَا لا يَكُون -والعياذُ بالله- ولا من السِّباع، ومعَ ذلك زُين لقومٍ من أهل الجاهليَّة هَذَا العَمَل؛ حَتَّى إنَّهُم يَقُولُونَ: إنَّهُ يقف عَلَى الحفرة لِيُلْقِيَها، وإذا همَّ أنْ يُلْقِيَها تَشَبَّثَتْ به وتقول: يا أبتِ يا أبتِ! فتستجير به وَهُوَ داؤها! نسألُ اللهَ العافيةَ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يَتَحَيَّرون فيها]، هَذَا -والعياذُ بالله- من عدمِ الإيمانِ أنَّ الْإِنْسَان لا يوفَّق للهداية، تَجِدُه حائرًا؛ لِأَنَّهُ لم يؤمن.

---

(١) نهاية الشريط الأول.

(٢) انظر كتاب الأصنام لأبي المنذر الكلبي (ص:٣٣)، وإغاثة اللهفان (٢/ ٢٢٠).

وأبرزُ مثالٍ لذلكَ: ما يَقَعُ من أهل الكَلامِ منَ الحَيرة؛ لِأَنَّهُم لم يؤمنوا بالله حقَّ الإيمان به، أنكروا صفاتِه وأنكروا ما جاء به كتابه وسنَّة رسوله، فصاروا مُتَحَيِّرين، ولهَذَا قَالَ بعض النَّاس: أكثرُ النَّاسِ شكًّا عندَ الموتِ أهلُ الكَـلامِ[1]. والعياذُ باللهِ؛ لِأَنَّهُم -نسألُ اللهَ العافيةَ- ما آمنوا.

فكلُّ إِنْسَان يضعُف إيمانه فَإِنَّهُ يَتَرَتَّب عليه هَذَانِ الأَمْرانِ السيِّئانِ:

أولًا: تَزيينُ العَمَلِ السيِّئ فِي عينِه حَتَّى يمارسَه ولا يُنتزع منه.

والثاني: شَكُّه وحَيْرته وتردُّده.

بهَذَا نعرِف أَنَّهُ كلَّما قَوِيَ الإيمانُ بالآخِرَةِ عَرَفَ الْإِنْسَانُ القبيحَ ولم يَتَرَدَّدْ فيه؛ لِأَنَّ هَذِهِ نتيجة عملية حسابيَّة: إذا كَانَ هَذَا الوصف يقتضي هَذَا الوصف فعدمه يَقتضي عَدَمه، فهي مُعَادَلَةٌ بَيِّنَة جدًّا. فالَّذِينَ لا يؤمنون بالآخِرَة ابتُلوا بهذينِ الأَمْرينِ، والَّذِينَ يؤمنون بالآخِرَةِ يَنتفي عنهم هَذَان الأَمْرانِ، نسألُ الله أن يَجْعَلَنَا من الْمُؤْمِنِينَ.

مسألة: ومن آمنَ بالآخِرَةِ من الصُّوفِيَّة؟

الصوفية لَيْسَ عندهم إيمانٌ حقيقةً، لو كَانَ عندهم إيمان حقيقةً ما زُيِّن لهم؛ لِأَنَّ هَذِهِ الآيَة مِقياس، فكُلّ إِنْسَانٍ يُزيَّن له سوءُ عَمَله فاعلمْ أَنَّهُ ناقصُ الإيمانِ؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ عندهم إيمان حقيقيّ فما الَّذِي يُخرِجهم عن طريق الرَّسُول ﷺ؟!

إِذَنْ: كلَّما ضَعُفَ الإيمان بالآخِرَة ازداد تزيينُ القبيحِ فِي عينِ الْإِنْسَان، وكلما ازدادَ إيمانه بالآخِرَةِ كَرِهَ القبائحَ، وهَذَا أمرٌ مُسَلَّم الآن.

---

(١) القول منسوب لأبي حامد الغزالي، انظر مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عُقُوبة مَن لم يُؤْمِن بالآخِرَةِ بهَذِهِ العقوبةِ العظيمةِ، وهي تزيينُ الأَعْمالِ السيِّئة لا الحسنةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ كلَّما آمَنَ الْإِنْسَان بالآخِرَةِ اتَّضَحَ له الحقُّ؛ لِأَنَّ الإِيمانَ بالآخِرَةِ يَستلزِم أن الْإِنْسَانَ يَرَى الحقَّ حقًّا ويرى الباطلَ باطلًا، فلا يزين له الباطِل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الجزاءَ من جنسِ العَمَلِ؛ لِأَنَّهُم لَمّا لم يُوقِنوا بالآخِرَة مَعَ وُضُوحها اشتبهَ عليهم الحقُّ مَعَ وضوحِه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ عدمَ الإِيمانِ بالآخِرَةِ سببٌ للحَيْرة، لِقَوْلِهِ: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾، وَعَلَى هَذَا فالإِيمانُ بالآخِرَةِ سببٌ لِلْيَقِينِ والنُّورِ، وهَذَا أيضًا أمرٌ مُشاهَدٌ، والْإِنْسَان ما يُصاب بعدمِ الْيَقينِ إِلَّا بسببِ أعمالِهِ، ونقصِ إيمانِهِ، وكلَّما قَوِيَ الإِيمانُ فإنَّ معرفةَ الْإِنْسَان تزدادُ، حَتَّى فِي الأُمُورِ غير العلميَّة الشَّرْعِيَّة، فيعطيه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِراسةً يَتَبَيَّن بها الأَشْيَاءَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وُجُوب الإِيمانِ باليومِ الآخِرِ، بدليلِ عقوبةِ مَن لم يؤمنْ به، فهَذِهِ العقوبةُ العظيمةُ تدلّ عَلَى وجوبِ الإِيمانِ به.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الردُّ عَلَى الْقَدَرِيَّة، ففي الآيَةِ دليلٌ عَلَى مذهَب أهلِ السنَّة والجماعة فِي الردّ عَلَى الْقَدَرِيَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ لِأَنَّ تزيينَ العَمَلِ لهم هُوَ سببُ ضَلالهم، فتُزَيَّن لهم الأَعْمالُ السيئة فيَعْمَلُونها، فَلِلَّهِ تَعَالَى تأثيرٌ فِي أفعالِهم، فكون الله تَعَالَى يقولُ: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ فيَنْسُبُ تَزْيِينَ العَمَلِ إليه يَدُلّ عَلَى نَقيضِ قولِهم، وإلَّا فهم يؤمنون بالآخِرَة ويرَون أَنَّهُم مسلِمونَ، لكِنَّهم لا يؤمنون بأنَّ الله تَعَالَى له تعلُّق بفعلِ العبدِ، فأفعال العبدِ عِندَهم لَيْسَ لله فيها تعلُّق إطلاقًا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: قوله: ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فِيهِ نِسبة الأفعال للعبدِ، ففيه ردٌّ عَلَى الجَبْرِيَّة؛ لِأَنَّ الجبريَّة لا يَنْسُبُون العَمَلَ للإِنْسَانِ إِلَّا عَلَى سبيلِ المَجاز؛ إذ إِنَّهُم يَرَوْنَ أَنَّ الْإِنْسَان مُجْبَرٌ عَلَى العَمَلِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لا يؤمنون بالآخِرَةِ يَرَوْنَ أَنَّ أعمالهم حَسَنَة، ولهَذَا يُصِرُّونَ عليها، وقد قَالَ أبو سُفيان فِي أُحد: اعْلُ هُبَل.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كونهم يرون أَنَّ أعمالهم حسنة، ولهَذَا يُصِرُّون عليها أَلَا يُشكِل عليه ما ذَكَرْناه من أَنَّهُم فِي حَيرة وقلقٍ؟

قُلْنَا: هم فِي حَيرة بالنِّسْبَة للإيمانِ بالآخِرَةِ، لكِن عندما يَستمِرُّون فِي هَذِهِ الأَعْمال يرونَ أَنَّهُم عَلَى حقٍّ، فَهُمْ يَعْمَلُون المَعاصِيَ وتُزين لهم ويَرَوْنَ أَنَّهُ لا بأسَ بها، فالَّذِينَ يُرابون يَرَوْن أَنَّ الرِّبا مصدرٌ اقتصاديٌّ، وَأَنَّهُ لا بأس به، والَّذِينَ يَلْعَبُونَ الشِّطْرَنْجَ يَقُولُونَ: هَذَا عَمَلٌ طيِّبٌ لِأَنَّهُ يُنمِّي الفِكر والعقل، ومثلهم أصحاب السَّرِقَات وغَيرهم، المهمّ أن هَؤُلَاءِ متحيِّرون فِي أمرِهِم كلِّه، حَتَّى فِي أمرِ الآخِرَةِ ما عندهم يَقين، والواحد منهم يَزعُم أَنَّ نتيجة هَذَا العَمَل السيِّئ بالنِّسْبَة لهُ حَسَنة، ولهَذَا زُيِّن لهُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعض أهل المَعاصِي يَعترِف أَنَّهُ عَلَى خطأٍ، لكِن يَقُول: الله غَفور رحيم؟

قُلْنَا: هَذَا مُزَيَّن له، وَهُوَ من الرجاءِ فِي غيرِ مَحَلِّه، ومَن كَانَ يرجو اللهَ أَنْ يَغفرَ له فِي غير محلِّه فهَذَا من سُوء العَمَلِ، فـ «**الْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ**»[1]

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم (٢٤٥٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم (٤٢٦٠).

الْأَمَانِيَّ، والمعاصِي شامِلَةٌ الْكُفَّارَ وغيرَ الكفارِ، وكلُّ مَن عصَى اللهَ ففيه نقص بالإِيمان بالآخِرة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ الرجل الَّذِي يَستحسِن القبائحَ يُمْكِن نَسْتَنْتِج أَنَّهُ ضعيف الإِيمانِ بالآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُ لو قَوِيَ إيمانُه بالآخِرَةِ ما حَسُنَ فِي نفسِهِ قبائح الأَعْمال، وهَذِهِ الآيَةُ تَدُلُّ عليه.

• • ۞ • •

الآيــة (٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ [النمل:٥].

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أشدُّه فِي الدُّنْيا القَتْـل والأَسْر].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المشارُ إليه الَّذِيـنَ لا يؤمنـون بالآخِـرَةِ، لَمَّا ذكر -والعياذ بالله- طريقهم وَأَنَّهُ زُين لهم سُوء أعمالِهم، ذَكَرَ جزاءَهم ومآلَهُم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾.

قيَّده المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما يَكُون فِي الدُّنْيا مِنَ الأسرِ والقتلِ، ولكِنَّه لا يَنبغي أن يُقَيَّد به، بل يقال: إن هَذَا من سُوء العذابِ الَّذِي يَنالهم، وهم ينالونَ سوء العذابِ فِي الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ، ومن أجلِ ذلك لم يكنْ لهم نصيبٌ فِي الآخِرَةِ، بل قَالَ: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾: ﴿هُمۡ﴾ الأُولى مبتدأٌ، والثَّانِيَة توكيدٌ، ويجوز أن تكونَ ضَميرَ فَصلٍ، لكِن لَمّا سبقَ لها نظير وهي كلمة ﴿هُمۡ﴾ فالأحسن أن تكونَ توكيدًا، ونستفيدُ الحصرَ من تعريفِ المبتدأِ والخبر فِي قولِه: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾. والأخسرُ اسمُ تفضيلٍ، مأخوذ من الخُسران وَهُوَ النقصُ. وحَصْرُ الأخسريَّة فيهم

دليل عَلَى أن هناك خسارةً لغيرِهم، لكِن هم الأخسرونَ.

والخسارة الَّتِي تكون لِغَيْـرِهم هي أنَّ الفُسَّاق من المُؤْمِنيـنَ يُعذَّبُون بقَـدْرِ ذنوبهم، وهَذِهِ خسارة؛ لِأَنَّهُ لم يكمل لهم النعيم فِي الآخِـرَةِ، حَيْثُ عُـذِّبوا عَلَى ما فعلوا من الذنوبِ، فهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ نقصٌ وَأَنَّهُ خسارة، ولكِن الأخسر هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُخلَّدونَ فِي النَّار، ولهَذَا يَقُول المُفَسِّـر: [لِمَصِيـرِهِمْ إِلَى النَّار المؤبَّدَةِ عَلَيْهِمْ]، فهم الأخسرونَ.

فعليه يَكُون النَّاس فِي الآخِرَةِ ينقسمونَ إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ: رابحونَ، وخاسرون، وأخسرون.

فالرابِحُ: الَّذِي مَنَّ اللهُ عليه فخرجَ منَ الدُّنيا وَهُوَ لا يَستحِـقّ العقابَ فِي الآخِرَةِ، سواء كَانَ ذلك بتوبةٍ، أو بمصائبَ تُكَفِّر، أو بأعمالٍ صالحةٍ جليلةٍ جدًّا تَضْمَحِلّ معها الأَعْمالُ السيئة، مثل أهلِ بَدْر، قَالَ الله تَعَالَى لهم: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[1]، لو عَمِلوا مهما عَمِلوا مِنَ الذنوبِ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَغْفِرها لهم بسببِ الحسنةِ العظيمةِ الَّتِي قاموا بها فِي غزوةِ بدرٍ.

وقد يَعْفُو الله أيضًا عن هَذَا الْإِنْسَان الَّذِي عَمِلَ سَيِّئًا فِي الدُّنيا؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى يَقُول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّسَاء:٤٨]، فتكون حالُه فِي الآخِرة تامَّة.

الثاني: الخاسِر غيـر الأَخْسر، وَهُوَ الَّذِي أصابَ بعضَ الذنوبِ، ولم يُقَدَّر له

---

(١) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب ما جاء في المتأولين، حديث رقم (٦٥٤٠)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، باب من فضائل أهل بدر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وقصة حاطب بن أبي بلتعة، حديث رقم (٢٤٩٤)، عن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الخَلاصُ منها، فعُوقِب عليها، فصاحب المَعاصِي مِنَ المُؤْمِنِينَ هُوَ فِي حُكْمِ الخاسرينَ، لَكِنَّهُ لَيْسَ الأخسرَ.

الثَّالث: الأخسرُ، وهُوَ الَّذِي لا حَظَّ له فِي الآخِرَةِ، وما لَه فِي الآخِرَةِ مِن خَلاقٍ، وهمُ الكفَّارُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّهُم الأخسرونَ فِي الآخِرَةِ فقطْ ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

وهل يَلزم أن يَكُونوا همُ الأخسرينَ فِي الدُّنْيا؟

لا يَلزم، فلا يُفهم من الآيَة أَنَّهُم رابحـون فِي الدُّنْيا، يُفهم من الآيَة أَنَّهُم فِي الدُّنْيا مسكوتٌ عنهم، قد يَربحون وقد يخسرون، وَعَلَى رأيِ المُفَسِّـر لَيْسَ لهم حظٌّ فِي الدُّنْيا؛ لِأَنَّهُ قَالَ: إن العذابَ معناه القتلُ والأَسْر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات سُـوء العذابِ لهَـؤُلَاءِ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ، هَـذَا الَّذِي اخترناه، وَهُوَ العموم، والمُفَسِّر يرى أَنَّهُ فِي الدُّنْيا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُم ليس لهم حظٌّ فِي الآخِرة أبدًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن النَّاس فِي الآخِرَةِ ثلاثةُ أقسامٍ: أَخْسَرُون، وخاسرون، ورابحون.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَنَوُّع العذابِ لِتَنَوُّع المَعاصِي؛ لِأَنَّ الجزاءَ مِن جِنس العَمَلِ.

الْفَائِدَةُ السَّادسَةُ: إثبات الآخِرة لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابعَةُ: أنَّ مَن لم يؤمنْ بالآخِرَةِ فَهُوَ كافرٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾،

هَذَا إذا أَعَدْنا الآيَةَ عَلَى ما قبلُ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ هَذَا خبرٌ بأنهم خاسرون فِي الآخِرَةِ؛ لِأَنَّ الآيَة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ [النمل:٤]. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: حصر الخسرانَ فِي هَؤُلَاءِ، ولَا شَكَّ أَنَّهُم هم الأخسرونَ، وغيرهم ولو خَسِروا فليسوا بهَذَا الوصفِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الردُّ عَلَى الخوارجِ والمُعْتَزِلَة؛ لأَنَّنا لو قُلْنَا: إن أهل الكَبائِر الَّذِينَ يؤمنون بالآخِرَةِ مخلَّدون فِي النَّار لاتَّصَفُوا بهَذَا الوصفِ وكانوا من الأخسرينَ، مَعَ أنَّ الله إِنَّما حَصَرَ الأخسرَ فِي الَّذِينَ لا يؤمنونَ بالآخِرَةِ.

الفَائِدَةُ العاشرة: بلاغة الْقُرْآن الكريمِ، حَيْثُ إِنَّهُ يُبَيِّن أحوالَ الكَافِرِينَ للتحذير منها.

• • ۞ • •

الآيــة (٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦].

قوله: ﴿وَإِنَّكَ﴾ خِطَاب للنبيِّ ﷺ، وهَذَا الخطابُ مؤكَّـد بـ(إن) ثُمَّ مؤكَّـد بتأكيدٍ آخرَ، وَهُوَ قوله: ﴿لَتُلَقَّى﴾ لِأَنَّ اللامَ هَذِهِ للتَّوكيدِ، ويقال: إِنَّهَا اللام المُزَحْلَقَة، والمُزَحْلَق يعني المؤخَّر. يَقُولُونَ: إن الأَصْل أن تكونَ فِي أوَّل الكَلام، ولكِن لمّا كَانَ فِي أول الكَلام مُؤَكِّد غيرها صار الأنسب أن تؤخَّر؛ لِئَلَّا يَجتمِع مؤكِّدان فِي مكانٍ واحدٍ، وإلا هِيَ تُسمَّى لام التَّوْكيد. ومَحَلُّها فِي أوَّل الجملة، ولَكِنَّهَا زُحلقت من أجلِ أنَّ فِي أول الجملة مؤكِّدًا آخرَ.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ يُلقى عليك بِشِدَّة ﴿مِن لَّدُنْ﴾ من عند ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ فِي ذلك...]، إِلَى آخره.

﴿لَتُلَقَّى﴾ معنى التَّلقية: التلقينُ والإعطاءُ، لَقَّيْتُه كذا بمعنى لَقَّنْتُه إيَّاه إذا كَانَ ذِكرًا، وأعطيته إيَّاه إذا كَانَ عَينًا، وهنا الْقُرْآن ذِكْر لَيْسَ عينًا يُعطَى ولكِنَّه ذِكْرٌ يُلَقَّنُ، والنَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَانَ يُلَقَّن الْقُرْآن، وَكَانَ إذا سَمِعَهُ مِن جِبريل فِي أوَّل الأَمْرِ يَتَعَجَّل ﷺ بقراءته، فنهاه الله عن ذلك[1]، قَالَ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾، حديث رقم (٤٦٤٣)؛ صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الاستماع للقراءة، حديث رقم (٤٤٨).

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٧]، هذا ضمان مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يَجْمَعَهُ ويَقْرَأَهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨-١٩]، أي: بَيانه لفظًا، ومعنًى، وحُكْمًا.

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ سبق معنى الْقُرْآن، وَأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِن قَرَأَ بمعنى: تلا، ومن قرأ بمعنى: جَمَعَ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يُلْقَى عليك بِشِدَّة] من أين أخذ كلمةَ بشدَّةٍ من اللفظ؟ من قوله: ﴿لَتُلَقَّى﴾ ولم يقلْ: تَلَقَّى أنت، فهو يُلقَّاه، فكأنه يشعر بالشدَّة، ولكِنه ما يَتَبَيَّن لي كثيرًا، ودلالة تلقى عليه فيها غُمُوض، إِنَّمَا لَا شَكَّ أَنَّ الرَّسُول ﷺ يجد من تلقِّي الوحي شِدَّة.

وقوله: [﴿مِن لَّدُنْ﴾ من عند]، يعني أن ﴿لَّدُنْ﴾ بمعنى عند، ويقال فيها أيضًا: لدى، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق:٢٩]، وقال تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥]، لَدُنّا هي: لَدُنْ، ولَدَيَّ هي: لدى، فيقال هَذَا وهَذَا، ولكِن الْقُرْآن كما هُوَ معلومٌ تَوْقِيفِيّ، لا يُمْكِن أنْ نُبدِّل لفظًا بدلَ آخرَ، ولو كَانَ بمعناهُ.

وقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ المُراد به اللهُ جَلَّ ذِكْرُه.

والحكيم تَقَدَّمَ أَنَّهُ مشتقٌّ مِنَ الحُكْمِ والإِحْكَامِ الَّذِي بمعنى الإتقانِ، وَهُوَ الحِكْمَة.

والحكمُ الثابتُ للهِ عَزَّوَجَلَّ أو المُتَّصِف به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَنْقَسِم إِلَى قسمينِ: حُكْم شَرْعِي، وحكم قَدَريّ.

فالحُكْمُ الشَّرْعِيّ كثيرٌ فِي الْقُرْآن، كما فِي قولِه تَعَالَى فِي سُورة المُمْتَحِنَة لَمَّا ذكر

أحكام النِّسَاءِ المهاجراتِ قَالَ: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:١٠]، والحُكْم القَدَرِي مثل قول أخي يُوسُف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ [يوسف:٨٠]، يعني يُقدِّر، لا يَنتظر حُكمًا شَرْعِيًّا، بل يَنْتَظِر حكمًا قَدَريًّا. والحكم الشَّرْعِيّ هل يمكن مخالفتُه؟ نعم يُمْكِن، فمِنَ النَّاسِ مَن يَقْبَلُه ومنَ النَّاسِ مَن لا يقبلُه. والحُكم القَدَرِي لا يُمْكِن مخالفتُه، إذن فَهُوَ واقعٌ لا مَحالةَ، فإذا حَكَمَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بشيءٍ قَدَرًا فَهُوَ واقعٌ لا محالةَ.

مسألة: الحُكْم الشَّرْعِيّ محبوبٌ لله أو مبغوضٌ إليه؟ محبوبٌ ومبغوضٌ، فإذا حَكَم بفعلِ الشَّيْءِ فَهُوَ محبوبٌ، وإنْ حَكَمَ بتركِه فَهُوَ مكروهٌ. فاللهُ تَعَالَى حَكَمَ بتحريمِ الزِّنَا مثلًا وَهُوَ مكروهٌ له، وحَكَمَ بتحريمِ الشِّركِ وَهُوَ مكروهٌ له.

والحُكم الكونيُّ كذلك، فِيهِ محبوبٌ وفيه مكروهٌ لله، ولا يمكن أنْ نُعارِضَ ذلك فنَقُول: كيف يَقَع الحُكْمُ الكونيُّ وَهُوَ مكروهٌ له؟ إذن معناه أن الله يُجْبَرُ، يَعْنِي يفعل شيئًا وَهُوَ يَكْرَهُه، وهَذَا ما يَكُونُ إلَّا فِي فاعلٍ يُجْبَر، فهل الله تَعَالَى يُجْبَر؟

نَقُول: لا، إذنْ كيف تقول: إن فِي الحُكْم الكونيّ ما هُوَ مكروهٌ لله؟

نَقُول: معناه هُوَ مكروهٌ من وجهٍ ومحبوبٌ من وجهٍ آخرَ، فَهُوَ من حَيْثُ ذَاتُهُ مكروه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كالمَعاصِي، فالله تَعَالَى يقدِّر المَعاصِيَ مَعَ أَنَّهُ يَكْرَهُها، لَكِنَّهُ محبوبٌ إليه من وجهٍ آخرَ، ويَكُون هَذَا الوجهُ أقوى منَ الوجهِ الآخرِ فيقع هَذَا الشَّيْءُ.

إِذَنْ: حَكيم مُشْتَقَّة مِنَ الحُكْمِ والإحكامِ، والحُكْم المتَّصِف به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَنقسم إِلَى قسمينِ: كَوْنِيّ وشَرْعِيّ، ولكلٍّ مِنْهما حُكْم، فالحُكْمُ الشَّرْعِيّ لا يَلزَم منه وُقوع المحكومِ به؛ لِأَنَّهُ قد يَقَع وقد لا يقعُ، والحكمُ الكونيُّ يَلزَم منه وقوعُ المحكومِ

به بكلِّ حالٍ. أَمَّا انقسامهما من حَيْثُ الكراهةُ والبُغْضُ للهِ فنَقُولُ: كلاهما محبوبٌ ومكروهٌ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالحكم الشَّرْعِيُّ منه محبوبٌ ومنه مكروهٌ، بمعنى المحكوم به، يعني مثلًا حَكَمَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بتحريمِ الزِّنَا لِأَنَّ الزِّنَا مكروهٌ إليه، وحَكَمَ بوجوبِ الصَّلَاةِ لِأَنَّ الصَّلَاة محبوبةٌ إليه، وَأَمَّا نفسُ الحُكْم الَّذِي هُوَ فِعْلُه فهَذَا أمرٌ معروفٌ أَنَّهُ ما حَكَمَ بهَذَا الشَّيْءِ إِلَّا وَهُوَ يحبُّ أن يَكُونَ كذلك؛ فيحب ترك الزِّنَا ويحب فِعْلُ الصَّلَاة.

أَمَّا بالنِّسْبَةِ للإِحْكَام، فالإحكامُ بمعنى الإتقان، وهو الحِكْمة، أي تَنْزِيل الأَشْيَاء فِي مَنَازِلها ووَضْعها فِي مَوَاضِعها، فلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا إتقانٌ، واللهُ تَعَالَى متَّصِفٌ بالحِكْمَةِ البالغةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ [القمر:٥]، فهي وضعُ الأَشْيَاءِ فِي مواضعها.

وقد ذَكَرْنا فِي التَّوحيدِ ونُعِيده الْآنَ للتذكيرِ؛ أَنَّ الحِكْمَةَ تكونُ فِي صورةِ الشَّيْءِ، وَفِي غايتِه؛ فِي صورة الشَّيْءِ ووقوعِهِ عَلَى هَذَا النحو، وتكونُ أيضًا فِي غايةِ هَذَا الشَّيْء، وتكونُ الحِكْمَةُ فِي الأُمُور الشَّرْعِيَّة وَفِي الأُمُور الْقَدَرِيَّة؛ لِأَنَّ الحُكْمين السابقينِ -الكونيّ والشرعيّ- كلاهما مُشتمِل عَلَى الحِكمةِ، فعلى هَذَا تكون الحِكْمَة فِي الأحكامِ الكونيَّة وَفِي الأحكام الشَّرْعِيَّة، وتكون صوريَّة، بمعنى أَنَّهُ عَلَى هَذِهِ الصورة المعينة حِكمة، وغائيَّة بمعنى ما ينتج منه من الغايات المحمودةِ.

عندما تَتَأَمَّل الشَّرِيعَة تَجِد أنَّ وَضْعَها عَلَى ما هِيَ عليه فِي غايةِ الحِكْمَةِ؛ لِأَنَّهَا كلَّها تَنْشُدُ المصالحَ وتَدْرَأُ المفاسدَ، هَذِهِ القاعدة الْعَامَّة فِي الشَّرِيعَة. إذن فهي عَلَى هَذَا الوجهِ أو بهَذِهِ الصورةِ موافِقَةٌ للحِكمة.

ثم هناك الحِكْمَة الغائيَّة: فثَمَرَةُ هَذِهِ الشَّـرِيعَة والتمسُّك بها هِيَ السعادةُ فِي الدُّنْيا وَفِي الآخِرَة، وهَذِهِ لَا شَكَّ أَنَّهَا غاية محمودةٌ، وأن تشريعَ الأُمُورِ من أجلِ هَذِهِ الغايةِ حِكْمَةٌ.

كذلك نأتي إِلَى الأُمُور الْقَدَرِيَّة، نَقُول: الأُمُور الْقَدَرِيَّة أيضًا وَضْعُها عَلَى ما هِيَ عليه بهَذِهِ الصورةِ هُوَ حِكْمة، ثُمَّ الغاية مِنْهَا حِكْمَة أيضًا، ولكِن هَذِهِ الحِكْمَة فِي صورةِ الشَّيْءِ وَفِي غايةِ الشَّيْءِ شَرعًا أو قَدَرًا قد تكونُ معلومةً للعبادِ، وقد تكونُ مجهولةً. وفَرْضُنَا نحن فيما نَجْهَلُه من حُكْمِ هَذِهِ الأُمُورِ الإِيمانُ والتسليمُ، نحن نؤمنُ بأنَّه ما من شيءٍ يَشْرَعُه الله وما من شيءٍ يَفْعَلُه الله إِلَّا وله حِكْمَةٌ، ويَجِبُ علينا أنْ نُؤْمِنَ بهَذَا؛ لِأَنَّ هَذَا مقتضَى وصفِهِ بالحكيمِ، لَكِنَّنَا قد نفهم هَذَا الشَّيْء وقد لا نَفهمه، قَالَ تَعَالَى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ لا تُؤتى كُلَّ النَّاسِ ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]، لكِنْ عَلَيْنَا أنْ نُؤْمِنَ هَذَا الإِيمانَ، ونحن إذا آمنَّا هَذَا الإِيمـان فسوفَ نَسْتَسْلِمُ وسوفَ نَرضى بالشرعِ وبالقدرِ؛ لأَنَّنا نعلم أن هَذَا لحكمةٍ.

عندما نَتَأَمَّل الْآنَ أحوال الْمُسلِمِيـنَ وضَعْفَ دِينِهم وانصرافَهم عنِ الدِّينِ، لَا شَكَّ أن هَذَا يُهِمُّنا ويُحزِننا، ولَكِنَّنَا إذا نَظَرْنا إليه من جهةٍ أخرى وجدنا أَنَّهُ مقدَّر من جهةِ اللهِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أن يَكُونَ، فلهَذَا حِكْمَةٌ لَكِنَّنَا قد لا نَعْلَمُها نحنُ. وهَذَا يَجِب أن تَجْعَلَه جاريًا عَلَى جميعِ أحوالِكَ الخاصَّة والْعَامَّة، أنك تَتيَقَّن أنَّ هَذَا لِحِكْمَةٍ، ولكِن تَيَقُّننا للحكمةِ لا يَمْنَعُنا من فعلِ الأَسْبَاب الشَّرْعِيَّة الَّتِي أُمرنا بها.

ومثالُ ذلك هَذَا المثال الَّذِي ذَكَرْنا؛ مسألة ضَعْف الْمُسلِمينَ وانْصِرَافِهم، هَذَا يُوجِب لنا أن نَتحرَّكَ أكثر للدعوةِ إِلَى الإِسْلامِ وبَيَان محاسنِهِ، والتحذيرِ من مخالفتِه،

وسُوءِ العاقبةِ للعُصَاةِ والفاسقينَ، وهَذَا مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ يَتَحَرَّكَ أهلُ الخير للدعوةِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبَيَان الحقّ وبَيَان العاقبةِ الحميدةِ لِمَن تَمَسَّكَ بدينِ اللهِ؛ لأجل أنْ يَكْثُرَ ثوابُهم ولأجلِ أنْ يَدْخُلَ النَّاس فِي دين اللهِ عنِ اقتناعٍ؛ لأني أتصوَّرُ أن النَّاس لو مثلًا وُجِدُوا عَلَى حالةٍ معيَّنةٍ فهم لا يُدْرِكُون هَذِهِ الحالة المعينة عَلَى حقيقتها؛ لِأَنَّهَا أمرٌ معتادٌ عندهم، وقد لا يَفهمون ما يَنْتُجُ عنها من خيرٍ أو من شرٍّ، لكِن عندما يُوغِلون فِي الشرّ ويَنتَهُون إِلَى غايتِه، ثُمَّ يُبَيَّنُ لهم الحقّ ويَرجعون إليه، يَكُون هَذَا أحسنَ حالًا منَ الحالِ الأُولى، وهم الَّذِينَ وجدوا آباءَهم عَلَى شيءٍ فَمَشَوا عليه؛ لِأَنَّهُم الْآنَ سوف يأتون عنِ اقتناعٍ وعن محبَّة لهَذَا الأَمْرِ الجديدِ الَّذِي بُيِّن لهم.

ولذلك الْآنَ -والحمدُ لله- هُنَاكَ بادرةٌ طيِّبة فِي جميعِ الأقطارِ الإِسْلاميَّة، وهي بادرةُ الرجوعِ إِلَى الإِسْلامِ عنِ اقتناعٍ، ولَا شَكَّ في ذلك، وهَذَا منَ الحِكْمَةِ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُقَدِّر مثل هَذِهِ الأُمُورِ المكروهةِ فِي الدينِ لأجلِ أنْ تكونَ غايةً لِما هُوَ أحمدُ.

قوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ العليم معناه المتَّصِف بالعِلْم، والعلمُ كما حدَّه أهلُ الأصولِ: هُوَ إدراكُ الشَّيْءِ عَلَى ما هُوَ عليه إدراكًا جازمًا مطابقًا. ولَا شَكَّ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له مِن هَذَا الوصفِ أَتَمُّه وأعلاهُ، فَهُوَ عليمٌ عِلمًا مُطْلَقًا، لم يُسْبَق بجهلٍ ولم يُلحَق بنسيانٍ، ولا يُحَدُّ بحدٍّ. وعلم المخلوق مسبوقٌ بالجهلِ وملحَقٌ بالنسيانِ ومحدودٌ أيضًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، بِخِلافِ علمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهنا قُدِّمَ الحكيمُ عَلَى العليمِ، وأكثر ما يَرِد فِي الْقُرْآن تقديمُ العليمِ عَلَى الحكيمِ، فما هِيَ الحِكْمَةُ من تقديمِ الحكيمِ هنا عَلَى العليمِ؟

نَقُول: الْقُرْآنُ مُشتمِلٌ عَلَى الشَّرِيعَةِ، والشَّرِيعَةُ فيها أوامرُ ونواهٍ، وإذا لم نَعْتَقِدْ أنَّ هَذِهِ الأوامرَ والنواهيَ مبنيَّة عَلَى الحِكْمَةِ فَإِنَّهُ يَضعُف انقيادُنا لها، فلهَذَا قدّم الحِكمةَ. أَمَّا العلمُ فَإِنَّهُ مفهومٌ مِن قولِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ لِأَنَّهُ بمجرَّد تَلَقِّي الْقُرْآنِ يَكُونُ العلمُ. لكِن هل هَذَا الموجود فِي الْقُرْآن موافِقٌ للحِكْمة؟

نعمْ هُوَ موافِقٌ فِي الواقعِ، ولذلك قُدِّمَتِ الحِكْمَةُ لأجلِ أنْ يَشعرَ الْإِنْسَانُ قبلَ كُلِّ شيءٍ بأنَّ ما تَلَقَّاه الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الْقُرْآن هو حِكمةٌ.

نظير ذلكَ فِي سورةِ الذَّارِيَات قَالَ تَعَالَى: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات:٢٩-٣٠]، ولم يَقُلِ: العليمُ الحكيمُ؛ لِأَنَّ ولادةَ العجوزِ أمرٌ خارجٌ عنِ العادةِ، وعن المألوفِ، فكيف تَلِد العجوز ولماذا؟! فقُدِّمَتِ الحِكْمَةُ لأجلِ أن يشعرَ الْإِنْسَان قبل كُلّ شيءٍ أن هَذَا الأَمْرَ النادرَ الخارجَ عنِ العادةِ صادرٌ عن حكمةٍ وَلَيْسَ عن سَفَهٍ ولا عن صُدْفَةٍ.

إِذَنْ: هَذِهِ الآيَةُ نَقُول في مثلها: قدّم اسمَ الحكيمِ الَّذِي يَدُلّ عَلَى وصفِ اللهِ تَعَالَى بالحِكمة فِي هَذَا المقامِ؛ لِأَنَّ ما يُلَقَّاه الرَّسُول ﷺ من الْقُرْآن مُشْتَمِل عَلَى التشريعِ الَّذِي يَحتاج إِلَى بَيَان الحِكْمَةِ فيه، حَتَّى يَقتنع به المرء، فلذلك قُدِّمَتِ الحِكْمَةُ عَلَى العلمِ. أَمَّا العلمُ فَإِنَّهُ مفهومٌ من كلمةِ (تُلقَّى)؛ إذ إِنَّهُ إذا لُقِّيَ الْقُرْآن فقد عَلِم، لذلك صار العلم فِي المرتبةِ الثَّانِيَةِ.

مسألة: ما هِيَ الحِكْمَةُ من جمع الحِكْمَةِ والعلمِ: حكيم وعليمٌ، ودائمًا فِي الْقُرْآنِ تجد أن الحكيم مقرونٌ بالعليمِ كثيرًا، ويُقْرَن بالعزيزِ (عزيز حكيم) أيضًا، فما هِيَ الحِكْمَة من ذلك؟

الجواب البيِّن أن نَقُول: إن الحِكْمَةَ قد تَخفى عَلَى بعضِ النَّاسِ، فخَفاؤها علينا هنا لا يَقتضي أَنَّهَا ليستْ معلومةً عند اللهِ، فكأنه جمعَ بينهما لِيَتَبَيَّنَ أن هَذِهِ الحِكْمَةَ معلومةٌ عندَ اللهِ، وإنْ خَفِيَتْ علينا، فَهُوَ حكيمٌ عليمٌ يَضَعُ الأَشْيَاءَ فِي مواضِعِها، وإنْ خَفِيَ علينا ذلك. فلا نَقُول: إنَّهُ إذا شَرَعَ الله شيئًا أو قضَى بشيءٍ فهَذَا لَيْسَ عن علمٍ؛ بل هُوَ عن علمٍ، حَتَّى لو فُرض أننا نحن لم نعلمْ حِكمته ووجهته، فهَذَا هُوَ وَجه الجمعِ فِي الْقُرْآنِ الكريمِ فِي آيَاتٍ كثيرةٍ بينَ العلمِ والحِكْمَةِ.

الخلاصة أن نَقُول: لَمَّا كانت الحِكْمَة تَخفى عَلَى العبادِ قَرَنَها الله تَعَالَى بالعلمِ لِيَطْمَئِنَّ المرء إِلَى أن هَذِهِ الحِكْمَة معلومةٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ، وإن كانتْ خافيةً علينا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: التأكيد بـ(إن) و(اللام) عَلَى أن الْقُرْآن من عندِ اللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الْقُرْآن كلامُ اللهِ؛ لِأَنَّهُ نزل من لدنه، والْقُرْآن صفة المتكلّم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: دفاع الله تَبَارَكَوَتَعَالَى عَن أهلِ ولايته؛ لِأَنَّ هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ دفاع من الله جَلَّوَعَلَا عن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات العلم والحِكْمَة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات نبوَّته ورسالته.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: مُراعاة المقام فِي التَّعبير يُعتبر من الفصَاحة، فغالب الآيَاتِ يقدّم العلم عَلَى الحِكْمَة، وأحيانًا تُقدَّم الحِكْمَة عَلَى العلمِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ حِكمة اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَى مَبْنِيَّةٌ عَلَى العلمِ، والظَّاهر أن العلمَ سابِقٌ حَسَب ذِهن الْإِنْسَان، فإن العلم يَسبق الحِكْمَةَ، كيف تدري هَذَا مناسب

أو غير مناسب؟ إذا علِمتَ أَنَّهُ مناسب ووضعتَه فِي محلّه، المهم أن حكمة الله تَعَالَى ما جاءتْ عَفْوًا، قد يفعل الواحدُ مِنَّا الشَّيْءَ ويَكُون هَذَا الشَّيْء فِي مَوْضِعِه، لَكِنَّهُ قد يَكُون جاء عفوًا، كما يَقُول النَّاس: (عميان طاحَ فِي خِرْقَةٍ) لكِن حِكمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ صادرةٌ عن علمٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إقناعُ النَّاسِ بما يَقضيه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِن قضاءٍ قَدَرِيّ، أو قضاءٍ شَرْعِي، وجهُ ذلكَ: أننا إذا علِمنا أَنَّهُ صادرٌ عن حكمةٍ فإنَّنا نُسَلِّم ونَرْضَى ولا نَقُول: لِمَ وكيف؟ فإنْ علِمنا الحِكْمَةَ فهَذَا منَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَهُوَ لَا شَكَّ أَنَّهُ يَزيدُ فِي طُمأنينةِ العبدِ، وإذا لم نَعْلَمْ فإنَّنا نَجْزِم أَنَّهُ لِحكمةٍ.

• • ❁ • •

الآيــة (٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل:٧].

قوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: [اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ﴾]، وهَذِهِ طريقتُه، وهي أيضًا معروفةٌ عندَ النحْويِّين أنَّ ﴿إِذْ﴾ ظرف، والظرفُ لَا بُدَّ له من عاملٍ، وَهُوَ المتعلّق، فيقدِّرون: (اذْكُرْ) دائمًا فِي مثل هَذَا التركيبِ: اذكر ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾.

وموسى معروفٌ أَنَّهُ هُوَ ابنُ عِمران، لكِن ما هُوَ الجواب البيِّن.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: إن موسى أخو مَرْيَمَ؟ لِأَنَّ هَذَا موسى بنُ عِمْرَانَ، وهي مَرْيَم بنتُ عِمرانَ، وموسى أخو هَارُون، واللهُ تَعَالَى يَقُول: ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ [مريم:٢٨]؟

نَقُول: إنهم يُسَمُّون بأسماءِ أنبيائِهم، والتاريخُ كما هُوَ معروف بينَ موسى ومَريمَ بعيدٌ جدًّا، فموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هُوَ أفضل أنبياء بني إسرائيلَ، ويقع بين أُولِي العَزْمِ فِي المرتبةِ الثَّالثةِ؛ لِأَنَّ أولي العزمِ منَ الرُّسُل -عليهم الصَّلَاة والسلام- أفضلهم النَّبِيّ ﷺ، ثُمَّ إبراهيم، ثُمَّ موسى، ثم عيسى ونوح؛ لا يجد الْإِنْسَان بينهما مفاضلةً؛ لِأَنَّ لكلِّ واحدٍ منهما مَزِيَّة ليستْ للآخَرِ، ولهَذَا لا نُرَجِّح واحدًا منهما عَلَى الآخَرِ، أَمَّا الأوَّلون الثلاثة فالترجيحُ بينهم واضِحٌ.

وأمَّا قوله تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ

وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾ [الشورى:١٣]، فالظَّاهر -واللهُ أَعْلَمُ- أنَّ نوحًا قُدِّم هنا لِأَنَّ رسالتَه أوَّلُ الرسالاتِ، وَلَيْسَ لِأَنَّهُ أفضلُ، ولَا شَكَّ أَنَّهُ أوَّلُ رسولٍ، والترجيح هنا لبَيَان الفضلِ، أَمَّا المفاضَلَةُ عَلَى سبيلِ المفاخَرَة فلا تجوز، ومثال ذلك قِصَّةُ اليهوديِّ مَعَ المسلمِ(١).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل مَريم كَانَ لها أخ اسمه هارون كما فِي قوله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم:٢٨]؟

فالجواب: بلى.

لَكِنْ لَوْ قِيلَ: إنَّ أُمَّها نَذَرَتْ ما فِي بطنها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

فالجواب: يجوز أن يَكُون أخًا من أبيها.

قوله(٢): ﴿لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ...﴾ إِلَى آخر القصةِ، وهَذَا من جُملةِ ما يُلقَّاه النَّبيّ ﷺ من الْقُرْآن، وهي قَصَص الأَنْبياء، وفائدة ذِكر هَذِهِ القصصِ ما ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي سورة يُوسُف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]، ﴿عِبْرَةٌ﴾ نَعتبِر بها فِي أحكامها وَفِي عواقبها، ولهَذَا الصَّحيحُ أن ما ذُكِر فِي هَذا القَصَص

---

(١) نص الحديث عن أبي هريرة: اسْتَبَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ، فَقَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى العَالَمِينَ، فِي قَسَمٍ يُقْسِمُ بِهِ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى العَالَمِينَ، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ عِنْدَ ذَلِكَ يَدَهُ فَلَطَمَ اليَهُودِيَّ، فَذَهَبَ اليَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ، فَقَالَ: «**لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ بِجَانِبِ العَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللهُ**».
أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد، رقم (٣٤٠٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، رقم (٢٣٧٣).

(٢) بداية الملف الثاني الوجه الثاني.

من الأحكام فَإِنَّهُ يجوز لنا أنْ نَتَّبِعَه وأنْ نَقْتَدِيَ به؛ لِقَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٩٠].

كذلك نَعتبِر بما جَرَى منَ العواقب للرسُل وأتباعهم، وما جَرَى من العواقب لمخالفيهم، ومعلومٌ أن عاقبةَ الأوَّلِينَ عاقبةٌ محمودةٌ، وعاقبةَ الآخِرين عاقبةٌ سيِّئة.

فمن جُملة القَصَص الَّتِي كثُر ذِكْرُها فِي الْقُرْآن قِصَّة موسَى، ولا غَرْوَ أنْ تَكْثُر فِي السورِ المَدَنِيَّة؛ لِأَنَّ المَدينَةَ كَانَ بها طائفة منَ اليهودِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ أمرُهم، ولهذا فُصِّلَت أحوالهم كثيرًا فِي سورة البقرةِ، وَأَمَّا ذِكرُ قِصَّة موسى فِي السورِ المكّيّة كهَذِهِ السُّورَة فإن فائدتها التوطِئَة والتمهيد للنبيِّ ﷺ حَتَّى يَكُون عَلَى بَصيرةٍ من أمرِهم.

وهَذَا التوجيه -وَهُوَ الاستعدادُ للمُسْتَقْبَلِ- سَلَكَهُ النَّبِيّ ﷺ أخذًا بتوجيهِ الْقُرْآنِ حينما قَالَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ»(١).

وقوله: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ﴾ وقد تكلَّمنا عَلَى موسى ﷺ وَأَنَّهُ موسى بنُ عِمْرَان وَأَنَّهُ أفضلُ أنبياءِ بني إسرائيلَ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِأَهۡلِهِۦٓ﴾ زوجته عندَ مَسِيرِهِ مِن مَدْيَنَ إِلَى مِصْر]، يَقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: زَوْجته، أفلا يَحتمِل أن يَكُون زوجته وأُمّه وأباه ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؟

نَقُول: لا؛ لِأَنَّهُ خرجَ من مِصْرَ وحيدًا، ثُمَّ الْتَقَى بالمرأتينِ، ثُمَّ اتصلَ بأبيهما، ثُمَّ زَوَّجَه عَلَى أن يَأْجُرَهُ ثماني حِجَجٍ، وانتهتِ الحِجَج.

وبهَذِهِ المناسبةِ بعضُ النَّاس يَظُنُّون أنَّ صاحبَ مَدْيَنَ هُوَ شُعَيْبٌ النبيُّ،

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا إلى اليمن قبل حجة الوداع، حديث رقم (٤٠٩٠)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩)، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وَلَيْسَ كذلكَ، فإن بينَه وبين موسى بُرْهَة منَ الزمنِ، وإنما صاحب مَدْيَن رجلٌ من أهلِ مَدْيَن، هَذَا هُوَ الصَّحيحُ بِلَا شَكٍّ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ﴾ أبصرتُ من بعيدٍ ﴿نَارٗا﴾].

قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ﴾ مَقُولُ القَوْلِ، ولهَذَا كُسِرَتْ (إنَّ)، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ءَانَسۡتُ﴾ أَبْصَرْتُ من بعيدٍ]، آنسَ بمعنى أبصرَ، وكونها من بعيدٍ لا يَدُلّ عليه اللفظُ فِي الحقيقةِ، اللَّهُمَّ إِلَّا أن يقالَ: إنَّ الإيناسَ لا يَدُلّ عَلَى القُرْب بسببِ أَنَّهُ يَدُلّ عَلَى الخَفَاء، والخَفَاءُ فِي النَّار لا يَكُونُ إِلَّا إذا كانتْ بعيدةً.

وقوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ السين للتنفيسِ، وقد ذَكَرْنَا فيما سبقَ أَنَّهَا إذا دخلتْ عَلَى الجملةِ -وهي طبعًا لا تدخُلُ إِلَّا عَلَى المضارعِ- تفيد أمرينِ، هما: القُرب والتحقُّق.

وقوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا﴾: ما الفرقُ بينَ (آتيكُمْ) و(أُوتيكُم)؟ آتيكم، أي: أَجِيئُكم، وأُوتيكُم بمعنى: أُعْطِيكم، نُصَرِّفها فِي غير الآيَة: أتيتُ مضارعها: آتي، وآتيتُ مضارعها أُوتي.

فِي هَذِهِ الآيَة قَالَ: ﴿بِخَبَرٍ﴾ وَفِي آيَةٍ أُخرى قَالَ: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ [طه:١٠]، فهل بينهما فرقٌ، أو هما بمعنًى واحدٍ، وإن قُلْنَا بالفرق فما الجمعُ؟

الجواب: بينهما فرقٌ، والجمعُ: إذا قُلْنَا: إن (لعلَّ) للرجاءِ، فَهُوَ رجا أولًا ثُمَّ قوي وجَزَمَ به، وقال: ﴿بِخَبَرٍ﴾، هَكَذَا قَالَ بعضهم، لكِن يُمْكِن أنْ يَكُونا بمعنًى واحدٍ بدون اختلافٍ؛ لِأَنَّ (لعلَّ) تأتي للتوقُّع، وقد ذَكَرْنا فيما سَبَقَ فِي النحوِ أنَّ (لعلَّ) تكون للترجِّي والإشفاق والتعليل والتوقُّع، وإذا كانت للتوقُّع صار معناها التَّوْكيد.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن حالِ الطريقِ، وَكَانَ قد ضَلَّها]، هَذَا واضحٌ، فالخبرُ الَّذِي يريد هو خبرُ مَن يَدُلُّه عَلَى الطريقِ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَانَ قد ضلَّها.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ بالإضافةِ للبيَان وتركها[1]]، أي: ترك الإضافة، ففيها قراءتانِ: «أَوْ آتِيكُم بِشِهابِ قَبَسٍ» أو قراءة ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾، أَمَّا قراءة «بِشِهَابِ قَبَسٍ» فهي للبيَان كما قَالَ المُفَسِّر، والإضافة إذا كانت للبيَان فهي عَلَى تقدير (مِن) مثلما يقال: خاتَمُ حديدٍ، أي: خاتمٌ من حديدٍ، فهنا قوله: (شهابِ قَبَس)، أي: شهابٌ من قبس؛ لِأَنَّهَا بَيَانيَّة، وإذا جعلناها: (شِهابِ قَبَسٍ) صارت قَبَس صِفَة لِشِهَاب، صفة مبيّنة أيضًا، فيكُون الإضافةُ والقطعُ بمعنًى واحد.

في قوله: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم﴾ هل (أو) هَذِهِ مانعة جمع أو مانعة خُلُوّ؟

والفرقُ بينهما أن مانعة الجمع معناها أَنَّهُ ما يَكُون إِلَّا أحد الأَمْرينِ؛ إِمَّا هَذَا أو هَذَا، ومانعة الخلوّ مَعناها ما يَخْلُو الأَمْرُ من واحدٍ منهما، أو منهما جميعًا، وهي تُشبِه قول النحْوِيِّين: إِنَّ (أو) تأتي للإباحةِ وللتخيير، قَالُوا: إذا كانت فِي سياقِ الطلبِ تقول: تزوَّجْ هندًا أو أُختها، فـ(أو) هنا للتخيير وليس للإباحة، وتقول: جالِسْ فلانًا أو فلانًا، وكُلْ خبزًا أو رُزًّا، فـ(أو) هَذِهِ للإباحةِ، والَّتي للإباحةِ لا تَمنَع الجمعَ، و(أو) الَّتِي للتخييرِ تَمنَع الجمعَ، وإذا كانت (أو) فِي خبر جمع فإنَّهم يُسَمُّونها مانعةَ خُلُوٍّ أو مانعة جَمع.

إِذَنْ: هِيَ مانعة خلوّ، بمعنى أَنَّهُ يمكن أنْ يَأْتِيَهم بالأَمْرينِ جميعًا: الدلالة، والشهاب القَبَس، وفُهِمَ من هَذَا الكَلامِ ﴿ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أنَّ

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٩).

الليلةَ كانت باردةً، وما أحوجَ الضالَّ للطريقِ فِي ليلةٍ باردةٍ إِلَى نارٍ يَصطلي بها، وإلى أهل نار يُخبِرونه عن الطريقِ؛ لِأَنَّ النَّار معلومٌ أَنَّهَا ما تكون وحدَها، لَا بُدَّ أن عندها أحدًا يُخْبِر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: شُعلة نار فِي رأس فَتيلة أو عُـود]. هَذَا الشهاب القَبَس، والقبس الَّذِي يُقتبس منه، وهَذِهِ تكون كما قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ شُعلة نار فِي رأسِ فَتيلة أو عودٍ.

﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ لعلَّ هنا للتعليل، أي: لأجلِ أنْ تَصْطلوا بها، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [والطاء بـدلٌ من تاءِ الافتعالِ]، فاصطلى أصلُه (اصتلى) بالتاء عَلَى وزن افْتَعَلَ، لكِن أُبدلتِ التاءُ طاءً لسببٍ صرفيّ.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ بالطاء بدل تاءِ الافتعالِ من صَلِي بالنَّار بكسرِ اللامِ وفتحها -صلَى- تَسْتَدْفِئون مِنَ البَرْدِ]، وما أحلى النَّارَ الَّتِي يَصطلي بها الْإِنْسَان فِي حالِ البردِ، ولهَذَا يَقُول المثل: (النَّار فاكهة الشتاء، والمُكَذِّبُ يَصْطَلِي)، وهذا صحيحٌ ومشاهَدٌ.

ذهب موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وبقِيَ أهلُه فِي هَذَا المكانِ، وذهب هُوَ وحدَه إِلَى النَّارِ لعلَّه يأتيهم بالخبرِ أو بالشِّهاب.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الحِكْمَة فِي كون موسى ﷺ أُري هَذِهِ النَّار فِي هَذَا المكان؟

فالجواب: لعلَّ من الحِكْمَةِ أنَّ ذلك المكان بالذاتِ فِي الوادي المقدَّس، فهَذَا الوادي مبارَك ومقدَّس، فصارَ ابتداء الوحيِ من ذاكَ المكانِ، وَأَنَّهُ كَانَ ﷺ بعيدًا منه، وموسى ﷺ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: حُسْن خُلُق موسى ﷺ وذلك لمكالمتِه لأهلِهِ ومراجعته إيَّاهم بما يهمّ الجميع. يعني أَنَّهُ لم يَذْهَبْ هُوَ بدونِ أنْ يقولَ لهم هَذَا القَوْلَ، مِمَّا يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ يَتَرَاجَع معَهم فيما يُهِمُّهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِي هَـذَا دليـل عَلَى أن الزوجةَ مِنَ الأهلِ، وهَـذَا هُوَ القَـوْل الصَّحيح. فعلى هَذَا آلُ النَّبِيّ ﷺ يدخل فيهم أزواجُه؛ لِأَنَّ الزوجةَ منَ الأهلِ.

وقدِ اختلفَ العُلَماءُ فيما إذ أوصَى الْإِنْسَان لأهلِهِ أو أوقفَ لأهلِهِ، هل يدخلُ الزوجاتُ فِي ذلكَ أمْ لا؟ والَّذِينَ يَقُولُونَ بعدمِ الدخولِ يَرُدُّون ذلك إِلَى العُرف، ويَقُولُونَ: إنَّ العُرْفَ عند النَّاسِ أنَّ الزوجاتِ لَيْسُوا مِنَ الأهلِ، وإنَّما الأهلُ القرابة.

وإذا كَانَ هَكَـذَا فَإِنَّهُ يقال: الزوجاتُ مِنَ الأهلِ، فإذا أوقـفَ الْإِنْسَان عَلَى أهلِ فلانٍ، أو أَوْصَى لهم، دخل فيهم الزوجاتُ بِمُقْتَضَى اللُّغةِ. ثُمَّ إنْ وُجِدَ عُرْفٌ مُضْطَرِدٌ ينافي ذلك رَجعنا فِيهِ إِلَى العرفِ؛ لأنَّ الصَّحيح أنَّ الأقوال تُرَدُّ معانيها إِلَى أعرافِ النَّاسِ وعاداتهم، فإذا لم يُوجَدْ عُرف رجعنا إِلَى الشـرع أو اللُّغة، حَسَب ما يَكُون ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الأحـوال البَشَـرِيَّة تَطْرَأُ حَتَّى عَلَى الأَنْبياء عليهم الصَّـلَاة والسلام، فإنَّ موسى فِي تلك الليلةِ كَانَ قد ضلَّ الطريقَ ولم يهتدِ إليه، وقد أصابَهُ البردُ هُوَ وأهله. والأَنْبياء والرُّسُل لا يَختلفون عن غيرهم إِلَّا فِي الرسالةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [فصلت:٦]، فالأوَّل: المُماثَلَة فِي البشريَّة، والثاني: الاختصاص بالوحيِ.

فائدة: النبوَّة فوق معرفة الله والتعبُّد له.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الْإِنْسَان لا يُلامُ عَلَى اتِّخاذِ الوقايةِ الدافعةِ أو الرافِعة؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وهَذِهِ الوقاية دافعةٌ رافعةٌ؛ رافعة للبردِ السابق، ودافعة للبـردِ اللاحِق. فاتخاذ الوقايةِ الدافعةِ أو الرافعةِ لا يُلامُ عليه الْإِنْسَان، بل إِنَّهُ ربما يُؤْمَر به أمرَ إيجابٍ أو أمر استحبابٍ، حَسَبَ ما تَقتضيه الحالُ الَّتِي يريد أن يرفعها أو يَدْفَعَها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: قَبُول خبرِ الثقةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ فالعَمَلُ بخبرِ الثقةِ هَذَا سائغٌ، وَأَمَّا مَن لَيْسَ بثقةٍ فقد قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الحجرات:٦].

والنَّاس فِي هَذَا المقام ثلاثةُ أقسامٍ: قِسم يُوثَق به، وقسم لا يُوثَق به، وقسم مُحْتَمل. الَّذِي لا يوثق به لا يُقبَل، والموثوق به يُقبَل، والمجهول أو المحتمل يُتَوَقَّفُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ أَمْرُه.

والكَلام هنا عَلَى من يُوثَق به عامَّة أو خاصَّة، فقد يَكُون هَذَا الْإِنْسَان معلومَ الحالِ عندي فأثِق به، وَهُوَ عندَ النَّاسِ مجهولٌ يَتَوَقَّفُون فِي أمرِه، فالثِّقَة هُوَ الَّذِي تثِق به.

مسألة: لو أنَّ رجلًا نظرُه ضعيفٌ، أخبرَ أَنَّهُ رأى الهلالَ، والنَّاسُ الَّذِينَ معه ما رَأَوْهُ؟

لا يُقبل قولُه، ولو كَانَ عَدْلًا، ولهَذَا وقعَ عندَ بعضِ القُضاة فيما سبقَ أنْ تراءى النَّاس الهلالَ فقال شيخ منهم: إني رأيتُ الهلالَ، والنَّاس الَّذِينَ معه أَقوَى منه بَصَرًا

فقَالُوا: ما رأيناهُ. وهَذَا الشيخ فِي حدِّ دينه وأمانتِه موثوقٌ به، وأصـرَّ عَلَى أَنَّهُ رأى الهلال، فقال القاضي: ادْنُ منِّي. فدنا منه، فمَسَحَ حاجبَه، فقال له: انظُرْ، قَالَ: الْآنَ لا أراه. فإذا هِيَ شعرةٌ بَيضاء. وهَذَا من ذكاءِ القاضي؛ لِأَنَّهُ قَالَ: كيف أن النَّاس الَّذِينَ معه ما رَأَوْهُ وَهُوَ رآهُ؟! هَذَا لا يمكِن، وَهُوَ ثِقَةٌ وَلَيْسَ برجلٍ مشكـوك فِي خَبَره، لكِن قد يَهِمُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: قوله: ﴿سَتَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ موسى ﷺ يخاطِب أهلَه، ففيه دليل عَلَى مخاطبة الواحدِ بلفظِ الجمعِ، وهَذِهِ فائدة لُغَوِيَّة.

• • ۞ • •

الآيــة (٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٨].

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ﴾: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ الجملة فيها حذفٌ، والتَّقْدير: فذَهَبَ فلمَّا جاءها. ويُسمَّى هَذَا الإيجاز إيجازَ الحَذْفِ؛ لِأَنَّ الإيجازَ عندهم فِي البلاغةِ إِمَّا إيجاز قَصْرٍ وَإِمَّا إيجاز حَذْف، فإذا كانت الجملة القصيرةُ تَشتمِل عَلَى معانٍ كثيرةٍ بدون حذفٍ يُسمَّى إيجاز قَصْرٍ، كقولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة:١٧٩]، هَذِهِ جملةٌ مُخْتَصَرَةٌ، لَكِنَّها تَتَضَمَّنُ معانيَ كثيرةً، يُسَمِّي علماءُ البَيَان هَذَا إيجازَ قَصْر، وَهُوَ أن تكونَ الجملةُ قصيرةً لَكِنَّها مُتَضَمِّنة لمعانٍ كثيرةٍ، فإيجازُ الحذفِ مَعناه قِصَر الجملةِ لكِن الجملة نَفْسها لا تَتَضَمَّن معانيَ كثيرةً إِلَّا بتقديرِ أَشْيَاءَ محذوفةٍ. فقولُه هَذَا من إيجاز الحَذْفِ، وأمثلته فِي الْقُرْآن كثيرةٌ، مثل قولِه تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤]، فيها إيجاز حذفٍ، التَّقْدير: (فأفطرَ فعِدَّة من أَيَّامٍ أُخَرَ).

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ﴾ أي: بأنْ ﴿بُورِكَ﴾ أي: باركَ اللهُ ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: مُوسَى ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أي: الملائكة أو العكس].

﴿نُودِيَ﴾ المنادي هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الدَّلِيلُ: أَنَّهُ فِي آيَةٍ أُخرى صرَّح بذلك:

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [مريم:٥٢]، فالمنادي هُوَ الله جَلَّ وَعَلَا، والنداء لا يلزَم منه القُرب أو البُعد، وقد يَكُون الله ناداهُ من بَعيدٍ ثُمَّ قرَّبه نَجِيًّا، مثلَما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم:٥٢].

وقوله: [﴿أَنۡ﴾ أي: بأن]، أفادنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ (أنْ) هنا مخفَّفة من الثقيلةِ، حينما قَدَّرَ (الباء)؛ لِأَنَّ تقديرَ الباءِ يَدُلّ عَلَى أنَّ ما بعدها مؤَوَّل بمصدرٍ، وهناك قولٌ آخرُ حيثُ يجعلونَ (أنْ) هنا تفسيريَّة، مثل قوله تَعَالَى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [المؤمنون:٢٧]، ويَقُولُونَ: إن ﴿نُودِيَ﴾ متضمِّن لمعنَى القَوْلِ دونَ حروفِهِ، و(أنْ) إذا سُبقت بما يَتَضَمَّنُ معنى القَوْل دون حروفِه فهي تفسيريَّة، ولكِن المَعْنى مِن حَيْثُ المَعْنى واحدٌ، إِنَّمَا الاختلاف فِي الإعرابِ.

فلَوْ قَالَ قَائِلٌ: قولنا: إن (أن) تفسيريَّة أَلَا يَدُلّ عَلَى أن المناداةَ بغيرِ اللُّغةِ العربيَّة؟

فالجواب: لَمَّا سِيقتْ باللُّغةِ العربيَّة أَخذتْ حُكْمَ اللُّغة العربيَّة، والتفسير فِي الحقيقةِ لكلِّ الكَلامِ، يعني ترجمة الكَلام الَّذِي وقعَ منَ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لموسى فِي كُلّ هَذِهِ الجمَل، وَلَيْسَ فقط فِي قولِه: (بُورِكَ).

قوله: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي بارك الله ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾]، قدَّر هَذَا لِيُبَيِّن أن فاعلَ البركةِ هُوَ الله جَلَّ وَعَلَا، وأنَّ (بارك) يتعدَّى بنفسِه، يقال: بارك الله فلانًا، كما يقال: بارك اللهُ بفلانٍ، فَهُوَ يتعدَّى بنفسِه ويتعدَّى بحرف الجرِّ.

قوله: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾: ﴿مَن﴾ إعرابها بدونِ تقديرِ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ اسمٌ موصولٌ فِي محلِّ رفع نائب فاعلٍ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: موسى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: الملائكة، أو العكس]: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: الملائكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: موسى، واحتمال ثالث أن يَكُون ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ موسى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ البلاد الَّتِي حول هَذِهِ النَّار؛ لِأَنَّ بلاد الشامِ مُبارَكَةٌ، أو ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أَهْله. كُلّ ذلك فِيهِ احتمالٌ.

قوله: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ فِيهِ إشكالٌ فِي الحقيقةِ؛ لِأَنَّ (في) للظرفيَّة، والنَّار ظرف، فهل موسى فِي النَّار؟ المُفَسِّر قدَّر لهَذَا فقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وبارك يَتَعَدَّى بنفسِه وبالحرفِ، ويُقَدَّر بَعْدَ (في) مكان]، يَعْنِي: (مَنْ فِي مكانِ النَّار)؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ فِي النَّار حقيقةً لاحترقَ ولكِن يُقدَّر (مكان).

فإذا قيل: ما الفائدةُ مِن قولِهِ: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ وحَذْف المَكان؟

قُلْنَا: الفائدة من ذلك -واللهُ أَعْلَمُ- شيئانِ:

الشَّيْء الأول: القُرْبُ التامُّ منها، والشَّيْء الثاني: أنّ شعاع النَّار قد وصلَ هَذَا القريب منها؛ لِأَنَّ النَّار كما هُوَ معروف لها شُعاعٌ، والْإِنْسَان القريبُ مِنْهَا يَكُون فِي نفسِ الشعاعِ، فكأنَّه لِقُرْبِه ووصول شُعاع النَّار إليه صارَ كأنه فيها نفسها، وإلا فليسَ هُوَ فِي نفسِ الشعلة، هَذَا لا يمكِن، فهَذَا -واللهُ أَعْلَمُ- الحِكْمَة من كون الله جَلَّ وَعَلَا قَالَ: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾.

مسألة: كثيرٌ مِنَ المفسِّرين يُكْثِرُون حول هَذَا الموضوعِ ويَقُولُونَ: أرادَ أنْ يأخذَ مِنْهَا شيئًا فاتجهتْ إليه ثُمَّ انْقَلَبَتْ إِلَى نورٍ وهَكَذَا؟

الجواب: النَّار هنا نار حقيقيَّة، هَذَا هُوَ الأَصْلُ، وَأَمَّا قول مَن يَقُول: إِنَّهَا نورٌ، وإنَّما هِيَ نارٌ فِي اعتقادِ مُوسى فنَقُول له: ما لنا أن نَقُولَ إِلَّا ما قَالَ الله، والله تَعَالَى

عَلَى كُلِّ شَيْء قدير، ثُمَّ هَذِهِ النَّار لا ندري ما وَقُودُها، ما لنا أن نتكلَّم والله تَعَالَى يَقُول: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]، فكلُّ عِلم يأتينا عن هذه الأمم من غير الْقُرْآن أو صحيح السنَّة فليس بشيءٍ، غاية ما هنالك أن يَكُونَ من أقوالِ بني إسرائيلَ الَّتِي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب، ولهَذَا القَصَص لا يجوز أن نتعدَّى فيها الْقُرْآن إِلَّا ما جاءتْ به السنَّة؛ لِأَنَّ قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]، معناه: قطع أي خبر يأتي من غيرِ طريقِ اللهِ؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ هناك أخبار صحيحة تأتي من غيرِ اللهِ لكان الله يعلمها، وهَؤُلَاءِ المخبِرون أيضًا يعلمونها، والله تَعَالَى حَصَرَ فقال: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وهَذَا من أقوى طُرُق الحصرِ الَّذِي هُوَ النفيُ والإثباتُ، قال: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فهَذِهِ الآيَة تُبيِّن لنا أنَّ كُلّ ما يُقَال فِي هَذِهِ القصة، وكذلك فِي قِصَّة سُلَيْمان وداودَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وغيرهما؛ أَنَّهَا مسائل إن كَانَ الشرع يُنافيها أو مَقام النبوَّة ينافيها فهي باطلة وكذِبٌ، كما فِي قِصَّة داودَ الَّتِي سَبقَتْ فِي قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] إِلَى آخرِهِ، وإن كَانَ لا يكذبها فموقفنا مِنْهَا أن نَقُولَ: لا نُصَدِّق ولا نُكَذِّب، أَمَّا أن نفسِّر بها كلامَ اللهِ فلا يجوز.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من جملة ما نُودِيَ، ومعناه تنزيه اللهِ منَ السُّوء]، يَقصد معنى التسبيح، ومعلومٌ للجميعِ أنَّ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ اسْم مصدر، وأن عاملَه محذوفٌ دائمًا، وَأَنَّهُ مُلازِمٌ للإضافةِ، كُلّ هَذَا شَيْء معلوم وأن معنى ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن كُلّ نقصٍ وعيبٍ، لكِن هل الجملة هنا خَبَرِيَّة بمعنى الطلبِ أو خبريَّة عَلَى ظَاهِرِهَا؟

يقولُ بعضُ المفسِّرينَ: إِنَّهَا تَعْجِيبٌ لموسى، بمعنى: اعْجَبْ وسَبِّحِ اللهَ تَعَالَى

عمَّا لا يليق به، وأن هَذَا الأَمْر الَّذِي رأيتَ والكَلامَ الَّذِي سمِعتَ ما هُوَ إِلَّا كلامُ ربِّ العالمينَ، فسبحانَ الله ربّ العالمينَ.

فعلى هَذَا تكون الجملة الخبريَّة هنا من حَيْثُ المَعْنى طَلَبيَّةً، أي: سَبِّحِ اللهَ ربَّ العالمينَ عمَّا لا يَلِيقُ به، وإذا قُلْنَا: إِنَّهَا عَلَى ظاهرها صارَ معناها ثناءً مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ المُكَلِّم المُنَادِي عَلَى نفسِه، فأيّ المعنيينِ أشملُ؟ الأوَّل: أي أنَّها طَلَبيَّة؛ لِأَنَّهَا تَتَضَمَّن إذا أُمِرَ بها موسى أن اللهَ أهلٌ لها، فهَذَا هُوَ الخَبَر، وتَتَضَمَّن الزيادة الثانيَةَ، وهي تعجيبُ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واعتقاده بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عن كُلِّ عَيبٍ.

وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ما معنى الربِّ؟ المالِك المتَصَرِّفُ، لَكِنَّها أيضًا مُتَضَمِّنة لمعنى أدَقَّ وَهُوَ التربيَة، فَهُوَ يُرَبِّي مَعَ كونه مُدَبِّرًا خالقًا مُتَصَرِّفًا، و(العالمين): كُلّ مَن سِوَى الله فَهُوَ من العالمين، وسُمُّوا عالَمِينَ قيل: لِأَنَّهُم عَلَم عَلَى خالقِهم ودليلٌ عليه؛ فإنَّ كُلّ ما فِي الكونِ شاهدٌ بوَحْدَانِيَّة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وبما تقتضيه هَذِهِ الأكوانُ من معاني رُبُوبيتِهِ.

وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ معناها أَنَّهُ يربِّي عبادَه تَرْبِيَةً حِسِّيَّة ومَعْنَوِيَّة، فالتَّرْبِيَة الحِسِّيَّة نَضرب لها مثلًا بالْإِنْسَان، كونه فِي الخِلْقَة يَتَطَوَّر من شيءٍ إِلَى شيءٍ عَقلًا وجِسمًا وفِكرًا، فهَذِهِ تربيَة، ولو فَرَضْنا أن هَذَا الطفلَ الصغيرَ عَقْلُه كالكبيرِ، فلا يمكن أن يعيشَ؛ لِأَنَّهُ لا يَتحمَّل الأَشْيَاء الَّتِي تُقابله، مثلًا لو تركته أُمُّه وذهبت عنه لا يَستقِرّ أبدًا، وبدأ يُدبِّر ويقول: افعلوا كذا وافعلوا كذا، وكذلك بالعكسِ لو كَانَ الكبير بعقلِ الصغيرِ ما استطاعَ أن يعملَ شيئًا، وهَكَذَا أيضًا الطعام يأتي إِلَى الْإِنْسَان شيئًا فشيئًا، فهَذَا من التربية الحسِّيَّة. وبالنِّسْبَة للتربية المعنويَّة فظاهرٌ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُرَبِّي عبادَهُ بالعلمِ النافع شيئًا فشيئًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات كلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نُودِىَ﴾، والنداء لا يَلْزَمُ منه القُرْب أو البُعْـد، فقد يَكُون الله ناداه من بعيـدٍ ثُمَّ قَرَّبَهُ نَجِيًّا كمـا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢].

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: الفِعْل هنا مبنيٌّ للمجهولِ، لم يُبَيَّن مَنِ المَنَادِي، فلا دليلَ فِيهِ عَلَى كلام الله، فما الجوابُ؟

أولًا: التصريح فِي آيَاتٍ أُخرى، **وثانيًا**: أيضًا قوله فِي سياق الكَلامِ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل:٩].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ كـلامَ اللهِ تَعَالَى بصوتٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نُودِىَ﴾ والنداء لا يَكُون إِلَّا بصوتٍ، ففيه ردٌّ عَلَى طائفتينِ تَقَدَّمَ قولهما: الأشاعرة وَالْكُلَّابِيَّة، الَّذِينَ يَقُولُونَ: إن كلامَ الله تَعَالَى معنًى قائمٌ بنفسِهِ، وهَذَا القَوْل باطلٌ بأوجهٍ كثيرةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ ينبغي إيناس المُسْتَوْحِش، فيَنبغِي أن تقول له أو تفعل معه ما يُؤْنِسُهُ لِيَطْمَئِنَّ، ويَكُون قابلًا لما يُلْقَى إليه؛ لِأَنَّ المستوحِش لا يَقبل ما يُلقى إليه، بمعنى: أَنَّهُ لا يَتَمَكَّن من قبوله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ فإنَّ إثباتَ البركةِ لِمن فِي النَّار ومن حولها يَزداد به طمأنينةً بلَا شَكّ، ولهَذَا أوَّل ما خاطبهُ الله فِي هَذِهِ الآيَة قَالَ: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفيه دليل عَلَى تنزيهِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عمَّـا لا يَليق به؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وفيه دليلٌ عَلَى عمومِ رُبُوبِيَّة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وهل معه ربٌّ آخرُ؟

لو كَانَ معه ربٌّ آخرُ لم يكنِ اللهُ تَعَالَى ربًّا للعالمينَ، بل ربًّا لبعضِ العالمينَ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ربُّ العالمينَ.

وقد ذكر اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ لا يمكِن أنْ يَكُونَ مَعَ الله إلهٌ آخرُ عَقْلًا، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، ولم تَفْسُدا، فدلَّ عَلَى امتناعِ تَعَدُّدِ الآلهةِ، فامتناع فسادهما دلَّ عَلَى امتناع تَعَدُّدِ الآلهة. وقال تَعَالَى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١]، وهَذَا أمرٌ لم يَكُنْ.

فإثبات وَحدانِيَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي رُبُوبيَّته معلوم، حَتَّى المشركون فِي عهد الرَّسُول ﷺ كانوا يُقِرُّونَ بوَحْدَانِيَّته فِي الرُّبُوبِيَّة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ثناءُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى نفسِه، وأن ذلك من كماله؛ فَإِنَّهُ أثنى عَلَى نفسه بِقَوْلِهِ: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أثنى عَلَى نفسِهِ بنفيٍ وإثباتٍ؛ النفي: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ والإثبات: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ومن هنا نعرِفُ أَنَّهُ لا يَتِمُّ كمال الأوصاف إِلَّا بهذينِ الأَمْرينِ، وهما: النفي والإثبات؛ لِأَنَّ إثبات الكمالات فقط لا يَدُلّ عَلَى نفي النقائصِ، ونفي النقائص فقطْ لا يَدُلّ عَلَى إثباتِ الكمالاتِ، وباجتماعهما يَحصُل الكمالُ المطلَق، ولهَذَا قَالُوا: لَا بُدَّ من تَخْلِيَةٍ وتَحْلِيَةٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن جميع الخلق مَرْبُوبُونَ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، يَتَصَرَّف فيهم بمُقتضى رُبُوبِيَّتِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولهَذَا حُكْمُ الرُّبُوبِيَّة ما أحد يَستطيع أن يخالفَه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن أرض الشام مُبارَكة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

الآيــة (٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل:٩].

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ﴾ أي: الشأن ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾]، هَذَا تفسير الضَّمير، وضَمير الشأن هُوَ ضَمير يَتَّصِل ويفَسَّر بالجملة الَّتِي بعده، فعلى هَذَا يَكُون ﴿إِنَّهُۥٓ﴾ هَذَا الشأن، ويَكُون قوله: ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تفسيرًا لهَذَا الضَّمير.

أمَّا مِن حَيْثُ الإعرابُ فإنَّنا نَقُول: (إنَّ) حرف توكيد ينصِب الاسم ويرفع الخبر، والهاء اسمها و﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ مبتدأ وخبَر، والجملة فِي محلِّ رفع خبر إنَّ.

وقال بعض المفسِّـرين: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا﴾ فرأَوْا أن الهاءَ ضَميرٌ حقيقـيٌّ للمتكلِّم، لا ضَمير شأن. ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا﴾ يعني أنَّ الله قَالَ لموسى: إنَّ الَّذِي يُكَلِّمك أنا، وكلمة ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا﴾ لا يَتبيَّن مِنْهَا مَن هو، ولهَذَا نُهِيَ الْإِنْسَان أن يَقُول إذا استأذنَ عندَ البابِ وَقِيلَ له: مَن؟ أن يَقُول: أنا[1].

إِذَنْ: (أنا) هنا مُبْهَمَةٌ، ثُمَّ بيَّن هَذَا الضَّميـر بِقَوْلِهِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وَعَلَى هَذَا تكون (إن) حرفَ توكيدٍ يَنْصِب المبتدأَ ويرفعُ الخبرَ، والهاء اسمها، وَلَيْسَ ضَمير

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب (إذا قَالَ: من ذا؟ قَالَ: أنا)، حديث رقم (٥٨٩٦)؛ صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب (كراهة قول المستأذن: أنا، إذا قيل: من هذا)، حديث رقم (٢١٥٥)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

شأنٍ، و(أنا) خبرها، وجملة: ﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تكون بَيَانا للضَميرِ، (الله) مبتدأ، و(العزيز) خبر، و(الحكيم) خبر ثانٍ، وهي بَيَان لـ(أنا)، وعلى الأوَّل يَرَوْنَ أن جملة ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ هِيَ الخبر، لكِن ما سَلَكَه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقربُ، وإنْ كَانَ الثاني مُحْتَمَلًا، يَعْنِي أنَّ الثانيَ يَستقيم لكِن الأوَّل أقوى: ﴿إِنَّهُۥٓ﴾ أي: الشأن ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فهَذَا الَّذِي قدَّره المُفَسِّر أحسنُ مِنَ الَّذِي قدَّره بعض المفسِّرين كالزَّمَخْشَرِيّ[1].

قال: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ابتدأَ بالأُلُوهِيَّة، فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾، و(الله) تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ الاسمُ العلَم عَلَى اللهِ الَّذِي لا يُسمَّى به غيرُه، وجميع ما يأتي من أسماء اللهِ دائمًا تَجِدُه تَبَعًا لهَذَا الاسمِ، ودائمًا تُصَدَّر أسماء الله بكلمة ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لِأَنَّهُ العلم الَّذِي لا يُسَمَّى به غيره، ثُمَّ تأتي الأسماء بَعْد ذلك تابعةً له.

و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ معناه: القويّ الَّذِي لا يُغْلَب، بل هُوَ الغالِب، وَقِيلَ: إن العِزَّة تَنْقَسِم إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ هي:

١- عِزَّة القَدر.

٢- عزة القَهر.

٣- عزة الامتناع.

وقَالُوا: إِنَّهَا مُشْتَقَّة مِنَ الْأَرْضِ العَزَاز، والْأَرْض العزاز يَعْنِي: الصُّلبة القويَّة، ونحن نُسَمِّيها باللُّغة العامِّيَّة: (عَزَا) فنَحذِف الزايَ الثَّانِيَة، فالعزيز معناه: هُوَ القوِيُّ الغالب الَّذِي لا يُغلَب، فإذا قُلْنَا بهَذِهِ الثلاثةِ أَتَينا بالمعاني الثلاثةِ؛ القهر والقَدر والامتناع.

---

(١) انظر الكشاف (٣/ ٣٥٠).

وقوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ تَقَدَّمَ الكَلامُ عليه، وإنما ذكر الله له ذلك لِيُشْعِرَهُ بأن مآلَه للعزّ، وأن ما سَيُوحَى إليه فَهُوَ حكمة؛ لِأَنَّ الصادرَ من العزيز يَكُون عَزيزًا، ومن الحكيم يَكُون حكمةً.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن تعيينَ الشخصِ بالنداءِ له فائدةٌ، وهي: التَّطمين والإيناس؛ لأنك إذا قلتَ: يا فلانُ طَمْأَنْتَهُ بِلَا شَكّ؛ لِأَنَّهُ يَقُول: هَذَا يَعرِفني، ما يَنالني بِسُوءٍ، ولهَذَا قَالَ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات العزَّة والحِكْمَة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يَنبغي لِمَن أرادَ تَعيينَ نفسِه أن يُبيِّن اسمه؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. لم يقلْ مثلًا: أنا مُكَلِّمُكَ، أنا، أو مَا أَشْبَـهَ ذَلِكَ، بل بيَّن مَن الَّذِي يُكلِّمه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: حَصْر الأُلُوهِيَّة فِي اللهِ؛ لِأَنَّ وصفَه بالعزَّة والحِكْمَة يَقتضي أن يَكُون هُوَ المألوهَ وحدَهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات الحُكْم المطلَق للهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لأَنَّنا ذَكَرْنا أن الحَكيم: ذو الحُكْم والحِكْمة.

• • ۞ • •

الآيــة (١٠)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:١٠].

قوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ ما هِيَ العَصَا الَّتِي معه؟

عصا عاديَّة يَتوكَّأ عليها ويَهُشُّ بها عَلَى غَنمه، فإضافتها إِلَى موسى ﷺ إضافة مملوكٍ إِلَى مالِكِهِ، وَلَيْسَ مخصوصًا إِلَى مَنِ اخْتَصَّ به، أي: أن هَذَا العَصَا لَيْسَ له اختصاص وَأَنَّهُ عصا من جوهر معيَّن أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، هُوَ عصا عاديّ، وهَذِهِ العَصَا هِيَ الَّتِي ضَرَبَ بها الحجرَ ما تَغَيَّرَتْ، وهي الَّتِي أَلقاها أيضًا للسَّحَرَةِ فأبطلتْ سِحْرَهم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها]، ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ هَذَا أيضًا من إيجازِ الحذفِ كما مرَّ دائمًا، والقَصَصْ يَكُون فيه إيجازُ حَذْف؛ لِأَنَّ المحذوفَ دائمًا يَكُون معلومًا منَ السياقِ، فيَكُون حَذْفُهُ سَهلًا ومُيَسَّرًا، وقد قَالَ ابن مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي الأَلْفِيَّة قاعدةً من أفيد ما يَكُون، ذكرها فِي بابِ المبتدأِ، وهي صالحةٌ لكلِّ شَيْء، قَالَ[1]:

وحَذْفُ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ كَمَا ... تَقُولُ زَيْدٌ بَعْدَ مَنْ عِنْدَكُمَا

(١) ألفية ابن مالك (ص:١٨).

هَذِهِ فِي الحقيقة قاعدة: حذف ما يُعْلَم جائزٌ.

والإيجاز فِي قوله تَعَالَى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ وألق عصاكَ فألقاها. فهَذِهِ جملة محذوفة وليستْ تفسيرًا؛ لِأَنَّ قوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ تفسيره: ضَعْ عصاك، ولو أخذنا الآية عَلَى ظاهرها لكانتِ العَصَا تَهْتَزّ وهي بيدِهِ قبلَ أنْ يُلْقِيَها، يعني لمّا أمر أن يلقيَ عصاه اهتزتْ، فالآيَة لَا بُدَّ فيها من شيءٍ محذوفٍ: فألقاها فإذا هِيَ تَهْتَزّ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تَتَحَرَّك]، ولكِن تفسير الاهتزاز بمطلَق التحرُّك فِيهِ نظرٌ؛ لِأَنَّ الاهتزازَ أبلغُ مِنَ التحرُّك، كَأَنَّ الاهتزاز فِيهِ نوعٌ من الْقُوَّة والاضطرابِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ حَيَّة خفيفة]، وَقِيلَ: حيَّة عظيمة، وَقِيلَ: الجانُّ: الذَّكَر منَ الحَيَّات، وأيًّا كَانَ فإنَّ هَذِهِ العَصَا الَّتِي كانت بيده صارتْ حيَّةً تَهتزُّ وتتحرَّك وتَضْطَرِب مثل الجانّ، يَعْنِي الحيَّة العظيمة، والدَّلِيل عَلَى أن المُرادَ بالجانّ الحيَّة العظيمة: قوله تَعَالَى فِي سورة طه: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه:٢٠]، والقِصَّة واحدة، فالجانّ من الأسماء المشترَكَة.

قوله: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾: ﴿وَلَّىٰ﴾ هَذِهِ جواب (لَمَّا)، ﴿مُدْبِرًا﴾ حال، ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ يَعْنِي: هاربًا، ولهَذَا يَقُول: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يرجع]، وقد ولَّى خوفًا من هَذَا؛ لِأَنَّ هَذَا بطبيعةِ البشرِ أنَّ الْإِنْسَان إن ألقى عصاه وصارت حيَّةً تَسعى لَا بُدَّ أن يخافَ، لا سِيَّما وَأَنَّهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما علِم أَنَّهُ سَيُرْسَل وَأَنَّهُ رسول، إِنَّما كلَّمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإلى الْآنَ ما حَصَلَ شَيْء.

فالحاصل: أنَّ هَذِهِ طبيعة البشرِ، لَا بُدَّ أن يُوَلِّي، وَلَيْسَ فِي هَذَا نقصٌ للنبيّ ﷺ؛ لِأَنَّ الأُمُور البشريَّة تَعترِي الرسُلَ وغيرَهم، ولهَذَا كَانَ الرَّسُول ﷺ يَنسى فِي أعظم

العبادات؛ فِي الصَّلَاة، ويقول: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ»[1]، وَلَيْسَ فِي هَذَا أيّ قَدْحٍ للرسُلِ.

وقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ هَذِهِ فيها أيضًا إيجازٌ بالحذفِ، ونحن نَقُول باختصار: جميع القَصَص ولا سِيَّما القَصَص الطويلة غالبًا يَكُون فيها إيجازُ حذفٍ، وأحيانًا تكون جملةً وأحيانًا تكون جملًا، وسيأتينا إن شاء الله فِي القَصَصِ الَّتِي فِي السُّورَة الَّتِي تلي هَذِهِ شيءٌ كثيرٌ من هَذَا.

قال: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾ وناداه باسمِهِ لِيُطَمْئِنَه؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان الَّذِي يناديك وَهُوَ يَعْرِفك تَطْمَئِنّ إليه أكثر، لم يقلْ: يا هَذَا لا تَخَفْ أو يا مُوَلِّي لا تخفْ، بل قَالَ: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾؛ لِأَنَّهُ معلوم أن الَّذِي يَعرِفك تطمئنُّ إليه أكثر، مثال ذلك لو رأيتَ مَن ظَنَنْتَه عدوًّا ثُمَّ هربتَ منه فقال: يا فلان، يا فلان، فإنك تطمئنُّ؛ لأنك تقول: هَذَا يَعرفني، ما يَنالني بِسُوءٍ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾ منها]، والتقييد بـ(منها) الَّذِي أوجبَ للمؤلِّف أن يأتيَ به هُوَ ظاهرُ السياقِ؛ لِأَنَّ الظَّاهرَ أنَّ مُوسَى ﷺ إِنَّمَا هَرَبَ منها، فقال: ﴿لَا تَخَفۡ﴾.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ﴾ عندي ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ من حيَّة وغيرها]، معلوم أن الَّذِي بِحَضْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ لا يُمكِن أن يخافَ من شيءٍ؛ لِأَنَّهُ فِي كَنَفِ الله تَعَالَى وَفِي جِوَارِه، فلا يمكن أن يخافَ وَهُوَ عندَ اللهِ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حَيْثُ كان، حديث رقم (٣٩٢)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، حديث رقم (٥٧٢)، عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ هَذَا أيضًا فِيهِ بِشَارَة لموسى ﷺ بأنه عند الله وَأَنَّهُ مِنَ المُرسَلِين، ومعلوم أَنَّهُ إذا بُشِّرَ بمثلِ هَذِهِ البشارةِ سوفَ يَزولُ عنه الخوفُ نهائيًّا، وسوف يَحُلّ مكان الخوفِ أَمْنٌ، ومكان الذُّعْر سرورٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: هَذِهِ الآيَة العظيمة دالَّة عَلَى كمالِ قُدْرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾؛ لِأَنَّهُ أُمِرَ بإلقاء العَصَا فألقاها، فبمُجَرَّد وُصُولها إِلَى الْأَرْض صارتْ حيَّة، ولهَذَا فِي سورة طه ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه:٢٠]، ﴿إِذَا﴾ فُجائيَّة تدل عَلَى مفاجأةِ الأَمْرِ ووقوعِه عَلَى وجهِ الفوريَّة. ففيها دليل واضح عَلَى كمال قدرةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَأَنَّهُ إذا قَالَ للشيءِ: كنْ فَإِنَّهُ يَكُون.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حِكمة الله تَعَالَى فِي آيَاتِ الرسُل، وأنها تناسب العَصْرَ، لِقَوْلِهِ: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾؛ لأنّ هَذَا أشبه ما يَكُون بما تَطَوَّرَ تَطَوُّرًا بالغًا عندهم فِي ذلك الوقت وَهُوَ السحر، فلو أن أحدًا أتى بعصا أمامَكَ ووضعها فِي الْأَرْض ثُمَّ رأيتَها حيَّة فإنك تقول: هَذَا سِحر. فلذلك أُوتي موسى ﷺ من الآيات ما يَقضي عَلَى سِحرهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ مِنَ البلاغةِ الإيجاز بالحذفِ، ولا يُعَدُّ هَذَا قُصُورًا ولا تقصيرًا. قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ هنا يوجد بلَا شَكّ محذوفٌ، ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾؛ لِأَنَّهُ لو أُخذ الكَلامُ عَلَى ظاهرِهِ لكانَ المَعْنى: لمّا أُمِرَ بهَذَا اهتزَّتْ وهي فِي يدِه، وَلَيْسَ الأَمْرُ كذلكَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَذِهِ العَصَا لم تكنْ مجرَّد حيوان يَتَحَرَّك، ولَكِنَّهَا أبلغُ من ذلك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، ومعلوم أنَّ الجانَّ بنفسِه مروِّع، فالحيَّة بنفسها مروِّعة، فإذا كانت من عَظيمِ الحَيَّات صارتْ أشدَّ وأبلغَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جَواز أنْ يَعْتَرِيَ الأَنْبِياء الخوفُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾. وأن ذلك لا يُعَدّ نقصًا فيهم؛ لِأَنَّهُ مِن مُقْتَضَى الطبيعةِ البشريَّة، وهَذَا الَّذِي يَكُون من مُقتضى الطبيعة البشرية لا يُلام عليه أحد، فالأَنْبِياء يَجُوعون، ويعطَشون، ويَبْرُدون، ويَمْرَضون، ويموتون أيضًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف:١١٠].

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل الأَنْبِياء مَعْصُومونَ مُطْلَقًا؟

قُلْنَا: لَا شَكَّ أن الأَنْبِياء لا يُعصَمون ممَّا لا يُخِلّ بالرسالةِ مِنَ الذُّنُوب؛ فالَّذِي لا يُخِلُّ بالرسالة والشَّرَف والمروءة لا يُعْصَمُون منه، لكِنهم يُعصَمون من الإقرارِ عليه، فلَا بُدَّ أن يُوَفَّقُوا للتوبة. وهَذَا هُوَ الفرق بينهم وبين غيرهم، وأظنُّ أنَّنا ذكرناه فِي التوحيد وقلنا: إِنَّهُ يُفَرَّق بينهم وبين غيرهم من وجهينِ -في مسألة الذنوبِ والمَعاصِي-:

أولًا: أَنَّهُ لا يُمْكِن أن يَصْدُرَ منهم ما يُخِلُّ بالرسالةِ، مثل: الكَذِب والخِيَانة، ولا بالشَّرَف والمروءة: كالزِّنا وما أَشْبَهَهُ.

ثانيًا: أَنَّهُ إذا وَقَعَ منهم ما يُمْكِن وُقُوعُه مِنَ المَعاصِي فإنهم لا يقرّونَ عليه، لَا بُدَّ أن يَحْصُلَ لهم ما يُوجِبُ تَرْكَهم لهَذَا الشَّيْء؛ لِأَنَّهُم رُسُل قُدْوَة. ولو أقرُّوا عَلَى المَعاصِي لكانتِ المَعاصِي من شَرَائِعِهم. وَأَمَّا القَوْلُ بالعِصْمة مُطْلَقًا فلا وجهَ له، فلا توجد عِصمةٌ مُطْلَقًا، بل الصَّواب أَنَّهُم يَحْصُل منهم ما يَحْصُل ولكِنَّهم لا يقرّون عليه.

فقوله تَعَالَى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم:١]، هَذَا ممَّا يَدُلُّ عَلَى أن الأَمْرَ قد وقعَ مِنَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَكِنَّهُ غُفِرَ عنه، ما أقرَّ عليه، أَمَّا مسألةُ

ابنِ أُمِّ مَكْتُومٍ فليستْ بمعصيةٍ، بل خِلاف الأَوْلى، ولهَذَا لامَهُ الله عليها، وأيضًا موسى ﷺ اعترف بأنه ظالمٌ فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [النمل:٤٤].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: موسى لَيْسَ بظالمٍ؛ لِأَنَّهُ يُدافِعُ عن قَوْمِه؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ وقَوْمَه تَسَلَّطُوا عَلَى قومه؟

قُلْنَا: هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ؛ لِأَنَّهُ معهم فِي الْأَرْض، وهَذَا الرجل بالذاتِ بينَه وبين الثاني عهد، وهما يَتخاصمانِ فِي مسألةٍ خاصَّةٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: رَحْمَةُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِنَبِيِّه موسى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ فإن هَذَا من رحمةِ اللهِ به؛ لِأَنَّهُ إذا قَالَ له: ﴿لَا تَخَفْ﴾ وقد عَلِمَ أَنَّهُ ربُّ العالمينَ فلا يمكن أن يخافَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: جواز توجيه الأحكامِ الشَّرْعِيَّة إِلَى الأُمُور الفِطْرِيَّة. يعني مثلًا أنت إذا قلت لإِنْسَانٍ: لا تَخَفْ. والخوف طبيعيٌّ فكيف يَدْفَعُه عنه؟ فهل يَتَوَجَّه الحكم إِلَى مثلِ هَذِهِ الأُمُورِ الطبيعيَّة؟

نَقُول: نعم يمكن؛ لِأَنَّ الخوفَ وإنْ كَانَ أمرًا طبيعيًّا غيرَ شعوريٍّ؛ لِأَنَّهُ يأتي الْإِنْسَان بغيرِ اختيارِه، لَكِنَّهُ يُمْكِنه معالجتُه بالمدافعةِ، ولهَذَا جاء رجلٌ إِلَى الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقَالَ: أَوْصِني، فقَالَ: «لَا تَغْضَبْ»[1]، والغَضَبُ من طبيعةِ الْإِنْسَان. لكِن معنى لا تَغْضَبْ: يعني حاوِلْ أن تُقَلِّلَ من غَضَبِكَ، وأن تكونَ دائمًا هادئًا، ثُمَّ إنْ غَضِبْتَ فلا تُنَفِّذْ مُقْتَضَى هَذَا الغضبِ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب لقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، حديث رقم (٥٧٦٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذَنِ: الأُمُورُ الطبيعيَّة البشريَّة الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى الطبيعة البشريَّةِ يجوزُ أن يُوَجَّه الحُكْمُ إليها أمرًا أو نَهيًا، ويَكُون ذلك من باب مُدَافَعَتِها قبلَ وُجودها، أو من باب تقليلِ آثارِها، فلا يقال: إن الْإِنْسَان أُمِرَ بما لا يستطيع، فأُمِرَ بعدمِ الغضبِ وَهُوَ لَا بُدَّ أن يَغْضَبَ، وأُمِرَ بعدمِ الخوفِ وَهُوَ لَا بُدَّ أنْ يخافَ مما هُوَ مَخُوفٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وفي الآيَة أيضًا دليلٌ عَلَى أنَّ مَن كَانَ مَعَ الله تَعَالَى فَإِنَّهُ لا يَنبغي أن يخافَ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ﴾ أي: عندي ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. ولذلك كلَّما ذكر الْإِنْسَان ربَّه زالَ عنه الخوفُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥]، ففي ذكر الله تَعَالَى زَوَالُ الخوفِ والْقُوَّة والرغبةُ فِي تنفيذِ ما أَمَرَ الله تَعَالَى به، ولهَذَا أمر الله به فِي الجِهادِ.

• • ۞ • •

الآيـة (١١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل:١١].

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا﴾ لكِن ﴿مَن ظَلَمَ﴾ نفسَـه ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾ أتاه ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ أي: تاب ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أَقْبَلُ التوبةَ وأَغْفِر له].

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: سبحان الله العظيم! ما هَذِهِ الجملة وللكلام الَّذِي قيل ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾؟

فنَقُول: إن موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لمّا قَالَ الله له: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لعلَّه تذكر أَنَّهُ قد وقعَ مِنه خطيئةٌ، والخطيئةُ أَنَّهُ قتل نفسًا، وكأنه عندما يَتَذَكَّر هَذَا قد يَستبعِد فِي نفسه أن يَكُونَ من الرُّسُل، فقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ لِيُذَكِّرَهُ بما مَنَّ به عليه منَ التوبةِ، ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾، ﴿بَدَّلَ﴾ المُفَسِّر فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ: أتى حُسْنًا؛ لِأَنَّ ظاهره فِي الحقيقةِ لا يَستقيم به المَعْنى: (بَدَّلَ حُسنًا بسوء) أيّهما المأخوذ؟ فـ﴿بَدَّلَ﴾ تدل عَلَى أن هناك بَدَلًا ومُبْدَلًا منه، فإذا قلتَ: بدَّل حسنًا بسُوء؛ يصير الحُسْن مَدْفُوعًا والسوءُ مأخوذًا.

قولك: بدَّلْتُ ثَوْبي بثَوْبِك، فالمَأْخوذ هُو الأَخِير. فهنا ﴿بَدَّلَ حُسْنًا﴾ لو أخذنا بظاهرها فمعناه أَنَّهُ ترك حسنًا وأخذ سوءًا، ولهَذَا فسَّر المُفَسِّر قوله: ﴿بَدَّلَ﴾ بـ(أَتَى).

والدَّلِيل عَلَى ذلك أَنَّهُ لو كَانَ المُراد بالتبديل ظاهر معناه: فما صح أن يعبر بِقَوْلِهِ: ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾، لو كَانَ كذلك لقال: بدَّل حسنًا بسوء، وما قَالَ: ﴿بَعْدَ﴾، فلما قَالَ: ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ عُلِمَ أن بَدَّل هنا بمعنى استبدلَ، واستبدل بمعنى أخذ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة:٦١]، وأخذ مثلَما قَالَ المُفَسِّر بمعنى: أتى.

والمَعْنى من الآيَة الكَريمَة أنَّ مَنْ أتى حُسنًا بَعْد سوءٍ فإن هَذَا الحسنَ ينفي السوءَ، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يَعْني: أغفِر له.

جملة ﴿فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إِذَا قَالَ قَائِلٌ: ما مُطابقتها للشرطِ؟ لِأَنَّ قوله: ﴿مَن ظَلَمَ﴾ إعرابه: (من) اسْم شرط جازِم وليست اسمًا موصولًا مستثنى؛ لِأَنَّ الاستثناء هنا منقطع، و﴿ظَلَمَ﴾ فعل الشرط، وجملة ﴿فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جواب الشرط.

أقول: لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما وجه ارتباط الجوابِ بالشرطِ؟

فالجواب: أنه لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذين الاسمين فِي قوله تَعَالَى: ﴿فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فَإِنَّهُ يريد مُقتضاهما، فمقتضى المغفرةِ أن يَغْفِرَ لهَذَا الَّذِي ظلم ثُمَّ بدَّل حسنًا بَعْد سوءٍ، ومُقتضى الرَّحْمَةِ أيضًا أن يرحمَه.

ونظير هَذَا قوله تَعَالَى فِي المحاربين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣٤]، يعني يَسْقُط عنهم الحدُّ؛ لِأَنَّ هَذَا مُقتضى المغفرة والرَّحْمَة. فهنا مقتضى المغفرةِ والرَّحْمَةِ أنَّ مَن ﴿بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يغفر له ويرحمه.

وهل يشمل الرُّسُل وغير الرُّسُل؟

ومِنْ ثَمَّ حَسُنَ أنْ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ونَقُولَ معه أيضًا: إنَّ الاستثناء في ﴿ إِلَّا ﴾ هنا مُنقطِعٌ؛ لِأَنَّهُ يَشمَل الرُّسُلَ وغيرَ الرُّسُلِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأولى: وفي ذلك دليلٌ عَلَى أنَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ أتى بعملٍ صالحٍ، فإن الله تَعَالَى يمحو العَمَلَ السيِّئَ بالعَمَلِ الصالحِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل:١١].

وقد تَقَدَّمَ مناسبة ذكر هَذِهِ الجملة: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ فِي هَذَا المقام.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَة: إثبات المغفِرَةِ والرَّحْمَة لله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الفَائِدَةُ الثَّالثة: أن أخذَ الأحكامِ من مُقتَضَى أسماء الله تَعَالَى وصفاته. فإن قوله: ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: أَغْفِر له، وهَذَا حُكْمٌ، وأخذ الأحكامِ من مُقْتَضَى الأسماء والصِّفَات هَذَا من أحسنِ ما يَكُون منْ الِاستدلال.

ذُكِرَ أنَّ رَجُلًا قرأَ عند أعرابيٍّ: (والسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فقالَ الأعرابيُّ وَهُوَ لم يقرأ الْقُرْآن: أعِدِ الآيَةَ، أخطأتَ فيها. فأعادها مرَّةً ثانيةً، وقال: (والسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ). قَالَ له: أعِدِ الآيَةَ. فأعادها فِي الثَّالثة عَلَى الصَّواب، قَالَ: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨]، قَالَ: الآن، فَإِنَّهُ عزَّ وحكمَ فقَطَعَ، ولو غفرَ ورَحِمَ ما قطعَ[1]. وهَذَا صحيح.

---

(١) خزانة الأدب للحموي (١/ ١٧٦).

ويدلُّ عَلَى هَذَا الفَهْمِ قوله تَعَالَى فِي المُحَارِبِينَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة:٣٤].

إِذَنْ: معناه إذا عَلِمنا أن الله غفور رحيم فإنه يُغفَر لهم ويُترَكون، ولهَذَا إذا تاب قاطِع الطريق قبل القُدْرة سقطَ عنه الحدُّ.

وهل يَلْحَقُ به غيرُه من ذوي الحدودِ أو لا؟

فِيهِ خلافٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: الإشارة إِلَى أن موسى ﷺ بُشِّرَ بالرسالة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

الآيــة (١٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل:١٢].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ هو طَوْق القَمِيص]. هَذَا تفسيرٌ لِلْجَيْب أَنَّهُ طوق القَمِيص.

وقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾ اليد فِي اللُّغة تُطلَق عَلَى الكفِّ فقطْ، ولا تشمل الذِّراع إِلَّا مُقَيَّدَةً. والدَّلِيل عَلَى هَذَا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما قَالَ فِي التيمُّم: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النِّسَاء:٤٣]، صار خاصًّا بالكفيـنِ، ولَمَّا أراد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الذِّراعَ قَالَ فِي الوضوء: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦].

إِذَنْ: الَّذِي أُمِـرَ أن يدخلَه موسى حَسَـب مقتضى اللُّغةِ العَرَبِيَّةِ لَيْسَ اليد والذراع، بل الكفّ، والمُراد يُغَيِّبها فِي جَيبه.

قوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾: ﴿تَخْرُجْ﴾ مَجْزُومة، مَعَ أَنَّهَا فعل مضارعٌ، ولم يَدْخُل عليها حرفٌ جازم، لَكِنَّها مجزومةٌ بجوابِ الطلبِ الَّذِي هُوَ (أَدْخِلْ). ومعروف أَنَّهُ إذا سَقَطَتِ (الفاء) وقُصِد الجزاء جُزِمَ، فهَذِهِ القاعدة. ففاء السَّبَبِيَّة إذا جاءت بعدَ الطلبِ نُصِبَ الفِعْل بها أو بـ(أن) مُضْمَرَة، فإذا سَقَطَتِ الفاءُ بعدَ الطلبِ وقُصِدَ الجزاءُ جَزَمْتَ، هَذِهِ قاعدةٌ معروفةٌ فِي النحوِ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَخْرُجْ﴾]، يَعْنِي اليَدَ [خِلافَ لَوْنِها مِنَ الأُدْمَة ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾]، أخذ الْمُفَسِّر أنَّ لَوْنَها الأُدمة من قوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾؛ لِأَنَّها لو كانتْ بيضاء من قبلُ لم يَقُلْ: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾. فلا بدَّ أَنَّهَا تغيرتْ من اللونِ الأولِ إِلَى اللونِ الثاني.

وقوله: ﴿بَيْضَآءَ﴾ حال من فاعل (تَخْرُج)، يعني حال كَوْنِها بيضاءَ.

وقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ هَذَا تَقييدٌ لِقَوْلِهِ: ﴿بَيْضَآءَ﴾؛ لِأَنَّ البيضاء قد يَكُون بياضها سوءًا مثل البَرَص، فَإِنَّهُ سُوءٌ؛ لِأَنَّهُ عَيْبٌ يَسُوءُ صاحِبَهُ، لَكِنَّهُ قَالَ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾.

إِذَنْ: هو بَيَاض لَيْسَ كبياضِ البَرَص، ولهَذَا يَقُول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ بَرَص لها شُعاعٌ يَغْشَى البصرَ آيَة].

أما قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لها شُعاع، فهَذَا يحتاج إِلَى دليلٍ، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ما ذَكَرَ إِلَّا أَنَّهَا بيضاءُ، وكفَى بذلك آيَةً أن تدخلَ اليد عَلَى لون ثُمَّ تخرج بلونٍ آخرَ.

وأما زيادة الشُّعاع فإنَّ الله تَعَالَى لم يذكرْه، وَلَيْسَ لنا أن نتجاوزَ فِي هَذِهِ الأُمُور ما دلَّ عليه الْقُرْآن؛ لأَنَّنا ذكرنا فيما سبق أن المسائل الخبريَّةَ لا مجالَ للرأيِ فيها، يُقْتَصَر فيها عَلَى ما جاءَ به الخبرُ، فنَقُول: هِيَ بيضاءُ وكَفَى بها آيَةً.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [آيَة ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾]، ﴿فِي﴾ للظرفيةِ. فتكون هَذِهِ الآيَة وكذلك آيَة العَصَا من جملةِ التِّسعِ، وليستْ زائدة عَلَى التِّسعِ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ مُرسلًا بها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾]، عَرَفَ موسى آيتينِ من هَذِهِ التسعِ وهي: العَصَا واليد، فآيتانِ معروفتانِ، لكِن بقي سبع

آيَاتٍ، وبقيَّة التسعِ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ﴾ [الأعراف:١٣٣]، فهَذِهِ خمسٌ، وقال تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [الأعراف:١٣٠]، فهَذِهِ هي الآيَات التسعُ.

قوله تَعَالَى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾ [الأعراف:١٣٣]، والطوفانُ: فيضان الماءِ، و(الْجَرَادَ) معروف، و(الْقُمَّلَ): الدودة الَّتِي تكون فِي الحبوبِ، و(الضَّفَادِع) معروفة، (وَالدَّم) معروف، وبعض العُلَماء يَقُول: إن الدم هَذَا الماء، إذا شَرِبُوه فإذا هُوَ دمٌ، وإذا سَلَّمَهُ القِبْطِيّ إِلَى الإسرائيليِّ عاد ماءً.

ولكِن الشيخ عبدُ الرحمنِ السِّعْدِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذهب إلى غير هَذَا المذهَب، قَالَ: الطوفان: الفيضان، وهَذَا يُفسِد الزُّرُوعَ قبلَ خُرُوجِها، والجراد يأكل الزروعَ بعدَ خُرُوجِها؛ لِأَنَّ الزروعَ مِنْهَا شَيْء مَبْذورٌ فيفسده الماء؛ وشَيْء خارج يأكله الجرادُ، وشَيْء مدَّخَر يفسده القُمَّل، والماء تفسده الضفادع.

إِذَنْ: الْآنَ المأكولُ والمشروبُ فَسَدَ، وهَذَا المأكول والمشروب إذا أكله الْإِنْسَان أو شَرِبَهُ يَتَحَوَّل إِلَى دمٍ، فأُرْسِل عليهم الدمُ أيضًا وَهُوَ النزيف -الرُّعاف- فعلى هَذَا يَكُون هَؤُلَاءِ غذاؤهم فَسَدَ، وما حصل بالغذاء نزف أيضًا، وهَذَا فِي الحقيقةِ هُوَ المَعْنى السَّليم؛ فنَقُول: يحصل فساد الماء بالضَّفادعِ، فيصير الماء مُنْتِنًا بالضَّفادعِ فلا يستطيع الإِنْسَان أن يشرب، فرائحته خبِيثَةٌ ومنظره خبيثٌ.

فالحاصل: أن الصَّواب ما ذهب إليه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي التفسير[1].

وقوله: ﴿ٱلسِّنِينَ﴾ معناه: الجَدْبُ والقَحْط، وَهُوَ عدم نزول المطر.

---

(١) انظر: تفسير السِّعدي (ص:٣٠١).

قوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ عَلم جنس لكل من مَلَك مِصر كافرًا، مثل كِسْرَى علم جِنس لكل مَن مَلَك الفُرْس كافرًا، وكذلك قَيْصَر لكُلّ من ملك الرُّوم كافرًا.

وقوله: ﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾ القوم: الأصحاب، وسُمِّيَ الأصحابُ قومًا؛ لِأَنَّ بهم قِوَام الْإِنْسَان، فالْإِنْسَان يعتز ويقوم بقومه.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ هَذَا تعليلٌ للرسالةِ إليهم، يَعْنِي إِنَّما أرسلناكَ إِلَى هَؤُلَاءِ فِي تسعِ آيَاتٍ؛ لِأَنَّهُم ﴿كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾؛ يعني خارجينَ عن الطاعة، والفِسْق يَنْقَسِمُ إِلَى قسمينِ:

- فِسْق أكبر وهو: الخروج عن مُطْلَق الطاعة.
- فِسق أصغر وهو: الخروج عن الطاعة المطلَقة.

والفرق بين التعبيرينِ أن الطاعة المطلَقة هِيَ الشاملة لكل أفرادِ الطاعةِ، يعني أَنَّهُ يُطيع فِي كُلِّ أمرٍ، وَهُوَ الواقِعُ، فإذا قيل: هَذَا الرجلُ قد أطاعَ الله طاعةً مُطْلَقَة، فمعناه أَنَّهُ أطاع فِي كُلّ ما أُمِرَ به، فإذا فَسَقَ فقد خرج من الطاعةِ المطلَقةِ؛ لِأَنَّ الفرق بين مطلق الشَّيْءِ والشَّيْءِ المطلق أنَّ مُطْلَق الشَّيْء معناه وجودُ أيِّ جزءٍ منه، والشَّيْء المطلَق: الكامِل، ولهَذَا الفاسقُ عند أهلِ السنَّة والجماعةِ هل معه الإِيمانُ المطلَقُ أو مطلق الإِيمانِ؟

معه مُطْلَق الإِيمانِ، فإذا قيل: هَذَا الرجل فاسقٌ، فالمَعْنى: خارج عن مطلقِ الطاعةِ، ففِسْقُه أكبر، يعني معناه: ما يصدق فِي حقِّه ولا أقل طاعة، وهَذَا كافر.

فإذا قيل: هَذَا الفاسِقُ خارجٌ عنِ الطاعةِ المطلقةِ فمعناه: أَنَّهُ معَه طاعة لكِن الطاعة الكاملة لَيْسَت معه، ولذلكَ عندَهم أيضًا حَتَّى فِي الفقه يَقُولُونَ: هَذَا ماء

مطلَق، وهَذَا مطلَق ماء، قَالُوا: ما تغيَّر بالأَشْيَاء الطاهرة لَيْسَ بطَهور؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بماءٍ مُطلَقٍ وإنما مطلق ماء، والفرق بين التعبيرينِ معروفٌ عند الفقهاءِ وعند الأُصُولِيِّينَ وعند أهلِ الكَلامِ؛ أنَّ الفرقَ بين مُطْلَق الشَّيْء والشَّيْء المطلَق أنَّ الشَّيْء المطلق معناه: الكمال، ومطلق الشَّيْء معناه: الأَصْل.

وهنا في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ المقصود الفِسْقُ الأكبرُ؛ لِأَنَّهُم خارجونَ عن مطلَق الطاعة، فلَيْسَ عندهم طاعةٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات آيَة من آيَات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وذلك أن يَدَه دخلتْ عَلَى طبيعتِها ثُمَّ خرجتْ بيضاءَ من غيرِ سُوءٍ فِي لحظةٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ﴾، وقوله: ﴿تَخْرُجْ﴾ جواب لـ(أدخل)، فالمَعْنى أَنَّهُ بمجرد الإدخال تخرج، وَلَيْسَ المَعْنى أَنَّهَا بمجرد أنْ دخلتْ تخرج بِنَفْسِها، بل تخرج إذا أخرجها، فإذا أخرجها فإذا هِيَ بيضاء، وهَذَا من آيَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آيَاتِ الأَنْبياء، حَيْثُ تكون مناسبةً للعصرِ الَّذِي بُعِثوا فيه؛ لِأَنَّ هَذِهِ الآيَة تُشْبِه السحرَ، لَكِنَّها حقيقةٌ، والسحر خَيَال. فالسحر لا يمكنُ أنْ يَقْلِبَ اليدَ إِلَى بيضاءَ، أو المتحرِّك إِلَى ساكنٍ، أو الساكن إِلَى متحرِّك، فلا يمكن أن يقلبه حقيقةً، لكِن هَذِهِ الآيَة حقيقةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يَنبغي الاحتراز فِي الكَلامِ عندما يُوهِم الشَّيْء لأمرٍ يُحْتَرَزُ منه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ فإن البيضاء قد تكون من سُوء، ولكِنه احترز بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ ففي الآيَةِ دليلٌ عَلَى مبدأِ الاحترازِ فِي الكَلامِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن موسى ﷺ أعطاهُ الله تَعَالَى تسعَ آيَاتٍ؛ مِنْهَا آيتانِ سابقتانِ والباقية لاحقةٌ.

فما هَذِهِ التسعُ؟

هي: الطوفان، والجراد، والقُمَّل، والدم، والضفادع، والسِّنون، ونقصٌ من الثمراتِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يرسلْ نبيًّا إِلَّا بآيَة لتقومَ الحجَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾.

وما هِيَ الحِكْمَة في أنَّ الله لم يرسلْ رسولًا إِلَّا بآيَةٍ؟

لِأَنَّهُ ما تقومُ الحُجَّة إِلَّا بهَذَا؛ إذ لو جاء رجل وقال: إِنَّهُ رسول من عند الله بدون آيَاتٍ ما صُدِّق، وإذا لم يُصدق فلا حُجَّة عَلَى الخلقِ به، فالأَشْيَاء لا تُثْبَت إِلَّا بدلائلها ولَا بُدَّ من بَيِّناتٍ عَلَى الأَمْرِ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: فِي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ هل يمكن أن تكون ﴿فِي﴾ بمعنى (معَ)؟

قُلْنَا: هَذَا غير صحيح، ﴿فِي﴾ للظرفية عَلَى بابها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: طُغيان فِرْعَوْنَ وقومه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ من الفصاحة والبلاغة قَرْن الحُكْم بتعليلِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ وتعليلُ هذا الحُكْم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

وقد ذكرنا أن قرن الحُكْم بتعليله له ثلاثُ فوائدَ، فإذا ذكرت العِلَّة فلها ثلاث فوائد، وهَذَا الَّذِي نَعْرِفُه ويُمْكِنُ أن تكونَ أكثرَ:

الأُولى: بَيَان حِكمة الله سبحانه فِي تشريعِهِ وقضائِهِ.

الثَّانِيَة: التعميم بعمومِ العلَّة.

الثَّالثة: أن المخاطَب يَزْدَادُ طُمأنينةً إذا عَلِمَ حِكمةَ الحُكْمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الفِسْقَ يُطْلَق عَلَى الكفرِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ وقد ذَكَرْنا أن الفسقَ نوعانِ: فِسْق مطلَق ومطلَق فِسْق، فالفسق المطلَق هُوَ الكفرُ، ومطلَقُ الفسقِ هُوَ العِصيانُ من المُؤْمِنِينَ، يَعْنِي معه مُطْلَق فسق؛ إذ إن أصل الفسق هُوَ الخروج عن الطاعة، فإن كَانَ خروجًا كاملًا شاملًا فَهُوَ فسق مطلَقٌ، وإن كَانَ بعضَ خروجٍ فَهُوَ مُطْلَقُ فِسْقٍ.

• • ۞ • •

الآيــة (١٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل:١٣].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ الضَّمير يعود إِلَى فِرعونَ وقومِه.

وقوله: ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ أي: العلامات الدالَّة عَلَى صدق موسى ﷺ برسالته وَعَلَى أحقيَّة ما دعا إليه؛ لِأَنَّ الآيَاتِ الَّتِي بعث الله بها موسى ﷺ تدلُّ عَلَى أمرينِ: عَلَى صِدْقِ موسى، وهَذَا تأييدٌ له، وَعَلَى صِحَّة ما جاء به، فهَذِهِ الآيَات تشمل الأَمْرينِ.

وقوله: ﴿مُبْصِرَةً﴾ فَسَّرَهَا الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقولِهِ: [مُضِيئَة وَاضِحَة]، وهنا كَلِمَة ﴿مُبْصِرَةً﴾ اسمُ فاعلٍ، والفِعْل مِنْهَا أبصرَ.

فهل الآيَاتُ هِيَ الَّتِي فيها البَصَرُ أو مُبْصِرَة أي: جاعلة غيرها يُبْصِر بها، أيُّهما أبلغُ؟

الثَّانِيَةُ أبلغُ، أي أَنَّهَا جَاعِلَة غيرها يُبْصِر بها، يعني أَنَّهَا تُبْصِرُ غَيْرَها، فهَذِهِ الآيَات هِيَ بنفسها ظاهرةٌ وواضحةٌ، وَالَّذِي يراها يُبْصِرُ بها. ولهَذَا نَقُولُ: ﴿مُبْصِرَةً﴾ يعني أَنَّهَا باصرة بنفسها وموجِدَة للإبصارِ فِي غيرِها.

ولَمَّا ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ هَذِهِ الآيَات المبصرة كَانَ الجواب: ﴿قَالُواْ هَٰذَا﴾ أي: ما جاءنا، ولم يقولوا: هَذِهِ، أي: الآيَات؛ لأجلِ أن يشملَ كُلّ شيءٍ؛ هَذَا الَّذِي جاءنا من

الآيات وغير الآيات ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَيِّنٌ ظاهِرٌ]، فـ(مُبين) هنا عَلَى تفسيرِ المُفَسِّر مِن (أبانَ) اللازِم.

قوله: ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ السِّحْرُ فِي اللُّغةِ العربيَّة: كُلّ شَيْء صارَ خَفِيَّ السَّبَب، فما خَفِيَ سببُه ولَطُفَ يُسَمَّى سحرًا. ولهَذَا ذكرَ ابنُ كَثيرٍ أقسامَ السِّحر فِي تفسيرِهِ[1]، وذكر من جُملةِ السحرِ الساعاتِ الَّتِي تَطَوَّرَتْ إِلَى ما نراهُ الآنَ؛ لِأَنَّهَا فِي الحقيقةِ خَفِيَّة السَّبَب، فالْآنَ هذه الساعاتُ ما الَّذِي يُحَرِّك عَقارِبَهَا، أو أبلغ من هَذَا الساعات الإلكترونيَّة ما الَّذِي يجعل هَذَا المِسمارَ إذا غَمَزْتَه تحوَّل التاريخ إِلَى توقيتٍ آخرَ، أو أظهرَ لك تاريخ الشهر أو اليوم، فلو جاءت فِي غيرِ هَذَا الوقتِ لَتَعَجَّبَ النَّاسُ منها.

وهَذَا يُسمَّى سِحرًا لغةً، لكِنْ شرعًا لَيْسَ بِسِحْرٍ؛ لِأَنَّ السحرَ شَرْعًا هُوَ عبارةٌ عن عُقَدٍ وعَزَائِمَ ورُقى تُؤثِّر فِي بَدَنِ المسحورِ أو عَقْلِهِ، ربما تُمْرِضُه وربما تُهْلِكه وربما تَخْبُلُهُ، فهَذَا هُوَ السحرُ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: قولُ فِرعونَ وقومه: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾، ماذا يَقصِدون بهَذَا؛ السحرُ الحقيقيُّ الشَّرْعِيُّ أو السحرُ اللُّغَوِيُّ؟

قُلْنَا: المقصود الحقيقيُّ الشرعيُّ؛ لِأَنَّهُم قالوا له: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٢]، والعياذ بالله، فهم قَالُوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وهَذَا الجواب لَيْسَ صادرًا من فِرعونَ فقطْ؛ بل جميع المكذِّبين للرسُلِ قالوا هَذَا، قَالَ الله تَعَالَى فِي سورة الذارياتِ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، فكُلّ الرُّسُلِ السابقينَ يَقُول لهم أقوامُهم هَكَذَا،

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٦٩).

﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ لا، ما تَوَاصَوْا به، لكِن الجامِع المشترك: الطُّغيان ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٣].

و(أو) فِي قوله: ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ مانِعَـةُ خُلُوٍّ، يعني ربمـا أنَّ بعضهم يَقُول: ساحِرٌ ومجنونٌ معًا.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل كُفْرُ الساحرِ لِمُجَرَّدِ الضررِ اللاحِقِ بالمسحورِ أو يَتَعَلَّق بشيءٍ آخرَ؟

قُلْنَا: مُجَرَّد الضررِ لا يَقْتَضِي الكفرَ فِي الحقيقةِ، ولهَذَا لو داويتَ الْإِنْسَان بدواءٍ كسُمٍّ وشِبْهِهِ ما صار كفرًا، لكِن ما يقتـرب به من أحوالٍ شَيْطَانِيَّة واعتقاد أن هَذَا مؤثر بدونِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هَذَا هُوَ الظاهِرُ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: أنا لا أَعْتَقِدُ هَذَا، بل هَذَا شَيْء لطيفُ المأخَذِ خفيُّ السَّبَب؟ وأبطل هَذِهِ العِلَّة.

قُلْنَا: ظاهر الْقُرْآن الكفر، فالْقُرْآن يَدُلّ عَلَى الكفرِ ويَنتهي الإشكالُ، فالآيَةُ ظاهرها أن تَعَلُّم السحر نفسه كفر، فقوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢]، أي: يتعلم السحرَ، وَلَيْسَ المَعْنى فلا تَكْفُر بشيءٍ ثُمَّ تَتَعَلَّم السحر.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الحُجَّة قامتْ عَلَى فِرعونَ وقومه حَيْثُ جاءتهم الآيَةُ مُبْصِرَةً.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن آيَات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها الإبصارُ.

فهل هِيَ مُبْصِرَة بنفسِها -يعني باصرة- أو مُبْصِرة لِغَيْرِها؟

كلاهما، فهي مُبْصِرة بمعنى أَنَّهَا هِيَ باصرةٌ، وكذلك تُبْصِرُ غيرَها وتدلُّ عليه. وَفِي هَذَا دليلٌ عَلَى أنَّ آيَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيِّنَةٌ واضحةٌ تُوَضِّحُ الحقَّ، ولولا ذلك ما كانتْ آيَاتٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عِظَم طُغيان فِرعون وقَومِهِ؛ لقولهم: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: مبالغة صاحبِ الباطلِ بدعواهُ، حَيْثُ قَالُوا: ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يَعْنِي بَيِّنًا ظاهرًا ما فِيهِ إشكال، وهَكَذَا المدَّعِي يأتي بالكلماتِ الَّتِي تُشَبِّه عَلَى الخلق حَتَّى يَصِلَ إِلَى ما يريد مِنَ الباطلِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لماذا قَالَ هنا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ ولم يَقُلْ: (هَذِهِ)، مَعَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾؟

فالجواب: من أجلِ أنْ يَشْمَل كُلّ ما جاء، حَتَّى يشمل موسى نفسه واتهامه بالسحر.

الآيــة (١٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:١٤].

قوله: ﴿جَحَدُواْ﴾ الضَّميرُ يعودُ عَلَى فِرعونَ وقَومه، والجَحْدُ: الإنكارُ، و(جحد) يَتَعَدَّى بنفسِهِ، ولكِنَّه قد يُضَمَّنُ معنى التكذيبِ فيَتَعَدَّى بـ(الباء)، ﴿وَجَحَدُواْ﴾ مكذِّبين بها. فهنا الجحد ضُمِّن معنى التكذيبِ، ولهَذَا تعدى بالباء. وذلك لِأَنَّ الجحدَ قد يَكُونُ تكذيبًا وقد يَكُونُ مراعاةً لمصلحةٍ مِنَ المصالِحِ.

والجَحْدُ أَسْبابُه مُتَعَدِّدَةٌ، فَإِنَّهُ قَدْ يَقُولُ لَكَ قَائِلٌ: ماذا فعلت؟ فتجحد لمصلحةٍ تريدها، لا تَكذيبًا، ولكِنَّه هنا تكذيب، أي: جحدهم هَذَا تكذيب. والدَّلِيلُ: أَنَّهُ عُدِّي بالباءِ، وَالَّذِي يُعَدَّى بالباءِ هُوَ التكذيب، ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ أي: كذَّبوا بها جحدًا، فهم كذَّبوا ومع ذلك ما أظهروهُ.

ولهَذَا يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَمْ يُقِرُّوا بها]، ولم يُقِرُّوا بها معناه هُوَ التكذيب، والمُفَسِّر أتى بـ(لم يقروا) لأمرينِ:

الأَمْر الأول: لأجل أن يَسْلَم التعليق بالباءِ؛ لِأَنَّ (أقر) تتعدى بالباءِ.

والأَمْر الثاني -على رأيه-: لأجل أن لا يَتَضَمَّن ذلك إخفاءَها لِمَن طَلَبَها، فَكَأَنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل الجَحْدَ نفيَ الإقرارِ، ولَكِنَّنَا لا نُوَافِقُه عَلَى هَذَا التفسيرِ:

أولًا: أَنَّهُ فسَّرَ المُثْبَتَ بالمنفيِّ، وهَذَا قُصُور، (جحد) مُثبت، و(لم يقرّ): منفيّ.

ثانيًا: أَنَّهُ بتفسيرِهِ هَذَا يُفَوّتُ معنًى دلَّتْ عليه الآيَةُ، وهو: كِتمانهم لهَذِهِ الآيَاتِ لو سُئِلوا عنها، يعني أَنَّهُ فوَّت معنًى وَهُوَ الجحود عند السؤالِ، فَهُوَ تكذيبٌ عند العرضِ، وجحود عند الطلب؛ لِأَنَّ كون الْإِنْسَان لا يُقِرُّ لَيْسَ مثلما إذا جحد وكتمَ عن غيرِهِ. فالصَّوابُ إبقاء الآيَةِ عَلَى ما هِيَ عليه، ويقالُ: إِنَّهُ عُدّيَ الجحدُ بالباءِ لِتَضْمِينِهِ معنى التكذيبِ، ويَكُون دالًّا عَلَى أمرينِ: عَلَى إخفائِها عندَ طلبِها، وَعَلَى التكذيبِ بها عند عَرْضِها.

ولا حاجة أنْ نَقُولَ: إن الآيَةَ أبلغُ مما ذكر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَكِنَّنَا نَقُول: إن تفسيرَ المُفَسِّر لها فِيهِ نظرٌ من وجهينِ كما تَقَدَّمَ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَ﴾ قَدِ ﴿اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾]، فما الَّذِي أوجبَ له أنْ يُقَدِّرَ (قدْ)؟

نَقُول: لِأَنَّ الجملةَ حالِيَّة، والجملةُ الحاليَّة إذا كانتْ فعلًا ماضيًا يُقَدَّر فيها (قد) للتحقيقِ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَ﴾ قَدِ ﴿اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ أي: تَيَقَّنُوا أَنَّهَا منْ عندِ اللهِ]، ففسَّرَ استيقنَ بِتَيَقَّن؛ إشارة إِلَى أنَّ حرفي السين والتاء زائدانِ، ولكِن الأَولى أن يبقى السين والتاء عَلَى بابهما ولا يُحْكَم بِزِيَادَتِهِما؛ لِأَنَّ الاستيقانَ أبلغُ مِنَ التيقُّنِ، ومنَ المعروفِ عندهم أَنَّهُم يَقُولُونَ: زيادة المبنى تدلُّ عَلَى زيادةِ المَعْنى، فالاستيقانُ أبلغُ، فهمْ قدِ اسْتَيْقَنُوها استيقانًا كاملًا لَيْسَ عندهم فيها شكٌّ، ومعَ ذلكَ جَحَدُوا بها، فيَكُون هَذَا الجحدُ مَعَ الاستيقانِ أبلغَ، ولهَذَا قَالَ: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ إِلَى آخرِهِ.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ ولم يقلْ: واسْتَيْقَنُوها. فإضافةُ الاستيقانِ إِلَى النفسِ أبلغُ، أي: أَنَّهُ يَقِينٌ بلغ نفوسهم حَتَّى تمكَّن منها، ومعَ ذلك -والعياذُ باللهِ- جَحَدُوا بها وأَنْكَرُوها.

وقوله: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَكَبُّرًا عنِ الإِيمانِ بما جاء بما موسى]، ففَسَّرَ الكلمتينِ بكلمةٍ واحدةٍ وهي التكبُّرُ، ولكِن أيضًا لو نَظَرْنَا إِلَى الآيَةِ الكَريمَةِ وَجَدْنَا أَنَّهَا أبلغُ مِمَّا فَسَّرَهَا به.

قوله: ﴿ظُلْمًا﴾ الظُّلمُ فِي الأَصْلِ النقصُ، ومنه قوله تَعَالَى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣]، ومعنى ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ﴾ أي: لم تَنْقُص، فالأَصْلُ فِيهِ أَنَّهُ بمعنَى النقصِ، وكلُّ مَن نَقَصَ حَقَّ غَيْرِهِ فَهُوَ ظالمٌ. وإذا نقصَ الْإِنْسَانُ حقَّ نَفْسِه فَهُوَ ظالمٌ لها، وإذا نقصَ حقَّ غَيْرِهِ فَهُوَ ظالمٌ له. وهنا هَؤُلَاءِ نَقَصُوا حقَّ مُوسَى ﷺ فهم ظالمونَ، وَنَقَصُوا حقَّ أَنْفُسِهِم حَيْثُ لم يقودوها إِلَى ما فِيهِ صَلَاحُها؛ فهم أيضًا ظالمونَ.

ثمَّ هَذَا الظُّلْم والنَّقْص ما الحامِلُ عليه؟

قَالَ: ﴿عُلُوًّا﴾ وهَذَا معنًى غيرُ الظُّلْمِ، يَعْنِي: تَرَفُّعًا عمَّا جاء به موسى ﷺ، فلِسانُ حالِهِم يَقُول: مَنْ موسى هذا الَّذِي يأتي إِلَى فِرْعَوْنَ الَّذِي يقولُ لِقَوْمِهِ: أنا رَبُّكُمُ الأعلى، ثُمَّ يَقُول: أنا رسول إليك لَا بُدَّ أن تتبعني؟! فبِطَبِيعَةِ البَشَرِ الفاسقُ يَتَرَفَّعُ ويقول: أبدًا.

فلهَذَا جَحَدُوا ظُلْمًا لموسى وأنفسهم ﴿عُلُوًّا﴾ تَرَفُّعًا عن مُوسَى وعمَّا جاء به أيضًا، فهم -والعياذُ بالله- اتَّصَفُوا بالوصفينِ.

وقوله: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [راجع إِلَى الجَحْد]، هذا صحيح، فإذا اسْتَيْقَنُوا أنَّ موسى صادِقٌ فهذا لَيْسَ بظُلْمٍ ولكِنَّه حَقٌّ وعَدْلٌ وتَوَاضُع، لَكِنْ هُمْ مَا اسْتَيْقَنُوا، يَعْنِي: ما انقادوا لهَذَا الاستيقانِ، إذن فَهُوَ راجِع إِلَى الجحدِ، يعني جحدوا بها ظلمًا وعلوًّا.

وفائدة الاعتراض بالجملة الحاليَّة ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ بين المُتَعَلّق ومُتَعَلَّقِه: المُبَادَرَةُ بالتشنيعِ عليهم، وبَيَان أَنَّهُم بَلَغُوا فِي هَذَا الوصف غايتَه، الَّذِي هُوَ وصف الظلمِ والعلوِّ؛ لِأَنَّ كَوْنَهم يَجحَدُونَ مَعَ الاستيقانِ أشدُّ وأعظمُ، فالجاحد مَعَ الشكِّ قد يُعذَر، لكِنْ مَعَ الاستيقانِ لا وجهَ له.

ثم ما إعراب ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ هل هِيَ مَفْعُـول لأجلِهِ؟ يعني من أجـلِ الظلمِ والعلوِّ، أو هِيَ مصدر بمعنى الحالِ، أي: ظالمين عالينَ؟

الأخيرُ أَولى؛ لِأَنَّ الظلمَ والعلوَّ إذا جعلناهما مَفْعُولا من أجلِه فَهُوَ سابقٌ عَلَى الجحدِ؛ إذ إنَّهُم ظَلَمُوا وعَلَوْا ثُمَّ جَحَدُوا، فعلى هَذَا نَقُول: إنّ ظلمًا وعلوًّا مصدرٌ بمعنى اسمِ الفاعلِ، أي: جحدوا بها حالَ كونهم ظالمينَ عالينَ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱنظُرْ﴾ يا مُحَمَّد...]، إِلَى آخِرِهِ.

قوله: ﴿فَٱنظُرْ﴾ هل المُرادُ: نظرَ اعتبارٍ أو نظرَ إبصارٍ؟

المُراد: نَظَرُ اعتبارٍ؛ لِأَنَّ نَظَر الإبصارِ هنا مُتَعَذِّرٌ لِسَبْقِ زَمَنِه، لَكِنَّهُ نظرُ اعتبارٍ. والخطاب عَلَى كلام المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعود إِلَى رسول الله ﷺ: ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا مُحَمَّد، والخِطاب بالمفردِ فِي الْقُرْآن لا يختصّ بالرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إِلَّا ما دلَّ عليه الدَّلِيل، وإِلَّا فَهُوَ عامٌّ، ويَكُون التَّقْدير: فانظرْ أيها المخاطَب، لَيْسَ يا مُحَمَّد؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ بينَ أيدي كُلّ أحدٍ، فكُلّ واحد بين يديه الْقُرْآنُ.

أَمَّا ما دلَّ الدَّلِيل عَلَى أَنَّهُ خَاصّ بالرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهُوَ خَاصّ به، مِثل قوله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، ومثل قولِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١].

ويدلُّ عَلَى أن الخطاب المفرد عامٌّ:

أولًا: ما ذكرناه من التعليل؛ أن الْقُرْآن بين أيدي النَّاس جميعًا.

ثانيًا: قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق:١]، فخَاطَب بالإفرادِ والجمعِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾.

فدلَّ هَذَا عَلَى أنَّ الخطاب الموجَّه إِلَى الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ موجَّه للأُمَّة ما لم يَدُلّ الدَّلِيل عَلَى اختصاصه به، مثل ما مَثَّلنا بالمثالينِ. وكذلك منه قوله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم:١]، فإنَّ هَذَا خَاصٌّ بالرَّسُول ﷺ، وهُوَ الَّذِي حَرَّمَ لكِن مَعَ ذلك الحُكْمُ عامٌّ.

إِذَنْ: ﴿فَٱنظُرْ﴾ نَقُول: أيها المخاطَب ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فِي هَذِهِ الآيَة.

وهنا مسألتان:

أولًا: ﴿كَانَ﴾ تَرْفَعُ الاسمَ وتنصِبُ الخبر، هَذَا المعروفُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ [النِّسَاء:٩٦]، وهنا ما نَرَى خبرًا لـ(كان) ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

ثانيًا: أَنَّهُ إذا كَانَ الفاعل مُؤَنَّثًا كَانَ الفِعْل مُؤَنَّثًا.

والجواب: ﴿كَانَ﴾ هنا ليستْ تامَّة، فالخبرُ مقدَّم وَهُوَ ﴿كَيْفَ﴾. مقدَّم وجوبًا لِأَنَّهُ اسْم اسْتِفْهام، والاسْتِفْهام له الصَّدارَةُ، فلا يمكن أن يأتي الاسْتِفْهامُ فِي وسط

الكَلام، بل لَا بُدَّ أن يَكُون متقدِّمًا.

و﴿عَٰقِبَةُ﴾ مؤنث مجازيٌّ لا حقيقيّ، والفرق بين المؤنَّث المجازي والحقيقيّ: ما كَانَ له فَرْج فَهُوَ مؤنَّث حقيقيّ، وما لم يكن له فَرْجٌ وإنما تأنيثه لفظيٌّ فَهُوَ مؤنَّث مجازيٌّ.

وقوله: ﴿عَٰقِبَةُ﴾ ما معنى العاقبة؟ العاقبة فِي الأَصْل: التأخُّر، ومنه العَقِبُ فِي القَدَمِ، وعَقِبُ القدم هو العُرْقُوب المؤخَّر، فالعاقبة معناها: الأَمْرُ المتأخِّر، يَعْنِي: انظر ماذا كَانَ من أمرهم فِي النهاية.

وقوله: ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الَّذِينَ صار شأنهم الإفساد. والمُرادُ بالإفسادِ هنا لَيْسَ إفساد العِمرانِ، فقد يَكُونُ العمرانُ فِي زمنِ فِرعونَ قد بَلَغَ غايتَه، لكِن المُراد بالإفسادِ الإفسادُ المعنويُّ؛ إفسادُ الأخلاقِ والعقائدِ، وربما يَتْبَعُه إفسادُ العمرانِ؛ كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، وكما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١١٢].

وبهَذَا التقرير، وَهُوَ أن الأَصْلَ فِي الإفسادِ الموجودِ فِي الْقُرْآن هُوَ إفساد الأخلاقِ والعقائدِ، ويتبعه فساد الأَعْمالِ، وبهَذَا نَعرِف خطأ ما يُطنطن به النَّاس الْآنَ من الرفاهية والطمأنينة والأمن ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وإذا أتوا إِلَى ذِكر الدين يَقُول: العقيدة السمحاء ولا يُذْكَرُ العَمَل.

ثُمَّ كلمة (السمحاء) أيضًا تدل عَلَى ضعفٍ فِي هَذِهِ العقيدة، فمعنى سمحاء: كُلّ شَيْء تَسْمَح به.

صحيح أَنَّهَا هِيَ الحَنيفيَّة السَّمحة لَا شَكَّ، لَكِنَّها لها أعمال ولها حَزْم، ولهَذَا التركيز عَلَى الترفيه البدنيّ والنعيم البدنيّ فِي نظري أَنَّهُ خطير؛ لِأَنَّهُ يبدأ كُلّ واحد يَنْشُدُ هذينِ الأَمْرينِ: يَقُول: أنا عندي عقيدة سليمة سَمْحَاء لَيِّنة، هَيِّنة، كُلّ شَيْء تَقْبَله، ويقول: أنا أنشد أيضًا رفاهيَةَ البدنِ والأمنَ ومَا أَشْبَـهَ ذَلِكَ. لكِنِ استقامة الدِّين والسعي فِي إقامته بين النَّاس بالأَمْرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكَرِ والجهادِ فِي سبيلِ اللهِ هَذَا أمر لا يكاد يُذْكَر.

وفي الحقيقة أن الرفاهية إذا كانت للبدنِ وحدَه فهي فسادٌ، ولا يَدُومُ هَذَا أبدًا ولا يمكن أن يَدُومَ، عَلَى أنَّ الرفاهيَةَ المطلَقَة للبدنِ لَا بُدَّ أن تكونَ مصحوبةً بقلقٍ فِي القلبِ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى إِنَّمَا ضَمِنَ الحياةَ الطيِّبَةَ لِمَن ﴿عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ فقَرن بينَ العقيدةِ والعَمَل، وبَدأ بالعَمَل أيضًا ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]. حياة طيبة فِي الدُّنْيا وأجر حَسَن فِي الآخِرَة.

هَذَا الَّذِي يَجِب أن يركَّز عليه، أَمَّا الرفاهيَةُ المطلَقَةُ فإنها ضَرَرٌ عظيمٌ عَلَى الْإِنْسَان، تُوجِبُ الغفلةَ عنِ اللهِ تَعَالَى، وانشغال الْإِنْسَان بطلبِ الرفاهيةِ الجسديَّة الزائلة.

يَقُول بعض السلف: لو يعلم الملوك وأبناء الملوكِ ما نحنُ فِيهِ لَجَالَدُونا عليه بالسيوف[1]. قَالُوا: أَعْطُونا الَّذِي أنتم فِيهِ منَ النَّعيم والسرورِ وانشراح الصدر ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٣٧٠-٣٧١)؛ والبيهقي في الزهد الأكبر (٨٠)؛ وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/ ٣٠٣).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّهُ عَلَى قـوَّة الآيَات الَّتِي جاء بها موسـى ﷺ لم يَسْتَفِـدْ مِنْهَا هَؤُلَاءِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ والآيَات إذا قَوِيت لا يبقى مجالٌ للجحدِ، ولكِن -والعياذُ بالله- أَعْمَى اللهُ بصائِرَهُم فجَحَدُوا بها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ جَحْدَ هَـؤُلَاءِ المرسَل إليهم كَانَ عن عنادٍ، لا عن شُبهـةٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾، وهل هَذَا وقعَ لكفَّار قريشٍ مَعَ النَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟ نعم وَقَعَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]، وَلَا شَـكَّ أنَّ هَـذَا واقـعٌ مِنَ الرؤساء والزعماء، لكِن عامَّة النَّاس قد لا يَكُون لديهم هَذَا الأَمْر، وإنَّمـا هم مقلِّدون، أَمَّا الزعماء والكبراء فلَا شَكَّ فِي هَذَا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: سوء أحوال آلِ فِرعونَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، ﴿ظُلْمًا﴾ لأنفسهم ولموسى، ﴿وَعُلُوًّا﴾ تَرَفُّعًا عنِ الحقِّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الاتِّصـافَ بهذينِ الوصفيـنِ يَجعلُ الْإِنْسَان من الأُمَّـة الفِرعونيَّة، وهما: الظلم والعُلُوّ، وما من صفةٍ يخرج بها العبـد عن سواءِ السبيـلِ إِلَّا وله فيها إمامٌ من أهلِ الكفرِ، ولهَذَا أخبر النَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أننا سنركب سَنَنَ مَن كَانَ قَبْلَنَا[1]، فما مِن خَصلةٍ يَخرج بها العبد عن سواءِ السبيلِ إِلَّا وله فيها إمامٌ من أهلِ الكفرِ، فالجحد بالحقِّ للفاعل فِيهِ إمام مثل فرعونَ وقومه، والحسد للإِنْسَانِ

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النَّبِيّ ﷺ: «لتتبعن سنن من كَانَ قبلكم»، حديث رقم (٦٨٨٩)؛ صحيح مسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، حديث رقم (٢٦٦٩)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فِيهِ إمامٌ مثل اليهودِ، والرياء للإِنْسَان فِيهِ إمام كالمنافقينَ، بل إنَّهُ من المنافقين، وهَكَذَا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: ذَمُّ الترفُّع عنِ الحقِّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَعُلُوًّا﴾ ولا فرقَ بين أن يَكُونَ ذلك عن حُسْنِ نيَّة أو لا، فهَذِهِ الطريقةُ مذمومةٌ ولو عن حُسْنِ نيَّةٍ، وقولنا: (ولو عن حُسن نية) لِيَدْخُلَ فِي ذلك بعضُ المقلِّدين الَّذِينَ إذا عُرِضَ عليهم الدَّلِيل من الكتاب والسنَّة قَالُوا: نحن نَتَّبعُ فلانًا لِأَنَّهُ أعلمُ منك، هَذَا عن حسن نية فيما يبدو. وجه كونه عن حسن نِيَّة؛ لِأَنَّهُم يرون أن هَذَا الإمام الَّذِي اتبعوه أعلمُ منك ويَقُولُونَ: نحن جهَّال ولا نعرِف وَلَيْسَ لنا إِلَّا أنْ نُقَلِّدَ وهَذا الرجلُ أعلمُ منك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ إذا كَانَ هَذَا الوصفُ مذمومًا وفرعونيًّا؛ فإن عكسَه محمودٌ، والعكس هُوَ التواضُع للحقِّ وقَبُوله، هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ ممدوحٌ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى إذا أثنى بالسوءِ عَلَى وصفٍ فإنَّ ضده يُثْنَى عليه بالحُسْن.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَنبغي للإِنْسَانِ أو يَجِب أن يتفكَّر ويتأمَّل فِي عواقب مَن سبقَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وهل الْإِنْسَان ينظر فِي عواقب المفسدين أو فِي عواقب المفسدين والمصلحينَ؟

يَنْظُرُ فِي كِلَيْهِما.

إِذَنْ: ما فائدة الحِكْمَةُ من التخصيصِ هنا؟

نَقُول: لِأَنَّ المَقام مَقامُ تحذيرٍ، وإذا كَانَ المقام مقام ترغيبٍ فإنَّنا نَقُول للإِنْسَان: فانظرْ كيف كَانَ عاقبة المصلحينَ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود:١١٦]،

فالمسألة تختلف، ففِي مقامِ الترهيبِ نُحيلُ الْإِنْسَان إِلَى عواقبِ المفسدينَ، وَفِي مقام الترغيبِ نحيله إِلَى عواقبِ المصلحينَ؛ لأجلِ أن يَحْذَر من أولئك ويرغب فِي هَؤُلَاءِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وفيها دليلٌ عَلَى فضيلة التأمُّل والتفكُّر فِي أخبارِ مَن مَضَى؛ وأن دراسة علم التاريخِ من الأَشْيَاء الَّتِي جاء بها الشرع، فإنَّنا لا يمكن أن ننظرَ كيف كَانَ عاقبتهم إِلَّا بدراسةِ أخبارِهِم وتَتَبُّعِها، فعلمُ التاريخِ إذن من الأُمُور المقصودةِ. لكِن هل من الأُمُور المقصودة ذاتيًّا أو عرضيًّا؟

عرضيًّا، إِلَّا سِيرة النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وخُلَفَائه الراشدينَ فإنها مِنَ الدينِ؛ لِأَنَّهَا كلها أحكام، بخلاف النظر فِي التاريخ لأجلِ الاعتبارِ فقطْ، فلكلِّ مَقامٍ مقالٌ؛ لِأَنَّ النظر فِي التاريخ للاعتبار فقط قد يعتبر الْإِنْسَان بغيرِه فيستغني عنه، لكِن النظر فِي سيرةِ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَنَّهَا أحكامٌ وفِقْهٌ، وهَذَا مقصودٌ لذاتِه، فلا يَستغني الْإِنْسَان بغيرِها عنها.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما حُكْمُ مَن يَمْدَحُ هَذِهِ الأممَ ويُشِيدُ بقُوَّتِهم وإبداعهم ولا ينظر إِلَى عاقبتهم؟

قُلْنَا: إذا كَانَ الْإِنْسَانُ يَتَفَكَّر بِعمرانهم وقوتهم ومع ذلكَ أَهْلَكَهُمُ اللهُ، فهَذَا لا بأسَ به، وَأَمَّا إذا كَانَ يريد أنْ يَتَفَكَّر بقوَّتهم من أجل مَدْحِهِم والثَّناء عليهم فهَذَا لا يجوزُ، ولهَذَا ما أَمَرَنَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنْ ننظرَ إِلَى قُوَّتِهم إِلَّا بَعْد أنْ أَمَرَنَا أنْ نَنْظُرَ إِلَى عاقبتهم. وَعَلَى هَذَا فالَّذِينَ يذهبون إِلَى دِيَارِ ثَمُودَ لِلتَّفَرُّج والتنزُّه هَؤُلَاءِ عُصَاةٌ، فالرَّسُول ﷺ يَقُول: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ**»، فلا يجوز أنْ يذهبَ الْإِنْسَانُ فِي رحلةٍ مثلًا إِلَى ذلك المكان إِلَّا إذا كَانَ يدخل وَهُوَ باكٍ

«فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ»[١].

والحمدُ للهِ الْإِنْسَان فِي غنى عن هَذَا، فلَيْسَ بلازمٍ أنْ يذهبَ، لكِن مَعَ الأسفِ الْآنَ صارتْ آثارًا يُقْصَد مِنْهَا بَيَان قـوَّة هَؤُلَاءِ وإبداعهم وإحكامهم لأمورهم، ولا يَلتفتون إِلَى ما أحلَّ اللهُ بهم منَ العقوبةِ، والعياذُ باللهِ.

• • ۞ • •

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، حديث رقم (٤٢٣)؛ ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلَّا أن تكونوا باكين، حديث رقم (٢٩٨٠)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيــة (١٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل:١٥].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان ما مَنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به عَلَى داودَ وسُلَيْمان؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ثناءُ اللهِ عَلَى نفسِه؛ لِأَنَّ كونَه يَتَمَدَّح بإيتاءِ داودَ وسُلَيْمان علمًا فهَذَا مِنَ الثَّناء، وهل هَذَا محمودٌ بالنِّسْبَةِ للخلقِ أنْ يَتَمَدَّحَ الْإِنْسَان بفضلِه؟

لَيْسَ هَذَا مِنَ المحمودِ، إِلَّا إذا كَانَ فِي ذلكَ مصلحةٌ للغيرِ، لَيْسَ لكَ أنتَ، أَمَّا اللهُ فيمتَدِح نفسهِ للثناءِ عَلَى نفسِهِ، لكِن أنتَ لا تفعل هَذَا، أَمَّا إذا كَانَ فِيهِ مصلحةٌ للغيرِ كإِنْسَانٍ مثلًا يذكر عن نفسِه شيئًا لأجلِ أن يُقتدَى به فِي الخيرِ؛ فهَذَا لا بأسَ به، أو لأجلِ أنْ يَنتفِعَ النَّاس بما عنده، فهَذَا أيضًا لا بأسَ به، فابنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ أَعْلَمُ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ»[1] أو كما قالَ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النَّبيّ ﷺ، حديث رقم (٤٧١٦)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، حديث رقم (٢٤٦٣).

والعُلَماءُ ما زالوا يَمْدَحُون كُتُبَهُم، فابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُول[1]:

تُقَرِّبُ الْأَقْصَى بِلَفْظٍ مُوجَزِ وَتَبْسُطُ الْبَذْلَ بِوَعْدٍ مُنْجَزِ

وَتَقْتَضِي رِضًا بِغَيْرِ سُخْطِ فَائِقَةً أَلْفِيَّةَ ابْنِ مُعْطِي

المهمُّ عَلَى كُلِّ حالٍ: أن مثل هَذَا لَيْسَ لمصلحةِ الْإِنْسَانِ، فهَذَا لمصلحةِ غيرِه؛ لأجلِ أن يَنْتَفِعُوا من هَذَا المُؤَلَّف مثلًا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: بعض المُؤَلِّفين أحيانًا يبالغُ؟

فالجواب: الكَلامُ عَلَى الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إسرافٌ، ولكِن الشَّيْء المعتدِل، مَعَ أَنَّهُ فِي الحقيقة الْإِنْسَان قد يُتَّهَم، ومهما كانت نِيَّتُه قد يُتَّهم، لكِن لا يضرُّ الْإِنْسَانَ إذا أصلحَ ما بينه وبين ربِّه، فلا يُهِمُّه النَّاس.

المهم أنَّ فِي هَذِهِ الآيَةِ دليلًا عَلَى تَمَدُّحِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما تَفَضَّل به عَلَى عِبَادِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فَضيلة داودَ وسُلَيْمان وأنهما أهلٌ لهَذِهِ النعمةِ؛ فإنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقُول: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، فما من فضلٍ يُعطيه اللهُ العبدَ إلَّا وَهُوَ فِي مكانِه؛ لِأَنَّ الله حكيم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فَضيلة العلم؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾، وهَذَا لَا شَكَّ فيه، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، لكِن يبقى النظرُ: ما هُوَ العلم الممدوح؟ هل هو هَذَا الَّذِي النَّاس الْآنَ فِيهِ فِي جدلٍ؟!

المُرادُ بالعلمِ الممدوحِ علمُ الشَّرِيعَة، أَمَّا ما سِوَى علمِ الشَّرِيعَة فَإِنَّهُ لا يُمدَح

---

(١) ألفية ابن مالك: البيتان الرابع والخامس.

إِلَّا حَيْثُ يُوصِل إِلَى أمرٍ محمودٍ، عكس ما عليه النَّاس اليومَ، كثيرٌ منَ النَّاسِ الجهَّال يمدحون العلمَ بغيرِ الشَّرِيعَةِ، وبعضُ النَّاس -والعياذُ باللهِ- يرَى أن علمَ الشَّرِيعَة تأخُّر، وأن علم الطبيعةِ تقدُّم، ولهَذَا يَمْتَدِح هَؤُلَاءِ العُلَماءَ بالصنائعِ وطبقاتِ الْأَرْضِ وغير ذلك؛ يَتَمَدَّح هَذَا بأنه أفضل العِلم أو هَذَا هُوَ العلمُ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أو إذا رأَى من الصناعةِ الغربيَّة قَالَ: هذا هو العلم، ولا يوجد شكّ أنَّ هَذَا الْآنَ يُفَضِّل هَذَا العصرَ عَلَى عصر الصحابةِ.

وهَذَا لَيْسَ هُوَ المقصودَ، فالمقصودُ بثناءِ اللهِ علمُ الشَّرِيعَة؛ لأن علم الشَّريعة هُوَ الَّذِي يَنْفَع الخلقَ، حتى إن علم الشريعة هو الذي يَدُلُّهم عَلَى هَذِهِ العلوم الَّتِي يَتَبَجَّحُونَ بها؛ لِأَنَّ الله يأمرُ بأن نسعى فِي الْأَرْض، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]، وقال تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥]، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فالحاصلُ: أنَّ العلمَ الَّذِي مَنَّ اللهُ به عَلَى داودَ وسُلَيْمَان وأثنَى عليهما به هُوَ علمُ الشَّرِيعَة، وهَكَذَا جميعُ ما فِي النصوصِ مِن مَدْحِ العلمِ فَهُوَ علمُ الشَّرِيعَةِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُحمَدُ لِذَاتِهِ، وما عداهُ فيُحمَد إذَا كَانَ مُوصِلًا إِلَى أمرٍ محمودٍ؛ وإلا فَإِنَّهُ إن أوصلَ إِلَى أمرٍ مذمومٍ كان مذمومًا، وإنْ أوصلَ إِلَى أمرٍ لا يُحْمَد ولا يُذَمّ فَهُوَ لا يُحْمَد ولا يُذَمّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: غيرُ المُسلِمينَ وَصَلوا إِلَى أعماق البحارِ وإلى الفضاءِ، مَعَ أَنَّهُم لم يَقْرَءُوا علمَ الرَّسُول ﷺ، ولا علمَ الصحابةِ رضوانُ الله عليهم؟

فالجواب: هَذَا من الجهلِ، ولهَذَا عِلْمُهم هَذَا الْآنَ لَيْسَ محمودًا، إِلَّا إذا أوصلَ إِلَى أمرٍ محمودٍ، وإلا فَهُوَ غيرُ محمودٍ، فهَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَلُوا إلى أعماقِ البحارِ وإلى

آفاقِ الفضاءِ هم الَّذِينَ صَنَعُوا ما يدمِّر الخلقَ منَ القنابلِ والأسلحةِ، فهل هَذَا محمود؟!

ثم نَقُول: هَذِهِ العلومُ إذا كانت لا تنافي العلمَ الشرعيَّ فنحن نتمنى أن المُسلِمين أيضًا يصلون إِلَى هَذِهِ الأُمُورِ لِيَنْفَعُوا أنفسَهم وينفعوا الخلقَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فضيلة داود وسُلَيْمَان أيضًا من جهةِ اعترافهما بنعمةِ اللهِ وقيامِهِمَا بشكرِ نعمةِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ لم يَقُولا: إننا أُوتينا هَذَا عَلَى علمٍ منَّا، أو لأَنَّنا أذكياء أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، قالا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الشكر يَكُونُ بالقَوْلِ كما هُوَ أيضًا بالفِعْل، فيَكُون بالقَوْلِ وبالفِعْل، ويَكُون أيضًا بالعقيدةِ، أي: بالاعتقادِ، فالشكرُ له ثلاثةُ مَحَلَّاتٍ: القَلْب واللسانُ والجوارحُ، قَالَ الشاعر[1]:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يدي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

والدَّلِيلُ عَلَى أن الشكرَ يَكُون فِي ثلاثةِ مواضعَ: فِي هَذِهِ الآيَةِ الشكرُ باللسانِ، وقال النَّبِيّ ﷺ وقد قيل له: كَيْفَ تَفْعَلُ هَذَا -وَكَانَ يَقُومُ حَتَّى تَتَوَرَّم قَدَمَاهُ- وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، فَقَالَ: «**أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟**»[2] فجعلَ الفِعْل شكرًا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقال تَعَالَىٰ: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣].

---

(١) نهاية الأرب (٣/ ٢٤٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، حديث رقم (٤٥٥٧)؛ ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنَّار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم (٢٨٢٠)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وأمَّا الاعترافُ بالنِّعَمِ بالقلبِ فَهُوَ مِنَ الشُّكْرِ، والدَّلِيلُ قولُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل:٥٣]، هَذَا الخبرُ يريدُ اللهُ مِنَّا أنْ نَعْتَقِدَهُ، ولهَذَا ذَمَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الَّذِينَ نَسَبُوا نِعْمَتَهُ إِلَى أنفسهم، قَالَ عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص:٧٨]، فقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ [القصص:٧٨].

والمواضعُ الثلاثةُ للشكرِ قَلَّ مَن يقومُ بها، فبعضُ النَّاسِ مثلًا يَعتمِد عَلَى السَّبَب فِي جَلْبِ النعمةِ إليه وينسى المسبِّبَ، فعندما يعطيه إِنْسَانٌ حاجةً من الحاجاتِ تجد أَنَّهُ يقومُ فِي قلبِه من شكرِ هَذَا المعطي أكثر ممَّا يقوم بشكرِ اللهِ، تجده يُثْنِي أيضًا عَلَى هَذَا أكثرَ ما يثني عَلَى اللهِ، فتجده يقوم بخدمةِ هَذَا أكثر مما يقوم بخدمةِ اللهِ، مَعَ أن هَذَا الَّذِي وَصَلَتِ النعمةُ عَلَى يدِهِ ما هُوَ إِلَّا طريق لِوُصُولِها إليك فقط، وإِلَّا فالذي جعلَ فِي قلبه أن يوصل هَذِهِ النعمة إليك هُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ الَّذِي يَسَّرَ هَذَا.

فالحاصلُ: أنَّ النَّاسَ الْآنَ فأكثرُهم أو غالبهم يُخِلُّون فِي مَقامِ الشكرِ إمَّا بالقلب أو باللسان أو بالجوارحِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الْإِنْسَانَ يُشْرَعُ لـه إذا مَنَّ الله عليه بنعمةٍ أنْ يَحْمَدَهُ عليها، وقد وردَ فِي النصوصِ مثل ذلك، فعندما تنتهي من الأكلِ والشربِ تقول: الحمدُ للهِ[1]، وعندَما تَسْتَيْقِظُ تَحْمَدُ اللهَ[2]، وعندما تلبسُ ثوبًا تحمدُ

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، حديث رقم (٢٧٣٤)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام، حديث رقم (٥٩٥٣)؛ صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، حديث رقم (٢٧١١)، عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الله[1]، وهَكَذَا فمِنَ الأُمُورِ المشروعةِ حَمْدُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى النِّعَمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: تواضُع داود وسُلَيْمان ومعرفتهما للحقيقةِ، لِقَوْلِهِ: ﴿فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما ذكرا التفضيلَ المطلَقَ عَلَى جميعِ المُؤْمِنِينَ، بل عَلَى كثيرٍ من عبادِه المُؤْمِنِينَ.

وهل يُستفاد من ذلك وصف الأَنْبياء بالإِيمان، يَعْنِي: هل يُشْعِر قوله: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنهما من المُؤْمِنِينَ؟

الظَّاهرُ أَنَّهُ يُشْعِرُ بهَذَا، يعني أننا شاركناهم فِي وصفِ الإِيمانِ، و﴿فَضَّلْنَا﴾ اللهُ عَلَى كثيرٍ منهم.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله تَعَالَى: ﴿فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَدُلّ عَلَى أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أفضلُ الرسُلِ؛ لِأَنَّ قولَهما: ﴿كَثِيرٍ﴾ يَدُلّ عَلَى أنهما عَلِما ذلك؟

قُلْنَا: هَذَا فِيهِ إشكالٌ، وَهُوَ أَنَّنا لَيْسَ عندنا علمٌ أن الأَنْبياء عَلِموا بأن مُحَمَّدًا ﷺ سَيُبْعَثُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران:٨١]، كلمة (رسول) نَكِرَة لا تدلُّ عَلَى أن اللهَ عَيَّنَ مُحَمَّدًا ﷺ لهَؤُلَاءِ، وإن كَانَ قَالَ: إن الله أخذ عَلَى النبيِّين الميثاقَ لئِن بُعث مُحَمَّد، لكان هَذَا تفسيرًا منه، أَمَّا الآيَةُ فلا تدلّ عَلَى هَذَا، وقد يقال: إِنَّهُ يَدُلّ عليه لِأَنَّ داود ﷺ يقينًا اطلع عَلَى التوراةِ.

---

(١) انظر: سنن أبي داود، كتاب اللباس، باب، خديث رقم (٤٠٢٣)، عن معاذ بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، جامع الترمذي، كتاب الدعوات، باب في دعاء النَّبِيّ ﷺ، حديث رقم (٣٥٦٠)، سنن ابن ماجه، كتاب اللباس، باب ما يقول الرجل إذا لبس ثوبًا جديدًا، حديث رقم (٣٥٥٧)، مسند أحمد (١/ ٤٤) (٣٠٥)، عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الْإِنْسَان إذا رأى أَنَّهُ أفضلُ من غيرِهِ بنعمةِ اللهِ عليه فإن هَذَا لا يُنافي التواضُعَ، يعني عندما تشعر أن الله أنعمَ عليكَ بالمالِ وفَضَّلَكَ عَلَى هَذَا، فهذا لا يعني أَنَّك تَرَفَّعْتَ وتَكَبَّرْتَ، بل إنك لا يمكنُ أن تدركَ نعمةَ اللهِ عليك حَتَّى تعرفَ ضِدَّها فِي غيرك، فإذا رأيتَ مثلًا إِنْسَانًا مبتلى فِي بدنه والله تَعَالَى قد عافاكَ، عرفتَ فضلَ نعمةِ اللهِ، تقول: الحمد لله الَّذِي عافاني ممَّا ابتلاهُ به وفضَّلني عليه، وعندما ترَى جاهلًا وأنتَ قدْ منَّ اللهُ عليكَ بالعلمِ فإنك كذلك أيضًا ترى فضلَ نعمةِ اللهِ عليكَ بهَذَا العلم، ولا يُعَدّ هَذَا من بابِ الترفُّع والاستهانة بالغيرِ، ولهَذَا قالا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقد يتراءى للإِنْسَانِ أَنَّهُ إذا رأى فضلَه عَلَى غيرِه بمـا أنعمَ اللهُ عليه أن ذلك أمرٌ مذمومٌ، وَأَنَّهُ يتضمن الترفُّعَ والاستهانةَ بالغيرِ، وَلَيْسَ الأَمْرُ كذلكَ، لكِن هَذَا حَسَب نِيَّةِ الْإِنْسَان، فشعوره بعلوِّهِ بمـا فَضَّلَهُ اللهُ به عَلَى غيرِه قد يَكُون علوًّا وقد يَكُون ازدراءً، وقد ينظرُ إِلَى نعمةِ اللهِ عَلَى غيـرِه عَلَى وجـهِ الحِكْمَةِ، يَقُول: إن الله حكيمٌ، ولولا أن هَذَا أهلٌ ما أعطاهُ، ثُمَّ يَسعَى فِي تكميلِ الفضائلِ لينالَ ما نالَ، المهمُّ أن هَذِهِ المسألة ترجع إِلَى النيَّة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: مشـروعيَّة التحدُّث بنعمةِ اللهِ، لكِن لا عَلَى سبيلِ الافتخارِ والعلوِّ عَلَى الغيرِ، ولهَذَا جاء فِي الحديث عن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ**»[1]، فالْإِنْسَانُ إذا تحدَّث بنعمةِ اللهِ غيرَ مفتخرٍ بها فَإِنَّهُ لا بأسَ

(١) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل، حديث رقم (٣١٤٨)؛ وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، حديث رقم (٤٣٠٨)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
ورواه مسلم بدون: «**ولا فخر**»، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، حديث رقم (٢٢٧٨)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بذلك، بل قد يَكُون هَذَا مشروعًا؛ لِأَنَّهُ ثناءٌ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما أنعمَ به عليك.

الفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ علمِ اللهِ، وَجْهُه أَنَّهُ أعطَى علمًا، وفاقدُ الشَّيْءِ لا يُعْطِيهِ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعْطَى هَؤُلَاءِ عِلمًا، ولا يُعْطِي العلمَ إِلَّا مَن كَانَ عالمًا، لِأَنَّهُ يُعَلِّمُهم بما يَعْلَمُ هو.

• • ۞ • •

الآيــة (١٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل:١٦].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ سُلَيْمان متأخِّر عن داودَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ﴾ والإرثُ أنْ يَخْلُفَ الْإِنْسَانُ غيرَه فِي شيءٍ ما، عِلمًا كَانَ أو مالًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: مشروعيَّة تحدُّث الْإِنْسَانِ بِنِعْمَةِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هَذَا التحدُّث لا بأسَ أن يَكُون علنًا، يعني شَامِلًا؛ لِأَنَّ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نداء للبعيدِ، فكأنَّ سُلَيْمان أعلنَ ذلك فِي جميعِ النَّاسِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الطيرَ تَنطِق؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ نُطْقَهَا مفهومٌ ومعلومٌ، ولكِن فيما بينها معلوم، ولغيرها مجهولٌ، إلَّا لمَن عَلَّمَهُ اللهُ، ولهَذَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعطَى سُلَيْمان من كُلّ شيءٍ يَتِمُّ به المُلْكُ؛

لِقَوْلِهِ: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، وَهُوَ نظيرُ قولِه تَعَالَى عن مَلِكَةِ سَبَأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٢٣]، أي: مِمَّا يَتِمُّ به المُلْك، هَذَا إذا قَيَّدْنا من كُلِّ شَيْء يتمُّ به المُلك، فـ﴿مِن﴾ لبَيَان الجنسِ، وإذا قُلْنَا: إن ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ عامٌّ لكلِّ شيءٍ فإن ﴿مِن﴾ تكون للتبعيضِ؛ لأنهما ما أُعْطُوا كُلَّ شيءٍ، بل بعضَ كُلِّ شيءٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ ما يعطيه الله تَعَالَى العبدَ منَ العلومِ والفهمِ فَهُوَ من فضلِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾، وقد قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ مَن عَلِمَ لغةَ غيرِه فله ميزة عَلَى غيرِه؛ لِأَنَّهُ تَمَدَّحَ بِقَوْلِهِ: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

إِذَنْ: تعلُّم اللُّغةِ غيرِ العربيَّة هُوَ فِي الحقيقةِ مِن نعمةِ اللهِ عَلَى العبدِ، لكِن إنِ استعملها مكانَ اللُّغةِ العَربيَّةِ فَإِنَّهُ مُخْطِئٌ، وَكَانَ عمر يَضرِب عَلَى ذلك[1]، وإنِ استعملها لمصلحةٍ دِينيةٍ فهَذَا له أجرٌ فِي ذلكَ، كما لوِ استعملها فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الله وتَفهيم الخلقِ الَّذِينَ لا يَفهمون اللُّغةَ العَربيَّةَ، فهي وسيلةٌ.

المهمُّ أَنَّهُ لَا شَكَّ أن الْإِنْسَان الَّذِي يتعلم لغة غيرِه فله ميزة عَلَى غيرِه فِي هَذَا، ولكِن كونه محمودًا أو غير محمودٍ يَرجِع إِلَى ما يَتَوَصَّلُ به بهَذِهِ اللُّغةِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قول سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ آيَةٌ، وعليه فتعلُّم لغةِ الغيرِ لَيْسَ له ميزةٌ؟

قُلْنَا: هَذَا صحيحٌ، لكِن كونه يَتَمَدَّح أَنَّهُ عُلِّم هَذَا المَنْطِقَ هل هُوَ لأجلِ كونِه

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ١١٣٣، رقم ٢٢٢٩).

آيَةً أو لِأَنَّهُ أمرٌ يَخفى عَلَى غيرِه؟ صحيح أَنَّهُ آيَة ويخفى عَلَى غيره.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: المسألة ليستْ بذاك، المسألة الَّتِي تؤخَذ من هَـذِهِ الآيَة أنَّ الْإِنْسَان يُمْدَح إذا عَلِمَ لغةَ غيرِه زائدة، لكِن لَا شَكَّ أَنَّهُ علم، وَأَنَّهُ إذا تُوُصِّلَ به إِلَى أمر مقصودٍ فَهُوَ محمود كما تقدَّم، وإن توصل به إِلَى أمر مذمومٍ فَهُوَ مذمومٌ.

فمثلًا إذا كَانَ الْإِنْسَان يَتَعَلَّم لغة غير العَرَبِيَّة فيُحِلّها مَحَلّ العربيَّة ويبدأ يخاطِب غيرَه بهَذِهِ اللُّغةِ فلَا شَكَّ أَنَّهُ مذمومٌ ويُنهى عنه؛ لِأَنَّهُ يخالف الشرعَ من جهةٍ، ويخالف العقلَ من جهةٍ أخرى، فالأممُ الْآنَ تسعى بكل وسيلةٍ للحفاظِ عَلَى لغاتِها، بل إنَّهَا تسعى لإحياءِ لغاتها البائدةِ، مثلما يصنع اليهود الْآنَ يحاولون بشتَّى الوسائلِ أن يرجعَ قومُهم إِلَى اللُّغة العِبْرِيَّة، فكيف نُضَيِّع اللُّغةَ العربيَّة الَّتِي هِيَ لغة العالم، لغة العالم شَرعًا -وليسَ قَدَرًا- ولهَذَا يَجِب عَلَى جميعِ العالمِ أن يتعلمَ اللُّغةَ العَرَبِيَّةَ؛ لِأَنَّ الْقُرْآن باللُّغةِ العَرَبِيَّةِ ولا يمكن فَهْمُه إِلَّا باللُّغة العربيَّة.

ولكِن نحن الْآنَ مَعَ الأسف نَرَى أن غير اللُّغة العَرَبِيَّةِ هِيَ العالميَّة، مثلما أننا نرى الْآنَ الشهورَ غير العَرَبِيَّة هِيَ العالمية؛ لأنَّنا فِي الحقيقةِ ما عَرَفْنا قَدْرَ أَنفسنا، وإلَّا فالمسلمونَ هم العَالَمَ فِي الحقيقةِ، هم العالم فِي دِينهم، وَفِي كتابهم، وَفِي تاريخهم، يَقُول الله تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ﴾ لمَن؟ ﴿لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٩]، وليس العرب وحدهم ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾، وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٦]، متى؟ ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وقد فَسَّرَهَا الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بهَذِهِ الأشهرِ العَرَبِيَّة، لكِن[1]:

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا ... وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي

(١) الحماسة البصرية (٢/ ٣٠١).

فالحاصل: أنه مَعَ الأسفِ الشَّديدِ بعضُ النَّاسِ يَتَعَلَّم لغةَ هَؤُلَاءِ ويجعلها هِيَ لغةَ التخاطُبِ فيما بينهم، وهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ نقصٌ فِي الشرعِ والعقلِ.

ولو أن النَّاس نُقلوا من اللُّغةِ العامِّيَّة إِلَى اللُّغةِ العَربِيَّةِ الفصحى فهَذَا طيِّب ومِن أحسن ما يَكُون؛ لِأَنَّهُ يُعِين عَلَى فهم الْقُرْآنِ والسنّة، لكِن إذا لم يمكِن فهَذَا تغييرٌ، أي: لهجة فقط، ولو تأمَّلْتَ ما عليه النَّاس الْآنَ من اللُّغة العامِّيَّة لوجدت أن كُلّ كلماتهم لها أصول فِي اللُّغة العَربِيَّةِ، لكِن هو اختلاف لَهَجَات، فبودنا الحقيقة أن نرجع إِلَى اللُّغة العَربِيَّة الفصحى، ولكِن هَذَا يحتاج عملًا، فنحن نريد أن نَتَخَلَّى عن لُغَتِنا هَذِهِ العامِّيَّة إِلَى اللُّغةِ الفصحى، ويعجبني واحد من سيريلانكا فِي إحدى المؤسسات عندنا جاء مـرَّةً يتكلم معي ويتكلم باللُّغةِ الفصحى ولا يَلْحَنُ، هَـذَا العجيب، فالعجيب أَنَّهُ لا يلحن، هُوَ سيرلانكي أصلًا لَكِنَّهُ تعلم اللُّغة العَربِيَّة عَلَى اللُّغة الفصحى؛ لِأَنَّ القواميس باللُّغة الفصحى، وهو يكلمني باللُّغة الفُصْحَى تمامًا ولا لحنَ وهَذَا طيِّب.

• • ۞ • •

الآيــة (١٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل:١٧].

قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ سُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ آتاه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُلْكًا لا يَنبغي لأحدٍ من بعدِه، حَتَّى إنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَمَّا هَمَّ أنْ يَقبِضَ عَلَى الشيطانِ قَالَ: «ذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمان: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص:٣٥]»[1]. فمِن جُملة مُلْكِهِ هَذَا التنظيمُ العظيمُ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَحُشِرَ﴾ جُمِعَ]، والجامِعُ: النُّقَبَاء والعُرَفَاء الَّذِينَ جَعَلَهُم يَجْمَعُون هَؤُلَاءِ الجنودَ، فَهُوَ قد نَظَّمَ مُلْكَه غايةَ التنظيمِ وجعلَ لكلِّ أُناسٍ قادةً وعُرَفَاءَ يَجْمَعُونهم.

وقوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ وهل يُحشَر معهم غيرهم؟

الجِنّ واضحٌ، والإنس مُكَلَّفون، والطيرُ غيرُ مُكَلَّفِينَ، وهي تطير.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد، حديث رقم (٤٤٩)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعوذ منه وجواز العمل القليل في الصلاة، حديث رقم (٥٤١)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

بَقِينا فِي الحيواناتِ الأُخْرَى الماشية والزاحفةِ، هل تدخل فِي هَذَا من بابِ أَولى ونَقُول: إنَّهُ إذا حُشِرَتِ الطيورُ الَّتِي لا يمكن السيطرةُ عليها فغيرها من باب أولى، أو نَقُول: إن سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما كَانَ يَستعمِل إِلَّا الطيور فقط؛ لِأَنَّهُ يستخدمها لمصالحه؟

هو مَحَلُّ إشكالٍ عندنا، فالآن نَقُول: سكتَ عن بقيَّة الحيوانات، فهل هِيَ داخلة فِي جُنُودِهِ أو لا؟ قد تقولُ: إنَّهَا داخلة من باب الأَولى، وقد نَقُول: ليست بداخلةٍ.

ما وجه قولنا: من باب الأولى؟

وجه قولنا أن نَقُول: إذا كَانَ الطيرُ وَهُوَ لا يمكن السيطرةُ عليه لِطَيَرَانِهِ يُحْشَر ويُجْمَع فغيرُه من باب أولى، وقد تقول: إنَّهُ لَيْسَ بلازِمٍ؛ لِأَنَّهُ يمكن أن سُلَيْمَان ﷺ لا يستخدم من الحيوانات سِوَى الطيرِ، وإذا لم يَسْتَخْدِمْ سواها فلا حاجةَ له فِي أن يجمعَ الباقيَ.

قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يُجْمَعُونَ ثُمَّ يُساقونَ]، وهَذَا أيضًا منَ التنظيمِ ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُساقون يعني منظمينَ فِي جَمْعِهِمْ وسَيْرِهِمْ، فيُجمعونَ أولًا، وبعدَ أنْ يُجْمَعُوا يُوَزَّعُون فيُساقون عَلَى وجهٍ مُنَظَّمٍ. وهَـذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ مـنَ التنظيمِ الَّذِي يحفظ عَلَى النَّاس الوقتَ والعَمَلَ؛ لِأَنَّ أكثرَ ما يُضَيِّعُ وقتَ الْإِنْسَانِ وعَمَلَه هُوَ عَدَمُ التنظيمِ.

ولهَذَا أقول: إِنَّهُ يَنبغي أنْ يَكُونَ عندَنا تنظيمٌ لأعمالِنا اليوميَّة بِقَدْرِ المُستطاع، ولكِن لَيْسَ معنى ذلكَ أنْ نُصِرَّ عَلَى هَذِهِ الأَعْمالِ وإنْ وُجِد ما هُوَ أفضل فلا نفعله،

إِنَّمَا فقط يَكُون الْإِنْسَان مُرَتَّبًا مُنَظَّمًا لا يَدَع وَقْتَه فَوْضى، فيقرأ الْآنَ فِي هَذَا الكتاب سطرًا ثُمَّ يَدَعه لِيَقْرَأَ فِي الكتابِ الثاني ويدعه، أو يعمل هَذَا العَمَل ويبدأ به ثُمَّ يَتْرُكه، فينبغي أن يَكُونَ عِنْدَه تنظيمٌ، ومِنَ الْمُسْتَحْسَنِ أَنَّهُ كلَّما كَانَ الشَّيْء أهمّ يبدأ به أوَّلًا.

وكَانَ بعض النَّاس يَقُولُونَ: إِنَّهُ من جُملةِ تنظيمهم يجعل قراءة الجرائد والصحف إذا تغدَّى، ويَجعل قراءةَ الكتبِ الهامَّة الَّتِي تحتاج إِلَى تعبٍ بعدَ الغداءِ؛ لِأَنَّ قراءةَ الصحفِ قراءةٌ سَطحيَّةٌ مثل التحدُّث العادي، ولَيْسَ فيها تعبٌ. لكِن الكتب فيها تَعَمُّق فتحتاج إِلَى عملٍ، وهَذَا لا يناسبُ مَعَ وجودِ الشِّبَعِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد نَظَّمَ جُنُودَهُ ورَتَّبَهُم بحيث يُجمَعون عندَ الجمعِ ويُفَرَّقُون عند التفريقِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الجنود الَّذِينَ يَسْتَصْحِبُهُمْ سُلَيْمَان ثلاثةُ أصنافٍ، وهم: الجِنُّ والإنسُ والطيرُ، أَمَّا الإنس فاستصحابُه لهم ظاهرٌ؛ لِأَنَّهُ منهم، وَأَمَّا الجنُّ فلاستخدامِهِمْ فيما لا يَقْدِرُ عليه الْإِنْسَانُ، وَأَمَّا الطيورُ فقال بعضُ العُلَماءِ: إِنَّهَا تَصْحَبُهُ لِتُظِلَّهُ، فتكون فوق رأسِهِ ظُلَّةً منَ الشَّمْسِ، وهَذَا قد يَكُون مقصودًا، وقد يَكُون أيضًا من مقصودِ استصحابِ الطيرِ أَنَّهَا تأتيه بالأخبارِ البعيدةِ كما فِي قِصَّة الهُدْهُد.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: كمال التنظيم أيضًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ لِأَنَّ الوَزْعَ معناه: الجَمْعُ والسَّوْق، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت:١٩]، يُجْمَعُون إليها ويُساقُون إليها. وهَذَا دليلٌ أيضًا عَلَى كمالِ تَنظيمِهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جوازُ استعمالِ الساقَةِ فِي الجُنْد والجيشِ، بأن يَكُون لهم سائقٌ كما أنَّ لهم قائدًا دليلًا، وقد كَانَ من هدي الرَّسُول ﷺ أَنَّهُ يَكُونُ فِي الساقَةِ فِي أُخريات القومِ[1]، مَعَ أَنَّهُ ﷺ رَئِيسهم وزعيمهم، لَكِنَّهُ يتأخَّر لأجلِ أنْ يُرْفِدَ من قَصَّر ويُعِين مَنِ احتاجَ، وللفوائد العظيمة الَّتِي تحصُل بهَذَا.

• • ۞ • •

(١) سنن أبي داود: كتاب الجهاد، باب في لزوم الساقة، رقم (٢٦٣٩).

الآيــة (١٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل:١٨].

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ﴾ هَذِهِ غايةٌ لِما سبقَ، وَهُوَ قوله: ﴿وَحُشِرَ﴾، وَعَلَى هَـذَا فيَكُونُ فِي الكَلامِ حَـذْفٌ تَقديرُه: وساروا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ﴾. فبعدَ أنْ جُمِعَ الجنودُ وَوُزِّعُوا فَرُدَّ أولهم إِلَى آخرهم، ونُظِّموا، سَارُوا.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾: ﴿أَتَوۡاْ﴾ أي: سُلَيْمان وجنوده، أي: مَرُّوا.

وقوله: ﴿عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ ظاهر الكَلامِ أن هَذَا الوادي معروفٌ بهَذَا اللَّقَب، أي أَنَّهُ يُسَمَّى واديَ النملِ، ويَحْتَمِل، لَكِن خِلاف الظَّاهِرِ أن يَكُونَ هَذَا الوادي واديًا فِيهِ نملٌ، يعني يَكُون التَّقْدير: حَتَّى إذا أتوا عَلَى وادٍ فِيهِ نملٌ، وَلَيْسَ معروفًا بهَذَا اللَّقَب، أي بأنه: وادي النملِ، ولكِن الأَولى الأخذُ بظاهِرِ اللفظِ؛ وَهُوَ أن يَكُونَ هَذَا الوادي معروفًا بكثرةِ نَمْلِهِ وَأَنَّهُ يُلَقَّب بهَذَا اللقبِ لِكَثْرَتِهِ.

والنَّمْلُ معروفٌ، وَهُوَ مِنَ الحيواناتِ الَّتِي نُهي عن قَتْلِها، كمـا فِي السُّنَن أن النَّبِيّ ﷺ نهى عن قتل أربعٍ منَ الدوابِّ، وذكرَ مِنْهَا النَّمْلةَ[1]، وَفِي الصَّحيحِ أيضًا

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في قتل الذر، حديث رقم (٥٢٦٧)؛ وابن ماجه، كتاب الصيد، باب ما ينهى عن قتله، حديث رقم (٣٢٢٤)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أن أحدَ الأَنْبياء -عليهم الصَّلَاة والسلامُ- قَرَصَتْهُ نملةٌ، فأمر بِقَرْيَةِ النملِ كُلِّها فأُحْرِقَتْ، فَعَاتَبَهُ اللهُ عَلَى ذلك وقال: هَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً[1].

وهَذَا النَّمْلُ من جملةِ المخلوقاتِ الَّتِي تَعْرِف ربَّها وتعرف ما يَنْفَعُها وما يَضُرُّها عَلَى حَسَب ما رُكِّبَ فيها من هدايةٍ، وقد قَالَ موسى ﷺ لِفِرْعَوْنَ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]، ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أي الخلقَ اللائقَ به، فكُلّ شيءٍ من الحيوان وغيرِه له خَلْق يَليق به أعطاهُ اللهُ، ثُمَّ هَدَى هَذَا الخلقَ أيضًا لما تَقُومُ به مصالحُه، فهَذَا النملُ من جُملةِ المخلوقاتِ الَّتِي أَعطاها اللهُ تَعَالَى خَلْقَهَا وهداها.

قَالَ الْمُفَسِّر: [﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ وَهُوَ بالطائفِ أو بالشامِ]، خِلاف، ولا دليلَ لا عَلَى الطائفِ ولا عَلَى الشامِ، والأقرب أَنَّهُ بالشامِ -ومعَ ذَلِكَ لا نَجْزِمُ به- لِأَنَّ مَقَرّ سُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَانَ فِي الشامِ، وتعيين المكانِ ليس منَ الأُمُورِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا فِي القصة؛ لِأَنَّ المقصودَ الاعتبارُ بما جَرَى فِي أيِّ مكانٍ كَانَ من الْأَرْض، وقَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نمله صِغار أو كبار]، أيضًا ما لنا ولهَذَا، بعضهم يَقُول: نمله كبار، والنَّمْلة كالذئب، يعني صار النمل حميرًا! وهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، بلِ النملُ هُوَ المعروفُ فِي لغةِ العربِ، وكل مَنْ فَسّرَ شيئًا من الْقُرْآن بخلافِ ما تَقتضيه اللُّغةُ العربيّةُ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ له من دليلٍ، وإلا فَيُرَدَّ عليه؛ لأنّ مَعَنا أصلًا أصيلًا فِي تفسيرِ الْقُرْآن وَهُوَ قوله تَعَالَى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥]، فمَن زَعَمَ أَنَّ شيئًا من الْقُرْآن عَلَى خلافِ هَذَا اللسانِ العربيّ المبينِ فعليه الدَّلِيلُ.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب هل للأسير أن يقتل ويخدع الذين أسروه حتى ينجو من الكفرة؟، حديث رقم (٢٨٥٦)؛ صحيح مسلم، كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، حديث رقم (٢٢٤١)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وعَلَى هَذَا نَقُولُ: النَّمْلُ هُوَ النملُ المعروفُ، وَأَمَّا القَوْلُ بِأَنَّهم كِبَارٌ وأنهم كالذِّئاب فِي الكِبَر فهَذَا لا دليلَ عليه.

قولُه: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ هَذِهِ جواب ﴿إِذَآ﴾: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ ... قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَلِكَة النَّمْل وقدْ رَأَتْ جُنْدَ سُلَيْمَانَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾...]، إِلَى آخِرِهِ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وقد رأتْ جُنْدَ سُلَيْمَان]، فهَذَا واضحٌ، اللهُ أَعْلَمُ أَنَّهَا رأته أو أَحَسَّته، قد يَكُون إحساسًا بدون نظرٍ، وقد يَكُون نظرًا، إِنَّمَا عَلَى كُلّ حال هِيَ أدركتْ قُرْبَه ووصول سُلَيْمان بجنوده إليهم.

وقوله تَعَالَى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾: ﴿نَمْلَةٌ﴾ مُنكَّر، وظاهر كلام المفسِّر أَنَّهَا مُعَرَّفَة؛ لِأَنَّهُ قَالَ: [ملكة النمل]، وهَذَا يقتضي أن يَكُون التعبير: (قالت النَّمْلةُ) يعني النَّمْلة المعهودة وهي المِلكة، ولَمَّا لم يكنِ التعبيرُ بِقَوْلِهِ: (قالت النَّمْلة) دلَّ عَلَى أن القائِلَ لا يَتَعَيَّنُ أن يَكُونَ مَلِكَة النملِ، وإنما هِيَ نملةٌ منَ النملِ، وهَذَا لَيْسَ بغريب فَإِنَّهُ كما لو أقبل جُنْدٌ عَلَى طائفةٍ منَ النَّاس ورآه واحدٌ منهم فيَصيح بهم، ولا يَلْزَمُ أن يَكُون هَذَا الصائحُ هُوَ الأميرَ أو المِلكَ، ولهَذَا الصَّحيح إبقاء الْقُرْآن عَلَى ظاهرِهِ، وأنها نملة من هَذَا النملِ، ولا يلزم أن تكونَ الملكةَ؛ لِأَنَّ في مثل هَذِهِ الأحوال أَيُّ واحدٍ يشعرُ من الطائفةِ الموجودةِ بالخوفِ يَصيح به ويُنْذِر، أنا النذيرُ العُريانُ.

إِذَنِ: الصَّواب أن نَقُول: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ من النملِ، ولا نُعَيِّنُها بأنها الملكة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وقد رأتْ جُنْد سُلَيْمان]، هل يَتَعَيَّن الإدراك بالرؤيةِ أو يجوز أيضًا بالإحساسِ والسمعِ؟

يمكن هَذَا، وحينئذٍ نسأل: هل للنمل أعينٌ؟

هَذِهِ تحتاج إِلَى دراسة علمِ الأحياءِ، وقد قرأتُ كلامًا يَقُول: إن النمل -بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- إذا مَشَى فَإِنَّهُ يُفْرِزُ أَشْيَاء تمشي النملات الأُخْرَى عَلَى رائحتها، وهَذَا شَيْء أنا شاهدتُه بعيني، حَيْثُ إِنَّهُ كَانَ يوجد بِسَاط كبيرٌ وَكَانَ النملُ يَمشي ويأتي عَلَى زاوية ثُمَّ يَرجِع، يعني يمشي مستطيلًا ويأتي عَلَى الزاوية ثُمَّ يرجع، كُلّ النمل عَلَى هَذَا، يعني لا يذهب فِي طريقٍ مستقيمٍ مُخْتَصَر، فأنا تَعَجَّبْتُ كيف يعرف الطريقَ؟ لو كَانَ عَلَى ترابٍ لكانَ يبين أثر النمل ويَمشي بعضهم مَعَ بعض، لكِن هَذَا لَيْسَ عَلَى ترابٍ، ولكِن بَعْد أن قرأتُ هَذَا عنه عرفتُ أَنَّهُ إذا مشَى يَكُون له رائحةٌ وتمشي بقيَّة النمل عَلَى هَذِهِ الرائحةِ، وهَذَا من آيَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هَذَا معنى قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

عَلَى كُلّ حالٍ: الَّذِي يَلْزَمُنا من هَذِهِ الآيَاتِ الكَرِيمَةِ أن النَّمْلَةَ أدركتْ ذلك برؤيةٍ أو بغيرِها.

قوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ انظُرْ هَذِهِ الجملة تضمنت نداءً وأمرًا وإرشادًا وتحذيرًا وتعذيرًا وغير ذلك مما يمكن أن نُدْرِكَهُ إن شاء الله بَعْد الكَلام بالتفصيلِ.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ هَذَا نداءٌ، وقد تَقَدَّمَ أن تصديرَ الجملةِ بالنداءِ الغرضُ مِنه التنبيهُ؛ فإذا قلتُ: (افعل) أو (يا فلان افعلْ) الأخيرة أعظمُ وأبلغُ، فهَذَا لتنبيهِهِ، ثُمَّ إن قولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ نداءٌ بعيدٌ مُصَدَّر بتنبيهٍ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾؛ لِأَنَّهَا لو قالتْ: (يا نملُ) فقد يَخْفَى؛ لِأَنَّهُ كما هُوَ مشاهَد الْإِنْسَان أَوَّل ما يُكَلِّمُك قد يَخْفَى عليك أَوَّلُ جملةٍ، لكِن إذا جاء بشيءٍ يُنَبِّه قبلَ الدخولِ فِي الموضوعِ المقصودِ

صار لا يفوت السامعَ منَ المقصودِ شيءٌ، هِيَ قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾ ولم تقلْ: يا نملُ. ثُمَّ إن نداءَ البعيدِ أيضًا يَدُلّ عَلَى أَنَّهَا صَوَّتَتْ بصوتٍ سمِعه الكلُّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾.

وفي قولِها: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ هَذَا أمرٌ، والمُرادُ به الإرشادُ، قالت: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾، وَفِيهِ تعيينِ المساكِنِ وهي الملاجِئ، وهَذَا مثل صفَّارات الإنذارِ عندَ النَّاسِ، فإذا صفّرت صفَّارة الإنذارِ لا يَذْهَبون إِلَى السُّطُوح، ولكِن يذهبون إِلَى الملاجِئ، وهِيَ أيضًا أَرْشَدَتْهُم إِلَى ملاجئهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾، ثُمَّ فِيهِ أيضًا إشارةٌ إِلَى أن هَذِهِ المساكن كما أَنَّهَا أكنان يُكْتَنّ بها الْإِنْسَان فهي أيضًا حُصُون يَحْتَرِزُ بها الْإِنْسَان، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾ [المرسلات:٢٥-٢٦].

وفي قولها: ﴿مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ الإضافةُ هنا عَلَى تقدير (اللام)، لا (من) ولا (في)؛ لِأَنَّ الإضافة تكونُ عَلَى تقدير (من) إذا كَانَ المضاف من جنس المضاف إليه كخاتَمِ حديدٍ، وبابِ خَشَبٍ.

وتكون عَلَى تقدير (في) إذا كَانَ المضاف إليه ظرفًا للمضاف؛ كما فِي قوله تَعَالَى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ:٣٣]، أي: مَكْرٌ فِي الليلِ.

وتكون عَلَى تقديرِ اللَّام، وهي الغالبُ والأكثرُ، وهنا عَلَى تقديرِ اللامِ، واللامُ المُقَدَّرَة فِي الإضافةِ هنا هل هِيَ للاختصاصِ أو لِلْمِلْكِ؟

بالنِّسْبَة لنا للاختصاص، لكِن بالنِّسْبَة لهنّ -أي: للنمل فيما بينهنّ- الظَّاهر أَنَّهَا للمِلك؛ لِأَنَّ كُلّ واحدةٍ منهنّ تَعْرِفُ بيتَها وَتَمْلِكُه.

قوله: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ هَذَا التحذير إرشادٌ وتحذيرٌ، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ [يَكْسِرَنَّكُمْ]، لَيْسَ المُرادُ بالكسرِ هنا أن يُكْسَر عضوٌ فقطْ،

المُراد بالكسر هنا الإهلاكُ عَلَى سبيل التحطيمِ، فالنَّمْلةُ إذا وَطئتها تَقَطَّعَتْ وتَمَزَّقَتْ هَذَا هُوَ التكسُّر، وَلَيْسَ المَعْنى أن رِجلها تَنكسِر وتبقى معلَّقة بها، والجملة هَذِهِ كالتعليلِ للأمرِ فِي قولها: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾، يعني كَأنَّ قائلًا يَقُول: لماذا؟ ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ﴾، فالجملةُ تعليلٌ وتحذيرٌ، وهَذَا مِن بَلاغَتِها أيضًا، ما قالت: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ فقط، ولكِن عَيَّنَتِ المُحَذَّرَ منه وَهُوَ ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ﴾ ثُمَّ أتتْ بهَذِهِ الجملةِ الشديدةِ الوَقْعِ، لم تَقُلْ: لا يَطَأَنَّكُمْ، قالت: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾، فأيُّهما أشدُّ وقعًا؟

الأخيرةُ أشدُّ؛ لِأَنَّ الوطءَ قد يَلْزَمُ منه الكسرُ والإفلاتُ وقد لا يَلزَمُ، ثُمَّ الوطءُ هادئٌ بالنِّسْبَةِ لكلمةِ التحطيمِ.

وأيضًا قوله: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ أشدُّ فِي الحَذَرِ وأبلغُ ممَّا لو قَالَ: (لَيُهْلِكَنَّكُمْ)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ [الهمزة:٥]، فالتحطيمُ أبلغُ.

وهل المقام يَقتضي أن تأتي بالعبارةِ الغليظةِ؟

نعم؛ لِأَنَّ المقامَ مَقامُ تحذيرٍ وسرعة، فإذا لم تفعل النملات هَذَا بسرعةٍ فإنها ستتحطم.

وهنا قالت: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ وقالت: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾، والتعبير بـ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ و﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ بالميم هَذَا لا يَكُون إلَّا للعاقلِ؛ لِأَنَّ الميم هَذِهِ لجماعة العقلاء، والواو أيضًا لجماعة العقلاء؛ لِأَنَّ غير العاقل يؤنَّث: ادخلنَ مساكنكنَّ، ولا يحطمنكنّ، ولَكِنَّهَا قالت: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ و﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ تنزيلًا لهنَّ مَنْزِلَةَ العاقلِ، فخُوطِبُوا خِطابَ العقلاءِ، ولهَذَا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نزَّلَ النملَ مَنْزِلَةَ العقلاءِ فِي الخطابِ بِخِطَابِهِم].

أو يقال: هنَّ بالنِّسْبَةِ لبعضهنَّ عُقَلاءُ، يعني لما كَانَ هَذَا الخطابُ يُفهم ويُعمل به صارتْ كأنها تخاطبُ العقلاءَ، مثلما قُلْنَا: إن المساكنَ بالنِّسْبَةِ لهنّ مِلْك وبالنِّسْبَةِ لنا اختصاص.

وقوله: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ وهَذَا التعبيرُ يَدُلّ عَلَى أنَّ عَظَمَة سُلَيْمَان مُتَقَرِّرَةٌ عِنْدَهنَّ وَهُوَ كذلك.

وقوله: ﴿سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ ما قالتْ: وجُنْدُه؛ لِأَنَّ الَّذِي فَهِمنا منَ الْقُرْآن أن معَه ثلاثةُ أصنافٍ من الجنودِ: الإنس والجنّ والطير كما سبقَ.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هَذَا اعتذار لسُلَيْمَان وجنودِه، أَنَّهُم لن يَتَقَصَّدوا أن يَحْطِمُوكم، ولكِن بغير شعورٍ منهم؛ لِأَنَّهُ كما هُوَ معروفٌ أن هذا جيشٌ عظيمٌ واسعٌ وهذه نملٌ صغارٌ يُمْكِن أن يحطمها الجيشُ بدونِ أنْ يَشْعُرَ، ثُمَّ إنَّ الغالبَ أنَّ مثلَ هَذَا الجندِ الكثيرِ لا يستطيع أن يَتَوَقَّفَ إذا وجد جُحْرَ نَمْلٍ مثلًا، فهَذَا معنى قولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: كيف ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هل هم يمشون بِغَيْرِ هُدًى؟

قُلْنَا: لا، يمشون بهدى، لكِن من المعروفِ أَنَّنا إذا قارنَّا بينَ هَذَا الجُنْدِ العظيم الواسع وبين صِغَرِ هَذا النمل فإنَّ الغالبَ أَنَّهُم لا يَشعرون بها.

فهَذِهِ الجُمَل البليغة العظيمة من هَذَا المخلوقِ الَّذِي لَيْسَ فِي أَعْيُنِ النَّاس شيئًا، وَهُوَ من أصغرِ المخلوقاتِ، فيها ما يَدُلّ عَلَى عَظَمَةِ الخالِق، وأن ما هُوَ أعظمُ من هَذِهِ المخلوقات -النمل- هُوَ أعظمُ مِنْهَا أيضًا فِي هَذِهِ الأُمُور؛ لِأَنَّ مَن أعطى الصغيرَ هَذَا الإعطاءَ وهداه هَذِهِ الهدايةَ فالكبيرُ أحوجُ للهدايةِ من ذلكَ، وعنده منَ العلمِ ما عنده.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن من البلاغةِ الإيجاز بالحَذْفِ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ﴾ قبلَ الشَّيْءِ المحذوفِ، والتَّقْدير: (فساروا حَتَّى إذا أتوا عَلَى وادي النمل) لِأَنَّ (حَتَّى) للغاية فلا بد أن يَكُون هناك شَيْء محذوف قبلها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفيه دليلٌ عَلَى إضافةِ المكانِ إِلَى ساكنِه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ كما يُقَال الْآنَ فِي الأحياءِ فِي البلد: هَذَا حيٌّ بني فلانٍ، كما هُوَ معروف من قديم الزمان أن الأحياء تضاف إِلَى ساكنيها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: هل نَقُول: فِي هَذَا دليلٌ عَلَى أن النملَ إذا سكـنَ أرضًا مَلَكَها بحيثُ لا يجوزُ إحياؤها ولا الاستمتاعُ بها، ففِي الآيَةِ يَقُول الله تَعَالَى: ﴿وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ فإذا قلت: (بيت فلان) هل لك حقٌّ أن تأتيَ إِلَى بيتِ فلانٍ وتسكنه؟

نَقُول: صحيح، فلو نظرنا إِلَى مطلَقِ اللفظِ لكان وادي النمل للنمل، ولكِن الله تَعَالَى يَقُول: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة:٢٩]، فإذا كَانَ النمل يُؤْكَل أَكَلْنَاهُ، فكيف لا نأكل مساكنَهم، فبنو آدم هم أحقُّ بالْأَرْض من غيرهم، فإذا احتاج الْإِنْسَان مثلًا إِلَى عمـارة هَذِهِ الْأَرْض، وكَانَ فيها نمـلٌ، فلا بأسَ أن يَعْمُرَها، ولو لزِم من ذلك أن يموت النمل؛ لِأَنَّ هَذَا الموت غير مقصود، وما كَانَ غير مقصود وإنما جاء ضرورة لتناول المباحِ فَإِنَّهُ لا يضرُّ، وهَذِهِ القاعدةُ معروفةٌ فِي الشرعِ، أن الشَّيْءَ الَّذِي يأتي ضرورةً لفعلٍ مباحٍ وَهُوَ غير مقصودٍ فَإِنَّهُ لا بأسَ به، وانظُرْ مثلًا إِلَى قتلِ النِّسَاء والذُّرِّيَّة فِي الحربِ فإنه لا يجوز، لكِن إذا لم نتوصلْ إِلَى قتل المقاتلينَ إِلَّا بالرمي بالمنجنيقِ والمدافعِ الْعَامَّة فَإِنَّهُ يجوز، ولو لزِم من ذلك قتل النِّسَاء والذريَّة؛ لِأَنَّ هَذَا غير مقصودٍ. كذلك أيضًا قطع نخيل العدوّ لا يجوزُ، ولكِن

إذا لم نتوصلْ إليهم إِلَّا بقطع نخيلهم جاز كما فعل النَّبِيّ ﷺ فِي بني النَّضِير.

فائدة: بيوت النمل تكون عميقة فِي الْأَرْض، ثُمَّ من عادة النملِ أيضًا أَنَّهُ لا يبني البيوت إِلَّا فِي مكانٍ مرتفعٍ، وغالبًا أن الجند لا يأتون الأماكن المرتفعة ما دام يجدون السهلَ.

فالحاصل أن نَقُول: إذا لزِم من إحياء الْأَرْض قتل النمل فَإِنَّهُ لَيْسَ به بأسٌ؛ لِأَنَّهُ لم يكنْ مقصودًا، وإنما جاء ضرورةً لتناولِ أمرٍ مباحٍ لنا، بل كُلّ مؤذٍ، حَتَّى ابنُ آدمَ إذا آذاك وصالَ عليكَ ولم يَنْدَفِعْ إِلَّا بالقتلِ تَقْتُله، وَهُوَ أعظم حُرْمَةً من الحيواناتِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن للحشراتِ نُطقًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وفيه دليل عَلَى أن قولها أيضًا مسموعٌ يَسْمَعُه بنو جنسها؛ لِأَنَّهُ لو لم يَكُونوا يسمعونها لم يكن فِي قَوْلِها فائدةٌ، فهم يسمعون قولها، وقد يُسْمِعُهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَن يشاء.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وفيه دليلٌ -استدلَّ الْعَامَّة بذلك- عَلَى أن كُلّ شيءٍ يَنطِق من قبلُ، وهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، ولكِنَّ الله تَعَالَى قد يُسْمِع الخلقَ نُطْقَ بعضِ الحيواناتِ؛ إمَّا آيَة أو كرامة، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أَمَّا العوامُّ فإنهم يَقُولُونَ: كُلّ شَيْء يتكلم، حَتَّى إن بعضهم يَقُول: الجصة تَتَكَلَّم، والجصة هِيَ مَخْزَنُ التَّمر، والظَّاهر أَنَّهُ سارقٌ كَانَ فِي الجصةِ وتكلَّم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: ردُّ كلامِ الْمُفَسِّر فِي قولِه: إن النَّمْلَةَ مَلِكة النمل؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نَمْلَةٌ﴾ مُنكَّر، وَلَيْسَ بغريبٍ أن تكونَ نملةً من النملاتِ هِيَ الَّتِي قالت هَذَا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: فصاحة هَذِهِ النَّمْلة ونُصْحها وذكاؤها؛ لِأَنَّ الكَلامَ الَّذِي قالتْه يَتَضَمَّن هَذَا كله، فهي من بلاغتها استعملتْ فِي كُلّ مكانٍ ما يُناسِبُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾ أتت بالياء لمناداة البعيد؛ لِأَنَّ النمل لَيْسَ كله قريبًا مِنْهَا، بل بعضه بعيد وبعضه قريبٌ، ومن كمالِ نُصْحها: إرشادها إِلَى المخابئِ والملاجِئِ؛ لِقَوْلِها: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾.

ومن كمال ذكائها: أَنَّهَا استعملتِ العباراتِ المثيرةَ المزعِجة، فِي قولها: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾.

وأيضًا من عَدلها أَنَّهَا قالت: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

فتضمَّن هَذَا الكَلام أنواعًا كثيرة من البلاغةِ والفصاحةِ والنصحِ والتحذيرِ والتعذيرِ وغير ذلك مما مرَّ فِي الشرحِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فِي هَذَا أيضًا عَظَمَةُ مُلْكِ سُلَيْمان وجنوده؛ لِأَنَّ النَّمْلة عَرَفَتْ ذلك وحذَّرتْ منه.

• • ۞ • •

الآيــة (١٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل:١٩].

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَتَبَسَّمَ ﴾ سُلَيْمَـان ابتداءً ﴿ضَاحِكًا﴾ انتهاءً ﴿مِّن قَوْلِهَا﴾]. يَقُولُونَ: إن الضـحكَ ثلاثة أنواعٍ: ابتدائيٌّ ووَسَط وانتهائيّ، الابتدائي التبسُّم، والوسط الضَّحِك، والمنتهَى القَهْقَهَة، والقهقهة لا تليـقُ بالْإِنْسَان العاقلِ الرَّزين، والتبسُّم هُوَ أكثرُ ضَحِكِ الأَنْبياء عليهم الصَّلَاة والسلامُ، والضَّحِك يَكُونُ منَ الأَنْبياء أحيانًا، فهنا تَبسَّم ضاحكًا، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَرى أنَّ سُلَيْمَان ﷺ كَانَ له مرحلتانِ فِي هَذَا الضحِك: الأولى: التبسُّم، والثَّانِيَة: الضحِك، فابتدأ بالتبسُّم وانتهى بالضحِك.

ويَحتمل أن يَكُونَ معنى قوله: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ أَنَّهُ ضحك متبسمًا، يعني أَنَّهُ ما ظهر له صوتٌ ولكِنه تبسَّمَ تَبَسُّمًا، واللهُ أَعْلَمُ. وَعَلَى هَذَا التَّقْدير تكون ﴿ضَاحِكًا﴾ حالًا مبيِّنة للنوعِ، يعني أن ضَحِكَه كَانَ تبسُّمًا.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: في هذه المسألة لا يضرُّ لو كَانَ ابتدأ بالتبسم وأنهى بالضحك، والفرق بين التبسُّم والضحِك: أن التبسم ينفتح فيه الفم بدونِ صوتٍ، والضحِكُ

يَكُون بصوتٍ، لكِن بدونِ قهقهةٍ، والقهقهة هِيَ تكرار الصوتِ، (كَرْكَرَ) كما يَقُول الْعَامَّة.

قوله: ﴿ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾: (مِن) بَيَانيَّة، والبَيَانية للتعليلِ، يعني بسببِ قولِها تَبَسَّمَ، هَذَا التبسُّمُ ما مصدرُه؟ هل تبسم من قولها، أمْ من تحذيرها، أم من اعتذارها، أم من إرشادها، أم من فصاحتها؟

من كُلّ ما يتضمنه هَذَا القَوْل؛ لِأَنَّهُ فِي الحقيقة محلّ عَجَب، أَنَّهَا تتكلم بهَذَا الكَلام البليغِ، وبهَذِهِ السرعةِ، فما ذهبت تُرَتِّب وتأتي بالعناصر وتزيِّن، فهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ محلّ ضحِك، ثُمَّ هُوَ أيضًا محل ضحِك لَيْسَ من القَوْلِ فقطْ، بل من مغزى هَذَا القَوْل، ولهَذَا جعله من نعمة الله: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾، مغزى هَذَا القَوْل أن سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَعْتَرِف حَتَّى الحشرات بعظمته وعظمة جنودِهِ، وهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ من نعمة الله عليه.

فهَذَا التبسُّمُ إذن مِنَ القَوْلِ من مضمونِهِ ودلالتِه وكذلك من مغزاه، وما يتضمنه من نعمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَى سُلَيْمَان.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ وقد سمِعه من ثلاثة أميالٍ حملته إليه الريحُ، فحَبَسَ جُنْدَه حين أشرفَ عَلَى واديهم، حَتَّى دخلوا -أي: النمل- بيوتهم، وَكَانَ جُنْدَه ركبانًا ومشاةً فِي هَذَا السير].

يَقُول رَحِمَهُ اللَّهُ: [وقد سمعه من ثلاثة أميال] من أين جاء بهَذَا؟ أخبار إسرائيليَّة بل إن الْقُرْآن ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ [النمل:١٨]، يَدُلّ عَلَى أَنَّهُم وصلوا إليه، غاية ما هنالك أَنَّهُم لما حُذِّر النمل بهَذَا التحذير دخل فِي المساكن، يعني لَيْسَ بينهم

وبين أن يطئوا هَذَا النمل إِلَّا دخول النمل مساكنهم، وهَذَا لا يقتضي أن يَكُون بينه وبينهم ثلاثة أميال، ولا دليل عَلَى ذلك، وإنما يقال: إِنَّهُ سمعه من قُرْب، وهل سمعه غيره من جنوده؟

الظَّاهر أَنَّهُم ما سمِعوه ولا عرفوه؛ لِأَنَّ قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل:١٦]، يَدُلّ عَلَى أن تعليم نطق الحيوانات خَاصّ بسُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وَلَيْسَ كما يزعم بعض الْعَامَّة، فبعض الْعَامَّة يَقُولُونَ: فِي أول الأَمْر كَانَ كُلّ شَيْء يتكلم، ويأتون بقصصٍ عَلَى هَذَا، وهَذَا لَيْسَ بصحيح، لَيْسَ هناك كلام معلوم إِلَّا فِي الأممِ فيما بينها، وَأَمَّا أن الإنس يَعلَمون كلام الجنّ أو مثلًا يعلمون كلام الحشراتِ فلا، إِلَّا بدليلٍ، إذا وجد دليل عن المعصومِ فهَذَا صحيحٌ، مثلما أَخبرَ النَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن الذئبِ الَّذِي تَكَلَّم[1]، وأخبرَ أيضًا عن البقرةِ الَّتِي رَكِبَها صاحبها وقالت له: إِنَّا لم نُخْلَقْ لهَذَا[2]، المهمُّ ما دلَّ عليه الدَّلِيل وجبَ علينا أن نَقْبَلَهُ، وإِلَّا فالأَصْلُ أن المخلوقَ يَتكَلَّم بلغتِه، وأن كُلّ جنس لا يَفهَم لغةَ جِنْسِه.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ أَلْهِمْنِي ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ﴾ بها ﴿عَلَيَّ﴾].

قوله: ﴿وَقَالَ رَبِّ﴾: (ربِّ) منادى حُذِفَت منه ياء النداءِ، وأصله: يا ربِّ، وحُذفت الياء المضاف إليها للتخفيف، وإلا فأصلها: (ربي) بالياءِ. ودائمًا يأتي الدعاءُ بحذفِ ياءِ النداءِ؛ ابتداءً بذكرِ اسمِ اللهِ وعنايةً بالمقصودِ، وَهُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ،

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب حديث الغار، حديث رقم (٣٢٨٤)؛ صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم (٢٣٨٨)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) التخريج السابق.

﴿رَبِّ﴾ يبتدئ به قبل كُلّ شَيْء، وَكَأَنَّ الْإِنْسَان لشدَّة شَوْقه لربِّه أثناء دعائه ما يَبْدُرُ منه إِلَّا اسْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾: ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ من حَيْثُ الإعرابُ يقال: فعلْ أمرٍ، لكِن النحْويُّون رَحِمَهُمُ اللَّهُ تأدُّبًا مَعَ الله ما يَقُولُونَ: فعل أمرٍ؛ لأنك لا تأمر الله، فيُسمُّونه فعلَ دعاءٍ، فعندما نُعْرِب ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ نَقُول: (أَوْزِعْ) فعلُ دعاءٍ، لا نَقُول: فعل أمرٍ يُقصَد به الدعاء، هُوَ حقيقة فعل أمرٍ والمقصود به الدعاء، لكِن تأدُّبًا مَعَ اللهِ نَقُول: فعل دعاءٍ.

يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ أَلْهِمْنِي ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ﴾ بها ﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾]، قَالَ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ الحامِلُ لسُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يَقُول هَذَا الاعترافُ بنعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وخوف الغرورِ بالنفسِ؛ لِأَنَّهُ إذا كانت النَّمْلة تقول هَكَذَا خوفًا منه وجنوده وتَعْتَذِر لهم ويَفْهَم كلامها، فهَذَا قد يؤدِّي بالْإِنْسَان إِلَى الغرور وأن هَذَا الشَّيْء لذاته أو من ذاته، مثلما قَالَ قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨]، فلهَذَا سأل اللهَ فِي هَذَا المقامِ الَّذِي ربما يَحْصُل به الغرور للمرءِ، والْإِنْسَان بشرٌ، فسألَ اللهَ أن يُلْهِمَه شُكْرَ نِعْمَتِهِ الَّتِي أنعمَ عليه وَعَلَى والديْه وأن يعملَ صالحًا يرضاه.

وهَكَذَا ينبغي للإِنْسَان إذا حصلَ له نعمةٌ أن يسألَ الله تَعَالَى أنْ يُلْهِمَه شُكْرَها؛ حَتَّى لا يَلْحَقَه الغرورُ بهَذِهِ النعمةِ الَّتِي أنعمَ اللهُ بها عليه، سواء كانت النعمةُ ماليَّةً أو جَسَدِيَّةً، مَعْنَوِيَّةً أمْ حِسِّيَّةً.

قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾: ﴿أَنْ﴾ هَذِهِ مصدريَّة مَحَلُّها منَ الإعرابِ مَفْعُول ثانٍ لـ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾؛ لِأَنَّ المَفْعُول الأوَّل الياء، والمَفْعُول الثاني ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾، يعني:

أَلْهِمْنِي شُكْرَ نِعْمَتِك الَّتِي أنعمتَ عليَّ وَعَلَى والديَّ.

قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ النعمة: الإحسانُ الَّذِي يَنْعَمُ به المُحْسَنُ إليه، والنعمةُ كما هُوَ معروف تنقسمُ إِلَى قسمينِ: إمَّا حصول مَطْلُوب وَإمَّا نجاة من مَرْهُوب، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى دائمًا نِعَمه عَلَى عبدِه، والعبدُ دائرٌ بين هذينِ الصنفينِ منَ النعمةِ، فدائمًا يحصل له مطلوبه وينجو من مرهوبِه.

وقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنْعَمْتَ﴾ بها ﴿عَلَيَّ﴾]، قَدَّر (بها) لِأَنَّهُ من المعروفِ أن الجملة الَّتِي تكون صلةً للموصولِ لَا بُدَّ فيها من رابطٍ يعودُ عَلَى الموصولِ، أي: لَا بُدَّ فيها من عائدٍ يعود عَلَى الموصولِ، هنا ﴿ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ فتحتاج جملة ﴿أَنْعَمْتَ﴾ أن يَكُون فيها ضَميرٌ يعود عَلَى ﴿ٱلَّتِيٓ﴾ قدَّره المُفَسِّر بِقَوْلِهِ: [بها]، ولنا معه مناقشة فِي هَذَا التَّقْدير، فتقدير الضَّمير لأجلِ أنْ يَكُونَ عائدًا عَلَى الموصولِ هَذَا واضحٌ ومُسلَّم، فهَذِهِ القاعدةُ النحْويَّة، قَالَ تَعَالَى: ﴿مِّمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون:٣٣]، أي: (منه)، فهَذَا واضحٌ، وهَذَا كثير الكَلام فِي اللُّغة العربيَّة فِي الْقُرْآن والسنَّة وكلام النَّاس، أَنَّهُ لَا بُدَّ من عائدٍ يعود عَلَى الموصولِ لِيَرْبُط الجملة الصلة بموصولها. ولكِن لنا مناقشة مَعَ المُفَسِّر فِي تقدير العائدِ عَلَى هَذَا الوجهِ:

يَقُولُونَ: إن العائد ما يُحْذَف إذا كَانَ مجرورًا إِلَّا إذا جرّ الموصول بحرفٍ مشابهٍ للمحذوفِ لفظًا ومعنًى وتقديرًا، وهَذَا تَقَدَّمَ ونحن نقرأ فِي النحو فِي القَطْرِ[1]، وَأَنَّهُ إذا كَانَ مجرورًا يُشْتَرَط أن يَكُون مجرورًا بالحرفِ الَّذِي جَرَّ الموصول، وَأَنَّهُ يَكُون متعلّقه واحدًا موافقًا فِي اللفظِ والتَّقْدير والمَعْنى، فالمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قدر: [بها] مَعَ أَنَّهَا

(١) قطر الندى وبل الصدى لابن هشام.

غير موجودةٍ فِي الْقُرْآن: [﴿نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ﴾ بها]، وَعَلَى هَذَا فالتَّقْدير السليمُ أن يقولَ: (أنعمتها عليَّ وَعَلَى والديّ)؛ لِأَنَّهُ لا يمكن أن يُحذَف العائد المجرور إِلَّا إذا كَانَ الموصول مجرورًا بحرفِ الجرِّ الَّذِي جُرَّ به ذلك العائدُ.

وقوله: ﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ أَمَّا ﴿عَلَيَّ﴾ فظاهرٌ أنَّ نعمةَ اللهِ عليك تحتاجُ إِلَى شكرٍ منك، لكِن نعمة الله عَلَى والديك ما وجهُ كَونها تحتاج إِلَى شكرٍ منك؟

لِأَنَّ نعمةَ الله عَلَى الوالدينِ نعمةٌ عَلَى الولدِ، لا سيَّما فِي مثل هَذِهِ القصةِ حَيْثُ إِنَّهُ ورِث من داودَ النبوَّة وخَلَفَهُ فيها، فنعمة الله عَلَى والديك هِيَ فِي الحقيقة نعمةٌ عليك، ولهَذَا قَالَ: ﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾.

وقوله: ﴿وَٰلِدَيَّ﴾ هل هُوَ جمعٌ أو مُثَنًّى؟

مُثَنًّى مضاف، ولذلك حُذِفَتِ النونُ منه، وأصله: (والدينِ لي) لكِن حُذِفَتِ النونُ من أجلِ الإضافةِ.

وقوله: ﴿وَٰلِدَيَّ﴾ مَنْ المُراد بالوالد؟ هُوَ الوالدُ الَّذِي أنتَ وَلَدُه لِصُلْبِه أو حَتَّى الجَدّ ومَنْ عَلَا؟

نَقُول: الحقيقةُ أنَّ كَلِمة (والد) أحيانًا يدخلُ فيها الجدُّ وإنْ علا، وأحيانًا تَتَعَيَّن للوالِدِ الأَدْنَى، وَالَّذِي يُعَيِّنُ ذلك هُوَ القرائنُ: القرائن اللفظيَّة أو القرائن الحَالِيَّة، فمثلًا: «**لَا يَجُوزُ لِوَاهِبٍ أَنْ يَرْجِعَ فِيمَا وَهَبَهُ إِلَّا الْوَالِدِ فِيمَا يُعْطِي وَلَدَهُ**»[1]. مَنِ المُرادُ

(١) رواه أبو داود، كتاب الإجارة، باب الرجوع في الهبة، حديث رقم (٣٥٣٩)؛ والنسائي، كتاب الهبة، باب رجوع الوالد فيما يعطي ولده، حديث رقم (٣٦٩٠)؛ والترمذي، كتاب البيوع، باب ما جاء في الرجوع في الهبة، حديث رقم (١٢٩٨)؛ وابن ماجه، كتاب الهبات، باب من أعطى ولده ثم رجع فيه، حديث رقم (٢٣٧٧)؛ وأحمد (٢/ ٢٧) (٤٨١٠)، عن ابن عباس وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

بالوالِدِ؟ المباشِر، أي الوالد الأدنى، فالجَدُّ لا يَلْحَق به.

والوالِدُ فِي تحريمِ النكاحِ يَشمَل الأدنى والأعلى.

والوالد فِي الميـراثِ يَشمَل الأدنى والأعلى إنْ فُقِدَ الأدنى، والمُراد الذكـورُ والإناثُ، وَلَيْسَ المُراد الجَدّ الوالد الَّذِي هُوَ الذكَر عَلَى القَوْلِ الصَّحيحِ، بل حَتَّى الأنثى، مثلًا الأم: الوالدة فِي الميراث تَشْمَل الأعلى إن فُقِدَ الأدنى، فصارتْ كلمة (والد) تارَةً يُرادُ بها الأدنى، وتارَةً يُراد بها الأدنى والأعلى مجتمعينِ أو منفردينِ، وتارةً يُراد بها الأدنى والأعلى لا مجتمعين، وَالَّذِي يُعَيِّن ذلك هُوَ القرائنُ اللفظيَّة أو الحاليَّة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل هناكَ فرقٌ بين قولنا: والِدَيَّ ووالِدِيَّ؟

إِذَا قُلْنَا: (والِدَيَّ) يعني الوالد والوالدة، وأما: (والِدِيَّ) فلا يُعَبَّر به ولو عبر الْإِنْسَان به: نَقُول: هَذَا تعبيره غير سليم، لكِن قولنا: (والِدِينَا) إذا كنا جماعة فواضح؛ لأنك إذا قلتَ: (والِدِينَا) ونحن اثنان يَكُون الوالِدِين أربعة، وإذا كنا ثلاثة يَكُونوا ستة وهَكَـذَا، ولذلك بعض الإخـوان الَّذِينَ يقرؤون فِي رمضان [اللهمَّ اغْفِرْ لنا ولوالِدَيْنَا].

نَقُول: هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ إِلَّا عَلَى سبيل التجوُّز؛ لأنَّنا لسنا عيالَ رجلٍ واحدٍ، نعم لو كنا عيالَ رجلٍ واحـدٍ ونحنُ ستَّة فنَقُول: والِدَيْنَا؛ لِأَنَّ أبانا واحدٌ وأُمَّنا واحدةٌ، لكِن إذا صار بالمسجدِ ألفُ نَفَرٍ هل والدُ كُلِّ واحدٍ مِنَّا والد للثاني؟!

فنحن لسنا بإخوةٍ، ولهَذَا لا تَصِحُّ (والِدَيْنَا) إِلَّا عَلَى سبيلِ التجوُّزِ، أي: والِدَيْ كُلّ واحدٍ مِنَّا. ولهَذَا التعبيرُ السليمُ فِي مثل هَذَا أن تقول: اغْفِرْ لنا ولوالِدِينَا. ونحن

الْآنَ نحللها من وجهةِ اللُّغةِ العربيَّة، فالصَّواب فِي هَذَا إذا كنا جماعة (والِدِينَا)؛ لِأَنَّ (والِدَيْنَا) ما تكون إِلَّا عَلَى سبيل التجوُّز كما تَقَدَّمَ.

قال: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ﴾ معطوفة عَلَى قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾، يعني: وأَلْهِمْني أنْ أعملَ صالحًا ترضاهُ، وهنا قوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ أي: أَعْمَل عَمَلًا صالحًا، والعَمَلُ الصالحُ لا يَكُون إِلَّا إذا تَضَمَّنَ شرطينِ أساسيينِ هما: الإخلاصُ والمتابَعة؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، والإخلاصُ واضحٌ فِي الأَنْبياء وغيرِهم، والمتابعةُ فِي غيرِ الأَنْبياء واضحةٌ أيضًا، وَفِي الأَنْبياء قد تكونُ غيرَ واضحةٍ عندَ البعضِ، لَكِنَّها واضحةٌ؛ لِأَنَّ النَّبِيّ ﷺ يَتبع شريعةً تُوحَى إليه، وهُوَ قد لا يَتبع هَذِهِ الشَّرِيعَة لكِن كما تقدَّم أَنَّ الأَنْبياء -عليهم الصَّلَاة والسلام- معصومونَ مِن الإقرارِ عَلَى المَعاصِي مُطْلَقًا، فإذنِ المتابَعَةُ موجودةٌ فِي الأَنْبياء أيضًا؛ لِأَنَّهَا متابَعةٌ للشرعِ الَّذِي أُوحِيَ إليهم.

هَذَا العَمَلُ الصالحُ ما جمعَ بينَ أمرينِ: الإخلاص والمتابعة، ففي فَقْدِ الإخلاصِ يَكُونُ الشِّرْكُ، وَفِي فَقْدِ المتابعةِ يَكُونُ الابتداعُ، فالعَمَلُ الَّذِي فِيهِ شِرك مردودٌ، قَالَ الله تَعَالَى فِي الحديث القُدُسِي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١).

حَتَّى الرياءُ نَوْعٌ منَ الشركِ، فإذا عمِل الْإِنْسَان العِبادَةَ وَهُوَ مُرَاءٍ فيها فَهُوَ مَعَ الإثمِ مردودٌ عليه عَمَلُه.

كذلك أيضًا فِي الابتداع؛ قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، حديث رقم (٢٩٨٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَدٌّ»[١]، وهَذَا أعمُّ مِنَ اللفظِ الثاني: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[٢] إِلَّا إذا قُلْنَا: مَن أحدثَ فِي ذاتِه وصفاتِه، إذا قُلْنَا: من أحدث فِي أمرنا ما لَيْسَ منه سواء فِي نفسِ العَمَلِ أو فِي وصفِ العَمَلِ صار موافقًا للفظِ الآخَرِ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: العَمَلُ إذا لم يكنْ خالِصًا فليسَ مقبولًا، وإذا لم يكنْ صوابًا، يعني عَلَى السنَّة، فليس مقبولًا وَلَيْسَ بصالحٍ أيضًا، بل هُوَ فاسدٌ.

قوله: ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ الرضا بمعنى القبولِ وكلمة ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ بَعْد قولِه: ﴿صَٰلِحًا﴾ هل لها معنًى؛ لِأَنَّ كُلّ صالحٍ فَهُوَ مَرْضِيّ، فهل تكون الجملةُ حينئذٍ صفةً كاشفةً مبيِّنةً أو صفةً مقيِّدة؟

الظَّاهرُ أَنَّهَا مُبَيِّنَة، يعني أَنَّ العَمَلَ الصالحَ مرضيٌّ.

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إن العَمَلَ قد يَكُونُ صالحًا بظاهرِه، ولكِنَّه غير مرضيٍّ فِي مآلِه أو فيما صَحِبَهُ، فقد يَعْمَل الْإِنْسَان مخلصًا لله مُتَّبِعًا لرسولِ الله ﷺ لكِن يحصل منه إعجابٌ فِي عملِه، فهَذَا الإعجابُ يَمْنَع مِن رضا اللهِ به، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات:١٧]، قد يَكُونُ عَمَلًا صالحًا فِي أوَّله وَفِي نهايتِه لا يرضاه اللهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤]، فالرجلُ يَتَصَدَّقُ بالصدقةِ مُخْلِصًا للهِ تَعَالَى مُتَّبِعًا لرسولِ اللهِ ﷺ فيها لَكِنَّهُ يُتْبِعُها بِمَنٍّ وأذى، فحينَئذٍ تَبْطُلُ

---

(١) رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم (١٧١٨)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) رواه البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث رقم (٢٥٥٠)؛ ومسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم (١٧١٨)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الصدقةُ، عَلَى هَذَا التَّقْدير يَكُون قوله: ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ صفةً مُقَيِّدةً.

فأيُّ الأَمْرينِ يَحْسُنُ بنا أنْ نَسْلُكَ فِي هَذَا وغيرِه، فيما إذا جاءت صفة، هل الأَولى أن نجعلَ الصِّفةَ مبيِّنة، يعني مفسِّرة فقط، أو أن نجعلها مقيِّدة؟

الأَولى أن تكون مقيِّدةً؛ لِأَنَّ بالتقييدِ زيادةَ معنًى، والتفسير ما يعدو شيئًا خارجًا عمَّا سبق، فكلُّ صفةٍ تأتي فِي كلام نحو هَذَا فالأَصْل أن تكون مقيِّدة، ولا يمكنُ أن نلجأَ إِلَى كونها مفسِّرة لمجرَّدِ بَيَان الأَمْرِ إِلَّا عندَ الضَّرورَةِ، وإذا تَعَذَّر أن تكون مُقَيِّدة، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هَذِهِ مبيِّنة ومفسِّرة وليستْ مقيِّدةً.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: جوازُ التبسُّمِ عندَ وجودِ سببِه وجواز الضحِك أيضًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾، وهَذَا من فِعل نبيٍّ، وفِعْلُ الأَنْبياء حُجَّة، حَتَّى وإن كَانَ غير نبينا ﷺ، إِلَّا ما وَرَدَ شَرْعُنا بِنَسْخِهِ، فهَذَا لا يُعْتَبَر، والدَّلِيل عَلَى أَنَّ فعل الأَنْبياء حُجَّة قوله تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ما كَانَ عليه سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ منَ التواضُعِ لله تَعَالَى، حَيْثُ لم يَأْخُذْهُ الغرورُ بهَذَا الْمُلْكِ العظيمِ، حَتَّى قَالَ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفيه دليلٌ عَلَى الاعترافِ بنعمةِ اللهِ وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ الِافتخارِ؛ لِأَنَّ سُلَيْمان ذَكَرَ نعمةَ اللهِ عليه، لَكِنَّهُ لا يَقصِد بذلك الافتخارَ والعلوَّ عَلَى غيره، وقد قَالَ الله تَعَالَى للرَّسُولِ ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، لكِن لا عَلَى سبيلِ الافتخارِ والعلوِّ؛ لِأَنَّهَا حينئذٍ تَنْقَلِب إِلَى نِقمةٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ نعمةَ الله عَلَى الوالدينِ نعمةٌ عَلَى الولدِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾، ولا سِيَّما نعمة الإِسْلام فإنَّها من أكبرِ النِّعَم عَلَى الولد، فلو مات طفلٌ وأبواهُ كافرانِ لكانَ هَذَا الطفلُ فِي الدُّنْيا فِي حُكْمِ الكَافِرِينَ، وَفِي الآخِرَةِ اللهُ أَعْلَمُ بحالِهِ، ولو مات طفلٌ بينَ أبوينِ مسلمينِ لكانَ هَذَا الطفلُ مُسْلِمًا فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ، وَعَلَى هَذَا فنعمةُ اللهِ عَلَى الوالدينِ ولا سيما فِي الدينِ نعمةٌ عَلَى الولدِ، وهَذَا هُوَ وجهُ قولِه: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ من العقلِ والعدلِ والشرعِ إضافة المِنَّة إِلَى المانِّ بها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾، وهَذَا اعتراف، وأبلغ من أن يَقُول الْإِنْسَان: أَوْزِعْنِي أن أشكر النعمة فقط؛ لِأَنَّ قوله: ﴿نِعْمَتَكَ﴾ واضحٌ جِدًّا فِي خضوعِ هَذَا الْإِنْسَان بهَذِهِ النعمة العظيمة الَّتِي أنعمَ اللهُ بها عليه، فهَذِهِ فيها دليلٌ أَنَّهُ مِن العقلِ والعدلِ والشرعِ إضافة المِنَّة إِلَى المانِّ بها، حَتَّى ولو كَانَ آدميًّا، ومن الأشعار المعروفةِ عندهم[1]:

إِنَّـمَا يَعْـرِفُ الْفَضْـ ـلَ مِـنَ النَّـاسِ ذَوُوهُ

معنى ذَوُوه: أصحابُ الفضلِ، لا يَعرِف الفضلَ إِلَّا أصحابُ الفضلِ، أَمَّا مَن لَيْسَ بأهلِ فضلٍ فإنهم يُنْكِرون الفضلَ، بل إنك لو تَفَضَّلْتَ عليهم لَرَأَوْا أن هَذَا حقٌّ واجبٌ عليك وليس لك مِنَّة، وأعظمُ شَيْء فِي هَذَا مَن يَمُنُّ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما أنعمَ اللهُ به عليه كما فِي قِصَّة الأعرابِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات:١٧].

تنبيه: إنَّ للهِ تَعَالَى عَلَى الكافرِ نعمةً، لكِن النعمة المطلقة لا تكون إِلَّا بالإِسْلام.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الأَنْبياء -عليهم الصَّلَاة والسلام- كغَيْرِهِم مُفْتَقِرُونَ إِلَى

(١) عيون الأخبار (٣/ ٢١٧).

توفيقِ اللهِ، وأنهم بدون توفيقِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما يسيرون سيرًا يرضي الله، لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ لا يَصِلُ إِلَى غايتِهِ ومقصوده إِلَّا برحمةِ اللهِ فِي كُلِّ شيءٍ؛ الجَنَّة وغير الجَنَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩]، يَعْنِي: إذا لم يَرْحَمْكَ اللهُ لنْ تنالَ شيئًا أبدًا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ العَمَلَ غيرَ الصالحِ لَيْسَ فِيهِ فائدةٌ، بل هُوَ دائرٌ بين أمرينِ: إمَّا الإثم، وَإمَّا السلامة فقطْ، فإن صدرَ عن علمٍ فَهُوَ إثمٌ، وإنْ صدرَ عن جهلٍ فالْإِنْسَانُ سالمٌ، ولكِن لا فائدةَ له فيه، كما لو صلَّى الْإِنْسَان مثلًا صلاةً باطلةً بِحَدَثٍ، فَإِنَّهُ إنْ تَعَمَّدَ ذلكَ كَانَ آثمًا، وإن كَانَ جاهلًا لم تُفِدْهُ فِي إبراءِ الذمَّة، ويُطالَب بإعادتها، أَمَّا الأجرُ فقد يُؤْجَر عليها من أجلِ النيَّةِ والعَمَلِ الَّذِي حَصَلَ والمشقَّة، ولكِن من حيث الفائدة لا يستفيد مِنْهَا فِي إبراءِ ذِمَّته ولا تَسْقُط عنه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ الغايةَ الَّتِي يَسير إليها الأَنْبياء ومَن تَبِعَهم هُوَ رضا الله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾؛ لِأَنَّ المقصودَ من عملِ الْإِنْسَانِ الوصولُ إِلَى رضا اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل إن رضا اللهِ غايةٌ فوقَ كُلِّ شيءٍ، قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي امتداحِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧١-٧٢]، يعني أكبر من كُلِّ شَيْء، وإذا حل عَلَى الْإِنْسَان رضا الله فهَذَا غاية ما يريدُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أَنَّ الأَنْبياء -عليهم الصَّلَاة والسلامُ- يَتَوَسَّلُونَ إِلَى اللهِ، يعني يَسألون اللهَ تَعَالَى بالوسيلةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعني أولئك الَّذِينَ يدعوهم هَؤُلَاءِ المشركون ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ [الإسراء:٥٧]، وكل الخلق يسألون الله تَعَالَى ويتوسلون إليه بما هُوَ جائزٌ.

الفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: جواز التوسُّل بصفات الله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: قوله: ﴿فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ فِيهِ إشكال.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَقامُ النبوَّة أعلى من مقامِ الصلاحِ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النِّسَاء:٦٩]، فكيف سأل الله أنْ يُدْخِلَه فِي عبادِهِ الصالحينَ مَعَ أَنَّهُ نبيٌّ أعلى مرتبةً من مرتبةِ الصلاحِ؟

قُلْنَا: الأقربُ أَنَّ المُراد بالصلاحِ هنا الصلاحُ المطلَقُ، والصلاح المطلَق هَذَا أعلى مرتبةً، وقد قَالَ يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]، وقَالَ اللهُ تَعَالَى عن إبراهيمَ: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧]، فالمُراد هنا الصلاحُ المطلَقُ، لا الصلاحُ الَّذِي يُذكَر مَعَ المراتبِ، فإن مقام الصلاحِ مَعَ المراتبِ دونَ مَقام النبوَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أن العِبادَة مَرْتَبَةٌ شَريفةٌ عظيمةٌ يَسْأَلُها حَتَّى الأَنْبياء؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فِي عِبَادِكَ﴾ ولهَذَا يذكر الله تَعَالَى نبيه مُحَمَّدًا ﷺ بوصف العُبُودِيَّة فِي أعلى مقاماته؛ عند إنزال الْقُرْآن، وعند الدفاع عنه.. ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وقد قَالَ الشاعر يُخَاطِب[١]:

لَا تَدْعُنِـــي إِلَّا بِيَـــا عَبْـــدَهَا فَإِنَّـــهُ أَشْـــرَفُ أَسْمَـــائي

هَذَا -أعوذ بالله- عاشِقٌ، لِنَفْرِض أنَّ اسمَه مثلًا بكرٌ يَقُول: لا تَقُلْ: يا بكرُ، قُلْ: يا عبدَ لَيلى فَإِنَّهُ أشرف أسمائي. فالعُبُودِيَّة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا شَكَّ أَنَّهَا أشرفُ أوصافِ الْإِنْسَانِ أن يَكُون عبدًا لله، والْإِنْسَان لَا بُدَّ أن يَكُونَ عبدًا، ولا بد أن يَتَّخِذَ إلهًا، حَتَّى الشيوعيون والملحدون لَا بُدَّ أن يَكُونوا عبيدًا ولهم آلهة، لو لم يكنْ لهم آلهةٌ إِلَّا أهواؤهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال رسول الله ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ»[٢]، وهَؤُلَاءِ بِلَا شَكّ يعبدون الدينارَ والدرهم، بل إنَّ هَؤُلَاءِ الملحدين لا يسعون إِلَّا لذلك.

إِذَنْ: لَا بُدَّ لكلّ إِنْسَانٍ أن يَكُونَ عبدًا، فإن كَانَ عبدًا للهِ فقد تحرَّر من العُبُودِيَّة حقيقةً؛ لِأَنَّ عبدَ اللهِ حرٌّ، ما يَرَى أنه عبد لشيء فِي الدُّنْيا أو فِي المخلوقاتِ، لكِن يرى خالقه هُوَ سيِّده وإلهه وَأَنَّهُ عبد لهَذَا الخالق.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن شُكْرَ النعـمِ مِنَ النعـمِ، وهَذِهِ فائـدةٌ، وقد قَالَ الشاعر[٣]:

إذا كَانَ شُكْرِي نِعْمَـةَ الله نعمـةً عـليَّ لـه فِي مِثْلِهَـا يَجِـبُ الشُّـكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّـكْرِ إِلَّا بِفَضْـلِهِ وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمـرُ

---

(١) انظر تفسير القرطبي (١/ ٢٣٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، حديث رقم (٦٠٧١).

(٣) الصناعتين (ص:٢٣٢).

وهَذَا صحيح إذا وَفَّقَكَ الله للشكرِ فَهُوَ نعمةٌ يَجِب عليك أنك تشكر الله عَلَى هَذِهِ النعمةِ، فإذا شكرته صارتْ نعمةً ثانيةً توجب الشكرَ؛ لِأَنَّ الله يَقُول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: الردُّ عَلَى الْقَدَرِيَّة؛ لِأَنَّ الْقَدَرِيَّة يَرَوْنَ أنَّ الْإِنْسَان مُسْتَقِلٌّ بِعَمَلِهِ، لا يَحتاجُ إِلَى مَعُونَةٍ منَ اللهِ ولا شَيْء، ولَا شَكَّ أن هَذَا قول باطلٌ؛ لِأَنَّ نِعَم هَذِهِ الآيَة تَرُدّ عليهم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: الردُّ عَلَى الجَبْرِيَّة؛ لِأَنَّهُ أضاف العَمَل إليه، فقال: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ معناه أنه يُمْكِن يعملَ غيرَ صالحٍ، فَهُوَ مختارٌ، ففيه ردٌّ عَلَى الطائفتينِ جميعًا؛ الْقَدَرِيَّة والجَبْرِيَّة.

الآيــة (٢٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النمل:٢٠].

قوله: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾: ﴿ٱلطَّيْرَ﴾ (أل) هَذِهِ للعهدِ أو لعمومِ الجنسِ؟

أقول: إنَّهَا للعهدِ؛ لِأَنَّهَا تعودُ عَلَى الطيرِ المذكورِ فِي قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ [النمل:١٧]، وَعَلَى هَذَا فيكُونُ تَفَقُّدُهُ للطيرِ فِي نفسِ هَذِهِ المسيرةِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ لِيَرَى ﴿ٱلْهُدْهُدَ﴾ الَّذِي يرى الماءَ تحتَ الْأَرْضِ، ويَدُلُّ عليه بِنَقْرِهِ فيها، فتَسْتَخْرِجُه الشياطينُ لاحتياجِ سُلَيْمَان إليه للصلاةِ فلم يَرَهْ]، هَذَا مِن كِيسِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يَقُول: تَفَقَّدَ الطيرَ لأجلِ أن يرى الهدهد لِيَرى المَاء تحت الْأَرْض، وإذا رأى الأَنْهار تجري تحتَ الْأَرْض نقرَ بمنقارِه، يعني قَالَ: احفِروا هنا، ثُمَّ يأمر الشَّياطِين فتحفر هنا وكأنَّه جُيُولجيّ! من يَقُول هَذَا؟!

بل إنَّ تَفَقُّدَه الطيرَ لِأَنَّهُ كما سلفَ كَانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ منظِّمًا لجنودِه، فيَتَفَقَّد أين ذهب، ولهَذَا ما قَالَ: تفقد الهدهدَ أو الهَدَاهِد، بل قَالَ: تَفَقَّدَ الطيرَ كلَّه؛ لِأَنَّهُ كما هُوَ معروف أن الطيور تَسْبَحُ فِي الهواءِ، فقد يَشِذُّ مِنْهَا شيءٌ، فَهُوَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تفقدها لأجلِ تكميلِ التنظيمِ.

ثم إنَّ دعواهم أنَّ الهدهدَ يرى الَّذِي تحت الْأَرْض؛ هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، ادفِنْ حبًّا فِي الْأَرْض واجعلِ الهداهدَ تأتي إليه هل تراه أو لا تراه؟ لا تراه بالتأكيد، إذا لم ترَ الحبَّ القَريبَ كيف ترى المياهَ البعيدةَ.

المهم أن الهدهدَ مثلُ غيرِه يَنْحَجِبُ نورُ عينيه بالكثافةِ فلا يرى شيئًا.

ثم إن سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَيْسَ بحاجةٍ إِلَى هَذَا، بل إن سُلَيْمان من هَذِهِ الناحيةِ كغيرِه منَ البشرِ، إن وجدَ ماءً انتفعَ به، وإن لم يجِدْ فإن الله تَعَالَى يُيَسِّر له الماء بأيِّ وسيلةٍ.

قوله: ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾: ﴿مَا﴾ اسمُ اسْتِفْهامٍ، وهل الغَرَضُ منه الاستخبارُ أوْ الِاستنكارُ؟

قيل: الغرضُ الاستخبارُ، أي يسأل سؤالًا حقيقيًّا، يَقُول: أين الهدهد؟ وَقِيلَ: إنَّهُ استنكارٌ.

والظَّاهر أَنَّهُ لا يَجْهَلُه؛ لِأَنَّ الأَصْلَ فِي الاسْتِفْهامِ الاستخبارُ. قَالَ بعضهم: وَفِي الآيَةِ قلبٌ، وإن التَّقْدير: (ما للهدهد لا أَرَاهُ) ولكِن هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، بل الآيَة عَلَى ترتيبها، فَهُوَ يسأل ويقول: لماذا لا أَرَى الهدهدَ؟ هل هناك مانعٌ مَنَعَنِي من رُؤْيَتِه، أو أَنَّهُ كَانَ غير موجودٍ؟ ولذلك أَضْرَبَ عنِ الأوَّلِ وقال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾، و﴿أَمْ﴾ هَذِهِ منقطعة و﴿أَمْ﴾ المنقطعة -كما تَقَدَّمَ- تكونُ بمعنى (بل) والهمزة، يَعْنِي: (بل أكانَ من الغائبينَ) وحينئذٍ أضربَ عن الكَلامِ الأوَّلِ وعرف أَنَّه لا عِلَّة فِي بَصَرِه، وإنما العِلَّة غَيبة هَذَا الهدهدِ.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ فلم أَرَهُ لِغَيْبَتِه، فلَمَّا تَحَقَّقَهَا قَالَ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾].

الآيــة (٢١)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:٢١].

قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ هَذِهِ الجملةُ مُؤَكَّدَة بثلاثةِ مُؤَكِّدَاتٍ: وهي: اللامُ المُوَطِّئَةُ لِلْقَسَمِ، والقَسَم قبلها مُقَدَّر، هَذَانِ اثنانِ، والثَّالثُ: النونُ.

قوله: ﴿عَذَابًا﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تعذيبًا]، إشارة إِلَى أن (عذابًا) اسْم مَصْدَر؛ لِأَنَّ عَذَّبَ مصدرها (تعذيب)، واسم المصدر منها: (عذاب). نظيرها: (كَلَّم) مَصْدَرُها (تكليم)، واسم المصدر مِنْهَا (كَلام)، و(سلَّم تسليمًا)، واسم المصدر (سلام).

قوله: [﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا﴾ تعذيبًا ﴿شَدِيدًا﴾]، ما هُوَ الشديد عَلَى رأيِ المُفَسِّر؟

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِنَتْفِ رِيشِهِ وذَنَبِهِ ورَمْيِهِ فِي الشَّمْسِ فلا يَمْتَنِع مِنَ الهَوَامِّ]، هَذَا شيءٌ عجيبٌ، فتقدير هَذَا التعذيب بهَذَا الشَّيْء عَلَى أيِّ دليل؟! وبعضهم يَقُول: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أَحْبِسُه مَعَ شيءٍ لَيْسَ من جِنْسِهِ، فأضع الهدهدَ مَعَ العَصَافيرِ، ويَقُولُونَ: من أشدِّ العذابِ عَلَى الحيوانِ أنْ يُحْشَرَ فِي غيرِ جِنْسِهِ، فلو وُضِعَ الآدميُّ مَعَ الجنِّ يتعذَّب، أو الجنّ مَعَ الآدميِّ يتعذبون. ولكِن هَذَا أيضًا لَيْسَ

بصحيحٍ؛ لأَنَّنا نشاهد الْآنَ أن أَشْيَاء تُجْعَل مَعَ غير أجناسها ولا تتعذب، كأن يَكُون عند أحدهم مَوَاشٍ؛ بقر وغنم وإبل ومَعْز ويَكُونون دائمًا فِي حوش واحدٍ ولا يتعذبون.

فالصَّواب أن هَذَا التعذيبَ الَّذِي قاله سُلَيْمان غيرُ معلومٍ لنا، إِنَّمَا هُوَ عذاب شديد، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لم يُبَيِّنْهُ ولكِن يكفي أن نعرفَ أَنَّهُ شديد، هَذِهِ واحدة.

الثَّانِيَة: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾: (أو) فِي قوله: ﴿لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ هَذِهِ للتنويعِ، يعني إمَّا هَذَا أو هَذَا، وقوله: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِقَطْعِ حُلْقُومِهِ]، هَذَا صحيحٌ؛ لِأَنَّ الذبحَ بقطعِ الحلقومِ والمَرِيء من عند الرقبةِ.

والثَّالثة: قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾ بنونٍ مُشَدَّدَةٍ مكسورةٍ أو مفتوحة، يليها نونٌ مكسورةٌ[1]]، ﴿لَيَأْتِيَنِّي﴾ هَذِهِ واحدة أو «لَيَأْتِيَنَّنِي» والفرق بينهما أن نون الوِقاية إمَّا أن تُحْذَف وَإِمَّا أن توجد، وَأَمَّا نون التَّوْكيد فموجودة، ونون التَّوْكيد هِيَ المشدَّدة، لكِنْ إنْ حذفتَ نونَ الوقايةِ كسرتَ نونَ التَّوْكيدِ: (يَأْتِيَنِّي)، وإن لم تحذف فإنها تبقى مفتوحةً: «يَأْتِيَنَّنِي».

وهَذَا أمر ثالثٌ، فتَوَعَّدَهُ سُلَيْمَان بواحد من أمرينِ إِلَّا إذا أتى بشيءٍ، أي: ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ببرهانٍ بيّن ظاهرٍ عَلَى عُذْرِهِ]، وكلمة (سلطان) تَرِدُ كثيرًا فِي الْقُرْآن، ومعناها العامُّ: هِيَ السُّلطة الَّتِي يَتَمَكَّنُ بها الْإِنْسَان من الوصولِ إِلَى غَرَضِه، فهَذَا معناها العامُّ، والسلطان تارَةً يَكُونُ المُرادُ به الدَّلِيل؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ [الصافات:١٥٦]، وتارَةً يُرادُ به القُدْرَة؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣]، وتارَةً يُرادُ به البيِّنة، مثل هَذِهِ الآيَة؛ قَالَ: ﴿لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ

(١) حجة القراءات (ص:٥٢٤).

مُّبِينٍ﴾، يعني بيِّنة عَلَى عُذْره، والمَعْنى العامُّ للسلطانِ: السُّلْطةُ الَّتِي يَتَمَكَّنُ بها صاحِبُها مِنَ الوُصُولِ إِلَى غَرَضِهِ، سواء كَانَ ذلكَ دفاعًا عن نفسِه أو إثباتًا لأمرٍ.

وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ فَسَّرَهَا المُفَسِّر بِبَيِّن، وَعَلَى قولِ المُفَسِّر لا تَصِحُّ بمعنى مُظْهِر، يعني لا تصح مُتَعَدِّيَة عَلَى رأيِ المُفَسِّر؛ لِأَنَّهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَسَّرَهَا بأنها لازِمة، والصَّواب أَنَّهَا تَصِحُّ أيضًا مُتَعَدِّيَة، يَعْنِي: بسلطانٍ مُظْهِرٍ لِعُذْرِهِ، ونحن إذا فَسَّرْنَاها بهَذَا نكون أخذنا بالتفسيرِ الَّذِي فَسَّرَهَا به المُفَسِّر وزيادة.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٢)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل:٢٢].

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَمَكَثَ ﴾ بِضَمِّ الكافِ وفَتْحِها[1]]، مَكَث ومَكُث، والفاعل: الهدهدُ، ويَحتمِل أنْ يَكُونَ الفاعلُ سُلَيْمَـان، يعني: بَقِي [﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ يَسِيرًا مِنَ الزمانِ وحَضَرَ لسُلَيْمان]، قوله: [وحضر لسُلَيْمان] ما الدَّلِيل عليه؟

لِأَنَّهُ قَالَ: إنَّهُ غائبٌ فِي الأوَّل: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾، والغائبُ ما يخاطَب إلَّا إذا حَضَـرَ، ولكِنَّ قولَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُتَوَاضِعًا برفعِ رأسِـه وإرخاءِ ذَنَبِـه وجَنَاحَيْهِ]، هَذَا من الأُمُور الَّتِي لا نَدري عنها، كَأَنَّ المُفَسِّر كَانَ معه! ولا يمكن أن نَقُولَ هَذَا أبدًا، فلا يمكن أن نصفَ كيف جاء، إنَّما يَكفينا أن نَقُولَ ما قَالَ الله تَعَالَى فِي الْقُرْآن، ونحن ذكرنا قاعدةً أنَّ كُلّ ما سبقَ فَإِنَّهُ لا طريقَ لنا بالعلمِ به إلَّا مِن طريقِ الوحيِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [إبراهيم:٩]، فما لنا طريق إلَّا الوحي؛ إمَّا فِي الْقُرْآن أو فِي السنَّة الصَّحيحةِ.

قوله: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾: ﴿أَحَطتُ﴾ يعني يَتكَلَّم عن نفسِـهِ

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٠).

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ يخاطب سُلَيْمَان، وَفِي الحقيقة أن هَذَا الهدهد قويّ، له ضُلُوع قويَّة جدًّا كما يَقُولُونَ، كيف يخاطب سُلَيْمَان وله هَذَا المُلْك العظيم ويقول: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ وأيضًا ما قَالَ: بما لم تُحِيطوا به، ما جاء بصيغةِ التعظيمِ.

ونحن الْآنَ بَشَر ونخاطب بعض الأحيان المديرَ أو مَن فوقَه ونَقُول مثلًا: أنتم أو سيادتكم أو سعادتكم أو حضرتكم، ونضع مِيمًا أكبر من اللازم، مَعَ أننا مِثْلُهم بَشَرٌ، وكلُّ هَذِهِ فِي الحقيقة من الأُمُور الشَّكْلِيَّة الَّتِي لا تُنْبِئ عن شيءٍ ولا تَنبغي أيضًا، والصحابةُ لا يُخاطِبون الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بهَذَا الخطابِ، وَهُوَ أشرفُ عِندَهم من كُلّ بَشَرٍ، وكذلك الخلفاءُ الراشدونَ ما كانوا يُخَاطَبُون بمثلِ هَذَا.

ومن عجبٍ أن بعضَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُخاطِبون بمثلِ هَذِهِ الألقابِ تجد قلوبهم تَغلِي عَلَى هَؤُلَاءِ المخاطَبِينَ، فيَكُون هَذَا الخطابُ كأنه تَهَكُّمٌ بهم، وكان الأَولى أنْ يَتَخَاطَبَ النَّاسُ فيما بينهم خطابًا عاديًّا، فهَذَا الهدهد ما مقامُه مَعَ سُلَيْمَان! جُنْدٌ من جُنْدِهِ الأضعفينَ، ومع ذلك يَقُول بهَذِهِ الصراحة: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ وأيضًا هُوَ الَّذِي بدأَ بكلامِه، وبسرعةٍ، لكِن فِي الحقيقة أَنَّهُ فِيهِ نوعٌ من الأدبِ، ما قَالَ مثلًا: أنت جاهلٌ ولا تعرِف وأنا عرفتُ وبحثتُ ووجدتُ شيئًا لا تدري عنه، بل قَالَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، يعني لأجلِ أن يعرفَ سُلَيْمَان قَدْرَه، وَأَنَّهُ لَيْسَ محيطًا بكلِّ شيءٍ، فهَذَا الهدهدُ صار أشدَّ إحاطةً منه، والْإِنْسَان البشر ضعيفٌ فِي كُلّ شيءٍ، حَتَّى ما علِمنا كيف نَقْبُرُ مَوْتَانا إِلَّا مِنَ الغُراب، وهَذَا ممَّا يَدُلّ عَلَى أننا لَسْنَا بشيءٍ فِي الواقِعِ.

قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ يُشْبِهُها قولُ إبراهيمَ لِأَبِيهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم:٤٣]، ما قَالَ: يا أبتِ إنك جاهلٌ، وهَذَا من اللَّطَافَة فِي الأسلوبِ.

قَالَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ والكلمة شديدةٌ، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي اطَّلَعْتُ عَلَى ما لم تَطَّلِعْ عليه]، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل:٢٢-٢٣]، إِلَى أن قَالَ: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧]، سُلَيْمَان قَبِلَ بعض الشَّيْء، والهدهد أَكَّدَ الخبرَ: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ ومعَ ذلك قَالَ: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ هَذِهِ أيضًا صَدْمَةٌ عَلَى الهدهدِ؛ لِأَنَّ الهدهدَ كَانَ مُتَيَقِّنًا ومعَ ذلك قيلَ له: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

لماذا قَالَ سُلَيْمان هَذَا مَعَ أَنَّهُ يقولُ له: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾؟

لأن حقيقة الأَمْر أن كلامَ الهدهدِ فِي مَقامِ الدفاعِ عن نفسِه؛ لِأَنَّهُ مُتَوَعَّدٌ بالعذابِ الشَّديدِ أو بالذبحِ أو بخبرٍ، أي: بسلطانٍ مبينٍ، فَهُوَ لَمَّا كَانَ فِي مقامِ الدفاعِ احتاجَ أنْ يَتَثَبَّت هَذَا بِبَيِّنَةٍ، وقد وقعَ مثلُ ذلك لعمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، استأذنَ عليه أبو موسى ثلاثَ مرَّاتٍ ثُمَّ انصرفَ، فلما عاتَبَهُ فِي ذلك قَالَ: «هَكَذَا أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ»(١)، قَالَ: لَتَأْتِيَنِّي بِبَيِّنَةٍ عَلَى ما تقولُ، مَعَ أنَّ أبا مُوسَى صَحَابِيٌّ ثِقَةٌ لا يمكن أن يَتَقَوَّلَ عَلَى الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لكِن المَقام يَقتضي زيادةَ التثبُّتِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان قد يَفْهَم منَ النصِّ ما لَيْسَ مرادًا، فلذلك طَلَبَ عمرُ من أبي موسى أنْ يأتيَ بشاهِدٍ.

هنا سُلَيْمَان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مَعَ أن هَذَا الهدهدَ قد يَقَّنَ له الخبرَ يقولُ: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ثُمَّ أعطاهُ آيَةً وقَرينةً: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب الخروج في التجارة، حديث رقم (١٩٥٦)؛ ومسلم، كتاب الآداب، باب الاستئذان، حديث رقم (٢١٥٣).

فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [النمل:٢٨]، والقصَّة فِي الحقيقة عظيمةٌ جدًّا فيها فوائدُ كثيرةٌ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ بالصرفِ وتَرْكِهِ[1]]، بالصرف (من سَبإٍ)، وتركه (مِن سَبأَ) جُرَّ بالفتحةِ لِأَنَّهُ اسْم لا يَنْصَرِف، و﴿مِن سَبَإٍ﴾ جُرَّ بالكسرةِ لِأَنَّهُ اسْم يَنصرفُ، فعَلَى أيِّ اعتبارٍ جَعَلْنَاهُ إمَّا مصروفًا أو عدمه؟ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قبيلة باليمنِ سُمِّيَتْ باسمِ جَدٍّ لهم باعتبارِهِ صُرِفَ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: سُرعة رجوعِ الهدهدِ إِلَى سُلَيْمان، مِمَّا يَدُلّ عَلَى أنَّ جنودَ سُلَيْمان يَهْتَمُّونَ بِشُؤونهم ولا يَتَأَخَّرون عن أعمالِهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن سُلَيْمان وإنْ كَانَ قد أُعْطِيَ مُلكًا عظيمًا لم يُعْطَهُ أحدٌ فَإِنَّهُ لا يُحيطُ بكلِّ شيءٍ، فَهُوَ عَلَى سَعَةِ مُلْكِهِ وقوَّته لا يحيط بكلِّ شيءٍ، فغيرُه من باب أَولى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ضعفُ إدراكِ الْإِنْسَان مَهْمَا بلغَ مِنَ الْمُلْكِ ومن الْقُوَّة، ويدلُّ لهذا قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النِّسَاء:٢٨]؛ فإن هَذَا يُبَيِّن ضعفَ الْإِنْسَان، فَهُوَ ضعيف فِي كُلّ شيءٍ؛ فِي القُوَى العقليَّة والقوى الجِسْمِيَّة وكلِّ ما يمكن أن يُوصَف بالْقُوَّة والضعفِ، فإنَّ حال الْإِنْسَان فِيهِ الضعفُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ يجوزُ أنْ يُخَاطَب الرئيس بمثلِ هَذَا الخطابِ، فيقال مثلًا: عَلِمْتُ ما لم تعلمْ، أو فعلتُ ما لم تفعلْ، ومثله قول إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لأبيه: ﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم:٤٣].

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص: ٢٧٠).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يَنبغي للمتكلِّم أنْ يُؤَكِّدَ الخبرَ للمخاطَب عندَ الحاجةِ إليه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: ما فائدةُ تأكيدِه له وَهُوَ مَصْدَرُ الخبر؛ لِأَنَّ التأكيد إِنَّمَا يُفيد إذا جاءَ من طرفٍ آخرَ يَكُون شاهدًا للمخبِر، فأمَّا نفسُ المخبِر فكيف يقالُ: إن فِي تأكيدِه للخبرِ فائدة؟

فالجواب: أنَّ المقصودَ من ذلك زيادة طُمأنينة المُخْبَر؛ وله فائدةٌ، فإذا أخبرك المخبِرُ بخبرٍ قد تقولُ له: هل أنتَ متأكِّدٌ؟ فيقول: نعم أو لا، فإذن تأكيد المُخْبِرِ لخبرِه لا يقال: إنَّهُ لا فائدةَ منه؛ لِأَنَّهُ هُوَ مصدرُ الخبرِ، بل نَقُول: فِيهِ فائدةٌ، وهي رفعُ توهُّم المُخْبِرِ فِي خَبَرِه، فَيَرْفَع هَذَا التوهُّم ويَطْمَئِنّ المخاطَب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن استعمالَ ضَميرِ الجمعِ للمخاطَبِ المعظَّم لَيْسَ بلازم، وَلَيْسَ من شأنِ خِطاب الأَنْبياء والسَّلَف أَنَّهُ عندما يَكُون الْإِنْسَان معظَّمًا يَقُول: أتيتكم، جئتكم، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ كما هُوَ المعتاد الْآنَ عندنا.

فعندنا إذا كَانَ المخاطَب مُعَظَّمًا يقال: كما تريدون مثلًا سعادتكم أو سماحتكم أو سيادتكم أو فضيلتكم أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وهَذَا لَيْسَ معتادًا بمَن سَبَقَ، وإنما يخاطب الْإِنْسَان بما تَقتضيه حالُه، حَتَّى إن النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يردُّ السلامَ عَلَى المُسَلِّم بِقَوْلِهِ: «عَلَيْكَ السَّلَامُ»[1]، فإذا سلم عليه أحد يَقُول: وعليك السلامُ، وإذا كانوا جماعة يقال: عليكم السلام، فمن عادة السلفِ أَنَّهُم يخاطبون أو يتكلمون مَعَ المخاطَب بما تَقْضِيهِ حالُه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب من رد فقال: عليك السلام، حديث رقم (٥٨٩٧)؛ ومسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كُلّ ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، حديث رقم (٣٩٧)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيـة (٢٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣].

قوله: ﴿ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ الضَّميرُ في قوله: ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾: ﴿هُمْ﴾ ضَميرُ جمعٍ، ومرجِع الضَّميرِ مُفرَدٌ، لكِن لَمَّا كَانَ المُراد به القبيلة صَحَّ أن يعودَ الضَّميرُ إليه جمعًا، وقد سبقَ فِي الشرحِ قُلْنَا: إن فيها (سبأٍ وسبأَ) باعتبار الجدِّ والقبيلةِ.

قوله: ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُول: أي [هي مَلِكَة]، والغَرَضُ من تفسير ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ بمَلِكَة خوفًا من أن يقالَ: إنَّهَا تملكهم ملك استرقاقٍ لا ملك تَصَرُّف.

والمَرْأَة هل يَصِحُّ أن تكون ملكةً؟

لا، ففي شَرْعِنا لا يجوزُ أن تُوَلَّى المَرْأَةُ عَلَى الرِّجال، فلا يمكن أن تكونَ ملكة، ولا يمكن أن تكون أميرةً ولا يمكن أن تكون وزيرةً، ولا يمكن أن تكون قاضيةً، كُلّ هَذَا لا يجوزُ؛ لِأَنَّ النَّبِيّ ﷺ يقولُ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»(١).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يجوز أن تُسَمَّى المَرْأَة أميرةً أو سيدةً؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب كتاب النَّبِيّ ﷺ إلى كسرى وقيصر، حديث رقم (٤١٦٣)، عن أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أميرة اسمٌ فقط، أي أَنَّهَا من عائلةِ الأُمراءِ فقط، وَأَمَّا إطلاق كلمة (سيدة) فكلمة سيدة صارتْ رخيصةً، فكل امرأةٍ تُسمَّى سيدةً، وهَذَا قد نَبَّهْنَا عليه فيما سبقَ وقُلْنَا: إن هَذَا مُتَلَقًّى من الغربِ الَّذِينَ يقدسون المَرْأَةَ وإن هَذَا ما يَنبغي، ولهَذَا حَتَّى بعض الكتَّاب تجدهم يَقُولُونَ: السيِّدة عائشة، السيدة خديجة، وهَذَا لا يَنبغي، بل يقال: المَرْأَةُ والأُنثى، وَأَمَّا السيدة فلا يَصِحُّ هَذَا الإطلاق، لاسيما وَأَنَّهُ متلقًّى من غير المُسلِمينَ.

قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مِنَ المُقَوِّمات، كما قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أَمَّا وَصْفُ العَرْش الَّذِي ذَكَرَهُ المُفَسِّر فلا دليلَ عليه[1].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن المَرْأَةَ لا تَصْلُحُ لِلْمُلْكِ؛ لِأَنَّهُ ما قَالَ: مَلِكة، بل قَالَ: ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: سَعَة مُلْكِ هَذِهِ المَرْأَةِ، بل عَظَمَة ملك هَذِهِ المَرْأَة، لِقَوْلِهِ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهَا ذاتُ أُبَّهَة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

• • ۞ • •

(١) قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾ سرير ﴿عَظِيمٌ﴾ طوله ثمانون ذراعًا وعرضه أربعون ذراعًا، وارتفاعه ثلاثون ذراعًا مضروب من الذهب والفضة مكلل بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر والزمرد وقوائمه من الياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر والزمرد عليه سبعة أبواب على بيت باب مغلق].

الآيــة (٢٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن هَؤُلَاءِ القومَ مُشْرِكُونَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الشَّمْسَ مَعبودةٌ من قديمِ الزمانِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ فِي زمنِ سُلَيْمَان، وما زالَ إِلَى الْآنَ يوجدُ مَن يَعْبُدُ الشَّمْسَ ومَن يعبد النَّارَ، ومن يعبد القمرَ، بل ومَن يعبدُ البقرَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الخلقَ مَفْطُورون عَلَى إنكارِ الشركِ؛ لِأَنَّ الهدهدَ أنكرَ عليهم شِرْكَهم، مَعَ أن الهدهد لَيْسَ من العُقلاءِ، لكِن جميع الحيواناتِ بل والمخلوقات غير الحيوانات مَفْطُورة عَلَى توحيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن المشركينَ شَرُّ البَرِيَّة كما قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ إذا كانت البهائم والجماداتُ تسبِّح اللهَ وتَعْرِف حقَّه، وبنو آدم هَؤُلَاءِ يشركون به، صاروا شرَّ الخَليقةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ

هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ والسَّادِسَةُ: أن الْإِنْسَان يُذَمُّ عَلَى فِعْلِه أو يُمدَح عَلَى فعله؛ لِأَنَّ الهدهد ساقَ ذلك عَلَى سبيلِ الذمِّ، والغرضُ من ذِكر هَذِهِ الفائدة: الوصول إِلَى أنَّ فعل الْإِنْسَان باختيارِهِ؛ إذ لو كَانَ مُجْبَرًا عليه لم يصِحّ أن يَكُون مَحَلًّا للذمِّ أو للمدحِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يُجْبَر عَلَى العَمَلِ لا يُمْدَحُ عليه إن كَانَ خيرًا، ولا يُذَمّ عليه إن كَانَ سوءًا، ولكِنه هُوَ فِعْلُهُ.

ويتفرع عَلَى هَذِهِ الفائدة: إبطال قول الجبرية الذين يقولون: إن الْإِنْسَان مُجْبَر عَلَى عَمَلِه؛ لِأَنَّهُ إذا كَانَ مجبرًا لم يكن أهلًا للثناءِ فِي الخير أو فِي الشرّ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الأَعْمـالَ السيِّئة من تزيينِ الشيطانِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فكيفَ يُجمَع بين هَذِهِ الآيَةِ وبين قولِهِ تَعَالَى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل:٤]، فأضافَ اللهُ التزيينَ إليه، وهنا أضافَهُ إِلَى الشيطانِ، وَفِي آيَةٍ ثالثةٍ: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ [التوبة:٣٧]، مبنيٌّ للمجهولِ؟

نَقُول: هَذِهِ لا تعارضُ الآيَاتِ الأُخْرَى، فيُضاف إِلَى الله تقديرًا، وإلى الشيطان مباشرةً.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: إنَّ الأَعْمالَ السيِّئة تُزَيَّنُ للنَّاس فِي رمضان، وقد ثبتَ فِي الحديث: «أَنَّ الشَّيَاطِينَ تُصَفَّدُ فِيهِ وتُغَلُّ»[1]، ومع ذلك نرى أن كثيرًا من الخلقِ يُزَيَّن لهم سوءُ الأَعْمالِ فِي رمضانَ، فكيف الجمعُ؟

قُلْنَا: يَكُون هَذَا من تزيينِ النفسِ، فهي تُزَيِّنُ أيضًا سُوءَ الأَعْمالِ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، حديث رقم (٣١٠٣)؛ ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل شهر رمضان، حديث رقم (١٠٧٩)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن سبيلَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واحدٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل:٢٤]، وسُبُل الشرعِ مُتَعَدِّدَةٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، ولهذَا قَالَ العُلَماءُ: الإِسْلامُ مِلَّة والكفرُ مِلَل، الكفر: يهودية، نَصرانيَّة، وَثَنِيَّة، مَجُوسِيَّة... إِلَى آخِرِهِ، مِلَل لِأَنَّهَا سُبُل مُتَعَدِّدة، وَأَمَّا الْحَقّ فسَبِيلُه واحدٌ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيفَ تقولونَ ذلكَ وقد قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦]، فكيف الجمع؟

قُلْنَا: إذا قَيَّدْتَ فهي عَلَى حسَب ما قيّدت به، يعني يصحّ أن تقول: (سُبُل الخير)، ويَكُون المُراد بذلك الفروع الموصلة إِلَى الخيـر، فالإِسْلام كما أَنَّهُ كله سبيلٌ واحدةٌ فَهُوَ كذلك -أيضًا- ذو شُعَب، وقد ثبتَ عن النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً**»(١)، فَهُوَ ذو شُعَب، فهَذَا معنى قوله: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦].

ثُمَّ إِنَّهُ مما يُزيل الإشكالَ أَنَّهَا أُضيفت إِلَى السلامِ، ولم يقل: (السبل)، فعُلِمَ أن المُرادَ بذلك فُروعُ الخيرِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إذا زُيِّنَ للإِنْسَانِ سُوءُ عَمَلِه فصدَّ بذلك عنِ السبيلِ -والعياذ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- فَإِنَّهُ لا يَهتدِي؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤].

وهَذَا هُوَ البلاءُ أنَّ الْإِنْسَان يرى القبيحَ حَسَنًا، فهَذَا لا يكادُ يُقْلِع، لكِن مَن كَانَ يرى القبيحَ قَبيحًا فَإِنَّهُ يمكنه أن يُقْلِع، ولذلك تجدون الْآنَ مثلَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتعاملون بالحِيَل: الحيل الربويَّة وغير الربويَّة ومن المحرَّمات، لا يكادون يُقْلِعُونَ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان...، حديث رقم (٩)؛ مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وفضلها وأدناها...، حديث رقم (٣٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عنها؛ لِأَنَّهُم يَـرَوْنَ أَنَّهُم عَلَى حقٍّ، ولذلك لا يُقْلِعُـون، لكِنْ مَن فَعَلَ القبيـحَ وَهُوَ يَعْتَقِدُهُ قَبيـحًا، فَإِنَّهُ يُوشِـكُ أن يُقْلِـعَ عنه، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤]، عَلَى تفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَجِب أن يوصل قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ﴾ [النمل:٢٥]، بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤]؛ لِأَنَّهُ متعلّق به، والتَّقْدير: فهم لا يهتدون إِلَى أن يسجدوا.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٢٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ أي: أن يسجدوا له، فزِيدَتْ (لا) وأدغم فيها نون (أن)؛ كما فِي قوله تَعَالَى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد:٢٩]، والجملة فِي محل مَفْعُول ﴿يَهْتَدُونَ﴾ بإسقاط إلى]، لِأَنَّ معنى قوله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد:٢٩]؛ لِأَن يعلم أهل الكتاب، فزيدتِ اللامُ توكيدًا، فالمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يرى أن قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ مثل الآيَة الَّتِي ذكرها شاهدًا لها من حيثُ زيادة (لا)، ويَرَى آخرونَ من المفسرين خلاف ما رآه المُفَسِّر ويَقُولُونَ: إن الجملة انتهت بِقَوْلِهِ: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤]، وإن قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ بمعنى: هلا يسجدوا، وَأَنَّهُ للتحضيضِ، ولكِن هَذَا التَّقْدير فِيهِ إشكال أيضًا، وَهُوَ حذف النون من الأفعال الخمسة بدون ناصب ولا جازم؛ لِأَنَّ ﴿أَلَّا﴾ لا تنصب ولا تجزم، وإذا قُلْنَا: إن ﴿أَلَّا﴾ للتحضيض وهي لا تنصب ولا تَجْزِم، ونظرنا إِلَى ﴿يَسْجُدُوا﴾ وجدنا أن فيها حذف النون نصبًا أو جزمًا، وهنا لَيْسَ ناصبٌ ولا جازمٌ، فَهُوَ محل إشكال.

ولكِنَّ الجوابَ عن هَـذَا قد يَكُون سهلًا؛ لِأَنَّ حـذف نون الأفعال الخمسة

لغيرِ ناصبٍ ولا جازمٍ جائزٌ ووارد فِي اللُّغة العَربيَّة، ومنه قول النَّبيّ ﷺ: «وَاللهِ لَا تَدْخُلوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا»[1] لا تدخلوا (لا) نافية، لا تنصبُ ولا تَجزِم، ومع ذلك حُذِفَتِ النونُ، ولم يقل: (لا تدخلونَ الجَنَّة)، فالجواب عَن هَذَا أن يقال: إن نون الأفعال الخمسة قد تحذف بدون ناصب ولا جازم، لا سيما فِي مثل هَذَا التعبير ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ الدالّ عَلَى التحضيضِ، فإنَّ حَذْفَ النونِ هنا يُسَهِّلُه وجودُ هَذَا الحرفِ السابقِ للفعلِ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: إذا كانت عَلَى تقديرِ المُفَسِّر، فإن هَذِهِ الجملة بالنِّسْبَة لما قبلها كالمؤكِّدة؛ لِأَنَّهُ لما قَالَ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل:٢٤]، هَذَا يَقتضِي أن لا يهتدوا إِلَى الحَقّ وإلى أنْ يسجدوا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وَأَمَّا عَلَى القَوْلِ الثاني أن ﴿أَلَّا﴾ للتحضيضِ بمعنى (هلا) فَإِنَّهُ يَدُلّ عَلَى أنَّ الهُدْهُد انتقدهم بهَذَا الفِعْل، وبَيَّن أن الأَولى، بل الأوجب أن يَكُون السجود لله عَزَّوَجَلَّ، وتكون الجملة منفصِلة عما قبلها.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٢٤]، مَعَ قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ ألا يقتضي أن مَناط الذمِّ كونهم لا يسجدون لله، وَلَيْسَ كونهم يشركون فِي السجودِ.

الجواب: لا؛ لِأَنَّ معنى قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ يَجِب أن يُفرِدوا الله تَعَالَى بالسجودِ، فيَكُون مَناط الذمّ كونهم يخصصون الشَّمْس بالسجودِ، وكذلك أيضًا لو أشركوا بها مَعَ الله؛ لِأَنَّهُ لا يمكن أن يزولَ الذنبُ إِلَّا إذا خُصِّصَ السجودُ لله وحدَه.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في إفشاء السلام، حديث رقم (٥١٩٣)؛ والترمذي، كتاب الاستئذان، باب ما جاء في إفشاء السلام، حديث رقم (٢٦٨٨)؛ وابن ماجه، كتاب المقدمة، باب في الإيمان، حديث رقم (٦٨)؛ وأحمد (٢/ ٤٧٧) (١٠١٨٠)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الآيَة قراءة ثانية: (أَلَا يا اسجدوا لله) وتكون (ألا) استفتاحية و(يا) حرف نداء، والنداء محذوف، والتَّقْدير: ألا يا قوم اسجدوا لله، أو تكون (يا) للتنبيه، نظيره قوله تَعَالَى: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ [يس:٢٦]، وقوله تَعَالَى: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ﴾ [النِّسَاء:٧٣]، فإن (يا) هَذِهِ إمَّا أن تكون للتنبيهِ؛ لِأَنَّهَا لا تدخلُ عَلَى الأفعالِ ولا عَلَى الحروفِ، وَإمَّا أن تكون للنداء والمنادى محذوف.

قوله: ﴿ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَصْدر بمعنى المخبوء مِنَ المطرِ والنباتِ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ﴾ فِي قُلُوبِهِم ﴿وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ بِأَلۡسِنَتِهِم]، قوله: ﴿ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ﴾ الخَبْء بمعنى المخبوءِ؛ كما قَالَ المُفَسِّر، فَهُوَ مصدر بمعنى اسمِ المَفْعُول، والمصدرُ بمعنى اسمِ المَفْعُول واردٌ فِي اللُّغة العربيَّة كثيرًا، ومنه قوله تَعَالَى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ﴾ [الطلاق:٦]، أي: محمولٍ؛ لِأَنَّ الحملَ فِعل المَرْأَةِ، وَأَمَّا المحمولُ فَهُوَ الجنينُ، وكذلك قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤].

ومنه قولُ النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١) أي: مردود، ومنه أيضًا قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان:١١]، ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾ أي: مخلوقه وَلَيْسَ فِعْلَه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنَ المطرِ]، هَذَا باعتبارِ المخبوءِ فِي السَّمَاء، [والنبات]، هَذَا المخبوء فِي الْأَرْض، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي يُخْرِجُ ما فِي هَذَا وما فِي هَذَا، [﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ﴾ فِي قلوبهم ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ بألسنتهم].

ولم يُشِرِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَى القراءةِ الثَّانِيَةِ وهي سبعيَّة فِي قوله: «يخفون»

(١) سبق تخريجه.

و«يعلنون»[1]؛ فإن الَّذِي فِي المصحف قراءة عاصم: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ يُخاطِب بذلك سُلَيْمَان، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا يُخْفُونَ﴾ فِي قلوبهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم]، تقييده بالألسنةِ فِيهِ نَظَرٌ، لو قَالَ: بِأَلْسِنَتِكُمْ وجَوَارِحكم؛ لِأَنَّ ما يُفْعَل بالجوارح معلَن كما أن ما يُنْطَق به باللسانِ مُعْلَن أيضًا ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

وهَذَان الوصفانِ -إخراجُ الخبءِ والعلمُ بما يُبْطِنُ العبدُ وما يعلنه- لا يَكُونان لأحدٍ من المخلوقينَ، لا للشمسِ ولا لغيرِ الشَّمْسِ، وإنما ذلك خَاصّ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولهَذَا جَعَلَه الهدهدُ منَ الأَسْبَاب الَّتِي تَستلزِم أن تكونَ العِبادَةُ للهِ وحدَه؛ لِأَنَّهُ العَالِمِ بها.

ولا يمكن أن يُؤْتَى بوصفٍ يَستلزِم العِبادَةَ إِلَّا إذا كَانَ خاصًّا بالله؛ لِأَنَّهُ يؤتى بهَذَا الوصفِ استدلالًا عَلَى بُطلانِ عبادةِ ما سواه، ولو كَانَ مما يُمْكِن أن يَكُون للهِ لم يكنْ ذلكَ دليلًا عَلَى اختصاصِ اللهِ تَعَالَى بالعُبُودِيَّة، إذ قد يقولُ العابدُ للشيء: وهَذَا وصف أيضًا موجود فِي معبودي فأنا أعبده.

فالمهمّ أَنَّهُ لا يمكن أن تُقامَ الحُجَّة إِلَّا بدليلٍ خَاصّ بالمحتجِّ له، يعني أَنَّهُ لا يُمْكِن أن تُقِيمَ الحجَّةَ بأن العِبادَةَ للهِ وحدَه إِلَّا بوصفٍ خَاصٍّ بالله؛ لأنك لو احتججتَ بوصفٍ يَكُون لله ولغيره لكان العابدُ لغيرِ اللهِ يَقُول: وهَذَا الوصف أيضًا ممكن فِي معبودي فلا يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ مما يختص به اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأولى: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هُوَ المستحِقّ للعبادةِ وَحْدَهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النمل:٢٥]؛ لِأَنَّهُ لا أحدَ يَستطيعُ ذلك إِلَّا الله، لا أحد يستطيعُ

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧١).

أنْ يُخرِج المخبوءَ فِي السَّماوَات وَفِي الْأَرْض إِلَّا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فإذا كَانَ كذلك فيجب أن تكون العِبادَة له وحدَه؛ لِأَنَّهُ الربُّ وحدَه، فيكُون المعبود وحدَه كذلك.

الفَائِدَتان الثَّانِيَة والثَّالثة: سَعَـةُ عِلْمِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥]، واستدلَّ به الشَّافِعيُّ عَلَى ثُبُوتِ القَدَرِ، فثبوت علمِ اللهِ لأفعالِ العبدِ دليلٌ عَلَى تقديرِهِ لها.

ولهَذَا قَالَ الشَّافِعيّ فِي الْقَدَرِيَّة: «نَاظِرُوهُمْ بِالْعِلْمِ، فإنْ أَقَرُّوا به خُصِمُوا، وإنْ أَنْكَرُوه كَفَروا»[1]. وهَذَا صحيحٌ؛ لأنَّنا نَقُول: إذا كنتم تُقِرُّونَ بأن الله عالمٌ بأفعالِ الخلقِ، فهل وَقَعَتْ هَذِهِ الأفعالُ عَلَى حَسَبِ عِلْمِهِ، أو عَلَى خلاف عِلمه؟

عَلَى حسَـبِ عِلمه؛ لأنكم تُقِرُّونَ أَنَّهُ يعلمها، إذن فقد وَقَعَتْ عَلَى حَسَـبِ عِلْمِهِ، فإذا كانت واقعة عَلَى حسبِ عِلْمِه، لَزِمَ أنْ تكونَ بتقديرِه، وإلَّا لكان يمكن أن تقعَ عَلَى خلافِ علمه، إذا كانت من تقديرِ العبدِ واستقلالِ العبدِ، فَإِنَّهُ لا يَلْزَمُ أنْ تقعَ عَلَى حَسَبِ عِلْمِه، وَأَمَّا إذا أنكروا العلمَ فإنهم يكفرون؛ لِأَنَّ إنكارَ علمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كُفرٌ، وعندنا أيضًا حَتَّى إنكار تقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كفرٌ؛ لِأَنَّ الآيَاتِ والأحاديثَ صـريحة بأن الله تَعَالَى مُقَدِّر لأفعالِ العبدِ، فإنكارها تكذيـبٌ للقرآنِ والسنَّةِ، وهَذَا هُوَ الكفرُ.

ولكِن الشَّافِعيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن يُلْزِمَهم بأمرٍ مُتَّفَقٍ عليه، وَهُوَ أن إنكار علم الله كفرٌ، فقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥]، نَستفيد مِنْه بناءً عَلَى تقدير الشَّافِعيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إثبات تقديرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأفعال العبدِ.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص:٣٠٢)، جامع العلوم والحكم (ص:٢٧).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعة: تَحذيرُ العَبْدِ مِنَ المُخالفةِ عَلَنًا أو سِرًّا، كيف ذلك؟ لأنك إذا عَلِمتَ بهَذَا الأَمْرِ، بأن الله يعلمُ ما تُخْفِي وما تُعْلِن، يَلْزَمُ مِن ذلكَ أن لا تُخَالِفَه، لا تقلْ: سأفعلُ هَذَا المحرَّم لِأَنَّ الله لا يَدْرِي، أو سأترك هَذَا الواجبَ لِأَنَّ الله لا يدري، بل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَعلمُ، والْإِنْسَان لو عَلِمَ أن المعظَّم عندَه يعلم بأفعالِه، لَتَرَكَ ما لا يُرْضِيه، لو عَلِمْتَ مثلًا أن أباك أو الرجلَ الَّذِي تحترمه يعلم بما تفعل، فهل تفعل ما يخالف رضاه؟ لا تفعل، لا سيما إذا كَانَ محبوبًا لديك ومُعَظَّمًا، فإذا كَانَ كذلك فالربُّ من باب أَولى.

ولهَذَا ينبغي لكَ كلَّما دَعَتْكَ نفسُك إِلَى معصيةٍ، بل إِلَى مخالفةٍ بتركِ أمرٍ أو فعلِ نهيٍ، يَجِب عليك أن تتذكرَ هَذَا الأَمْرَ، أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَعْلَم مخالفتَكَ، فيَلْزَم من هَذَا أن تَرْتَدِعَ، ولهَذَا جاء فِي الحديث وإن كَانَ فِيهِ نظرٌ: «**أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ**»[1]؛ لأنك إذا عَلِمْتَ هَذَا العلمَ أوجبَ لك الاستقامةَ والثباتَ عَلَى الأَمْرِ.

قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥]، فيها قِراءتان[2]: ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ و«ما يخفون وما يعلنون»، أَمَّا عَلَى قراءة: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ [النمل:٢٥]، عَلَى حَسَبِ تفسيرِ المُفَسِّر فالمناسبُ: ما يخفون وما يعلنون، وَأَمَّا إن كَانَ عَلَى قراءة الكِسائي: «أَلَا يا اسجدوا»، وهي قراءة سَبْعِيَّة[3]، فتناسب: ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥]؛ لِأَنَّ اسجدوا فعلُ أمرٍ، وفعل الأَمْر للمُخَاطَب، فيَقْتَضِي أن الأفعال الَّتِي

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٨٧٩٦)، عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧١).

(٣) المصدر السابق نفس الموضع، والسبعة في القراءات (ص:٤٨٠).

بعده تكون للمخاطَب أيضًا، يَعْنِي: ألا يا قوم اسجدوا، وَهُوَ هنا لا يخاطب سُلَيْمَان؛ لِأَنَّ سُلَيْمَـان يسجد لله، ولكِنه لقوَّةِ استحضارِهِ ما كانت عليه ملكة سبأ خاطبهم بِقَوْلِهِ: (أَلَا يا اسجدوا).

• • ۞ • •

الآيــة (٢٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ [النمل:٢٦].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [استئناف جملة ثنائية مُشْتَمِل عَلَى عرشِ الرحمنِ فِي مقابلةِ عرش بِلْقِيس، وبينهما بَونٌ عظيمٌ].

يَقُول هَذَا الهدهد: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهَذَا كلمة التَّوحيدِ، والمُفَسِّر يَقُول: إنَّهَا جملةٌ استئنافيةٌ للثناءِ عَلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بما لا يَكُونُ لغيرِه، فالأوَّل: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ هَذَا يَتَعَلَّق بتوحيدِ الرُّبُوبِيَّة، والثاني: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بتوحيدِ الأُلُوهِيَّة، أي: لا معبودَ بحقٍّ سِوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ -إذ هناك معبودات سِوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بغير حقٍّ- فإذن أثنى عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بصفة الرُّبُوبِيَّة وبصفة الأُلُوهِيَّة، وربما نَقُولُ أيضًا: وبصفةِ الأسماءِ والصِّفَاتِ؛ لِأَنَّ توحيد الرُّبُوبِيَّة مُسْتَلْزِم للأسماءِ والصِّفَاتِ؛ إذ إنَّ التصرُّف فِي الخلقِ والتدبير والعِلم كُلّ هَذَا من الصِّفَات.

قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾: ﴿رَبُّ﴾ بمعنى صاحبِ العَرْش العظيم، أي: صاحبه، كما تقول: ربُّ الدابَّة، أي: صاحب الدابَّة، وقوله: ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ (أل) هَذِهِ للعهدِ الذِّهنيِّ، أي: العَرْش المعهود فِي أذهانِ الخَلْق العظيم، بخِلاف عرشِ بِلْقِيس، ولهَذَا قَالَ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، وهنا قَالَ: ﴿ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ بـ(أل)،

والتعبير ظاهرٌ جدًّا فِي الفرقِ بينهما؛ لِأَنَّ (عرش) نَكِرة و﴿ٱلْعَرْشِ﴾ معرفة، فدلَّ ذلك عَلَى أن هَذَا العَرْش عرشٌ عظيمٌ معلومٌ مفهومٌ فِي الأذهانِ، بخِلاف الأوَّل.

ويَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه قاله فِي مقابلةِ عَرْش بلقيس، نعم هَذَا صحيحٌ، فواضحٌ أَنَّهُ قَالَه لأجلِ أنْ يُبَيِّن أن صاحبَ العَرْش العظيم هُوَ المستحِقّ لِأَنْ يَكُونَ مالكًا، وَأَمَّا هَذِهِ المَلِكَة فإنَّ لها عرشًا وَلَيْسَ لها العَرْش.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأولى: إثبات عرشِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، والعَرْش هُوَ أعلى المخلوقاتِ، وَهُوَ غير الكرسيّ، وَلَيْسَ هُوَ المُلك كما قاله مُنْكِرو العلوّ، الَّذِينَ يَقُولُونَ: المُراد بالعَرْش المُلك، فيَقُولُونَ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، أي: استولَى عَلَى الملك، وهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ لَيْسَ بصحيحٍ، والعَرْش معروفٌ عند العربِ، وَفِي اللُّغة العَربيَّة: بأنه سَرير المَلِك الخاص به.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَة: إثباتُ انفرادِ اللهِ تَعَالَى بالأُلوهيَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [النمل:٢٦].

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذَا النفيُ أو الحصرُ حقيقيّ أو إضافيّ؟

إِذَا قُلْنَا: حقيقيّ، فهَذَا يَلْزَمُ منه أن يَكُون الإله لَيْسَ بمعنى معبود، لزِم أن يَكُون الحصر إضافيًّا، إذ هناك معبود سِوَى الله وهي الأصنامُ، فيَصِير معنى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أي: لا مَعْبُودَ بحقٍّ إِلَّا اللهُ، وحينَئذٍ يَكُونُ الحَصْرُ إضافيًّا، وإنْ جَعَلْنَاهُ حَقِيقِيًّا فإنَّنا يُمْكِنُ أن نَقُولَ: إن المُرادَ بالإلهِ فِي قولِهِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصافات:٣٥]، الإلهُ المستحِقُّ، يَعْنِي: لا إلهَ مُسْتَحِقّ إِلَّا الله، ولكِن هَذَا التَّقْدير يعودُ عَلَى الأوَّل.

واعلَمْ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سمَّى الأصنام آلهةً؛ سَمَّاها آلهة فِي قوله تَعَالَىٰ: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود:١٠١]، فأثبتَ أَنَّهَا آلهة، وَفِي آيَاتٍ أُخْرَى نفى أن تكون آلهةً فقال تَعَالَىٰ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف:٤٠]، والجمعُ بينهما ظاهرٌ؛ أنَّ إثباتَ كونها آلهةً باعتبار هَؤُلَاءِ العابدينَ؛ لِأَنَّهُم يَعتقِدون أَنَّهَا آلهة، ونفي أن تكون آلهة وإنما هِيَ أسماء باعتبار حقيقة الأَمْرِ أَنَّهَا ليستْ بآلهةٍ تَسْتَحِقّ أن تُعْبَد؛ ولهَذَا نُفي أن تكون آلهةً؛ لِأَنَّهَا لَيْسَ لها الحَقّ فِي أن تُعْبَد.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين الحصر الحقيقيّ والإضافيّ؟

قُلْنَا: مثال الحصر الحقيقيِّ والإضافيِّ إذا قُلْنَا: إن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصافات:٣٥]، أي لا معبود بحق إِلَّا الله صار حصرًا إضافيًّا، باعتبار أن يَكُون بحق، أمَّا بحق وباطل فيوجد آلهة سِوَى الله، وحينَئِذٍ يَكُون الحصرُ إضافيًّا، يَعْنِي بالإضافةِ إِلَى الإلهِ الحقّ، فإذا قُلْنَا: حقيقيٌّ فَهُوَ باعتبارِ الواقعِ أَنَّهُ لا يوجد إله إِلَّا الله، وأنّ هَذِهِ الآلهة هِيَ مجرد أسماء، فيَكُون الحصر حقيقيًّا، أي: باعتبار الحقيقة والواقع، ومؤداهما واحد؛ ولهَذَا أثبت الله الآلهةَ مرة ونفاها مرة أخرى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: إثبات الرُّبُوبِيَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبُّ﴾، ورب بمعنى: خالق أو بمعنى صاحب؟

بمعنى خالق، وَهُوَ أيضًا مختصٌّ به، إذ إن العَرْش لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحدَه.

الآيــة (٢٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧].

قوله: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ يقوله سُلَيْمَان، والسينُ -كما تقدَّم- تَدُلّ عَلَى التحقيقِ مَعَ التراخِي، ﴿سَنَنظُرُ﴾ معناه أنَّ نَظَرَنا هَذَا محقّق لَكِنَّهُ سيكُونُ له مُقَدِّمات، فهي تدلُّ عَلَى التأكيدِ.

قوله: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ ولم يَقْبَلْ كلامَه من أوَّل الأَمْرِ؛ لِأَنَّهُ خَشِيَ أن يَكُونَ أتى بذلكَ دفاعًا عن نفسِهِ، ونظيرُ هَذَا ما سَلَكَهُ عمرُ بنُ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ أبي مُوسَى الأشعريِّ حينَ استأذنَ ثلاثًا وانصرفَ ثُمَّ حَدَّثَه أن النَّبِيّ ﷺ أمر بذلكَ، فطلبَ منهم أنْ يَشْهَدُوا له، فالتُّهَم أو عَدَم الثِّقَة بالقَوْل لها أَسْباب، مِن جُمْلَتِها أنْ يَكُونَ المُخْبِر عَلَى هَذَا الوصفِ، يَتَضَمَّن إخْبَارُه دفاعًا عن نفسِه، فهنا مهما كَانَ منَ الثقةِ تجدُ أَنَّكَ تَتَرَدَّد فِي قَبُولِ هَذَا الخَبَرِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ فيما أَخْبَرْتَنَا به ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: منْ هَذَا النوعِ، فَهُوَ أبلغُ مِن: أمْ كَذَبْتَ فيه].

قوله: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الأوَّل صَريحٌ أَنَّهُ فِعل، وهنا قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي من هَذَا النوعِ، فَهُوَ أبلغُ مِن: أمْ كذبتَ)؛ لِأَنَّ قوله: ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يَدُلّ عَلَى الوصفِ الدائمِ، فَهُوَ أبلغ من قوله: [أم كذبتَ]؛ لِأَنَّ

[أَمْ كَذَبْتَ] فِعلٌ، والفِعْل قد يَكُونُ مرَّة لكِن ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ هَذَا وصفٌ يَدُلّ عَلَى استمرارِ الكذِبِ فيه، هَذَا ما قَرَّرَهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وعندي: أن فِي تعبير سُلَيْمان للهدهد لَبَاقَة؛ لِأَنَّ مُصارَحَتَه ومقابلته بِقَوْلِهِ: [أَمْ كَذَبْتَ] أَشَدُّ وقعًا من قوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، يعني أن قوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أهونُ مِمَّا لو قَالَ: أم كذبت، فهي فِي الحقيقة من جِهَةٍ أشدّ، وهَذَا بالنظر إِلَى أن قوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وصفٌ لازِمٌ، ومن جهة المخاطبةِ أهونُ من قولِه: أمْ كَذَبْتَ، فهَذَا وجهُ الاختلافِ بين قولِه: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وقول المُفَسِّر: [أم كذبتَ]، وكلُّ قولٍ له وجهٌ، لا تعارضَ بينهما.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يَحِقُّ لسُلَيْمَان أنْ يَصِفَ الهدهدَ بمجرَّدِ هَذَا الفِعْل وصفًا مُطْلَقًا بالكذِبِ؟

فالجواب: المُرادُ بالكاذبينَ الَّذِينَ مِن دَأْبِهِمُ الكذِبُ، فكون هَذَا من الكاذبينَ إمَّا أَنَّهُ من دأبِهِ الكذِب أو فِي جُمْلَتِهم، وقد يكذِب مرَّةً واحدةً، وسُلَيْمان أيضًا ما وَصَفَهُ؛ لِأَنَّهُ قال: ﴿أَصَدَقْتَ﴾ مقابل قوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فلا يُعلم هل يَكُونُ مُتَّصِفًا بِقَوْلِهِ: ﴿أَصَدَقْتَ﴾ أو بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، فما وَصَفَهُ، بل هُوَ مُتَرَدِّدٌ، يُنْظَر، لكِنْ لو ثَبَتَ الكذبُ فهل يَحِقُّ أنْ يُوصَف بأنه من الكاذبينَ؟

الجواب: لا يَحِقّ أنْ يُوصَف بأنه من الكاذبينَ المتَّصِفين بها دائمًا، ولكِن -كما تَقَدَّمَ- هَذَا من بابِ التلطُّف فِي الخِطاب، فكونه من الكاذبينَ هَذَا أشدُّ إذا كَانَ وَصْفه الكَذِب، وكونه لم يُخاطِبْه وقال: أمْ كذبتَ يَكُون أهونَ، مثل قول إبراهيم ﷺ للضيوف: ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات:٢٥]، لم يقل: أُنْكِرُكُم، لا أَعْرِفكم، بل قَالَ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ وهَذَا من بابِ التلطُّفِ فِي التعبيرِ.

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثم دَلَّهُمْ عَلَى الماءِ فَاسْتُخْرِجَ وَارْتَوَوْا وَتَوَضَّئُوا وَصَلَّوْا، ثُمَّ كَتَبَ سُلَيْمَانُ كِتابًا صُورَتُه: مِن عَبْدِ اللهِ سُلَيْمان بنِ داودَ إِلَى بِلْقِيس مَلِكَةِ سَبَأ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، السلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهدَى، أَمَّا بعدُ؛ فلا ﴿تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣١]. ثُمَّ طَبَعَه بالمِسْكِ وخَتَمَهُ بخاتمِه، ثُمَّ قَالَ للهُدْهُد: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾].

كُلّ هَـذَا مِنَ الحِكايات الَّتِي لا دليـلَ عليها فِي الْقُـرْآنِ، فكونه دَلَّهم عَلَى الماء فاستخرجوه وارْتَوَوْا وتوضئوا وصَلَّوْا أيضًا أين هَذَا فِي الْقُرْآن؟! لَكِنَّنَا نَقُول: هَذَا لا دليلَ عليه، ولا يجوزُ لنا أنْ نَعْتَقِدَهُ، ولا أن نُكَذِّبَه، هَذَا إذا صحَّ عن بني إسرائيلَ؛ لأنه تُوجَد آفةٌ أيضًا وهي أَنَّهُ يوجد بيننا وبينَ بني إسرائيلَ طَرِيق مِمَّن رَوَاهُ عن بني إسـرائيل، فإذا صحَّ عن بني إسـرائيلَ وأنهم ممَّا حَدَّثُوا به هَذِهِ الأُمَّة نَقُول فيه: إِنَّهُ لا يُصَدَّق ولا يُكَذَّب؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ شَيْء يُعارِضُ كِتَابَنا، ولا فِي كتابنا ما يُؤَيِّده، وإلَّا لو كَانَ فِي كتابنا ما يؤيده قَبِلْنَاه، ولو كَانَ فِي كتابنا ما يُعارِضه رَدَدْنَاهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأولى: أَنَّهُ يَنبغي التثبُّت فِي الخبـر، لا سيمـا عند قيام الشُّبُهات، وما هِيَ الشبهةُ القائمةُ هنا؟ أنَّ الهدهدَ قَالَ ذلكَ مُدافعةً، وإن كَانَ بعيدًا؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل:٢٢]، لكِن لَمَّا كَانَ هَذَا مَقامَ دفاعٍ، فَإِنَّهُ يَنبغي أن يَتَثَبَّتَ الْإِنْسَانُ أكثرَ؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧]، مَعَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل:٢٢].

وهَذَا نظيرُ ما وقع لأميرِ الْمُؤْمِنِينَ عمرَ بنِ الخطَّابِ مَعَ أبي مُوسَى الأشعريِّ؛ حَيْثُ استأذن عليه ثلاثًا وانصرفَ، فلمَّا عاتبَهُ بَعْد ذلكَ قَالَ: هَكَذَا أَمَرَنَا رسولُ اللهِ

ﷺ. فقال: هاتِ مَن يَشْهَدُ لكَ. فشَهِد له مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ[1]، فمِثل هَذِهِ الحالِ وإنْ كَانَ الخبرُ مُتيَقَّنًا لكِن لا مانعَ أنْ يَتَثَبَّتَ الْإِنْسَان فِي ذلكَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَة: أَنَّهُ يَنبغي للإِنْسَانِ أنْ يَكُونَ لَبِقًا فِي تعبيره، حَتَّى لغيرِ الآدَمِيّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَصَدَقْتَ﴾ [النمل:٢٧]، فصارحَهُ هنا بلفظِ الصدقِ؛ لِأَنَّ الصدقَ صفةٌ محبوبةٌ محمودةٌ، وَفِي الكذِب ما قَالَ: (أنْ كذبتَ) بل قَالَ: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧]، فتحاشَى أنْ يُصارِحَه بوصفِ الكذبِ، مَعَ ما فِي ذلكَ بالنِّسْبَةِ للقرآنِ الكريمِ، فِي مراعاةِ الفواصلِ فِي قولِهِ: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧]؛ لِأَنَّ فِيهِ مراعاةً للفواصلِ.

وقول المُفَسِّر: إن هَذَا أبلغ من [أن كذبت] هَذَا له وجهٌ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧]، أي: من المتَّصفينَ بالكذِبِ دائمًا، يَعْنِي: ممَّن وَصْفُه الكذِبُ، وَلَيْسَ مَن كَذَبَ مرةً واحدةً كمَن كَانَ الكذِبُ وَصفًا له، فيَكُون العدولُ هنا عن: [أنْ كذبتَ] له ناحيتانِ:

الناحية الأولى: أَنَّهُ ألطفُ منَ التصريحِ بالمخاطَبَةِ بالكذِبِ.

الناحية الأُخْرَى: هِيَ أشدُّ؛ حَيْثُ إِنَّهَا تدلُّ عَلَى اتِّصافِ المخاطَبِ بالكذبِ، لا أَنَّهُ وقع منه مرَّةً واحدةً، فالمُفَسِّر راعَى وجهًا وتركَ وجهًا آخرَ، والصَّوابُ أَنَّهُ مراعى فيها الوجهانِ جميعًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالثة: في قوله: ﴿سَنَنظُرُ﴾ جواز تعظيم الْإِنْسَانِ إذا كَانَ أهلًا لذلك، عَلَى أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ سُلَيْمَانُ أرادَ أَنَّهُ يَنْظُرُ ذلك بمَن يستعين به من جنوده،

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب الخروج في التجارة، حديث رقم (١٩٥٦)؛ ومسلم، كتاب الآداب، باب الاستئذان، حديث رقم (٢١٥٣).

لا أَنَّهُ يريد أن يباشر هُوَ بنفسِهِ ذلك، فقوله: ﴿سَنَنظُرُ﴾ هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ للجماعةِ، فهل هِيَ جماعةٌ حقيقةً أو من باب التعظيمِ؟

نَقُول: هَذَا فِيهِ احتمال: فإن كَانَ سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أراد تعظيمَ نفسِهِ، فَهُوَ أهلٌ لذلك؛ لِأَنَّهُ ملك ورسول، وإلا فَإِنَّهُ: يريد سننظر بجنودنا وأعواننا أصدقتَ أمْ كنتَ من الكاذبينَ، وإنْ كَانَ لا يريد أن يباشره بنفسه، فالملك والوزير والأمير ومن أشبههم إذا قَالُوا: سنفعل كذا، فإما أن يَكُون ذلك بأنفسهم ويَكُون ذلك تعظيمًا لأنفسهم، أو بواسطة الجنودِ والأعوانِ ويَكُون هَذَا مراعاةً للجميعِ.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:٢٨].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثُمَّ قَالَ لِلْهُدْهُدِ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾].

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: قوله: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾ يَقتضي أَنَّهُ صَدَّقَه؛ لِأَنَّ قوله: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ صَدَّقَهُ فِي ذلك، ولهَذَا كتب لهم، أو يقال: هَذَا من جملةِ الاختبارِ، يعني أَنَّهُ إذا كَانَ كاذبًا فسيقول: ما وجدتُ أحدًا، مثلًا، فيَكُون هَذَا من جملةِ وسيلةِ الاختبارِ العائدةِ عَلَى قوله: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾؟ وقد يقال: إن فِي قوله: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ تقديرًا: فنظرَ وتَحَقَّقَ صِدْقَه فأعطاه الكتابَ، واللهُ أَعْلَمُ بما جَرَى؛ فإمَّا أنْ يَكُونَ هَذَا الكتابُ من جملة اختبارِهِ، مثلما لو أخبرك إِنْسَانٌ بخبرٍ تقولُ له مثلًا: اذهَبْ وائتِ لي مِنه ذِكرًا، أيضًا لو قَالَ مثلًا: تباع السلعةُ الفلانيَّة الْآنَ فِي السوقِ قلتَ له: خذِ اذهَبْ وائتِ لي مِنْهَا شيئًا، من أجلِ أنْ أختبرَ هل هُوَ صحيحٌ أو لا، وإن كَانَ ظاهرُ فِعْلِي لَمَّا أَعْطَيْتُه الفلوسَ لِيَشْتَرِيَ أَنَّني صَدَّقْتُه، لكِنْ قد يَكُونُ هَذَا من وسائلِ الاختبارِ.

فالحاصل: إذا كَانَ سُلَيْمَان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حَقَّقَ هَذَا الأَمْرَ ثُمَّ أرسلَ بالكتابِ

فالأَمْرُ ظاهرٌ، ولكِن لَيْسَ فِي الْقُرْآن ما يَدُلّ عَلَى ذلكَ، فنَقُول: إن إعطاءَهُ الكتابَ من جملةِ الوسائلِ الَّتِي تُبَيِّن صِدْقَهُ.

وقوله: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾ أشارَ إليه بالتعيينِ؛ لِأَنَّ سُلَيْمَان يكتب لهم ولغيرهم، ولكِنه عَيَّنَ الكتابَ الَّذِي كَتَبَهُ لهم.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ أي بِلْقِيس وقَوْمِها ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ انْصَرَفَ ﴿عَنْهُمْ﴾ وَقَفَ قريبًا ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يَرُدُّون مِنَ الجوابِ، فأَخَذَهُ وأتاها وحولها جُنْدُها وألقاهُ فِي حَجْرِها، فلَمَّا رَأَتْهُ ارْتَعَدَتْ وخَضَعَتْ خَوْفًا، ثُمَّ وَقَفَتْ عَلَى ما فِيهِ، ثُمَّ ﴿قَالَتْ﴾ لأشرافِ قَوْمِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾].

ذهب به الهدهدُ فألقاهُ إليهم، أي: طَرَحَه بين أيديهم، وتولَّى عنهم كما أرشدَهُ سُلَيْمان، ولكِنَّ هَذَا التولِّيَ لَيْسَ بعيدًا، بدليل قوله: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾؛ فإن قوله: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يَدُلّ عَلَى أنَّ هَذَا التولِّيَ يَكُون قريبًا منهم، وفيه من الفوائد ما يأتي إنْ شاء اللهُ. ثُمَّ أخذتِ الكتابَ وقَرَأَتْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الحيوانات تَعْقِلُ ما يُوَجَّهُ إليها منَ الأَمْرِ والنهيِ والاختبارِ والفحصِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱذْهَب﴾ [النمل:٢٨]، وقوله: ﴿فَأَلْقِهْ﴾ [النمل:٢٨]، وقوله: ﴿تَوَلَّ﴾ [النمل:٢٨]، وقوله: ﴿فَٱنظُرْ﴾، كُلّ هَذِهِ أوامر للهدهد؛ ممَّا يَدُلّ عَلَى أن هَذِهِ الحيوانات تَعقِل، ولكِن لَيْسَ معنى قولنا: إنَّهَا تعقل أن تكون عاقلةً لكل أحدٍ، صحيح أَنَّهَا تعقل عقلًا محدودًا بالنِّسْبَة لعامَّة النَّاس، ولهَذَا تُزجَر البهيمة فتنزجر وتدعوها فتُقْبِل، ولكِن لَيْسَ هَذَا كمثلِ تسخيرها لسُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فإن تسخيرها لسُلَيْمان أَنَّهَا تَنزِل منه مَنْزِلَةَ الْإِنْسَانِ العاقلِ الفاهِمِ، من كُلّ وجهٍ.

الفائدةُ الثَّانِيَة: أَنَّهُ يَنبغي تَحَسُّس الأخبارِ عندَ الحاجةِ لذلكَ، وهَذَا ما يُسَمَّى بالمتابعةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ [النمل:٢٨]، فَإِنَّهُ إذا تولى وجعل يَنْظُرُ لَا بُدَّ أن تُبَيَّنَ له الأخبارُ؛ فلو أَنَّهُ ما تولى عنهم فألقاه وبقِيَ فقد لا يتكلمون بالأَشْيَاء الَّتِي يتكلمون بها إذا كَانَ حاضـرًا لديهم، لكِن إذا تولَّى عنهم فحينئذٍ وجدوا لأنفسهم مجالًا للكلام حَسَب ما يريدون، وهَذَا من السياق.

فعندما تعمل عملًا فلا بد أن تَتَحَسَّس الأخبارَ، فلا تباشر هَذَا العَمَل مباشرةً لِأَنَّهُ لا يأتي عَلَى المطلوب، ولا تُعْرِض عنه إعراضًا كامِـلًا لأنَّ معنـى ذلك أنك ما تابعتَ ولا اهتممتَ بالأَمْرِ، فينبغي على الْإِنْسَان أنه كلَّما عَمِلَ عملًا أن يَكُون متابعًا له وأن يتحسَّس.

مثلًا افرض أنك أمرت أهلك بأمر، وأنت راعٍ عليهم، فلاحظه ولا تتـركه، ولكِن لا تلاحظه وأنت حاضـر مَعَ المباشرة؛ لِأَنَّهُم فِي هَذِهِ الحال سوف ينفذونه، لكِن تلاحظه وأنت بعيد حَتَّى يتبين لك هل نفذوا أم لم ينفذوا، فهَذِهِ من السِّياسَة الَّتِي ينبغي سُلُوكُها؛ لأجل أن يعرف الْإِنْسَان مدى تَقَبُّل الموجَّه إليه الأَمْر من عَدَمِه، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَأَلۡقِهِۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ [النمل:٢٨]، وهَذَا هُـوَ الَّذِي حَصَلَ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٢٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٢٩].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثمَّ ﴿قَالَتْ﴾ لِأَشْرَافِ قَوْمِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾]، و﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾ كما بَيَّن المُفَسِّر همُ الأشراف، وهنا نادتهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ إشارة إِلَى عُلُوّ مَرْتَبَتِهِمْ فِي دَوْلَتِهِم؛ لِأَنَّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ما تكون إِلَّا للبعيدِ، ما قالتْ: يا مَلأُ، بل قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾.

ثم قَالَ: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ﴾ بتحقيقِ الهمزتيـنِ]، (الملأُ إِني) [وتسـهيل الثَّانِيَةِ بِقَلْبِها واوًا مكسورةً]، (يَا أَيُّها المَلأُ وِنِّي)؛ لِأَنَّهُ إذا جاءتِ الهمزةُ بعـدَ الضمِّ جازَ أنْ تُقْلَبَ واوًا فِي اللُّغةِ العَرَبِيَّةِ، ومنه قولُ كَثيرٍ مِنَ المؤذِّنينَ: اللهُ وَكبر؛ لِأَنَّهُ يجوز: اللهُ أكبرُ ويجوزُ: اللهُ وَكْبـر، فالهمزة إذا وقعتْ بَعْد ضمٍّ يجوزُ أن تُسَهَّل إِلَى واوٍ عَلَى حسَب الحال إن كَانَ يَقْتَضِي الكسرَ كُسِرَتْ أو يَقتضي الضمَّ ضُمَّت أو الفتح.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ مَخْتُوم]، يعني فَسَّرَ الكريمَ بالمختومِ؛ لأنَّ خَتْمَه دليلٌ عَلَى أَهَمِّيَّتِه، فالكتبُ والرسائلُ المختومةُ يُعْتَنَى بها، وحتى الْآنَ إذا كَانَ الشَّيْء مهمًّا تَجِده يُخْتَم بالشَّمْع ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ لِئَلَّا يُزَوَّر، ولكِنَّ تفسيرَ الكريمِ بالمختومِ لَيْسَ بصحيحٍ؛ لِأَنَّ الختمَ دليلٌ عَلَى كَرَمِه، وَلَيْسَ هُوَ معنى كَرَمه، فالكريمُ معناه: المتضمِّن للمعاني العظيمةِ المُؤَثِّرة.

وفي قولها: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ﴾ ما قالتْ: أَلْقَى الهدهدُ؛ لِأَنَّ الظَّاهرَ أَنَّهُ مَرَّ ثُمَّ حَذَفَه

عليها، وَلَيْسَ معناهُ أَنَّهُ جاءَ ووقفَ بين يَدَيْها وأعطاها الكتابَ. ولربما يَكُون أبلغ فِي الهَيبة أَنَّهُ يعطيها الكتابَ وَهُوَ مارٌّ، بخلافِ ما لو وَقَعَ بين يَدَيها، فَإِنَّهُ لا يَكُون هَيْبة، عَلَى أَنَّهُ لو وَقَعَ بين يديها فمُقتضى كونه هدهدًا أن تُمْسِكَه، ولكِنه ألقاه إلقاءً.

من فوائد الآية الكريمة:

أنَّ كرمَ كُلّ شيءٍ بِحَسَبِه، فالكرمُ بالمالِ معناه: بَذْلُه بِسَخَاءٍ، والكرمُ أيضًا بالمالِ يُطْلَق عَلَى الجيِّد منه، كما قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «وَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»[1]، وكذلك أيضًا يُوصَف بالكرمِ ما يَتَضَمَّن الشَّيْء المهم؛ لِمَا فِي هَذَا الوصف فِي كتابِ سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

• • ۞ • •

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى اليمن قبل حجة الوداع، حديث رقم (٤٠٩٠)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيتان (٣٠، ٣١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠-٣١].

قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الكتاب ﴿مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ ولم تَنْسُبه إِلَى أبيه؛ لِأَنَّهُ كَانَ معروفًا ومعلومًا عندهم أَنَّهُ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رسول أعطاه الله تَعَالَى منَ المُلك ما لم يُعْطِهِ غيرَه، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: مَضْمُونه ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾]، لَيْسَ فيه: (السلام عَلَى مَنِ اتبعَ الهدى)، ولا: (أَمَّا بعدُ) كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويمكن أن يَكُون من أخبار بني إسرائيلَ أو عَلَى العادةِ فِي الكتبِ، إِنَّما سُلَيْمَان أتى بأدنَى ما يمكن فهمُه والمقصود منه ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هل سُلَيْمَان ﷺ قَالَ: مِن سُلَيْمَان إِلَى بِلْقِيسَ؟

لا، ما قَالَ ذلكَ، هَذَا خبرٌ مِنْهَا، هِيَ ليست تقرأ الكتاب حَتَّى تقول: من سُلَيْمَان بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ولهَذَا قالت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾، ولكِن لعلها فَهِمَته إمَّا بالتوقيعِ أو بكتابةٍ عَلَى الظرفِ إنْ كَانَ هناك ظرف، وإلا صُلْب الكتاب ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ

وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وهَذَا هُوَ الظَّاهرُ؛ لِأَنَّهُ لا يمكن أن يبدأ سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِقَوْلِهِ: من سُلَيْمَان بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، بل سَيَبْدَأُ بالبسملةِ قبلُ، فلمَّا لم يَذْكُرِ اللهُ إِلَّا البسملةَ دلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لم يأتِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾، ولكِنه لَا بُدَّ أن يَكُون فِي الكتابِ ما يُشيرُ إِلَى ذلك، وإِلَّا لَمَا فَهِمَتْهُ.

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ المقصودُ الخُضُوعُ لي، يَعْنِي: معناه: ذِلُّوا لي؛ لِأَنَّهُم ما كانوا يَعْلُون عليه حَتَّى يَقُول: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾.

وهل أرادَ أن يأتوا إليه أَذِلَّةً مسلمينَ لله أو مسلمين له، أي: مستسلمينَ؟

فيه احتمالٌ أَنَّهُ أراد أن يأتوا مسلمينَ لله أو مستسلمينَ له.

ولكِن هل يَلْزَمُ من إتيانهم مستسلمينَ له أن يَكُونوا مسلمينَ لله؟

لا يَلْزَم، لكِن يلزم مِن كَوْنِهِم مسلمينَ للهِ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا له وأن يَأْتُوا مُطِيعينَ غيرَ مخالفينَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الأَولى أن يبدأ الكَاتِبُ باسمِهِ فيقول: من فلانٍ قبل أن يبدأ باسمِ المرسَلِ إليه أو المكتوب إليه.

وهل هَذَا من بابِ التعبُّد أو من باب العادةِ؟

الظَّاهرُ أَنَّهُ من بابِ العادةِ، ولكِن مَعَ ذلك العادة الَّتِي كَانَ عليها السلفُ أَولى منَ العادةِ الَّتِي اعتادها النَّاسُ اليومَ، فاعتادَ النَّاسُ اليومَ أَنَّهُم يَبْدَؤُونَ بالمكتوبِ إليه: إِلَى فلان بن فلان، ولكِن العادة الأُولى أَوْلَى؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان إذا قرأ الكتاب يَقْرَؤُه مِن أَوَّله، فإذا قرأ: من فلانٍ؛ عرف الْآنَ ما هَذَا الكتاب وما قيمة الكتاب قبل أن

يَقْرَأَهُ كُلَّه. ثُمَّ إن الترتيبَ الطبيعيَّ يَقتضي هَذَا؛ لِأَنَّ الكتابَ واردٌ (من) (إلى) فيَقْتَضِي أن يبدأَ بالواردِ منه قبلَ الواردِ إليه.

فإِذَنْ نَقُول: الأَولى أن يبدأَ الْإِنْسَانُ باسمِهِ إذا أرسلَ كتابًا إِلَى أحدٍ؛ لِأَنَّ هَذِهِ السنَّة المُتَّبَعَة.

وهل يُؤخَذ من هَذَا الكتابِ أَنَّهُ لا يُحتاج إِلَى ذِكْر المكتوبِ إليه؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ ولم يقلْ: إِلَى مَلِكَةِ سَبَأٍ؟

نَقُول: إِنَّهُ إذا دلَّ الدَّلِيل عَلَى المكتوبِ إليه فلا حاجةَ إِلَى ذِكْرِه، كما في قِصَّة سُلَيْمان، فهنا احتمالُ أنْ يصلَ الكتابُ إِلَى غيرِ المكتوبِ إليه بعيدٌ، والمقصود ببَيَان المكتوبِ إليه أن يَتَعَيَّنَ ويصل إليه، وهنا إذا جاء الكتاب عَلَى هَذَا الوجهِ فَإِنَّهُ يحصُل به أكبر تعيينٍ، فنَقُول: إِنَّهُ لا حاجة إِلَى ذِكره إذا كَانَ الأَمْر يحصُل بدونه، ولكِن مَعَ هَذَا ذِكره أَولى، لا سيما إذا كَانَ يَتَرَتَّب عليه شيءٌ فِي المستقبَلِ، فَإِنَّهُ إذا فَرَضْنَا أَنَّ صَاحِبَه الَّذِي أُرْسِلَ إليه عُلِمَ وأَخَذَه، لكِن فِي المستقبَلِ لا نَدري مَنِ الَّذِي وُجِّه له هَذَا الخطاب، فذِكْرُه بلَا شَكّ أَولى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: استحباب البَداءةِ ببِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فِي أولِ الرسائلِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: استعمالُ الإيجازِ إذا لم يكنْ فِيهِ تقصيرٌ؛ لِأَنَّ هَذَا الكتاب الَّذِي كَتَبَه سُلَيْمان فِي غايةِ ما يَكُون من الإيجازِ، جملتانِ فقط: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل:٣١]، ولكِن بشرطِ أَلَّا يَكُونَ الإيجازُ مُخِلًّا بالمقصودِ، فإنْ كَانَ مخلًّا بالمقصودِ صارَ تقصيرًا.

الْفَائِدَةُ الرابِعةُ: أن سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَعَاهُمْ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يريد التملُّك والسيطرةَ، وإنما يريدُ بذلك الدخولَ فِي الإِسْلامِ؛ لِأَنَّ الهدهدَ لَمَّا أخبرهُ أَنَّهَا وقومها يسجدون للشمسِ من دون اللهِ فهَذَا كفرٌ، فلا بد أن يخرجوا منه إِلَى الإِسْلامِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخامسةُ: وفيه أيضًا دليلٌ عَلَى قوة سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِأَنَّهُ لم يقلْ: وأَسْلِمُوا، بل قَالَ: (ائتوني مسلمين) فطلبَ منهم أنْ يأتوا إليه وهم عَلَى الإِسْلامِ.

وهل الْمُرادُ أنْ يأتوا جميعًا؟

لا، الْمُرادُ أعيانهم وأشرافهم؛ لِأَنَّ الأعيانَ والأشرافَ يقومون مَقامَ الْعَامَّةِ.

الآيــة (٣٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل:٣٢].

في قِصَّة مَلِكَةِ سَبأ عندما جاءها الكتابُ من سُلَيْمَـان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قالت لقومها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ [النمل:٣٢]، المَلأ بمعنى: الأشراف، وذلك بأن الملوكَ والرؤساءَ يَكُونُ جُلَسَاؤُهم دائمًـا أشرافَ النَّاسِ، فوَجَّهَتْ إليهم الخطابَ: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ [النمل:٣٨]، وسبق ذِكْر الفائدة فِي قولِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ [النمل:٢٩]، قولها: (يا ملأ) إظهارًا لعلوِّ شأنهم حَيْثُ نُودُوا بمناداةِ البعيدِ.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى﴾ [يوسف:٤٣]، بتحقيق الهمزتيـن]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى﴾ هَذَا تحقيق الهمزتينِ.

[وتسهيل الثَّانِيَة بقلبها واوًا]، (يا أيها الملأ وفتوني)، وهَذَا مبنيٌّ عَلَى القاعدة اللُّغوية أَنَّهُ إذا ضُمَّ ما قبل الهمزةِ فَإِنَّهُ يجوزُ قَلْبُها واوًا.

وَقُلْنَا: إن من فائدة هَذِهِ اللُّغةِ تصحيح أذانِ كثيرٍ منَ النَّاسِ الَّذِينَ يَقُولُونَ فِي أذانهم: اللهُ وَكبر، بل حَتَّى الصلوات، فإن بعض النَّاس فِي تكبيرة الإحرام يَقُول: اللهُ وَكبر.

قَـالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى﴾... أي: أشيـروا علـيّ ﴿فِىٓ

أَمْرِي﴾]، واحد الأُمُور وَلَيْسَ واحد الأوامر؛ لِأَنَّ المُراد بالأَمْر هنا الشأنُ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ قَاضِيَتَهُ ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ تَحْضُرُون].

وهَذَا من كمالِ ذَكائها أَنَّهَا أشارتِ المَلَأَ حَتَّى إذا نتجَ عن تَصَرُّفِها شيءٌ لا يُرضى يَكُونُ اللومُ عَلَى هَؤُلَاءِ الملأِ الَّذِينَ أشاروا، ولا يجعلون اللومَ عليها؛ ولهَذَا قالت: إنَّهَا ما تَقْطَع أمرًا حَتَّى يشهدوها، وقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ أي: قاضية له، ﴿أَمْرًا﴾ هَذِهِ نكِرَة فِي سياقِ النفيِ، فتكون للعمومِ، لكِن المُراد بذلك الأَمْر المتعلّق بالدولةِ بلَا شَكّ، وَأَمَّا الأَمْرُ الخاصّ فإن لكلِّ إِنْسَانٍ التصرُّف فيه، وكذلك قول الله تَعَالَى للنبي ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، هَذَا الأَمْر من الأُمُورِ الْعَامَّة الَّتِي هِيَ للجميعِ، وَلَيْسَ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولا غيره مأمورًا أن يشاورَ النَّاس فِي كُلّ أمورِهِ، حَتَّى لو أراد أن يتغدى أو يتعشى ذهب يَقُول للناس: ماذا تقولون؟ لا، ولكِن المقصود الأُمُور الْعَامَّة الَّتِي يَشْتَرِك فيها النَّاس، فيؤمَر فيها بالتشاور.

وقولها: ﴿قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ هَذَا أبلغ ممَّا فسَّر به المفسِّر بالقضاء؛ لِأَنَّ القطعَ يَدُلّ عَلَى الإمرةِ والعزيمةِ والفِعْل، بخلافِ القضاءِ حيث يقضي الحُكْم فقطْ بدونِ أنْ يفعلَ.

وقولها: ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ فيها إشكالٌ لُغَوِيّ، وهي ثبوتُ النونِ مَعَ أن ﴿حَتَّىٰ﴾ ناصبة، فما هُوَ الجوابُ؟

النون هَذِهِ للوقايةِ؛ ولذلك تجدها مكسورةً ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾، لو كانت نون الرفعِ لقالَ: (تَشْهَدُونَ)، وما أظنُّ أَنَّهَا تُشْكِل عَلَى طالبِ العلمِ؛ لِأَنَّهَا مكسورةٌ، ومثل هَذَا قوله تَعَالَى فِي سورة الذاريات: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات:٥٩]، فقوله: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ إذا وقفتَ عليها تُسَكّن النونَ

فيظن السامع أن النون هنا ثَبَتَت مَعَ وجودِ النهيِ، وهي مَعَ النهيِ تُحْذَف، ولكِن النون هنا للوقايةِ؛ ولذلك إذا وصلتَ فقلْ: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٥٩-٦٠].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: استحبابُ المشاورةِ فِي الأُمُورِ الْعَامَّة؛ لِقَوْلِها: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ فهي مَعَ أَنَّهَا مَلِكَة ولها تمامُ السُّلطة مَعَ ذلك لم تَسْتَغْنِ عن المشاورةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حَزْم هَذِهِ الْمَرْأَةِ وأنها تريد أن تكونَ سياستها مبنيَّة عَلَى أن المسؤولية عَلَى الجميعِ؛ لقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ وحينئذٍ لو حصلَ خلافُ المقصودِ لم يكنْ عليها لومٌ، ما دامتْ تُشْهِدُ هَؤُلَاءِ وتُبَيِّنُ لهم.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل:٣٣].

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: أصحاب شِدَّة فِي الحرب].

﴿أُوْلُواْ﴾ بمعنى: أصحاب، وهي -كما تَقَدَّم- فِي النحوِ مُلْحَقَة بجمعِ المذكَّر السالمِ، وهي مرفوعـةٌ بالواوِ نيابةً عن الضمَّة، أي: أصحاب قوَّة وبأس، والبأس بمعنى: الشـدَّة والصبـر، و﴿بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: أصحاب شِـدَّة فِي الحربِ، فكأنهم يُعَرِّضُون بالمشورةِ عليها بالقتالِ بأن تقاتلَ سُلَيْمان ويَقُولُونَ: نحن مستعِدُّون للقتالِ لأنَّنا أصحاب قوة وأصحاب بأس شـديدٍ، الْقُوَّة هنا هل المُرادُ بها الْقُوَّة الجسميَّة أو الْقُوَّة المادِّيَّة؟ كلاهما، فعندنا من قوةِ الجسمِ وعندنا من قوةِ العُدَّة ما نستطيع أن نقاتلَ به سُلَيْمان.

قوله: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ هَـذَا منَ التأدُّب معها، مَعَ أَنَّهَا هِيَ الَّتِي طلبـت منهم المشورة، ومع ذلك ردُّوا الأَمْر إليها: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾، وهَذَا يَدُلّ عَلَى أَنَّهَا كانت أهلًا لِأَنَّ يُسْنَدَ إليها الأَمْر، ويدلّ أيضًا عَلَى أَنَّهُم كانوا يعظِّمونها تعظيمًا بالغًا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ نا نُطِعْكِ].

هل المُراد بالنظر هنا الانتظار أو المُرادُ التفكيرُ فِي الأَمْر؟

المُراد التفكير فِي الأَمْرِ، يَعْنِي: فَكِّري فِي أَمْرِكِ: ﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ فتكون (ما) هنا اسْتِفْهاميَّة مُعَلِّقَةً عن عملِ الفِعْل؛ لِأَنَّهُ إذا كانت الجملةُ اسْتِفْهاميَّة فإن الفِعْل وإن كَانَ ينصب مَفْعُولًا أو مَفْعُولينِ يَكُون مُعَلَّقًا عن العَمَلِ، وتكون الجملة فِي محلّ نصبٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: مكانة المَرْأَةِ من قومها؛ لِأَنَّهَا بَعْد أن استشارتهم وأَبْدَوْا رأيَهم تَأَدَّبُوا معها وقَالُوا: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ إذا قَدَّمَ المستشارُ مَشُورَتَه لإِنْسَانٍ أكبرَ منه قَدْرًا أو فهمًا أو عِلمًا أنَّ له أن يَقُول مثل هَذَا تأدُّبًا، وصاحبه بالخيارِ؛ إن شاء أخذَ بمشورتِهِ وإنْ شاء لم يأخُذْ.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٣٤].

أجابت: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾، قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالتخريب ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾]، يَعْنِي: بالأسر، ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: مرسلو الكتاب]، كأنها لا تريدُ القتالَ، تقول: لو قَاتَلْنَاهُمْ فإنَّ الغَلَبَة عليهم بعيدة، وستكون الغلبةُ لهم، وحينئذٍ يدخلونَ قُرانَا، والملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها؛ لِأَنَّ عندهم من العُلُوّ والغَلَبَة والاستكبار ما يُوجِب أن يَفْتِكُوا بأهلِ البلدِ الَّتِي يَدْخُلُونَها، وَلَيْسَ المُراد هنا بالإفساد الإفساد المعنويّ، يَعْنِي: بإفساد الأخلاقِ مثلًا، المُرادُ ما أشارَ إليه الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإفسادُ بالتخريبِ، وجاء دورُ الجُمْهُورِيِّينَ فإذا هُوَ أشدُّ وأعظمُ؛ لِأَنَّهُم أقلُّ حياءً مِنَ الملوكِ، ليسَ لهم أصل، فتجد الْإِنْسَانَ يُنْتَخَب وَهُوَ من الشارعِ، لَيْسَ من الملأ ولا من أشرافِ النَّاسِ، فغالبهم لَيْسَ عندهم دِين ولا مُرُوءَة، فيفسدون أكثرَ مِمَّا يُفْسِد هَؤُلَاءِ، كما هُوَ مشاهَد فِي تخريبِ الرُّوس وغيرهم فِي البلادِ الَّتِي يَدْخُلُونها.

قوله: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ﴾ بالأسرِ، يَأْسِرُونهم ويَسْتَرِقُّونَهم أو يَسْتَخْدِمُونَهم بدونِ أسرٍ ولا استرقاقٍ، وهَذَا من أبلغِ ما يَكُونُ مِنَ الذِّلَّة.

وقولها: ﴿أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ﴾ سواء كانت هَذِهِ العِزَّة تعودُ إِلَى المُلك، أو تعود إِلَى الجاهِ والشرفِ، أو إِلَى العلمِ أحيانًا، فإنهم يُسَلَّطُونَ عَلَى الأَعِزَّة؛ لِأَنَّ لهم الكلمةَ فيما سبقَ، فهم الَّذِينَ دَبَّروا هَذِهِ الحروبَ ثُمَّ هُزِموا، فتكون رَحَى الحربِ عليهم.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ هل هَذَا من كلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تصديقًا لقولِها، أو هُوَ من كلامِها تقريرًا له، وتكون فِي أَوَّلِ الأَمْرِ ذكرتْ قاعدةً عامَّةً ثُمَّ أشارتْ إِلَى ما تَتَوَقَّعه من سُلَيْمان فقالت: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي: كذلك يَفْعَلُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَرْسَلُوا بالكتابِ؟

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَرَى أَنَّهُ مِن كلامها، ويَكُون ذلك تقريرًا للقاعدةِ الَّتِي ذكرتها: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾؛ لِأَنَّ هَذَا عامٌّ، ثُمَّ قالت: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تقريرًا لهَذِهِ القَاعِدةِ وتطبيقًا لها عَلَى حالِ سُلَيْمان وجنودِهِ.

أمَّا إذا قُلْنَا بأنها من كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فتكون الجملة مستأنفةً، أي: أن الله يُقَرِّر ما قالتْه، بأن الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزَّةَ أهلها أذلَّةً.

وقولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ كيف جاءت بصيغةِ الجمعِ، مَعَ أن الكتابَ ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾؛ لِأَنَّهَا عرفتْ أن سُلَيْمان مَلِك، والملك لَا بُدَّ له من أتباعٍ وجنودٍ وأعوانٍ؛ ولهَذَا قالت: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، وإعراب: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ -وما أكثرَ ما تأتي فِي الْقُرْآن، نحو ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧]،- يَقُولُونَ: إن الكاف هنا بمعنى مثل، وإنها تقعُ فِي محلّ نصب مَفْعُولًا مطلقًا مضافًا إِلَى اسْم الإشارةِ، أي: ومثلَ ذلك الفِعْل يفعلونَ. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: ومثلَ ذلك الضربِ يَضرِب الله الأمثالَ، فالكافُ هنا اسْم بمعنى مثل فِي محل نصب عَلَى أَنَّهَا مَفْعُول مطلق مضاف إِلَى اسمِ الإشارةِ، فيَكُون تقدير الآيَةِ: ومثل ذلك الفِعْل الَّذِي ذكرت

يَفعلونَ، ومعلوم إذا قُلْنَا: إنَّهَا مَفْعُول مطلَقٌ فإن المُشَارَ إليه يَكُون مصدرًا مناسبًا لسياقِ الآيَةِ، ففي قوله تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات:٣٤]، نَقُول: أي مثل ذلك الفِعْل نَفْعَل بالمجرمينَ، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: مثل ذلك الضربِ يضرب الله الأمثال، وَعَلَى هَذَا فقِسْ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّهُ يجوز لِلْمُسْتَشِيرِ أنْ يخالفَ المستشارَ إذا لم يرَ أَنَّهُ مُصِيبٌ فِي مشورتِه؛ لِأَنَّهُم لَمَّا ذَكَرُوا ما يَدُلّ عَلَى أَنَّهُم يُريدونَ قِتالَه وهي لا تراه خالَفَتْهُمْ، فإنها ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حَزْم هَذِهِ المَرْأَةِ أيضًا من جهةِ أَنَّهَا نظرتْ فِي العواقبِ؛ لِقَوْلِها: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾، وهَكَذَا يَنبغي للعاقلِ ألا يحكُمَ عَلَى الأُمُورِ بِبَوَادِرِها وظواهرها، وإنما يُحْكَم عَلَى الأُمُورِ بعواقبها، فإنَّ الشَّيْءَ قد تكُون بوادره وظواهره مفيدةً فِي نظرِ الْإِنْسَان، ولكِن عندَ التأمُّل يَكُون الأَمْر بالعكسِ، لكِن هل الأَولى المبادرة أو التأني؟

فِي الأَصْل التأنِّي أَولى؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان إذا تأنَّى لا يَنْدَم، ما فعل شيئًا، لكِنْ إذا تَسَرَّعَ فَهُوَ الَّذِي يَكُونُ عُرْضَةً لِلنَّدَمِ، وكم من كلمةٍ قَالَ الْإِنْسَان: لَيْتَنِي لم أَقُلْهَا، وكم من فعلٍ قَالَ: ليتني لم أفعلْه، ولكِن مَعَ هَـذَا ينبغي استعمالُ الحزمِ فِي الأُمُورِ، لا يتأنى تأنيًا يفيدُ المقصودَ ولا يتسرَّع تسرُّعًا يَحْصُلُ به الندمُ، وقد أنشدَ الشاعرُ بيتينِ فِي هَذَا المَعْنى فِي أَنَّهُ قد يَكُون التسرُّع أَولى وقد يَكُون التأنِّي أولى[1]:

(١) خزانة الأدب للحموي (١/ ٣٥٧).

قَدْ يُدْرِكُ المُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ
وَرُبمَا فَاتَ قَوْمًا جُلُّ أَمْرِهِمُ مَعَ التَّأَنِّي وَكَانَ الرَّأْيُ لَوْ عَجِلُوا

وهَذَا صحيح وواقعٌ، المهمُّ أننا نَقُول: إذا دار الأَمْرُ بين الإسراعِ والتأنِّي ولم يَتَرَجَّحِ الإسراعُ عليه فالأَولى التأنِّي؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان يَكُون الأَمْرُ بيدِهِ ما دامَ لم يُحْدِثْ شيئًا، لكِن إذا أحدثَ شيئًا فاتَهُ الأَمْرُ ولم يَتَمَكَّنْ مِنَ التخلُّصِ منه، وهَذَا يُؤخَذ منَ الآيَةِ؛ لِأَنَّهَا قالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾، فهي نظرتْ فِي العواقبِ.

والنظرُ فِي العواقبِ يَسْتَدْعِي إمَّا التسرُّعَ وَإمَّا التأنِّيَ، قد يَكُون مثلًا يرى الْإِنْسَان أن الرأيَ أَنَّهُ إذا لم يُسْرِعْ فاتَ المقصودُ فيُسْرِع، أو إذا أسرعَ حصلَ الخَلَلُ فيتأنَّى؛ فَهُوَ مأخوذٌ مِن قَوْلِها: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:٣٥].

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ هَذِهِ المَرْأَةُ ذَكِيَّة، لَمَّا جاءها الكتابُ قالت: أريدُ أن أَمتحنَ هَذَا الرجلَ، سأُرْسِل إليه هَدِيَّة، فإنْ كَانَ رجلًا يريدُ الدُّنْيا كَفَتْهُ الهَدِيَّة وتركَ الحروبَ والقتالَ، وإنْ كَانَ رجلًا يريدُ أمرًا آخرَ فَإِنَّهُ سَيَرُدّ الهَدِيَّة، وهَذَا بلَا شَكّ اختبار ذكيّ، فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ وطبعًا هِيَ -كما قُلْنَا قبل قليل- ما رَضِيَت ما أشار به الملأ؛ لِأَنَّ الملأَ أشاروا عليها بالحربِ والقتالِ، وذلك بإبداءِ ما عندهم منَ الْقُوَّة والبأسِ الشَّديدِ، ولَكِنَّهَا لم تُرِدْ ذلك، فأرادتْ أنْ تمتحنَ سُلَيْمان.

قوله: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم﴾ ولم تقل: (إليه)؛ لِأَنَّهُ كما قُلْنَا ملك له جنودٌ وأعوانٌ وحواشٍ.

قوله: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: (ناظرة) ليستْ منْ الِانتظارِ، وإن كانت محتملةً أن تكون من الانتظارِ، أي: فمُنْتَظِرَة، ولَكِنَّهَا منَ النظرِ، يَعْنِي: أَنْظُرُ بَعْد إرسال الهديَّة: بم يرجع المُرسَلُون؟ والمرسَلون هم رُسُلها بالهَدِيَّة، وَفِي هَذَا إشارة إِلَى أن هَذِهِ الهَدِيَّة كبيرة وعظيمة؛ لِأَنَّهَا لم ترسلْ بها واحدًا وإنما أرسلتْ بها جماعةً، وأقلُّ الجمعِ ثلاثةٌ.

قوله: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ أي: بأيِّ شيءٍ يَرجعون به، و﴿بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ هل هِيَ متعلقة بـ(ناظرة) أو متعلقة بـ(يرجع)؟

(ما) هنا اسْتِفْهاميةٌ وليستْ موصولةً؛ لِأَنَّ الموصولةَ تَبقى ألفها مَعَ حرف الجرِّ، والاسْتِفْهامية تُحْذَف؛ كقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ:١]، لكِن في نحو قولكَ: (هُوَ مسؤولٌ عمَّا قَالَ) تُثْبِت الألفَ، وكذا في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة:١٠٥]، فتبقى الألف، وفي قوله: ﴿بِمَ يَرۡجِعُ﴾ تحذف الألف، فـ(ما) الاسْتِفْهامية إذا سَبَقَها حرف جرٍّ تُحذف ألفها؛ ولهَذَا نَقُول: ﴿بِمَ يَرۡجِعُ﴾ الجارّ والمجرور متعلق بـ(يرجع) ولا يصلح أن يَكُونَ متعلقًا بـ(ناظرة) بناءً عَلَى القَاعِدةِ المشهورةِ عند النحْويين أن اسْم الاسْتِفْهام له الصَّدارَة، بل الاسْتِفْهام كله سواء كَانَ اسمًا أو حرفًا، له الصَّدارَةُ، وإذا كَانَ له الصَّدارَة لم يَعْمَلْ قبله فيه؛ لِأَنَّهُ لو عمِل ما قبله فِيهِ ما كَانَ له الصَّدارَة، ولكانت الصَّدارَة للعاملِ الَّذِي قبلـه؛ وعليه فنَقُول: ﴿بِمَ يَرۡجِعُ﴾ الجارُّ والمجرورُ متعلِّق بـ(يرجع)، وتكون الجملة إذن مُعلِّقة لـ(ناظرة) عن العَمَل فهي فِي محل نصب.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ من قَبُول الهديَّة أو ردِّها، إن كَانَ ملكًا قَبِلَها، أو نبيًّا لم يَقْبَلْها].

كون المُفَسِّر يُحيل قبولَ الهديَّة وعدمه عَلَى أَنَّهُ إن كَانَ ملكًا قَبِل، وإن كَانَ نبيًّا لم يقبلْ، هَذَا لا دليلَ عليه، ولكِن نَقُولُ: إنَّهُ إذا كَانَ يريد القتالَ فَإِنَّهُ يقبل الهَدِيَّة، يَعْنِي: إذا كَانَ هَذَا الرجل عنده طمعٌ ماديّ فقط، فَإِنَّهُ يقبل الهَدِيَّةَ؛ لِأَنَّ القتال لا يعلم هل تكون عاقبته له أمْ لا، والهَدِيَّة غَنيمة حاضرة، فيقبلها ويدع المشكوك فيه، وإذا كَانَ لا يريد الدُّنْيا، وإنما يريد أمرًا آخرَ، وَهُوَ الدَّعْوَة إِلَى الإِسْلام وكونهم يسلمون،

كما قَالَ فِي الأول: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣١]، فَإِنَّهُ حينئذٍ لن يقبلَ الهَدِيَّةَ؛ لِأَنَّ الَّذِي يدعو إِلَى الله وإلى الإِسْلام لا يمكن أن يَقْبَل هديَّةً عَلَى حسابِ ما دعا إليه أبدًا. وَأَمَّا مسألة النبوَّة وعدمها فاللهُ أَعْلَمُ بهَذَا، فلا نجزِم بما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بل نَقُول: إِنَّهَا تريد أن تَخْتَبِرَهُ، فإذا كَانَ يريد دنيا فالهديَّة تمنعه من قِتالها، وإذا كَانَ لا يريد دنيا وإنما يريد أن يسلِموا فالهَدِيَّة لا تمنعه.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فأرسلتْ خَدَمًا ذكورًا وإناثًا]، الآن يبين المُفَسِّر الهديَّة، ثم قَالَ: [ألفًا بالسويَّةِ، وخمسمائة لَبِنَة من الذهب، وتاجًا مُكَلَّلًا بالجواهر، ومِسكًا وعنبرًا وغير ذلك مَعَ رسولٍ بكتاب].

التعيين هَذَا لا دليلَ عليه؛ ولهَذَا نَقُول: إِنَّهَا هديةٌ كبيرةٌ بلَا شَكّ، ويدل عَلَى كِبَرِها أن الَّذِينَ أُرسلوا جماعة، أَمَّا تعيينها بهَذَا الأَمْرِ فهَذَا لا نَجْزِم به، فإن كَانَ واردًا عن بني إسرائيل فَإِنَّهُ منَ الأخبارِ الَّتِي لا تُصَدَّق ولا تُكَذَّب.

وقد أسرعَ الهدهد إِلَى سُلَيْمَان يخبره الخبر؛ لِأَنَّ سُلَيْمَان قَالَ له: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:٢٨]، والظَّاهر أن الهدهد بَقِيَ حَتَّى استقرَّ أمرُهم عَلَى شيءٍ، وقد استقر عَلَى إرسالِ الهَدِيَّةِ، يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فأسرع الهدهدُ إِلَى سُلَيْمَان يُخْبِرُه الخبرَ، فأمر]، أي: سُلَيْمَان، [أن تُضْرَب لَبِنات الذهب والفضة وأنْ تُبْسَط من مَوْضِعِه إِلَى تسعة فَرَاسِخ مَيدانًا، وأن يَبْنُوا حولَه حائطًا مُشْرِفًا مِنَ الذهَبِ والفِضَّة، وأنْ يُؤْتَى بأحسنِ دوابِّ البرِّ والبحرِ مَعَ أولادِ الجنِّ عن يمينِ الميدانِ وشمالِهِ].

كل هَذِهِ الأَشْيَاء الَّتِي ذكرها المُفَسِّر لَيْسَ عليها دليلٌ، وهي منَ الغرائبِ أنْ

يطوفَ عَلَى المُفَسِّر وأنْ يأتيَ بها، عَلَى أَنَّهُ مُخْلِص، مَعَ العلمِ بأنه لَيْسَ فِي الآيَةِ دليلٌ عَلَى هَـذِهِ المسألةِ إطلاقًا؛ أَنَّهُم يجعلون الذهبَ والفضةَ تُبسط من مكانِه إِلَى تسعةِ فراسخَ، أي سبعة وعشرون ميلًا؛ ثلاثة فِي تسعة، والميل كيلو ونصف.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: ذَكاء هَذِهِ المَرْأَةِ وحِنْكَتها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: جـواز الاختبارِ والامتحانِ وأن ذلك لا يُعَدّ خديعـةً إذا أراد الْإِنْسَان أن يمتحنَ غيـرَه بشيءٍ منَ الأَشْيَاء؛ لِأَنَّهُ يريد أن يَستظهرَ به حاله، وهَذَا لا مانعَ منه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: العَمَل بالقرائنِ؛ لِأَنَّهَا أرادتْ أن توصل هَذِهِ الهَدِيَّةَ لتختبرَ مرادَ سُلَيْمَان هل يريد المالَ فقطْ فتكفيه هَذِهِ الهَدِيَّة، أو يريدهم أَنْ يُسلموا فلا تنفع فِيهِ هَذِهِ الهَدِيَّـة، ولا يكفّ عن طلبـه الأوَّل، وَهُوَ قوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣١]، ففيها إذن ثلاث فوائد. وهل ورد مثل ذلك؟

نعم، فِي قِصَّة سُلَيْمَان فِي المرأتينِ اللتينِ احتكمتا إليه فِي ابنِ إحداهما، خرجت امرأتان إِلَى خارج البلد ومع كُلّ واحدة ابن لها، فأكل الذئب ابن الكبرَى، فاحتكمتا إِلَى داود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فقضى بالابن الموجود للكبرى بناءً عَلَى أن الصغرى يمكنها أن تلدَ فيما بعدُ، ولكِن لما تحاكمتا إِلَى سُلَيْمَان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قَالَ: لَيْسَ هَذَا الحكم، إنما الحكم أن نأتيَ بالسكِّين ونشقّ الولد نصفينِ فيَكُون للكبيرةِ نصفه وللصغيرةِ نصفه، فالكبيرة وافقت عَلَى أَنَّهُ يشقّ نصفينِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ ولدًا لها، وتقول: مثلما تلِف ابني يتلَف ابنها، وَأَمَّا الصغيرة فقالت: لا يا نبيَّ الله. فعلم بذلك أن الولد للصغرى

فحكمَ به لها[1].

فهَذَا من باب استظهارِ الحَقّ بالقرائنِ، ولا مانعَ من ذلك، وقد كَانَ القضاةُ يفعلونه، فهَذِهِ المسألةُ -وهي إرسالُ الهَدِيَّةِ إِلَى سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- من هَذَا النوعِ لِيُسْتَظْهَرَ به حالُه فيعمل بالقرينة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: عِظَم هَذِهِ الهَدِيَّة كميَّةً وكيفيَّة، ولذلك احتاجت إِلَى أن تُرسل بها جماعة، فالهَدِيَّة كانت كبيرةً لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فقال: ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ولا يُرْسَل جماعة بهديةٍ إِلَّا وهي كبيرةٌ. وأيضًا ربما نَقُول: مَعَ كِبَرِها ثمينة؛ لأجل أن يدافع هَؤُلَاءِ المُرْسَلُون عنها لو حاولَ أحدٌ أن يعتديَ عليها.

• • ۞ • •

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، حديث رقم (٣٢٤٤)؛ صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب بيان اختلاف المجتهدين، حديث رقم (١٧٢٠)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٣٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل:٣٦].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ الرَّسُول بالهَدِيَّةِ ومعه أتباعُه ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾]، بالنصب وجاء بمعنى: أتى [﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾].

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: [ومعَه أتباعُه] وكلام المَرْأَةِ يَدُلّ عَلَى أَنَّهَا أرسلتْ جماعة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:٣٥].

وقوله تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ يَـدُلّ عَلَى أن الجائـيَ واحـدٌ، ولأنه لم يذكرِ الفاعل، وإذا لم يذكر الفاعل فَهُوَ مستتِر، ومعلوم أن (جاء) مفرد، ولو كَانَ المُراد الجماعة لقالَ: (فلما جاؤوا سُلَيْمان).

وقول سُلَيْمان: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ يَدُلّ عَلَى أن المخاطَب جماعةٌ، فكيف نجمع بينَ هَذِهِ الأَشْيَاء؟

الجمع بين هَذِهِ الأَشْيَاء بسيطٌ جِدًّا، يَكُون هَؤُلَاءِ الجماعة لهم رئيس، وَالَّذِي خاطب سُلَيْمان وقدَّم الهديَّة هُوَ الرئيس، ومعه جماعتُه، فصار الَّذِي تقدَّم إِلَى سُلَيْمان بالهَدِيَّة واحدًا مَعَ جماعتِهِ؛ ولهَذَا قَالَ المُفَسِّر: [ومعه أتباعه].

قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ الياء هنا حُذفـت للتخفيفِ، كمـا أَنَّهَا أيضًا حذفـت

للتخفيف فِي قوله تَعَالَى فيما سبق: ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل:٣٢]، والاسْتِفْهام فِي قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ للإنكار والتعجيبِ، يَعْنِي: كيف تمدونني بمال وأنا عندي من المال ما لَيْسَ عندكم؛ ولهَذَا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ من النبوَّة والملك ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ من الدُّنْيا]، وكذلك من المالِ؛ لِأَنَّ عند سُلَيْمان المال ما لَيْسَ عند هَذِهِ المَرْأَةِ؛ لِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعطاه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فالاسْتِفْهام فِي قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ للتوبيخِ والتعجيبِ، يَعْنِي: كيف تمدونني بمال -وهي هَذِهِ الهَدِيَّة- فما آتاني اللهُ منَ المالِ والمُلك والنبوَّة وغير ذلك من كُلّ ما آتاه الله خير مما آتاكم؟!

قوله: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ يَعْنِي أنني لا أفرح بهدية ولا تُهمّني الهَدِيَّة، ولكِنكم أنتم الَّذِينَ تفرحون بها وتفخرون بها، فهل المَعْنى: تَفرحون إذا أُهدي إليكم، أو تفرحون إذا أهديتم وتَرَوْنَ لكم فضلًا عَلَى المهدَى إليه؟

كله محتمِل، لكِن الظَّاهر -واللهُ أَعْلَمُ- أَنَّهُ يريد الأول، بمعنى: أنكم أنتم الَّذِينَ تفرحون بالهَدِيَّة، وتقع منكم موقعًا بحيث تَفْتُرُ عَزِيمَتكم وتوجب أن تَعدِلوا عما أنتم عليه، أَمَّا أنا فلا تهمني الهَدِيَّة، والاحتمال الثاني أن يَكُون بإهدائكم إليَّ تفرحون، أي: تفخرون بها، ولكِن المَعْنى الأول أليق بالسياق.

وقوله: ﴿بِهَدِيَّتِكُمْ﴾ أي: بالإهداء إليكم؛ لِأَنَّ هدية مصدر، فيجوز أن يُضاف إِلَى الفاعل، ويجوز أن يضاف إِلَى المَفْعُول.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنّ مِن المُسْتَحْسَنِ أنْ يتقدَّم الرئيس -رئيس الوفد أو القوم- بالكَلام أو الفِعْل إذا كَانَ مكلَّفًا بالفِعْل، المهم أن يَكُون المتقدم الرئيس؛ لِأَنَّ تقدم

الجميع دَفْعَة واحدة غيرُ لائق؛ لضياع المسؤولية، فلا بد أن يتقدم واحد، وكلما حُصِرَ الأَمْر كَانَ أقربَ إِلَى الفهمِ وإلى حصولِ المقصودِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: توجيه الخطاب للجماعةِ، وإنْ كَانَ المتقدِّمُ رئيسهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفيه دليل عَلَى جوازِ الغِلظةِ فِي القَوْلِ إذا كانت المصلحة فيه؛ لِأَنَّ هَذَا الأسلوب من سُلَيْمَان ﷺ أسلوبٌ قويٌّ؛ إذ إننا قُلْنَا: إن الاسْتِفْهام فِي قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ للتوبيخِ والتعجيبِ، يَعْنِي أَنَّهُ يوبخهم عَلَى فِعْلِهِم ويتعجَّب مِن فعلهم كيف يمدُّونه بمال وَهُوَ ملك ومعروف ومشهور.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفيه دليل عَلَى أَنَّهُ يجوز للإِنْسَان أن يتحدث بنعمةِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾، ولكِن هل يتحدث بهَذِهِ النعمة عَلَى سبيل الافتخارِ أو عَلَى سبيلِ الافتقارِ والاستصغارِ؟

نرى أَنَّهُ عَلَى حَسَبِ الحالِ، فمع العدوّ يجوز أن يتحدَّث بها افتخارًا، ولذلك تجوز الخُيَلَاء فِي الحربِ[1]، مَعَ أَنَّ الخيلاء محرَّمة ومنَ الكَبائِرِ[2]، لكِن فِي الحرب لإغاظةِ العدوّ لا بأس بها.

فسُلَيْمَان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تحدث هنا بنعمة اللهِ افتخارًا -فيما يظهر لي- عَلَى

---

(١) انظر: سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في الخيلاء في الحرب، حديث رقم (٢٦٥٩)، سنن النسائي، كتاب الزكاة، باب الاختيال في الصدقة، حديث رقم (٢٥٥٨)، مسند أحمد (٥/ ٤٤٦) (٢٣٨٠٣)، عن جابر بن عتيك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء، حديث رقم (٥٤٥٥)؛ صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم جر الثوب خيلاء...، حديث رقم (٢٠٨٥)، عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

هَؤُلَاءِ القوم، وهَذَا لا بأس به إذا كَانَ أمام العدوّ، فأمَّا إذا كَانَ لإظهارِ النعمةِ فَإِنَّهُ لا يجوز إِلَّا عَلَى سبيلِ الاستصغارِ والافتقارِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لا عَلَى سبيل الافتخارِ والعلوِّ عَلَى الخلقِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يجوز للإِنْسَانِ أن يصف غيرَه بما يبدو من حالِه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾؛ إذ إن الفرحَ كما هُوَ معروف أمر باطنيٌّ؛ لِأَنَّ الَّذِي يفرح ما يُسمع لفرحه صوتٌ ولا يُرى له حركةٌ، ولكِن تظهر علاماته عَلَى ظاهرِ البدنِ، فلا بأسَ أنْ يَحْكُمَ الْإِنْسَانُ عَلَى غيرِهِ بالقرائنِ بما يَظْهَرُ من حالِهِ، وقد مرَّ كثيرٌ مثل هَذَا الأَمْرِ، فقد قَالَ الرجلُ الَّذِي جامعَ زوجتَهُ فِي نهارِ رمضانَ: «وَاللهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنِّي»[1]، ومعَ هَذَا فإن هَذَا الرجل لم يَطُفْ بأبياتِ أهلِ المَدينَةِ ويُفَتِّشها حَتَّى يعرف أَنَّهُ لا يوجد أحد أفقر منه.

• • ۞ • •

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر، حديث رقم (١٨٣٤)؛ ومسلم، كتاب الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم ووجوب الكفارة الكبرى فِيهِ وبيانها وأنها تجب على الموسر والمعسر وتثبت في ذمة المعسر حتى يستطيع، حديث رقم (١١١١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٣٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل:٣٧].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ بما أتيتَ من الهديَّة].

الخطاب الْآنَ للرَّسُولِ، وهَذَا من تعديدِ الأساليبِ لفائدةٍ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ حملوا الهديَّة هم الجماعةُ جميعًا، فناسبَ أنْ يُخَاطِبَهم جميعًا؛ لِأَنَّهُم حَمَلُوا هَذِهِ الهَدِيَّةَ، وهنا لَمَّا أرادَ أنْ يحملهم الإبلاغَ فإن تحميل الإبلاغِ للجماعةِ تَضِيع فِيهِ المسؤوليةُ، فحَمَّلَ الإبلاغَ رَئِيسَهم فقطْ؛ لأنك إذا وَصَّيْتَ جماعةً مثلًا لشخصٍ من النَّاسِ ضاعتِ المسؤوليةُ وصارَ كُلّ واحدٍ منهم يَتَّكِل عَلَى الآخَرِ فلا يحسن الإبلاغُ، لكِن إذا حَمَّلْتَها واحدًا فحينئذٍ يَتَحَمَّل ويؤدي؛ ولهَذَا حَمَّل الرئيسَ فقال: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النمل:٣٧]، أي: إِلَى جماعتِكَ الَّذِينَ أرسلوكَ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بما أتيتَ مِنَ الهديَّة ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ﴾ لا طاقةَ لَهُمْ بها ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ﴾ من بَلَدِهِمْ سبأ، وسُمِّيَتْ باسمِ أبي قَبيلتهم، ﴿أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ أي: إنْ لم يأتوني مسلمينَ].

هَكَذَا الْقُوَّة؛ لِأَنَّهُ لا يريدُ المالَ ولا يريد الدُّنْيا وإلا لَخَضَعَ وخَنَعَ لهَذِهِ الهَدِيَّة الكبيرةِ الَّتِي أُرسل بها جماعةٌ، ولكِنَّه لا يريد ذلك، فخاطبهم بهَذِهِ العباراتِ القويَّة.

قوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾ اللام مُوَطِّئَة لِلْقَسَمِ، والنون للتوكيد، فعلى هَذَا فالجملة مؤكَّدة بثلاثةِ مؤكِّداتٍ: القسم، واللام، والنون، ثُمَّ فيها منَ التعظيمِ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾، ولم يقل: (فلآتينهم)؛ لِأَنَّ هَذَا أبلغُ فِي الهَيبةِ، سواء أراد تعظيم نفسه، أو أراد بذلك آتيهم بجنودي.

وقوله: ﴿لَا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ فِيهِ استصغارُ هَؤُلَاءِ الجماعةِ الَّذِينَ أَرسَلُوا بهَذِهِ الهديَّة، فاستصغرهم منَ الناحيةِ الماليَّة فِي قولِه: (ما آتاني اللهُ خيرٌ مما آتاكم)، ومن الناحيةِ العسكريَّة فِي قولِهِ: ﴿لَا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ لا طاقة لهم بها؛ لِأَنَّ عنده من الجنودِ الجنّ والإنس، بل والطير أيضًا، فما لهم طاقة بهَذَا الشَّيْء.

قوله: ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً﴾ فنَحْتَلّ بلادهم ونُخْرِجهم مِنْهَا أذلَّة ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ الفرق بين الأذِلَّة والصَّغار: الأذلة: الذُّلّ فِي النفسِ، والصَّغار: فِي البَدَنِ، يَعْنِي يَكُون مُسْتَسْلِمًا ظاهرًا وباطنًا، مستسلمًا ظاهرًا بالصغارِ، ومستسلمًا باطنًا بالذلِّ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥]، فالخشوعُ بمعنى الصَّغار، والذلُّ هُوَ ذلُّ النفسِ والعياذ باللهِ، وهَذَا دليلٌ عَلَى أن سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عنده من قوَّة العزيمةِ، وقوة السلطانِ ما استطاعَ أن يُعَبِّر بهَذَا التعبيرِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَهْدَوْا له بهَذِهِ الهديَّة.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيفَ يَلِيق بسُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يقابلَ جماعةً أَهْدَوْا إليه هديةً بهَذَا الأسلوبِ العنيفِ، لماذا لم يُجِبْ بأسلوبٍ لطيف؟

الجواب عن هذا: أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أرادَ أنْ يُظْهِرَ لهم قوَّته، وَأَنَّهُ لا يَهْتَمّ بشأنِهم، ثُمَّ إن اختبارهم له مَعَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣١]، يَدُلُّ عَلَى شكٍّ فِي دعوتِه، هُوَ دعاهم إِلَى الإِسْلامِ، وهم شَكُّوا فِي ذلك بإرسالِ الهديَّة،

وظنُّوا أَنَّهُ يريد دنيا، فيكُون هم الَّذِينَ بدأوا بالإساءةِ إليه، حَيْثُ أرسلوا إليه هدية يختبرونه بها فكَانَ ردُّه بهَذَا مناسبًا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فلما رجعَ إليها الرَّسُولُ بالهَدِيَّةِ، جعلتْ سَرِيرَها داخلَ سبعةِ أبوابٍ، داخل قصرها، وقصرها داخل سبعة قصورٍ، وأغلقتِ الأبوابَ، وجعلت عليها حَرَسًا، وتَجَهَّزَتْ لِلْمَسيرِ إِلَى سُلَيْمَان لِتَنْظُرَ ما يأمرها به، فارتحلتْ باثني عشر ألف فيلٍ، مَعَ كُلّ فيلٍ ألوف كثيرةٌ، إِلَى أنْ قربتْ منه عَلَى قِيدِ فَرْسَخٍ شَعَرَ بها، قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾].

هذا غريبٌ، ما أدري من أين يأتي المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهَذِهِ الحكاياتِ! وَأَمَّا الأفيالُ فلَعَلَّها كثيرة باليمنِ، ولهَذَا صاحبُ الفيلِ الَّذِي أرادَ أنْ يَهْدِمَ الكعبةَ جاء بالفيلِ.

فالاقتصارُ عَلَى القَصَصِ الَّتِي فِي الْقُرْآن هُوَ اللائِقُ بالمسلمِ، إِلَّا ما صحَّ عن النَّبِيِّ ﷺ؛ وذلك لِأَنَّ الله تَعَالَى يَقُول: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]، فعِلْمُ هَذِهِ الأُمَمِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فاللائِقُ بنا ألَّا نَتَجَاوَزَ ما جاء به الْقُرْآن.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إظهارُ الْقُوَّة للأعداءِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾، فنفيُ الكَلامِ قوَّة، فهَذَا التهديدُ والوعيدُ لَا شَكَّ أَنَّهُ مَظْهَرُ قوَّةٍ، فيكُون داخلًا فِي قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، فإن قوله: ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ نَكِرَة تَشمَل كُلّ ما يُمْكِن من القوى، سواء كانت الْقُوَّة قوليَّة أو مادِّيَّة أو معنويَّة، المهمّ أن جميعَ القوى فِي معاملة الأعداء ينبغي للمرءِ أن يَسْتَعْمِلَها، حَتَّى

إِنَّهُ جاء فِي الحديث: «الحَرْبُ خُدْعَةٌ»[1] لكِن الخيانة -خيانة العدو- لا تَجوز، فلا يجوز للإِنْسَانِ أَنْ يخونَ عَدُوَّه، ولهَذَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ [الأنفال:٥٨]، يَعْنِي: ولا تَخُنهم، وكذلك إذا خانوا فقد نَقَضُوا العهدَ.

وهَذِهِ المسألة لها ثلاث حالات -أي أنَّ المعاهَدين لهم ثلاثُ حالاتٍ-: إمَّا أن يَسْتَقِيموا لنا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾ [التوبة:٧]، وَإِمَّا أن يَنْكُثوا العهد وحينئذٍ لا عهدَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ [التوبة:١٢]، وَإِمَّا أَلَّا يَنْقُضوا العهد وظاهِرُهُم الاستقامةُ، لكِن نخاف منهم الخيانةَ، فهنا نَنْبِذ العهدَ إليهم، ونُخْبِرهم بأننا قد أبطلنا العهدَ، حَتَّى لو قَالُوا: سَنبقَى عَلَى العهد نَقُول: لا، نحن الْآنَ كلٌّ مِنَّا حرٌّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين الخيانة والخَديعة؟

الخيانة معناها: أنك تَخْدَعه فِي مَقامِ الأمانِ، والخديعة تَخْدَعُه فِي غيرِ مقامِ الأمانِ، كَأن تكونَ الحربُ قائمةً ثُمَّ تَضَع كَمينًا ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أو تُظْهِر مثلًا أن عندك كثرةَ عددٍ، كَأن تجعل النَّاس مثلًا يتردَّدون مثلما فعل القَعْقَاع بنُ عَمْرٍو فِي حُرُوبِهِ مَعَ الفُرْسِ وغير ذلك، فأنت الْآنَ ما خُنْتَهم؛ لِأَنَّهُ ما بينك وبينهم عهدٌ، أَمَّا المحارِب فقَتْلُه لا يُعتبَر خيانةً؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بيننا وبينهم عهد، ولهَذَا فِي قِصَّة كَعْب بنِ

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحرب خدعة، حديث رقم (٢٨٦٥)؛ ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز الخداع في الحرب، حديث رقم (١٧٤٠)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأَشْرَف قَالَ الرَّسُول ﷺ: «مَنْ لِي بِكَعْبٍ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللهَ وَرَسُولَهُ»[١].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قول الرَّسُول ﷺ: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ»[٢]، هل يفيد حصرَ الْقُوَّة فِي الرمي؟

الجواب: ما يَرِد عن الرَّسُول ﷺ وكذلك أيضًا ما يَرِد عن الصحابةِ فِي تفسيرِ بعضِ الآيَاتِ يَذْكُرُون الشَّيْءَ أحيانًا عَلَى سَبيلِ التمثيلِ، والْقُوَّة فِي ذلك الوقتِ هِيَ الرميُ، ولا تزالُ أيضًا، فإن الرميَ الْآنَ من أشدِّ ما يَكُونُ منَ الْقُوَّة، يعني هُوَ أعلى أنواعِ الْقُوَّة، سواء كَانَ الرميُ بالقوسِ فيما سبق، أو بالبُنْدُقِيَّة أو بالصَّوَارِيخِ، المهمُّ أنَّ الرميَ فِي كُلّ وقت تجد أَنَّهُ هُوَ ذِروةٌ فِي الْقُوَّة، وهَذَا لَيْسَ بحصرٍ، ولكِن الرَّسُول أراد أن يُبيِّن غايةَ الْقُوَّة، فالْقُوَّة هِيَ الغايةُ فِي كُلّ وقتٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: كَثرة جنود سُلَيْمَان؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾؛ لِأَنَّ هَذِهِ المَلِكَة لها العَرْش العظيمُ وعندها القوم المُطيعون الذليلون لأوامرها، يَقُول: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم﴾، ولم يُبيِّن هذه الجنود، لَكِنَّهُ مَرَّ فِي أوَّل القصة أن جنوده ثلاثةُ أصنافٍ: الجنّ والإنسُ والطيرُ، هذه كلُّها يمكن أن يُسَلِّطها عليهم، إذا سلَّط الجنَّ فلا قِبل لهم بالجنّ، وإنْ سلَّط الطيورَ تَنْقُب عيونهم أيضًا فلا قِبل لهم بها.

فالحاصلُ: أنَّ الجنودَ الَّتِي لسُلَيْمَان لا يُمْكِن لهَؤُلَاءِ أن يُقابِلوها لا كميَّة ولا كيفيَّة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف، حديث رقم (٣٨١١)؛ ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود، حديث رقم (١٨٠١)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، حديث رقم (١٩١٧)، عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الكافرَ لا حقَّ له فِي أرض الله، ولا فِي مال الله، حَتَّى المال لا حقَّ له فيه، وجه ذلك لو لم يكنِ الأَمْرُ هَكَذَا لكانَ تهديده بهَذَا الأَمْر محرَّمًا، إذ لو كَانَ لهم حقّ ما جاز له أن يفعلَ هَذَا ويُخْرِجهم منَ الْأَرْض.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الردُّ عَلَى الجَبْرِيَّة وأن الْإِنْسَان يفعل باختيارِه، لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ﴾.

• ● ۞ ● •

الآيـة (٣٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣٨].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ﴾ فِي الهمزتينِ ما تَقَدَّم]، وتَقَدَّمَ تحقيقُ الهمزتينِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ﴾ وتسهيل الثَّانِيَة بقلبها واوًا: (**يا أيها الملأُ ويكم**).

ثم قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ منقادينَ طائعينَ، فلي أَخْذُه قبل ذلكَ لا بعدَه]، قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ من أين عَرَفَ أَنَّهُم سيأتون مسلمينَ إليه؟ عرف ذلك من أَنَّهُم إذا سَمِعوا بما قَالَ الرَّسُول، وَهُوَ قوله: ارْجِعْ إليهم، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أن يَستسلموا وينقادوا، فَهُوَ أيضًا حَكَمَ بالقرائنِ، ويجوز أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَوْحَى إليه بذلك لِأَنَّهُ نبيّ، فالمسألة دائرة بين أن يَكُون حكمَ بكونهم يأتون مسلمين بناءً عَلَى القرينة، ويحتمل أن يَكُون ذلك بوحيٍ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكِنَّ قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ نبَّه المفسِّر عَلَى أَنَّهُ إذا كَانَ العَرْش أُخِذَ قبل أن يأتوا مسلمينَ إليه فَهُوَ جائزٌ، وإذا كَانَ بَعْد ذلك فليس بجائزٍ، وَفِي هَذَا نظر؛ لِأَنَّهَا بمجرَّد ما تُفَارِقه مُسْلِمَةً تكون قد أحرزتْ مالَها، وقد حَمَتْهُ، فمالُها محترَم قبل أن تصلَ إِلَى سُلَيْمَان بمجرَّد إسلامها، وهي إذا غادرتْ ستأتي بلَا شَكّ مُسْتَسْلِمَةً، فَإِنَّهُ قَالَ لهم فِي أَوَّل الأَمْرِ: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ وَلَيْسَ غَرَضه

-واللهُ أَعْلَمُ- أَنَّهُ إذا كَانَ قبلَ إسلامِهِم جاز له أَخْذُه، وإذا كَانَ بعدَه لم يَجُزْ.

ثم إنّ الظَّاهر أيضًا أن سُلَيْمَان لا يريد تَمَلُّكَ هَذَا العَرْش، وإنما يريد إظهار قوَّته أمامها، وَأَنَّهُ استطاع أن يأتيَ بِعَرْشِها قبل أن يَصِلُوا إليه، ولا يريد أن يَتَمَلَّكَه حَتَّى يَرِد ما قَالَهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذلك لَمَّا قَالَ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ...﴾ الآيَة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: جوازُ الخِطاب إِلَى المبهَم إذا كَانَ يَتَعَيَّن بَعْد ذلك، يعني يجوز الخطاب إِلَى المبهم حُكمًا أو خبرًا قبل أن يَتعيَّن الحكم، لِقَوْلِهِ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ ما قَالَ: ائتني يا فلان. وهَذَا النوعُ مِنَ الخِطاب تترتب عليه فوائدُ كثيرةٌ حُكميَّة وخَبَرِيَّة.

فمنها مثلًا يجوز أَنَّهُ يَقُول: زوَّجتك إحدى ابنتيّ هاتين، ثُمَّ يختار إحداهما، مثلما فعل صاحب مَدْيَن مَعَ موسى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يجوز أن يَقُول: بِعْتُكَ إحدى هاتينِ السِّلعتينِ بكذا فيختار إحداهما.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بعتك هَذَا بعشَرة نقدًا أو بعشرين نسيئةً، فيَختار أحد الثمنينِ، وليستْ هَذِهِ المسألةُ الأخيرةُ من بابِ بيعتينِ فِي بيعةٍ، خِلافًا لَمن زَعَمَ ذلك، فإن هَذِهِ بيعة واحدة؛ لأنهما لم يَتَفَرَّقا إِلَّا عَلَى إحدى البيعتينِ، وأيضًا بيعتانِ فِي بيعةٍ سبق أَنَّهُ جاء فيها نصٌّ صحيحٌ صريحٌ فِي سنن أبي دَاود يَقتضي أن بيعتينِ فِي بيعةٍ هِيَ مسألةُ العِينَة؛ لقولِ النَّبِيّ ﷺ: «مَنْ بَاعَ بَيْعَتَيْنِ فِي بَيْعَةٍ فَلَهُ أَوْكَسُهُمَا أَوِ الرِّبَا»[1]، وهَذَا صريحٌ أن

(١) سنن أبي داود، كتاب الإجارة، باب فيمن باع بيعتين في بيعة، حديث رقم (٣٤٦١)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ذلك فِي مسألةِ العِينة، والعِينة أن يبيعَ الشَّيْءَ عليه بثمنٍ مؤجَّل ثُمَّ يَشتريه نفس البائع منه بأقلّ منه نقدًا، فهَذِهِ مسألة العِينة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ألا يَرِد عَلَى هَذَا اشتراط التعيين بالنِّسْبَةِ للنِّكاح؟

قُلْنَا: العقد لا يَنتهي إِلَّا بالتعيينِ، فإذا قَالَ: قَبِلْتُ نِكاحَ فلانةَ حَصَلَ التعيينُ، ولا يَصِحُّ أن يَقُول: قَبِلْتُ نِكاحَ إحداهما، كما أن البيع أيضًا: بِعتك بعشرة نقدًا وبعشرين نسيئةً، يَقُول: قبلت بعشرين النسيئة أو قبلت بعشرة نقدًا، لَا بُدَّ من هَذَا؛ لِأَنَّ القبولَ يُعَيِّن، المهمّ الكَلام عَلَى الإيجابِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ يجوز للإِنْسَان أمامَ عدوِّه أن يُظْهِرَ العظمةَ؛ لِأَنَّ سُلَيْمان أراد بإحضار هَذَا العَرْش إظهارَ عَظَمَتِهِ وقُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ استطاع أن يأتيَ بعرشها المحصَّن بلَا شَكّ؛ لِأَنَّهُ كما جرتِ العادةُ قُصُور الملوك لَا بُدَّ أن تكون محصَّنة وعليها حَرَس، لا سيما مثل العَرْش، وَأَمَّا زَعْمُ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ إِنَّمَا أَتَى به لِيَتَمَلَّكَهُ فلا دليلَ فِي الآية عَلَى ذلك.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن سُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إمَّا أَنَّهُ تَفَرَّسَ أو أُوحِيَ إليه بأن هَؤُلَاءِ القوم سوف يأتونه؛ لِأَنَّهُ لَمَّا ردَّ الرَّسُول بالهَدِيَّة وقال: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل:٣٧]، ما جاءه الجوابُ، فطَلَبَ أن يُحْضَرَ عَرْشُها، ممَّا يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ علِم بأنها ستأتي وقومها، ولكِن من أين علم ذلك؟

قُلْنَا: إنَّهُ أَمَّا مِنْ وحي، وَإِمَّا من فراسة؛ لِأَنَّ مثل هَذِهِ العبارات الَّتِي تُرسَل: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ بهَذِهِ الْقُوَّة تَقتضي أن العدوَّ يَخْنَعَ ويَخْضَعَ، إن كَانَ بفراسةٍ فَهُوَ دليل عَلَى جواز الحكم بالفراسة، وقد ذكرنا

عدة مراتٍ أَنَّهُ يجوز الحكم عَلَى الشَّيْء بمقتضى غَلَبَةِ الظنّ، بل يجوز أن يحلف عليه بمقتضى غلبة الظنِّ، والفِرَاسة تؤدي إِلَى غلبة الظنّ، ولكِن لَيْسَ مجرَّد الوهم يُجَوِّز أن تحكمَ بالظنِّ، بل لَا بُدَّ للفراسةِ من قرائنَ تدل عليها؛ إمَّا قرائن سابقة وَإمَّا قرائن مقارِنة، وَأَمَّا أن تحكمَ بشيءٍ لَيْسَ فِيهِ قرينةٌ فهَذَا حكمٌ بالظنِّ.

الآيــة (٣٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل:٣٩].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ هُوَ القويُّ الشديدُ]، العِفريت القويُّ الشديد، ولا زال هَذَا المَعْنى إِلَى الْآنَ موجودًا، إذا قُلْنَا: فلانٌ عِفريتٌ، يعني قويًّا شديدًا أو نَقُول أيضًا أبلغ من هَذَا.

قوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾: (آتي) اسم فاعل من (أَتى) فهو (آتٍ)، ومنه قولهم: (كل آتٍ قريبٌ)، وهنا يَصِحُّ أن يَكُون التَّقْدير: أنا آتٍ إليك به قبل أن تقومَ من مقامِك، لكِنِ الأقرب أَنَّهَا فعل، يُقَرِّبُهُ أن الأَصْلَ فِي العَمَلِ الأفعال والكاف معمول ضَمير مَفْعُول به.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ الَّذِي تَجلِس فِيهِ للقَضاء، وَهُوَ منَ الغَداةِ إِلَى نِصفِ النَّهارِ]، هَذَا من الأُمُورِ الَّتِي لا دليلَ عليها، ولكِنّ قوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ المُراد ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ بسرعةٍ، وهَذَا أسلوبٌ معروفٌ: أنا آتي به قبلَ أن تقومَ، إِلَى الْآنَ موجود هَذَا الأسلوب، فالمَعْنى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ بسرعة، ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾ أي: عَلَى هَذَا العَرْش ﴿لَقَوِىٌّ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي عَلَى حَمْلِهِ ﴿أَمِينٌ﴾ أي: عَلَى ما فِيهِ من الجواهر وغيرها]، انظر لما قَالَ: ﴿ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾

هَذَا إحضارُه، ولكِن يحتاج إِلَى تأكيدٍ لهَذَا الأَمْر، أي تأكيد كونه يُحْضِره قبل أن يقوم من مقامه، فقال: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ﴾، ولستُ بضعيفٍ، بل سوف أُحْضِره بهَذِهِ السرعة، وأيضًا ﴿أَمِينٌ﴾ أي: لا أَخُون فِيهِ شيئًا، لا عَلَى نفس العَرْش ولا عَلَى نفس ما فِيهِ من الجواهرِ وغيرها.

وهَذَان الوصفان يَحتاجُ إليهما كُلّ عاملٍ، كما قَالَ الله تَعَالَى عن بنتِ صاحبِ مَدين: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦]، وهَذَانِ الوصفانِ مطلوبانِ فِي كُلّ عملٍ؛ لِأَنَّهُ إذا فاتتِ الْقُوَّة لم يَحْصُلِ العَمَلُ، من أجلِ العجزِ، وإذا وُجدت الْقُوَّة ولكِن فاتت الأمانة فَإِنَّهُ أيضًا يتخلفُ العَمَلُ بسبب الخيانةِ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قال سُلَيْمَان: أُريد أسرع من ذلك]، قَالَ هَذَا سُلَيْمَان، لكِن هَذَا لا دليلَ عليه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تسخير الجنّ لسُلَيْمَان؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ هُوَ أوّل مَن تكلَّم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ والثَّالثةُ: قوَّة الجنّ؛ لِأَنَّهُ سوف يأتي بهَذَا العَرْش العظيم يحمله من سبأ من اليمنِ إِلَى الشامِ، وأيضًا فِيه دليل عَلَى سُرعتهم، وهي من أوصاف الْقُوَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ وهَذِهِ سرعة فائقة وعَظيمة، ومعلومٌ أَنَّهُم عندهم سرعة عظيمة؛ بدليلِ أَنَّهُم يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ منَ السَّمَاءِ، ولا يصل إِلَى السَّمَاء إِلَّا كَانَ مَن عنده سرعةٌ هائلةٌ عظيمةٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ يجوزُ للإِنْسَانِ أنْ يَصِفَ نفسَه بما اتَّصف به من صفات

الكمالِ ترغيبًا أو ترهيبًا، بشرطِ أنْ يَكُونَ ذلك حقيقةً، فوَصْفُ الْإِنْسَان نفسَه بما يتَّصف به نَقُول: إنَّهُ مباح، هَذَا الأَصْلُ، والمباح كما هُوَ معروف تَعْتَرِيه الأحكام الخمسة؛ فقد يَكُون واجبًا أحيانًا، وقد يَكُون محرَّمًا، ولا يمكن أن يَكُون مطلوبًا بكلِّ حالٍ؛ لِأَنَّهُ قد يَكُون لغرضٍ سيِّئٍ، ولا أَنَّهُ مذموم بكل حال؛ لِأَنَّهُ قد يَكُون لغرضٍ حسنٍ أو عَلَى سبيلِ الجوازِ، لكِن إذا اقتضتِ الحالُ البَيَان فقد يَكُون مطلوبًا إمَّا وجوبًا وَإِمَّا استحبابًا، فقد يَكُون من باب التحدُّث بنعمة الله فيَكُون مطلوبًا، وقد يَكُون من أجلِ أن يمنع من لَيْسَ بأهلٍ من مباشرةِ هَذَا العَمَلِ، فحينئذٍ يَجِب أن يبيِّن نفسه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾، وهَذَا ترغيبٌ، وقوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ ترهيبٌ، فيجوزُ هَذَا وهَذَا، لكِن بشرطِ أن يَكُون متَّصِفًا به حقيقةً، أَمَّا دَعْوى فلا، ومثل هَذَا ما جاء فِي الحديثِ: «مَنْ تَشَبَّعَ بِمَا لَمْ يُعْطَ فَهُوَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»[1].

فالْإِنْسَانُ الَّذِي يَمْدَحُ نَفْسَه بما لَيْسَ فيها هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ مزوِّر، مزور بالخبر ومزور بالصِّفة، هُوَ أخبرَ عن نفسِهِ بما لَيْسَ فيها، فالخبر كذب وثُبُوت هَذَا الوصف للنفسِ مثلًا كذبٌ، فلذلك قَالَ: «كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»، ومِثل هَذَا أيضًا قولُ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو أعلمُ أنَّ أحدًا أعلمُ منِّي بكتابِ اللهِ تَبْلُغُهُ الإبلُ لَرَحَلْتُ إليه، أو كما قال[2].

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب المتشبع بما لم ينل وما ينهى من افتخار الضرة، حديث رقم (٤٩٢١)؛ ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره والتشبع بما لم يعط، حديث رقم (٢١٣٠)، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النَّبِيِّ ﷺ، حديث رقم (٤٧١٦)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حديث رقم (٢٤٦٣).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن مدارَ العَمَلِ عَلَى هذينِ الوصفينِ، وهما: الْقُوَّة والأمانة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ لِأَنَّ مَن لَيْسَ بقويٍّ لا يُتْقِن العَمَل؛ لضعفِهِ، ومن لَيْسَ بأمينٍ لا يُتْقِن العَمَلَ أيضًا لخيانتِه، فقد يَكُون الْإِنْسَان قويًّا ويستطيعُ أن يعمل هَذَا العَمَل بكلِّ سهولةٍ ولكِنه لَيْسَ بأمينٍ، فلا يثق الْإِنْسَان به، ثُمَّ إن العَمَلَ لو أَنَّهُ أتقنَهُ يبقى الْإِنْسَان شاكًّا يَقُول: يمكن أَنَّهُ يقدِر أن يفعلَ أحسنَ من هَذَا لَكِنَّهُ ما فعلَ لِأَنَّهُ خائنٌ.

وكذلك أيضًا لو كَانَ الْإِنْسَان أمينًا لَكِنَّهُ عاجزٌ فَإِنَّهُ لن يُتْقِن العَمَلَ لِعَجْزِهِ، لكِن أيُّهم أشدُّ لومًا؟

الخائنُ أشدُّ، ومَن لَيْسَ بقويٍّ أيضًا عندَه نوعُ خيانةٍ؛ لِأَنَّ كونه يدخل فِي العَمَلِ وَهُوَ لَيْسَ بقادرٍ عليه أو لَيْسَ بقويٍّ عليه فهَذَا لَا شَكَّ أيضًا أَنَّهُ خطأ وخيانةٌ، ولهَذَا قَالَ النَّبِيّ ﷺ لأبي ذَرٍّ: «**إِنَّكَ رَجُلٌ ضَعِيفٌ؛ فَلَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَتَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ**»(١).

فالْإِنْسَانُ الضعيفُ لا يجوز أنْ يتدخَّل فِي شيءٍ يَعْرِف أَنَّهُ لا يستطعُ إتقانَه، لا سِيَّما إذا كَانَ يوجد فِي النَّاس مَن يُحْسِنُه، فهَذِهِ تُعْتَبَرُ خيانةً لنفسِه ولغيرِه؛ خيانة لنفسه؛ لِأَنَّهُ فِي الحقيقةِ جَشَّمَهَا مرقًى صَعْبًا يريد أن يظهرَ ضَعفهُ أمامَ النَّاسِ، وخيانة لغيره حَيْثُ تَقَبَّلَ أعمالهم وَهُوَ لا يُحْسِنُها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: إذا اجتمع عندنا أربعةُ أشخاصٍ أحدهم: قويّ أمين، والثاني: قويّ غير أمين، والثَّالث: أمين غير قويّ، والرَّابع: ضعيف خائنٌ؟

---

(١) رواه مسلم، الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، حديث رقم (١٨٢٦)، عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قُلْنَا: القويُّ الأمين مقدَّم، لَيْسَ فِيهِ إشكال، والخائن الضعيف مؤخَّر بلَا شَكّ، هَذَان طرفانِ معلومانِ.

أما القوي الخائن والضعيف الأمين فالصَّحيح أنه يَجِب أن ننظرَ أيُّهما أولَى مراعاةً، فإذا كَانَ فِي عملٍ الْقُوَّة فِيهِ أظهرُ فهنا يُقدَّم القويُّ؛ لِأَنَّ القوي وإن كَانَ عنده خيانة فربما تَحْمِله قوته عَلَى إتقانِ العَمَلِ؛ لأجل أن يَشْتَهِرَ بهَذِهِ الْقُوَّة مثلًا، أَمَّا إذا كانت المسألة لا تحتاج إِلَى عملٍ وقوة لَكِنَّها تَتَطَلَّبُ الأمانة فهنا يُقدَّم الأمين، وهَذَا واضح إذا كَانَ فِي عملينِ:

أحدهما: يظهر فِيهِ قصد الأمانة.

والثاني: يظهر فِيهِ قصد الْقُوَّة.

كالأمير مثلًا، الأمير يظهر فِيهِ قَصْد الْقُوَّة، يعني قوة الأمير، وإنْ كَانَ غيرَ أمينٍ، فهو أنفعُ للمجتمعِ من أميرٍ ضعيفٍ أمين، والقاضي بالعكسِ؛ فالأمانةُ فِي حقِّه أظهر؛ لِأَنَّهُ إذا كَانَ أمينًا -وإن كَانَ ضعيفًا؛ لِأَنَّ الَّذِي سَيُنَفِّذ لَيْسَ القاضي، خصوصًا فِي عصرنا، فالْآنَ التنفيذ لجهة الإمارة، فالقاضي يَحْكُمُ فقط- فإذا كَانَ أمينًا فهنا قصد الأمانة فِي القضاءِ أظهرُ من قصد الْقُوَّة، وَعَلَى هَذَا فَقِسْ.

ولكِن إذا كَانَ العَمَلُ تَتَعَارَضُ فِيهِ الْقُوَّة والأمانةُ فهَذَا مَحَلُّ نظرٍ، ولا يمكن أن نَحْكُمَ بِحُكْمٍ عامٍّ، بل إننا نَنْظُرُ فِي القضيةِ المعيَّنة، وإذا تشاحَّ اثنانِ فِي عملٍ يَتَطَلَّب الْقُوَّة والأمانة معًا ولا يظهر فِيهِ فضل أحدهما عَلَى الآخر، فحينئذٍ لا أستطيعُ أن أحكمَ هنا حكمًا عامًّا، بل إِنَّمَا يُنْظَر فِي كُلّ مسألةٍ بخصوصها، ويُنظَر للقرائنِ وينظر أيضًا للأشخاصِ، ومَن تَظهَر فِيهِ الْقُوَّة أكثر من ظهور الأمانة فِي الثاني، أو الأمانة فِي هَذَا أكثر من ظهور الْقُوَّة فِي الثاني.

وعَلَى كُلِّ حالٍ: هَذِهِ المسألة لا نَحْكُمُ فيها بحُكْمٍ عامٍّ، بل نحكم فيها بالقضيَّة المعيَّنة، ونَقُول: يُقدَّم هَذَا عَلَى هَذَا عندما تحصل القضية المعيَّنة.

فالحاصل إِذَنْ: أقسام النَّاس باعتبارِ العَمَلِ أو باعتبارِ القيامِ بالعَمَلِ أربعةٌ: قويّ أمين، وضعيف خائن، وقوي خائن، وضعيف أمين.

ومعلوم -كما تقدَّم- أنَّ الأوَّل يُقدَّم عَلَى كُلِّ حالٍ، والثاني يؤخَّر عَلَى كُلِّ حال، والثَّالث والرَّابع بينهما تزاحُم، فيُنظَر إِلَى ما كَانَ يَستدعي الْقُوَّة أكثر فيُقدَّم فِيهِ القوي، وما كَانَ يستدعي الأمانة أكثر يُقدَّم فِيهِ الأمين، وما احتمل أمرينِ يُنظَر فِيهِ إِلَى القضية المعينة حَتَّى نستطيع أن نقدِّم هَذَا عَلَى هَذَا... إِلَى آخره.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد رتَّب شؤون حياته، وأن له مجلسًا خاصًّا معروفًا معيَّنًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَقَامِكَ﴾؛ لِأَنَّ قوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَقَامِكَ﴾ لَا شَكَّ أَنَّهُ مُقدَّرٌ بمدَّة معلومة، وإلَّا لم يكن لذلك فائدة؛ لِأَنَّ قيامه من مقامِه إذا لم يكن معلومًا فهلْ يُدْرَى متى ينتهي؟! قد يبقى يومًا كاملًا فِي مكانِهِ وقد لا يبقى إِلَّا دقيقةً واحدةً، فلولا أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد رتَّب أوقاته حَتَّى أصبحتْ معلومةً للناس ما قَالَ مثل هَذَا الكَلام.

وأمَّا تقديره بما قاله المفسِّر: من الغداة إِلَى نصفِ النَّهارِ، فهَذَا لا نَدري، اللهُ أَعْلَمُ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: يؤخَذ منه أن سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ قد رتَّب أوقاته حَتَّى صارتْ معلومةً، وهَذَا لا سيما بالنِّسْبَةِ للإِنْسَانِ المُرادِ -الَّذِي يريده النَّاسُ- أَمْرٌ مِنْ أهمِّ الأُمُور، أَنَّهُ يرتِّب أموره حَتَّى إن الْإِنْسَان الَّذِي يريده فِي حاجة يعلم أَنَّهُ فِي هَذِهِ الساعةِ يجده، وَفِي الساعة الأُخْرَى لا يجده فيستريح، مثلًا يرتِّب لنفسِه جلسةً فِي بيتِه

أو فِي مكانٍ للناس عَلَى سبيل العمومِ، إمَّا بين العشاءين أو بَعْد العصر أو الضحى، المهم شَيْء يعرفه النَّاس، فيرتب لنفسِهِ مثلًا عملًا معينًا يعرفه النَّاس، حَتَّى يأتي إليه من أراده فِي هَذَا العَمَل.

المهمُّ يُستفاد من ذلك أن سُلَيْمَانَ قد رتَّب أعمالَه فِي وقتِه، والثاني أَنَّهُ ينبغي للإِنْسَانِ خُصوصًا المُرَادَ من أميرٍ وقاضٍ وعالمٍ ووجيهٍ وغيره؛ أَنْ يَجْعَلَ له أوقاتًا محدَّدة حَتَّى إن النَّاس يشعرون بأن هذا الرجل رجل منظَّم، ويشعرون بأن الْإِنْسَان الفوضويّ إن شاء جلس وإن شاء قام أَنَّهُ لَيْسَ بمنظَّم فلا يعتبرونه شيئًا.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٠)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

قَالَ المُفَسِّــر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المُنْزَل، وَهُوَ آصَفُ بنُ برخيا، كَانَ صِدِّيقًا يعلَم اسمَ اللهِ الأعظم الَّذِي إذا دعا به أُجِيبَ]، قولُ المُفَسِّــر: [إذا دعا به]، المعروف أن اسْم الله الأعظم: الَّذِي إذا دُعي به أجاب، لكِن يَحتمِل أَنَّهُ قول المُفَسِّر: [إذا دعا به]، أي: هَذَا الرجل الَّذِي عنده علم من الكتابِ، يعني أن هَذَا الرجل قد جرّب وعرف أَنَّهُ إذا دعا الله تَعَالَى بهَذَا الاسم أجابه، فيكُون هنا أنسب أن يقالَ: إذا دعا به أجاب؛ لِأَنَّ هَذَا الرجلَ الَّذِي عنده علم من الكتابِ يعلم أو قد جرَّب أَنَّهُ إذا دعا بهَذَا الاسم أجاب.

وهَذَا أيضًا لَيْسَ بلازمٍ أن يَكُون هَذَا الْإِنْسَان الَّذِي عنده علم من الكتاب يريد أن يدعو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ باسمِهِ الأعظمِ، وإنما نَقُول: هَذَا الرجل أعطاه الله تَعَالَى علمًا من الكتاب المنزل، ولَا شَكَّ أن الْإِنْسَان العالمَ يعرف الأدوات والصيغ الَّتِي تكون أقربَ إِلَى الإجابةِ سواء باسمِ اللهِ الأعظمِ أمْ بغيره.

قَالَ المُفَسِّــر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ إذا نظرتَ به إِلَى

شيءٍ]، الله أكبر! أيُّهما أسرع؟

الثاني أسرع؛ لِأَنَّهُ كلَمْح البَصَر، قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ﴾ أي: يَرْجِع ﴿إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي: نَظَرُك، فأنت مثلًا إذا نظرتَ أمامك ثُمَّ حَرَّكْتَ طَرْفَك فإن هذا يَكُون بسرعةٍ فائقةٍ، وتأمل -سبحان الله العظيم- سيأتي به من اليمن إِلَى الشام بهَذِهِ السرعةِ العظيمةِ؛ لِأَنَّهُ يأتي بأمرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إذا أجاب الداعيَ لا يحتاج إِلَى مدَّةٍ ولا إِلَى مُهْلَةٍ، ولكِن مَعَ ذلك يُقَدِّرُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الأُمُور بأَسْبابها، قد يدعو الْإِنْسَان لمريضٍ أن يشفيَه الله تَعَالَى، ولكِن هل يُشْفَى كلمحٍ بالبصر؟

لا، له أَسْبابٌ تُقَدَّر، لكِن الأَسْبَاب تَنعقِد فورًا إذا أرادَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنْ يُجيبَ، مَعَ أن الله قادر عَلَى أن يُبْرِئ هَذَا المريضَ فِي لحظة، مثلما كَانَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يؤتَى أحيانًا بالمريضِ فيدعو له فيشفى فِي لحظةٍ، وقد جيء إليه بعليِّ بنِ أبي طالبٍ فِي خَيبَرَ وَهُوَ يشتكي عينه فبَصَقَ فيها ودعا فبرأتْ، كَأَنْ لم يكنْ بها وجعٌ فِي الحالِ[1]، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على كلِّ شَيْء قدير، ولكِن تأخُّر الشَّيْء لا يدل على أنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَيْسَ بقادرٍ عَلَى إبرائِه حالًا، ولكِنه يَدُلّ عَلَى أن الله حكيمٌ يُقَدِّرُ الأُمُورَ بأَسْبابها، حَتَّى خلق السَّماوَات والْأَرْض فِي ستةِ أيامٍ ذَكَرْنا فيما سبق أَنَّهُ لفائدتين:

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، حديث رقم (٣٩٧٣)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم (٢٤٠٦)، عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أولًا: ما اشتهر عندَ أهلِ العلمِ من أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعلها فِي ستة أيامٍ ليُعَلِّمَ العبادَ التأنِّيَ فِي الأُمُورِ، وأن المهمَّ إحكام الأَمْر لا التعجيل فيه.

وشَيْء آخر: أن خلقَ هَذِهِ الأَشْيَاء يحتاج إِلَى أَسْبابٍ ومكوِّناتٍ تتفاعل وتنتهي إِلَى الكمال، فلهَذَا صارت فِي ستة أيام.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فقال له: انظُرْ إِلَى السَّمَاء، فنظر إليها، ثُمَّ رَدَّ بِطَرْفِهِ فوجده موضوعًا بين يديه، ففي نظره إِلَى السَّمَاء دعا آصَفُ بالاسمِ الأعظمِ أن يأتيَ اللهُ به، فحصلَ بأن جَرَى تحت الْأَرْض حَتَّى نبعَ تحتَ كُرْسِيِّ سُلَيْمَان]، الله أكبرُ! هَذِهِ القِصص غرائبُ! أولًا هل هَذَا الَّذِي عنده علم من الكتاب قَالَ لسُلَيْمَان: انظر إِلَى السَّمَاء؟! لا دليل عَلَى هَذَا، وَلَيْسَ هناك حاجة إِلَى أن يَقُول له: انظرْ إِلَى السَّمَاء، فقوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ بأيّ نظرٍ أدرتَ طرْفك إليه.

ثانيًا: يَقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنَّهُ جرى تحت الْأَرْض حَتَّى نبع تحت الكرسيّ، فيجوز أَنَّهُ جاء من تحت الْأَرْض، ويجوز أَنَّهُ جاء من فوق الْأَرْض، أو جاء من محلٍّ عالٍ جدًّا ونزل، كُلّ هَذَا لا ينبغي الجزمُ به، بل يقال: إن الله عَلَى كُلّ شيءٍ قدير، المهمّ أن العَرْش حَضَرَ فِي لحظةٍ قبلَ أنْ يَرْتَدَّ إليه طَرْفُه.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي: ساكنًا]، هَذِهِ أشكلتْ عَلَى النحْويِّين؛ لِأَنَّهُم يَقُولُونَ: إنَّ من قواعدهم: إذا كَانَ الظرف أو الجارّ لمجرور مُتَعَلَّقُهُ عامًّا فَإِنَّهُ يَجِب حَذْفُه، مثلًا تقول: زيد فِي البيت، لا يجوز أن تقول: زيد كائنٌ فِي البيت، بل يَجِب حذف (كائن)؛ لِأَنَّهُ عام، أَمَّا إذا كَانَ خاصًّا مثل: زيد محبوس فِي البيت، فيجب ذِكْرُه؛ لِأَنَّ (محبوس) لو حُذفت ما دلَّ عليها دليل، بخلاف: زيد فِي البيت؛ فَإِنَّهُ بمجرد النطق به يتبين للمُخَاطَب أن المَعْنى كائن فِيهِ أو موجود فيه،

فهم يَقُولُونَ: إذا كَانَ الجارّ والمجرور أو الظرف متعلقه عامًّا وجب حذفه، وهنا (مستقرًّا) عامٌّ، فإذا قلت: (زيد فِي البيت) أي مُسْتَقِرّ فِي البيت، يعني كائنًا فيه، وابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُول(١):

وَأَخْبَرُوا بِظَرْفٍ أَوْ بِحَرْفِ جَرّ ... نَاوِينَ مَعْنَى كَائِنٍ أَوِ اسْتَقَرّ

لكِن قَالُوا: إن الاستقرار هنا لَيْسَ الاستقرارَ العامَّ حَتَّى يَجِب حَذْفُه، بل هُوَ استقرارٌ خَاصّ غيرَ مُطلقِ الوجود، فلمَّا كَانَ استقرارًا خاصًّا غير مطلَقِ الوجود صار كالمَعْنى الخاصّ، ولذلك ذُكِرَ، قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا﴾، لاحِظْ لو قَالَ: «فلمَّا رآه عنده» لا تدلُّ عَلَى المَعْنى فِي كلمة (مُسْتَقِرًّا)، صحيح أن معنى: لما رآه عنده، أي: لما رآه كائنًا عنده، لكِن لا تدلّ عَلَى أن هَذِهِ الكَيْنُونة كانتْ باستقرارٍ وثباتٍ، وأيضًا ربما يُفْهَم من قوله: ﴿مُسْتَقِرًّا﴾ ما أشار إليه العِفريت فِي الأوَّل وَهُوَ الْقُوَّة والأمانة؛ لِأَنَّهُ بالْقُوَّة والأمانة يأتي العَرْش عَلَى ما هُوَ عليه لا يَتَكَسَّر، فالْإِنْسَان الضعيف مثلًا ربما عند حَمْلِه وَهُوَ ضعيف يسقط من يده، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فيتكسّر، أو إذا لم يكن أمينًا لا يُهِمّه أن يضربه جبل أو شجر أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أو هُوَ نفسه يتسلّط عليه.

فالحاصل: أن هَذَا الاستقرارَ له معنًى خَاصّ غير الاستقرار العامّ، فلذلك ذُكر.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي: ساكنًا عندَهُ ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ أي: الإتيان لي به ﴿مِن فَضْلِ رَبِّى﴾]، ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ أي: سُلَيْمَان رأى العَرْش مستقرًّا، والاستقرارُ هنا أمر زائدٌ عَلَى مجرَّد الكينونة، ولو كَانَ الْمُراد بالاستقرارِ هنا مجرَّد

(١) ألفية ابن مالك (ص:١٧، الابتداء)، ط. دار التعاون.

الكينونةِ لكان ذِكْرُهُ غيرَ بليغٍ، ولهَذَا فسَّر المُفَسِّر الاستقرارَ هنا بالسكونِ، يعني كأنَّ له أزمانًا وَهُوَ فِي هَذَا المكانِ، كما إذا أتيتَ بشيءٍ ووضعتَه بمكانٍ وتريد أن تركّبه وتُعدِّله وتُزيِّنه، لا سيما العَرْش الَّذِي له قوائمُ فِي العادةِ، فهَذَا العَرْش ثابتٌ كَأن له سنينَ، وهَذَا من كمال القدرة أيضًا.

قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾: ﴿مِن﴾ هَذِهِ لبيَان الجنسِ أو للتبعيضِ؛ لأنا إذا قَصَدْنا بالفضلِ الجنسَ فهي لبيَان الجنسِ، وإذا قصدنا بالفضلِ هَذَا الشَّيْءَ المعيَّن فهي للتبعيضِ.

عَلَى كُلّ حالٍ: هِيَ صالحةٌ لهَذَا ولهَذَا.

وقوله: ﴿فَضْلِ رَبِّي﴾ الفضل هُوَ العطاءُ الزائدُ، وفضلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَى العبدِ لا يُعَدّ ولا يُحصى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:٣٤]، ومن فضل الله عَلَى عبدِهِ أن يُحْسِن إليه ثُمَّ يَعُدُّ إحسان العبدِ إحسانًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠]، نَقُول: ما جزاءُ المحسنينَ الَّذِينَ أحسنوا عملهم إلَّا أن يحسنَ إليهم، وإحسانهم أو عملهم إحسانٌ منَ الله، ولكِن هَذَا من باب تمام الفضلِ منَ الله عَلَى عبادِهِ أن يَعُدَّ إحسانَ عملِهم -وَهُوَ منه- إحسانًا منهم، كأنهم هم المتفضِّلون به، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ اللهمَّ لك الحمد.

وقوله: ﴿رَبِّي﴾ الرُّبُوبِيَّة هنا خاصّة، ولهَذَا أضافها إِلَى نفسِه فقال: ﴿رَبِّي﴾ وقد مرّ علينا أن الرُّبُوبِيَّة عامّة وخاصّة، وأن العُبُودِيَّة كذلك عامّة وخاصّة، وأنّ الخاصّة فيها ما هُوَ أخصُّ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢]، فربوبيّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لموسى وهارون غير رُبُوبِيَّة الله

لعبادِهِ الصالحينَ الآخَرينَ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِيَبْلُوَنِيٓ﴾ لِيَخْتَبِرَنِي]، اللام للتعليل [﴿ءَأَشْكُرُ﴾ بتحقيق الهمزتينِ وإبدالِ الثَّانِيَةِ ألفًا وتسهيلها، وإدخال ألف بين المسهَّلة والأُخْرَى وتركه]، بتحقيق الهمزتين: ﴿ءَأَشْكُرُ﴾، إبدال الثَّانِيَة ألفًا (آشكر)، تسهيلها ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ اجعل الهمزة مسهلة بين الألف وبين الهمزة، وإدخال ألف بين المسهلة والأُخْرَى وتركها، يعني معناه: إذا قرأتَ بالتسهيلِ فلها صورتانِ:

الصورة الأولى: إدخال ألف (أاشكر) اجعل بَعْد الألف همزة مسهلة.

الصورة الثَّانِيَة: بدون ألف، يعني أن التسهيل يجوز فِيهِ المد قبل التسهيل وعدم المد.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ للنعمة]، فبماذا يَكُون الشكر؟

يَكُون الشكرُ بالثَّناء عَلَى اللهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النعمة بذاتها، وكذلك الاعتراف بالقلب بأنها مَحْضُ فضلٍ منَ اللهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لك بها مِنَّةٌ عَلَى ربِّك، والثَّالث القيام بما تَقْتَضِيه هَذِهِ النعمة من واجبٍ، وهَذَا الشكر الخاصّ لَيْسَ الشكرَ العامَّ؛ لِأَنَّ الشكرَ يَكُونُ عامًّا بحيثُ يُوصَف الْإِنْسَان بأنه من الشاكرينَ عَلَى الإطلاق، ويَكُون خاصًّا بحيث يُوصَف بأنه من الشاكرينَ عَلَى هَذِهِ النعمة فقطْ.

مثال ذلك: رجل آتاه الله مالًا، فالشكر الخاصّ عَلَى هَذَا المال أن يتحدث بهَذَا المال عَلَى أَنَّهُ من فضلِ الله ونعمته، وأن يعترفَ بقلبه أَنَّهُ فضلٌ من الله، لا يَقُول: أُوتِيتُهُ عَلَى علم عندي.

والثَّالث أن يقوم بواجب هَذَا المال من دفع زكاتِه وما يترتَّب عليه بسبب

هَذَا المال، لكِن قد يَكُون الْإِنْسَان مثلًا من جهة أخرى يَعصي اللهَ وفَرَّط فِي الصَّلَاة أو مُفَرّط فِي الصِّيَام، فهَذَا لا نَصِفُه بأنه شاكر عَلَى الإطلاق، لَكِنَّهُ قائمٌ بِشُكْرِ النعمةِ المعيَّنة.

إِذَنِ: الشكرُ نوعانِ: شُكْرٌ مُطْلَقٌ وشكر خاصٌّ، فالشكر الخاصّ أن يقومَ بشكرِ النعمةِ المعيَّنة بما تَقْتَضِيهِ، والشكر العامّ أن يَكُون قائمًا بطاعة المُنْعِمِ مُطْلَقًا فِي جميع الأحوال، وأنت لو تأمَّلتَ هَذَا وجدته موجودًا فِي عامَّة الأوصاف المحمودة والمذمومة أيضًا، فالتوبة قد يُوصَف الْإِنْسَان بأنه تائبٌ توبةً خاصَّةً مقيَّدة من ذنب معيَّن، وقد يُوصَف بأنه منَ التائبين عَلَى سبيل الإطلاق.

قول سُلَيْمَان ﷺ: ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ عَلَى أيِّ وجهٍ نَحْمِله؟

إِذَا قُلْنَا: إِنَّهُ عَلَى العموم، فمعناه أَنَّنا رَمَيْنا سُلَيْمَان ﷺ بأنه لَيْسَ بشاكرٍ لنعمةِ اللهِ فِي غير هَذَا، وإذا قُلْنَا: إِنَّهُ عَلَى الخصوص، يعني عَلَى هَذِهِ النعمة المعيَّنة، فَهُوَ أَولى، ولهَذَا قَالَ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ﴾ يَخْتَبِرني به ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ الله عليه ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ فالظَّاهر أَنَّهَا هنا عَلَى سبيل الخصوصِ، يعني: عَلَى هَذِهِ النعمة، أَمَّا النِّعم الأُخْرَى فنحن نؤمنُ بأن سُلَيْمَان قد قام بشكرها؛ لِأَنَّهُ ﷺ كما تقدَّم فِي قِصَّة النَّمْلة قَالَ مثل هَذَا الكَلام: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ [النمل:١٩]، فالذي نَعتقد، وَهُوَ أقربُ من حالِ سُلَيْمَان، أَنَّهُ قد شكرَ نعمةَ اللهِ عَلَى النعمِ الأُخْرَى، فقال: ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ عَلَى هَذِهِ النعمةِ ولم يقلْ: أَأُتِمّ الشكرَ. وقوله: ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ فعل مطلَق.

فالحاصل: أن الَّذِي يظهر لنا أَنَّهَا عَلَى هَـذِهِ النعمةِ، ليبلوني هل أشكرها أم

أكفرها؛ لِأَنَّ كُلّ نعمةٍ تحتاج إِلَى شكر خاصّ، والشكر العامُّ معروفٌ؛ يَقُول الْإِنْسَان: أشكرُ اللهَ.

ويُضْمِر فِي قلبه أَنَّهُ شاكرٌ لله عَلَى جميع النعمِ، لكِن عند نعمة معيَّنة تحتاج هِيَ أيضًا إِلَى شكر خاصّ، فالشكر عَلَى المالِ لَيْسَ كالشكرِ عَلَى غيرِه، مثلًا إِنْسَان عنده قوَّة وقُدْرة عَلَى الرميِ والجهادِ فشكرُ هَذِهِ النعمةَ أنْ يَسْتَعْمِلَها فِي الجهاد، يعني يجاهد.

عنده قدرة عَلَى بَيَان الْحَقّ بما أعطاه الله تَعَالَى من العلمِ والفهمِ شُكْرُ اللهِ عَلَى هَذِهِ النعمةِ أنْ يُبَيِّنَ هَذَا الأَمْرَ.

فتجد أن الشكر يَختلف إذا اعتبرنا كُلّ نعمةٍ بِحَسَبِها؛ لِأَنَّ الأَمْر يختلف، نَقُول: شكر هَذَا غير شكر هَذَا، لكِن الشكر المطلَق أنْ نَعْتَقِدَ بأن جميعَ الفضائلِ والإنعاماتِ كلّها منَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهَذا يَشترك فيه جميعُ النَّاسِ.

والمُراد بالكفرِ هنا كفرُ النعمةِ، وقد تقدَّم أن الشكرَ والتوبةَ والكفرَ والإِيمانَ كُلّ هَذِهِ تَتبَعَّض وتكمل: مُطْلَق شَيْء وشَيْء مُطْلَق.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيف يَقُول سُلَيْمَان: أم أكفر. والكفر كلمة نابيةٌ تَنْفُرُ مِنْهَا النفس، فلماذا لم يقل: (أأشكر أم لا أشكر) مَعَ أن المَعْنى واحد، لكِن هَذِهِ أهونُ؟

قُلْنَا: لأجلِ رَدْعِ نفسِه عن المخالفةِ وعدم القيام بالشكر، حَتَّى يُبيّن لنفسه أَنَّهُ إذا لم يشكرْ فمعناه هُوَ الكفر، فلكلِّ مَقامٍ مقال، فقد تخاطب إِنْسَانًا ترى أَنَّهُ لم يشكرْ نعمة الله عليه فتَخْشَى إذا قلتَ: أنت كافر بالنعمة أن ينفرَ منك ويزداد نفورًا حَتَّى من النعمة.

وإذا قلت: أنت لم تشكرْ تمامَ الشكرِ أو حقَّ الشكرِ أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وجدت أَنَّهُ أهون، والأساليب تؤثِّر.

يقال: إن مَلِكًا منَ الملوكِ رأى رؤيا فأَفْزَعَتْهُ؛ فقال: عليَّ بالعابرينَ. فأحضروا له العابرينَ، فقال لهم: إني رأيتُ أنَّ أسناني قد سَقَطَتْ، فما ترونَ؟ فقام كَبيرُهم فقال: أرى أنَّ أَهْلَكَ سَيَمُوتون. فانزعجَ المِلكُ؛ فقال: أَوْجِعُوه ضربًا. فأوجعوه ضربًا، فقال: اتركوه، ثُمَّ دعا بمعبِّرين آخرينَ وقال لهم: إني رأيتُ أنَّ أسناني قد سقطتْ. فقام كبيرهم وقال: المِلكُ أطول أهلِهِ عُمُرًا. ففَرِح. مَعَ أن المَعْنى واحد؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ إذا ماتوا صار هُوَ أطولَهم عمرًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قول سُلَيْمان ﷺ: ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ هل يجوز للإِنْسَان العاديّ أن يَقُول ذلك؟

فالجواب: يجوز للإِنْسَان العادي أن يَقُول: إن الله ما أعطاني هَذَا الشَّيْء إِلَّا لأجلِ أنْ أشكرَ أو أكفرَ، فالْإِنْسَان العادي يجوز أن يَقُول هَذَا؛ لأَنَّنا لو قُلْنَا بغيرِ هَذَا صار هَذَا خاصًّا بمثل مقامِ سُلَيْمان وَلَيْسَ كذلكَ.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: فضل الله عَلَى العِبَادِ مِن أَجْلِ ظُهُورِ أَثَرِ نعمتِه عَلَى العبادِ، فما وجه قولهم: «وهو الخالق وإن لم يوجدِ المخلوقُ»؟

فالجواب: قَصْدُهم أن الله جَلَّ وَعَلَا خالقٌ بمعنى أن هَذِهِ الصِّفة صفة له قبل أن يوجدَ المخلوقُ، كما أن الله تَعَالَى متَّصِف بالكَلام مَعَ أَنَّهُ يتكلم بمشيئته، فَهُوَ متَّصف بالخلق مَعَ أَنَّهُ يخلق بمشيئته.

فالحاصل: أن التعبير له دخل فِي قبول الْحَقّ والنفور منه، وقد تقدمتْ قِصَّة

إبراهيم ﷺ حَيْثُ قَالَ لأبيه: ﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم:٤٣]، ما قَالَ: أنت جاهل ولا تدري ولا تعرف ﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم:٤٣]، وهَذَا فضل الله يُؤْتِيهِ مَن يشاء، وبعضُ النَّاسِ يَهَبُه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قُدْرَةً عَلَى التعبيرِ حَتَّى إن العبارات تكون بيدِه كالعجينِ، يُلان له القَوْل فِي كُلّ ما يريد، فتجده يستطيع حَتَّى لو أراد أن يُخْرِجَ لسانه كلمة لا يريدها بسرعة يجد بدلها، وبعض النَّاس لا يستطيع، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَهَبُ فَضْلَهُ مَن يشاءُ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شُكْرِهِ ﴿كَرِيمٌ﴾ بالإفضالِ عَلَى مَن يَكْفُرُها]، يعني مَن كفر ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾: غنيٌّ عن شُكْرِه صَحِيح، أو غني مُطلقًا، ومِن جملة ما هُوَ غنيٌّ عنه شُكْرُ هَذَا الْإِنْسَانِ عَلَى نعمةِ اللهِ، فإن الله تَعَالَى ما أنعمَ عَلَى العبادِ لحاجتِهِ إِلَى أن يَشْكُرُوهُ، بل لِفَضْلِهِ عليهم وظهورِ آثارِ أوصافه، وظهور صفاته العظيمة ما يَكُون إِلَّا بأفعالِهِ الَّتِي من جُمْلتها النعم أو النِّقَم أيضًا، لِتَظْهَرَ بذلكَ صفاتُ الانتقامِ والغضبِ.

وقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: أَنَّهُ قد يُبْقِي النعمةَ عَلَى مَن كَفَرَها تكرُّمًا منه أحيانًا، وأحيانًا استدراجًا، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حكيمٌ يَهَبُ فضلَه مَن يشاء، قد يُبْقِي اللهُ النعمةَ عَلَى الكافرِ بها استدراجًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران:١٧٨]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٢].

وقد يُبْقِي الله تَعَالَى النعمَ مَعَ الكفرِ تَرْبِيَةً، بحَيْثُ إِنَّ الْإِنْسَان يفتحُ الله عليه التأمُّل فيخجل من الله عَزَّوَجَلَّ أن يَكُون هُوَ يبادرُ الله تَعَالَى بالمَعاصِي، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُدِرُّ عليه النعمَ، فيَرْتَدِع، وهَذَا هُوَ ظاهر قوله: ﴿كَرِيمٌ﴾؛ لِأَنَّ الكرم فِي مقابل الكفر

لا يَكُون إِلَّا حَيْثُ يَكُون ذلك الكرمُ من مصلحةِ الكافرِ بها، وإِلَّا ما ظهر آثار الكرمِ، بل ظهر آثار الحِكْمَةِ، لو قَالَ: حكيم صار هَذَا يشمل من تدرّج الله به حَتَّى أهلكه، لكِن كريم: ما يَتِمّ الكرم للكافر بالنعمة إِلَّا حَيْثُ كَانَ إبقاء النعمة عليه مصلحةً له لأجلِ أن يعودَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ جنودَ اللهِ تَعَالَى وهم الملائكةُ، أَقْوَى من الجنّ؛ لِأَنَّ ذاك قَالَ: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، وهَذَا قَالَ: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فأيُّهما أسرعُ؟

الأخير بلَا شَكّ، ولا سواء؛ لِأَنَّ الَّذِي عنده علمٌ منَ الكتابِ عالمٌ ولا وسيلة له إِلَّا بالدعاءِ، والظَّاهر أَنَّهُ رجلٌ وَلَيْسَ من الجنّ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مفصولة عن قوله: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، والأَصْل أن الكَلام مَعَ الإنس، ولأن كُلّ قائل لَيْسَ من البشرِ لَا بُدَّ أن ينوّه عنه؛ لِأَنَّ الأَصْل أن البشرَ هم الَّذِينَ يتخاطبون، وهم الَّذِينَ يتفاهمون، فإذا كَانَ من غيرهم نوّه عنه مثلما نوّه عن الجنِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: كمالُ قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ كون هَذَا العَرْش العظيم يأتي من اليَمَنِ إِلَى الشامِ فِي لحظةٍ، لَا شَكَّ أَنَّهُ من تمامِ قُدرة الله الَّتِي لا يتصوّر الْإِنْسَان كيف تكون، الْآنَ هل يمكن أن نتصوّر كيف يجيء بهَذَا العَرْش مِنَ اليمن إِلَى الشام قبل أن يرتدّ للإِنْسَان طرْفه، لو كَانَ يطير طيرانًا أشدّ من الدُّخَان ما يتصور أَنَّهُ يأتي بهَذِهِ السرعةِ، ولا نتصور أن الْأَرْض طويت طيًّا حَتَّى التقى هَذَا بهَذَا أيضًا، فقُدْرَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُمْكِن للإِنْسَانِ أنْ يَتَصَوَّرَهَا، فتأتي فوق التصوّر، وهَكَذَا جميعُ صفاتِ اللهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤]، بقوله: (كُنْ) فيصير جميع الخلائق كلهم عَلَى ظهر الْأَرْض، مَن يتصور هَذَا؟! لا تستطيع أن

تتصوره، يعني أن الْإِنْسَان لا يتصور أن الْأَرْض تتفتح وتتشقق بـ(كن)، فالمهمّ أن هَذَا نموذج من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي عجز العقل مهما بلغ عن إدراكِ كُنْهِ قُدرةِ الله، وكذلك بقية صفاتِه، فأنتَ أيُّها الْإِنْسَان عِلْمُكَ محدودٌ، وطاقتك محدودةٌ، ولا يمكنُ أن تتجاوزَ أكثرَ ممَّا تشاهِد أو ممَّا أَطْلَعَكَ اللهُ عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فضلُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى سُلَيْمَان، حَيْثُ سَخَّر له أهلَ العلمِ والجنّ؛ الجنّ فِي أوَّل الأَمْر وصاحب العلم بَعْد ذلك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: هل قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ مبالغةٌ أو حقيقةٌ؟

نَقُول: حقيقةٌ، وإلا لقُلْنَا: إنَّهُ يجوز المبالغةُ فِي الأُمُورِ، ولكِن عَلَى كُلّ حالٍ المبالغةُ فِي الأُمُورِ قد وردتْ فِي غير هَذَا النصّ؛ أنَّ الْإِنْسَان يبالغُ وإنْ كَانَ لَيْسَ مقصودًا عَلَى سبيلِ الحقيقةِ، وقد جاء ذلك فِي الْقُرْآن وَفِي السنَّة أيضًا؛ المبالغة فِي الأُمُور.

• • ۞ • •

الآيــة (٤١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٤١].

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي: غَيِّـروه إِلَى حالٍ تُنْكِره إذا رأتْه]، والتنكيرُ يحصُل بتغييرِ أَدْنَى صفةٍ من صفاتِه، فإذا كانتْ قوائمُه طويلةً يمكن أن يقصر القوائم فيَكُون تنكيرًا، إذا كَانَ لون إحدى عواضده مثلًا أحمر فيمكن أن نجعله أخضرَ، يعني سواء هَذَا التنكير بالأجزاءِ أو باللونِ أو بالفرشِ الظَّاهرُ أن هَذَا داخلٌ فِي التنكيرِ. وقوله: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، ﴿نَكِّرُواْ﴾ فعلُ أمرٍ، ﴿نَنظُرْ﴾ مجزوم عَلَى أَنَّهُ جواب الأَمْر.

قوله: ﴿نَكِّرُواْ﴾ انظر العظمةَ، قَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿نَكِّرُواْ﴾ ولم يوجِّهِ الخطابَ إِلَى شخصٍ معيَّن، وهو ما يَدُلّ عَلَى أن كُلّ جنوده فِي طاعتِه؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ يَخشَى أن أحدًا من الجنودِ يَتَمَرَّد لكان يوجِّه الخطاب إِلَى شخصٍ معيَّن لأجل أن يُحْرِجَه فلا يستطيع أن يقولَ: لا، وهَكَذَا عظمـةُ السلطانِ تكون بمثـل هَذَا، فعندما يَقُول السلطان أو الأمير: القهوة يا ولد، فكُلّ الحاضرين يَفْزَعُون: قهوة قهوة، وتأتيه بسرعة. ففي قوله: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ نَقُول: هَذَا خطابُ عَظَمَةٍ، ولهَذَا قَالَ: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ﴾ إمَّا أَنَّهُ يقصد نفسه ويَكُون تعظيمًـا، أو مَعَ جنوده وحاشيته ينظرون جميعًا ﴿أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

وهَذَا كله أيضًا من أساليبِ الاختبارِ الَّذِي يَخْتَبِرُ به سُلَيْمَان هَذِهِ المَرْأَةَ كما اخْتَبَرَهَا أيضًا فيما يأتي فِي مسألةِ الصَّرْح.

وأمّا قول المُفَسِّر وغيره: إن رِجلها رِجل حِمار، فهَذَا من الإسرائيليات المكذوبةِ، فَقَدَمُها كَقَدَمِ غَيْرِها.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿نَنظُرْ أَنَهْتَدِىٓ﴾ إِلَى مَعْرِفَتِهِ ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إِلَى مَعْرِفَةِ ما يُغَيِّر عليهم، قصدَ بذلكَ اختبارَ عَقْلِها لمّا قيل له: إن فِيهِ شيئًا، فَغَيَّرُوهُ بزيادةٍ أو نقصٍ أو غير ذلك].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل تَزَوَّجها سُلَيْمان؟

عَلَى كُلِّ حَالٍ: هِيَ جَديرة بأن تُزَوَّج؛ لِأَنَّهَا أسلمتْ وكانتْ ذكيَّة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: التحدُّث بنعمةِ اللهِ تَعَالَى بإضافة النعمة إليه، لِقَوْلِهِ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ وهَذَا هُوَ الواجب شرعًا والمقتضَى عَقلًا؛ لِأَنَّ إضافة النعمِ إِنَّما تكون إِلَى مُسْدِيها ومُولِيها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ والثَّالثةُ: إثبات التعليل لأحكام اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الكونيَّة كما ثبت ذلك فِي الأحكامِ الشَّرْعِيَّة، يُؤْخَذ من اللامِ لِأَنَّهَا للتعليلِ، ففيه دليلٌ عَلَى تعليلِ أحكامِ اللهِ الكونيَّة، كما أنَّ أحكامَه الشَّرْعِيَّة كذلك مُعَلَّلَة، ويَتَفَرَّع عَلَى هَذِهِ الفائدة: الردّ عَلَى الجَهْمِيَّة الَّذِينَ يَقُولُونَ: إنَّ فعلَ اللهِ تَعَالَى لَيْسَ مُعَلَّلًا، إِنَّما يَفْعَلُ لمجرَّدِ المشيئةِ؛ إذا شاء فعلَ لحكمةٍ ولغيرِ حكمةٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: اختبار المرءِ بما يُظْهِرُ حقيقةَ أمرِه؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ

ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يجوزُ اختبارُه وإنْ كَانَ الْمُخْتَبِرُ يَعْلَمُ مآلَهُ، هل يمكن أن نأخذَ هَذِهِ الفائدةَ أو نَقُول: إن هَذَا خَاصّ بما يتعلق باللهِ؟

نَقُول: أَمَّا بالنِّسْبَةِ للهِ فهَذَا أمر واقع، لكِن بالنِّسْبَة للإِنْسَانِ فقد تختبر الْإِنْسَان وأنت تعرِف مآلَه، هَذَا يُنظر فِيهِ إِلَى المصلحةِ، قد يَكُون محرَّمًا كما لو أردتَ أن تُظْهِرَ ضعفَه أمامَ النَّاسِ وتُخْجِلَه، وقد يَكُون واجبًا كما لو كَانَ إِنْسَانًا داعيةً إِلَى ضلالةٍ وأردتَ أنْ تَخْتَبِرَهُ لِيَتَبَيَّنَ أمرُه للناسِ، وأنت تعرف أَنَّهُ لَيْسَ عنده جواب لما اختبرتَهُ به، لكِن تريد أن تُظْهِرَ للناسِ أمرَه، فَهُوَ بالنِّسْبَـةِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ممدوحٌ كلُّه؛ لِأَنَّ الله يعلم المآلَ، لكِن بالنِّسْبَةِ للإِنْسَانِ فاختباره عمّـا يعلم مآله عَلَى حسَب المصلحة والفائدة.

وفي هَذَا إشكال أَنَّهُ حَيْثُ قد يقال: أليس الله تَعَالَى يعلم بما يَؤُول إليه الأَمْرُ؟

فالجواب: بلى.

إِذَنْ: ما فائدةُ الاختبارِ وَهُوَ يعلم؟

لِيَتَرَتَّبَ الجزاءُ عَلَى ظاهرِ الحالِ؛ لِأَنَّ الله لو جازى الْإِنْسَان عَلَى ما يعلم من حالِهِ قبل أن يَبْلُوَهُ لكانَ ذلك ظُلْمًا فِي ظاهرِ الحالِ، فإذا ابتلاه فأطاع أو عصاه تَبَيَّنَ الأَمْرُ، فيَكُون هنا الفائدة عظيمة؛ وهي ظهور أثر هَذَا الشَّيْء للناس، وَأَنَّهُ لَيْسَ بظُلْمٍ منَ اللهِ تَعَالَى إذا خالف، وظهور أيضًا نعمة الله عَلَى العبد العاملِ إذا أطاع حَيْثُ يشكر الله سعيَه.

فالحاصل: أن الابتلاءَ بمثل هَـذِهِ الأُمُور نَقُول: فائدته أن يجريَ الجزاء عَلَى ظاهرِ الحالِ، لا عَلَى علمِ اللهِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وقد يُؤْخَذ منه أَنَّهُ لا يجوز للقاضي أن يحكم بعلمه؛ لِأَنَّهُ إذا كَانَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَهُوَ أحكمُ الحاكمينَ لا يحكم بمجرَّد العلمِ حَتَّى تظهر الآثار، فالقاضي من باب أولى.

ولهَذَا ذكر أهل العلم أَنَّهُ لا يجوز للقاضي أن يحكم بعلمه؛ لقول النَّبِيّ ﷺ: «إِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ»(١).

هَذِهِ الفائدة قد يقال: إنَّهَا تُؤْخَذ، وقد يقال: إن هَذَا توسُّع فِي الاستدلالِ وإن هَذِهِ الفائدة لا تُؤْخَذ من هَذِهِ الآيَة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَنبغي للإِنْسَانِ أنْ يُخاطِبَ نفسَه بما تَقْتَضِيهِ الحالُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ فإنَّنا ذكرنا أن قوله: ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ هَذِهِ العبارة شديدةٌ من أجلِ أنْ يَرْدَعَ نفسَه عن ممارسةِ كفرِ النعمةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الْإِنْسَان الَّذِي يشكرُ اللهَ لَيْسَ يُسْدِي إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نفعًا، أو يَدْفَع عنه ضررًا، وإنما هُوَ إذا شكر فَإِنَّمَا يشكر لنفسِهِ، فالمصلحةُ لنفسِه وليستْ لله.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الشاكرَ يُثاب؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ ولم يقلْ: (عن نفسه)، فدلَّ ذلك عَلَى أن للشاكرِ ثوابًا يُجازَى به، وَهُوَ كذلك.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن العاملَ عَمَلُه له، وَلَيْسَ لغيرِهِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحيل، باب إذا غصب جارية فزعم أَنَّهَا ماتت فقضي بقيمة الجارية الميتة ثم وجدها صاحبها فهي له ويرد القيمة ولا تكون القيمة ثمنًا، حديث رقم (٦٥٦٦)؛ ومسلم، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، حديث رقم (١٧١٣)، عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

لِنَفْسِهِۦ﴾، إِلَّا أَنَّهُ قد يُؤْخَذُ منه مُقَاصَّةً، كما جاء فِي الحديث الصَّحيح[1] فِي المفلِسِ الَّذِي يأتي يوم القيامة بحسناتٍ أمثالِ الجبالِ وقد ظَلَمَ هَذَا وأخذَ مالَ هَذَا، فيأخذ هَذَا من حسناتِهِ، وهَذَا من حسناتِه، وإِلَّا فثوابك لك، ما يُمْكِن أن أحدًا يعتدي عليه أبدًا أو يأخذه، فَهُوَ مدَّخر عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والصدقةُ عن الميِّت من عملك؛ لأنك أنت الَّذِي اخترتَ أنْ يتحوَّلَ إِلَى هَذَا الميت ولكِن لا يؤخَذ منك، وَأَمَّا إذا أردتَه أنت فهَذَا من عملِكَ؛ لِأَنَّ عَمَلَكَ قد تريده لنفسك أو لغيرِكَ، وهَذَا أيضًا مقيَّد بما جاءتْ به السنَّة.

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ ما قَالَ: ومَن كفرَ فَإِنَّمَا يَكْفُرُ عَلَى نفسِهِ كما قَالَ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ لِأَنَّ رحمة الله تَعَالَى سبقتْ غَضَبَه، وإِلَّا فالحقيقة أنَّ مَن كفرَ فعلى نفسِه، مثلما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦]، لكِن أحيانًا يَكُونُ السياقُ يَقتضِي خلافَ ذلك، فهنا يَقُول: ﴿مَن كَفَرَ﴾ فَإِنَّهُ لا يضرُّ اللهَ شيئًا؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى غنيٌّ عنه وعن شُكْرِهِ، وَهُوَ مَعَ ذلك كريم، قد يجود عَلَى الكافرِ بالإمهالِ لعلَّه يشكر، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

الفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الردُّ عَلَى الجَبْرِيَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لِأَنَّهُ أضاف الشكرَ إِلَى نفسِه، وَلَيْسَ فِي الآيَة ردٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّة؛ لِأَنَّ قوله: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ﴾ هَذَا من فعل اللهِ، فالعطاءُ من فضلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَهُوَ لا يتحدَّث عن عَمَلِهِ، لم يَقُلْ: إنَّ عملي منَ اللهِ، بل قَالَ: هَذَا العطاءُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

• • ✿ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلاة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: امتحانُ الغيرِ بما يُعْرَف به ذكاؤُه وفِطْنَتُه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾، وقد سبقَ أن المُراد بِتَنْكِيرِهِ تغييرُه، والعِلَّة فِي ذلك قوله: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، ﴿أَتَهْتَدِيٓ﴾ أتعرِف أمْ تكون من الَّذِينَ لا يَعرفون، وكيف تعرف أو لا تعرف؟

لِأَنَّهُ لو بَقِيَ العَرْش عَلَى ما هُوَ عليه لعَرَفَتْهُ، ولو غُيِّرَ نهائيًّا لكان لها العُذْر فِي ألَّا تَعْرِفَه، ولكِنه إذا غُيِّرت صِفَتُه وبقِي أصلُه حينئذٍ يُعْرَف به ذكاؤها هل تعرفه، والمقام فِي الحقيقة هنا مقام مُدْهِش، لَيْسَ مقامًا عاديًّا طبيعيًّا؛ لِأَنَّهَا هِيَ سوفَ تَستبعد أن يُؤتَى بعرشها وَهُوَ محفوظ فِي مكانه ومحروسٌ ثُمَّ يُؤتى به إِلَى سُلَيْمان، ثُمَّ أيضًا لعلَّها حسَب الطبيعةِ والعادةِ تَستبعِد جدًّا أن يَسبقَها العَرْش، مَعَ أن الظَّاهرَ أَنَّهَا أتتْ إِلَى سُلَيْمان بأسرعَ ما يمكنُ منَ السيرِ.

فعَلَى كُلِّ حَالٍ: هَذَا التنكيرُ سوفَ يَدُلّ عَلَى دهائِها وعقلها، والأَمْر سيأتي بَيَانه إن شاء الله قريبًا.

وقوله تَعَالَى: ﴿أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ مثل قولِه للهدهد: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧]، ما قَالَ: أم لا تهتدي، بل قَالَ: ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي هَذَا الامتحانِ أيضًا إشارةٌ إِلَى أَنَّهَا إذا كانتْ تعرِفُ عرشها مَعَ تغييرِه فكيف لا تعرِف أن الَّذِي يَستحِقُّ العِبادَة هُوَ اللهُ؛ لِأَنَّهَا هِيَ وقومها يسجدون للشمسِ من دونِ اللهِ كما مرَّ، فإذا كانتْ هِيَ تعرف عرشها مَعَ تنكيرِهِ فَإِنَّهُ

لَا شَكَّ أنَّ مَعْرِفَتها بأنَّ الله تَعَالَى هُوَ المستحِقّ للعبادة من باب أَولى، فهَذَا وجهٌ من أوجهِ الاختبارِ فِي هَذِهِ القصّةِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل تصرُّف سُلَيْمان فِي عرش ملكةِ سبأ جائز؟

فالجواب: يجوز للمصلحةِ، أي لمصلحةِ الغيرِ؛ لِأَنَّ هَذَا التصرُّف لمصلحتها هي، وقد يقال: إن سُلَيْمان ﷺ تَصَرَّفَ فِيهِ بناءً عَلَى أَنَّهَا لم تُظْهِرْ إسلامَها بعدُ، وأنها إِلَى الْآنَ وهي فِي حربٍ، فلم يَسْتَقِرَّ الأَمْر بَعْد وإِلَى الْآنَ ما عَلِمَ ولا تحقّق، مَعَ أَنَّهُ يقولُ: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، لكِن قد يَكُونون مسلمينَ لله أو مستسلمينَ له.

وَعَلَى كُلّ حالٍ: لا يُحْكَم عليها إِلَّا بَعْد أن تُظهِر إسلامها.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٤٢].

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ أي: أمِثْلُ هَذَا عرشك؟ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ فعَرَفَتْه].

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ يَعْنِي: إِلَى سُلَيْمَـان ونظرتْ إِلَى العَرْش قيل لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ والقائل إمَّا سُلَيْمَـان أو أحدُ جُنُودِهِ، ولم يُبَيَّنْ؛ لِأَنَّ المقصـودَ معنى هَذَا القَوْل دون قائله.

وقوله: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ الاسْتِفْهام هنا عَلَى حقيقتِه، والمُراد به الاستخبار، والهاء للتنبيه، والكاف حرف جرٍّ، حالتْ بين هاء التنبيه واسم الإشارةِ، مَعَ أن هاء التنبيهِ تَقْتَرِنُ باسمِ الإشارةِ، لكِن الكاف تَحُول بينها وبينَ اسمِ الإشارةِ لمباشرةِ حرفِ الجرِّ للمجرور، ولكِن أيضًا هُوَ خَاصّ بالكافِ، لو أنَّك أتيتَ بحرفِ جرٍّ سِوَى كافٍ ما جازَ أنْ تَفْصِلَ بينه وبينَ اسمِ الإشارةِ، لو قلت مثلًا: (أهلذا) حضرتَ؟ لا يصحُّ، يعني ما يُفصَل بيـن اسمِ الإشارةِ وبيـنَ هاءِ التنبيـهِ بأيِّ حرفٍ من حروفِ الجـرِّ إلَّا بالكاف فقط.

إِذَنْ نَقُول: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ الجارُّ والمجرورُ خبرٌ مقدَّمٌ، وعرشك مبتدأ مؤخَّر،

وتقديم الخبر هنا جائز وليس بواجبٍ؛ لأجل الاسْتِفْهامِ؛ لِأَنَّ له الصَّدارَةَ.

وهنا ما قَالُوا: أَهَذَا عرشك؟ بلْ قَالُوا: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ يعني هل عَرْشُكِ مثل هَذَا؟ هِيَ أجابت بمثل ما سُئِلَتْ عنه، فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ و(كأنَّ) للتشبيهِ، ولم تقل: إنَّهُ هُوَ، ولم تنفِ السَّبَب لأَنَّهُ مشابِهٌ لعرشها من حَيْثُ الأَصْلُ، ومخالِف له من حَيْثُ الصِّفةُ؛ لِأَنَّهُ غُيِّر، وهَذَا أيضًا من ذكائها أَنَّهَا لمَّا وقع فِي نفسها أَنَّهُ عرشها لكِن تغيَّرتْ صِفته قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ والجوابُ مطابِقٌ للسؤالِ، والمُفَسِّر سَلَكَ فِي هَذَا مَسْلَكًا غريبًا؛ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَعَرَفَتْه وشَبَّهَتْ عليهم كما شَبَّهُوا عليها، إذْ لم يَقُلْ: أَهَذَا عَرْشُكِ؟ ولو قيل: هَذَا لقالتْ: نعمْ]، قوله: شَبَّهَتْ عليهم، أي: لَبَّسَت عليهم، وَلَيْسَ المُرادُ التشبيه، وجوابها مطابِق للسؤالِ ومطابِقٌ لِمُقْتَضَى الحالِ، أَمَّا مطابقته للسؤالِ فلأنه قيل لها: ﴿أَهَٰكَذَا﴾ يعني أهو مثل هَذَا؟ فَكَانَ الجواب: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، وَأَمَّا مطابقته لمقتضى الحال فلأن المَرْأَةَ رأتْ أنَّ العَرْش قد غُيِّر، فلم تَجْزِمْ بِنَفْيِهِ ولم تَجْزِمْ بإثباتِه، فإن نُظِر إِلَى أصلِ العَرْش فَهُوَ هو، وإن نُظِرَ إِلَى صِفَتِهِ فليسَ إيَّاه، لذلك كَانَ جوابها جيدًا جدًّا، وَلَيْسَ فِيهِ تشبيه كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولو قَالُوا: أَهَذَا عَرْشُكِ، لا ندري هل تقول: نعم أو تقول: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾؟

وجَزْمُ المُفَسِّر بأنها تقول: نعم، لَيْسَ بصحيحٍ؛ لِأَنَّ المَرْأَة ذكيَّة جدًّا، والْإِنْسَان إذا حصلَ له مثل هَذِهِ الحالِ فإنه لا يَجْزِم بأن ما شاهده هُوَ ما كَانَ يعرفه من قبل، بل إنَّ مُقْتَضَى الحزمِ والتحرُّز أن يقولَ: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، هَذَا مُقْتَضَى الحزمِ، لا سيما مَعَ القرائنِ الَّتِي تُبْعِدُ أَنْ يَكُونَ إيَّاه كما فِي هَذِهِ القصةِ، فَإِنَّهُ عرش مَحُوط مَحْرُوس من مكانٍ بعيدٍ، فيَبْعُد أن يَمْثُلَ أمامها فِي هَذِهِ الحالِ.

المهمُّ الْآنَ أننا نأخذ من جوابها هَذَا ذكاءها من وجهينِ:

أولًا: أَنَّهَا أجابتْ بجوابٍ مطابِقٍ للسؤال.

وثانيًا: أَنَّهَا أجابتْ بجوابٍ مطابِقٍ لمقتضَى الحالِ؛ إذ الجزمُ بهَذَا تسرُّع، ونفيه تباطُؤٌ أيضًا لاحتمالِ أنْ يَكُونَ إيَّاه.

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قال سُلَيْمان لَمَّا رأى لها معرفةً وعِلمًا: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾]، ووجهُ ارتباطِ هَذِهِ الجملةِ بما سبقَ أن سُلَيْمان أرادَ أنْ يَتَحَدَّثَ بما أنعمَ اللهُ به عليه منَ العلمِ، والعلمُ يشملُ العلمَ الشَّرْعِيَّ ويشملُ العلمَ بقواعدِ المُلْكِ ومُثَبِّتَاته، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، يَعْنِي: كَأَنَّ الملأ من قومه لَمَّا رأَوْا ما رأوا من ذكائها ومعرفتها وتحرُّزها وتثبُّتها رأوا أمرًا عظيمًا، فأراد سُلَيْمان ﷺ أن يُذَكِّرَهُمْ بما هُوَ أعظمُ من ذلك، وَهُوَ ما آتاهم الله تَعَالَى منَ العلمِ السابقِ والإِسْلامِ ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

ويرى بعضُ المفسِّرين أن قوله: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ من قول المَرْأَة وأن المسألةَ متَّصِلة، ويَكُون قوله: ﴿مِن قَبْلِهَا﴾ أي: من قبل هَذِهِ القضية، أي أننا عندنا علم من قبلِ هذه القضيةِ، فلا تعجبوا من عِلْمِنَا بهَذَا فإنَّ لنا عِلمًا سابقًا، ولكِن هَذَا الاحتمال وإن ذُكِرَ بعيدٌ، والصَّوابُ أنَّ هَذَا من قول سُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يتحدث فِيهِ بنعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه وَعَلَى قومه السابقة لمعرفة هَذِهِ المَرْأَة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إن قولـه: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ يَـدُلّ عَلَى أن قائـل: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ هُوَ سُلَيْمان ﷺ لا أحد جنوده؟

فالجواب: مُحْتَمَل، لكِن لا يَتَعَيَّـن من قوله: ﴿وَأُوتِينَا﴾؛ لِأَنَّهُ قد يقوله أحـد جنوده، ثُمَّ يتكلم سُلَيْمَـان بَعْد ذلك بعدَما تَحْصُل هَذِهِ المشاهدةُ، فيقول: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: التَّوْرِيَة فِي الكَلام، وَهُوَ أَنْ يُظْهِرَ الْإِنْسَانُ شيئًا غيرَ ما يريدُ، فإن قولهم: ﴿أَهَٰكَذَا﴾ تَوْرِيَة؛ لِأَنَّ حقيقةَ الأَمْرِ أن العَرْش الَّذِي بين أيديهم هُوَ عرشها، فَكَانَ مُقتضى الاسْتِفْهام أَنْ يَقُولُوا: (أَهَذَا عرشُكِ؟) لكِن أَتَوْا بصيغة التورية لإبعاد الأَمْرِ؛ لِأَنَّهُ كونها عرشها قد تتسرَّع وتقول: لا؛ لِأَنَّهَا تَسْتَبْعِد أن يَكُونَ العَرْش قد حَضَرَ فِي هَذِهِ المدَّة وعليه الحرسُ وعليه المغاليقُ، فقيل لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الجوابَ يَنبغي أنْ يَكُونَ مطابِقًا للسؤالِ؛ لِأَنَّهَا قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ بالتشبيه ولم تقلْ: هو.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ذكاءُ هَذِهِ المَرْأَةِ باحترازِها ممَّا يُخْشَى أنْ يَكُونَ خَطَأً؛ لِأَنَّهَا لو قالتْ: لا، فقد يَكُون هو، ولو قالتْ: نعم، فقد يَكُون غيره، فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ فاختارتْ هَذَا للسببينِ اللَّذَيْنِ ذكرناهما فِي التفسير.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ ينبغي للإِنْسَانِ أن يَتَحَدَّث بنعمةِ اللهِ تَعَالَى عليه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ لِأَنَّ الصَّحيحَ أَنَّ هَذِهِ الجملةَ من كلامِ سُلَيْمان، وإن كَانَ بَعْضُهُم ذكرَ احتمالًا أَنَّهُ من كلامها، لكِن الصَّحيح أَنَّهُ من كلامِ سُلَيْمَان، ولا يمكن أن يقالَ: إنَّ القائل هُوَ الله جَلَّ وَعَلَا، فاللهُ جَلَّ وَعَلَا لا يَصِفُ نفسَه بأنه مسلمٌ، ثُمَّ إِنَّهُ قَالَ: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ ولم يقل: وآتَيْنَا.

الآيــة (٤٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل:٤٣].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَصَدَّهَا﴾ عن عبادةِ اللهِ ﴿مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾]، إذن ﴿مَا﴾ فِي قوله: ﴿مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إعرابها فاعل، يَعْنِي: صَدَّها الَّذِي كانت تعبد من دون اللهِ، ويَحتمِلُ أن تكونَ ما مصدريَّةً، أي: وصَدَّها كونها تَعْبُدُ من دون اللهِ، لَكِنَّهُ وإن كَانَ سائغًا لغةً لَكِنَّهُ لَيْسَ له محَلّ هنا، فـ﴿مَا﴾ هَذِهِ اسْم موصول.

وَقِيلَ: إن ﴿وَصَدَّهَا﴾ الفاعل يعود عَلَى سُلَيْمان، أي أن سُلَيْمان مَنَعها ما كانت تعبدُ من دونِ اللهِ، أي: منعها عمَّا كانتْ تعبدُ من دونِ اللهِ بسببِ ما رأتْ من المُلك العظيم الَّذِي لِسُلَيْمان عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولكِن الأوَّل أَوْلَى بالسياق أنَّ (ما) فِي قوله: ﴿مَا كَانَت تَّعۡبُدُ﴾ فاعل، لكِن نحن لا بأسَ أن نذكرَ الاحتمالَ؛ لِأَنَّهُ ربما عند التأمُّل يَظهَر أن هَذَا الاحتمال صحيحٌ.

وقوله: ﴿مَا كَانَت تَّعۡبُدُ﴾ الَّذِي كانتْ تعبدُ من دونِ اللهِ هو الشَّمْسُ، والعائدُ عَلَى ﴿مَا﴾ الموصولةِ محذوفٌ، والتَّقْدير: (ما كانت تعبدُهُ من دونِ اللهِ)، و(صَدَّ) بمعنى صَرَفَ، ومناسبةُ قولِه: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لِمَا سَبَقَ أَنَّهُ يُقال: إنَّهُ كالجوابِ عن سؤالٍ مقدَّر وَهُوَ إذا كانت هَذِهِ المَرْأَة بهَذَا الذكاء وهَذِهِ المعرفة فلماذا لم تَعْبُدِ اللهَ، مَعَ ظهور أنَّ العِبادَة لله وحدَه؟

فبيَّنَ أن الَّذِي صدَّها عن عبادةِ اللهِ أَنَّهَا اشتغلتْ من أوَّل أمرها بعبادة غيرِ اللهِ؛ لِأَنَّهَا كانت من قومٍ كَافِرِينَ، فنشأتْ فِي بيئةٍ كافرةٍ واشتغلتْ بعبادةِ المخلوقِ عن عبادةِ الخالقِ، وقد أخبرَ النَّبيّ ﷺ: «إِنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»(١).

فَكَأن هَذِهِ المَرْأَةَ مَعَ كونها ذكيَّةً وفاهمةً وعندها احترازٌ وتحفُّظٌ، كأنها مَعَ ذلك إِنَّمَا عَدَلَتْ عن عبادةِ اللهِ مَعَ ظُهُورِها ووُضُوحِها لسببِ انشغالها بالباطلِ، والنفس لَا بُدَّ أن تكونَ مشغولةً إمَّا بالحقِّ وَإِمَّا بالباطلِ، ولا بد أن تكون كاسبةً، إمَّا كاسبة حرامًا أو حلالًا، إن أخذتْ ما لا حقَّ لها فِيهِ فهي كاسبةٌ حرامًا، وإنْ أخذتْ ما لها حقٌّ فهي كاسبةٌ حلالًا.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ يعني بيئتها منذُ نَشَأَتْ وهم كافرونَ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعبدون الشَّمْسَ، فلهَذَا اشتغلتْ بعبادةِ غيرِ الله عن عبادة الله. وسيأتي إن شاء الله ما فِي هَذِهِ الجملةِ من الفوائدِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الْإِنْسَان لَا بُدَّ أن يشغلَ نفسَـه، أو لَا بُدَّ أن تكون النفس مشغولة إمَّا بحقٍّ وَإِمَّا بباطلٍ، فهَذِهِ المَرْأَة انشغلتْ بالباطلِ عن الحقِّ، وقد قيل من الحِكَم: (إنْ لم تَشْغَلْ نفسَكَ بالحقِّ شَغَلَتْكَ بالباطِلِ). وَقِيلَ أيضًا: (الوقت كالسيفِ، إنْ لم تَقْطَعْهُ قَطَعَكَ)، وهَذَا صحيح. وَفِي الحديث الصَّحيح أن النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «كُلُّكُمْ

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، حديث رقم (١٣١٩)؛ ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كُلّ مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، حديث رقم (٢٦٥٨)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حَارِثٌ وَكُلُّكُمْ هَمَّامٌ»[١]. فلا بدَّ للإِنْسَانِ أنْ يهمّ ويَعْمَل، لكِن إمَّا بخيرٍ أو بغيرِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن البيئة لها تأثيرٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾، فهؤُلَاءِ القوم أَثَّرُوا عليها فصارتْ كافرةً تعبد مَعَ الله غيرَه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التحذير من مُصاحبةِ الأشرارِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ حَتَّى لو كانوا من أقاربِك فلا ينبغي أن تصاحبَهم، وإذا كَانَ لهم حقٌّ عليك بالقرابةِ فأعطِهِمْ حقَّهم الَّذِي لهم، ولكِن لا تكن مخالِطًا لهم ومصاحِبًا لهم؛ لِأَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ فيما يُرْوَى عنه، وَهُوَ حديث حسنٌ: «**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»[٢]. وهَذَا شيءٌ واقعٌ، يَشْهَدُ له التاريخُ السابقُ والحديثُ.

مسألة: هل البيئة تُعتبَر عُذرًا للإِنْسَانِ؟

البيئة لا تعتبر عذرًا؛ لِأَنَّ الواجبَ عَلَى الْإِنْسَان أن يفارقَ هَذِهِ البيئةَ، ولهَذَا وجبتِ الهجرةُ عَلَى مَنِ استطاع أن يهاجرَ، ولكِنَّ الرَّسُولَ لَمَّا يَقُول: «**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[٣] فإنه يُخْبِرُ، والخبرُ لا يَلْزَم منه الجوازُ، فقد قَالَ ﷺ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»[٤] وهَذَا خبرٌ، فهل معناه أَنَّهُ يجوز أن نفعلَ؟! وقَالَ:

---

(١) قال السخاوي في المقاصد الحسنة (١/ ٥١٠): حديث كلكم حارث وكلكم همام، ذكره الحريري في صدر مقاماته وجعل معوله فيها ويقرب منه: «أصدق الأسماء حارث وهمام».

(٢) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، حديث رقم (٤٨٣٣)؛ والترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في أخذ المال بحقه، حديث رقم (٢٣٧٨)؛ وأحمد (٢/ ٣٠٣) (٨٠١٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النَّبِيّ ﷺ: «لتتبعن سنن من كَانَ قبلكم»، حديث رقم (٦٨٨٩)؛ ومسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، حديث رقم (٢٦٦٩)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَقُومَ الظَّعِينَةُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ»[1]. فهل معنى ذلك أَنَّهُ يجوز للمرأةِ أن تسافرَ بدونِ مَحْرَمٍ؟ لا. فما أخبر به النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مما يقع لا يَلْزَم منه الجواز.

• • ۞ • •

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٤١٦)، عن خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيـة (٤٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قِيلَ لَهَا﴾ أيضًا ﴿ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾]، والقائل كما قُلْنَا: مُبهَم؛ إمَّا سُلَيْمَان أو غيره، وهَذَا الصرح يَقُول المُفَسِّر: [هو سطحٌ من زُجاج أبيض شفَّاف، تحته ماء عَذْبٌ جارٍ، فِيهِ سمك اصْطَنَعَهُ سُلَيْمَان لَمَّا قيل له: إن ساقَيْها وقَدَمَيْها كقَدَمَي الحِمَارِ]، أَمَّا قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه سطح من زجاج أبيض؛ فهَذَا صحيحٌ أنه سطح من زجاج أبيض، والأَصْل فِي الصرحِ أَنَّهُ البناء العالي كما قَالَ فرعون لهامان: ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ [غافر:٣٦]، لَكِنَّهُ يطلق عَلَى السطح وإن لم يكنْ عاليًا، وهَذَا عبارة عن سطح من زجاج وتحته ماء، يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه جارٍ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الآيَةِ ما يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ جارٍ، لكِن أخذ كونه جاريًا من قوله: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ لأنَّ اللُّجَّة هِيَ أمواجُ البحرِ المتردِّدة؛ لِأَنَّ كُلّ شَيْء متردد يُسمَّى لجَّة، ومنه: اللَّجَّة: تردد الأصوات وارتفاعها.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيه سمك]، لَيْسَ بشرطٍ أن يَكُون فِيهِ سمك؛ لِأَنَّ اللجة قد يَكُون فيها سمك وقد لا يَكُون، وقد يَكُون فيها سمك بعيدٌ لا يُرى.

وكذلك أيضًا قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه ماء عَذْبٌ، لا يوجد دليل عَلَى أَنَّهُ عذب ولا أَنَّهُ مالِح، فلا ندري. المهمُّ أَنَّهُ ماء، بدليل ما يأتي، والماء العَذْبُ يَبقَى فِيهِ السمكُ ما شاء الله، اللهمَّ إِلَّا إذا كانت هناك أسماك خاصَّة بالماء المالِح، لا ندري.

المهم عَلَى كُلّ حالٍ: كُلّ هَذَا لا داعيَ له، حَتَّى لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّهُ لَيْسَ تحته ماء، وإن هَذَا الزجاج يعطي كأنه ماء بسبب مثلًا أضلاع فِيهِ أو شَيْء آخر، لو قيل بهَذَا لم يكنْ بعيدًا؛ لِأَنَّهُ ما يَتَعَيَّن أن يَكُون تحته ماء، لكِن نحن إن تنازلنا وقُلْنَا: إن قوله: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي: زجاجًا شفّافًا، وكانت تظنه بحرًا.

وأما قوله: [لَمَّا قيل له: إن ساقيها وقدميها كقَدَمَي الحِمار]، يَقُولُونَ: إن الجنّ لَمّا أنَّ سُلَيْمان أَعْجَبَتْه هَذِهِ المَرْأَةُ همّ أنْ يَتَزَوَّجها فحَسَدُوها عَلَى ذلك، فقالوا له: إن قدميها وساقيها قدما دابَّة وساقا دابة، وجعلوها أيضًا حِمارًا لِأَنَّهُ أقبح، وهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، وإنما المقصود من هَذَا الصرحِ اختبارُ المَرْأَةِ أيضًا؛ لِأَنَّهُ لما قيل: ﴿ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ هِيَ فِي الحقيقة إذا كانت تَحْسَبُه لُجَّة، فإذا كانتْ جبانةً لا تدخل أصلًا، وإذا كانت مُغَفَّلَةً دخلتْ وثيابها نازِلة، وإذا كانت حازِمة وشجاعة دخلت ورفعتْ عن ساقيها. ثُمَّ هِيَ أيضًا من ذكائها أَنَّهَا تعلمُ أَنَّهَا ما أُكرمت وَقِيلَ لها: ﴿ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ وهي سَتُدْخَل فِي بحرٍ لجيٍّ يُغْرِقها، فعَلِمَتْ أن هَذَا البحرَ أن غايةَ ما فِيهِ أن يصل إِلَى رُكْبَتِها أو نحو ذلك، وَأَنَّهُ لا يمكن أن يَكُونَ بحرًا لُجِّيًّا عَميقًا؛ لِأَنَّهَا قيل لها عَلَى سبيلِ الإكرام: ﴿ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾، فالمهمُّ أن هَذَا أيضًا اختبارٌ ثانٍ لذكائها وحَزْمها وشجاعتها. وَأَمَّا أن رجلها رِجل حمارٍ فهَذَا كذِب بلَا شَكّ، والأَصْل فيها أَنَّهَا امرأةٌ مثل بنات آدمَ لَيْسَ فيها شيءٌ من هَذَا.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ منَ الماء ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾]، وهَذَا

لَا شَكَّ أَنَّهُ يَدُلّ عَلَى حَزمها وقوَّتها وشجاعتها؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان الغريب إذا حصل له مثل هَذَا الأَمْر قد يتوقف ويقول: ما أدري، أَخْشَى أنْ يَخْدَعُوني فأقع فِي هَذَا وأموت، لَكِنَّها قويَّة وحازمة أيضًا، أقدمتْ عَلَى الدخولِ لكِن مَعَ الاحترازِ عن الأذيَّة؛ حَيْثُ رفعت عن ساقيها.

والرفع عن الساقين قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: يُؤخَذ منه جواز إظهار المَرْأَة لساقيها؟

فَنَحْنُ نَقُول: أولًا لا يؤخذ منه ذلك؛ لِأَنَّهُ هنا فعلته للحاجة، وكشف المَرْأَة ساقيها للحاجة لا بأس به، حَتَّى فِي شريعتنا إذا احتاجت المَرْأَة إِلَى كشف ساقيها فِي مثل هَذِهِ الحالِ فلا حرج فيه؛ لِأَنَّ ما حُرِّم تَحْرِيمَ الوسائل تبيحه الحاجات، كما هُوَ مُقَرَّر فِي علمِ الأصولِ.

ولهَذَا يجوز النظرُ إِلَى العورة لأدنى حاجة، حَتَّى إنَّهُم قَالُوا: يجوز أن يحلق عانة مَن لا يُحْسِن حلق عانتِه، وهَذَا بالضَّرورَة سوف يَكشِف العانة لتحلقَ.

فالحاصل: إن كانت شريعة سُلَيْمَان تُبيح مثل ذلك فلا دلالة فيه، وإذا كانت لا تُبيحه فَإِنَّهُ أيضًا لا يخالف شريعتنا؛ لِأَنَّ الحاجة هنا تدعو إليه.

قَالَ الْمُفَسِّر: [﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لتخوضه، وَكَانَ سُلَيْمَان عَلَى سريره فِي صدر الصرح فرَأَى ساقيها وقَدَميها حِسانًا]، اطمأنَّ الْآنَ الرجلُ! ولَكِنَّهَا لَيْسَ كما قَالَ الْمُفَسِّر، لَيْسَ الغرض من هَذَا أن يَتَبَيَّنَ لسُلَيْمَان هل رجلها رجل حمار أو رجل آدميَّة، لا، الغرضُ أن يَعْرِف بهَذَا ذكاءَها وفِطْنتها وشجاعتها، وكلّ ما تدلُّ عليه هَذِهِ الصورةُ من معنى يعود إِلَى المَرْأَة فَإِنَّهُ يريده سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَالَ الْمُفَسِّر: [﴿قَالَ﴾ لها ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مُمَلَّس ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ من زُجاج]،

هَذِهِ الجملة أيضًا تفيد أَنَّهُ قُصِدَ به مَعَ اختبارها وامتحانها إظهارُ عظمةِ مُلك سُلَيْمان، مثلما قُصِدَ بإحضارِ العَرْش هَذَا المقصد ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ فتبين بذلك أمران:

أحدهما: عظمة مُلك سُلَيْمان، حَيْثُ إن الزجاج يُصنَع له حَتَّى يَكُون كالبحرِ اللُّجِّيِّ.

وثانيًا: الإشارة إِلَى أن هَذِهِ المَرْأَة وإن كانت ذكيَّة وعاقلةً وحازمةً فإنها يَخْفَى عليها الأَمْرُ؛ لِأَنَّهَا حَسِبَتْ أن هَذَا الزجاجَ لُجَّة منَ الماءِ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ كذلك، ففيه نوعٌ من إظهارِ ضَعْفِها أيضًا، حَيْثُ إِنَّها ظَنَّت الأَمْر عَلَى خلافِ ما هُوَ عليه، وسيأتي إن شاء الله تَعَالَى فِي فوائد الآيَات.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ حينئذٍ عرفتْ مكانَتَها وعرفتْ مكانةَ سُلَيْمان، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ودعاها إِلَى الإِسْلام]، لَيْسَ فِي الآيَةِ ما يَدُلّ عليه، بل إن الظَّاهر أَنَّهَا بما شاهدتْ ألجأها ما شاهدته إِلَى أنْ تُسلِمَ؛ لِأَنَّهَا شاهدتْ أمورًا منها: إتيان عرشها، ومنها: هَذَا الصرحُ العظيمُ الممرَّد مِنَ القواريرِ، ومنها أيضًا: أن سُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَخْبَرَهَا بعظمتِه وقُوَّتِه، حَيْثُ إنَّ هَذَا الصرح الممرَّد من القوارير وَلَيْسَ ماءً.

حينئذٍ اعترفتْ فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بعبادة غيرك]، وعبادة غيرِ اللهِ من أعظمِ الظلمِ، قَالَ الله تَعَالَى عن لقمان حين قَالَ لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]؛ لِأَنَّ أعظم الظلم أن تَتَسَلَّط عَلَى مَن حقّه أبين وأوضح، ولا أبين وأوضح من حق الله عَلَى العبادِ، لهَذَا كَانَ الشرك أظلم الظلمِ.

فعندما تخاصم إِنْسَانًا وأنت تعرف أن الْحَقّ له لا لك تُعَدُّ ظالمًا، وعندما يشتبه عليك الأَمْر بحيث ترجح ثمانين فِي المِئَة أَنَّهُ له، وعشرين فِي المِئَة أَنَّهُ لك، يَكُون هَذَا الظلم أخف من الأول، وعندما يَكُون خمسين فِي المِئَة لك وخمسين فِي المِئَة له يَكُون أخف من الثاني، وعندما ترجح ثلاثين فِي المِئَة له وسبعين لك يَكُون أخف وهَكَذَا.

فالمهم: أن الظلم يَكُون أقبح وأشنع بحسب ظهور الْحَقّ وبَيَانه، وأظهر الحقوق وأبينها عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيَكُون أظلم الظلم الإشراك مَعَ الله؛ أن تشركَ مَعَ اللهِ أحدًا، ولهَذَا تقول: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾.

إِذَنِ: النفس عندك أمانة، يَجِب عليك أن تسعى لها بما فِيهِ خيرُها، فأنت يَجِب أن تسعى لنفسك بما هُوَ خيرٌ لها، فإن تجرَّأتَ عَلَى ما لَيْسَ لك فقد ظلمتَ نفسَكَ، أو فرَّطت فيما يَجِب عليك، فقد ظلمتَ نفسَك، وإذا كنت لا تستطيع أن تَتَصَرَّفَ فِي بَدَنِكَ بما تريد فكيف تستطيعُ أن تتصرَّف فِي فِعلك بما تريد.

فلو أن إِنْسَانًا قَالَ لشخصٍ: أنا سأعطيك إصبعي اقْطَعْه وضَعْهُ فِي يدِكَ الَّتِي نَقَصَ مِنْهَا إصبعٌ، فلا يجوز، فهَذَا حرام، ولو قَالَ: سَأَقْلَعُ عيني لك وضعها فِي عينك الَّتِي لا تَرَى فلا يجوز، ولو كَانَ لضرورةٍ، أَمَّا الدم فَإِنَّهُ يجوزُ التبرُّع به لِأَنَّهُ مَنفعة، أَمَّا الكُلَى فلا يجوز؛ لِأَنَّهُ ضررٌ عليك، ولا تفكِّر أن الله جَلَّ وَعَلَا يخلُق شيئًا عَبَثًا، وثانيًا لا يمكن أن يَكُون عمل كُلْيَةٍ واحدةٍ كعمل كُليتينِ، وثالثًا: لا يُؤْمَن أنْ يَلْحَقَ الكُلْيَةَ الَّتِي بَقِيَتْ عَطَبٌ، المهمُّ أَنَّهُ إذا كَانَ هَذَا لا يمكن فِي جِسْمٍ مَآلُهُ إِلَى الفناءِ، فكيف يَكُون ذلك فِي الأفعالِ الَّتِي عليها مَدارُ سعادةِ العبدِ، فلا يجوزُ أن تتصرفَ فِي أفعالِكَ بما يعود عَلَى نفسِكَ بالضررِ، فإنْ فعلتَ فأنتَ ظالمٌ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَسْلَمْتُ﴾ كائنة ﴿مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾]، أفاد

المُفَسِّر بتقدير كائنة أنَّ الظرفَ فِي قوله: ﴿مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾ فِي موضع الحالِ، يعني أسلمتُ حالةَ كوني ﴿مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾ للهِ ربِّ العالمينَ، وهنا تعتبر مسلمة، فإذا قَالَ الرجل: أسلمتُ، ولو لم يَقُلْ: أشهدُ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ فقدْ أسلمَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤]، فإذا عبَّر الْإِنْسَان عن العَمَلِ بما يَدُلّ عليه من فعلٍ حُكِمَ عليه به، ولهَذَا لَوْ قَالَ قَائِلٌ لإِنْسَانٍ: حلفتُ عليك أن تفعل كذا، صار يمينًا، لو لم يقلْ: واللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو قال: حلفتُ لا أفعل كذا، صار يمينًا، وإن لم يقل: بالله؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الفِعْل، فإذا قَالَ: أسلمتُ، صار إسلامًا، وإنْ لم يقلْ: أشهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وأن مُحَمَّدًا رسول الله.

إِذَنْ: قوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فِيهِ أَنَّهَا أسلمتْ إسلامًا كاملًا، حَيْثُ أقرَّت بألوهيَّة الله فِي قولها: ﴿لِلَّهِ﴾ وبربوبيَّتِهِ الْعَامَّة فِي قولها: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قَالَ المُفَسِّر: [وأراد تَزَوُّجَهَا فكَرِهَ شعرَ ساقيها، فعَمِلَتْ له الشياطينُ النُّورَةَ فأزالتْه]، الحقيقة أن هَذِهِ مشكلة! بقِينا فِي الشعر وجاءتنا هَذِهِ البليَّة! يَقُول: [فعَمِلَت له الشياطين النُّورة]، والنورة تزيل الشعرَ، ويقال: إن أوَّل مَن عُمِلت له النُّورة ساقُ بِلْقِيس بأمرِ سُلَيْمان حَيْثُ إن الشياطين عمِلتها له. وكل هَذَا كذِب ويجب أن يُنَزَّه كلام الله عن مثلِ هَذِهِ الأَشْيَاء.

وموقفنا مَعَ مثل هَؤُلَاءِ العُلَماءِ أن نسألَ اللهَ لهم العفوَ وأن اللهَ يسامحهم؛ لِأَنَّ كونهم يَضَعون فِي كلام الله مثل هَذِهِ الأُمُور، فهَذَا من الأَشْيَاء الَّتِي يَتَنَقَّصُ بها الْإِنْسَان كلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأكثرُ ما وردتْ هَذِهِ كما قَالَ ابنُ كثيرٍ فِي هَذَا الموضع عن رجلينِ، وهما كَعْبُ الأحبارِ ووَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ، فإنهما أدخلا كثيرًا من الإسرائيليات

فِي كلامِ اللهِ وغيره مما ينقُلونه؛ فنسأل الله أن يعفو عنهما.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فأزالتْه فتزوجها وأحبَّها وأقرَّها عَلَى مُلْكِها، وَكَانَ يزورها فِي كُلِّ شهرٍ مرَّةً ويقيم عندها ثلاثةَ أيامٍ]، فَكَانَ كالمتزوِّج بالثيِّب [وانقضى مُلْكُها بانقضاء مُلْك سُلَيْمان، رُوِيَ أَنَّهُ مَلَكَ وَهُوَ ابن ثلاثَ عشْرةَ سنة، وماتَ وَهُوَ ابن ثلاثٍ وخمسينَ سنةً، فسبحانَ مَن لا انقضاءَ لِدَوَامِ مُلْكِهِ].

والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُنْتَقَد بأن الأَشْيَاء المهمَّة يختصرها، حَتَّى فِي بعض الأحيان يَكُون تفسيره كالرُّمُوز، ثُمَّ يأتي بهَذِهِ الأَشْيَاء الَّتِي لَيْسَ لها أصل.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عَظَمَة مُلْك سُلَيْمان، وتَسخيرُ اللهِ له، ففي ذلك الوقتِ حَسَب عِلْمنا لَيْسَ هناك أفرانٌ تصهر الزجاج ليفعل به الْإِنْسَان كما يشاء، ولكِن لَا شَكَّ أن الزجاج موجود، قد يَكُون مستخرَجًا من البحرِ؛ تَستخرجه الشياطين، وقد يَكُون هناك أيضًا مصاهر وأفران حسب حالهم، ولهَذَا قَالَ الله عن الشياطين: إنهم ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ:١٣]، ﴿وَجِفَانٍ﴾ هِيَ جمع جَفْنَةٍ، وهي الصَّحْفَة، والجوابي جمعُ جابيَةٍ، وهي البِرْكَةُ الكبيرة، ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ يعني لا تُنْقَل لِكِبَرِها وعِظَمِها.

فالحاصل أننا نَقُول: إن هَذَا فِيهِ دليلٌ عَلَى عظمةِ مُلْك سُلَيْمان، حَيْثُ سُخِّرَ له الجنُّ والإنسُ يَعْمَلُون له ما يشاء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: جواز اختبارِ المرءِ كما سبقَ، وهَذِهِ القصةُ فيها عدةُ اختباراتٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾؛ لِيَرَى هل تهابُ فلا تدخُل، أو تغامر فتدخل بدون تحرُّز،

أم ماذا تصنع، فالمَرْأَة بذكائها دخلتْ ولكِن مَعَ التحفُّظ والاحتراز، ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ أي: رفعتْ ثوبها حَتَّى بان الساقانِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن المَرْأَة من قديم الزمانِ شِيمَتها التستُّر؛ لِأَنَّ قوله: ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ دليل عَلَى أن الأَصْلَ أَنَّهَا مستورةٌ، وَهُوَ كذلك، بخلاف الرجلِ فإنَّ «أُزْرَة المُسْلِمِ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ»[1]. الْآنَ أصبح الأَمْرُ بالعكسِ عندَ كثيرٍ من المُسلِمينَ مَعَ الأسفِ، فأصبحَ الرِّجال ثِيَابهم مُسْبَلَةً، والنِّسَاء ثيابهنّ قَصيرةً، وهَذَا خلافُ الفِطرةِ الَّتِي فَطَرَ الله عليها الخلقَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الرؤيةَ قد تُكَذّب، وأن ما يدرك بالحواسّ لَيْسَ عَلَى الأَمْر الواقعِ مائةً بالمِئَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾؛ فإنَّ هَذَا كما هُوَ الواقع صَرْحٌ مُمَرَّد من قواريرَ، وتنظر إليه نظر العين ومع ذلك تَحْسَبُه لُجَّة، فدلَّ هَذَا عَلَى أن ما يُدْرَك بالحواسّ قد يقعُ فِيهِ الخطأُ، قد يَرَى الْإِنْسَان الشَّيْءَ المتحرِّكَ ساكنًا، والساكنَ متحرِّكًا، والأبيضَ أسودَ، والرجلَ امرأةً، بل قد يَتَخَيَّل له فِي بَصَرِه شيئًا وَلَيْسَ له حقيقةٌ.

وكذلك بالنِّسْبَةِ للسمع، وبهَذَا نَعْلَمُ أنَّ الشهاداتِ ورواياتِ الأخبارِ وغيرها كلها يُمْكِن أنْ يقعَ فيها الخطأُ، وليستْ معصومةً مائةً بالمِئَةِ، ولكِن لَا شَكَّ أَنَّهُ كلَّما تَوَارَدَتِ الأخبارُ وتكاثَرَتْ فَإِنَّهُ يَدُلّ عَلَى أنَّ الأَمْرَ متأكَّد، ولكِن نفي احتمال الخطأ مهما بلغَ الرائي أو السامع من الْقُوَّة والأمانة فإن الخطأ عُرْضَةٌ فيما رأَى أو فيما سَمِعَ، بل فِي المَلْمَسِ، فقد تَلْمَس الشَّيْءَ فتَظُنّه لَيِّنًا أو أملسَ وبالعكسِ، فالرجل الفلّاح يَلْمَس الشَّيْء الخشِن فيظنّه أملسَ، والناعمُ يَلْمَس الخشِنَ البسيط جدًّا

(١) أخرجه أبو داود: كتاب اللباس، باب في قدر موضع الإزار، رقم (٤٠٩٣)، وابن ماجه: كتاب اللباس، باب موضع الإزار أين هو، رقم (٣٥٧٣).

فيجده كالشوكِ.

فالحاصل: أن المسألةَ حَتَّى فِي الأُمُورِ الحِسِّيَّة الخطأ يمكن أن يقع، فما بالُكَ بالأُمُورِ العقليَّة؟ من باب أَولى وأعظم، وبه نعرِف ضعف الْإِنْسَان وَأَنَّهُ بحاجةٍ ماسَّة إِلَى عِلْمِ الشرعِ والوحيِ، فمهما بلغ فإنه بحاجةٍ إِلَى هَذَا الأَمْرِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: جعل الحواسّ من القَطْعِيَّات كما هُوَ عند المناطِقَةِ يَكُون عَلَى هَذَا خطأً؟

فالجواب: لا شكَّ فِي هَذَا، لكِن باعتبارِ الفكرِ وباعتبارِ العقلِ صحيح، إِنَّمَا الوهم قد يقع فيها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يَنبغي تأكيد الكَلام فِي موضعِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾، ما قَالَ: هَذَا صَرْحٌ، قَالَ: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ﴾ و(إِنَّ) للتوكيد، والتَّوْكيد هنا فِي محَلِّه؛ لِأَنَّهَا وإِنْ لم تَكُنْ منكِرةً لكِنَّ حالَها حالُ المُنْكِرِ، حَيْثُ ظنَّته لُجَّة وكشفتْ عن ساقيها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قد يَهَبُ المرءَ ما يُوجِب له أن يُسْلِمَ، بل قد يُيَسِّر له الأَسْبَاب الَّتِي تُوجِب إسلامَه بكلِّ سهولةٍ؛ لِقَوْلِها: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ هَذِهِ المَرْأَةُ حَسَب القصة ما وجدنا أَنَّهَا دُعِيَت وأُكِّد عليها وبُيِّنَ لها الخطأ إِلَّا فِي قوله فِي أول القصة: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣١]، لكِن لما شاهدتْ ما شاهدتْ من عظمةِ مُلك سُلَيْمَان وقوّته، عرفتْ أَنَّهُ لَا بُدَّ أن تُسْلِم، وهي تتذكر كتابَه الَّذِي قَالَ فيه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ فإمَّا أن تسلم وَإِمَّا أن يقضي عليها، ولَكِنَّهَا أسلمتْ.

فهَكَذَا إذا يسَّر الله تَعَالَى للعبدِ ما به الهداية فإن الأَمْرَ يَكُونُ عليه يسيرًا، وإذا لم يَتَيَسَّرْ له أصبحَ كُلّ مانعٍ يَمْنَعُه منْ الاِهتداء وإنْ لم يكنْ مانعًا قويًّا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ المَرْأَةَ آمنتْ بسُلَيْمَـان، لم تُسْلِمْ إسلامًا مُطْلَقًا، يعني ما قالتْ: إني أسلمتُ للهِ فقطْ، بل صَرَّحَتْ بأنها تابعةٌ لسُلَيْمَان، يعني ما آمنتْ بنبيٍّ آخرَ أو بشريعةٍ أُخرى، آمنتْ بشريعةِ سُلَيْمَان فكانت من قَوْمِه، مَعَ أَنَّهَا كانتْ فِي سبأ فِي اليمنِ وسُلَيْمَـان فِي الشامِ؛ لِأَنَّهَا قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾ فدلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهَا آمنتْ به؛ لِأَنَّ ﴿مَعَ﴾ للمصاحبةِ، فكانت من أصحابِهِ المُؤْمِنِينَ به.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن المَعاصِيَ ظلمٌ للنفسِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، وسبقَ وجهُ ذلكَ وأنَّ الْإِنْسَان مؤتمَن عَلَى نفسِـهِ؛ مؤتمن عَلَى نفسـه من حَيْثُ السلوكُ والسيرُ، ومؤتمن عَلَى نفسه من حَيْثُ التصرفُ فِي مالِه، ومؤتمَنٌ عَلَى نفسِهِ من حَيْثُ التصرُّفُ فِي بدنِهِ، ولهَذَا نُهِيَ عن إضاعةِ المالِ[1]، ونُهِيَ عن قتلِ النفسِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النِّسَاء:٢٩]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، وَأُمِرَ بالدواءِ: «تَدَاوَوْا وَلَا تَدَاوَوْا بِالحَرَامِ»[2]، وأُمِر بالأكل وبالشـرب وباللباس وبالوقاية من الحرّ والوقاية من البرد، كُلّ هَذَا من أجل حِفْظ النفسِ الَّتِي هِيَ أمانة عندكَ، فالْإِنْسَان لَيْسَ حُرًّا يَتَصَـرَّف كما يشاءُ فِي بدنه أو كما يشاء فِي سلوكه أو كما يشاء فِي مالِه، لا، هُوَ مُقَيَّد.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب ما ينهى عن إضاعة المال، حديث رقم (٢٢٧٧)؛ ومسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهي عن منع وهات وهو الامتناع من أداء حق لزمه أو طلب ما لا يستحقه، حديث رقم (٥٩٣)، عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه أبو داود، كتاب الطب، باب في الأدوية المكروهة، حديث رقم (٣٨٧٤)، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: فِي بعض الآيَاتِ يُنْسَب الظُّلْمُ للنفسِ، وهنا نُسِبَ إِلَى الفاعِلِ؟

فالإجابة: لأنَّ الْإِنْسَانَ فِيهِ نفسانِ، وَقِيلَ: ثلاثةُ أنفسٍ؛ أمَّارة ومُطْمَئِنَّة ولوَّامة، والصَّوابُ أنَّ اللوَّامة من صفاتِ الاثنتينِ، فالنفسُ إمَّا أمَّارة، وهي الَّتِي تأمرُ بالشرِّ وتَنْهَى عنِ الخيرِ، وَإِمَّا مُطْمَئِنَّة، وهي الَّتِي تأمر بالخيرِ، وقولها: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ الَّتِي تقوله النفسُ المطمئنَّة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ عُمُومِ رُبُوبِيَّة اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولا أحدَ له الرُّبُوبِيَّة الْعَامَّة الشاملة سِوَى الله عَزَّوَجَلَّ، فالْإِنْسَان قد يَكُونُ ربًّا لبيتِه وقد يَكُون ربًّا لدابَّتِه، وقد يَكُون ربًّا لمملوكِهِ كما فِي الحديث الصَّحيح: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ»(١).

وتقدَّم لنا فِي التفسيرِ أن ما ذكره الْمُفَسِّر من هَذِهِ الإسرائيلياتِ أَنَّهُ لا يَجِب التَّصْديقُ بها، بل ما كَانَ مِنْهَا مخالفًا للقرآنِ أو لا يليق بحالِ النَّبِيّ فَإِنَّهُ يجبُ تكذيبُه، وما كَانَ مِنْهَا لَيْسَ مخالفًا ولا منافيًا لما يليقُ بالنَّبِيّ فَإِنَّهُ لا يصدَّق ولا يكذَّب، ولا ينبغي أن يُحْكَى فِي التفسيرِ؛ فإنَّهُ إذا حُكِي فِي التفسيرِ معناه أَنَّهُ صُدِّقَ حَيْثُ جُعِلَ تفسيرًا لكلامِ اللهِ.

فائدة: القطعُ باسمها الظَّاهر منَ الأَشْيَاء الَّتِي لا تُصَدَّق ولا تُكَذَّب، لكِن لاشتهارها فلا مانعَ.

• • ۞ • •

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، حديث رقم (٤٤٩٩)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان...، حديث رقم (٨)، عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٤٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل:٤٥].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ هَـذِهِ الجملةُ فيها ثلاثةُ مؤكِّـدات: القَسَم واللام وقد، ﴿أَخَاهُمْ﴾ مَفْعُول ﴿أَرْسَلْنَآ﴾، و﴿صَٰلِحًا﴾ عطف بَيَان له وَلَيْسَ بدلًا؛ لِأَنَّ كونَه عَطْفُ بَيَان أوضحُ؛ إذ إنَّهُ يُبيِّن المُبْهَم فِي قوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾.

يَقُول الله تَعَالَى: ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ ثمود هَذِهِ قبيلة موجودة فِي مكانٍ يُسمَّى الْآنَ مدائنَ صَالِح، ويسمَّى الحِجْر، ويُسمَّى ديارَ ثَمُود، هَذِهِ القبيلةُ يَسَّرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لها من أَسْبابِ العمران فِي السهلِ والجبلِ ما بَرَزَتْ به عَلَى غيرِها، كما قَالَ لهم نبيُّهم مذكِّرًا لهم: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٩]، أرسلَ الله إليهم صالحًا وأتاهم بآيَةٍ عجيبةٍ، وهي ناقةٌ لها شِـرْبٌ وللقومِ شِـرب، يعني أن هَذِهِ البئر الَّتِي تشرب مِنْهَا الناقة وهي أوسع الآبار وأغزرها ماءً، أُذن لهم أن يشربوا مِنْهَا يومًا، وأُمِروا بأنْ يَدَعُوها يومًا للناقةِ تَشرب منها، وتذهب فِي اليوم الثاني للرعي، وَفِي اليومِ الَّذِي تشرب منه، قيل: إنَّهُم يأتون إليها، ومَن سقاها دلوًا أعطته دلوًا منَ اللَّبَن، وهَذَا من الأُمُور الإسـرائيليَّة الَّتِي لا تُصـدَّق ولا تكذَّب، لكِنَّهم مَعَ هَذِهِ النعمـةِ العظيمةِ فِي هَذِهِ الناقةِ كَفَروها والعياذُ باللهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر:٢٩]، عَقَرَ هَذِهِ الناقة وكَفَروا بهَذِهِ النعمةِ العظيمةِ.

يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَخَاهُمْ﴾ من القبيلةِ]، لماذا قَالَ: من القبيلة؟ احترازًا من الدِّينِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ أخًا لهم إلَّا نفرًا يسيرًا آمنوا معه.

ثم قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنِ﴾ أي بأن ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾]، أفادنا المُفَسِّر أنَّ (أنْ) هنا مصدريَّة، ولكِن يجوز فيها وجهٌ آخرُ أن تكون تفسيريَّة؛ لِأَنَّ ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ يتضمن: أوحينا، والوحي فِيهِ معنى القَوْلِ دونَ حُرُوفِه، وهَذَا هُوَ دلالة (أنِ) التفسيرية، أن يَسْبِقَها فعلٌ فِيهِ معنى القَوْلِ دون حروفِه.

إِذَا قُلْنَا: إنَّهَا تفسيريَّة ما صحّ أن نقدِّر الباء، أي: (بأن) بل نقدِّر (أن) بمعنى (أي) أي اعبدوا الله، يَعْنِي: أَوحينا إليه أي اعبدوا الله.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وَحِّدوه]، وهَذَا مأخوذ من تفسير ابن عبَّاس فيما أَظُنُّ فِي قوله تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، قَالَ: لِيُوَحِّدُون.

فجعل العِبادَةَ هِيَ التوحيدَ، ولكِن الصَّحيح أن العِبادَةَ التذلُّل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالطاعة؛ لِأَنَّ هَذِهِ المادة: العين والباء والدال تدل عَلَى الذلّ، ومنه قولهم: طريق معبَّد أي مذلَّل لسالكيه، فعبادة الله معناها الذلُّ له بالطاعةِ، ومنه، بل من أعظم ذلك تَوْحِيدُه، فالصَّوابُ أن المُراد بالعِبادَة التذلُّل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالطاعة.

قال تَعَالَى: ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ الفاء حرف عطفٍ، و(إذا) فُجائيَّة، يعني فما الَّذِي حصل بَعْد إرسالِه، إذا المفاجأة بالتفرُّق.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ فِي الدين، فريق مؤمنون من حين إرسالِهِ إليهم، وفريق كافرون].

انقسم قومه إِلَى قسمينِ: قسم آمنوا به وقسم آخر كفروا به، والَّذِينَ آمنوا به هم

المستضعَفُونَ، كما قَالَ الله تَعَالَى فِي سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، ما قَالَ: أَتُؤْمِنُونَ به ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾ فماذا قَالَ هَؤُلَاءِ: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٧٥]، يعني لسنا نعلمُ فقط، بل نعلم ونؤمن: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف:٧٦]، ما قَالُوا: إنا به كافرون بالذي آمنتم به؛ لإظهار المضادَّة لهم والمعاندة، يعني ما دام آمنتم به وأنتم الضعفاء فنحن ضِدّكم دائمًا ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، وهَذَا أبلغ ما يَكُون -والعياذُ بالله- من المضادَّة والمحادَّة والاستكبارِ أيضًا، كأنهم يَقُولُونَ: الَّذِي تؤمنون به نحن نكفرُ به، هَؤُلَاءِ الفريق آمنوا وفريق كفروا.

قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني يجري بينهم خِصام، وهَذَا الخصام الَّذِي جرى بين قومِ صالحٍ جرى أيضًا فِي قوم الرَّسُول ﷺ وكل النَّاس قاوموه ولا بد، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١]، فلَا بُدَّ من هَذَا، ولا يُمْكِن أنْ يَتَمَحَّصَ الحَقّ إِلَّا بظهورِ العدوِّ؛ لِأَنَّ العدوَّ يُورِدُ، والوحي يُجيب، حَتَّى يَتَمَحَّصَ الحَقُّ بيِّنًا ظاهرًا، حَتَّى فِي الأُمُور الواقعية، وحَتَّى فِي الانتصارِ وَفِي الخِذلان يَحْصُل هَذَا أيضًا، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ذكر من فوائدِ الخِذلان فِي أُحُد ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١]، فلا يَتَبَيَّن الحَقّ تمامًا إِلَّا بظهورِ عدوٍّ له يناقضه ويعاديه حَتَّى يَظْهَرَ الحَقّ عَلَى الباطل.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّهُ يَجِب أحيانًا تأكيدُ الأخبارِ المهمَّة ليَكُونَ المخاطَبُ عَلَى يقينٍ منها، ولا تَقُل: أنا لستُ ملزومًا ولا يُهِمُّنِي صَدَّق أم كذَّب، بل إنَّ مُقْتَضَى النُّصح أن

تؤكِّد ما يَنْبَغِي تأكيده للمخاطَبِ، وجه ذلك: أن اللهَ ذكرَ أَنَّهُ أرسلَ إِلَى ثمودَ أخاهم صالحًا وأكَّد هَذَا الخبرَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الرسُل السابقينَ رِسالتهم خاصَّة وليستْ عامَّةً؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ ما قَالَ: إِلَى النَّاس جميعًا، بل قَالَ: ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وهَذَا ثبتَ به الحديثُ عن النَّبِيِّ ﷺ فِي قولِهِ: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(١).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يَصِحُّ إطلاق الأُخُوَّة النَّسَبِيَّة بين المسلمِ والكافرِ، فلا يقال: إذا انتفتِ الأخوَّة الإيمانية انتفت الأخوَّة النَّسَبِيَّة، بل إذا انتفى أحدهما يبقى الآخرُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الَّذِي أُرسلتْ به الرُّسُلُ هُوَ ما خُلِقَ له البشرُ، بل الجنّ والإنس، وَهُوَ عبادةُ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ والعِبادَةُ سَبَقَ مَعناها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: انقسام النَّاس إِلَى فريقينِ فِي مواجهةِ الرُّسُلِ: مؤمن وكافر، وهَذَا لتحقيقِ الحِكْمَة الابتدائيَّة والغائيَّة فِي خلق الله، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]، لو كانوا كلهم مُؤْمِنِينَ لم يكنْ منهم كافرٌ ومنهم مؤمنٌ، هَذِهِ حِكْمَةٌ ابتدائيَّة بالخلقِ منذُ خُلِقوا، أيضًا لتتمَّ الحِكْمَة الغائيَّة، فالحِكْمَة الغائية أن الله تَعَالَى خلقَ جنَّةً ونارًا، وخلق لكلٍّ منهما أهلًا، فلو كَانَ النَّاس كلُّهم مُؤْمِنِينَ لم يكنْ لخلقِ النَّار فائدة، ولهَذَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النَّبِيِّ ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»، حديث رقم (٤٢٧)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم (٥٢١)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، هَذَا ابتداءً، ثانيًا ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود:١١٩]، هَذَا الغاية؛ إذ لو لم يكنْ مؤمنٌ وكافرٌ فلا تتمُّ كلمةُ الله بملءِ جَهنَّم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وقوعُ الخِصام بين المُؤْمِنِينَ والكَافِرِينَ، وَأَنَّهُ أمر لَا بُدَّ منه[1]، حَتَّى إنَّهُ ربما يصل هَذَا الخصام إِلَى الصدامِ المسلَّح، وهَذَا واضح؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾، وقال تَعَالَى فِي هَذِهِ الأُمَّة: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ [الحج:١٩]، فالخصامُ لَا بُدَّ منه مَعَ أعداءِ الرُّسُلِ وأولياءِ الرُّسُلِ، وربما يصل ذلك إِلَى اصطدامِ مسلَّح والقتال وهَذَا أمرٌ مُشاهَدٌ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن كُلّ متصدٍّ للدعوةِ إِلَى اللهِ فلا بد أن يجدَ خُصُومًا؛ لِأَنَّهُ إذا كانت الدَّعْوَة فِي ابتدائها مَعَ مَن جاء بها وَهُوَ الرَّسُول ﷺ تُلاقِي ذلكَ، فما بالُك بانتهائها، وقوله تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان:٣١]، قد نتوسع فِي معناه ونَقُول: لكل نبيٍّ لا لشخص النبي، ولكِن لدعوة النبي، بدليل أن النَّبِيّ قبل أن يُبْعَث لم يكن له عدوٌّ، والرَّسُول ﷺ كَانَ يُسمَّى الأمينَ عند قريشٍ قبلَ أن يُبعَث، وكانوا يقدِّرونه ويعظِّمونه ويحبونه، وبعد أن بُعث وصار نبيًّا قامت الحرب بينهم وبينه.

إِذَنْ: يمكن أن نَقُول: إن قول الله تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ ﴾ [الفرقان:٣١]، أي: من حَيْثُ الدَّعْوَةُ، وَعَلَى هَذَا فما بَقِيَتْ هَذِهِ الدَّعْوَة سوف يَكُون لها عدوٌّ من المجرمينَ.

---

(١) تنتهي المادة الصوتية للملف الثامن الوجه الثاني هنا، وما يتبع ذلك حتى نهاية الْفائدة الْخامسة من فوائد الآية (٤٦) لم أجده في المادة الصوتية التالية. وهو في المطبوع من عندهم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن فِي هَذِهِ الآيَة أعظمَ تأييد للداعي إِلَى الله، حَيْثُ وصف الله خصومَه بالإجرامِ، فما دام الداعي معتقدًا وواثقًا من نفسِه أَنَّهُ عَلَى بصيرة فَلْيَبْشِر بالتأييد ولو بالعاقبة، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يُصْلِح عمل المجرمين.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٤٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النمل:٤٦].

قَالَ المُفَسِّر: [﴿قَالَ﴾ للمكذبين: ﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ أي: بالعذابِ قبلَ الرَّحْمَةِ؛ حَيْثُ قلتم: إن كَانَ ما أتيتنا به حقًّا فأْتِنا بالعذابِ].

قوله: ﴿لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ الاسْتِفْهام هنا للإنكارِ والتوبيخِ والتعجُّب، يعني أَنَّهُ يُوَبِّخُهم وينكر عليهم هَذَا الأَمْرَ ويتعجب من حالِهم؛ لِأَنَّ حال العاقلِ أن يستعجلَ بالحسنةِ قبلَ السيئةِ، لا أن يستعجلَ بالسيئةِ قبلَ الحسنةِ، لكِن السفيه -والعياذ بالله- سفيهٌ، مثلما قالت قريشٌ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال:٣٢]، ما قَالُوا: إن كَانَ هَذَا هُوَ الحَقّ فاهْدِنا إليه، قَالُوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال:٣٢]، ما قَالُوا: إن كَانَ هَذَا هُوَ الحَقّ فاهدنا إليه، قَالُوا: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ﴾، وهَذَا -نسأل الله العافية- فِي غايةِ ما يَكُونُ مِنْ الاستكبار والاستهتارِ، هَؤُلَاءِ يستعجلون بالسيئةِ قبلَ الحسنةِ ويَقُولُونَ: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩]، وهَذَا التحدِّي من أعداء الرُّسُلِ للرسلِ يَدُلّ عَلَى تماديهم فِي العنادِ وأنهم غيرُ مُؤْمِنِينَ،

ولكِن هَذَا الأَمْر لا يُجابُون إليه، وإن كَانَ فِي ذلك نصرٌ للرَّسُول لكِنهم لا يجابون إِلَى ذلك؛ لِأَنَّهُم إذا أُجِيبوا إليه صار معناه أَنَّهُم يجابون عَلَى اقتراحاتهم، مثلما قالوا لما قيلَ لهم عن البعث؛ قَالُوا: ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الدخان:٣٦]، فيقال لهم: الرُّسُلُ ما قالوا لكم: إنكم تُبْعَثُون الآنَ، تُبْعَثُون يومَ القيامةِ، لو قَالُوا: تُبْعَثُونَ الآن، كنا نَقُول: نعم ائْتُوا بآبائهم، لكِنهم قَالُوا: تُبْعَثون يوم القيامة وانتظروا يوم القيامة وستجدون آباءكم.

يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ حكايةً عن صالحٍ: ﴿لَوْلَا﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هَلَّا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ مِنَ الشركِ]، ﴿لَوْلَا﴾ بمعنى (هلا) وهَذَا من معاني ﴿لَوْلَا﴾ أن تكون للتحضيضِ، ولها معانٍ أخرى أيضًا، ويقال فيها: حرف امتناع لوجودٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ [الحج:٤٠]، امتنع تهديم الصوامع لدفعِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى النَّاسَ بعضَهم ببعضٍ.

ما الَّذِي يُعَيِّنُ هَذَا المَعْنى من هَذَا المَعْنى؟

يُعَيِّنُه السياقُ، وبهَذَا وبكثيرٍ من أمثالِهِ يَتَبَيَّنُ أن الكلمات لَيْسَ لها معنى ذاتيّ، بمعنى أَنَّهَا خُلِقَتْ له، وإنما هِيَ قوالبُ وثيابٌ للمعنى الَّذِي يَدُلّ عليه السياقُ، فأيّ ثوبٍ تُرَكِّبه لمعنًى يَدُلّ عليه السياقُ فَهُوَ هو، وبهَذَا التقرير أيضًا يتبين أنَّ ما ذهبَ إليه شيخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أَنَّهُ لا مجاز فِي اللُّغة العَرَبِيَّة أَنَّهُ أمر صحيحٌ[1]، وأن كُلّ كلمة استُعملت فِي مَقامها فهي حقيقة فيه، وكون أَنَّهُ مثلًا ما تعرف بهَذَا اللفظ إِلَّا لذاك المَعْنى الَّذِي لم تُسْتَعْمَل فِيهِ ما يَدُلّ عَلَى أن ذاك هُوَ معناها الذاتيّ؛ لأَنَّنا نَقُول: لَيْسَ للكلمات معنى ذاتيّ، واللهُ أَعْلَمُ.

---

(١) انظر: الحقيقة والمجاز ضمن مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٠١-٤٩٧).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الإنكار عَلَى مَنِ استعجلَ بالسيئةِ قبلَ الحسنةِ، والاستعجال عَلَى نوعينِ: أحدهما: استعجالٌ بالقَوْلِ، بأَنْ يَقُولُوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩]، ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال:٣٢]، واستعجال بالفِعْل والحال؛ بأن يسلكوا مسلكًا يَكُون به العذابُ، وذلك بالمَعاصِي؛ فإن المعصيةَ استعجالٌ بالعذابِ بلَا شَكّ.

فالَّذِينَ يَعصون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معناه أَنَّهُم استعجلوا عذابهم، حَيْثُ إِنَّهُ ﷺ أخبر بأن المَعاصِيَ سببٌ للعقوبةِ والعذابِ، فإذا صار الْإِنْسَان يمارس هَذِهِ المَعاصِيَ فَإِنَّهُ يَقُول بلسانِ حالِه: أين العذابُ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى رتَّب العذاب عليها، ففاعلها يَقُول: هاتِ؛ لِأَنَّ فاعل السَّبَب يُريد وقوع المسبَّب.

وَعَلَى هَذَا فإذا رأيت الأمَّةَ عَلَى معصيةِ الله وإن لم تقلْ: أين عذاب الله وأين ما وعدتم به؟ فإنها فِي الحقيقة تَستعجلُ عذابَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالاستعجال يَكُون بقال الْإِنْسَانِ وحالِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: نُصْح الرُّسُلِ لِأُمَمِهم؛ لِأَنَّ إنكار صالحٍ عَلَى قومِه لأنه يريد منهم أن يَستقيموا عَلَى أمرِ اللهِ، ولهَذَا قَالَ: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الاستغفارَ سببٌ لرفع العقوبةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ وَهُوَ كذلك؛ فإن الاستغفار سببٌ لرفعِ العقوبةِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الاستغفار سببٌ لِجَلْبِ الرَّحْمَةِ، وَهُوَ أمرٌ فوقَ دَفْعِ العقوبة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وقد قَالَ نوحٌ لِقَوْمِهِ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ

غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح:١٠-١٢]، وهَذِهِ رحمةٌ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ نتيجة الاستغفار.

إِذَنْ: فالاستغفارُ سببٌ لاندفاعِ النِّقَمِ وجلبِ النعمِ، والاستغفار هُوَ طلب المغفرة. والمغفرة سَتْر للذنبِ مَعَ التجاوزِ، وطبعًا طالب المغفرةِ يَستلزم طَلَبُه للمغفرةِ إذا كَانَ حقيقة أنْ يُقْلِعَ عنِ الذنبِ؛ لِأَنَّهُ كيف يَقُول: أستغفرُ اللهَ من الربا وَهُوَ يقع فِي الربا، لا يَصلُح هَذَا، فطالب الشَّيْء لَا بُدَّ أن يسعى بأَسْبابِهِ، إذا قلت: اللهمَّ ارْزُقْنِي ولدًا صالحًا وقلت: لن أتزوجَ، إذا كَانَ الله مقدِّرًا لي ولدًا صالحًا سيأتي، فهذا لا يصلح، فلا ينفع أن تستغفرَ اللهَ وأنتْ لم تفعلْ أَسْبابَ المغفرةِ، فلا بدَّ من فعل أَسْبابِ المغفرةِ بالإقلاع عن المعصيةِ ثُمَّ طلب أن يغفر الله لك.

وإذا كَانَ الاستغفارُ سببًا لجلبِ الرَّحْمَةِ فَإِنَّهُ من أَسْبابِ الفتحِ عَلَى المرء بالعلمِ؛ أن اللهَ يَفْتَح عليه عِلمًا لم يكنْ يَعْلَمُه من قبلُ، يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النِّساء:١٠٥-١٠٦]، وَكَانَ بعضُ أهلِ العلمِ إذا سئل عن مسألةٍ قدَّم بين يديْ إجابتِه الاستغفارَ، فقال: أستغفرُ اللهَ، أستغفرُ الله، حَتَّى يُفْتَحَ له، وهَذَا ظاهر؛ لِأَنَّ الذنوبَ تَحُولُ بين المرء وبين العلمِ، وبين المرءِ وبين الفَهْمِ، فإذا غُفِرَت زال هَذَا الحجابُ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣]، الأوَّل باختيارهم وَهُوَ التحريف، والثاني بغير اختيارِهِم، وَهُوَ النِّسيانُ.

فالمَعاصِي سببٌ للحِرمانِ من العلمِ والفهمِ، والاستغفار رفع للمعاصي

وآثارِها، فيقتضي العلم والفهم، ومناسبته منَ الآيَةِ الَّتِي سُقناها من آيَة النِّسَاءِ واضحةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النِّسَاء:١٠٥-١٠٦]، فتعقيب الحكمِ بين النَّاس بالاستغفارِ دليلٌ عَلَى أن الاستغفارَ من أدوات الحكم بالحق، وَكَانَ رسول الله ﷺ يُكْثِر الاستغفارَ حَتَّى إنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ الله ويتوب إليه فِي اليوم أكثرَ من سبعينَ مرَّةً[1]، ويُحفَظ له فِي المجلسِ الواحدِ أكثر من مائةِ مرةٍ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْه؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد غفرَ اللهُ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر[2] فكانت أَسْباب المغفرة فِي حقِّه أكثر من غيره.

ومن أَسْباب المغفرة أن يستغفرَ بلسانه، وَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يعلم أن الأَشْيَاء بأَسْبابها، عَلِمَ أن اللهَ غفر له ما تقدمَ من ذنبه وما تأخَّر، فجعل يُكْثِر من أَسْباب المغفرةِ بالاستغفارِ بلسانِه، وكذلك أيضًا بفعل أَسْبابِ المغفرةِ بأفعالِه، وهَكَذَا ينبغي للإِنْسَانِ إذا منّ اللهُ عليه بشيءٍ أن يُحقِّق ذلك الشَّيْء بفعلِ الأَسْبَاب ولا يتَّكِل.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات الحِكْمَة لله تَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ فالرَّحْمَة لها سبب، وكون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقْرِنُ أفعالَه بأَسْبابها يَدُلّ عَلَى كمالِ الحِكْمَةِ؛ لِأَنَّ من يفعل أفعالًا عَنْجَهِيَّة لَيْسَ لها أَسْباب فهَذَا سفيه، لكِن عليه أن يربط الأفعال بأَسْبابها.

• ● ۞ ● •

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النَّبِيّ ﷺ في اليوم والليلة، حديث رقم (٥٩٤٨)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النَّبِيّ ﷺ: «أنا أعلمكم بالله»، حديث رقم (٢٠)؛ صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنَّار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم (٢٨٢٠)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الآيــة (٤٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل:٤٧].

لَمَّا حَثَّهم عَلَى الاستغفارِ وبيَّن لهم نتائجَه الطيِّبة كَانَ جوابهم: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ -أعوذ بالله- فهَذَا الجوابُ يعني أنك ما أتيتَ لنا بفائدةٍ، بل صِرت شؤمًا علينا، أنت وأتباعك، وهَذَا حال الَّذِينَ يتطيرون بأهل الخيرِ، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قد يَفْتِنُ النَّاسَ، فقد يقع مثلًا فِي مجيء الخيرِ أو معه بعضُ الآفاتِ أو بعضُ الأَشْيَاء المكروهةِ لدى النَّاس؛ ليَكُونَ ذلك فتنةً وابتلاءً، ربما مثلًا يَحُلّ رجلٌ من أهل العلمِ والعِبادَةِ فِي بيتٍ ثُمَّ يَحترق هَذَا البيت؛ ابتلاءً من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وامتحانًا، فأهل الشَّرّ يَفرَحون ويَفْرَهُونَ، يَقُولُونَ: انظُرْ أَسْباب الطَّوْع، احترقَ البيتُ لما جاء هَذَا الرَّجل.

والله تَعَالَى قد يَفتِن النَّاسَ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: إِنَّهُ بمجيء صالحٍ ومعصيةِ قومِه عاقبهم الله تَعَالَى بالقَحْطِ والجَدْبِ وغَورِ المياهِ، فقَالُوا: أنت يا صالح ومن معَك ما جئتمونا بخيرٍ، ما جئتمونا إِلَّا بالقحطِ والجدبِ وغور المياهِ، فتطيروا به، وقَالُوا: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[أصله: (تَطَيَّرْنَا) أُدْغِمَتِ التاءُ فِي الطاءِ]، وهَذَا الإدغام عَلَى غير خلافِ القَاعِدةِ، إذ إن الإدغام بين الساكنِ والمتحرِّك، وهَذَا بين متحركينِ، فَأُدْغِمَت التاء فِي الطاء، ولَمَّا أُدغمت التاء فِي الطاء صار الحرف الأول منهما ساكنًا، ويلاحظ أيضًا أَنَّهُ بَعْد الإدغام قُلِبَتِ التاءُ طاءً، والساكن لا يمكن الابتداء به فاجتُلبتِ الهمزةُ لتسهيلِ النطقِ به، ولهَذَا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [واجتلبت همزة الوصلِ]، لتسهيل النطقِ بالساكنِ.

ومعنى ﴿ٱطَّيَّرْنَا﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: تَشَاءَمْنَا]، من الشؤمِ، والشؤم معناه: توقُّع الشَّرّ من مُشَاهَدٍ أو مسموعٍ أو زمن أو حال، ولهَذَا قَالُوا: إن التطيُّر مأخوذٌ من الطيرِ، وكانوا فِي الجاهلية يَتشاءمون بالطيورِ، وعندهم قواعد لهَذَا التشاؤمِ، فيَبعثونها؛ فإذا ذهبت يمينًا يتفاءلون أو يسارًا يتشاءمون، أو أمامًا أظن يعيدونها مرة ثانية، وخلفًا يتشاءمون أكثر، فلذلك سُمِّي هَذَا التشاؤم تطيّرًا، مأخوذ من الطير؛ لِأَنَّ غالب تشاؤم العرب بها، فهم يَقُولُونَ: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ أي: تشاءمنا، وَكَانَ مجيئك شُؤمًا علينا أنت وأتباعك.

إِذَنْ: ما هُوَ التطيُّر؟

هُوَ التشاؤم بمرئيٍّ أو مسموعٍ أو زمان أو مكان أو حال التشاؤم، بمرئيٍّ: كَأَنْ يرى الْإِنْسَان شيئًا فيتشاءم، افرض أَنَّهُ مثلًا أرادَ أن يسافرَ فقابله إِنْسَانٌ هو يَكْرَهه، قَالَ: إذن رَجَعنا. أو هَمَّ أن يسافر فلما خرج سمِع رجلًا يَقُول: مات فلان بن فلان، قَالَ: إذن رجعنا. فهَذَا تشاؤُمٌ بمسموعٍ. أو زمان: يتشاءم بيومٍ من الأيام؛ بيوم الأربعاءِ، يوم الخميس، أو شهر من الشهور؛ كشهر شوال، وكان العرب يتشاءمون بشهر شوال فِي الزواجات، يَقُولُونَ: الَّذِي يتزوَّج فِي شهر شوال ما يوفَّق، لكِن

عائشة أبطلتْ ذلك بالواقع، قالت: «إِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَزَوَّجَهَا فِي شَوَّالٍ، وَبَنَى بِهَا فِي شَوَّالٍ، فَأَيُّكُنَّ كَانَتْ أَحْظَى عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ»[1].

إِذَنْ: ينبغي إن أردنا أن نعملَ بالتشاؤمِ أو التفاؤلِ أن نتفاءل بشهر شوال، ولكِن مَعَ ذلك لا نتفاءل بالزمانِ ولا نتطير به، فالخيرُ والشرُّ بيدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومنهم من يتشاءم بالمكانِ؛ فتجده مثلًا يريد أن يجلسَ فِي هَذَا المكان ثُمَّ تَبُطُّه شوكةٌ، يَقُول: إذن قُمنا، هَذَا لا يمكن أن نجلسَ فيه. أو يتشاءم بالحالِ؛ حال الشخصِ مثلًا، فالتشاؤم بالحالِ أيضًا هَذَا تطيُّر، ولا يجوز، فقد يعمل مثلًا الْإِنْسَان عملًا فيعاكسه فِي أوَّل أمرِهِ، أو مثلًا يَهُمُّ أن يفعلَ شيئًا غدًا وإذا كَانَ الغد إذا هُوَ معه بعضُ التعبِ والعجز، فيتشاءم ويَعْدِل بسببِ هَذِهِ الأحوالِ الَّتِي تعرِض له، فنَقُول: كُلّ هَذَا لا يجوزُ، أنت إذا عزمتَ فتوكَّل عَلَى اللهِ، «**اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، ولا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**»[2]، فالْإِنْسَانُ مِثْلَمَا قَالَ القُرْطُبِيُّ -وكذلك غيرُه من أهل العلمِ-: الَّذِي يُعَلِّق تصرفاته بمثلِ هَذِهِ الأُمُورِ فَهُوَ من أجهلِ النَّاسِ حقيقةً، ثُمَّ إِنَّهُ ما يمكِن أن يمشيَ له حال إذا كَانَ ينظر إِلَى هَذِهِ الأَشْيَاء.

ولكِن يلاحظ أن الفألَ الَّذِي يُعين عَلَى فعلِ الخيرِ لا يدخل فِي هَذَا الأَمْرِ، فكَانَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُعْجِبُه الفأل ولكِنه يَكْرَهُ الطِّيَرَةَ[3]؛ لِأَنَّ الطيرةَ فيها

---

(١) رواه مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب التزوج والتزويج في شوال واستحباب الدخول فيه، حديث رقم (١٤٢٣).

(٢) أخرجه أحمد (١١/ ٦٢٣) (٧٠٤٥) مسند عبد الله بن عمرو.

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الفأل، حديث رقم (٥٤٢٤)؛ صحيح مسلم، كتاب السلام، باب الطيرة والفأل وما يكون فِيهِ من الشؤم، حديث رقم (٢٢٢٤)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعلُّق الْإِنْسَان بغير اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمثلِ هَذِهِ الأُمُور، وفيها أيضًا مَنْعٌ للإِنْسَانِ عما يريده من الخيرِ، لكِن التفاؤل فِيهِ التشجيعُ عَلَى الخيرِ. لمّا جاء سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو فِي صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ قَالَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «قَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ»[1]، لكِن لَا بُدَّ أن يَكُون التفاؤل يتعلق بشيءٍ يتعلق به، وَأَمَّا مجرَّد أن يرى واحدًا فِي السوقِ اسمه يزيد أو اسمه صالح أو اسمه راشد، فلا، لَيْسَ هَذَا، لكِن الشَّيْء الَّذِي لي معَه معاملة فأنا قد أتفاءل، وسُهيل بن عمرو له معاملةٌ مَعَ الرَّسُول ﷺ فتفاءل، وهَذَا يَكُون من بابِ فتحِ الأُمُورِ باليسرِ.

فالحاصل: أن التفاؤلَ غيرُ التشاؤمِ، والفرق بينهما أن التشاؤمَ من فِعلك، والشؤم من فعل غَيْرِك، وهَذَا واضح أن الله جَلَّ وَعَلَا قد يجعل فِي هَذَا الشَّيْء خيرًا وبركةً للإِنْسَانِ، وَفِي هَذَا الشَّيْء شُؤمًا وبلاءً.

واعلمْ أن التشاؤم غير الشؤم، فإن الشؤم قد يَكُون فِي بعضِ الأَشْيَاء مثلما أخبر النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ يَكُون فِي المَرْأَةِ ويَكُون فِي الدارِ ويَكُون فِي الدابّة، وهَذَا شَيْء مشاهَد، أن الْإِنْسَان قد ينزِل بعض الدُّور وَهُوَ لا يتشاءم لكِن يَكُون فيها شؤم، تكون دائمًا خرابًا مثلًا، ودائمًا تحتاج إِلَى أعمالٍ وتتعبه، فإذا ارتحل عنها ارتاح ووجد ما يريد، كذلك بعض السيارات -وإن كَانَ أغلب النَّاس لَيْسَ عندهم دوابّ- في بعض الأحيان الْإِنْسَان يشتري سيارة ويكدها وتتعبه كُلّ يوم يخرب مِنْهَا شَيْء ثُمَّ يبيعها ويشتري سيارةً ثانيةً ويرتاح لها، ومثلها أيضًا في بعض الأحيان يشتري الْإِنْسَان قلمًا -حتى فِي الأَشْيَاء الصغيرة- فيبدأ كُلّ يوم يتعبه؛ يَجِفّ المِدَاد، وتَجِد

(١) رواه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، حديث رقم (٢٥٨١)، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

الريشةَ أيضًا لا تستقيم معه، ومرة يضيع منه فيُتعبه، ويشتري قلمًا آخرَ ويبقى عنده مدَّة، لكِن هَذَا لَيْسَ تشاؤمًا ولكِنه شؤم.

كذلك في بعض النِّسَاء، فيتزوج الْإِنْسَان امرأة وتتعبه ليلًا ونهارًا، فِي حوائجه الْعَامَّة والخاصَّة ومع أهله وأقاربه، ويتزوج أخرى فتكون راحةً نفسيةً وقُرَّة عَيْن.

فالحاصل: أن هَذِهِ الأَشْيَاء أمرها واقع، ولكِن الرَّسُول ما قَالَ: (التشاؤم) قَالَ: (الشؤم)، وفرق بين هَذَا وبين هَذَا، فمعنى ذلك أن هَذِهِ الأَشْيَاء يجد النَّاس فيها أحيانًا بركةً وراحةً، وأحيانًا يجدون فيها قَلَقًا وتَعَبًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الرَّسُول ﷺ قَالَ: «**الشُّؤْمُ فِي ثَلَاثٍ...**» وذَكَرَها[1]، وقال: «**الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[2]، فامتدحَ حالها مَعَ الشخصِ، فهل معقود فِي نواصيها الخير مُطْلَقًا أو فِي حال الجهاد؟

فالإجابة: في حالِ الجهادِ؛ لِأَنَّ الخيلَ قد تكون وِزرًا، والرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذَكَرَ بعدها مثالًا فِي الَّذِي يربطها بالجهادِ فِي سبيل اللهِ أَنَّهَا لا تستبين ولا تعلو شَرَفًا ولا تأتي رَوْضَةً ولا تشرب ماءً إِلَّا كان له أَجْرٌ[3]، فالسَّبَب يَقتضي ذلكَ، وإن كانتِ العبرةُ بعمومِ اللفظِ، لكِن ما دام أن السَّبَب صالحٌ لإحالةِ الحكمِ عليه فيجب أن

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، حديث رقم (٤٨٠٦)؛ ومسلم، كتاب السلام، باب الطيرة والفأل وما يكون فِيهِ من الشؤم، حديث رقم (٢٢٢٥)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، حديث رقم (٢٦٩٥)؛ ومسلم، كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، حديث رقم (١٨٧٣)، عن عروة البارقي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري، كتاب المساقاة، باب شرب الناس والدواب من الأنهار، حديث رقم (٢٢٤٢)؛ ومسلم، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، حديث رقم (٩٨٧)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُقَيَّد به، مثل قول الرَّسُول ﷺ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ»[١]، وهَذَا اللفظ عامٌّ، مَعَ أَنَّهُ هُوَ نفسه يصوم فِي السفرِ، إذن يُخصَّص بالسَّبَب الَّذِي وَرَدَ فِيهِ؛ وَهُوَ أَنَّهُ إذا كَانَ الصِّيَام يؤدِّي إِلَى مثل هَذِهِ الحال فليس من البرِّ، وأيضًا الخيل قد تكون وِزْرًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل للأسماء تأثيرٌ في مُسَمَّيَاتِها؟

فالإجابة: ليس لها تأثيرٌ إِلَّا إن كَانَ ذلك من طريقِ الوحيِ، والواقعُ يَشْهَدُ بأنه لا حقيقة لذلك، فتجد هَذَا اسمه عبد الله وَهُوَ عبدٌ للشيطان، وتجد هَذَا اسمه شرورة وتجده من أخيرِ النَّاسِ، إِلَّا شيئًا يَكُونُ بطريقِ الوحيِ؛ كابن أبي طَلْحة سمَّاه الرَّسُول ﷺ عبد الله[٢]، ولما دعا له بالبركة باركَ اللهُ له حَتَّى كَانَ من أولادِهِ تسعة أو سبعة يَحْفَظُونَ الْقُرْآن، لكِن يَنبغي أن يُراعَى فِي الأسماءِ ما أرشدَ إليه الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فأحبُّ الأسماءِ إِلَى اللهِ عبدُ اللهِ وعبدُ الرحمنِ[٣]، فعبدُ اللهِ وعبدُ الرحمنِ أفضلُ من صالحٍ ومن راشدٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يجوز أن يسميَ الْإِنْسَانُ اسمًا ليتفاءلَ به؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب قول النَّبِيّ ﷺ لمن ظلل عليه واشتد الحر: «ليس من البر الصوم في السفر»، حديث رقم (١٨٤٤)؛ ومسلم، كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية إذا كَانَ سفره مرحلتين فأكثر...، حديث رقم (١١١٥)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العقيقة، باب تسمية المولود غداة يولد، لمن لم يعق عنه، وتحنيكه، رقم (٥٤٧٠)، ومسلم: كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه، وجواز تسميته يوم ولادته، واستحباب التسمية بعبد الله وإبراهيم وسائر أسماء الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، رقم (٢١٤٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء، حديث رقم (٢١٣٢)، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالإجابة: لا أدري كون الْإِنْسَان يُسمِّي اسمًا ليتفاءلَ به، والرَّسُول ﷺ قَالَ: «لَا تُسَمِّ غُلَامَكَ يَسَارًا وَلَا نَجَاحًا»(١)، وأيضًا كونك إذا سَمَّيْتَ باسماء رجالٍ صالحينَ يَكُون مثلهم هَذَا أبعد وأبعد إِلَّا إذا كَانَ عَلَى سبيل المحبَّة لهم، مثلما يفعل بعض النَّاس الْآنَ فيُسمّون بأسماء الزعماء الَّذِينَ يحبّون، وأيضًا لا يَكُونون مثلهم.

قوله: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ هَذَا جوابُ الرُّسُلِ، وهَذَا الجواب تجدونه أيضًا قد أجابَ به بنو إسرائيلَ مُوسَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف:١٣١]، وكذلك أصحابُ القريةِ الثلاثة تَطَيَّروا بالرسُلِ الَّذِينَ أُرسلوا إليهم.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: هَذَا جوابُ أهلِ الشرِّ، أَنَّهُم يجعلون الأَسْبَاب الَّتِي هِيَ من أفعالِهم ونتيجةً لأفعالهم يجعلونها بأَسْبابِ هَؤُلَاءِ المصلِحين. والحقيقة أَنَّهَا وقعتْ جزاءً عَلَى أفعالِ الكفَّار.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: تَشاءمنا ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: الْمُؤْمِنِينَ حَيْثُ قُحِطوا المطرَ وجَاعوا]، قُحِطوا بمعنى مُنِعوا المطرَ وجاعوا، ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ﴾ شُؤْمُكم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أتاكم به ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾].

قوله: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: وَلَيْسَ منا، ﴿طَٰٓئِرُكُمْ﴾ بمعنى شُؤْمِكم، والمُرادُ ما أصابكم مما تَشَاءَمْتُم به -وَهُوَ القَحْطُ والجوع- عند الله وَلَيْسَ منِّي أنا، وإذا كَانَ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهَذَا من أبلغِ الجوابِ، إذا كَانَ عند الله فإن اللهَ تَعَالَى

(١) رواه مسلم، كتاب الآداب، باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه، حديث رقم (٢١٣٦)، عن سمرة بن جندب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

حكيمٌ، ما يُنْزِلُ هَذَا الشَّيْءَ إِلَّا فِي مَنْزِلَتِهِ وبأَسْبابِهِ الَّتِي يُسْتَحَقُّ بها، فكأنه يَقُول: ما دام عند الله فالله تَعَالَى حكيمٌ، ما أنزل هَذَا الشؤمَ إِلَّا فِي مَوْطِنِهِ ومَوْضِعِهِ.

قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ هَذَا الإضرابُ لَيْسَ لإبطالِ الأوَّل، ولكِنه للانتقالِ، فهو إضرابٌ انتقاليٌّ، وكما هُوَ معروفٌ أن الإضرابَ يَكُون عَلَى نوعينِ: إضراب إبطاليّ يَكُونُ الحكمُ لَمَا بعدَ (بل) ويُبْطِل ما قبلَها، والثاني: إضرابٌ انتقاليّ، مثل هَذِهِ الآيَةِ، ومثل قوله تَعَالَى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل:٦٦]، انتقالٌ من شيءٍ إِلَى شيءٍ. هنا الإضرابُ انتقاليٌّ؛ لِأَنَّهُ عند الله يَفْتِنُهُم بما حصل ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾. ووجه الفتنة:

أولًا: أَنَّهُم نَسبوا هَذَا إِلَى صالح ومن معه، وهَذِهِ فتنة عظيمة ضلَّ بها هَؤُلَاءِ.

ثانيًا: أَنَّهُ أصابَهم مَعَ مجيءِ صالحٍ إليهم، فظَنُّوا أو ادَّعوا أن أَسْباب ذلك صالحٌ ومن معَه، ففُتِنُوا بذلكَ فابتعدوا عنِ الحقِّ.

ومثلما تقدَّم قبل قليلٍ بالتمثيلِ بأن يحدثَ مكروهٌ عندَ وجودِ رجلٍ صالحٍ فيُنْسَب هَذَا المكروهُ إِلَى هَذَا الرجلِ الصالحِ، ومجيءِ هَذَا الرجلِ الصالحِ، فيَكُون فِي ذلك فتنة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَكيمٌ يَفْتِن الْإِنْسَانَ ويَخْتبره بأنواعِ المفاتنِ، تارَةً بالمصائبِ، وتارَةً بالنِّعَمِ، وتارَةً بالأُمُور الَّتِي تُوجِب الاشتباهَ لِيَمْتَحِنَهُ بذلك، ولهَذَا الدُّنْيا كلها مِحنَةٌ، ما دام الْإِنْسَان دائرًا بينَ أمرينِ: إمَّا شرّ وَإِمَّا خير، وكُلّ حياتِكَ هَكَذَا شرّ أو خير، وكلاهما يَقُول الله فيه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

إِذَنْ: معناه انْتَبِهْ يا أيها الْإِنْسَان، انتَبِهْ فالفضلُ: لِيَبْلُوَنِي أأشكر أم أكفر، والمصائب: لِيَبْلُوَنِي أأصبر أم أَجْزَع، والشُّبُهات العلمية الَّتِي تَرِد عَلَى قلب الْإِنْسَان لِيَبْلُوَه هل يَثْبُتُ أو يَزيغ، والمسائل كلها فِي الحقيقةِ فتنةٌ واختبارٌ منَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،

ولهَذَا يَجِب عَلَى العاقلِ أن يَكُون حَذِرًا دائمًا، ولستُ أدعو فِي قولي هَذَا إِلَى سوء الظن باللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولكِني أدعو إِلَى النظرِ فِي الأُمُورِ ليَكُونَ تَصَرُّفنا عَلَى وجهٍ سليمٍ.

ولكِن مَعَ ذلك أقول: إِنَّهُ إذا تجاوز الْإِنْسَان هَـذِهِ الفتنةَ حصـلَ له الثباتُ والاستقرارُ؛ لِأَنَّهُ يطمئنّ قلبُه ويرسُخ فِي هَذِهِ الأُمُورِ ولا يَزيغ بإذن الله بَعْد ذلك، لكِن قد يُفْتَن المرء، فلْينظُرْ، ولهَذَا قَالَ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ تُفتنون بالخيرِ والشرّ، ووجهُ الفتنةِ فِي هَؤُلَاءِ: البلاء الَّذِي أصابهم بسببِ دعوةِ صالحٍ إِلَى عبادةِ اللهِ فَكَفَرُوا فعُوقِبُوا، فهَـذِهِ من الفتـنِ؛ لِأَنَّهُم قالوا: أنت سَبَبُها، وَفِي الحقيـقة أن أَسْبابها هم أنفسهم، ففُتِنُوا بذلك.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان مَسْلَكِ المكذِّبين للرسلِ؛ أَنَّهُم يسلكون مسالِكَ التشبيهِ والتمويهِ؛ لِقَوْلِهم حين أُصيبوا بالجدبِ والقَحْط: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، مَعَ أن هَذَا الأَمْر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَيْسَ بأَسْبابِ النبيِّ، وهَكَذَا أهلُ الباطلِ يُشَبِّهون ويُلبِّسون عَلَى النَّاس بمثل هَذِهِ الأُمُور.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنّ المصائب الَّتِي تُصيب الْإِنْسَان إِنَّمَا هِيَ من اللهِ تَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ولا ينافي هَذَا قولَه تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]، ولا قولَه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الروم:٤١]؛ لِأَنَّ نِسبة هَذِهِ الأُمُورِ إِلَى اللهِ نسبة خَلْقٍ وإيجادٍ، ونسبتها إِلَى المخلوق نسبةُ تسبُّبٍ، فهي تُضافُ إِلَى النَّاس إضافةَ الشَّيْءِ إِلَى سببِهِ، وتُضاف إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إضافة المخلوق إِلَى خالقِه، وَعَلَى هَذَا يزول إشكالُ كثيرٍ منَ الآيَاتِ الَّتِي ظاهرها التعارُض فِي هَذَا البابِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ من الحِكْمَةِ أن يُرَدَّ الباطلُ بالحقِّ بدون سكوتٍ؛ لِقَوْلِهِ فِي جوابهم: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ ينبغي أن يَكُونَ الردُّ من جنسِ الإيرادِ، فهنا تَطَيَّروا بصالح ومن معَه، فبيَّن أن طِيَرَتَهُم وشُؤْمَهم بسببِ أعمالهم، ولذا قَالَ: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ﴾ فاللفظُ مثل اللفظ، فينبغي أن يَكُون الجوابُ مثلَ الإيرادِ، ويَتَحَرّى المجيب حَتَّى اللفظ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ ينبغي لمن ردَّ عَلَى غيره أو أبطلَ قولَه أن يأتيَ بأمرٍ لا جدالَ فيه؛ لِأَنَّ صالحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لو قَالَ: هَذَا الجَدْب لَيْسَ منِّي وأنا ما أتيتُ بسببِه ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لكان هَذَا فِيهِ مجال للأخذِ والردّ، ولكِن يَنبغي أن يختارَ المجيبُ الجوابَ الَّذِي لا كلامَ بعدَه.

ونظيرُ هَذَا مُحاجَّة إبراهيمَ للذي حاجَّه فِي الله ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، لم يقلْ: لا، أنت لستَ تُحْيِي وتميت، ولكِنك تقتُل مَن لا يَستحِقّ القتلَ وترفَع القتلَ عمَّنِ استحقَّه، وهَذَا لَيْسَ بإحياءٍ ولا إماتةٍ، مَعَ أنَّ هَذَا هُوَ الحقيقة، لكِن هَذَا يَكُون فِيهِ جَدَلٌ؛ إِنَّمَا أتى بأمرٍ لا جدالَ فِيهِ ولا يُمْكِنُه أنْ يُجَادِلَ، ولهَذَا بُهِتَ الَّذِي كفر.

وهَكَذَا يَنبغي للإِنْسَان فِي مُحاجّة مَن حاجّه أن يختار الأجوبةَ الَّتِي لا تؤدِّي إِلَى النزاعِ والجدالِ؛ لِأَنَّهُ إذا أدَّت إِلَى النزاع والجدال فقد يَتَغَلَّب الباطلُ عَلَى الحَقّ بسبب طولِ الجدال واللفّ والدَّورانِ، لكِن يُؤتَى بشيءٍ لا جدالَ فيه، وهَـذَا من آدابِ المناظرةِ حَتَّى عند الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ بهَذِهِ الأُمُورِ، فيَرونَ أن من آدابِ المناظرةِ الأخذ بما لا يُمْكِن الجدلُ فيه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الله تَعَالَى قد يُحْدِث منَ الأُمُورِ ما يَكُون سببًا لافتتان بعض النَّاس؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾؛ لِأَنَّهُ لَمَّا جاء صالح جاء الجَدْب، وهَذَا فِي الحقيقة فتنةٌ لبعضِ النَّاسِ؛ إذ يَقُول بعض النَّاس مثلًا: إن هَذَا من أَسْباب هَذِهِ الرسالةِ، فيَكُون سببًا للفتنةِ، لولا عصمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهَذَا دائمًا يَكُون فِي أفعالِ اللهِ تَعَالَى الْقَدَرِيَّة والشَّرْعِيَّة، فِي الشَّرْعِيَّة: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة:٩٤]، حرَّم الله الصيد عَلَى المحرِمين، فبعث الله إِلَى الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ صَيدًا تناله أيديهم ورِماحهم يُمْسِكه بيده بدون تعبٍ وبرُمْحِه بدون أن يحتاج إِلَى قوسٍ ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ فخافوه بالغيب.

وافتتن الله تَعَالَى قومَ موسى بالحيتانِ تأتيهم يومَ سَبْتِهِم شُرَّعًا مَعَ تحريم الصيد عليهم، ويوم لا يَسْبِتُون لا تأتيهم، ولكِنهم لم يَصْبِروا وخادعوا فتحايَلُوا، وصاروا يَضَعُون الشباكَ للحيتانِ فِي يوم الجُمُعة فتأتي الحيتان فتقع فِيها يوم السبتِ، فإذا كَانَ يوم الأحدِ جاءوا وأخذوها، وقَالُوا: نحن ما صِدنا يوم السبتِ، فقلبهم الله تَعَالَى قِرَدَةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف:١٦٦].

فالحاصل أقول: إن الله تَعَالَى قد يَفتِنُ الْإِنْسَان بالفتنِ الشَّرْعِيَّة والْقَدَرِيَّة لأجلِ أن يعلمَ مَن يخافه بالغيب، ومن يصبر ومن لا يصبر.

أحيانًا أيضًا يُبْتلى المرءُ بالمصائبِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج:١١]، ومنَ النَّاس مَن يعبد الله تَعَالَى عَلَى أساسٍ لَيْسَ عَلَى حرفٍ، فإن أصابَهُ خيرٌ اطمأنَّ به، وشكرَ عليه، وإن أصابَتْهُ فِتنةٌ صَبرَ حَتَّى يَجْتَازَهَا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إن الجدبَ والقحطَ هُوَ آيَةٌ وَلَيْسَ فتنةً؟

فالجواب: هَذِهِ فتنةٌ؛ لِأَنَّ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَيَّن أن السَّبَب ليسَ الرسالة، وَهُوَ ما جاء بها لتشهد عَلَى رسالته، أُجيبوا بها لِأَنَّهُم كذَّبوا، مثلما أُجيبتْ قريشٌ بدعاء النَّبِيّ ﷺ بسنين كسنين يُوسُف[1].

وهو ما قَالَ لهم: إن آيتي أن يَبْتَلِيَكُمُ اللهُ بالقَحْطِ، وحتى لو قَالَ: إنَّ آيتي أن يَبْتَلِيَكُمُ اللهُ بالقحطِ وحَصَلَ فَهُوَ آيَة.

• ● ۞ ● •

(١) رواه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب دعاء النَّبِيّ ﷺ: «**اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»، حديث رقم (٩٦١)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، حديث رقم (٦٧٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٤٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل:٤٨].

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ مَدِينة ثَمُود ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي: رِجال]، المُفَسِّـر قَالَ: أيْ رجال، والرهطُ صحيحٌ هم الرِّجال، لكِنهم قَالُوا: إن الرهطَ ما بينَ الثلاثةِ إِلَى العشَرةِ، وبعضهم قَالَ: ما بينَ السبعةِ إِلَى العشَرةِ، فعلى هَذَا ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ يَكُون تسعة فِي تسعة؛ بواحد وثمانين، والمُفَسِّـر فَسَّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرهطَ بالرِّجال لا بمعناها الخاصّ؛ لأجل أن تستقيمَ الإضافةُ؛ إذِ الشَّيْء لا يُضاف إِلَى نفسه إِلَّا عَلَى تأويلٍ.

وقال بعضهم: إنَّهُ لا حاجة إِلَى هَذَا التأويل؛ لِأَنَّ الإضافةَ هنا بَيَانيَّة، أي أنَّ ﴿رَهْطٍ﴾ تفسير لـ(تسعة)، كأنه قَالَ: (تِسعةٌ رَهْطٌ).

والمَعْنى عَلَى كُلّ حال: هُوَ أن هَذِهِ المَدينَة -مدينة صالح أو مدينة ثمود- كَانَ فيها رجال تسعة، والتسعة هَذِهِ كانت مجالًا للتفاؤلِ والتشاؤم، فالبعض يتشاءم من العددِ تسعة، يَقُول: لِأَنَّ تسعة جاءت بالإفسادِ فِي الْأَرْض ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والبعض يتفاءل بها، والرافضة يتشاءمون بالعشرةِ ويتفاءلون بالتسعةِ، معَ أنَّ المُبَشَّرِينَ بالجنَّة عَشَـرة، لكِن هم يُخْرِجُون عليَّ بنَ أبي طالـبٍ منهم، فهم

يتشاءمون بالعشرة، وعَدُوُّهم من العددِ العشرة، وصديقهم التسعة؛ لِأَنَّهُم يَقُولُونَ: هم آل البيت الَّذِين وضع عليهم الرَّسُول الكساء، فقال لهم شيخ الإِسْلام: يَجِب إذا كنتم تتفاءلون أو تتشاءمون بالعدد أنكم تتشاءمون بالتسعة؛ لِأَنَّها هِيَ الَّتِي قَالَ الله فيها: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾، أَمَّا العشرة فإن الغالبَ أَنَّهَا خير: عشر ذي الحجَّة، وعشر رَمَضَان، والعشرة المبشرون بالجَنَّة، وأمثلة كثيرة لا تَحْضُرني الآن[1].

وأنا أقول: إن كلام شيخ الإِسْلام هَذَا للتنزُّل مَعَ الخصمِ، وإلَّا هُوَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يتفاءل لا بهَذَا ولا بهَذَا، فالعدد عدد، لَيْسَ فِيهِ أثرٌ لشيءٍ.

قوله: ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بالمَعاصِي، وكلما ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الفساد فِي الْأَرْض فالمُراد به المعصية: الشرك فما دونه؛ لِأَنَّهُ لَا شَكَّ أن عمل المَعاصِي نفسه فساد، ثُمَّ هُوَ سببٌ للفسادِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٠]، وقال تَعَالَى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، وقال تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، فالمَعاصِي هِيَ نفسها فسادٌ، وهي سببٌ للفسادِ أيضًا، فلذلك كلَّما ذكر اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الفسادَ فِي الْأَرْض فالمُرادُ به المَعاصِي.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالمَعاصِي، مِنْهَا قَرْضُهُمُ الدَّنانيرَ والدَّراهِمَ]، أي يُقَطِّعونها ويخرِّبونها ويَقُصُّون من الدراهمِ والدنانيرِ، لكِن هَـذِهِ إسرائيليات لا دليلَ عليها، وَلَيْسَ هَذَا هُوَ أكبر المَعاصِي، صحيح أَنَّهُ غِشّ، لَكِنَّهُ

(١) انظر: منهاج السنة (١/ ٤٠، ٤/ ١٣٩، ٧/ ٤١٧).

لَيْسَ أكبر المَعاصِي.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: أهمُّ شيءٍ أَنَّهُم أنكروا الرسالةَ وكفَروا بالخالِقِ، فهَذِهِ من أعظمِ المَعاصِي الَّتِي يُفْسِدُونَ بها فِي الْأَرْض.

قوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يُفْسِدون ولا يُصْلِحون، معناه أنَّ فَسَادَهم هَذَا -والعياذُ باللهِ- شاملٌ، لَيْسَ فِيهِ صلاحٌ أبدًا، وهَذِهِ هِيَ الحِكْمَةُ من قولِهِ: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، وفيه فائدة عظيمةٌ، وَهُوَ أَنَّهُ قد يَجتمِع الصلاحُ والفسادُ فِي آنٍ واحدٍ، كما أن الْإِنْسَان يَكُون مؤمنًا ويَكُون فاسقًا، ويَكُون فِيهِ إيمانٌ وفيه كفرٌ، وفِيهِ فسوقٌ وطاعةٌ، وفِيهِ فسادٌ وصلاحٌ، فالأُمُورُ إمَّا خيرٌ مَحْضٌ وصلاحٌ مَحْضٌ، وَإمَّا شرٌّ محض وفساد محض، وَإمَّا خليطٌ من الأَمْرينِ. وهَؤُلَاءِ القومُ يُفسِدون ولا يُصلِحون، والعياذُ باللهِ، فما يصلحون بالطاعة أبدًا، وهَذَا دليل عَلَى أَنَّهُم لَيْسَ فيهم خير محض، ولَيْسَ فيهم خير أبدًا، لا قليل ولا كثير، لكِن فيهم أُناس خيِّرون، وهم الَّذِينَ آمنوا بصالحٍ واتبعوه، لكِن هَؤُلَاءِ الرهط التسعة يفسدون ولا يصلحون، دائمًا لَيْسَ لهم هَمّ إِلَّا الفساد فِي الْأَرْض بالمَعاصِي، وإلقاء الفِتَن بين النَّاسِ، ومحاولة قتل المُصْلِحِين، ولهَذَا قَالُوا: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل:٤٩]، إِلَى آخرِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: التشاؤُمُ هل يُعْتَبَرُ شِركًا أصغرَ أو أكبرَ؟

فالإجابة: التشاؤمُ شِركٌ أصغرُ، ما لم يعتقد أَنَّهُ مؤثِّر بنفسِهِ فيَكُون أكبرَ، وأظننا ذكرنا هَذِهِ القاعدة: كُلّ مَن أثبتَ سببًا غيرَ شرعيٍّ أو قَدَرِيّ -يعني لا يقتضيه الشرعُ ولا القدرُ- فَهُوَ مُشرِكٌ، لَكِنَّهُ شرك أصغر، لا يؤدِّي إِلَى الأكبرِ، فأمَّا ما اقتضاه الشرع أو اقتضاه القدرُ: فما اقتضاه الشرع بأن يعلم من طريقِ الشرعِ أن هَذَا سبب لهَذَا، كقراءةِ الفاتحةِ عَلَى المريضِ سبب للشفاءِ شَرعًا، يعني جاء بها الشرعُ، والتجارب

الَّتِي تُجرَى عَلَى بعضِ النباتاتِ وبعض الأدوية فيُعرَف تأثيرها، فهَذَا سَبَبٌ قَدَرِيّ جاء به القدرُ، لكِن لَا بُدَّ أنْ يعتقدَ أن النافعَ هُوَ اللهُ وأن هَذَا من أَسْبابِ النفعِ، لكِن لوِ اعتقدَ أَنَّهُ ينفع بنفسِهِ وَلَيْسَ سببًا محضًا صارَ متَّخِذًا مَعَ اللهِ إلهًا. المهمُّ أن الأَشْيَاء الَّتِي لم يَدُلّ عليها الشرعُ ولا القدرُ هَذِهِ لا يجوزُ أنْ نُثْبِتَ أَنَّهَا أَسْباب، مثل: إِنْسَان علَّق خيطًا برقبتِه، قَالَ: هَذَا لدفعِ العينِ، فالذي يعلق هَذَا الخيطَ لا يصابُ بالعينِ، فهَذَا لَيْسَ بسببٍ، ولَيْسَ بصحيحٍ، فأين الشرع الَّذِي دلَّ عليه وأين القدرُ الَّذِي دلَّ عليه؟! وكم من إِنْسَانٍ يُصاب بالعينِ وعليه هَذَا الخيطُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: تقنين القوانين الوضعيَّة يُعتبَرُ شِركًا أصغرَ أو أكبرَ، وهل يدخل فِي مسألة الأَسْبَاب؟

فالإجابة: التقنين لا يدخل فِي هَذِهِ المسألةِ، وهي مسألة الأَسْبَاب الَّتِي أَشرنا إليها، نحن نتكلمُ عنِ الأَسْبَاب، فمن جعل سببًا لمسببات معينة بدون شرع ولا قدر فَهُوَ مشركٌ.

وأمّا مسألة التشريعِ فليستْ داخلةً فِي مسألةِ الأَسْبَاب الَّتِي أشرنا إليها، هَذِهِ من جهةٍ أخرى، فالتشريعُ حُكْم بغير ما أنزلَ اللهُ، أي: إِنْسَان يَشْرَع ما لم يَشْرَعْهُ الله، ويعتقد أن الله لم يشرعْه وَأَنَّهُ أصلح ممَّا شرعَ اللهُ، فَهُوَ كافرٌ كفرًا مُخْرِجًا منَ المِلَّة، سواء حكم به أم لم يحكمْ أم تركَ النَّاس يحكمون به، ولهَذَا يَجِب أن نفرِّق بين مَن لم يحكمْ بما أنزلَ اللهُ تشريعًا، وبين مَن لم يحكمْ بما أنزلَ اللهُ فِعلًا، فالَّذِي يحكمُ بغيرِ ما أنزلَ اللهُ فِعلًا لا تَشريعًا هَذَا قد يكفر وقد يفسق وقد يظلم، وَالَّذِي يحكم بغير ما أنزلَ اللهُ تَشريعًا، بمعنى أَنَّهُ يجعله هُوَ الشرعَ؛ شرع مُبَدَّل بدل شرع مُنْزَل، هُوَ يرى أن هَذَا الشرع المبدل أصلح للعالمِ من الشرعِ المنزلِ، فهَذَا كافر، ولا ينقسم فعله

إِلَى ظلمٍ وفسقٍ وكفرٍ، بل هُوَ كفرٌ محض.

فالحكَّام الْآنَ الَّذِينَ يُقَنِّنُونَ للناس قوانينَ ويَقُولُونَ: يَجِب أن تمشوا عليها لِأَنَّهَا أصلحُ لكم مما سبقَ، فهَؤُلَاءِ كفارٌ، حَتَّى وإن لم تَنْزِلْ بهم نازلةٌ واحدةٌ فيحكموا بهَذِهِ القوانين، فهم كفار، مثال ذلك إِنْسَان رئيس دولة شَرَع نظامًا ويَعْرِفُ أن هَذَا النظامَ مخالِفٌ للشرعِ، لكِن يعتقد أَنَّهُ أفضلُ منَ الشرعِ وأصلحُ للخلقِ، وهُوَ ما حَكَمَ به لكِن سَنَّه وتركَ النَّاس يحكمون به، نَقُول: هَذَا كافرٌ كفرًا مخرِجًا عنِ المِلَّة، ويجب الخروجُ عليه، إِلَّا إذا كَانَ متأوِّلًا، فقد يَكُون متأولًا، قد يَقُول: لا، هَذَا لا يخالف الشرعَ؛ وذلك لِأَنَّ عندنا بعض العُلَماء -الله يهدينا وإياهم- يفتحون للحكامِ أبوابًا، حَتَّى إِنَّهُم يموِّهون عليهم ويَقُولُونَ: مسائل الدُّنْيا ما للشرع فيها دخل؛ لِأَنَّ الرَّسُول ﷺ يَقُول: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشُؤُونِ دُنْيَاكُمْ**»[1] فِي مسألة التلقيح، فيموِّهون عَلَى الحكامِ، يَقُولُونَ مثلًا: تجوز البنوكُ؛ لِأَنَّ هَذِهِ من النظام الاقتصاديّ الحديث، لَيْسَ للشرع فِيهِ دخل، وتجوز صناديق التنميات وَلَيْسَ فيها شَيْء؛ لِأَنَّ هَذِهِ من الأُمُور الاقتصادية الَّتِي يُرجَع فيها إِلَى ما يقتضيه العصر، لَيْسَ للشرع فيها نظر، وغالب الحكام قد يجهلونَ هَذَا الأَمْر فيظنون أنَّ هَذَا صحيح، فيلتبس عليهم.

لكِنْ إذا علمنا وفَهَّمْناهم وبَيَّنَّا لهم الحَقّ وقُلْنَا: إن معنى قوله: «**أَعْلَمُ بِشُؤُونِ دُنْيَاكُمْ**» أي: فيما يتعلق بالعَمَل والصناعة، فالصانع يعرف كيف يصنع القِدْرَ، لكِن قد لا يعرفه الرَّسُول ﷺ، والحَرَّاث يعرف كيف يَبْذُرُ، لكِن الرَّسُول قد لا يعلم ذلك، لكِن أحكام شؤون دنيانا الأعلم بها الشرعُ، ففرق بين الأفعالِ وبينَ الأحكامِ،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي، حديث رقم (٢٣٦٣)، عن عائشة وأنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أنا الْآنَ مثلًا أعرف أن هَذَا الشَّيْء محرَّم من الصناعة أو من الزراعة أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، لكِن هل أعرف كيف أصنعه؟ وأعرِف أن صناعةَ السياراتِ من الأُمُورِ الطيِّبة المطلوبة؛ لِما فيها من المصلحةِ، لكِن هل أعرِف كيف أصنعُ السيَّارة؟ أقول للكافر المشرك الملحِد الشيوعيّ الخبيث: أنت أعلم بشؤون دنياك، لَكِنَّهُ لَيْسَ أعلم منِّي بحكم هَذَا الشَّيْءِ، وهَذَا واضحٌ، فقول الرَّسُول: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشُؤُونِ دُنْيَاكُمْ» يعني أنتم أعرفُ هل هَذَا التلقيحُ يَنْفَع أو لا يَنْفَع؛ لأنَّكم مجرِّبون وفاهِمون، لكِن أنا أُعطيكم حُكْمًا شرعيًّا بأنَّ كُلّ ما كَانَ صالحًا للخلقِ ولأجلِ مَصْلَحَة الخلقِ فَهُوَ منَ الأُمُورِ المطلوبةِ شرعًا؛ لِأَنَّ أصل الشرائعِ ما نَزَلَتْ إِلَّا لإصلاحِ الخَلْقِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ما وردَ عن النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي وسائل الطب يُشْكِل عَلَى هَذَا؛ لِأَنَّ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَيْسَ طبيبًا؟

فالجواب: نعم لَكِنَّهُ بالوحي يُدْرِك هَذَا الشَّيْء؛ لِأَنَّهُ هُوَ إِمَّا أن يَكُون أدركه بالتجاربِ، فإذا أدركه بالتجاربِ وأخبرَ به عُلِمَ، وَإِمَّا أن يَكُونَ قد أدركه بالوحيِ، فمثلًا ذِكره أنَّ الشفاء فِي ثلاثٍ[1]، والعَسَل معروف بالوحي: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل:٦٩]، وهناك الكَيّ والحِجَامة، فيَحْتَمِل عندي أنا وعند غيري أَنَّهُ تلقَّى ذلك من الوحيِ، ونحن لا نعلم بهَذَا، ويَحتمِل أَنَّهُ عَلِمَه من التجاربِ وثبَت عندَه، ومع ذلك أيضًا نَقُولُ: ما دامَ الرَّسُول ﷺ أَثْبَتَهُ فإنَّنا نُثبته؛ لِأَنَّهُ ثبت بقولِ الرَّسُول وكذلك التجارِب تَشْهَد له.

فالتَّلْقِيح وغيرُه مثل صناعة الأبوابِ والبناياتِ، وهَذِهِ الأَشْيَاء قد لا يَعْلَمُها

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث، حديث رقم (٥٣٥٦)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إنْ كَانَ قدْ مَارَسَها، ولهَذَا الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لو كَانَ عنده فِي مكَّة نَخْلٌ ومارسَ هَـذَا الشَّيْءَ أو مارسه أهل مكَّة وعَلِموا به لَدَرَى عنه الرَّسُولُ، لَكِنَّهُ أَتَى للمدينةِ أوَّل ما أتى وقال: واللهِ أنا ما أظنُّ أنَّ هَذَا التلقيحَ يَنْفَعُ شيئًا[1]، ولم يقلْ: لا تُلَقِّحوا، لكِن الصحابة لِتَعَبِهِم مِنَ التلقيحِ لَمَّا سمِعوا هَذَا الكَلامَ فرِحوا وقَالُوا: إذنْ لا نُلَقِّح وتركوا التلقيحَ.

فما أخبر به الرَّسُولُ قد يَكُونُ بالممارسةِ وقد يَكُونُ بغيرِ الممارسةِ، مثلًا: «**الْكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ**»[2] هل هَذَا وحيٌ أو لا؟

هَذِهِ بالذات قد تكون وحيًا؛ لِأَنَّهَا خَفِيَّة، لكِن مسألة الحِجامة ومسألة الكَيّ هَذَا أمرٌ معلومٌ ومعروفٌ عندَ النَّاسِ، فقد يُغَلِّبُ الْإِنْسَان أن الرَّسُول ﷺ عَلِمَ ذلكَ بالتجارِب، وقد يقولُ الْإِنْسَان: هَذَا وحيٌ مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ أوحاه إليه.

والمعلوم بالتجارب قطعيّ إذا حَكَمَ به الرَّسُولُ، مَعَ أن الرَّسُول يَقُول: «**إِنْ كَانَ الشِّفَاءُ فِي شَيْءٍ فَفِي ثَلَاثٍ**» فما جَزَمَ؛ لِأَنَّهُ قد لا يَشفَى الْإِنْسَان بهَذِهِ الثلاث.

وكلامه الأوَّل فِي التلقيحِ لَيْسَ عن تَجَارِبَ، ولهَذَا أخلفَ الأَمْر؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عنده وَحْيٌ ولا تَجَارِبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

إِذَنِ: الرَّسُول قالها رأيًا، هُوَ قَالَ: أَرَى أنَّ ذلك لا يَنْفَع شيئًا، لكِن مِثْلَما تقدَّم: أنَّ الصحابة لَمَّا سمِعوا هَذَا الكَلام فرِحوا به، قَالُوا: إذن كُفِينا المُؤْنَةَ؛ ما دام هَذَا ظنّ النَّبِيّ ﷺ، وتَركُوه وفَسَدَ النخلُ.

---

(١) سبق تخريجه بلفظ: «**أنتم أعلم بشؤون دنياكم**».

(٢) رواه البخاري، كتاب الطب، باب المن شفاء للعين، حديث رقم (٥٣٨١)؛ ومسلم، كتاب الأشربة، باب فضل الكمأة ومداواة العين بها، حديث رقم (٢٠٤٩)، عن سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قد يُشْكِل عَلَى بعض النَّاس فيقولونَ: كما أَنَّهُ لَيْسَ مُؤَبِّرًا فَهُوَ لَيْسَ أيضًا طبيبًا؟

فالإجابة: ليس بصحيح، نَقُولُ: الرَّسُول ﷺ ما جَزَمَ بأنه يفيدُ، وهَذَا أمرٌ معلومٌ لكلِّ مؤمنٍ، ويستطيع أَنْ يُدَافِعَ لمن أوردَ شُبهة فِي هَذَا الأَمْر فيقول: النَّبِيّ ﷺ ما جَزَمَ، ولو جزمَ النَّبِيّ ﷺ بهَذَا الأَمْرِ فَإِنَّمَا جزمَ به عَلَى سبيلِ الظنّ، والْإِنْسَان قد يَجْزِم بالشَّيْءِ عَلَى سبيلِ الظنِّ، وقد أقرَّ النَّبِيّ ﷺ مَن جَزَمَ.. بل قد أقسمَ عَلَى سبيلِ الظنّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الأطبّاء العَصْرِيُّون يعملون بالكيِّ، فهل يُرَدّ الحديثُ بِسَبَبِ ما ظَهَرَ من أنواعِ التقدُّم فِي الطبِّ أو لا؟

نَقُول: هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، أولًا: هم الْآنَ يؤمنون بالكيِّ، لكِن تَخْتَلِف الوسيلة الآن، فالكيُّ بالكهرباء ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ هَذَا معروف لهم، ومُسْتَعْمَل ويؤمنون به. وكما قَالَ الرَّسُول ﷺ: «**أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**» لَيْسَ المُرادُ بالرمي بالقوس الآن، الرمي بالآلة الموجـودة، والكي أيضًا بالآلة الموجـودة. وهم أيضًا الْآنَ فِي بعض الأَشْيَاء يَلْجَئُون إِلَى الطبِّ العربيّ، وأذكر أنهم دائمًا يَنْصَحُون المريضَ بذاتِ الجَنْبِ ويَقُولُونَ: اذهَبْ تَطَبَّب طِبًّا عربيًّا، ويُكْوَى ويُشْفَى بإذن الله.

وهم فِي الحقيقـة قد يُنْكِرون الوسيلةَ أو الآلةَ الَّتِي حَصَلَ بها الكَيّ، أو فِعْل بعض الَّذِينَ يكوون بالحديدِ، ففِعل بعض الَّذِينَ يكوون فظيع والعياذُ باللهِ، أنا أذكُرُ أنّ بعضَ النِّسَاءِ يُؤتَى إليها بالطفلِ وتَعْمَل له فِي رأسه ثمانين كَيَّة، وكذا فِي ظَهْره كُلّ خرزة مِنَ الظَّهر عليها خَمْس. فالأطباء يَقُولُونَ بهَذَا الشَّيْءِ ويُنْكِرونه لِئَلَّا يَحْصُل مثل هَذِهِ الحالاتِ.

والرَّسُول ﷺ لما ذكر هَذِهِ الأَشْيَاء فلَيْسَ معناه أن هَذِهِ حتمًا هِيَ الَّتِي تَنْفَع، بل قد يقوم مَقامها ما هُوَ أَولى منها، ونَهْيُ النَّبِيّ ﷺ عن الكَيِّ لَيْسَ للتحريمِ[1]، والنَّبِيّ ﷺ نَفْسُه فَعَلَ وكَوَى سَعْدَ بنَ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فِيهِ مَبْدَأ العَصَابات، ولا يزالُ مَوْجودًا إِلَى الآنَ، فإن هَؤُلَاءِ ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وما زالَ الأَمْر إِلَى يومنا هَذَا وإلى ما بَعْد واللهُ أَعْلَمُ وَأَنَّهُ سَيَبْقَى؛ لِأَنَّ أهل الشَّرّ لهم طُرُق يَتَفَنَّنُون بها فِي فرضِ شَرِّهِم عَلَى غيرهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يمكن أنْ يَجْتَمِعَ الفساد والصلاح، يعني أن الفساد والصلاح قد يجتمعانِ فِي شخصٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يُفْسِدُونَ﴾ ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، ولولا أَنَّهُ يمكن اجْتِمَاعُهما لم يكنْ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ فائدة؛ لِأَنَّهُ يَكُون عدم الصلاح مفهومًا من إثباتِ الفسادِ، لو لم يُمْكِنِ اجْتِمَاعُهما.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الكفر والإِيمان قد يجتمعانِ فِي شخصٍ؛ لِأَنَّ الإِيمان صلاحٌ والكفرَ فسادٌ، وكذلك أيضًا الفُسُوق والطاعة يمكن أن يَجْتَمِعَا، وخالف فِي ذلك طوائفُ منَ النَّاسِ: المُعْتَزِلَة والخوارِجُ والمُرْجِئَة، فالمرجئة قَالُوا: لا يمكن، فالْإِنْسَان إذا كَانَ مؤمنًا كُلّ أحوالِهِ صالحةٌ ولا يُعَذَّب بذنبٍ ولا يُلام عليه، والخوارج والمُعْتَزِلَة

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث، حديث رقم (٥٣٥٦)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه مسلم، كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي، حديث رقم (٢٢٠٨)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بالعكسِ قَالُوا: لا يمكن أنْ يَجْتَمِعَ كفرٌ وإيمانٌ، وفُسُوق وطاعة، بل مَن أتى ما يُوجِب الفِسْق صار كافرًا، ومَن أتى ما يُوجِب الكفرَ صارَ كافرًا عَلَى رأيِ الخوارِجِ، أو خارجًا من الإِيمان بين منزلةِ الإِيمانِ والكفرِ عَلَى رأي المعتزلة، ولَا شَكَّ أن النصوصَ والواقعَ والعقلَ يَدُلّ عَلَى خلافِ ما قالوا؛ لِأَنَّ اجتماعَ هَذَا وهَذَا أمرٌ موجودٌ مَعْلُوم، فالعاصي نَقُول: إنَّهُ مؤمنٌ ناقصُ الإِيمانِ، فلا نُطْلِق عليه الإِيمان المُطْلَق، حَتَّى لو كَانَ عنده إيمانٌ عشرة فِي المِئَة، لَا بُدَّ أن يَكُونَ ناقصَ الإِيمانِ، أو نَقُول: مؤمن بإيمانِهِ فاسِقٌ بكبيرتِهِ، مثلًا لوِ اغتابَ الْإِنْسَان رجلًا من النَّاسِ، فهَذِهِ كبيرةٌ منَ الكَبائِرِ تَنْقُصُ الإِيمانَ، وَهُوَ يُصَلِّي ويصوم ويزكِّي ويَحُجّ ويتطوع بسائر التطوُّعاتِ، لا نعطيه وصفَ الإِيمانِ المطلَق، بل نَقُول: مؤمن بإيمانِهِ فاسِق بِكَبيرتِهِ أو مؤمن ناقصُ الإِيمانِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أليس قوله تَعَالَى: ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ مثل قول الصحابيّ: فأُمِرْنَا بِالسُّكُوتِ ونُهِينَا عَنِ الكَلَامِ[1]، بمعنى أنَّ الوَصْفَ يَتَحَقَّق بواحدٍ منهما؟

فالجواب: لا؛ لِأَنَّ السكوتَ والكَلامَ متناقِضانِ، أَمَّا الصلاحُ والفسادُ فمُتَضَادَّانِ يُمْكِن أنْ يَجْتَمِعَا، فيَكُونُ فِي الشَّيْءِ مَصْلَحة ومَفْسَدة، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:٢١٩]، أَمَّا هَذَا فإمَّا سكوتٌ أو كلام، فهما متناقضان، يعني لا يمكن أن يوجدَ أَحَدُهما إِلَّا بِفَقْدِ الآخَرِ.

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب العمل في الصلاة، باب ما ينهى عنه من الكلام في الصلاة، رقم (١٢٠٠)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٩).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ المَعاصِيَ من أَسْبابِ الفسادِ فِي الْأَرْض؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُفْسِدُونَ﴾، وهَـؤُلَاءِ الجماعةُ ليسوا يَهْدِمُون البيوتَ ولا يُغْرِقُون الزُّرُوعَ ولا يُحْرِقون المتاجِرَ، لَكِنَّهم يفعلون ما يَكُون سببًا للفسادِ؛ الفساد المَعْنَوِيّ، وَهُوَ فساد الأخلاقِ والسلوكِ، والفساد الحِسِّي؛ لِأَنَّ الفساد الحِسِّيّ يَتْبَع الفسادَ المعنويَّ.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل:٤٩].

قوله: ﴿قَالُواْ﴾ أي: هَؤُلَاءِ التسعة، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُواْ﴾ أي: قَالَ بَعْضُهم لبعضٍ ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ أي: احْلِفُوا ﴿بِٱللَّهِ﴾]، يعني طَلَبَ بعضهم مِن بعضٍ أنْ يَتَعَاهَدوا عَلَى هَذَا الأَمْرِ ويتحالفوا عَلَى أنْ يُبَيِّتُوا صالحًا وأهلَه، ومعنى البياتِ إنزالُ العقوبةِ به ليلًا، فهنا حَلَفوا -والعياذُ باللهِ- وهَذَا الحَلِف الفاجِر عَلَى أنْ يُبَيِّتُوا صالحًا وأهلَه، ولهَذَا قَالَ: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ اللامُ فِي قولِهِ: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ واقعةٌ فِي جوابِ القَسَمِ، والنون للتَّوكيدِ، فهم أكَّدوا هَذَا الفِعْل باليمينِ واللامِ والنونِ.

يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ بالنونِ والتاءِ وضَمّ التاءِ الثَّانِيَة]، إذا جعلناها بالتاء لَزِمَ ضَمُّ الثَّانِيَة: «لَتُبَيِّتُنَّهُ»، وَأَمَّا ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ فإنَّ التاءَ تَبْقَى مفتوحةً[1].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ أي: مَن آمنَ به أَيْ نَقْتُلُهُمْ لَيْلًا]، هَذَا تفسيرُ البياتِ، والمُرادُ بالأهلِ أتباعُهُ كما قَالَ المُفَسِّر، ولكِن قد يُنازَع فِي هَذَا ويُقال: إن المُرادَ به أهلُه الخاصُّون، يعني أهل بَيْتِه؛ لِأَنَّهُم هم الَّذِينَ يَكُونونَ فِي الغالبِ معه فِي الليلِ، فإنَّ الغالبَ أنَّ الْإِنْسَانَ فِي الليلِ لا يَكُونُ معه فِي بيتِهِ إلَّا أهله الخاصُّون به.

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٢).

ثُمَّ بَعْد ذلك، أي بَعْد أنْ نُبَيِّته ﴿لَنَقُولَنَّ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالنون والتاءِ وضَمّ اللامِ الثَّانِيَةِ]، أي: وضمِّ اللامِ الثَّانِيَةِ إذا كانتْ بالتاءِ: (لَتَقُولُنَّ)، أَمَّا عَلَى قراءةِ النونِ فهي بالفتح: ﴿لَنَقُولَنَّ﴾.

يعني: ثُمَّ بعدَ أنْ نُبَيِّتَه ونقتله إذا قامَ وَلِيُّه بالأخذِ بِثأْرِهِ نَقُول ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِوَلِيِّ دَمِه].

ووليُّ الدمِ عندنا فِي الشَّرِيعَة الإِسْلاميَّة هم الوَرَثَة بفرضٍ أو تعصيبٍ، وَقِيلَ: بل همُ العصبةُ؛ لِأَنَّهُم الَّذِينَ يؤدُّون العقلَ عنه، وَأَمَّا ذَوُو الفَرْض فلَيْسُوا مِن أولياءِ الدمِ، والصَّوابُ العمومُ؛ أنَّ أولياءَ الدمِ همُ الورثةُ بفرضٍ أو تعصيبٍ، حَتَّى الزوجة والأمّ هما مِن أولياءِ الدمِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا شَهِدْنَا﴾ حَضَرْنَا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ بِضَمِّ الميمِ وفَتْحِها]: (مُهْلَك ومَهْلَك) ولم يَتَعَرَّضِ المُفَسِّر للقراءةِ الثَّالثةِ وهي (مَهْلِك)، فالقراءات فيها ثلاث: فتح الميم وكسر اللام (مَهْلِك)، فتح الميم واللام (مَهْلَك)، ضمّ الميم وفتح اللام (مُهْلَك)، وهاتانِ الأخيرتانِ هما اللتانِ ذكرهما المُفَسِّر: (مُهْلَك أهله ومَهْلَك أهله)، يَقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: إهلاكهم أو هلاكهم]، عَلَى القراءتين: (مُهْلَك) أي إهلاك؛ لِأَنَّ (مُهْلَك) من (أَهْلَكَ) الرُّبَاعِيّ، و(مَهْلَك) من هَلَك الثلاثيّ، ولذلك نَقُول: إذا كَانَ الفِعْل ثلاثيًّا فإن المصدر المِيميّ منه عَلَى وزن مَفْعَل: هلك مَهْلَك، قام مَقَام. وإذا كَانَ رُباعيًّا فإن المصدرَ الميميّ منه عَلَى وزن اسْم المَفْعُول، فتقول: مُهْلَك من أَهْلَكَ، وتقول: مُقَام من أقام، وتقول: قام فينا مَقَامَ فلان، مثلما قَالَ أبو حيَّان فِي ذِكْر ابنِ تَيْمِيَّة[1]:

---

(١) أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي (١/ ٢٤٧).

قامَ ابْنُ تَيْمِيةَ في نَصْرِ شِرْعَتِنَا مَقَامَ سَيِّدِ تَيْمٍ إِذْ عَصَتْ مُضَرُ

قامَ مَقامًا، لكِن عندما تقول: (أقامَ) تقول: أَقَامَ فِي هَذَا المكان مُقَامَ فُلانٍ بضمِّ الميمِ، لا تقل: مَقام، وهَذِهِ قاعدة معروفةٌ فِي النحوِ؛ أنَّ المصدرَ الميميَّ إذا كَانَ مـن رُباعيٍّ فَهُوَ عَلَى وزنِ اسمِ المَفْعُـول، وإذا كَانَ مـن ثلاثيٍّ فَهُوَ عَلَى وزنِ مَفْعَل أو مَفْعِل مثل مَهْلِك.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فلا نَدْري مَن قَتَلَهم]، وهَذَا الإنكارُ كَـذِبٌ وليـس بصحيح، فما داموا هم الَّذِينَ قتلوه فقولهم: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ هَذَا كَذِب، لكِن فِيهِ تَوْرِيَة؛ لِأَنَّهُم يَقُولُونَ: ما شهِدنا بل فَعَلنا، والشاهِد لم يَفْعَل، ولهَذَا قَالُوا: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

وجملةُ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ هـل هِيَ من جملـة قولهم الَّذِي يدافعـون به عن أنفسهم أو هِيَ تقريرٌ لقولهم: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾، يعني أنهم لم يقولوه للدفاع عن أنفسـهم؟ يعني هل قولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ من جملـة ما يَقُولُونَه للوليّ ليؤكِّدوا النفيَ؟ ما شَهِدنا وإننا لم نَكْذِب عليكم، إننا لَصَادِقُون أننا ما شَهِدنا، هَذَا وجهٌ، أو أن المَعْنى: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ يَقُول بعضهم لبعض: واطمئنوا أيُّها الإخوة؛ فإنَّنا صادقون بأننا لم نَشْهَدْ؟

يَحْتَمِل هَذَا وهَذَا، إنَّما المفسِّرون ذكروا احتمالين: أحدهما أن يقولوه فِي جملة دِفَاعِهِم عن أنفسهم لوليّ صالح، وعلى هذا فتكون جملة ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ تقريرًا لقولهم: ما شَهِدنا مَهْلِكَ أَهْله، والتَّقْدير: ما شهِدنا وإنا صادقونَ فلن نُخْبِرَكم بشيءٍ، أو أن المَعْنى: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ ونحن إذا قُلْنَا هَذَا فإنَّنا صادقون لأنَّنا ما شَهِدنا المَهْلِك، ولَكِنَّنَا أَهْلَكْنَا بأنفسنا، لسنا شهودًا بل فاعلون؛

لِأَنَّ الفاعل غيرُ الشاهدِ، وهَذَا المسألةُ تَوْرِيَة كما تقدَّم، وإلَّا فمِنَ المعلومِ أنَّ مَن فعلَ فقد شَهِدَ، بل أبلغ، لكِن يُهَوِّن بعضهم الأَمْرَ عَلَى بعضهم حَتَّى لا يَكُون فِي أنفسِهِم شيءٌ، لكِن لتهوينِ الأَمْر عَلَى بعضهم يلقِّن بعضهم بعضًا.

والحاصل: أن هَؤُلَاءِ -والعياذ بالله- أرادوا هَذَا الفِعْل المنكَرَ وَهُوَ مَكْر؛ لِأَنَّهُ إتيانٌ لصالحٍ وأهلِهِ من حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ، فإن الليلَ مَوْضِع السكونِ والهدوء، وإذا أحد اعْتَدَى عَلَى أحدٍ صار ذلكَ غَدْرًا ومَكْرًا، ولهَذَا حَتَّى فِي حربِ الْكُفَّار اختلفَ العُلَماءُ هل يجوزُ تَبْيِيت الْكُفَّارِ أو لا يجوز؟

فمِنَ العُلَماءِ مَن مَنَعَ التبييتَ وقال: لا يمكِن أن نقتلَ الْكُفَّار وهم غارُّونَ نائمون، ومنهم مَن أجازَ ذلكَ، والمسألةُ تَحتاج إِلَى تحرير بَحْث فِي هَذَا.

والحاصل: أن هَذَا منَ الغَدْر والمكْر أن يأتيَ هَؤُلَاءِ إِلَى صالحٍ وأهلِهِ فِي الليلِ فيُبَيِّتُوهم، ولهَذَا يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾ [النمل:٥٠].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّهُ مِنَ الحَزْم -والحزمُ قد يَكُونُ فِي الخيرِ وَقد يَكُونُ فِي الشرِّ- أنْ تَجْتَمِعَ الطائفةُ وتَتَعَاقَد وتتعاهَد عَلَى مِنهاجها الَّذِي تَسير عليه وتَتَّفِق عَلَى عهدٍ يَرْبِط بَعْضَها ببعضٍ لِيَكُونَ التنفيذُ واحدًا، ولئلَّا تَتَفَرَّقَ وتَخْتَلِف؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ ما ذهب كُلّ واحدٍ مَذْهَبًا، فاجْتَمَعُوا فِي أوَّل الأَمْرِ عَلَى تدبير الخُطَّة ثُمَّ عَلَى تَنفيذِها، وهَذَا المَسْلَكُ لا زالَ يُسْلَك حَتَّى الآنَ. وتعرفون أنَّ الصحيفةَ الَّتِي اجتمعتْ قُرَيْشٌ فيها عَلَى مقاطعة بني هاشمٍ لم تُنْقَض برجلٍ واحدٍ، بل ذهب هَذَا الرجلُ الَّذِي أرادَ نَقْضَها إِلَى فلانٍ وفلانٍ وصارَ يُجَمِّعُ النَّاسَ حولَه حَتَّى اجتمعوا عَلَى نقضها وغلبوا فِي تنفيذ فِكرتهم.

فالحاصل: أن هَذِهِ المسائلَ ينبغي للإِنْسَانِ إذا أرادَ أن يَهِمَّ بأمرٍ ويمشي عَلَى منهاجٍ أَنَّهُ يجعل معه أقوامًا يساعدونه ويتعاقدُ معهم ويتعاهَد، فإن كَانَ فِي خيرٍ فخيرٌ، وإن كَانَ فِي شرٍّ فالله يَتَوَلَّاهُم، وهنا ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ عَلَى شرٍّ من أعظمِ الشرورِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فيها دليلٌ عَلَى مبدأ الاغتيالاتِ؛ بمعنى أن الاغتيالَ موجودٌ حَتَّى فِي الزمنِ السابقِ، هَذَا المقصودُ، وَلَيْسَ معنى هَذَا أن هَذَا المبدأ مُباح، بل المُراد أن هَذَا موجودٌ ولا زالَ موجودًا، فغالبُ الأُمُورِ من خيرٍ أو شرٍّ تَجِدُ لها أصلًا فِي الأممِ السابقين؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾؛ لِأَنَّ التبييتَ اغتيالٌ، إذ إن الاغتيال معناه هُوَ القتل عَلَى غِرَّة.

ولهَذَا كَانَ الصَّحيحُ من أقوالِ أهلِ العلمِ أن الغِيلَة لَيْسَ فيها خِيَار لأولياء الدمِ، وَأَنَّهُ يَجِب قتلُ المُغتالِ بكلِّ حالٍ، حَتَّى لو عَفَوْا، وهَذَا مَذْهَبُ مالِكٍ واختيار شيخِ الإِسْلامِ ابنِ تَيْمِيَّة[1]؛ لِأَنَّهُ لا يُمْكِن التحرُّز منه، وَهُوَ فسادٌ فِي الْأَرْض، ولا يُعارِض هَذَا قولَ الرَّسُولِ ﷺ: «**مَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ**»[2]؛ لِأَنَّ قوله: «**مَنْ قُتِلَ لَهُ**» هَذَا منَ الحقوقِ الخاصَّة، وَأَمَّا مسألة الاغتيال فإنها من الحقوقِ الْعَامَّةِ، حيث يأتي للإِنْسَانِ فِي مَأْمَنِهِ ويَقْتُلُه! ففِعل القاتل الَّذِي فِيهِ التخييرُ أَنَّهُ يأتيه ولو لم يوجدْ عندَه أحدٌ لكِن المهمّ أن المقتولَ يُمْكِن أنْ يَتَحَرَّز منه بالفرارِ أو بالمدافعةِ أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فيحصل القتل، أَمَّا أن يأتيَه وَهُوَ نائمٌ مثلًا أو يأتيه فِي بيته وَهُوَ غافلٌ، فهَذَا لا يُمكِن التحرُّز منه؛ لِأَنَّهُ إذا جاءه وَهُوَ يعلمُ به فيُمْكِنه أن يَتَحَرَّز

---

(١) انظر: بلغة السالك (٤/ ١٦١)؛ زاد المعاد (٤/ ٤٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الديات، باب من قتل له قتيل فَهُوَ بخير النظرين، حديث رقم (٦٤٨٦)؛ ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إِلَّا لمنشد على الدوام، حديث رقم (١٣٥٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بالفرارِ، ويتحرَّز بالمُدافعةِ، ويَتَحَرَّز بالصِّياح لِمَن حَوْلَه، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ قَوْلنا: إنَّهُ عَلَى خُفْيَة أَنَّهُ لا يوجدُ عندَه أحدٌ؛ لِأَنَّ الغالبَ أَنَّهُ لا يُقْتَل إِلَّا إذا كَانَ لا يوجد عنده أحد، لكِن الكَلام عَلَى غِرَّة منَ المقتولِ، هَذَا هُوَ قَتْل الغِيلة.

فهَؤُلَاءِ الجماعة تَقَاسَمُوا عَلَى هَذِهِ الفِعْلة القَبِيحَة المُشِينة، ولكِنهم لم يحصُلْ لهم تنفيذُ ما أرادوا؛ لِأَنَّهُم مَكَرُوا، ومكرَ اللهُ، واللهُ خيرُ الماكرينَ.

هل يجوزُ سلوكُ مبدأِ الاغتيالاتِ مَعَ الأعداءِ؟

إنْ كَانوا يَسْلُكُونه معنا سلكِناه معهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل:١٢٦].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وَفِي قوله: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ دليل عَلَى إنكارِ المدَّعي، وهَذَا شَيْء واضح، أَمَّا الفاعل للسيئة فلا يُهِمُّه أن يُنْكِر فِعْلَه، يَعْنِي: مَن قتلَ يهون عليه أن يُنْكِرَ القتلَ؛ لِأَنَّ القتلَ أعظمُ من إنكارِه، فلهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ البَيِّنَة عَلَى المدَّعِي واليمينَ عَلَى مَن أنكرَ؛ لِأَنَّهُ لَوْلَا أن هَذَا القَوْل يُبَرِّئهم ما صحَّ أن يَتَّفِقُوا عَلَى اتِّخاذِهِ حُجَّةً؛ يَقْتُلُونه ويَقُولُونَ: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾، فاتَّفَقُوا عَلَى هَذَا، دلَّ هَذَا عَلَى أنَّ الإنكار يُبَرَّأُ به المُدَّعَى عليه، ووَجْهُه: أَنَّهُ لولا أن ذلك يُبَرِّئُهم لم يَنْفَعْهُم الاتفاقُ عليه؛ لِأَنَّهُ لو قَالُوا: ما شهِدنا مَهْلِكَهُم سيُقال: أنتم القاتلونَ، فهَذَا أيضًا دليلٌ عَلَى أنَّ البيِّنة عَلَى المدَّعي واليمين عَلَى مَن أنكرَ.

فإذا ادَّعَى شخصٌ أن هَذَا الرجلَ قتلَ والدَه، نَقُول له: هاتِ بيِّنَةً، فإذا لم يأتِ

ببينةٍ فَإِنَّهُ لا يَثْبُتُ له الحقُّ؛ لِأَنَّ البيِّنة عَلَى المُدَّعِي واليمينَ عَلَى مَن أنكرَ. ولكِن هل هَذَا عَلَى إطلاقه؟

المشهورُ مِنَ المَذْهَبِ أَنَّهُ عَلَى إطلاقِه، وَأَنَّهُ لو كَانَ المُدَّعَى عليه القتلُ مِن أفجرِ النَّاسِ والمقتولُ من أطيبِ النَّاسِ، وكذلك المُدَّعِي فَإِنَّهُ لا يُؤْخَذ بِقَوْلِهِ؛ لِعُمُومِ قولِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ**»(١).

واختارَ شيخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ هَذَا يُؤْخَذُ بِقَوْلِهِ، ولكِن تُجْرَى فِيهِ القَسامةُ إذا كَانَ هَذَا الرجلُ معروفًا بالفسوقِ، والمقتول معروفًا بالصدقِ والاستقامةِ، وكذلك أولياؤه، قَالَ: فإن هَذه قَرِينَة تُغَلِّبُ عَلَى الظنِّ صِدْقَ المُدَّعِي، وَعَلَى هَذَا فتُجْرَى فِيهِ القَسَامَةُ. وما قاله الشيخُ فليسَ ببعيدٍ.

الأَمْر الثاني بالعكسِ؛ لو أنَّ شخصًا قتلَ إِنْسَانًا وقال: نعمْ أنا قتلتُ ولكِن الرجل صالَ عليَّ ولم يَنْدَفِعْ إِلَّا بالقتلِ، فماذا أصنع؟

المَذْهَب: لا يُقْبَل قَوْلُه ويُقْتَل؛ فلو أنَّ إِنْسَانًا أَدَّعِي عليه أَنَّهُ قاتلُ فلانٍ، قَالَ: نعمْ أنا الَّذِي قَتَلْتُه لكِنَّني قتلتُه دِفاعًا عن نفسي؛ لِأَنَّ الرجل يريد أن يَقْتُلَنِي. نَقُول له: هاتِ بيِّنةً أَنَّهُ صالَ عليك وإلا قتلناك. قَالَ: لا يُمكِن أن يَكُونَ عندي بيِّنَةٌ؛ لِأَنَّهُ ما صالَ عليَّ أمامَ النَّاسِ، لو يَدْرِي أن حوله أحدًا ما صالَ.

نَقُول: إذن نَقْتُلك ويوم القيامةِ تَخْتَصِمُون عند الله. هَذَا هُوَ المذهَب، واختارَ الشيخُ هنا أَنَّهُ يُقْبَل قولُ المعروفِ بالصدقِ، فإذا كَانَ هَذَا القاتلُ الذي يَقُول: أنا قتلتُه دفاعًا مُسْتَقِيمًا، والمقتولُ معروفٌ بالفجورِ والاعتداءِ عَلَى الخلقِ، فَإِنَّهُ يُقْبَل قولُه ولكِن يَحْلِف تأكيدًا لقوله.

---

(١) رواه الدارقطني (٣/ ١١٠، رقم ٩٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٥٢، رقم ٢٠٩٩٠).

وما قاله الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هُوَ الصَّحيحُ، ولا يمكن العَمَلُ إِلَّا به، أم كوننا نَقُول: نقتلك وتجد حسابك عند الله! هَذَا فِيهِ نظرٌ، حَتَّى لو وُجدتْ قرينةٌ تدلُّ عَلَى صِدْقِ الرجلِ غير مسألة حال هَذَا وحال هَذَا. يعني مثلًا لو وُجِدَ فِي بيتِه، فلو وُجِد المقتولُ فِي بيتِ القاتلِ، وقال: أنا قتلتُه عمدًا بدونِ شُبهةٍ لَكِنَّهُ ادَّعى أَنَّهُ صالَ، وقال: جاء إِلَيَّ ودخلَ البيتَ لِيَقْتُلَنِي أو سينتهك حُرْمَة أهلي، فوجدتُ أَنَّهُ لا يَندفِع إِلَّا بالقتلِ، نَقُول: ولو كان؛ لِأَنَّهُ يجوزُ أَنَّهُ استضافه ويتدرَّج به ويقول: تَفَضَّل عندنا؛ لأجلِ أن يقتلَه.

والحاصلُ: أنَّ هَذِهِ مشكلةٌ، ولا يستقيمُ الحالُ إِلَّا عَلَى ما قالَه شيخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الحاصل: أن قوله: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ يَدُلّ عَلَى أن المُنْكِر مقبولُ القَوْلِ ما لم يأتِ المُدَّعِي بِبَيِّنَةٍ.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].

قَالَ المُفَسِّر: [﴿وَمَكَرُواْ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿مَكْرًا﴾]، و﴿مَكْرًا﴾ مُنْكَر أحيانًا، يَكُون من فائدةِ التنكيرِ التعظيمُ، أي: مَكَرُوا مكرًا عظيمًا، والمكرُ فسَّره بعضهم بأنه التوصُّل بالأَسْبَاب الخفيَّة إِلَى الإيقاعِ بالخَصْمِ؛ لِأَنَّ الأَسْبَاب الظَّاهرة لا تُسمَّى مكرًا وإنما هِيَ أَسْباب خفيَّة.

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي مقابلةِ ذلك: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ أي: مكرًا أعظمَ من مكرِهم، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي جازَيْنَاهم بتعجيلِ عُقُوبَتِهِمْ]، ففسَّر المكر بالمجازاةِ، والصَّحيحُ أن المكرَ أخصُّ منَ المجازةِ؛ لِأَنَّهَا مجازاةٌ منْ حَيْثُ مأمنُ المُجَازَى، لكِن أراد المُفَسِّر أنْ يدفعَ بذلك صفةَ المكرِ عنِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ففسَّره بالمجازاةِ، والصَّواب عند أهلِ السنَّة والجماعة أنَّ المكرَ لا يجوزُ أن يُحَرَّف إِلَى معنى المجازة المطلَقة، وَأَنَّهُ لا يَمْتَنِع وصف الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ به فِي محَلِّه، فالمكرُ فِي محَلِّه يُعْتَبَرُ مَدْحًا، وَفِي غيرِ محَلِّهِ يُعْتَبَر ذَمًّا، والمكرُ بهَؤُلَاءِ الماكرينَ يُعْتَبَر مَدْحًا عظيمًا، ولهَذَا الصَّحيحُ فِي هَذِهِ المسألةِ الَّذِي عليه أهلُ السنَّة والجماعة أنَّ اللهَ تَعَالَى يُوصَف بالمَكْرِ، لا عَلَى الإطلاقِ، فلا يقالُ: إن اللهَ ماكرٌ؛ لِأَنَّهُ عَلَى الإطلاق يَتَضَمَّن صِفة الذمّ، وإنما

يقال: ماكرٌ بمَن يَمْكُرُ به، أو بمَن يَسْتَحِقّ المكرَ، وحينَئذٍ يَكُونُ صفةَ مدحٍ.

والصِّفَات تنقسمُ إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ:

أحدها: صفاتٌ حُسْنَى بكلِّ حالٍ، فهَذِهِ ثابتةٌ للهِ عَلَى وجهِ الإطلاقِ، كالسمعِ والبصرِ والعلمِ والحياةِ والقُدْرة ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

والثَّانِيَة: صفاتُ نقصٍ عَلَى كُلّ حالٍ، أو صفاتُ سَوْءٍ عَلَى كُلّ حالٍ، فهَذِهِ يُنَزِّهُ اللهُ عنها عَلَى كُلّ حالٍ، مثل الظُّلم واللُّغُوب والجَهْل والعَمَى والموت والمرض والولادة والوزير والشَّريك والجُوع والعَطَش، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، هَذِهِ يُنَزِّه الله عنها بكلّ حالٍ.

والثَّالثة: صفات ذات وجهينِ، تكون مدحًا فِي حالٍ وتكونُ ذمًّا فِي حالٍ، فهَذِهِ لا يُوصَف الله بها عَلَى الإطلاقِ ولا تُنْفَى عنه عَلَى الإطلاقِ، مثل: المَكْر والخِداع والاستهزاء والسُّخْرِيَة وأمثالها، هَذِهِ لا يُوصَف الله بها عَلَى كُلّ حالٍ، ولا تُنفَى عنه بكلِّ حالٍ، بل يُوصَف بها حَيْثُ تكون كمالًا، وتُنفَى عنه حَيْثُ تكون نقصًا، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة:٧٩]، وقال تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ﴾ [البقرة:١٥]، وقال تَعَالَى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النِّسَاء:١٤٢]، وقال تَعَالَى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٠].

قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني هم لا يشعرون بعاقبةِ مكرِهم، وهل يَتِمُّ لهم ما أرادوا أم لا؟ ولا يشعرون كيف يمكر الله بهم، فهم لا يشعرون لا بهَذَا ولا بهَذَا، لا بنتيجةِ مَكْرِهِم ولا بمكرِ اللهِ بهم؛ لِأَنَّهُم -والعياذُ بالله- متمادُونَ فِي الضلالةِ، والغالبُ أن الَّذِي يتمادى فِي الضلالةِ يَعْمَى فلا يُبْصِر، ويُصَمّ فلا يسمع، فلهَذَا قَالَ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، والجملةُ فِي قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مَحَلُّها منَ

الإعرابِ حالٌ منَ الواوِ فِي ﴿وَمَكَرُواْ﴾ أو منَ الضَّميرِ المحذوفِ فِي قوله: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ يعني بهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عَظَمَة اللهِ تَعَالَى وَأَنَّهُ أعظمُ مَكرًا ممَّن يَمكُرون به وبرسلِه، فهَؤُلَاءِ أرادوا المكرَ برسولِه ولكِن الله تَعَالَى مكرَ بهم بما هُوَ أعظمُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وصفُ اللهِ تَعَالَى بالمكرِ، لَكِنَّهُ لَيْسَ عَلَى سبيلِ الإطلاقِ، بل عَلَى سبيلِ التقييدِ، فيقال مثلًا: هُوَ ماكرٌ بأعدائِهِ أو بمَن يَستحِقّ المكرَ، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ممَّا يجعل المكرَ صفةَ كمالٍ؛ لِأَنَّ المكرَ لَيْسَ بصفةِ كمالٍ عَلَى الإطلاقِ ولا بصفةِ نقصٍ عَلَى الإطلاقِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يَمْكُرُ بالعبدِ فلا يَشْعُر بمكرِه، ومن مكرِ اللهِ بالعبدِ وَهُوَ لا يَشْعُرُ: استدراجُه إيَّاه بالنِّعم، حَيْثُ يُسْدِي إليه النعمَ وَهُوَ يبارزُ الله تَعَالَى بالعصيانِ، ومن مكرِه به تلبيسُه عليه فِي الحُكم، فيُلَبِّس عليه الحكم حَتَّى يَظُنّ الباطلَ حقًّا فيتمادى فيه، ولهَذَا من الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ أَرِنِي الحَقَّ حَقًّا وَارْزُقْنِي اتِّبَاعَهُ، وَأَرِنِي الْبَاطِلَ بَاطِلًا وَارْزُقْنِي اجْتِنَابَهُ»[1]، فالْإِنْسَانُ قد يَكُون لديه شُبْهَة أو شَهْوة؛ شبهة لا يَعْرِف الحقَّ، أو شهوة لا يريد الحَقّ ويريد غيرَه.

• • ۞ • •

(١) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/ ٤٠١)، وقال العراقي في التخريج: «لم أقف لأوله على أصل».

الآيــة (٥١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل:٥١].

• • ✿ • •

﴿فَانْظُرْ﴾ الخِطَاب للنبيِّ ﷺ أوَّلًا، أو لِمَن يَصِحُّ خِطَابُه، يعني ﴿فَانْظُرْ﴾ أيُّها المخاطَب أو ﴿فَانْظُرْ﴾ يا مُحَمَّدُ، وَهُوَ رأسُ هَذِهِ الأُمَّة وقائدها وإمامها، فيكُون خِطَابه خِطابًا للأمَّة أيضًا.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾: ﴿كَيْفَ﴾ هَـذِهِ اسمُ اسْتِفْـهامٍ مُعَلِّقَةٌ لـ(انْظُر) عن العَمَلِ، ولهَذَا نَقُولُ: إنَّ مَحَلَّها النصبُ خبر كَانَ مُقَدَّمًا، وجملة كَانَ واسمها وخبرها فِي محلّ نصب مَفْعُول لـ(انْظُرْ).

وقوله: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ العاقبة ما يَعْقُـبُ الشَّيْءَ، يعني انْظُر ماذا يَعْقُبُ مكـرَهم مِنَ الأَمْـرِ ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أهلكِناهم]، وفيها قراءتانِ[1]: فتحُ الهمزة ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾، وكسرها «إِنَّا دَمَّرْنَاهُم»، أَمَّا كسرها فهي كقولِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [القمر:٣٠-٣١]، فتكونُ عَلَى قراءةِ الكسرِ مستأنفةً لبَيَان هَذِهِ العاقبةِ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ كَأن الذهنَ الْآنَ يَتَشَوَّف إِلَى هَذِهِ العاقبةِ، وجيء بالجملةِ

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٢).

الاستئنافيَّةِ بَيَانا لها ﴿إِنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أَمَّا عَلَى قراءةِ الفتحِ فهي بَيَان للعاقبةِ، بَدَل مِنْهَا: فانظُرْ كيف كَانَ عاقبة مَكْرِهم أَنَّنا دَمَّرْنَاهم، أو أَنَّهَا عَلَى خبر مبتدأ محذوف التَّقْدير: هِيَ ﴿أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقوله: ﴿دَمَّرْنَـٰهُمْ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أهلكناهم]، و﴿دَمَّرْنَـٰهُمْ﴾ من التدميرِ، وَهُوَ أبلغُ منَ الإهلاكِ؛ لِأَنَّ التدميرَ يُوحِي بغِلَظِ هَذَا الإهلاكِ وعَظَمَتِهِ، وَهُوَ كذلك، فإنَّ قومَ صالحٍ أُخِذُوا -والعياذُ بالله- بأمرينِ: بصيحةٍ ورجفةٍ، صِيحَ بهم وارْتَجَفَتْ بهمُ الْأَرْضُ، حَتَّى انهدم عليهم بناؤُهم وتَقَطَّعَتْ قُلُوبُهم فِي أجوافِهم، نسألُ اللهَ العافيةَ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر:٣١]، مثل هشيم الحظائرِ إذا جفَّ تَهَشَّمَ والعياذُ باللهِ، فهَذا الهلاكُ العظيمُ نتيجة لهَذَا العصيانِ والتمرُّد والمَكْر الَّذِي أرادوه بالنَّبِيِّ ﷺ.

وقوله: ﴿دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ﴾ مَعَ أنَّ القومَ لم يُشارِكوا فِي هَذِهِ الجريمةِ، ولكِن هَذَا شُؤْمُ المَعاصِي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا عاقبَ بها أحدًا شَمِلَ الجميعَ، مَعَ أنَّ قومَهم مُسْتَحِقُّونَ للعقوبةِ؛ لِأَنَّهُم كانوا كفَّارًا مكذِّبين، لكِن تعجيل العقوبةِ مقرونٌ بهَذَا السَّبَب، وَهُوَ مَكْرُ هَؤُلَاءِ بصالحٍ، وقد لا يَكُونُ القومُ مُسْتَحِقِّين له، ولكِن شَمِلَهم -والعياذُ بالله- عُقُوبَة هَؤُلَاءِ، وقد ذكرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي آيَاتٍ أُخْرَى مُفَصَّلَةً أنَّ نَبِيَّهم صالحًا قَالَ لهم: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:٦٥]، فتَمَتَّعُوا وبَقُوا ثلاثةَ أيامٍ ثُمَّ بَعْد ذلك أَخَذَهُمُ اللهُ تَعَالَى بهَذِهِ الصيحةِ والرَّجْفَة.

وقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ مَحَلُّها من الإعراب توكيد لِقَوْلِهِ: ﴿قَوْمَهُمْ﴾ يعني ما بقي منهم أحدٌ إِلَّا من كَانَ مؤمنًا بصالحٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بصيحةِ جِبريلَ أو بِرَمْيِ الملائكةِ بحجارةٍ يَرَوْنَها ولا يَرَوْنَهم].

أما قوله: [بصيحةِ جبريل]، فهَذَا قد يَكُون مقبولًا؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى يَقُول: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾ وهَذِهِ الصيحةُ إمَّا منَ اللهِ أو من جبريلَ أو من غيرِهِ من الملائكةِ، المهمُّ أَنَّهُم أُهلكوا بصيحةٍ.

وأمَّا قوله: [أي برمي الملائكة بحجارة]، فهَذَا لا أعلمُ له وجهًا، ولكِنه قيل: إنَّهُم لما جاءوا إِلَى صالحٍ بالليلِ أمرَ الله تَعَالَى الملائكةَ أنْ تَحْرُسَه، فلمَّا جاءوا فإذا الملائكة تحرسه، فجعلت الملائكة ترميهم بالحجارةِ، وهَذَا لا أصلَ له، وإذا لم يكن هَذَا عن معصومٍ فَإِنَّهُ غيرُ مقبولٍ، وَهُوَ أيضًا غيرُ لائقٍ أن تكون الملائكةُ يرمونَ بالحجارةِ كأنهم من البَشَرِ، ولَكِنَّنَا نَقُول: الَّذِي دمَّر الله به هَؤُلَاءِ وقومَهم هُوَ الصَّيْحَة والرَّجْفَة، كما جاء ذلك فِي الْقُرْآنِ، ولا نَتَعَدَّى الْقُرْآن فِي هَذَا الأَمْرِ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى يَقُول فِي سورةِ إبراهيمَ: ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]، فما دامَت هَذِهِ الأُمُورُ مِن معلوماتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنَّنا لا نتجاوزُ ما قَالَ اللهُ فيها إِلَّا ما وَرَدَ عن النَّبِيِّ ﷺ بسندٍ مقبولٍ.

ذكر بعضُ العُلَماءِ أَنَّهُم لما خَرَجوا أُصيبوا بمطرٍ وأنهم قَالُوا: لِنَلْجَأْ إِلَى غارٍ من هَذَا المطر، فلمَّا لجأوا إليه انطبقَ عليهم هَـذَا الغارُ وهَلَكوا، وَأَمَّا قومهم فجعلوا يطلبونهم ويبحثونَ عنهم فلم يَجِدُوهُم، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بيوتهم، فخرج عليهم صالحٌ فقال لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:٦٥]، وقَالُوا: إن هَـذَا هُوَ الَّذِي مَكَرُوا به المَكْر؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ القوم دخلوا إِلَى الغارِ يريدون الأمنَ، ولكِن كَانَ فِي هَذَا الغار حَتْفُهم، وقد يَكُون الَّذِي حالَ بينهم وبين هَذَا إمَّا أَنَّهُم قُذف فِي قلوبهم الرعبُ

أو أَنَّهُم جاءوا فلم يَتَوَصَّلوا إِلَى بيتِه بأن كَانَ مُغْلَقًا مُحْكَمًا أو غير ذلك منَ الأَسْبَاب.

المهمُّ أن هَذَا مطويٌّ ذِكْرُه وأنهم ما نَفَّذُوا ما أرادوا، وهَذِهِ القصةُ أيضًا عَلَى هَذَا الوجهِ ما رأيتُها ثابتةً بالإسنادِ عن النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلهَذَا الأَولى أن يقال: إن الله تَعَالَى مكرَ بهم فدَمَّرَهُم وقومَهم، وَلَيْسَ منَ المهمِّ أنْ نعرِف كيف دُمِّروا، المهمُّ أنْ نعرِفَ أَنَّهُم دُمروا عن آخِرِهِمْ بسبب ما أرادوه بالنَّبِيّ ﷺ، وبسبب تكذيبِهِمْ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الحثُّ عَلَى الاعتبارِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَٱنظُرۡ﴾ والنظرُ يَكُونُ بالقلبِ ويُسَمَّى نظرَ البَصِيرةِ، ويَكُونُ بالعينِ ويُسَمَّى نظرَ البصرِ، وكلاهما أمر مطلوبٌ إذا أدَّى إِلَى مطلوبٍ، وَأَمَّا إذا لم يـؤدِّ إِلَى مطلوبٍ بل أدى إِلَى العكسِ مثل أن يعتبـرَ ويتبصـر ثُمَّ يتخذ من هَذَا النظرِ وسيلةً إِلَى الطعنِ فِي حكمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو إِلَى وصف الله تَعَالَى بالظلمِ أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مما يقع من بعض الملحدينَ، فإن هَذَا ضرره كبيرٌ والعياذُ باللهِ، لكِن الصَّواب مَن نَظَرَ لِيَعْتَبِرَ، ومَن نظرَ بعينِ العقلِ والعدلِ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ من الأَمْرينِ: عقلٌ وعدلٌ، فبانتفاءِ العقلِ لا تحصل للإِنْسَان المعرِفةُ، وبانتفاءِ العدلِ يَظْلِم.

فعَلَى كُلِّ حَالٍ: فِي هَذِهِ الآيَة دليلٌ عَلَى أَنَّهُ ينبغي للإِنْسَانِ أن ينظرَ ويتأمَّل فِي الأُمُورِ، لا سيما فِي أمور المكذِّبين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ ينبغي فِي مَقامِ التحذيرِ استعمـالُ أغلظِ الألفاظِ وأشـدّها تأثيرًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾، ولم يقل: أهلكناهم، فإنَّ التدمير أعظمُ وَقعًا فِي النفسِ، والنفس تَنْفِر منه أكثرَ، ولهَذَا قَالَ: ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن العقوباتِ إنَّما تأتي بأَسْبابِ المرءِ، حَيْثُ جعل هَذَا التدمير عاقبةَ مَكرِهم، وهَذَا يَدُلّ عليه أيضًا قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي خصوصِ أهلِ الكتابِ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٥-٦٦]، من فوقهم منَ الثِّمارِ الطويلةِ، ومن تحت أَرْجُلِهِم منَ الزُّرُوعِ الَّتِي تحتَ الْأَرْض.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن العقوبةَ تَعُمّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولكِن كما قَالَ رسول الله ﷺ: «يُبْعَثُ النَّاسُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ»[1]، فالعقوبةُ قد تعمُّ ولكِن يُبعَث النَّاس عَلَى أعمالهم، وهَذَا مشاهَدٌ، سواء كانت العقوبةُ منَ اللهِ، يعني من فعلِ اللهِ، أو من فعلِ العبادِ، فيُسَلِّط الله تَعَالَى بعضَ عبادِه عَلَى بعضٍ، فيدمِّر هَذَا المتسلِّط عَلَى الصالحِ والطالحِ، ولكِن يُبعث النَّاس يومَ القيامةِ عَلَى أعمالِهم ونيّاتهم، أو ينزل الله تَعَالَى كارثةً من عنده كالفيضاناتِ والرياحِ وغيرها فتدمِّر الصالحَ والطالحَ، ويوم القيامة يُبعَثون عَلَى نيّاتهم.

وإنما كَانَ كذلك -والحِكْمَة عندَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- لأجلِ أنْ يَستقيمَ النَّاسُ عَلَى أمرِ اللهِ؛ لأنّي أنا إذا علِمت أن المصيبةَ ستعمّ سأسعى فِي إزالةِ السيِّئة الموجِبة للعقوبةِ،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب إذا أنزل الله بقوم عذابًا، حديث رقم (٦٦٩١)؛ ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، حديث رقم (٢٨٧٩)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لكِن لو أنَّنا علِمنا أن العقوبةَ تخصّ العاملَ ما استقامَ الأَمْرُ بالمعروفِ ولا النهيُ عن المنكَرِ، ولذلك يَجِب أن يَكُونَ خوفُ الْإِنْسَانِ من معاصي غيرِه كخوفِهِ من معاصي نفسِهِ؛ لِأَنَّ العقوبةَ واحدةٌ إذا نزلتْ عمَّتْ، بل إن المَعاصِي -سبحان الله- كالدُّخَان يُصْرَعُ مَن شَمَّهُ وإنْ لم يكنْ فِي بيتِهِ، ولذلك معاصي النَّاس اليومَ أثَّرت حَتَّى في أهلِ الخيرِ البعيدينَ منهم، يعني أهل الخير لو سألتهم وقلت: هل تجدون فِي قلوبكم ما كنتم تجدونه قبلَ سنواتٍ من الإنابةِ إِلَى اللهِ والخشوعِ والخضوعِ ومحبّة الخير؛ لو سألتهم لأجابوا: لا. دعنا من النَّاس الَّذِينَ ماتوا قبل ثلاثينَ سنةً أو أكثر، فهَؤُلَاءِ معلومٌ أَنَّهُم سلِموا من هَذِهِ الفتنةِ، لكِن حَتَّى الموجودون الْآنَ قلوبهم قبلَ نحو ثلاثين سنة أصلح بكثيرٍ منَ اليومِ، مَعَ أنّ حالَهم هِيَ هي، فتجد الْإِنْسَان مثلًا فِي مَسْجِدِهِ إمامًا ولم يَلْتَفِتْ للدُّنيا ولم يَشْتَغِلْ بها، وتجد الْإِنْسَان مثلًا فِي أهله لا يَلْتَفِت إِلَى أحد غيرهم، ومع ذلك تأثَّرت القلوب؛ لِأَنَّ المَعاصِيَ مفاسدُ مهما كانتْ، ولكِن مَعَ هَذَا قد يأتي الله تَعَالَى ببركانٍ عظيمٍ يُفَتِّت هَذِهِ الأَشْيَاء، ويُقَيِّض الله تَعَالَى للأُمَّة الإِسْلاميَّة طائفةً منصورةً ظاهرةً، فتبدّل كُلّ هَذَا الأَمْر، ولهَذَا لَا بُدَّ من عملٍ، فالركودُ لا يَنْفَع، والركود لَيْسَ فِيهِ سلامة أبدًا، فلَا بُدَّ من العَمَلِ، ولكِن عَلَى هدى مستقيم وبحكمةٍ بالغةٍ؛ لِأَنَّ الَّذِي يضرُّ الدعاةَ إِلَى اللهِ الْآنَ واحدٌ من أمرينِ: إمَّا جهلٌ أو سَفَه، يعني إمَّا أَنَّهُم لَيْسَ عندهم علمٌ بيِّن راسخٌ، فتجدهم يحرِّمون ما أحلَّ الله، ويُوجِبون ما لم يُوجِبْه اللهُ، مثلما يَصْدُر من بعض الإخوانِ الَّذِينَ يَتَشَدَّدُونَ فِي الأُمُورِ، ويحرِّمون ما أحلَّ الله أو يُوجِبُون ما لم يُوجِبْه اللهُ، وهَذِهِ مفسدةٌ عظيمةٌ، أو يَكُون عندهم سَفَهٌ، يعني لَيْسَ عندهم حِكمة فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، فيَكُون عندهم تَسَرُّعٌ وعُنْفٌ أو تباطؤٌ فِي غيرِ مَوْضِعِه، ففي الأَوَّل يَحْصُل ردُّ فعلٍ عنيف من

المدعوّين، وَفِي الثاني يحصل تمادٍ من المدعوين يفوِّت الفُرصةَ عَلَى الداعينَ، فلا بد منَ العلمِ والحِكْمَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

• ● ❁ ● •

الآيــة (٥٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:٥٢].

قوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾ لما قَالَ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ [النمل:٥١]، فهَذَا عامٌّ مُبْهَمٌ، وهنا نَصَّ عَلَى شيءٍ معيَّن؛ وهو أنَّ بيوتَهم خاويةٌ، ومعنى خاوية إمَّا خالية وَإمَّا مُتَهَدِّمة مدمَّرة.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾ أي: خالية، ونَصْبُهُ عَلَى الحالِ، والعاملُ فيها معنى الإشارةِ].

قوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ المشار إليه معلومٌ ومحسوسٌ؛ لِأَنَّ بيوتَ ثمودَ موجودةٌ الْآنَ ومشاهَدة، لَكِنَّها كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿خَاوِيَةًۢ﴾، بمعنى أَنَّهَا خالية عَلَى رأيِ المُفَسِّر، وَقِيلَ: ﴿خَاوِيَةًۢ﴾ متهدِّمة كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩]، أي: مُتَهَدِّمة، وهَذَا المَعْنى أبلغ، يعني تفسير الخاوي بالمتهدِّم الَّذِي لَيْسَ بقائمٍ أَوْلَى وأشدّ؛ لِأَنَّ البيوتَ قد تخلو مَعَ العمار، ولكِن إذا خَوِيَتْ بمعنى دُمِّرَتْ وانهدمتْ فهي خالية، فإذن يَلْزَم من دَمارها خُلُوّها، ولا يَلْزَم من خُلُوّها دَمَارها، والواقع أَنَّهَا دُمِّرَتْ لِأَنَّ هَذِهِ الرَّجفة العظيمةَ لَا بُدَّ أنْ تُدَمِّرَهُمْ.

ثمَّ إنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: [نَصْبُهُ عَلَى الحال] نصب (خاوية) عَلَى الحال، حال من البيوت: بيوتهم حال كونها خاويةً.

لكِن أين العامل فِي الحال؛ لِأَنَّ العامل لَا بُدَّ من أن يَكُون إمَّا فعلًا أو اسمًا بمعنى الفِعْل؟ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [والعامل فيها معنى الإشارة]، لِأَنَّ (تلك) بمعنى أسير، فاسم الإشارة متضمِّن لحرفٍ معنويّ وفعل، أي: أسير إذا بيوت خاوية.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ بظلمهم]، الباء للسببيَّة و(ما) مصدريّة، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حَوَّلَ الفِعْل إِلَى مصدر، إشارة إِلَى أن (ما) مَصْدَرِيَّة، أي: تحول ما بعدها إِلَى مصدر، أي: بسبب ظُلْمِهِم، لا أننا ظالمون لهم، بل هم الَّذِينَ ظَلَمُوا أنفسهم.

ثم فسَّر المُفَسِّر هَذَا الظلمَ بالكفرِ، فقال: [أي كفرهم]؛ لِأَنَّ كُلّ كفرٍ ظلم وَلَيْسَ كُلّ ظلمٍ كفرًا، ولهَذَا قَالَ العُلَماء: إِنَّما نحمدُ اللهَ تَعَالَى أن قَالَ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، ولم يقلِ: والظالمونَ هم الكافرونَ، لو قَالَ: والظالمون هم الكافرون كَانَ كُلُّ ظالمٍ فَهُوَ كافرٌ، ولكِن قَالَ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فإن كُلّ كافرٍ فَهُوَ ظالمٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

وتفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ للظُّلم بالكفر هَل عليه دليل؟

نعم عليه دليل؛ لِأَنَّ فِعْلَهم وتكذيبهم لرسولِهم كفرٌ، فهنا تفسيرُ الظلمِ بما هُوَ أخفّ له دليلٌ.

قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه كُلّ القصة عَلَى الصَّحيحِ، وَلَيْسَ المشار إليه مجرَّد الإهلاك.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَآيَةً﴾ لَعِبْرَة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قُدْرَتَنَا ويَتَّعِظُونَ]، تخصيصُ هَذَا بالقُدرة غيرُ مُسَلَّمٍ، بل المُراد ما هُوَ أعمُّ من عِلم قُدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل يعلمون قدرة الله وحكمته وما جرَى للأممِ، كُلّ هَذَا جائزٌ؛ لِأَنَّ الَّذِي لا يَدري بماذا يَعتبِر، لكِن الَّذِي يدري هُوَ الَّذِي يعتبر، وَفِي هَذَا مِنَ الحَثّ عَلَى معرفةِ أخبارِ الأممِ والعلمِ بها ما هُوَ ظاهرٌ؛ لِأَنَّ بها يتَّعظ النَّاس، وكذلك أيضًا الأخبارُ الواقعة فِي زمنِ الْإِنْسَان يَنبغي أن يتخذَ من حوادثها عِظَةً وعِبرةً، وسيأتي -إن شاء الله- ذِكرُها فِي قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ التبيينَ بعدَ الإجمالِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿خَاوِيَةً﴾ لِأَنَّ التبيينَ بعدَ الإجمالِ أوقعُ فِي النفسِ، فالشَّيْء إذا جاءَ مُجْمَلًا تَتَشَوَّف النفسُ إِلَى بَيَانهِ ومَعْرِفَتِهِ، فإذا جاء إليها مُبَيَّنًا بَعْد الإبهامِ صادفَ أرضًا يابسةً تَشْرَب الماءَ، لكِن إذا بُيِّن من الأولِ مَرَّ مرَّ الكرامِ، وهَذا دائمًا تَجِدُونه فِي الْقُرْآن، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر:٦٦]، ما هُوَ ذلك الأَمْر؟ ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر:٦٦]. عندما تقف عند قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ تجد قوله: (الأَمْر) بـ(أل) ما هَذَا الأَمْر؟ ثُمَّ يأتي قوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ فيتبين لك وقعُ هَذَا البَيَان بعدَ الإبهامِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنّ التدميرَ والإتلافَ من أَسْبابِ الظُّلم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ لِأَنَّ الباء هنا للسببيَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الجزاء من جِنس العَمَلِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْسَ بظالمٍ، ما دام أَنَّهُ لا يُعاقِب إِلَّا بسببِ فعلِ العبدِ، فمعنى ذلك أَنَّهُ مُنْتَفٍ عنه الظُّلم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التحذير منَ الظُّلم؛ لأَنَّنا إذا تَبَيَّنَّا أنَّ التدميرَ من أَسْبابِ الظلمِ فمعناه أننا نَنْفِر منه ونهرُب منه، ففيه التحذيرُ من ممارسةِ الظلمِ، سواء كَانَ متعديًا أو لازمًا، أي: سواء كنت تظلمُ نفسَكَ وحدَها بالتقصيرِ بواجبِ اللهِ أو بالظلمِ لغيرِكَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن هَذِهِ الحوادثَ الَّتِي يُحْدِثها الله عَزَّوَجَلَّ آياتٍ من آياتِهِ تدلُّ عَلَى كمالِ قُدرتِهِ وسُلطانه، وَعَلَى كمالِ عدلِهِ أيضًا، ولهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: علامة عَلَى قدرةِ اللهِ وسلطانِهِ، وَعَلَى حِكْمَتِهِ وَأَنَّهُ تَعَالَى لا يفعلُ إِلَّا بمُقتضى للفعلِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الردُّ عَلَى مَن ينكِرون الحِكْمَةَ، مثل الجَهْمِيّة، فإنّ الجهمية يَقُولُونَ: إنَّهُ لا حكمةَ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أفعاله، وخالفتهم المعتزِلَة تمامًا، وقالت: أفعاله مقرونةٌ بالحِكْمَةِ، والحِكْمَةُ مُوجبة، ولهَذَا قَالُوا: يجبُ عليه فِعل الصلاحُ، وبعضهم قَالَ: يَجِب عليه فعل الأَصْلحِ، وَأَمَّا الجهميّة فبالعكس، وهَذَا من المواضعِ الَّتِي اختلفتْ فِيها الجهميّة والمعتزِلة، وإن كانوا يشتركون فِي كثير من الأَشْيَاءِ لكِنهم يختلفون أيضًا فِي أَشْيَاء أخرى، مِنْهَا هَذِهِ المسألة: هل فعل الله لحكمة أو لمجرّد مشيئةٍ؟

فالجهمية يَقُولُونَ: لمجرّد مشيئةٍ، والمعتزِلة يَقُولُونَ: لحكمةٍ، لكِن غَلَوا فِي إثباتِ الحِكْمَةِ، حَيْثُ أَوجبوا عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فعلَ الأَصْلحِ، وقد تقدّم هَذَا فِي العقيدةِ؛ وبَيَّنّا أن الصَّوابَ أَنَّهُ يَجِب عَلَى اللهِ فعل الأَصْلحِ لكِن لا بإيجابنا نحن، ولكِن بمقتضى حكمتِه؛ لِأَنَّ الحِكْمَة تَقتضي هَكَذَا، وَأَمَّا الأشاعرةُ فمثل الجهميّة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ لا يَنتفِع بالآيَاتِ إِلَّا أُولوا العلمِ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَمَّا مَن لَيسوا من ذوي العِلم فَإِنَّهُ يَفُوتُهُم شيءٌ كثير، لا يَعتبرون به ولا يَتَّعِظون به؛ ولهذَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، و﴿ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ تَشمَل الأمثال المعقولةَ والأمثالَ المحسوسةَ المشاهَدة، فالله تَعَالَى يَضرِب الأمثال المعقولة ويضرب الأمثال المحسوسة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ...﴾ إلخ [يس:١٣]. هَذِهِ من الأَشْيَاء المشهودة المحسوسة، وقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت:٤١]، هَذَا من الأمثال المعقولة.

والحاصل: أن أهل العلمِ هم الَّذِينَ يعقِلون هَـذِهِ الآيَاتِ ويَعتبِرون بها ويَنتفِعون بها.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فضيلة العلم.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الحثُّ عَلَى العلمِ؛ لِأَنَّهُ إذا ثبتَ فَضلُه فمعنى ذلك أن الله ذَكَرَه لنا لِنَتَعَلَّم، ولَا شَكَّ أن العلم من أفضل ما أنعمَ الله به عَلَى العبدِ، يعني ما بَعْد الإِسْلامِ نعمةٌ مثل العلمِ، هِيَ أفضل من نعمةِ المالِ وأفضلُ من نعمة قوّة البَدَن، وأفضل من نعمة البنينَ، وما يعادِلها إِلَّا نعمة الإِسْلام فقطْ.

والمقصود العُلَماء الَّذِينَ مَثَّلوا العلمَ، بأن كانوا دعاةً إِلَى الله، وكانوا علماء مِلّة، لا علماء دولة؛ لِأَنَّ العُلَماء منهم علماء مِلة يدعون إِلَى الملة والشَّرِيعَة، ويَهدون بأمرِ اللهِ، ومنهم علماء دولةٍ يدعون إِلَى ما تريده الدولة، وكما هُوَ معروف أوّل ما ظهرتْ بِدعة الاشتراكيّة أو أول ما ظهر فِسق الاشتراكيّة -والاشتراكية ظهرت من زمنٍ-

صار أناس من أهل العلمِ فِي البلادِ الَّتِي ظهرتْ فيها هَذِهِ البدعة؛ صاروا يدعون إليها ويزعمون أن الْقُرْآن والسنّة دلّا عليها، ويأتون بآيَات تدلّ عَلَى هَذَا، مثل: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم:٢٨]، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أنتم سواء فِي الرِّزق، والنَّاسُ شركاء فِي ثلاثٍ[1]، وهَكَذَا، وبدؤوا يحرّفون فِي الكِتاب والسنّة؛ لِأَنَّهُم علماء دولة، لا علماء مِلة، وهَذَا كثير أيضًا. وفيه أيضًا مُحَدِّثُون دولة، كغِيَاثِ بنِ إبراهيمَ الذي زاد في الحديث لِأجلِ المَهْدِيّ في حديث: «لَا سَبَقَ إِلَّا فِي نَصْلٍ أَوْ خُفٍّ أَوْ حَافِرٍ»[2] وماذا تريد يا مهدي؟ (أو جَنَاح)[3].

فالحاصل: أن هَذَا بلاء، لكِن المُراد بالعلم الممدوح هُوَ العلم المؤثِّر للعمل والدَّعْوَة، والحقيقة أن مَقام طلبة العلم لَيْسَ مَقام علم فقطْ ويَكُون العلمُ قابعًا فِي صُدُورهم ولم يكنْ هناك دعوة، أنت الْآنَ وارث للأنبياء، «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ»[4]، فادع إِلَى الله، ادعُ مثلما دعا الأَنْبِياء إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، اعْلَمْ ثُمَّ ادْعُ، لا نَقُول: ادعُ

---

(١) أخرج أبو داود: أبواب الإجارة، باب في منع الماء، رقم (٣٤٧٧) عن رجل من المهاجرين: «الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ: فِي الْكَلَأِ، وَالْمَاءِ، وَالنَّارِ». ونحوه في ابن ماجه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كتاب الرهون، باب المسلمون شركاء في ثلاث، رقم (٢٤٧٢).

(٢) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في السبق، حديث رقم (٢٥٧٤)؛ والنسائي، كتاب الخيل، باب السبق، حديث رقم (٣٥٨٥)؛ والترمذي، كتاب الجهاد، باب ما جاء في الرهان والسبق، حديث رقم (١٧٠٠)؛ وابن ماجه، كتاب الجهاد، باب السبق والرهان، حديث رقم (٢٨٧٨)؛ وأحمد (٢/ ٢٥٦) (٧٤٧٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (١٠/ ٣٨٩).

(٤) أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم (٣٦٤١)، والترمذي: أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه: افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٣).

بجهلٍ، فالدعاءُ بالجهلِ ضررٌ عليكَ وَعَلَى الإِسْلامِ أيضًا، لكِنِ اعلَمْ وادعُ، ولا تُدَاهِنْ، واعلمْ أنك ما قلتَ كلمةً تبتغي بها وجهَ اللهِ إِلَّا كَانَ لها تأثيرٌ لا بدَّ.

ونحن نَضْرِبُ دائمًا لكمْ مثلًا بقولِ موسى أمامَ السحرةِ وأمامَ فِرعونَ وجُنُودِهِ وعامّة أتباعِهِ، قَالَ للسحرة: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ [طه:٦١]، فهذه كلمة مثل القنبلة ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ [طه:٦٢]، ذَهَبَتْ مَعْنَوِيَّاتهم واجتماعهم، وأخيرًا آمنوا بالله، وأَعْلنوا إعلانًا كاملًا بتصميمٍ وعزمٍ، سبحانَ الَّذِي أعطاهم إيّاه فِي هَذِهِ اللحظةِ ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الشعراء:٤٧-٤٨]، فتوَعَّدَهُم ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ [الشعراء:٤٩]، فماذا قَالُوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه:٧٢]، افْعَلْ ما تريدُ ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه:٧٢].

الآيـة (٥٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [النمل:٥٣].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بصالحٍ وهُم أربعةُ آلافٍ ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الشِّرْكَ].

﴿أَنجَيْنَا﴾ أي: عَصَمْنَا، فالإنجاءُ بمعنى العِصْمَة، أي أَنْجَيْنَاهم من هَـذِهِ العقوبةِ، ومن هَذَا التدميرِ الَّذِي ذَكَر اللهُ جَلَّوَعَلَا.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قول المُفَسِّر [بصالحٍ]، فِيهِ نظرٌ، والصَّواب: آمنوا باللهِ؛ لأجلِ أن يشملَ صالحًا ومَن معه، كما قَالَ الله تَعَالَى فِي سورة هودٍ: ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [هود:٦٦]، بل نَقُول: إن صالحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَجِب عليه أن يؤمن بنفسه أَنَّهُ رسول، ولهَذَا كَانَ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يؤمنُ ويَشهد لنفسِهِ بالرسالةِ، يَقُول فِي صلاتِه: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**»[1]، وَهُوَ يعني نفسَه، وأحيانًا يقولُ إذا وقعَ الأَمْرُ عَلَى وَفْقِ ما قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ[2].

---

(١) رواه البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب التشهد في الآخرة، حديث رقم (٧٩٧)؛ ومسلم، كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، حديث رقم (٤٠٢)، عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مثاله ما جاء في صحيح البخاري: كتاب الأطعمة، باب الرطب والتمر، رقم (٥٤٤٣) حديث جابر ابن عبد الله، وفي آخره: فخرجت حتى جئت النبي ﷺ فبشرته، فقال: «**أَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ**».

المهم أن الرَّسُول نفسَه مُلْزَمٌ بأنْ يشهدَ لنفسِهِ بالرسالةِ وبأنه رسول الله يُؤْمِن بما أُوحي إليه، وكذلك غيرُه مِن باب أَوْلَى.

وقول المُفَسِّر: [وهم أربعةُ آلافٍ]، نَقُول: أين الدِّيوان الَّذِي حَصَرَهُمْ، لا دليلَ عليه، والغالبُ أنَّ المُؤْمِنِينَ أقلُّ من ذلكَ، فالنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُ: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»[1]، إذ رُفِعَ له سَوَادٌ فظنَّ أَنَّهُ أُمَّتُه، فقَالُوا: هَذَا موسى وقومه.

فالمهمّ أَنَّ تَقديرَهم بأربعةِ آلافٍ، أو بأربعينَ نفرًا، أو بأربعة ملايينَ، أو بأقلَّ أو أكثرَ؛ هَذَا يحتاجُ إِلَى دليلٍ، وَهُوَ أيضًا من فُضُولِ العلمِ الَّذِي لا يَنبغي للإِنْسَانِ أنْ يُتْعِبَ نفسَه فِيه؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ فائدةٌ، الَّذِي فِيهِ فائدةٌ لَا بُدَّ أنْ يَقُصَّه الله علينا.

ونظيرُ هَذَا البحثِ مثلًا فِي كلبِ أصحابِ الكهفِ:

ما لونُه وما اسمُه وما حَجْمُه؟

والغارُ الَّذِي هم فِيهِ أينَ هُوَ، فِي أيّ مكانٍ؟

كُلّ هَذِهِ مسائلُ جانبيَّة، كذلك أيضًا ما وقع فِي الحديثِ فِي السنَّة (قالَ رجلٌ للنبيِّ ﷺ)، فتجدُ بعضَ الشرَّاح يُعنَى عنايةً تامّةً: مَن الَّذِي قَالَ هَذَا؟ هَذَا فِي الحقيقةِ لَيْسَ له داعٍ، وإنْ كنّا قد نستفيدُ إذا كَانَ فِي ذلك مَنْقَبَةٌ لهَذَا الرجلِ إذا عُرف به، لكِن هل هَذَا ليس ملزومًا لا بالحُكْم ولا بالدلالة، ولكِنه من فضول العلم. وهَذِهِ المسألة أيضًا مثلها: كم الَّذِينَ مَعَ صالحٍ؛ أربعة آلاف أو أربعة مَلايين؟ لا يَهُمُّ، المهمُّ أن كُلَّ

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، حديث رقم (٦١٧٥)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدَّليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث رقم (٢٢٠)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مَنِ اتَّصَفَ بالإِيمانِ فإن الله تَعَالَى أنجاهُ من هَذَا العذابِ العامِّ.

قوله: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَتَّقُونَ﴾ الشِّركَ]، ولو أَنَّهُ قَالَ: يَتَّقُونَ المَعاصِيَ أو يَتَّقون اللهَ؛ لكان هَذَا أَولى؛ لِأَنَّ الإِيمـانَ والتقوى بمعنى الإِيمـانِ والعَمَلِ الصالحِ؛ لِأَنَّ العَمَل الصالح عند الإطلاقِ من التقوى، بخلافِ إذا ما قُرِنَ بالتقوى البِرّ، فيَكُون التقوى للمعاصي والبِرّ للطاعات.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنّ الإِيمانَ والتقوَى من أَسْبابِ النجاةِ؛ لِأَنَّ قولَه: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حُكْمٌ مُعَلَّق بوصفٍ، والحكمُ إذا عُلِّق بوصفٍ دلَّ ذلك عَلَى عِلِّيَّة هَذَا الوصف وتأثيره فِي الحكمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الحَثُّ عَلَى الإِيمانِ والتقوَى؛ لِأَنَّ كُلّ إِنْسَانٍ عاقل يَنْبَغِي له أنْ يَسْلُكَ أَسْبابَ النجاةِ، فيَكُون فِي الإخبار عن نَجَاتِهِم الحَثّ عَلَى السَّبَب الَّذِي به نَجَوْا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان عَدْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حَيْثُ أهلكَ مَن يَسْتَحِقّ الإهلاكَ، وأَنْجَى مَن يَسْتَحِقّ الإنجاءَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنّ صالحًا ومن معَه كانوا مُؤْمِنِينَ متَّصفين بهَذَا الوصف -بالإِيمان والتقوى- لِأَنَّهُم هم الَّذِينَ أُنْجُوا من هَذِهِ العقوبةِ.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل:٥٤].

قَالَ المُفَسِّر: [﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بـ(اذْكُرْ) مُقَدّرًا قبلَه]، يعني: واذكرْ يا مُحَمَّد لُوطًا، وإنما ذُكِرَ بَعْد صالحٍ وَهُوَ دائمًا يُذْكَر بعدَ صالحٍ؛ لِأَنَّ مدائنَ صالحٍ وقُرى قومِ لُوطٍ لَيْسَ بَعْضُها بعيدًا من بعضٍ، وليستْ مجهولةً للناسِ فِي عهد النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلُوطًا﴾ منصوبٌ بـ(اذْكُرْ) مقدَّرًا قبله ويبدل منه ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾]، لِأَنَّ (إذ قال) بدل من لُوطٍ، فَكَأَنَّ التَّقْدير: (واذكر إذ قَالَ لوطٌ لقومِه).

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: اللُّوَاط]، الهمزة هنا للاسْتِفْهامِ الاستنكاريِّ أو الاستعلاميِّ؟

للتوبيخِ والإنكارِ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَم، وإنْ شئتَ زِدْ عَلَى ذلك التعجُّب أو التعجيب، يعني كيف أنكم تأتون الفاحشةَ، فهي للتوبيخِ والإنكارِ والتعجُّبِ.

وقوله: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: (أل) لاستغراقِ الجنسِ من حَيْثُ المَعْنى، لا من حَيْثُ الأفرادِ، لكِن المَعْنى: أن هَذِهِ أعظمُ فاحشةً من نوعها، وهي أعظم من الزنا؛ لِأَنَّ الله قَالَ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء:٣٢]، فاحشة من الفواحش،

(فاحشة) في هذه الآية نكِرة، وهنا قَالَ: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، وهي أيضًا أعظمُ من نكاحِ ذواتِ المحارِمِ؛ لِأَنَّ الله قَالَ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النِّساء:٢٢]، ونِكاحُ ذواتِ المحارِمِ أعظمُ مِنَ الزِّنا؛ لِأَنَّ اللهَ وَصَفَهُ بثلاثِ صفاتٍ: فاحشة ومَقْت وسُوء سَبيل، والزنا وَصَفَه بوصفينِ؛ فاحشة وسوء السبيل: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

ولهَذَا فالصَّحيح أن مَن زَنَا بِمَحَارِمِهِ يُقتل، وإنْ لم يكنْ مُحْصَنًا؛ لِأَنَّ هَذَا أعظمُ -والعياذُ باللهِ- مِنَ الزنا، كذلك اللُّوَاط الصَّحيحُ أنَّ فاعِلَه يُقتَل ما دام بالغًا عاقلًا وإنْ لم يكنْ مُحْصَنًا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: اللواط ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: يُبْصِر بعضُكم بعضًا انهماكًا فِي المعصية]، يَعْنِي: أخبث من الحَمِير والعياذُ باللهِ، فيرى بعضُهم بعضًا وهم يفعلون ذلك، ولذلك قَالَ: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت:٢٩]، إذا اجتمعوا -والعياذُ بالله- صارَ يَرْكَب بعضُهم بعضًا كالحَمِير، نسألُ اللهَ السلامةَ.

قوله: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ مِنَ البصرِ ما يُبْصَر بالعينِ، وَقِيلَ: إن الإبصارَ بالقلبِ، يعني وأنتم تبصرون خُبْثَها وتَعقِلونه، وكل إِنْسَان له فِطرة سليمة يكره هَذَا الشَّيْء؛ لِأَنَّهُ سوف يركب مثله نفس هَذَا المركوب، سيركب غدًا واحدًا، ثُمَّ إن المكانَ هَذَا أيضًا لَيْسَ محلًّا لهَذِهِ الشَّهْوةِ؛ لِأَنَّهُ مكان متلوِّث بالأنجاس، وَلَيْسَ محلًّا للشهوة، فَهُوَ خبيثٌ بالفطرةِ وبالحِسّ أيضًا.

ولَكِنَّنَا نَقُول: لو أننا فسَّرنا الإبصارَ هنا بالإبصارِ الحِسّيّ بالعين والإبصار المعنويّ بالقلب لكان ذلك جائزًا، وَفِي الحقيقةِ أنّ بَشاعةَ هَذَا الشَّيْء بالقلبِ أمرٌ

معلومٌ بالفِطرة، وكونهم يفعلونه وهم يشاهد بعضهم بعضًا هَذَا أشدُّ وأعظمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّهُ يَنبغي إبرازُ الغرضِ الَّذِي من أجلِهِ أُرْسِلَ الرَّسُولُ؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ كلَّهم كافَّة أُرسلوا لتوحيدِ اللهِ، لكِنَّ بعضَهم يبيِّن مَعَ الأَمْر بعبادةِ اللهِ أَنَّهُ أُرسِل لهَذَا الغرضِ، ولوطٌ هنا بَيَّن اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ أرسله لغرضِ انتشالِ قومِه من هَذِهِ الفاحشةِ العظيمةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ مَعَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا بُدَّ أَنَّهُ قَالَ لهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، لكِن لمّا كانت هَذِهِ الفاحشةُ ظاهرةً فيهم بيَّنها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَهُم مؤمنونَ، والرُّسُل طالبوهم أولًا بالإيمان، وهم إمَّا أَنَّهُم أخطؤوا فِي هَذِهِ العَمَلية مَعَ تحقيق العِبادَة، وليَكُون الأَمْر بعبادة الله من باب الأَمْر بالاستمرار عليها، أو أَنَّهُم يأمرونهم ثُمَّ بَعْد ذلك إذا استقرّ الإيمان فِي نفوسهم نَهَوْهُم عمّا هم عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الرُّسُل يُرسَلون إِلَى قومهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ولم يُبْعَثْ أحد إِلَى عمومِ النَّاسِ إِلَّا رسول الله ﷺ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان عِظَم اللُّواط وقُبْحه وَأَنَّهُ فِي قِمَمِ الفواحشِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيَان وجوبِ الإنكارِ عَلَى مَن أتى بهَذِهِ الفاحشةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ لِأَنَّ الهمزةَ هنا للاسْتِفْهامِ والتوبيخِ، ولَا شَكَّ أَنَّهُ يُنْكَرُ عليه، لكِن بماذا يعاقَب؟

فِي شريعتنا يعاقَب بالقتلِ مُطلَقًا، سواءً كَانَ مُحْصَنًا أم غيرَ محصَنٍ، وهَذَا هُوَ

ما دلّ عليه الحديثُ الَّذِي فِي السُّنَنِ وصَحَّحَهُ الحاكِمُ وغيرُه من قولِ الرَّسُول ﷺ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالمَفْعُول بِهِ»[1]، وَهُوَ الَّذِي أجمعَ عليه الصحابةُ كما حكاه عنهم شيخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2].

لكِنهمُ اخْتَلَفُوا كيفَ يُقتل؛ هل يُقتل بالرجمِ أو بإلقائِهِ من شاهقٍ وإتباعِهِ بالحجارةِ، أو يُقتل بالسيفِ أو يقتل بالإحراقِ بالنَّار، وقد فعلَه أبو بكرٍ وفعله عبد الله بنُ الزُّبَيْر، وفَعَلَه هِشامُ بنُ عبدِ المَلِكِ، واختلفوا فِي هَذَا، فالمهمُّ أَنَّهُم اتفقوا عَلَى قتلِهِ، وتكون الكيفيّة هنا راجعةً إِلَى الإمامِ، إذا رأى أقوى كيفية تردع عن هَذَا العَمَل الخبيثِ فَإِنَّهُ يَسْلُكُهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنّ الفواحشَ تُقَبَّح بِحَسَبِ ما يُقْتَرَن بها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ فإن هَذِهِ الفاحشةَ مُنْكَرَة، ولَكِنَّهَا إذا كانت عَلَنًا وجَهْرًا يَظْهَرُ النَّاسُ بعضهم أمامَ بعضٍ فيها صارتْ أقبحَ وأعظمَ، ولهَذَا أتى بالجملةِ الحاليّة فِي قولِه: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

• • ۞ • •

(١) رواه أبو داود، كتاب الحدود، باب فيمن يعمل عمل قوم لوط، حديث رقم (٤٤٦٢)؛ والترمذي، كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي، حديث رقم (١٤٥٦)؛ وابن ماجه، كتاب الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط، حديث رقم (٢٥٦١)؛ وأحمد (١/ ٣٠٠) (٢٧٣٢)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٩٥) (٨٠٤٧)، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٣٥).

الآيــة (٥٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل:٥٥].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَئِنَّكُمْ﴾ بتحقيقِ الهمزتينِ وتسهيلِ الثَّانِيَةِ وإدخالِ ألفٍ بينهما عَلَى الوجهينِ]، ففيها أربع قراءات.

قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ هَـذَا تفسيـر لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، وهنا يُلاحَظ أن الاسْتِفْهامَ هنا لتقريرٍ، لَكِن أُكِّدَ هَذَا الحكم بالجملةِ الَّتِي قُرِئَتْ بالاسْتِفْهامِ؛ أكد بـ(إن) و(اللام): ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ وهَذَا كقولِ إخوة يُوسُف ليوسف: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف:٩٠]، أي: أَتَقَرِّر أنك يوسف وتؤكِّد ذلك؟ فقال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ [يوسف:٩٠]، ففي جـوابِهِ لهم إهانة لهم؛ لِأَنَّهُم طلبوا منه أن يؤكِّد لهم أَنَّهُ يوسـفُ فقالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾؟ فما قَالَ: (إني لأنا يوسف)، بل ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ فحذف التأكيدات استهانةً بهم.

فالحاصل: أن الاسْتِفْهام إذا تلاه التأكيد لا يُخرِجه عن معنى الاسْتِفْهام، بل كأنَّ المُسْتَفْهِم يطلب من المُسْتَفْهَم منه تأكيد الجملة، لكِن في هَذِهِ المسألة الاسْتِفْهام للتقرير، يقرر مَعَ التأكيدِ، ولهَذَا قَالَ لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأعراف:٨١].

وقوله: ﴿شَهْوَةً﴾ يَحتمِل أن تكون مصدرًا فِي موضع الحالِ، ويَحتمِل أن تكون مَفْعُولا لأجلِهِ؛ أي لأجلِ الشَّهْوةِ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: ففيها إنكار من جهةِ أَنَّهُم يأتون الرِّجال شهوةً وليسوا أهلًا لها، ومن جهة أخرى أَنَّهُم يدَعون النِّسَاء، ولهَذَا قَالَ: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾، وهنّ مَحَلُّ الشَّهْوةِ، فيَكُونون قـد أساءوا فيما فَعَلُوا وفيما تَركُوا، ولهَذَا قَالَ لهم فِي آيَـة أخرى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ [الشعراء:١٦٦]، وهَذَا أبلغُ، يعني لو أن المسألة ضُيِّقَتْ وما بَقِيَ إِلَّا هَذَا الطريق لكان أهونَ، لكِن هناك طُرُق محلَّلة مُباحة موافِقة للفِطْرة تَدَعُونها وتذهبون إِلَى هَذَا، كالذي يَدَعُ المذكَّاة ويأكل المَيْتَة، وكالذي يَدَعُ البيعَ الصَّحيحَ ويذهب إِلَى الربا، ويقول: إِنَّمَا البيعُ مثلُ الربا.

فالحاصل: أن القبائح تَزداد قبحًا إذا كَانَ لها بدائلُ مِنَ الحسناتِ، ولهَذَا قَالَ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لو أَنَّهُ اقتصرَ عَلَى هَذَا وقال: أئنكم لتَأْتُون الرِّجال شهوةً بل أنتم قوم تجهلون، حصل التوبيخ واللوم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: قُبْح فعل هَؤُلَاءِ، وهَـذَا مَعَ الوجه الأول ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ يَكُون قَبُحَ من وجـهٍ آخرَ، هُوَ أَنَّهُم يأتون الرِّجال الَّذِينَ لَيْـسَ لهم حـقّ فِي إتيانهم ويَدَعُون النِّسَاءَ اللاتي خَلَقَهُنَّ اللهُ لذلك؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هَذِهِ الشهوة إِنَّمَا تَصْدُرُ عن جهلٍ، لا بِمُقْتَضَى الطبيعةِ، وإنما هِيَ عن سَفَهٍ فِي الْإِنْسَان؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ كأنه قَالَ: إتيانكم إياهم شهوة لَيْسَ له محل، ولكِنَّ الَّذِي أوجب ذلك لكم أنكم قوم ذوو جهل، أي: سفه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ذكرتم أن هَذِهِ الشهوة تَصْدُر عَن جهلٍ، لا بِمُقْتَضَى الطبيعةِ، أَلَا يُشْكِل عَلَى هَذَا ما رُوي من حَذَرِ بعضِ الأئمَّة من مقاربةِ الصبيَان أو المُردان خوفًا من أن يقعَ فِي أنفسهم شيءٌ؟

فالجواب: كما أنَّ الزِّنَا قبيحٌ فِي الفِعْل، ومعَ ذلك قد تَدْعو النفسُ إليه، فلا يَمْنَع أن النفس الأمّارة بالسُّـوء تدعو إِلَى ما يخالِف مقتضَى الطبيعة، ولهَـذَا قَالَ بعض العُلَماء: إن اللُّواط لَيْسَ فِيهِ حدٌّ ولا عقوبةٌ؛ لِأَنَّ النفسَ تَنْفِرُ منه بِمُقْتَضَى الطبيعةِ، فَهُوَ كشُـرْب البولِ وأكلِ الغائطِ، ولكِن هَذَا لَيْـسَ بصحيحٍ، الصَّحيحُ أن بعضَ النفوسِ السافلة قد تدعو إليه، فالزِّنَا محرَّم لِوَصْفِهِ، لا بِمُقْتَضَى الطبيعةِ؛ لِأَنَّهُ زنا، ولذلك لو تَزَوَّجها حلَّ له ذلك، أَمَّا هَذَا فَهُوَ محرَّم بمقتضى الشَّرِيعَة والطبيعةِ، حَتَّى النفس تَنْفِر منه، إِلَّا نفسًا مقلوبًا عليها أَمْرُها.

ولهَذَا قَالَ لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فهَذِهِ ليستْ شهوةً طبيعيّةً، وحقيقةً كيف أن الْإِنْسَان يذهب يَسْتَعْمِل هَذَا المَحَلّ الَّذِي هُوَ مَحَلّ الخبث والأنتان والأقذار، وربما يَعْلَق به شَيْء من ذلك، ويَدَع المَحَلَّ الطاهِرَ الَّذِي أباحَهُ الله له.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان ما عليه هَؤُلَاءِ القوم منَ المَظْهَر الاجتماعيّ الفاسِدِ؛ لِأَنَّهُم إذا كانوا يأتون الرِّجال ما بَقِيَ منهم رجلٌ فِي الحقيقةِ، صاروا كلُّهم بمنزلة النِّسَاءِ، إِلَّا أَنَّهُ إذا كَبِرَ الْإِنْسَان ارتفعَ عنْ أن يُفْعلَ له وصار فاعلًا، فهم فِي حالِ الشبابِ مَفْعُول بهم، وَفِي حالِ الكِبَر فاعلونَ، ولهَذَا يُعْتَبَر هَذَا الانحطاطُ الاجتماعيّ فِي البشرِ من أخسّ الانحطاطاتِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَذِهِ الفِعْلة مِنَ السَّفَه العظيمِ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فأتى بالجملةِ الاسميَّة الدالَّة عَلَى الثُّبُوت والاستمرارِ.

الآيـة (٥٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦].

قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾: ﴿جَوَابَ﴾ خبرُ ﴿كَانَ﴾ مُقَدَّم، و﴿أَن قَالُوٓاْ﴾ اسمها مؤخر، وهَذِهِ الجملة للحَصْرِ، يعني ما كَانَ جواب قومه أنْ يَنْقَادُوا، ولا أن يَقِفُوا مَوْقِفًا سَلْبِيًّا من دعوتِه، بحيث يَتَوَقَّفُونَ عن القبولِ وعن المعارضةِ، بل كَانَ جواب قومه -والعياذ بالله- اللجوء إِلَى الْقُوَّة وإلى العنف.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ أي: قَالَ بعضهم لبعض: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾، وقوله: ﴿أَخْرِجُوٓاْ﴾ الفاعل يعود إِلَى أهل الحِلّ والعَقْدِ فِي القرية.

وقوله: ﴿ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أتوْا بهَذَا التعبيرِ إشارةً إِلَى أنّ لوطًا لَيْسَ منكم، وإنما هُوَ جُرْثُومَة طارئة حادثة عَلَى مَحَل، فيجب أنْ يُنَزَّه منها؛ لِأَنَّ لوطًا كما هُوَ معروف أُرْسِل إِلَى أهلِ سَدُوم وَلَيْسَ منهم، ولهَذَا قَالَ: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ يعني الَّذِينَ جاءوا ووَفَدُوا إليكم وليسوا منكم، ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ لم يقولوا: منَ القريةِ، بل قَالُوا: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ للإغراءِ بإخراجِهِ، يعني كأنهم يَقُولُونَ: هَذِهِ قريتكم وهَذَا الرجل جاء جديدًا عليها ويريد أن يُناقِضَكُمْ وأن يقفَ ضِدَّكُم، فأَخْرِجُوه، فالقريةُ لكم ولَيْسَ له.

وسيأتي -إن شاء الله- بَيَان الفائـدةِ فِي هَـذَا أن بعض النَّاس إذا ضاق ذَرعًا بالدُّعاة المصلِحين يَقُول لهم: اخْرُجُوا، هَذِهِ لَيْسَـت بِلادكم، أو لا تتكلَّمْ فِي هَـذَا المَسْجِدِ لِأَنَّهُ لَيْسَ مسجدكَ، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ هَـذِهِ الجملةُ تعليل لِما سَبَقَها مِن حُكْمٍ وَهُوَ الأَمْرُ بالإخراجِ، (أخرجوهم) لماذا؟ (لأنهم أناس يَتَطَهَّرُون)، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من أدبار الرِّجال]، فجعلوا عِلَّة العقوبة ما هُوَ من أَسْبابِ رفعِ العقوبةِ؛ فإن التطهُّرَ عن هَـذَا حَسَنٌ يَقتضي المدحَ والثَّناء الجميـلَ عَلَى مَن تطهَّـر منه، وهَـؤُلَاءِ جعلوه بالعكس؛ لِأَنَّهُم -والعياذ بالله- إمَّا زائغونَ يَعرِفون الحَقّ ولم يَعْمَلُوا به، وَإمَّا ضالُّون أُضِلُّوا عن الحَقّ وعَمِيَ عليهم، نسأل الله العافية. والغالبُ أَنَّهُم زائغونَ؛ لِأَنَّ هَذَا معروفٌ لدى البشرِ أنَّ الطبيعةَ تَنْفِر منه ولا أحدَ يَقْبَلُه.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ هل هم أرادوا الحقيقةَ وأن هَذَا الفِعْل خبيثٌ وهَـؤُلَاءِ يريدون التطهُّر منه، أو أرادوا: يتطهّرون بِزَعْمِهِم، وأن هَذَا الفِعْل لَيْـسَ نَجَسًا لكِن هَؤُلَاءِ يريدون أن يتطهروا منه؟

الأقرب الأخير؛ لِأَنَّهُ هُوَ مُقْتَضَى حالِهِم، فمقُتضَى حالهم أَنَّهُم رأوا هَذَا المنكرَ معروفًا وهَذِهِ الفاحشةَ يسيرةً فتمسكوا بها.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: ﴿أُنَاسٌ﴾ نكِرة، والمنكّر غيرُ معروفٍ، وكل هَذَا لقصدِ التباعُدِ منه، والإغراء بإخراجِهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان عُتُوِّ المكذِّبين لِلُوطٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأنهم لم يَقتصِروا عَلَى ردِّ دعوتِهِ، بل اتَّفقوا عَلَى أن يخرجوه من البلد.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ ينبغي عند الدَّعْوَةِ إِلَى الشَّيْءِ أن يَقْرِن الداعي دعوته بما يُغْرِي المدعوّين ويُؤَلِّبهم ويقوِّيهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾، ومن قوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ ولم يقولوا: من القريةِ؛ لِأَنَّ قولهم: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾، فهَذِهِ تُوجِب الحَمِيَّةَ والعَصَبِيّة حَتَّى يخرجوهم، كأنهم قَالُوا: هَذِهِ القريةُ لكم، أَخرِجوا هَذَا الرجل، وكذلك ففي قوله: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ يعني هَؤُلَاءِ ليسوا منكم؛ فلا وجهَ لِكَوْنِكم تسكتونَ عنهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قَرْنُ الحُكْم بالسَّبَب؛ لقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ هَذَا سبب قولِهم ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن قول البعضِ إذا رَضِيَهُ الباقونَ فَهُوَ للجميعِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾، ومنَ المعلومِ أن هَذَا القَوْلَ لَيْسَ للجميعِ؛ لِأَنَّهُم عندما يَقُولُونَ: (أخرجوا) فبعضهم يخاطب بعضًا، ولكِن الكلمة إذا جاءت من بعضِ القومِ ورَضِيَها الآخرونَ فإنها تُنْسَبُ إليهم.

ولهَذَا يخاطب الله اليهود فِي عهد النَّبِيّ ﷺ بما فعله أسلافهم، وَفِي سورة البقرةِ كثيرٌ من ذلك؛ كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:٥٣]، فموسى الَّذِي أُوتِيَ الكتابَ والفُرقان جاء لأسلافهم وليس لهم.

وكذلك قَالَ: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٩٢]، والَّذِينَ اتخذوا العجلَ ليسوا هَؤُلَاءِ، لكِنَّ هَؤُلَاءِ راضونَ. ففِعل القوم أو فِعل بعضِ القومِ أو القبيلة إذا رَضِيَه الآخرونَ فَهُوَ للجميعِ، والعِبرة بالأشرافِ ومَن لهم الكَلِمَة، وإلَّا بعض النَّاس قد يَكْرَه هَذَا الشَّيْءَ ولا يريده.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [النمل:٥٧].

لَمَّا عَزَمُوا عَلَى إخراجِهِ أَمَرَهُ الله تَعَالَى أن يخرجَ بأمرِ اللهِ، فإن الملائكةَ أتتْ إليه وأمرتْه أن يسريَ بأهلِهِ إِلَّا امرأتَه كانت من الغابرينَ، فسرى بأمرِ اللهِ، ولما بعُد عن القريةِ أهلكَ الله تَعَالَى أهلَ القريةِ صَباحًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود:٨١]، فأرسلَ اللهُ عليهم حجارةً من سِجِّيل، فجعل عاليَها سافِلَها، ولهذَا قَالَ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ والاستثناءُ مُتَّصِل.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ وَفِي هَـذَا دليلٌ عَلَى أن المَرْأَة من الأهل؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان يَأهلُها ويَأوِي إليها، وكذلك هِيَ بالنِّسْبَة إليه، فالزوجةُ من أهلِ الْإِنْسَانِ كما أن أقاربَه من أولادِهِ وآبائِهِ هم أيضًا منَ الأهلِ.

قوله: ﴿قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: كَتَبْنَا عليها وقدَّرنا عليها، ولهذَا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جعلناها بتقديرنا ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقين فِي العذاب]، و(الغابر) بمعنى: الباقي، فالمَعْنى أَنَّهَا بَقِيَتْ ولم يَسْرِ بها فكانت -والعياذ بالله- من الهالكين.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ هَذَا هُوَ معنى قولِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ

عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم:١٠]، فإن هَذِهِ الخيانة ليستْ خيانةَ فَرْج وعِرْض، وإنما هِيَ خيانة كُفْر؛ لأنهما أظهرتا أنهما مؤمنتانِ وهما ليستا كذلك، فبهَذَا صارتا خائنتينِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان أن الله تَعَالَى كاملُ العدلِ، حَيْثُ أنْجى لوطًا وأهلَه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَن أَتَى بأَسْبابِ الهلاكِ هَلَكَ، وإنْ كَانَ بين قوم صالحينَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان سَبْقِ التَّقْدير للحوادثِ، وأن تقدير الله تَعَالَى سابق عَلَى أفعالِه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾؛ لِأَنَّ معنى ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾ أي: جعلناها بتقديرنا السابق.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن المرءَ يُعْذَر بما لا يَعلم، فإنّ لُوطًا كَانَ لا يعلمُ عنِ امرأتِهِ شيئًا أَنَّهَا كافرة، والدَّلِيل عَلَى أَنَّهُ لا يعلمُ قولُه تَعَالَى فِي سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم:١٠]، وإلّا ما كَانَ لنبيٍّ أنْ يَبقَى تحته امرأة كافرة، إِلَّا أَنَّهُ إذا كَانَ لا يعلم فَهُوَ معذور.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ لا يُنَجِّي من عذاب الله الاتصالُ بأهلِ الصلاحِ، فلا يَقُول الْإِنْسَان مثلًا: أنا أخي صالح أو وليٌّ أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهُوَ يَعصِمني من عذابِ اللهِ؛ فهَذِهِ امرأةُ لُوطٍ لم يَنْفَعْهَا أَنَّهَا امرأة نبيّ، ولهَذَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [التحريم:١٠].

ونوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له ابن كافر قَالَ: إِنَّهُ من أهلي، فقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ

مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود:٤٦]، والنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ لابنته فاطمةَ: «يَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»(١).

فالمهم في هَذِهِ الفائدة ألّا يَغْتَرَّ الْإِنْسَان بقُربه من أهلِ الخيرِ والصلاحِ فيقول: إنني سأنجو بهَـذَا القُرب؛ لِأَنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يُحَابي أحـدًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين هَذِهِ الفائدة والْفَائِدَة السابقة: أن مَن أتى بأَسْبابِ الهلاك هَلَكَ ولو كَانَ مَعَ قوم صالحين؟

فالجواب: الفرق أن الفائدة هنا لمن كان له قُرْبٌ خاصّ، والسابقة يُقصد بها من كَانَ معهم يعني بمجرد الاجتماع والمصاحبة، وامرأة لوط جامعة بين الأَمْرينِ.

• ● ❁ ● •

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ حديث رقم (٤٤٩٣)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، حديث رقم (٢٠٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيـة (٥٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [النمل:٥٨].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ وَهُوَ حجارةُ السِّجِّيل أَهْلَكَتْهُمْ، ﴿فَسَآءَ﴾ بِئْسَ ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ بالعذابِ مَطَرُهُم].

قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ فِي هَذَا دليلٌ عَلَى أن المطرَ لَيْسَ خاصًّا بالماء، بل كُلّ ما حُصِبَ به الْإِنْسَان من فوق يُسَمَّى مطرًا، ولهَذَا قَالَ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ والمطر الَّذِي أصابهم هُوَ ما قَالَهُ المُفَسِّر [حِجَارة السِّجِّيل]، كما قَالَ الله تَعَالَى فِي آيَة أخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود:٨٢]، وَفِي آيَة ثانية: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر:٧٤]، هَذِهِ الحجارة أهلكتهم وجعلتْ عاليَ القريةِ سافِلَها؛ بمعنى أَنَّهَا تهدَّمتْ عليهم حَتَّى صار عالِيهَا سافلَها، يعني لِأَنَّهُ إذا انهدمَ البناء صار أعلاه أسفله، هَذَا هُوَ الظَّاهر.

وَأَمَّا ما رُوِيَ من أن جِبريلَ حَمَلَهم من تُخُوم الْأَرْض السُّفْلَى وَأَنَّهُ صَعِدَ بهم حَتَّى سَمِعَ أهل السَّمَاء نُبَاح كلابهم ونَهيق حَمِيرهم ثُمَّ قَلَبَها، فإن هَذَا لا دليلَ عليه، لا من كتاب اللهِ ولا من سنّة رسول الله ﷺ. فالأقربُ أن هَذِهِ الحجارة لمّا أصابتْ قريتَهم صار عاليها سافلَها، وانهدمَ البناءُ فصار أعلاه أسفله.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَسَآءَ﴾ بئس]، إذن ساء فِعْلٌ ماضٍ مجرَّد عن الزمنِ،

وإنما هُوَ لإنشاءِ الذمِّ، مثل: (حَسُنَ) فِي بعضِ الأحيانِ: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النِّسَاء:٦٩]، فهَـذَا فعل لإنشاء المدح، و(ساء مطر المنذَرين) هَـذَا أيضًا فعل لإنشاءِ الذمِّ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ بالعذابِ مَطَرُهُم]، وقَالَ: [مَطَرُهُم]، لِأَنَّ (ساء) مثل (بِئس) تريدُ فاعلًا، وتريد مبتدأً ومخصوصًا بالذمِّ، وَهُوَ المبتـدأ المحذوف؛ فإذن نَقُول فِي إعرابها: (ساء): فعلٌ ماضٍ، ومَطَر: فاعل، وَهُوَ مضاف إِلَى المنذرينِ، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ تقديرُه (مَطَرُهم): (فساءَ مطرُ المنذَرين مَطَرُهُم)، وهَذَا المخصوص أحيانًا يتقدم وأحيانًا يأتي بدله اسمٌ منصـوب يُجعَل تمييزًا يَكُونُ بدلَ هَذَا المخصوصِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كيف الجمع بين قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر:٧٣]، وقوله فِي سورة هود: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود:٨١]، وقوله: ﴿دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر:٦٦]، مَعَ أن الصُّبح طلوعُ الفجرِ كما ذكر ابنُ القَيِّم، والإشراق بَعْد طلوع الشَّمْسِ؟

فالجواب: الصبحُ يشملُ من طلوعِ الفجرِ إِلَى الزوالِ، فيُسمَّى ضحًى ويسمى صُبْحًا، وقوله: ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ أي: العذاب بدأ فِي زمن الإصباح، واستمرَّ العذاب إِلَى الإشراقِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُعَذِّب كُلّ إِنْسَانٍ بذنبه، كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت:٤٠]، فمنهم مَن فعلنا به كذا ومنهم مَن فعلنا به كذا، فهنا يَقُول: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾، ووجه مناسبة العقوبة للجريمةِ أن هَذَا المطرَ

جعل عَالِيَ بلادهم سافلَها، كما أن أولئك سَفُلُوا بأخلاقهم حَتَّى كانوا يستعملون هَذِهِ الفاحشةَ ويَذَرُون ما خلق لهم ربُّهم من أزواجهم، وهَذَا بلَا شَكّ انقلابٌ فِي فِطَرِهِم، ولذلك عُوقِبُوا بهَذِهِ الجريمة والعياذ باللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الثَّناء عَلَى الفِعْل بما يسْتَحِقّه من الثَّناء، حَيْثُ قَالَ: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ وهنا نُورِدُ إشكالًا، وَهُوَ أن هَذَا المطرَ منَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والثَّناء عليه بالقُبْح وبالشرّ ألا يُنافي قولَ الرَّسُولِ ﷺ: «**وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»[1]؟

نَقُول: لا ينافيه، والجمع أن هَذَا السوءَ لَيْسَ فِي فعلِ اللهِ ولكِنه فِي مَفْعُولِهِ، فهَذَا المطرُ هُوَ الَّذِي أثنى عليه بالسُّوء ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، وَأَمَّا فعل الله فَإِنَّهُ لَيْسَ بشرٍّ، بل هُوَ من كمالِ العدلِ والْقُوَّة والسلطانِ، حَيْثُ عاقب المجرمينَ بما يَسْتَحِقّون، وعقوبةُ المجرِمِ بمـا يَسْتَحِقّ لَا شَكَّ أَنَّهَا ليستْ بظلمٍ وليسـتْ بسيِّئة ولا يُثنَى عَلَى فاعلها بالسوء. فتبيَّنَ بهَذَا أَنَّهُ لا ينافي قولَ الرَّسُول ﷺ: «**الشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**».

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هَؤُلَاءِ الَّذِين أَهْلَكَهُمُ اللهُ قد قامتْ عليهم الحُجَّة، لقولِهِ: ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾، فهؤلاء أُنذروا بالعذابِ، فقامت عليهم الحجَّة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقُول فِي الْقُرْآن: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، ما عذَّب اللهُ أُمَّة من الأمم إِلَّا بعدَ قيامِ الحجَّة عليها، ولولا ذلك لكانتِ الحجَّةُ عَلَى اللهِ، قَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النِّساء:١٦٥]، فلا أحدَ له حُجَّة عَلَى ربِّه؛ لِأَنَّ الحجّة قد قامت بمـا رَكَّب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي فِطَر النَّاس من محبَّة الخير وعبادةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأيَّد ذلك الأَنْبياء والرسُلُ الَّذِينَ أتوا بالبيِّناتِ

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث رقم (٧٧١)، عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الظَّاهراتِ، فلم يبقَ للإِنْسَانِ حجَّة؛ لِأَنَّ الدَّلِيلَ الباطنيّ والدَّلِيل الظَّاهريّ موجودٌ فيه: الدَّلِيل الباطنيُّ: الفِطْرَة؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم:٣٠].

والدَّلِيل الخارجِيُّ: الرُّسُلُ الَّذِينَ جاءوا بالكتابِ وبالآيَاتِ البيِّنات، فقد قَالَ رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أُوتِيَ مَا عَلَى مِثْلِهِ يُؤْمِنُ الْبَشَرُ»[1]، فلهَذَا نَقُول: إن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللهُ، وهم قومُ لُوطٍ، كانوا قد أُنْذِرُوا بالعذابِ، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

ما الفرق بين المُنْـذِرين فِي قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان:٣]، وبين ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فِي هَذِهِ الآيَة؟

المُنْذِر: مَن أَتَى بالإنذارِ، أو مَن أَنْذَرَ، والمُنْذَر: مَن أُقِيمَتْ عليه الحُجَّة.

• • ۞ • •

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل، حديث رقم (٤٦٩٦)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا مُحَمَّد ﷺ...، حديث رقم (١٥٢)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٥٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلِ﴾ يا مُحَمَّد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عَلَى هلاك كفَّار الأمم الخاليَةِ].

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الأَمْرُ للنبيِّ ﷺ أو لكلِّ مَن يمكِن أنْ يُوَجَّه إليه مِن العقلاء.

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أطلقَ هنا ما يُحْمَد عليه، فَهُوَ أعمُّ مِمَّا قَالَهُ المُفَسِّر، وإنْ كَانَ السياقُ يَقتضي ما قَالَهُ المُفَسِّر لَكِنَّهُ يجبُ أنْ يُؤْخَذ بالعموم، ويَكُون من جملةِ ما يُحْمَد عليه إهلاكُ الكفارِ؛ لِأَنَّهُ دالٌّ عَلَى عدلِهِ بأخذِ هَؤُلَاءِ، وَعَلَى فَضْلِهِ بالأَنْبياء والمُؤْمِنِينَ، حَيْثُ أخذ أعداءهم.

ولَكِنَّنَا نَقُول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هَذَا عامٌّ، يُحْمَد عَلَى كامل أوصافِه وَعَلَى أحاسنِ أفعالِه، فأفعاله كلُّها حُسْنَى، وصفاته كلها كاملة، فيُحمَد عَلَى هَذَا وَعَلَى هَذَا، ويَكُونُ إهلاكُ كفارِ الأُمَمِ من جملةِ ما يُحمَد عليه، وهَذَا هُوَ السرُّ فِي أنَّ الله تَعَالَى لم يَقُلْ: قُلِ الحمدُ للهِ عَلَى هَذَا، بل قَالَ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ ليَكُونَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ محمودًا عَلَى كُلِّ حالٍ، ومن جملةِ ما يُحمَد عليه إهلاكُ المكذِّبين للرسل.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ هم]، هَذَا الْمَفْعُول قَدَّره الْمُفَسِّر.

وقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ هل هُوَ داخل فِي ضمن الْمَقُول، يَعْنِي: قلِ: الحمدُ للهِ وقلْ: سلامٌ عَلَى عِبَادِه الَّذِينَ اصطفَى، فيَكُون الْإِنْسَان مأمورًا بالثَّناء بحمدِ اللهِ وبالدعاءِ عَلَى عبادِ اللهِ الَّذِينَ اصطفاهم بالدعاء لهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، أو هِيَ جملةٌ مُسْتَقِلَّة خبرٌ منَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنه سَلَّمَ مَنِ اصطفاهُ وأنجاه؟

فِيهِ احتمالٌ للأمرينِ، لكِن أيُّهما أقربُ إِلَى السياق؟

لا يترجح عندي أحدُ الاحتمالينِ؛ لِأَنَّ لكلٍّ منهما وَجْهًا، فالْإِنْسَان مأمورٌ أن يحمدَ اللهَ ومأمورٌ بأن يُسَلِّمَ عَلَى عبادِ اللهِ.

وكذلك أيضًا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ محمودٌ عَلَى كمالِ صِفاتِه. ثُمَّ إخباره بأنه سَلَّمَ هَؤُلَاءِ هَذَا أيضًا مما يُحْمَد عليه؛ لِأَنَّ زوالَ النِّقَمِ كجَلْبِ النِّعَمِ، ويَكُون فِي هَذَا فائدةٌ، وَهي أن العبادَ الَّذِينَ اصطفاهم الله قد أحلَّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلا ينالهم ما ينالُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّار، ويَكُون الله تَعَالَى محمودًا عَلَى الأَمْرينِ: عَلَى إهلاك الْكُفَّارِ وَعَلَى تسليمِ عباده الَّذِينَ اصطفى.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أي: اختارهم، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَخْلُقُ ما يشاء ويختار؛ يختار ما يَخْلُق ويَصْطَفِيه، فمن جملة ما اختارَ من بني آدمَ اختارَ الأَنْبياء؛ كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ [ص:٤٧]، واختار أيضًا الْمُؤْمِنِينَ، فإن الْمُؤْمِنِينَ بالنِّسْبَةِ للكفار مُصْطَفَون، والأَنْبِياء صفوة الصفوة، والاصطفاءُ كغيرِهِ من الصِّفَاتِ

الَّتِي تكون متفاوتةً بحسَب ما قام به العبدُ من أَسْبابِ الاصطفاءِ، فكلَّما كَانَ الْإِنْسَان أقومَ بعبادةِ اللهِ وأشدَّ تعظيمًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كَانَ أشدّ اصطفاءً.

قَالَ الْمُفَسِّر: [﴿ءَآللَّهُ﴾ بتحقيق الهمزتين]، (أألله) [وإبدال الثَّانِيَة ألفًا]، (آلله) [وتسهيلها وإدخال ألف بين المسهَّلَة والأُخْرَى وتركها]، التسهيل فِيهِ صفتان؛ يدخل بينهما ألف، أي بين الهمزة والمسهَّلة، أو بدون ألف؛ فتكون القراءات أربعًا.

ثم قَالَ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿خَيْرٌ﴾ لِمَن يَعْبُدُهُ ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالتاء والياءِ، أي أهل مكَّة به الآلهة خير لِعَابِدِيها].

قوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ خَصَّه الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بخيريتِهِ لَمن يعبده، والصَّواب أَنَّهَا خَيْرِيَّة مُطْلَقَة لَمن يعبده، وهَذَا يَقتضي الإحسان، ولكماله وهَذَا يقتضي الجلالَ والعظمةَ، فهنا لا نَقُول: (آلله) خير لمن يعبده فقط، بل (آلله) خيرٌ فِي كُلّ صفاتِه وَفِي إحسانِه وعطائِه؛ لِأَنَّ الآيَةَ مُطْلَقة، فيجب إطلاقها، وإطلاقها أكملُ مِن تقييدها؛ لِأَنَّهُ مثلًا قد يَكُون هذا خيِّرًا لمن يتعامل معه لَكِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ خيرية مطلقة، يَكُون هَذَا الرجل يتعامل مَعَ شخص وإذا عامله أعطاه فوق ما يستحقّ، لَكِنَّهُ فِي صفاتِهِ الأُخْرَى رَدِيء، ويأتي آخرُ جيِّد وخَيِّرٌ فِي صفاته الأُخْرَى لكِن إذا تعامل معه هَذَا الرجل ربما لا يعطيه ما يستحقّ، فيَكُون الأوَّل خيرًا له من الثاني، ومع ذلك فَهُوَ ناقصٌ.

فقول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: خير لَمن يعبده، هَذَا فِيهِ نظر؛ أولًا: أَنَّهُ تقييد للمطلَق بلا دليلٍ. ثانيًا: أن هَذَا التقييدَ لا يَقتضي الأفضليَّةَ، ولذلك يَجِب أن يُقال: (آلله خير) فِي كُلّ شيءٍ؛ فِي صفاتِه وَفِي ثوابِه وجزائِه لَمن يَعْبُدُهُ.

قوله: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني أم الَّذِي يشركونه مَعَ الله من الأصنام وغيرها، والجواب: «بل اللهُ خير»، ولهَذَا يَنبغي لك إذا قرأتَ مثل هَذَا أن تقولَ: بل الله، وهَذِهِ المعادلةُ لا تَقتضي المقاربةَ أو المماثلةَ، فَإِنَّهُ قد يُفَاضَلُ بين الشيئينِ مَعَ خلوِّ الطرفِ الثاني منهما، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤].

مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي مُسْتَقَرّ النَّار خيرٌ وَلَيْسَ فيها حُسْن مَقيل، بل إنَّهُم يُفَضِّلُون بين أمرين متعاكسين، فيقال مثلًا: الشتاء أشدُّ مِنَ القَيْظِ، وأبلغُ من هَذَا: الشتاءُ أبردُ منَ القَيْظِ، مَعَ أنّ القَيْظَ لَيْسَ فِيهِ بُرُودَة.

فالحاصل: أن هَذَا ما يَقتضي المماثَلَةَ أو المساواةَ. ولكِن هل يَقتضي النقصَ؟

نعم يَقتضي النقصَ؛ لِأَنَّهُ يُوهِم المشاركةَ إِلَّا فِي مَقامِ التنزُّلِ فلا يَقتضي النقصَ، يَقُول الشاعر[1]:

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ السَّـيْفَ يَـنْقُصُ قَـدْرُهُ إِذَا ... قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَـى مِـنَ الْعَصَـا

لكِن عند التنزُّل لا يَدُلّ عَلَى النقص، فهَذِهِ الأصنام الَّتِي يُشْرَكُ بها مَعَ الله يريد مِنْهَا عابدوها أنْ تَنْفَعَهُم بجلبِ النفعِ أو دفعِ الضررِ، فنَقُول لهم: أيّما خير؛ أصنامكم أم اللهُ؟ من بابِ التنزُّل مَعَ الخَصْمِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ يَدَّعُون أن في آلهتهم خيرًا، فيقال لهم: آلله خيرٌ أم ما يشركون، يعني عَلَى زَعْمِكُم، وإن كَانَ لَيْسَ فِيهِ خيرٌ إطلاقًا.

وقوله: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: (أم) هَذِهِ متَّصلة أو مُنْقَطِعة؟ وما الفرق بين المتصلة والمنقطعة لكي نَحْكُمَ عليها؟

---

(١) قائل هذا البيت هو محمد جواد بن عبد الرضا عواد البغدادي له ديوان بمكتبة آية الله الحكيم بالنجف، هلك عام ١١٦٠هـ.

المتصلة معناها: أن تكون بينَ متعادلينِ، وَأَمَّا المنقطِعة فتكون بين متباينينِ، هَذَا الفرق؛ فالمنقطعة يَكُون الثاني منقطعًا عن الأولِ، فإذا صارتْ بينَ المتعادلينِ فإنها تُسَمَّى مُتَّصِلَةً، وأيضًا فرق آخرُ لفظيٌّ: أنَّ المتصِلة يَسْبِقُها همزةُ الاسْتِفْهامِ: أَزَيْدٌ قائمٌ أمْ عمرٌو، فيذكر فيها المعادل، وتَسْبِقها الهمزةُ تحقيقًا أو تقديرًا.

وَأَمَّا المنقطعة فلا تُذْكَر بين متعادلينِ، ولا يَكُون قبلها همزةٌ، فقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ هَذِهِ قبلها الهمزة وهي أيضًا بين متعادلين ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [«أَمَّا تُشْرِكُونَ» بالتاءِ والياءِ]، يعني (أمَّا تشركون) أو ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] [أي أهل مكَّة به الآلهة خَيْر لِعَابِدِيها ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾]، قدَّر المُفَسِّر: الآلهة خير لِعَابِدِيها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وجوب حَمْدِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ﴾ والأَصْلُ فِي الأَمْرِ الوجوبُ، والله تَعَالَى يُحْمَد عَلَى كمال صفاتهِ وأفعالهِ، وهنا الحمدُ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عَلَى الأَمْرين جميعًا، لَيْسَ عَلَى أفعالِهِ فقطْ، ومن جملة ما يُحمد عليه أَنَّهُ أهلك هَؤُلَاءِ المُنْذَرين الَّذِينَ كذَّبوا الرَّسُول، ولهَذَا تخصيص المُفَسِّر بِقَوْلِهِ: [على هلاكِ الكفار]، تقدَّم التنبيه عليه وأن هَذَا تخصيصٌ للآيَةِ، والله تَعَالَى يَقُول: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فيُحمَد الله تَعَالَى عَلَى كمال صفاته وأفعاله، وحمده واجبٌ شَرعًا وعقلًا؛ لِأَنَّ العقلَ يَقتضي أن يُوصَفَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالكمال.

والحمد هل هُوَ الثَّناء أو غيرُ الثَّناء؟

---

(١) حجة القراءات (ص:٥٣٣).

بعض النَّاس يَقُول: الحمدُ هُوَ الثَّناء عَلَى اللهِ بالجميلِ، وَلَيْسَ بصحيح، بل الحمد هُوَ وصفُ المحمودِ بالكمالِ، ثُمَّ إن كُرِّرَ صار ثناءً، ودليلنا عَلَى هَذَا قولُ الله تَعَالَى فِي الحديث القُدُسي: «قَسَمْت الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي»[1] فدلَّ هَذَا عَلَى أن الحمد لَيْسَ الثَّناء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن إهلاكَ اللهِ للأممِ المستحقِّين صفة كمال يَنبغي أنْ يُحْمَدَ عليها، ولا يعذِّب اللهُ إِلَّا مستحِقًّا، فعلى هَذَا إذا أصيبَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّار بالكوارثِ منَ الزَّلازِلِ والفيضاناتِ والأوبئةِ فما مَوْقِفُنا نحنُ مِن ذلك، هل نترحَّم لهم ونَأوِيْ لهم؟ لا، لكِن بعض النَّاس الجهّال فِي وقتنا هَذَا تَجِدُهم يَتَأَوَّهُون لهم ويَتَوَجَّعُون لهم ويعطِفون عليهم ويرحمونهم، وهَذَا خلافُ العقلِ وخلافُ النقلِ، بل إننا إذا أوقعَ اللهُ بهم ما يُوقِع من عُقُوباته فإنَّنا نَقُول: الحمد لله، نَحْمَد الله عَلَى ذلك؛ لِأَنَّ إهلاكهم مَصْلَحَة للإسلامِ والمُسلِمينَ، ما من فردٍ يَزيدُ فِي الْكُفَّار إِلَّا ويزدادون به قوَّة عَلَى المُسلِمين.

فإِذَنْ: إهلاكهم نِعْمَة منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، علينا أنْ نَحْمَدَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليها، ولا ينافي هَذَا أن نَعْطِفَ مثلًا عَلَى الصغار منهم؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لا ذنبَ لهم.

مثلًا لو فرضنا أن قرية أُهلِكَت وبقي أَيْتَامُها وهم كفار فَإِنَّهُ لا مانعَ مِن أن نَتَصَدَّقَ عليهم؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لا ذنبَ لهم ولا جريمة لهم، وربما يَعِيشون فِي الإِسْلامِ فيما بَعْد، إِنَّمَا هَؤُلَاءِ المكذِّبون المجرمون إذا أَهْلَكَهُمُ اللهُ فإن الواجبَ علينا أن

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كُلّ ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، حديث رقم (٣٩٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نحمدَ اللهَ، لا أنْ نَتَرَحَّمَ لهم ونَرِقّ لهم، هَذَا خلافُ ما عليه بعضُ النَّاسِ اليوم الَّذِينَ فَقَدُوا الغَيْرَة الدينية ولم يكن فِي قلوبهم الولاءُ والبَـراء؛ لأن كثيرًا من النَّاس فَقَدُوا الولاء والبـراءَ، وبعض النَّاس فقد البـراءَ فقطْ، ومعه الولاءُ لَكِنَّهُ وليٌّ لكلِّ أحدٍ، وبعض النَّاس بريء من كُلّ أحدٍ أيضًا، لا يحب المُسلِمينَ ولا الكفارَ، ولكِن هَذَا نادرٌ، إِنَّمَـا الكثير فِي وقتنا هَذَا هُوَ الولاء للجميعِ، وَأَنَّهُ لا يُبْغِضُ أحدًا، فالمسألة عنده إِنْسَانيَّة وليستْ دِينيَّة، وهَذَا خطأٌ وخطرٌ، أيضًا مَعَ كونه خَطَأً فَهُوَ خطرٌ؛ لِأَنَّ أوثَقَ عُرَى الإِيمانِ الحبُّ فِي اللهِ والبُغْضُ فِي الله.

مسألة: لو حَصَلَ لكافرٍ حادثٌ هل يَلْزَمُنا إنقاذه؟

لا يلزمنا أن نُنْقِذَهُ، نعم إن كَانَ مُعاهَدًا فَإِنَّهُ معصومٌ نُنْقِذُه، وإن كَانَ غيرَ معاهَدٍ وَلَيْسَ بيننا وبينه عهدٌ فلا ننقذه، بل إننا نُجْهِز عليه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كَانَ لا يعلمُ هل هُوَ معاهَد أو غير معاهد؟

فالجواب: إذا كَانَ لا يَعْلَمُ فاللهُ أَعْلَمُ، والَّذِينَ فِي بلادنا مَن لَيْسَ بمعاهَدٍ فَهُوَ مستأمَنٌ؛ لِأَنَّ كونَه يأتي بعقدٍ سواء حكوميّ أو غير حكوميّ فَهُوَ مستأمَنٌ، فله حُكْمُ المعاهَدِ، يَقُول الله تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦].

أما المعصوم فالعُلَماء يَقُولُونَ: يَجِب أنْ يُنْقَذَ مِنَ الهَلَكَةِ مُطْلَقًا، ولم يَفْصِلوا بينَ المسلمِ وغيرِ المسلمِ، ولذلك لا يجوزُ الاعتداءُ عليه، وهَذَا ثابتٌ بالنصِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة:٧]، وقال تَعَالَى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

وكما جاء في الحديث عن النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنَ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ»(١)، فهذا كلام أهلِ العلمِ في هَذِهِ المسألةِ، والمسألةُ تحتاجُ إِلَى بحثٍ، وعندما نحقِّقها يُنْظَر إنْ كَانَ فِي هَذِهِ المسألةِ خِلافٌ، ويُنْظَر -إن شاء الله- أيّهما أَرْجح.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له أنْ يَتَمَدَّحَ بنفسِه ويدعو النَّاس إِلَى ذلك؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أَمَّا غيره فليسَ مِنَ اللائقِ أنَّ الْإِنْسَان يَقُول للناس: احْمَدُوني وأَثْنُوا عَلَيَّ. ومعلوم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أهلٌ لِذَلِكَ، ولأن المصلحة لنا، والله تَعَالَى لا يَنْتَفِعُ بطاعةِ الطائعينَ، ولا يَتَضَرَّر بمعصيةِ العاصِينَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الَّذِينَ اصطفاهمُ اللهُ قد بَرِئُوا مِمَّا يُلْصَق بهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ فإن هَذَا السلام يَتَضَمَّنُ سلامتهم مما وُصِفوا به وقُدِح فيهم به، ويتضمّن أيضًا سلامتهم من عقوبةِ اللهِ، فالسلامةُ هنا شاملة للسلامة ممَّا يَتَعَلَّق بفعل الله كالعقوبة، أو بفعل الخَلْق كالقَدْح.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله تَعَالَى يَصْطَفِي مِن عِبَادِهِ ما شاء، يَخْتَارُهم لعبادتِه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أي: اختارَ، ومَن يختارُهُم هم الَّذِينَ قاموا بطاعتِه، فمن قام بطاعةِ اللهِ اصطفاه الله، ومَن عصى اللهَ فَهُوَ بعيدٌ منْ الِاصطفاء.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: قيام الأفعالِ الاختياريّة باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ فإن الاصطفاءَ مِنَ الأفعالِ، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قائمٌ به الأفعال الاختيارية.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: حِكمة الله تَعَالَى فِي تعليق الأحكام بأَسْبابها، فإن السلامةَ هنا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، حديث رقم (١٧٣١)، عن بريدة بن الحصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

معلَّقة عَلَى الاصطفاءِ، وهَكَذَا أحكام الله الكونيَّة والْقَدَرِيَّة كلّها مربوطة بأَسْبابها، وذلك لثبوتِ الحِكْمَةِ فِي أحكامِ اللهِ؛ إذ إنَّ الله لا يفعل شيئًا إِلَّا لحكمة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الثَّناء عَلَى الْمُصْطَفين لسلامتهمْ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنّ ما جاءت به الرُّسُلُ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ نقصٌ، سواء كَانَ ذلك فِي الأحكام الشَّرْعِيَّة أو فِي الأخبارِ، فما أخبرتْ به الرُّسُلُ فَهُوَ حقّ، لَيْسَ فِيهِ كذِب، وما أمرتْ به أو نهتْ عنه فَهُوَ عدلٌ، لَيْسَ فِيهِ جَوْر ولا ظُلم؛ لِأَنَّ قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أول من يدخل فِيهِ الرُّسُلُ؛ ولهَذَا يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ فِي سورة الصافَّات: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢]، فسلَّم عَلَى الرُّسُلِ لسلامةِ ما قالوه منَ النقصِ والعيبِ، وهَكَذَا هنا ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن من قام بما يجبُ عليه منْ الِاجتهاد فأخطأ فلا إثمَ عليه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ فإذا اجتهد الْإِنْسَانُ فِي طَلَب الْحَقّ وتحرِّي الْحَقّ وأخطأ فلا إثمَ عليه فِي هَذَا الخطأِ؛ لِأَنَّهُ ما دام مُتحرِّيًا للحقِّ وطالبًا له وفاعلًا لأَسْبابِهِ فَهُوَ منَ العبادِ المصطَفَيْن، فإذا حَصَل عليه خَلَل فَهُوَ سالمٌ مما يَكُون بهَذَا الخطأ، وهَذَا يَشهَدُ له قول الرَّسُولِ ﷺ: «**إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ، وَإِذَا حَكَمَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ**»(١).

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: جواز المقارنةِ بينَ ما هُوَ خيرٌ مَحْض وما لا خيرَ فيه؛

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، حديث رقم (٦٩١٩)؛ ومسلم، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، حديث رقم (١٧١٦)، عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مراعاةً للخَصْمِ وإقامةً للحجَّة عليه؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فإن من المعلوم أن الله خيرٌ ممَّا يُشرِكون، ولا مقارنةَ بينه وبينهم، لَكِنَّهُ يُخاطِب قومًا مشركينَ، إن كانتِ القراءةُ بالتاءِ؛ لِأَنَّ فيها قراءتينِ (أَمَّا تشركون) و(أَمَّا يُشْرِكون)، أو يتحدث عن قومٍ مشركينَ، فلهَذَا راعَى أحوالهم فقال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ من أساليبِ المناظَرة إلزامَ الخَصْم بما يُقِرّ به؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لا يمكن أَنْ يَقُولُوا: إن آلهتهم خيرٌ أبدًا، ولهَذَا أعقبها بِقَوْلِهِ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ...﴾ إلخ [النمل:٦٠]، ممَّا هُوَ من أفعال الرُّبُوبِيَّة الَّتِي لا يمكِن لهم أن يَدَّعُوا أن آلهتهم تفعلها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: عَدْلُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي إقامةِ الحُجَّة عَلَى المعانِدين؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ لِأَنَّهُ إذا وصلتِ الحالُ إِلَى هَذَا الأَمْرِ إِلَى أن يَقُول لهم: آللهُ خيرٌ أم أصنامكم، فيَكُون هَذَا من جملةِ ما يُقَال لهم، يَعْنِي: قل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ وقل أيضًا لهَؤُلَاءِ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فيَكُون من جملة المقول، وهَذَا فِي غاية ما يَكُون منَ العدلِ وإقامة الحجَّة، وإلَّا فالله قادر عَلَى أن يدعَ هَؤُلَاءِ ويبين الحَقّ ولا حاجة إِلَى مناظرةٍ، ولكِن لإقامة الحجَّةِ عَلَى هَؤُلَاءِ ولكمالِ العدلِ فيما لو عُوقِبوا أن تكون عقوبتهم بَعْد إقامةِ الحجَّة فصار مثل هَذَا الكَلام.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الخَيْرِيَّة المطلَقة فِي كُلّ شيءٍ، خِلافًا لَمَا مشَى عليه المُفَسِّر حَيْثُ قَالَ: [﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ لمن يَعْبُدُه]، فالصَّواب: آلله خيرٌ فِي كُلّ شَيْء، خيرية مطلقة فِي صفاته وَفِي أفعاله المتعلقة بعابديه.

الْفَائِدَة الخامِسَة عَشْرَة: بَيَان جواز إلزام الخَصْمِ بما لا يُمْكِنه إنكارُه؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَة عشْرَة: جوازُ المقارنةِ بينَ شَيئينِ لا يَختلِفانِ فِي المَعْنى من أجلِ إقامةِ الحُجَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وذلك بأن ما يشركون به مَعَ الله لَيْسَ فِيهِ خيرٌ إطلاقًا، كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ [غافر:٢٠]، ما قَالَ: لا يَقضون بالحقّ، قَالَ: ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ يعني لَيْسَ لهم أيّ حُكْم وَلَيْسَ لهم أيّ سُلْطَة، إطلاقًا لَيْسَ فيها خير، فهي أحجار وأشجار لا يُنْتَفَع بها.

الآيــة (٦٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل:٦٠].

قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الآلهة خيرٌ لعابديها ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾].

الجواب: بل من خلق السَّماوَات والْأَرْض، فَهُوَ خبر، وقوله: [الآلهة خيرٌ لعابديها]، نَقُول فيه مثل ما تقدَّم فِي قوله: [﴿خَيْرٌ﴾ لِمَن يَعْبُدُهُ]، فالْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قدَّر مرَّةً ثانية، وهَذَا واضحٌ، وَعَلَى هَذَا فتكون (أم) مُتَّصِلَةً، والخيريَّة هنا مُطْلَقَة إذا صحَّ تقدير الْمُفَسِّر؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إن قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ للإضراب وليستْ للمقارنةِ، ويَكُون السؤال اسْتِفْهامًا مُطْلَقًا، يعني يَقُول: من الَّذِي خلق السَّماوَات والْأَرْض أإله مَعَ الله؟

فيَكُون قوله: ﴿أَمَّنْ﴾: (أم) هَذِهِ للإضرابِ وليستْ متعلِّقةً بما سبقَ، فيَكُون تقدير الآيَة: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ فيَكُون الاسْتِفْهام هنا لَيْسَ للمعادلة، أَمَّا عَلَى رأي الْمُفَسِّر فجعل الاسْتِفْهام للمعادلة.

قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: (خلق) بمعنى أَوْجَدَ بتقديرٍ؛ لِأَنَّ الخَلْقَ لَا بُدَّ أن يسبقه تقدير، والإيجاد أعمُّ منه، فقد يوجد الشَّيْء بلا تقديرٍ، ولكِن الخلق لَا بُدَّ فِيهِ من تقديرٍ.

قوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، بعضهم يَقُول: السَّماوَات ليست مَفْعُولا بها؛ لِأَنَّهُ ما وقع عليها فعل الفاعلِ، إذ هِيَ لم توجد إِلَّا بفعلِ الفاعلِ، وإنما يقالُ: مَفْعُول مطلق وليست مَفْعُولا بها؛ لِأَنَّ المَفْعُول به يَقتضي أن يَكُون ما وقع عليه الفِعْل سابقًا عَلَى الفِعْل، وهنا السَّماوَات ليست سابقةً عَلَى خلقه، وَعَلَى هَذَا فقلْ: إنَّهَا مَفْعُول ولا تقلْ: به، فقُلْ: مَفْعُول فقط، لا به ولا فِيهِ ولا معه ولا له؛ لِأَنَّ المفاعيل خمسةٌ كما هُوَ معروفٌ؛ مَفْعُول غير معدّى بحرفٍ، ومَفْعُول معدى بحرف (الباء) أو بـ(في) أو بـ(اللام) أو بـ(مع).

أَمَّا المَفْعُول المطلَق فيَكُون بمعنى الفِعْل، مثل ضربتُ ضَربًا، ولا يعدَّى بالباء ولا بـ(فِي)، فهَذِهِ المفاعيل.

لكِن هَذَا فِي الحقيقةِ منَ الفلسفةِ الَّتِي لَيْسَ لها معنى؛ لِأَنَّ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ معناها أوجدَ السَّماوَات، فالمَفْعُول به أو الفِعْل واقعٌ عَلَى الإيجادِ، وإن كانتِ السَّماوَات قبلَ الإيجادِ ليستْ موجودةً، فالإيجادُ سابقٌ عَلَى الموجودِ؛ لِأَنَّ به يَحْصُلُ الوجودُ، فلا حاجةَ إِلَى هَذَا التمحُّل، ونَقُول: وأيضًا ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مَفْعُول به، هم يَقُولُونَ: المَفْعُول به لَا بُدَّ أنْ يَكُونَ سابقًا عَلَى الفِعْل: (ضربتُ زَيْدًا)، فزيدٌ سابِقٌ عَلَى الضربِ، (أكلتُ الطعامَ)، فالطعامُ سابقٌ عَلَى الأكلِ، (صنعتُ الطعامَ) حوّلته من حال إِلَى حال، أيضًا سابق عَلَى الطعام.

قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ تُذْكَرُ بلفظ الإفرادِ والجمعِ

كثيرًا فِي الْقُرْآن، والأرض ما ذُكرتْ إِلَّا بلفظِ الإفرادِ، إِلَّا أن الله قَالَ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، وإِلَّا فبقيَّة الآيَات بل حَتَّى فِي هَذِهِ الآية ما ذُكرت إِلَّا مفردةً، ولم يقل: (ومنَ الْأَرَضين مثلهنّ)، لَكِنَّها وردتْ فِي السنّة مجموعةً ومبيَّن أَنَّها سبع.

قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: (ماء) هل هِيَ مَفْعُول أو مَفْعُول به؟

مَفْعُول به؛ لِأَنَّ الماء موجود.

قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ اللام للتعليل أو للإباحة، ولَكِنَّهَا للتعليل أبلغ؛ لِأَنَّهَا إذا كانت للتعليل شَمِلَتِ الإباحةَ وشَمِلَتْ ما يَكُونُ به النفعُ من هَذَا الماء وإنْ لم يلامِسْها.

قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ المُراد بالسَّماء هنا العُلُوّ، والدَّلِيل عَلَى ذلك أنَّ الماءَ هَذَا ينزل منَ السَّحابِ، وقد قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤]، فدلَّ هَذَا عَلَى أن المُرادَ بالسَّماءِ هنا العلوُّ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا﴾ فِيهِ التفاتٌ مِنَ الغَيْبَةِ إِلَى التكلُّم]، الغَيبة فِي قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ وقوله: ﴿وَأَنزَلَ﴾، وهنا قَالَ: ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾، والالتفاتُ فِيهِ فوائدُ الانتباهِ لِئَلَّا يَنساب معه المخاطَب ويَغْفُلُ عنه، وهو من المحسِّنات البديعيَّة.

قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ قَالَ المُفَسِّر: [﴿حَدَآئِقَ﴾ جمع حَدِيقة، وَهُوَ البُستان المَحُوط]، يعني الَّذِي عليه حائطٌ [﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ حُسْن]، فالبهجة بمعنى الحُسن؛ لِأَنَّ القلب يَبْتَهِجُ بها ويَنْشَرِح

بها الصدرُ، وهَذَا أمرٌ معلومٌ، لا سيما لِعُشَّاق الحدائقِ، وإلّا فبعض النَّاس لا يُهِمُّه سواء كَانَ فِي الحديقة ما يُبْهِج أو لا، لكِن عشّاق الحدائق يجدون لذَّةً عظيمةً فِي مثل هَذِهِ الحدائقِ الَّتِي بها هَذَا النبات العظيم.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾: ﴿مَّا كَانَ﴾ بمعنى: مُمْتَنِع غاية الامتناع، وهي نظيرُ قولِه تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم:٣٥]، أي: مُمْتَنِع عليه، فـ ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ﴾ أي: ما صحَّ لكم، وما أمكن لكم أن تُنْبِتُوا شجرها؛ لِعَدَمِ قُدْرَتِكُم عَلَى ذلك، لَيْسَ فِي مَقْدُورِكُم أنْ تُنْبِتُوا هَذَا الشجرَ.

فَإِذَا قَالَ مُجادِلٌ: بل فِي مقدوري، فآتي بنوى التمر وآتي بحبّ وأَحْرُث الْأَرْض وأضعه فيها.

قُلْنَا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٤]، نعم أنت فعلتَ السَّبَب، لكِن هل خلقتَ هَذَا، هل فَلَقْتَ الحَبَّ والنوى؟ أبدًا.

وإذا جادل مجادِلٌ بمثلِ ذلكَ قُلْنَا له مثل ما قَالَ إبراهيمُ ﷺ للذي ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فنقُول له: إذا كنتَ أنت فعلت هَذَا فهَذِهِ الشَّمْسُ تأتي منَ المَشْرِقِ فأتِ بها من المغربِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَءِلَٰهٌ﴾ بتحقيقِ الهمزتينِ وتسهيلِ الثَّانِيَةِ وإدخالِ ألفٍ بينهما عَلَى الوجهينِ فِي مواضعِهِ السبعةِ]، وأين مواضعه السبعة؟

فِي الآيَات الآتية، هَذَا واحد، وننظر هل كلام المُفَسِّر صحيح أم لا.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أعانه عَلَى ذلك]، يعني أو انفردَ بشيءٍ منه، فالمعية هنا

تَقتضي -كما قَالَ المُفَسِّر- المُعَاوَنَة إذا كَانَ مصاحبًا له، أو الانفراد ببعض الخلق إذا كَانَ غيرَ مصاحبٍ له، هَذِهِ الحديقة مثلًا فيها نخل ورُمّان وعِنَب، هل مَعَ الله إلهٌ شاركه فِي إيجاد النَّخل والرُّمَّان والعِنَب، أو أوجد النَّخلَ واللهُ أوجدَ الرمانَ والعنبَ أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؟

إِذَنْ: قول المُفَسِّر: [أعانه]، ينبغي أن يُقال: أوِ انفردَ بشيءٍ منها. وقلت ذلك لِأَنَّ الله يَقُول: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هَذَا الانفراد، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ هَذِهِ المشاركة عَلَى وجه الشيوع، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢]، هَذِهِ المعاونة، وإن لم يكن شريكًا، ما عاوَنُوا الله جَلَّ وَعَلَا. ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ [سبأ:٢٣]، هَذَا التوسُّط للعابدين إِلَى الله، إذن بأي شَيْء يتعلقون؟ فإذا قَالُوا: إن آلهتهم لا تفعل.

قُلْنَا إِذَنْ: لماذا تعبُدُونها، فكل ما يمكن أن يتعلَّق به المُشْرِكُون بالنِّسبة لأصنامهم نُفِيَ فِي هَذِهِ الآيَة ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ انظر بلاغة الْقُرْآن.

فالحاصل: أن قولـه: [﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أعانه]، نَقُـول أيضًا: أوِ انفـردَ بشيءٍ أو شاركَ فِي مُلْكِه، فلا أعان اللهَ ولا شاركَهُ ولا انفردَ بشيءٍ مِن مُلْكِهِ، أي: لَيْسَ مَعَه إله.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل المَعُونَةُ تدخلُ فِي المشاركة؟

فالجواب: لا؛ لأنك قد تُعينني مثلًا عَلَى إصلاح شيءٍ فِي بيتي وَلَيْسَ لك فِيهِ شركة، بل كلُّه لي.

وقَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا فِي قوله تَعَالَى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾: [أي لَيْسَ معه إله]،

فالاسْتِفْهامُ إذن إنكاريٌّ للنفي، يعني لَيْسَ مَعَ الله إلهٌ فَعَلَ ذلك، فالمعبودات الَّتِي تعبدونها مَعَ اللهِ لم تفعلْ ذلك.

إِذَنِ: الواجب إفراد اللهِ تَعَالَى بالألوهيَّة، فعليه تكون الحُجَّة قد قامتْ عَلَى هَؤُلَاءِ بما أَقَرُّوا به من الرُّبُوبِيَّة، وكثيرًا ما يَسْتَدِلّ الله تَعَالَى بتوحيد الرُّبُوبِيَّة عَلَى وجودِ توحيد الألوهيّة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، ﴿ٱعْبُدُواْ﴾ توحيد أُلوهيَّة ﴿رَبَّكُمُ﴾ هَذَا رُبُوبِيَّة.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ يُشْرِكون باللهِ غيرَه]، ﴿بَلْ﴾ هَذِهِ للإضرابِ الانتقاليّ، لا الإبطاليّ، يعني بل هم مُقِرُّونَ بذلك، وَأَنَّهُ لا إله مَعَ الله، ولكِنّهم يَعْدِلون به غيرَه فيشركون، فصار فعلهم هَذَا لَيْسَ عن دليلٍ ولكِن لمجرَّد هوى، وإن كانوا يُقِرُّون بأن الله تَعَالَى لا شريكَ له فِي خلق السَّماوَات والْأَرْضِ وإنزال المطرِ وإنباتِ النباتِ به، وإنما يعدِلون بالله غيرَه فيشركونه مَعَ اللهِ لمجرَّد أهوائهم، أَمَّا أَنَّهُ عن دليلٍ عقليّ أو فِطريّ أو نقليّ فليسَ كذلك.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ ألا تَحتمِل أَنَّهُم يَعدِلون عن عبادةِ اللهِ؟

الجواب: تَحتملُ، لكِن ما قَرَّرَهُ المُفَسِّر أحسنُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]، ولم يقلْ: عن ربِّهم يعدِلون، فدلَّ هَذَا عَلَى أنَّ المُراد بالمعادلةِ هنا المساواةُ، أي: يساوون به غيرَه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان انفرادِ اللهِ تَعَالَى فِي خلق السَّماوَات والْأَرْض؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ خلق السَّماوَات والْأَرْض، يَتَضَمَّن إيجادهما وإيجاد ما فيهما منَ المنافع،

فلا أحدَ يستطيع أن يغيِّر شيئًا من خلق السَّماوَات والْأَرْض، لا من الشَّمْسِ ولا من القمرِ ولا من النجومِ ولا من غيرها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ما تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ المخلوقات من منافعِ الخلقِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان حكمة الله تَعَالَى فِي إنزالِ المطرِ من فوقُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لِأَنَّ نزولَه منَ السَّمَـاء أعمُّ وأقلُّ ضررًا؛ إذ لو كَانَ يخرج من الْأَرْض ما وَصَلَ إِلَى قِمَم الجبالِ إِلَّا وقد أغرقَ ما تحته، فلهَذَا صار ينزِل من فوق ليَكُونَ أكمل وأعمَّ وأقلَّ ضررًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيَان رحمةِ الله فِي قولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لِأَنَّ اللام هنا للتعليلِ، أي: لأجلكم، وهَذَا من رحمتِهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ غنيٌّ عنَّا ولَكِنَّنَا نحنُ مُفْتَقِرُون إليه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الأَشْيَاء ينبغي أن تُضافَ إِلَى المسبِّب لا إِلَى السَّبَب؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ﴾ فأضاف الإنبات إِلَى الله، مَعَ أن النبات يحصُل بالمطرِ، ولكِن المنزِل هُوَ الله، ولهَذَا ينبغي للإِنْسَانِ أن يضيفَ الشَّيْء إِلَى المسبِّب الخالقِ مُشيرًا إِلَى السَّبَب، كما يَقُول العُلَمـاء عن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: هَدَى اللهُ به منَ الضلالةِ، وأنقذَ به مِنَ الهَلَاكِ، وبصَّر به مِنَ العَمَى، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فإضافةُ الشَّيْءِ إِلَى المسبِّب للإشارةِ إِلَى بَيَان السَّبَب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات الأَسْبَاب؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾ لِأَنَّ الباء للسببيَّة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات الحِكْمَة؛ لِأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَبَطَ الأَسْبَاب بِمُسَبَّبَاتها، وهَذَا من الحِكْمَة ألا تأتيَ الأُمُور عَلَى وجهِ المصادفاتِ أو بدونِ أَسْبابٍ تَقتضيها، فإثباتُ الأَسْبَاب يَتضمَّن إثبات الحِكْمَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وفيه أيضًا التنـزُّه فِي الحدائقِ والابتهاجُ بها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ وأن الْإِنْسَان ما يُلام إذا قَالَ: نريد أن نتفرَّج عَلَى ما أخرجَ الله منَ المَطَرِ من هَذِهِ الحدائقِ والبساتين؛ فَإِنَّهُ لا يُلامُ عَلَى ذلك، لا يُقَال: هَذَا من فضول الأفعالِ؛ فإن النفس إذا لم تُمَرَّنْ عَلَى هَذَا وهَذَا فإنها تَمَلُّ وتَكِلُّ ولا تأتي بالأُمُور عَلَى وجهها، والنَّاس أيضًا يختلفون فِي هَذَا؛ فمنهم من يَكُون من ضروريَّات الحياة له أن يَتَنَزَّه أحيانًا، ومنهم من لا يَهتمُّ بذلك، ومنهم من يجعل دَيْدَنَهُ دائمًا هُوَ التنزُّه واللَّهو واللَّعِب ويُعْرِض عمَّا خُلِقَ له بما خُلِقَ له.

فالحاصل أن نَقُول: إن قوله تَعَالَى: ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ فِي سياق الامتنانِ، يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ لا مانعَ أن الْإِنْسَان يرتاد هَذِهِ الحدائـقَ لأجل أن يَبْتَهِجَ بها، لكِن بشـرطِ ألا تشغلَه عن ذكر الله وطاعتِه وعمَّا هُوَ أهمُّ من ذلك.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كَانَ إِنْسَان لَيْسَ ممَّن يَهْوَى النظرَ إِلَى هَذِهِ النعمِ فهل يُعتبَر منَ الفضولِ اشتغاله بها؟

نعم، منَ الفضول، لكِن لا بأس أن يَشتغل بها، ولو ضيَّع الوقت فِي غير هَذَا قُلْنَا له: لا يَنبغي، لكِن لو أنني أُحبُّ هَذَا الشَّيْء وأبتهِجُ به وأُسَرّ وأُسَلِّي نفسي به؛ لا نَقُول: هَذَا من إضاعة الوقت ما لم يَشْغَلْ عن ذِكْرِ الله، وإذا أراد التفكُّر فِي آيَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ صار عبادةً.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الخلق لا يمكنهم أن يَخْلُقُوا ولا شجرةً؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ لِأَنَّ (ما كان) بمعنى لا يمكن ولا يَصِحّ، فَهُوَ منَ المستحيل، ونظيرُهُ قوله تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم:٣٥]، فتجد الخلق مَعَ قُدْرَتِهم الصناعيَّة لا يمكن أن يَخْلُقُوا شجرةً، ولا شجرة صغيرة، وإلى الْآنَ وإلى

ما بَعْد الْآنَ لا يُمْكِنُهم ذلك، كما أَنَّهُم لا يمكنهم أنْ يُحْيُوا إِنْسَانًا ولا يمكنهم أن يمنعوا خروجَ نفسِهِ عندَ خُرُوجِها.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: نجدهم الْآنَ يُعالِجون المرضى الْمُزْمِنِينَ ثُمَّ يَشْفُونَ، فما الجواب؟

الجواب: نَقُولُ: مثل هَذَا لا يَعْدُو أن يَكُون سببًا، قد يَنْفَع وقد لا ينفع، قد يعارضه مانع حضور الأَجَل، وإذا حضرَ الأجلُ بَطَلَ مَفْعُوله فلا ينفع، نحن لا نُنْكِر الأَسْبَاب ولَكِنَّنَا نُنْكِر أن تكون هَذِهِ الأَسْبَاب موجِبَةً لِمُسَبَّباتها، فلا تُوجِبها؛ لِأَنَّهَا قد تُفيدُ وقد يوجد مانعٌ، وَلَيْسَ هَذَا خاصًّا بهَذِهِ المسألةِ، فكُلّ الأَسْبَاب قد يوجدُ فيها مانعٌ أَقوى مِنْهَا فيمنع من نُفُوذِها.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: تحدِّي هَؤُلَاءِ المتَّخِذِين آلهةً مَعَ اللهِ أن يَكُون لآلهتهم شيءٌ من هَذَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ فإن هَذَا تحدٍّ عظيمٌ ولا يستطيعون أن يُثْبِتُوا ذلك.

الفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إقامة الحُجَّة عَلَى سَفَهِ هَؤُلَاءِ المشركينَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يَعْدِلُون باللهِ غيرَه، وَلَيْسَ الْمُراد العَدْل الَّذِي هُوَ ضدُّ الظُّلم، إذا كَانَ هَذَا هُوَ الْمُراد لكان هَؤُلَاءِ مَمْدُوحِينَ بما هم عليه، ولكِن الْمُراد يَعْدِلون بالله غيرَه، ويجعلونه عديلًا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومُساويًا له.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: ما أشرنا إليه كثيرًا من أنَّ الكلِمات لَيْسَ لها معنًى داخليٌّ، بل معناها يحدِّده السياق؛ لِأَنَّ كلمة ﴿يَعْدِلُونَ﴾ لو كَانَ لها معنى ذاتيّ لكانت هنا بمعنى: لا يَجُورُونَ؛ لِأَنَّ المفهوم من هَذَا الفِعْل أَنَّهُ العدلَ بمعنى إعطاءِ كُلّ ذي حقٍّ حقَّه، والأَمْر هنا لَيْسَ كذلكَ، بل هَذَا ظُلم أن يعدِلوا باللهِ غيرَه، وبهَذَا التقرير الَّذِي حَرَّرْنَاهُ يَتَبَيَّن رُجحانُ كلامِ شيخِ الإِسْلامِ ابنِ تَيْمِيَّة حَيْثُ قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ فِي اللُّغَةِ

مَجاز[1]، وهَذَا من المعلومِ.

ومن المعلوم أيضًا أن فِي المسألة ثلاثة أقوال: إثبات المجاز فِي اللُّغة والْقُرْآن، ونفيه فيهما، وإثباته فِي اللُّغة دون الْقُرْآن، والصَّواب: أَنَّهُ لا مجاز لا فِي اللُّغة ولا فِي الْقُرْآن، وأن كُلّ ما ادُّعِيَ أَنَّهُ مجاز فَإِنَّهُ حقيقة فِي موضعِهِ.

• • ۞ • •

(١) سبق ذكر المصدر.

الآيـة (٦١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:٦١].

على تقدير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ نَقُول: (آلآلهة خيرٌ أمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قرارًا).

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾: ﴿جَعَلَ﴾ فعلٌ ماضٍ يَنْصِب مَفْعُولينِ: الأول: الْأَرْض، والثاني: قرارًا، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَرَارًا﴾ لا تَمِيدُ بأهلها]، لا أحدَ يستطيع أن يجعلَ الْأَرْضَ قرارًا، لا سِيَّما وأنها مُرَكَّبَةٌ عَلَى الماءِ، فالماء محيطٌ بها من كُلِّ جانبٍ، ولو أنك وضعتَ كُرَةً فِي ماء فإنها لا تَسْتَقِرّ، بل تَتَقَلَّب وتَتَمَوَّج.

ولكِن الله تَعَالَى جعلَ هَذِهِ الْأَرْض كرةً فِي وسط ماء؛ لِأَنَّ البحار تمثِّل تقريبًا ثلاثة أرباع اليابسةِ، ومع هَذَا فإنها مُنْضَبِطَةٌ تمامًا لا تَميد ولا تَتَقَدَّم إِلَى ناحيةٍ ولا تتأخّر عنها ولا تَتَدَحْرَج فِي هَذَا الماء، فجعلها الله تَعَالَى قرارًا، والقرارُ مَوْضِع الاستقرارِ.

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا تميد بأهلها]، والمَيَدَان معناه الاضطرابُ، ما أحد جعلَ الْأَرْضَ قرارًا إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يستطيعُ أحدٌ أنْ يقومَ بذلكَ، ولهَذَا إذا جاءتِ الزلازلُ لا يستطيع هَؤُلَاءِ بجميعِ قواهم أنْ يَمْنَعُوا رَجَّة الْأَرْض، بل ولا يَعْلَمُون متى تكون هَذِهِ إِلَّا إذا ظهرتْ بَوَادِرها ولو خَفِيَّة وتُعْلَم حينئذٍ بالآلاتِ الدقيقةِ.

فإِذَنْ: لا أحدَ يستطيع أن يجعلَ الْأَرْض قرارًا بأهلها إِلَّا خالق الْأَرْض، وَهُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿قَرَارًا﴾ استدلّ به مَن يَقُول: إن الْأَرْض تدور ومن يَقُول: إن الْأَرْض لا تدور؛ الَّذِي يَقُول: إن الْأَرْض لا تدورُ يَقُول: لِأَنَّهَا مَعَ الدَّوَران ليست بِقَرَارٍ، لو كانت تدورُ لاستدارتْ رُؤُوسُنا. وَالَّذِي يَقُول: إنَّهَا تدور يَقُول: لولا أن هناك حركة ما نُفِيَ الميَدَان، فنفيُ الأخصُّ يَقتضي وجودَ الأعمّ، مثلما أنكم استدللتم بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، استدللتم بها عَلَى أنَّ الله يُرى؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ لا يُرى ما صحَّ أن يقولَ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ لقالَ: لا تراه. قال تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان:١٠]، فلولا وجود حركة ما صحَّ نفي المَيَدَان؛ لِأَنَّ ما لا يَتَحَرَّك لا يُتَوَقَّع منه المَيَدَان، وإنما توقّع الميدان لما يَتحرَّك، وَعَلَى هَذَا فنَقُول: إن فِي الآيَاتِ دليلًا عَلَى أن الْأَرْض تدور.

والَّذِينَ يَقُولُونَ: لا تدور، يَقُولُونَ: إن نفيَ المَيَدَان صحيحٌ يَدُلّ عَلَى حركةٍ، لكِن هل هُوَ يَدُلّ عَلَى حركةٍ موجودةٍ بالفِعْل أو يدلّ على حركةٍ متوقَّعة، بمعنى أَنَّهُ لولا هَذِهِ الجبالِ لكانتْ تَضْطَرب؛ حَيْثُ إِنَّهَا فِي الماء، ولكِن لمّا وُجِدَتْ هَذِهِ الجبالُ أَمْسَكَتْها وكانت لها رواسيَ بمنزلةِ أطنابِ الخيمةِ.

وفي الحقيقةِ أن هَذَا الأخيرَ ردٌّ واضحٌ عَلَى الأوَّل، وَأَنَّهُ لا يلزم من مجرَّد الحركةِ الدَّورانُ، فنحن نَقُول: نعم الْأَرْض يمكن أن تتحرَّك، ولولا هَذِهِ الجبال لمادَتْ؛ لِأَنَّهَا فِي ماءٍ، فَكُرةٌ فِي ماءٍ لَا بُدَّ أنْ تَتَحَرَّك، والماء كما ترونَ تَضْرِبه الرِّيَاح فلَا بُدَّ أن يَكُون فِيهِ أمواجٌ عظيمةٌ مثل الجبالِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ [النور:٤٠]، هَذِهِ الأمواج العظيمة إذا ضَرَبَتِ الْأَرْض لولا وجود الجبالِ المُرْسِيَة لمادتْ

عَلَى كُلِّ حالٍ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الأمواج ليستْ هيِّنة.

فالحاصل: أن الآيَة لَيْسَ فيها ما يُقَرِّرُ أن الْأَرْض تدورُ، وفيها ما يقرِّر أن الْأَرْض لَا شَكَّ أَنَّهَا تَضْطَرِب لولا وجود هَذِهِ الجبال.

ثم تبقى مسألة الدَّوران، ولا دليل عليها من الْقُرْآن، يَعْنِي: لا دليل يُثْبِتها ولا دليل يَنفيها، فإذا ثبتَ ذلك بالأدلَّة البيِّنة فإنَّنا نُؤْمِن به؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان المؤمن لا ينكر المحسوسَ أبدًا، بل إذا أنكرَ المحسوسَ كَانَ ذلكَ طعنًا فِي فَهْمِه وَفِي تصوُّره، وما دام أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْقُرْآن ما يَنفي ذلك ولا ما يُثْبِتُه فموقفنا نحنُ الوقوفُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لنا الأَمْرُ، فمَن زعمَ أن الأَمْرَ قد تَبَيَّن له وَهُوَ منَ الْمُسلِمينَ وقال: أنا أعتقد ذلك لا ننكر عليه؛ لأَنَّنا لَيْسَ عندنا دليل حَتَّى ننكر عليه، وكذلك مَن قَالَ: أنا لا يَتَبَيَّن لي.

والحمدُ للهِ حَسْبُنا أن نَقُولَ: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢]، وكونها تدور أو لا تدور هَذَا أمرٌ ما يعنينا، فما يعنينا أنَّ المصالحَ الْآنَ -وللهِ الحمدِ- مُرَتَّبَة عَلَى تعاقُبِ الليلِ والنَّهارِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧٣].

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾، ومعنى ﴿خِلَٰلَهَآ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيما بَيْنَها ﴿أَنْهَٰرًا﴾]، أنهارًا ظاهرةً عَلَى ظهرِ الْأَرْضِ وأنهارًا داكنة فِي جوفِ الْأَرْض؛ فإن الله تَعَالَى أخبر بأن هَذَا المطرَ يَسْلُكُه الله تَعَالَى ينابيعَ فِي الْأَرْض، وهَذَا شَيْء مشاهَد، فالَّذِينَ يَحْفِرون الْأَرْض يجدون أن فيها أنهارًا تجري، ويَرَوْنَهَا عيونًا تجري فِي باطنِ الْأَرْضِ وتَصُبّ حَيْثُ أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنْ تَصُبَّ.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الَّذِي جَعَلَ خِلالَ الْأَرْضِ هَذِهِ الأنهارَ، ولوِ اجتمعتِ الأمَّة كلها بجميع قواها وقُدَرِها عَلَى أن تُجريَ نهرًا واحدًا من هَذِهِ الأنهار ما استطاعوا

إِلَى ذلك سبيلًا، فالذي جعلَ هَذِهِ الأنهارَ رحمةً بالعبادِ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ جبالًا أثبتَ بها الْأَرْض]، ﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ أي: صَيَّر لها رواسيَ، يَقُول المُفَسِّر: [جبالًا أثبت بها الْأَرْض] فواعل جمع فاعل، أي: راسٍ، وَكَأن المُفَسِّر هنا يشير إِلَى أن راسيًا بمعنى مُرْسِي، وفرقٌ بين الراسي والمُرْسِي، الراسي يعني بنفسِه والمُرْسِي لِغَيْرِهِ، هَذِهِ الجبالُ يعبِّر الله عنها في آيَاتٍ عديدة بأَنَّهَا رواسٍ، وقال فِي سورة النازعات: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٢].

وهل المُراد أرسى الْأَرْضَ بها أو أَرْسَى الجبالَ أي أَثْبَتَهَا؟

كِلا المعنيينِ، فإذن هِيَ رواسٍ بِنَفْسِها، وهي أيضًا مُرْسِيَة، ولهَذَا سمّاها الله أوتادًا: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٧]، بمنزلة أوتاد الخيمة تُمْسِكها وتَضْبِطها، وهَذِهِ الجبال راسية بنفسها، ولذلك عَلَى كثرة العواصفِ والقواصِفِ تجدها ثابتةً لا تتغيّر، فهي راسيةٌ وكذلك أيضًا مُرْسِية لِلْأَرْض، كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥]، فهي راسية مُرْسِيَة.

والَّذِي جعل هَذِهِ الرواسيَ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلوِ اجتمعتِ الخلائقُ كلها عَلَى أن تُثْبِت جبلًا من مثل هَذِهِ الجبالِ الكبيرةِ ما استطاعوا إِلَى ذلك سبيلًا، فدلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لا إلهَ مَعَ اللهِ؛ كما يأتي تقريره فِي آخر الآيَةِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ بينَ العَذْبِ والمِلْحِ، لا يَخْتَلِط أحدهما بالآخَرِ]، ﴿حَاجِزًا﴾ أي: مانعًا، والمُراد بالبحرينِ العذبُ والمِلح.

ثُمَّ كيف يَكُون هَذَا الحاجز؟

بعضهم قَالَ: إنَّ الحاجزَ هُوَ اليابسُ مِنَ الْأَرْضِ الَّذِي يَحُولُ بينَ البحرِ وبين

النهرِ؛ لِأَنَّ النهر له مَجْرى خَاصّ والبحر له مجرى خاصّ، ولو شاءَ الله تَعَالَى لمَزَجَهُمَا، ولكِن جعل هَذَا مجاريَهُ وجعل هَذَا مجاريَهُ.

وبعضهم يَقُول: إنَّهُ حاجزٌ غير مرئيٍّ، وَلَيْسَ هُوَ اليابسَ، وَإنَّهُ يوجد فِي نفس البحارِ أنهارٌ عَذْبَةٌ حُلْوَةٌ، ومع ذلك لا تَخْتَلِط فتفسد بالمِلح ويفسد المِلح بها؛ لِأَنَّهُ لوِ اختلطَ الحلوُ بالمالحِ لفسدَ الهواء وأنتنَ وأوجد احمِرارًا كما نشاهِد الْآنَ فِي المستنقَعَات الَّتِي تأتي من السيولِ إذا مرَّ عليها وقتٌ يتغير بها الجو والهواء ويتولد مِنْهَا أَشْيَاء كثيرة مؤذِيَة ضارَّة، بينما البحار العظيمة لا يؤثِّر فيها هَذَا، بما أودعَ الله تَعَالَى من هَذَا المِلح الَّذِي يقتُل الجراثيمَ ويمنع فسادَ الهواءِ، فلوِ اختلطتْ هَذِهِ بهَذِهِ أفسدَ كُلٌّ منهما الآخَرَ، لَكِنَّهُ جعل بينهما حاجزًا.

فالمهمّ هل هَذَا الحاجزُ أمرٌ محسوسٌ وَهُوَ اليابسُ منَ الْأَرْض الَّذِي يَكُون بين هَذَا وهَذَا، أو هُوَ حاجزٌ غيرُ محسوسٍ، كما يشاهَد فِي الأنهارِ الَّتِي فِي وسط البحارِ؟

لنا أن نَقُولَ بالأَمْرينِ؛ حاجز محسوس وحاجز غير محسوس، وقد أخبرني الشبابُ أَنَّهُم دائمًا إذا جَزَرَ البحر بَعْد امتدادِه يَجِدُون فِي الْأَرْض الَّتِي يدخل مِنْهَا الماء عُيُونًا حُلوة جدًّا، وأخبروني أيضًا أَنَّهُم يَسْتَسْقُون من هَذِهِ العيونِ فِي وسطِ البحرِ، فيُنْزِلون أفواهَ القِرَب ويجعلونها عَلَى العينِ حَتَّى تَمْلَأَهَا، وهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ من تمامِ قدرةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حَيْثُ جعل بين هذينِ البحرينِ -وكلٌّ منهما ماء- حاجزًا ومنعَ اختلاطَ أحدهما بالآخَر.

وبعض النَّاس يَقُولُونَ: إن الحاجز هُوَ ما يوجد فِي مَصَبِّ النهرِ، وهَذَا عندي فِيهِ نظرٌ؛ لِأَنَّ مَصَبّ النهر إذا اندفعَ يفرِّق الماء المالِحَ فتجده مثلًا قد صَبَّه إِلَى مسافةٍ حَسَب اندفاع النهرِ، لكِن هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ؛ لِأَنَّ هَذَا أمر محسوس، أَمَّا الشَّيْء

الَّذِي من آيَاتِ اللهِ وَهُوَ غير محسوس فَهُوَ هَذِهِ الأنهار الَّتِي توجد فِي البحار.

قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ الجواب: لا، لا إلهَ مَعَ اللهِ، والاسْتِفْهام هنا للإنكارِ والتوبيخِ.

قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني الأَمْر واضح وبيِّن لكِن أكثر هَؤُلَاءِ لا يعلمون، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [توحيده]، هُوَ قصورٌ، والصَّواب أَنَّهُ نقص فِي العلمِ مطلقًا، بما تدلُّ عليه هَذِهِ الآيَات العظيمة من الرَّحْمَة والحِكْمَة والقُدرة والسُّلطان، فتخصيص ذلك بالتَّوحيدِ فِيهِ نظرٌ.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يُفهَم منه أن بعضهم يَعْلَم ولكِنه معاند وكابر، ومَن عَلِمَ وجَحَدَ فَهُوَ أشدُّ لومًا وتوبيخًا.

ثُمَّ اعلمْ أن نفيَ العلمِ قد يُراد به نفيُ حقيقةِ العلمِ، بحيث لا يَكُون الْإِنْسَان عالمًا، وقد يُرادُ به نفيُ الانتفاعِ به؛ فإن مَن لا يَنْتَفِع بعِلْمِهِ فَهُوَ كالجاهِلِ، بل هُوَ شرٌّ منه، وَفِي الْقُرْآن أمثلة كثيرة حيثُ يُراد بنفيِ الشَّيْء نفيُ فائدته، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١]، وقال تَعَالَى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨]، مَعَ أنَّ نُورَهم قويّ وآذانهم قويَّة السمع، ولكِنهم من أجلِ عدمِ الانتفاعِ بهَذِهِ الأَشْيَاءِ صاروا كالفاقدينَ لها، فهنا نفيُ العلمِ إنْ كَانَ المُرادُ به نفيَ وجودِ العلمِ فالأَمْرُ ظاهرٌ؛ لِأَنَّ بعض النَّاس جاهلٌ لا يفكِّر بهَذِهِ الآيَات ولا يَستدِلّ بها عَلَى حالته أو عَلَى مَن هُوَ آيَة له، وإن كَانَ المُراد بذلك نفي فائدة العلمِ فَهُوَ أيضًا واقع، ودائمًا يُنفَى الشَّيْء بانتفاء فائدته وثمراته.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان نعمة الله تَعَالَى بجعل الْأَرْض قَرارًا لأهلها، واستدلَّ بها بعضهم عَلَى أن الْأَرْض تدورُ؛ لِأَنَّ كونها قرارًا مَعَ عدمِ الدَّورانِ لا يَتَبَيَّنُ فِيهِ تمامُ القُدرةِ والنعمةِ، وإنما يَتَبَيَّن ذلك فيما إذا كانت دائرةً، وهَذِهِ الفائدةُ يُناقَش فيها وغيرُ مُسَلَّمَة؛ لأَنَّنا نَقُول: لا يَلْزَم من المَيَدَان الدَّوران، وحقيقة أَنَّهَا لولا أن الله جعلها قرارًا لكانت تَمِيد بأهلها، وَأَمَّا أَنَّهُ يَلْزَم أن تكون تدور فهَذَا لَيْسَ بلازم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ما أنعمَ الله به عَلَى العبادِ مِن هَذِهِ الأنهارِ المُتَخَلِّلة للأرض ظاهرًا وباطنًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ما أنعمَ الله به فِي هَذِهِ الرواسي الَّتِي هِيَ الجبالُ الَّتِي هِيَ راسيةٌ بنفسها مُرْسِيَة للأرضِ أيضًا ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗا﴾ [الرعد:٣]، وَفِي سورة فُصِّلَتْ قَالَ: ﴿رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا﴾ [فصلت:١٠].

قَالَ أهل العلم البَيولوجِيُّون: إن كون هَذِهِ الرواسي -أي كون الجبال المُرْسِيَة للأرضِ- من فوقها دون أن تكونَ من أسفل -أي: فِي باطن الْأَرْض- فِيهِ فوائدُ كثيرةٌ وعظيمة؛ فوائد للطقسِ وفوائد للنباتِ وفوائد للمعادِنِ، إِلَى غيرِ ذلكَ ممَّا هُوَ معلومٌ عند أهلِ العلمِ بذلك، يَقُولُونَ: وأنت إذا نظرتَ إِلَى سلاسلِ الجبالِ الَّتِي عَلَى البحارِ عَرَفْتَ بها قَدْرَ هَذِهِ النعمةِ العظيمةِ، لا سيما ما يأتي من الجهاتِ الباردةِ، حَيْثُ هَذِهِ الرواسي تَصُدُّ تلك الرياحَ الباردةَ الَّتِي تضرُّ.

فالمهمُّ أن فيها فوائدَ عظيمةً؛ لِكونها من فوق الْأَرْض، ولكِن هَذَا لم يُذْكَرْ هنا وإنما ذُكِرَ فِي سورة فُصِّلَتْ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيَان قُدرة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حيث جعل بيـن البحرينِ حاجزًا، والبحرانِ هما العذبُ والمالِحُ. وهَذَا الحاجزُ هل هُوَ مشهود أو مذكور؟

فِيهِ احتمال، بل إننا نَقُول: عامٌّ، يشمل المشهودَ والمذكورَ، وإن لم يُشهدْ، فإنَّ الأنهارَ هَـذِهِ جعل الله بينها وبين البحار حواجزَ طبيعيةً؛ كالْأَرْض، وحواجز غير معلومة لَكِنَّها مذكورة، فإن فِي جوف البحارِ المالحة أنهارًا عذبة وعيونًا عذبة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيَان قُدرة الله ومِنَّتِه أيضًا بجعلِ الحاجزِ بين هذين البحرينِ؛ لِأَنَّهُ لوِ اختلطَ ماء بعضهما ببعض لأفسدَ أحدُهما الآخرَ وضاعتْ منافعهما.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن أكثر الخلقِ لا يعلمون ما فِي هَذِهِ الآيَاتِ مِنَ العِبَر، ثُمَّ إنَّ نفيَ العلمِ كما تقدَّم قد يَكُون نفيًا لأصلِهِ وقد يَكُونُ نفيًا لثمرتِهِ وفائدتِهِ، والأَمْرُ كلُّه واقعٌ، فمِنَ النَّاس مَن لَيْسَ عنده علمٌ أصلًا ولا يفكر فِي هَذِهِ الآيَاتِ، ويرى أَنَّهَا ظواهرُ طبيعيةٌ، وَلَيْسَ للهِ تَعَالَى فيها أيّ شأنٍ، ومنهم مَن يعلم ولكِن لا يَنتفِع.

• • ۞ • •

الآيــة (٦٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ المَكْرُوب الَّذِي مَسَّهُ الضُّرُّ ﴿إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾]، عندنا ﴿أَمَّن﴾: (أم) متصلة بـ(من)، وهَذَا عَلَى خلافِ القَاعِدةِ المعروفةِ، فالقاعدة المعروفة: أَنَّك تَفصِل (أم) وحدَها و(مَنْ) وحدها، لكِن كما هُوَ معروف أن الرسمَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى الرسم العُثمانيّ، اصطلاح قديم، وفيه فائدة: عَلَى قراءة (أَمَنْ خلقَ السَّماوَات)، لو كانت (أمْ مَن) عَلَى الرسم المعهودِ لم تتناسب القراءتانِ:

فَكُلُّ مَا وَافَقَ وَجْهَ نَحْوِ ... وَكَانَ لِلرَّسْمِ احْتِمَالًا يَحْوِي
وَصَحَّ إِسْنَادًا هُوَ الْقُرْآنُ ... فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ الْأَرْكَانُ[1]

فالقراءاتُ السبعُ كلُّها مُتَّفِقَة بما دلَّ عليه هَذَا البيتُ، فلو كانت (أمْ مَنْ) فلا تتناسب فِي الرسم مَعَ (أَمَنْ)، ولذلك صارت (أَمَّنْ).

قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾: (مُضْطَر) هل هِيَ اسْم فاعلٍ أو اسْم مَفْعُول؟

(١) طيبة النشر، البيتان (١٤، ١٥).

اسم مَفْعُول بلَا شَكّ؛ لِأَنَّ معنى مضطر أي ألجأته الضَّرورَةُ، وَلَيْسَ المَعْنى أَنَّهُ اضطرَّ غيرَه، فإذا جعلنا (مضطر) اسْم فاعل صارَ بمعنى مضطرّ لغيرِه، والأَمْرُ ليس كذلك، بل المُراد مَن أصابته الضَّرورَةُ، ولهَذَا تجد فِي الْقُرْآن: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٩]، اضْطُرِرْت مبنيّ للمَفْعُول، ما قَالَ: إِلَّا ما اضْطَرَرتم.

وعلى هَذَا يُقَال أيضًا: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [الأنعام:١٤٥]، يَعْنِي: ألجأته الضَّرورَةُ، وهنا ﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾ اسْم مَفْعُول، ولا تصحُّ أن تكون اسْم فاعلٍ؛ لِأَنَّ المُراد به من ألجأته الضَّرورَة إِلَى دعاءِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهناك أمثلة كثيرة مِنْهَا (مختار) هل معناه اختارَه غيـرُه أو اختار غيـرَه؟ من حَيْثُ الوضعِ البنائيّ يَصِحّ ويمكن، لكِن السياق يعيِّن، وذلك أن أصل مختار اسْم الفاعلِ منه مُخْتَيِرٌ، واسم المَفْعُول مُخْتَيَرٌ وكلاهما لَا بُدَّ أن نقلبَ الياء ألفًا؛ لِأَنَّهَا متحرِّكة مفتوحٌ ما قبلها، والياء المتحـركة المفتوح ما قبلها يَجِـب قلبها ألفًا، وأيضًا (محتاج) لا ندري هل هُوَ محتيج أو النَّاس يَحتاجون إليه، وأيضًا مضطرّ لا ندري هل هُوَ نفسه ألجأته الضَّرورَة أو أَنَّهُ هُوَ يضطرُّ النَّاس.

عَلَى كُلّ حالٍ: الَّذِي يعيِّن هَذِهِ المعانيَ هُوَ السياق.

وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ ما قيَّد بالمُسْلِم، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يجيـب دعوةَ المضطرّ ولو كَانَ كافرًا؛ لِأَنَّ رحمتَه سبقتْ غَضَبَهُ[1]، وهاهنا داعيانِ لَا بُدَّ أن يُجَابا: المضطر والمظلومُ؛ لقولِ النَّبِيِّ ﷺ: «**وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ**

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، حديث رقم (٧٠١٥)؛ ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، حديث رقم (٢٧٥١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حِجَابٌ»[1] لِأَنَّ هَذَا هُوَ مقتضى عدل الله؛ إجابة المظلومِ فِي دعائِه عَلَى الظالمِ، لَيْسَ من أجل محبَّة المظلوم، ولكِن من أجلِ إقامةِ العدلِ.

فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَكَمٌ عَدْلٌ، ولهَذَا المظلومُ والمضطرُّ تُجابُ دعوتهما، والله تَعَالَى يَقُول: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥]، فيجيب دعوتهم، مَعَ أَنَّهُ يعلم أَنَّهُم سيكفرون إذا نزلوا، لكِن الضَّرورَة يجيب الله تَعَالَى بها الدَّعْوَة.

وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ الجواب: اللهُ، وهَذِهِ الأصنام لا تجيب دعوة المضطرّ، ولكِن قد يجعل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى سببًا مقارِنًا فيَفْتِن بها العابدَ، ربما يدعو الْإِنْسَان رسول الله ﷺ أن يكشفَ ضُرَّه، ويقدِّر الله تَعَالَى سببًا مقارنًا لهَذَا فيشفى المريضُ فيُفْتَتَن الداعي بأن الَّذِي أجابَ دعوتَه وشفَى مريضَه هُوَ الرَّسُول ﷺ، وهَذَا شَيْء مشاهَدٌ، فمِن المشاهَد أن الله تَعَالَى قد يَفتِن العبدَ، وإلا فنحن نعلمُ أن دعاء الرَّسُول لَيْسَ بنافعٍ، ونعلم عِلْم الْيَقينِ ويجب علينا أن نؤمِنَ بذلك؛ أن دعاء الرَّسُول لَيْسَ بنافعٍ، يَعْنِي: كونك تدعو الرَّسُول لِيَكْشِفَ عنك الضرَّ لا ينفع قطعًا، فإن قُدِّرَ أن أحدًا ابتُلِيَ بمثل هَذَا فنعلم أَنَّهُ بسببٍ آخرَ مقارِنٍ.

والَّذِينَ يُحَدِّثوننا أصحاب الخُرافات بمثل هَذَا، يَقُول القائل: ونحن متجهون إِلَى المَدينَة فِي السنة الماضية أقبلنا عَلَى الرَّسُولِ الحبيب ﷺ... نوافق عَلَى هَذَا، قَالَ: كاشف الغَمّ ومُبْرئ المرضى، قُلْنَا: لا نُوافِقُك عَلَى هَذَا، قَالَ: لماذا؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم، حديث رقم (٢٣١٦)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قُلْنَا: هَذَا لا يفعله إِلَّا الله، قَالَ: لا، يوجد واحد أُصيب بِبَطْنِه مَرَض بطنٍ -مُبْطُون- وَإِنَّهُ ذهب إِلَى جميعِ الأطبّاء فلم يُفِدْ، فقال: ما لي إِلَّا أن أتوجَّه إِلَى الحبيب، فتوجه إِلَى الحبيب، فلما بلغَ مشارفَ المَدينَة دعا: يا رسولَ اللهِ أنقِذني. يَقُول: فما دخلَ المَدينَةَ إِلَّا وقدْ بَرِئَ بطنه تمامًا.

هَذِهِ القصة أنا ما أقول: إنَّهَا كذِب، قد تكون صِدقًا، وقد تكون مما تناقله النَّاس وهي لا أصلَ لها، لكِن أقول: إن هَذَا منَ الفِتَنِ العظيمةِ الَّتِي قد يُبْتَلَى بها المَرْءُ، وقد تَقَدَّمَ الَّذِينَ اطَّيَّروا بصالحٍ، وقُلْنَا: إن اللهَ قد يُقَدِّر أَشْيَاءَ بأَسْبابٍ مقارنةٍ لشيءٍ فتُنْسَب إِلَى هَذَا الشَّيْءِ ظاهرًا وليستْ منه لَكِنَّها ابتلاءٌ، فهَذِهِ منْ الِابتلاء الَّذِي يَبتلي اللهُ به مَن يشاء من عِبادِهِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الَّذِينَ يدعون الرَّسُولَ قد يَستدِلّون بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [النِّسَاء:٦٤]، كيف الجواب عن هَذِهِ الآيَة؟

الجواب: الله تَعَالَى يَقُول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ ولم يقلْ: (إذا) ظَلَمُوا، فـ(إذ) هَذِهِ لما مَضَى، وهي تشير إِلَى قضيَّة معيَّنة، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، ولهَذَا قَالَ: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾.

والنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَعْد مَوْتِهِ لا يُمْكِن أنْ يَستغفرَ لأحدٍ، والحمد لله الآيَةُ لَيْسَ فيها دليلٌ، وهَذِهِ القصَّة لو فُرِضَ أن السند صحيح إِلَى هَذَا الرجلِ؛ فمَنْ هَذَا الرجلُ وما مدى أمانته وعدالته، فكلها كذِب موضوع، المهمّ أَنَّهُ لا أحدَ يجيب المضطرَّ إذا دعاه إِلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي قوله تَعَالَى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ هل نَقُول: هَذَا مقيَّد بما إذا دعاه، يَعْنِي: أنَّ الله جَلَّوَعَلَا لا يزيل الضَّرورَةَ إِلَّا عند الدعاءِ؟

الجواب: لا، لكِن لِأَنَّ الكَلامَ فِي الإجابةِ، ولا إجابة إِلَّا بعدَ دعاءٍ، ولهَذَا إزالةً للتوهُّم قَالَ: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ وهَذَا عامٌّ، أي: كشف السوء عامٌّ فيمَن دعا الله أنْ يكشِفَه ومَن لم يَدْعُهْ، فالله تَعَالَى يجيبُ المضطرَّ إذا دعاه، وَهُوَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَكشِف السوءَ، ولهَذَا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [عنه وعن غيرِهِ]، عنه: أي عنِ المضطرّ الَّذِي دعا، وعن غيرِه. ومعنى يَكشِف السُّوءَ: يُزِيله، مِن كَشَفَ الغطاءَ إذا أزال الحاجبَ.

وقوله: ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ يَشمل السوءَ الحِسِّيَّ والمعنويَّ، السوء الحسي ظاهر كالمرض والفقرِ وما أشبههما، والسوء المعنويّ كالجهلِ والخبثِ ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وهَذَا السوءُ أعظمُ منَ النوعِ الأوَّلِ أيضًا، وَهُوَ شاملٌ للأمرِ، والدَّلِيل عَلَى أن السوء المعنوي داخل فِيهِ قولُ الله تَعَالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، فالتكذيبُ مِن السوءِ، بل هُوَ أسوأُ السوءِ والعياذُ بالله، وكشفُ السوءِ شاملٌ لهَذَا وهَذَا، وإن كَانَ بعضُ النَّاس قد يتبادرُ إِلَى ذِهنه أن المُرادَ به السوء الحسيّ، ولكِن الأَمْر أعمّ من ذلك.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ الإضافة بمعنى (فِي)، أي يَخْلُفُ كُلّ قرنٍ القرنَ الَّذِي قَبْلَه]، أي: خلفاء فِي الْأَرْض. وتقدير المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ الإضافةَ بمعنى (في) صحيحٌ، يَدُلّ عليه قولُه تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام:١٦٥]، فقوله: ﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ يَعْنِي: يخلف بعضكم بعضًا، أو أن المَعْنى: ميراث الْأَرْض بفتحها بالإِسْلام؛ لِأَنَّهُ لا أحدَ يفعلُ ذلك إِلَّا الله، لكِن لمّا كَانَ هَذَا الخطاب عامًّا لجميعِ النَّاسِ لا يَستقيم

الوجهُ الثاني، أي: الَّذِينَ يَخْلُفُونها من بَعْد أهلها بفتحها بالإِسْلامِ، وهَذَا وإنْ كَانَ يدخل فِي ذلك كما قَالَ موسى لقومِه، ولكِن فِي هَذَا المقام لا يستقيمُ؛ لِأَنَّ الخطاب لعمومِ النَّاسِ، فخلفاء الْأَرْض يعني يخلُف بعضهم بعضًا، وهَذَا يتضمَّن أمرينِ؛ إحياء وإماتة، إحياء الخالقينَ وإماتة المخلوقينَ، والَّذِي يجعل هَذَا هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهَذِهِ الأفعال لا نستطيع أن نفعلها لا بالإحياءِ ولا بالإماتةِ.

وهنا تنبيهٌ؛ وَهُوَ أَنَّنا إذا قُلْنَا للحاكمِ: إنَّهُ خليفةُ اللهِ فغير هَذِهِ الآيَة وغير هَذِهِ المسألةِ، فالخليفةُ هنا يعني يَخْلُفُ بعضُهم بعضًا، لكِنْ إذا قُلْنَا: الإمام خَلِيفة الله فِي الْأَرْضِ فمعناه أَنَّهُ يُنَفِّذ أمرَ اللهِ تَعَالَى فِي أرضِهِ، فلكلِّ مَقام مقالٌ، فيَصِحُّ أنْ نَقُولَ للإمامِ: خليفةُ اللهِ فِي الْأَرْضِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص:٢٦]، يعني: عَنَّا.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ الإضافة بمعنى (في). والإضافة تأتي بمعنى (في) وتأتي بمعنى (اللام) وبمعنى (مِن) وأكثر ما تكون الإضافة بمعنى اللامِ، وتأتي الإضافةُ بمعنى (مِن) إذا كَانَ الأوَّل نوعًا منَ الثاني، مثل: (خاتَمُ حَديدٍ)، الحديدُ جِنسٌ وخاتَم نَوْعٌ، (ثوبُ خَزٍّ) يعني ثوبًا مِن خَزٍّ، وتأتي بمعنى (في) إذا كَانَ الثاني طرفًا للأوَّل؛ كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ:٣٣]، بل مكرٌ في الليلِ ومكرٌ فِي النَّهارِ، وهنا ﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ فالْأَرْض ظرف مكان أي: خلفاء فِي الْأَرْض، ومكر الليل ظرف زمان، وكل التَّقْديرات الَّتِي لا يَصِحُّ فيها تقدير (من) ولا (في) فهي بمعنى اللامِ، مثل: ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٠٧].

قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ الجواب: لا.

قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾: ﴿قَلِيلًا﴾ مَفْعُول مُطْلَق لـ(تَذَكَّرون)

المحذوفة، أي: تذكرون تذكرًا قليلًا. و(ما) مصدريّة، وإذا كانت مصدريَّة فما بعدها يُؤَوَّل بمصدرٍ، ويَكُون التَّقْدير: قليلًا تَذَكُّرُكُم، ولا يَصِحُّ أن تكونَ (ما) نافيةً؛ لِأَنَّهُ من المعروفِ أنَّ (ما) النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، وربما يفسد المَعْنى؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ المَعْنى: ما تذكرون قليلًا يَكُون تذكرهم كثيرًا، فلا يَصْلُحُ، وإن كَانَ قد يقال: إذا نُفِيَ تَذَكُّرُهُمُ القليلُ فالكثيرُ من باب أَولى، لكِن الأَصْل فِي الإعرابِ أن نجعلَ (تذكرون) فاعلًا لـ(قليلًا).

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَذَكَّرُونَ﴾ تَتَّعِظون، بالفوقانية والتحتانية]، الفوقانية: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، والتحتانية: «يَذَّكَّرُونَ» [وفيه إدغام التاء فِي الذال]، فيَكُون فِي الآيَةِ ثلاث قِراءاتٍ: «تَذَكَّرُونَ۝ تَذَّكَّرُونَ۝ يَذَّكَّرُونَ»[1]، والمُفَسِّر ما ذكر (تَذَكَّرُونَ) بالتخفيف.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [و(ما) زائدة لتقليل القليل]، يعني كأن المُفَسِّر يَقُول: (ما) زائدة، ويَكُون التَّقْدير: وقليلًا تذكرون، وهَذَا وجهٌ أيضًا فِي الإعرابِ، فالْوُجُوهُ ثلاثةٌ: الأَصْل أن تجعل (ما) نافيةً، وما ذكره المُفَسِّر وما ذكرناه متقاربانِ، أنْ تجعلَ: قليلًا تَذَكُّرُكُمْ أو قليلًا تذكرونَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يجيبُ دَعْوَةَ المضطرّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، وهَذَا دليلٌ عَلَى أن رحمة اللهِ سبقتْ غَضَبَهُ، وَأَنَّهُ من كمالِ رحمتِهِ إذا عَلِمَ بهَذَا المضطرّ أزالَ ضَرُورَتَهُ عَلَى أيِّ حالٍ.

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٣).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ لا فرقَ بين أن يَكُون المضطـرُّ مؤمنًا أو كافرًا، يُؤْخَذ من العمومِ وعدمِ التقييدِ؛ لِأَنَّهُ ما قُيِّدَ بأنه مسلم، بل أُطْلِقَ وعُمِّمَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ ينبغي إقامة الحُجَّة عَلَى الخَصْمِ بمـا يَعْتَرِف به؛ لِأَنَّ إجابةَ المضطرّ يُقِرّ بها هَؤُلَاءِ المكذِّبون؛ هم إذا رَكِبُوا فِي الفُلْكِ وأصابتهم الضرَّاءُ والأمواجُ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِيـنَ له الدينَ، فأجاب دعاءَهم، مَعَ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُم سَيُشْـرِكُون إذا خَرَجُوا، وأنَّ إيمانهم هَذَا إيمانُ ضرورةٍ فقطْ، فهم عندَ الضَّرورَةِ ما يَدْعُونَ إِلَّا الله، فإذا كنتم تَعرِفون أنكم لا تدعون إِلَّا اللهَ عند الضَّرورَةِ فكيف تعبدون غيرَه عند السَّعَة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إجابة الله دعاءهم فِي هَذِهِ الضَّـرورَةِ قد تجعل بعض النَّاس يُسْلِمون؟

فالجواب: قد يُسْلِمون وقد يكْفُرون، فالنعمة فِي الحقيقةِ امتحان، إمَّا بالخير أو بالشرّ، ولهَذَا بعض النَّاس إذا مَسَّهُمُ الضرُّ دَعَوُا الله، فإذا أُجيبوا بالرَّحْمَةِ إذا فريقٌ منهم بربهم يشركون.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: شمول رحمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكشفِ السوءِ، سواء دعا لذلك أمْ لم يَدْعُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ وكم من سوءٍ كَشَفَهُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن خلقِه بدعاءٍ وبغيرِ دعاءٍ، وبضرورةٍ وبغيرِ ضرورةٍ، ولا يكشفه إِلَّا الله.

وقد أوردنا فيما سبق أَنَّهُ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: هَذَا الطبيبُ يعالِجُ المريضَ فَيَبْرَأ فيَكُون كاشفًا للسوءِ؟

وأجبنا عن هَذَا: بأن هَذَا فعلٌ للسببِ، وَلَيْسَ كشفًا للسوءِ، بدليل أَنَّهُ قد

يُعالِجُه بما بَرَأ به غيرُه فِي نفسِ المرضِ ولا يَبْرَأ، فالكاشفُ للسُّوء هُوَ الله، وما للعبادِ إِلَّا فِعْل الأَسْبَاب فقطْ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيَان قُدْرَةِ الله ونعمته أيضًا بجعلِ هَذِهِ الخَليقةِ خَليفة يَخْلُفُ بعضها بعضًا، وإلا لانقطعتِ الخليقةُ وانقطعَ النسلُ، أو بَقِيَتِ الخليقةُ أزمنةً متطاوِلَةً وتعاقبتْ عليها الأحداثُ وتوالتْ عليها الأُمُور، وحينئذٍ يَكُون فيها سَأَمٌ ومَلَل، فلولا هَذِهِ الخلافةُ وأن بعضهم يَخْلُف بعضًا لَلَزِمَ أحدُ أمرينِ: إمَّا انقطاع الخليقة؛ لِأَنَّهَا لا تَسْتَمِرّ بدون أن يَخْلُفَ بعضُها بعضًا، وَإِمَّا أن تبقى الخليقة دائمًا وحينئذٍ يَكُونُ التعَبُ والسَّأَمُ والمَلَل، وقد جاء فِي ذلك قول الشاعر[1]:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ... ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسْأَمِ

وقال الشاعر الآخر[2]:

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلِّغْتُهَا ... قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانِ

ففي الحقيقةِ أن أطولَ الزمنِ فِي الْإِنْسَان يُضْعِفُه ويُلْحِقه السَّأَم والمَلَل، ثُمَّ هُوَ لا يزال يتذكر الأحداث الَّتِي تَتَعَاقَبُ وحينئذٍ يَضْجَر ولا يَكُون عنده قرارٌ نفسيّ ولا فكريّ، لذلك كَانَ من قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومن رحمته أيضًا أن جَعَلَنا خلفاءَ يَخْلُف بعضنا بعضًا، والجنُّ أيضًا يَخْلُفُ بعضُهم بعضًا؛ لِأَنَّ الجنَّ والإنسَ يموتون، فالآيَة عامَّة فِي هَؤُلَاءِ وهَؤُلَاءِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ كثيرًا منَ النَّاسِ لا يتذكَّر مَعَ وجود ما به التذكُّر؛ لِقَوْلِهِ:

---

(١) معلقة زهير بن أبي سلمى.

(٢) البيت لعوف بن محلم السعدي، الحماسة البصرية (١/ ١٨٨).

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ والتذكر بمعنى الاتِّعاظ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان يَذْكُر فينتفع بِذِكرِه فيقال: اذْكُر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الدعاء من أَسْبابِ رفعِ البلاءِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾، وهَذَا أمرٌ مجرَّب ومشاهَد، ولا سيما الأدعية الَّتِي جاءتْ بها السنَّة؛ فإنها خيرٌ وبركة ولها ثَمَرَةٌ ظاهرةٌ.

الْفَائِدَة الأُولَى: قُدْرَةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ قوله: ﴿يُجِيبُ﴾ يَشْمَل كُلَّ ما تَتَطَلَّبَهُ الضَّرورَةُ مِن قليلٍ أو كثيرٍ، فيَكُون فِي ذلك دليلٌ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَان أَنَّ رَحْمَةَ اللهِ تَعَالَى سَبَقَتْ غَضَبَهُ؛ لِأَنَّ قولَه: ﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾ يشمل الكافرَ والمؤمنَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن المضطرَّ مُجابُ الدَّعْوَةِ مُطلَقًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ ولم يقيِّده بالمؤمنِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن إجابة المضطرّ المتحتِّمة مشروطة بما إذا دعاه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، وَأَمَّا إذا لم يَدْعُهُ فقد يزيلُ ضَرورته وقد لا يُزيلها؛ لِأَنَّ المضطرَّ قد لا يَدْعُو الله تَعَالَى استغناءً بما عندَه من الأُمُور المادِّيَّة عن دعاءِ اللهِ تَعَالَى، فيَسْتَنْكف عن دعائه، وحينئذٍ لا تُكْشَف ضَرُورَتُه. فالمهمُّ أنَّ إجابةَ المضطرِّ هنا اشترطَ اللهُ تَعَالَى لها أنْ يَكُونَ المضطرُّ دَاعيًا، فقال: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: مِنَّةُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى عبادِهِ بِكَشْفِ السوءِ، أي: إزالته عن الْمُضْطَرِّ وغير المضطرِّ عن الجميعِ، ولهَذَا ما قَالَ: عن المضطرِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ فحذف المتعلّق، والقاعدةُ عند أهل العلمِ: أنّ حذفَ المتعلّق يفيد العمومَ،

فمعنى ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ عن كُلّ أحد.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ يَجِب عَلَى المرءِ أنْ لا يلتفتَ فِي كَشْفِ السوءِ إِلَّا إِلَى اللهِ؛ لِأَنَّهُ لا يَكْشِفُ السوءَ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فعلى هَذَا يَجِبُ عليكَ أنْ لا تُعَلِّقَ هَذَا الأَمْرَ إِلَّا بربِّك الَّذِي هُوَ قادرٌ عَلَى كشفِه، وتعلُّقُك بغيره خِذلانٌ لك، فـ«**مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**»(١).

ولكِن هَذَا الكَلام لا ينافي فعلَ الأَسْبَابِ؛ لِأَنَّ فاعلَ الأَسْبَاب إن كَانَ يَعتقد أنَّ السَّبَب وحدَهُ هُوَ الفاعل بذاتِه فَإِنَّهُ ينافي ما ذَكَرْنَا، وإن كَانَ يعتقد أن السَّبَب هُوَ الفاعل ولكِن بتقديرِ اللهِ فهَذَا من التعلُّقِ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِأَنَّهُ لا ينافي إذا توكَّلتَ عليه واعتمدتَ عليه أن تفعلَ منَ الأَسْبَاب ما جعله الله سببًا، فالْإِنْسَان يرجو منَ الله تَعَالَى دخولَ الجَنَّة والنجاةَ منَ النَّار، ومع هَذَا يفعلُ أَسْبابَه؛ يرجو من الله تَعَالَى الأولادَ ومع ذلك يَسعى بالأَسْبَاب.

فالمهمّ أنّ فعل السَّبَب إذا لم يَعْتَقِدِ الفاعلُ -فاعل السَّبَب- أن السَّبَب فاعلٌ بذاتِه فَإِنَّهُ لا ينافي التوكُّلَ ولا التعلُّقَ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا ينافي كمال التوكُّل أيضًا، ولهَذَا كَانَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -وهُوَ سيِّد المتوكِّلين- يَفْعَلُ من الأَسْبَاب ما يُدْفَع به السُّوءُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيَان مِنَّـة الله تَعَالَى بجعلِ النَّاسِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ خلفاءَ، يَخْلُفُ بعضُهم بعضًا. وقد ذكرنا فيما سبقَ الحِكْمَةَ من ذلك؛ وهي: أَنَّهُ إن لم يَخْلُفْ

---

(١) رواه النسائي، كتاب تحريم الدم، باب الحكم في السحرة، حديث رقم (٤٠٧٩)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ والترمذي، كتاب الطب، باب ما جاء في كراهية التعليق، حديث رقم (٢٠٧٢)؛ وأحمد (٤/ ٣١٠) (١٨٨٠٣)، عن عبد الله بن عكيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بعضهم بعضًا لَزِمَ أحدُ أمرينِ: إمَّا استمرار الخَلِيقة الأُولى، وحينئذٍ يَلْحَقُها المللُ والسآمةُ وعدم التجديد، وَإمَّا انقطاع الخَلِيقَة؛ لِأَنَّهُ لا يوجد أحدٌ يَخْلُفُها، فاللهُ تَعَالَى مِن مِنَّتِه أنْ جعلَ النَّاسَ خُلَفَاء.

الآن تجدون الرجلَ إذا طالتْ به الحياةُ لا يُمِلُّه أهلُ سُوقِهِ فقطْ، بل يُمِلُّه أقربُ النَّاسِ إليه، تجدهم يَقُولُونَ: الله يُريحنا بالعافيةِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، يدعون الله تَعَالَى بالراحةِ؛ لِأَنَّهُ يُقْلِقُهُمْ ويُؤْذِيهم. فهَذِهِ من نعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: كمال قدرة الله بجعلِ الخلفاءِ، فَهُوَ من رحمةِ اللهِ، وَهُوَ أيضًا من قُدرته؛ لِأَنَّ فِيهِ إحياء وإماتة، إماتة للأوَّلين وإحياء للآخِرين، وهَذَا من آيَات الله وقدرته. ولهَذَا احتجَّ إبراهيم عَلَى النمرود بِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فدلَّ هَذَا عَلَى أن الإحياءَ والإماتةَ من آيَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الدالَّة عَلَى قُدْرَتِه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّهُ مَهْمَا كَثُرَتِ القرائنُ والبراهينُ فإنَّ مِنَ النَّاسِ مَن لا يَتَّعِظ بها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، وإنَّ منَ المتَّعِظِين أيضًا مَن قد يَكُون اتِّعاظه قليلًا؛ لِأَنَّ قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ يَتَضَمَّن التذكُّر من واحد والتذكُّر من جماعة، فـ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ يعني أن الواحدَ مِنَّا قد يتذكَّر لكِن قليلًا إلَّا مَن عَصَمَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكذلك أيضًا الفئاتُ منَ النَّاسِ لا يتذكَّر منهم إلَّا القليل.

الآيــة (٦٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل:٦٣].

يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ ﴾ يُرْشِدُكُم إِلَى مَقَاصِدِكُم]، فالهداية هنا هداية دلالةٍ وتوفيقٍ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان قد يَكُون عارفًا وفاهمًا ولا يَهتدِي ولا يُوَفَّق، وَهُوَ كما يقولُ العوامُّ: (جِنّيّ)، وإذا كَانَ جِنيًّا صار لا يهتدي أبدًا، وَفِي الأسفارِ القديمةِ قبل أن تظهرَ الخطوطُ السودُ كَانَ النَّاس يَتِيهون، فإذا ساروا دارتْ رؤوسهم ولا يَستطيعون الوصولَ إِلَى مَقْصِدِهِمْ.

فبنو إسرائيل تاهوا فِي أَرْضِهِم أربعينَ سنةً، مَعَ أنَّ المسافةَ نِصف شهرٍ فأقلّ، وهم بَقُوا أربعينَ سنةً تائهينَ ما اهتدوا إِلَى السبيل.

فإِذَنْ: قَوْلُه: ﴿يَهْدِيكُمْ﴾ أي: يُرْشِدكم هدايةَ دلالةٍ وتوفيقٍ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بالنُّجُوم ليلًا وبعلاماتِ الْأَرْض نهارًا]، ولو قَالَ المُفَسِّر: وبالشَّمْسِ نهارًا لكانَ أيضًا أَولى؛ لِأَنَّ علامات الْأَرْض إذا كَانَ البحرُ واسعًا وطويلًا تختفي ولا تظهر ولا تُرى إِلَّا ماء.

فإِذَنْ: أستدِلُّ فِي النَّهار بالشَّمْس، وبعضهم أيضًا يَستدِلّ بالرياحِ، حَتَّى الفقهاء ذكروا أَنَّهُم استدلوا للقبلةِ بالرياحِ؛ لِأَنَّهُم قَالُوا: إن كُلّ ريح بإذن اللهِ لها خاصِّيَّة

معيَّنة، لكِن لا نعرفها نحن، يَعرفها الخُبَرَاءُ.

ثم نحن نعرفها بالبرودة والحرارة، فالشمال باردة، والجنوب حارّة، هَـذِهِ مَعْرِفة لَكِنَّها معرفة سطحيَّة، إِنَّما هم يَعْرِفونها بدِقَّة؛ بحَيْثُ إِنَّهُ إذا هَبَّتِ الريحُ قَالُوا: هَذِهِ شماليَّة أو جنوبيَّة أو شرقيَّة أو دَبُور، لكِن نَقُول: العلامات الظَّاهرة هِيَ الشَّمْسُ بكلِّ حالٍ، والقمرُ والنجومُ فِي الليلِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ قُدَّام المَطَر]، هَذَا تفسير لِقَوْلِهِ: ﴿بَيْنَ يَدَىْ﴾ والمطرُ تفسيرٌ للرحمةِ؛ لِأَنَّهُ من آثارِ رحمةِ اللهِ، فسُمِّيَ رَحمةً؛ لِأَنَّهُ من آثارها، وبه تَحْصُلُ الرَّحْمَةُ، فلا أحدَ يستطيعُ أن يرسلَ الرياحَ -سواء كانت رِيحًا عقيمةً أم رِيحَ بُشْرَى بين يدي رحمتِه- إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ بالجمعِ، والأكثرُ أنَّ الجمعَ يَكُون فِي رياحِ الرَّحْمَةِ، والإفرادَ فِي ريحِ العذابِ، إِلَّا إذا وُصِفَت الريحُ المُفْرَدَةُ بما يَدُلّ عَلَى أَنَّهَا ريحُ خَيرٍ؛ كما فِي قوله تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢].

ثم إن الرياحَ بالنِّسْبَة للفُلْك ليست من مصلحةِ أهله؛ لِأَنَّ الرياح إذا اختلفتْ عَلَى الفُلْك لا يمشي، لا سيما الفلك الأوّل؛ فإن الفُلك الأول يَمْشِي بالهواءِ؛ السُّفُن الشراعيَّة، فإذا اختلفتْ عليه الأهويةُ تَعَوَّق، ولكِن إذا كانت رِيحًا واحدةً صار ذلك أحسنَ، ولهَذَا قَالَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس:٢٢].

المهمُّ أن الرياحَ إِنَّمَا تقالُ فِي الغالبِ فِي رِياحِ الرَّحْمَةِ، وَفِي الإفراد فِي ريحِ العذابِ، فهَذَا الغالِبُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات:٤١]، وقال تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦]، وأمثال ذلك.

وقال العُلَمـاءُ: ومِنَ الحِكمة فِي هَذَا أنَّ الريحَ إذا كَانَ مَهَبُّها واحدًا صارتْ أصلبَ؛ إذ لا شَيْء يُقابِلُها منَ الرياح حَتَّى يَكْسِرَ حِدَّتَها، فلهَذَا كانتْ تأتي دائمًا فِي مَقامِ العذابِ.

قال تَعَالَى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ما الجوابُ؟ لا إلهَ معَه. وكلُّ هَذَا تقرير لأُلوهيَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الَّتِي يُنْكِرُها هَؤُلَاءِ المشرِكون.

قوله: ﴿تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: ﴿تَعَـٰلَى﴾ بمعنى: عَلَا بِتَنَـزُّهٍ؛ لِأَنَّ ﴿تَعَـٰلَى﴾ مُشَرَّبَةٌ معنى: تَرَفَّعَ عن هَذَا الشَّيْءِ مَعَ عُلُوِّهِ، فَهُوَ عالٍ بِتَنَزُّهِ عمَّا يشركون مِن هَذِهِ الأصنامِ الَّتِي يجعلونها مَعَ اللهِ شَريكًا فِي العِبادَةِ، أَمَّا فِي الرُّبُوبِيَّة فإنهم يُقِرُّون بأنَّ هَذِهِ الأصنامَ لَيْسَ لها أبدًا شأنٌ فِي الرُّبُوبِيَّة، ولكِنهم -والعياذ بالله- يعبدونها مَعَ اللهِ، ومنهم مَن يصرِّح بأنه يعبدها لِتُقَرِّبَهُ إِلَى اللهِ؛ كما قَالَ الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، فهم مُعْتَرِفون بأنَّ عبادتها ليستْ عبادةً مقصودةً لذاتِها؛ بل هِيَ مقصودةٌ لغيرِها لِتُوصِلَهُمْ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به غيرَه]، عامٌّ فِي كُلِّ شِرك، وعامٌّ فِي كُلِّ مُشْرَكٍ به، فالله تَعَالَى متعالٍ عن كُلِّ شركٍ وعن كُلِّ مشرِك به مهما عَظُم قَدْرُه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان نِعمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى الخَلْقِ بالهدايةِ فِي ظُلُماتِ البَرِّ والبحرِ والجوِّ؛ لِأَنَّهُ عَلَى قاعدة الفقهاءِ الهواء تابع لِلقَرارِ، إن كنت عَلَى البحرِ فَهُوَ منَ البحرِ، وإن كنت عَلَى البرّ فَهُوَ من ظُلُمات البرِّ، ففيه منة الله عَلَى عباده بالهداية فِي ظلمات البرّ والبحر، وهَذِهِ الهداية بعلاماتٍ وبإلهامٍ؛ بكلا الأَمْرينِ، فقد تكون بالعلاماتِ وَهُوَ الأكثرُ، وقد تكون بالإلهامِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ

قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص:٢٢]. وَكَانَ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يَعْرِفُ شيئًا، فهداه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذَا بعضُ العُلَماء يستعمل هَذِهِ الآيَةَ إذا ضاعَ فِي البرِّ أو فِي البلد إذا كَانَ يبحثُ عن بيتِ شخصٍ ولم يهتدِ إليه، فيتلو هَذِهِ الآية: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص:٢٢]، وَهُوَ دعاءٌ مناسبٌ.

إِذَنْ: مِنَّة الله عَلَى الهداية فِي ظُلمات البرّ والبحر، سواءً كَانَ ذلك بالأَسْبَاب المشاهَدة، أو كَانَ ذلك بالإلهامِ، فإنَّ الله تَعَالَى يَمُنُّ عَلَى العبادِ بهَذَا وبهَذَا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يَجِب عَلَى الْإِنْسَان أن يَعتمدَ عَلَى اللهِ فِي الهدايةِ إِلَى الطريقِ الحِسِّيِّ، كما يعتمد عليه فِي الهداية إِلَى الطريقِ المعنويِّ، فكما أنك تقول: (ربِّ اغفِرْ لي وارحمني واهدني) تريد الهداية المعنويَّة، كذلك أيضًا اعتمدْ عَلَى ربِّك فِي الهدايةِ الحِسِّيَّة. ولا تعتمد أيضًا عَلَى الأَسْبَابِ؛ لِأَنَّهُ كم من أُناسٍ أهل معرفةٍ وَجُودٍ بالدلائلِ ومع ذلك لا يَهتدونَ.

وقد حدَّثني رجلٌ أثِق به يَقُول: إِنَّهُ ذهب من عنيزة إِلَى بريدة فِي حاجةٍ قبل أن تظهرَ السيَّارات، حَيْثُ إن أحد التجار فِي عنيزة أعطاهُ كتابًا إِلَى أحدِ التجّار فِي بريدة، وقال له: احرِص عَلَى أن توصِلَه سريعًا، يَقُول: فصليتُ المغربَ خارجَ البلدِ بعنيزة، وذهبت من طريقٍ يسمى طريق الخلا مختَصَر، يَقُول: وصلتُ مَعَ أذانِ الأخيرِ، يعني ساعةً ورُبُعًا تقريبًا، وَهُوَ يسيرُ عَلَى رِجليه؛ لِأَنَّ بعض النَّاس جيِّد ويَرْكُض. يَقُول: وصليتُ فِي المَسْجِد؛ مسجد الساقية الَّذِي فِي بريدة، وانتظرتُه حَتَّى خرج وتبِعته، وقلتُ له: هَذَا خطٌّ من فلان. قَالَ: ادخلْ نَشْرَب القهوة، فقلت له: أريد أن أمشيَ. قَالَ: لا. فلزَّم عليَّ فدخلتُ، فجَعَلوا يصنعون القهوة، فقال: متى خرجتَ من عنيزة؟ قلتُ: خرجت مِنْهَا المغربَ. فقال أخوه: واللهِ أخي هَذَا أجودُ

من ناقتنا الفلانيّة. يَقُول الرجل: لم أجعلْ هَذِهِ الكلمة عَلَى بالي إطلاقًا. يَقُول: شربتُ القهوةَ وخرجتُ، وبمجرّد أن خرجتُ لم أهتدِ للطريقِ، وبدأت أبحث ولم أدرِ إلَّا وقد رجعتُ إِلَى الخلا إِلَى آخِرِ الليلِ، ولما تعِبتُ ومَلَلْتُ وجدتُ خِبَاءً وأهله عنده، فقلت لهم: أين الطريق؟ قَالُوا: بجوارِكَ، لَيْسَ بينك وبينه إِلَّا شَيْء يسير. المهم أَنَّهُ بقِيَ إِلَى طلوعِ الشَّمْسِ، ثُمَّ لما كَانَ النَّهارُ عاد بالليلِ، ولما جاء سقط مَريضًا. والكَلام عَلَى أن هَذَا الرجل يهتدي، ومع ذلك ضلَّ الطريق، فلا تقلْ: إني والله عارِفٌ، فهداية اللهِ للطريقِ هَذِهِ من نعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى العبادِ، سواء فِي البرّ أو فِي البحر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان آيَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي هَـذِهِ الرياحِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَذِهِ الرياح مُسَخَّرةٌ مدبَّرة، وليست هِيَ الَّتِي تَهُبُّ بطبيعتها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الشَّيْء الواحد قد يَكُون خيرًا وقد يَكُون شرًّا، بِحَسَبِ آثارِه ونتائجه، فالرياحُ هنا يَقُول: ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ وَعَلَى عادٍ ونحوِهِم عذابٌ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات:٤١]، والكلُّ مِن فِعْلِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، هنا ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ [النمل:٦٣]، وهناك ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ [الذاريات:٤١]، فالكلُّ من فِعْلِه.

وحينئذٍ يَرِدُ علينا إشكالٌ: هل الله تَعَالَى يفعل السُّوءَ؟

السوءُ فِي المَفْعُول، وَأَمَّا بالنِّسْبَة لفعلِ اللهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بسوءٍ؛ لِأَنَّهُ صادرٌ عن حكمةٍ، وقد تقدَّم فِي أوَّل الآيَات أن انتقامَ اللهِ تَعَالَى من المجرمينَ هُوَ نعمةٌ وكمالٌ يُحْمَد عليه، لمّا ذكر عقوبةَ قوم لوطٍ، قال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل:٥٩].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن المطر من رحمة اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إطلاق الصِّفة عَلَى آثارها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾، فالمطر لَيْسَ رحمة الله ولكِنّه آثارٌ من آثارِ الرَّحْمَةِ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُطْلِق الرَّحْمَةَ عَلَى ما كَانَ من آثارها، قَالَ الله تَعَالَى للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»(١).

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الرياحَ سببٌ لنزولِ الأمطارِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾، وقال تَعَالَى فِي آيَةٍ أخرى صريحة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم:٤٨]، هَذَا دليل واضح عَلَى أن الرياحَ هِيَ الَّتِي تُثير السحابَ بإذنِ اللهِ تَعَالَى.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بَيَان تَنَزُّهِ اللهِ تَعَالَى عن كُلّ ما يُشْرَك به، وَأَنَّهُ أعلى وأعظمُ من كُلِّ ما يُشرَك به؛ لِقَوْلِهِ: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أَنَّهُ لا أحدَ يستطيع أن يفعلَ هَذِهِ الأفعالَ، وهي الهدايةُ ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ وإرسال ﴿ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ ولهذا قَالَ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يفعل ذلك؟ الجواب: لا.

وهل تَشمَل الهداية ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ الهدايةَ بالأَسْبَاب الَّتِي تَوَصَّلَ النَّاسُ إليها اليومَ؟

نعم تشمل؛ لِأَنَّ الله أطلق الهدايةَ، فبأيِّ سببٍ كانت فهي من الله.

• • ❁ • •

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، حديث رقم (٤٥٦٩)؛ ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، وأهلها، حديث رقم (٢٨٤٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٦٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل:٦٤].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ فِي الأرحامِ مِن نُطفةٍ ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بَعْد الموتِ، وإنْ لم تَعْتَرِفُوا بالإعادة؛ لقيامِ البراهينِ عليها]

قوله: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟﴾ مثلما قُلْنَا فيما سبق: إن أصلها: (أم من)، لَكِنَّها أُدغمت اتِّباعًا للرسمِ العُثمانيّ، ومن فوائد قَرْنِها ألَّا تتصادمَ مَعَ القراءةِ الأُخْرَى وهي (أَمَنْ يَبْدَؤُا).

وقوله: ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَصَّرَ فِي التفسيرِ حَيْثُ قَالَ: [في الأرحامِ مِن نُطفة]، والصَّواب أَنَّهُ أعمُّ من ذلك، فيبدأ الخلقَ فِي الأرحامِ مِن نُطفة هَذَا فردٌ من أفرادِه، وإلّا فقد بدأ خلق الْإِنْسَان من طِينٍ، ثُمَّ جعل نسلَه من سُلالة من ماءٍ مَهِين. أيضًا فإن بعض الأَشْيَاء تَتَوَلَّد ولا تَتَوَالَد ولَيْسَ لها أرحامٌ تكون فيها، وإنما تتولد مما تتولد منه بدون أن يوجدَ لها أرحامٌ، فالصَّواب فِي هَذَا أن يُقَال بالعموم: ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ أي: يُوجِده ابتداءً فِي الأرحامِ وغيرِ الأرحام، لا أحد يستطيع أن يفعلَ ذلك، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣]، فلو يجتمعون كلهم -الَّذِينَ

يدعون من دونِ اللهِ- لِيَخْلُقُوا ذُبابًا ما استطاعوا. وأبلغُ من هَذَا ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ هذا الذبابُ الضعيف إذا سلبهم شيئًا فلا يستطيعون أنْ يَرُدُّوه ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

إِذَنِ: الَّذِي ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ هُوَ الله، وَالَّذِي يعيده هُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وإن لم تَعترِفوا بالإعادةِ؛ لقِيام البراهين عليها]، لا حاجة لتقديره؛ لِأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لمّا ذكر بدء الخلقِ فإن إعادة الخلق بالفطرة والعقل أهونُ من ابتدائِهِ، فَهُوَ إذا تقرَّر أَنَّهُ يبدأ الخلق فَإِنَّهُ من المعلومِ أنه يُعيده؛ بل إعادته أهون، فعلى هَذَا يَكُون الله تَعَالَى قد قَرَّرَ أُلوهِيَّته بهَذَا الفِعْل العظيمِ؛ وَهُوَ بَدْءُ الخَلْقِ وإعادته.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ -أي من جهةِ السَّمَاءِ- بالمطرِ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بالنباتِ]، فالرزقُ الَّذِي يأتي من السماءِ هو المطرُ، والذي يأتي منَ الْأَرْض هُوَ النبات؛ هَذَا ما قَالَهُ المُفَسِّر.

ويجوز أن نَقُولَ: إنَّ قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من العُلُوّ، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مِنَ النزولِ، ويَكُون هَذَا كقولِهِ تَعَالَى: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦]، ويَكُون المُراد بالسَّمَاء ما كَانَ من الأشجارِ الرفيعةِ العاليةِ، وبالْأَرْضِ مثل: الزروع والأشجار الممتدَّة عَلَى الْأَرْض الَّتِي لَيْسَ لها ساقٌ. أو نَقُول: إن الآيَة أعمُّ من هَذَا فتشمل المطر؛ لِأَنَّهُ من السَّمَاء، وتشمل ما أَشَرْنَا إليه مِنَ الثَّمَرات منَ الأشجارِ العاليةِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ إليها هَؤُلَاءِ، فتكون فِي السَّمَاء وتكون فِي الْأَرْض.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ الجوابُ: لا يَفعل شيئًا مما ذُكِرَ إِلَّا اللهُ، ولا إله معه.

وهَذِهِ الآيَة جمعَ اللهُ فيها بين بدء الخلق والرزق؛ لِأَنَّ المخلوقات تَحتاجُ إِلَى

إمدادٍ وتحتاج إِلَى إعدادٍ، فالإعداد بابتداءِ الخلقِ؛ لأن الله إذا ابتدأ الخلقَ أعدَّ الْإِنْسَان بكلِّ ما هُوَ لازِمٌ له، والإمداد بالرزقِ مِنَ السَّمَاء والْأَرْض.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ حُجَّتكُم ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾]

﴿هَاتُوا۟﴾ هَذِهِ هل هِيَ فعلُ أمرٍ أو اسمُ فِعل أمر؟

هي فِعْلُ أمرٍ؛ والنَّحْوِيُّون مُختلِفون، لكِن الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهَا فِعلُ أمرٍ؛ لِأَنَّ الَّذِي تَلْحَقُه العلامةُ يَكُون فعلَ أمرٍ، وَالَّذِي يبقى عَلَى حالٍ واحدةٍ يَكُون اسمَ فعلِ أمرٍ. فأنت تخاطب واحدا فتقول: صَهْ، وتخاطب اثنينِ فتقول: صَهْ، وتخاطب جماعة فتقول: صَهْ.

إِذَنْ: هِيَ اسمُ فعلِ أمرٍ، لكِن (هات) تُخاطِب واحدًا فتقول: هاتِ، وتخاطب أُنثى فتقول: هاتي، وتخاطب جماعةً فتقول: هاتوا، وتخاطب نساءً فتقول: هاتِينَ. إذن فهي فِعْلُ أمرٍ.

ومعنى ﴿هَاتُوا۟﴾ يعني أَحْضِروا، و(البُرهانُ) هُوَ الدَّلِيلُ، وخَصَّه بعضهم بالدَّلِيل القاطعِ، وقَالُوا: إن الدَّلِيل إن كَانَ قطعيًّا فِي دلالته فَهُوَ برهانٌ، وإن كَانَ ظَنِّيًّا فَهُوَ دليل وَلَيْسَ ببرهانٍ، ولكِن الظَّاهر من الآيَاتِ الكَرِيمَةِ أن البرهانَ فِي الْقُرْآنِ دليلٌ؛ سواء كَانَ قطعيًّا كما قَالَ أهل المنطِق أم غيرَ قطعيٍّ، فعلى هَذَا يَكُون قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ شاملًا للقطعيّ والظّنِّيِّ؛ لِأَنَّهُم لَيْسَ عندهم لا دليل قطعيّ ولا ظنّيّ.

قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ الأَمْر فِي قوله: ﴿هَاتُوا۟﴾ المُراد به التحدِّي.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ حُجَّتكُم ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أنَّ مَعِيَ إلهًا فعلَ شيئًا مِمَّا ذُكِرَ].

والجواب: أَنَّهُ لا يمكِن أنْ يأتوا ببرهانٍ، وجواب (إنِ) الشرطيَّة محذوفٌ، دلَّ عليه ما قبله عَلَى رأيِ كثيرٍ من النحْويين، والصَّحيحُ أَنَّهُ فِي مثلِ هَذَا لا يُحتاج إِلَى جوابٍ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وسَأَلُوه عن وقتِ قيامِ الساعةِ فنزَلَ ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ﴾]، ما ادَّعاه المُفَسِّر من أنَّ الآيَةَ لها سببٌ لا صِحَّة له، ولكِنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ انتقلَ من ذِكر الخلق إِلَى ذكر ما يَلْزَمُ للخلقِ وَهُوَ العلمُ، فإن الخلقَ لَا بُدَّ أنْ يَتَقَدَّمَهُ علمٌ؛ إذ لا يتمُّ الخلقُ إِلَّا بعلمٍ وقُدرةٍ، فمَن لا عِلْمَ له لا يَخْلُق، ومن لا قُدْرَة له لا يَخْلُق، فالآية فيها انتقال من معنًى إِلَى معنًى، وَلَيْسَ لها سببٌ كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان قُدْرَةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي بَدْءِ الخلقِ وإعادتِهِ، ولا أحدَ يستطيعُ بَدْءَ الخلق وإعادته أبدًا إِلَّا الله، وَالَّذِي قَالَ لإبراهيمَ ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، جوابهُ أنَّ هَذَا يفعلُ السَّبَب، وَأَمَّا أن يُحْيِيَ فيجعل الحياة فِي ميّت فلا يستطيع، أو يميت فيُخرِج النفس من البدنِ فلا يستطيع، ومع ذلك ما اقتنع؛ فعَدَلَ إبراهيمُ إِلَى أمرٍ لا يمكن أن يجادلَ فيه، ومن المعروفِ أن فِي باب المناظراتِ يُلجأ إِلَى الأظهرِ فالأظهر.

إِذَنْ: قوله تَعَالَى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ واضح أَنَّهَا مختصَّة باللهِ وَأَنَّهُ لا أحد يستطيعه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَان أن الرزقَ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

فإن قيل: أليس الله تَعَالَى يَقُول: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النِّسَاء:٨]، ويقول تَعَالَى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ [النِّسَاء:٥].

إِذَنْ نَقُول: كيف أنَّ الرزقَ منَ اللهِ ولا أحد يرزق إِلَّا الله؟!

قلنا: ربَّما نَقُول: إنَّ الرزقَ العامّ غير الخاصّ، لكِن حَتَّى الخاص لَيْسَ رزقًا مستقِلًّا، إِنَّمَا هُوَ بالسَّبَب، ولهَذَا الجواب الذي لا يَخْرُجُ عنه شيءٌ أنْ نَقُولَ: إن إضافةَ الرِّزق إلى المخلوقِ من بابِ إضافةِ الشَّيْء إلى سببِهِ، ولهذا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ [الحجر:٢٠]، فيكُون هنا إضافة الرزقِ إِلَى العبدِ من بابِ إضافةِ السَّبَب إِلَى مُسَبِّبه.

فهَذِهِ المخلوقات نحن لا نرزقها، والَّذِي يرزقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:٦٠]، فهل أنتَ الَّذِي يرزقُ الذرَّ والطيرَ والوحوشَ والسِّباع؟! أبدًا، ما يَرْزُقُها إِلَّا خالِقُها.

كذلك أيضًا أنتَ لا ترزق نفسَكَ، حَتَّى نفسك لا ترزقها، ولهَذَا تجد أَشطرَ النَّاس وأجودهم فِي البيعِ والشراءِ وأذكاهم وأشدَّهم مكرًا وحيلةً تجده أحيانًا من أفقرِ النَّاسِ، وتجد الْإِنْسَان الأبلَهَ الَّذِي لا يُحْسِن أيَّ شيءٍ يَكُون عنده أموالٌ عظيمةٌ، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُعطِي فضلَه مَن يشاء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الرزق منَ السَّماء بالمطرِ ومنَ الْأَرْضِ بالنباتِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أو السَّماء ما عَلَا من الأشجار، والْأَرْض ما نزل

من الزروعِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ لا يقدِر عَلَى ذلك إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تحدِّي المُناظِرِ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ لا بأسَ للإِنْسَانِ أنْ يَتَدَرَّجَ مَعَ خَصْمِهِ، وأنْ يَتَحَدَّاهُ بما يُقِرّ به، وهَذَا غاية الإنصافِ أن تقولَ لِخَصْمِك: هاتِ الدَّلِيلَ؛ لِأَنَّ هناك حالًا أُخرى ليست إنصافًا؛ وهي أن تقولَ لخصمك: لا أقبلُ منك أبدًا، فأنت إذا قلتَ للخصمِ: هاتِ الدَّلِيلَ إن كنت صادقًا فقد أنصفتَه وتحدَّيْتَه أيضًا، وحينئذٍ يَظهَر عَجْزُه، لكِن لو قلتَ: لو أتيتَ بأيِّ دليلٍ ما قَبِلْتُ؛ فمعناه أنك جعلتَ العلوَّ له، والْآنَ هُوَ ينتصر عليك وأنت تَنْخَذِل أمامَه، مَعَ أنك الْآنَ فِي هَذَا الوصفِ تكون مستكبِرًا.

لكِن لو فُرض أَنَّهُ ظهر عنادُ هَذَا الرجلِ وَأَنَّهُ إِنْسَانٌ يماري ولا يقصد الحقَّ، هل لك أن تقولَ: أنا لا أقبلُ منك، يعني مثلًا افرِض أنك استدللتَ عليه بآيَةٍ من الْقُرْآنِ أو بنصٍّ صريحٍ من السنَّة وصحيح، ثُمَّ جعل يُجادِلُك فِي هَذَا الأَمْرِ، لو قَالَ مثلًا: الربا حلال ومصلحة عظيمة يَنتعِش به الاقتصاد والنَّاس يتحرَّكون، فما الَّذِي يُحَرِّمه؟ تقول له: حَرَّمَهُ قوله تَعَالَى: ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة:٢٧٥].

قال: هَذَا الربا الَّذِي فِي الجاهليَّة؛ إذا حلَّ الأجلُ عَلَى الدَّين عَلَى الفقير وَهُوَ فقير قَالَ: نَزيد فِي الأَجَل ونزيد فِي الرِّبا، وَأَمَّا ربا البنوك ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فهَذَا برضا من الطرفينِ وَلَيْسَ فِيهِ ظُلْمٌ، وَهُوَ انتعاش للاقتصادِ ومصلحةٌ للبلادِ وتنميةٌ للمال، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فهَذَا يَصْلُحُ أن أقول له: لا أقبلُ منك مهما جئتَ به؛ لِأَنَّهُ مجادِلٌ لا يريد الحقَّ، فالشَّيْء الذي فِيهِ نصٌّ صريح واضح المجادلةُ فِيهِ غيرُ مقبولةٍ.

ولهَذَا لما قَالَ أبو سفيان فِي أُحُد: هل فيكم مُحَمَّدٌ، وفيكم ابنُ أبي قُحَافَة، هل فيكم ابنُ الخَطَّاب؟ قَالَ الرَّسُول ﷺ: «لَا تُجِيبُوهُ»؛ إهانةً له، لكِن لَمَّا قَالَ: اعْلُ هُبَل، وصار يُجادِل بالباطلِ لِيُعْلِيَه عَلَى الحَقّ وصار هَذَا فِيهِ تشبيهٌ -لِأَنَّ الشُّبْهَة قائمة فِي هَذَا المكان، فوجه قيام الشبهة أن الانتصارَ كَانَ لهم، فمَن سمِع هَذَا الكَلام قَالَ: صحيح هُبَل الْآنَ اعتلى- فَكَانَ من المناسِبِ هنا أن تُزال هَذِهِ الشبهة فيقال: «اللهُ أَعْلَى وَأَجَلّ»[1].

أَمَّا قوله الأوّل فرأى النَّبِيّ ﷺ أن مِنَ المصلحةِ أنْ يُهْجَرَ وأن لا يجابَ، وأيضًا أجابه عمر لما قَالَ: «أمَّا هَؤُلَاءِ فقد كُفِيتُمُوهُمْ»[2]؛ لِأَنَّهُ الْآنَ صارتِ الشُّبهة لِأَنَّهُم إذا لم يتكلموا وقد قَالَ: «أما هَؤُلَاءِ فقد كُفيتموهم»، فتقوم الشبهة أمامَ النَّاسِ ويَقُولُونَ: صحيحٌ، لو هم أحياء لأجابوا، فحينئذٍ صار الجوابُ له مَحَلّ، وَفِي الحقيقة ليست هَذِهِ المسألة شَبيهةً بمسألتنا، وكنتُ أظنُّ أَنَّهَا شَبيهة بها.

إِذَنْ: فِي الآيَة دليلٌ عَلَى أَنَّهُ فِي مقامِ المناظرةِ يَنبغي للإِنْسَانِ أنْ يُطالِبَ الخَصْمَ بالدَّلِيل؛ لِأَنَّ فِي ذلك فائدتينِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: إظهار العدلِ والإنصافِ: هاتِ دليلًا نَتَّبِعك، فهَذَا عدلٌ وإنصاف.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه، حديث رقم (٢٨٧٤)، عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب السير، باب التعبئة، حديث رقم (٨٦٣٥)؛ وأحمد (٤/ ٢٩٣) (١٨٦١٦)، عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: مَنْع استنصار الخصمِ؛ لِأَنَّ الخصمَ إذا ما طُلب منه الدَّلِيل وقلتَ: أبدًا لا نَقْبَل منك سواءً أتيتَ بدليلٍ أو لا لم تأتِ بدليلٍ، فحينئذٍ يَستنصِر ويقول: الْآنَ غلبتُه.

وأما المعانِد ففيه تفصيلٌ؛ فإذا كَانَ ذلك من إهانتِه وعدمِ تأثيرِ شُبهته، فالأَولى تركُ الردّ، وَأَمَّا إذا كَانَ ذلك سببًا لاستنصارِهِ أو سببًا لقوّة تشبيهه فيجب أن يُرَدَّ عليه، فلكلِّ مقام مقالٌ، وإذا عاند فإذا كَانَ لك قوَّة فأَمْسَكْتَه بالحديد والنَّار، وإن لم يكنْ لك قوة فلِلْبَيْتِ رَبٌّ يَحْمِيهِ.

ولْيُعْلَمْ أن المِراءَ الَّذِي هُوَ لمجرَّد المغالبة مَنْهِيٌّ عنه، وَأَمَّا الجدالُ فقد أمر الله به؛ فالجدالُ لإثباتِ الحَقّ وإبطال الباطلِ مأمورٌ به وجوبًا أو استحبابًا حسَب الحالِ، فالمُرادُ المِراء الَّذِي هُوَ لمجرَّد المعاندةِ؛ لِأَنَّ بعض النَّاس الآنَ تجده فِي المجلِسِ يختلف مَعَ آخرَ فِي مسألةٍ من المسائلِ ليست مسألة دينيَّة يَجِب تحقيقها، بل مسألة عامَّة، وتجدهم يتعاندون: أنا أقول كذا وأنت تقول كذا، أنا عليَّ حق وأنت عليك حق، فهَذَا لَيْسَ له داعٍ؛ لِأَنَّ هَذَا لا يزيد الأَمْر إِلَّا شدَّةً، وربما يتحزَّب الحاضرون إِلَى حزبينِ، وربما يحدث فِي قلبِ أحدهما عَلَى الآخرِ حِقد وعداوة، فلهَذَا كَانَ من الأحسنِ تركُه.

وأما قوله فِي الحديث: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي الجَنَّة لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا»[1]، فليس المُرادُ حقًّا شرعيًّا، مثلًا: أنا أقول لك: فلان وصل إِلَى هَذا البلدِ، وأنت تقول: ما وصل، فالحَقّ مَعَ الصادقِ، هَذَا هُوَ المحِقّ، وَلَيْسَ المَعْنى الحَقّ الَّذِي هُوَ ضدّ الباطلِ الَّذِي هُوَ الشرعُ.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب حسن الخلق، حديث رقم (٤٨٠٠) عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ لَيْسَ عندهم بُرهان؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ ثمّة برهان لم يكن للتحدي فائدة إطلاقًا، وبهَذَا نَنتقِل إِلَى آيَةٍ أخرى؛ وهي قوله تَعَالَى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣]، فقد أعلى بعضُ النَّاس صوتَه بهَذِهِ الآيَة حينما قَالُوا: إن الْكُفَّار وصلوا إِلَى القمرِ، وقال: هَذِهِ الآيَة دليلٌ صريح صحيحٌ واضحٌ ظاهر عَلَى أَنَّهُ يمكن الوصول إِلَى القمر؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾ والسلطانُ: العلمُ، هَكَذَا قال.

فيقال له: يا غبيُّ، مَن قَالَ لكَ: إن السلطانَ العلمُ، فالسلطان ما به السُّلْطَة، وَهُوَ فِي كُلّ موضعٍ بحِسَبِهِ، فإذا كنتَ تجادل فِي مسألةٍ علميةٍ فالسلطان العلم، وإذا كنت تريد أن تقطع يد لِصٍّ فالسلطان القدرة عَلَى تنفيذِ قطعِ يدِه وَلَيْسَ العلم، وإذا كنتَ تريد أن تصعدَ مكانًا مرتفعًا فالسلطان الْقُوَّة، فالسلطان فِي كُلّ مكان هُوَ عبارة عن السلطة عَلَى الشَّيْءِ. فالآن قوله تَعَالَى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣]، ما معنى السلطان؟ الْقُوَّة والقدرة، ولهَذَا قَالَ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن:٣٥]، فهل هَؤُلَاءِ أُرسل عليهم شُواظٌ من نار ونُحاس؟! والآيَة ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جميعًا، فهل هَؤُلَاءِ نفذوا من أقطار السَّماوَات والْأَرْض؟! هَبْ أَنَّهُم نفذوا من أقطار الْأَرْض لكِن ما نفذوا من أقطار السَّماوَات.

ثُمَّ إنَّ الآيَة لو كانتْ دالَّة عَلَى ذلك لكان هَذَا التحدي لا معنى له إذا كانوا يستطيعون، لماذا يقال: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، فالشَّيْءُ المستطاعُ ما يُعْرَض بِمَعْرِض التحدِّي.

ثُمَّ إن الآيَةَ مَسُوقةٌ بين ابتداءِ الخلقِ ثُمَّ الموت ثُمَّ المَوْقِف ثُمَّ الجزاء، وهَذَا يقال لهم فِي الموقف، ذَكَرَ الله ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن:١٤]، ثُمَّ قَالَ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦]، ثُمَّ قَالَ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [الرحمن:٣٣]، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن:٣٧]، إِلَى آخره، فذكر جزاء الظالمين وجزاء المُؤْمِنِينَ.

فالحاصل: إنَّ التحديَ فِي مَقام الإمكانِ غير مقبولٍ، ولا يمكن أن يقعَ فِي كلامِ الله ولا فِي كلامِ أيِّ واحدٍ مِنَ البَشَرِ، كيف تتحدى بما يُستطاع؟!

• • ❁ • •

الآيــة (٦٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ من الملائكة]، الَّتِي فِي السَّماوَات [والنَّاسِ]، الَّذِينَ فِي الْأَرْض، وكذلك الجن ﴿ٱلۡغَيۡبَ﴾ مَفْعُول (يَعْلَم)، و(مَن) فاعل (يَعْلَم)، و(الغيبَ) مَفْعُول، [أي: ما غاب عنهم]، فيَكُون الغيب عَلَى تقدير المُفَسِّر مصدرًا بمعنى اسْم الفاعلِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: [أي ما غاب]، و(غابَ) فِعل ماضٍ له فاعلٌ. والمصدر يأتي بمعنى اسمِ الفاعلِ كما تقول: رجلٌ عَدْلٌ بمعنى عادل، وله أمثلة، كما أن المصدر يأتي بمعنى اسمِ المَفْعُول كثيرًا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا﴾ لكِن ﴿ٱللَّهُ﴾ يَعْلَمُه]، جعل (إلا) بمعنى (لكِن) فيَكُون الاستثناءُ منقطِعًا عَلَى رأيِهِ.

ثُمَّ قدَّر المُفَسِّر (يَعْلَمُه) ليَكُونَ إعرابُ ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأً و(يعلمه) خبره، وهَذِهِ الآية تحتاج إِلَى مناقشةٍ:

أولًا: لماذا عَدَلَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الاستثناءِ المتَّصل إِلَى الاستثناء المنقطِع؟

لِأَنَّهُ يَرَى أن الله تَعَالَى لا مكانَ له، فقوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هَذِهِ متعلقة بمحذوف تقديره: (استقرّ)، كما هُوَ معروف أن صلة الموصول تُقَدَّر

بـ (استقرّ) أو (كَانَ) أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. فيقول المُفَسِّر: إذا قلتَ: مَنِ استقرَّ فِي السَّماوَات أو مَن كَانَ فِي السَّماوَات والْأَرْض الغيبَ إِلَّا الله؛ لَزِمَ أن يَكُون الله تَعَالَى فِي السَّماوَات، فيَكُون له مكان، وهَذَا عِنْدَهم مُمْتَنِع، أي: عند المُفَسِّر ومن كَانَ عَلَى عَقِيدَتِهِ، هَذِهِ واحدةٌ.

ثانيًا: نَقُول له: إذا كَانَ الاستثناءُ مُنْقَطِعًا، فالمعروف أن الاستثناءَ المنقطِع إذا سُبِقَ بتامٍّ منفيٍّ يَجِب فِيهِ النصبُ، كما قَالَ ابن مالك فِي الألفيَّةِ[1]:

...وَانْصِبْ مَا انْقَطَعْ وَعَنْ تَمِيمٍ فِيهِ إِبْدَالٌ وَقَعْ

فالمشهورُ عندَ العرب أَنَّهُ إذا كَانَ الاستثناءُ منقطعًا وجبَ فِيهِ النصبُ، وهنا لَيْسَ منصوبًا، فقال: نحن نجعلُ الجملةَ لا دخلَ لها بالاستثناءِ، ونجعل ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ والخبر محذوف؛ لأجل أن لا نخالفَ المشهورَ من كلامِ العربِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآن بلسانِ قريشٍ وَلَيْسَ بلسانِ بني تميمٍ.

بعض العُلَماء يَقُول: نحن نتخلَّص ممّا فرّ منه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مَعَ عدمِ إثباتنا المكان لله بأن نَقُول: لا يعلم مَن يُذْكَر فِي السَّماوَات والْأَرْض الغيبَ إِلَّا الله، لا نَقُول: ما استقرّ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى مذكور فِي السَّماوَات وَفِي الْأَرْضِ، وحينَئذٍ يزول الإشكال الَّذِي من أجلِه قَطَعَ المُفَسِّر الاستثناءَ.

والخلاصة: أن الاستثناء هنا متَّصل، وأن الله تَعَالَى له مكان، وأن مكانه فِي السَّمَاء، وقد سأل النَّبِيّ ﷺ الجاريةَ فقال لها: «أَيْنَ اللهُ؟» فَقَالَتْ: فِي السَّمَاءِ[2]،

---

(١) ألفية ابن مالك - الاستثناء (ص:٣١).

(٢) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كَانَ من إباحة، حديث رقم (٥٣٧)، عن معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأشار النَّبِيّ ﷺ إِلَى السَّمَاء حينما أشهدَ ربَّه عَلَى إقرار أُمَّتِهِ بإبلاغ رسالتِه، فقال وَهُوَ يخطب فِي عَرَفَةَ: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» قَالُوا: نَعَمْ. فَقَالَ مُشِيرًا إِلَى السَّمَاءِ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»(١).

فهَذَا دليل عَلَى أن الله فِي السَّمَاء، ويَكُون الاستثناء في قولِه: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ متصلًا، ويَكُون ﴿ٱللَّهُ﴾ بدلًا من (مَنْ) كما إذا قلتَ: ما قام القوم إِلَّا زيدٌ، فإن الاتباعَ أَولى هنا، وإن كَانَ يجوز النصبُ، فعليه نَقُول: الاستثناء متصل وَلَيْسَ فِيهِ إشكال عَلَى عقيدةِ أهل السنَّة والجماعة، وهَذَا هُوَ الصَّحيحُ ولا إشكال فيه.

ومثل هَذَا قوله تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:٣]، يعني فِي مجموعها، وإن كَانَ هُوَ في السماءِ؛ لأنّ قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ ظرف لمجموع الاثنينِ، فَهُوَ يقين أَنَّهُ لا يخرج عنْ الِاثنينِ، لَكِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي واحدٍ منهما، بدليلِ العقلِ والنقلِ، كما تقول: فلان أميرٌ فِي مكَّةَ والمَدينَةِ، وإن كَانَ فِي واحدةٍ منهما، فالمَعْنى أن إمارتَه ثابتةٌ فِي مجموعِهما، وَلَيْسَ المَعْنى أَنَّهُ فِي كلا المكانينِ فِي هَذَا وَفِي هَذَا، فلا يُمْكِن أن يَكُون فِي المَدينَةِ وَفِي مكَّة، بالنِّسْبَةِ لهَذَا الأميرِ، فهنا الألوهية ثابتةٌ فِي السَّماوَات وَفِي الْأَرْض، وإن كَانَ جَلَّ وَعَلَا فِي السَّمَاءِ، بل فوق السَّمَاء، وَلَيْسَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا فِي السَّمَاء السابعةِ، فهُوَ فوقَها عَلَى العَرْش، وبينَ العَرْش وبينَ السَّمَاءِ مسافات اللهُ أَعْلَمُ بها، فالمَعْنى (فِي السَّمَاء) أي فِي هَذِهِ الجهةِ، مثل قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٦]، أي فِي جهتينِ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، حديث رقم (١٦٦٥)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ ومسلم، كتاب الحج، باب حجة النَّبِيّ ﷺ، حديث رقم (١٢١٨)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أمّا قول بعض العُلَماء: إن نور القمرِ يَنعكِس أيضًا عَلَى السَّماوَات ويَكُون له نور من جهةِ الْأَرْض ونور من جهة السَّمَاء فليس بصحيحٍ، بل المَعْنى (فيهنَّ) أي: فِي جهتينِ، وإن كَانَ القمر فِي الحقيقةِ ما تخللَ السَّمَاء الدُّنْيا حَتَّى كَانَ فِي جهة السَّمَاء الثَّانِيَة والثَّالثة والرَّابِعة، لكِن الجهة بينهن واحدة.

وقوله: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ يَعْنِي: من فِي السَّماوَات والْأَرْض لا يَعْلَمُون الغيبَ إِلَّا الله، وأين الله؟

في السَّماوَات، أي فِي جهتها، والسَّمَاء: العُلُوُّ، أو نَقُول: (في) بمعنى (عَلَى)؛ أي عَلَى السَّمَاء.

يَبقَى عندنا عَلَى رأيِ مَن يقولُ: إنَّهُ لا يجوز للمسلمِ أنْ يعتقدَ أنَّ الله فِي السَّمَاء؛ لِأَنَّ الله لَيْسَ له مكانٌ، عَلَى زعمهم، كيف نُخَرِّج الآيَة؟

نخرِّج الآيَة عَلَى ثلاثة أوجهٍ: إمَّا أن نجعل ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ متعلقًا بفعل مناسبٍ، ويَكُون التَّقْدير: (مَن يُذكَر فِي السَّماوَات والْأَرْض الغيبَ إلا الله) وَعَلَى هَذَا يَكُون الاستثناء متَّصِلًا، وَهُوَ مرفوعٌ عَلَى البدليَّة، ولا إشكال فيه، يعني لا إشكال فِيهِ من حَيْثُ الإعرابُ، لكِن من حَيْثُ المَعْنى غير مُسَلَّمٍ، هَذَا وجهٌ.

الوجه الثاني: يَقُولُونَ: نجعل الاستثناء منقطعًا، ويَكُون الرفعُ هنا عَلَى لغةِ بني تَميمٍ الَّذِينَ يجوِّزون الإبدالَ ولو كَانَ الاستثناء مُنقطِعًا.

الوجه الثَّالث: أن نجعل الاستثناءَ منقطعًا، ولكِنه لَيْسَ تابعًا لما سبق؛ بل هُوَ مبتدأ وخبره محذوفٌ، وَهُوَ الَّذِي مشَى عليه المُفَسِّر حَيْثُ قَالَ: [لَكِن الله يَعلَمه].

وهَذِهِ التفسيراتُ والتَّقْديراتُ ممَّا حذَّر مِنْهَا النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَيْثُ قَالَ:

«مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[١]، وَفِي رواية: «فَقَدْ أَخْطَأَ وَإِنْ أَصَابَ»[٢]، فالذي يُفَسِّر الْقُرْآن عَلَى حَسَبِ عَقيدتِهِ، هَذَا الحقيقة أَنَّهُ جانٍ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومتقوِّل عَلَى اللهِ بلا علمٍ؛ لِأَنَّ الواجبَ أن تفسّر الْقُرْآن بما دلَّ عليه، ثُمَّ تجعل عقيدتك تابعةً له.

ولهَذَا يَقُول العُلَماء: استدلَّ ثُمَّ اعتقِدْ، ولا تَعْتَقِدْ ثُمَّ تَسْتَدِلّ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان الَّذِي يَعتقِد أوَّلًا ثُمَّ يستدلّ الغالب عليه أَنَّهُ يُخضِع الأدلَّة إِلَى مُعْتَقَدِهِ، كما هُوَ معروفٌ الْآنَ تَجِدون هَذَا فيما يَتَكَلَّم النَّاس فِيهِ فِي العقائد، وتجدونه أيضًا حَتَّى فيما يتكلمون فِيهِ فِي الأحكام، فإن مَن يَنتمي إِلَى مَذْهَب إذا جاءت النصوصُ الدالَّة عَلَى خلاف مَذْهَبِه تجده يَسْلُك فيها أحدَ مسلكينِ: إمَّا إبطالها إن أمكنه، فيقول: هَذَا ضعيف ومردود وَلَيْسَ بمقبولٍ، وإن لم يمكنْه الإبطال سعَى بالتحريفِ لأجلِ أن تطابِقَ مذهبَه، وهَذِهِ عِلَّةٌ قَلَّ مَن يَسْلَم مِنْهَا إِلَّا مَن شاء الله؛ وَهُوَ أن يجعل عقيدته وحُكْمه تابعًا للدليلِ، وهَذَا هُوَ الواجبُ عَلَى كُلّ مسلمٍ أن يُجْعَلَ تابعًا للدليل؛ لأجلِ أن يَكُونَ تابعًا، والنصوص تكون متبوعةً، أَمَّا أن يعتقد أولًا -سواء كَانَ هَذَا الاعتقاد فيما يتعلق بالعقائد والأُمُور الخبريَّة، أو مما يَتعلَّق بالأحكام العَمَليَّة- ثُمَّ بَعْد ذلك يحاول أن يحرِّفَ النصوص إليها فهَذَا غير مسلَّم ولا يجوز للمرء.

---

(١) رواه النسائي في الكبرى، كتاب كتابة القرآن، باب من قال في القرآن بغير علم، حديث رقم (٨٠٨٥)؛ والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، حديث رقم (٢٩٥١)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه أبو داود، كتاب العلم، باب الكلام في كتاب الله بغير علم، حديث رقم (٣٦٥٢)؛ والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، حديث رقم (٢٩٥٢)، عن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ماذا يُجاب عَمَّن قَالَ: إن الإِيمانَ أَوَّلُ مَرَاتِبِه الحَيْرة والشكّ ثُمَّ الاستدلال، إِلَى آخره؟

نُجِيبُه بأن هَذَا لا دليلَ عليه؛ فإن النَّبِيّ ﷺ دعا النَّاس وهم لَيْسَ عندهم شكٌّ ولا حَيرة، بل جُحُود وإنكار، ثُمَّ انتقلوا منَ الجحود والإنكار إِلَى الإقرار والاعترافِ.

ونَقُول أيضًا: هَذَا الكَلامُ الَّذِي لا دليلَ عليه، هُوَ باطلٌ أيضًا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان إذا شكَّ فقد لا يَتَخَلَّص من هَذَا الشكِّ، والله تَعَالَى ما دعا عبادَهُ إِلَى الشكِّ والحَيرة؛ بل دعاهم إِلَى الإِيمانِ بعدَ الكفرِ مباشرةً.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إن أَوَّل مراتبِ الإِيمانِ الحَيرة يَستدِلّون بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام:٧٧]، ففي أَوَّل أمرِه قَالَ: هَذَا ربي، وهَذَا ربي؟

الجواب: قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ قالَهُ لإقامةِ الحُجَّة، وتَقَدَّم هَذَا كثيرًا، وذكرنا هَذَا المثالَ؛ وهو إلزامُ الخَصْمِ بما يَعْتَرِف به، فالمَعْنى أنتم تَعْبُدُونَ هذه الكواكبَ والشَّمْسَ والقمرَ، فهَذَا ربِّي، فمثلًا: إذا جَلَسْتَ مَعَ أُناسٍ جِلْسَةَ المُقْنِعِ، وكلٌّ منهم يَقُول: هَذَا ربِّي، وهنا ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾، ثُمَّ تَنَقَّلَ بهم. ولهَذَا قَالَ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام:٨٣]، ولم يقل: وتلك أدِلَّتنا أَقْرَرْنا بها إبراهيمَ، فإبراهيمُ ﷺ ما كَانَ فِي قلبِه أدنَى شكٍّ فِي هَذَا الأَمْرِ وأنها آلهةٌ باطلةٌ، لكِن لأجلِ إقامةِ الحُجَّة عَلَى هَؤُلَاءِ.

وأمَّا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن إبراهيمَ: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة:٢٦٠]،

وحديث: «نَحْنُ أَوْلَى بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»[(١)]، فنقُول: هل إبراهيم ﷺ شكَّ؟ إبراهيم ﷺ ما شكَّ، ولو أَجرينا الحديثَ عَلَى فَهم البعض لكانَ يَقتضي أن إبراهيمَ قد شكَّ، ونحنُ أَولى بالشكِّ منه، ولكِن معنى هَذَا نَفْيُ شكِّ إبراهيمَ، والمَعْنى لو كَانَ إبراهيم ﷺ مَحَلًّا للشكِّ لكِنَّا نحن أولى به، ونحن لم نشكَّ؛ لِأَنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعْلَم علمَ الْيَقينِ بأن الله قادرٌ عَلَى إحياء الموتى، وكذلك الصحابة، فلم يقل للصحابةِ: هل أنتم تَشُكُّون؟

إِذَنْ: لو كَانَ هناك شكّ لكِنَّا نحنُ أَولى به منه، فإبراهيم والنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأصحابه ما شَكُّوا، ولكِن المَعْنى أنكم الْآنَ تعلمون ما فِي أنفسكم من الْيَقينِ، فإن إبراهيم كذلك يعلمُ، ولو كَانَ فِي الأَمْرِ مكانٌ للشكِّ لكِنَّا نحن أولى به من إبراهيم، ولو أَجرينا الحديثَ عَلَى فهم السائلِ لكان يَقتضي أن إبراهيم قد شكَّ ونحن أَولى بالشكِّ منه.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي كفار مَكَّة كغيرهم ﴿أَيَّانَ﴾ وَقْتَ ﴿يُبْعَثُونَ﴾]، يعني ما يشعرُ أحدٌ متى يُبعَث النَّاس؛ لِأَنَّ علم الساعة إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فلا أحدَ يشعر متى تكونُ الساعةُ، حَتَّى لو جاءتْ علاماتها وأشراطها فإنَّنا لا نستطيعُ أن نُحَدِّدها بالتعيينِ ونَقُول: بقِي عليها كذا سنةً، كذا شهرًا، ولو مَعَ وجودِ الأشراطِ، ولهَذَا قَالَ: ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

وقول الْمُفَسِّر: [وقتَ ﴿يُبْعَثُونَ﴾]، فِيهِ إشكالٌ من جهةِ النحوِ، والإشكالُ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾، قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، حديث رقم (٣١٩٢)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، حديث رقم (١٥١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هُوَ أنَّ ﴿أَيَّانَ﴾ هَذِهِ ظرفٌ لَكِنَّها اسْتِفْهاميَّة، و(وقت) ظَرف مجرَّدة منْ الاسْتِفْهامِ، ولهَذَا تفسير (أيَّان) بـ(وقت) قُصورٌ، ولو قَالَ المُفَسِّر: (متى يُبعثون)، لكان هُوَ المناسِب؛ لِأَنَّ (أيَّان) ظرف وهي متضمِّنة للاسْتِفْهامِ معلِّقة للفعلِ عن العَمَلِ؛ الفِعْل: ﴿يَشْعُرُونَ﴾، فالجملة ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ فِي محل نصب لـ(يشعرون)، ولو كَانَ التَّقْدير: وقت يبعثون؛ لم يكن فِي الجملةِ تعليقٌ.

فإذَنِ: المُفَسِّر بتقديرِهِ: [وقت] ضيَّع علينا مسألتينِ:

المسألة الأولى: ما تَضَمَّنَتْهُ ﴿أَيَّانَ﴾ منْ الاِسْتِفْهام.

والمسألة الثَّانِيَة: كون الجملة هنا فِي مَحَلّ نصبٍ؛ لِأَنَّهَا معلّقة بـ﴿أَيَّانَ﴾، وَعَلَى تقديره تكون ﴿أَيَّانَ﴾ نفسها هِيَ المَفْعُول، هَذَا ما ينبغي التنبُّه له؛ لِأَنَّهُ ينبغي أن يَكُون التفسيرُ اللفظيُّ خاصَّةً مطابقًا للمفسَّر فِي كُلِّ الأحوالِ.

مسألة: مَنِ ادَّعى أَنَّهُ يعلم متى يُبعَث؛ فما الحكمُ؟

هو كافر، فالَّذِي يَقُول: إن القيامة ستكونُ فِي سنةِ ألفٍ وأربعِمائةٍ وأربعَ عَشْرَة، ونشـرَ هَذَا فِي صحف لبنانَ عن كاهن، استنتج أَنَّهَا تكون فِي ألف وأربعمائة وأربعَ عَشْرَةَ، يعني ما بَقِيَ إِلَّا اثنتا عَشْرَة سَنَةً، فهَذَا الَّذِي يصدِّقه أو يشكّ فِي خبره، حَتَّى ولو لم يصدِّق بخبره بل يَكُون عنده تردُّد، يُعتبَر كافرًا؛ لِأَنَّهُ يَجِب الجزمُ بتكذيبِ هَؤُلَاءِ، فيجب أنْ نَجزِم بأن هَؤُلَاءِ كاذبونَ؛ لِأَنَّهُ لا يمكن أن يعلمَ أحدٌ متى تقوم الساعةُ إِلَّا الله.

والنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعلمُ البشرِ، وجِبريل أعلمُ الملائكةِ، لَمَّا سألَهُ قَالَ: «**مَا المَسْئُولُ بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»[1]، فلا أحد يدري متى تقومُ الساعةُ إِلَّا اللهُ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النَّبِيّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم

وهَذِهِ الأشراطُ أيضًا علامة عَلَى قُرْبها، لكِن القُرْب نِسبيّ، لا تظنَّ أن القربَ ثلاثونَ سنةً، أربعونَ سنةً، مائةُ سنةً، حَدَّثَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أصحابَه يومًا منَ الأيامِ والشَّمْسُ عَلَى رؤوسِ النخلِ فقال: «إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا»(١).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن توجيهَ الخطابِ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يَقُولَ قَولًا يَدُلّ عَلَى عنايةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهَذَا القَوْلِ؛ لِأَنَّهُ عبارة عن رسالة خاصة.

والْقُرْآن كلُّه الرَّسُولُ مأمورٌ أن يقوله للناسِ، لكِن إذا خصَّ بعض الآياتِ بكلمةِ: (قُلْ) فهذا يَدُلّ عَلَى عنايةِ اللهِ تَعَالَى بهَذَا الأَمْرِ، حَيْثُ أوصاه بتبليغِهِ وَصِيَّةً خاصَّةً.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ لا يعلم أحدٌ الغيبَ إِلَّا اللهُ، فالَّذِي فِي المستقبَل لا يعلمه أحدٌ إِلَّا الله بكلِّ حالٍ، والحاضر أو الماضي قد يُعْلَم، ودعوَى عِلْمِه ليستْ من علمِ الغيبِ. وَعَلَى هَذَا فالَّذِينَ يُحَيِّرُونَ ويُخْبِرُونَ عمَّا جَرَى عَلَى العبدِ فهَؤُلَاءِ ليسوا ممن يَدَّعُون علمَ الغيبِ؛ لِأَنَّهُ إمَّا ماضٍ أو حاضرٌ وَهُوَ معلومٌ، لكِن قد يَكُون غائبًا عن البشرِ شاهدًا للجنِّ؛ لِأَنَّ الجن يعلمون الشَّيْء البعيدَ ويخبرون مَن يصحبهم من الإنسِ.

الساعة، حديث رقم (٥٠)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى...، حديث رقم (٨)، عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء ما أخبر النَّبِيّ ﷺ أصحابه بما هُوَ كائن إلى يوم القيامة، حديث رقم (٢١٩١)؛ وأحمد (٣/ ٦١) (١١٦٠٤)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَعَلَى هَذَا فما نُحَدَّث به عن بعضِ النَّاسِ أَنَّهُ إذا جاءهم المريضُ قَالُوا: أنت أصابك كذا وأصابك كذا وأصابك كذا، ويَكُون الأَمْر كما أخبرَ؛ هَذَا لَيْسَ من دعوى الغيبِ، فتصديقه لَيْسَ كفرًا باللهِ. لكِن يَبْقَى النظرُ فِي حالِ هَذَا الرجلِ؛ هل هُوَ مستقيمٌ فإنَّنا حينئذٍ نَرْكَن إليه ولا حرجَ علينا إذا ذهبنا إليه، أَمَّا إذا كَانَ غير مستقيمٍ بحيث إن الجنَّ لا تَخْدُمُهُ إِلَّا بشركٍ وكفرٍ فَإِنَّهُ لا يجوز لنا أن نذهبَ إليه؛ لما فِي ذلك من الإعانةِ عَلَى الكفرِ.

وقد ذكر شيخ الإِسْلام أنّ الجنّ يخدمون الإنسَ لمصالحهم؛ لمصالح الجنّ، فإذا كانوا كفارًا فإنهم قد يخدمونهم إذا أشركَ الإنسيُّ بالله، وقد تَعْشَقُ امرأةٌ من الجنِّ رجلًا من الإنس وتقول له: أنا أَخْدُمك بشرطِ أنْ يَفْعَلَ بها، أو كذلك رجلٌ من الجنّ يَعشَق امرأةً من الإنس، فيحصل الأَمْر كذلك، فيَكُون الأول شركًا؛ الَّذِي أشرك بالله، والثاني فسوقٌ وزِنا، وقد يخدمه لمجرَّد مَحَبَّته له بدون أيّ سبب؛ فهَذَا لا بأسَ به، وقد يخدمه لله؛ يرى أَنَّهُ عابدٌ وتقيٌّ أو عالم ينفَع النَّاس بعلمه فيخدمه لهَذَا السَّبَب، فما دام أن خِدمة الجنّ للإنس تَتَنَوَّع فإن حكم استخدامِ الإنسِ للجنّ يَكُون بحسَب هَذَا التنوّع، ولا يُقَال: إنَّهُ حرام مطلقًا ولا يُقَال: إنَّهُ جائز مطلقًا، بل عَلَى حَسَبِ الحالِ[1].

وقد بَلَغَنَا أن أحد أهلِ العلمِ كَانَ يُسمَع فِي حَلْقته حركاتٌ بغير مشاهَدةٍ، ويَقُولُونَ: إن الجنّ يحضُرون العلمَ عنده وَإِنَّهُ أحيانًا يَسمعون كلامًا وسؤالًا بدون أن يعلموا بقائِلِهِ، فهَذَا متواتِرٌ عندنا.

وهَذَا لَيْسَ ببعيدٍ إذا كَانَ الرَّسُول ﷺ حَضَرَه ناس من الجنّ وحضروا الْقُرْآن

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٣٠٧).

وتأدَّبوا، فلمَّا حَضَروه قَالُوا: أَنصِتوا ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩]، وأيضًا لمَّا سمِعوا الْقُرْآن قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن:١-٢]، فوَرَثَة الأَنْبياء مِن أهلِ العلمِ يمكن أنْ يحضُرَهُمْ أناسٌ من الجنّ يَنتفعون بعلمهم، وَلَيْسَ هَذَا ببعيدٍ، والغالب أن الجنّ لا يُرَى، فالجنّ مثل الملائكةِ، الأَصْل أَنَّهُم عالم غيبيّ، لكِن قد يُرَوْنَ.

فإِذَنْ نَقُول: ما كَانَ قد حدثَ من قبلُ أو هُوَ الْآنَ موجودٌ فليسَ من علم الغيبِ، فمَنِ ادَّعى معرفتَه لم يكنْ مكذِّبًا لله ورسولِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وَفِي قوله: ﴿مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ إشارة إِلَى أن الله تَعَالَى فِي السَّماوَات، فيفيد أن الله فِي العُلُوّ، وقد خرَّج العُلَماء ذلك عَلَى أن ﴿فِي﴾ بمعنى (على) أو أن المُراد بالسَّماوَات الجهاتُ العليا؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى فوقَ العَرْش وَلَيْسَ عَلَى نفسِ السَّماء.

• • ۞ • •

الآيــة (٦٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل:٦٦].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن هَؤُلَاءِ المكذِّبين بيوم القيامةِ عَلَى مراتبَ.

وقد رأيتُ كلامًا للزَّمَخْشَرِيِّ جَيِّدًا فِي هَذِهِ الآيَاتِ[1]، ففي قوله: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ذكر أن المَعْنى أَنَّهُ بلغ عِلمهم بالآخِرَةِ غايتَه وأُعلموا بها ولم يَنتفعوا، وذكر أن ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ من (الدَّرَك) وَهُوَ الهلاك، يعني أَنَّهُ ضَعُفَ عِلْمُهم فِي الآخِرَةِ، ثُمَّ انتقل فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾، ثُمَّ انتقل فقال: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾.

فيكُون بالإضافة إِلَى قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ المراتب أربعة: أولًا: نفي الشعور، ثُمَّ ضعف العلم، ثُمَّ الشك، ثُمَّ العمى.

فتكون هَذِهِ الآيَة فيها إضرابات؛ انتقال من الأدنى إِلَى الأعلى، فَإِنَّهُ يَقُول: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل:٦٥]، ثُمَّ قَالَ: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ انتقالات، فالأوَّل: نَفْيُ الشعورِ، والثاني: ضعف

(١) انظر الكشاف (٣/ ٣٧٩، ٣٨٠).

العلمِ، والثَّالثُ: الشكُّ، والرَّابع: العَمَى، يعني عَمَى القلب، والرَّابع أعلاها، يعني لَيْسَ عِنده عِلْم أبدًا، وأيضًا قد يَكُونُ عِنده علمٌ لَكِنَّهُ تَرَكَهُ وتَغَافَلَ عنه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الْإِنْسَان الَّذِي لا يريد الحَقّ يَكُون له باعتبارِ قبولِه مَرَاتِب بعضها أشدُّ من بعضٍ، أي أَنَّهُ ينتقل من الأدنى إِلَى الأعلى، ولهَذَا قَالَ أهل العلم: إن المَعاصِيَ بَرِيد الكفرِ، ومعنى بريد الكفر أَنَّهُ يَنتقل بها الْإِنْسَان من مرحلةٍ إِلَى مرحلةٍ كما ينتقل البَرِيد، والبريد هو الساعي بالمكاتِيبِ إِلَى بلادٍ أُخرى، وكانوا فِي الزمن الأول يجعلون الرُّسُلَ بالكتبِ عَلَى مراحلَ، كُلّ بريدٍ فِيهِ مَنْطِقَة، إذا وصل إليها وقفَ وأعطاه الثانيَ، ثُمَّ يسعى الثاني من هَذَا البريدِ رقْم واحد إِلَى البريد رقْم اثنينِ ثُمَّ يقف، ثُمَّ يأخذها من رقم اثنينِ إِلَى رقمِ ثلاثةٍ حَتَّى يُنتهَى إِلَى البلدِ. يفعلون ذلك لِئَلَّا يَشُقَّ عليهم متابعة السير من البلد إِلَى البلد، وهَذَا يَكُون أسرع، ولذلك سُمِّي البريد بريدًا لهَذَا السَّبَب؛ لِأَنَّهُم يجعلون فِي كُلّ مساحةٍ بريدًا منَ الْأَرْض، والبريد كما هُوَ معروف أربعةُ فَراسخَ، والفرسخُ ثلاثةُ أميالٍ، اضْرِب ثلاثةً فِي أربعةٍ باثني عَشَرَ، إذن البريد اثنا عشر ميلًا.

ولذلك كانوا قديمًا يستعملون فِي إيصال الخطاباتِ بسرعةٍ إمَّا البريد كما ذكرنا وَإمَّا الحَمام، فيُربَّى حمامٌ يطير من مَحَلّ إِلَى محل ويعلَّق فِي عُنُقه أو فِي أرجلِه الرسائل، وطبعًا الرسائل ليست كبيرةً، لكِن قد تكون مثلًا رموزًا وإشاراتٍ ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ يعرِفها المكتوب إليه.

الشَّاهد: إن الْإِنْسَان إذا فعل معصيةً سواء اعتقاديَّة أو عملية فإن الشيطان يتدرَّج به من الأدنى إِلَى الأعلى حَتَّى يصل -والعياذُ بالله- إِلَى الكفرِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن أهل الإيمان باليومِ الآخرِ يزدادون بها بصيرة؛ لِأَنَّ عندهم

يقينًا وعلمًا وطمأنينةً بما أخبر الله به فِي كتابه وَعَلَى لسان رسوله، لكِن هَؤُلَاءِ بالعكس ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ و(مِن) هَذِهِ للابتداء، يَعْنِي: من أجلها صاروا عَمِين، أي: عَمِيَت بصائرهم. وسبب ذلك أَنَّهُم إذا كذَّبوا بها -والعياذ بالله- ازدادوا ضلالًا وظلمًا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥]، ولهَذَا قَالَ: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا﴾ ما قَالَ: عنها عَمُون، قال: ﴿مِّنْهَا﴾ أي: من هَذِهِ الآخِرَة، فبسببِ أَنَّهُم أنكروها ازدادوا عمًى وضلالًا والعياذ بالله.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٦٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ [النمل:٦٧].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَلبيس أهلِ الضَّلال للحقِّ بالباطلِ؛ لِأَنَّهُم أَنكروا البعث واحتجُّوا بشُبهةٍ لا تُغْنِيهم منَ الحَقِّ شَيئًا، حيث يَقُولُونَ: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ نُخْرَج، فهَذِهِ الشبهة إِنَّمَا تَنطلي عَلَى الجهّال، أَمَّا عَلَى أهل العلمِ والبصيرة فلا تَنْطَلِي. المهمّ أن نأخذَ من هَـذِهِ الآيَةِ أو من هَـذَا السلوكِ بَيَان أن أهل الباطل يُلَبِّسُون باطلهم بالشُّبُهات الَّتِي يُورِدُونها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إنكـارُ هَـؤُلَاءِ للبَعث؛ لِأَنَّ الـهمزةَ فِي قـوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ للإنكار.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُمُ احتجُّوا عَلَى تشبيههم هَذَا بأنهم وُعدوا هم وآباؤهم من قبلُ ولم يَرَوْا شيئًا. وهَذَا من التمويهِ وإلا فَهُمْ لم يُوعَدُوا أن يُبعثَ النَّاس اليومَ، بل وُعِدوا أنْ يُبعَثوا يوم القيامةِ؛ كما قَالَ الله تَعَالَى فِي آيَة أخرى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥]، فنقُول لهم فِي ردّ هَذِهِ الشبهة: ما قُلْنَا لكم: إنكم تُبعَثون اليومَ حَتَّى تقولوا: ائتوا بآبائنا، قُلْنَا:

إنكم تُبعَثون يومَ القيامةِ وستُبعَثون، لكِن أهل الباطل يلبِّسون ويشبِّهون عَلَى النَّاس بالشبهات لإقرار باطلهمْ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تأكيدُ إنكارِهِم؛ لِقَوْلِهِم: ﴿أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾. يَعْنِي: أتؤكِّدون لنا ذلك والأَمْر بعيدٌ لا يمكِن.

• • ۞ • •

الآيــة (٦٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [النمل:٦٨].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ مَن لا يريد الحقّ فَإِنَّهُ لا يَتَبَيَّن له، فالْإِنْسَان الَّذِي لا يريد الْحَقَّ يُحْرَم منه فلا يَتَبَيَّن له؛ لِقَوْلِهِم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النمل:٦٨]، فجَعَلُوا أبينَ الأُمُورِ وأصحَّ الأُمُورِ وأوكدَ الأُمُورِ جعلوه أساطيرَ، والأساطيرُ كما هُوَ معروفٌ هِيَ عبارةٌ عن كلامٍ لا أصلَ له غالِبُها أكاذيبُ، فهَذَا القَوْلُ تقدَّم لنا فِي التفسيرِ أَنَّهُ إن كَانَ عن عقيدةٍ فقد لُبِّسَ عليهم الحقُّ، وإن كَانَ عن إنكارٍ فقد جَمَعوا بين التكذيبِ بالحق وبين عيبِ الحقّ، يعني جمعوا بين أمرينِ: أَنَّهُم كذبوا وعابوه، وَأَمَّا إذا كَانَ هَذَا عن عقيدةٍ بمعنى أَنَّهُم لا يرون أن هَذَا حقيقة وَأَنَّهُ أساطير فيَكُون هنا قد لُبِّس عليهم الْحَقّ بسبب أَنَّهُم لا يريدونه، ولَا شَكَّ أن من لا يريد الحَقّ فَإِنَّهُ لا يوفَّق له ولا يُيَسَّر له.

وبهَذَا نعرِف أَنَّهُ ينبغي لطالب العِلْم عندما يبحث عن مسألةٍ أَنْ يَبحثَ عنها؛ لأجلِ أن يصلَ إِلَى الحَقّ، لا لأجلِ أنْ ينصرَ قولَه -ونسألُ الله العافية- بمعنى: افرِضْ أنك اختلفتَ أنت وزميلُك فِي مسألةٍ، وأردتَ أن تحقِّق ما قلتَ، فأنت عندما تُراجِع وتبحث لا تجعل رائدك أن تنتصرَ لنفسِكَ، فإنك ربما تُحرَم الوصولَ إِلَى الحقِّ، لكِنِ

اجْعَلْ رائدك الوصول إِلَى الحقّ، عسى أن يَكُون معك فتَحْمَد الله تَعَالَى أن يَسَّرَ لك الوصول إليه، وأن جعل بَيَان الحَقّ عَلَى يَدِكَ، أو يَكُون مَعَ خَصْمِكَ فتَحْمَد الله تَعَالَى أنَّ الله تَعَالَى يسَّر لكَ الرجوعَ عن الباطلِ، وهيَّأ لك الوصولَ إِلَى الحقِّ، فأنت عَلَى كُلِّ تقديرٍ فِي نعمةٍ ولكِن لِيَكُنْ رائدك الحقّ. وهَـذِهِ مسألة صعبةٌ جِدًّا عَلَى النفوسِ؛ أن يُراجِعَ الْإِنْسَان فِي مثلِ هَذِهِ الأُمُور لأجل الوصولِ إلى الحقّ، فإن كثيرًا من النَّاس يُراجِع لأجلِ أن ينصرَ قولَه.

افرِضْ أنك تعتقد أن قولك هُوَ الصَّوابُ مائةً فِي المِئَةِ وأنت تراجع لتنصرَ قولَك، فهل هَذَا ينافي النيَّة الصَّحيحة؟

نعم، نَقُولُ: إن كنت تريدُ أن تراجعَ لِتَنْصُرَ قولَكَ لِأَنَّهُ الْحَقّ فهَذَا لا ينافيه؛ لأنك إِنَّما تقصِد تقويةَ الحَقّ وإلزام الخَصْم به، وإن كنت تُرَاجِع بنيّة أن تنصرَ قولَكَ ولو كَانَ هُوَ الحَقَّ فالنيَّة فيها مدخولة.

فالحاصل: أن هَذِهِ مسألةٌ ينبغي للإِنْسَانِ أن يلاحظها، وَهُوَ أن مَن لا يريد الْحَقّ لا يوفَّق له، بل يَلْتَبِس عليه الأَمْرُ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَه فِي أبينِ الأُمُورِ وأحقِّها، يَقُولُونَ: إنَّهَا أساطير الأوَّلين. وانظر إِلَى بَيَان السَّبَب فِي قوله تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، يَعْنِي: كلَّا لَيْسَ الْقُرْآن أساطيـرَ الأوَّلينَ، لكِن السَّبَب أَنَّهُم جعلوه أساطيرَ الأوَّلينَ أَنَّهُ ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فعَمُوا عنِ الحَقّ أو تعامَوْا عنه.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كَانَ قصدُه طلبَ الحَقّ وأحبَّ أن يَكُون هُوَ الحَقَّ، هل فِي هَذَا شَيْء؟

فالجواب: لَيْسَ فِيهِ شَيْء؛ لِأَنَّ الَّذِي يُحِبّ أن يصيرَ قوله هُوَ الحَقّ يحبّ ذلك لأجلِ أن يَكُونَ إظهار الحَقّ عَلَى يدِه، وإن كَانَ قصدُه أن يَكُون قولُه هُوَ الحَقّ لأجلِ المغالبةِ فالمسألة فيها دَخَل، ولهَذَا مسائلُ النياتِ صَعْب جدًّا عَلَى الْإِنْسَان تَحقيقها، حَتَّى قَالَ بعض السلف: إني ما جاهدتُ نفسي عَلَى شيءٍ مُجاهدتها عَلَى الإخلاص، وهَذَا صحيحٌ.

فمِن أصعبِ الأُمُورِ الإخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولهَذَا قَالَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا سأله أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» لكِن شرط «خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»[1] فهَذَا الشرطُ صعبٌ عَلَى كثيرٍ منَ النَّاسِ، وَلَيْسَ كُلّ مَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ فقد سَعِدَ بشفاعةِ الرَّسُولِ ﷺ، أو كَانَ أسعدَ النَّاس بها، بل لَا بُدَّ أن يَكُون خالصًا من قلبِه، وإذا كَانَ خالصًا فثِقْ أَنَّهُ سيَكُونُ مُطيعًا لله، ولهَذَا الَّذِينَ يجادلون أحيانًا يَقُولُونَ: كيف تكفِّرون من ترك الصَّلَاة وَهُوَ يَقُول: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ويؤمن بالله؟! نَقُول: نعم، لو قالها حقًّا ما تركَ الصَّلَاة، ونَجْزِم جزمًا أَنَّهُ لو كَانَ يعتقد ذلك حقًّا لطلبَ هَذَا الإلهَ؛ لِأَنَّ معنى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أي: لا معبودَ بحقٍّ إِلَّا الله، فأين لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ من رجلٍ لا يعبدُ اللهَ بأعظمِ العباداتِ، ثُمَّ أيضًا لَيْسَ الإِيمان أنك تؤمنُ بأنَّ اللهَ موجودٌ، وأن هَذَا الكون مخلوقٌ، فهَذَا إيمان حَتَّى الْكُفَّار يؤمنون بهَذَا، فأيّ عاقل لو هُوَ أكفر النَّاس سيؤمن بأن الحوادثَ لَا بُدَّ لها من محدِثٍ، وَلَيْسَ هَذَا هُوَ الإِيمانَ، فالإِيمان أن تؤمنَ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بكلِّ ما تَضَمَّنَهُ معنى هَذِهِ الكلمةِ، وقد سبقَ لنا شرحُ الإِيمانِ أَنَّهُ يتضمَّن أربعة أمور.

الحاصل: أن فِي هَـذَا دليلًا عَلَى أنَّ الْإِنْسَان الَّذِي لا يريدُ الحَقّ لا يُوَفَّـق له،

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب الحرص على الحديث، حديث رقم (٩٩).

وَأَنَّهُ يُلبَّسُ عليه فيظنّ أن ما جاءت به الرُّسُل من الحقائقِ أساطيرُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الَّذِي يطلب الحَقّ هل يصل إليه؟

فالجواب: نعم، إذا سَلَكَ طُرُقَه.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إذا وجدنا شخصًا ضالًّا هل نَجْزِم أَنَّهُ ما طلب الحق؟

فالجواب: لا، لَيْسَ عَلَى كُلّ حالٍ، قد يَكُون هناك أَشْيَاء مَنَعَتْ من هَذَا، عَلَى كُلّ حالٍ نحن نَقُول: إن هَذَا سببٌ، مَن عَمِل صالحًا دخل الجَنَّة، وقد لا يَكُون له ذلك.

فالمهم: أن هَـذِهِ الأَشْيَاء تُذكَـر عَلَى أَنَّهَا أَسْبابٌ، والله يَقُول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [القمر:١٧]، ويقول: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، لمّا كَذَّبُوا بالرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ الله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٨-٦٩]، لكِن الْإِنْسَان قد يُحْرَم بأَسْبابٍ تكون خفيَّة عَلَى النَّاس، إِنَّمَـا مَن طَلَبَ الحَقّ بنيَّة وإخلاص فلا بدَّ أن يصل إليه، أَمَّا كون هَـذَا الرجل ما وصل إِلَى الْحَقّ ثُمَّ نَقُول: ما طلبه، فلا ندري.

فلَوْ قَالَ قَائِلٌ: ألا يُشْكِل عَلَى هَذَا قوله ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ»[1]، فَهُوَ اجتهدَ وطلبَ الْحَقّ ولم يَصِلْ إِلَى الحقِّ؟

فالجواب: أصل الاجتهادِ أنَّ المجتهِدَ لَا بُدَّ أنْ يَصِلَ إِلَى الحقِّ، ولا بد أن يَتَبَيَّن

(١) سبق تخريجه.

له الحقّ، إِلَّا أَنَّهُ قد يَكُون فِي هَذَا الاجتهادِ سببٌ منَ الأَسْبَابِ منعَ مِنَ الوصولِ إِلَى الحقِّ. وكلُّ مجتهدٍ معه آلةُ الاجتهادِ عَلَى ما يَنبغي.

ونعلم أن الْإِنْسَان الْمُجتهد إذا سلَك طُرُق الاجْتِهاد فلَا بُدَّ أن يصلَ، وإلا لبقيَ الحَقّ أعمى، لكِن هَذَا المجتهد إذا بذل جهدَه فإنه يصل، وجهده قد لا يَكُون هُوَ السَّبَب الوحيدَ الَّذِي يُوصِل إِلَى الحقّ، يَقُول: هَذَا جَهدي وهَذِهِ طاقتي، لكِن قد يَكُون عنده نقصٌ فِي العلمِ أو نقصٌ فِي الفهمِ، وَأَمَّا نقص السبل فقد يراجع المسألة فِي كتابٍ أو كتابينِ بينما أن هناك كتبًا أخرى تفيده أكثر مما راجع، فيَكُون هَذَا نقصًا فِيهِ، فحينئذٍ يخالفه الصَّوابُ من أجل ذلك، فليس معنى أَنَّهُ اجتهد أَنَّهُ أراد الْحَقَّ فقطْ، بل معناه أَنَّهُ بذلَ ما يستطيعُ مِن جهدٍ.

ولكِن هل بَذْلُ ما يستطيعه من جهدٍ هُوَ الطريقُ المؤدِّي إِلَى الحقِّ؟

الجواب: لا، ثُمَّ إِنَّهُ إنْ طلبَ الحَقّ ومُنِعَ منه فَإِنَّهُ لا يعاقَب عليه، فالشَّيْء الَّذِي يغير اختياره لا يعاقب عليه، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

• • ❁ • •

الآيــة (٦٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل:٦٩].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان أهميَّة السير فِي الْأَرْض؛ ويُؤْخَذ من أمرِ اللهِ رسولَه أن يُبَلِّغَهُ إِلَى النَّاس.

وَقَدْ قُلْنَا: إن كُلّ حُكْم أو خَبَر يُصَدَّر بـ﴿قُلْ﴾ فَهُوَ دليلٌ عَلَى الاهتمامِ به، كَأَنَّ الله تَعَالَى جعل له عنايةً خاصّةً بالوَصِيَّة بإبلاغِه، وإلّا فجميع الكتاب الرَّسُول ﷺ مأمورٌ بِتَبْلِيغِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٦٧]، لكِن كون هَذَا الأَمْر يُصَدَّرُ بـ﴿قُلْ﴾ إذن ففيه عناية خاصَّة بتبليغه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن السير فِي الْأَرْض ذو فائدة عظيمةٍ، ولهَذَا أُمِرَ بإبلاغه عَلَى سبيل الخصوص.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن السائرَ فِي الْأَرْض يَجِب عليه أن يَكُونَ سيره عَلَى سبيلِ التفكُّر والاتِّعاظ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ﴾ والأَمْرُ للوجوبِ، لا سِيّما إذا كَانَ هَذَا المُخَاطَب مُعَانِدًا؛ لِأَنَّ الآيَةَ هنا ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يخاطب المعاندين الجاحدينَ، فَإِنَّهُ يَجِب عليه أن يسيرَ وينظرَ؛ لِأَنَّ هَذَا طريقٌ إِلَى هدايتِهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن عاقبةَ المجرمينَ وَخيمة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ﴾، ﴿كَيْفَ﴾ هَذِهِ للتعظيمِ، أي أن عاقبتهم عظيمةُ الوخامةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن العِبرة بالعاقبةِ لا بالمبتدَأ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ فإذا رأيتَ هَذَا المجرِمَ قد نُعِّمَ فلا تظنَّ أَنَّهُ عَلَى حقٍّ، بل المعتبَر العاقبة، وستكون عاقبتُه وخيمةً.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ أيضًا لا تَعْتَبِر الفرد فقط، فإنَّ مِنَ المجرمينَ مَن يبقى فِي تنعيمِه حَتَّى يموتَ، لكِن العِبرة بالكلِّ؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فإن المجرمينَ مهما كانوا لا يمكِن أن يستقرَّ لهم قَرارٌ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: فِي الوقت الحاضرِ الْآنَ لا نَرَى أن المجرمين عُوقِبوا، بل إنَّهُم مُنَعَّمُونَ غاية التنعُّم؟

فيقال: إن هَذِهِ الأُمَّة قد عهِد الله إِلَى نبيها ﷺ ألا يُعَذِّبَهُم بسَنَةٍ عامَّة[1]، ولَكِنَّنَا نَرَى فِي هَـؤُلَاءِ المجرمين مِنْ جَعْلِ البأسِ بينهم وتفرُّقهم، وكذلك أيضًا عدم استقرارهم ما هُوَ عُقُوبة، فإن الَّذِي يَخْرُجُ إِلَى تلك الأُمَمِ يجد أَنَّهُم ليسوا مستقرِّين، حَتَّى إننا نَسمع أنَّ الْإِنْسَان ما يأمَنُ أن يجعلَ فِي جيبه دراهمَ، وَأَنَّهُ لو وُجِدَ فِي جيبه دراهم قُتِل، ولذلكَ لا يَتعامَلون هناكَ إِلَّا بالأوراقِ؛ أَوْرَاق التحويلِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا بِاسمٍ خَاصٍّ نَسِيتُه؛ أوراقٌ يُكْتَب فيها أن هَـذِهِ تُمَثِّل كذا دولار؛ لِأَنَّهُم لا يمكن أن يَتَعَامَلوا بالدراهمِ حتى لا يُقتل الْإِنْسَان.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، حديث رقم (٢٨٨٩)، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ.

وحدَّثني إِنْسَانٌ ذَهَبَ إِلَى أمريكا هَذَا العامَ يَقُول: إنك لا تَأْمَنُ أنْ تَضَعَ ثلاثمائةِ ريالٍ بمخباتك، وهَذَا أعظمُ ما يَكُون منَ العذابِ؛ لِأَنَّ اللهَ يقولُ فِي عُقُوبة القريةِ الآمنةِ المطمئنَّة: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]، فهَبْ أن هَؤُلَاءِ لَيْسَ عندهم جوعٌ ولكِن عندهم خوفٌ.

• • ۞ • •

الآيــة (٧٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل:٧٠].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الداعيَ إِلَى اللهِ إذا بَذَلَ ما يَجِب عليه فلا يَنبغي أنْ يحزنَ لمخالفةِ النَّاسِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، والحِكْمَةُ من ذلك: أنَّ حُزْنَ الْإِنْسَان عَلَى مخالفةِ النَّاسِ يُعِيقُه عن الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، ويَسْتَحْسِر من أجلهم؛ لِأَنَّهُ لا يمكن للنفسِ أنْ تَمْتَدَّ وتسير وهي حزينةٌ، ولكِن أنتَ سِرْ عَلَى حَسَبِ ما أُمرتَ؛ إنِ اهتدى النَّاس فلكَ ولهم، وإنْ لم يهتدوا فلكَ وعليهم، ولهَذَا إذا حَزِنَ الْإِنْسَان فِي هَذِهِ الأُمُورِ فَإِنَّهُ ييأسُ ويستحسر ولا يَنْشَرِح صدرُه ولا تنبسط نفسُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عناية الله تَعَالَى بالرَّسُول ﷺ بالتسلية والتفريج عنه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ وجه ذلك: أنَّ نَهْيَهُ عن أنْ يَكُونَ فِي ضيقٍ معناه أنَّ مكرَهُم لا يَضُرُّهُ، وإن ضاقتْ به نفسُه فإن ذلك لا يضرُّه؛ لِأَنَّ الله يَقُول: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ أي لا يُهمّك أَمْرُهم ولا تَضِق منه، فإن لدينا ما هُوَ أعظمُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: هَذَا الأَمْرُ يَكُونُ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولغيره؛ فكُلّ مَن يدعو إِلَى شريعةِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنَّنا نُوَجِّه إليه هَذَا الخطابَ، ونَقُول: إذا

رأيتَ النَّاسَ لم يَقْبَلُوا فلا تَحْزَنْ ولا تكنْ فِي ضِيقٍ ممَّا يمكرونَ، وإلَّا فإن أعداء الرُّسُلِ سوفَ يمكرون بالدعاةِ إِلَى دينِ الرُّسُلِ، وسوف يَبُثُّونَ ضِدَّهُمُ الدعاياتِ وسوف يُؤْذُونَهم بالقَوْل ويُسْمِعُونهم ما يَكْرَهُون، وربما يؤذونهم بالفِعْل، والْإِنْسَانُ عليه أن يَصْبِرَ.

والنَّبِيّ ﷺ جاء بأبين الأُمُورِ وأُوذِيَ فِي بيته وَفِي بدنه حاضرًا ومسافرًا، إِلَى حدّ أَنَّهُم يأتون بِسَلَى الجزور ويَضَعُونه عليه فِي المَسْجِد الحرامِ الَّذِي مَن دَخَلَهُ كَانَ آمنًا، يضعونه عليه وَهُوَ ساجدٌ لله، فهل يوجد أبلغ من هَذِهِ أذيَّة؟! يأتون بالقاذورات والعَذِرَات ويُلْقُونها عَلَى عَتَبَةِ بابِهِ[1]، مَعَ أَنَّهُم يُجِيرُونَ أفسقَ النَّاس وأفجرَ النَّاس إذا جاء إِلَى مكَّة، ولا يجيرون الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وعندما ذهب الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى الطائف لِيَدْعُوَهُمْ إِلَى الله سَخِرُوا به واسْتَهْزَؤُوا به واصطفُّوا صَفَّيْنِ منَ السفهاءِ والغِلمان وغَيرهم وجعلوا يَرْمُون النَّبِيَّ ﷺ بالحجارةِ حَتَّى أَدْمَوْا عَقِبَهُ، ولا أفاق إِلَّا وَهُوَ فِي قَرْنِ الثَّعَالِبِ، ومعَ ذلك صبرَ، وقد جاءه مَلَكُ الجبالِ يَسْتَأْذِنُهُ أن يُطْبِقَ عليهم الأَخْشَبَيْنِ فقال: «بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ؛ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَلَا يُشْرِكُ بِهِ»[2].

إِذَنْ: إذا رأينا هَذَا نعلم أَنَّنا ما أصابنا هَذَا الأذى الَّذِي أصابَ الرَّسُولَ ﷺ إِلَى الْآنَ، ونسألُ اللهَ العافيةَ، ومعَ ذلك تجد الْإِنْسَان منّا يَتَضَجَّر عندما يسمعُ كلمةً

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النَّبِيّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، حديث رقم (١٧٩٤).

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قَالَ: آمين، والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، حديث رقم (٣٠٥٩)؛ صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النَّبِيّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، حديث رقم (١٧٩٥).

ويقول مثلًا: أنا لستُ بملزومٍ، دَعنا نُداهِن النَّاس ونمشي مَعَ العالمِ.

وهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، فأنتَ إذا كنتَ قويًّا فِي الحَقّ فالحقُّ مَنصورٌ، ولا يَلْزَم أن يَكُون نَصْرُه فِي حياتِكَ وَعَلَى يَدِكَ، قد يتأخَّر النصر لكِن تكون أنتَ فاتحةَ خيرٍ لدينِ اللهِ، ولذلك نصرُ الحَقّ لَيْسَ بلازمٍ أنْ يَكُونَ فِي حياةِ الْإِنْسَانِ، وَلَيْسَ بلازمٍ أن يَكُونَ فِي عصرِهِ، الْآنَ نحن نَفْرَح بانتصارِ المُسلِمينَ فِي بدرٍ، مَعَ أننا ما ذُقنا طعمَ هَذَا النصرِ مباشرةً، لكِن لِأَنَّهُ الحقّ انتصرَ، ونفرح بأن الله أنجى موسى وأهلَكَ فِرْعَوْنَ، مَعَ أننا لم نَطْعَم هَذَا النصرَ، ولكِنه نصرُ الحقِّ، فالمؤمنُ يفرح بانتصارِ الحَقّ ويرى أَنَّهُ انتصار له فِي أيّ زمانٍ وَفِي أيِّ مكانٍ، إذا كَانَ صادقًا مَعَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلذلك يَقُول الله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ لِأَنَّ العاقبة للمتَّقين، وعاقبة المُشْركينَ أسوأُ عاقبةٍ.

• • ۞ • •

الآيــة (٧١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل:٧١].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان سَفَهِ هَؤُلَاءِ حَيْثُ استعجلوا عذابَ اللهِ، وقَالُوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَان عُتُوِّهِم وطُغيانهم؛ لِأَنَّ هَذَا الاسْتِفْهامَ إن كَانَ عَلَى سبيلِ الاستبعادِ فَهُوَ سَفَه، وإن كَانَ عَلَى سبيلِ السخريَةِ من هَؤُلَاءِ وأنهم يَقُولُونَ: إِنَّ مَا تَعِدُونَنَا كَذِبٌ؛ بدليلِ أَنَّهُ لم يَقَعْ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ فَهُوَ دليلٌ أيضًا عَلَى عُتُوِّهِم وطُغيانهم، حَيْثُ تَحَدَّوُا الرُّسُلَ -عليهم الصَّلَاةُ والسلامُ- بهَذِهِ الكيفيَّة. والظَّاهرُ أَنَّهُ من بابِ التحدِّي؛ يَدُلّ عليه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ومثل هَذِهِ العبارة تكون للتحدِّي.

الآيــة (٧٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل:٧٢].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ البلاءَ موكلٌ بالمَنْطِق، وأن الْإِنْسَان إذا استعجلَ الشَّرَّ وقعَ فِيهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾، وعسى -كما قَالَ ابن عباس- إذا جاءتْ فِي كلامِ اللهِ فهي للوجوبِ[1]؛ لِأَنَّ معناها التوقُّع، وأن هَذَا أمرٌ قد حانَ وَقْتُه؛ إذ إنَّ الترجِّيَ بالنِّسْبَةِ إِلَى اللهِ غيرُ مُمْكِن؛ لِأَنَّ الترجِّيَ طلبُ ما فِيهِ عُسْرٌ، ولا شَيْء عسير عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: سَعَة حِلْمِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى﴾ (بعض) دون الجميع، وهَذَا من حِلْم اللهِ تَعَالَى عَلَى عِبَاده، فإنّ هَؤُلَاءِ المكذِّبين لِرُسُلِهِ المنابِذِينَ لهم المتحدِّينَ لهم يُقَال لهم: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وَلَيْسَ هَذَا بأوَّل دليلٍ عَلَى حِلْمِ اللهِ؛ بل له أمثلةٌ كثيرةٌ فِي الْقُرْآنِ؛ مِنْهَا قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البروج:١٠]، يُحْرِقون أولياءَهُ بالنَّار ويَعْرِض عليهم التوبةَ، فهَذَا من أعظمِ الحِلْمِ؛ لِأَنَّهُ لو رُدَّ الأَمْرُ إِلَى

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٩٠٥).

مراعاةِ العدلِ لأحرقَ اللهُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أحرقوا أولياءَهُ، ولا يَعْرِض عليهم التوبةَ، ولكِنَّ حِلْمَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واسعٌ، ورَحْمَته سَبَقَتْ غَضَبَهُ.

فهنا قَالَ: ﴿رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى﴾ لا كُلّ الَّذِي تَسْتَعْجِلون، ونَقُول: هَذَا فضلٌ، وباب الفضل أبلغُ فِي الكمالِ، فهَذَا فضلٌ لِأَنَّ العدلَ أن يُعَاجِلَهُمْ بالعقوبةِ؛ لِأَنَّهُم فعلوا الذنبَ، وفاعلُ الذنبِ يُعاقَبُ عليه، بل هَذَا فضلٌ، والفضل أعلى من العدلِ، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُعَامَلَتُه لعبادِهِ دائرةٌ بينَ الفضلِ والعدلِ، وهناك أمرٌ ثالثٌ وَهُوَ الجَوْر؛ فإن المعاملة قد تكونُ جَوْرًا أو عدلًا أو فضلًا. والجورُ مُمْتَنِعٌ فِي حقِّ اللهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، والعدلُ والفضلُ حُكْمه بين عِبادِهِ دائرٌ بينهما، ولهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

• • ۞ • •

الآيــة (٧٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [النمل:٧٣].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان فَضْلِ اللهِ عَلَى عِباده.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ العِبادَ وإنْ تَفَضَّلَ اللهُ عليهم فأكثرُهم لا يَشْكُرُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ذَمُّ غير الشاكرينَ؛ لِأَنَّ الآيَاتِ سِيقتْ لهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الثَّناء عَلَى الشاكرينَ، وهَذَا يُؤخَذ منه بالتضمُّن، وقد سبقَ لنا مِرارًا معنى الشكرِ وَأَنَّهُ لَيْسَ مجرَّد قول اللسان: أَشْكُرُ اللهَ.

الآيــة (٧٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٧٤].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان سَعَةِ عِلْم الله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ وهَذَا دليلٌ عَلَى سَعَة علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ لا يَخفَى عليه شَيْء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تحذير هَـؤُلَاءِ -وغيرهم أيضًا- من أن يُكِنُّوا فِي صدورهم ما لا يرضاه الله؛ لِأَنَّ إخبارَ الله بأنه يَعْلَم ذلك معناه التحذيرُ؛ أن نحذرَ من أنْ نُكِنَّ فِي صُدُورنا ما لا يَرضاه الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن علم الله تَعَالَى بما بَطَنَ كعِلْمِهِ بمـا ظهرَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَا تُكِنُّ﴾ و﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فلا فرقَ بين هَذَا وهَذَا عند اللهِ، وإن كَانَ المخلوقُ يَختلِف عنده حُكْمُ الغائبِ والظَّاهرِ، فالغائب لا يعلمه المخلوقُ، والظَّاهرُ يعلمه، وحتى لو علِم الغائبَ بطريقٍ من الطرقِ فَإِنَّهُ لا يَستوي مَعَ علمِ الظَّاهرِ؛ أَمَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنهما عنده سواءٌ.

الآيــة (٧٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:٧٥].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: كتابةُ اللهِ تَعَالَى كُلّ شيءٍ فِي اللوحِ المحفوظِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ويَلْزَم منَ الكتابةِ العِلْم؛ لِأَنَّهُ لا يُكتب المجهولُ.

فإِذَنْ نَقُول: زيادة عَلَى أن الله عَلِمَ ذلك قد كَتَبَهُ فِي اللوحِ المحفوظِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات مرتبتينِ من مراتبِ القضاءِ والقدرِ، وهما: العلم والكتابة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الردُّ عَلَى الْقَدَرِيَّة، والْقَدَرِيَّة هم الَّذِينَ يُنْكِرون القَدَر، والْقَدَرِيَّة انقسموا إِلَى قسمينِ: غُلَاة ومُقْتَصِدينَ، فالغُلاة أنكروا حَتَّى العلم والتَّقْدير، وقَالُوا: إن الله لا يَعْلَم ما يعمله العبادُ إِلَّا بعدَ وقوعِه منهم، وَأَمَّا الشَّيْء الباطنُ أو المستقبَل فلا يعلمه، وبالضَّرورَة لم يكتبْه أيضًا، والثَّانِيَة: المقتصدون منهم، قَالُوا: إنَّ اللهَ عَلِمَ ما الخَلْقُ عاملونَ وكَتَبَهُ، لَكِنَّهُ لَيْسَ بمشيئتِهِ وخَلْقِهِ، بل المَرْءُ مُسْتَقِلٌّ به.

الآيــة (٧٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل:٧٦].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الموجودينَ فِي زَمَنِ نَبِيِّنا ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: ببَيَان ما ذُكِرَ عَلَى وجهِه الرافعِ للاختلافِ بينَهم لو أَخَذُوا به وأَسْلَمُوا].

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ﴾ هَذَا الْقُرْآن يعني المنزَل عَلَى النَّبِيّ ﷺ، وقرآنٌ إمَّا مَصْدَر بمعنى اسم المَفْعُول، وَإمَّا بمعنى اسْم فاعلٍ، أَمَّا عَلَى الأوّل (قرآن) مصدر بمعنى المَفْعُول؛ لِأَنَّهُ مَقْرُوء، أي: يُقْرَأ، وَهُوَ أيضًا مقروء من القَرْء بِمَعْنَى الجَمْع، فَهُوَ مجموعٌ وَهُوَ مَتْلُوٌّ، بمعنى الجمع والتلاوة، وَأَمَّا عَلَى أَنَّهُ مصدرٌ فإن (فُعْلان) تأتي مصدرًا؛ مثل الغُفْران والشُّكْران.

فَهُوَ فِي الحقيقةِ مصـدرٌ بمعنى اسْم المَفْعُول، وَإمَّا مصـدر مُطْلَق كالغفران والشكران، ويَصِحُّ أيضًا أن نجعله بمعنى اسْم الفاعلِ، بمعنى أَنَّهُ جامعٌ لأحكامِ الكتبِ السابقةِ، وهَذَا أيضًا وجهٌ ثالثٌ أن يَكُون الْقُرْآن بمعنى جامِع، وقد ذكرَ اللهُ تَعَالَى أن الْقُرْآن مُهَيْمِن عَلَى الكتبِ السابقةِ.

وقوله: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ القَصُّ بمعنى التحدُّث بالشَّيْءِ، فهَذَا الْقُرْآنُ

يَقُصُّ عَلَى بني إسرائيلَ الموجودينَ فِي عهدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أكثرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَختلِفون، وسيأتي إنْ شاءَ اللهُ أمثلة لهَذَا.

قوله: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الذكور مِنهم والإناث؛ لِأَنَّ الابنَ إذا كَانَ المُرادُ به القَبيلة فَهُوَ شاملٌ للذَّكَر والأنثى، وإذا لم يُرَدْ به القبيلةُ فَهُوَ خَاصّ بالذكورِ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ مثلًا: هَذَا وقفٌ عَلَى بني مُحَمَّد (مُحَمَّد) شخص، فيَختصّ به الذكورُ، فإذا كَانَ القبيلة كلها تُسمَّى بني مُحَمَّد فَهُوَ للذكورِ والإناثِ.

وذلك مثل بني تَمِيم؛ إذا كَانَ الْإِنْسَان مُوقفًا عَلَى بني تميمٍ قبل أن يَكُونوا قبيلةً حين وجودِ الجَدّ الَّذِي هُوَ تميمٌ فَهُوَ خَاصّ بالذكورِ، وبعد أن كانوا قبيلةً يَكُون عامًّا للذكورِ وللإناثِ.

إِذَنْ: بنو إسرائيلَ هنا المُرادُ بهم القبيلةُ فيعمّ الذَّكَر والأنثى، وإسرائيل هُوَ يعقوبُ بنُ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ، فهم أبناء عمٍّ للعربِ؛ لِأَنَّ العرب أبوهم إسماعيلُ ابنُ إبراهيمَ، وهَؤُلَاءِ أبوهم يعقوبُ بنُ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ، يعني جَدّهم إِسْحاق الَّذِي هُوَ أخو إسماعيلَ، فهَؤُلَاءِ القوم يُنسبون إِلَى أبيهم، وإسرائيل بمعنى: عبد الله.

وبعض النَّاس اليومَ يَقُولُونَ: كيف نُسمِّي الدولة اليهودية إسرائيلَ، لماذا نسميها بهَذَا، فما الجواب؟

الجواب: أن هَذَا نسبة إِلَى أبيهم، ألسنا نسمِّي العربَ قُرَيْشًا نسبةً إِلَى جدهم قريش، فما نَقُول: بنو قريش، بل نَقُول: قُريش، فهنا تُسَمَّى القبيلة باسم أبيها. وإن كَانَ بلَا شَكّ أنَّ الأنسبَ أنْ تُسَمَّى بما سماها الله به؛ وهو: بنو إسرائيل، عَلَى أننا

أيضًا نشكّ فِي أن هَؤُلَاءِ اليهود الموجودين من بني إسرائيلَ، لا ندري لعلَّهم من أوربَّا أو من غيرها من البلاد الَّتِي ليستْ من بني إسرائيل، لكِن عَلَى كُلّ حالٍ فمثلما العرب الْآنَ يعتبرون العروبةَ بالعربيَّة، فيَقُولُونَ: مَن نطق بالعَربيَّة فَهُوَ عربيّ، وإن كَانَ أصله أعجميًّا، فأولئك أيضًا يَقُولُونَ: مَن نطقَ بالعِبْرِيَّة فَهُوَ إسرائيليّ، وإنْ لم يكن من بني إسرائيلَ، ولهَذَا نحن نَجْزِم أن الطائفةَ الْآنَ الَّتِي تُسمَّى اليهود ليستْ كلها من بني إسرائيلَ، بل إِنَّمَا يَنتمون إِلَى هَؤُلَاءِ القومِ باعتبار الجامعِ بينهم وهو اللُّغة.

قوله: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾: ﴿أَكۡثَرَ ٱلَّذِي﴾ لم يقلْ: كُلّ الذي، بل قَالَ: ﴿أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ فما الَّذِي يَخْرُج من الأكثرِ؟

يخرجُ الأقلّ، وذلك أن الْقُرْآن إِنَّمَا قصَّ عليهم ما فِيهِ مصلحة، أَمَّا ما لا مصلحةَ فِيهِ فَإِنَّهُ لا يَقُصُّه؛ لِأَنَّ الْقُرْآن كما تَعْلَمون هُدًى، وكل ما فِيهِ فَإِنَّهُ له معنًى ومقصود، فالشَّيْء الَّذي اختلفوا فيه وَالَّذِي لا فائدةَ منه لا يُقَصُّ عليهم، مثلًا اختلفوا فِي لونِ الكلبِ لأصحابِ الكهفِ، فهَذَا لا فائدة فِيهِ فائدة. كذلك اختلفوا فِي أَشْيَاءَ كثيرةٍ من هَذَا النوعِ ما قَصَّها الْقُرْآنُ، مثل البقرة الَّتِي أُمروا بذبحها، فقد اختلفوا مَن هِيَ له، فقيل: إِنَّهَا لإِنْسَانٍ بارّ بابنِه، وَقِيلَ: إِنَّهَا لشيخ كبير، وَقِيلَ أَشْيَاء كثيرة، لكِن هَذَا لا فائدة منه، فأكثر ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ مما فِي ذِكره فائدة لهم ولغيرهم يَقُصُّه هَذَا الْقُرْآن ليحكمَ بينهم.

ومن ذلك ما قصَّ عليهم فِي شأنِ عِيسى، فإنَّ عِيسَى كما هُوَ معروفٌ اختلفَ فِيهِ بنو إسرائيلَ، فمِنهم مَن كَذَّبه وأنكرهُ وزَعَمَ أنَّ أُمَّه بَغِيٌّ، ومنهم مَن غَلَا فِيهِ

وقال: إِنَّهُ ابنُ اللهِ أو إِنَّهُ إِلَهٌ.

وكذلك أيضًا اختلافهم فِي السَّبْت وغيـر ذلك مِمَّا قصَّ اللهُ علينا فِي الْقُرْآن، فالْقُرْآن قصَّ أكثر الَّذِي هم فِيهِ يختلفونَ، وَأَمَّا ما لا فائدة من قَصِّهِ فتركه.

قوله: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ يَقُصُّ لأجـلِ أنْ يُصَدِّقُوا بالْقُرْآن؛ لِأَنَّهُ إذا جاء هَذَا الْقُرْآن قاصًّا عليهم ما سبقَ ممّا فعلوه، والنَّبِيّ ﷺ قد عُلِم بأنه ما درسَ التوراةَ ولا درسَ عَلَى اليهودِ؛ عُلِمَ أن ما جاء به فَهُوَ حقّ، وهَذِهِ هِيَ الحِكْمَةُ من كونه يَقُول: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ مَعَ أن هَذَا القَصَصَ لبني إسرائيل ولغيرِهم، لكِنَّ بني إسرائيلَ عندهم من علمِ الكتابِ ما لَيْسَ عند العربِ، فإذا نزل هَذَا الْقُرْآن حاكمًا بينهم ويقصّ عليهم ما كانوا يختلفون فيه، دلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ حقّ، فلهَذَا بُيِّنَ لهم لإقامة الحجّة عليهم، واللهُ أَعْلَمُ.

مسألة: القَصص مَصْدَر، والقِصَص جمعُ قِصَّة، ويَصِحّ القَصص بالفتحِ بمعنى قَصّ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف:٣].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الْقُرْآن كـلام؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَقُصُّ﴾ والقصص قولٌ، فالْقُرْآن إذن قولٌ.

ومعلوم أن الْقُرْآن نزلَ منَ الله، فيَكُون قولًا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما يَدُلّ عَلَى ذلكَ سياقُ الآيَاتِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦ﴾ [النمل:٧٨]، بهَذَا القَوْلِ الَّذِي قَصَّ عليهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يجـوز أن يُخَصَّ طائفةٌ ممن يُخَاطَبون من أجـل إقامةِ الحجّة

عليهم، فإن ﴿ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وغيرهم، لكِنَّ بني إسرائيلَ اعتنَى بهم هنا؛ لِأَنَّ الموضوع فيما يَتَعَلَّق بهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يَنبغي أن يُعتنى بما هُوَ أهمّ أو بما هُوَ مُهِمّ، ويُترك ما لا فائدةَ منه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ولم يقصّ عليهم جميع ما يَختلفون فيه؛ لِأَنَّ ممّا اختلفوا فِيهِ ما لا فائدةَ من ذِكره، أو ما لا داعيَ لِذِكره. وهَذِهِ مسألةٌ يَنبغي للإِنْسَان أن يَعتني بها، بأن يَقتصرَ عَلَى المهمّ أو الأهمّ، وأن يدعَ ما لا فائدةَ منه؛ لِأَنَّهُ إضاعةٌ للوقتِ وتطويلٌ للكلامِ بلا فائدةٍ، ومن ذلك ما يوجد فِي كثيرٍ من التفاسيرِ؛ يذكرون الخلاف فِي أمور هِيَ فِي الحقيقة واحدة، فتجده مثلًا يذكر الخلافَ عن مُجَاهِدٍ ومُقاتِلٍ وعَلْقَمَةَ وابنِ مَسْعُودٍ وابنِ عَبَّاس، والاختلاف بينهم إِنَّمَا هُوَ فِي التعبيرِ فقطْ، فمثلًا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ [الإسراء:٢٣]، يَقُول: قَالَ بعضُ العُلَماء: ﴿قَضَىٰ﴾ بمعنى وصَّى، وبعضهم يَقُول: بمعنى عَهِد، وبعضهم يَقُول: بمعنى أوجدَ، وبعضهم يَقُول: بمعنى ألزمَ، فهَذَا لا داعيَ له؛ لِأَنَّ كُلّ هَذِهِ الكلمات الأربع تدلّ عَلَى معنًى واحدٍ.

كذلك أيضًا يذكرون الخلافَ فِي ما لا طائلَ تحته، كما ذكروا اختلافهم فِي كلبِ أصحابِ الكهفِ؛ هُوَ أسود أو أحمر أو أبيض ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وكذلك أيضًا اختلافهم فِي عِدَّة أصحاب الكهف، فإن الله تَعَالَى ذكر الخلافَ وأبطلَ قولينِ وأقرّ الثَّالثَ.

والمهمّ أن الله يَقُول -بعدما ذكر القَوْلين وأبطل الثَّالث-: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف:٢٢]، يَعْنِي: لا تتعمَّق إذا جاء أحد يجادلك فِي هَذَا الأَمْر؛ لِأَنَّهُ لا فائدةَ منه، فالشَّيْء الَّذِي لا فائدةَ منه أو فائدته

قليلةٌ ويُضيِّع عليك ما هُوَ أهمّ يَنبغي لك تَجَنُّبُهُ، وهَذَا لَيْتَنَا نَسيرُ عليه فِي حياتنا كلِّها حَتَّى نستوعبَ الوقتَ بما فِيهِ الفائدةُ، لكِن ما أكثرَ الأوقاتَ الَّتِي تَضيعُ علينا، وما أكثرَ الأقوالَ الَّتِي تُقال ونُضِيعُ الوقتَ فيها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإشارة إِلَى الخلاف بينَ بني إسرائيلَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ والاختلاف شرٌّ وليس رحمةً، وَأَمَّا (اختلافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ) فموضوعٌ لا يَصِحُّ؛ لِأَنَّ الله يَقُول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، لكِن لو صحَّ هَذَا الحديثُ مثلًا، أو قاله بعض أهل العلمِ من قولِه، فالمَعْنى: أن هَذَا الاختلافَ داخلٌ فِي رحمة الله وَفِي سَعَتِهِ بالنِّسْبَة للمختلِفينَ، أي أَنَّهُم لا يُعَذَّبُون.

وَلَيْسَ المَعْنى أن إيقاعَ الخلافِ بينهم من رحمةِ اللهِ، بل هُوَ من حكمةِ اللهِ، ولكِن رحمة الله وسِعَتْهُم، فلا يُقَال مثلًا: إنَّهُم معذَّبون بهَذَا الخلافِ، أو إن الواحدَ المصيب منهم له أجرٌ، والباقينَ محْرُومُونَ، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما حكم من يَقُول: إذا كَانَ اختلاف العُلَماء رحمةً فلي أن آخذَ ما يناسبني من هَذِهِ الأقوالِ؟

فالجواب: بعض النَّاس يتَّخذ من هَذَا المَعْنى وسيلةً إِلَى جواز الترخُّص، هُوَ يَقُول: اختلافهم رحمةٌ بمعنى أنّ لي أنْ آخذَ بأحدِ الأقوالِ الَّتِي تناسبني، ولكِن لَيْسَ هَكَذَا، فإذا صدرَ من قولِ أهلِ العلمِ فَإِنَّهُ لا يَصِحّ إِلَّا عَلَى الوجهِ الَّذِي قلتُ، إنَّ المَعْنى أن هَذَا الاختلاف داخل تحتَ رحمةِ اللهِ، فلا يُعَذَّبُ أحدٌ عليه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الاختلاف لَيْسَ بمحمودٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: منذ ظهور الإِسْلامِ إِلَى الْآنَ وظاهرةُ الاختلافِ موجودةٌ،

هل يمكِن أن يَكُون وجودها عَلَى خلافِ المصلحةِ؟

فالجواب: الحِكْمَةُ اقتضتْه؛ لِأَنَّ الصراع بين هَذِهِ الأقوالِ يَتَبَيَّن به الحَقّ أكثر، ولذلك تجد الْإِنْسَان عندما يمرّ به قول لا خلافَ فِيهِ لا يتكلَّف الأدلَّة ولا يمرِّن نفسه عليها، فالصراعُ بين المختلفين فِيهِ حكمةٌ، وإلّا لو كانوا عَلَى قولٍ واحدٍ لكانَ أسلمَ بلَا شَكّ، والآيَة صريحةٌ فِي هَذَا.

الآيــة (٧٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:٧٧].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: الْقُرْآن [﴿لَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ من العذاب].

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى﴾ هَـذِهِ الجملةُ مؤكَّـدة بـ(إن) و(اللام). والهدى معناه الدلالةُ، فإن الْقُرْآن هدًى، يعني دلالةً، ولكِنه لا يَنتفعُ به إِلَّا المؤمنونَ؛ كما قيَّده به فِي قوله: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: سببٌ للرحمةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان إذا اهتدى به نالَ رحمةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيكُون رحمة لكِن للمُؤْمِنِينَ، والتقييد بالمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُم المنتفِعون به. وقد ذكرَ اللهُ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ هدًى للعالَمِينَ، وَأَنَّهُ هدى للمُؤْمِنِينَ وللمتَّقين، والجمعُ بينهما أَنَّهُ فِي حالةِ العمومِ معناه: دالٌّ وموضعُ دلالةٍ، وَفِي حالة التقييدِ: أَنَّهُ ما انتفعَ به وَوُفِّقَ للاهتداءِ به إِلَّا مَن قُيِّدَ به.

وله هَذِهِ الآيَة من المطلَقِ أو مِن المقيّد؟ من المقيّد بالمُؤْمِنِينَ.

إذًا (هُدًى) هَذَا العلم و(الرَّحْمَة) العَمَل والتَّوفيق؛ لِأَنَّهُ سبب الرَّحْمَة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان مَرتبة الْقُرْآن وفضله، وَأَنَّهُ هدًى ورحمةٌ؛ هُدًى بالدلالةِ ورحمةٌ بالعَمَلِ به.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ لا ينال هَـذَا الهدى وتلك الرَّحْمَـةَ إِلَّا المؤمنـونَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ لا معارضةَ بينَ هَذِهِ الآيَةِ وبينَ قولِهِ تَعَالَى فِي وصفِ الْقُرْآنِ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، والجمعُ بينهما: أنَّ الإثباتَ هنا والإثباتَ هناك مُخْتَلِف الجهةِ؛ فهناك ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ بمعنى: دليل لهم، فَهُوَ دليل لكلّ النَّاسِ، لكِن هل مَنِ استدلَّ به انتفع به؟ لا، قد يَهتدي به وقد لا يَهتدي، إِنَّمَا هُوَ نفسه صالحٌ للهدايةِ لجميعِ البشرِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فائدة الإِيمانِ؛ فلو لم يكنْ من فوائدِ الإِيمانِ إِلَّا هَذَا لَكَفَى؛ وَهُوَ الاهتداء بالْقُرْآن، ونَيل الرَّحْمَةِ به.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ كلَّما كَانَ الْإِنْسَان أقوى إيمانًا؛ كَانَ أقوى اهتداءً بالْقُرْآن. وهَذَا مأخوذٌ من قاعدةٍ سَبَقَتْ؛ وَهِيَ أنَّ الحُكْمَ إذا عُلِّقَ بوصفٍ قَوِيَ ذلكَ الحكمُ بقوَّة ذلك الوصفِ، وضعُف بضعفِ ذلك الوصفِ، فما دامتِ الهدايةُ والرَّحْمَةُ معلَّقة بوصفِ الإِيمانِ فكلما ازداد هَذَا الوصفُ ازداد الهدى وازدادتِ الرَّحْمَةُ.

• • ۞ • •

الآيــة (٧٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [النمل:٧٨].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ كَغَيْرِهِم يومَ القيامةِ ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ أي: عَدْلِه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالِب ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يَحْكُم به؛ فلا يمكِّن أحدًا مخالَفَته كما خالفَ الْكُفَّارُ فِي الدُّنْيا أنبياءَهُ].

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ أي: بين بني إسرائيل؛ لِأَنَّ السياقَ فيهم، ولهَذَا قَالَ: ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ والمختلِفون يحتاجون إِلَى مَن يَحْكُمُ بينهم أيّهم عَلَى الصَّوابِ، فحُكْمُ اللهِ بينهم فِي الدُّنْيا ويَحْكُمُ بينهم يومَ القيامةِ، حَكَمَ بينهم فِي الدُّنْيا بما أنزله فِي الْقُرْآن المستفاد من قولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. ويحكمُ بينهم يومَ القيامةِ بالحكم العدلِ.

فمن جُملةِ ما قصَّ الله علينا فِي الْقُرْآن القضاءُ بين بني إسرائيلَ، فبنو إسرائيلَ اختلفوا فِي أَشْيَاءَ؛ كاختلافِهِمْ فِي المَسيحِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وغيرِهِ، فحكمَ اللهُ بينهم بالْقُرْآن بأن هَؤُلَاءِ مُصيبونَ وهَؤُلَاءِ مخطِئون، فبيَّن أن اليهودَ أخطأوا والنصارى أخطأوا أيضًا، والمعتدِلون مِنَ النصارى أصابوا، لكِن الحكم الَّذِي يترتَّب عليه الثوابُ والجزاءُ يَكُون يومَ القيامةِ، فهنا الحكمُ فِي الدُّنْيا ما يَتبيَّن به الْحَقّ منَ الباطلِ،

وَأَمَّا فِي الآخِرَةِ فَهُوَ ما يَتَرَتَّب عليه الثوابُ والعقابُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ كغيرِهم يومَ القيامةِ]، لا يَتعيَّن أن يَكُون هَذَا القضاءُ يومَ القيامةِ، بل قد يَكُون فِي الدُّنْيا أيضًا، فإن القضاءَ كما يَكُون يومَ القيامةِ يَكُون أيضًا فِي الدُّنْيا.

وقد قَضَى بينهم فِي الدُّنْيا بما أنزلهُ فِي كتابِهِ، وبَيَّنَ الَّذِينَ عَلَى حقٍّ والَّذِينَ عَلَى باطلٍ من بني إسرائيلَ، وهَذَا نوعٌ منَ القضاءِ، ويومَ القيامةِ يَقضي بينهم قضاءً يَتَرَتَّب عليه الثوابُ؛ إمَّا بالعقوبةِ وَإمَّا بالإحسانِ.

فالحاصل: أن قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ لا يَتعيَّن أن يَكُون يوم القيامة كما قيَّده به المُفَسِّر؛ لِأَنَّ القضاءَ كما يَكُون فِي الآخِرَةِ يَكُونُ فِي الدُّنْيا.

وقول المُفَسِّر: [كَغَيْرِهِم] يفيد أن القضاءَ يومَ القيامةِ لَيْسَ بينَ بني إسرائيلَ فقطْ، بل بينهم وبين غيرهم، وهَذَا أمرٌ لَا شَكَّ فِيهِ ولا حاجةَ إِلَى تقديره؛ لِأَنَّهُ ما دام السياق فِي بني إسرائيلَ فإن كلمةَ (كغيرهم) لا يَنبغي أنْ تُقْحَم فِي هَذِهِ الآيَة؛ لأنك إذا أقحمتَ كلمة (كغيرهم) يَكُون كالاعتراضِ عَلَى الْقُرْآن؛ لِأَنَّ معناه أن المَقامَ يَقتضيه ولكِنه لم يبينْ. فنَقُول هنا: لا حاجة إِلَى تقديرِ: (كغيرهم) بل هُوَ يَقضي بينهم. والآيَة هنا لم تَتَعَرَّض للقضاءِ العامّ، وَأَمَّا القضاء العامّ فَهُوَ مستفادٌ من آيَاتٍ أُخرى.

قوله: ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ أي: بعدلِه، وهنا أضاف الحكمَ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأمرينِ:

الأَمْرُ الأوّل: أَنَّهُ حكمٌ مُتَضَمِّن للعدلِ.

والأَمْرُ الثاني: أَنَّهُ حكمٌ لا يُعَقَّب، بل لَا بُدَّ أن يُنَفَّذ، بخلافِ حُكم غيرِه فَإِنَّهُ

عُرْضَة للخللِ من الناحيتينِ؛ من ناحية أَنَّهُ قد يَكُون غيرَ عدلٍ، ومن ناحية أَنَّهُ قد يَكُون غير مُنَفَّذ.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ أي: عدله، وهَذَا طرفٌ أو جزءٌ مِمَّا يَدُلّ عليه قوله ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾؛ إذ إِنَّهُ يَدُلّ عَلَى الأَمْرينِ اللذينِ ذكرنا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب]، وقد تقدَّم فِي شرح الأسماء الحسنى أن العزيز له ثلاثةُ معانٍ، وهي: عِزّة القهر، وعزة القَدْر، وعزة الامتناع؛ لِأَنَّ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ معناه المُمْتَنِع عن كُلّ نقصٍ الَّذِي لا يَلْحَقه نقصٌ، وَأَنَّهُ غالب وَأَنَّهُ ذو قَدْرٍ عظيمٍ.

وغالبًا ما يفسِّر المُفَسِّر وغيره ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ بالغالبِ؛ لِأَنَّهُ أظهر معانيه، ولأنه يَكُون أحيانًا فِي سياقٍ يَقتضي أن تكون الغَلَبَة أَخَصَّ به من غيرها.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يَحْكُمُ به]، وهَذَان الأَمْران من شروطِ الحُكم؛ لِأَنَّ مَن حَكَمَ بغيرِ علمٍ أصاب حُكْمَه الخللُ، ومن حَكَمَ بغير عزّة أصاب حكمه الخللُ أيضًا:

فالأوّل الَّذِي هُوَ فواتُ العلمِ: يَحصُل به خللُ الحكمِ فِي إصابةِ الصَّوابِ؛ لِأَنَّ مَنْ حَكَمَ بغيرِ علمٍ فإصابته للصوابِ من باب المصادفةِ.

الثاني: إذا فاتت العزّة حَصَلَ الخَلَلُ بالحكمِ، لا من ناحية الصَّوابِ ولكِن من ناحيةِ التنفيذِ، فَإِنَّهُ إذا كَانَ لَيْسَ له عِزّة وحَكَمَ بأمرٍ فقد يخالَف فِي هَذَا الأَمْر؛ لِأَنَّ الضعيف الَّذِي لَيْسَ عنده عِزَّة لا ينفّذ، فلهَذَا قَالَ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ليتبينَ الأَمْرانِ، فالحكم يَفتقر إِلَى الوصفينِ جميعًا؛ وهما العزّة والعِلم.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيف يُقَدِّمُ العزيزَ عَلَى العليمِ، والعلمُ سابقٌ من حَيْثُ الترتيبُ الحكميُّ؛ إذ إنَّهُ يَعْلَم ثُمَّ يَحْكُم ثُمَّ يُنَفِّذ؛ لِأَنَّ العزة تتعلَّق بالتنفيذِ، والتنفيذ بعدَ الحكمِ، والعلم يتعلّق بالحكمِ، والحكمُ سابقٌ عَلَى التنفيذِ، فما هِيَ الحِكْمَةُ فِي أن يقدِّم العزَّة هنا عَلَى العلمِ؟

قُلْنَا: لِأَنَّ المقامَ هنا يَقتضي بَيَان قوّة حُكم اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن هَذَا الحكم لَا بُدَّ أن يَنْفُذ؛ لِكونِه صادرًا عن عزيزٍ، فَكَانَ من المناسِبِ تقديم العزّة عَلَى العلم.

ونظير هَذَا قوله تَعَالَى عن الملائكة لما قالت امرأةُ إبراهيمَ حينما صكّت وَجْهَها وقالت: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات:٢٩]، قالوا: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات:٣٠]، فقدّموا الحِكمةَ عَلَى العِلمِ، مَعَ أن العلم سابقٌ؛ إذْ لا حكمةَ إلَّا بعلمٍ، لَكِنَّهُ لَمّا كَانَ هَذَا أمرًا خارجًا عنِ العادةِ ومُسْتَغْرَبًا قدَّموا الحِكْمَةَ لِيَتَبَيَّنَ لها أَنَّهُ ما خَرَجَ ذلك عنِ العادةِ إلَّا لحكمةٍ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فلا يُمَكِّن أحدًا مخالفتَه كما خالفَ الكفّار فِي الدُّنْيا أنبياءَه]، الحكم فِي الدُّنْيا -كما قَالَ الْمُفَسِّر- يخالَفُ، والمُراد الحكمُ الشرعيّ، أَمَّا الحكمُ الكونيّ فلا يمكن أن يُخَالَف؛ لا فِي الدُّنْيا ولا فِي الآخِرَة، فلا أحدَ يَقدِر أن يخالفَ اللهَ، والحكمُ الشَّرْعِيّ يمكِن مخالفتُه فِي الدُّنْيا كما هُوَ كثيرٌ، بل أكثرُ النَّاسِ يُخالِفون الحكمَ الشَّرْعِيّ فِي الدُّنْيا؛ لِأَنَّ بني آدمَ مِنهم تسعمائة وتسعة وتسعون من الألفِ كلهم مخالِفون للحكمِ الشَّرْعِيّ، وواحد فِي الألفِ موافِقٌ للحُكم الشَّرْعِيّ، والدَّلِيل حديث آدمَ أن الله يناديه يوم القيامةِ فيقول: «يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. فَيَقُولُ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ

تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَاحِدٌ فِي الجَنَّةِ وهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ»[١]. هَذَا النصّ.

يقولُ ابنُ القَيِّمِ فِي النونيَّة[٢]:

يَـا سِـلْعَةَ الـرَّحْمَنِ لَـيْسَ يَنَالُهَـا ... فِي الْأَلْـفِ إِلَّا وَاحِـدٌ لَا اثْنَـانِ

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن القَضاء موكولٌ إِلَى اللهِ وحـدَه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن كُلّ قضاءٍ لا يَستنِد إِلَى قضاءِ اللهِ فَهُوَ باطلٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ العدلِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ فإن إضافةَ الحكمِ إِلَى اللهِ دليلٌ عَلَى أَنَّهُ مُشْتَمِلٌ عَلَى العدلِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَـذَا الحُكْمَ يَتَضَمَّن الحُكم الشَّـرْعِيّ والحكمَ الجزائـيّ، فيقضي بينهم بحُكمه شرعًا فِي الدُّنْيا، وبجزائه عدلًا فِي الآخِرَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ وهَذِهِ مستفادةٌ من التفسيرِ.

وتقدّم أن إضافةَ الحكمِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تقتضي أمرينِ: أحدهما: العدل، والثاني: الإصلاح.

يعني ما دامَ حكمًا مضافًا إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقد عُلِم أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكيمٌ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قِصَّة يأجوج ومأجوج، حديث رقم (٣١٧٠)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب قوله: «يقول الله لآدم: أخرج بعث النَّار؛ من كُلّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعين»، حديث رقم (٢٢٢)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الكافية الشافية لابن القيم (ص:٣٥٤).

فإن هَـذَا الحكمَ لَا بُدَّ أن يَكُون مناسبًا وموافقًا لمَحَلّه. وكلُّ حُكم وافقَ محَلّه فَهُوَ إصلاح؛ لِأَنَّ هَذَا يتضمَّن العدل والإصلاح.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وصف الله تَعَالَى بالعزّة والعلمِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: قَرْن العزّة مَعَ العلمِ فِي هَذَا الموضعِ يُستفاد منه فائدة مستقلّة غيـر فائدة العزّة عَلَى حدةٍ والعلم عَلَى حدةٍ، يعني يُستفاد من جمعهما فائدة مكوَّنة منهما، وهي: أن حكمَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَا بُدَّ أن ينفذَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، ولا بد أن يَكُون مطابِقًا وصحيحًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ لأنَّنا قُلْنَا فيما سبق: إن من تمامِ الحكمِ العلمُ والعزّة، فالعِلم ليحكمَ بالصَّوابِ، والعزّةُ لينفذَ ما حكمَ به، وإن خلل الحكم يأتي إمَّا منَ الجهلِ وإمَّا من الضعفِ؛ إمَّا لجهلِ الحاكمِ فيحكم بغير الصَّواب، وَإِمَّا لضعفِه فلا يستطيع أن ينفذَ.

إِذَنْ: يُؤخَذ من جمع هذين الوصفينِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَقِبَ ذِكْرِ الحكم: تمام حكمِ اللهِ، حَيْثُ كَانَ مبنيًّا عَلَى العزّة والعلمِ، فبالعزّة يَكُون التنفيذُ، وبالعلم يَكُون الصَّواب.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تقديم الأخصّ مِنَ الأوصافِ عَلَى الأعمِّ، فالأخصُّ معناه الأنسبُ للقضيّة، فهنا قدَّم العزَّة عَلَى العلمِ مَعَ أن العلمَ سابقٌ عليها فِي التـرتيبِ الحكميّ؛ ففِي الترتيب الحكميّ العلم أسبقُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان يعلم ثُمَّ يحكم ثُمَّ ينفِّذ. لكِن هنا قدَّم العزَّةَ على العلمِ فِي الذِّكر، وقد تقدّم فِي التفسيرِ.

• • ۞ • •

الآيــة (٧٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل:٧٩].

قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ثِـقْ بِه ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي: الدِّين البيِّن، فالعاقبةُ لكَ بالنصرِ عَلَى الكفَّار].

قوله: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ الخطاب للنبيِّ ﷺ، والأَمْر هنا للوجـوبِ، والتوكُّل نصفُ الدينِ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود:١٢٣]، وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥]، ولا استعانةَ إِلَّا باعتمادٍ، ولهَذَا يَقُولُونَ: إنَّ الدِّين عِبَادةٌ وتَوَكُّل؛ عبادةٌ يَفعلُها الْإِنْسَان، وتَوَكُّل يَعتمِد به عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

هنا قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ثِقْ به]، وفسَّره غيرُه بأنَّ التوكُّل هُوَ الاعتمادُ عَلَى اللهِ مَعَ الثِّقَة، فلا بدَّ مِن اعتمادٍ وثقةٍ، وبهما يَكُون التوكُّل، فقد تَعْتَمِدُ عَلَى غيرِ اللهِ مثلًا لكِن لا تَثِق به، وقد تَعْتَمِد عَلَى إِنْسَانٍ فِي أنْ يشتريَ لك شيئًا، ولكِنَّك مَعَ هَذَا لا تَثِقُ به، وقد تَثِق بالْإِنْسَان فِي أمانتِهِ ولكِنَّك لا تَعْتَمِد عليه لِضَعْفِه، والأوَّل إمَّا لضعفه أو خيانته، أَمَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فيَجِب عليكَ أنْ تَعْتَمِد عليه واثقًا به، ولا يُمْكِن تحقيقُ التوكُّل إِلَّا بهَذَا.

إِذَنِ: التوكُّل عَلَى اللهِ: الاعتمادُ عليه مَعَ الثِّقة به، فلا بدَّ منَ الأَمْرينِ؛ من اعتمادٍ وثقةٍ. والأَمْرُ بالتوكّل لا ينافي فِعْلَ الأَسْبَابِ الصَّحيحةِ الَّتِي تؤثِّر فِي الْمُسبَّبَات؛ فإن

الرَّسُول ﷺ بلَا شَكّ كَانَ سيّدَ المتوكِّلين، ومع ذلك كَانَ يفعل الأَسْبَاب الَّتِي تحصُلُ بها المنافعُ وتَندَفِع بها المضارُّ؛ كَانَ يأكل ويشرب ويلبس. وَكَانَ أيضًا يتّخذ ما يَقِي مِنَ الضَّرَرِ، حَتَّى إِنَّهُ فِي أُحُدٍ ظَاهَرَ بينَ دِرْعَيْهِ[1]، يَعْنِي: لَبِسَ دِرْعَيْهِ، كُلّ ذلكَ تقويةً للأَسْبابِ الَّتِي تندفِعُ بها الأضرارُ.

فإِذَنِ: التوكُّل عَلَى اللهِ لا يَعني ألَّا تأخذَ بأَسْبابِ النجاحِ، بل خُذْ بالأَسْبَابِ مَعَ الاعتمادِ عَلَى اللهِ تَعَالَى والثِّقة به أنْ يَنْفَعَ بهَذَا السَّبَب.

ولمّا حَجَّ قومٌ من أهل اليمنِ وَلَيْسَ معهم زادٌ قَالُوا: نحن نحجّ ونحن المتوكّلون؛ فماذا قيل لهم؟ قيل لهم: أنتمُ المتواكِلون[2]، ففرقٌ بين التواكُلِ والتوكّل، فالْإِنْسَان الَّذِي يريد أنْ تأتيَه الأُمُورُ بدونِ فِعْلِ أَسْبابها هَذَا متواكِل وَلَيْسَ عنده عقلٌ، والبهائم والحشرات وغيرها تفعل الأَسْبَاب، مَعَ أنّ الَّذِي قامَ بِرِزْقِها وتكفّل به هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، ومع ذلك تجدها تفعل الأَسْبَاب، بل قَالَ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[3]، لم يقلْ: تبقى فِي أوكارها ويأتيها رِزْقُها، قَالَ: تغدو، أي: تَذْهَب فِي الصباحِ فِي الغدوِّ خِماصًا،

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في لبس الدروع، حديث رقم (٢٥٩٠)؛ والنسائي في الكبرى، كتاب السير، باب التحصين من الناس، حديث رقم (٨٥٨٣)؛ وابن ماجه، كتاب الجهاد، باب السلاح، حديث رقم (٢٨٠٦)؛ وأحمد (٣/ ٤٤٩) (١٥٧٦٠)، عن السائب بن يزيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٨١) (١٢١٥)، موقوفًا عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وأصله في صحيح البخاري، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، حديث رقم (١٤٥١)، موقوفًا عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب التوكل على الله، حديث رقم (٢٣٤٤)؛ وابن ماجه، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين؛ وأحمد (١/ ٣٠) (٢٠٥)، عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يَعْنِي: جائعةً، وتَرُوحُ فِي آخرِ النَّهار بِطانًا: مَلآنة بُطُونُها.

فالْإِنْسَان المتوكِّل هُوَ الَّذِي يأخذُ بالأَسْبَاب النافعةِ، أَمَّا الأَسْبَاب الَّتِي لا تنفعُ فإن الأخذَ بها نوعٌ من الشِّرْك، فكُلّ مَن أخذ بسببٍ لَيْسَ بنافعٍ -يعني ما دلَّ عَلَى نفعه الحِسّ ولا الشَّرع- فَإِنَّهُ قد فَعَلَ نوعًا منَ الشِّركِ. ولهَذَا التمائمُ والتعوُّذات والتِّوَلَة ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ من الأُمُورِ الَّتِي يَزْعُمُون أَنَّهَا تفعل وهي لا تفعل؛ جَعَلَها النَّبِيّ ﷺ منَ الشِّرْكِ؛ لأَنَّنا نَقُولُ فِي تقريرِ هَذَا: كُلّ مَنِ اتَّخذ سببًا غيرَ نافعٍ، يعني لا يَدُلّ عَلَى نفعِه شرعٌ ولا حِسٌّ، وإن شئتَ قُلْ: شرع ولا قَدَر؛ فَإِنَّهُ مُشْرِك.

ووجه كونه مشركًا أنه أثبتَ سببًا لم يجعلْه اللهُ سببًا، فَكَانَ مُشَارِكًا لله تَعَالَى هنا فِي تقديرِه؛ لِأَنَّ مقدِّر الأَسْبَاب وجاعلَ الأَسْبَابِ سببًا هُوَ اللهُ، فهَذَا إِلَى اللهِ، فأنت إذا قلتَ: هَذا سببٌ، وَهُوَ لَيْسَ بسببٍ؛ فقد أشركتَ مَعَ الله، وجعلتَ نفسَكَ شَريكًا مَعَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَنِ اتخذ سببًا مُحَرَّمًا مثل الرِّبا، هل يُعَدُّ مِنَ الشِّركِ؟

فالجواب: هَذَا لا يُعدّ مِنَ الشرك؛ لِأَنَّ هَذَا السَّبَب حِسِّيٌّ، فكونه سببًا للرزقِ سببٌ حِسّيّ، لَكِنَّهُ مُحَرَّم شرعًا، فالذي يُرابي اتَّخذ وسيلةً تُحقِّق له الرِّبْحَ قَدَرًا؛ لِأَنَّهُ إذا قَالَ: أُعطيك عشرةً وتردّها اثني عَشَرَ، فهَذَا سببٌ للربحِ، لَكِنَّهُ سببٌ قدريٌّ؛ لِأَنَّ اللهَ ما أذِن فِيهِ شرعًا، لكِن إذا وقعَ عَلِمنا أَنَّهُ أذِن فِيهِ قَدَرًا، وهَذَا لَيْسَ بشِركٍ؛ لِأَنَّهُ سببٌ قَدَرِيٌّ، إِنَّمَا هُوَ محرَّم لِأَنَّهُ منهيٌّ عنه شرعًا.

إِذَنِ: التوكُّل عَلَى الله هُوَ الاعتماد عَلَى الله مَعَ الثقةِ به، لَيْسَ مجرّد الاعتماد، بل مَعَ الثقة، ولا ثِقة إِلَّا برجاءٍ. ثُمَّ إن التوكّل قُلْنَا: لا ينافي فعلَ الأَسْبَاب الَّتِي جعلها الله تَعَالَى سببًا شرعًا أو قَدَرًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يَصِحُّ أن تقول لفلانٍ منَ النَّاس: أَعتمِد عليك فِي إنجاز هَذَا الأَمْر؟

فالجواب: ليس فيها شيءٌ، بشرطِ أن يَكُونَ حقيقةً ممَّا يُمْكِنُ الاعتمادُ عليه فيه؛ لِأَنَّ الاعتماد على الأَسْبَاب الحقيقيَّة جائزٌ، لكِن مَعَ اعتقادِ أَنَّهُ سببٌ لا أَنَّهُ مستقلّ.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما حُكْمُ قول العوامّ عِندنا: (وَكِّلِ الله)؟

فالجواب: الظَّاهرُ أن معنى (وَكِّلِ الله) عندهم: اعتَمِدْ عَلَى اللهِ، وَلَيْسَ المَعْنى: اجْعَلِ اللهَ وَكِيلًا لكَ، أو معناه أن الله تَعَالَى يَكُون شاهدًا عليك، فليس المقصود أنِّي أنا فِي قِيامي بأمركَ مثل قيام الله تَعَالَى بأمرِكَ، فهم قصدُهم: اعتمد عليَّ الله ووكِّله عليَّ شهيدًا؛ لأَنَّنا لو نَظَرْنا إِلَى ظاهرِ اللفظِ فالمَعْنى أني أنا لكَ بمنزلةِ اللهِ، وهم لا يريدون هذا، أو المَعْنى (وَكِّل الله) أي: اعتمِدْ عَلَى الله، وكذلك قولهم: (اتكل عليَّ) لَيْسَ فِيهِ شَيْء، وقولهم: (الله وكلك) لَيْسَ فِيهِ شيءٌ، أي جَعَلَكَ وكيلًا لي بالصيغةِ الَّتِي نطقت بها؛ لِأَنَّهُ الله وكَّله بلَا شَكّ؛ لِأَنَّهُ إذا وقع الأَمْر فَهُوَ بقضاءِ اللهِ، وكذلك قولهم: (اتَّكِلْ عَلَى اللهِ) فهَذِهِ صحيحةٌ وطيِّبَةٌ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ الدِّين البيِّن]، فسَّر المُفَسِّر الحَقّ بالدينِ، والمبينَ بالبيِّن، وَلَيْسَ هَذَا بجيدٍ؛ لِأَنَّ الدينَ منه حقٌّ ومنه باطلٌ، ولهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح:٢٨]، وهَذَا هُوَ الدين الباطِلُ، فالدينُ الحَقّ يَظْهَر عَلَى الدِّين كلِّه، أي: عَلَى الدينِ الباطلِ. فتفسيرُ المُفَسِّر الحَقَّ بالدينِ قُصُورٌ بلَا شَكّ، بلِ الحَقّ هنا الثابتُ بِصِدْقِ أخباره وعدل أحكامِهِ.

وأمَّا قوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ ففسَّره بالبيِّن، وَعَلَى هَذَا جعل (أبان) من اللازِمِ؛ لأَنَّ بان يَبِينُ فَهُوَ بَيِّن، وأبان يُبِينُ فَهُوَ مُبِين. وهل تَصِحّ أن تكونَ بمعنى (مُظْهِر)؟

الجواب: لا، بَيِّن هنا أنسبُ مِن مُظْهِر، فهَذَا الْحَقّ بَيِّنٌ ظاهرٌ.

وفي قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ تثبيتٌ للرَّسُولِ ﷺ عَلَى أنْ يَبقى عَلَى ما هُوَ عليه مُعتمِدًا عَلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان إذا عَلِم أَنَّهُ عَلَى حقٍّ فَإِنَّهُ يَثْبُتُ وتَرْسُخُ قدماهُ، وإذا كَانَ شاكًّا أو مُتَرَدِّدًا فَإِنَّهُ لا يثبتُ، فَأَمَرَه أن يعتمدَ عليه، وَبَيَّنَ له أن ما كَانَ عليه مِنْ هَذَا الدِّينِ فَهُوَ حقٌّ بَيِّنٌ ظاهِرٌ.

وإعراض هَـؤُلَاءِ الْمُعْرِضِينَ عنه لا يَقْدَحُ فِي كونِه بَيِّـنًا؛ لِأَنَّ البلاءَ لَيْـسَ منَ الْقُرْآن؛ فالبلاءُ مِنهم، ولهَذَا أعقبهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل:٨٠].

فالحاصل الْآنَ: أن اللهَ أمـرَ نبيَّه أنْ يَعتـمِدَ عَلَى اللهِ، وبَيَّـنَ له الحالَ الَّتِي كَانَ عليها، وأن هَذَا الدينَ حقٌّ بَيِّنٌ، ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن إعراضَ مَن أعرضَ عنه لَيْسَ لِقُصُورٍ فِي بَيَان هَذَا الدينِ وظهورِهِ، ولكِن لِقُصُورٍ فِي هَؤُلَاءِ الْمُعْرِضينَ؛ لِأَنَّ الدِّينَ هنا بالنِّسْبَةِ إليهم لم يصادِفْ مَحَلًّا، وكما هُوَ معروفٌ أن الأَمْرَ إذا لم يُصادِفْ مَحَلًّا قابِلًا لم يَثْبُتْ، حَتَّى إنَّ الْإِنْسَان لَيَقْرَأُ آيَةً عَلَى مريضٍ فيَشْفَى، ويَقْرَؤها عَلَى مريضٍ آخرَ بنفسِ المرضِ فلا يَشفَى؛ لِأَنَّ المريض الأوّل قابِلٌ مؤمنٌ بتأثيرِهَا والثانيَ لَيْسَ مؤمنًا بتأثيـرها فلا تَنْفَعه، فلا بدَّ فِي الأُمُـورِ من قابليّةٍ، يعني مَحَلًّا يَقْبَـلُ هَذَا الشَّيْء، وإذا لم يَقْبَلْ فلا يُمْكِن أن يُلائِمَه.

وهَذَا كما أَنَّهُ فِي الأُمُورِ الشَّرْعِيَّة، كذلك أيضًا فِي الأُمُورِ الْقَدَرِيَّة، فلو أَنَّنا زَرَعْنا قلبًا فِي إِنْسَانٍ، ونفرَ منه الجسمُ فلا يبقَى، بل يموتُ، أو زَرَعْنَا كُلْيَة فِي إِنْسَانٍ ونفرَ مِنْهَا الجسمُ، فإنها لا تَبْقَى، فتَتَعَفّن ويموت، فكل شَيْء لَا بُدَّ أن يَكُون المحلُّ قابلًا له، فإنْ لم يقبلْه فلا مكان له.

فهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعْرَضوا عنِ الْقُرْآن إِعْرَاضُهُمْ لَيْسَ مَعْنَاهُ النَّقْص فِي الْقُرْآن، فالْقُرْآن حقٌّ بَيِّنٌ واضحٌ، لكِن البلاء مِنهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجُوب التوكُّل عَلَى اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ والأَصْل فِي الأَمْرِ الوجوبُ، ومعنى التوكُّل سَبَقَ تفسيرُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنّ بالتوكُّل عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَتيَسَّر الأُمُورُ؛ لِأَنَّ الرَّسُول ﷺ يُكَابِد مِنْ عنادِ بني إسرائيلَ وغيرِهم، فأمر الله بالتوكُّل عليه؛ لِأَنَّ الله ذكرَ فائدةَ التوكُّل فِي قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، فبالاعتمادِ عَلَى اللهِ تَتيَسَّر الأُمُورُ، وباعتماد الْإِنْسَان عَلَى نفسِهِ يحصُل الخِذلان.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥]، مَعَ أن الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ معهم، ومع أَنَّهُم خَيْرُ القرونِ وأفضلُ أهلِ الْأَرْض، فلمّا قَالُوا: «لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ»(١) حَصَلَ هَذَا الأَمْر.

فيَتَبَيَّن بهَذَا أنّ مَنِ اعتمدَ عَلَى نفسِهِ فِي حصولِ مَقصودِهِ أو دَفْعِ ضَارِّهِ فَإِنَّهُ يُخْذَلُ، ولهَذَا أمر اللهُ رسوله بالتوكُّل عَلَى الله فِي هَذَا المقام -مَقام النِّزاع وبَيَان الحَقّ لبني إسرائيلَ- وَهُوَ يكابد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَسليةُ الرَّسُولِ ﷺ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾.

---

(١) رواه أبو عوانة في مسنده (٦٧٥٤)؛ وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٧٧٣) وانظر: السيرة النبوية لابن هشام (٥/ ١١٣)؛ زاد المعاد (٣/ ١١١).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ والخامِسَةُ: شَهادة الله تَعَالَى لِما جاء به الرَّسُول بأنّه حقّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ ومن هَذِهِ الفائدةِ نَستفيد فائدةً أُخرى، وهي: الترغيبُ فِي سلوكِ طريقِ النَّبِيّ ﷺ ما دامَ حقًّا؛ لِأَنَّ كُلّ إِنْسَانٍ عاقلٍ يَختار الحَقَّ عَلَى الباطلِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فضيلة النَّبِيّ ﷺ حَيْثُ كَانَ مَسْلَكه الحَقّ المُبِين؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ فهَذَا فِيهِ شَهادة منَ الله وتزكيةٌ للرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وَهُوَ يَتَضَمَّن فضيلةَ الرَّسُولِ ﷺ؛ لِأَنَّ الشهادةَ مِنَ اللهِ أَنَّهُ عَلَى الْحَقّ المُبين.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن كُلّ ما خالفَ ما كَانَ عليه الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فَهُوَ باطلٌ؛ لأنّنا لو قُلْنَا: إنَّهُ حقٌّ لَلَزِمَ الجمعُ بين النقيضينِ، فلا يمكن أن يَكُونَ ما كَانَ عليه الرَّسُول حقًّا وهَـذَا حقّ، فلا يُمْكِن وَهُوَ يخالفه؛ إذ هَـذَا جمْع بين النقيضينِ، فلا يُمْكِن أن يَكُون الشيئانِ المتناقضانِ كُلّ منهما حقّ، فلَا بُدَّ أن أحدهما هُوَ الحق، ولهَذَا يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، ويقول تَعَالَى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ [سبأ:٢٤]، إحداها ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]، وبهَـذَا نعرف أن جميع ما خالـف ما كَانَ عليه الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فَهُوَ باطل، وَهُوَ فِي النَّار كما قَالَ الرَّسُول ﷺ: «**كُلّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**»(١).

فإن كانت المخالَفَةُ تامَّةً فَهُوَ باطلٌ كلّه، وإن كانت المخالفة جُزْئِيَّة كَانَ فِيهِ منَ الباطلِ بِقَدْرِ ما خالفَ ما كَانَ عليه الرَّسُول ﷺ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: ظهور أحقيَّة ما كَانَ عليه الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَنَّهُ حقّ لَيْسَ به خَفَاء؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾.

---

(١) رواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، حديث رقم (٣٩٩٣)؛ وأحمد (٣/ ١٢٠) (١٢٢٢٩)، عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ بَيَان الحَقّ لا يَلْزَم منه أن يَكُونَ بَيِّنًا لكلِّ أحدٍ، فإن الخفافيشَ تَعْمَى بِضِيَاء النَّهارِ، فلا يَلْزَم من كونِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الحَقِّ المُبِين أن لا يُعْرِض عنه أحدٌ، ولهَذَا أعقبه بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني لا تظنَّ أن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعْرَضوا أَعْرَضوا لأنك عَلَى باطلٍ، بل لعدمِ قابليّة المَحَلِّ، وكما هو معروف أن الشَّيْءَ وإنْ كان تامًّا إذا لم يَجِدْ مَحَلًّا قابلًا لم يَكُنْ له تأثيرٌ، فرجلٌ معه سيفٌ مُصْلَتٌ، وحادٌّ للغايةِ، وأمامه عمودٌ من حديدٍ صُلْب، وَهُوَ يَنْتَخِي[1] ويَقُولُ[2]:

أنـا ابـنُ جَـلَا وَطَـلَّاعُ الثَّنَايَـا .....

ويَضْرِب هَذَا الصُّلب بالسيف يريد أن يقطعَه، فهل ينقطع هَذَا؟

نَقُول: لا، لِعَدَمِ قابليَّة المَحَلّ، فالْآنَ السَّبَب موجودٌ: سيف صارِم، ورجل شجاعٌ، ورجل يعزِّز نفسه ويَتَشَجَّع ويَصِيح بهَذَا العمودِ منَ الحديدِ، وطبعًا إذا صار بهَذِهِ الحالةِ سيَضْرِب بقوّة، ومع ذلك لم يؤثِّر؛ لِأَنَّ المَحَلّ غير قابل.

فما كَانَ عليه الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ منَ الحَقّ المُبِين، وَهُوَ حقّ مُبين بلَا شَكّ بَيِّن ظاهِر، وعدمُ سماعِ هَؤُلَاءِ له لَيْسَ لِخَلَلٍ فيه، فالسَّبَب تامّ، لكِن الخَلَل فِي المَحَل، فهو غير قابل لهَذَا الحقّ، ولهَذَا ما أحسنَ هَذِهِ الآيَةَ بعدَ الآيَةِ الَّتِي قبلها: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فلا تظنَّ أنَّك لستَ عَلَى حقٍّ، لكِنَّ هَؤُلَاءِ مَوْتَى.

• • ۞ • •

---

(١) أي يفتخر.

(٢) البيت لسحيم بن وثيل الرياحي، انظر الأصمعيات (ص:١٧).

الآيــة (٨٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل:٨٠].

قَالَ المُفَسِّر: [﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ الدِّين البيِّن، فالعاقبةُ لكَ بالنصرِ عَلَى الْكُفَّار، ثُمَّ ضَرَبَ أمثالًا لهم بالموتَى وبالصُّمِّ وبالعَمَى فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾].

وهَذَا مَثَل كمـا قَالَ المُفَسِّر؛ لِأَنَّ الرَّسُول ﷺ ما خرجَ إِلَى المقابرِ يَدعو أهلَ القبورِ حَتَّى يُقَال له: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وإنما دعا الأحياءَ.

وبالنِّسْبَةِ لدعاءِ الأحياءِ فإنَّ النَّاسَ انْقَسَمُوا فِي هَذِهِ الدَّعْوَةِ إِلَى قِسمينِ: قِسمٌ قَبِلَها واطمأنَّ إليها فَهُوَ حيٌّ، ولهَذَا قَالَ الله تَعَالَى فِي الْقُرْآن: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس:٧٠]، لِيَتَبَيَّنَ أن المُراد بالحياةِ هنا حياة القلبِ وحياة الإيمان، لا الحياة الجسديَّة؛ لِأَنَّ مقابلة الشَّيْء بالشَّيْءِ تفيدُ، معناه ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ لَيْسَ حياةَ جسمٍ، لو كانت حياة جسمٍ لقال: ويحقّ القَوْل عَلَى الموتى، ولكِن قَالَ: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وبهَـذَا عرفنا أن كُلّ حياةٍ فِي مثل هَذَا السياق فالمُراد بها حياةُ القلـبِ، لا حياة الجِسْم.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ جمع ميِّت، والمُراد به هنا ميِّت القلب، أو نَقُول: إن المُراد به ميِّت الجسدِ، ويَكُون هنا تشبيهًا؛ أي: أن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تدعوهم

ولم يؤمنوا كالموتى، لو أتيتَ إِلَى ميتٍ وقلت: يا فلان، اعبدِ الله وآمِن بالرَّسُول ﷺ واتقِ الله، فإنه لا يَنتفِعُ، كالحَجَر لا ينتفع، ولَا شَكَّ أنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قرَّر الحَقّ عَلَى الَّذِينَ أُلْقوا فِي قَليبِ بدرٍ وقال لهم: «**هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**»(١)، وقال: «**لَسْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ**»(٢) لكِن هَذَا عَلَى سبيلِ التوبيخِ، لا عَلَى سبيل الدَّعْوَةِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ مهما كَانَ لا يمكن أنْ يُجيبوا فِي هَذِهِ الحالِ إجابةَ دعوةٍ.

ولهَذَا فالكافرُ لا يَنتفع انتفاعَ ثوابٍ بما يسمع عند قبرِهِ من تلاوةٍ أو ذِكر، وبه نَعرِف بدعة هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ابتدعوا القراءة عَلَى القبورِ، يَظُنُّون أن الميِّت يَنتفع، فنَقُول: لا يمكن أن ينتفعَ انتفاعَ الثوابِ، أَمَّا انتفاع تَخْفِيف عِقاب فهَذَا ربما يَنْفَع، لكِن لما لم يَرِدْ؛ فصار منَ البِدَع، وإلّا فهم يزعمون أن ذلك يخفِّف العذاب؛ لِأَنَّ الرَّسُول ﷺ قَالَ فِي الجريدتين: «**لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا**»(٣)، وقَالُوا: إن العِلَّة فِي ذلك أَنَّهَا قبل اليُبْسِ تُسَبِّح الله، فيُخَفَّف عنه لكونِهِ يُسَبِّحُ عندَ قَبْرِهِ، ولكِن هَذَا لَيْسَ بصحيح.

إِذَنْ: قوله: ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يَحتمِل أن يُراد بالموتَى هنا مَوْتَى القلوب، وحينئذٍ فالآيَةُ لَيْسَ فيها تشبيهٌ، أو أَنَّهُم مَوتَى الأجسامِ، فيَكُون هَؤُلَاءِ مُشَبَّهِين بالموتَى.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النَّار عليه، حديث رقم (٢٨٧٤)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، حديث رقم (٣٧٥٧)؛ ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النَّار عليه، حديث رقم (٢٨٧٤)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب عذاب القبر من الغيبة والبول، حديث رقم (١٣١٢)؛ ومسلم، كتاب الطهارة، باب الدَّلِيل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، حديث رقم (٢٩٢)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾: ﴿ٱلصُّمَّ﴾ مَفْعُول أوَّل، و﴿ٱلدُّعَآءَ﴾ مَفْعُول ثانٍ، وفاعل ﴿تُسْمِعُ﴾ مُسْتَتِر وُجُوبًا، قال: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ يَعْنِي: لا تجعل الصُّمّ الَّذِينَ لا يَسمعون لا تَجْعَلهم يَسْمَعُون دعاءَكَ، والمُرادُ بالدعاءِ الطَّلَب، لَيْسَ دعاء الله، يعني لو دَعَوْتَ أصمّ وقلتَ: يا فلانُ يا فلانُ؛ فإنه لا يسمع.

وقوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ هل هُوَ دعاء الله تَعَالَى، يعني أنك إذا دعوتَهم لا يسمعون، أو الدعاء طَلَبهم؟

نَقُول: المُراد طلبهم، فالمُراد: لو دَعَوْتَهم ما سَمِعوك، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣]، يعني دعوتكم إيَّاه، ودعوته إيَّاكم، فيشمل الأَمْرينِ عَلَى القَوْلِ الصَّحيحِ.

أيضًا إذا كانوا صُمًّا ووَلَّوْا مُدْبِرِينَ يَكُون هَذَا أبلغَ؛ لِأَنَّ الأصمَّ إذا كَانَ مُقابلًا لكَ ربَّما يَفْهَمُ الخِطَابَ بحركاتِ الشفتينِ، لكِن إذا وَلَّى مُدْبِرًا لو تَرْمِي المدافِعَ خَلْفَه لا يَسْمَعُ، ولهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾، وهَذَا غاية ما يَكُون مِن بُعْدِ السمع؛ والحقيقةُ أنَّ هَؤُلَاءِ حالُهم كحالِ هَؤُلَاءِ الصُّمِّ المُدْبِرين؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ مُعْرِضون عنِ الحَقّ غير قابلينَ له، فلذلك صار هَذَا التشبيهُ بهم من أبلغِ ما يَكُونُ، فهُم صُمٌّ غيرُ سامعينَ، ومع ذلك غيرُ مُقْبِلِينَ؛ لِأَنَّ الأصمَّ إذا أقبلَ عليك كما قلتُ رُبَّما يَفْهَم منك بعضَ الشَّيْءِ، لكِن إذا كَانَ مُدْبِرًا فليسَ فِيهِ رجاءٌ ولا أَمَل، فقوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ أقربُ ما يَكُونُ للتمثيلِ والتشبيهِ، يعني شَبَّهَهُم برجلٍ أصمَّ وَلَّى مُدْبِرًا، فكونها تَشبيهًا أقربُ، وإلَّا هنا يجوزُ أنْ نَقُولَ: إنَّهُم صُمٌّ وإنَّ السمعَ انتفَى عنهم لانتفاءِ فائدتِهِ، والشَّيْء قد يُنْفَى لانتفاءِ فائدتِهِ كما فِي قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١].

قوله: ﴿ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيها قراءتانِ [بتحقيقِ الهمزتينِ]، ﴿ٱلدُّعَآءَ إِذَا﴾، [وتسهيل الثَّانِيَةِ بينها وبينَ الياءِ]، يعني تُسَهَّلُ الهمزةُ الثَّانِيَةُ حَتَّى تكون بينَ الهمزةِ والياءِ، فتَجْعَلها ليستْ ياءً خالصةً ولا همزةً خالصةً.

قوله: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ التَّوَلِّي هُوَ الإدبارُ، وَعَلَى هَذَا فتكونُ: ﴿مُدْبِرِينَ﴾ حالًا مُؤَكِّدَةً للعاملِ أو لصاحبِ الحال؟

نَقُول: للعاملِ؛ لِأَنَّ نفسَ التولِّي إدبارٌ، مَثَلُهَا قولُه تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء:١٨٣]، فـ(مُفْسِدِينَ) حالٌ منَ الواوِ، وهي مؤكِّدةٌ للعاملِ؛ لِأَنَّ العُثُوَّ هُوَ الفسادُ.

هنا ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾: ﴿مُدْبِرِينَ﴾ حالٌ من الفاعلِ، لكِن ليستْ مؤكِّدة للفاعلِ؛ لِأَنَّ الواو دالَّة عَلَى الجمعِ، فلو جاءتْ بلفظِ: (أجمعينَ) لكانتْ مؤكِّدة للفاعلِ، لكِن جاءتْ بلفظِ: ﴿مُدْبِرِينَ﴾ فهي مؤكِّدة للعاملِ ﴿وَلَّوْاْ﴾. فيكُون هَذَا فِيهِ تأكيدانِ: التولِّي والإدبار، مَعَ أنَّ التولِّيَ هُوَ الإدبارُ، لكِن قد يَكُونُ المتولِّي فِيهِ رجاءٌ وأملٌ، يَتَوَلَّى وَهُوَ يَلْتَفِت بقلبه إليك، لكِن إذا كَانَ مُدْبِرًا لا يلتفت؛ أي إدبار جَسَدِيّ وقلبيّ وَهُوَ أصمُّ، فيكُون هنا فِيهِ ثلاثةُ موانعَ للقبولِ أو للسماعِ، وهي: الصَّمَم والتولِّي والإدبارُ.

• • ۞ • •

الآيــة (٨١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل:٨١].

قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾ قولُه: ﴿بِهَٰدِى﴾ فِيهِ إشكالٌ من الناحيةِ النحْويَّة، قَالَ: ﴿بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾ (هادي) اسمُ فاعلٍ، واسمُ الفاعلِ يعملُ عملَ الفِعْل، وهنا ما نَصَبَ ﴿ٱلْعُمْىِ﴾ لِأَنَّهُ مضافٌ إِلَى مَفْعُوله مَعْنًى، وَلَيْسَ كقولِه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة:٢٥١]، لِأَنَّ ﴿دَفْعُ ٱللَّهِ﴾ مضافة إِلَى فاعلها، وهنا مضافة إِلَى مَفْعُولها.

الإشكال الثاني: قوله: ﴿ٱلْعُمْىِ﴾ بالكسرِ، ونحنُ قُلْنَا: إنَّ الاسمَ إذا كَانَ منقوصًا فَإِنَّهُ لا يَظْهَرُ عليه إِلَّا الفتحةُ، وهنا ظهرتِ الكسرةُ عَلَى الياءِ.

إِذَنْ: هَذَا لَيْسَ منقوصًا؛ لِأَنَّ المنقوصَ كُلّ اسمٍ مُعْرَبٌ آخرهُ ياءٌ لازمةٌ مكسورٌ ما قَبْلَها، وهَذِهِ ساكنٌ ما قبلها، إذن لَيْسَ منقوصًا.

قوله: ﴿بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾ جمعُ أَعْمَى ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾، قوله: ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ هلْ هِيَ مُتَعَلِّقة بـ(العُمْي) أو بـ(هادي)؟

نَقُول: بـ(هادي) بلَا شَكّ.

وقال بعضهم: متعلِّقة بـ﴿ٱلْعُمْىِ﴾، وتكون ﴿عَن﴾ هَذِهِ للمجاوزةِ؛ كقولِهِ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود:٥٣]، أي أَنَّهُم عُمْيٌ بسببِ ضَلالتهم.

ولكِنَّه لَيْسَ بصحيحٍ، بل ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ(هادي)، ويَكُون (هادي) بمعنى صارفٍ؛ لِأَنَّ الهدايةَ تَتَضَمَّنُ أمرينِ: الصَّرْف عنِ الضلالِ، والدلالة عَلَى الحقِّ، فيقول: ما أنتَ بصارفٍ هَؤُلَاءِ عن ضلالتهم إِلَى الحقِّ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِن﴾ ما ﴿تُسۡمِعُ﴾ سماعَ إفهامٍ وقَبُولٍ ﴿إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الْقُرْآن ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ مُخْلِصُون للهِ تَعَالَى بِتَوْحِيدِهِ].

قوله: [﴿إِن﴾ ما]، أي (إنْ) بمعنى: (ما)، ونحن ذكرنا قَبْلُ أن ﴿إِن﴾ تأتي لعدةِ أمورٍ: فتأتي شرطيَّة، وتأتي نافيةً، وللتَّوكيدِ، وهي المخفَّفَةُ مِنَ الثقيلةِ، وتكون زائدةً، فالزائدة فِي قوله[1]:

بَنِـي غُدَانَـةَ مَـا إنْ أَنْـتُمُ ذَهَـبٌ ... وَلَا صَرِيـفٌ وَلَكِـنْ أَنْـتُمُ الخَـزَفُ

فقوله: (ما إنْ أَنْتُمُ) أي: ما أنتم، ولهَذَا قَالَ ابن مالِكٍ[2]:

إِعْمَالَ لَيْسَ أُعْمِلَتْ (مَا) دُونَ (إِنْ) ... مَـعَ بَقَـا النَّفْـيِ وَتَرْتِيـبٍ زُكِـنْ

إعمال (ما) دون (إنْ) يَقْصِد بـ(إنِ) الزائدة، ومَثَّلُوا لها بالبيتِ السابقِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الميِّتَ لا يَسْمَع، والمُراد بالميِّت هنا مَيِّت القلبِ، أو الموتى مَوْتَى الأجسامِ عَلَى سبيلِ التمثيلِ. فإذا كَانَ ميِّتَ القلبِ فالأَمْرُ ظاهرٌ أَنَّهُ لا يَسْمَعُ سماعًا يَنْتَفِع به، وإلَّا فَهُوَ يَسْمَعُ سماعَ إدراكٍ لَكِنَّهُ لا يَنْتَفِعُ به.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: استدلَّ بهَذِهِ الآيَةِ مَن قَالَ: إنَّ الموتى فِي قُبُورِهِم لا يَسْمَعُون.

---

(١) من شواهد الأشباه والنظائر (٣/ ٣٤٠)، وأوضح المسالك (١/ ٢٧٤)، والأشموني (١/ ٢٥٤).

(٢) ألفية ابن مالك - فصل في ما ولا ولات وإن المشبهات بليس (ص: ٢٠).

وهَذِهِ المسألةُ اختلفَ فيها أهلُ العلمِ، مِنهم مَن قَالَ: إنَّ الموتى يَسمعون ولكِن لا يُجيبونَ، ومنهم مَن قَالَ: إنَّهُم لا يَسمعون، وَيَقْبَلُ ما وردتْ به السنَّة من سماعهم لكِنّه يَقْصُرُهُ عَلَى ذلك، فيقول: فيما عَدَا ذلك لا يَسْمَعُ الميتُ، والسنَّة وردتْ بأنَّ الميِّتَ إذا دُفِنَ وتولَّى عنه أصحابُه فَإِنَّهُ يَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ[1]، والسنَّة وردتْ بما ثبتَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ وقف عَلَى أصحابِ قَلِيبِ بَدْرٍ من المشركينَ وجعلَ يُؤَنِّبُهُم: «**يَا فُلَانَ ابْنَ فُلَانٍ، يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ، بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ: هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا؟**». فقَالُوا: يا رسولَ اللهِ، كيفَ يَسْمَعُون وأنَّى يُجِيبُوا وقد جَيَّفُوا؟ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ**»[2]، فهَذَا الكَلامُ الْآنَ والمناداةُ كان عندَ الدفنِ أو عند إلقاءِ الميِّت أو تسليمِهِ للآخرةِ، فلا يَقتضي أن يسمعَ كُلّ وقتٍ.

ومن العُلَماءِ مَن قَالَ: إنَّهُ يَسْمَعُ كُلَّ وقتٍ، كشيخِ الإِسْلامِ ابنِ تَيْمِيَّة[3]، ويَستدِلُّون بالحديثِ الَّذِي رواه ابنُ عبدِ البَرِّ وصَحَّحَهُ، وهو: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُرُّ بِقَبْرٍ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ فَرَدَّ السَّلامَ**»[4]، فيُصَحِّحُونَ هَذَا الحديثَ، لكِن بعضهم يُضَعِّفه ويقول: إنَّهُ لا يَصِحّ[5]، ولكِنَّ هَذَا الحديثَ لا يَنبغي

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، حديث رقم (١٢٧٣)؛ ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النَّار عليه...، حديث رقم (٢٨٧٠)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٦٢-٣٦٥).

(٤) الاستذكار لابن عبد البر (١/ ١٨٥) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. رواه الصيداوي في معجم الشيوخ (٣٣٤)؛ والخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ١٣٧)؛ وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٧/ ٦٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) انظر: العلل المتناهية (٢/ ٩١١).

أنْ يَكُونَ هُوَ رَكيزةَ مَن يَقُول: إن الموتى يَسمعونَ، بل إنَّنا إذا قُلنا: الموتَى يَسمعونَ، قد نستدلّ بحديثٍ أصحّ مِن هَذَا، وَهُوَ ما ثبتَ عن النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ يزورُ المقبرةَ ويقول: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»[1]، وتوجيه السلام إليهم فِي الخطابِ يَدُلّ عَلَى أَنَّهُم يسمعونَ، وإلَّا لكانَ يَقُول: السلامُ عَلَى أهلِ الديارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، ولا يَقُول: عليكم.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: إن هَذَا من بابِ قوَّة الاستحضار؟

قُلْنَا: قوَّةُ الاستحضارِ لا تَحتاج إِلَى الدُّنُوِّ، ولهَذَا نحن نَقُول: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ» وإن كنَّا بَعيدينَ، ولا يُسَنُّ أن نَقُولَ الْآنَ هنا: السلامُ عليكم أهلَ الديارِ منَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى نَحْضُرَ إليهم، فدلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُم يسمعونَ.

يَبقى عندنا: إذا كانوا يَسمعون، فما هُوَ الجوابُ عن هَذِهِ الآيَةِ ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟

نَقُول: المُراد بالسماعِ سماعُ القبولِ إذا كَانَ المقصودُ بالموتى موتى القبورِ، أو السماع الَّذِي تَحْصُلُ به الإجابةُ، وسماعُ الإدراكِ الدنيويِّ هَذَا لا يُمْكِن، يعني لَيْسَ سماعُ الميِّتِ لِما يَتكلَّم به الْإِنْسَان كإدراكِ الحيِّ؛ بل هُوَ سماعٌ لا نعرف كيفيَّته، إِنَّمَا هُوَ سماع لا يمكِن أنْ يُجِيب معه، إِلَّا إذا أرادَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إحياءَهُ وتكلَّم ونطقَ فهَذَا يُمْكِن، مثل صاحب البقرةِ فإنَّ صاحبَ البقرةِ ضَرَبُوه ببعضها فأحياه اللهُ وتكلَّم ومات، ولكِنَّه لم يَتكَلَّمْ ولم يُجِبْ إِلَّا بعدَ أنْ حَيِيَ حَياةً دنيويَّةً ثُمَّ أماته الله.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما وجه الدلالة من حديثِ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُرُّ بِقَبْرٍ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يُقَال عند دخول القبر والدعاء لأهلها، حديث رقم (٩٧٤)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ فَرَدَّ السَّلَامَ»؟

فالجواب: وجهُ الدلالةِ من الحديثِ قوله: «إِلَّا رَدَّ عَلَيْهِ رُوحَهُ» فكلَّما سلَّم عليه أحدٌ ردَّ الله عليه رُوحه وعرَفه، إذن هُوَ يسمع.

على كُلِّ حالٍ: الموتى لا يَسمعونَ كُلّ كلامٍ، فمثلًا لو مررتَ أنتَ وصاحبٌ لكَ بجوارِ قبرٍ وأنتما تتكلمانِ لا يَلْزَم من هَذَا أَنَّهُم يسمعونَ، لا يسمعون إِلَّا الخطابَ الموجَّه إليهم، وإن كَانَ ظاهرُ كلامِ الفقهاءِ أَنَّهُم يَسمعون حَتَّى ما لا يُخاطَبون به.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هم يسمعون سلامنا فقطْ، وإذا كلّمناهم مرةً أخرى لا يسمعون؟

فالجواب: يَسمعون مُطْلَقًا؛ لِأَنَّهُ إذا كَانَ السَّبَب فِي هَذَا السماعِ -الخطاب- خاطبناهم، وما دام الخطابُ إذا سَمِعُوه مرةً سمعوه مرةً أخرى فما المانِع.

وَلَوْ قِيلَ: إن الرُّوح تُنْزَع بَعْد السلام؟

نَقُول: الظَّاهرُ أَنَّهَا إذا رُدَّت فإنها إذا انتهى السلام لم تَسْمَعْ، فنحن نَقُول: كلَّما خُوطِبوا ردَّ اللهُ عليهم أرواحَهم فسمِعوا.

بَقيَ أن يُقالَ: هل يَسمعون بدونِ مخاطبةٍ؟

ظاهر كلام الفقهاءِ أيضًا أَنَّهُم يَسمعون، ولهَذَا قَالُوا: إن الميّـتَ يتأذَّى بفعل المنكَرِ عندَه من قولٍ أو فعلٍ، وَعَلَى رأيِ الفقهاءِ -ولا أدري ما مُسْتَنَدُه- يَسمعون حَتَّى ما لم يُخاطَبُوا به، وعليه أيضًا يَكُون الْإِنْسَان إذا شَرَّفَ القبرَ بالأحجارِ الَّتي تُلْقَى عليه أو بالكتاباتِ أو بغير ذلك فإن الميتَ يتأذَّى به؛ لِأَنَّ هَذَا مِنَ الْمُنْكَر، فتشريف القبرِ وتمييزه عَلَى غيرِهِ من القبورِ هَذَا منكَر ولا يجوزُ، فعلى كلامِ الفقهاءِ يتأذَّى الميِّت

بذلكَ، ويَكُون هَذَا الَّذِي أرادَ تشريفَ ميتِه هو فِي الحقيقةِ آذاهُ، وَأَمَّا سَماع الميّتِ صَبَاحَ الجُمُعة فغيرُ صحيحٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ مَن لم يَقْبَلِ الحَقّ فَهُوَ بمنزلةِ الأصمِّ الَّذِي لا يَسْمَعُه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الجوارحَ والحواسَّ الَّتِي لا يُنْتَفَعُ بها كالمعدومةِ، ووجهُ ذلك: أن هَؤُلَاءِ لهم آذانٌ ولهم سمعٌ، لكِن لَمَّا لم يَنْتَفِعوا به صَاروا صُمًّا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيَان شِدَّة إعراض هَؤُلَاءِ عنِ الحقِّ؛ لِأَنَّهُم صُمٌّ مُوَلُّون مُدْبِرون، وهَذَا أبعدُ ما يَكُونُ عنِ السماعِ، فالأصمُّ إذا كَانَ مُقْبِلًا إليكَ قد يَفْهَم منك ما يَفْهَمُه منَ الإشاراتِ والحركاتِ فيَنْتَفِع بذلكَ، ولو كَانَ أصمَّ لكِن إذا ولّى مَعَ الإدبارِ -ولى ببدنه وأدبر بقلبِه أو بالعكسِ- فإن ذلك يَكُونُ أشدَّ استحالة فِي سماعِهِ ممَّا إذا كَانَ أصمَّ مَعَ الإقبالِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الْإِنْسَانَ -والعياذُ باللهِ- إذا ولَّى مُدْبِرًا عنِ الشرعِ فَإِنَّهُ قد يُعاقَبُ بالصممِ عن سماعِ الحَقّ، بِحَيْثُ إِنَّهُ لا يَنتفعُ بموعظةٍ ولا نصيحةٍ، وهَذَا هُوَ الغالبُ، فالغالبُ أن الْإِنْسَان إذا كَانَ لَيْسَ عنده إقبالٌ عَلَى الحَقّ أن يُحْرَم الحَقَّ، حَتَّى لو تكلَّم النَّاس وفعلوا وأقاموا الأدلَّة ما انتفع بذلك.

ونضربُ لكم مثلًا الْآنَ بالمُرابين والمُتَحَيِّلِين عَلَى الرِّبا، هم يَسمعون المواعظَ لكِنَّهم مُوَلُّون، ويَرَوْنَ أن ما هم عليه لَا بُدَّ أن يفعلوه، ولذلك ما وُفِّقوا للانتفاع بها، بل بَقُوا عَلَى ضلالهم، والسَّبَب فِي هَذَا أَنَّهُم لَيْسَ عندهم أيُّ إقبالٍ من الإقبال الَّذِي يَنْفَعُهم.

فلهَذَا نَقُول: إن هَذِهِ الآيَةَ تدلُّ عَلَى أنَّ الْإِنْسَانَ إذا ولَّى مدبِرًا عنِ الْحَقِّ فَإِنَّهُ لا يُوَفَّق لِسَماعٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الْمُعْرِض عنِ الْحَقّ بِمَنْزِلَةِ الأعمَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يَملِك هدايةَ الخلقِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ ولا يعارِض هَـذَا قول اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، لِأَنَّ الهدايةَ المثبَتة غيرُ الهدايةِ المَنْفِيَّة، الهداية المثبتة هداية الدلالةِ والعلمِ والبَيَان، فالرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ معلِّم ومُبَيِّـن ودالّ للخلقِ عَلَى الحقِّ، وَأَمَّا التَّوفيق لذلك فَهُوَ بيدِ الله.

فالجمع بين الهدايةِ المثبَتة للرَّسُول ﷺ والمنفيَّة عنه أن نَقُولَ: ما أُثْبِت للرَّسُول فَهُوَ هدايةُ العلمِ والبَيَان، وما نُفِيَ عنه فَهُوَ هدايةُ التَّوفيقِ والعَمَلِ، فلا يستطيع هَذَا أبدًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ هَؤُلَاءِ الجماعة الَّذِينَ أَعرضوا عنِ الْحَقّ قد أُقفلتْ عليهم طرقُ الخيرِ، فهم موتى القلوبِ، لم يَنتفعوا بقلوبهم، صُمُّ الآذانِ لم ينتفعوا بآذَانِهِم، عُمي العيونِ لم يَنتفعوا بعيونهم، والآيَاتُ إِمَّا عقليَّة أو مسموعة أو مرئيَّة، فالعقلية مَحَلّها القلبُ، وقد انتفى عنهم الانتفاعُ بها فِي قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، والمشهودةُ بالعيـنِ وقد انتفى عنهم الانتفاعُ بها فِي قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾، والمسموعةُ بالآذانِ انتفى عنهم الانتفاعُ بها فِي قوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾، فجميعُ الطرقِ الَّتِي تَحْصُلُ بها الهدايةُ فِي هَؤُلَاءِ كلها -والعياذُ باللهِ- مسدودةٌ مُغْلَقة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أَنَّ الَّذِي يَنتفِع بالآيَاتِ الَّتِي جاء بها الرَّسُول هم المؤمنون بها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

الفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّهُ كلَّما قوِيَ إيمان الْإِنْسَانِ بآيَاتِ الله قوِي انتفاعه بها؛ لِأَنَّهُ عُلِّقَ عَلَى وصفِ الإِيمانِ بهَذِهِ الآيَات فكلَّما قَوِيَ هَذَا الوصفُ قوي الانتفاعُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن الإِيمان يَسْتَلْزِمُ الإِسْلامَ؛ لقولِهِ: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾، وهل الإِسْلام يَستلزم الإِيمانَ؟

لا يَسْتَلْزِمه، قد يَكُون الْإِنْسَان مُسلِمًا وَلَيْسَ بمؤمنٍ، ولهَذَا قيل عند الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن رجلٍ: إِنَّهُ مُؤْمِنٌ. فقال: «**أَوْ مُسْلِمٌ**»[1]. فدلَّ ذلك عَلَى الفرقِ بين الإِيمانِ وبين الإِسْلامِ.

وكثيرٌ منَ المُسلِمين الْآنَ مسلمونَ، ولكِن ليسوا بمُؤْمِنِينَ، وكثير من المُسلِمينَ مُسْتَسْلِمُونَ وليسوا بمسلمينَ، فالمسلمونَ اليومَ إمَّا مُسْتَسْلِم أو مُسْلِم أو مؤمِن، أَقَلُّهُمُ المؤمنُ بلَا شَكّ، والمسلمُ المستسلِم كثيرٌ فِي البلادِ الَّتِي هي غير بلادنا، فأكثرهم مسلم بمعنى مستسلِم هُوِيَّةً فقطْ، ولهَذَا يأتي ناس من البلاد الأُخْرَى ويَقُولُونَ: لا نعرف أن نَتَوَضَّأ ولا نعرف أنْ نُصَلِّيَ، ولا نعرِف أوقات الصَّلَاة، ومع ذلك مكتوبٌ فِي الهُوِيَّة: مسلمٌ.

القسم الثَّالث: المسلمُ غير المؤمن، وهَذَا كثيرٌ فِي بلادنا، فهم مسلمون لكِن ليسوا بمُؤْمِنِينَ؛ والدَّلِيل عَلَى هَذَا أن الأَعْمالَ أو الأخلاق الَّتِي عُلِّقت بالإِيمانِ تَجِدُها

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وَكَانَ على الاستسلام أو الخوف من القتل، حديث رقم (٢٧)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه والنهي عن القطع بالإيمان من غير دليل قاطع، حديث رقم (١٥٠)، عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مفقودةً فِي كثيرٍ من هَؤُلَاءِ «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»(١) موجود هَذَا بقِلَّة، «مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا»(٢) انتفاء الغِشّ موجود بقلَّة، «لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»(٣) بقِلَّة، وامشِ عَلَى هَذَا.

المهمّ أنّ الإِيمان بالنِّسْبَةِ للمسلمينَ اليومَ قليلٌ، والإِسْلام كثيرٌ، والاستسلام أكثرُ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل المسلمُ المُسْتَسْلِم يدخل الجَنَّة؟

قُلْنَا: المستسلمُ يدخلُ الجَنَّة لِأَنَّهُ مسلمٌ شَرعًا، لكِن لم يَدْخُلِ الإِيمانُ قلبَه، فمآله إِلَى الجَنَّة، لكِن له معاصٍ، إِمَّا يُعَذَّب عليها أو يُعْفَى عنها.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين المسلمِ المستسلِم والمنافِق؟

قُلْنَا: المستسلمُ عنده إيمانٌ، وَأَمَّا المنافِقُ فليسَ عنده إيمانٌ إطلاقًا، فالمنافق قلبه خالٍ من الإِيمانِ والعياذُ بالله، فالمستسلم أرفعُ مِنَ المنافِقِ؛ لِأَنَّ المستسلم عنده اتجاهٌ للإِسلامِ حقيقةً، لكِن لَيْسَ عنده الشَّيْءُ الَّذِي عند المسلمِ الَّذِي يُنَفِّذُ الشرائع، وغالبًا يَكُونُ جاهلًا.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم (١٣)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدَّلِيل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، حديث رقم (٤٥)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النَّبِيّ ﷺ: «من غشنا فليس منا»، حديث رقم (١٠١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، حديث رقم (٥٦٧٠)، عن أبي شريح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، حديث رقم (٤٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الآيات كثيرةٌ ليستْ واحدةً؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وهي تنقسم إِلَى قسمينِ: آيَات كونيَّة وآيَات شرعيَّة. فما جاءت به الرُّسُلُ ونزلتْ به الكتب فَهُوَ آيَاتٌ شرعيَّة، وما كَانَ منَ الحوادثِ فَهُوَ من الآيَاتِ الكونيّة، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧]، هَذِهِ الآيَاتُ الكونيَّة، وقال تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف:٧]، هَذِهِ الآيَات الشَّرْعِيَّة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما وجهُ كونِ الآيَاتِ آيَاتٍ؟

قُلْنَا: لِأَنَّهَا دالَّةٌ عَلَى الله، فالآيَاتُ الكونيَّة دالَّة عَلَى الخالقِ مِن حَيْثُ القدرةُ والحِكْمَةُ والسلطانُ إِلَى غيرِ ذلكَ من معاني الرُّبُوبِيَّة.

والآيَات الشَّرْعِيَّة دالَّة عَلَى مُنَزِّلِهَا من حَيْثُ العدلُ والإصلاحُ؛ لِأَنَّ جميعَ الشرائعِ، ولَيْسَ شريعة الإِسْلام فقطْ الَّتِي جاء بها مُحَمَّدٌ ﷺ، كلّها تحاربُ الفسادَ وكلها تقرِّر الصلاحَ، لكِن شريعتنا تمتاز عَلَى غيرها بأنَّها تراعي المصالحَ الْعَامَّة.

• • ❁ • •

الآيــة (٨٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل:٨٢].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ حقَّ العذابُ أنْ يَنْزِلَ بهم فِي جملةِ الكفّار]، وهَذَا تفسيرٌ منه عَلَى أنّ الضَّميـرَ فِي قولِه: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعودُ إِلَى كفارِ مكَّة، ولهَذَا احتاج أن يقولَ: [فِي جملة الكفّار]، لأجل التوطِئَة لَمَا بعدَه ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، ويجوز أن يَكُون الضَّمير عائدًا إِلَى جميعِ النَّاسِ، أي ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ عَلَى النَّاسِ، ولا يَكُون المُرادُ بالقَوْلِ هنا القَوْل بالعذابِ، بل يجوز أن يَكُون المُراد به القَوْل بانتهاء الدُّنْيا، وتُحمَل الآيَة عَلَى الدابّة الَّتِي تخرج فِي آخِـرِ الزمانِ، وهي من أشراط الساعة.

قوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ نكَّرَهَا لِأَنَّهَا غيـر معروفةٍ، فكأنها دابَّة منفرِدة فِي نوعها.

قولـه: ﴿دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ هـل هِـيَ متعلِّقـة بـ﴿دَآبَّةً﴾ أو بـ﴿أَخْرَجْنَا﴾؟

الظَّاهـرُ أَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بـ﴿دَآبَّةً﴾، يَعْنِي: أخرجنا لهم دابَّـةً مِنَ الْأَرْض، لا من السَّمَاء.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا قُلْنَا: إنَّهَا متعلِّقة بـ﴿أَخْرَجْنَا﴾ أو بـ﴿دَآبَّةً﴾ هل يَخْتَلِف المَعْنى؟

نعم، يختلف المَعْنى، إذا قَالَ: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ يمكن أن ينزل مَلَكٌ فِي الْأَرْض، ثُمَّ يخرج مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ ما عُيِّن من أين تكون هَذِهِ الدابَّة، وَأَمَّا إذا قُلْنَا: ﴿دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فتَتَعَيَّن أن تكون من دوابّ الْأَرْض.

وقوله: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ يعني تكلِّم النَّاس، والكَلام هنا بمعنى الحديثِ، قَالَ المُفَسِّر: [أي: تكلِّم الموجودين حينَ خُروجها بالعربيَّة]، يجوز أن تكون بالعربيّة أو بغيرها.

عَلَى كُلِّ حالٍ: هِي تُكَلِّمُ النَّاسَ بكلامٍ يَعرِفُونَهُ، فهَذَا هُوَ المتبادر من الكَلامِ، ويمكن أن يقال: إنَّهُم إذا لم يُوقِنوا بآيَاتِ اللهِ يُسَلِّط اللهُ عَليهم السِّباع تأكلهم وتجرحهم، لكِن هَذَا بعيدٌ، وما رأيتُ هَذَا من كلامِ السلفِ، كلُّه من كلام المتأخِّرين.

ويرى بعض المفسِّرين أن المُراد بالكَلامِ هنا الجَرْح، تُكَلِّمُهُمْ يعني تُجَرِّحُهُم، أي: تَخْمِشُهم بأظفارها، قَالُوا: لِأَنَّ الكَلْمَ يأتي بمعنى الجرْحِ؛ كقولِهِ ﷺ: «مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَكَلْمُهُ يَثْعَبُ دَمًا»[1].

ولكِنَّ هَذَا القَوْل لَيْسَ بصحيحٍ؛ لِأَنَّ الأَصْل فِي الكَلامِ هُوَ النُّطْقُ، ولا معنى لكونها تُجَرِّح النَّاسَ. لكِن بماذا تكلمهم؟

قَالَ: [مِن جملةِ كلامها عنَّا ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾]، إِلَى آخرِه، قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من جملة كلامها عَنَّا] أي أَنَّهَا تقول عن اللهِ، عَلَى لِسانِ الدابَّة؛ لِأَنَّ قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من يجرح في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، حديث رقم (٢٦٤٩)؛ ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، حديث رقم (١٨٧٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ لا يستقيم أن يَكُونَ مِن كـلامِ الدابَّة عن نفسها؛ إذ إنَّ الدابَّة لَيْسَ لها آيات يَجِـب الإيقان بها، وإنما الآيَاتُ الَّتي يَجِب الإيقانُ بها لله، ولهَذَا يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عنّا ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أي كفَّار مَكَّة، وَعَلَى قراءةِ فتحِ همزةِ «أَنَّ» تُقَدَّر الباءُ بَعْد تكلمهم][1]، أي تكلّمهم بهَذَا الكَلام ﴿كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

استفدنا من كلام المُفَسِّـر (وَعَلَى قراءة فتح همزة أنَّ) أنَّ الأَصْلَ الَّذِي فسَّره بالكسر (تكلمهم إنَّ النَّاس) فيَكُون هَذَا مبتدأ الكَلام، وَعَلَى قراءة الفتحِ يَكُون عَلَى تقديرِ حرفِ الجرّ، أي: بأن النَّاس ﴿كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ المُرادَ بالنَّاسِ كفَّار مكَّة، هَذَا فِيهِ نظرٌ ظاهرٌ؛ بل إنَّ المُرادَ بالنَّاس الموجودون فِي ذلك الوقت الَّذِينَ وقعَ عليهم القَوْلُ فَأُخرجت لهم الدابَّة تُنْذِرُهم.

وَأَمَّا كونه يقال: إن كفار مَكَّة لا يُوقِنُونَ فلا حاجةَ إِلَى إخبارها عنهم، فإخبار الْقُرْآن عنهم أوكَدُ من إخبارِ هَذِهِ الدابَّة عنهم، فكلام المُفَسِّر هنا فِيهِ نظرٌ ظاهرٌ، وَلَيْسَ بصوابٍ أبدًا، بل هُوَ خطأٌ؛ فهي تكلِّم النَّاس الَّذِينَ وَقَعَ عليهم القَوْلُ حين خُرُوجِها، تُحَذِّرُهُمْ أن النَّاس كانوا بآيَات اللهِ لا يوقنون، هَذَا ما مشى عليه المُفَسِّر وأكثرُ المفسِّـرين عَلَى أن كلام هَذِهِ الدابة: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، ولهَذَا احتاج إِلَى تقدير (عنّا).

لكِنَّ ابن كثير استبـعدَ هَذَا القَوْل، وقال[2]: إنَّهَا تكلمهم وتُحَدِّثُهم بحديـثٍ مُسْتَقِلٍّ ما بُيِّنَ فِي الْقُرْآن، ويَكُون قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أو ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ هَذَا تعليلًا لِقَوْلِهِ:

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٥).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٥).

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ يَعْنِي: فليست الدابَّة هِيَ الَّتِي تقول للناس: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾؛ لِأَنَّ هَـذَا القَوْل لا يمكن أن تَنْطِـقَ به الدابَّة؛ إذ إنَّهُ لا يَصِحُّ أن يَكُون إِلَّا منَ اللهِ. لهَذَا أنكر هَذَا القَوْلَ، مَعَ أنَّ ابنَ جَرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختاره[1]، لَكِنَّهُ هُوَ عَلَى أنه مُخْتَصَر لابنِ جَريرٍ أنكرَ هَذَا، وقال: إنَّهَا تُكَلِّمُهُم بكلامٍ لم يُبَيَّن، وإن قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أو ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ بالفتحِ أو بالكسرِ، الجملة تعليل لِقَوْلِهِ: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

وقـوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، معنـى ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ يَقُـول المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا يُؤْمِنُون بالْقُرْآن المشتمِـل عَلَى البعثِ والحسابِ والعقابِ]، وتفسير الإيقان بالإِيمـانِ فِيهِ قُصُورٌ لَكِنَّهُ تقريبيٌّ؛ لِأَنَّ الإيقانَ أبلغُ منَ الإِيمانِ وأخصُّ منه، فَهُوَ درجةٌ عاليةٌ أعلى منَ الإِيمانِ، ولهَذَا قولُكَ: أيقنتُ بكذا، أبلغُ من قولكَ: آمنتُ به.

وهَذِهِ الدابَّة أوَّلًا: نبحثُ فيها هل هِيَ الدابَّة الَّتِي تخرج فِي آخِرِ الزمانِ والَّتي ذكرها النَّبِيّ ﷺ من علاماتِ الساعةِ أو دابَّة أخرى؟

يرى بعض العُلَماء أَنَّهَا هِيَ الدابة الَّتِي تكون فِي آخِرِ الزمانِ، ويرى آخرونَ أَنَّهَا دابَّة أُخرى، ولهَذَا جاءت فِي الحديثِ مُعَرَّفَة وجاءت هنا منكَّرَةً، فيقال: دابة واللهُ أَعْلَمُ بها هل هِيَ الَّتِي تكون من أشراط الساعة أو أَنَّهَا دابة مستقلَّة؛ لأَنَّنا لو نَعلَمُ أن الحديث بَعْد هَذِهِ الآيَةِ لقُلْنَا: إن الدابَّة فِي الحديث للعهدِ الذِّهْنِيّ، يعني الدابَّة الَّتِي عَرَفْتُمُوهَا وتَحَدَّث الله عنها، وحينَئذٍ تكون الدابَّة هنا هِيَ الدابة هناك، ولَكِنَّنَا لا نعلم، ولهَذَا التوقُّف أَولى؛ هل هِيَ هي أو غيرها.

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٢٠/ ١٤-١٧).

ثانيًا: هَذِهِ الدابَّة مُبْهَمَةٌ من حَيْثُ المكانُ ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لكِن من أيّ مكان تُخْرَج؟

وَرَدَتْ أحاديثُ لَكِنَّها ضعيفةٌ أَنَّهَا تَخْرُجُ من مكَّة من أَجيادٍ أو منَ الصَّفَا أو من مكان آخرَ[1]، المهم أَنَّهَا تخرج من مَكَّة، ولَكِنَّهَا أحاديث ضعيفة لا يُعتمَد عليها فِي العقيدة.

ثم هل هِيَ تُخْرَج حقيقةً من الْأَرْض فتَنْشَقّ عنها الْأَرْض وتخرج، سواء من مكَّة أو غيرها، أو أن المُراد بالإخراج هنا إبرازها وإظهارها، وأنها دابة كغيرها من الدوابّ، ثُمَّ تَتَبَيَّن بما يَحْصُلُ لها منَ النُّطق، ويَكُون هَذَا كقول الرَّسُول ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُكَلِّمَ السِّبَاعُ الْإِنْسَ**»[2]؛ لِأَنَّ السباع فِي آخرِ الزمانِ تكلِّم الإنس؟

هَذَا أيضًا مَحَلُّ تَوَقُّفٍ، ولذلك هَذِهِ الدابة نَكِرة لفظًا ومعنًى، فنحن لا نَعْرِفها تمامًا؛ لِأَنَّهَا ما وُصِفَتْ فِي الْقُرْآنِ أو فِي السنَّة أوصافًا بحيثُ يَجْزِمُ الْإِنْسَان بها.

كذلك هَذِهِ الدابَّة هل هِيَ من جِنْسِ الدوابِّ أو أَنَّهَا دابَّة معيَّنة عَلَى شكل معيَّن؟

تكلَّموا فِي هَذَا كلامًا طويلًا، وكل ما ذَكَرُوا إِنَّمَا هُوَ مأخوذٌ عن بني إسرائيلَ، ولا يمكن أن يُصدَّق، غاية ما هنالك أَنَّهُ يُحَدَّثُ به ولا يُصَدَّق ولا يُكَذَّب ولا يُعْتَمَد عليه فِي العقيدةِ؛ فذكروا عن آذانِها وذكروا عن عَينها وعن رِجلها أَشْيَاءَ غريبةً جدًّا.

المهم: أننا نُبْهِمُ ما أَبْهَمَهُ اللهُ، ولا نُعَيِّن ما لم يُعَيِّنْه الله ورسولُه، وحَسْبُنا أن نؤمنَ بأنه إذا وقعَ القَوْلُ عَلَى النَّاسِ فسوفَ يُخْرِجُ اللهُ لهم دابَّةً منَ الْأَرْض تُحَدِّثُهُم، وتكون

---

(١) انظر: مصنف ابن أبي شيبة (٣٧٢٨٦)، الفتن لنعيم بن حماد (٢/ ٦٦١-٦٦٦).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في كلام السباع، حديث رقم (٢١٨١)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هَذِهِ الدابَّة آيَةً عَلَى أنّ العذاب قد قَرُبَ وُقُوعُه منهم، هَذَا غاية ما يُسْتَدَلُّ عليه من هَذِهِ الآيَةِ.

فإِذَنْ: يَكُون قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أو ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ لَيْسَ من قول الدابّة عَلَى هَذَا التَّقْدير، بل هُوَ من قولِ اللهِ تعليـلًا لِقَوْلِهِ: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ يعني يُخْرِجها؛ لِأَنَّ النَّاس كانوا، وعليه فيَكُون مطابقة هَذَا التعليلُ للشـرطِ فِي قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يَكُون مطابقته مطابقة السَّبَـب للمسبّب، إذا كانوا لا يوقنون حينـئذٍ وقع عليهم القَوْلُ وحينئذٍ أُخرجتِ الدابَّة.

قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ المُراد بالآياتِ هنا الكونيَّة والشَّرْعِيَّة، لكِن الكونيَّة ألم يوقن بها الكفار؟ بلى، لَكِنَّهُ إيقانٌ لم يَنْفَعْهُمْ، والشَّيْءُ الَّذِي لا يَنْفَعُ يَصِحُّ أنْ يُنْفَى لعدمِ الانتفاعِ به.

قال: [وبِخُرُوجِها]، بخروج الدابَّة [يَنْقَطِع الأَمْرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكَرِ ولا يؤمن كافرٌ]، لِأَنَّهُ قد وقعَ عليهم القَوْلُ؛ وإذا صحَّ هَذَا التفسير فإنَّ معنى ذلك أن هَذِهِ الدابَّة من أشـراط الساعةِ؛ لِأَنَّهُ لا يَكُون الأَمْر كذلك إِلَّا فِي آخِـرِ الزمانِ بعدَ أن يَنزِلَ عيسى ﷺ ويبقى فِي الْأَرْض سبـعَ سنينَ، لا يَحْصُل بين اثنيـنِ عداوةٌ ولا شَحناءُ، ثُمَّ يُرْسِل الله رِيحًا باردةً من قِبَلِ الشامِ فتَقْبِض نفسَ كُلّ مُؤْمِنٍ[1] ويَبْقَى شِرارُ النَّاسِ، فِي خِفَّةِ الطيرِ وأحلامِ السِّبَاعِ[2].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، حديث رقم (٢٩٣٧)، عن النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى وقتله إياه وذهاب أهل الخير والإيمان وبقاء شرار الناس...، حديث رقم (٢٩٤٠)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فإذا كَانَ هَذَا الَّذِي فَهِمَهُ الْمُفَسِّر من هَذِهِ الآيَةِ بهَذَا الأَمْرِ؛ فإنَّ هَذِهِ الدابَّة يَكُونُ خُرُوجها بَعْد عيسى بنِ مَرْيَمَ؛ لِأَنَّهُ بَعْد ذلك يَقُول الْمُفَسِّر: إنَّهُ لا يؤمن كافرٌ ولا يُؤمَر بالمعروفِ ولا يُنهَى عنِ الْمُنكَر.

ولكِن موقفي فِي هَذَا أن أقولَ: اللهُ أَعْلَمُ؛ يعني أن هَـذِهِ المسألةَ من مسائل الغيب الَّتِي يَتَوَقَّف الْإِنْسَان فيها إِلَّا عَلَى ما يفيده ظاهِرُ الْقُرْآن، فنَقُول: إيماننا بهَذَا أن نَقُولَ: إنَّهُ إذا وقعَ القَوْلُ عَلَى النَّاس باستحقاقِ العذابِ أخرجَ اللهُ لهم هَذِهِ الدابَّة الَّتِي تُكلِّمهم ولا نزيد عَلَى هَذَا، ولا نَقُول: يَنقطِع الأَمْر بالمعروفِ والنهيُ عن المنكَر، ولا نَقُول: إنَّهُ لا يؤمن الكافر؛ لِأَنَّ ذلك أمرٌ يحتاجُ إِلَى توقيفٍ، كما أَوحَى الله إِلَى نوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود:٣٦].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: خُرُوج الدابَّةِ إذا وقعَ القَوْلُ عَلَى النَّاسِ، وذلكَ بأنْ كَفَروا وأَعْرَضوا عن دِينِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فأخرج الله لهم هَذِهِ الدابَّةَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هَذِهِ الدابَّة الَّتِي ذَكَرَ اللهُ مُبْهَمَة، فلا يُعْلَم صِفَتها ولا كيف تَخْرج ولا من أينَ تَخْرج، وما ذُكر من الآثارِ فِي ذلك فكلُّها ضعيفةٌ لا يُعَوَّل عليها، وحَسْبُنا أن نؤمنَ بما ذكرَ اللهُ تَعَالَى مُطلَقًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ، حَيْثُ كانتْ هَذِهِ الدابَّةُ تكلِّم النَّاس بكلامٍ يفهمونه، مَعَ أن الحيـواناتِ تَتكلَّم بكلامٍ لا يَفهـمه الإنسُ إِلَّا مَن عَلَّمه الله تَعَالَى مَنْطِقَها، كما فِي قِصَّة سُلَيْمَان.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيَان حِكمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الإنذار، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُنْـذِر النَّاس بالآيَاتِ الكونيَّة إذا لم تُفِدْهُمُ الآيَاتُ الشَّـرْعِيَّة، وهَذَا كثيـرٌ، كالكسوفِ

والزلازلِ والفيضاناتِ والصواعِقِ والحاصِبِ منَ السَّماءِ بالبَرد أو غيرِه، كُلّ هَذَا إنذارٌ بالآيَاتِ الكونيَّة إذا لم تُفِدِ الآيات الشَّرْعِيَّة، وقد قيل[1]:

الْعَبْـــدُ يُقْـــرَعُ بِالْعَصَـــا وَالْحُـــرُّ تَكْفِيـــهِ الْإِشَـــارَةُ

فالمؤمنُ الواعي الحيُّ يَكْفِيه ما فِي الْقُرْآنِ مِنَ الآيَاتِ العظيمةِ، ولكِن المُعْرِض اللئيم لا يَنْفَع فِيهِ إلَّا العَصَا، إلَّا الآيَات الكونيَّة الَّتِي تُخْضِعُه بغيرِ إرادته، هَـذَا إذا لم يَكُنْ أيضًا قلبُه ميِّتًا للغاية، فإنْ كان قلبُه ميتًا للغايةِ لم تَنْتَفِ حَتَّى الآيَاتُ الكونيَّة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ قِطعًا من العذاب تَنـزِل من السَّمَـاءِ، ﴿يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤]، وعاد لما رَأَوْهُ عَارضًا مستقبِلَ أوديتهم ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف:٢٤]، وَفِي الوقتِ الحاضر إذا رَأَوْا هَذِهِ العقوباتِ يَقُولُونَ: هَذَا أمر طبيعيٌّ، من فَيَضَانات طبيعيَّة وبراكينَ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ منَ الكَلامِ الَّذِي يَدُلّ عَلَى موتِ القلوبِ.

فإذَنْ: نَستفيد من هَذِهِ الآيَةِ: إنذار اللهِ تَعَالَى بالآيَاتِ الكونيَّة كمـا هُوَ عادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُعْطِي العلمَ حَتَّى البهائم، هَذِهِ الدابَّة تقول: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ عَلَى أحدِ القَوْلينِ فيها، والقَوْل الثاني: أن هَذَا الكَلام من كلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن الكَلام عَلَى الدابّة انتهى عند قوله: (تكلّمهم)، يعني كأنها مِنهم، ثُمَّ يُعَلِّلُ اللهُ هَذَا الإخراجَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فِيهِ أنَّ عدمَ الْيَقِينِ بآيَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سببٌ للهلاكِ، وَأَنَّهُ لا يَكفِي التردُّد أو الإيمان الضعيفُ، بل لَا بُدَّ منْ إيقانٍ، فالمتردِّدُ بما يَجِب الإيمانُ به

(١) مجمع الأمثال (٢/ ١٩).

ليسَ بمؤمنٍ؛ لِأَنَّهُ لم يُوقِنْ، بل لَا بُدَّ منَ الإيقانِ، وَأَمَّا التردد والشكُّ حَتَّى مَعَ ترجُّحِ ما ذكرَ اللهُ فَإِنَّهُ لا يفيدُ الْإِنْسَانَ، يَعْنِي: لو آمن إِنْسَان لكِن عنده بعضُ الشكِّ فإن ذلك لَيْسَ بمؤمنٍ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ منَ الْيَقِينِ بما يجبُ الإيمان به.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أصحاب الأَعْرَاف هلْ يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ عندهم نوعٌ مِنَ الشَّكِّ؟

فالجوابُ: لَيْسَ عندهم نوعٌ منَ الشَّكِّ، لكِن عندهم ضعفٌ فِي الانقيادِ وعدم عِلْم ما أنزلَ الله، وَأَمَّا لو كَانَ عندهم شكٌّ فما صاروا مُؤْمِنِينَ إطلاقًا ولا مسلمينَ أيضًا، فهَذَا نفيُ كمالِ الإِيمانِ لا نفيُ أصلِ الإِيمانِ، وَأَمَّا مَعَ الشكِّ فإن أصلَ الإِيمانِ لم يوجدْ، وَأَمَّا الإِيمانُ الاعتقاديُّ إذا لم يوجدْ كاملًا فَإِنَّهُ لا ينفعُ الْإِنْسَان، فالإِيمان يَكُون مَفقودًا عند الشكِّ فيه، فلَا بُدَّ من الإِيمانِ الجازِمِ، ولهَذَا مَن شكَّ فيما وعدَ اللهُ به، ومَن لم يُؤْمِنْ بخبرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا فَهُوَ كافرٌ؛ لِأَنَّ خبر اللهِ جَلَّ وَعَلَا يَجِب التَّصْديقُ به، ومَن شكَّ فِي واحدٍ مِن أركانِ الإِيمانِ الستَّة فَهُوَ كافرٌ أيضًا، لَا بُدَّ أن يؤمنَ، وأيضًا لَا بُدَّ ألا يَكُونَ عنده تردّدٌ فِي هَذَا، ولو كَانَ عنده انحرافٌ وسوءُ تصرُّف فيما يَجِبُ عَمَلُه، مثلًا قوله ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ**»(١)، فيؤمن الْإِنْسَان بالرَّسُول لكِن تَنْقُصُ مَحَبَّتُه للرَّسُولِ فيَكُون هنا انتفى عنه كمال الإِيمان، لكِن لو شكَّ أن الرَّسُول حقٌّ أو لَيْسَ بحقٍّ ما صارَ مؤمنًا، فلا بدّ أن يَجزِم جَزمًا بأنه رسولُ اللهِ، ثُمَّ هل يُقَدِّم مَحَبَّتَهُ عَلَى محبَّة نفسه وأهله؛ فهَذَا محلُّ الكمالِ والنقصِ.

• • ۞ • •

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، حديث رقم (١٥)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، حديث رقم (٤٤)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيتان (٨٣، ٨٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٨٣-٨٤].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ جماعةً ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهم رؤساؤُهُمُ المتَّبعُون ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يُجْمَعُونَ بِرَدِّ آخِرِهِمْ إِلَى أَوَّلِهِم ثُمَّ يُساقُونَ].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوْمَ﴾]، استفدنا من هَذَا التفسير أن (يوم) ظرف، وأنّ عاملَه محذوفٌ، التَّقْدير: (اذْكُرْ يَوْمَ). وهَذَا التركيبُ له نظائرُ فِي الْقُرْآنِ، ويَكُون تقديره عَلَى هَذَا كما قَدَّرَهُ الْمُفَسِّر هنا.

وقوله: ﴿نَحْشُرُ﴾ بمعنى نَجْمَع، وقوله: ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ الأمَّة هِيَ القبيلةُ أو الطائفة الكبيرةُ منَ النَّاسِ، والفوجُ أقلُّ منها، ولهَذَا يقولُ الْمُفَسِّر: [وَهُمْ رُؤَسَاؤُهُمُ المتَّبعون].

وقوله: ﴿فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ﴾: (مِنْ) هَذِهِ لبَيَان الجنسِ؛ أي: فوجًا من المكذِّبين بآيَاتِ اللهِ الكونيَّة والشَّرْعِيَّة أو إحداهما. قال: [وهم]، أي: الفوج [رُؤَسَاؤُهُمُ المتَّبَعُونَ].

فهم يُحْشَرون فيُجْمَعُون ثُمَّ بعدَ ذلكَ يُوزَعُونَ، والوَزْعُ بمعنى المنعِ؛ أي: يُحْبَس أَوَّلهم حَتَّى يجتمعَ به آخِرُهم، ولهَذَا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِرَدِّ آخِرِهم إِلَى أَوَّلهم]، أي: يُجْمَع الأَوَّلُ إِلَى الآخِرِ، فيَكُونون زُمرةً واحدةً [ثُمَّ يُساقُونَ]، إِلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ [﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ مكانَ الحسابِ ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى لهم: ﴿أَكَذَّبْتُم﴾ أَنبيائي ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾].

المُفَسّر قَالَ: [أنبيائي]، يُشِير بذلك إِلَى أن مَفْعُول (كَذَّبْتُم) محذوفٌ، وأن ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ حالٌ من أنبيائي، ولكِنَّ هَذَا التَّقْدير لا مَعنى له ولا داعيَ له؛ لِأَنَّ التكذيبَ دائمًا يقع معمولُه مُعَدًّى بالباء: كذب بآيَات الله، ما يقال: كذب أنبياء الله بآيَاتِ الله؛ بل: كذب بآياته، والتكذيب هنا مُضَمَّن معنَى الجَحْدِ، فعليه نَقُول: لا حاجةَ إِلَى تقديرِ المُفَسِّر: أَنبيائي، بل نَقُول: ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ جارّ ومجرور متعلِّق بِـ(كَذَّبْتُم).

قوله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ يعني أَنْكَرْتُموها وجَحَدْتُموها.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ﴾ من جِهَة تَكْذِيبِكُم ﴿بِهَا عِلْمًا﴾]، إِلَى آخِرِه، قوله: ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا﴾ انظر إِلَى المُفَسِّر كيف حَلَّها: [مِن جِهَة تكذيبكم ﴿بِهَا عِلْمًا﴾]، والإحاطةُ بالشَّيْءِ بمعنى إدراكِه من جميعِ الجوانبِ، وأصله مشتَقّ منَ الحائطِ؛ لِأَنَّهُ يحيط بالمكانِ، فمعنى أحاطَ بالشَّيْءِ: أَدْرَكَهُ منْ جميعِ جوانبِهِ.

المُفَسِّر فَسَّرَ هنا الإدراكَ بِقَوْلِهِ: [من جهة تكذيبكم]؛ أي: أَنَّكم كذَّبتم من غيرِ أنْ يَكُونَ لديكم عِلْمٌ بالتكذيبِ؛ كَذَّبْتُم بلا علمٍ، ولكِن يَحتمِل معنًى آخرَ: أنكم كذَّبتم بالآيَاتِ قبلَ أنْ تُدْرِكُوها، فيَكُون هَذَا من البدار بالشَّيْءِ قبل أن يُدْرِكَه، كما قَالَ ابن القيِّم[1]:

إِنَّ البِدَارَ بردِ شيءٍ لم تُحِطْ ... عِلمًا بهِ سَبَبٌ إِلَى الحِرْمَانِ

(١) الكافية الشافية (ص:٣٠٥).

الآن لدينا تفسيرانِ: أحدهما أنَّ قولَه: ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ أي مِن جِهَةِ تكذيبكم، والمَعْنى عَلَى هَذَا أنَّكم كذَّبتم بدونِ عِلمٍ، وَهُوَ الَّذِي مَشَى عليه المُفَسِّر، قَالَ: [﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا﴾ من جِهَة تَكذِيبِكم].

الآن إذا أتاكَ رجلٌ بخبرٍ فقلتَ: كَذَبْتَ، يعني مثلًا قَالَ لك: إنَّ فلانًا رأيته فِي بُرَيْدَةَ -مثلًا- أمسِ. فقلتَ له: كذبتَ؛ لِأَنَّ فلانًا الَّذِي أخبرتَ به هُوَ موجود عندي فِي تلكَ الساعةِ، فهنا أنتَ قدْ كَذَّبْتَ بعلمٍ وليسَ بغيرِ علمٍ، فإذا قَالَ: رأيتُ فلانًا فِي بريدة أمسِ. فقلتَ له: كذبتَ وأنا لا أَدري، فقد كَذَّبْتَ بلا علمٍ.

الآن المُفَسِّر يَقُول: [من جِهة تكذيبكم بها]، يعني أنكم كَذَّبْتُم بغيرِ علمٍ. ويوجد رأيٌ آخرُ يَقُول: ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ يعني أنكم كَذَّبْتُم بها من غيرِ رؤيةٍ ومن غيرِ تأمُّلٍ، يعني أنَّكم رَدَدْتُمُوها من أوَّلِ وهلةٍ، فيكُون كقولِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠].

والفرق بين المعنيينِ ظاهرٌ، والأقربُ المَعْنى الثاني؛ لِأَنَّ قولَه: كَذَّبْتُم بآيَاتِي والحالُ أنكم لم تُحِيطوا بها عِلمًا أبلغُ مِن كونهم كَذَّبُوا بعدَ أنْ تَرَوَّوْا ولكِن لم يَجِدوا لِتكذيبهم دليلًا، فهم كذَّبوا من غيرِ تَرَوٍّ، بل إنَّهُم فِي الحقيقةِ وخُصوصًا الرؤساء منهم يَعْلَمُون أن ما جاءت به الرُّسُل فَهُوَ الحقّ، ولكِن كذَّبوا بشيءٍ لم يُحيطوا بعلمِه، مِثلما قَالَ الله: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس:٣٩]، بل من أوَّل وهلةٍ، وهَذَا أشدُّ فِي اللَّوم عليهم.

فعليه: الاسْتِفْهامُ فِي قوله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى﴾ يَكُون للتوبيخِ واللَّوم؛ لِأَنَّ من كذَّب بالشَّيْء بَعْد دراسته والإحاطة به ثُمَّ يتبين له الكذِب هَذَا لا يُلام عليه، لكِن

مَن كَذَّب لأوَّل مرَّة بدون أن يحيطَ بالشَّيْءِ عِلمًا فَهُوَ دليلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بقابلٍ إطلاقًا للحقِّ.

قال تَعَالَى: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمَّا﴾ فِيهِ إدغامُ (ما) الاسْتِفْهاميَّة]، إدغام (أم) الَّتِي للإضراب -وأصلها حرف عطف بمعنى (بل)- و(ما) الاسْتِفْهاميَّة، أُدغمتْ إحداهما فِي الأُخْرَى. و(ذا) اسْم موصولٌ، أي: ما الَّذِي كنتم، ويجوز أن نجعلَ (ذا) مركبة مَعَ (ما)، وتكون (ماذا) كلها اسْم اسْتِفْهام، ولكِن لَيْسَ فِي كُلّ مكانٍ يجوز هَذَا وهَذَا، إِنَّمَا فِي مثلِ هَذَا التركيبِ يجوز أن نجعلَ (ماذا) اسمَ اسْتِفْهامٍ، ويجوز أن نجعل (ما) اسمَ اسْتِفْهامٍ و(ذا) اسمًا موصولًا؛ أي: ما الَّذِي كنتم تعملون، وَعَلَى هَذَا التَّقْدير الأخيرِ يَجِب أن نقدِّر ضَميرًا فِي قولِهِ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ ليَكُونَ عائدًا إِلَى الاسم الموصولِ، ويَكُون التَّقْدير: (أماذا كنتم تعملونه)، وَعَلَى الأول لا حاجةَ لذلك ونجعل (ماذا) مَفْعُولا مقدَّمًا لـ(تعملون).

نظيرها فِي الْقُرْآن: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة:٢١٩]، فيها قراءتانِ[1]: «قلِ العفوُ» و﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾.

ونُعْرِب (ماذا) عَلَى قراءةِ الرفعِ:

(ماذا): ما: اسمُ اسْتِفْهامٍ، وذا: اسمٌ موصولٌ، يَعْنِي: ما الَّذِي ينفقون؟ فيَكُون التَّقْدير: الَّذِي ينفقونه العفوُ، وتكون مرفوعةً والعائد محذوفٌ؛ لأني إذا قلتُ: (ما) اسْم اسْتِفْهام، و(ذا) اسْم موصول؛ صارت (ما) مبتدأً و(الذي) خبره، وكلّ منهما مرفوع. ثم يأتي: (قُلِ العفوُ) لِأَنَّ الجوابَ مطابِقٌ للسؤالِ؛ أي: العفوُ الَّذِي يُنفِقون.

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٩٦).

أمّا عَلَى قراءةِ النصبِ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة:٢١٩]، فنَقُول: عَلَى هَـذِهِ القراءةِ يَجِب أن نُعرِبَ (ماذا) اسمَ اسْتِفْهامٍ مَفْعُولا مقدَّمًا لـ(يُنفِقون) لأنَّنا نَعرِف أن الجواب يَكُونُ مطابقًا للسؤالِ، فإذا كَانَ السؤال منصوبًا كَانَ الجواب منصوبًا، وهَذَا هُوَ الَّذِي يبيِّن لك الفرقَ بين الإعرابينِ.

وقوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني فِي الدُّنْيا، فيَكُون الله تَعَالَى وَبَّخَهُم عَلَى أمرينِ: أمر يَتَعَلَّق بالعقيدةِ، وَهُوَ قوله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾، وأمر يتعلق بالعَمَل وَهُوَ قوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ لِأَنَّ (ماذا كنتم تعملون) هَذِهِ اسْتِفْهامٌ لإنكارِ ما يعملونه، فيَكُون فِي هَذَا توبيخ عَلَى العقيدةِ والعَمَلِ، وستأتي -إن شاء الله- فِي هَذَا فائدة مُهِمَّة لمسألةٍ اختلف فيها الأصوليُّون نَبْحَثُها إنْ شاء اللهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ الحشرِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾ لِأَنَّ هَذَا عَلَى تقديرِ محذوف (اذْكُرْ يوم) لكِن اذْكُرْهُ لمجرَّد العلمِ والعقيدة، وكُلّ شيءٍ فِي الْقُرْآن لَيْسَ يُذْكَر لمجرَّد النظرِ أو لمجرَّدِ أن نَعْلَم به، بل هُوَ يُذكَر للاعتقادِ إنْ كَانَ عقيدةً، وللعملِ إن كَانَ عملًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَحْشُر مِنَ الأُمم أفواجًا معيَّنة يَكُونون أُمَّة لباقيهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ لَيْسَ كُلّ الأمم، بل فَوْج، وهَؤُلَاءِ الفوجُ هم أَشَدُّهم عَلَى الرحمنِ عِتِيًّا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٦٩]، لأجلِ -والعِيَاذُ باللهِ- أن يُخْزَوْا خِزيًا أعظمَ؛ لِأَنَّهُم قادةٌ فِي الدُّنْيا فيَكُونون قادةً إِلَى النَّارِ فِي الآخِرَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود:٩٨].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عِظَم الإمامةِ فِي السوءِ كما أَنَّهَا أيضًا عظيمةٌ فِي الخيرِ، فالإمامة فِي الخيرِ له أجرُ مَنِ اتَّبَعَهُ، والإمامةُ فِي الشَّـرّ عليه وِزْر مَنِ اتَّبعه، فالإمامة فِي الخير أو فِي الشَّرّ هِيَ أمرٌ عظيمٌ، وخيرُ النَّاسِ مَن دَلَّهم إِلَى الخيرِ، وشرُّ النَّاس مَن دَلَّهم عَلَى الشرّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن التكذيب بالآيَاتِ كفرٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مِمَّن يُكَذِّبُ﴾؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الفوجَ يُحشَـرون إِلَى النَّار لِأَنَّهُم يكذِّبون بآيَاتِ اللهِ، والتكذيبُ بآيَاتِ اللهِ سَبَقَ أَنَّهُ يَنقسم إِلَى قسمينِ: تكذيب بالآيَات الشَّرْعِيَّة وبالآيَات الكونيّة، والتكذيبُ بالآيَاتِ الكونيَّة أقلُّ مِنَ التكذيب بالآيَاتِ الشَّرْعِيَّة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يُجْمَعُ أوَّلهم إِلَى آخِـرِهم، وآخـرُهم إِلَى أوَّلِهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ لِأَنَّ ذلك زيادة فِي خِزْيِهِم وعارِهِم، والعياذُ بالله، حَيْثُ يَعرفون أنفسهم ويُعرفون عندَ الخَلق.

الْفَائِدَة السَّادِسَةُ: إثباتُ الكَـلام لله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم﴾، وَأَنَّـهُ بحرف وصوت؛ لِأَنَّ الجملَ الَّتِي هِيَ مَقول القَوْلِ حُروف، وَأَنَّهُ بصوت؛ لِأَنَّهُم لولا أَنَّهُم يَسمعون لم يكن لهَذَا فائدة، ولا سماع إِلَّا بصوت.

الْفَائِدَةُ السابعة: توبيخ هَؤُلَاءِ عَلَى تكذيبهم بآيَات الله، وكما هُوَ معروف أن التوبيخَ لا سِيَّما فِي ذلك المقامِ أشدُّ مِن وَقع السِّهام؛ لِأَنَّهُ توبيخ فِي مكانٍ يقع فِيهِ من الندمِ والحسرةِ؛ لِأَنَّهُ لا يمكن التخلُّص ولا التكذيب ولا الرجوع عمَّا كان، وَهَذَا التوبيخُ مِن أعظمِ ما يَكُون منَ العذابِ والعياذُ باللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي﴾.

الْفَائِدَةُ الثامنةُ: أَنَّهُ يَزداد قُبْح التكذيبِ إذا لم يُحِطِ الْإِنْسَانُ عِلمًا بما كَذَّبَ به؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ وهَذِهِ الجملة محَلُّها من الإعراب حاليَّة، يَعْنِي: والحال

أنكم لم تحيطوا بها علمًا، والجملة إذا صار يَصِحّ قَبْلَها تقديرُ: والحال كذا فهي جملةٌ حاليَّة، ففيها زيادة توبيخٍ لكونهم يكذِّبون من غير أن يُحيطوا عِلمًا بما كذّبوا به ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس:٣٩].

والمُفَسِّر فسَّر: ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ عَلَى وجهٍ آخرَ، يعني: كذَّبتم بلا علم عن وجهِ هَذَا التكذيبِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسعةُ: توبيخُ هَؤُلَاءِ عَلَى عَمَلِهِم، فكما وُبِّخوا عَلَى التكذيبِ وُبِّخوا أيضًا عَلَى العَمَل فِي قوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

• • ۞ • •

الآيــة (٨٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل:٨٥].

قَالَ الْمُفَسِّـر: [﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ حقَّ العذابُ ﴿عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ أي أَشْـرَكُوا ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ إذ لا حُجَّةَ لهم].

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ يعني قولَ اللهِ بالعذابِ، فإنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يأمرُ بِتَعْـذِيبِهِمْ إذا لم يُجِيبُوا، وهَذَا السؤال كما تقدَّم لَيْسَ سؤال استخبار واستعلام، ولكِنه سؤال توبيخٍ وتقريعٍ، فحينئذٍ يقعُ عليهم القَوْلُ، وهَذَا القَوْل الَّذِي وقعَ عليهم لم يُظْلَموا به ولكِنْ همُ الَّذِينَ ظَلَموا، ولهَذَا قَالَ: ﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ أي: بسبب، و(ما) هنا مصدريَّة يَعْنِي أنَّ الفِعْل بعدها يحول إِلَى مصدرٍ، فيَكُون التَّقْدير: بِظُلْمِهِم؛ أي وقع القَوْل عليهم بظلمهم.

وقول الْمُفَسِّر: [أي أشركوا]، ينبغي أنْ نفسِّر الظلمَ بما هُوَ أعمُّ مِنَ الشركِ؛ لِأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَبَّخَهُمْ عَلَى التكذيبِ وعلى العَمَلِ المنحـرِفِ، فيَكُون الظلمُ الَّذِي حصلَ منهم: التكذيب والجَحْد الَّذِي يَتَضَمَّن الإشراكَ، وكذلك الفُسُوق والعِصيان الَّذِي حصلَ منهم كإيذاءِ الرُّسُلِ وغير ذلك، فالأصحُّ أنْ نجعلَ ﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ أي: بسببِ ظُلْمِهِم، ومنه الشركُ.

قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾: (الفاء) مُفَرّعة عَلَى قولِه: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ أي:

بَعْد أن وقعَ عليهم القَوْلُ استحقُّوا العذابَ فلا يستطيعون النُّطْقَ، يَقُول المُفَسِّر: [إذ لا حُجَّة لهم]، وهَذَا فِي آخِرِ الأَمْرِ؛ لِأَنَّهُم كانوا فِي أَوَّلِ الأَمْرِ يَنطِقون ويُدافِعون.

ولكِنهم إذا رأوْا أنَّ جَوَارِحَهم شَهِدَتْ عليهم حينئذٍ أمسكوا، فلا يستطيعون الآن، وإلّا فإن الله تَعَالَى يَقُول: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، فهم يَقُولُونَ: ما أَشركنا، ويَقُولُونَ أيضًا: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٧-٢٨]، فهم يتكلَّمون ويُدافِعون عن أنفسهم، ولكِنَّ ذلك لا يَنفعهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢]، فالمهمُّ أَنَّهُم يتكلَّمون، فقوله هنا: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل:٨٥]، هَذَا يَكُون الجمع بينه وبين الآيات الدالّة عَلَى نطقهم أن للقيامة أحوالًا؛ لِأَنَّ يوم القيامة مِقداره خَمسونَ ألفَ سنةٍ، فالأحوالُ تَتَغَيَّر، فيَكُون الناطق فِيهِ ساكتًا ويَكُون الساكت فِيهِ ناطقًا، وتَتَقَلَّب الأحوال، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور:٣٧]، لِمَا تَرى، فهم فِي حالٍ لا يَنطِقون، وَفِي حالٍ يَنطِقون ويدافعون.

ولكِنهم مهما قالوا ومهما فعلوا فإن لديهم شهودًا من أنفسهم ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤]، فاللِّسان يَنطِق بما قال، واليدُ تَنطِق بما فعلتْ، والرِّجل تَنطِق بما فعلتْ، وأبلغ من ذلك الجلودُ تَشهَد بما لمستْ، فجميعُ ما فِيهِ الإدراكُ والحاسَّةُ يَشهد عَلَى هَؤُلَاءِ بما فَعَلُوا، وحينَئذٍ لا يَستطيعونَ أنْ يُدافِعوا، ما دام أنَّ هَذِهِ الأَشْيَاء تَشهد عليهم؛ إذن مَن يشهد لهم؟!

الحاصل: أن الأحوال تتغيَّر، فالمتكبِّرون يُحشَرون يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ

يَطَؤُهُمُ النَّاسُ بأقدامهم[١]، ولكِنَّهم إذا دَخلوا النَّار يَكُون ضِرْسُ الواحدِ منهم مثلَ أُحُدٍ[٢]، والعياذُ باللهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ أنَّ العذابَ قد حَقَّ عَلَى هَؤُلَاءِ، أو أن المَعْنى ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾ أَنَّهُ صَدَقَ القَوْلُ عليهم فلم يَستطيعوا الجوابَ، يعني لَمَّا وُبِّخُوا بالتكذيبِ والعَمَلِ فقال: وقعَ القَوْلُ عليهم؛ أي: ما قيل لهم من هَذَا التوبيخِ صَدَقَ عليهم فلم يستطيعوا الدفاعَ، بَقِينا فِي قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ وهَذَا الوجهُ لم نَذْكُرْهُ لَكِنَّهُ فتحَ اللهُ به علينا، إنْ كَانَ حقًّا فالحمدُ للهِ وإلَّا فَنَسْتَغْفِر اللهَ.

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾ أي: أن هَذَا القَوْل الَّذِي وُبِّخوا به صَدَقَ عليهم، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾؛ لِأَنَّ مَن وُبِّخ عَلَى أمرٍ لم يقعْ عليه يَستطيع أنْ يَنْطِق فيُدَافِع، لكِن هَؤُلَاءِ ما استطاعوا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات السَّبَب؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَا ظَلَمُواْ﴾؛ لِأَنَّ الباء هنا للسببيَّة، وإثبات الأَسْبَاب هُوَ مَذهَب أهل السنَّة والجماعة، وأن الأُمُور مَقرونة بأَسْبابها.

يقولُ العَوَامّ: وقد قَالَ الله تَعَالَى: (وجعلنا لكلِّ شيءٍ سببًا)، وهَذَا لَيْسَ فِي الْقُرْآن، ولكِنه كقراءة بعضهم لما ذُكِرَ له الأعراب، قَالَ: ألم تَسْمَعْ قولَ اللهِ تَعَالَى فِي الأعراب: (سُود الوُجُوه إذا لم يُظْلَموا ظَلَمُوا) وهَذَا لَيْسَ من قولِ الله، لكِن أحيانًا

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، حديث رقم (٥٥٧)؛ والترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب، حديث رقم (٢٤٩٢)؛ وأحمد (٢/ ١٧٩) (٦٦٧٧)، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٢) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النَّار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، حديث رقم (٢٨٥١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْعَامَّة يَقُولُونَ أَشْيَاءَ يَعتقدونها من الْقُرْآن، فنحنُ نُثْبِت الأَسْبَابَ ولكِن ما نَقُول: إن الله فِي الْقُرْآن ذكرَ أن لكلِّ شَيْء سببًا، إِنَّمَا الْقُرْآن مملوء من إثباتِ الأَسْبَاب.

فهِمنا من هَذَا أن إثبات الأَسْبَاب هُوَ مَذْهَب أهل السنَّة والجماعة، فهل أحد من أهل البِدع يخالفهم فِي ذلك؟

نَقُول: الجَبْرِيَّة والأشاعرةُ لا يُثْبِتُون الأَسْبَاب، ويَقُولُونَ: إن فعلَ اللهِ تَعَالَى لِمُجَرَّدِ المشيئةِ، والمُعْتَزِلة عَلَى العكسِ مِن هَـؤُلَاءِ يَرَوْنَ أن الأَسْبَاب مُوجبة، ولهَـذَا يَقُولُونَ: إن الله يَجِب عليه فِعْل الأَصْلح والصلاح.

والصَّوابُ أن نَقُولَ: إن المعقول والمنَقُولَ يَدُلّ عَلَى أن الأَسْبَاب مؤثِّرة، ولكِن بأمرِ اللهِ، وكم من سببٍ كَانَ مؤثِّرًا ثُمَّ لم يَنْفَعْ إذا لم يرد الله تَعَالَى أن يمثل هَذَا الشَّيْء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله تَعَالَى لا يَظْلِم النَّاس شيئًا، ولكِن النَّاس أنفسهم يظلمون؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَا ظَلَمُواْ﴾، يَعْنِي: فهَذَا الأَمْر الَّذِي نزل بهم سببُ ظُلْمِهِم، ولم يَظْلِمْهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن للناسِ فِي يومِ القيامةِ أحوالًا، فهم أحوال مختلِفة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ لِأَنَّ الله ذكر فِي بعضِ الآيَاتِ أَنَّهُم يَنطِقون ويدافعون، يَقُولُونَ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، ويقول تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النِّسَاء:٤٢]، فأنت الْآنَ لا يمكن أن تجمعَ بين هَذِهِ الآيَاتِ إِلَّا إذا قلتَ: إن النَّاس لهم أحوال، حال يمكنه الكَلام، وحال لا يمكنه فِيهِ الكَلام، وبهَذَا يتآلَفُ الْقُرْآن وَهُوَ مُؤْتَلِف.

الآيــة (٨٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل:٨٦].

قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ الرؤيةُ هنا عِلمية وبَصَرِيَّة أيضًا، لكِنَّ كَوْنَها عِلْمِية أعمّ؛ لِأَنَّ مَن أبصرَ الشَّيْءَ عَلِمه، وَلَيْسَ كُلّ مَن عَلِمَ الشَّيْءَ أَبصره، فالأعمى يَرَى الليل يعني يَعْلَمه، والمُبْصِر يراه بعينِهِ وبَصيرتِهِ.

والهمزةُ فِي قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ للتقرير؛ تقرير هَذه الرؤية الَّتِي لا يُنْكِرها أحدٌ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَنَّا جَعَلْنَا الَّيْلَ﴾ خَلقنا]، فسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ الجَعْلَ هنا بالخلق، فيَكُون متعدِّيًا بمَفْعُول واحدٍ، ويجوز أن يَكُونَ الجَعل هنا بمعنى التصيير، يَعْنِي أَنَّا جَعَلْنا الليلَ مُظْلِمًا لِيَسْكُنُوا فيه، ويدلُّ عَلَى هَذَا قولُه تَعَالَى الَّذِي بعده.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ لِيَتَصَرَّفوا فيه]، ويَكُون حُذِفَ من كُلّ جملةٍ ما دَلَّ عليه المذكورُ فِي الجملةِ الأُخْرَى، ويُسمَّى هَذَا فِي علمِ البديعِ بالاحتباكِ، والاحتباكُ أنْ يذكر فِي كُلّ جملةٍ ما حُذِفَ من الأُخْرَى مَعَ التقابُلِ.

هنا نَقُول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الَّيْلَ﴾ مُظْلِمًا ﴿لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ الَّذِي حُذِفَ من هَذَا (مُظْلِمًا)، ذكر مقابله: ﴿مُبْصِرًا﴾، وحذف من قوله: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: لِيَتَصَرَّفُوا فِيهِ، وذكر فِي مقابله: ﴿لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾، فيَكُون فِي الجملةِ احتباكٌ، وبهَذَا نكون قد

استفدنا المَعْنى مَعَ الاختصارِ، وعَلَى هَذَا التقريرِ الَّذِي ذكرنا يَكُون ﴿جَعَلْنَا﴾ ليس بمعنى (خَلَقْنَا)، بل بمعنى (صَيَّرنا) تَنصِب مَفْعُولينِ، المَفْعُول الأوَّل (الليل) والمَفْعُول الثاني محذوف تقديرُه: مظلمًا.

قوله: ﴿لِيَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ اللام هنا للتعليلِ، والسكونُ معناه القرارُ وعدم الحركةِ، ولذلك كَانَ الليلُ مَحَلَّ السكونِ للخلقِ، ولكِنه بإذنِ اللهِ مَحَلّ عَمَل لخلقٍ آخرينَ؛ فالهوامّ والسباع لا تعمل إلَّا فِي الليلِ؛ لِأَنَّهَا تَختفي فِي النَّهارِ؛ إمَّا خوفًا من النَّاسِ وَإمَّا رحمةً من الله عَزَّوَجَلَّ بالخلقِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ السباع أو هَذِهِ الهوامّ لو كانت تخرج فِي النَّهار لأتعبت النَّاسَ، ولَكِنَّهَا -والحمد لله- لا تظهرُ إلَّا بالليلِ، فإذا سكنَ النَّاسُ بدأ عَمَلَها بالتناوُب.

وهَذَا من رحمةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالخلق أن يَكُون هَذَا التبادلُ ليعيشَ النَّاس بسلامٍ، حَتَّى هَذِهِ الحيوانات آمَنُ لها إذا كانت لا تعيش إلَّا بالليل حَتَّى لا تُعارَض.

فهنا المُراد بالسكونِ الآدميُّون ومَن أشبههم ممَّن سُكُونُهم بالليل، ولهَذَا الْإِنْسَان إذا أرادَ الصحَّة فليكنِ الليلُ سَكَنًا له، ولا سِيَّما أوَّل الليل، فإن النَّبِيّ ﷺ كَانَ يَكْرَهُ الحديثَ بَعْدَ العِشَاءِ[1]، وقد ذَكَرُوا أنّ نومَ الليلِ الساعةُ منه تقابلُ ساعاتٍ من النَّهارِ.

وهَذِهِ الثروة السكونيَّة أضعناها الْآنَ بما لا نفعَ فِيهِ، بل بما فِيهِ ضررٌ، فالْآنَ النَّاس يَعكُفون عَلَى مشاهدةِ التلفزيون إلَى نصفِ الليلِ تقريبًا، بينما فِي الدول الغربيّة

---

(١) رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب ما يكره من السمر بعد العشاء، حديث رقم (٥٧٤)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب التبكير بالصبح في أول وقتها وهو التغليس وبيان قدر القراءة فيها، حديث رقم (٦٤٧)، عن أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَعَ الأسفِ الشَّديدِ الكافرة المُلْحِدَة لا يتجاوز التلفزيون الساعة التَّاسعة منَ الليلِ، ففي الساعة التَّاسعة يُغلَق التلفزيون؛ لِأَنَّهُم يَعرفون أن هَذَا ضررٌ عَلَى عمالهم وَعَلَى مُثَقَّفِيهم، فهم لا يريدون الضررَ للأُمّة، يَقُولُونَ: إذا أَبقيناه إِلَى ما بَعْد التَّاسعةِ سَهِرَ النَّاس عليه وَكَانَ فِي ذلك إنهاك للعمال وكان فِي ذلك إهمال للطلبة، فلذلك نحن نُغْلِقُه من الساعة التَّاسعة حَتَّى ينام النَّاس وحتى لا نكون قد تَسَبَّبْنَا فِي إرهاقِ النَّاسِ، وحدثني بذلك عدَّة أُناسٍ مِنَ الَّذِينَ جاءوا من أُورُبَّا يَقُولُونَ: أبدًا، لا يمكن أن يتجاوزَ الساعةَ التَّاسعةَ، لكِن لا أَدري إنْ كَانَ فِي الأَشْيَاء النادرة، لكِن هَذَا هُوَ برنامجهم.

نحن الْآنَ مَعَ الأسفِ الشَّديدِ يَقُولُونَ: إنَّهُ يبقى إِلَى ما بَعْد الساعة الثَّانِيَة عشرة نصفَ الليلِ، هَذَا مَعَ ما يَتَطَلَّب من الناحية الاقتصاديَّة: فكم يَستهلك النَّاس من الكهرباء فِي هَذِهِ الساعةِ على تلفزيوناتهم وكذلك أيضًا أنوارهم؛ لِأَنَّ المكان لَا بُدَّ له من نور، فيُستهلك نور، وتُستهلَك كهرباء للتلفزيون، فكم يكلّف العالم؟! وكم تُرهق المُعدات أيضًا؟ هَذَا بقطعِ النظرِ عن المفاسدِ الأُخْرَى البدنيّة، ولكِن العبرة بمن بصَّره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فمثل هَذَا المسئول راعي البيت إذا كانت مثلًا الساعة التَّاسعة يأمر أهله بالنوم ويُغلِقه، أَمَّا الكسرُ فلا، والنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَرِهَ الحديثَ بعدَ العشاءِ[1]، فكَوْننا نسهر إِلَى نصفِ الليلِ أحيانًا أو إِلَى أكثر وَلَيْسَ ليلة طارئة حَتَّى نَقُول: العوارض عوارض، بل هِيَ دائمًا فِي الغالب، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يسهرون إِلَى ما بَعْد نصف الليل أولًا ربَّما لا يقومون لصلاة الفجر، وإذا قاموا نِصْفُهم نُوَّم، يُؤَدُّونَها بكلِّ كُلفةٍ ومَشَقَّة،

(١) سبق تخريجه.

أو ينامون فِي نفس المَسْجِد أو فِي نفسِ الصَّلَاة، ثُمَّ إذا رَجعوا إِلَى بيوتهم ينامون إِلَى الظهرِ.

يعني أول النَّهار الَّذِي هُوَ مَحَلّ البركة ومَحَلّ العَمَلِ يُضَيَّع، والليل الَّذِي مَحَلّ السكون يُضَيَّعُ السكونُ فيه، وهَذَا فِي الحقيقةِ يُعتبَر نقصَ وَعْيٍ فِي المُسلِمين.

يَقُولُونَ عن الكفار؛ حَدَّثني رجل يَقُول: عندهم عطلة السبت والأحد، السبت لأجل اليهودِ والأحدُ لأجلِ النَّصارَى، لكِن يَقُول: إذا صار ليلة الإثنين من غروب الشَّمْس كلٌّ فِي مَحَلِّه، من أجل أَنَّهُ بمجرد أن يقومَ فِي الصباحِ فإذا هُوَ مباشِرٌ لعملِهِ، فلا يمكن أنْ يتأخَّروا. يَقُول: من الغريب أن العوائل يخرجون يتنزهون فِي هذين اليومينِ في المتنزَّهات لكِن إذا غابت شمس ليلة الإثنين إذا كُلّ إِنْسَان فِي مَحَلّه يَكُون متهيِّئًا للعمل.

فإذا قَارَنْتَ حال هَؤُلَاءِ بحالِ المُسلِمينَ اليوم مَعَ أنَّ أحوالهم هَذِهِ هِيَ الَّتِي يَجِب أن تكون للمسلمينَ، وجدتَ هَذَا السَّبَب الَّذِي جَعَلَنا نتأخَّر وجعلنا فِي هَذَا الذلّ، وجعل كثيرًا من شبابنا لَيسوا مقتنعينَ بأحوالهم، فبعض الشبابِ الْآنَ المنحرِف قد يَكُونُ له عُذر، يَقُول: أنتم تقولونَ: الإِسْلامُ والإِسْلام، أين الإِسْلام! لم نرَ شيئًا! ولكِن نَقُول: الذنبُ ذنبُ مَن يَنتسبون للإسلامِ، لَيْسَ ذنب الإِسْلام، ذنب مَن يَقُولُونَ: نحن أهلُ الإِسْلامِ، وَفِي أهلِ الإِسْلام مَن لا يَعرف أركانَ الإِسْلامِ. والعَجَبُ أن بعض النَّاس المُسلِمين الْآنَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إنَّهُم مسلمون ومكتوب عَلَى هُوِيَّة الواحد منهم أَنَّهُ مُسْلِم، لا يَعرف كيف يتوضأ ولا كيف يُصلي، فهَذَا موجودٌ.

إِذَنْ: معنى هَذَا أن البيئة لا تَتَوَضَّأ ولا تصلي، فأين الإِسْلام من قومٍ

لا يتوضؤون ولا يصلون! فهَذَا هُوَ الَّذِي أخَّرنا.

ولذلك أنا -والله- أُحِبُّ دائمًا أنْ يَكُونَ لَدَى أهلِ العلمِ تَطَوُّر فِي الحركة والعَمَل والنهوض بالأمة.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ آيَات جمع آيَةٍ، وهي تدلُّ عَلَى أن ما ذُكِرَ فِيهِ عِدَّة آيَات، منها: إظلام الليل والسكون فيه، وإبصار النَّهار والتصرُّف فيه، فهي أربع آيَات، مَعَ ما تَتَضَمَّنَهُ أيضًا من آيَاتٍ أُخرى تَسْتَلْزِمُها، ولهَذَا جمع فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أين الآيَات فِي كون الليل لِيسكنوا فِيهِ والنَّهار مُبصِرًا؟

نَقُول: السكون فِي الليلِ والتصرُّف فِي النَّهار؛ لأنَّنا قُلْنَا: حذفَ مِن النَّهارِ ما ذكرَ فِي الليلِ، وحذفَ فِي الليلِ ما ذكرَ فِي النَّهارِ، يعني فِي المقابلةِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تقرير هَذِهِ القُدْرَةِ الإلهيَّة، وهي جَعْل الليلِ مُظلِمًا للسكنِ، والنَّهارِ مُبْصِرًا للمعيشةِ، وهَذِهِ النعمة كلهم يُقِرُّون بها، ولهَذَا قَالَ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الاستدلال بالشاهدِ عَلَى الغائبِ، فإن هَذَا الليل والنَّهار ما أحد من الخلقِ يستطيع أنْ يُغيِّر فيهما أقلَّ تغييرٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ [القصص:٧١]، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص:٧٢]، فالقادر عَلَى هَذَا التغييرِ قادرٌ عَلَى البعثِ، فالْإِنْسَان فِي الليلِ يُتَوَفَّى ثُمَّ يُبْعَثُ فِي النَّهارِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام:٦٠]، فالقادرُ عَلَى هَذَا قادرٌ عَلَى إعادةِ النَّاسِ بعدَ موتِهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان فضلِ اللهِ تَعَالَى فِي جعل الليل والنَّهار عَلَى هَذَا الوصفِ، ظَلَام للسُّكْنَى وإبصار للعملِ، لو كَانَ الدهرُ كلّه ظَلامًا ما عمِل النَّاس، ولو قُدِّر أَنَّهُم رتّبوا أعمالهم لاختلفوا، وكذلك لو كَانَ نهارًا ما سَكَنَ النَّاس، ولو قُدِّرَ أَنَّهُم رَتَّبوا أوقاتهم وجعلوا مثلًا نصفَ الوقتِ سكنًا ونصف الوقت عملًا لم يَتَّفِقُوا فيه، ولكِن من رحمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ جعلَ الليلَ والنَّهارَ لِيَسْكُنَ النَّاسُ جميعًا ويَرْتَعُوا من فضله جميعًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ ينبغي للعاقلِ أن يَعتبرَ بهَذِهِ الآيَاتِ وأن الاعتبار بها من الإيمان، لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الانتفاعَ بالآيَاتِ بِقَدْرِ ما مَعَ الْإِنْسَان من الإيمانِ؛ لِأَنَّهَا رُتِّبَتْ عَلَى وصفٍ، والمرتَّبُ عَلَى وصفٍ يَزيد بزيادته ويَنْقُص بنقصانه.

• • ۞ • •

الآيــة (٨٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ القرن]، هَذِهِ معطوفةٌ عَلَى قولِهِ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ [النمل:٨٣]، فيكُون من جملةِ المأمورِ بذِكْرِه، يَعْنِي: واذْكُرْ يومَ يُنْفَخُ فِي الصُّور.

والصُّور يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القَرْن]، وَقِيلَ: إنَّهُ البُوقُ، ولا تنافيَ بينَ القَوْلينِ؛ لِأَنَّ القرنَ المُعْوَجّ يَكُون مثل البُوق، ولكِن هَذَا القَرْنُ يُوافِقُ القرنَ المعروف بالاسم دون الحقيقةِ، وقد وردَ فِي بعضِ الآثارِ أنَّ سَعَتَهُ كما بينَ السَّماء والْأَرْض[1]، وَهُوَ لَا بُدَّ أن يَكُونَ بهَذِهِ السَّعة والعَظَمَة؛ لِأَنَّ النفخَ فِيهِ يَستلزِم الفَزَع والموتَ، ومثل هَـذَا لو كَانَ صَغيرًا لا يُفْزِع النَّاس ولا يموتون منه كلهم. وأيضًا يُنْفَخ فِيهِ فتَخْرُج منه الأرواحُ كلُّها وتعود إِلَى أَجْسَامها.

إِذَنْ: فَهُوَ قَرْنٌ عَظيمٌ ما يَعْلَم قَدْرَه إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ قَالَ المُفَسِّر: [النَّفْخَة الأُولَى من إسرافيلَ]، وتوجد نفخةٌ ثانيةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

---

(١) مسند إسحاق بن راهويه (١/ ٨٤) (١٠).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من إسرافيلَ] بَيَان للنافِخ، يعني الَّذِي يَنْفُخ هُوَ إسرافيل، ولكِنَّه لا يَنْفُخ بإرادتِهِ هُوَ، بل بإرادةِ اللهِ، وإسرافيلُ هُوَ أحَدُ حَمَلَة العَرْش، وَهُوَ أحدُ الملائكةِ الثلاثة الَّذِينَ يَسْتَفْتِح بهم النَّبِيُّ ﷺ صلاةَ الليلِ، والثاني جَبرائيلُ، والثَّالث مِيكَائيل[1]، والحِكْمَةُ من ذلكَ أن هَؤُلَاءِ الثلاثة كُلّ مِنهم مُوكَّل بحياةٍ، فجبرائيل موكَّل بالوحيِ الَّذِي به حياةُ القلوبِ، وميكائيلُ بالقَطْر والنباتِ الَّذِي به حَياة الْأَرْض، وإسرافيلُ بالصُّور الَّذِي به حياةُ الأجسادِ، ومناسبةُ الافتتاحِ فِي صلاةِ الليلِ ظاهرةٌ جِدًّا؛ لِأَنَّهُ قد بُعِثَ الْإِنْسَانُ بعدَ مَوته أو بعدَ وَفاتِه بالنومِ، فهَذِهِ حياةٌ تُناسِب أنْ يَبْتَدِئَ هَذِهِ الصَّلَاة الَّتِي هِيَ بعدَ الحياةِ بِمَن وُكِّلوا بالحياةِ، وطبعًا هَذَا من بابِ التوسُّل؛ لأنك تقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ... إلخ».

قوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مَن فِي السَّماوَات ومَن فِي الْأَرْض مِن عُقَلاء وغَيْرِهم، وجاءت (مَن) تَغليبًا؛ لأنَّ العاقلَ أشدُّ فَزَعًا من غيرِ العاقلِ؛ لِأَنَّ العاقلَ يَفْزَع للحاضرِ والمستقبَل، وغير العاقل للحاضرِ فقطْ ولا يُهِمُّه المستقبَل، ولهَذَا لو سَمِعْتَ صَدمةَ لِصّ فِي البابِ قويَّة وعندك صَبِيّ، كلكم يَفْزَع من هَذِهِ الصدمةِ القويَّة، لكِن الصبي إذا انتهتِ الصدمةُ وَقَفَ ولم يكن فِي قلبه أيّ شَيْء أبدًا، وأنت تفكِّر فِي المستقبل وتخاف، فلهَذَا غلبَ العقلاءُ فِي قولِه: (مَن) فِي جانبِ الفَزَعِ؛ لِأَنَّ فَزَعَهم أعظمُ، يَكُون للحاضرِ والمستقبلِ.

وهنا قَالَ: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وَفِي آيَةِ الزُّمَر: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]،

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث رقم (٧٧٠)، عن عائشة أم المُؤْمِنِينَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

فهل هما نفختانِ، فإذا جمعتَ إِلَى الثَّالثةِ ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ صارت ثلاثَ نَفَخَاتٍ، أو أن نفخة الفَزَع والصَّعْق واحدة، وأن النَّاس يَفْزَعون أوَّلًا ثُمَّ يموتون؛ أي: فَزَع يليه الموت؛ لِأَنَّ الظَّاهرَ -واللهُ أَعْلَمُ- أَنَّهُ إذا نُفِخَ يَكُونُ صوتٌ عظيمٌ مُمْتَدّ، فيَفزعون ثُمَّ يَموتون، مثل الصَّيْحَات الَّتِي يُصاح بالمجرمينَ كالتي أَخَذَتْ ثمودَ؟

هَذِهِ المسألةُ اختلفَ فيها أهلُ العلمِ، فمنهم مَن يَرَى أنَّ النَّفَخَات ثلاثٌ: نفخةٌ يَفزع النَّاسُ ويَتَأَهَّبُون ويَكُونون عَلَى حَذَر، ثُمَّ أُخرى للصَّعْق فيموتون، ثُمَّ ثالثة للبَعْث.

وَقِيلَ: إنّ نَفْخة الفَزَع بعدَ نَفْخَةِ الصَّعْق والبَعْث، وإنهم يَصْعَقُون، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، ثُمَّ يُنفخ ثالثة فيَفْزَعون إِلَى الداعي، لكِن هَذَا القَوْل ضعيفٌ، فالمشهورُ القَوْلانِ السابقانِ.

وهل هِيَ ثلاثٌ: فَزَع ثُمَّ نفخةٌ أُخْرَى فيها الصَّعْق ثُمَّ نفخةٌ ثالثةٌ فيها البعثُ، أو هما نفختانِ: نفخةٌ فيها فَزَع وصَعْقٌ، ونفخةٌ فيها البَعْث؟

الأخيرُ هُوَ الأقربُ؛ لِأَنَّ حديثَ أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدُلّ عَلَى هَذَا، فَإِنَّهُ ذكر النفختينِ وذكرَ أن بينهما أربعينَ، قيلَ له: يوم أو شهر أو سَنة؟ قَالَ: أَبَيْتُ[1]. ولم يُبَيِّنْ؛ لِأَنَّهُ لا يَعْلَم؛ لِأَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعَ منَ الرَّسُولِ ﷺ أربعينَ، ولا يعلمُ هل هِيَ أربعونَ يومًا أو سنة أو شهرًا.

وبعد هَـذِهِ النفخةِ الَّتِي هِيَ الفَزَع والصَّعْـق يُرْسِل اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَطَرًا كأنَّه الطَّلّ، والطَّلُّ معروفٌ، وهُوَ النَّدَى الَّذِي يَنْزِل منَ السَّمَاءِ عندَ الصَّحْو فِي الليلِ،

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، حديث رقم (٤٦٥١)؛ ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين، حديث رقم (٢٩٥٥).

أو أَنَّهُ الرذاذ الخفيفُ جِدًّا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة:٢٦٥]، ثُمَّ تنبُت الأجسامُ بإذنِ اللهِ من هَذَا الماء، تنبت وهي فِي القبورِ، فإذا تكاملَ نَباتها نُفِخَ فِي الصُّور النفخة الثَّانِيَة، وحِينَئِذٍ تَخْرُجُ الأرواحُ وتعودُ إِلَى أجسامها، فيخرجُ النَّاسُ مِنَ القُبُور، وَلَيْسَ كما يَتَوَهَّم بعضُ النَّاس أَنَّهُم يَنْبُتُون عَلَى قُبُورهم، بل هم يَنْبُتُون فِي القبورِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق:٤٤].

فمعنى ذلك أَنَّهُم يُخْرَجُون منَ القبورِ وهم مُسْرِعون، فهم أحياء، وهَذَا بعدَ تكامُلِ أجسادهمْ فِي القبورِ، ثُمَّ إن هَذَا أيضًا مُقْتَضَى القِيَاس فِي بَدْءِ الخَلْق؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَتكامَل خَلْقُه فِي بَطْنِ أُمِّهِ ويَخْرُج حيًّا، والْأَرْض للإِنْسَانِ مثل بَطْن الأُمّ له، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَكِيم، قَالَ تَعَالَى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح:٢٣]، أفعاله دائمًا تكونُ متناسبةً، لَيْسَ فيها تناقُضٌ ولا تنافُرٌ.

قوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حَتَّى الملائكة يَفْزَعون، وكذلك يَصْعَقُون: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٨].

قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يَقُول المُفَسِّر: [خافُوا الخوفَ المُفْضِيَ إِلَى الموتِ؛ كما فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿فَصَعِقَ﴾]، فعلى هَذَا يَكُون رأيُ المُفَسِّر أنهما نَفختانِ؛ الأُولَى تَتَضَمَّن الفزعَ والصَّعْق.

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [والتعبيرُ فِيهِ بالماضي لِتَحَقُّقِ وُقُوعِهِ]، فـ(فَزِعَ) فِعلٌ ماضٍ، و(يُنْفَخ) مضارعٌ، وَلَيْسَ الكَلام فِي (يُنْفَخ)؛ لِأَنَّ المضارعَ للمستقبلِ، لكِن قوله: ﴿فَفَزِعَ﴾ ولم يقلْ: (فيَفْزَع).

يَقُول المُفَسِّر: [لِتَحَقُّق وقوعه]، والشَّيْء المتحقّق الوقوعِ كالماضي، ولهَذَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، فكيف أَتَى واللهُ تَعَالَى يَقُول:

فلا تَستعجلوه؛ إذنْ ما أتى ما دام أَنَّهُ فلا تَسْتَعْجِلُوه، فمعناه أَنَّهُ لم يأتِ، فعبَّر بـ(أتى) لِتَحَقُّقِ الوقوعِ ولِقُرْبِهِ أيضًا، كأنه لِقُرْبِهِ شَيْء حَصَل، فهنا ذكر ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ﴾ بلفظِ المضارعِ لِأَنَّهُ لم يكنْ، وذكر الفزعَ الَّذِي يَتَّصِف به النَّاس بلفظِ الماضي كأنه شيءٌ قد وَقَع بهم.

قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عَيَّن المُفَسِّر هَذَا المُبْهَم فقال: [أي جِبريل ومِيكائيل وإسرافيل ومَلَك المَوْت]، هَؤُلَاءِ أربعةٌ، [وعنِ ابنِ عبَّاس: هُمُ الشُّهَدَاء[1]؛ إذ هم ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]]، فيكُون المستثنَى خمسة، هَكَذَا قَالَ المُفَسِّر، وهَذَا يَحتاجُ إِلَى توقيفٍ وَنَصٍّ، إذا كَانَ النَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يَدْرِي، فمَنِ الَّذِي يَدْرِي! أخبرَ النَّبِيُّ ﷺ أنه: «**أَوَّلُ مَنْ يُفِيقُ، فَيَجِدُ مُوسَى** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ **آخِذًا بِقَوَائِمِ العَرْشِ أَوْ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِهِ، يَقُولُ: فَلَا أَدْرِي أَجُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ أَمْ هُوَ أَفَاقَ قَبْلِي**»[2].

إِذَنِ: الرَّسُول لا يَدْرِي مَنِ المُسْتَثْنَى؛ لِأَنَّهُ لم يعلم أنْ يَكُونَ موسى مِمَّنِ استثنى اللهُ، ولو كَانَ عنده علمٌ بهم لعَلِمَ مثلًا أن موسى لَيْسَ منهم أو أَنَّهُ مِنهم، فإذا كَانَ النَّبِيّ ﷺ لم يعلمْ فغيرُه من باب أَوْلَى.

ولهَذَا الصَّوابُ أَنَّهُ يجبُ علينا أنْ نُبْهِمَ ما أبهمهُ اللهُ، إِلَّا إذا جاءنا عنِ الرَّسُولِ ﷺ؛ فإنَّ الله يقولُ: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي (١/ ٢٦٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الديات، باب إذا لطم المسلم يهوديًّا عند الغضب، حديث رقم (٦٥١٩)؛ ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، حديث رقم (٢٣٧٣)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وَأَمَّا إذا ما جاءنا عن المعصومِ شيءٌ مِن هَذَا فالواجبُ علينا أنْ نُبْهِمَ ما أَبْهَمَهُ اللهُ، والأَمْـرُ فِي هَذِهِ المسائلِ مِنَ الخُطُورة بمكانٍ، حَتَّى آدم، فلا نَستثني أحدًا أبدًا، إِلَّا مَن شاء الله.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَن الَّذِي شاء الله؟

نَقُول: اللهُ أَعْلَمُ.

فنَفْهَم أنَّ الله استثنى أحدًا قد يَكُونُ واحدًا وقد يَكُون ألفًا وقد يَكُون ألفينِ وقد يَكُون عَشَرَةَ آلافٍ، فلا ندري، إِلَّا مَن شاء الله.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: إسرافيل ألا يَتَعَيَّن أَنَّهُ مِمَّنِ استُثْنِيَ لِأَنَّهُ هُوَ النافِخُ؟

فالجواب: لا، رُبَّما يَنْفُخُ ويَصْعَقُ بمجرَّد النفخ، فلا نَدري، المهمُّ أَنَّهُ لا يوجد شَيْء يمكن أنْ نُعَيِّنَه إِلَّا بدليلٍ عن معصومٍ، وهَذَا يَجِب علينا فِي كُلّ شيءٍ أَبْهَمَهُ الله، فكلُّ شيءٍ أبهمه الله لا يُمْكِن أنْ نُعَيِّنَهُ إِلَّا بدليلٍ عن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وخبـرُ ابنِ عَبَّاس -اللهُ أَعْلَمُ- إنْ صَحَّ عنِ ابنِ عَبَّاسٍ؛ **فَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ**: ابنُ عبّاسٍ مِمَّن عُرِفَ بالأخذِ عن الإسرائيلياتِ، فيُخْشَى هَذَا أن يَكُونَ مِمَّا أخذه عن بني إسرائيلَ؟

فنَقُول: يَبْعُدُ أنْ يُفَسِّر الْقُرْآن بما أَخَذَهُ عن بني إِسرائيلَ؛ لِأَنَّ الصحابةَ عندهم مِنَ الوَرَعِ ما يَمْنَعُهم من ذلكَ، فإذا جَاءنا -وهَذِهِ نُكْتَة يَجِب أنْ نَتَفَطَّن لها- إذا جاءنا عن ابنِ عبَّاس ونحوه مِمَّن عُرِفَ بالأخذِ عن الإسرائيليَّات تفسيرٌ للقرآنِ بهَذَا فَإِنَّهُ قد يُمانع فِي كونه مردودًا؛ لِأَنَّ ابن عباس لا يمكن أن يفسر كلام الله بما أخذه عن بني إسرائيلَ، وقد قَالَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِذَا حَدَّثَكُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ**

وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ»[1]؛ لِأَنَّ هَذَا يَقتضي أَنَّنا إذا فَسَّرنا الْقُرْآن بما قالوا فقد صَدَّقْنَاهم، وهَذَا بعيدٌ مِنَ الصحابةِ أن يفعلوه، فالْإِنْسَان يَتَوَقَّف فيما إذا جاء تفسيرُ الآيَةِ عنِ ابنِ عبَّاس وغيره من الصحابةِ الَّذِينَ أخذوا عن بني إسرائيلَ ويَتَوَقَّف فِي رَدِّه، وذلك لهَذَا الوجهِ الَّذِي ذَكَرنا، وإنْ ذَكَروا شيئًا لا يتعلَّق بالتفسير كالقَصَص الَّتِي ما أشار إليها الْقُرْآن فهَذَا يُمْكِن أن نأخذَه، لكِن قِصَّة مُسْتَقِلَّة ما أشار إليها الْقُرْآن، هَذَا يَكُون عَلَى بابِه، لكِن إذا فَسَّر شيئًا فِي قِصَّة فِي الْقُرْآن فهَذَا نأخذه، أَمَّا إذا جَعَلُوه تفسيرًا لشيءٍ معيَّن منَ الْقُرْآن كما فِي هَذِهِ الآيَةِ فالْإِنْسَان يَتَوَقَّف.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكُلٌّ﴾ تَنْوِينه عِوَض عن المضافِ إليه؛ أي: وكلهم بعدَ إحيائهم يومَ القيامةِ ﴿أَتَوْهُ﴾]، أي: أتوا الله عَزَّوَجَلَّ ﴿دَٰخِرِينَ﴾.

و(كلٌّ) تنوينُه عِوَض عنِ المضافِ إليه، والتَّقْدير: (وكُلُّهم) إذن التنوين عِوَض عنِ اسمٍ؛ عن كَلِمَةٍ، وتنوينُ العِوَض يَقُولُونَ: إنَّهُ ثلاثةُ أقسامٍ: عِوَض عن جملةٍ، وعِوَض عن كلمةٍ، وعِوَض عن حَرْفٍ، مثل قوله تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٤]، نَقُول هنا: التنوين عِوَض عن جملةٍ؛ يَعْنِي: حينَ إذْ بَلَغَتْ، وأيضًا قوله تَعَالَى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم:٢-٤]، (ويومئذٍ) عِوَض عن جملةٍ، وهي: ويوم إذ يُغْلَب الرومُ.

والعِوَض عن اسمٍ مثل هَذِهِ الآيَة، فتنوين (كل) و(بعض) عِوَض عن اسمٍ،

---

(١) رواه أبو داود، كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، حديث رقم (٣٦٤٤)؛ وأحمد (٤/ ١٣٦) (١٧٢٦٤)، عن أبي نملة الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

مثل قوله: ﴿وَكُلٌّ﴾؛ أي: (وكلهم)، وكما في قوله تَعَالَى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٣٢]؛ أي: وإنَّ كلهم، وقوله: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [هود:١١١]؛ أي: وإنَّ كلهم.

والعِوَض عن الحرفِ هُوَ الَّذِي يَلْحَق مثل: جَوَارٍ وغَوَاشٍ، فأصلها: جواري وغواشي، فحُذِفَتِ الياءُ وعوّض عنها التنوين.

وفي الحقيقة مسألة التعويض عن الحرفِ لَيْسَ لها قيمةٌ، لكِن الَّذِي يمكن أن يَتَرَتَّب عليه المَعْنى أو فَهْم المَعْنى هُوَ العوض عن جملةٍ أو اسمٍ.

قوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾؛ أي: أَتَوُا اللهَ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بصيغةِ الفِعْل واسمِ الفاعلِ]، اسمُ الفاعلِ عَلَى وزنِ فاعلٍ (آتٍ)، وإذا لَحِقَتْه الواوُ تقول: «وَكُلٌّ آتُوهُ»، والفِعْل: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾[1].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿دَٰخِرِينَ﴾ صَاغِرِينَ]، إعرابها حالٌ، وهي حالٌ مِن مَفْعُول (أَتَوْهُ)، يعني من الهاءِ، فإذا كَانَ فعلًا فواضحٌ أَنَّهَا حال، لكِن (كل آتُوهُ دَاخِرينَ) كيف تكون حالًا؟ وأين العاملُ فيها؟ اسمُ الفاعلِ؛ لِأَنَّ اسمَ الفاعلِ يعملُ عملَ فعلِهِ.

وقوله: ﴿دَٰخِرِينَ﴾ قال المُفَسِّر: [صَاغِرِينَ]، الله أكبرُ! فِي ذلكَ الوقتِ حَتَّى الرُّؤَسَاء وحتَّى الملوكُ وحتَّى الأُمَرَاء وحتى الأسياد كلُّهم واحدٌ، كلُّهم يَأْتُونَ فِي حالِ الصَّغار، فَأَعْظَمُ مَلِكٍ فِي الدُّنيا وأعظمُ رئيسٍ فِي الدُّنْيا الَّذِي يَمشي وبين يديه وخلفه وعن يمينه وعن شِماله خَلائِق البَشَرِ؛ يأتي يومَ القيامةِ صاغرًا، ولكِن هَذَا

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٥).

الصَّغار بالنِّسْبَةِ لعظمةِ الخالقِ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، ثُمَّ قد يَكُون بالنِّسْبَةِ للشخصِ أيضًا، وقد يَكُون بالنِّسْبَةِ لعظمةِ الخالِقِ فقطْ، فهم جميعًا بالنِّسْبَةِ لعظمةِ اللهِ صَاغِرُونَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ النفخِ فِي الصُّورِ، ولم يُعَيِّنِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ النافخَ ولكِن جاءتْ به السُّنَّة أَنَّهُ إسرافيلُ أحدُ حَمَلَة العَرْش.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هَذَا النفخ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّهُ يُنْتِجُ الفَزَع، ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فلو أنَّ قنابلَ قُدِّرَت فِي مكان مَهْما بلغتْ قُوَّتُها تُفْزِع مَن حولها ولَكِنَّهَا لا تُفْزِع أهل الْأَرْض كلّهم، ولا أهل الْأَرْض وأهل السَّماوَات، وهَذَا النفخُ يُفْزِعُ أهلَ السَّماوَات وأهلَ الْأَرْض؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيدلُّ ذلك عَلَى عَظَمَةِ هَذِهِ النفخةِ؛ ولذلك قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة:١٣]، أكَّدها بواحدةٍ لِيَتَبَيَّنَ أَنَّهَا عظيمةٌ لا تَحتاج إِلَى إعادةٍ وتكرارٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ لا يَفْزَعُ جميعُ مَن فِي الْأَرْض ومن فِي السَّماوَات، بل يبقى مَن لا يَفْزَع بمشيئةِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وهَذَا الْمُبْهَم فِي الآيَةِ الصَّحيحُ أنه ليسَ معلومًا لنا، ولذلك أشكلَ عَلَى رسولِ الله ﷺ هل كَانَ موسى ممَّن صَعِقَ أو ممَّنِ استثنى اللهُ، فدلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ معلومًا للناسِ مَن هم الْمُسْتَثْنَوْنَ، وهَذَا يَرْجع إِلَى كمالِ رُبُوبِيَّة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كمالُ الرُّبُوبِيَّة والسلطانِ للهِ عَزَّوَجَلَّ فِي قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ووجهُ ذلك أن العظيمَ إذا أَبْهَمَ ما يَتَصَرَّفُ به دلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لا مُعارِضَ له، وأنَّ

سُلطانه تامٌّ، يَعْنِي كأنَّه لا أحدَ يَسْأَلُه مَن هَذَا الَّذِي لا يَفْزَع ومن هَذَا الَّذِي يَفْزَع، وذلك دليل عَلَى كمالِ السلطانِ والعظمةِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، وذلك لكمالِ سُلطانِهِ وحِكْمَتِه.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: النَّبِيّ ﷺ رأى موسَى مُتَعَلِّقًا بالعَرْش، فهل هَذِهِ النفخةُ متعلقةٌ بأهلِ الْأَرْض فقطْ؟

فالجواب: النفخةُ مُتَعَلِّقة بمَن فِي السَّمـاوَات وبمن فِي الْأَرْض، والمتعلِّـق بالعَرْش هُوَ فِي السَّماوَات، وهَذِهِ النفخة نَفْخَة الفَزَع هِيَ المقدَّمة لنفخةِ الصَّعْقِ، يَفْزَعون ثُمَّ يَصْعَقون، والرَّسُول ﷺ يَقُول: لا أدري أَجُوزِيَ بنفخةِ الصُّور أم أَنَّهُ مِمَّنِ استثنى اللهُ، وموسى ﷺ مات فِي الْأَرْضِ ودُفِنَ فِي الْأَرْضِ، ولا نَدْرِي هل أَنَّهُ يُرْفَع أو يَتَعَلَّق بقوائم العَرْش، وإنْ لم يَكُنْ مباشـرًا له، وقد يُدَلَّى إليه شَيْء، لا نَدْرِي، فالمهمُّ أن هَذِهِ أمورٌ غَيْبِيَّة لا نُحِيط بها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن كُلّ أحدٍ يأتي يومَ القيامةِ صَاغـرًا ذليلًا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا فرقَ بينَ الملكِ والمملوكِ، والرئيسِ والمرءوسِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ كلٌّ؛ لِأَنَّ هَذَا التنوين عِوَض عن كلمةٍ، والتَّقْدير: (وكُلّهم)؛ أي: من فِي السَّماوَات ومن فِي الْأَرْض أتوُا اللهَ تَعَالَى داخرينَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ البَعْـثِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ أو (وَكُلٌّ آتُوهُ دَاخِرِينَ).

• • ۞ • •

الآيــة (٨٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٨٨].

قوله: (تَرى) أيُّها الْإِنْسَان، فالخطابُ لَيْسَ خَاصًّا بالنَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الرؤيةَ له ولِغَيْرِهِ. والجبالُ: مَعروفةٌ، والرؤيةُ هنا بَصَرِيَّة، قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُبْصِرها وقتَ النفخةِ].

وقول الْمُفَسِّر: [وقت النفخة] فِيهِ نظرٌ؛ لِأَنَّ وقتَ النفخةِ لم يكن النَّاس قد قاموا من قُبُورهم، ولَكِنَّهم يَرَوْنَها يومَ القيامةِ بعدَ أن يأتيَ النَّاس إِلَى اللهِ تَعَالَى داخِرينَ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَحْسَبُهَا﴾ تَظُنُّها]، والجملةُ فِي قولِهِ: ﴿تَحْسَبُهَا﴾ فِي مَوْضِع نصبٍ عَلَى الحالِ؛ لأَنَّنا قُلْنَا: إنَّ الرؤيةَ هنا بَصَرِيَّة، والرؤيةُ البصريَّةُ لا تَنْصِب إِلَّا مَفْعُولا واحدًا، ومعنى تَحْسَبُها؛ أي: تَظُنُّها.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿جَامِدَةً﴾ واقفةً مكانها لِعِظَمِها]، وقوله: ﴿جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ﴾ استعملَ الجمودَ للوقوفِ بجامعِ الثبوتِ فِي كُلّ منهما؛ لِأَنَّ الجامدَ ثابتٌ، والواقف كذلك ثابت، ولكِن قول الْمُفَسِّر: [واقفة مكانها] فِيهِ نظرٌ، إِنَّما ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي: واقفة وإنْ كانتْ هِيَ تدورُ، ولهذَا قَالَ: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ فتبيَّن بهذَا

أَنَّهَا ليستْ واقفةً فِي مكانها، ولَكِنَّهَا تُحْسَبُ واقفةً وهي فِي الحقيقةِ سائرةٌ، ولهَذَا قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ المطر إِذَا ضَرَبَتْه الريحُ؛ أي: تسير سَيْرَهُ حَتَّى تقعَ عَلَى الْأَرْضِ فتَسْتَوِي بها مبثوثة ثُمَّ تَصِير كالعِهْنِ ثُمَّ تصير هَبَاءً منثورًا].

قوله: ﴿مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ يَقُول: [المَطَر]، وفيه نظرٌ أيضًا، والصَّوابُ أن الْمُرادَ بالسحابِ هَذَا السحابُ المعروفُ، والمَعْنى أَنَّهَا تسيرُ كما يسيرُ السحابُ فِي السُّرعةِ، وهو أبلغُ مِنَ المطرِ الَّذِي فَسَّرَهُ به الْمُفَسِّر حَيْثُ قَالَ: إنه مثل المطر إذا ضربتْه الريحُ، فالمطرُ إذا ضَرَبَتْهُ الريحُ تَجِده يزولُ عن مكانِهِ، ولكِنَّه فِي الحقيقةِ لَيْسَ كما يَتَصَوَّرُهُ الْإِنْسَانُ من الآيَةِ، بل إن الآيَة عَلَى ظاهرها، والْمُراد بالسحابِ هُوَ السحابُ المعروفُ، فَإِنَّهُ يَمُرُّ بسرعةٍ، ثُمَّ إنَّ مشابهةَ الجبالِ للسحابِ أقربُ من مشابهةِ الجبالِ للمطرِ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ [النور:٤٣]، فالصَّوابُ إبقاءُ الآيَةِ عَلَى ظَاهِرِهَا بدونِ تأويلٍ.

وقوله: ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ السحابُ معروفٌ أَنَّهُ يمرُّ بسرعةٍ، فهي إذن تُقْتَلَع من مكانها وتكون مثلَ السحابِ هَبَاءً يَطير.

والحاصلُ: أنَّ الْإِنْسَانَ لا يَشْعُرُ بمرورها لَكِنَّها تمرّ.

ثم يَقُول الْمُفَسِّر: إنَّهُ بعدَ ذلك تَقَع عَلَى الْأَرْض فتَستوي بها مبثوثةً، وما قَالَهُ الْمُفَسِّر مُحتمَل، أَنَّهَا بَعْد صعودها ومرورها مرّ السحابِ تقعُ عَلَى الْأَرْض ثُمَّ تَستوي بها الْأَرْض، ويَحتمِل أَنَّهَا تَبقى طائرةً ثُمَّ تكون هباءً منثورًا، بمعنى أَنَّهَا أولًا تَضْعُفُ حَتَّى تكونَ كالعِهنِ المنفوشِ ثُمَّ بَعْد ذلك تَطيرُ مِنَ الْأَرْض حَتَّى تمرّ مرّ السحابِ مُشَاهَدَةً، لها جِسْم متماثِل، ثُمَّ بَعْد ذلك تكون هباءً منثورًا تتبدد وتتفرَّق، فتكون لها أحوال وتتطوَّر، وذلك من عِظَم الأهوالِ يومئذٍ، فتبقى الْأَرْض بعدما كانت

مرتفعةً ونازلةً تَبقَى قاعًا صَفْصَفًا؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه:١٠٦-١٠٧].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مَصْدَرٌ مؤكِّد لمضمونِ الجملةِ قبله أُضيف إِلَى فاعلِهِ بَعْد حذفِ عاملِهِ؛ أي: صنع الله ذلك صنعًا].

قوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ الْمُفَسِّر يَقُول: [مَصْدَر مُؤَكِّد لمضمونِ الجملةِ قبله]، الجملةُ هِيَ قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ وهَذَا الفِعْل من اللهِ هُوَ الَّذِي جَعَلَها تكونُ عَلَى هَذَا الحالِ، ولهَذَا قَالَ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾، فأكَّد هَذِهِ الجملة بهَذَا المصدر.

إِذَنْ: إذا كَانَ المصدرُ مُؤَكِّدًا لجملةٍ قبله فَإِنَّهُ عند النحْويين يجبُ حذفُ عامِلِهِ.

يَقُول ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَحَـذْفُ عَامِـلِ الْمُؤَكِّـدِ امْتَنَـعْ .....

يعني أن المصدرَ إذا كَانَ مؤكِّدًا لجملةٍ قبله فَإِنَّهُ يجبُ حذفُ عاملِه؛ وذلك لِأَنَّ الجملةَ الَّتِي قبلَه ما دامَ هُوَ مؤكِّدًا لها صارتْ كأنها فِعله، فلا يُجمَع بينَ البدلِ والمبدَلِ، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أُضيف إِلَى فاعِلِه] يعني المَصْدر (صنع) أُضيف إِلَى اللهِ، واللهُ هُوَ الفاعلُ، والمصدرُ يُضاف تارَةً إِلَى فاعلِهِ، ويضاف تارَةً إِلَى مَفْعُوله، تقول مثلًا: (عَجِبتُ مِن أكلِكَ الطعامَ)، أَكْل مصدر؛ لِأَنَّ الفِعْل أكلَ يأكُل أَكْلًا، فأكل مصدرٌ مُضافٌ إِلَى الكافِ، والكافُ فاعلٌ وليستْ مَفْعُولا، فأنت آكِل ولستَ مأكولًا.

إِذَنْ: فالكافُ فاعل، فَهُوَ مضافٌ إِلَى فاعلٍ، والطعام مَفْعُول به.

---

(١) ألفية ابن مالك- المفعول المطلق (ص:٢٩).

وإضافته إِلَى المَفْعُول تقول مثلًا: عَجِبتُ من أكلِ الطعامِ مِن زيدٍ، وكذا: عَجِبْتُ من طَحْنِ الدقيقِ من زيدٍ، فالدقيقُ مطحونٌ، والطعامُ مأكولٌ، فَهُوَ مضافٌ إِلَى مَفْعُولِهِ.

في هَذِهِ الآيَة: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ فاللهُ تَعَالَى صانِعٌ، فيَكُون هنا مُضافًا إِلَى فاعله.

وقوله: [بَعْد حذف عامله] وُجوبًا وليس جوازًا، فيجبُ حذفُ العاملِ وجوبًا، وإنما وَجَبَ حذفُه لِأَنَّهُ مؤكد للجملةِ قبله، فتكون هَذِهِ الجملة بمنزلةِ العاملِ؛ أي: بمنزلةِ الفِعْل، ولا يُجْمَع بين البدلِ والمُبدَلِ منه، [أي: صنع الله ذلك صنعًا]، وَفِي إضافةِ الصنعِ إِلَى اللهِ هنا تعظيمٌ لهَذَا الأَمْرِ وَأَنَّهُ من الأُمُورِ العظيمةِ الَّتِي هِيَ من صُنع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ﴾ أحكمَ ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ صَنَعَهُ]، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أتقنَ كُلّ شيءٍ صَنَعَهُ، ومن جملةِ إتقانِهِ أَنَّهُ حينما كانتِ الْأَرْضُ محتاجةً إِلَى هَذِهِ الجبالِ صارتِ الجبالُ راسيةً ورواسيَ تَرْسُو بها الْأَرْضُ، وهي أيضًا فِي نفسها ثابتة، ويوم القيامة تزولُ الحاجةُ إليها، بل تَقتضي الضَّرورَةُ زَوَالها، فتُزال هَذِهِ الجبالُ العظيمةُ، وبهَذَا نعلمُ أن اللهَ تَعَالَى صنعَ الجبالَ حينَ احتاجَ النَّاسُ إليها باقيةً، ولَمَّا زالتِ الضَّرورَةُ إليها أزالها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وبهَذَا نعرِف الحِكْمَةَ فِي قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، فصار وجودُ الجبالِ إتقانا وزوالها يومَ القيامةِ إتقانًا أيضًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ قَالَ المُفَسِّر: [صَنَعَه]، وينبغي ألا يقيّد بقولنا: صنعه؛ لِأَنَّ اللهَ أتقنَ كُلّ شَيْء صنعه وشَرَعَهُ، وَالَّذِي أوجبَ للمؤلِّف أنْ يقيِّد ذلك بِقَوْلِهِ: صنعه؛ لِأَنَّ السياقَ فِي مَقام الصنعِ، فلهَذَا قَالَ: الَّذِي أتقنَ كُلّ شيءٍ صَنَعَهُ، ولَكِنَّنَا نَقُول: إن الله تَعَالَى لم يَقُلِ: الَّذِي أتقنَ صُنْعَهُ، ولو كَانَ الله تَعَالَى -واللهُ أَعْلَمُ-

يريدُ أنْ يقيِّدَ الإتقانَ بما صَنَعَ لكانَ كما قَالَ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ قال: الَّذِي أتقنَ صُنْعَ، ولكِنه تَعَالَى يبيِّن أَنَّهُ أتقنَ كُلّ شيءٍ صَنَعَهُ أو شَرَعَه، فما صنعه الله من المخلوقاتِ فَهُوَ متقَنٌ، وما شرعهُ اللهُ تَعَالَى منَ الأحكامِ فَهُوَ أيضًا مُتْقَنٌ، لَيْسَ فِيهِ خَلَلٌ، قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سورة تَبارَكَ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك:٣-٤]، وقال تَعَالَى فِي الآيات الشَّرْعِيَّة: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاء:٨٢]، فبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آيَةِ تَبَارَك وَفِي آيَة النِّسَاءِ أَنَّهُ مُتقِن لكلِّ ما صنع ومتقِن لكلِّ ما شَرَعَ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ بالياءِ والتاءِ(١)]، بما يَفعلون وبما تَفعلون، أَمَّا عَلَى قراءةِ الياءِ فيقول المُفَسِّر: بما يَفعلون، [أي: أعداؤه منَ المعصيةِ وأولياؤه مِنَ الطاعةِ]، ولكِن عَلَى قراءة التاءِ: ﴿بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ فالخطابُ لجميعِ النَّاسِ.

(والخبير) بمعنى ذي الخِبرة، والخبرةُ هِيَ العلمُ ببواطنِ الأُمُورِ، وَعَلَى هَذَا فهي أخصُّ مِنَ العلمِ المطلَقِ، وإذا كَانَ عالمًا بالبواطِنِ فَهُوَ عالمٌ بالظواهرِ أيضًا، فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَليمٌ بالظواهرِ وبالبواطنِ.

وما مناسبة قوله: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ لَمَّا تحدَّث اللهُ عنه من صُنعه؟ يعني كَانَ مُقتضَى السياقِ ألّا تُخْتَم الآيَة بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ بل تُخْتَم بِقَوْلِهِ: (إنه عليم حكيم) أو (إنه عَلَى كُلّ شيءٍ قديرٌ) ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ وهَذَا يَقتضي أن تختم الآيَةُ بما يَدُلّ عَلَى القُدرة والحِكْمَةِ، ولكِنَّهَا

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٥).

خُتِمَتْ بما يَدُلّ عَلَى العلمِ والخبرةِ؛ العلمُ بما يفعلُ العبادُ، فما هُوَ الجوابُ عن هَذَا؛ أي: عن العُدُول عن الأول إِلَى الثاني؟

الجواب: -واللهُ أَعْلَمُ- أن الحِكْمَةَ من ذلك هي أن قوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ جملة مُعْتَرِضة بالنِّسْبَةِ للمعنى، لا بالنِّسْبَة للإعرابِ، وأنَّ المقام يَقتضي الإخبارَ بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم بما يفعلونَ؛ لِأَنَّ يومَ القيامةِ هُوَ يومُ الجزاءِ، والجزاء مرتَّب عَلَى العِلم، فلهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾، نظيره قوله تَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧]، فيكُون هنا ذِكْرُ العلمِ بما يَفْعَل النَّاسُ فِي سياقِ يومِ القيامةِ للإشارةِ إِلَى أنَّ هَذَا اليومَ هُوَ يومُ الجزاءِ الَّذِي يَجِب عَلَى المرءِ أن يعملَ له ويَحتاط له.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ذكرتم فِي قوله تَعَالَى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أَنَّهَا جملةٌ مُعْتَرِضة، أَلَا يُشْكِل عَلَى هَذَا أنَّ الْقُرْآن معانيه كلها متناسِقة؟

المُرادُ بِقَوْلِنا: جملةٌ مُعْتَرِضة؛ أي: من حَيْثُ المَعْنى، بمعنى أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَمَّا ذكرَ حالَ الجبالِ يومَ القيامةِ بعدَ النفخِ فِي الصُّور ثُمَّ ذكر أن هَذَا من صنعه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأن ذلك غاية الإتقانِ حَيْثُ كانت ثابتةً، ثُمَّ لَمّا زالتِ الحاجةُ إليها أُزيلت؛ خَتَمَ الآيَة بما يَكُون تحذيرًا للناسِ مَن أن يعملوا ما يخالفُ أمرَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومعلومٌ أن التناسُقَ فِي الْقُرْآن منه ما هُوَ ظاهرٌ ومنه ما لا يَظْهَر إِلَّا بالتأمُّل، مثلًا قوله تَعَالَى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]، مُقتضى السياقِ: فإنك أنتَ الغفورُ الرحيمُ، ومع ذلك ما كانت بل قَالَ: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وعدّة آياتٍ من هَذَا النوعِ، يَتَوَقَّع الْإِنْسَان أن تُخْتَم الآيَة بكذا ثُمَّ تختم بكذا،

فتكون فِي ظاهرِ الأَمْـرِ مخالفةً لِمُقْتَضَى السياقِ، ولكِنَّه عند التأمُّل يَتَبَيَّن للمرءِ أن الحِكْمَةَ هي أن تكونَ عَلَى هَذَا الوجهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عِظَم هَذِهِ الأهوالِ وارتفاعها، فالشَّيْءُ إذا كَانَ مرتفعًا ولو كَانَ يجري بسرعة فَإِنَّهُ يُظَنُّ أَنَّهُ واقف.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هَذَا الأَمْرَ الَّذِي حصل لهَذِهِ الجبال هُوَ من صنعِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]، فالذي جَعَلَها جامدةً فِي الدُّنْيا راسيةً عظيمةً ثقيلةً جعلها فِي الآخِرَة ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾، وذلك صُنْعٌ من صنعِ اللهِ الَّذِي لا يستطيعُ البشرُ أن يفعلوهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جـواز إضافة الصُّنع إِلَى اللهِ ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾. ولكِن لا يُؤْخَذ منه إثبات اسمِ الصانعِ لله، ولكِن يُخْبَـر به عن اللهِ، فيقال: إن الله تَعَالَى صانعُ كُلِّ شيءٍ عَلَى سبيلِ الخبريَّة، وَأَمَّا إثباتُ اسمِ الصانعِ فلا.

عَلَى أَنَّهُ يوجد فِي كلامِ شيخِ الإِسْلامِ ابن تَيْمِيَّةَ وكلامِ ابن القيِّم رَحِمَهُمَاٱللَّهُ دائمًا كلمة (الصانع)، والظَّاهر أَنَّهُما أرادا بهَذَا مخاطبةَ أهلِ الكَلامِ بمثلِ ما يتكلمون به، كأن يُقال مثلًا: إثبات الصانع يَدُلّ عليه كذا وكذا، مَعَ أننا نَرَى أن الأَولى والأفضل أن لا يُثْبَت حَتَّى بهَذَا اللفظ، بل يقال: إثبات الخالق دلّ عليه كذا وكذا، والخالق جاء فِي الْقُرْآن، وَهُوَ أبلغُ منَ الصانِعِ.

إنما عَلَى كُلّ حالٍ الإخبار عن الله بأنه صانعٌ مضافًا إِلَى التعميمِ مثل: صانع كُلّ شَيْء؛ هَذَا جائز لا بأس به، والنَّاس يَقُولُونَ فِي عباراتهم العامِّيَّة: صانع كُلّ

مصنوع، فهَذَا كونه خبرًا صحيحٌ، أَمَّا أن تجعلَه اسمًا من أسماءِ اللهِ فلا؛ لِأَنَّهُ يفرق بين الاسم وبين الخبرِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين الخبر والاسمِ؟

الخبرُ ضِدّ الاسمِ، يعني الشَّيْء إمَّا أن يُخبَر به عن اللهِ أو يُسمَّى به الله، فالخبر عن الله يجوزُ أنك تُخْبِرُ عن الله تَعَالَى بكل ما ثبت له من فعل، مقيدًا إن كَانَ مقيدًا، ومُطْلَقًا إن كَانَ مطلقًا، وَأَمَّا الاسمُ فلا تُسَمِّ اللهَ إِلَّا بما سَمَّى به نفسَه، ولهَذَا يَصِحُّ أن نَقُولَ عن اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: إِنَّهُ مُدَبِّر الأُمُور، مُسَخِّر السَّماوَات والْأَرْض، مذلِّل الإبل لِرَاكبيها، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، لكِن كونك تُسَمِّيه بهَذَا الاسم لا يَصِحّ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الصِّفة أليست مثل الخبر؟

فالإجابة: نعم الصِّفة الَّتِي يَصِحّ إضافتها إِلَى اللهِ تُخْبِرُ بها عنِ اللهِ لا مانعَ؛ ضرورةَ أنَّ المشتَقّ دالٌّ عَلَى صِفَتِه، فكُلّ مُشْتَقّ دالٌّ عَلَى صفتِه، ولا يمكِن أن تقولَ عن شيءٍ: إِنَّهُ مُشْتَقّ ثُمَّ تنفي الصِّفةَ الَّتِي اشتُقّ منها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَذَا الأَمْر الَّذِي يقع للجبالِ يوم القيامة أمرٌ عظيمٌ، وجهُ عظمته: إضافته إِلَى الله، حَيْثُ قَالَ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ وما أُضيف إِلَى العظيمِ فَهُوَ عظيمٌ، كما أن ما أُضيف إِلَى الحقيرِ فَهُوَ حقيرٌ.

الْفَائِدَتانِ الخَامِسَةُ والسادسةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُتْقِن لكلِّ شيءٍ من الأفعالِ والأحكامِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ مما صنعَ وشَرَعَ، وَأَمَّا تقييدُ المُفَسِّر له بِقَوْلِهِ: [صَنَعَهُ] ففيه نظرٌ، ولا يُقالُ: إن السياق فِي الكَلامِ عَلَى الصنعِ؛ لأَنَّنا نَقُول: الكَلام عَلَى الصنع لَكِنَّهُ جاء بَعْد ذلك تعميمٌ، لم يقل: أتقن كُلّ ما صنعَ، قَالَ: ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾.

إِذَنْ: فاللهُ تَعَالَى مُتْقِن لكلِّ ما صنعَ ولكلِّ ما شرعَ.

ويُستنتَج من هَذِهِ الفائدةِ: إثباتُ الحِكْمَةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ لا إتقانَ إِلَّا بحِكمةٍ، فلا يمكن أنْ يُتقَنَ الشَّيْء إِلَّا بعلمٍ منَ المُتْقِن كيف يُتْقِنه، والثاني: بحكمةٍ؛ بحيث يُنْزِل كُلّ شيءٍ منزلتَه، وإلا لفاتَ الإتقانُ، فلا يُتْقِنُ الشَّيْءَ مَن لا يَعْلَمُ كيف يتقنه، فهَذَا لَيْسَ بِمُمْكِنٍ.

ولا يُتْقِنُه وَهُوَ يعلمُ كيف يُتْقِنُه ولكِنه سَفِيهٌ لا يُحْسِن أنْ يَتَصَرَّف. أيضًا لا يحصُل الإتقانُ، فلا إتقانَ إلا بعلمٍ وحكمةٍ، فمِن إتقانِ اللهِ نَستنتجُ هَذِهِ الفائدةَ: وهي إثباتُ الحِكْمَةِ والعلمِ له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ضرورةَ أنه لا إتقانَ إِلَّا بعلمٍ وحكمةٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: قطعُ اعتراضِ كُلّ مُعترِضٍ عَلَى ما يَحْدُث فِي الكونِ من تدبيراتٍ أو تشريعاتٍ، ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ أَتْقَنَه، واللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أعلمُ وأحكمُ من عبادِهِ، فأنت متى عَلِمْتَ هَذَا الشَّيْء انقطعَ عنك كُلّ اعتراضٍ، سواءٌ سمِعْتَه من غيرِكَ أو أَوْرَدْتَهُ عَلَى نفسِك.

والْإِنْسَان يَعْرِضُ له أحيانًا شُبُهات يُلْقِيها الشيطانُ فِي قلبه؛ كيف كَانَ كذا؟ لم كَانَ كذا؟ ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فنَقُول: متى آمنتَ بأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد أتقنَ كُلّ شيءٍ انقطعَ عنك هَذا الاعتراضُ، وأمكنَكَ أن تقطعَ به اعتراضَ غيرِكَ أيضًا. فلو فَرَضْنا أن المطرَ جاءَ فِي غيرِ وَقته وأفسدَ الثِّمار؛ إذا علِمنا أن الله أتقنَ كُلّ شيءٍ وأن هَذَا المطرَ من فِعْلِه ومن صُنْعه، لا يُمْكِنُنا أنْ نَعْتَرِضَ؛ لأَنَّنا نعلمُ أَنَّهُ نتيجةُ إتقانٍ مَبْنِيّ عَلَى علمٍ وحكمةٍ، تَتَقَاصَر علومنا وحِكْمَاتُنَا عن إدراكِه. وهَذَا أمرٌ يُفِيدُ الْإِنْسَانَ فِي أَشْيَاءَ كثيرةٍ؛ فِي

الشرعِ أحيانًا تأتي أحكامٌ يَخفى عَلَى المرءِ وَجْهُ التفريق بينها وهي ثابتةٌ عنِ الشرعِ، ولكِنك تقول: الله تَعَالَى أتقنَ كُلّ شيءٍ.

ومِن ثَمَّ أحـدثَ العُلَمـاءُ أو الفقهاءُ مسائلَ سَمَّوْهَا بالتَّعَبُّـدِيَّاتِ، وهم ما أحدثوها فِي الحقيقةِ، بل هِيَ مسائلُ ثابتةٌ لكِنّهم وَضَعُوا لها هَذَا الاسمَ: (التَّعَبُّدِيّ).

وَلَيْسَ معنى التعبديّ الَّذِي لَيْسَ له حكمة؛ لِأَنَّهُ ما من شيءٍ إِلَّا وله حكمةٌ، ولكِن معناه: الَّذِي تخفى حِكمته علينا، وَلَيْسَ لنا فِيهِ إِلَّا التعبُّد؛ كعددِ الرَّكَعَاتِ فِي الصلواتِ؛ وَكَوْن الصلواتِ خَمسًا؛ وكذلك أَشْيَاء كثيرة فِي الطهارةِ يَخْفَى عَلَى المرءِ حِكْمَتُها؛ وكذلك فِي الحجِّ.

فالمهمُّ أننا متى بَنَيْنَا اعتقادنا عَلَى هَذِهِ المسألةِ، وهي أن الله أتقنَ كُلّ شيءٍ، زالتْ عنّا شُبُهات كثيرةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: كمال علم اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذلك بالخبرةِ الَّتِي هِيَ أخصُّ من مُطْلَق العلم؛ لِأَنَّ الخبرةَ كما سبقَ هِيَ العلمُ ببواطنِ الأُمُورِ، مأخوذةٌ من الخَبير؛ وَهُوَ الْمُزارِع الَّذِي يَدْفِنُ الحبَّ فِي الْأَرْض فيَخْفَى.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تحذيرُ المرءِ أن يعملَ ما يخالفُ حُكْمَ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

فلو أنَّ أباك قَالَ لكَ: اذهبْ وافْعَلْ ما تريدُ، أنا أعلمُ بمـا تفعلُ، فما الَّذِي يَقتضي هَذَا؟

يقتضي هَذَا التحذيرَ، وأن تحذر من مخالفةِ أبيك، فكيفَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ الَّذِي هُوَ خبير بكل ما نفعلُ.

إِذَنْ: فالجملةُ تفيد تحذيرَ المرءِ مِن المخالفةِ، وأنك عندما تُسَوِّل لك نفسُك معصيةً للهِ عَزَّوَجَلَّ فإنك تَعْرِضُ عليها مثل هَذِهِ الآيَةِ: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾، ومثل قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، وأشباه ذلك من الأَشْيَاءِ الَّتِي يجبُ عَلَى المرءِ إذا همّ بسيئةٍ أن يَستعرضَ هَذِهِ الآيَاتِ حَتَّى تَمْنَعَهُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن ما يَتَعَلَّق بالهمِّ المجرَّد فَإِنَّهُ لا يُؤَاخَذ به العبدُ؛ لِأَنَّ المقصودَ من قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ التحذيرُ من هَذَا الفِعْل المخالِفِ، فإذا قُدِّرَ أَنَّهُ همٌّ مجرَّد، فَإِنَّهُ لَيْسَ بفعلٍ، فلا يؤاخَذ عليه العبدُ، وهَذِهِ الفائدةُ بعيدةٌ فِي التصوُّر ولَكِنَّهَا دلَّت عليها السنَّة[1]، وأنَّ مجرَّد الهمِّ لا يؤاخذ به العبدُ حَتَّى يفعلَ، إِلَّا الهمّ بالحسنة فَإِنَّهُ يُكتَب للمرءِ، ولكِنَّه لا يدخل فِي هَذِهِ الآيَةِ؛ لِأَنَّ الآيَة سِيقت للتحذيرِ، والهمُّ بالحسنةِ يُرَغَّب فيه ولا يُحَذَّر منه، فالهمُّ بالسيئةِ لا يعاقَب عليه العبدُ، والهمّ بالحسنةِ يُثاب عليه العبدُ، ومُقتضَى العدل أن يُعاقَب عَلَى السيئةِ وأن يُثابَ عَلَى الحسنةِ، أو أن لا يعاقب عَلَى السيئة ولا يثاب عَلَى الحسنة، ولكِن رحمة الله تَعَالَى اقتضتِ الفضلَ دونَ العدلِ، فصارَ الهمُّ بالسيئةِ لَيْسَ فِيهِ شيءٌ، والهمّ بالحسنة فِيهِ ثواب.

• • ❁ • •

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من همّ بحسنة أو بسيئة، حديث رقم (٦١٢٦)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب إذا همّ العبد بحسنة كتبت وإذا همّ بسيئة لم تكتب، حديث رقم (١٣٠)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٨٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل:٨٩].

﴿مَن جَآءَ﴾: (مَن) شـرطيَّة، و(جاء) فعلُ الشـرطِ، وجملة: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ جوابُ الشرطِ.

وقوله تَعَالَى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ لم يَقُلْ: مَن فعلَ الحسنةَ، بل قَالَ: مَن جاء بها؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان قد يفعلُ الحسنةَ فِي الدُّنْيا ولكِنه لا يأتي بها؛ لوجودِ ما يُسْقِطُها فتزول، ولكِن الشأن كُلّ الشأن فِي أن يأتيَ بها يومَ القيامةِ.

وقوله: ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الظَّاهرُ أن المُرادَ بها الجِنس، وَلَيْسَ المُراد بها العهد، ولكِن المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَسَّرَهَا عَلَى أن المُرادَ بها العهدُ، فقال: [أي لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ]، فجعلَ الحسنةَ حسنةً معيَّنة معهودةً وهي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ولكِن الصَّواب بلَا شَكٍّ خلافُ كلامِ المُفَسِّر، وأن المُرادَ بالحسنةِ الجنسُ، فأيّ حسنة يأتي بها الْإِنْسَان فله خيرٌ منها، ولهَذَا جاء فِي الحديثِ الصَّحيحِ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا»، بحسنةٍ: نَكِرة تَشْمَل جميع الحسنات.

وقول المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يومَ القيامةِ]، متعلِّق بـ ﴿جَآءَ﴾ يَعْنِي: من جاءَ يـومَ القيامةِ بالحسنةِ ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثوابٌ ﴿مِّنْهَا﴾؛ أي: بسببها، وَلَيْسَ

للتفضيل؛ إذ لا فعل خير منها]، هَذَا غريبٌ، اقرأ الآية: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ يَقُول المُفَسِّر: المُرادُ بالخيرِ هنا الثوابُ، يعني ما يُقابِل الشرَّ، و﴿مِّنۡهَا﴾ ليست (مِن) المتعلِّقة باسمِ التفضيلِ ولَكِنَّهَا للسببيَّة؛ أي: فله ثوابٌ بِسَبَبِها، وهَذَا تحريفٌ ظاهرٌ للقُرْآن، بل ﴿خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ يَعْنِي: أفضل منها، وذلك بالمضاعفةِ، فأنتَ إذا أعطيتَني ريالًا وقلتُ: سأعطيك خيرًا منه وأعطيتك ريالينِ صار خيرًا منه.

إِذَنْ: قوله: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾؛ أي: أفضل منها، فَهُوَ يأتي بواحدةٍ ويُعطى عَشْرًا إِلَى سبعمائة ضِعف إِلَى أضعافٍ كثيرة.

وأما تعليل المُفَسِّر لمنعِ أن يَكُون المُرادُ بالآيَةِ التَّفضيل بِقَوْلِهِ: [إذ لا فعل خير منها] فنَقُول: نعم، الحسنة حَسَنَة بلَا شَكّ، وهي خيرٌ، لكِن لَيْسَ المُراد هنا: فله فعلٌ خيرٌ مِنها، بل المُراد الثوابُ والجزاءُ، والجزاء لَيْسَ بفعلٍ للعبدِ ولكِنه منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يَجزي به العبدَ، فتعليل المُفَسِّر إذن عَلِيلٌ، بل ميِّت لَيْسَ فِيهِ رُوح إطلاقًا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ المقام هنا مَقام مُقابلةِ حسنةٍ بحسنةٍ منَ العدلِ، وإنما المقامُ مقامُ جزاءٍ مِنَ اللهِ، والله تَعَالَى يَجزي العبدَ بخيرٍ مِن فِعله وأفضلَ، وَفِي آيَة أخرى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، فهل يَصِحّ أن يَكُون معنى قوله: ﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ أي: عشر بسببها؟! هَذَا يَرُدّ عليه فِي الحقيقةِ، فالآيَةُ الَّتِي أشرنا إليها تفسِّر هَذِهِ الآيَة الَّتِي ذكر الله.

فقوله: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ إذن عشر أمثالها، وَفِي الحديث: «إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ».

والغريبُ أنّ التفسيرَ الَّذِي نَحَا إليه المُفَسِّر لا يكادُ أحد يَفهمه أبدًا، فكُلّ مَن قرأ الْقُرْآن ولو كَانَ عامِّيًّا يفهم من قوله: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ جزاءً أفضلَ منه وأكثرَ،

ولا يفهم أنَّ المَعْنى فله ثوابٌ بِسببِ هَذِهِ الحسناتِ، أبدًا لا يَفْهَم هَذَا، وإنما يفهم أنَّ الثوابَ أكثرُ وأعظمُ وأفضلُ منَ العَمَلِ.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُم﴾ الجَاءُونَ بِها ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ بالإضافةِ وكسـرِ الميمِ].

قوله: ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾: (فَزَع) مضافٌ، و(يوم) مضافٌ إليه، و(يوم) مضافٌ و(إذ) مضافٌ إليه، و(إذ) مضافٌ والجملةُ المحذوفةُ مضافةٌ إليها، فيَكُون عندنا ثلاثُ إضافاتٍ.

وقوله: ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ الفزعُ بمعنى الخوفِ، ولكِنه لَيْسَ مجرَّد خوفٍ، بل خوفٌ بقلقٍ وحركةٍ واضطرابٍ، ولهَذَا يقال: فَزِعَ الرجل؛ لَيْسَ مجرَّد أَنَّهُ خافَ، بل تجده قَلِقًا ثُمَّ يحاول مثلما نَقُول فِي اللُّغة العامِّيَّة: (يفز) من الفَزَع، وكلمة فَزَع مفرَد مضافٌ فيَعُمّ كُلّ ما يحصلُ به الفزعُ؛ لِأَنَّ يومَ القيامةِ فِيهِ أفزاع؛ عِدَّة أَسْبابٍ للفزعِ، كأخذِ الكتبِ بالشمـالِ أو باليمينِ، وكذلك أيضًا دُنُوّ الشَّمْسِ، وكذلك الميزان، وكذلك الحَوْض المَوْرُود، وكذلك أيضًا يُنَادَى عَلَى الظالمينَ: أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى الله[1] ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، كُلّ هَذِهِ تُثير المرءَ وتُوجِب الفزعَ، لكِن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأتون بالحسنة آمنون.

قال: [مِنْ فَزَعِ يَوْمَئِذٍ]، أضافَ الفزعَ إِلَى يومِ القيامةِ؛ لِأَنَّهُ فزعٌ لا نظيرَ له فِي الدُّنْيا، وَعَلَى قراءةٍ أخرى يَقُول المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَفِي أخرى [بالإضافةِ وكسرِ الميمِ

(١) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، حديث رقم (٢٧٦٨)، عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وفتحها، وفزع منوَّنًا وفتح الميم[1]].

إِذَنْ: فيها قراءتانِ ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ و«مِنْ فَزَعِ يَوْمِئِذٍ» هَاتان القراءتان عَلَى الإضافةِ، والثَّالثة (مِنْ فَزَعٍ) مُنَوَّنًا وفتحِ الميمِ «مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ» وهَذِهِ فيها إشكالٌ؛ حَيْثُ إن (يوم) بالفتح مَعَ أَنَّهَا مضافةٌ، فيقتضي عَلَى هَذَا أن تكون مجرورةً، ونُخَرِّج هَذَا عَلَى واحدٍ منْ أمرينِ: إمَّا أن نَجْعَلَهَا مبنيَّةً عَلَى الفتحِ، يَعْنِي: (فَزَع) مضاف ويوم مضاف إليه مبنيّ عَلَى الفتح فِي مَحَلّ جرّ. أو نَقُول: إنَّ (فزع) فِي الأَصْل منونة حذف التنوين تخفيفًا، وَعَلَى هَذَا فتكون (يوم) مَفْعُولا يعني ظرف زمان كما هِيَ، عَلَى قراءةِ التنوينِ (فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ).

وبالنِّسْبَـة للمعنى أيّهمـا أبلغ: (من فزعٍ يومئذٍ آمنون) أو (من فزعِ يومئذٍ آمنون)؟

الأخير يَدُلّ عَلَى العموم، (فزعِ يومئذٍ) فكُلّ فزع فِي ذلك اليوم هم آمنون منه، وَعَلَى قراءة (فزعٍ يومئذٍ) يعني هم آمنون من فزعٍ فِي ذلك اليوم، فَهُوَ يقتضي أن يَكُون فزعًا واحدًا، إِلَّا إذا قُلْنَا: إنَّهُ عَلَى تقدير (من كُلّ فزعٍ)؛ أي: من كُلّ فزع آمنونَ، فتوافـق القراءة الأُولى الَّتِي هِيَ للإضافةِ، ولكِن القراءة بالإضافةِ أحسـنُ؛ لِأَنَّهَا لا تحتاج إِلَى تأويلٍ.

وقوله: ﴿ءَامِنُونَ﴾ آمنـونَ منَ الفزعِ، هل المَعْـنى أَنَّهُم لا يَفزَعـون أو أَنَّهُم يفزعون لكِنَّهم آمنونَ؟

إِذَنْ: هم آمنونَ مِنَ الفزعِ، فيَحتمِل أن يَكُون المَعْنى أَنَّهُم لا يَفزعون إطلاقًا،

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٥).

ويحتمل أَنَّهُم يفزعون ولكِنهم آمنونَ، فيكُون هَذَا الفزعُ مجرَّد شعورٍ بما يُفزَع منه فقط، وليسوا يخافون منه.

كذلك عَلَى أحدِ التفسيرينِ اللذينِ أَشرنا إليهما فِي قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النمل:٨٧]، أن هَذَا الفزعَ بَعْد القيامِ؛ لِأَنَّ بعض العُلَماء يرى أن النفخَ يَكُون بالصعقِ والبعثِ، ثُمَّ النفخة الثَّالثة للفزعِ بعدَ البعثِ، ولكِن هَذَا سبقَ أننا قُلْنَا: إِنَّهُ مرجوحٌ، وإن الصَّواب أن الفزعَ هُوَ الَّذِي يَكُون به الصَّعْقُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الحسناتِ يُؤتَى بها يوم القيامة؛ لقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيف يُؤتَى بالحسناتِ وهي أعمالٌ مَضَتْ، والأَعْمال معانٍ وليستْ أجسامًا؟

فيقال: إن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى كُلّ شيءٍ قديرٌ، يُقَلِّبُ هَذِهِ المعانيَ إِلَى أجسامٍ، مثلما قلبَ الموتَ وَهُوَ معنًى إِلَى جسمٍ، وَهُوَ الكبشُ[1]، فالله تَعَالَى عَلَى كُلّ شيءٍ قديرٌ. قَالَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأصحابِهِ: «**مَنْ تَعُدُّونَ الْمُفْلِسَ فِيكُمْ؟**». قَالُوا: مَن لا دِرْهَمَ عنده ولا متاع. فقال: «**الْمُفْلِسُ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الجِبَالِ**»[2].

وأخبرَ ﷺ أن الله تَعَالَى يَقبَلُ الصدقة منَ الكَسْبِ الطيِّب بِعِدْلِ التمرةِ؛ أي:

---

(١) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾، رقم (٤٧٣٠)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم (٢٥٨١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ما يُعادِلها، فيُرَبِّيها كما يُربِّي الْإِنْسَانَ فَلُوَّه حَتَّى تكونَ مثل الجبلِ[1]، وهَذَا أيضًا عمل.

فالمهمّ أننا نَقُول: إن المجيءَ بالأَعْمالِ يومَ القيامةِ لَيْسَ بِمُمْتَنِعٍ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن العبرةَ بالمجيءِ بالحسنةِ، لا بعملها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ وذلك لِأَنَّ عاملَ الحسنةِ فِي الدُّنْيا قد لا يأتي بها يومَ القيامة، حيثُ يَحْصُلُ ما يُبطِلها، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤]، فقد يعملُ الْإِنْسَان الحسنةَ لكِن يأتي بشيءٍ يُبْطِلها فلا يأتي بها يوم القيامةِ، والمَدارُ عَلَى الإتيانِ بها يومَ القيامةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الجزاء أفضلُ من العَمَلِ وأعظمُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الفزعِ فِي يومِ القيامةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَمْنُ مَن جاء بالحسنة من هَذَا الفزع.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن من جاءَ بالسيئةِ فَإِنَّهُ لا يأمنُ منها، وَهُوَ مأخوذ من مفهومِ قولِه: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ﴾ يَعْنِي: أَمَّا مَن جاءَ بالسيئة فَإِنَّهُ لا يأمنُ، ولهَذَا تُكَبّ وُجُوهُهم فِي النَّار.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن يومَ القيامةِ لا يُقاس بأمرِ الدُّنْيا، فهَذِهِ الأفزاعُ العظيمة لا تُفْزِع الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ جاءوا بالحسناتِ، وإنْ كانت عظيمةً فِي ذاتها؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الرياء في الصدقة، حديث رقم (١٣٤٤)؛ ومسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، حديث رقم (١٠١٤)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فِي يومِ القيامةِ يخلُق أَشْيَاءَ يَسْتَبْعِدُها العقلُ فِي الدُّنْيا، فالشَّمْسُ تَدْنُو مِنَ الخلائقِ قَدْرَ مِيلٍ[1]، ومنَ النَّاسِ من يَكُونُ فِي ظِلٍّ منها، والعرقُ يَصِل عند بعض النَّاس إِلَى كَعبيه وإلى رُكبتيه وإلى حَقْوَيْهِ، ومنهم مَن يُلْجِمُه[2] وهم فِي مكانٍ واحدٍ؛ ممَّا يَتَبَيَّن به قُدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن النَّاس فِي هَذَا المكان الواحدِ وَفِي الزمنِ الواحدِ يَختلفون هَذَا الاختلافَ المتباينَ.

وفي إضافة الفزعِ إِلَى ذلكَ اليومِ دليلٌ عَلَى شِدَّته ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾.

• • ۞ • •

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها، حديث رقم (٢٨٦٤)، عن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تخريج الحديث السابق.

الآيــة (٩٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٠].

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ أي: الشِّرك]، قوله: [مَن جاء] نَقُولُ فِيهِ كما قُلْنَا فِي قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان قد يعملُ السيئةَ ولكِنه لا يأتي بها، وذلك بأنْ يتوبَ مِنْهَا أو تكون له أعمالٌ صالحةٌ تُكَفِّرها أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَأَمَّا مجرَّد المشيئة فالغالب أَنَّهَا تُغفر يوم القيامةِ فيقرّر بذنوبِه ثُمَّ يُقَال له: غَفرناها لك.

وقوله: [أي: الشـرك] فِيهِ نظرٌ، وإنمـا حَمَلَه عَلَى ذلك تفسيـرُه الحسنةَ بأنها (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَهُوَ توحيدٌ، فقال: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي الشركِ، ولكِن الصَّواب أنّ المُراد بالسيئةِ هنا الجنسُ، فيشمل كُلّ سيِّئ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ بأن وليتها، وذُكِرَتِ الوجوهُ لِأَنَّهَا مَوْضِعُ الشَّرَف مِنَ الحواسّ، فغيرُها من باب أَولَى].

الذي أوجبَ للمؤلِّف أن يحملَ السيِّئ عَلَى الشركِ جوابُ الشرطِ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ فيقول: إن هَذَا لا يَكُون إِلَّا لِلكَافِرِينَ، وهَذَا فِيهِ نظرٌ أيضًا؛ لِأَنَّ مَن جاء بالسيئةِ ولو دونَ الشركِ فَإِنَّهُ إن لم يُغْفَرْ له يُكَبّ فِي النَّارِ،

ولكِنَّه يُعاقَب عَلَى حسَب ذُنُوبِه، ثُمَّ بَعْد ذلك يُخْرَج منها، إمَّا بشفاعةٍ وَإمَّا بانتهاءِ جزائِه إذا لم يشفعْ له.

فالحاصل أننا نَقُول: إن قولَه: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ لا يَلزَم منه الخلودُ، بل قد تُكَبّ وُجوههم فِي النَّار ثُمَّ يَنْجُونَ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: إذا كانوا عصاةً فإن موضعَ السجودِ لا تأكله النَّارُ، فكيف نَقُولُ: كُبَّتْ وُجُوهُهم فِي النَّار؟

قُلْنَا: إذا كُبّ عَلَى وجهِه أصابتْه النَّارُ إِلَّا موضعَ السجودِ، وهَذَا لا يَمنَع أن يُكَبّ عَلَى وجهه وتُحمَى مواضعُ السجودِ مِنَ النَّار.

وقوله: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ جواب الشرط ماضٍ، فَكَانَ مُقتضى الأَمْر أن يَقُول: ومن جاءَ بالسيئةِ كُبَّت؛ لِأَنَّ فعل الشرط إذا كَانَ ماضيًا وجوابه كَانَ ماضيًا أيضًا فلا يحتاج إِلَى الفاء، يَقُولُونَ: إن الفاء هنا تدلّ عَلَى تقدير (قد)، يَعْنِي: (فقد كُبَّت)، وتكون دالَّة عَلَى التحقيقِ لهَذَا الأَمْرِ؛ لِأَنَّ (قد) للتحقيقِ، ولَكِنَّهَا حُذفتْ لفظًا وأُشيرَ إليها معنًى، فالفاء تشير إِلَى (قد)، وحُذِفَتْ لَفظًا لِأَنَّ (قد) للتحقيق، والمسألة لم تَقَعْ، فَكَانَ فِي تحقيقها بـ(قد) وهي لم تقعْ نوعٌ من التناقضِ، فلذلك حُذفت فِي اللفظِ وأُشير إليها بالمَعْنى بالفاءِ، وكما هُوَ معلومٌ أن جوابَ الشرطِ إذا اقترنَ بـ(قد) فيجب أن يَكُونَ مَقرونًا بالفاءِ.

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدٍ ... وَبِمَا وَلَنْ وَبِقَدْ وَبِالتَّنْفِيسِ

سبعةُ مواضعَ إذا كانتْ جوابًا للشرطِ وجبَ اقترانُ الفاءِ بها.

قوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾؛ أي: ما تُجْزَوْنَ، يَعْنِي أنَّ الاسْتِفْهامَ هنا بمعنى النفيِ،

والاسْتِفْهامُ بمعنى النفيِ أبلغُ منَ النفيِ المجرَّد؛ لِأَنَّهُ يَدُلّ عَلَى النفيِ وزيادة. فقولنا: ما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كنتم تعلمون يَدُلّ عَلَى أَنَّهُم لا يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانوا يعملون، لكِن قوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ يَدُلّ عَلَى تقريرِ هَذَا الأَمْرِ، وَأَنَّهُ لا يمكن للإِنْسَانِ أنْ يُجازَى إِلَّا بما كَانَ يعمل، ويَكُون فِيهِ تقريرٌ وتقريعٌ فِي نفسِ الوقتِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ويُقال لهم تَبكيتًا: ﴿هَلْ﴾ ما ﴿تُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ جَزَاء ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ منَ الشِّرْك والمَعاصِي]، قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا﴾ جَزَاء ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾] فِيهِ صرفٌ للفظِ عن ظاهرِهِ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يَقتضي أن يَكُونَ العَمَلُ هُوَ الجزاءَ نفسَه ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ﴾، ومن المعلوم أن العَمَل لَيْسَ الجزاءَ، بل الجزاء شيءٌ والعَمَل شيءٌ آخَرُ. فعندما تستأجرُ إِنْسَانًا يعمل لك، ثُمَّ تعطيه الأجرةَ، فعَمَلُه غيرُ أُجرتِهِ.

والعاملُ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَلُه غيرُ جزائِه، فظاهرُ الآيَةِ ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أنَّ الإِنْسَان يُجزى بعملِهِ، لذلك احتاج المُفَسِّر أن يقدِّر هَذَا المحذوفَ: إِلَّا جزاء ما كنتم تعملون، لكِن ما فِي الآيَةِ أبلغُ؛ لِأَنَّهُ من بابِ المبالغةِ فِي العدلِ أنْ يجعلَ الجزاء هُوَ العَمَلَ، كأنَّ الجزاءَ نفسَه عَمَلُك مبالغةً فِي العدلِ، فأنت إذا كنتَ تريدُ ثوابًا كثيرًا فاعمَلْ كثيرًا؛ لأن ثوابَك عَمَلُك.

وأما قوله: [﴿هَلْ﴾ ما ﴿تُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ جَزَاء ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾]، ففيه أيضًا ركاكة، ما تُجزون إِلَّا جزاءَ العَمَلِ! فمعلوم أن كلمةَ (تُجْزَوْنَ) يُستفاد مِنْهَا الجزاءُ، فلا حاجة إِلَى تقديرٍ.

فالصَّواب إبقاءُ الآيَةِ عَلَى ظاهرها، ويُفهَم أن الَّذِي يُعْطَوْنَه هُوَ الجزاءُ مِن

قولِه: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾. والتعبيرُ عن الجزاءِ بالعَمَلِ نفسه مبالغةٌ فِي العدلِ؛ بحيثُ يَكُون جزاؤك عَمَلَكَ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنَ الشِّرك والمَعاصِي]، هَذَا ما ذهبَ إليه جمهورُ أهلِ العلمِ، وَهُوَ الصَّوابُ؛ أن الكافرَ يعاقَب عَلَى أصلِ الكفرِ وَعَلَى المَعاصِي أيضًا الَّتِي عَمِلها، فالمشركُ إذا زَنَا وسَرَقَ وشَرِبَ الخمرَ يُعاقَب عَلَى ذلك، فيعاقَب عَلَى الأَصْلِ والفرعِ، واستدلُّوا لذلكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر:٤٠-٤٦]. فالصدقةُ ليست من الأصول، والصَّوابُ أنَّ الصَّلَاةَ مِنَ الأُصُول وأن تاركها يُكَفَّر، لكِن الصَّدَقَة ليستْ منَ الأصولِ، حَتَّى الزكاة عَلَى القَوْلِ الصَّحيحِ لا يُكَفَّر تَارِكُها، ومعَ ذلك ذَكَرُوا أَنَّهَا من أَسْبابِ دُخُولِهِمُ النَّارَ، ولولا أنَّ لها تأثيرًا فِي الجزاءِ ما صارتْ منَ الأَسْبَاب.

وهَذَا دليلٌ عَلَى أَنَّهُم يعاقَبون عَلَى فروعِ الإِسْلامِ كما يُعاقَبون عَلَى أصولِهِ، وَعَلَى هذا فيعاقبون عَلَى معاصيهم الَّتِي دونَ الشركِ، وهَذَا بلَا شَكّ كمالُ العدلِ؛ لِأَنَّهُ إذا كَانَ المسلمُ يعاقَب عليها فكيف بالكافر؟! هل تكون للمسلمِ نِقْمَة وتكون للكافر نعمة؟! لا، بل أبلغُ من ذلك الكافر يعاقَب حَتَّى عَلَى المباحِ للمؤمنِ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]. ففُهِم من قوله: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أَنَّهَا لغير المُؤْمِنِينَ ليستْ خالصةً، وأنهم سيُجازون عليها.

وهَذَا أيضًا مُقتضَى النظر؛ إذ كيف يَتَنَعَّمُ الْإِنْسَان بنِعَمِ الخالقِ وَهُوَ يَعصي الخالقَ، لَا بُدَّ أن يعاقبَه، يَقُول: أنا أحسنتُ إليكَ، أَطْعَمْتُك وسَقَيْتُك وكَسَوْتُك

وأَسْكَنْتُك وزَوَّجْتُكَ ومَا أَشْبَـهَ ذَلِكَ، فيعاقَـب عَلَى هَذِهِ النعمةِ لِأَنَّهَا تحتاج إِلَى شكرٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ المَدارَ فِي العقابِ عَلَى السيئاتِ هُوَ المجيءُ بها يوم القيامة، لا مجرَّد العَمَل، قد يعمل الْإِنْسَان السيِّئة وتُكفَّر أو يتوب مِنْهَا، ولكِنَّ العبرةَ بالمجيءِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ عذابِ النَّار؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ والعياذ باللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان شدَّة العقوبةِ -والعِيَاذُ باللهِ- لهَـؤُلَاءِ، حَيْثُ يُكَبُّون عَلَى وُجُوهِهِم فِي النَّارِ، والوجهُ أشرفُ الأعضاءِ، وإهانته أعظمُ من إهانةِ غيرِه، فلو أنَّ أحدًا صَفَعَكَ عَلَى خدِّك أو ضَرَبَك فِي رِجْلِك أيُّهما أشدُّ إهانةً؟

الوجهُ أشدُّ، ولهَـذَا كَانَ إكبابهم عَلَى وجوههم فِي النَّار -والعياذُ بالله- أشدَّ وأبلغَ فِي الإهانةِ وفي العذابِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كمـال عدل الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني ما ظَلَمْنَاكم، بل أنتم الَّذِينَ ظلمتُم أنفسَكم، فعَمِلْتُم ما استحققتم به هَذَا العذابَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن عذابَ أهلِ النَّارِ -والعياذُ باللهِ- عذابٌ نفسيّ وبدنيّ، بَدَنِيّ حَيْثُ تُكَبّ وُجوهُهم فِي النَّارِ، نَفْسِيّ حَيْثُ يُوَبَّخُون ويُقْرَعُون ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

فما ظنُّك بِمَن يُقَال له مثل هَذَا؟! تجده يَمتلِئ خَجَلًا، ويمتلئ أيضًا ندمًا،

يَقُول: لَيْتَنِي ما عمِلتُ، ليتَ وليتَ، ولكِن ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٢]، فإذن يُجْمَع لهم -والعياذ بالله- بين العذاب البدنيّ والعذاب النفسيّ.

وقد ذكر اللهُ تَعَالَى فِي سورةِ المؤمنونَ أَنَّهُم يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧]، وهم لو أُخْرِجُوا مِنْهَا لعادوا لِظُلْمِهِم، لَيْسَ فِيهِ إشكال، كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨]، لكِن يَقُولُونَ هَذَا من شِدَّة ما يجدون، فَكَانَ الجواب -والعياذ بالله- أعظمَ جوابٍ فِي الإهانةِ: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، والعياذ باللهِ هَذَا الجوابُ فِي غايةِ الإهانةِ والصَّغار والذُّلّ، وقد ذُكر أن الله تَعَالَى لا يُكَلِّمُهُم إِلَّا بَعْد مدةٍ طويلةٍ، يكلِّمهم بهَذَا الكَلام الَّذِي لا خيرَ فِيهِ لهم، بل هُوَ تَيْئِيس من كُلّ خيرٍ ومن كُلّ فرجٍ، نسألُ اللهَ العافية: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ يعني اندحروا وذِلُّوا وتَلْحَقُكُمُ المهانةُ والإهانةُ، ومع ذلك لا تُكَلِّمُوني، فلستم أهلًا لِأَنْ تكلموني، نسأل الله العافية.

فإِذَنْ: يُجمَع لأهل النارِ بين العذابينِ: البدنيّ والنفسيّ.

• • ۞ • •

الآيـة (٩١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٩١].

قَالَ المُفَسِّـر: [قُلْ لَهُم: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ أي مَكَّة]، المكان الَّذِي قَالَه النَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فِيهِ هُوَ مكَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ والإشارة هنا للقريب ﴿ٱلَّذِى﴾ ولم يقل: (الَّتي) لِأَنَّهَا صِفة لمذكَّر ﴿رَبَّ هَٰذِهِ﴾ ولهَذَا تُعرب (الذي) عَلَى أَنَّهَا اسْم موصول مبنيّ عَلَى السكون فِي محلّ نصب، صفة لربّ، وقصدنا هنا بالذُّكُورِيَّة لَفظًا أم معناها؟ فلا نَقُول: اللَّفْظ مُذَكَّر، أَمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فلا يجوزُ وَصْفُهُ لا بهَذَا ولا بهَذَا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾: [جَعَلَها حَرَمًا آمِنًا]، جعلها شرعًا حَرَمًا آمنًا.

وقوله: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ إضافته الرُّبُوبِيَّة إليها تفيدُ الفضلَ، وأن الله تَعَالَى قد اعتنى بها وشرَّفها، ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا يُسفَك فيها دمُ إِنْسَانٍ]، والحديث: «لَا يُسْفَكُ فِيهَا دَمٌ»[1]، وأيهما أعمُّ (دم الْإِنْسَان) أو (دم) فقط؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، حديث رقم (١٠٤)؛ ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلَّا لمنشد على الدوام، حديث رقم (١٣٥٤)، عن أبي شريح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(دَم) أعمٌّ، ولهَذَا لا يُسفَك فيها دمُ إِنْسَانٍ ولا دَمُ صيدٍ، وَأَمَّا المواشي من الإبلِ والبقرِ والغنمِ وما أَشْبَهَهَا فإن هَذَا دلَّتْ السنَّة عَلَى جوازِه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ولا يُظلَم فيها أحد]، هَذَا لَيْسَ خاصًّا بمكَّة، حَتَّى غير مَكَّة لا يجوز أن يُظلمَ فِيهِ أحدٌ؛ ولذلك ما جاء فِي الحديثِ: لا يُظْلَم فيها أحدٌ؛ بل قَالَ الرَّسُول ﷺ: «**لَا يُسْفَكُ فِيهَا دَمٌ**»؛ فليس من خصائصِ مكَّةَ ألَّا يُظْلَم أحد، صحيح أن الظلم فِي مكَّةَ أعظمُ من غيرِه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥]، فقوله: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ الباء تدلّ عَلَى أن الفِعْل مضمَّن معنى العزيمةِ الصادقةِ، أَمَّا أنَّ الظلم فِي غيره مباح فلا.

مسألة: هل السيئة تُضاعَف فِي مَكَّة؟

الجواب: ما تُضَاعَف السيئة فِي مكَّة؛ تضاعف بالكيفيَّة فقطْ لا الكمّيّة، ولَيْسَ معناه أن السيئة يُجْزَى عنها سيِّئتانِ، وإنّما المَعْنى أَنَّهَا تكون أعظمَ، فكيفيَّة العقوبة تَختلِف، قد أضرِبُ هَذَا الْإِنْسَان ضربةً واحدةً وأضرب الآخرَ ضربةً واحدةً وتكون هَذِهِ الثَّانِيَة مؤلِمة والأولى غير مُؤْلِمة.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ولا يُصَادُ صَيْدُها]، هَذَا صحيح، وغيرها يُصاد.

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ولا يُخْتَلَى خَلاها]، صحيحٌ، وغيرها يُختلَى، والمَدينَة يختلى خلاها، إِنَّمَا يُحرم الشَّيْء الَّذِي بدون حاجةٍ فِي المَدينَةِ، وَأَمَّا الَّذِي بحاجةٍ فيجوز، وهَذَا الفرق بينها وبين مكَّة.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وذلك مِنَ النِّعم عَلَى قُرَيْشٍ وأهلها فِي رفعِ الله تَعَالَى عن بلادهم العذابَ والفِتَنَ الشائعةَ فِي جميعِ بلادِ العربِ].

إِذَنْ: قوله: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ فِيهِ إظهارٌ لفضلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَى ساكني هَذِهِ القرية، حَيْثُ جعلَ الله هَذِهِ القريةَ حَرامًا، فقوله: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أي جعلها حَرَمًا وجعلها حَرَامًا، وما قلناه أعمُّ ممَّا قَالَ المُفَسِّر؛ لِأَنَّ المُفَسِّر يَقُول: [جعلها حرمًا آمِنًا]، ثُمَّ ذكر الأَشْيَاءَ، فهي حرم وحرام أيضًا، حرمٌ بمعنى أَنَّهَا مُحْتَرَمَةٌ، وحرام بمعنى أَنَّهَا محرَّمة، لهَذَا مَنْ قَصَدَها فَإِنَّهُ يُشْرَع له بإجماعِ أهلِ العلمِ ألَّا يدخلها إِلَّا مُحْرِمًا، وَفِي وجوبه خلاف معروف.

أيضًا من جملة احترامها أن المُشركينَ لا يقربون المَسْجِد الحرامَ، فيكُون الحرمُ كلّه محرَّمًا عليهم؛ لِأَنَّ دخولهم الحرمَ مِن قُربان المَسْجِد الحرامِ، فلهَذَا كَانَ ذلك احترامًا لهَذِهِ البلدةِ، ومع ذلك يقولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَهُۥ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كُلُّ شَىْءٍ﴾ فَهُوَ ربُّه وخالقه ومالِكه]، الجملةُ الأخيرةُ فيها فائدة عظيمة؛ لِأَنَّهُ لما قَالَ: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ قد يَتَوَهَّم مُتَوَهِّم أَنَّهُ تختصُّ ربوبيَّته بهَذِهِ البلدةِ؛ فأتى بَعْد ذلك بالتعميمِ؛ قَالَ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾. ونظيرُ هَذَا قوله تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ [الحديد:١٠]، قَالَ بعدها: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠]، حَتَّى لا يَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّم أن ذلك الفضلَ خَاصّ بأولئكَ، فبيَّن أن الجزاء للجميعِ، وَهُوَ الجَنَّة، وإنْ كانوا لا يَسْتَوُونَ، ففي قوله: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ رُبُوبِيَّة اللهِ عامَّة لكلِّ شيءٍ، لكِن ربوبيَّته لهَذِهِ البلدة أخصّ مِن ربوبيَّته الْعَامَّة.

قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، أَمَرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ [الرعد:٣٦].

قال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، أليست العِبادَة هِيَ الإِسْلام؟

الجواب: بلى، العِبادَة هِيَ الإِسْلام، لكِن هناك قَالَ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل:٩١]، والعِبادَة هِيَ التذلُّل له بالطاعة، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي أن أُحقِّق هَذِهِ العِبادَة بالاستسلام التامّ لأوامر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فالْإِنْسَان قد يَكُون عابدًا فِي الأَصْل لكِن الانقياد التامّ بجميع مشروعات الإِسْلام يُستفاد من قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي من المنقادِين لحُكْمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ انقيادًا تامًّا، لا معارضة عندهم ولا استكبار.

وفي قوله: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ دليلٌ عَلَى أن هناك مسلمينَ، فهل اليهود والنصارى مسلمونَ؟

الجواب: حين كانتْ شرائعهم قائمةً فهم مسلمونَ، أَمَّا بَعْد أنْ نُسِخَتْ فإنهم إذا لم يَلْتَزِموا بالشَّرِيعَة النَّاسخةِ ولم يَكُونوا مسلمينَ، فالإِسْلام هُوَ الدين عند الله فِي كُلّ زمانٍ ومكانٍ، وبعد بَعثةِ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا إسلامَ إِلَّا باتباع شريعته، وإِلَّا فأصل الإِسْلام كما هُوَ معروف من الاستسلام وَهُوَ الانقياد، وهَذَا يشمل كُلّ انقياد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، سواء فِي عصر هَذِهِ الأمة أو قبلها، نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَقُول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢]، مثلما قيل للرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. وقال عن يعقوب: إِنَّهُ قَالَ لبنيه: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]، وقالت بِلقِيس: ﴿إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وجوبُ إعلانِ الرَّسُولِ ﷺ بما ذكر؛ لِأَنَّهُ عَلَى تقدير: (قُل إِنَّما أمرت)، وَهُوَ واجب عليه أن يعلنَ ذلك؛ لأجل أن يَكُون قدوةً فيه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وجوب العِبادَة عَلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾، ولا يُقَال: إن التكاليف تسقطُ عن الأَنْبياء والأولياءِ، بل تجب عَلَى النَّبِيِّ ﷺ كما تجب عَلَى غيرِه، ويجب عليه هُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يشهد أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّهُ رسولُ الله؛ فهَذَا مُقتضى الإِسْلام.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بُطلان ما ادَّعاه أصحابُ مَن يَزْعُمونَ أَنَّهُم أَوْلِيَاء، حَيْثُ قَالُوا: إن الوليَّ يصل إِلَى درجةٍ يسقُط بها عنه التكليف، وهَذَا موجود عند الصوفيَّة وغيرهم، يَقُولُونَ: هَذِهِ العباداتُ الَّتِي نكلَّف بها وسائلُ إِلَى غايةٍ، والغاية: الْيَقِينُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩]، فإذا وصل الْإِنْسَان إِلَى الْيَقِينِ سقطتْ عنه العِبادَةُ وصار لا يجبُ عليه صلاةٌ ولا زكاةٌ ولا صومٌ ولا حجٌّ، ولا يحرم عليه نِكاح أحدٍ، فيتزوَّج مَن شاء من ذُكُورٍ وإناثٍ، والعياذُ باللهِ، ومن عددٍ صغيرٍ وكبيرٍ.

حَتَّى إنَّا نسمع عنهم الْآنَ فِي أفريقيا أن الواحد منهم له خمسونَ امرأةً، فتَعَدَّوُا النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأيضًا لا يَتَزَوَّج بعقدٍ، فإذا اشتهى امرأةً أرسلَ إلى أبيها وقال: أريد ابنتك زوجةً لي.

ولا أحد يتمكَّن من أن يُعارِضَهُم؛ لِأَنَّهُم يزعمون أَنَّهُم وصلوا إِلَى غايةٍ لا يحتاجون معها إِلَى تكليف.. فإذا كَانَ الرَّسُول ﷺ أُمر أن يعبدَ الله فغيرُه من باب أَولى.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أليس هَؤُلَاءِ كفارًا؟

فنَقُول: بلى، بل من أكفرِ الْكُفَّارِ والعياذُ بالله.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فَضيلة مكَّة من وجهينِ: من إضافةِ الرُّبُوبِيَّة إليها ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ ومن كونه تَعَالَى حَرَّمَها ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ ففيه فضيلةُ مكَّة عَلَى سائرِ البلادِ، ولها فضائلُ كثيرةٌ، فلو لم يكن مِنْهَا إِلَّا أنَّ قَصْدها للعبادة من أركانِ الإِسْلامِ لَكَفَى؛ فالحجُّ رُكْن من أركانِ الإِسْلامِ، فليس هناك بلد فِي العالم يَكُونُ القَصْد إليه فرضًا أبدًا ولا سنَّة إِلَّا مَكَّة والمَدينَة والمسجد الأقصى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الَّذِي حرَّم مَكَّة هُوَ الله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: ألا يعارض ذلك ما ثبتَ عن رسولِ اللهِ ﷺ من قوله: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ**»[1]؟

قُلْنَا: لا؛ لِأَنَّ معنى قوله: «**حَرَّمَ مَكَّةَ**»؛ أي: أَظهرَ تَحريمَها وأبانها، وإلا فالذي حَرَّمَها هُوَ اللهُ، ولهَذَا نَقُول مثلًا: إنَّ الرَّسُول ﷺ حرم الميتة والخمر والخنزيرَ، يعني أظهر تحريمها وأبانه، وإنْ كَانَ الَّذِي حرَّمها هُوَ الله، فالمهم أنه لا منافاة بين قولِه تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ وقول الرَّسُول ﷺ: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ**» والجمعُ بسيطٌ وواضحٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل المَدينَة حرمها الله عَزَّوَجَلَّ؟

فالإجابة: نعم، حرَّمها الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن كُلّ شيءٍ فَهُوَ مِلْكٌ لله؛ مَكَّة وغيرها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾.

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب بركة صاع النَّبِيّ ﷺ ومدهم، حديث رقم (٢٠٢٣)؛ ومسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النَّبِيّ ﷺ فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها، حديث رقم (١٣٦٠)، عن عبد الله بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الردُّ عَلَى الْمُعْتَزِلَة والْقَدَرِيَّة الَّذِينَ يَقُولُونَ: إن الْإِنْسَان مُسْتَقِلّ بِعَمَلِه، فَإِنَّهُ عَلَى قولهم يَخرج بعض الأَشْيَاء عن مِلْكِ اللهِ، والله تَعَالَى يَقُول: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بَلاغة الْقُرْآن؛ لِأَنَّهُ لَمّا قَالَ: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ فقد يَفهم منه أحد أن رُبُوبِيَّة اللهِ تَعَالَى خاصَّة فِي هَذَا المكانِ، فاحترازًا من هَذَا الفهمِ الخاطئ أعقبه بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ وهَذَا من بلاغةِ الْقُرْآن.

وهل تدخل مَكَّة فِي قوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾؟

هَذِهِ المسألة مختلَف فيها عند الأُصُولِيِّينَ، يعني إذا ذُكِرَ الخاصُّ مَعَ العامِّ فهل التنصيصُ عليه مُخرِج له منَ العُمُوم، فيَكُون ذُكر مرَّةً لكِن نُصَّ عليه لِشَرَفِهِ مثلًا والعناية به، أو أَنَّهُ لا يُخرِجه من العمومِ، فيَكُون ذُكِرَ مرّتينِ؛ مرة بصيغة التخصيص ومرة بصيغة التعميمِ، فما هُوَ المتبادر للذِّهن؟

قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر:٤]، الرُّوح هُوَ جِبريل، لكِن يَتبادر إِلَى الذهنِ -فِي ذهني أنا ولا أدري عن غيري- أَنَّهُ إذا ذكر الخاصَّ بَعْد العامِّ أو قبلَه أنَّه ما أُريد دخوله فِي العامّ.

فعندما تقول: جاء الطلبة وعلي، وَهُوَ معروف أَنَّهُ من الطلبةِ، أنت تَفهم أَنَّهُ خرجَ عنهم لَمّا نُصّ عليه، وكفَى بذلك فخرًا أن يُخْرَج من بين العمومِ ويُنصّ عليه فِي الحكم. لكِن أولئك يَقُولُونَ: إنَّهُ ذُكر مرتينِ؛ مرةً بطريق العمومِ ومرةً بطريق الخصوصِ، ولكِن فيما أَظُنّ ويتبادر إليّ أَنَّهُ لَيْسَ كذلك، نعم لو ذكر العموم فِي موضعٍ آخرَ ولم يذكر الخصوصَ فلَا شَكّ أَنَّهُ داخل فِي العمومِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّهُ لا يجوزُ لأحدٍ أن يحكمَ بغيرِ ما أنزلَ الله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾؛ لِأَنَّ من جملةِ الأَشْيَاءِ: الحُكْم بين العبادِ، بل هُوَ من أعظم الأَشْيَاءِ، فإذا كَانَ ذلك للهِ فلا يجوزُ لأحدٍ أن يستقلَّ به، ومَن أراد أن يستقلَّ به فقد حاول أن يَكُونَ شَريكًا لله تَعَالَى فِي ذلك، ونزل نفسه منزلةً لا يسْتَحِقّها.

إِذَنْ: أمر التحليل والتحريم والإيجابِ إِلَى اللهِ؛ لِأَنَّ له كُلَّ شيءٍ، وأمر التحسينِ والتقبيحِ الصَّوابُ أنها إِلَى اللهِ؛ لِأَنَّ بعضَ الأَشْيَاءِ لا نعرف عن حُسنها وقُبحها إِلَّا مِنَ اللهِ، لكِن أيضًا للعقلِ مجالٌ فِي هَذَا، ولذلك ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ما الَّذِي بعدها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]، فدلَّ هَذَا عَلَى أن العقل يُحَسِّن ويقبِّح؛ فإن هَذَا من القبيح.

لَا تَنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وَتَـأْتِيَ مِثْلَـهُ ... عَارٌ عَلَيْـكَ إِذَا فَعَلْـتَ عَظِـيمُ[1]

فالعقلُ يُحَسِّنُ ويُقَبِّحُ، لَكِنَّهُ لا يُوجِبُ ويُحَرِّم، فالإيجابُ والتحريمُ إِلَى الله، أَمَّا التحسينُ والتقبيحُ فيُحَسِّن ويُقَبِّح، ولهَذَا يحيل الله تَعَالَى أَشْيَاءَ كثيرةً إِلَى العقلِ، فدلَّ ذلك عَلَى أن للعقلِ أن يُحَسِّن ويقبِّح، ولكِن مِنَ الأَشْيَاء ما لا يعلَم حُسْنَه وقُبْحَه إِلَّا بطريقِ الشرعِ، وهَذَا هُوَ الصَّحيحُ فِي هَذِهِ المسألةِ -مسألة التقبيح والتحسين العقليّ- صار فيها نزاعٌ طويلٌ بين أهل السنّة والجماعةِ وبين أهلِ البدعِ، منهم مَن قَالَ: لا يحسِّن ولا يقبِّح، والغريب أن هَذَا هُوَ المشهورُ من مذهبِ الحنابلةِ، قَالَ الفُتُوحي فِي كتاب (مُخْتَصَر التحرير فِي أُصول الفقهِ): «العقلُ لا يُحَسِّن ولا يُقَبِّح، ولا يُوجِب ولا يُحَرِّم»، نَقُول: أَمَّا قوله: «لا يوجب ولا يُحَرِّم» فهَذَا صحيحٌ، وَأَمَّا لا يُحَسِّن ولا يُقَبِّح فهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، ويُرْوَى عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:

---

(١) مجمع الأمثال (٢/ ٢٣٨).

«مَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْهُ قَبِيحًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ قَبِيحٌ»(١).

وربما يشهد لهذا قولُ الرَّسُولِ ﷺ: «**الْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**»(٢) لكِن الْإِنْسَان الَّذِي صَفَتْ سَريرته وخَلصتْ نِيَّته هَذَا لا يَطْمَئِنّ للإثمِ أبدًا، أَمَّا الْإِنْسَان الفاسقُ فالفاسق كما نعرِف أن الزبال لا تُهِمُّهُ الزبالةُ، لكِن العطَّار إذا جلسَ عند الزبالةِ فلا يمكن أن يجلس، فربما أن العقلَ يَستحسِن الزبالةَ إذا كَانَتْ طريقًا للكسبِ، لكِن نفسيَّة الْإِنْسَان لا تَرتاح لها؛ لِأَنَّ رائحتها مُؤْذِيَة، فالنَّاس الْآنَ وقبلَ الْآنَ قد يَسْتَقْبِحُونَ الحَسَنَ ويستحسنون القبيحَ.

فالحاصل: أن الْإِنْسَان الَّذِي صَفَتْ سَريرته وخلصت نيّته وعلِم اللهُ منه حُسْنَ القصدِ يُوَفَّق، وتَجِدُه إذا عمِل السيئةَ ولو أَنَّهُ لا يدري أَنَّهَا سيئة لا تطيب نفسُه ولا تستقرّ، ولهذا قَالَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ**»(٣) لكِن هَذَا لا نخاطب به كُلّ النَّاسِ، بل صاحب القلب الصافي والإيمان الخالِصِ، أَمَّا النَّاس المنهمِكون فِي المعصيَة فلا يخاطَبُون بمثله.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مأمورٌ بأن يَكُونَ من الْمُسلِمينَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

---

(١) رواه موقوفًا الطيالسي (٢٤٦)؛ والطبراني في الأوسط (٣٦٠٢)؛ والحاكم في المستدرك (٣/ ٨٣). وانظر: المقاصد الحسنة (٩٥٩)؛ نصب الراية (٤/ ١٣٣)؛ الدراية في تخريج أحاديث الهداية (٢/ ١٨٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، حديث رقم (٢٥٥٣)، عن النواس بن سمعان الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه أحمد (٤/ ٢٢٨) (١٨٠٣٠)، عن وابصة بن معبد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن الإِسْلامَ والإِيمانَ شيءٌ واحد؛ لِأَنَّ قوله: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فلَا شَكَّ أن ما أُمِرَ به هُوَ أعلى الحالاتِ، وَهُوَ الإِيمانُ، ولكِن هَذِهِ المسألة -وهي: هل الإِسْلام هُوَ الإِيمان أو لا- فيها أيضًا عِراك بين أهل السنّة والجماعة أنفسهم، وبينهم وبين الأشاعرةِ، والصَّواب أن يقال: إن الإِسْلام عندَ الإطلاقِ يَشمل الإِيمانَ، والإِيمان عندَ الإطلاقِ يشملُ الإِسْلامَ، وَأَمَّا عند التقييدِ وأن يُقْرَنَ بينهما فَإِنَّ الإِيمان يَكُون ما وَقَرَ فِي القلبِ، والإِسْلام ما قامتْ به الجوارح؛ لِأَنَّ الإِسْلام منْ الاستسلام، وَهُوَ عدم المعارضة، بل الموافقة، فالمنافقون الَّذِينَ لا يُظهِرون معارضةً نسميهم مسلمينَ، لكِن لا نسميهم مُؤْمِنِينَ؛ لعدم وجودِ الإِيمانِ فِي قلوبهم.

ومن النَّاس من يَكُون وسطًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ﴾ [الحجرات:١٤]، قال: لـمّا يَدْخُلْ، ما قَالَ: لم يَدْخُلْ؛ ليفيد أن الإِيمانَ قريبُ الدخولِ فِي قلوبهم، لَكِنَّهُ لم يدخلْ، إِنَّما هُوَ قريبٌ.

والإِيمان منَ المنافقينَ بعيدٌ، هم يَنفِرون منه، فلو قَرُبَ إليهم نفروا منه، لكِن هَؤُلَاءِ الأعراب لم يدخلِ الإِيمانُ فِي قلوبهم إِلَّا أَنَّهُ قريب ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ﴾ [الحجرات:١٤].

إِذَنِ: الصَّواب فِي هَذِهِ المسألة: أن الإِيمانَ والإِسْلامَ إذا اقترَنا افترَقا، وإذا افترَقَا اجتَمَعَا، فالإِيمان إذا اقترنَ مَعَ الإِسْلامِ فُسِّرَ هَذَا بهَذَا، وهَذَا بهَذَا، أَمَّا عند الإطلاقِ فيدخل فيه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ذكرتم أنَّ المنافقينَ مُسلِمون ظاهرًا؛ أي منقادونَ، أليس هَذَا فِيهِ إشكالٌ؟

فالجواب: الرَّسُول أرادَ أن يفسِّر ذلك بالأَعْمالِ الظَّاهرةِ المبنيَّة عَلَى الإخلاصِ، والأَعْمال الظَّاهرة عند المنافقينَ ليستْ مبنيَّةً عَلَى الإخلاصِ، ولهَذَا يأتون ويصلون مَعَ النَّاس، ويذكرون الله تَعَالَى فِي صلاتهم لكِنهم لا يذكرون الله إِلَّا قليلًا، والرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يفرِّق بينهم وبين أقاربهم فِي الميراثِ وغيره، فيُوَرِّثُ بعضهم من بعض. وأخذ بهَذَا شيخ الإِسْلام ابن تَيْمِيَّة وقال: إن المنافقَ يَرِثُ من المؤمنِ، والمؤمن يرثُ منَ المنافقِ[1].

وهَذَا الَّذِي قاله صحيح إِلَّا أننا نعارضه فيما إذا عُلِمَ نفاقُه، فَإِنَّهُ إذا عُلم نفاقه لا يجوز أن يورَّث منَ المسلمِ أو يورَّث المسلمُ منه، وقد قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة:٨٤].

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل الرَّسُول ﷺ يعلمُ المنافقينَ؟

قُلْنَا: فيهم ناسٌ يعلمهم وفيهم ناسٌ لا يعلمهم.

• • ۞ • •

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٢١٠) و(٧/ ٦١٧).

الآيــة (٩٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النمل:٩٢].

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ عَلَيْكُم تلاوةَ الدَّعوى إِلَى الإِيمانِ ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ له ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: لِأَجْلِها؛ فإنَّ ثوابَ اهتدائه له ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عنِ الإِيمانِ وأخطأَ طريقَ الهُدَى ﴿فَقُلْ﴾ له ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾].

قوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ التلاوة تنقسمُ إِلَى قسمينِ: تلاوة لفظيَّة وتلاوة معنويَّة، فالتلاوةُ الأُولى: قراءة الْقُرْآن، والتلاوةُ الثَّانِيَةُ: العَمَلُ بما جاء به الْقُرْآن، مأخوذة مِن تَلَا الشَّيْءَ يَتلُوه إذا تَبِعَه وصار تِلْوًا له، فقول الرَّسُول: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يَشمل هَذَا وهَذَا؛ أنْ أَتْلُوَه قراءةً وأن أتلوَه اتباعًا، فَهُوَ مأمورٌ بذلك، يعني كأنه يَقُول: سأتلو الْقُرْآن عليكم تلاوةَ قراءةٍ، وأيضًا سأتلو الْقُرْآن تلاوةَ اتباعٍ، ولا أُبالي بمخالفتكم وإعراضكم، وهَذَا لَيْسَ للرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فحسْب؛ بل لكلِّ مَنِ اتَّبَعَ الرَّسُول يَجِب عليه أن يتلوَ الْقُرْآنَ تلاوةً لفظيّةً.

وقد عُلِمَ أن قراءة الفاتحةِ رُكن من أركانِ الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ من أركانِ الإِسْلامِ.

ثانيًا: يَجِب عَلَى المسلمِ أن يتلوَ الْقُرْآن تلاوةً اتباعيةً ولا يبالي بمَن خالفه، ولو أننا راعينا شعورَ النَّاسِ ورَاعينا عصورَ النَّاسِ صارَ الدينُ لَيْسَ دِينًا، بل صار

الدين عادةً، إن تَقَبَّله النَّاس حَسَب عاداتهم صار دينًا، وإن لم يَقبلوه لم يكن دِينًا.

والواجب أن يَكُونَ الدينُ بَعيدًا عن عاداتِ النَّاسِ، بمعنى أن يَكُون الحَكَمُ هُوَ الْقُرْآن والسنّة، لا ما يعتاده النَّاس فيما يَفعلونه من عباداتٍ أو غيرها، خِلافًا لبعضِ النَّاسِ الْآنَ الَّذِينَ يريدونَ أن يُتابعوا النَّاس فيما هم عليه ولو كَانَ باطلًا، وهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ؛ لأنَّنا لو مَشينا عَلَى هَذَا الأَمْرِ أو عَلَى هَذَا المنهاجِ ما بَقِيَت حياة للإسلام، ويموت منَ الإِسْلامِ جزءٌ فِي هَذَا العصرِ، ثُمَّ يأتي عصرٌ آخرُ فيموت منه جزء آخرُ، وهَكَذَا حَتَّى يَنقضيَ، ولَكِنَّنَا إذا كنا نعمل بالإِسْلام ونجدِّد حسَب ما يَقتضيه الكتاب والسنّة -لا حسَب آرائنا- صار ذلك هُوَ القيادةَ، وَأَمَّا أن نسكت وندُسّ رُؤوسنا فِي الترابِ ونَقُول: هَكَذَا النَّاس ولا يمكن أن نخالفهم، أو نَتَهَيَّب قول بعض النَّاس: طلعتم علينا بدينٍ جديدٍ، هَذَا الدين ما عرفناه من قبلُ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فإن هَذَا لا يَنبغي أن يمنعَ الْإِنْسَان عن قولِ الحقّ.

ولهَذَا قوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ تلاوة لفظ تقوم به الحجَّة عليكم، وتلاوة اتباع لا أُبالي بمعارضتكم ومخالفتكم، وهَذَا هُوَ الواجبُ عَلَى كُلّ مسلمٍ فِي كُلّ مكان.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قول الرَّسُول ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتَ دُنْيَا مُؤْثَرَةً وَشُحًّا مُطَاعًا وإِعجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ**»[1] هل ينافي الأَمْرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر؟

فالإجابة: قوله: «**عَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ**» لا ينافي الأَمْرَ بالمعروفِ والنهيَ عن

(١) رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، حديث رقم (٤٣٤١)؛ والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، حديث رقم (٣٠٥٨)؛ وابن ماجه، كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، حديث رقم (٤٠١٤)، عن أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المنكرِ لِأَنَّهُ مِن خاصَّتِك، لكِن المَعْنى دَعْهُمْ، أي لا تَهْتَمّ بهم بحيثُ يَشغلونك عما يجبُ؛ لِأَنَّ بعضَ النَّاس يهتم بهَذَا الأَمْر حَتَّى إِنَّهُ ينشغل بالنَّاسِ عن نفسه، فتجده حالَ صلاتِه يشعرُ أَنَّهُ يأمرُ فلانًا ويتصوَّر أَنَّهُ واقفٌ عند دكّانٍ ويقول له: صَلِّ، فهَذَا الَّذِي يُنهى عنه.

وأيضًا قوله تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة:١٠٥]، بعض النَّاس يفهم من هَذِهِ الآيَة أن الْإِنْسَان إذا أصلحَ نفسه لَيْسَ عليه من إصلاحِ غيـرِه، لكِن نَقُول: إن إصلاح غيـرك لا يتمَ إِلَّا بإصلاحِ نفسِكَ، فأنت مأمورٌ بالأَمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، لكِن إذا ضلوا فإن ضلالهم لا يضرُّك بَعْد أن تقومَ بما يَجِب عليك من الدَّعْوَةِ والأَمْرِ.

لكِن يجـوز مراعاة النَّاس بمعنى تدريجِ النَّاسِ حَـتَّى يَسْلُكُـوا الصـراطَ الصَّحيحَ، فمراعاة الحال يعني بالتدريج لا بأس به، ولهَذَا الَّذِي نرى أن الدعاءَ إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالحِكْمَة يتناولُ هَذَا الأَمْـرَ، وهو: نقل النَّاس إِلَى الإِسْلام مرحلةً مرحلةً، وإن كَانَ بعضُ النَّاس يَقُولُونَ: إنَّ هَذَا فِي أول الدَّعْوَة. صحيح أن الإِسْلامَ تطوّر؛ جاءت الصَّلَاة ثُمَّ الزكاة ثُمَّ الصِّيَام ثُمَّ الحج، وحُرِّمَ الخمرُ عَلَى عدَّة وجوهٍ، فالصِّيَام أوجب عَلَى عدّة وجوه، لكِن نَقُول: كما أن هَذَا فِي أوَّل الدَّعْوَة هُوَ أيضًا فِي آخرها، وبَعْثُ معاذٍ كان فِي سنةِ عشرٍ منَ الهجرةِ، ومع ذلك يقولُ: «**ادْعُهُمْ أَوَّلًا إِلَى الإِسْلامِ، ثُمَّ إِلَى الصَّلَاةِ، ثُمَّ إِلَى الزَّكَاةِ**»(١)، فالرَّسُول رتَّب هَذَا، ما قَالَ: ادْعُهُمْ إليها جميعًا.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى اليمن قبل حجة الوداع، حديث رقم (٤٠٩٠)؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فمثلًا لو رَأَيْنا إِنْسَانًا مُنهمِكًا بفعلِ معصيةٍ، وعرفنا أَنّنا لو قُلْنَا له: أَقْلِعْ عنها نِهائيًّا، أَنَّهُ لا يتمكَّن، أو أن ينفِر؛ فلا بأس أن نَنْقُلَهُ عنها شيئًا فشيئًا بالتدريجِ؛ لِأَنَّ هَذَا كمعالجةِ المرضِ، فالمرض لا يُمْكِنُ أنْ تعالجَه مرَّةً واحدةً، فلَا بُدَّ من تَنَقُّل من شيءٍ إِلَى شيءٍ، حَتَّى يَتِمَّ استئصالُ هَذَا المرضِ.

فهَذِهِ المسألةُ تعودُ إِلَى حالِ النَّاسِ، وَلَيْسَ معناهُ الاستسلام لحالِ النَّاسِ؛ لِأَنَّ معنى الاستسلامِ الَّذِي أنكرته قبلُ هُوَ أنْ الْإِنْسَان يَدَعُ النَّاسَ ولا يعارضهم بالحقِّ، أَمَّا هَذَا فلا يدعهم لَكِنَّهُ يُنَقِّلُهم من مرحلةٍ إِلَى مرحلةٍ حَتَّى يَسْتَقِيموا. فمثلًا عندما نريدُ أنْ نعملَ عَمَلًا فِي الصَّلَاة لَيْسَ من عادةِ النَّاسِ، فإنَّ مِنَ الحِكْمَةِ أن نُمَهِّدَ له بالقَوْلِ أوَّلًا، ثُمَّ إذا عَلم به النَّاسُ واستقرَّ فِي نُفُوسِهِم نَقَلْنَاهم بعدَ ذلكَ إِلَى الفِعْل، وهَكَذَا أيضًا غير هَذِهِ المسألةِ.

المهمّ أنّ تلاوةَ الْقُرْآنِ عَلَى النَّاسِ الْمُعْرِضِين ممَّا أُمِرَ به الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأُمِرَتْ به الأمَّة كلُّها أيضًا، وتكون التلاوةُ هنا لفظًا واتِّباعًا، ولكِن الشأن كله فِي أنْ لا نتخاذلَ أمامَ الأَمْرِ الواقعِ؛ بل يَجِب علينا أن نكونَ عَلَى وجهٍ أقوى وأشدَّ.

مسألة: ما القَوْل في نقلِ الْإِنْسَانِ من معصيةٍ إِلَى معصيةٍ أُخرى أخفَّ منها؟

الجواب: لا يجوزُ إذا كانتْ منَ الجنسِ، فلو فَرَضْنا أن إِنْسَانًا مُبْتَلى بالزِّنا -والعياذُ باللهِ- وقلنا له: يا أخي ما لكَ حَقٌّ، هَذِهِ الشهوةُ الَّتِي عندك تَستطيع أنْ تُخَفِّفَها بالاستمناءِ مَثلًا، فهَذَا منَ الجنسِ، وَلَيْسَ فِيهِ بأسٌ، فالتي من الجنسِ معناها التخفيفُ؛ لأنك لو نَقَلْتَه إِلَى شيءٍ آخرَ فاتجاهُه الأوَّلُ لا يزولُ فِي الغالبِ، لكِن لو أنَّ واحدًا يَسْرِق ونَقُول: يا أخي اتركِ السَّرِقَة واشْرَبْ خمرًا أحسن لكَ، فهَذَا لا يُمْكِن.

فالتدرُّج طريقٌ، وَلَيْسَ معنى ذلك أنِّي إذا نَقَلْتُه من هَذَا إِلَى أخفَّ أنِّي أُبيح له الأخفَّ؛ لَكِنَّهُ تَدَرُّجٌ، فالتدرُّج هنا لَيْسَ معناه ثُبُوت الحكم عَلَى الدرجةِ الَّتِي نزَّلناه إليها؛ ولكِن معناه أننا نَنْقُلَه من الدرجةِ العُظْمَى إِلَى الأخفِّ، ثُمَّ إِلَى تركها بالكُلِّيَّة، وَأَمَّا قوله تَعَالَى فِي الخمرِ: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ [المائدة:٩٠]، فنَقُول: طريق الاجتنابِ هَذَا الَّذِي نَقُول.

﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ تلاوةً لفظيَّةً تقوم بها الحُجَّة عليكم، وتلاوةً عَمَلِيَّةً تَطْبِيقِيَّةً يَتَبَيَّنُ بها أَنَّني لستُ بمُبَالٍ بمَن يُخالِفُني فِي هَذَا الأَمْرِ.

وقوله: ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ هُوَ هذا الَّذِي نَزَلَ عليه ﷺ.

وبعد تلاوةِ الْقُرْآنِ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ له]، ولكِن عَلَى تفسيرِ الْمُفَسِّر يَكُونُ قوله: ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾ بمعنى انقادَ؛ لِأَنَّ ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾ لا يَتَعَدَّى باللامِ؛ بل يَتَعَدَّى بالباءِ: اهتدى به، لكِنَّه ضُمِّن معنى انقادَ، وتَضْمِينُه معنى الانقيادِ لِيَشْمَلَ هدايةَ العلمِ وهدايةَ التَّوفيقِ.

فالذي يَهتدي وينقاد له قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ له ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ أي لِأَجْلِها، فإنَّ ثوابَ اهتدائِهِ لَهُ]، صحيحٌ، فمَنِ اهتدى بهَذَا الْقُرْآنِ وانقادَ له فالمصلحةُ ليستْ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ اللهَ غَنِيٌّ عنه، وليستْ لفلانٍ ولا لفلانٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ نفسٍ لها ما كسبتْ وعليها ما اكتسبتْ، إذن فَهِيَ لنفسِهِ. وإن كَانَ يَنْتَفِع الداعي بذلك أيضًا انتفاعَ الدالِّ، فـ«**إِنَّ الدَّالَّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ**»[1]، لكِن أصل الثوابِ للفاعلِ، فلا يُقَال مثلًا: إنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَدْعُو للناسِ لِيَهْتَدُوا فيكُون له أجرٌ،

(١) أخرجه الترمذي: أبواب العلم، باب ما جاء الدال على الخير كفاعله، رقم (٢٦٧٠).

بل قصده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الأوَّل هُوَ نَفْعُ الخَلْقِ، ولهذَا قَالَ: ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ وإنْ كَانَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَنْتَفِع باهتدائِهِ، فَهُوَ تَبَع.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عنِ الإيمانِ وأخطأَ طريقَ الهُدَى ﴿فَقُلْ﴾ له: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾]، المُفَسِّر قَدَّر [له] فِي قولِهِ: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾، وقدَّر هنا كذلك: [﴿فَقُلْ﴾ له]، والسَّبَب أَنَّهُ يُقَدِّر هنا لأجلِ أنْ يرتبطَ الجوابُ بالشرطِ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ اهتدى لأيِّ شيءٍ؟ للقرآنِ الَّذِي أَتْلُوه أو بالْقُرْآن الَّذِي أتلوه، وَفِي قوله: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ (مَن) شرطية ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ لا يمكن أنْ يَكُونَ ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ جوابًا لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ إِلَّا إذا كَانَ فِيهِ ضَميرٌ يعودُ عليه، ولهذَا قدَّره بِقَوْلِهِ: ﴿فَقُلْ﴾ له: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: ما هِيَ الحِكْمَةُ فِي حَذْفِه؟

قُلْنَا: الحِكْمَةُ فِي حذفِه العمومُ، يعني فقلْ له ولغيرِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾، يَعْنِي أنَّ هَذِهِ الجملةَ الَّتِي هِيَ وصفٌ ثابتٌ للرَّسُولِ ﷺ ليستْ خاصَّةً بمَن يَضِلّ، بل مَن يَضِلّ ومَن لا يضلّ؛ يُقَال له: إن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ المُنْذِرِينَ، ومعنى المنذِر المُخَوِّف، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [المُخَوِّفِينَ، فليسَ عَلَيَّ إِلَّا التبليغُ].

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠﴾: ﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حصر.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذَا يفيد اختصاصَ الرَّسُولِ ﷺ بالإنذارِ، مَعَ أن الله يقولُ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة:١١٩].

قُلْنَا: لكِن لكلِّ سِيَاق ما يُناسبه منَ اللَّفظ، فهنا المُخَاطَبُ قومٌ مُنْكِرُونَ، فَكَانَ ذِكْر جانب التخويفِ فِي حَقِّهِم أَوْلَى مِنَ الجمعِ بينه وبين التبشيرِ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهَذَا قبلَ الأَمْرِ بالقتالِ]، الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَسْلُكُ هَذَا الْمَسْلَكَ كثيرًا فِي مثلِ هَذِهِ الآيَةِ ويقول: إِنَّهُ قبل الأَمْرِ بالقتالِ، وهَذَا يَتَضَمَّن أَنْ تكونَ الآيَةُ منسوخةً لا يُعْمَل بها، ولكِن هَذَا قولٌ فِي غايةِ الضعفِ، والصَّواب أَنَّ هَذَا يُقَال حَتَّى بعدَ الأَمْرِ بالقتالِ، فالنَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عليه الإنذار والتبليغ وَلَيْسَ عليه الهدايةُ، والرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقرأ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ غالبًا أو كثيرًا: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]، ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦][1]، وكيف تكون مثل هَذِهِ الآيات الَّتِي تَتَكَرَّر عَلَى الْمُسلِمينَ فِي جُمُعَاتِهِم منسوخة.

ثم إِنَّ دَعْوَى النسخِ لَيْسَتْ بالأَمْرِ الهَيِّن؛ لِأَنَّ معناها إبطال دلالةِ الآيَةِ أو الحديثِ، وهَذَا يَتَضَمَّن الاعتداءَ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَعَلَى رَسُولِهِ، ولهَذَا يَجِب عَلَى الْإِنْسَان أَنْ يَحْتَرِزَ غايةَ الاحترازِ منْ دعوى النسخِ، وإذا عَجَزَ عنِ الجمعِ فيقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة:٣٢]، لكِن الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره كثير منْ أهلِ العلمِ إذا عَجَزُوا عنِ الجمعِ قَالُوا: هَذَا منسوخٌ، وهَذَا مَسْلَكٌ لَيْسَ بِجَيِّدٍ، وَلَيْسَ بِسَديدٍ، وَلَيْسَ بصوابٍ، بل هُوَ خطيرٌ.

وقد ذكرَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّ المنسوخَ فِي الشَّرِيعَةِ لا يَتَجَاوَزُ عَشَرَةَ أحكامٍ[2]، ولو سَلَكْنَا ما سَلَكَه الْمُفَسِّر لكانَ المنسوخُ عشراتِ الأحكامِ أو ربما يَبْلُغُ المِئَةَ، وَفِي هَذَا خطأٌ عظيمٌ.

فالصَّوابُ أَنَّ هَذَا القَوْل: ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ يقال: حَتَّى الْآنَ وحتى

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة، رقم (٨٧٨).

(٢) انظر إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/ ١٨٠).

بَعْد الأَمْرِ بالقتالِ، فَهُوَ مُنْذِر لكِن هَذَا الإنذار لا يَقتضي ألَّا يقومَ بما يَجِب عليه منَ الجهادِ، يَقُول: أنا مُنْذِرٌ فليسَ عليَّ هُدَاكم، وهداكم عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَأَمَّا مسألة الأَمْر بالقتالِ فهَذَا شيءٌ يمكِن حَتَّى مَعَ هَذَا القَوْلِ.

فالصَّوابُ فِي هَذِهِ المسألة: أن الآيَةَ مُحْكَمَةٌ، وغيرها من أمثالها مُحْكَم، ولا يَجُوزُ دَعْوَى النسخ فيه؛ لِأَنَّ مِن أهمّ شروطِ النسخِ تَعَذُّر إمكانِ الجمعِ، وإذا أمكنَ الجمعُ فلا نسخَ؛ لِأَنَّ النسخَ -كما تَقَدَّم- هُوَ عبارةٌ عن إبطالِ مدلولِ الآيَةِ أو الحديث، وهَذَا أمرٌ لَيْسَ بالهيِّن، فمعنى نسخ الحديثِ أن يأتيَ حديثٌ ونَضْرِب عليه!

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل من شروطِ النسخِ وجودُ قرينةٍ تدلُّ عليه؟

فالجواب: هَذَا لَيْسَ بشرطٍ، المهمُّ إذا تَعَذَّرَ الجمعُ وعُلِمَ التاريخُ فالمتأخِّر ناسخٌ.

يقول: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ هل هِيَ بالكسرِ أو بالفتحِ؟

الجواب: بالكسرِ؛ لِأَنَّهَا اسمُ فاعلٍ، فَهُوَ منذِر، والنَّاس مُنْذَرُون.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجُوب تلاوةِ الْقُرْآنِ بِنَوْعَيْهِ، والنوعانِ هما: اللفظيّ والعَمَليّ، فواجبٌ عَلَى المرءِ أنْ يَتْلُوَ الْقُرْآنَ تلاوةً لفظيَّةً وعمليَّةً، سواء عن ظهرِ قلبٍ أو نَظَرًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلة الْقُرْآن وشَرَفه، حَيْثُ كَانَ مأمورًا بتلاوتِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وجوبُ تحكيمِ الْقُرْآن؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وجوبُ تبليغِ الْقُرْآنِ عَلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

الآيــة (٩٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٣].

قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ معطوفٌ عَلَى قولِه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ فَإِنَّهُ عَلَى تقديرِ (قُلْ) يعني: وقل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهَذِهِ الجملةُ للثناءِ عَلَى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وقد أثنى اللهُ عَلَى نفسِه فِي ابتداءِ الخَلْقِ وَفِي انتهائِهِ وَفِي ابتداءِ إنزالِ الْقُرْآنِ، وَفِي مَقامِ التعظيمِ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي إنزالِ الْقُرْآنِ وما أَشْبَهَهُ، فهنا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عَلَى كمالِ صِفَاتِهِ وبَيَان آيَاتِـه، ومنها ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، قال: ﴿سَيُرِيكُمْ﴾ والإراءةُ أبلـغُ منَ البَيَان؛ لِأَنَّهُ قد يَكُونُ الشَّيْءُ بَيِّنًا وتُعْمَى عنه الأبصارُ، ولكِن الإراءة أبلغ؛ إذ كُلُّ مَرْئِيٍّ فَهُوَ بَيِّنٌ، وَلَيْسَ كُلُّ بَيِّنٍ مَرْئِيًّا.

والسين فِي قوله: ﴿سَيُرِيكُمْ﴾ تفيد فائدتينِ:

الأُولى: قُرْب هَذَا الأَمْرِ.

الثَّانِيَة: تَحَقُّقُه.

فهي تفيد التحقيقَ والتقريبَ.

وقوله: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الإراءةُ هنا بَصَـرِيَّة، وهي لما كانتْ مُعَدَّاة بالهمزةِ تَنْصِب مَفْعُولينِ، فالمَفْعُول الأوَّل: الكَافُ، والمَفْعُول الثاني: (آيَاتِهِ).

وقوله: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هل المُراد بآيَاتِ اللهِ هنا الآيَاتُ الدالَّةُ عَلَى صِدْقِ ما أخبر به فِي الْقُرْآن، فتكون الآيَات الكونيَّة أو هِيَ أشمل من ذلك؟

الظَّاهرُ أَنَّهَا أشملُ من ذلكَ؛ أَنَّهَا تَشْمَلُ الآيَاتِ الدالَّةَ عَلَى صِدْقِ ما وعدَ به رسوله وتوعّد به أولئك، وكذلك أيضًا الآيَاتُ الشَّرْعِيَّة الدالَّةُ عَلَى كمالِ شَريعتِهِ.

وقوله: ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أيضًا أبلغُ مِنَ الإراءةِ؛ لأنني قد أُرِي الْإِنْسَانَ شيئًا ولكِن لا يَعْرِفه، وهنا قَالَ: ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾. فعندنا بَيَان وإراءةٌ ومعرفةٌ؛ أعلاها المعرفة، ثُمَّ الإراءة، ثُمَّ البَيَان.

قوله: ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ نتيجة هَذَا أنْ تقومَ عليكم الحُجَّة؛ لِأَنَّهُم إذا أُرُوا الآيَاتِ حَتَّى عَرَفُوها قامتْ عليهم الحُجَّة.

ثم قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَأَرَاهُمُ اللهُ يومَ بَدْرٍ القتلَ والسَّبْيَ وضربَ الملائكةِ وُجُوهَهُمْ وأدبارَهُم وعَجَّلَهُمُ اللهُ إِلَى النَّارِ]، أعوذُ باللهِ! هَذِهِ من جملةِ الآيَاتِ الَّتِي أراهم إيَّاها، وإلَّا فقد أراهم اللهُ تَعَالَى انشقاقَ القمرِ قبلَ بَدْرٍ، فإنهم طَلَبُوا آيَةً منَ الرَّسُولِ ﷺ فأشارَ إِلَى القمرِ فانفلق فِرْقَتَيْنِ، حَتَّى شاهدوه بأعينهم، فقَالُوا: سَحَرَنا مُحَمَّد، فاسألوا الرُّكبان الَّذِينَ يَقْدَمُونَ مَكَّة هل شَاهَدُوا ذلك أم لا؟ فسألوهم فأَخْبَرُوهم بأنهم شاهدوا ذلك[1].

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النَّبيّ ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر، حديث رقم (٣٤٣٨)؛ صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنَّار، حديث رقم (٢٨٠٢)، عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ جامع الترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة القمر، حديث رقم (٣٢٨٩)؛ مسند أحمد (٤/ ٨١) (١٦٧٩٦)، عن جبير بن مطعم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ مسند الشاشي (٤٠٤)، عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقد أنكر قومٌ هَذِهِ الآيَةَ انشقاقَ القمرِ، ومنهم مُحَمَّد رَشِيد رِضا، وأظنُّ شَيْخه كذلك -مُحَمَّد عَبْدُهْ- وهَذَا خطأٌ فاضحٌ والعياذُ باللهِ؛ لِأَنَّ الأحاديثَ فِيهِ مُتَوَاتِرَةٌ، وإشارةُ الْقُرْآنِ إليه ظاهرةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]، هم حَرَّفوا الْقُرْآن فقَالُوا: انشقَّ القمرُ، أي: بانَ ضياءُ الحَقّ والنُّور بما جاء به الرَّسُول ﷺ، وهَذَا بلَا شَكّ تحريفٌ للقرآنِ وتكذيبٌ بما تواترتْ به السُّنَّة، فالصَّوابُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَهُوَ من معتقداتِ أهلِ السنَّة والجماعةِ أنَّ القمرَ انشقَّ.

وقد قالوا: إنَّهُ لوِ انشقَّ لكان أمرًا عالميًّا، وَكَانَ له ذِكْر فِي التاريخِ؛ لِأَنَّهُ أمرٌ عالميٌّ، حَيْثُ إن القمر آيَةٌ أُفُقِيَّة كُلٌّ يُشاهِدُها، وحيثُ إن هَذِهِ الحالة للقمرِ حالةٌ غريبةٌ خارجةٌ عنِ العادةِ، فالهِمَم تَتوافرُ عَلَى نَقْلِهِ، ولا بدَّ أن تُذْكَر فِي التواريخ كتاريخِ الهِنْدِ والرُّوم والفُرْس ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؟

فنَقُول: تبًّا لكم أن تجعلوا ما أَخبرَ اللهُ به مَوْضِعًا للشَّكِّ لأنَّ هَؤُلَاءِ لم يَذْكُرُوه، بل لوْ ذَكَرُوا أَنَّهُ لم يَقَعْ لَقُلْنَا: كَذَبْتُمْ وصَدَقَ اللهُ.

وأيضًا الجوابُ عَن هَذَا أن نَقُولَ: لا يَلْزَمُ إذا انشقَّ القمرُ حَتَّى رآهُ أهلُ مكَّة ومَن بِقُرْبِهِم أن يراه النَّاسُ جميعًا؛ لِأَنَّ نصفَ الكرةِ الْأَرْضيَّة الآخر لا يُمْكِن أن يَرَوْهُ؛ لِأَنَّهُ غائبٌ عنهم، هَذِهِ واحدةٌ.

كذلك قد يَكُون هذا الأَمْر أتاهم فِي منتصفِ الليلِ أو فِي آخرِ الليلِ أو عندهم غيومٌ مانعةٌ أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فموانعُ رُؤْيَتِهِمْ له كثيرةٌ، ولكِن لا يُهِمُّنَا أن يَرَوْهُ أو لا يروه، أو يُدَوِّنُوه فِي تواريخهم أو لا يدوِّنوه، وتكذيب الْقُرْآن أو السنَّة المتواترة بمثل هَذِهِ الأُمُور هَذَا فِي الحقيقةِ إيغالٌ فِي العقلِ أو فِي العقليَّات كما يَقُولُونَ، فالْإِنْسَان لا ينبغي أن يَكُونَ عقلانيًّا مَحْضًا، ولا ينبغي أنْ يَكُونَ ظاهريًّا مَحضًا، بل

يجبُ أنْ يَكُونَ عنده عقلٌ يَزِنُ به الأُمُورَ، وإذا بانَتِ الأُمُورُ الشَّرْعِيَّة فَإِنَّهُ لا مجالَ للعقلِ.

إِذَنْ: أراهم الله تَعَالَى آيَاتٍ مِنْهَا انشقاقُ القمرِ، ومنها أيضًا أن النَّبِيّ ﷺ شَهِدَ النَّاسُ كلُّهم أنَّ الحَجَر يُسَلِّم عليه، والشجر يُسلِّم عليه، حَتَّى إِنَّهُ يَقُول: «كَانَ حَجَرٌ يُسَلِّمُ عَلَيَّ فِي مَكَّةَ أَعْرِفُهُ»(١).

وكذلك أيضًا منَ الآيَاتِ ما حصلَ يومَ بدرٍ، يوم بدر حصلَ فِيهِ منَ الآيَاتِ من قَتْلٍ وسَبْيٍ؛ قَتْل لِرؤساءِ الْكُفَّارِ لَيْسَ لِأَطْرَافِهِم؛ لِصَنَادِيدِ قُرَيْشٍ، وقَتْلُ صناديدِ أعداءِ النَّبِيّ ﷺ آيَةٌ له؛ لِأَنَّ ذلك نَصْرٌ له، ولو كَانَ ما قاله باطلًا ما كَانَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِيَنْصُرَهُ أبدًا؛ لِأَنَّ اللهَ لا ينصرُ الباطلَ عَلَى الحَقّ نصرًا مُسْتَمِرًّا، ولكِن قد يَكُون للباطلِ صَوْلَةٌ لِيُمَحِّصَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ، فيَنْتَصِر أهلُ الباطلِ لَكِنَّهُ انتصارٌ مؤقَّت.

كذلك أيضًا السبيُ؛ سُبِيَ منهم سبعونَ رَجُلًا وذُهِبَ بهم إِلَى المَدينَةِ، والمسبيُّون أيضًا مِن أَشْرَافِهِم.

المهم أنَّ وَقْعَة بَدْرٍ أَثْخَنَتْهُم تمامًا، وأذَلَّتْهُم إذلالًا بالِغًا؛ ولهَذَا سمَّاه الله تَعَالَى يومَ الفُرْقَان؛ لِأَنَّ اللهَ فَرَّقَ فِيهِ بينَ الحَقّ والباطلِ، وتعلمون أن النَّاس يَنتظرون ماذا سَيَحْصُل، فالعربُ لَمَّا رَأَوْا أنَّ النَّبِيّ ﷺ وأصحابه وَهُمْ قِلَّةٌ ثَلاثُمائةٍ وبِضْعَةَ عَشَرَ رجلًا غَلَبُوا حوالي ألف من قُرَيْش كاملو العُدَّة والعددِ كثير، عَرَفُوا أن أمرَ الرَّسُولِ ﷺ سَيَظْهَرُ.

وكذلك أيضًا الملائكةُ يَضْرِبون وُجُوهَهم وأدبارَهم.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النَّبِيّ ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، حديث رقم (٢٢٧٧)، عن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهل هَذَا وَرَدَ فِي بدرٍ أو وَرَدَ فِي الْكُفَّارِ مُطْلقًا؟

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠]، لكِن فِي بدرٍ هل ذُكِرَ أنَّ الملائكةَ تَضْرِب وجوههم وأدبارَهُم؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢]، فلَيْسَ فيها أَنَّهُ تُضْرَب الوجوهُ والأدبارُ، وفيها أَنَّهُ يُضْرَب فوقَ الأعناقِ، فتُضْرَب أعناقُهم ويضرب منهم كُلّ بَنَانٍ، يَعْنِي الأيديَ، فهَذَا هُوَ الظاهِرُ.

وأمَّا ما ذهب إليه المُفَسِّر فلا أعرِفُ فِي ذلك سُنَّةً أيضًا بَيَّنَتْ هَذَا، وإن كَانَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ له وِجهةُ نَظَرٍ بأن الملائكةَ تَضْرِب وُجُوهَهم إذا أَقْبَلُوا عَلَى المُسلِمينَ، وتضرب أدبارهم إذا أَدْبَروا عنِ المُسلِمينَ، لكِن ما دامَ أن هَذَا لم يَرِدْ فالأَوْلى الاقتصارُ عَلَى ما وَرَدَ، وَهُوَ أن الله قَالَ لهم: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢]، لم يقلِ: اضْرِبوا وُجُوهَهم وأدبارهم.

إِلَّا أن يقولَ قائلٌ: إن قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٠]، يشمل هَؤُلَاءِ فإنهم منَ الكفارِ، فالملائكة عندَ الوفاةِ يَضْرِبُون وجوههم وأدبارهم، فإنْ أراد المُفَسِّر بهَذَا ما يُشير إليه عُمومُ الآيَةِ فَهُوَ مقبولٌ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَعَجَّلَهُمُ اللهُ إِلَى النَّار]، معناه: عَجَّلَهُم الله قبلَ موتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فحصل لهم هَذَا الأَمْرُ وعُجِّلُوا إِلَى النَّارِ.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ بالياءِ والتاءِ]، أي: «عما يَعملون» و﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، قراءتانِ سَبْعِيَّتَانِ[1] [وإنما يُمْهِلُهُم لِوَقْتِهِم].

قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ هَذِهِ الجملةُ المقصودُ بها التحذيرُ والتسليةُ؛ تحذيرُ هَـؤُلَاءِ المُكَذِّبِيـنَ وتَسْلِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ، وفيها من صفاتِ اللهِ أَنَّهَا صِفَـةٌ منَ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّـة، وقـد تَقَدَّمَ أنَّ الصِّفَات السَّلْبِيَّـة تَتَضَمَّن أمرينِ: نَفْيَ الصِّفةِ المذكورةِ، وإثباتَ كمالِ ضِدِّها، فالله تَعَالَى لا يَغْفَلُ لكمالِ عِلْمِهِ ومُرَاقَبَتِهِ، كاملُ العلمِ وكاملُ المراقبةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب:٥٢].

• • ❁ • •

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٦).

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة
«مَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللهِ»	٨
«إِنَّ اللهَ فَرَضَ الصَّلَاةَ عَلَى نَبِيِّكُمْ فِي الحَضَرِ أَرْبَعًا وَفِي السَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ»	٢٣
«أَوَّل مَا فُرِضَتِ الصَّلَاةُ رَكْعَتَيْنِ»	٢٣
«أَوَّل مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَة أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ إِقَامُ الصَّلَاةِ، ثُمَّ إِيتَاءُ الزَّكَاةِ»	٢٣
«اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»	٣٤
«إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ»	٤٨
«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ»	٦٧
«لَا تَغْضَبْ»	٧٠
«لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ»	٩٦
«لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ»	٩٨
«أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا»	١٠١
«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»	١٠٤
«ذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَان: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾»	١١٠
«لَا يَجُوزُ لِوَاهِبٍ أَنْ يَرْجِعَ فِيمَا وَهَبَهُ إِلَّا الْوَالِدَ فِيمَا يُعْطِي وَلَدَهُ»	١٢٩
«أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»	١٣١

«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ..... ١٣١، ١٥٧
«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» ١٣٢
«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ» ١٣٧
«هَكَذَا أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ» ١٤٦
«عَلَيْكَ السَّلَامُ» ١٤٨
«لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً» ١٤٩
«أَنَّ الشَّيَاطِينَ تُصَفَّدُ فِيهِ وَتُغَلّ» ١٥٢
«الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً» ١٥٣
«نَاظِرُوهُمْ بِالْعِلْمِ، فَإِنْ أَقَرُّوا بِهِ خُصِمُوا، وَإِنْ أَنْكَرُوهُ كَفَرُوا» ١٥٩
«أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ» ١٦٠
«وَاللهِ لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا» ١٦٥
«وَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ» ١٧٤
«وَاللهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنِّي» ١٩٦
«الحَرْبُ خُدْعَةٌ» ٢٠٠
«مَنْ لِي بِكَعْبٍ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللهَ وَرَسُولَهُ» ٢٠١
«أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ» ..... ٢٠١، ٢٨٢
«مَنْ بَاعَ بَيْعَتَيْنِ فِي بَيْعَةٍ فَلَهُ أَوْكَسُهُمَا أَوِ الرِّبَا» ٢٠٤
«مَنْ تَشَبَّعَ بِمَا لَمْ يُعْطَ فَهُوَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ» ٢٠٩
«إِنَّكَ رَجُلٌ ضَعِيفٌ؛ فَلَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلَا تَتَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ» ٢١٠
«إِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ» ٢٢٩

«إِنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» ٢٣٨
«كُلُّكُمْ حَارِثٌ وَكُلُّكُمْ هَمَّامٌ» ٢٣٨
«المَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ» ٢٣٩
«لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» ٢٣٩
«وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَقُومَ الظَّعِينَةُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ» ٢٤٠
«تَدَاوَوْا وَلَا تَدَاوَوْا بِالحَرَامِ» ٢٥٠
«أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّهَا وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ الْعُرَاةَ» ٢٥١
«وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» ٢٥٥
«إِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَزَوَّجَهَا فِي شَهْرِ شَوَّالٍ وَبَنَى بِهَا فِي شَوَّالٍ، فَأَيُّكُنَّ كَانَتْ أَحْظَى عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ» ٢٦٥
«هَذَا سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَإِنَّهُ قَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ» ٢٦٦
«الشُّؤْمُ فِي ثَلَاثٍ...» ٢٦٧
«الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ٢٦٧
«لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ» ٢٦٨
«لَا تُسَمِّ غُلَامَكَ يَسَارًا وَلَا نَجَاحًا» ٢٦٩
«أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشُؤُونِ دُنْيَاكُمْ» ٢٧٩
«وَاللهِ أَنَا مَا أَظُنُّ أَنَّ هَذَا التَّلْقِيحَ يَنْفَعُ شَيْئًا» ٢٨١
«الْكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ» ٢٨١
«إِنْ كَانَ الشِّفَاءُ فِي شَيْءٍ فَفِي ثَلَاثٍ» ٢٨١
«مَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ» ٢٩٠

«الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ» ٢٩٢
«اللَّهُمَّ أَرِنِي الحَقَّ حَقًّا وَارْزُقْنِي اتِّبَاعَهُ وَأَرِنِي الْبَاطِلَ بَاطِلًا وَارْزُقْنِي اجْتِنَابَهُ» ٢٩٦
«يُبْعَثُ النَّاسُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ» ٣٠١
«لَا سَبَقَ إِلَّا فِي نَصْلٍ أَوْ خُفٍّ أَوْ حَافِرٍ» ٣٠٩
«أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» ٣١١
«رَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ» ٣١٢
«مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالمَفْعُول بِهِ» ٣١٧
«يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا» ٣٢٦
«وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» ٣٢٩
«مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أُوتِيَ مَا عَلَى مِثْلِهِ يُؤْمِنُ الْبَشَرُ» ٣٣٠
«قُسِمَتِ الصَّلَاةُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي» ٣٣٦
«إِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنَ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ» ٣٣٨
«إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ، وَإِذَا حَكَمَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ» ..... ٣٣٩، ٤٠٧
«وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» ٣٦١
«مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ» ٣٧٠
«أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ» ٣٧٧

«لَا تُجِيبُوهُ» «اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ» ٣٨٤
«أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي الجَنَّة لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا» ٣٨٥
«أَيْنَ اللهُ؟» ٣٨٩
«أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ مُشِيرًا إِلَى السَّمَاءِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ٣٩٠
«مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» ٣٩٢
«فَقَدْ أَخْطَأَ وَإِنْ أَصَابَ» ٣٩٢
«نَحْنُ أَوْلَى بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ» ٣٩٤
«مَا المَسْئُولُ بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» ٣٩٥
«إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا» ٣٩٦
«مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» ٤٠٦
«خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ» ٤٠٦
«بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ؛ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَلَا يُشْرِكُ بِهِ» ٤١٣
«يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. فَيَقُولُ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَاحِدٌ فِي الجَنَّةِ وهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ» ٤٣٣
«لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا» ٤٣٧
«لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ» ٤٤١
«كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً» ٤٤٢
«هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا» ٤٤٥

«لَسْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ» ٤٤٥
«لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا» ٤٤٥
«يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ، يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ، بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ: هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا» ٤٥٠
«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ» ٤٥٠
السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٤٥١
«السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ» ٤٥١
«مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُرُّ بِقَبْرٍ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ فَرَدَّ السَّلَامَ» ٤٥٠
«إِلَّا رَدَّ عَلَيْهِ رُوحَهُ» ٤٥٢
«أَوْ مُسْلِمٌ» ٤٥٥
«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» ٤٥٦
«مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا» ٤٥٦
«لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» ٤٥٦
«مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَكَلْمُهُ يَثْعَبُ دَمًا» ٤٥٩
«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُكَلِّمَ السِّبَاعُ الْإِنْسَ» ٤٦٢
«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ» ٤٦٦
«اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ... إلخ» ٤٨٥
«أَوَّلُ مَنْ يُفِيقُ، فَيَجِدُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آخِذًا بِقَوَائِمِ الْعَرْشِ أَوْ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِهِ، يَقُولُ: فَلَا أَدْرِي أَجُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ أَمْ هُوَ أَفَاقَ قَبْلِي» ٤٨٨
«إِذَا حَدَّثَكُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ» ٤٨٩

«مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا» ٥٠٥٠
«إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ» ٥٠٦
«مَنْ تَعُدُّونَ الْمُفْلِسَ فِيكُمْ؟» ٥٠٩
«الْمُفْلِسُ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الجِبَالِ» ٥٠٩
«لَا يُسْفَكُ فِيهَا دَمٌ» ٥١٨
«إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ» ٥٢٣
«مَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْهُ قَبِيحًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ قَبِيحٌ» ... ٥٢٦
«الْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ» ٥٢٦
«الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ» ٥٢٦
«إِذَا رَأَيْتَ دُنْيَا مُؤْثَرَةً وَشُحًّا مُطَاعًا وإِعجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ» ٥٣٠
«ادْعُهُمْ أَوَّلًا إِلَى الإِسْلامِ، ثُمَّ إِلَى الصَّلَاةِ، ثُمَّ إِلَى الزَّكَاةِ» ٥٣١
«كَانَ حَجَرٌ يُسَلِّمُ عَلَيَّ فِي مَكَّةَ أَعْرِفُهُ» ٥٤٠

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة

المكِّيّ والمَدَنِيّ أن الفرقَ بينهما ٧
البَسْمَلَةُ ٨
الحروفَ الهِجائيَّة الموجودة فِي أوائل بعضِ السُّوَر ٨
هَذَا الْقُرْآن نزل بلغةِ العربِ ١١
الإشارة إِلَى بعضِ الجنسِ بالجنسِ كلّه ١١
وَصَفَ هَذَا الْقُرْآن بالْقُرْآنِ والكتاب ١٢
الْقُرْآن هل هُوَ مصدر أو مُشْتَقّ؟ ١٢
كلمة ﴿مُّبِينٍ﴾ ١٢
الْقُرْآن فِي الحقيقةِ تِبيَان لكلِّ شيءٍ ١٤
قِصَّة لعنِ النامصةِ والمُتَنَمِّصَةِ ١٤
تَفْصيل الفرائضِ ١٥
الْقُرْآن مكتوبٌ سابقًا ولاحقًا ١٥
الأَولى أن يُجْعَل المصدر عَلَى بابه ١٦
الإِيمان الموجود فِي الْقُرْآن لَا بُدَّ فِيهِ من قَبول وإذعان ١٦
كلَّما كَمُلَ الإِيمان فِي العبدِ كمُل اهتداؤُه بالْقُرْآن ١٧
كلُّ إِنْسَانٍ بطبيعتِه البَشَرِيَّة يحبّ أنْ يَنتصِرَ عَلَى عدوِّه ١٨
الَّذِينَ يُطَنْطِنُونَ بالقوميَّة العربيَّة ١٨

الدَّعْوَة إِلَى الإِسْلام والتضامُن الإِسْلاميّ ١٩
أن النصرَ لا يَعتمِد عَلَى الْقُوَّة المادِّيَّة فقطْ ٢٠
أن الْقُرْآن هُدًى للناس ٢٠
أن الْقُرْآن بُشرى للمُؤْمِنِينَ ٢٠
إقامة الصَّلَاة نوعانِ ٢١
قوله: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هل المُراد الفريضة أو النافلةُ؟ ٢١
هل معنى ذلك أن الزكاة فُرضت بمَكَّة أو فِي المَدينَة؟ ٢٢
تأخّر بَيَان أَنْصِبَة الزكاة إِلَى ما بعدَ الهجرةِ ٢٢
هل يجوز التدريجُ فِي الأحكامِ لِمَن يُسْلم؟ ٢٣
الْيَقين أخصُّ منَ العلمِ ٢٤
الإِيمان باليوم الآخِر ٢٤
الإِيمانَ باللهِ يَتضمَّن الإِيمانَ بالرُّسُل ويَتَضَمَّنُ الإِيمانَ بالكُتُبِ ٢٥
الصِّيَام والحجّ لم يُفرضا بمكَّة بالاتِّفاقِ ٢٥
تضييع الصَّلَاة والبُخل بالزكاة ينافي الإِيمان ٢٦
الْإِنْسَان إذا آمَنَ بالشرائعِ المُنْزَلَة فَهُوَ كامل الإِيمانِ ٢٦
الفَرْقُ بينَ القَبُول والإذعانِ ٢٧
الفرق بين التَّصْديقِ والقَبُولِ ٢٧
من العَمَلِ السيِّئ المُزيَّن ٢٨
كلَّما قَوِيَ الإِيمانُ بالآخِرَةِ عَرَفَ الْإِنْسَانُ القبيحَ ولم يَتَرَدَّدْ فيه ٢٨
من آمنَ بالآخِرَةِ من الصُّوفِيَّة ٢٩

كُلّ إِنْسَانٍ يُزيَّن له سوءُ عَمَله فاعلمْ أَنَّهُ ناقصُ الإِيمانِ ٢٩
كلَّما ضَعُفَ الإِيمان بالآخِرَة ازداد تزيينُ القبيحِ فِي عينِ الْإِنْسَان ٢٩
أنَّ عدمَ الإِيمانِ بالآخِرَةِ سببٌ للحَيْرة..... ٣٠
وُجُوب الإِيمانِ باليومِ الآخِرِ ٣٠
نِسبة الأفعال للعبدِ ٣١
المعاصِي شامِلَةٌ الْكُفَّارَ وغيرَ الكفارِ ٣٢
الأخسرُ اسمُ تفضيلٍ..... ٣٣
الخاسِر غير الأَخْسر..... ٣٤
النَّاس فِي الآخِرَةِ ثلاثةُ أقسامٍ ٣٤
ردٌّ عَلَى الخوارجِ والمُعْتَزِلَة ٣٦
اللام المُزَحْلَقَة ٣٧
معنى التَّلقية ٣٧
لَدُنّا هي: لَدُنْ..... ٣٨
الحُكْمُ الشَّرْعِيّ ٣٨
الحُكْم القَدَرِي..... ٣٩
الحُكْم الشَّرْعِيّ محبوبٌ لله أو مبغوضٌ إليه؟..... ٣٩
كيف يَقَع الحُكْمُ الكونيُّ وَهُوَ مكروهٌ له؟..... ٣٩
حَكيم مُشْتَقَّة مِنَ الحُكْمِ والإحكامِ ٣٩
الحكم الشَّرْعِيُّ منه محبوبٌ ومنه مكروهٌ..... ٤٠
الحِكْمَةُ فِي الأُمُور الشَّرْعِيَّة وَفِي الأُمُور الْقَدَرِيَّة ٤٠

ثَمَرَةُ هَذِهِ الشَّرِيعَة والتمسُّك بها هِيَ السعادةُ فِي الدُّنْيا وَفِي الآخِرَة ٤١
أحوال المُسلِمينَ وضَعْفَ دِينِهم ٤١
بادرةُ الرجوعِ إِلَى الإِسْلامِ عنِ اقتناعٍ..... ٤٢
العليم معناه المتَّصِف بالعِلْم ٤٢
الحِكْمَةُ من تقديمِ الحكيمِ هنا عَلَى العليمِ..... ٤٢
الْقُرْآنُ مُشتمِلٌ عَلَى الشَّرِيعَةِ ٤٣
الحِكْمَةُ من جمع الحِكْمَةِ والعلمِ..... ٤٣
مُراعاة المقام فِي التَّعبير يُعتبر من الفصَاحة..... ٤٤
موسى بنُ عِمْرَانَ ٤٦
هل مَريم كَانَ لها أخ اسمه هارون ٤٧
قِصَّة موسَى ٤٧
الفرقُ بينَ «آتيكُمْ» و«أُوتيكُم» ٤٩
الحِكْمَة فِي كون موسى ﷺ أُري هَذِهِ النَّار..... ٥١
حُسْن خُلُق موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٥٢
الأحوال البَشَرِيَّة تَطْرَأُ حَتَّى عَلَى الأَنْبِياء عليهم الصَّلَاة والسلام ٥٢
النداء لا يلزَم منه القُرب أو البُعد..... ٥٦
الفائدةُ مِن قولِهِ: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ وحَذْف المَكان؟ ٥٧
هَذِهِ النَّار لا ندري ما وَقُودُها..... ٥٨
معنى الربِّ..... ٥٩
ينبغي إيناس المُسْتَوْحِش ٦٠

إثبات وَحدانِيَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٦١
العِزَّة تَنْقَسِم إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ ٦٣
أن تعيينَ الشخصِ بالنداءِ له فائدةٌ ٦٤
الجانُّ ٦٦
حِكمة الله تَعَالَى فِي آيَاتِ الرسُل ٦٨
مِنَ البلاغةِ الإيجاز بالحذفِ ٦٨
جَواز أنْ يَعْتَرِيَ الأَنْبِياء الخوفُ ٦٩
هل الأَنْبِياء مَعْصُومونَ مُطْلَقًا؟ ٦٩
جواز توجيه الأحكامِ الشَّرْعِيَّة إِلَى الأُمُور الفِطْرِيَّة ٧٠
مُقْتَضَى الطبيعة البشريَّةِ ٧١
كلَّما ذكر الْإِنْسَان ربَّه زالَ عنه الخوفُ ٧١
مقتضى المغفرةِ ٧٣
إن الله تَعَالَى يمحو العَمَلَ السيِّئَ بالعَمَلِ الصالحِ ٧٤
عزَّ وحكمَ فقَطَعَ، ولو غفرَ ورَحِمَ ما قطعَ ٧٤
اليد فِي اللُّغة ٧٦
فاء السَّبَبِيَّة ٧٦
﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ ٧٧
آيَة العَصَا ٧٧
﴿فِرْعَوْنَ﴾ عَلم جنس لكل من مَلَك مِصر كافرًا ٧٩
الفِسْق يَنْقَسِمُ إِلَى قسمينِ ٧٩

الطاعة المطلَقة ٧٩
الفرق بين مطلق الشَّيْءِ والشَّيْءِ المطلق..... ٧٩
ما تغيَّر بالأَشْيَاء الطاهرة لَيْسَ بطَهور ٨٠
حكمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي آيَاتِ الأَنْبياء..... ٨٠
يَنبغي الاحتراز فِي الكَلامِ عندما يُوهِم الشَّيْء ٨٠
لم يرسلْ نبيًّا إِلَّا بآيَة لتقومَ الحجَّة ٨١
الحِكْمَة في أنَّ الله لم يرسلْ رسولًا إِلَّا بآيَةٍ..... ٨١
من الفصاحة والبلاغة قَرْن الحُكْم بتعليلِهِ..... ٨١
أنَّ الفِسْقَ يُطْلَق عَلَى الكفرِ ٨٢
العلامات الدالَّة عَلَى صدق موسى ﷺ..... ٨٣
الآيَات المبصرة ٨٣
السِّحْرُ فِي اللُّغةِ العربيَّةِ..... ٨٤
السحرُ الحقيقيُّ الشَّرْعِيُّ أو السحرُ اللُّغَوِيُّ ٨٤
مبالغة صاحبِ الباطلِ بدعواهُ..... ٨٦
الجحود عند السؤالِ ٨٨
زيادة المبنى تدلُّ عَلَى زيادةِ المَعْنى ٨٨
الظُّلْم والنَّقْص ما الحامِلُ عليه ٨٩
فائدة الاعتراض بالجملة الحاليَّة ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾..... ٩٠
قوله: ﴿فَٱنظُرْ﴾ هل المُرادُ: نظرَ اعتبارٍ أو نظرَ إبصارٍ؟ ٩٠
الخِطاب بالمفردِ فِي الْقُرْآن لا يختصّ بالرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إِلَّا ما دلَّ عليه الدَّلِيل.... ٩٠

والفرق بين المؤنَّث المجازي والحقيقيّ ٩٢
معنى العاقبة ٩٢
الإفسادُ المعنويُّ ٩٢
الحَنيفيَّة السَّمحة ٩٣
لو يعلم الملوك وأبناء الملوكِ ما نحنُ فِيهِ لجَالَدُونا عليه بالسيوف ٩٣
سوء أحوال آلِ فِرعونَ ٩٤
ذَمُّ الترفُّع عنِ الحقِّ ٩٥
فائدة الحِكْمَةُ من التخصيصِ ٩٥
فضيلة التأمُّل والتفكُّر فِي أخبارِ مَن مَضَى ٩٦
حُكْمُ مَن يَمْدَحُ هَذِهِ الأممَ ويُشِيدُ بقُوَّتِهم ٩٦
ما مَنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به عَلَى داودَ وسُلَيْمان ٩٨
العُلَماءُ ما زالوا يَمْدَحُون كُتُبَهُم ٩٩
فَضيلة داودَ وسُلَيْمان ٩٩
فَضيلة العلمِ ٩٩
المُرادُ بالعلمِ الممدوحِ علمُ الشَّرِيعَة ٩٩
العلومُ إذا كانت لا تنافي العلمَ الشرعيَّ ١٠١
الشكر يَكُونُ بالقَوْلِ كما هُوَ أيضًا بالفِعْل ١٠١
الدَّلِيلُ عَلَى أن الشكرَ يَكُون فِي ثلاثةِ مواضعَ ١٠١
الاعترافُ بالنِّعَمِ بالقلبِ فَهُوَ مِنَ الشُّكْرِ ١٠٢
المواضعُ الثلاثةُ للشكرِ قَلَّ مَن يقومُ بها ١٠٢

تواضُع داود وسُلَيْمان ١٠٣
الْإِنْسَان إذا رأى أَنَّهُ أفضلُ من غيرِهِ بنعمةِ اللهِ عليه فإن هَذَا لا يُنافي التواضُعَ ١٠٤
مشروعيَّة التحدُّث بنعمةِ اللهِ ١٠٤
إثباتُ علمِ اللهِ ١٠٥
مَن عَلِمَ لغةَ غيرِه فله ميزة عَلَى غيرِه ١٠٦
يَتَعَلَّم لغة غير العَرَبِيَّة فيُحِلّها محَلّ العربيَّة ١٠٨
لو تأمَّلْتَ ما عليه النَّاس الْآنَ من اللُّغة العامِّيَّة لوجدت أن كُلّ كلماتهم لها أصول فِي اللُّغة العَرَبِيَّةِ ١٠٩
يَنبغي أنْ يَكُونَ عندَنا تنظيمٌ لأعمالِنا اليوميَّة بِقَدْرِ المُستطاع ١١١
قراءةَ الصحفِ قراءةٌ سَطحيَّةٌ ١١٢
الجنود الَّذِينَ يَسْتَصْحِبُهُمْ سُلَيْمان ثلاثةُ أصنافٍ ١١٢
جوازُ استعمالِ الساقةِ فِي الجُنْد والجيشِ ١١٣
أن أحدَ الأَنْبياء -عليهم الصَّلَاة والسلامُ- قَرَصَتْهُ نملةٌ ١١٥
مَن زَعَمَ أنَّ شيئًا من الْقُرْآن عَلَى خلافِ هَذَا اللسانِ العربيّ المبينِ فعليه الدَّلِيلُ ١١٥
الصَّحيح إبقاء الْقُرْآن عَلَى ظاهرِهِ ١١٦
هل للنمل أعينٌ؟ ١١٧
النَّمْلةُ إذا وَطئتها تَقَطَّعَتْ وتَمَزَّقَتْ هَذَا هُوَ التكسُّر ١١٩
هل المقام يَقتضي أن تأتي بالعبارةِ الغليظةِ؟ ١١٩
من البلاغةِ الإيجاز بالحَذْفِ ١٢١
إذا لزِم من إحياء الْأَرْض قتل النمل فَإِنَّهُ لَيْسَ به بأسٌ ١٢٢

إن الضحكَ ثلاثة أنواعٍ ١٢٤
أَنَّ نعمةَ الله عَلَى الوالدينِ نعمةٌ عَلَى الولدِ ١٢٩
قوله: ﴿وَلِدَيَّ﴾ هل هُوَ جمعٌ أو مُثَنًّى؟ ١٢٩
الوالد فِي الميراثِ يَشمَل الأدنى والأعلى إنْ فُقِدَ الأدنى ١٣٠
هل هناكَ فرقٌ بين قولنا: والِدَيَّ ووالِدِيَّ؟ ١٣٠
العَمَلُ الصالحُ ما جمعَ بينَ أمرينِ: الإخلاص والمتابعة ١٣١
العَمَلُ إذا لم يكنْ خالِصًا فليسَ مقبولًا ١٣٢
إن العَمَلَ قد يَكُونُ صالحًا بظاهرِهِ، ولكِنَّه غير مرضيٍّ فِي مآلِهِ أو فيما صَحِبَهُ ١٣٢
جوازُ التبسُّمِ عندَ وجودِ سببِه وجواز الضحِك أيضًا ١٣٣
من العقلِ والعدلِ والشرعِ إضافة المِنَّة إِلَى المانِّ بها ١٣٤
أَنَّ الغايةَ الَّتِي يَسير إليها الأَنْبياء ومَن تَبِعَهم هُوَ رضا الله ١٣٥
الصلاحُ المطلَقُ ١٣٦
تَفَقُّدَه الطيرَ ١٣٩
دعواهم أنَّ الهدهدَ يرى الَّذِي تحت الْأَرْض ١٤٠
لو وُضِعَ الآدميُّ مَعَ الجنِّ يتعذَّب ١٤١
نون الوِقاية ١٤٢
(سلطان) تَرِدُ كثيرًا فِي الْقُرْآن ١٤٢
أن كلامَ الهدهدِ فِي مَقامِ الدفاعِ عن نفسِه ١٤٦
ضعفُ إدراكِ الْإِنْسَان ١٤٧
أن استعمالَ ضَميرِ الجمعِ للمخاطَبِ المعظَّم لَيْسَ بلازمٍ ١٤٨

المَرْأَة هل يَصِحُّ أن تكون ملكةً؟ ١٤٩
هل يجوز أن تُسَمَّى المَرْأَة أميرةً أو سيدةً؟ ١٤٩
أن الشَّمْسَ مَعبودةٌ من قديمِ الزمانِ ١٥١
أن الخلقَ مَفْطُورون عَلَى إنكارِ الشركِ ١٥١
أن المشركينَ شَرُّ البَرِيَّة ١٥١
أن الأَعْمالَ السيِّئة من تزيينِ الشيطانِ ١٥٢
الْإِنْسَان يرى القبيحَ حَسَنًا ١٥٣
﴿أَلَّا﴾ للتحضيض ١٥٥
الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هُوَ المستحِقّ للعبادةِ وَحْدَهُ ١٥٨
قَالَ الشَّافِعيّ فِي الْقَدَرِيَّة ١٥٨
الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَعْلَم مخالفتَكَ، فيَلْزَم من هَذَا أن تَرْتَدِعَ ١٦٠
لا معبودَ بحقٍّ سِوَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ١٦٢
إثبات عرشِ اللهِ ١٦٣
الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سمَّى الأصنام آلهةً ١٦٤
الفرق بين الحصر الحقيقيّ والإضافيّ ١٦٤
المُرادُ بالكاذبينَ ١٦٦
يَنبغي التثبُّت فِي الخبر ١٦٧
ما وقع لأميرِ المُؤْمِنِينَ عمرَ بنِ الخطَّابِ مَعَ أبي مُوسَى الأشعريِّ ١٦٧
يَنبغي للإِنْسَانِ أنْ يَكُونَ لَبِقًا ١٦٨
جواز تعظيم الْإِنْسَانِ إذا كَانَ أهلًا لذلك ١٦٨

يَنبغي تَحَسُّس الأخبارِ عندَ الحاجةِ لذلكَ ١٧٢
أنَّ كرمَ كُلِّ شيءٍ بِحَسَبِه ١٧٤
هل سُلَيْمان ﷺ قَالَ: مِن سُلَيْمان إِلَى بِلْقِيسَ؟ ١٧٥
الأَولى أن يبدأ الكَاتِبُ باسمِهِ ١٧٦
استحباب البَداءةِ ببِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فِي أولِ الرسائلِ ١٧٧
استعمالُ الإيجازِ ١٧٧
﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ ١٨٠
استحبابُ المشاورةِ فِي الأُمُورِ الْعَامَّة ١٨١
مكانة المَرْأَةِ من قومها ١٨٣
التأنِّي أَولى ١٨٦
إذا دار الأَمْرُ بين الإسراعِ والتأنِّي ولم يَتَرَجَّحِ الإسراعُ ١٨٧
العَمَل بالقرائنِ ١٩١
قِصَّة سُلَيْمان فِي المرأتينِ ١٩١
جوازِ الغِلظةِ فِي القَوْلِ ١٩٥
يجوز للإِنْسَانِ أن يصف غيرَه بما يبدو من حالِه ١٩٦
الفرق بين الأذِلَّة والصَّغار ١٩٨
الاقتصارُ عَلَى القَصَصِ الَّتِي فِي الْقُرْآن ١٩٩
الفرق بين الخيانة والخَديعة ٢٠٠
أنَّ الكافرَ لا حقَّ له فِي أرض الله ٢٠٢
جوازُ الخِطاب إِلَى المبهَم ٢٠٤

اشتراط التعيين بالنِّسْبَةِ للنِّكاح ٢٠٥
يجوز للإِنْسَان أمامَ عدوِّه أن يُظْهِرَ العظمةَ ٢٠٥
تسخير الجنّ لسُلَيْمان ٢٠٨
قوَّة الجنّ ٢٠٨
يجوزُ للإِنْسَانِ أنْ يَصِفَ نفسَه بما اتَّصف به من صفات الكمالِ ترغيبًا أو ترهيبًا ... ٢٠٨
الْإِنْسَانُ الَّذِي يَمْدَحُ نَفْسَه بما لَيْسَ فيها ٢٠٩
مَن لَيْسَ بقويٍّ لا يُتْقِن العَمَل؛ لضعفِهِ، ومن لَيْسَ بأمينٍ لا يُتْقِن العَمَلَ أيضًا لخيانتِه . ٢١٠
إذا كَانَ العَمَلُ تَتَعَارَضُ فِيهِ الْقُوَّة والأمانةُ ٢١١
أن سُلَيْمانَ قد رتَّب أعمالَه فِي وقتِه ٢١٢
الأَسْبَاب تَنعقِد فورًا إذا أرادَ الله ٢١٥
قِصص غرائبُ ٢١٦
الرُّبُوبِيَّة عامّة وخاصّة ٢١٨
بماذا يَكُون الشكر ٢١٩
الشكرُ نوعانِ: شُكْرٌ مُطْلَقٌ وشكر خاصٌّ ٢٢٠
كفرُ النعمةِ ٢٢١
إن مَلِكًا منَ الملوكِ رأى رؤيا فأَفْزَعَتْهُ ٢٢٢
التعبير له دخل فِي قبول الحَقّ والنفور منه ٢٢٢
قد يُبْقِي الله تَعَالَى النعمَ مَعَ الكفرِ تَرْبِيَةً ٢٢٣
كمالُ قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ ٢٢٤
هل تَزَوَّجها سُلَيْمان؟ ٢٢٧

إثبات التعليل لأحكام اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الكونيَّة كما ثبت ذلك فِي الأحكامِ الشَّرْعِيَّة... ٢٢٧
يَنبغي للإِنْسَانِ أنْ يُخاطِبَ نفسَه بما تَقْتَضِيهِ الحالُ ٢٢٩
الردُّ عَلَى الجَبْرِيَّة..... ٢٣٠
هل تصرُّف سُلَيْمَان فِي عرش ملكةِ سبأ جائز؟..... ٢٣٢
التَّوْرِيَة ٢٣٦
لَا بُدَّ أن تكون النفس مشغولة إمَّا بحقٍّ وَإمَّا بباطلٍ..... ٢٣٨
التحذير من مُصاحبةِ الأشرارِ ٢٣٩
هل البيئة تُعتبَر عُذرًا للإِنْسَانِ؟..... ٢٣٩
إظهار المَرْأَة لساقيها ٢٤٣
قُصِدَ بإحضارِ العَرْش..... ٢٤٤
الظلم يَكُون أقبح وأشنع بحسب ظهور الحَقّ وبَيَانه..... ٢٤٥
عَظَمَة مُلْك سُلَيْمَان ٢٤٧
جواز اختبارِ المرءِ ٢٤٧
المَرْأَة من قديم الزمانِ شِيمَتها التستُّر..... ٢٤٨
الرؤيةَ قد تُكَذّب..... ٢٤٨
فِي الأُمُورِ الحِسِّيَّة الخطأ يمكن أن يقع ٢٤٩
أنَّ المَرْأَةَ آمنتْ بسُلَيْمَان ٢٥٠
فِي بعض الآيَاتِ يُنْسَب الظُّلْمُ للنفسِ..... ٢٥١
أن العِبادَةَ التذلُّل لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالطاعة ٢٥٣
أن الرسُل السابقينَ رِسالتهم خاصَّة وليستْ عامَّةً..... ٢٥٥

يَصِحُّ إطلاق الأُخُوَّة النَّسَبِيَّة بين المسلمِ والكافرِ ٢٥٥
انقسام النَّاس إِلَى فريقينِ فِي مواجهةِ الرُّسُلِ ٢٥٥
الخِصام بين المُؤْمِنِينَ والكَافِرِينَ ٢٥٦
الكلمات لَيْسَ لها معنى ذاتيّ ٢٥٩
الإنكار عَلَى مَنِ استعجلَ بالسيئةِ قبلَ الحسنةِ ٢٦٠
أن الاستغفارَ سببٌ لرفع العقوبةِ ٢٦٠
الاستغفارُ سببٌ لاندفاعِ النِّقَمِ وجلبِ النعمِ ٢٦١
المَعاصِي سببٌ للحِرمانِ من العلمِ والفهمِ ٢٦١
من أَسْباب المغفرة ٢٦٢
الإدغام ٢٦٤
التطيُّر ٢٦٤
التشاؤم غير الشؤم ٢٦٦
الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ ٢٦٧
هل للأسماء تأثيرٌ في مُسَمَّيَاتِها؟ ٢٦٨
هل يجوز أن يسميَ الْإِنْسَانُ اسمًا ليتفاءلَ به؟ ٢٦٨
بَيَان مَسْلَكِ المكذِّبين للرسلِ ٢٧١
المصائب الَّتِي تُصيب الْإِنْسَان ٢٧١
من الحِكْمَةِ أن يُرَدَّ الباطلُ بالحقِّ بدون سكوتٍ ٢٧٢
حرَّم الله الصيد عَلَى المحرِمين ٢٧٣
افتتن الله تَعَالَى قومَ موسى بالحيتانِ ٢٧٣

إن الجدبَ والقحطَ هُوَ آيَةٌ وَلَيْسَ فتنةً؟ ٢٧٤
التشاؤُمُ هل يُعْتَبَرُ شِركًا أصغرَ أو أكبرَ؟ ٢٧٧
تقنين القوانين الوضعيَّة ٢٧٨
التَّلْقِيح ٢٨٠
الأطبّاء العَصْرِيُّون يعملون بالكيِّ ٢٨٢
يمكن أنْ يَجْتَمِعَ الفساد والصلاح ٢٨٣
الكفر والإِيمان قد يجتمعانِ فِي شخصٍ ٢٨٣
أنَّ المَعاصِيَ من أَسْبابِ الفسادِ فِي الْأَرْض ٢٨٥
المُرادُ بالأهلِ ٢٨٦
وليُّ الدمِ ٢٨٧
مِنَ العُلَماءِ مَن مَنَعَ التبييتَ ٢٨٩
الاغتيالات ٢٩٠
هل يجوزُ سلوكُ مبدأِ الاغتيالاتِ مَعَ الأعداءِ؟ ٢٩١
أنَّ البَيِّنَة عَلَى المدَّعِي واليمينَ عَلَى مَن أنكرَ ٢٩١
الصِّفَات تنقسمُ إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ ٢٩٥
أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يَمْكُرُ بالعبدِ فلا يَشْعُر بمكرِه ٢٩٦
الحثُّ عَلَى الاعتبارِ ٣٠٠
أن العقوباتِ إِنَّما تأتي بأَسْبابِ المرءِ ٣٠١
تفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ للظُّلم بالكفر ٣٠٥
التحذير منَ الظُّلم ٣٠٧

الردُّ عَلَى مَن ينكِرون الحِكْمَةَ ٣٠٧
لا يَنتفِع بالآيَاتِ إِلَّا أُولوا العلمِ ٣٠٨
الحثُّ عَلَى العلمِ ٣٠٨
الاشتراكيّة ٣٠٨
المُراد بالعلم الممدوح هُوَ العلم المؤثِّر للعمل والدَّعْوَة ٣٠٩
أنّ الإِيمانَ والتقوَى من أَسْبابِ النجاةِ ٣١٣
قُرَى قومِ لُوطٍ ٣١٤
استغراقِ الجنسِ ٣١٤
نِكاحُ ذواتِ المحارِمِ أعظمُ مِنَ الزِّنا ٣١٥
مَن زَنَا بِمَحَارِمِهِ يُقتل ٣١٥
يَنبغي إبرازُ الغرضِ الَّذِي من أجلِهِ أُرْسِلَ الرَّسُولُ ٣١٦
عِظَم اللُّواط وقُبْحه ٣١٦
الاسْتِفْهام إذا تلاه التأكيد لا يُخرِجه عن معنى الاسْتِفْهامِ ٣١٨
القبائح تَزداد قبحًا إذا كَانَ لها بدائلُ مِنَ الحسناتِ ٣١٩
الشهوة إِنَّمَا تَصْدُرُ عن جهلٍ ٣١٩
بَيَان عُتُوِّ المكذِّبين لِلُوطٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٣٢٢
ينبغي عند الدَّعْوَةِ إِلَى الشَّيْءِ أن يَقْرِن الداعي دعوته بما يُغْرِي المدعوّين ويُؤَلِّبهم ويقوِّيهم ٣٢٣
قَرْنُ الحُكْم بالسَّبَب ٣٢٣
المَرْأَة من الأهل ٣٢٤

مَن أتَى بأَسْبابِ الهلاكِ هَلَكَ ٣٢٥
سَبْقِ التَّقْدير للحوادثِ ٣٢٥
ألّا يَغْتَرَّ الْإِنْسَان بَقُربه من أهلِ الخيرِ والصلاحِ ٣٢٦
ما رُوِيَ من أن جِبريلَ حَمَلَهم من تُخُوم الْأَرْض السُّفْلَى ٣٢٧
الصبحُ يشملُ من طلوعِ الفجرِ إِلَى الزوالِ ٣٢٨
وجه مناسبة العقوبة للجريمةِ ٣٢٨
الثَّناء عَلَى الفِعْل بما يسْتَحِقّه ٣٢٩
عقوبةُ المجرِمِ بما يَسْتَحِقّ ٣٢٩
لا أحدَ له حُجَّة عَلَى ربِّه ٣٢٩
الاصطفاءُ ٣٣٢
وجوب حَمْدِ اللهِ ٣٣٥
الحمد هل هُوَ الثَّناء ٣٣٥
أن إهلاكَ اللهِ للأممِ المستحقِّين صفة كمال ٣٣٦
لو حَصَلَ لكافرٍ حادثٌ هل يَلْزَمُنا إنقاذه؟ ٣٣٧
الَّذِينَ اصطفاهمُ اللهُ قد بَرِئُوا مِمَّا يُلْصَق بهم ٣٣٨
قيام الأفعالِ الاختياريّة باللهِ عَزَّوَجَلَّ ٣٣٨
ما جاءت به الرُّسُلُ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ نقصٌ ٣٣٩
جواز المقارنةِ بينَ ما هُوَ خيرٌ مَحْض وما لا خيرَ فيه ٣٣٩
أنَّ من أساليبِ المناظَرة إلزامَ الخَصْم بما يُقِرّ به ٣٤٠
جوازُ المقارنةِ بينَ شَيئينِ لا يَختلِفانِ فِي المَعْنى ٣٤٠

الالتفاتُ فِيهِ فوائدُ ٣٤٤
هل المَعُونَةُ تدخلُ فِي المشاركة؟ ٣٤٦
الواجب إفراد اللهِ تَعَالَى بالألوهيَّة ٣٤٦
بَيَان انفرادِ اللهِ تَعَالَى فِي خلق السَّماوَات والْأَرْض ٣٤٧
حكمة الله تَعَالَى فِي إنزالِ المطرِ من فوقُ ٣٤٨
الأَشْيَاء ينبغي أن تُضافَ إِلَى المسبِّب لا إِلَى السَّبَب ٣٤٨
التنزُّه فِي الحدائقِ والابتهاجُ بها ٣٤٩
الحُجَّة عَلَى سَفَهِ هَؤُلَاءِ المشركينَ ٣٥٠
المجاز فِي اللُّغة والْقُرْآن ٣٥٠
لا يلزم من مجرَّد الحركةِ الدَّورانُ ٣٥٣
فرقٌ بين الراسي والمُرْسِي ٣٥٥
أن نفيَ العلمِ قد يُراد به نفيُ حقيقةِ العلمِ ٣٥٧
بَيَان نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بجعل الْأَرْض قَرارًا لأهلها ٣٥٨
مختار اسْم الفاعلِ منه مُخْتَيِرٌ، واسم المَفْعُول مُخْتَيَرٌ ٣٦١
الأصنام لا تجيب دعوة المضطرّ ٣٦٢
الَّذِينَ يدعون الرَّسُولَ ٣٦٣
لا فرقَ بين أن يَكُون المضطرُّ مؤمنًا أو كافرًا ٣٦٧
هَذِهِ الخَليقةِ خَليفة يَخْلُفُ بعضها بعضًا ٣٦٨
الدعاء من أَسْبابِ رفعِ البلاءِ ٣٦٩
إجابة المضطرّ المتحتِّمة مشروطة بما إذا دعاه ٣٦٩

يَجِب عَلَى المرءِ أنْ لا يلتفتَ فِي كَشْفِ السوءِ إِلَّا إِلَى اللهِ ٣٧٠
مَهْمَا كَثُرَتِ القرائنُ والبراهينُ فإنَّ مِنَ النَّاسِ مَن لا يَتَّعِظ بها ٣٧١
نِعمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى الخَلْقِ بالهدايةِ فِي ظُلُماتِ البَرِّ والبحرِ والجوِّ ٣٧٤
يَجِب عَلَى الْإِنْسَان أن يَعتمدَ عَلَى اللهِ فِي الهدايةِ إِلَى الطريقِ الحِسِّيِّ ٣٧٥
الشَّيْء الواحد قد يَكُون خيرًا وقد يَكُون شرًّا ٣٧٦
إطلاق الصِّفة عَلَى آثارها ٣٧٦
أن الرياحَ سببٌ لنزولِ الأمطارِ ٣٧٧
بَيَان قُدْرَةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي بَدْءِ الخلقِ وإعادتِهِ ٣٨١
إنَّ الرزقَ العامّ غير الخاصّ ٣٨٢
الرزق منَ السَّماء بالمطرِ ومنَ الْأَرْضِ بالنباتِ ٣٨٢
الربا الَّذِي فِي الجاهليَّة ٣٨٣
إذا كَانَ الاستثناءُ منقطعًا وجبَ فِيهِ النصبُ ٣٨٩
إن الإِيمانَ أوَّلُ مَراتِبه الحَيْرة والشكّ ثُمَّ الاستدلال ٣٩٣
مَنِ ادَّعى أَنَّهُ يعلم متى يُبعَث ٣٩٥
لا يعلم أحدٌ الغيبَ إِلَّا اللهُ ٣٩٦
أهل الإِيمان باليومِ الآخرِ يزدادون بها بصيرة ٤٠٠
تَلبيس أهلِ الضَّلال للحقِّ بالباطلِ ٤٠٢
مَن لا يريد الحَقّ فَإِنَّهُ لا يَتبيَّن له ٤٠٤
ينبغي لطالب العِلْم عندما يبحث عن مسألةٍ أَنْ يَبحثَ عنها ٤٠٤
مَن لا يريد الْحَقّ لا يوفَّق له ٤٠٥

مِن أصعبِ الأُمُورِ الإخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ ٤٠٦
الَّذِي يطلب الحَقّ هل يصل إليه؟ ٤٠٧
أن عاقبةَ المجرمينَ وَخيمة ٤١٠
أن الداعيَ إِلَى اللهِ إذا بَذَلَ ما يَجِب عليه فلا يَنبغي أنْ يحزنَ لمخالفةِ النَّاسِ ٤١٢
أنَّ البلاءَ موكلٌ بالمَنْطِق ٤١٦
سَعَة حِلْمِ اللهِ ٤١٦
سَعَة عِلْم الله ٤١٩
الردُّ عَلَى الْقَدَرِيَّة ٤٢٠
الخلاف بينَ بني إسرائيلَ ٤٢٦
قوّة حُكم اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٤٣٣
إثباتُ العدلِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٤٣٤
قَرْن العزّة مَعَ العلمِ ٤٣٥
تقديم الأخصّ مِنَ الأوصافِ عَلَى الأعمِّ ٤٣٥
التوكُّل عَلَى اللهِ ٤٣٦
الْإِنْسَان المتوكِّل ٤٣٨
مَنِ اتخذ سببًا مُحَرَّمًا مثل الرِّبا، هل يُعَدُّ مِنَ الشِّركِ؟ ٤٣٨
ما حُكْمُ قول العوامّ عِندنا: (وَكِّلِ الله)؟ ٤٣٩
فضيلة النَّبِيّ ﷺ ٤٤٢
بَيَان الحَقّ لا يَلْزَم منه أن يَكُونَ بَيِّنًا لكلِّ أحد ٤٤٣
الكافرُ لا يَنتفع انتفاعَ ثوابٍ ٤٤٥

أنَّ الميِّتَ لا يَسْمَع ٤٤٩
الموتى فِي قُبُورِهِم لا يَسْمَعُون ٤٤٩
سماعُ القبولِ ٤٥١
الرُّوح تُنْزَع بَعْد السلام ٤٥٢
أنَّ الجوارحَ والحواسَّ الَّتِي لا يُنْتَفَعُ بها كالمعدومةِ ٤٥٣
أنَّ المُعْرِضَ عنِ الحَقِّ بِمَنْزِلَةِ الأعمَى ٤٥٤
الإِيمان يَسْتَلْزِمُ الإِسْلامَ ٤٥٥
المسلمونَ اليومَ إمَّا مُسْتَسْلِم أو مُسْلِم أو مؤمِن ٤٥٥
هل المسلمُ المُسْتَسْلِم يدخل الجَنَّة؟ ٤٥٦
الفرق بين المسلمِ المستسلِم والمنافِق ٤٥٦
وجهُ كونِ الآيَاتِ آيَاتٍ ٤٥٧
أَنَّ الإيقانَ أبلغُ منَ الإِيمانِ وأخصُّ منه ٤٦١
خُرُوج الدابَّةِ ٤٦١
حِكمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الإنذار ٤٦٤
المؤمنُ الواعي الحيُّ يَكْفِيه ما فِي الْقُرْآنِ مِنَ الآيَاتِ العظيمةِ ٤٦٥
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعْطِي العلمَ حَتَّى البهائم ٤٦٥
أنَّ عدمَ الْيَقِينِ بآيَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سببٌ للهلاكِ ٤٦٥
إثباتُ الحشرِ ٤٧١
عِظَم الإمامةِ فِي السوءِ ٤٧٢
التكذيب بالآيَاتِ كفرٌ ٤٧٢

إثباتُ الكَلام لله عَزَّوَجَلَّ ٤٧٢
الجَبْرِيَّة والأشاعرةُ لا يُثْبِتُون الأَسْبَاب ٤٧٧
المُراد بالسكونِ ٤٧٩
أين الآيَات فِي كون الليل لِيسكنوا فِيهِ والنَّهار مُبصِرًا؟ ٤٨٢
الاستدلال بالشاهدِ عَلَى الغائبِ ٤٨٢
نَفْخة الفَزَع بعدَ نَفْخَةِ الصَّعْق والبَعْث ٤٨٦
إسرافيل ألا يَتَعَيَّن أَنَّهُ مِمَّنِ استُثْنِيَ لِأَنَّهُ هُوَ النافِخُ؟ ٤٨٩
العِوَض عن اسمٍ ٤٩٠
إثباتُ النفخِ فِي الصُّورِ ٤٩١
لا يَفْزَعُ جميعُ مَن فِي الْأَرْض ومن فِي السَّماوَات ٤٩٢
كمالُ الرُّبُوبِيَّة والسلطانِ للهِ عَزَّوَجَلَّ ٤٩٢
قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ٤٩٧
ما الفرق بين الخبر والاسمِ؟ ٥٠١
إثباتُ الحِكْمَةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ ٥٠٢
كيف يُؤتَى بالحسناتِ وهي أعمالٌ مَضَتْ ٥٠٩
أن يومَ القيامةِ لا يُقاس بأمرِ الدُّنْيا ٥١٠
سبعةُ مواضعَ إذا كانتْ جوابًا للشرطِ وجبَ اقترانُ الفاءِ بها ٥١٣
الصدقةُ ليست من الأصول ٥١٥
أن عذابَ أهلِ النَّارِ -والعياذُ باللهِ- عذابٌ نفسيّ وبدنيّ ٥١٦
هل السيئة تُضاعَف فِي مَكَّة؟ ٥١٩

أليست العِبادَة هِيَ الإِسْلام؟ ٥٢٠
وجوب العِبادَة عَلَى النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٥٢٢
بُطلان ما ادَّعاه أصحابُ مَن يَزْعُمونَ أَنَّهُم أَوْلِيَاء ٥٢٢
فَضيلة مكَّة من وجهينِ ٥٢٣
هل المَدينَة حرمها الله عَزَّوَجَلَّ؟ ٥٢٣
بَلاغة الْقُرْآن ٥٢٤
لا يجوزُ لأحدٍ أن يحكمَ بغيرِ ما أنزلَ الله ٥٢٤
أمر التحليل والتحريمِ والإيجابِ إِلَى الله ٥٢٥
العقلُ يُحَسِّنُ ويُقَبِّحُ، لَكِنَّهُ لا يُوجِبُ ويُحَرِّم ٥٢٥
الْإِنْسَان الَّذِي صَفَتْ سَريرته وخلصت نيّته وعلِم اللهُ منه حُسْنَ القصدِ يُوَفَّق ٥٢٥
أن الإِسْلامَ والإِيمانَ شيءٌ واحد ٥٢٧
الإِيمان منَ المنافقينَ بعيدٌ ٥٢٧
التلاوة تنقسمُ إِلَى قسمينِ ٥٢٩
يَجِب عَلَى المسلمِ أن يتلوَ الْقُرْآن تلاوةً اتباعيةً ٥٢٩
تدريجِ النَّاسِ حَتَّى يَسْلُكُوا الصراطَ الصَّحيحَ ٥٣١
القَوْل في نقلِ الْإِنْسَانِ من معصيةٍ إِلَى معصيةٍ أُخرى أخفَّ منها؟ ٥٣٢
أصل الثوابِ للفاعلِ ٥٣٣
دَعْوَى النسخِ لَيْسَتْ بالأَمْرِ الهَيِّن ٥٣٥
هل من شروطِ النسخِ وجودُ قرينةٍ تدلُّ عليه؟ ٥٣٦
وَقْعَة بَدْرٍ ٥٣٨

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة
تقديم	٥
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾	٧
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾	١٦
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾	٢١
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾	٢٧
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾	٣٣
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾	٣٧
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾	٤٦
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾	٥٥
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾	٦٢
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾	٦٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ ٧٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ ٧٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ ٨٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ ٨٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ ٩٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ ١٠٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ ١١٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ ١١٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ ١٢٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ ١٣٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ ١٤١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ ١٤٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ١٤٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ١٥١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ١٥٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾ ١٦٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ١٦٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ١٧٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ ١٧٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ١٧٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾ ١٧٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ١٨٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ١٨٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ١٨٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ١٩٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ١٩٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ ٢٠٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ ٢٠٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ ٢١٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾ ٢٢٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ ٢٣٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَت مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ .. ٢٣٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ ٢٤١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ

فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ ٢٥٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ٢٥٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ٢٦٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ٢٧٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ٢٨٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ... ٢٩٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ ٢٩٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ ٣٠٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ ٣١١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ ٣١٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ٣١٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ ٣٢١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ... ٣٢٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ٣٢٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ٣٣١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ٣٤٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ٣٥٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ٣٦٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ٣٧٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ٣٧٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ٣٨٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ٣٩٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ٤٠٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ ٤٠٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ .. ٤٠٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ٤١٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾ ٤١٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ٤١٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ ٤١٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ٤١٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ ٤٢٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ ٤٢١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ ٤٢٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾ ٤٣٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ ٤٣٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ . ٤٤٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ ٤٤٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ٤٥٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ

يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ ٤٦٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ٤٧٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ ٤٧٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ ٤٨٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ ٤٩٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ .. ٥٠٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ ٥١٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ ٥١٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ ٥٢٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ ٥٣٧

فهرس الأحاديث والآثار ٥٤٣

فهرس الفوائد ٥٥١

فهرس آيات السورة ٥٧٥

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٦)

تفسير القرآن الكريم

سورة القصص

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٦)

تفسير القرآن الكريم

سورة القصص

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة القصص. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
٤٤٣ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٣٦)
ردمك: ١ ـ ٥١ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة القصص ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٣٣

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٣٣
ردمك: ١ ـ ٥١ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من :
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[1]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخِ مُحَمَّد بنِ صالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراجِ ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَرِيمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضَاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ فِي المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

الآيات (١-٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [القصص:١-٣].

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

قَالَ المُفَسِّرُ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿طسٓمٓ﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ، ﴿تِلۡكَ﴾ أَيْ هَذِهِ الْآيَاتُ، ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الْإِضَافَةُ بِمَعْنَى مِنْ، ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ الْمُظْهِرُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، ﴿نَتۡلُواْ﴾ نَقُصُّ، ﴿عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ﴾ خَبَرِ، ﴿مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ﴾ الصِّدْقُ ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ لِأَجْلِهِمْ، لِأَنَّهُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِهِ].

الحِكمة من القَصَص فِي الْآيَاتِ واضحةٌ، فهو يُتلَى عَلَى النَّاسِ لكي يُؤمِنوا، فَإِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ فِي الْأَصْلِ فهو لتَثْبِيت إيمانِهم وزيادَتِه.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيان عِظَم القُرْآن وعُلُوِّهِ، وذلك عَنْ طَرِيقِ الْإِشَارَةِ إِلَيْهِ بالبُعد ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ﴾.

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: هَذَا الْقُرْآنُ مكتوبٌ؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾، ونحن نعلم أنَّ كتابةَ القُرْآن مُتَحَقِّقَةٌ فِي ثَلَاثَةِ أماكنَ:

١- فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ.

٢- فِي صُحُفِ الملائكة.

٣- فِي المَصَاحِفِ الَّتِي بَيْنَ أيدينا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مُظهِر مُبَيِّن للأُمُور؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾، فهو مُظهِر ومُبَيِّن للأُمُور.

وحَذْفُ مُتَعَلَّق ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ يُستفاد مِنْهُ عُمُومُ إِبَانَةِ الْقُرْآنِ لِكُلِّ شَيْءٍ.

وحذفُ المُتَعَلَّق هَذَا مِنَ القَواعِدِ التَفْسِيرِيَّة، فإنَّ حَذْفَ المُتَعَلَّقِ يُفيد العُلُوَّ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٨]، حيثُ لَمْ يَقُلْ: (فأغناك)؛ لِأَنَّ اللهَ أغناهُ، وأغنى به، وَقَالَ تعالى أَيْضًا: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى:٧]، فالله هداه وهدَى به.

فقوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُبَيِّنٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، ويدل لذلك قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

ولذلك فإنَّ أيَّ مُشكلة تَعْرِضُ لَنَا فِي دِينِنَا نَجِدُ حَلَّها فِي الْقُرْآنِ، والقُرْآن يُرشدنا إلى الأخذ بالسُّنة، قَالَ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر:٧].

إذن: الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ يَحِلَّان كُلَّ مَا يَعْرِضُ لَنَا مِنْ مُشْكِلَاتٍ فِي أُمُورِ دِيننا، أو دُنيانا، ولكن المشكلة هي القُصور فِي فَهْمِ النَّص لَدَى بَعْضِ النَّاسِ، ويرجع الْأَمْرُ إِلَى سببين: إمَّا هَوًى مُتَّبَع، وإمَّا جَهْلٌ.

فهناك مِنَ النَّاسِ مَنْ يريد اتباعَ الهوى، وَلَا يُرِيدُ اتِّبَاعَ الْحَقِّ، فيذهب إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَّهُ يَجِدْ مَا يُبَرِّرُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ.

فمثلًا هُنَاكَ مَنْ يُبَرِّر للاشتراكيَّة، ويبحث فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ عما يؤيد رأيه هذا، فَإِنْ وَجَدَ مَا يُخَالِفُ رأيه تَرَكَه وتجاوَزَه إِلَى غَيْرِهِ، فهذا الرَّجُلُ لَمْ يَقْصِدِ الحقَّ.

وكذلك بعضُ الذين يُشَرِّعُون القوانين، أو الأُمُورَ الفِقهية، أَوْ مَا شابَهَ، لَا يَرْجِعُونَ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِلَّا مِنْ أَجْلِ تبريرِ مواقِفِهم، فإذا رأوا ما يُخالِفُها أَغْمَضُوا أَعْيُنَهم، وإن رأوا مَا يُشِيرُ إليها -ولَوْ لإبطالها- فَتَحُوا أعيُنَهم.

وهؤُلاءِ لهم غَرَضٌ فِي صُدُورِهِمْ في تَصَفُّحِهِم للقرآن والسُّنة، كَمَا قَالَ شَيْخُ الإِسْلام ابن تَيمِيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي (العقيدة الواسطية)، وَهِيَ كَلِمَةٌ عظيمة المعنى، قال[1]: «وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ».

كلمةٌ عظيمةٌ، فِيهَا أَمْرَانِ: تَدبُّر، وطَلَبُ الهدى. فـ(تَدَبَّرَ): الفعل، و(طالبًا للهُدى): النية الصَّالِحة، (تَبَيَّن له طَرِيقُ الْحَقِّ) جَوَاب الشَّرْطِ.

فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ جزَم به؛ لأَنَّهُ مَوْجُودٌ فِي الْقُرْآنِ لَا شَكَّ فِي هَذَا.

إذن: القُرْآنُ مُبَيِّنٌ لكُلِّ الأُمُور؛ إِمَّا مِنَ الْقُرْآنِ نَفْسِهِ، أَوْ مِمَّا يُرْشِدُ إِلَيْهِ، أي السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ.

أحيانًا تَعْتَرِضُنا مَسائِلُ، ونَبْحَثُ عَنْهَا فِي كُتُبِ الفُقهاء؛ فُقَهاء الحنابلة، وفُقَهاء الشافعية، وغيرهم، فما نجدُها، فَنَرْجِعُ إِلَى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، فنجدُها واضحةً جَلِيَّةً.

---

(١) العقيدة الواسطية اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٧٤).

وَالرُّجُوعُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يُفِيد الإِنْسَان -حقيقةً- فائدتين عظيمتين:

الأُولى: الطُّمأنينة والاستقرار؛ لِأَنَّ اتِّبَاعَ كَلَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ -وَإِنْ كَانَ الْإِنْسَانَ قَدْ يطمئِـن إليه بَعْضَ الشَّيْءِ- مَا تَكُونُ الطُّمأنينـة إليه كطُمأنِينَتِـه إِلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.

الثَّانية: أنه يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقْنِعَ غيره، ويُطَمْئِنَ غيره.

فمثلًا إِذَا قُلْتَ لِإِنْسَانٍ مَا: هَذَا حَرَامٌ. يَقُولُ لَك: مَا الدَّلِيلُ عَلَى الحُرمة؟ فإذا قلتَ: له حَرَّمَهُ اللهُ، أَوْ حَرَّمَهُ رسولُه. اطمأنَّ لِقَوْلِك، أَمَّا إِذَا قُلْتَ لَهُ: هناك كِتَابٌ مَا قَدْ حَرَّمَهُ. قَالَ لَك مستنكرًا: أيُّ كتابٍ هذا؟ هَلْ هُوَ مُوحًى بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟

إذن: الرُّجُوعُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يَبُثُّ الطُّمأنينة فِي قُلُوبِ المخاطَبين ويُقْنِعُهم.

ولذلك أنا أَمْيلُ إِلَى الرُّجُـوعِ دائمًا إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَا يَعْنِي كلامي هذا طَرْحَ كَلَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ، لا، فكلامُ أَهْلِ الْعِلْمِ مفاتيحُ لهذه الخزائن، فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ لَا يَهْتَدِي بالكتاب والسُّنة إِلَّا إِذَا دَخَلَ مِنْ حَيْثُ دَخَلَ هؤُلاءِ العلماءُ.

وهناك فَرْقٌ بَيْنَ مَنْ يَقُولُ: اتَّبِعِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، واقْتَدِ بكلامِ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَبَيْنَ مَنْ يَقُولُ: اتَّبِعِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، واطْرَحْ كَلَامَ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ فهو لَيْسَ بِشَيْءٍ. وَهَذَا خطأٌ كبيرٌ.

واعْلَمْ أَنَّ الْحَقَّ دائمًا بَيْنَ طَرَفَيْنِ مُتَطَرِّفَيْنِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ أَيْضًا عَلَى أَنَّ القَصَص يُسَمَّى تِلاوَةً، يُقال: قَصَّ الإِنْسَانُ القِصَّة، إذا تَلاها علينا؛ وَذَلِكَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيانُ أهمية قِصَّةِ مُوسَى مَعَ فِرعونَ، ولهذا تَكَفَّلَ اللهُ تعالى بِتِلَاوَتِها عَلَى النَّبِيِّ ﷺ لأهميتِها، وبيان فوائِدها.

وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تجمعوا الْقصَّةَ مِنْ جَمِيعِ أطرافها فِي الْقُرْآنِ، واستخرجوا مَا فِيهَا مَنْ فَوَائِدَ، فهذه الْقِصَّةُ مِنْ أَهَمِّ القَصَص الَّتِي وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ الكريم، وَقَدْ تَكَرَّرَتْ فِي مَوَاضِعَ مُخْتَلِفَةٍ بأساليبَ مختلفةٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، فَجَمِيعُ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ هَذِهِ القَصَص هُوَ حَقٌّ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ قُلنا: إِنَّ الْحَقَّ إِذَا وُصِفَ بِهِ الْخَبَرُ، فَهُوَ بمعنى الصِّدق، وإذا وُصِفَ بِهِ الْحُكْمُ، فهو بمعنى العَدْل.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ هَذِهِ القَصَص سببٌ لحدوث الإِيمَان، وكذلك سبب لزيادته أيضًا، أي سبب لِمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ حَتَّى يُؤْمِنَ، ولمن آمَنَ حتى يزدادَ إيمانُه؛ ثباتًا وكَمِّيَّةً.

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ يَنْتَفِعُ بِهَا غيرُ المؤمن قَوْلُهُ تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف:١١١]، فكلُّ إنسان عنده لُبٌّ -أَيْ عقل- فَلَا بُدَّ لَهُ أَنْ يُعْتَبَرَ ويَنتفع.

الآيــة (٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القَصص:٤].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا ﴾ تَعَظَّمَ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أَرْضِ مِصْرَ ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ فِرَقًا فِي خِدْمَتِهِ ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ هُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ الْمَوْلُودِينَ ﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ يَسْتَبْقِيهِنَّ أَحْيَاءً لِقَوْلِ بَعْضِ الْكَهَنَةِ لَهُ: إِنَّ مَوْلُودًا يُولَدُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَكُونُ سَبَبَ زَوَالِ مُلْكِكَ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِه].

﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾: قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَسْتَبْقِيهِنَّ أحياء]، لأَنَّهُن فِي الْأَصْلِ أحياء، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى إِحْيَاءِ الموتى إِلَّا اللهُ.

وجملتا (يُذَبِّحُ) و(يَسْتَحْيِي) حَالٌ مِنْ فَاعِلِ (عَلَا) و(جَعَلَ).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَانُ مَا كَانَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ مِنَ العُلُوِّ والجَبَرُوت، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَنْ عَلَا فِي الْأَرْضِ، وطلب العُلُوَّ عَلَى الْخَلْقِ؛ فهو شبيه بِفِرْعَون ووارثُه، وبئس الرَّجُلُ مَنْ كَانَ فِرْعَوْنُ إمامَه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ تفريق الأُمة سببٌ لفَشَلِها وذُلِّها، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، ومنها نعلم أَنَّ الْحِكْمَةَ الإنجليزية المشهورة (فَرِّقْ تَسُدْ) أصلُها فِرْعَوني؛ لأن فِرْعَون هُوَ أَوَّلُ مَنْ جَعَلَ أَهْلَ الْأَرْضِ شيعًا؛ حَتَّى يَسُودَ عليهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، مَعَ أَنَّهُمْ فِي الْأَصْلِ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ.

فيتفرع عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: أَنَّ مَنْ سَكَنَ أرضًا، وأقام فيها، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِهَا فِي الْأَصْلِ، نُسب إليها، وَصَارَ مِنْ أَهْلِهَا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيانُ شِدَّة استضعاف فِرْعَون لِبَنِي إِسْرَائِيلَ؛ حَيْثُ كَانَ ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾.

وَقَدْ قِيلَ فِي سَبَبِ فِعْلِهِ هَذَا: إِنَّهُ أُخبر بأنه سيُولَد مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ولدٌ، يَكُونُ هَلَاكُهُ عَلَى يَدِهِ.

وَقِيلَ: لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الطَّرِيقُ لإذلال الأُمَّة؛ لِأَنَّهُ إِذَا ذَهَبَ الرجال، وبقيت النساء صِرن إماءً للمُسْتَعْبِد، وهُنَّ بلا شك مَا عِنْدَهُنَّ قَيِّمٌ عليهن، ولا مُدافِعٌ عنهن.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الْعُلُوَّ فِي الْأَرْضِ، والعُتُوَّ عَلَى الْخَلْقِ، والسَّعْيَ بينهم بالتفريق يُعَدُّ مِنَ الإفساد، وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

ويتضح مِنَ الْآيَةِ أَنَّهُ مَنْ كَانَ عَلَى نقيض ذَلِكَ مِنَ التواضع للحَقِّ والخَلْقِ، جَمَعَ شَمْلَ الأُمة، وقَصَرَ عدوانه عنها، يَكُونُ مِنَ الْمُصْلِحِينَ، وَكَمَا قِيلَ: وبِضِدِّها تتميز الأَشْياء.

الآيتان (٥، ٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القَصص:٥-٦].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ، وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ يَاءً: يُقْتَدَى بِهِمْ فِي الْخَيْرِ ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ مُلْكَ فِرْعَوْنَ، ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَرْضِ مِصْرَ وَالشَّامِ ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: «وَيَرَى» بِفَتْحِ التَّحْتَانِيَّةِ وَالرَّاءِ وَرَفْعِ الْأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ ﴿مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ يَخَافُونَ مِنَ الْمَوْلُودِ الَّذِي يَذْهَبُ مُلْكُهُمْ عَلَى يَدَيْهِ].

الإرادةُ الْوَارِدَةُ فِي الْآيَةِ هنا هِيَ إِرَادَةٌ كونِيَّة، وهي المشيئة، ويتعلق بها الحُكم القَدَرِيُّ، فالإرادة الكَوْنِيَّة مُرادِفَةٌ للمَشِيئَة، وتَتَعَلَّق بالأُمُور الكَوْنِيَّة.

أمَّا الإرادةُ الشرعيةُ فمُرادِفَةٌ للمَحَبَّة، وهي تتعلق بالأُمُور الشرعية، فمثلًا: اللهُ يُرِيدُ مِنَّا أَنْ نُصَلِّيَ فِي جَمَاعَةٍ، فهذه إرادةٌ شرعيةٌ.

وَهَلِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ هُنَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فقط، أَمْ مِنْ عُموم أَهْلِ مِصْرَ الذين استضعفهم فِرْعَون؟ المرادُ هنا كل الذين استضعَفَهم فِرْعَونُ.

فَقَدْ كَانُوا مُضطهَدين، ولذلك أَرَادَ اللهُ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِمْ بالهداية والإِيمَان والإمامة، وكذلك بميراثهم لِفِرْعَونَ وجُنُودِه.

وَهَذَا كُلُّهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ؛ لأَنَّهُ أتى بالفعل المضارع (نُرِيدُ) الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ، أي: نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عليهم مستقبلًا.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: أَئِمَّةً فِي الْخَيْرِ، والإمامُ هُوَ كُلُّ مَنْ يُقْتَدَى بِهِ، وَقَدْ يَكُونُ فِي الْخَيْرِ، أَوْ فِي الشَّرِّ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القَصَص:٤١]، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ هُنَا: أَئِمَّةٌ فِي الْخَيْرِ.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: يَرِثُون فِرْعَونَ وجُنوده، قَالَ تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩].

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ إِرَادَةِ اللهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَنُرِيدُ﴾، ووجهُ إثباتِ الإرادةِ هنا، مع أنها فِعْلٌ، وليس اسمًا، هُوَ أَنَّ الْفِعْلَ يَدُلُّ عَلَى الحَدَث وزَمَانِه.

فقولُه: ﴿وَنُرِيدُ﴾ مُشْتَقٌّ مِنَ الْإِرَادَةِ، وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ نقول: إنه يَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِ الإرادة لله عَزَّوَجَلَّ.

المعتزلة لم يُثبتوا الإرادة للهِ عَزَّوَجَلَّ، بل نَفَوْهَا، فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَثْبَتَها الأشاعرةُ له عَزَّوَجَلَّ، واستدلوا بكون الليل ليلًا، والنهار نهارًا، والحَرِّ حَرًّا، والبَرْدُ بَرْدًا أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْإِرَادَةِ؛ إِذْ لَا يَقَعُ هَذَا التَّخْصِيصُ إلا بإرادةٍ.

ولكنهم يستدلون عَلَى إِثْبَاتِ الصفات عامَّةً بالعَقْلِ، فَمَا وَافَقَ عُقُولَهُم قَبِلُوه، وَمَا خَالَفَهَا أَوَّلُوه وصَرَفُوه حتى يُوافِقَ العقل.

وقد تبين لَنَا قَبْلَ ذَلِكَ فَسَادُ هَذَا المنهج، فَهُوَ مُخَالِفٌ للقرآن الكريم، يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون:٧١].

قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كُلَّمَا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ أَرَادَنَا أَنْ نَرُدَّ مَا جَاءَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ»(١).

نعم، هَذَا أَمْرٌ لَا يَسْتَقِيمُ؛ فإثبات صِفَاتِ اللهِ بالطُّرق العقلية، وَنَفْيُ مَا لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ؛ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عُدوانٌ، وطريقٌ فاسِدٌ.

ويمكننا أَنْ نَرُدَّ عليهم بأَنَّنا نستطيع أَنْ نُثْبِتَ ما نَفَوْهُ بطريق العقل، كما أثبتوا هم ما أثبتوا بطريق العقل، بل بصورةٍ أَفْلَحَ وأَبْلَغَ.

فظُهور صِفة الرَّحْمة فِي المَخْلُوقَاتِ أَبْلَغُ مِنْ ظُهُورِ صفة الإرادة، وَكَذَلِكَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْخَلْقِ بالرِّزق، والإمداد، والإعداد، وَفِي جَمِيعِ مَا يَتَمَتَّعُون به، وَهَذَا ثَابِتٌ لِكُلِّ إِنْسَانٍ.

أَمَّا كونُ البَرْدِ بَرْدًا، والحَرِّ حَرًّا، فَهَذَا لَيْسَ دليلًا قويًّا عَلَى الْإِرَادَةِ، فَدَلالةُ مَا سَبَقَ عَلَى الْإِرَادَةِ أَقْوَى مِنْ دَلَالَةِ النِّعَم عَلَى الرَّحْمة بلا شك.

أَيْضًا إِذَا نَظَرْنَا لِنَصْرِ الله للطائعين، وفُقْدَانِه للعاصِين، فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى الْحُبِّ والكُره، فَلَوْلَا أَنَّهُ يُحِبُّ هَؤُلَاءِ مَا نَصَرَهُم، وَلَوْلَا أَنَّهُ يُبْغِضُ هَؤُلَاءِ مَا نَصَرَهُم، وهذا معروفٌ، حَتَّى إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا صَارَ يُبغض أَحَدًا مَا فما نَصَرَهُ، وَلَا أَحِبَّهُ.

إذن: نَصْرُ هؤلاءِ، وإذلالُ هؤُلاءِ دَلَّ عَلَى إِثْبَاتِ المَحَبَّة والبُغض، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ ينكرون، ويقولون: الْعَقْلُ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ.

---

(١) الإبانة الكبرى، لابن بطة (٢/ ٥٠٧، رقم ٥٨٢).

فَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ الحقَّ واضحًا، فَمَا مِنْ شَيْءٍ يزعُم هَؤُلَاءِ أَنَّ العقل يُنكره، أَوْ لَا يُثْبِتُهُ، إلا وجدنا أَنَّ الْعَقْلَ يُثبته كما أثبته الشرعُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تمام قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ وذلك عندما جعل هؤُلاءِ المستضعفين أئمةً، ووارثين لهؤُلاءِ الطُّغاة، وذلك بإرادةٍ مِنَ اللهِ وَحْدَهُ، وليس بِقُدْرَتِهم، فالمسلمون -مثلًا- وَرِثُوا ديار الفُرس والرُّوم بفعلهم وجهادهم، وإرادة الله.

ولكنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَرِثُوا فِرْعَونَ بلا قتالٍ، وَلَا فِعْلٍ منهم، بَلْ كَانَ ذَلِكَ بإرادة الله المَحْضَة فقط، وَهَذَا مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، فاللهُ يُيَسِّر لِعِبَادِهِ مِنَ النَّصْرِ ما لم يَكُنْ فِي مَقْدُورِهم، وَلَا فِي حسابهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنِ استُضعف لِقِيَامِه بالحقِّ فَلَا بُدَّ أَنْ تكُونَ العاقبةُ له؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾، وَإِنْ كَانَتْ فِي سِيَاقِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فغيرُهم دَاخِلٌ فِي الْعُمُومِ اللفظي، إِذَا قُلْنَا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ فِي أَيِّ مكانٍ وزمانٍ، أو العُموم المعنوي، وذلك بقياس غَيْرِهِمْ عَلَيْهِم؛ لأن دَلالات العُموم إمَّا لَفْظِيَّة، أو مَعْنَوِيَّة، فالقياسُ الصحيحُ دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى المَقِيس دلالة معنوية، فحينئذٍ نقول: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذَا جعلناهم هم بَنِي إِسْرَائِيلَ فقط، فالمستضعفون بقيامهم بِالْحَقِّ مِنْ غَيْرِهِمْ مثلُهم؛ لِأَنَّ اللهَ تعالى يَقُولُ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح:٢٣].

فسُنَّةُ اللهِ للخَلق واحدة؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ نَسَب، أو حَسَبٌ حتى يُرَاعِيَهُ، يَقُولُ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

قد يَقُولُ قَائِلٌ: هناك أُناسٌ استُضْعِفوا بالحَقِّ، وقُتِلوا، أو طُرِدوا، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فأين الْعَاقِبَةُ الَّتِي تزعمون؟

فنقول: إِنَّ العاقبةَ لَا تَكُونُ للشَّخص الجسدِيِّ فقط، بل للشَّخصِ المعنوي، فمَقَالتُه هَذِهِ لَا بُدَّ أَنْ تُنصَر.

وانظروا الْآنَ إِلَى مَنْ سَبَقَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، كَمْ مِنْ عَالِمٍ أُوذِيَ فِي الْحَقِّ، سواء قُتِل أَمْ لَا، تجدوا مقالاتِه ما زالت باقِيَةً، ومُنْتَشِرَةً أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ، وهذا واضحٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ.

إذن: النصرُ لقائل الْحَقِّ فِي حَيَاتِهِ، أَوْ لمقالته بَعْدَ وَفَاتِهِ، والإِنْسَان المجاهد للهِ هُوَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَثْأَرَ لنفسه، بل هَمُّه أَنْ يَبْقَى هَذَا الْحَقُّ الَّذِي قَامَ بِهِ، لَا يَهُمُّهُ بقاؤه هُوَ، أَوْ مَمَاتُهُ إِذَا كَانَ يَدْعُو إِلَى اللهِ، أَمَّا مَنْ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ -وَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعِيذَنا مِنْ ذَلِكَ جَمِيعًا- نَجِدُه يَقُولُ إِذَا أُوذِيَ، أَوْ أَصَابَهُ ضَرَرٌ: أَنَا مَا انتصرتُ.

وَلَكِنْ مَنْ يَدْعُو إِلَى اللهِ لَا يَشْغَلُهُ إِلَّا أَنْ تنتصر الدعوة، ولهذا فإنه يُقاتِل مِنْ أَجْلِهَا. لا بُدَّ مِنْ نَصْرِ الحَقِّ بأسبابه، فإذا أَعْيَتْكَ الأُمور جاء النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللهِ بلا سبب.

لكنك مأمورٌ بِسُلُوكِ طريقٍ مُعَيَّنٍ حَتَّى تُنْصَرَ، وَقَدْ لَا تَنَالُ النصرَ بسبب مخالفتك لهذا الطريق، وتقصيرك فيه، فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ حَسُنت نِيَّتُه حَسُنَ فِعْلُه ونُصِر.

فالأمر هنا يختلف، ومَسائِل هَذَا الْبَابِ مِن أَدَقِّ المَسائِل، وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عنها كثيرًا.

فَلَا يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ كالكُرة فِي يَدِ غَيْرِهِ، يُقَلِّبُه كَيْفَ يَشَاءُ، أو تذهب به ريحٌ عاصفةٌ بعيدًا جدًّا، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُتَّزِنًا، لا مُتَهَوِّرًا، فإذا تَهَوَّرَ، ثم خالفه النصر، فالبلاء مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بيانُ فضائلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ومَناقِبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ لقوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾.

وهنا قد يُشْكِلُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنَّ اللهَ تعالى يَقُولُ ذَلِكَ، وفي آيات كثيرة يَذُمُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيَّنَ السَّبَبَ فِي جَعْلِ هؤُلاءِ أئمةً، فَقَالَ تعالى فِي سُورَةِ السَّجْدَةِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]، فحينما كانوا مُتَّصِفِينَ بهذين الوصفين: الصَّبْر واليَقِين، كانوا أئمةً، وَقَدْ أَخَذَ شيخُ الْإِسْلَامِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ جملةً، فقال[1]: «بالصَّبْر واليَقِين تُنال الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ».

لَكِنْ لَمَّا تخلَّف الصَّبْرُ، وتَخَلَّف اليَقِينُ منهم، صاروا ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة:٦٥]، وجاءت الْآيَاتُ فِي ذَمِّهم، فالآياتُ لا يُكذِّب بَعْضُهَا بَعْضًا، ولكن هناك أشياءُ تُوجِب تَخَلُّفَ أحكام بعض الآياتِ لِتَخَلُّفِ السبب.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِذَا اسْتَوْلَوْا على بلاد الكُفَّار مَلَكُوها، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، والوارثُ يَمْلِكُ مَا وَرِثَ، فَهُمُ الَّذِينَ يجعلهم اللهُ الْوَارِثِينَ، وَلِهَذَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: إِنَّ الأراضي تُملك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الأراضي لَيْسَتْ مِنَ الْغَنَائِمِ المحضة، فَاللهُ تعالى يَقُولُ: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، مَعَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يقول: «أُحِلَّتْ لِيَ المَغَانِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي»[2].

---

(١) قاعدة في الصَّبْر، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٩٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، بابٌ رقم (٣٣٥)، مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، رقم (٥٢١).

انظروا هذا التَّقرير هُوَ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ اللهَ تعالى وَرَّث بَنِي إِسْرَائِيلَ أَرْضَ بَنِي فِرْعَونَ وأموالَهم، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء:٥٧-٥٩].

فلو ادَّعى أحدُهم أَنَّ اللهَ أخرجَ آلَ فِرْعَوْنَ مِنْ أَرْضِهِمْ، وجعلها مَغْنَمًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وهذا مُعارِضٌ لحديث الرَّسُول، فكيف نُجيب عنه؟

نقول: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يأخذوها بَعْدَ قِتَالٍ، فالغنيمةُ معروفة، إنما أُخِذَتْ عَنْ طَرِيقِ قتال الأعداء، ولكن هَؤُلَاءِ مَا وَرِثُوها بالقتال، بل بِقُوَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الَّتِي لَيْسَ لَهُمْ إِلَيْهَا سَبِيل، فالأراضي والمساكن والكُنوز الَّتِي أَخَذَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَا تُعَدُّ مِنَ الْغَنَائِمِ، بَلْ هِيَ مِن وَهْب اللهِ لَهُمْ بلا قتال.

وَعَلَى هَذَا فَلَا تَعَارُضَ بين الْآيَةِ وَبَيْنَ قولِ الرَّسُولِ ﷺ: «أُحِلَّتْ لِيَ المَغَانِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي».

وَلَكِن هَـذَا لَا يَنْفِي أَنَّ الغنائم كَانَـتْ مَوْجُودَةً فِي المَاضِي، لَكِنَّ اللهَ لَمْ يُحِلَّهَا للمقاتلين، بَلْ كَانَت تَنْزِلُ نَارٌ مِنَ السَّمَـاءِ تحرقها، وَإِنْ كَانَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْغُلُولِ فَلَا تنزل النار.

والحِكْمَة مِن إحراق الغنائم هي قطعُ التَّعَلُّقِ بِهَا نهائيًّا؛ لِأَنَّهَا لَوْ بَقِيَتْ لَتَدَاوَلَهَا النَّاسُ بالبَيْع والشِّراء والانْتِفاع، وصار مِلكًا لهم.

وَمِنَ المَعْرُوفِ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَمُدُّ الأُمة بأشياءَ تستعين بِهَا فِي حَيَاتِهَا؛ فهو يَمُدُّ الإِنْسَان عامَّة بأشياءَ مُعَيَّنة لِأَجْلِ أَنْ يَصِلَ إِلَى الفَضِيلَة.

فالنَّبي ﷺ يستغفر ربه، مَعَ أَنَّ اللهَ قد غَفَرَ له ما تقدَّم مِن ذَنْبِه، وما تأخر، ونحن مأمورون بأن نُصَلِّيَ عليه، واللهُ تعالى يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٦]، فلا يلزم مِن الوُصول إلى الكمال ألَّا يسعى الإِنْسَانُ بأسبابِه.

ولو قال قائلٌ: كيف تَحِلُّ لنا الغنائم ونحنُ أفضلُ الأُمَمِ؟ لماذا لا يُوكَلُ الْأَمْرُ إِلَى مَناقِبنا وفضائلنا؟

فنقول له: هذا مِن نِعْمَة الله علينا، لا لأن نَصِلَ إلى درجة الكمال، ولكنه أَحَلَّ هَذِهِ المَغَانِم حتى نستعين بها.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تمكينُ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ مِنْ نِعْمَةِ الله عليه؛ لقوله: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القَصَص:٦]، لأن هَذَا مِن جُملة ما أنعم به على بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ أَنْ مَكَّنَهُم فِي الْأَرْضِ، فكونُ الإِنْسَان يُمَكَّن له فِي الْأَرْضِ، سواء كان هذا التمكين عَنْ طَرِيقِ سُلطة السُّلطان، أَوْ عَنْ طَرِيقِ سُلطة القُرْآن.

والتَّمكين فِي الْأَرْضِ ليس معناه أن الإِنْسَان يَحكم النَّاس؛ ليكون سلطانًا عليهم، لا، بل قد يكون التَّمكين للإنسان فِي الْأَرْضِ بتمكين قوله؛ حتى يكون له سُلطان على المُؤمِنينَ.

ولنأخُذْ شيخ الإِسْلام ابن تَيمِيَّة مثلًا، فَقَدْ مَكَّنَ اللهُ لَهُ فِي الْأَرْضِ أعظمَ مِن تمكين الوُلاة أنفسهم، فتمكينُ الوُلاة قد انقضى بِمَوْتِهم، أما ابن تَيمِيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَقَدْ مَكَّن الله له بأنْ جَعَلَ قولَهُ مُعْتَبَرًا بَيْنَ النَّاس، وما زالت أقوالُه باقيةً حتى الآن.

فقَوْلُ مَن قام بالحقِّ لَهُ سُلْطَانٌ وقُوة، وهذا أيضًا جاء به الحديث، بأن اللهَ تعالى كما أخبر رسول اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا

فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»(١).

أي: يَكُونُ لَهُ قَبُولٌ فِي الْأَرْضِ، ولقوله نَفَاذٌ، وَهَذَا مِنْ تمكين اللهِ تعالى فِي الْأَرْضِ، لكن قوله: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ﴾ هَذَا مِن جُملة الأمثلة على قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن فِرْعَون وقومَه كانوا يَحْذَرون مِنْ بَنِي إسرائيل، فأراهم اللهُ تعالى ما كانوا يحذرون.

وهنا إشكال، وهو: كيف أراهم اللهُ تعالى مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ مَعَ أَنَّهُمْ هَلَكُوا؟

والجواب: أنهم أدركوا ذلك في آخِر لَحَظَاتِ حياتهم، وقَبْلَ خُروج الروح، وذلك ظاهِرٌ في قولِ فِرْعَونَ عندما أدركه الغَرَقُ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩٠].

وبعضهم قال فِي قَوْلِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ [القَصَص:٦]: ليس المرادُ الهلاكَ، بل المرادُ بما كَانُوا يَحْذَرُونَ مُنازعة آل فِرْعَون؛ فإن بَنِي إِسْرَائِيلَ لما بُعِث موسى اسْتَقْوَوْا، وقصة السَّحَرَةِ واضحةٌ فيها، لما اجتمعوا واجتمع النَّاس في يومِ عيدِهم، وفي الضحى في رَابِعَةِ النهار، وصارت الهزيمة على آلِ فِرْعَوْنَ، هزيمة حِسِّية ومعنوية: هُزِمُوا حِسًّا بأنَّ عَصَا موسى ﷺ جَعَلَتْ تَلْقَفُ ما يأفِكُون، وهُزموا معنًى بأنَّ السحرةَ أنفُسَهُم آمنوا، وصَرَّحُوا للملأ بأنَّ فِرْعَونَ هو الذي أَكْرَهَهُم على السِّحْر، وبَيَّنوا أن الرب الحقيقيَّ هو رَبُّ موسى وهارون سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهذه هزيمةٌ معنوية، بالإضافة إلى الهزيمة الحِسِّيَّة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل، ونداء الله الملائكة، رقم (٧٠٤٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدًا حببه لعباده، رقم (٢٦٣٧).

وهذا ما غاظَ فِرْعَونَ وهامانَ وجُنودَهما، وهذ آيةٌ عظيمة، فظُهور بَنِي إِسْرَائِيلَ على آلِ فِرْعَوْنَ في ذلك المجمع العظيم كان له أكبرُ الأثر، فَقَدْ وعَدَهُم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن يَتَحَدَّاهُم يومَ الزِّينة: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه:٥٩]، و﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ هو يوم العيد، يتزين النَّاس فيه، ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه:٥٩]، يُجمَعون في رابعة النهار.

نعم، هذا الموعدُ اقترحَهُ موسى؛ لأنَّهُ واثقٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنَّ اللهَ سينصُره، وحَصَلَ هذا الاجتماعُ فِي هَذَا اليوم، وصار فِي الْحَقِيقَةِ يومَ عيدٍ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، ويومَ شَرٍّ وسُوءٍ لِفِرْعَون، وهو نظيرُ ما قاله أبو جهلٍ بَعْدَ ذَلِكَ قَبْلَ غزوةِ بَدْرٍ: «وَاللهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَأْتِيَ بَدْرًا -وَكَانَتْ بَدْرٌ سُوقًا مِنْ أَسْوَاقِ الْعَرَبِ- فَنُقِيمَ بِهَا ثَلَاثًا، فَنُطْعِمَ بِهَا الطَّعَامَ، وَنَنْحَرَ بِهَا الْجُزُرَ، وَنَسْقِيَ بِهَا الْخَمْرَ، وَتَعْزِفَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ، وَتَسْمَعَ بِنَا الْعَرَبُ، وَبِمَسِيرِنَا فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا بَعْدَهَا أَبَدًا»[1].

ولقد تحقق ذلك بالفعل، وسَمِعَت العربُ بما حَدَث في غزوة بَدر، ولكن انقلب الأمرُ عليهم، فما غَنَّتِ لهمُ القِيانُ، ولكن غَنَّت عليهم! فقد ظهر عَوَارُهم وجَبَرُوتُهم، حتى أَعَزَّ اللهُ الإِسْلام والمسلمين بعددهم.

نعود لِقِصَّة موسى مع فِرْعَونَ، قَالَ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء:٥٦]، نعم، لقد حصل ما كان يَحْذَرُ فِرْعَونُ وآلُه؛ وجعل اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أئمة.

ومِن المُفيد أن نذكُر أنَّ الجَعْل له مَعانٍ متعددةٌ، وكلُّ معانيه تعود إلى التصيير فِي الْحَقيقة، لكن التصيير هو تصيير المعدوم موجودًا.

• • ❁ • •

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٣).

الآيــة (٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القَصص:٧].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ وَحْيَ إِلْهَامٍ أَوْ مَنَامٍ ﴿إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ وَهُوَ المَوْلُودُ المَذْكُورُ، وَلَمْ يَشْعُر بِوِلَادَتِهِ غَيْرُ أُخْتِهِ ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ الْبَحْرُ أَيِ النِّيلُ ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ غَرَقَهُ ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ لِفِرَاقِهِ ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فَأَرْضَعَتْهُ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ لَا يَبْكِي، وَخَافَتْ عَلَيْهِ، فَوَضَعَتْهُ فِي تَابُوتٍ مَطْلِيٍّ بِالْقَارِ مِنَ الدَّاخِلِ، مُمَهَّدٍ لَهُ فِيهِ، وَأَغْلَقَتْهُ وَأَلْقَتْهُ فِي بَحْرِ النِّيلِ لَيْلًا].

قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾: الوحيُ في اللغة: الإعلامُ بسرعةٍ وخفاءٍ، ودليلُه قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١]، ويُطلَق على مَعانٍ متعددة؛ منها:

الوحيُ الشرعي: وهو وحيُ النُّبوة، أو الرِّسالَة.

ووحيُ الإلهام: وهو ما يُعطيه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي نفس الموحَى إليه.

ووحيُ النوم، فإن الرؤيةَ الصَّالِحَةَ جُزء مِن سِتة وأربعين جزءًا مِن النُّبوة[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التعبير، باب: الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، رقم (٦٥٨٨).

فإذا نظرنا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ فهنا وحيٌ، ولكن وحيُ النُّبُوَّةِ، أَوِ الرِّسالَة خيرٌ منه؛ لأن الذي أُوحي إليها ليس بِشَرْعٍ، بل هو أمرٌ بإرضاعِ موسى، إلى آخِره.

ثم إِنَّ الصحيحَ أنه لم تُبعث واحدةٌ مِن النساء لتكون نبيًّا، قَالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف:١٠٩].

إذن: يكون الوحيُ هنا إمَّا إلهامًا، وإما مَنامًا، فالإلهام لَيْسَ بِشَيْءٍ غريب أَنْ تُلهَم امرأةٌ مَا يَكُونُ فِي مصلحتها، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَلْهَمَ النحلَ كما يُلْهِم بَنِي آدَمَ مَا فِيهِ مصلحتُه ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل:٦٨].

وَلِهَذَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ وحيَ إلهام، أو منام. فقولُه: أو هنا للتنويع، يعني لبيان الْخِلَافِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، فَإِنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ: إِنَّ الوحيَ وحيُ إلهامٍ. وبعضهم يقول: إِنَّ الوحيَ وحيُ منام.

والمهم: أَنَّهُ لَيْسَ وحيَ رسالةٍ، أو نُبُوَّة.

وكنا قَدْ تَكَلَّمْنَا عَنِ الْوَحْيِ، وَقُلْنَا إِنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أنواع:

الْأَوَّلُ: الوحي بالشرع، ويكون إطلاقًا، مِثل وحي الأنبياء، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [النساء:١٦٣].

الثَّاني: الوحيُ بالإلهام، مِثْلُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل:٦٨].

الثالث: الوحي بالمنام، كَمَا يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**».

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القَصَص:٧]، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الوحيُ هُنَا مِنَ النوعين الثَّانِي وَالثَّالِثِ، أي الوحي بالإلهام، أو الوحي بالمنام.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القَصَص:٧]، يعني: التي ولَدَتْه، وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي الْأُمِّ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة:٢].

وَأَمَّا الْأُمُّ مِنَ الرَّضَاعَةِ، فلا تُذْكَرُ مُطلقةً، وإنما تُذْكَرُ مُقَيَّدَةً، وَلِهَذَا قَالَ تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء:٢٣]، ثُمَّ قَالَ تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء:٢٣]، فالأُم مِنَ الرَّضَاعَةِ لَا تَدْخُلُ فِي مُطْلَقِ الأُم، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تكُونَ مُقَيَّدَةً.

وإنما قررتُ هذا؛ لِيَتَبَيَّن أنَّ قَوْلَهُ تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ [النساء:٢٣]، المُرَادُ بِهَا الْأُمُّ الَّتِي وَلدت، وليس الْأُمَّ الَّتِي تُرْضِع.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾، وهو المولود المذكور، ولم يَشْعُر بولادته غيرُ أُخْتِه].

ونحن هنا نسأل: أين المولودُ المذكور؟ المولودُ المَذْكُورُ هُوَ موسى؛ لِأَنَّهُ مَا مِنْ أُمٍّ إلا ولها ولدٌ، فقوله: [ولم يَشْعُر بولادته غيرُ أُخْتِه]. هَذَا مِنَ الْأَقْوَالِ الإسرائيلية الَّتِي لَا تُصَدَّقُ، ولا تُكَذَّب، فَنَحْنُ لَا نَملِك دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ إِلَّا أُمُّه.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾: ﴿أَنْ﴾ هَذِهِ تَفْسِيرِيَّة، وضابط التَفْسِيرِيَّة: الَّتِي تَقَعُ بَعْدَ مَا فِيهِ مَعْنَى الْقَوْلِ دُونَ حُروفِه، فكل (أَنْ) إِذَا وَقَعَتْ بَعْدَ مَا فِيهِ مَعْنَى الْقَوْلِ دُونَ حُروفه، فهي تَفْسِيرِيَّة. كَمَا فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون:٢٧].

قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ هنا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هناك خَوْفًا مِن فِرْعَونَ وآله، الَّذِينَ كَانُوا يبحثون عن الأولاد ليَقْتُلُوهم، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾، فَسَّرَهُ بقوله: البَحر. ثُمَّ فَسَّرَ البَحر بقوله: أي النِّيل. فاليمُّ هو البحر، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ﴾ [القَصَص:٤٠]، واليمُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ البَحر، ولكن اليَمُّ المُرَادُ فِي الْآيَةِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا هو النِّيل، وسُمِّيَ بَحْرًا -وَإِنْ كَانَ نهرًا- لِكَثْرَتِه واتِّسَاعِه.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي﴾، قوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ﴾ هَذَا فِعْلُ الشرط، وجوابُ الشرط: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾، وَهُوَ مِنَ الغرائب، أَنْ يُلْقَى مَن يُخَافُ عَلَيْهِ فِيمَا فِيهِ هَلَاكُهُ؛ لأن إلقاءه فِي الْبَحْرِ معناه استعجالُ الهلاكِ له؛ فمِن المعروف أَنَّهُ يَمُوتُ إِذَا أُلْقِيَ فِي الْبَحْرِ، وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ أَنْ يُلْقَى مُوسَى فِي مَكَانِ الخوف، فلا يموت، ثم يعيش بين أحضان فِرْعَون، الَّذِي كَانَ يتتبع أَوْلَادَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فيُقَتِّل أبناءَهم، ويستحيي نساءَهم، وَهَذَا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّ اللهَ إِذَا حَمَى أحدًا، فإن الأَسْباب المُؤَدِّيَةَ إِلَى الْهَلَاكِ لَا تُؤَثِّرُ، وَلَا يَكُونُ لَهَا تَأْثِيرٌ، وأَمَّا قُدْرَةُ اللهِ فَهِيَ فوق الأَسْباب، فالنار مُحْرِقة بلا شكٍّ، ولكن صَارَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ بَرْدًا وَسَلَامًا.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿تَخَافِي﴾ غرقَهُ. وَهُوَ مَفْعُولٌ محذوفٌ مُقَدَّر للفِعل ﴿تَخَافِي﴾.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ قال: [لِفِرَاقِه]؛ لأن الحزن يَكُونُ فِي المَاضِي، وَالْخَوْفَ فِي المُسْتَقْبِلِ، فما أَهَمَّ الإِنْسَانَ إِذَا كَانَ مستقبلًا، فهو خوفٌ، وَإِنْ كَانَ ماضيًا فهو حُزن، فهنا قَالَ اللهُ لَهَا: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ سيكون عَلَى خِلَافِ مَا

تتوقعين، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قَوْله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ﴾ هنا جاءت الجُملة اسميَّةً، وليس فِعلِيَّة، كَأَنْ يَقُولَ مثلًا: نردُّه. والجملة الاسمية تَدُلُّ عَلَى الثُّبوت والاستقرار.

وقوله: ﴿إِنَّا﴾ بضميرِ الجَمع للتعظيم، فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُخْبِرُ عَنْ نَفْسِهِ بصيغة التعظيم.

وَقَوْلُهُ: ﴿رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ أي: مُرْجِعُوه، ولا يُبَيِّنُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ المُدَّةَ الَّتِي ستفقدُه أُمُّه فيها، ولكن الظَّاهر أَنَّهَا لَيْسَتْ بِبَعِيدَة، كَمَا سَيَأْتِي فِي آخِرِ الْقِصَّةِ.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هَذِهِ بِشارةٌ فوقَ البِشَارَة الأُولى، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ هَذَا المولود ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: ممن أرسلهم اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وأفضلهم بالرِّسالَة.

وهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا أَمْرَانِ، ونَهْيَان، وبِشَارَتَان.

أَمَّا الأمران: فقولُه تعالى: ﴿أَرْضِعِيهِ﴾ وقوله: ﴿فَأَلْقِيهِ﴾.

وَأَمَّا النَّهْيَانِ: فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾.

وأما البِشَارَتَان: فقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ثُمَّ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَأَرْضَعَتْهُ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ لَا يَبْكِي، وَخَافَتْ عَلَيْهِ، فَوَضَعَتْهُ فِي تَابُوتٍ مَطْلِيٍّ بِالقَارِ مِنْ دَاخِلٍ مُمَهَّدٍ، وَأَغْلَقَتْهُ، وَأَلْقَتْهُ فِي بَحْرِ النِّيلِ لَيْلًا].

قوله: [أَرْضَعَتْهُ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ]. لَا نَجِدَ فِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، ولكنها -لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ- امتثلت لِأَمْرِ اللهِ بإرضاعه، ولما خَافَتْ عَلَيْهِ ألقته.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَوَضَعَتْهُ فِي تَابُوتٍ]، أَخَذَهُ مِنْ آيَةٍ أخرى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ [طه:٣٩]، وَهَذَا مِنْ إرشاد اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى له؛ لِأَنَّهُ مَا أَمَرَهَا أَنْ تُلْقِيَه وتُسَلِّم فِي الْبَحْرِ، وإنما أَمَرَهَا أَنْ تُلْقِيَه في تابوت؛ ليكون حفظًا له.

والتابوت يَكُونُ مِنَ الْخَشَبِ، والخشبُ عادةً يَطْفُو عَلَى المَاءِ، وَلَا يَغْرَقَ، فإذا جُعِل فيه القارُ، فإنه أيضًا يَمْنَعُ مِنْ دُخُولِ الماء إليه؛ لِأَنَّهُ رُبَّمَا إِذَا دَخَلَ الماء إليه، وتسلل فِي الْخَشَبَ، يَثْقُلُ ثم يغُوص.

وَأَمَّا قَوْلُه: [وَأَلْقَتْهُ فِي بَحْرِ النِّيلِ لَيْلًا] ربما يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القَصَص:١٠]، أنها ألقته فِي اللَّيْلِ، ثم جعلت توسوس فيه، وتَهْتَمُّ له، حَتَّى كَانَت لا تُفَكِّر فِي غَيْرِهِ، كَمَا سَيَأْتِي.

ثُمَّ إِنَّهُ مِمَّا يؤيد ذَلِكَ أَنَّ المَرْأَةَ قد خَافَتْ عَلَيْهِ، وإذا خَافَتْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مِنَ المستبعد عَادَةً أَنْ تَخْرُجَ به نهارًا، وتُلقيه أمامَ النَّاس، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَيْلًا، فَيَكُونُ هَذَا الْحُكْمُ بِأَنَّهُ (ليلًا) مَأْخُوذًا مِنَ الْآيَةِ، وَمِنَ العادة، بِأَنَّ هَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا فِي اللَّيْلِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى إكرام اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأُم موسى، وهذا الإكرامُ يُفْهَمُ مِن عِدَّة أوجُه حقيقةً، يُفْهَمُ مِنَ الْوَحْيِ والإلهام، ومِن تَطْمِينِها فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾، ومِن بِشارتها بأنه سيُرَدُّ إليها، ويجعله اللهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِيهَا بَيَانُ عناية اللهِ تعالى بموسى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الأنبياءَ كغيرهم مِنَ الْبَشَرِ، يَحْتَاجُونَ إِلَى الغِذاء؛ لقوله ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وجوب الإِرضَاع، إذا جعلنا الْأَمْرَ لِلْوُجُوبِ، لا للإرشـاد، ولكن القَواعِد الشرعية تَقْتَضِي وُجُوبَ الإرضاعِ، وإنقاذَ المعصوم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيانُ قُوَّةِ إيمان أُمِّ مُوسَى، وَهَذَا مِنْ مَناقبها؛ لأنَّها ألقت بِهِ فِي الْيَمِ، وهو ابنها، وهذا شَيْءٌ لَا يَقَعُ إِلَّا للمؤمن حقًّا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيان قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي هَذَا الْوَلَدِ الصغير، الذي أُلْقِيَ فِي الْيَمِّ الْمُهْلِك، ولا حَافِظَ لَهُ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، كيف صار في آخِرِ أَمْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي طَمْأَنة المحـزونِ ببشارَته بمسـتقبله؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات الرِّسالَة لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

• ● ۞ ● •

الآيـة (٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾ [القَصَص:٨].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾ بِالتَّابُوتِ صَبِيحَةَ اللَّيْلِ ﴿ءَالُ﴾ أَعْوَانُ ﴿فِرْعَوْنَ﴾ فَوَضَعُوهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَفُتِحَ، وَأُخْرِجَ مُوسَى مِنْهُ وَهُوَ يَمُصُّ مِنْ إِبْهَامِهِ لَبَنًا ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ﴾ فِي عَاقِبَةِ الْأَمْرِ ﴿عَدُوًّا﴾ يَقْتُلُ رِجَالَهُمْ ﴿وَحَزَنًا﴾ يَسْتَعْبِدُ نِسَاءَهُمْ وَفِي قِرَاءَةٍ بِضَمِّ الْحَاءِ، وَسُكُونِ الزَّاي لُغَتَانِ فِي المَصْدَرِ، وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ مِنْ حَزَّنَهُ كَأَحْزَنَهُ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ﴾ وَزِيرَهُ ﴿وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾ مِنَ الْخَطِيئَةِ، أَيْ عَاصِينَ، فَعُوقِبُوا عَلَى يَدَيْهِ].

قوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾، أي: أخذَ آلُ فِرْعَوْنَ التابوتَ صبيحة الليل، وَلَمْ يَقُلْ (أخذه)؛ لأَنَّهُ أَصْبَحَ فِي حُكْمِ اللَّقِيط المنبوذِ، وَأَهْلُ الْعِلْمِ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّقِيطَ هُوَ الطِّفل المنبوذ الذي طُرح، فهو يُسمى لقيطًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾.

وقوله: ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [آلُهُ أَيْ: أَعْوَانُهُ]، فَيَحْتَمِلُ أَنَّ آلَه أي: قَرَابَته.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: المهم أَنَّهُ أَخَذَهُ مَن يَنْتَسِبُ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَهُوَ المَلِكُ.

والالتقاط يَكُونُ بِقَصْدٍ؛ لأن المُلتَقِط الذي يَلْتَقِطُ اللَّقِيط المنبوذ مَثَلًا فِي

الشارع، أَوِ المَسْجِدِ، يريد أَخْذَه، لكن هناك قد يشعر بأنه شيء ظَفَرَ بِهِ، لكن العلماء يقولون: الالتقاط يَكُونُ فِي الطفل المنبوذ. فوَضَعَهُ آلُ فِرْعَوْنَ بَيْنَ يَدَيِ فِرْعَون، وَكَانُوا لَا يَشْعُرُونَ بالذي فيه، وربما يظنون أَنَّ الَّذِي فِيهِ مَالٌ مِنَ الأموال.

وفُتح التابوتُ، [وَأُخْرِجَ مُوسَى مِنْهُ وَهُوَ يَمُصُّ مِنْ إِبْهَامِهِ لَبَنًا] معناه: يُرضِع نَفْسَهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَهَذَا مِمَّا لَا نَعْلَمُهُ، لكن مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ التابوتَ فُتِح كالعادة؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ المُغْلَقَ لَا بُدَّ أَنْ يفتحه الْإِنْسَانُ، وَيَنْظُرَ مَا فِيهِ، وَأَمَّا كَوْنُهُ يَمُصُّ مِن إبهامه لَبَنًا، فَهَذَا مِنَ الْأُمُورِ الإسرائيلية الَّتِي لَا تُصَدَّقُ، ولا تُكَذَّب، إِنْ لَمْ نَقُلْ: إنها كاذبة؛ لِأَنَّ هَذَا بَعِيدٌ مِنَ الْعَادَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ﴾ فِي عَاقِبَةِ الأمر، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ ﴿لِيَكُونَ﴾ يَعُودُ عَلَى مُوسَى، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿لَهُمْ﴾ يَعُودُ عَلَى آلِ فِرْعَوْنَ، وَيَدْخُلُ فِي آلِ فِرْعَوْنَ نَفْسِه.

وقولُه ﴿لِيَكُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي عَاقِبَةِ الأَمْرِ] إِشَارَةً إِلَى أَنَّ اللامَ هنا للعَاقِبَةِ، وليست للتَّعلِيل؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ شَعَرُوا بأنه يَكُونُ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا لَقَتَلُوه، ولكن العاقبة أَنَّهُ كَانَ كَذَلِكَ.

وما ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنْ أَنَّ اللامَ هنا للتَّعلِيل، باعتبار عِلْمِ اللهِ، لَهُ وَجْهٌ، يعني: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فِي عِلْمِ اللهِ، وليست تعليلًا للالتقاط، هَذَا لَهُ وَجْهٌ، لكن الأقربُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ المُفَسِّر وَغَيْرُهُ مِنْ أن اللام هنا للعاقِبة، وليست للتَّعلِيل.

واللام الَّتِي تَدْخُلُ عَلَى الْفِعْلِ المضارع تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: زائدة، وغير زائدة.

اللَّام الزَّائِدة تكون للتَّعلِيل، وتكون للعاقبة، وتكون لتأكيد النفي، وَهَذَا لَيْسَ

لغير الزَّائِدة، والزَّائِدة هِيَ الَّتِي تَقَعُ فِي الْغَالِبِ بَعْدَ فِعْلِ الإرادة، مِثْلَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:٢٦]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ [الأحزاب:٣٣]، فَإِنَّ اللَّامَ هنا زائدة؛ لِأَنَّك لَوْ حذفتَها وقَدَّرْتَ (أَنْ) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُذهب، تَمَّ الكلام.

واللام غير الزَّائِدة تكون للتَّعلِيل، مِثل قولك: حَضَرْتُ لأتَعَلَّم، أي: مِنْ أَجْلِ أَنْ أتعلَّم، وتكون لتأكيد النفي، مِثْلَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٣٧]، ولهذا يُسَمِّيها النحويون لامَ الجُحُود، يعني: النفي، فهي لتأكيد النفي.

والثالثة تكون للعاقبة، مِثْل هَذِهِ الْآيَةِ ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ بَعْدَ (كان) مضارعًا كانت، أَوْ فِعْلًا ماضيًا.

وَقَوْلُهُ: [﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ يَقتُل رِجالَهُمْ، ﴿وَحَزَنًا﴾ يَسْتَعْبِدُ نِسَاءَهُمْ]، هَذَا فِيهِ نَظَرٌ، بل الظَّاهِرُ أَنَّهُ ﴿عَدُوًّا﴾؛ لِمَا يَحْصُلُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الأضرار البالغة لآل فِرْعَون، ﴿وَحَزَنًا﴾ لأَنَّهُ سوف يُحزنهم حين يَظْهَرُ لَهُ مِنَ الانتصار العظيم، وأَبْلَغُها حين انتصر يومَ الزينة؛ فإنه انتصر عليهم انتصارًا بالغًا باهرًا، وحصل لهم بِهَذَا مِنَ الحُزن مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ مُوسَى ﷺ قَتَل رجال آلِ فِرْعَوْنَ، وَلَا أَنَّهُ استعبد نساءهم، وإنما المَعْرُوفُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أغرقهم بفعله، [وَفِي قِرَاءَةٍ بِضَمِّ الْحَاءِ وَسُكُونِ الزَّايِ لُغَتَانِ فِي المَصْدَرِ، وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ مِنْ حَزَنَهُ كَأَحْزَنَهُ]، إِذَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيه قراءة. فهو يعني: سَبْعِيَّة، وَإِذَا قَالَ قُرِئَ، فهو يعني قِرَاءَةٌ شَاذَّةٌ.

قال: [بِضَمِّ الْحَاءِ وَسُكُونِ الزَّايِ] «لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وحُزْنًا»، حُزْنًا وحَزَنًا

معناهما واحِدٌ، وهما لُغتان في المصدر، يقول: حَزَنَه كأحْزَنهُ. يعني: أن الحَزن الَّذِي لَيْسَ مزيدًا بالهمزة مِثل: أَحْزَنَه المزيد بالهمزة مِنْ حِيْثُ التَّعَدُّد.

وقوله: [بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ هُنَا] أي: حازِن، أي: مُحزِن، وقد أوَّله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَى هَذَا؛ لأن الحُزن شُعور بالنَّقْصِ، وموسى ﷺ مُدْخِل لهذا الشعور -وهو الْحُزْنُ- فِي أَنْفُسِهِمْ، وَعَلَى هَذَا فيكون ﴿وَحَزَنًا﴾ بمعنى: حازنًا.

والمصدر أحيانًا يَأْتِي بِمَعْنَى اسم الفاعل، وأحيانًا بمعنى اسم المفعول، فيقال: فلانٌ عَدْلٌ رِضًى، ويقال أيضًا: فلانٌ ثِقَةٌ. وعَدْلٌ، ورِضًى، وثِقَةٌ مصادرُ بمعنى اسم الفاعل: عادل، وهو اسم فاعل، ومَرْضِيٌّ، وموثوق، وكلاهما اسم مفعول.

وقوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1]، هذا مصدر بمعنى اسم مَفْعُول.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، الْعَدُوُّ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ حَدُّوه بتعريف، هُوَ الْحُكْمُ في الواقع، فقالوا: إِنَّ الْعَدُوَّ مَنْ سَرَّهُ مَساءة شخصٍ، أو غَمَّه فَرَحُه، فهو عَدُوُّه.

كُلُّ إِنْسَانٍ يَسُرُّه أَنْ تُسَاءَ، ويَحْزُنه أَنْ تُسَرَّ؛ فهو عَدُوٌّ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَسُرُّه أَنْ تُسَرَّ، ويُحزنه أن تَحْزَن؛ فَهُوَ وَلِيٌّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ هَذِهِ الجملة تعليلٌ لقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ كَأَنَّهُ قِيلَ: لماذا يكون ﴿لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾؟ فتبيَّنَ أَنَّ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ هُوَ خَطَأُ هؤُلاءِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

﴿فِرْعَوْنَ﴾: المَلِك، ﴿وَهَامَانَ﴾: وَزِيرُه، ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾: أتباعهما الَّذِينَ يَمْتَثِلُونَ بأَمْرِهِما، وكلمة جنود: جمع جُند، والجُند هم أنصار الإِنْسَان.

قوله تعالى: ﴿كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ مِن الخطيئة، أي: عاصين، فعُوقبوا عَلَى يَدَيْهِ.

وهناك فرقٌ بين الخاطئ والمخطئ؛ فالخاطئ -مثلًا- مَنْ قَتَلَ مُتَعَمِّدًا، أَمَّا مَنْ قَتَلَ غَيْرَ مُتَعَمِّد فَهُوَ مُخْطِئٌ، ولذلك فإن الخاطئ مُعذَّب، والمخطئ غير مُعذَّب، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق:١٦].

والمخطئ لَيْسَ عَلَيْهِ إِثْمٌ، قَالَ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، والفعل مِن خاطئ: خَطِئَ، والفعل مِن مُخطئ: أخطأ. هَذَا هُوَ الْفَرْقُ.

إذن: قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خَاطِئِينَ﴾ أي: وَاقِعَيْنِ فِي الْخَطَأ عَن عَمْدٍ وقَصْد، وَلِهَذَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ: عَاصِينَ فَعُوقِبُوا عَلَى يَدَيْهِ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ أَتْبَاعَ الرَّجُلِ وحاشيتَه مِن آلِه؛ لقوله: ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ وقد علمنا أن المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ: [أعوانُ فِرْعَون].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا بَلَغَ فِي العُتُوِّ والاستِكْبار، فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ المستقبَل، وهذا مَأْخُوذٌ مِنْ أَنَّ آلَ فِرْعَوْنَ مَا عَلِمُوا أَنَّ هَذَا الطفل سيكون عَدُوًّا لهم وحَزَنًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ أعداءٌ للكُفَّار؛ لقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾، وأنهم أيضًا حَزَنٌ لهم، وَهَذَا أَمْرٌ ظَاهِرٌ.

وَلَا شَكَّ أنهم يُساءون بما يَسُرُّهم، والعكس صحيح.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يسعى لِمَا فِيهِ حَتْفُه؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ سَعَوْا فِيمَا فِيهِ حَتْفُهم؛ فَقَدِ التقطُوا هذا الطِّفْلَ الَّذِي سيكون عَدُوًّا لهم وحَزَنًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيان قُدْرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي هَذَا الطفل الصَّغِيرِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ كَانُوا يُقَتِّلُ أبناؤهم، أَرَادَ اللهُ بِقُدْرَتِه أَنَّ الذي يُؤوِيه ويُرَبِّيه فِي بَيْتِهِ هو فِرْعَونُ نَفْسُه، الَّذِي أَمَرَ بِالْبَحْثِ عَنِ الأولاد مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ليقتُلهم.

فكأن اللهَ تعالى يَقُولُ لَهُ: أنت تقتُل الأولادَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وقد أرسلتُ لك وَاحِدًا مِنْهُمْ، فعاشَ في حِجْرِك.

وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ الأدلة على قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى الْأَسْبَابِ الماديَّة، فإن اللهَ تعالى يُغَيِّرُ الأحوال.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيَانُ أَنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا عَلَى باطل؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾، وَفَرْقٌ بَيْنَ الخاطئ والمخطئ، فالخاطئ: الذي يرتكب المعصية عَنْ عَمْدٍ، والمخطئ: الذي يرتكبها عَنْ غَيْرِ عَمْد، أَوْ عَنْ جَهْلٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَامَانَ -وَهُوَ وزير فِرْعَون- سُلطة كبيرة فِي مَمْلَكَةِ فِرْعَونَ؛ لقوله: ﴿وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ ففي عدة آياتٍ يُضيف اللهُ عَزَّوَجَلَّ الجنودَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَحْدَه، باعتبار أن فِرْعَون هُوَ المَلِكُ، ولكنه هنا أضاف الجنودَ لفِرْعَونَ وهامانَ، وذلك ليُبَيِّن قوة تَأْثِيرِهِ فِي الْحُكْمِ.

الآيــة (٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القَصَص:٩].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ وَقَدْ هَمَّ مَعَ أَعْوَانِهِ بِقَتْلِهِ هُوَ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ فَأَطَاعُوهَا ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بِعَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ مَعَهُ].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ وَقَدْ هَمَّ مَعَ أَعْوَانِهِ بِقَتْلِهِ]، أي: بقتل موسى، [هو ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾]، كلمة ﴿قُرَّتُ﴾ مكتوبة بالتاء المفتوحة، والقاعدة أَنْ تَكُونَ بالتاء المربوطة، وَهِيَ كَذَلِكَ فِيمَا بَقِيَ مِنَ الْآيَاتِ بالمربوطة ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان:٧٤]، بالتاء المربوطة، ولم تأتِ مفتوحةً إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنَ الْقُرْآنِ، وذُكرت فِي الْقُرْآنِ فِي مَوْضِعَيْنِ سِوى هذا بالتاء المربوطة.

وَإِذَا قِيلَ: مَا الْفَرْقُ؟

نقول: إِنَّ هَذَا يُتبع فيه الرسمُ العثماني، هكذا رسمه الصَّحَابَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

وقوله ﴿وَقَالَتِ﴾ تَوَجَّهَ الْخِطَابُ فِيهِ إِلَى فِرْعَوْنَ، وقوله: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ قَدَّر الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [هو]؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّهُ خَبَرُ مبتدأ محذوف، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْقَرِّ، أَوْ مِنَ الْقَرَارِ،

ويَصِحُّ مِنْهُمَا جَمِيعًا، مِن القَرِّ، وهو البَـرد؛ لِأَنَّ الْعَيْنَ إذا بَرَدَت، فَإِنَّهَا تَكُونُ عَلَامَةً عَلَى السُّرور، ولهذا يقال: دَمُ السُّرور بارد، ودَمُ الحُزن حارٌّ.

ويقال: يبكي عليه بدمعٍ حَارٍّ، يعني: مِنَ الْحُزْنِ.

إذن نقول: قُرةُ العَين كِنَايَةٌ عَنِ بُرودتها، وبُرودة العين دَلِيلٌ عَلَى السرور.

وقيل: إِنَّهَا مِن قَرَّ بالمكان، وهو القَرار وعدمُ الاضطراب؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ خَائِفًا بدأت عينُه تَجُول مِن هنا، ومِن هنا، تَشْخَصُ وتَجُولُ وتلتفت، لَكِنْ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا قارَّة، ولكن قرارها دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَخَفْ.

قَوْله تعالى: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾. قولها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ هَمُّوا بقتله، وإِلَّا لَمَا كَانَ لقولها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ فائدة.

وقوله تعالى: ﴿لِّي وَلَكَ﴾ لَا شَكَّ أنه وَقَعَ الْأَمْرُ كَمَا توقَّعَتْ، وصار هَذَا الْوَلَدُ قُرَّةَ عَيْنٍ لها، ورِفعة لَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وأما لِفرعونَ فلا، فما صَارَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُرَّةَ عَيْنٍ، بَلْ كَانَ لَهُ عَدُوًّا وَحَزَنًا.

ومِن غرائب التَّفْسِيرِ أَنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ يَقْرَأُ هَكَذَا: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي﴾ ويَقِفُ، ثُمَّ يَقْرَأُ: ﴿وَلَكَ لَا﴾، ثم يَقِف، ثُمَّ يَقْرَأُ: ﴿تَقْتُلُوهُ﴾ جملة مُستأنفة، وَهَذَا فِي الْحَقِيقَةِ مِن التلاعُب بالقُرْآن؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَمَـا يَقُولُونَ لَقَالَ اللهُ تعالى (تقتلونَه)؛ إِذْ إِنَّ حذفَ النُّون هُنَا لَا نَعْلَمُ لَهُ سَبَبًا سِوى النهي، فكيف يُفسَّـر كَلَامُ اللهِ بِمِثْلِ هَذِهِ التفاسيـر الواردة، ولكن ذكـرناه؛ لِأَنَّهُ قَدْ قِيلَ بِهِ، حَتَّى إِنَّهُ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1] وَلَكِنْ هَذَا مِنْ أَبْعَدِ مَا يَكُونُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ تفكيك الكلام وتَنَاثُره،

(١) معاني القرآن للفراء (٢/ ٣٠٢).

وعدم التئام بعضه مَعَ بَعْضٍ، ولأن النون فِي الْفِعْلِ ﴿نَقْتُلُوهُ﴾ محذوفة، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ﴿لَا﴾ مُسلَّطة عليه.

ولكن امرأة فِرْعَون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ إما أَنَّهَا قَالَتْ ذَلِكَ مِنْ بَابِ التهدئة له، ولتُفرحه، وإما أنها قَالَتْ ذَلِكَ معتقدةً له، وَلَكِنْ لَيْسَ مَنِ اعتقدَ شيئًا يَكُونُ الْأَمْرُ عَلَى وِفَاقِ مَا اعْتَقَدَ، بَلْ قَدْ يُخْلِفُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اعتقادَ الإِنْسَان؛ لِحكمة يُريدها، وَهَذَا لَا مَانِعَ مِنْ أَنْ تَقُولَه معتقدةً أَنَّهُ سَيَكُونُ قُرَّةَ عَيْنٍ له ولها أيضًا، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا قولها: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ﴾ للترجِّي، وقوله: ﴿يَنفَعَنَآ﴾ للخدمة، ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ نتبنَّاه.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ لَيْسَ لِفِرْعَونَ مِنِ امْرَأَتِهِ ولدٌ، فقالت: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، وَمَعْلُومٌ أَنَّ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فرقًا، فإن انتفاعَهم بِهِ لَا يجعلهم يَحْنُون عَلَيْهِ كَمَا يَحْنُون عَلَى الْوَلَدِ، فالخادم عِنْدَ الْإِنْسَانِ يأمرُه وينهاه، وَلَا يَكُونُ فِي قَلْبِهِ لَهُ مِنَ الرَّحْمة والرأفة والعطف مَا يَكُونُ للولد، وَلِهَذَا قَالَت: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، وهذا انْتِقَالٌ مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى.

إذن: هي تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ: نحن لسنا محرومين مِنْ هَذَا الْوَلَدِ؛ فَإِمَّا أَنْ نتخذه خادمًا ننتفع به، وإما نَتَّخِذَهُ وَلَدًا نفخر به، ويكون لَنَا فِي مَنْزِلَةِ الولد.

وهناك احتمال ثالث لَمَا سَبَقَ، فلا ينفعهم، ولا يتخذونه ولدًا، وَلَكِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ فِي مِثْلِ هَذَا السياق؛ لأنَّها تريد ترغيبهم في إبقائه، والترغيب في الإبقاء لَا تَذْكُرْ فِيهِ إِلَّا الصفات المرغوبة، وَهِيَ أَنْ ينفع، أو يُتخذ ولدًا.

وقد يـدلُّ تَبَنِّيهَا لموسى عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ عاقرًا لا تلد، وَقَدْ لَا يَـدُلُّ عَلَى ذَلِكَ؛ فالمرأةُ قد تتخذ الولد زِيَادَةً عَلَى مَا عندها، ولكننا عندما لَا نَجِدَ دَلِيلًا بَيِّنًا لما نقول: وربما يَكُونُ كَذَا.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، هَـذِهِ جُمْلَةٌ الظَّاهر أَنَّهَا مِن كَـلَامِ اللهِ، يعني ﴿وَهُمْ﴾ أي: آلُ فِرْعَوْنَ ومنهم المرأة، ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ بعاقبة أَمْرِ هَذَا الْوَلَدِ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ شعروا بعاقبة أَمْرِه لَمَا قَبِلُوا منها مَشُورَتها، وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعمى ذَلِكَ عَنْهُمْ.

بعضهم يقول ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ آلُ فِرْعَـوْنَ لَا يَشْعُرُونَ بمـا تريده المرأة، وكأنَّ المرأة ألهمها اللهُ عَزَّوَجَلَّ مآلَ هَذَا الرَّجُلِ، وأمَّا هُم فلا يشعرون، لكن الأقرب أَنَّهُ مِنْ كلام اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومِن الظَّاهِرِ أَنَّ امْرَأَةَ فِرْعَونَ لَمْ تَكُنْ قَدْ أسلمت حينئذ، فَقَدْ كَانَتْ زوجتَه، وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُطيعة له، وأَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ فَضِيلَة امرأةِ فِرْعَوْنَ مِنْ قَوْلِها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، وَفِيهَا أَيْضًا دَلِيلٌ عَلَى فِرَاسَـتِها؛ لأنَّها توقَّعَـت أن ينفعهم، ولكن حدث بَعْضُ مَا توقَّعَتْه، فقد نَفَعَها هي فقط، وضَرَّ فِرْعَونَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى مَا قِيلَ: (إنَّ البـلاء مُوَكَّلٌ بِالمَنْطِـقِ)، والتفاؤل كلام؛ فامرأةُ فِرْعَونَ قالـت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾، فتفاءلت بِهِ خَيْـرًا، فحصل لَهَا ذَلِكَ، وصار قُرَّةَ عَيْنٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تُستعمل الأساليب الَّتِي تُحَقِّقُ المقصود؛ لقوله: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ منها، سَوَاءٌ كَانَت تتوقع ذَلِكَ، أَوْ لَا تتوقعه، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ سَبَبًا فِي مُوَافَقَةِ فِرْعَونَ لِما بَلَغَهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِرْعَونَ هَمَّ بقتل موسى، وذلك يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِ امرأة فِرْعَون: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ هَمَّ بِهِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: قُصور عِلم الْإِنْسَانِ مَهْمَا بَلَغَ فِي عُلُوِّهِ واستِكْباره؛ لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: هَذَا الْآيَةُ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى جَوَازِ التَّبَنِّي، فقوله تعالى: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: نُكرمه ونجعله في بيتنا مِثْلَ الْوَلَدِ، وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أي: مِثل الخادم، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ معناه: نتبنَّاه.

وَعَلَى هَذَا المَعْنَى، فَلَا دَلِيلَ عَلَى جَوَازِ التَّبَنِّي، فالتَّبَنِّي كان مَشْرُوعًا حَتَّى فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، في بداية الدعوة، ثُمَّ نُسِخَ وحُرِّم.

الآيــة (١٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القَصَص:١٠].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ ﴾ لَمَّا عَلِمَتْ بِالْتِقَاطِهِ ﴿فَٰرِغًا﴾ مِمَّا سِوَاهُ ﴿إِن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: إِنَّهَا ﴿كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أَيْ بِأَنَّهُ ابْنُهَا ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بِالصَّبْرِ، أَيْ: سُكْنَاهُ ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المُصَدِّقِينَ بِوَعْدِ اللهِ، وَجَوَابُ (لَوْلَا) دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهَا].

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَأَصْبَحَ﴾ هَذَا بِنَاءٌ عَلَى أَنَّهَا ألقته ليلًا، وتأتي كلمة (أصبح) بمعنى: (صار)، بِغَضِّ النظر عَنِ الزَّمَنِ، وتأتي (أصبح) بمعنى (صَارَ) فِي الإصباح، يقال مثلًا: أصبح الماء ثلجًا، أي: صار الماء ثلجًا.

وفِي اللُّغَةِ العامِّية الآن دائمًا يُعَبِّر النَّاسُ بِقَوْلِهِم: أصبح كذا، وأصبح كذا، يُرِيدُونَ بِذَلِكَ أَنَّهُ انْتَقَلَ إِلَى هَذَا، كما أَنَّ الإصباح انْتِقَالٌ مِنَ اللَّيْلِ إِلَى النهار، لكن هنا ليس ببعيد أَنَّهُ فِي صباحِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ استولت عليها الوساوس والهواجس، حَتَّى صَارَ قَلْبُهَا فَارِغًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، لا تُفَكِّر في أَيِّ شَيْءٍ إِلَّا بِهَذَا الولد، وَهَذَا يَعْنِي: أَنَّ المُرَادَ بالإصباح هنا الدُّخُولُ فِي الصباح، وَهُوَ أَوْلَى مِنْ أَنْ نَجْعَلَهُ بمعنى: صار؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ يُحزَن عَلَيْهِ عِنْدَ فَقْدِهِ، لَكِنْ إِذَا طَالَ الزَّمَن، فَإِنَّهُ قَدْ يُنْسَى، لأن الحوادث

تُنسيه، فَالظَّاهِرُ أَنَّ (أصبح) أي: فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ﴾ الفؤاد: القلب، قوله: ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ يقول: مِمَّا سِوَاهُ، أَمَّا قَوْلُ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَمَّا عَلِمَتْ بِالْتِقَاطِهِ] فَهَذَا لَا يَتَعَيَّنُ أنها علمت؛ لأنَّها بمجرد أن أَلْقَتْه سوف تُوَسْوَسُ به.

﴿إِن﴾ مُخَفَّفة مِن الثقيلة، واسمُها محذوف، أي: إنها ﴿كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي: بأنه ابنُها، ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ إِلَى آخِرِهِ.

الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَعْرَب قَوْلَهُ تعالى: ﴿إِن﴾ مُخَفَّفَة مِن الثقيلة، وابنُ مَالِكٍ يَقُولُ[1]:

وَخُفِّفَتْ إِنَّ فَقَلَّ الْعَمَلُ ... وَتَلْزَمُ اللَّامُ إِذَا مَا تُهْمَلُ

وَرُبَّمَا اسْتُغْنِيَ عَنْهَا إِنْ بَدَا ... مَا نَاطِقٌ أَرَادَهُ مُعْتَمِدَا

وَالْفِعْلُ إِنْ لَمْ يَكُ نَاسِخًا فَلَا ... تُلْفِيهِ غَالِبًا بِإِنْ ذِي مُوصَلَا

فالآية إذن جَارِيَةٌ عَلَى اللُّغَةِ الفصحى؛ لأن (كاد) ناسخة، وَاللَّامَ فِي ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ جائزةٌ غير لازمة، ولو حذفناها وقلنا: إِنْ كَادَتْ تبدي به. فتكون بمعنى (ما)، يعني: ما كادت تبدي به، جاز ذلك.

ولذلك فَإِنَّ اللَّامَ يجب ذِكرهُا إِذَا كَانَ حذفُها يُوقِع فِي الْإِشْكَالِ؛ لِأَنَّك إِذَا حذفتَها التبسَت بـ(إِنْ) النافية، وإذا أوجدتَها، فَلَن يَكُونُ هناك اشتباهٌ؛ لأن لام التوكيد لَا تَأْتِي مَعَ النَّفْيِ.

---

(١) ألفية ابن مالك (ص٢٢).

وقيل: تخفف المعنى؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ معناه: أنه قَرُبَ إبداؤها لذلك، لَكِنْ مَا كَانَت لِتُبْدِيَ بِهِ معناها مستحيل؛ لأن السياق يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا جَائِزَةٌ، ولأن السياق يَدُلُّ عَلَى المَعْنَى، وَهُوَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ لَا تُناسب أَنْ تَكُونَ (إنْ) نافيةً، يعني: ما كادت تُبدي به ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾.

والرَّبط عَلَى الْقَلْبِ يقتضي الكتمان، وَلَا يَصْلُحُ أَنْ نَقُولَ: ما كادت تُظهره لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا؛ لأن ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا﴾ يستلزم أَلَّا تُظْهِرَه، فَعَلَى هَذَا تَكُونُ اللَّامُ هنا جائزة، وَهَذَا جَائِزٌ مِنْ حِيْثُ الصناعةُ النحويةُ، أَمَّا مِنْ حَيْثُ التِّلاوةُ القُرْآنيةُ، فَلا يجوز حذفُها، والسبب أن كَلَامَ اللهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُبدَّل؛ لا بالنَّقص، ولا بالزيادة.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾، تُبدي أي: تُظهِر به، وَأَمَّا قَوْلُ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: بِأَنَّهُ ابْنُهَا]، فَهُوَ بِنَاءٌ مِنْهُ عَلَى أَنَّهَا وَصَلَت إِلَى آلِ فِرْعَوْنَ، وَلَوْلَا أَنْ رُبِطَ عَلَى قَلْبِهَا لَقَالَت: هذا ابني.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا بَعِيدٌ مِنَ الْقِصَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ المَعْنَى، وَلَكِنْ مَعْنَى قَوْله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي: لَتُظْهِر بها فَعَلَتْهُ به، وهي تُحدِّث النَّاس، وتقول: والله أنا فعلتُ كذا، وفعلتُ كذا، وألقيتُ ابني فِي الْيَمِّ، إِلَى آخِرِهِ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾؛ لِأَنَّ المَعْرُوفَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إذا حَزِن بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ يُخَفِّفُ مِنْ آلامِ الْحُزْنِ عَلَى نَفْسِهِ، أو يتحدثُ بِهِ إِلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ لمن يَتَّصِلَ بِهِ.

ولذلك تجد الإِنْسَانَ يَضِيق صدرُه بالشَّيْء حَتَّى يُحَدِّثَ به، وهذا الشَّيْء معلوم، فَلَوْلَا أَنَّ اللهَ رَبَطَ عَلَى قَلْبِهَا لَأَبْدَتْ ذَلِكَ الْأَمْرَ، لا أنها تُبدي وتقول: هذا ابني، بل أَبْدَت الْأَمْرَ الَّذِي وَقَعَ منها، وهي أنها أَلْقَتْه في تابوتٍ، وأَلْقَتْه فِي الْيَمِّ،

لَوْ فَعَلْت هَذَا لَطَارَ الخبرُ، كَمَا يَقُولُ النَّاسُ؛ لِأَنَّ الْخَبَرَ مكتومٌ مَا لَمْ يَظْهَرْ، فَإِذَا ظَهَرَ لِوَاحِدٍ، فَثِقْ أنه سيتشعَّب، فلو أَبْدَتْهُ -ولو لأقرب النَّاسِ إِلَيْهَا- لَظَهَر أمرُ الطفل، وعُلِم به، وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رَبَطَ عَلَى قَلْبِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالصَّبْر، أي: سَكَّنَّاه، والربطُ عَلَى الشَّيْءِ معناه: شَدُّ الرِّباط عليها.

وانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾، فهو أَبْلَغُ مِن: أَسْكَنَّا قَلْبَها، والربطُ عليه معناه: أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يتحرك، فهذا أبلغُ، وَاللهُ تعالى رَبَطَ عَلَى قَلْبِهَا، بحيثُ إنها صَبَرت، ولم تُحَدِّث أحدًا بِمَا جَرَى.

قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المُصَدِّقين بِوَعْدِ اللهِ، وجواب (لَوْلَا) دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ، وتقديره: لَأَبْدَتْ به.

وَلِهَذَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُا، وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّهُ مَا قَبْلَهَا، ولكن دَلَّ عَلَيْهِ. وَقَدْ سَبَقَ لَنَا أَنَّ مِثْلَ هَذَا التَّعْبِيرِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ، وَذَكَرْنَا أَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ قَالَ: يَحْتَاجَ إِلَى جَوَابٍ. ولكنك لَوْ أَتَيْت بالجواب لكان الكلامُ رَكِيكًا، فنقول مثلًا: أَكْرِم الطالبَ إِنْ كَانَ مجتهدًا. وَهَذَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ؛ لِأَنَّك لَوْ أجبت: أَكْرِم الطالب إِنْ كَانَ مجتهدًا فأَكْرِمْه. يَكُونُ الْكَلَامِ ركيكًا، وَهَذَا المَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَاهُ أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ القيم فِي كِتَابِهِ (التبيان فِي أَقْسَامِ القُرْآن)[1].

وهو قوله: ﴿أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أي: شَدَدْنَاه بالربط، وَالمُرَادُ بِهِ التسكين، وقوله: ﴿لِتَكُونَ﴾ اللامُ للتَّعلِيل، والمعلَّل ربطُ القلب، يعني: رَبَطَ اللهُ عَلَى قَلْبِهَا لهذه الغاية، ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لَيْسَ المُرَادُ الإِيمَان الجديد؛ لأنَّها مؤمنة بلا شك، وأدلُّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّهَا مُؤْمِنَةٌ أَنَّهَا امْرَأَةٌ أَلْقَتِ ابنَها فِي الْيَمِّ ثِقةً بوعد اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَكِنَّ

(١) انظر على سبيل المثال التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (ص٢).

الْمُرَادَ هُنَا بالإِيمَانِ الإِيمَانُ الزَّائِدُ عَلَى أَصْلِهِ، يعني: التثبيت واليَقِين، وَهَذَا هُوَ الَّذِي وَقَعَ.

وفي القصة -إِنْ شَاءَ اللهُ- فوائدُ عظيمةٌ، ومناقبُ لأُم موسى.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ الالتقاط غير الأخذ، فالالتقاط يَكُونُ عَنْ طَلَبٍ، وَهُوَ يَخْتَصُّ بالآدميِّين، فالإِنْسَانُ فقط هُوَ مِنْ يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ (اللقيط)، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الطفل المنبوذ، أَوِ الطِّفْلِ الضائع، هَذَا هُوَ التعبير.

وَقَدْ يُقَالُ إنهم التقطوه، بمعنى: أخذوه، أي: بِدُونِ أي عِوَضٍ، وعلى سبيل الامتهان، كغَنيمة أخذوها.

وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ للعاقبة، وَلَا تَكُونُ للتَّعلِيل؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يلتقطوه لكي يكون عدوًا لهم، ولكن العاقبة كَانَتْ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ عَلِمُوا بأنه يَكُونُ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا لقتلوه. وهناك من أَهْلَ الْعِلْمِ مَنْ قَالَ بِأَنَّ اللام للتَّعلِيل تَكُونُ فِي عِلْمِ اللهِ، ولكن الصَّحِيحُ أَنَّهَا للعاقبة؛ لأنَّها تعليل للفعل منهما ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ تعليليَّة، ومُعَلَّلُها قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ هَذَا التَّعْلِيلُ تعليلٌ لِمَا قَبْلَهُ، يكون عَلَيْهِمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا؛ لأنَّهم خاطئون.

قَوْله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾، أي: فَارِغًا مِنْ ذِكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، مَا فِي قلبها إلا موسى.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾: ﴿إِن﴾ هُنَا ليست نافية، كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١]، بَلْ هِيَ مُخَفَّفَة مَنْ (إِنَّ) الثقيلة، وَالمَانِعُ مِنْ كَوْنِهَا نافيةً اثنان:

الأول: مانعٌ لفظيٌّ: وَهُوَ وُجُودُ اللام.

والثَّاني: مانعٌ معنويٌّ: وذلك لِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُرِيدَ أَنَّهَا كادت تبدي به، ولذا يَقُولُ فِي باقي الآية: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا﴾، والربط يَقْتَضِي أَنَّهَا مَا أَبْدَتْ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكُونُ عَلَى حَالٍ، فَإِذَا نَزَلَ بِهِ البلاء تغير حالُه، فهذه أُمِّ مُوسَى كَانَتْ فِي البداية مطمئنة، ولذلك وضعته فِي التَّابُوتِ، ثم وضعته فِي الْيَمِّ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ الطُّمأنينة، ولكنها أصبحت بعدما فارقته كَمَا قَالَ تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾، فَقَدْ صَارَ قلبُها الآن فارغًا، وأصبحت قَلِقَةً، كأنه ليس فِي الدُّنْيَا سِوى ابنِها، فالواقع أَنَّ الْإِنْسَانَ لَهُ حَالٌ قَبْلَ نُزُولِ الْبَلَاءِ، وله حالٌ بَعْدَ نُزُولِهِ، وَلِهَذَا لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُعَرِّضَ نَفْسَهُ للبلاء.

يُذكَر أَنَّ سَمْنُون بْنَ حَمْزَةَ، وَهُوَ أَحَدُ مشايخ الصوفية، وَكَانَ عَلَى دَرَجَةٍ عالية مِنَ الْعِبَادَةِ والزهد، وَلَكِنَّهُ قَالَ يَوْمًا:

فَلَيْسَ لِي فِي سِوَاكَ حَظٌّ ... فَكَيْفَمَا شِئْتَ فَامْتَحِنِّي

فابتُلِيَ بِحَبْسِ البَول، فَلَمْ يَقَرَّ لَهُ قرارٌ، فكان بعد ذلك يطوف عَلَى المَكاتب وبِيَدِه قارورةٌ يقطُر منها بوله ويقول للصبيان: ادعوا لِعَمِّكم الكذاب[1]. وذلك لِأَنَّ

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم (١٠/ ٣٠٩)، وتلبيس إبليس، لابن الجوزي (ص٣٠٦).

الصِّبْيَانَ تُرجَى إجابة دعوتهم.

فالمهم: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَهُ قَبْلَ البلاء حالٌ، وبَعد البلاء تتغير حالُه، وهكذا أَيْضًا فِي الْأُمُورِ الشرعية، فالنَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ، فَوَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ، مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»، أَوْ «لِمَا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»(١).

وَهَذَا هُوَ الواقع، فالْإِنْسَانُ يَجِبُ أَنْ يتحرَّز مِنَ الْبَلَاءِ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ». قَالُوا: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «يَتَعَرَّضُ مِنَ البَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ»(٢).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الطبيعة البشرية لَا يُؤَاخَذُ بِهَا المرء، فما تقتضيه الطبيعة البشرية لا يؤاخذ به المرء، ووجه ذَلِكَ أَنَّ فؤاد أُمِّ مُوسَى كَانَ يَنْبغي أَلَّا يَكُونَ فَارِغًا مِنْ ذِكر اللهِ عَزَّوَجَلَّ ومِن الدَّار الآخرة، لكنه أصبح فارغًا، لَيْسَ فِيهِ شيءٌ أبدًا لِذِكْرِه، سوى ذِكر موسى، وهذا مقتضى الطبيعة البشرية؛ لِأَنَّ الْأُمُورَ العظيمة التي تنزل بالمرء تُنسيه كُلَّ شيء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى فَضِيلَة أُمِّ مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ لكونها لم تُبْدِ مَا فِي قلبها لأحد، لقوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ المَرْءَ مُفْتَقِرٌ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كُلِّ أحواله،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣١)، أبو داود: كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، رقم (٤٣١٩).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الفتن، بعد باب ما جاء في النهي عن سب الرياح، رقم (٢٢٥٤)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة:١٠٥]، رقم (٤٠١٦)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ نُزُولِ الحوادث؛ لقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾، فالإِنْسَان مُفْتَقِرٌ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولولا معونةُ اللهِ مَا فَعَلَ الإِنْسَانُ شيئًا، لا صَبَرَ عَلَى بلاء، ولا شُكر عند الرخاء.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى إِثْبَاتِ العِلل والأَسْباب؛ لقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فهناك مَنْ يُنْكِرُ الأَسْباب والعِلل، وهُم الجَهميَّة والأشاعرة، فهُم يُنكرون حتى الأَسْباب الظَّاهرة الجَليَّة، ويقولون: إِنَّ الشَّيْء يَحْدُثُ عِنْدَهُ لَا بِهِ، فلو أخذتَ حَجرًا وضربتَ به الزُّجاج وانكسر، فلا يقولون: إِنَّ الزجاج انكسر بالحَجَر، بل انكسر عنده. مع أَنَّك إِذَا وَضَعْتَ الْحَجَرَ عَلَى الزجاج لا ينكسر، وَلَكِنْ إِذَا ضربتَه به انكسر.

وكذلك عند تناوُل المريض الدواءَ، هُم يَدْعُون: (اللهم اجعل شفائي عند الدواء). وذلك بِنَاءً عَلَى إنكارهم الأَسْباب، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فِي قَوْلِهِ: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الإِيمَان والكمال فِي الرِّجَالِ أكثرُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تعالى فِي مَرْيَمَ: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢]، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ»(١).

ولا ريب أَنَّ الْإِيمَانَ فِي الرِّجَالِ أكثرُ وأثبتُ وأزيدُ، فَفِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم:١١]، إلى قوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢]، رقم (٣٤١١)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المُؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٢٤٣١).

«مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»(١).

وإنما قَرَّرْنا هَذَا مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الرَّجُلِ مُراعاةُ المرأة، وأنها مُحْتَاجَةٌ إِلَى الرعاية، وَكَذَلِكَ يَجِبُ أَلَّا تُجاب إلى كُلِّ مَا تطلُب؛ لأَنَّها ناقصةُ عَقْلٍ، وناقصةُ دِين، كما وصفها النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بذلك.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى إِثْبَات الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، نأخُذه مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾؛ فَإِنَّ هَذَا مِن قضاء اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقَدَرِه.

وَلَا يَصِحُّ أَنْ نَشْتَقَّ لله اسْمًا مِنَ الفِعل المُسنَد إليه ﴿رَّبَطْنَا﴾ فنقول: الرابِط. لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الكون هُوَ مِنْ فِعْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ومِن تقديره، وَلَا يَجُوزُ أَنْ نشتق لِكُلِّ فِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِ الله اسمًا، فأفعالُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ متنوعة وكثيرة، والفعل يَخْتَلِفُ عَنِ الاسم، فَقَدْ يَكُونُ الْفِعْلُ مُقَيَّدًا، مِثْلَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٠]، فلا نَشْتَقُّ اسْمًا مِنْ هَذَا الْفِعْلِ ونقول: الماكر مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ. وَكَذَلِكَ قَوْله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]، فلا نُسميه خادعًا، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٥]، فَلَا نَقُولُ: إنه مستهزئ. وهكذا، فَهَذِهِ كُلُّهَا أفعالٌ مُقَيَّدَةٌ فِي أنواعها، وَلَكِنْ يَجُوزُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ اللهَ مستهزئ بالمنافقين، وإِنَّ اللهَ خادع المنافقين، وإِنَّ اللهَ ماكِرٌ بالماكرين، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله، رقم (٨٠).

الآيــة (١١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القَصَص:١١].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ مَرْيَمَ ﴿قُصِّيهِ﴾ اتَّبِعِي أَثَرَهُ حَتَّى تَعْلَمِي خَبَرَهُ ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أَبْصَرَتْهُ ﴿عَن جُنُبٍ﴾ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ اخْتِلَاسًا ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَنَّهَا أُخْتُهُ وَأَنَّهَا تَرْقُبُهُ].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مريم]. وَنَحْنُ نَقُولُ له: مِنْ أَيْنَ لَك أَنَّ اسمها مريم؟ وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَخْبَارِ مِنَ الإسرائيليات، وَهُوَ أَمْرٌ لَا يَعْنِينا، وَلَوْ كَانَ مُهِمًّا لَبَيَّنَه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد يقول الْبَعْضُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿لِأُخْتِهِۦ﴾ إِنَّهَا كَانَتْ أُخْتَهُ مِن أبيه أَوْ مِنْ أُمِّهِ، ولكن الأُخُوَّة هنا مُطلَقة، فَيَكُونُ الْمُرَادُ شقيقته، وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أُمِّهِ أو أبيه لقُيِّدَتْ.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتَّبِعِي أَثَرَهُ حتى تعلمي خبرَه، والقَص معناه: التتبُّع، يعني: تتبَّعي أثرَه، وابحثي عنه.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أي: أبصرَتْه، والفاء فِي قَوْلِهِ: ﴿فَبَصُرَتْ﴾ للترتيب والتعقيب، أي: إِنَّهَا مَا ذَهَبَتْ بعيدًا حتى رأته.

وقوله تعالى: ﴿عَن جُنُبٍ﴾ أي: مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، وَعَلَى هَذَا فالموصوف محذوف،

والتقدير: عن مَكَانٍ بَعِيدٍ، بَعِيدٍ منها، لكنها عَرَفَتْ أَنَّ هَذَا أخوها، وقوله: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ أي: مِنْ مَكَان بَعِيدٍ اختلاسًا، والاختلاس معناه: المُسَارَقة، أي: كانت تَنْظُرُ إِلَيْهِ دُونَ أَنْ تُحِدَّ النَّظَرَ إِلَيْهِ، فلو أنها فعَلَت، وأقبَلَت إليه مُسرعة، وظَهَرَت منها علاماتٌ عَلَى أَنَّهُ مقصودُها، لَعَرَفُوا منها ذلك، ولكنها جعلت تَنْظُرُ إِلَيْهِ خِلسةً حَتَّى لَا يَشْعُرُوا بها.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: إن آلَ فِرْعَوْنَ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّهَا أُخْتُهُ، وأنها ترقُبه، فَإِنَّهَا كَانَتْ ذكيَّة، مَا فَعَلَتْ مَا دَلَّ عَلَى شخصيتها.

وجُملة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حَالٌ مِنْ فَاعِل ﴿فَبَصُرَتْ﴾، والجملة الحاليَّة لَا يُشْتَرَطُ أَنْ تَكُونَ وصفًا لصاحِب الحالِ، وَلِهَذَا تَقُولُ: جَاءَ زَيْدٌ والشمسُ طالعةٌ. فجملة (والشمس طالعة) حاليَّة، مع أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ صِفَاتِ زيد، لكن الجملة الحالية يُكتفَى فيها بأدنى مُلابسة مع الفاعل.

• • ۞ • •

الآيــة (١٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القَصَص:١٢].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ قَبْلَ رَدِّهِ إِلَى أُمِّهِ، أَيْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَبُولِ ثَدْيِ مُرْضِعَةٍ غَيْرِ أُمِّهِ، فَلَمْ يَقْبَلْ ثَدْيَ وَاحِدَةٍ مِنَ المَرَاضِعِ المُحْضَرَةِ لَهُ ﴿فَقَالَتْ﴾ أُخْتُهُ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ لَمَّا رَأَتْ حُنُوَّهُمْ عَلَيْهِ ﴿يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ بِالْإِرْضَاعِ وَغَيْرِهِ ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ وَفَسَّرَتْ ضَمِيرَ ﴿لَهُۥ﴾ بِالمَلِكِ جَوَابًا لَهُمْ فَأُجِيبَتْ، فَجَاءَتْ بِأُمِّهِ فَقَبِلَ ثَدْيَهَا، وَأَجَابَتْهُمْ عَنْ قَبُولِهِ بِأَنَّهَا طَيِّبَةُ الرِّيحِ طَيِّبَةُ اللَّبَنِ فَأَذِنَ لَهَا فِي إِرْضَاعِهِ فِي بَيْتِهَا، فَرَجَعَتْ بِهِ كَمَا قَالَ تعالى].

كان الطفل عند عرش فِرْعَونَ يبكي، يريد الرَّضاع، ولعلهم خرجوا به يطلبون المُرضعة، فصادف أَنْ رأته أختُه، فَقَدْ تكُونُ أُمُّ مُوسَى قد طلبت مِنْ أُخْتِهِ الخروجَ إِلَيْهِ بَعْدَ مَا سَمِعْت عَنْ طَلَبِ آلِ فِرْعَوْنَ مُرضِعَةً لموسى، وَقَدْ تكُونُ قد أَمَرَتْها بالخروج إيمانًا منها بِوَعْدِ اللهِ لَهَا بِأَنْ يَرُدَّهُ إليها.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ أَيْ قَبْلَ رَدِّهِ إِلَى أُمِّهِ.

وقوله: ﴿وَحَرَّمْنَا﴾ أي: مَنَعْنَا، وَالتَّحْرِيمُ فِي اللُّغَةِ: المنعُ، والتحريمُ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: تحريم شرعي، وتحريم قدَري، والتحريمُ الشرعي متعلِّق بالأحكام الشرعية،

والتحريمُ القَدَري متعلق بالأحكام الكَوْنِيَّة، ومثاله قَوْلُهُ تعالى: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء:٩٥]، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [المائدة:٢٦]، فالتحريم هنا تحريمٌ قدَري.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ ولم تَقُل: عَلَى أَهْلِهِ. فلو قَالَتْ ذَلِكَ افتضح أمرُها، وقالته بصيغة التنكير؛ حَتَّى لَا يعرفوها، مع أنها أختُ موسى، وصاحبة البيت هِيَ أُمُّهُ، فأخت مُوسَى لَمَّا رَأَتْ حُنُوَّ آلِ فِرْعَوْنَ عَلَى هَذَا الطفل؛ لأنَّهم يُحِبُّونَ أَنْ يجدوا مَنْ يَقُومُ بكَفَالته وإرضاعِه، قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ للإرضاع وغيره.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾، الكَفْل معناه: القيام بحَضانة الطفل، ويسمى كَفْلًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران:٣٧]، وَفِي قِرَاءَةٍ ثانية «وكَفَلَهَا زَكَرِيَّا»، والمعنى: أنا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يقومون بحضانته على أَتَمِّ قيام، بدليل قولها: ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

هنا الكَفالة عَبَّرَ عَنْهَا بالفعل ﴿يَكْفُلُونَهُ﴾، والنصيحة عَبَّرَ عَنْهَا بالجُملة الاسمية ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾، فالنصيحة مَبْنِيَّةٌ عَلَى النِّيَّةِ فِي الْقَلْبِ.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَاصِحُونَ﴾ أي: مخلصون، وأصلُ النُّصح: إخلاصُ الشَّيْءِ مِنَ الشوائب، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحريم:٨]، أي: خَالِصَةٌ مِنَ الشوائب للهِ وَحْدَهُ، وهي هنا صَادِقَةٌ فِي قَوْلِها هذا.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ الضَّمِيرُ فِي ﴿لَهُ﴾ يَعُودُ إِلَى هَذَا الطفل بلا رَيْبٍ، ونُصح أهل هَذَا الْبَيْتِ لموسى يُعجب آلَ فِرْعَوْنَ؛ لأنَّهم أحبُّوا هذا الطفل، ورَغِبُوا فِي الْبَحْثِ عمن يكفُلُه ويُرَبِّيه عَلَى الْوَجْهِ الأتمِّ.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَفَسَّرَتْ ضَمِيرَ ﴿لَهُۥ﴾ بِالمَلِكِ جَوَابًا لَهُمْ، فأُجِيبَتْ]، هَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى قصةٍ إسرائيلية؛ أَنَّهَا لَمَّا قَالَتْ: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ كأنهم شَكُّوا فقالوا: مَا الَّذِي أدراكِ أنهم ينصحون له؟ فقالت: أريد أنهم ينصحون للمَلِك، أي فِرْعَون. يعني: وهُم للمَلِك ناصحون.

وهذه قصة لَا شَكَّ أنها بَعِيدَةٌ مِنَ الصَّوَابِ، وَإِنَّمَا المُرَادُ ﴿لَهُۥ﴾ للطفل، وَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ عَائِدًا إليه، وَلَا حَاجَةَ أَيْضًا إِلَى تَفْسِيرِهِ بالمَلِك؛ لأن آلَ فِرْعَوْنَ يُحِبُّونَ مَنْ يَنصح له، فليسوا بسائلين عَنْ هَذَا الشَّيْء، فتكوين المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هَذَا لَا داعيَ له.

يقول: [فَجَاءَتْ بِأُمِّهِ فَقَبِلَ ثَدْيَهَا، وَأَجَابَتْهُمْ عَنْ قَبُولِهِ بِأَنَّهَا طَيِّبَةُ الرِّيح طَيِّبَةُ اللَّبَنِ فَأَذِنَ لَهَا فِي إِرْضَاعِهِ فِي بَيْتِهَا، فَرَجَعَتْ بِهِ]. هذا التَّقرير الَّذِي ذَكَرَهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا بَطَلَ فِي الآتي عليه، هو يقول: [إِنَّهَا جَاءَتْ، وَقَبِلَ ثَدْيَهَا] أمام النَّاس، واتُّهمت به، ودافعت عن التُّهمة بأن ثديَها طَيِّب الريح، ولَبَنَها طَيِّب.

وكُلُّ هَذَا لَا أَصْلَ لَهُ، والصَّواب أَنَّهُ لَمَّا قَالَتْ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ قالوا: نعم، دُلِّينا. فالقِصة واضحة جدًّا، قلوا: دُلِّينا فَدَلَّتهم، فجاؤوا بِهِ إِلَى أُمِّهِ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي المعجزة، والآية أَنَّ أُمَّهُ فِي بَيْتِهَا أَمَرَت أخته أَنْ تَخْرُجَ فِي طَلَبِهِ، فما رجعت أختُه إِلَّا بِهِ إِلَى أُمِّهِ.

الآيــة (١٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القَصَص:١٣].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بِلِقَائِهِ ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ حِينَئِذٍ ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بِرَدِّهِ إِلَيْهَا ﴿حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أَيِ النَّاسُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بِهَذَا الْوَعْدِ، وَلَا بِأَنَّ هَذِهِ أُخْتُهُ، وَهَذِهِ أُمُّهُ، فَمَكَثَ عِنْدَهَا إِلَى أَنْ فَطَمَتْهُ، وَأَجْرَى عَلَيْهَا أُجْرَتَهَا لِكُلِّ يَوْمٍ دِينَارٌ، وَأَخَذَتْهَا لِأَنَّهَا مَالُ حَرْبِيٍّ، فَأَتَتْ بِهِ فِرْعَوْنَ، فَتَرَبَّى عِنْدَهُ، كَمَا قَالَ تعالى حِكَايَةً عَنْهُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨]].

ما حكاه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنْ أَنَّ الأُم ذهبت إِلَيْهِم، وأنها ألقَمته الثدي، وأنها اتُّهمت به، ودافعت بأنها طَيِّبة الريح، أو طَيِّبة اللبَن، لَيْسَ بِصَحِيحٍ.

وَمِثْلُ هَذِهِ الْأُمُورِ لَا يَلْزَمُ أَنْ تكُونَ لها أسبابٌ حِسِّية معلومة؛ لِأَنَّهَا مِن خَوارق العاداتِ، وخوارقُ العادات لَا تَحْتَاجُ أن نُوَجِّهَ لها أشياء تناسب العادات، بَلْ هِيَ فوق العادة.

فَعَلَى هَذَا نقول: المسألة سائرة عَلَى حَسَبِ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الكريم، فإنَّ الأُم لَمْ تَأْتِ إِلَيْهِم، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾، أي: رَدَدْنَا

مُوسَى إِلَى أُمِّهِ ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائه، ﴿تَقَرَّ﴾ سبق أَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ إِمَّا مِنَ القَرِّ، وهو البُرودة، وَإِمَّا مِنَ القَرار والسُّكون، ولعله يشمل المَعْنَيَيْن.

و﴿كَيْ﴾ هنا حرف تعليل، وهي مصدريَّة تَنصب الفعل المضارِع؛ ولهذا ﴿تَقَرَّ﴾ منصوبَةٌ، وعلامَةُ نصبِه فتحةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى الراء.

قوله تعالى: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائه، ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ حينئذٍ، يعني: لَا تَحْزَن عَلَى مَا مَضَى، بل يزول عنها الحُزن، تَقَرُّ العين، ويزول عنها الحُزن، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بردِّه إليها ﴿حَقٌّ﴾، وهذه أيضًا ثلاث فوائد:

الْأُولى: ﴿تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، الثَّانية: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾، والثالثة: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

أمَّا الأُولَيان فظاهِر أنها تَقَرُّ عينُها برجوعه، وَأَنَّهَا لَا تَحْزَنُ، بل يزول عنها الحُزن، لَكِنْ قَوْلُهُ: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ هَذِهِ الْعِلَّةُ سَبقت؛ لأنَّها مُنذ أن أَلْقَتْه فِي الْيَمِّ قَدْ عَلِمت أنَّ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، ولولا عِلمها ويَقِينُها بأن ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ما أَلْقَتْه، فيكون هنا المرادُ بالعِلم عينَ اليَقِين، أَوْ حَقَّ اليَقِين إِنْ شِئْتَ.

فعِلمُها بِالْأَوَّلِ عِلْمٌ عَنِ الشَّيْءِ خَبَرًا، وعِلمُها الثَّاني عِلم عَنِ الشَّيْءِ وُقوعًا، وَفَرْقٌ بَيْنَ عِلم الْإِنْسَانِ بالشَّيْء خبرًا، وبَين عِلمه به وقوعًا، وَلِهَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠]، وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَيْسَ الخَبَرُ كَالمُعَايَنَةِ»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥، رقم ١٨٤٢)، والحاكم (٢/ ٣٥١، رقم ٣٢٥٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والطبراني في الأوسط (١/ ١٢، رقم ٢٥)، والضياء (١٠/ ٨٢، رقم ٧٦)، وابن حبان (١٤/ ٩٦، رقم ٦٢١٣).

وقَوْلَهُ: ﴿وَلِتَعْلَمَ﴾ يعني: عِلم الشَّيْءِ بَعْدَ وقوعه، وأمَّا عِلْمُهَا بِهِ خَبَرًا فَقَدْ تَقَدَّمَ، وَلَوْلَا أَنَّهَا واثقة فِي الْأَوَّلِ مَا فَعَلَتْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، ذَكَرُوا أَنَّ الْوَعْدَ هو الوعدُ بما يَسُرُّ، والوعيد بما يُحْزِن، يعني: الوَعد بالخير، والوعيد بالشَّرِّ، وأنَّ الشَّرَّ مِن (أَوْعَد)، والخير مِن (وَعَد)، فقالوا: أَوْعَدَهُ أي: بالشر، ووَعَدَهُ بالخير.

﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ قُرَّةُ عَينه ينسى الحُزن والسأم، أي نَفْي الحزن هنا لِأَجْلِ أَنْ يُبَيِّن أنَّ القَرَّ كامل؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَقَرَّ عينُها مع شيء مِنَ الْحُزْنِ.

والوعِيدُ حقٌّ، والوَعد حقٌّ، ولو قلنا: إنَّ الوعيد ليس بحق. لَزِمَ أن يَكُونَ فِي خبر الله كَذِبٌ، وهذا غير ممكن، لكن الوعيدُ قد لا يُنَفَّذ؛ تفضلًا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه حقُّه، الوعيد حقُّ الله، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قد يتجاوز عنه، أما الوعد فإنه حقٌّ للموعود، وَلِهَذَا لَا يمكن أن يتخلف، قال الشاعر[1]:

وَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُــهُ أَوْ وَعَدْتُــهُ ... لَـمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِـدِي

لأن الوعد حقٌّ للموعود، والوعيد حقٌّ للواعد أو للمُوعد.

وأضرب لذلك مثلًا: إذا قلتُ لهذا الرَّجل: إِنْ فَعَلْتَ كَذَا أعطيتُك مائة دينار. فهذا وعدٌ، لأنَّه في الخير، فهذا فَعَل ما قُلتُ، يجب عليَّ أنْ أوفيه؛ لأن الحق له، لكن لو قلتُ لولدي مثلًا: إنْ فعلتَ كذا حَبَسْتُك. ثم فَعَلَه، ولكني عفوتُ عنه، فهذا جائز، ويكون فضلًا، لَا سِيَّمَا إِذَا عَفَا عَنْهُ مع القُدرة، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩].

---

(١) البيت لعامر بن الطفيل، كما في لسان العرب: ختأ، وتاج العروس: ختأ، وبلا نسبة في إنباه الرواة (٤/ ١٣٩)، ومراتب النحويين (ص٣٨).

والحاصِلُ: أَنَّ وَعْدَ اللهِ ووعِيدَه كلاهما حقٌّ، لكن وعده لما كان حقًّا للموعود صار لَا بُدَّ مِنْهُ لوقوعه، ووعيدُه لَمَّا كَانَ حقًّا له إِنْ شَاءَ عَفَا عنه؛ تكرُّمًا وتفضلًا، حسب ما تقتضيه حِكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَلَكِنْ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف:٤٤]، هـذا وعيدٌ أُطلق على الوعد؛ إما لِأَنَّهُ فِي المقابلة مع قولهم بهذا صار مُشاكلًا له، أو أَنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ أحيانًا.

قال تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: ﴿حَقٌّ﴾ هنا بمعنى: ثابت، وقد قُلْنَا: إِنَّ الْحَقَّ إِذَا تعلَّق بالأخبار، فمعناه الصِّدق، وفي الأحكام معناه العَدْل، وَعَلَى هَذَا فيكون هُنَا بِمَعْنَى: الصدق.

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: صِدْق، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يتخلف؛ لأن تخلُّف الوعد إما أَنْ يَكُونَ عَنْ كذبِ الواعد، أَوْ عَنْ عَجْزِه عن تنفيذه، وكِلا الأمرين في حَقّ اللهِ مستحيلٌ، فلا كَذِبَ فِي قَوْلِهِ، ولا عجزَ في فِعله؛ ولهذا فإن عِباد اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يختمون الدُّعاء بقولهم: (إنك لا تخلف الميعاد).

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: النَّاس لا يعلمون بهذا الوعد، ولا بأن هَذِهِ أخته.

والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خَصَّص الآية، والحقيقة أن الآية عامة: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ليس عندهم عِلم ينفعهم في وعد الله، فنَفْيُ العِلم هنا إما لإثبات الجهل، أو لنفي العِلم النافع، فأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ.

وقوله تعالى: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: النَّاس، أقول: أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ وَعْدَ

اللهِ حَقٌّ؛ إما لجهلهم، وإما لعدم انتفاعهم بهذا العِلم، ونَفْيُ الشَّيْء لِنَفْيِ الانتفاع به ثابتٌ فِي الْقُرْآنِ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال:٢١].

ودائمًا ينفي اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العَقل، أو السمع عن النَّاس، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لعدم انتفاعهم بذلك، فأكثرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ خصَّ هَذِهِ بقصة موسى، والآيةُ عامَّة، فأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ.

أقول: إما للجهل بذلك، لكونهم لا يعرفون مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ وصفاته ما هو اللائق به، وإما لكونهم لا ينتفعون بهذا العِلم.

فالذين لا يحرصون على فعل الخير، أو على تجنُّب الشر فِي الْحَقِيقَةِ هُم كالجَاهِلين بأن وَعْدَ اللهِ حَقٌّ؛ إِذْ إِنَّ الطبيعة البشرية والعقل يقتضيان أنك ما دُمْتَ مؤمنًا بهذا الشَّيْء، سَوَاءٌ كَانَ وعدًا، أو وعيدًا، فَلَا بُدَّ أَنْ تسعى له بمقتضى إيمانك، وإذا كنتَ تعلم أَنَّ الْإِنْسَانَ سيموت، وأن المؤمن إذا مات سيجد الخير، ويكون في الجنة، وينجو مِن النار، هذا حق، لكن الذي لا يسعى إلى الجنة، ولا يسعى إِلَى هَذَا الخير، ويَنْهَمِكُ بسَعْيِه للدنيا الفانية، هذا فِي الْحَقِيقَةِ ليس عالمًا بأن وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، أو منتفعًا بِعِلْمِه، فلو انتفَعَ به ما فوَّت هَذِهِ الفُرصة العظيمة، فالإِنْسَان يعرف أن المعصية سبب لدخول النار، ويعرف أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، لكن مع ذلك يتجرأ على المعاصي.

نقول: إنَّ عِلمه هنا ناقص؛ إذ لَوْ آمَنُ بذلك حقًّا لتجنَّب هذا الشَّيْء، فصَدَقَ معنا قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

حَلَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الْآيَةَ فقال: [لَا يَعْلَمُونَ بِهَذَا الوَعْدِ]. يعني: بما وَعَدَ اللهُ أُمَّهُ مِن رَدِّه إليها، وَلَا بِأَنَّ هَذِهِ أُخته.

وعلى هذا، فيقول: الضَّمِيرُ فِي ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ يَعُودُ عَلَى آلِ فِرْعَوْنَ، وهذه فمَكَث عندها إلى أن فَطَمَتْهُ، وأُجري عليها أُجْرَتُها لكل يوم دينار.

أما [كونه بقي عندها إِلَى أَنْ فَطَمَتْه]، فهذا واضح؛ لِأَنَّهُ مَا دَامَ يحتاج للرضاع فسوف يبقى عندها.

وأما [أُجْرِيَ عليها أُجرَتُها] فهذا أيضًا صحيح؛ فإنه جُعل لها أجرة، وصاروا يرسلون إليها بالهدايا والتحف ويكرمونها؛ لأنَّها كافلةُ هذا الطِّفْلِ الَّذِي قَالُوا: إنه ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾، و﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، ولهذا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَثَلُ الَّذِينَ يَغْزُونَ مِنْ أُمَّتِي، وَيَأْخُذُونَ الجُعْلَ يَتَقَوَّوْنَ بِهِ عَلَى عَدُوِّهِمْ مِثْلُ أُمِّ مُوسَى تُرْضِعُ وَلَدَهَا وَتَأْخُذُ أَجْرَهَا»(١).

وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللهِ، يأتيها ولدُها وتُرضِعه، وتُكرَم عليه، فلو لم تُلقه فِي الْيَمِّ، ولم يلتقطه آلُ فِرْعَوْنَ، لَبقيت خائفةً وَجِلَةً، ولا تحصل لها أُجرة، ولا إكرام، ولا إعزاز مِن هؤُلاءِ الطغاة.

وأما قوله: [لِكُلِّ يومٍ دينار] فهذا غير مُسلَّم؛ لأن طريقنا في مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ أن نقول: ما ثبت عن الرَّسُول ﷺ فهو مقبول، وَمَا لَمْ يَثْبُتْ مِن أخبار بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ فإننا نتوقف فيه، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ نجزم به هذا الجزم، بل نُحدِّث به، ولكننا لا نجزم به.

يقول: [لِكُلِّ يَوْمٍ دِينَارٌ، وَأَخَذَتْهَا لِأَنَّهَا مَالُ حَرْبِيٍّ]، سبحان الله العظيم! ذهب وَهْم بَعْضِ الْعُلَمَاءِ مَذهبًا غريبًا، هل أخذتها؛ لأنَّها مالُ حربيٍّ، أم أخذتها لأنَّها أجرة على إرضاعها؟ بَلْ هِيَ أُجْرَةٌ، فهذا هو الأمر الطبيعي، أما كونُها تأخذ الأجرة؛

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٢٢٨، رقم ١٩٥٣٢)، وسعيد بن منصور (٢/ ١٧٤، رقم ٢٣٦١)، أبو داود في المراسيل (١/ ٢٤٧، رقم ٣٣٢)، والبيهقي (٩/ ٢٧، رقم ١٧٦١٨).

لأنَّها مالُ حربيٍّ، فَهَذَا لَا وجه له، فلا يقال مثلًا: إنَّ أُمَّ مُوسَى لما لم يَقبل ثديَ غيرها كان إرضاعُها إياه فرضًا عليها، والفرضُ لَا يَجُوزُ أَخْذُ العِوَض عليه، ففسَّر أخذ المال هنا عَلَى أَنَّهُ مالُ حربيٍّ.

نقول: حتى مال الحربيِّ إذا جاء بصيغة عَقْدٍ، فلَا يَجُوزُ أَخْذُهُ، إنما تأخذه بمقتضى العقد، والمُعاقَدَة بينك وبين الحَرْبِيِّين مِثل الاستِئمان، بَلْ هِيَ استئمانٌ في الواقع.

فالصَّواب أنها أخذتها؛ لأنَّها أُجِرَت عليه على كفالته وإرضاعه؛ لِأَنَّهُ لَوْ لم تأخذ لكان فِي ذَلِكَ بلاء، ولَعَلِم أنها قريبة له أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فهي أخذته؛ لأنَّهم يعتقدون أَنَّهَا لَيْسَتْ أُمَّه، ويعتقدون أَنَّ هَذَا الطفل سوف يكون لهم، وذلك جائز باطنًا؛ لأجل كفالتها بالنِّسبة لهم.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَأَتَتْ بِهِ فِرْعَوْنَ، فَتَرَبَّى عِنْدَهُ، كَمَا قَالَ تعالى حِكَايَةً عَنْهُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨]]، تربَّى عند فِرْعَون في بيت المَلِك، وكان يركب كما يركب الملوك، ويلبس لِباس الملوك، فبدلًا مِن أَنَّهُ لَوْ كَانَ عند أُمِّه ما حصل له هذا الشَّيْء بلا شك، أمَّا الآن فأصبح مُعَزَّزًا مُكَرَّمًا، وَذَلِكَ مِنْ تسخير اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له.

وقد ظل موسى يتردد على أُمِّه بَعْدَ الفِطام وبعد أن كَبِرَ، فهي أُمُّه مِن الرضاعة.

ومِن المظنون عقلًا أنها أخبرته بالحقيقة بعدما كَبِرَ، فعَرَف وكتم الخبر عن آلِ فِرْعَوْنَ.

فائدة: لا يُعرف تحديدًا مَن أسماه باسمه هذا، هل هِيَ أُمُّهُ أَمْ آلُ فِرْعَوْنَ،

ولكن الاسم عِبري، وَقَدْ يَكُونُ اسمه الَّذِي كَانَ عِنْدَ فِرْعَون هو اسمه الذي سَمَّتْه به أُمُّه إكرامًا له مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقد قَالَ تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨]، فبقي الرجل عند المَلِك مُكَرَّمًا مُعَظَّمًا مُعَزَّزًا.

الآيــة (١٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [القَصَص:١٤].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ وَهُوَ ثَلَاثُونَ سَنَةً أَوْ وَثَلَاثٌ ﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ أَيْ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا﴾ حِكْمَةً ﴿وَعِلۡمٗا﴾ فِقْهًا فِي الدِّينِ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ نَبِيًّا ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُ ﴿نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ لِأَنْفُسِهِمْ].

الأَشُدُّ قيل: إنه ثلاث وثلاثون سَـنة، وقيل: ثلاثون سَـنة، وقيل: قريبًا مِن أربعيـن، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ [الأحقاف:١٥]، فدل هَذَا عَلَى أَنَّ بلوغ الأَشُدِّ غيرُ الأربعين؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ عَلَى أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنَّ بُلُوغَ الْأَشُدِّ معناه كمالُ العقل، ولا يُنافي أن يكون كَمَالُ الْعَقْلِ عند تمام الأربعين.

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ أي: بمعنى: كَمَل، والاستواء فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بمعنى: الكمـال، ومنه قولهم: استـوت الثمرة، أي: كَمَلَـت، وهو فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبه، ولكنه إذا عُدِّي بـ(إلى) فهو بمعنى: القَصْد، وإذا عُدِّي بـ(على) فهو بمعنى: العُلُوِّ والاستقرار؛ لأن ذلك هو الكمال.

قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا﴾ حِكمـةً، ﴿وَعِلۡمٗا﴾ فِقْهًا في الدِّين قَبـل

أن يُبعث نَبِيًّا].

﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ بمعنى: أعطيناه، وهذا الإيتاء كونيٌّ، والإتيان يكون كونيًّا، ويكون شرعيًّا، وَإِنْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بالقضاء والقَدَر، فهو كونيٌّ، وَإِنْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بالشرع فهو شرعيٌّ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ [التوبة:٥٩]، هذا الإتيان شرعي؛ لأنَّه يتعلق بالشرع والقصد، وهنا ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ كوني؛ لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ.

أما قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور:٣٣]، فكلمة ﴿وَءَاتُوهُم﴾ شرعيٌّ، و﴿ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ قَدَرًا، فهو قَدَّره لكم، فالإتيان إذن يكون شرعيًّا، ويكون كونيًّا بحسب متعلَّقِه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿حُكْمًا﴾ فَسَّره بحِكمة، يقال: عِلمًا أي: فِقهًا.

وَقَدْ فَسَّرَ الْحُكم بالْحِكمة؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ هُوَ عِلْمُ الأحكام، فإذا فَسَّرنا الْحُكْمَ بِأَنَّهُ الْحُكْمُ الَّذِي هو مقتضى خطابٍ بالشرع، صَارَ فِيهِ نَوْعٌ مِنَ التَّكْرَارِ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ، ولكنه يَجُوزُ أَنْ نَقُولَ: آتَيْنَاهُ حُكْمًا، أي: عِلمًا بالأحكام الشرعية، وعِلمًا بالأخبار والأسرار، وحينئذٍ مَا يَكُونُ فِي الْآيَةِ تكرار، ولا نلجأ إلى تفسير الحُكم بالحِكْمَة؛ لأن المَعْرُوفَ أَنَّ الْحُكْمَ غَيْرُ الحِكمة، فالحُكم هُوَ مُقْتَضَى خطاب الشرع المتعلِّق بِأَفْعَالِ الْمُكَلَّفِينَ، والحِكمة هي علة ذَلِكَ الْحُكْمِ.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾: (لَمَّا) هنا شرطية، بِدَلِيلِ أَنَّهُ جَاءَ لَهَا فِعْلٌ وجواب، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ﴾، فهي إذن شرطية، وَهِيَ تَرِدُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ شَرطية كما هنا، وتَرِد بمعنى: (إلا)، مِثْلَ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤]، أي:

إِلَّا عَلَيْهَا حافظ، وتَرِد ظَرْفًا، مثل: جئتك لَمَّا عرفتُ أنك مستيقظ، أي: حينَ عرفتُ، والذي يُعَيِّن هَذِهِ المَعَانِيَ هو السياق.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما جزيناه، ﴿نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ لأنفسهم].

قوله: [كما جزيناه] يُفِيدُ أَنَّ الإشارة هنا إِلَى هَذَا الإعطاء الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ، يعني: ومثلَ ذلك، والكاف هنا -وهي كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ- مفعولٌ مُطْلَق، بمعنى: مِثل، أي: مِثْلُ ذَلِكَ الجزاء ﴿نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ إِذَا كَانَتْ مفعولًا مطلقًا، بمعنى: مثل، فهي اسم، قَالَ ابْنُ مالك[1]:

شَبِّهْ بِكَافٍ وَبِهَا التَّعْلِيلُ قَدْ ... يُعْنَى وَزَائِدًا لِتَوْكِيدٍ وَرَدْ

وَاسْتُعْمِلَ اسمًا وَكَذَا عَنْ وَعَلَى ... مِنْ أَجْلِ ذَا عَلَيْهِمَا مَنْ دَخَلَا

فالكاف تَأْتِي بِمَعْنَى: مِثل، وتُعرب عَلَى أَنَّهَا اسمٌ لا حَرْفُ جَرٍّ.

وقوله تعالى: ﴿نَجۡزِي﴾ أي: نكافئ، وقوله: ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يقول لأنفسهم، و﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في الواقع يَشمل الْإِحْسَانَ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى عِبَادِ اللهِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَنَّ جِبْرِيلَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ؟ فقال: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[2].

---

(١) ألفية ابن مالك (ص٣٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، وعلم الساعة، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٩).

فهذا إِحْسَانٌ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وقوله ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَرَاهُ» هَذِهِ عِبَادَةُ الطَّلب، وقوله: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، هَذِهِ عِبادة الهَرَب والخوف، وَلَا شَكَّ أَنَّ العابد بِالمَعْنَى الْأَوَّلِ أكملُ مِن العابد بالمعنى الثَّاني؛ لأن العابد الأول مَرتبتُه عُليا، يَعْبُدُ اللهَ كأنه يراه، فهو يَقْصِدُ اللهَ، وله شوق كَبِيرٌ إِلَى رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أما الثَّانِي، فَإِنَّهُ يَعْبُدُ اللهَ كأن اللهَ يَرَاهُ، فهو خائفٌ مِنْ رَبِّهِ، فعبادتُه هِيَ عِبَادَةُ الهَرَب، والأول عبادةُ طَلَب.

ولكن الإِحْسَان بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْخَلْقِ إِذَا فسرناه بأنه إرادةُ الخير فقط لَا يَكْفِي، يقال: إنه بَذْلُ النَّدى، وَكَفُّ الْأَذَى، وهذا هو الْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ، والندى بمعنى: العطاء، وَكَفُّ الْأَذَى واضح، فالإِحْسَان إذن له شِقَّان: بَذْلُ الندى، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ يَتَعَلَّقُ بِالمَالِ، أَوْ بالجاه، أو بالبَدَن، وَكَفُّ الْأَذَى القولي والفعلي، وقد يتخلف أحدُهما ويكون الإِنْسَان مُحسنًا مِنْ وَجْهٍ، غيرَ محسنٍ مِنْ وَجْهٍ، ويكون مسيئًا إذا تخلف كفُّ الأذى.

وَمِنْ هَذَا التَّعْرِيفِ لَا يَدْخُلُ الْعِلْمُ فِي الندى، نحن قلنا: إِنَّ الإِحْسَان يشمل المَالَ وَالْبَدَنَ والجاهَ، وتعليمُ الْعِلْمِ مِن الإِحْسَان البَدني، وكذلك النصيحة.

على كُلِّ حَالٍ: الإِحْسَان هُوَ عِبَارَةٌ عَن: بَذْل الندى، وَكَفِّ الْأَذَى.

وَأَنَا أَرَى أَنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ هِيَ أَحْسَنُ مَا قِيلَ، فَأَنْتَ لَا تؤذي النَّاس فتكون مسيئًا، ولا تَحْرِمُهم خيرَك، فَلَا يَكُونُ فيك إحسانٌ، فليس هناك إحسان إِذَا لَمْ تبذل الندى.

قوله: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الإِحْسَان هنا يَكُونُ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَإِلَى عِبَادِ اللهِ.

فأما الْإِحْسَانُ فِي عِبَادَةِ اللهِ، فَقَدْ فَسَّرَها النَّبيّ ﷺ بقوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

وأما الْإِحْسَانُ إِلَى عِبَادِ اللهِ، فهو بَذْلُ الندى، وَكَفُّ الْأَذَى.

الآيــة (١٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القَصَص:١٥].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَدَخَلَ﴾ مُوسَى ﴿ٱلْمَدِينَةَ﴾ مَدِينَةَ فِرْعَوْنَ -وَهِيَ مَنْفُ- بَعْدَ أَنْ غَابَ عَنْهُ مُدَّةً ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وَقْتِ الْقَيْلُولَةِ ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أَيْ إِسْرَائِيلِيٌّ ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أَيْ قِبْطِيٌّ يُسَخِّرُ إِسْرَائِيلِيًّا لِيَحْمِلَ حَطَبًا إِلَى مَطْبَخِ فِرْعَوْنَ ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ فَقَالَ لَهُ مُوسَى خَلِّ سَبِيلَهُ. فَقِيلَ: إِنَّهُ قَالَ لِمُوسَى: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَحْمِلَهُ عَلَيْكَ ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أَيْ ضَرَبَهُ بِجَمْعِ كَفِّهِ، وَكَانَ شَدِيدَ الْقُوَّةِ وَالْبَطْشِ ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ قَتَلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ قَصَدَ قَتْلَهُ، وَدَفَنَهُ فِي الرَّمْلِ ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ قَتْلُهُ ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الْمُهَيِّجِ غَضَبِي ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ﴾ لِابْنِ آدَمَ ﴿مُّضِلٌّ﴾ لَهُ ﴿مُّبِينٌ﴾ بَيِّنُ الْإِضْلَالِ].

كان هذا الدُّخُولُ بَعْدَ بُلُوغِ الْأَشُدِّ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ أَنَّ مَا تَقَدَّمَ ذِكرًا فهو مُتقدم وُقوعًا وعملًا، هَذَا هُوَ الْأَصْلُ، وُقوعًا إِنْ كَانَ فِي الْأَخْبَارِ، وعملًا إِنْ كَانَ فِي الْأَحْكَامِ.

ولهذا أقبل النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَلَى الصَّفَا، وقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن

شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨]، ثم قال: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ»(١).

وَقَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ الْفُقَرَاءَ أشد حاجةً مِن المساكين؛ لِأَنَّ اللهَ بَدَأَ بِهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠].

فهنا نَقُولَ: لَمَّا ذَكَرَ اللهُ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَدَخَلَ﴾ عَلِمْنَا بِأَنَّ دخوله المدينةَ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ أَشُدَّهُ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَدَخَلَ﴾ مُوسَى، ﴿ٱلْمَدِينَةَ﴾ أَيْ مَدِينَةَ فِرْعَوْنَ، وَهِيَ مَنْفُ أَوْ مُنْفُ -بِضَمِّ الميم وسكون النون- بَعْدَ أَنْ غَابَ عَنْهُ مُدَّةً].

تعيين المدينة بأنها مدينة فِرْعَون فِي نَفْسِي مِنْ هَذَا شَيْءٌ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ تربّى عند فِرْعَون، في مدينته نفسها، وفي مكانه نفسه، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يقال: إِنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ فِي مِصْرَ، وإِنَّ مَنْفَ هَذِهِ بلد خَارِجَةٌ عَنِ القاعدة الأصلية، يعني: قصبة البلد، وإنه خَرَجَ فِي يَوْمٍ مِنَ الأيام، فدخلها، والأحسنُ فِي مِثْلِ هَذَا المَقَامِ إِذَا لَمْ تَرِدْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ نَقُولَ: مدينة مِن مُدن مصر، ويسكنها أقباطٌ وإسرائيليون بدليل القصة.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وقتَ القيلولة].

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: المراد عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ زمنًا، يعني: أَنَّهُمْ فِي زَمَنٍ يَغْفُلُ النَّاسُ فِيهِ، وبعضُهم يَقُولُ إِنَّهُمْ نَسُوا موسى وقِصَّته، وطال الزَّمَن، فدخل ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ مِن التحدث فِي هَذَا الْأَمْرِ.

ولكن المَعْنَى الْأَوَّلُ أَظْهَرُ، وهو أنه دَخَلَهَا فِي وَقْتٍ أهلُها غافلون، وَلَا يَتَعَيَّنُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

أَنْ يَكُونَ وَقْتَ القيلولة، الَّذِي قَدْ يَكُونُ بالليل، أَوْ فِي المَغْرِبِ، اللهُ أَعْلَمُ، إنما هو فِي وَقْتٍ أَهْلُ الْبَلَدِ غافلون.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: إسرائيلي، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي: قِبطي].

الاقتِتالُ بمعنى: المنازَعةِ والمخاصَمةِ، والمضارَبَة أيضًا، وَلَيْسَ المُرَادُ فِيمَا يَبْدُو أنهما يريدان أَنْ يَقْتُلَ أحدهما الآخَر.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾: شِيعة الرَّجل: أتباعُه، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات:٨٣].

وقيل: إِنَّ الشيعة مَن يُناصِرُك، كُلُّ مَنْ يُناصرك فهو شيعة لك، سَوَاءٌ كَانَ مُتَّبِعًا لك، أَوْ غَيْرَ مُتَّبِعٍ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: المراد بالشيعة: أَنَّهُ مِنْ قبيلته، وَلِهَذَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: إسرائيلي].

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ مِنْ عَدُوِّ موسى، أي: مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وهُم الأقباط.

وقول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي قِبطي يُسخِّر إسرائيليًّا لِيَحْمِلَ حَطَبًا إلى مَطْبَخ فِرعونَ].

هَذَا مِنَ الْعَجَبِ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: ﴿يَقْتَتِلَانِ﴾ يَتَخَاصَمان ويتنازعان، وربما يحصُل بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ، كعادة النَّاس، الأعداء يُخاصِم بَعْضُهُمْ بَعْضًا دائمًا، ويُقاتل بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

وَقَدْ ذَكَرَ شيخُنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ، بِأَنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ شعب بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَذِلَّةً؛ يُقتَّل أبناؤهم، ويُستحيَا نساؤهم، أصبحوا الآن يرون أنفسهم أندادًا لآل فِرْعَون الأقباط؛ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ مُوسَى منهم، وأن مُوسَى فِي مَنْزِلَةٍ عظيمة عند فِرْعَونَ، فقد استقوت ظُهورهم بهذا الشَّيْء، وهذا واضح، سوف يَقوون بهذا الشَّيْء، ويرون أنفسهم أندادًا لآل فِرْعَون.

أَمَّا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُسَخِّرَه ليحمل الحطب إلى المطبخ، فَهَذَا ليس ظَاهِرًا، وَيَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ بَيِّن، وَلَا دَلِيلَ هنا، فيشرح الموقف عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُجري الأُمُورَ بأسباب، وأصلُ القصةِ دخولُ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المدينةَ، ووجود الرَّجلين، وقَتْله النفس، كُلُّ هَذَا كَانَ سَبَبًا لخروجِ موسى، ثم نُبُوَّتِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾ فِيهِ جَوَازُ الاستغاثة بالمخلوق، فهي مشروعة بما تُفيد فيه، أَمَّا مَا لَا يُفِيدُ فِيهِ، فَلَا يَجُوزُ.

فَعَلَى هَذَا إِذَا استغاث إنسانٌ بِمَيِّت، فَلَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُفيده، وإذا استغاث بحيٍّ بِمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَلَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُفيده، وإذا استغاث بِحَيٍّ فيما يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَهُوَ جَائِزٌ.

إذن: الاستغاثَةُ بالمخلُوقِ جائزةٌ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ فِيمَا يُفيد، كَذَلِكَ فِي حَيٍّ قَادِرٍ عَلَى دَفْعِ الشدة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الْعَدَاوَةِ وَالْوِلَايَةِ؛ لقوله: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾، وَهُوَ أَصْلٌ فِي الدِّينِ، فإن وِلاية الْمُؤْمِنِينَ مِن واجب المؤمن، والبراءة مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ وَاجِبِ المؤمن، قَالَ تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة:٤]، فهذا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ، فلَا بُدَّ أَنْ يتبرأ الْإِنْسَانُ مِن كُلِّ كَافِرٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى قُوَّةِ مُوسَى؛ لقوله: ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فِيهَا إِثْبَاتُ غَيْرَتِه، وسرعة استجابته، لِأَنَّهُ لَمْ يَتَلَكَّأْ فِي الْأَمْرِ، بل بادَرَ فيه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جَوَازُ دَفْعِ الصائل بما يَصِلُ إِلَى الْقَتْلِ، ففي الشريعة الإِسْلامية معروف أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا صَالَ عَلَيْهِ أَحَدٌ، ودفعه بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، ولم يندفع؛ فَلَهُ أَنْ يَقْتُلَهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ المَعَاصِيَ مِنْ أَوَامِرِ الشَّيْطان وأعمـاله؛ لقوله: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات السبب؛ لقوله: ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ لأن ﴿مِنْ﴾ هنا سببيَّة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: ثبوت عداوة الشَّيْطان لِبَنِي آدَمَ ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ﴾، وأُكِّد بـ(إِنَّ) لِشِدَّة التنفير منه؛ لأن عداوته لَيْسَ فيها التباس.

الآيــة (١٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القَصَص:١٦].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ نَادِمًا ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بِقَتْلِهِ ﴿فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أَيِ المُتَّصِفُ بِهِمَا أَزَلًا وَأَبَدًا].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، إثبات أَنَّ الرُّسُلَ -عليهم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قد يخطئون، ولكن يَكُونُ ذَلِكَ قَبْلَ الرِّسالَة، لَكِنْ لَا يَقَعُ منهم فسادُ الأخلاق وشُرب الخمور، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أما الغَيْرَةُ والحَمِيَّة فهذا قَدْ يَقَعُ منهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات هذين الاسمين مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ: الغَفُور والرَّحيم، وإثبات الاسم -كما مَرَّ علينا- فِي أُصُولِ العقيدة يتضمن ثَلَاثَةَ أُمُورٍ: إِذَا كَانَ الِاسْمُ مُتعديًا، وأَمْرَيْن إِذَا كَانَ لازمًا، يتضمن إِثْبَاتَ هَذَا الِاسْمِ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ، وإثباتَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ صِفَةٍ، وإثباتَ الأَثَرِ، وهو تَعَدِّيهِ إِلَى المَخْلُوقِ، مثلًا: الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، يتضمن ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ: إثبات الْغَفُور الرَّحِيم عَلَى أَنَّهُمَا مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ، وإثبات صِفَتَي المَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإثبات الأثر المترتب عَلَى ذَلِكَ، وأنه يَغفر ويَرحم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ دَلِيلٌ عَلَى إِثْبَاتِ الأَسْبَاب، وَذَلِكَ لِأَنَّ (الفاء) هنا سببية، يعني: فبِسَبب ظُلم نفسي، فإني أسألك أن تَغْفِرَ لِي.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ استجابة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الاستجابة مِنْ صِفَاتٍ؛ لأن الاستجابة تتضمن السمع والعِلم والقُدرة والغِنى، فإذا استجاب اللهُ لإنسان فمَعْنَاهُ أَنَّهُ كَانَ قَدْ سَمِعَهُ، وعَلِمَ بحاله، وقَدَرَ عَلَى إِعْطَائِهِ سُؤْلَهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ كَرَمِ اللهِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جَوازُ التوسُّل إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحالِ الدَّاعي، ويُؤخذ مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، فالظَّالِم لنفسه مُحْتَاجٌ إِلَى مَن ينصحُه، فهو توسَّلَ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحال الدَّاعي، وَمِنْهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ مُوسَى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القَصَص:٢٤].

والتوسُّل إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يكون بحالِ الدَّاعي، ويكون بِالثَّنَاءِ عَلَى اللهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وكذلك بأفعاله، التي يُنعم بها، وَقَدِ اجْتَمَعَ الْجَمِيعُ فِي تَعْلِيمِ النَّبِيِّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ عندما قَالَ لَهُ: عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي؟ قال: «قل: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»(١).

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات أَنَّ الدُّعَاءَ سببٌ، خِلَافًا لِمَنْ أَنْكَرَ سببيته.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥).

فقد يَقُولَ قَائِلٌ: إِنَّ الشَّيْء إِنْ كَانَ قَدْ كُتِب لِي، لَمْ يَحْتَجْ إِلَى دعاء، وَإِنْ كَانَ لَمْ يُكْتَبْ لِي، فَلَا فَائِدَةَ مِنَ الدُّعَاءِ.

والجواب عَلَى ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: هو مكتوب لك بالدُّعاء، مكتوب لك بِهَذَا الشَّرْطِ بالدُّعاء، مثلًا لَا يَقُولُ قَائِلٌ: أَنَّا لَا أدعو؛ لأن المكتوب لَا بُدَّ أَنْ يَحْصُلَ، وَمَا لَا يُكْتَبُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْصُلَ. فَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لأنَّه مكتوب لك بِهَذَا السَّبَبِ.

كما لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أنا لن أتزوج، إِنْ كَانَ اللهُ قَدَّرَ لِي ولدًا فسيكون، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ قَدَّرَ لي ولدًا، فَلَا فَائِدَةَ مِنَ الزَّوَاجِ. نقول: ولكنه مقدرٌ بالزواج، فَهَذِهِ الْأُمُورُ الغيبية مِثل الأُمُور المشاهدة، كَمَا أَنَّ الْأُمُورَ المشاهدة لَا تَصْلُحُ إِلَّا بفعل الْأَسْبَابِ الَّتِي تُوصِلُ إليها، فكذلك الأُمُور الغائبة لَا تَصْلُحُ.

إذن نقول: لَا تَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا؛ لِأَنَّك إِذَا كُنْت مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ فإنك سَتَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كُنْت مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فلن تَكُونَ إِلَّا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فيقال: أنت تَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ بعملك.

ولهذا لَمَّا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ لأصحابه: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ إِمَّا فِي الجَنَّةِ أَوْ فِي النَّارِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَدَعُ العَمَلَ وَنَتَّكِلُ عَلَى الْكِتَابِ؟ قَالَ: «لَا، اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»، أو: «فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ»، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠][1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾، رقم (٤٩٤٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٧).

فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ الكثيرة دَلِيلٌ عَلَى تأثير الدُّعَاءِ فِي حُصُولِ المطلوب؛ لِأَنَّ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُكابر، أَوْ جَاهِلٌ.

• • ۞ • •

الآيــة (١٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القَصَص:١٧].

قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ ﴾ بِحَقِّ إِنْعَامِكَ ﴿عَلَيَّ﴾ بِالمَغْفِرَةِ اعْصِمْنِي ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ عَوْنًا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ بَعْدَ هَذِهِ إِنْ عَصَمْتَنِي].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: هَذِهِ الْآيَةُ -كما مر علينا- مِنَ الْعُلَمَـاءِ مَن يقول: إنها دعاء. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إنها خبرٌ بمعنى: التزام.

فَإِنْ قِيلَ: إنها دعاء؛ فإنه يُستفاد منها ما يُستفاد مِنَ الْآيَةِ السَّابِقَةِ، فيستفاد جَواز التوسُّل بِنِعَمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ قَوْلَه: ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ﴾ أي: بسبب إنعامك عليَّ.

وَإِنْ قِيلَ: إنها التزامٌ، فإنها تَدُلُّ عَلَى شُكْرِ النِّعْمَ، وَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَلَّا يَكُونَ عَوْنًا بهذه النعمة للمجرمين.

وقلنا: إِنَّ المَعْنَى الثَّانِيَ أقربُ وأرجح؛ لِأَنَّهُ ظَاهِرُ الْآيَةِ، وَلَا يَنْبَغِي الْعُدُولُ عَنْ ظاهِرِها، وَإِنْ كَانَتْ تحتمل المَعْنَى الثَّانِيَ.

فيستفاد منها إذن كمالُ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ حيث التزم للهِ تعالى شُكْرًا عَلَى نِعْمَتِهِ بأَلَّا يكون ظهيرًا للكافرين والمجرمين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مُظاهرة المجرم تُنافي الشكر، فَهِيَ مُحَرَّمَةٌ؛ لأَنَّها إجرامٌ حقيقةً، بَلْ تَكُونُ مساعدة المجرم بمنع إجرامه، وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا، أَوْ مَظْلُومًا». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا الظَّالِمُ، فَكَيْفَ نَنْصُرُ المَظْلُومَ؟ قَالَ: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ»[1].

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب: أعِن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، رقم (٢٣١٢).

الآيــة (١٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [القَصَص:١٨].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ يَنْتَظِرُ مَا يَنَالُهُ مِنْ جِهَةِ الْقَتِيلِ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يَسْتَغِيثُ بِهِ عَلَى قِبْطِيٍّ آخَرَ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ بَيِّنُ الْغَوَايَةِ لِمَا فَعَلْتَهُ بِالْأَمْسِ وَالْيَوْمِ].

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي: موسى، ومعنى أصبح أي: دَخَلَ فِي الصباح، يعني: بات ليلته، وَلَكِنَّهُ فِي صباحها أصبح ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾: (ال) هنا للعهد الذِكري؛ لأنَّه سبق ذِكرها، وقوله: ﴿خَآئِفًا﴾ خبر أصبح، وهو منصوب، وقوله ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ إِمَّا أَنْ تَكُونَ خبرًا ثانيًا، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ تَعَدُّد الخبر مَعَ الاِخْتِلَافِ؛ لِأَنَّهُ يَجُوزُ تَعَدُّد الخبر، سواء تَعَدَّد بلفظ الْمُفْرَد، أو تَعَدَّد بِلَفْظِ الْجُمْلَةِ، أو تَعَدَّد بلفظ المفرد والجملة، أو حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿خَآئِفًا﴾، أَيْ حَالَ كونِه يترقَّب.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ يقول الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ينتظر مَا يَنَالُهُ مِنْ جِهَةِ القتيل]، لِأَنَّ هَذَا القتل إجرامٌ، فكلُّ إنسان يقتل شَخْصًا فِي بَلَدٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَخَافَ، وَهَذَا الْخَوْفُ مِنَ طبيعة البشر، وليس خوفَ عبادةٍ.

والخوفُ نوْعانِ:

الْأَوَّلُ: خوف عبادة يقتضي التَّقَرُّبَ إِلَى المَخوف، والتزامَ طاعته، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

الثَّاني: خوفٌ طبيعي مما يُخَافُ مِنْهُ، وَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ طبيعة البشر، لكنه يكون مذمومًا إِذَا أَدَّى إِلَى تَرْكِ واجب، أَوْ فِعْل محرَّم، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: ﴿فَإِذَا﴾ فُجائية، يعني: فاجأه في الصباح وهو خائف يترقَّب، فاجأه أَنَّ صَاحِبَهُ الإسرائيلي الذي استنكره بالأمس هُوَ الْيَوْمَ يسْتَصْرِخُه، والاستِصْراخُ معناه: طلب الإنقاذ مِن الشِّدة.

وهنا نجد أَنَّ الرَّجُلَ قَدِ استغاثَ واستصْرَخ واستَنْصر، والظَّاهرُ أن الاستغاثة والاستنصار بِمَعْنًى وَاحِدٍ، ولكن الاستنصار أعمُّ؛ لأنك قد تستنصر إنسانًا لينصُرَك، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِي شِدَّةٍ.

والاستغاثةُ أَخَصُّ، إِلَّا أَنَّ الْآيَةَ الكَرِيمَة تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الاستغاثة مِنْ بَابِ الاستنصار.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: [يَسْتَغِيثُ بِهِ عَلَى قِبْطِيٍّ آخَرَ].

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾ الضَّمِيرُ فِي ﴿لَهُۥ﴾ يَعُودُ إِلَى الإسرائيلي الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ، وَزَعَمَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ إِلَى القبطي، وأَنَّ مُوسَى ﷺ عاقب القبطي، وَقَالَ لَهُ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾، وَلَكِنَّ هَذَا بَعِيدٌ عن السياق، فالصَّواب أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ إِلَى الإسرائيلي الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: بَيِّن الغِواية لما فعلتَه أمسِ واليوم.

غَوِيّ: عَلَى وَزْنِ فَعِيل، بمعنى: فاعِل، أَوْ عَلَى أَنَّهَا صِفَة مُشبَّهة، والغويُّ ضِدُّ المُرشِد، وَهُوَ الَّذِي يَتَصَرَّفُ عَلَى وَجْهِ الإساءة، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]، والرُّشد هو إحسان التصرُّف، والغَيُّ سُوء التصرف، فَيَكُونُ المَعْنَى: ذو غِواية، أو سيئ التصرف.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: بَيِّنُها، ووجهُ سُوء تصرُّفه أَنَّ أمسِ القريب كان يتخاصم مع قِبطي، واليوم الثَّانِي الَّذِي يَلِيهِ كَانَ يتخاصم أَيْضًا مَعَ قِبطي آخَر صاحب مَشاكل، فلهذا قَالَ لَهُ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، فمن الجَائِزِ أَنْ يتسبب في مشكلات كثيرة غدًا، وَبَعْدَ غَدٍ.

الآيــة (١٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القَصَص:١٩].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَلَمَّآ أَنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ لِمُوسَى وَالْمُسْتَغِيثِ بِهِ ﴿قَالَ﴾ الْمُسْتَغِيثُ ظَانًّا أَنَّهُ يَبْطِشُ بِهِ لَمَّا قَالَ لَهُ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن﴾ مَا ﴿تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ فَسَمِعَ الْقِبْطِيُّ ذَلِكَ فَعَلِمَ أَنَّ الْقَاتِلَ مُوسَى فَانْطَلَقَ إِلَى فِرْعَوْنَ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَأَمَرَ فِرْعَوْنُ الذَّبَّاحِينَ بِقَتْلِ مُوسَى فَأَخَذُوا فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهِ].

قوله تعالى: ﴿أَن﴾ كلمة ﴿أَن﴾ زائدة، والزيادةُ هنا لفظيةٌ وإعرابية، وليست زيادةً معنويةً؛ لأنَّها تُفيد التوكيد، وجميعُ الحروف الزَّائِدة فِي الْقُرْآنِ لفظًا هي أصليةٌ مَعنًى؛ لأنَّها تُفيد معنى التوكيد، وتَطَّرِد زيادةُ (أَنْ) بَعْدَ لَمَّا، وَكَذَلِكَ قَبْلَ (لو، نعم)، كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ[1]:

وَأُقْسِمُ أَنْ لَوِ الْتَقَيْنَا وَأَنْتُمُ .....

(١) هذا صدر بيت لامرئ القيس، كما في خزانة الأدب، للبغدادي (١٠/ ٨٠)، وعَجُزه:
لَكَانَ لَكُمْ يَوْمٌ مِنَ الشَّرِّ مُظْلِمُ

ومِثل قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦]، فـ(أنْ) هنا مُخَفَّفَة مِن الثقيلة، يعني: وأنهم لو استقاموا.

قوله تعالى: ﴿أَرَادَ أَن يَبْطِشَ﴾ أي: أراد موسى، والبطشُ: الأخذ بِقُوَّة.

قوله تعالى: ﴿بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ لموسى والمستغيث به، قال المستغيث ظانًّا أنه يَبْطِشَ بِهِ لَمَّا قَالَ لَهُ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾. والظَّاهر هُنَا أَنَّ مُوسَى قد تهيَّأ، وَأَرَادَ أَنْ يَفْعَل، فشاهد المستغيثُ ذلك، وإلا فكيف عَرَفَ أَنَّ مُوسَى أراد، والإرادة محلُّها القلب؟

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قَالَ الْمُسْتَغِيثُ] يعني: الْفَاعِل فِي [قَالَ الْمُسْتَغِيثُ]، وهذا يُبعده أمران: أمرٌ لفظي، وأمرٌ معنوي:

أما الأمر اللفظي: فإنَّ ﴿قَالَ﴾ ضميرهُا يَعُودُ إِلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ، وهو القبطي.

والأمر المعنوي: أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى﴾، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾، فنحن نفسر الإرادة الثَّانية بالإرادة الأُولى؛ لأن القبطي هُوَ الَّذِي قَالَ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾.

والقبطي قَدْ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ للإسرائيلي: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾، فقد اشتهرت قصة الْقَتْلِ فِي الْمَدِينَةِ وظهرت، وصار النَّاس يتحدثون عنها، فعرف القبطي أن الإسرائيلي عَدُوٌّ لَهُ، وَهُوَ مَا لَامَه مُوسَى عليه قائلًا: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾، فاستنتج مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِي قَتَلَ القبطي بالأمس هو موسى، فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الراجح مِن قَوْلَيِ الْمُفَسِّرين.

والْمُفَسِّرون لَهُمْ فِي ذَلِكَ قَوْلَانِ:

أحدهما: أَنَّ الَّذِي قَالَ ذَلِكَ الإسرائيلي، مَعَ أَنَّ مُوسَى تهيَّأ للبَطش بالقبطي، لَكِنَّهُ ظَنٌّ أنه سيَبطش به، لذا قال: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

ثانيهما: أَنَّ الْقَائِلَ هو القِبطي، ويُرجح ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الإسرائيليين أعداءٌ للأقباط، وعَلِم أو استنتج أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ الَّذِي قَتَلَ القبطي بالأمس، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي﴾؛ لأني قبطي مثلما قتلت القبطي بالأمس.

قَوْلُه تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾: ﴿إِن﴾ بِمَعْنَى (مَا)، وهي نافية، وقوله: ﴿جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الجبَّار: معناه المتعالي المترفِّع عَلَى غَيْرِهِ، وَهُوَ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويُوصَفُ بِهِ غَيْرُهُ، وله ثَلَاثَةُ مَعَانٍ:

أحدهما: المتعاظِم، وذو القُوَّة والبطش.

الثَّاني: الْجَبَّارُ الَّذِي يَجْبُرُ الكَسِير، ويرحمه، ويعطف عليه.

الثالث: يَقُولُ ابْنُ القيم في (النونية)[1]:

وَلَهُ مُسَمًّى ثَالِثٌ وَهْوَ الْعُلُوّ ... فَلَيْسَ يَدْنُو مِنْهُ مِنْ إِنْسَانِ

مِنْ قولهم: جَبَّارَة، للنخلة العُليا، وجَبَّار: بمعنى الارتفاع، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: نخلة جَبَّارة، يعني: طويلة مرتفعة، لَكِنْ إِذَا جَاءَتْ فِي صِفَاتِ غَيْرِ اللهِ؛ فإنها للذَّم، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥].

واتِّهام موسى بقوله: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ استنادًا على قَتْلِه القِبطي بالأمس، وإرادة قتله اليوم.

---

(١) نونية ابن القيم المسماة بالكافية الشافية (ص٢٠٩).

واتِّهامه بقوله: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ أخذها أَيْضًا مِنْ قَتْلِه بالأمس، وسيَقتُل اليوم، والمصلح عَادَةً لَا يعتدي عَلَى أَحَدِ المتخاصمَينِ، ولكنه يحاول الْإِصْلَاحَ بَيْنَهُمَا، فَهُوَ يَقُولُ: إنك بإرادتك الْقَتْلَ، وَقَدْ قتلتَ بالأمس، معناها أنك تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا، ولا تريد الإصلاح؛ إِذْ إِنَّ مَن يُريد الإصلاح يسعى بالإصلاح بَيْنَ النَّاسِ، لا يسعى بأن يَسْتَعْدِيَ عَلَى أَحَدِهِمْ دُونَ الْآخَرِ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ لا ينطبق عَلَى مُوسَى؛ لأن مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مَا أَرَادَ إِلَّا الإصلاح، وَلَكِنَّ هَذَا الرَّجُلَ ظَنَّ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ إِلَّا الجبروت، وَالِاعْتِدَاءِ عَلَى مَنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ شِيعته.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾: [فَسَمِعَ الْقِبْطِيُّ ذَلِكَ فَعَلِمَ أَنَّ الْقَاتِلَ مُوسَى فَانْطَلَقَ إِلَى فِرْعَوْنَ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَأَمَرَ فِرْعَوْنُ الذَّبَّاحِينَ بِقَتْلِ مُوسَى فَأَخَذُوا فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهِ]، هَذَا الَّذِي فَسَّره بِنَاءً عَلَى مَا اخْتَارَهُ مِنَ أَنَّ الَّذِي قَالَ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي﴾ هو الإسرائيلي، أَمَّا عَلَى الْقَوْلِ الثَّانِي؛ فإن القبطي لَمَّا رَأَى أَنَّ مُوسَى يُرِيدُ قَتْلَهُ، استنتج أنه القاتل بالأمس، فترك المخاصمة، وَذَهَبَ إِلَى آلِ فِرْعَوْنَ، وأخبرهم، وإذا أخبرهم فسوف ينتقمون لأنفسهم.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٠)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القَصَص:٢٠].

قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ هُوَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ آخِرُهَا ﴿يَسْعَىٰ﴾ يُسْـرِعُ فِي مَشْيِهِ مِنْ طَرِيقٍ أَقْـرَبَ مِنْ طَرِيقِهِمْ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ يَتَشَاوَرُونَ فِيكَ ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ مِنَ المَدِينَةِ ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فِي الْأَمْرِ بِالْخُرُوجِ].

عَلِمْنَا أَنَّ هُنَاكَ مَنْ أَخْبَرَ آلَ فِرْعَوْنَ بأن مُوسَى هُوَ مَنْ قَتَلَ القِبطي، فإما أنهم أرسلوا مَنْ يُرِيدُ قتل موسى، أَوْ لَمْ يُرسلوا، ولكنهم تشاوروا فِي أَمْرِهِ، كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ مِنْ كَلَامِ مَنْ جَاءَ يُحَذِّره.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو مُؤمن آلِ فِرْعَوْنَ]، وَهَذَا التَّأْوِيلُ الَّذِي قَالَهُ لا يُجزَم به؛ لِأَنَّ اللهَ تعالى نَكَّره، وَلَمْ يَقُلْ: إنه مؤمن. بينما قَالَ عَنْهُ فِي قِصَّةِ مؤمن آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر:٢٨]، وَلَكِنْ مَا يَعنينا في قصتنا هَذِهِ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ -وَلَا شَكَّ- عنده عَطْفٌ عَلَى مُوسَى، وَرَحْمَةٌ بِهِ، وَلِهَذَا جَاءَ يُخبره.

فائدة: يَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾، ويقول فِي سُورَةِ يس فِي

قِصَّةٍ أخرى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يس:٢٠]، فِي الْأُولَى قَدَّم ﴿رَجُلٞ﴾ على ﴿أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾، وفي الثَّانية أَخَّرها، والحِكمة مِنْ ذَلِكَ أَنَّ قِصَّةَ سُورَةِ الْقَصَصِ فِيهَا اهتمامٌ بِالْخَبَرِ الَّذِي جَاءَ بِهِ ذَلِكَ الرَّجُلُ، فقدَّم ذِكْرَهُ عَلَى ذِكْرِ المكان، فكونه جَاءَ مِنَ الأقصى، أَوْ مِنَ الْأَدْنَى لَا يُؤَثِّرُ، أَمَّا فِي قِصَّةِ الرُّسل الثَّلَاثَةِ فِي سُورَةِ يَس، ففيها اهتمامٌ بكَوْن هَذَا الرَّجُلِ بَعيدًا عن الرُّسل، وَمَا جَاءَ إِلَّا ليؤكد صِحَّةَ مَا جاءوا بِهِ قَبْلَهُ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ آخِرُها، يعني: أَبْعَدُها مِنْ مَكَان موسى. وقال: في ﴿يَسۡعَىٰ﴾: [يُسرع في مشيه مِنْ طَرِيقٍ أَقْرَبَ مِنْ طريقهم]، وتقدَّم أَنَّ هَذَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ الذَّبَّاحين خرجوا ليذبحوا موسى، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِلَازِمٍ.

وقوله: ﴿يَسۡعَىٰ﴾ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ صِفة، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حالًا، صِفة لِأَنَّ قَوْله ﴿رَجُلٞ﴾ نكرة، وحالٌ لِأَنَّ هَذِهِ النكرةَ وُصِفت بقوله: ﴿مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾.

ومعنى ﴿يَسۡعَىٰ﴾: أي يُسرع فِي المَشْيِ، كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الإسراع -كَمَا زَعَمَ- حَتَّى يسبق مَنْ أُرْسِلَ إِلَى مُوسَى ليقتُلَه، وَقَدْ يَكُونُ خَوْفًا مِن تنفيذ ما ائتَمَروا عَلَيْهِ فِي شَأْنِهِ، والأخير هُوَ الْأَفْضَلُ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ﴾: [مِن قَوْمِ فِرْعَونَ، ﴿يَأۡتَمِرُونَ بِكَ﴾ يتشاورون فيك].

قَوْلُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ نداؤه بهذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ كَانَتْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بموسى، ولهذا ناداه باسمه، وَلَكِنْ فِي قِصَّةِ مؤمن آلِ فِرْعَوْنَ فِي سُورَةِ غافر قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا﴾ [غافر:٢٨]، وهنا نجد أَنَّهُ مَا قَالَ: أتقتلون موسى؟ لأن المقام يَقْتَضِي أَلَّا يُبَيِّنَ أَنَّ لَهُ

اتصالًا به ومعرفةً، فلَوْ قَالَ: أتقتلون موسى؟ لقالوا: هَذَا الرَّجُلُ يعرف موسى. ولَأَخَذُوه، وَلَكِنَّهُ قَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾، كَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُهُ، ولكن يَعْرِفُ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الدعوة الصحيحة السليمة.

أما هنا فَإِنَّ الرَّجُلَ يعرف موسى؛ وَلِهَذَا ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾، وأكَّد له الخبر بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾، مَعَ أَنَّ مُوسَى كَانَ خاليَ الذهن مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ مُهِمٌّ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِيمَا سَبَقَ أَنَّ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَقْتَضِي تأكيد الجملة الخبرية لَيْسَتْ هِيَ حَالَ المخاطَب فقط، ولكن حال الْمُخْبَرِ عَنْهُ أَيْضًا، إِذَا كَانَ مُهِمًّا فإنه يُؤَكَّدُ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: [﴿فَٱخْرُجْ﴾ مِنَ الْمَدِينَةِ، ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فِي الْأَمْرِ بِالْخُرُوجِ]. وَهُوَ لَهُ مِنَ الناصحين، لَيْسَ فِي الْأَمْرِ بِالْخُرُوجِ فقط، وَلَكِنْ فِي مَجِيئِهِ إِلَيْهِ أَيْضًا، وإخباره بذلك.

وَأَمَّا الَّذِينَ يأتمرون بشأنه، فليس عَامَّةَ النَّاسِ، بَلْ هُمُ الملأ، والكُبراء الذين يُنَفِّذُون ما ائتمروا به؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ الذين يَتَشَاوَرُونَ فِي هَذَا، مَا كَانَتْ لَهُ أهمية.

• • ۞ • •

الآيتان (٢١، ٢٢)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القَصص:٢١-٢٢].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ لُحُوق طَالِب أَوْ غَوْث الله إِيَّاهُ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قَوْم فِرْعَوْن، ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ﴾ قَصَدَ بِوَجْهِهِ ﴿تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ جِهَتهَا وَهِيَ قَرْيَة شُعَيْب مَسِيرَة ثَمَانِيَة أَيَّام مِنْ مِصْر سُمِّيَتْ بِمَدْيَن بْن إِبْرَاهِيم وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِف طَرِيقهَا، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أَيْ قَصْد الطَّرِيق أَيْ الطَّرِيق الْوَسَط إِلَيْهَا فَأَرْسَلَ الله مَلَكًا بِيَدِهِ عَنْزَة فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَيْهَا].

الآيــة (٢٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القَصَص:٢٣].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ بِئْرٌ فِيهَا، أَيْ وَصَلَ إِلَيْهَا ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾ جَمَاعَةً ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مَوَاشِيَهُمْ ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ سِوَاهُمُ ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تَمْنَعَانِ أَغْنَامَهُمَا عَنِ المَاءِ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى لَهُمَا ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ مَا شَأْنُكُمَا لَا تَسْقِيَانِ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ جَمْعُ رَاعٍ أَيْ يَرْجِعُونَ مِنْ سَقْيِهِمْ خَوْفَ الزِّحَامِ فَنَسْقِي، وَفِي قِرَاءَةٍ يُصْدَرَ مِنَ الرُّبَاعِيِّ أَيْ يَصْرِفُوا مَوَاشِيَهُمْ عَنِ المَاءِ ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَسْقِيَ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْكَمُ عَلَى الْأُمُورِ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ الأَسْبَاب، فَإِنَّ مُوسَى لَمْ يَحْكُمْ على المرأتين بِأَيِّ حُكْمٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ قَالَ: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ يعني: لماذا تَذُودان غَنَمَكُما عن السَّقْي؟ وَلَمْ يَحْكُمْ بِأَيِّ حُكْمٍ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، فسألهما.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القَصَص:٢٥]، قوله ﴿تَمْشِي﴾ حالٌ، وقوله: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ المستتر

فاعِل ﴿تَمْشِى﴾.

وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ أَيُّ الفتاتين الكبيرة، أو الصغيرة هِيَ مِنَ جاءت، فالقُرْآن مَا بَيَّنَ ذَلِكَ.

الآيــة (٢٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القَصَص:٢٤].

قال المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ مِنْ بِئْرٍ أُخْرَى بِقُرْبِهِمَا، رَفَعَ حَجَرًا عَنْهَا لَا يَرْفَعُهُ إِلَّا عَشَـرَةُ أَنْفُسٍ ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ﴾ انْصَرَفَ ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ لِسَمُرَةٍ مِنْ شِدَّةِ حَرِّ الشَّمْسِ وَهُوَ جَائِعٌ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ طَعَامٍ ﴿فَقِيرٌ﴾ مُحْتَاجٌ، فَرَجَعَتَا إِلَى أَبِيهِمَـا فِي زَمَنٍ أَقَلَّ مِمَّا كَانَتْ تَرْجِعَانِ فِيهِ، فَسَأَلَـهُمَا عَنْ ذَلِكَ فَأَخْبَرَتَاهُ بِمَنْ سَقَى لَهُمَا، فَقَالَ لِإِحْدَاهُمَا ادْعِيهِ لِي، قَالَ تعالى].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: قوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أي جَلب المَاءَ مِنَ البئر لأغنامهما، وَاللَّامُ فِي ﴿لَهُمَا﴾ للتَّعلِيل، وليست للتعدية.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قوله: ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [القَصَص:٢٤]، المراد بالظل ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ، مِنْ جَبَلٍ أَوْ أَكَمَةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قوله: ﴿إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ هنـا لَمْ يَتَعَـدَّ قوله: ﴿فَقِيرٌ﴾ بـ(إلى)، بينما قَالَ اللهُ تعالى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر:١٥]، فعُدِّي الْفَقْـرُ إِلَى اللهِ بـ(إلى)، وإذا أُضِيـفَ إِلَى الشَّيْءِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ

عُدِّي باللام، فكان فقيـرًا للمال، وَلَمْ يَكُنْ فقيـرًا إليه؛ لِأَنَّ المَالَ ليس مَبْلَغَ هـوى المفتقِرين، وَإِنَّمَا فِيهِ زوالُ فَقْرِهم، وأمَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو مُنْتَهى فقرهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قوله: ﴿فَقِيرٌ﴾ هُوَ فِي الْأَصْلِ وصـفٌ لموسى، ولكنه هنا فِي الْإِعْرَابِ خبر (إِنَّ).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: رأفةُ نَبِيِّ اللهِ موسى بهاتين القاصِرَتين؛ لقوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَوَقِّي الأُمُور الضارة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جَوَازِ الِاقْتِصَارِ فِي الدُّعَاءِ عَلَى ذِكْرِ حال الدَّاعي بِدُونِ طلب، وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: يَنْبغي تقديمُ الدُّعاء بِذِكْر الرب؛ لقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ﴾ وَقَدْ ذَكَرْنَا قبل ذلك أَنَّ هَذَا هُوَ أَكْثَرُ مَا يُتَقَبَّل به الدُّعاء، يعني بلفظ الربوبية؛ لأن بالربوبية يكون الخلق والتقدير للإنسان.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: حَاجَةُ الْإِنْسَانِ إِلَى رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَأَنَّهُ فِي غَايَةِ ما يَكُونُ مِنَ الضَّرُورَةِ إِلَى الْخَيْرِ النازل إِلَيْهِ مِنَ اللهِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: عُلُوُّ اللهِ؛ لقوله: ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾؛ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ إنزاله للشيء إِلَّا إِذَا كَانَ عاليًا، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالٍ بذاته وصفاته، فعُلُوُّه نوعان: عُلُوُّ ذاتٍ، وعُلُوُّ صِفة.

وَلَا يَلْزَمُ مِنْ إِثْبَاتِ عُلُوِّ الذات التجسيمُ الَّذِي يَقُولُهُ المُعَطِّلُون، وَلَا أَنَّ المكان يُحِيطُ بِهِ كَمَا قالوه أيضًا، مُتوصلين بِذَلِكَ إِلَى إنكار عُلُوِّه؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ المُعَطِّلَة يتوصلون إلى تعطيله بِمِثْلِ هَذَا الكلمـات؛ بأن إِثْبَاتَ هَذَا يَقْتَضِي كَذَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَيْسَتْ

بلازمة، لكنْ هم يرونها بعقولهم لازمة، فيُلزِمون بها غيرَهم، ثم يَتَوَصَّلُونَ بِهَا إِلَى إنكار الصفات، الَّتِي وَصَفَ اللهُ بِهَا نَفْسَهُ، ووصَفَه بِهَا رَسُولُهُ ﷺ.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٢٥].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ أَيْ وَاضِعَةً كُمَّ دِرْعِهَا عَلَى وَجْهِهَا حَيَاءً مِنْهُ ﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾، فَأَجَابَهَا مُنْكِرًا فِي نَفْسِهِ أَخْذَ الْأُجْرَةِ، كَأَنَّهَا قَصَدَتِ الْمُكَافَأَةَ إِنْ كَانَ مِمَّنْ يُرِيدُهَا، فَمَشَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَضْرِبُ ثَوْبَهَا، فَتَكْشِفُ سَاقَيْهَا، فَقَالَ لَهَا امْشِي خَلْفِي، وَدُلِّينِي عَلَى الطَّرِيقِ. فَفَعَلَتْ إِلَى أَنْ جَاءَ أَبَاهَا -وَهُوَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- وَعِنْدَهُ عَشَاءٌ، فَقَالَ: اجْلِسْ فَتَعَشَّ. قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَكُونَ عِوَضًا مِمَّا سَقَيْتُ لَهُمَا، وَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَطْلُبُ عَلَى عَمَلِ خَيْرٍ عِوَضًا، قَالَ: لَا عَادَتِي وَعَادَةُ آبَائِي نَقْرِي الضَّيْفَ وَنُطْعِمُ الطَّعَامَ، فَأَكَلَ وَأَخْبَرَهُ بِحَالِهِ، قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمَقْصُوصِ مِنْ قِتْلِهِ الْقِبْطِيَّ وَقَصْدِهِمْ قَتْلَهُ، وَخَوْفِهِ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴿قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إِذْ لَا سُلْطَانَ لِفِرْعَوْنَ عَلَى مَدْيَنَ].

قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ قال عُمَرُ بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «جَاءَتْ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، قَائِلَةً بِثَوْبِهَا عَلَى وَجْهِهَا، لَيْسَتْ بِسَلْفَعٍ خَرَّاجَةٍ، وَلَّاجَةٍ». وهذا ذَكَرَهُ

ابْنُ كَثِيرٍ[١] عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

وَمِثْلُ هَذَا عَن عُمَرَ قَدْ يَكُونُ عَلَى سَبِيلِ التوقُّع، أي: إِنَّهُ تَوَقَّعَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنها كانت واضعةً كُمَّ دِرعها عَلَى وَجْهِهَا، لَكِنْ فِي الْآيَةِ لَيْسَ ذَلِكَ بوارد.

والدِّرع يُسمى درعًا؛ لِأَنَّهُ مِثْلُ الدِّرع الذي يُلبس فِي الْحَرْبِ، فوضعت كُمَّها عَلَى وَجْهِهَا حياءً منه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَبِي﴾ هنا ﴿أَبِي﴾ اسم (إنَّ) منصوب بفتحة مُقَدَّرة، وليس منصوبًا بالألف، ولا بالياء، فهذه الياء ليست علامة إعراب، ولكنها ياء المتكلم.

ومِن شروط نَصْب كلمة (أب) بالألف أَنْ تَكُونَ مُضافة لغير ياء المتكلم، قَالَ ابْنُ مَالِكٍ فِي أَلفِيَّته[٢]:

وَشَرْطُ ذَا الإِعْرَابِ أَنْ يُضَفْنَ لَا ... لِلْيَا كَجَا أَخُو أَبِيكَ ذَا اعْتِلَا

وَنَقُولُ فِي إِعْرَابِهِ: اسمُ (إِنَّ) منصوب، وعلامة نصبه فتحة مُقَدَّرة مَنَعَ مِن ظُهورها اشتغالُ المَحَلِّ بحركة المناسَبة، وهي الكسرة المناسِبة لياء المتكلم.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾ اللام للتَّعلِيل يعني: يدعوك لهذا الغرض.

ومعنى يجزيك: يكافئك بمكافأة، مِن: جَزَى يجزي.

وقوله تعالى: ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي لتنالَ أجرًا أو عِوَضًا، فالأجر هو العِوَض المأخوذُ مُقابِل عملٍ، وقوله: ﴿مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي: لأجْلِنا، و﴿مَا﴾ هنا مَصْدَرِيَّة، أي: لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ سَقْيِك.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٢٨).

(٢) ألفية ابن مالك (ص١١).

وَلَا يَصِحُّ تَقْدِيرُ: أَجْرَ الَّذِي سَقَيْتَ؛ لأنَّها تريد مِن والدها أَنْ يُعْطِيَهُ أجر سَقْي الغَنَم، ولا تُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُ أجرَ الغَنَم.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فأجَابَهَا مُنْكرًا فِي نَفْسِهِ أَخْذَ الْأُجْرَةِ]، أي أَجَابَ مُوسَى دعوةَ أبيها، وَهُوَ يُضْمِرُ أخذَ أُجرة، وهذا نستنتجه مِنْ أَنَّ مُوسَى فَعَلَ ذَلِكَ لله، وَمَنْ فَعَلَ شَيْئًا للهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَأْخُذَ أَجْرًا فِي الدُّنْيَا، وَلَكِن هَذَا لَا يُعِين أَنْ يَكُونَ موسى يأخذ أجرًا، وَنَحْنُ لَا نَشْهَدُ أَنَّ مُوسَى فِي تِلْكَ الْحَالِ حينما أجابَ الدعوة قَدْ أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ أَخْذَ الْأُجْرَةِ، وَمَا نَدْرِي فَقَدْ يَكُونُ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يأخذ الأُجرة؛ لأنَّه محتاج، ويأخذُها لِسَدِّ حاجته، وَقَدْ لَا يَأْخُذُهَا؛ تكَرُّمًا منه.

إما أَنَّهُ مَمْنُوعٌ، فإن الإِنْسَان يأخذ أجرًا مُقَدَّمًا عَلَى مَا يَفْعَلُهُ لله، ثُمَّ لَا مَانِعَ أَنْ يَأْخُذَهُ لو كُوفِئ به مكافأةً، بَلْ إِنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَمَّا بَعَثَ عُمَرَ عاملًا عَلَى الصَّدَقَةِ وأعطاه، قال: أَعْطِه أَفْقَرَ مِنِّي، فقال: «مَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا المَالِ، وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ؛ فَخُذْهُ»(١).

وَمَعْلُومٌ أَنَّ عُمَرَ لَمْ يَكُنْ يتطلع إِلَى أَخْذِهِ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ قَالَ: أعطه أَفْقَرَ مِنِّي.

فالإِنْسَان الَّذِي يَعْمَلُ عَمَلًا للهِ إِذَا كُوفِئ عَلَيْهِ لَا يَبْطُلُ عملُه، مَا دَامَتْ نِيَّتُهُ فِي الْأَصْلِ خَالِصَةً لله.

إذن: فَدَعْوَى أَنَّ مُوسَى كَانَ مُنْكِرًا فِي نَفْسِهِ أَخْذَ الْأُجْرَةِ لَيْسَ عَلَيْهَا دَلِيلٌ، وَلَيْسَ لَنَا الْحَقُّ أَنْ نَتَكَلَّمَ فِي هَذَا، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُهُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب من أعطاه الله شيئًا من غير مسألة ولا إشراف نفس، رقم (١٤٧٣)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إباحة الأخذ لمن أعطي من غير مسألة ولا إشراف، رقم (١٠٤٥).

وأما بالمكافأة إِنْ كَانَت مِمَّنْ يُرِيدُهَا فَجَرَت بَيْنَ يَدَيْهِ، يعني: أَجْرَ مَا سَقَاهُ لهما، والمعروف أَنَّ الأَجْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِعَقْدِ إيجار، وَلَمْ يَقَعْ بين موسى، وبين المرأتين عَقْدُ إِجَارَةٍ عَلَى أَنْ يَسْقِيَ لهما، لكن كأنها قَصَدَت بالمكافأة إِنْ كَانَ مِمَّنْ يُرِيدُهَا، فسَمَّت هَذِهِ المكافأةَ أجرًا.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَمَشَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَضْرِبُ ثَوْبَهَا، فتكْشِفُ سَاقَيْهَا، فَقَالَ لَهَا: امْشِي خَلْفِي، وَدُلِّينِي عَلَى الطَّرِيقِ] هَذِهِ الْقِصَّةُ يأتون بها توطئةً لقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

وَقَدْ سَبَقَ أنه نزع الصخرة العظيمة التي ما يرفعُها إِلَّا عَشَرَةُ رجال، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى قُوَّتِه، وفِعْلُه أثناءَ سَيْرِه معها دَلَّ عَلَى أَمَانَتِهِ.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَفَعَلَتْ إِلَى أَنْ جَاءَ أَبُوهَا، وَهُوَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَعِنْدَهُ عَشَاءٌ، فَقَالَ لَهُ: اطْلُبْ. فَتَعَشَّى، فَتَأَخَّرَ، قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَكُونَ عِوَضًا مِمَّا سَقَيْتُ لَهُمَا، وَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَطْلُبُ عَلَى عَمَلِ خَيْرٍ عِوَضًا. قَالَ: لَا، عَادَتِي وَعَادَةُ آبَائِي نَقْرِي الضَّيْفَ، وَنُطْعِمُ الطَّعَامَ. فَأَكَلَ، فَأَخْبَرَهُ بِالْحَالِ].

كُلُّ هَـذَا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، والذي عَلَيْهِ الدَّلِيلُ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أجاب الدعوة، ومشى حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْأَبِ، وهذا يكفينا أن نعتقد مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ، أَمَّا أَنْ نأتيَ بِشَيْءٍ لَا ذِكْرَ لَهُ فِي الْآيَةِ؛ فلا.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ الْفَاعِلُ في ﴿جَآءَهُۥ﴾: موسى، ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ﴾ أي: موسى، ﴿ٱلْقَصَصَ﴾ بمعنى المقصوص؛ لأن القَصَص مصدر، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف:٦٤]، أي: يقُصَّان الأثر قَصَصًا؛

لأنَّه يُقَّص المقصوص، وَعَلَى هَذَا فَهُوَ مصدر بمعنى: اسم المفعول، والمصدر بمعنى اسمِ المفعول يأتي كثيرًا، كقوله: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق:٦]، فهنا ﴿أُوْلَٰتِ حَمْلٍ﴾ أي: محمول، مَعَ أَنَّ الْآيَةَ لَا تَتَعَيَّنُ؛ لِأَنَّهُ قَصَدَ المرأة.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١). أي مردُود.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: هنا القَصَص مَصدر بمعنى: المقصوص، وَلَا يَكُونُ مصدرًا بمعناه الحقيقي؛ لأن القَصَص فِعْل القاصِّ، وَلَيْسَ هُوَ شَيْئًا يُخْبَرُ عَنْهُ، وَإِنَّمَا الَّذِي يُخْبَرُ عنه ويُقَصُّ هو الشَّيْء المقصوص، يعني: القضية، أَوِ الْقِصَّة، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، هَذَا الَّذِي يُقَصُّ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ قَتْلِهِ الْقِبْطِيِّ، وَقَصْدِهِمْ قَتْلَهُ، وَخَوْفِهِ مِنْ فِرْعَوْنَ] قَصَّ عَلَيْهِ قضيته كُلَّها؛ بِأَنَّهُ كَانَ فِي مِصْرَ مثلًا، وأنه حَصَل كَذَا وَكَذَا، وقَتَلَ القِبطي، وَأَنَّ رَجُلًا جاءه فنَصحه أَنْ يَخْرُجَ، فخرج، وَلِهَذَا كَانَ الْقَصْدُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَفْ﴾: ﴿قَالَ﴾ هُنَا جَوَابٌ (لَمَّا)، أي: فَلَمَّا جَاءَهُ موسى وَقَصَّ عَلَيْهِ قَالَ صَاحِبُ مَدْيَنَ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: ﴿لَا﴾ هنا ناهية، وَالْمُرَادُ بِهَا حَقِيقَةُ النهي، ولكنها هنا لتطمين هَذَا الرَّجُلِ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُه: ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تأكيدًا للجُملة فِي المَعْنَى، أي: لَا خَوْفَ عليك؛ لأنك ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وَمِنْ عَجِيبِ صُنْعِ اللهِ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ جاء مطابقًا لسؤال موسى، فموسى قد دَعَا رَبَّهُ عندما خرج خَائِفًا مِنَ المَدِينَةِ، ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القَصَص:٢١]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

فجاء الجواب هُنَا مِن هَذَا الرَّجُلِ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فقوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾ إجابة لقوله: ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، وقوله: ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إجابة لقوله: ﴿نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهكذا تكون إجابة اللهِ تعالى للمضطر مطابقةً تمامًا لسؤاله؛ إِذْ لَا سُلْطَانَ لِفِرْعَون على مَدْين، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ، أنه طَمْأَنَهُ بأنه نَجَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ؛ لأن سلطان فِرْعَونَ فِي مِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا، أَمَّا مَدْيَنَ، فَإِنَّهُ لَا سُلْطَانَ لِفِرْعَوْنَ عليها؛ إِذْ لَوْ كَانَ لَهُ سُلْطَانٌ عليها لما نَجَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

ومَدْيَن بلدٌ قَرِيبٌ مِن مِصْرَ، تَقَدَّمَ فِي كَلَامِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهَا عَلَى ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ مِنْ مِصْرَ، ولكن الحدود متقاربة، فهُما مَمْلَكَتَان لَيْسَ بَيْنَهُمَا إِلَّا خَطٌّ وَهْمِيٌّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾، يستفاد بيانُ الوَقار الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لِمُوسَى؛ حيث جَاءَتْ إِلَيْهِ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ تَعْظِيمًا لَهُ؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا كَانَ الإِنْسَان أشدَّ وَقارًا، كان الحياء منه أكثرَ، ولذلك الرَّجُلُ الَّذِي لَيْسَ بِوَقُورٍ تجد النَّاسَ لَا يستحيون منه، ولا يُبالون به، فيَتَفَوَّهُون عنده بِالْكَلَامِ الَّذِي لَا يَلِيقُ، ويفعلون عِنْدَهُ مَا لَا يَلِيقُ؛ لأنَّه ليس وَقُورًا، ولهذا يقال: احْتَشِم تُحْتَشَم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيان كمال خُلقِ هَاتَيْنِ الْمَرْأَتَيْنِ؛ حيث جاءت تمشي، غير مُسرِعة، ولا مُهَرْوِلَة، بل تمشي بهدوء، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى كَمَالِ أدبها، وكذلك كَوْنُهَا عَلَى اسْتِحْيَاءٍ فِيهِ أَيْضًا مِنْ كمال الأدب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِي قَوْلِها: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ﴾ يُستفاد منه كمالُ أدب؛ حيث

نسبت الدعوةَ إِلَى الْأَبِ دُونَ نفسها، وَهُوَ أَيْضًا مِنْ كمال الذَّكاء؛ لِأَنَّ نِسْبَةَ الدعوة إِلَى الْأَبِ أَقْرَبُ إِلَى إِجَابَةِ موسى للدعوة؛ حيث يَكُونُ الدَّاعِي له رَجُلًا، وقد وَصَفَتْه مِنْ قَبْلُ بأنه شَيْخٌ كَبِيرٌ، فتكونُ دعوته لموسى، وتوجيه الدعوة مِنْهُ إِلَى مُوسَى أَقْرَبَ إِلَى الإجابة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى ذكاء الفتاة، فهي لَمْ تَقُلْ: إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُوَجِّهَ إليه التُّهْمَة مثلًا، أَوْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَغْدِرَ به، أو يطلبه، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، لكنها قالت: ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، وليكون أدعى إِلَى إِجَابَةِ الدعوة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي للإنسان كمال الْأَدَبِ فِي الأساليب وإزالةُ الوَحْشَة؛ لقوله: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، فَإِنَّ فِي هَذَا إزالةَ الوَحْشَة، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُزِيلَ الوَحْشَة عن المخاطَب، لَا سِيَّمَا فِي المَكَانِ الَّذِي تَعْتَرِيه الوَحْشة.

وكما يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي اللَّفْظِ، يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي حَالِ المَرْءِ، بحيث يُقابِل غيرَه بالبِشر والسَّماحة، وانطلاقِ الوجه، وَلِهَذَا كَانَ مِنْ أَوْصَافِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ دائمَ البِشر، كثيرَ التبسُّم، وضد العُبوس والتقطيب، وعدم الانشراح؛ فَإِنَّ هَذَا يُوجِبُ لِغَيْرِك أَنْ يَنْفِرَ منك.

وَكَذَلِكَ أَيْضًا يُوجِبُ أَلَّا يأنسَ بك أَحَدٌ، حَتَّى لَوْ جلس عنده، لَكِنْ إِذَا رآك الْإِنْسَانُ فَإِنَّ فَضْلَ اللهِ يُؤْتِيه مَنْ يَشَاءُ، هَـذَا الْأَمْرُ قَـدْ يَكُونُ اكتسابًا، وَقَـدْ يَكُونُ غريزةً؛ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَهَبُه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِثْلَ هَذِهِ الخَصْلة الطَّيِّبة، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُحرَم منها، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يحاول أن يَتَخَلَّق بها.

وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأشج عَبْدِ الْقَيْسِ: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ،**

وَالْأَنَاةُ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: أَخُلُقَيْنِ تَخَلَّقْتُ بِهِمَا أَمْ جَبَلَنِي اللهُ عَلَيْهِمَا، قَالَ: «بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عَلَيْهِمَا»، قَالَ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ»[1].

مِن: حَلُم، ويتأنَّى.

فهذا يُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الأخلاق تكون بالتخَلُّق، وتكون بالجِبِلَّة، والجِبِلَّة أثبتُ.

وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عَلَيْهِمَا»؛ لأن التخلُّق قد ينسى الإِنْسَان أحيانًا، ولا يَتَخَلَّق، وَيَكُونُ عَلَى جِبِلَّتِه، لكن الجِبِلَّة لَا شَكَّ أنها أكملُ، وإنما يمكن للإنسان بالتَّعَوُّد والتَّخَلُّق عَلَى الشَّيْءِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ خُلقًا له.

والجِبِلَّة أكملُ للإنسان، فَقَدْ يَكُونُ تخلُّقه بالأخلاق الفاضلة مِن جِبلَّته، إِلَى الْآنَ قد يَكُونُ مِنَ الْعَامَّةِ مَنْ لَا يوافقون عليها، وَكَمْ مِنْ أُناس تغيرت طِباعُهم وحَسُنت أخلاقُهم بما مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: قَصُّ الْأَخْبَارِ لَا يُعْتَبَرُ شِكَايَةً، فلو قصصتَ عَلَى إِنْسَانٍ مَا جَرَى عَلَيْكَ مِنَ المصائب، فَلَا يُعْتَبَرُ ذَلِكَ مِنَ الشكاية إليه، ولهذا يُقال: هذا إخبارٌ. فالمريض يقول مَثَلًا لِمَنْ سَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ: إني مريض، فَهَذَا إِخْبَارٌ، لَا شَكْوَى، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الشكوى تتضمن طلبَ إزالة الشَّيْء، والتَّضَجُّر منه، وأما الخَبَرُ، فإنه مُجَرَّدٌ عَنْ ذلك، فهو مُجرد إِخْبَارٍ عَنْ أَمْرٍ وَقَعَ.

فالْإِنْسَانِ إِذَا عَبَّرَ عَنْ حالِه -مثلًا- بقوله: وَقَعَ عَلَيَّ ظُلم وكذا وكذا، فَهَذَا لَا يُعَدُّ شِكاية، فَلَا يُمْكِنُ دفعُ ظُلم الظَّالِمِ إلا بِذِكر ظُلمه، ولهذا يَقُولُ اللهُ تعالى:

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في قبلة الرجل، رقم (٥٢٢٥)، وأصل الحديث عند مسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، وشرائع الدين، والدعاء إليه، رقم (١٧).

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء:١٤٨].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى صِدْق صاحب مَدْيَنَ، حيث طمأنه مَعَ ذِكْرِ السَّبَبِ، فقال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فقوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾ يُفيد طُمأنينة الرَّجُل، وقوله ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ، فَلَوْ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لَهُ ﴿نَجَوْتَ﴾ لَظَنَّ الظانُّ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُهَوِّن عَلَيْهِ الْأَمْرَ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ احْتِمَالُ أَلَّا ينجو.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ آلَ فِرْعَوْنَ معروفون بالظلم عِنْدَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ؛ لقوله: ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ جُنود الظَّالِمِ ظَلَمَةٌ؛ لِأَنَّهُ مَا قَالَ: نَجَوْتَ مِنَ الظَّالِمِ، بَلْ قَالَ: ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ فإن جُنود الظَّالِمِ ظَلَمَة، ولهذا لو أَمَرَك الأميرُ، أَوْ مَنْ فَوْقَ الأمير، بأمرٍ تعرف أنه ظالمٌ فيه؛ فإن طاعتك له مُحَرَّمَة، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ طاعة المخلوق فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ.

الآيــة (٢٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القَصَص:٢٦].

قال المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ وَهِيَ المُرْسَلَةُ الْكُبْـرَى، أَوِ الصُّغْرَى ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ اتَّخِذْهُ أَجِيـرًا يَرْعَى غَنَمَنَا بَدَلَنَا ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أَيِ اسْتَأْجِرْهُ لِقُوَّتِهِ وَأَمَانَتِهِ، فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَأَخْبَرَتْهُ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ رَفْعِهِ حَجَرَ الْبِئْرِ وَمِنْ قَوْلِهِ لَهَا: امْشِي خَلْفِي، وَزِيَادَةِ أَنَّهَا لَمَّا جَاءَتْهُ وَعَلِمَ بِهَا صَوَّبَ رَأْسَهُ، فَلَمْ يَرْفَعْهُ، فَرَغِبَ فِي إِنْكَاحِهِ].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾، قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُرْسَلَةُ الكُبْرَى، أَوِ الصُّغْرَى]، ولكننا لَا نَعْلَمُ أيتهما بالتحديد، أما كون القائلة هي المرسَلَة، فَهُوَ بِنَاءٌ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْ أَنَّهَا جَعَلَتْ تمشي أمامَه، وجَعَلَت الرِّيح تكشف عن ساقَيْهَا، فقال: كُوني خَلْفِي. فعَرَفت بِذَلِكَ أَنَّ الرَّجل أَمِينٌ، هَذَا السَّبَبُ فِي قَوْلِهِ: [وَهِيَ المُرْسَلَةُ]، وَلَكِن تَعْيِين القائلة بأنها المُرْسَلَة، أو الباقية أَمْرٌ لَا نَعْرِفُهُ، وحسبُنا أَنْ نُبْهِم ما أَبْهَمَهُ الله تعالى.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ هَذِهِ التاء مُبْدَلَةٌ مِن الياء، والأصل: يا أبي، و﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ أي: اجعله أجيرًا عندك، وهذا الأمر ليس بمعناه الحقيقي، فهو ليس

طلبًا للفِعل عَلَى وَجْهِ الاستعلاء؛ لِأَنَّ الْبِنْـتَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تأمُرَ أباها أمـرًا، ولكنه للاستعانة.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [اتَّخِذْهُ أَجِيرًا يَرْعَى غَنَمَنَا بَدَلَنَا]، وهنا فائدتان للبنتين؛ أولًا: سوف تَرْتَاحَان مِنَ الْعَمَلِ، ثانيًا: أَنَّ الرَّجُلَ قويٌّ وأمين، وَنَحْنُ فِي طُمَأْنِينَةٍ منه، وكذلك نَحْنُ فِي طُمَأْنِينَةٍ مِنْ أَنَّهُ سوف يَسْقِي لنا سَقْيًا كاملًا لقُوَّتِه.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أي: استأجِرْه لقُوَّتِه وأَمَانَتِه.

فقولها ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ حُكم، وقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ﴾ تعليلٌ، يعني: استأجره؛ لأنَّه قويٌّ أمين، لكنها أتت بالتَّعلِيل عَلَى سَبِيلِ القاعدة العامَّة، لَوْ قَالَتِ: استأجره إنه قويٌّ أمينٌ، صَارَ هَذَا تَعْلِيلًا لمسألةٍ خاصة، وهي استئجار موسى، لكنها أتت بِهَذِهِ الْعِلَّةِ مُنْطَوِيَة تحـت قاعدة عامَّة، وهي: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾، وهـذان الوصفان هما رُكنان فِي كُلِّ عَمَلٍ، فكل عَمَلٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ هَـذَيْنِ الأمرين، لَا يَكُونُ إِلَّا بِهِمَا، وهما القُوَّة والأمانة، فبالقُوَّة يَكُونُ الْفِعْلُ، وبالأمانة يكون تَمَامُ الْفِعْلِ، فغيرُ القويِّ لَا يَفْعَلُ، وغيرُ الأمين لا يُتَمِّمُ الفِعل، وَقَدْ لَا يَفْعَلُهُ أصلًا، وَلِذَلِكَ إِذَا كَانَ الإِنْسَان قويًّا أمينًا حَصَلَ بِهِ تَمَامُ الْفِعْلِ، فِي غَيْرِ المستأجر، يعني: فِي الْإِجَارَةِ إننا نطلب الْقَوِيَّ الْأَمِينَ فِي جَمِيعِ الأعمال، لو وكَّلنا شخصًا عَلَى بَيْعٍ فخيرُ مَن نُوَكِّل ﴿ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

إذا أَرَدْنَا أَنْ نُؤمِّر شخصًا على قرية، فخيرُ مَن نُؤَمِّرُ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ، وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُولِّيَ شخصًا عَلَى قَضَاءِ بلدٍ فخيرُ مَن نُوَلِّي عَلَى الْقَضَاءِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ، وَلِهَذَا قَالَ الجنِّي لِسُلَيْمَـانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾

[النمل:٣٩]، وهو ليس بأجير.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾: [فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَأَخْبَرَتْهُ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ رَفْعِ حَجَرِ البِئْرِ، وَمِنْ قَوْلِهِ لَهَا: امْشِي خَلْفِي، وَزِيَادَةُ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَتْهُ، وَعَلِمَ بِهَا صَوَّبَ رَأْسَهُ، فَلَمْ يَرْفَعْهُ، فَرَغِبَ فِي إِنْكَاحِهِ]، أي: سألها أبوها عن القُوة والأمانة، وكيفية معرفتها بهاتين الصِّفتين، فَذَكَرَتْ لَهُ، وَأَخْبَرَتْهُ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ رَفْعِ حَجَر البئر، وكان مِن العادة أَنْ يَرْفَعَهُ عَشَرَةُ أنفُس، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى قُوَّتِه، وكانت تمشي أمامَه والريح تكشف ساقَيْهَا، فقال: كُونِي وَرَائِي. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَمَانَتِهِ.

كذلك أيضًا زِيَادَةٌ مِنَ الْأَمَانَةِ أَنَّهُ لَمَّا عَلِمَ بِهَا موسى خَفَضَ رأسَه، فلم يرفعه، وَهَذَا مِنَ الْأَمَانَةِ، لكن نَحْنُ لَا نحتاج إِلَى هَذِهِ القضايا الثلاث، بل هنا يكفينا أنهما عَرَفَتَا أَنَّهُ قَوِيٌّ لِنَزْعِه الدَّلْوَ، وسَقْيِه لهما، وَأَنَّهُ أَمِينٌ؛ حَيْثُ إِنَّهُ سقى سَقْيًا تامًّا، وَلَمْ يَأْخُذْ شَيْئًا مِنَ الْغَنَمِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَمَانَتِهِ.

فالأمانةُ والقُوَّة أُخِذَتَا مِن سَقْيه، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَصطَنِعَ شيئًا لِأَجْلِ أَنْ نُمَهِّد لكونه قويًّا أمينًا، لَيْسَ هناك حَاجَةٌ لهذا، فالإِنْسَان يُعرَف بقُوَّته مِن نَزْعِه الدَّلْوَ، فالإِنْسَان يَحْمَرُّ وجهُه، وتَيْبَسُ يَدُه، ولكن مُوسَى لَمْ يَتَغَيَّرْ وجهُه، ونَزَعَهُ بسُهولة ويُسْرٍ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ قَوِيٌّ، وكَوْنه أيضًا يَسْقِي سَقْيًا كاملًا، فيَدع الغَنَم حتى تروَى، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَمِينٌ؛ لِأَنَّ غَيْرَ الأمين لا يسقي سَقْيًا كامِلًا، بل ينزع الدلو قبل الرِّيِّ، لكن الأمين هُوَ الَّذِي يَأْتِي بالشَّيْء عَلَى وَجْهِهِ، فَهَذَا وَجْهُ معرفتهما لِقُوَّتِه وأمانتِه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الأصلُ وجوبُ طاعةِ وليِّ الأمر، وَلَا يُوجَدُ مَا يَمْنَعُ هَذَا الْأَصْلَ؛ إِذْ إِنَّك لَا تَدْرِي: هَلْ هُوَ ظالمٌ أَمْ لَا، وَلِأَنَّهُ مِنَ المشقَّة أَنَّ الجُندي -مثلًا- إذا أَمَرَهُ مَن فَوْقَه أَنْ يَضْرِبَ، أو يحبس، أَنْ يَقُولَ: لماذا أضربُ؟ لماذا أَحْبِسُ؟ وَلِأَنَّ هَذَا يُؤَدِّي إِلَى الفوضى، وتَفَكُّك الحُكومة والدولة؛ فلهذا نقول: يَجِبُ عَلَيْك التنفيذُ مَا لَمْ تَعْلَمْ أنه معصية لله.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بالتفصيل، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْآمِرُ معروفًا بالظُّلم؛ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ الْإِقْدَامُ عَلَى مُوَافَقَتِهِ، إِلَّا إِذَا علمتَ انتفاءَ الظلمِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْمُعَيَّنة؛ تقديمًا للظاهر عَلَى الْأَصْلِ، فظاهِرُ حال هَذَا الْأَمِيرِ -مثلًا- أنه ظالم، فَيُقَدَّمُ عَلَى الْأَصْلِ، وَهُوَ عَدَمُ الظُّلم، ووجوب الطاعة، وهذا التقسيم لَا بَأْسَ بِهِ، نعم، فيه ثِقَلٌ أيضًا؛ لِأَنَّهُ -وَإِنْ كَانَ ظَالِمًا- فقَدْ لَا يَظْلِمُ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ جُنديًّا، حَتَّى لَوْ كَانَ الْإِمَامُ معروفًا بالظُّلم، بَلْ قَدْ يَجِبُ أحيانًا إِذَا كَانَ وُجُودُهُ فِي هَذَا يخفف بَعْضَ الْأَشْيَاءِ.

وَلَا يُعَارِضُ قَوْلَنَا هَذَا قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [هود:١١٣]، فهو يريد: لَا تَميلُوا إِلَيْهِم بمساعدتهم في الظُّلم.

فأَنْ تَصِيرَ جُنديًّا لَهُمْ هَذَا لَا شَيْءَ فِيهِ، ولكن أن تَنْضَمَّ إِلَيْهِم وتساعدهم، أو تُقَوِّي جانبهم -ولو مَعنويًّا- فَهَذَا لَا يَجُوزُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جَواز تَكلُّم المرأة بحضور الأجنبي، وَلَكِنْ ظَاهِرُ الْحَالِ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يكن قد نزلت عليه شريعته بعدُ، وهناك مَنْ يَقُولُ كَانَ الْأَمْرُ

بحضرة شُعيب النَّبيّ. وَلَكِنَّ هَذَا أَيْضًا غَيْرُ مُسَلَّمٍ به.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: يجوز كلام المرأة بِحَضْرَةِ الْأَجْنَبِيِّ حتى عِنْدَنَا فِي الْإِسْلَامِ، ولكن بِشَرْطِ عدم الفتنة، فإن خُشيت الْفِتْنَةُ فِي الْكَلَامِ فيجب الامتناع، فإن الامتناعَ خَوْفَ الْفِتْنَةِ -حتى عَنِ الْمُبَاحِ- مِنَ الْأُمُورِ المعروفة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تصدير الدُّعاء بـ(رَبِّ)، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذَكَرَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ، ثم هَذَا أَيْضًا وَارِدٌ فِي السُّنَّةِ مِنْ دَلِيلٍ آخَرَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: مَشُورة الأدنى للأعلى؛ لقولها: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ هنا ليس للإلزام، ولكن للمَشُورة والعَرض، فَقَدْ يَكُونُ الأدنى أَعْلَى مِنَ الْأَعْلَى فِي بَعْضِ الْأُمُورِ، كَمَا أَنَّ المفضول قَدْ يَكُونُ أَفْضَلَ مِنَ الفاضِلِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الرُّجُوعُ فِي الْأَعْمَالِ إِلَى هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ: القُوَّة والأمانة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: يَنْبَغِي أَنْ يَتَحَرَّى الْإِنْسَانُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ مَنْ كَانَ قَوِيًّا أمينًا، لقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾، والقوة فِي الْعَمَلِ بِحَسَبِه، فالقُوَّة عَلَى الْأَعْمَالِ البَدَنِيَّة معناها قُوَّةُ الْبَدَنِ، وَالْقُوَّةُ فِي الْأُمُورِ الفكرية قوة الْفِكْرِ فِي هَذَا الشَّيْء، وَالْقُوَّةُ فِي الْأُمُورِ الحربيَّة الحربُ نفسُها، فَكُلُّ شَيْءٍ قُوَّتُهُ بِحَسَبِه، وباختلال أَحَدِ الْوَصْفَيْنِ يَخْتَلُّ العَمَلُ، فإذا اخْتَلَّتِ القُوَّة، وصار الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ بالعَمَل -وَلَوْ كَانَ مِنْ آمَنِ النَّاسُ- يجب أن يتنحى، أو يجب تنحيته، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأبي ذَرٍّ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم (١٨٢٦).

فقوله: «إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا» الضعف هنا ضِدُّ الأمانة، وضِدُّ القُوة، فَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ أمينًا لكنه ضَعِيفٌ فِي تولي الأعمال.

فعليه نقول: إِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ تَخْتَلُّ فيه القُوة، أو الأمانة، والكمالُ وُجود القُوة، ووجودُ الأمانة.

الآيــة (٢٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القَصَص:٢٧].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ وَهِيَ الْكُبْرَى، أَوِ الصُّغْرَى ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ تَكُونَ أَجِيرًا لِي فِي رَعْيِ غَنَمِي ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ أَيْ سِنِينَ ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا﴾ أَيْ رَعْيِ عَشْرِ سِنِينَ ﴿فَمِنۡ عِندِكَ﴾ التَّمَامُ ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾ بِاشْتِرَاطِ الْعَشْرِ ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لِلتَّبَرُّكِ ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الْوَافِينَ بِالْعَهْدِ].

قوله تعالى: ﴿أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ هَذَا وَعْدٌ بنكاح، وليس عقدًا، وَعَلَى هَذَا، فَلَا يَكُونُ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْعَقْدِ عَلَى الْمُبْهَمَة؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ ومعناه: أُزَوِّجُك؛ لأن النكاح أصلُه: الضَّمُّ وَالْجَمْعُ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ يضم زوجته إليه، ويَسْكُن إليها.

وقوله تعالى: ﴿إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ مُبْهَم؛ فَلَا نَدْرِي: أَهِيَ الكُبرى أَمِ الصُّغرى، ولهذا يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَهِيَ الكُبْرَى، أَوِ الصُّغْرَى].

وقوله: ﴿ٱبۡنَتَيَّ﴾ أصلُها: ابْنَتَيْنِ لي، فحُذفت النُّونُ مِنْ أَجْلِ الإضافة؛ وهي

مجرورة بالياء نيابةً عن الكسرة؛ لأنَّه مُثَنًّى، وحُذفت النُّونُ مِنْ أَجْلِ الإضافة.

وقوله: ﴿هَٰتَيْنِ﴾ اسم إشارة لتعيين البنتَيْن، وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ لَهُ بناتٍ أُخْرَيَات؛ لِأَنَّ الْإِشَارَةَ تُثْبِتُ مَنْ عَدَاهُمَا، أَوْ أَنَّ المَعْنَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ لَا يَعْلَمُ أَنَّ هَاتَيْنِ البنتين له، وَهَذَا هُوَ الأقرب.

وأمَّا تعيينُهما بالإشارة، فَلِئَلَّا يَتَوَهَّمَ المخاطَب أَنَّ لَهُ بناتٍ أُخْرَيات، وَلَيْسَ المَعْنَى أَنَّهُ يُعيِّن هاتين ليُخْرِج بقية البنات.

والغريب أَنَّ بَعْضَ الْمُفَسِّرِينَ قَالَ: إِنَّ هَذَا لإخراج بقيَّة البنات؛ لأن البناتِ سَبْعٌ، وهذا أخرجهما بالتعيين.

فيُقال: لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، ولكني عندما أقول لشخص: أنا أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ، وعندي امرأتان. فهل يفهم أنها منهن؟ لا، لَا يَفْهَمُ حتى أقول: هاتان. فـ﴿هَٰتَيْنِ﴾ فِي الْآيَةِ عَلَى هَذَا المَعْنَى.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي﴾، يعني: تأجُرني نفسَك، أي تكون أجيرًا لِي فِي رَعْيِ غنمي.

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾ أي: ثَمانِي سِنِينَ، وهو جُمع حِجَّة.

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾، أي: رَعْيَ عَشْرِ سِنِينَ.

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ التمام، وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ، أَخْبَرَهُ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُزَوِّجَهُ إِحْدَى ابْنَتَيْه، وَيَكُونَ المَهْرُ أن يرعى الغَنَمَ ثَمانِيَ سِنِينَ.

وَلَكِنْ مِنْ أين يُعْرَفُ أَنَّ المُرَادَ رعيُ الغَنم؛ إِذْ قَدْ يقول: تأجرني نفسك لِأَجْلِ أَنْ تكون بَنَّاء عندي، أو حَرَّاثًا، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؟

والجوابُ: أنه يُفْهَمُ مِن سؤال البنات، وسياق القصة، عندما قَالَتْ إِحْدَاهُمَا: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾، والعَمَل الذي أمامه الْآنَ هُوَ رَعْيُ الغَنَم، فعُرف بِذَلِكَ أَنَّ صاحِبَ مَدْيَنَ أَرَادَ أَنْ يَسْتَأْجِرَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في رعي الغَنَم ثمانيَ سنوات؛ فإنْ أَتَمَّ عَشْرًا، فَمِنْ عِندِه، يعني: السَّنَتان تكونان تَبَرُّعًا، وَالْعَقْدُ عَلَى ثَمانِي سنوات.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِاشْتِرَاطِ العَشْرِ]، وَقَوْلُه هَذَا فِيهِ نَظَرٌ ظاهرٌ؛ لِأَنَّ اشْتِرَاطَ العَشر لو قَبِلَه موسى، فلا مَشَقَّةَ فِيهِ، وإلَّا لَقُلنا: إن اشتراط الثماني بدل الست فِيهِ مَشَقَّةٌ، وَلَكِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ أي: فِي حَالِ معاملتك فِي تَنْفِيذِ العَقد، أي: يَا مُوسَى، سأتساهل لَوْ مَرَّ يَوْمٌ، أَوْ أيام ما رعيت فيها. وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أو حصل عليك أثرٌ مِنْ مَرَضٍ، أَوْ غَيْرِهِ؛ فإنني لا أَشُقَّ عَلَيْكَ بهذا.

وتكون عدم المَشَقَّةُ فِي تَنْفِيذِ الإجارة، أَمَّا فِي زِيَادَةِ المدة، فليست بمشقَّة، وإلا لَوْ قُلْنَا: إِنَّ الثمانيَ بالنِّسبة للسِّت تكون مَشقة. فالصَّواب بلا ريب: لَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ حالَ تنفيذ العَمَل؛ لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقُولُ: عندك مَشَقَّةٌ فِي المُعَامَلَةِ فِي حَالِ تَنْفِيذِ العَقد، تجده -مثلًا- لَا يَسْمَحُ لَهُ أَنْ يَتَأَخَّرَ، وإذا مرض يُلزمه، أَوْ يَقُولُ: عَوِّضْنِي عَنْ هَذَا الْيَوْمِ، أو أَسْقِطْ لِي مِنَ الأجرة، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾.

وَلِهَذَا قَال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فوعده فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ﴾ فِي الْمُسْتَقْبَلِ؛ لأن السين هَذِهِ تُحَوِّل المضارع إلى المستقبل، وهي -كما مَرَّ علينا- تُفِيد التحقيق والتقريب، فَفِيهَا ثَلَاثُ فَوَائِدَ إِذَا دَخَلَتْ على المضارع:

تحويله للمستقبل، وتحقيقه، وتقريبه.

قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مِن: وَجَدَ يَجِدُ، إِذَا أَدْرَكَ الشَّيْءَ، وَلَكِنَّهُ قَالَ: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ صاحب مَدْيَنَ مُؤمن؛ لأن كلامه هَذَا يَدُلُّ عَلَى إِيمَانِهِ، وَأَنَّهُ عَلَى مِلَّةٍ.

وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليق، فَهَلْ هُوَ تَعْلِيقٌ يُرَادُ بِهِ حقيقتُه؟

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إِنَّهُ لِلتَّبَرُّكِ]، والذي حَمَل المُفَسِّر عَلَى ذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ وعدٌ منه، والوعدُ إِذَا عُلِّقَ لَمْ يَكُنْ مجزومًا به؛ وَلِهَذَا قَالَ: [﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لِلتَّبَرُّكِ]؛ لئلا يُنافِيَ الوعدَ، وَلَكِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْمِلَهُ على التَّبَرُّك، بل يَحْمِلُهُ عَلَى التعليق الحقيقي بالمشيئة؛ لأن عزم الْإِنْسَانِ عَلَى الشَّيْءِ مجزومٌ به، لكن تنفيذ الشَّيْءِ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يجزم به أبدًا مَهْمَا كَانَ الْعَمَلُ، يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

ولذلك فنحن نَرَى أَنَّ قَوْلَهُ: [لِلتَّبَرُّكِ] غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لأن تنفيذ هذا الشَّيْء ليس بيدي صاحب مَدْيَنَ، فإن الأُمُور قد تُخلَف.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ جملة مُعترضة بين الفِعل ومفعوله؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ يَنْصِبُ مفعولين؛ المفعول الأول الياء، والمفعول الثَّانِي قَوْلُه: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: الوافِين بالعَهد؛ لأن صلاح كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِه، فهنا المسألة عَقْدُ إِجَارَةٍ، والصلاح فيها يكون بالوفاء، وَفِي كُلِّ مَوْضِعٍ بحَسَبِه، وَالصَّلَاحُ فِي الدِّينِ هُوَ الْقِيَامُ بِطَاعَةِ اللهِ، وصلاحُ الطعام أَلَّا يَكُونَ متغيرًا برائحةٍ كريهة، أَوْ فَسَادٍ، فالصلاح فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بحسبه.

الآيــة (٢٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القَصَص:٢٨].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ قَالَ ﴾ مُوسَى ﴿ذَٰلِكَ ﴾ الَّذِي قُلْتُهُ ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ الثَّمَانِ أَوِ الْعَشْرَ، وَ(مَا) زَائِدَةٌ أَيْ رَعِيَّةً ﴿قَضَيْتُ ﴾ بِهِ أَيْ فَرَغْتُ مِنْهُ ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ بِطَلَبِ الزِّيَادَةِ عَلَيْهِ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ ﴾ أَنَا وَأَنْتَ ﴿وَكِيلٌ﴾ حَفِيظٌ، أَوْ شَهِيدٌ، فَتَمَّ الْعَقْدُ بِذَلِكَ، وَأَمَرَ شُعَيْبٌ ابْنَتَهُ أَنْ تُعْطِيَ مُوسَى عَصًا يَدْفَعُ بِهَا السِّبَاعَ عَنْ غَنَمِهِ، وَكَانَتْ عِصِيُّ الْأَنْبِيَاءِ عِنْدَهُ، فَوَقَعَ فِي يَدِهَا عَصَا آدَمَ مِنْ آسِ الْجَنَّةِ، فَأَخَذَهَا مُوسَى بِعِلْمِ شُعَيْبٍ].

قوله تعالى: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ أي: قَالَ مُوسَى: ذَلِكَ الَّذِي قلته ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾، وَهَذَا الْكَلَامُ فِي الْحَقِيقَةِ يعني القَبول؛ لِأَنَّ كُلَّ عقد عندنا يَحْتَاجَ إِلَى إِيجَابٍ وقَبُول: إيجابٌ مِن الباذِل، سَوَاءٌ كَانَ بائعًا، أو مُؤَجِّرًا، أو مُزَوِّجًا، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وقَبُول مِن الآخِذ.

الْإِيجَابُ مِن صاحِب مَدْيَنَ لقوله: ﴿أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ﴾، وَالْقَبُولُ مِنْ مُوسَى بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾، ومعناه: إني موافق وقابِل، وذلك بالرغم مِنْ أَنَّ صاحب مَدْيَنَ قَالَ فِي البداية: ﴿أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى

ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: أنكحتُك عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي. مِمَّا يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ العُقود تنعقد بِمَا دَلَّ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ الْإِرَادَةَ عَنِ الشَّيْءِ لَيْسَتْ هِيَ الشَّيْء، وَلِذَلِكَ لَوْ قَالَ الرَّجُلُ لامرأته: أُرِيدُ أَنْ أُطَلِّقَك، فَلا يَكُونُ طَلَاقًا، لِأَنَّ الْإِرَادَةَ غير الفعل، لَكِنْ هَذَا يَدُلُّ عَلَى الْقَوْلِ الراجحِ، الذي نتعرَّض له سَلَفًا فِي ذِكْرِ الفوائد، وَهِيَ أَنَّ الْعُقُودَ تنعقد بِمَا دَلَّ عَلَيْهَا، مَا لَهَا صيغة معيَّنة، حَتَّى إِنَّهُ ربما تنعقد بِالْفِعْلِ كَمَا فِي انعقاد البيع بالمُعاطاة.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ الثَّمَانِيَ أَوِ الْعَشْرَ، وَ(مَا) زَائِدَةٌ، أَيْ رِعْيَةً].

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ (ما) زائدة للتوكيد، وعليه فـ(أَيَّ) مفعولٌ مُقَدَّم بـ﴿قَضَيْتُ﴾، وَلَا تَصِحُّ مِنْ بَابِ الاشتِغَال؛ لأن باب الاشتِغَال لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي العامل ضمير، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ ضَمِيرٌ، فالسابق مفعول، تقول -مثلًا-: زيدٌ أكرمتُه. هَذَا مِن باب الاشتغال؛ لِأَنَّ فِيهِ ضَمِيرًا، لكن قولك: زيدًا أكرمتُ. بِدُونِ ضمير، هَذَا مِنَ باب المفعول المقدَّم، وَلَيْسَ مِنْ بَابِ الاشتغال، ولذلك هي هنا مَفْعُولٌ بِهِ مقدم؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قضيتُه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ رِعْيَةً]، ولكن السياق لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ، لأنَّه معروف مِن السياق، فمُوسى سيقضي الرَّعْيَ في الأجلين؛ وَلِهَذَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ رِعْيَةً]، لَكِنْ هَذَا سَائِرٌ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَكَثِيرًا مَا يُطْلَقُ الْأَجَلُ عَلَى الْعَمَلِ، فمعنى ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾: أي المدتين قَضَيْتها فِي الرَّعي، فالصَّواب: أَنْ يَبْقَى عَلَى ظَاهِرِهِ، فهو قال ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ بالرَّعْي، وهو محذوف؛ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ، أَمَّا أَنْ يُقَدَّر أَنَّ المفعول رَعْي، وَأَنَّ هَذَا عَلَى سَبِيلِ التوسع والمَجاز، ففيه نظر.

وقوله: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ هُمَا عِنْدَنَا الآن ثَمَانِي سِنِينَ، وَهِيَ وَاجِبَةٌ، وعشرٌ، وهي نفلٌ مِنْ مُوسَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ أي: قضيتُ به، أو فرغتُ منه، والقضاء بمعنى: الْفَرَاغِ مِنَ الشَّيْءِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت:١٢]، أي: أَتَمَّهُنَّ، وانتهى منهن، وَهَـذَا هُوَ مَعْنَاهَا فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّـةِ، وَأَمَّا فِي الاصطلاح، فَإِنَّ الْقَضَاءَ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ: مَا فُعِلَ بَعْدَ فَوَاتِهِ، ولهذا يقولون: الرَّجُلُ إِذَا صَلَّى الصَّلَاةَ بَعْدَ الْوَقْتِ تُسمى قضاءً، وَكَذَلِكَ إِذَا فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ مَعَ الْإِمَامِ، أَوْ بَعْضُهَا، فقام يصلي، فهذا يسمى قضاء، ولهذا يقولون: إنه يقرأ فِيهِ سُورَةً مَعَ الْفَاتِحَةِ، ويستفتح، ويتعوَّذ، كأنه الآن قَدْ دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ.

والصَّواب أَنَّ قَضَى هُنَا بِمَعْنَى الإتمام، أي: انتهى مِنَ الشَّيْءِ، وَفِي مَسْأَلَةِ الصلاة يُفسره قول الرَّسُول ﷺ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى: «وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»(١).

قوله تعالى: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾: (لا) نافية، والعُدوان معناه: الظُّلم والاعتداء، يعني: فإذا قضيتُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ؛ فَإِنَّهُ لَا عُدْوَانَ عَلَيَّ بذلك؛ لأنني أتممت العَقْدَ، ومَن أَتَمَّ العَقد فَإِنَّهُ لَا اعْتِدَاءَ عَلَيْهِ، وَالْعُدْوَانُ فِي مِثْلِ هَذَا الْعَقْدِ يكون -كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ- [بِطَلَبِ الزِّيَادَةِ عَلَيْهِ]، وَهَذَا صَحِيحٌ، فقول المستأجِر لموسى: زِدْ. هُوَ مِنْ بَابِ العُدوان.

كذلك ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ في إلزامي بِمَا لَا يَسْتَطِيعُهُ العقل، كَمَا لَوْ طَلَبَ مِنْهُ مثلًا أن يرعى الْغَنَمَ لَيْلًا وَنَهَارًا، كَذَلِكَ لَا عُدْوَانَ عليه بمُماطَلَتِه في الأجرة، فإذا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب قول الرجل: فاتتنا الصلاة، رقم (٦٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، رقم (٦٠٣).

قضيتُ الأجَل يتم العَقد.

والمهم: أنَّ العُدوان لَا يَخْتَصُّ بطلب الزِّيادة فقط، بل بِكُلِّ مَا يُتَصَوَّرُ أنه ينافي مُطْلَقَ العَقد.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: [﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ أَنَا وَأَنْتَ، ﴿وَكِيلٌ﴾ حَفِيظٌ، أَوْ شَهِيدٌ، فَتَمَّ العَقْدُ بِذَلِكَ].

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾، لفظ الجلالَة مبتدأ، و﴿وَكِيلٌ﴾ خبره، والمراد بالوَكالة هنا الحفظ والشَّهادَة جميعًا، فقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَوْ شَهِيدٌ] هَذِهِ للتنويع، وليست للشرط، ولكن الأصح أَنَّهَا عَامَّةٌ؛ لأن وَكالة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى الشَّيْءِ معناه الحفظ والشَّهادَة.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ تقدَّمت على عاملها، وهو ﴿وَكِيلٌ﴾، والتَّقديم يُفيد الحَصر، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وكيل، وَلَيْسَ عَلَى مَا نَقُولُ فقط، ولكنه حَصَر فِي هَذَا؛ لزيادة الاهتمام به، وَإِلَّا فَلَا شَكَّ أَنَّ اللهَ وكيلٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، ولكن كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَوْ لَمْ يَكُنِ اللهُ شَاهِدًا عَلَى شَيْءٍ لَكان شَاهِدًا عَلَى مَا نَقُولُ مِنَ الْعَقْدِ الَّذِي جَرَى بيننا، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان عَارِفًا بِاللهِ، وعنده الفِطرة، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ نُبِّئَ؛ لِأَنَّ قَوْلَه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ اعْتِرَافٌ مِنْهُ بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبما لَهُ مِنَ الصفات، لكونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكيلًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

وظاهر الحالة أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ شهود عَلَى هَذَا الْعَقْدِ، وَلَكِنْ فِي شَرْعِنَا لَا يُمْكِنُ الِاسْتِغْنَاءُ عَنِ الشهود حين كتابة العُقود، فلا يَكْفِي أَنْ يَكْتُبَ شخص مَا فِي الْعَقْدِ: وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ، أو شهيد، نَعَمْ نَحْنُ نُقِرُّ بِأَنَّ اللهَ شاهدٌ ونِعْمَ الشاهدُ، لَكِنَّهُ

لَا يُدلي بشهادته، فليس هناك آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ مَا قِيلَ، أو تكذيبه، فَاللهُ سُبْحَانَهُ -لَا شَكَّ- نِعْمَ الشاهدُ؛ لِأَنَّ شَهَادَتَهُ فوق كُلِّ شَيْءٍ، يَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ﴾ [الأنعام:١٩].

ولكننا نقول: أين الْآيَةُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الَّتِي تَشْهَدُ بأنه حصل كَذَا وَكَذَا؟ فنحن -مثلًا- تأتينا بعض الزَّكَوات، ويأتينا فقير يقول: أَنَا وَاللهِ لَا أَمْلِكُ شيئًا، واللهُ شَاهِدٌ عَلَى ذَلِكَ. وَيَقُولُ لَك: أَمَا تَقبل الله؟ نقول له: نعم، نَقبل قَسَمَك بالله، لكن اذكُر آيَةً تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ شاهد بذلك، أما مُجرد كلامِك فَلَا يُعْتَدُّ بِهِ.

والنَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول: «لَوْ يُعطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَى رِجَالٌ دِمَاءَ قَوْمٍ وَأَمْوَالَهُمْ، وَلَكِنِ الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي»[1]، فاذكُر -مثلًا- وَحْيًا مِنَ اللهِ بِذَلِكَ أَوْ آيَةً فِي كِتَابِهِ تَدُلُّ عَلَى صِدقك، فنحن نَقبل شَهَادَةَ اللهِ، وهي فوق كُلِّ شَهَادَةٍ، أَمَّا أَنْ تَقُولَ: إِنَّ هَذَا فِي الذِّمَّةِ، فَهَذَا لَا يُثْبِتُ شيئًا.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَتَمَّ العَقْدُ بِذَلِكَ، وَأَمَرَ شُعَيْبٌ ابْنَتَهُ أَنْ تُعْطِيَ مُوسَى عَصًا يَدْفَعُ بِهَا السِّبَاعَ عَنْ غَنَمِهِ، وَكَانَتْ عَصَا الأَنْبِيَاءِ عِنْدَهُ، فَوَقَعَ فِي يَدِهَا عَصَا آدَمَ مِنْ آسِ الجَنَّةِ، فَأَخَذَهُ مُوسَى بِعِلْمِ شُعَيْبٍ].

هَذَا مِنَ الإسرائيليات التي ما تُصدَّق، فلا نَجِدُ فِي الْآيَاتِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ أَخَذَ عصًا، أَوْ شَيْئًا، فَقَدْ تَمَّ هَذَا الْعَقْدُ، وَصَارَ يُعْمَلُ له.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الأحكام، باب ما جاء في أن البينة على المدعي، واليمين على المدعى عليه، رقم (١٣٤١).

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: يَجُوزُ أَنْ يُشتقَّ المَهْرُ مِنَ الأب، وَهَذَا فِي حقيقته عَائِدٌ عَلَى الْبِنْتِ؛ لِأَنَّهَا حَصَلَتْ لها فائدة، وهي أنها تَسْلَم مِن رَعْيِ الغَنم، والتعب فيه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ﴾ هو وعد، وليس عقدًا، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُه: ﴿أُرِيدُ﴾ والمُريدُ للشيء قد يَفْعَلُهُ، وَقَدْ لَا يَفْعَلُهُ، لَكِنْ قَوْلُهُ ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَبِل أَنْ يُزَوِّجَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ تعالى: ﴿هَٰتَيۡنِ﴾ يفيد أنهما حاضرتان؛ لِئَلَّا يَظُنَّ أَنَّ هناك مَنِ البنات غَيْرَ هَاتَيْنِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ تقدِيم المعمول يَدُلُّ عَلَى الحَصر، مَعَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وكيل، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْمُحَافَظَةِ عَلَى الْعَقْدِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَوْ لَمْ يَكُنِ الله وكيلًا لَكان وكيلًا عَلَى مَا نَقُولُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ﴾ يُستفاد بَيَانُ أَنَّ مَشُورة الْإِنْسَانِ عَلَى أَبِيهِ لَا تَعُدُّ مِن التَنَقُّصِ له.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تلطُّف هَذِهِ المَرْأَةِ فِي مُخَاطَبَةِ أبيها؛ لقولها: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، وَلِهَذَا قَالُوا: لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُنَادِيَ والده باسمه، كَأَنْ يَقُولَ مثلًا: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، يَا عَبْدَ الْعَزِيزِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ يَقُولُ: إذا نادَى أباه باسمه يُعَزِّر؛ لِأَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الِاحْتِقَارِ لَهُ، وأَمَّا الْخَبَرُ عَنْهُ باسمه، فَلَا بَأْسَ مِثْل أَنْ يَقُولَ: قَالَ فُلَانٌ، فَلَا حَرَجَ، ولهذا كَثِيرًا مَا نسمع فِي الْأَحَادِيثِ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ: قَالَ عُمَرُ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، بخلاف النداء، فالنداء لَهُ حَالٌ، والخبر لَهُ حَالٌ أخرى.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: يَنْبغي في الْقَائِمِ عَلَى الشَّيْءِ، سَوَاءٌ كَانَ متبرعًا، أو بأَجْرٍ، أَنْ يُرَاعَى فيه هذان الوَصْفَان؛ وهما: القُوَّة والأمانة؛ لأن في القُوَّة الْقُدْرَةَ عَلَى التنفيذ، وفي الأمانة الإتمام والإكمال.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان متصفًا بهَذَيْن الوصفين: القُوَّة والأمانة؛ لِأَنَّا قُلْنَا: إِنَّ الجملة هَذِهِ تعليلٌ لقولها: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: نُصْح هـذا الوالد لبناتـه؛ لِأَنَّهَا لَمَّا وصفتـه بالأمانة والقُـوَّة اختاره، وهكذا يَنْبغي للإنسان أن يختار لبناته مَن يتصف بالقُوة والأمانة.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: جواز خِطبة الزوج، بِمَعْنَى أَنَّ الرَّجُلَ يَخْطُبُ الرَّجُلَ لابنته عَلَى عَكْسِ الْمُتَعَارَفِ عَلَيْهِ، وَهَذَا جَائِزٌ، فَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنُ عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، حِينَ تَأَيَّمَتْ حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ مِنْ خُنَيْسِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، تُوُفِّيَ بِالْمَدِينَةِ، قَالَ عُمَرُ: فَلَقِيتُ عُثْمَـانَ بْنَ عَفَّانَ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ، قَالَ: سَأَنْظُرُ فِي أَمْرِي، فَلَبِثْتُ لَيَالِيَ، فَقَالَ: قَدْ بَدَا لِي أَنْ لَا أَتَزَوَّجَ يَوْمِي هَذَا، قَالَ عُمَرُ: فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ، فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ، فَصَمَتَ أَبُو بَكْرٍ، فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، فَكُنْتُ عَلَيْهِ أَوْجَدَ مِنِّي عَلَى عُثْمَانَ، فَلَبِثْتُ لَيَالِيَ، ثُمَّ خَطَبَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَنْكَحْتُهَا إِيَّاهُ، فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ، فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ، إِلَّا أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ ذَكَرَهَا، فَلَمْ أَكُنْ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَوْ تَرَكَهَا لَقَبِلْتُهَا[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، بعد باب شهود الملائكة بدرًا، رقم (٤٠٠٥).

وَهَكَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ خِطبة الإِنْسَان الرَّجُلَ لابنته أَمْرٌ مَشْرُوعٌ، ومعروف فِيمَا سَبَقَ، وَفِي هَذِهِ الْأُمَّةِ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: كَرَمُ هَذَا الرَّجُلِ، ووجهُه أَنَّهُ خَيَّرَ موسى بين البنتين، فقال: اخْتَرْ إحداهما، وَهَذَا مِنَ الْكَرَمِ؛ لِأَنَّ التَّخْيِيرَ فِي الْحَقِيقَةِ أوسعُ للإنسان، وأطيبُ لنفسه؛ حيث يَخْتَارُ مَا يَرَاهُ أنسبَ، لَكِنْ لَوْ قَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ هَذِهِ البنت، فَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ لَا رغبةَ لَهُ فِيهَا، أَمَّا قَوْلُه: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ﴾ فالتخيير يَدُلُّ عَلَى الكرم، وأنه جَعَلَهُ فِي سَعَةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: جَوَازُ الْعَقْدِ عَلَى المبهمة؛ إيجابًا لا قَبُولًا، لأَنَّه مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَقُولُ: زَوَّجْتُك إِحْدَى ابْنَتَيَّ. فيقول الزوجُ: قَبِلْتُ نِكاح فلانة. وَهَذِهِ المَسْأَلَةُ لها أربع صُوَر:

الْأُولَى: إِمَّا أَنْ يَحْصُلَ التعيين بِالْإِيجَابِ وَالْقَبُولِ، فيقول: زَوَّجْتُك ابنتي عائشة. فيقول: قَبِلْتُ. هذا تَعْيِينٌ فِي الْإِيجَابِ، وفي القَبول، فالإيجاب: الْوَلِيُّ قَالَ: زوَّجتُك ابنتي عائشة. فَعَيَّنها، والزوج قال: قَبِلْتُ زواجَ هَذِهِ المَرْأَةِ.

الثَّانية: وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الإبهام فِي الْإِيجَابِ وَالْقَبُولِ، فَلَا يَصِحُّ -مثلًا- أَنْ يَقُولَ: زَوَّجْتُكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ. فيقول: قَبِلْتُ نكاح إحداهما. فهنا لَا يَجُوزُ، وَلَا يَنْعَقِدُ النِّكَاحُ؛ لأَنَّنا لَا نَدْرِي أَيَّتَهُما التي انعقد نكاحها.

الثالثة: وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ التَّعْيِينُ فِي الْإِيجَابِ دُون القَبُول، فيقول -مثلًا-: زَوَّجْتُك ابنتي عائشة. فيقول الزوج: قَبِلْتُ نكاحَ إحدى بناتك. وَهَذَا لَا يَجُوزُ.

الرابعة: أَنْ يَقُولَ: زَوَّجْتُك إحدى بناتي. فيقول: قَبِلْتُ نكاح فلانة. يُسَمِّيها،

فهنا الإبهامُ فِي الْإِيجَابِ والتعيين فِي الْقَبُولِ لَا يَصِحُّ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ التَّعْيِينُ فِي الْإِيجَابِ وَالْقَبُولِ، ولكن الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهُ يَصِحُّ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: زَوَّجْتُك إحدى بناتي. قال: قَبِلْتُ عائشةَ. وهنا حَصَل التعيين، لكن الْمُوجِب الَّذِي هُوَ الْوَلِيُّ أَرَادَ أَنْ يُفْسِحَ له المجال في الاختيار، فهذا ظاهره صِحَّةُ الْعَقْدِ، لَا سِيَّمَا إِذَا قَالَ: زَوَّجْتُك إحدى بناتي هؤُلاءِ. وعَيَّنَهم، فقال: قبلتُ عائشة. وَهِيَ مِنَ الْمُعَيَّنات، فَهَذَا أَيْضًا أَقْرَبُ إِلَى الصِّحة؛ لِأَنَّهُ قَدْ حَصَلَ تعيين بالإشارة، ثم عَيَّن واحدةً منهن بالقَبول.

ولكن قِصَّة مُوسَى هنا لَيْسَ فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا حينئذ، ولأَنه لَمْ يَعْقِدْ عَلَيْهَا بَعْدُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: قد يُفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْأَبَ يملك الْعَقْدَ عَلَى ابْنَتِهِ دُونَ رضاها، وَلَكِنَّ الْآيَةَ لَيْسَ فِيهَا دَلِيلٌ؛ إِذْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ الْأَبُ قد استأذن منهما قَبْلَ ذَلِكَ، أَوْ أَنَّهُ فَهِمَ منهما الرضا؛ لكونها عَرَضَتْ عليه، ووصفتْه بالقُوة والأمانة.

وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ، حَتَّى لَوْ فَرَضْنَا احتمالَ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَأْذِنْ؛ فإنَّ شريعتنا وَرَدَتْ بِخِلَافِ ذَلِكَ، أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُزَوِّجَ ابنته بِدُونِ رضاها، وأَمَّا الْعَقْدُ إِذَا زَوَّجَ ابنته بِدُونِ رضاها فيُعْتَبَر باطلًا لَيْسَ بِصَحِيحٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: جواز اشتراط الأب شَيْئًا مِنَ الصَّدَاقِ لَهُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ زوَّجه عَلَى أَنْ يأجُره ثَمَانِيَ حِجَجٍ فِي رَعْيِ الغَنَم، فَيَكُونُ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَشْتَرِطَ الأبُ مهرَ ابنته له، وَهَذَا فِيهِ إشكالٌ بالنِّسبة لشريعتنا؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ﴾ [النساء:٤]، وقال: ﴿فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة:٢٣٧].

وهاتان الآيتان تَدُلَّان عَلَى أَنَّ المهر للزوجة، وَهِيَ الَّتِي تملك التَّصَرُّفَ فِيهِ بِالْعَفْوِ والإعطاء، وليس للأب حَقٌّ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ أَيْضًا؛ أَنَّ مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ، أو حِبَاءٍ قَبْلَ الْعَقْدِ فهو للزوجة، وَمَا كَانَ بَعْدَهُ فأحَقُّ ما يُكرَم عَلَيْهِ المَرْءُ ابْنَتُه وَأُخْتُه، فالمهر الَّذِي قَبْلَ الْعَقْدِ كُلُّه يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلزَّوْجَةِ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّحِيحُ أَنَّ المَهْرَ للزوجة، لَا يُشَارِكُهَا فِيهِ أَحَدٌ؛ لِأَنَّهُ فِي مُقَابَلَةِ بُضْعِها فَيَكُونُ لَهَا، وليس لِلْأَبِ أَنْ يَشْتَرِطَ مِنْهُ شَيْئًا لِنَفْسِهِ.

والأب لَهُ أَنْ يَتَمَلَّكَ مِنْ مَالِ وَلَدِهِ مَا لَا يحتاجه، ولا يَضُرُّه؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ»(١).

فَأَمَّا أَنْ يَشْتَرِطَ مِنْهُ شَيْئًا لِنَفْسِهِ فَلَا؛ لِأَنَّ الشَّرْعَ لَا يُجِيزُهُ، وَهُوَ أَيْضًا سببٌ للفساد، وملاحظة الأب للمَهر فيُزَوِّج مَن يَشْتَرِطُ لَهُ أَكْثَر، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كُفئًا، وَيَمْنَعُ مَنْ لَا يَشْتَرِطُ له، وَإِنْ كَانَ كُفئًا.

فالمصلحة والشَّرع كلاهما يقتضيان أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْأَبِ أَنْ يَشْتَرِطَ لنفسه شَيْئًا مِنَ المَهْرِ، وَالْأُمُّ وَالْأَخُ مِنْ بَابِ أَوْلَى، وقد يوجد خِلَافِ هَذَا من بعض الناس، وَهَذَا لَا يَجُوزُ، فالواجب أَنْ يَكُونَ المَهْرُ كُلُّهُ للزوجة.

واستدل بِهَذِهِ الْآيَةِ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَيْضًا عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ المَهْرُ منفعةً تَسْتَحِلُّها الزَّوْجَةُ مِنْ زَوْجِهَا، يعني: أَنْ يُعْمَلَ لها بناء؛ بأن يَبْنِيَ لها بيتًا، ويأتيَ لها بشيء فائض، والاستدلال واضح؛ لأن رعي الغنم منفعة، إِذْ لَوْ لَمْ يَرْعَها موسى لَقَام بذلك هاتان البنتان، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ منفعة لها، ثُمَّ إِنَّ شرعنا وَرَدَ بوفاقه، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الإجارة، باب الرجل يأكل من مال ولده، رقم (٣٥٣٠)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، رقم (٢٢٩٢).

لِلرَّجُلِ الَّذِي لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ شَيْئًا: «اذْهَبْ فَقَدْ مَلَّكْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»(١)، وهذا منفعة.

لكن لو اشترطَت عَلَيْهِ أَنْ يخدمها، يعني أَنْ يَكُونَ مَهْرُها خدمتها، فمثلًا: هَذِهِ امرأةٌ عجوزٌ كبيرةٌ خطَبَها إنسانٌ لَيْسَ عِنْدَهُ مَالٌ، أو عِنْدَهُ مَالٌ، وقالت: المهر أنك تخدمني، أن تحملني -مثلًا- لأتوضأ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا تُقَوِّم حذائي، تغسل ثوبي، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فهذا فِيهِ خِلَافٌ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ، مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ لَا يَجُوزُ؛ لأن مَقَام الزَّوْجِ أَنْ يَكُونَ أَعْلَى مِنْ مَقَامِ الزوجة، فَإِنَّ الزَّوْجَ سَيِّدٌ، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف:٢٥]، والزوج رَجُلٌ، فَهُوَ قَوَّامٌ عَلَى الْمَرْأَةِ، قَالَ تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣٤]، والمرأةُ أَسِيرٌ عِنْدَ الزَّوْجِ، قَالَ ﷺ: «**أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ**»(٢).

وَإِذَا قُلْنَا: إِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَهْرُ خدمتَها، انعكست القضية، وصار الأعلى هو الأسفل، وَهَذَا لَا يَجُوزُ، ولكن الْمَذْهَبُ جَوَازُ ذَلِكَ؛ لأنَّها مَنفعة، وكما يَجُوزُ أَنْ تَتَزَوَّجَهُ عَلَى أَنْ يَبْنِيَ بيتها، ويرعى غَنَمَها، فكذلك أَنْ يَقُومَ بخدمتها، وهذا التَّعلِيل لَا يَمْنَعُ، فيخدمها الزَّوْجُ فِيمَا اشترطت عليه، وتخدمه فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهَا، فتكون خادمةً مَخدومة؛ كحَرْفِ الجَرِّ يعمل فيه الْفِعْل، وَهُوَ يَجُرُّ الاسم، هو عامِلٌ مَعْمُول.

وَقَدْ تَكُونُ مصلحة الزَّوْجِ فِي خدمة زوجته، كأن تكون غَنِيَّة، وينتظر موتها حتى يرث منها، وَقَدْ يَحْدُثُ العكس، لكن الأمر حسب الحال، فَهَذَا رَجُلٌ شَابٌّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراءة عن ظهر القلب، رقم (٤٧٤٢)، ومسلم: النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد، رقم (١٤٢٥).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم (٣٠٨٧) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه: كتاب النكاح، باب حق المرأة على الزوج، رقم (٣٠٥٥).

فقير، وهـذه امرأةٌ عجوز كبيرة عندها أموال عظيمة، فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ: لَا يَضُـرُّ أن أخدمها، فربما تموت، وأَرِثُ منها مالها كُلَّه.

وَقَدْ يَكُونُ أَيْضًا لغيـر هَـذَا السَّبَبِ، قَـدْ يَكُونُ لرفع حَسَبِه؛ لِأَنَّ هَـذِهِ امرأة -مثلًا- مِنْ قَبِيلَةٍ مشهورة، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يرفع حَسَبَهُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ عِنْدَ النَّاسِ غَيْرُ قَبيلي؛ فإذا تزوج هَذِهِ الْمَرْأَةَ المعروفة بِأَنَّهَا مِنْ قَبِيلَةٍ مُعَيَّنَة، عُلِم بذلك.

المهم: أن الْآيَةَ فِيهَا اعتبارات.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَجْعَلَ الإِنْسَان العَمَل عملين: عملًا واجبًا، وعملًا تَبَرُّعًا، فيجوز لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَطْلُبَ استئجار شَيْءٍ مَا مثلًا عَشْرَ سنوات بالأجر، وسَنَتَيْن تبرعًا مِن صاحبها، برغبته ومشيئته.

وَنَظِيـرُهُ مِن بَعْضِ الْوُجُوهِ: أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُ لشخص: خُذْ هَـذَا الشَّيْءَ بِعْه بمائة، وَمَا زَادَ فَلَك. فَإِنَّ هَـذَا جَائِزٌ بِشَـرْطِ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ كُلٍّ مِن الطرفيـن معرفة بالسعر؛ لئلَّا ينخدع أحدهما باعتبار أَنَّ واحدًا -مثلًا- عنده حاجة يريد بيعها، وَجَاءَ إِلَى الدلَّال، وقال: خذ هَذِهِ الْحَاجَةَ بِعْهَا بمائة، وَمَا زَادَ فَهُوَ لَكُ. فَهَذَا جَائِزٌ، يبيعها بِمِائَةٍ وَعِشْرِينَ، ويأخذ عشرين، أو بمائة وخَمسة ويأخذ خمسة، أو بمائة وعَشَرة ويأخذ عَشَرة، ولكنه يُشْتَرَطُ فِي هَذَا أَنْ يَكُونَ لدى كُلٍّ مِن الْمُوَكِّل والْمُوَكَّل عِلْمٌ بالسعر؛ لئلا ينخدع أَحَدُهُمَا فِي سِعر هَذِهِ السِّلْعَةِ، فهو يعرِف -مثلًا- أنها تُساوي مائة، وقد تزيد قليلًا، وقد تنقُص قليلًا.

وَلَكِنْ إِنْ كَانَ لَا يَدْرِي مَا ثَمَنُها، ثُمَّ يَقُولُ: بِعْهُ بمائة. وَهُوَ لَا يَدْرِي أَنَّ سِعرها أربعمائة، فيذهب ذاك فيَبِيعها بأربعمائة، أَوْ أَنَّهُ -مثلًا- يَعْرِفُ أَنَّ سعرها لَا يُسَاوِي خمسين، وَالْوَكِيلُ لَا يَدْرِي، فالذي يَغْتَرُّ هُنَا هُوَ الوكيل، وفي الْمَسْأَلَةِ الْأُولَى الْمُوكِّل.

وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ الموكِّل يَعْرِفُ أَنَّ سلعتَه لَا تَزِيدُ عن المائة، فيقول للوكيل: اذهب وبِعْهَا بمائةٍ، وَمَا زَادَ فَهُوَ لَكُ. فيذهب وَهُوَ لَا يَدْرِي، يَظُنُّ أَنَّه سيبيعها بِأَكْثَرَ مِنْ مِائَةٍ، فيَظَلُّ يُحاول ويُحاول، فما بِيعت إلا بثمانين، أو تسعين مثلًا، فيَكُونُ فِي هَذَا غَرَرٌ على الوكيل، وَهَذَا لَا يَجُوزُ، والعكس أَيْضًا لَا يَجُوزُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: حُسن معاملة صاحب مَدْينَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أولًا: أنه فَسَحَ لَهُ فِي الْأَجَلِ، فقال: ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَ﴾.

ثانيًا: أنه وَعَدَهُ بالتيسير فِي الْمُعَامَلَةِ، حَيْثُ قَالَ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾، فهذان دليلان عَلَى أَنَّهُ كَانَ سمحًا فِي مُعَامَلَتِهِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: يُستفاد مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَعْزِمَ عَلَى فِعْلِ الشَّيْءِ إِلَّا مَقْرُونًا بالمشيئة، بَلْ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَهَى نَبِيَّهُ أَنْ يعزِمَ عَلَى فِعْلِ الشَّيْء بِدُونِ قَرْنِه بالمشيئة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ [الكهف:٢٣].

والقَرْنُ بالمشيئة فِيهِ فَائِدَتَانِ:

الْأُولَى: تفويضُ المرءِ الْأَمْرَ إِلَى اللهِ، وَهَذَا هُوَ تحقيقُ التوكّل.

الثَّانية: تيسير الْأَمْرِ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي قِصَّةِ سليمان: «**لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ لَمْ يَحْنَثْ وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب كفارات الأيمان، باب الاستثناء في الأيمان، رقم (٦٣٤١)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب الاستثناء، رقم (١٦٥٤).

تَرَى هَذَا إِذَا كَانَ الإِنْسَان يُرِيدُ أَنْ يُخْبِرَ عَنِ الفعل، أَمَّا إِذَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُخْبِرَ عَنْ عزيمته عَلَى الْفِعْلِ، فَلَا يَلْزَمُهُ قول: إِنْ شَاءَ اللهُ، إِذَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُخْبِرَ عَنِ العزيمة يقول: سأفعل غدًا، أي: هَـذِهِ نيتي وعزيمتي، فَإِنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ القَرن بالمشيئـة؛ لأن العزيمة حاصلة، فقد شاءها الله، وَإِذَا كَانَتْ حاصلة، وقد شاءها الله، فليست هناك حاجة أَنْ نَقُولَ: إِنْ شَاءَ اللهُ؛ لِأَنَّ اللهَ شاءها، ففرْق بَيْنَ أَنْ يَقُولَ إنسان: سأزورك غدًا. وَهُوَ يُرِيدُ وُقُوعَ الْفِعْلِ، وَبَيْنَ أَنْ يَقُولَ: سأزورك غدًا. وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُخْبِرُ عَمَّا فِي قَلْبِهِ مِنَ النِّيَّةِ والعزيمة، بَيْنَهُمَا فَرْقٌ، ففي الْأُولَى لَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: إِنْ شَاءَ اللهُ. وفي الثَّانِيَةِ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يَقُولَ: إِنْ شَاءَ اللهُ. فالعزيمة أمرٌ واقع، وأمَّا الفعل فأمرٌ مُسْتَقبل، فهذا أَمْرٌ لَا يُسْتَحَبُّ فِي العزيمة، إِلَّا إِذَا كَانَ عَلَى سَبِيلِ التعليم، فَلَا بَأْسَ، كَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ»[1]. يعني: حقًّا، وقال اللهُ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح:٢٧].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: يُستفاد مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أَنَّ صَاحِبَ مَدْيَن مؤمن؛ لأن مِثْلَ هَذِهِ الصيغة لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ مُؤْمِنٍ ملتزم بالشريعة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: أن الصَّلَاحَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بحَسَبه، ففي العبادةِ يكون الصَّلَاحُ فِي الْإِخْلَاصِ والمتابعة. أي: الْقِيَامُ بِمَا يَجِبُ مِنَ الْإِخْلَاصِ، والمتابعة لله، وترك المَنْهِيَّاتِ، وفعل المأمورات، وَالصَّلَاحُ فِي الْمُعَامَلَةِ بالْوَفَاءِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الْعَقْدُ، هذا هو الصَّلَاحُ فِي الْمُعَامَلَةِ الْوَفَاءُ بِمَا يَقْتَضِيهِ الْعَقْدُ.

وهنا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ نجد أَنَّ الأَلْيَق

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، رقم (٩٧٤، ٩٧٥).

بالسياق هو صلاح المعاملة؛ لِأَنَّ الْمَسْأَلَةَ جاءت تعقيبًا عَلَى عَقْدٍ، فَقَدْ قَالَ اللهُ تعالى بعده: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعِشْرُونَ: أَنَّ الْعُقُودَ لَيْسَتْ لَهَا صِيَغ مُعَيَّنَة، فتنعقد بما دَلَّتْ عَلَيْهَا، وكذلك الفُسوخ، وكذلك الولايات، كل التصرفات مِنْ عُقُودٍ وفُسوخ وولايات؛ فإنها تَصِحُّ بِمَا دَلَّ عَلَيْهَا، وَلَا يُشْتَرَطُ لها لفظ مُعَيَّن، بل تُجْرَى عَلَى مَا يتعارفه النَّاسُ بَيْنَهُم، حتى عَقْدِ النِّكَاحِ عَلَى الْقَوْلِ الراجح لَا تُشْتَرَطُ له صيغةٌ مُعَيَّنَة، فيجوز عَقْدُ النِّكَاحِ بأيِّ لفظ يتعارف عَلَيْهِ النَّاسُ، فمثلًا يجوز قولنا: زَوَّجْتُك، أنكحتُك، مَلَّكتُك، عقدتُ لَك عَلَى ابنتي. وكذلك الْأَمْرُ فِي الوقف والسبيل، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ مُحْتَمِلًا أَنْ يَدُلَّ عَلَى الْعَقْدِ أَوْ لا، حينئذ نرجع إِلَى اللَّفْظِ اللُّغَوِيِّ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ عُرف رَجَعْنَا إِلَى الحقيقة اللُّغوية، كما ذَكَرُوا فِي الْأَيْمَانِ وَغَيْرِهَا، فَنَرْجِعُ إِلَى مُقْتَضَى الْأَلْفَاظِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْمُتَعَاقِدَيْنِ نِيَّة مُسْبَقَة؛ لأنهما يريدان هَذَا الْعَقْدَ، فَإِذَا كَانَت بينهما نِيَّة معروفة، واتفقَا عليها، عُمِل بها.

الفقهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ استَثْنَوْا بعض العُقود، وجعلوا لها صِيَغًا مُعَيَّنَةً، ففي النكاح مثلًا قالوا: لَا يَنْعَقِدُ إِلَّا بِلَفْظِ (زَوَّجْتُك) أو (أَنْكَحْتُك)، فَلَمَّا قِيلَ لَهُمْ: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَعْتَقَ صَفِيَّةَ، وَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا»[1]. قالوا: هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ تُستثنَى، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا الدَّلِيلُ عَلَى استثنائها، بل هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ النِّكَاحَ يَنْعَقِدُ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ، فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعُقُودَ تنعقد بِمَا دَلَّ عَلَيْهَا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الوليمة ولو بشاة، رقم (٥١٦٩)، ومسلم: كتاب النكاح، باب فضيلة إعتاقه أمته، ثم يتزوجها، رقم (١٣٦٥).

لَمْ يَقُلْ: قبلتُ النكاح، ولا: قبلتُ الإجارة، وَلَا شَيْءَ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: يُستفاد مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أَنَّ الْعُقُودَ عهود فِي الْحَقِيقَةِ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ لأن كُلَّ إِنْسَانٍ يعقد مع شخص فَقَدِ التزم أَلَّا يَخُونَه، والتزم أَنْ يَفِيَ له بمُقتضى هَذَا الْعَقْدِ، فَيَكُونُ بِذَلِكَ عهدًا، فِي سُورَةِ الإسراء يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٤]، وَقَدْ قَالَ قَبْلَهَا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٤]، فالوَلاية عَلَى الْيَتِيمِ نَوْعٌ مِنَ الْعَقْدِ، وجَعَلها اللهُ تعالى عهدًا، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّ مُوسَى ﷺ قَبِل مَا جَعَلَهُ لَهُ صَاحِبُ مَدْيَنَ مِنِ اختيار أَحَدِ الْأَجَلَيْنِ، حينما قال: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾، وبَقِي العقدُ مفتوحًا، يعني: إِنْ أتممتُ العَشْرَ، فلا تعتدي عليَّ بإخراجي مِن بيتي، وطردي عن عملي إِنْ أردتُ العَشر، وإن أوفيتُ بالثماني، فلا تَلُمْنِي، وتَقُلْ: هَذَا الرَّجُلُ مَا وفَّى.

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِه: ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي: لا اعتداءَ عليَّ، وَهَذَا فِي الْحَقِيقَةِ يَتَوَجَّهُ؛ لِأَنَّهُ رُبَّمَا يَسأل سائل ويقول: كيف يقول: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾، ثم يَسري عَلَيْهِ عُدْوَانٌ، والرَّجُل وَفَّى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ؟

نقول: ربما يكون عُدوانًا، بمعنى: إِنَّهُ إِذَا أَرَادَ إتمام الْعَشْرِ لَا يتركه يذهب، وإذا اقْتَصَرَ عَلَى التَّمام يَتَكَلَّمُ بِهِ فِي المَجَالِسِ، والمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: [﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ بِطَلَبِ الزِّيَادَةِ عَلَيَّ]، وهذا تَقَدَّمَ أَنَّهُ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ أَصْلَ طلب الزيادة غير وارد.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حفيظٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: جَوَازُ تَخْصِيصِ الْعُمُومِ لغرض، أي جَوَازُ تَعْلِيقِ الشَّيْءِ العامِّ بأمرٍ خاصٍّ بغرض، ويُؤْخَذُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ فَإِنَّ هَذَا يَقْتَضِي تخصيصَ وَكالة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما قالاه فقط، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَذَلِكَ، إنما خُصِّص هذا لِغَرَضِ العِناية به.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ: جواز إشهاد اللهِ عَلَى الْعَقْدِ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، ولكن شَرْعًا لَا يُقْتَصَرُ عَلَى ذَلِكَ، فأنت تَشهد لله، لَا لغرضٍ آخَرَ، لكن باطنًا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَبَيْنَ اللهِ يُكتفى به، ويستفيد الرَّجُلُ إِذَا أَشْهَدَ اللهَ، أَوْ جعله الوكيلَ الحفيظَ المُراقِبَ، أَنْ يُذَكِّرَ بانتقام اللهِ مِنْهُ إِذَا خَالَفَ، أو خانَ.

فمَن أَشْهَدَ اللهَ، ثُمَّ خانَ، فَقَدِ استخفَّ به، وَهِيَ كَذَلِكَ فِي حَقِّ المخلوقين، فما بالُك أَنْ تَكُونَ فِي حَقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟!

واللهُ فِي كُلِّ حَالٍ شَاهَدٌ، سواء قُلنا، أَمْ لَمْ نَقُلْ، لكن استشهاده أَمْرٌ عَظِيمٌ، والتزام الإِنْسَان بمقتضى هَذِهِ الشَّهَادَةِ يكون أعظمَ، فَيَكُونُ فِيهِ توكيد للعَقد، إِذَا قُلْنَا: الله شاهدٌ علينا أرأيتَ مَا عِنْدَنَا أحدٌ، لَكِنِ الْآنَ نُريد نحن وأنت أن نُشهِد اللهَ أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الشاهد، إذا وافَقَ هَذَا يَكُونُ أَبْلَغَ فِي التَّأْكِيدِ؛ لأن مخالفته عُرضة للعقوبة، ولهذا قَلَّ مَنْ يَحْلِفُ بِاللهِ كَاذِبًا إلا أُصِيبَ فِي الدُّنْيَا قَبل الآخرة، وَفِي الْآخِرَةِ إصابتُه واضحة، وَهُوَ أَنَّهُ يَلْقَى اللهَ، وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ، لكن الغالب أنه تُعجَّل له الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا، والقِصَصُ فِي هَذَا كَثِيرٌ.

فقد حدثني إنسان أَنَّهُ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شخصٍ خُصومة فِي الْخَارِجِ، فتخاصموا

عِنْدَ الْقَاضِي، فأنكَرَ حَقَّهُ، وحَلَف الْمُدَّعَى عَلَيْهِ، لكنه فِي الْيَوْمِ التالي خرج هو وعائلته إلى الرياض فحصل لهم حادث، وماتت العائلة كلها، مَا بَقِيَ إِلَّا هُوَ، وهذه عُقوبة مُعَجَّلَة.

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ السَّلَفِ أَنَّ الْيَمِينَ الغَمُوس تَدَعُ الدِّيارَ بلاقِعَ، أي: خاليةً مِنْ أَهْلِهَا، تُدَّمِر وتُهلِك، وَإِنَّمَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ رِعْيَةٌ]؛ لِأَنَّ الْأَجَلَ، أو الزَّمان نَفْسَهُ لَيْسَ بِيَدِ موسى، بل الَّذِي بِيَدِهِ هو الرَّعْيُ.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القَصَص:٢٩].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ أَيْ رَعْيَهُ، وَهُوَ ثَمَانٍ، أَوْ عَشْرُ سِنِينَ، وَهُوَ المَظْنُونُ ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ زَوْجَتِهِ بِإِذْنِ أَبِيهَا نَحْوَ مِصْرَ ﴿ءَانَسَ﴾ أَبْصَرَ مِنْ بَعِيدٍ ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ اسْمُ جَبَلٍ ﴿نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ هُنَا ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عَنِ الطَّرِيقِ، وَكَانَ قَدْ أَخْطَأَهَا ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ بِتَثْلِيثِ الجِيمِ قِطْعَةٌ وَشُعْلَةٌ ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تَسْتَدْفِئُونَ، وَالطَّاءُ بَدَلٌ مِنْ تَاءِ الِافْتِعَالِ، مِنْ: صَلِيَ النَّارَ بِكَسْرِ اللَّامِ وَفَتْحِهَا].

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَضَىٰ﴾ بمعنى: فرغ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت:١٢]، أي: فَرَغ منهن.

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَجَلَ﴾: (ال) هَذِهِ للعهد، يعني: الْأَجَلَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ صاحب مَدْيَنَ، وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ بينهما أَجَلَيْن: أَجَلًا واجبًا، وهو ثماني سنوات، وأَجَلًا تَبَرُّعًا مِنْ مُوسَى، وهو عَشْرُ سنوات، ولا ندري أَيَّ الْأَجَلَيْنِ قَدْ قَضَى، يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ، وَهُوَ ثَمَانِي أَوْ عَشْرَ سِنِينَ، وَهُوَ المَظْنُونُ بِهِ]، الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ:

[وَهُوَ المَظْنُونُ بِهِ] يَعُودُ عَلَى الْعَشْرِ، يعني: الَّذِي يُظَنُّ بموسى أَنَّهُ أَتَمَّ عَشْرًا.

وَلَكِنَّ الْآيَةَ مُحْتَمِلَةٌ، فترجيح العَشر بِنَاءً عَلَى المَعْلُومِ مِنْ حَالِ مُوسَى ﷺ مِنَ الْكَرَمِ والوفاء، وترجيح أنه ثمانٍ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ، وموسى كَانَ فِي اشتياقٍ إلى بلاده بمصر، وَقَدْ قَالَ فِيمَا سَبَقَ معتذرًا ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾، وهذه جملة قد تشير إِلَى أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى الْأَجَلِ الواجب، وَإِلَّا فَمِنَ المَعْلُومِ أَنَّهُ إِذَا قَضَى الأجَل الأول؛ فَإِنَّهُ لَا أَحَدَ يَلُومُه، أو يعتدي عليه، فلكُلٍّ منهما وجهٌ، وموقفنا نَحْنُ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنْ نُبهِمَ ما أَبْهَمَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فنقول: قضى الأجَلَ وَاللهُ أَعْلَمُ أَيَّهما قضاه.

ولكن هناك أَثَرٌ مَرْوِيٌّ عن عطاء بن السائب قَالَ لَقِيَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رَاهِبًا فَقَالَ سَعِيدٌ: أَيَّما الأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ فَلَمْ يَدْرِ، فَلَقِيتُ ابن عَبَّاسٍ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ: «قَضَى أَوْفَاهُمَا»[1]. وَهُوَ الْعَشْرُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرين.

وَلَكِنَّ هَذَا قَوْلٌ لَا يُوجَدُ مَا يُرَجِّحُه، فتفسيرُ الصحابي ليس صحيحًا مطلقًا، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الصحابي ممن عُرف بِالْأَخْذِ مِنَ الإسرائيليات، مِثْل ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ السير معناه: المشي، سار بأهله مِنْ عِنْدِ صاحب مَدْيَن وأهله.

---

(١) أخرجه سفيان الثوري في تفسيره، رقم (٧٥٤) موقوفًا على ابن عباس، وقد روي مرفوعًا من حديث جابر بن عبد الله قال: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ قَالَ: «أَوْفَاهُمَا». أخرجه الطبراني في الأوسط (٨/ ١٩٢، رقم ٨٣٧٢)، وقال: لم يرو هذا الحديث عن جابر إلا بهذا الإسناد، تفرد به هشام بن عمار. وكذلك من حديث عُتْبَةَ بْنِ النُّدَّرِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ أَيُّ الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ قَالَ: «أَبَرَّهُمَا وَأَوْفَاهُمَا». أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ١٣٤، رقم ٣٣٢).

وقوله: ﴿بِأَهْلِهِۦٓ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [زَوْجَتُهُ بِإِذْنِ أَبِيهَا نَحْوَ مِصْرَ]، أَمَّا قَوْله: [زَوْجَتُهُ] فهذا صحيح؛ فَإِنَّ الزَّوْجَةَ تُسمى أهلًا، وَأَمَّا قَوْلُهُ: [بِإِذْنِ أَبِيهَا] فَهَذَا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، وَلَا يَحْتَاجُ الزَّوْجُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُسَافِرَ بزوجته إِلَى إِذْنِ أبيها؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَ المرأة صارت مِلكًا له، يسير بها حَيْثُ شَاءَ، اللهُمَّ إِلَّا إِذَا سار بِهَا إِلَى أَمْرٍ لَا يَجُوزُ شَرْعًا، فلها أَنْ تَمْتَنِعَ، ولأبيها أَيْضًا أَنْ يَمنعها، وإلا فالحقُّ له؛ إِذْ لَوْ شَرَطَ عَلَيْهِ أَلَّا يُسَافِرَ بِهَا يَلْزَمُهُ الْوَفَاءُ، وَلَكِنْ لَوْ أَذِنتْ وأَبَى أبوها، وقد شَرَطَ عليه، فلها الْحَقُّ أَنْ تسافر؛ لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِهَا شخصيًّا، وقد تَرَى أَنَّ مِنَ الأفضل لَهَا أَنْ تُسَافِرَ مَعَ زَوْجِهَا.

قوله تعالى: ﴿ءَانَسَ﴾ أي: أبصَرَ مِن بَعيد، وأَصْلُ ﴿ءَانَسَ﴾ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْأُنْسِ، وهو زوال الوَحْشَة، ولكنها تَأْتِي بِمَعْنَى الإبصار بالشَّيْء؛ لِأَنَّك إِذَا أبصرتَ الشَّيْء وعرفتَه زال عَنْك مَا تخشاه.

قوله تعالى: ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ بالضَّم: اسمُ جَبَل، وجانِبُ الشَّيْء: جِهَتُه، أي: مِنْ جِهَةِ الطُّور.

قوله تعالى: ﴿نَارًا﴾ هَذِهِ النار ليست نارًا حقيقيةً، ولكنها نُور، وتُشبه النار، لَمَّا أَبْصَرَ هَذِهِ النارَ، وكان الزَّمَنُ زمَنَ شتاء، والظاهِرُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ اللَّيْلَةَ كانت مُغَيَّمةً، وأن مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عنده نَوْعٌ مِنَ الاشتباه فِي الطَّرِيقِ، كما تَدُلُّ عَلَيْهِ الْقِصَّةُ، آنسَ نارًا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ أي: هنا، قَالَ ذَلِكَ لأهله، وقد قَرَّرَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَبْلَ قليل أَنَّ المُرَادَ بأهله الزَّوجة، وهنا قال ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ وَهُوَ خِطَابٌ لجماعة؛ لأن خطاب الواحدة يكون: امكُثِي، وللخروج مِنْ هَذَا الْإِشْكَالِ قَالَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ:

إنه اصطحب معه خادمًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ أيضًا: إنه وُلِدَ لَهُ مِنْهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ سُلِّمت لَهُ مِنْ أَوَّلِ الْعَقْدِ، وبقيت معه ثماني، أو عَشْرَ سِنِينَ، فولَدتْ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ الخطاب ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ مطابقًا للواقع؛ لأن معه زوجةً وخادمًا وولدًا، وهـؤُلاءِ جماعة، وَهَذَا لَيْسَ ببعيد؛ إذ إنه جَرَتِ الْعَادَةُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا سَافَرَ، لَا سِيَّمَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ، أن يصطحب مَعَهُ مَنْ يخدمه.

قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾: (لَعَلَّ) هنا للترجِّي؛ لأنَّه يَتَمَنَّى أَنْ يَحْصُلَ لَهُ هَذَا الْأَمْرُ، ﴿ءَاتِيكُم﴾ بمعنى: أجيئكم، وَلَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ اسم فاعل؛ لأنَّه هنا يُرِيدُ الْفِعْلَ، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّهُ متصفٌ بالإتيان، والدَّليل أَنَّك لَوْ حوَّلتها إلى معناها تقول: لعلي أجيئكم، فـ(أجيئكم) واضح أنها فِعل مضارع، فليست هُنَا اسْمَ فاعل.

قوله: ﴿مِّنْهَا﴾ أي: مِنْ هَذِهِ النار، وَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّارَ نَفْسَهَا لَا تُعْطِي خبرًا، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ مِنْ عِنْدِهَا؛ لِأَنَّ النَّارَ عَادَةً لَا تشتعل إلا وعِندها أُناس.

وقوله: ﴿بِخَبَرٍ﴾ يَقُولُ فِيهِ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَنِ الطَّرِيقِ، وَكَانَ قَدْ أَخْطَأَهُ]، وهذا ممكن، وَقَدْ يَكُونُ أَعَمَّ مِنْ قَوْلِهِ هَذَا، فيكون عَنِ الطَّرِيقِ، وعما بَقِيَ مِنَ المسافة، وعن كُلِّ شَيْءٍ، وكلمة (خَبَر) نَكِرَة تُفيد العُموم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ يقول الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِتَثْلِيثِ الجِيمِ]، أي بِفَتْحٍ، أَوْ ضَمٍّ، أَوْ كَسْرِ الجِيم، فَإِذَا قِيلَ: بالتثليث، أي بالحركات الثلاث، وَإِذَا قِيلَ بالْمُثَلَّثَة أي بالثاء.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي مَعْنَى الجَذْوة: [قِطْعَةٌ وَشُعْلَةٌ مِنَ النَّارِ]، أَيْ إِنَّ الجَذْوَةَ عُودٌ فِي طَرَفِهِ نارٌ مشتعلة.

وقوله تعالى: ﴿تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون؛ لأن الصَّلْيَ معناه: الاحتماء بالنار، فالاصْطِلَاء إذن الاحتماء بها، وهو الاسْتِدْفَاء، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا فِي بَرْدٍ.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَالطَّاءُ بَدَلٌ مِنْ تَاءِ الِافْتِعَالِ] هَـذِهِ عِلَّةٌ تصريفية، فتاء الافتعال هِيَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى فِعْلِ الشَّيْء، فالفعل (اصطلى) أصله (اصتلى)، و﴿تَصْطَلُونَ﴾ أصلها: (تصتلون)، مِثل تبتغون، ولكن القاعدة التصريفية فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَتْ تاء الافتعال بعد الصاد، فإنها تُقلب طاءً، وَهِيَ مَأْخُوذَةٌ مِن: صَلِيَ النارَ -بِكَسْرِ اللَّام وفتحها- كرَضِيَ، وكرَمَى، ففيها لُغَتان فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فقوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ [الليل:١٥]، مِنْ بَابِ رَضِيَ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى:١٢].

يَقُولُ اللهُ تعالى فِي سُورَةٍ أخرى: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه:١٠]، وَالْخَبَرُ أَعَمُّ مِنَ الْهُدَى، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَنْفِي هَـذَا الشَّيْء، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ، وقُلنا: إِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ السماء مُغِيمة، وَإِلَّا لَكَانَ يعرف النجوم؛ لأنَّه راعٍ، وَقَدْ بَقِيَ ثمانيَ سنواتٍ، ويعرف غالب النجوم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّهُ مَنْ تعهد بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ لَا يشتغل بِغَيْرِهِ حَتَّى انتهائِه منه؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾، وهذه قاعدةٌ مهمة، إِذَا اشْتَغَلَ الإِنْسَان بِشَيْءٍ لَا يَنْتَقِلُ إِلَى غَيْرِهَ حتى يُتِمَّهُ، وَكَذَلِكَ كَانَ السَّلَفُ، كانوا يبدءون بحفظ القُرْآن، فلا ينتقلون إِلَى غَيْرِهَ حتى يختموه، وهكذا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِيهَا إِثْبَاتُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يُقدِّر لِلْمَرْءِ مِنَ الْأَسْبَابِ مَا توصله إلى الكمال، ذَلِكَ أَنَّ رَعْيَ الغَنم فيه مصلحة لرعاية الْخَلْقِ فِيمَا بَعْدُ، ولهذا

أَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ»(١).

فَإِذَا كَانَ الإِنْسَان يتعـود الرعاية، ومسئولية الرعية، فَإِنَّ هَـذَا فِيهِ توطئة لما يُوكَل إِلَيْهِ فِيمَا بَعْدُ.

المهم: أَنَّ اللهَ يُقَدِّر لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْأَسْبَابِ مَا يَصِلُ بِهِ إِلَى درجة الكمال.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ -عليهم الصَّـلَاةُ وَالسَّـلَامُ- حتى قَبْل النُّبُـوَّةِ هُم كغيرهم مِنَ الْبَشَرِ؛ يُحِسُّـون بآلام البَرَد، وكذلك بآلام الجُوع وغيره، ويهتدون إِلَى الطَّرِيقِ، وقد يَضِلُّون عنه، وهنا فائدتان شرعيتان:

الْأُولَى: أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الغيب؛ إِذْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغيبَ ما ضَلُّوا عَنِ الطَّرِيقِ.

الثَّانية: أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لأنفسهم نَفْعًا، وَلَا ضَرًّا، فإذا كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ ضَرًّا لأنفسهم، فلغيرهم مِنْ بَابِ أَوْلى، وهذا مُصَرَّحٌ بِهِ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٥٠]، وَقَالَ اللهُ تعالى لِنَبِيِّه: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢١-٢٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ اللهَ تعالى إِذَا أَرَادَ أمرًا هَيَّأَ أَسْبَابَهُ، وَأَنَّ اللهَ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يُوحِيَ إِلَى نَبِيِّهِ مُوسَى فِي ذَلِكَ المكان، هَيَّأ له أسبابًا تُوَصِّلُه إِلَى النَّارِ التي رآها وقَصَدَها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَبْقَى فِي المَكَانِ الَّذِي فارَقَهُ فيه صاحبُه، لأن مُوسَى قَالَ لِأَهْلِـهِ: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾، حتى يَسْـتَطِيعَ أَنْ يَرْجِـعَ إِلَيْهِم، وَكَذَلِكَ هُمْ لا يَضِلُّون عَنِ الطَّرِيقِ، وهذه عَادَةٌ مِنَ الحزم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، رقم (٢٢٦٢).

وَانْظُرْ إِلَى قِصَّة عَائِشَةَ فِي الْإِفْكِ[١] لَمَّا جَاءَتْ، ووجَدَتِ الْقَوْمَ قَدْ رَحَلُوا، بَقِيَتْ فِي مَكَانِهَا؛ لأنَّها عَلِمَت أَنَّهُمْ إِذَا فَقَدُوها فسوف يرجعون إليها مَرَّة أخرى، لَكِنْ لَوْ ذَهَبَتْ فَسَتَضِلُّ عنهم، وهُم إِذَا جَاءُوا فلن يجدوها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى حُسْنِ معاملة موسى لأهله؛ إِذْ جَعَلَ يتطلب لَهُمْ مَا يُدفئهم، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»[٢].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ أَمْرًا أَنْ يُخْبِرَ أَهْلَهُ عَنْ وِجهته؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾، خِلَافًا لِمَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ الْيَوْمَ، يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، وَلَا يُخْبِرُ أَهْلَهُ، وقد يُقْبَلُ هَذَا فِي الْأُمُورِ العادية، وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ الْخُرُوجَ والسَّفَر -مثلًا- فَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُخْبِرَ أهله بوجهته.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: اتخاذ الأَسْباب لَا يُنَافِي التَّوكُّل، بَلْ هُوَ مِنْ تَمَامِ التَّوكُّل، ومِن تمام معرفة الإِنْسَان بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن نأخذ بالأَسْباب؛ حيث إِنَّ الْإِنْسَانَ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ سببًا، فيأخذ بِهَذِهِ الْأَسْبَابِ حتى يَصِلَ إِلَى الْغَايَةِ، لكن المحظور أَنْ يَعْتَمِدَ الإِنْسَان عَلَى السَّبَبِ ويظن أنه هو الغاية، فالتوكُّل على الله مع الأخذ بالأَسْباب هَذَا مِنْ تَمَامِ معرفة الْإِنْسَانِ لِرَبِّهِ.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا، رقم (٢٦٦١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم (٢٧٧٠).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، باب في فضل أزواج النبي ﷺ رقم (٣٨٩٥) وقال: حسن غريب صحيح. وابن ماجه: كتاب: النكاح، باب حسن معاشرة النساء، رقم (١٩٧٧).

الآيــة (٣٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القَصَص:٣٠].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ﴾ جَانِبِ ﴿ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ لِمُوسَى ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ لِمُوسَى لِسَمَاعِهِ كَلَامَ اللهِ فِيهَا ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بَدَلٌ مِنْ شَاطِئِ بِإِعَادَةِ الْجَارِّ لِنَبَاتِهَا فِيهِ، وَهِيَ شَجَرَةُ عُنَّابٍ، أَوْ عُلَّيْقٍ، أَوْ عَوْسَجٍ ﴿أَن﴾ مُفَسِّرَةٌ لَا مُخَفَّفَةٌ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾].

قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: جَاءَ إِلَى النَّارِ، ووصل إليها.

قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾: ﴿نُودِىَ﴾ النِّدَاءُ هُوَ دُعَاءُ الشخص بصوتٍ مُرتَفِع، والمناجاةُ: المُسَارَّة، وتكون بصوتٍ منخفض، وَقَدْ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]، فمُوسى نُودِيَ مِنْ بُعْد، ثم قُرِّبَ فنُوجِيَ.

وكلمة ﴿نُودِىَ﴾ مَبْنِيَّة للمفعول، فالذي ناداه هُوَ اللهُ، كَمَا فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات:١٦]، فهنا حُذِفَ الفاعِلُ للعِلم به؛ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ الَّذِي نَادَاهُ هُوَ اللهُ، بِدَلِيلِ قَوْلِه بعدُ ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القَصَص:٣٠].

وقوله تعالى: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ﴾ أي: مِنْ جَانِبِ، فشاطئُ الشَّيْءِ جانِبُه،

ومنه: شاطئ النهر، أي: جانبه.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْوَادِ﴾ الْوَادِي: مَجرى الماء، فمَجرى الشَّيْء يُسَمى واديًا؛ لأنَّه فيه جُمِع، والوَدْي: الجَمْعُ، فعليه يكون مَجْرَى الشَّيْء واديًا.

وقوله: ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ صِفةٌ للشاطئ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ [طه:٨٠].

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ لِمُوسَى]، وَهَذَا مَعْلُومٌ؛ لأنَّه منادى، فَقَدْ يَكُونُ الوادي أمامَ مُوسى، أَوْ هُوَ فِي وَسَطِ الوادي، فيكونُ الأيمن مِنْهُ هُوَ الَّذِي عَلَى يَمِينِ موسى.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ البُقعة: الأرض، أو الشَّيْء المتميز عَنْ غَيْرِهِ، ومنه: بُقَعُ المَاءِ فِي الثَّوْبِ مثلًا، فالبُقعة هي: الجانبُ مِنَ الْأَرْضِ المميَّز -مَثَلًا- بأشجار، أو شِبْهِها.

وقوله: ﴿ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ معناه: التي أَحَلَّ اللهُ فِيهَا البَرَكَةَ، والبَرَكَةُ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ الثابتُ؛ لأنَّه مُشْتَقٌّ مِنَ: بِركة الماء، وبِركةُ الماء تكون مَجْمَعًا لَهُ مَعَ ثُبوته فيه، والبَرَكة تَكُونُ مِنَ اللهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مُبارَكٌ لشخصه، بَلْ لِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ مِنَ البَرَكة.

وقد مَرَّ علينا بحثٌ فِي كَوْنِ الإِنْسَان يُتَبَرَّكُ به، وهل يَصِحُّ هَذَا أَمْ لَا؟ وقلنا فِيمَا سَبَقَ: إِنْ كَانَ الْمُرَادُ البَرَكة الشخصية، فَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ، إلا للنبي ﷺ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بالبَركة مَا يَحْصُلُ مِنْهُ مِن مَنافِعَ عِلمِيَّةٍ، أَوْ مَالِيَّةٍ؛ فَإِنَّ هَذَا صَحِيحٌ؛ لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَكُونُ مجلسُه مُبَارَكًا ينفع الحاضرين؛ إما بالذِّكر، وإما بالعِلم، وإما بالمال، وإما بالآداب، والأخلاقِ، هَذِهِ بركة لَا شَكَّ، وبعضُ النَّاس يكون بالعَكس

مَشْئُومٌ على جَلِيسه، كَمَا أَنَّ مِنَ النَّاسِ أَيْضًا مَنْ يَكُونُ مِفتاحًا للخَير، ومِغلاقًا للشَّرِّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ بالعكس.

لكن المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَيَّدها قَيْدًا حَسَنًا، فقال: [مُبَارَكَةٌ لِمُوسَى]، فهي مُبارَكة فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بالنِّسبة لموسى، أَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ فَلَيْسَتْ لها صِبْغةٌ دينية، وليست مُقَدَّسةً بَعْدَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ هَذَا خَاصٌّ فِي وَقْتِ تكليمِ موسى.

ومنه أيضًا: غَارُ حِرَاءٍ، فهو بالنِّسبة للرسول ﷺ مُبَارَك، لكن حين نُزول الوحي عَلَيْهِ فِيهِ، أَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ فَلَيْسَتْ له صِبغة دينية، ولهذا مِن البِدع أَنَّ الْإِنْسَانَ يَذْهَبُ إِلَى غَارِ حِرَاءٍ ليزورَه تعبُّدًا، وكذلك غارُ ثَوْرٍ، أَمَّا إِذَا كَانَ يزوره اطلاعًا فقط؛ فَإِنَّ هَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، وَلَا حَرَجَ؛ لِأَنَّهُ لَا يُرِيدُ التعبد.

فمِن هَذِهِ الأماكن التي ما تثبت لها قُدسية عامَّة، تكون قدسيتُها خاصَّة في حِينِها فقط، ولِمَن هِيَ لَهُ أَيْضًا، وأَمَّا لِغَيْرِهِ، فَلَا يَكُونُ لَهَا هَذَا الْحُكْمُ.

ولهذا كان مِنْ أَحْسَنِ مَا صَارَ عَلَيْهِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تقييدُه هنا بموسى؛ لسماعه كَلَامَ اللهِ فِيهَا فِي هَذِهِ البُقعة، وَلَا شَكَّ أَنَّ الاستماع إلى كَلَامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يُشْبِهُهُ أَيُّ استماع؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَجِدُ فِيهِ مِنْ لَذَّةِ المناجاة مَا لَا يَجِدُهُ في مناجاة أَيِّ أحد؛ لأنَّه أحب شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ كُلَّمَا خاطَبَ محبوبَهُ صار أَشَدَّ تَلَذُّذًا بكلامه معه، مَعَ أَنَّ كَلَامَ اللهِ لَا يُشْبِهُهُ كلام.

يقول الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِسَمَاعِهِ كَلَامَ اللهِ فِيهَا]، وكلام الله سَمِعَهُ مِنَ اللهِ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ، وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة، وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ الأشاعرة، فقالوا: إِنَّ كَلَامَ اللهِ هُوَ الْمَعْنَى القائمُ بالنفس، وَإِنَّ مَا يُسمع مخلوقٌ خَلَقه اللهُ عَزَّوَجَلَّ ليُعبرَ بِهِ عَمَّا فِي نَفْسِهِ.

وَعَلَى هَذَا يكون مُوسَى لَمْ يَسْمَعْ كَلَامَ اللهِ، وإنما سَمِعَ مَا هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كَلَامِ اللهِ تعالى.

وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ أَيْضًا المعتزلة والجَهميَّة، وقالوا: إنَّ كَلَامَ اللهِ مخلوقٌ، يَخْلُق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أصواتًا فِيمَا أَرَادَ؛ إِمَّا فِي جبريل، وَإِمَّا فِي الشَّجَرَةِ، وَإِمَّا فِي الْأَرْضِ، فتُسمَع هَذِهِ الأصواتُ، فيُنسب الْكَلَامُ إِلَى اللهِ مِنْ بَابِ التَّشبيه، والخَلق، والتكوين.

وعندما نُمَحِّص الأمر نجد أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الأشاعرة والمعتزلة فِي هَذَا الْبَابِ؛ لِأَنَّ الْكُلَّ مُتَّفِقُونَ أَنَّ مَا يُسْمَع فهو مخلوق، وَلَيْسَ هُوَ كَلَامَ اللهِ، وفي الْحَقِيقَةِ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَ، لكن الأشاعرة تلطَّفوا فِي الْأَمْرِ، وقالوا: إِنَّ الْكَلَامَ معنًى قائمٌ بالنفس يُعَبَّرُ عَنْهُ بالأصواتِ، لا يُعبِّر المتكلم، يَخْلُقُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ.

ولا ريب أَنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة هو المذهب الصحيح الموافقُ للنقل والعقل، يقولون: إنَّ كَلَامَ اللهِ يُسْمَعُ مِنَ اللهِ، وإنَّ كَلَامَ اللهِ بحرفٍ وصوت، أما الحرف فَهُوَ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، مما يستعمله النَّاسُ فِي نُطقهم.

وأما الصوت فَإِنَّهُ لَا يُشْبِهُ أصواتَ المخلوقين، وكيف يُشبه أصواتَ المخلوقين وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ «**إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ بِالوَحْيِ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ شَيْئًا، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، وَسَكَنَ الصَّوْتُ، عَرَفُوا أَنَّهُ الحَقُّ وَنَادَوْا** ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ [سبأ:٢٣]»[1].

يقول المُفَسِّرُ: [﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ بَدَلٌ مِنْ شَاطِئِ؛ لِإِعَادَةِ الْجَارِّ لِنبَاتِهَا فِيهِ].

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا: كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣]، موقوفًا على ابن مسعود.

قوله تعالى: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ هنا تخصيص بعد تخصيص، تخصيص بالنِّسبة لجانب الشاطئ أنه الأيمن، وَفِيهِ أَيْضًا تخصيصٌ ثانٍ بالنِّسبة للشاطئ، وَهُوَ أَنَّهُ مِنَ الشجرة: نُودِيَ مِنَ الشجرة، أي: مِن ناحيتها، وليس مَعْنَاهُ أَنَّ النِّدَاءَ مِنَ الشَّجَرَةِ.

والمعتزلة يقولون: إِنَّ النداء مِنَ الشَّجَرَةِ، وإنَّ الشجرة خُلِق فيها صوتٌ سمعه مُوسَى عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ.

وَلَكِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الشَّجَرَةِ، أي: مِن ناحيتها، وجِهَتِهَا، بِدَلِيلِ مَا يَأْتِي: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَهَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَقُولَه الشجرة، ولو قالته الشجرة لَقَالَ لَهَا موسى: كذبتِ. ولكن الَّذِي يَقُولُ ذَلِكَ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِنَبَاتِهَا فِيهِ، وَهِيَ شَجَرَةُ عُنَّابٍ، أَوْ عُلَّيْقٍ، أَوْ عَوْسَجٍ، (أَنْ) مُفَسِّرَةٌ لَا مُخَفَّفَةٌ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾]: [أَوْ] هَذِهِ لتنويع الخلاف، وهذا أَمْر لَا يَهُمُّنا.

المهم: أنها شجرة نُودِي منها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

و(أَنْ) مُفَسِّرة، والْمُفَسِّرة هِيَ الَّتِي بمعنى (أَيْ)، وَهِيَ الَّتِي تأتي مُفَسِّرةً لِمَا فِيهِ مَعْنَى الْقَوْلِ دُونَ حُروفه، فالنداء -مثلًا- فِيهِ مَعْنَى القول، أما حروفُ القول فهي كلمة (قال) ومُشْتَقَّاتُها، قَالَ تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون:٢٧]، (أَنْ) هَذِهِ مُفَسِّرة؛ لأنَّها أتت لِمَا فِيهِ مَعْنَى القول، وهو الإيحاء دُون حروف القول، ولهذا سمَّيناها هنا مُفَسِّرة؛ لأنَّها فَسَّرَت النداء بالقول؛ إِذْ إِنَّ مفعولها قوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَهُوَ مَفْعُولٌ قول، ولهذا يقول: إنها مُفَسِّرة؛ لأنَّها فَسَّرَت مَعْنَى الْفِعْلِ المتضمِّن القولَ دون حروفِ القولِ.

وقوله: [لَا مُخَفَّفَةٌ] الصَّواب أنها ليست مُخَفَّفَةً مِن الثَّقِيلة، فَلَا تَصِحُّ أَنْ تكُونَ مُخَفَّفَةً؛ لأنَّه ينطبق عليها معنى التَفْسِيرِيَّة، هَذِهِ واحدة.

وأيضًا المُخفَّفة تَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ، وَهُوَ غَيْرُ مَوْجُودٍ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَا مُخَفَّفَةٌ] إِشَارَةٌ إِلَى نَفْيِهِ؛ لِأَنَّ بَعْضَ المغرضين يقولون: إنها مُخَفَّفَة.

قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: الذي أُخاطِبُك.

قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ بدأ بالأُلوهيَّة؛ لِأَنَّهَا هِيَ المَقْصُودُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فَثَنَّى بالرُّبوبية؛ لأن الرُّبوبية فِي الحَقِيقَةِ وَسِيلَةٌ إِلَى الأُلوهية، ولهذا مَنْ أَقَرَّ بالرُّبوبية لَزِمَهُ أَنْ يُقِرَّ بالأُلوهية، وَإِلَّا كَانَ متناقضًا، وَاللهُ تعالى يحتجُّ عَلَى المُشْرِكِينَ بالأُلوهية دائمًا بإقرارهم بالرُّبوبية؛ لِأَنَّ مَنْ أَقَرَّ أَنَّ اللهَ ربُّه؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ لَهُ: إذن، يَجِبُ أَنْ تَعْبُدَ هَذَا الرَّبَّ، إذا عبدْتَ مَعَهُ غَيْرَهُ فَإِنَّك لَمْ تَصدُق في إقرارك بِرُبُوبِيَّتِه، فهُما مُتلازمان؛ وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، فجعَل الخَلْقَ الَّذِي هُوَ مِنْ مُقْتَضَى الرُّبوبية دليلًا مُلزِمًا لعبادته.

فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ الياءُ اسْمُ (إِنَّ)، و﴿أَنَا﴾ مبتدأٌ ثانٍ، ولفظ الجلالة خبرٌ للمبتدأ الثَّاني، والجُملة الاسميةُ مِن المبتدأ وَالخَبَرِ فِي مَحِلِّ رفعٍ خبرُ (إِنَّ)، وقولُه: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خَبَرٌ ثانٍ لـ﴿أَنَا﴾.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الربُّ هُوَ المَالِكُ والمُدَبِّر لجميع الأَشْياء، وقوله: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المُرَادُ بِهِمْ مَن سِوَى اللهِ، وجَمَعَهم باعتبار أصنافهم، وإلا فالعالَم هو كُلُّ مَا سِوَى اللهِ، والجَمع لوجود عالَم الإنس، وعالَم الجن، وعالَم البهائم، وعالَم

الملائكة، فجُمعوا باعتبار أجناسهم، وهذه الرُّبوبية عامَّة، وقد مَرَّ عَلَيْنَا أَنَّ الرُّبوبية تَنْقَسِمُ إِلَى عَامَّةٍ وَخَاصَّةٍ، كَمَا أَنَّ الْعِبَادَةَ، أو العُبودية تَنْقَسِمُ إِلَى عَامَّةٍ وَخَاصَّةٍ، وَقَدِ اجْتَمَعَا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢]، فقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هَذِهِ عامَّة، و﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ خاصَّة.

فائدة: مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة أَنَّ اللهَ يتكلم بِحَرْفٍ وصوتٍ، والحرفُ مِنْ جِنْسِ الْحُرُوفِ الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا النَّاسُ، وَهَذَا لَا يَقْتَضِي التَّشبيه؛ لأن الحروف هَذِهِ لَيْسَتْ صِفَةً لله، بل صفةُ الله الصوتُ؛ أمَّا الحروف، فإنها منطوقٌ بِهَا وَلَيْسَتْ نُطقًا، فلا يُوجد تشبيه.

فقوله: ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يَعْنِي بِهِ: تحديد المكان؛ لأن شاطئ الوادي واسع وعامٌّ، فتخصيص المكان يكون أَبْيَنَ؛ إِذْ إِنَّ مُوسَى لو نُودِيَ مِنْ جَمِيعِ الشاطئ لَالْتَبس عَلَيْهِ الْأَمْرُ، لَكِنْ إِذَا حُدِّدَ النِّداء مِنْ جِهَةٍ مُعَيَّنَة خاصَّة، صَارَ هَذَا أَبْيَنَ له وأَوْضَحَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ كلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن المنادِيَ فِي قَوْلِهِ: ﴿نُودِىَ﴾، هُوَ اللهُ؛ لِقَوْلِهِ تعالى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات:١٦].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ كَلَامَ اللهِ تعالى بالقول؛ لقوله: ﴿نُودِىَ﴾، والنداء يكون بِصَوتٍ للبَعيد، والمناجاةُ بصوتٍ للقريب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الرَّدُّ عَلَى الأشاعِرَة الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ كَلَامَ اللهِ هُوَ الْمَعْنَى القائم بِنَفْسِه، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَعْنَى القائِمَ بالنفس لَا يُسَمَّى كلامًا، وَلَا يُسْمَعُ، وكلام اللهِ تعالى يُسْمَع.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الرَّدُّ عَلَى الجهمية والمعتزِلة الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ كَلَامَ اللهِ مخلوقٌ، وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّهُ ثَبَتَ أَنَّ النِّدَاءَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والنداءُ قولٌ، والقولُ لَا يُؤْخَذُ إِلَّا بقائل، فَيَكُونُ الْقَوْلُ قَوْلَ اللهِ، وَكُلُّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ فَإِنَّهَا غَيْرُ مخلوقة؛ لأنَّها وصفٌ لمن اتَّصَفَ بها، فَإِذَا كَانَت وَصْفًا للخالِق، فَهِيَ غَيْرُ مخلوقة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ الْأَرْض تكون مُبارَكَة بَرَكَةً ظاهِرِيَّة، لَا بَرَكَةً مُطْلَقَةً؛ لقوله: ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ﴾ فالبَرَكَة هنا لِموسى، لا لِكُلِّ أَحدٍ، كَمَا قَالَهُ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ أَنَّ كَلَامَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِحَرْفٍ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾؛ لِأَنَّ هَذَا جُمَلٌ مُكَوَّنَة مِن حروف، وَيَكُونُ فِي هَذَا رَدٌّ عَلَى الأشاعرة؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: الْكَلَامُ هُوَ الْمَعْنَى القائمُ، فأنا عندما يَكُونُ هَذَا الْمُضْمَر هُوَ الْفِعْل، وما سُمِع فَلَيْسَ هُوَ الكلام، بَلْ هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الْكَلَامِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا لَا يَجُوزُ، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا وَسْوَسَتْ، أَوْ حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ، أَوْ تَكَلَّمْ»[1].

فَبَيَّنَ أَنَّ الْكَلَامَ غَيْرُ حَدِيثِ النَّفْسِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ رُبوبيـة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقـوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، والرُّبوبية تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: عَامَّة وَخَاصَّة، كَمَا أَنَّ العُبودية أَيْضًا فِي الْأَصْلِ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: عَامَّة وَخَاصَّة، كَمِثْل قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢]، فهـذه مِنَ الْخَاصَّةِ، لَكِنْ مَنِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان، رقم (٦٢٨٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١١٦).

المقرَّر أن الأصل كَمَا قَالَ تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، وهذه عامَّة، وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، هَذِهِ خَاصَّةٌ.

الآيــة (٣١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ [القَصَص:٣١].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ فَأَلْقَاهَا ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تَتَحَرَّكُ ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ وَهِيَ الْحَيَّةُ الصَّغِيرَةُ مِنْ سُرْعَةِ حَرَكَتِهَا ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ هَارِبًا مِنْهَا ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أَيْ يَرْجِعُ فَنُودِيَ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾].

قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾، أي: ونودي أَيْضًا أَنْ أَلْقِ عَصَاك، و﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ بمعنى: ضَعْ عصاك عَلَى الْأَرْضِ، وهذه العصا قَدْ ذُكِرَ فِي سُورَةِ طَه فائدتُها بالنِّسبة له، فقال: ﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٨]، وَقَدْ ذُكِرَ فِي التَّفْسِيرِ هَذِهِ المآربُ، فقيل: يَحْفِرُ بها، ويَدْفَع بها السِّباع، ويدفع بِهَا عَنْ نَفْسِه.

ونَجِدُ أنه فَصَّل فِي ذِكْرِ مَنَافِعِهَا، ثم أَجْمَلَ فِي ذِكْرِ فائدتها فِي دَفْعِ المفاسد، وَهَذَا فِي الْحَقِيقَةِ مِنَ الْأَدَبِ فِي الْحَدِيثِ، وتجدون أَنَّهُ فِي مَقَامِ الإثبات يُؤتى فيها بالتفصيل، وفي مَقَام النفي يُؤتى فيها بالإجمال غالبًا.

قَوْلُه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾، أي: تتحرك، لكن بِنَوْعٍ مِنَ الاضطراب، ومعروفٌ أنَّ الحَيَّة تتحركُ يَمِينًا وَشِمَالًا، و﴿رَءَاهَا﴾ أي: أَبْصَرَها، وَعَلَى هَذَا تَكُونُ

جُملة ﴿تَهْتَزُّ﴾ فِي مَوْضِعِ نَصْب عَلَى الْحَالِ، وليست مفعولًا ثانيًا؛ لأن (رأى) البَصَرِيَّة لا تنصب إلا مفعولًا واحدًا.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ هي الحيَّة الصغيرة، وتشبيهُ العَصا بالجانِّ لسُرعة حركتها، ولكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَسَّر الجانَّ بأنها الحيَّة الصغيرة، وَاللهُ تعالى يَقُولُ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:١٠٧]، والثعبان هو الذَّكَرُ مِنَ الحيَّات الكبير، ويجمع بينهما بأنه أَوَّلَ مَا ألقاها صارت كالجانِّ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَضَخَّمَت، حَتَّى صَارَتْ ثُعبانًا مُبينًا عند السَّحَرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ أي: هاربًا منها، وهذه الجُملة جوابُ ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾، و﴿مُدْبِرًا﴾ حَالٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَّىٰ﴾، ويُسَمُّونها حالًا مُؤَكِّدة؛ لأن التَّوَلِّيَ معناه الإدبار، فهي حالٌ مُؤَكِّدَة لعامِلِها؛ إِذْ إِنَّ مَعْنَى الإدبار مَفْهُومٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَّىٰ﴾، ولكنها جاءت للتأكيد، وقوله: ﴿مُدْبِرًا﴾ يعني: ولَّاها دُبرَه، وَلِهَذَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هَارِبًا]؛ لأن الهارب ينصرف عَكْسَ اتجاهِه، فأنت أولًا تنصرف عَنِ الشَّيْءِ فتُسمَّى مُوَلِّيًا، ثم تُسَمَّى هاربًا إذا انْصَرَفْتَ باتجاهٍ مُعَاكِس.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ يقول الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: يَرْجِعُ، فَنُودِيَ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾]، ولهذا يَنْبَغِي أَنْ نَقِفَ عَلَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾؛ لِأَنَّه لَوْ وَصَلْنَا ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ بقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ لظنَّ الظانُّ أَنَّ الْكَلَامَ واحدٌ، ولكن الكلام انفصل، فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَقْبِلْ﴾ مُقابل التولي، و﴿لَا تَخَفْ﴾ مُقابل الهَرَب؛ لأن الهارب يكون خائفًا، ثم طمأنه بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾؛ تأكيدًا لقوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾؛ لأن الآمِن لَا يَخَافُ، وإنما يخاف مَنْ لَيْسَ عِنْدَهُ أمنٌ، وهنا قال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾

وَلَمْ يَقُلْ: إنك آمِنٌ. بَلْ قَالَ: ﴿مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾، وَهَذَا مِنْ مُرَاعَاةِ الفَواصِل، لكنَّ هَذِهِ المناسبة لفظيةٌ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّ اللهَ آمَنَهُ، وليتذكَّر أَنَّ هُنَاكَ آمِنِين؛ فَإِذَا كَانَ هُنَاكَ آمنون، فَإِنَّهُ لَا غَرَابَةَ أَنْ تأْمَنَ، أي: لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إذا ذُكِّر بِمَا حَدَثَ لِغَيْرِهِ صَارَ أشدَّ طُمَأْنِينَةً فِي حُصُولِ ذَلِكَ الشَّيْءِ، ونَظِيرُه بالعَكْس، هُوَ قَوْلُ فِرْعَون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩]، وَلَمْ يَقُلْ: لَأَسْجِنَنَّكَ؛ لِأَجْلِ أَنْ يُرْهِبَه بأَنَّ عِنْدَهُ مَنْ هُوَ مسجونٌ، وَأَنَّهُ لَيْسَ يُعْجِزُنا أن نَسْجِنَك.

والحاصِلُ: أَنَّ مِثْلَ هَذَا يُقَالُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يتذكر مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَنَّ هُنَاكَ أُناسًا آمِنِين، فيأمَنُ أكثرَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فِيهَا دَلِيلٌ أَنَّ مُوسَى كانَ من سُنَّتِه حَمْل العَصَا؛ لقوله: ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّه بمجرد أن ألقاها صارت تهتز ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، فبِمُجَرَّد الإلقاء هَذَا دَلِيلٌ عَلَى الْقُدْرَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى حِكمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أيضًا، حيث إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مناسِبة لِمَن سيُقابِلُهم موسى، وهُمُ السَّحَرة، مُقابِل الآية هناك، وَهَذِهِ الْآيَةُ مُناسبة تمامًا لهم؛ لأنَّهم سوف يَعْجِزُون عن مُقابلتها، كما حَصَلَ مِنَ السَّحَرَةِ حين آمَنُوا لَمَّا رأوا دليل صِدق موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ هَذِهِ العصا حركتُها سريعة؛ لأن الجانَّ مِن الحَيَّات هي التي عُرفت بالحركة السريعة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يَجُوزُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مَا يَجُوزُ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْخَوْفِ الطبيعي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ مَعَ أَنَّ مُوسَى -كما تعلمون- كَانَ مِنَ الرجال الأقوياء، لكنَّه يَعْتَرِيه ما يَعْتَرِي غَيْرَهُ مِنَ الْبَشَرِ، وَقَدْ سَبَقَ أَنَّهُ خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: عنايةُ اللهِ تعالى بِه، حيث ناداه وطَمْأَنَهُ بقوله: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا تَخَفْ﴾، بل طَلَبَ مِنْهُ الْإِقْبَالَ إِلَيْهِ ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عناية اللهِ بِهِ، وَمَحَبَّتِهِ لَهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي للمُستدعي لِغَيْرِهِ أَنْ يَذْكُرَ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ؛ لقَوْلِه: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْأٓمِنِينَ﴾؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ: لَا تَخَفْ. فإنه يَزُولُ عَنْهُ الْخَوْفُ، وَلَكِنَّهُ لَا يَكُونُ مُطْمَئِنًّا تمامًا، وَلَكِنَّهُ إِذَا قَالَ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْأٓمِنِينَ﴾ ازداد بذلك طُمأنينةً.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي ذِكر النُّظراء، أو الإشارة إِلَيْهِم، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَثْبَتَ للقَلب؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْأٓمِنِينَ﴾.

الآيــة (٣٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ [القَصَص:٣٢].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱسْلُكْ﴾ أَدْخِلْ ﴿يَدَكَ﴾ الْيُمْنَى بِمَعْنَى الْكَفِّ ﴿فِى جَيْبِكَ﴾ هُوَ طَوْقُ الْقَمِيصِ وَأَخْرِجْهَا ﴿تَخْرُجْ﴾ خِلَافَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأُدْمَةِ ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أَيْ بَرَصٌ، فَأَدْخَلَهَا وَأَخْرَجَهَا تُضِيءُ كَشُعَاعِ الشَّمْسِ تَغْشَى الْبَصَرَ ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ بِفَتْحِ الحَرْفَيْنِ، وَسُكُونِ الثَّانِي مَعَ فَتْحِ الْأَوَّلِ وَضَمِّهِ، أَيِ الْخَوْفُ الْحَاصِلُ مِنْ إِضَاءَةِ الْيَدِ بِأَنْ تُدْخِلَهَا فِي جَيْبِكَ فَتَعُودَ إِلَى حَالَتِهَا الْأُولَى، وَعَبَّرَ عَنْهَا بِالْجَنَاحِ لِأَنَّهَا لِلْإِنْسَانِ كَالْجَنَاحِ لِلطَّائِرِ ﴿فَذَٰنِكَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ، أَيِ الْعَصَا وَالْيَدُ وَهُمَا مُؤَنَّثَانِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْمُشَارَ بِهِ إِلَيْهِمَا الْمُبْتَدَأُ لِتَذْكِيرِ خَبَرِهِ ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾ مُرْسَلَانِ ﴿مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾].

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنَّ اليَدَ بِمَعْنَى الْكَفِّ، لا داعِيَ له هنا، لِأَنَّ المُرادَ باليَد عِنْدَ الْإِطْلَاقِ الكَفُّ، ولهذا لَمَّا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]، فالمراد بالأيدي الأَكُفُّ، أَمَّا إِذَا أُرِيدَ باليَدِ غيرُ الكَفِّ فإنها تُقَيَّد، كَمَا فِي

قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦]، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦]، فالمراد مَسْحُ الكَفِّ فقط، وليس اليَدَ كُلَّها.

وقوله: [اليُمْنى] لَا نَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ عَلِمَ ذلك، فالآية لَيْسَ فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى هَذَا، ولهذا فإن الْأَوْلَى أَنْ نجعلَها مُبْهَمَةً كما أَبْهَمَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يَهُمُّنا أَنْ تكُونَ الْيَدَ الْيُمْنَى، أو اليسرى.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِي جَيْبِكَ﴾ هُوَ طَوْقُ الْقَمِيصِ وَأَخْرِجْهَا].

قوله: [وَأَخْرِجْهَا] الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَدَّر طلبًا مناسبًا للجَواب؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مجرد إدخالٍ، بَلْ إِذَا أَخْرَجَها خَرَجَت بيضاء، لكن الحقيقة أَنَّهُ لَا داعيَ إِلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَا مَانِعَ أَنْ يَكُونَ ﴿تَخْرُجْ﴾ جوابًا لقوله: ﴿ٱسْلُكْ﴾؛ فَإِنَّك إِذَا قُلْتَ: أَخْرِجْ، لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَخْرَجَها، وَالْأَصْلُ عَدَمُ الحَذْفِ، وعليه فـ﴿تَخْرُجْ﴾ هنا مجزومة جوابًا للطلب فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱسْلُكْ﴾؛ لِأَنَّ جَوَابَ الطَّلَبِ إِذَا حُذِفت منه الفاءُ صار مجزومًا، وَإِنْ وَجَدْت مَعَهُ الفاء صار منصوبًا بـ(أَنْ) قَالَ ابْنُ مالك[1]:

وَبَعْدَ (فَا) جَوَابُ نَفْيٍ أَوْ طَلَبْ ... مَحْضَيْنِ (أَنْ) وَسَتْرُهَا حَتْمٌ نَصَبْ

يعني: مَعْنَاهُ أَنَّ (أَنْ) تَنْصِب بَعد (فاء) التي وقعت جوابًا لنَفْيٍ، أَوْ طَلَبٍ مَحْضَيْنِ، وَلَكِنَّهَا إِذَا فَقَدَتِ الفَاء؛ فإنه يُجزم.

وَشَرْطُ جَزْمٍ بَعْدَ نَهْيٍ أَنْ تَضَعْ ... (إِنْ) قَبْلَ (لَا) دُونَ تَخَالُفٍ يَقَعْ[2]

---

(١) ألفية ابن مالك (ص٥٨).

(٢) ألفية ابن مالك (ص٥٨).

بمعنى: طَلب، طلب أمر.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَخْرُجْ﴾ خِلَافُ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الأُدْمَةِ] والأُدمة: السُّمْرة، أي اللَّون الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ البياض والسواد، يُسَمَّى أُدْمَة، وكان موسى ﷺ آدَمَ.

قوله تعالى: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: مِنْ غَيْرِ عيب؛ لأن العيب يَسُوء المرءَ، وَالْبَيَاضُ الَّذِي يَسُوء المرءَ هو البَرَصُ، وَلِهَذَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: بَرَص] وقوله: ﴿بَيْضَآءَ﴾ حَالٌ مِنْ فَاعِلِ ﴿تَخْرُجْ﴾.

﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ قال: [فَأَدْخَلَهَا وَأَخْرَجَهَا تُضِيءُ كَشُعَاعِ الشَّمْسِ تُغْشِي الْبَصَرَ] وهي مبالَغة، يكفينا أَنْ نَقُولَ مَا قَالَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ يعني: ليس بَرَصًا، بل بياضًا، وَأَمَّا أَنْ تَكُونَ تُضيء لكان اللهُ يَقُول: تخرج مُضيئة؛ لأن الإضاءة أَبْلَغُ مِنْ مُجَرَّد البياض، كَذَلِكَ أَيْضًا أقوى للآية، وَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ اللهُ: ﴿بَيْضَآءَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِفَتْحِ الحَرْفَيْنِ، وَسُكُونِ الثَّانِي مَعَ فَتْحِ الأَوَّلِ وَضَمِّهِ، وَسُكُونِ الثَّانِي الَّذِي هُوَ الهَاءُ]. [مَعَ فَتْحِ الأَوَّلِ] الَّذِي هُوَ الراء، [وَضَمِّهِ] فتكون القِراءَة بثلاثة: «الرَّهَب»، و«الرَّهْب»، و«الرُّهْب»، «وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهَبِ» هِيَ الْقِرَاءَةُ التي بَدَأَ بِهَا الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، «وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرُّهْبِ» صحيح، «وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهَبِ» أَيْضًا صحيح[1].

---

(١) شرح طيبة النشر، لابن الجزري (ص٢٩٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿جَنَاحَكَ﴾ المراد بالجَناح اليَد؛ لأنَّها للإنسان بمنزلة الجَناح للطائر، وقوله: ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾: ﴿مِنَ﴾ السَّبَبِيَّة، وهي حَرْفُ جَرٍّ.

قال: [أَيِ: الخَوْف]، هَذَا تَفْسِيرٌ للرَّهْب، فالرَّهْبُ هُوَ الْخَوْفُ، يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيِ الخَوْفُ الحَاصِلُ مِنْ إِضَاءَةِ اليَدِ بِأَنْ تُدْخِلَهَا فِي جَيْبِكَ، فَتَعُودُ إِلَى حَالَتِهَا الأُولَى] يعني: إذا أَدْخَلَهَا فِي جَيْبِه وأخرجَها صارت بيضاء، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُعِيدَها إلى حالتها ضَمَّها إليه فعادت إلى حالها. هذا معنى كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ مُنْفَصِلَةٌ عَنِ الأُولى، وَإِنَّ اللهَ تعالى أرشدَه إِذَا خَافَ أَنْ يضم يَدَهُ إِلَى صَدْرِهِ؛ حَتَّى يَزُولَ عَنْهُ الْخَوْفُ، وَهَذِهِ آيَةٌ خَاصَّةٌ لموسى فقط، أَنَّهُ إِذَا خَافَ مِنْ شَيْءٍ، فإنه يَضُمُّ يَدَهُ إِلَى نَفْسِهِ، وليست عَامَّةً لِكُلِّ أَحَدٍ، لكن رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُهُ رُعْبٌ بَعْدَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثُمَّ يُدْخِلُ يَدَهُ فَيَضَعُهَا عَلَى صَدْرِهِ إِلَّا ذَهَبَ عَنْهُ الرُّعْبُ»(١).

والآن لدينا قولَانِ لأهل الْعِلْمِ فِي مَسْأَلَةِ اليَد:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: أَنَّ هَذِهِ معالجة اليد. وهذا يُضَعِّفه أَنَّ اللهَ قَالَ: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾، وموسى لم يَرْهَبْ؛ لِأَنَّ اللهَ مَا دَامَ قَالَ لَهُ: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾؛ فإنه لن يَرْهَبَ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أنه عندما يحصل لموسى كَمَا فِي الْآيَةِ ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ خائفًا، فأرشده اللهُ أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُزِيلَ الْخَوْفَ مِن شيء؛ فإنه يَضُمُّ يَدَهُ إِلَى نَفْسِهِ، ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾، وعبَّر عنها بالجَناح؛ لأنَّها للإنسان كالجَناح للطائر،

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ٢٨٤).

وَهَذَا صَحِيحٌ، وهي جناحٌ أَيْضًا، يتضح ذلك في الْإِنْسَانِ عِنْدَ السعي، وَهِيَ -لَا شَكَّ- تُزَيِّنُ الْإِنْسَانَ كَمَا أَنَّ جَناح الطائر يُزَيِّنُه.

قوله تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ﴾ بالتَّشديد والتَّخفيف، أي: العَصا واليَد، وهما مؤنَّثتان، وإنما ذُكِّرَ المشارُ به إِلَيْهِما المبتدأ لتذكير خَبَرِه؛ لِأَنَّ الْيَدَ الواحدة جَناح، والأُخْرَى جناح، فإذا أَدْخَلَهَا فِي جيبه انضمت إليه اليدان كما ينضم الجناحان.

وقوله: ﴿فَذَٰنِكَ﴾ يقول: [بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ]، بالتشديد «فَذَانِّكَ»، وبالتخفيف ﴿فَذَٰنِكَ﴾، والشاهد لهذين الْوَجْهَيْنِ مِنْ كَلَام ابن مالك[1]:

وَالنُّونُ مِنْ (ذَيْنِ) وَ(تَيْنِ) شُدِّدَا ... أَيْضًا وَتَعْوِيضٌ بِذَاكَ قُصِدَا

مثل النُّونِ مِنَ (اللَّذان) و(اللَّتان).

﴿فَذَٰنِكَ﴾ أي: العصا واليد، والعصا مؤنث، قَالَ تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ [طه:١٨]، وَلَمْ يَقُلْ: هو عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ، واليد كذلك مؤنثة، قَالَ تعالى: ﴿يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: يخرج أبيض، وَقَالَ تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤]، فهما مؤنثتان، واسم الإشارة ﴿فَذَٰنِكَ﴾ مُذَكَّر، وَلَوْ كَانَ بالتأنيث لقال: فتانِك برهانان. فلماذا جعله مُذَكَّرًا؟ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَإِنَّمَا ذُكِّرَ الْمُشَارُ بِهِ إِلَيْهِمَا الْمُبْتَدَأُ]؛ لأن (ذَانِ) المبتدأ، والخَبر ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾، وهو مُذَكَّر، فرُوعِي الخَبر هنا فذُكِّر المبتدأ.

وقوله: ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾، البرهان هُوَ الدَّلِيلُ، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُرْسَلَانِ مِنْ رَبِّكُ]، كلمة [مُرْسَلَانِ] ليست تفسيرًا لـ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾، ولكنَّها بيانٌ لِمُتَعَلَّق قوله:

---

(١) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (١/ ١٣٨).

﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ لأن كلمة (بُرهان) اسمٌ جامِدٌ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُتَعَلَّقًا للجَارِّ والمجرور.

والبرهان ليس معناه المُرسَل، البرهان معناه الدَّليل، والدَّلِيل الْوَاضِحُ يُسَمَّى برهانًا، والمتكلمون يقولون: إِنَّ البُرهان هُوَ الدَّلِيلُ الْقَاطِعُ، لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدخل (مُرْسَلَانِ) لِيُبَيِّنَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ(مُرْسلان) المُقَدَّر، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مُتَعلِّقًا بـ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾؛ لِأَنَّهُ اسْمٌ جامِد، والجارُّ والمجرور لَا يَتَعَلَّقُ إلا بِفِعْلٍ أَوْ مُشتَقٍّ، كَمَا قَالَ الناظم هنا[1]:

لَا بُـدَّ لِلجَـارِّ مِـنَ التَّعَلُّـقِ ... بِفِعْـلٍ اوْ مَعْنَـاهُ نَحْـوُ مُرْتَقِـي

وَاسْـتَثْنِ كُـلَّ زَائِـدٍ لَـهُ عَمَـلْ ... كَـ(الْبَا) وَ(مِنْ) وَ(الكَافِ) أَيْضًا وَ(لَعَلْ)

لكن غير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: لَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ نُقَدِّر (مُرسلان)، بَلْ نَقُولُ: بُرهانان كائنان مِنْ رَبِّكُ، فالجارُّ والمجرور متعلقان بمحذوفٍ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مَنْ خالَفُوه أَصَحُّ مِمَّا قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لِأَنَّ مَا قَالَهُ المُفَسِّر خاصٌّ، وما قدَّره غيره عامٌّ، ومُتَعَلِّق الجارِّ والمجرور إِذَا كَانَ خَاصًّا، فلَا يَجُوزُ تَرْكُهُ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهِ، فلا يُحذف مُتَعَلَّق الجارِّ والمجرور، إِلَّا إِذَا كَانَ عَامًّا، مِثل كائِن، أو مَوْجُودٍ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فالصَّواب إذن: أن نُبقِيَ الْآيَةَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، ونقول: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ مُتعلق بمحذوف تقديره: كائنان.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾، وَهَذَا الَّذِي أَوْجَبَ للمُفَسِّر أَنْ يُقَدِّرَ (مُرْسَلان) لِأَجْلِ قَوْلِه: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ مُرْسَلًا، المُرسَل فِي الْحَقِيقَةِ هو

(١) فتح رب البرية في شرح نظم الآجُرُّومية، لأحمد بن عمر بن مساعد الحازمي (ص٧).

موسى، لكنْ معه دليلان ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ أي: قومه، وفِرْعَونُ هو حاكِمُ مِصرَ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ عَلَمُ جِنس لِكُلِّ مَنْ حَكَمَ مصر كافِرًا، فإنه يُسَمى فِرعون، وَكُلُّ مَنْ مَلَكَ الفُرْسَ كافرًا، فإنه يُسَمى كِسْرَى، وَكُلُّ مَنْ مَلَكَ الرُّوم كافرًا، فإنه يُسَمَّى قَيْصَر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ الجملة تعليلٌ لِمَا قَبْلَهَا، يعني: إننا أرسلناك بهاتين الآيتين إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ؛ لأنَّهم ﴿كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، والفِعل: ﴿كَانُوا۟﴾ مفصولُ الزَّمَن، مفصولة الدَّلالة عَنِ الزَّمَنِ؛ لِأَنَّهُ مَا دَلَّ عَلَى ماضٍ، وَلَا عَلَى غَيْرِهِ، فمعنى ﴿كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، أي: مُتَّصِفِين بالفِسْق، فَاللهُ تعالى يَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ دائمًا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٠]، ويقول: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٦]، إِلَى آخِرِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ المُرَادُ الزَّمَنَ الماضيَ، بَلِ المُرَادُ أنه مُتَّصِفٌ بهذه الصفاتِ، لكنَّها قد تَدُلُّ عَلَى الزَّمَن الماضي بِقَرِينَةٍ غَيْرِ لَفْظِ الفِعل.

وقوله تعالى: ﴿فَٰسِقِينَ﴾ قَدْ مَرَّ عَلَيْنَا أَنَّ الفِسق يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

الْأَوَّلُ: قِسمٌ مُخْرِجٌ عَنِ الْمِلَّةِ، وهو فِسق الكُفر، ومثاله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٨-١٩].

الثَّاني: فِسقٌ مُخْرِجٌ عَنِ الِاسْتِقَامَةِ، وَلَا يُخْرِجُ عَنِ الإِيمَان، وهو فِسق المعصية، ومثالُه قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الحجرات:٦].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ اللهَ تعالى يُعطِي الْأَنْبِيَاءَ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُناسِب الوقتَ وحالَ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ تَأْتِيَ الآياتُ مُطابِقةً للواقع.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي أُعْطِيَت لِموسى، وَهِيَ أَنَّهُ إِذَا أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِه يُخْرِجُها بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إرشاد اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِموسى إِذَا خَافَ مِنْ شَيْءٍ أَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِ يَدَهُ؛ حتى يطمئنَّ، ويَسْكُنَ قلبُه.

والظاهِرُ أَنَّهُ خَاصٌّ بموسى؛ لأن الْإِنْسَانَ قَدْ يستعمل هذا الشَّيْء، وَلَا يُغْنِي عَنْهُ شَيْئًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تأييدُ الأنبياء بالآيات الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ؛ لقوله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي تأتي للأنبياء حُجَجٌ عَلَى قَوْمِهِمْ؛ لأن البُرهان معناه الحُجَّة والدَّليل، وَالْآيَاتُ الَّتِي تأتي بها الرُّسل حُجَجًا عَلَى قَوْمِهِمْ يُلزمهم بالتطبيق.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ مَا مِنْ رَسُولٍ يُرسَل إلا أُوتِيَ آيَةً تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يُؤْتَ آيةً لَكَان لِلناس عُذرٌ يُرَدُّ بِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ جَاءَ وَقَالَ: أنا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَعَلَيْكُمْ أَنْ تفعلوا كذا. لَا يُصَدَّقُ إِلَّا بِبَيِّنَةٍ، والبَيِّنَةُ هي الآيات.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: لُطْفُ اللهِ تعالى بعباده، حيث يُرسِل إِلَيْهِم الرُّسُل لمصلحتِهم، لا لِمصلحتِه؛ إِذْ إِنَّ اللهَ تعالى يَقُول: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧]،

لكن لمصلحة الخَلْق يُرسِل إلَيْهِم الرُّسُلَ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الرِّسالَة حيث يحتاج النَّاسُ إِلَيْهَا للخُروج عَنْ طَاعَةِ الله؛ لقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُجَدِّد هَذِهِ الْأُمَّةِ دِينها كُلَّما خرجوا عنه، فالله عَزَّوَجَلَّ يُرسِل الرُّسُلَ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِم، وعندما لَا يَكُونُ هناك رسولٌ -كَحَالِ أُمَّتِنَا- يَبعث دُعاة صالحين مُصلِحين للخلق.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: أَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ أتباعَ رؤساء الكُفر هُمُ الأشراف، وَإِنْ كَانَتْ تُطْلَقُ عَلَى الْقَوْمِ كَمَا ذَكَرْت فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القَصَص:٣٢]؛ لأن الملأ هُم الأشراف، وَإِنْ كَانَتْ تُطْلَقُ عَلَى الْقَوْمِ؛ لِأَنَّ اللهَ ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل:١٢]، لكن الغالب أن الملأ هُم الأشراف، وَهُمُ الَّذِينَ غالبًا يستكبرون عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُل، أمَّا الضعفاء والفقراء، فإنهم يَتْبَعُونَهم.

الآيــة (٣٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القَصَص:٣٣].

قال المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ هُوَ الْقِبْطِـيّ السَّـابِق ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بِهِ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: جَواز الأخذ بالعُذر عِنْـدَ الْأَمْرِ بِهِ، حَتَّى فِي طَاعَةِ وَلِيِّ الْأَمْرِ، فمَثلًا لو أَمَرَك بشيء؛ لأن طاعته وَاجِبَةٌ فِي غَيْرِ المعصية؛ فَإِنَّهُ لَا بَأْسَ أَنْ تَذْكُرَ العُذر لِأَجْلِ أَنْ تتخلَّص مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، كَمَـا كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يُقَدِّمُون للنبي ﷺ الْعُذْرَ إِذَا أَمَرَهُم بالشَّيْء؛ ليعذُرَهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الْخَـوْفَ الطبيعي لَا يُنَافِي مقامَ الرِّسالَة؛ لقوله: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القَصَص:٣٣].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْقِصَاصَ مَوْجُـودٌ فِيمَـا سَبَقَ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَـةِ؛ لقوله: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بَدَلًا مِنَ الَّذِي قَتَلَهُ مُوسَى، وَقَدْ يَكُونُ رغبتهم فِي قَتْلِهِ مِنْ بَابِ الْقِصَاصِ، وَكَانَ معروفًا عندهم، أَوْ مِنْ بَابِ العُدوان مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِحَقٍّ، ولا ننسى أَنَّهُ لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ فِي شَرِيعَةِ الإِسْلام.

الآيــة (٣٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القَصَص:٣٤].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ أَبْيَنُ ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ مُعِينًا وَفِي قِرَاءَةٍ بِفَتْحِ الدَّالِ بِلَا هَمْزَةٍ ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ بِالْجَزْمِ جَوَابُ الدُّعَاءِ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالرَّفْعِ، وَجُمْلَتُهُ صِفَةُ رِدْءًا ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾].

قوله تعالى: ﴿ وَأَخِي﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ لِلْفَصْلِ بَيْنَ رُكني الجملة الاسمية، وَيَكُونُ قَوْلُهُ ﴿أَفْصَحُ﴾ هُوَ الْخَبَرَ، ويجوز أَنَّ الضَّمِيرَ مبتدأ ثانٍ، وقوله: ﴿أَفْصَحُ﴾ خَبَره، والجملة الاسمية خبر ﴿ وَأَخِي﴾، والأخير هو الأوجه؛ لأن ضمير الفصل لَا يَكُونُ إِلَّا إِذَا كَانَ المبتدأ والخبر مَعرِفتين؛ لِأَنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالَ يَلتبس الخبرُ بالصِّفَةِ، أَمَّا إِذَا كَانَ الْخَبَرُ نكرةً -كَمَا فِي الْآيَةِ هنا- فَإِنَّهُ يَكُونُ مُبتَدأً.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ ﴾ هارون أخو موسى مِنْ أُمِّهِ وأبيه، وَأَمَّا قَوْلُهُ تعالى: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ [طه:٩٤]، ذَكَرُوا أَنَّ هارون نَسَبَهُ لأُمِّه؛ لِأَنَّهَا أَقْرَبُ مِنَ الْأَبِ، فذكَّر موسى بها لِيُشفِق عليه.

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾: ﴿أَفْصَحُ﴾ بمعنى: أَبينُ مِني، وقوله:

﴿لِسَانًا﴾ أي: كلامًا، وعبَّر باللسان عَنِ الْكَلَامِ؛ لأنَّه آلة الكلام، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم:٤]، أي: بِنطقِهم ولُغتهم.

وسبب قوله: ﴿أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ قِيلَ فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ: إِنَّ مُوسَى ﷺ كَانَتْ فِي لسانِه لُثْغَةٌ مِن جَمْرةٍ أخذَها ووضعها في فَمِه، وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعَون أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَهُ، فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: إِنَّه طفل لَا يَدْرِي، وَلَا يَعْرِفُ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تختبِرَه فأَعْطِه تمرًا وجمْرًا.

فقَدَّم التمرة والجَمرة، والجمرةُ تتلألأ، وهيئتها أَجْمَلُ مِنَ التمر، فأخذ الجَمْرَة، وَوَضَعَهَا فِي فَمِهِ، فانعقد لسانُه.

وهذه الْقُصَّةُ مِنَ الإسرائيليات؛ وَهَذَا غَيْرُ مُمْكِنٍ، لِأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ الجَمرة وأخذَها، لَمَا استطاع أن يضعَها فِي يَدِهِ، وَلَكِنْ مَا يعاني منه مُوسَى هُوَ أَمْرٌ خِلْقي، خَلَقَ اللهُ بَعْضَ النَّاسِ عَلَيْهِ، ولهذا طلب مُوسَى مِنَ اللهِ أَنْ يحُلَّ هَذِهِ العُقدة، قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي﴾ [طه:٢٧-٢٨].

هناك بعضُ النَّاس لديه مُشْكِلَةٌ فِي نُطق الحروف، وبعضُهم لَدَيْه مُشْكِلَةٌ فِي الْإِتْيَانِ بِصِفَةِ الحرف المعروفة، ولذلك فإن الصَّواب أَنَّ هَذِهِ الْعِلَّةَ الَّتِي لموسى ﷺ مِنْ أَصْلِ الْخِلْقَةِ، وليست هناك تمرة وجَمرة.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: مُعِينًا، وَفِي قِرَاءَةٍ بِفَتْحِ الدَّالِ بِلَا هَمْزَةٍ]. أي: (رَدًا)[1].

فَهِمَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص:٣٢]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾، وهنا عَرَفَ أَنَّهُ

(١) حجة القراءات، لابن زنجلة (ص٥٤٥).

رَسُولُ، وقولُه: ﴿مَعِيَ﴾ المَعِيَّة بمعنى: المُصاحبَة والمُقارَنة، وَهِيَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِ مَا تُضاف إليه، وتقتضي فِي كُلِّ مَوْضِعٍ غَيْرَ مَا تَقْتَضِيهِ فِي المَوْضِعِ الآخَر. فالرجل إِذَا قِيلَ: معه زوجته، فَلَيْسَ هَذَا كَقَوْلِهِم: القائد معه جنودُه. فبينهما فرقٌ.

وَكَذَلِكَ إِذَا قِيلَ: اللبن مَعَ المَاءِ يعني: ممتزجًا مختلطًا به، وهنا ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ غير مَعِيَّة الزوج لِزوجته، ومَعِيَّة اللَّبَن للماء، ولكنها مصاحَبة يُرادُ بِهَا التأييد والإعانة، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿رِدْءًا﴾ والرِّدْء: المُعِين الظهيرُ للشخص.

قوله تعالى: ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾، أي: يكون مُصَدِّقًا لي أمامَهم حتى يقوَى قولِي به، ويكونَ صِدقًا.

وَلَيْسَ المَعْنَى أَنْ يَكُونَ هارون مَعَ مُوسَى يخبر فِرْعَون أَنَّهُ صَادِقٌ فقط، بَلْ يَكُونُ كلامُه مُقوِّيًا لكلامي، فَيَكُونُ ذَلِكَ مُوجِبًا لتصديقِه.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالجَزْمِ جَوَابُ الدُّعَاءِ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالرَّفْعِ، وَجُمْلَتُهُ صِفَةُ ﴿رِدْءًا﴾]، قوله: [بِالجَزْمِ] أَيْ إِنَّ الفعل «يُصَدِّقْنِي» مجزومٌ جوابًا للدعاء، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾، يعني: إنْ أرسلْتَهُ صدَّقَني.

أَمَّا قَوْلُه: [فِي قِرَاءَةٍ أُخْرَى] فهو يَعْنِي فِي قِرَاءَةٍ سَبْعِيَّة، أَمَّا إِذَا قَالَ قُرِئَ بكذا، فهي قِرَاءَةٌ شَاذَّةٌ، وهو منهج المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد تَعَرَّضْنَا له سابقًا.

ثُمَّ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَجُمْلَتُهُ صِفَةُ ﴿رِدْءًا﴾]، يعني: رِدءًا مُصَدِّقًا لي؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ التَّفْسِيرُ.

فَائِدَةٌ: القراءتان الواردتان فِي الْآيَةِ تعطي مَعَانِيَ مُخْتَلِفَةً، فَإِنْ كَانَ قَوْلُه: «يُصَدِّقْنِي» جوابًا للطلب، فَإِنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَحْصُلُ بِهِ الصِّدْقُ، وَإِذَا كَانَ صِفة، فَالمَعْنَى

أَنَّهُ يُحاوِل أَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ أَنَّهُ صَادِقٌ، فتكون قِرَاءَةُ الرَّفْعِ عَلَى سَبِيلِ السبب، وقراءة الجَزْم عَلَى سَبِيلِ النتيجة، فيكون هارون فاعلًا مُؤَثِّرًا.

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، الضَّمِيرُ فِي ﴿يُكَذِّبُونِ﴾، وهو الواو، يَعُودُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، وقوله: ﴿أَخَافُ﴾ أي: أتوقَّع وأخشى، وليس خوفَ الرُّعب، ولكنَّه يتوقع ذلك ويخشاه، وقوله: ﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾ هَذِهِ النُّون الموجودة ليست نُون الأفعال الخمسة، وإلا لَحُذِفَت بَعْدَ (أَنْ)، ولكنها نونُ الوِقاية، فأصل الفعل: يكذبونني. فحُذفت النون الأُولى للنصب، وبقيت النون الثَّانية المكسورة، وهي نون الوقاية، وحُذِفَت الياء تخفيفًا، ونظيره ذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى فِي سُورَةِ الذَّارِيَاتِ: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات:٥٩]، فإذا وقفتَ عليها سكَّنْتَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيان المِنَّة الكبرى مِنْ مُوسَى لِأَخِيهِ، حيث جعله اللهُ تعالى مرسلًا معه، ولهذا يقال: أعظمُ هَديةٍ أهداها خليلٌ لخليلِه هي التي كَانَتْ مِنْ مُوسَى لهارونَ؛ لِأَنَّهُ سَأَلَ اللهَ أَنْ يُرسله معه، والرِّسالَة مَقَامٌ عَظِيمٌ لَا يناله إلا الخِيرَةُ مِنْ بَنِي آدَمَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِغَيْرِهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: اتخاذُ الأعوانِ مِنْ أَسْبَابِ النجاة، وهذا أمرٌ مَعْلُومٌ مِنْ قديم الزَّمانِ وحديثِه، أَنَّهُ كُلَّمَا كَانَ الإِنْسَان مَعَهُ مَنْ يُعِينه ويساعِده، كَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ إِلَى نجاحِه مِن انفراده، والعوامُّ يقولون: (يَدٌ وَاحِدَةٌ لَا تُصَفِّق).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فصاحةُ اللسان لَهَا تَأْثِيرٌ قَوِيٌّ فِي الْقَبُولِ، أو الرفض، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»[1]، لقوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فَضِيلَة مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لإقراره بالفضل لأخيه ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾؛ لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ ناقصًا، وَلَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعَبِّرَ بالكمال لغيره، والنقص لنفسه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي للدَّاعي أَنْ يَذْكُرَ مُبَرِّراتِ دعوتِه؛ لِأَنَّ قَوْلَه: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ﴾، هَذَا مِن مُبَرِّرَات دعوته، وسؤاله الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يُرْسِلَهُ معه، وَهُوَ أَنَّهُ أفصحُ منه لسانًا، وهذا معروف، ومِن آداب الدعاة أَنْ يَذْكُرُوا مُبَرِّرَات الدعوة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَافَ أَنْ يُكذِّبوه إِذَا كَانَ وحدَه، فطلب مزيدًا مِنَ الْعَوْنِ؛ لأن الواحد مَعَ الْوَاحِدِ يكون أقربَ للتصديقِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ الْخَبَرَ يزداد ثُبوتًا وتَبيينًا بتعدُّد مُخبريه؛ ليزداد قُوة ووضوحًا عند آلِ فِرْعَوْنَ؛ لأن الرِّسالَة خبرٌ، فَإِذَا كَانَ مَعَهُ مَنْ يُقَوِّيه عَلَى هَذَا الْخَبَرِ ويُثَبِّتُه ويُصَدِّقُه؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ أقوى، والآية شاهدٌ له.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٤٨٥١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٩).

الآيــة (٣٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القَصَص:٣٥].

قال المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ نُقَوِّيكَ ﴿بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ غَلَبَةً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بِسُوءٍ اذْهَبَا ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ لَهُمْ].

قوله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ أي: نُقَوِّيكَ، والشدُّ بمعنى: التقوية، والعَضُد: هُوَ الْعَظْمُ الكامل فِي عَظْمِ الذراع والمَنْكِب، وشدُّ العَضُدِ كِنَايَةٌ عَنِ التقوية؛ لِأَنَّ الْيَدَ هي آلة العَمَـل، فإذا شُدَّ عَضُـدُها وقُوِّيَ صارت قويَّة، والمعنى: أَنَّنا سنُقَـوِّيك، ونُؤَيِّدك بأخيك.

قوله تعالى: ﴿بِأَخِيكَ﴾ هو هارون، فقد أَجَابَ اللهُ طَلَبَ موسى، والسين فِي قَوْلِهِ: ﴿سَنَشُدُّ﴾ تُفيد التنفيس، وتُفيد تأكيد الشَّيْء وتقريبَه، أي: إِنَّهُ سَيَكُونُ قريبًا، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ إِذَا قَالَ اللهُ لَهُ ذَلِكَ فمَعْنَاهُ أَنَّهُ يتقوَّى الآن؛ لِأَنَّ اللهَ وَعَده أَنْ يُرْسِـلَ هارون معه، إضافةً إِلَى أَنَّهُ سَيَكُونُ مُعِينًا لَهُ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ.

قوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي: غَلَبَة، وهذه بُشرى ثانية لهُما جَمِيعًا، ﴿وَنَجْعَلُ﴾ أي: نُقيِّض لكمـا سلطانًا، والمراد بالسلطان هنا يقول المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[غَلَبَة]، والسلطان فِي الْقُرْآنِ يَأْتِي بِمَعْنَى الغَلَبة والقُدرة، ويأتي بمعنى الدَّليل؛ لِأَنَّ الدَّلِيلَ يَتقوَّى بِهِ الْإِنْسَانُ، وَيَكُونُ لَهُ بِهِ قُوَّةٌ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٦٨]، ومعنى ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ أي: مَا عِنْدَكُمْ دليلٌ بهذا، وقوله تعالى: ﴿فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرَّحمَن:٣٣]، أي: بقُوة وغَلَبة، وقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل:١٠٠]، أي: سيطرته وغَلَبَته.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ أي: بسوء، والمعنى: لا ينتهون إليكما بالسوء، فما خِفْتَ مِنْهُ فَإِنَّهُ سوف ينتفي بِمَا جَعَلَ اللهُ لَك مِنْ تأييدٍ بأخيك، وهذه بُشْرَى لهما، وتُفيد التقويةَ، وهي نظيرُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [اذْهَبَا ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾...] وكأنَّه يَرَى أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ منفصل عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾، ولهذا قدَّر لها فِعلًا يَتعَلَّقُ بِهِ، وَيَكُونُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ الْوُقُوفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾، ثم نبدأ فنقول: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وَلَا يَصِحُّ أَنْ نَجْعَلَ قوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ تابعًا لتقدير الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ٱذْهَبَآ﴾، لأن التابعين لَمْ يَذْهَبُوا بالآيات. هَذَا وَجْهٌ.

وَالْوَجْهُ الْآخَرُ هُوَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَنَجْعَلُ﴾، أي: ونجعل لكما سلطانًا بآياتنا، أي: بسبب آياتنا نجعل لكما السلطان، فلا يستطيعون الوصول إليكما، ولا إبطالَ دعوتِكما، وَعَلَى هَذَا لَا يُحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ فِي الْآيَةِ.

وَيَتْبَعُ ذَلِكَ أَنْ نَصِل قَوْلَهُ تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي:

بسبب ما معكما مِنَ الْآيَاتِ، وَهَذَا المَعْنَى هُوَ الصَّحِيحُ لأسباب؛ أولًا: لِأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ؛ ولأنَّ التَّقْدِيرَ لَا بُدَّ أَنْ تسبِقَه مرتبَتَان:

المرتبة الأولى: إثبات أَنَّ فِي الْكَلَامِ حَذْفًا، وهو يُعْرَفُ بكون المَعْنَى لَا يَسْتَقِيمُ بِدُونِ تَقْدِيرِ مَحْذُوفٍ.

المرتبة الثَّانية: إثبات أَنَّ تَقْدِيرَ المحذوف هو ذاك، وهذا يُعيِّنه السِّياق؛ لأن السِّياق هُوَ الَّذِي يُعيِّن نوعَ المحذوفِ.

فَإِذَا كَانَ الْكَلَامُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى هَذَا التَّقْدِيرِ، فالأفضل عدمُ التقدير، وَهَذِهِ الْآيَةُ معناها واضحٌ جدًّا عَلَى الْقَوْلِ بعدم التقدير، والمعنى هو: نجعل لكما سلطانًا بسبب آياتِنا التي معكما، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾.

وَهَذَا المَعْنَى أَيْضًا أوضحُ مما قَدَّره المُفَسِّر وغيرُه؛ لِأَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ يَقُولُ تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ والآيات هنا جمعٌ، وَقَبْلَ ذَلِكَ يَقُولُ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ [القَصَص:٣٢]، فالله عَزَّوَجَلَّ قد أرسلهما بآيتين، ولذلك فالصَّواب هُوَ أَنَّ الْآيَةَ موصولٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، فَيَكُونُ تَقْدِيرُ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: ونجعل لكما سلطانًا بآياتنا، فلا يَصِلُون إليكما.

وَزَعَمَ بَعْضُ المُعْرِبِين أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وَهَذَا فِي المَعْنَى قَرِيبٌ مِمَّا ذَكَرْنَا، أي: أنتما ومَن اتَّبَعَكما الغالبون بآياتنا.

والغالب فِي الْآيَاتِ هُوَ الَّذِي جُعِلَ لَهُ بِهَا سلطان، ويقول عَلَى هَذَا: فلا يصلون إليكما أنتما، ومَن اتَّبَعَكُما الغالبون بآياتنا.

وَهَذَا لَا شَكَّ أنه أَحْسَنُ مِن تقدير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى حَذْفٍ؛

وَلِأَنَّهُ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ بَعْضُهُ مُتَّصِلٌ بِبَعْضٍ.

لَكِنْ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: فِي الْآيَةِ محذوف حسب قواعد النحو، لِأَنَّ قَوْلَه: ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ اسمُ فاعِل، وَقَدْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ (ال)، وهي بِمَعْنَى الِاسْمِ الموصول، والمعروف أَنَّ الِاسْمَ الموصولَ لَا يَعْمَلُ مَا بَعْدَهُ فِيمَا قَبْلَهُ، فَلَا تَعْمَلُ صلتُه.

ونُجيب فنقول: (ال) هنا ليست بموصولة، بَلْ هِيَ كـ(أل) الداخلة عَلَى الِاسْمِ الجامِد، كالداخلة عَلَى الرَّجُلِ والأسد، وما أشبههما.

وخلاصة الْقَوْلِ: هُوَ أَنَّ الصَّواب أَنْ نَجْعَلَ قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ متعلقًا بقوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾، ونَسْلَم مِنْ كُلِّ تلك المخالفات، ومِن التقديرات، التي نعتمد عليها، ومِن تعيين المقدر.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ لَهُمْ]، وحقيقة المعنى الغالبون لهم؛ لَكِنْ عَلَى سَبِيلِ العُموم نقول: أنتما ومَن اتَّبَعَكُما الغالبون لِلمخالفين.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: قوله: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللهَ تعالى أعطى مُوسَى وَهَارُونَ آياتٍ، وَقَدْ ذُكِرَ فِي سُورَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ أعطاه تِسْعَ آيَاتٍ، قَالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ [الإسراء:١٠١].

وقوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا﴾ التابعون هُنَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ومِن آلِ فِرْعَوْنَ كذلك، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر:٢٨].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يُنْصَر ويَغلِب باتِّباع الرُّسُل، وَأَنَّهُ لَا طَرِيقَ إِلَى النصر والغَلَبة إِلَّا بِالدُّخُولِ فِي طَرِيقِ الرُّسل واتِّباعِهم.

وعليه فتكون مِنْ هَذِهِ قاعدة: (كُلُّ مَنْ كَانَ للرسول أتبعَ كَانَ إِلَى النصر أقربَ، وكلُّ مَنْ كَانَ مِنَ اتِّبَاعِ الرَّسُول أبعدَ كَانَ عَنِ النصر أبعدَ)؛ لِأَنَّهُ مِنَ المَعْلُومِ فِي القَوَاعِدِ المُقَرَّرَة أَنَّ الحُكْمَ إِذَا عُلِّقَ بوصفٍ كَانَ ثُبُوتُهُ قوةً وضَعفًا ووجودًا وعَدَمًا، بِحَسَبِ ذَلِكَ الْوَصْفِ.

فمثلًا يَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣]، فمَعِيَّتُه للصابرين تتغير قُوَّتُها وضعفُها حَسَبَ مَا مَعَهُمْ مِنَ الصَّبْر، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [النحل:١٢٨]، وجود المَعِيَّة للمتقين قُوَّةً وضَعْفًا بِحسَب تَقْوَاهُم، وهكذا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، يستفاد مِنْهُ أَنَّ أَتْبَاعَ الرُّسُلِ غالبون لِمن خالَفُوا الرُّسل دائمًا وأبدًا، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «نُصِرتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»(١).

اللهُ أَكْبَرُ! ما أعظمَ هَذِهِ الْفَائِدَةَ لو أَنَّنا كُنَّا عَلَى المستوى الَّذِي يَنْبَغِي، فلو كُنَّا مُتَّبعين لِهَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ عَلَى وَجْهِ الحقيقة، لكان عدوُّنا مَرْعُوبًا مِنَّا مَسِيرَةَ شَهْرٍ، لكنَّنا -مع الأسف الشديد- لَمْ نكن مُتَّبِعِين للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حقيقة، وَلِذَلِكَ صَارَ بأسُنا بيننا، لَا مَنْ يَدَّعِي الإِسْلام مِنَّا، وَلَا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْزَوِيَ تحت قاعدة الجَاهِلية، وهي القوميةُ العربيةُ، فَإِنَّ هَذِهِ القومية ما انتصرت مُنْذ نشأت إِلَى الْيَوْمِ، ولن تنتصرَ أبدًا، بَلْ لَا تَزْدَادُ إِلَّا فشلًا وتفرُّقًا وتصدُّعًا وقتالًا فِيمَا بَيْنَهَا.

وَكَذَلِكَ أَيْضًا فِي الْحَقِيقَةِ ما اجتمعْنا على قوميَّةٍ إسلاميةٍ، فيبقى المُسْلِمُونَ لَا عَلَى هَذَا، وَلَا عَلَى هَذَا، ولهذا مَا كَانَ لَنَا النصرُ الَّذِي وَعَدَ اللهُ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، بابٌ، رقم (٣٣٥)، مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، رقم (٥٢١).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى عَبْدِهِ، حيث إِنَّ اللهَ أجاب دعوةَ موسى، فقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ اللهَ أَعْطَى مُوسَى أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلَ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، فَأَعْطَاهُ اللهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ؛ بأن يقويَه أيضًا؛ لأن التصديق مَعْنَاهُ الْخَبَرُ بأنه صادق، لكن التقوية أبلغُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد يَمُنُّ عَلَى الْعَبْدِ، فَيَجْعَلُ لَهُ سُلْطَانًا بِمَا آتَاهُ مِنَ الْعِلْمِ؛ لقوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ بآياتنا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ الْعِلْمَ سلاحٌ؛ لأن السلطان معناه: القوةُ والغَلَبَةُ، وَإِذَا كَانَ سَبَبُهُ العِلم كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ سِلَاحٌ مِنْ أَعْظَمِ ما يُدَافِعُ بِهِ الْإِنْسَانُ ويُحاجِجُ أيضًا.

وقد مرَّ علينا قصة ابْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فإنه لولا عِلمُ ابْنِ عُمَرَ لَكَان لهذا سلطان؛ لِأَنَّ عُمَرَ كَانَ عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا جَعَلَ لَهُ السُّلطة وَالْغَلَبَةَ عَلَى ذَلِكَ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: حماية اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِمُوسَى وَهَارُونَ؛ لقوله: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾، وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ التمسُّك بشريعة الله سببٌ للغَلَبة، قال: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، أي: كُلُّ مَنِ اتبعكُم.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: أَنَّهُ إِذَا كَانَ هَذَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنِ اتبع مُوسَى هُوَ الْغَالِبُ، فمِن باب أَوْلَى مَنِ اتبعَ النبيَّ ﷺ فإنه غالِب، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣]، ومعنى

﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ يُعَلِّيه؛ لأن الظَهَر والظُهورَ كُلَّه يَدُلُّ عَلَى الغَلَبة، قال: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

الآيــة (٣٦)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [القَصَص:٣٦].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وَاضِحَاتٍ حَالٌ ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ مُخْتَلَقٌ ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ كَائِنًا ﴿فِيٓ﴾ أَيَّامِ ﴿ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أي: آلُ فِرْعَوْن، ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وَلَمْ يَقُل: وهارون؛ لأنَّ الرِّسالَة في الأَصل لموسى، وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الباء للمصاحبة: يعني: مصحوبًا بالآيات، وآيات جَمْعُ آية، وهي العلامات، وأُضِيفَت إِلَى الله إضافةَ العطيَّة إلى مُعطيها؛ لأَنَّ هَذِهِ الآيات ليست آيات عَلَى الله، لكنها آياتٌ منه على رسالة موسى، وإثبات أَنَّ اللهَ وَحدَه هُوَ الحَقُّ.

قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ قَالَ المفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَاضِحَاتٍ حَالٌ] حَالٌ مِن قَولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، وَلَا تَصحّ أَن تكونَ نَعْتًا؛ لأَنَّهَا نَكِرَة، وَمَا قَبلَهَا مَعْرِفَة.

وَفي قَوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ إقامة للحُجة؛ لأَنَّ الآيَةَ هي علامة، وكُلَّما كانت أظهرَ كانَت الحُجَّة أقوى، والآيات بَيِّنَة، جاءهم بالآيات البَيِّنَات، فكان جوابهم: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ أي: الذي جئتَ به يَا موسَى ﴿إِلَّا سِحۡرٌ﴾، وهنا مَا لَم تَعمَل عَمَل ليس -عَلَى لُغَة أَهل الحِجَاز- كَمَا قَالَ ابن مالك[1]:

إعمَالَ (لَيْسَ) أُعْمِلَتَ (مَا) دُونَ (إِنْ) مَـعَ بَقَـا النَّفْـيِ وَتَرْتِيـبٍ زُكِـنْ

لأَنَّه يُشتَرَط في عملها بقاءُ النفي، وهنا النفي قد انتقض بالاستثناء.

قوله تعالى: ﴿سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى﴾ السِّحر المُفْتَرَى: العَصا واليد، هَذَا إذَا قلنَا: إنه يَعود عَلَى الآيَات الحِسِّيَّة؛ فَإن قُلنَا: إنه يَعود إلَى الآيَات المعنوية وَهيَ مِثل الإِسْلام؛ فَإنَّ النَّبيَّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول: «إِنَّ مِنَ الْبَيَان لَسِحْرًا»[2].

وقوله: ﴿مُّفۡتَرًى﴾: مُختَلَق، فمِنَ المَعروف أَنَّه يَصحُّ وَصفُ القول بالمُفْتَرَى، ولكن الافتراء هنا جاء وصفًا للعصا واليد؛ لأن السِّحْرَ لَا يَقلب الأَشْياء حقيقة، ولكنه يَقْلِبُها تَخَيُّلا بحَسَب مَا يتخيَّلُه المرء، فَيَكون هَذَا التَّخييل مخالفًا للواقع، وَكلُّ مَا يُخَالف الواقع فهو مُفْتَرًى، فيكون ظهورُه بغير الحَال الَّتي عَلَيهَا مِن باب الكذب والفِرية، وَلهَذَا قَالُوا: ﴿سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى﴾.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ كَائِنًا ﴿فِي﴾ أَيَّامِ ﴿ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾].

قوله: ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾، المشَار إلَيه مَا جَاءَ به مِنَ الرِّسالَة؛ لأَنَّهَا هيَ المسموعة، وأما آيةُ اليد والعصا فهي مُشاهَدة مرئية.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كَائِنًا] إشَارَة منه إلَى أَنَّ متعَلَّق الجارِّ والمجرور بقوله: ﴿ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ محذوف تقديرُه (كَائِنًا)، وهو هُنَا عَلَى تَقدير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حَالٌ

(١) ألفية ابن مالك (ص٢٠).
(٢) تقدم تخريجه.

مِن اسمِ الإشارة.

وقوله: ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: في وقتهم، وَلهـذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، أي: السابقين، وَهَذَا كَذِبٌ منهم، فَقَد أَخبَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عنهم أيام يوسفَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗا﴾ [غافر:٣٤].

إذن: قولُهم: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ خبرٌ كَذِبٌ، فهُم كاذبون في هَذِهِ الدعوة.

ثم عَلَى فَرض أن الدعوةَ صحيحة، وأنهم ما سمعوا مِثله مِن قَبل، وَلَم يوجَد في الأولين، فَهَذَا لَا يَقتَضي أَنْ يَكونَ باطلا؛ لأَنَّ الحَقَّ إذَا جَاءَ وَجَبَ قَبولُهُ، سَوَاء كَانَ مَوجودًا في الأولين، أَمْ غَير مَوجود، فهذه الحُجة إذن مُرَكَّبة مِن كَذِبٍ وباطِلٍ:

أَمَّا الكَـذِبُ: فَإِنَّ قَـوْلَهم: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ كـذب؛ لأنّ مؤمنَهم أَقَامَ عَلَيهم الحُجَّةَ بوجود نظير لَمَا جَاءَ به موسَى في قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر:٣٤].

وأما الباطِلُ: فَعَلَى تَقدير أنها صحيحةٌ قولًا؛ فلأن عدم وجودِ ذَلكَ في الأَوَّلِين لَا يقتضي بُطلان وُجودِه في الآخِرينَ؛ فإن الله تعالى فَعَّال لَمَا يُريد، مَا دَامَت الآياتُ بَيِّنَات، فليس هناك حُجَّةٌ لَهُم بأَنَّه لَم يُوجَد في الأولين كذا.

قوله تعالى: ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ قال: ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وهُم آباء؛ لأَنَّ الأَبَ يُطلَق عَلَى الأَب المباشِـر، وعلى الجَـدِّ وَإِنْ عَلَا، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾ [الحج:٧٨]، وقال يوسف: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ [يوسف:٣٨]، فيعقوبُ أبوه المباشر، وإسحاقُ جَدُّه، وإبراهيمُ جَدُّ أبيه، سمَّاهم آباء،

وَهَذَا وَإن كَانَ فيه التغليب، لَكن قَوله: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ لَيسَ فيه تَغليبٌ، أي: لَيسَ هنَاكَ أبٌ مُباشِر، وَلهَذَا كَانَ القَول الراجح في مَسألَة الجَدِّ والإخوة أَنَّ الجَدَّ يَحْجُب الإخوةَ؛ لأَنَّه أَبٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ موسَى ﷺ نَفَّذ مَا أَرسَلَه الله به.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الآيَات الَّتي يرسل اللهُ بها الأنبياءَ تكون بَيِّنَة واضحة؛ لئَلَّا يَكونَ للمَدعُوِّين حُجَّة في خفاء الحُجة، فيجعل الله تعالى الآياتِ بَيِّنَةً واضحة.

وَفي الحَديث الصَّحيح عَن النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ»(١).

فَلَا بدَّ أَن تكونَ الآيَات الَّتي يُرْسَل بها الرُّسل بَيِّنَة واضحةً؛ لئلا تبقَى للنَّاسِ حُجة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الآيَاتِ الَّتي أعطاها اللهُ موسَى ليست وَاحدَة، وَلَا اثنتين، بَل هيَ آياتٌ متعددة يؤمِن عَلَى مِثلهَا البَشر، لكن هَؤلَاء قَومٌ عُتاة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ دعوى المكذِّبين للرُّسل لَا تكون إلَّا مِن نَوع المكابَرة؛ فَإِنَّ قَولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٤]، لَا يَقتَضي رَدَّ الحق، لَكن إذَا كَانَ حَقًّا فاقبلوه، وليس للإنسان حُجة إذَا قَالَ: والله هَذَا مَا سَمعنَا به.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن أعداء الرُّسُل يُلَقِّبُون الرُّسل بألقابِ السُّوء والعَيب؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول ما نزل، رقم (٤٩٨١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٢).

لقوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾، فليس عند أعداء الرُّسُل إلَّا أَنَّهم يُلَقِّبُونهم بألقاب: هذا ساحر، هذا مجنون، هذا شاعر، وَمَا أَشبَهَ ذَلكَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: هي فائدةٌ مُتَفَرِّعة، وَهيَ أَنَّ أعداء الرُّسل سوف يُلَقِّبُون مَن يَدْعون بدعـوة الرُّسُل بِمِثْل هَـذِهِ الألقاب، فيقولون عنهم: رجعيُّون، متأخرون، مُتَزَمِّتُون، متشددون، متعصبون، وَمَا أَشبَهَ ذَلكَ، أو ربما يكون أَبلَغ مِن هَذَا فيقولون: ضالُّون، ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٣٢].

فدعوة الحَقّ لَهَا أعداء، هؤُلاءِ الأعداء الذين قابلوا الرُّسلَ بما قابلوهم، والرُّسل هُم الأَقوَى في القيادة، سيُقابلون مَن بَعدَهم بِمِثْل مَا قابلوهم به، أَو أَكثَر.

إذن: فلنُطَمْئِنْ أنفُسَنا على أَنَّنَا إذَا دعونا إلى الله عَلَى حَقٍّ، وعلى بَصيرة، فسيكون أمامنا مَن يَقول لنا مِثلما قالوا للرُّسل، فَمَا دَامَت الدعوة واحدة فَعَدُوُّها واحد، وَمَا قيلَ في الأَوَّل يُقَالُ في الثَّاني.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّه لَا يَنبَغي للمَرء أَنْ يُثْنِيَه عَن قَول الحَقّ رَدُّه، أو وَصْفُه هو بالعيوب؛ لأن موسَى لَم يتوقف عن الدعوة حينما قَالوا لَهُ هَذَا، بل استمر في الدَّعوَة، وبه قَامَت الحُجَّة، مَعَ أَنَّه هُدِّد بالسَّجْن، ولكنه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَم يُبَالِ بها.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: يَنْبغي للدَّاعي إلى الله أَنْ يصبر مَا دَامَ يَعلَم أَنَّه عَلَى الحَق.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [القَصَص:٣٧].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ﴾ بِوَاوٍ وَبِدُونِهَا ﴿مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ عَالِمٌ ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ الضَّمِيرُ لِلرَّبِّ ﴿وَمَن﴾ عَطْفٌ عَلَى مَنْ قَبْلَهَا ﴿تَكُونُ﴾ بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ ﴿لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أَيِ الْعَاقِبَةُ الْمَحْمُودَةُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَيْ هُوَ أَنَا فِي الشِّقَّيْنِ فَأَنَا مُحِقٌّ فِيمَا جِئْتُ بِهِ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ﴾ بِوَاوٍ وَبِدُونِهَا]، أي فيها قراءتان سبعيتان، فَيجوز أَنْ تَقولَ: ﴿وَقَالَ﴾، وَيجوز أَن تَقولَ: «قَالَ»[1]، وَهَذه مِنَ القرَاءَات النادرة جِدًّا؛ لأن القراءات المتواترة لَا يَكون فيهَا تَغيير كلمة بزيَادَةٍ أَو نقصٍ، وقد ذَكَرْنَا مِن قَبْلُ بيتين في القرَاءَة، هما[2]:

فَكُلُّ مَا وَافَقَ وَجْهَ نَحْوِ ... وَكَانَ للرَّسْمِ احْتِمَالًا يَحْوِي

وَصَحَّ نَقْلًا فَهُوَ القُرْآنُ ... فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ الأَرْكَانُ

ولكن الرسم هنَا لَا يَحتَمل الزِّيَادَةَ، أَو النّقصَان، ولكن القِراءَة ثابتة، كَذَلكَ

(١) السبعة في القراءات، لابن مجاهد (ص٤٩٤).

(٢) متن طيبة النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، البيتان (١٤، ١٥).

في سُورَة البَقَرَة ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٧]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ [البقرة:١١٦]، ففيها قراءتان: بإثبات الواو وبحذفها، وهناك شواهدُ أُخرَى في القُرْآن، لَكن هَذَا يعتبر منَ الأَشيَاء النادرة.

قوله تعالى: ﴿رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾: ﴿أَعۡلَمُ﴾ هَذَا اسمُ تفضيلٍ، واسمُ التفضيل يَدُلُّ عَلَى اتِّفَاق شخصين اشتَرَكَا في صِفَةٍ واحدة.

فَإِذَا قيلَ: فلانٌ أَفضَلُ مِن فُلَان. فقد اشترك الرَّجُلان في الفَضل، وزاد المفَضَّل على المفَضَّل عليه. هنا يقول: ﴿رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾.

قَالَ المفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: عَالِمٌ]، فَحَوَّل اسمَ التفضيل إِلَى اسمِ فاعِل، وهذه جناية عظيمة؛ لأن (عَالِم) أدنى بكَثير مِن ﴿أَعۡلَمُ﴾، فَإِذَا قلنَا: ﴿رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ﴾ و(وربي عالِمٌ بمَن جاء)، فالأول أَبْيَنُ، ولذلك يُعتبر نقصًا مِنَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والصَّواب أنَّ ﴿أَعۡلَمُ﴾ أي: مَن عَلِمَ بالهدى مِن عند الله، فَاللهُ أَعلَم منه.

والمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومَن حَذَا حَذوَه، أَو سَبقه إِلَى ذَلكَ إِنَّمَا فَرُّوا مِن أَنْ يَكونَ الإِنسَان مشتركًا مَعَ الله في العِلم، لكن اسم التفضيل لَيسَ فيه دَليل عَلَى المُشارَكَة، فقولنا: أَعْلَم. ينفي المُشارَكَة؛ لأن الأعلم في دَرَجَةٍ لَا يَصل إِلَيهَا المفضَّل عليه، لَكن إِذَا قلتم (عالم) فهذا فيه المُشارَكَة؛ لأَنَّ اللهَ عالِمٌ، والإِنْسَان عالِمٌ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ [النحل:٧٨]، أي: فعَلِمُوا، وَكَذَلكَ قَوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤].

فالشاهد أَنَّ كَلمَةَ ﴿أَعۡلَمُ﴾ هيَ الَّتي تَقتَضي التفريق، بخلاف عالِم، ثُمَّ إِنَّ فيهَا

دليلًا واضحًا عَلَى أَنَّ كلَّ صِفة كمـال، فَاللهُ تعالى لَهُ منهَا أعـلاها، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، فكلُّ صِفة كمالٍ مُطْلَق فلله تعالى منها أَكْمَلُها، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾.

فهناك مَن عَلِمَ مَن جَاءَ بالهـدى مِن عند الله مِنَ المُؤمِنيـنَ الَّذينَ أُرسل لهم، فعلموا ذلك، اللهُ تعالى أَعلَمُ بهم.

قوله تعالى: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ الضَّميـر في قَوْلِهِ: ﴿عِندِهِۦ﴾ يعود للرَّب، أي: مِن عند الله، وَإِنَّمَا أَشَارَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَى هَذَا؛ لئلا يُظَنَّ أَنَّه عَائد إِلَى ﴿مَن﴾ في قَوْلِـهِ: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، وَلَا يمكن أَنْ يَعـود إِلَى ﴿مَن﴾؛ لأَنَّه يَختَلف المَعنَى.

وقوله تعالى: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ وَلَمْ يَقُـل: أَعلَمُ أَنِّي قَد جئـت بالهدى مِن عِنْدِه، بَل قَالَ: ﴿بِمَن جَآءَ﴾؛ لئَلَّا يَكونَ مُدَّعيًا، وليبقَى الأمر مَوْكُولًا بالحُكم عَلَيه مِن جهَة العقل.

قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَمَنْ عَطْـفٌ عَلَى ﴿مَن﴾ قَبْلَهَا]، أي: وبِمَن تكـون لَهُ عاقبة الدَّار، فَهُوَ أَعلَمُ بمَن جاءَ بالهُدى مِن عِنْدِه، وهذا سببٌ لِحُكم العاقِبة، و﴿أَعْلَمُ﴾ كذلك بـ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ فَهوَ أَعلَم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالمبتدأ والمنتهى.

وقوله تعالى: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ سَمَّى الكتَابَ، أَو الوحيَ هُدًى؛ لأَنَّه يهدي، كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [الصف:٩]، فالهُدى هُوَ العِلم؛ لأَنَّه هُوَ سبيلُ النجاة.

وقوله: ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ أَضَافَـه إِلَى الله؛ لأن الوحيَ مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَيس مِن غَيره، ولا أحدَ يأخذ هُدًى إلَّا مِن عند الله.

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَكُونُ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ][1] فهُما قراءتان؛ أمَّا القِـراءَة بالتاء ﴿تَكُونُ﴾ فالأمر فيهَا ظَاهـر؛ لأن عاقبة الدَّار مؤنـث، والفاعل إذَا كَانَ مؤنثًا يُؤَنَّث له الفِعل، وأمَّا بالياء «يَكُونُ» إنَّمَا جَازَ التذكيـر مع تأنيث الفاعل؛ لأن التأنيث مَجَازِيٌّ؛ والمؤنث المجازي كُلُّ مَا لَيسَ لَهُ فَرْجٌ فهو مؤنثٌ مَجَازي.

قوله تعالى: ﴿تَكُونُ﴾ كان هنا ناقصة، وخبرُها مُقَدَّم، وَهُوَ قَوله: ﴿لَهُۥ﴾ واسمُها مُؤَخَّر، وهو: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيِ: العَاقِبَةُ المَحْمُودَةُ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ]، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: مَن يَعْقُب غَيرَه في الدَّار، والمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حَمَلَهَا عَلَى أَنَّ المرَادَ بالدَّار هنا الدَّارُ الآخِرَة، وَلَكن يَنبَغي أَن نَقولَ: إنها عَامَّة في الدَّار الآخِرَة، والدَّار الدُّنيا؛ لأن عِبَادَ الله الصَّالحينَ هُم الَّذينَ لَهم العاقبةُ في الدّنيَا وَالآخرَة، وَقَد كَانَت العاقبة لموسى وقومه حَتَّى في الدَّار الدُّنيا بالنِّسبة لفِـرْعَون، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء:٥٧]، وَقَالَ تعالى: ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان:٢٦-٢٨]، وَفي سورَة الشّعَرَاء ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩].

فالأَولى إذن أَن نَجعَلَ الدَّارَ هنا عَامَّة في الدَّار الدُّنيا، ودار الآخرة.

---

(١) السبعة في القراءات، لابن مجاهد (ص٤٩٤).

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ العُقبى في الدّنيَا واضحة؛ إذا فتح المسلمون البلاد صاروا هُم الَّذينَ وَرِثُوها، وهُم كَذَلكَ في الآخرَة في الجَنَّة؛ لأَنَّ المسلمَ يَكون في الجَنَّة وارثًا لمكان الكافِر منه؛ فَإِنَّ الكَافِرَ يرى مقعدَه في الجَنَّة، وفي قبـره لَو آمَن، ولكن المؤمنون يرثون مقاعِدَ الكافرين في الجَنَّة، وتكون عُقبى لهم أَيْضًا بالدَّار الآخرة.

قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: هُوَ أَنَا فِي الشِّقَّيْنِ]، والشِّقَّان هما قوله: ﴿أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾، والشِّقُّ الثَّاني: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: هُوَ أَنَا]، هَذَا هُوَ الحَقّ، أَنَّ الَّذي جَاءَ بالهدى مِن عند الله موسى، وأنه ستكون له العاقبة، ولكنَّ موسى خاطَبَ فِرعونَ بهَذَا الخطَاب المتردد بَينَ كَون الهدى عندَه، أَو عند فِرْعَونَ، والعاقبة لَهُ دونَ فِرْعَونَ عَلَى سَبيل التَّنَزُّل، كَمَا في قَوْلِهِ تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤].

لكنه هنا لَم يُصَرّح بأَنْ قَالَ: أَنَا قَد جئتُ بالهدى، وأنا العاقبة؛ لأَنَّ هَذِهِ هيَ الدعوة التي جَاءَ بهَا، وأقامَها على فِرْعَون، لكنه ساق الكلام مَساقَ الأمر المتردد بَينَه وَبَينَ فرعَون مِن بَاب التَّنَزّل معه.

قال: [فَأَنَا مُحِقٌّ فِيمَا جِئْتُ بِهِ]، هذا مُفَرَّع عَلَى قَوله: [هُوَ أَنَا].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الكافِرُون، ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضَّميـر هنا ضميـر الشأن؛ لأَنَّه لَم يَسبق له مرجع، ولم يَلحَقه مَا يَصلح أَنْ يَكونَ مرجعًا له، وَعَلَى هَذَا فيكون ضميـرَ الشأن، أي: إنَّ الشأن والحال ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: إن كنت أنا ظالمًا بدعوى الرِّسالَة فَأَنَا لَا أُفلح، وإن كنتَ ظالمًا بِرَدِّك الحقَّ فَأَنتَ لَا تُفلح؛ لأَنَّه مفرَّع عَلَى مَا قَبلَه ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ

عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، وعاقبة الدَّار تكون لغير الظَّالِم؛ لأنَّ الظَّالِمَ لَا يُفلح، ونحن نعلم عِلم اليَقِين أَنَّ الظَّالِمَ في هَذِهِ الحَالِ هو فِرْعَون؛ لأنَّه رَدَّ الحق.

وقوله: ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ الفَلَاح هُوَ حصول المطلوب، وَالنَّجَاة منَ المهروب، وسُمِّي فلاحا؛ لأنَّه بقاء، وَأَصله في اللّغَة البقاء، كَمَا قَالَ الشَّاعر[1]:

لكُلِّ هَمٍّ مِنَ الهُمُومِ سَعَهْ وَالمُسْيُ والصُّبْحُ لَا فَلَاحَ مَعَهْ

يَعني: لَا بَقَاءَ معه، فتعدَّى الأَمرُ إِلَى أَنْ يَقولَوا: إِنَّ الفلاح هُوَ حصول المطلوب وَالنَّجَاة مِنَ المهروب.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مَعنَى ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: [الكافِرُون] فيه نَظَر، لأن عدمَ فلاح الظَّالِمِين بحسَب ظُلمهم؛ إن كَانَ ظُلمًا أكبرَ، فَهُم لَا يُفلحونَ أبدًا، وهم الكافِرُون، وَإِن كَانَ ظُلمًا دونَ ذَلكَ، نَقصَ منَ الفَلَاح بحَسَب مَا نَقَصَ منَ العدل، فالضابط لهذا أَيْضًا إبقاء الآيَة عَلَى ظَاهرهَا، وأنَّ الظَّالِمَ لَا يُفلح، لكن انتفاء الفلاح عنه بحسَب وجود الظُّلم فيهِ؛ فالظلم الأكبر يفوت به الفَلَاح كله، وَمَا دونَ ذَلكَ يَفوت منه منَ الفَلَاح بقَدْر مَا حَصَلَ منَ الظُّلمِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في قَوْلِهِ: ﴿أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ التَّنَزل مَعَ الخَصم عَلَى وَجهٍ لَا يَكون فيه تقويضٌ لدعوَى المدَّعي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فيهَا دَليل عَلَى أَنَّ الهُدَى مِن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فَهُوَ الَّذي يَأتي بمَا يَحسُن الاهتداء به، وَيوَفِّق مَن شَاءَ مِن عِباده له، فالهدى مِن عند الله، ﴿أَعْلَمُ بِمَن

(١) البيت للأَضْبَطِ بْنِ قُرَيْعٍ السَّعْدِيّ، كما في اللسان، مادة: فلح.

جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ فهو ضلال، وَالهدَى مِن عند الله، فما خَالَفَه فَهوَ ضلال.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ العاقبة لمن اتبع هُدَى الله؛ لقوله: ﴿أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: وَهُوَ كَذَلكَ أَعلَمُ بمَن تكون لَهُ عاقبة الدَّار.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الظَّالمَ لَا يفلح، ومفهومه أَنَّ صَاحبَ العدل يفلح؛ لأَنَّه إذَا انتَفَى الفلاح عن الظَّالِمِ وجب ثبوته لصاحب العدل.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التَّحذير منَ الظُّلم؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، والترغيب في العَدل؛ لأن التحذيرَ منَ الشَّيء تَرغيب في ضِدِّه.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القَصَص:٣٨].

قال المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ فَاطْبُخْ لِي الْآجُرَّ ﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ قَصْـرًا عَالِيًا ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أَنْظُـرُ إِلَيْهِ، وَأَقِـفُ عَلَيْهِ ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فِي ادِّعَائِهِمْ إِلَهًا آخَرَ، وَأَنَّهُ رَسُولُهُ].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا﴾ يخاطـب قومه، وَقَد أَتى بصيغَـة الجمع المقدَّر بالنداء، وفيه منَ الأَمر والتعظيم له، ثُمَّ قَالَ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ وَلَم يَقل: ما وجدت لكم؛ لأَنَّه لَو قَالَ: مَا وَجَدت لكم. لكَذَّبوه؛ إذ سيُحاجُّونه بأَنَّه لَم يَذهَب لأي مكان، ولم يُفارقهم، فَلَم يَذهَب ليطلب اللهَ، وَلَم يجده، فَنَفَى أَنْ يَكونَ عَالمًا بذَلكَ، فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، لأَجْل أَنْ يُفَرِّعَ عليه، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ فتتم له اللُّعبة، يقول: أَنَّا لَا أَعلَم لَكم مِن إِلَهٍ غيري، لَكن لَا مَانعَ مِن أَن نبحث.

قَوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي: اجعَل لي صَرحًا طويلًا رفيعًا

كي أَنْظُرَ: هَل في السَّمَـاء إله لموسى أَم لَا؟ وَهَذَا أَبلَغ في التمويه، فعبَّر بقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ﴾؛ لأَجْل أَنْ يُتِمَّ لُعبته.

وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ المراد من رَبّ غيري؛ لأَنَّه قَالَ في سُورَة النازعات: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٣-٢٤]، أو يجوز أَنَّ المرَادَ بالإله ظاهرها، فيكون ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ أي: مِن معبود، ولا يعبَد إلَّا الرّبَ.

وَقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ الفاء للسببية، وهي عاطفة، وهامان: هو وزيرُه، والظَّاهر أنه وزيرٌ مُطلَق، وَلَم يَكن مختصّا بشأنٍ مُعَيَّن.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَاطْبُخْ لِيَ الآجُرَّ] أي: الطين، وَهُوَ التّرَاب المخلوط بالماء، فإذا أَوْقَدَ عليه انعقَد وتحجَّر، وصار آجُرًّا، وَإِنَّمَا اختَارَ ذَلكَ؛ لأن الآجُرَّ أَقوَى مِن غيره، وَلأَنَّه إذَا أوقد عليه يوقد على مِصفاة، فيشتهر بَينَ النَّاس إذَا سألوا أَنَّ هَذَا هُوَ وقُود الصرح الذي سيَبْنِيه ربُّهم، وَيَكون أَيضًا مُرعِبا أكثر.

قوله تعالى: ﴿فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ يقول المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قَصْرًا عَالِيًا] أي: يبني لَهُ مثلَ المنارة، لكنه بناءٌ عالٍ، وَلَو قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بناءً عاليًا، لَكَانَ أَولَى.

قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾: ﴿لَّعَلِّي﴾ هَـذِهِ للتَّعلِيل، يعني: اجعله لي؛ لأطلع إلى إله موسى أَنظر إلَيه، وأقف عليه، وقوله: ﴿إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ قالها فِرْعَون عَلَى سَبيل التحقير؛ لأن موسى عنده حقير، فإلهه يَكون مثله -حَاشَا لله- حقيرًا لحقارة عابده.

قَولُه تعالى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِادِّعَائِهِ إِلَهًا آخَرَ، وَأَنَّهُ رَسُولُهُ].

وقولُه: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾ أَكَّدَها بـ(إنَّ) واللام، ثُمَّ قَالَ: ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ليفتح الباب لكذبه؛ لأنَّه لَيسَ هَذَا أَوَّل مَن كَذَبَ، فليس بغريب أَنْ يَكذب؛ لأنَّه قَد سَبقَه مَن سَبقَه، فَيكون هَذَا أَكثَرَ قَبُولا لقوله عندهم، وليُذَكِّرَهم أَنَّ موسَى مِثل غَيره مِنَ الكَاذبينَ، فليس أَوَّل مَن كَذَبَ.

فَائدَة: قَولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ هَـذِهِ الدَّعوَى كَذَب فيها فِرْعَونُ؛ لأنَّ موسَى قَالَ لَه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:١٠٢]، لكنه يُمَوِّهُ به عَلَى قَومِه، ولهذا أمر بهذه الفَعْلَة.

وَكَذَلكَ في قَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ كـذب أَيْضًا في قَوْلِهِ، بَل هُوَ مُتيَقِّن أَنَّ موسَى صادق، ولكنه زاغ وتنكَّر للحق.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن فِرْعَون قد سيطر على قلوب قومه، ووَجْهُ ذَلكَ أَنَّ مِثلَ هَذَا الكَلَام لَا يُقبَل إلَّا مِن شَخص قد سَلَب عُقولَهم، وإلَّا خرج أيُّ وَاحِد منهم ليقول: أريد أَنْ أُصْبِحَ إلها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَمْوِيهُ فِـرْعَونَ عَلَى قَومِه، وَأَنَّه مِن أَشَـدّ النَّاس مَكرًا وحِيلـةً؛ لقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات عُلُـوِّ الله، ونأخذه مِن قَولِه: ﴿فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، وَهَذَا دَليل عَلَى أَنَّ موسَى قَالَ لَه: إنَّ اللهَ في السَّمَاء.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن فرعَونَ كَانَ عظيمَ المُلْكِ في مملكته، وَكَانَ لَهُ وزراء يأمرُهم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إسنَاد الفعل إلَى الآمر به إذَا كَانَ لَهُ سلطَان، لقوله: ﴿فَٱجْعَل

لِي صَرْحًا ﴾، وَمَعلوم أَنَّ هامان لَم يُبَاشر البناء، بل باشَرَهُ العُمال، ولكنه نسبَ الفعل إلَيه؛ لأَنَّه الآمِر به، ففيه إسنَاد الفعل إلَى الآمر به لَمن كَانَت لَهُ سُلطة الأمر.

والفقهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ اعتبروا هذا، فقالوا: لَو أَمَرَ بالقَتل غيرَ مكلَّف، فَقَتَل، فالقَوَد عَلَى الآمِـر؛ لأَنَّه لَو قَالَ رَجُل مَا لشاب لَم يَبلُغ بَعْدُ: اقتُل فلانًا. فذَهَب فقتلَه؛ فَإِنَّ الَّذي يُقْتَلُ هو الآمِر؛ لأَنَّه هُوَ السَّبَب، وَالحُكم إلَيهِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الفَخَّار أَقوَى مِنَ الطِّين غير الموقَد عليه، يؤخَذ مِن قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ وَقَد يَكون فِـرْعَون أَوَّل مَن اخترع هذا الطين، وَقَد يَكون الأَمر مَعلوما مِن قَبل.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: طغيان فِـرْعَون، واستِكْباره، حَيـث ذَكَرَ الربَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بصيغة الإذلال في قَوْلِهِ: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾ فنسبه إليه؛ احتقارًا له، لأَنَّه يحتقر موسى.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ فـرعَون مِن أَكْذَبِ النَّاس؛ لقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي﴾، ولقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القَصَص:٣٩].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَلِلْمَفْعُولِ].

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾، من الكِبرياء، وهي العَظَمَة، والمعنى أنه تَرقَّى وتعاظَم هو وجنودُه، وزيادَةُ الهَمْزة والسِّين والتَّاء للمُبالَغة، وليْسَت للاستِدْعاء؛ لأَنَّ الغَالبَ أنَّ الهمـزَة تكُونُ للاستِدْعاء، مثل: استغفرَ له، يعني: طلب مغفرَته، واسْتَـرْحمه: طلـب رحمته، لكن تأتي أحيانًا للمُبالغـة، مِثل ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ يعني: بَالَغَ في الكبـرياء والعظمة هُوَ وجنوده.

قَولُه تعالى: ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾ الجند في الأَصل هُم حاشية الإِنْسَان وأنصارُه، ويُطلَق عَلَى كلِّ مَن اتَّبعه، فَهوَ مِن جُنده.

وقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلِّق بـ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾، و(ال) في قَوْلِهِ: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للعهد الذهني، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَرْضِ مِصْرَ]، أي: ليست الأَرض كلَّهَا؛ لأَنَّه لَا سُلطَانَ لَهُ عَلَى بَقيَّة الأراضي، وَلَكنَّ المرَادَ أَرض مِصرَ.

فَعَلَى هَذَا تكون (ال) هنا للعهد الذهني لا للعموم.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بيانٌ للواقِع؛ لأن الاستِكْبارَ كُلَّه مُخالف للحق، وَزِيَادَة في تقبيحِه، فالاستِكْبار قبيحٌ، فإذا وُصِف بغَير الحَقّ صار أقبحَ وأقبحَ، ونظير هَذَا قَوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة:٦١].

وَمنَ المَعروف أَن قتلَ الأَنبيَاء لَا يمكن أَنْ يَكونَ بِحَقٍّ، لكن ذَكَرَ ذَلكَ للمبَالَغَة في تقبيحه، فالواقع أَنَّه لَيسَ بحَقٍّ، يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ والحق في الأَصل هُوَ الشَّيْء الثابت، فَإِذَا أُضيفَ إِلَى الكَلَام، فَالمرَاد به الصَّدَقُ، وإذا أضيفَ إِلَى الأحكام، فالمرَادُ به العدل، كَقَوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

إذن: انتفى عَن هَؤلَاء باستِكْبارِهم الحَقُّ مِن وَجهَين: حيث اتخذوا كذبًا وزُورا بما استكبروا به، وغير الحق.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ قَد يَكون المرَاد بالظن هنا الرُّجحان، أو اليَقِين، فهم مُتيَقِّنُون مما جحدوا به، أَمْ أنهم تَرَجَّح عندَهم أَنَّهم راجعون.

كلَاهمَا في الواقع يُنافي قَولَه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]؛ لأَنَّ مَن استيقن شَيئًا لَا يظن خلافَه، فمَن استقين أَنَّ مَا جَاءَ به موسى حقٌّ، فلا يَظنُّ أَنَّ خِلَافَه هُوَ الحَقُّ؛ لأَنَّ مَن استيقن الشَّيْء آمَنَ به، لكن يبدو لي أَنَّ الظنَّ هنا إمَّا بمعنى الدعوى، يعني: ادَّعَوا أَنَّهم إِلَينَا لَا يُرْجَعُون، أَو أَن المرَاد بِهِ الظن، أَلَم يستفسر عَن الحَقّ الَّذي جيءَ به مِن عند الله، وَهُوَ فعله هنا فعلَ الظانّ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ فيها قراءتان، بالبناء للفاعِل «لَا يَرجعونَ»، وبالبناء للمَفعول ﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾[1]، وأركانُ القِراءَة موجودة هنا،

(١) السبعة في القراءات، لابن مجاهد (ص٤٩٤).

وَقَد ذَكَرنَاه سابقا في بَيتَين[1]:

فَكُلُّ مَا وَافَقَ وَجْهَ نَحْوِ ... وَكَانَ للرَّسْمِ احْتِمَالًا يَحْوِي

وَصَحَّ نَقْلًا فَهُوَ القُرْآنُ ... فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ الأَرْكَانُ

وَمَعنَى قَوله: ﴿يُرْجَعُونَ﴾ أي: يعودون، ويُرَدُّون إلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ إذ إنَّ الكلَّ سوف يَرجع إلَى الله، والإِنْسَان رَاجع إلَى الله في مَحْيَاه ومَمَاتِه، فهو بَعدَ المَوت يَرجع إلَى الله، وَكَذَلكَ في الدّنيَا أمرُه رَاجع إلَى الله، فَهوَ الَّذي يُدَبِّره.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَان حَال فِرْعَونَ وجُنوده أَنَّهم قَومٌ مستكبرون عَن الحَقّ، متَعَالُون عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَن استكبر عَن الحَقّ فيه شَبه مِن فِرْعَونَ وجنوده.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وُجوب الرُّضوخ للحَقِّ، فالإِنْسَان يَجب عَلَيه أَنْ يرضَخَ للحق، سواء وافقَ هَوَاهُ أَو خَالَفَه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن المستكبر لَيسَ لَهُ حق؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ هَؤلَاء المستكبرين يَعمَلونَ عَمَلَ مَن لَا يَظُنُّ أَنَّه يَرجع إلَى الله؛ لأَنَّ مَن ظَنَّ أَنَّه يَرجِع إلَى الله لن يستكبر عنه؛ لأَنَّه يخَاف منه، لَكن مَن يستكبر هُوَ مَن ظَنَّ أَنَّه لَا يَرجع إلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ البَعث؛ لأَنَّ قَوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ إثبات الظن، فيقتضي أنَّ الرّجوع إلَى الله أَمْرٌ ثابت.

---

(١) متن طيبة النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، البيتان (١٤، ١٥).

الآيــة (٤٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القَصَص:٤٠].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ طَرَحْنَاهُمْ ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ الْبَحْرِ المَالِحِ فَغَرِقُوا ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حِينَ صَارُوا إِلَى الْهَلَاكِ].

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾ الفاء عاطفة، وَالمُرَادَ بِهَا أيضًا السَّبَبِيَّة، أي: فبسبب استِكْباره هو وجنودِه ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾، مُقابل الاستِكْبار ذَكَرَ الله تعالى عقوبتهم عَلَى وَجه الاستهجان والتحقير.

قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ النَّبْذُ هو الطَّرح، أي: طرحناهم بِقُوَّة، والمطروح بِقُوَّة حقيرٌ؛ لأن العظيم لا تستطيع أن تَنْبِذَهُ نَبْذًا، فهو خطير عظيم، إنما يُنبَذ نَبْذًا مَن كَانَ هَيِّنا حقيرًا، وَلهَذَا قَالَ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ والضَّمير (هُم) يَعود عَلَى فِرْعَون والجنود، ولم يُغْنِه عنه هؤُلاءِ الجنود شيئا؛ لأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَا شَيءَ يُقَابله مِن قوة البشر.

قَولُه تعالى: ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الْبَحْرُ المَالِحُ] احترَازًا مِنَ الأَنْهار؛ لأن الأَنْهار بِحَارٌ، لكنَّها غيرُ مالحة، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ

فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان:٥٣]، وقال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرَّحمَن:١٩]. فسمَّى اللهُ تعالى الأنْهارَ والبحارَ المالحةَ بحارًا.

وقوله: [البَحْرُ المَالِحُ] هَذَا بَيَانٌ للواقِع الَّذي وُجِدَ فيه فرعَونُ وجنودُه؛ لأنَّهم وُجِدُوا في بَحْر القُلْزُم، وَهُوَ البَحر الأحمر الَّذي بَينَ جَدَّة ومِصر، هَذَا الَّذي غَرَق فيه فِرْعَونُ وقومُه.

انظر إلى الحكمَة في أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أغرقهم إغراقًا في اليَـمِّ؛ لأنَّ فـرعَونَ كَانَ يفتخـر بأنهاره ويقول لقومـه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥١-٥٢]، فأخرجه اللهُ مِن مُلك مصر، وأهلَكَه بمَا كَانَ يَفْخَرُ به منَ الأنْهار.

قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: ﴿فَٱنظُرْ﴾ الخطاب لكـلِّ مَن يَصِحُّ تَوجيه الخِطَاب إلَيه، أي: فانظر يَا مَن تسمع هَذَا الخطَابَ ويوجَّه إليك.

والمراد بالنَّظر هنا نظرُ الاعتبار، وهو النَّظر بالقَلب؛ لأن العاقبة لا تُنْظَر بالعَين، اللَّهمَّ إلَّا إذَا سار الإنسَان في آثَارِهم، فقد يَنظر بِعَيْنه وبِقَلْبه و﴿كَيْفَ﴾ هنا للاستفهام، وَالمرَاد به التعظيم، يعني: عِظَم العاقبة، لَكن لَا تعظيمَ الرِّفعة، بل تعظيم العقوبة، فهو تفخيمٌ لها، وتعظيمٌ للعاقِبة الوَخِيمة السيِّئة للغاية، وَهُوَ اسم استفهام مَبنيٌّ عَلَى الفتح متعلق بخبر مقدَّم وجوبًا لـ﴿كَانَ﴾.

قوله تعالى: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: ﴿عَٰقِبَةُ﴾ بمعنى عُقبى، وَهيَ عَلَى صيغَة اسم الفاعل، والمراد العُقبى، و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هُم الَّذينَ نقصوا حُقـوق أنفسهم، وحُقوق ربّهم؛ لأنَّ الظُّلم في الأَصل النقص، قَالَ الله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣]، أي: لَم تَنقص.

وقوله: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المراد بالظَّالِمين هنا الكافِرُون؛ لأنَّه يُشير إلَى مَا جَرَى لِفِرْعَون وقومِه، وهم ظالمون ظُلْمَ كُفر؛ لأن الظُّلم يَنقَسم إلَى قسمَين: ظُلم كُفر، وظُلم معصية، وهو دونَ الكفر.

ففي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٩]، المراد هنا ظُلم المعصية، وفي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، المرادُ ظُلم الكفر، وفي قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧]، شامل للأمرين: الكفر وَمَا دونَه.

قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في مَصيرِهم إلَى الهَلَاك بأَتْفَهِ الأُمور، وَهُوَ المَاء، وَهَذه مِن حِكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ أَنْ يَأْخُذَ كُلَّ إنسَانٍ بِذَنْبِه، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت:٤٠]، أي: بِمَا يَقتَضيه ذَنْبُه منَ العقوبَة.

وكذلك عادٌ استكبروا في الأَرض وتحدَّوْا، ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، فَرَدَّ الله عَلَيهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]؛ لأن الخالِق بلا رَيْبٍ أَقوَى مِنَ المَخلوق، وقد أخذوا بأَلْطَف الأَشْياء، وهي الرِّيح أَرسَلَ اللهُ عَلَيهم الرِّيح، قَالَ تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة:٧]، كل أيام الدَّهر، وَلَو شَاءَ الله لَأَرْسَلَها عليهم بِلَيْلَةٍ واحدةٍ، ودَمَّرَتْهُم تدميرًا، لكن لِحِكْمَةٍ أرادها أَنْ يعَذَّبوا أصلًا لأخذتهم جميعًا، وابتدأت بالأطراف، ثم يصعد إلَى أَعلَى السماء، ثُمَّ يَنزل عَلَى رَأسه، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]، وهذا أشد عقوبة؛ لأَنَّهَا لَو جاءتهم مَرَّة وَاحدَة ودَمَّرَتْهُم، ما عُذِّبُوا وماتوا وهلكوا، وانتهى الأمر، لَكن هَذَا أشدُّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن الذُّنوب سببٌ للعُقوبة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيان عَظَمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حيث أخذ هَؤلَاء الكفَّار بِمَا لَهم مِنَ القُوَّة، ونَبَذَهُم نَبْذًا كما يَنْبِذُ الإِنْسَان، فَلَم يُبَالِ بهم، ولم يُعْجِزُوا اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حِكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حَيث كَانَ إهلاك فِرْعَونَ وقومِه بالمَاء الَّذي كَانَ يفتخر به بقَوله: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١]، فَإِنَّ هَذَا الَّذي كَانَ يفتخر به كَانَ مَحَلَّ هلاكِه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ فِرْعَون قَد هَلَكَ فيمَن هَلَكَ، وأنَّ قَولَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس:٩٢]، وليس مَعنَاه أَنَّه حَيٌّ باقٍ، وَإِنَّمَا الَّذي أُنْجِيَ، وظَهَر للنَّاسِ هو بَدَنُه فقط ليكون لِمَن خَلْفَه آيةً؛ لأَنَّ بَني إسرَائيلَ -كَمَا قَالَ أَهلُ العِلم- قَدْ أَرْعَبَهُم فِرْعَونُ، فَلَولَا أَنَّه خَرَجَ حتى شاهدوه ببَدنه لَشَكُّوا في هلاكِه، فإذا شاهدوه تَيَقَّنُوا، وزال عنهم الشك، فإذن هو هالك فيمَن هَلَكَ؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّه يُطلَب مِن المرء إمَّا وجوبًا، أو استحبابًا، أن يتأمَّل في عَاقبَة الظَّالِمين، لقوله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وَأَنَّه يَنبَغي لَنَا أَن نَتَّعظ بعاقبة هؤُلاءِ، فلا نَظْلِمَ مِثلَهم؛ لأَنَّه مَا دَامَ عاقبةُ الظَّالِمِ الهلاكَ؛ فإنَّ الإِنْسَان يخشَى أن يَهلِك إذا ظلَمَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الظُّلمَ مُحَرَّم؛ لأَنَّه سَبَب في العُقوبَة، وَمَا كَانَ سَبَبا لعُقوبة، فَإِنَّه مُحَرَّم، وَسَوَاء كَانَ الظُّلم للنفس، أو للغير؛ لأَنَّه مُحَرَّم بجميع أنواعه، قَالَ اللهُ

تعالى في الحَديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»[1].

• ● ۞ ● •

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

الآيــة (٤١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القَصَص:٤١].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿أَئِمَّةً﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ يَاءً: رُؤَسَاءَ فِي الشِّرْكِ ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بِدُعَائِهِمْ إِلَى الشِّرْكِ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ بِدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ].

أَي: إِنَّ فِي كَلِمَة ﴿أَئِمَّةً﴾ قراءتين: الأُولى الواردة بالهَمْز، والثَّانية بالياء بَدَلَ الهمز هكذا «أَيِمَّة»[1]، والقراءتان سبعيتان.

ثمَّ قَال: [رُؤَسَاءَ فِي الشِّرْكِ]؛ لأَنَّ الإِمَامَ هُوَ القائد الذي يُتبع، فَهوَ ذو أَثَر في الشِّرْكِ، وليسوا رؤساءَ في الشِّرك فقط، بل رؤساء متبوعين، فالإمامُ هو المتبوع، والمعنى: أَنَّهم كَانوا قادةً إِلَى الكفر وَالشِّرك.

لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا يقول: [وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الدُّنيَا أَئِمَّةً]، وَلَو أَنَّه أَخَّرَ الدُّنيا لكان أحسن.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ في الدّنيَا؛ لأن حَقيقَة الأَمْر أَنَّ إِمَامَتَهم بالكفر كَانَت في الدُّنيَا، فهُم جُعِلُوا في هَذِهِ الدُّنيَا أئمةً، يعني:

---

(١) شرح طيبة النشر في القراءات العشر، للنويري (١/ ٤٣٧).

متبوعيـن يُقْتَدَى بهم في الكفر، فَكلُّ مَن أَتَى بَعْدَهُم، وكان كُفره كُبَّارًا؛ فإنه مُقْتَدٍ بهم.

وقوله: ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بالقَول وَبالفعل جميعًا، فهم قَبلَ أَنْ يَهلكوا يدعون بالقَول وَبالفعل، وَبَعدَ أَن هلكوا يَدعون بالفعل؛ لأَنَّ مَن اقتدى النَّاس بفعله فَهوَ في الحَقيقَة قد دَعَاهم إِلَيه.

وهم هنَا لَا يدعـونهم بالقول: هيا ادخلـوا النار، ولكن يَدعـونَ إِلَى العَمَـل المَوصّلَ إِلَيهَا، وَهُوَ الشّرك والكفر، وبئس مَا كَانوا أئمة فيه، وهو الدعوة إِلَى الكُفر بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى والإشراك.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾: ﴿وَيَوْمَ﴾ هذا ظرفٌ متعلق بـ﴿يُنصَرُونَ﴾، يعني: وَهُم لَا يُنصَرونَ يومَ القيَامَة، هُم في الدّنيَا أئمة متبوعون، لَكِن في الآخِرَة ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾، لَا يَستَطيعونَ أَنْ ينتصـروا لأنفسهم، فَلَا يمكن أَنْ يَكونوا أَئمَّة يُقتَدَى بهم.

وقوله: ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: لَا يَجِدُونَ مَن ينصرهم بِدَفع العَذَاب عنهم، لَا هُم، وَلَا غَيرُهم، حتى غَيرهم لَا يمكن أَنْ يَدفَعَ عنهم العذاب.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: حِكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في مِثل فِـرْعَونَ وقومِه؛ لأن إيجادَهم حِكمة، فَإِنَّ اللهَ قَادر عَلَى أَنْ يَجعَلَ النَّاس عَلَى الهدَى، لكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له الحكمَة في أَنْ يُوجِد مثلَ هَؤلَاء القَوم الَّذينَ يَدعونَ إِلَى النَّار.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حِكْمَةُ اللهِ تعالى فيمَا خَلَقَ مِن أَمْره، وأَنه بلاءٌ وفتنة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الإمَامَة في الشَّرِّ، فَانظر إلَى هَذِهِ في آل فرعَونَ، وَانظُر إلَى هَذِهِ في بَني إسرَائيلَ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]، ففَرق بَينَ مَن يَقُودُ النَّاسَ بأَمر الله، أَو مَن يقودونهم بشريعته، وَبَينَ مَن يَدعونَ إلَى النَّار.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الدّعَاءَ إلَى النَّار وإلى الخيـر أيضًا، كَمَا يَكون بالقَول يَكون بالفعل، وَقَد يَكون مَا هُوَ بالقول أقوى، وَقَد يَكون مَا هُوَ بالفعل أَقوَى، إنمـا عَلَى كلّ حَال الدعاء بهذا وبهذا ثابت؛ فَإنَّه كَانَ يَدعو النَّاسَ بمقاله وبحاله.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبـات يَومِ القيَامَـة في قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾، وقد سُمي يَومَ القيَامَة؛ لأُمُور ثلاثة:

الأَوَّل: أَنَّه يَقُوم النَّاس فيه مِن قُبورهم لرَبّ العَالَمينَ.

الثَّاني: أنه يقَام فيه العَدل كَمَا قَالَ تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧].

الثالث: أنه يَقُـوم فيه الأشهـاد ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١]، فلهذا سُمّيَ يَومَ القيَامَة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيَان أَنَّ آلَ فرعَونَ لَا نَاصِرَ لَهم في الآخرَة، ومِثلهم مَن كَانَ عَلَى شاكلتهم مِن المستكبرين عَن الحَقّ؛ فَإنَّهم لَا يَجدونَ مَن يَنصرهم مِن عَذَاب الله إذَا نَزَلَ بهم في ذَلكَ اليَوم.

الآيــة (٤٢)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴾ [القَصَص:٤٢].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾ خِزْيًا، ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴾ المُبْعَدِينَ].

قَولُه تعالى: ﴿ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾ الضَّمير يَعود عَلَى فِرْعَون وجنوده، أي: وجَعَلْنَا اللعنة تتبعهم بعد إهلاكهم، واللعنة في الأَصل: الطرد والإبعاد، وفسرها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بلازمها، وهو الخِزي، أي: إِنَّ كُلَّ مَن ذَكَرَهُم يلعنهم ويطرُدهم، ويبتعد عنهم، وَلَكن لَا مُنافاةَ بَينَ مَا هنَا، وَبين قَولِه في الآيَة السَّابقَة: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ لأَنَّ الَّذي يأتَمُّ بهم هُوَ الموَافق لَهم عَلَى كُفرهم، أَمَّا مَن لَم يهتمَّ بهم؛ فإنه يلعنهم.

واللعنةُ مِنَ الله، وَمِن غَيره، قَالَ اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]، فمَن لَعَنَه اللهُ لَعَنَهُ المؤمنون بالله، قَالَ ابن مَسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ في لَعْنِ النَّامِصَة والمُتَنَمِّصة، قال: «مَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللهِ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب المتنمصات، رقم (٥٩٣٩)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة، رقم (٢١٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أَيْضًا ظرفٌ متعلق بمحذوف حالٌ مِن ﴿هُم﴾، يعني: وهُم حال كونهم يومَ القيَامَة منَ المقبوحين، أو متعلق بـ﴿ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾، ولكن (ال) اسمُ موصول، والاسم الموصول لَا يَعمَل مَا بَعدَه فيمَا قَبلَه، فَإمَّا أَن تجَرَّد (ال) مِن المصدرية، أَو ذَلكَ عَلَى سَبيل التوسّع؛ لأنَّهم يتوسّعون في الجَارِّ والمجرور والظرف مَا لَا يتوسعون في غَيرِه.

وقوله تعالى: ﴿هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ الجملة اسمية، دَالَّة عَلَى أَنَّهم هُم في ذَلكَ الوَقتِ لَا يمكن أَبدا أن يستحسن مَا فَعَلوه، أو يُقَرَّبوا، بل إنهم في ذَلكَ الوَقتِ مِن المقبوحين المُبْعَدِين الذين يفضحُهم كُلُّ مَن ذَكَرَهُم، فَلَا يمكن لأَحد أَنْ يُقَرِّبَهم.

إذن: عوقب هَؤلَاء الَّذينَ كَانوا يَدعونَ إلَى النَّار بثلاثة أُمُور:

الأمر الأول: الإغراق بالماء، وَأَنَّهم إذَا حَلَّ بهم العذاب يَومَ القيَامَة، فلن يجدوا مَن ينصُرهم؛ لأَنَّه قَالَ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

الأمر الثَّاني: العارُ الَّذي لَحِقَ بِمَن لَعَنَهُم، تلك اللعنة التي لَحِقَتْهُم إلى يَومِ القيَامَة؛ لقوله: ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾.

الأمر الثالث: أنهم يَومَ القيَامَة لَا يمكن أَبدا أَنْ يَكونوا مِنَ المحمودين المقَرَّبين، بَل هُم مِنَ المقبوحين المطرودين المبعدين.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ عُقوبة آل فرعَونَ كانت ممتَدَّة إلى يَومَ القيَامَة بالذكرى السيِّئَة لهم، لقوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾؛ فإن كُلَّ مَن ذَكَرَ آل فرعَونَ يذكُرهم بالسُّوء، والبغض، والكراهية.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تحقير الدُّنيا؛ فَإِنَّ قَوله: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ تُقَال للقريب؛ لدُنُوِّ مرتبته، وأنها دنيا، والدُّنيا مُؤَنـث أَدْنَى، وَهيَ مِنَ الدُّنُوِّ الحِسِّي والمعنوي؛ أما الدُّنو الحِسِّي فَلِسَبْقِها عَلَى الآخِرَة، فهي أدنى إِلَى المَخلوقينَ مِنَ الآخرَة، وأما الدُّنُوُّ المعنوي فلِمَا تتضمَّنُه مِن النَّقص في جَميع كمالاتها، فَمَا مِن كمالٍ في الدّنيَا إِلَّا وَهُوَ ناقص، والآن لو تأمَّلْتَ جميع المَضَارِّ والمنافع الدنيوية، تجدها مَشُوبَةً بالضَّرر والخَطر، حتى الزَّمان، كَمَا قَالَ الشَّاعر[1]:

فَيَـــوْمٌ عَلَيْنَـــا وَيَـــوْمٌ لَنَـــا وَيَـــوْمٌ نُسَـــاءُ وَيَـــوْمٌ نُسَـــرُّ

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ اللعنة التي وُزِّعَت عَلَى هَؤلَاء الفِرْعَونيين تكون عَلَيهم في الآخرَة؛ لقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾؛ لأن المَقبوح معناه: المُبْعَد، واللَّعْن: هو الطَّرْدُ والإبعاد.

• • ۞ • •

(١) البيت للنمر بن تولب، كما في زهر الأكم، لنور الدين اليوسي (٣/ ١٣٥).

الآيــة (٤٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القَصص:٤٣].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التَّوْرَاةَ].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: [التَّوراة]، وَهيَ كتَاب بمعنى: مكتوب، والجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكّدات، وَهيَ القَسَم واللام الوَاقعَة في جَوَابه، وقد.

وهنا قد يَقول قَائل: لماذا تؤكد بهذه المؤكّدات الثَّلاثَة مع أَنَّهَا لَيسَت مخاطَبة لمنكر لها؟

فالجواب: هو أَنَّنا سَبَقَ أَنْ قُلنَا: إنَّ التأكيد ليس سببه إنكارَ المخاطَب فقط، بَل قَد يَكون سببه أهميةَ المخبَر عَنه، فيُؤكَّد بالقَسم وباللام وقَدْ، وَغيرهَا منَ المؤكدات.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ إتيَانَ التَّورَاة كَانَ بَعدَ إهلاك الأُمَم السَّابقَة، ومنهم فِرْعَون، واستنبط منهَا بَعضُ العلَمَاء مِن قَوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أَنَّه لَم تهلك أُمَّة عَلَى العموم بَعدَ نزول التَّوراة؛ لأَنَّه قَالَ تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا

ٱلْقُرُونَ﴾ وكأنه بَعدَ نُزول التَّوراة ما أُهْلِك أَحَدٌ مِنَ القُرون، وهذا الاستنباط ليس ببعيد؛ لأن الواقع يُصَدِّقُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الكُتب النازلة مِنَ السَّمَاء أنَّها أنوارٌ للنَّاسِ يَهتَدونَ بهَا؛ لقوله: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن التمسُّك بشرائع الله تَكُون به الرَّحْمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الكُتب النازلة مِنَ السَّمَاء هيَ الَّتي بهَا الهدى مِنَ الضَّلَال؛ لقوله: ﴿وَهُدًى﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ الحِكمَةَ مِن إنزال هَذِهِ الكتب تذكِّر الناس بمَا فيهَا مِن المواعظ؛ لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات الحكمَة في أَفعَال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَكَذَلكَ في شَرَائعه؛ لأن (لَعَلَّ) معناها: التَّعلِيل، والذي أنكر الحِكمة هُم الجهمية، حيث يقولون: إِنَّ الله تعالى لَيسَت لَهُ حِكمة فيمَا يَفعَل وما يشاء، وإنما هو لمجرد مشيئة.

قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بمعنى: أعطينا.

واعلَم أَنَّ إيتاءَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ينقسم إلى قسمين:

إيتاءٌ شرعي: وَهُوَ مَا تعلَّق بالشرع، قَالَ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة:٥٩]، فهذا إيتاءٌ شرعيٌّ، والمراد به: الصدقات.

وإيتاءٌ قَدَري: وهو ما تَعَلَّق بالكونِ والخَلق، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، فهذا إتيانٌ قَدَرِيٌّ؛ لأن إنزال القُرْآن مِن الأُمور الَّتي تتعلق بمشيئة الله،

لا بِشَرْعِه؛ فأصلُ الإنزال قَدَرِيٌّ يتعلق بمَشيئَة الله وقَدَرِه، لكن العَمَل به شرعي.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: ﴿مُوسَى﴾ مفعولٌ أَوَّل لـ﴿ءَاتَيْنَا﴾، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مفعولٌ ثانٍ، وهو مِن باب (كَسَا)؛ فكُلُّ مفعولَين لا يصح أَنْ يَكونَ أحدُهما مبتدأ والثَّاني خبرًا، فهُما مِن بَاب (كسا)، وما صَحَّ أن يكونا مبتدأ وخبرًا، فَهُمَا مِن بَاب (ظن)، وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [التَّوْرَاةَ]، وهو فِعَال بمعنى: مَفعول؛ لأنَّ التَّوراةَ مَكتوبَة، كتبها اللهُ تعالى في ألواح وأعطاها موسى.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ متعلق بـ﴿ءَاتَيْنَا﴾، أي: أعطيناه إيَّاه مِن بَعد ما أهلكنا القرون الأُولى، والقُرون جمعُ: قَرْن، والمراد بهم الأمم، وقد يُرَادُ به الفترة مِن الزَّمَن، ومقدارها مائة سَنة، فالقُرون تارَةً يُراد بها الأمم، وتارَةً يُرادُ بها أحقابُ الزَّمَن، وهنا المراد الأمم؛ لأن أحقابَ الزَّمَن لا تُهْلَكُ، الذي يُهْلَكُ هو الأمم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودُ وَغَيْرُهُمْ]، هؤُلاءِ هُم القُرون الأُولى، وَإِنَّمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ إشَارَة إلَى أنَّ النَّاس كانوا في حاجة إلى مِثل هَذَا الكتَاب الذي نَزَل عَلَى موسَى؛ لأن القُرون أُهْلِكَت، وتطاول الزَّمَن فاحتاج النَّاس إلى رسالة، فأرسل اللهُ تعالى موسى بهذا الكتاب، الَّذي هُوَ التَّوراة.

وقيل: إنَّ القُرون الأُولى تشمل حتَّى آل فرعَونَ؛ لأن التَّوراة ما نزلت عَلَى موسَى إلَّا بَعدَ أَن أهلك اللهُ القَرن -فرعَونَ وَقَومه- وأنه يشمل حتى هؤُلاءِ، حَتَّى إنَّ بَعض العلَماء استنبط منها أَنَّه لَم تُهْلَكْ أُمَّةٌ بَعدَ نزول التَّوراة، وأنَّ هذا مِن فوائد

قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾؛ لأنَّ إهلاك الأُمَم السَّابقَة مضَى وانقضَى، ولا إهلاكَ بَعدَ نُزول التَّوراة.

والحقيقة أنَّ مَن تأمَّل التاريخَ وجَدَ أنَّه لم تُهْلَك أُمة بَعدَ نزول التَّوراة، ما هلكت أُمة، لكن هل قَولُه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ يشير إلَى هَذَا؟ هَذَا هُوَ محل النظر والمناقشة.

قوله تعالى: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ حالٌ مِن قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، والبصائر: جمع بَصِيرة، وهي نُور القلب، كما أنَّ بَصر وأبصار نُور العَين، فنُور القَلب يسمى بَصِيرة وبَصَائِرَ، ونُور العَيْن يُسَمَّى بَصَرًا وأبصَارًا، قَالَ تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ [الأحقاف:٢٦].

وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾: (ال) هنا للعَهد الذهني، وليست للعُموم؛ لأن التَّوراة لم تنزل إلا لقوم موسى فقط، كَمَا قَالَ النَّبيّ ﷺ: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(١).

وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ يُخرج الجنَّ مِن حيث التكليفُ والإلزامُ؛ لأنَّه لَم يُكَلَّفْ أحدٌ برسالة أَحدٍ مِن الرُّسل مِن الجن، لكن مِن حيث العَمَلُ يمكن أن يستبصر بها الجن، كما قالوا: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأحقاف:٣٠]؛ فإن الظَّاهر أنَّهم كَانوا قد انتفعوا بما أُنزل عَلَى موسَى كما انتفعوا بالقُرْآن.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جَمْعُ بَصِيرَةٍ، وَهُوَ نُورُ القَلْبِ، أَيْ: أَنْوَارًا لِلْقُلُوبِ].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، رقم (٥٢١).

وهكذا جميع الكُتب التي يُنزلها اللهُ عَزَّوَجَلَّ تكون أنوارًا للقلوب، ويكون بها الاهتداء، وَلهَذَا قَالَ: [﴿وَهُدًى﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ لِمَنْ عَمِلَ بِهِ].

قولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِمَنْ عَمِلَ بِهِ] تفسِيرٌ غير وَفِيٍّ، والأَولَى إبقاء الآية على ظاهرها، وهو أنَّ التَّوراة هُدًى، لَكن هَذَا الهدى لا يَنتفع به إلَّا مَن وُفِّق، فهي هدى من الضلالة بلا شك، وَلَكن لَا ينتفع بها، ويهتدي بها كلّ أحد، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى في القُرْآن: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، وَقَالَ تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، ففي الأول هُدَى دَلَالَة، وفي الثَّاني هدى تَوْفِيق التَّوراة، إذَا قلنَا: هدى، لمن عَمِلَ بهَا، قيَّدنا الآية بهُدَى التوفيق، مع أنَّها مُطْلَقَة، ولهذا فالأَوْلَى أَن نَقولَ: هدى مِن الضلالة في كلّ أمر كما قال: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾، نقول: وهُدًى أَيْضًا للنَّاسِ، ولكن الهدى الذي بمعنى الدلالة عامٌّ، والهدى الذي بمعنى الاهتداء، يعني: يهتدي بها الإِنْسَان، هذا لمن وُفِّق لَهُ.

قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِمَنْ آمَنَ بِهِ]، فالمقام يقتضي التصديقَ أنه رحمة، لَكن لَا لكلّ أَحَد، إلا أن يُقال: رحمة، أي: وسيلة للرحمة، فإذا قلنا: إنَّ قوله: ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: وسيلة صار عامًّا، نقول: هُدًى باعتبار العِلم، ورحمة باعتبار العَمَل؛ لأَنَّ مَن عمل به فهو مرحوم، وأما هُدًى، فهو باعتبار العِلم، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣]، الهدى هو العِلم النافِعُ، ودِينُ الحقِّ هو العَمَل الصَّالِح.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: (لعل) هنا معناها: التَّعلِيل، أمَّا عَمَلُها فهي تَنْصِبُ المبتدأ، وترفع الخبر، وخبرُها جملة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَتَّعِظُونَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَوَاعِظِ]، يعني: بما في الكتاب -الَّذي هُوَ التَّوراة- مِن المواعظ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، والضَّمير في كلمة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ يَعود عَلَى مَن أُنْزِلَت عليهم التَّوراة، وهُم بنو إسرائيل.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [القَصَص:٤٤].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا كُنتَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بِجَانِبِ﴾ الجَبَلِ، أَوِ الوَادِي، أَوِ المَكَانِ، ﴿ٱلْغَرْبِيِّ﴾ مِنْ مُوسَى حِينَ المُنَاجَاةِ ﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾ أَوْحَيْنَا ﴿إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ بِالرِّسَالَةِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لِذَلِكَ فَتَعْلَمَهُ فَتُخْبِرَ بِهِ].

قَولُه تعالى: ﴿بِجَانِبِ﴾ بمعنى: جِهة، فجانِبُ الشَّيْء: جهتُه أو طَرَفُه، وقوله تعالى: ﴿ٱلْغَرْبِيِّ﴾ صِفة لموصوف، وهو كَمَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الجَبَلِ، أَوِ الوَادِي، أَوِ المَكَانِ]، و(أو) هنا ليست للتخيير، ولكنها للتمييز؛ لأنَّ بَعضَهم يَقول: المَراد بِهِ الجبل، وبعضهم يقـول: المُراد بِهِ الوادي، وبعضهم يقـول: المُرادُ به المكان. وكلمة المكان أعمُّ؛ لأنَّها تَشْمَلُ أَنْ يَكونَ واديًا أو جبلًا.

وموسى نوديَ مِن جانب الطُّور وهو في الوادي المقدَّس.

وقوله تعالى: ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ معناه: بالجانب الغربيّ مِن الجبل، فَيكون مِن بَاب إضافة الموصوف إلى صفته، كما يقال: مسجدُ الجامِعِ، أي: المسجد الجامع.

وعَلَى هَذَا التَّقدير الأخير يكون المراد الغربي مِن الجانب نفسه، أمَّا على رأي المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فَهوَ يَقُول: ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ بجانب المكان الغربي مِن موسَى، وهو

يُكَلِّم اللهَ، فَإِذَا كَانَ موسى وجهه إلى السماء، والجانب الغربي منه عُرف الغَرب، وَإِذَا كَانَ وجهه إلى الشرق، فالجانِبُ الغَربيُّ منه يكون وراءَه؛ لأن المُتَّجِهَ إلى الشرق يكون الجانب الغربي منه خلفَه، ولا نستطيع أن نعرف: هل كان موسى بجانب الجَبل مِن الغرب، أَوْ مِنَ الشمال.

المهم: أنك ما كنتَ بذلك الجانب حين المناجاة.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قَوْلِهِ تعالى: [﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾: أَوْحَيْنَا ﴿إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ بِالرِّسَالَةِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ].

على قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَوْحَيْنَا] يكون القضاء هنا شرعيًّا؛ لأنَّه قَالَ: [قَضَيْنَا الأَمْرَ بِالرِّسَالَةِ]، ولكن القضاء هنا قد يبدو كونيًّا؛ لأنَّه يَتَعَلَّق بالمشيئة، فَإِن كَانَ الأمر هنا واحدَ الأوامر، فالقضاءُ شرعيٌّ، وَإِن كَانَ واحدَ الأُمُور، أي: قضينا إليه ذلك الشأن العظيم، وهو الرِّسالَة، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، فهنا الأمر واحد الأُمُور، فيكون القضاء كونيًّا.

والقضاء يَنقَسم إِلَى قِسمين: قضاء كوني، وقضاء شرعي، فالقضاءُ الكوني لا بُدَّ فيه مِن وُجود المَقضيِّ، والقضاء الشرعيُّ قد يُوجَد، وَقَد لَا يوجد.

والقضاء الكوني يكون محبوبًا إلى الله، ويكون مكروهًا إليه، والقضاء الشرعي لَا يَكونُ إِلَّا محبوبًا إليه؛ لأنَّه بمعنى الأمر.

فمثلا قَوْلُه تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤]، هذا قضاءٌ كونيٌّ، يكرهه الله.

وَقَالَ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، فهذا قضاء شرعيّ؛

لأنَّه لَو كَانَ قضاءً كونيًّا لَلَزِمَ أنَّ النَّاسَ كُلَّهم يعبدون اللهَ، وليس الأمر كذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ﴾ لَا يمكن إلا في أمرٍ وقَعَ، فمثلًا لَو قُلنَا: قضَى الله تعالى لأَبي بَكر أن يُسْلِمَ، فهذا قضاءٌ قَدَرِيٌّ شرعي؛ لأنَّه أمره بالإِيمَان، فآمَن، ونقول: قضى الله لأبي لَهَبٍ أن يكفُرَ. هَذَا قَضَاءٌ كوني.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِذَلِكَ فَتَعْلَمُهُ فَتُخْبِرَ بِهِ].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ليس فيها تكرار؛ لأن مَن كَانَ في الجانب قد يرى، وَقَد لَا يرى، وَلهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

فإذا قَالَ قَائل: لماذا لم يقتصر عَلَى قَوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؟

قلنا: لأن الإنسَانَ قَد يُشاهد مِن بُعد، ولكن قليل، فهنا تضمن أنَّه قريب وأنه شَاهَد، ففرقٌ بين أَن نَقولَ: ما كنتَ شاهدًا، أي: ما كنتَ حاضرًا مشاهدًا بِعَيْنِك، ولو كنت بعيدًا، ولهذا لَيسَ في الآيَة الكَرِيمَة تكرار، ولكن فيها شَيْءٌ مِنَ التوكيد، يعني: لا حَضَرَ، ولا نَظَر، فيكون ما أَخبَرَ به عن ذلك مِن بَاب الوحي، لا مِن بَاب المشاهدة، ولا مِن بَاب السماع، ولكنَّه وحيٌ أُوحِيَ إليه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تقرير رسالة النَّبيّ ﷺ وذلك بما أخبر به عن هَذِهِ الوقائع الَّتي لَيسَ حاضرًا فيها، ولا شاهدًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الوحي يُسَمَّى قضاء؛ لقوله: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الوَحيَ ذو شأنٍ عظيم؛ لأَنَّ اللهَ سَمَّاه ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ بـ(ال) الدالة على العَظَمة والكمال، ولا ريب أنَّ أعظمَ الأُمور ما جاءت به الرُّسل مِن وحي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِمَا فيه مِن مصلحة البلاد والعِباد.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الإنسَانَ لَا يُقْبَل خبرُه إلَّا إذَا كَانَ حاضرًا يَسْمَع، أو شاهدًا يرى؛ لقوله: ﴿وَمَا كُنتَ﴾، وقولِه أيضًا: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ فَإِنَّ الَّذي يمكن أَنْ يُخبِر هُوَ مَن حضر فسمع، أو مَن قرُب فشَاهد، أما إنسانٌ يُخبِر دون شهادة، أو دون شهود، أو حضور؛ فإنّه لا يُقْبَل خبرُه، وَهَذَا أَمرٌ معلوم مِن الشرع مِن جهَة أخرى، مِن آياتٍ أخرى، وأدلة أُخرى، أَنَّ الإنسَانَ لا يشهد إلا بما عَلِم برؤية، أو سماع، أو غيرهما مِن أَسبَاب العِلم.

• • ❁ • •

الآيــة (٤٥)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القَصَص:٤٥].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أُمَمًا مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ طَالَتْ أَعْمَارُهُمْ، فَنَسُوا الْعُهُودَ، وَانْدَرَسَتِ الْعُلُومُ، وَانْقَطَعَ الْوَحْيُ، فَجِئْنَا بِكَ رَسُولًا، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ خَبَرَ مُوسَى وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ مُقِيمًا ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ خَبَرٌ ثَانٍ، فَتَعْرِفَ قِصَّتَهُمْ، فَتُخْبِرَ بِهَا ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ لَكَ وَإِلَيْكَ بِأَخْبَارِ الْمُتَقَدِّمِينَ].

قوله تعالى: ﴿أَنشَأْنَا﴾ أي: وأَوْجَدْنا وخَلَقْنَا أُمَمًا.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي: زاد في الطُّول، والتاء والأَلِفُ للمُبالَغة، وقوله تعالى: ﴿ٱلْعُمُرُ﴾: الزَّمَن؛ لأنَّ الأعمار هي الأزمان، قال: أي طالت أعمارُهم فنسُوا العُهود، واندرست العُلوم، وانقطع الوحي، فجئنا بك رسولًا، وأوحينا إليك خبرَ موسى وغيره.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا﴾ الاستدراك هنَا لَا يقتضي إبطالَ ما سبق، فليس المعنى: وما كنتَ مِن الشاهدين، ولكنا أنشأنا قُرونا فَشَهِدَت، وَلَكن هذا مِن الاستدراك لتقرير مَا سَبَقَ، والمعنى: أن العُهود طالت، وأنت لَسْتَ بشاهد،

ولا بحاضِرٍ، ولما طالت العُهود صار النَّاس يَحتَاجونَ إلَى الرِّسالَة، فأوحينا إليك بما جرى، وأرسلناك إلى النَّاس.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ أي: مُقيمًا.

وقَولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ المراد بأهل مَدْيَنَ القومُ الذين أتى إلَيْهِم موسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وجرى معه ما ذُكر مِن استئجاره وتزويجه، وسَيْرِه بأهله، وَلَم يَكن الرَّسول ﷺ مُقيما في أهل مَدْيَن حتى يُخْبِرَ عما حصل منه، وإنما جَاءَ به عَن طَريق الوحي.

وقوله تعالى: ﴿فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ خبرٌ ثانٍ، والخبر الأول جملة ﴿تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعني: وَمَا كنتَ تتلو عليهم آياتنا فتعرف قصتهم فتُخبر بها، وَالضَّمير في قَوْلِهِ: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ ظاهر كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَهُوَ أَيضًا ظاهر سياق الآية أنَّه يَعود إلَى أهل مَدْيَنَ، ﴿تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ فتعرف قصتهم، وتخبر بها.

وَقَالَ بَعضُ المفَسِّرينَ: إنَّ الضَّمير يَعُود عَلَى قريش، أي: مَا كنت ثاوِيًا في أَهل مَدْيَن، فتتلو عليهم القصةَ التي قصصتها بآياتنا.

وهذا أَقرَبُ إلَى المعنى، وإن كان الأولُ أَقرَبَ إلَى اللفظ؛ لأن الضَّمير يَعود عَلَى أقربِ مَذْكُور، لَكنَّه لَا يَعُود عَلَى أَهل مَدْيَنَ إلا بِتَعَسُّف شديد، فالصَّواب أنه يَعود عَلَى قرَيش، يعني: مَا كنت ثاويًا في أَهْل مَدْيَنَ فتتلُو عليهم القصة التي جاءت في آياتنا.

إذن: فأنت رسولٌ؛ لأنك أتيتَ بما لَم تكن شاهدًا فيه، وَلهَذَا قَالَ: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ لك وإليك بأخبار المتقدمين، ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾:

مُرسِلين لك إلَى النَّاس، وإليك بالوحي، فالرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مرسَل للنَّاسِ، ومرسَل إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، كان: فعلٌ ماضٍ، وهي مسلوبة الزّمَن، والمقصود بها اتصافُ اسمِها بخبرها، ونلاحظ استخدام الجمع في الكلمات الثَّلاثَة مَعَ أَنَّ اللهَ واحِدٌ، ولكن الضَّمير (نا) يُستخدم للدَّلَالَة على الجَمع، ويُستخدم في حق المفرد للدَّلَالَة عَلَى التعظيم، وهنا في حَقّ الله يُستخدم للتعظيم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، وَلَمْ يَقُل: ولكن أرسلناه، كَمَا قَالَ في الآيَة الَّتي قَبلها: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾؛ لأنَّ الرِّسالَة ما زالت في الخَلق منذ اختلفوا إلى آخِر الرُّسل محمد ﷺ، فَقَدِ اختَلَفُوا بَعد آدم بَعْدَ أن مضت قُرون؛ إمَّا عَشَرة، أو أَقَلّ، أو أكثر.

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، فتقول الآية ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فاختلفوا، فأنزل الله الرسالات.

والْفَائِدَةُ مِن ذِكر أخبار المتقدمين للرسول ﷺ لِيَتْلُوَهَا علينا هي التَّقرير بأنه نبيٌّ؛ لأنَّه مَا كَانَ يتلـو مِن قَبْلِه مِن كتاب، ولا يَخطُّه بيمينه، إذن يكون ما أخبـر به عمَّن سَبَق مِن بَاب الوحي المجرد.

الآيــة (٤٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القَصص:٤٦].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ ﴾: الجَبَلِ، ﴿إِذْ﴾ حِينَ ﴿نَادَيْنَا﴾ مُوسَى: أَنْ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴿وَلَٰكِن﴾ أَرْسَلْنَاكَ ﴿رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يَتَّعِظُونَ].

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ ﴾، هذا خبرٌ آخَرُ غيرُ الخبر الأول الذي فيه ابتداءُ الوحي؛ لأَنَّ اللهَ تعالى بعدما أهلك القرونَ الأُولى وَعَد موسى ثلاثين ليلة، وأتمَّها بِعَشْرٍ، واختار مَن اختار مِن قومه، ثم ذهب إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِمُنَاجَاتِه، وإنزال التَّوراة عليه، يَقُول الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ ﴾، ﴿بِجَانِبِ﴾ أي: جهة الطور، أو قُرب الطُّور، والطُّور: هو الجَبل المعروف في سيناء، ﴿إِذْ﴾ حين، أفاد المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن ﴿إِذْ﴾ هنا ليست تعليلية، ولكنَّها ظرفية، وهي ظرفٌ لِمَا مضى مِن الزَّمان، و(إذا) ظرف لما يُستقبَل، و(إذن) ظرفٌ للحاضر، وبهذا استُكملت الظروف الثَّلاثَة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى أَنْ خُذِ الكتَابَ بقوَّة، هذا وَهَمٌ مِنَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأَنَّ اللهَ تعالى قال لبَني إسرَائيلَ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة:٦٣]، ودَعْنا نتأمَّلُ بَعْدُ في قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً

وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف:١٤٥]، إذن قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَنْ خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ] بمعنى أتى بها، وإلَّا فالله يقول: ﴿فَخُذْهَا﴾ أي: الألواح التي فيها التَّوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾، يقول: إذن، أمر موسى أن يأخذ الألواح بِقُوَّة.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن﴾ أرسلناك ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، اعتدنا أَنَّ قولَه تعالى: ﴿رَحْمَةً﴾ مفعولٌ لِأَجْلِه عامِلُها محذوفٌ، والتقدير: أرسلناك رحمةً، وقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً﴾ ليس المعنى أنَّه هو الرَّحْمة، ولكن المعنى: أنه أرسل بالرَّحْمة ليَرحَمَ الله به، فالرَّحْمة مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأرسله الله رحمةً، كَمَا قَالَ تعالى في آيَة أخرَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وليس المعنى: وما أرسلناك إلا حالَ كونِك رحمة، ولكن: إلَّا مِن أَجْلِ الرَّحْمة، فبينَ المعنيين فرقٌ.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أضاف الرُّبوبية إلى الرَّسول ﷺ عَلَى سَبيل التَّخصيص والتشهير، وهذه هي الرَّحْمة الخاصة، وهناك رحمة عامَّة، وفيها دليل، أي في قَوْلِهِ: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾، عَلَى أَنَّ إرسال النَّبيّ ﷺ إلى الخَلق؛ ليرحموا به أَنَّه مِن الرُّبوبية الخاصة؛ لأنَّ مِن نعمَةِ الله عَلَى العَبد أن يُلْهِمَه الهدى ليَهْدِيَ النَّاسَ به؛ فإنَّ هَذَا في الحَقيقَة مِن أكبر النعم، فالنَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أُوحِيَ إليه ليرحَم الخَلق بما أُوحِيَ إلَيه، وهذا مِن مقتضى الرُّبوبية الخاصة، وَلهَذَا قَالَ: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ وَلَم يَقُل: مِن رَبّهم، فمعنى ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾: الذي ربَّاك تربية خاصة.

قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ﴾ اللام هنا حَرفُ جَرٍّ؛ لأنَّها داخلةٌ على (أَنْ) المقَدَّرَة، أي: لأَن تُنْذِرَ، ثم تحوَّل إلى مَصدر، فيكون لإنذارك ﴿قَوْمًا﴾، فعلى مذهب البصريين تكون اللام حَرف جَرٍّ، وتُنْذِر: فعلٌ مُضارع منصوب بـ(أَنْ) مُضْمَرَة جَوازًا بعد اللام.

وعلى مذهب الكوفيين تكون اللَّام هي الناصبة، لكنَّ البصريين أَدَقُّ منهم في هَذِهِ الناحية، بل حَقيقَـة الأَمر أَنَّ اللام حَرف جَرٍّ، وأنَّ (أَنْ) هي الناصبة مُقَـدَّرة، ومُتعلق ﴿لِتُنذِرَ﴾ هو المحذوف الذي قدَّره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [أَرْسَلْنَاكَ].

قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ الإنذار هو الإعلام بما يخَاف، والإعلام بما يرغَب يسَمى بِشارة، أو تبشيرًا، وقوله: ﴿قَوْمًا﴾ المراد بهم قريش، وَلَا يَعني ذَلكَ أَنَّ الرَّسُول ﷺ مبعوث إِلَيْهِم خاصَّة، ولكن لأنَّ أَوَّلَ مَن أَنْذَرَهُم كانت قريش، وإِلَّا فَقَدْ بُعث لهم ولغيرهم، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفرقان:١]، مِن قريش وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: ﴿مَّآ﴾ نافِيَة، و﴿أَتَىٰهُم﴾ بمعنى: جاءهم، و﴿مِّن﴾ حَرف جَرٍّ زائدٌ؛ إعرابًا لا مَعْنًى، و﴿نَّذِيرٍ﴾ فاعلُ (أتى)، يعني: ما جاءهم نذيرٌ، وفائدة زيادة ﴿مِّن﴾ أنَّ التنصيص على العُموم، في كل الأزمان الماضية ما أتاهم أَحَدٌ يُنذرهم قَبْلَ الرَّسول ﷺ، وقوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم﴾، والجملة في محل نَصْبٍ صِفَةٌ لـ﴿قَوْمًا﴾.

وقوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَهُمْ أَهْـلُ مَكَّةَ]، هَذَا تَفسيـر القوم، وَهَذَا لَا يُنافِيه أن إسماعيلَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قد أتاهم قَبْلَ النَّبيِّ ﷺ، فَقَد يَكون قد طال العهد، حتى انْمَحَتْ رسالة إسماعيل، فصاروا محتاجين إلى نذير، ولم يأتهم نذير، فأتاهم رَسولُ الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بَعدَ أَنِ انقرضـت مَعَالِمُ رسالة إسماعيلَ، وإِلَّا فلا ريب أَنَّ إسماعيلَ مُرْسَل إِلَيْهِم؛ لأَنَّهُ نبي، ولكنه انقرض، وَلهَذَا كَانَ مِن دعاء إسماعيل وإبراهيم أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٢٩].

وأجمع المُفَسِّرون عَلَى أَنَّ المرَادَ به محمد ﷺ، فمنذ إسماعيل إلَى أَنْ بُعِثَ الرَّسُولُ ﷺ ما جاءهم نبي، وانقرضت معالِمُ النُّبُوَّة، وكان أَوَّلَ مَن غيَّرها عَمْرُو بنُ لُحَيٍّ الخُزَاعِي؛ فإنه هُوَ الَّذي أدخل عبادةَ الأصنام، وأدخل السوائب على العرب، حتى انمحت به الحقيقة.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: (لَعَلَّ) هَذِهِ للتَّعلِيل، وهي متعلقة بـ(تُنْذِر)، أي: تُنذرهم لأَجْل أَنْ يتذكروا، أي: يَتَّعِظُوا بما جئتَ به، وهذا التَّعلِيل سنذكُره في الفوائد إنْ شَاءَ اللهُ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٤٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القَصَص:٤٧].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ عقوبةً، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ مِن الكُفر وغيره، ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ هَلَّا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ المرسَل بها، ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وَجَوَابُ (لَوْلَا) مَحْذُوفٌ، وَمَا بَعْدَهُ مُبْتَدَأٌ، وَالمَعْنَى: لَوْلَا الْإِصَابَةُ المُسَبَّبُ عَنْهَا قَوْلُهُمْ، أَوْ لَوْلَا قَوْلُهُمْ المُسَبَّبُ عَنْهَا لَعَاجَلْنَاهُمْ بِالْعُقُوبَةِ، وَلَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ﴾ هنا تكررت مرتين، وَفي كلّ مَوضع لها معنى يختلف عن المعنى في المَوضع الآخَر، الأول قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ الضَّمير يَعود عَلَى قرَيش: أَهل مَكَّةَ، وإصابة الشَّيْء بمعنى نُزوله، أي: تنزل به مُصيبة، والمراد بالمُصيبة هنا العُقوبة؛ بسبب كُفرهم، و(لَوْلَا) حَرْفُ امتناعٍ لوُجُود، و(أَنْ) وما دَخَلَتْ عَلَيه في تأويل مَصْدَرٍ مبتدأ، وجواب (أَنْ) محذوف كما يُقَدِّرُه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ أي: بسبب، و(مَا) اسمٌ موصول، أي: بسبب الذي قَدَّمَت أيديهم، والمراد بـ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ أنفسُهم، أي: بما قَدَّمُوه، وعَبَّر باليد عن النفس؛ لأنَّ اليَدَ في الغالِب هي آلة العَمَل.

واعلم أَنَّ هنَاكَ فَرقًا بيـن إضافَة الفِعْل إلى اليد، وإضَافَةِ الفِعل إلى النَّفس بواسطة اليَدِ، فمثلًا: قَولُه تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس:٧١]، أي: مما عَمِلْنَاه، أي: مما خَلَقْنَاه، وَلَيسَ المرَادُ أَنَّ اللهَ خَلَق الأنعامَ بِيَدِهِ، وَأَمَّا قَوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥]، فهنا أَضَافَ الفِعل إِلَى نَفسه، ثم جَعَل اليدَ واسطةً، فيدُلُّ عَلَى أَنَّ آدم خُلِق بِيَد الله.

كذلك -مثلًا- لو قلـتَ: بما عَمِلْتَ بِيَـدِك، أو بما قَدَّمَت يداك. فهنا نقول: الإِنْسَان عَمِل الشَّيْء نَفْسَه، لكن بِيَدِه.

أمَّا إذا قلتَ: بما عَمِلَتْ يَدَاك، أَو بمَا قَدَّمَت يداك، فالمراد بما عَمِلْتَ، سواء عَمِلْتَه بواسطة اليَد، أو بالعَين، أو بالرِّجل، أو باللسان، المهم أنه يضاف إليك.

فقولُه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ليس كقولِه: بمـا قَدَّمُوا بأيديهـم؛ لأنَّ الأول المراد، سَـوَاء كَانَ باليد، أو بالرِّجل، أو بالعَيْـنِ، أو بالأُذُن، أو باللسـان، وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنَ الكُفر وغيره.

صحيح أنَّ المصائِبَ ما تكونُ إلا بالمعاصِي، قَالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، وهنا قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾ بسبب كُفرهم، ﴿فَيَقُولُواْ﴾ الفاءُ حرفُ عطف، و(يَقولوا) معطوف على ﴿تُصِيبَهُم﴾ أي: فأنْ يقولوا متى: بعد المصيبـة، ﴿فَيَقُولُواْ﴾ مُحْتَجِّيـنَ عَلَى الله: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ﴾ يعني: هلَّا أرسلتَ إلينا رسولًا قَبْلَ أَنْ تُصِيبَنا بالعقوبة ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهي حُجَّة لهم، لو أُصِيبوا بغير أَنْ يُرسَلَ إِلَيْهِم رسـولٌ لكان ذلك حُجَّة؛ لأَنَّ اللهَ تعالى يَقـول: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، ويقول: ﴿وَمَا كُنَّا

مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، فلولا هَذَا الأَمر أَنْ يُصابوا بكفرهم وذُنوبهم، ثم يحتجُّوا على ربهم بأَنَّه لَم يُرسِل إِلَيْهِم رسولًا.

وجواب (لولا) - كَمَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: [وَجَوَابُ (لَوْلَا) مَحْذُوفٌ، وَمَا بَعْدَهَا مُبْتَدَأٌ]، يعني: والخبر محذوف معروف، [وَالمَعْنَى: لَوْلَا الإِصَابَةُ المُسَبَّبُ عَنْهَا قَوْلُهُمْ، أَوْ لَوْلَا قَوْلُهُمُ المُسَبَّبُ عَنْهَا لَعَاجَلْنَاهُمْ بِالعُقُوبَةِ، أَوْ وَلَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا].

وكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل الجوابَ مُرَكَّبًا مِن إثباتٍ ونَفْيٍ، فالإثبات قولُه: لَعاجَلْناهُم بالعُقوبة، والنفي: ولَمَا أرسلناك إِلَيْهِم؛ لأَنَّ اللهَ ذَكَر أمرين: الإصابة، وقولهم: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾، فكان الجواب أيضًا مُركَّبًا مِن أمرين، وَيَجوز أَنْ يَكونَ الجوابُ مُرَكَّبًا مِن أحد الأمرين، أي: لَعَاقَبْنَاهُم، أو لَمَا أرسلناك إِلَيْهِم؛ لأن المعنى يَتِمُّ دُونَ تقدير الأمرين جميعًا.

وَعَلَى هَذَا، فتكون (الواو) هنا -في كَلَام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ- بمعنى (أو).

وأظنّ أن الآيةَ معناها واضحٌ مِن حَيْثُ الإجمالُ: أَنَّه لَولَا أَنَّ هَؤلَاء الكفَّار المستحقّين للعُقوبة بسبب كُفرهم أن يحتجُّوا بأَنَّه لَم يُرْسَل إِلَيْهِم رسولٌ لَعَاقَبْنَاهُم دُونَ أَنْ نُرْسِلَك، أو لَمَا أرسلناك إِلَيْهِم، فيكون إرسال النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إقامةً للحُجَّة عليهم، ودفعًا لحُجَّتِهم، ودَحْضًا لها.

فكأن النَّبيّ ﷺ الآن أُرسل إِلَيْهِم قَبلَ أَنْ يؤخَذوا بالعقوبة، وهذا يقتضي أَنَّهم إذا كَذَّبوه كانوا مستحقين للعقوبة؛ لأن الحُجةَ التي يحتجّون بها قد زالت.

فما فهمناه مِن كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ﴿لَوْلَا﴾ الأولى شَرطية، وهي حرف

امتناعٍ لِوُجُودٍ، و﴿لَوْلَا﴾ الثَّانية تَحْضِيضِيَّة، بمعنى: هَلَّا، وقوله: ﴿فَيَقُولُواْ﴾ معطوف عَلَى قَوْلِه: ﴿أَن تُصِيبَهُم﴾، وقوله: ﴿فَنَتَّبِعَ﴾ منصوب بـ(أَنْ) مُضْمَرَة بَعْدَ فاء السَّببِيَّة الواقعة جوابا لـ﴿لَوْلَا﴾ التحضيضية.

يقول ابنُ مالك[1]:

وبَعْدَ (فَـا) جَـوَابِ نَفْـيٍ أَوْ طَلَـبْ ... مَحْضَيْنِ (أَنْ) وَسَتْرُهَا حَـتْمٌ نَصَـبْ

يعني: أنَّ (أَنْ) تَنْصِب بَعْدَ (الفاء) الوَاقعَة في جواب طلبٍ، أو نَفْيٍ مَحْضَيْنِ، وسَتْـرُها -أي: حذفُها وُجُوبًا- حَتْمٌ، و(الفاء) تَنْصِـبُ بـ(أَنْ) وُجوبًا بَعْدَ تِسعـة أساليبَ، مجموعة في قَول الناظم[2]:

مُرْ وَادْعُ وَانْهَ وَسَلْ وَاعْرِضْ لِحَضِّهِمُوا ... تَمَنَّ وَارْجُ كَـذَاكَ النَّفْـيُ قَـدْ كَمُـلَا

إذا وقعـت الفاءُ جوابًا لواحِـدٍ مما سَبَقَ، فإنه يُنْصَـبُ الفِعْلُ بَعْدَهَا بـ(أَنْ) مُضْمَرَة.

ومعنى هَذَا البَيت هو:

(مُرْ): إشارة للأمر، كما تقول: انزل عندنا فنُكرمَك.

(وادْعُ) هذا دعاءُ الله، قَالَ الشَّاعر[3]:

رَبِّ وَفِّقْنِـي فَـلَا أَعْـدِلَ عَـنْ ... سَـنَنِ السَّـاعِينَ فِي خَـيْرِ سَـنَنْ

---

(١) توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، لبدر الدين المرادي (٣/ ١٢٥٢).

(٢) فتح رب البرية في شرح نظم الآجُرُّومية، لأحمد بن عمر بن مساعد الحازمي (ص٢٧٧).

(٣) البيت في شرح تسهيل الفوائد، لابن مالك (٤/ ٢٩)، واللمحة في شرح الملحة، لابن الصائغ (٢/ ٨٣٢) بلا نسبة.

وتقول: رب وفّقني فأعملَ صالحًا.

(وانهَ) النهي، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ [طه:٨١].

(وسَلْ) الاستفهام، قَالَ تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف:٥٣].

(واعْرِضْ) أي: العَرض، كَمَا في قَول القائل: ألا تنزل عندي فتُصيبَ خيرًا.

(لِحَضِّهِمُو) هذا التحضيض منه هَـذِهِ الآيَة ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ [طه:١٣٤].

(تَمَنَّ) المُرَاد بِهِ التمني، تقول: ليت لي مالا فأتصدَّقَ منه.

(وارْجُ) أي الترجِّي، قَالَ تعالى: ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

(كذاك النفي) تقول: ما تَعَلَّم زيد فيُعَلِّمَك. فهذه تسعة مواضعَ إذَا وَقَعَت الفاء بعدها؛ فإنه يُنصَب الفعل بـ(أَنْ) مُضمَرة.

قوله تعالى: ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [المُرْسَلُ بِهَا، ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وَجَوَابُ (لَوْلَا) مَحْذُوفٌ]. والمعنى: أنَّنا أرسلناك يَا مُحَمَّد؛ إقامةً للحُجة عليهم، ورحمةً بهم أن يُصيبَهم العذابُ بِدُونِ أن يَصِلَ إِلَيْهِم رسول.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ [القَصَص:٤٨].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ مُحَمَّدٌ ﴿مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ﴾ هَلَّا ﴿أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ مِنَ الْآيَاتِ، كَالْيَدِ الْبَيْضَاءِ وَالْعَصَا وَغَيْرِهِمَا، أَوِ الْكِتَابُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، قَالَ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ حَيْثُ ﴿قَالُوا۟﴾ فِيهِ وَفِي مُحَمَّدٍ «سَاحِرَانِ»، وَفِي قِرَاءَةٍ ﴿سِحْرَانِ﴾ أَيِ الْقُرْآنُ وَالتَّوْرَاةُ ﴿تَظَٰهَرَا﴾ تَعَاوَنَا ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ﴾ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْكِتَابَيْنِ ﴿كَٰفِرُونَ﴾].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾، والحق -كما ذكرنا- هو الشَّيْء الثابت، وأنّه فيما يُقابِل الأوامِرَ هُو العَدْل، وفيما يُقابِل الأخبارَ هُو الصِّدق، والمرادُ بالحق هنا -كَمَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: محمد ﷺ، وكأنَّه عَدَلَ به عَن المعنى الظَّاهر مِن أَجْل قوله: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ هَـذَا الحَـقّ ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾، فكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَدَل عن معنى الحق الظَّاهر إلَى أَنْ يكون محمد ﷺ في هَذَا، ولكن الصَّواب أنَّ المرادَ بالحق الوحيُ الذي نَزل على محمد ﷺ، وَلهَذَا قَالَ:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾، والعِنْدِيَّة تقتضي القُربَ، وأن يكون ذَلكَ مِنَ الله، وَهَذَا لَا يُتصور أنه محمد ﷺ، بَل هُوَ الحَقّ الذي جاء به، كَمَا أَنَّ مِثل هَذِهِ الآيَة ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ في جَميع مواضع القُرْآن هي مطَّردة أَنَّ المرَادَ به الوحي الذي نزل عَلَى محَمَّد ﷺ.

ولهـذا يكون قوله: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ أي: محمـدٌ الَّذي جَاءَ بهذا الحق، فمعنى الآية هنا ظاهر جدًّا، ولا تَكَلُّفَ فيه.

وقد يحتجُّ علينا مَن يقول: إِنَّ الضَّميـر في قَوْلِهِ ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ يؤيد أَنَّ المرَادَ بالحق هو محمد.

ولكننا نُجيبه قائلين: لَا حَاجَةَ إِلَى ذَلكَ مَا دَامَ أن الحقَّ جاء، والذي جَاءَ به هُوَ محَمَّد، فيكون معلـومًا أنَّ قولَه: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ يعني: محمدًا ﷺ هُوَ الَّذي جَاءَ بالحقّ، وليس محمد هُوَ الحَقَّ، ولهذا ليس (الحَقُّ) مِن أَسمَاء الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهو ﷺ صادق فيما جَاءَ به مِنَ النبوة، ولكنَّه جاء بالحق.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾، الضَّمير في ﴿قَالُوا۟﴾ يَعود عَلَى قرَيش، و﴿لَوْلَآ﴾ هنا تحريضيَّةٌ، وليست شَرطيَّةً، وهي بمعنى: هلَّا.

وقَولُه تعالى: ﴿أُوتِىَ﴾ أي: أُعطي، ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ يعني: مِن الآيات، مِثلَ ما أُعطي موسى مِنَ الآيَات.

وهذا الجواب فيه إشكالٌ إذا جعلْنَاه عائدًا إلى قُرَيْشٍ؛ لأن قريشًا -كَمَـا هُوَ معلوم- قوم أُمِّيُّون، لَا يَعلَمونَ عن الرُّسُل شيئًا، فكيف يعارضون بقصة موسى؟ وقد أجاب المُفَسِّرون عن ذلك، بأنَّ قريشًا كانت عندَما بُعث الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

تراسل اليهودَ، وتقول: جاءنا رَجُل يقول إنه نبيٌّ، فما علامات الأنبياء عندكم؟ فتخبرهم اليهود بعلامات الأنبياء، ولهذا عارضت قريش النَّبيَّ ﷺ بالآيات الَّتي جَاءَت لموسى.

ويحتمل أَنَّ قَولَه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ عائدٌ إلى اليَهُود؛ لأن الرَّسُول ﷺ مبعوث إلَيْهِم، ويؤيد هذا الاحتمالَ قولُه بَعدَ ذَلكَ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾.

قوله: ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المراد هنَا هُوَ محمد ﷺ، وَقَد يَكون المرَاد هو القُرْآن، و﴿مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ أي: أتيَ بوحيٍ مِثل التَّوراة، وغيرها مِنَ الآيات كالعَصا واليَد.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ الضَّمير يَعود عَلَى جنس البَشر، أي: إنَّ آيات موسَى لَم تنفع أيضًا، فقد كفرَ بها مَن كَفر مِن النَّاس، فاقتراحكم أَن تَكونَ آياتُ محمد ﷺ كآيات موسى ليس ذلك بِمُوجِبٍ للإيمان؛ لأن آياتِ موسى كُفِرَ بها.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ﴾ فيها قراءة ثانية، «قَالُوا سَاحِرَانِ»[1]، وعلى القِراءَة التي بين أيدينا، فالمراد محمد وموسى، وعلى القِراءَة الثَّانية يَكونُ المُراد التَّوراة والقُرْآن.

قوله: ﴿تَظَٰهَرَا﴾ أي: تعاوَنَا.

---

(١) السبعة في القراءات، لابن مجاهد (ص٤٩٥).

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فيها تكذيب دعوى هؤُلاءِ في قَوْلِهم: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾؛ فإنَّه قد جاءهم الحق مع الرَّسُول، ومعَ ذلك كذَّبوا: ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَا جَاءَ به النَّبيّ ﷺ هُوَ الحَقُّ، والحق بمعنى: الشَّيْء الثابت، وهو بالنِّسبة للأخبار الصدق، وبالنِّسبة للأحكام العدل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ ما خالف ما جَاءَ به النَّبيُّ ﷺ فهو باطل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، فكلُّ خبر يتضمَّن تكذيبَ خَبَرِ الله ورسولِه، فهو الكَذِب، فمثلا: إذَا قَالَ قَائل: أصلُ الإِنْسَان قِرْدٌ، ثم تطوَّر فصار إنسانًا!! نقول له: هذا كذِبٌ؛ لأنَّهُ يخالف مَا جَاءَ به النَّبيُّ ﷺ.

وإذا شَرَّع الإِنْسَان قوانين مخالفةً للشرع، قلنا: هذا باطِلٌ وضلالٌ؛ لأنَّ الحق فيمَا جَاءَ به الشرع فقط.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بيانُ عُتُوّ المكَذِّبين للرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وعنادهم، وهو أنَّهم كذَّبوا بالحق بَعدَ أَن قَالُوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن قريشًا كانَ عندَهم بعضُ المعْلوماتِ عن الرُّسل السَّابِقين، حَيث قَالُوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾، وقد حصلوا عَلَى هَذَا العِلم عَن طَرِيق اليهود؛ لأنَّهُم لما جاء الرَّسول ﷺ وبُعث، أَرْسَلُوا إِلَى اليَهود يسألون عن أخبار هَذَا الرَّجل، فكتبوا لهم بما يعرفون مِن أخباره، وبما جَاءَ به موسى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثْباتُ رِسالَة مُوسَى ﷺ لقولهم: ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ موسَى ﷺ أعطاه الله تعالى آيات يُؤمِن على مثلها البَشر، وَهَذَا لَيسَ خاصًّا به، بَل هُوَ لكل رسول بَعَثَهُ الله فـ«**مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ**»(١)؛ لأن البَشَر لا تُصَدِّق رَجُلًا قال: أنا رَسول الله إليكم آمُركم بكذا، وأنهاكم عن كذا، واتركوا مَا كَانَ عليه آباؤكم مِن عِبادة الأصنام، واترُكُوا مَا كَانَ عَلَيه آباؤكم مِن تحريم الحلال، وَمَا أَشبَهَ ذَلكَ، لا يَقبلون إلا بآيات تدل على صِدقه، وتؤيده.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إبطال حُجَّة هؤُلاءِ المكذبين، بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّه يَنبَغي في مقام المنَاظَرَة والمجادَلَةِ أن يُفْحَمَ الخَصم بإبطال قوله بقوله، أو بفعله، أنه يُبطَل قولُه بمَا جَرَى منه هو؛ لأنَّ ما جرى منه لَا يمكن أَنْ يُنْكِرَهُ، ولو أَنْكَرَهُ ما قُبِلَ، فكونُنا نُقِيم الحُجَّةَ على الخَصم مِن فِعله وقوله هذا أبلغ في إفحامِه.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: أنَّ طبيعة البَشر واحدة؛ بناء عَلَى أَنَّ قولَه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟﴾ الضَّمير يَعود عَلَى جِنس الإِنْسَان؛ لأن الطبيعة البشريةَ واحدة.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّه يَنْبغي أَيْضًا عند المناظرة إبطالُ قول الخَصم بالأمر الواقع؛ فإن الآيَات الَّتي جَاءَ بهَا موسى، وأبطَلَها هؤُلاءِ كُذِّبَت، وما آمَن بها البَشَر.

إذن: فالمدار ليس على جنس الآيات، ولكن المدار على حال المخَاطَب، وإلا فالآيات قائمة بَيِّنَة، لكن: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

---

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة (١٣/ ١٩٥، رقم ٣٦١٥)، وابن عساكر في معجمه (١/ ٣٧، رقم ٣٠).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ أهلَ الباطل يُلَقِّبُون أهلَ الحقِّ بألقابِ السُّوء؛ تنفيرًا للنَّاسِ عن قَبُولهم، يُؤخذ هذا مِن قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سِحۡرَانِ﴾ أو «سَاحِرَانِ» على القِراءَة الأُخْرَى، فسواء وَصَفُوا مَا جَاءَت به الرُّسل بالسِّحر، أو وَصَفُوا الرُّسْلَ أنفسَهم بالسِّحر؛ فإنَّ المقصود بذلك تنفير النَّاس عن قَبُول مَا جَاءَت به الرُّسل.

وهذه القاعدة ثابتة لِأَتْبَاع الرُّسُل؛ بدليل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٢]، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قد جعل لكل نبيٍّ عَدُوًّا مِن المجرمين، والعدُوُّ مِن المجرمين عَدُوٌّ للنبي بوصفِه، بدليل أن محمدًا ﷺ قَبْلَ أَن تأتيَه الرِّسالَة وهو عند العَرب الصادق الأمين، ويرون أنَّه مِن أفضل بني هاشم، وأقوَمِهم بالعدل، فلمّا جَاءَ بالحَقّ صار عندهم الخائنَ الكذوبَ.

إذا كان هؤُلاءِ المجرمون يُعادون الرُّسُلَ بوصفِهم، فمعنى ذلك أَنَّ هَذِهِ المعاداةَ ستنتقل إلى مَن تابَعَ هؤُلاءِ الرُّسُل؛ لأنَّ المعنَى الذي حصلت به العداوة موجود أيضًا في أتباع الرُّسُل، وَعَلَى هَذَا:

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: طَمْأَنة أتباع الرُّسل، وتثبيتهم على أنّهم سينالهم مِن ألقاب السُّوء، ومِن المعاداة مِثل ما نالَ الرُّسُلَ، فعليهم أن يُقابلوا ذلك بالصَّبْر والثبات والقُوَّة، لا أن يُخْذَلُوا، بل عليهم أن يكونوا كَمَا كَانَ متبوعُهم الذي أمره الله قائلًا: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارِۭ﴾ [الأحقاف:٣٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ التَّعاوُن حتَّى على الباطِل له تأثيرٌ وتقويَة، يُؤخَذ مِن قَوْلِه: ﴿تَظَٰهَرَا﴾ فَإِذَا كَانَ التَّعاوُن في الباطل له تأثير، فما بالُك بالتَّعاوُن في الحق؟

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: يَجب أَنْ نكونَ متعاونين فيما نحن عليه مِن دعوة الحق، وألَّا يخذل بعضُنا بعضًا، خلافًا لما كان عليه حال النَّاس اليوم؛ فإنهم في هَذَا البَاب ليسوا بمتعاونين، حتى أهل الحق، وأهل الدعوة تجدهم غيرَ متعاونين؛ لأنَّهُم:

أولًا: كلُّ وَاحد لَا يَهُمُّه إلا نَفْسُه.

ثانيًا: أنهم ربَّما يختلفون في أَمْر بسيط جزئي مِن أُمُور الدِّين، ويتعادَوْن عَلَى ذَلكَ، فقد يختلفون في كيفية رفع اليدين عند تكبيرة الإحرام، فهذا يقول: ترفع يديك إلى الأذنين. وهذا يقول: إلى المنكبَيْن. ثُمَّ يَقول: أنت على ضلال! وهو يقول: أَنت عَلَى ضلال! فما تُثْمِرُ هَذِهِ الكلمة إلا الحِقد والبغضاء والعداوة.

وسبق أن قصصت عليكم قصَّة طائفتين، كلُّ طائفة تُكَفِّر الأُخْرَى في مَسأَلَةٍ بسيطة مِن مَسائِل الدِّين، طائفة تقول: إنَّ السُّنة أن يضع الإِنْسَان يده اليمنى على اليسرى فوق صدره. وطائفة أخرى تقول: إنَّ السُّنَّةَ أن يُرْسِلَ الإِنْسَان يديه إلى جنبه.

فاختلفا حتى كَفَّرت كُلُّ طائفة الأُخْرَى، وجعلتها ملعونة؛ لأنَّها تركت السُّنة عن عَمد وقَصد، والإِنْسَان الذي يكره ما أَنزَلَ اللهُ يكون كافرًا، وفيه خصومة عظيمة.

وفي أيام الحجِّ اجتمع معهُم ناسٌ مِن التَّوعيَة، وأراحُوهم، وبَيَّنوا أَنَّ هَذَا لَا يَجوز؛ لأَنَّ هَذَا فيه ضرر عليكم أنتم يا أهل الحق؛ لأنكم إذا كفَّر بعضكم بعضًا، فما تفعلون مع أهل الخرافات، وأهل البدع.

وتعرفون قصَّة نقض الصحيفة التي كَتَبَتها قريشٌ في مقاطعة بني هاشم، لم يأتِ واحدٌ مِنَ النَّاس فنَقَضَها، فهو لا يستطيع، لكنَّه ذهب إلى فلانٍ ووَبَّخه، وقال: بنو هاشم قومٌ منكم، كيف تَرْضَوْنَ أن تقاطعوهم حتى يموتوا مِن الجوع؟! وَذَهَبَ

إِلَى آخَرَ وإلى ثالـثٍ ورابعٍ، حتى إنهم كوَّنوا جماعة، فذهبوا إِلَى هَـذِهِ الصحيفة مِن الكعبة ومَزَّقوها.

إذن: فالتَّعاوُنُ أساس النجاح، مِثل مَا قَالَ العامَّة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: بيانُ عُتُوِّ هـؤُلاءِ مِن جهة أنهم لم يُؤمِنوا بالأمـرين، وقالوا: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَفِرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تقديم المعمُولِ في قَوْلِهِ: ﴿بِكُلٍّ كَفِرُونَ﴾ يُفيد الحَصر، مَعَ أَنَّهم كفروا بهما وبغيرهما، وهذا الحَصـر المقصود به إغاظةُ الخَصْمِ، كأنهم يقولون: لَوْ آمَنَّا بكل شَيْءٍ مَا كفرنا إلا بهما، وإلَّا فمعلوم أنهم يكفرون بهما وبغيرهما.

وهذه فائـدة قليلٌ مَن ينتبه لها، وهو أَنَّهُ إذَا كَانَ الشَّيْء غيـرَ محصور في هَـذَا الشَّيْء، ولكنَّه حُصر فيه؛ فَلَا بدَّ أَنَّ هناك غَرَضًا، والغَرَضُ هنَا هُوَ الإغاظة.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [القَصَص:٤٩].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ مِنْ الْكِتَابَيْنِ ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ فِي قَوْلِكُمْ].

قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ هنا الأمر للتعجيز والتحدي.

قوله: ﴿أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ هنا الضَّمير يَعُود عَلَى التَّوراة والقُرْآن، ومعنَى ﴿أَهْدَىٰ﴾ أكملُ هدايةً.

وقوله ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ مجزومٌ في جواب الطَّلب ﴿فَأْتُوا۟﴾، فإذا جعلوا الغايةَ جوابًا للأمر السابق صار مجزومًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّهُ مِن العدل التنزُّل مع الخَصم إلى حالٍ يُقِرُّ بها؛ فإنه مِن المعلوم أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم أَنَّهُ لَا يمكن أَنْ يأتوا بما طُلب منهم، وذلك حين طَلب منهم أَنْ يأتوا بكتابٍ أهدى مِن التَّوراة والقُرْآن، وَذَلكَ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟﴾، مَعَ أَنَّه يَعلَم أَنَّه يستحيل ذلك، وَلَكنَّ هَذَا مِن باب التنزُّل مَعَ الخَصم إلى غاية مَا يَكونُ مِن العدل، كأنه جعلَه مع خَصمه شيئًا واحدًا، فيقول: أنتم ائتوا بكتابٍ أهدى مِن

التَّوراة والقُرْآن، وأنا ألتزم باتباعه، فإذا لم يأتـوا، فمعناه أَلْزِمْهُم أن يتبعـوا التَّوراة والقُرْآن.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إفحام الخَصم بالتحدِّي، ولو أَنَّنا قرأنا آخِرَ سُورة الطور لوجدنا فيها شيئًا غريبًا مِن المناظرة، مِن قَوْلِه تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور:٢٩]، إلى قوله: ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور:٤٥]، تجدون آدابًا كثيرة مِن المناظرة، فقَدْ تَدَرَّجَ الله معهم في الحُجَج، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور:٣٨]، إن كَانَ الأَمر كذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور:٣٨]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور:٣٣]، فَإِن كَانَ الأَمر كذلك ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور:٣٤]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ختام المناظرة يجعل الخصم مُفْحَمًا بتحدِّيه بمَا لَا يستطيع.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ التَّوراةَ والقُرْآنَ مِن عند الله، لكن القُرْآن نَزَل وَحْيًا، والتَّوراة نزلت كتَابَةً، كَتَبَها الله في ألواحٍ ألقاها إلى موسى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّه لَا يَلزَم الإِنْسَان الانتقال عَمَّا كَانَ عَلَيه إلَى غَيرِهِ إلَّا إذَا كَانَ أهدَى منه.

فأنا -مثلًا- لا يلزمُني الانتقالُ مِن مذْهَب الحنابِلَة إلى مذْهَب الشَّافعيَّة، حتى أرى أنه أَصْوَبُ؛ لأَنَّه قَالَ: ما يجب الاتباع إلَّا إذَا كَانَ ما جاءوا به أهدى منه، أَمَّا إذَا كَانَ مساويًا، فأنتم لا تُلزمونني، وأنا لا أُلْزِمُكم، إذَا كَانَ مساويًا، إنما الإلزام حينما يَكونُ مَا جاء به الخَصم أهدى مما أنا عليه، وأما إذَا كَانَ مَا في غَيْـرِهِ أدنى؛ فإنه مِن بَاب أَوْلَى لا يلزم.

فالمراتبُ ثلاث:

١ - إمَّا أَنْ يَكونَ ما تُدعَى إليه أدنى مما أنت عليه.

٢ - أو أهدى.

٣ - أو مُساويًا.

فإن كان أهدى، فالواجبُ الاتباع، وَإن كَانَ أدنى حَرُم الاتباع.

أما في حَال المُسَاوَاة، فالعلماء يقولون: في مِثل هَذِهِ الحَالِ يُخَيَّرُ الإِنْسَان، فإذا أفتاه عالمان، وَلَم يَكُن قولُ أحدهما أرجحَ؛ فإنه يُخَيَّر في اتِّباع أيِّ القولين شاء، وربما يؤخذ حُكم هَذِهِ المَسأَلَة مِن هَذِهِ الآية؛ لأَنَّه مَا أوجب الله الاتباعَ إلا إذَا كَانَ أهدى.

ومعلومٌ أَنَّهُ إذَا كَانَ أَدنَى، فالاتباع مُحَرَّمٌ، فيبقى المساوي ليس إلى جانب التحريم، وليس إلَى جَانِب الوجوب، وهذه مرتبة التخيير.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التحدِّي يكُون بالوَصْف، كَمَا يَكون بالفِعل، في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأْتُوا﴾ تَحَدٍّ بِفِعْل ما هُمْ بِآتِينَ به، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تَحَدٍّ بالوصف، أَنَّ مَا أنتم عليه حَقٌّ فأتوا بهذا، وإلَّا فأنتم مِن الكاذبين، وَلهَذَا قَالَ: ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الآيــة (٥٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القَصَص:٥٠].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ دُعَاءَكَ بِالْإِتْيَانِ بِكِتَابٍ ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ فِي كُفْرِهِمْ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ لَا أَضَلَّ مِنْهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ].

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ أي: فيما يجيئهم الكتاب مِن عند الله هو أهدى منهما.

قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: لا أَحَدَ أَضَلُّ، وهو استفهامٌ مَنْفِيٌّ.

وهناك آيةٌ أخرى يَقُول الله تعالى فيها: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٦]، فنَجْمَع بينها، وبين الآية الَّتي بَيْنَ أيدينا بأنَّ آية الأحقاف في مَقَام الدعاء، وآيَتَنَا هَذِهِ في مَقَام الاتِّباع.

فقد تكون كل آية لَهَا مَعنًى لَا يَتَعَلَّق بالثَّاني، فضلالُ الغاية باعتبار مَا هُوَ مِن جِنْسِها، هَذَا وَجْهٌ.

وهناك وجهٌ آخَرُ، وهو أنهما في مرتبةٍ واحدة في الضلال، فقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ لَا يَمنَع أن يوجد شيء يُساويه في ذلك، فيكون كُلٌّ مِنَ الأمرين قد بلغ الغايةَ في الضَّلَال.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، القَدَرِيَّةُ يَرَوْنَ أَنَّ الإنسَانَ يُمكن أن يهتدِيَ بنفسِه، وليس لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليه أَيُّ سُلطة؛ لأنَّهُم يقولون عن قَدَرِ الله: إِنَّ الأمر أُنُف، بمعنى: أَنَّ اللهَ لم يُقَدِّر أفعالَ العِباد، وأنا أفعل هذا، وأترُك هذا باختياري المجرد المحض، وليس لله فيه أيُّ مشيئة، ولا خَلْق، وَلَا شَيءَ.

لكن قَوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يرد عليهم، كما أنه أَيْضًا يرد على الجهمية الجبرية، الذي يقولون بالجبر، بأن الله تعالى نَسَب هؤُلاءِ بِفِعْلِهم إلى الظُّلم، ولو كانوا مُجْبَرِين عليه لكانت نِسبة الظلم إِلَيْهِم ظُلمًا، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يَظلم أحدًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: جَواز التعليق بالشرط فيما هو مُحَقَّق الوُقوع، وَهَذَا في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ هذا مُحَقَّقُ الوقوع، فليس فيه احتمال أَنْ يستجيبوا، فيجوزُ تعليق الشَّيْء المحقق بالشرط، وَلَو كَانَ مُحَقَّقًا أنه لن يكون، وكذلك لَو كَانَ محققًا أنه كائِنٌ، فإن الانتفاءَ هنا كائن لا مَحَالَةَ، ومع ذلك عُلِّقَ بالشرط، وفي الحَدِيث عن النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ»[1]، في قَوْلِهِ لأهل المقابر، وَمَعْلُوم أَنَّ هَذَا الأَمر مُحَقَّق.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، رقم (٩٧٤، ٩٧٥).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنّ هؤُلاءِ المكذبين للرسول ﷺ ليست عندهم حُجة سوى اتباع أهواءهم؛ لقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عَدَمُ مُجادَلة المُتَّبِعِ هَواهُ المُكَابِر، فليس هناك سبيلٌ لإقناعه، فهو يريد أَنْ ينتصر لنفسه فقط، ويَتَّبع هَواه، فما دام الرَّجُل صاحِبَ هَوًى، فالجِدال معه لا فائدة منه، قَالَ تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، فإذا بَيَّنْتَ للإنسان الحَقَّ، وَوَضَّحْتَه بأَدِلَّتِه النَّقلية والعقلية والحِسية حَسَب مَا هُوَ موجود مِن الأدلة، ولكنه أصرَّ على أَنْ يَبقَى عَلَى مَا كَانَ عليه؛ فاعلَم أنه يَتَّبِعُ الهوى، والمُتَّبِع الهوى مُشْكِل، فما هو بالذي يطلب الهدى، ولا بالذي يريد أَنْ ينتفع.

ولهذا نقول في هَذَا الحال: لا يجِبُ على المرْءِ مُجادلتُه، وإنما ينتقل إلى شيْءٍ آخَرَ، وهو معاقبتُه، قَالَ تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦]، فالمُعانِد غَيْرُ مَن يريد اتِّبَاعَ الحَقِّ، ولم يظهر له، والمُعانِد لَهُ حَالٌ، وَقَد قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى:٩]، يعني: وإن لم تنفع فلا تُذَكِّر، وهذه تقدم الكلام عليها، وهذا الشرط لَيسَ لَهُ مفهوم.

فالأصل أَنَّك إذَا جادلته أمامَ النَّاس اتضح الحقُّ، وَلَكن إذَا تكلم بالباطل أمامَ النَّاس، وَجَبَ عليك إظهارُ الحق مُقابِلَ باطِلِه الذي يَنْشُرُه، فإن لم يقتنع بالحق الذي معك، فاعلم أَنَّه لَا فائدة مِن جداله.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: اختلاف النَّاس في الضَّلال، فليسوا على حَدٍّ سَواء في الضَّلَال، كما أنهم لَيسُوا عَلَى حدٍّ سواء في الهدى، وليسوا على حَدٍّ سَوَاءٍ في الغَيِّ، وليسوا عَلَى حَدٍّ سَوَاء في الرُّشد، وَلهَذَا قَالَ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الهـوَى قَد يَكونُ موافقًا للهُـدى، نأخُذه مِن قَولِه تعالى:

﴿ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أمَّا مَن اتَّبع هـواه بِنَاء عَلَى هـدًى مِن الله، فهذا طَيِّب، أَنْ يَكونَ هـواه تَبعًا لِمَا جَاءَ به الحَقُّ، وَقَد ذَكَرنَا لكم حديثًا مَرْوِيًّا عَن النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»[1].

فالحاصِلُ: أن الهوى المذموم هُوَ الَّذي لَيسَ عَلَى هُدًى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الظَّالِمَ قد عَرَّض نفسه لحرمانه مِن الهُـدى، أو إِنْ شئتَ فقل: إِنَّ الظُّلمَ سبب لحرمان الظَّالِمِ مِن الهُدى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: فيها رَدٌّ على القَدَرِيَّة الذين يُنكرون قَدَرَ اللهِ بالنِّسبة للأفعال، ورَدٌّ على الجَبْرِيَّة الجَهْمِيَّة الَّذينَ يَقولُونَ بعكس ذلك، والجهميةُ مِن مذهبهم الجَبْرُ، وفيهم ثلاثُ جِيَاتٍ، كَمَا قَالَ ابن القيم في النُونِيَّة[2]:

جَـبْرٌ وَإِرْجَـاءٌ وَجِـيمُ تَجَهُّـمٍ ... فَتَأَمَّـلِ المَجْمُـوعَ فِي المِيـزَانِ

فهم جَبْرِيَّةٌ مُرجِئَةٌ جَهْمِيَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ مَن تَحَرَّى العَدْلَ فَإِنَّهُ قَد تَعَرَّض للهداية؛ لأنَّ الظُّلم ضِدُّه العدل، وانتفاء الهداية بِوَصْفِ الظُّلم يقتضي ثُبوتَ الهداية بوصف العدل، فمن تحرّى العَدْلَ، فإنه يُوَفَّق للهداية، فالعدلُ سببٌ للهداية، وهكذا كُلُّ مَن تَحَرَّى الخيرَ -لكن عسى الله أن يُوَفِّقَهُ لِتَحَرِّيه- فإنه يُوَفَّق له إذَا كَانَت النية صادقة، والعزم أكيدًا.

• • ۞ • •

(١) أخرجه ابن أبى عاصم في السنة (١/ ١٢، رقم ١٥).
(٢) نونية ابن القيم (ص١٦٦).

الآيــة (٥١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القَصَص:٥١].

قال المُفَسِّرُ: [﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا﴾ بَيَّنَّا ﴿لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يَتَّعِظُونَ فَيُؤْمِنُونَ].

قوله تعالى: ﴿وَصَّلْنَا﴾ مِن التَّوصيل، وحُروفُه الأصلية: وَصَلَ، والوصول إلى الشَّيْء: بُلوغُ غايَتِه، والمعنى أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُؤَكِّد في هَذِهِ الجُملَة -وذلك بحُروف ثلاثة، وهي: القَسم، واللَّام، وقَدْ- أَنَّهُ وَصَّلَ لهم القول.

وقوله تعالى: ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ﴾ المَعروف أَنَّ الفِعل (وَصَلَ) يتعدَّى بـ(إلى)، فيقال: وصَلَ إليه، ويقال: وصَّل إليه، وأوصَل إليه. ولكنه هنا عُدِّيَ باللام؛ وذلك لأَنَّهُ تَضَمَّنَ معنى الوُصول والبَيان، وَلهَذَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفسيرها: [بَيَّنَّا لَهُمْ]، وقَدْ مَرَّ عَلَينَا أَنَّ اللُّغة العربية قد تُعَدِّي الفِعلَ أو -بعبارةٍ أَعَمَّ- قَد تُعَدِّي العامِلَ بغير ما يَتَعَدَّى به.

وذكرنا أَنَّ لِعُلَماء النَّحْو في ذَلكَ طريقين:

الطريق الأول: التَّجَوُّز في الحرف.

والطريق الثَّاني: التَّجَوُّز في الفِعل.

وهذا مِثال أُوَضِّحُ به الأمر، قَالَ تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦]، فالعَين يُشرب منها، أما الذي يُشْرَبُ به فهو الإناء.

قال بعضُ النَّحويين في هَذَا الأَمر: يمكن التجوُّزُ بالحرف، وإنَّ (الباء) بمعنى (مِنْ)، فتكون (مِنْ) تَبْعِيضِيَّة.

وَقَالَ بَعض النحويين: بل التَّجَوُّز في الفعل يَشْرَبُ، وإنه ضُمِّنَ معنى: رَوِيَ يَرْوَى، فَيَكون المَعنَى: يَرْوَى بها إذا شرب منها.

وَهَذَا في الحَقيقَة أصحُّهما، وهو مذهب البصريين.

فيكون قَولُه تعالى: ﴿وَصَّلْنَا﴾ أي: إلَيْهِم ببيان.

قوله تعالى: ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هُوَ القُرْآنُ]، ولعله أَعَمُّ مما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالمراد بـ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ أي: قولنا، فَاللهُ تعالى مَا يزال يُنَزِّل لعباده مِن قَولِه وَوَحْيِه ما تَصْلُح به أُمُورُهم، حتى وَصَلَت الغايةُ إلى محمد ﷺ بالقُرْآن.

فَيَكـون المَعنَى: أنَّ اللهَ تعالى مَا تَرَكَهُم هكـذا، بل ما زالـت أقوالُه تصل إلَى الخَلق، وتُبَيِّنُ لهم.

قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: (لَعَلَّ) هنا للتَّعلِيل، أي: لأجْلِ أَنْ يتذَكَّروا، والتذكُّر بمعنى ذِكْرِ الشَّيْء، لَكن لَا لمجرد الذِّكر، ولكن للاتِّعَاظِ به.

ولهذا فالمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ دائما يُفَسِّر ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ بلازمِهِ، وهو الاتِّعاظ، وإلا فأصلُ التَّذَكُّر: تَذَكَّرْتُ الشَّيْءَ، أي: كنتُ منه على ذِكْرٍ، لكن هناك لازم، وهو الاتعاظ.

أمَّا مُجَرَّدُ الذِّكْر بِدُونِ اتِّعَاظٍ، فَهَذَا لَا يَنفع، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [يَتَّعِظُونَ] أي: تُؤَثِّر فيهم الموعظةُ والقول، (فَيُؤْمِنُونَ).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يُخْلِ الأرضَ مِن الوَحْيِ؛ لأن التوصيل معناه وَصْلُ الآخر بالثَّاني.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الوَحيَ مُشتمل على غايَةِ البيان؛ لأنَّنا قلنا: إِنَّ وَصَّل مُضَمَّن معنى بَيَّن.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيانُ نِعْمَة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ؛ بإيصال القول إِلَيْهِم، مِن قَولِه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الحِكمة مِن الوحي التذكُّر والاتعاظ؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ العِلَّة في أحكام الله الكَوْنِيَّة والشرعية، وأنه لا يفعل شيئًا، ولا يُشَرِّعُه إلا لِحِكْمَةٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تعليلُ أفعالِ الله، وأحكامِ الله الشرعية والكَوْنِيَّة، والذي خالَفَ في ذَلِكَ هُمُ الأشاعِرَة، والجَهْمِيَّة هُم الأصل، قالوا: أَفعَالُ اللهِ لا تُعَلَّل وأحكامُه لا تُعَلَّل.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٢)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [القَصَص:٥٢].

قال المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أَيِ الْقُـرْآنُ ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْضًا، نَزَلَتْ فِي جَمَاعَةٍ أَسْلَمُوا مِنَ الْيَهُودِ، كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَغَيْرِهِ، وَمِنَ النَّصَارَى قَدِمُوا مِنَ الْحَبَشَةِ، وَمِنَ الشَّامِ].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ بمعنى: أعطيناهم، والإيتاء هنا شرعي، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكونَ إيتاءً قَدَرِيًّا، أي: قَدَّرنا أن يأتيَهم الكتاب، وهو الوحي، فآتاهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بمعنى المكتوب، وَالمرَاد به التَّوراةُ، وكذلك الإنجيل، كُلُّها تُسَمى كتابًا.

وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ الضَّمير يَعود عَلَى القُرْآن، أي: مِن قَبْلِ القُرْآن.

وقوله تعالى: ﴿هُم﴾ أي: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾، وقوله تعالى: ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالقُرْآن، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يُصَدِّقُون، وينقادون له.

إعراب الآيـة: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتـدأ، وجُملة ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ صِلـة الموصول، و﴿هُم﴾ مبتدأٌ ثانٍ، وقوله: ﴿بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ خَبَرُ المبتدأ الثَّاني، والجُملة مِن المبتدأ الثَّاني وخَبَرِهِ خَبَرُ المبتدأ الأوَّل.

والْفَائِدَةُ مِن تكرار المبتدأ كأنَّه أَسْنَدَ الإِيمَان إِلَيْهِم مرتين؛ مَرَّة بالضَّمير ﴿هُم﴾، ومَرَّةً بالمبتدأ الأول ﴿ٱلَّذِينَ﴾.

وأتى في قَوْلِهِ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالفعل المضارِع الدالِّ على الاستمرار، إِشَارَةً إِلَى أنهم تلَقَّوْه عن قَبُولٍ وإذعانٍ، وأنهم ما زالوا عَلَى هَذَا الأَمر.

وهذه الجُملة بالنِّسبة لمَا قَبلَهَا في المَعنَى كأنّها إقامةُ دَليل عَلَى الذين كَذَّبوا بالقُرْآن، كَأَنَّه يَقول: الذين أُوتوا الكتابَ مِن قبلكم آمنوا بالقُرْآن، ممَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّه حق؛ لأَنَّهُم مَعَ أَنَّهم أهلُ كتاب تركوا كتابهم، وآمَنُوا بالقُرْآن، وأنتم أهلُ جهل، وليس لديكم كتابٌ؛ فكان حَقًّا عليكم أن تكونوا قَبلهم في الإِيمَان؛ لأَنَّه مِنَ الصعب أن ينتقل الإنسَان مِن كتابه، أو مِن دِينِه إلى دِينٍ آخَرَ، لكن ليس مِن الصعب أَنَّ الإنسَانَ ينتقل مِن جهل إلى حقٍّ وعِلم.

ثم إِنَّ فيه أَيْضًا تَأْنِيبًا لهؤُلاءِ، وَفِيه أَيْضًا دَليل عَلَى أَنَّه حَقٌّ؛ لأن الَّذينَ أُوتوا الكتابَ ما آمنوا به إلا عن عِلم، وَهُوَ كَذَلكَ؛ فإنه لَا شَكَّ أَنَّ النَّبيّ ﷺ كان مكتوبًا عند بَني إسرَائيلَ في التَّوراة والإنجيل، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦]، حتى أوصافه الخِلْقِيَّة موجودة عندهم، بِقَطْعِ النَّظر عن مِنهاجه وسِيرته، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

هذا كله موجودٌ في التَّورَاة والإنجيلِ ومعروفٌ، ولهذا تجمَّع اليهود في المدينة مِنْ أَجْلِ أَنْ يستقبلوا هذا النَّبيَّ ﷺ، الذي وَجَدُوا صِفَتَه عندهم، ويُؤمِنون به، وكانوا كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾

[البقرة:٨٩]، أي: يستنصرون عليهم بهذا النَّبيّ، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة:٨٩].

فالحاصِل في هَذِهِ الآيَة أَنَّ وجه تَعَلُّقِها بما قَبلها مِن وَجْهَين:

الوجه الأول: تأنيب الجاهِليّين على الكُفر بمحمدٍ ﷺ، مَعَ أَنَّ أهلَ الكتاب -وهُم على دِينٍ- انتقلوا مِن دِينهم إلى دِينه، فكنتم أَوْلى باتباعه.

الوجه الثَّاني: إقامةُ دَليلٍ عَلَى صِحَّة مَا جَاءَ به الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأَنَّ هَؤلَاء الذين عندهم عِلم مِن الكتَابِ مَا انتقلوا إلَّا عَن عِلم بأَنَّه حق، والمناسبة واضحة جدًّا بَيْنَ هذه، وبين النُّصوص التي قَبلها، ولا ريب أَيْضًا أَنَّ في هَذِهِ الآيَة ثَنَاءً على الذين آمنوا بالرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِن الَّذينَ أُوتُوا الكتابَ، ولهذا عَطَفَ بـ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ ولم يستكبروا عنه، بالرغم مِن وجود كتابهم معهم.

فالمشركون لم يَأْتِهِمْ كتابٌ مِن قَبْلُ، ولا نبيٌّ، قَالَ تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القَصَص:٤٦]، لَكن هَذَا مِن باب الجِنس، ومعناه: أَنَّنا لم نتركْهُم هكذا، بَل إِنَّ القول وَصَل إِلَيْهِم كما وَصَلَ إِلَى غَيرِهِم، فإِنَّ اللهَ مَا زال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُنْزِلُ الكُتُبَ على مَن سَبَق.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْضًا]، ويعني بقوله: [أَيْضًا] كما آمنوا بكُتُبهم، و(أَيْضًا) مِن الأسماء الملازمة للنَّصب على المصدرية؛ لأن فِعْلَها: آضَ، يَئِيضُ، أَيْضًا، مِثل: باعَ، يَبيعُ، بَيْعًا، لأَنَّ معناها: رَجَعَ.

فالمعنى: أنهم هُم أَيْضًا يُؤمِنون بالقُرْآن.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [نَزَلَتْ فِي جَمَاعَةٍ أَسْلَمُوا مِنَ الْيَهُودِ، كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ

وَغَيْرِهِ، وَمِنَ النَّصَارَى قَدِمُوا مِنَ الْحَبَشَةِ، وَمِنَ الشَّامِ].

وكذلك مِن غَيْـرِ الشام، أسلمَ مِن اليهـود مِثل عبد اللهِ بنِ سلام، واشتُهـر عَبدُ الله بنُ سَلَام بالإِسْلام وَهُوَ مِنَ اليهود؛ لأَنَّه كان حَبْرًا مِن أحبار اليهود، وكان كَمَـا قَالَ اليهود عَنْهُ في حَضـرة النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالُوا: أَعْلَمُنَا، وَابْنُ أَعْلَمِنَا، وَأَخْيَرُنَا، وَابْنُ أَخْيَرِنَا[1].

قالوا ذلك مُعترفين له بالفضل، والعِلم، والسِّيادَة، ولهذا كانوا يضـربون به المثَل؛ لأنَّ مَن يَكُون مِثله سَيِّدًا في قومِه قد تَحْمِلُه السِّيادَةُ عَلَى أَنْ يُنافِق، وقد يحمله أَيْضًا حُبُّ الرِّئاسَة على عدم الاتباع لِغَيْرِه؛ لأَنَّه إِذَا تَبعَ غيرَه صار مرءوسًا لا رئيسًا، لكنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تواضعَ للحَقِّ، فكان مؤمنًا بالرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقصة إيمانه معروفة، فإن الرَّسول ﷺ خَبَّأه، ودَعَا اليهود وسألهم عنه، فأَثْنَوْا عليه، وسألهم عن رسالة الرَّسول ﷺ، فكَذَّبُوا الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَالَ لَهم: «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ» قَالُوا: أَعَاذَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللهِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَقَالُوا: شَرُّنَا، وَابْنُ شَرِّنَا، وَوَقَعُوا فِيهِ. فما خرجوا إلا وهُم يُثْنُون عَلَيْه شَرًّا؛ لأَنَّهُ أسلَم.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كَذَلِكَ نَزَلَتْ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ النَّصَارَى قَدِمُوا مِنَ الحَبَشَةِ]، قَالَ عَطَاءٌ: «كَانُوا ثَمَانِينَ رَجُلًا: أَرْبَعُونَ مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ مِن بني الحارث بْنِ كَعْبٍ، وَاثْنَانِ وَثَلَاثُونَ مِنَ الحَبَشة، وثمانية رُومِيُّون مِنْ أَهْلِ الشَّامِ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم -صلوات الله عليه- وذريته، رقم (٣٣٢٩).

(٢) تفسير البغوي (٢/ ٧٥).

وفيهم نزلت: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ [المائدة:٨٣]، والحبشة قد أسلم فيها نَصارَى، مِثل النجاشي؛ فإنه أسلَمَ، ودخل دِينَ الإِسْلام، وكان قَبْلَ ذلك عَلَى دِين النصرانية، ووصفه النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأنَّه أخٌ للصحابة، وأنَّه رجُل صالح(١).

فالمهم: أنَّ مِنَ الَّذينَ أُوتُوا الكتَابَ مِنَ اليَهود والنصارى قومٌ آمنُوا بالقُرْآن أيضًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ اليهـودَ والنصارى فيهم مَن آمَـنَ بالقُرْآن؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ حُكم الفَرْدِ قد يتناول جِنْسَه، ومعناه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾، لو نظرنا إليها وجدنا أَنَّهَا عَامَّة تشمل كُلَّ الَّذينَ أُوتوا الكتَابَ، وليس كُلُّ الَّذينَ أُوتوا الكتَابَ مِن قَبْلُ آمَنُـوا بالقُرْآن، فهناك نصارى ظَلُّوا على نَصْـرَانِيَّتِهم، ويَهُودٌ ظَلُّوا على يَهُودِيَّتِهم، ولكن مِن هؤُلاءِ مَن آمَنَ، كَعَبْدِ اللهِ بنِ سَلامٍ والنَّجَاشي.

فسببُ إيمانِ عَبْدِ اللهِ بنِ سَلَام عِلمُه بما في التَّـورَاة مِن صفات الرَّسُول ﷺ، وهذا العِلْمُ يَشمل جميعَ اليهود.

إذن: فهُنا أعطينا الجِنس حُكْمَ الفَرد؛ للعِلَّة التي تَشْمَلُه وغيرَه.

فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ لا يعني أنهم كُلَّهُم

---

(١) كما في حديث جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ مَاتَ النَّجَاشِيُّ: «مَاتَ اليَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ». أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب موت النجاشي، رقم (٣٨٧٧).

آمنوا، وَلَكن مَا آمن إلا بعضُهم، لَكن هَذَا الإِيمَان مِن بعضهم حمَلَه عليه العِلَّة الشاملة لجميع الجنس.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الثناء البالِغ عَلَى الَّذينَ آمَنوا بالقُرْآن، وبالكتب السَّابِقة؛ لقوله: ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ صِفَةَ النَّبيِّ ﷺ موجودة في التَّورَاة وَالإنجيل، وهذا صَريحٌ في آيَة الأعراف: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [الأعراف:١٥٧]، إلَى آخِره.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٥٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القَصَص:٥٣].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الْقُرْآنُ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ مُوَحِّدِينَ].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾: (إذا) شَرطية، وجواب الشرط مُتصل بِفِعْلِه مباشرة بمعنى: أنه متى وُجد فِعل الشرطِ وُجِدَ جوابُه، فهو مِن الاتصالِ الوُقُوعِي: إذا وُجِد الشرطُ وُجِدَ المشروط.

فقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، لَم يَقُل: إذا تُلِيَ، وإنما جاء بالمضارِع، أي: إنَّ أَيَّ آيةٍ تُتلى عليهم يقولون: آمنا بها. فهُم لَمْ يُؤمِنوا بالقُرْآن جُملةً، بل آمنوا بالقُرْآن تفصيلًا؛ لأنَّ الفعلَ المضارِع يَدُلُّ على الاستمرار، فكُلَّما تُلِيَت عليهم آيةٌ آمَنوا بها، فزادتهم إيمانًا.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يُقرأ عليهم، ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ أي مُباشَرة، بلا تَرَدُّد، أو نَظَر، أو تفكير؛ لأنَّنا قلنا: إنَّ جَوَاب الشَّرط ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ يلي فِعل الشرط ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ مباشرة، أي: بالذي تُلِيَ عليهم مِن القُرْآن؛ قليلًا كان، أو كثيرًا، ثم بَيَّنوا أنَّ إيمانَهم هذا عن اقتناع، وعلى أساس.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: ما تُلِيَ عليهم مِن القُرْآن، ﴿ٱلْحَقُّ﴾ بمعنى: الشَّيْء الثابت الواقع، الصادق خَبَرًا، العادِلُ حُكمًا.

ونرى أَنَّهم قَالوا: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾، ولم يقولوا: مِن الله؛ لأن الرَّبَّ هُوَ الَّذي له التصرُّف المطلَق، فهو يتصرف بعِبَادِه شَرْعًا وقَدَرًا، فكأنهم يقولون: إنَّ رَبَّنَا لن يُخْلِيَنا مِن أَنْ يُنَزِّلَ القُرْآن، وله الحُكم والتصرف المطلَق؛ كونًا وشرعًا.

وقولهم: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾ هذا إشَارَة إلَى أنهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يفتخرون بانتسابهم إلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ الجُملة مِن حيثُ المعنى تَعليليَّة لمَا قَبلَهَا، يعني: آمنا به، لا لأَنَّهُ أَعْجَبَنا حُسنُه وبيانُه وبلاغتُه، ولكنَّا آمَنَّا به لأنّه ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائل: إذَا كَانَتِ الجُملة تعليلية، فلماذا لا تُفتح الهمزة، فيُقال: (أَنَّهُ الحقُّ مِن رَبِّنا)؛ لأَنَّ الجُملة التَّعليلِيَّة على تقدير (اللام)، و(اللامُ) إذا اتصلت بـ(إِنَّ) وَجَبَ فتحُ همزتها، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]، وَلَمْ يَقُل: (إنهم إلى ربهم)؟

قلنا: الجُملة التَّعليلِيَّة قد تكون تعليليَّة مِن حيثُ المعنى فقط، وَقَد تكون تعليلية مِن حيث اللفظِ مع المعنى؛ فإن لُوحِظ مَعَهَا اللفظُ مع المعنى، فإنها الهمزة تُفتح؛ لأنَّها عَلَى تَقدير اللام، وإِنْ لُوحظ المعنى فقط؛ فإنها تُكسَرُ الهمزة، وهنا لوحظ المعنى فقط.

ونقول: لكُلِّ مَقامٍ مَقَالٌ، فمُلاحظة المعنى فائدتُها أَنَّ الجُملة تكون مِن حيثُ اللفظُ منقطعة عما قَبْلَها، فكأنها جُملةٌ خَبَرِيَّةٌ مستقلة، وكأنها منقطعة عن اللفظ،

لكن إفادةُ التَّعلِيل مِن السياق.

وأمَّا التَّعليلِيَّة اللفظية فَإِنَّهَا تكون مرتبطةً بما قَبْلَها، قال ابن مالك[1]:

فَاكْسِرْ فِي الِابْتِدَا وَفِي بَدْءِ صِلَهْ وَحَيْثُ إِنَّ لِيَمِينٍ مُكْمِلَهْ

فَهَذَا هُوَ الفَرق بين الجملة التَّعليلِيَّة التي قُصِد بها اللفظ والمعنى، والتي قُصِد بها المعنى فقط.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ أي مِن قَبْل القُرْآن.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُوَحِّدِينَ]، وَلَو أَنَّه فسَّر الإِسْلام بظاهِره لَكَان أَولى؛ لأن الإِسْلام معناه الاستسلام والانقِياد، وأصلُه مِن عَدَمِ المعارضة والمُحَارَبَة، ولهذا يُقالُ: السِّلْم والإِسْلام، معناه عدمُ المعارضة والمحاربة، فكلمة ﴿مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ أي: مُنْقَادِين مُذْعِنِين للحَقِّ.

وقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ لَيسَ المرَادُ بذلك الفَخْرَ والإعجابَ بالعَمَل قطعًا؛ لأن السياق سياقُ ثَناء، وَلَكنَّ المرَادَ بذلك الثَّناءُ عَلَى الله بما كانوا عَلَيه في الحالَين: في الحالِ السَّابِقة، وفي الحال الثَّانية، في الحَال الثَّانية ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾، والحال الأُولى: كانوا ﴿مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾: مُنْقَادِين مُتَّبِعِين للرسول ﷺ الَّذي جَاءَ إِلَيْهِم.

وقوله: ﴿مُسْلِمِينَ﴾ خَبَرُ ﴿كُنَّا﴾، ولو تَقَدَّم عليه قوله ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾؛ لأَنَّ الخَبَرَ هو ما تَحْصُلُ به الْفَائِدَة، سواءٌ تَقَدَّمَ، أو تَأَخَّرَ.

---

(١) ألفية ابن مالك (ص٢١).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: زيادةُ الثَّنَاء عَلَى هَؤلَاء بأنهم يُؤمنون بِكُلِّ مَا يتلَى عَلَيهم، فَهُم قَد آمَنوا بالقُرْآن جُملة وتفصيلًا، وأخذنا ذَلكَ مِن قَولِه: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾، و﴿يُتْلَىٰ﴾ فِعْلٌ مُضارِعٌ يَدُلُّ عَلَى الحُدوث والاستمرار، وَيَدُلُّ عَلَى التَّجَدُّدِ والحُدوث، وَأَنَّ هَذَا شأنُهم كُلَّما تُلِيَ عليهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهم آمَنوا لَا لمجرد الهوى، ولكن آمَنوا إيمَانًا مَبنيًّا عَلَى اقتناعٍ، يُؤخَذ مِن قَولِهم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾، فما آمنوا هكـذا تبعًا للنَّاسِ، ولكن آمنوا عن اقتناعٍ بأنه الحقُّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ القُرْآنَ مِن عند الله؛ لقوله: ﴿مِن رَّبِّنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كمـالُ عقل هَؤلَاء الَّذينَ آمَنـوا، حيث عَبَّـرُوا هنا بالرُّبوبية بقولهم: ﴿مِن رَّبِّنَا﴾ دُونَ الأُلوهيَّة؛ لأن المقام يَقتَضي ذَلكَ، فإن الرَّبَّ لَهُ الحُكمُ يَحكُم بمَا يَشَاء كونًا وشرعًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ هَـؤلَاء كَانوا مؤمنينَ مسلمين مُنْقَادِينَ للكُتب السَّابِقة؛ لقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جَواز ثناء المَرء عَلَى نَفسـه بِالصِّفات المحمودة، بِشَـرط أَن تَكونَ في ذَلكَ مَصلَحَةٌ، وَأَلَّا يَكونَ فيه افتخارٌ، وعُلُوٌّ عَلَى غَيرِه؛ لقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾، وَهَـذَا أَمْرٌ واقعٌ مِنَ الرَّسول ﷺ وَمِنَ الصَّحَابَة، ومِن أَهـلِ العِلم، قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، رقم (٢٨٦٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، رقم (١٧٧٦).

وَقَالَ ابنُ مَسعود: «وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْـرُهُ، مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»(١).

وهذا ثَنَاء عَلَى نَفسه لَكن لمصلحةٍ، والعُلماء كثيرًا إذا كَتبوا كتَابًا يُثنون عَلَيه بمَا يَقتَضي هَذَا الكتَاب مِن أوصاف الثناء، وَمَعلُوم أَنَّ الثَّنَاء عَلَى الكتَاب ثَنَاءٌ عَلَى مُصَنِّفِه، فلو أنك أثنيتَ عَلَى هَذَا البناء فَأَنتَ في الواقع قد أثنيتَ على الباني، فَهَذه المَسأَلَة يَجوز للإنسَان أَنْ يُثْنِيَ عَلَى نَفسه بصفَات الحَمد بشرطين:

الشرط الأول: أَلَّا يُريدَ بذَلكَ الافْتِخَارَ عَلَى غَيره، ووجهُه ظاهِر؛ لأَنَّه إذَا قَصَدَ بذَلكَ الافْتِخَارَ، والعُلُـوَّ عَلَى النَّاس، فَهَذَا قصدٌ مُحَرَّم، وَلهَـذَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ**»(٢).

والشرط الثَّاني: أَن تَكونَ في ذَلكَ مَصلَحَةٌ؛ لأَنَّه إذَا لَم تَكن فيه مصلحة، كَانَ لَغْوًا مِنَ القول؛ لأَنَّ الإنسَانَ يَمْدَحُ نَفسَه دُونَ مصلحة، إلَّا أَنَّه لَولَا أَنَّه يريد أَنْ يُبْرِزَ صفاتِهِ لِيَفْتَخِرَ بهَا عَلَى غَيرِه، مَا فَعَلَ ذَلكَ، حَتَّى لَو قَالَ: أَنَّا لَا أريد الفَخْرَ.

فالأصلُ أنَّ هَذَا لَغْوٌ مِنَ القَولِ؛ إذ لَا فَائدَةَ منه، والرَّسُول ﷺ يقول: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم (٤٧١٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما، رقم (٢٤٦٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، رقم (٢٢٧٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧).

فَطالما أنها ليس فيهَا خَيْـرٌ، ثم إِنَّها تُـؤَدِّي إِلَى مَفْسَـدَةٍ؛ قلا داعيَ لها، لأَنَّنا إذا فَرَضْنا أَنَّ هَذَا الرَّجل لَا يَقصـدُ الافْتِخَار أبدًا، فإنه بِفِعْلِـه هذا يفتح بابًا لآخَـرِين ليفتخروا.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٥٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القَصص:٥٤].

قال المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ بِإِيمَـانِهِمْ بِالْكِتَابَيْـنِ ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بِصَبْـرِهِمْ عَلَى الْعَمَلِ بِهِمَا ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ يَدْفَعُـونَ ﴿بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يَتَصَدَّقُونَ].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشَارَة إلَى الَّذينَ أُوتوا الكتَابَ مِن قَبلُ فآمَنـوا به، ثم آمَنوا بالرَّسُول ﷺ.

قَوله تعالى: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم﴾ أي: يُعْطَون أجرَهم، والفِعل مبنيٌّ للمفعول، وهو الواو في قَوْلِهِ: ﴿يُؤْتَوْنَ﴾ وتُعرب نائِبَ فاعل، والمفعول الثَّاني ﴿أَجْرَهُم﴾.

وأما قولُه تعالى: ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾؛ فإنه مفعولٌ مُطلَق، فهو دالٌّ على المصدر، لكنه بغير لفظِه، وكُلُّ مَا دَلَّ عَلَى المصدر بِغَيـر لَفظِه فهو مفعـولٌ مطلق، ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ بإيمـانهم بالكتابين؛ فهم ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم﴾ مرتيـن: المرَّة الأُولى: على الإِيمَان بالكتاب السابق، والمرَّة الثَّانية: عَلَى الإيمَان بالقُرْآن.

وأما أَهل الجَاهليَّة الذي آمنـوا بالقُرْآن فيُعطَون أجرهم مـرة واحدة؛ لأَنَّهم آمَنُوا به فقط، وقد ثبت بهذا الحديث عَنِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما في حديث هِرَقْلَ:

«أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ»(١).

إضافة لهذه الآية ذَكَر الذين ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، فقال: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الأَمَةُ، فَيُعَلِّمُهَا فَيُحْسِنُ تَعْلِيمَهَا، وَيُؤَدِّبُهَا فَيُحْسِنُ أَدَبَهَا، ثُمَّ يُعْتِقُهَا فَيَتَزَوَّجُهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَمُؤْمِنُ أَهْلِ الكِتَابِ، الَّذِي كَانَ مُؤْمِنًا، ثُمَّ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَالعَبْدُ الَّذِي يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ، وَيَنْصَحُ لِسَيِّدِهِ»(٢).

قَوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ الباء للسَّببية، و(ما) مَصْدَرِيَّة، وعلامة المَصْدَرِيَّة أنها تُحَوِّل ما بَعْدَها إلى مَصْدَر، فتكون -كَمَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ- لِصَبْرِهِم.

وَلَا يَصِحُّ أَنْ تَكونَ (ما) هنا موصولةً، فلو كانت موصولَةً لَكَانَتْ عَلَى تَقدير الضَّمير: بالذي صَبَرُوه، وَهَذَا لَا يستقيم.

فإذن: يَتَعَيَّنُ هنا كونُها مَصْدَرِيَّة، أي: بِصَبْرِهِم، وَهُوَ أَحَدُ مَحَامِل (ما) العَشَرَة، نَذْكُرُها هنا للفائدة، جُمِعَتْ في بَيْتٍ واحدٍ مِنَ الشِّعْر:

سَتَفْهَمُ شَرْطَ الوَصْلِ فَاعْجَبْ لِنُكْرِهَا ... بِكَفٍّ وَنَفْيٍ زِيدَ تَعْظِيمُ مَصْدَرِ

وقوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: بِصَبْرِهم على العَمَل بهما، وهذا الصَّبْر عَلَى العَمَل بهما هو مِن بَاب الصَّبْر على طاعة الله، ومِن باب الصَّبْر عن معصية الله، ومِن باب الصَّبر عَلَى أقدار الله؛ فهُم صَبروا عَلَى طَاعَة الله؛ فإن الشرع فيه أوامرُ شاقَّةٌ على

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، رقم (١٧٧٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم من أهل الكتابين، رقم (٣٠١١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، رقم (١٥٤).

النُّفُوس تَحتَاج إلَى المعالجة، فهذا صبر عَلَى طَاعَة الله، وفي الشَّرائِع نَوَاهٍ نُهِيَ عنها، قد يَشُقُّ على النفس تركُها، ففيها صبرٌ عن مَعصيَة الله.

كذلك أَيْضًا في الشَّرائِع إيذاء؛ فإنَّ المجرمين يُؤذُون المُؤمِنينَ، وربما يَضْرِبُونَهم، وربما يقتلونهم، وهذا صَبْرٌ عَلَى أقدار الله المؤلمة.

فعلى هَذَا يَكون الصَّبر عَلَى الشَّرائِع يتضمن الصَّبْر بأنواعه الثَّلاثَة: الصَّبر عَلَى طَاعَة الله، وعن معصيته، وعلى أقدارِه المؤلمة.

وأصلُ الصَّبْر في اللُّغَةِ الحبسُ، ومنه قَولُهم: قُتِل فلانٌ صَبْرًا، أي: محبوسًا على القتل، أُمْسِكَ وقُتِل، فمعنى الصَّبْر: حبسُ النَّفْسِ، والنَّفْسُ تَحتَاج إلَى حَبْسٍ عَلَى طَاعَة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأَنَّهُ كَمْ مِن إنسانٍ يَقولُ لَهَ ضميرُه: افعل كَذَا مِنَ الطاعة، وربما يفعل بعضَها، ثم يَعْجِزُ، فلا يَصْبِرُ نَفْسَهُ، وكذلك بالنِّسبة للمعاصي؛ فإنَّ النفس المطمئنةَ تَزْجُرُ المرءَ عن المعصية، ولكن تأتيه النفسُ الأمَّارةُ بالسُّوء فتأمُرُه بالمعصية، وحينئذ تتصارع النَّفْسان، والتوفيقُ بِيَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

كذلك بالنِّسبة للأقدار؛ مِنَ النَّاس مَن لَا يَصْبِرُ على الأَقْدَار، بَل إذَا نَزَلَ به القَدَر يُمكن أَنْ يَكْفُرَ، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج:١١].

فإنَّ بَعضَ النَّاس قَد لَا يصبر على الأَقْدَار المؤلمة ويَقْنَطُ، وهناك مِنَ النَّاس مَن إذا ابتُلي بمصائبَ انْتَحَرَ، فهؤُلاءِ لم يصبروا على الأَقْدَار، فَقَتلُوا أنفُسَهم، ليعَذَّبوا بما قَتَلُوا به أنفسهم في نار جَهَنَّم، ويُخَلَّدون فيها، كما جاء في الحديث: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى

سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»[1].

لكن الصَّبر عَلَى الأَقْدَار المؤلمة أمرٌ يُمكن للإنسَان أَنْ يصبرَ عليه، ويُحاسب نَفْسَهُ حتى يستقيم.

والصَّبْر عَلَى طَاعَة الله أفضلُ وأعلى وأَكْمَلُ مِن الصَّبرِ عَنِ المعصية؛ لأَنَّ فيه جهادَين: جهادًا على العَمَل، وجهادًا على تَحَمُّل العَمَل، ثم الصَّبر عَنِ المعصية؛ لأَنَّهُ جهادٌ واحِدٌ، عَلَى تَحَمُّل تَرْكِه، فَلَيسَ فيه عَمَلٌ، يقال: لا تَزْنِ، لَا تَزْنِ. ما أُمِرْتَ وكُلِّفْتَ بفعل شيء.

والصَّبْر على الأَقْدَار المُؤْذِيَة، أو المؤلمة هو أدناهُ؛ لأَنَّهُ صَبْرٌ على مَا لَا اختيارَ للمرء فيه، كَمَا قَالَ بعضُ السَّلَف: «العاقِلُ يَفعل في أول يومٍ مِن المُصيبة ما يَفْعَلُه الجاهِلُ بَعْدَ أيامٍ، ومَنْ لَمْ يَصْبِرْ صَبْرَ الكِرَام سَلا سَلْوَ البهائم»[2].

كُلُّ إنسَانٍ إذا أُصِيب بمُصِيبة، وطال عليها الزَّمَن، فإنه ينسى.

ولهذا كان صبرُ يُوسُفَ على تَرْكِ الزنا بامرأةِ العَزيز أَكْمَلَ مِن صَبْرِهِ عَلَى مَا حَصَلَ مِن قَضِيَّة إخوانِه له بلا رَيْبٍ، وَلهَذَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، وَلَمْ يَقُلْ مِثْلَ هَذَا حِين أَلْقَوْه في غَيَابَةِ الجُبِّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب شرب السم والدواء به وبما يُخاف منه والخبيث، رقم (٥٧٧٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، وأن من قتل نفسه بشيء عُذِّبَ به في النار، وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، رقم (١٠٩).

(٢) تسلية أهل المصائب، لمحمد بن محمد بن محمد، شمس الدين المنبجي (ص٢٩).

فالصَّبْر على الأَقْدَار أعظمُ، فقد يُصِيبك ما يؤلمك، لكنه شيء بغير اختيارك، أما المعاصي فَقَدْ تَرَكْتَها باختيارك، تستطيع أن تفعَلَها، ولكنك ما فَعَلْتَ، أَمَّا البلاءُ، فلا تستطيع له دفعًا، فالصَّبْر والاستسلام للشرع أفضلُ مِنَ الاستسلام للقَدَر، الاستسلام للشرع هُوَ الَّذي يُمْدَح عليه الإِنْسَانُ، ويُثنَى عليه، لكن الاستسلام للقَدَرِ يتساوى فيه كُلُّ النَّاس، أَمَا تسمعُ قَوْلَ الشاعر الجَاهِلي[1]:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ

وحتى الكُفَّار، فإنَّ أفعالَهم تُنْزِلُ بهم المصائبَ، وَلَكن لَا يَهْتَمُّ بها ويصبر، وهو كافِرٌ، ولا يَرْجُو بذلك الأجرَ والثوابَ.

وقد يَقولُ قَائِلٌ: الإنسَانُ قَدْ يَكون تَمَرَّنَ على الطاعة، فصارت عليه سهلةً، ولكن المصائب لم يَتَمَرَّنْ عليها، فيجزع لذلك.

فنقول: لا، قد يَتَمَرَّنُ عليه إذَا أصيبَ في ابنٍ أَوْ في غيره، حتى العِبادة، مِثل الحَجِّ، لا يأتي إلا مَرَّةً وَاحدَةً في العُمر، وَمَعَ ذَلكَ يُعْتَبَر صَبْرًا عَلَى الطَّاعَة مع مَشَقَّتِه البَدَنِيَّة، والمالية، والأمنية.

أما مسألةُ الوقوع، وعدمُ الوُقوع، فهذا شَيءٌ آخَرُ.

وهناك فَرقٌ بَينَ مَن يُكابِد الطاعة، ويجد في نَفْسِه مَشَقَّةً في مُعالجتها، وآخَرَ قد تَمَرَّنَ عليها، فصارت سهلةً عليه، فالأولُ أَشَقُّ عَمَلًا، والثَّاني أكملُ حالًا؛ لأن الطاعةَ صارت غَرِيزَةً مِن مَحَبَّتِه لها، وسُهولَتِها عليه، لكن الأول أَشَقُّ عملًا، فيُعطَى هذا أجرَ الكُمَّل، وذاك يُعطَى أجرَ الصابرين.

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، كما في جمهرة أشعار العرب (ص٥٣٦).

والعلماء مختلفون في هَذِهِ المسألةِ، أَيُّهم أفضلُ؟ ولكنِ الصَّوابُ هذا التفصيلُ، فيُقال: الذي يَفْعَلُ الطاعةَ، وهي سَهْلَةٌ عليه، ويَنْقَادُ لها دُونَ مُكَابَدَةٍ، هذا -لَا شَكَّ- أنه أَكْمَلُ حالًا مِن الأول، والثَّاني أَشَقُّ عليه، فيُعْطَى الأجْرَ على قَدْرِ المَشَقَّةِ النَّفْسِيَّة.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يَدفعون ﴿بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، و﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ مفعول به، والباء في قَوْلِهِ تعالى: ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ باء الآلَة، كَقَوْلِك: ذبحتُ بالسِّكِّين، وضربتُ بالعَصَا.

فهنا: دارئ، ومَدْرُوء، ومَدْروءٌ به، والدَّارئ في الآيَة: العامِلُون، والمَدْرُوءُ: السيئةُ، والمَدْرُوءُ به: الحَسَنَة، فالحَسَنَةُ لهم بِمَنْزِلَة الآلَةِ التي يَتَوَصَّلُون بهَا إلَى غَرَضِهم.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالسَّيِّئَةِ مِنْهُمْ]، فإذا فعلوا سَيِّئة أَتَوْا بَعْدَهَا بِحَسَنَةٍ، فاندفعتِ السيئةُ.

والحسنةُ التي تَدْرَأُ السيئةَ تَنقَسِم إلَى قِسمَين: قِسم يُزيل السيئة مِن بَاب المقابلة، وقِسم آخَر يُزِيل السيئة مِن بَاب المَحْوِ والإزالة، فإن كانت الحسنةُ المدروءُ بها السيئةَ مِن بَابِ التوبة، فهو مِن بَاب المَحْوِ والإزالة، وَإن كَانَت حسنةً أخرى، كَمَا لَو دَفَع السيئاتِ بالصلاة، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، فهذا الدَّرْءُ مِن بَاب المقابلة، أَيْ: إنَّ ثواب الحَسَنَة يُقابَل بعُقُوبة السيئة مِن بَابِ الموازَنَة؛ فإذا رَجَحَ ثوابُ الحَسَنَةِ انْمَحَتِ السيئةُ، وإلَّا فلا.

والأوَّلُ أكملُ؛ لأنَّه إذَا حَصَل صارتِ الحسنةُ الثَّانيةُ زيادةَ رِفْعَةٍ في الدرجات، وليست بمقابَلة بالسيئة.

ثُمَّ إنه إذَا كَانَ الدَّرْءُ مِن بَاب المقابَلة، فَقَدْ تَضْعُفُ الحسنةُ الثَّانيةُ عن مُقَابَلَةِ السيئة، فصار الدَّرْءُ بالتوبة أكملَ مِنَ الدَّرْءِ بِفِعْلِ حَسَنَةٍ أُخْرَى تُقابِل السيئةَ، وكلا الأمرين يَحْصُلُ به الدَّرْءُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْهُمْ] كلامُه هَذَا -حَقِيقَةً- وَجِيهٌ، لَكن لَو قلنا: إنها أَعَمُّ، وإنهم يَدْرَؤُونَ بالحَسنةِ السيئةَ، منهم ومِن غَيْرِهِم، أي: إذا أُسِيءَ إلَيْهِم دَفَعُوا الإساءةَ بالإِحْسَانِ، فيكونُ هنا ثَنَاءٌ عليهم مِنْ حيثُ معاملتهم مع الخَلْقِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥].

وَعَلَى هَذَا، فنَحْمِلُ الآيَة عَلَى المَعْنَيَيْنِ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ بالنِّسبة لِمَا يَقَعُ منهم في عِبَادَة الله، ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ بالنِّسبة لَمَا يَقَعُ مِن غَيْرِهِم في المعَامَلَة.

قال الرَّسُول ﷺ لما سأله الرَّجُل عن إنسان يأتي ليَأْخُذَ ماله قال: «**فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ**». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ: «**قَاتِلْهُ**». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ: «**فَأَنْتَ شَهِيدٌ**»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ: «**هُوَ فِي النَّارِ**»(١).

فلذلك فإنَّ قَوْلَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قَولِه تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾: [مِنْهُمْ] مِنَ الصَّوابِ أَنْ نَجْعَلَهُ أَعَمَّ، أي: مِنهم في مُعَامَلَتِهم مع الله، ومِن غَيرهم في مُعَامَلَتِهم مَعَ الخَلق.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق، كان القاصد مهدر الدم في حقه، وإن قتل كان في النار، وأن من قتل دون ماله فهو شهيد، رقم (١٤٠).

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَتَصَدَّقُونَ]، ويُهدون أيضًا، وليس لازمًا أَنْ يتصدَّقُوا فقط؛ لأن الهَدِيَّة قَد تَكون محمودةً إذَا كَانَ الغرضُ منها جَلْبَ المَوَدَّةِ، قال رَسولُ اللهِ ﷺ: «تَهَادُوا تَحَابُّوا»(١).

الشاهد أَنَّ قَولَه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ بمعنى: أعطيناهم، فالرِّزق بمعنى العَطاء، ومنه قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء:٨]، أي: أَعْطُوهم، فالرزق بمَعنَى العَطَاء.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾: (مِنْ) هنا لِبَيانِ الجِنْسِ؛ لأنَّ إنفاقَ المالِ كُلِّهِ مِن الأُمُور المحمـودة، فَقَدْ حَـثَّ النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» قُلْتُ: مِثْلَهُ، قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: لَا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا(٢).

فإذا جعلنا (مِن) لِبَيَانِ الجِنس، فيَشْـمَلُ بَذْلَ المال كُلِّه، أو بَعْضِه، يعني: قـد يَكونُ مِنَ الخير بَذَلَهُ كُلَّه.

وقد يَكونُ مِنَ الخَير بَذْلُ بَعْضِه حسَب الحال الذي أُنْفِقَ فيها.

وقوله تعالى: ﴿يُنفِقُونَ﴾ الإنفاق بمعنى البَذْلِ، لا بمعنى الصَّدَقة، لكن

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٠٨، رقم ٥٩٤)، والبيهقي (٦/ ١٦٩، رقم ١١٧٢٦).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب في الرخصة في ذلك، رقم (١٦٧٨)، والترمذي: كتاب المناقب، بعد باب مناقب أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ واسمه عبد الله بن عثمان ولقبه عتيق، رقم (٣٦٧٥)، وقال: حديث حسن صحيح.

الذي أوجبَ للمؤلف أن يَخُصَّه بالصَّدَقَة أَنَّ المقامَ مَقامُ ثَنَاءٍ، ولكن الأَولَى أَنْ نَجْعَلَه على عُمومه، ونَجْعَل معنى قوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾ أي: يَبْذُلُون ويُعطون؛ لأن البَذْلَ قَد يَكونُ تَصَدُّقًا خيرًا، وَقَد يَكونُ البَذْلُ تَوَدُّدًا خيرًا أيضًا، وَقَد يَكون أفضلَ مِن الصدقة في بَعض الأحيان.

ويجب أن نُفَرِّقَ بين الهِبَة، والهَدِيَّة، والصَّدَقة:

الصَّدَقة: هي ما أُرِيدَ بها وجهُ الله، ويُتَقَرَّبُ بها إِلَى اللهِ، ولا يَهُمُّه تَقَرَّب إليها بمُعطًى أَم لَا.

والهَدِيَّة: ما قُصِد به التَّوَدُّد للمُعْطَى، أي يريد أَنْ يتقرب إلى المُعْطَى، ويَتَقَرَّب منه المعطَى.

والهِبَة: مَا قُصِدَ به نفعُ الموهوب فقط، لَا أَنْ يتقرب إِلَى الله بذلك، فهذه تُسمَّى هِبَةً.

وكُلُّها محمودة في الواقع، وَقَد يَكونُ بعضُها أَفضَلَ مِن بعضٍ، هذا عَلَى حَسَب الحال.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ المُؤمِنينَ مِنْ أَهْلِ الكتَاب لهم أَجْرَانِ: الأجرُ الأول الإِيمَان بكتابهم، والثَّاني: الإِيمَان بالقُرْآن.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ عَدْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حَيث لَم يُضَيِّع أجرَهم الأول بالأجر الثَّاني، ولا الأجْرَ الثَّانيَ بالأجر الأول.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الثَّوَابَ عَلَى قَدْرِ العَمَل، قَالَ تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ

ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

فهؤُلاءِ كان ثوابُهم مَرَّتَيْنِ؛ لأَنَّهم عَمِلُوا مَرَّتَيْنِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الأَسْباب والعِلل؛ لقوله: ﴿بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فَضِيلَةُ الصَّبْر، طالما أَنَّ الصَّبرَ سببٌ للأجر؛ فَلَا شَكَّ أَنَّه صِفَة حميدة، وفاضلة.

وَقَد ذَكَرنَا قَبلَ ذَلكَ أَنَّ الصَّبرَ يَنقَسم إِلَى ثَلَاثَةِ أَقسَام:

صَبْرٌ عَلَى طَاعَةِ الله، وصَبْرٌ عن مَعصيَةِ الله، وصَبْرٌ على أقدار الله، وأَنَّ أَفْضَلَهَا أَوَّلُها، ثم الثَّاني، ثم الثالث.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَات؛ لقوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّه يَنبَغي مقابَلةُ المسيءِ بالإِحْسَان، فالحسناتُ يُذْهِبْنَ السيئاتِ، فالآية -كَمَا قُلنَا- عامَّة لِدَرْئه سيئاتِهم بحَسَنَاتِهم، ودَرْئِهم سيئاتِ غَيْرِهم بالإحسَان إِلَيهمْ، وَأَتَيْنَا لذلك بشاهِدٍ مِنَ القُرْآن، لكن دَرْءُ سيئات الآخرين بالإِحْسَان إِلَيْهِم ثقيلٌ عَلَى المَرْءِ جِدًّا، وَلهَذَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥].

وأكثرُ النَّاسِ يَقُول: واللهِ لَأَكِيلَنَّ له الصَّاعَ بالصَّاعَين، والصَّفْعَةَ بالصَّفْعَتَيْنِ، لكن الأمر لَيسَ كَذَلكَ، قَالَ تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، فكانت النتيجة: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤]، وأتى بـ(إِذَا) الفُجَائِيَّة؛ للدَّلَالَة عَلَى أَنَّ هَـذَا الأَمرَ يتحول بسرعة، فهذا العَدُوُّ يتحول بسرعة ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾،

يعني: صديق قريب لك.

وهـذا ينبغي أَلَّا يكونَ مَظْهَرَ عَجْزٍ في المرء؛ فَإن كَانَ مَظْهَرَ عَجْزٍ في المرء فَلَا يَنبَغي؛ لأَنَّ اللهَ تعالى يَقول: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى:٤١]، وَلَو كَانَ فَاسقًا، هذا بالنِّسبة لِحَقِّكَ الخاصِّ، أَمَّا بالنِّسبة لحَقِّ اللهِ فَلَا، بل يُعَامَلُ بمَا يَقتَضِيه الشرعُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: فَضيلَةُ الإنفَاق مِن رِزق الله لقَوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ الْمُنْفِقَ لَمْ يُنفق ممَّا صَنَعَه، أو اكتسبَه بنفسِه، ولكن يُنفق مِن رزق الله، فاللهُ هُوَ الَّذي رَزَقَك، وَهُوَ الَّذي أَمَرَكَ، فَأَنـتَ في الحَقيقَة خادِمٌ، عَبْـدٌ مُتَصَرِّفٌ حَسَبَ أَمْرِ سَيِّدِكَ، قَالَ لَك: اكْتَسِبْ. فَاكْتَسَبْتَ، قَالَ لَك: أَنْفِقْ. فَأَنْفَقْتَ.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: قولُه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾، وقولُه في وَصْفِ عِبَادِ الرَّحمَن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧]، وَبَيـنَ قَولِه: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء:٢٩]، نَجمَع بَينَهمَا بأَنَّ غالِبَ أَحوَالِ النَّاس أَلَّا يُنْفِقُوا جَميعَ أَموَالهم؛ لأن إنفَاق جَميع المَال قَد يَكون مُضِرًّا بهم، لَكِن في بَعضِ الأحيان يكون إنفَاقُ جَميعِ المَالِ محمودًا، فلهذا قال: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ فلا تُنْفِق، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ فَتُنْفِق كُلَّ مَا عندَك.

لكن النُّصـوص الأُخْرَى تَدُلُّ عَلَى أَنَّ المَسأَلَةَ مَبنيَّةٌ عَلَى تَغَيُّـرِ الحُكم بِتَغَيُّـرِ الأحوالِ، فَقَد يَكونُ الأفضلُ إنفَاقَ جَميع المَال، وَقَد يَكون مِنَ الأفضل إنفاقُ بَعْضِه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الإنفَاقَ مِن رِزْقِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ محمودٌ، في قَوْلِهِ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

والرزق -كما عَرَفْنَا في بَابِ العقيدة- لَا يَجتَمِع مِن حلالٍ وَضِدِّه.

يقول السَّفَارِينِيُّ[١]:

وَالـرِّزْقُ مَـا يَنْفَـعُ مِـنْ حَـلَالِ أَوْ ضِـدِّهِ فَحُـلْ عَـنِ الْمُحَـالِ

وضِدُّ الحلال هو الحرامُ، فلا يُحمد الإنسَان إذَا أَنفَقَ مِن حَرَام؛ لأَنَّه مَا يُثاب عليه، والواجب عَلَيه أَنْ يَرُدَّ الشَّيْء، ويتخلص منه، لَكنَّ المرَادَ هنا بالرّزق الَّذي يُحمد عَلَى الإنفَاق منه إذَا كَانَ رزقًا حلالًا، أَمَّا مَن اكتسب شيئًا حرامًا؛ فَإِنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «إِنَّ اللهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ، وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ الدِّينَ، فَقَدْ أَحَبَّهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يَسْلَمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ، وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»، قَالُوا: وَمَا بَوَائِقُهُ يَا نَبِيَّ اللهِ؟ قَالَ: «غَشْمُهُ وَظُلْمُهُ، وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ، فَيُنْفِقَ مِنْهُ فَيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلَ مِنْهُ، وَلَا يَتْرُكُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ، إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالحَسَنِ، إِنَّ الخَبِيثَ لَا يَمْحُو الخَبِيثَ»[٢].

وَهَذَا يَدلُّ عَلَى أَنَّ الإنفَاقَ مِنَ الْمُحَرَّمِ لَا يَنفَعُ المرءَ، لكن ينفعه إذا أنفقه يُريد التخلُّص منه، بمَعنَى أَنَّه لَا يَلحَقُه شَيء مِن جَرَّائه، وينفعه؛ لأن إنفاقه للتَّخَلُّص منه تَوْبَةٌ، والتوبةُ تنفع العبد.

• • ❁ • •

(١) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، لشمس الدين محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (١/ ٣٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧، رقم ٣٦٧٢).

الآيــة (٥٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القَصَص:٥٥].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ الشَّتْمَ وَالْأَذَى مِنَ الْكُفَّارِ ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ سَلَامُ مُتَارَكَةٍ، أَيْ سَلِمْتُمْ مِنَّا مِنَ الشَّتْمِ وَغَيْرِهِ ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ لَا نَصْحَبُهُمْ].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا﴾ يجب بدايةً أَنْ نَعْرِفَ الفَرقَ بَينَ (سَمِعَ)، و(اسْتَمِعَ)، فالسامِع: هُوَ الَّذي أَدرَكَ الصوتَ دُونَ قَصْد. والمستمع: هُوَ الَّذي أَدرَكَهُ بِقَصْدٍ.

ولهذا نقول: يُسَنُّ سُجود التِّلَاوَة للمُستمع دُون السَّامع.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ دَلَّ عَلَى أَنَّ هَؤلَاء لَا يستمعون إِلَى القَول، ولكن يسمعونَه، كَقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢]، مَرُّوا به، وَمَا جلسوا عنده.

هَؤلَاء أَيْضًا ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [الشَّتْمَ وَالْأَذَى مِنَ الْكُفَّارِ].

أَيضًا هَذَا تَخصيصٌ لَمَا هُوَ أَعَمُّ؛ فإنَّ اللَّغْوَ يشمل مَا قَالَهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويشمل أَيْضًا كُلَّ كَلَام لَا خَيرَ فيه، سَوَاءٌ كَانَ فيه شَرٌّ أَمْ لَم يَكُن.

فهؤُلاءِ في غَايَة ما يَكونُ مِنَ الجِدِّ، وحِفظ الوقت، لا يستمعون إِلَى كَلَام لَغْوٍ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَدَح الَّذينَ لَا يستمعون اللَّغْو، والنَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ»[1].

والمقابلُ للخَيْر الشَّرُّ، وَمَا لَا خَيرَ فيه، وَلَا شَرَّ، وهو اللغو، فالأصح أنه يشمل كُلَّ كَلَامٍ لَا خَيرَ فيه، سَوَاءٌ كَانَ فيه أَذًى وشَرٌّ، أَمْ لَم يَكن، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بأبدانهم، أو بأبدانهم وقلوبهم، أو بقلوبهم فَقَط حَسَب الحال، وَلَكنَّ الأَصلَ هو القُلوب، لَكن قَدْ تَشمل الأبدان أيضًا، بحيث إذَا سَمعوا كلامًا لَا خَيرَ فيه قامُوا، وتركوا المكان، حَتَّى لَو لَم يَكن حَرَامًا.

أما إعراضُ البَدَنِ مع إقبالِ القلْبِ، فَهَذَا لَا يَنفَعُ، فالمقام عند اللَّغو أربعةُ أنواع: تارَةً يُقبِل عليه بجسمه وقَلْبِه، فَحينَئذ يَكون مشارِكًا لأهله، وتارَةً يُعرض عَنْهُ بجسمه وقلبه، بحَيث لَا يستمع إلَيه، وَلَا يَجلس، وتارة يُعْرِضُ بقلبه دُونَ جسمه، وتارَةً يُعْرِضُ بجسمه دُونَ قلبه، والتَّركيزُ هنَا عَلَى الإعراض بالقلب.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾، كَأَنَّه يَقول: إذَا قيلَ لَهم: لماذا تقومون؟ لماذا لا تَردُّون؟ لماذا لا تنصَاعُون لأذاهم، يقولون: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾، فَنحن لَا نُسْأَلُ عَمَّا تعملون، وَأَنْتُم لَا تُسأَلونَ عَمَّا نعمل،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم (٦٤٧٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان، رقم (٤٧).

ولا نوافقكم عَلَى هَذَا العَمَل، وليس يعني ذَلكَ أَنَّهم لَا يَأمرونَ بالمَعروف وَلَا يَنهَوْنَ عَنِ المنكَر؛ لأَنَّ الكَلَامَ هنَا عَنِ اللَّغْو، وهو الكلامُ المنافي للخيـر، أَمَّا المنكَر، فَإِنَّهم لَا شَكَّ أنهم يَنهَوْنَ عَنْهُ، وَيَأمُرونَ بالمَعروف.

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ يقول المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سَلَامُ مُفَارَقَةٍ]، أي: سَلِمْتُم مِنَّا مِنَ الشَّتْمِ وغيره، ولا يُسَلِّمُون سلامَ تحية، فَهُم إذَا سَمِعوا اللَّغوَ أَعْرَضُوا وقاموا، وقالوا لهؤُلاءِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾، يعني: سَلَامٌ عَلَيكم منَّا وَلَيسَ مِنَ الله، فأنتم سالمون لا، نُقابلكم بما تفعلون بنا، وَهَذَا مِنَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بنَاءً عَلَى أَنَّ المرَادَ بِقَولِه: ﴿ٱللَّغۡوِ﴾ يعني: الأذى والشتم منَ الكفَّار.

أَمَّا إذَا قُلنَا بالعُموم؛ فَإِنَّه يَحتَمل أَنْ يَكونَ المرَاد بالسَّلام هنا سلامٌ مِنَ الله، أي: سلامُ تَحِيَّـة؛ لأَنَّهُ يُشـرَع لمَن قَامَ مِن مجلس أَنْ يُسَلِّم، وَيَحتَمِـل أَنْ يَكونَ سلامَ مُفارَقَة، وإن شئنا جعلناه مُوَزَّعًا، فقلنا: إِنْ قُلنَا باللَّغو إنه الشتمُ والأذى، فالسَّلام هنا سلامُ مُفارَقَةٍ، بمعنى أنكم سالمون منا، ونحن سالمون منكم، وَإِذَا قلنَا: إنَّ المرَادَ باللَّغو الكَلَامُ الَّذي لَا خَيـرَ فيه، وَإِنْ لَم يَكن سَبًّا، ولا شَتْمًـا، فهو سلامُ تَحِيَّة؛ لأَنَّ هَؤلَاء لَمْ يُسِيئوا إلى المُعْرِضين حَتَّى يَقولوا لهم: سَلَامٌ عَلَيكم مِنَّا.

قوله تعالى: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَا نَصْحَبُهُمْ]، وَهَذَا التَّفسير مِن المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَظُنُّه قاصـرًا؛ فَلَو كَانَ الأَمرُ كَذَلكَ لَقَالَ: لا نَصْحَـبُ الجَاهِلين، لكن ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، والابتِغاءُ بمعْنى الطَّلب، قَالَ تعالى: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ [الفتح:٢٩]، أي: يطلبون، وَإِذَا انتَفَى طلبُ الجَاهِلين، فانتِفَاءُ صُحبَتِهم مِن بَاب أَوْلى؛ لأَنَّهم مَا يطلبون الجَاهِلين، فَضلًا عَن كونهم إذا وَجَدُوهُم صَحِبُوهُم، فظاهِرُ الآية أَولَى، وَأَبلَغُ مِن تَفسير المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالإِنْسَان ذو العِلم

والبَصيرة لَا يَطْلُب الجَاهِلين، فيكون معهم، بَل لَا يَصْحَبُ إلَّا الأَخيَارَ ذوي العِلم والمروءة، والشَّرف والدِّين.

والجَاهِـلُ هنا المرَادُ بِهِ السَّفِيـه، حَتَّى لَو كَانَ عَالِمًا؛ لأَنَّـه إذَا أساء التصـرفَ -وَلَو كَانَ عَالِمًا- فَهوَ بمَنزلَة الجَاهِل، بَل أَشَدُّ مِنَ الجَاهل؛ لأَنَّ مَن خَالَفَ عَن عِلم أَشَدُّ ممن خالَـفَ عَن جَهل، ويُسمى مَن خَالَـفَ عَن عِلم سَفِيهًا، ويُسمى جـاهلًا مُرَكَّبًا إذَا ادَّعَى أَنَّه يَعْلَمُ، بخلافِ الإِنْسَان الجَاهِل الَّذي لَم يَأته العِلم أصلًا؛ فَإنَّ هَذَا قَد يستقيم إذَا عَلِمَ.

إذن: الجَاهِلون هنا لَيْسُوا مَن لَا يَعلَمونَ، بل هم السفهاء.

وَإذَا قَالَ قَائل: مَا الَّذي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الجهل يَأتي بمَعنَى السَّفَه؟

قلنا: قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النساء:١٧]، فَإنَّ قَولَه: ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ بلا شَكَّ أَنَّ المرَادَ: بِسَفَهٍ؛ لأَنَّ مَن يَعمَل السُّوء جاهلًا بِغَيْرِ عِلم هَذَا لَا ذنبَ عَلَيه حَتَّى نَقولَ: إنه يتوب، فالجهل هنَا بمَعنَى السَّفَه.

قوله تعالى: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي: السُّفَهَاء الَّذينَ يَعمَلونَ بجهالة.

والجَاهِل غَيرُ عَالِمٍ، ربما يَبْتَغِيه المرءُ لِيُعَلِّمَه مَا دَامَ جاهلًا، ولهذا فإنَّ الرَّسُولَ ﷺ كان يَعْرِضُ نَفْسَـهُ عَلَى القَبَائل في موسم الحج، يَأتي إلَى قَبيلة، ويأخـذ عليهم، ويدعوهم إلَى الله، فهو يطلـب هؤُلاءِ الجُهَّال ليُعَلِّمَهُم، لَكنَّ المرَادَ بالجهل هنَا هُـوَ السَّفَه؛ لأن السفيـه فِعْلُه -في الحَقيقَـةِ- كَفِعْلِ الجَاهِل تمامًا؛ إذ إنه يُخالف الحـقَّ، وَلَا يَعمَل بِهِ، لكنه أَشَدُّ مِنَ الجَاهِل؛ لأَنَّه غَيرُ مَعذور.

وِمثل هَـذِهِ الصّفَات تُفيدنا في العِلم وَالعَمَل؛ لأن دَأْبَ الصَّحَابَـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فعن أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ قَالَ: إِنَّا أَخَذْنَا الْقُرْآنَ عَنْ قَوْمٍ، فَأَخْبَرُونَا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا عَشْرَ آيَاتٍ، لَمْ يُجَاوِزُوهُنَّ إِلَى الْعَشْرِ الْأُخَرِ حَتَّى يَعْمَلُوا مَا فِيهِنَّ مِنَ الْعِلْمِ، فَتَعَلَّمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا[1].

وأكثرُ النَّاس إذَا قَرَأَ مِثل هَذِهِ الآيَاتِ قال: يَا الله، مَا أَحسَنَ صفاتِهم! وما أجملَ أفعالَهم! وَهَذَا غَايَةُ مَا يَسْتَفِيد مِنَ الآيَة، وَلَكنَّ هَذَا مَا يَكفي، المَقصود مِن ذِكر هَذِهِ الأَوصَافَ الحميدة، سَوَاءٌ كَانَت عَلى سَبيل الإخبَار عَنِ الحَال، أَو عَلى سَبيل القَصص، فالغَرَضُ منهَا هُوَ أَنْ يَعتَبـرَ الإِنْسَان بما حَصَل، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف:١١١].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الثَّنَاء عَلَى مَن أَعرَضَ عَنِ اللَّغْو؛ لقوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّه يَنبَغي الإعرَاضُ عَنِ اللَّغو، وهو الكَلَامُ الَّذي لَا فَائدَةَ فيه، وَلَا خَيْرَ منه، والفِعل يُقَاس عَلَيه، فَلَا يَنبَغي للإنسَان أَنْ يُمْضِيَ وقتَهُ في أفعالٍ لَا خَيرَ فيهَا.

واعلَمْ أَنَّ الخيريَّة ذاتِيَّةٌ وعَرَضِيَّة، بمَعنَى أَنَّه قَد يَكون الشَّيء خَيرًا في ذَاتِه، وَقَد يَكون خَيرًا لِغَيْرِه؛ لِعَارِضٍ يَعْرِض لَهُ.

فمَثلًا: الصلاة خيرُها ذاتي، والسعيُ إليها خَيْرُه عَرَضي؛ لأن مُجَرَّدَ المشي لَيسَ

(١) أخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها، رقم (٢٥٥).

بِقُرْبَة، حَتَّى يَكونَ وَسيلَة إِلَى قُربةٍ أُخرى، فَعَلَى هَذَا لَو أَنَّ الإنسَانَ تحدَّث بحديث لَيسَ مِنَ الذِّكْر، وَلَا مِنَ العِلم، وَلَا مِنَ الأَمـر بالمَعروف، وَالنَّهي عَن المنكَر، لكنه حديثٌ يَقْصِدُ به إدخالَ السُّرور على مُجَالِسِيه، فَهَذَا خَيْرٌ، لكنه ليس خيرًا ذاتيًّا بهَذَا الكَلَام، بَل هُوَ خَيْرٌ عَرَضِيٌّ، أي: عَرَضَ لَهُ بسبب القصد الحَسَن فيهِ، وَهَذَا في الحَقيقَة عَلَى هَذَا التَّقدير.

ولا يتساوى الخير العرَضي، والخيرُ الذاتي؛ لأَنَّ الخَيرَ العَرضي يفقد خيره إذَا زَالَ السَّبَبُ، والخيرُ الذاتي خَيْرُه ثابتٌ دائم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّه يَنبَغي التبرؤ مِن أَصحَاب اللَّغو، وعدم مجالستهم؛ لقوله: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: مشرُوعيَّة السَّلام عِنْدَ الانصراف؛ لقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾، وَهَذَا لَا يَتَوَجَّه عَلَى تفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ إذ إنه يَرَى أَنَّ السَّلَامَ هنا سلام مُفارَقة، لا سلام تَحِيَّة.

وَعَلَى هَذَا، فَلَا تُؤخَذ هَذِهِ الْفَائدَةُ، وَهُوَ إِنَّمَا حَمَلَه عَلَى سلام المفارقـة بِنَاء عَلَى تفسيره اللَّغْوَ بالشَّتْمِ والسَّبِّ.

والحقيقةُ أنَّ هَذَا التَّفسير ناقص؛ لأن السَّبَّ والشتم قَد لَا يُقَال: إنَّه لُغْوٌ فقط، بل لَغْوٌ وعُدوان، فهو أَخَصُّ مِن كونه لَغْوًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّه لَا يَنبَغي للعاقِل طلـبُ السُّفهاء، فَضلًا عَنِ الجلـوس معهم؛ لقوله: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ لأنَّ طلبهم في الحَقيقَة يؤَدّي إِلَى الجلوس معهم، والجلـوس مَعَ الجَاهِلين إثمٌ، كَمَـا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام:٦٨]، فَلَا يَنبَغي للإنسَان أَنْ يتطلب أهل السَّفه، ويجلس إِلَيْهِم، أَو عَلَى الأَقَلِّ يَأْنَسُ بما يفعلون؛ فَإِنَّ هَـذَا مِنَ الصّفَات الَّتي لَيسَ عَلَيهَا أَهْلُ الخيـر والإِيمَان.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٥٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القَصَص:٥٦].

قَالَ المُفَسِّـرُ: [وَنَزَلَ فِي حِرْصِهِ ﷺ عَلَى إِيمَانِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ هِدَايَتَهُ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ ﴾ عَالِمٌ ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾].

أَبو طَالِبٍ هُوَ أَبو عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا العَمُّ آوَى رَسُولَ الله ﷺ ودافع عنه، وناصَرَهُ، ولكن حِيلَ بَينَه وَبَينَ الإِيمَان؛ بسبب مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ مِنَ الشَّقاوة.

وَفي عَدَم إيمانه حِكمة عظيمة؛ لأَنَّه لَو آمَنَ مَا تَمَكَّنَ مِنَ الدِّفاع الَّذي حَصَلَ منه للرسول ﷺ، إذ لَوْ آمَنَ لَكَانَ هُوَ مَحَلَّ إيذاءٍ للمشركين، لَكن لَمَّا بَقيَ عَلَى مِلَّتِهم كانوا يحترمونه بعضَ الاحترام، فَكَانَ في بَقَائه عَلَى الكفر مِن حِكمَةِ الله مَا هُوَ ظَاهر، وَإِلَّا مَا استطاع أَنْ يَحمِيَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تلك الحماية.

وهذا الرجل لَهُ فَضل عَلَى الإسلَام؛ بسبب دفاعه عنه، ولهذا أَذِنَ اللهُ لِنَبيِّه ﷺ أَنْ يَشفَعَ له، مَعَ أَنَّه لَا يمكن أَنْ يَشْفَعَ لغَيـره مِنَ الكفَّار، إِلَّا هَذَا الرَّجُل؛ لِمَا لَهُ مِنَ الفَضل على الإسلَام مِن حماية الرَّسول ﷺ، وَالدِّفَاع عَنه.

ولكن هَذِهِ الشفاعةُ ما نفعته نفعًا كَامِلا، وَهُوَ غَيرُ مؤمن، إنما نَفَعَتْهُ أَنَّه كَانَ

في «ضَحْضَاحٍ[١] مِنْ نَارٍ عَلَيْهِ نَعْلَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»[٢]، وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ أَشَدُّ أَهلِ النَّار عذابا، وهو أهونُهم.

قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ».

يعني: شَفَعْتُ له، أو أنَّه أيْضًا عَمِلَ مَا عَمِلَ في حمَايَة الرَّسول ﷺ.

هذا العَمُّ حَرَصَ النَّبيُّ ﷺ غايةَ الحِرص عَلَى أَنْ يُؤمنَ، حَتَّى إنَّه في سِيَاق الموت قال لَهُ: «أَيْ عَمِّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»[٣]. فكَانَ آخِرُ مَا قَالَ: إنَّه عَلَى مِلَّة عَبد المطَّلب، وإنه لن يدع طريقة الأشياخِ الكبار أَهْلِ الجَاهليَّة.

وَكَانَ عندَه رَجُلَان مِنَ المشركينَ يُلَقِّنَانِه: أَتَرغَب عَن مِلَّة عَبد المطَّلب؟ فكان أنْ خُتِمَ له بخاتمة الشَّقاء، فلم تنفعه هَذِهِ المحاولة مِن الرَّسول ﷺ، ونَدِمَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى هَـذَا الأَمـر، وقال: «أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»[٤]. فَنُهِيَ عَنهُ، وَقيلَ لَه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣].

أما بالنِّسبة لنَدَمِـه عَلَى عَدَم إيمانه فَسَلَّاه اللهُ تعالى بهَذَا الأَمر: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايتَه.

---

(١) الضَّحْضَاح فِي الأَصْل: ما رَقَّ مِنَ المَاءِ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مَا يبلُغ الكَعْبين، فاستَعارَه لِلنَّارِ. النهاية: ضحضح.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢٠٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٤)، ومسلم كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، رقم (٢٤).

(٤) تقدم تخريجه، وهو بقية الحديث السابق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ﴾ أي: يَا محَمَّـد، فالنداء له ولغيـر الرَّسول ﷺ مِن بَابِ أَوْلَى، فَإِذَا كَانَ الرَّسولُ ﷺ، وَهُوَ أَشرَفُ الخَلق عند الله، وأعظمُهم جاهًا، لَا يَستَطيع أَنْ يَهْدِيَ أَحَدًا، فكيف يستطيع غيرُه؟

وقوله تعالى: ﴿لَا تَهْدِى﴾ المُراد بالهداية هنا هدايةُ التَّوْفِيقِ، بمعنى: لَا تَضَعوا الهدايةَ في قُلـوب النَّاس، وليسـت هدايـةَ الدَّلَالَة والإرشاد؛ فإنَّ هِدايـة الدَّلَالة والإرشاد ثابتةٌ للرسول ﷺ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، ولكن هداية التوفيق -وهي إلقاءُ الهُدى في القلوب- إنَّما هِيَ لله عَزَّوَجَلَّ وحدَه.

وَقَولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَدَّرَهُ بقوله: [هِدَايَتَهُ]. والصَّواب: مَنْ أَحْبَبْتَهُ.

وقد عَدَل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَى تَقدير: [أَحْبَبْتَ هِدَايَتَهُ]؛ لأن الرَّسول ﷺ لَا يُمكن أَنْ يُحِبَّ أَبَا طَالبٍ وَهُوَ كَافر؛ فإن المؤمنَ لَا يُحِبُّ الكافرين.

ولكننا نقول: الحُبُّ الطَّبِيعِيُّ لَا يُنَافي الإِيمَان، فالإِنْسَان يُحب -مثلًا- قريبَه، وَلَو كَانَ كَافرًا، لكنَّها محبةٌ طبيعية، كما تُحِبُّ الأُم ولَدَها.

فالمحبَّة الدينيَّة لَا تَجوز بَينَ المؤمن وَالكَافر، قَالَ تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢].

أَيْضًا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [مَنْ أَحْبَبْتَ هِدَايَتَهُ]، ولو أَنَّنا حَمَلنَاهَا عَلَى مَا قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَكَانَت هَـذِهِ تَعُمُّ كُلَّ النَّاس، لأن الرَّسول ﷺ يُحِـبُّ أَنْ يَهدِيَ كُلَّ

النَّاس، وليس أَبَا طَالب فقط، لكن تقدير (مَنْ أَحْبَبْتَهُ) يَخْتَصُّ بأبي طالب، أَوْ غَيرِه مِن أقاربه.

أَيْضًا لَوْ أَنَّنا قلنا -كَمَا قَالَ المفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ- لَكَانَ في الآيَة إضمارٌ، وهو إضمارُ الهداية؛ لأَنَّ الأَصلَ في ضَمير الصِّلَة أَنْ يَعُود إِلَى الصلة نفسها، و﴿مَنْ﴾ اسمٌ موصولٌ يَعُود عَلَى أَبي طَالب، وعائدُ الصِّلة يَعُود عَلَى الصِّلة نفسها، وبهذا تَبيَّنَ أَنَّ الراجح (مَنْ أَحْبَبْتَهُ) مِن وُجُوهٍ ثلاثة: وجهٍ معنويٍّ، ووجهين لَفْظِيَّين.

الوجهُ المعنويُّ: أَنَّ الآيَةَ نَزَلَت في أَبي طَالب، ولو قلنا: (مَنْ أَحْبَبْتَ هِدَايَتَهُ) لكانت عامَّة.

والوجهان اللفظيان: الأول: أَنَّنَا إِذَا قَدَّرْنا (هِدَايَتَهُ) لَزِمَ أَنْ يَكونَ في الآيَة شَيْءٌ محذوفٌ، وَالأَصلُ عَدَمُ الحذفِ.

والثَّاني: أَنَّ عائد الصِّلة يَعُود إِلَى الموصول، فَإِذَا عَادَ إِلَى ﴿مَنْ﴾ في قَوْلِهِ: ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ صار المراد: مَن أحببتَهُ هو.

وَأَمَّا مَا لاحَظَهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن أَنَّ الرَّسولَ ﷺ لَا يمكن أَنْ يُحِبَّ أَبَا طَالب، فالجوابُ عَلَيه أَنَّ المَحَبَّةَ نوعان: محبةٌ طبيعية، ومحبةٌ شرعية، فالمحبةُ الطبيعية لَا تُنَافي المحبة الشرعية، فقد تجتمع مَعَهَا، وَقَد تنفرد، فَإِذَا كَانَ المؤمن قريبًا لك اجتَمَعَ فيه المحبَّتَان، وَإِذَا كَانَ بعيدًا منك، وُجِدَت فيه محبةٌ واحدةٌ، وهي الشرعية، وَإِذَا كَانَ قَريبًا وَهُوَ غَيرُ مُؤمن، ففيه محبة واحدة، وهي المحبة الطبيعية.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، أي: يهدي هِدايةَ توفيق، وقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أي: مَن يَشَاء أَنْ يَهديَه، وهنا نستطيع أَنْ نُقَدِّرَ: مَن يَشَاء هدايته؛ لقوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

وقوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ عَلَّق الفِعلَ بالمشيئة، وَكُلُّ فِعل يُعَلِّقُه الله بالمشيئة مِن أَفعَالِه، فإنه مَقْرُونٌ بالحِكمة؛ إذ إِنَّ أفعالَ اللهِ كُلَّهَا مَبنيَّة عَلَى الحِكْمَة.

إذن: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايته، لَيسَ الأَمرُ اعتباطيًّا، وَلَكنَّ الأَمرَ عَلَى حِكمة، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦]، لَا يَهدي مَن يَهدي إلَّا وَهُوَ أهلٌ للهداية، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وكذلك هُوَ أَعلَم حيث تَكونُ هَذِهِ الرِّسالَة، فَمَن كَانَ أهلًا للرسالة أُرْسِلَ، وَمَن كَانَ أهلا للقِيام بواجبِ الرِّسالَة، هُدِيَ لذلك.

فإذن الإطلَاقُ في قَوْلِهِ: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ عَلَى وَجْه الحِكْمَة.

قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: عَالِمٌ بِالمُهْتَدِينَ].

وهنا أخطأ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فنحن ننتقده مِن وَجهَين:

الوجه الأول: أَنَّ هَذَا تحريفٌ للقُرآن؛ حيث حَوَّل ﴿أَعْلَمُ﴾ الدالَّ عَلَى الكَمال في العِلم والأفضلية فيه إلَى (عالِم)، الَّذي لَا يَمنَع مشاركةَ غَيرِه لَهُ في هَذِهِ الصِّفَة، فأنا أقول: محمدٌ عالِم، وزَيْدٌ عالِم، وبَكْرٌ عالِم، إلَى آخِره، لَكن لَو قلت مثلًا: زَيْدٌ أَعْلَمُ. فمَعنَاه أَنَّه مَا ساواه أَحَدٌ في عِلْمِه.

فالمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآن حَرَّف القُرْآن، حيث فَسَّر ﴿أَعْلَمُ﴾ بـ(عالم)، وفَسَّر مَا يَدُلُّ عَلَى الكَمال بمَا يَدلُّ عَلَى المُشارَكَة.

الوجه الثَّاني: أَنَّنا نقول: إِنَّ وَصفَ الله بأَنَّه ﴿أَعْلَمُ﴾ أكملُ مِن وَصْفِه بأَنَّه (عالِم)، أكمل بلا رَيْبٍ، فَمَا الَّذي يمنَع أَن نَقولَ (أَكْمَلُ)، وكأنه يُريد أَنْ يَقُولَ: لَا يمكن أَنْ نَقولَ: إِنَّ اللهَ أعلَمُ، فنَجْعَل لله مُشارِكًا في العِلْم، فنقول: مَا جَعَلتَ لله مشاركًا

مُساويًا، بل جعلتَ لله مشاركًا نازِلا عَنْ عِلم الله، فَاللهُ أَعلَم.

لَكن إِذَا قلت: إِنَّ اللهَ عالم، جعلتَ لله عِلْمًا قد يُساويه غَيرُه فيهِ.

فالصَّواب أَنَّ ﴿أَعْلَمُ﴾ اسمُ تفضيلٍ، وأنها عَلَى بَابِهَا.

وقوله: ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ فِعْلًا، أو بِمَنْ يَستَحِقُّ أَنْ يَكونَ مِنَ المهتَدينَ، إِذَا قلنَا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أو بِمَن هُـوَ قابِلٌ للهدايـة؛ لأَنَّ الكَلَامَ الآنَ عَلَى إنشاء الهداية في قَلب المَرْءِ.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ ليس معناه: الَّذينَ اهتَدَوا، بَل مَعنَاه: أَعلَم بمَن يَستَحقُّ أَنْ يَقْبَلَ الهُدى، ولهذا فَسَّرَهُ بعضُهم بالمهتدين في عِلم الله، أي: مَن عَلِمَ اللهُ أنهم سيكونون مهتدين.

فعلى كُلّ حَالٍ: المهتـدي معناه: مَن كَانَ قابِلًا للهِدايـة، ومعناه: مَن اهتـدى بالفِعل، وَالمرَاد بالآيَة الأول، يعني: أَعلَم بِمَن يَقْبَل الهداية، فيهديه.

والجمع بَينَ هَذِهِ الآيَةِ، وَبَينَ الآيَة الَّتي أَشَـرنَا إِلَيهَا قَبلَ قليل، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أَنَّ المُثْبَـتَ غيرُ المنفي، فالمراد مِن قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هداية الدَّلَالة، كَقَولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، هديناهم معناه: دَلَلْنَاهم عَلَى الهُدَى، ولكنهم استَحَبُّوا العمى عَلَيه، فَلَم يَهْتَدُوا، وأَمَّا الهداية هنا، فهي هدايةُ التوفيق، وهذه لَيسَت لأَحَد، مَا هيَ إِلَّا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

من فوائد الآية الكريمة:

أنَّ الإنسَان إذَا جَدَّ واجتَهَد في دَعوَة النَّاس إلَى الهُدَى، فَلَمْ يَهْتَدُوا، فَإنَّ عَلَيه أَنْ يَتْلُـوَ هَذِهِ الآيَـةَ، وهي: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، وإلا فَكَثيـرٌ مِـنَ النَّاس الآن عندهم أقاربُ؛ إمَّا مَعَهم في البيوت، أو خارِجَ البيوت، يَدْعُونَهم إلَى الهـدَى فلا يهتدون، فنقول: الحمد لله أَنْ بَيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّ هَذَا الأَمرَ ليس إلينا، إِنَّمَـا هُوَ إليه، إِنِ اهْتَدَوْا، فلَهُم ولنا ثوابُ دَلَالَتِهم، وَإِنْ لَمْ يَهْتَدُوا، فلنا ثوابُ الدَّلَالَةِ والدعوة، وعليهم وِزْرُ الغَيِّ.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القَصَص:٥٧].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالُوٓاْ﴾ قَوْمُهُ ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ نُنْتَزَعُ مِنْهَا بِسُرْعَةٍ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ يَأْمَنُونَ فِيهِ مِنَ الْإِغَارَةِ وَالْقَتْلِ الْوَاقِعَيْنِ مِنْ بَعْضِ الْعَرَبِ عَلَى بَعْضٍ «تُجْبَى» بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ ﴿إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ﴿رِّزْقًا﴾ لَهُمْ ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ عِنْدَنَا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ مَا نَقُولُهُ حَقٌّ].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قَوْمُهُ] أي: قوم الرَّسول ﷺ، وَهُم قُرَيش، ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ وَهَـذَا القَولُ كَذِبٌ منهم، سواء قَالوا ذَلكَ عَن عَقيدَة، أَو عَنِ غَيرِ عَقيدَة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ المَعِيَّة هنا للمُصاحَبة والتَّبَعِيَّة، يعني: إِنْ نَتَّبع الهدى، ونكُنْ مَعَك فيما تَدعو إِلَيْه.

والمراد بالهُدى مَا جَاءَ به الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وفي قَولِه تعالى: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ إقـرارٌ بأَنَّ مَا مع الرَّسول ﷺ هُـدًى،

وهذا غريبٌ منهم أَنْ يَقُولُوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾، فيعترفوا بأنه هُدًى، ثُمَّ بَعدَ ذَلكَ يكفروا.

قوله تعالى: ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ نُنْتَزَعُ مِنْهَا بِسُرْعَةٍ]. والخطفُ: نَزْعُ الشَّيْء بسرعة: أي: يَتَخَطَّفُنا النَّاس، ويكونون علينا؛ لأَنَّنا خالفنا مَا كَانوا عَلَيه مِنَ الشِّرك والأوثان، فهُم يَقْضُون علينا بسرعة، وَهَذَا كَقَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران:١٧٥].

فالشَّيْطانُ يُخَوِّف المُؤمِنينَ بالكُفَّارِ، يقول: ترى إِنْ آمَنْتُم حَصَل كَذَا وَكَذَا، إِنْ تَمَسَّكْتُم بِدِينِكم حَصَلَ كَذَا وَكَذَا، إِنْ أَلْزَمْتُمُ النَّاسَ باتِّبَاع الإِسْلام؛ ظَاهرًا وَبَاطنًا، ثار النَّاس عَلَيكم، فالنَّاسُ ثَلَاثَةُ أرباعِهم يريدون الفُسوق، وَأَنتُم إذا أَلْزَمْتُمُوهُم بالدِّين؛ فإنهم يَثُورُون عليكم.

وهَذَا لَا رَيبَ يُلْقِيه الشَّيطَان في قلوب النَّاس، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾.

ولكن الوَاجب عَلَينَا نَحوَ هَذَا المَقَام أَلَّا نخافَ ما دُمنا نرى أَنَّنا نَسِير عَلَى الحَقّ، بل نَعْلَمُ عِلم اليَقِين أَنَّنا لو صِرنا عَلَى الحَقّ لَخَافَنَا النَّاسُ، وَلَمْ نَخَفْ منهم، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام:٨٢]، الأَمنُ مِنَ الخَوف، لَا مِنَ اللهِ، وَلَا مِن غيرِه، يعني: لَا يَخَافونَ عِقاب الله؛ لأَنَّهم آمَنوا إيمَانًا صريحًا مَا لَهُ سَبَب، وَكَذَلكَ أَيْضًا يُؤَمِّنُهم اللهُ مِمَّا يخافون، وَهُوَ أَحَدُ التفسيرين في قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر:٢٣]، وَهُوَ أَنَّ المؤمنَ هُوَ الَّذي يُؤَمِّنُ عِبادَه الطائعين له مما يخافون.

لَكن هَذَا يتطلب في الواقع إيمانًا حقيقيًّا؛ فَإِذَا وُجِدَ الإِيمَان الحقيقي، ثم نُفِّذَت

الشريعة؛ فأنا ضامِنٌ أَنْ يَحصُلَ الأمنُ التامُّ.

والدَّليلُ قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، أي: نَجعل لهم مكانًا آمِنًا، وَمِثلَ قَولِه تعالى: ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج:٤١]، أي: جعلنا لهم مكانًا يتمكنون فيه.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن﴾ الهَمْزَةُ هُنا معناها التَّقريرُ، أي: قَدْ مَكَنَّا، كَمَا في قَوْلِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، أي: قد شرحنا لك.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ﴾ لِعُلماء النحو في هَذَا الأسلوب مذهبان:

المذهب الأول: أَنَّ الهَمْزَة داخلة على شيء مُقَدَّر، والواو، أو الفَاءُ حَرْفُ عَطْفٍ عَلَى ذَلكَ المُقَدَّر.

والمذهب الثَّاني: أَنَّ الهَمزة بَعْدَ الواو مَحَلّها، لكن قُدّمت؛ لأنَّها للاستفهام، وأصلها (وَألم).

وقوله: ﴿حَرَمًا﴾ على وزن: بَطَل، فهو صِفَةٌ مُشَبَّهَة، أي: مِن الحُرمة، يعني: مكانًا حَرَمًا ذا حُرمة، ولا رَيْبَ أَنَّ مَكَّةَ المكرمة لها حُرمة عظيمة في نفوس النَّاس، حَتَّى في الجَاهِلية.

وقوله: ﴿ءَامِنًا﴾ اسمُ فاعل، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَأْمَنُونَ فِيهِ مِنَ الإِغَارَةِ وَالقَتْلِ الوَاقِعَيْنِ مِنْ بَعْضِ العَرَبِ عَلَى بَعْضٍ] فَجَعَل معنى ﴿ءَامِنًا﴾ أي: آمِنًا أهلُه، وفَسَّرَهُ بقوله: [يَأْمَنُونَ]، فَيَكون المَعنَى: آمِنًا أهلُه.

وعندي أَنَّ الوصفَ هنا للحَرَمِ؛ لأن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَرَى أَنَّه وصفٌ سَبَبِيٌّ، وَأَنَا أَرَى أنه وصفٌ حقيقي.

والنَّعْتُ قَدْ يَكون نَعْتًا سببيًّا، أو نَعْتًا حقيقيًّا، فالنعتُ الحقيقي هو مَا كَانَ صِفة للمنعـوت، والسببيُّ هو مَا كَانَ صِفَةً لغيـره مما يتصل به، فإذا قلت: عنـدي رَجُلٌ صائم. فهذا نعتٌ حقيقي، وإذا قلت: عندي رَجُلٌ صائِمٌ أَبُوه. فهذا النعتُ سببيٌّ؛ لأن الوصف قائم، وهو يَعُود عَلَى مَن له صِلة به.

ولذلك فأنا أرى أَنَّ الحَـرَم هو الآمِن، وإذا أَمِنَ المكانُ -بلا رَيْـبٍ- فسوف يأمن مَن فيه، فلا يَعْتَـدِي أَحَدٌ عليه، حتَّى مَن أرادَهُ بِسُـوء أَتْلَفَه اللهُ، قَالَ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥].

فالعربُ أنفسُهم معَ كُفرهم، ومَهْمَا فَعَلَتْ قُريش لَا يُمكن أَنْ يَغْزُوا هَذَا البَيتَ أبدًا.

ثُمَّ إِنَّ أهلَ هَذَا البَيـت هُم سادةُ العَرب، حَتَّى في الجَاهليَّة، فكيف يقولون: ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾؟ هذا غَيرُ ممكن؛ لأن الحَرَمَ آمِنٌ، فَهُم آمنون فيه، لا يمكن أَنْ يُتَخَطَّفُوا فيه.

ثم مَعَ ذَلكَ هذا البلدُ مع كونه آمِنًا، هو أَيْضًا عَيْشٌ رَغْدٌ، ما يلحقُ أهلَه ضِيقٌ.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ]، فتكون ﴿يُجْبَىٰٓ﴾، و«تُجْبَى»[1]، وهُما قراءتان سَبْعِيَّتَان، ومعنى ﴿يُجْبَىٰٓ﴾ أي: يُجمَع، وبمعنى يُؤتَى أيضًا، فالثمرات تُجمَع مِن كل أرض، ويُؤتَى بها إِلَى هَذَا البلد، وَهَذَا هُوَ الواقع، قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ

(١) السبعة في القراءات، لابن مجاهد (ص٤٩٥).

وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [إبراهيم:٣٧]، فكانت الثمرات تأتي إلَى هَذَا البَلَد في كُلِّ أوانٍ مِن المكان القريب، كالطائف وغيره، ومِن المكان البعيد.

قوله تعالى: ﴿رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّآ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [رِزْقًا لَهُمْ].

ومعنى الرزق: العَطاء، وهو منصوبٌ لأَنَّهُ مفعولٌ مِن أَجْلِه، أو مَصدر، أو مفعولٌ مُطلَق؛ لقوله ﴿يُجۡبَىٰٓ﴾، يجبى عطاء.

وقوله: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾ أي: مِن عِنْدِنا، وليس لهم به حَوْلٌ، ولا قُدرة، بل الأمر مِن الله عَزَّوَجَلَّ، هُوَ الَّذي جَعَل هَذِهِ الثمراتِ تُجبى إليه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَنَّ مَا تَقُولُهُ حَقٌّ].

المعلوم هنا محذوف في الآية، فَلَمْ يَقُل: لَا يَعلَمونَ كَذَا وَكَذَا، ولكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خَصَّه بقوله: [﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾: أَنَّ مَا تَقُولُهُ حَقٌّ]، وعندي أَنَّ الأمرَ أَعَمُّ وأَشْمَلُ؛ لأن حَذْفَ المفعول يَدُلُّ عَلَى العُموم.

فعليه نقول: لَا يَعلَمونَ أَنَّ مَا تَقُولُه حَقٌّ، ولا يعلَمُون العاقبةَ أيضًا؛ فإن العاقبةَ أَنَّه إذَا كَانَ هَذَا الحَرَمُ آمِنًا في حَالِ الكُفر، وتجبى إليه الثمرات في حَال الكفر؛ فما بالُك في حَال الإِيمَان، كيف وَقَد قَالَ إبراهيم: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة:١٢٦].

فَإِذَا كَانَ أهلُ هَذَا البَلَدِ مؤمنين؛ فإنَّ أَمْنَهُ يكون أَشَدَّ مِن جِهة أَنَّ المكان نَفْسَهُ آمِن، ومِن جِهَة أَنَّ المؤمن الذي في هَذَا المكان آمِن أيضًا، فإذا كَانَ هَذَا الأمنُ، مع كون هَؤلَاء مِنَ المشركين؛ فإنهم إذا كانوا مؤمنين يكون أكثرَ، ولهذا لَمَّا حَصَل مِن المسلمين مَا حَصَلَ مِنِ انْتِهَاكِ هَذَا البَلَدِ العظيم؛ سُلِّطَ عليهم مَنْ سُلِّطَ مِنَ الظَّلَمَة،

مِثل قضيةِ القَرامِطَة، ومِثل ما سيكون في آخِر الزَّمان، حيث يُسَلَّطُ على البيتِ رَجُلٌ مِنَ الحَبَشَة، قال النَّبِيُّ ﷺ: «كَأَنِّي بِهِ أَسْوَدَ أَفْحَجَ، يَقْلَعُهَا حَجَرًا حَجَرًا»(١).

فقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ليس خاصًّا بأنَّ مَا جَاءَ به هُوَ الحَقُّ، بَل هُوَ عامٌّ حَتَّى في النهاية، وفي الغاية مما لَوْ آمَنوا.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب هدم الكعبة، رقم (١٥٩٥).

الآيــة (٥٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القَصَص:٥٨].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ عَيْشَهَا، وَأُرِيدَ بِالْقَرْيَةِ أَهْلُهَا ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ لِلْمَارَّةِ يَوْمًا، أَوْ بَعْضَهُ ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ مِنْهُمْ].

هذه فائدةُ ذِكر إهلاك القُرى السَّابِقة لأَجْل أَنْ يُقالَ لقريش: الكفر لا يَمنَع الخوف، ولا يَمنَع العقوبة، بل إِنَّهُ سبب العقوبة، فأنتم تقولون: إننا إذا آمنا تَخَطَّفَنا النَّاس. هذا ليس بالحقيقة، بل العكس هُوَ الحَقيقَة، وَلهَذَا قَالَ: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾، فكأن الله يُدَلِّل لتكذيب هؤُلاءِ بأن الكفر أهلكَ الأُمَم السَّابقَة التي بَطِرَت معيشتَها.

وقد أبطل اللهُ كلام هَؤلَاء الكُفَّار للرسول ﷺ، لما قالوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ أبطله بالسلب والإيجاب:

أما الإيجاب: فقال: إننا مَكَّنَّا لهم حَرَما آمِنًا لَا يُمكن أَنْ يَكونَ هَذَا البَلَدُ خائفًا، فَإِذَا كَانَ آمِنًا في حَال الكُفر فَفِي حالِ الإِيمَان مِن بَاب أَوْلَى.

وأما السلب: فقوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾،

فالكُفر لا يُؤَمِّن صاحبَه، بَل هُوَ السَّبَب في إهلاكه، فبقاؤكم عَلَى الكفر ليس هُوَ الَّذي يُنَجِّيكُم مِن أَنْ يَتَخَطَّفَكُم النَّاس، بَل هُوَ سبب هلاككم، وَهَذَا هُوَ الواقع؛ حيث خرَج صَنادِيدُ قريش وزعماؤهم إلَى بَدْر لِيَهْلِكُوا، والحَرَمُ آمِنٌ، فما جاء شيء، لكنَّهم هُم الذين خرجوا لهلاكهم، فقُتِلُوا في بَدْرٍ.

• • ۞ • •

الآيات (٥٩-٦٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص:٥٩-٦٤].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ بِظُلْمٍ مِنْهَا ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ أَيْ أَعْظَمِهَا ﴿أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ تَتَمَتَّعُونَ وَتَتَزَيَّنُونَ بِهِ أَيَّام حَيَاتكُمْ ثُمَّ يَفْنَى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ أَيْ ثَوَابه ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاء أَنَّ الْبَاقِي خَيْر مِنْ الْفَانِي، ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ وَهُوَ مُصِيبه وَهُوَ الْجَنَّة ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فَيَزُول عَنْ قَرِيب ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أَيْ إِلَى النَّار الْأَوَّل الْمُؤْمِن وَالثَّانِي الْكَافِر أَيْ لَا تَسَاوِي بَيْنهمَا، ﴿وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الله ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تَزْعُمُونَهُمْ شُرَكَائِي، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ بِدُخُولِ النَّار وَهُمْ

رُؤَسَاء الضَّلَالَة ﴿ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ مُبْتَدَأ وَصِفَة ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ خَبَره فَغَوَوْا ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ لَمْ نُكْرِههُمْ عَلَى الْغَيّ ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ تَبَرَّأْنَا إِلَيْك مِنْهُمْ ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ مَا نَافِيَة وَقَدَّمَ الْمَفْعُول لِلْفَاصِلَةِ، ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أَيْ الْأَصْنَام الَّذِينَ تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شُرَكَاء الله ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ أَيْ لِدُعَائِهِمْ ﴿وَرَأَوُاْ﴾ هُمْ ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ أَبْصَرُوهُ ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا لِمَا رَأَوْهُ فِي الْآخِرَة].

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَانُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لا يَسْتَفِيدُونَ مِنْ شُركائهم شيئًا هُم أحوجُ ما يكونون إليه، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إظهارُ عَدْلِ اللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التوبيخ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ؛ فَإِنَّ فِي هَذَا -لَا شَكَّ- توبيخًا وتقريعًا لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَمْرُ اللهِ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَدْعُوا شركاءهم فِي الْآخِرَةِ لَيْسَ مِنْ بَابِ التَّكْلِيفِ، وَإِنَّمَا الْغَرَضُ التحدِّي، وإظهارُ عَجْز هَذِهِ الْأَصْنَامِ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ؛ لقوله: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الاهتداء هُوَ السَّبَبُ الْمَانِعُ مِنَ العذاب؛ لقوله: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾، فإذا أردتَ سببًا يُنجيك مِنْ عَذَابِ اللهِ، فعليك بالاهتداء بِهَدْيِ اللهِ -أو بِهُدى اللهِ- فَإِنَّهُ هُوَ السَّبَبُ الَّذِي يُنجِي مِنْ عَذَابِ اللهِ.

الآيــة (٦٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القَصَص:٦٥].

قال المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَ﴾ اذْكُـرْ ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ إِلَيْكُمْ].

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، قوله: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ من ناحية الإعراب، (ما) استفهامية، و(ذا) اسمُ موصولٍ، أي: (مَا الَّذِي أَجَبْتُمْ)، و(أَجَابَ) فِعْلٌ ماضٍ، والتاءُ فاعِل، والميم علامةُ الجمع، و﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ مَفعُـول به، وجملة ﴿أَجَبْتُمُ﴾ صِلة الموصـول، والموصـولُ خَبَـرُ المبتدأ، وهو (ما) الاستفهامية.

والشاهدُ عَلَى هَذَا الإعراب مِن كَلَام ابن مالك[1]:

وَمِثْلُ (مَاذَا) بَعْدَ (مَـا) اسْـتِفْهَامِ ... أَوْ (مَـنْ) إِذَا لَمْ تُلْـغَ فِي الْكَـلَامِ

قولُ الناظم: (إِذَا لَمْ تُلْغَ) معناه يُشير إلى وجهٍ آخَرَ، وهو إلغاؤها في الكَلَام، وعليه نَجْعَلُ ﴿مَاذَآ﴾ كُلَّها اسمَ استفهامٍ، وتكون هي المبتدأ.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ﴾ ذكرنا أَنَّه في السؤال الأول:

---

(١) ألفية ابن مالك (ص١٥).

﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ سأل عن التوحيد، وهذا سَأَلَ عَنِ الرِّسالَة، فيكون المسئول عنه الآنَ شهادة أَن لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ محمَّدا رَسُولُ اللهِ، أو عيسى أو موسى، حَسَب الأُمم التي تسأل.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: قَوْلُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ مَرَّ بنا في الآيات السَّابِقة عند قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ إِثْبَاتُ كَلَامِ اللهِ، وأَنَّه بصوتٍ، وأنه يُسمَع، وأنه بِحَرْفٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أَنَّ النَّاسَ يُسألون عن إيمانهم بالرُّسُل، كما يُسألون عن التوحيد.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ السُّؤَالَ فِي الْآخِرَةِ عامٌّ لجميع الخَلق، فقوله: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يشمل: محمدًا ﷺ وغيرَه، أَمَّا السُّؤَالُ فِي الْقَبْرِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إلى أَنَّهُ خَاصٌّ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ لِقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا»[1]، وقوله: «أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ»[2].

والمسألة خلافية، وسبق الكلام عَلَيْهَا فِي التَّوْحِيدِ، إِنَّما يَوْمَ الْقِيَامَةِ السؤال عامٌّ بِنَصِّ الْقُرْآنِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إظهار فضل الرُّسُل -عليهم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-؛ حيث أثبتَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، رقم (٢٨٦٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس، رقم (٨٦)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب ما عُرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف، رقم (٩٠٥).

اللهُ تعالى أحقيَّةَ رسالتِه فِي هَذَا الموطن العظيم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ تَعمَى عليهم الأنباء فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَلَوْ كَانُوا عَالِمِينَ، وَهَذَا كَمَا أَنَّ الْمَيِّتَ إِذَا سُئِلَ فِي قَبْرِهِ: مَن ربُّك؟ وما دِينُك؟ ومَن نبيُّك؟ وَلَوْ كَانَ عَالِمًا؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ غَيْرَ مؤمن لا يجيب بالصَّواب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ لَا يُغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ فإنَّ أَحَدًا لَا يُغْنِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، ولا يُنقذه مِمَّا وَقَعَ فِيهِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ عامٌّ لكلِّ المشركين، وَلِهَذَا قَالَ بعدها: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾، أما المؤمنون، فإنهم مؤمنون لا يُسألون، بل يَكفِي سؤالهم فِي قُبُورِهِمْ.

• • ۞ • •

الآيــة (٦٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [القَصَص:٦٦].

قال المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ الْأَخْبَارُ الْمُنْجِيَةُ فِي الْجَـوَابِ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ لَمْ يَجِدُوا خَبَرًا لَهُمْ فِيهِ نَجَاةٌ ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ عَنْهُ فَيَسْكُتُونَ].

قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: انْطَمَسَتْ عليهم، فلم يَجِدُوا جوابًا، يعني: طلبوا شيئًا ما وجدوه.

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: عَن هَذِهِ الأخبار، وعن الجواب، إمَّا لِعَجْزِهِم، وعَدَمِ تَمَكُّنِهم، أو لأَنَّهم لَوْ سألوا ما وجدوا الخبر.

وقال بعضُهم: إِنَّ معنى ﴿لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾: لا يَتَنَادَوْنَ في القَرابـة، كما كانوا يفعلونه في الدُّنيَا، إذا ضاقت على الإِنْسَان الحِيَل صارَ يُنَادِي قرابَتَهُ واقَرَابَتَاه! وَمَا أَشبَهَ ذَلكَ، وهناك في الآخرة ما يطلبه.

وإعراب قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: (يوم) منصوب على الظرفية، و(إِذ) مُضافٌ إليه، والتنوينُ فيها عِوَضٌ عن جُملة.

الآيــة (٦٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ [القَصَص:٦٧].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ ﴿وَءَامَنَ﴾ صَدَّقَ بِتَوْحِيدِ اللهِ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أَدَّى الْفَرَائِضَ ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ النَّاجِينَ بِوَعْدِ اللهِ].

قَوْلُه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾: (أمَّا) شرطية، وجوابُها قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾، وقوله: ﴿مَن تَابَ﴾ التوبة تَقدَّم لَنَا أَنَّهَا الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنْ معصيته إِلَى طَاعَتِهِ، وأن لها شروطًا خمسة: النَّدَم، والإقلاع، وَالْعَزْمُ عَلَى أَلَّا يعود، وَأَنْ تَكُونَ قَبْلَ المَوْتِ، وقبل طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، ثم الإخلاص.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ] لعلَّه أَوْجَبَ لَهُ أَنْ يُقيِّد التوبة هنا بالتوبة مِنَ الشِّرْكِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَءَامَنَ﴾؛ لأن الإيمان بعد الشرك؛ فإن العاصيَ مؤمنٌ، وَلَوْ كَانَ عَاصِيًا، فَهَذَا هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ للمؤلف أَنْ يقيِّد التَّوْبَةَ مِنَ الشِّرْكِ.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَءَامَنَ﴾ صدَّق بِتَوْحِيدِ اللهِ]، وهذا نقصٌ فِي تَفْسِيرِهِ للإيمان؛ لأن الْإِيمَانَ لَيْسَ هُوَ التَّصْدِيقَ فِي الشَّرْعِ فقط، صحيحٌ أَنَّ الْإِيمَانَ فِي اللُّغَةِ يُرَادَ بِهِ التصديق، لكنه فِي الشَّرْعِ هو: التصديق بِشَرْطِ أَنْ يتضَمَّن القَبُول والإذعانَ،

فَلَا بُدَّ مِنْ قبولٍ وإذعانٍ، وإلَّا فليس بمؤمن لَا يُصَدِّقُ، فأبو طالب -مثلًا- مصدِّق برسالة الرَّسُولِ ﷺ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ، ولم يُذعِن.

وَفِي قَوْلِهِ هَذَا كَذَلِكَ سُقوط؛ لأن الْإِيمَانَ لَيْسَ أن تصدِّق بوحدانية الله، لكن أن تصدِّق بِكُلِّ مَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ، وَقَدْ بَيَّنَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ الْإِيمَانَ «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١)، فَلَا بُدَّ مِنْ هَذِهِ الْأَرْكَانِ الستة فِي الْإِيمَانِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَدَّى الفَرَائِضَ]، وَفِي هَذَا أَيْضًا قُصور، بل الْعَمَلُ الصَّالِحُ هنا يشمل الفرائض والنوافلَ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: الإخلاص والمتابعة؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، فقوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ هذا الإخلاص، و﴿حُنَفَآءَ﴾ هذه المتابعة؛ لأنَّ الحَنِيف هُوَ الَّذِي لَيْسَ بمائل، فَمَنْ خَرَجَ عَنِ المتابعة فهو مائل.

فالعمل الصالح إذن هو كُلُّ عَمَلٍ تضمَّن الإخلاص والمتابعة، وضدُّه الفاسد، وَهُوَ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَى الشِّرْكِ أو على البدعة، فَهَذَا لَيْسَ بعملٍ صالحٍ، فمَن جمع هَذِهِ الْأَوْصَافَ الثَّلَاثَةَ ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾: (عسى) مِن أفعال الترجِّي، لكنَّها بالنسبة للهِ عَزَّوَجَلَّ لَا تَكُونُ للترجِّي، بل تكون للتَّعلِيل، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «عَسَى مِنَ اللهِ وَاجِبَةٌ»(٢). لِأَنَّ الْعِلَّةَ ملازِمة للمعلول، فَإِذَا وُجِدَتِ العلة ثَبَتَ المعلول، فالعلة لِلفلاح هِيَ التَّوْبَةُ والإيمان، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، فإذا وُجِدت هذه وُجِد الفلاحُ ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو، رقم (٩).

(٢) تفسير القرطبي (٨/ ٩١).

قَوْلُه تعالى: ﴿أَن يَكُونَ﴾، أي: الَّذِي تَابَ وآمن وَعَمِلَ صَالِحًا.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [النَّاجِينَ بِوَعْدِ اللهِ] أي: الناجين بما وعدهم اللهُ بِهِ، ولكنَّ الفلاح لَيْسَ كَمَا قال الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه النجاة فقط، بل النَّجَاةُ مِنَ المرهوب، والفوز بالمطلوب، أي: أَنْ يَنْجُوَ الْإِنْسَانُ مِمَّا يهرب، وأَنْ يَحْصُلَ لَهُ مَا يُحِبُّ.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ لَوْ قُلْنَا إِنَّهَا للترجِّي -مثلًا- لتضمنت فائدة، وَهِيَ أَنَّ الْإِنْسَانَ، وإنْ عَمِل هذا العمل، فليكن راجيًا للفلاح لا قاطعًا به؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي: قَدْ تَكُونُ هناك موانعُ، أو خَلل لَا يَحْصُلُ معه الفلاح، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]، فهنا المقام ليس مقامَ جزمٍ، بَلْ هُوَ مَقَامُ رجاء.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فِي هَذَا فضيلةُ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الثَّلَاثَةِ: التوبة، والإيمان، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ هَذِهِ الْأَوْصَافَ الثَّلَاثَةَ سببٌ للفلاح؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الفلاحَ مَرْتَبَةٌ عَالِيَةٌ لَا يَنَالُهَا إِلَّا ذَوُو الأوصاف الحميدة: التائبون المؤمنون العاملون صالحًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْعَمَلَ لَا يَنْفَعُ إِلَّا إِذَا كَانَ صالحًا، وَهُوَ مَا جَمَعَ شرطين -كَمَا سَبَقَ- الإخلاص والمتابعة لِلرَّسُولِ ﷺ.

الآيــة (٦٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القَصَص:٦٨].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ مَا يَشَاءُ ﴿مَا كَانَ لَهُمُ﴾ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ الِاخْتِيَار فِي شَيْءٍ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عَنْ إِشْرَاكِهِمْ].

هَذِهِ الْآيَةُ تعليل لبُطْلان آلهة المشركين، وإثبات الأُلُوهِيَّة لله، وذلك عَنْ طَرِيقِ إثبات الخَلق؛ فإنَّ الخالق هُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، فَإِنَّ هَذَا الْوَصْفَ تعليل للأمر، فإنَّ الخالق يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْإِلَهَ المعبود، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢٠-٢١]، فإذا كَانُوا لَا يَخْلُقون فكيف يستحِقُّون أَنْ يُعْبَدوا؟ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢]، هنا قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لإلزام هؤُلاءِ المشركين بعبادته وحده.

وقوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ الخَلْق: هو الإبداع المَبْنِيُّ عَلَى التَّقْدِيرِ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُقَدِّر، ثم يَخْلُق، فخلْقُه مَبْنِيٌّ عَلَى الحكمة.

قوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: مَنْ يَشَاءُ، مَعَ أَنَّ المخلوقات فِيهَا مَا هُوَ عاقل، ولكنه تغليب لغير العاقل؛ لِأَنَّهُ أَكْثَرُ، ثُمَّ مِنْ أَجْلِ أَنْ يشمل الأعيان والأوصاف، والأوصاف لَيْسَتْ مِنَ الْعُقَلَاءِ، وإذا رويت الأوصاف أُتِي بـ(ما).

وانظروا إِلَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣]، وَلَمْ يَقُلْ: مَن طاب، مَعَ أَنَّ المنكوح عاقل، لَكِنَّهُ لَمَّا كَانَتِ المرأة تُنكح لِصِفَاتها قال: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ﴾ يعني: راعُوا الصفة.

فهنا قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ عَبَّر بـ﴿مَا﴾ تعبيرًا لغير العاقل؛ لكثرته، ولِيشمل الأعيان والأوصاف، فَاللهُ تعالى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ: الأعيان والأوصاف.

ولهذا فإن مِنْ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة أَنَّ اللهَ تعالى خالقٌ للعبد، ولأفعال العبد، الَّتِي هِيَ أوصافُه، فَاللهُ تعالى ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أي: مَا يَشَاءُ خَلْقَه، فالمفعول إذن محذوفٌ، وهذه المشيئة كُلُّ مَا ذَكَرَ اللهُ تعالى عَنِ فَعَلَ مَنْ أفعاله أنه تابعٌ للمشيئة؛ فإنه مقرونٌ بالحكمة؛ لِأَنَّ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تعالى الحكيم، فَلَا يَخْلُقُ شَيْئًا عَبَثًا، وَلَا يَحْكُمُ بشيء عبثًا، كُلُّ مَا شَاءَهُ فهو مقرون بحكمة.

وقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿مَا يَشَآءُ﴾، أي: يَخْتَارُ مَا يَشَاءُ، والاختيار الأخذُ بخيرِ الأمرين، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أيضًا يأخذ بِمَا يَرَاهُ خَيْرًا مِنْ أَفْعَالِهِ وأحكامه، فَتَصْوير الخَلق عائدٌ لأصل التكوين، والاختيار عائد للتعيين المَبْنِيِّ عَلَى الْإِرَادَةِ التامَّة، فَهُوَ لَا مُعَقِّبَ لحُكمة، ولا رادَّ لقضائه، فيختار مَا يُرِيدُ عَزَّوَجَلَّ، يخلُق الآدميَّ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، واختار أَنْ يَكُونَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، وخَلَق البهيمة المركوبة، وَاخْتَارَ أَنْ تَكُونَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ شرعُه كذا -وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مخلوقًا- عَلَى هَذَا الْوَجْهِ.

فإذن: الاختيار أعمُّ مِن الْخَلْقِ مِنْ وجهٍ؛ حيث يشمل المخلوقَ، وغيرَ المخلوقِ، فهو يختار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَا يُرِيدُهُ مِن شرع، أي: أَعَمُّ مِن هَذَا الْوَجْهِ، وأما الخَلْقُ فإنه أَعَمُّ مِن حَيْثُ إِنَّهُ يشمل الأعيانَ والأوصافَ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا كَانَ لَهُمُ﴾ للمشركين ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ الاختيار].

قوله: ﴿مَا كَانَ﴾: ﴿مَا﴾ هُنَا قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهَا اسْمٌ موصول، أي: يَخْتَارَ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيرة، وَمَا يَكُونُ فِيهِ خَيْرٌ لَهُمْ، وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ موصول بقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾؛ لِأَنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ، وَهَذَا الْقَوْلُ ذَهَبَ إِلَيْهِ المعتزلة الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ يَجِبُ عَلَى اللهِ فِعْلُ الأفضل، أو الصلاح، فقالوا: إِنَّهُ تعالى مَا يَخْتَارُ إِلَّا مَا كَانَتْ فيه الخِيَرة، أَمَّا مَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ خِيَرة، فلا يختاره، وَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ يَفْعَلُ مَا هُوَ أصلح، أَوْ مَا هُوَ صلاحٌ.

ولكنَّ أكثر الْمُفَسِّرين -وعلى رأسِهم ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا- يقولون: إن (ما) نافية، وَكَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَا يَكُونُ الخِيَرة لهؤُلاءِ المشركين، ولا لأصنامهم أيضًا، فأصنامُهم لا تخلُق ولا تختار، وَكَذَلِكَ هُمْ لَيْسَ لَهُمْ حقُّ الاختيار فِيمَا أَرَادَ اللهُ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّوَابُ، وَعَلَى هَذَا فيكونُ الوقفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَخْتَارُ﴾، ثم الاستئناف بقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، وَهَذَا هُوَ الْقَوْلُ الصَّحِيحُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي لَهُ الِاخْتِيَارَ المطلق، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ خيرةٌ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]، فلا يختارون مِنْ أَمْرِهِمْ إِلَّا مَا اخْتَارَ اللهُ.

وهَلْ يَجِبُ عَلَى اللهِ فِعْلُ الأصلح والصلاح أَمْ لَا يَجِبُ؟

فنقولُ: أَنَّهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ بمقتضى الحكمة، وليس بُمقتضى عقولنا؛ فَإِنَّ اللهَ

تعالى بمقتضى كونه حكيمًا مَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا هُوَ صالح، أو أصلحُ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلَ مَا لَيْسَ بصالحٍ، ولا أصلح؛ لأنه حكيم، ولكن هل مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّنا نحن نوجِب عَلَى اللهِ ونقول: هذا أَصْلَحُ مِنْ هَذَا، وَيَجِبُ أَنْ يَفْعَلَ كذا؟ لا، ولكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَفْعَلُهُ وَقَدْ لَا نَعْلَمُ نحن بهذه الأصلحية، أو بوجه الصلاحية، فَلَا يَلْزَمُ أَنْ نَعْلَمَ.

وَكَمْ مِنْ أَشْيَاءَ نظن أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي مُخَالَفَةِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، أَوْ مَا يَقَعُ قَدَرًا، وتكون الْحِكْمَةُ فِيمَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ، وَقَضَى بِهِ اللهُ تعالى فِي قَدَرِهِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ عَلَى قَوْلِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه: [الِاخْتِيَارُ فِي شَيْءٍ]. فـ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ اسْمُ مَصْدَرٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ كلمة تضمنت معنى المصدر دُونَ حُروفه فهي اسْمُ مَصْدَرٍ، ونظير الخِيَرَة الطِّيَرة؛ فإن الطِّيَرَة اسْمُ مَصْدَرٍ بمعنى: التَطَيُّر، وهكذا الخِيَرَة اسْمُ مَصْدَرٍ بمعنى الاختيار.

قَوْله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَنْ إِشْرَاكِهِمْ].

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ اسْمُ مَصْدَرٍ بمعنى: التسبيح، والتسبيح: تنزيهُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَمما لَا يَلِيقُ بِهِ:

- أن نُدخل عليه النقصَ: وَهُوَ مُنَزَّهٌ بِهَا عَنِ النَّقْصِ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

- ومشابهةُ المخلوقين ممتنعة عَلَى اللهِ، والنقص ممتنعٌ عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فعليه يكون ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيهًا لله عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ نقص، أو مشابهة المخلوقين؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَكُونُ صفة كمال، فإذا شابه الله بِهَا صار نقصًا، وَقَدْ تَكُونُ المسألة لَيْسَ فِيهَا

مشابهة للمخلوقين إطلاقًا، وَلَا وَجْهُ شبه، أي: مِنَ الصِّفَاتِ الخاصة بالله.

فَنَصَّ عَلَى نَفْيِ المماثلة، وقال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، فَنَصَّ عَلَى نَفْيِ النَّقْصِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عن إشراكهم]، استفدنا مِنْ تَقْدِيرِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن (مَا) مصدرية، فيكون التنزيهُ عَنْ فِعْلِهِمَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تكُونَ (ما) اسمًا موصولًا، ويكون العائدُ محذُوفًا، والتقدير: عما يشركونه به، فيكون مُنَزَّهًا عن الشركاء، الَّتِي هِيَ الأصنام.

وقوله: ﴿وَتَعَـٰلَىٰ﴾ مَأْخُوذٌ مِنَ العُلُوِّ، لكنَّها تُفيد معنى التَّنَزُّهِ عَنِ العُلُوِّ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: ترَفَّع وتنزَّه بعُلوٍّ، فهي أَبْلَغُ مِن قولك: عَلا؛ لأن عَلا تُفيد العُلُوَّ، لَكِنْ قَوْلُهُ: ﴿وَتَعَـٰلَىٰ﴾ يفيد مع العُلُوِّ التَّنَزُّهَ والتحاشيَ عما يشركونه به، أَوْ عَنْ إشراكهم به.

ولما بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عموم خَلْقِه، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي لَهُ الاختيارُ المطلقُ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ اختيارٌ، فالاختيارُ لَهُ وَحْدَهُ، ذَكَرَ أَنَّهُ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ؛ لقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ لِأَنَّ مَنْ لَا اخْتِيَارَ له طبعًا لا خَلْقَ لَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللهَ تعالى قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ لِأَنَّ مَنْ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ مَعْنَاهُ أَنَّهُ قَادِرٌ، فكيف يريد يخلُقُه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ الإرادة للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾، والإرادةُ هُنَا إِنْ نَظَرْنَا إِلَى قَرنها بالخَلق، قلنا: هي الكونية، وإِنْ نَظَرْنَا إِلَى لفظها بقَطْع النظر

عن اقترانها بالخَلق، قلنا: إنها شاملة للكونية وللشرعية؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يختار كونًا وشرعًا مَا يَشَاءُ، وَهَذَا أَوْلَى العموم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا اخْتِيَارَ له، وقد تمسَّك بهذا الجَبْرِيَّة؛ لقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، فقالوا: هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مَا لَهُ اختيار، وأنه مُجْبَرٌ عَلَى فِعْلِهِ.

والجواب عَلَى ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ المطلَقَة، يعني: الَّتِي تكُونُ بِدُونِ الله، فالله يختارُ وهُم يختارون، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا آياتٌ كثيرة، وأحاديثُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَهُ إِرَادَةٌ، مِنْهَا قَوْلُهُ تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير:٢٨].

فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أثبتَ للإنسان مشيئةً، وأثبتَ لَهُ إِرَادَةً، والواقع يَشْهَدُ بِذَلِكَ، والإنسان يُفَرِّقُ بَيْنَ الفعل الاختياري، والفعل غير الاختياري، فالإنسان إِذَا نَزَلَ مِنَ السطح بالدَّرَج فنزولُه اختياري، وَلَكِنْ إِذَا دَفَعَهُ أَحَدٌ مِن أعلى الدَّرَج فتدحرج، فنزولُه غير اختياري.

والنفيُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ مُسَلَّط هُنَا عَلَى الْخِيَرَةِ الْمُطْلَقَةِ الَّتِي لَا تُعَارَضُ، هَذِهِ لَيْسَتْ للإنسان، بَلِ الْإِنْسَانُ مُدَبِّر، وَلَهُ إِرَادَةٌ، وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ نفيًا لمطلَق الخِيَرة، فَهَذَا لَا يُمْكِنُ؛ لِأَنَّ الْآيَاتِ والواقعَ يشهدان بأن للإنسان خِيَرة، والعلماء يقولون فِي كَثِيرٍ مِنَ الكفارات: يُخَيَّرُ بَيْنَ كَذَا وَكَذَا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: انفراد اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالإرادة المطلَقة، فلا مُعَقِّبَ لحُكمه، ولا رادَّ لقضائه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تنزيه اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ؛ لقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَعَالِيه وتنزُّهُه عَنْ هَؤُلَاءِ المشركين، سواءٌ قَدَّرْنا (ما) مَصدريَّة، أو قَدَّرْنَاها موصولةً، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُتعالٍ عَنِ الْمُشْرِكِينَ: عن أصنامهم، وعن شِركهم.

• • ۞ • •

الآيــة (٦٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القَصَص:٦٩].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ تُسِرُّ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بِأَلْسِنَتِهِمْ مِنْ ذَلِكَ].

قَوْلُه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ الخطاب فِيهَا، وَفِي الَّتِي قَبْلَهَا إمَّا لِلرَّسُولِ ﷺ، وإما لِكُلِّ مَنْ يَصِحُّ تَوْجِيهُ الْخِطَابِ إِلَيْهِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُسِرُّ قُلُوبُهُمْ مِنَ الكُفْرِ وَغَيْرِهِ].

قوله تعالى: ﴿تُكِنُّ﴾ بمعنى: تُسِرُّ وتُخفي، وقوله: ﴿صُدُورُهُمْ﴾ أي: قلوبهم، وإنما عبَّر بالصُّدور؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ فيها، والقلب متصلٌ بالصَّدر، ولهذا فالصدرُ هو المُكِنُّ للقَلبِ الساترُ له، وَمَا فِي الْقَلْبِ أَيْضًا مِنَ الأشياء المستورة، فَاللهُ تعالى يعلمه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنَ الكُفْرِ وَغَيْرِهِ] صحيح، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا فِي الْقَلْبِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، فقوله: ﴿تُوَسْوِسُ بِهِۦ﴾ أي: تُحَدِّثُ بِهِ، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، بَلْ هُوَ يَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُ أنت أيضًا.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِأَلْسِنَتِهِمْ مِنْ ذَلِكَ].

قوله: ﴿يُعْلِنُونَ﴾ أي: يُظهِرون، وتخصيص الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإظهارَ بالألسُن فيه قُصُور؛ لأنَّ الإعلام قَدْ يَكُونُ بِاللِّسَانِ، وَقَدْ يَكُونُ بِغَيْرِهِ مِنَ الْجَوَارِحِ، فقَدْ يَكُونُ بِاللِّسَانِ فيتكلم، وَقَدْ يَكُونُ بِغَيْرِهِ مِنَ الْجَوَارِحِ، فيفعل بيديه أو قدميه أو عينيه، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فهو أعمُّ مِمَّا قال الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فِي هَذَا إثباتُ العِلم لله، وأنه شامِل لما يُسَرُّ، وَمَا يُعْلَنُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّحذير والتَّرغيب، تحذير الْإِنْسَانِ أَنْ يُضْمِرَ، أَوْ يُعلن سُوءًا؛ لِأَنَّ اللهَ يَعْلَمُ بِهِ، وترغيبُه فِي أَنْ يُضْمِرَ، أَوْ يُعْلِنَ خيرًا؛ لِأَنَّ اللهَ يعلمه، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا أُضمِر مِنْ خَيْرٍ، أَوْ شَرٍّ، مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَنْ يَضيع، فَهُوَ مَعْلُومٌ كَمَا قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي آيَاتٍ كثيرة أَنَّهُ يَعْلَمُ، ويُخبر يَوْمَ الْقِيَامَةِ عمَّا عَمِل هؤُلاءِ.

الآيــة (٧٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [القَصص:٧٠].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ﴾ الدُّنْيَا ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الْجَنَّةُ ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ الْقَضَاءُ النَّافِذُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ بِالنُّشُورِ].

قَوْله: ﴿وَهُوَ﴾ الضَّمير يَعُودُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَرَبُّكَ﴾ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، أي: وذلك الرب الَّذِي يَخْلُقُ، وَالَّذِي يُعْلَمُ هُوَ اللهُ.

قوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ أصلها (الإله)، حُذِفَت الهمزةُ تخفيفًا؛ لِكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ، كَمَا فِي (أُنَاسٍ)، خُفِّفت فصارت (ناس).

ومعنى الإله: المأْلُوه، وليست بمعنى آلِهٍ، مِثل غِراس، بمعنى: مَغروس، والبناء بمعنى: مَبني، وفِراش بمعنى: مفروش، وأمثلتها كثيرة.

ومألوه أي: معبودٌ، وسُمِّيَ المعبود مألوهًا؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ يَأْلَهُهُ، أي: يَمِيلُ إِلَيْهِ، وتجدون أن (آلِه) مُوافقة فِي الِاشْتِقَاقِ الأصغر لأهْل؛ إِذْ إِنَّ فِيهَا الْهَمْزَةَ وَالْهَاءِ واللام، ففي الأُلُوهِيَّة -وهي العبادة- نَوْعٌ مِنَ التَّأَهُّلِ والاطمئنان؛ لأن الآلِهَ له مطمئن إليه.

قال المتكلمون: إنَّ الإله بمعنى الآلِه، أي: الْقَادِرُ عَلَى الاختراع، يعني: الْقَادِرُ عَلَى الْخَلْقِ، لكنهم يستخدمون تعبيرات فلسفية: الْقَادِرُ عَلَى الْخَلْقِ، فلو فسَّرنا الإله

بمعنى: الْقَادِر عَلَى الْخَلْقِ، لكان المشركون الَّذِينَ قَاتَلَهُمُ النبي ﷺ مُوَحِّدين؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لا خالقَ، ولا قادِرَ عَلَى الْخَلْقِ إِلَّا اللهُ، ولا رَيْبَ أَنَّ هَـذَا يُؤَدِّي إِلَى إِبْطَالِ الرِّسالَة والتوحيد.

ومِن ثَمَّ نعلم خطأ بعضِ المؤلفين الْآنَ فِي التَّوْحِيدِ، حيث يُرَكِّزون عَلَى تَوْحِيدِ الربوبية، ويتناسَوْن توحيد الأُلُوهِيَّة، وَهَذَا خَطَأٌ عَظِيمٌ؛ لأنَّ التوحيد ليس الإقرارَ بالخالق، والاعترافَ بِهِ فَقَطْ؛ إِذْ إِنَّ هَذَا حاصِلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ استباح النَّبِيُّ ﷺ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، لكن الإله بمعنى: المعبود، وَهُوَ أَمْرٌ فوق القادِر، أو الخالق.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لما قَرَّر أُلُوهِيَّته بصيغة الجُملة الاسمية ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾، وطرفاها مَعرِفتان، والمعروف عند البلاغيين أن الجُملة الاسمية إِذَا كَانَ طرفاها معرفة؛ فَإِنَّهَا تُفِيدُ الحصر، وأكَّد ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فهذا حصرٌ أيضًا للأُلُوهِيَّة فِي اللهِ وحدَهُ، فليس معه إلهٌ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون:٩١]، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الإله هو المعبود الَّذِي يَخْلُقُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾.

ولا تظُنَّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تُؤَيِّد تفسير المتكلمين لَمَّا قَالَ: ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بالإله الخالِقُ، وإِلَّا لَقَالَ: لذهب كل إله بمَن عبَدَهُ. وَلَكِنْ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ الإلهُ الْحَقُّ هُوَ الْإِلَهُ الخالق، قال: ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾.

والحصر فِي قَوْلِهِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ حقيقي، وقد يشتبه عَلَى بَعْضِ الناس، فيقول: إنه إضافيٌّ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا الحصرَ إذا جعلناه حقيقيًّا يُشْكِلُ عَلَيْهِ كثيرًا أَنَّ اللهَ أثبَتَ آلهةً سِواهُ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود:١٠١]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ

ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات:٨٦]، وكذلك الكافِرُون، قالوا لِلرَّسُولِ ﷺ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، فيظن الظانُّ أَنَّنا لَا يُمْكِنُ أَنْ نَجْمَع بَيْنَ هَـذِهِ الْآيَةِ، وَبَيْنَ إثبات الأُلُوهِيَّة للأصنام إِلَّا إِذَا جعلنا الحصـرَ إضافيًّا، فنُثبت الأُلُوهِيَّة لَكِنْ عَلَى وَجْهٍ آخَرَ، ويكون النفي هُنَا عَلَى وَجْهٍ آخَرَ مُخَالِفٍ لِمَا أثبتناه.

فَنَقُولُ فِي ذَلِكَ: أصلُ الإله حقًّا هُوَ الْخَالِقُ، الإلهُ الْحَقُّ هُوَ الْخَالِقُ، وأما هَذِهِ الْآلِهَةُ التي عُبِدَت مِنْ دُونِ اللهِ فَهِيَ آلهةٌ باطلة كَذِب، وَلِهَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً﴾، فَجَعَلَ ذَلِكَ إفكًا، وَلَيْسَ بِحَقِيقَةٍ، فهي -وَإِنْ عُبِدَت وأُلِّهت- ليست بآلهة.

ولهذا تجـدون أَنَّ الرُّسُلَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ- كُلٌّ مِنْهُمْ يقـول لقومـه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون:٣٢]، أي: مِنْ إِلَهٍ يُعبد ويستحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ بِحَقٍّ سِوى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَقَالَ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨-٩٩]، وآلهة أي: معبودة بحق، وإلا أثبت اللهُ لَهَا العبادة.

وعلى هذا نقول: إنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ هَذَا الحصر، وَبَيْنَ مَا ذُكِرَ مِن إثبات الأُلُوهِيَّة للأصنام هُوَ أَنَّ الإلهَ هو المعبودُ بحقٍّ، وَهَذَا لَا ينطبِقُ إِلَّا عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَمَّا مَا عُبِدَ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَهُوَ وَإِنْ سُمِّيَ إِلهًا، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ إلهًا، وَكَمَا قَالَ اللهُ: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٩].

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لَا بُدَّ للضمير مِن مَرْجِعٍ مَذكُور، أو ملفوظ يَعُودُ إِلَيْهِ: مذكور مثل: اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أو ملفوظ مثل: أَنْ تَأْتِيَ شَيْئًا مِن أَفْعَالِ اللهِ، فتقول: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

وَأَمَّا قَوْلُكُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ فيصح؛ لأنك تُخَاطِب اللهَ، فهو متعين، وَإِنَّمَا قُلْنَا لَا بُدَّ لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مِن مَرجع لمخالَفَة الصوفيـة، الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. فهم يُعيدونه فيقولون: (هو، هو، هو، هو) إِلَى آخِرِهِ، فَيَعْبُدُونَ اللهَ بلفظٍ، ويذكرون اللهَ بلفظ الضَّمير فقط، ويحذفون ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيقولون: (هو، هو، هو)، فإذا وَجَدْتَهُمْ فِي مجتمعاتهم وهُم يَهُزُّون الرءوس، ويَضْرِبون الطُّبول، ويُغَبِّرُون بالأصوات، ويقولون: (هو، هو).

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾: ﴿لَهُ﴾ الجارُّ والمجرور خبرٌ مقدَّم، وتقديم ما حقُّه التأخير يُفيد الحَصر، فقوله: ﴿لَهُ﴾ أي: لَهُ وَحْدَهُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾، أما غَيْرُهُ، فَلَيْسَ لَهُ الحمد الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ الله؛ لَا فِي الْأُولَى، وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾: (ال) هذه للاستغراق، أي: جَمِيع أَنْوَاعِ الحمد، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ خَيْرٍ، أَوْ شَرٍّ، فَاللهُ تعالى لَهُ الحمد كُلُّه، فَهُوَ الَّذِي لَا يُحمَد عَلَى سُوءٍ سِواه، يُحمَد عَلَى كُلِّ حَالٍّ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»[1].

وقوله: ﴿لَهُ﴾ اللام هنا هي للاخْتِصاص وللاسْتِحقاق، فالحمدُ المطلَق مُخْتَصٌّ بِاللهِ، وَالْمُسْتَحِقُّ لِلْحَمْدِ حَقِيقَةً هُوَ اللهُ؛ لِأَنَّ غَيْرَهُ -وإِنِ اسْتَحَقَّ أَنْ يُحْمَدَ- فإنما أَتَى بِهِ مِنْ أَسْبَابِ الْحَمْدِ هُوَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وغاية مَا يَكُونُ أَنْ يَكُونَ وسيلة، فالإنسان -مثلًا- يُحمد عَلَى مَا لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ الكاملة، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، لَكِنْ هَذَا مِنَ اللهِ.

إذن: فالحمد حقيقةً لله، فالذي يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ هُوَ اللهُ، وَالَّذِي يَخْتَصُّ بالحمد

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣).

الْمُطْلَقِ عَلَى جَمِيعِ الْأَحْوَالِ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ.

قوله: ﴿فِي ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: الدُّنيا، يُحمد فِي الدُّنْيَا عَلَى مَا أجراه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنْ أَحْكَامٍ كونية، وما شرَعه مِنْ أَحْكَامٍ شرعية؛ يُحمد عليها حمدًا كاملًا.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾: قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الجَنَّة]، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فالآخرة تشمل مُنذ أَنْ يُبْعَثَ النَّاسُ إِلَى أَنْ يَصِلُوا إلى منازلهم؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحمد، بَلْ إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يفتح عَلَى نَبِيِّهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ المَحَامِدِ مَا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ[1]، وَهُوَ عَزَّوَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يظهَر حمدُه لِكُلِّ أَحَدٍ؛ فإنه يَظهَر عدلُه، ويظهر فضلُه وإحسانُه، وتَظهر حكمتُه، وتَظهر قُدرتُه، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ العظيمةِ الَّتِي تَظْهَرُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، ويستحق عليها الحمدُ.

فليس المَعْنَى أَنَّهُ لَا يُحمَد إِلَّا فِي الْجَنَّةِ، فهذا قُصور جِدًّا مِن الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾.

وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ يَسْتَأْذِنُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي الشَّفَاعَةِ، ويسجد تَحْتَ الْعَرْشِ فيفتَح اللهُ عَلَيْهِ مِنَ المَحَامِدِ مَا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيْهِ مِنْ قِبَلُ[2]، وهذا قَبْلَ دُخُولِ الجنة، بل قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ الخَلق.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ اللام فِي قَوْلِهِ: ﴿لَهُ﴾ خبرٌ مُقَدَّم، وتقديم الخبر يُفيد الحَصر، قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القَضَاءُ النَّافِذُ فِي كُلِّ شَيْءٍ]، والحُكم يشمل القضاء،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]، رقم (٤٧١٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، رقم (٤٤٧٦)، ومسلم كتاب: الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

وَهُوَ الْحُكْمُ الكوني، كَمَا قال الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويشمل الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ.

فالحُكم لله قضاءً وشرعًا، لا حاكِم إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فَمَنِ ابْتَغَى الْحُكْمَ مِنْ غَيْرِ اللهِ؛ فإنه يَضِلُّ، ومَنِ اتَّبع هُدَى اللهِ، فَإِنَّهُ لَا يَضِلُّ، ولا يَشْقَى.

وتقديم الخبر يُفيد الحَصرَ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ للهِ وَحْدَهُ، وَهُوَ كَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْمُرَادُ الحكمَ المطلَقَ، فالحُكم المطلق للهِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ، هُوَ الَّذِي يُوجِبُ الشَّيْء ويُحَرِّمه، ويَنْدُب إليه ويُبيحه، وَكَذَلِكَ فِي الْأُمُورِ الكونية، هُوَ الَّذِي يُنزِّل الغَيْثَ، وَهُوَ الَّذِي يُزيل القَحْطَ، وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ويرزق، كُلُّ هَذَا مِنَ الْأَحْكَامِ الكونية.

ولكن الإنسان نازَعَ رَبَّهُ فِي الْحُكْمِ الكوني، وَفِي الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، فهناك -مثلًا- مَنْ أَثْبَتَ مَعَ اللهِ خالِقًا آخر، وهناك مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ رَبٌّ يتصرف كَمَا يَشَاءُ، والمخالفات فِي الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ أكثرُ وأبلَغُ، فما أكثرَ الذين يُشرِّعون، ويَرَوْنَ أَنَّ تشريعاتِهم نافِذة كشرعِ الله، أو أعلى، وهؤُلاءِ سَبَق أنهم كفار حَتَّى لَوْ صَلَّوْا وزَكَّوْا وصاموا وحَجُّوا؛ فهم كفار.

وَكَذَلِكَ أَيْضًا مِمَّا يَتَعَلَّقُ بالحُكم مِثل فِرْعَون؛ لأنه نازَعَه فِي الْحُكْمِ القَدَرِيِّ، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القَصَص:٣٨]، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤].

فالحُكم المُطلَق لله، ولكن هناك حُكمٌ مُقَيَّد، لكنَّه بِأَمْرِ اللهِ، ولهذا نحن نرى فِي كُتُبِ أَهْلِ الْعِلْمِ أنهم يَذْهَبُونَ إِلَى الْحَاكِمِ، ويقال: الحاكم الشرعي، وبإذن الحاكم، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، هَذَا الْحُكْمُ الَّذِي يستفيده هذا الإنسان مُقَيَّد ومحصور؛ مُقَيَّد بِأَنْ يَكُونَ تحتَ حُكْمِ اللهِ، ومحصورٌ فِي مَكَانٍ مُعَيَّن، وَفِي زَمَنٍ مُعَيَّن.

فإذن: الحُكم المُطلق للهِ عَزَّوَجَلَّ فِي الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ.

وَأَمَّا الْحُكْمُ الْمُقَيَّد، فهذا يَكُونُ لِغَيْرِ اللهِ، مِثْلُ مَا يقوله العلماء: الحاكم الشرعي، ويَحْكُم بينهم الحاكم، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فهَذَا الْحُكْمُ مُقَيَّدٌ فِي زَمَانِهِ، ومكانه، ونَوْعِه، أَمَّا فِي الزَّمَانِ، فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ مُقَيَّد، لكن الحاكم الشَّرْعِيُّ لَا يَبْقَى أَبَدَ الآبِدِين، بَلْ هُوَ فِي مَكَانِهِ، لَا يَحْكُمُ إِلَّا فِي بُقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَا يَحْكُمُ فِي الْأَرْضِ، وَلَا فِي السَّمَاءِ.

وفي نوعه؛ لأنه مُقَيَّدٌ بِأَنْ يَكُونَ تحت حُكْمِ اللهِ، فَلَا يَمْلِكُ أَنْ يُغَيِّرَ شَيْئًا مِنْ أحكام اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ تَقَدَّمَ عَلَى: ﴿تُرْجَعُونَ﴾، وتقديمُ المعمول يَدُلُّ عَلَى الحَصر، فالرُّجوع إِلَى اللهِ مَهْمَا طالت الدُّنيا، ومَهْمَا بَعُد الإنسانُ، وَمَهْمَا كَانَ الإنسان أيضًا؛ فإنَّ مَرْجِعَه إِلَى اللهِ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بِالنُّشُورِ]، والنُّشور يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فكلُّ الخلائق مَرْجِعُهَا إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حيث يُحشر كُلُّ شَيْءٍ، حتى النَّمل، حَتَّى يَتَبَيَّنَ أَنَّ الْأَمْرَ كله مَرْجِعُهُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات أُلُوهِيَّة الله.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: انفرادُه بالأُلُوهِيَّة؛ لقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: اختِصَاص اللهِ تعالى بالحمدِ الْمُطْلَقِ؛ لقوله: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾، الحمد المطلق الشامل للدنيا والآخرة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ظُهور كَمـال صِفات اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ لأن الحمدَ وصفُ المحمودِ بالكمالِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: اختصاص اللهِ تعالى بالحُكم، وأنه وحدَه هو الحاكمُ؛ لقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾، وَمَا ذُكِرَ مِنْ إِثْبَاتِ الْحُكْمِ لغيره، فَهُوَ أَمْرٌ مُقَيَّد.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات البَعث؛ لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

• • ۞ • •

الآيتان (٧١، ٧٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القَصَص:٧١-٧٢].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ﴾ لِأَهْلِ مَكَّةَ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أَيْ أَخْبِرُونِي ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دَائِمًا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ بِزَعْمِكُمْ ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ نَهَارٍ تَطْلُبُونَ فِيهِ المَعِيشَةَ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ذَلِكَ سَمَاعُ تَفَهُّمٍ فَتَرْجِعُونَ عَنِ الإِشْرَاكِ، ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ بِزَعْمِكُمْ ﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ﴾ تَسْتَرِيحُونَ ﴿فِيهِ﴾ مِنَ التَّعَبِ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَأِ فِي الْإِشْرَاكِ فَتَرْجِعُونَ عَنْهُ].

الخِطاب هنا لِلنَّبِيِّ ﷺ، ولكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [لِأَهْلِ مَكَّةَ]، والصَّواب أَنَّهُ عَامٌّ لِكُلِّ أَحَدٍ.

وقَوْلُه تعالى: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ فسَّره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [أَخْبِرُونِي]، وَهُوَ تَفْسِيرٌ بِالمَعْنَى لَا بِاللَّفْظِ؛ لأن رَأَى مِن الرؤية البَصَرية، والمعنى: أأبصرتُم ذلك فأخبروني عنه.

ولكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّره وَغَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ باللازم؛ لِأَنَّ مِن لازِم الرؤية إخبارَ الإنسان عما يَرى.

قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: (رأى) تَنْصِبُ مفعولين هنا، مَعَ الْعِلْمِ أَنَّهَا تَكُونُ بَصَرِيَّة؛ المفعولُ الْأَوَّلُ قَدْ يَكُونُ مَوْجُودًا، وَقَدْ يَكُونُ محذوفًا، وَأَكْثَرُ مَا يَأْتِي محذوفًا، قَدْ يَكُونُ مَوْجُودًا، مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس:٥٩]، فقوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هو المفعول الأول.

وَقَدْ يَكُونُ محذوفًا مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف:٤]، هنا المفعول الأول محذوف، والتقدير: أرأيتم حالَكُم، يعني: أَخْبَرُونِي عَنْ حالِكم ماذا يَكُونُ لَوْ أنه حَصَل كَذَا وَكَذَا؟ فالمفعول الأول محذوف، وجملة ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [القَصَص:٧١]، فِي مَحِلِّ نَصْبٍ، وهي المفعول الثاني.

قَوْلُه تعالى: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [دَائِمًا].

قوله: ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى: صَيَّر، فمفعولُها الأول ﴿ٱلَّيْلَ﴾، ومفعولُها الثاني ﴿سَرْمَدًا﴾: إِنْ صَيَّرَ اللهُ عَلَيْكُمُ الليل سرمدًا.

والليلُ مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى طلوعِها، هذا اللَّيْلُ يَعْنِي اختفاء الشَّمْسِ فِي الْأُفُقِ، وظُهورها هُوَ النَّهَارُ، والنُّور الذي يخلُفُها بَعْدَ الْغُرُوبِ، أو يَتَقَدَّمُها بَعْدَ الْفَجْرِ، هَذَا مِنْ مُقَدِّمات النهار، أَوْ مِنْ مُؤَخَّراته، وإلا فحقيقة الْأَمْرِ أَنَّ اللَّيْلَ يكون بغروب الشَّمْسِ إِلَى طلوعها.

وقوله: ﴿سَرْمَدًا﴾ قيل: إِنَّ أَصْلَهَا سَرْدًا، والسَّرْد التتابُع، يعني: متتابعًا،

وَعَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ، فالميمُ زائدة، ويكون وَزْنُه الصرفيُّ فَعْمَلًا؛ لأن الميمَ زائدة، وقيل: إنَّ الميمَ أصليَّة، وإنها مِن: سَرْمَد إِذَا اسْتَمَرَّ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ وَزْنُهُ الصرفي: فعللًا؛ لأن الميم أصلية.

والسَّرمد معناه: الدائم المستمر إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أي: لَوْ كَانَ اللَّيْلُ سرمدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَا أحد يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ بنهار، بَلْ لَا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقَدِّمَ النَّهَارَ قَبْلَ وَقْتِهِ، وَلَا أَنْ يُؤَخِّرَه بَعْدَ وقته، فالشمسُ الآن تخرج فِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ دقيقة، فلو اجتمع العالَمُ كُلُّهُ عَلَى أَنْ تَخْرُجَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ إلَّا دقيقة، لَمَا استطاعوا، أَوْ عَلَى أَنْ تتأخر إلى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ودقيقة ما استطاعوا أيضًا، أَوْ عَلَى أَنْ يُزَحْزِحُوها قليلًا عن مكانها، ما استطاعوا.

إذن: الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغَيِّرها -لا زمانًا، ولا مكانًا- لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْلِبَها، ويأتيَ بنهار أبدًا.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ بِزَعْمِكُمْ، ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ نَهَارٍ تَطْلُبُونَ فِيهِ الْمَعِيشَةَ].

قَوْلُه تعالى: ﴿مَنْ﴾ مبتدأ، و﴿إِلَٰهٌ﴾ خبرُه، و﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ صِفَتُه، و﴿يَأْتِيكُم﴾ حَالٌ مِنْ ﴿إِلَٰهٌ﴾، أي: أَيُّ إله يأتيكم بضياء؟ يقول الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَلَى زَعْمِكُمْ]، هَذَا لَا يَفْطِنُ لَهُ إِلَّا إنسانٌ يفهم اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ؛ لأن ﴿مَنْ﴾ يُسْتفهم بِهَا عَنِ التَّعْيِينِ، فتَقبَل التعدُّد؛ لأن التعيين إنما يُطلب عند التعدُّد، فإذا تعددت الأشياء طُلِب التعيين، فَإِذَا قُلْتُ: مَنْ قَامَ؟ فأنا الآن أُثْبِتُ بهذا الاستفهام أن عَدَدًا مِنَ النَّاسِ قَدْ قَامَ، ولكني أستفهم عن تَعْيِين هذا القائم، فَإِذَا قُلْنَا ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ فهل معناه: أَنَّ هُنَاكَ آلهةً، والمطلوب التعيين، فعَيِّنوا لي الْإِلَهَ الَّذِي يأتيكم؟

الجواب: أن هَذَا لَيْسَ حقيقيًّا، وَلِهَذَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِزَعْمِكُمْ]، يعني: إِذَا كُنْتُمْ تزعمون أَنَّ هُنَاكَ آلهة فمَن الْإِلَهُ الَّذِي يأتيكم بضياء؟ وَيَكُونُ هَذَا أَبْلَغَ فِي التحدي، لَوْ قَالَ: هل إلهٌ غَيْرُ اللهِ؟ صار هنا الاستفهامُ عَنْ وُجُودِ إله، لَا عَنْ تعيينه، لكن الاستفهام عن تعيينه أَبْلَغُ فِي التحدي، أي: حتى على زعمكم أَنَّ هَذِهِ آلهة؛ فإننا نتحدَّاكُم: أين الْإِلَهُ الَّذِي يَأْتِي بِهَذَا الشَّيْء؟ إذا قُلتم: وَاللهِ مَا عِنْدَنَا أَحَدٌ مِنَ الْآلِهَةِ يَفْعَلُ هَذَا، تَبَيَّنَ أَنَّ أُلُوهِيَّتَها باطلة؛ لأن الإله لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا، سميعًا، بصيرًا، إِلَى آخِرِ الصفات الكاملة.

قَوْلُه تعالى: ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ الباء هنا للتعدِيَة، يعني: يجلب إليكم الضياء، وقال: ﴿بِضِيَآءٍ﴾؛ لأنه علامةُ النهار، بَلْ إِنَّهُ هُوَ النَّهَارُ في الواقع؛ إما علامته، أَوْ هُوَ النَّهَارُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ذَلِكَ سَمَاعُ تَفَهُّمٍ، فَتَرْجِعُونَ عَنِ الإِشْرَاكِ].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ يعني: أَصُمَّتْ آذانُكم، فلا تسمعون؟ والمراد بالاستفهام هنا سمعُ التَّفَهُّم الذي يَرْتَدِع بِهِ المَرْءُ عن غَيِّه، أما المجرد -يعني سمع الإدراك- فَهُوَ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ سمع.

هنا قد يَقُولُ قَائِلٌ: لماذا لَمْ يَقُلْ: أَفَلَا تُبْصِرُونَ؛ لأنَّ الإبصار فِي النَّهَارِ أظهرُ؛ بَلْ قَالَ: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؟

نقول: لأنه تَبْيِينٌ لقوله: ﴿عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ والليل مَحَلُّ سَمْعٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وليس تبيينًا عَلَى آخِرِ الْآيَةِ ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾،

فهو تبيين عَلَى أَوَّلِ الْآيَةِ، والمعنى: أَنَّكُمْ لَا تسمعون سمعًا تستفيدون منه؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ هُوَ مَحَلُّ السَّمْعِ، وَلَيْسَ مَحَلَّ الرؤيا.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تحدي هـؤُلاءِ الْمُشْـرِكِينَ أَنْ تَكُـونَ أصنامُهم جالِبةً للخيـر، أو دافعةً للشر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيانُ قُدرة اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حَيْثُ لَا يُعْجِزُهُ أَنْ يَجْعَلَ الليل سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تذكير العِباد بنعمة الله؛ فإن الأشياء إنما تتبين بِضِدِّها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَـدٌ أَنْ يُغَيِّـرَ سُنَّةَ اللهِ فِي الكون، فلو جَعَلَـهُ سَرْمَدًا، ما استطاع أَحَدٌ أَنْ يُزِيلَهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الْحَثُّ عَلَى سَمَـاعِ مَا يُتْلَى مِنْ كِتَابِ اللهِ سَمْعَ تَفَهُّمٍ وقَبُول؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيان نِعْمَةِ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ بِضِياء النهار، فكَم تستهلك الْأُمَّةُ مِنْ طاقة في إضاءة اللَّيْلِ الَّذِي لَا يَكُونُ مِثْلَ إضاءة النهار، وبهذا نعرف قَدْر نعمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذا الضِّيَاءِ الَّذِي يَصِلُ إِلَى النَّاسِ بكميات كبيرة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بيانُ نعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بيان نِعْمَةِ اللهِ تعالى فِي اللَّيْلِ، الَّذِي جَعَلَهُ سكنًا؛ لقوله: ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ نَوْمَ اللَّيْلِ أَفْيَدُ للجسم مِنْ نَوْمِ النهار، حَيْثُ جَعَلَ اللهُ الليلَ محل سَكن ووقته، وَهَذَا أَمْرٌ مُشاهَد.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: الحَثُّ عَلَى التبصُّر فِي آيَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لِأَنَّ هَذَا يُفِيدُ حَثَّ الْإِنْسَانِ أَنْ يتبصر فِيمَا جَعَلَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ؛ حتى يُسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى كَمَالِ قُدرة الخالق.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الليل أنفعُ للبَدن مِنَ النَّهَارِ، ففي نَوْمِ اللَّيْلِ سُكون، بخلاف نَوْمِ النَّهَارِ، فالإنسان يُحِسُّ بالراحة لَكِنْ لَيْسَ كالليل.

• • ۞ • •

الآيــة (٧٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القَصَص:٧٣].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ تَعَالَى ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ فِي اللَّيْلِ ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فِي النَّهَارِ لِلْكَسْبِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النِّعْمَةَ فِيهِمَا].

قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ﴾ أي: جعل الوقوع متعلقًا بقوله: ﴿جَعَلَ﴾، يعني: وَجَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ مِنْ رَحْمَتِهِ.

وقوله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾: ﴿مِن﴾ هنا للسببية، أي: بسبب رحمته، وما اتَّصَفَ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الرَّحمَة، والرَّحمَة صفةٌ حقيقيةٌ ثابتة للهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهِيَ غَيْـرُ إرادةِ الإنعام، وغيرُ الإنعام.

فأهلُ السُّنة والجماعة يقولون: إن الرَّحمَةَ صِفة حقيقية ثابتة للهِ عَزَّوَجَلَّ، لَا تُشْبِهُ رحمةَ المخلوقِ.

وأما الأشاعرةُ فيُحرِّفون مَعْنَى الرَّحْمَةِ إِلَى أَنَّهَا الإنعامُ أَوْ إِرَادَةُ الإنعام، فيُفَسِّرونها بِالْفِعْلِ، وَهُوَ الإنعام، أَوْ إِرَادَتِهِ؛ لأنهم يُثبِتون الإرادة، وهي صِفة معنوية، وقد مَرَّ علينا أَنَّهُمْ لَا يُثْبِتُونَ مِنَ الصِّفَاتِ إِلَّا سَبْعَ صفات؛ منها: الإرادة، فيفسِّرون الرَّحمَة بإرادة الإنعام؛ لِأَنَّ الْإِرَادَةَ دَلَّ عليها السمع والعقل، وَهُمْ لَا يُثْبِتُونَ مِنْ صِفَاتِ اللهِ

إِلَّا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ، فَأَمَّا مَا لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ أَوَّلوه.

ولكننا نَقُولُ: هَـذَا التَّأْوِيلُ هُوَ تحريـف، لكن أين دَلِيلُ الْعَقْلِ عَلَى الْإِرَادَةِ؟ يقولون: إنَّ العقل يَدُلُّ عَلَى الْإِرَادَةِ بواسطة تخصيص المخلوقات، فَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ المخلوقات خُصِّص بشيء، هَذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَكُونَ قاسيًا، فصار قاسيًا، وَهَذَا يَكُونُ لَيِّنًا فصار لَيِّنًا، وَهَذَا يَكُونُ طَوِيلًا، فيكون طويلًا، وهذا قصير، فيكون قصيرًا، إِلَى آخِرِهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى إِرَادَةٍ، أي: إن الْأَمْرَ لَا يَخْلُو مِن إرادة.

وبالنسبـة للرحمة قالوا: نُؤوِّلها، لأن الرَّحمَة عِبَارَةٌ عَنِ رِقَّة تعتـري القلـب، وتُوجِب الْحُنُوَّ عَلَى المرحوم.

فَنَقُولُ لَهُمْ: هذه الرَّحمَة التي ذكرتُم إِنَّمَا هِيَ رحمةُ المخلوقين، ونحن نُثبـت لله رحمةً لَا تُشْبِهُ رحمةَ المخلوقيـن، ثم إننا نستدلُّ على الرَّحمَة بالعَقل كما استدللتم عَلَى الْإِرَادَةِ بالعقل، فكَم للهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عَلَيْنَا مِنْ نِعَمٍ لَا تُعَدُّ ولا تُحصى، وكَم للهِ تعالى مِن تفريج كُرُبَاتٍ لَا تُعَدُّ، ولا تُحصى.

والأمر المقتضي لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ لجلب النِّعَم، ودَفْعِ النِّقَمِ هو الرَّحمَة؛ لأن القاسِيَ الَّذِي لَا يَرحَم لا يجلب النِّعْمَةَ، وَلَا يَدْفَعُ النِّقْمَةَ.

فإذن: الاستدلالُ بالحوادث الَّتِي فِيهَا جلبُ النعمِ، ودفعُ النِّقَم أظهرُ وأبينُ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ بالتَّخصيص عَلَى الْإِرَادَةِ؛ لأن دَلَالَةَ التَّخْصِيصِ عَلَى الْإِرَادَةِ لَا يَفْهَمُهَا إِلَّا أفـرادٌ مِنَ النَّاسِ، لكن دلالة جَلْـبِ المَنَافِعِ، وَدَفْعِ النِّقَمِ على الرَّحمَـة كلُّ الناس يفهمونها، حتى الْعَامِّيّ فِي سُوقه إِذَا رَأَى رَجُلًا قاسيًا عَلَى أَوْلَادِهِ -مثلًا- قال: هَذَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ رحمة. وَإِذَا رَأَى أَنَّهُ -مثلًا- دائمًا يجلـب لهم الخير، ويدفع عنهم الشَّرَّ، قال: هذا إنسان رحيم.

فإذن: دَلالة الْعَقْلِ عَلَى الرَّحمَة أَقْوَى مِن دَلَالَتِهِ عَلَى الْإِرَادَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ هم يثبِتون الإرادة، ولا يثبتون الرَّحمَة، فهنا يقولون: مِنْ رَحْمَتِهِ أي: مِن إنعامه.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ مِن للسببية، و﴿رَّحْمَتِهِۦ﴾ هي صِفَتُه الَّتِي اتصف بها أزلًا وأبدًا، قَالَ تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١]، وقرَن رُبوبيتـه بِذَلِكَ فَقَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣]، إِشَارَةً إِلَى أَنَّ هَذِهِ الرُّبوبية كُلَّها رُبوبيةُ رحمةٍ، لَا رُبُوبِيَّة انتقامٍ وغِلظةٍ، فكيف نُنكِر هَذِهِ الصِّفَةَ العظيمةَ مِنْ صِفَاتِ اللهِ، ونُثْبِتُ مَا هُوَ دُونها؟! وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَنَاقُض الْمُعَطِّلين مِن الأشعرية والمعتزلة وغيـرِهم؛ لأنهم يتناقضون فيُثبتون لله مِنَ الصِّفَاتِ ما يدُّل الْعَقْلُ عَلَى إِثْبَاتِ مَا هُوَ أَوْلَى مِنْهُ، ويُنكرون مِنَ الصِّفَاتِ مَا يَدُلُّ الْعَقْلُ عَلَى إِثْبَاتِهَا.

قَوْلُه تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾، بمعنى: خَلَق، وليست بِمَعْنَى صَيَّرَ، وَلِهَذَا لَمْ تنصب مفعولين.

قَوْلُه تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: ليلٌ ونهـارٌ يتعاقَـبان بَيْنَكُمْ عَلَى النَّاسِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي اللَّيْـلِ، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فِي النَّهَارِ مِنْ كَسْبٍ].

قوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ اللام للتَّعليل، أي: لِأَجْلِ أَنْ تَسكنوا فيه، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ وُجُـودِ المعلول وُجُـودِ الْعِلَّةِ إِذَا لَمْ تَكُنِ العلة مؤثِّرة، مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، فهَذِهِ عِلَّةٌ غائيَّة، والعِلة الغائيَّة لَا يَلْزَمُ مِنْ وُجُودِ المعلولِ وجودُها، فَلَا يَلْزَمُ مِنَ الخَلق وُجود العبادة.

فمَثلًا: قد يَكُونُ هُنَاكَ بَعْضُ النَّاسِ لَا يسكنون فِي اللَّيْلِ، فرَجُل مَعاشُه بالليل

كالحُرَّاس، وآخَـرُ لَهْوُه بالليل، كأصحاب البَطَالة الذين ينامون النهار، ويسهـرون الليل، ولكن وجود المعلول إِذَا كَانَتِ العلة غائيةً، فلَا يَلْزَمُ مِنْهُ وجودُ العلةِ، كَمَـا لَوْ قُلْتُ: قدَّمْتُ لك هذه البعير لتركب عليه، فقَدْ تركب، وَقَدْ لَا تركب، أو أعطيتُك القَلمَ لِتكتبَ به، فربما تكتب، وربما لَا تَكْتُبُ.

وقوله تعالى: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ أي: فِي اللَّيْلِ، يعني: تستريحون، ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ تبتغوا، أي: تطلُبون، وقوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: مِن عطائه ورزقِه.

وَفِي الْآيَةِ هنا ترتيب ولَفٌّ ونَشْرٌ مُرَتَّب، فقد بدأ بالليل، وقَدَّمَ منفعته السكون، وَهَذَا فِي اللَّيْلِ فِيهِ لَفٌّ ونَشْرٌ مُرَتَّب.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: (لَعَلَّ) هَذِهِ للتَّعليل، أَوْ لِأَجْلِ أَنْ تشكُروا اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى نِعْمَتِـهِ، فهنا ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العِلَّتَيْن: الشـرعية والقدَرية، أمَّا القدَرية، فَهِيَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾، والعِلَّة الشَّـرْعِيَّةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: تشكرون اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ تعاقُب اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ تَتَبَيَّن بِضدِّها، وَلَوْ كَانَ اللَّيْلُ سَرْمَدًا، والنهار سَرْمَدًا، ما استراح أحدٌ بِلَيْلٍ، ولا ابتغى الفضل بالنهار، ولكنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعلَ ذَلِكَ لِأَجْلِ الراحة، مَعَ أَنَّ هُنَاكَ فوائدَ أُخْرَى غَيْرَ ذَلِكَ ذَكَرَهَا فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ، قَالَ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢]، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، وَبِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم (٢٧٥٩).

فالحاصِلُ: أَنَّ فِي تعاقُب اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فوائدَ عظيمةً تستوجب أن نَشْكُرَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليها.

واعْلَمْ أنَّ الشكر يكون بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ والجوارح؛ أما الشُّكر بالقلب فَهُوَ أَنْ يعترف الإنسانُ بِقَلْبِه بِأَنَّ هَـذِهِ النِّعَمَ مِن اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَحْدَهُ، يعترف اعترافًا كاملًا، حتى لَوْ أَنَّ هَذِهِ النِّعَمَ جاءت عَنْ سَبَبٍ، فليعتقد أَنَّ السَّبَبَ مِنَ اللهِ، وَهُوَ الَّذِي أوجده، فحَصَلَتْ بِهِ هَذِهِ النِّعَمُ.

وأما الشُّكر باللسان، فإنه الثَّنَاءُ عَلَى اللهِ تعالى بِمَا يستحِق، سَوَاءٌ عَلَى هَـذِهِ النِّعْمَةِ، أَوْ غَيْرِهَا، وَكُلُّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي الشكر.

وَعَلَى هَذَا، فقول الإنسان: سبحان اللهِ، وَالْحَمْدُ لله، وَاللهُ أَكْبَرُ. يُعتبر شكرًا، وقوله حينما يأكل طَعَامًا أَوْ يشرب شرابًا: الحمد لله يعني: عَلَى هَذَا الطَّعَامَ أَوِ الشراب، يُعتبر أَيْضًا مِنَ الشكر.

أما الثالث -وَهُوَ الجوارح- فَهُوَ أَنْ يقوم الإنسان بِطَاعَةِ اللهِ، سواء تتعلق بهذه النعمة أَمْ لَا، فيستعين بهذه النعمة عَلَى طَاعَتِهِ، أَوْ يَفْعَلَ الطاعةَ الَّتِي لَا تَتَعَلَّقُ بهذه النعمةِ، قَالَ الشَّاعِر[1]:

أَفَـادَتْكُمُ الـنَّعْمَاءُ مِنِّـي ثَلَاثَـةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّـمِيرَ الْمُحَجَّبَـا

فالشُّكر بالجوارِح فِي قَوْلِهِ: يدي. والشكر باللسان فِي قَوْلِهِ: ولساني: والشكر بالقلب فِي قَوْلِهِ: الضَّمير المحجبا.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: ذكرتُم أن الشكرَ باللسان هو الثَّنَاءُ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، سَوَاءٌ

(١) البيت في الفائق في غريب الحديث، للزمخشري (١/ ٣١٤) بلا نسبة.

كَانَ يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ النعمة، أَوْ بِغَيْرِهَا، فَهَلْ يَدْخُلُ فِي هَذَا قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]؟

نقوله له: نعم، هَذِهِ الْآيَةُ تَدْخُلُ فِي هَذَا.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هل يوجب هذا الافتخارَ؟

قلنا: لا، لَيْسَ هَذَا عَلَى سَبِيلِ الافتخار، بَلْ هُوَ عَلَى سَبِيلِ التواضع لله، وَأَنَّ هَذِهِ النِّعَمَ مِن اللهِ، كَمَا قَالَ الرَّسُول ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ»(١).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الرَّحمَة صفة حقيقية ثابتة للهِ عَلَى وَجْهِ الكمال، ولا تُشبه رحمةَ المخلوقين.

فمثلًا: إِذَا قِيلَ: إِنَّ الرَّحمَة تقتضي الضعف والرِّقَّة، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

قلنا: هذا بالنِّسبة للمخلوق، أما في حق الله -سبحانه- فله رحمة حقيقية لَا تُشْبِهُ رحمة المخلوق.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيان نعمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بتعاقُب اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ اللَّيْلَ للسَّكَن، والنهارَ لطلب المعاش، فقوله: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ فِي اللَّيْلِ، وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فِي النَّهَارِ.

وتتفرع عَلَى هَذِهِ المَسْأَلَةِ فائدة: وَهِيَ مَا ذَكَرَهُ الأصحاب رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ فِي الْقِسْمَةِ بين

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، رقم (٢٢٧٨).

الزوجتين، إِذَا كَانَتْ للإنسان زوجتان، وَأَرَادَ أَنْ يَقْسِمَ بينهما؛ فَإِنَّ مَدَارَ القَسْم عَلَى اللَّيْلِ لمن مَعاشُه فِي النَّهَارِ، والنهارِ لمن مَعاشُه فِي اللَّيْلِ، فإذا أشكل علينا الأمرُ، فالعِماد هُوَ اللَّيْلُ؛ لِأَنَّهُ مَحَلُّ السكن.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ اللَّيْلَ هُوَ مَحَلُّ السكن، والسكون فيه بالنوم والراحة أَفْيَدُ للبَدَن مِنْ ذَلِكَ فِي النَّهَارِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الأسباب؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ لتطلبوا، فالرزق لَا يَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ وينزل، بَلْ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ طَلَبٍ، وإِذَا لَمْ تَفْعَلْ هَذَا السَّبَبَ الَّذِي تَحْصُلُ به على الرزق، لَمْ يَحْصُلِ الرزق؛ لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حكيم رَبَطَ الأسبابَ بِمُسَبَّبَاتِها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الرِّزْقَ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وفضلٌ وعطاء، وهذا مأخوذ مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾، فليس حاصلًا بمجرد كَدِّ الإنسان وكَدْحِه، فَكَمْ مِنْ إنسانٍ يَكَدُّ ويَكْدَحُ، وَمَعَ ذَلِكَ يَكُونُ رزقه ضيقًا! وَكَمْ مِنْ إنسان يفعل أسبابًا أَقَلَّ مِمَّا فَعَلَهُ الأول، ثم يُوَسَّعُ لَهُ فِي الرِّزْقِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أهمية الشكر، لقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ ذَا بصيرةٍ فيما سَخَّرَ اللهُ لَهُ، حَتَّى يشكُرَ الله عليه؛ فَإِنَّ اللهَ سَخَّرَ لَنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، فنأخذ مِنْ هَذَا عِبرةً نتوصل بِهَا إِلَى شُكر اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى ذَلِكَ.

• • ❁ • •

الآيــة (٧٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القَصَص:٧٤].

قال المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَ﴾ اذْكُـرْ ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ذَكَرَ ثَانِيًا لِيَبْنِيَ عَلَيْهِ].

هنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد أفادنا بتقدير [اذْكُرْ] قَبل الظرف: ﴿وَيَوْمَ﴾.

وقوله ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: اللهُ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ﴾.

وقد مَرَّ عَلَيْنَا مِثْلُهُ قريبًا، وَهَذَا تَكْرَارٌ للتحذير مِنَ الشِّرْكِ، معناه: اذكر أَيْضًا يَوْمَ النداء مَرَّة.

ومعنى ﴿شُرَكَآءِىَ﴾: الذين جعلتمُوهم شُركاءَ لِي فِي الْعِبَادَةِ، فهُم يُقِرُّون بِأَنَّ اللهَ منفرِدٌ بالخَلق والرزق، لَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُنْكِرُ ذَلِكَ أَيْضًا وَيَقُولُ: لَا رَبَّ، أَوْ يَقُولُ عَنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ: أَوْجَدَتْها الطبيعة المَحْضَة!

وهَذَا أَيْضًا نَوْعٌ مِنَ الشِّـرْكِ، والأول تعطيلٌ محضٌ، فالذي يُنكر الإله مطلقًا هذا مُعطِّل مَحْضٌ، والثاني مشرك.

وقَوْلُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ذُكِرَ ثَانِيًا؛ لِيُبْنَى عَلَيْهِ].

• ● ۞ ● •

الآيـة (٧٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [القَصَص:٧٥].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَنَزَعْنَا﴾ أَخرَجْنَا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وَهُوَ نَبِيُّهُمْ يَشْهَد عَلَيْهِمْ بِمَا قَالُوا ﴿فَقُلْنَا﴾ لَهُمْ ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ عَلَى مَا قُلْتُمْ مِنَ الْإِشْرَاك ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ﴾ في الإلهية ﴿لِلَّهِ﴾ لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ ﴿وَضَلَّ﴾ غَابَ ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَنَّ مَعَهُ شَرِيكًا، تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ].

قَوْلُه تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ النَّزْعُ: الإخراج، نَزَعَ الشَّيْءَ مِنَ الشَّيْءِ: أَخْرَجَهُ مِنْهُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ المراد بالأُمة هنا الطائفة، ولكنها ليست مجرد الطائفة، بل الطَّائِفَةُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى مِنْهَاجٍ واحدٍ، فَإِذَا كَانَتْ طَائِفَةٌ عَلَى مِنْهَاجٍ وَاحِدٍ فَإِنَّهَا تُسمى أُمّةً، ولهذا جاءت فيها الميم الدَّالَّةُ عَلَى الْجَمْعِ والاجتماع، فالدولة ذاتُ الأحزاب لَا تكُونُ أُمَّةً في الواقع؛ لأنها مختلفة، لكن الْأُمَّة هِيَ الطَّائِفَةُ الَّتِي اجْتَمَعَتْ عَلَى مِنْهَاجٍ وَاحِدٍ.

فمثلًا: أُمَّةُ الْإِسْلَامِ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ، وأُمَّةُ الْكُفْرِ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ.

وقَوْلُه تعالى: ﴿شَهِيدًا﴾ بمعنى: شاهدًا، ولكنه أتى بصيغة المبالغة، أو بصيغة الصِّفَة الْمُشَبَّهَة باسمِ فاعِلٍ.

والمراد بالشَّهيد -كَمَا يَقُولُ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: [وَهُوَ نَبِيُّهُمْ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِمَا قَالُوا]، هَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: المرادُ بالشَّهيد العَرِّيف، أي: الزعيم، ننزعه مِنْ بَيْنِهِم، ثم اسألهم هَذَا السُّؤَالَ المَبْنِيَّ عَلَى التحدي ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾.

وَهَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ شيخنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِهِ[1]، أَنَّ الْمُرَادَ بالشهيد هنا الْكَبِيرُ مِنَ الأُمَّة، الَّذِي يُعْتَبَرُ بمنزلة العَرِّيف؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْكَبِيرَ مِنَ الأُمَّة نَائِبٌ عَنِ الأُمَّة، وهذا -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ القائل هُنَا هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، والبرهان: الدَّليل، أي: هاتوا الدَّلِيلَ عَلَى مَا قُمتم بِهِ مِنَ الإشراك، ولن يجدوا دليلًا.

وقولُه: ﴿هَاتُوا۟﴾ فِعلُ أَمْرٍ، والمقصود به التحدي؛ لأنهم طلبوا مَا لَا يُمْكِنُ، والتوبيخُ لأنه سوف يَلْحَقُهُمْ مِنَ الخِزْيِ والعار أَمَام النَّاسِ فِي ذَلِكَ المَجْمَعِ مَا لَا يَسْتَطِيعُونَ دَفْعَهُ.

وقوله: ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾، عَلِمُوا ذلك لَمَّا لَمْ يَأْتُوا بدليل، ولا بُرهان على إشراكهم، عَلِمُوا أَنَّهُ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي هَذَا الإشراك، وَأَنَّ الْحَقَّ للهِ وَحْدَهُ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَيْسَ لَهَا حَقٌّ فِي الْعِبَادَةِ، وَأَنَّ الْحَقَّ فِي الْعِبَادَةِ للهِ وَحْدَهُ، وهذا الْعِلْمُ لَا يَنْفَعُهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ؛ لِأَنَّهُمْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ -يوم المُجَازَاة- ينفعهم لو أَنَّهُمْ عَمِلُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا، فلو عَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ للهِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ عَمِلُوا؛ لَكَانَ ذَلِكَ نَافِعًا لهم، أَمَّا بَعْدَ أَنْ شاهَدُوا العذاب، فعلموا أَنَّ الْحَقَّ للهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُهُمْ.

---

(١) تفسير السعدي (ص٦٢٣).

ولكن فِيهِ فَائِدَةٌ عظيمة، وهي إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، قَالَ تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:٨-١٠].

فَالْفَائِدَةُ مِنْ ذَلِكَ كونُهم يَتَحَدَّوْنَ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الْحَقَّ لله، وأنهم يعرفون أَنَّهُمْ لَمْ يُظْلَمُوا شيئًا.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟﴾ الْحَقُّ فِي الأُلُوهِيَّة لله لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَضَلَّ﴾ غَابَ ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَنَّ مَعَهُ شَرِيكًا، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ].

يقول الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنَّ (ضَلَّ) بمعنى (غَابَ)، ولكن ضَلَّ أَبْلَغُ مِنْ (غَابَ)؛ لأن (ضَلَّ) يقتضي كأنه أمرٌ مطلـوب، ولكنهم عَجَزُوا عنه كالضَّالَّة، فالإنسان إذا ضَلَّ بَعِيرُه -مَثَلًا- أَوْ شاتُه يتطلبها فلا يجدها، وَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ عليه حَسْرَةً، فهُنا قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ كأنما هُوَ شَيْءٌ مفقودٌ عزيز عليهم، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَمَكَّنُوا منه.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾: ﴿مَا﴾ اسمٌ مَوْصُولٌ فاعِلٌ ﴿وَضَلَّ﴾، والعائِدُ الضَّمير المحذوف فِي قَوْلِهِ: ﴿يَفْتَرُونَ﴾، أي: مَا كَانُوا يَفْتَرُونَه، وقولُ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي الدُّنْيَا]؛ لأن ﴿كَانُوا۟﴾ فِعْلٌ مَاضٍ، فما كانوا يفترونه فِي الدُّنْيَا مِن أَنَّ مَعَ اللهِ شريكًا يَضِلُّ عَنْهُمْ هَذَا الشريكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَقُومُوا ببرهانٍ عليه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فِيهَا إِثْبَاتُ البَعْث والحِساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الرُّسُلَ يُسألون يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لكنهم يُسألون تَبْكِيتًا وتوبيخًا لأقوامهم الذين كَذَّبُوهم، هَذَا عَلَى تفسير الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أَمَّا عَلَى التَّفْسِيرِ الثاني، ففيه دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الزُّعماء هُمُ الَّذِينَ يُقامُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ للمناقشة، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٦٩].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَبْكِيتُ الْمُشْرِكِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ العظيم، حيث يُتَحَدَّوْنَ بِطَلَبِ الدَّلِيلِ عَلَى مَا قَالُوا مِنَ الإشراك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إذعانُ هؤُلاءِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنَّ الْحَقَّ لله، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُهُمْ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ هَـذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تَنْفَعُ عابِدِيها في أَحْوَجِ ما يكونون إليها؛ لقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:٢٤].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ اتخاذ الْأَصْنَامِ آلهةً مِنَ الِافْتِرَاءِ والكذب، وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات:٨٦].

الآيــة (٧٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿❁ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القَصَص:٧٦].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ ابْنُ عَمِّهِ وَابْنُ خَالَتِهِ وَآمَنَ بِهِ ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بِالْكِبْرِ وَالْعُلُوِّ، وَكَثْرَةِ المَالِ ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ﴾ تَثْقُلُ ﴿بِٱلْعُصْبَةِ﴾ الْجَمَاعَةِ ﴿أُو۟لِى﴾ أَصْحَابِ ﴿ٱلْقُوَّةِ﴾ أَيْ تُثْقِلُهُمْ، فَالْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ، وَعِدَّتُهُمْ قِيلَ: سَبْعُونَ. وَقِيلَ أَرْبَعُونَ. وَقِيلَ عَشَرَةٌ. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ بِكَثْرَةِ المَالِ فَرَحَ بَطَرٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ بِذَلِكَ].

قَوْلُه تعالى: ﴿قَـٰرُونَ﴾ اسمُ رَجُلٍ غَنِيٍّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ مِنْ قَوْمِ موسى.

وَقَدْ فَسَّرَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا القَوْم بالأقارب، فقال: [إِنَّهُ ابْنُ عَمِّهِ، وَابْنُ خَالَتِهِ]، ولكن هَذِهِ دَعْوَى لَا نَدْرِي: هل تَصِحُّ أَمْ لَا، قيل: هو ابْنُ عَمِّهِ، وقيل: إِنَّهُ كَانَ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ لَا يَشْغَلُنا.

المهمُّ: هُوَ أَنَّ القِصَّة وَقَعَتْ وفيها رَجُلٌ مِن قَوْمِ مُوسَى، وقد آمَنَ بِهِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالْكِبْرِ، وَالْعُلُوِّ، وَكَثْرَةِ المَالِ]،

الباءُ للسببية.

وقَوْلُه تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: اعتدى واستطال عليهم، على قَوْمِ مُوسَى، وَذَلِكَ بِمَا أَعْطَاهُ اللهُ تعالى مِنَ المَالِ، فصار طاغيًا، وَهَذَا هُوَ شأن الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ إنسانٌ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦-٧]، فهذا الْإِنْسَانُ إِذَا كَثُرَ مَالُهُ، وَرَأَى أَنَّهُ فِي غِنًى عَنْ غَيْرِهِ؛ يطغى.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي: أعطيناه مِن كُنوز المال، وهو جَمْع كَنْز، والكَنْزُ هو ما يُحتفظ به، ويُغْلَقُ عليه، ويَشْمَلُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ المَالِ مِن ذَهَبٍ، وفِضَّةٍ، وزُمُرُّد، وجَواهِر، ونُقود، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

قَوْلُه تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾: ﴿مَآ﴾ اسمٌ موصول بِمَعْنَى الَّذِي، وهي المفعول الثاني لـ(آتيناه)، ومفعولها الأول الْهَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾، و(إِنَّ) حرفُ توكيدٍ ونَصْبٍ، ومَفَاتِح اسمُها، وجُملة ﴿لَتَنُوٓأُ﴾ خَبَرُهَا، والجملة الاسمية صِلَةُ الموصول، يعني: الذي إِنَّ مَفَاتِحَهُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ أي: تَثْقُل بهم، ومَفَاتِح جَمْعُ مَفْتَح، وَهُوَ اسْمٌ للمِفتاح.

قَوْلُه تعالى: ﴿بِٱلْعُصْبَةِ﴾ الباء هنا لِتَعْدِيَة الْفِعْلِ إِلَى مفعوله بِحَرْفِ الْجَرِّ، وَإِنَّمَا احْتَاجَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَى هَذَا؛ لأن (ناءَ يَنُوءُ) يَتَعَدَّى بنفسه، أو بِحَرْفِ الْجَرِّ، وهنا تعدى بِحَرْفِ الْجَرِّ، أي: تُثْقِلُهم، فالباء للتعدية.

وَقِيلَ فِي عِدَّةِ العُصبة: سبعون، وقيل: أربعون، وقيل: عَشَرة، وقيل غَيْرُ ذَلِكَ، ولا ريبَ أَنَّ العُصبة هِيَ الْجَمَاعَةُ الَّتِي يَعْصِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، والعَصْب فِي اللُّغَةِ: الشَّدُّ،

ومنه سَمَّوُا القَرَابَةَ عُصْبةً؛ لأنهم يَشُدُّون أَزْرَ قَرِيبِهم، وهُمُ الجماعة ذَوُو القُوَّةِ.

وبعض الْعُلَمَاءِ يَقُولُ: مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَى سَبْعَةٍ.

وبعضُهم يزيدُهم إِلَى عَشَرَةٍ.

وبعضُهم يقول -كَمَا قال الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: سَبْعُون، أو: أربعُون.

والمسألة فيها خلافٌ، ولكن الظَّاهِرُ لَنَا أَنَّهُمْ هُمُ الْجَمَاعَةُ الَّذِينَ يَشُدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا ذَوِي كَثْرَةٍ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى حَدِّهم.

لَكِنْ مَعَ كَوْنِهِمْ جماعةً مجتمعين فهُم أقوياء، فاجتَمَع هنا في حَقِّهِم أمرانِ: القوة بالكيفية، والعَدَد بالكَمِّيَّة، فصارت عندهم كَمِّيَّة وكيفية، هَذِهِ الْجَمَاعَةُ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى حَمْلِ المفاتيح فقط لكانت المفاتيح تُثْقِلُهم، نقول: مفاتيحه لا يحملونها العَشَرَة أصحابُ القُوَّة! إِذَا كَانَ هَكَذَا فما بالُك بالخزائن! يعني: غني جدًّا بعطاء اللهِ تعالى لَهُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ أي: الناصحون له، وَهُمْ كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المؤمنون؛ لِأَنَّهُ لَا يَنصح مِثْلَ هَذِهِ النصيحة إِلَّا رَجُلٌ مُؤْمِنٌ، والإضافة فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ تُفيد بيانَ أَنَّ هَؤُلَاءِ عَلَى جَانِبٍ كَبِيرٍ مِنَ النُّصح؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ مِنْ قَوْمِك فَإِنَّهُ يَبْعُدُ أَنْ يَغُشَّك، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ناصحًا لك.

وقوله: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾: ﴿لَا﴾ ناهِيَة، والفرح يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: فَرَحٌ يكون سُرورًا لَا يُحْمَلُ عَلَى الأَشَرِ والبَطَر، بَلْ يَكُونُ حاملًا لِلْإِنْسَانِ عَلَى رضاه بنعمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقيامِه بِمَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ فِيهَا.

والثاني: فَرَحُ بَطَرٍ وتَرَفُّع، وعُدوان، وبَغْيٍ، وَهَذَا هُوَ الْفَرَحُ الَّذِي نَهَى عَنْهُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ قارونَ.

قَوْلُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْمُرَادُ مِنْهَا أَنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ، ولَازِمُها أَنَّهُ يَكْرَهُ، مَعَ أَنَّ الْقِسْمَةَ العقلية لَا تَقْتَضِي ذَلِكَ، فنفيُ المحبَّة لَا يَلْزَمُهُ إثباتُ الكُره، فَقَدْ يَكُونُ لَا يُحِبُّ، وَلَكِنَّهُ لَا يُكْرَهُ.

قَالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٣]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، فهنا قد يحتمل كُلَّ مَا قُلْنَاهُ، ولكن الظَّاهر -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ الْمُرَادَ إِثْبَاتُ ضِدِّهِ، وَإِنْ كَانَتِ القِسمة العقلية لَا تَقْتَضِي ذَلِكَ، لكن السياق يقتضيه؛ لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ نَفَى اللهُ عَنْهُ حُبَّهُ نَجِدُ أَنَّهُ مِمَّا يكرهه اللهُ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، وَقَالَ تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨]، وَقَالَ تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام:١٤١].

فالظَّاهر مِن السِّياقات أَنَّ الْمُرَادَ إثباتُ الكراهة، لكنه أتى بنفي المحبة؛ لِأَنَّ الْمَحَبَّةَ محبوبة، فَكَأَنَّ هَذَا الَّذِي أحبَّ الفسادَ، أَوْ أَحَبَّ الفرح، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، يُقابَل بِنَقِيضِ قَصْدِه.

وقوله: ﴿ٱلْفَرِحِينَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِذَلِكَ]، والمشار إِلَيْهِ هُوَ كَثْرَةُ الْمَالِ، والمراد بالفرح الَّذِي نَفَى اللهُ محبته فَرَحُ البَطَر والأَشَر.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيف نَجمع بَيْنَ قَوْلِهِ تعالى هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾، وقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]؟

قلنا: إِنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ هو الفرح بِفَضْلِ اللهِ الدِّيني: الْعِلْم وَالْإِيمَان، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مِنَ الدُّنْيَا، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْفَرَحَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ أَنْ يَفْرَحَ الْإِنْسَانُ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، وَثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ

سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ»[١].

أما الْفَرَحُ الَّذِي لَا يُحمد صَاحِبُه، فَهُوَ الفَرَحُ لِلدُّنْيَا عَلَى وَجْهِ البَطَر والأَشَرِ، فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، قَالَ عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ لما كَسَاهُ قومُه ثوبًا: فَمَا فَرِحْتُ بِشَيْءٍ فَرَحِي بِذَلِكَ القَمِيصِ[٢].

وَقَالَتْ عَائِشَةُ: «لَأَنْ أَكُونَ اسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَمَا اسْتَأْذَنَتْ سَوْدَةُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مَفْرُوحٍ بِهِ»[٣].

فالفرح الطبيعي الَّذِي مَا يَحْمِلُ عَلَى الأَشَرِ والبَطَر والكِبرياء، هَذَا أَمْرٌ لَا يُذمُّ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ، بَلْ إِذَا فرح به -لأنه وَسِيلَةٌ إِلَى مقصودٍ شرعي- كَانَ بِذَلِكَ محمودًا مأجورًا عليه، مِثْلُ أَنْ يَفْرَح بما جاءه مِنَ المَالِ؛ لأنه يُحِبُّ أَنْ يَبْذُله فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، أَوْ فِي بِنَاءِ المَسَاجِدِ، أَوْ فِي التَّصَدُّق عَلَى الْفُقَرَاءِ، يَكُونُ هَذَا الفرح محمودًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ الغِنى سبب للطُّغيان؛ لأن قارون إنما بَغَى وطغى بسبب مَا آتَاهُ اللهُ تعالى مِنَ المَالِ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم (٢١٦٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد رواه ابن المبارك عن محمد بن سوقة، وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن عمر عن النبي ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، بعد باب مقام النبي ﷺ بمكة زمن الفتح، رقم (٤٣٠٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب من قدم ضعفة أهله بليل، فيقفون بالمزدلفة، ويدعون، ويقدم إذا غاب القمر، رقم (١٦٨١)، ومسلم: كتاب الحج، باب استحباب تقديم دفع الضعفة من النساء وغيرهن من مزدلفة إلى منى في أواخر الليل قبل زحمة الناس، واستحباب المكث لغيرهم حتى يصلوا الصبح بمزدلفة، رقم (١٢٩٠).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ القومِيَّة لَا تَنْفَعُ أصحابَها، إنما النافع هُوَ الْإِيمَانُ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهذا الرَّجُلُ مِنْ قَوْمِ مُوسَى، وَمَعَ ذَلِكَ بَغَى عَلَيْهِمْ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ اللهَ يَبتلي بِإِعْطَاءِ المَالِ العبدَ به، فَكَمَا أَنَّ الْفَقْرَ ابتلاء، فكذلك الغنى ابتلاء.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كثرةُ أموال هَذَا الرَّجُلِ لقوله: ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ هَـذَا الرَّجُلَ بَغى عَنْ عِلْمٍ؛ لأنه نُصِح، وَقَالَ لَهُ قومـه: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾، فنصحوه، وَلَكِنَّهُ اسْتَمَرَّ فِي طُغْيَانِهِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ مِنْ حُسن الدعوة إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ إِذَا ذُكِرَ الحُكم تُذْكَر العِلة؛ تخويفًا، أو ترغيبًا، إِنْ كَانَ منصوحًا بِطَلَبِ تَذَكُّرِ العِلَّة ترغيبًا، وَإِنْ كَانَ منصوحًا بِنَهْيٍ، فإنها تُذْكَرُ تخويفًا؛ لقوله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ المحبة لله، تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾، مَعَ أَنَّ المُرَادَ نَفْيُ المحبة، وَلَكِنْ مَا نَفاها عَنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا وَهِيَ ثَابِتَةٌ لِضِدِّه؛ ولهذا اسْتَدَلَّ الْعُلَمَاءُ بأن المؤمنين يَرَوْنَ ربهم بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، قالوا: فلما حُجِبوا عن ربهم دَلَّ عَلَى أَنَّ غيرَهُم غيرُ محجوبين، فَلَوْ كَانَ الْكُلُّ محجوبين، مَا كَانَ لِتَخْصِيصِ هؤُلاءِ فائدة.

• • ۞ • •

الآيــة (٧٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القَصَص:٧٧].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱبۡتَغِ﴾ اطْلُبْ ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ مِنَ المَالِ ﴿ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ بِأَنْ تُنْفِقَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ ﴿وَلَا تَنسَ﴾ تَتْرُكْ ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أَيْ أَنْ تَعْمَلَ فِيهَا لِلْآخِرَةِ ﴿وَأَحۡسِن﴾ لِلنَّاسِ بِالصَّدَقَةِ ﴿كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ﴾ تَطْلُبْ ﴿ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بِعَمَلِ المَعَاصِي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُعَاقِبُهُمْ].

قَوْلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱبۡتَغِ﴾ أي: اطلُب، قوله: ﴿فِيمَآ﴾ أي: فِي الَّذِي، قوله: ﴿ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ يعني: أعطاك مِنَ المَالِ، مِنْ هَذِهِ الكنوز العظيمة التي مَفَاتِيحُها تَنُوء بالعُصبة، اطلب فيها الدَّارَ الْآخِرَةَ.

وقوله: ﴿ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ المراد بالدَّار الْآخِرَةِ الْجَنَّةُ هنا، قَالَ تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القَصَص:٨٣]، ولكن كيف يُطْلَبُ بِهِ الدَّارُ الْآخِرَةَ؟

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِأَنْ تُنْفِقَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ]. وحينئذ يَكُونُ ذَلِكَ ذُخرًا لك

عِنْدَ اللهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وإذا عَوَّد الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ، ورَوَّضها عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، صَارَ هَذَا الْأَمْرُ سَجِيَّةً له، يفرح به ويُسَرُّ، وتَنعم بِهِ نَفْسُهُ، ولذلك فإنَّ أحب شَيْءٍ إِلَى الكريم هو العَطاء.

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي (زاد المعاد)[1] أن الإنفاق للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي اللهِ -فِي حُدُودِ الشرع- يكون سببًا لانشراح الصدر، قال: «وَمِنْهَا: الْإِحْسَانُ إِلَى الْخَلْقِ وَنَفْعُهُمْ بِمَا يُمْكِنُهُ مِنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالنَّفْعِ بِالْبَدَنِ وَأَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ الْمُحْسِنَ أَشْرَحُ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَطْيَبُهُمْ نَفْسًا، وَأَنْعَمُهُمْ قَلْبًا، وَالْبَخِيلُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِحْسَانٌ أَضْيَقُ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَنْكَدُهُمْ عَيْشًا، وَأَعْظَمُهُمْ همًّا وَغَمًّا».

وَهَذَا أَمْرٌ معلوم، تجد أَكْثَرَ النَّاسِ انشراحًا فِي الصُّدُورِ هُم الكِرام، وَأَنَّهُ إِذَا أَعْطَى إنسانًا عطيّةً يجد بذلك سُرورًا وانشراحًا، فهو لو أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ هذا، وابتغى به الدَّارَ الْآخِرَةَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَضِيعُ عَلَيْهِ عِنْدَ اللهِ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ يَقُولُ الناصحون له: ﴿وَلَا تَنسَ﴾.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ﴾ أي: لَا تَتْرُكْ؛ لِأَنَّ النِّسْيَانَ يُطْلَقُ عَلَى أَمْرَيْنِ:

أحدهما: الذُّهول عَنِ الشَّيْءِ المعلوم الذي عَلِمْتَه، ثم ذُهِلْت عَنْهُ.

والثاني: التَّرك.

ومنه أَيْضًا قَوْلُهُ تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، نَسُوا اللهَ: أي: تركوا عبادته، ولم يقوموا بحقهم.

قوله: ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي فَتَرَكَهُم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلم يُثِبْهُم.

---

(١) زاد المعاد، لابن القيم (٢/ ٢٤).

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الحشر:١٩]، أي: تركوه، وقوله: ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩]، أي: جعلهم يَنْسَوْنَها ويَغْفُلُون عنها، ويتركونها دُون رِعاية.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦]، فالمراد بالنسيان: الذُّهول عَنْ شَيْءٍ معلوم، فَاللهُ تعالى أحصاهُ لكن هؤُلاءِ نَسُوه.

فهنا إِذن مِن هَذَيْنِ الشَّاهِدَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ الكريم يتبين لَنَا أَنَّ النسيان يُطْلَقُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ: أحدهما: التَّرك، والثاني: الذُّهول عَنْ شَيْءٍ معلوم.

وَالَّذِي يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ اللهُ بِهِ هُوَ التَّرْكُ، أَمَّا الذُّهول فقد نَفَاهُ اللهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، هنا النِّسْيَانُ بِمَعْنَى: الذُّهول، وليس التَّرك؛ لِأَنَّ اللهَ يَتْرُكُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ممن يستحقون التَّرْك.

أَمَّا قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه:١١٥]، فهنا مَسْأَلَةٌ فِيهَا قَوْلَانِ لأهل العِلم؛ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ قَوْله: ﴿فَنَسِىَ﴾ أي: تَرَكَ عَنْ عَمْدِ تَرْكٍ، فيكون مُسْتَحِقًّا لِلْعِقَابِ.

وَعَلَى هَذَا الرَّأْيِ لَا إِشْكَالَ فِي المَسْأَلَةِ، فكونُه يُعَاقَبُ عَلَى أَمْرٍ تَرَكَهُ مِنْ غَيْرِ ذُهول، حيث تَرَكَهُ وَهُوَ عَالِمٌ به، ويكون مَلُومًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ المُرَادَ بالنسيان الذُّهول، وهؤُلاءِ قَصَدُوا بِذَلِكَ تجنُّب وصف آدم بتعمُّد المعصية؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَرَكَهُ عَنْ ذُهول لَا يُلَامُ، وهؤُلاءِ يَحْتَاجُونَ إِلَى الْجَوَابِ عَنْ سُقوط الإثم بالنسيان، ويقولون: إِنَّ مِن خصائص هَذِهِ الْأُمَّةِ: سُقوط الإثم بالنسيان، كَقَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ والنِّسْيَانَ،**

وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»[1].

فقوله: «عَنْ أُمَّتِي» يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأُمَمَ السَّابِقَةَ كانت مؤاخَذَةً به، وكون الْأُمَمِ السَّابِقَةِ مؤاخَذَة، أَوْ غَيْرَ مؤاخَذَة فِي الْحَقِيقَةِ هَذَا لَا يُرَجِّحُ أَحَدَ الْقَوْلَيْنِ، لكن الذي يُرَجِّح أنه نسيانُ تَركٍ، لا نِسيانُ ذُهولٍ.

أَمَّا قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه:١٢١]، وهذان الوصفان مَعصية، ويَدُلَّان عَلَى أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ عَنْ عَمْدٍ، لكنه اغترَّ بِغُرور إبليس، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢٢]، وقال: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٢١]، وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه:١٢٠]. اغتر آدمُ، وفَعَل مَا فَعَلَ.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ﴾ كأنهم يقولون: اجعل انْهِمَاكَك فيما تُريد فِي الْآخِرَةِ، حَتَّى كَأَنَّ ما تُريده للدنيا يَغيب عنك، وَلَكِنْ لَا تَنْسَهُ.

وقوله تعالى: ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ أَنْ تَعْمَلَ فِيهَا لِلآخِرَةِ].

يشير الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بنصيبه مِنَ الدُّنْيَا أَنَّهُ عَائِدٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾ يعني: لَا تَنْسَ نَصِيبَك مِنَ الدُّنْيَا بإمهالِك، فما دُمْتَ قَدْ أُعْطِيت مُهلة؛ فلا تَنْسَ هذه الْمُهلة أَنْ تُنْفِقَ الْمَالَ فِي طَاعَةِ اللهِ، فَيَكُونَ الْمُرَادُ بالنصيب مِنَ الدُّنْيَا هنا العَيش فِي الدُّنْيَا، يعني: لَا تَنْسَ أن تَغْتَنِمَ الفُرصة فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، فتُنفق، فتكون الجملة هنا عَائِدَةً عَلَى الْجُمْلَةِ الْأُولَى فِي الْمَعْنَى، أي: اطلب الدَّارَ الْآخِرَةَ فيما تُنفِق حَتَّى لَا يُضِيعَ عليك الوقتُ، فيضيعَ نَصِيبُك مِنَ الدُّنْيَا.

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، رقم (٢٠٤٣).

وَلِهَـذَا قَال: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ كَأَنَّهُ يَقُولُ: اغتنم هَـذِهِ الْمُدَّةَ الَّتِي هِيَ نَصِيبُك مِنَ الدُّنْيَا اغتَنِمْها للآخِـرة، ويَحتمل -وَهُوَ الأقرب- ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أَنَّنا لا نأمُرُك بأن تُنْفِقَ جميعَ مالِكَ طلبًا للآخِـرَة، بل اطلُـب الآخرة فيه، وخُذ نَصِيبًا مِنَ الدُّنْيَا لك، فَنَحْنُ لَا نُرِيدُ أَنْ تَنْخَلِع مِنْ مَالِكَ، ولكننا نُرِيدُ أَنْ تَبْتَغِيَ به الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَمَعَ ذَلِكَ فخذ نَصِيبَك مِنَ الدُّنْيَا مِن طَيِّب المأكَل، ونظافَة المنزل، والثياب، والزوجات، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَهَذَا المَعْنَى أقربُ وأصَحُّ؛ لأَنَّنا عَلَى المَعْنَى الَّذِي ذَهَـبَ إِلَيْهِ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَكُونُ الْآيَةُ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ التَّكْـرَار، فَقَدْ تَكُونُ سَبَبًا لِجَلْبِه وقَبُـولِه النصيحةَ، وَقَدْ يَكُونُ قولُهم له بطلب الآخرة، وعَدَمِ نِسيان حَظِّهِ مِنَ الدُّنْيَا أَنَّ هَذَا أَقْرَبُ إِلَى قَبُولِ النصيحة، والأخيرُ أقربُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قِيلَ: هَذَا المَالُ الْعَظِيمُ الَّذِي مفاتيحه تَنُوءُ بالعُصبة ابْتَغِ به كُلَّه الدَّارَ الآخِرةَ. فالمتبادَر أنه لن يَقْبَلَ، لَكِنْ إِذَا قِيلَ: ابتغِ به الآخِرة، وتَمَتَّعْ بالدُّنيا بِنَصِيبِـك، فهَذَا يَكُونُ أدعى للقَبُـول، وَهُوَ أَيْضًا مِنَ الأساليـب الحَسَنة فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والنبي ﷺ قَالَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: «**إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**»(١).

فَلَا تَقُلْ: إني أقومُ الليلَ، وأَصُومُ النهارَ ما عِشْتُ، هَذَا خَطَأٌ، فإِنَّ لربِّك عليك حقًّا بعبادته، ولكنْ لنفسك عليك حقٌّ بإعطائها الراحةَ، فالصَّواب هُوَ هَذَا، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَك مِنَ الدُّنْيَا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له، رقم (١٨٦٧).

وَلَا نَدْرِي هل عاصر قارونُ فِرْعَونَ أَمْ كَانَ هَذَا بَعْدَ هلاكه؟ وَلَا يُوجَدُ مَا يَمْنَعُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ كَفَرَ، واتصلَ بفِرْعَونَ، وصارت عنده الأموال العظيمة.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَأَحْسِن﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَحْسِن﴾ لِلنَّاسِ بِالصَّدَقَةِ]، هنا الْمُفَسِّر خَصَّ الإحسانَ، قال: أَحْسِن للناسِ بالصَّدَقة، ولكن الصَّحِيحُ أَنَّ الْمُرَادَ مَا هُوَ أعمُّ، أي: أَحْسَنُ فِي عِبَادَةِ الله، وفي معاملة عِبَادِ اللهِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ الكافُ هنا للتَّعلِيل، وليست للتَّشبيه؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لإنسان أَنْ يُحْسِنَ مِثْلَ مَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْهِ، فإحسان اللهِ إِلَيْهِ أكملُ وأعظمُ، وَقَدْ جَاءَتِ الكاف للتَّعلِيل فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ، مِثْلَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨]، أي: واذكروه لهدايتكم، وَمِثْلَ قَوْلِهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**»(١)، فإن الكافَ هنا للتَّعلِيل، وليست للتَّشبيه.

وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَاهُ نَسْلَمُ بِهِ مِنَ الإيراد الذي أورده بَعْضُ النَّاسِ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ، وَهُوَ أَنَّهُ مِن الْعَادَةِ أَنَّ الْمُشَبَّهَ أقلُّ شأنًا ورُتبةً مِن الْمُشَبَّهِ به، وَمُحَمَّدٌ ﷺ لَا شَكَّ أَنَّهُ لَيْسَ أَقَلَّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، فكيف قيل: «**صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ**».

مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ أجاب فقال: إِنَّ التَّشبِيه لِلصَّلَاةِ عَلَى وَاحِدٍ فِي الصَّلَاةِ عَلَى جَمَاعَةٍ: إبراهيمَ وآلِه، وَهَذَا يَصِحُّ أَنْ يُعْطَى مُحَمَّدٌ ﷺ مِثْلَ مَا أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ، وَلَكِنْ لَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، بَلْ نَقُولُ: إِنَّ الْمَعْنَى: أنك يا ربي كَمَا صَلَّيْت عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَإِنَّ هَذَا مِن شأنك، ومِن عادتك التكرُّم، فامنُن أَيْضًا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، بابٌ، رقم (٣٣٧٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم (٤٠٦).

عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فتكون جُمْلَةُ: «كَمَا صَلَّيْتَ». للتَّعليل، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ للتَّوَسُّل، يعني: إننا نَتَوَسَّلُ إليك بما فعلتُ مِنْ قَبْلُ فِي إِبْرَاهِيمَ وآلِه، أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ وَآلِ مُحَمَّدٍ.

قَوْلُه: ﴿كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْهِ بِالمَالِ العظيم، الذي مفاتِحُه تَنُوءُ بالعُصبة، وقوله: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الفساد بالبَغي؛ حَيْثُ قَالَ تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾، فلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ بالبغي، كَذَلِكَ أَيْضًا إِنْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ يعمل بِمَالِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، فَيَكُونُ هَذَا مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ؛ أَنَّ مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا، وَلَيْسَ عِنْدَهُ إيمان؛ فَإِنَّهُ يَجْعَلُ مِنْ مَالِهِ وَسِيلَةً إِلَى الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وقوله: ﴿ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: الْفَسَاد فِي الْأَرْضِ بِالمَعَاصِي؛ لأن المَعَاصِيَ فِي الْحَقِيقَةِ هِيَ سَبَبُ فسادِ الأرض، قَالَ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ [الروم:٤١].

ولهذا مَا مِنْ شَيْءٍ يَكُونُ فِي الْأَرْضِ مِن فِتنٍ، وحُروبٍ، وقِتالٍ، وجَدْبٍ، وغيره، إلا بسبب المعاصي، قَالَ تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ [فاطر:٤٥].

فهذا الهَرْجُ الَّذِي كَثُرَ فِي هَذَا العصر، كُلُّ ذَلِكَ بسبب المَعَاصِي الَّتِي تُفعل، فهي عقوبة للعُصاة الذين أُصيبوا بهذه، وإنذارٌ للآخرين؛ فإنك قَدْ تَرَى البلاد الآمنةَ المطمئنةَ التي يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رغدًا مِنْ كُلِّ مَكَان، ويَجلب النَّاسُ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ مَكَان، ثم تفاجأ بأنها دُمِّرَت مساكِنُها، وبُيُوتُها، وأَمْنُها، ورخاؤها؛ بسبب المعاصي.

قَوْلُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِمَعْنَى أَنَّهُ

يُعَاقِبُهُمْ]. وهذا يُسمونه تأويلًا، ونحن نُسميه تحريفًا؛ لِأَنَّ الْآيَةَ لَيْسَ مَعْنَاهَا أَنَّ اللهَ يُعاقب المفسدين، بَلْ مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يُحِبُّهم، أي: إنها تنتفي عنهم محبة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي الصِّفَة الثابتة لَهُ حَقِيقَةً عَلَى وَجْهِ الكمال، لَكِنْ إِذَا كَانَ لَا يُحبهم، فلا يُثيبُهم.

وَإِذَا قُلْنَا: إِنَّ نَفْيَ المحبة إثباتٌ للكراهة لَزِم منه المعاقبة، فتفسير الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمحبته هنا باللازم، وهو المعاقبة، خطأٌ، هذا يعتبر تحريفًا لِكَلَامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهناك فرق بَيِّن بَيْنَ نفي المحبة والمعاقبة، كَمَا أَنَّ هُنَاكَ فَرَقًا بَيْنَ المحبة والإثابة، والْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحمل المحبةَ على الإثابة، وَمَا هِيَ عَلَى الإثابة.

فالحاصِلُ: أَنَّ هَذَا الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ مِنَ الأشاعرة وغيرهم، فَإِذَا كَانَتِ الصِّفَةُ لَا تَدْخُلُ عقولهم، قالوا بالتأويل.

فَقَدْ ذَكَرَ شَيْخُ الإسلام عنهم القاعدةَ فِي إِثْبَاتِ الصفات، حَيْثُ قَالَ: «وكان ابن كُلَّاب وأتباعه يقولون: إِنَّ العُلُوَّ على المخلوقاتِ صِفَةٌ عقلية تُعلَم بالعقل، وأمَّا استواؤه على العرش، فهو مِن الصفات السمعية الخبرية التي لا تُعلم إلا بالخَبر، وكذلك الأشعري يُثبت الصفات بالشرع تارَةً، وبالعقل أخرى، ولهذا يُثبت العُلُوَّ ونحوه مما تَنْفِيه المعتزلة، وثَبَت الاستواء على العرش، ويرد على مَن تأوله بالاستيلاء ونحوه مما لا يختص بالعرش، بخلاف أتباع صاحب الإرشاد، فإنهم سلكوا طريقة المعتزلة، فلم يُثبتوا الصفاتِ إلا بالعقل، وكان الأشعري وأئمة أصحابه يقولون: إنهم يحتجون بالعقل لما عُرِف ثُبوتُه بالسمع، فالشرع هو الذي يُعتَمد عليه في أصول الدِّين، والعقلُ عاضِدٌ له مُعاوِن.

فصار هؤُلاءِ يسلكون ما يَسلكُه مَا سَلَكَه مِن أهلُ الكلام المعتزلة ونحوهم فيقولون: إن الشرع لا يُعتَمد عليه فيما وُصِف الله به، وما لا يُوصَف، وإنما يعتمد في

ذلك عندهم على عقلهم، ثم ما لم يُثْبِتْه إما أَنْ يَنْفُوه، وإما أَنْ يَقِفُوا فيه»[١].

هـذه هِيَ الْقَاعِـدَةُ فِي إِثْبَاتِ الصفات أو نَفْيِها عند المتكلميـن مِن المعتزلـة والأشاعرة وغيرهم.

وأهلُ السُّنة جميعًا يقولون: مَا أَثْبَتَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ أثبتناه، وما نفاه الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ نفيناه، وَمَا لَمْ يَكُنْ فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ توقفنا فيه.

أما هُم فعلى العكـس، يقولون: مَا أَثْبَتَـهُ العقل أثبتناه، وما نفاه نَفَيْـنَاه، وَمَا لَا يَقْتَضِي إِثْبَاتَهُ، وَلَا نَفْيَهُ أكثرُهم يقولون: نَفَيْنَاهُ، ولا نَقْبَلُه؛ لأَنَّنا نشتـرط لِقَبُـول الصِّفة إثباتَ العقل لها، فَإِذَا لَمْ يُثبتها وَجَبَ نَفْيُهَا.

وبعضُهم يقول: اتَّقُوا اللهَ، واعدلوا، إِذَا كَانَ الْعَقْلُ لَا يَقْتَضِي إثباتها، وَلَا نَفْيَها، فالواجب التوقُّف؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ ترجيحٌ بالإثبات، ولا ترجيح بالنفي، فيجـب عَلَيْنَا أَنْ نتوقف.

فَهَؤُلَاءِ هُمُ الوَرِعون منهم، لكنَّ الوَرِعيـن فِي هَذِهِ النقطة غيـر الوَرِعيـن في النقطة الأولى، وَهِيَ مَا أَثْبَتَهُ العقلُ أثبتناه، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَذْكُورًا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وما نَفَاهُ العقل نَفَيْنَاهُ، وَإِنْ كَانَ مَذْكُورًا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فيها دَلِيلٌ عَلَى أَنْ قارون كَانَ يُنْفِقُ المَالَ بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ فِي المَعَاصِي والفساد، وَغَيْـرِ ذَلِكَ؛ لقولهم: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، ولَوْ كَانَ يُنْفِقُهَا مِن أَجْلِ الدَّارِ الْآخِرَةِ مَا قَالُوا لَهُ هَذَا.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (٢/ ١٢).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لمن آتاهُ اللهُ مَالًا أَنْ يُحْسِنَ النِّيَّةِ، وَالْقَصْدَ في بَذْلِه، أي: كُلُّ إِنْسَانٍ عِنْدَهُ مَالٌ يَنْبَغِي بَذْلُه، لكن يَنْبَغِي أَنْ يُحْسِنَ النِّيَّةَ وَالْقَصْدَ، لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ قَالَ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ: «**وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ**»[1]، فقد قيَّدها بقوله: «**تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ**»، أَمَّا لَوْ أَنْفَقَ الإنسان لِغَيْرِ هَذَا الْغَرَضِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُثَابُ، وإِنْ أَنْفَقَ لِغَرَضٍ سَيِّئٍ؛ فَإِنَّهُ يُعَاقَبُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ يُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّهُ يجب أَنْ يَقصد الدَّارَ الْآخِرَةَ، بِأَنْ يَكُونَ فِي الْخَيْرِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ المَالَ -وَإِنِ اكتسبه العبدُ بِفِعْله- فَهُوَ مِنْ فَضْلِ اللهِ؛ لقوله: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ فهو، وَإِنْ كَانَ الإنسانُ يكتسب ويَتَّجِر ويُحَصِّل، لكنه مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ الَّذِي يُقَدِّرُه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات الْيَوْمِ الْآخِرِ؛ لقوله: ﴿ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جواز تمتُّع الْإِنْسَانِ بِمَا آتَاهُ اللهُ تعالى فِي الدُّنْيَا، ولكن بِشَرْطِ أَلَّا يَكُونَ عَلَى سَبِيلِ المعصية؛ لِقَوْلِهِ فِي جُمْلَةِ النصيحة: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾، هَذَا عَلَى الرأي الَّذِي اخْتَرْنَاهُ.

أَمَّا عَلَى رَأْيِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فَإِنَّ هَذَا عَائِدٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾، وَيُرِيدُ أَنْ يَكُونَ نَصِيبُهُ مِنَ الدُّنْيَا الفُسحة والمُهلة التي أُعْطِيَها، لا يُضِيعُها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى، رقم (٥٦)، ومسلم: كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم (٥٦).

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: حُسْنُ دعوة هـؤُلاءِ، حيث ذَكَّروه بنعمـة الله عليه، لقوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾، فكأنهم يقولون: أحسِنْ؛ لِأَنَّ اللهَ أحسنَ إليك، فأنت حينما تُحسن تكون شاكرًا لِنِعْمَةِ اللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي للدَّاعي أَنْ يُذَكِّرَ المَدعو بنعمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الْإِنْسَانَ إِذَا ذُكِّر بالنعمة، فقد يَخْجَلُ مِنَ اللهِ، فَلَا يَعْصِهِ.

أَمَّا إِذَا ذُكِـرَ لَهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيَ مُجَـرَّدًا عَنِ الأسباب والوسائل التي تَحْمِلُه عَلَى الْفِعْلِ، أَوِ التَّرْكِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الدعوةَ تكون قاصرةً، فالذي يَنْبغي للدَّاعي أَنْ يُذَكِّر المرءَ المدعو بما يقتضي إقبالَه وقَبُولَه؛ لقولهم: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تحريم نِيَّة الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؛ لقوله: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ﴾، وإذا حَرُمـت نِيَّة الفساد، فالفسادُ نَفْسُه مِنْ بَابِ أَولى، ويَحْرُم عَلَى المَـرْءِ أَنْ يُفسِد، أو أَنْ يَنْوِيَ الفساد.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: التَّحْذِيرُ مِنَ الْفَسَادِ؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ مَحَبَّةِ اللهِ؛ لأن نَفْيَهَا عَنِ المفسدين دَلِيلٌ عَلَى ثُبوتها للمصلحين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: مِن حُسـن الدعوة أَلَّا يُؤَيَّسَ الْإِنْسَانُ، فيقال: لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ كُلُّ أفعالِك للآخِرة؛ لأن الْإِنْسَانَ إِذَا طُلِبَ مِنْهُ أَنْ تَكُونَ كُلُّ أفعاله للآخرة، فَقَدْ يَنْحَسِرُ، وَلَا يَقْبَلُ، لَكِنْ إِذَا قِيلَ لَهُ: هَذَا وَهَذَا، فهو أدعى للقَبُول، وَهُوَ مِنْ حُسْنِ الدعوة التي سَلَكَها هؤُلاءِ الدعاة.

الآيــة (٧٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [القَصَص:٧٨].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ أَيِ المَالُ ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ أَيْ فِي مُقَابَلَتِهِ وَكَانَ أَعْلَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالتَّوْرَاةِ بَعْدَ مُوسَى وَهَارُونَ، قَالَ تعالى ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾ لِلْمَالِ أَيْ هُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ وَيُهْلِكُهُمُ اللهُ ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ لِعِلْمِهِ تعالى بِهَا فَيَدْخُلُونَ النَّارَ بِلَا حِسَابٍ].

انظر جواب قارونَ لهـؤُلاءِ الناصحيـن ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ أي: المال، ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾.

وكانوا قد قَالُوا لَهُ قَبْلَهَا: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ فَلَمْ يعترف، بَلْ قَالَ: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾.

واختلف المُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ فَقِيل -كَمَا قال المُفَسِّرُ- أي: فِي مُقَابَلَتِهَ: أي: إِنَّهُ لَيْسَ فَضْلًا مِنَ اللهِ، ولكن لأني كنتُ عالمًا بالتَّوراة وفاهمًا أُوتِيت هذا الشَّيْءَ. فجَعَل فَضْلَ اللهِ عَلَيْهِ مِن باب المكافأة، وَلَيْسَ مَنْ باب الفضل.

إذن: هو رَدَّ نصيحتَهم، ولم يعترِف بأن الفضل لله، هَذَا قَوْلٌ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: إنما آتَانِي اللهُ ذَلِكَ؛ لأني أهلٌ له، فيصير المعنى: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي له أهلٌ.

وبمعنًى آخَر: لأني عالِمٌ بأسباب الرزق، فاكتسبتُه بما معي مِنَ الْعِلْمِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ فَضْلِ اللهِ، بل أَنَا رَجُلٌ حاذِقٌ أعرفُ كيف أتصرف، وأعرف الْأَسْبَابَ الَّتِي فِيهَا نُمُوُّ المال، فحَصَل لي ذَلِكَ بِمَا عندي. كَأَنَّهُ يَقُولُ: إنما أُوتيتُه بِحَوْلي وقُوَّتِي، وليس بِفَضْلِ اللهِ ومِنَّتِه.

فصار عَلَى الْمَعْنَى الْأَوَّلِ نَسَب هذا الإتيانَ عَلَى أَنَّهُ مكافأةٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ له، وَعَلَى الْقَوْلِ الثَّانِي نَسَب هذا الْفَضْلَ إِلَى حَوْلِه وقُوته، وَلَيْسَ إِلَى فَضْلِ اللهِ تعالى.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَكَانَ أَعْلَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالتَّوْرَاةِ بَعْدَ مُوسَى وَهَارُونَ]، وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ -مِن زَعْمِه أنه أعلمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بالتَّوراة بَعد مُوسَى وَهَارُونَ- غَيْرُ مُسَلَّمٍ به؛ بَلْ إِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهُ قَالَ: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي له أهل، وأني أهلٌ لهذا الشَّيْء، أَوْ عَلَى عِلْمٍ عندي، أي: عَلَى مَعْرِفَةٍ مني بالأمور، وأمَّا أنه أعلمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بالتوراة، فَلَيْسَ فِي الْآيَاتِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ.

قَوْلُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام، وَالْمُرَادُ بِهَا التقرير، أي: إِنَّهُ قَدْ عَلِمَ؛ لِأَنَّ الَّذِي قَدِ عَلِمَ هُوَ اللهُ، وَهُوَ عَالِمٌ بأنَّ قارونَ عَالِمٌ بِذَلِكَ، فالتقريرُ هنا مِنَ اللهِ، هُوَ الَّذِي أخبرنا بأنَّ قارون قَدْ عَلِمَ بِهَذَا الْأَمْرِ.

وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ﴾ الإهلاكُ هُنَا بِمَعْنَى الإفْنَاء، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ جَمْعُ قَرْنٍ، والقَرْنُ تارَةً يُرَادَ بِهِ الْأُمَّةُ، وتارَةً يُرَادَ بِهِ الزمن، فيُقال مثلًا: تتابعت الأُمم قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، أي: زَمَنًا بَعْدَ زَمَن.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾: الأمم، ﴿مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾ لِلْمَالِ أَيْ هُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ].

قوله: ﴿مَنۡ﴾ مفعولُ ﴿أَهۡلَكَ﴾، أي: الَّذِي هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ، أي: مِن قارون، قوله: ﴿قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾ للمال ﴿أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ﴾ فِي بَدَنِهِ، وَأَمَّا المَالُ فقال: ﴿وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾ أي: أكثرُ مجموعًا للمال، أو: أكثر تحصيلًا له، وَهَذَا هُوَ ظَاهِرُ كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: ﴿جَمۡعٗاۚ﴾ أي: تحصيلًا، وَلَكِنْ إِذَا قُلْنَا: أكثر جَمْعًا، أَوْ مجموعًا، كَانَ أَوْلَى؛ لأن المجموعَ نتيجة للقوة التي يُحصِّل بها المَرْءُ المالَ.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ هُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ]، فأفادنا بأن الاستفهامَ هنا للتقرير، أي: إِنَّ قارونَ قَدْ عَلِمَ، ولكنه تجاهَلَ الأمرَ، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَيُهْلِكُهُمُ اللهُ].

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي: ولا يَسألهم عن ذنوبهم، لا يسألهم سؤالَ استخبار، وإنما يسألهم يَوْمَ الْقِيَامَةِ سؤالَ تَبْكِيت؛ فَإِنَّ اللهَ تعالى يَسْأَلُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ ذُنوبهم، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦]، وَقَالَ تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣].

إذن نقول: النفيُ لحالٍ، والإثباتُ لحالٍ، يعني: لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كيف تجمعون بَيْنَ هَـذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، وأمثالها مِـثل: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن:٣٩]، وبين الْآيَاتِ الَّتِي تُثبـت السؤال مِثْل قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؟

فالجواب عَلَى ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ السُّؤَالَ المَنفِيَّ هُوَ سُـؤَالُ الاستفسار، الَّذِي يَسْأَلُ: هل أذنبتَ؟ وما ذَنْبُك؟ والسؤال المُثْبَتُ سؤالُ التوبيخِ والتَّبْكِيت والتَّقْرِيع، أي يُسْألون لِيُقِرُّوا، فهذا ثابتٌ كَمَا ذَكَرَ اللهُ هُنَا.

سؤال النفي أَنَّهُمْ لَا يُسألون لِأَجْلِ أَنْ يُخْبِرُوا عَنْ ذُنوبهم، وإذا أَخْبروا -مثلًا- تُرِكُوا، أو يُعاقَبُون عَلَى حَسَبِ إخبارهم؛ لأنهم سيُعَاقَبُون، سواء أَخبَروا أَوْ لم يُخْبِرُوا، لكنهم يُنكِرون، فيقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، ولكنهم لا يَسْتَفِيدُونَ مِنْ هَذَا النفي شيئًا.

فسؤالُ الاستفسارِ مَعْنَاهُ أَنَّك تَسأل الْإِنْسَانَ عَنْ شَيْءٍ تجهلُه لِيُخْبِرَك به، هَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَرِدَ بالنسبة للمُجرمين، وَهَذَا هُوَ المَنْفِيُّ.

أَمَّا سؤال التَّوبيخ فتسألُه عَنْ شَيْءٍ لِيُقِرَّ به، لَا لِيخبرك، ولأَجْل أَنْ يَخْزَى بَيْنَ النَّاسِ.

فإذا سُئِلـوا قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وشهـدت جـوارحُهم؛ فَإِنَّهُـمْ لَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا، أو إنهم يُسأَلون فيجحدون فِي مَكَانٍ، أَوْ فِي وَقْتٍ، ويُسألون فيُقِرُّون فِي وَقْتٍ آخَرَ.

فتَبيَّن الْآنَ بِذَلِكَ أَنَّ السؤال المنفيَّ غيرُ السؤال المُثْبَت، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ.

وبعضهم يقول: إِنَّ السُّؤَالَ المُثْبَـت يَكُونُ فِي وَقْتٍ، والسؤال المنفيُّ فِي وَقْتٍ آخَرَ؛ لأن يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِقدارُه خمسون أَلْفَ سَنَةٍ، فالمدة طويلة، فيُمكن أَنْ يُسْأَلُوا فِي مَوْضِعٍ، ولا يُسْأَلُوا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ المجرم هُوَ فَاعِلُ الإجرام، والإجرام: المعاصي،

فالمعنى: أن العُصاة لا يُسألون، وَأَكْثَرُ مَا يُطْلِقُ الإجرام عَلَى الْكُفْرِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٢٩]، فلماذا لا يُسألون؟ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِعِلْمِهِ تعالى بِهَا فَيَدْخُلُونَ النَّارَ بِلَا حِسَابٍ]، أي: إِنَّهُمْ لَا يُسألون، وإنما يُدخَلُون النار بِدُونِ حساب، ولكنَّ الصَّحِيحَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الحساب؛ لِأَنَّ مَنْ يؤتَى كتابَه فسوف يُحاسَبُ، قَالَ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٥-٢٦].

فهُم يُحاسَبُون، لكنَّهم لا يُحاسبون محاسبةَ مَن تُوزَنُ حسناتُه وسيئاتُه؛ لِأَنَّهُمْ ليس لَهُمْ حسناتٌ، وإنما يُحاسَبون محاسبةَ تقريعٍ وتوبيخ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيان بَغْي قارون، حَيْثُ لَمْ يَعْتَرِفْ بِفَضْلِ اللهِ عَلَيْهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ مَا رَزَقَهُ اللهُ مِنْ كَسْبِهِ، فهو مُشابه لقارونَ فِي عَدَمِ اعترافِه بنِعْمَة اللهِ، فالإنسان الَّذِي يَقُولُ: حصَّلت هذا بيدي، وبمعرفتي بالأمور والمكاسب. نقول له: أنت مُشابه لقارون.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تقريع أولئك الذي يفتخرون بسعيهم، بِأَنَّ اللهَ تعالى قَدْ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنَ القرون مِمَّنْ هُوَ أَشَدُّ منهم قوةً، وأكثر جمعًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ المجرمين عند إهلاكهم لا يُسألون فيُرحمون، وإنما يُهلَكُون بِدُونِ سؤال، لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

الآيــة (٧٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القَصَص:٧٩].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَخَرَجَ ﴾ قَارُونَ ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ بِأَتْبَاعِهِ الْكَثِيرِينَ رُكْبَانًا مُتَحَلِّينَ بِمَلَابِسِ الذَّهَبِ وَالْحَرِيرِ عَلَى خُيُولٍ وَبِغَالٍ مُتَحَلِّيَةٍ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ﴾ يَا: لِلتَّنْبِيهِ ﴿لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ﴾ نَصِيبٍ ﴿عَظِيمٍ﴾ وَافٍ فِيهَا].

قَوْلُه تعالى: ﴿ فَخَرَجَ﴾ أي: قارون، ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ المراد بقومه بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ ﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾، والجُملة حَالٌ مِنْ فَاعِلِ (خَرَجَ)، يعني: حَالَ كَوْنِهِ متلبسًا في زينته.

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مفسرًا للزِّينة: [بِأَتْبَاعِهِ الكَثِيرِينَ]؛ لأن الأتباع مِنَ الْخَدَمِ ونحوهم زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦].

ويحتمِل خِلَافَ مَا قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو أَنَّ المُرَادَ بزينته أي: بماله الْعَظِيمِ الَّذِي يتزين بِهِمْ مِنَ الْخَدَمِ والمركوبات والأمتاع، وغيرها.

ثُمَّ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِأَتْبَاعِهِ الْكَثِيرِينَ رُكْبَانًا مُتَحَلِّينَ بِمَلَابِسِ الذَّهَبِ

وَالْحَرِيرِ عَلَى خُيُولٍ وَبِغَالٍ مُتَحَلِّيَةٍ].

قَدْ يَكُونُ الْأَمْرُ كَمَا قال الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَقَدْ يَكُونُ أَقَلَّ، وَقَدْ يَكُونُ أَعْظَمَ مِمَّا قَالَ، فَالْأَوْلَى أَنْ تَبْقَى الْآيَةُ عَلَى ظَاهِرِهَا.

قَوْلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِي زِينَتِهِۦ﴾ أي: فيما يستطيع مِنَ الزِّينَةِ، سواء باللباس، أو بالمركوب، أو بالأتباع، أو بالمال، أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ، أَيْ فِي زينته التي يَفْخَرُ بِهَا عَلَى قَوْمِهِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: يبتغونها ويطلبونها ولها مِيزان فِي نُفُوسِهِمْ.

قَوْلُهُ: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ﴾ يقول الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَا﴾ لِلتَّنْبِيهِ]، يعني: ليست للنداء، لِأَنَّهَا لَمْ تَدْخُلْ على مُنَادًى، فقوله: (لَيْتَ) حرفُ تَمَنٍّ، والمنادَى لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ اسْمًا يصح نداؤه، وعليه فتكون للتنبيه.

وقيل: إنها للنداء، والمنادَى محذوف تقديره: يَا قَوْمَنَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارونُ، وهذا التركيب متكرر فِي الْقُرْآنِ الكريم، والنحويون اخْتَلَفُوا فِيهِ عَلَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ، مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هو لمجرد التنبيه، وَلَيْسَ هُنَاكَ نداء ولا منادى، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هو للنداء، وأن المنادى محذوف، فالتقدير -مثلًا- هنا: يَا قَوْمَنَا لَيْتَ لَنَا.

قوله: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ اسم (لَيْتَ) هو ﴿مِثْلَ﴾ وهو منصوبٌ، وخبرُها مُقَدَّم، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَنَا﴾ وَهُوَ فِي مَحِلِّ رفع؛ لأن التقدير: ليت مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارونُ لنا.

قَوْلُه تعالى: ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾: ﴿أُوتِيَ﴾ بمعنى: أُعطِيَ قارون مِنَ الْمَالِ؛

وَلِهَذَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فِي الدُّنيا]، مِنَ المَالِ والكنوز والزينة.

ونرى أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُو: يا لَيْتَ لَنَا مَا أُوتِيَ قارون، بَلْ قَالُوا: مِثْلَه؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ قَالُوا: لَيْتَ لَنَا مَا أُوتِيَ قارون، كَانَ ذَلِكَ حسدًا؛ لأنهم يَتَمَنَّون بذلك زَوَالَ النِّعْمَةِ عنه، لكنهم قالوا: مِثلَه، وهذا الْأَمْرُ لَا يَجُوزُ، إذا أُعطُوا مِثله، ولكن لهم مثلُه.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [نَصِيبٌ، ﴿عَظِيمٍ﴾ وَافٍ فِيهَا]. أي: فِي الدُّنْيَا.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: قارون، ﴿لَذُو﴾ أي: لصاحبِ، ﴿حَظٍّ﴾ أي: نصيب، ﴿عَظِيمٍ﴾ وافٍ، ويَحتمِل فِي المَعْنَى: وافِر، فالعظيم هو: الوافِرُ الكثير، فَهُوَ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ، وَهَذَا إِنَّمَا يقوله مَن كان نظرُه قاصرًا، وَلَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنيا.

والحقيقة أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ هِيَ الحَظَّ، وإنما الحَظُّ نصيبُ الْإِنْسَانِ مِنَ الْآخِرَةِ، أما نصيبُه مِنَ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ؛ لأنه نصيبٌ يزولُ هو، أو يزول مَن أُعطيَه وَلَا يَنْفَعُ؛ ولأنه نَصِيبُ فِي الْغَالِبِ يَحْمِلُ عَلَى الخُسارة والفساد، ويَحْمِلُ عَلَى الأَشَر والبَطَر، فيَخْسَر الإنسان دِينَه ودُنياه، فَلَيْسَ فِي الْحَقِيقَةِ حَظٌّ، لكن يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ كان نَظَرُه قاصِرًا.

وإلى وقتنا هذا، النَّاسُ إِذَا رَأَوْا شخصًا تاجرًا كَبِيرًا قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِالمَالِ، قالوا: مَا شَاءَ اللهُ، إنه صاحِب حظ. ولكن هؤُلاءِ قِصارُ النَّظَر؛ إِذْ إِنَّ الحَظَّ الحقيقي هو حَظُّ الْآخِرَةِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥]، هَذَا هو الْحَظُّ الْعَظِيمُ.

وَهُم فِي قَوْلِهِمْ لم يُقَيِّدوا ذَلِكَ أَيْضًا فِي الدُّنْيَا، كأنهم تَنَاسَوُا الآخِرَة، وَرَأَوْا أَنَّ

الحَظَّ هو حَظُّ الدُّنْيَا، ولكن قابَلَهم أَهْلُ الْعِلْمِ والإيمان بقولهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ قارونَ كَانَ يُظْهِرُ الأُبَّهة والعَظمة، حيث يَخْرُجُ فِي زينته مِنَ المَالِ والرجال.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ ذَوِي النظر القاصر يتمنَّون مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾.

الآيــة (٨٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القَصَص:٨٠].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَقَالَ ﴾ لَهُمُ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ بِمَا وَعَدَ اللهُ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَيْلَكُمْ﴾ كَلِمَةُ زَجْرٍ ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ فِي الْآخِرَةِ بِالْجَنَّةِ ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ مِمَّا أُوتِيَ قَارُونُ فِي الدُّنْيَا ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أَيِ الْجَنَّةُ الْمُثَابُ بِهَا ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ عَلَى الطَّاعَةِ، وَعَنِ المَعْصِيَةِ].

قَوْلُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الأولين جُهَّال، ليس عندهم عِلْمٌ، وَلَا معرفةٌ بالأمور وحقائقها.

قوله: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ كلمةُ زَجْرٍ، يُقْصَدُ بِهَا زَجْرُ الإنسان عما يُرِيدُهُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْبغي الزَّجْرُ عنها، وَهِيَ فِي الْأَصْلِ (وَيْل)، أي: عذاب، قَالَ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون:٤]، ولكنها يُرَادُ بِهَا الزَّجْر، أي: وَيْلَكُم إِنْ تَمَنَّيْتُم ذلك، أي: مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارونُ.

وإعرابُ (وَيْلَ): مفعولٌ لِفِعْلٍ محذوفٍ تقديرُه: أَلْزَمَكُمُ اللهُ وَيْلَكم، أي: جعل الوَيْلَ لازِمًا لَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ تمنيتم مَا أُوتِيَ قارونُ، أَوْ مِثْلُه؛ لأن هناك مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي الْآخِرَةِ فِي الْجَنَّةِ].

قوله: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ الثوابُ هُوَ الْجَزَاءُ؛ كأن العمل ثَابَ، أي: رَجَعَ إِلَى صَاحِبِهِ بجزاءٍ عليه، فثوابُ اللهِ فِي الْآخِرَةِ خيرٌ، لكن لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، فالمؤمن العاملُ عَمَلًا صَالِحًا ثَوَابُ اللهِ لَهُ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، بَلْ قَالَ الرَّسُول ﷺ: «لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١).

قوله: ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الإيمان: التصديقُ مع القَبول والإذعان.

وقوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الْعَمَل الصَّالِح: هُوَ الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: الإخلاص للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والمتابعة لِرَسُولِهِ ﷺ، وَكُلُّ ذَلِكَ خَيْرٌ مما أُوتِيَ قارون فِي الدُّنْيَا.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيِ الْجَنَّةُ الْمُثَابُ بِهَا، ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ عَلَى الطَّاعَةِ، وَعَنِ الْمَعْصِيَةِ].

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: ما يُوفَّق لها، ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَلَى الطَّاعَةِ، وَعَنِ الْمَعْصِيَةِ]، وَلَوْ أَنَّهُ أَتَى بالأمر الثالث، وهو الأقدار، أي لَوْ قَالَ: وعلى الأقدار. لَتَمَّ لَهُ الْأَمْرُ، فالتَّفسير ناقص، فهُمُ الصابرون عَلَى طَاعَةِ اللهِ، لا يَمَلُّون، ولا يَفْتُرُون، ومَعْصِيَةُ اللهِ لَا يُمارسُونها، وعلى أقدار الله المؤلمة لا يَتَسَخَّطون منها. وَاللهُ أَعْلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ الَّذين يعلَمُون حقائِقَ الأُمور، يَدْرُون أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا لَيْسَتْ بشيء، وأَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ أَعْظَمُ وأَجَلُّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ لَا يَنَالُ ثَوابَ الْآخِرَةِ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا؛ لقوله:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).

﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ لَا يُوَفَّق لذلك الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الصابرون عَلَى طَاعَةِ اللهِ، وعن معصيته، وعلى أقداره؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾.

الآيــة (٨١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القَصَص:٨١].

قال المُفَسِّـرُ: [﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ﴾ بِقَارُونَ ﴿وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ غَيْرُهُ بِأَنْ يَمْنَعُوا عَنْهُ الْهَلَاكَ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ مِنْهُ].

قَوْلُه تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أي بقارون، فَهَوى فِي الْأَرْضِ هُـوَ ودارُه، ولم تُغنِ عنه الْأَمْوَالُ، وَلَا الرِّجَالُ، وَلَا غَيْرُها، وَإِنَّمَا كَانَتْ عقوبته بالخَسْف؛ لِأَنَّهُ كَانَ بَاغِيًا عاليًا متكبرًا، فأُخِذ بما يُناسب حالَه، فالعالي أشد عقوبةٍ لَهُ أَنْ يُنَزَّلَ مِن مكانته العالية، ولهذا كانت العقوبة مناسبةً للعَمل، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت:٤٠]، وممن خسف اللهُ بِهِ الأرض قارونُ ودارُه.

قَوْلُه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ غَيْرُهُ بِأَنْ يَمْنَعُوا عَنْهُ الْهَلَاكَ].

قوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ ما نافية، و﴿مِن﴾ مِن حَرْفٌ جَرٍّ زائدٌ إعرابًا، و﴿فِئَةٍ﴾ اسْمُ كَانَ مرفـوع بها، وعلامةُ رفعِـه ضمةٌ مُقَدَّرَةٌ عَلَى آخِـرِهِ، مَنَعَ مِن

ظُهورها اشتغالُ المحَلِّ بحركة المناسبة، أي مناسَبة حَرْفِ الجَرِّ الزائد.

والإتيان بـ﴿مِن﴾ هنا له فَائِدَةُ مَنْ حيث المعنى، وهي التنصيص عَلَى الْعُمُومِ، أي: مَا كَانَ لَهُ أَيُّ فِئَةٍ تَقُومُ بِنَصْرِه.

والفئةُ: الطَّائِفَةُ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا المرء، هذه الفئة مَأْخُوذَةٌ مِن فَاءَ يفِيءُ: إِذَا رَجَعَ؛ لأن الفِئة التي يَرْجِعُ إِلَيْهَا المرء لتُنَاصِره هي محلُّ فَيئِه، أي: محلُّ رُجوعه.

والمعنى: أنه مَا كَانَ لَهُ أَحَدٌ ينصره، حَتَّى ما جَرَتِ العادةُ بأنه ينتصر بهم.

وقوله: ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ النَّصر: المنعُ مما يَضُرُّ، وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: ﴿دُونِ﴾ هُنَا بِمَعْنَى غير، فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ بأسُ الله، ما نَفَعَتْهُ زِينَتُه، ولا مَنعَه جنودُه؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَهُ الْقُوَّةُ الكاملة، والقُدرة العظيمة.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾: (مِن) أي: مَا كَانَ أَحَدٌ ينصره، وَلَا هُوَ أَيْضًا انتَصر بنفسِه، فصار ضعيفًا بنفسه وبِغَيْرِه، فقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أي: مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَمِن عذابِه، بل أصبحَ عاجزًا وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، مخسوفًا به.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّحْذِيرُ مِنَ التعالي والبغي عَلَى الْخَلْقِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ اللهَ تعالى إِذَا أَنْزَلَ العقوبةَ بأحدٍ، فَلَيْسَ لَهُ ناصرٌ دُونِ اللهِ، ولو عظُمت قُوَّتُه، وكَثُرَ جُنْدُه؛ لقوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾.

الآيــة (٨٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [القَصَص:٨٢].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ ﴾ أَيْ مِنْ قَرِيبٍ ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ﴾ يُوَسِّعُ ﴿ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَ(وَيْ) اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى أَعْجَبُ، أَيْ أَنَا، وَ(الْكَافُ) بِمَعْنَى (اللَّامِ) ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لِنِعْمَةِ اللهِ كَفَارُونَ].

قَوْلُه تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ ﴾ أصبح هنا معناها: صار، أي: صار الذين تَمَنَّوا مكانه بالأمس يقولون... إِلَى آخِرِهِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى أصبح، أي: دَخَلُوا فِي الصباح، كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [القَصَص:١٨].

قَوْلُه تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ صار الآن الَّذِينَ كَانُوا يتمنَّوْن مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارون يتعجبون، ويعلمون أَنَّ اللهَ يُوَسِّع الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ، ويُضَيِّقُه عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَأَنَّ هَذَا عَلَى حَسَبِ مُقْتَضَى حِكمته؛ وليس لأن قارون لَهُ حَظٌّ عظيم،

بل لأن اللهَ هُوَ الَّذِي يُعْطِي ويمنع.

إعراب قوله: ﴿ٱللَّهَ﴾ لفظ الجلالة هنا يُعرَب اسمَ (إِنَّ) عَلَى أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ، واسم (كَأَنَّ) عَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَبْسُطُ﴾: يُوَسِّعُ]، وقوله: ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ أي: العَطاء، وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ مَنْ بِمَعْنَى الَّذِي، أي: للذي يشاء.

وهذه المشيئة هي مشيئةٌ مقرونة بحكمةٍ، وَقَدْ بَيَّنَّا قَبْلَ ذلك أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ علَّقه اللهُ تعالى بمشيئته؛ فإنه مقرونٌ بحِكمته، فَاللهُ تعالى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ممن اقتضت حكمتهُ أَنْ يَبْسُطَ لَهُمُ الرزق، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ القدسي: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْغِنَى، وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يُصلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْفَقْرُ، وَلَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ**»[1].

فالله تعالى حكيم، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لفلان؛ لأن الحكمة تَقْتَضِي ذَلِكَ، ويضيِّقه عَلَى فُلَانٍ؛ لأن الحكمة تَقْتَضِي ذَلِكَ، وليس لِأَنَّ الْمَسْأَلَةَ مسألةٌ اعتباطيَّة دون أيِّ رَوِيَّة، بل للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الْحِكْمَةُ فِيمَا أعطى، وفيما مَنَع.

وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ عباد: جمعُ عَبْدٍ، والمراد بالعبُودِيَّة هنا العُبوديَّة العامَّة، الَّتِي هِيَ التذلُّل للأمر الكوني، وليست العبودية الخاصة الَّتِي هِيَ التذلُّل للأمر الشرعي، وقد مَرَّ عَلَيْنَا أَنَّ العبودية تَنْقَسِمُ إِلَى اثْنَيْنِ:

عبودية عامَّة: وهي الخُضوع للأمر الكوني، وهي شَامِلَةٌ لِجَمِيعِ الخَلق، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

---

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة (٥/ ٢٢)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٨)، وابن عساكر (٧/ ٩٥).

عبودية خاصَّة: وهي الخضوع للأمر الشرعي، مِثْل قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، وهذه خاصة بالمؤمنين.

فالعُبودية المرادة فِي الْآيَةِ هِيَ العُبودية العامَّة؛ لأن بَسْطَ الرزق وتَضْيِيقَه يكون للمؤمن، ولِغَيْرِ المؤمن.

وَفِي قَوْلِه: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ فِي قَبْضَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَأَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونه.

وعليه؛ فإننا إِذَا كُنَّا بالله، ومع الله، فلا نهابُ أَيَّ قُوَّةٍ فِي الْعَالَمِ؛ لأَنَّنا نعلم أَنَّ كُلَّ مَا فِي الكون خاضِعٌ للهِ تعالى.

وقوله: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضيِّق عَلَى مَنْ يَشَاءُ، أي: يَجْعَلُهُ عَلَى قَدْرٍ مُعَيَّن، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق:٧]، فهنا ﴿قُدِرَ﴾ بمعنى: ضُيِّقَ عَلَيْهِ حَتَّى صَارَ عَلَى قَدْرِ كفايته، أَوْ عَلَى أَقَلَّ أيضًا، فَاللهُ تعالى لَهُ الْحُكْمُ فِي بَسْطِ الرزق وتَضْيِيقِه.

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ أفسَدَهُ الغِنى، مِثل قارون، وَمِنْهُمْ مَنْ يُفْسِده الفقر، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج:١١]، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ إِذَا افْتَقَرَ بَعْد الغِنى أَبى أَنْ يَتَحَمَّلَ مَا نَزَلَ بِهِ، فيكفُر بالله، وَمِنْهُمْ مَنْ ينتحر.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(وَيْ) اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى أَعْجَبُ، أَيْ: أَنَا، وَ(الْكَافُ) بِمَعْنَى (اللَّامِ)].

إذن: هُوَ اسْمُ فعلٍ مُضارع، بمعنى: أَعْجَبُ.

وقوله: [أَيْ: أَنَا]، يعني أن ففاعِلَه ضميرٌ مُستتر وُجوبًا، تقديره: أنا.

وقوله: [وَ(الْكَافُ) بِمَعْنَى (اللَّام)]، أي: لِأَنَّ اللَّامَ هُنَا بِمَعْنَى التَّعلِيل، أي: أعجب لِهَذَا الْأَمْرِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَصْلُحُ، أي: أَعْجَبُ لِعَدم صلاحِ الكافرين.

فقوله: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ﴾ مُركَّب مِنْ أَرْبَعِ كلمات، لا أربعةِ حُروف، وهي: (وَيْ) اسمُ فِعْل، و(الكاف) بمعنى اللام للتَّعلِيل، و(أنَّ) حرفُ توكيدٍ، و(الهاء) اسمُها.

وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ يجوز الْوُقُوفُ عَلَى (وَيْ)، فتقول مثلًا: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْ﴾، ثم تقرأ: ﴿كَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾.

وَقَالَ بَعْضُهُم: إنَّ (وَيْ) اسمُ فعلٍ مضارع، و(الكاف) حرف خطاب، وليست حَرْف جَرٍّ، ولا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الإعراب؛ لِأَنَّ هَذَا الْفِعْلَ فاعلُه مُستتر تقديرُه: أنا.

وَعَلَى هَذَا، يكون أنَّه حرفُ توكيد، والجُملة التَّعلِيلية عَلَى تَقْدِيرِ اللام، فَقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]، فهنا فتح الهمزة؛ لأنها تعليلية، هذان إعرابان.

والإعراب الثالث: (وي) اسمُ فِعلٍ مضارع بمعنى: أَعْجَبُ، و(كأنَّ) حرفُ تشبيه، والمراد بهذا التَّشبِيه التحقيقُ، كما تقول للإنسان: كأنك فاهِمٌ، أي: إنه فاهم، كذلك: كأنه لا يُفلح، أي: أعجب، كأنه لا يفلح الكافِرُون، أي: إن الأمر حق لا يفلح الكافِرُون.

فـ(كَأَنَّ) للتَّشبِيه إذا دخلت على اسمٍ جامِد، وللضَمِّ، أو للتحقيق إذا دخلت على مُشْتَقٍّ.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الفلاح هُوَ الْفَوْزُ بالمطلوب، وَالنَّجَاةُ مِنَ

المرفوض، وَهِيَ كَلِمَةٌ مَنْ أَجْمَعَ الكلمات.

وقوله: ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: الكافرين بالله عَزَّوَجَلَّ، وَكُلُّ مَا أُطْلِقَ الكفرُ فَالْمُرَادُ بِهِ الْكُفْرُ بِاللهِ، أَمَّا إِذَا قُيِّد فهو بِحَسَبِ مَا قُيِّد به، فَقَوْلُهُ تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، هنا قَيَّد الكفرَ بالطاغوت، لَكِنْ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يَكُونُ الكُفر بالله، فَكُلُّ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ بأيِّ نَوْعٍ مِن أَنْوَاعِ الْكُفْرِ، سَوَاءٌ كَانَ كُفْرَ تكذيب، أَوْ كُفْرَ استِكْبار؛ فَإِنَّهُ لَا يُفْلِحُ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَلَا يُشْكِلُ عَلَى هَذَا مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْكُفْرِ مِنَ النَّعِيمِ، والتَّرَف فِي الدُّنْيَا؟

نقول: لَا يُشْكِلُ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُفلحوا، حتى وإِنْ نُعِّموا فِي الدُّنْيَا، فلا يُفيدهم النعيم، وهُم إذا ماتوا انتقلوا إِلَى الْجَحِيمِ، فهذا النَّعِيمُ فِي الْحَقِيقَةِ يكون وبالًا عليهم؛ لأنه يتحول بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى عَذَابٍ.

ولهذا إذا عُذِّب أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ ينتحر، ويتخلص مِن التزامه إلى راحةٍ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: هُوَ لَا يَفرح، بل يزداد شقاءً، لكن المقصود أَنَّهُ إِذَا انتقل مِنْ هَذَا النعيم إِلَى عَذَابِ الجحيم، صَارَ هَذَا أشدَّ وأَنْكَى، وأعظمَ عليه، وأبلغَ حَسْرةً، فَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لَمْ يفلحوا.

وهُم ما استفادوا مِن وقتهم فِي الدُّنْيَا شيئًا، بل خَسِرُوه، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر:١-٣].

قَوْلُه تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالْبِنَاءِ

لِلْفَاعِلِ وَالمَفْعُولِ](١).

قوله: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ﴾ لَوْلَا شَرطية، وَهِيَ حَرْفُ امتناعٍ لِوُجُودٍ، فقد امتنع الخسف لوجود المنَّة، وَمَا بَعْدَهُ يكون مبتدأً، وخبرُه محذوف غالبًا، قَالَ ابْنُ مالك(٢):

وَبَعْدَ لَـوْلَا غَالِبًـا حَـذْفُ الخَـبَرْ .....

قَوْله: ﴿أَن مَّنَّ ٱللَّهُ﴾: ﴿أَن﴾ مَصْدَرِيَّة، وقوله: ﴿مَّنَّ﴾ فِعلٌ ماضٍ، و(أَنْ) وما دَخَلَتْ عَلَيْهِ فِي تَأْوِيلِ مصدر مبتدأ، أي: لولا مِنَّةُ اللهِ عَلَيْنَا، والخبرُ محذوف تقديره: لولا مِنَّةُ اللهِ عَلَيْنَا موجودة، أو واقعة.

وَعِنْدِي أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ: إن المبتدأ هُنَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى خَبَرٍ أصلًا، فلَا نَقُولُ كَمَا قَالَ النحويون: إنه محذوف، بَلْ نَقُولُ: إِنَّهُ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ؛ لِدَلَالة الْجَوَابِ عَلَيْهِ، ونقول: هو مبتدأ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى خَبَرٍ، كَمَا قِيلَ فِي الْقَسَمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر:١-٥]، إِنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ، فابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي كِتَابِهِ مختصر الصواعق المرسلة قال: «وَأَمَّا نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء:٦٣]، فَلَيْسَ هُنَاكَ تَقْدِيرٌ أَصْلًا إِذِ الْكَلَامُ مُسْتَغْنٍ بِنَفْسِهِ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى تَقْدِيرٍ، فَإِنَّ الَّذِي يَدَّعِي تَقْدِيرَهُ قَدْ دَلَّ اللَّفْظُ عَلَيْهِ بِاللُّزُومِ، فَكَأَنَّهُ مَذْكُورٌ، لِأَنَّ اللَّفْظَ يَدُلُّ بِلَازِمِهِ كَمَا يَدُلُّ بِحُرُوفِهِ، وَلَا يُقَالُ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ دَلَالَةَ الْتِزَامٍ إِنَّهُ مَحْذُوفٌ»(٣).

ونقول: استُغني عَنْهُ فِي الْجُمْلَةِ؛ لأن دَلَالَةَ اللَّفْظِ عَلَى مَعْنَاهُ لَيْسَتْ دَلالة ذاتية،

---

(١) السبعة في القراءات، لابن مجاهد (ص٤٩٥).

(٢) ألفية ابن مالك (ص١٨).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم (ص٣٥٣).

بَلْ إِذَا كَانَ السياق لَا يُحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ، فلا نُقَدِّر.

وقوله: ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ المنُّ: هو العطاء الَّذِي لَا يُرَادُ بِهِ المقابلة، أو المكافأة، ولا رَيْبَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُرِيدُ مِن عِباده أَنْ يُكافئوه؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ حاولوا المكافأة ما استطاعوا، قَالَ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وقوله: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ كما خَسَفَ بقارون، ولكن مِنَّةُ اللهِ عَلَيْهِمْ منعت ذلك، فرَجَعُوا إِلَى الصَّوَابِ، وعرفوا أَنَّ أَمْوَالَ قارونَ لَمْ تُغْنِ عَنْهُ شَيْئًا.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ [بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالمَفْعُولِ] أي: قراءتان سَبْعِيَّتَان: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ و«لَخُسِفَ بِنَا»، وعلى قراءة ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي: خَسَفَ بنا كما خَسَفَ بقارون، وعلى قراءة: «لَخُسِفَ بِنَا»، فَإِنَّ المُرَادَ خَسَفَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لَا شَكَّ، لكنهم قَالُوا ذَلِكَ تأدبًا، فلم يَنْسِبُوا الخَسف إِلَى اللهِ، بل بَنَوْه للمفعول؛ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَنْسِبُوا الخَسْفَ إِلَى اللهِ، كقول الجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠]، فهم يعرفون أَنَّ الَّذِي يُرِيدُ ذَلِكَ كُلَّهُ هُوَ اللهُ، لَكِنْ لَمَّا تكلَّموا عَنِ الشَّرِّ لم يَنسِبُوهُ إِلَى اللهِ، وَهَذَا مِنَ الْأَدَبِ فِي اللَّفْظِ.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يترك الْأَمْرَ عَلَى حَقِيقَتِهِ؛ إظهارًا لِعَظَمَتِه، لكن العباد يتأدّبون بالأدب، فلا يَنْسِبُونَ إِلَى اللهِ تعالى الشرَّ، ولا الخَسْفَ، ولا الأخذَ.

أَمَّا كونُ الله يَنْسِبُ ذَلِكَ إِلَى نَفْسِهِ، فهذا إظهارٌ للعَظَمَة، ولضعف هَؤُلَاءِ المُعَذَّبِينَ.

قَوْلُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِنِعْمَةِ اللهِ كَقَارُونَ].

وقد تَقَدَّم الْكَلَامُ عَلَى إعراب: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ الَّذِينَ تَمَنَّوا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارونُ عَرَفُوا أَنَّ مَا أُوتِيَهُ ليس لكونه أَهْلًا لَهُ، بل لِأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ؛ لِأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ فِي الْجَوَابِ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾، وهنا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ لهذا السبب، وَلَكِنْ لِأَنَّ اللهَ تعالى بِيَدِهِ الأمرُ، فقال: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَانُ أَنَّ تَمَنِّيَ مَتَاعِ الدُّنْيَا لَا بُدَّ أَنْ يَتَبَيَّنَ للمرء أنه تَمَنٍّ لَا حَقِيقَةَ لَهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يزول، فهؤُلاءِ الذين تَمَنَّوْا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارون لَمَّا زَالَ، وخُسِف به عرفوا أَنَّ هَذَا التَّمَنِّيَ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، وأَنَّ حقيقة الْأَمْرِ أَنْ يتمنى الْإِنْسَانُ مَا فِيهِ ثَوَابُ الْآخِرَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ مَشِيئَةِ اللهِ؛ لقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات حِكْمَتِهِ فِي بَسْطِ الرزق وتضييقه: يَبْسُط ويَقْدِرُ، وهذا تابع لِحِكْمَتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: اعتراف هؤُلاءِ الْمُتَمَنِّينَ بِمِنَّة اللهِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾، فهنا عرفوا مِنَّةَ اللهِ عَلَيْهِمْ؛ حَيْثُ لَمْ يُعْطِهِمْ مِثْلَ مَا أَعْطِى قارونَ، فيكون مآلُهم كَمَآلِه، فتبَيَّنَ لَهُمْ بِذَلِكَ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ لَا فَلاح للكافر، ويتضح هذا مِن قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ونأخذ مِنْ ذَلِكَ إِثْبَاتَ عكسه للمؤمنين، فَإِنَّ لَهُمُ الفلاحَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

الآيــة (٨٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القَصص:٨٣].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ أَي الجَنَّةُ ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بِالْبَغْيِ ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ بِعَمَلِ المَعَاصِي ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المَحْمُودَةُ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عِقَابُ اللهِ بِعَمَلِ الطَّاعَاتِ].

قوله: ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، وَهُوَ اسْمُ إشارة، وقوله: ﴿ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ صِفة لـ﴿تِلْكَ﴾، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ خبرًا، وقوله: ﴿ٱلْآخِرَةُ﴾ يعني: بذلك الجنة؛ لِأَنَّهَا هِيَ الدَّارُ الْآخِرَةُ.

فالإنسانُ له دُورٌ أَرْبَعٌ: الدَّارُ الأولى بَطْنُ أُمِّهِ، والثانيةُ الدُّنيا، والثالثة البَرْزَخ، والرابعة الآخِرَة، وَهِيَ الَّتِي لَيْسَ بَعْدَها دَارٌ، ولهذا وُصِفَت بأنها آخِرَةٌ، ليس بعدها شيء.

قَوْلُه تعالى: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ﴾ بالنسبة لإعراب كلمة: ﴿نَجْعَلُهَا﴾، إنْ أَعْرَبْنَا: ﴿ٱلدَّارُ﴾ صفةً، فجُملة: ﴿نَجْعَلُهَا﴾ خَبَرٌ، وإنْ أَعْرَبْنا: ﴿ٱلدَّارُ﴾ خَبَرًا، فجُملة: ﴿نَجْعَلُهَا﴾ حَالٌ مِن: ﴿ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾، والضَّمير فِي قَوْلِهِ: ﴿نَجْعَلُهَا﴾ يَعُودُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأتى بضمير الجمع تَعْظِيمًا لَهُ.

قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالْبَغْيِ، ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ بِعَمَلِ الْمَعَاصِي].

وَهَذَا الْكَلَامُ خلافًا لقارُونَ وأمثالِه، فالدَّار الآخرةُ لِلَّذِينَ لَا يُريدون عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ، والعُلُوُّ هنا سَوَاءٌ كَانَ عُلُوًّا عن أَوَامِرِ اللهِ، أو عُلُوًّا على عِبَادِ اللهِ، فالذين لا يريدون العُلُوَّ إِنَّمَا يُرِيدُونَ الذُّلَّ لله، والذُّل للعباد عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يرضاه الله، هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ لَهُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ، فَمَنْ أَرَادَ العُلُوَّ عَلَى الْخَلْقِ، كَانَ ذَلِكَ بِمَالِهِ، أَوْ بِعَشِيرته، أو بِقُوَّتِه البَدَنِيَّة، أو بِعِلْمِه، أو بسُلْطَان؛ فَإِنَّهُ لَا حَظَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ عَلَى حَسَبِ مَا عِنْدَهُ مِنْ إِرَادَةِ العُلو.

وقوله: ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ الفساد -كَمَا يَقُولُ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: [بِعَمَلِ الْمَعَاصِي]؛ فَإِنَّ عَمَلَ العاصي فسادٌ فِي الْأَرْضِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١].

والْفَرْقُ بَيْنَ الصفتين: أَنَّ الْأَوَّلَ مستكبر مُتَعَالٍ فِي نَفْسِهِ، والثانيَ لَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ عَلَى العكس، ولكنه يريد المعاصي، يريد -مثلًا- الفُجور، يريد السرقة، يريد قَطْعَ الطَّرِيقِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وكِلتا النِّيَّتَيْن باطلة: إرادةُ العُلو، وإرادةُ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ لَمْ يُرِدِ العُلو، ولا الفَساد هُوَ الَّذِي تَكُونُ لَهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الْمَحْمُودَةُ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عِقَابَ اللهِ بِعَمَلِ الطَّاعَاتِ].

العاقبةُ هِيَ النِّهَايَةُ، التي تعقُب مَا سَبَقَهَا، وهذه للمتقين، فَمَنْ كَانَ مُتَّقِيًا لله عَزَّوَجَلَّ فالعاقبةُ لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ، ولكنها تَكُونُ لَهُ باعتبار شخصه وعمله أحيانًا، وَتَكُونُ لَهُ باعتبار عمله دُون شخصه.

ولنفرض -مثلًا- أَنَّ هَذَا الإنسانَ الْمُتَّقِيَ قام بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ تَقْوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَدَعَا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، لكنه تُوفي قَبْلَ أَنْ تَتِمَّ له المهمة، فهل نَقُولُ إِنَّهُ لَمْ تتحقق له العاقبة، فَقَدْ مَاتَ.

ولكن العاقبة لِعَمَلِهِ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ ينجح، وَلَوْ بَعْدَ وَفَاةِ العامل، فالإنسان الْمُتَّقِي للهِ عَزَّوَجَلَّ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ العاقبة له، حَتَّى لَوِ اعتَدَى عَلَيْهِ مَنْ يعتدي، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ له، قَالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، فالعاقبة للمتقين بِكُلِّ حَالٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ الجزاء يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: مَدْحُ مَنْ لَا يُرِيدُ العُلو فِي الْأَرْضِ، وَلَا الفساد، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنْ مَدْحِ مَنْ لَا يَعْلُو، وَلَا يُفْسِدُ.

ووَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ انتفاءَ الإرادة يَلْزَمُ مِنْهُ انتفاءُ الفِعل، أما انتفاء الْفِعْلِ، فَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ انتفاء الإرادة، فقَدْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ العُلو والفساد، وَلَكِنْ لَا يَعْلُو، وَلَا يُفْسِدُ؛ لعدم تَمَكُّنه، أو لَسَبَبٍ مِنَ الأسباب، أَمَّا الَّذِي لَا يُرِيدُ، فهو أكمل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ النِّيَّةَ لها أثرٌ؛ لقوله: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ والإرادة بمعنى النِّية.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ذَمُّ مَنْ يُرِيدُ العُلو والفَساد، سواء علَا وأفسد، أَوْ لَمْ يَعلُ ويُفسد؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يريدون عُلوا ولا فسادًا، وَهَذَا مَدْحٌ لهم بلا رَيْبٍ؛ فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ فهو مذموم، سواء تَمَكَّنَ مِنْ تنفيذ إرادته أَمْ لَمْ يَتَمَكَّنْ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ المَعَاصِيَ سببٌ للفساد، تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا فَسَادًا﴾؛ لأَنَّنا نعلم أَنَّ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ليس مَعْنَاهُ أَنْ يَأْخُذُوا المَعَاوِل والمَنَاشِر، ويقطعوا الأشجار، ويهدموا البيوت، بَلِ المَعْنَى أَنَّهُمْ يفعلون أفعالًا تُوجِب الفساد.

ويُفسر ذَلِكَ قَوْلُه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فضيلةُ التقوى، تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ العاقِبَةَ تكون للمُتقين، وَهِيَ لَيْسَتْ كَمَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ﴾ المَحْمُودَةُ]، بَلْ هِيَ أَعَمُّ مِن هذا، فالعاقِبَة فِي الدُّنْيَا بِأَنْ يَكُونَ النصر لَهُ فِي آخِرِ الأمر، والعاقبة فِي الْآخِرَةِ بِأَنْ تَكُونَ الدَّارُ الْآخِرَةُ هِيَ الجنة لَهُ دُونَ غَيْرِهِ، فالعاقبة أَعَمُّ مِمَّا قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حَتَّى فِي الدُّنْيَا، إِذَا تقابَلَ المتقون والفُجار، فالنهاية للمتقين.

• • ۞ • •

الآيــة (٨٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [القَصص:٨٤].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ثَوَابٌ بِسَبَبِهَا، وَهُوَ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا﴾ جَزَاءَ ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ مِثْلَهُ].

قوله: ﴿مَن جَآءَ﴾: ﴿مَن﴾ شَرطية، وهي تَعُمُّ كُلَّ مَنْ جاءَ، وقوله: ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الباء للمُصاحَبة، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ للتَّعْدِية، والمعنى: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَتَى بالحسنة مصطحبًا لَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَإِنَّ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا، ولكن كيف ذلك؟

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثَوَابٌ بِسَبَبِهَا، وَهُوَ عَشْرُ أَمْثَالِهَا]، ولكن لا تتوقف عِنْدَ هَذَا الْعَدَدِ فقط، بل تَصِلُ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وإلى أضعافٍ كثيرة، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ، فالإنسانُ إِذَا جَاءَ بِالْحَسَنَةِ، فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا بلا رَيْب، قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ لَهُ**

سَيِّئَةً وَاحِدَةً»[١].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إِلَّا جَزَاءَ ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: مِثْلَهُ]، أي: مَنْ جَاءَ بالسيئة يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُجزى إلا مِثْلَهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إِلَّا جَزَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، لَا يُزَادُ عليهم.

وَفِي قَوْلِه: ﴿وَمَن جَآءَ﴾ فِي المَوْضِعَيْنِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ المَدَار على مجيء الإنسان بذلك، لَا عَلَى عَمَلِهِ، فقد يَعمل الحَسَنة، ثُمَّ يَرِدُ عَلَيْهَا مَا يُبطلها، فمثلًا: هناك إنسانٌ عَمِل صدقة، ثم مَنَّ بِهَا، أو آذى مَنْ تَصَدَّقَ عَلَيْهِ، فَلَا تَكُونُ هَذِهِ صَدَقَةً، وتَبْطُل، ولا يُثاب عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وإنسانٌ آخَر عَمِل سيئة، لكنه تابَ منها، فذهبت السيئة، فلَا يَأْتِي بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وقارون طغى فِي الْأَرْضِ وعَلا، ولم يَتُبْ، فعاقَبَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى صَارَ نازلًا بعد أن كان عاليًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: جزاء الحَسنة خَيْرٌ مِنْهَا بالكَمِّية والكيفية، أما الكَمِّية فالحسنة بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وأما الكيفية، فَإِنَّ جَزَاءَ الحسنة دائم، وفِعل الحسنة ليس بدائم، فالفِعل ينتهي بموت الإنسان، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦-١٧].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة، رقم (١٣١).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ لَيْسَ المدار عَلَى عَمَلِ الحسنة، بل المدار عَلَى أَنْ يَأْتِيَ بالحسنة؛ لقوله: ﴿مَن جَآءَ﴾، فقد يعمل الإنسان الحَسنة، ولكن يأتيها ما يبطلها، فالمدار عَلَى أَنْ يَأْتِيَ الإنسان يَوْمَ الْقِيَامَةِ بالحَسنة، لَا عَلَى أَنْ يفعلها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الجزاء؛ لقوله: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ السيئة لا تُضاعَف، نأخذه مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ عَدمَ مُضاعفة السيئة عَامٌّ فِي مَكَّةَ، وَفِي غَيْرِهَا، ووجهه أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ، لَيْسَ فِيهَا استثناء، ثُمَّ إِنَّ سُورَةَ القصص مَكِّيَّة نَزَلَتْ بِمَكَّةَ، وَالْآيَةُ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ، ولم يُستثنَ شيء.

وَأَمَّا مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «لَا أُقِيمَ فِي بَلَدٍ حَسَنَاتُهُ كَسَيِّئَاتِهِ». فَهَذَا بَاطِلٌ، لَا يَصِحُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ لِأَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ.

لكن السيئة فِي مَكَّةَ تُضاعَف، لَا مِنْ جِهَةِ الكَمِّية، وَلَكِنْ مِنْ جهة الكيفية، فتكون عُقوبتُها أَشَدَّ وأَبْلَغَ إيلامًا.

فالسيئةُ لَا تَكُونُ عَشْرَ سيئاتٍ، لكنْ جزاؤها يَكُونَ أَشَدَّ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التنديدُ بعامِل السيئات، أي: الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ لَمْ يَقُلْ: ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾، كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى، وَلَكِنْ قَالَ: ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟﴾، فهذا تنديدٌ بِهِمْ، وبيانٌ لاستحقاقهم ما يسوؤهم مِنَ الْعَذَابِ، كَأَنَّهُ قَالَ: لِأَنَّهُمْ عَمِلُوا السيئات

يُجزون سيئة، فَهَذَا لَا شَكَّ أنه تَبْكِيتٌ، وتَنْدِيدٌ بهم؛ لِعَمَلِهِمُ السيئات.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ ثَوَابَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دائرٌ بين العَدل والفَضل، وهذان قِسمان، ثالثُهما: الجَوْر.

الفَضل بالنسبة للمحسنين، كَمَا قَالَ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾، والعَدْل بالنسبة للمُسيئين، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أما الجَوْرُ، فهذا مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّ اللهِ، قَالَ تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢]، فجزاءُ اللهِ تعالى دائِرٌ بين الفضل والعدل.

إذن: فهو محمود عَلَى كُلِّ حَالٍّ؛ لأنه إمَّا عَدْلٌ، وإمَّا فَضْلٌ.

الآيــة (٨٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [القَصَص:٨٥].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أَنْزَلَهُ ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إِلَى مَكَّةَ وَكَانَ قَدِ اشْتَاقَهَا ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ نَزَلَ جَوَابًا لِقَوْلِ كُفَّارِ مَكَّةَ لَهُ: إِنَّكَ فِي ضَلَالٍ، أَيْ فَهُوَ الْجَائِي بِالْهُدَى، وَهُمْ فِي ضَلَالٍ، وَأَعْلَمُ بِمَعْنَى عَالِمٍ].

قَوْلُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ﴾ وَهُوَ اللهُ، وهذا وعدٌ محقَّق ببيان الشاهد ليُقاس عليه الغائب؛ فَإِنَّ فَرْضَ الْقُرْآنِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ ثابتٌ محقَّق، وَرَدَّهُ ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ موجود، وليس مشهودًا، فَأَرَادَ أَنْ يُحَقِّقَ الموجودَ بالمشهودِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ هنا لَمْ يَقُلْ ربنا عَزَّوَجَلَّ: (إِنَّ اللهَ رادُّكَ إلى مَعاد)، بَلْ قَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾؛ لأن فَرْضَ الْقُرْآنِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ مُتيقَّن، فأراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنْ يُثبت الموجود بالمشهود؛ فَإِنَّ فَرْضَ القرآن مشهود معلوم، وَرَدَّهُ إِلَى مَعَادٍ موجودٌ غيرُ مشهود، ولكنه حَقَّقَ ذلك الموجودَ بالمشهود.

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: [أَنْزَلَهُ]، وَهَذَا أَحَدُ

التفسيرين فِي الْآيَةِ، وقيل: ﴿فَرَضَ﴾ بمعنى: أوجب عَلَيْك الْقُرْآنَ، أي: أوجب عليك تِلاوته وتبليغه وَالْعَمَلَ بِهِ.

أي: إِنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ: أَنْ يَتْلُوَهُ، وأَنْ يُبَلِّغَهُ إِلَى النَّاسِ، وَأَنْ يَعْمَلَ بِهِ.

وحينئذٍ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: فَرَضَ عَلَيْكَ تِلاوته، وتبليغه، وَالْعَمَلَ بِهِ.

وَهَذَا التَّفْسِيرُ أَقْرَبُ إِلَى ظَاهِرِ اللَّفْظِ؛ لِأَنَّ الْفَرْضَ بمعنى الإنزال نادِرٌ وُجُودُهُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، لكن الفَرْضُ بمعنى الإلزام كَثِيرٌ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣]، وقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»[1]، فهنا فَرَضَ بمعنى: أَلْزَمَ وَأَوْجَبَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَرَآدُّكَ﴾ اللامُ هنا للتوكيد، و(رَادُّ) خَبَرُ (إِنَّ)، والمعنى أي: لَمُرْجِعُك.

وقوله: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إِلَى مَكَّةَ، وَكَانَ قَدِ اشْتَاقَهَا]، فَعَلَى قَوْلِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنَّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَا بُدَّ أَنْ يُعيدك إِلَى مَكَّةَ، فتفتحَها، كَمَا أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ عليك فيها.

وَهَذَا مَعْنَى كلام الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فيكون المَعاد مكة، أي: مكان العَوْد، أي: مكان الرجوع، وأنك سوف تَرْجِعُ إِلَى المَكَانِ الَّذِي أُخرجتَ منه، فَيَكُونُ فِي هَـذِهِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، رقم (١٤٥٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

الْآيَةِ وَعْدٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَفْتَحَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ، وأَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا، قال ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قَالَ: إِلَى مَكَّةَ»(١).

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: لرادُّك إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فالمراد بالمعاد معادُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ، وَأَوْجَبَ عَلَيْك تِلاوتَه، وتبليغَه، وَالْعَمَلَ بِهِ، لم يُنْزِلْه عَبَثًا، بل أَنْزَلَه لِأَمْرٍ يَعُودُ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَهُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لتجزى وتسأل: هل بَلَّغْتَ أَمْ لَمْ تُبَلِّغْ؟ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف:٦-٧].

وَهَذَا الْمَعْنَى أَقْرَبُ مِمَّا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنْهُ أَيْضًا؛ فَإِنَّهُ قَدْ رُوِيَ عَنْهُ هَذَا الْمَعْنَى، ويُقَرِّبُه أَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ، فَإِذَا كَانَتْ مكية، فَكَيْفَ يُقَالُ لِمَنْ فِي مَكَّةَ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إلى مكة؟! وَأَيْضًا هُوَ أنسبُ بالنسبة لصَدْرِ الآية، فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ هَـذَا الْفَرْضُ لَمْ يَكُنْ عَبَثًا، بَلْ لَهُ يَوْمٌ يُعاد فيه الناسُ، ويسألون عنه، ويُجازون فيه.

وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّوَابُ، وما قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ لَهُ وَجْهٌ، لكنه بَعِيد.

فيكون مَعْنَى قَوْله: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إِلَى مَكَّـةَ، فيكون إِشَارَةً إِلَى فَتْحِ مَكَّـةَ، وعلامةً عَلَى قُرْبِ أَجَلِ النَّبِيِّ ﷺ، وقُرب الأَجَل معناه الموتُ، ثم البعث.

قَوْلُه تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ﴾ الرُّبوبية هنا خاصَّة، أي: رَبِّي الَّذِي أرسلني ﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ﴾، أي: يَعْلَمُ مَنْ هو آتٍ بالهُدى، وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، رقم (٤٧٧٣).

مُبِينٍ، هَلْ هُوَ الرَّسُولُ، أو غيـرُه، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]، فاللهُ أَعْلَمُ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنَّ ﴿أَعْلَمُ﴾ بمعنى: (عالِم).

قوله: ﴿أَعْلَمُ﴾ اسمُ تفضيل، وقولُه: ﴿مَن﴾ اسمٌ موصول، وإعرابها فِيهِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ:

الإعراب الأول: هو مآلُ كلامِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَهُوَ أَنَّ ﴿أَعْلَمُ﴾ بمعنى: عالِم، و﴿مَن﴾ مَفْعُولٌ بِهِ.

الإعراب الثاني: أَنَّ ﴿أَعْلَمُ﴾ اسمُ تفضيل عَلَى بَابِهِ، و﴿مَن﴾ مَفْعُولٌ بِهِ لاسم التفضيل، وهذا رأيُ الكوفيين.

الإعراب الثالث: أَنَّ ﴿مَن﴾ مَفْعُولٌ بِهِ لِفعلٍ مَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ السياق، والتقدير عِنْدَ مَنْ قَالَ بِهَذَا الرأي: قل ربي أعلمُ يَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بالهدى، فيجعلون ﴿مَن﴾ مفعولًا لِفعل محذوف تقديره: يَعْلَم، وَهَذَا تَقْدِيرٌ مُطلق.

فالآراء إذن ثلاثة، والقاعدة عِنْدِي أَنَّهُ إِذَا اخْتَلَفَ النَّحْوِيُّون فِي شَيْءٍ أخذنا بالأسهلِ، وأَسْهَلُ هذه الآراء رأيُ الكوفيين؛ لأن الكوفيين لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى تَقْدِيـرٍ وَلَا غَيْرِهِ، لا تقدير (يَعْلم)، ولا تأويل ﴿أَعْلَمُ﴾ بمعنى: عالم، يقول: ﴿أَعْلَمُ﴾ اسم تفضيل، و﴿مَن﴾ مَفْعُولٌ بِهِ، فهو مَفْعُولٌ بِهِ لـ﴿أَعْلَمُ﴾ مباشرةً.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، الهدى الْمُرَادُ بِهِ الْعِلْمُ النافع، والذي جاء بالهدى هو النَّبِيِّ ﷺ.

وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وَأَعْلَمُ مَن هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، وَلَمْ يَقُلْ:

مِمَّنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ، وأتى بـ(في) الدَّالَّةِ عَلَى الظرفيـة، كَأَنَّ هَـذَا مُنغمس فِي الضَّـلَالِ، والضلالُ محيـط بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِـبٍ إحاطةَ الظرفِ بالمظروف، كَمَـا تَقُولُ: (المَاءُ فِي الْإِنَاءِ)، و(الإناء محيـط بِالمَاءِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ)، كَمَـا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، فهنا الضلال محيط بهؤُلاءِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.

وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ بمعنى: بَيِّن، وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا أَنَّهُ قَالَ: بان الفَجْرُ وأبانَ الفَجْرُ، بمعنى: ظَهَر، كأنَّ الرُّباعي مِثل الثلاثي، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ ﴿مُّبِينٍ﴾ مِن الرُّباعي، لكنه بمعنى الثلاثي، أي: بَيِّن.

ولَمْ يَقُلْ: (أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بالهدى، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ)، لِأَنَّهُ لَا وَاسِطَةَ بين الهدى والضلال، فالأمر إما هُـدًى، وإما ضَلال، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ﴾ [سبأ:٢٤].

فليْسَـت هُناك وسطٌ بيْـن الهُدَى والضَّـلال، فلَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ لَا مهتـديًا ولا ضالًّا، بَلِ النَّاسُ كُلُّهُمْ إمَّا مُهْتَدٍ، وإمَّا ضَالٌّ، قَالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن:٢]، فالأمر دائر بَيْنَ شَيْئَيْنِ كِلاهما قَسِيمٌ للآخَر، وهما الهدى والضلال؛ لِأَنَّهُ لَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُمَا.

يَقُولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نَزَلَ جَوَابًا لِقَوْلِ كُفَّارِ مَكَّةَ لَهُ: إِنَّكَ فِي ضَلَالٍ، أَيْ فَهُوَ الْجَائِي بِالْهُدَى، وَهُمْ فِي ضَلَالٍ، وَ﴿أَعْلَمُ﴾ بِمَعْنَى عَالِمٍ].

واحتمـال مَا قَالَهُ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ صحيح؛ بِأَنَّهُمْ قَالُوا هكذا، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ سَبَبَ النزول لَا بُدَّ أَنْ يَثْبُتَ بدليلٍ صحيح، أَمَّا مُجَرَّد

أَنْ نَفْهَمَ مِن السياق أَنَّهُمْ قَالُوا، وَقِيلَ لَهُمْ، فَهَـذَا لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ سَبَـبَ النزول أمـرٌ منقول، والأمر المنقول لَا يُمْكِنُ أَنْ يستنتجه الإنسان بعقله.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: وُجوب تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَالْعَمَلِ بِهِ، وتبليغِه عَلَى النَّبِيِّ ﷺ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ البَعث فِي قَوْلِهِ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحِكمة مِنْ إِنْزَالِ القرآن، وهو الْمُجَازَاةِ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ؛ لِأَنَّ قَوْلَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ﴾ كأنه عِلَّة ومعلولها، كأنه إِنَّمَا فَرَضَ الْقُرْآنَ مِنْ أَجْلِ الْمُجازاة عليه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: دوامُ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى البَعث، فِي قَوْلِهِ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ عِلم اللهِ، وأنه أكملُ العُلوم، فِي قَوْلِهِ: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، وأن ﴿أَعْلَمُ﴾ اسم تفضيل، وأحسن أَنْ يَكُونَ أفضل العلوم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ مَا عَدَا الهدى فهو ضلال؛ لقوله: ﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وَأَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ واسطةٌ بين الهـدى والضلال، وذكرنا آياتٍ شواهدَ لِهَذَا الْأَمْرِ، مِثْل قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، وَمِثْلَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]، وهذا المثال -في الحقيقة- تتبين بِهِ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ التبست عَلَى بَعْضِ الناس.

فمَثَلًا: ما نُشِـر فِي الصُّحُفِ هَـذِهِ الْأَيَّامَ مِنْ أَنَّ الأشعرية هُمْ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة!

ونحن نسأل: هل قولُ الأشعرية هُوَ قَوْلُ السَّلَفِ؟

والجواب: لا؛ لأن الأشعرية لَا يُثْبِتُونَ مِنَ الصِّفَاتِ إلا سَبعًا، عَلَى أَنَّ إثباتهم لَهَا لَيْسَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرِيدُهُ اللهُ وَرَسُولُهُ؛ لأنهم يُثبتون -مثلًا- الكلام، ويقولون: إِنَّ الْكَلَامَ هُوَ المَعْنَى القائمُ بالنفس، وَلَيْسَ هُوَ الْحُرُوفَ وَالْأَصْوَاتَ، وهكذا، فَهُمْ غَيْرُ موافقين للسلف.

فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونُوا هُمْ عَلَى الْحَقِّ، والسلف عَلَى الضَّلَالِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ السَّلَفُ عَلَى الْحَقِّ، وهؤُلاءِ عَلَى الضَّلَالِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ مرتبة متوسطة بَيْنَ هَذَا وذاك؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢].

وحينئذٍ يكونون ضالِّين، وَإِذَا ثَبَتَ ضلالُهم، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَبَدًا أَنْ يُقَالَ: إنهم مِنْ أَهْلِ السُّنة والجماعة؛ لِأَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ السُّنة ضَلالًا، وَهَذَا أَمْرٌ غَيْرُ مُمْكِنٍ.

ولكن يَجِبُ أَنْ نعرف -وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّهُمْ ضالون فِي الْعَقِيدَةِ- أنه لَا يَلْزَمُ أَنْ نُضَلِّلَهم فِي كُلِّ شَيْءٍ، ونُخْرِجَهم مِنَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ منهم أئمة، أو منهم علماء كبار لَا شَكَّ أنهم يَتَحَرَّون السُّنَّةَ فِي أُمُورٍ كثيرة، وأنهم مُوَفَّقُون لها أيضًا.

فالإنسان يَجِبُ أَنْ يَكُونَ كلامُه فِي النَّاسِ بالعَدل، والقسطاس المستقيم، فلا يَهضِم أحدًا حَقَّهُ، وَلَا يُعْطِي آخَرَ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّهِ.

فالحاصِلُ: أنَّ هناك ميزانًا ذَكَرَهُ اللهُ هُنَا، وَفِي آيَاتٍ أُخرى، وهو ميزان واضح جدًّا، وَأَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ إلا حقًّا، أو ضلالًا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ عَلَى الْهُدَى، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، ومعلوم أنَّ الَّذِي جَاءَ ووَرَد عَلَى النَّاسِ هُوَ الرَّسُول ﷺ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ بَاقُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، ما جاءوا بجديد، والَّذِي جَاءَ بجديدٍ هو الرَّسُولُ ﷺ.

فَقَوْلُهُ تعالى: ﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ جَاءَ بالهدى، وأن أولئك في ضَلَالٍ مُبِينٍ.

الآيــة (٨٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القَصَص:٨٦].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ الْقُرْآن ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ أُلْقِيَ إِلَيْكَ ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ مُعِينًا ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ عَلَى دِينِهِمُ الَّذِي دَعَوْكَ إِلَيْهِ].

قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ﴾ في رسم المصحف هناك أَلِفُ وَصْلٍ بَعْدَ واوِ الْمُضارِع ﴿تَرْجُونَ﴾، وهي هنا زَائِدَةٌ فِي الرسم، وَلَيْسَتْ عَلَى قَوَاعِدِ الْكِتَابَةِ فِي عصرنا الحالي، فَحَسَبُ قواعدِ الْإِمْلَاءِ لَا تُكْتَبُ إِلَّا إِذَا كَانَتِ الواو للجماعة، مثل: (قالوا)، فتقع الأَلِفُ بَعدها، أَمَّا إِذَا كَانَتْ واو الفعل فَإِنَّهَا لَا تَكْتُبُ، لكن هَذِهِ الْكِتَابَةُ فِي الْقُرْآنِ كَانَتْ عَلَى الرسم العثماني، فيَرْسُمُونه، سَوَاءٌ كَانَ مُوَافِقًا للقواعد الحاضِرة أَمْ لَمْ يَكُنْ موافقًا.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ الْقُرْآنُ].

قوله: ﴿يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي: يُنَزَّلَ عَلَيْكَ، فمَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يرجو هذا، وَلَا خطَرَ بِبَالِهِ أنه يُلقى إليه القرآن، فَإِذَا كَانَ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ أَنْ يُلقى إليه القرآن، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ تَعَلَّمَهُ مِنْ غَيْرِهِ؛ لأن المتعلم للشيء مِنْ غَيْرِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ

عِنْدَهُ أَمَلٌ في الحصول عليه، حَتَّى يَقَعَ فِي أسبابه ويُحَصِّلَه، أَمَّا شخص لَمْ يَكُنْ يرجو ذَلِكَ إِطْلَاقًا، ولم يَخْطُرْ بِبَالِهِ أَنْ يُلقى إِلَيْهِ الْكِتَابُ؛ فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِن عنده، بَلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ نائبُ فاعِل، وَهُوَ الْقُرْآنُ، وكتابٌ بمعنى مكتوب: ووُصف الْقُرْآنُ بِهِ؛ لأنه مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، مكتوب بِأَيْدِي المَلَائِكَةِ، ومكتوب بأيدي الناس، فهو مكتوب، وَهُوَ فِي أَيْدِي الملائكة، ومكتوب أَيْضًا، وَهُوَ فِي أَيْدِي النَّاسِ، ودليلُه فِي سُورَةِ عبس: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ [عبس:١٥].

قَوْلُه تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَكِنْ أُلْقِيَ إِلَيْكَ] إشارةً مِنْهُ إِلَى أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ هنا منقطع، وليس متصلًا؛ لأن المتصل أَنْ يَكُونَ المستثنى مِنْ جِنْسِ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الرَّحمَة لَيْسَتْ هِيَ الرجاء، وَلَيْسَتْ مِنْهُ، فالرَّسُول ﷺ مَا كَانَ يَرْجُو ذلك، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ حصل لمجرد الرَّحمَة.

وَأَنَا أَقُول: إِنَّ ﴿إِلَّا﴾ أداة استِثْناء، والاستِثْناء هنا منقطع، ﴿رَحْمَةً﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الِاسْتِثْنَاءِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ له، يعني: مَفْعُولٌ مِنْ أَجْلِهِ، أي: ولكن أُنزِل لأجل الرَّحمَة، والرَّحمَة هنا لِلرَّسُولِ ﷺ ولغيره، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

قَوْلُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هنا ذكر الرُّبوبية الخاصة؛ لِأَنَّ رَحْمَةَ اللهِ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالرِّسالَة رحمة خاصَّة، وأنه أُلْقِي إِلَيْك الْكِتَابَ: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ لا ناهية، والفِعل بعدها مَبْنِيٌّ عَلَى الفتح؛ لاتصاله

بنون التوكيد، وَهُوَ فِي مَحِلِّ جزم.

والخطاب هنا للرسول ﷺ، ولكن كيف يُنهَى الرَّسُول ﷺ أَنْ يَكُونَ ﴿ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؟

بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ يقول: إِنَّ هَذَا الْخِطَابَ للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْأُمَّةُ، وَلَكِنَّهُ عَلَى حَدِّ قَوْلِ الشَّاعِرِ[1]:

..... إِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةُ

وَقَالَ بَعْضُهُم: بل الخطابُ للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقالوا: النَّهْيُ عَنِ الشَّيْءِ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ الوقوع.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: لَا يَلْزَمُ مِنْهُ الوقوع، لكن هَلْ يَلْزَمُ مِنْهُ جواز الوقوع، بمعنى: أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ ﷺ ﴿ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؟

نقول له: لَا يَصِحُّ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مستحيلًا، فالنهي عن المستحيل لَهْوٌ.

وَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: إِمَّا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَوْلَا تثبيت اللهِ لَهُ لَرَكَن إليهم، كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥].

الوجه الثاني: أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد يَفْعَلُ الشَّيْءَ مِمَّا هُوَ مظاهرة للكافرين، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ مُظاهرة، فنهاه اللهُ تعالى عَنْهَا؛ لِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ

---

(١) هذا عجُز بيت قاله سَهْل بن مالك الفَزَاري، كما في مجمع الأمثال للميداني (١/ ٤٩)، وصدره:
أَصْبَحَ يَهْوَى حُرَّةً مِعْطَارَهْ

مِنْهَا عَلَى حَذَرٍ، وعلى بُعد مِنْ هَؤُلَاءِ الكافرين.

ثُمَّ نَقُولُ أَيْضًا: إِنَّهُ لَوْ جَازَ عقلًا وعادةً، فقد يُنهى عنه شرعًا، فافرِض أَنَّ هَذَا أَمْرٌ قَدْ يَجُوزُ للرسول ﷺ أَنْ يَفْعَلَهُ باعتبار العادة، أو باعتبار الحالة البَشرية، لَكِنَّهُ مِنَ الناحية الشَّرْعِيَّةِ لَا يُمْكِنُ، فَيَكُونُ عَائِدًا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ باعتبار الحال البشرية الطبيعية، أَمَّا شَرْعًا فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ظَهِيرًا﴾ مُعِينًا ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ عَلَى دِينِهِمْ].

الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مَا كَانَ معينًا للكافرين، لكنه يُنْهَى عَنْ أَمْرٍ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَاقِعًا منه، أو مُتَصَوَّرًا أَنْ يَقَعَ، كَمَا قَالَ تعالى أَيْضًا: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القَصَص:٨٧]، مَعَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُشْرِكَ، ولكنه نُهِيَ عَنْ ذَلِكَ، فقيل: إن النهي هُوَ نهي لأُمَّته.

وقيل: بَلْ إِنَّ النهيَ نهيٌ حقيقي له، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ وَاقِعًا منه، وَالْفَائِدَة مِنْ ذَلِكَ بَيَانُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ مَا كَانَ يتطلب الرِّسالَة، ولا خَطَرَتْ لَهُ عَلَى بَالٍ، نأخذُه مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيان تكذيبِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣]، فالكفار يقولون: إِنَّمَا يُعَلِّمُ محمدًا القرآنَ بَشَرٌ، فَلَوْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يتعلم مِنْ بَشَرٍ، لكان مُتطلعًا لِهَذَا الْقُرْآنِ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ رَحْمَةٌ لِلْخَلْقِ، رحمةٌ فِي

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ ففي الدُّنيا تستقر الأمور، وتصلُح أحوالهم، ويَعْلُو أمرُهم، وَفِي الْآخِرَةِ يكونون فِي جنات النعيم.

فهذا القرآن رحمة؛ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَهُوَ أَعْظَمُ نِعْمَةً مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأعظم مِن نُزول المَطَرِ الَّذِي تحيا بِهِ الْأَرْضُ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ تحيا بِهِ الْقُلُوبُ، وتصلح به الأعمال، وبحياة القلوب والأعمال تحيا الأرض، قَالَ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ رُبوبية الله الخاصة لِلرَّسُولِ ﷺ؛ بقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، فهذا يقتضي رُبوبيةً خاصة، كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَهُ عُبودية خاصَّة؛ فعُبوديته خاصَّة، ورُبوبية اللهِ لَهُ خَاصَّةً أيضًا.

وإذا شئتَ أن تعرف أنَّ الرُّبوبية نوعان، فاقرأ قَوْلَ اللهِ تعالى عَنْ سَحَرَة آلِ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ آمَنُوا: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء:٤٧-٤٨]، فالأُولى عامَّة، والثانية خاصَّة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، ففيه تحريمُ مُظاهَرَة الكفار، أي: مُعاونتُهم؛ لِأَنَّ النَّهْيَ للتحريم، لَا سِيَّمَا وَقَدْ أُكِّدَ بِنُونِ التوكيد؛ لأن النُّون هنا للتوكيد، وَالدَّلِيلُ عَلَى التوكيد أَنَّ الْفِعْلَ بُنِيَ عَلَى الفتح.

والمعاونةُ للكفَّار تكونُ معاونةً عسكرية، ومعاونةً فِكرِيَّة، ومعاونةً ماليَّةً ومعنوية، فَكُلُّ مَا فِيهِ معاونة الكفار ومساعدتهم وتقويتُهم؛ فَإِنَّهُ مُحَرَّمٌ، لِأَنَّ الْوَاجِبَ علينا -نحن المسلمين- العكسُ مِنْ ذَلِكَ، الْوَاجِبُ عَلَيْنَا إذلالهم، وخَذْلُهم بِكُلِّ مَا نستطيع، بَلْ قَدْ قَالَ اللهُ لِلرَّسُولِ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣]، وقال للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم

مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة:١٢٣]، وَأَنَّ هَذَا مِن تَقْوَى اللهِ؛ إذا قاتلتموهم فليَجِدُوا منكم الغِلظة.

ومعنى هذا: أنا إِذَا لَمْ نُقاتلهم، ووجدوا منَّا اللين؛ فإن هذا مخالف للتقوى.

والحاصِلُ: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ مُعاونة الكفار بِأَيِّ وَجْهٍ مِن وُجوه المعاونة، وَهُوَ مِنْ أخطر الأمـور؛ لِأَنَّ اللهَ تعالى يَقُولُ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٥١].

• • ۞ • •

الآيــة (٨٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القَصَص:٨٧].

قال المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ أَصْلُهُ يَصُدُّونَنَكَ، حُذِفَـتْ نُونُ الرَّفْعِ لِلْجَازِمِ، وَالْوَاوُ لِلْفَاعِـلِ لِالْتِقَائِهَا مَعَ النُّـونِ السَّاكِنَـةِ ﴿عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أَيْ لَا تَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ ﴿وَٱدْعُ﴾ النَّاسَ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ لِتَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بِإِعَانَتِهِمْ، وَلَمْ يُؤَثِّرِ الْجَازِمُ فِي الفِعْلِ لِبِنَائِهِ].

قوله: ﴿يَصُدُّنَّكَ﴾ أصلُه: يَصُدُّونَنْكَ قَبْلَ دُخُولِ (لا) الناهية، ولَمَّا دَخَلَتْ (لا) الناهية وجـب حذفُ النون الأُولى للجَزم، فصارت: يَصُدُّونَّك، فلما حذفنا النون الأُولى أصبح لدينا واو ساكنة، ونون مُشَدَّدة، والنون المشدَّدة عبارة عن نونين الأولى ساكنة والثانية متحـركة، فيلتقي ساكنان، وإذا التقى ساكنان وجـب حذف الْأَوَّلِ مِنْهُمَا، قَالَ ابْنُ مَالِكٌ فِي الكافية:

إِنْ سَاكِنَانِ الْتَقَيَا اكْسِرْ مَا سَـبَقْ ... فَإِنْ يَكُـنْ لَيْنًـا فَحَذْفُـهُ اسْـتَحَقّ

أَمَّا قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ [آل عمران:١٨٦]، فَلَيْسَ فِي هَذَا الْبَابِ؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ لَمْ يَسْبِقْهُ جازمٌ، وأصلُه: لتسمعونَنَّ، فحُذفت النون الأُولى لِتَوَالي الأمثال، ثُمَّ حُذِفَتِ الْوَاوُ لالتقاء الساكنين، أي النون المشددة والواو الساكنة.

قوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ الضَّمير -وَهُوَ الواو المحذوفة- تَعُودُ إِلَى الكافرين، أي: ولا يَصُدَّنَّك الكافِرُون، والخطابُ لِلرَّسُولِ ﷺ، و(يَصُدُّ) يُستعمل لازمًا ومُتعديًا؛ فَإِنْ كَانَ لازمًا فهو بمعنى: أعرَض، وَإِنْ كَانَ متعديًا فهو بمعنى: صَـرَف، فتقول مثلًا: صددتُه عن الخطأ، أي: صرفتَه، وتقول: صددتُه عن الضلال، أي: أَعْرَضْتَ عَنْهُ، وَفِي الْقُرْآنِ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٨٨]، الفعل هنا الْأَوْلَى أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُ مُتَعَدٍّ؛ لِأَنَّ مَنْ صَدَّ غَيْرَهُ فَهُوَ عَنِ الْحَقِّ أَصَدُّ، لَكِنْ مَنْ صَدَّ بنفسه، فقَدْ لَا يُصَدُّ غيرَه.

فَالْأَوْلَى أَنْ نَحْمِلَ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذِكْرِ الصَّدِّ عَلَى الشَّيْءِ المتعدي، لَا عَلَى اللازم.

وهنا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ الفِعل مُتَعَدٍّ، بدليل الكافِ، فهي مَفْعُـولٌ بِهِ، أي: لا يَصْرِفَنَّك هَؤُلَاءِ عَنِ آيَاتِ اللهِ، والمراد هنا الآياتُ الشرعية.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: عَنِ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ آيَاتُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية:٦]، وكَوْنُ الْقُرْآنِ مِنْ آيَاتِ اللهِ تعالى؛ لأنه كلامُه، وما يَتَضَمَّنُهُ مِنَ الْأَخْبَارِ، والقَصص النافعة، والأحكام العادلة؛ وَلِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِه، كَمَا قَالَ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور:٣٣-٣٤]، فهنا تَحَـدٍّ لهؤُلاءِ الأعداء الَّذِينَ هُمْ أقوى الناس فصاحةً، وَمَعَ ذَلِكَ عَجَزُوا، وما استطاعوا، وَلِهَذَا كَانَ الْقُرْآنَ آيَةً مِنْ آيَاتِ اللهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ إِذَا قُلْنَا: مَا الْفَائِـدَةُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾، وأصل النهـي لَا يَقَعُ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إِلَّا إِذَا كَانَـتْ نَازِلَة؟

فهل هَذَا الْكَلَامُ لَهوٌ لَا فَائِدَةَ منه؟

الجواب: لا، ليس لهوًا لَا فَائِدَةَ منه، بَلْ فِيهِ فَائِدَةٌ، وهو تذكير الرَّسُول ﷺ بهذه الحُجَّة والمستَند، وَهُوَ أَنَّهَا أُنْزِلَت مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَإِذَا كَانَ يَذْكُرُ هذا المستند، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَصُدَّك عنه، وَإِنْ كَانَ مَفْهُومًا أَنَّ الصَّدَّ عَنِ الشَّيْءِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِوُجُودِهِ، لكنه لِأَجْلِ أَنْ يُذَكِّر الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بحال الإنزالِ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ أَثْبَتَ لَهُ.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ: لَا تَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ]، وَهَذَا التَّفْسِيرُ لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لأن صَدَّهم للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْهِ لَا يستلزم أَنْ يَرْجِعَ إليهم، فقد يَرْضَوْن مِنْهُ أَنْ يَخْرُجَ مِن دِينه، وَإِنْ لَمْ يُوافِقْهم عَلَى دِينِهِمْ؛ لأن أعداء المسلمين يقولون: نَحْنُ لَا نُرِيدُ أَنْ يَكُونَ المسلمون نصارى، أو يهودًا، بل نُرِيدُ أَنْ يَخْرُجُوا مِن دِينهم فقط.

وقَوْلُه تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الدُّعاء: الطَّلب، يعني: اطلُب من النَّاسِ أَنْ يَدْخُلُوا فِي دِينِ اللهِ، وادعُ الناس.

وقد أفاد الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ المفعول محذوفٌ، فقال: [﴿وَادْعُ﴾ النَّاسَ، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ لِتَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ]، هَذَا التَّفْسِيرُ للدُّعاء، وأَنْ يَدْعُوَهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ والعبادة، والتوحيدُ له أنواعٌ ثلاثة، وهي:

توحيد الأُلُوهِيَّة، وتوحيد الرُّبوبية، وتوحيد الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ: ادْعُ إِلَى كُلِّ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ، بالإضافة إلى دعوتهم إلى العبادة.

وَهَذَا هُوَ المهم، أَنْ تَكُونَ دعوةُ الْإِنْسَانِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لَا إِلَى أَيِّ قَصْدٍ آخَرَ،

فمَن دَعَا النَّاسَ إِلَى الحَقِّ لِيُقَوِّيَ جبهتهم، ويُكَثِّرَ عددهم، فليس بداعٍ إِلَى اللهِ.

ومَن دعا النَّاسَ إِلَى اللهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَجْهٌ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ إِلَى اللهِ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَدْعُوَ الْإِنْسَانُ إِلَى اللهِ، وَلَيْسَ لَهُ غَرَضٌ، اللَّهُمَّ إِلَّا رَجُلٌ يَقُولُ: أنا أُحِبُّ أَنْ تَقْوَى الجبهةُ التي أدعو إِلَيْهَا مِنْ أَجْلِ أَنْ نتمكن مِن الدعوة إِلَى اللهِ. فَهَذَا لَا حَرَجَ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ الْأَوْلَى أَنْ يَقْصِدَ القَصْدَ الأول، وَإِلَّا فَلَا حَرَجَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى اللهِ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال:٦٢-٦٣].

قَوْلُه تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِإِعَانَتِهِمْ].

هنا فَسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الْآيَةَ بِتَفْسِيرٍ قَدْ يَكُونُ عَلَى خِلَافِ الظَّاهِرِ، فقال: إِنَّ قَوْلَه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ليس معناه: لَا تُشْرِكْ، فالرَّسُول ﷺ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُشْرِكَ، ولكن المعنى بإعانتهم؛ فَإِنَّ مَنْ أَعَانَ قَوْمًا، فَهُوَ مِنْهُمْ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ﴾ [المائدة:٥١]، فكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إِنَّ اللهَ لَمْ يَنْهَ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ لِأَنَّ هَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ، بَلْ نَهَاهُ أَنْ يَكُونَ مُعِينًا لَهُمْ عَلَى شِرْكِهِمْ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يجعله منهم.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى ظَاهِرِهِ، أنه نُهِيَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَالنَّهْيُ عَنِ الشَّيْءِ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ وقوعُه، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ جوازُ الوقوع شرعًا؛ فَإِنَّهُ لَوْ فُرِض أَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَقَعَ عادةً؛ فإنه شَرْعًا لَا يُمْكِنُ.

وَعَلَى هَـذَا، فقَوْلُه تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥]، لَا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِهِ شرعًا، وَلَكِنْ إِنْ جَازَ أَنْ يَقَعَ ذَلِكَ مِنْهُ، أَوِ وَقَعَ مِنْهُ؛ فإنه يُحْبِطُ عَمَلَهُ، كَمَا فِي

قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]، فَهَذَا الشَّرْطُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ، فَلَا يَلْزَمُ مِنْ تعذُّرِ، أو استحالَةِ الشَّيْءِ أَلَّا يَقَعَ شرطًا، حَتَّى فِي الْأُمُورِ العادية، لَوْ قَالَ إنسانٌ لزوجته: إِنْ طِرتِ فَأَنْتِ طَالِقٌ. يَصِحُّ الكلام، ولكن تعليق الشَّيْءِ عَلَى المستحيل يجعله مستحيلًا، هُوَ جَائِزٌ، لكن يجعله مستحيلًا، مثل قَوْلُ الشَّاعِرِ[1]:

إِذَا شَابَ الْغُرَابُ أَتَيْتُ أَهْلِي ... وَصَارَ الْقَارُ كَاللَّبَنِ الحَلِيبِ

وَالْغُرَابُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَشِيبَ أبدًا، والقَارُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُصَيِّرَ مِثْلَ اللبن أبدًا، وَلَكِنَّهُ مَا دَامَ عَلَّقَ الْأَمْرَ عَلَى شَيْءٍ مستحيل، فالمعلَّق على المستحيلِ مستحيلٌ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَلَمْ يُؤَثِّرِ الْجَازِمُ فِي الفِعْلِ لِبِنَائِهِ]، يقصد بالجازم والفِعلَ، وهو قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾، [لِبِنَائِهِ] لِأَنَّهُ لَوْلَا البناءُ لَقال: وَلَا تَكُنْ، فَحُذِفت لامُ الفعل، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ [النحل:١٢٧]، فالجازم هنا -وَهُوَ لَا الناهية- قَدْ أَثَّرَ فِي الْفِعْلِ.

فأصل الفعل: (تَكُون)، و(لا) النهاية تؤثر بتسكين آخِرِ الفِعل، فالتقى ساكنان، الواو والنون الساكنة، فحُذفت الواو، وبَقِيَت النون الساكنة، فأصبحت: (تَكُن)، ثُمَّ حُذِفَتِ النون تخفيفًا.

أما فِي قَوْلِهِ تعالى هنا: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ فالجازم لَمْ يُؤَثِّرْ فِي الْفِعْلِ بحذف الواو، ولا النون؛ لبناء الْفِعْلِ كَمَا قال الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الشرك يَنْقَسِمُ إِلَى: شِرك أكبر مُخرج عَنِ الْمِلَّةِ،

---

(١) البيت في حياة الحيوان، للدميري (٢/ ٢٤٤) بلا نسبة.

وشِركٍ أصغرَ لَا يَخْرُجُ مِنَ الملة.

فالأكبر: أَنْ يُشْرِكَ مَعَ اللهِ أَحَدًا فِي عِبَادَتِهِ، أو رُبوبيته، فَمَنْ فَعَلَ فَهُوَ مُشرك، وَمَا دُونَ ذَلِكَ -مما أُطْلِقَ عَلَيْهِ الشِّرْكُ- فَهُوَ شركٌ أَصْغَرُ، والغالب أَنَّ الشِّرْكَ الأصغرَ يكون إِمَّا لِأَنَّهُ وَسِيلَةٌ للأكبر، كَمَا فِي مَسْأَلَةِ الرياء؛ لأن الرِّيَاءِ شِرك؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يؤدي العبادة، ويُحسنها للناس، وقد يؤدي بِهِ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ يَعْمَل أَصْلَ العبادة للناس، وَيَكُونُ بِذَلِكَ مُشركًا شِركًا أكبرَ، وَقَدْ يَكُونُ الشرك الأصغر ليس وسيلةً إلي الشرك الأكبر، وَإِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بأمورٍ أُخْرَى، لَا يَتَعَلَّقُ بِهَا الشرك الأكبر.

وَلَكِنْ عَلَى كُلِّ حَالٍ: الشركُ الْأَكْبَرُ هُوَ أَنْ يعتقد الْإِنْسَانُ أَنَّ للهِ شَرِيكًا فِي أُلوهيته، أو ربوبيته.

• • ❁ • •

الآيــة (٨٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القَصَص:٨٨].

قال المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا تَدْعُ﴾ تَعْبُدْ ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إِلَّا إِيَّاهُ ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ الْقَضَاءُ النَّافِذُ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بِالنُّشُورِ مِنْ قُبُورِكُمْ].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ أي: لَا تَعْبُدْ، و(لا) ناهيـةٌ، والفِعل بَعْدَها مجـزومٌ بِحَذْفِ حَرْفِ العِلة، وهو الواو، وَدَلَّ عَلَيْهِ الضَّمةُ عَلَى الْعَيْنِ.

قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا﴾: ﴿إِلَٰهًا﴾ مفعول تدعو، والإله بمعنى المألُوه، أي المعبود.

قوله تعالى: ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وَهَذَا غَيْـرُ مُمْكِنٍ؛ أَنْ يَكُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ بحق؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الآلهة التي سِوَى اللهِ كُلَّهَا بَاطِلَةٌ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان:٣٠].

وَاللهُ تعالى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ سَمَّى مَا يُعْبَدُ إِلَهًا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ (الإله) فِعالٌ بِمَعْنَى مَفْعُول، أَيْ معبود.

قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هَـذِهِ الْجُمْلَةُ كالتَّعلِيل للنفي السابق، أي: فإنه لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

إِذن: هَذَا النفيُ نفيٌ للحَقِّ؛ لأنه هو المعبود الحقُّ، فإنه لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وحينئذ لَا يَكُونُ بَيْنَهَا، وَبَيْنَ مَا سَبَقَهَا مُنافَاة؛ إِذْ إِنَّ مَا سَبَقَهَا يُثبِت إلهًا مَعَ اللهِ، لكن نَهَى أَنْ تدعو هذا الإله، والثاني يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فينفي أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ إله، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا أَنْ يُقَالَ: الإله الْحَقُّ الَّذِي عُبِد، وهو يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ هو اللهُ وحده.

وأَمَّا الإلهُ الْبَاطِلُ الَّذِي عُبِد، وَهُوَ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ، فهذا ثابتٌ لِغَيْـرِ اللهِ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي النَّفْيِ، مَعَ أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ نفيًا بِمَعْنَى النَّهْيِ، أي: لَا تَعْبُدْ إِلَّا اللهَ.

والنفيُ بِمَعْنَى النَّهْيِ وَارِدٌ فِي الْقُـرْآنِ، كَمَـا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢].

قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: لَا رَيْبَ فِيهِ، أي: لَا تَرْتَابُوا فيه. فيجعلون النفيَ مكانَ النهي، ولكن الْأَوْلَى أَنْ يبقى النَّفْيُ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَأَنْ يُجْعَلَ نفيًا حقيقةً، ويكون النفيُ أَبْلَغَ مِنَ النَّهْيِ؛ لأن النَّفْيَ إِثْبَاتُ صِفـة، وأما النهيُ، فَقَدْ يَحْصُل الِامْتِثَالُ لَهُ، وَقَـدْ لَا يحصُلُ.

وعليه نَقُولُ: إن هَذَا النَّفْيَ لَا يَتَعَارَضُ مَعَ مَا قَبْلَهُ؛ لِأَنَّ مَا قَبْلَهُ باعتبار أَنَّهُ إِلَهٌ باطِل، والثاني باعتبار أَنَّهُ إِلَهٌ حَقٌّ، فَلَا إلهَ حَقٌّ إِلَّا اللهُ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ هو ضَمِيرٌ يَعُودُ إِلَى اللهِ، وَلَيْسَ هُوَ اسمًا مُستقلًّا، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَسْمَـاءِ اللهِ، خلافًا للصُّوفية المبتدعة الضالَّة، فإنهم يجعلون (هُوَ) مِنْ

أَسْمَاءِ اللهِ، ويقولون: (لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) مِثل (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَيَقُولُونَ فِي أذكارهم الباطلة: (هُوَ هُوَ هُوَ)، يُكَرِّرُونها، ويقولون هَذَا هُوَ التوحيد.

ولكن نقول لهم: الضَّمِيرُ (هُوَ) ليس عَلَمًا لله، وَإِنَّمَا هُوَ ضَمِيرٌ يَعُودُ عَلَى اللهِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾.

قَوْلُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ هالك بمعنى زَائِل ومُضْمَحِلّ ومعدوم بعد الوجود.

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾: [إِلَّا إِيَّاهُ] أي: إِلَّا اللهُ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس بِهَالِكٍ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

وتفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه رَدٌّ عَلَى قَوْلِ أَهْلِ الْبَاطِلِ، الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللهَ يَفْنَى إِلَّا وَجْهَهُ. فلم يجعلوا الوجهَ مُعَبِّرًا عَنِ الذات، بل جعلوه دَالًّا عَلَى لَفْظِهِ فَقَطْ، وَهُوَ الْوَجْهُ نفسُه.

وَهَـذَا -لَا شَكَّ- كـلامٌ باطل، فالمراد بالوجـه هنا الذاتُ كُلُّها، كل الذات العَلِيَّة، لكنه عَبَّرَ بالوجـه كسائِرِ التعبيرات اللغوية؛ حيث يُعَبِّرُ بالوجه عَنِ الشَّيْءِ كله.

وَلَكِنْ قَدْ يُفْهَمُ كَلَامُ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ باطلًا بأن مَعْنَاهُ إنكار الوجه، لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا أَظُنُّ أَنَّهُ يُرِيدُ ذَلِكَ، والمعروف أن الأشاعِرَة يُنكرون الوجهَ حقيقةً.

ولكننا نَقُولُ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَهُ وَجْهٌ، ونستدل عَلَى ذَلِكَ بِهَذِهِ الْآيَةِ، ولكنه عَبَّرَ بالوجه عن الذات كسائر أساليب اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

وقيل: إِنَّ المَعْنَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُهُ، وَيَكُونُ هَـذَا عَائِدًا عَلَى الْأَعْمَالِ، يعني جميع الأعمال مَردُودة، وغير مَقْبُولَةٍ إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ، ويَسْتَدِلُّ هؤُلاءِ بقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أَنَّ هَذَا مِنْ عَمَلِ الإنسان.

ثُمَّ قَالَ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّ الشرك هالِكٌ وفَانٍ فِي غَيْرِ فِعْلِ المرء، إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ، الخالص له، فإنه يبقى للمرء.

وَكُلُّ مَا فِي يَدِ الإنسان هَالِكٌ لَا يُفِيدُه، مِثْل قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(١).

ولكننا نقول: إِنَّ المَعْنَى الْأَوَّلَ أَقْوَى، وَهُوَ أَنَّ المُرَادَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فانٍ وتَالِـفٌ إِلَّا وَجْهَ الله، وكالتَّعلِيل لقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: كَأَنَّهُ يَقُولُ: هَذِهِ الْأَصْنَامُ المعبـودة مِنْ دُونِ اللهِ لَا تَبْقَى، والله تعالى هُوَ الَّذِي يَبْقَى، فَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ.

قَوْلُه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مُكَوَّنَة مِن مُبْتَدَأ وَخَبَر، الخَبَرُ ﴿لَهُ﴾ مُقَدَّم، و﴿ٱلْحُكْمُ﴾ مبتـدأٌ مؤخَّر، وتقديمُ ما حَقُّه التأخيرُ يُفيد الحصـرَ، والمعنى: لَهُ وَحْدَهُ الحُكم.

يقول المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القَضَاءُ النَّافِذُ]، وفَسَّرَهُ بالحُكم الكَوْني، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَشْمَل الحُكم الكوني والشرعي، وله القضاءُ النافِذ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، وله أيضًا الْفَصْلُ بَيْنَ الْخَلْقِ بالأحكام الشرعية.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب النجش ومن قال: لا يجوز ذلك البيع. ومسلم كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

فالحُكم شامِلٌ للأمرين: الكوني والشرعي.

وقد مَرَّ علينا أَنَّ مِنْ أمثلة الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ قَوْلَه تعالى فِي سُورَةِ الْمُمْتَحَنَةِ: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٠].

والحُكم الكوني قَوْلُه تعالى عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠].

وقوله: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ ذَكَرْنَا أَنَّ الجُملة فيها اختصاص أَنَّ الْحُكْمَ للهِ وَحْدَهُ، مَعَ أَنَّ غَيْرَهُ لَهُ حُكْمٌ، لكنه حُكم مُقَيَّد.

ولهذا يقال: الحاكِم الشرعي، وحاكِم البلد، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. ولكن حُكْمُ هَؤُلَاءِ تابعٌ لِحُكْمِ اللهِ، والحُكم المطلَق التامُّ الشامِل إنما هُوَ للهِ وَحْدَهُ، فأحكامُ هؤُلاءِ الحكام هِيَ مِن باب التَّبَعِيَّة؛ إِذْ إِنَّ هَذَا الْحَاكِمَ لَا يَحْكُمُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ، وإِذَا حَكَم لَمْ يَنْفُذْ حُكْمُهُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالنُّشُورِ مِنْ قُبُورِكُمْ].

قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أَيْ: إِلَى اللهِ، وذلك بالنُشور إذا نَشَرَكُم مِن القُبور، فلا مَرْجِعَ إِلَّا إِلَى اللهِ، ويُحَتِّمُ أَنْ يَكُونَ الرُّجوع هنا أَعَمَّ مِمَّا ذَكَرَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ المعنى: وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ حَتَّى فِي أحكامكم، ترجعون إِلَى اللهِ، ولهذا يُرَدُّ الْحُكْمُ بَيْنَ النَّاسِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة
«كُلَّمَا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ أَرَادَنَا أَنْ نَرُدَّ مَا جَاءَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ»	١٦
«أُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي»	١٩
«إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»	٢١
«الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»	٢٤
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»	٣٤، ١٠٠
«مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ، فَوَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ، مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»	٤٨
«لِمَا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»	٤٨
«لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ»	٤٨
«يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ»	٤٨
«كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ»	٤٩
«مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»	٥٠
«لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ»	٥٧

«مَثَلُ الَّذِينَ يَغْزُونَ مِنْ أُمَّتِي، وَيَأْخُذُونَ الْجُعْلَ يَتَقَوَّوْنَ بِهِ عَلَى عَدُوِّهِمْ مِثْلُ أُمِّ مُوسَى تُرْضِعُ وَلَدَهَا وَتَأْخُذُ أَجْرَهَا» ٦١
«أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ؟ فقال: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» ... ٦٦
«أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ» ٧٠
«قل: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» ٧٥
«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ إِمَّا فِي الْجَنَّةِ أَوْ فِي النَّارِ» ٧٦
«انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا، أَوْ مَظْلُومًا» ٧٩
«مَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ، وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ؛ فَخُذْهُ» ٩٨
«إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ» ١٠٢
«يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ» ١٠٩
«وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا» ١١٧
«لَوْ يُعطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَى رِجَالٌ دِمَاءَ قَوْمٍ وَأَمْوَالَهُمْ، وَلَكِنِ الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي» ١١٩
«أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ» ١٢٤
«اذْهَبْ فَقَدْ مَلَّكْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ» ١٢٥
«أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ» ١٢٥
«لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ لَمْ يَحْنَثْ وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ» ١٢٧
«وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ» ١٢٨
«إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَعْتَقَ صَفِيَّةَ، وَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا» ١٢٩

«قَضَى أَوْفَاهُمَا» ١٣٤
«مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ» ١٣٨
«خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي» ١٣٩
«إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ بِالوَحْيِ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ شَيْئًا، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، وَسَكَنَ الصَّوْتُ، عَرَفُوا أَنَّهُ الحَقُّ وَنَادَوْا ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ:٢٣]» ١٤٣
«إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا وَسْوَسَتْ، أَوْ حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ، أَوْ تَكَلَّمْ» ١٤٧
«نُصِرتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ» ..... ١٧٢، ٢٠٨
«إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» ..... ١٦٧، ١٧٦
«مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ» .. ١٧٨، ٢٣١
«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا» ١٩٨
«مَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللهِ» ٢٠٢
«وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ» ٢٣٩
«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» ٢٤١
«أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ» ٢٤٨
«أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ» ٢٥٤
«وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ» ٢٥٥
«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ» ..... ٢٥٥، ٣٢٨
«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ» ..... ٢٥٥، ٢٧٠

«أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ» ٢٥٨
«ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الأَمَةُ، فَيُعَلِّمُهَا فَيُحْسِنُ تَعْلِيمَهَا، وَيُؤَدِّبُهَا فَيُحْسِنُ أَدَبَهَا، ثُمَّ يُعْتِقُهَا فَيَتَزَوَّجُهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَمُؤْمِنُ أَهْلِ الكِتَابِ، الَّذِي كَانَ مُؤْمِنًا، ثُمَّ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَالعَبْدُ الَّذِي يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ، وَيَنْصَحُ لِسَيِّدِهِ» ٢٥٨
«مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا» ٢٥٩
«فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ قَاتِلْهُ فَأَنْتَ شَهِيدٌ» ٢٦٣
«تَهَادُوا تَحَابُّوا» ٢٦٤
«مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» ٢٦٤
«إِنَّ اللهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ، وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ الدِّينَ، فَقَدْ أَحَبَّهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يَسْلَمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ، وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» ٢٦٨
«ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ عَلَيْهِ نَعْلَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ» ٢٧٧
«أَيْ عَمِّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ» ٢٧٧
«كَأَنِّي بِهِ أَسْوَدَ أَفْحَجَ، يَقْلَعُهَا حَجَرًا حَجَرًا» ٢٨٨
«إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا» ٢٩٤
«أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ» ٢٩٤

«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» ٢٩٨
«الحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ» ٣١٢
«إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، وَبِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ» ٣٢٦
«مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ» ٣٣٩
«لَأَنْ أَكُونَ اسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَمَا اسْتَأْذَنَتْ سَوْدَةُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مَفْرُوحٍ بِهِ» ٣٤٠
«إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ والنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ» ٣٤٤
«إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ» ٣٤٦
«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ» ٣٤٧
«وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ» ٣٥١
«لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ٣٦٣
«إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً» ٣٧٩
«وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ» ٣٨٤
«﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قَالَ: «إِلَى مَكَّةَ» ٣٨٥

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة

الحِكمة من القَصَص ٧

بيان عِظَم القُرْآن وعُلُوِّهِ ٧

الْقُرْآنُ مكتوبٌ ٨

مِنَ النَّاسِ مَنْ يريد اتباعَ الهوى ٩

القُرْآنُ مُبَيِّنٌ لكُلِّ الأُمُور ٩

الرُّجُوعُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يُفِيد الإِنْسَان ١٠

أَنَّ الْحَقَّ دائمًا بَيْنَ طَرَفَيْنِ مُتَطَرِّفَيْنِ ١٠

أهمية قِصَّةِ مُوسَى مَعَ فِرعونَ ١١

القَصَص سببٌ لحدوث الإِيمَان ١١

تفريق الأُمة سببٌ لفَشَلِها وذُلِّها ١٣

أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ ١٣

الإرادةُ الشرعيةُ ١٤

إثباتُ إِرَادَةِ اللهِ ١٥

المعتزلة لم يُثبتوا الإرادة للهِ عَزَّوَجَلَّ ١٥

صِفة الرَّحْمة ١٦

تمام قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ١٧

القياسُ الصحيحُ ١٧
الإِنْسَان المجاهد للهِ هُوَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَثْأَرَ لنفسه..... ١٨
بيانُ فضائلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ١٩
بالصَّبْر واليَقِين تُنال الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ ١٩
أَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِذَا اسْتَوْلَوْا على بلاد الكُفَّار مَلَكُوها..... ١٩
الأراضي لَيْسَتْ مِنَ الْغَنَائِمِ المحضة..... ١٩
الحِكْمَة مِن إحراق الغنائم..... ٢٠
تمكينُ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ مِنْ نِعْمَةِ الله عليه..... ٢١
الجَعْل له مَعانٍ متعددةٌ ٢٣
الوحيُ في اللغة ٢٤
الوحيُ الشرعي ٢٤
الْأُمُّ مِنَ الرَّضَاعَةِ ٢٦
التابوت ٢٩
الإِرضَاع ٣٠
بيانُ قُوَّةِ إيمان أُمِّ مُوسَى ٣٠
الالتقاط يَكُونُ بِقَصْدٍ..... ٣١
اللام الَّتِي تَدْخُلُ عَلَى الْفِعْلِ المضارع تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ..... ٣٢
اللَّام الزَّائِدة..... ٣٢
اللام غير الزَّائِدة..... ٣٣
الحُزن شُعور بالنَّقْصِ ٣٤

الْعَدُوُّ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ ٣٤
فرقٌ بين الخاطئ والمخطئ..... ٣٥
أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ أعداءٌ للكُفَّار ٣٥
أَنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا عَلَى باطل ٣٦
قُرةُ العَين ٣٨
امرأة فِرْعَون..... ٣٩
لَيْسَ لِفِرْعَونَ مِنِ امْرَأَتِهِ ولدٌ ٣٩
فَضِيلَة امرأةِ فِرْعَوْنَ..... ٤٠
قُصور عِلم الْإِنْسَانِ..... ٤١
لَا دَلِيلَ عَلَى جَوَازِ التَّبَنِّي ٤١
فِي اللُّغَةِ العامِّية ٤٢
الرَّبط عَلَى الْقَلْبِ ٤٤
أَنَّ الْإِنْسَانَ لَهُ قَبْلَ البلاء حالٌ، وبَعد البلاء تتغير حالُه..... ٤٨
الطبيعة البشرية لَا يُؤَاخَذُ بِهَا المرء..... ٤٨
أَنَّ المَرْءَ مُفْتَقِرٌ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٤٨
دَلِيلٌ عَلَى إِثْبَاتِ العِلل والأَسْباب..... ٤٩
أَنَّ الْإِيمَانَ فِي الرِّجَالِ أكثرُ وأثبتُ وأزيدُ..... ٤٩
إِثْبَات الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ٥٠
لَا يَصِحُّ أَنْ نَشْتَقَّ لله اسْمًا مِنَ الفِعل المُسنَد إليه ٥٠
الكَفْل ٥٤

الكَفالة ٥٤
الوعِيدُ حقٌّ، والوَعد حقٌّ ٥٨
أَنَّ وَعْدَ اللهِ ووعِيدَه كلاهما حقٌّ ٥٩
مال الحربي ٦٢
الاستواء فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ٦٤
أَنَّ الْعِلْمَ هُوَ عِلْمُ الأحكام ٦٥
الإِحْسَان ٦٦
تعيين المدينة بأنها مدينة فِرْعَون فِي نَفْسِي مِنْ هَذَا شَيْءٌ ٧٠
الاقتِتالُ ٧١
كُلُّ مَنْ يُناصرك فهو شيعة لك ٧١
أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُجري الأُمُورَ بأسبابٍ ٧٢
الاستغاثَةُ بالمخلُوقِ جائزةٌ بِشَرْطٍ ٧٢
إثبات الْعَدَاوَةِ وَالْوِلَايَةِ ٧٣
جَوَازُ دَفْعِ الصائل بما يَصِلُ إِلَى الْقَتْلِ ٧٣
عداوة الشَّيْطان لِبَنِي آدَمَ ٧٣
الغَفُور والرَّحيم ٧٥
جَوازُ التوسُّل إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحالِ الدَّاعي ٧٥
أَنَّ الدُّعَاءَ سببٌ ٧٥
كمالُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٧٨
مُظاهرة المجرم تُنافي الشكر ٧٩

الخوفُ نوْعانِ ٨٠
الاستغاثةُ..... ٨١
القبط..... ٨١
الرُّشد هو إحسان التصرُّف ٨٢
اتِّهام موسى ٨٥
مَنْ أَخْبَرَ آلَ فِرْعَوْنَ بأن مُوسَى هُوَ مَنْ قَتَلَ القِبطي ٨٧
يَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾، ويقول فِي سُورَةِ يَس فِي قِصَّةٍ أخرى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:٢٠]..... ٨٧
لَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْكَمُ عَلَى الْأُمُورِ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ الأَسْباب ٩١
رأفةُ نَبِيِّ اللهِ موسى ٩٤
جَوَازِ الِاقْتِصَارِ فِي الدُّعَاءِ عَلَى ذِكْرِ حال الدَّاعي بِدُونِ طلب..... ٩٤
يَنْبغي تقديمُ الدُّعاء بِذِكْر الرب ٩٤
عُلُوُّ اللهِ..... ٩٤
لَا يَلْزَمُ مِنْ إِثْبَاتِ عُلُوِّ الذات التجسيمُ ٩٤
الدِّرع ٩٧
مِن شروط نَصْب كلمة (أب) بالألف ٩٧
إن الإِنْسَان يأخذ أجرًا مُقَدَّمًا عَلَى مَا يَفْعَلُهُ لله ٩٨
مِنْ عَجِيبِ صُنْعِ اللهِ ١٠٠
مَدْيَن..... ١٠١

بيان كمال خُلقِ هَاتَيْنِ المَرْأَتَيْنِ ١٠١
يَنْبَغِي للإنسان كمال الْأَدَبِ فِي الأساليب وإزالةُ الوَحْشَة ١٠٢
الجِبِلَّة أكملُ للإنسان ١٠٣
قَصُّ الْأَخْبَارِ لَا يُعْتَبَرُ شِكَايَةً ١٠٣
صِدْق صاحب مَدْيَنَ ١٠٤
جُنود الظَّالِمِ ظَلَمَةٌ ١٠٤
قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ ١٠٥
رُكنان فِي كُلِّ عَمَلٍ ١٠٦
خيرُ مَن نُؤَمِّرُ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ١٠٦
الأمانةُ والقُوَّة أُخِذَتَا مِن سَقْيه ١٠٧
الأصلُ وجوبُ طاعةِ وليِّ الأمر ١٠٨
يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ جُنديًّا، حَتَّى لَوْ كَانَ الْإِمَامُ معروفًا بالظُّلم ١٠٨
جَواز تَكلُّم المرأة بحضور الأجنبي ١٠٨
مَشُورة الأدنى للأعلى ١٠٩
يَنْبَغِي أَنْ يَتَحَرَّى الْإِنْسَانُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ مَنْ كَانَ قَوِيًّا أمينًا ١٠٩
أَنَّ كُلَّ عقد عندنا يَحْتَاجَ إِلَى إِيجَابٍ وقَبُول ١١٥
باب الاشتِغَال ١١٦
إِنَّ الْقَضَاءَ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ: مَا فُعِلَ بَعْدَ فَوَاتِهِ ١١٧
مَن أَتَمَّ العَقد فَإِنَّهُ لَا اعْتِدَاءَ عَلَيْهِ ١١٧
التَّقديم يُفيد الحَصر ١١٨

لَا يُمْكِنُ الِاسْتِغْنَاءُ عَنِ الشهود حين كتابة العُقود ١١٨
الإسرائيليات ١١٩
يَجُوزُ أَنْ يُشتقَّ المَهْرُ مِنَ الأب ١٢٠
تقدِيم المعمول يَدُلُّ عَلَى الحَصر ١٢٠
لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُنَادِيَ والده باسمه ١٢٠
جَواز خِطبة الزوج ١٢١
جَوَازُ الْعَقْدِ عَلَى المبهمة ١٢٢
جَواز اشتراط الأب شَيْئًا مِنَ الصَّدَاقِ لَهُ ١٢٣
لو اشترطَت عَلَيْهِ أَنْ يخدمها ١٢٥
يَجُوزُ أَنْ يَجْعَلَ الإِنْسَان العَمَل عملين: عملًا واجبًا، وعملًا تَبَرُّعًا ١٢٦
حُسن معاملة صاحب مَدْينَ مِنْ وَجْهَيْنِ ١٢٧
لَا يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَعْزِمَ عَلَى فِعْلِ الشَّيْءِ إِلَّا مَقْرُونًا بالمشيئة ١٢٧
أن الصَّلَاحَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بحَسَبه ١٢٨
أَنَّ الْعُقُودَ لَيْسَتْ لَهَا صِيَغ مُعَيَّنَة ١٢٩
جَواز إشهاد اللهِ عَلَى الْعَقْدِ ١٣١
أَنَّ الْيَمِينَ الغَمُوس تَدَعُ الدِّيارَ بلاقِعَ ١٣٢
أَثَرٌ مَرْوِيٌّ عن عطاء بن السائب ١٣٤
قوله تعالى: ﴿نَارًا﴾ هَذِهِ النار ليست نارًا حقيقيةً ١٣٥
مَنْ تعهد بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ لَا يشتغل بِغَيْرِهِ حَتَّى انتهائِه منه ١٣٧
أَنَّ اللهَ تعالى إِذَا أَرَادَ أمرًا هَيَّأَ أَسْبَابَهُ ١٣٨

يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَبْقَى فِي المَكَانِ الَّذِي فارَقَهُ فيه صاحبُه ١٣٨
قِصَّة عَائِشَةَ فِي الْإِفْكِ ١٣٩
اتخاذ الأَسْباب لَا يُنَافِي التَّوكُّل ١٣٩
الْوَادِي: مَجرى الماء ١٤١
المعتزلة والجَهميَّة ١٤٣
إِنَّ كَلَامَ اللهِ يُسْمَعُ مِنَ اللهِ ١٤٣
مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة أَنَّ اللهَ يتكلم بِحَرْفٍ وصوتٍ ١٤٦
الرَّدُّ عَلَى الأشاعِرَة ١٤٦
الرَّدُّ عَلَى الجَهمية والمعتَزِلة ١٤٧
إثباتُ رُبوبية اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ١٤٧
الرُّبوبية تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: عَامَّة وَخَاصَّة ١٤٧
تشبيهُ العَصا بالجانِّ لسُرعة حركتها ١٥٠
دَلِيلٌ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ١٥١
دَلِيلٌ عَلَى حِكمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ١٥١
البُرهان هُوَ الدَّلِيلُ الْقَاطِعُ ١٥٨
لَا بُدَّ لِلجَارِّ مِنَ التَّعَلُّقِ ١٥٨
فِرْعَونُ هو حاكِمُ مِصرَ ١٥٩
الفِسق يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ ١٥٩
أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي تأتي للأنبياء حُجَجٌ عَلَى قَوْمِهِمْ ١٦٠
أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُجَدِّد لِهَذِهِ الْأُمَّةِ دِينها كُلَّما خرجوا عنه ١٦١

أَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ أتباعَ رؤساء الكُفر هُمُ الأشراف..... ١٦١
جَواز الأخذ بالعُذر عِنْدَ الْأَمْرِ بِهِ ١٦٢
أَنَّ الْخَوْفَ الطبيعي لَا يُنَافِي مقامَ الرِّسالَة..... ١٦٢
أَنَّ الْقِصَاصَ مَوْجُودٌ فِيمَا سَبَقَ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ١٦٢
هارون أخو موسى مِنْ أُمِّهِ وأبيه..... ١٦٢
قِيلَ فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ: إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَتْ فِي لسانِه لُثْغَةٌ مِن جَمْرةٍ أخذَها ووضعها في فَمِه ١٦٤
المِنَّة الكبرى مِنْ مُوسَى لِأَخِيهِ ١٦٦
اتخاذُ الأعوانِ مِنْ أَسْبَابِ النجاة..... ١٦٦
فصاحةُ اللسان لَهَا تَأْثِيرٌ قَوِيٌّ ١٦٧
يَنْبَغِي للدَّاعي أَنْ يَذْكُرَ مُبَرِّراتِ دعوتِه..... ١٦٧
أَنَّ الْإِنْسَانَ يُنْصَر ويَغلِب باتِّباع الرُّسُل ١٧١
أَنَّ اللهَ أَعْطَى مُوسَى أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلَ..... ١٧٣
إضافةَ العطيَّة إلى مُعطيها..... ١٧٥
السِّحر المُفْتَرَى..... ١٧٦
السِّحْرَ لَا يَقلب الأَشْياء حقيقة..... ١٧٦
الكَذِبُ..... ١٧٧
الباطِلُ ١٧٧
القَول الراجح في مَسأَلَة الجَدِّ والإخوة أَنَّ الجَدَّ يَحْجُب الإخوةَ ١٧٨
الآيَات الَّتي يرسل اللهُ بها الأنبياءَ تكون بَيِّنَة واضحة ١٧٨

دعوى المكذّبين للرُّسل لَا تَكون إلَّا مِن نَوع المكابَرة ١٧٨
أعداء الرُّسُل يُلَقِّبُون الرُّسل بألقابِ السُّوء والعَيب ١٧٨
أعداء الرُّسل سوف يُلَقِّبُون مَن يَدْعون بدعوة الرُّسُل بِمِثْل هَذِهِ الألقاب ١٧٩
لَا يَنبَغي للمَرء أَنْ يُثْنِيَه عَن قَول الحَقّ رَدُّه، أو وَصْفُه هو بالعيوب ١٧٩
هُوَ أَعلَمُ بمَن جاءَ بالهُدى مِن عِنْدِه ١٨٢
المؤنث المجازي ١٨٣
أَنَّ المسلمَ يَكون في الجَنَّة وارثًا لمكان الكافِر منه ١٨٤
الفَلَاح هُوَ حصول المطلوب ١٨٥
أن عدمَ فلاح الظَّالِمين بحسَب ظُلمهم ١٨٥
أنَّ العاقبة لمن اتبع هُدَى الله ١٨٦
أَنَّ الظَّالِمَ لَا يفلح ١٨٦
تَمْوِيهُ فِرْعَونَ عَلَى قَومِه ١٨٩
إثبات عُلُوِّ الله ١٨٩
إسنَاد الفعل إلَى الآمر به إذَا كَانَ لَهُ سلطَان ١٨٩
الفَخَّار أَقوَى مِنَ الطِّين ١٩٠
أن الاستِكْبارَ كُلَّه مُخالف للحق ١٩٢
الحق في الأَصل هُوَ الشَّيْء الثابت ١٩٢
قَد يَكون المرَاد بالظن هنا الرُّجحان، أو اليَقِين ١٩٢
حَال فِرْعَونَ وجُنوده ١٩٣
إثباتُ البَعث ١٩٣

النَّبْذُ هو الطَّرح ١٩٤
الظُّلم في الأَصل النقص ١٩٥
ظُلم المعصية ١٩٦
ظُلم الكفر ١٩٦
بيان عَظَمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ١٩٧
يُطلَب مِن المرء إمَّا وجوبًا، أو استحبابًا، أن يتأمَّل في عَاقبَة الظَّالِمِين ١٩٧
أَنَّ الظُّلمَ مُحَرَّم ١٩٧
أَنَّ الإِمَامَ هُوَ القائد الذي يُتبع ١٩٩
حِكْمَةُ اللهِ تعالى ٢٠٠
أَنَّ آلَ فرعَونَ لَا نَاصِرَ لَهم في الآخرَة ٢٠١
مَن لَعَنَه اللهُ لَعَنَهُ المؤمنون بالله ٢٠٢
تحقير الدُّنيا ٢٠٤
أَنَّ إتيَانَ التَّورَاة كَانَ بَعدَ إهلاك الأُمَم السَّابقَة ٢٠٥
أَنَّ إيتاءَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ينقسم إلى قسمين ٢٠٦
الأَولَى إبقاء الآية على ظاهرها ٢٠٩
القضاء يَنقَسم إلَى قِسمين ٢١٢
الوحي يُسَمَّى قضاء ٢١٣
الإنذار هو الإعلام بما يخَاف، والإعلام بما يرغَب يسَمى بِشارة، أو تبشيرًا ٢٢٠
أَنَّ هنَاكَ فَرقًا بين إضافَة الفِعْل إلى اليد، وإضَافَةِ الفِعل إلى النَّفس بواسطة اليَدِ ... ٢٢٣
أَنَّ المصائِبَ ما تكونُ إلا بالمعاصِي ٢٢٣

جَوَابُ (لَوْلَا) ٢٢٤
مَا جَاءَ به النَّبيّ ﷺ هُوَ الحَقُّ ٢٣٠
عُتُوّ المكَذِّبين للرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٢٣٠
أن قريشًا كانَ عندَهم بعضُ المعْلوماتِ عن الرُّسل السَّابِقين ٢٣٠
موسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعطاه الله تعالى آيات يُؤمِن على مثلها البَشر ٢٣١
مقام المنَاظَرَة والمجادَلَةِ ٢٣١
طبيعة البَشر واحدة ٢٣١
أَنَّ أهلَ الباطل يُلَقِّبُون أهلَ الحقِّ بألقابِ السُّوء ٢٣٢
أتباع الرُّسل ٢٣٢
التَّعاوُن ٢٣٢
قصَّة طائفتين ٢٣٣
قصَّة نقض الصحيفة التي كَتَبَتها قريش ٢٣٣
التَّعاوُنُ أساس النجاح ٢٣٤
تقديم المعمُولِ ٢٣٤
مِن العدل التنزُّل مع الخَصم إلى حالٍ يُقِرُّ بها ٢٣٥
أَنَّ التَّوراةَ والقُرْآنَ مِن عند الله ٢٣٦
التحدِّي يكُون بالوَصْف، كَمَا يَكون بالفِعل ٢٣٧
القَدَرِيَّةُ يَرَوْنَ أَنَّ الإنسَانَ يُمكن أن يهتدِيَ بنفسِه ٢٣٩
جَواز التعليق بالشرط فيما هو مُحَقَّق الوُقوع ٢٣٩
عَدَمُ مُجادَلة المُتَّبِعِ هَواهُ المُكَابِر ٢٤٠

اختلاف النَّاس في الضَّلال ٢٤٠
أنَّ الهوَى قَد يَكونُ موافقًا للهُدى..... ٢٤٠
أنَّ الظَّالِمَ قد عَرَّض نفسه لحرمانه مِن الهُدى ٢٤١
رَدٌّ على القَدَرِيَّة الذين يُنكرون قَدَرَ اللهِ ٢٤١
الفِعل (وَصَلَ) يتعدَّى بـ(إلى) ٢٤٢
أَنَّ الوَحيَ مُشتمل على غايَةِ البيان ٢٤٤
أَنَّ الحِكمة مِن الوحي التذكُّر والاتعاظ..... ٢٤٤
تعليلُ أفعالِ الله..... ٢٤٤
الْفَائِدَةُ مِن تكرار المبتدأ ٢٤٦
تأنيب الجاهِليّين على الكُفر بمحمدٍ ﷺ..... ٢٤٧
الحبشة ٢٤٩
أنَّ اليهودَ والنصارى فيهم مَن آمَنَ بالقُرْآن ٢٤٩
حُكم الفَرْدِ قد يتناول جِنْسَه..... ٢٤٩
أَنَّ صِفَةَ النَّبيّ ﷺ موجودة في التَّورَاة وَالإنجيل..... ٢٥٠
الجُملة التَّعليلِيَّة قد تكون تعليليَّة مِن حيثُ المعنى فقط ٢٥٢
الفَرق بين الجملة التَّعليلِيَّة التي قُصِد بها اللفظ والمعنى، والتي قُصِد بها المعنى فقط..... ٢٥٣
الإِسْلام معناه الاستسلام والانقِياد..... ٢٥٣
أَنَّ القُرْآنَ مِن عند الله ٢٥٤
جَواز ثناء المَرء عَلَى نَفسه بِالصِّفات المحمودة ٢٥٤

يَجوز للإنسَان أَنْ يُثْنِيَ عَلَى نَفسه بصفَات الحَمد بشرطين ٢٥٥
أَهل الجَاهليَّة الذي آمنوا بالقُرْآن فيُعطَون أجرهم مرة واحدة ٢٥٧
الصَّبر عَلَى الشَّرائِع يتضمن الصَّبْر بأنواعه الثَّلاثَة ٢٥٩
أصلُ الصَّبْر في اللُّغَةِ الحبسُ ٢٥٩
إنَّ بَعضَ النَّاس قَد لَا يصبر على الأَقْدَار المؤلمة ويَقْنَطُ ٢٥٩
الصَّبْر عَلَى طَاعَة الله أفضلُ وأعلى وأَكْمَلُ مِن الصَّبرِ عَنِ المعصية..... ٢٦٠
الصَّبْر على الأَقْدَار المُؤْذِيَة ٢٦٠
فَرقٌ بَينَ مَن يُكابِد الطاعة، ويجد في نَفْسِه مَشَقَّةً في مُعالجتها، وآخَرَ قد تَمَرَّنَ عليها ٢٦١
الحسنةُ التي تَدْرَأُ السيئةَ تَنقَسِم إلَى قِسمَين ٢٦٢
أنَّ إنفاقَ المالِ كُلِّهِ مِن الأُمُور المحمودة ٢٦٤
الصَّدَقة ٢٦٥
الهَدِيَّة ٢٦٥
الهِبَة ٢٦٥
إثباتُ عَدْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ٢٦٥
أَنَّ الثَّوَابَ عَلَى قَدْرِ العَمَل..... ٢٦٥
أَنَّ الصَّبرَ يَنقَسم إلَى ثَلَاثَةِ أَقسَام ٢٦٦
يَنبَغي مقابَلةُ المسيءِ بالإِحْسَان ٢٦٦
أَنَّ المُنْفِقَ لَمْ يُنفق ممَّا صَنَعَه، أو اكتسبَه بنفسِه، ولكن يُنفق مِن رزق الله ٢٦٧
ضِدُّ الحلال هو الحرامُ..... ٢٦٨
أَنَّ الإنفَاقَ مِنَ المُحَرَّمِ لَا يَنفَعُ المرء..... ٢٦٨

يُسَنُّ سُجود التّلَاوَة للمُستمع دُون السَّامع ٢٦٩
المقابلُ للخَيْر الشَّرُّ ٢٧٠
إعراضُ البَدَنِ مع إقبالِ القلْبِ ٢٧٠
يُسمى مَن خَالَفَ عَن عِلم سَفِيهًا ٢٧٢
يَنبَغي الإعرَاضُ عَنِ اللَّغو ٢٧٣
الصلاة خيرُها ذاتي، والسعيُ إليها خَيْرُه عَرَضي ٢٧٣
لا يتساوى الخير العرَضي، والخيرُ الذاتي ٢٧٤
مشرُوعيَّة السَّلام عِنْدَ الانصراف ٢٧٤
لَا يَنبَغي للعاقِل طلبُ السُّفهاء ٢٧٤
هدايةُ التَّوْفِيقِ ٢٧٨
الحُبُّ الطَّبِيعِيُّ لَا يُنَافي الإِيمَان ٢٧٨
المحبَّة الدينيَّة لَا تَجوز بَينَ المؤمن وَالكَافر ٢٧٨
المراد بالهُدى مَا جَاءَ به الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٢٨٣
الشَّيْطانُ يُخَوِّف المُؤمِنينَ بالكُفَّار ٢٨٤
قوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن﴾ ٢٨٥
النَّعْتُ قَدْ يَكون نَعْتًا سببيًّا، أو نَعْتًا حقيقيًّا ٢٨٦
قضية القرامطة ٢٨٨
فائدةُ ذِكر إهلاك القُرى السَّابِقة ٢٨٩
الكُفر لا يُؤَمِّن صاحبَه ٢٩٠
الاهتداء هُوَ السَّبَبُ المَانِعُ مِنَ العذاب ٢٩٢

أَنَّ السُّؤَالَ فِي الْآخِرَةِ عامٌّ لجميع الخَلق ٢٩٤
أَنَّ غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ تَعمَى عليهم الأنباء فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ٢٩٥
أن الْإِيمَانَ لَيْسَ هُوَ التَّصْدِيقَ فِي الشَّرْعِ فقط ٢٩٧
الْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: الإخلاص والمتابعة ٢٩٨
تعليل لبُطْلان آلهة المشركين ٣٠٠
مِنْ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة أَنَّ اللهَ تعالى خالقٌ للعبد، ولأفعال العبد ٣٠١
الاختيار أعمُّ مِن الْخَلْقِ ٣٠٢
هَلْ يَجِبُ عَلَى اللهِ فِعْلُ الأصلح والصلاح أَمْ لَا يَجِبُ؟ ٣٠٢
كَمْ مِنْ أَشْيَاءَ نظن أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي مُخَالَفَةِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، أَوْ مَا يَقَعُ قَدَرًا، وتكون الْحِكْمَةُ فِيمَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ، وَقَضَى بِهِ اللهُ تعالى فِي قَدَرِهِ ٣٠٣
مشابهةُ المخلوقين ممتنعة عَلَى اللهِ ٣٠٣
إثباتُ أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ ٣٠٤
إثباتُ الإرادة للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ٣٠٤
أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا اخْتِيَارَ له ٣٠٥
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أثبتَ للإنسان مشيئةً ٣٠٥
القلب متصلٌ بالصَّدر ٣٠٨
التَّحذير والتَّرغيب ٣٠٨
سُمِّيَ المعبود مألوهًا؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ يَأْلَهُهُ ٣٠٩
قال المتكلمون: إنَّ الإله بمعنى الآلِه ٣٠٩
خطأ بعضِ المؤلفين الْآنَ فِي التَّوْحِيدِ ٣١٠

أصلُ الإله حقًّا هُوَ الْخَالِقُ ٣١١
لَا بُدَّ للضمير مِن مَرْجِعٍ مَذكُور ٣١١
الحُكم لله قضاءً وشرعًا ٣١٤
الحُكم المُطلَق لله ٣١٤
كَمال صِفات اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ٣١٦
قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ ٣١٧
السَّرمد معناه: الدائم المستمر إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ٣١٩
الْحَثُّ عَلَى سَمَاعِ مَا يُتْلَى مِنْ كِتَابِ اللهِ سَمْعَ تَفَهُّمٍ وقَبُول ٣٢١
بيان نِعْمَةِ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ بِضِياء النهار ٣٢١
الليل أنفعُ للبَدن مِنَ النَّهَارِ ٣٢٢
تَنَاقُض المُعَطِّلين مِن الأشعرية والمعتزلة وغيرِهم ٣٢٥
أَنَّ فِي تعاقُب اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فوائدَ عظيمةً ٣٢٧
اللَّيْلَ هُوَ مَحَلُّ السكن ٣٢٩
أَنَّ الرِّزْقَ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وفضلٌ وعطاء ٣٢٩
أَنَّ الْحَقَّ فِي الْعِبَادَةِ للهِ وَحْدَهُ ٣٣٣
أَنَّ الرُّسُلَ يُسألون يَوْمَ الْقِيَامَةِ ٣٣٥
اتخاذ الْأَصْنَامِ آلهةً مِنَ الِافْتِرَاءِ والكذب ٣٣٥
العُصبة هِيَ الْجَمَاعَةُ ٣٣٧
الْفَرَحُ الَّذِي لَا يُحمد صَاحِبُه ٣٤٠
الفرح الطبيعي ٣٤٠

أَنَّ القومِيَّة لَا تَنْفَعُ أصحابَها ٣٤١
إثباتُ المحبة لله ٣٤١
أَنَّ النسيان يُطْلَقُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ: أحدهما: التَّرك، والثاني: الذُّهول عَنْ شَيْءٍ معلوم .. ٣٤٤
الهَرْجُ الَّذِي كَثُرَ فِي هَذَا العصر ٣٤٨
إِنَّ نَفْيَ المحبة إثباتٌ للكراهة لَزِم منه المعاقبة ٣٤٩
الأشعري يُثبت الصفات بالشرع تارَةً، وبالعقل أخرى ٣٤٩
دَلِيلٌ عَلَى أَنْ قارون كَانَ يُنْفِقُ المَالَ بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ فِي المَعَاصِي والفساد ٣٥٠
يَنْبَغِي لمن آتَاهُ اللهُ مَالًا أَنْ يُحْسِنَ النِّيَّةَ ٣٥١
جواز تمتُّع الْإِنْسَانِ بِمَا آتَاهُ اللهُ تعالى فِي الدُّنْيَا ٣٥١
تحريم نِيَّة الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ٣٥٢
المجرم هُوَ فَاعِلُ الإجرام ٣٥٦
مَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ مَا رَزَقَهُ اللهُ مِنْ كَسْبِهِ، فهو مُشابه لقارونَ فِي عَدَمِ اعترافِه بنِعْمَة الله .. ٣٥٧
أَنَّ المجرمين عند إهلاكهم لا يُسألون ٣٥٧
الحَظُّ نصيبُ الْإِنْسَانِ مِنَ الْآخِرَةِ ٣٦٠
زَجْرُ الإنسان عما يُرِيدُهُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْبغي الزَّجْرُ عنها ٣٦٢
الثوابُ هُوَ الْجَزَاءُ ٣٦٣
العُبوديَّة ٣٦٨
الْحُكْمُ فِي بَسْطِ الرزق وتَضْييقِه ٣٦٩
مِن أَنْوَاعِ الْكُفْرِ ٣٧١
لَوْلَا شَرطية ٣٧٢

المنُّ ٣٧٣
الَّذِينَ تَمَنَّوا مِثْلَ مَا أُوتِي قارونُ عَرَفُوا أَنَّ مَا أُوتِيَهُ ليس لكونه أَهْلًا لَهُ ٣٧٤
أَنَّ تَمَنِّيَ مَتَاعِ الدُّنْيَا لَا بُدَّ أَنْ يَتَبَيَّنَ للمرء أنه تَمَنٍّ لَا حَقِيقَةَ لَهَ ٣٧٤
الإنسانُ له دُورٌ أَرْبَعٌ ٣٧٥
العاقبةُ هِيَ النِّهَايَةُ ٣٧٦
أَنَّ انتفاءَ الإرادة يَلْزَمُ مِنْهُ انتفاءُ الفِعل ٣٧٧
ذَمُّ مَنْ يُرِيدُ العُلو والفَساد ٣٧٧
أَنَّ العاقِبَةَ تكون للمُتقين ٣٧٨
جزاء الحَسنة خَيْرٌ مِنْهَا بالكَمِّية والكيفية ٣٨٠
التنديدُ بعامِل السيئات ٣٨١
إِذَا اخْتَلَفَ النَّحْوِيُّون فِي شَيْءٍ أخذنا بالأسهلِ، ٣٨٦
ليْسَت هُناك وسطٌ بيْن الهُدَى والضَّلال ٣٨٧
وُجوب تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَالْعَمَلِ بِهِ ٣٨٨
الحِكمة مِنْ إِنْزَالِ القرآن ٣٨٨
مَا عَدَا الهدى فهو ضلال ٣٨٨
هل قولُ الأشعرية هُوَ قَوْلُ السَّلَفِ؟ ٣٨٩
إثبات أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الْهُدَى ٣٩٠
الاستِثْناء ٣٩٢
كيف يُنهَى الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَكُونَ ﴿ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؟ ٣٩٣
تكذيبِ الَّذِينَ قَالُوا ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ ٣٩٤

إثباتُ رُبوبية الله الخاصة لِلرَّسُولِ ﷺ ٣٩٥
المعاونةُ للكفَّار ٣٩٥
توحيد الأُلُوهِيَّة، وتوحيد الرُّبوبية، وتوحيد الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ ٣٩٩
النفيُ بِمَعْنَى النَّهْيِ ٤٠٤

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة
تقديم	٥
" قال الله عزوجل: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣﴾	٧
" قال الله عزوجل: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤﴾	١٢
" قال الله عزوجل: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ۝٦﴾	١٤
" قال الله عزوجل: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧﴾	٢٤
" قال الله عزوجل: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾	٣١
" قال الله عزوجل: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾	٣٧
" قال الله عزوجل: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٠﴾	٤٢

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ ٥١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ ٥٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ ٥٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ ٦٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ ... ٦٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ ٧٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ ٧٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ ٨٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ ٨٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ ٨٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ ٩٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ ٩١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ ٩٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ ٩٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ ١٠٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ١١١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ ١١٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ١٣٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ ١٤٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ١٤٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ١٥٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ ﴾ ١٦٢

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ ١٦٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ١٦٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ١٧٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ١٨٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ١٨٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ١٩١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ١٩٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ ١٩٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ ٢٠٢

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ٢٠٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ ٢١١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾ ٢١٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ٢١٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ ٢٢٢

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ٢٢٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ ٢٣٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ .. ٢٣٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ ٢٤٢

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ٢٤٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ٢٥١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ٢٥٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ٢٦٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ٢٧٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ٢٨٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ٢٨٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا

غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ٢٩١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ ٢٩٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ٢٩٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ ٢٩٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ٣٠٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ٣٠٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ٣٠٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ٣١٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ ٣٢٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ٣٣٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ ٣٣٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ٣٣٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ٣٤٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ٣٥٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ ٣٥٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ٣٦٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ ٣٦٥

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ٣٦٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ٣٧٥

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ٣٧٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ ٣٨٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ ٣٩١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ ٣٩٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ ٤٠٣

فهرس الأحاديث والآثار ٤٠٩

فهرس الفوائد ٤١٥

فهرس آيات السورة ٤٣٥

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٧)

تفسير القرآن الكريم

سورة العنكبوت

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٧)

تفسير القرآن الكريم

سورة العنكبوت

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة العنكبوت. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
٤٥٥ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٣٧)
ردمك: ٣ ـ ٤٤ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة العنكبوت ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٢٦

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٢٦
ردمك: ٣ ـ ٤٤ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من :
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحِ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[١]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخ مُحَمَّد بنِ صالِح العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَرِيم؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضَاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ فِي المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعِينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ
فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ
٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

الآيات (١- ٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣].

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشْرفِ الأنْبياءِ والمرْسَلِين نَبِينا محمَّدٍ، وعلَى آلِهِ وأصْحابِهِ، ومَنْ تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين، أمَّا بَعْدُ:

قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: البَسْملةُ آيةٌ مستقِلَّةٌ يُؤتَى بها في ابتداءِ السُّورِ ما عدا سورةِ براءةَ[1].

قَالَ المُفَسِّر[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿الٓمٓ﴾ اللهُ أعْلمُ بمُرادِهِ بذلكَ] اهـ.

وهذا حقٌّ فيما لو جعلْنَا لهذه الكَلمةِ معْنًى، ولكنَّ الصوابَ: أنه لا مَعْنى لها كما قَالَه مجاهِدٌ وغيرُهُ[3]، فهي في حدِّ ذاتِها ليس لها مَعْنًى، وذلك لأنَّ القرآنَ نزلَ باللُّغةِ العربيَّةِ، والحروفُ المركَّبةُ الهجائيَّةُ ليس لها مَعْنًى، فإن (ألف، باء، تاء، ثاء، جيم) ليس لها مَعْنًى، ومع هذا فابتِداءُ السورَةِ بالآياتِ المقَطَّعَةِ له مغْزًى، وهو

---

(١) انظر: تفسير سورة البقرة، لفضيلة الشيخ رحمه الله تعالى المجلد الأول.

(٢) المقصود بـ(المُفَسِّر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رحمه الله تعالى، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ١٥٧)، وتفسير القرطبي (١/ ١٥٥).

الإشارةُ إلى أنَّ هذا القُرآنَ الكريمَ الذي أعْجَزكم معْشرَ العربِ وأعْجزَ غيرَكُم لم يأتِ بحروفٍ جَديدَةٍ لا تَعرِفونها، وإنما أَتى بحروفٍ تَعْرِفونها وتُركِّبونَ منها كَلامَكم، ومع ذلك أعْجَزَكم.

ولهذا لا تكادُ تَجدُ سُورةً مَبْدوءةً بهذه الحروفِ الهجائيَّةِ إلَّا وجدْتَ بعدها ذِكْرَ القُرآنِ أو ما هو مِنْ خصائصِ القُرآنِ، انظُرْ قولَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١-٢]، وقولَه: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران:١-٣]، وقولَه: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١-٢]، وقولَه: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس:١]، وقولَه: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الأحقاف:١-٢]، وقولَهُ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [السجدة:١-٢]، وهَكَذَا.

وأما قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ فَلَيس فيهِ ذِكْرُ القرآنِ، لكِنْ فيها ذِكرُ ما هو مِنْ لازمِ القُرآن، وهو قَولُه: ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، فإنَّ مَنْ آمَنَ بالقُرآنِ لا بُدَّ أن يُفْتَنَ.

قولُه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ قولُه: ﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾ هَذَا مَحلُّ الاستِفْهامِ، يعني: أيظُنُّ الناسُ أن يُترَكوا إذا قالوا: آمنَّا بدونِ أن يُخْتَبَروا؟ هذا أمْرٌ لا يكونُ، بل لا بُدَّ من الاخْتِبارِ، وكُلَّما كانَ الإنسانُ أقْوى إيمانًا كان اختِيارُهُ أكثرَ، فإنَّ الله تعالى يَبتلي الناس، فيُبتَلى الصالحونَ الأمْثلُ فالأمْثلُ، حتَّى يَنْظر في دِينِهِ هل فيه قُوَّةٌ أو هو دِينٌ ضَعِيفٌ.

وقوله: ﴿أَحَسِبَ﴾ بمَعْنَى: ظَنَّ، وقولُه: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ يشْملُ المؤمِنينَ وغيرَ المؤمنينَ، وذلِك لأن قَولَهُ: (إنِّي مُؤمِنٌ) يكونُ مِنَ المؤمنِ حقًّا، ويكونُ مِنَ المنَافِقِ،

والمنافِقُ لا يصحُّ أن يُسمَّى مؤمنًا على الإطْلاقِ، بل إنَّما يقالُ: مؤمنٌ بلِسَانهِ كافِرٌ بقَلْبِهِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾ أي: بِقَوْلِهِمْ: ﴿ءَامَنَّا﴾] اهـ.

يَعْنِي: أيَظُنُّ النَّاسُ أن يُتْرَكوا بلا فِتْنةٍ إذا قَالُوا: آمَنَّا.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ يختبرون بما يتبين به حقيقة إيمانهم]، وهذا الاستفهامُ للإنْكارِ، يعني: لا تَظُنوا أنكم إذا قُلتم: آمنا، تُرِكتُم بلا فِتْنةٍ، بل لا بُدَّ مِنْ فِتْنة واخْتبارٍ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَبْتلي المرءَ تارَةً بأفْعالِهِ التي يفْعلُهَا به عَزَّوَجَلَّ، وتارَةً بأفْعالِ غيرِهِ التي يُسَلَّطون بها عَليهِ، أما بأفْعالهِ: فإنَّ الله تعالى قد يَبتلِيَ الإنسانَ بمصائبَ يَخْتبِرُ بها إيمانَهُ، مصائبَ في أهلْهِ أو مالِهِ أو بدَنِهِ، ومِنَ الناسِ منْ إذَا أصابَتْهُ هذه المصائبَ -والعياذُ بالله- عَجَزَ أن يَصْبر، ورُبَّما ارتَـدَّ بعدَ إسلامِهِ وكَفَرَ، ومِنَ النَّاسِ من يَصْبرُ ويحْتَسِبُ.

كذلك قد يُبتَلى المرءُ بأمْر يُسلِّطهُ اللهُ عليه، مِثْلُ أن يُسَلِّط عليه قومًا يُؤْذُونه بالقولِ أو بالفِعلِ أو بِهما جميعًا، مثل ما حَصَل للنَّبِيِّ ﷺ وأصحابِهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فإنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أُوذِيَ إيذاءً عظيمًا من قَومِهِ، ومن غيرِ قومِهِ، وكذلكَ أصْحابُهُ أُوذُوا إيذاءً عظيمًا، ومع ذلك صَبَرُوا واحتَسَبُوا، فإن عمَّارَ بنَ ياسرٍ وآلَه حصل لهُم إيذَاءٌ عظيمٌ، وكذلك غيرُهُمْ مِنَ المؤمنين، منهم مَنْ يُؤْذَى بالقَولِ، ومنهم مَنْ يُؤْذَى بالفِعْل، ومنهم من يُؤْذَى بالقولِ وبالفِعْل.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَنَزَل فِي جماعَةٍ آمنُوا فآذَاهُمُ المشْركونَ] اهـ.

أي: مِنَ الناسِ مَن يقولُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠]، ثمَّ يرْتَدُّ والعِياذُ بالله.

كذلك مِنَ الناسِ الآن، وخُصُوصًا مِنَ الشبـابِ المتَّجهِ إلى الدِّين مَنْ يُؤذِيهِ أولئك الفَسَقَةُ ويسبُّونَه ويقولون: (أنتَ رَجْعيٌّ) وما أشْبَهَ ذلك، وهذا ابْتلاءُ مِنَ اللهِ وامتحانٌ ليَعْلمَ هل يَصْبرُ هذا على دِينِه أو ينْحَسرُ ثم يرْجِعُ خوفًا من أَذِيَّة هؤلاء؟

ومن النَّاسِ أيضًا من يُؤْذَى بتحلِّيهِ بأخلاقِ المؤمِنينَ، كإعفاءِ اللِّحيَةِ مثلًا، فيؤذَى بذلكَ إما بالقَـولِ والاستهزاءِ والاسْتِخـفافِ، وإما بالفعل فيُضْربُ عليها أو يُحْبس، فتَجدُه يحلِقُ لحْيَته خوفًا مِنْ هذا الأمْرِ، وهذا لا يجوزُ؛ لأن الواجِبَ أن يَصْبِرَ، نعم: إن أُكْرِهت على هَذَا وغُلَّتْ يدُك وأُتِيَ بالمُوسَى وحُلِقَتْ؛ فهذا أمر ليسَ إليكَ، لكن ما دَامَ الأمر إليكَ فإنَّهُ لا يجوزُ لك أن تَفْعلَ المعْصِيةَ خَوْفًا مِنَ الناسِ، بل يجبُ أن يَصْبرَ ويحتَسِبَ.

أما قاعِدَةُ (المشَّقَّةُ تْجلِبُ التَّيْسِيرَ) فلا تُطبَّقُ هنا، فهذا الرَّجُل ما أُكِرَه، غايةُ ما هنـالك أنه سيُضْربُ أو يُحْبس، فليقلْ: لن أفْعلَ المعـصيةَ، ثُمَّ إذا أردتـم ضَربِي فاضْرِبوني كما شِئتُم، فالضَّرب مشقَّةٌ تَزُول، فلْيَصْبر ولْيَحْتسِب على دِينِهِ.

ولا يَـرِدُ على هذا قوله تعـالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل:١٠٦]، يَعْني: فلا شيءَ عليهِ؛ لأنَّ بعضَ العُلماءِ يقول: إن هذا في الكُفْرِ القَوليِّ الذي مصدُرُه اللِّسانُ، وإن كان الصحيحُ أنه حتى في الكُفر الفِعْلي، فهو شامِلٌ؛ لأنَّ الآيَةَ عامَّةٌ، حتى لو أُكْره على السُّجودِ وما أشْبَه ذلك، أما التَّخَلِّي عن الأمرِ الشرعِيِّ، فهذا لا يمكنُ أن يَتَخلى المرءُ عنه، فَفَرْقٌ بينَ الفِعل الذي يُجبَر فيه على فِعلِ المعْصِيةِ، كأن تُكْره على الكُفر، فهذا يُعْذر به، وأما أن يَتْركَ واجبًا كوجوبِ إعْفاءِ اللِّحيةِ فهذا لا يجوزُ، مثاله: لو قيلَ لكَ: اتركِ الصلاةَ، فهذا كُفر، ولا يجوزُ لك أن تَتركَهَا، صلِّ ولو أُوذِيتَ بالضَّربِ والحبْسِ، ولا مانِعَ من ذلك.

أما أَكْلُ الميتةِ إذا اضْطُرِرْتَ إليه فلأنك إذا أكلتَ منه بَقِيَتْ حياتُك، لكنَّ الإكراهَ على تـركِ الواجبِ فليس كذلك، فقَد تُهـدَّدُ بالضربِ ولا تُضْرب، وقـد تُضْرب وتَصْبر وتَحْتـسبُ، هذه هي الفِتْـنة التي ذَكَر الله، وإذا لم نُطَبِّـقْهَا على هذا فمَتَى تكونُ الفِتنةُ ما دُمْنَا قلنا: إن الإنسانَ إذا أُوذِيَ في الله يجوزُ أن يَدَع ما أمَر الله به؟ فلا بُدَّ من فِتْنة واخْتبارٍ وإلَّا أصبحتِ الفِتنةُ لا فائدةَ فِيها.

• • ۞ • •

الآيــة (٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٣].

قوله تعالى: ﴿فَتَنَّا﴾ بمَعنَى: اخْتَبرنَا الذين من قَبْلِهم، وقد أخبرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن ذلك بقَولِهِ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ»[1]، يعني: يُؤتَى بأمشَاطِ الحديدِ ويُفْصَلُ بها اللَّحمُ ويمشَّطُ، ومع ذلك كله يصْبِرُ على دِينِهِ ويحْتسبُ ولا يَرْتدُّ، فإذا كان هذا فيمن كان قَبْلنا فإن هذه الأُمَّةَ أوْلى بالصَّبر على هذا الأمرِ العَظيمِ، لا سِيَّما إذا كان المقامُ مقامَ جهادٍ، مثل ما وقَعَ للإمام أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أيامِ المِحْنَةِ، فإنه كان يُضربُ بالسِّياط ويُجرُّ بالبِغالِ، ليقول: إن القرآنَ مخلوقٌ، ومع ذلك أَبى أن يقول: إن القرآنَ مخلوقٌ؛ لأنه لو قال: إن القرآنَ مخلوقٌ سيَتَرتَّبُ على ذلك فسادُ الأمَّةِ كلِّها، فليست المسألةُ متَعَلِّقةً به وحده.

ولهـذا مَنْ أُكْرِهِ على الكُفرِ وكان كُفرُهُ يستـلزمُ كُفر غيرِهِ وفسادَ الملَّة، فإنـه لا يجوزُ له أن يوافِقَ ولو أُكْره؛ لأن المقـامَ في حَقِّهِ مقامُ جهادٍ، والإنسان يجـبُ أن

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، رقم (٦٥٤٣).

يجاهِدَ في سبيلِ الله ولو تَعرَّض للقتلِ، أما إذا كانتِ المسألةُ إكْراهًا شخصيًا على الكُفرِ، فإن هذا يجوزُ بشرطِ أن يكونَ قلبُه مُطمئنًا بالإيمانِ.

فعلى هذا إذا كان هناكَ رجلٌ قُدوةٌ أمامَ الناسِ وأُكرهَ على أن يفعلَ معصيةً أو أن يفْعلَ كُفرًا، وفِعْلُه لها ليس لمجرَّدِ أن يتَخَلَّص من الأَذِيَّةِ ولكن سَيُفسِدُ به أمةً مِنَ الناسِ، فهذا نقول له: لا تَفْعَلْ ولا توافِقْ، ولو أُكْرِهْتَ ولو ضُربْتَ؛ لأن المقامَ مقامُ جِهادٍ في سبيلِ الله. وإنسانٌ آخرُ لا يُؤبَهُ به ولا يَنظرُ الناسُ إليه ولا يحفِلُون به، وأُكرِهَ على أن يفعلَ شيئًا مِنَ الكُفر أو ما دونه، فله أن يَفْعَلَ بشرط أن يكون قلْبُه مُطْمئنًا بالإيمان، مِثلَما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولو قال قائل: الإمامُ أحمدُ لم يَقُلْ بخَلقِ القُرآنِ لأنه قدوةٌ، فكيف تُجيزُونَ التَّحاكُمَ للعلماءِ عندَ الضَّرورةِ؟

الجواب: الإمام أحمد لو قال: إن القرآنَ مَخْلوقٌ فهو قَولٌ باطِلٌ، أما هذا فلم يتَحَاكَمْ إليهم لِكَي يَحْكُموا له بالبَاطِلِ، لذلك اشْتَرَطْنَا أنه إذا حَكَمَ له بغيرِ الحقِّ أن يَرْفُضَ الحُكْمَ.

وقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ الصِّدقُ مطابقةُ القولِ للواقعِ، أو مُطابقةُ الفِعل للواقِعِ، فالذين صَدَقوا صدَقوا في قولهم: إنَّهم مؤمنونَ، فمَنْ كانَ صادِقًا في إيمانِهِ فإنه يَسْلَمُ بذلك، ومن كانَ كاذبًا فإنه -والعياذُ بالله- يَنْخدِعُ بهذه الفِتنَةِ، وينقَلِبُ على وجهِهِ، ويخسِرُ الدُّنيا والآخِرة.

وقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عِلْمَ مُشَاهَدَةٍ]، يشير إلى أن قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ مستَقْبلٌ، بدليلِ دخولِ نونِ التوكيدِ عليه، وبدَليلِ أنَّ الجملةَ قسَميَّةٌ، والجملةُ القَسَمِيَّةُ

تكون في المستقبلِ، فهو فِعـلٌ مضارِعٌ واقعٌ في جملة قسَميَّة مؤكَّدٌ بالنُّـونِ، فيكون للمستقبل.

والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يعلمُ ذلك قبلَ أن تَحْصُلَ الفتنةُ، فكيف الجواب عن قوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ يدلُّ على أن العِلْمَ لا يكونُ إلا بعدَ الفِتْنةِ؟

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عِلمَ مُشاهَدَةٍ]، وهذا فيه وجهان:

الوجهُ الأَوَّلُ: أن عِلمَ الله تعالى بالأشياءِ يَنقَسمُ إلى قِسْمين:

- علمٌ بأنها ستَقَعُ؛ وهذا علمٌ بما لم يَكُن.
- وعلم بأنها وَقَعَتْ، وهذا علمٌ بما كانَ، وهذا هو الذي يُنَزَّلُ عَلَيهِ مثلُ هذه الآياتِ، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾ [محمد:٣١]، المراد: عِلْمُ مشاهدةٍ، وأما العِلم بمَنْ سيكون مجاهَدًا فهذا سابِقٌ، ولكنَّهُ عِلمٌ بأنه سيكون.

فمتَعَلَّقِ العلمِ: إما مستَقْبلٌ يعلَمْه الله بأنه سيكونُ، وإما واقعٌ عَلِمَ الله بأنه قد كانَ.

الوجه الثاني: أن العِلمَ ينْقسمُ إلى قسمين:

- عِلمٌ يترتَّبُ عليه جزاءٌ، فعِلمُ الله تعالى بعدَ الوُقوعِ هو عِلمٌ يترتَّبُ عليه الجزاءُ.
- وعِلمٌ لا يتَرَتَّبُ عليـه جزاءٌ، فعِلمُ الله عَزَّوَجَلَّ في الأَزَلِ قبـلَ وقوعِ الشَّيءِ عِلمٌ لا يتَرتَّبُ عليه الجزاءُ.

فيكونُ العِلم الذي يجعلُهُ الله تعالى مَرَتَّبًا على الوُقوعِ؛ المرادُ به عِلمُ المُجازاةِ، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

فهذان جوابانِ عن مثلِ هذه الآيَةِ، ولا يقالُ: إن اللهَ لا يعْلمُ الشيءَ إلَّا بعدَ وقوعِهِ، كما قال ذلك غُلاةُ القَدَريَّةِ، فإن غلاةَ القَدَرِيَّةِ يقولون: إن اللهَ لا يَعْلَمُ بالشيءِ إلا بعدَ وُقوعِهِ، ويستدلون بهذا المُتَشَابِهِ مِنَ القرآنِ، ولكننا نقول: هؤلاء في قُلوبِهم زَيْغٌ؛ لأنهم اتَّبَعُوا ما تَشَابه منه، ولو رَجَعُوا إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، لتَبيَّن لهم أن اللهَ عالمٌ بما سيكون قَبلَ أن يكونَ.

قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يعني في قولهم: إنهم مُؤمنونَ، فالله تعالى إذا فَتَن الخلْقَ عَلِم من كان صادِقًا في قولِه ومَن كان كَاذِبًا، وفي هذا تحذيرُ المرءِ عندَ وُقوعِ الفِتنَ أن يرْتدَّ عن إيمانِهِ فيكونُ بذلك كاذبًا.

قولُهُ: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾ اللام للتَّوكيدِ، وهي أيضًا مُوطِّئةٌ للقَسمِ، فتكونُ الجملةُ مُؤكَّدَةً بثلاثَة مؤكِّدَاتٍ.

وقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ﴾ بفَتْحِ آخرِهِ مع أنه لا يوجَدُ ناصِبٌ؛ لأنه مبْنِيٌّ على الفتحِ في محلِّ رَفعٍ وليس مَنصوبًا.

من فوائد الآيات الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: الحِكْمةُ في ابتداءِ السورةِ بالحروفِ الهِجائِيَّةِ، وقد تَقدَّم الحكمُ فيه هذا.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ يخْتَبِرُ المؤمنين ليعلَم بذلك صِدقَ إيمانِهِمْ من عَدَمِهِ.

الفَائِدة الثَّالِثة: أن هذا الاخْتبارَ ليس خاصًّا بهذه الأُمَّةِ، بل لهذا الأُمَّةِ ولغيرها مِنَ الأمم، لقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

الفَائِدة الرَّابِعة: أنَّ حقيقةَ المرءِ لا تُعرفُ إلا بامتِحانِهِ، فإذا امتُحنَ وثبتَ كان ذلكَ دَليلًا على صِدْقِهِ، وإن انْحرفَ كان ذلك دَلِيلًا على كَذبِهِ وعدمِ صدْقِهِ، كما قيل: «عندَ الامتحانِ يُكْرمُ المَرءُ أو يُهانُ».

الفَائِدةُ الخامِسة: إثباتُ العِلمِ لله عَزَّوَجَلَّ لقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾.

الفَائِدةُ السَّادِسَة: انقسامُ النَّاسِ في الإيمانِ إلى صادِقٍ وكاذِبٍ، فالصادقُ الذي يَثْبُتُ على إيمانِهِ عندَ الامْتحانِ، والكاذبُ الذي لا يَثْبتُ.

الآيــة (٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت:٤].

قولُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ (أَم) مُنقطعَةٌ؛ وهي تأتِي في اللُّغةِ العربية على قِسْمينِ: متَّصَلِةٍ ومُنقطِعَةٍ، والفرق بينهما:

١- أنَّ المتِّصلةَ بمعنى (أو).

٢- وأنها تَأتِي بعدَ هَمزة التَّسْوِية.

٣- وأنها تأتِي بينَ متَقَابِلَينِ.

فهذه ثلاث علامات لها.

فمثال المتصلة قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]، فهنا جاءتْ بمَعْنى (أو)، أي: أنَّ هَذَا وهذَا سواءٌ.

ثانيًا: أنها بعد هَمزةِ التَّسوية: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦].

ثالثًا: أنها بين متقابلين: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة:٦].

ومِنها أيضًا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم:٢١]، ولها أمثلةٌ متَعَددةٌ.

أما المنْقَطِعةُ: فهي التي تأتِي بمعنى (بَل)، وليست بمعنى (أَوْ)، ولا تقعُ بعدَ همزةِ التَّسْوية، ولا بينَ مُتَقابلينِ.

فهنا ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ بمعنى: بَلْ أحسَبُ، وهذا الإضرابُ إضرابُ انتقالٍ وليس إبْطَالًا، يعني: بعد أن ذَكَرَ الله عَزَّوَجَلَّ وأنْكَر على الذين حَسِبُوا أن يُتْركوا أن يَقُولوا: آمنَّا وهم لا يُفتَنُون، انتَقَل عَزَّوَجَلَّ إلى ذِكْر صِنفٍ آخرَ من النَّاس، وهم الذِينَ لم يقُولوا: آمنا ولم يُؤمِنوا، بل هم يَعْملونَ السيِّئاتِ، ويَظُنُّون أن الله تعالى لن يُحيطَ بهم.

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، يعني: يَعْملونَ الأعمالَ السيِّئةَ، والسيئُ: ما يسُوءُ فاعِلَهُ، وكل عَمَلٍ محرَّمٍ فإنه سَيِّئ؛ لأنه يسوءُ صاحِبَه، بِمَا يجِدُ فيه مِنَ العُقوبةِ الحاضِرَةِ والمستقْبلِيَّة.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الشِّرْك والمعَاصِي]، أفادَنَا المُفَسِّر أن السيِّئةَ هنا تَعُمُّ الصَّغائرَ والكَبائرَ، الكبائرُ: التي أعْلاهَا الشِّركُ، والصَّغائرُ: ما دُونَ الكَبائرِ، وهي المعَاصِي، فهي تشمَلُ كلَّ ما يسُوءُ فاعِلَهُ من مَعصِيةِ اللهِ تعالى في الشِّرْك فما دُونَهُ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ هذا مَفعولُ (حَسِبَ)، ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾، أي: [يَفُوتُونَا فلا نَنْتَقِمُ منهم]، والسَبْقُ: بمَعْنى الفَواتِ، كما تقول: سَبَقتُ فلانًا، يعني: فُتُّهُ لم يُدْرِكْني، فهؤلاء يَظُنُّونَ أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُدْركُهم، وأنَّ الله لا يَنْتَقم منهم، وهذا بلا شكٍّ سوءُ ظَنٍّ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولهذا قال: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، أي: ساءَ حُكْمهم هذا، وهو حُسبانُهم أن اللهَ تعالى لن يُدْرِكَهُمْ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿سَآءَ﴾ بِئسَ ﴿مَا﴾]، وبئسَ: فِعلٌ ماضٍ جامد لإنشاءِ الذَّمِّ، و﴿مَا﴾ بمعنى: الَّذي، فهِي اسمٌ مَوصُولٌ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَحْكُمُونَ﴾ ـهُ] قَدَّر المُفَسِّر الهاءَ لتكونَ عائدًا إلى الموصُولِ، أي: ساءَ الذي يحكُمونَهُ.

إذن: (الَّذِي) فاعلٌ، والمخصوصُ بالذَّم.

وقولُه: [حُكْمهُمْ هَذَا] اهـ.

هذا هو المخْصُوصُ، وكلُّ فِعْلٍ من الأفعالِ الجامِدةِ التي للذَّمِّ أو للمَدْحِ تحتاجُ إلى فاعلٍ وتحتاجُ إلى مَخصوصٍ، والمخصوصُ دَائمًا يُحذَفُ لدَلالَةِ الفاعِلِ عليه، تقول: (نِعمَ دارُ المتَّقِين الجنَّةُ)، الفاعلُ قولِنا: دارُ، والجنَّةُ هي المخْصوصُ بالمدْحِ، والجنَّةُ: فيها وجهانِ للإعرابِ:

أحَدُهُمَا: أن تجعلها مُبتدأً مُؤخَّرًا، والجملَةُ خبرٌ مُقَدَّمٌ.

والثاني: أن تجعلها خَبرًا لمبتَدَأ محذوفٍ، تَقْدِيره: هي الجنَّةُ.

أما قولَه: [نِعْمَ دارُ المتقينَ] فَهِي فِعلٌ وفاعِلٌ.

يقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِئسَ ما يَحْكُمونَ حُكمهُم هَذَا]، ولا ريبَ أن ما حَكَموا بِه وظَنُّوهُ هو ظنٌّ سَوءٍ لا يَلِيقُ بالله، فإن اللهَ تعالى يقولُ في آياتٍ كثيرَةٍ: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر:٥١]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:٤٤]، فهؤلاءِ الذين استَمَرُّوا في عَمَلِ السَّيئاتِ، وظَنُّوا أن اللهَ تعالى لا يَقْدِرُ عليهِمْ ولا يَنتَقِمُ منهم، أضَافُوا والعِياذُ باللهِ شَرًّا إلى شرِّهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدة الأُولَى: التَّهْديدُ والوَعيدُ لمنَ ظَنَّ أن اللهَ لا يَقدِرُ عليه بعَملِ السيِّئاتِ، لقَولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾.

الفَائِدة الثَّانِية: تَهديدُ عامِلِي السيِّئاتِ بأخذِ الله لهم وأنَّهم لَنْ يُعْجِزُوا اللهَ.

الفَائِدة الثَّالِثة: تَحريمُ ظَنِّ السُّوءِ بالله تعالى لقولِهِ: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

• • ۞ • •

الآيــة (٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:٥].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ يَخافُ ﴿لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ بِهِ ﴿لَآتٍ﴾، فَلْيَسْتَعِدَّ لَهُ، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأَقْوالِ العِبادِ، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بِأَفْعَالِهِمْ] اهـ.

قولُه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ﴾، قَالُ المُفَسِّر في تَفْسيرِ ﴿يَرْجُواْ﴾: [يَخافُ] وهذا صَرفٌ للَّفْظِ عن ظاهِرِه؛ لأن الرجاءَ غيرُ الخوفِ، الرجاءُ: أي: الأَمَل، وهذا هو الصوابُ، فالمعنى: ﴿يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾، أي: يأمل أن يلقى الله عَزَّوَجَلَّ راضيًا عنه ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ﴾، كما في قولِه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، وليس هناك ما يوجِبُ صرفَ اللَّفظِ عن ظَاهِرِه، بل إن المعنى: مَنْ كانَ يرْجُو لِقاءَ اللهِ وأنه يَلْقاهُ وهو راضٍ عنه، فإن الأمر لَيْسَ ببعيدٍ ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾، أي: المدَّةُ التي جعَلَها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حائلًا بينَكَ وبين لقَائه سوف تَأتِي، يعـني: سوفَ يأتي ذلك الأجلُ لا محالَةَ، ويُحتـمَلُ أن قولَهُ: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾، أي: المدَّةُ التي قَدَّرهَا للقائه، وهذا أحسنُ، فالمدَّةُ التي قدَّرهَا للقائِهِ لا بُدَّ أن تَأْتِيَ.

قولُهُ عَزَّوَجَلَّ: [﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ به]، أي: باللِّقاءِ، ﴿لَآتٍ﴾ (اللام) للتَّوكِيدِ لأنها واقـعةٌ في خبرِ (إنَّ)، وقَدْ تقـدَّم في شرحِ الألْفِيَّةِ أن محلَّها في أَوَّل الجمـلةِ،

ولكنهم أخَّروهَا لأن (إنَّ) للتوكيدِ أيضًا، فكَرِهوا أن يجتمِعَ مؤكِّدانِ متواليانِ، وزَحْلَقوا اللام إلى مكانها في الخَبَرِ.

وقوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ﴾ (آتٍ): خبرُ إنَّ لأنها اسمٌ منْقُوصٌ؛ والاسم إما منْقُوصٌ أو مقْصورٌ أو مَمْدودٌ أو صحيحُ الآخِرِ، فهنا نقولُ: لأنها منقوصةٌ، أصلُهَا: (لآتي) بالياء، فحُذِفَتِ الياءُ وعُوِّض عنها بالتنوين: ﴿لَأَتٍ﴾ وعلى هذا فنقول: (آتٍ) خَبَرُ (إنَّ) مرفوعٌ بها، وعلامة رَفْعِه ضمَّة مقدَّرة على الياءِ المحذوفةِ لالتقاءِ الساكِنَين.

﴿وَهُوَ﴾ أي: اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقْوالِ العِبادِ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفْعالِهِمْ] اهـ.

السَّمِيعُ يعني: ذا السَّمْعِ، الذي لا يَخْفَى عليه شيءٌ، كلُّ شيءٍ مِنَ المسمُوعاتِ فإنَّ الله تعالى مُدْرِكه، والسَّمْعُ ينقسم إلى قسمين:

١- سَمْعُ إدْراكٍ. ٢- سَمْعُ إجابةٍ.

فالأَوَّلُ: مثلُ قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ [المجادلة:١].

والثاني: مِثْلُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، ومثلُ قولِ المصلِّي: (سمِعَ اللهُ لمن حَمِدهُ)، فإن المعنى: أنه استَجابَ.

وسَمْعُ الإدراكِ ينْقسِمُ إلى أقسامٍ:

مِنهَا: ما يَقْتضِي التَّهديدَ.

ومنها: ما يَقْتضِي النَّصر والتأييدَ.

ومنها: ما يُقصدُ به مجرَّدُ الإدراكِ.

فمثالُ الأوَّلِ الذي للتَّهديدِ: قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١].

ومثالُ الذي للنَّصر والتَّأييدِ: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

ومثالُ المقصودِ به مجرَّدُ الإدراكِ: أي الذي يُرادُ به بيانُ أن الله عَزَّوَجَلَّ محيطٌ بالشيءِ سميعٌ له قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ [المجادلة:١].

كونُه تعالى سَمِيعًا هلْ يلْزَمُ منه إثباتُ الأُذُنِ؟

الجواب: لا يَلْزمُ، كما أن كونَه بَصِيرًا لا يلزمُ منه إثباتُ العَين، ولكن العَينَ ثَبتَتْ بدَلِيلٍ آخَرَ، ولولا أنَّ اللهَ أَثْبَتَهَا لنَفْسِهِ بدليلٍ آخر ما أَثْبَتْناهَا، فلا نقول: يلزمُ من كونِهِ سَمِيعًا أن يكونَ لَهُ أُذُن، كما لا يلزمُ من كونِه متكَلِّمًا أن يكونَ له لِسانٌ وشَفتانِ وما أشبه ذلك، فإنَّنَا نعلمُ أن الأرض تُحَدِّثُ أخبارَهَا، ولا تُحدِّثُ إلَّا بسماعٍ، وليس لها أُذُنٌ فيما نَعلم، ولا نعلمُ أن لها لِسَانًا أيضًا، فعلى هذا نقول: لا يلزمُ مِنْ إثباتِ السمعِ إثباتُ الأُذُن.

فإذا قالَ قائلٌ: ولكن ثبت في الحديث الصحيح: «مَا أَذِنَ اللهُ لَشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ»[1].

فالجواب: ما أَذِنَ له، أي: ما استَمَعَ له، وليس المعنى: ما قَدَّرَ؛ لأنه مُعَلَّقٌ بصوت، قال: «لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ»، وإلا فإنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أذِنَ للناسِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «المَاهِرُ بِالْقُرآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ»، رقم (٧١٠٥)؛ ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، رقم (٧٩٢).

من جِهةِ الإذنِ الشَّرْعِيِّ، فرخَّصَ لهم وأباحَ لهُمْ ما هو أعظمُ من هذا، فإن التَّوحيدَ وغيرَهُ مما هو أكبرُ مِن قراءةِ القُرآنِ لا شكَّ أن الله عَزَّوَجَلَّ يأْذنُ به أكثر، والحاصلُ أنه لا يَلزمُ من هذا أيضًا إثباتُ الأُذُن؛ لأنه ليسَ بصَرِيحٍ، والصفاتُ لا يُمكنُ أن نُثْبتَهَا بالاحتمالِ، فلا بُدَّ أن تكونَ المسألةُ واضِحةً وصريحةً.

وقوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِأفْعَالِهِمْ]، والحقيقَةُ أن العِلم يتعلَّقُ بالأفعالِ والأقوالِ أيضًا، فتَخْصِيصُه بالأفعالِ فيه نَظَرٌ؛ لأن الرُّؤيَةَ هي التي تَخْتَصُّ بالأفعالِ، أما العِلمُ فإنه أَعَمُّ، فهو يتعلَّقُ بالأفعالِ ويتعلَّقُ بالأقوالِ، ويتعلَّقُ بحديثِ النَّفْس ويتعلَّقُ بالجَهْرِ، وبكلِّ شيءٍ.

أما جواب ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾، فقد قدَّره المُفَسِّر بقوله: [فَلْيَسْتَعِدَّ لَهُ]، وجعلُه محذوفًا، وعِندِي أنه لا بأسَ أن نقولَ: إن جوابَ الشَّرْطِ هو قوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ﴾.

ويكون المعنى: أن الذي يرجو لقاءَ اللهِ فإنه سيَحْصُلُ له، ولا حاجةَ أن نُقَدِّر شيئًا محذوفًا؛ لأن الأصلَ عدمُ الحَذفِ، وهذا الذي قَدَّره المُفَسِّر مثل ما قدَّرَه في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة:٩٧]، فَقَدْ قدَّرَهَا المُفَسِّر بقولِه: [فَلْيَمُتْ غَيْظًا]، لكِنْ لا حاجةَ لهذا التَّقْدِيرِ.

قوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ أي: يُؤمِّل؛ لكنَّ الأملَ مبنيٌّ على المحبَّةِ، فأنت لا تؤمِّلُ الشيءَ إلا وأنتَ تُحبُّهُ، فرجاءُ الشيءِ بمعنى الأملِ في حصولِهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدة الأُولَى: طَمأنَةُ أولئكَ الذين يَرجُونَ لقاءَ الله بأنَّ ما رَجَوه سيَأْتِي.

الفائِدَتانِ الثَّانِيَةِ والثالِثَةِ: إثباتُ الجزاء، وإثبات يوم القيامة؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ﴾.

الفَائِدة الرَّابِعة: إثباتُ اسَمي (السَّميعِ، والعَليمِ) لله عَزَّوَجَلَّ.

الفَائِدة الخامِسة: إثبـاتُ ما تَضَمَّناهُ من صِفَةٍ، فالأول تَضَمَّنَ صفـةَ السَّمعِ، والثانِي تضمَّن صفةَ العِلمِ.

الآيــة (٦)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:٦].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ جِهادُ حَرْبٍ أو نَفْسٍ]، أفَادنَا المُفَسِّر من هذه العبارةِ أن الجِهادَ ينْقسمُ إلى قِسمَينِ:

- جهادِ حَرْبٍ، وذلك بجهادِ الأعداءِ.
- وجهادِ نفْسٍ، وذلك بأن تُجاهِدَ نَفْسكَ على فِعلِ الطاعاتِ وعلى تَركِ المحرَّماتِ.

والجهاد: بذلُ الجُهدِ في الشيء، والذي يجاهِدُ لا يُجاهدُ لله وإنما يعْملُ لنَفْسهِ، كقولِه تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ [فصلت:٤٦].

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾، فإنَّ مَنْفعَةَ جِهادِهِ لَهُ لَا لله]، وذلك لأنّه مأجورٌ، سـواءٌ جاهَدَ نفْسَه أو جاهدَ غيرَهُ، مع أنه إذا جـاهدَ غيرَهُ قد تكون منْفعـتُهُ أيضًا للغَيرِ، فإن هذا الغيرَ بالجهادِ رُبَّما يَدخُـلُ في دِينِ اللهِ، وحينئذٍ يحصُلُ له منْفَعَةٌ.

المُهِمُّ أن اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا ينْتفِعُ بهذا الجهادِ، ولهذا قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وهذا تَعْليلٌ لقولِه: ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾، فاللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ غَنِيٌّ عنهم،

لا ينتَفِعُ بطاعَتِهم ولا يتَضَرَّرُ بمَعْصيتِهِمْ، ومعْنَى غِنَاهُ عنهم: كونُهُ لا يحتاجُ إليهم لما عِندَهُ مِنَ الجُودِ والسَّعَةِ والتَّدبيرِ للأمورِ، فهو لا يحتَاجُ إلى العالمِينَ كُلِّهِمْ.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الإِنْسِ والجِنِّ والملائِكَةِ وعَنْ عِبَادَتِهِمْ]: فهو غَنِيٌّ عنهم لا يحتاجُ إليهِمْ، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٧]، وكذلك غَنِيٌّ عن عِبَادَتِهِمْ، لأن عِبَادَتِهم إنما تكونُ منْفَعَتُهَا لهُم، أما اللهُ عَزَّوَجَلَّ فإنه لا يَنْتَفِعُ بطاعَةِ الطَّائِعِينَ، ولا يَتَضَرَّر بمعصيةِ العاصِينَ، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾: الجُملَةُ هنا مُؤكَدةٌ بمُؤَكِّدَينِ وهما: (إنَّ) و(اللام).

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدة الأُولَى: أن الإنسانَ لا بُدَّ أن يحْصلُ له مَشقَّةٌ في القيامِ بما يجِبُ عليه؛ لأن الجهادَ معناه: بَذلُ الجهدِ لإدرَاكِ أمرٍ شاقٍّ؛ لقوله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾.

الفَائِدة الثَّانِية: أن من جاهَدَ في العَملِ الصالِحِ فإن جهادَهُ لنفْسه لا ينْتفِعُ اللهُ به؛ لقوله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾.

الفَائِدة الثَّالِثة: إثباتُ غِنى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن خَلْقه؛ لقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الفَائِدة الرَّابِعة: أن مَنْ لم يجاهِدْ فإن ضَرَرَهُ على نفْسه؛ لأنه إذا كانت منفعَةُ الجهادِ لكَ فمَضرةُ تركِه علَيك.

• • ۞ • •

الآيـة (٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٧].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ بَعَمَلِ الصَّالحاتِ، ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ﴾ بمعنى: حَسَن، ونصبُهُ بنزعِ الخافِضِ (الباء) ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وهُو: الصَّالحَاتُ] اهـ.

قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هذا في مقابِلِ ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَا﴾.

والإيمانُ كما تقَـرَّرَ كثيرًا هو التَّصديقُ مَع القَبـولِ والإذعانِ، وليـس مجردَّ التَّصديقِ، وقولُه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هذا في أعْمالِ الجوارحِ، فالإيمانُ في القَلبِ، وعَمَلُ الصالحاتِ في الجوارِحِ، والعملُ يتناولُ الفِعلَ والقَولَ، وعلى هذا ليس قَسِيمًا للقولِ كما يظنُّ بعضُ الناسِ، فيقول: قولٌ وعَمَلٌ، بل إن قسيمَ القولِ هو الفِعلُ، أما العملُ فإنه يشمَلُ القولَ ويشملُ الفِعلَ أيضًا.

فعَملُ الصالحاتِ إذن: يتنَاولُ الأفعالَ، مثلَ الرُّكوعِ، والسُّجودِ، والصلاةِ، والقيامِ والقُعودِ فيها، ويتناولُ الأقوالَ، كقِراءةِ القرآنِ، والتَّسبيحِ، والتَّحميدِ، وغيرِ ذلكَ.

وقولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: يَعني: الأعمالَ الصالحاتِ، فهي صِفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، تَقدِيرُهُ: الأعمالُ الصَّالحاتُ، والعملَ الصالحُ هو الَّذي جمعَ الإخْلاصَ والمتابَعَةَ؛ فالإخلاصُ يعْني: أن تَقْصدَ بعملِكَ وجْهَ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ والدارَ الآخِرَةَ، والمتابعةُ: أن تكونَ في ذلِك مُتَّبعًا للنَّبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وضِدُّ الأَوَّلِ الإشراكُ، وضِدُّ الثانِي البِدعَةُ، فلا تكونُ مُشْركًا ولا مُبتَدِعًا.

قولُهُ: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ﴾: الجُملةُ جوابٌ لقَسَمٍ مُقَدَّرٍ، تقدِيرُهُ: واللهِ لنُكفِّرنَّ، فهي إذْنَ مؤكَّدَةٌ بثلاثةِ مؤكِّداتٍ: القَسمِ، واللَّامِ، والنُّون.

وقولُهُ: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: التَّكفِيرُ بمَعْنى السَّتْر، ومنه الكُفْرَى: وهي القِشْرةُ التي تَستُرُ طَلْعَ النَّخلةِ، فمَعْنى: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: نَسْتُرُهَا، والمراد بالسَّتْر لازِمُهُ، وهو العَفْو.

بماذا نُكفِّرُ عنْهُمْ سيِّئاتِهِمْ؟

الجواب: بإيمانِهِمْ وعَملِهِمُ الصَّالحِ؛ لأن الإيمانَ يهدِمُ ما قَبلَهُ، والعَمَلُ يقولُ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيه: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١]، فالتَّكْفيرُ مأخوذٌ مِنَ التَّغْطِيَةِ، وتغْطِيةُ السَّيئاتِ معناهَا: إزَالتُهَا وعَدَمُ المؤاخذَةِ عليها.

وقوله: [﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ بِعَمَلِ الصَّالحَاتِ]: فأعْمالهُمْ الصَّالحةُ تكون مكفِّرةً للسيِّئاتِ، قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**الصَّلَواتُ الخَمْسُ، وَالجُمْعَةُ إِلَى الجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ، إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ**»[1]، وقالَ ﷺ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، رقم (٢٣٣).

«الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لَمَا بَيْنَهُمَا»[١]، فالأعمالُ الصَّالحَةُ تكونُ بمنزلَةِ الغُلافِ على الأعمالِ السَّيِّئةِ، حتى لا يَظهَرَ لها أثَرٌ.

وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: الجزاءُ بمَعنَى المكافَأةِ عَلَى الشيءِ، وقولُه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ هذه الجُملةُ أيضًا مؤكَّدَةٌ بثلاثَةِ مُؤكِّدَاتٍ، وهي: القَسمُ، واللَّامُ، والنُونُ.

وقولُهُ: [﴿أَحْسَنَ﴾ بمعنى حَسَن]، وكأنَّه فَرَّ من إشكالٍ قَدْ يُورَدُ، وهو: أن الآيَةَ تَدُلُّ على أنهم يُجْزَونَ أحسنَ الذي كانوا يعْملونَ، فأينَ جَزاءُ الحَسَنِ؟ لأن العَملَ الصالحَ حسَنٌ وأحسَنْ، فإذا كَانتِ الآيَةُ: ﴿أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فمعنى ذلك أن الحَسَنَ لا يُجازَون عليه، فلهذا أوَّلَ المُفَسِّر ﴿أَحْسَنَ﴾ بمعنى: حَسَن، أي: حسَنُ ما كانوا يعمَلُونَ.

ولكن نَحْنُ نَرى أنه لا حاجَةَ إلى التَّأويلِ، وأن ما دَلَّتْ عليه الآيَةُ أَوْلى مما قدَّرهُ المُفَسِّر، وهو أنَّ الله يقولُ: لنَجْزِينَّهم أحسنَ جزاءٍ، وأحسنُ جزاءٍ بيَّنَهُ الله تعالى في قَولِهِ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٦١]، فهذا الجَزاءُ أحسنُ جزاءٍ؛ لأن الجزاءَ غايتُهُ أن يكونَ مِثْلما فَعَل الفاعِلُ، لكن هنا يجازَى بأحسنَ وأعْظَمَ، وعلى هذا فيكونُ (أحسنَ) ليس مَنْصوبًا كما قال المُفَسِّر: [بِنَزْعِ الخَافِضِ البَاءِ]، بل هو مفعولٌ ثانٍ لقوله: (نَجْزِي)، والمفعولُ الأَوَّلُ هو الهاء. والنون في قولِهِ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ للتَّوكيدِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب وجوب العمرة وفضلها، رقم (١٦٨٣)؛ ومسلم: كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، رقم (١٣٤٩).

هذا هو مَعنَى الآية الكريمة، يعني: أن اللهَ وعَدَهم بأمْرين: بتكْفيرِ السَّيِّئات بالأعمالِ الصالحةِ، وبالجزاءِ على هذه الأعمالِ أحسنَ جزاءٍ يُعطَوْنه، وذلك أن تكونَ الحسنَةُ بعَشْرَةِ أمثالها إلى سَبعِمِئةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرة.

وقوله: [﴿أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهُوَ: الصَّالِحاتُ]: فهذه الأعمالُ الصالحةُ التي يَعْملُونَها يجازِيهِمْ اللهُ عَليها أحسنَ جَزاءٍ يُجازَونَ بِهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدة الأُولَى: فضيلَةُ الإيمانِ والعَملِ الصَّالحِ.

الفَائِدة الثَّانِية: أنه تُكَفَّرُ بهما السيِّئاتُ، والمراد بالسيِّئاتِ: الصَّغائرُ، لقولِه ﷺ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ**»[1]، أما الكبائرُ فلا تَدخلُ هنا لأنها لا تُكَّفر بعملِ الصالحاتِ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن جَزاءَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أفضلُ من عَملِ المؤمِنِ وأحسنُ، لقَولِهِ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

الفَائِدة الرَّابِعة: أنه لا بُدَّ في العملِ من أن يكونَ صَالحًا، والصالحُ كما تقدَّم هو ما جمعَ شَرْطين: الإخلاصَ لله عَزَّوَجَلَّ، والمتابعةَ للرَّسولِ ﷺ، فإذا لم يكنْ مُخْلَصًا فهو فاسِدٌ، وإذا لم يكن على وَجهِ الشَّريعةِ فهو أيضًا فاسدٌ، قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[2].

لو قالَ قَائلٌ: هل يُشْتَرطُ للإخلاصِ والمتابعةِ التَّصديقُ؟

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

فالجواب: الإيمانُ معنَـاه التَّصديـقُ، والإيمانُ شَرطٌ في قَبـولِ العملِ، فغيرُ المؤمن لا يُقْبَل عملُهُ، فلا بُدَّ من التَّصديقِ السابقِ على العملِ الصالِحِ، ثم الإخلاصُ لا يكونُ إلا بالتَّصْديقِ، كيف تُخلص لمن لا تُصدِّقُ به، بل كيف تَتَّبعُ من لا تُصدِّقُ به، فالإخلاصُ والمتابَعَةُ متَضَمِّنانِ التصديقَ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٨].

لما ذَكَر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُجملَ ما تَوعَّد به المخالفينَ وما وَعَد به الموافِقِينَ، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾.

الوَصيَّةُ معناها: العَهدُ بالشَّيءِ المهِمِّ، فمَعْنى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: عَهِدْنَا إليه بأمْرٍ مُهِمٍّ ليقومَ بِهِ، وقوله: ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي: أُمه وأَبيه، وقوله: ﴿حُسْنًا﴾ مَفْعولٌ لـ(وصينا)، ويُحتَمَلُ احتمالًا قَوِيًّا أن ﴿حُسْنًا﴾ منصوبٌ بنَزْعِ الخافِضِ، أي: عَهدنَا إليه بحُسْنٍ، أي: بإحسانٍ إليهما، ولا حاجَةَ إلى قولِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: إِيصَاءً ذَا حُسْنٍ]، بل إنَّ المُوصَى به هو نفْس الحُسْنِ، وليس الحُسن هنا وصْفًا للإيصاءِ، بل هو وصْفٌ للمُوصَى به.

والمؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يريدُ من هذا التَّقدِيرِ أن يكونَ الحُسْن وصْفًا لإيصاءِ اللهِ، ومعنى هذا أن يكونَ ﴿حُسْنًا﴾ وَصْفًا لمحذوفٍ، والتَّقْدِيرُ: إيصاءً حُسْنًا، وحُسْنٌ مصْدَرٌ، وإذا كانت مَصْدرًا فإنه يجبُ أن يُقَدَّرَ لها مُضافٌ وهو: ذا حُسْن؛ هكذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والصَّوابُ: أنه وصْفٌ للمُوصَى به، أي: وصَّيْناه بأمرٍ ذِي إحسانٍ، كما قال

تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف:١٥].

وقال المُفَسِّر: [بِأَنْ يَبَرَّهُمَا]. البِرُّ: هو الإحسانُ دُونَ مقابِلٍ، فيُحسنُ إليهما بالقَولِ وبالفعلِ وبالمالِ، والمالُ في الحقيقةِ مِنَ الفِعلِ، فيَحْسُنُ إليهما بالقولِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:٢٣]، وبالفِعلِ؛ لقولِه: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤]، وبالمالِ؛ لقوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ﴾ [الإسراء:٢٦].

مثالُهُ: إذا كانَ الإنسانُ يحْسِنُ إلى والِدَيهِ بالمالِ ولا يجعَلْ لهما حاجَةً أبدًا، وقد أَغْرَقهُما بالمالِ إغراقًا، لكنَّه مُجْنِفٌ عنهما من قِبَلِ الكَلامِ، شَكسٌ عليهما، عبوسٌ في وجْههما؛ فإن هذا ليس بِبارٍّ لوالِدَيْهِ، كذلك لو كان ضَحُوكًا إليهما، وليِّنًا معهما بالقولِ، مُغدقًا لهما بالمال، لكن لا يخْدُمُهُما بنَفسِهِ إذا دعَتِ الحاجَةُ إلى ذلك؛ فإنه ليس بِبَارٍّ، فالبِرُّ لا بد أن يكونَ بالقَولِ والفِعْلِ والمالِ.

قوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ أي: بَذَلا جُهْدهما، والجهادُ هُنا مَعْناه: الإلزامُ والإرْغامُ والإحْراجُ، فجَاهَداكَ على أن تُشْرِكَ بِي، بأنْ أمرَاك بالشركِ وبَذَلا الجَهْدَ في ذلك، بالإلزامِ عليك والإحْراجِ، تارةً بمدحِ الشِّركِ، وتارة بذَمِّ التَّوحيد، وتارةً بالإلزامِ والإرْغامِ، وتارة بالتَّوَعُّدِ بالقَطِيعة؛ فإذا جاهداك على هذا، يقول الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾؛ لأن حقَّ الخالِقِ مُقدَّمٌ على حقِّ المخلوقِ، والإشراكُ بالله ظُلم حقِّ الخالق، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، فلا يجوزُ أن تُفَرِّطَ في حقِّ اللهِ مِن أجلِ حقِّ هؤلاءِ.

وقوله: ﴿جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ هِي مِثْلُ قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ﴾ [لقمان:١٥].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ﴾ بِإِشْرَاكِهِ ﴿عِلْمٌ﴾ مُوَافَقَةٌ لِلْواقِعِ فَلَا مَفْهومَ لَهُ] اهـ.

نَنظُرُ إلى الآية، يقولُ الله تعالى: ﴿لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، فهلْ يقولُ قائلٌ: فإنْ جاهدَاكَ على أن تُشرِكَ بي ما لَكَ به عِلْمٌ فأطِعْهُما؟

الجواب: لو أخَذْنَا بظاهِرِ الآية لقُلنَا: إنها تَدُلُّ على أن الإشراكَ بالله ينقسمُ إلى قِسمين: إشراكٌ ليس بِه عِلمٌ، وإشراك به عِلْمٌ، فالإشراكُ الذي بِهِ عِلمٌ يجوزُ، والإشراكُ الذي ليسَ به عِلْم لا يجوزُ، قلنا: لَيسَ الأمرَ كذَلِكَ، ولكنَّ هذا بيانٌ للواقِعِ أن كُلَّ شركٍ بالله فإنه لا عِلْمَ به عندَ الإنسان، قال الله تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف:٣٣]، ومَعلومٌ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما جَعل شِركًا فيه سُلطانٌ، فكُلُّ الشركِ ليس فيه سُلطانٌ، بل إن الشِّرْكَ قد قامَ السلطانُ والعِلْمُ الصحيحُ على أنه باطل، فصَارَ قوله: ﴿لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ معناه: أنه موافِقٌ للواقِعِ، فيكونُ كالتَّعْليلِ لتَحْريمِ الشِّركِ، كأنه يقول: على أن تُشركَ بي والحالُ أن الشركَ ليس لك به عِلْم، فإن الشِّركَ قطعًا لا يمكن أن يقومَ الدَّلِيلُ على وجودِهِ، بل إن الدَّلِيلَ الصحيحَ على انتِفَائِهِ، فإن الله تعالى لا شريكَ لَهُ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ فِي الإِشْرَاكِ]: يعْني لو قال الوالدُ والوالِدةُ مثلًا: إذا لم تُشْركْ فإننا نُقاطِعْكَ ولا نُكلِّمْك ولا نَأتي إلى بيتِكِ، فلا تُطِعْهما مهما كان الأَمْرُ؛ لأن هذا هو مَعنى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ معناهُ: ولا تَظُنَّ أنك بمَعصِيَتِكَ لهما يلْحَقُكَ إثمٌ، فإن مَرْجِعَكما إليَّ يومِ القيامَةِ فأنبِّئكم بما كنتم تَعمَلونَ، والمرادُ بالإنْباءِ هُنا لازِمُه، وهو المعاقَبَةُ والمؤاخَذَةُ، فأنتَ بقيتَ على التَّوحيدِ

فتُجازِى جزاءَ الموحِّد، وهما بَقِيا على الشِّركِ فيُجازَيان جزاءَ المشْرِكِ، بل أبلغُ من ذَلكَ يجازَيانَ جزاء المشركِ الدَّاعِي إلى الشِّركِ؛ لأنهما ما جاهَدَاهُ على الإشراكِ إلا وهما مُقِيمانِ عليه ومُصَرَّانِ عليه، فيكونُ عليهما عُقوبتانِ:

إحداهما: عُقوبَةُ إشراكِهِما.

والثانية: عقوبةٌ على دَعْوتِهما إلى الشِّركِ بل ليس دَعوةٌ فقط، وإنَّما مجاهَدَةٌ للولَدِ على أن يُشركَ.

قوله: ﴿إِلَىَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ يعني: أنتَ وهُما، ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾: أُخْبركُم، والمراد بالإخْبارِ لازِمُهُ، ولهذا قال المُفَسِّر: [فَأُجَازِيكُمْ بِهِ].

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: وجوبُ الإحسانِ إلى الوالِدَيْنِ بالقَولِ والفِعل والمالِ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: إثباتُ رَحْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حيثُ وَصَّى الإنسانُ بوَالِدَيْهِ.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: أن للوالِدَين حقًّا وإن كانَا كافِرَينِ، لقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآ﴾ فهُما مُشركانِ ويجاهِدَانِهِ أيضًا بأنْ يُشْرِكَ، ومع ذلكَ أوْجبَ اللهُ لهما الإحسانَ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: أنه لا طاعَةَ لمخْلوقٍ في مَعْصِية الخالِقِ لقوله: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَآ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسة: وجوبُ طاعتِهما في غيرِ المعْصيةِ إذا كان ذلك مِنَ الإحسانِ إليهما؛ لأنه إنما نُهي عن طاعَتِهمَا في المعصِيَةِ، وهنا يقال: نُهِيَ المرءُ عن طاعَةِ الوالِدَيْنِ في الشِّرْكِ وسكتَ عن طاعَتِهما في غيرِ الشِّرْكِ، يعني: نهى عن طاعَتهما في المعْصِيَةِ وسَكَتَ عن طاعَتهما في غيرِ المعْصِيَةِ، وطاعتهما في الواجبِ واجِبَةٌ؛ لأن الله أوْجَبَهَا.

مثاله: إذا قالَ والِدُكَ لك: قُمْ صَلِّ مع الجماعَةِ، وجبَ عليكَ أن تُصَلِّيَ، أما طَاعتُهُما فيما ليس بطاعَةٍ ولا معصيةٍ فنقول: إن كانَ في طاعَتِهما إحسانٌ إليهما فإنَّ الآية تدلُّ على الوُجوبِ، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة:٨٣]، فإن لم يكنْ في طاعَتِهما إحسانٌ إليهما فالآية لا تدلُّ على الوُجوبِ، ولهذا قال شيخُ الإسلامِ: «إنَّ طاعَةَ الوالِدَينِ إنما تَجبُ فيما لهما فيه مَنْفَعَةٌ وليس عليه فِيهِ مَضَرَّةٌ»[1].

والآيَةُ تَدُلُّ على ما قالَهُ الشَّيخُ؛ لأنَّ اللهَ نَهَى عنْ طاعَتِهما في المعْصيةِ، وسكتَ عن طاعَتِهما في غيرِ المعْصيةِ، فننظرُ: إن كانَتْ طاعَتهما في غيرِ المعصِيَةِ تَتَضَمَّنُ الإحسانَ إليهما فَهِي واجِبَةٌ، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة:٨٣]، مثاله: إذا أمَركَ أبوكَ أن تذهبَ وتشتَرِيَ مِنَ السُّوق حاجَةً، كان ذلِكَ واجبًا عليك لأنه من الإحسانِ إليه، فيَجِبُ عليكَ أن تفعلَ، وإذا أمَرَكَ أبوك ألَّا تُصاحِب فلانًا لأنه مُستقِيمٌ، فلا يجبُ عليكَ ذلك؛ لأن في ذَلكَ مَضَرَّةً، أو على الأقل فَوات منْفعةٍ لك، وليس فيه منْفعَةٌ لَهُ.

وإذا قال: لا تُصاحِبْ فلانًا؛ لأن فلانًا بينه وبين أبيكَ عَدَاوةً شخصيةً وأنت ليس عليك مَضَرَّةٌ وليس لك مَنفعَةٌ من مصاحَبَتِهِ فإنه تجِبُ طاعَتُهُ؛ لأن مصاحبتَكَ لعَدُوِّ أبيكَ يَغيظُ أباكَ، فيكون بذلك منْفَعَةً.

ولو قال لك أبوكَ: لا تَحُجَّ هذا العام، وأنت قادِرٌ على الحجِّ بمالك وبدَنِك ولم تؤدِ الفَريضةَ فلا تُطِعْه؛ لأنه يجبُ عليك أن تَحُجَّ ولو كان لا يَرْضَى بذلِكَ.

فإن قيلَ: إن في تَركِ الحجِّ حصولَ منْفعةٍ للأب، وهي خِدمتُهُ عند الحاجَةِ، فهنا ينظر: فإن كانَ لا يقومُ مقامَكَ أَحدٌ وهو مُضطَرٌّ إليك فالحجُّ يَسقُطُ في هذه الحال،

(١) الفتاوى الكبرى (٥/ ٣٨١).

أما إذا كان الحجُّ نَفْلًا، والأب ليس له مَصلَحةٌ في بقاءِ الابن، ولكنه يقولُ: الحُجَّاجُ كثيرون في هذه السَّنَةِ، فلا تَجِبُ طاعَتُهُ ولكن تجوزُ، وإذا قلنا: تجوزُ ولا تَجِبُ، فحينئذٍ ينْبَغي للإنسانِ أن يَنْظرَ ماذا يَتَرتَّبُ على سَفَرِهِ، فقد يكونُ الوالدُ لا يستطيعُ أن يستَقِرَّ وولَدَهُ قد سافَرَ إلى هذا الجمع الكثير، ويبْقى قَلِقًا مُدَّة غيابِ ولده، فهنا تترجَّحُ الطاعَةُ وعدمُ السَّفرِ، أما إذا عَلِمنا أنه لا يُبالي ولكنه من بابِ المشُورةِ ولن يتَأَثَّر، فحينئذٍ لا تجبُ طاعَتُهُ في هذا الأمر، إلا أنه يَنْبَغي المدَارَاةُ ما أمكنَ في هذا الباب.

وإذا قال: طَلِّقْ زوجتَك، فلا يجبُ عليك أن تُجيبَهُ، إلا إذا كان في ذلك مصْلحةٌ شرْعِيَّة، مثلُ أن يكونَ الأبُ اطلَّعَ على أمْرٍ لا يتَحَمَّلُ أن تَبْقى زوجتك معك مِنْ أجله، أما إن كان بينَهُما عدَاوةٌ شَخْصية فلا يجبُ على الابنِ تَركُ زَوجتِهِ، لكن في مثلِ هذا تستَطِيعُ أن تُدَارِيهِ بنَقْلِهَا إلى مكان آخر فيستَريحُ هو وهِي.

وأما فِعْلُ ابنِ عُمرَ مع أبيه، فهذا أُورِدَ على الإمامِ أحمدَ لما سألَهُ رجل أن أبَّاه أمَرَهُ أن يُطلِّقَ زوْجتَهُ، قال: لا تُطَلِّقْهَا، قال: أليس عُمَرُ أمرَ ابنَ عمرَ أن يطلِّقَ زوجته، فأمَره النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بتَطْليقِهَا؟ قال: نعم، حَصَلَ هذا، ولكن: هَل أبوكَ عُمَرُ؟ (١)

والجواب: لا. ليس هو عُمَرُ.

إذن الآية الكريمةُ تدلُ على تحريمِ طاعتِهما في المعْصِيَةِ، وسكَتَتْ عن طاعتِهما في غيرِ المعْصيةِ، وعلى هذا فلا تجِبُ طاعتُهُما إلا إذا كانَ دَاخِلًا في أوَّلِ الآية بأن كانَ في ذلكِ إحسانٌ إليهما، فتكونُ واجِبةً لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف:١٥].

---

(١) طبقات الحنابلة (١/ ١٧١).

والحاصلُ أن القاعدةَ في طاعَةِ الوالِدَينِ: ألا تكونَ في مَعْصِيةِ الله، وأن تكونَ مِنَ الإحسانِ إليهما، وألا يكونُ عليه ضَرَرٌ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: أن حَقَّ اللهِ أعظمُ من جَميعِ الحقوقِ، ويدْخُلُ في ذلك حقُّ نَبيِّهِ ﷺ، فحَقُّ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عليك أعْظَمُ مِنْ حقِّ والِدَيكَ.

الفَائِدةُ السَّابِعة: أن الإشراكَ باللهِ لا يمكنُ أن يقومَ عليه دَلِيل، والأدِّلَةُ كلُّها على بُطلانِهِ.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: إثباتُ البَعثِ والرُّجوعِ إلى الله لقولِهِ: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.

الفَائِدةُ التَّاسِعةُ: أن الإنسانَ مُجازَى بعَملِهِ لقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الفَائِدةُ الْعاشِرَةُ: إثباتُ عِلمِ اللهِ؛ لأنَّ الإنباءَ هو الإخْبارُ، ولا يكونُ الإخْبارُ إلا عَنْ عِلْمٍ.

الآيــة (٩)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:٩].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ فيما سبَقَ أن الَّذينَ آمنُوا وعمِلوا الصالحات يكفِّر اللهُ عنهم سيِّئاتِهِمْ ويَجزِيهِمْ أحسنَ الذي كانوا يعْملُون، وذَكَر هنا جَزاءً آخر: وهو أنه يُدخِلُهم في الصَّالحينَ فيُحشَرُون معهم، و(اللام) في قولِهِ: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ﴾ موطئةٌ للقَسَمِ، و(النون) للتَّوكيدِ، فالجملة مُؤَكَدةٌ بثلاثَة مؤكِّدَاتٍ كما تقدم.

قولُهُ: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هم صالحونَ، ولكنَّ المرادَ بالصَّالحينَ الذين سبقُوهم ودَلُّوهم إلى الخَيرِ، وهمُ الأنبياءُ، والأنبياءُ بلا شكٍّ مِنَ الصَّالحينَ، فقد كان الأنبياءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يُقَابِلُون النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في المعراجِ ويَقولون: «**مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ**»[1]، فوصَفُوهُ بالصَّلاحِ، وكذلك أيضًا في سُورةِ الأنْبياءِ قَالَ: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء:٨٦]، ولا شَكَّ أنَّ أخصَّ الناسِ بوصفِ الصَّلاحِ هُم الأنبياءِ؛ لأنهم صالحُونَ مُصْلِحون عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء؟ رقم (٣٤٢)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، رقم (١٦٤).

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الأَنْبياءُ وَالأَوْلياءُ بِأَنْ نَحْشُرَهُمْ مَعَهُمْ].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَالأَوْلِياءُ] فيه نَظَرٌ؛ لأنَّ الذِينَ آمنُوا وعَمِلوا الصالحاتِ هُمُ الأولياءُ، قالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة:٥٥]، فعَلَى هذا يكونُ إدخالُهم في الصَّالحينِ كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّهم يومَ القيامَةِ يُحْشَرُون مع الأنبياءِ، وليس معْناهُ أنهم يُلْحقُون بدَرَجتِهم، فالأنْبياءُ أعْلى منْهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]، والنَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ معه اللِّوَاءُ يُحْشَرُ في زُمْرتِهِ كُلُّ من آمَنَ بِهش.

لو قالَ قائِلٌ: إن قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩]، يؤيدُ قَولَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المرادَ بالصَّالحينَ الأولياءُ والأنبياءُ؟

الجواب: هذه الآيةُ لا تُؤيِّد قولَ المُفَسِّر، بل قولُه فيه نَظرٌ كما سبق؛ لأن هؤلاء المذكورينِ هُمْ أولياءُ، ولم يَذْكرِ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ أربعةَ أصنافٍ، بل ذَكَر صِنْفًا واحدًا فقط وهم الصَّالحونَ؛ أي: الأنبياءُ وإن كانَتِ الأصنافُ أربعةٌ، أعني: أصنَافَ الَّذينَ أنْعمَ الله عليهم وهُمُ النَّبِيُّونَ، ويدخلُ فيهمُ الرُّسُلُ والصِّدِّيقونَ والشُّهداءُ والصَّالحونَ، والصَّالحونَ عامٌّ يشْمَلُ عُمومَ المؤمنينَ، لكِنِ اعلَمْ أن كُلَّ صالحٍ فهو وَلِيٌّ؛ لأن الوِلايَةَ أَعَمُّ، حتى الأنبياءُ مِنَ الأولياءِ بالمعْنَى العام.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: فضيلَةُ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أنَّ الإيمانَ والعملَ الصالِحَ يُتَوَصَّلُ بهما إلى اللُّحوقِ بالصالحينَ، لقولِهِ تعالى: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن الإيمانَ وحْده لا يكْفي في اللُّحوقِ بالصَّالِحِينَ.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: أن العَملَ لا ينْفَعُ إلا إذا كانَ صَالحًا، وهو مَا جمعَ شَرْطَيْنِ: الإخلاصَ والمتابَعَةَ، لقولِه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

• ● ❁ ● •

الآيــة (١٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٠].

قولُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (مِنْ) هذه للتَّبْعيضِ، والجارُّ والمجرورُ خبرٌ مُقدَّمٌ.

وقولُهُ: ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ (مَنْ) مبتدأٌ مُؤخَّر معناه: أنه يقولُهُ بلِسانِهِ، ولكنَّه لم يرْسَخِ الإيمانُ في قلْبه، ولهذا فإذا أُوذِيَ في الله جعلَ فِتنةَ الناس كعذابِ اللهِ، فهو يقولُ بلسانه: آمنَّا باللهِ.

قولُهُ: [﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أَذَاهُمْ لَهُ ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الخوفِ منه فيُطِيعُهُمْ فيُنَافِقُ] اهـ.

قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ شَرْطٌ، و﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ الجوابُ، وإيذَاءُ المؤمنِ من غيرِهِ فِتْنَةٌ يُختَبرُ بها المرءُ، فإن بعضَ النَّاس إذا كان مؤمنًا وحصلَ لَهُ أَذِيَّةٌ لم يصْبِرْ وارْتَدَّ، نسألُ الله العافية، وبعضُ الناسِ في إيمانِهِ قُوَّةٌ لو أُوذِيَ صَبَرَ وازدادَ قوَّةً في إيمانِهِ، لكن هذا الذي قال: آمنا باللهِ لكنْ ليس عِندَهُ إيمانٌ راسخٌ في القلْب؛ لأنه إذا أُوذِي في اللهِ ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الخوفِ منْهُ، فيرتَدَّ بسببِ هذا الإيذاءِ ويقول: هذه عُقوبة، فأنا أرْجِعُ عما أنا عليه، وحينئذٍ يُنافِقُ، ولكنه مع هذا

يَدَّعِي أنه مُؤمنٌ، ومتى تكونُ دَعْواهُ هذه؟

الجوابُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ﴾.

﴿وَلَئِن﴾ يَقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(اللَّامُ) لَامُ القَسَمِ] اهـ.

و(إن): شَرْطِيَّةٌ، و﴿جَآءَ﴾: فِعْلُ الشرْطِ، وجملة ﴿لَيَقُولُنَّ﴾: جوابُ القسَم، فاجتَمعَ قسَمٌ وشرْطٌ، وابنُ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلتَزَمْ[1]

فهنا الذي أُخِّر الشرطُ، فحُذف جوابُه لدلالَةِ جوابِ القَسمِ عليه.

قَال المُفَسِّر: [﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ﴾ لِلْمُؤمِنِينَ ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ فَغَنِمُوا ﴿لَيَقُولُنَّ﴾]: هؤلاءِ جماعَة، فعادَ الضَّميرُ على ﴿مَن﴾ مجموعًا في قولِهِ تعالى: ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ باعتِبَارِ المعْنى، وعادَ الضَّميرُ مُفْردًا في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَن يَقُولُ﴾ ولم يَقُل: [مَن يَقولونَ] باعتبارِ اللَّفْظِ.

وأنه إذا جاءَ الاسمُ الموصولُ أو اسمُ الشَّرطِ العام للواحدِ والجماعةِ، فإنه يجوزُ في ضَميرِهِ أن يكونَ مجمْوعًا وأن يكون مُفْردًا، يعني: أن يُرَاعَى فِيهِ اللفظُ أو المعْنَى، فإن رُوعِيَ اللفظ صارَ مُفردًا، وإن رُوعِي المعْنى صارَ بحسبِ ما يُرادُ به في المعنى، وسَواءٌ كان ذلك في أسماءِ الشَّرطِ أو في الأسماءِ الموصُولَةِ.

مثالُه في الاسمِ الموصُولِ: هذه الآية.

ومثالُهُ في أسماءِ الشَّرطِ: قولُهُ تعالى في سورةِ الطَّلاقِ: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ

(١) الألفية البيت رقم (٧٠٦).

صَٰلِحًا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ هنا رَاعَى اللَّفْظَ، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ هنا راعَى المعْنَى، ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ [الطلاق:١١]، هنا رَاعَى اللفظَ، ففي هذه الآيةِ مراعاةُ اللَّفظِ، ثم مُراعاةُ المعْنى، ثم مُراعاةُ اللَّفْظ مرَّة ثانِيةً.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَيَقُولُنَّ﴾ حُذِفَتْ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ لتَوالِي النُّوناتِ، والوُاوُ ضَميرُ الجمعِ لالْتقاءِ السَّاكِنينِ]: وبَقِيَت الضَّمة في قولِه: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ دَالَّة على الواوِ المحْذُوفةِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ﴾ فِي الإيمانِ فأَشْرِكُونا فِي الغَنِيمَةِ]: هؤلاءُ إذَا أُوذُوا في اللهِ ارتَدُّوا على أدْبارِهم ووافَقُوا مَن آذاهُمْ، ولكنهم إذا أصابَ المؤْمنينَ نَصرٌ قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ﴾ يعني: فنُريدُ أن يحصُل لنا ما حصَل لكُم مِنَ الغَنِيمة، قال الله تعالى رَدًّا عليهم: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الجوابُ: بَلَى.

قَال المُفَسِّر: [﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ﴾ أَيْ: بعَالِمٍ]: وسبقَ أن قولَهُ لا يُعتبرُ تَفسيرًا ولكنَّه تحريفٌ؛ لأن (أعلَمَ) أبلغُ مِنْ (عالم)، فكيف يُرَدُّهَا إلى عالمٍ وهو أنقَصُ.

قوله: ﴿بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ المرادُ بما في صُدُورهم: أي قُلوبِهم، يعني: أعلمَ بقُلوبِ النَّاسِ؛ لأن القلْبَ محلُّه الصدْرُ، والقلبُ مَحِلُّ الإرادَةِ، وفي هذا دليلٌ على أن مَحِلَّ التَّصديقِ والتَّدْبيرِ هو القلبُ.

وقولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَلَى]: أي: الجوابُ: بَلَى، وعلى هذا فنَقُولُ لهذا الذي قال: إني معكم؛ نقولُ لست معهم في الحقيقةِ، وذلك لأنَّك كافِرٌ بالله عَزَّوَجَلَّ حينما ارْتَدَدتَ عندما أُوذِيتَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أنَّ الإيمانَ باللِّسانِ فقط لا ينْفَعُ.

الفَائِدة الثَّانِية: حِكمةُ الله تعالى في ابتِلاءِ المرءِ بإيذاءِ الناسِ له في إيمانِهِ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن الابتلاءَ هو المحَكُّ الذي يتَبَيَّنَ به الصادِقُ من غيرِهِ، وإلا لكانَ كُلُّ الناسِ يقول: أنا مؤمنٌ.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: أن من لم يَرْسُخِ الإيمان في قلْبه رجعَ عنه إذا أُوذِيَ فيه.

الفَائِدةُ الخامِسُة: أن المنافِقِينَ يدَّعونَ مشاركَةَ المؤمنينَ عندَ الرَّخاءِ عُمومًا والغَلَبةِ من بابِ أَوْلى، ويُفارِقُونهُمْ في الشدائدِ.

الفَائِدةُ السَّادسَةُ: أن النَّصر مِن عندِ اللهِ.

الفَائِدةُ السَّابِعةُ: التحذيرُ مِن النفاقِ، لقولِه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الآيــة (١١)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت:١١].

قولُه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: في المستَقبلِ، لأن المضارِعَ إذا دَخلَت عليه نونُ التوكيدِ جعلتْه للمستقْبَلِ، والجملَةُ مؤكَّدَةٌ بثلاثةِ مؤكِّدَاتٍ، وهي: القَسَمُ، واللامُ، ونُونُ التوكيد، والمرادُ بالعِلْمِ: الذي أكدَّهُ الله هنا وجعله مستقبلًا: عِلمُ المشاهدةِ والمجازَاةِ؛ لأنَّ الله تعالى عالمٌ بالمنافِقِ وبالمؤمِنِ من قَبلِ ذلكَ.

لكنَّ أوَّلًا: إن عِلمَهُ السابقُ علم بأن هذا سيقَعُ، وعِلمُه اللاحقُ عِلم بأنه واقعٌ، هذا الأول.

ثانيًا: عِلْمُه السابقُ لا يترتبُ عليه مجازَاةٌ، إذ لا مجازَاةَ إلا بعدَ الاختبارِ، وعِلمُه اللاحق يترَتَّبُ عليه مجازاةٌ.

إذنْ: كلما رَأينا اللهَ تعالى عبَّر في القرآنِ عن عِلْمِه بالمستقبل، فإننا نَحْملُه على عِلمِ المشاهَدَةِ والمجازَاةِ، وليس على العِلمِ السابِقِ في الأزلِ؛ لأن العِلمَ السابقَ في الأزَلِ ثابتٌ قبلَ أن يُخلَقَ الناسُ، فَضْلًا عن كونِه قبلَ أن يَعمَلُوا، ولكنَّ العلمَ الذي يترتبُ عليه المجازاةُ والمشاهدةُ ما كان بعدَ ذلك ووَقَع، وقد تقدم ذلك.

قَال المُفَسِّر: [﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بِقُلوبِهِمْ]: يعني: لا بألْسِنَتِهِمْ،

وأما الإيمانُ الذي تقدَّمَ ذِكرُه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ هذا إيمانٌ باللِّسانِ لا ينْفَعُهُم عندَ الله، صحيحٌ أنه ينْفَعُ في الدنيا، ولهذا لم يَقْتُلِ النبيُّ ﷺ المنافِقينَ مع عِلمِه بهم، لكنه امتَنَعَ عن ذلك لأن ظاهِرُهم الإسلامَ، ولو أنه قتَلَهم لكان في ذلك وسيلةٌ إلى أن يُقْتَلَ المسلم بحُجَّةِ أنه منافِقٌ، مع أن ما في قَلبِهِ لا يعْلمُهُ إلا الله، ولهذا قالَ الرسولُ ﷺ: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»(١).

والحمدُ لله أن هذا هو الشَّرْعُ؛ لأنه لو كانَ الأمرُ خلافَ ذلك لاستطاعَ أيُّ ظالمٍ إذا رأى شخصًا مُتَدَيِّنًا أن يقول: إنه منافِقٌ ومُراءٍ وكافرٌ في الباطنِ، ثم يقْتُله، ولكن من نِعمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن الشَّرع جعلَ الحُكم في هذه الدُّنيا على الظواهِرِ، أما في الآخرة فعَلَى السَّرائرِ.

قَال المُفَسِّر: [﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فَيُجَازِي الفَرِيقَيْنِ]: المؤمنُ يجَازِيهِ جزاءَ المؤمِنِ، والمنافقُ يُجازِيه جزاءَ المنافِقِ، وجزاءُ المنافِقِ أنه في الدَّرْكِ الأسفلِ مِنَ النار، والعياذُ باللهِ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَ(اللامُ) فِي الفِعْلينِ لامُ قَسمٍ]: والفِعلانِ هُما (لَيَعْلَمَنَّ) الأول، والثاني، في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، فالجُملة مُؤكَّدَةٌ بثلاثَةِ مؤكِّدَاتٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، رقم (٤٦٢٢)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا، رقم (٢٥٨٤).

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن الحكمةَ مِنَ الامتحانِ إظهارُ المؤمنِ مِنَ المنَافق.

الفَائِدةُ الثَّانِيةُ: إثباتُ النِّفَاقِ، لقولِهِ: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

الفَائِدة الثَّالِثة: أن المنافِقِينَ ليسوا بمُؤمِنِينَ؛ لأنه خلافُهُ.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: إثباتُ عِلمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما في القُلوبِ.

الفَائِدةُ الخامِسةُ: أن الإيمانَ مَحَلُّهُ القلبُ وليس الجوارحَ، إذ لو كان مَحَلُّهُ الجوارحُ لكان المنافقونَ مُؤمنينَ.

الآيــة (١٢،١٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت:١٢-١٣].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ دَينَنَا]: يعني: طَريقَنَا، فالسَّبيلِ بمعنى الطَّريقِ، وهذه دعوةٌ إلى الباطلِ، يقولُ الكُفَّارُ للمؤمنين الذين آمنوا بالرَّسُولِ ﷺ: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ أي: طَريقَنَا، وهو الشِّرْكُ.

قوله: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ (اللامُ) لامُ الأمْرِ، والمرادُ به الخبرُ، يعني: ونحن نَحْمِلُ خطَاياكُمْ، وإنما جَعُلوا الخبرَ بصِيغةِ الأمرِ لإظْهارِ التزامِ الكافِرينَ للمؤمنينَ بذلك، يعني: بَدَل أن يقولوا: (ونَحْنُ نحْمِلُ)، كأنهم يقولون: ونحنُ نُلزمُ أنفسنا بذلك، فنُوَجِّهُ الأمرَ إليها.

وقوله: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ الخَطَايا: جمعُ خَطِيئَةٍ، وهي ارْتكابُ الإثمِ، يعني: أن ارْتِكَابِكم الإثمَ نحن نَتَحَمَّلُهُ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ في اتِّبَاعِنَا إن كانَتْ، والأَمْرُ بمَعْنَى الخَبرِ]: [إن كانت]، إنما قدَّرَهَا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لأن هؤلاءِ المشْرِكينَ الذين دَعَوْا إلى متَابَعَتهم لا يعتَقِدونَ أنهم على خَطَأ، فهم يقولونَ للمؤمنين: اتَّبِعُوا سَبِيلنَا، وإن كان

لكُمُ خطايا بهذا الاتِّبَاع فإننا نتَحَمَّلها، فالتَّقدِيرُ الذي ذكَرَهُ المُفَسِّر واضحٌ مِنَ الآية؛ لأنهم لو كانوا يَعتَقِدُونَ أنهم إذا دخَلُوا في الشِّرك كانوا مُخطِئِينَ لَمَّا دَعَوا إلى الشِّركِ، فتَضَمَّن هذا الكلامُ دَعوةً ودِعايةً، الدعوةُ في قُلوبِهِمْ: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ والدِّعايَةُ: بتَزْيِينَ هذا الأمرِ لهم في قَولِهِمْ: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ يَعْنِي: لا شَيءَ عليكُمْ.

قال اللهُ تعالى مُكَذِّبًا لما ادَّعُوهُ: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ﴾ (ما) نافية، وهي هنا حِجازِيَّةٌ، ودخلتِ الباءُ في خَبَرِهَا على حَدِّ قولِ ابنِ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ألفيته[1]:

وَبَعْـدَ (مَا) وَ(لَيْسَ) جَرَّ البَـا الخَـبَرْ .....

فهُنَا بعدَ (ما) أَتَى بـ(الباءِ) الزائدةِ إعْرابًا لتأكِيدِ النَّفْي، أي: أن هَذَا الأمرَ مؤكَّدٌ.

قولُه: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ (من): حرفُ جَرٍّ زائدٍ، وفائدةُ الزِّيادة تأكيدُ العُموم، سواء كانَ هذا الشَّيءُ قَليلًا أو كثيرًا، أما قوله: ﴿مِنْ خَطَٰيَٰهُم﴾ الجارُّ والمجْرُورُ في موضعِ نَصْبٍ على الحالِ مِنْ ﴿شَيْءٍ﴾؛ لأن الوَصْفَ إذا سبَقَ النَّكِرَةَ صارَ حالًا منها، وإن تأَخَّرَ صارَ نَعتًا.

وقولُه: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ما هُمْ حامِلُون شيئًا مِنْ خطاياهُمْ. وهل هذا خبرٌ عن حكمٍ شَرْعِيٍّ، أو عن حُكمٍ شرْعِيٍّ قَدَرِيٍّ؟

أما كونـه حُكمًا شَرْعِيًّا فلا يمكنُ أن يحْمِلَ هؤلاء مِن خطَايا هـؤلاءِ شيئًا، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤].

---

(١) البيت رقم (١٦١).

وأما كونُهُ خَبرًا عن حُكمٍ قَدَرِيٍّ فلا يمكن أيضًا، لأن هؤلاءَ لو قالوا لهم: نَحمِلُ خطَاياكُمْ فإنهم كاذِبونَ في ذلك، لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة:١٦٦]، فكأنَّ اللهَ تعالى يُكَذِّبهم في ذلك، ويقول: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ﴾، أي: أنَّهمُ لا يَصْدقُون فيما قالُوا.

فصارتِ الآيةُ متَضَمِّنَةً للنَّفْي حُكمًا شَرْعيًّا وللنَّفْيِ حُكمًا واقِعيًّا، فهم في الشَّرْعِ لا يحملونَ أوْزَارَهُمْ، وهم في الواقعِ لا يحْمِلُونَ أوزَارِهم أيضًا، ولو قالوا ما صَدَقُوا ولكن يريدون أن يخْدَعُوهم ويُغْروهُمْ.

ولهذا قال: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: كاذِبُونَ في قولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، ولو قالوا ما صَدَقُوا، كما أنه بالنِّسْبَة إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا يُمكِنُ أن يُحَمِّل أوزارَ هؤلاءِ لهؤلاءِ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤].

ولما كانَ قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ قد يُوهِمُ أنهم لن يَحْملُوا شيئًا مِنْ أوْزارِهِمْ، أي: لن يحْمِل الدعاةُ شيئًا من أوْزَارِ المدْعُوِّين، قال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ﴾: الفاعلُ هم الدُّعاةُ، وهذه الجملةُ مؤَكَّدَةٌ بالقَسَمِ واللامِ والنُّونِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَثْقَالَهُمْ﴾ أَوْزارَهُم]: يعْنِي: عُقُوبَةَ الذُّنوبِ، وسُمِّيَتِ الأَوْزارُ أثْقالًا؛ لأنها والعياذُ باللهِ تُثْقِلُ صاحبَها، والضمير في: ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾ يعودُ على الدَّاعِين، يعني لَيحْمِلُنَّ هؤلاء الدعاةُ أثقالَ أنفسهمْ، ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾، أي: أثْقالًا أخْرى مَع أثقالِهِمْ، وهي أثقالُ دَعْوتِهِمْ، قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل:٢٥]،

فهم يحْمِلُونَ أثقَالَهُمْ كاملةً، أما أثقالُ المدْعُوِّينَ فلا يحمِلُونها كامِلةً، ولو حملوهَا كامِلة ما بَقِي للمَدْعُوِّينَ شيء، ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾ نَكِرةٌ، وتَقَدَّمَ قولُهُ في الآيةِ الأُخْرَى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ [النحل:٢٥]، وذلك لأن الدَّاعِيَ لا يتَحَمَّلُ وِزْرَ المدعوِّ كامِلًا، ولو تحمَّله كاملًا ما بَقِي للمَدْعو شيءٌ، ولكن الوِزْرَ على الدَّاعِي والمدْعُو، والعياذُ باللهِ.

وقوله: ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ لدَعوتِهِمْ إلى الضَّلالِ، وكل مَنْ دَعَا إلى ضلالَةٍ فلَهُ مِثْلُ وِزرِ مَن عَملَ بها من غيرِ أن يَنْقُصَ من أوْزارِهِمْ شيء.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ بقولِهم للمُؤمِنينَ: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ وَإِضْلالِهِمْ مُقَلِّديهِمْ]: والمقلِّدونَ هم الذين اتَّبَعُوهُمْ؛ لأن الكفَّارَ مجتهِدُونَ ومُقَلِّدونَ، أي: رؤساءُ ومُقَلِّدونَ، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص:٤١]، والإمامُ له مأمومٌ يَتْبَعُهُ، فالكُفارُ منهم رؤساءُ ومُقَلِّدُونَ، فهؤلاء المقلِّدونَ يحمِلُ الرؤساء مِن أوْزارِهِمْ ما يتَحَمَّلُونَ، وكذلك من أوْزارِ الَّذينَ يَدْعونهُمْ بغيرِ عِلمٍ، لكن إذا دَعْوا شخصًا ولم يَقْتدِ بهم فإنهم يحمِلُونَ أوزارِ الدَّعوةِ فقط دون وِزْرِ العملِ، والسببُ هو عدمُ وجودِ العملِ.

قوله: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ يسألهُمُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يومَ القيامَةِ، وقد سُمِّي بذلك لأمورِ الأشْهادِ، فإن الأشهادَ يقومونَ في ذلكَ اليوم، والأشْهادُ هُمُ الرُّسُلُ ﷺ، وكذلك غَيْرُ الرُّسُلِ مِنَ العلماءِ، وكذلك الجلودُ والألْسُنُ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَفْتَرُونَ﴾ يَكْذِبونَ علَى اللهِ]: لأنهم قالوا: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، فهم كاذِبُونَ في هذا، وسيُسْألَونَ عن هذا الكذبِ، وكذلك كلُّ دَجَّالٍ يَدْعو إلى باطِلَه بالكذبِ، سيُسْألُ عَنْ هذا الكذبِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سُؤالُ تَوبِيخٍ]: نعم هو سُؤالُ توبِيخٍ لأجل أن يُقِرُّوا، كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ [الملك:٨]، والجوابُ: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:٩-١١].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [و(اللامُ) في الفِعْلين لامُ قَسَمٍ، وحُذِفَ فَاعِلُهُما الواوُ ونونُ الرَّفْعِ]: (اللام) الأُولَى في قولِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾ والثانية في قولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ﴾ فـ(اللام) لامُ قَسَمٍ، والقَسَمُ مُقَدَّرٌ، والنونُ للتَّوكِيدِ، فصارَ التَّوكيدِ بثلاثَةِ مؤكِّدَاتٍ.

[وحُذِفُ فاعِلُهُما الواوُ، ونونُ الرَّفْعِ]: أما حذفُ نونِ الرفْعِ فيقولون: لتَوالِي الأمْثَالِ؛ لأن هناكَ ثلاثة نُوناتٍ اجتَمَعْنَ وكُلُّهُنَّ زائدَاتٌ، فحُذِفتِ النُّونُ الأُولى لتَوالِي الأمثالِ، ولم تُحْذَف نونُ التوكيدِ لأنه جَيءَ بها لمعْنًى، فكان الحذفُ لنونِ الرَّفْعِ التي جرتِ العادَةُ أن تُحذَفَ، ومعلومٌ أن الأفعالَ الخمسةَ تُحذفُ نُونها وجوبًا في حالِ النَّصْبِ والجزْمِ، وجوازًا بكثرةٍ في حالِ النَّفْيِ، وجوازًا بقِلَّةٍ في حالِ الإثباتِ، وحُذِفتِ الواوُ لالتقاءِ السَّاكنين، على حَدِّ قولِ ابن مالك في الكافِيَةِ:

إنْ ساكنـانِ التقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ وَإِنْ يكُنْ لَيْـنًا فحذْفُهُ اسْتَـحَـقْ

فقول ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنْ ساكنانِ التقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ] مثاله: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البينة:١]، كُسِرَتِ النُّونُ.

وقوله: «وإن يكنْ لَيِّنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقَّ»، أي حروف اللِّينِ: الألف أو الواو أو الياء.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفَائِدةُ الأُولَى: حرصُ الكافِرينَ على إغواءِ المؤمنين لقولهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾.

الفَائِدةُ الثَّانِيةُ: أن أولئكَ الضَّالينَ يستَعْملونَ أساليبَ الدِّعَايةِ الباطِلَةِ كقولِهِمْ: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، فإن هذا مِنَ الدِّعايةِ الباطِلَةِ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن هؤلاءِ الدُّعـاةِ إلى الضَّلالِ كاذِبونَ فيما التَزمُوا به من حَملِ الخَطَايا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

الفَائِدةُ الرَّابِعَةُ: أن من كَفَرَ هـانَ عليه ما دُونَ الكُفْرِ، فهؤلاء كَفـروا فهانَ عليهم الكَذِبُ لقولِهِ: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسةُ: الحذَرُ مِن دَعوةِ أهلِ الضَّلالِ ودِعَايتِهِمْ، وأقصدُ بالدِّعَايَةِ تَزْيينُ ما دَعَوا إليه وتَسْهِيلَهُ في نُفوسِ المدْعُوِّينَ، فيجِبُ علينا أن نَحْذَرَ من هؤلاءِ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: تَقريرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤]، لقولِهِ: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ﴾.

الفَائِدةُ السَّابِعةُ: إثباتُ عِلمِ اللهِ لقولِهِ: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ﴾؛ لأنه خَبَرٌ عن الذي سيقَعُ في المستقبلِ.

الفَائِدةُ الثَّامِنةُ: إثباتُ عَدلِ الله حيثُ لا يحمَّلُ أحدٌ خَطِيئةَ أحَدٍ.

الفَائِدةُ التَّاسِعةُ: أن الدُّعاةَ إلى الشَّرِّ عليهم من أوزارِ المدْعُوِّين؛ لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

الفَائِدةُ العاشِرَةُ: أن الدُّعاةَ إلى الخيرِ لهم مِثْلُ أجرِ المدْعُوِّينَ؛ لأنه إذا كان الدَّاعِي

إلى الشرِّ ينالُه من العُقوبَةِ وهذا من العَدلِ، فإن الدَّاعِيَ إلى الخيرِ ينالُهُ من الأجْرِ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذُو فَضلٍ عَظِيمٍ، فإذا كان اللهُ يُعاقِبُ مَن دَعَا إلى الضَّلالَةِ فكيف لا يُثِيبُ من دَعَا إلى الهُدَى.

الفَائِدة الحَادِيَة عشْرَةَ: خطورةُ الدَّعوةِ إلى الضَّلالِ، حيث إنَّ كلَّ من تأثَّر بهذه الدَّعوة فإن عَلَى الدَّاعِي مثلَ وِزْرِهِ، أو مِنْ وِزْرِه، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥].

الفَائِدةُ الثانِية عشْرة: إثباتُ يومِ القيامَةِ، لقولِهِ: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ﴾.

الفَائِدةُ الثالثةَ عَشَرَةَ: إثباتُ سؤالِ هؤلاءِ عَنْ أعمالِهِم السَّيئةِ، لقوله: ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ وقد جَمَعْنَا في موضعٍ آخر قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨]، وبينَ قولِهِ تعالى في هَذِهِ الآية: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت:١٣].

الفَائِدةُ الرابعةَ عَشَرَةَ: أن الكَذِبَ يُعاقَب عليه المرءُ، لقوله: ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ يعني: الَّذي كانُوا يَفْتَرُونه، أما الكذِبُ المباحُ فلا عُقوبة فيهِ، لكن الكذبَ غيرُ المباحِ عليه عُقوبَةٌ، وهناك من يقولُ مِنَ الناس: إن الكَذبَ نوعانِ: أبيض وأسود، فالأسودُ هو ما كان عليه العُقوبَةُ، والأبيض لا عقوبة فيه، والحقيقةُ أن الكَذِبَ كُلُّه أسودُ، وقد يقولون: الأسودُ ما فِيهِ أكْلُ مالٍ للغَيْرِ أو اعتداءٌ عليه أو انتهاكٌ لعِرْضِهِ، يعني ما فيه مَضَّرة على الغَيرِ فهو كَذِب أسود، وأما ما فيه التَّرْويحُ عن النَّفْسِ والإصلاح وما أشبه ذلك فهذا أبيض، وهذا ليسَ بصَحيح، بل وَرَدَ الوعيدُ على مَن كذِبَ ليُضْحِكَ به القومُ كما في قولِهِ ﷺ: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ

فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ»[1]، فالإنسانُ يجِبُ عليه أن يتَجَنَّبَ الكَذِبَ كُلَّهُ، والأصل أن الكَذِبَ حرامٌ.

لو قال قائل: هل على الدَّاعِينَ إلى الضَّلالِ وِزْرٌ من كل الأعمالِ السيِّئَةِ للمَدْعُوِّين؟

فالجواب: على الدَّاعِينَ وِزْرُ ما تأثَّرُوا به من دَعْوتِهِمْ، وكذلك كلُّ شيء يتَّبِعُ ما دَعَوا إليه فعَليهم وِزْرُهُ، أما الأعمالُ السيِّئَةُ الأُخْرى وما لا دَخْلَ له بالدَّعوةِ، فليس عليهم مِنْ وِزْرِهِ شيء.

• • ❁ • •

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، رقم (٤٩٩٠)؛ والنسائي: كتاب تفسير القرآن، باب سورة المطففين، رقم (١١٦٥٥)؛ والترمذي: كتاب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، رقم (٢٣١٥)؛ وأحمد (٥/ ٢) (٢٠٠٣٥).

الآيــة (١٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:١٤].

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ (اللام) مُوَطِّئَةٌ للقَسَمِ و(قد) للتَّحْقيق، فالجملة مؤكَّدَةٌ بثلاثَةِ مُؤكِّدَاتٍ، وإنما أَكَّد الله ذلك وإن كان الخطابُ لغير مُنْكِرٍ؛ لأنه كما تقدَّمَ أن الأمورَ الهـامَّة تؤكَّد وإن لم يُخـاطَب بها من يُنكِرُ أو يتردد.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ أي: بَعَثْناهُ برسالَةٍ، وكان هذا بعدَ مُدَّةٍ طويلة من آدَم، إذ كان الناسُ بعد آدمَ على ملَّة واحدةٍ بدُونِ رسالَةٍ؛ لأن آدَمَ نَبِيٌّ وليس برَسولٍ، إذ إنه ليس هناك أحدٌ يُرسَلُ إليه، وإنما أُوحِيَ إليه بشرعٍ، وجعل يتعَبَّدُ به واتَّبعَه بَنُوه على ذلك، ولكن لما كثُر بنُو آدم اختلفتْ آراؤهُم وأهْواؤهُم فاحتاجُوا إلى الرِّسالَةِ، قال الله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، فبيَّن عَزَّوَجَلَّ أن الرُّسُلَ أُرْسِلوا بعد أن اختلَف الناسُ، ولهذا هناك قراءة: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّنَ»[1]، وهذه القِراءةُ دلَّ عليها آخرُ الآية: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ

(١) هذه قراءة أُبيٍّ وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، انظر: تفسير الطبري (٢/ ٣٤٧)، والتحرير والتنوير (١/ ٥٨٦).

فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾، فأرسلَ اللهُ نُوحًا وهو أوَّلُ رسولٍ أُرسِل إلى البَشرية.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ وعُمرُهُ أربعونَ سَنَةً أو أكْثَرَ]: نحن لا نَعلَمُ بالتَّحديدِ كم عُمرُهُ، لكننا نَعلمُ عِلمَ اليَّقينِ أنَّ الله أرْسلَهُ وعمره قابلٌ لأن يكون أهْلًا للرِّسالة سواءٌ كان أرْبعينَ سَنةً أو أكثرَ، ولا أظنُّه يكونُ أقَلَّ، وقوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ فيه شاهد للحَديثِ الصحيحِ: «كَانَ النَّبِيُّ يُبعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(١).

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ يَدعُوهم إلى توحيدِ اللهِ فكذَّبُوه].

﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾ أي: في دَعوتِهم إلى دِينِ اللهِ، ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾: تِسْعَمئةٍ وخمسينَ سنَة يدْعوهُم إلى عبادة اللهِ، عُمرٌ طَويلٌ وهو معهم فِي صِراعٍ، وفي سُورةِ نُوحٍ يقولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ لئَلَّا يسْمعُوا ما أقولُ: ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ تَغطَّوا بِها لئلا يَرَوْنِي -أعوذ بالله- يعني أنهم يَسدُّونَ كلَّ منافِذَ الوعي: السمعَ والبصرَ، ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ على ما هم عليه مِنَ الباطِلِ ومِنَ المعاصِي، ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الواجباتِ، ﴿ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح:٢-٩].

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له: في أول كتاب التيمم، رقم (٣٢٨)؛ ومسلم في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢١).

فانظرُ مراحِلَ الدَّعوةِ العَظيمَةِ ومع ذلك ما استَفَادُوا شيئًا، فما آمَنَ معه إلا قليلٌ، فالمدَّةُ طويلَةٌ والدَّعوةُ متنَوِّعَةٌ والمضادَّةُ والمحادَّة لنُوحٍ شديدةٌ وعظيمةٌ، يمرُّونَ به وهو يصنَعُ السفينة ويَسخَرونَ منه، لكنه مؤمِنٌ بالله عَزَّوَجَلَّ ويقولُ: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود:٣٨-٣٩].

هذه المدَّة الطويلةُ يقولُ الله تعالى في سُورَةِ هُودٍ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠]، حتى إن أحدَ أولادِهِ ما آمَنَ، وهذا يوجِبُ لنا أن نَصْبِرَ ونحْتَسبَ، والإنسانُ مِنَّا إذا دَعا الناس لمدة ساعَةٍ ولم يَسْتَجِبْ أحدٌ غضِبَ وتركَ الدَّعوةَ وقال: لا توجدُ فائدةٌ، ونوحٌ لَبِثَ ألفَ سنة إلا خمسين عامًا ومع ذلك ما آمنَ مَعه إلا قليلٌ.

يقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ القَصصُ تكون أحيانًا مختَصَرةً يُذكرُ فيها السببُ والأثرُ بدونِ تفْصيلٍ، إرسالٌ ومكثٌ طويلٌ وبعدَ ذلك أخذٌ، لكِنْ أخذٌ بسببٍ، وهو قولُه: ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ (أخذهم) أبْلغُ من قوله: (فأغْرقهم)، والأخذُ يكون في مقابَلَةِ عَملٍ فهُو جَزاءٌ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلطُّوفَانُ﴾ أيْ: الماءُ الكَثيرُ، طافَ بهم وعَلاهُم فغَرِقُوا]: طافَ بهم من كلِّ جانبٍ -والعياذُ بالله-، وقد ذَكر اللهُ تعالى شأنَ هذا الأمرِ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١١-١٢]، كلُّ أبوابِ السماء فُتِحتْ، وإذا فتِحَتْ أبوابُ السماءِ ستكونُ مِثْلَ القِربِ، ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾: يعني نازلًا بشِدَّةٍ وقُوَّةٍ، ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾: الأرضُ كلها تَفجَّرَتْ عُيونًا حتى قال الله في آيَةٍ أُخرى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود:١٠]،

وهو موضِعُ النارِ البَعيدِ عن الرُّطوبَةِ، (فار): بدأَ يَفورُ عُيونًا، يعني سيكونُ الماء بعدَ ساعاتٍ فوقَ قِمَمِ الجبالِ، وهكذا كان بإذنِ الله، فالأرضُ كُلُّها تَبُثُّ عُيونًا، والسماءُ مُنهَمِرَةٌ بالمياهِ العَظِيمة، ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾: ماءُ الأرضِ وماءُ السماءِ ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ وقد وردَ في الحديثِ أنه: «لَو رَحِمَ اللهُ أَحَدًا مِنْ قَوْمِ نُوحٍ لَرَحِمَ أمّ الصَّبِيِّ»[1]، وهي امرأة كانَ معها صَبِيٌّ كلما وصَلَهَا الماءُ صَعِدت إلى الجبلِ، وكلما وصَلَها صَعِدت، حتى وصلتْ إلى قِمَّةِ الجبل فلما ألجَمهَا الماء حَملتْ ولَدَها فوقها لأجلِ أن تَغرق قبلَ ابنِهَا، ولكن -والعياذ بالله- رحمةُ الله تعالى لا تُدركُ الكافِرينَ بعد أن يَرَوا العذابَ، قال تعالى: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ [غافر:٨٥].

قوله: ﴿وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ جملةٌ في موضِعِ نَصبٍ على الحالِ مِنَ الهاءِ في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾، يعني: والحالُ أنهم ظالمونَ، أي: مُقِيمون على الظُّلمِ لم يُؤمنُوا؛ لأنه ما آمن مع نُوحٍ إلا نَفَرٌ قليلٌ.

• ● ❁ ● •

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧٢) (٣٣١٠).

الآيــة (١٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٥].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي: نُوحًا]: أي: أنْجَى اللهُ نُوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من هذا الطُّوفانِ العَظيمِ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾، ﴿وَأَصْحَٰبَ﴾ معطوفَةٌ على الهاءِ في قولِهِ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ يعني: وأنْجَيْنَا أيضًا أصحابَ السفينةِ، يعني: أهلَهَا الذين كانوا معه فيها وهم مُؤمنونَ، أي: أهلُ نوحٍ كُلُّهُم إلا ابنَه الكافرَ وامرأتَهُ، والمؤمنون من قومِهِ، وكذلك أيضًا الحيوانات من كلِّ زَوجين اثْنين، فكلُّ الذي على وجْهِ الأرضِ من الحيواناتِ حُمِلَ في هذه السَّفِينَةِ؛ لأن الله أغرقَ كلَّ شيءٍ على الأرض.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ جعلناهَا عِبرةً للعَالمينَ]: والهاءُ في قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ قد تعودُ إلى القِصةِ، وتحتمل أن تعود إلى السَّفينةِ، ويؤيد أنها للسَّفينةِ أنها أقربُ مَذْكورٍ، ويؤيِّدُ العمومَ أن العِبرة ليستْ بالسَّفينة فقط بل بالسفينةِ والقِصَّةِ، حيث إنه بَقِي هذه المدةَ الطويلةَ ولم يؤمِنْ معه إلا قليلٌ، وحصل هذا الغَرقُ العظيمُ الذي لا نَظيرَ له فيما نعلمُ، فَهي -أي: القصة- آيةٌ للعَالمِينَ.

وأما إذا قلنا: إن الهاءَ تعودُ إلى السَّفينةِ فذلك لأن الله تعالى يقولُ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤٢]، أي: خَلَقْنا لهم مِن مِثلِ الفُلكِ المشْحونِ الذي نُجِّيَ به نوح ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾، فصار أوَّلَ من صَنعَ السُّفنَ نوحٌ، ثم أخذهَا الناسُ منه.

وتأمَّلِ الحكمةَ في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:١٣]، ولم يقل: حَمَلْناه على السَّفينةِ، تنْبيهًا على الموادِّ التي يُسمُّونها الموادَّ الخامَ في صُنعِ السفينة، وهي الألـواحُ والدُّسُر، يعني: المسَامِيرَ، فهي تُصنـعُ من الألواحِ والمسَامِيرِ حتى يَعرفَ الناسُ ذلك، وهذا هو الواقع، فإنَّ الناس عَرَفوهَا وتطورتِ الصنْعةُ إلى أن وصلتْ إلى ما وصلتْ إليه الآن.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بعضُ العُلماءِ يقول: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ أي: السفينةَ عينَهَا، وأن أجزاءً من هذه السَّفينةِ بَقي موجُودًا إلى أن أدْركَهُ آخِرُ الأمم، وهم أَوَّلُ هذه الأمَّةِ على الجُودِيِّ الذي ثَبتَتْ عليه، وهذا فيه نَظَرٌ.

والقولُ الثاني: أن الهاءَ في قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ يعودُ على السفينةِ باعتبارِ الجِنسِ لا باعتبارِ الشَّخْصِ؛ لأن سفينةَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مرَّتْ عليها قُرونٌ عظيمة فتكَسَّرَتْ وأتْلَفتْها الرِّياحُ والشمسُ وذهبت، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا﴾ [الملك:٥]، (جعلناها) أي: الشُّهُبَ التي تخرجُ من هذه المصَابِيحَ: ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك:٥]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ [المؤمنون:١٢]، أي: الإنسانَ باعتبارِ جِنْسِه، فالضَّميرُ يعودُ إلى الإنسانِ باعتبار الجنْسِ لا باعتبارِ الشَّخصِ؛ لأنَّ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي خُلِق مِن سُلالةٍ من طِين ولم يكن في الأرحامِ نُطفةً في قرار مَكِينٍ.

فعلى هذا يكونُ قوله تعالى هنا: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ فيه قولانِ لأهْلِ العِلم:

- إما باعتِبارِ الشَّخصِ.
- وإما باعتبارِ الجِنْسِ.

قوله: ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، المرادُ بالعالمين هنا منْ بعدَهُم مِنَ الناسِ، كما قال المُفَسِّر: [لِمَنْ بعْدَهم مِنَ الناسِ إن عَصَوا رُسُلهُمْ]، فكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إن الضَّميرَ في قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ يعودُ على القصَّة كلِّها، وأنها عِبرةٌ للعالمين، يعني: أنهم إن عَصَوا رُسلَهُم فسيَحِلُّ بهم مِنَ العُقوبَةِ ما حَلَّ بقومِ نُوحٍ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وعَاشَ نُوحٌ بعدَ الطُّوفانِ سِتِّينَ سَنَة أو أكثرَ حتى كَثُرَ الناسُ]: أي: أن نُوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عاشَ أربعينَ سَنة قبلَ البَعْثَةِ، وسِتِّينَ سنة بعدَ الطُّوفانِ هذه مئةُ سَنة، ودَعا النَّاس تِسْعَمئةٍ وخمسين سنة، فالمجموعُ ألفٌ وخمسون، لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يجْزِم لأنه قال: [عَاشَ سِتِّينَ سَنَة أو أكثرَ]. ونحن نقول: ليس لنا فائدةٌ في مَعرِفةِ كَم لَبِثَ قبلَ الرِّسالة، ولا في معرفةِ كَمْ لَبِثَ بعد الطوفانِ؛ لأن المهمَّ هي القصَّةُ، فهذا أولُ الرُّسُلِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ومع ذلك وَجَد مِنْ قومِهِ مِنَ المعارضاتِ والاستِكبارِ وَرَدِّ دَعوته ما لم يَجِدْهُ نَبِيٌّ مثله، ولا نَعلمُ أن نَبِيًّا بقي في قومِهِ ألفَ سنةٍ إلا خَمسينَ عامًا إلا نُوحًا.

وعندنا مَثَلٌ عامِّيٌّ مشهور يقول: (عَسى عُمرُك عُمْر شُعَيبٍ) فهذا مثل غيرُ صَحيحٍ؛ لأن الذي بلَغَنَا مِنْ كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن أطولَ النَّاسِ عُمُرًا نوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولو قالوا: (عَسى عُمُرك عمرَ نوحٍ) كان معقولًا، ولا ندري إن كان نوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أطولَ عُمرًا من آدم عليه السلام.

فائدة: في قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقولُ الله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [هود:٢٥]، فالذي يُكذِّبُ رَسولًا

مِنَ الرُّسلِ مُكَذِّبٌ للجميعِ، فلا فَرقَ بينَ نُوحٍ وهودٍ وصالحٍ، فكُلَّهُم يجِبُ الإيمانُ بأنهم رُسلٌ، فمَنْ كذَّب واحدًا منهم قامَتِ البَيِّنَةُ على أنه رسولٌ فكأنما كذَّبَ جميعَ الرُّسلِ، مثلُ الذي آمن بِبَعْضِ الرِّسالاتِ وكَفَر ببعضٍ فقد كَفَر بالجميع، ومن يقـول: إن الصلاةَ مفروضةٌ لكني لا أُؤمِنُ بأن الزَّكـاةَ فَرضٌ، نقول: الآن كَذَّبتَ بالصلاةِ وبالزكاة؛ لأن إيمانَكَ بأن الصلاةَ مفروضةٌ دون الزكاةِ عن هَـوىً لا عن هُدًى؛ لأنه لو كان عن هُدى لآمنتَ بالزَّكاةِ كما آمنتَ بالصلاةِ، فأنتَ إذن لستَ بمُؤمن لا بهذه ولا بِتلكَ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (١٦)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:١٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ مفعولٌ لِفعلٍ محْذُوفٍ تَقديرُهُ (اذْكُرْ)، والفَائِدةُ من حذْفِ العامِلُ هو الاختصارُ وبيانُ الاهتمامِ بالمعمولِ، فهُنا حُذِفَت (اذكر) اختصارًا واهتمامًا بالمعمولِ وهو (إبراهيمُ) ليبْدَأ به أوَّلًا.

وإبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كلنا يَعْرفُ أنه ثاني أُولِي العَزمِ من الرسلِ الَّذين أولُهم محمَّدٌ ﷺ، واختَلفُوا أيهما أفْضلُ -أعني نوحًا وعِيسى- والأَوْلى أن يُقالَ: لكلٍّ منهما مَزِيَّةٌ، أما الثلاثةُ محمَّدٌ ثم إبراهيمُ ثم مُوسى، فهذا متَّفَقٌ عليه، أي: على التَّرتِيبِ.

وقد ابتَلاهُ الله تعالى بأمْرَين:

أحدهما: في الدَّعوةِ إلى اللهِ. والثاني: في أعزِّ محبوبٍ إليه.

أما في الدَّعوةِ إلى اللهِ فإن الله ابتَلاهُ بأن سلَّط عليه قومَه ليَحْرقُوهَ، والنتيجةُ أن الله أنْجاهُ مِنَ الموتِ، وقال للنَّارِ: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩].

أما الأمرُ الثَّانِي: فهو في أعزِّ الأشياءِ إليه، وهو ابنه حين بلَغَ السَّعْي، وهو وَحيدُهُ وأوَّلُ أولادِه، وهو إسماعيلُ على القولِ الصَّحِيحِ، ابتلاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بأنْ أَمرَهُ بذَبْحِهِ، بل أمْرُهُ بأن يَذْبَحَه هو، فاستَسْلَمَ لهذا الأمرِ وامتَثَلَ، والقِصَّةُ معروفةٌ،

وأنجاهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منه حينَ قالَ له: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات:١٠٤-١٠٦]، إلى آخرِ الآياتِ، وسُمِّي خَلِيلًا واتَّخَذَهُ الله خَلِيلًا بسببِ هذا الأمْرِ، حيثُ قدَّمَ محبَّةَ الله تعالى على أحبِّ شيءٍ إليه، وبعضُ النَّاسِ الجهالِ -في الواقع- يَصفُونَ النَّبِيَّ ﷺ بأنه حبيبُ الله وأن إبراهيمَ خليلُ الله، وهذا خطأ، فإن مُحَمَّدًا ﷺ خليلُ اللهِ أيضًا، كما ثَبَتَ ذلك عَنْهُ[1]، والذي يقولُ: إن مُحَمَّدًا حبيبٌ وإبراهيمُ خليلٌ قد تَنَقَّصَ النَّبِيَّ ﷺ؛ لأن دَرجَةَ المحبَّةِ أدْنَى مِنْ درجةِ الخُلَّةِ.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ (إذ): ظرف في موضعِ نَصْبٍ على الحالِ، أي: حالَ كونِهِ قائلًا لقومِهِ، والقومُ هُم الجماعَةِ الذين يَنْتَسِبُ إليهم الإنسان بنَسَبٍ أو هَدَفٍ، كل من ينْتَسِبُ إليه الإنسان بنَسبٍ أو هدفٍ فهم قومُهُ: وذلك بأن تكونَ دَعواهم واحدةٌ وطَرِيقهم واحِدةٌ، والمراد بقومه هنا: مَن ينْتَسِبُ إليهم بقرابَةٍ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾: خَافُوا عِقَابَهُ]: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أصلُ العِبادَةِ مأخوذٌ مِنَ الذُّلِّ، ومنه قولهم: طريقٌ مُعَبَّدٌ، أي: مُذَلَّلٌ؛ لأن العبدَ يَذِلُّ لَمعبُودِهِ، فالعبادةُ إذن: التَّذَلُّل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بفعلِ أوامِرِهِ واجتنابِ نَواهِيهِ، وقد حدَّها شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنها: «اسمٌ جامعٌ لكُلِّ ما يحبُّهُ اللهُ ويرْضاهُ مِنَ الأقوالِ والأعْمالِ الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ»[2]، وهذا حد لها في الواقع باعتبارِ مَيدَان العبادةِ، أما أصْلُهَا فإنها من الذُّلِّ؛ لأن مقتضاهَا في اللُّغَةِ أن يتَذَلَّل الإنسانُ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بطاعَتِهِ، فِعْلًا للأوامِرِ وتَركًا للنَّواهِي.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور...، رقم (٥٣٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

واعلم أن العبادةَ تنْقسمُ إلى قسمين:

أوَّلًا: الخضوعُ للأمرِ الكَونِيِّ؛ وهذه عامَّةٌ لكل أحَدٍ، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، كُلُّ مَن في السَّمواتِ والأرضِ من مؤمنٍ وكافرٍ وبارٍّ وفاجرٍ، كلهم يأتُونَ الله تعالى بهذا الوصفِ.

وهل من هذا قوله تعالى يخاطِبُ إبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢]؟

الجواب: إن قلنا الاستِثْنَاءُ متَّصلٌ فهو منهم، أي: إبليس، وإن قُلنا: منْقَطِعٌ فليس منهم، أي: إن جعلنا الاستِثْنَاءَ متَّصِلًا فإن المرادَ العبوديةُ العامَّة، التي لا يُستَثْنَى منها أحدٌ، فكلُّ الخلْقِ خاضِعونَ لأمرِ اللهِ الكَونِيِّ، ولا أحدَ يقْدرُ أن يدفْعَ المرضَ أو الموتَ عن نفسه، ومنه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، وإن جعلناه منْقَطِعًا فالمرادُ هو النَّوعُ الثاني مِنَ العُبودِيَّةِ.

النوع الثاني: العُبودِيَّةُ الخاصَّةُ، وهي التَّذَلُّلُ لأمرِ الله الشرعيِّ، ومنها قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]. فهؤلاءِ تَذَلَّلُوا للأمرِ الشَّرْعِيِّ، وهنا في الآية الكريمةِ قال إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، فهو يريدُ التَّعَبُّدَ لله بالعبادةِ الشَّرعيةِ.

قوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ عَطْفًا على قولِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، والعَطفُ كما قِيلَ: يقْتَضِي المغَايَرةَ، ونحنُ ذكرنَا أن العِبادَةَ هي التَّذَلُّلُ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالطاعةِ.

و(التقوى): اتِّخَاذُ وقايَةٍ مِنْ عذابِهِ بطاعتِهِ، وعلى هذين التَّفْسِيرَيْنِ يكون عطفُ التَّقْوى على العبادةِ من بابِ عطفِ الشَّيءِ على نَفْسِهِ، والمعروفُ أن بلاغَةَ القرآنِ

تَأْبَى ذلك، أي: تَأبَى أن يَعْطِفَ الشيء علَى نفْسِهِ لأن ذلك من بابِ التَّكْرارِ.

فما هو الفرقُ الذي يكونُ به العَطف مُقْتَضِيًا للمغايَرَةِ؟

ونزيدُ الأمرَ وُضوحًا فنقول: إذا قلنا: إن التَّقْوَى اتِّخَاذُ وقايةٍ مِنْ عذابِ الله بطاعَتِهِ، والعبادَةُ التَّذَلُّلُ لله تعالى بطاعَتِهِ، صارَ معناهما واحدًا، والعطفُ يقْتَضِي المغايَرَةِ.

فكيف يمْكِنُ أن نُفَسِّرَ العبادةَ بمَعنى يُغَايِرُ معنى التَّقْوى؟

والجوابُ على هذا من أحدِ وَجْهينِ:

الوجه الأول: أن يُرادَ بالعبادَةِ في هذه الآيـة فِعلُ الأوامِرِ، وبالتَّقْـوى تركُ النَّواهِي، يعني أن تَتَّقِيَ المعاصِيَ وأن تفعلَ الطاعَاتِ، هذا إذا كانت الكلمتان كُل واحدة منها تَشْمَلُ معنى الأُخْرَى عندَ الانفرادِ وتَغَايُرها عند الاجتماعِ؛ وهذا له أمثِلةٌ كثيرة، مثـل: الفَقير والمسكِينِ، هما شيءٌ واحدٌ عنـد الانفرادِ، ويختلفانِ عندَ الاجتماعِ، البِرُّ والتَّقْوى كذلك، هما شيء واحدٌ عند الانفرادِ، وشيئان عندَ الاجتماعِ، فهنا نقول: العبادةُ والتَّقْوى شيءٌ واحد عند الانفِرَادِ، وعند الاجتماعِ تُفَسَّرُ العِبادةُ بفِعلِ الأوامِرِ، والتَّقْوى باجتِنَابِ النَّواهِي.

الوجه الثاني: أن يُرادَ بالعبادَةِ: مطلقُ الالتزامِ والتَّـذَلُّلِ، والتَّقوى المرادُ بها: اتِّقاءُ العمـلِ المعَيَّنِ؛ لأنه ليس كلُّ من قام بمُطلقِ العِبادَةِ يقومُ بالتَّقوى، فكثيرٌ من المسلمين الآن يعبدون اللهَ، ولكنهم لا يتَّقُونَهُ في أشياءَ كثيرة.

عنـدنا الآن الصومُ، هل الصائمُ يتَّـقِي الله عَزَّوَجَلَّ في كلِّ شيء بحيـثُ يترُكُ الكذِبَ والغِيبةَ والشَّتْمَ والمحرَّم وقولَ الزورِ والعملَ بِهِ؟

الجواب: ليس كُلُّ صائمٍ هكذا.

وعلى هذا فنقول: المرادُ بالعِبادَةِ: مُطلَقُ الالتزامِ والتَّذَلُّلِ، وبالتَّقْوى أن يتَّقِيَ الإنسانُ ربَّه في كُلِّ جِنسٍ من جِنسِ المعاصِي وأفرادِها، وهنا يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خَافُوا عِقَابَهُ]، ولو أن المُفَسِّر فسَّرَ الآيَةَ بما يُطَابِقُ اللفظَ لكان أَوْلى، فلو قال: اتَّقوا عقابَه لكانَ أَوْلَى.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني: مما أنْتُم عليه مِن عبادَةِ الأصنامِ، و﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المشارُ إليه العبادةُ والتَّقْوى.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: فَضيلَةُ إبراهيمَ حيثُ أمَرَ قومَه بما ذُكِر.

الفَائِدة الثَّانِية: أنه ينبغي ذِكْرُ الدُّعاةِ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما يَرفَعُ من شَأنِهِمْ؛ لأننا قَدَّرْنا ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ مفعولٌ لِفِعْلٍ محذوفٍ تقْديرُهُ: اذْكر إبراهيمَ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: وجوبُ عِبادةِ الله وتَقْواهُ، لقولِه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾، لأن الأصلَ في الأمْرِ الوجوبُ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: أن خيرَ ما يحصُلُ عليه العبدُ عبادةُ الله وتَقْواه، لقولِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسة: أنه لا يَعْقِل الخيريَّةَ في العبادَةِ والتَّقْوى إلا أهلُ العِلْمِ، وذلك لقولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

الآيــة (١٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٧].

الفَائِدةُ الأُولَى: أن كُلَّ ما يُعبدُ من دُون الله فإنه وَثَنٌ لا ينْفَعُ ولا يأتِي بالرِّزْقِ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن تَسمِيَةَ هذه الأوثانِ بالآلهَةِ كَذِبٌ، لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أنه يَنْبَغِي لمن ذَكَرَ حُكمًا أن يَذْكُر عِلَّته، لقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾.

الفَائِدة الرَّابِعة: أنه ينْبغي الاستِدْلالُ بالمحْسُوسِ على المعقولِ، لقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾، فهذا دَلِيلٌ محسُوسٌ، ووجه الاستِدلالِ بالمحْسوسِ على المعْقولِ أن المحسُوسَ لا ينْكِرُهُ أحدٌ، لكنَّ المعْقُول قد لا يتَصَوَّرُهُ الإنسانُ فضلًا عَنْ كونِهِ يُقِرُّ به، فالاستدلالُ بالشَّيءِ المحسُوسِ على المعْقولِ، هذا مِن طُرقِ المناظَرةِ وإقامةِ الحُجَّةِ والإلْزَامِ.

الفَائِدةُ الخامِسة: أن الَّذي يجِبُ أن يُلجأ إليه هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لقَولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾.

الفَائِدة السَّادسَة: أن العبادةَ والشُّكْرَ سببٌ لتَحصيلِ ووجودِ الرِّزقِ، وسببٌ أيضًا لبَقائِهِ، فقولُه: ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾ هذا سببُ الرِّزق، وقوله: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ هذا سَببُ البَقاءِ.

الفَائِدة السَّابِعة: وجوبُ شُكرِ النِّعمَةِ لقوله تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾، و(شَكَرَ) يأتي متَعدِّيًا ولازمًا، فاللازمُ مثلُ قولِهِ: شَكَرتُ له، والمتعدِّي مثل قوله: شَكَرْتُهُ، فهنا إذا قُلنا أنه متَعَدٍّ فيكونُ المفعول محذوفًا، والتقديرُ: اشْكُروا نِعمتَهُ مخلِصِينَ له.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: إثباتُ البَعثِ، لقوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، وهذا يكونُ يومَ القيامةِ بعدَ البَعثِ.

الفَائِدةُ التَّاسِعةُ: إثباتُ الجزاءِ على الأعمالِ لقولِه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ لأن الفَائِدةَ من هذا الإخبارُ بأنهم سيُبْعثونَ ويجَازَوْنَ ليس مجردَ بعْثٍ بدونِ جزاءٍ، بل لا بُدَّ فيه من جَزاءٍ.

• • ۞ • •

الآيــة (١٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت:١٨].

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: تَهديدُ المكذِّبينَ للرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لقَولِهِ: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾، وقد عَلِموا ما جَرَى لهم، فعَلى هذا يكونُ في ذلِكَ تَهديدٌ لهؤلاءِ المكذِّبينَ للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن الرُّسُلَ يجبُ عليهم الإبلاغُ لقولِهِ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾؛ لأن (على): تُفِيدُ الوجوبَ، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران:٩٧]، يعني: الواجِبَ، فـ(على): إذا قيل: على فُلانٍ كذا وكذا، فإنها تُفِيدُ الوجوبَ.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: أن الرُّسلَ لا يجبُ عليهم هِدايَةُ الخَلْق، فليس عليهم إلا البلاغُ، أما الهِدايةُ فإلى الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك الحسابُ على الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠].

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: وجوبُ الإبلاغِ على أهلِ العِلمِ؛ لأن العلماءَ ورَثَةُ الأنبياءِ[1]،

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم (٣٦٤١)؛

فيَجِبُ عليهم الإبلاغُ كما يجِبُ على الرُّسُلِ.

الفَائِدةُ الخامِسة: أن القرآنَ متَضمِّنٌ لجميعِ الأحكامِ العَقَدِيَّةِ والعملِيَّةِ، وأنه أتى بذلك على أكملِ وَجْهٍ وأبْيَنِهِ، لقولِه: ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، فعليه البلاغُ لكُلِّ ما أُرْسِل به، والنَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أُرْسِلَ بعقَائدَ صحيحةٍ سليمةٍ وبأعمالٍ قويمَةٍ وبأقوالٍ مستَقِيمَةٍ، وعلى هذا نستَدِلُّ بهذه الآية على أن جميعَ الشَّريعة بيِّنة مُكَمَّلَةٌ واضِحةٌ، فنردُ بها على جميعِ أهلِ البِدَعِ؛ لأن أهلَ البِدَعِ يستَلْزِمُ قولهم ألا يكونَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بلَّغَ البلاغَ المبِينَ.

مثال ذلك: الذين يُنْكِرُونَ حقيقةَ استواءِ اللهِ على عَرْشِهِ، يقولون: إن معنى الاستواءِ الاستيلاءُ على العَرْش، هؤلاء تُكَذِّبُهم هذه الآية، إذ لو كان المرادُ بالاستِواءِ الاستيلاءُ لأتى هذا المعنى ولو في آيَةٍ واحِدَةٍ، وآيات الاستواءِ في القُرآنِ سبعُ آياتٍ، لم يأتِ في أي منها: استَوْلى على العَرش، فنقول: أنتم كاذِبُونَ، تكذِّبُكُم هذه الآية.

وكذلك بقِيَّةُ الشبهات التي يحتَجُّ بها أهلُ التَّعطيلِ أو أهلُ التَّمْثِيلِ أيضًا، فأهلُ التمثِيلِ الذين يقولون: إن الله استَوى عَلَى عَرْشِهِ حقيقة، فإن استواءه كاستواء المخلوقِ عَلى المخلوقِ، كاستواءِ المَلِك على عرش المُلك، وما أشبه ذلك، نقول: هؤلاءِ أيضًا يُكَذِّبُهُم قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ لأنَّ الرسولَ بلَّغَ البلاغَ المبينَ، وقد أتَانَا من بيانِه قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

= والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٢)؛ وابن ماجه: افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٣).

فإن قال قائلٌ: يوجدُ وقائعُ الآن تَقَعُ ولا نَرى لها ذِكرًا في القُرآنِ ولا في السُّنَّةِ، فما هو الجواب على ذلك؟

فالجواب: إنها مُبيَّنةٌ بيان الجِنس، فليس بلَازمٍ أن القرآنَ يأتِي بكُلِّ فَرد، أو السُّنَّة تأتي بكُلِّ فرد؛ لأن أفرادَ القضايا لا حَصْرَ لها، ولو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذَكَر في القرآنِ كُلَّ قَضِيَّةٍ تأتي إلى يوم القيامةِ فكمْ يكونُ القُرآنُ مِن مجلَّدٍ؟

لكننا نقولُ: هذه الأفرادُ -أعني أفراد هذه المسائل- موجودَةٌ بأجْناسِهَا وعِلَلِها وقواعِـدِهَا، إما أن تكون بالقياسِ وإما أنها مسْكوتٌ عنـها، والسُّكوتُ في مقامِ البيانِ بيانٌ، كما قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَا سُكِتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ»[1].

المهم أَنَّنَا نقولُ: ما من قَضِيَّـةٍ تقعُ إلا وحُكْمها موجـودٌ في القرآنِ أو السُّنَّةِ باعتبارِ جِنسِهَا، فجِنسُ هذه القضية موجودٌ في القُرآنِ إما بقاعِدَةٍ عامَّةٍ أو بقياسٍ صحيحٍ أو ما أشبه ذلك، لكن الخلَلَ والنَّقْصَ جاء من قلَّة العِلم وقُصورِ الفَهم - أو نقول: عدمُ معرِفَةِ الحقِّ من الكتابِ والسُّنَّةِ- سببُهُ أربعةُ أمورٍ:

الأولُ: قِلَّةُ العِلم؛ فالخللُ هنا مِنَ الإنسانِ؛ لأنه ليسَ عِندَه عِلم، فالإنسان لا يستطيع أن يُحيطَ بالسُّنَّةِ رغمَ أنه قد يُحيطُ بالقرآن، فتوجَدُ أحاديثُ قد لا يَعْلمُها الإنسان وما كانت تَدورُ في ذِهْنِهِ من قبل لعَدمِ عِلمه بها.

الثاني: قُصورُ الفَهْمِ؛ فيكونُ الإنسانُ عندَهُ عِلْمٌ لكن فَهْمَه قاصِرٌ، واختلافُ الناس في الفَهمِ أكثرُ وأعظمُ من اختلَافِهِم في العِلْم، يوجد بعضُ الناسِ يستَنْبطُ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأطعمة، باب ما لم يذكر تحريمه، رقم (٣٨٠٠) عن ابن عباس؛ والترمذي: كتاب اللباس، باب لبس الفراء، رقم (١٧٢٦)، وابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب أكل الجبن والسمن، رقم (٣٣٦٧).

من دليلٍ واحدٍ عِدَّةَ مسائلَ وآخر لا يَسْتَنْبِطُ إلا مسألةً أو مسألتين.

الثالثُ: أن يكونَ عِندَ الإنسانِ سوءُ قَصدٍ؛ بحيثُ لا يُريدُ الحقَّ وإنما يريدُ أن ينْتَصِرَ لقولِهِ؛ فإن هذا -والعياذ بالله- يُحالُ بينه وبينَ الصَّوابِ ومعرفَةِ الحقِّ.

الرابعُ: المعَاصِي؛ لأن المعاصِي تُوجِبُ نِسيانَ الموجودِ، كما تمنَعُ المفْقودَ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣].

فهَذِهِ أسبابٌ أربعةٌ كلها تَحولُ بينَ الإنسانِ وبينَ الوُصولِ إلى معرفَةِ حُكمِ الله الذي في الكِتابِ أو السُّنَّةِ، أما نفسُ الكِتاب والسُّنَّةِ فإنهما بلا شكٍّ محيطانِ بجميعِ القَضَايا إلى يوم القيامة.

وأما قولُ من قالَ مِنْ أهلِ العِلم: إن الكتابَ والسُّنَّةِ ليس فيهما إلا حُكْمُ القليلِ من القَضايا، حتى إن بعْضهم يزْعُم أنه ليس في القُرآن والسُّنَّةِ إلا نحو عُشرُ القضايا، فهذا خطأٌ عظيمٌ، ولهذا قال الله في القرآنِ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

الفَائِدةُ السَّادسَةُ: أن الرُّسُلَ أفصَحُ الخلقِ، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، (المبين): سواءٌ قلنا: إن المُبِينَ بمَعْنى بيِّن أو بمعنى مُظهِر، والصواب أنها بمعنى مُظهِر.

الآيــة (١٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت:١٩].

قوله: [﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ بِالياءِ والتَّاءِ ينْظُرُوا]: الأُولَى: ﴿يَرَوْا﴾، والثانية: (تَرَوا)، فهما قِراءتان سَبْعِيَّتَانِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَنْظُروا]، الرؤية هنا فَسَّرَها المُفَسِّر بمعنى النَّظَرِ، فهي رُؤيَةُ عَينٍ، ويحتمل أن تكون رُؤْيَةً قَلْبِيَّةً، أي: علمية، بمعنى: أو لم يعْلَموا، وننظرُ مِن سياق الآية أيهما أَوْلَى.

قوله: [﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ هو بِضَمِّ أوَّلِه وقُرِئ بفَتْحِه مِنْ بَدَأ وأَبْدَأ بمعنى، أي: يخلُقُهُمْ ابْتِدَاءً]: اصطلاح المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أنه إذا قال: «قُرِئ» فهي قِراءةٌ شاذَّةٌ، فقوله: ﴿يُبْدِئُ﴾ فيه قراءتَانِ قراءةٌ سَبْعِيَّةٌ وقراءة شاذَّةٌ، القراءة السَّبْعِيَّةُ (يُبدئ) من الماضي (أَبْدَأ)، والقراءَةُ الشَّاذَّةُ بفتح أَوَّلِهِ (يَبدأ) من (بدأ)، والمؤلف يقول: [مِنْ بَدَأ وأَبْدَأ]، لكن هذا اللَّفَ والنَّشْرَ مُشَوَّش يعني: غيرُ مُرتَّب، والحقيقةُ ليتَ المُفَسِّر لم يَفْعل هذا لأن الإنسان قَدْ لا يَفْهمُ أن هذا مِنَ اللَّفِّ والنَّشْرِ المشَوَّشِ، ولا داعي له، ولو قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِنْ أَبْدَأ وبَدَأ] لكان أوضح.

وقوله: [بمَعْنى] يعني: بمَعْنًى واحد، يعني (بَدَأ وأَبْدَأ) معناهما واحدٌ، أي:

يخلُقُهُمْ ابتداءً، يعني: كيف يخلُقُهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ابتداءً.

وقوله: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ (الخلْق) هنا مَصْدَرٌ بمعنى اسمِ المفعولِ، أي: المخلوقِ، كيف يَبْدؤُه ثم يُعيدُه، والمصدر يأتي بمعنى اسم المفعولِ كَثِيرًا في اللُّغَةِ العَربيةِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ﴾ [الطلاق:٦]، يعني الحملَ الذي في البَطْنِ، بمعنى محمولٍ، وقولُه ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١)، بمعنى: مَرْدودٍ، هنا (خَلق) بمعنى مَخْلوقٍ، ومثلها قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:١١]، أي: مخْلُوقَهُ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ﴾ هُو ﴿يُعِيدُهُۥ﴾ أي: الخَلْقَ كَمَا بَدَأَهُمْ]: وهَذا إشارةٌ إلى أن الخَلقَ هنا بمَعْنَى المخْلوقِ، فيَعُمُّ كُلَّ النَّاسِ.

وقوله: [﴿ثُمَّ﴾ هُو ﴿يُعِيدُهُۥ﴾]: قدَّرَ (هو) لتكونَ الجملةُ استِئْنَافِيَّةً؛ لأن إعادةَ الخَلقِ لا يمكنُ أن يَنْظُروا إليها لأنها تكونُ يوم القيامة، أي في المستَقْبَلِ، لكنَّ ابتداءَ الخلْق يمكن أن يَنظُروا إليه، فنَحنُ مثلًا ننظر إلى مخلوقاتِ الله عَزَّوَجَلَّ كيف تَتوالَدُ وكيف تَتَنامَى وكيف تَكْبُرُ إلى آخره، لكنَّ إعادة الخلْق لا يمكن، ولهذا قَدَّرَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ﴾ هُوَ ﴿يُعِيدُهُۥ﴾]، لئلا يتَوَهَّمَ الإنسانُ أنها معطوفةٌ على يُبْدِئ وهو أمرٌ غيرُ ممكنٍ؛ لأنها لو كانت معطوفةً عليها لكان المعْنَى أولم ينْظُروا كيفَ يُبْدِئ الخلق ثم كيف يُعِيدُهُ، والنظر إلى كيفية الإعادَةِ متعَذِّرٌ.

ذكرنا أن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ يُحتمل أن تكون عِلْمِيةً، والمؤلف يَرى أنها بَصَرِيَّةٌ، فأيهما أشْمَلُ؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

والظاهر أن القَلبِيَّةَ أشْمَلُ؛ لأنها تَشملَ ما رآه الإنسانُ بعَيْنِهِ وما عَلِم به من غَيْرِهِ، واعلم أن الآية إذا احتَملتْ مَعْنيين أحدهما أشْمَلُ والثاني أخَصُّ فالأَوْلَى حَمْلُها على الأشْمَلِ؛ لأن الأخصَّ داخلٌ فيه، بخلافِ ما إذا حُمِلَتْ على الأخَصِّ فمعناه أننا أخرجْنَا بعض دَلالَتِهَا فالأَوْلَى أن نَحْمِلها على الرُّؤيَةِ العِلمية التي تحصلُ بالبَصر وبالسَّمع أيضًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل:٧٨]، السمعُ والإبصارُ طَرِيقُ العِلْمِ، والأفئدةُ مَحِلُّ الوَعْي.

قوله: [﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ المذْكورَ مِنَ الخلْق الأوَّلِ والثَّانِي ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾]: أي: سهلٌ، فابتداءُ الخلْقِ سَهْلٌ على اللهِ، واقرأ قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩]، فالأمرُ سَهْلٌ على اللهِ، وإعادَةُ الخلْقِ أيضًا سَهلَةٌ لقولِهِ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الصافات:١٩]، زَجْرةٌ واحِدَةٌ فقط ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٤]، وأعمُّ من ذلِكَ قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، واحدةٌ بدون تأَخُّرٍ؛ يأمرُ الله الشيءَ فيكونَ مثلَ لمحِ البَصر، وهذا دَليلٌ على كمالِ قُدرتِهِ جَلَّوَعَلَا.

في هذه الآية يقولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وفي آيَةٍ ثانِيَةٍ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

فإننا نقولُ لهؤلاءِ المنْكِرينَ للبعثِ: هل تُقِرُّونَ بأن الله خلقَكُم ابتِدَاءً؟

هم يقولون: نَعم، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

فنقول لهم: أيهما أهونُ الابتداءُ أو الإعادَةُ؟

الجواب: الإعادةُ أهونُ.

فنقول: كيف تُقِرُّونَ بالأصعبِ ثم تُنْكرونُ الأهْونَ، وأقولُ: بالأصعبِ لا باعتبارِ كونِهِ منْسُوبًا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ لأن الكُلَّ يهونُ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكن نقولُ لهؤلاء: ما دامَ الابتـداءُ أشَدُّ وأشَقُّ فالإعادَةُ مِن بابِ أوْلى أن تُقِرُّوا بها، لكن هم يُقِرُّونَ بالابتداءِ لأنهم لا يستطيعونَ الإنْكارَ، فلا يستطيعون أن يقولوا: ما خَلَقَنا الله عَزَّوَجَلَّ، نحن الذين خلقْنـا أنفسنا، الزَّوْجُ هو الذي خَلَق الولدَ في رَحِمِ الأم، هذا لا يمكن أن يَقُولُوه، فلهذا احتَجَّ الله عليهم بالابتداءِ ليُقِرُّوا بالإعادَةِ، ولذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [فَكيفَ يُنْكِرُونَ الثَّانِي].

• ● ❁ ● •

الآيــة (٢٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت:٢٠].

قوله: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾، هذه الآية مَع التي قبْلها ربما يَظْهُر فيهما إشْكالٌ؛ لأن الأُولى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ تَقْريرٌ لهم بأنهم يَرَونَ كيفَ يُبْدئ الله الخلْق ثم يُعيدُه، وهنا يقولُ: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ فيَقْتَضِي أنهم حتى الآن لم يَعْلموا كيف بَدَأ الله الخلْق؟

والجواب على ذلك: أنهم وإن كانوا يَرَوْنَ كيف بدأَ اللهُ الخلْق، لكنهم قد يُنْكِرُونَهُ، فأمرَ الله تعالى نَبِيَّهُ أن يأمرَهم بالسَّير في الأرضِ: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾، امشُوا في الأرض وانْظُروا مثلًا إلى الوحوش، وانظروا إلى الحشَراتِ وانْظُروا إلى مخلوقاتِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كيف تنْشَأُ هذه الأشياء بدون أن نَرَى لها خالِقًا سِوَى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهذا من بابِ إلزامِهِمْ، ولا سيما إذا قلنا: إن الرُّؤيةَ الأُولى عِلمية، فهي من باب إلزامِهِمْ بما يُشاهِدُونه في الأرض بعدَ أن يَسِيرُوا فيها.

وقولهُ: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هل المرادُ السَّيْرُ بالبدنِ؟ أو السَّيْرُ بالقَلبِ؟ أو بهما جميعًا؟

الجواب: بهما جميعًا؛ لأن الإنسانَ قد يَسِيرُ ببدنِهِ ويطَّلع على مخلوقات اللهِ، وقد يسيرُ بقلْبِهِ فيقرأُ ما كُتِبَ عن مخلوقاتِ اللهِ، فربما تَقْرَأُ كِتابًا عن الحيواناتِ أو غيرها وأنتَ في مكَانِكَ أو في حُجْرتَكِ وتكون قد اطلعتَ على ما في مشارِقِ الأرض ومَغَارِبِها، ويكون السيرُ حينئذ بالقَلْبِ، فهو شامل للأمْرَيْنِ جميعًا.

بل إذا نظَرنا إلى السَّيْرِ في الأرض -إلى واقعه- أيهما أكثرُ بالقَلْبِ أو بالقَدَمِ؟

فالجواب: بالقَلْبِ، ولا إشكال في ذلك.

ثم اعلم أيضًا أن السيرَ بالقَدَمِ لا ينفع إذا لم يكن هناك سَيْر بالقَلب واعتبارٌ، فلو أن الإنسان ماجَ فِجاجَ الأرض كلَّها وهو غافِلٌ ما استفادَ من ذلك السَّيرَ شيئًا، بل لا بد أن يكونَ هناك تَيَقُّظٌ واعتبارٌ، فالسير بالقَدمِ إذا لم يُقْصدْ به الاعتبارُ فإنه لا فائدَةَ منه، فإذا قَصَدَ به الاعتبار عاد إلى كونه سَيرًا بالقَلب.

قولُه: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَ﴾، هنا قال: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ﴾، وفي الآية التي قَبلها قال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ﴾، ومعلوم أنَّ: (انْظُروا) و(يَرَوا)، أفعالٌ متَعَدِّيَةٌ، فأين مفعولها؟

الجواب: مفعولها (كيفَ)، في موضِعِ نصبٍ على الحالِ، وهي مُعَلِّقَةٌ للفعلِ عن العَملِ، وقد مر هذا في (ألفية ابن مالك) في باب ظَنَّ وأخواتِهَا؛ قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

..... والْتَزِمِ التَّعلِيقَ قَبْلَ نَفْيِ مَا

وَإِنْ وَلَا لَامُ ابتداءٍ أَوْ قَسَمْ كَذَا والاستفهامُ ذَا له انْحَتَمْ

---

(١) البيتان (٢١٢، ٢١٣) من الألفية.

قولُهُ: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ في صَدْرِ هذه الآية أتَي بالصِّيغَةِ الفِعلية، وهنا أتى بالجملة الاسْمِيَّةِ ليُفيدَ تَقَرُّرَ هذا الأمْرِ وتأكُّدِهِ.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ﴾ (الله) هنا عَلَمٌ على البَارِي جَلَّ وَعَلَا، وأصلُها الإِلَه وحذفتِ الهمْزَةُ تخفيفًا لكثرةِ الاستعمالِ كما حُذِفَتْ مِنَ الناس، والإله معناه: المأْلُوه، أي: المعبودُ، سواء بحقٍّ أو بغيرِ حَقٍّ، وعلى هذا فيكون الله هنا: هو المعبودُ بحَقٍّ، بدليل قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يعني: لا معبود بِحَقٍّ إلا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أي: لا إله هو الحقُّ إلا الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله: [﴿يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ مَدًّا وقَصْرًا مع سُكونِ الشِّينِ]: فهما قراءتان (النَّشَاءَةَ) و﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾[1].

وقوله: ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾ يُحتَمَلُ أن تكونَ مَصْدَرًا كما تقول: يضْرِب الضَّربَةَ، ويحتمل أن تكون بمعنى اسمِ المفعولِ، أي: يُنْشِئُ المُنشأَ الآخِر، والمعنى واحد: أن اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنشِئُ الخلْق مرَّةً ثانية.

فإذا قال قائل: كيف نُسَمِّيها نشأةٌ وهي إعادة؟

قلنا: إن هـذه الإعادةِ تختلِفُ عن سابَقتِهَا اختلافًا كَثيرًا، فهي بالنسبة إليها نشأةٌ؛ لأن حياةَ الآخِرَةِ ليست مثلَ حياةِ الدنيا، فحياةُ الآخِرةِ حياةٌ أبَدِيَّة، وحياةُ الدُّنيا حياةُ فناءٍ، ولذلك تَجِدُها ناقِصة، يُخلق الإنسان من ضَعف إلى قوَّة إلى ضعْف، أما في الإعادَةِ فإنه يُخلَق للأبَدِ، فلذلك سميت نشأةً وإن كانت هي إعادَةٌ، لاختلاف الحالين.

---

(١) انظر: السبعة في القراءات (ص: ٤٩٨).

انظر إلى الجَنين في بطنِ أمِّه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه بعد أن ذَكَر أطوارَهُ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون:١٤]، هل هو إنشاءٌ أو تطويرٌ؟ هو تطوير، لكنه لما كان التَّطويرُ الأخير الذي فيه نَفْخُ الرُّوح يختلفُ عن الأَوَّلِ وهو في بطنِ أمِّه؛ حيث كان جَمَادًا ثم تُنْفَخُ فيه الروح، فيكون نشأةً جَديدةً غير الأولى، فسُمِّيَ نشأةً وإن كان تطويرًا من حالٍ إلى حَالٍ.

قوله: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَمِنْه البَدءُ والإعَادَةُ]: هـذه الجملَةُ تَعليلُ لما سَبَقَ من كونِهِ ابتدأَ الخلقَ ثم أعادَهُ؛ لأن الله على كُلِّ شيءٍ قَدير، والقُدرةُ: وصفٌ يتَمَكَّنُ به الفاعلُ من الفِعلِ بدونِ عجزٍ.

والقدرةُ غيرُ القوَّة؛ فالقوَّةُ يقابِلُها الضَّعْفُ، والقُدْرَةُ يقابِلُها العَجْزُ، ويظهر ذلك بالمثـالِ، فمثلًا: أنا إذا حَملتَ كِتابًا لكن بمَشَقَّةٍ، فأوصَفُ بأني قادر، ولكنِّي لستُ قَوِيًّا، وآخر لما أرادَ حملَ الكِتاب عَجَز عنـه، فهو عاجِزٌ، والثالث حَملَهُ كأنه رِيشَةٌ في يَدِهِ فهذا قادِرٌ قَوِيٌّ. فتبَيَّنَ بهذا أن القُدرةَ غيرُ القوةِ.

كذلك أيضًا: القدرةُ يوصَفُ بها ذو الشُّعورِ ولا يوصفُ بها غيره، فَلا يقالُ للحَديدِ: إنه قادِرٌ، بينما القوة يوصَفُ بها ذُو الشُّعورِ وغَيْرِه، فنقول للحديدِ: قَوِيٌّ، ونقول للإنسان: قَوِيٌّ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ موصوفٌ بالقُدْرةِ وموصوفٌ بالقُوَّةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨].

وهل قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ عامٌّ مخصوصٌ أم لا؟

هذا على عُمومِهِ، لا يُخَصَّصُ بشيءٍ، لكنَّ السُّيوطِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال في تفسيرِ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٢٠]: [وخَصَّ العقلُ ذاتَهُ فليس عليها بقَادِرٍ!].

[خصَّ العقلُ ذاتُهُ]: يعني: ذاتَ اللهِ، فليس عليها بقادرٍ، فقال: إن العقلَ يُخَصِّصُ هذا العمومَ، ونحن نقولُ: لا يخصصُ هذا العمومُ مِنَ العُقولِ إلا العقلَ الفاسِدَ الذي يَرَى امتِنَاعَ قيامِ الأفعالِ الاختِيارِيَّةِ بالله عَزَّوَجَلَّ، أما العقلُ الصَّحِيحُ السليم فهو يَرَى أن الله يفعل ما يَشاءُ، ينْزِلُ، ويستَوِي على العَرشِ، ويستَوي إلى السماءِ، ويضْحَكُ، ويَعْجَبُ، وغير ذلك من الأفعالِ الاختِيارِيَّةِ التي تَليقُ بجَلالِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقوله: [خَصَّ العقلُ ذَاتَه فليسَ عليها بقَادِرٍ]، هذا خَطأٌ عَظِيمٌ، إذا كان لا يَقْدِرُ على نفسه فكيفَ يَقدِرُ على غيرِهِ، هذا من أكبرِ المُحالِ ومِنْ أكبرِ الغَلَطِ!

لكن لو قال قائل: لعلَّ المُفَسِّر يريدُ أنه لا يَقْدر على إفناءِ نَفسِهِ مثلًا، أو على خَلْقٍ مماثِلٍ له.

قلنا: هذا لا تَتَعَلَّقُ به القدرةُ أصْلًا، فالقُدرةُ لا تتعلق بالشيءِ المستَحِيلِ إطْلاقًا، فهو غيرُ داخِلٍ في العمومِ مِنَ الأصلِ، وليس بمخرَجٍ منه.

وها هنا عبارة يقولها بعضُ الناس: إنه على ما يشاءُ قَدِيرٌ، فما صحة هذا التعبير؟

والجواب: هذا التعبير خطأٌ؛ لأن الله تعالى على كُلِّ شيءٍ قَديرٍ، فهو قادرٌ على ما يشاءُ وما لا يشاءُ، حتى الذي لا يشاؤه قادِرٌ عليه، فلو شَاءَهُ لفَعَلَهُ، ثم إن هذه العبارةَ مخالِفَةٌ لما جاء به القرآنُ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٢٠]، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب:٢٧]، ثم إن بعضَ أهلِ العِلم يقولُ: إن هذه العبارةَ تُوحِي بمَذهَبِ المعتَزِلَةِ الذين يقولون بأن الإنسان مسْتَقِلٌّ بعَملِهِ، فقالوا: إذا كان الإنسان مستقلًا بعمَلِهِ فلا دَخْلَ لمشيئةِ الله فيهِ، ومعنى ذلك أن اللهَ عاجِزٌ عن عَمَلِ الإنسان، وهذا خطيرٌ كما هو معروف، فالذي ينْبَغِي

أن نقول: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]، على الإطلاق.

فإذا قال قائل: ألا يَنْتَقِضُ علينا هذا بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩].

قلنا: المشيئةُ هُنا عائدةٌ على الجمعِ لا على القُدْرَةِ، والمعنى: أنه إذا شاءَ أن يجمَعَهم جَمعهم بدون عَجْزٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا تنافي ما تقدَّم ذِكْرُهُ.

ويقولون: إن الشيطان جمعَ جنودَهُ، أو هم اجتَمَعوا إليه فقالوا له: إنك تَفْرَحُ بموت العالِمِ ولا تفْرحُ بموت العابِدِ، فقال لهم: نعم؛ لأن العابدَ إذا ماتَ يموتُ عن نَفْسِهِ لكنَّ العالِمِ إذا مات يموتُ عن عالَمٍ، وإذا بقي يُفْسِدُ علينَا الأمور.

ومراده بالعلماءِ العُلماءِ الحقِيقِيُّونَ الذين يعمَلُونَ ويَدْعُونَ.

ثم قال الشيطان لجنوده: أذهَبُ أنا وأنتم إلى عالمٍ نَسألُه وإلى عابِدٍ.

فذهبوا إلى العابَدِ فقالوا له: هل يَقْدِرُ اللهُ أن يخلُقَ مثلَ نَفْسِهِ؟

قال: نعم.

قالوا: ما الدليل؟

قال: لأنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قَديرٍ.

فهذا الرجل كَفَرَ؛ لأن أي إنسان يعتقدُ هذا الاعتقادَ فهو كافِرٌ، وهو اعتقادٌ غيرُ صحيحٍ وفاسد، ولا يمكن، لو لم يكن مِنَ الفَرقِ -والفرق عظيم جدًا- إلا أن هذا الإله لو قُدِّرَ فهو مخلُوقٌ، والإلهُ الحقُّ غيرُ مخلوق.

ثم جاؤوا إلى العالِمِ وقالوا له: هلْ يَقْدِرُ الله أن يضَعَ السمواتِ والأرض في بَيضَةٍ واحِدةٍ؟

فقال العالم: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، لو أراد ذَلِك لفَعَلَهُ.

مع أن الأخير يُنكَر حسبَ ما يَبْدو للناسِ أكثرَ مِنَ الأوَّل، والحاصلُ أن الإنسان إذا قَرأَ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يجوز أن يَقَعَ في نفسه استثناء شيءٍ من هذا العُموم، بل يكونُ على عُمومِهِ بدونِ تَفْصِيلٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدة الأُولَى: الاستدلالُ بالمبدأ على المعَادِ؛ لقولِهِ: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾.

الفَائِدة الثَّانِية: أنه يَنْبغِي للمستَدِلِّ أن يستَدِلَّ بالمُشَاهدِ على الغائِبِ لاقتناع الخصم بذلِكَ.

الفَائِدة الثَّالِثة: إثباتُ البَعثِ؛ لقولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾.

الفَائِدة الرَّابِعة: إثباتُ قُدرَةِ الله؛ لقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الفَائِدة الخامِسة: عُمومُ هذه القُدْرَةِ؛ لقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الفَائِدةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ الأفعالِ الاختِيَارِيَّةِ لله عَزَّوَجَلَّ، فإنها مِنْ تمامِ قُدرَتِهِ جَلَّوَعَلَا، كالمجِيءِ والنُّزولِ والاستِواءِ على العَرْشِ والضَّحِكِ والعَجبِ وما أشبه ذلك.

الفَائِدةُ السَّابِعةُ: خَطَأُ مَنْ قال: خَصَّ العقلُ ذاتَه فليس عليها بقَادِرٍ، وقد بيَّنَّا أنه ليسَ بصحيحٍ، وقلنا: إن هذا مذهبُ الذين يُنْكِرُونَ قِيامَ الأفعالِ الاختيارية بالله عَزَّوَجَلَّ، وهذا لا شَكَّ أنه يَرُدُّه الكِتابُ والسُّنَّةُ وإجماعُ السَّلَفِ، وهذا مما نَبَّهنَا عليه وإن كان ليس داخلًا في مَضمونِ الآيَةِ.

الآيــة (٢١)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت:٢١].

قولُهُ: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ يعْنِي: بعدَ البعثِ يُعذِّب من يشاءُ، ويجوز أن يكونَ العذابُ في الدنيا؛ لأنَّ العذابَ يكونُ في الدنيا ويكونُ في الآخرَةِ، فالعقوباتُ التي رُتِّبَتْ على الجرائمِ من العَذابِ، لقولِ النبيِّ ﷺ في المتَلَاعِنَيْنِ: «عَذَابُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ»(١)، وكذلك ما يُصِيبُ الإنسانَ من المصائبِ في بَدَنِهِ وأهلِهِ ومالِهِ هو أيضًا من العَذابِ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠].

وقوله: ﴿يُعَذِّبُ﴾ أتى بالفِعْلِ المضارعِ الدَّالِّ على أن هـذا الأمر مِن أفعالِهِ مستَمِرٌّ، ليس أمرًا مَضَى وانقَطَع، فكما أنه يكونُ في الحاضِرِ، يكون أيضًا في المستقبلِ، والعذابُ هو العقوبة، أي: يُعَاقَبُ.

وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ تقدَّمَ كثيرًا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا أضافَ الفعل إلى المشيئةِ فإنه يكون مَقْرُونًا بالحِكْمَةِ؛ لأن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يفْعَلُ لمجرَّدِ المشيئةِ، بل كلُّ ما يَفْعَلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو بمشِيئَتِهِ المقرُونَةِ بالحكمة، وهذا أمرٌ واضِحٌ، فإن من يُعذَّب

(١) أخرجه مسلم: في بداية كتاب اللعان، رقم (١٤٩٣).

لا بُدَّ أن يكون قد أَتَى ما يستَوْجِبُ التَّعذِيبَ، وحينئذٍ تكون الحِكمَةُ في تَعْذيبِهِ، ولا يُعذِّبُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من شاءَ بِدونِ ذَنبٍ أبدًا لأن حِكمَتَهُ ورَحمتَهُ تأبَى ذلك، خِلافًا لمن قال[1]:

وَجَـازَ لِلْمَـوْلَى يُـعَـذِّبُ الْوَرَى ... مِنْ غَيْرِ مَا ذَنْـبٍ وَلَا جُرْمٍ جَرَى

ثم عَلَّلَ ذلك بقَولِهِ:

فَكُـلُّ مَا مِنْـهُ تَـعَـالَى يَجْـمُـلُ ... لِأَنَّـهُ عِـنْ فِعْـلِهِ لَا يُـسْـأَلُ

فهذا ليس بِصَحيحٍ، وهو وإن جازَ عَقلًا لكنه مُمتَنِعٌ شَرعًا؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقـول في الحديـث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا»[2]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القرآن: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢].

فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ قلنا: إنه مَقْرونٌ بالحِكمَةِ، فلا يُعَذِّبُ إلا من يستَحِقُّ التَّعذِيبَ.

قوله: ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ الرَّحْمَةُ صفَةٌ من صفاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهي تقْتَضِي الإنعامَ والإحسانَ، سواءٌ كان الإحسانُ بإيجادِ محبوبٍ أو بِدفعِ مكْرُوهٍ، فإن رَحمةَ الله عَزَّوَجَلَّ تكونُ للإنسان إما بجَلْبِ ما ينْفعُه وإما بدفع ما يَضُرُّه.

وقوله: ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ (يرحم) فعل مضَارِعٌ مشتَقٌّ مِنَ الرَّحمةِ، والرحمةُ

---

(١) هو السَّفارِيني في الدُّرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية، البيتان (٦٥، ٦٦)؛ وانظر شرح العقيدة السفارينية لفضيلة الشيخ الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص: ٣٣٨، وما بعدها).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

صِفَةٌ من صِفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ ثابِتَةٌ على وجهِ الحَقيقَةِ، ومِنْ آثارِهَا الإنعامُ والإحسانُ أو إرادةُ الإنعامِ والإحسانِ، وليست هي الإنْعامُ والإحسانُ والإرادةُ، خِلافًا لمن قال بذلك مِنَ الأشاعِرَةِ ومَنْ وراءهم من المعطِّلَةِ المحْضَةِ الذين هم أشدُّ وأشدُّ، فهم يقولون: إن الرحمة معناها إرَادَةُ الإنعامِ، وبعضهم يقول: هي الإنعامُ، والصوابُ خِلافُ قولهم؛ لأن الإرادة ناشئةٌ عن الرَّحْمَةِ، يرحم فيريدُ أن يحْسِنَ أو يُنْعِمَ، وهذا الذي عليه مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة، أن الرحمةَ صِفَةٌ ثابِتَةٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على وجهِ الحَقِيقَةِ.

وقال الذين احتجُّوا بمنْعِ أن تكونَ الرَّحمةُ حقيقةً: إن الرحمة خَوَرٌ وضعْفٌ في الراحمِ، فتجدُ نفسه تَنْكسِرُ حتى تَرحَمَ.

وجوابنا على هذا من وجهين:

أحدهما: أن نَمْنَعَ أن يكون هذا من باب الخَوْرِ والضَّعف، فإننا نَجِدُ الملوك الجبَابرةَ قد يَرْحمون، ومع أنهم ليس فيهم خَوْر ولا ضَعْف.

وثانيًا: لو فُرِضَ أن هذا المعنى لازمٌ للرَّحْمَةِ في الإنسان فليس بلازم بالنسبة لله، كغَيْرِهِ مِنَ الصِّفَاتِ التي تَثْبُتُ حقيقةً للمَخْلُوقِ وتَثْبُتُ للخالِقِ أيضًا، فإن اللوازِمَ والعوارِضَ التي تكون لصِفَةِ المخلُوقِ لا يمكن أن تكونَ لصِفَةِ الخالِقِ، لما بينهما مِنَ الفَرقِ العَظيمِ في الذَّاتِ والصِّفاتِ، وكما أن الله عَزَّوَجَلَّ لا شَبِيهَ ولا مَثيلَ له في ذاته، فكذلك لا شَبِيهَ له ولا مَثِيلَ له في صِفاتِهِ.

قولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ تَعْذِيبَهُ، ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ رَحْمَتَهُ، ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ تُرَدُّون]: يعني: تُقْلَبُونَ إليه لا إلى غَيرِهِ، فتَقْديمُ المعمولِ يُفِيدُ الحصْرَ،

فالقَلبُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ لا إلى غَيْرِهِ، وهذا عامٌّ لكُلِّ أحدٍ مهما كان، فالناسُ مرْجِعُهُمْ إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مهما فرُّوا، فالقَلْبُ يَعني الرَّدَّ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وإذا كان مَرَدُّنَا إلى الله صارَ هو الحَكَمُ بيننا، وحُكْمُ الله في العبادِ يَشْملُ الحكْمَ فيما بينَهُ وبينَهُمْ، والحكمُ فيما يختلفون فيه، فالمؤمنون مع الكفَّارِ مختَلِفُونَ، فيَحْكُمُ الله بينهم يومَ القِيامَة، وكذلك المعتَدُونَ مع المعْتَدَى عليهم مختَلِفونَ، فيَحْكُم الله بينهم يومَ القِيامَةِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: إثباتُ الأفعالِ الاختِيَارِيَّةِ لله عَزَّوَجَلَّ لقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ﴾، ﴿وَيَرْحَمُ﴾، وهذا هو مَذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة مِنَ السَّلَفِ والأئِمَّةِ، أن الله يفعلُ ما يشاءُ، وخالفَ في ذلك الأشاعِرَةُ وغيرهم، فقالوا: إن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يتَعَلَّقُ به فِعْلٌ حادِثٌ، وعلَّلُوا ذلك بأنه لا يقومُ الحادث إلا بحادِثٍ، وأننا لو أثْبَتْنَا حدوثَ الأفعالِ لله لَزِمَ من ذلك أن يكونَ الله تعالى حادِثًا.

ولا ريب أن هذا قولٌ باطِلٌ؛ لأننا نقول لهم: من قال لكم: إن الحادِثَ لا يقومُ إلا بحادِثٍ، من أين جاءت هذه القاعدةُ، هل هي في القُرآن، هل هي في السُّنَّةِ، هل هي في العَقْلِ؟

ثم إننا نقابلُ هذه القاعدةَ الفاسِدَةَ بقاعِدةٍ أكملَ منها وأوضحَ، وهي: أن الفَعَّال لما يُريدُ أكملُ من الذي لا يَفْعَلُ، فأنتم إذا عطَّلْتُم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن أفعالِهِ الاخْتِيارِيَّةِ فمعنى ذلك أنكم وصَفْتُموهُ بأنْقَصَ ما يكون، وهذا أمرٌ معلومٌ لجميعِ العُقَلاءِ: أن الفاعل لما يُريدُ أكملُ من الذي لا يفْعَلُ، وأكملُ من الذي يُجْبَرُ على الفعلِ أيضًا.

الفَائِدة الثَّانِية: إثباتُ المشيئةِ لله عَزَّوَجَلَّ لقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ في الموضِعين.

الفَائِدة الثَّالِثة: أن الرَّحمَةَ لا تُطْلَبُ إلا من الله، لقولِهِ: ﴿وَيَرْحَمُ﴾، وهذا في مقام التَّقْسِيمِ يَدُلُّ على الاختِصَاصِ، ﴿ يُعَذِّبُ﴾ ﴿وَيَرْحَمُ﴾، فلا تَطْلُبُ الرحمة إلا مِنَ اللهِ، حتى الذين يَرْحَمون مِنَ الخلْق ينْبَغِي عندما تَطْلُب رحمتَهم أن تجعل ذلِكَ متَعَلِّقًا بالله؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ لو شاء أن لا يَرْحَمُوكَ لم يرحموك.

الفَائِدة الرَّابِعة: إثباتُ البعثِ لقولِهِ: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾.

الفَائِدة الخامِسة: التحذيرُ مِنَ المخالَفَةِ؛ لأنه إذا كان المرجِعُ إلى الله فاحذر من مخالَفَتِهِ، فإن هذا يُشْبِهُ التَّهْدِيدَ والوَعيدَ مِن المخالَفَةِ.

• ● ❁ ● •

الآيــة (٢٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [العنكبوت:٢٢].

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: الخطابُ إما أن يكونَ للكافِرينَ، وإما أن يكون لعُمومِ الناسِ، وكونُه لعُمومِ الناس أَوْلى، يعني: وما أنتم أيّها الناسُ، وكونه للمُكَذِّبينَ المعانِدِينَ أبلغُ؛ لأنهم يظنُّونَ أنهم أَعْجَزُوا الله.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ (ما) هنا حِجازِيَّةٌ؛ لأن القرآنَ بلُغةِ قريشٍ، واسمها: الضَّميرُ المنْفصِلُ (أنتم)، وخبرُها: (بمُعجزين)، والباءُ زائدةٌ للتَّوكيدِ، قال ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَبَعْـدَ مَا وَلَيْسَ جرَّ الْبَـا الـْخَبَرْ ... وَبَـعْـدَ لَا وَنَفْـيِ كَانَ قَـدْ يُجَـرْ

إعراب ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾:

(الباءُ): زائِدةٌ للتَّوكيدِ.

(معجزين): خبرُ (ما) منصوبٌ وعلامة نَصبِهِ ياءٌ مقدَّرةٌ على الياءِ، منَعَ من ظُهورِهَا اشتِغالُ المحَلِّ بعلامةِ إعرابِ حرفِ الجرِّ الزَّائدِ، وإن كان هذا في الحقيقة

(١) الألفية لابن مالك، البيت رقم (١٦١).

من التكَلُّفِ المعروفِ، لكن لا بُدَّ أن نُعرب هذا الإعراب حسب القواعدِ المعروفةِ في النحوِ، فالياء في قوله: ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ جَلَبَتهَا الباءُ وليس الخبر، وهي نَفْسُها علامةُ النَّصْبِ.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ (معجـزين) من (أعْجَزَ) فهو متَـعَدٍّ؛ لأن عجَزَ لازم، وأعْجَزَ متعدٍ، وإذا كانت متَعَدِّيَةٌ وهي اسمُ فاعلٍ فتحتاجُ إلى مفعولٍ، فأين المفعول؟

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ رَبَّكُم عنْ إدْراكِكِمْ]: فيكون المفعـولُ محْذوفًا تقديرُهُ: بمُعجِزينَ ربَّكُم، أو بمعجزين اللهَ، فلا مانِعَ، والمُعجِزُ هو من فعل ما يُعْجِزُ به غيرَهُ، ولهذا قال بعضُ أهلِ العِلم عن آيات الرُّسُلِ: إنها معْجِزاتٌ؛ لأنها تُعجِزُ أعداءَ الرُّسلِ عن معارَضَتِهَا.

قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، هذا الجارُّ والمجرورُ حالٌ مِن مُعجِزينَ، يعني: حال كونِكُمْ في الأرض أو في السماءِ، فلا تُعجِزونَ اللهَ سواء كنتم في الأرضِ أو في السماء، ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَوْ كُنْتُم فِيها]، فيكـون قوله: ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ على سَبيلِ التَّقديرِ وليس على سبيلِ الحَقيقَةِ؛ لأن الناسَ في الأرضِ وليسُوا في السماءِ.

وقيل: إن المعنى على سبيلِ المبالَغَةِ، يعني: لا تُعْجزونَ اللهَ سواءٌ كُنتم في أعماقِ الأرض أو في أجواءِ السماءِ، فيكون المعنى: لا تُعجزونُه في أيِّ مكانٍ كُنتم.

وقيل: إن قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني به أهلَ السماءِ، يعني: أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُعجزُه شيء في السمواتِ ولا في الأرضِ، فأهلُ السماء لا يُعْجِزُونَهُ وأهل الأرضِ لا يُعجزونه، فيكون المعنى على هذا الوجه: وما أنْتُمْ بمُعْجزينَ في الأرض،

ولا مَن في السماءِ مُعجِزٌ الله، على حَدِّ قولِ الشَّاعرِ حسَّانَ بنِ ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]:

أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ الله مِنْكُمْ ... ويَمْدَحُهُ ويَنْصُرُهُ سَوَاءُ

فأظنُّ أننا نَعرِفُ جميعًا أن الأوَّلَ غيرُ الثاني؛ لأن الذي يَهجُوه لا يمْكِنُ أن يمْدَحه وينْصُرَهُ، فيكون على تقديرِ: ومن يَمْدحُهُ وينْصُرُه سواء، فهذه مثلها.

والذي يظهر لي أن المعنى: أنَّكُم لا تُعجِزُونَ الله في أي مكانٍ كُنتم، سواء كُنتم في السماءِ أو في الأرضِ؛ لكن وقتَ نُزولِ القُرآن لا يُمكِنُ أن يُرادَ بالسماءِ حقيقةٌ، إلا أن يُرادَ بالسماءِ ما عَلا ولو على قِمَمِ الجبالِ، لكن في وَقْتِنَا الآن يمكن أن يكونَ الإنسانُ في السماءِ، أي: في العُلُوِّ، وليس المرادُ السماءَ الدنيا؛ لأن السماءَ الدُّنْيا لا يصلُ إليها أحَدٌ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٣٢]، حتى النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وجبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ما استطاعَا أن يَدْخلا السماءَ الدُّنْيا إلَّا بعد الاستفتاحِ والاستِئْذَانِ[2].

قال المُفَسِّر في تَفْسيرِهَا الإجمالي: [أي: لَا تَفُوتُونَهُ]: أي: لا تَفوتُونَ الله، بل إذا شاءَ أن يُعذِّبَكُمْ أدْرَكَكُم فإن الله تعالى لا يَفوتُه شيءٌ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

واعلم أن عُقوبَة الله عَزَّوَجَلَّ وإدراكَه للإنسانِ تارَّةً يكونُ بأمورٍ حِسِّيَّةٍ، فيُقَدِّرُ

---

(١) في ديوانه (ص: ٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب المعراج، رقم (٣٨٨٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، رقم (١٦٤)، وهو حديث المعراج وفيه «فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَفَتَحَ».

اللهُ تعالى أسبَابًا مَعلُومةً لنا ونُشاهِدُها، وتارةً يكونُ بأمورٍ لا نُدرِكُها، فتأْتِيهِ العُقوبةُ مِنَ الله بدونِ أيِّ سَببٍ معلومٍ لنا، مثلُ أسبابِ نَصْر الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أحيانًا تكونُ بأسبابٍ غيرِ مَعلُومةٍ، وأحيانًا تكونُ بأسبابٍ مَعلُومَةٍ، مثاله: نَصْرُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للرَّسولِ ﷺ، في غزوةِ الخَندَقِ: أرسلَ اللهُ عليهم رِيحًا وجُنُودًا لا نَراها، الجنودُ التي لا نَراهَا هي مِنَ الأُمورِ غيرِ المعلومَةِ إلا بالشَّرْع، لكنَّ الرِّيح التي أَقَلَقَتْهُمْ وأكَفْأَتْ قُدورَهُم وهَدَمَتْ خيامَهُمْ هذه محسُوسَةٌ معلومَةٌ، لكنَّ الجنودَ التي لم نَرَهَا لولا إخبارُ الله إيَّانَا عنها ما كُنَّا نَعْلَمُهَا.

فالله عَزَّوَجَلَّ يُدرِكُ الإنسانَ إما بأسبابٍ مَعلُومة تَظْهَرُ للعَيانِ، وإمَّا بأسبابٍ خَفِيَّةٍ لا تَظهرُ للعَيانِ، ثم قد نَعْلمُهَا بطريقِ الوَحي وقَدْ لا نَعْلَمُهَا.

قولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرَهُ ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يَمْنَعُكُمْ مِنْه ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يَنْصُرُكُم مِن عَذَابِهِ]: (ما) في قوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ هل هِي تَميمِيَّةٌ أم حِجازِيَّةٌ؟

الجواب: اتَّفقتْ فيها اللُّغتانِ، وذَلك لعَدمِ التَّرتِيبِ لأنَّ ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ هو المبتدأُ، و﴿لَكُم﴾ هو الخَبَرُ، يعني: لا وَلِيَّ لكُمْ مِن دُونِ اللهِ، وقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أيْ: غَيْرَهُ] صحيحٌ، وعبَّر عنِ الغَيْرِ بالدُّونِ لانْحطَاطِ رُتبَتِهِ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يَمْنعُكُم منْه، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينْصُرُكم مِن عَذابِهِ]: ولا أعلمُ إلَّا أن النَّصْرَ بمعنى المنْعِ والعَوْنِ؛ لكنَّ الصَّحِيحَ أن قولَهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أن الوَلِيَّ من يتَوَلَّى الإنسانَ في جميعِ أحوالِهِ فينْصُرُه في مقابلة عَدُوِّهِ، ويأتي إليه بالخيرِ ولو في غيرِ مقابَلَةِ العَدوِّ، فالوليُّ هو الأعَمُّ، فهو الذي يتَولَّاهُ في

جَلْبِ الخيرِ ودَفْعِ الشَّرِّ، والنَّصِيرُ هو الذي يَدفَعُ عنكَ فقط، قد لا يكونُ من أَوْلِيائِك لكن يدْفَعُ عنك في الحالِ المعَيَّنة التي تحتاج فيها إلى نَاصِرٍ، والنُّصْرَةُ تكون في دَفعِ المكرُوهِ، فيكون الوَلِيُّ هنا أَعَمُّ.

يعني: لا أحَدَ يتَولَّاكُمْ فيَجْلِبُ لكمُ الخيرَ ويدفعُ عنكم الشرَّ، ولا أحدَ أيضًا ينْصُرُكُم من دُونِ اللهِ فيمنعُ عنكم العِقابَ، وهذا أمرٌ واقِعٌ فإنَّ بأس اللهِ إذا نزلَ بقومٍ فلا يستَطِيعُ أحدٌ أن يدْفَع عنهم هذا البأسَ، ولا أن يمنْعَهم منه.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: كَمالُ قُدرةِ الله عَزَّوَجَلَّ وأنه لا يُعجِزُه شيءٌ؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

الفَائِدة الثَّانِية: أنه لا مَفَرَّ للمرءِ مِن قَدَرِ الله، سواء كانَ في السماءِ أم في الأرضِ، لقولِهِ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

لو قال قائل: هل في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ رَدٌّ على القَدَرِيَّةِ؟

فالجواب: هذا فيه نَظَرٌ؛ لأن القُدْرَةَ يقولون: إن الإنسانَ مستَقِلٌّ بعَمَلِهِ ولا دَخْلَ لمشِيئَةِ اللهِ فيه، لكنهم يقولون: إنَّ اللهَ قادِر على إهْلاكِهِمْ واستِئصالِهِمْ إذا خالَفُوا.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: ضعفُ البَشَرِ بالنِّسبَةِ إلى الخالق؛ لأن الخطابَ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ للعُمومِ، فالبشرُ مَهْمَا بلَغُوا من القوة فَهُم بالنِّسبة إلى الخالقِ عاجِزُونَ ضُعفاءُ. ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ﴾

قال تعالى: ﴿خَلَقَهُمْ﴾ ولم يقل: أولم يَرَوا أن الله هو أَشَدُّ؛ لأن الذي خَلَقهم هو أَشَدُّ منهم قُوة، فإذا كانوا مَخْلُوقينَ فإنَّ الخالِقَ أقوى بلا شَكٍّ، فالخالقُ أقْوى مِنَ المخلُوقِ، فأتى بالموصولِ وصِلَتِهِ كالتَّعْلِيلِ والدِّلالَةِ على ضَعفِهِمْ أمام الله عَزَّوَجَلَّ.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: أن لا مَلجأَ للبَشَرِ في جَلْبِ المنافِعِ ودَفعِ المضَارِّ إلا إلى الله تعالى، وأنهم مهما استَعانُوا بغيرِهِ فإنهم خائبونَ لقولِهِ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: وهي فائدةٌ بلاغِيَّةٌ: أن مِنْ أدواتِ التَّوكيدِ زِيادَةَ الحروفِ لقولِهِ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ لأن (مِنْ) هنا زائدةٌ لإفادَةِ العُمومِ، أي: التَّنْصيصُ على العُمومِ.

الآيــة (٢٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [العنكبوت:٢٣].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي: القُرآنُ والبَعْثُ].

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾ مبتدأٌ وخبَرُه الجملَةُ الاسميَّةُ في قولِهِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ ﴾، فهذه الجملةُ كُبرى وصُغْرى، يقول النحويون: جملةٌ كُبْرَى وصُغْرى فإذا كانت الجملةُ خبرًا يُسَمُّونَها جملةً صُغْرى، وإذا كانت مكونة مِنْ مبتدأ وخبرٍ تُسَمَّى كُبْرى، فعندنا الآن ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ إلى آخر الجملةِ نُسَمِّيهَا جملةً كُبْرَى، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ ﴾ هذه جملَةٌ صُغْرى لأنها جزءٌ مِنَ الجُملةِ الكُبرى، فهي مبتدأٌ وخَبرٌ لكنها خبرٌ، وأتى بالجملة الاسمِيَّةِ للدَّلالَةِ على الثُّبوتِ والاستِقْرارِ.

قوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾، (الآيات): جمعُ آيَةٍ، والآيةُ في اللُّغَة: العَلامَةُ، وآياتُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نوعان: كونِيَّةٌ وشَرْعِيَّةٌ.

فالكونية: ما خَلقَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في السَّماءِ والأرضِ، فهي آياتٌ كَونِيَّةٌ لدَلالَتِهَا على خالِقِها، فهي دالَّةٌ على الخَالِقِ، وكلُّ شيءٍ مِنها يَدُلُّ على صِفَةٍ تُناسِبُهُ؛ لأن الآياتِ كلَّهَا على سبيلِ العُمومِ تَدُلُّ على الخالِقِ، كلُّ آيَةٍ منها تدلُّ على صِفَةٍ مُعيَّنَةٍ

من صفاتِهِ، فإذا كانت الآياتُ عظيمةً دلَّتْ على وجودِ الخالِقِ وعلى قُدرَتِهِ، وإذا ظَهَرَ فيها إحكامٌ وإتِّقانٌ دَلَّت على الحِكمَةِ، وهكذا.

فالآياتُ بعُمومِهَا دالَّةٌ على وُجودِ الخالِقِ، ثمَّ كُلُّ آيَةٍ منها لها دِلالَةٌ خاصَّةٌ تَدُلُّ على ما تَدُلُّ عليه من هذه الصِّفاتِ الخاصَّةِ، ومثال الآيات الكَونِيَّةِ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧]، وفي سُورَةِ الرُّومِ عِدَّة آياتٍ ذَكَرها الله عَزَّوَجَلَّ.

النوعُ الثَّانِي من الآياتِ: الآياتُ الشَّرْعِيَّةُ، وهي ما جاءتْ بها الشَّرائعُ.

وها هنا فائِدَةٌ: وهي أن الآياتِ الشَّرْعِيَّةَ يعْجزُ البشَرُ أن يأْتُوا بمِثْلِهَا؛ لأنها كلَّهَا إصلاحٌ ودَرءٌ للمَفاسِدِ، فكُلُّ الشرائعِ جاءتْ بالإصْلاحِ، ولكنَّ الإصلاحَ يكونُ في كُلِّ أُمَّةٍ بحسَبِهَا، فالشِّدَّةُ على اليهودِ مناسِبَةٌ، والتَّخْفيفُ على النَّصارَى مناسِبٌ، والجَمعُ بينهما في هذه الأُمَّةِ غايةُ المناسَبَةِ، وإن كان دِينُ الإسلامِ يُسْرًا لا حرجَ فيه بالنِّسْبَةِ إلى دِينِ النَّصارَى، دِينُ النَّصارَى فيه أشياءُ كثيرةٌ مسامَحٌ فيها لأن حالهم تُناسِبُ ذلك، ودِينُ اليَهودِ فِيه شِدَّةٌ وأغْلالٌ حَطَّهَا الله عنا بهذا النَّبِيِّ الكريمِ، فهذِه الشرائعُ كُلُّها آياتٌ تَدُلُّ على كمالِ مَنْ شَرَّعها وسنَّها لعِبادِهِ، ولكنَّ النوعَ الأوَّلَ من الآياتِ الإيمانُ بِه صَعبٌ والوصولُ إلى حَقِيقتِهِ سَهْلٌ، لكنَّ الثاني هو الذي يكونُ فيه نوعٍ مِنَ الصُّعوبَة؛ لأنه لا يعرفُ كمالَ الشَّريعَةِ ودِلالَتِهَا على مَنْ شَرَّعها إلا من تَعَمَّق فيها، وعَرَفَ الحُكْمَ والأسرارَ التي تَتَضَمَّنُهَا هذه الأحكام، ولهذا يَنْبَغِي لنَا التَعَمُّقُ في معرفة حِكَمِ التَّشْرِيعِ؛ فكَوْنِي أعْرِفُ أن هذا حلالٌ أو هذا حرامٌ؛ هذا قد يكون سَهلًا، لكن كوني أعرِفُ لماذا حُرِّم أو لماذا حُلِّل هذا هو المهِمُّ جدًا، وهو الذي يَتَبَيَّنُ به كونُ الشَّرعِ منْ آيات الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي: يومُ القيامَةِ، يعني: كذَّبُوا باللِّقَاءِ اللازمِ منه البعثُ؛ لأن البعثَ لازِمٌ من لَوازِمِ اللِّقَاءِ، لا لقاءَ إلا بِبعْثٍ، ولقاءُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ثابتٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ المسلمينَ، قالَ اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، يعني: فأَنْتَ مُلاقِيهِ فجَازِيك على هذا الكَدْحِ إما خَيرًا وإما شَرًّا.

وقوله: ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ يعْنِي: البَعْثَ؛ لأن المنْكِرينَ للبَعْثِ لا يؤمنونَ بلِقاءِ الله؛ لأنهم يقولونُ -والعياذ بالله- إنهم إذا كانُوا عِظامًا ورُفاتًا فلا يمكِنُ أن يُبْعَثُوا خَلقًا جديدًا، فكذَّبوا بهذا.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ جَزاءُ هذا التَّكذيبِ اليأسُ مِنْ رَحمةِ الله، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: جَنَّتِي]، فأوَّلها إلى الرَّحمَة المخلوقَةِ لا إلى الرَّحمةِ التي هي صِفَةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذلك لأنَّ الرَّحمَةَ المضافةَ إلى اللهِ قد يُرادُ بها دَارُ رَحمتِهِ فتكونُ مخلوقَةً، كما في الحديث القُدُسِيِّ أن الله عَزَّوَجَلَّ قال للجنَّةِ: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1]، وتُطْلق على الرَّحمة التي وُصِف الله عَزَّوَجَلَّ بها، وحينئذٍ تكونُ صفةً مِن صِفاتِ اللهِ غيرَ مخلوقَةٍ، ومنه قوله: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر:٧].

فما المرادُ بالرَّحمةِ في هذه الآية؟ هل المرادُ بها النوعُ الأوَّلُ: الرّحمةُ المخلوقةُ التي هي موضِعُ الرَّحمةِ، أو الرحمةُ التي هي صِفَتُهُ؟

الظاهرُ: أن المرادَ بها الرَّحمةُ التي هي صِفَتُهُ؛ لأنه إذا أُطلِقَتِ الرَّحمةُ مضافَةً إلى الله فالمرادُ بها الصِّفَةُ، فلا نَحمِلُها على أنها موضِعُ الرَّحمةِ إلا إذا وُجِدتْ قَرينَةٌ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب تفسير سورة (ق)، رقم (٤٥٦٩)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٦).

فإذا وُجدت قرينةٌ عَمِلْنا بهذه القَرينَةِ، وإلَّا فالأصلُ أنها صِفَةٌ من صفاتِ اللهِ.

فعلى هذا يكون معنى الآية: يَئسوا من أن أَرْحمَهُم، وإذا لم يرحْمُهم اللهِ لم يَدْخُلوا الجنة، وهذا هو المعنى الصَّحِيحُ للآية، وما ذَكَرَهُ المُفَسِّر فهو محتَمَلٌ، فلا نُنكرُ عليه إنكارًا شديدًا؛ لأن الرَّحمةَ كما تُطْلَقُ على الصِّفَةِ تُطلقُ على موطنِ الرَّحْمَةِ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ هاتان جملْتانِ كُبرى وصُغرى أيضًا: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأٌ ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ﴾ مبتَدأٌ وخَبرٌ، والجملةُ خَبرٌ، كلُّ هذا لكمالِ التَّهْديدِ لهم، فهم حُرِموا من الخيرِ ووَقَعُوا في الشَّرِّ؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ مُؤْلِمٌ]، والعَذابُ مَعناه العُقوبةُ، يعني: لهم عُقوبة أليمةٌ، أي: شَديدَةٌ مؤلِمَةٌ والعياذُ بالله، وذلك في النارِ، ولا حاجَة إلى شَرح ما في هذه النَّارِ من العَذابِ لأنه معلومٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن الكفَّار لا يدْخلونَ الجنَّة؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾.

الفَائِدةُ الثَّانِية: إثباتُ الآياتِ الكونيَّةِ والشرْعِيَّةِ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

الفَائِدةُ الثَّالِثَةُ: رحْمةُ اللهِ تعالى بالعِبادِ؛ حيثُ أظهرَ لهم مِنَ الآياتِ ما يؤمنون على مِثْلِهِ، فمن نِعْمة الله تعالى أن يُرِيَ عبادَه مِن آياتِه ما يؤمنونَ على مِثْلِهِ، ولهذا كلَّما ظَهَرَ للإنسانِ مِنْ آياتِ اللهِ شيءٌ كانت نِعمَةُ اللهِ عليه أكبرُ وأشدُّ في رُسوخ إيمانِهِ.

ومن ذلك الكَراماتُ التي حَصَلت لبعضِ أولياءِ اللهِ، فإنها تَزِيدُ في إيمانهم وتؤيدُ ما كانوا عليه مِنَ الحَقِّ، قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكَثُرَتِ الكراماتُ في زَمنِ التابِعينَ دونَ الصَّحابَةِ؛ لأن الصحابة عندِهُم منَ الإيمانِ ما ليس عندَ التَّابِعين، فليسوا في حاجَةٍ إلى كَراماتٍ تُقَوِّي إيمانَهُم كحاجَةِ التَّابِعينَ»، ذكر هذا في كتاب الفُرقانِ[1]، وهذا حَقٌّ، فإنك إذا تأمَّلْتَ الكراماتِ التي ذُكِرَتْ وجَدْتَها في التابِعين أكثر، والمهِمُّ أن إظهارَ الآياتِ للإنسانِ سواء كانت شَرعِيَّةً أم قَدرِيَّةً: من نِعمةِ الله عليه؛ لأنها تَزيدُ في إيمانِهِ ورُسوخه في القَلبِ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: إثباتُ رؤيةِ الله عَزَّوَجَلَّ، لقولِهِ: ﴿وَلِقَآيِهِۦ﴾، فإنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ استدَلُّوا بذلك على إثبات الرُّؤيَةِ؛ لأن الملاقاة إذا لم يكنْ مانعٌ فلا بُدَّ حينئذ مِنَ الرُّؤية، ولا مانِعَ يمنَعُ.

وهذه المسألةُ فِيها خِلافٌ كثيرٌ بين أهلِ السُّنَّةِ وأهلِ البِدَعِ، والصوابُ الذي دلَّ عليه الكِتابُ والسُّنة إثباتُ رؤيةِ الله تعالى بالعين، وأنه في الآخرة يُرَى، أما في الجنَّـةِ فيرَاهُ المؤمنون ولا يَراهُ غيرُهم لأنهم ليـسوا فيها، وأما في عَرصاتِ القيـامة فالصَّحِيحُ أنه يَراهُ المؤمنونَ ويَراه المنافِقُونَ، لكنَّ المنافقين يَرَوْنَهُ رؤيةَ تَنْديمٍ لا رؤية تَنْعِيمٍ؛ لأن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يظهر لهذه الأمَّةِ وفيها منافِقُوها فيُكْشَفُ لهم عَنْ سَاقِهِ عَزَّوَجَلَّ ويأمُرُهم بالسُّجودِ، فمن كان يسْجُد لله سَجدَ، ومن كان لا يسْجُدُ إلا رِياءً وسُمْعَةً يَعْجَزُ فلا يسْجُدُ.

فالمؤمنون يَرْونَه رؤيةَ تكريمٍ، وهؤلاء يَرونَه رؤيةَ تَنْديم؛ لأنهم إذا حُجِبُوا عنه بعدَ ذلك صارَ أشَدَّ وقْعًا في نُفوسِهِم، مثلُ المنَّافِقِين الذين يُعطَوْنَ نورًا يوم القيامة

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، (ص: ١٦٦).

ثم يُحْجبُ عنهم، فهذا وقْعُه عليهم أشدُّ من الذين لم يُعْطُوا نورًا مِنَ الأصْلِ.

إذا قالَ قائلٌ: هذه الرُّؤيَةُ كيفَ تُقِرُّونَها وتؤمنون بها مع أن الله جَلَّ وَعَلَا يقولُ لموسَى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، ويقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

فالجوابُ: أن قولَهُ لموسَى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ جوابٌ لقولِ مُوسَى: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ وهو يريدُ رؤيةَ ربِّه الآن، ولهذا قال: ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، فدَلَّ هذا على أن نَفْي الرُّؤيَةِ في ذلك الوقتِ، وهذا حَقٌّ، فإن الله جَلَّ وَعَلَا لا يُرَى في الدُّنْيَا لعَجْزِ الإنسان عن تَحمُّلِ ذلك، وقد ضَربَ الله لرَسولِه موسَى ﷺ مَثلًا بالجَبلِ؛ فإنَّ الله تعالى لما تَجَلَّى للجبلِ جَعلَهُ دَكًّا وخرَّ موسى صَعِقًا.

أما قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، فهي إلى الدَّلالَة على ثُبوتِ الرؤية أقربُ من الدَّلالةِ على نَفْي الرؤية؛ لأن الله -جل ذكره- لم يَقُلْ: لا يُرَى، بل قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ ونَفْيُ الأخَصِّ لا يدُلُّ على نَفْي الأعَمِّ؛ لأن الإدراكَ أخصُّ من مُطلَقِ الرُّؤيةِ، وهذه قاعِدةٌ معروفةٌ عندَ أهلِ العِلم.

فهنا نقول: إن الآية تَدلُّ على أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُرَى؛ لأنه لو لم يُرَ لقال: لا تَراهُ الأبصارُ، فلما قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ عُلِمَ أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُرَى لكن لا يُدرَك، ونحن نقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ حتى في الآخرة، فإنه لا يُمكِنُ الإحاطةُ بالله عَزَّوَجَلَّ، لكنَّه يُرَى.

وضَرْبُ المثل لا بأس به لكن مع الفَرْقِ: أَلَسْنَا نَرَى الشمسَ ولا نُدْرِكُهَا؟ بل نَرى أصغرَ حيوانٍ بالعين ومع ذلك لا ندرك ما فِيه مما خلَق الله في جوفِه أو في جِلْدِهِ.

فالحاصلُ: أنه لا يلزمُ مِن نَفْي الإدراكِ نَفْي الرؤية، بل هو دَلِيلٌ على ثُبوتِ الرُّؤيَةِ؛ ولهذا استدَلَّ أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ بهذه الآية على ثُبوتِ الرُّؤيَةِ.

أما الكفَّارُ فإنهم لا يَرونَ الله عَزَّوَجَلَّ يومَ القِيامَةِ، والذي يستدل بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، نقول: قد دلَّ قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، على أن الكافِرَ لا يَرى الله تعالى يومَ القِيامَةِ.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: وجوبُ الإيمانِ بلقاءِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الله تعالى عاقَبَ الذينَ لا يؤمِنونَ بذلك باليأسِ مِن رَحمَتِهِ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: ثبوتُ الرَّحمةِ لله جَلَّوَعَلَا؛ لقَولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾، والإضافةُ هنا إن قلنا: إن المرادَ بالرَّحمةِ الجنَّةَ، فهي من بابِ إضافَةِ المخْلوقِ إلى خالِقِهِ تَشْرِيفًا وتَكْريمًا، وإذا قُلنَا: إنها صفةٌ من صفاتِ الله، فهي من بابِ إضافَةِ الصفةِ إلى مَوْصوفِها.

والمضافُ إلى الله تعالى نوعان: إما أعيانٌ وإما أَوْصافٌ، والأعيانُ إما أن تكونَ إضافَتُهَا إلى الله على سبيلِ العُمومِ أو على سبيلِ الخُصوصِ.

فالأولُ الذي يُضافُ إلى الله على سبيلِ العُمومِ: يرادُ به أن الله عَزَّوَجَلَّ خالقٌ لهذا الشيءِ، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾ [الجاثية:١٣]، وهذا يَشْمَلُ كلَّ ما في السمواتِ والأرضِ، وإما أن يكون خاصًّا يُرادُ به التَّشْرِيفُ والتكريم، مثل: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ و(بيتُ اللهِ) و﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ وما أشبه ذلك.

أما إذا كان المضافُ إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وَصْفًا لا يقومُ بغَيْرِهِ فإنه يكونُ صِفَةً

منْ صفاتِ الله، مثلُ: كلام الله، وقُدرة الله، وعِزَّة الله، وما أشبه ذلك، وبهذا استدَلَّ أهلُ السُّنَّةِ على أن القرآنَ غيرُ مخلوقٍ؛ لأن القرآنَ وصْفٌ يقوم بالمتكَلِّمِ، فهو كلامٌ يقومُ المتكلِّم به، فهو من إضافَةِ الصِّفة إلى الموصوفِ بها.

لو قال قائل: أضافَ الله عَزَّوَجَلَّ رُوحَ آدمَ ورُوحَ عِيسى -عليهم السلام- إليه؛ هذه الإضافة مِنْ أيِّ الأقْسامِ؟

فالجواب: هذه الإضافةُ من باب إضافَةِ المخلوقِ إلى الخالقِ تَشْريفًا، وذلك لأنَّ الرُّوحَ عينٌ لا صِفَة؛ لأنها تُقْبَرُ وتُلَفُّ في الكفَن -كما جاء في الحديث-: «وَيُصْعَدُ بِها إلى اللهِ تعالى»[1]، فهي عَيْنٌ لكنها عَينٌ غيرُ مَعْلومَةٍ ليس لها نَظِيرٌ فما نُشَاهِدُهُ، فهي ليست كالأعْيانِ الجِسْمِيَّةِ، ولهذا قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾، ثم قالَ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥]، وأما قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء:١٧١]، أي: مِنَ الأَرْواحِ التي يَخْلُقُها لأنَّ الأرْواحَ مخلُوقَةٌ لله، وليس المعْنَى أني جَعلْتُهُ جُزءًا مِنِّي، فهذا ما أحدَثَهُ إلا الحُلولِيَّةُ مِنَ النَّصارِى وأشبَاهِهِمْ.

لو قال قائلٌ: عبدُ اللهِ وعبدُ الرحمنِ مِنْ أيِّ أقسامِ الإضَافَةِ؟

فالجواب: هذه الإضَافَةُ تكون على سبيلِ الخُصوصِ وعلى سبيل العُمومِ، فإذا قلنا: (عبدُ الله) فالمرادُ العُبودِيَّةُ العامَّةُ، وإذا قُلنا: (عبادُ الرَّحْمنِ) فالمرادُ الخُصوصُ.

الفَائِدةُ السَّابِعة: إثباتُ العُقوبةِ للكَافِرينَ، وأنها عقوبةٌ شَدِيدةٌ، لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، والآياتُ في هذا كَثِيرةٌ جِدًّا، ولا حاجَةَ إلى كثْرةِ الكلامِ فيها لأنها واضحةٌ والحمدُ لله.

---

(١) معناه عند: أحمد (٤/ ٢٨٧) (١٨٥٥٧)؛ الحاكم في المستدرك (١/ ٩٣) (١٠٧)؛ مصنف ابن أبي شيبة (٣/ ٥٤) (١٢٠٥٩)؛ الطبراني في الكبير (٣/ ٥٨) (٢٦٧٦).

الآيــة (٢٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٢٤].

قوله تعالى في قِصَّةِ إبراهيمَ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾، الجُملةُ على رَأيِ المُفَسِّر مُعترِضَةٌ من قولِهِ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ [العنكبوت:١٨]، إلى قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت:٢٣]، هذا ما ذَهَب إليه المُفَسِّر وابنُ جَريرٍ وأكثرُ المفسِّرينَ.

وقال بعضُ المفسِّرينَ: إن الكلامَ كلَّه مِن كلامِ إبراهيمَ وليس فيه شيءٌ معْتَرَضٌ، واختارَ هذا ابنُ كَثيرٍ[1]، وقال: إن الكلامَ كلَّه مِن كلامِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكن قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى﴾ [العنكبوت:٢٣]، فيَرَوْنَ أنه من كَلامِ اللهِ.

أما قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠]، فالظاهِرُ مِنْ سياقِ الآياتِ أن الكلامَ ليس مِن كلامِ إبراهيمَ، بل هو مِنْ كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مُعْتَرِضٌ في القصة، والقول بأنه مِنْ كلام إبراهيمَ لا يستَقِيمُ مع السياقِ إلَّا بالتكلُّفِ، وذلك بأن نقولَ: لما كان رَسُولًا مِنَ اللهِ كان خطابَ الله تعالى على لِسَانِهِ وإن كان مُضَافًا إلى الله، فهذا هو وجهُ التكَلُّفِ.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٧٠).

أما قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ [العنكبوت:١٨]، فهذا مِنْ كلامِ إبراهيمَ، ولا إشكالَ في ذَلِكَ؛ لأنه يُوجدُ أُمَمٌ قد سَبقت إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وأما قوله تعالى: (أَوَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ) على قراءةِ التَّاءِ، فلا إشكالَ أنه مِنْ كلامِ إبراهيم؛ لأن إبراهيمَ يُخاطِبُهم ويقولُ هذا الكلامَ، وأما على قراءةِ الياءِ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ فظَاهِرُهُ أنه مِن كلامِ اللهِ معترَضًا في القصَّةِ.

قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾، هذا جوابٌ شَديدٌ والعِياذُ بالله، لكن فيه إشكالٌ من حيثُ الإعرابِ، فلماذا نَصبَ اسمَ (كان) والمعروف أن (كان) تَرفعُ الاسمَ وتنْصِبُ الخبرَ؟

والجواب على هذا: إن قولَهُ: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ هو اسم (كان)، وقوله: ﴿جَوَابَ﴾ خبرٌ مُقدَّمٌ لـ(كان)، والتقدير: فما كان جَوابَ قومِه إلا قَولُهم.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ هذه تُفيدُ الحَصرَ، يعني: ما كان الجوابُ بالاستِسْلامِ ولا كان بالرَّدِّ الجميلِ، ولكن كان -والعياذ بالله- بمقامِ التَّهديدِ بالقوَّةِ، وهكذا كلُّ إنسان لا يستطيع ردَّ الحقِّ فإنه يُهدِّدُ بالقوَّةِ إذا كان له قُوَّة على خَصمِهِ، وإن لم يكن له قُوَّة صارَ يتكَلَّمُ بالسَّبِّ والشتْمِ، كما قال فرعونُ لموسَى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩]، عندمَا ناظَرَهُ، والمناظَرةُ في سورةِ الشُّعراءِ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ فسَخِرَ بِهِ: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، الجوابُ: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ثم رَماهُ بالجُنون: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، الجواب: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾،

أي: فأنتم المجَانِين في الحقيقةِ، لكن جاء بها بأسلوبٍ واضحٍ مُنطِقِيٍّ، أي: فإن كنتم عُقلاءَ فرَبُّ المشرقِ والمغرب الذي يأتي بالشمسِ مِنَ المشرقِ ويأتي بها مِنَ المغْرب هو اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأخِيرًا لما لم يستطع الإجابة: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٣-٢٩].

وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [الشعراء:٢٨]، يُشَبِّهُ قولَ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للَّذِي حاجَّه في اللهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، وهنا كانَ الجوابُ: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾، فهو تهديدٌ بالقُوَّةِ لا بالمنْطِقِ، وهو نَظيرُ ما حصلَ للرُّسُلِ وخُصمائِهم، فهي سِلْسِلةٌ لا تَتَفَرَّقُ، فقد أُوذِي محمدٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

فلو قالَ قائلٌ: هنا في هذه الآية قالَ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾، وفي آيةٍ أُخرَى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٦٨]، والجمعُ بينهما سَهْلٌ، فهنا قال بعضهم: اقتُلُوه، وقال بَعضُهم: حرِّقُوهُ، ثم قرَّ قرارُهُم على التَّحريقِ، والله أعلمُ، ونسألُ الله العافية.

قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾: (أو) هذه هل هي للتَّخْيِيرِ أو للشكِّ أو للتَّنْويعِ؟

فالجواب: هي للتَّنْويعِ، وليست للشَكِّ؛ لأن كلامَ الله لا يقَعُ فيه الشكُّ لكمالِ عِلمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا للتَّخْيِيرِ؛ لأنه خلافُ ظاهرِ القُرآنِ في سورةِ الأنبياءِ: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ﴾، فكان الرأيُ على التَّحْريقِ.

فإذا قال قائل: أليسَ الإحْراقُ يحصلُ به القَتْلُ؟

قلنا: بلى، لكن يحصُلُ التَّعْذيبُ فيه أكثرُ، ثم -والعياذ بالله- لحنُقْهِمْ وشدَّةِ ما في صُدورِهِمْ على إبراهيمَ رأَوْا أنه يُعذَّبُ بالنارِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكيمٌ، وتَجْري الأمورُ على مُرادِهِ وحِكْمتِهِ، فلَعَلَّهم لو قتَلُوه لما حصلتْ هذه الآيةُ العَظيمةُ، وهي: أن تكونَ النَّارُ بَرْدًا وسلامًا عليه، لكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ حَكيمٌ.

قوله: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ الآيةُ فيها حَذفٌ، والتقديرُ: فحَرِّقُوه فأنجاهُ الله مِنَ النَّار، أي: خلَّصَهُ من النَّار، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الَّتِي قَذفُوه فيهَا بأَنْ جَعلَها بَرْدًا وسَلامًا]، ونقولُ ذلك لأن اللهَ قالَ: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ فكانت بَرْدًا وسَلامًا، قال أهلُ العِلمِ: لو أنَّ الله جَلَّوَعَلَا قال: ﴿بَرْدًا﴾ فقط لكانتْ ثَلْجًا عليه، ولكنه قال: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لأجلِ أن يسْلَم، وفيه أن البَرْدَ يقتُل كَما أن الحَرَّ يقْتل، ولولا أن البردَ يقتُلُ ما احتِيجَ إلى قوله: ﴿وَسَلَٰمًا﴾.

قوله: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: إنْجائِهِ منْها ﴿لَأَيَٰتٍ﴾] اسم إنَّ، واللام للتَّوكيدِ، وكسرتْ هنا لأنها جمعٌ خُتِمَ بألفٍ وتاءٍ، قال ابنُ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَمَا بِتَا وَأَلِفٍ قَدْ جُمِعَا ... يُكْسَرُ فِي الجَرِّ وفِي النَّصْبِ مَعَاً

فتُنصبُ بالكسْرةِ، فالآياتُ جمعُ آيَةٍ وهي العَلامةُ، والمرادُ هنا الآيات الكونيَّةُ لا الشرعيَّةُ وجمَعَها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وبيَّن وجْه الجمعِ فقال: [هِي عَدَمُ تأثِيرِهَا فيه مَع عِظَمِها، وإخْمادِهَا، وإنشاءِ رَوْضٍ مكانَها في زَمنٍ يَسِيرٍ]، هكذا بيَّن المُفَسِّر الآيات، وهي:

أولًا: أنها لم تُؤَثِّرْ مع عِظَمها؛ لأنهم جمَعُوا حَطبًا عظيمًا، وأضْرَمُوا نَارًا عظيمة،

---

(١) البيت رقم (٤١) من ألفيته.

حتى ذُكِرَ أنهم ما استَطَاعُوا أن يقْربُوها، وأنهم أَلْقَوْه بالمَنْجَنِيقِ فحَذَفَ ورَمَي مِن بُعدٍ، والله أعلم.

ثانيًا: إخمادُهَا، أي كونها تُخْمَدُ وتَهْدَأُ من اللَّهبِ في لحظة، هذا من آياتِ الله عَزَّوَجَلَّ، ونحنُ -والله أعلم- لا نعرفُ هل خَمَدَتْ أم أنها بَقِيَتْ، والظاهر أنها بَقِيتْ لأنه قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء:٦٩]، والله عَزَّوَجَلَّ ما أَمَرَهَا أن تَخْمُد بل قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾، وعلى هذا فيكون في كلامِ المُفَسِّر نظرٌ، ويكونُ الصوابُ أنها بَقِيتْ على ما هي عليه ولكنها كانتْ بَرْدًا وسلامًا على إبراهيم، وهذا أظهرُ في الإعجازِ.

ثالثًا: أنها كانتْ رَوضَةً، لكن يكفي أنها كانتْ بَردًا وسلامًا على إبراهيم.

وعنْدِي أن الآيات أكثرُ مما قال المُفَسِّر، فإن من الآيات:

- إبطالُ كَيدِ هؤلاءِ.
- ومنها: صبْرُ إبراهيمَ وتحمُّلُهُ؛ لأن حقيقةَ الأمْرِ أن هذا شيءٌ لا يقْوى عليه إلَّا أمثالُ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فهو مِنْ أُولِي العَزمِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.
- ومنها: انْقلابُ هذه الحرارةِ إلى بُرودَةٍ.
- ومنها: انْقِلابُ كونها سَبَبًا للهَلاكِ إلى أن كانَتْ سَلامًا عليه.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يُصَدِّقونَ بتوحيدِ اللهِ وقُدرَتِهِ؛ لأنهم المنْتَفِعُونَ بِهَا]: هذه الآياتُ قَيَّدهَا اللهُ بأنها ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ احْتِرَازًا مِنَ القومِ الذين لا يؤمنون، فالقَومُ الذين لا يؤمنونَ وإنْ كانَتْ الآياتُ أمامَهُم لا ينْتَفِعُونَ بها، فليست لهم آياتٌ، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

وهل نَعلَمُ في الكلامِ شَيئًا أعْظَمَ آيةٍ من كلامِ اللهِ؟

الجواب: لا نعلمُ، وهو الواقِعُ، ومع ذلك مَنْ ليسَ بمؤمنٍ إذا تُلِيَ عليه القرآنُ قال: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ولذلك إذا رَأَيْتَ مِنْ نفسِكَ أنك لا تَتَأَثَّرُ بالقرآنِ فاتَّهِمْ نفسك؛ لأن الله تعالى لم يَقُلْ عن أحدٍ إنه لا ينْتَفِعُ بالقرآنِ، إلا عن المكذِّبِينَ الذين لا يرون في القرآن شيئًا يأخذُ بِلُبِّهِمْ ورَوعِهِمْ، وهذه المسألةُ نسألُ الله النَّجاةَ منها؛ لأن كَثِيرًا من النَّاسِ يَقْرؤون هذا القرآنَ ولكنَّهُ لا يَهُزُّ مشاعِرَهُمْ، وهذا خطيرٌ جِدًّا على الإنسان، فيجبُ على الإنسان أن يتَّهِمَ نفسه بهذا الأمر حتى يُعدِّلَ ما مَالَ منهُ ويُقوِّم ما اعْوَجَّ.

وعلى هذا نقول: إنَّ الآياتِ الكونِيَّةَ والشرعيَّةَ لا ينتَفِعُ بها إلا المؤمنُ، أما غيرُ المؤمنِ فلا ينْتَفِعُ بآياتِ الله؛ لأنها تمُرُّ عليه وكأنها أمرٌ عادِيٌّ أو بمقتَضى الطَّبيعَةِ، فالزلازلُ والبَراكِينُ التي تُصيبُ الناس يقولون: هذه براكينُ عادية وليست بشيء، والرياحُ العاصِفَةُ العظيمة التي تُدمِّرُ المحاصيل والأشجارَ، وكذلك ما يحْصُلُ مِنَ الأمطارِ المغْرِقَةِ؛ كل هذه الآيات يقولون: إنها ظواهِرُ طبيعِيَّةٌ، وكأنها ليست عُقوبة مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ، فلم يَنْتَفِعُوا بهذه الآيات، والآن بَدَؤوا في الكُسوفِ، يقولون: هذه أسبابٌ ظاهِرَةٌ، ونسألُ اللهَ السَّلامَة، فهم ينْشُرونَهَا قبلَ أن تَقعَ لأجلِ أن تأتِيَ إلى الناس وقد اطمَأنُّوا إليها واستقرتْ في نُفُوسِهِمْ فلا تُرْعِبُهم ولا تخوفُهم، بينما نَجِدُ النَّبِيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ»[1]، وهؤلاء جعلوها كأنَّها هلالُ عِيدٍ، حتى إن بعضهم خاطَبَنا بذلك وقال:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الكسوف، باب قول النبي ﷺ: «يُخَوِّفُ اللهُ عِبَادَهُ بالكُسوفِ»، رقم (١٠٠١)؛ ومسلم: كتاب الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف الصلاة جامعة، رقم (٩١١).

نحنُ نُخبرُ الناسَ لأجلِ أن يتهيَّئوا ويترَقَّبوا لذلك، حتى يأتيَ الكُسوفُ وهم مستعدون له، كأنه هلالُ عيد يَخْرُج حتى يخْرُجوا إلى المصَلَّى، وهذا غَلَطٌ.

وأنا أَذْكُرُ، والمتقدِّمُ في السِّنِّ يَذْكُرُ أن الناس كانوا إذا جاءَ الكسوفُ يحصلُ عندهُم مِنَ الخوفِ والانزعاجِ والفَزعِ كما أمرَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ به، الفَزَعُ إلى المسجدِ والبكاءِ، أما الآن -فنسأل الله العافية- تَرَى بعضَ الناس يشاهدُ الكُسوفَ، وعنده آلاتُ لهو تُغَنِّي وما أشبه ذلك؛ المهِمُّ أن هذه الآيات لا ينْتَفِعُ بها إلا المؤمِنُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: بيانُ طُغيانِ قومِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث إنه يَدُلُّهُم على الحقِّ ويكون هذا جوابُهُمْ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: اختلافُ قومِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما يَصْنَعونَ به ثم قرَّروا إحراقَهُ، وذلك بناء على الجَمعِ بين هذه الآية وبينَ آيةِ الأنبياء، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: تمامُ قُدْرَةِ اللهِ، حيث كانت هذه النَّارُ المحرقةُ بَرْدًا وسلامًا على إبراهيم؛ لأن هذا مِن آياتِ الله الدَّالَّةِ على قُدرَتِهِ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: أن كلَّ مَن قامَ لله فإنَّ الله يُنَجِّيهِ بمَفَازَتِهِ، يعني: يُنْجِيهِ في موضعِ هَلاكِهِ، قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُقَدِّرُ مِنَ الأمورِ لإنْجاءِ أوليائِهِ ما لا يخْطُرُ بالبالِ، وإلا فمَن يخطُرُ ببالِهِ أن هذه النارَ العَظيمةَ تكون بَرْدًا وسَلامًا؟ ولكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُقَدِّرُ لأوليائِهِ مِن أسبابِ النَّجاةِ ما لا يخْطُرُ لهم على بالٍ.

الفَائِدةُ السَّادسَةُ: أن الجماداتِ تَعْرِفُ رَبَّها فتَمْتثِلُ لأمرِهِ؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا قالَ لهذه النَّارِ: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾.

الفَائِدةُ السَّابِعة: أن الأسبابَ لا تَفْعَلُ فِعلَها إلا بإرادَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، فالأسبابُ مهما قَوِيَتْ لا تَفعلُ الفِعلَ إلا بإذنِ الله عَزَّوَجَلَّ، فمعنى أن اللهَ تعالى قد يمْنَعُ تأْثِيرَها، فالنارُ سببٌ للإحْراقِ بلا شَكٍّ، وهنا سُلِبتْ هذه السَّبَبيةَ ولم تؤثِّر.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: أن الآياتِ لا ينْتَفِعُ بها إلا المؤمنونَ، لقولِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وقوله هذا لا ينَافي ما جاءَ في عِدَّةِ آياتٍ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وكقولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وما أشبَه ذلك؛ لأن العَقلَ والتَّفَكُّرَ ونحوهما من مقْتَضياتِ الإيمانِ، فكلَّما كانَ الإنسانُ أقْوَى إيمانًا كانَ أكثرَ عَقلًا وتفكُّرًا، والتفكُّرُ أيضًا يدْعُو إلى الإيمانِ، فهُمَا متَلازِمَانِ.

لو قالَ قائلٌ: هل ثبتَ أن أحدَ الصَّحابة نَجَا مِنَ النَّارِ بعدَ إلقائه فيها وكانت آيةً كإبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟

فالجواب: نعم ثبت ذلك، ذكره ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في البداية والنهاية[1]، وقال: إنه ما مِنْ آيَةٍ لنبيٍّ سابِقٍ إلا كانت آيةً للنَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أو أعظمَ، لكن منها ما جَرى للرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نفْسِهِ، ومنها ما جَرَى لأمَّته، وما جَرى لأُمَّتِه فإنه من آياتِهِ لأنه يشهدُ بصِحَّةِ الطريقةِ التي هُم عليها، فيكونُ ذلك مِنْ آياتِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣١٠).

الآيـة (٢٥)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ﴾ إبراهِيمُ ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ تَعْبُدُونَها، و(ما) مَصْدَرِيَّةٌ ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ خبرُ (إن)، وعلى قِراءَةِ النَّصْبِ: مفعولٌ له، و(ما) كافَّةٌ، المعنى: تَوادَدْتُم على عِبادَتِها].

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيَّن لنا أن قولَهُ: ﴿مَّوَدَّةَ﴾ فيه قِراءتانِ سَبْعِيَّتانِ: قراءة الرفعِ: (مَوَدَّةُ)[1]، وعلى هذه القراءةِ المُفَسِّر أعربَ (ما) مَصْدَرِيَّةٌ، لا كافَّة ولا موصولة، والتقديرُ على رأيه: إن اتخاذِكُم من دون الله أوْثانًا مودةُ بيْنكم، فيكونُ المصدرُ المنْسَبِكُ مِن (ما) والفعل اسم (إن) و(مودة) خبرُ إن، ويكون قولُه: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ شِبْهُ الجملة حَالًا مِنْ أوثانٍ؛ لأنها قُدِّمَتْ عليها.

وعلى قراءةِ النَّصْبِ يقولُ المُفَسِّر: إن (مودةَ) مفعولٌ لَهُ، يعني: مَفْعولًا لأجله، يعني: إنما اتَّخَذْتُم مِنْ دونِ اللهِ أوْثانًا لأجلِ المَوَدَّةِ بينكم، ولكن على هذه القراءة

---

(١) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي، انظر: تفسير الطبري (١٨/ ٣٨٢)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٣٣٨).

(ما) كافة، فتكونُ داخِلَةً على (إن)، و(ما) الكافة إذا دخلتْ عَلَى (إن) تفيدُ الحَصْرَ، يعني: ما اتخذتُمُ الأوثانَ إلَّا لأجلِ المَوَدَّةِ بينكم؛ هذا ما قاله المُفَسِّر.

وقيل: إنَّ (ما) اسمٌ موصولٌ -على قراءةِ الرَّفع- وإن العائدَ محذوفٌ، والتقدير: إن الذي اتَّخَذتُموه مِنْ دونِ اللهِ أوثانًا مودَّةُ بينكم، وعلى هذا التقْدِيرِ يكونُ مفعول (اتخذ) الأَوَّلَ محْذوفًا ومفعولها الثاني: أوْثَانًا، وعلى هذا فنقولُ:

(إن): أداةُ توكيدٌ تَنْصِبُ الاسمَ وترفعُ الخبرَ.

و(ما): اسمُها بمعنى الذي، و﴿ٱتَّخَذۡتُم﴾: صلةُ الموصُولِ، والعائدُ محذوفٌ، والتقديرُ: اتَّخذتُموه، و﴿أَوۡثَٰنٗا﴾ مفعولٌ ثان لـ(اتَّخذ)؛ لأن (اتخذ) تَنصبُ مفعولَينِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء:١٢٥].

وهذا التقديرُ الذي ذَكرْنَاه يُصلُح حتى على قِراءةِ النَّصْبِ: إن الذي اتَّخذْتُموه أوثَانًا لأجلِ المودَّةِ بينكم لا ينفعكم، فيكون الخبرُ على قِراءةِ النَّصْبِ محذوفًا، والتقدير: لا يَنْفَعُكُمْ.

وعلى القول بأن (ما) مَصدَرِيَّة أو كافَّة، نقول: إن المفعولَ الثاني أيضًا محذوف، والتقدير: آلهةً؛ كقوله تعالى: ﴿قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ والمعنى: اتخذْتُم هذه الأوثانَ آلهةً مودَّة بينكم.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المعْنَى: تَوادَدْتُمْ على عِبادَتِهِمْ]، لأنَّ أهلَ الشرِّ -والعياذ بالله- يتوادُّونَ على فِعلِ الشَّرِّ، كما أن أهلَ الخيرِ يتَنَاصَرُونَ أيضًا على فِعلِ الخيرِ، يعني: إن الذي اتخذْتُموه أوثَانًا لا يجمَعُكم عليه إلا المودَّة.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾ يجوزُ في كَلِمَةِ (بينَ) أن يضافَ إليها ما قَبْلَهَا،

ويجوزُ أن تقطَعَ عَنِ الإضافَةِ، فيجوزُ في غيرِ القُرآن: مودَّةٌ بينكم، ويجوز: مودَّةَ بينِكم، وهي هنا على هذا الوجه.

وقوله: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلِّقَةٌ بما قَبلَها، يعني أنها مودَّةٌ في الحياة الدنيا فقط، فهؤلاءِ المشْركون يتوادُّونَ في الشِّرك في الدنيا فقط، فتَجِدُهم متَناصِرين متَعاونِينَ؛ لكن: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ ومعنى قولِهِ: ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾: يعْني: يُنْكِرُهُ، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة:١٦٦]، وهذا لا شَكَّ أنه إنكارٌ وكُفْرٌ لبَعضِهِمْ ببَعْضٍ.

﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٧-٦٨]، ومجادَلَةُ الأتْباعِ للمَتْبوعِينِ في عِدَّةِ آياتٍ مِن القرآنِ، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾، وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ وما أَشْبَهَ ذلِكَ.

والحاصل: أن هذه المودَّة بينَ المُشْركينَ في الدُّنْيا فقط، أما يوم القيامة فإن كُلَّ واحدٍ منهُمْ يتبَرَّأُ مِنَ الآخر ويُنكِرُه ويَلْعنُه أيضًا، وهذا لا شك أنه من أشَدِّ ما يكونُ مِنَ العُقوباتِ، لكنَّ المتَّقِينَ خُلَتُّهم باقيةٌ إلى يومِ القيامَةِ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]، وأما هؤلاءِ فإن المودَّةَ فيما بينهم تَزُولُ في الموقِفِ.

وقوله: [﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ يَتبَرَّأُ القَادةُ مِنَ الأتْباعِ، ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ يَلْعنُ الأتْباعُ القادَةَ]، وهذه الآية عامَّةٌ، يتبَرَّأُ القادَةُ من الأتْباعِ

ويلْعَنُ الأتْباعُ القادَّةَ، وكذلك يَلْعنُ بعْضُهم بَعْضًا.

قوله: [﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾، مَصِيرُكم جَمِيعًا]: فالمأْوَى بمَعْنى المصْيرِ؛ لأنه مِنْ أَوْى يَأْوِي إذا صارَ إلى الشيءِ واتَّجه إليه.

قوله: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ هذه النَّارُ قد أعدَّهَا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للكافرين، وهي الآنَ موجودةٌ، ورآهَا النَّبِيُّ ﷺ ليلةَ أُسرِيَ به، وهي نارٌ لا يستطيعُ الإنسانُ أن يُدرِكَ في الدنيا ما فيها مِن العَذابِ، فإنها فُضِّلتْ على نارِ الدُّنيا بتِسعٍ وستِّينَ جُزءًا، والرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُ: «عَلَى نَارِكُمْ هَذِهِ»[1]، أي: على نارِ الدُّنيا، ونارُ الدُّنيا كما هو معروفٌ فيها نارٌ شَديدةُ الحرارةِ وفيها نَارٌ متوسطة وفيها نارٌ باردة بالنِّسْبَةِ لغَيرِهَا، ومع ذلك فإنها تُقَاس بأعلى نارِ في الدنيا فتفَضَّل عليها بتِسعٍ وستِّينَ جزءًا.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ مَانِعِينَ عنْهَا]: ﴿مِّن﴾: زائِدةٌ للتَّوكيدِ؛ لأن ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ أصْلَهَا مبتدأٌ، وخبرُهُ قوله: ﴿لَكُم﴾ يعني: لا أحدَ ينْصُركُمْ فيمنَعُكُم مِنْ دُخولِ النار، وهذا كلامُ إبراهيم ﷺ لأنه قالَ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٩٢)؛ ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها...، رقم (٢٨٤٣) عن أبي هريرة، ولفظه عند مسلم: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ». قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله؟ قال: «فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا».

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن الأصنامَ لا تنْفَعُ عابِدِيها.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن غايَةَ ما يحصُلُ لهم من هذه الأصنامِ المَوَدَّةُ بينهم في هذه الحياةِ الدنيا على الباطلِ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن أهلَ الباطِلَ قد يقَعُ بينهم موَدَّةٌ لحمايةِ باطِلِهِمْ والانتصارِ على الحقِّ، ولكن هذا لا يدُومُ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: أن هؤلاءِ الذين اجتَمَعوا على الباطِلِ إذا كانَ يوم القيامة؛ فإن بعْضَهُم يتَبَرَّأُ من بعضٍ ويلْعَن بعضهم بعضًا، لقولِهِ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

الفَائِدةُ الخامِسة: إثباتُ البعثِ، لقولِهِ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾، وسمِّي يومَ القيامَةِ لوجوهٍ ثلاثة:

أولًا: أن الناسَ يقومُونَ فيه مِن قُبورِهِم.

ثانيًا: أنه يقومُ فيه الأشْهَادُ الذين يَشْهدُونَ على الرُّسلِ أنهم بلَغُوا، وعلى الأمم بأنهم بُلِّغوا، وكذلك الجوارحُ تشْهَدُ على الإنسانِ بما عَمِل، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١].

ثالثًا: أنه يُقامُ فيه العَدْلُ قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧].

الفَائِدةُ السَّادسَة: إثباتُ النَّارِ، لقولِهِ: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾، وهي موجودةٌ الآن بدَليلِ قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

الفَائِدةُ السَّابِعة: أن هؤلاءِ المشْرِكينَ لا يجِدُون من يمْنَعُهم مِنْ عذابِ الله، لقولِهِ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ فلا أحدَ يمْنعُهم مِن عذابِ الله يوم القيامةِ.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: أن المتَّقِينَ تبْقَى مودَّتهم يومَ القِيامةِ، فهذهِ الفَائِدةُ ربما تُؤخَذُ مِنَ الآية بما يُسمَّى قياسُ العَكسِ، وقياسُ العكسِ أثْبتَهُ الرسولُ ﷺ في قوله: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»، يعني الإنسانَ إذا جامعَ زوْجتَهُ فهو صَدَقَةٌ، قالوا: يا رسولَ اللهِ أيأْتِي أحَدُنا شَهوتَه ويكونُ له فِيهَا أجْرٌ؟ قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ»[1]، الجوابُ: نعم، يكونُ عليه وِزْرٌ، فكذَلكَ إذا وَضعَها في الحلالِ كانَ له أجْرٌ.

هذا يُسَمَّى قياسُ العَكسِ، فمِنَ الممكنِ أن نقول: إذا كانَ هؤلاءِ المشركونَ يتبَرَّأُ بعضهم من بَعضٍ يوم القيامة ويلْعَنُ بَعضُهم بَعضًا، فالمتَّقُون الموحدُّون المخلِصُون على عكسِ ذلك، ومُرادِي هل يؤخذُ هذا الحُكم مِن هذه الآية، ولست أُريدُ إثباتَ الحكمِ نَفْسِهِ، فإن الحُكمَ ثابتٌ في آيةٍ أُخْرى، وهي قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].

• • ❁ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم الحديث (١٠٠٦).

الآيــة (٢٦)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:٢٦].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾ صَدَّقَ بإبراهيمَ، ﴿لُوطٌۘ﴾ وهو ابنُ أخِيهِ هارَان، ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيمُ ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ مِنْ قومِي، ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي: إلى حيثُ أمَرَنِي رَبِّي، وهَجَرَ قومَهُ، وهاجَرَ مِنْ سوادِ العِراقِ إلى الشَّامِ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ في مُلْكِه، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في صُنْعِهِ].

الإيمانُ في اللغةِ: التَّصدِيقُ، ولكنه ليس مطلَقَ التَّصديقِ، بل هو تَصديقٌ بطُمأنِينَةٍ؛ لأن مادة (آمن) هي مادَّةُ الأمْنِ، يعني فيها الهمزةُ والميمُ والنون، وعلى هذا فليسَ الإيمانُ مُطلَقَ التَّصديقِ، بل هو تَصديقٌ خاصٌّ متَضَمِّنٌ للطمأنينة في الشيءِ، وهو يتعَدَّى بـ(اللام) كما في هذه الآيـة، وكما في قوله تعالى: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥٓ﴾، وكذلك ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾، ونحو ذلك مِنَ الآياتِ.

ويتَعَدَّى أيضًا بـ(الباء) وهو كثيرٌ كما في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ﴾، وقوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ وما أشْبَه ذَلِكَ.

فهل هذا من بابِ التَّرادُفِ، أي: أن اللامَ بمَعْنَى الباءِ، والباء بمَعْنَى اللام، أم أن هناكَ فَرْقًا بينهما؟

يمكنُ أن يُقـالَ: إنه من بابِ التَّرادُفِ وأن كلَّ واحدةٍ منهما -أي من اللام والباء- تأتي مَحِلَّ الأخْرى لكثرَةِ استعمالِ هذه وتلك، ويمكِنُ أن يقـالَ بالتَّغايُرِ، وأن اللامَ تدُلُّ على الاستِسْلامِ، وأما الباء فتَدُلُّ على طُمأنِينةٍ في القلب، فـ(اللام) للاستسلامِ فيُضَمَّنُ ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾ بمعنى (انقاد)، وأما الباءُ فإنها تَدُلُّ على طمأنينة في القَلْبِ (فآمن به)، أي: اطْمَئنَّ به، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فرَّق بينهما في القُرآنِ الكريمِ في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦١]، وهذا في آيةٍ واحدَةٍ.

فالظاهرُ -والله أعلم- مِنْ موارِدِهما في القرآنِ الكريمِ أنهما ليْستَا مترادِفتَينِ وأن بينـهُما فَرْقًا، فما كانَ فيه معـنى الطمأنينةِ فهو بالباءِ، وما كـان مُضَمَّنًا لمعنى الانْقيادِ ولو ظاهِرًا فإنه يأتي باللَّامِ.

مثـالُ ذلك مِنَ القُرآنِ: سَحرةُ فرْعونَ، قال لهم فرعونُ مرَّة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ وقال مرة أخرى: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ فهل القولانِ معناهما واحد؟

الجواب: لا، بناءٌ على ما تقدَّمَ، فيكون معنى: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، أي: صدَّقْتُمْ به بطُمأنِينَةٍ واطمأنت قلوبُكُم بصِدقِهِ، ومعنى: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾، أي: تابَعْتُموهُ واستَسْلَمْتُمْ له، ولهذا قـال لهـم: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [الشعراء:٤٩]، وإذا أَخـذْنَا بمجموعِ الآيتـين يكونُ المعنى أنـه قرَّرَ أنهم اطمأنوا بِهِ وانقَـادُوا له، أي: أنهـم مُعترِفُونَ به وبصِدْقِه وانقَادُوا له أيضًا بسِحْرِهِ.

وعلى هذا لا يَصِحُّ أن نقول: إن (الباء) و(اللام) إذا اجتمعا افترَقَا في المعنى، وإذا افترقَا اجتَمعا؛ لأننا في الحقيقةِ لو تَتَبَّعْنا اللام لوجدناهَا تأتِي فِي أمورٍ لا تقْتَضِي الطمأنينة، ولهذا لم يأتِ في القرآن: آمنت لله، لكن جاء: أسلمت لله، فتَنْزِلُ كُلَّ آيةٍ علَى معنى.

وهنا قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ صَدَّقَ بإبْراهِيمَ]: وهذا يدُلُّ على أنه يَرَى أن اللام بمَعنَى الباءِ، فيَرَى المُفَسِّر أن ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾ بمعنى آمنَ بِهِ، فـ(صَدَّقَ) تَفسيرُ ﴿فَـَٔامَنَ﴾ و(بإبْراهِيمَ) تفسير ﴿لَهُۥ﴾، ونحن نعلمُ أن لُوطًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ آمن لإبراهيمَ وبِهِ، فهو آمنَ به بقَلْبِهِ واطمأنَ إلى صِدْقِهِ، وكذلك انقادَ لَه، وتضَمَّنَ الإيمانُ هنا معنى الانقيادِ ومعنى الطُّمأنِينَةِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لُوطٌ﴾ وهُو ابنُ أَخيهِ هَارانَ]، يعْني: أن إبراهيمَ له أخٌ اسْمُه هارانَ بنُ آزر، وهارانَ له ابنٌ اسمُهُ لوطٌ.

قوله: [﴿وَقَالَ﴾ إبراهِيمُ ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ مِنْ قومِي ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾، أي: إلى حيثُ أمَرني ربِّي، وهَجر قَومَهُ، وهاجَرَ مِنْ سوادِ العِراقِ إلى الشَّامِ]، المُفَسِّر يقول: إن الضميرَ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ﴾ يعودُ إلى إبراهيمَ، وعلى هذا فَفِي التِّلاوةِ تقِفُ على: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ ولا تَقُلْ: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ لأنك لو وصَلْتَ لأَوهَمَ أن القولَ من لُوطٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وقال بعضُ العلماءِ: إن الضميرَ يعودُ على لُوطٍ بناءً على ظاهِرِ السِّياقِ، وأن لوطًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ آمن وهاجَرَ فجمعَ بينَ الإيمانِ والهِجْرةِ.

وقوله: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ (مفاعِلٌ) في اللغة العربية تَرِدُ على ما اشترك فيه اثنانِ فصَاعِدًا كما يقال: (مقاتِلٌ)، وتَرِد على ما ليس فيه إلا طرفٌ واحدٌ كما يقال: (مسافِرٌ)، وكلمة ﴿مُهَاجِرٌ﴾ يحتمل أنها مما هو مُشتركٌ بينَ طَرفين، ويكون المعنى: أنه هَجَرَهُم وهم هَجَرُوه يُريدُونَ مُفارقَته، ويُحتَملُ أنها من باب ما فيه طرفٌ واحدٌ فقط كمُسافِرٍ، وتكون مهاجرٌ بمعنى هجر؛ فكلاهما محتمل.

قوله: [﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ إلى حيثُ أمَرني رَبِّي]: يعني: إلى الجِهةِ التي أمَرهُ الله عَزَّوَجَلَّ

أن يُسافِرَ إليها، هذا ما فسَّرهُ به المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والغَريبُ أن بعض المحشِّينَ قال: إن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [إلى حيثُ أمَرَني] فرارًا من إثباتِ الجِهةِ لله؛ لأننا لو أخَذْنا بظَاهِرِ الآية وهو قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ لكان متَّجِهًا إلى الله ذاته، وهم يرون أن الله تعالى ليس في جِهةٍ، وهذا رأي الأشاعرةِ وكذلك مُعَطِّلَةُ الجَهمِيَّةِ.

فإن الجَهْمِيَّةَ انقَسَمُوا في مسألةِ الجِهةِ إلى قِسمين:

- قِسمٌ حُلولِيَّةٌ، يَرونَ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كلِّ مكانٍ، وهؤلاء القدماءُ.
- وقِسمٌ أهلُ التَّعطِيلِ، يَرونَ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس في مكانٍ وليس في جِهةٍ، فيقولون: لا دَاخلَ العالم ولا خارِجَه، ولا متَّصِلٌ بالعالمِ ولا منْفصِلٌ عنه، ولا مُباينٌ ولا محايِدٌ. نسألُ الله العَافِيَةَ.

وهذه الجِهَةُ يُتَوصَّلُ بها إلى إنكارِ عُلُوِّ الله عَزَّوَجَلَّ بذاتِهِ، فيقولون: إنك إذا قلت: إن اللهَ عالٍ بذاتِه على عرْشه، لزِمَ من ذلك أن يكون في جهةٍ، وإذا كان في جِهةٍ لَزِم أن يكونَ متَحيِّزًا، والمتحيزُ محدودٌ، سبحان الله! لا أدْرِي من أين جاءتهم هذه المُقَدِّمَاتُ والنَّتائجُ، ونحنُ نقولُ لهم: مسألةُ الجِهةِ لا نُنْكِرُها في المعنى، ولكِنَّنَا ننكرُ جِهةً تحْصُرُ الله عَزَّوَجَلَّ، أي: تُحيطُهُ به؛ لأن الله تعالى مُحيطٌ بكُلِّ شيءٍ، لكِننا نُثبتُ بأنَّ له جِهة هي العُلُوُّ.

فالجهات ثلاث:

- جِهة سُفْلٍ.
- وجِهَةُ عُلُوٍّ محيطَةٌ بالله.
- وجِهَةُ عُلُوٍّ لا تحيطُ به.

والمثْبَتُ هو جِهةُ العُلُوِّ التي لا تُحيط به، أما جِهة السُّفْلِ فمُمْتَنِعَة، وأما جِهةُ العلُّو التي تُحيطُ به فممتَنِعَةٌ أيضًا؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس فوقَهُ شيءٌ.

إذنْ: كيفَ نُؤَوِّلُ قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾؟ القولُ الصحيحُ الرَّاجحُ أن قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾، أي: إلى دِينِهِ، أي: إلى مكانٍ فيهِ دِينُ الله، كقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، أي: مَنْ ينْصُرُ دِينَهُ، وليس المرادُ أن دِينَ اللهِ موجودٌ في كل بُقْعَةٍ، ولو كان دِينُ اللهِ موجودًا في كلِّ بُقْعَةٍ ما خَرج عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مِن مَكانِهِ.

فالحاصلُ: أن الإنسانَ المهاجِرَ إلى دينِ الله يلتَمسُ المكان الذي يُقيمُ فيه دِينَهُ، ولذلك صارَتِ المدينةُ دارَ هِجْرةٍ لما أُقيمَ فيها الدِّينُ، ولهذا يقولُ العلماءُ في الهجْرةِ: إنها الانتقالُ من بلدِ الشِّرْكِ إلى بلدِ الإسلامِ حيثُ يُقيمُ دِينَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ (إلى): للغاية، وفيها الإشارةُ إلى حُسنِ نِيَّتِهِ وقصْدِهِ، قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»(١).

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهَجَرَ قومَه، وهاجَر مِن سَوادِ العِراقِ إلى الشَّام]: سوادُ العِراقِ هو العِراقُ نفسه، أي: أرضُ العِراقِ، وسُمِّي سَوادًا لكثْرةِ نَخِيلِهِ وأشْجارِهِ، والشَّامُ معروف.

لو قال قائل: وَردَ في الحديثِ أن إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال لزَوجَتِهِ سَارة: «لَيْسَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ رقم الحديث (١)؛ ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، رقم الحديث (١٩٠٧).

عَلى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ»[١].

فهلِ المرادُ بالأرض في الحديثِ عامَّةُ الأرض أم ماذا؟

الجواب: قوله: [فِي الأَرْضِ] ليس المرادُ عامَّة الأرضِ، بل الصَّحيحَ أن المرادَ أرضُ مصر؛ لأنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قال هذا في مَصرَ لا في الشَّامِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فِي مُلكِهِ، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فِي صُنْعِهِ]: هكذا يجْرِي المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرِ هذين الاسْمينِ فيقولُ: العزيزُ في مُلكِهِ الحكِيمُ في صُنعِهِ، وهذا فيه شيءٌ مِنَ القُصورِ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عزيزٌ بذَاتِهِ وبصِفاتِهِ، وعزَّتُه ثلاثةُ أنواعٍ: عِزَّة القَدْر، وعزة القَهْرِ، وعزَّة الامتِنَاعِ.

أما عِزَّةُ الامتِناعِ فمعناها: أنه يمْتَنِعُ أن ينَالَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نقْصٌ في جميعِ صِفاتِهِ وأفعالِه.

وأما عِزَّةُ القَدْرِ: فهي المنْزِلةُ والجَلالةُ والعظَمةُ.

وأما عِزَّةُ القَهْرِ: فهي القُوَّةُ والسُّلطانُ، فهو الغالِبُ، ولهذا فسَّرَها كَثيرٌ مِنَ العُلماءِ بأنه الغَالبُ، وكذلك لا أحدَ ينَالُهُ بسُوءٍ، وكذلك لا ينَالُه نَقْصٌ في صِفاتِهِ.

وأصلُ هذه المادة وهي العَيْن والزَّاي تدُلُّ على القوَّةِ، ومنه قولهُمْ للأرضِ الصَّلْبَةِ: أرض عَزازٌ[٢]، يعني: قَويَّةٌ صلْبةٌ، وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فِي صُنعِهِ] فيه قُصورٌ؛ لأن حِكمةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا تختَصُّ بصُنعِهِ في خَلقِهِ، بل هي في صُنعِهِ وشَرعِهِ، فهو حكيمٌ بما صنَعَ حَكيمٌ فيما شرعَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، رقم (٣١٧٩).
(٢) لسان العرب، مادة (عزز).

والحَكيمُ ليستْ مِنَ الحِكمَةِ فقط؛ لأن الحكيمَ مِنَ الحِكمَةِ بمعنى المتَّقِنِ، ومن الحُكْم أيضًا، وفِعيلٌ كما تقدَّمَ في اسمِ الفاعِلِ تأتي بمعنى الفاعل للمبالَغَةِ، وأمثِلةُ المبالغَة كما قال ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

فَعَّالٌ أو مِفْعَالٌ أو فَعُولٌ .....

ثم قال بعدها:

..... وفي فَعِيلٍ قَلَّ ذَا وفَعِلِ

هذه خمسةٌ، إذن: فَعِيلٌ من حَكَمُ فهو حاكِمٌ، لكن صارت بمعنى حكيمٍ للمبالَغةِ، أو لكونها صِفَةٌ مشبَّهَة، فهي من الحُكْم وهو القضاءِ.

وحُكمُ الله عَزَّوَجَلَّ ينْقَسِمُ إلى قسمين: كَونِيٍّ وشَرْعِيٍّ.

مثال الكونِيِّ ما وردَ في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ [يوسف:٨٠]، فهذا كوْنِيٌّ، ولهذا لم يقل: يحكْم عليَّ، قال: (يحكُمَ لِي)، يعني: يُقَدِّر لي، والحُكْم الشَّرعي مثلُ قولِهِ تعالى في سورةِ الممتَحنَةِ: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:١٠].

وأما قولُه: ﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ في أوَّلِ سورةِ المائدةِ فيتناولُ الأمْرينِ، والحِكمةُ تكون في الشَّرعِ وتكون في القَدَر، وهي مشتَقَّةٌ من الإحْكامِ، بمعنى الإتْقانِ، وتكونُ في الشَّرعِ بمعنى أن جميعَ ما شَرعه اللهُ عَزَّوَجَلَّ فهو موافق للحِكمَةِ، وتكون في القَدَرِ بمعنى: أن كلَّ ما قدَّرَه الله فهو لِحكمَةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾، فالفسادُ من حيث هو فسادٌ وجُودُهُ ليس بحِكمَةٍ؛

---

(١) الألفية البيتان رقم (٤٣٢، ٤٣٣).

لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يحِبُّ الفسادَ، لكن للغايةِ التي سيؤولُ إليها هو حِكْمةٌ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، فهذه هي الحكْمةُ، فكونُ أمورِ الخيرِ حِكمةً ظاهرٌ للجَميعِ.

فوجودُ ما فيه الخير للعبادِ حكمتُه ظاهِرةٌ، ووجود ما فيه الشَرُّ للعِبادِ هذا لا يقَعُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إلا لِحكمَةٍ، ولهذا قالَ النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»(١)، فلم يَقُلْ: ليس منك، فالشَرُّ لا يُنْسَبُ إلى الله، لكن كُلُّ ما يقَعُ من خَيرٍ أو شَرٍّ فهو مِنَ اللهِ، وهو الذي قَدَّرَهُ، لكن الشَرَّ لا يُقَدِّرُه الله عَزَّوَجَلَّ إلا لمصلحةٍ أعظمَ منه، وإذا كان لمصلحةٍ أعظمَ منه صارَ حكْمَةً.

ولذلك تجدُ الأبُ الذي هو أرحمُ الخلقِ بابنه، يأتي به إلى الطَّبيبِ ليُشَقَّ جلْدَهُ فيسيل دَمُه، هذا شَرٌّ؛ لأنه يؤلمُ الصَّبيَّ، لكنه لمصلحتِهِ، فالعاقبةُ حميدةٌ، ويأتي به إلى الطَّبيبِ ويقول: احمِ هذه الحديدَةَ على النَّارِ واكْوِهِ بها. والْكَيُّ شرٌّ في حَدِّ ذاته لكن غايَتَهُ حميدَةٌ.

وكذلك في الخِتانِ يأتي بابنه إلى الخاتِنِ ويقولُ له: اقطَعِ جِلْدة من ذَكَرِ ولَدِي، فالموضوع حسَّاس وسيقَطعُ منه جِلْدة، لكنَّ العاقِبَة حَميدَةٌ، فالشَرُّ قد يكونُ خيرًا باعتبار ما يَؤولُ إليه وإن كان هو في حَدِّ ذاتِهِ شَرًّا.

والحكمة أيضًا تكونُ في الشَّرْعِ، فكلُّ ما شَرعَهُ الله فهو لِحكمَةٍ، شرعَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الزَّاني المحصَنِ أن يُرجَمَ بالحجارةِ، ولو قُتلَ بالسَّيفِ لكان أهونَ؛

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١).

لكن كونه يُرجَمُ بالحجارة ويُشهَّرُ به، فهذا لِحكمةٍ عظيمةٍ، وهي رَدْعُ غيرِهِ عن مواقَعَةِ هذا المحْذورِ، ثم مِنْ أجل أن هذا البدنَ الذي تَلَذَّذَ كُلَّهُ بالشيءِ المحرَّمِ ينبغي أن ينالَهُ ألمٌ مِنَ العقوبةِ.

الآيــة (٢٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ بعدَ إسماعِيلَ ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بَعدَ إسحَاقَ].

(الهِبةُ): معناهَا الإعطاءُ بدونِ ثوابٍ أو بدون عِوَضٍ، وكل ما تفَضَّل اللهُ به على عبادِهِ فهو بدون عِوَضٍ تفَضُّلًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: [﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يعقوبُ بعدَ إسحاقَ]: وإنما جَعَلَ الله يعقوبَ هبةً لإبراهيمَ لأنه ابنُ ابنِهِ، ولأنه وُلِدَ في حياته، وأقرَّ الله عَينَهُ به وهو حَيٌّ، كما قال الله تعالى عن امرْأتِهِ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١].

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ الضميرُ في قولِهِ: ﴿ذُرِّيَّتِهِ﴾ يعودُ على إبراهيمَ، فالمرادُ بالذُّرِّيَةِ هنا ذُرِّيةُ إبراهيمَ، وهنا خالفَ الضَّمِيرُ القاعدةَ فعادَ على المذكُورِ الأوَّلِ ولم يَعُدْ على أقربِ مذكورٍ، والغالبُ أن الضَّميرَ يعودُ إلى أقربِ مذكورٍ، لكنه قد يخرج عن هذه القاعِدَةِ، وذلك بحسبِ السِّياقِ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨]، فضميرُ الفَصلِ في قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾ يعودُ على الله جَلَّ وَعَلَا،

مع أن إبراهيمَ أقربُ مذكورٍ.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ، أي: قدَّمَ الظرفَ على المظْروفِ -وهو النبوة والكتاب- إشارةً إلى الحَصْرِ، ولهذا قال أهل العلمُ: ما مِنْ نَبيٍّ بعدَ إبراهيم إلا وهو مِن ذُرِّيَة إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولذلك يُكنَى إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأَبِي الأنبياء، ولذلك قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فكُلَّ الأنبياءِ بعدَ إبراهيمَ مِنْ ذُرِّيَتِهِ].

قوله: [﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾ بمَعنى الكُتُب؛ أي: التَّورَاةُ والإنْجيلُ والزَّبُورِ والفرقان]: فالكِتابُ مُفْردٌ يرادُ به الجِنْسُ، أي: التورَاةُ التي نَزَلتْ على مُوسى، والإنجيلُ الذي نَزلَ على عِيسَى، والزَّبُورُ الذي نزل على دَاودَ، والفُرقانُ الذي نَزل على مُحَمَّدٍ ﷺ.

قالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ وَهُو الثَّناءُ الحسنُ في كُلِّ أهلِ الأدْيانِ]: قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ﴾، (أتى): نَصَب مَفعولَين أحدهما الهاءُ، والمفعول الثاني أجرُهُ.

و(الأجْرُ): هو العِوَضُ، ومنه الأُجرةُ عِوضًا للعامِلِ عن عَملِهِ.

وقوله: ﴿أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ هل نقولُ كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هُوَ الثَّناءُ الحسَنُ في كلِّ الأدْيانِ]، أو نقول: هو أعَمُّ؟

الصوابُ: أنه أعَمُّ من ذلك، فيشَمَلُ قُرَّةَ عينِهِ بأولادِهِ وانتَشارَهُم وكثْرتَهُم، وكذلك مِنَ الثَّناءِ الحسَنِ أن كلَّ الأديانِ ينْتَمونَ إليه ويُريدُون أن يكونُوا مِنْ أوليائِهِ، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا﴾ كما ادَّعَتِ اليهودُ، ﴿وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ كما ادَّعتِ النَّصارَى، ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٦٧]،

ثم حكَمَ الله تعالى بين الطَّوائفِ فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ محمد ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨].

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، (اللام) في قولِهِ: ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ للتَّوكيدِ، فالجُملةُ مؤكَّدَةٌ بـ(إنَّ) و(اللام).

وقوله: ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي الذين لهم الدَّرجاتُ العُلا، والمراد هنا أعْلى أنواعِ الصَّالحينَ وهم الأنبياءُ أو الرُّسلُ؛ لأن إبراهيمَ ﷺ مِنْ أُولِي العَزمِ الخمسةِ، وهم: مُحَمَّدٌ ﷺ، وإبراهِيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومُوسَى وعيسَى، ونُوحٌ -عليهم السلام-.

وقوله: ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إذا جاءتِ (الصالحون) وحْدَهَا شَمِلَتْ كُلَّ الأجناسِ الأربعة، وهم: النَّبِيُّونَ والصِّدِّيقُونَ، والشُّهداءُ والصَّالحونَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن الذُّرِّيَةَ التي يَمُنُّ اللهُ بها على العَبدِ مِنْ مِنَحِ الله عَزَّوَجَلَّ لقولِهِ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ﴾، لكن هذه المِنْحةَ قد تكون مِحْنَةً إذا أضاعَ الإنسانُ حقَّ الله فيهم، ثم هو مأجورٌ على تَرْبِيتِهِمْ وتَوجِيهِهِمْ، والغالبُ إذا قامَ الإنسانُ بما يجِبُ لله في تربِيَةِ أولادِهِ فإنهم يَصْلُحونَ ولو في المستَقْبَلِ.

الفَائِدةُ الثَّانِيةُ: أن ابنَ الابنِ ابنٌ؛ لأن يعقوبَ ابنُ ابنِ إبراهيمَ، وجَعَل اللهُ عَزَّوَجَلَّ إسحاقَ مَوهُوبًا لإبراهيمَ، ويدل لِذَلكَ قولُ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الحسنِ ابنِ عَلِيِّ بنِ أبي طالب: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ»[1]، والعلماءُ أجْمَعوا في بابِ المِيراثِ أنَّ ابنَ الابنِ بمنزلَةِ الابنِ عندَ فَقْدِهِ، وإذا كان ابنُ الابنِ ابنًا لَزِمَ أن يكونَ أبو الأبِ أبًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، رقم الحديث (٢٥٥٧).

ولهذا يُروَى عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال في زَيْدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ألَا يتَّقِي اللهَ زَيدٌ يجْعَلُ ابنَ الابنِ ابنًا، ولا يجعَلُ أَبَا الأبِ أبًا»[1]، وهذا هو الصحيحُ، فيكون على هذا فيه دَلِيلٌ على سُقوطِ الإخْوَةِ بالجَدِّ في بابِ المِيراثِ.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: فضيلةُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وبَركتُهُ لقولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾، وهذا هو الثَّناءُ المبارَكُ، وذلك بأن يكون في ذُرِّيَّةِ الإنسانِ من يُعطِيهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى النُّبُوَّةَ والكِتابَ، أما النُّبوة بعد محمَّدٍ ﷺ فمتَعِذِّرَةٌ ومُسْتَحِيلَةٌ، أما الكتابُ الذي هو العِلْمُ فربما يجعلُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ذُرِّيَّةِ الإنسانِ بركةً في العِلْمِ ونَشْرِهِ.

ومن ذلك قِصَّةُ عبدِ الله بن أبي طَلْحة حيثُ دَعَا النَّبِيُّ ﷺ أن يبارِكَ اللهُ لأبي طَلْحَةَ في لَيلَتِهِ مع أهلِهِ، فصارَ لعبدِ اللهِ هذا عَشْرَةٌ مِنَ الولَدِ كلُّهُم يحفظُونَ القُرآنَ[2]، وحِفْظُ القُرآنِ عندَ السلفِ ليس بالأمْرِ الهَيِّنِ كما هو عندنا الآن، الإنسانُ يحفَظُ القرآن ولكن لا يظْهَرُ عليه أَثَرُهُ، لكن عندَ السَّلَفِ إذا حَفظَ الإنسانُ القُرآنَ ظهَرَ عليه أَثَرُهُ بالسَّمْتِ والآدابِ والأخلاقِ والأعمالِ الصَّالحةِ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: إثباتُ الجزاءِ، لقولِهِ: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾.

الفائِدَتانِ الخَامِسةُ والسَّادِسَةُ: أن الإنسانَ قد يُعَجَّلُ له الجزاءُ في الدنيا، لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾، وتَعْجِيلُ الجزاءِ للإنسانِ في الدنيا لا يُعَدُّ حِرمانًا له مِنْ أجرِ الآخِرَةِ، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وينْبَني

---

(١) انظر: المغني لابن قدامة (٧/ ٦٤)، وإعلام الموقعين (١/ ١٦٩)، وبداية المجتهد (٤/ ١٦٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٥، رقم ١٢٠٤٧)؛ وابن حبان (١٦/ ١٥٥، رقم ٧١٨٧)؛ وأبو يعلى (٦/ ٤٧٢، رقم ٣٨٨٢).

على هذه الفَائِدة أنَّ تَعْجِيلَ الثوابِ للإنسانِ في الدُّنيا مِنْ نِعْمَةِ الله على العبد؛ لأنَّ الإنسانَ يرَى أثرَ عَملِهِ فينشَطُ على العَملِ سواءٌ كان هذا الأثرُ في الأشياءِ الخارِجيَّةِ أو كان في نفْسِ الإنسانِ، أي: في باطِنِهِ.

مثال ذلك من ثوابِ الأعمالِ الصالِحةِ: أن يجِدَ الإنسانُ في قَلبِهِ السُّرورَ والنُّورِ والارتياحِ إلى العَملِ الصالحِ، وهذا لا شكَّ أنه من الثوابِ العاجِلِ، ومثالُ الأشياء الخارجية أن تُرى له مَرَاءٍ سارَّةً، كما أخبرَ النَّبيُّ ﷺ بأن ذلك عاجلُ بُشْرى المؤمِنِ، أعنِي الرُّؤيا الصالحة يَراهَا الرجُلُ أو تُرَى له، قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»[1]، قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس:٦٤].

الفَائِدةُ السَّابِعة: يجوزُ الوصفُ بالمعنى الأعَمِّ دونَ الأخَصِّ لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وجهُ ذلك أن وصْفَ الصَّلاحِ أعَمُّ من وصَفَ النُّبُوَّةَ، ويجوزُ أن يُوصفَ به النَّبيُّ ﷺ، والأنبياءُ في ليلَةِ المعراجِ يقولون للرسول ﷺ: «مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ»[2].

الفَائِدةُ الثَّامِنة: تأكيدُ الثَّناءِ على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حيثُ أُكِّدَتِ الجُملَةُ بـ(إن واللام).

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضره، رقم الحديث (٢٦٤٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم الحديث (٣٤٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، رقم الحديث (١٦٤).

الآيــة (٢٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:٢٨].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(و) واذْكُرْ (لُوطًا)]: فيكونُ مَفْعُولًا لفعْلٍ محذوفٍ تقدِيرُهُ: (اذكر)، والأمرُ بذِكْرِ هؤلاءِ الفُضلاءِ مِنَ الأنبياءِ ليس لمجَرَّدِ الثناءِ عليهم وإعلاءِ رُتْبَتِهِمْ بينَ النَّاسِ، بل لهذا الغرضِ ولغرضٍ آخرٍ، وهو الاقتِدَاءُ بِهِمْ واتِّبَاعُهم والصبرُ كما صَبروا.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ﴾ بتَحْقِيقِ الهَمْزتَينِ وتَسهيلِ الثانِيَةِ، وإدخالِ ألفٍ بينَهُما على الوَجْهَيْنِ في الموضُوعَينِ]: هذه قراءاتٌ في الآيَةِ، والمؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذَكَر القِراءاتِ التي في الآيَةِ ولم يُشِرْ إلى القِراءةِ التي في المصْحفِ، وكان ينبَغِي أن يُشيرَ إليها، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بتَحْقيقِ الهَمْزتَيْنِ]، أي: إثباتُ الهمْزتَيْنِ، وقولُهُ: [تَسْهيلُ الثَّانِيةِ]، التَّسْهيلُ: هو النُّطقُ بالهمزَةِ مسهَلَّةً بينَ الهمزةِ والحرْفِ الذي تشَكَّلَت منه، أي: تُنْطق بين الهَمزةِ والياءِ، والإدْخَالُ: هو إدخالُ أَلِفٍ بينَ الهمْزتَيْنِ هكذا «أأئنَّكُمْ».

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي الموضِعَيْنِ]، الموضعانَ هُما قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، والثاني قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ [النمل:٥٥].

هذه القِصَّةُ كغَيرِها مِنَ القِصَص تَردُ في القرآنِ الكَريمِ على وُجُوهٍ متنَوِّعَةٍ، فكيف نجْمعُ بين هذه الوُجوهِ في قصَّةٍ واحِدَةٍ؟

نقول في الجمعِ: إن كان مما يمكن أن يتكَرَّرُ فإنها تكون قد تكرَّرتْ على الوجهينِ، وإن كان مما لا يُمكِنُ تكَرُّرِهِ فإن الله تعالى يَحْكِيهَا بالمعنى هذا تارة وبالمعنى هذا تارة.

مثال ذلك: يقولُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآيةِ في قصَّةِ لُوط: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وفي آية أخرى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل:٥٤]، فَفِي هذه الآية قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وفي الآية الأُولَى قال: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا اختلافٌ، والجمعُ بينها الوجهُ الأَوَّلُ هو تعدُّدُ القولِ، فمرَّةً قال لهم: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ومرة قال لهم: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهذا لا إشكالَ فِيهِ.

وكذلك في قصَّةِ فِرعونَ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء:٣٤]، وفي سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:١٠٩]، والجمعُ بينَ الآيتَيْنِ أن كلَّهُم قالوا ذلك.

فإذا أمكنَ التَّعَدُّدُ سواءٌ مِنَ القائلِ أو بالقولِ حُمِلَ عليه، فإذا لم يمكن التَّعَدُّدُ يكونُ من بابِ نقْلِهِ بالمعنى، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يتكَلَّمُ به في كُلِّ موضِعٍ بما يُناسِبُه وبما تقْتَضِيهِ البلاغَةِ.

قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، اللام في قولِهِ: ﴿لَتَأْتُونَ﴾ لام التَّوكِيدِ، و(تأتون) بمعنى تَجِيئونَ، والاستفهامُ في قولِهِ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ للإنكارِ والتَّوبِيخِ،

وأكَدَّ هذا الإنكارَ باللامِ.

وقوله: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ اللام هنا للعَهْدِ، أي: الفاحِشَةُ المعلُومَةُ لديكم ودخلت (ال) عليها لعِظَمِها وقُبْحها، وفي بابِ الزِّنَا قالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء:٣٢]، وفي نِكاحِ المحَارِمِ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٢٢]، فهذه ثلاثةُ تَعْبِيراتٍ، في اللُّواطِ وصَفَهُ الله بالفاحِشَةِ بما نقله عن لُوطٍ، وفي باب الزِّنَا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾، وفي نِكاحِ المحَارِمِ قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾، إذنْ: نكاحُ المحارِمِ أعظمُ مِنَ الزِّنَا؛ لأنه وُصِفَ بوَصْفين سَيِّئَيْنِ: الفاحِشَةِ والمقْتِ، واللِّواطُ أقبحُ منهما من حيث الوصفِ فإنه الفاحِشَةُ التي تُسْتَفْحَشُ عند جميعِ النَّاسِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أيْ: أَدْبَارَ الرِّجالِ]: -أعوذُ بالله- أدبارُ الرِّجالِ هذا لا شكَّ أنه فاحِشَةٌ، كلُّ ذِي عَقْلٍ سليمٍ يستَفْحِشُهُ، أما من نَكَسَ اللهُ قَلبَهُ فلا تَستَغْرِبْ إذا قال: ليس بفاحشةٍ، كما أن الذين يَعبدُونَ الأصنام يَرَونَ أن ذلك منْقَبَةً وحَسَنَةً، فكذلك الذين يفعلون هذه الفاحِشَةَ يستَحْسِنُونَ هذا الأمر، ومن عجبٍ أن الواحدَ منهم يأتي الذَّكَرَ في حال شَبابِهِ، وهذا المأتي إذا كَبِرَ أتى غيره فيكون فاعلًا ومفعولًا بِهِ.

قوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾.

﴿مَا﴾: نافِيَةٌ.

﴿مِنْ أَحَدٍ﴾: فاعل (سبَق)، وحرفُ الجرِّ زائدٌ للتَّوكِيدِ، أي: ما سبَقَكُم بها أحدٌ.

﴿بِهَا﴾: هل نقولُ: إن (الباء) هنا بمعنى (على)، أي: ما سَبَقَكُمْ عليها، أم نقول: إن الباءَ على معناها، أي: لم تُسْبَقُوا بها؟

الجواب: الباءُ هنا على معناها؛ لأننا لو قُلنَا: لم تُسْبَقوا عليها، لكان هذا فيمنْ أدركَ زَمنهُمْ وكانوا هم أسبقُ إلى هذا منه، أما إذا قُلنَا: ما سبقكم بها فهذا يقْتَضِي السبْقَ الزَّمَنِيَّ.

قَال المُفَسِّر: [﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الإنْسِ والجِنِّ]: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يجوزُ أن يكونَ عامًّا إلا فيما يُخَصِّصُهُ العَقْلُ كالملائكةِ فتَشمَلُ الجِنَّ والإنسَ، ويجوز أن يكونَ عامًّا أريدَ به الخاص، أي: من بَنِي آدَمَ، وأما البهائمُ فغَيرُ مكلَّفة.

فقوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يريد زِيادَةَ التَّشْنيعِ عليهم، يعني: أنتم الذين سنَنْتُم هذه الطريقةَ، ومن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فعليه وِزْرُها ووِزْرُ من عَمِلَ بها[1]، كأنه يقول لهم: لو سُبِقْتُم بهذه الفاحِشَةِ لكان لكم نوعٌ من العُذْرِ لكنكم ما سُبِقتم بها، فأنتمُ القُدْوَةُ فيها والعياذُ بالله.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدة الأُولَى: رَفعُ ذِكر هؤلاءِ الدُّعاةِ إلى الله مِنَ الأنبياءِ وغيرهم؛ لأن قوله: [اذْكُرْ] يعْني: اذْكُرْهُ في موضِعِ الثَّناءِ، ولهذا قال الله تعالى في القرآن في قصَّةِ مريمَ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم:١٦].

---

(١) أخرجه مسلم بلفظ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة...، رقم الحديث (١٠١٧)؛ وهو بلفظه عند ابن ماجه: افتتاح الكتاب في الإيمان وفضل الصحابة والعلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، رقم الحديث (٢٠٣)؛ وأحمد (٤/ ٣٦١) (١٩٢٢٥).

الفَائِدةُ الثَّانِية: فضَيلَةُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: التَّركيزُ على الأمر الذي انغْمَسَ فيه الناسُ وإن كان غيرُهُ أولى مِنْهُ؛ لأن لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يُرَكِّز على التَّوحيدِ في هذه القصَّةِ، لكنه ركَّزَ على العملِ السائدِ بينَ الناس، وما مِنْ رَسولٍ إلا ويدْعو قومَهُ إلى التَّوحيدِ، ولهذا بعضُ النَّاسِ إذا رأى بعضَ الدُّعاة يُنْكرُ شَيئًا مُعَيَّنًا انغَمَسَ فيه الناس، قال: النَّاسُ أشدُ من هذا، لماذا تتكلَّمُ على هذا، في الفَخِّ أكبرُ من العُصفورِ، يعني: لا تَتكَلَّمْ عنِ الملاهِي أو عَنِ الميْسِرِ أو عنِ الرِّبَا والناس لا يُصَلُّون، لماذا لا تتكلم على تَركِهِمُ الصَّلاةَ.

فنقول: لا مانِعَ أن يُرَكِّزَ الدُّعاةُ على ما انْغَمَسَ فيه النـاسُ وإن كان غيرُهُ مما لم ينْغَمِسُوا فيه أهمَّ منه؛ لأن المقصودَ علاجُ هذا الدَّاءِ الذي انغْمَسَ فيه الناس.

الفَائِدةُ الرَّابِعَةُ: فُحْشُ اللُّواطِ -والعياذ بالله-، وهو إتْيانُ الذَّكَرِ الذَّكَرَ، ولا رَيبَ أنه مِنْ أعظَمِ الفواحِشِ، وفي الآية الكريمَةِ لم يذْكُرْ حَدَّ اللُّواط، وكذلك السُّنَّةُ ليس فيها أحاديثُ صحيحةٌ صريحةٌ في حدِّ اللُّواطِ، ولذلك اختلف أهلُ العِلم على ثلاثةِ أقوالٍ:

القولُ الأَوَّلُ: أن حدَّهُ القَتْلُ بكلِّ حالٍ، يعني: سواء كان الفاعِلُ والمفعولُ به مُحصَنَيْنِ أم غيرَ مُحصَنٍ، والمحْصَنُ: هو الذي تزوَّجَ وجامَعَ في نِكاحٍ صَحيحٍ، واستَدَلُّوا بقولِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ، وَالْمَفْعُولَ بِهِ**»[1]، وهو حديثٌ أدْنَى أحوالِهِ أن يكونَ حَسَنًا.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط، رقم الحديث (٤٤٦٢)؛ والترمذي: كتاب الحدود، باب حد اللوطي، رقم الحديث (١٤٥٦)؛ وابن ماجه: كتاب الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط، رقم الحديث (٢٥٦١)؛ وأحمد (١/ ٣٠٠) (٢٧٣٢).

ثم إنَّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجْمَعُوا على قَتْلِ اللُّوطِيِّ الفاعلَ والمفعولَ بِهِ، إلا أنهم اختلفوا كيف يُقْتَلُ؟

فقال بعضهم: إنه يُحَرَّقُ بالنار، وقال بعضُهم: إنه يُرْجَم بالحجَارَةِ، وقال آخرون: يُلْقَى مِنْ أعْلى مكانٍ في البلَدِ.

والذي اختَارَهُ شيخُ الإسلامِ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1] أن يُقْتَلَ الفاعِلُ والمفعولُ به؛ للحَديثِ والآثارِ عَنِ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وللمَعْنى والقياسِ الصَّحيحِ؛ لأن هذه الفاحِشَةَ والعياذُ بالله لا يُمكنُ التَّحَرُّزُ منها، فإذا لم يكن لها رَادعٌ قَوِيٌّ استَشْرَتْ في الناس -والعياذُ بالله-؛ ولأنها قَتْلٌ للرُّجُولَةِ، فإن الإنسان يكونُ بمنزلَةِ المرأةِ.

وأما كيفيةُ قتْلِهِ فالذي نرَى أن يُرجَع إلى رَأيِ الإمامِ فيُقْتَلُ بما يَراه أنْكى وأبْلغَ.

القول الثاني: أن حَدَّهُ كحَدِّ الزَّانِي، يعني: إن كان مُحْصَنًا رُجِمَ، وإن كان غير مُحْصن فإنه يجلَدُ ويُغَرَّبُ، وهذا القولُ هو المشهور من مذهبِ الإمامِ أحمدَ، وقالوا: إن الحديثَ لا تقومُ به حُجَّةٌ، بمعنى أنه لا يَصِلُ إلى دَرجَةٍ يُستَباحُ بها دَمُ المسلمِ، واللواطُ فاحِشَةٌ بنَصِّ القرآن، فيجب أن يلْحَقَ بالفاحِشَةِ التي نَصَّ القرآن على حدِّهَا وهي الزِّنَا، فعليه يكون طريقُه طَريقُ الزِّنَا، فيُرْجَم المُحْصَن ويُجلَد غيرُ المُحْصَن ويغرب.

لو قالَ قائلٌ: المذهبُ يأخُذونَ بآثارِ الصحابَةِ؛ لأن مِنْ أُصولِ أحمدَ العِلْمُ بقولِ الصَّحابِيِّ، فلماذا في هذه المسألة لم يأْخُذوا بالآثار التي ورَدَتْ عنِ الصحابة

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٤١٢، ٢٠/ ٣٩٠، ٢٨/ ٣٣٥، ٣٤/ ١٨٠، ١٨١)، والصارم المسلول (ص ٨٧).

في حدِّ اللُّوطِيِّ؟

فالجواب: إذا قيل: مذهبُ الإمامِ أحمدَ، فالمرادُ المذْهَبُ الاصطلاحيُّ لا المذهبُ الشَّخْصِيُّ، فقد يكونُ مذهبُ الإمامِ الشخصِيِّ خلافَ المذهب الاصطلاحيِّ، فلذلك نَنسُبُه إلى الإمام أحمدَ اصطلاحًا.

القول الثالثُ: أنه لا حدَّ فيه، وأنه يُكتَفَى فيه بالرَّادِعِ النَّفْسِيِّ، وما كان خبيثًا في النفوس فإنه لا حدَّ فيه بل يُكْتَفَى فيه بالرَّادِعِ النَّفْسِيِّ، فالبولُ أخبث من الخمْر، والخمر فيه حَـدٌّ، والبولُ ليس فيه حَدٌّ لأن النفوس تنْـفِرُ منه وتستَقْذِرُهُ، فاكتفى بالرادِعِ الطَّبيـعِيِّ عن الرادِعِ التأْدِيبِيِّ، وهذا القـول حكي عن أبي حنيـفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو قولٌ ضَعِيفٌ جِدًّا.

وأما قولهُمْ: إنه مستَقْذَرٌ لا تأْلَفُه الطِّباعُ، فهذا صحيحٌ بالنسبة للطِّباعِ السَّليمَةِ، لكن بالنسـبة للطِّباعِ المهِينَةِ فإنها تألَفُه، فهؤلاء قومُ لوط أمَّةٌ كلُّهُم على هذا الأمر، فكيـف نقول: الذي يُسْتَقْذَرُ في الطباعِ السليـمَةِ لا يرْدَعُ بالتأدِيبِ، فالصوابُ أن هذا القولَ ضَعيفٌ جِدًّا، ولولا أنه قيل ما حَكَيْنَاهُ.

الفَائِدةُ الخامِسة: ينْبَغِي ذِكْرُ ما يُنَفِّرُ عن العملِ السَّيئِ، لقولِهِ: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ووجه كونه مُنَـفِّرًا لأنهم ليس لهم قُدْوَةٌ حتى يُعذَرُوا بها، وكذلك آثامُ مَنْ بَعدهُم تكونُ عليهم.

الفَائِدةُ السَّادسَة: تأكيدُ الأمرِ المنْـكَرِ بما يقْتضِيهِ الأُسلوبُ في اللغـة العَربِيَّةِ، لقولِهِ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ فإن (إن) و(اللام) للتوكيد.

وكيف يُؤَكَّدُ هذا الأمرُ مع أنهم معتَرِفُونَ به؟

الجواب: لأنه نَزَّلَ غيرَ المنكَرِ منْزِلَةَ المنْكَرِ؛ لأن ممارسَتَهُم لهذا الفعل يقْتَضِي أنهم ينْكِرُونَ كونَه فاحشةً، فحالُهم تقْتَضِي أنهم يستَبِيحُون ذلك ولا يَرَوْنَهُ مُنْكرًا، فكونهم يمارِسونَهُ ولا يبالُونَ بها ويرونَهَا أمْرًا سَائغًا فهُمْ كالمنْكِرِينَ لكونِهَا فاحِشَةً، ونظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ [المؤمنون:١٥]، فـ(إنَّ) و(اللام) مؤكدَّةٌ للموتِ والموتُ لا شكَّ فيه، لكن أتى بالتوكيدِ مِنْ أجلِ أن فِعْلَ هؤلاءِ المشركين فِعْلُ المنْكِرِ للموتِ؛ لأن مَنْ أقَرَّ بالموتِ فلا بُدَّ أن يستَعِدَّ له، والآية ساقها الله جَلَّ وَعَلَا في ذِكْر ابتداءِ الخلقِ وانتِهائهِ، ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون:١٥-١٦].

• • ❁ • •

الآيـة (٢٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩].

قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ عبَّر بالإتيانِ كنايَةً عَنِ الجِماعِ؛ لأن القرآنُ يُكَنِّي عَمَّا يُسْتقْبحُ ذِكْره بما يدلُ عليه، وهذا كثيرٌ في اللغة العربية، ومثال آخر مِنَ القرآنِ قال الله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣]، فكَنَّى عن الجِماعِ بالإتيانِ.

قوله: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ السَّبِيلُ: الطَّرِيقُ، وقطْعُهم الطريقَ له صِفتانِ:

الصفةُ الأُولى: قَطعُ الطريقِ المعروفِ، وهو أن يتعَرَّضُوا للناس بالسَّلْبِ والنَّهبِ والقتل، ويسمى عندنَا باللِّغَةِ العامية: الحنشَلَة.

الصفةُ الثانية: يَقْطعونَ السَّبِيلَ، أي: يتَسَبَّبونَ لعدمِ سُلوكِ الطُّرقِ بما يفعلونَ بأهْلِهَا؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [طَرِيقُ المارَّةِ بِفِعْلِكُم الفَاحِشَة بمن يمُرُّ بِكُمْ، فتَرَكَ النَّاسُ المَمَرَّ بِكُمْ].

هاتـان خصلتـانِ، والخـصْلَةُ الثَّالثَـةُ: [﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ نَادِيكُمْ، أي: متَحَدَّثُكُم]، فالنَّادِي، والمنْتَدى، والنَدِي، كلُّها أسماء لمكانِ الحديثِ والاجتماعِ بينِ الناسِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ فِعْلَ الفَاحِشَةِ بِعضِكُم ببَعْضٍ]: المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّرَهُ بِفِعْلِ الفاحِشَةِ، وعلى هذا يكونُ فيه تَكْرارٌ، والأَصَحُّ أن المنْكرَ أعمُّ من فِعل الفاحِشَةِ، وهو: كلُّ ما يُنْكَرُ عُرْفًا أو شَرْعًا؛ ذَكروا من ذَلِكَ أنهم يتلاكَزُون، يعني: بعضُهم يلْكِزُ بعْضًا مع عَجِيزَتِهِ، وذَكرُوا من ذلك أيضًا أنهم يتَضَارَطُونَ[1] الضَّرطةَ المعروفةَ، وذكروا من ذلك أيضًا أنهم يَحُلُّون أُزْرتَهم -أي: أزرَة القِباءِ- يعني كما تقول العامة يدْلُعُون، وهذه ليست منكرة لكن بعضهم ذكر ذلك، وكذلك الحذْفُ بالحصَى، وكذلك الكلامُ الذي يتضَمَّنُ السخرية والاستهزاءَ، المهِمُّ أن المنْكرَ هو كلُّ ما يُنْكَرُ عُرفًا أو شَرْعًا فهو عامٌّ في كل شيءٍ.

وقد وُجِدَ في هذه الأمة من عَمِلَ عَملَ قومِ لوطٍ، وإذا سألت عن مجتمَعاتِهِمْ وجدتَهُم يفعلونَ مثلَ فِعل قومِ لوطٍ من السُّخْرِيَةِ والاستهزاء واللَّغَطِ واللَّهوِ وغيرِ ذلك، والنبي ﷺ يقول: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[2].

قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بعد هذا التَّوجِيهِ والإرْشادِ والإنْكارِ عليهم كان هذَا الجوابُ جوابَ المستكْبِرِ المتَحَدِّي.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ﴾ ﴿جَوَابَ﴾ بالنَّصْبِ على أنها خبرُ كانَ مُقَدَّمًا ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ اسمُهَا مؤَخَّرٌ، التَّقْدِيرُ: (إلا قَولهُم).

---

(١) انظر لسان العرب، مادة (ضرط).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الفتن، باب لتركبن سنن من كان قبلكم، رقم الحديث (٢١٨٠)، وأحمد (٥/ ٢١٨) (٢١٩٤٧) عن أبي واقد الليثي، وأصله عند البخاري بلفظ: «لَتَتْبَعُنَّ (لَتَتَّبِعُنَّ) سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ...»، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ...»، رقم الحديث (٦٨٨٩).

وقوله: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ (ائتِ) فِعلُ أمْرٍ، والمرادُ به التَّعْجِيزُ والتَّحَدِّي، يعني: نتحداك أن تأتيَ بالعَذابِ الذي وَعدتَنا به.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فِي استِقْباحِ ذلِكَ، وأن العذابَ نازِلٌ بفَاعِلِيهِ]: وهذه الجملةُ شرْطِيَّةٌ قيل: لا تحتاجُ في مِثْلِ هذا التركيبِ إلى جوابِ شرطٍ، للعِلْم به مما سبق، وقيل: إنه محذوفٌ دلَّ عليه ما سبَقَ، والأصحُّ الأول، وهو الذي اختارَهُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]، وقال: إذا كان في الكلامِ ما يدُلُّ على المحذوفِ فلا حاجة إلى تَقْديرِهِ لأنه نوعٌ مِنَ العبَثِ.

وقول هؤلاءِ الكفَّارِ للُوطٍ: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أبلغُ من قَولِهِمْ: (إن كُنتَ صَادقًا)؛ لأن كلَّ إنسانٍ يُحِبُّ أن يكون مِنَ الصَّادِقِينَ، لكن لو قالوا: (إن كُنتَ صادِقًا) لكان المعنى صادقًا في هذه المسألَةِ بخُصوصِهَا، أما قولهُم: ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: الموصُوفِينَ بالصِّدْقِ، وهذا أشدُّ في التَّحَدِّي، فكأنهم يقولون: إنك من عِدادِ الكَاذِبِينَ ولست من عِدادِ الصَّادِقِينَ، فإن كنتَ مِنْ عِدادِهم فائْتِنَا بما تَعِدُنا.

ماذا كان جوابُ لوطٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟

كان جوابُه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن لجأَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فقَالَ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: ما كان عليه قومُ لُوطٍ مِنَ الشَّرِّ والفَسادِ غيرَ فاحِشَةِ اللِّوَاطِ؛ من قطْعِ السَّبيلِ وإتيانِ المنْكَرِ في نادِيهِم، لقولِه تعالى: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص ٢).

وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾.

الفَائِدةُ الثَّانِية: بيانُ عُتُوِّ هؤلاء القومِ واستِكْبارِهِم.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن لُوطًا حذَّرَهُمْ مِن عذابِ اللهِ، لقولِهِ: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: أنه ينْبَغِي للدَّاعِيَةِ أن يَدْعُو مبَشِّرًا ومُنْذِرًا ولا يقولُ: إذا أَنْذَرْتُ نَفَّرْتُ؛ لأن الإنذارَ قد يكونُ لا بُدَّ منه.

الفَائِدةُ الخامِسة: أن مجرَّدَ الإيمانِ باللهِ لا يُدْخِلُ الإنسانَ في الإيمانِ، فإن هؤلاءِ القومِ كانوا مُقِرِّينَ بالله لقَولِهِمْ: ﴿بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ فليس مُجَرَّدُ كونِ الإنسانِ يؤمِنُ بأن للخليقَةِ ربًّا مدبِّرًا يُدْخِلُه هذا في الإيمان.

الفَائِدةُ السَّادِسَةُ: أن هؤلاءَ القَوْمِ مُكَذِّبُونَ للوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لقَولِهِمْ: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

الآيـة (٣٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٠].

قوله: ﴿رَبِّ﴾ مُنادَى، وحُذِفَتْ ياءُ النِّداءِ تَخْفِيفًا، وللبَدَاءةِ بـ(باسم الله) سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهي منصوبَةٌ لأنها منَادَى مَضَافٌ، فأصلُها (ربي) ولهذا كُسِرَتِ الباءُ للدَّلالَةِ على الياءِ المحْذوفَةِ.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾ اعلَمْ أن مادَةَ (نَصَرَ) تتَعَدَّى أحيانًا بـ(مِنْ) وأحيانًا تتعَدَّى بـ(على)، فإن تَعَدَّتْ بـ(مِنْ) فمعناها: المنْعُ والإنْجاءُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأنبياء:٧٧]، أي: منَعْنَاهُ، وإن تَعَدَّتْ بـ(على) كان مَعْناهُ: الظُّهورُ والغَلَبَةُ.

وأحيانًا لا تَتَعَدَّى بـ(من) ولا بـ(على) فتَشْمَلُ المعْنَيَيْنِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ [الصافات:١١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]، وأمثلتُها كَثِيرة.

وأما قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [محمد:٧]، الظاهر أنه يَشْمَلُ الأنواعَ الثلاثةَ إن تَنْصُروا الله يعني: تَمنَعُوا دِينَهُ مِنَ الاعتداءِ عليه، وكذلك تَنْصُروه بمحاولةِ إعلاءِ

هذا الدِّينِ، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ هذا المنع، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]، هذا الظُّهورُ.

فالحاصلُ: أن مادة (نَصَرَ) لها ثلاثةُ استعمالاتٍ: تارَّة تتعَدَّى بـ(من) وتارَّة تَتَعَّدَى بـ(على) وتارة تأْتِي مُطْلَقَةً، فقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ هنا تَعَدَّتْ بـ(على) فيكونُ معناها الظُّهُورُ والغَلَبَةُ، ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي﴾ بتَحْقِيقِ قَولِي فِي إنْزالِ العَذَابِ ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾].

وقوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ ذَكَرَ حالَ المَدْعُوِّ عليهم من باب التَّوَسُّلِ؛ لأن كلَّ وصْفٍ يسْتَوْجِبُ الإجابة فإنه يُعتبَرُ وسيلَةً، وقد ذَكَرْنا فيما سبَقَ أن التَّوَسُّلَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ أنواعٌ، منها التَّوَسُّلُ بذِكْرِ حالِ الدَّاعِي كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]، وهنا التَّوَسُّلُ بحالِ المَدْعُوِّ عليهم.

وقولُهُ: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ لأن إفْسادَهُم يقْتَضِي إهلاكَهُمْ وذُلَّهم والغَلَبَة والظُّهورَ عليهم.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أَيْ: العَاصِينَ بإتْيانِ الرِّجالِ، فاستَجَابَ دُعاءَهُ]: وهذا تَفْسِيرٌ للشَّيْءِ بسَبَبِهِ؛ لأن المعصِيَةَ سببُ الفسادِ، قال الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، ولا شكَّ أن فِعْلَ قومِ لُوطٍ مِنْ أعظمِ الفَسادِ في الأرْضِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: جوازُ الدُّعاءِ على القَومِ إذا أَيِسَ مِنْ صَلاحِهِمْ وتَمَرَّدُوا تمرُّدًا بالِغًا، ولهذا لما قالَ: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾، وتَحَدُّوه قالَ: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وأيضًا نُوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]، والنَّبِيُّ ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ**»(١)، ولكنَّ الرَّسولَ ﷺ قيَّدَ ذلِكَ؛ لأن سِنِي يوسُفَ سبعُ سنواتٍ مع أن قولَهُ: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ليس بظاهِرٍ في الدُّعاءِ عليهم، لكن لو تأَمَّلْنا الآيةَ وجَدْنا أنه يقْصِدُ النصرَ عليهم بما تَحَدُّوه به وهو قولهُم: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وإلا فمُجَرَّدُ قولِهِ: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لا يَدُلُّ على أنَّه دَعا علَيْهِمْ، لكن لما قالُوا لَهُ: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، دَعَا اللهُ أن ينْصُرَهُ عليهم بأن يُظهر صِدْقَه فيما تَوعَّدهُمْ به.

الفَائِدةُ الثَّانِية: ضَرورةُ الإنسان إلى ربِّهِ جَلَّ وَعَلَا مهما عَلَتْ مَنْزِلتَهُ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: إثباتُ ما يستَلْزِمَهُ الدعاء، ودُعاءُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يستَلْزِمُ أُمورًا، منها: إثباتُ العِلْم لله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنَّ مَنْ لا يعْلَمُ لا يُدْعَى ولا يستطيعُ أن يأْتِيَ بما دُعِيَ.

وكذلك يستلزمُ الدعاءُ إثباتَ السَّمعِ لله جَلَّ وَعَلَا، ويستَلْزِمُ أيضًا إثباتُ القُدْرةِ لأن من لا يَقدر لا يُدْعَى، ولو أنك رأيت شخصًا زَمِنًا أو أَشَلَّ فإنه لا يُمْكِنُ أن تُطلَبَ منه أن يُساعِدَك في حَمْلِ شيءٍ مَثَلًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب تسمية الوليد، رقم (٥٨٤٧)؛ ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، رقم (٦٧٥) عن أبي هريرة.

والدعاءُ يَستَلزِمُ الرَّحمةَ أيضًا؛ لأن مَنْ لا يَرْحم لا يُدْعَى بل يُخْشَى منه، ويستلْزِمُ كذلك الكرَمَ لأن مَنْ ليس بكريمٍ لا يؤمَّلُ فلا يُدْعى.

وإجابة الدُّعاءِ لا تستَلْزِمُ البصرَ؛ لأنك لو دَعَوْتَ أعْمَى أن يساعِدَكَ ساعدَكَ، لكن لو دَعَوْتَهُ لِيقرَأَ لك كِتَابًا لم يُجِبْ، فالبَصَرُ ليس مِنْ لازمِ إجابَةِ الدُّعاءِ فقد تكون الإجابَةُ بدُونِ بصَرٍ، وكَذَلِكَ لا تَسْتَلْزِمُ إجابَةَ الدُّعاءِ القُرْبُ؛ صحيحٌ أن الله ذَكَر أنه إذا دُعِيَ فهو قَريبٌ، ولولا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخبرَنَا بأنه قَرِيبٌ ما أثْبَتْنَا قُربَهُ بمجرَّدِ أنه يُدْعَى، فالقُرْبُ ليس مِنْ لازمِ إجابَةِ الدُّعاءِ.

وكذلك القوةُ ليست مِنْ لازِمِ إجابَةِ الدُّعاءِ؛ لأن القُوَّة تكونُ في مقابَلَةِ الخَصْمِ، ومُرادُنَا ما يستَلْزِمُهُ الدُّعاءُ مُطْلقًا.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: أن اللِّواطَ مِنَ الإفسادِ في الأرْضِ، لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: ظهورُ التبَرُّؤ منهم؛ لأنَّ لُوطًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تَبَرَّأَ منهم، تؤخَذُ من قَولِهِ: ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ﴾ ولم يقُلْ: (على قَوْمِي) مع أنه قالَ في الآياتِ السابِقَةِ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ فأضافَهُمْ إليه، لكنَّ لُوطًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يُضِيفُهُمْ إلى نَفْسِهِ، وهذا ظاهرٌ في التبَرُّؤِ منهم.

الفَائِدَة السَّادسَة: ينْبَغِي للدَّاعِي أن يبدأ بـ(باسم الله) ويَحْذِفَ ياء النداء، ويجوزُ أن يقولَ: (يا رب)، بإثباتِ الياء كَمَا قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم (١٠١٥).

الآيــة (٣١)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت:٣١].

قوله: ﴿وَلَمَّا﴾ (لما) هُنَا مِنْ أدواتِ الشَّرطِ غيرِ الجازِمَةِ؛ لأن (لما) لا تَجْزِمُ إلا إذا كانتْ نافِية، أما إذا كانتْ شَرْطية فإنها لا تَجْزِمُ وتكون مثل (إذا) و(لو) أي: مِنْ أدواتِ الشرطِ غيرِ الجازِمَةِ.

مثال (لـمَّا) النافية قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص:٨]، أي: لم يَذُوقُوا العذابَ لكنه قَرِيبٌ منهم؛ لأنها تنْفي لكن تَدُلُّ على تَوَقُّعِهِ، وهذا مِنَ الفُروقِ بينها وبين (لم).

وجوابُ الشَّرْطِ قولُهُ: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ (الباء) هنا للمصَاحَبَةِ أي: مصْطَحِبِينَ للبُشْرَى، والبُشْرَى بمَعْنَى البِشَارَةِ، والبِشَارَةُ هي الإخبارُ بما يَسُرُّ، وقد تُطْلَقُ على الإخبارِ بما يَسُوءُ مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق:٢٤]، واستعمالها فيما يَسُوءُ قيل: إنه من بابِ التَهَكُّمِ بالمبَشَّرِ، ولكنَّه ضَعِيفٌ.

ووجه كونِهِ بشَارَةٌ: لأنه يؤثِّرُ على بَشْرَةِ المخاطَبِ به كما يؤثِّرُ الخَبرُ السَّارُّ.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بإِسْحاقَ ويَعْقُوبَ بَعْدَهُ]: والدَّليلُ على

أن المرادَ بالبُشْرى خصوصُ هذه المسألَةِ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١]، وعلى هـذا فلا نَقولُ: إنَّ المرادَ بالبُشْرى هنـا البُشْرى بالولَدَيْنِ وبالعِقابِ؛ لأن ظاهِرَ الآية أن العِقابَ مما بُشِّرَ به إبراهيمُ، وأيضًا لأن (ال) في قولِهِ: [البُشرى] عَهْدِيَّةٌ، أي: البُشْرَى المعْهُودَةُ.

قوله: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ هذه الجُمْلَةُ مؤكِّدَةٌ، و﴿مُهْلِكُوٓاْ﴾ خبر (إن) وحُذِفَتِ النون من أجلِ الإضَافَةِ.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي: قَرْيَةُ لُوطٍ]: لقولِهِ: ﴿هَٰذِهِ﴾ فالإشارَةُ للتَّعْيينِ، وكأن القَريةَ قريبةٌ مِنْ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ ولهذا أشارَ إليها باسمِ إشارَةٍ للقَريبِ، وهو (هذه).

والقرية تُطْلَقُ على مكانِ القومِ ومساكِنِهم، وتُطْلَقُ على نفسِ القَومِ الساكِنِينَ، وجاءت في القرآن مُرادًا بها هذا وهذا، والذي يُعَيِّنُ أحدَ المعْنَيَيْنِ السياقُ، مثلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩]، فالمرادُ بالقريةِ في هذه الآية مكانُ القَرْيَةِ، وأما قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج:٤٨]، فالمرادُ أهلُها.

وعلى هذا فيكونُ قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢]، ليس فيه مجازٌ بل المرادُ أهْلُها؛ لأن السؤالَ لا يتَـوَجَّه إلا إلى عاقلٍ يُدْرِكُ ويُجِيبُ، فيكون قـوله تعالى: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ المراد بالقَرْيَةِ هنا المكان لأنه قالَ: ﴿أَهْلِ﴾.

واعلَمْ أن القريةَ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ تَشملُ حتى أكبرَ المدُنِ، فمكَّةُ سمَّاها الله قَريةً، وما هو أعظَمُ من مكَّة سَمَّاهُ اللهُ كذلك قَريَةً، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد:١٣]، وأما القريـةُ

في المفهوم العُرْفِيِّ فهي اسم البلد الصَّغِير، ولذلك في عُرفِنَا الآن يقال: المدينة وما يتبعها من القرى.

قولـه: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾، أَخْبرُوا وعلَّلُوا، فأخبروا بقولهم: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾، وعلَّلُوا هذا الإهلاكَ بقولهم: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾.

قَال المُفَسِّر: [﴿ظَٰلِمِينَ﴾ كَافِرِينَ]: فالظُّلمُ هنا المرادُ به الكُفْرُ، والظُّلْمُ تارةً يُرادُ به الكُفر كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، وتارةً يُرادُ بالظُّلمِ ما دُونَ الكُفْر كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران:١٣٥]، فالآيةُ في سِياقِ صِفَةِ المؤمنينَ المتَّقِينَ، ولهذا يُشْكِلُ على بعضِ الناس إنكارُ شيخِ الإسلامِ وتلميذِهِ ابنِ القيم -رحمهما الله- المجاز في اللُّغة العربية، وقالوا: هذا غيرُ معْقولٍ؛ لأن اللغة العربية مملوءةً بالمجازِ؛ لكن من تَدَبَّرَ أن الألفاظَ لا يتَحَدَّدُ معناها إلا بالسِّياقِ عَرَفَ وجْه كلامِ شيخِ الإسلام(١).

والناسُ في هذه المسألة على ثلاثَةِ أقوالٍ:

القولُ الأولُ: لا يُوجدُ مجازٌ في اللُّغةِ العربية أبَدًا.

القولُ الثاني: يوجدُ مجازٌ في اللُّغةِ العَربيَّةِ لكنْ لا مجازَ في القُرآنِ خاصة.

القولُ الثالثُ: يُوجَدُ مجازٌ في القُرآنِ وفي اللُّغةِ العَربيَّةِ، حتى إن بعضَ عُلماءِ اللُّغةِ قال: إن كُلَّ اللُّغةِ مجازٌ، فإنك إذا قلت: (قُلتُ قولًا)، فإن قَولًا نُعْرِبُها على

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٦٠).

أنها مفْعولٌ به، والمفعولُ به لا بُدَّ أن يكونَ شيئًا يُرى حتى يقَعَ عليه الفِعل، والقولُ لا يرى فيكونُ (قُلتُ قولًا) مجازًا.

ويصْرفونَ الكلام ويقولون: كُلُّه مجازٌ، وليس في اللُّغة العربية شيءٌ حَقِيقِيٌّ -نعوذ بالله- هذه مبالغة.

فالصوابُ في هذه المسألة ما اخْتارَهُ شيخُ الإسلامِ ابنِ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأن الكلماتِ ليست لها معنى ذاتِيٍّ خُلِقتْ له، بل لا يتَحَدَّدُ معناها إلَّا بالسِّياقِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن الله أجابَ دُعاءَ لُوطٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لقولِ الرُّسلِ: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾.

الفَائِدةُ الثَّانِيةُ: إثباتُ أن مِنَ الملائكةِ رُسلًا، لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾، وفي القُرآنِ في سُورَةِ فاطِرٍ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١].

وهل المرادُ أن كلَّ مَلَكٍ فهو رَسولٌ أو أن منهم رسلًا؟

الظاهرُ الثَّاني؛ لأن مِنَ الملائكَةِ من هو قائمٌ راكِعٌ لله ساجِدٌ، ومنهم من يُرسِلُهُم الله.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن الرَّسولَ يُطلَقُ على البشَرِ والمَلَكِ، بخلافِ النَّبيِّ فإنه لا يُطلَقُ إلا على البَشَرِ، فيكونُ الرَّسولُ أعَمُّ من حيثُ متعَلَّقِهِ، يعني يكون للبشَرِ والملائِكَةِ، وفي القرآن الكريم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢٠]، وفي الآية الثانية قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة:٤٠-٤١]، فالرَّسُولُ في الآيةِ الأُولَى في سُورَةِ التَّكوير

جِبريلُ، والثاني محمَّدٌ ﷺ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: أن مِنْ طَبِيعَةِ البَشَرِ الفَرحَ بالولدِ، لقوله تعالى: ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسة: أن الفرحَ بالولَدِ لا يُنافِي كمالَ المرتبَةِ، فإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من الكُمَّلِ مِنَ الرُّسُلِ، ومع ذلك استبشر بالأولاد وفرح بهم، فلا يقال: الفرحُ بالأولادِ ينَافِي الكَمالَ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: إثباتُ أن الملائكةَ أجسامٌ وليسوا أرْواحًا أو عُقولًا كما ادَّعاهُ بعضهم، كيف نقول: إنهم أرواحٌ ومعانٍ وعُقول، وهم لهم أجنِحَةٌ ويأتون ويَذهَبُونَ ويتكَلَّمونَ، فجِبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رآه النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وله سِتُّمِئة جناحٍ قد سَدَّ الأُفُقَ[1]، لكن هذه الأجسام ليست كأجسام بَنِي آدمَ؛ فإن فيها من الخِفَّةِ والقُوَّةِ ما ليس لبَنِي آدم، والله عَزَّوَجَلَّ قد يجعَلُهُمْ على صُورةٍ غيرِ الصورةِ الأصلية، مثلُ مَجيء جبريلَ بصورة دِحْيَةَ الكَلْبيِّ[2]، وبصورةِ رجلٍ شديدِ بياضِ الثِّياب شَديدِ سوادِ الشَّعَرِ[3].. إلخ.

وكذلك الجنَّ قال بعضُ الناس -أعنِّي الذين يُقِرُّون بهم؛ لأن هناك من الناس من أنكرَ الجن، وإنكار الجِنِّ كُفر بلا ريب- قالوا: إنهم أرواحٌ وليسوا أجسامًا،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٥) (٣٧٤٨)، وأصله عند البخاري: كتاب التفسير، باب سورة النجم، رقم (٤٥٧٦)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم (١٧٤) عن ابن مسعود، ولفظ مسلم: «أن النبي ﷺ رأى جبريل له ستمئة جناح».

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٤٣٥)؛ ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أم سلمة...، رقم (٢٤٥١).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أن الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان...، رقم (٨).

وهذا أيضًا خطأ، والصحيحُ المتعَيَّنُ أنهم أجسامٌ؛ لأنهم يأكلون كما ثبت في الحديث: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ، أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا»(١).

الفَائِدة السَّابِعة: أنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعظمُ منزلةً مِن لُوطٍ، ولهذا جاءتِ الملائكةُ إليه وأخْبَرُوه بأنهم مُهْلِكُو أهلِ هذا القريةِ.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: أن الهلاكَ في الأصلِ إذا جاء يَشْمَلُ الصَّالِحَ وغير الصَّالحِ، لقوله: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، فلولا أنه يَشْملُ الجميعَ ما نَبَّهَهُم على هذا، بل إن الله ذَكَرَ ما يَدُلُّ على ذلك صَرِيحًا، قال تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:٩٣-٩٤].

الفَائِدةُ التَّاسِعة: أن الملائكةَ -عليهم الصلاة والسلام- لما أخْبَرُوا بأنهم سيُهْلِكون هذه القريةَ بيَّنُوا السببَ مِنْ أجلِ أن يطْمَئِنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

الفَائِدةُ العَاشِرَةُ: جوازُ إضافَةِ الحُكم إلى سَببِهِ، لقولِه تعالى: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾؛ لأن الذي يُهْلِكُهم حقيقةً هو الله جَلَّ وَعَلَا كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج:٤٥]، ولا بُدَّ عند إضافَةِ الشيءِ إلى سببِهِ أن يكونَ مَعْلومًا شَرعًا وحِسًّا.

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم (٤٥٠).

الآيــة (٣٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٢].

قوله: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ ﴿لُوطًا﴾ منصوبة؛ لأنها اسمُ ﴿إِنَّ﴾ مُؤَخَّرٌ.

قَال المُفَسِّر: [﴿قَالَ﴾ إبراهِيمُ ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا﴾ أي: الرُّسُلُ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ﴾]: ﴿أَعْلَمُ﴾ ظاهِـرُهَا أنها اسـمُ تفْضِيلٍ والمفَضَّلُ عليـه (إبراهيم).

وجه ذلك: أن هذا التَّعْبيرَ يخاطَبُ به من يُرادُ إعلامُهُ عند المتكلم كما قال الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»[1]. فإبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠]، فقولُ الرَّسولِ ﷺ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»، فـ(أَحَقُّ) اسمُ تَفْضِيلٍ.

لكن باعتبارِ المفَضَّلِ والمفَضَّلِ عليه هل يُوجَدُ منهما شَكٌّ؟

الجواب: لا، فالمعنى أنه لو كانَ عنـدَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَكٌّ لكُنَّا أولى منـه، فكما أننا لا نشُكُّ فإبراهيم لا يشك.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾، رقم (٣١٩٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، رقم (١٥١).

وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ معناها: كما أنكَ أنتَ عالمٌ فنَحْنُ عنْدنَا عِلْمٌ بذلك.

وقولُه: ﴿أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ يَشْمَلُ لوطًا وغيرَه؛ لأن (مَنْ) اسم موصولٌ يُفِيدُ العُمومَ.

لو قال قائل: لماذا لا نجعَلُ أفعلَ التَّفضيلِ على بابِه وتكونُ الملائكة أعلمُ مِن إبراهيمَ؟

فالجواب: إذا قُلْنا باعتبارِ عِلْمِ الملائكةِ بالمجموع -أي: بلُوطٍ وقومِهِ- فلا مانِعَ من أن تكونَ الملائكةُ أعلمُ مِن إبراهيمَ؛ لأننا لا نَجْزِمُ أن إبراهيم يعلَمُ كلَّ مَنْ فيها، وإذا قلنا باعتِبَارِ ما وقَعَ عنه الاعتراض، وهو قوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ فليست على بَابِها، بل المعنى: نحن عالمون كما أنتَ عالمٌ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ بالتَّخْفِيفِ والتَّشْدِيدِ]: قراءتان سَبْعِيَّتَانِ[1]، (نُنَجِّي) من المضَعَّفِ (نَجَّى)، و(نُنْجِي) من المزيدِ بالهَمْزةِ (أَنْجَى)، وكلاهما صحيح، والمعنى واحد، والنَّجاةُ معناها الإنقاذُ مِنَ الهلاكِ.

قوله: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ العطفُ هُنا على الضَّمِيرِ.

الجملةُ في قولِهِ: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ مؤكَّدةٌ بثلاثَةِ مؤكِّدَاتٍ، وهي: القَسمُ المقَدَّرُ، واللامُ، ونُونُ التَّوكيدِ.

قوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ مستَثْنَى من قولِهِ: ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾، والمرادُ بالمرأةِ هُنَا الزَّوجَةُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ البَاقِينَ فِي العَذَابِ]: ﴿كَانَتْ﴾ هل نَقُولُ: إن (كان) فِعل ماضٍ مسلوبُ الزَّمَنِيَّةَ كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ

(١) انظر: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص: ٤٤٠)، والبحر المحيط (٨/ ٣٥٥).

غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥]، وقولُهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤]، فـ(كان) في مثل هذه الآياتِ مَسلُوبَةُ الزَّمَنِ، والمراد اتِّصافُ اسمهَا بخَبرِهَا، أو نقول: دالَّةٌ على الزَّمَنِيَّةِ؟

الجواب: كلاهما محتَمَلٌ، فإن شئتَ فقل: كانت في عِلْمِ الله مِن الغابِرِينَ، وإن شئت فقل: كانت، أي: اتَّصَفتْ بكونها مِنَ الغَابِرِينَ، أي: الباقِينَ في العذاب، يعني: ليست بناجية.

لو قال قائل: ما الفرقُ بين أن نقول: زوجة فلانٍ أو امرأةُ فُلانٍ؟

الجواب: لا فَـرْقَ، وأما من قال: إنَّنا نُعَبِّرُ بالمرأة بدلًا عن الزَّوجَـةِ إذا كانت مُسلِمَـةً وزوجها كافِرٌ أو بالعكس، كما في قـوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم:١١]، نقول: هذه القاعدة تُنتَقَضُ بقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد:٤]، فأُطْلِـقَتْ على الزوجةِ مع اتِّفاقِ الدِّينِ ودائمًا الإنسان يَبْـدُو له أن الشيءَ مُطَّرِدٌ ويَغيـبُ عنه أنه قد يُنْتَقَضُ، فلذا يجِبُ على الإنسان أن يحترِزَ بقولِهِ: [غالبًا]؛ لأجل إذا نُقِضَ كلامُه لا يكون في تعْبِيرِهِ خَللٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: رأفَةُ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وحِلْمُه، لقولِهِ: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ وكأنَّهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يريدُ ألَّا تَهْلِكَ هذه القريةُ لوجودِ هذا الرَّجُلِ الصَّالحِ، هذا احتمال.

واحتمال آخر: هو أنه أوْرَدَ هذا الإيرادَ لِيَنْظُرَ ماذا ستكون عليه حَالُ لُوطٍ.

والاحتمال الثاني أرْجَحُ، والمعنى: ماذا تفعلون بهذا الرجل، ويُؤَيِّدُهُ قوله تعالى: قالُوا ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾.

وأما قوله تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:٧٤]، فإنه يُؤَيِّدُ الاحتمالَ الأَوَّلَ، ولا يمْنَعُ أن يكونَ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال ذَلِكَ للغَرَضينِ، وعلى كِلا الاحتمالين فَفِيهِ دَليلٌ على رَأْفَتِهِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهذا مَشْهُورٌ عنه حتى قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦].

الفَائِدةُ الثَّانِية: إثباتُ القولِ والعِلْمِ للملائكَةِ مما يَدُلُّ على أنهم ذَوُو عقولٍ، وذَوُو نُطْقٍ خلافًا لمن قال: إنهم لا عقولَ لهم، وهذا مِنْ أغربِ ما يكون، أن يكونَ هؤلاء الملائكةُ الذين يُسَبِّحونَ الليلَ والنَّهارَ لا يَفْتَرُونَ، والذين وَصَفَهُم الله تعالى بأنهم عبادٌ مُكْرَمُونَ؛ أن يكونـوا لا عقولَ لهم، فمن له عقلٌ بعد ذلك؟! وخلافًا أيضًا لمن قال: إنهم أرواحٌ لَيْسُوا أجسَادًا، وقد تقدم.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: جوازُ إضافَةِ الشيءِ إلى سببِهِ، لقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾، ومعلـوم أن الإنجاءَ مِنَ الله، لكن لما كانـتِ هؤلاءِ الرُّسُلُ رسلُ اللهِ أُضِيـفَ إليهم فِعْـلُ الله، أي: أن ما قَدَّرَهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو فِعلُهُمْ، وإضافة الشيء إلى سبَـبِهِ له أربعةُ وُجوهٍ:

الوجهُ الأَوَّلُ: أن يُضافَ إلى السببِ الحِسِّيِّ أو الشَّرْعِيِّ بدونِ ذِكرِ الله عَزَّوَجَلَّ.

الوجهُ الثَّانِي: أن يُضافَ إلى السَّببِ الحِسِّيِّ أو الشَّرْعِيِّ مع الله بـ(الواو).

الوجه الثالثُ: أن يُضافَ إلى السببِ الحِسيِّ أو الشرْعِيِّ معَ الله بـ(ثُم).

الوجهُ الرابع: أن يُضافَ إلى السَببِ الحِسِّي أو الشَّرْعي مع اللهِ بـ(الفاء).

فالوجهُ الأول جائزٌ، ومِنَ الأدلة على جوازِهِ قولُه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في أبِي طالِبٍ:

«لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»[١]، والحقيقةُ أن الذي منَعَهُ أن يكونَ في الدَّركِ الأسفلِ مِنَ النار اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكنَّ الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سببٌ، ومن الأَدِلَّةِ أيضًا هذه الآية.

والوجهُ الثَّانِي: إذا أُضِيفَ السببُ الحسِّيُّ أو الشَّرعي مع اللهِ بالواو فهذا شِرْكٌ، ودَليلُهُ قولُ الرسولِ ﷺ للرجلِ الذي قال له: ما شَاءَ اللهُ وشئتَ، قال: «أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا، قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[٢]؛ ولأن التَّعليلَ يقتَضِي أن يجعلَ هذا السببَ مُسَاوِيًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا حُكْمُهُ لا يجوز، وقد يكونُ شِرْكًا أكبرَ أو أصغر بحسْبِ ما قام في قَلْبِ هذا المشْرِكِ، إنما هو شركٌ على كُلِّ حالٍ.

الوجهُ الثالثُ: إذا أُضيفَ السَّببُ معَ الله بـ(ثُم)، فهذا جائزٌ ودَلِيلُهُ حديثُ قُتَيلَةَ وفيه: «فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الكَعْبَةِ، ويَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ»[٣]، وكذلك حديثُ ابنِ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو مَشْهُورٌ[٤]، والتعليل أن (ثُم) تَدُلُّ على التَّرْتِيبِ بمُهْلَةٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٦٧٠)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، رقم (٢٠٩).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى: كتاب عمل اليوم والليلة، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشاء فلان، رقم (١٠٨٢٥) عن ابن عباس بلفظ: أن رجلًا أتى النبي ﷺ فكلمه في بعض الأمر، فقال: ما شاء الله وشئت، فقال النبي ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي لله عَدْلًا، قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ».

(٣) أخرجه النسائي: كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بالكعبة، رقم (٣٧٧٣) عن قتيلة بن صيفي بلفظ: أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تنددون وإنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «ورب الكعبة» ويقولون: «ما شاء الله ثم شئت».

(٤) أخرجه ابن ماجه: كتاب الكفارات، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت، رقم (٢١١٧) بلفظ: «إِذَا حَلَفَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتُ. وَلَكِنْ يَقُلْ: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتُ».

الوجهُ الرَّابعُ: إذا أُضِيفَ السَّببُ مع اللهِ بـ(الفاء) فمن حيثُ إنها للتَّعْقِيبِ تكونُ جائزةً، ومن حيثُ إنها مباشَرَةٌ تكون غيرَ جائزةٍ، والأَوْلى للإنسانِ تَركُها.

الفَائِدتانِ الرَّابعةُ والخامِسَةُ: أن الزوجَـةَ داخِلَـةٌ في الأهلِ، لقـولِ الملائكة: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾، ثم استَثْنَوْا مِنْ ذلكَ امرأتَهُ.

لو قالَ قائلٌ: هذا الاستثناءُ مُنْقَطِعٌ فلا دَلالَةَ فِيهِ، لأن الاستثناءَ المنْقَطِعَ أن يكونَ المسْتَثْنَى من غيرِ جِنسِ المستَثْنَى منه، فتكونُ امرأتُهُ ليست مِن الأهلِ؟

فالجواب: إن الأصلَ في الاستِثْناءِ الاتصالُ؛ لأنه لَولا أنه مِنَ المسْتَثْنَى ما احتِيجَ إلى إخْراجِهِ. وينْبَـنِي على هذا الفَائِدةِ أن أزْواجَ النَّبِيِّ ﷺ من أهلِ بَيْتِهِ ولا شَـكَّ، خِلافًا للرَّافِضَةِ الذين يُخْرِجُونَ زوجاتِهِ مِنْ أهلِ بيتِهِ، وفي القرآنِ ما يدُلُّ على ذلك صَرِيحًا، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

الفَائِدةُ السَّادسَةُ: أن الاتصالَ بالصالِحِ لا يستلِزْمُ أن يكون المتَّصِلُ صالحًا وإن كان الاتصالُ بالصالحِ مِن أسبابِ الصَّلاحِ، ولهذا حثَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على الجليسِ الصَّالحِ[1]، لكنه ليس بلازمٍ، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، أي: كانت مِنَ الهالِكِينَ أو الباقِينَ في الهلاكِ مع أنها امرأةُ رَجلٍ صالحٍ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع...، رقم (١٩٩٥)؛ ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، رقم (٢٦٢٨) عن أبي موسى الأشعري، ولفظ مسلم: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً».

نَبِيٍّ مِنَ الأنبياءِ، فلا تُدِلُّ الزوجة على رَبِّها بصلاحِ زَوجِهَا، وهذه المسألة جاءتْ في سُورةِ التَّحريمِ لأجلِ ألَّا تُدِلَّ زوجات الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الله بكونِهِنَّ زوجات للنَّبِيِّ ﷺ.

لو قال قائل: وردَ حديثٌ أنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جمع فاطِمَة وعَلِيًا والحسنَ والحسين وقال: «**اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي؛ فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا**»، قالت أم سلمة: وأنا مَعَهُمْ يا نبي الله؟ قال: «**أَنْتِ عَلَى مَكَانِكِ، وَأَنْتِ عَلَى خَيْرٍ**»(١).

فالجواب: نَنْظُر في صحَّةِ الحديثِ لأنَّ الآياتِ صريحةُ المعْنى، وإن ثَبتَ يكون أهلُ بَيتِهِ هم قَرابتُهُ ﷺ.

الفَائِدةُ السَّابِعة: جوازُ القَسمِ بدونِ استِقْسَامٍ، لقولِه تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: اعتِبارُ القَسَمِ المقُدَّرِ، بمعنى أنه لا يُشتَرَطُ في القَسمِ أن تَنطِقَ به.

فلو قالَ قائل: لأفْعَلَنَّ كذا، يكون مُقْسمًا؛ لأن هذه الجملةَ تكونُ جَوابًا لقَسمٍ مُقَدَّرٍ، ولو قال: لئن آتانِي اللهُ مِنْ فَضلِهِ لأتَصَدَّقَنَّ يكون نذرًا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة:٧٥-٧٦]، فجَعَلَ هذا نَذْرًا؛ لأن النَّذْرَ ليس له صِيغةٌ مُعَيَّنَة بل كُلُّ ما دَلَّ على الالتزامِ فهو نَذْرٌ بأَيِّ صِيغَةٍ، وقد يكون نَذْرًا مَقْرونًا بالقَسَمِ فيفيد التَّوكِيدَ.

لو قال قائل: هل وُجودُ الصَّالحينَ سببٌ لدَفْعِ العَذابِ؟

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب سورة الأحزاب، رقم (٣٢٠٥) عن عمر بن أبي سلمة، والطبراني في الكبير (٣/ ٥٣) (٢٦٦٦) عن أم سلمة.

فالجواب: وجودُ الصالحينَ قد يكونُ سببًا لدفعِ العَذابِ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣].

الآيــة (٣٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ﴾ تقدَّمَ بيانُها وأنها شَرطيَّةٌ غيرُ جازِمَةٍ.

قوله تعالى: ﴿أَن جَآءَتْ﴾ (أنْ) زائدةٌ للتَّوكيدِ، وكل حُرفٍ زائدٍ في القرآن فإنه للتَّوكِيدِ، وغالبًا تكونُ (أَنْ) بعد (لَـمَّا) زائدَة، وضابِطُ الحرفِ الزائدِ أنه إذا حُذِفَ استقامَ الكلامُ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾ حَزنَ بسَببِهِمْ]: فأفاد أن الباءَ للسَّبَبيَّةِ، يعني لما تحقَّق مَجيئُهُمْ له سِيئَ بهم وحَزنَ بسببِهِمْ، أي: لحِقَهُ السوءُ بسببِهِمْ وحصلَتْ بهم المَساءَةُ، و ﴿سِيٓءَ﴾ هذا فِعل ماضٍ مبْنِيٌّ للمفعولِ مثلُ: قِيل وبِيع، قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَٱكسِرْ أَوْ اشْمِمْ فَا ثُلَاثِيٍّ أُعِلّ ... عَيْنًا وَضُمَّ جَا كَـ(بُوعَ) فَاحتُمِلْ

وفي بِناءِ هذا الفِعْلِ للمَفعولِ ثلاثةُ أوْجُهٍ في فَائِهِ:

(١) البيت رقم (٢٤٧) من ألفيته.

١- إخلاصُ الكَسرِ لفاءِ الفِعلِ.

٢- إخلاصُ الضَمِّ لفاءِ الفِعلِ.

٣- الإشمامُ للفَاءِ.

وقوله تعالى: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ هو جَوابٌ ﴿وَلَمَّآ﴾، ونائبُ الفاعِلِ يعودُ إلى لُوطٍ، ونائبُ الفاعلِ هنا الجارُّ والمجرورُ؛ لأن ساءَ في الأصل يكون متعَدِّيًا بنفسه تقول: ساءَنِي هذا الشيءُ، وهنا تَعَدَّى بالجار والمجرور.

قوله تعالى: ﴿ذَرۡعٗا﴾ إعرابُهُ تَمْيِيزٌ مُحَوَّلٌ عن الفاعِلِ، والتَّمْيِيزُ يكونُ مُحَوَّلًا عنِ الفاعِلِ وعَنِ المفْعُولِ، مثالُ المحَوَّلِ عَن المفْعُولِ: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ [القمر:١٢]، أصله: فجَّرْنَا عيونَ الأرضِ، ومثالُ المحَوَّلِ عَنِ الفاعِلِ هذه الآيةُ، ومثالُهُ أيضًا أن تقولَ: انشَرِحْ بهم صَدْرًا، أي: صَدرُهُ، هنا ضاق بهم ذَرعًا، أي: ضاقَ ذَرْعُهُ.

وقد فسَّرَ المُفَسِّر الذَّرْعَ بقوله: [ضَاقَ بِهِمْ صَدْرًا]: أي: ضاق صَدْرُهُ بهم ولم يَنْشَرِحْ، أي: حَصَلَ له هَمٌّ وغمٌّ بذلك.

وقيل -وهو الصحيح-: إن الذَّرْعَ الطاقَةُ، أي: ضَاقَ بهم طاقَةً، فصار غيرُ محتمل لهم، وهذا مِنْ معناه في اللُّغةِ العربيةِ، وسمِّيَتْ الطاقَةُ ذَرْعًا مِنَ الذِّرَاعِ؛ لأن الذِّرَاعَ محل الحِمْلِ، والطاقَةُ هي التي يستطيعُ المرءُ أن يحمِلَ بها الشيءَ أو لا يحْمِلَهُ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ لأنَّهُم حِسانُ الوُجُوهِ في صُورَةِ أضْيَافٍ فخَافَ علَيهِمْ قَومَهُ، فأَعْلَمُوهُ أنَّهُمْ رُسُلٌ]: فهو ضاقَ بهم خوفًا عليهم من قَومِه لأن قومَه أهلُ خُبْثٍ، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأنبياء:٧٤]، فلما سَمِعُوا بذلك كما ذَكَر اللهُ في آياتٍ أُخْرى

جاءَهُ قومُه يُهْرعُونَ إليه، يعني: مُسْرِعينَ -والعياذ بالله- يُريدونَ هؤلاءِ الأضيافَ، وهذا مِنْ فِتْنَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للعبدِ أن يجعلَ الأُمورَ المحرَّمَةَ عليه في صورةٍ تَهْواهَا نفسه، ليَعْلَمَ اللهُ من يخافُهُ بالغَيْبِ.

فهم -والعياذ بالله- لما جاءوا إلى لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُرِيدُونهم قال لهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ [هود:٧٨]، فقالَ له الرُّسُلُ: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾.

الخوفُ مِمَّا يُتَوَقَّعُ حُدوثَهُ في المستقبلِ، والحُزنِ مما وقَعَ في الماضِي، وقد يقعُ الحُزن لما يتَوَقَّعُ في المستقبلِ، ومثالُهُ قولُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، فقولُهُ: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ بمَعْنَى: لا تَخَفْ، ويُحْتَمَلُ أن تكونَ على بابها، أي: لا تحْزنْ مما حَصَلَ من خُروجِنَا ودُخُولِنَا إلى الغَارِ واختِبَائِنَا.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾؛ مَا حصَلَ لِلُوطٍ من كونِهِ سِيء بهم وضاقَ بِهِمْ ذَرْعًا.

وهل السَّببُ الخوفُ عليهم مِنْ قومِهِ، أو السببُ أنه خافَ أن يُعُمَّه الهلاكُ؟

الجواب: لا مانِعَ من أن يكونَ خافَ عليهِمْ وخافَ أيضًا على نَفْسِهِ أن يَعُمَّهُ العذابُ؛ لأن العذابَ إذا نَزَلَ يَعُمُّ إلا مَنْ أنْجاهُ الله، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون:٩٣-٩٤]، فكُلُّ إنسانٍ مُعَرَّضٌ لأن يشْمَلَهُ العذاب، فالجملةُ إما استئنافِيَّةٌ أو تَعْلِيلية، وإن كانت تحتاجُ إلى تَأَمُّلٍ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ بالتَّشْدِيدِ والتَّخْفِيفِ]: قراءتانِ، «مُنْجُوك» من الفِعلِ الماضِي (أنْجى)، و﴿مُنَجُّوكَ﴾ بالتَّشْدِيدِ من الفعل (نَجَّى)[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾، (أهلكَ) بالنَّصْبِ عطفًا عَلَى الضَّمِيرِ مِنْ ﴿مُنَجُّوكَ﴾.

وهنا إشكالٌ: الضَّمِيرُ في ﴿مُنَجُّوكَ﴾ محله الجَرُّ بالإضافَةِ، وهنا جاءت (أهل) منصوبة، فما وجهُ النَّصْبِ؟

والجواب: لأن اسمَ الفاعِلِ تارَّةً يعملُ عمَلَ الفِعْلِ وتارَةً يُضَافُ، ولِذَا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَنَصْبُ (أهلك) عَطْفٌ عَلَى مَحَلِّ الكَافِ]، قال ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]:

وَاجْرُرْ أَوِ انْصِبْ تَابِعَ الَّذِي انْخَفَضْ ... كَمُبْتَغِي جَاهٍ وَمَالًا مَنْ نَهَضْ

ويجوزُ: كمُبْتَغِي جَاهٍ ومَالٍ مِن نهض.

ويجوز أن تكونَ الواوُ في قولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ للمَعِيَّةِ، وقد قالَ ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]:

يُنْصَبُ تَالِي الْوَاوِ مَفْعُولًا مَعَهْ ... فِي نَحْوِ سِيرِي وَالطَّرِيقَ مُسْرِعَهْ

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: إطلاقُ الرُّسلِ على الملائكةِ لقولِهِ: ﴿رُسُلُنَا﴾، وتقدمت الأَدِلَّةُ على ذلكَ.

---

(١) انظر: حجة القراءات (ص:٥٥١).

(٢) البيت رقم (٤٣٦) من ألفيته.

(٣) البيت رقم (٣١١) من ألفيته.

الفَائِدةُ الثَّانِية: تشريفُ هؤلاءِ الرُّسُلِ لإضافَتِهِمْ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإن الشيء يَشْرُفُ بشَرَفِ ما يُضافُ إليه.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: الأنبياءُ كغَيرِهِمْ مِنَ البَشر يَلحَقُهم المساءَةُ والأحزانُ والسُّرورُ، لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ فالعَوارِضُ البَشَرِيَّةُ لا تُنَافي كَمالَ الرِّسَالاتِ، ولهذا قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ»[1]، وكذلك يَعْتَرِي الأنبياءُ البردَ والحرَّ والجوعَ والعَطَشَ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: شدة احتِرَازِ لُوطٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ قومِهِ؛ لأنه إنما سِيءَ بِهِمْ وضاقَ بهم ذَرْعًا، أي: خَوفًا عليهم من قَومِهِ؛ لأنهم جاءوا بصُورةِ شبابٍ ذَوي جَمالٍ وحُسْنٍ، فتنةً من الله عَزَّوَجَلَّ.

الفَائِدةُ الخامِسة: الاستدلالُ على الأحوالِ بالملامِحِ، لقولِهِمْ: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾، ولأنهم رَأَوا مِنَ العلاماتِ الظاهِرَةِ على مَلامِحِهِ ما يَدُلُّ على خوفِهِ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: وهي مَبْنِيَّةٌ على الفَائِدة السابِقَةِ: العَمَلُ بالقَرائنِ، والعملُ بالقَرائنِ ثابِتٌ في القُرآنِ، ودَلِيلُه مِنْ قِصَّةِ يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٢٦-٢٧]، هذه قَرِينَةٌ، وأيضًا في قصَّة سُليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في المرْأتَينِ اللَّتَيْنِ تنازَعَتَا الغُلامَ، فدَعَا عَلَيْهِ السَّلَامُ بالسِّكِّينِ ليَشُقَّهُ نِصْفَينِ فوافقَتِ الكُبْرَى لأن ولَدَها أكلَهُ الذئبُ، فأرادتْ هلاكَهُ، وأما الصغيرةُ فقالت: يا نبي الله هو لها، أدْرَكَهَا الحنانُ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أبواب القبلة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم (٣٩٢)؛ ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٢).

فعلم بهذه القَرينَةِ أنه للصُّغْرَى[١].

وأيضًا في شَرِيعَتِنَا شَرِيعَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قِصَّة ذَهبِ حُيَيِّ بنِ أخطبَ لما سألَ عن مالِهِ أين هو؟ فقالوا: يا مُحَمَّدُ أذهبَتْه الحروبُ والسُّنُونُ، فقال: «المَالُ كَثِيرٌ وَالْعَهْدُ قَرِيبٌ»، ثم دفع الرجلُ إلى الزُّبَيرِ بنِ العوَّامِ، قيل: فَمسَّهُ بِعذابٍ، فلما أحسَّ بالعذاب قال: انتظر، إني أَرَى حُيَيَّ بن أخطبَ يدورُ حول هذه الخَرِبَةِ فلعله دَفنَهُ فيها، فوجودُه فِيهَا[٢]، فهذا من العَملِ بالقَرائنِ.

الفَائِدةُ السَّابِعة: أنه ينْبَغِي طمأنَةُ الخائفِ ليزُولَ عنه الخوفُ، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾، ومن هذا ما يُسْتَعْمَلُ في الطِّبِّ الآن، فإن الطبيبَ يقولُ للمريضِ: هذا أمرٌ سَهْلٌ وهَيِّنٌ -يطمئنه- لأجل أن ينْشَرِحَ صَدرُهُ.

الفَائِدة الثَّامِنة: إزالَةُ المؤْذِي قبلَ حُصُولِ السَّار لقوله: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ فبدؤوا بنفي الخَوفِ والحزنِ ثم أعْقَبوهُ بالبِشارةِ؛ ولهذا من الكلماتِ المشهورة عند أهل العِلْمِ يقولونَ: (التَّخْلِيَةُ قبلَ التَّحْلِيَةِ)، يعني: جَرِّدِ الشَّيءَ مِمَّا يَشُوبُهُ من النَّقْصِ ثم بعد ذلك كمِّلْهُ بالتحْلِيَةِ، ومن كلمة الإخلاص: (لَا إِلَه إِلَّا اللهُ) النَّفي أسبَقُ مِنَ الإثباتِ.

الفَائِدةُ التَّاسِعةُ: أن الاتِّصَالَ بالصَّالحِ لا يَلزمُ منه الصَّلاحُ، وقد تقدم نحوه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، رقم (٣٢٤٤)؛ ومسلم: كتاب الأقضية، باب بيان اختلاف المجتهدين، رقم (١٧٢٠) عن أبي هريرة ولفظ مسلم: «بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ هَذِهِ لِصَاحِبَتِهَا إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ أَنْتِ وَقَالَتْ الْأُخْرَى إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَام فَأَخْبَرَتَاهُ فَقَالَ ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَكُمَا فَقَالَتْ الصُّغْرَى لَا يَرْحَمُكَ اللهُ هُوَ ابْنُهَا فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى».

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب ما جاء في حكم أرض خيبر، رقم (٣٠٠٦).

الآيــة (٣٤)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت:٣٤].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ بالتَّخْفِيفِ والتَّشْدِيدِ]: أي: «مُنَزِّلُوْنَ»، و(مُنْزِلون)[1].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ عَذَابًا]: والرِّجْزُ غيرُ الرجْسِ، الرَّجْزُ بالزَّاي: هو العَذابُ، والرِّجْسُ النَّجَسُ.

قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، هل المرادُ بالسماءِ السَّقْفُ المحفوظُ أو العُلُوُّ؟

قد يُرادُ هنا المعنَيانِ؛ لأن استعمالاتَ السماءِ للسَّقْف المحفوظِ كثيرةٌ، وكذلك السماء بمعنَى العُلُوِّ كثيرٌ، وسواء قُلْنَا: إنه السَّقْفُ المحفوظُ وأن هذا العذابَ نَزَلَ مِـنَ السماءِ الدُّنَيا، أو قلنا: إن المرادَ به العُلُوُّ؛ على كِلا الحالَينِ العذابُ أتاهُمْ من فَوق، وكونُه يأتِي مِنْ فوقَ أشَدُّ وأبْلَغُ؛ لأن ما يأتي مِن فوق يكونُ عاليًا ومحيطًا -والعياذ بالله- بخلافِ الذي يأتي من أسفلَ فإنه لا يكونُ كذلِكَ.

قَال المُفَسِّر: [﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا﴾ بالفِعْلِ الَّذي ﴿كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ به، أي: بِسَبَبِ فِسْقِهِمْ]: وكلامُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ غريبٌ وفيه شيء مِنَ التَّنَاقُضِ، الباءُ في

(١) انظر: االنشر في القراءات العشر (٢/ ٣٤٣).

قوله: ﴿بِمَا﴾ للسَّبَبِيَّة، و(ما) أعْربَها على أنها اسم موصولٌ ثم قَدَّرَها بالمصَدْرِ، مما يَدُلُّ على أنه جعَلَهَا مصدَرِيَّةٌ وهذا من الغرائبِ.

فعلى التَّقديرِ الأوَّلِ ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالفِعْلِ الذي كانُوا يَفْسُقونَ بِهِ] فتكونُ (ما) اسمًا موصولًا صِفَةً لموصوفٍ محذُوفٍ تقدِيرُه: بالفعلِ، والاسمُ الموصولُ يحتاجُ إلى جملةٍ تكون صِلَةً، ويحتاجُ إلى عائدٍ يربِطُ الجملة بِهِ، أعنْي: جملةَ الصِّلَةِ، وهي قولُه: ﴿كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾، والعائدُ قدَّرَهُ بقولِهِ: بِهِ.

وهذا خلافُ المشهور عندَ النَّحْوِيِّينَ من أنه إذا كانَ العائدُ مجرورًا، فلا بُدَّ أن يكونَ مُوافِقًا لاسم الموصول في نَوعِ العاملِ وفي نَوعِ حرفِ الجرِّ.

والشاهدُ من كَلامِ ابنِ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في اشتِراطِ هذا الشيء قوله[1]:

كَذَا الَّذِي جُرَّ بِمَا المَوْصُولَ جُرّ ... كـ(مُرَّ بِالَّذِي مَرَرْتُ فَهْوَ بَرّ)

فقال: كـ(مُرَّ بالَّذِي مَرَرتُ فَهُو بَرٌّ)، وهنا اختلفَ العامِلُ، فالصحيحُ أن (ما) هنا مَصْدَرِيَّةٌ، أي: بكونِهم يَفْسُقونَ فهي مَصْدَرِيَّةٌ وليست موصولةً.

وقوله: ﴿يَفْسُقُونَ﴾ الفِسْقُ في الأصل: هو الخُروجُ عن الطَّاعَةِ، ومِنْهُ قولهم: (فَسَقَتِ الثَّمرةُ) إذا خَرجتْ مِنْ قِشْرِهَا.

وينقَسِمُ الفِسْقُ إلى قِسمَيْنِ:

- فسقٌ أكْبَرُ مخرِجٌ عَنِ المِلَّةِ.
- وفِسقٌ أصغَرُ لا يُخرِج عَنِ المِلَّةِ.

---

(١) البيت رقم (١٠٤) من ألفيته.

والمصطَلَحُ عليه عندَ أهلِ العِلمِ الثاني، فإذا أطلَقُوا الفِسْقَ فإنما يُريدُونَ به ما لا يُخرِج من المِلَّةِ، لكنه في القرآن ينقسم إلى هذين القِسمَيْنِ؛ وهو بقِسْمَيْه مخرِجٌ من العَدالَةِ، فالفاسِقُ ليسَ بعَدْلٍ.

والشاهدُ من القُرآنِ للفِسْقِ المخرجِ مِنَ المِلَّة قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:٣٣]، وكذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة:٢٠]، في مقابِلِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وأما الفِسْقُ الذي لا يُخرِجُ مِنَ المِلَّةِ، ففي مثل قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام:١٢١].

وأما سببُ الفِسْقِ -الذي هو الخروجُ عن الطَّاعَةِ- فقد يكون سبُبُه تركَ واجبٍ، كما لو تركَ الإنسانُ صلاةَ الجماعَةِ فإنه يكون فاسِقًا لأن الجماعَةَ واجبةٌ، وقد يكونُ سَبَبُه فِعْلَ محرمٍ كما لو حلَقَ لحيَتَهُ فإن حَلْق اللِّحيةِ مُحَرَّمٌ، إلا أن العلماءَ يقولون في المحرَّمِ إن كان كبيرةً: (فَسَقَ بمُجَرَّدِ فعلها إذا لم يَتُبْ منها)، وإن كانت صغيرة: (لم يَفْسُقْ إلا بالإصرارِ عليها)، فحالِقُ اللِّحْيَةِ لا يَفْسُقُ إذا فعَلَهُ مرَّةً واحدة، لكن إذا أصَرَّ، أي: كُلَّمَا نَبَتَتْ حَلقَها صارَ فاسِقًا، لكن قَصَّ اللِّحيَةِ ليس كحلْقِ اللِّحْيَةِ، لكنه مَعصيةٌ لأن الرسولَ ﷺ قال: «أَعْفُوا اللِّحَى»[1].

لو قال قائلٌ: إن عَذابَ قومِ لُوطٍ ذَكَرَهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القرآنِ فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر:٣٤]، ويُذْكَرُ أن جِبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب إعفاء اللحى، رقم (٥٥٥٤)؛ ومسلم: كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، رقم (٢٥٩).

حَمَل هذه القُرَى، ثم قَلَبَها، فكيف الجَمْعُ؟

الجواب: إن صَحَّ عنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن جبرَيل حَمَل هذه القُرَى وقَلَبها فلا كلامَ لأَحَدٍ، وإن لم يَصِحَّ فإننا لا نَقُولُ بِهِ[1]؛ لأن هذا خلافُ ظاهِرِ الآياتِ، وأما قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم:٥٣]، وهي قُرى قَومِ لُوطٍ التي صَنَعَتِ الإفكَ والكَذِبَ؛ فلا دَلالَة فيها على مَا سَبَقَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: إثباتُ العُلُوِّ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِهِ: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾.

الفَائِدةُ الثَّانِيةُ: شِدَّةُ العذابِ إذا كانَ آتِيًا من فَوقَ، لقولِهِ: ﴿مُنزِلُونَ﴾؛ لأن كونَ العَذابِ يأتِي مِنْ أعْلى فهُو أشَدُّ وأبْلَغُ؛ لأن العذابَ في هذه الحالِ يكونُ عالِيًا ومُحِيطًا.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: إثباتُ الأسبابِ؛ لقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، فإن الباء للسَّبَبِيَّةِ.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: أن الفِسْقَ سببٌ للعُقوباتِ، ولهذا جَعَلَ الله المَعَاصِي مِنَ الفسادِ في الأرضِ؛ لقولِهِ: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: الردُّ على الأشْاعِرَةِ والجَهمِيَّةِ والجَبْرِيَّةِ، والجبريةُ هم الجَهْمِيَّةُ؛

---

(١) أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ قال: لما أصبحوا عدا جبريل على قريتهم فقلعها من أركانها ثم أدخل جناحه، ثم حملها على خوافي جناحه بما فيها، ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم قلبها، فكان أول ما سقط منها سرادقها، فلم يصب قومًا ما أصابهم، ثم إن الله طمس على أعينهم، ثم قلبت قريتهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل. انظر: فتح القدير (٢/ ٧٤٥)، وتفسير الطبري (٧/ ٩١)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٩٧).

والجَهْمِيَّةُ عندهم ثلاثةُ جِيماتٌ، أعاذَنا اللهُ من هذه الجيماتِ، والاستِعاذَةُ ليس من كل جِيمٍ لأننا نتعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرَّجيم، وهذه الجيمات هي: جيم جَبْرٍ وإرجاءٍ وتَجَهُّمٍ، يقولُ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

جَـبْرٌ وإِرْجَـاءٌ وَجِـيمُ تَجَهُّـمٍ .....

فهؤلاء الطوائفُ يقولونَ: لا تُوجدُ أسبابٌ مؤَثِّرَةٌ، حتى إنك إذا رَمَيْتَ بالحَجَرِ على الزجاجة فانكْسَرَتْ قالوا: لم يَكْسِرْها الحجَرُ، بل انكْسَرَتْ عنده لا به، وعندما تَضَعُ ورَقَةً في النَّارِ وتحترق يقولون: النارُ لم تَحْرِقْهَا.

ونقول لهم: لو أَتَيْـنَا بالحَجَرِ ووَضَعْنَاه عندَ الزُّجاجةِ هل تنْكَسِرُ؟ فكلامهُمْ لا يُعْقَلُ، وتصورُهُ كافٍ في رَدِّهِ؛ لكن هم يُرِيدُون أن يتَوَصَّلُوا إلى شيءٍ من وراءِ ذلك وهو: أن الإنسانَ مُجْبَرٌ على العمل، فإذا عذَّبَهُ الله تعالى وهو عاصٍ فإن تَعْذِيبَهُ إياه ليس بحُجَّةٍ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يُعَذِّبُ بدونِ سببٍ، والأسبابُ عندهم غيرُ فاعلةٍ، ونحن نوافِقُهُم أنها غيرُ فاعلة بنفسها، بدليلِ أن النَّارَ المُحْرِقَةَ صارتْ على إبراهيـم بَرْدًا وسلامًا، لكن نقول: هي فاعِلَةٌ بتَقْـدِيرِ الله عَزَّوَجَلَّ الذي جَعلها تَحْرِقُ فأحرَقَتْ.

• • ۞ • •

(١) القصيدة النونية (ص: ١٦٦).

الآيــة (٣٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٣٥].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا﴾ الجملةُ مؤَكَّدَةٌ بثلاثَةِ مُؤكِّدَاتٍ، وهي: القَسَمُ، واللامُ، وقَدْ.

قوله: ﴿تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾، أي: أبْقَيْنَا مِنْها، فالتَّرْكُ هنا بمعنى الإبقاءِ، وهو ظاهرٌ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، تقول: أخذت كذا وتركتُ كذا، أي: أبْقَيْتُ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ يعني: أبْقَيْنا من هذه القَضِيَّةِ آيةً بَيِّنَةً، ﴿ءَايَةًۢ﴾ بمعْنَى عَلامَةٍ، و﴿بَيِّنَةً﴾ بمعنى ظاهِرَة وواضِحَة، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ظَاهِرَةٌ، هِي آثَارُ خَرابِهَا].

وفي سورةِ الصَّافاتِ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨]، فكان العربُ يَمُرُّونَ على هَذِه القُرى ذَاهِبِينَ وعائدينَ إلى الشَّامِ، فيرونَ مِنْ آثارِ العَذابِ ما هو ظاهِرٌ لكنهم لا يسْتَفْسِرُونَ، ولهذا قال: [﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبرون].

قوله: ﴿لِّقَوْمٍ﴾ متعَلِّقَةٌ بـ﴿تَّرَكْنَا﴾، ويجوزُ أن تكونَ متعَلِّقَةً بـ﴿بَيِّنَةً﴾، فيجوزُ أن يكون المعنى: بيِّنَةً للعَاقلينَ، ويجوزُ أن يكون المعنى تَرْكَنَاهَا للعاقِلِينَ.

وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تَقَدَّمَ أن العقلَ ينْقَسِمُ إلى قسمين: عَقْلٌ يُرادُ به الإدراكُ، وعَقْلٌ يرادُ به الرُّشْدُ، والعَقْلُ الذي يُرادُ به الإدراكُ هو مَناطُ التَّكْلِيفِ، ولذا يقولُ الفقهاء: مِنْ شروطِ هذه العبادة التَّمْيِيزِ والعَقْلِ.

وعقلُ الرُّشْدِ هو مناطُ المدْحِ والذَّمِّ، يعني: الذي يُمْدَحُ عليه الإنسان ويُذَمُّ، وبه يكونُ الإنسانُ حسنَ التصرفِ، بحيثُ يعْقِلُه ما معه مِنَ الإِدْرَاكِ عما يَضُرُّهُ إلى ما يَنْفَعُهُ، وهو المرادُ في هذه الآية: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، فالمرادُ بِهِ عَقْلُ الرُّشْد.

وكذلك العَقْلُ الذي يُذْكَرُ في القرآنِ غالبًا ما يرادُ به عَقْل الرُّشد؛ لكن العقلَ الذي ذُكِرَ في كلامِ أهلِ العلم فمُرادُهُم به عقْلُ الإدراكِ.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَتَدَبَّرُونَ] في الحقيقة ليسَ تَفْسِيرًا مُطَابقًا لِلَفْظٍ؛ لأن التَّدَبُّـرَ سابقٌ على العَقلِ، فالإنسانُ يتَدَبَّرُ أولًا ويعـرفُ النافع من الضَّارِّ، ثم يَعْقلُ فيتَّبعُ ما ينْفَعُهُ ويدَعُ ما يَضُره.

قوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ مفهومُ الآية أنَّ من لا يَعْقِلون فإنهم لا ينتَفِعُونَ بالآيات ولا يتَّعِظُونَ بها، والآية إذا لم تَنْفَعْ فليست بآيةٍ لمن رآهَا وشاهدَهَا وسَمِعَ بها وبَلَغَتْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: حِكْمَةُ اللهِ بإبقاءِ آثارِ الآياتِ؛ لقولِهِ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أنه لا ينْتَفِعُ بالآيات إلا ذَوُو العُقولِ؛ لقولِهِ: ﴿يَعْقِلُونَ﴾.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: فائِدةُ العَقْلِ، فإذا أُوتِيَ الإنسانُ عَقْلًا فإن هذا من نِعْمَةِ الله عليه؛ لقولِهِ: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، فصاحبُ العَقْلِ ينتَفِعُ بالآيات التي تركَهَا الله عَزَّوَجَلَّ.

الآيــة (٣٦-٣٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت:٣٦-٣٧].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وَأَرْسَلْنا إلى مَدْيَن]: فعلى هذا يكونُ قولُهُ: ﴿أَخَاهُمْ﴾ مفْعُولًا لفعل محذوفٍ تقْدِيرُهُ: أرْسَلْنا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَخَاهُمْ﴾ ولم يقلْ: أخوهم؛ لأنه اسمٌ من الأسماءِ الخَمْسَةِ -لأهل الآجُرُّومِيَّةِ- أو من الأسماء الستة -لأهلِ الألْفِيَّةِ-.

قوله: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ الأخوة هنا ليست في الدِّينِ قَطْعًا؛ لأن الكُفَّارَ ليسوا بإخـوةٍ للمُؤمِنِينَ، وقال بعضُ الناس: إن الكافِرَ والمسلمَ أخوانِ في الإنسانِيَّةِ؛ لأن كُلَّهم بَشَرٌ.

وإذا نَظَرْنا إلى المسألة بعَقْلٍ وبدونِ عاطِفَةٍ عَلِمْنا فسادَ هذا القول؛ لأننا حُدِّثْنا أن رَجُـلًا من أهلِ الخيرِ تكلم في مسجدٍ مِنَ المساجِدِ يَعِـظُ الناس ويقول: هؤلاء إخواننا في الإنسانية يعني: الكُفَّارَ، والجواب عن هذا قولُه عَزَّوَجَلَّ في سورةِ الممتحنة عن إبراهيم: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]، فكيف تكونُ الأُخُوَّةُ وقد كفَرَ بهم وبَدَا بينه وبينهم العَداوةُ والبَغْضَاءُ،

وأيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال:٥٥]، وأيضًا قال تعالى في سورة البَيِّنَة عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦].

لو قال قائلٌ: ليس المرادُ الأُخُوَّةُ الإيمانية، إنما المرادُ بالأُخُوَّةِ التي تَتعَلَّقُ بالناحية البشريةِ، يعني: مُطْلَقُ الموافَقَةِ والمشابَهَةِ؟

الجواب: نقول: هذا شُعَيبٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال الله في هذه الآية: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ وقال في سُورَةِ الشُّعراءِ: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٧]، ولم يقل: أخوهم، قال أهلُ العلمِ: أن أصحابَ مَدْيَنَ كان شعيبٌ منهم، فهو أخوهم في النَّسَبِ، وأصحابُ الأيْكَةِ ليس منهم في قَرْيَةٍ حولَ مَدْيَنَ أرسلَهُ الله إليها، ولو كانت الأُخُوَّةُ هي الأخوة الإنسانيةُ لكانَ يُقالُ في أصحابِ الأيكة أيضًا: إنه أخُوهُمْ، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗا﴾ [الأعراف:٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗا﴾ [الأعراف:٧٣].

ثم إن الأُخُوَّةَ في اللغة العربية ليست مطلَقَ الموافَقَةِ في البشرية، إذا تَتَبَّعْنَاهَا وجدنا الأُخُوَّة إما في النَّسَبِ فيكونُ الأصل الجامع بينهما نَسَبًا، وإما أن يكونَ الأصلُ الجامِعُ هدفًا واحدًا يَسْعَى إليه الجميع، ومعلوم أن المسلِمَ والكافرَ مختلفانِ في الهدَفِ، ولا يمكن أن يكون أحدُهُما موافقًا للآخر.

والحاصل: أننا لا نوافِقُ على هذا القول مهما كان الأمْرُ؛ لأن أي مُسلِمٍ يقول: هذا الكافِرُ أَخُوهُ، لا شك أنه سيَحْصُلُ له رِقَّةٌ ولِينٌ وموافقة، ويُسَهِّل ما في النفوس من بُغضِ الكفَّارِ، وكنا في السابق إذا قيل: نَصْرَانِيٌّ أو يهودي يتخوف الإنسانُ ويتَهَيَّبُ، والآن صارت المسألة تَمُرُّ على القلب مُرورَ الماء الباردِ، ولا يتأثر أحد إلا ما شاء الله، وهذا له خَطَرُه العظيم، نسأل الله السلامة.

لو قال قائلٌ: هل يجوزُ أن يقولَ المسلمُ للكافر: هذا قَرِينِي؟

الجواب: على المسلِمِ أن يتَحَاشَى كُلَّ لفظٍ يَدُلُّ على الموافَقَةِ للكَافِرِ، وعلى كُلِّ حالٍ القَرِينُ للإنسان الشيطانُ وهو عَدُوٌّ، لكن لفظَةُ (قرين) تَدُلُّ في الوقتِ الحاضرِ على المصَاحَبَةِ والموافَقَةِ والمرافقة، فالأَوْلَى البعدُ عن كل لَفْظٍ يدل على الاتِّفاقِ مع هؤلاء.

وقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، هل مَدْينُ اسمٌ للقبيلَةِ أم أنه اسمٌ للبَلَدِ؟

قال تعالى في آيةٍ أُخْرى: ﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ [الحج: ٤٤]، ظاهِرُ هذه الآية أن المرادَ بها المكانُ، وأما قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، فهذا من بابِ إطلاقِ القَرِيَةِ وإرادَةِ الأهْلِ، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٢]، فيُرادُ بها المكان مع أنها ليستْ بصَريحَةٍ؛ لأن الإنسانَ قد يتَوَجَّهُ تلقاءَ القومِ، ويُحْتَمَلُ أن البلدَ سمِّيَتْ باسم القَبيلَةِ، وإذا قلنا بهذا يَخِفُّ الإشكال.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ (يا): حرفُ نِداءٍ، و(قوم): مُنَادَى منصوبٌ على النِّداءِ، وعلامة نَصبِهِ فتحةٌ مقدَّرَةٌ على ما قبل ياءِ المتكَلِّمِ المحذُوفَةِ لالتقاءِ الساكِنَيْنِ، منعَ من ظُهورها اشتِغالُ المَحِلِّ بحركةِ المناسَبَة، وفي قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ من التَّلَطُّفِ ما هو ظاهر؛ لأن قومَ الرجلِ لا بُدَّ أن ينْصُروه ويَقْبَلُوا ما جاء بِهِ.

وقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟﴾: أي تَذَلَّلُوا له بالطَّاعَةِ؛ لأن العبادةَ مأخوذةٌ مِنَ التذَلُّلِ، ومنه قولهم: طريقٌ معَبَّدٌ أو مذَلَّلٌ للسَّالكِينَ، فالعبادُة هي التَّذَلُّلُ لله عَزَّوَجَلَّ بطاعَتِهِ، والطاعةُ هي امتثَالُ الأمرِ واجتنابُ النَّهْي عن الإطلاقِ، أما إذا قَرَنتَ فقيل: (طاعَةٌ ومَعْصِيَةٌ) صارت الطاعةُ في الأوامِرِ والمعْصِيَة في النَّواهِي.

وقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: أي: أخْلِصُوا له العبادَةَ، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

فالمرادُ بالعبادَةِ هُنا: إخلاصُ العِبادَةِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقَال المُفَسِّر: [﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ اخشَوْه، هو يومَ القِيامَةِ]: الرجاءُ يُطْلَقُ على الطَّمَعِ في المحبوبِ في الأصلِ، ويُطْلَقُ الرجاءُ بمعنى الخَوفِ، فهو من بابِ الأضدادِ؛ لأن اللُّغةَ العربيةَ فيها كَلماتٌ تدُلُّ على المعنى وضِدِّهِ تُسَمَّى (الأضداد)، وألَّفَ علماءُ اللُّغةِ في هذا كُتُبًا، فتَجِدُ الكلِمَةَ الواحدةَ تَدُلُّ على المعنى وضِدِّهِ.

وهل الرجاءُ هنا بمعنى الخوفِ أو بمعنى الطمعِ في المحبوبِ؟

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حَمَلَهَا على أن المرادَ بها الخوفُ، وذلك أن المقامَ مقامُ إنذارٍ، ويُحتَمل أن تكونَ بمعنى الطَّمَعِ في المحبوبِ؛ لأن اليومَ الآخِرَ فيه المحبوبُ وفيه المكرُوهُ، قال تعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيٌّ وَسَعِيدٞ ١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [هود:١٠٥-١٠٨].

فلو قال قائلٌ: ألا يجوزُ أن نَحْمِلَهُ على المعْنَيينِ جَميعًا، أي: ارْجُوه خَوفًا من العقابِ وطَمَعًا في الثَّوابِ؟

الجواب: نعم، يجوزُ أن يكونَ شامِلًا للأمرين، والرَّاجِحُ عندي -وهو قولٌ لبعض العلماء- جوازُ استِعْمالِ المشترَكِ في مَعنَيين إذا لم يكن بينهما تَنَافٍ.

وقولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ هُو يومُ القِيامَةِ]: لأنه لا يومَ بعدَهُ إذ إن الناسَ لهم أربعُ مراحِلَ:

المرحلةُ الأولى: فِي البَطْنِ. والمرحلة الثانية: في الدُّنْيَا.

والمرحلة الثالثة: في الْقُبورِ.

والمرحلةُ الأخيرةُ: يومُ القيامةِ، ولهذا سُمِّيَ باليومِ الآخِرِ.

قولُهُ: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (لا تَعْثوا) أي: لا تُفْسِدُوا.

وإعرابُ ﴿مُفْسِدِينَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حالٌ مؤكِّدَةٌ لعَامِلِها من عَثِيَ بكَسْرِ المُثَلَّثَةِ، أي: أفْسَدَ]، ومعنى قولِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حالٌ مؤكِّدَةٌ له، أي: بمعناه: وهذا التأْكِيدُ معنَوِيٌّ لأنه ليس من مادَّةِ الفِعلِ.

يقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ عَثِيَ بكسرِ المثلَّثَةِ: أفسَدَ]: يقال: عَثِيَ يَعْثَى كفَرِحَ يَفْرَحُ، وأبواب التَّصْرِيفِ سِتَّةٌ منها: فَعِلَ يفْعَلُ كرَضِي يَرْضَى، ويجوز أن تكونَ من باب فَعَلَ يفْعُلُ كعَثَا يَعْثُو، وكلاهما بمعنى أفْسَدَ.

قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (لا): ناهية، ولهذا جُزِمُ الفِعلُ بحذفِ النُّونِ.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟﴾ هلِ المرادُ الإفسادُ الحِسِّيُّ كهدْمِ البِناءِ وإفْسادِ الأنهارِ وقَطْعِ الأشجارِ ونحو ذلك، أو أنَّ المرادَ الإفسادُ المعْنَوِيُّ، أو كلاهما؟

المرادُ: كلاهما، فالإفسادُ في الأرضِ يشْمَلُ الإفسادَ بالمعَاصِي، ويشْمَلُ الإفسادَ الحِسِّيَّ المادِّي، والدليلُ على هذا أن النَّبِيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نهى عَنْ إضاعَةِ المالِ[1]، وروى أبو داودَ أن الصَّحَابَة كانوا مع النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فنزلوا أرْضًا فنهاهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يكره من قيل وقال، رقم (٦١٠٨)؛ ومسلم: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة...، رقم (٥٩٣) عن المغيرة بن شعبة، مسلم بلفظ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ وَوَأْدَ الْبَنَاتِ وَمَنْعًا وَهَاتِ وَكَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ».

عن قطعِ أشجَارِها؛ لأنها للاستغلال، فقَطْعُها إفساد لها.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ كانت مقابَلَةُ هؤلاء القومِ لهذه الدَّعْوَةِ التي تدْعُو إلى الخيرِ في قولِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ وتَنْهَى عَنِ الشَّرِّ في قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ كان جوابُهُم ورَدُّهم قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ مع أن التَّكذِيبَ إنما يكونُ في الخبَرِ، وشُعيبٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾، وقال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، وكلُّ هذه الجُمَلِ الثلاثِ إنشائيَّةٌ وليستْ خَبَرِيَّةً، وكان مقتَضَى الظاهِرِ أن يقولَ: فعَصَوْه، وهنا قال: فكَذَّبُوه.

الجواب: يقال: إنه قال لهم هذه الأوامرَ باعتبَارِهِ رَسُولًا من عندِ اللهِ فكذَّبُوه، أي: بدَعْوى الرِّسالَةِ، وهذا أبلَغُ مِنَ العِصيانِ؛ لأنهم أنكَرُوا رسالَتَهُ رأسًا، فلم يُقِرُّوا بالرسالة، ثم يقولوا بعد ذلك: إننا نَعْصِيكَ في هذه الأوامِرِ، فكان هذا أبلغَ من قولِهِ: فعصوه.

قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ (الفاء) يُحتَمَلُ أن تكونَ للتَّعْقِيبِ أو للسببية، فإن قلنا: إنها للتَّعْقِيبِ؛ فهو دَليلٌ على أنه بمجرَّدِ تكذِيبِهم عُوقِبُوا، وإن قلنا: للسَّبَبِيَّةِ، فإنه لا يلزم من ذلك أن تكونَ عُقوبتُهم قريبَةً مِنْ تَكْذِيبِهم؛ لأنه يحتمل أن الله أمْهَلَهُمْ بعد التكذيبِ ثم أخذتْهُمُ الرَّجْفَةُ؛ على أننا إذا جعلناها للسَّبَبِيَّةِ لا تُنَافي أو لا تمْنَعُ أن تكونَ العُقوبَةَ مباشِرَةً، وعلى هذا فنقول: إن الأَوْلى أن تكونَ للسَّبَبِيَّةِ لوجُوهٍ ثلاثَةٍ:

الوجه الأول: دَلالَتُهَا على حكمة العُقوبةِ وهي التَّكْذِيبُ.

الوجه الثاني: أنها أوْسَعُ دَلالَةً من أن تكونَ الفاءُ للتَّرْتِيبِ؛ لأنها تَشْمَلُ ما أَعْقَبَ التكذِيبَ وما تأَخَّرَ عنه.

الوجهُ الثالثُ: أننا نسْلَم مِنْ دَعْوى أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يُمْهِلْهُمْ وليس عندنا عِلْمٌ بذلك.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ أبلغُ من قوله: أصَابتْهُم؛ لأن الأخذَ دِليلٌ على أنه لا هَوادَةَ فيه وأنَّه مُدَمِّرٌ.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزَّلْزلَةُ الشَّدِيدَةُ]: وفي سورة هودٍ أخَذَتْهُم الصَّيْحَةُ، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود:٩٤-٩٥]، ولا تَنَافي بينهما لإمكان اجتماعِهِمَا، إذ يكونُ العذابُ بالصَّوتِ، أي: بالصَّيْحَةِ، ثم رجَفتْ بهم الأرْضُ، فيكون العذابُ بالأمرين جميعًا.

قوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ (الفاء) نقول: إنها عاطِفَةٌ، ويجوز أن تكون سَبَبِيَّةً.

وقوله: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ بالنَّصْبِ خبرُ (أصبح).

في هذه الآية قال: ﴿فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، وفي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿دِيَٰرِهِمْ﴾، ولا منافاةَ، وذلك لأن (دارَ) مُفردٌ مضافٌ والمفردُ المضافُ يَعُمُّ، ومثالُهُ من القرآنِ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، ﴿نِعْمَتَ﴾ مفردٌ، ودَليلُ إفادَتِها العموم قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ وكذلك الجمعُ في قولِهِ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: [﴿جَٰثِمِينَ﴾ بارِكِينَ عَلى الرُّكبِ مَيِّتِينَ]: فلِشِدَّة ما نزلَ بهم بَرَكُوا على رُكَبِهِمْ، ثم هَمَدوا وصارُوا جاثِمِينَ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفَائِدةُ الأُولَى: إثباتُ رَحْمةِ اللهِ وحِكْمتِهِ بإرسالِ الرُّسلِ، أما الرَّحمة فظاهِرَةٌ؛ لأنه لا يمكِنُ للعبادِ أن ينتَفِعُوا بعقولهم في التَّعَبُّدِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا يقولُ العلماءُ: العباداتُ توقِيفِيَّةٌ، وأما الحِكمةُ فلئَلَّا يكونَ للنَّاسِ على اللهِ حُجَّةٌ بعدَ الرُّسُلِ.

الفَائِدة الثَّانِية: أن النبيَّ غالِبًا يكونُ من قومِهِ، وجه ذلك: لأنَّ الأنبياءَ الذين ذُكروا في القرآنِ كان التَّعْبِيرُ القُرآنِيُّ عنهم بقولِهِ: ﴿أَخَاهُمْ﴾، والمرادُ أُخُوَّةُ النَّسَبِ لا الأخوةَ الإيمانِيَّةَ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن الرسولَ ينبَغِي أن يكونَ مَعروفًا بينَ قومِهِ لأجلِ أن يُسَاعِدُوه ويُعِينُوه ولا يُكَذِّبُوه.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: وجوبُ العِبادَةِ لقولِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

الفَائِدة الخامِسة: وجوبُ الاستِعدادِ لليومِ الآخِرِ، لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾.

الفَائِدة السَّادسَة: إثباتُ اليومِ الآخِرِ.

الفَائِدة السَّابِعة: تحريمُ الإفسادِ في الأرضِ؛ لقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، والأصلُ في النَّهْيِ التَّحْرِيمُ.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: أن الشرائعَ تجْمَعُ بينَ الأمْرَينِ الإيجَابِيِّ والسَّلْبِيِّ: الإيجابيُّ بالأوامرِ والسلبِيُّ بالنَّواهِي، يعني أن الشرائعَ أفْعالٌ وتُرُوكٌ ولا يُصْلِحُ العباد إلا هذا؛ لأن الإنسانَ قد تنَاسِبُه الأوامرُ ولا تنَاسِبُه النَّواهِي، وقد يكون العَكْسُ، فجمعَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في شرائعِهِ بينَ الأمرِ والنَّهْيِ.

الفَائِدةُ التَّاسِعة: تحريمُ الإفسادِ في الأرضِ: الإفسادِ المعْنَوِيِّ بالمعاصي، والحِسِّي بالتَّدْمِيرِ والإتْلافِ.

الفَائِدةُ الْعاشِرَة: بيانُ ما يُعانِيهِ الرُّسلُ -عليهم الصلاة والسلام- من أقوامِهِمْ، لقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، ولا رَيبَ أن تَكْذِيبَ الإنسانِ الذي على حَقٍّ يبلُغُ في نفسِهِ كُلَّ مبْلَغٍ؛ لأن الرسولَ معه الحقُّ والآياتُ، وجاء لمصْلحَةِ الخَلقِ ثم يُكَذِّبونَهُ، هذا أمر ليس بهَيِّنٍ على النَّفْسِ.

الفَائِدةُ الحَادِيةَ عشْرَةَ: تَسْلِيَةُ الدُّعاةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ إذا عُورِضُوا في دَعوتِهِمْ، وجه ذلك: أن الرُّسُل كُذِّبوا فهُم من بابِ أَوْلَى، ولهذا يُسَلِّي الله النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بمِثْلِ هذا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران:١٨٤]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾ [الأنعام:٣٤]، فالداعِي إلى الله لا يَنْبَغِي أن يأْنَفَ مِنَ أن يُكذَّب، فإن هذا هو طريقُ الرُّسُلِ -عليهم الصلاة والسلام- وأتباعِهِم سيكونُون مثلَهُم.

الفَائِدةُ الثانيةَ عشْرَةَ: التَّعْجِيلُ بالعُقوبَةِ للمكذِّبِ، هذا إذا قلنا: إن الفاءَ في قولِهِ: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ عاطِفَةٌ، أما إذا قلنا: إنها سبَبِيَّةٌ فلا دَلالَةَ فيها؛ لأن المسببَ قد يتَأَخَّرُ عن السبب.

الفَائِدةُ الثالثةَ عشرةَ: حكمة الله عَزَّوَجَلَّ في عُقوبَةِ المكذِّبِينَ لرُسُلِهِ.

الفَائِدةُ الرابعةَ عشرةَ: أن العُقوبَةَ ليستْ جَورًا ولا ظُلْمًا؛ لأن الله تعالى مُنَزَّهٌ عن الظُّلْمِ، فلولا أن هؤلاء يُعاقَبُون بحقٍّ ما عاقَبَهُمْ.

الفَائِدةُ الخامسةَ عشرةَ: قُدْرَةُ اللهِ لقولِهِ: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾،

وهم قَبيلةٌ كَبيرَةٌ أبادَهُم الله في لحظَةٍ، وهذا دليل على قُدرتِهِ وأنه إذا أرادَ شيئًا فإنما يقولُ له: كن فيكون.

الفَائِدة السادسةَ عشرةَ: أن الملاجِئَ لا تنْفَعُ مِنَ اللهِ، لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِي دَارِهِمْ﴾ فالدارُ ملجأٌ للإنسانِ يلْجَأُ إليها من عَدُوِّهِ، لكن بالنِّسْبَةِ إلى الله لا تنْفَعُ، ولهذا قالَ: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾.

الآيــة (٣٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٨].

قال المُفَسِّر: [﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ (و) أَهْلَكْنَا ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ بالصَّرْفِ وتَرْكِهِ، بمَعْنَى: الحَيِّ والقَبِيلَةِ]: والصرفُ هو التَّنْوِينِ، قال ابن مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

الصَّرْفُ تَنْوِينٌ أَتَى مُبَيِّنَا ... مَعْنًى بِهِ يَكُونُ الاسْمُ أَمْكَنَا

فيجوزُ صرفُ ثمودَ ويجوز تركُ الصَّرْفِ، وهما قراءتانِ فِي (ثمود) فالصَّرْفُ باعتبارِ الحَيِّ وهو مذكر، وعدمُ الصَّرفِ باعتبارِ القَبيلَةِ وهي مؤنثة، فعليه إذا قلنا: (ثمود) بدون صرْفٍ نقول: معطوف على عاد، والمعطوف على المنصوبِ منصوبٌ، ولم يُنوَّن لأنه لا ينْصَرِفُ، والمانعُ مِنَ الصَّرف العَلَمِيَّةُ والتأنيثُ، باعتبارِهِ عَلَمًا على قَبيلةٍ، وإذا قلنا: إنه مصروفٌ فيكونُ مَعْطُوفًا أيضًا على عادٍ، والمعطوفُ على المنصوبِ منصوبٌ، ونوِّن لأنه مذكر باعتبار الحَيِّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ مفعولانِ لِفعْلٍ محذوفٍ تَقْديرُهُ: [أَهْلَكْنَا عَادًا وثمودًا]، وعادٌ مَحِلُّهم بالأحقافِ، لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ

(١) الألفية البيت رقم (٦٤٩).

إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١]، وثمودُ قومُ صالحٍ جِهة ثمود، معروفة إلى الآن.

وقوله: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾، أي: ظَهَرَ لكُمْ، والخِطابُ لقُرَيْشٍ؛ لأنهم تَبَيَّنَ لهم هذا ويعْرِفُونَهُ.

وقوله: ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ على تقديرِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تكون سَبَبِيَّةً، أي: تبينَ لكُمْ إهلاكُنا إياهم بسببِ رؤْيتِكُمْ مساكِنَهُمْ؛ لكن: أفلا يجوز أن نجعل (مِن) للتَّبعِيض، ويكون المعنى: تبيَّنَ لكم من مساكنِهِمْ، أي: بعضَ مساكنِهِمْ، لكني ما رأيت أحدًا أعرْبها هذا الإعراب، أي: تبيَّن لكم بعضَ، والبعض قد زَال، فإن المشاهد الآن بعضُ هذه المساكِنِ والآثارِ.

أما على تَقْدِيرِ المُفَسِّر فإن فاعِلَ ﴿تَبَيَّنَ﴾ مستَتِرٌ والتقدير: إهلاكُهُمْ.

بالنسبة للفاعل: هل نقول: الفاعلُ محذوفٌ أو مُسْتَتِرٌ؟

قالوا: الفاعلُ محذُوفٌ لأنه لا يُمْكِنُ تَقْدِيرُهُ في هذا الموضِعِ، أما إذا كان يمكنُ تقْدِيرُهُ فإنه يقال: مُسْتَتِرٌ، والمحذوفُ قد يكون عُمدَةً وقد يكون فَضْلَةً، والمؤلف كلامُهُ يوهِمُ بأنه محذوفٌ، ولو قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ﴾، أي: إهْلاكُهم، وجَعَلها مُفَسِّرَةً للمحْذُوفِ لكان أوْلَى.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ مسَاكِنِهِمْ بالحِجْرِ واليمَنِ] هذا لَفٌّ ونشْرٌ مشَوَّشٌ وليس مَرَّتَبًا؛ لأن الحِجرَ يعودُ على ثمودَ، وهو متأخِّرٌ في القرآنِ، واليمنُ يعودُ على عادٍ، ومثل هذا لا ينْبَغي؛ لأن الجاهلَ الذي لا يَدْرِي عن مكانهم يقول: الحِجْرُ لعَادٍ، اليمنُ لثمودَ.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ هذا على تقدير (قد)، يعني: وقد زَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من الكُفْرِ والمعاصِي].

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ﴾ بمعنى: حسَّن وجمَّل، فحَسَّنَ لهم -والعياذ بالله- الأعمالَ مِن الشركِ والمعَاصِي، وقال: إن هذه الأصنامَ تُقَرِّبَكُم إلى الخالقِ، قال تعالى في شأنِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، ثم إنَّكُم ترْجُونها وتَدْعُونها فيحصلُ لكم المقصودُ؛ لأنَّ الله تعالى قد يَبْتَلِي العابِدين فيحصُلُ مقْصُودُهُم عند هذا الشيء لا بِهِ.

الآن نقول: عندَهُ لا بِهِ، فقد يَدْعُو المشركُ الصنَمَ أو النَّبِيَّ أو ملِكًا من الملائكةِ فيُقَدِّرُ الله ابتلاءً وامتحانًا أن يكونَ هذا السبب عندَ دُعائه لَهُ، نحن المؤمنين نعلم أنه ما حصل به لكن حَصَلَ عِنْدَهُ، وقد يُبتَلَى الإنسان بالامتحانِ بالمعْصِيَةِ وتُسَهَّلُ له وتُزَيَّنُ، وقد امتحنَ الله اليهودَ بالحِيتانِ تأتي يومَ السبت ولا تأتِي غيرَهُ.

وابتَلَى الله الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بالصَّيْدِ تنالُه أيدِيهم ورِمَاحُهم وهم مُحْرِمُونَ.

وأيضًا قال النَّبِيُّ ﷺ في رَجُلٍ دَعَتْه امرأةٌ ذاتُ منْصِبٍ وجَمالٍ فقال: «إِنِّي أَخَافُ اللهَ»[1]؛ لأنه لا يوجد عندَها أحَدٌ، لو كان عندهما أحدٌ لقال: إني أخاف الناسَ، لكنه قال: إني أخافُ اللهَ.

والحاصل: أن الشيطانَ يُزَيِّنُ الشِّركَ وكذلك يُزَيِّنُ المعاصي للإنسان، ويقول: اعْمَل والرَّب غَفور رحيمٌ، ثم تَتُوبُ، الدنيا أمامَكَ، إذا لم يتِمَّ لك أربعون سنة فإن الصلواتِ لا تَجِبُ عليك، وكذلك الصيامُ، فإذا بلغت أشدك فحينئذ تَجِبُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب فضل من ترك الفواحش، رقم (٦٤٢١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١).

عليكَ الصلاةُ والصيامُ، هذا موجود الآن عند بعض المسلمينَ الجهالِ.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الشيطانُ قِيلَ: مِنْ (شطن) أي: بَعُدَ عن رحْمَةِ اللهِ، فيكونُ وزنُهُ فَيْعَال، وقيل: من شاطَ فيكون وَزْنُهُ فَعلان، والأقربُ أنه من شَطَنَ إذا بَعُدَ، والشيطانُ مَصروفٌ وليسَ ممنوعًا من الصَّرْفِ لأنه مُنكَّر؛ لأن الذي يُمْنع مِنَ الصرفِ لا بد أن يكونَ وَصْفًا أو عَلَمًا مع زيادة الألف والنون، والشيطان ليس بِعَلَمٍ، لكن قد يرادُ به الجِنسُ كما في قوله ﷺ: «الْكَلْبُ الأَسْوَدُ شَيطَانٌ»[1].

ولذلك يقولُ الفقهاءُ -رحمهم الله تعالى-: «لا يجوزُ تَأخِيرُ القَضَاءِ إلى رَمَضانٍ آخَرَ» (رمضانٍ) بالتنوين لأنه نكرة.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ هنا أضافَ التَّزْيِينَ إلى الشيطانِ، وفي آية أُخرى أضافَ التَّزْيِينَ إلى نفسه عَزَّوَجَلَّ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل:٤]، فالجمعُ بين الآيتين: أن الإضافةَ باعتبارِ السَّبَبِ وباعتبارِ الفاعِلِ الحقيقي، فالفاعل الحقيقيُّ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن كلَّ شيءٍ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ، والسبب هو الشيطانُ، وأضيفَ التَّزْيِينُ إليه لأنه مباشِرٌ له، فيضافُ إلى الله تعالى خَلْقًا وتقديرًا، ويضاف إلى الشيطانِ على سبيل المبَاشَرَةِ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: صَرَفهُم، وهذا مِن استِعْمالِ الفِعلِ (صَدَّ) متعديًا؛ لأنه يكونُ لازِمًا ومتَعَدِّيًا، فإذا قلت: (صدَّ الرَّجُلُ عن سبيلِ اللهِ فَضَلَّ)، هذا لازمٌ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب قدر ما يستر المصلي، رقم (٥١٠).

وأما ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هنا الفِعْلُ متعدٍّ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء:٦١]، ﴿صُدُودًا﴾ مصدرٌ على وَزنِ فَعُولٍ، فصدَّ هنا لازِمٌ، قال ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وفَعَلَ اللازمُ مِثْلُ قَعَدَا ... لَهُ فُعُولٌ بِاطِّرادٍ كَغَدَا

يعني: (فَعَلَ) اللازم مَصْدَرُهُ فعولٌ، صَدَّ... صُدُودًا.

وأما (صَدَّ) المتعَدِّي فمصدَرُهُ (صدًّا) لقولِ ابنِ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَعْلٌ قياسُ مَصْدَرِ المُعَدَّى ... مِنْ ذِيْ ثَلَاثَةٍ كَرَدَّ رَدًّا[2]

وأما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد:١]، هل هِي لازِمَةٌ أو متعَدِّيَةٌ؟ الأقرب أنها متعَدِّيَةٌ لأنهم صدُّوا عن سبيلِ الله غيرَهُم.

وقوله: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (ال) فِي ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ للعَهْدِ الذِّهْنِي المعلومِ، وهو سبيلُ الحَقِّ، ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سَبيلُ الحقِّ]، وهو سبيلُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسُمِّي سبيلُ الله لأنه يوَصِّلُ إليه، ولأنه هو الذي وضَعَهُ لعبادِهِ كما في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٣]، وقد يُضافُ إلى المؤمنين كقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١١٥]، فأضافَهُ للمُؤمِنينَ لأنهم هم المنْتَفِعُونَ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ذَوِي بَصَائِر]، يعني: أن الله عَزَّوَجَلَّ

(١) الألفية البيت رقم (٤٤٢).
(٢) الألفية البيت رقم (٤٤٠).

أعطاهم مِنَ العُقولِ والبَصائرِ ما يُمَكِّنُهم الاهتداءَ بِه، وقد ذَكَر الله ذلك في قومِ صالحٍ فقالَ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، كان عندهم بصَائرُ وعندَهُم عِلم لكِنَّهُم كانوا مسْتكْبِرينَ -والعياذ بالله-، فهم يَصُدُّونَ عن سبيلِ اللهِ مع أن الله أعْطاهُم مَا يتَمَكَّنُونَ به من مُدافَعَةِ الشيطانِ، ولكن غُلِبُوا على أمْرِهِمْ بما زَيَّن لهم الشيطانُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: ينْبَغِي الاعتبارُ بأحوالِ مَنْ مَضَى، لقولِهِ: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ يعني: فاعْتَبِرُوا واتَّعِظُوا.

الفَائِدةُ الثَّانِية: بيانُ قُدْرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن عَادًا مِنْ أقْوى عِبادِ اللهِ حتَّى إنهم قَالُوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، ومع ذلك أهْلَكَهُم اللهُ بالرِّيحِ التي هي مِنْ ألطفِ الأشياءِ، فدَلَّ هذا على كَمالِ قُدرة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنهم مَهْمَا بلَغَ الناسُ مِنَ القُوَّةِ فليست قوَّتُهُم بشيءٍ بالنِّسْبَةِ إلى قوَّةِ اللهِ.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: أن الشيطان قد يُسَلَّطُ على بَنِي آدَمَ، لقولِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: التَّحْذِيرُ من تَزْيِين الأعمالِ، ويُفْهَمُ من قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أن هذِه الأعمالَ أصلُهَا قَبيحٌ لكنَّها زُيِّنَتْ، فيَجِبُ الحذَرُ من تَزْيِينِ الشيطانِ.

لو قال قائل: ما هو الضابطُ في تَزْيِينِ الشَّيطانِ، قد أهْوى هذا العملَ ويُزَيِّنُ في نَفْسي فأفعلُه ولا أدْري هل هو من تَزْيين الشيطانِ أو من هِدايةِ الله عَزَّوَجَلَّ؟

فالضابِطُ: إذا كانَ العملُ على خِلافِ شريعَةِ اللهِ فهو من تَزْيِينِ الشيطانِ، وإن كانَ مُوافِقًا لشريعة الله عَزَّوَجَلَّ فهو من هِدَايَةِ الله وليس من تَزْيِينِ الشيطان.

الفَائِدةُ الخامِسة: الردُّ على الجبْرِيَّةِ في نسبةِ الأعمالِ إلى الخلْقِ، فإذا نُسِب العملَ إليهم فمعنى ذلك أنَّهم فاعلُون حقِيقَة.

الفَائِدةُ السَّادسَة: أن الأعمالَ السَّيِّئة قد تكون سببًا لضلالِ العَبدِ؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، ولا ريب في ذلك، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣]، فالأعمالُ السيئةُ يَجُرُّ بَعْضُها بعضًا حتى يَعْمَى الإنسان -والعياذ بالله- عن الحقِّ بسببِ مَعْصِيَتِهِ.

الفَائِدةُ السَّابِعةُ: بشاعَةُ الصَدِّ عن سبيلِ الله مع البَصِيرَةِ لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾، فإن الجملةَ هنا حالِّيَةٌ على تقديرِ (قَدْ)، يعني: فصَدُّوهُـمْ وقد كانوا مستَبْصِرينَ، والمسْتَبْصِرُ كان بصددِ أن لا يُصَدَّ لكن قوةَ السبب وضعفَ المانع هو الذي أوجب لهم ذلك -والعياذ بالله-.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: أن المخاطب قد يحالُ على ما يَفْهَمُه ذِهْنُه مِن دَلالَة الخطابِ لقوله: ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾.

فلو قال قائل: في الآيةِ إبهامٌ في قولِهِ: ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ لا نَدْرِي أيَّ سبيلٍ؟

قلنا: لا إبهامَ ما دامَ هناكَ شيءٌ معْهُودٌ للمُخاطَبِ؛ لأن (ال) في ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ للعَهْدِ الذِّهْنِيِّ.

الآيــة (٣٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت:٣٩].

قَال المُفَسِّر: [وأهْلَكْنَا ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾]: وهـذا التقديرُ باعتبارِ السِّياقِ يعني: أن السِّيـاقَ يَدُلُّ على أن هناكَ شَيـئًا مُقَدَّرًا وهو (أهْلَكْنا).

قوله: ﴿وَقَٰرُونَ﴾: رجلٌ تاجرٌ من بَنِي إسرائيلَ، ولكنه كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: بَغَى، وقد أعْطَاهُ اللهُ مَالًا عَظِيمًا حتى إن مفاتِحَهُ تَثْقُل على العَصَبةِ، أي: الجماعةِ مِنَ الناس، هذه المفاتِحُ مفاتِحُ الخزائنِ، ولهذا مَا آمن بموسى، اغترَّ بماله -والعياذُ بالله- فلم يُؤمِنْ بِرَبِّهِ.

وقوله: ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾: معروفٌ، هو ملكُ مِصْرَ الَّذِي ادَّعى أنه الرَّبُّ، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤].

وقوله: ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾: وَزِيرُه، وإنما قدَّم قارونَ لعُلُوِّ نسبِه؛ لأن بني إسرائيلَ أشرفُ من الأقْباطِ، وقدَّمَ فِرعون على هامَان لعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ، وليس هذا الترتيبِ من بابِ البداءةِ بالأَدْنَى؛ لأنه لو كان كذلك لقال: قارونُ وهامانُ وفرعونُ.

وقـارون وفرعون وهامـان كلها لا تَنْصَرِفُ، والمـانع من الصَّرْفِ العَلَمِيَّةُ والعُجْمَةُ.

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ الجملَةُ مؤكَّدة بثلاثِ مُؤَكِّدَاتٍ، وهي: القَسَمُ المقدَّرُ، واللامُ، وقَدْ، ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ﴾ من قَبْلِ الهلاكِ، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، (الباء) هنا للمصَاحَبَةِ، يعني: أتاهُمْ إتْيانًا مَصْحوبًا بالْبَيِّنَاتِ؛ لأن الله تعالى لا يُرْسِلُ رَسُولًا إلا أعْطاهُ من الآيات ما يؤمِنُ على مِثْلِه البَشَرُ[1]؛ لأن الحِكْمَةَ والرَّحْمَةَ تقْتَضِي هذا، إذ ليس مِنَ الحكمةِ أن يُرسَل رسولٌ من البشَرِ إلى الناس ويقول: إني رَسولٌ بِدُونِ بَيِّنةٍ، فلا بُدَّ من بَيِّنةٍ، أي: آية واضِحة تدُلُّ على أنه رسولُ، ولهذا قال: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: بالآياتِ البَيِّناتِ والحُجَجِ الظاهرات، منها العَصَا ومنها اليدُ، وكذلك السُّنُونَ التي أخَذُوا بِهَا، ولكن مع هذا لم ينْتَفِعُوا، نسألُ اللهَ العافيةَ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: (استكبروا): بمعنى تكبَّرُوا وعَلَوْا وارتفعوا على الحقِّ ولم يَقْبَلُوا، ونَاظَر موسى فِرعَونَ وهدَّده حتى وصل الأمْرُ إلى أن قال: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ فَائِتِينَ عَذَابَنا]، يعني: ما كانوا سباقِينَ لنَا فلم يَسْبِقُونَا، والسَّبْقُ بمعنى الفواتِ، فإذا قلت: سابَقْتُ إنْسانًا وسَبقَكَ، أي: فاتك وعَجَزْتَ عنه، هؤلاءِ مع استكْبَارِهِمْ وعظَمتِهِمْ وعُلُوِّهِم ما سبقوا الله عَزَّوَجَلَّ أبَدًا.

لو قالَ قائلٌ: ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾، هل يؤخذُ منه أن غَيرَهُمْ سبَقَهُم إلى هذا العملِ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل، رقم (٤٦٩٦)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ..، رقم (١٥٢)، عن أبي هريرة، واللفظ لمسلم: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ».

الجواب: لا يصِحُّ، فليس المراد أنهم سابِقونَ، أي: متَقَدِّمونَ في الزَّمنِ، بل المرادُ كانوا سابقينَ في الأرض.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: ذَمُّ هؤلاءِ الثلاثة: قارونَ وفرعونَ وهامانَ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن سببَ الطُّغيانِ قد يكونُ المالُ وقد يكونُ الجاهُ والرئاسةُ، فقَارونُ سببُ طُغيانِه المالُ، وفرْعونُ وهامان الجاهُ والرئاسةُ، وهذان السببان هما سببُ استكِبْارِ الإنسان عن طاعَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: إثباتُ رسالة مُوسَى ﷺ؛ لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

الفَائِدة الرَّابِعة: أن موسَى رسولٌ إلى فِرعونَ وإلى بَنِي إسرائيل.

لو قالَ قائل: فرعونُ ليس مِنْ بَنِي إسرائيلَ، وأرسلَ إليه مُوسى، بل أصلُ رِسالةِ مُوسى إلى فرعونَ، فكيف نجْمَعُ بين هذا وبين قولِ الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»[1]، وقوم موسى هم بنو إسرائيلَ ومُوسَى أُرْسِلَ إلى فرعون وإلى بني إسرائيل؟

فالجواب من أحدِ وجهين:

الوجهُ الأَوَّلُ: أن قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً**»، هذا باعتبار الأكثرِ والأعَمِّ، ونقول: دَلَّ الدليلُ على أن مُوسى بُعِثَ إلى فرعون

---

(١) أخرجه البخاري بلفظه: في بداية كتاب التيمم، رقم (٣٢٨)؛ ومسلم: في بداية كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢١).

وإلى بني إسرائيل، كما دَلَّ الدَّلِيلُ على أن شُعَيبًا أُرْسِلَ إلى قومِهِ وإلى أصحاب الأَيْكَةِ، ولهذا لم يأتِ التعبيرُ القرآنِيُّ بقولِهِ: ﴿أَخَاهُمْ﴾ كما عبَّر عن قومِهِ فهذا العمومُ مخصوصٌ.

وهذا جوابٌ ليسَ فِيه تَكَلُّفٌ.

الوجه الثاني: يُمْكِنُ أن نقولَ: الرسالةُ إلى فِرعونَ، ولا يُمكِنُ الوصول إلى بَنِي إسرائيلَ واستقلالِ الدَّعوةِ فيهِمْ وأن يَقُوموا بِوَاجِبِ الرِّسَالَةِ واتِّبَاعِ موسى إلا بعدَ أن يُسْلِمَ فِرعونُ، ولذلك ما كان لهم دَولة وسُلطة إلا بعدَ أن أَهْلَكَ الله فِرعونَ فتكونُ رِسَالتُهُ إلى فرعونَ من بابِ الوَسائلِ إلى المقْصُودِ، وكلُّ الأقباطِ الذين كانوا تحتَ وِلايَةِ فِرعونَ دَاخِلُونَ في دَعْوةِ مُوسى؛ لأنه بالضَّرُورةِ إذا آمن فِرعونُ فسيؤمِنُون؛ لأنه له السَّيطَرَةُ عليهم.

الفَائِدةُ الخامِسةُ: أن الرُّسُلَ مُؤَيَّدُونَ بالآياتِ البيِّناتِ لقولِهِ: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، وثبتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ: «مَا مِنَ الأَنْبِياءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ»(١).

الفَائِدةُ السَّادسَة: إثباتُ الرَّحمةِ والحِكمةِ في آياتِ الأنْبياءِ؛ لأنَّ الآياتِ التي مع الرُّسُلِ هي رَحمةٌ بالخَلْقِ، ولأجلِ أن تكونَ سَبَبًا لاهتِدَائهم، فالآياتُ وسيلَةٌ إلى الهِدَايةِ وحِكْمَةٌ لإقامَةِ الحُجَّةِ عليهم، حتى لا يقولَ قائلٌ: إن هذا الرسولَ ما آتَانَا بآيَةٍ فيُكَذِّبُوه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل، رقم (٤٦٩٦)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ...، رقم (١٥٢)، عن أبي هريرة، واللفظ لمسلم: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر».

الفَائِدةُ السَّابِعةُ: بشاعَةُ كُفرِ هؤلاء الثلاثةِ قَارون وفِرعون وهَامان، وذلك بالاسْتِكْبَارِ عن الحقِّ والإعراضِ عنه لقولِهِ: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: كمالُ قَدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حيث لا يَفُوتُه أحَدٌ من خَلقِهِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾، فمع عَظَمَتِهِمْ وكِبْرِيائِهِمْ وأموالِهِم لا يَسْبِقُونَ الله، وهذا تَحقيقُ قولِهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في أذكار الصلاة: «وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»[1]، فإنَّ الإنسانَ مهما عَظُمَ وكَثُر أتباعُهُ وجنُودُه لا تَنْفَعُه عَظَمتُهُ ولا كَثْرَتُهُ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب من لم ير رد السلام على الإمام...، رقم (٨٠٨)؛ ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٣).

الآيــة (٤٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَكُلًّا﴾ مِنَ المذْكُورِينَ ﴿أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾].

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قدَّرَ ﴿فَكُلًّا﴾ بالتَّنوينِ، والأصلُ أن يُقَدَّرَ (فكُلُّ أَحدٍ)، لكنَّ المُفَسِّر منعه مِنْ تقديرِ (أحد) أن (كُلًّا) منونَةٌ، وهو لا يجبُ أن يُغَيَّرُ لفظُ القرآن، ولهذا قال [مِنَ المذكورين].

والتنوين في (كلًّا) يقول النحويون: إنه تَنوينُ عِوضٍ عن كَلمَةٍ، والتقديرُ: (فكلُّ أحَدٍ)، والتنوين قد يكونُ عِوضًا عن كلمة كهذه الآيةِ، وقد يكون عِوضًا عَنْ حرف في نَحْو: (جوارٍ وغواشٍ)، وقد يكون عِوضًا عن جُملةٍ وهو اللاحِقُ لـ(إذ) عوضًا عن جملة كَما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة:٨٤]، التقدير: (وأنتم حِينئذٍ بلَغَتِ الرُّوحُ الحلقومَ تَنظُرونَ)، ومثاله أيضًا قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم:١٤]، التقدير: (ويومئذٍ تَقومُ السَّاعةُ).

قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ يعني: كُلًّا من هؤلاء أَخَذَه الله عَزَّوَجَلَّ بذنْبِهِ، والباء في قوله: ﴿بِذَنۢبِهِۦ﴾ تكون سَبَبِيَّةً وللمعاوضَةِ والمقابلةِ، يعني: أنهم بسببِ

ذُنُوبِهِمْ أُخِذُوا، وعلى قَدْرِ ذُنوبِهِمْ أُخِذُوا، وما تجاوزُ الله بهم أكثرَ مما يستَحِقُّونَ، بل بالسَّبَبِ والقَدَرِ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِذَنۢبِهِۦ﴾ بالإفرادِ، وجاء في موضعٍ آخَرَ مِنَ القرآن الكريم: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ بالجمعِ، والجمعُ بينهما أن المفردَ هنا مضافٌ فيَعُمُّ، أي: بذُنوبِهم، والذُّنوبُ هي المعاصِي سواءٌ كانت كبيرةً أو صغيرةً، وهي هنا بلا شك من أكبرِ الكبائرِ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾: قوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ هذا تَفْصِيلٌ؛ لأن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِذَنۢبِهِۦ﴾ مجمَلٌ فُصِّل بقولِهِ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، قال: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ﴾ ولم يَقُل: أرْسلَنْا إليه؛ لأن هذا إرسالُ عَذَابٍ فهو عالٍ عليهم، وليس إرسالَ خِطابٍ حتى نقول: إن غايةَ هذا الخطابِ المرسَلِ إليه، بل هو إرسالُ عَذابٍ.

وقوله: [﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ﴾ ريحًا عاصِفَةً فيها حَصْبَاءُ كقومِ لُوطٍ]: هذا فيه نظَرٌ؛ لأن قومَ لُوطٍ أرسلَ الله عليهم حاصِبًا مِنَ السماءِ وهي حِجارةٌ مِنْ سِجِّيلٍ تَحْصِبُهُمْ، كالتي أُرسلِتْ على أصحابِ الفِيلِ، وليست هي الحَصباءُ التي تُذْرِيها الرياح، وليس في عِلْمِنَا أن الله تعالى أرسل الرياحَ على قوم لوطٍ، ولو كانت رِياحًا تَحْمِلُ الحصباء لبينها الله عَزَّوَجَلَّ.

ولو قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّا أرْسَلْنَا عليهم حاصِبًا كقومِ لُوطٍ؛ لكانَ صَوابًا.

وقوله: [﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ كثَمُودَ]: أي: قومُ صالحٍ، وكذلك كقومِ شُعَيبٍ أصحابِ مَدْيَنَ، ففي آياتٍ أُخْرَى أنهم أخَذَتهُم الصَّيْحَةُ.

قوله: [﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كقَارُونَ]: خَسفَ الله بِهِ وبدَارِهِ الأرضَ، وبَقِي فيها إلى يومِ القِيامَةِ، وما نَفَعَه بيْتَهُ الذي احتَمى فيه ولا مالَه الذي كَنَزَهُ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: [﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقـومِ نُوحٍ وفِرعونَ وقَومِهِ]: فِرعونُ وقومُه أهْلِكُوا بالغَرقِ، غَرقوا في البحر الأحمر، أغْرَقَ الله فِرعونَ بما كان يفْتَخِرُ به، قال لقومِهِ: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١]، فأخْرجَهُ الله من مِصْرَ وأهلكَهُ بمثلِ ما افتَخَرَ به -بالماء- فأهلكَهُ الله، فما فاتَه الله عَزَّوَجَلَّ، مع أن فِرعونَ حين إهْلاكِهِ كانَ يظن أنه منتَصِرٌ لأنه أَرسَلَ في المدائن حَاشِرينَ، وجمعَ النـاس واتَّبَعُوا موسى وقومه على أن الأمرَ يَسيرٌ وأنهم في قَبْضَتِهِم؛ لأنهم ظنُّوا أن مُوسَى وقومَه إما أن يَسْقُطوا في البحر أو يأخُذُوهم أخْذًا لا هَوادَةَ فيه، فكانَ -والحمد لله- الأمرُ على عَكسِ ما ظَنُّوا؛ أهلكَ الله فِرعونَ وقومَه وأنْجَى مُوسى وقَومَه.

وأما قومُ نُوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فأُغْرقُوا بالطُّوفانِ العظيم، فأمرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ السماءَ ففُتِحتْ أبوابُها بماءٍ منْهَمرٍ، وفجَّرَ الله الأرضَ عُيونًا، انظر إلى التعبيرِ القُرآنِيِّ، لم يَقُلْ: فجَّرنَا عيون الأرض؛ لأنه لو عبَّر بهذا لكان شيءٌ كثيرٌ من اليابِسِ لم يتفَجَّرْ، لك التعبيرُ القرآني: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر:١٢]، كأنَّ الأرض كلَّها صارَتْ عُيونًا، حتى إن التَّنُّورَ الذي هو مَحِلُّ إيقادِ النارِ وأبعد ما يكونُ عَنْ ظُهورِ الماء صارَ يَفُورُ عُيونًا، سبحان الله العظيم! ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١٢]، حتى عَلا قِمَمَ الجبالِ واستوتِ السَّفينَةُ على الجُودِيِّ، والجودِيُّ هو الجبلُ الرَّفيعُ جدًّا، وحمل الماءُ السفينةَ إلى أن رَسَتْ على هذا الجبلِ مما يدُلُّ على كثرةِ هذه المياهِ.

الله أكبر! الإنسانُ لو تَصَوَّرَ أن المطرَ يرتَفِعُ أربعة أمتارٍ لأصابَهُ الفَزَعُ من ذلك، لكنَّ قُدرةَ الله عَزَّوَجَلَّ عظِيمةٌ، والله على كلِّ شيءٍ قَدِيرٍ.

قوله: [﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فيُعَذِّبُهم بِغيرِ ذَنْبٍ]: (اللام) هذه لامُ الجحودِ وهي المسْبوقَةُ بكونٍ منْفِيٍّ، أو نقولُ بتَعْبِيرِ أصحابِ الآجُرُّومِيَّةِ: ما سَبقها (مَا كانَ) أو (لم يكُنْ).

وقوله: [﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فيُعَذِّبُهم بغَيرِ ذَنْبٍ]، لما نَفَى أن يكونَ اللهُ ظلَمَهُم بيَّنَ من أين وقَعَ هذا الظلمُ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بارْتِكابِ الذَّنْبِ].

جملة: ﴿يَظْلِمُونَ﴾ خَبَرُ (كان) و(الواو) اسْمُها.

و﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعولٌ مُقَدَّمٌ لـ﴿يَظْلِمُونَ﴾، وتقْدِيمُه له فائدتان: فائدةٌ لَفْظِية وفائدةٌ معْنَوِيَّةٌ.

الفَائِدةُ اللَّفْظِيَّة: مراعاةُ الفَواصِلِ، يعني: أواخِرُ الآياتِ لأنَّه لو قالَ: وكانوا يظْلِمُونَ أنْفسَهُمْ، لم تَتَناسَب مع ما قَبلها وما بَعْدَهَا.

والفَائِدةُ المعنويةُ: هي الحصْرُ والاختِصاصُ، يعني: ما ظَلَموا إلا أنْفُسَهم في الحقيقةِ، أي: هم الذين ظَلَمُوا أنفسهم، ولكن كما قال تعالى في آياتٍ أُخْرَى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦].

لو قالَ قائلٌ: قولُ المُفَسِّر في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ قال: [كَقومِ نُوحٍ وفِرعونَ وقومِهِ]، مع أن الضَّمِيرَ يعودُ على آخِرِ مَذكورٍ، وهو فِرعونَ فقط، فما وَجْهُ ذِكْرِ نُوحٍ، وهل الترتيبُ القُرآني ذَكَر العَذابَ بالتَّسَلْسُلِ؟

الجواب: الضميرُ هنا لا يعودُ على آخِرِ مذكورٍ، فالمؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضربَ أمثلةً، لكنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: [فكُلًّا مِنَ المذْكُورِين]، ولو قال: (فكُلًّا من المذْنِبين) لما أُوردَ مثل هذا الإيرادِ، وأما التَّسَلسلُ في ترتيبِ العَذابِ فهو غيرُ واردٍ هنا لأنه قالَ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ قال: كثَمودَ؛ لأن شُعَيبًا قبلَ هؤلاء، وعلى كل حالٍ المسألةُ بسَيطَةٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: تمامُ قُدرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بإرسالِ هذه العُقوباتِ، لأنها كلَّهَا عقوباتٌ تدُلُّ على كمالِ القُدْرَةِ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: إبطالُ قولِ الملْحِدِينَ في الوقت الحاضر: إن هذه الآيات من الكَوارِثِ، فتَأْتِي الزلازِلُ التي هي الرَّجْفَةُ ويقولون: هذه مسألةٌ طبيعِيَّةٌ، وتأتي الفيضاناتُ العظيمةُ التي تُدَمِّرُ وكذلك الرياحُ الشَّديدةُ، ويقولون: هذه كوارثُ طبيعية، لا يعْتَبِرون ولا يَرَون أنها نوعٌ مِنَ العُقوباتِ التي جَرتْ على الأُمَمِ السابِقَةِ، وهذا من موتِ القَلبِ -والعياذ بالله-، فيُعْرِضُ الإنسان عن التأَمُّلِ والتَّدَبُّرِ في هذه الآيات ويُضِيفُها إلى أمورٍ طَبيعِيَّةٍ، وكأن الطبيعةَ هي التي تَخْلُق وتفْعل دونَ الله عَزَّوَجَلَّ.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: حِكمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾، سواء قُلْنَا: إن الباءَ للسَّبَبِيَّةِ أو المقابَلَةِ.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: إثباتُ الأسبابِ، وكلُّ ما جاءَ في القُرآنِ مِن (لام) للتَّعليلِ أو (باء) للسَّببية فإنها تدُلُّ على إثباتِ الأسبابِ والحِكَم.

الفَائِدةُ الخامِسة: الرَدُّ على الجَبْرِيَّةِ ومن وافَقَهُم مِنَ الأشْعرية الذين يُنْكِرُونَ

الأسبابَ، وأما نحنُ أهلَ السُّنَّةِ والجماعة فنؤمنُ بالأسبابِ؛ لكنَّنا لا نقول: إن هذه أسبابٌ مؤثرةٌ بنَفْسِهَا، لكن بخَلقِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها التأثيرُ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: أن الجزاءَ من جِنْسِ العملِ، وهذا على الاحتمالين فِي الباء: البَدَلِيَّةِ أو المقابلَةِ لقولِهِ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾، ومِنَ المعلومِ أن الجزاءَ من جِنسِ العَملِ في الجزاءاتِ الشَّرعِيَّةِ وفي الجزاءاتِ الكونيَّة، الجزاءات الشرعِيَّةُ مثلُ الحُدود، فالعقوباتُ المقدَّرةُ من قِبَل الشرْع كلُّها في الواقِعِ عقوباتٌ موافِقَةٌ للحِكمة، فقَطع اليـدِ بالسَّرقةِ لا شكَّ أنه موافق للحِكْمَةِ؛ لأن اليـدَ بها الأخذ والإعطاءُ، وقـطعُ الأيْدي والأرْجلِ من خِـلافٍ في عقوبَةِ قطَّاعِ الطريقِ موافِقةٌ للحِكمةِ؛ لأن قطَّاعَ الطريق يعْتَدونَ على الناس بأيْدِيهِمْ وأرجُلِهِمْ، ورَجْمُ الزانِي بالحجارةِ دُونَ قتلِهِ بالسيـفِ موافِقٌ للحِكْمَةِ، وهكذا كلُّ العُـقوباتِ الشَّرعيةِ والكونيـةِ فإنها موافقةٌ للحِكْمَةِ، ويَدُلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾.

الفَائِدةُ السَّابعةُ: أن العُقوباتِ لا تأتي مِن نوعٍ واحد، بل تأتِي مِنْ أنواعٍ مُتَعَدِّدةٍ بحسبِ حالِ المعَاقَبِ لقولِهِ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ هذه الأنواعُ الأربعَةُ ذِكْرُهَا له حِكمَةٌ؛ لأن قولَهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ هذا إهلاكٌ من فَوْق، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ هذا إهلاكٌ من تحْت، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ هذا إهلاكٌ بالقولِ والصَّوتِ، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ هذا إهلاكٌ بالماءِ.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: كمال عَدْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، وهذه الصِّفةُ من الصفاتِ السَّلبِيَّةِ، والصفاتُ السلبيَّةُ لا تكون مدْحًا

إلا إذا تَضَمَّنَتْ ثُبوتًا، فمُجَرَّدُ النفي ليس بمدحٍ إلا إذا تضَمَّنَ ثُبوتًا، إذا نَفَى الله الظُّلْمَ عن نفسه فليس معناه أنه لا يَظْلِمُ فقط، بل لكَمالِ عَدْلِهِ لا يظْلِمُ، وليس المعنى أنه غيرُ قادِرٍ على الظلمِ بل هو قادِرٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على أن يظْلِمَ لكنَّه لكمالِ عَدْلِه لا يظلم، ولو كان غيرَ قادِرٍ على الظلم لم يكن نَفْي الظلمِ عن نفْسِهِ مَدْحًا.

والجَبْرِيَّةُ يقولون: إن الظلمَ مُحالٌ على الله لذَاتِهِ لا لعَدَمِ إرادةِ اللهِ، وذلك أنهم يقولون: إن الظلْمَ أن يتَصَرَّفَ الإنسان في مِلْكِ غيرِهِ، والله تعالى إذا تَصَرَّفَ في مُلكه فليسَ بظالمٍ على زَعمِهِمْ، وليس بظالمٍ أن يُعاقِب المطِيعَ الذي أمضى ليلَهُ ونَهارَه في طاعَةِ الله فيُعاقِبُه عقوبَةِ الكافِرِ، وعلى هذا قال السفارِيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَجَازَ لِلْمَوْلَى يُعَذِّبُ الْوَرَى ... مِنْ غَيْرِ مَا ظُلْمٍ وَلَا ذَنْبٍ جَرَى

فَكُلُّ مَا مِنْهُ تَعَالَى يَجْمُلُ ... لِأَنَّهُ عَنْ فِعْلِهِ لَا يُسْأَلُ

وهذا ليس بصحيحٍ، وهو إن جازَ عَقْلًا لكنَّهُ ممتَنِعٌ شَرْعًا، وقد تقدَّمَ تفصيلُ ذلك في أوَّلِ السورةِ.

المهم أن مُجَرَّدَ النَّفي لا يَدُلُّ على الكمالِ حتى يتَضَمَّن مَدْحًا، ولهذا قالوا في قول الشَّاعِرِ[2]:

قُبَيِّلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ ... وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

هذا ذَمٌّ وليس بمَدحٍ، فهم لعَجْزِهِمْ لا يظْلِمُونَ.

---

(١) البيتان (٦٥، ٦٦) من العقيدة السفارينية.

(٢) البيت للنجاشي أحد بني الحارث بن كعب، انظر الحماسة الشجرية (٤٥٢)، والشعر والشعراء لابن قتيبة (٣٣٠-٣٣١).

وكذلك قول الشاعر[1]:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كانُوا ذَوِي حَسَبٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ ـ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

يقول: ما هم مِنَ الشَّرِّ في شيءٍ ولا يأتونَ شرًّا أبدًا، بل أبلَغُ من هذا أنهم:

يُجْزُونَ بِالظُّلْمِ أَهْلَ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانًا

فإذا ظَلَمهُم أحدٌ قابَلُوه بالمغفرَةِ والسَّماحِ، وكذلك إذا أساءَ إليهم أحسْنُوا، هذا ظاهِرُهُ أنه مَدحٌ لكنه في الحقيقة ذَمٌّ من أبْلَغِ الذَّمِّ؛ لأنه يحتَقِرُهُم ويقول: إنهم لا يستطيعون أن ينْتَصِرُوا لأنفسهم، بل إذَا أسِيءَ إليهم قابلوا ذلك بالإحسانِ خَوفًا من إساءَةٍ أعْظَمَ وإذا ظُلِموا غَفَروا، ولهذا قال نفس الشاعر:

فَلَيْتَ لِي بِهِمْ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا شَنُّوا الإِغَارَةَ فُرْسَانً وَرُكْبَانًا

ونَفْي الصِّفاتِ من حيثُ العُمومِ قد يتَضَمَّنُ الكمالَ وقد يتَضَمَّنُ النقْصَ، وقد يكونَ لعدمِ القابِلِيَّةِ، فالذي لله من هذه الثلاثة الكمالُ، مثاله قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨].

وقد يكون النَّفْي لعدمِ القابِلِيَّةِ، تقول: هذا الجدار لا يتَعْبُ، وهذا الجدار لا يظلِمُ؛ لعدم القابِلِيَّةِ، فهذا ليس بمدحٍ لأنه أصلًا لا يقبل هذا الوصف حتى يُنفى عنه.

وقد يكونُ النَّفْي للعَجْزِ مثاله ما سبَقَ في البَيْتَيْن.

ولا يكون لله من هذه الأقسامِ الثلاثة إلا القِسْمُ الأولُ، وهو ما تَضَمَّنَ كمالًا

---

(١) قال في خزانة الأدب (٧/ ٤٤١): إن البيت لقريط بن أنيف العنبري.

ومَدْحًا، ولهذا يقولُ أهلُ العِلْمِ: إن الله إذا نفى صِفة عن نفْسِه فإن المراد به أمران: نَفْي تلكَ الصِّفةِ، والثاني إثباتُ كمالِ ضِدِّهَا.

وصفاتُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تنقَسِمُ إلى قِسْمينَ: ثُبوتِيَّةٌ وسَلْبِيَّةٌ.

فالثُّبوتِيَّةُ: ما أثبْتَه اللهُ لنفْسه ولا تكونُ إلا صِفَةَ كمالٍ.

والسَّلبِيَّةُ: ما نَفَاهُ عن نفْسِه ولا تكون إلا صِفَةَ نَقْصٍ، وهي تدورُ على شيئين: أحدهما النَّقْصُ، والثاني مشابهةُ المخلُوقِينَ، أو نقول: إن مشابهة المخلوقينَ نقْصٌ، ونحصرُ هذين الشيئينِ في شيءٍ واحدٍ.

الفَائِدة التَّاسِعة: أن الإنسانَ هو الظالمُ لنَفْسهِ بفعْلِ المعَاصي؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ ففعـلُ المعَاصِي حَرامٌ؛ لأنه ظُلْمٌ لنفْسِكَ، أما الله تعالى فلا يَظْلِمُ أحَدًا.

الفَائِدةُ العَاشِرَة: أن العاصِي ظالمٌ لنفْسه لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ ووجه ذلك: أن النفْس عندَك أمانَةٌ، فكما أنك ممنوعٌ مِنْ نَقْصها نقْصًا حِسِّيًا فأنت ممنوعٌ من نَقْصِها نَقْصًا مَعنَويًا، بمعنى أن الإنسـان لو أرادَ أن يقْطَـعَ يدَهُ أو أصابعه أو يُسِيء إلى بدَنِهِ كان ذلك مُحَرَّمًا، ولهذا من قَتـلَ نفسه بشيء عُذِّب به في جهنَّمَ خالدًا مخَلَّدًا، فجعل النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قاتِلَ نفسِهِ[1] كقاتل الغيرِ في التَّخليدِ في النَّار والتَّعذِيبِ بما قتَل به نفْسَه، وعلى هذا نقول: كل من عَصَى الله فإنه ظالمٌ لنفْسِه، ومن هنا يتبَيَّن لنا معنى قوله: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما جاء في قاتل النفس، رقم (١٢٩٧) عن ثابت بن الضحاك؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وأن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار، رقم (١٠٩).

إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠]، وأن العُدولَ عن مِلَّةِ إبراهيمَ سفَهٌ لأنه ظُلمٌ للنَّفس من حيثِ لا يشعرُ الإنسان.

الآيــة (٤١)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتًاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾ أَصْنَامًا يَرْجُونَ نَفْعَهَا] اهـ.

وقوله: ﴿مَثَلُ﴾: (مَثَل) و(مِثْل) كـ(شَبَه) و(شِبْه) وزنًا ومَعْنى، فالمَثَلُ بمعنى الشَبَهُ، وهو عبارةٌ عن تَشْبِيهِ شيءٍ مَعقولٍ بشيءٍ محْسوسٍ؛ لأن تمثيلَ المعقولاتِ بالمحسوساتِ يَزِيدَهَا وُضوحًا وبَيانًا وتَصَوُّرًا، وإن كانت لا تَتَسَاوَى من كُلِّ وجهٍ، لكنها متساويةٌ مِنْ هذا الوجه الذي حَصل فيه التَّشْبِيهُ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾ المراد بالأولياء الأصنامُ؛ لأن عابِدِيهَا يَرْجُون نَفْعَها كالوَلِيِّ الذي ينْفعُكَ في النُّصْرَةِ والدِّفاعِ عنكَ وجَلبِ الخيرِ، فسَمَّي العابِدينَ أولياء لأنهم ينْصُرون هذه الآلهةَ، ولهذا قال قومُ إبراهيمَ: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨]، فهم ينْصُرونها ويرْجونَ النَّصْرَ منها.

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عَبَّر بالدُّونِ لدُنُوِّ مرتبَتِهِ بالنسبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ،

والمرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ المشْرِكُونَ.

قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ أي: كَشَبَهِ العَنْكبوتِ، والعنكبوتُ دُوَيْبَةٌ معروفة تَتَّخِذُ لها بيتًا من العُشِّ، وهذا البيتُ هي التي تَنْسجه، أي: هي تُفرزُ مادَّته، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كلِّ شيءٍ قديرٍ، هذه العنكبوت إذا سقطتْ مِنْ أعلى فإنها تُفرزُ بسرعة هذا العشَّ وتتعلق به حتى لا تقعُ على الأرض وتظل متدَلِّيَةً بهذا الخيطِ وإذا شاءت أن تصعد به صعِدتْ، فتَتَقَلَّبُ، وتجعلُ رأسها إلى أعْلَى وتصْعَدُ مع هذا الخيط الذي أفرزته ثم إنها عند صَيدِهَا -وأكثر ما تصيد الذباب- تقَيِّدُهُ بهذه الخيوطِ حتى تَقْضِيَ عليه، وهذا بعضٌ من قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]، هَدَى هؤلاءِ الخلقَ لمصالِحِهم.

قوله عَزَّوَجَلَّ: [﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ اتَّخَذَتْ بَيْتًا لنَفْسِهَا تَأوِي إِليهِ]: وهذا البيت هو المشاهدُ.

قوله: [﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ﴾ أضعفَ ﴿ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾]: هذا كلام الله عَزَّوَجَلَّ وهو العالم بما لم نُحِطْ به عِلْمًا، وما أكثرَ مخلوقاتِ الله تعالى التي لها بيوتٌ ونحن لا نَعْلَمُ عن هذه البيوتِ إلا ما نُشَاهِدُهُ منها، وما أكثرَ الغائبِ عنَّا!

وقوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ الجملة مؤكَّدَةٌ بـ(إنَّ) و(اللام) من أجلِ تأكيدِ ضَعفِ هؤلاءِ الأولياءِ، فكما أن هذه البيوتَ التي تَأْوي إليها العناكِبُ ضَعِيفَةٌ بل هي أوْهَنُ البيوتِ وأضْعَفُها، فإنَّ هؤلاء الأولياءِ كَذَلِكَ أضْعَفُ ما يكون مِنَ الأولياءِ؛ لأنهم لا ينْفَعُون عابِدِيهِمْ، بل إن الله يقولُ في القرآنِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً﴾ حقًّا ﴿مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨-٩٩]،

فتَشْمَلُ الآلِهَةَ والمتَأَلِّهين، فلو كانوا آلِهةً حَقًّا لمنعوا أنفُسهُم وعابِدِيهم من دُخولِ النَّارِ ولكنها آلهةٌ باطِلَةٌ لا تنْفَعُ، فهذا وجه المشابَهَةِ في قولِهِ: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾.

وهذا التَّشْبِيهُ يُسَمِّيهِ البيانِيُّونَ التَّشْبِيه التَّمْثِيلِيّ، يعني أنه مكونٌ من جُملَةٍ، فأنت إذا قلت: فلانٌ كالبحرِ في الكرمِ، فهذا تَشْبِيهٌ، لكنه تَشْبِيهٌ إفرادي، أي: شَبَّهْتَ فَرْدًا بفردٍ، أما تشبيهُ قضيةٍ بقضية أو قصة بقصة فإن هذا التَّشْبِيهُ تَشْبِيهٌ تَمْثِيلِيٌّ مركَّبٌ من عـدة أوْجُهٍ، من مشبَّهٍ متعدِّد ومشبه به كذلك متـعدِّد، وأوجهُ الشَّبَهِ متعـدِّدة لأنه مركبٌ من قِصَّةٍ متكامِلَةٍ، وذلك لأنه لم يقْصِدْ أن يشبِّه العابِدين بالعنكبوتِ وَحْدَه ولا قصـدَ تَشبيهَ المعْبُودِين بالبيوتِ وحْـدهَا، بل قصَدَ تشبيهَ قَضيـةٍ كامِلَةٍ بقضيةٍ كاملة حتى تتَّضِحَ الصورةَ أمام المخاطب.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: [﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ لا يَدْفَعُ عنها حرًّا ولا برْدًا]: وكذلك لا يَقِيـهَا مِنَ الآفاتِ، كأن يسقُطُ عليـها شيء أو نحـو ذلك، فهذا البيتُ أوهنُ البيوتِ.

ثم قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كذلك هذه الأصنامُ لا تَنْفَعُ عابِدِيهَا]: فهؤلاء الذين عبـدُوا الأصنامَ ما لَجَؤوا إلى ملجأ نافعٍ، بل لجَـؤوا إلى مَلْجأ ليس بنافعٍ ولا مانِـعٍ ولا دافعٍ، ولهذا شبَّه الله ذلك البيتَ ببيتِ العنكبوتِ.

وفي آية أخرى شبَّه هذه الأصنامَ ودعاءَها برَجلٍ باسِطٍ كَفَّيْهِ إلى الماء ليبْلُغَ فاه، ولا يَبلُغُه، فهذا الرجـلُ أمامَه الماء وهو عطشانُ فبَسَطَ كَفَّيْهِ إلى الماء يريدُ أن يَصِلَ الماءُ إلى فَمِه، والماء لا يمكن أن يَصِلَ إلى فَمِهِ أبدًا، فكذلك هذه الأصنامُ لا تنفع عابِدِيها كما أن الماءَ لا يصِلُ إلى فم هذا العطشان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ لو كانُوا يَعْلَمُونَ ذلك ما عَبَدُوهَا]: (لو): هنا شَرطِيَّةٌ، وفِعْلُ الشرطِ قولُه: (كَان) وجوابُ الشَّرطِ مقدَّرٌ على كلامِ المُفَسِّر والتقدير: (ما عَبَدُوهَا)، ولهذا لا ينبغي أن تُوصَلَ هذه الجملة بالتي قَبْلَها؛ لأنك لو وصلْتَها بالتي قَبلهَا لكان وَهَنُ بيتِ العَنكبوتِ مشروطًا بعِلْمِهِمْ، مع أن بيتَ العَنكبوتِ أوهنُ البيوتِ سواءٌ عَلِمُوا أم لم يعلَموا، ولهذا ينْبَغِي أن نَقِفَ على قوله: ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ ثم نَقْرَأُ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

وهذا يُذَكِّرُنَا بآيةٍ في سورةِ التكاثرِ يخْطئ فيها كثيرٌ مِنَ الناس، حيث يقرؤون بوصلِ الآيتينِ ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ [التكاثر:٥-٦]، وهذا خطأٌ؛ لأن المعْنَى يفْسُدُ به فسَادًا وضاحًا؛ لأنك لو وصلت لكان قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾، جواب قوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾، والأمرُ ليس كذلك، فجملة ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ مستأنفة مستقِلَّةٌ فيجبُ الوقْفُ على قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾.

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: [﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ذَلِك ما عَبَدُوهَا] ويحتمل الجوابُ: لو كانُوا مِنْ ذَوِي العِلْمِ النافِعِ ما خَفِي عليهِمُ الأمْرُ، فإذا لم يخفَ عليهم هذا الأمْرُ لم يَقُومُوا بالعِبادَةِ.

والحاصل: أن هذا يَدُلُّ على جهلِ هؤلاءِ العابِدِينَ، فمهما بلَغُوا من الذَّكاءِ وحُسنِ التَّصَرُّفِ في الدنيا فإنهم من هذه الناحية سُفهاءٌ ليسَ عندَهم عِلم ولا عَقل.

لو قال قائل: إن العنكبوتَ قد تَنْتَفِعُ مِنْ بَيْتِهَا، أما عبَّادُ الأصنامِ فلا ينتَفِعُون قطعًا فلا مشابَهَة بينهما، فما وَجْه الشَّبهِ بينهما؟

الجواب: عُبَّادُ الأصنام أيضًا قد ينتَفِعُون بما يحصلُ لهم مِنْ منْفَعَةٍ مادِّيَة من

الوافدينَ لعِبادَتِها والتَّبَرُّكِ بها، لكن هذه المنافع مادِّيَة، أما النفعُ الحقيقي الذي هُم يَرْجونَ وهو دَفْع الضُّرِّ عنهم وجلبُ النَّفْعِ لهم فليس بحاصِلٍ، فلا تنْفَعُهم آلهتهم ولا تمنْعُهُم، كما أن بيتَ العنكبوتِ لا ينْفَعُها ولا يمْنَعُها فيأتيها الهواءُ والبَرْدُ والمطرُ ويَعْلَقُ بها التراب فلا تنتفع به الانتفاعَ الكامِلَ، وأما الصيدُ فالعنكبوت لا تَصِيدُ بالبَيْتِ، أي: لا تنتفعُ به في الصَّيدِ بل بالعُشِّ الذي يخرج منها وهو الخُيوطُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: تَقْبيحُ هؤلاءِ المشركينَ وتَنزيلُ مَرْتبَتِهِمْ، حيث شُبِّهوا بالعناكِبِ؛ لأن تشبيه الإنسان بالحيوان إذلالٌ له وتَنزيلٌ لمرْتَبَتِهِ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠].

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن هذه الأصنامَ لا تنْفَعُ عابِدِيها ولا تدْفَعُ عنهم، فهي لا تجلِبُ الخيرَ ولا تدْفَعُ الضُّرَّ، حيث شُبِّهَتْ ببَيْتِ العنكبوتِ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: جوازُ ضربِ الأمثالِ بالدُّونِ حسبَ ما تقتَضِيهِ الحالُ، لقولِهِ: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ فإن العنكبوتَ مِنْ أدْنى ما يكون مِنَ المخلوقاتِ، وقد قال تعالى في سورةِ البَقَرَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:٢٦]، وقد ضَرَبَ الله مَثَلًا بالذُّبابِ وبالحِمارِ وبالكلبِ وبالبعُوضةِ وبالعنكبوتِ، كل هذا حسبَ ما يقْتضيهِ المقَامُ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: أن أَوْهَنَ البيوتِ وأضْعَفَها بيتُ العنكبوتِ، من هذا نأخذ أنه لا ينبغي أن يقال مثلًا: هذا البيتُ أوْهى مِنْ بيتِ العنكبوتِ، لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾، لكن يجوز أن نقول: حُجَّةُ هذا الرجل أوْهَى مِنْ بيتِ العَنكبوت؛ لأن الحجَّةَ ليست بيتًا، فهذا لا بأس به لأنه ليس فيه معارضة للقرآن.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [العنكبوت:٤٢].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا ﴾ بمَعْنَى الَّذِي]: فتكونُ اسمًا موصولًا، وهذا الإعرابُ هُو المتبَادَرُ مِنَ الآية.

وبعض المُعرِبينَ قال: إن (ما) استفهامية، فيكونُ الوَقْفُ على قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ ﴾، ثم يأتي الاستفهامُ: ما الذي يَدْعُونَ من دُونِهِ مِن شيء؟ أي: هل يَسْتَفِيدُون شيئًا؟ ولكن هذا بعيدٌ، فإعرابُ المُفَسِّر هو الصوابُ، وأن (ما) موصولة، وعائد الموصولِ محذوفٌ، وحذفُ العائدِ المنصوبِ مطَّرِدٌ في اللغةِ العربية، التقدير: (إنَّ الله يعلمُ ما يدْعُونَهُ من دُونِهِ من شيء).

وقوله: [﴿يَدۡعُونَ ﴾ يَعْبُدونَ]: فالدعاءُ هنا دُعاءُ عِبادَةٍ، وكما يكون الدعاءُ دعاءَ عبادَةٍ كذلك يكون دعاءَ مَسألَةٍ.

أما دعاءُ المسألَةِ فكما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ﴾ [البقرة:١٨٦]، فدعاء المسالة كأن تقول: يا ربِّ اغفر لي، يا ربِّ ارْحمْنِي، وما أشبه ذلك.

ودعاءُ العبادة أن تَتَعَبَّدَ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما أمَرَك به، وإنما كان ذلك دُعاءً؛ لأن

حقيقةَ حالِ العابِد طلبُ مغفرةِ الله ورَحمتِهِ، فهو في الحقيقة داعٍ ضمنًا، ودليلُه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

فقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا يَدْعُونَ﴾ ما يَعْبُدُونَ] فيه نظَرٌ، فينبغي أن نجعلَ الدُّعاءَ هنا شامِلًا لدعاءِ العبادَةِ ولدعاءِ المسألةِ، وأيضًا فالمشركون يدْعُونَ الأصنامَ دعاءَ عِبادَةٍ، ودعاءَ مسألَةٍ، فالذين يُشْرِكُونَ بالأنبياء والأولياء فإنهم يَدْعُونَهُم دعاءَ مسألَةٍ، يقول أحدُهم: يا رسول الله اغفر لي، ويا رسول الله يَسِّرْ أمْرِي، وما أشبه ذلك!

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَدْعُونَ﴾ يَعْبُدونَ بالياءِ والتاءِ]: يعني: (يَدْعُونَ) و«تُدْعَوْنَ» قراءتان سبعيتان[1].

قوله: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ هذا بيانٌ لـ﴿مَا﴾ يعني: أي شيء تَدْعُونه فإن الله تعالى عالم به، أي: أنه يعْلمُ حالَ هذا المدْعو المعْبُودِ، وهي كالتَّعْليلِ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾، ويؤيدُ ذلك أن هذا المثَلَ مطابِقٌ للواقِعِ؛ لأنه صادرٌ عن عِلم، فإنه لما ذَكَرَ أنهم كالعنكبوت بيَّن أن هذا عَنْ علمٍ من الله، وأن هذا الشيءَ الذي يُدْعَى لا ينْفَعُ.

قوله: [﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العَزيزُ في مُلكِهِ، الحكِيمُ في صُنْعِهِ]:

لو قال قائل: إن المناسب أن يقالَ: وهو السميعُ العَليمُ؛ لأن الله تعالى يقولُ: ﴿يَعْلَمُ﴾ فمُقتَضَى الظاهرُ أن تُختَمَ الآية بالعِلْمِ؟

---

(١) السبعة في القراءات (ص: ٥٠١).

قلنا: هذا حقٌّ بالنسبة لظاهِرِ الكَلامِ، لكن عندَ التأمُّلِ نجِدُ أن ختِامَهُ بالعِزَّةِ والحكمَةِ أبلغُ، فإنهم يُريدونَ الاستِنْصارَ بهذه الأصنامِ والغَلبةَ والظهورَ، وأكبرُ شاهـد لذلك قولُ أبي سفيـان يوم أحد: (اعْلُ هُبَلْ)[1]، فاعتـزازهم بهذه الأصنام مقابلٌ بعـزَّةِ مَنْ لا يُغْلَب وهو الله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالبُ لهذِهِ الأصنامِ ولعَابِدِيها.

و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ من أسماءِ الله عَزَّوَجَلَّ، ويتَضَمَّنُ العزَّة مِنْ ثلاثةِ وُجوهٍ: عزَّةُ القَدْر، وعزَّةُ القَهرِ، وعزَّة الامتِنَاعِ، كما تقدم.

أما عِزَّةُ القَدْر فمعناها: أنه عَزَّوَجَلَّ لا يُشْبِهُه أحدٌ في عَظَمَتِهِ وجلالِه وقَدْرِه، وأما عزَّة القَهْرِ فمعناها: أنه لا أَحَدَ يُشْبِهُ الله عَزَّوَجَلَّ في قَهْرِهِ وسُلطانِهِ ومُلكِهِ، وأما عزَّة الامتْناع فمعناها: أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ممتَنِعٌ عن كُلِّ نَقْصٍ وعن كلِّ عَيْبٍ، فهو عزيزٌ أن يُنال بعَيْبٍ أو نَقْصٍ.

وقوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ دائمًا يَقْرِنُ الله عَزَّوَجَلَّ العَزِّة بالحِكْـمَةِ؛ لأن بعضَ أهلِ العِزَّةِ من الخَلْقِ تحْمِلُهم العزَّةُ على التَّهَوُّرِ وعدمِ التَّثَبُّتِ، وعدمُ تنزيلِ الأشياءِ منازَلَها، ودليلُ ذلكَ قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٦]، وكون العِزَّةِ تأْخُذُه بالإثمِ خلاف الحكمة، فلهذا يَقْرِنُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ دائمًا العزيزَ بالحكيمِ إشارةً إلى أن عِزَّتَهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مَقْرُونَةٌ بالحِكمةِ، فهو وإن كانَ عَزِيزًا غالِبًا قاهِرًا لَهُ السلطانُ الكامِلُ؛ فإنه عَزَّوَجَلَّ لا يُدَبِّرُ الأمرَ إلا على وجْهِ الحِكمةِ البالِغَةِ.

ثم إنه على تَفْسيرِنا ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ بأنه ذُو الحُكم والحِكمة، فإن عِزَّتَهُ عَزَّوَجَلَّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة أُحد، رقم (٣٨١٧).

مقرونةٌ بحُكْمِه وأن له الحكمَ المطلقَ في عبادِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

واعلم أن أسماءَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لها مَعانٍ عندَ إفرَادِهَا، وإذا قُرِنتْ مع غيرها يتركَّبُ من هـذا الاقترانِ معنًى آخر فوقَ المعنى الإفرادِي لكُلِّ اسـم، فالعزيزُ مِنْ أسماءِ الله جَلَّ وَعَلَا له مَعْنى عندَ انفرَادِهِ، والحكيم له معنى عند انفرَادِه لكن إذا اقْترنَا جميعًا حصل منهما معْنى ثـالث زائد على المعنى الانْفرادِيِّ، وهو ما يحصل باجتماع هذين الاسمين من المعْنى الكامِلِ.

وقـد تقدَّمَ أن الحكيم ذو الحُكـم والحِكْـمة، وأن الحُكْم ينقَسِـمُ إلى كونِيٍّ وشَرْعِيٍّ، فمثالُ الكونِيِّ قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف:٨٠]، ومثالُ الشَّرْعِيِّ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورَةِ المُمْتَحَنَةِ: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:١٠]، ويشملهما -أي: الحكم الكَوْنِي والشرعي- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١]، وما أشبه ذلك.

فالحِكمةُ ثابتَةٌ لله عَزَّوَجَلَّ وهي تَنزيلُ الأشياءِ منازِلها، وتكون في الحُكم الكوْنِيِّ والحُكمِ الشَّرعِيِّ، هذا باعتبارِ موضِعِها، وتكون أيضًا حِكَمةٌ غائِيَّةٌ وحكمَةٌ صُورِيَّةٌ، بمعنى أن كونَ الشيءِ على هذه الصورةِ المعَيَّنَةِ موافقٌ للحِكمةِ، ثم الغايةُ منه حِكْمَةٌ، فتكون الحِكمةُ في الغايَةِ وفي الهيْئةِ التي كان عليها هـذا الأمر، وهذا شامِلٌ لجميعِ أحكامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكونية والشَّرْعِيَّةِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: إثباتُ العِلْمِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما يتعلَّقُ بالخلقِ؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا ما حكم على هؤلاء المشركين بمشابهتهم للعَنكبوتِ إلا عن عِلْمٍ بأن هذه الأصنامَ لا تنفعُ ولا فائدةَ منها، فالآية كالتَّعْلِيلِ لما قَبلَها.

الفَائِدةُ الثَّانِية: وهي مبنية على الأُولى، الردُّ على غُلاةِ القَدرِيَّةِ الذين قالوا: إن الله لا يعلـمَ الأشياء المتعلِّقَةَ بالخلْقِ إلا بعـدَ وُقوعِها -نعوذ بالله- لكن شيـخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول[1]: إنهم قَلِيلٌ، وذلك في وَقْتِهِ، لأنهم رأوا أن إنْكارَهُم العلْمَ نداءٌ على أنْفُسِهِمْ بالكُفر فأثْبَتُوا العِلمَ لله وأنكَرُوا الكتابةَ والمشِيئةَ.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: إثباتُ اسمينِ مِنْ أسماءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهما: العَزيزُ والحَكيمُ، وإثباتُ ما تَضَمَنَّـاهُ من صِفةٍ وهي: العِزَّةُ والحِكمةُ، وكذلك إثبـات ما تَضَمَنَّاه من صفةٍ بدَلالة الالتزامِ.

فنُثْبِـتُ ما يستلْزِمُه هذان الاسمانِ منَ الصِّفاتِ؛ لأنَّ دَلالَةَ اللفـظِ على معناه تكون بدلالةِ المطابَقَةِ والتَّضَمُّنِ والالتزامِ، وقد تقـدم الكلام على ذلك، ونضربُ لذلك مثلًا:

كلمـة (دَارَ) أي: المسكُونَةُ، تدلُّ على هذه الكُتـلةِ من البناء المتضمنة للغُرَفِ والحُجَر والسُّطوحِ؛ تدل على ذلك بالمطابَقَةِ، وتدل على كُلِّ حجرةٍ بمُفْردِهَا أو غرفةٍ بمـفردها أو سطح بمُفرده؛ تدل على ذلك بالتَّضَمُّـنِ، يعني: أنها متَضِمَّنة لغُـرفٍ وحُجَرٍ... إلخ، وتدل على أن لها بانِيًا بِدِلالَةِ الالتزامِ.

فالعزيزُ يدُلُّ على العزَّةِ دلالةَ مطابَقةٍ، ومن لازم العزة أن يكون العَزِيزُ عالمًا قادِرًا قَوِيًّا، ودلالةُ العزيزِ على الذات والصِّفَةِ دلالةُ مطابَقَةٍ، وعلى الذات والصفة وحدها دلالة تَضَمُّنٍ.

ولهذا فالحيُّ القيومُ اسمان تضَمَنا جميعَ الصفات، لأن الحيَّ مستلزمٌ لجميعِ صفاتِ الكمالِ، والقيُّومُ مستلزمٌ لجميعِ صفاتِ السلطانِ والمُلك والتَّدْبِيرِ وما أشبه

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٩).

ذلك من الصفات، ولهذا ورد في الحديث أنهما اسمُ الله الأعْظَمُ[1].

وقوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيه إثباتُ الحُكْمِ والحِكْمَةِ، وفي الجمع بين اسمي العَزيزِ والحكيم تظْهر صفةٌ ثالثةٌ، وهي أن عِزَّةَ اللهِ مقرونَةٌ بالحِكمةِ ليست كعِزَّةِ غيرِهِ من المخلوقين؛ لأن عِزَّةَ المخلوقِ قد تكونُ خالية مِنَ الحِكْمةِ، وقد تقدم ذلك في التفسير.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: ينبغي التأَمُّلُ إذا خُتِمتِ الآيات بما يكون مخالفًا لظاهِرِ الحالِ أو السياقِ كهذه الآية، فقد يتبَادَرُ إلى الذِّهْنِ أن تُختَمَ بالعِلم، ولكن عند التأَمُّلِ يكون ختْمُهَا بالعزَّةِ والحكمةِ أوْلى، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]، فظاهرُ السياقِ يَدُلُّ على أن تُخْتَمَ الآيةُ بالغفورِ الرَّحِيمِ؛ لكن عدَل عنه لغايَة بلاغِيَّةٍ، فتأَمَّل وتوقَّفَ فإن الخَلَلَ منك، وكلامُ الله عَزَّوَجَلَّ لا خَلَلَ فِيهِ.

• ● ❁ ● •

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٩٦)، ولفظه: اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وفاتحة سورة آل عمران ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾؛ والترمذي: كتاب الدعوات، باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ، رقم (٣٤٧٨)؛ وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم، رقم (٣٨٥٥)؛ وأحمد (٦/ ٤٦١) (٢٧٦٥٢).

الآيــة (٤٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ ﴾ فِي الْقُرْآنِ، ﴿نَضْرِبُهَا ﴾ نجْعَلُها ﴿لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ ﴾ أي: يفْهَمُها ﴿إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ المتَدَبِّرُونَ] اهـ.

قوله: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ ﴾ أتى بـ(تِلكَ) الدَّالَةُ على البعدِ ولم يقل: هذا المثل، حتى نقولَ عدَلَ بالكلامِ عَن ظاهِرِه أو عن مُقتَضَى سياقِهِ؛ لأن المثلَ المضروبَ قَريبٌ، لكن قـال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ ﴾ لأن الأمثـالَ الأُخْرَى غيرُ مَثَلِ المتَّخِذِينَ الأصنامَ آلهة بعيدةً بالنِّسْبَةِ لهذا المكان؛ لأنها متفَرِّقةٌ في القرآنِ، فلهذا جاءت الآية بـ(تلك) الدَّالة على البُعدِ ولم يَقُلْ: هذا المثل، فهو شامِلٌ لكلِّ الأمثال الوارِدَةِ في القرآن.

والأمثالُ الوارِدَةُ في القرآن كثيرةٌ ومتَعَدِّدَةٌ، وقد ألَّفَ فيها بعضُ أهل العلم كُتُبًا مستَقِلَّةً، وأفردها السيوطي في الإتقانِ بفَصلٍ مستَقِلٍّ، وبيَّنَ فوائد الأمثال التي يُضْربَ المثَلُ منْ أجْلِهَا.

والفَائِـدةُ الملموسَةُ القريبةُ جدًّا من ضربِ الأمثـال هي تقريبُ العُقـولِ إلى الأذهان، إذ إن المثـل هو ضَرْبُ شيءٍ معـقولٍ قد يَبعدُ عن الإنسان تَصَوُّرُهُ بشيءٍ محسوسٍ يَسْهُلُ تصَوُّرُهُ.

قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي: نجْعَلُها أمثالًا للنَّاسِ جميعًا، فـ(ضَرَبَ) هنا بمعنى: جعل، فإذا قلت: (ضَرَب ذَلِكَ مثلًا)، فالمعنى: جعل ذلك مثلًا، وكذلك قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم:٢٨]، أي: جعل لكم مثلًا من أنفسِكُمْ.

فالضربُ يأتي بمعنى الجَعلِ إذا أضيفِ إلى المثَلِ، فمادة (ضرب) ليست خاصَّةً بالضَّرْبِ الذي هو الضربُ باليد، بل تَشْمَلُ الضَّربَ بمعنى الجَعْلِ، وتشمل الضربَ بمعنى: تحويلِ النُّقودِ من سَكَّة إلى سَكَّة، والسياق هو الذي يُبَيِّنُ المعْنَى المرادَ.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ضرَبَ الأمثالَ لجميعِ النَّاسِ في التَّوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ولكن الذي يَعْقِلُها وينتفع بها هم العَالِمُونَ.

قوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: ذَوُو العِلم والفَهمِ الذين ينتَفِعونَ بفَهْمِهِم وعِلْمِهِمْ، ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المتَدَبِّرُونَ]. وهذا التفسيرُ فيه نَظَرٌ لأن العِلمَ بعدَ التَّدَبُّرِ، لكن لما كان العِلمُ لا يحصلُ إلا بِه فسَّرَهُ المُفَسِّر بِهِ.

والحقيقةُ أن المرادَ بالعالِمِينَ ذَوُو العِلم والفَهْم الذين يَعْقلُون الأشياء ويفْهَمُونها، احتِرَازًا من أهلِ الجَهلِ المعْرضينَ الذين لا ينتَفِعونَ بما أعطَاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنَ الفُهومِ، فإنهم لا يعْقلُون هذا الأمثالَ، وإذا لم يَعْقِلُوها لم ينْتَفِعُوا بها.

وحَرِيٌّ بطالبِ العِلم أن يتَتَبَّعَ الأمثالَ التي في القُرآنِ، فيقرأُ القُرآنَ بتَدَبُّرٍ ثم يجمَعُ هذه الأمثال على هيئة بحثٍ يصْنَعه لنفسه، ثم إن شاء بعدَ إتمامِه أن يرجِعَ إلى الكُتب المؤلَّفةِ في هذا فلا بأسَ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ عمَّم في ضَربِ المثَلِ

وخَصَّصَ في عقْلِ المثَلِ، التَّعميمُ في ضربِ المثلِ في قوله تعالى: ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ والتَّخصيصُ في قولِهِ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

وأسلوبُ التَّعْميمِ ثم التَّخْصِيصِ كثيرٌ في القرآنِ؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥]، فعمَّم في الدَّعوةِ وخَصَّصَ في الهِدايَةِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: فائِدةُ ضرْبِ الأمثالِ وأنه نَوعٌ من التَّعليمِ والتَّوجِيهِ، لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾.

الفَائِدةُ الثَّانِية: رحْمَةُ اللهِ تعالى بالخَلقِ بضَرْبِ الأمثالِ لهُم؛ لأن ضَربَ الأمثالِ كما تقدَّمَ يقرِّبُ المعْقولَ، وتَصَوُّرُ الإنسانِ للمحْسوسِ أقْوى من تَصَوُّرِهِ للمَعقولِ، فقد تَشْرحُ لشخْصٍ صفَةَ الحجِّ شرْحًا بيِّنًا وافيًا، لكن لو ذهبتَ به إلى الحجِّ ورَأى المناسِكَ لكان أبْلَغَ لأنه يُحِسُّه بعَينِهِ، بخلافِ ما تَصوَّره بقلْبِهِ فإنه لا يُدْرِكُه كإدراكه للمَحْسُوسِ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أنه ينْبغِي التأمُّلُ في الأمثالِ لقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ فالعَالِمِ هو الَّذِي يتَأَمَّلُ وينْظُرُ حتى يَعْقِلَ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: إثباتُ عظَمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لقوله: ﴿نَضْرِبُهَا﴾، فإن النُّونَ للعَظَمة.

واعْلمَ أن ما أضافَهُ الله تعالى لنَفْسِه بلفظ العَظَمَةِ فإنه يدُلُّ على عظَمَةِ نفْسِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد يُرادُ به مَلائِكَتُهُ لا نَفْسَهُ إذا دَلَّ على إرادَةِ الملائكَةِ، وإلا فالأصلُ

أنه يعودُ إلى الله جَلَّ وَعَلَا.

ومما أراد الله به ملائكتَه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨]، الضميرُ في ﴿قُرْءَانَهُۥ﴾ يعودُ على الفاعِلِ وهو جِبريلُ، وأضافه اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى نفْسِهِ لأن جبريلَ رَسُولُه، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:٧٤]، فإبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يجادِلُ الرُّسُلَ ولم يجادِلِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

وكذلكَ قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٥]، الضَّميرُ (نحن) يعودُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فالمرادُ بالقُربِ هنا قُربُ الملائكةِ، والدَّليلُ على إرادةِ الملائكةِ قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾، فإن الملائكة تحْضُرُ إلى الميِّتِ لقبضِ رُوحِهِ وتجلِسُ منه مَدَّ البَصَرِ[1]، لكن لا نُبْصُرها نحن، فالقُربُ هنا قربُ الملائكةِ لوُجودِ الدَّليلِ؛ لأن حملَ ما أُضِيفَ إلى الله بصيغَةِ العَظمةِ على رُسُلِهِ وملائِكَتِه لا بُدَّ له مِنْ دَليلٍ.

وأما ما أضافَهُ الله إلى نَفْسِهِ بصيغةِ الإفرادِ فهو لله جَلَّ وَعَلَا، مثال ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]، هذه الضَّمائرُ كلُّها بصِيغَةِ الإفرادِ، فعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ المرادُ قُربُ اللهِ نفسه من دَاعِيهِ، ولكن هذا القُرْبُ لا يلْزَمُ منه أن يخْلُوَ منه العَرشُ أو أن ينْتَفِي عنه العُلُوُّ، كما أنه يَنْزِلُ إلى السماءِ الدُّنيا[2]، ولا يلزم أن يَخْلُو منْه العَرشُ أو أن ينَافِيَ ذلك عُلُوُّه.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧، رقم١٨٥٥٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء نصف الليل، رقم (٥٩٦٢)؛ ومسلم: كتاب المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

والحاصلُ أن ما أضافَه الله إلى نفسه بصيغَةِ الإفرادِ فهو لله عَزَّوَجَلَّ، وما أضافه إلى نَفْسِهِ بصيغَةِ الجمعِ فقد يكونُ لله عَزَّوَجَلَّ وقد يكون للملائكَةِ، لكن مع وُجودِ دَليلٍ على إرادَةِ الملائكةِ، لكن مع وُجودِ دليلٍ على إرادَةِ الملائكَةِ، وهذه الفَائِدةُ مُهِمَّةٌ جِدًّا في بابِ الصفاتِ وغيرِهَا.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: الثَّناءُ على العَقْلِ، لقولِهِ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾، والمرادُ بالعقلِ هنا عَقلُ الرُّشْد وهو الذي يُثْنِى عليه، وليس المراد عَقلَ الإدْرَاكِ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: فَضِيلَةُ العِلم، لقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ فغيرُ العالِمِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ لا يعْقِلُ هذه المعاني؛ لكن العالِمِ هو الَّذِي يعْقِلُها ويعرف مَغْزاهَا ومعْنَاها وأوجُه الشَّبَه بينها حتى يصل إلى دَرَجَةِ الكمالِ.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت:٤٤].

قوله: [﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: مُحِقًّا، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ دالَّةٌ على قُدرَتِهِ تعالى] اهـ.

معنى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: أَوْجَدَهَا، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ وبَدِيعِ السَّمواتِ والأرضِ، قال أهلُ العِلْمِ: بديعٌ بمَعْنَى مبْدِعٍ، والإبـداعُ إيجادُ الشيءِ على غيرِ مِثـالٍ سَبَق، ومنه: البِئر البِدْعُ، أي: الجديـدةُ التي حُفِرَتِ الآن، فالخَلْق أعمَّ من البِدعِ، لكن قدْ بيَّن اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آياتٍ أُخْرَى أنه خالِقٌ وبَدِيعٌ، فهو الذي أَوْجَدَ السمواتِ والأرضِ، وهو عَزَّوَجَلَّ بَدِيعُ السَّمواتِ والأرضِ.

وقوله: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يعني بما فيهما؛ لكن بالنِّسبَةِ لبَنِي آدم هـم مِنَ الأرضِ وليـسوا فيها؛ لأن الإنسان خُلِـق من طِينٍ، والطينُ من الأرضِ، والنباتُ أيضًا مِنَ الأرضِ.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ سبـق أن المُفَسِّر يقولُ: [محقًّا] فالجارُّ والمجرور في موضعِ نصْبٍ على الحال من فاعلِ (خلَق) أي: محـقًّا، ويجوز أن يكونَ مفْعولًا من أجلِهِ،

يعْنِي بمعنى المفعولِ من أجلِه، أي: خلَقَهُما للحَقِّ.

وتفسيرُ المُفَسِّر يُؤيِّدُه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص:٢٧]، ويؤيِّدُه أيضًا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨]، فإذا لم يَكُنْ لاعبًا تعالى الله عَنْ ذلك عُلُوًّا كبيرًا- كان محقًّا.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً﴾ المشار إليه الخَلْقُ، فيشمَلُ كلَّ ما تطَوَّرَ مِنْ خلقِ السمواتِ والأرض فإنه آية، فنَفْسُ السمواتِ والأرضِ خلْقُهما آية دالَّةٌ على الله، لأن آيةَ الشيءِ ما كان دَالًّا عليه دونَ غيرِه، فالسمواتُ والأرضُ دالَّةٌ على الله لأنه لا أحدَ يستَطِيعُ أن يخلُقَ مثلَ هذه السمواتِ والأرْضِ، فوجودُ السمواتِ والأرض دالٌّ على القُدرَةِ، وما فيها من الانتظامِ وعَدَمِ الاضطرابِ والتناقُض دالٌّ على الحِكمَةِ.

ولو تأَمَّلْتَ أشياءَ كثيرةً من حَوادثِ السمواتِ والأرض لوجدت كُلَّ واحدٍ منها يدُلُّ على القُدرةِ والعِلمِ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، وأيضًا يدُلُّ على الحِكْمَةِ، وأيضًا له دَلالَةٌ خاصَّةٌ على ما يَدُلُّ عليه بنفْسِه؛ وهذا شيءٌ لو تَأَمَّلَهُ المؤمنُ ظَهَرَ له من ذلك آياتٌ كثيرةٌ!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَأَيَةً﴾ دَالَّةٌ على قُدرتِه تعالى]: وأيضًا دالَّةٌ على علْمِهِ وحكْمتِهِ ورَحمَتِه وقوَّتِه، فحوادِثُ السمواتِ والأرضِ، كلُّ شيءٍ منها يَدُلُّ على تلك الصِّفةِ الخاصَّةِ.

وقوله: [﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ خُصُّوا بالذِّكْرِ لأنهم المنْتَفِعُونَ بها في الإيمانِ بخلافِ الكافِرِينَ]: وهذا صحيحٌ؛ فالآياتُ الكونِيَّةُ لا ينتَفِعُ بها إلا المؤمنُ، وأما الكافرُ فلا ينْتَفِعُ بها، يقول: هذه طبيعةٌ تُدَبِّرُ نَفْسها، وتنتَقِمُ من الناس بنفسها، وتَجْلِبُ الخيرَ

للناس بنَفْسِهَا، وكذلك الآياتُ الشَّرعِيَّةُ، فالمؤمن ينتَفِعُ بها، وغيرُ المؤمن لا ينتَفِعُ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥]، فالآيات الكوْنِيَّةُ والشَّرْعِيَّةُ لا ينتفع بها إلا المؤمن.

وانتِفَاعُ المؤمن بالآياتِ الشَّرعِيَّةِ والكونِيَّةِ يكون بزيادةِ إيمانِهِ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤].

وزيادةُ الإيمانِ لا شكَّ أنه نفْعٌ عظيمٌ؛ لأن الإيمانَ إمَّا أن يَزيدَ وإما أن ينْقُصَ وإما أن يبْقَى بلا زيادَةٍ ولا نُقْصانٍ، وهذا قد يكون نادرًا، بل أنا أشكُّ في وُجودِ هذا القِسْمِ؛ لأن عدَمَ زيادةِ الإيمانِ يؤَدِّي إلى نَقْصِهِ؛ إذ إن الإيمان يزيدُ بالطَّاعَةِ فإذا فَقَدْتَ الطاعةَ حصلَ النَّقْصُ، لكن القِسْمَةَ العقلِيَّةَ أن يكونَ إما زائدًا وإما ناقِصًا وإما باقيًا على حالِهِ، وتَصَوُّرُ أو وقوعُ القسم الثالث اللهُ أعلمُ بِه.

والمرْجِئَةُ هم الذين قالوا: إن الإيمانَ لا يزيدُ ولا ينْقَصُ، وليس لهم دليلٌ، بل عندهم تَعليلٌ عَلِيلٌ قالوا: إن الإيمان هو إقرارُ القلبِ والإقرارُ لا يتفاوت، وكذلك المعتزِلَةُ والخوارِجُ يقولون: إن الإيمانَ لا يتبَعَّضُ، إما أن يُوجدَ كلُّه وإما أن يُعدَمَ كله.

لو قال قائل: هل يصِحُّ أن نقول: إن بقاء الإيمان على حالِهِ -أي عدم زيادته ونقصه- يدلُّ على صِحَّةِ قول من قال: إن مَن ترك ما ينْفَعُه لا بد أن يُبْتَلَى بما يضَرُّه؟

الجواب: وجه ذلك أن الإنسان لا بُدَّ أن يكون حارِثًا وهَمَّامًا، قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، فالإنسان لا بد أن يفعل شيئًا، ولا بُدَّ له من هِمَّةٍ وعَمَلٍ، فإذا كان هذا العملُ فيما لا ينْفَعُ لَزِمَ أن يكون فيما يَضُرُّ.

فإذا قال قائل: هذا القولُ يستلْزِمُ إبطالَ القولِ بوجودِ قِسْمِ المباحِ في باب التَّكْلِيفِ كما يُذْكَرُ ذلك عن الكَعْبِيِّ المعتزلي[1]، قال: لا يُوجَدُ قِسْمٌ مباحٌ في الشريعة، قال: لأن لازِمَ هذا الشيءِ المباحِ الذي تشتَغِلُ به أن يكون كافًّا لك عن المحَرَّمِ فيكونُ واجبًا، فالأشياء إما واجِبَةٌ وإما مُحَرَّمَةٌ، وردَّ عليه أهلُ العلمِ بأدِلَّةِ العَقْلِ والنَّقْلِ، وقالوا: إن المباحَ إذا تضَمَّنَ تركَ واجبٍ صارَ محرَّمًا لتركِ الواجِبِ لا لكونه مباحًا، ولذا لو فَعَل مباحًا بدون أن يترَتَّبَ عليه تركُ واجبٍ وفِعلُ محرَّمٍ لم يكن آثمًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: إثباتُ أن خالقَ السمواتِ والأرضِ هو الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

لو قالَ قائلٌ: الآيات ليس فيها حَصْرٌ حتى تَقُولوا: إن الخالِقَ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ؟

فالجواب: نعم، ليسَ في الآياتِ حَصْرٌ بالطُّرقِ المعْرُوفَةِ، لكن في الآيات حَصْرٌ من حيثُ إنه لا يُوجَدُ إلا سموات واحدة وأرضٌ واحِدَةٌ، وإذا كانَ الخالقُ لهما هُو الله عَزَّوَجَلَّ انتَفَى أن يكونَ غَيرُهُ خالِقًا لهُما.

الفَائِدةُ الثَّانِيةُ: الردُّ على أهلِ الطَّبيعَةِ الذين يقولون: إن السمواتِ والأرضَ ليس لها خالقٌ، بل هي أشياء تَتَفاعَلُ وتتحولُ وتتقَلَّبُ، وأن الخلقَ لا أَوَّل له ولا نِهايَةَ.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: إثباتُ حُدوثِ السَّموات والأرضِ وأنها ليستْ قَدِيمَةً، لقوله: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فهي مُوجَدَةٌ من العدمِ، وكُلُّ ما سِوَى الله عَزَّوَجَلَّ

(١) البحر المحيط في أصول الفقه (١/ ٢٤١)، (٤/ ١٨٦)، والتقرير والتحبير (٢/ ٣٠٧).

فهو موجودٌ بَعد العَدَمِ.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: إثباتُ أن السمواتِ سبعٌ، نأخذ هذه الفَائِدةَ مِنْ آيات أُخْرَى كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢].

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: إثباتُ أن الأَرَضِينَ سبْعٌ مع أن عَدَدهَا لم يأتِ في القرآنِ لكِنْ أُشِيرَ إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، فالمماثَلَةُ في الوصْفِ هنا متعَذِّرَةٌ، وإذا تَعَذَّرَتِ المماثَلَةُ في الوصْفِ رجَعْنَا إلى المماثلَةِ في العددِ، وقد جاءتِ السُّنَّةُ صَريحَةٌ في ذلك، قالَ ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١).

الفَائِدةُ السَّادسَة: اطمئنانُ المؤمن بما يحْدِثُه اللهُ في السمواتِ والأرضِ، وجه ذلك: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فإذا عَرَف المؤمِنُ أن ما حدثَ مِنْ جُوعٍ ومَرَضٍ وزَلازِلَ وفيضانات أنه بالحَقِّ اطمأنَّ ورَضِيَ وسَلِمَ، ولا راحة في الحقيقة للإنسانِ إلَّا بهذا، أي: بالإيمانِ بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه وأنه حَقٌّ، وإلا فإنه سيتكَدَّرُ؛ لأنه ما مِنْ ساعةٍ تَمُرُّ إلا وسيَجِدُ الإنسانَ فيها ما يَسُوؤه إما في نفْسِهِ أو أهلِهِ أو صحبه أو بلده، أو البلاد الإسلامية عامة.

لو قالَ قائلٌ: ما معنى قولِ البعضِ: (منَازَعَةُ الأقْدَارِ بالشَّرْعِ واجِبَةٌ)، وهل هي صحيحة أم لا.

الجواب: المرادُ بالمنَازَعَة هنا المقابَلَةُ، فإذا جاءَنَا مِنَ القَدَرِ ما يَسُوؤنَا، فإننا نُنازِعُه بالصَّبْرِ، فإذا صَبَرْنَا ما ساءَنَا، أي: أن نُقابِلَ القَدَرَ بما يقْتَضِيهِ الشَّرْعُ، لكن

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، رقم (٣٠٢٦)؛ ومسلم -واللفظ له-: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠).

منازَعَةَ القَدَرِ بالقَـدَرِ لا تجوزُ، والأَوْلَى البُـعْدُ عن مثلِ هـذه الألْفاظِ، لأنها كلماتٌ صُوفِيَّةٌ وتحتاجُ إلى بحث، ثم بعضُ الناس قد ينْفِرُ مِنْ كَلمةِ منَازعة.

الفَائِدةُ السَّابِعة: أن خَـلْقَ السمواتِ والأرضِ آيـة دَالَّةٌ على ما يقْتَضِيـهِ هذا المخلُوقُ من صِفاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد تقَدَّمَ أن منه ما يَقْتَضِي الدَّلالَةَ على قُدرَةِ اللهِ، والدَّلالة على حِكْمَةِ الله، والدَّلالةَ على عِزَّتِهِ حسبَ ما تقْتَضِيهِ الآيةُ.

الفائدتان الثامنة والتَّاسِعة: أنه لا ينْتَـفِعُ بالآياتِ إلا المؤمنونَ، لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ويتَفَرَّعُ على هذه الفَائِدةِ أنه كُلَّما كَمُلَ إيمانُ العبدِ ازداد انتفاعًا بالآياتِ.

وجه هذه الفَائِدةِ: ما سبـقَ ذِكْرُهُ من أن الحُكْمَ إذا عُلِّقَ بوصفٍ ازْدَادَ قُـوَّةً بقوَّتِهِ وضَعْفًا بضَعْفِهِ، فكلَّما كان الإنسانُ أقْوَى إيمانًا ظَهَر له مِنْ آياتِ اللهِ في هذه المخلوقاتِ ما لم يَظْهَرْ لمن هو دُونَهُ.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٥].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱتْلُ ﴾ فِعْلُ أمرٍ مَبْنِيٌّ على حَذفِ حرفِ العلَّةِ، أصله: تَلا يَتْلُو. والقاعدةُ: أن فِعلَ الأمرِ هو فعلٌ مضارِعٌ مجزُومٌ حُذِفَ منه حرفُ المضارَعَةِ، فإذا أردت أن تَصوغَ الأمرُ من (خاف) تقول: (خِفْ)، ومثله (نامَ) الأمر منه: (نَمْ) لأن مضارِعَه المجزوم (لم يَنَمْ)، وهكذا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱتْلُ ﴾ يتَضَمَّنُ التلاوةَ اللَّفْظِيَّةَ، والتلاوة الحُكمِيَّةَ، أما التلاوة اللَّفظية فهي أن تَقْرَأَ القرآنَ، والتلاوةُ الحُكمِيَّةُ أن تأخُذَ بأحكامِهِ وهي تلاوة الاتِّباعِ، مأخوذةٌ من قولهم: تَلا فلانٌ فلانًا، أي: تَبِعَه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة:١٢١].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱتْلُ ﴾ الخطابُ للرَّسولِ ﷺ، وليس مُوَجَّهًا لكل من يَصِحُّ خِطَابُه؛ لأنه قال: ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ فهو خاصٌّ بالرسولِ ﷺ؛ لأن غيرَهُ لم يُوحَ إليه، ومع ذلك فالخِطابُ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خطابٌ له وللأُمَّةِ، بدليلِ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١]،

إلا ما دَلَّ الدَّلِيلُ على اخْتِصاصه به، كقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾، لو انْتَهَتْ الآية هنا لجازَ للأُمَّةِ هذا الفعلَ، لكن قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٠]، فدَلَّ ذلك على أن الخطابَ الموَجَّه للرسولِ ﷺ خِطابٌ لأُمَّتِهِ ما لم يَدُلَّ دليلٌ على اخْتصاصِهِ به.

واعلم أن الخطابَ الموَجَّهَ للرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ثلاثةُ أقسامٍ:

القسمُ الأَوَّلُ: يدُلُّ الدَّلِيلُ بمُقْتَضَى اللفْظِ الخاص أنه لـه ولغَيرِهِ، مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ [الطلاق:١]، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ثمَّ قالَ: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، ومثل قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم:١]، ثم قالَ: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم:٢]، ومِثلُ قولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، ثم قالَ: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ [الأحزاب:٣٧].

القسمُ الثَّانِي: يخْتَصُّ بِهِ ولا يتعَدَّاهُ إلى غيرِهِ عَمَلًا بمُقْتَضَى اللَّفْظِ، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:١-٤]؛ كلُّ هذا خاصٌّ بالرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

القِسْمُ الثالِثُ: يكونُ خَاصًّا به بمُقْتَضَى الخِطابِ، لكن يَتَناولُ غيرَه بمُقْتَضى التأَثُّرِ بدَلِيلٍ منْفصلٍ؛ مثل هذه الآية، فالرَّسُول أُمرَ بالتلاوة وإقامَةِ الصلاةِ، والأُمَّةُ يجب عليها أن تَتْلُو ما أَوْحَاهُ الله إلى نَبِيِّهِ.

وقوله: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ (مَا) اسمٌ موصُولٌ يُفِيدُ العُمومَ.

وقـوله: ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ الوَحْي في اللُّغَةِ: الإعلامُ بسرعة وخَفـاءٍ؛ مثاله: رجلٌ بين قومٍ وتريدُ أن تُخْبِرَه وتُعْلِمَه بشيء، تريدُ أن تقول له: قُمْ نذهبُ إلى فلانٍ،

فأشرتَ إليه بيَدِك فَفِهم وقام معك، ولم يَفْهَمِ القومُ الذين معه، هذا هو الوحْي في اللغة.

وأما الوحْيُ في الشَّرعِ: فهو إعلامُ الله عَزَّوَجَلَّ بالشَّرْعِ لأحدِ أنْبيائِهِ أو رُسُلِهِ، والمراد هنا الوَحْيُ شَرْعًا، وله مراتب ذَكرها الله تعالى في سورة الشُّورَى.

قوله: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (مِنْ) هنا بيَانِيَّةٌ، بيان لـ(مَا) في قولِهِ: ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ المرادُ بـه القرآنُ، وسُمِّي كِتَابًا لأنه يُكْتَبُ في المصاحِفِ؛ ولأنه مكتوبٌ في اللَّوحِ المحْفُوظِ، ولأنه مكتوبٌ في أيْدِي الملائكة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١١-١٦].

و(كِتابا) فعـال بمعنى مفعول، وهو كثـير في اللغة العربية، كفِراش بمعـنى مفروش، وغِراس بمعنى مغروس، وبِناء بمعنى مبني.

قولـه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: ائتِ بها على وَجهِ الكمالِ؛ لأن إقامَـةَ الشيءِ جعله قَويًا ليس فيه اعْوجاجٌ ولا نَقْصٌ.

والخطاب في قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ للرسولِ ﷺ، ومعلومٌ أنه يُقِيمُ الصلاةَ وأنه أقْوَمُ المصلِّينَ صلاةً، فكيف وجَّه إليه الخطابُ بإقامَةِ الصَّلاةِ؟

الجواب: تَوجِيهُ الخِطابِ لمن يتَّصِفُ به، المرادُ به الاستمرارُ عليه لا تجْدِيدُه لأنه موجـودٌ، مثل قولِـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦]، فالخطابُ ليس عَبَثًا حتى نقولَ: إن هذا أمْرٌ بالإيمان؛ لأن الأمرَ بالإيمانِ

تحصيلُ الحاصِلِ؛ لأنهم مؤمنون، فالخِطابُ المرادُ منه الاستمرارُ على الإيمانِ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تقدَّمَ أن تِلاوةَ القُرآنِ تشْمَلُ الاتِّباعَ والعملَ بأحكامِهِ؛ لأن إقامَةَ الصَّلاةِ من اتِّباعه والعَملِ بأحكامِهِ، إذن عَطَفَهَا على قوله: ﴿ٱتْلُ﴾ من باب عَطْفُ الخاصِ على العام، وعَطفُ الخاص على العام هو إيذانٌ برِفْعةِ شأنِهِ، ولا شكَّ أن الصلاةَ من أفضلِ أعمالِ البدنِ؛ ولهذا خُصَّتْ بالذِّكْرِ.

وهل عطفُ الخاص على العام معناه ذِكْرُه مَرَّتَينِ أو مَعناهُ أنه أُفْرِدَ بالذِّكرِ من بينِ العُمومِ؟ في هذا رأيان لأهل العلم:

فمنهم من قال: إن ذِكْرَ الخاص بعد العام معناه أنه سُلِبَتْ دَلالَةُ العُموم بالنسبة إليه، ثم أُفْرِدَ بالذِّكْرِ.

ومنهم من قال: إنه داخلٌ في العُمومِ الأوَّلِ ثم أُفرِدَ بالذِّكْرِ فيكون ذُكِرَ مرَّتينِ، وكلا القولين يدلُّ على شرفِ هذا المذْكُورِ، لكن أقواهما الأخير، وهو أن يُذْكَرَ مرتين: مرة بذِكْرِ العُموم ومرة بالخُصوصِ، وتظهر الفَائِدةُ فيما لو قلت: أُكْرِمُ الطلبةَ ومحمدًا، فعلى القول بأنه داخلٌ في العمومِ ثم خُصَّ بالذِّكْرِ، نعرفُ أن مُحَمَّدًا من الطلبة، أما إذا قلنا: نُزِعَ من العمومِ ثم خُصَّ بالذِّكْرِ، نبحث عن محمد هل هو طالب أو ليس بطالب، ونحتاج إلى قَرينَةٍ تَدُلُّ على أنه مِنَ الطَّلَبَةِ، والصحيحُ ما تقدَّمَ.

قال عَزَّوَجَلَّ مُعَلِّلًا الأمرَ بإقامَةِ الصَّلاةِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، وهذا التعليلُ هل هو تَعْلِيلٌ بالنسبة للمخاطَبِ أو بالنِّسْبَةِ للمخاطَب بِهِ؟

إذا قلنا: إن التَّعْلِيلَ بالنسبَةِ للمُخاطَبِ وهو الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ صارَ المعنى إن الصلاة تَنْهَاكَ عَنِ الفَحشاءِ والمنْكَرِ، وهذا يقْتَضِي جوازَ وُقوعِ الفَحشاءِ

والمنكرِ مِنَ الرَّسولِ ﷺ.

وإذا قلنا: إن التعليلَ بالنِّسْبَةِ للمُخاطَبِ به وهو الصلاة؛ قلنا: إن الصلاةَ من حيثُ هي صلاةٌ تنْهَى عن الفحشاءِ والمنْكَرِ، ويكونُ هذا وصفًا صادِقًا لغَيرِ الرَّسولِ ﷺ، وهذا هو المتَعَيِّنُ؛ لعِلْمِنَا أن الرسولَ ﷺ معصومٌ من الفَحْشاءِ والمنْكَرِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ المرادُ بالصلاةِ في الموضِعَيْنِ صلاةُ الفَريضةِ والنافِلَةِ.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ أي: تمْنَعُ، لكنَّ التَّعبير بالنَّهْي أبلغُ من التَّعْبِيرِ بالمنْعِ، فإنَّ المانِعَ قد لا يَكون مُحَذِّرًا، لكنْ في النَّهْي تَحْذِيرٌ، وهو أشَدُّ مِنَ المنْعِ لأنه يوجَدُ في القلبِ كراهَةٌ لهذا الشَّيءِ ونُفورٌ منه، ومجرَّدُ المنْعِ لا يقْتَضِي ذلك، فكأنَّ الصلاةَ فيها سِرٌّ يَقْتَضِي أن يبْعُدَ الإنسانُ عن الفَحشاءِ والمنْكَرِ، كأنها تُؤَنِّبُ ضمِيرَهُ: لماذا تَفْعَلُ هذا؟ فالصلاةُ تُوجِبُ المنْعَ مِنَ المعاصِي.

وقوله: ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ الفحشاءُ: كُلُّ ما يُستَفْحَشُ مِنَ المعاصِي كالزِّنَا والسَّرقَةِ وشربِ الخمرِ وقتلِ النفس وما أشبه ذلك، والمنْكَرُ ما دونَ ذلك، وعَطْفُ المنْكَرِ على الفحشاءِ من عَطْفِ العامِ على الخاص؛ لأن كُلَّ فحشاء منْكر، وليس كل مُنْكَرٍ فَحشاء.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ شَرعًا، أي: مِنْ شأنِها ذلِكَ ما دَامَ المرءُ فِيها].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ شَأْنِهَا ذَلِكَ] صحيحٌ، لكن قوله: [مَا دَامَ المرءُ فِيهَا] ليس بصحيحٍ، بل هي تَنْهى عن الفحشاءِ والمنْكَرِ ما دَامَ المرءُ فيها وما لم يدُمْ فيها، يعني

ليس نَفْعِها خاصًّا؛ لأن المصَلِّي حالَ كونِهِ يُصَلِّي لن يفعلَ الفَحشاءُ والمنْكَرُ، لكن الفَائِدةَ العَظيمَةَ أنها تؤَثِّرُ في قلْبِكَ تأثِيرًا يقْتَضِي إبعادُكَ عَنِ الفَحشاءِ والمنكرِ، وهذه هي الثَّمَرةُ والنتيجةُ، فتَقْيِيدُ المُفَسِّر ليسَ بصوابٍ، بل هي مُطْلَقَة تنْهَى عن الفحشاءِ والمنْكرِ داخلَ الصلاةِ وخارَجَها.

ووجه ذلك: أن الإنسانَ يُنَاجِي ربَّه كما وَرَدَ في الحديثِ، فبَيْنَه وبينَ ربِّه صلةٌ، هذه الصلةُ تُكْسِبُ القلبَ إيمانًا ونُورًا؛ ولهذا قال النَّبِيُّ ﷺ: «**الصَّلَاةُ نُورٌ**»[1]، ومعلومٌ أن القَلبَ إذا اكتَسَب نُورًا لا يَمِيلُ إلى الفحشاءِ والمنكرِ؛ لأنه كُلَّمَا هَمَّ أن يفعلَ معصِيَةً تَذَكَّرَ أنه قبلَ ساعات كان واقفًا بين يدَي اللهِ عَزَّوَجَلَّ فيخْجَلُ ويبْتَعِدُ.

وهذا أمرٌ مشَاهَدٌ، فالإنسانُ أحيانًا يَذْكُر وُقوفَهُ في صلاةٍ منذ عِشرين سنة أو أكثر، صلَّى صلاةً في غايَةِ الإحسانِ كما جاء في الحديث: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»[2]، فصلى كأنه يَرَى ربَّهُ، فإنه يَجِدُ طَعْمَ هذه الصلاةِ ولو بعدَ حينٍ طويل فيَذْكُرُها ولا تَغِيبُ عن قَلْبِهِ، هذه الذِّكْرَى لا بد أن تُؤَثِّرَ في نَهي الإنسانِ عنِ الفحشاءِ والمنْكَرِ، وهذا وجه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

لكن مُرادَه بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: الصلاةُ المقَامَةُ، فليس كلُّ صلاةٍ تَنْهَى عنِ الفَحشاءِ والمنْكَرِ، واللهِ لو كانتْ صلاتُنَا تَنْهانا عَنِ الفَحشاءِ والمنكرِ لكُنَّا سالِمِينَ؛ لكن نسألُ الله أن يُعامِلَنَا بعَفْوِهِ، يدخُل الإنسانُ في الصلاةِ بقلبٍ ويخرُجُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان الإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم (٥٠) عن أبي هريرة؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٨) عن ابن عمر.

بنَفْسِ القلْبِ أو أَسْوأ، لكن العبادات إذا لم تُؤَثِّرْ على قلبكَ حُسْنَى فهي ضَرَرٌ، فالذي لا تنْفَعُه الآياتُ تَضَرُّهُ كما قال النبي ﷺ: «القُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»[1]، وكذلك جاءَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا»[2].

وهذه المسألةُ ما أكثرَ مَنْ يُعانِي منها من المسلمين، يقولُ الواحِدُ منهم: أنا لا أَتَأَثَّرُ بالصلاةِ ولا يحْضُر قَلْبِي ولا يخْشَعُ، فما هُو الدَّواءُ؟

ثم إنَّ بعضَ الناس يشُكُّ في خبرِ الله عَزَّوَجَلَّ، فيقول: أنا أُصَلِّي ولا تَنْهَانِي الصلاة عنِ الفحشاء والمنْكرِ، أصلِّي مع الجماعةِ في الصَّفِّ الأوَّلِ خلفَ الإمامِ، ثم أَخْرُجُ إلى مَتْجَرِي وأبيعُ بالرِّبا وأَغُشُّ وأبيعُ بالكَذِبِ، وأجدُ في نَفْسي غلًّا وحِقدًا على المسلمين، وكَراهَةٌ لبَعْضِ شرعِ الله وما أشْبَه ذلك! ويقول: أين الصَّلاةُ التي تنْهَانَا عَنِ الفَحشاءِ والمنْكَرِ؟

نقول: إن على كُلِّ مؤمنٍ أن يَعْلمَ عِلْمَ اليَقِينِ أن الصلاةَ تنْهَى عَنِ الفَحشاءِ والمنْكرِ؛ لأن خَبَرَ الله عَزَّوَجَلَّ صِدْقٌ، والله عَزَّوَجَلَّ عالم بكُلِّ شيءٍ، وهو -سبحانه- قال ذَلِكَ عن علمٍ، إذْنَ فالبَلاءُ في المصَلِّي لا في الصلاةِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أكْبَرُ من غَيرِهِ من الطَّاعاتِ]: (اللام) في قولِهِ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ﴾ لامُ الابتداءِ وقوله: (ذِكْرُ) مصدر مُضَافٌ إلى اسم الله جَلَّوَعَلَا، فهو مُضافٌ إلى مَفعولِهِ، وإعرابُ هذه الجملةِ:

﴿وَلَذِكْرُ﴾: (اللام) لامُ الابتداءِ، و(ذِكر): مبتدأٌ مرفوعٌ وعلامَةُ رَفعِهِ الضَّمَّةُ، وهو مضافٌ، والاسم الكريمُ مضافٌ إِلَيْهِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٥٤) (١١٠٢٥) عن ابن عباس.

﴿أَكْبَرُ﴾: خبرُ المبتدأ.

وقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يَشْمَلُ مَعْنَيين:

الأوَّلُ: ولَذِكْرُكَ ربَّكَ أكْبَرُ.

والثاني: ولَذكرُ الله إياكَ بالصَّلاةِ له أكبرُ من نَهْيِهِ عَنِ الفَحشاءِ والمنْكَرِ، والشأنُ بذِكْرِ اللهِ لكَ لا بِذِكْرِكَ لله، كما أن الشأنَ بمَحَبَّةِ الله لك لا بمحبَّتِكَ لله.

وانظر إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، فالشأنُ أن تُذكَرَ لا أنْ تَذكُرَ، وكما أن هذا بالنِّسْبَةِ للمَخلوقِ مع الخالقِ هو أيضًا بالنِّسْبَةِ للمخلُوقِينَ مع بعضهم، كونَكَ تحِبُّ فُلانًا أو تذكر فُلانًا لا تَسْتَفِيدُ شَيئًا، إذا كان فلان مُعْرِضًا عنك لا تَسْتَفِيدُ إلا العناءَ والبلاءَ، ويشْهَدُ لِذَلكَ قضيةُ بريرةَ مع زَوجِهَا مُغيثٌ، هو يَذْكرها لكن هي لا تَذْكُرُه ولا تُريدُهُ، هو يُحِبُّهَا حبًّا شَدِيدًا وهي لا تحِبُّه[1]، فالشأنُ أن يذْكُرك الله، ولكن ثِقْ بأنك إذا ذَكرتَ الله مِنْ قَلْبِكَ فإن ذكرَ الله لكَ أعظمُ من ذِكركَ له، وفي الحديث القُدْسِيِّ: «إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِه ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي»، ونفْسُ الله أعظمُ من نَفْسِكَ بلا شكٍّ، «وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»[2]، فأنتَ اذكرْ رَبَّك حقيقةً، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يذْكُرُك ذِكْرًا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي ﷺ على زوج بريرة، رقم (٤٩٧٩) ابن عباس بلفظ: أن زوج بريرة عبد أسود يقال له: مغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي ﷺ لعباس: «يَا عَبَّاسُ! أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا». فقال النبي ﷺ: «لَوْ رَاجَعْتِهِ». قالت: يا رسول الله! تأمرني؟ قال: «إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ». قالت: لا حاجة لي فيه.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ﴾، رقم (٦٩٧٠)؛ ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة.

أعظمَ مِنْ ذِكْرك إياه.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ مَنْ غَيرِهِ مِنْ الطَّاعاتِ]: ظاهِرُ كلامِ المُفَسِّر أن المرادَ بالذِّكْرِ الذكرُ المنْفصِلُ عن الصلاةِ لا الذِّكْرَ الذي في الصلاة، يعني: أن الصلاةَ تَنْهَى عنِ الفَحشاءِ والمنْكَرِ، وذكر الله أعظمُ نهيًا عَنْ الفحشاءِ والمنكرِ وأكبر، ويحْتَمُلُ أن يكونَ المرادَ: ولذِكْرِ اللهِ الموجودِ في الصَّلاةِ والموجودِ بها، الموجودُ فيها كالتَّسْبيحِ والتَّكبيرِ والقِراءةِ، وذِكْرُ اللهِ الموجودُ بها يعْني ما يحصلُ من ذِكرِ الله بِسبَبِهَا.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ هذه الجملةُ خَبَرِيَّةٌ، لكن ليس المقْصودُ منها إخبارَنَا أن الله يعْلمُ ما نصْنَعُ، بل لها معنى عظيم وهو: التَّحْذِيرُ من أن نَصْنَعَ ما يخالِفُ شَريعَتَهُ وُقوعًا في النَّهْي أو تَرْكًا للأمْرِ، فالآية للتَّرغيبِ في فِعْلِ الأوامِرِ وللتَّرهيبِ من مخالَفَتِهِ وعِصْيانِهِ فَهي شامِلَةٌ للأمْرَيْنِ، وإن كان الأقربُ أنها للتَّرغِيبِ لأن قَبْلَهَا أمْرٌ، بخِلافِ ما لو كان قبلها نَهْي لكانت للتَّرهيبِ.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (مَا) اسمٌ موصولٌ دالٌّ على العمومِ يشْمَلُ كلَّ ما نصنَعُ من قولٍ أو فعْل، سواء فيما يتعلَّق بحقِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفِيمَا يتعلَّق بحقِّ عبادِهِ.

وقوله: [﴿يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ ليُجَازِيَكُم بِهِ]: هذ النتيجةُ، وهي نتِيجَةٌ واضحةٌ، والمجازَاةُ تكونُ في الدُّنْيا ويومَ القِيامة، والمجازَاةُ على ما نَصْنَعُ قد تكونُ شَرْعِيَّةٌ بفعلِ العبدِ مثلُ الحُدودِ، فإن الحدودَ عقوبةٌ شَرْعِيَّةٌ بِفِعْلِ العبدِ، فالعبدُ هو المأمورُ بِفِعْلِهَا، وقد تكونُ المجازاة كونية قَدَرِيَّةٌ بِفِعْلِ الله، كما لو أصيبَ الإنسانُ بأمراضٍ وتَلَفِ أموالٍ وما أشْبَه ذَلِكَ.

لو قالَ قائلٌ: هل الأمراضُ والمصَائبُ التي تُصِيبُ العبدَ عُقوبة أو ابتلاء؟

فالجواب: قد تكونُ عُقُوبَةً وقد تكون ابتلاءً وامتِحَانًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥]، فيكونُ اخْتِبَارًا، والمصائبُ التي تأْتِي الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من باب الامتحانِ والابتلاءِ حتَّى يَصِلَ الإنسانُ إلى دَرَجَة الكمالِ؛ لأن الصبْرَ منزِلَةٌ عالِيَةٌ عظِيمةٌ في الدِّينِ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]؛ لكنَّ الصَّبْرَ بدونِ مَصبورٍ عليه لا يمكن، فلا بُدَّ من أشياءَ تَرِدُ على الإنسانِ من قضاءِ اللهِ يَصْبِرُ عليها.

والابتلاءُ والفِتْنَةُ قد تكونُ بالخيرِ والشَّرِّ، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، والفتْنَةُ بالنسبة للخيرِ فِتْنَةُ الشُّكْرِ، وبالنِّسَبَةِ للشَّرِّ فِتنَةُ الصَّبْرِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: وجوبُ تِلاوةِ القرآنِ على الوجوهِ الثلاثَةِ المتقَدِّمَةِ، وهي: تلاوةُ اللَّفْظِ، والمعْنَى، والاتباعِ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: إثباتُ أن النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رسولٌ لقَولِهِ: ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾، فإن الوَحْي إليه يَدُلُّ على رِسَالَتِهِ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أهمِّيَّةُ الصلاة والعِنايةُ بها، لقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾، فالصلاةُ داخِلَةٌ في تِلاوةِ ما أُوحِيَ إليه، ثم خَصَّها بالذِّكْرِ للعِنايَةِ بشأنِهَا.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: أن المأمورَ به إقامَةُ الصَّلاةِ وليس فِعْلُ الصَّلاةِ، ولا يخْفَى الفَرْقُ بينَ الإقامَةِ وبينَ مُجَرَّدِ الفِعْلِ.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: الآثارُ الحميدَةُ المتَرتِّبَةُ على إقامَةِ الصَّلاةِ، وهي النَّهي عن

الفَحشاءِ والمنْكَرِ، لقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

الفَائدتَانِ السادِسَةُ والسابعةُ: فضيلَةُ ذِكْرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، هذا إذا كانتِ الإضَافَةُ للمَفعولِ، وفيها أيضًا فَضيلَةُ ذِكرِ اللهِ العَبْدَ وأنه مِنَ المرَاتبِ العاليَةِ لقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، هذا إذا كانت مُضافَةً للفاعِلِ.

الفَائِدةُ الثَّامِنةُ: الأمورُ الإيجابِيَّةُ أكمَلُ من الأمورِ السَّلْبِيَّةِ؛ لأن ذِكرَ اللهِ أمرٌ إيجَابِيٌّ؛ ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، والنَّهْي عنِ الفَحشاءِ والمنْكَرِ أمرٌ سَلْبِيٌّ، ولهذا قال العلماء: إن الصبرَ على طَاعَـةِ اللهِ أكْمَلُ مِنَ الصبرِ على معْصِيَـةِ الله؛ لأنه صَبرَ على فعلٍ مُعانَاةٍ ومَشَقَّةٍ، فالإنسانُ يجاهِدُ نفْسَهُ بالصَّبْرِ على طاعَةِ الله مِنْ وَجْهَيْنِ: من جِهَةِ إلْزَامِهَا بها، ومن جِهَةِ الصبرِ والتَّحَمُّلِ لهذه الأفعالِ والأقْوالِ.

وليس المرادُ بالذِّكْرِ ذِكْرَ الصُّوفِيَّةِ؛ لأنهم في الحقيقةِ لا يَذْكُرونَ الله، فذِكْرُهم بِدْعِيٌّ، والبِدْعَةُ مَرْدُودَةٌ عندَ اللهِ، والذِّكْرُ ليس باللسانِ فقط، بل الذِّكْرُ يكونُ باللسانِ والقلبِ والجَوارحِ، ولا بُدَّ أيضًا أن يكون على مُقْتَضَى الشريعةِ، فكُلُّ ذِكْرٍ على خلافِ مقْتَضَى الشَّريعَةِ فلَيْسَ ذِكْرًا، ولو ادَّعى صاحبُهُ أنه ذِكْرٌ.

الفوائدُ التاسِعَةُ والعَاشِرَةُ والحَادِيَةَ عشْرَةَ: إثباتُ علمِ الله عَزَّوَجَلَّ، لقَولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾، وإثباتُ عُمومِ العِلْمِ لقوله: ﴿مَا تَصْنَعُونَ﴾، وإثباتُ تعلُّقِ علْمِ الله بفِعلِ العِبادَ لقوله: ﴿تَصْنَعُونَ﴾ فيكون فيها رَدٌّ على طائِفةٍ وهمُ القَدَرِيَّةُ -أعني: غلاتَهُمْ- لأنهم كانوا قَدِيمًا يُنْكِرُونَ تعلُّقَ عِلمِ الله بفِعْلِ العَبدِ، ويقولون: إن الأمرَ أُنُفٌ، أي: مسْتَأْنَفٌ، وأن الله لا يعْلَمُ بأفعال العِبادِ إلا إذا عَمِلُوها، ولا شكَّ أن هذا كُفْرٌ، كما قال الشافِعِيُّ وغيره: «جَادِلُوهُمْ بالعِلْمِ فإنْ أَقَرُّوا بِه خُصِمُوا، وإنْ أَنْكَرُوه كَفَرُوا».

الفَائدتَانِ الثانِيةَ عشرةَ والثالثةَ عَشرةَ: إثباتُ الأفعالِ الاخْتِيارِيَّةِ للعَبْدِ ونَسْبتُهَا إليه؛ لقوله: ﴿تَصْنَعُونَ﴾، وفيها أيضًا رَدٌّ على طائفة ضِدِّ القَدَرِيَّةِ وهم الجَبْرِيَّةُ.

الفَائِدةُ الرابِعَةَ عشرةَ: أن من لم تَنْهَهُ صلاتُه عَنِ الفحشاءِ والمنْكَرِ فإنه لم يُقِمْهَا، لقولِهِ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، فجعل هذا أمرًا مُرَتَّبًا على إقامَةِ الصلاةِ، فإذا لم تَنْـهَكَ الصلاةُ عن الفَحشاءِ والمنْكَرِ فإنكَ لم تَقُمْهَا.

وهـذه المسألة كما تقدم يجب أن نُحاسِبَ أَنْفُسنَا عليـها فلا نقولُ: إننا أقمَنْا الصلاةَ حتى نَنْظُر آثارها، فإذا وَجَدْنَا أن القلوبَ لم تَتَغَيَّرْ ولم تَكْرَهِ الفَحشاءَ والمنكرَ بفعْلِ الصلاةِ، عَلِمْنَا أَنَّنا مُقَصِّرون في إقامتها، وإلَّا لَوْ أقمْنَاها لكانتِ النَّتِيجَةُ كَما أَخْبَرَ الله عَزَّوَجَلَّ.

• ● ❁ ● •

الآيـة (٤٦)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾ الخطابُ للأمَّةِ جميعًا، وهو نَهْي، وقوله: ﴿تُجَٰدِلُوٓاْ﴾ المجادَلَةُ: هي مُنَازَعَةُ الخَصمِ لأمرين: للظُّهورِ عليه، وإبطالِ حُجَّتِهِ، مأخوذةٌ من فَتْلِ الرأسِ، وفَتْلِ الحبْلِ، لأن الجدَلَ هو فَتْلُ الحبْلِ، والمقصودُ به إحكَامُهُ وتَقْوِيَتُهُ، كأن المنَازِعَ يريدُ أن يُقَوِّيَ حُجَّتَهُ على خَصْمِهِ، وفي اللغة العامِّيَّةِ نَسَمِّي قرون المرأة (جدايل) لأنها تَفْتِلُها وتُقَوِّيها.

قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني: الذين أُوتُوهُ، وأهلُ الشيءِ هم من أُوتُوا الشيءَ وإن لم يَعْمَلُوا به، ويُرادُ به من أُوتِيَ الشيءَ وعَمِل به، ومحلُّ الثَّناءِ الثاني، فأهلُ القرآنِ حقًّا هم الذين حَفِظُوه تِلاوَةً وعَمِلُوا به، وكذلك الذين حَفِظُوه ولم يَعْمَلُوا به هم أهلُ القرآنِ لكن ليسُوا أهلَه حقًّا، ومَحِلُّ الثناءِ والمدْحِ مَنْ كان مِنْ أهله تِلاوَةً وعَمَلًا.

وقوله: ﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ المرادُ بالكتابِ هُنا للجِنْسِ، وإلا فهما كتابان: التوراةُ لليهودِ والإنْجِيلُ للنَّصارَى.

قوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ هذا الاستثناء مفرغٌ مِنْ عُمومِ الأحوالِ، يعني: في أيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ لا تُجادِلُوهُم إلا بالَّتِي هِي أحْسَنُ.

وعبَّرَ ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ولم يقل: (بالذي) مع أن (التي) للمؤنث؛ لأن المراد هنا: أي بالطَّريقَةِ التي هي أحسنُ، لأن المجادَلَةَ ليست كلمةً تُلْقى، بل هي طُرُقٌ، ولذلك في أَدَبِ المناظَرةِ تُوجدُ طُرُقٌ يتمَكَّن بها الإنسان من الوصولِ إلى إقناعِ الخَصم وإقامَةِ الحُجَّة عليه.

وقوله: ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالطريقَةِ المثْلَى التي يتَوَصَّلُ بها إلى إفْحَامِ الخَصمِ وهِي الأَدَاءُ، وكذلك الطَّريقةُ الأَقْوَى في إقنَاعِهِ وإقامَةِ الحُجَّةِ عليه وهي الصيغةُ، أي: صِفَةُ هذه المجادَلَةِ أو المنَازَعَةِ.

وقوله: ﴿أَحْسَنُ﴾ اسمُ تَفْضِيلٍ مُطْلَقٌ ليعُمَّ الحُسنَ في سيَاقِ الأَدِلَّةِ، ويَعُمَّ الحسنَ في كيفِيَّةِ المجادَلَةِ، فلا بد مِنَ الأمرين، لا بُدَّ من حُسنِ الطَّريق، بمعنى: أن تأتي بأقربَ الطُّرُقِ لإقناعِ الخصْمِ، ولا بد أيضًا من كيْفِيَّةِ عرضِ هذه الطريقة، ونضربُ مثلًا للأمْرَيْنِ:

إنسانٌ عندَهُ قوة في المناظَرَةِ وإيرادِ الحُجَجِ، لكنه إذا جاءَ يجادِلُ أخَذَ في السَّبِّ والشَّتْمِ، يقول: أنت بَليدٌ وأنت كذا وكذا، هذا ليس بحَسَنٍ، وإن كان عَرْضُ الطريقِ وسياقُ الأدلَّة جيِّدًا؛ لكن كيفيةُ المجادَلَةِ ليس داخِلًا في قوله: ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

وإنسانٌ آخَرُ لَيِّنُ الكَلامِ مُهَذَّبٌ لكن لا يُحْسِنُ المناظَرَة؛ هذا أيضًا ليس دَاخِلًا في قولِهِ: ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

انظُر إلى إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لـمَّا حاجَّه الملِكُ في ربِّه: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى

يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ لم يَذْهبْ إبراهيمُ ليُنازِعَهُ ويقول: أنت لا تُحْيِي ولا تُميتُ، أنت أنما تفعَلُ السبب، بل قال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ أتاهُ بدَليلٍ ولازِمٍ لا ينْفَكُّ منه، ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨]، أي: ما استطَاعَ أن يتَخَلَّصَ من هذا الإيرادِ.

وأيضًا من الأحْسَنِ في المناظرةِ إذا رَأيتَ بسُلوكك أحدَ الطُّرقِ أنه قد ينْفتِحُ عليك بابُ المعارضة، فاسلُكِ الطريقَ الآخَرَ، ولا تقل: أنا أحِبُّ أن أُبْقِى على الحُجَّةِ التي أَدْلَيْتُ بها ولا أُورِدُ أُخْرَى لأني أخْشَى أن يكونَ ذلك التزامًا!

نقول: ما دامَ عندَكَ حُجَّةٌ تَعْرفُ أنه لن يستَطِيعَ أن يُنَازَعَ فيها، فاتْرُكِ التي أَدْلَيتَ بها أوَّلًا حتَّى لا ينْفَتِحَ عليكَ أبوابُ النَّقْدِ؛ ولأن هذه الحُجَّةَ تؤَدِّي إلى إفحامِ الخصْمِ، ولئلَّا تكون المنازَعَةُ بالحجَّةِ الأُولَى سَببًا لظُهورِهِ عليك؛ بينما أنت عِندكَ ما هو أقْوى مِنْ حُجَجِه إذا سلَكْتَ الطريقَ الآخَرَ، وإن كان بمَجموعِ الطُّرقِ ينْتَفِي الاعتراضُ؛ فأَوْرِدْ جَميعَها.

فالحاصلُ: أن المجادلَةَ بالتي هي أحسنُ تشْمَلُ الطريقةَ التي تنْدَفِعُ بها حجَّةُ الخَصْمِ وتقومُ عليها الحُجَّةُ، وتَشْمَلُ كيْفِيَّةَ إلقاءِ هذه الحُجَّةِ.

وقوله: ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالبَراهينِ الصَّادِقَةِ والأدِلَّةِ القاطِعةِ، وليست كلُّ حُجَّةٍ مَقْبُولةً إلا حُجَّةً من اللهِ ورسولِهِ.

لو قالَ قائلٌ: ما هي حُجَّةُ مُنْكِري صفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ، وكيف تُدْحَضُ هذه الحُجَجُ؟

الجواب: في الواقع أن مُنكِري الصفاتِ عندَهُمْ شُبَهٌ وليس عندهم حُجَجٌ،

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾ [الشورى:١٦]، فاحتَجَّ من يُنْكِرُونَ صِفاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على اختلافِ مَشارِبِهِمْ؛ سواءٌ من يُنْكِرُ منهم الصفاتِ الخبَرِيَّةَ أو الفعلية أو كلَّ الصفاتِ؛ احتَجُّوا بشبهةٍ وهي: أن إثباتَ هذه الصفاتِ يستلزمُ التَّشبيهَ، قالوا: لأنا لا نعْقِلُ في الخارجِ من يُوصَفُ بهذه الصفة إلا المخلوق، فيَقْتَضِي أن يكونَ الله تعالى مُشَابِهًا للخلْقِ، وعلى هذا فيَجِبُ إنكار الصفات، هذه غالبُ حُجَّةِ أهلِ التَّعْطِيلِ.

وهذه الشُّبْهَةُ سهلٌ إبْطالها، فنقول لهم: أنتم تُشَاهِدُونَ المخلوقاتِ بعضَها تَتَّفِقُ مع بعضٍ في الأسماء، فالجَمَل له يَدٌ ورِجْلٌ، والحِصانُ له يَدٌ ورِجْلٌ، والنَّمْلَةُ لها يدٌ ورِجْلٌ، والإنسانُ له يَدٌ ورِجْلٌ، وهي مختلفة غير متَشَابِهَةٍ؛ فإذا انتَفَى التَّشَابه في المخلوقاتِ مع أنها كُلَّها حادِثَةٌ؛ فانتفاءُ التَّشَابُهِ بين الخالقِ والمخلُوقِ من بابِ أَوْلى وأقْطَعِ وأظهَرِ وأبيْنِ.

وقولهم: (في الخارِجِ) أي: في الواقعِ، احترازًا من الفَرضِ الذِّهْنِيِّ، فقد يَفْرُضُ الذِّهْنُ أشياءَ لا وُجودَ لها، فيُصَوِّر شخْصًا له آذانٌ طويلَةٌ، الأُذُنُ طول المنَارَةِ، والإصْبَعُ عشرةُ مليمترات، لكن هذا الذي صَوَّرَهُ ذِهنكَ غيرُ موجودٍ في الخارج، فيمكن للذِّهْنِ أن يُصَوِّر كلِّيَّةً عامة يدخلُ فيها الإنسانُ والبَعيرُ والحِصانُ لكن لا وجود لها في الواقع.

فالحاصلُ: أنهم نَفَوا الصِّفاتِ عن اللهِ لأنه لا يُوجَدُ شيءٌ متَّصِفًا بهذه الصفاتِ إلا المخْلُوق، فقالوا: يجِبُ أن نَنْفِيَ عنه هذه الصفاتِ، وكذلك غُلاةُ الجَهْمِيَّةِ قالوا: لا نُثْبِتُ الأسماءَ، فلا نُسَمِّيَ اللهَ بالسَّميعِ ولا بالعَليمِ ولا بالغَفورِ ولا بالرَّحيمِ؛ لأن هذه أسماءُ المخلوقِ فلا نُسَمِّي بها الله، وقالوا: لا نُثْبِتُ إلا فاعلًا وقادِرًا،

وأثْبَتُوا هذين الاسمَيْنِ فقط لأنهم جَبْرِيَّةٌ يَرَوْنَ أن الإنسانَ لا يفْعَلُ بنَفسِهِ ولا يَقْدِرُ على الفِعلِ، فلما انتَفَتْ صِفَةُ الفعلِ والقُدْرَةِ في الإنسان أثبَتُوا أن اللهَ فاعِلٌ وقادِرٌ مع أنهم يجِبُ أن يُثْبِتُوا الإرادَةَ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الإنسان ليس له إرَادَةٌ عِنْدَهُمْ.

وقوله: [﴿إِلَّا بِٱلَّتِى﴾ أَيْ: المجَادَلَةُ الَّتِي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ كالدُّعاءِ إلى اللهِ بآياتِهِ والتَّنْبيهِ على حُجَجِهِ]: الدُّعاءُ إلى الله بآياتِهِ الشَّرعِيَّةِ والكوْنِيَّةِ لأن الله يَقُيمُ الحجَّةَ بهما جَميعًا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ أي: بالقُرآنِ ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢]، فالآياتُ الشَّرعِيَّةُ المجادَلَةُ بها حَقٌّ، وكيْفِيَّةُ المجادَلَةِ بها هي أن تُبَيِّنَ ما في شَريعةِ اللهِ من الحِكَمِ والأسْرارِ، فإن هـذه الشريعةَ إذا بانَتْ حِكَمُها وأسرارُها لكُلِّ ذِي عَقْلٍ تَبَيَّنَ أنها هي الحقُّ، وكذلك أيضًا تَبَيَّنَ ما في آياتِ اللهِ الشرعيَّةِ من الالْتِئَامِ والانتظامِ وعَدَمِ الاختلافِ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

وأما المجادَلَةُ بالآياتِ الكونِيَّةِ أن نُرِيَهُم آياتِ اللهِ الكونِيَّةِ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]، وهذه الآية وما بَعْدَهَا من سورةِ الطُّورِ مناظَرَةٌ بالآياتِ الشَّرْعِيَّةِ ومناظَرَةٌ بالآياتِ الكونِيَّةِ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور:٣٦-٣٨]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور:٣٣-٣٤]، فالآيةُ الأَخِيرَةُ مناظَرَةٌ بالآياتِ الشَّرْعِيَّةِ والآيات التي قَبلَهَا مناظَرَةٌ بالآياتِ الكَوْنِيَّةِ.

ومن ذلك مناظَرَةُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في الذي حَاجَّه في رَبِّهِ، ناظَرَه بالآياتِ الكوْنِيَّةِ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [والتَّنْبِيهُ عَلَى حُجَجِهِ]: الحُجَجُ جمع حُجَّة، وهي الدَّلِيلُ المقْنِعُ.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ هذا مستَثْنَى مِنْ قولِهِ: ﴿أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهذا الاستثناءُ يجوزُ فيه النَّصْبُ ويجوز فيه البَدَلِيَّةُ، والأرجحُ البَدَلِيَّةُ؛ لأنه بمعنى النفي لأنه مسبوقٌ بنَهْيٍ، قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

مَا اسْتَثْنَتِ الّا مَعْ تَمَامٍ يَنْتَصِبْ وَبَعْدَ نَفْيٍ أَوْ كَنَفْيٍ انْتُخِبْ

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ بأَنْ حارَبُوا وأَبَوْا أنْ يُقِرُّوا بالجِزْيَةِ فجَادِلُوهُم بالسَّيْفِ حتى يُسْلِمُوا أو يُعْطُوا الجِزيَةَ]: هؤلاء هُمُ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ولعَلَّ الآية أعَمُّ مما قال المُفَسِّر، ويكونُ المرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: كابَرُوا وعانَدُوا ولم يَرْضَخُوا للحَقِّ الذي تبَيَّنَ، فهؤلاء لا يجادَلُون بالتي هي أحسَنُ؛ لأنه تَبَيَّنَ عنادُهم.

وهل الآيةُ تَدُلُّ على أنهم يُتْركون، أم أن الآية تَدُلُّ على أنهم يجَادَلُونَ بالَّتِي هي أسْوأُ؟

اختلف كلامُ المفَسِّرينَ في هذه المسألة: فمنهم من قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ فاتْرُكوهُم ولا تُجادِلُوهم؛ لأنه لا فائِدَةَ من جِدَالِهِم ما دامَ قد ظَهَرَ عِنَادُهُم وظُلْمُهُمْ. ومنهم من قال كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ يعني: فجَالِدُوهم ولا تُجادِلُوهُم أي: فجالِدُوهم بالسَّيْفِ حتى يُسْلموا أو يَعْطُوا الجزية.

وعِنْدي أن الآية تحتَمِلُ المعْنَيينِ جَميعًا، وأنه ينْبَغِي أن تنْزِلَ على الحالَينِ وتستعمل كلَّ حالٍ بما يَليقُ ويُناسِبُ، فإذا كان المقامُ يقْتَضِي أن نجَالِدَهُم بالسيفِ،

(١) البيت رقم (٣١٦) من ألفيته.

وذلك بأن يكونَ لَدَينا مِنَ القُوَّةِ والقُدرَةِ ما نتمكن به مِنْ ذلِكَ، وإذا لم يكن لنا قُدْرةٌ وكانت المصْلَحَةُ تقْتَضِي تَركْهم فإنَّنَا نترُكهم، وهذا -واللهُ أعلم- هو السير في أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يَذْكُر حُكم هذا المستثنى صَريحًا، فلم يَقُلْ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ فجادِلُوهم بالتي هي أسْوأ، ولم يقل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ فلا تجادِلُوهم. بل جعله صالحًا للأمرين!

لو قال قائلٌ: تَفْسِيرُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآية بقوله: [فجَادِلُوهُم بالسَّيفِ حتَّى يُسْلِموا أو يُعْطُوا الجِزيةَ]، كيف يَسْتَقِمُ هذا التَّفْسِيرُ مع أن الآية مكِّيَّةٌ؟

الجواب: يَستَقِيمُ هذا التَّفْسِيرُ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذَكَرَ حالَ أهلِ الكِتابِ في مَكَّةَ ليَسْتَعِدَّ الناسُ لها.

قوله: [﴿وَقُولُوٓاْ﴾ لَمَنْ قَبِل الإقْرارَ بالجِزْيَةِ إذَا أَخْبَروكُم بشَيْءٍ مما فِي كُتُبِهِمْ]: أي: فقولـوا: عنْدَ المنَازَعَة والمحَاجَّة؛ لأن بعضَ الناسِ إذا نازَعَ أو خاصَمَ صار يَسُبُّ مَحِلَّ الحجَّةِ من خَصْمِهِ، فإذا قال له المنازِعُ: إن هذا القول قاله فلانٌ في مؤلَّف له، صارَ يَصُبُّ جامَّ السَّبِّ والغَضب على هذا الكتاب، ويقول هذا خَطأ، ولا ينبغي هذا العمل لأن هَذه قَضِيَّةٌ عاجِزٍ.

فهنا نقول لهؤلاء المجادِلِين مِنْ أهلِ الكتاب: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ وهو القرآن ﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ وهو التَّورَاةُ إذا كانُوا مِنَ اليهودِ، والإنْجِيلِ إذا كانوا مِنَ النَّصارى، فنحن لا نُنْكِرُ ما أُنزل إليكم، بل نقول: إنه حقٌّ، لكن نؤمن بما أُنْزِلَ إلينا ونقول: إنه حق، وإذا آمَنَّا بهذا فبأَيِّهِمَا يكونُ الحُكمُ؟

الجواب: بما نَزَل أَخِيرًا وهو القُرآنُ، لأنه ناسِخٌ، وحينئذٍ يكون في قولنا هَذَا:

أولًا: تَهْدِئَةً لنُفُوسِهم.

ثانيًا: إلزَامًا لهم بالإيمانِ بما أُنزلَ إلينا؛ لأن الإنسانَ بُشِّرَ فإذا قيل له: أنا آمنت بما أُنزِلَ إليك فآمِنْ بما أُنزل إليَّ، سيأخُذُه الخَجَلُ والفَضْلُ وربما يوافِقُ، لأنه سيقول في نفسه: كيف يُؤمِنُ هذا الرجل بما أُنزِل إليَّ وما أُنْزِل إليه وأنا أُكَذِّبُ ما أُنْزِلَ إليه، وهذا في الحقيقةِ مِنَ المجادلَةِ بالتي هي أحْسَنُ.

وقوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾، كلما جاءَ الأمرُ بالقولِ فالمرادُ به القولُ باللِّسانِ بعد الإقرارِ بالجنانِ؛ لأن مجرَّدَ القولِ باللِّسانِ لا يكون إيمانًا كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة:٨]، فالإيمانُ الذي لا يتطَابَقُ فيه القلبُ واللِّسانُ، هذا ليس بإيمان، بل هو نِفاقٌ والعياذ بالله.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ هذا من بلاغَةِ القُرآنِ، لم يقُلْ: وما قُلتم أو ما جِئتم به، بل قال: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾؛ لأن لدَيْهم من التَّحريفِ والتَّبدِيلِ ما لا يمكن معه أن نَقْبَلَ كلَّ ما جاءوا به، لكن نؤمِنُ بالمنَزَّلِ إليهم، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**لَا تُصَدِّقُوهُمْ ولَا تُكَذِّبُوهُمْ وقُولُوا**: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾»[1]، فنحن مؤمِنُون بالمنَزَّلِ لا المبَدَّلِ، وصِفةُ الإيمان بما أُنزل إلينا ليس كصِفَةِ الإيمانِ بما أُنزِلَ إليهم، لأن إيمانَنَا بما أُنزل إلينا مَلْزِمٌ بالاتِّباعِ وإيمانُنا بما أُنزل إليهم ليس مُلْزمًا، فإذا وُجِدَ في شَرْعِنَا ما يخالِفُ شَرعَهم فالمتَّبِعُ شَرعْنَا،

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف بهذا اللفظ عن عطاء بن يسار (٦/ ١١١) (١٠١٦١)، وأصله عند: أبي داود: كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، رقم (٣٦٤٤)؛ وأحمد (٤/ ١٣٦) (١٧٢٦٤) عن أبي نملة الأنصاري.

لكننا نؤمن بأن ما نُزِّلَ إليهم من عندَ الله وأنه حَقٌّ، وأنه يجِبُ عليهم اتِّباعُه في حالِ قيامِهِ وعدمِ نَسْخِهِ.

وقوله: بما ﴿أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن جميعَ الكُتبِ المنزَّلةِ على الأنبياء من الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ﴾، أي: معبودُنَا؛ لأن (إله) بمَعنى مأْلُوهٍ، وصيغة فِعَالٍ بمعنى مَفعُولٍ كثيرة في اللغة العربية، فالمأْلُوه بمعنى المعبُودُ، والإله يُطْلَقُ على المعبودِ بحَقٍّ وعلى المعبودِ بغيرِ حَقٍّ؛ لكَن اللهَ وحْدَهُ هو المعبودُ بحَقٍّ، وما عَدَاه فمعبودٌ بالباطِلِ، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، فهذه الأصنَامُ تُسَمَّى آلهةً لكن أُلُوهِيَّتَها باطلةٌ شَرْعًا، ولهذا صحَّ النَّفْي في قولـه: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، فهذا النَّفْي لا يعْـني أنه لا يوجَدُ آلهة في الكونِ إلا اللهُ، بل يوجَدُ آلهة لكن ألوهِيَّتَها باطلةٌ، فما عدا الله عَزَّوَجَلَّ فألوهيَّـتُهُ باطِلَةٌ، ولذا فهي لا تُسَمَّى آلهة حقًّا، بل آلهة باطلة، وقد سمَّاها الله عَزَّوَجَلَّ آلهة وسمَّاها الرسلُ كذلك؛ لكنها آلهة باطلة.

لو قال قائل: قولنا: (لَا إِلَهَ إِلَّا الله)، لماذا لا نَقُدِّر الخبر بـ(موجود) ونجعل تلكَ الآلهة مجرَّد أسماء؟

الجواب: لا يصِحُّ هذا التقدير، وقد قـدَّرَهُ بعْضُهم فقال: إن التقديرَ: لا إله مَوجُودٌ، لكن لو قَدَّرْنَا هذا التقديرَ لاحتَجَّ المشركونَ علينا، وقالوا: إِذَا كُنْتُم تقولون: هذه ليست آلهة فلَسْنَا بمُشْرِكينَ؛ لأننا ما عَبَدْنَا إلهًا.

فالصواب: أن نقَدِّرَ: لا إله حق إلا الله، وهذا صَريحُ القُرآنِ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سمَّاها آلهة فقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص:٨٨]، سمَّاها إلهًا،

وهذا ليس فيه مُحَاجَّة للمشركينَ حتى نقول: إنه من باب التَّنَزُّلِ مع الخَصْمِ.

وقال إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومِهِ: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات:٨٦]، وقال الرجلُ الصالِحُ النَّاصحُ لقومِهِ: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس:٢٣]، فاتَّفَقَ على ذلك الوَحْيُ المُنَزَّل وكلامُ الرُّسُلِ وكلامُ الصَّالحينَ.

وقوله: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ هذا في مخاطبَةِ اليهودِ ظَاهِرٌ وبيِّن، لكن في مخاطَبَةِ النَّصَارَى كيف يَصِحُّ أن نقول: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ وهم يَعبدُونَ المسيحَ ويَرَوْنَهُ إلهًا، ويقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]، والإله عندهُم مكوَّنٌ من أقانيمَ ثلاثة هي: الأبُ، والابنُ، والرُّوح القدس.

وهذا لا شكَّ أنه مكابَرَةٌ؛ كيف يكون الإلهُ في ثلاثةٍ، وكلُّ واحدٍ قائم بنَفْسِه منْفردٌ عن الآخَرِ، والذي جاء به الإنجيلُ والتوراةُ أن الإله واحدٌ.

إذن: فالرَدُّ على زَعمَهِمْ أن نقول: إننا نُنْكِرُ أن يكون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَتَعَدِّدًا، ونُلْزِمُهم بذلك؛ لأن النَّصارَى يقولُون: الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن زَعْمَهِمْ الباطلِ بسؤالِهِ لعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يوم القيامة: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، والله يعلم أنه لم يَقُلْ شيئًا، لكن من أجلِ إبطالِ دَعْوى قومِه وإلْزَامِهِمْ بالحُجَّة ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٦-١١٧].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾، هذا فيه أيضًا إلزامٌ لهم بالقَبُولِ؛

لأنه إذا كانَ الإلِهُ واحِدًا ونزَّلَ الكتابَ السابق، ثم نَزَّلَ الكتابَ المهَيْمِنَ اللاحقَ، فالواجبُ علينا وعليكم اتِّباعُ هذا الذي نَزَل من عند الله المتَّفَقِ عليه بَيْنَنَا وبينكم.

ونضْرِبُ لذلك مثلًا على سبيلِ التَّقْدِيرِ ولله المثل الأعلى: مَلِكٌ له رَعِيَّةٌ، فأمر جماعةً بأمرٍ وأمرَ آخرين بأمرٍ آخر، فالواجب علينا جميعًا الطاعةُ ما دُمْنا نعترفُ بأنه هو الملِكُ، كلٌّ يُطِيعُه بما أمَرَ به؛ فأنتُمْ أُمِرْتُمْ بشيءٍ ثم نُسِخَ هذا الأمر إلى أمر ثانٍ من إلهٍ واحد، فالواجبُ عَلينا جميعًا أن نَنْصاعَ تحت أمرِ هذا الإله الواحدِ.

قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: نحن وأنتم لا نَحْنُ وَحْدنا، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ أي: لهذا الإله الواحدِ مسلمون، وتَقْدِيمُ المعْمُول يُفيدُ الحَصْرَ، يعني: له لَا لغَيْرِهِ.

ومعناه أيضًا: أنكم لم تُسْلِمُوا لله بل أسْلَمْتُمْ لأهوائِكُمْ.

والمرادُ بالإسلامِ هنا الاستسلامُ ظاهِرًا وباطِنًا، ولهذا فسَّرَهُ العلماءُ بأنه الاستِسْلامُ لله ظاهرًا وباطنًا، الاستسلامُ ظاهرًا: أن يقومَ الإنسانُ بالأعمال الظاهرةِ كالصَّلاةِ والزَّكاةِ والصِّيامِ والحجِّ، والاستسلامُ باطنًا هو: إخلاصُ النِّيَّةِ لله عَزَّوَجَلَّ، قال الله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة:١١٢]، إسلامُ الوجْهِ لله أي: إسلامُ القَصْدِ، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ بالعَملِ الصَّالِحِ، أي: عَملِ الجوارحِ.

والإسلامُ عندَ ذِكْرِه وَحْدَهُ يشْمَلُ الإيمانَ، والإيمانُ إذا ذُكِرَ وَحْدَهُ يَشْمَلُ الإسلامَ وإذا اجتَمَعا صارَ الإيمانُ للباطِنِ والإسلامُ للظاهِرِ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ مُطِيعُون]: فَفسَّر الإسلامَ بالطاعَةِ، والطاعَةُ هي موافَقَةُ الآمِرِ أو النَّاهِي، يعني أنها فِعْلُ المأمورِ وتركُ المحظُورِ على الوجهِ

الذي قُصِدَ من الآمِرِ أو النَّاهِي.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: وجوبُ اتِّباعِ الأحسنِ في المجادَلَةِ، نأخُذُه من الحصْر في قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، والنَّهْي يقْتضي التحريمَ، فإذا حُرِّمت المجادلَةُ إلا بالتي هي أحْسَنُ وجبَتِ المجادَلَةُ بالتي هي أحسنُ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أنه يجِبُ على المرءِ أن يعرفَ ما عند خَصْمِه ليجادِلَهُ به، يعني لو أن رجلًا أراد أن يجادِلَ اليهودَ فقال: سأقرأُ التَّوراةَ وما في كُتُبِهِمْ حتى أستَطِيعَ أن أَرُدَّ عليهم فلا بأس، لكننا قلنا سابقًا: إن فِي القرآنِ والسُّنَّةِ من ذلك ما يَكْفِي ويشْفِي، فإن ما فيهما حقٌّ وما في التوراةِ قد يكونُ محرَّفًا.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أنه يجِبُ ألا نجادِلَ غيرَ أهلِ الكتابِ إلا بالتي هي أحسنُ، كما لو جادَلْنا الفلاسفةَ وغيرَهم.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: يجبُ في المجادلةِ اتِّباعُ ما يكون أشَدَّ إقْناعًا وإبْطالًا لحُجَّةِ الخصْم، لقوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ لأن (أَحْسَنُ) اسم تفضيل، وتقدم أن المجادَلة إذا كانت تفْتَحُ بابَ المنازَعَة فإنه يُترك هذا البابِ إلى بابٍ آخرٍ، وذَكَرْنا مناظرةَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الذي حآجَّه في رَبِّه.

واعْلَمْ أن المقصودَ من المجادَلَةِ الوصولُ إلى الحقِّ لا مجرَّدَ الغلَبةِ، فالذي يَقْصِدُ بمجادَلتِهِ مجرَّدَ الغلبة لا لله ولكن لنَفْسِهِ؛ هذا في الحقيقةِ خاسِرٌ وإن ظَهَرَ وغَلَب، هذه هي المرتبةُ الأُولى.

والمرتبة الثانيةُ: منْ قَصَد الظهورُ والغَلَبة على خَصْمِه لأنه يعتَقِدُ أن الحقَّ معه،

فيريدُ أن يَعْلُو هذا الحقُّ، فهذا لا شك أنه حَسَنٌ ولا يُلامُ عليه المرءُ، لكن أعلى منه مَنْ قَصَدَ إظهارَ الحقِّ بقَطْعِ النَّظرِ عن كونِ ذلك انتصارًا لنفسه أوْ لا، وهذه هي المرتَبَةُ الثالثة.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: أن الظالم في المحاجَّة لا يجادِلُ بالتي هي أحسنُ، لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾، ولكن هل يُتْركُ أو يستَعْمَلُ معه الشِّدَّةُ؟

ذكرنا فيما سبق أنه على حسبِ الحالِ: فإن كانتِ المصْلَحَةُ تقْتَضي تَرْكَهُ تُرِك، وإلا فلنَتَّبِعِ الشِّدَّةَ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: أن من أهلِ الكتابِ من هو معانِدٌ ظالمٌ، ومنهم من قد يكونُ خَفِي عليه الحقُّ فبالمجادلة يتبَيَّن له، لقولِهِ: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾.

فقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ يدُلُّ على أنهم منْقَسِمُونَ إلى ظالم معانِدٍ مكابِرٍ، وآخر مسترْشِدٌ قد يخْفَى عليه الحقُّ بما لُبِّسَ عليه من علمائِهِمْ، فإذا تَبَيَّنَ له الحقُّ رجعَ وأخَذَ بِهِ.

الفَائِدةُ السَّابِعة: سلُوكُ ما يقْتَضِي اطمئنانُ الخَصْمِ في المناظرةِ وسُلوكِ ما يقْتَضِي إلزَامَهُ، لقوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: إثباتُ أن التوراةَ نزلَتْ مِنْ عندِ الله، لقوله: ﴿وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾.

الفَائِدةُ التَّاسِعة: إثباتُ أن التوراةَ والإنْجِيلَ والقُرآنَ كلامُ الله، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾.

لو قالَ قائلٌ: هل القرآنُ عَيْنٌ قائمَةٌ بنفسه أم أنه صِفَةٌ، وما شُبهةُ الجهْمِيَّةِ

في كونِ القرآنَ مُنَزَّلًا كما في قوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾؟

الجواب: الواجبُ أن يُقالَ: إنَّ القرآنَ صِفَةٌ من صِفاتِ الله؛ لأن كلامَ الله صِفَةٌ وليس عَيْنًا قائمًا بنفسه، ولا بُدَّ لكُلِّ صِفةٍ مِنْ مَوصوفٍ، وبهذا نعرف أن القرآنَ كلامُ اللهِ.

أما مسألةُ الإنزالِ فَهِي شُبْهَةٌ وليستْ حُجَّةً، وهي أن يحتَجَّ عليك الجهْمِيُّ بقول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦]، ومعلومٌ أن الأزواج الثمانية مخلوقةٌ، وسمَّاه اللهُ إنزالًا، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد:٢٥]، والحديدُ لا شكَّ أنه مخْلُوقٌ!

لكن هذا الإيرادُ نَنْفَكُّ منه بأن هذه أعيانٌ قائمةٌ بنَفْسِها، والأعيان القائمةُ بنفسها مخلُوقة بكلِّ حالٍ، فكلُّ ما سِوى اللهِ فإنه مخْلُوقٌ، ونُبْطِلُ الحجَّةَ بهذا.

الفَائِدةُ الْعاشِرَة: إثباتُ العُلُوِّ لله عَزَّوَجَلَّ لقوله: ﴿أُنزِلَ﴾، والنزولُ لا يكونُ إلا مِنْ أعْلَى.

الفَائِدةُ الحَادِيةَ عشْرَةَ: أن أهلَ الكتابِ يُقِرُّونَ بألوهِيَّةِ اللهِ لقولِه: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾.

الفَائِدة الثانيةَ عشرةَ: أن الإسلامَ إنما يكونُ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَجْهُ ذلك: تقديمُ المعمولِ في قولِهِ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، وتَقديمُ ما حقُّه التَّأخيرُ يفيدُ الحصرِ، قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [البقرة:١١٢].

الآيــة (٤٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت:٤٧].

إعرابُ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الكاف: اسمٌ بمَعْنى (مثل) محلُّه مِنَ الإعرابِ النَّصبَ على المفعولِيَّةِ المطلَقةِ، التقدير: ومثل ذلك الإنزالِ: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وقد يكونُ مفعولًا به مُقَدَّمًا، ومثلُ هذا كثيرٌ في القرآنِ كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٧٤]، أي: مثل ذلكَ الفِعْلِ يَفْعَلُونَ.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الخطابُ في قَولِهِ: ﴿إِلَيْكَ﴾ للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقوله: ﴿أَنزَلْنَآ﴾ أضافه الله إليه لأنه كَلامُه لَفْظًا ومَعْنًى، وهذا الذي عليه أهلُ السنَّة والجَماعة، وهو الذي دلَّ عليه القرآنُ والسنَّة وإجماعُ الأئمةِ.

وهو مخالـفٌ لقولِ الأشاعِرَةِ: إن القرآنَ كلامُ الله معنى لا لَفْظًا، وإن هذه الحروفَ مخلوقة خَلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لتكونَ عِبارَةً عن كلامِ الله وليست هي كلامُهُ.

والكُلَّابِيَّةُ أتباعُ سعيدِ بن كُلَّابٍ يقولون: حكاية عَنْ كلامِ الله وليس عبارةً.

وأهل السُّنَّـةِ يقولون: إنه كلامُ الله حقيقةً لا حكايَـةً ولا عبارةً، وكل مـن الأشَاعِرَةِ والكُلَّابِيَّةِ جعل الكلام هو المعنى القائمُ بنَفسه.

والغَريبُ أنهم يقولون أيضًا: إنه قَدِيمٌ، يعْنِي: لا يتَجَدَّدُ وأنه بمعنى واحدٍ وأنَّ (قُلْ) مثل (لَ)، وأن الخبرَ مثلُ الأمرِ، وأن التوراةَ والإنجيلَ والقرآنَ وسائرُ ما يتكَلَّمُ الله به شيءٌ واحِدٌ.

وكل هذا تَصَوُّرُه كافٍ في رَدِّهِ، وهو في الحقيقةِ إنكارٌ لكَلامِ اللهِ، ولهذا قال بعضُ المحقِّقِينَ منهم: في الحقيقةِ أنه لا فرق بيننَا وبين المعْتَزِلة والجهْمِيَّةَ، فإننا جميعًا متفقون على أن في دَفَّتَيِ المصحْفِ مخلوقٌ لكن هم أكثرُ شجاعَة مِنَّا.

المعتزلة أكثر شجَاعَةً من الأشْعَرِيَّةِ، لأنهم يقولون: القرآنُ مخلوقٌ لفْظًا ومعنى، والأشعرية يقولونَ: مَخْلوقًا لفْظًا لا معنى.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (ال) في قولِهِ: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للعَهْدِ الذِّهْنِيِّ، والكتاب المراد به القرآنُ.

قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ (الفاء) هنا للتَّفْرِيعِ، أي: تَفَرَّع عن إنزالِ الكتابِ على الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن انْقَسَم الناسُ فيه إلى قِسْمَيْنِ: قِسمٌ آتاهُمُ الكتابُ فآمَنُوا به، وقِسْمٌ آخرُ لم يُؤْمِنُوا به.

وقولُه: [﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التَّوَرَاةُ كعَبْدِ اللهِ بنِ سَلام وغَيْرِهِ]: لكن هذا التفسيرُ فيه شيءٌ من الإشكالِ، لأن قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يَدُلُّ على أن جميعَ الذين أُوتُـوا الكتابَ يؤمنون به مع أن أكْثَرهُم في عهـدِ الرَّسولِ ﷺ ما آمَنَ به، فالمرادُ إذن بقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: إيتاءً كَوْنِيًّا وشَرْعِيًّا، بمعنى:

أن الله آتاهُمُ الكتابَ وعَمِلُوا به، فهؤلاءِ هُمُ الَّذين أُوتُوا الكتابَ على وَجْهِ الكَمالِ والإطلاقِ فآمَنُوا بالقُرآنِ، مثلُ عبدِ الله بن سَلام من اليهودِ، والنَّجاشِي مِنَ النصارى، وسلمانُ الفَارِسِيُّ لم يؤتَ الكتابَ لكنَّه آمن بالقرآنِ؛ لأنه تلَّقى العِلمَ عن أهلِ الكِتابِ.

فهؤلاء ثلاثةُ أصنافٍ: اليهودُ، والنصارَى، ومن تَلَقَّى العِلمَ عنهم؛ كلهم فتَحَ الله عليهم، فآمنوا بهذا القُرآنِ.

ولا يقالُ: إن قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ عامٌّ؛ لأن الإيمانَ عند الإطلاقِ يشْمَلُ الإيمانَ الحَقِيقِيَّ وليس مجرد التَّصْدِيق، وهم أيضًا لم يُصَدِّقُوا، بل غالِبُهم أنكرَ وكذَّب، ولهذا مَثَّل المُفَسِّر بالذين أسْلَمُوا كعبدِ اللهِ بن سَلامٍ.

وقوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ بمعنى أعْطيناهُم، وقد تأتي بمعنى جِئناهُم، والفَرْقُ بينهما أن ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ مِنَ الرُّباعِي بمعنى أعْطَيناهم، ومن الثُّلاثِي بمعنى جِئنَاهم.

وقوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ الجملة خبرٌ لمبتدأ، والمبتدأُ قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ﴾.

وقوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآنِ فيُصَدِّقُونه، فأهلُ العِلْمِ منهم الراسخونَ فيه الذين يُرِيدُون الحقَّ، آمنوا بالقرآنِ واتَّبَعُوه ورَأَوْا أنه حَقٌّ.

لو قالَ قائلٌ: إن المعْنَى ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: يَعْرِفُونَ أنه حقٌّ ولكن لا يؤمنون به فهل هذا المعنى صحيح؟

الجواب: هذا خلافُ ظاهرُ الآيـة، وإن كان المعنى من حيـثُ هو يُحْتَمَلُ، والإيمان عندَ الإطلاقِ المرادُ به التَّصديقُ المستَلْزِمُ للقَبولِ والإذعانِ، ولهذا قال في آية أُخْرَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾، هذا يَشْمَلُ الجميعَ،

ثم قال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أَيْ: أَهْلِ مَكَّة]: و(مِنْ) للتَّبْعيض، وعلامة (مِنْ) التَّبْعِيضِيَّةِ أن يَحِلَّ محلَّهَا (بعض)، يعني: وبعض هؤلاء يؤمنون بِهِ، والمشَارُ إليه في قولِهِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أهلُ مَكَّةَ؛ لأن هذه السورةَ مَكِّيَّةٌ، فالمشار إليهم قَريبون إذ إنها نَزلتْ قبلَ الهِجرة.

وانظرِ الفرقَ بينَ التَّعْبيرينِ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، وقوله: ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾، كأن المؤمنين بذلك من قُريشٍ قِلَّةٌ، بَعضُهم يُؤْمِنُ به والأكثرُ لا يؤمِنُ به، والمرادُ مَنْ يؤمن به الآن في الحاضر لا المستقبل.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ تقدَّمَ أن الإيمانَ عندَ الإطلاق يرادُ به التَّصدِيقُ المستَلْزِمُ لقبولِ ما جاءِ به الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والإذعانُ: وهو الانقيادُ وليسَ مجَرَّدَ التَّصديقِ، ولو كان الإيمانُ مجرَّدُ التَّصْديقِ لكان أبو طالب مُؤمنًا.

قوله: [﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بَعْدَ ظُهورِهَا ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أَيْ: اليهُودُ، وظَهَرَ لهم أن القُرآنَ حَقٌّ، والجَائي به مُحِقٌّ وجَحَدوا ذَلِكَ]: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هذا استثناءٌ مُفَرَّغٌ، أي أن العَامِلَ قبلَ الاستثناءِ مَفَرَّغٌ لما بعده، وعلى هذا فنُعْرِبُ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فاعلٌ لـ﴿يَجْحَدُ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ المعروفُ أن الجُحودَ يتعَدَّى بنَفْسِهِ فيقال: جَحَدَ الشيءَ لكِنَّهُ هنا مضَمَّنٌ معنى الكُفر أي: وما يَكْفُر بها جحودًا إلا الكافرون.

فإذا قال قائل: إذا قُلتم: وما يَكْفُر بها إلا الكافرون كأنه تَحْصِيلُ الحاصلِ؟

فالجواب: لا، لأننا نقول: وما يكْفُرُ بها جُحُودًا؛ لأن الكُفْرَ قد يكونُ استِكْبارًا،

وقد يكونُ جُحودًا كهذه الآيَةِ.

وقوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي: الشَّرْعِيَّةِ والكونية، فإن مِنَ النَّاسِ مَنْ جحدَ الآياتِ الكونِيَّةِ، جَحَدَ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحْيي الموتَى، بل مِنَ الناس من جَحَدَ أن تكونَ هذه الخَلِيقَةُ بخالِقٍ، وأما جَحْدُ الآياتِ الشَّرعيةِ فكَثيرٌ.

قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ مفهومها أن غيرَ الكافرين يُقِرُّونَ بها، وعلى هذا فكُلُّ من جَحَدَ شيئًا من آياتِ الله فإنه يَسْتَحِقُّ من الكُفْرِ بقَدْرِ ما جَحَدَ، إن كان كفرًا مُطْلَقًا أو أقلَّ.

وقَال المُفَسِّر: [أي: اليَهُود]: هذا قُصُورٌ في التَّفْسِيرِ؛ لأن قوله: ﴿ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ أعَمُّ من اليهودِ؛ لأن (ال) اسمٌ مُوصولٌ، قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَصِـفَةٌ صَرِيحَـةٌ صِـلَةُ (ال) وَكَوْنُهَـا بِمُعْـرَبِ الأفْعَـالِ قَـلّ

فـ(ال) تُفيدُ العُمومَ، يعني: ما يَجْحَدُ إلا الكافِرُ، وعليه فقوله: ﴿ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ يشمَلُ اليهودَ وغيرَ اليهودِ، أليس الله تعالى قال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤]، وفرعونُ ليس مِنَ اليهودِ، فرعون من الأقباطِ، وذلك قبلَ أن يكونَ بَنُو إسرائيل يهودًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن القرآنَ مُنَزَّلٌ من عِندِ اللهِ، لقولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ﴾، وأنه كَلامُهُ حُروفُه ومعانِيهِ، لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ والذي يُكْتَبُ هو الحُروف، وعلى هذا فيكونُ كلامَ الله حروفَه ومعانِيهِ.

---

(١) البيت رقم (٩٨) من ألفيته.

الفَائِدة الثَّانِية: الإشارةُ إلى أن القرآنَ الكريمَ مكتوبٌ، لقوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وقد ذكرَ الله عَزَّوَجَلَّ أن القرآنَ مكتوبٌ في ثلاثَةِ مواضِعَ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن من أهلِ الكِتابِ مَنْ آمَنَ به فِعْلًا، لقولِهِ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، والمراد البعضُ مِثْلُ عبدِ اللهِ بن سلامٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الفَائِدة الرَّابِعة: الاستِشْهادُ بالغيرِ على صحَّةِ المدَّعَى به، يعني أن الإنسانَ يستَشْهِدُ بغيرِهِ من خُصومِهِ كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٤٣]، وهذه الآية أيضًا ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، فيقالُ: ممن أُوتِيَ الكتابَ منكُم أيها اليهودُ أو النصارى من آمَنَ بهذا القرآن، وهذه الحُجَّةُ مُفِيدَةٌ جدًّا عند المناظَرةِ؛ أن تحتَجَّ على الطائفة بقولِ بعضِ عُلمائها، ولهذا كان شيخُ الإسلامِ ابن تيمية يحتَجُّ على الفلاسفة وغيرهم بقولِ بعْض نُظَّارِهِمْ، واحتج على بطلانِ قولِ المتكلِّمِينَ بقولِ الرَّازِي وهو مِنْ أكابِرِهِم[1]:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ ... وَأَكْثَرُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ

وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

ولا شك أن (قِيلَ وَقَالُوا) ليست بفائدة.

والشاهدُ من مثل هذا: أن الرَّازِيَّ نَفْسُه هو الذي يتكَلَّمُ بهذه الأبيات إما مُنْشِدًا أو مُنْشِئًا، وقبلَ هذه الأبيات يقول: «لقد تأَمَّلْت الطرقَ الكلامِيَّةَ والمناهِجَ الفلسفية، فلم أَرَها تَرْوِي غَلِيلًا ولا تَشْفِي عَلِيلًا، ووجدتُ أقربَ الطرقِ في ذلك

(١) انظر الفتوى الحموية (ص:١٩٢).

طريقَةُ القرآن، اقرأ في الإثباتِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، واقرأ في النَّفْي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٠]، ومن جرَّبَ مِثْلَ تجرِبَتِي عَرَف مثلَ مَعْرِفَتِي](١)، فأقر الرجل على نفسه بأن المذاهبَ الفلسفية كلها لا خيرَ فيها؛ لا تَشْفِي العَلِيل ولا تَرْوي الغليل.

الفَائِدة الخامِسة: أن من مُشْرِكِي قريشٍ من آمَنَ بالقرآنِ لقوله: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾، فقد آمن مِنْ قُريش من أشْرافِهِمْ ووُجهائِهِم ممن سَبَقوا إلى الإسلام مثلِ أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مِنْ أشْرَافِهِمْ، وكانوا يرْجِعُونَ إليه في النَّسبِ، ومعروفٌ بالكَرَمِ، ويُعِينُ على نَوائبِ الحق، فأوصافُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كأوصافِ النبي ﷺ، ومع ذلك كان أسبقَ الناسِ إلى الإيمانِ بالرسولِ ﷺ، فلماذا تُنْكِرُونَ وفيكم مَنْ آمن به؟

الفَائِدة السَّادسَة: أن كُلَّ من جَحدَ بآياتِ اللهِ فهو كافِرٌ، لقولِهِ: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، وهذا يشمل جَحْدَ الآياتِ عُمومًا وجَحْدَ أفرادِهَا، فمَنْ جَحَدَ بعضَ القرآنِ وأقَرَّ ببعضِهِ حُكِم بكفره، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٥٠]، فمن آمن ببعضٍ وكَفَرَ ببعضٍ عَلِمْنَا يَقِينًا أن إيمانَهُ ليس بحَقٍّ، لو كان إيمانُهُ حَقًّا لم يكن هناك فرقٌ بين ما آمَنَ به وكَفَرَ به، وإنما كَفَرَ بِبَعْضِهِ لمجَرَّدِ هَواهُ.

فمن جَحَدَ شيئًا مِنَ الشَّريعَةِ الإسلاميةِ فإنَّهُ كافِرٌ ولو آمَنَ بالبَاقِي، لكن لِيُنْتَبَهَ إلى أن هذا مشروطٌ بالعِلْمِ، فإذا انْتَفَى العِلْمُ وجَحَدَهُ لعدمِ عِلْمِه لم يَكْفُر حتى يَتَبَيَّنَ له الحقُّ؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٥٠٠)؛ ومجموع الفتاوى (٤/ ٧٢-٧٣)؛ والبداية والنهاية (١٣/ ٦١-٦٢).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥]، فإذا بُيِّن لهم ما يتَّقُون ولم يتَّقوا؛ حينئذٍ يحكمُ بضَلالِهِمْ.

أما أن يُضِلَّهُمُ الله جَلَّوَعَلَا قبل أن يُبَيِّنَ لهم ما يتَّقُونَ، هذا لا يُمْكِنُ حُدوثُهُ؛ لأنه ليس مما تَقْتَضِيهِ حكمَةُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وعَدْلُه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص:٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

وأخذَ أهلُ العلمِ من ذلك أن من نَشَأ بالبَادِيَةِ أو بِدَارِ كُفْرٍ وجَحَدَ ما هو معلومٌ عندَ المسْلِمينَ بالضَّرورَةِ فإنه لا يكْفُرُ حتى يُعرَّف به، فإذا عُرِّفَ به وتَبَيَّنَ أنه أنْكَرَ؛ حينئذٍ يَكْفُرُ، وهذه مسألة يجِبُ علينا أن نتأَمَّلَها؛ لأن بعض الإخوةِ الغَيورِينَ على دِينهم يحكُمُون بالتَّكْفِيرِ على سَبيلِ الإطلاقِ، وهذا خطأٌ؛ فإنه ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ مَنْ دَعَا رَجُلًا بالكُفْرِ أَوْ قَالَ: عَدُوُّ اللهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ»(١).

وأيضًا: الحكمُ بالتَّكفيرِ حُكمٌ من أحكامِ الله؛ لأن قولَكَ عن هذا الرجل: إنه كافِرٌ، كقولك عن هذا الطعام: إنه حرامٌ أو إنه حَلالٌ، فالحكمُ بالكُفر والإيمان لله جَلَّوَعَلَا، فلا يجوزُ أن تُكَفِّر إلا مَنْ كَفَّره الله ورسولُهُ، بل ولا أن تُفَسِّق إلا مَنْ فَسَّقَه الله ورسولُه، فالأمرُ ليس إليك، الحكمُ على العبادِ بيدِ خالِقِهِم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إن حَكَمَ عليهم بالكُفر فاحكمْ به وإلا فَلا.

كذلك أيضًا من شروطِ التَّكْفِيرِ: ألا يوجَدَ مانِعٌ، فإن وُجِد مانِعٌ من التَّكفيرِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم، رقم (٦١) عن أبي ذر.

لم يَكْفُرْ؛ لأن العلمَ بما يُوجِبُ الكُفْرَ شرطٌ، كذلك انتفاءُ المانع شَرْطٌ، فإن وجد مانِعٌ يَمْنَعُ من التَّكفيرِ لم يَكْفُرْ.

والموانع كثيرة، منها الإكراهُ، لو أُكْرِهَ رجل على الكُفر وقَلْبه مطمَئِنٌّ بالإيمان لم يَكْفُر بنَصِّ القرآن وإجماعِ المسلمينَ.

ومن الموانع ألا يحولَ بين إرَادَتِهِ حائلٌ، بمعنى ألا يكون هناك حائلٌ يمْنَعُهُ من الإرادةِ والقَصْدِ، فيكون خرجَ منه الكُفْرُ بغيرِ قَصْدٍ، فإذا خرج منه الكفرُ بغير قَصْدٍ لم يكْفُر ولو كانَ كُفرًا صريحًا كالشَّمْسِ، مثل أن يكون غاضبًا غَضَبًا شَدِيدًا، أو فَـرِحًا فَرَحًا شديدًا، أو خائفًا خَوْفًا شَدِيـدًا، فيُطْلَقُ الكُفْـر من غيرِ إرادَةٍ؛ فهذا لا شكَّ أنه لا يَكْفُرُ.

وقد قالَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في فَرَحِ الله بتوبَةِ عبدِهِ المؤمن أنه: كرجلٍ أضلَّ بَعِيرُه وعليـه طعَامُه وشرَابُه فلم يَجِدْهُ، فنامَ تحتَ شَجَرةٍ ينْتَـظِرُ الموتَ، ثم استيقظَ وإذا بخِطَام ناقَتِه متعَلِّقٌ بالشَّجرةِ، فأخَـذَ الخِطَامَ وقال من شِدَّةِ الفرح: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ [1]، ولا شكَّ أن هذه الكلمةَ كُفْرٌ، بل لو قال: أنت عَبْدِي فقط، وقد قال: (أنتَ عَبدي وأنَا ربُّكَ) فادَّعَى لنفسه الربوبيةَ ولرَبِّهِ العُبودية، لكن قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَخْطَأَ مِنْ شَدَّةِ الْفَرَحِ».

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، رقم (٢٧٤٧) عن أنس بلفظ: «لله أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاَةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَما هُوَ كَذلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»، وأصله عند البخاري: كتاب الدعوات، باب التوبة، رقم (٥٩٤٩) عن ابن مسعود.

وهذا الأمرُ -وهو: اعتبارُ وجودِ الشُّروطِ وانتِفَاءِ الموانِعِ- ليس خاصًّا بمسألةِ التَّكْفِيرِ بل هو عامٌّ، فكلُّ الأشياء لا تَتِمُّ إلا بوجود شُروطِهَا وانتفاءِ موانِعِهَا.

لكن إذا ادَّعَى أحدُ الجهال ومثلُه لا يَجْهَلُه هل يُقْبَلُ لو قال: أنا لا أعلَمُ أن هذا واجبٌ، لو علمتُ أنه واجبٌ ما جَحَدْتُهُ؟ نقول: الحمدُ لله، إذا قلت هذا فأنت الآن تائبٌ وقد أَقْرَرْتَ بِهِ.

لكن لو جحَدَهُ رَأْسًا قبلَ أن نُطَالِبَهُ فإذا كان مثْلُهُ لا يجْهَلُه فهو كافِرٌ، كما لو جَحَدَ تحريمَ الزِّنَا وهو ناشِئٌ في بلادٍ إسلامِيَّةٍ محافظة تُحَرِّمُ الزِّنَا، وقال إن الزنا حلالٌ؛ هذا لا يُعْذَرُ، لكن لو نشأ في بلادٍ إسلامية متهَتِّكَةٍ فيها أسواقُ الزِّنا مفتوحة وجحَدَ تحريمَ الزِّنَا وهو لا يَدْرِي، نقول: ما دام أن هناك شبهة فإن الحدودَ تُدْرَأُ بالشُّبهاتِ، والإنسان المسلمُ هو مسْلِم ولا يمكن أن نُخْرِجَهُ من الإسلام إلا بيَقِينٍ.

وكذلك لو نشَأ إنسانٌ في بلادٍ كُلِّها رِبوَيِّةٍ تعمل البنوكُ فيها بالرِّبَا، وقال: أنا لا أدري أن الربا حرام، هذا كذلك لا نُخْرِجُه مِنَ الإسلام لأنه جاهل، وأيضًا الذين نَشَؤوا في بلاد ينْتَحِلُ عُلماؤُهَا مَذْهَبُ الأشاعِرَةِ، فهؤلاء لا يَدْرُون عن مذهب أهلِ السُّنَّةِ شيئًا يحسبون أن هذا هو الحق، حتى أن منهم من يؤلف ويقول: «إن مذهَبَ أهل السُّنْةِ والجماعَةِ ينْحصرُ في مذهبِ الأشاعِرَةِ والماتُرِيدِيَّةِ»، لأنه جاهل، وهذه بَلِيَّةٌ عظيمة، وهذا سبب عُذْرِهِ مع أنه طالب علم أنه قد لا يكون هناك كُتُبٌ من كُتبِ أهلِ السُّنَّةِ قرأها، وهذا من جنس الذي عاش في بلاد كُفْرٍ وليس عندَهُ كُتُب من كُتبِ الإسلام، فالجهلُ واحِدٌ، لأنه قد لا يَطْرَأُ على بالهم إطلاقًا أن هناك مذهبًا ثالثًا غير هَذين المذهبين، ويَظُنُّ بعضُ العامة عندنا أنه لا يوجَدُ مَذْهَبٌ إلا مذهب الحنابلة.

والمهم: أن مسائِلَ الجَهْلِ هذه ليس لها حَدٌّ، والحمدُ لله أن الإنسان ما دامَ يجِدُ مَخْرجًا مِنْ تكفيرِ المسلِمِ فلْيَسْلُكُه، لكن إذا عادَ وأصرَّ وعانَدَ فهذا شيءٌ آخَرُ.

ولو ادَّعَى رَجُلٌ الجهلَ في صَرْفِ شيء مما يختَصُّ بالله مِنَ العبادات إلى غيرِ الله فإننا نَنْظُرُ: إذا كان مِثْلُهُ يَجْهَلُهُ نقول: عَلِمتَ فأَقِرَّ، أما إذا كان مثلُهُ لا يجهله نقول: كَذَبْتَ في دَعواك الجَهل؛ لكن أقِرَّ بما يَقْتَضِيهِ العِلْمُ.

لو قال قائل: قريةٌ كامِلَةٌ يَدْعُو أصحابها القبورَ هل نَحكمُ بكُفرهِمْ؟

الجواب: لا نَحْكُمُ بكفرهِمْ في ظاهرِ الحال إذا كان مِثْلُهم يجْهَلُونَ، لكننا نَدْعُوهُم إلى الحَقِّ، فإذا أصَرُّوا وقالوا: لا نَقْبَلُ منكم هذا، وهذا دِينٌ جديدٌ، نَحْنُ على ما كان عليه آباؤنَا؛ حينئذٍ نُكَفِّرُهُمْ.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨].

قَال المُفَسِّر: [﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: القُرآنُ]: وهذا لا يَسْتَقِيمُ، لأنه ليس بواضحٍ ولا يتَنَاسَبُ مع السياقِ؛ لأن لفْظَةَ (كِتَابٍ) منونة، وفي نَسْخَةٍ أخرى: [﴿مِن كِتَٰبٍ﴾ لله]؛ فعَلى هذه النسخة يكون المعنى: ما قرأتُ كُتُبًا نازِلَةً من قَبْلُ حتى تُتَهَّمَ، وأما إذا حَذَفْنا لفظة (لله) كما في بعض النُّسَخِ فيكون المرادُ بالكتابِ هنا المكتوبُ، يعني: ما كنت تَتْلُو مَكْتُوبًا سواء هو نازِلٌ من عندِ اللهِ أم مِنْ عندَ غَيْرِ اللهِ، والأخيرُ أعَمُّ، وعلى هذا فالذي يظْهَرُ -والله تعالى أعلم- زيادة اسم (الله) في كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله: ﴿تَتْلُواْ﴾ يَعْنِي: تَقْرَأُ.

وقوله: ﴿مِن كِتَٰبٍ﴾ (من) زائِدَةٌ لَفْظًا ومَعْنًى، فزَائِدَةٌ لَفْظًا بمعنى أنها لو حُذِفَتْ لاستقامَ الكلامُ، وزائِدةٌ معنى، أي: فيها زِيادَةُ مَعْنى وهو التوكيدُ، والتعبير المعروفُ يقولون: [زَائِدَة لفْظًا لا مَعْنى]، وزيادَتُها لتأْكِيدِ النَّفْي غَالِبًا، قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وزيـدَ فِي نَفْـي وشِـبْهِهِ فَجَـرُّ ... نَكِـرةً كَـمَا لِبَـاغٍ مِـنْ مَفَـرْ

(١) البيت رقم (٣٧٠) من ألفيته.

وزيادَتُها في الإثباتِ مختَلَفٌ فيها، فبعضُ النَّحْوِيِّينَ يُجيزُهَا كالمبَرِّدِ.

وأما التعبيرُ بلفظِ (زائد) على شيء مِنْ ألفاظِ القرآن فيَرَى بعضُ أهل العِلْمِ من المعْرِبينَ أنه لا ينْبَغي، لما يوهِمُه من الحَشْوِ في القُرآنِ، والقرآن ليس فيه حَشْوٌ، لكن هذا الوَهْمُ يَزُولُ إذا قلنا: زائدٌ لفْظًا ومَعْنًى.

وقوله: ﴿مِن كِتَٰبٍ﴾ مَحِلُّهُ مِنَ الإعرابِ مفعولٌ بِهِ، وقال بعضهم: إنها تَوكِيدٌ لـ﴿تَتْلُواْ﴾ لأنه لا يُتْلَى إلا المكْتُوبُ، فعندما أقول: قرَأتُ، تَفْهَمُ أني قرأتُ شيئًا مَكْتُوبًا، فلِذَا قالوا: إنها توكيد، لكن هذا فيه نظر؛ لأن الذي يُتْلى قد يكونُ مَكْتُوبًا وقد يكونُ مَسْمُوعًا، فعندما أسمعُ منكَ كَلامًا وأُتَابِعُكَ فيه أكون قد تَلَوْتُهُ، وفي ظني أنها ليست من باب التوكيدِ لـ﴿تَتْلُواْ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ هذا من باب التوكيدِ وليس من بابِ التَّقْيِيدِ؛ لأننا لو قلنا: إنه من بابِ التَّقْييدِ لكان مفهومها (وتَخُطُّهُ بيَسارِكَ)، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام:٣٨]، فإن الطيرَ معروفٌ أنه بالجَنَاحِ، ولهذا لو انكسرَ جناحُ الطائرِ لا يَطِيرُ، وإن كان بعضُ المتأخرين يقول إن قولـه: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ احترازٌ مِنَ الطائرات؛ لأن الله يعلمُ أنه سيكونُ طائرٌ بدون جناحٍ، وهذا لا يَسْتَقِيمُ، وذلك لأنه قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، والطائراتُ لا تُحْشَرُ يوم القيامة، فعَلَى هذا يكونُ من بابِ التوكيدِ لا من باب التَّقْيِيدِ.

لو قال قائل: هل نأخُذُ من هذه الآية أن الذي يَكْتُبُ باليَمِينِ أفضلُ ممن يكْتُبُ باليسارِ؟

الجواب: الظَّاهِرَ أن التَّقْييدَ باليمِينِ لكونِ الأخذِ والإعطاءِ والكِتابَةِ والضربِ غالِبًا باليَمِينِ، ونادِرٌ أن يُوجَدَ أحدٌ يكتُب ويَعْمَلُ باليسارِ، وأنْدَرُ منها من يعْمَلُ بهما

جميعًا، وإن كان بعضُ الناسِ يُعْطِيهِ الله القوةَّ فيعَمْلُ بهما سواء.

قوله: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (إذًا) هذه منوَّنَةٌ، ويُسَمِّي علماءُ النحو هذا التنوين -كما تقدم- تَنْوينَ العِوَضِ، وهو عِوَضٌ عن جملَةٍ، والتقدير: إذ لو كُنتَ تَتْلُو من قبلِهِ من كتابٍ أو تَخَطُّه بيَمِينِكَ لارتابَ المبطلونَ، وعلى هذا فـ(اللام) في قولِه: ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ واقعة في جوابِ (لو) المحْذُوفَةِ في الجملَةِ المعَوَّضِ عنْها بالتَّنْوينِ.

وقوله: ﴿لَّٱرْتَابَ﴾ أي: شَكَّ، إلا أنَّ أهلَ العِلمِ يقولون: إن الرَّيبَ والشَكَّ بينهما فرْقٌ، فالرَّيْبُ شكٌّ بقَلَقٍ، ولا شَكَّ تَرَدُّدٌ بدونِ قَلَقٍ، يعني: لو كنت على هذه الحال لارتابَ المبْطِلُونَ.

وقوله: ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ لم يقل: لارتابَ الناس؛ لأنه لو فُرِضَ أن النبيَّ ﷺ يتلو كتابَ الله من قَبْلِ ذلكَ ويخُطُّه بيَمِينِهِ، وأتى بهذا القرآن مع وجودِ الآياتِ الدَّالَّةِ على صِدْقِهِ لا يحصُل ارْتيابٌ، لكن المبْطِلَ قد يحتَجُّ بالشبْهَة ويَراها بَيِّنَةً.

وقوله: ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (ال) في قولِهِ: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ اسم موصول صلتُهُ (مبطلون)، قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَصِفَةٌ صَرِيحَةٌ صِلَةُ (ال) وَكَوْنُهَا بِمُعْرَبِ الأَفْعَالِ قَلْ

وقوله: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: المائِلونَ إلى الباطِلِ أو الدَّاخِلُونَ فيه؛ لأن زيادَةَ الهَمْزَةِ قد تُفيدُ الدُّخولَ في الشيءِ، يقالُ: أحْصَدَ الزرعُ، أي: دَخَلَ وقتُ الحصادِ، ويُقالُ: أنْجَدَ الرَّجلُ أي: دخل في نَجْدٍ، وأبْطَلَ أي: دخل في الباطِلِ وأخَذَ به،

(١) البيت رقم (٩٨) من ألفيته.

فالمبْطِلُونَ أي: المبْتَغُونَ للباطِلِ الدَّاخِلُونَ فيه.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: إثباتُ أن رَسولَ الله ﷺ لا يَقْرَأُ ولا يكْتب قبل أن يَنْزِلَ عليه القرآنُ، لقولِهِ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾.

واختلَفَ العُلماءُ هل صارَ النَّبيُّ ﷺ يُحْسِنُ الكِتابَةَ والقِراءةَ بعدَ نُزولِ القُرآنِ أو لَا؟

جمهورُ الأمَّةِ على أنه لا يُحْسِنُهَا، وأنه ﷺ ماتَ وهو لا يَقْرَأُ ولا يَكْتُب، واستَدَلُّوا لذلك بأن النَّبيَّ ﷺ كان أُمِّيًا وصفَه الله عَزَّوَجَلَّ بأنه النَّبيُّ الأُمِّيُّ، والأمِّيُّ هو الذي لا يَقْرأُ ولا يَكْتُب، وهذا الوصفُ الأصْلُ بقَاؤُه حتى يَتبَيَّنَ زَواله.

واستدلُّوا بأن الرسولَ ﷺ كان لَدَيْهِ كُتَّابٌ يَكْتُبونَ الوحْي والرسائلَ للملوكِ يدْعوهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولو كان يكْتُبُ بيدِهِ لكانت كِتَابَتُه بيدِهِ أوثَقُ وأقْوَى اطمِئْنَانًا في المكْتوبِ، والرسولُ ﷺ لم يكُنْ ليَدعَ ما هو أوْثَقُ وأقوى اطْمئنَانًا لأمرٍ دونَهُ إلا عند العَجزِ عنه.

وقال بعضُ أهلِ العِلْمِ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ صارَ يُحْسِنُ الكِتابَةَ والقِراءةَ بعدَ نُزولِ الوَحْي عليه، واستَدَلُّوا بأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ فمفهوم ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ يقْتَضِي أنه بعد ذلك لا يمْتَنِعُ عليه أن يَقْرأَ أو أن يَكْتُبَ.

واستدَلُّوا أيضًا بأن النَّبيَّ ﷺ في غزوةِ الحُديبيَةِ لما أمرَ عليَّ بنِ أبي طَالِبٍ أن يكْتُبَ: «هَذَا، مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»، فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو: لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ، وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله،

فَأَمَرَ عَلِيًّا أن يَمْحُوَهَا، فَأَبَى عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ فَمَحَاهَا وكَتَبَ: مُحَمَّدُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ[1]. هذا لفظُ البُخَارِيِّ، قالوا: فكلمة (كَتَب) تدل على أنه بَاشَرَ الكِتَابَة.

القولُ الثالِثُ: أن النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قرأَ وكَتَبَ بعد أن نَزَلَ عليه القُرآنُ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعْطَاهُ عَقْلًا وأعْطَاهُ عِلْمًا، والعاقِلُ العالِمُ لا يَشُقُّ عليه أن يَقْرأَ ويَكْتُبَ بعد أن ينْزِلَ عليه القرآنُ؛ لأن التعلمَ يكون مِنَ الصِّبيانِ الصِّغارِ فكيف بمثل حالِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلا يَمْتَنِعُ عليهِ ذَلكَ.

وأجابوا عن احتِجَاجِ أولئكَ بقولِهِمْ: إن وَصْفَه بالأُمِّي لا ينَافِي أن يكون تَعَلَّمَ الكتابَة بعد ذلك من وجهين:

الوجهُ الأَوَّلُ: أن وصْفَهُ بكونِهِ أُمِّيًّا لا يَعْنِي الوَصْفَ الشَّخْصِيَّ، إذ قد يراد به أنه مِنَ الأُمِّيينَ، فيكونُ الأُمِّيُّ مثلَ القُرَشِيِّ، يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢].

أو يقالُ: إنه كان أُمِّيًّا حين نُزولِ القرآنِ عليه.

والجوابُ عن كونِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ له كُتَّابٌ، هو: أن الكبيرَ والرئيسَ جرتِ العادَةُ أن يكون له كُتَّاب يكْتُبون له ما يُريدُ، كما هو مشهور، فهذا شأنُ النَّبِيِّ ﷺ مع كُتَّابِ الوَحْيِ وكُتَّابِ الرسائل إلى الملوكِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان وفلان بن فلان...، رقم (٢٥٥٢) عن البراء بلفظ: فلما كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقالوا: لا نقر بها، فلو نعلم أنك رسول الله ما منعناك، لكن أنت محمد بن عبد الله، قال: «أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله». ثم قال لعلي: «امح رسول الله». قال: لا والله، لا أمحوك أبدًا. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله...؛ ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، رقم (١٧٨٣) عن البراء.

وقالوا: إن المحْذُورَ الذي يُخْشَى مِنْهُ وهو كونُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقْرَأُ أو يَكْتُبُ قد زَالَ بعد أن نَزَلَ عليه الوَحْي وهو لا يَقْرَأُ ولا يكْتُبُ، وثَبَتَتِ الرِّسَالَةُ وإن كان يُمْكِنُ أن يُقالَ: إنه قَرَأَ أو كتَبَ ما يَنْزِلُ عليه من الوَحْي شيئًا فشيئًا، لكِنَّ الأَصْلَ أنه بعدَ ثُبوتِ نُبُوَّته لأَوَّلِ مرَّةٍ زال هذا المحذورُ.

وتوَسَّطَ بعضُ أهلِ العِلْم فقال: إنَّ الرسولَ ﷺ لا يَقْرَأُ ولا يَكْتُبُ صناعةً، أي: من حيثُ الصِّناعَةِ لا يقْرَأُ ولا يكْتُبُ؛ لأن الأصلَ بقاءُ ما كان على ما كان، وأما ما وَقَعَ في الحُدَيْبِيَةِ فهو إما أنه مِنْ آياتِ الله، يعني أنه معجزةٌ ويكونُ النَّبِيُّ ﷺ لا يقْرأ لا يكْتب، ثم في تلك اللحظةِ الحَرِجَةِ صارَ يقرأُ ويَكْتُبُ وكتب اسمه، وقَرأَ؛ لأن من كَتَبَ قرأَ، أو يقال: إن قوله: [فكَتَبَ] أي أَمَرَ من يَكْتُبُ، فإن الأفعالَ تُسْنَدُ إلى من يَأْمُرُ بها، وهذا كثيرٌ، والله عَزَّوَجَلَّ دائمًا يُسْنِدُ أفعالَ الخلْق إلى نفْسِهِ لأنه مُدَبِّرٌ لها، ويُقالُ: بنى عَمْرُو بنُ العاصِ مدينة الفُسطاطِ، والعمَّالُ هم الذين بَنَوْهَا بأمْرِهِ.

وقال بعضهم: إن الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يكْتُبُ اسمَهُ فقط، لا أنها آية في تلكَ اللَّحْظَةِ، ومن كان يكتبُ حَرْفًا دونَ حرفٍ وأكثرُ الكلمات لا يَكْتُبها لا يخرُجُ عنْ وصْفِه بكونِه أُمِّيًّا، ولهذا نَجِدُ الآن كثيرًا من الناسِ يستَطِيعُ أن يكتُبَ اسمه لكنه لا يكْتُب غيرَهُ، ومع ذلك لا نقول: هذا الرجلُ كاتِبٌ.

والخلاصَةُ: أن المسألةَ ما زالَتْ مَحَلَّ إشكالٍ، والأَدِلَّةُ فيها متَقابِلَةٌ، وإذا كانت الأدِلَّةُ متقابلةً فإننا نرْجِعُ إلى القاعِـدَةِ العَامَّةِ وهي: أن الأصلَ بقـاءُ ما كان على ما كان، فنقول: إن الأصلَ أنَّ الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يكْتُبُ ولا يقرأُ، فهذا الذي نَبْقَى عليه حتى يتبَيَّنَ لنا بيانًا ظاهِرًا بأنه ﷺ تَعَلَّمَ الكِتابَةَ والقِراءَةَ.

لو قال قائل: هل يترتَّبُ على الخلافِ في كونِ النَّبيِّ ﷺ كاتِبًا أو غَيْرَ كاتبٍ أثر؟

الجواب: لا يَتَرَتَّبُ عليه أثَرٌ بالِغٌ؛ لأنه بعدَ ثبوتِ نُبوَّتِهِ لا يَضُرُّهُ أن يكون قد قَرَأَ وكتبَ، لكنَّ المحْذُورَ الشَّدِيدَ الذي يتَرَتَّبُ على هذا أنه لو ثبتَ أنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان قَارِئًا أو كاتبًا قبلَ النُّبُوَّةِ، لكان حجَّةً للمُبْطِلِينَ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾؛ لكن ما دام ثبتَ أنه كانَ قبلَ النُّبُوَّة لا يقرأُ ولا يكتب فإنه بمجرَّدِ الوَحْي صارَ نَبِيًّا فيزولُ المحْذُورُ، واحتِجَاجُهُمُ الثاني يزولُ حتى لو تعَلَّم الكتابة، لكن الكلامَ على أن هذا ثَبَتَ أوْ لَا.

لو قالَ قائلٌ: هل نأْخُذُ مما سَبقَ استِحْبابُ عدمِ تعَلُّمِ القِراءةِ والكِتابَةِ، كما أخذ هذا بعضُهم من هذه الآية؟!

الجواب: هذا جَهْلٌ إلا إن كان القائل بهذا يريدُ أن يكونَ نَبِيًّا، نقول: لا تقرأ ولا تَكْتُبْ، فالقائلُ بهذا جاهلٌ جهلًا مُرَكَّبًا، بل إنه أجْهلُ من الحمارِ إن كان يركبُ الحَمِيرَ، وإلا فكيف يُحْفَظُ الدِّينُ، فلو عاد الدِّينُ إلى صُدُورِنَا لذَهَبَ وما بَقِي، والله تعالى يقول: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة:١٢٩]، ويقول: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٤-٥]، والآية في مقامِ الامْتِنَانِ، والرَّسولُ ﷺ أَمَرَ زَيْدَ بن ثابتٍ بتَعَلُّمِ لُغَةِ اليهودِ، بل حينما هاجَرَ إلى المدينة أمَرَ بتَعَلُّمِ الكتابَةِ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن كلَّ مُبطِلٍ فإن الله تعالى أبْطَلَ شُبْهَتَهُ -ولا نقول: حُجَّتَهُ-، فالإسلامُ مبْطِلٌ لجميعِ شُبَهِ المبْطِلِينَ، لقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: ينبَغِي في المناظَرَةِ التَّنَزُّلُ مع الخَصْمِ وإبطالُ ما يحتَجُّ به، وليس بلازمٍ أن نقول: إنَّكُمْ كاذِبُونَ في إبطالِكُمْ لنُبُوَّةِ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولكن مع ذلك بيَّنَ اللهُ هذه الآية الواضِحَةَ المحْسُوسَةَ أنه لو كان يَقْرَأُ ويكْتُبُ لكان في ذلك

ارْتِيابٌ للمُبْطِلِ، بمعنى: شُبْهَةٍ يحتَجُّ بها، وهذا كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾، أبطلَ اللهُ هَذِهِ الحُجَّةَ بمثلِ ما أَبْطَلَ حُجَّتَهم السابِقَةِ فقال: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣]، كيف يكون هذا؟ !

الفَائِدةُ الرَّابِعة: أن المبْطِلَ يتعَلَّقُ بكل شُبْهَةٍ؛ لأن كونَ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقْرَأُ أو يَكتب، ثم يقول: إنه أُوْحِي إليه ويُؤَيِّدُ ذلك بالآيات، هل تكونُ كِتَابَتُهُ وقراءته مانِعًا من قبولِ حُجَّتِهِ؟

الجواب: لا، لكِنَّ المبْطِلَ يتعَلَّقُ بكل شبهة، ومع ذلك تَنَزَّلْنَا مَعَهُ وقُلْنَا له: أنتَ لو زَعَمْتَ أنَّ الرَّسولَ ﷺ تَعَلَّمَهُ من غيرِهِ ثم كتَبَهُ وجاء يقول: أُوحِيَ إليَّ هذا القرآنُ، فإننا نقولُ لك: إن الرسولَ ﷺ لم يَقْرَأ ولم يَكْتُب.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: أن المبطلَ شَكُّه مقترِنٌ بالقَلقِ؛ لأنه ليس شَكًّا مَبنِيًّا على أصل، فهو قَلِقٌ منه: هل يكونُ ذلك الشَّكُّ حقِيقَة أو مجرَّدَ شُبْهَة واشتباه؟ بخلافِ الشَّكِّ الذي له أصْلٌ حَقِيقِيٌّ فنَجِدُ صاحبه ليس بقَلِقٍ منه، كما لو شكَّ في عَدَدِ ركعاتِ الصلاة.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٤٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ (بَلْ) هنا للإضرابِ، والإضْرابُ نَوعان: انتِقَالي وإبْطَالي، وهنا يحتَمِلُ أن الإضْرَابَ للإبطال؛ لأنه لما قالَ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، قال: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾، ووجه كونِ الإضْرابِ للإبطالِ؛ لأنه أبْطَلَ قولهم: إنه جاء به من عنده.

ويُحْتَمَلُ أن يكونَ الإضرابُ انتِقَالِيًا؛ لأنه لما نفى ما يكون به مُتَقَوِّلًا على الله أثْبَتَ أنه آياتٌ من الله، فيكون انتقالًا من النَّفْي إلى الإيجابِ.

وقوله: ﴿ءَايَٰتٌۢ﴾ جمعها لأن كُلَّ آيةٍ مِنَ القُرآنِ فهي آيَةٌ على صِدْقِ الرسولِ ﷺ؛ لأن كلَّ آيَةٍ منه مُعْجِزَةٌ، وإعجازُهُ في لفْظِهِ ومعناه، تَحَدَّى الله الناسَ والعَرَبَ كُلَّهُم أن يَأْتُوا بمثل هذا القُرآنِ أو بعَشْرِ سُورٍ مِنْ مِثْلِهِ أو بسورةٍ أو بَحَدِيثٍ، ولو آيَةٍ، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٨]، هذا عمومُ القُرْآنِ، تَحَدَّاهُمْ الله جَلَّوَعَلَا أن يَأْتُوا بمِثْلِهِ، وتحدَّاهم أن يَأْتُوا بعشْرِ سُورٍ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود:١٣]، وتحدَّاهم أن يأْتُوا بسُورَةٍ واحدةٍ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس:٣٨]، وتحدَّاهُم أن يأتُوا بآية واحدة قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور:٣٤].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ﴾ الآياتُ: العلامَاتُ، وآياتُ الله تنْقَسِمُ إلى كَوْنِيَّةٍ وشَرْعِيَّةٍ.

وقوله: ﴿بَيِّنَٰتٌ﴾ أي: ظَاهِرَاتٌ.

قوله: ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ (فِي) للظرفية، حَمَلَهَا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكثيرٌ مِنَ المفَسِّرِينَ على أن المرادَ حِفْظُهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، وأن هذا القرآنَ محفوظٌ في الصُّدُورِ، ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: المُؤمِنُونَ يَحْفَظُونَهُ]، فيكون المعنى أن هذا القرآنَ محفوظٌ في الصُّدورِ، ويحتمل أن المعْنَى ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: في قُلوبِهِمْ، أي: أنهم يعلَمُونَ أنه حَقٌّ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

وقد يُقالُ: إن المراد كلا المَعْنَيَيْنِ، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: المؤْمِنُونَ]، بناءً على أن المرادَ أهلُ العلمِ العامِلِينَ به، وهذا لا يكونُ إلا للمُؤمِنِينَ.

قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الجحدُ هُنَا ضُمِّنَ التكذيبَ.

وقوله: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الظُّلْمُ هنا الظلمُ الأكْبَرُ؛ لأن الظلمَ ظُلمانِ: ظُلْمٌ أصْغَرُ، وهو ما دُونَ الشِّرْكِ والكُفْرِ، وظلمٌ أكْبَرُ، وهو الكفر والشرك، وكلاهما موجودٌ في القُرآنِ، مثالُ الظُّلْمِ الأكبرِ قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]،

ومثاله أيضًا هذه الآية، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، ومثالٌ للظُّلْمِ الأصْغَرِ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص:١٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى:٤٢].

لو قالَ قائلٌ: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ عامٌّ يشْمَلُ الذين أُوتُوا العِلْمَ من المسلِمِينَ والنَّصَارَى وغيرهم، فلماذا خَصَّهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمؤمِنِينَ؟

الجواب: حَمَلَها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على المؤمنين لأنهم هم المنْتَفِعُونَ بالعِلْمِ.

وهل غيرُ المؤمنين مِنْ أَوْلي العِلم يكونُ القرآنُ آياتٍ بيِّنَاتٍ لهم؟

الجواب: قد يكون آياتٌ بيِّنَاتٌ ويجْحَدُونَ كما حدثَ من بعضِ زُعماءِ قُريش، لما سَمِعَ القرآنَ أعْجِبَ به وأقَرَّ بأنه ليس من قولِ البَشَرِ، واعترف بأنه من الله لكن منَعَهُ الكِبْرُ، وقد ذَكَرَ الله عن قومِ فرعونَ أنهم جَحَدُوا بالآيات واسْتَيْقَنَتْهَا أنفسُهم، فعلى هذا إبقَاؤها على أنها عامَّةٌ يكونُ أَوْلى، فتَشْمَلُ المؤمنينَ وغير المؤمنين.

لو قال قائل: ذَكَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الإيمان في قولِهِ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، وذَكَر الحِفْظ في هذه الآيَةِ ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، ألا يكونُ في هذا تكرار؟

الجواب: لا يُوجَدُ تَكْرارٌ؛ لأن قولَهُ: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يشمل هذا وهذا، أي: الإيمانَ والحِفْظَ، فقد لا يَحْفَظُونَهُ لكن يَعْرِفونَ أنه حقٌّ وهذا على الوجه الثاني.

وقوله: [﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: اليهودُ، وجَحَدُوهَا

بعدَ ظُهُروهَا لهُمْ]: قوله: [أي: اليهودُ] لا شَكَّ أنه قاصِرٌ، فإن الآية عامَّةٌ تشملُ اليهودَ والنَّصارَى والمجوسَ، بل كُلُّ من عانَدَ فإنه ظَالِمٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن أسلوبَ القرآنِ كما يُبْطِل الشبْهَة مَعْنًى يُبْطِلُها لفظًا؛ لأن (بَلْ) للإضرابِ الإبْطَالي.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن الذين يَتبَيَّنُ لهم كونَ القرآنِ آية هم أُولُو العِلمِ، لقوله: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، والعلماء ينْقَسمونَ إلى عُلماء ينتَفِعُون بعِلْمِهِمْ، وهم العُلماء باللهِ، وهم الذين يخْشَون الله جَلَّ وَعَلَا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، وإلى علماء لم يَنْتَفِعوا بعِلْمِهم فالعِلمُ يُطْلَقُ حتى على من لا يَنْتَفِع بعِلمه، وسبق أن الآية عامة.

الفائِدَتانِ الثَّالِثةُ والرابِعَةُ: الثناءُ على حفَظَةِ القُرآنِ، لقولِهِ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾.

ويتفَرَّعُ على هذه الفَائِدةِ: الثناءُ على طلبِ العِلمِ وأن العِلْمَ من الله عَزَّوَجَلَّ.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: أن مَحَلَّ العقلِ والوعْي القَلْبُ، لقولِهِ: ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، والقلوبُ في الصُّدورِ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

الفَائِدةُ السَّادسَةُ: الثناءُ على العلمِ والقَدْحُ في الجهلِ، وجه ذلك: أن الذي يَعْلَمُ ويتَدَبَّرُ القرآنَ حقًّا هم أهلُ العِلمِ، وهذه منْقَبَةٌ، والذين يجهَلُونَ ذلك هم أهلُ الجهلِ، وهذه مذَمَّةٌ.

الفَائِدةُ السَّابِعةُ: ظهورُ كون القرآنِ آيةً، لقولِهِ: ﴿بَيِّنَٰتٌ﴾ فليس في القرآنِ خفاءٌ، بل كونُه آيةٌ للرسول ﷺ أمرٌ بيِّنٌ ظاهِرٌ.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: أن الجَحْدَ بالآياتِ ظُلْمٌ والإقرارَ بها عَدْلٌ، لقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، في مقابل ذلك فإنَّ أهلَ العَدلِ والإنصافِ مؤمنون به، ولهذا كل من كان مُنْصِفًا فإنه لا بُدَّ أن يُقِرَّ بأحَقِّيَّةِ القرآنِ.

• • ۞ • •

الآيـة (٥٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت:٥٠].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالُوا۟﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ]: لأنهم هم الذين اقْتَرَحُوا الآيات، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء:٩٠].

قوله عَزَّوَجَلَّ: [﴿لَوْلَآ﴾ هَلَّا]: فتكونُ للتَّحْضِيضِ، وهذه إحْدَى معَانِي (لولا)، والمعنى الثاني: أن تكونَ شَرطِيَّةً، أي: حرفَ امتِنَاعٍ لوُجودٍ، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٤]، أما هنا فهي للتَّحْضِيضِ بمعَنْى (هلَّا).

قوله: [﴿ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وفِي قِراءَةٍ: «آيَة»[1] كنَاقَةِ صَالحٍ وعصَا مُوسى ومائِدَةِ عِيسى]: والقراءة هنا سَبْعِيَّةٌ؛ لأن من اصْطلاحِ المُفَسِّر إذا قال: «وفي قراءةٍ»، فَهِي سبعيَّة، وإذا قال: «وقُرِئَ» فهي شَاذَّةٌ. وآية وآيات بمعنى واحد؛ لأن آيةً نكِرَةٌ في سياق ما يُشْبِهُ الشَّرطَ فتَعَمُّ، والمعنى: هلَّا أُنزل عليه آية، أي: علامةٌ على صِدْقِه

(١) انظر: السبعة في القراءات (ص:٥٠١).

حتى نُصَدِّقَه ويتبَيَّنُ لنا صِدقه.

وقول المُفَسِّر: [آيَاتٌ كنَاقَةِ صَالحٍ وعصَا مُوسى ومائِدَةِ عِيسى]: هذه آياتٌ حِسِّيَّةٌ وهم طلبوا ذلك تَعَنُّتًا، وإلا فقد جاءَهُم مِنَ الآيات الحسِّيَّةِ والمعْنوِيَّةِ ما هو أعظمُ، فقد أراهُم النَّبِيُّ ﷺ انشقاقَ القَمرِ[1]، ولقد أخبرهم بما رأى ليلةَ الإسراءِ والمعراجِ[2]، فهذه الآيات من جِنْسِ ما طَلَبُوا، لكن كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧]، وكلُّ إنسانٍ مُتَعَنِّتٍ لا يمكن أن يَقْبلَ؛ لأن من قَصْدُه الحقُّ يكْفِيه الآيةُ التي تدُلُّ على صدْقِ ما قال صاحبها، أما المتَعَنِّتُ فلو جاءته آية لقال: أنت ساحرٌ، نُرِيدُ غيرها.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كنَاقَةِ صَالِحٍ]، هذه الناقةُ كانت تَشْرَبُ الماءَ يومًا ويُشرَبُ لبَنُها يومًا، ولبَنُها يكْفي القبيلَةَ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥]، أما ما ذُكِرَ من الإسرائيليات من أنها خَرَجَتْ مِنَ الحجَرِ وما أَشْبه ذلك -فالله أعلم- به.

وعصَا مُوسى آية مِنْ وجوهٍ متعَدِّدَةٍ:

منها: أنه إذا ألقَاهَا كانت ثُعبانًا عظيمًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية...، رقم (٣٤٣٨)؛ ومسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب انشقاق القمر، رقم (٢٨٠٢) عن أنس، واللفظ لمسلم: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرتين».

(٢) انظر: معجم أبي يعلى الموصلي (ص: ٤٥]؛ وسيرة ابن هشام (٢/ ٢٤٨)؛ والكامل في التاريخ (١/ ٥٨١)؛ والبداية والنهاية (٣/ ١١٠)؛ وتفسير البغوي (٣/ ٩٦)؛ وروح المعاني (١٥/ ٦).

ومنها: أنها التَقَمَتْ ما جاءَ به السَّحرةُ من الحِبالِ والعِصِيِّ.

ومنها: أنه كان يَضْرِبُ بها الحجرَ فتَنْفَجِرُ عيونًا.

ومنها: أنه ضَربَ بها البحرَ فانْفلَقَ، بل كان كُلُّ فِرْقٍ كالطَّودِ العظيمِ.

لو قال قائل: هل يُسْتَحَبُّ أخذُ العَصا؟

الجوابُ: هذا ليس من سُنَّةِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ومَائدَةُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ]، هذا التَّمْثِيلُ من المُفَسِّر يَدُلُّ على أنه يَرَى أن المائدة أُنْزِلَتْ، وهذه المسألة فيها خِلافٌ بين أهل العِلمِ، فمنهم من قال: إن الله أنزلَ المائدَةَ على بَنِي إسرائيل، ومنهم من قال: إن الله لم يُنْزِلْها، ولنَنْظُرْ في الآيات:

قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:١١٢-١١٣]، الله أكبر! الناسُ دائمًا يُريدونَ ملءَ بُطونهم، وأيضًا قومُ موسَى قالوا: (حِنْطَة) بدَل (حِطَّة).

ثم قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:١١٥].

إذا نظرنا إلى قوله: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ فظاهِرُهُ أنها نزلَتْ، وإذا نظرنا إلى الشَّرطِ في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾ قلنا: إنها لم تَنْزِلْ؛ لأن الله تعالى ذَكَرَ شَرْطًا لنُزولها ولم يُوجَدْ هذا الشرطُ، فدَلَّ عدمُ وجودِ الشرطِ على عدمِ وجودِ النُّزولِ، والشرطُ سواء ذكر في أولِ الآية أو آخرها فهو معْتَبَرٌ، فهذا التَّعْذيبُ

الذي لم يُعَذَّبْ به أحدٌ من العالمين لم يحْصُلْ.

وأيضًا هذه المائدة لو نزلت لكانت عِيدًا لأَوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ، وهي الآن مجهولة فليس عندَ النصارى عيد يُسَمَّى المائدة، فهذه أدِلَّةٌ من قال: إنها لم تنزل.

لو قالَ قائلٌ: هل العذابُ الذي سيَنْزِلُ عليهم غيرُ معروفٍ في الدُّنيا؟

الجواب: العذابُ معروفٌ في الدُّنْيَا وهو عُقوبَةٌ لهم؛ لأن الآياتِ المقترَحَةَ إذا نزلَتْ ولم يُؤمِنْ أصحابها فإنهم يُعَذَّبُونَ.

وقوله: [﴿قُلْ﴾ لهُمْ ﴿إِنَّمَا ٱلْآيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يُنَزِّلُها كيفَ يشَاءُ]: ولو قال المُفَسِّر: ومتَى شاءَ. لكانَ أحسنَ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْآيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هذه الجملَةُ حَصْرٌ، يعني: ما الآياتُ إلا عندَ اللهِ ليس عِنْدِي حتى أعْطِيَكم ما تقْتَرِحُونَ، وإذا كانت من عِندِ الله فإنها تكونُ تَبَعًا لمَشيئتِهِ وحكْمتِهِ يُنَزِّلُها كيفَ يشَاءُ ومتى شاءَ، فالحُكم إلى الله، والله عَزَّوَجَلَّ ينَزِّلُها لِحكمة، ومع ذلك فإننا نعْلَمُ عِلْمَ اليقينِ أن اللهَ ما أرْسَلَ رسولًا إلا آتاه مِنَ الآياتِ ما يؤمِنُ على مِثلِهِ البَشَرُ؛ لأن الله حكيمٌ لا يُرْسِلُ رسولًا يقول للناس: إني رسول الله إليكم أَسْتَبِيحُ دِمَاءكُم وأمْوالَكُم ونساءَكُم إذا لم تُؤمِنُوا بي، فلا يُمَكِّنهُ الله تعالى إلا بالآياتِ التي تُلْزِمُ الناسَ بقَبُولِ قولِهِ، ولو جاء رسولٌ بدونِ آيات لكان مُنَافِيًا للحِكْمَةِ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْآيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ في كِلَا العَبارَتين حَصْرٌ، لكن هل الحَصْرُ فيها حَقِيقِيٌّ أو إِضَافِيٌّ؟

الحصْرُ الأَوَّلُ حَقِيقِيٌّ؛ لأن الآياتِ لا تكونُ إلا من عندِ الله، ولا أحدَ يستطيعُ

أن يَأْتِيَ بها.

والحصرُ الثَّانِي إضَافِيٌّ؛ لأن قولَهُ: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ باعتبارِ الواقِعِ والحقيقة، فإنَّ الرَّسُولَ ﷺ ليس نَذِيرًا فَقَطْ بل هو نذيرٌ مُبِينٌ، وبَشِيرٌ، وسِرَاجٌ مُنِيرٌ، فالحصرُ إضافِيٌّ -أي بالإضافة إلى كذا- فهو بالإضَافَةِ إلى الإتيانِ بالآيات غيرُ قادِرٍ، لكن يَقْدِرُ على شَيْءٍ آخرَ وهو الإنذارُ.

وقوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ يقولُ العلماءُ: الإنذارُ هو الإخْبارُ بالمُخَوَّفِ، أما الإخبارُ بالمرْغُوبِ فيُسَمَّى بِشَارَةً، فالنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَذِيرٌ، وهنا لم يَقُلْ: بَشِيرٌ، لأن المقامَ يقْتَضِي ذَلكَ، إذ هو يخَاطِبُ المكَذِّبينَ المعانِدِينَ.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى (بيِّن) ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُظْهِرٌ]، وقد عَلِمْنَا أن (بان) لا تستعمل إلا لازِمَةً، يقال: (بانَ الصَّبْحُ) إذا ظَهَرَ، و(بان هذا من هذا) إذا انفَصَلَ عنه، وأما (أبان) فتُسْتَعْمَلُ لازمةً ومتَعَدِّيةً، يقال: (أبانَ الصبحُ)، بمعنى بانَ وظهَر، ويقال: أبان الأمرَ، بمَعْنَى أظْهَرَه ووَضَّحَهُ، وفي بعض الأحيان تكونُ الآية لا تحتَمِلُ إلا اللازمَ، وفي بعض الأحيانِ لا تحْتَمِلُ إلا المتَعَدِّي، وأحيانًا تَصْلُح لهذا وهذا.

فالرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لإنْذَارِه، أو نَذِيرٌ بَيِّن الإنذارِ، وعلى هذا يكون النَّعتُ سبَبيًا أي: إذا جعلنا (مُبِين) بمعنى (بيِّن) والأصل أن النعتَ حَقِيقِيٌّ وليس سَبَبيًا.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُظْهِرٌ إنْذَارِي بالنَّارِ أهلَ المعْصِيَةِ]، أهلَ: مفعولٌ لإنْذَار؛ لأن إنذارَ مصدرٌ، والمصدر يعْمَلُ عَمَل فِعْلِهِ، فالرسول ﷺ هذا شأْنُهُ وهذه وَظِيفَتُهُ أنه مُنذِر، أما أن يَأْتِيَ بالآيات إذا طُلِبَتْ، أو أنه يَهْدِي النَّاس إذا ضَلُّوا،

فهذا ليس إليه، بل هذا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ لأنه هو الذي يَمْلِكُ هذا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: تَعَنُّتُ المشركين بطَلَبِهِمُ الآيات، لقولِهِ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وإلا فقد جاءَتْهُم آياتٌ لكنهم يَقولونَ هذا تَعَنُّتًا.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن المتَعَنِّتَ مكابِرٌ لإنكارِهِ ما هو ظاهِرٌ، فإنهم قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، مع أنهم قد جاءَتْهُمُ الآياتُ، والنَّبِيُّ ﷺ وغيرهُ مِنَ الأنبياءِ ما أُرْسِلُوا إلا بالآيات التي يُؤمِنُ على مِثْلِهَا البَشَرُ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: إقرارُ المشْرِكِينَ بُربوبِيَّةِ الله جَلَّوَعَلَا، لقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: إقرارُ المشركين بعُلُوِّ الله جَلَّوَعَلَا، لقولِهِ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، فيكون اعتقادُ المشْرِكينَ في الله من حيثُ العُلُوِّ أَكْمَلُ من اعتقادِ المعْتَزِلَةِ والجَهْمِيَّةِ والأَشَاعِرَةِ؛ لأن هؤلاء يُنْكِرُونَ عُلُوَّ اللهِ الذَّاتِيِّ ويقولون: إنَّ الله لا داخلَ العالم ولا خَارِجَهُ، ولا مُتَّصِلٌ ولا مُبَايِنٌ.

الفَائِدةُ الخامِسة: أن الرَّسولَ ﷺ بَشَرٌ لا يَمْلِكُ لنفْسِهِ نَفْعًا ولا ضَرًّا، لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

الفائِدَتانِ السَّادسةُ والسابِعَةُ: أن إضافَةَ الأمورِ إلى الله تَقْطَعُ الحُجَجَ، لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ويتَفَرَّعُ على هذه الفَائِدة أن الأحكامَ الشَّرْعِيَّةَ إذا سُئِلنا عن الحِكْمَةِ من كون كذا، كذا وكذا، نقول: هذا من عِندِ الله، هذا حُكْمُ الله، وهذا كافٍ لكلِّ مؤمنٍ، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦].

ولهذا احتَجَّتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على عَمْرَة بنتِ رَواحَةَ لما سألتها: ما بالُ الحائضِ تَقْضِي الصومَ ولا تَقْضِي الصلاةَ؟ فقالت: أحَرُوريَّةٌ أنت؟ قلت: لَسْتُ بحَرُوريَّةٍ ولكني أسأل. قالت: «كان يُصيبنا ذلك، فنُؤمَرُ بقَضَاءِ الصَّومِ ولَا نُؤمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ»[1]، فإسنادُ الأمْرِ إلى الله هو أعْظَمُ حُجَّةً وهو كافٍ في إبطالِ الشُّبَهِ.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: إثباتُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن الشيء لا يكون آية حتَّى يكون خارِقًا للعادَةِ، فلو جاء رَسُولٌ إلى الناسِ فقَالُوا: نريدُ آية فقال: سآتِيكُمْ بآية، وكان ذلك في وقتِ الاعْتَدالِ الرَّبيعِيِّ فقال: آيتي أن تَطْلع الشمسُ الساعة الثانية عشرة وتَغِيبَ الساعَة الثانية عشرة[2]، فهذه ليست بآية؛ لأن العادةَ هكذا، فلا بُدَّ أن تكون الآيةُ مخالفة للعَادَةِ، فإذا أجْرَى الله الأمر على خلافِ العادَةِ دلَّ ذلك على قدرْتِهِ جَلَّ وَعَلَا.

الفَائِدةُ التَّاسِعة: الردُّ على أهل الطَّبِيعَةِ الذين يقولون: إن الكونَ طَبيعَةٌ مُنظِّمةٌ لنفسها بنفسها، وأنها عبارة عن مقَدِّمَاتٍ ونتائجَ يُنتِجُ بعضها من بعْضٍ، لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي يُدَبِّرُ الكون ويأتي بالآياتِ الدَّالَّةِ على كمالِ قُدْرتِهِ وسُلطانِهِ.

الفَائِدةُ العَاشِرَة: أن رسولَ الله ﷺ وظيفَتُه الإنذارُ لا الهِدَايةُ، لقوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

الفَائِدةُ الحَادِيةَ عشْرَةَ: أن الرسولَ ﷺ لا يَمْلِكُ أن يأْتِيَ بآيةٍ إلا مِنْ عندِ الله،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣١٥)؛ ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥) عن عائشة.

(٢) هذا على حسب التوقيت الغروبي لا الزوالي.

وهذا ما يُفِيدُهُ الحَصْرُ في قوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، وأكبر شاهِدٍ على ذلك أنهم سألُوه عن قِصَّةِ أصحابِ الكَهْفِ فقال: أُخْبِرُكُمْ بذلِكَ غدًا[1]، فامتَنَعَ الوحْي خمسةَ عشرَ يومًا لم ينزل، فضَاقَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بهذا، لكن هذا في الحقيقةِ من تَأْيِيدِ الله للرسولِ ﷺ، لأنه يَنْفِي كلَّ شُبهة عن النَّبِيِّ ﷺ بأنه يتَقَوَّلُ القرآنَ؛ لأن الذي يتقولُ القرآن يحْرِصُ غايةَ الحِرْصِ ألا يُخْلِفَ ما قاله لهم، ولجاء به من الغَدِ بناءً على وَعْـدِهِ، ولكنه ﷺ لا يتقول وإنما يتَلَقَّى، فهو يتَلَـقَّى مِنَ الله الوَحْي، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦].

الفَائِدةُ الثانيةَ عشرةَ: أنه لا يجبُ على مَنْ بَلَّـغ عَنِ الرَّسولِ ﷺ إلا الإنـذارَ، فأهلُ العِلم الذي هُم ورَثَةُ الأنبياء لا يملِكُون هِدَايةَ الخلْقِ؛ لكن عليهم الإنذارُ والتَّبْلِيغُ.

الفَائِدةُ الثالثة عشرة: أن من بَلاغَةِ الكلام أن يكونَ الخِطابُ مُوافِقًا لمقْتَضَى الحال، وجه ذلك: الحصرُ في ذِكْرِ الإنذارِ فقط، فالرَّسُولُ ﷺ بَشِيرٌ ونَذِيرٌ، لكن المقام مقامُ محاجَّةِ الكافِرِينَ، فكان مُقْتَضَى الحال ذِكْرُ صفةِ الإنذارِ فقط وعدَمِ ذِكْرِ كونِهِ بَشِيرًا.

الفَائِدةُ الرابعة عشرة: المنْقَبَةُ للمُنذِرِ إذا كانَ مُبِينًا في إنْذَارِهِ، فيكون فيه مدْحٌ للفَصَاحَةِ والبَلاغَةِ، وقد قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ مِنَ الْبَيانِ لَسِحْرًا**»[2].

وكم من رَجُلٍ قليلِ العِلْمِ لكِنَّهُ قويُّ الفصاحَةِ، فيُؤَثِّرُ تأثِيرًا كَبِيرًا أكثر مما

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٠٧)؛ وأبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة ٠١/ ٢١٦)، وانظر: سيرة ابن هشام (٢/ ١٣٩-١٤٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب إن من البيان سحرًا، رقم (٥٤٣٤) عن ابن عمر؛ ومسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٩) عن عمار.

يؤَثِّرُهُ كثيرٌ من أهلِ العِلْمِ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا أَعْطى الإنسانَ قوَّةً في البيانِ وانْطِلاقًا في العبارَةِ فإن ذلك من نِعْمَةِ الله، ثم مِنَ الناس من يُعطِيهِ اللهُ الفصاحَةَ في القولِ والكِتَابَةِ، ومنهم من يُعْطِيهِ الله تعالى الفصاحَةَ في القولِ دُونَ الكتابةِ، ومنهم من يكون فَصِيحًا في الكِتابةِ دُونَ القولِ.

وحدَّثَنِي شيخُنَا محمدُ العبد العزيز المطَوع رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن عالمًا من العلماءِ المشْهُورينَ الذين يَمْلِكُون زِمامَ الفصاحة في كتابتِهِمْ، كتابته بليغة جدًا، ولكنه في في الإلقاءِ ضَعِيفٌ جِدًّا؛ لأن عبارَتَهُ ليست بجَيِّدَةٍ ولا سلسلة ولا مُقْنِعَةٍ، لكنَّ كتاباته -سبحان الله العظيم- مشهودة له بالفصاحة والبيان.

ومن الناس من تجِدُه بعكس ذلك، تجده إذا قام يتكَلَّمُ لا تريدُهُ أن يسْكُتَ، فعندَهُ قوة في البيانِ وإيرادِ الحُجَجِ، لكن عندما يكْتُبُ تجِدُ ركاكَةً وعِيًّا وعدمَ فصاحَةٍ، وبعضُ الناس رَدِيءٌ من الجهتين.

لو قال قائل: هل هناك عواملُ تساعِدُ على الفصاحَةِ؟

فالجواب: كل الطبائعِ غريزةٌ ومكتسبةٌ، فمن الناس مَنْ يُعْطِيهِ الله تعالى موهِبَةً من أصل طَبِيعَتِه ثم ينَمِّي هذه الموهبةَ بالاطِّلاعِ والقِراءةِ، ومن الناس من تكونُ فصَاحَتُه بسببِ الدِّرَاسَةِ وكثرة القِراءةِ وسماع الخطباءِ فيتَأَثَّرُ بهم كثيرًا ويكتسب هذه المَوْهِبَةَ، ولهذا الذي يُطالِعُ كتبَ عالمٍ من العلماء ويُدْمِنُ المطالَعَة في كُتُبه تَجِدُهُ يتأَثَّرُ به من حيثُ العلم، ومن حيثُ الأُسلوبِ وإيرادِ الكلامِ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٥١)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥١].

قال اللهُ تعالى معَارِضًا لطَلَبِهِمْ بما هو أَوْلَى منه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِيمَا طَلَبُوا ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القُرْآنَ ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾].

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ الضَّمْيرُ يعودُ على الذين ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، والهمزةُ هنا للاستِفْهامِ، والواوُ عاطِفةٌ على جملَةٍ مقَدَّرَةٍ تُقَدَّرُ بحسبِ المقامِ؛ هذا أحدُ الرَّأْيينِ لأهلِ النَّحْوِ.

والرأيُ الثاني: أن الواو عاطِفَةٌ على الجملةِ السابِقَةِ ولا تحتاجُ إلى تقدير، وأنَّ ترتيبَ الهمزةِ التَّأَخُّرَ، وأن التقدير: (وألم يَكْفِهِمْ)، وهذا القولُ أسْهَلُ؛ لأن القولَ الأول وإن كان مَبْنِيًا على أصْلٍ وهو عدَمُ التَّقْدِيمِ والتَّأْخِيرِ؛ لكن على القولِ الأَوَّلِ أحيانًا لا تَسْتَطِيعُ أن تُقَدِّرَ المحْذُوفَ، وأما على القولِ الثاني فلا إشكالَ.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ الكِفَايةُ بمَعْنَى الغِنَى عن الشيء، ومنه ما هُو معروفٌ لأهلِ الفِقْهِ: «يجبُ عليه كفَايةُ مَنْ يَمُونُه» أي: إغناءُ من يَمونُهُ عن غيره، فمعنى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾: أولم يُغْنِهِم عنْ كُلِّ آيةٍ ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾، (أنَّ) واسمُهَا وخبرهَا

تُؤَوَّلُ بمصدر على أن يكونَ فاعِلَ (يكفي) التقدير: أولم يكْفِهم إنْزالُنا.

ولهذا قال: ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القرآنُ]، وسُمِّي كِتَابًا لأنه مكتوبٌ في اللَّوْحِ المحْفوظِ، وفي الصُّحُفِ التي بين يَدِي الملائكةِ، ومكتوبٌ في المصاحف التي بَيْنَ أَيْدِينَا.

قوله: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يُقْرَأُ ولا أحد يَحُول بينهم وبينَهُ، والذي يتْلُوهُ الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، يتْلُوه عَلَى النَّاسِ ويُبَلِّغُهُمْ إياه فيَتَنَاقَلُونَهُ.

وقوله: [﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فَهُو آيَةٌ مسْتَمِرَّةٌ لا انْقَضاءَ لها، بخلافِ ما ذُكِرَ مِنَ الآياتِ]: فالقرآنُ آيةٌ مُسْتَمِرَّةٌ إلى يومِ القِيامَةِ؛ لأن الله تعالى يقولُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، بخلاف الآياتِ السَّابِقَةِ، الآياتُ السابِقَةُ مشهودةٌ يَنْتَفِعُ بها المشاهِدُونَ لها، أما مَنْ بَعْدهُمْ فإنما تَصِلُ إليهم عن طريقِ الأخْبارِ، ومن المعلومِ أنه ليس الخبرُ كالعَيانِ، أما القرآنُ فإنه بيننَا نُشَاهِدُه ونَسْمَعُه ونَتْلُوه، فليس هو من طريقِ الخبرِ عن شيءٍ مَضَى، فيكون أعظمَ مِنَ الآيات التي انقَضَتْ وزالَتْ، وهذا هو السرُّ في أن القرآن كان آيةً لكُلِّ الناس؛ لأن النبيَّ ﷺ مبْعُوثٌ إلى جميعِ البَشَرِ.

واعلم أن القرآن آياتٌ بَيِّنَاتٌ في صُدورِ الذين أُوتُوا العِلْمَ، أما المستكْبِرُونَ الذين يَقْرؤونَ القرآنَ وهم مُعْرِضُونَ عنه فلا تَظْهرُ لهم الآيات ولا يكون لهم آية، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة القتال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ [محمد:١٦].

فالقرآنُ آياتٌ لمن أقْبَلَ عليه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

ثم إن هذا القرآن آيةٌ بنَفْسِهِ لا لوجودِ مانع من مُعَارَضَتِهِ؛ خِلافًا لمن قال: إن عدمَ معارَضَةِ القرآن ليسَ للقرآنِ نَفْسِهِ ولكن بصَرْفِ الناسِ عن مُعارَضَتِهِ، وإلا فهم قادِرُون على مُعارَضَتِهِ. وهذا لا شكَّ أنه خَطأ بيِّن، ولو صحَّ لكان آيةً لكنه لم يَصِحَّ.

بل نقول: إن القرآن نفسَهَ آيةٌ من آياتِ اللهِ، وكَافٍ للدَّلالَةِ على صدقِ الرسولِ ﷺ لكن لمن تَدَبَّرَهُ؛ فإن العامِّيَ قد لا يظهَرُ له كونُ القرآنِ آيَةً بَيِّنَةً للرسولِ ﷺ؛ لأنه ليس من أهلِ العِلمِ، العامِّيُّ يعلم أن هذا القرآن كلامُ اللهِ، وكذلك يَشْعُرُ بما فيه مِنَ التَّرغيبِ والترهيب، ولهذا تَجِدُهُ يسألُ الله من فضْلِهِ عند آيات الترغيبِ، ويسْتَعِيذُ بالله مِنَ النَّارِ والعذاب عندَ آياتِ التَّرْهِيبِ، وإذا جاءتْ أسماء الله فإنه يَشْعُرُ بأن جِلْدَه يقْشَعِرُّ ثم يَلِينُ لذِكْرِ الله، لكن الآياتِ العظيمَةَ التي يتَضَمَّنَهَا هذا القرآن لا يعْرِفُها العامَّةُ.

وقوله: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أوَّلُ من تَلاه وبلَّغه الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقال: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يَقُلْ: تَتْلُوه عَليهم؛ لأنَّهُ أعمُّ، لأن الرسولَ ﷺ يتْلُوه على النَّاسِ ثم الناسُ يعَلِّمُ بَعْضُهم بعضًا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: [﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الكِتابِ]: يُحْتَمَلُ أنه إنزالُ الكتابِ؛ لأن الذي ذَكَرَ اللهُ أنَّه يَكْفِيهِمْ هُوَ إنزال الكتابِ، فيكون الَّذِي فيه الذِّكْرَى هو الإنزَالُ، ومعلومٌ أن الذِّكْرَى تكونُ في الإنزال باعتبارِ المُنَزَّلِ لكن إنزالَهُ من الله ذِكْرَى،

فالقرآنُ في الحقيقة ذِكْرَى مِنَ الوجهين: من جهَةِ أنه نَزَلَ من عند اللهِ، ومجرَّدُ شعورِ الإنسانِ بأنه نَزَل مِنْ عندِ اللهِ لا شكَّ أنه يتَذَكَّرُ به ويُعَظِّمُهُ؛ لأنه كلامُ ربِّه، وكذلك أيضًا ما فيه من المعَانِي العَظيمَةِ والآثارِ الحَميدَةِ، هي أيضًا آيةٌ مِنْ آياتِ اللهِ.

ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾ فالرَّحْمَةُ مِنَ اللهِ، فالله عَزَّوَجَلَّ أنزلَ القُرآنَ رحمةً للنَّاسِ، وأيضًا ذِكْرَى، يعني: عِظَةً يتَذَكَّرُ به الناسُ، فبه يتَرَاحَمُونَ ويُرْحَمُونَ؛ فهو ذِكْرَى ولكن ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأن من لم يُؤْمِنْ فليس رَحْمَةً في حَقِّهِ، بل يَزِيدُهُ رِجْسًا إلى رِجْسِهِ فيَضِلُّ أكثرَ ويزدادُ كفرًا -والعياذ بالله-، فالمؤمن هو الذي يكونُ القرآنُ رَحمةً له وذِكْرَى ويُنْتَفَعُ به.

وما دامَ الأمْرُ عُلِّق على الوَصْفِ في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، فكلَّما كان الإنسانُ أقْوى إيمانًا كان أكثرَ رَحمةً بهذا القرآن وتَذَكُّرًا، وكلما كان الإنسان أضعفَ إيمانًا كان القرآنُ أقلَّ رحمةً له وتَذَكُّرًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن القُرآنَ كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لقوله: ﴿أَنزَلْنَا﴾.

الفَائِدةُ الثَّانِية: إثباتُ عُلُوِّ الله عَزَّوَجَلَّ، لقَولِهِ: ﴿أَنزَلْنَا﴾.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: إثباتُ رِسالَةِ النَّبِيِّ ﷺ، لقوله: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وهذا يعْنِي أنه مُوحَى إِلَيْهِ بالقُرآنِ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: الإشارةُ إلى شَرفِ هـذا القُرآنِ حيثُ إنه مَكتـوبٌ في اللَّوحِ المحْفوظِ وفي الصُّحُفِ التي في أَيْدِي الملائكة.

الفَائِدةُ الخامِسةُ: أن المشركينَ قـد قامَتْ عليهم الحُجَّـةُ، لقولـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، فالقرآنُ ليس غَائبًا عنهم حتى يَعْتَرِضُوا، ولكنه يُتْلَى عَليهِمْ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: أن مجرَّدَ تلاوةِ القُرآنِ على شخصٍ يكونُ مُلْزِمًا له بالاتِّباعِ؛ لأن الله لم يَذْكُرْ أكثرَ مِنَ التِّلاوةِ، فإذا تَلَي القرآنَ على إنسانٍ فقد قامتِ عليه الحُجَّةُ، ولهذا الجِنُّ ولَّوْا إلى قومِهِمْ مُنْذِرِينَ بمُجَرَّدِ سماعِهِمْ القرآنُ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن:١-٢]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣٠].

فقِراءَةُ القرآنِ مُلْزِمَةٌ، لكن إذا كان لا يَفْهَمُ لغة القُرآنِ فلا تكونُ مُلْزمة، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، ولا يحْصُلُ البيانُ وهو لا يَدْرِي لُغَةَ القُرآنِ.

الفَائِدةُ السَّابِعَةُ: ما يتَضَمَّنَهُ إنزالُ القرآنِ من الحُرمَةِ والذِّكْرى، وهو الاتِّعَاظُ والتذكُّر، لقولِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ﴾.

الفَائِدة الثَّامِنة: أنه لا ينْتَفِعُ بهذه الرَّحمةِ والذِّكْرى إلا المؤمنونَ، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الفَائِدةُ التَّاسِعَةُ: كُلَّما كانَ الإنسانُ أقْوَى إيمانًا كان أكْثَرَ انتِفَاعًا بالقُرآنِ، وكلما كان أضعفَ إيمانًا أو أكثرَ مَعْصِيَةً كان أبعدَ عن فَهْمِ القُرآنِ والانتفاعِ به، بل إن المعَاصِيَ تَحُولُ بينَ الإنسانِ وبين فَهْمِ القرآنِ.

وقد استَنْبَطَ بعضُ العلماءِ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٠٥-١٠٦]، استنْبَطَ أن الاستغْفَارَ سببٌ لبيانِ الحقِّ عندَ الحُكْمِ، سواء كان هذا الحُكْم فُتْيَا أو قَضَاء؛ لأن ذِكْرَ الاستغفارِ يدُلُّ على أن له أثرًا في المسْتَقْبَلِ؛ لأن هذا ليس آخِرَ حُكْمٍ للرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فالإنسانُ إذا استَغْفَرَ الله كانَ ذلكَ مَفْتَاحًا للفَهْمِ والعلمِ؛ لأن الذنوب حائلٌ بينَ الإنسان وبينَ التَّوفيقِ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، ولهذا لما رانَ على قُلوبِهِمْ ما كَسَبُوا صَارُوا يقولُونَ عَلى القُرآنِ أنه أساطِيرُ الأَوَّلِينَ ولم ينْتَفِعُوا به.

الفَائِدةُ الْعاشِرَةُ: فضيلةُ الإيمانِ حيثُ تَتِمُّ به الرَّحْمَةُ والذِّكْرَى، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الفَائِدة الحَادِيَةَ عشْرَةَ: إثباتُ الرَّحمةِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لقولِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾، فهو أَنْزَلَهُ ليَرْحَمَ به الخلْقَ.

الآيــة (٥٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت:٥٢].

قوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ يقولُ المعْرِبُونَ: إن (الباء) زائِدَةٌ، وإن ﴿شَهِيدًا﴾ هنا ليست مَصْدَرًا ولا اسمًا جامِدًا، بل هي مشْتَقَّةٌ فتَصْلُحُ أن تكونَ حَالًا من الاسمِ الكَريمِ، وتصْلُحُ أن تكونَ تَمْيِيزًا كقولهم: (لله دَرُّهُ فَارِسًا)، أي: كفى شهادة الله بَيْني وبَيْنكُم.

قوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ ضَمن الشهادة هنا معنى الحُكْمِ، فالشهادَةُ تُطْلَقُ بمعنى الحُكم، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٢٦-٢٧]، فإن قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ بمَعْنَى: حَكَم حاكِمٌ، والحاكمُ في الحقيقة شاهدٌ، وذلك من وجهين:

أوَّلًا: لأنه شاهِدٌ بحُكْمِ الله لأنه حَاكِمٌ به، فهو إذا حَكَمُ يقول بلِسَانِ الحال: أشهدُ بأن حُكْمَ الله كذا وكذا، وهو شاهِدٌ على المحق بالحقِّ وعلى المبْطِلِ بالباطِلِ،

ولذلك يقولون: الحاكِمُ شاهدٌ ومُفْتٍ ومَلْزِم كالأمير، فهنا ضمَّن الشهادةَ معْنَى الحُكمِ، وإلا فإن الشاهِدَ لا يكون شاهِدًا بينَ فُلانٍ وفلان ولكن يكون شاهِدًا لفُلانٍ على فلان، لكنه ضَمَّنَ الشهادَةَ معنى الحُكْمِ، وهو كذلك فإن شهادةَ اللهِ لنَبيِّهِ ﷺ بالحق حُكْمٌ له بالحق، ووَجْهُ كون ذلك شهادَةً وحُكْمًا: لأنَّ كونَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يُمَكِّنُ نبيَّهُ ﷺ من قتالِ هؤلاءِ الكُفَّارِ، واستباحَةِ دمائِهِمْ وأموالهم، وكونه يمَكِّنُ له في الأرض فيَفْتَحُ بلادَهُم، بل يفتحُ له الأرض أرْضًا أرْضًا؛ يدُلُّ على أن الله حكمَ لنَبِيِّهِ على الكُفَّارِ، وهو أكبرُ دَليلٍ على شهادة الله له بالصِّدْقِ، ولهذا قال في سورةِ الأنعام: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:١٩]، فهذا أكبرُ ما يكونُ من الشَّهادَةِ، وقد شَهِدَ الله لنَبِيِّه بالفعل والتَّمْكِينِ بأنه على الحقِّ والإيمان وهم على الكُفْرِ والباطِلِ.

قوله: [﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومِنْهُ حَالي وحَالُكُم]: الجملة حَالٌ مِنْ لفْظِ الجَلالةِ، يعني: حالَ كونه يَعْلم، ويجوز أن تكونَ استِئْنَافِيَّةً لبيانِ صحَّةِ شهادَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحُكْمِهِ، فإنه يشْهَدُ على حقٍّ، فيعلم المُحِقَّ فيحُكْمُ له والمُبْطَلَ فيحكُم عليه.

(مَا) اسم موصولٌ يُفِيدُ العُمومَ، وهي تُسْتَعْمَلُ لغيرِ العاقِلِ، أما (مَنْ) فتُستَعْمَلُ للعقلاءِ، وهنا قالَ: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولم يَقُلْ: (مَنْ في السمواتِ والأرضِ) إمَّا تَغْلِيبًا للأكثر، وإما لملاحظَةِ الصِّفَاتِ مع الذَّواتِ، وهذا أَوْلَى، لأننا قد نُمانِعُ بأن الأكثرَ غيرُ عاقِلٍ باعتبارِ السَّمواتِ والأرض، فإن السمواتِ ما فيها موضِعُ قَدَمٍ إلا ومَلَكٌ قائمٌ أو رَاكِعٌ أو ساجِدٌ، والسمواتُ عَظِيمَةٌ وواسِعَةٌ، قالَ تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

فـ(مَا) يُعْبَّرُ بها عن الصِّفَةِ دونَ الموصوفِ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣]، ولم يقل: مَنْ طابَ لكُمْ، لأن المرأةَ إنما تُنْكَحُ لِصِفَاتِهَا؛ لأن المقصودَ وَصْفُ المرأةِ لا عَيْنُها كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لمَالِهَا، وحَسَبِهَا، وجَمَالِهَا، ودِينِهَا»(١).

﴿مَا﴾ موصولةٌ، وصِلَةُ الموصولِ شِبْهُ الجُمْلَةِ، قال ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ألْفِيَّته(٢):

وَجُمْلَـةٌ أَوْ شِـبْهُهَا الَّـذِي وُصِـلْ ... بِهِ كَمَنْ عِنْدِي الَّذِي ابْنُـهُ كُفِـلْ

فصِلَةُ الموصُولِ إما أن تكونَ جُمْلَةً اسمية أو فِعلية أو شِبْهَ جملة، وهو الظرفُ أو الجارُّ والمجْرُورُ.

والظرفُ أو الجارُّ والمجرورُ هل هو نَفسه صِلَةٌ كما هو ظاهِرُ كلامِ ابنِ مالكٍ، أو متَعَلِّقُه هو الصلَةُ كما هو قولُ الجمهور؟

الجواب: متَعَلِّقُه هو الصِّلَةُ.

وهل يُقَدَّرُ صلةُ الموصول فعلًا أو اسمًا؟

الصحيح أنه يُقَدَّرُ فِعْلًا لأن هذا هو الأصلُ، وعمل الاسمِ عندَ الحذف قليلٌ وضعيفٌ.

وخبرُ المبتدأ يقَدَّرُ باسْمٍ ويجوزُ تَقْديرُه بفعلٍ، لكن تَقْدِيرُه باسمٍ هو الأصل،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم (٤٨٠٢)؛ ومسلم: كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، رقم (١٤٦٦) عن أبي هريرة.

(٢) البيت رقم (٩٧).

تقول: الرَّجلُ عِنْدَكَ؛ التقدير: الرَّجُلُ كائنٌ أو مستَقِرٌّ عنْدك، فالخبرُ جملة اسمية، ويجوز: الرجلُ استَقَرَّ عندك، على أن يكون الخبرُ جملةً فِعْلِيَّةً، لكن هذا خلافُ الأصل؛ لأن الأصلَ في الخبر أنه مُفرد، أما صِلَةُ الموصول فنقدرها جملَةً فِعْلِيَّةً، فلو قلت: جاء الذي عندك، التَّقْدِيرُ: مستقرٌّ عِنْدَكَ؛ لَزِمَ أن تقدر مبتدأ مرة ثانية، ويكون التقدير: جاء الَّذِي هو مُسْتَقِرٌّ عندَكَ.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إذا كان للعمومِ فهو يَشْمَلُ أفعالَ الإنسانِ وأقوالَهُ وسِرَّهُ وعَلانِيَتَهُ، وفيه ردٌّ ظاهِرٌ على غُلاةِ القَدَرِيَّةِ الذين كانوا قديمًا يَنْفُونَ العِلم والعياذ بالله، ويقولون: إن الأمْرَ أُنفُ، يعني مستأنفٌ، وهم كفَّارٌ لأنهم مَكَذِّبُونَ للقُرآنِ.

ودائمًا يجمَعُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ويُفْرِدُ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾، وكلها في العَدَدِ سواءٌ كما ثَبتَ في السُّنَّة، وكما هو ظاهِرُ القرآنِ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، فتكون الأرضُ مفردَةً لكن معناهُ الجمعُ، فـ(ال) هنا لاستِغْرَاقِ الجِنْسِ، يعْنِي: كل ما يُسَمَّى أرْضًا، فيَشْمَلُ السبعَ الأرَضِين.

وقوله: [﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومِنْهُ حَالي وحالُكُم]: ونص المُفَسِّر على ذلك لأن المقامَ يَقْتَضِيهِ، حيثُ قالَ: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مستأنفًا الكِلامَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، (الذين): مبتدأٌ خَبَرُه جملَةُ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وهذا من الحُكْمِ بينَه وبينهم.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الظاهِرُ أنها من كلامِ الله، وأنها جملةٌ مستأْنَفَةٌ وليست من كَلامِ النَّبِيِّ ﷺ.

قوله: [﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وهُو مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ]: آمنوا به يعني: اعترَفُوا به وأقَرُّوا به ورَأَوا أنه حَقٌّ، هؤلاء هم الخاسرون.

والباطِلُ: كلُّ ما عُبِدَ من دُونِ اللهِ في هذا المقام، وإلا فَفِي غَيرِهِ يقال: كلُّ ما خالَفَ الحَقَّ فهو باطِلٌ، حتى الشيء الذي لا خيرَ فيه يُسَمَّى بَاطِلًا وإن لم يَضُرَّ، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «كُلُّ لَهْوٍ يَلْهُو بِهِ ابْنُ آدَمَ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلَّا كَذَا وَكَذَا»[1]، فالباطل يُفسَّرُ في كل مكان بَحَسَبِهِ.

وهذه القاعدةُ شامِلَةٌ لجميعِ الكلماتِ، تجِدُ الكلمة الواحدةَ في سِياقٍ لها معنى وفي سياقٍ آخرَ لها معنى آخر بحَسَبِ السِّياقِ، وهذا هو الذي يُطَمْئِنُ الإنسانَ إلى صِحَّةِ القولِ بأنه لا مجازَ في اللُّغةِ العربيةِ، حيث إننا قلنا: إن الذي يُحَدِّدُ مَعْنى الكلمة هو سِياقُهَا ومكانها في هذا السِّياقِ، باعتبار حالِ المتكَلِّمِ بها وحالِ الموضوعِ الذي هو مَسُوقَةٌ له، فالباطِلُ هنا هو الأصنام، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: [﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ مِنْكُمْ]، وقوله: ﴿وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ أَيْ: أَنْكَرُوا ما يجِبُ له مِنْ حَقٍّ، وذلك لأن الكُفر في اللُّغَةِ العربيَّةِ

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، رقم (١٦٣٧) عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين؛ وابن ماجه: كتاب الجهاد، باب الرمي في سبيل الله، رقم (٢٨١١) عن عقبة بن عامر الجهني، ولفظ الترمذي: «كل ما يلهو به الرجل المسلم باطل إلا رمية بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنهن من الحق».

بمعنى السَّتْرِ، ومنه سُمِّيَ الكُفُرَّى وهو طَلْعُ النَّخْلِ لأنه يَسْتُرُ التَّمْرَ، وعندنا يُسمونَهُ الكافور.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [منكم] هذا من أغربِ ما يكونُ، إلا إذا كان يَرَى أن قولَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ من كلام الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فيكونُ قوله: [مِنْكُمْ] له وَجْهٌ، ويكونُ الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يخاطِبُ المشْرِكِينَ، ويكونُ المعنى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ منكم أيها المشْرِكُونَ، أما إن كانت مِنْ كلامِ الله فهي عَامَّةٌ.

قوله: [﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فِي صَفْقَتِهِمْ حيثُ اشْتَرَوا الكُفْرَ بالإيمانِ]: وصياغَةُ الجملَةِ على هذا الوجه له مَعْنَى عَظِيمٍ، حيث جاءتِ الجملَةُ الاسميةُ المفِيدَةُ للحَصْرِ، لو قال: والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله الخاسرونَ، لعُلِمَ المعنى، لكن قولَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أبْلَغُ، لأن الإشارةَ للتَّعْيِينِ.

وضميرُ الفَصْلِ يُفِيدُ الحَصْرَ، فيكون حَصْرُ الخسرانِ فيهم من جِهَتَيْنِ: من جهةِ التَّعْيِينِ بالإشارة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، ومِنْ جِهَةِ الفَصْلِ بالضَّمِيرِ ﴿هُمُ﴾، فهؤلاءِ خَسِرُوا صَفْقَتَهُمْ، فما رَبِحُوا بل تَضَرَّرُوا بهذه الصفْقَةِ.

واعلم أن ضَميرَ الفَصْلِ يُفِيدُ التوكيدَ والحَصْرَ، وكذلك التَّمْيِيزُ أو الفَصلُ بين الصِّفَةِ والخبرِ، ولهذا سُمِّيَ (ضمير فصل)، فإذا قُلْتَ: «زيد الفاضلُ»، يُحتملُ أن الفاضِلَ صِفَةٌ والخبرُ منتَظَرٌ يعني: زيدُ الفاضِلُ قائمٌ، فإذا قلت: زيدٌ هو الفَاضِلُ، تعَيَّنَ أن يكونَ خبرًا.

وضَمِيرُ الفَصْلِ الأصَحُّ أنه حَرفٌ لكنه بصِيغَةِ الضَّمِيرِ.

وبعضهم يقول: إنه ضَمِيرٌ، لكن ليس لَهُ مَحِلٌّ من الإعرابِ.

وبعضهم يقولُ: هو ضميرٌ ومَحِلُّهُ مِنَ الإعراب ما قَبْلَهُ.

لكنَّ الأخيرَ خلافُ قواعدِ اللُّغَةِ العربية؛ لأن الضَّمائرَ لا يُنْعَتُ بها ولا تُنْعَتُ، صَحيحٌ أنها تُؤَكِّدُ كما تقولُ: قام هو، والأرْجَحُ الذي عليه الأكثرُ أنه حَرْفٌ جِيءَ به للفَوائدِ الثلاثةِ السابقة.

وقوله: ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ اعلم أن الخُسْرانَ، يكونُ بفواتِ المحْبُوبِ ويكونُ بحصولِ المكْرُوهِ، والذي حصَلَ لهؤلاءِ المؤْمِنينَ بالباطِلِ الكافرين بالله كِلا الأَمْرَيْنِ، فهم فاتَهُمُ المطلوبُ ووقَعُوا في المكروه: فاتهم الثَّوابُ العظيمُ الذي أعدَّهُ الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين به مِنَ الجنَّاتِ، ووقَعُوا في المكروهِ وهي النَّارُ -والعياذ بالله- فخَسِرُوا الأمْرَيْنِ جَميعًا.

فـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في صَفْقَتِهِمْ، حيث اشتروا الكفرَ بالإيمانِ، فخَسِرُوا أنفُسَهُم وأهَلْيهم وأمْوالِهِمْ ودُنْياهُم وآخِرَتَهم، نعوذُ باللهِ من ذلك، خَسِرُوا أنفسهم لأن أنْفُسَهُم التي كانوا بِصَدَدِ أن يحْمُوها عَنِ المحارِمِ وعن الباطل ضَيَّعُوها فخَسِرُوها، ضاعَتْ مع نُفوسِ الهالِكِينَ، وخَسِرُوا أهْلِيهم لأن المؤمنين قد رَبِحُوا أهْلِيهِمْ في الدنيا والآخرة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور:٢١].

أما هؤلاء فخَسِرُوا ذُرِّيَّتَهم في الدُّنْيَا والآخِرَةِ ولم يَنْتَفِعُوا بها؛ لأن أهلَ النَّار لا يجْتَمِعُون ولا يتآلَفُونَ ولا يتحَابُّون، بل العَكْسُ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨]، وكلُّ إنسانٍ -والعياذ بالله- في تابُوتٍ مُعَذَّبٌ وحْدَهُ، وخَسِرُوا أموالهُم

أيضًا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال:٣٦]، ثم إن المالَ المفروضَ أن ينتفِعَ به الإنسانُ، لكنَّ هؤلاءِ الكفَّارَ لم ينتفِعُوا بمالِهُم، فمَهْمَا أنْفقُوا مِنْ نفقَةٍ فلن تُقْبَلَ منهم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤]، فهم الخاسرونَ من كُلِّ وجه -والعياذ بالله-، ولهذا حَصَرَ الخِسَارَة فيهِمْ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدة الأُولَى: أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شهادَتُهُ أعظَمُ وأكبرُ شَهادةٍ، لقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾، وفي سُورَةِ الأنعامِ قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:١٩].

الفَائِدةُ الثَّانِيةُ: أن شهادةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تكونُ بالقَولِ وبالفِعْلِ:

أما بالقول: فإنَّ الله تعالى يقولُ للنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٦٦].

وأما بالفعل: فإن تَمكِينَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لرَسولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الأرضِ ونَصْرَهُ إيَّاهُ وخُذلانَ أعدائِهِ أكبرُ شهادَةٍ على أنه صاحِبُ الحقِّ وأن أعدَاءَهُ أهلُ الباطل؛ إذن: فالشهادَةُ نوعان: شهادةٌ فِعْلية، وشهادة قَولِيَّة.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: إطلاقُ الشَّهادةِ على الحُكم، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ لم يقل: شَهِيدًا لي عَليكُمْ، بل قالَ: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

لو قال قائل: إذا كان عندَ الحاكِمِ شهادةٌ هل يحكُمُ بها؟

الجواب: إذا كانَ عندَ الحاكمِ شهادةٌ فلا يُحْكَمُ بها كما قالَ أهلُ العِلم، بل يُحوِّلُ القَضِيَّة إلى قاضٍ آخِرَ ويَشْهَدُ.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: إثباتُ عِلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لقولِهِ: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وإثباتُ عُمومِ عِلم اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعُمُومُ العِلم غيرُ مطْلَقِ العِلْم، فالإنسان عالمٌ، لكن عِلْمَهُ ليس بعام، أما اللهُ عَزَّوَجَلَّ فعالم وعِلْمُهُ عامٌّ شامِلٌ لكُلِّ شيءٍ.

الفَائِدةُ الخامِسةُ: إثباتُ تعَدُّدِ السمواتِ، لقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهي جَمْعٌ، وهي هنا مُبْهَمَةٌ، لكنها بُيِّنَتْ في آياتٍ متعَدِّدَةٍ بأنها سبعُ سمواتٍ.

الفَائِدةُ السَّادسَةُ: إثباتُ عِلم اللهِ لما يَفْعَلُه الإنسان؛ لأن ما يَفْعَلُه الإنسانُ داخلٌ في كونِهِ في السموات والأرض، فيكون في ذلك رَدٌّ على غُلاةِ القَدَرِيَّةِ الذين أنْكَرُوا عِلْمَ اللهِ وقالوا -والعياذ بالله-: إن الله تعالى لا يَعلَمُ أفعالَ العَبْدِ، وأن الأمْرَ أُنُف، أي: مستأْنَفٌ، وقد تقدم.

الفَائِدةُ السَّابِعة: أن الإيمانَ بالباطلِ والكُفْرَ باللهِ سببٌ للخَسَارَةِ، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، ويَتَرَتَّبُ على ذلك أن الخسرانَ يكونُ بقَدْرِ ما آمنَ الإنسانُ به مِنَ الباطِلِ وكَفَر به مِنَ الحقِّ، فأعْظَمُهُ الشركُ بالله عَزَّوَجَلَّ، ومنه ما هو دُونَ ذلك، كما لو آمَنَ بحُكْمٍ مخالِفٍ لحُكْمِ الشَّريعَةِ وكَفَر بحُكْمِ الشَّرِيعَةِ؛ فإن لَدَيْهِ مِنَ الخُسرانِ بقدر ما حصَلَ منه مِنْ هذه المخَالَفَةِ.

وما فَسَدَتْ أحوالُ العالم الإسلامي وغيرِ الإسلامي إلا بالحُكْمِ بغيرِ ما أنْزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ، ولو كانتِ الأُمَّةُ الإسلامية صادِقَةً في إرادَةِ العِزَّةِ والكرامَةِ والسعادَةِ والفَلاحِ، لرَجَعَتْ إلى الحكمِ بكِتابِ الله؛ لأن الحكمَ بالقُوانِينِ الوَضْعِيَّةِ المخالِفَة للشريعةِ لا شكَّ أنه خَسارةٌ بنَصِّ القرآنِ، لأنها باطِلٌ، وما أنزل به القرآن فَهُو الحقُّ، فيكون عليهم مِنَ الخسْرانِ بقدرِ ما خالَفُوا من الحقِّ.

الفَائِدةُ الثَّامِنةُ: أن من حَقَّقَ الإيمانَ باللهِ والكُفْر بالباطلِ فهو الرَّابِحُ، ويَدُلُّ على ذلك قَولُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

هل نأخُذُ من هذه الآيةِ أنَّ مَنْ آمَنَ بالباطِلِ فهو كافر بالله؟

الجواب: ظاهِرُ الآية أنهم لا يَكْفُرونَ؛ لأنها جمعَتْ أمْرينِ، والعَطْفُ يقْتَضِي المغايَرَةَ، ويمكنُ أن يُقالَ: إن قولَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ لبيانِ حالِهِمْ، وأنه يَلْزَمُ مِنَ الإيمانِ بالباطلِ الكُفرُ باللهِ، لأننا نقول: هب أنهم آمَنُوا بالباطلِ وآمنُوا بالله، هل يكونُ إيمانُهُم صَادِقًا؟

الجواب: لا؛ لأنَّ مَنْ آمَنَ بالله رَبًّا ثم ذَهَبَ يعْبُدُ صَنَمًا، هذا ليس بمؤمنٍ باللهِ، فإيمانهم بالباطِلِ يلْزَمُ منه كُفْرُهم بالله عَزَّوَجَلَّ.

لو قالَ قائلٌ: هل التَّحاكُمُ للمحاكِمِ غيرِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ الإيمانِ بالباطلِ، وهل هُو كُفْرٌ؟

فالجواب: من اعتَقَدَ في القَوانِينِ الوَضْعِيَّةِ المخالفةِ للشَّريعَةِ أنها حَقٌّ، فإننا نَحْكُمُ بكُفْرِهِ؛ لأنه إذا أثْبَتَ الحقَّ في أحدِ المتَضادَّيْنِ لَزِمَ أن يَنتفي الحَقُّ عن الضِّدِّ الآخَر.

فهذه المسألةُ خَطِيرَةٌ، فإشعارُ الناسِ مِنْ بعضِ أهلِ العِلْمِ أن هذه القَوانينَ الوضْعِيَّةَ صحيحةٌ وحَقٌّ، وهي تخالِفُ الشَّريعةَ؛ هذا خَطَرٌ عَظيمٌ.

لو قال قائلٌ: ما الحكم إذا قَرَّبُوا هذه القَوانِينَ الوضْعِيَّةَ إلى الإسلامِ؟

فالجواب: إذا أمكنَ أن نُصَحِّحَهَا بطريقٍ من الطُّرُقِ فهذا أَوْلَى؛ لكن كون هذه الأحكامِ مخالِفَة للشريعةِ، ثم نقول: إنها حقٌّ؛ فهذا خطأ ولا يجوزُ.

لو قالَ قائلٌ: ما الحُكْمُ إذا كانت هذه الأحكامُ الوضْعِيَّةُ يَكَمِّلُ بَعْضُها بعْضًا؟

فالجواب: الإيمان ببعضِ الكِتابِ والكُفْرُ ببعضٍ هو كُفرٌ بالجَميعِ؛ لأنه اتِّبَاعٌ للهَوَى، حيثُ أخَذَ ما يُوافِقُ هَوَاهُ.

ولو قالَ قائلٌ: الذين سَافَرُوا إلى الغَرْبِ وجَاءوا يتَحَدَّثُونَ عن الحياة والسعادةِ، هل يَدْخُلُونَ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ ...﴾ الآية؟

فالجواب: الذي يَمْدَحُ الغَرْبَ على سبيلِ الإطلاقِ، هذا في الحقيقة عنده جَهْلٌ عظيمٌ؛ لأن ما عليه الغربُ من حَقٍّ كالصِّدْقِ والإخْلاصِ في المعامَلَةِ وما أشبه ذلك يُحْمَدُون عليه إذا ثَبَتَ أنهم كذلك؛ لأن هذا هو العَدْلُ، وأما ما عندهم من بَاطلٍ وفِسْقٍ وفُجور وكُفْرٍ، فلا يحمدون عليه.

لو قال قائل: بَعْضُ العَوامِّ يقولون: أنتم دائمًا تَقُولونَ: الدَّجَّالُ سيَخْرُجُ، والآن له ما يزيدُ على أَلْفِ سَنَةٍ ولم يَخْرُجْ، هل هَذَا يَدْخُل في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾؟

الجواب: هؤلاءِ العوام يُنْصَحُونَ ونَقُولُ لهُمْ: ربما يكون هذا تَكْذِيبًا بالحقِّ فتكْفُرون وأنتم لا تَشْعُرونَ، إن كان شكًّا فهو يُشْبِهُ الاستعْجَالَ بالعَذَابِ، مع أن

الدَّجَّالَ ليس عَذَابًا فقط، بل هو عَذَابٌ على قومٍ ورَحْمَةٌ على آخرين، فهذا الذي يقتُلُه ويُحْيِيه هو أعْظَمُ الناس شهادَةً عندَ الله، وهو له رَحْمَةٌ، وعُمومًا هذا الكلامُ خَطِيرٌ.

ونقولُ لهم: أَلَسْتُمْ في كلِّ صلاةٍ تقولون: «نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المسِيحِ الدَّجَّالِ»[1]، والرسولُ ﷺ حَذَّرَ الصَّحابَةَ[2]، والصحابةُ خَافُوا حتى ظَنُّوا أنه في أطرافِ النَّخْلِ، خافُوا لشِدَّةِ إنذارِ الرَّسُولِ ﷺ لا لكونه سيَخْرُجُ، لكن كونُكَ أيضًا تُوهِمُ الناسَ أن الدَّجَّالَ سيَخْرُجُ الآن، أو أنه سَيأتِي بعدَ سَنَةٍ أو سَنَتَينِ، هذا غَلَطٌ لأنَّنَا لا عِلْمَ لنا بهذَا، بل نقول: إنَّهُ مِنْ أشْراطِ السَّاعةِ.

لو قالَ قائلٌ: ما حُكْمُ التَّحَاكُمِ إلى المحاكِمِ غيرِ الشَّرْعِيَّةِ، أي: التي تَحْكُمُ بالأحكامِ المخالِفَةِ للشَّرِيعَةِ؟

فالجوابُ: إذا أُلْجِئَ إلى المحاكَمَةِ إلى هذه المحاكمِ غيرِ الشَّرْعِيَّةِ، فإننا نقولُ بالجوازِ إذا كان وَسِيلَةً لاستِخْراجِ حقِّه، بشَرْطِ ألا يَقْبَلَ ما زادَ عَلَى الحقِّ، فالناسُ حقيقة مضطَّرون إلى هذا في البلادِ الأُخْرى لأن حَقُوقَهُم تَضِيعُ، ولو قيل بالمنْعِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٧٩٨)؛ ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، رقم (٥٨٩)، عن عائشة.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، رقم (٧١٢٧)؛ ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد، رقم (١٦٩)، عن ابن عمر، واللفظ لمسلم: قام رسول الله ﷺ في الناس، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: «إني لأنذركموه، ما من نبي إلا وقد أنذره قومه، لقد أنذره نوح قومه، ولكن أقول لكم فيه قولًا لم يقله نبي لقومه: تعلموا أنه أعور، وأن الله تبارك وتعالى ليس بأعور».

لكان له وَجْهٌ؛ لأن التحاكمَ إليه يُوجِبُ اغترارَ المسلمين بذلك، لكنَّ جوازَ التَّحاكُمِ هو الظَّاهِرُ، إلا إذا كانت المفْسَدَةُ متيَقَّنَةً فيَجِبُ أن تَتَجَنَّبَ هذا وتجعلَ مَا لك مِنْ حقٍّ مِنَ الأُمورِ التي قَدَّرَ الله عليها التَّلَفَ بحَريقٍ أو بِلُصوصٍ تَسَلَّطُوا عليه، وإذا كان عَالمًا أو قُدْوة ويُخشَى أن تكونَ مَفْسَدَةٌ من تحاكُمِهِ، فالأَوْلَى ألا يَتَحَاكَمَ إليهم، إلا إذا تَيَقَّنْتَ المفسدةَ فيَجِبُ عدمُ التَّحاكُمِ، ويَرَى أن هذا أمرٌ قَدَّرَهُ الله عَزَّوَجَلَّ عليه، ولو جعل مُحَاميًا عنه -أي وكيلًا عنه- قد يكونُ أخْفَى وأَوْلى؛ لأنَّه قُدْوَةٌ؛ هذا إذا كان مضطرًا لذلك.

وأما حُكْمُ من يعْمَلُونَ في هذه المحاكمِ غيرِ الشَّرْعِيَّةِ: فإذا كان عمَلُهُم للتَّخْفِيفِ من مخالَفَةِ الشرعِ فهذا لا بأس به، بل قد يَجِبُ عليهم هذا إذا قالوا: سنكونُ حُكَّامًا لأجلِ أن نَحْكُم بالشَّريعَةِ بقدرِ ما نَسْتَطِيعُ، وكي نُخَفِّفَ الأحكامَ المخالِفَةَ للشرعِ، مثاله: في بعض الأحيان يَحْكُمُ بالحقِّ، وإذا أُجْبِرَ حَكَمَ بالحقِّ ثم أتى بمُبَرِّرَاتٍ تُخَالِفُ معارضَةَ هذه الأحكامِ الوضْعِيَّةِ، فهذا يجبُ عليه الدُّخولُ، أما إذا كان لا يُمْكِنُ أن يحْكُم إلا بالطَّاغوتِ، فلا يجوز أن يدْخُلَ هذه المحاكم ولا يعمل فيها.

الآيات (٥٣-٥٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٣-٥٥].

قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ يعني: يَطْلُبونَ منك التَّعْجِيلَ بالعذابِ، قال تعالى في آيةٍ أُخْرَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾ [السجدة:٢٨-٢٩].

هذا تحدٍّ للرُّسُلِ والعِياذُ بالله- وعلى رَأسِهِمْ خاتمهم محمد ﷺ، وهذا كقولِهِمْ في البَعْثِ: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥]، انظر إلى الشُّبْهَةِ، نعم شُبْهَة وليست بحُجَّة، الرسلُ قالوا بالبعثِ في الآخرةِ لا في الدُّنْيَا، ومع ذلك قالُوا: ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، فالرُّسلُ لم يقولوا لكُمْ أيها الكفار: إنهم سَيُبْعَثُونَ اليوم حتى تَقولُوا: ائتُوا بآياتِنَا!!

فالحاصلُ: أن هؤلاء يستَعْجِلُونَ بالعَذابِ لا أنهم يُرِيدُونَ العَذابَ، بل يستَعْجِلُونَهُ تحدِيًّا، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ

مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال:٣٢]، وأحيانًا يَسْتَعْجِلُونَه كالمضطهد الذي يُريدُ أن يَنْتَحِرَ، فهم يقولون: إن كان هذا هو الحقُّ فإنا لا نُرِيدُ البقاءَ في الدُّنيا، ولِيَأْتِنَا العذابُ حتى نَتَخَلَّصَ من هذه الدنيا، لكن الغالبَ أن المستَعْجِلِينَ بالعذابِ يُريدونَ التَّعْجِيزَ والتَّحَدِّي، بدليل قولهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:٢٣].

لو قال قائل: هل المَبَاهَلَةُ تكون معَ المسلِمِينَ أم معَ الكفَّارِ فَقَط؟

الجواب: المباهَلَةُ تكونُ مع غيرِ المسْلِمينَ وتكونُ مع المسلمين، وابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا طَلَبَ المباهَلَةَ في بعضِ مسائلِ الفرائضِ.

قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ (ال) هنا هَلْ هِي للعَهْدِ أو لبيانِ الحَقيقَةِ؟ إذا قلنا: إنها للعَهْدِ، يكونُ المرادُ العذابَ الذي وُعِدُوا به، الذي قال لهُمْ الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: إنه سيقَعُ بهم، وإذا قُلْنَا: إنها لبيانِ الجِنْسِ صارتْ أعَمَّ من ذلك.

﴿وَلَوْلَآ ﴾: شَرْطِيَّةٌ ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ هذا جوابُ الشَّرْطِ.

﴿أَجَلٌ ﴾: مبتدأٌ سَوَّغَ الابتداءَ به وُقُوعَهُ في سياقِ الشَّرطِ، وكذلك وصَفَهُ بقوله: ﴿مُّسَمًّى ﴾، وخبرُ المبتدأ محذوفٌ وُجُوبًا والتَّقْدِيرُ: لولا أجَلٌ مُسَمًّى مُقَدَّرٌ.

والشاهِدُ على حذفِ الخبرِ مِنْ كلامِ ابنِ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَبَعْدَ (لَوْلَا) غَالِبًا حَذْفُ الخَبَرْ ... حَتْمٌ وَفِي نَصٍّ يَمِينٍ ذَا اسْتَقَرْ

---

(١) البيت رقم (١٣٨) من ألفيته.

وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ الأجَلُ: هو غايَةُ الشيءِ يعني: لَولا الغَايةُ التي حَدَّدَها اللهُ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُّسَمًّى﴾ أي: مُعَيَّنٌ أو محدَّدٌ بنظامٍ وانتظامٍ لا يَزِيدُ ولا يَنْقُصُ، فأفعالُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تابِعَةٌ لِحِكْمَتِهِ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ كُلَّ شيءٍ عندَهُ بمقدارٍ، حتى القَطْرَةُ التي تنْزِلُ مِنَ السماءِ لا تَنْزِلُ إلا بمقدارٍ في وَزْنِها وحَجْمِهَا وزَمَنِها ومكانِهَا، ولهذا قال: ﴿مُّسَمًّى﴾، ويَدُلُّ لهذا قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٨-٩]، لا يَخْفَى عليه شيءٌ ولا يَشِذُّ عن تَقْدِيرِهِ شيءٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد:٤١].

وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ استَعْجَلُوا العذابَ ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يَحْلُمُ ويَحْكُم ويُحْكِم فهو حَلِيمٌ حَكِيمٌ، فلولا أجلٌ مُسَمًّى لجاءهُمُ العذابُ عاجلًا، ولكن سيُنْزِلُهُ الله عنْدِمَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ.

ولو كان عَزَّوَجَلَّ كُلَّما طلَبَ هؤلاءِ من آيَةٍ أعْطاهُم وكُلَّما استَعْجَلُوا بالعَذَابِ عاجَلَهُمْ؛ لفَسدتِ الأرضُ، قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١]، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ حكيمٌ يُقَدِّرُ الأشياءَ حسبَ ما تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ، وهذه الحكمة لغايَةٍ قد نَعْلَمُهَا ولو مُسْتَقْبلًا، وقد لا نَعْلَمُهَا لأن عِلْمنَا مَحْدُودٌ، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

ثم قالَ مُتَوَعِّدًا لهم: [﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بِوَقْتِ إتْيانِهِ]: وقوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ هذه الجملَةُ مؤَكَّدَةٌ بثلاثِ مؤكِّدَاتٍ: القَسَمِ المقَدَّرِ، واللامِ، ونونِ التَّوْكِيدِ.

ومعنى: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ يَجِيئُهُمُ -أي العذاب- بَغْتَةً.

البغْتَةُ: كل ما باغَتَ الإنسانَ، أي: أتاهُ من غَيْرِ تَوَقُّعٍ لَهُ.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جملة مُؤكِّدَةٌ لقوله: ﴿بَغْتَةً﴾ لأن المبَاغِتَ للإنسانِ يَأْتِيهِ بدُونِ شُروطٍ، وقيلَ إنها جملة مُسْتَقِلَّةٌ بمعناها، وإن قوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ هذه صِفَةُ وُقوعِ العَذابِ، ففيه تهديدٌ وتَحْذِيرٌ، أي: فاحْذَرُوا أن يأْتِيكُمْ، وأن قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أنه لا يأْتِيهِمُ الآن؛ لأنهم إذا أتاهُمُ العذابُ حين طَلَبهُمْ يكونُ قَدْ أتاهُمْ وهم متوَقِّعُون له شَاعِرُونَ به فيكون أخفَّ وَقْعًا، ولكنه سيأْتِيهِمْ في غيرِ وقْتِ طَلَبِهِمْ، والحال أنهم لا يشْعُرونَ.

وعلى القولِ الأَوَّلِ أنها توكيدٌ لقولِهِ: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ فيكونُ هذا مُفسَّرًا بقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٨]، فالإنسانُ النائمُ ليس مُستَعِدًّا للعَذابِ، بل هو آمِنٌ غايَةَ الأمْنِ، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال:١١]، وكذلك الإنسان الذي يلعب في رابِعَةِ النهار هذا أيضًا آمِنٌ، ولكنَّ الله هدَّدَ هؤلاءِ المبْطِلِينَ في حال أمْنِهِمْ أن يأْتِيهُم عذابُ الله عَزَّوَجَلَّ بَغْتَةً.

وظاهرُ الآية الكريمةِ أن هذا في الدُّنْيا، ولا فَرقَ بينَ أن يكونَ هذا العذابُ على يَدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأصحابِهِ أو مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فالعذابُ الذي أَتَى قُرَيشًا لما دَعَا النَّبِيُّ ﷺ ربه فقال: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ**»[1]،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب تسمية الوليد، رقم (٥٨٤٧)؛ ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، رقم (٦٧٥) عن أبي هريرة.

فأَصَابهُم الجَدْبُ والقَحْطُ والجوعُ؛ هـذا العذابُ مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك ما كان على أَيْدِي المؤمنينَ في غَزوةِ بَدْرٍ فإن تلكَ الغزوةَ أصابَتْهُم إصابةً بالِغَةً عظِيمَةً، ولهذا سَمَّى الله يومَهَا يومَ الفِرقانِ، ما من بَيْتٍ من بُيوتِ مكَّةَ الكبارَ إلا وقَدْ أُصيبَ بهذه المصِيبَةِ وعُذِّبَ بهذا العذابِ.

وعلى العُموم فإن قُرَيشًا أُصِيبُوا عامَّةً بنكْبَةٍ بالِغَةٍ لأن صَنَادِيدَهُم ورُؤساءَهم قُتِلُوا، ثم قُتِـلُوا وغُلِبُوا وأُسِرُوا وهُزِمُوا وخابُوا، على حين أنهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٤٧]، خرَجُوا وقد جَزَمُوا أنهم غَانِمُونَ وهازِمُونَ للرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأصحابِهِ، ويقـول أبو جَهْلٍ: واللهِ لا نَرْجِـعُ حتى نَقْدَمَ بَدْرًا فنَنْحَرُ الجَزُورَ، ونُسْقَي الخمور، وتُعْزَفُ علينا القيانُ، ويَسْمَع بِنَا العرب فلا يزالونَ يهَابُونَنَا أَبَدًا[1].

لكِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ مِنْ ورَائِهِمْ مُحيطٌ، فالذي حَصَلَ أن العربَ تَحَدَّثُوا بهم، وأن القِيانَ عَزَفَتْ عليهِمْ بالنَّعْي لا بالفَرْحِ، وأنهم سُقُوا كأسَ الحِمامِ ولم يُسْقَوا الخَمْرَ، فصارَ الأمرُ عكسَ ما قالُوا تمامًا، والنَّبِيُّ ﷺ رفعَ اللهُ رايَتَهُ ونصَرَهُ، ووقَـفَ عليهم مُوَبِّخًا على القَلِيـبِ وهم جُثَثٌ هامـدَةٌ، يقول: «**يَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ! هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللهُ حَقًّا، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللهُ حَقًّا**»[2]، هل يُوجَدُ أبلغُ من هذا الذُّلِّ

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ١٦٦) غزوة بدر الكبرى، أبو سفيان يرسل إلى قريش يطلب منهم الرجوع.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، رقم (٣٧٥٧)؛ ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه...، رقم (٢٨٧٤) عن أنس، ولفظ مسلم: أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثًا ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: «**يا أبا جهل بن هشام! يا أمية بن خلف! يا عتبة بن ربيعة! يا شيبة بن ربيعة! أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًا**».

والعارِ -والعياذ بالله- وسبعون رَجُلًا منهم أُسِرُوا ولم يُطْلَقُوا إلا بفَـداءٍ، وصَاروا بَدَلَ الكَرَاسِي العالية يُدرِّسونَ الصِّبْيانَ في المَدِينَةِ ويُعَلِّمُونَهُم الكتابةَ، هذا ذُلٌّ ما وراءَهُ ذُلٌّ، وعذابٌ ما وراءه عَذَابٌ!

وليس في الحقيقة العذابُ ألمَ البدنِ فقط، أنا عندي وعندَ كُلِّ النَّاسِ أن العذابَ المهِينَ هو ألمُ القَلبِ والنَّفْسِ، هذا أشـدُّ وأعْظَمُ، فالعذابُ العظيـم في الحقيقةِ هو عذَابُ القَلْبِ، ولِذَلكَ إذا مَنَّ الله على الإنسانِ بقَلْبٍ مُطْمَئِنٍّ وصدْرٍ مُنْشَرِحٍ مهما يحْدُثُ لا يتعَذَّبُ ولا يتألَّمُ بشيء.

الحاصِلُ أن ما أصابَهُم بفِعْـلِ الله عَزَّوَجَلَّ أو بفِعْلِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو مِنَ العَذابِ بَغْتَةً، وكذلك أيضًا ما يُصِيبُ الواحِدُ منهم عند الموت -وما أقْرَبُ الموتِ مهما طالتْ بالإنسانِ الحياةُ- إذا جاءَهُ الموتُ يُبَشَّرُ بغضبٍ من اللهِ وسَخَطٍ، ويقال لرُوحِهِ: اخْرُجِي أيتها الروحُ الخَبِيثَةُ[1]، فهذا -والعياذ بالله- مِنَ العَذابِ، فعَذَابهم في الدُّنيا وعندَ الموتِ، وفي الآخِرَةِ العذابُ المهينُ.

لو قال قائل: هل يستفادُ من قوله تعالى: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ جواز أن يقولَ الإنسانُ: هذا وَقَعَ صِدْفَةً؟

الجواب: هذا فيه تفصيلٌ: أما بالنِّسْبَةِ للخالقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلا يجوزُ التَّعْبِيرُ بكلمَةِ صِدْفَةٍ، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يقولَ: إن الله تعالى أوْقَعَ هذا صُدْفَةً، بمعنى أن الله جَلَّ وَعَلَا ما أرَادَهُ وقدَّرَهُ، لكن بالنسبة للإنسان نَفْسِهِ، فالإنسانُ قاصِرُ العِلْمِ يقَعُ الشيءُ عليـه بدُونِ تَوَقُّعٍ، فيقـول: حصل كذا صُدْفَةً أو صادَفَنِي فُـلانٌ، والمعنى:

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبور وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣)؛ وأحمد (٤/ ٢٨٧) (١٨٥٥٧) عن البراء بن عازب.

لَقِيَنِي بدونِ سابِقِ عِلْمٍ، فهذا لا بأسَ به، وما زالَ النَّاسُ يُعَبِّرُون بهذا.

قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ يعني: يَطْلُبـونَ منْكَ تَعْجِيلَهُ، ولكن الأمورَ مُقَدَّرةٌ في يدِ الله عَزَّوَجَلَّ، ولهم عذابٌ لن يَسْتَطِيعُوا الخلاصَ منه، لهذا قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هذه الجملَةُ مؤَكَّدَةٌ بمُؤَكِّدَيْنِ بـ(إنَّ) و(اللام).

ومعنى الإحاطَةِ بالشيءِ، أن يَأْتِيهُ العَذابُ من كلِّ جانِبٍ، و﴿جَهَنَّمَ﴾ هي اسم للنَّارِ أعاذَنَا الله منها، وسُمِّيَتْ بذلك لأمرين: لبُعدِ قَعْرِهَا، وسوادِها، فهي من الجَهمة، والنون زائدة فيها، وعلى هذا فيكونُ وَزْنُها (فَعَنْلَلَ) وقيل: إنها اسم أجْمَي وإن أصلها (كهنام) في اللغة الأعجمية، لكن عندما عُرِّبَتْ حصَلَ فيها تَغْيِيرٌ فصارَتْ جَهَنَّمَ.

والغريب أن العَجَمَ الآن عندما يتحدثونَ إذا أرادُوا أن يُعَبِّرُوا عن النارِ يقولون جهَنَّم حتى نار الدُّنيا يُسَمُّونَها جهنم مع أننا نقول جهنَّم للنارِ العظيمَةِ، أما النار التي تَشْتَعِلُ بعودِ الكبريتِ فلا نُسَمِّيهَا جهنَّم لكن عندَ العجمِ اسمٌ لمطْلَقِ النَّارِ.

وأما حديثُ: «أُوقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ عَامٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ...» الحديث[1]، فهو حديثٌ ضعيفٌ، لكن مادة الجِيمِ والميمِ تَدُلُّ على هذا، والجَهمة في اللُّغَةِ الظُّلمَة، فهي سوداءُ مظلِمَةٌ والعياذ بالله.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٨٩) (٢٥٨٣) عن عمر بن الخطاب بلفظ: «إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم امر فأقد عليها ألف عام حتى اسودت»؛ والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤٨٩) (٧٩٩) عن أنس.

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ ولم يقل: (يسْتَعْجلونَكَ العذابَ)، هذا الفعلُ يتَعَدَّى بالباء وبنفسه، تقولُ: استَعْجَلَ به، واستَعْجَلَهُ، والظاهر أنها من جِنْسِ: شَكَرَهُ وشكر له.

لو قال قائل: الشخصُ من أهلِ الجنَّةِ رَأى شَخْصًا يُعَذَّبُ -وإن كان المعذَّبُ مستَحِقًّا للعذاب- ألا يتَألَّم، والجنَّة لا ألمَ فيها ولا كَدَرَ، فكيفَ نَجْمَعُ بين هذا ورؤيتُهُمْ لأهلِ النَّار وهم يُعَذَّبونَ؟

الجواب: إن عذابَ أهلِ النَّارِ يزيدُ سُرورَ أهلِ الجنَّة واغْتِباطَهُم بنِعْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، ويَدُلُّ على هذا قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات:٥٦-٥٧].

ومن وَجْهٍ آخرَ: أن الإنسانَ في الحَقِيقَةِ يُسَرُّ إذا رَأى عَدُوَّهُ يُعَذَّبُ ولو كان عَذَابًا عظيمًا، خصوصًا إذا كان في وقتٍ لا يتَمَكَّنُ من الاستِعْتَابِ، فالآن هذا العَدُوُّ لا يمكن أن تحسُنَ حاله حتى يكونَ وَلِيًّا لي.

قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الحمدُ للهُ قال: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يَقُلْ: بالظالمين، الكافِرُ يكونُ في قَعْرِ الجَحِيمِ والعِياذُ بالله، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٥٥]، أي: في المكانِ السَوِيِّ منها وهو الوسطُ، فهؤلاء -والعياذ بالله- تُحِيطُ بهم النارُ من كُلِّ جانبٍ؛ لأن الإحاطَةَ تَقْتَضِي ذَلِكَ، لكن يُشْكِلُ على هذا قولُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٥٥]، يغْشَاهُمُ العَذابُ: يعني يُغَطِّيهِمْ، ومنه قوله: ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقولُهُ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل:١]، يعني: يُغَطِّي الأرضَ بسَوادِهِ، فعَلَى هذا يَغْشَاهُمُ العذابُ، أي: يُغَطِّيهم، لكن مِنْ فوقِهِمْ ومن تحتِ أَرْجلِهِمْ.

ونحن قلنا: الإحاطةُ من كلِّ جانبٍ، فهل يكون قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، مخصِّصًا لهذه الإحاطة، وتكونُ الإحاطَةُ من فوق ومن تَحت، أو يقال: إن تغْشِيَةَ العذابِ أبلغُ من إحاطة النارِ، وهذا هو الأقرب، وخصَّ الفوقَ والتحتَ لأنه لا يُمْكِنُ الفِرارُ مِنْهُ، لكن الجوانبَ يمكنُ الفِرارُ منها، فإذا جاء العذابُ من الخلفِ تَفِرُّ إلى قدَّام، وإذا جاءَ من قُـدَّامَ تَفِرُّ إلى الخلْفِ، ومن يمين تَفِرُّ إلى يسـار، ومن يسار تَفِرُّ إلى يمينٍ.

وقال بعضُ المفسِّرينَ: خَصَّ الفوقَ والتحتَ لأن نارَ الدُّنيـا لا تَأتِي مِنْ فوق ومن تحت، بل تكون من جانِبٍ إلى جانِبٍ، وهذا منقوضٌ بمن أُلْقِيَ فِي نفسِ النَّارِ، فإن النارَ تأْتِيهِ من جميعِ الجهاتِ.

والذي نَرى -والله أعلم- أن ما بعدَ قولِهِ: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ﴾ لا يُخَصِّصُهُ، فتكونُ الإحاطةُ عامَّةٌ من كلِّ جانِبٍ، وتَغْشِيَةُ العذابِ من فوقَ ومن تحت يُشَدِّدُ عليهم أكثر، فتكونُ تَغْشِيَةُ العذاب أشدُّ من الإحاطَةِ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يَغْشَاهُم: أي يُغَطِّيهِمْ، وتقدَّم تفسيرُ هذا في الآية التي قَبْلَها، وقلنا: إن قوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ليس مُخَصِّصًا لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وقلنـا: إن الإحاطَةَ عامَّةٌ وتَغْشِيةُ العذابِ من فوق ومن تحت للتَّشْدِيدِ عليهم، وأن التَّشْغِيَةَ أشدُّ مِنَ الإحاطَةِ.

قوله: [﴿وَيَقُولُ﴾ فِيهِ بالنُّونُ أي: نَأْمُرُ بالقولِ، وبالياء (يقول) أي: يقُولُ المَلَكُ الموكَّلُ بالعَذابِ]:

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نقولُ، أي: نَأْمُرُ]، هذا في الحقيـقة تحريفٌ من المُفَسِّر

رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ما الدَّاعِي لصَرْفِ اللَّفْظِ عن ظَاهِرِهِ؟ ولهذا فالمتَعَيِّنُ أن يكونَ القائل هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون:١٠٨-١٠٩]، وهذا واضحٌ وصَرِيحٌ أن القائل هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وهنا أيضًا في هذه الآيةِ القائلُ هو الله جَلَّوَعَلَا، فقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نقولُ، أي: نَأْمُرُ مَنْ يقولُ] تحريف، فما الذي يمْنَعُ أن الله تعالى هو الذي يقولُ؟ ! أليس الله عَزَّوَجَلَّ يتكَلَّمُ بما شاءَ ومتى شاءَ، وكلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مسموعٌ بصوتٍ لا يُشْبِهُ الأصواتَ وبحروفٍ يفْهَمُها المخاطَبُ بهذا الكلامِ، ومما يدُلُّ على أن القائل هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن القراءةَ الثانِيَةَ بالياءِ، فلو فسَّرنا قوله تعالى: (نقول) بأنه المُلْكُ لخالَفْنا القراءة الثانية، والقراءات يُفَسِّرُ بعْضُها بعضًا كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات:٦]، فمَعْنَى (تَبَيَّنُوا) فسَّرتها القراءةُ الثانيةُ «فتَثَبَّتُوا».

واعلم أن مَنْ يعْتَقدُ مَذْهبًا مِنَ المذاهبِ تَجِدُهُ يحرِّفُ الكلِمَ عن مواضِعِه لأجلِ أن يُوافِقَ ذلك المذْهَبَ، وهذا خطيرٌ جدًّا، فالواجبُ أن يكونَ الإنسانُ نحو الأَدِلَّةِ ساذَجًا، بمعنى خالِيًا وتابِعًا تَمامًا للدَّلِيلِ، ولا يجعلُ الدليلَ تابِعًا، بل يجعلُ نَفْسَهُ تبَعًا للدَّلِيلِ، ويكونُ كالأرض التي ليس فيها عُشْبٌ ولا نَباتٌ، فهي مهَيَّأَةٌ لما يُبْذَرُ فيها، بخلافِ الأرض التي يُوجدُ فيها نباتٌ من قَبْل، فلا بُدَّ أن يكونَ الغَرْسُ مثلَ النباتِ الذي قَبلَهُ.

لو قال قائل: أهلُ السُّنَّةِ يقولون: إن الله جَلَّوَعَلَا يتكَلَّمُ بحرفٍ وصوتٍ، مع أن قولهم: «بحرف وصوت» لم يأتِ به النقْلُ في الكتاب والسُّنَّةِ، فما الجوابُ؟

الجواب على هذا: أولًا: ينبَغِي أن نَعْرِفَ أن أهلَ السُّنَّةِ والجماعَةِ -جعلنا الله منهم- صارَ لهم أحْوالٌ وأوْقاتٌ يُنَزِّلون كلَّ حالٍ وكلَّ وقتٍ منْزِلَتَهُ.

ثم هم ابتلوا بقومٍ يقولون: إن كلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ هو المعنى القائمُ بالنَّفْسِ، وهذا القولُ في الحقيقة نفيٌ لكلامِ الله عَزَّوَجَلَّ، فاضْطَرَّ أهلُ السُّنَّةِ أن يقولوا: «بحرفٍ وصوتٍ» تأْكِيدًا لمعنى الكلامِ فقط، فهم مضْطَرُّونَ لمقابلةِ هؤلاء، ولهذا لما قيلَ للإمامِ أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنهم يأْتُونَ بكلماتٍ لأجلِ دفعِ إيهامِ القَولِ بما يقُولُه أهلُ الباطِلِ، لو سَكَتَ السَّلَفُ وقالوا: «القرآنُ كلامُ اللهِ» فقط، صارَ في هذا إيهامٌ، حتى إن الإمامَ أحمدَ سُئلَ عن رجلٍ يقولُ: إن الله معنا، ولا أزيد على هذا؟ قال: قَدْ تَجَهَّمَ؛ لأن الجهمية كانوا يُضِلُّونَ الناسَ، أحيانًا يُصَرِّحُونَ ويقولون: إن الله مَعَنَا بذاتِهِ في الأرض، وأحيانًا يقولن: إن الله مَعَنا، لأجل أن يهْرَبُوا مِنْ إثارَةِ الناسِ عليهم، فهم يتَسَتَّرُون بمثل هذا الشيءِ.

وكذلك السَّلَفُ يقولون: إن الله استَوى على العَرْش بذاتِهِ، وقولهم: «بذاتِهِ» ليست موجودة في الكِتابِ والسُّنَّة؛ لأنهم لو قالوا: استَوى على العَرْشِ، وسكَتُوا، لقال لهم أولئك المحرفون: نعم هو عَلا على العرشِ لكن عُلُوًّا معْنَويًّا، فيكون (استوى) بمعْنَى (استَوْلَى)، فاحتاجَ السلَفُ أن يقولوا: «بذاتِهِ».

كذلك عَبَّرَ بعْضُهُمْ في حديثِ النُّزولِ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»[1] فقالوا: بذاتِهِ؛ دَفْعًا لتَحريفِ من قالوا: ينزلُ أَمْرُهُ أو مَلَكٌ من ملائِكَتِهِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)؛ ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل...، رقم (٧٥٨) عن أبي هريرة.

أو تَنْزِلُ رَحْمَتُهُ.

فالسلفُ -رحمهم الله- يُضِيفُونَ بعضَ الكَلماتِ لدَفْعِ تَوَهُّمِ الباطِلِ، كما أنهم يَسْكُتونَ عن بعضِ الكَلماتِ خَوْفًا مِنْ توَهُّمِ الباطلِ.

وقد ذكرَ شيخُ الإسلامِ أن مسألةَ الذاتِ لم ترِدْ في لسانِ العربِ العُرباءِ[1]، لكنها عبارةٌ صَحِيحَةٌ فجوَّزَ الإخبارَ بها عنِ الله، ولكن لا نجْعَلُها من أسماءِ الله عَزَّوَجَلَّ، كما يجوزُ أن تقول: (إن الله موجودٌ)، والموجود ليس من أسماءِ الله عَزَّوَجَلَّ، لكن من المعلومِ أنه لا بُدَّ مِنَ الإقرارِ بأن الله مَوجودٌ، فنُخْبِرُ عنِ الله بأنه موجودٌ وفي أسماءِ الله ما يُغْنِي عنها، مثل الحيِّ الذي لا يَمُوتُ.

وكذلك (القديم) يَصِحُّ أن تُخْبِرَ عنه بأنه قَديمٌ، والمراد بالقديمِ ما لا أَوَّلَ له، لكن لا يجوزُ أن تجْعَلَ القَديمَ اسمًا من اسماءِ الله عَزَّوَجَلَّ، خِلافًا لبعضِ المتأخِّرينَ الذين جعلوا أخصَّ أوصَافِهِ أنه قديم، وهذا ليس بصحيحٍ، وفي القرآنِ والسُّنَّةِ ما يُغْنِي عنه وهو (الأول)، وهو أيضًا أبلَغُ مِنَ القديمِ؛ لأن القديمَ قد يُطْلَقُ على الحادِثِ المتقَدِّمِ كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، فالقديمُ لا يَدُلُّ على السَّبْقِ المطْلَقِ؛ ولأن الأَوَّلَ يُفيدُ معنى زائدًا على تَقَدُّمِ الزَّمَنِ، وهو أن الأشياءَ تَؤول إليه وترْجِعُ إليه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢].

لو قالَ قائلٌ: وهل نأْخُذُ من ذلكَ جوازَ تَغَيُّرِ الفَتْوى بتَغَيُّرِ الزمانِ؟

فالجواب: أهل العلمُ تتغَيَّرُ فتواهُم مَعْنَوِيًّا لا لَفْظيًا بتغَيُّرِ الزمان، هذا عُمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أجازَ الطلاقَ الثلاثَ وجعلَهُ طَلَاقًا بائِنًا، مع أن النَّبِيَّ ﷺ وأبو بكرٍ يجعلُونَ

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٩٩).

طلاقَ الثلاثِ واحدة[1]، بل هو نَفْسُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يجعْلُ الطلاقَ الثلاثَ واحدةً سنتَيْنِ من خلافَتِهِ، لكن لما رَأَى النـاسَ كَثُرَ فيهم هذا الشيءَ أرادَ أن يُلْزِمَهم لأجـلِ أن يرْتَدِعُوا.

ونحن دائمًا نقَرِّرُ أن العِلمَ ليس مجرَّدَ علمٍ، بل هو عِلْمٌ وتَرْبِيَةٌ، فأهمُّ شيءٍ أن يُرَبَّى الناسُ على الشريعةِ، ولهذا يُرْوَى عن عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بما يَعْرِفُونَ، أتُرِيدُونَ أنْ يُكذَّبَ اللهُ ورَسُولُهُ»[2].

وقوله: ﴿وَيَقُولُ﴾ أضافَهُ الله إلى نَفْسِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بصِيغَةِ العَظَمَةِ هذا على قراءةِ النُّونِ؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعظَمُ العُظماءِ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨١]، ومعلومٌ أنه واحِدٌ، لكن هذا من بابِ التَّعْظِيمِ، ولا شكَّ أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عظيم، وقد سبق أن مَا أضافَهُ الله لنَفْسِهِ بصِيغَةِ العظمةِ قد يُرادُ به نفسه جَلَّ وَعَلَا، وهذا هو الأصلُ وهو الغالبُ الكثيرُ، وقد يُرادُ به ملائكَتُه إذا وُجِدَتْ قرينةٌ ودَلِيلٌ.

وقوله: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الأمر هنا للإهانَةِ، لإهانَتِهِمْ وتوبِيخِهِمْ.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (ما): اسم موصولٌ بمعنى الذي، وعلى هذا فيكونُ العائدُ مَحْذُوفًا، والتقدير: ما كُنْتُم تعملونه، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: جَزَاءَهُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب طلاق الثلاث، رقم (١٤٧٢) عن ابن عباس بلفظ: «كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن الخطاب: إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم».

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا، رقم (١٢٧).

فلا تَفُوتُونَا]، وهو كذلك، لكنه عبَّرَ بالعملِ نَفْسِهِ لأنه السببُ، ولأن الجزاءَ مِنْ جِنْسِهِ.

من فوائد الآيات الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: سَفَهُ هؤلاءِ الكفَّارِ، فإن الإنسانَ إِذَا وُعِدَ بالشيءِ فإن العَقْلَ والرُّشْدَ يقْتَضِي ألا يسْتَعْجِلَ به لقولِهِ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾، ولهذا قال مؤمنُ آل فرعونَ لقومِهِ: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨].

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن هؤلاءِ الكُفَّارِ قومٌ عُتَاةٌ معانِدُونَ، ولهذا تَحَدَّوُا الرُّسُلَ باستِعْجالِهم العذابَ، لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: إثباتُ حِكْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنها غايةٌ في الكَمالِ، لقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾. فلولا الحكمةُ لعُوجِلُوا بالعَذابِ لاستِعْجالهم به، ولكن الحكْمَةَ تقْتَضِي عدمَ ذلكَ.

وانظر إلى غايةَ الحِكْمَةِ الإنسانيةِ في قولِ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لملكِ الجبالِ لما قال له: إن شئتَ أنْ أُطْبِقَ عليهم الأخشَبَين؟ فقال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»(١)، ما ظنُّكَ لو أن مِثْل هذا وقعَ لأحدِ النَّاسِ، قومٌ كذَّبُوه وأخرجُوه من بَلَدِه ثم رجَعَ من البلدِ الآخَرِ على نفس الحال، مقْتَضَى الطبيعةِ البشرية إذا جاء من يُمَكِّنُكَ منهم ويقول:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء...، رقم (٣٠٥٩)؛ ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٥) عن عائشة.

سأُهْلِكُهم، لك أن تقول: نعم وجزاكَ الله خيرًا، لكن الحكمةَ هي التي تمْنَعُ الإنسانَ من أيِّ فِعْلٍ لا يُحْمَدُ عُقْباهُ، ولذلك يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

وكثيرًا ما ينْدَمُ الإنسان على تَصَرُّفاتِهِ بسببِ عدمِ الحِكْمةِ، فلهذا يجِبُ على الإنسان أن يُغلِّب جانب العَقْلِ دائمًا لا جانِبَ العاطِفة؛ لأن جانب العاطِفَةِ فيه خَللٌ كثيرٌ، لكن تغليبَ جانبِ العقلِ هذا هو الحِكمَةُ.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: أن أفعال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مقدَّرَةٌ منظَّمَةٌ لا تأتي صُدْفةً بغيرِ عِلْم ولا بغيرِ رَشَدٍ، بل هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كاملُ العِلم كامِلُ الحِكمَةِ، كلُّ أفعالِهِ مُقَدَّرَةٌ منظَّمَةٌ لقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: أن الحوادث مُقَدَّرَةٌ عندَ الله تعالى في عِلمِهِ، لقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، فيكونُ هذا فردًا مِنَ الأفرادِ الكثيرةِ الدَّالَّة على أن الله عَزَّوَجَلَّ قَدَّرَ ما يكون، ولا نقول: خَلَق، بل قَدَّر؛ لأن الخَلْقَ تابعٌ للإرادةِ، متى أرادَ أن يفْعَلَهُ عَزَّوَجَلَّ خلقه لكِنَّهُ مُقَدَّرٌ.

وقد دَلَّ على هذا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠]، وهاتان مَرْتَبتَانِ من مراتبِ القضاءِ والقَدرِ، فالقضاءُ والقَدَرُ يتضَمَّنُ أربعَ مراتب عندَ أهلِ السُّنَّةِ ففي هذه الآية الكريمة مرتبتانِ: وهما العِلْمُ والكتابةُ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾، والمرتبة الثالثةُ: المشِيئَةُ، والرابعة: الخَلْقُ.

عِلْمٌ كِتَابَةُ مَوْلَانَا مَشِيئَتُهُ ... وَخَلْقُهُ وَهْوَ إِيجَادٌ وَتَكْوِينُ

الفَائِدةُ السَّادِسَة: عِظَمُ العذابِ إذا كان غيرَ متوَقَّعٍ، لقولِهِ: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

الفَائِدةُ السَّابِعَةُ: تهديدُ هؤلاءِ المسْتَعْجِلينَ بالعذابِ بأنه سَيَأتِيهِمْ؛ لكنه سيأتِيهِمْ على غِرَّةٍ وبغْتَةٍ ليكونَ أشَدَّ وَقْعًا.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: تكرارُ ما به الذَّمُّ على من يَسْتَحِقُّه، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾، هذا إذا جَعَلْنا ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ الثانية تَوْكِيدًا للأُولَى، أما إِذَا حَمَلْنَا الأُولَى على عذابِ الدُّنْيَا والثانية على عَذابِ الآخِرَةِ، فلا توكيدَ فِي المسألَةِ.

الفائِدَتانِ التَّاسِعَةِ والْعاشِرَة: إثباتُ النارِ، وكذلكَ إثباتُ يومِ القيامَةِ، لقوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ﴾ وهذا قَطْعًا في النَّار ولا يكون إلا يوم القيامة.

الفَائِدةَ الحَادِيةَ عشْرَةَ: أن أهلَ النارِ -والعياذ بالله- يأْتِيهِمُ العَذابُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، لقولِهِ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

الفَائِدةُ الثانية عشرةَ: عِظَمُ هذا العذابِ، حيث إنه يُغَلَّظُ عليهم مِنْ ناحِيَتَيْنِ: مِنَ العُلُوِّ ومن السُّفْل؛ لأنه يكون كالغِطاءِ والوِطاءِ، كأنَّهُم يُطْبَقُ عليهم بنارٍ وموقَدُ من تحتهم نارٌ، هذا عَدَا ما يأْتِيهِمْ من كلِّ جانِبٍ؛ لقولِهِ: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

الفَائِدةُ الثالثةَ عشرةَ: أن تعْذِيبَ الكفارِ جِسْمِيٌّ ونَفْسِيٌّ:

الجسمي ما يَذُوقونَهُ مِنْ أنواعِ العَذابِ، والنَّفْسِيُّ ما يحْصُلُ لهؤلاءِ المعَذَّبِينَ مِنَ التَّقْرِيعِ والتَّوْبِيخِ الذي فيه الألم النَّفْسِيُّ، والألم النفسي قد يكون أشدَّ من الألم الجِسْمِيِّ، لقولِهِ: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ولا أدري كيف يتَصَوَّرُ الإنسانُ حَسْرَتَهم حين يقالُ لهم: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ﴾، ولا أدْرِي كيف يتَصَوَّرُ الإنسانُ مَقْتَ هؤلاءِ لأنفسهمْ، لا شَكَّ أنهم سيَبْغَضُونَ أنْفُسَهُم أشدَّ البغضِ ويقولونَ: هذا هو عَمَلُنَا، فتأْثِيرُهُم النفسي لا نظيرَ له.

الفَائِدةُ الرابعةَ عشرةَ: جوازُ التَّعْبِيرِ بالسَّبب عن المسَبَّبِ، لقولِهِ: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وهم في الحَقيقةِ لا يَذُوقون ما كانوا يعْمَلُونَ، إنما يذُوقُونَ جزاءَهَ، لكنه من بابِ التَّعْبِيرِ بالسَّببِ عن المسبَّبِ.

وأيضًا هو أشدُّ في التَّقْرِيعِ؛ لأن هذا العملَ اختَارُوه بأنفُسِهِمْ والجزاءُ لم يختارُوهُ بأنفسهم، فكأنه يقول: هذا هو الَّذِي اخترْتُم تمامًا.

الفَائِدةُ الخامسةَ عشرةَ: أن الجزاءَ مِنْ جِنْسِ العَملِ، لقوله: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فنَجْعَلُ الجزاءَ هو نفسُ العملِ وهو نَظِيرهُ تَمامًا؛ لأنه عبَّرَ به عنه، وهو بالنسبةِ للكفَّارِ وأهلِ الظلْم يجَازَوْنَ بقَدْرِ أعمالِهِمْ، أما من عَمِلَ خَيْرًا فإنه يُجْزَى الحسنَةَ بعَشْرِ أمثالها إلى سبعمئة ضِعْفٍ إلى أضعْافٍ كثيرةٍ أعظمَ وأكثرَ.

الفَائِدةُ السادسةَ عشرةَ: إثباتُ العَدْلِ، حيثُ كان الجزاء من جِنْسِ العَملِ.

الفَائِدةُ السابعةَ عشرةَ: فيه رَدٌّ على الجبْرِيَّةِ الذين يقولون: إن الإنسان لَا يُضافُ إليه العَملُ إلا على سبيلِ المجازِ فقط. فعمَلُ الإنسان عندهم كإحْراقِ النار لما تَحْرِقُهُ، فهو شيء مُجْبَرٌ عليه بدونِ اختيارِهِ، وجه ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٦)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦].

قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في هـذه الآيةِ إشارَةٌ إلى أن مُقْتَـضَى العبودِيَّـةِ والإيمانِ أن يقومَ الإنسانُ بحَقِيقَةِ ما تَقْتَضِيهِ هذه العُبودِيَّةُ؛ بحيث لا يَرَى لنفْسِهِ حقًّا بجانِبِ حقِّ الله، بمَعْنَى ألا يُقَدِّمَ حظوظَ نَفْسِه على حُقوقِ رَبِّهِ، وليس المعنى ألا يقـومَ بالأمْرَيْنِ؛ فـإن الإنسانَ مأمورٌ بـأن يقومَ بالأمْرَيْنِ، كما قـال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لعبدِ اللهِ بن عَمرٍو: «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»[1].

وإضافَةُ العُبودِيَّةُ إلى الله هنا فيها من التَّشْرِيفِ والتَّكريمِ ما هو ظاهِرٌ؛ لأن كون الله يُنادِيهِمْ فيقول: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ ويضِيفُ ذلك إلى نَفْسِهِ، هذا له معنًى عَظِيمٌ.

وقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ اعلم أن العِبادَةَ تَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ: عبادةٍ كَوْنِيَّةٍ، وعبادة شَرْعِيَّةٍ.

فالعبـادةُ الكوْنِيَّةُ: هي الخُـضُوعُ لحُكمِ الله الكَوْنِيِّ، وهذه ثابِتَـةٌ في حقِّ جميعِ الخلقِ المؤمِنِ والكافِرِ والبَرِّ والفَاجِرِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع...، رقم (١٨٦٧) عن أبي جحيفة.

والعبادةُ الشرعِيَّةُ: هي الخضوعُ للحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، وهذه خاصة بمَنْ أطاعَ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه خضعَ لحُكْمِ اللهِ الشرعيِّ أَمْرًا ونَهْيًا.

واخترت أن أعبر بِقَوْلِهِمْ: (حُكم) دون قولِهِمْ (أمر) لأجلِ أن يَشْمَلَ الأمرَ والنَّهْي، فإن العبادةَ هي القيامُ بطاعَةِ اللهِ امتثالًا لأمْرِهِ واجتِنَابًا لنَهْيِهِ.

ومن أمثلَةِ العُبودِيَّةِ العامَّةِ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ فتُوبُوا إلى اللهِ، ولهذا قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، وأيضًا: قوله تعالى لإبليسَ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢]، إذا قُلْنَا: الاستِثْنَاءُ متَّصِلٌ، فالعُبودِيَّةُ عامَّةٌ.

ومثالُ العُبودِيَّةِ الخاصَّةِ قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، هذه عُبودِيَّةٌ خاصَّةٌ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ (الذين) مِحلُّهَا مِنَ الإعراب النَّصْبُ؛ لأن (عِبَادِيَ) منادَى منصوبٌ بسببِ الإضَافَةِ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾ سبَقَ مرارًا أن الإيمان هو التصديقُ المسْتَلْزِمُ للقبُولِ والإذعانِ، وليس مجرَّدَ التَّصْدِيقِ كما قال أهلُ الإرْجاءِ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ هذا هو محطُّ النِّدَاءِ، المنادَى ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ والمنادَى بِه قولُه: ﴿أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾.

وقوله: ﴿أَرْضِى﴾ الإضافةُ هنا هل هي من بابِ إضافَةِ المملوكِ إلى مالِكِهِ، فتكونُ من بابِ إضافَةِ الخلْقِ والتكوينِ فيكونُ المعْنَى: هاجِروا إلى بلادِ كُفْرٍ أو إسلامٍ، أو أنها من بابِ إضافَةِ الاختصاصِ، يعني الأرضَ التي هي مَحِلُّ عِبَادَتِي،

وهي البلادُ الإسلامِيَّةُ؟ وهذا الثاني هو الظاهِرُ وهو أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ يحُثُّ المقِيمِين في بلادِ الكُفْر أن يُهاجِرُوا إلى أرض الله، كَما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء:٩٧].

وقوله: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ الواسعُ: ضِدُّ الضَّيِّقِ، يعْني الذي يَسَعُ ما يكونُ فيه، أي: ليس فيها ضَيِّقٌ فلا حُجَّةَ لكُمْ في التأَخُّرِ عن الهِجرَةِ، ولهذا قال: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ (إياي): إعرَابُهُ مفعولٌ به لفِعْلٍ محذوفٍ دَلَّ عليه ما بعْدَهُ والتقدِيرُ: إيَّاي خُصُّوا بالعِبادَةِ. أما مَفْعُولُ الفِعْلِ الموجودِ فَهُو محذوفٌ دَلَّتْ عليه نُونُ الوِقايَةِ.

وقوله: ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ قد يقولُ قائلٌ: هذا يتَنَاقَضُ مع قوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾.

ولكننا نقول: لا تَنَاقُضَ؛ لأن المرادَ بقولِهِ: ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ أي: أَدِيمُوا عبادَتِي وأكْمِلُوها؛ لأن الأمر بما هو واقِعٌ لَغْوٌ من القولِ، فحينئذٍ لا بُدَّ أن نُقَدِّرَ معْنًى يتَلاءمُ مع الأمرِ.

وقوله: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ هذه الآية تُفِيدُ الحَصْرَ والاخْتِصَاصَ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ فِي أيِّ أَرضٍ تَيَسَّرَتْ فِيهَا العبادةُ، بأن تُهاجِرُوا إليها مِنْ أرْضٍ لم تَتَيَسَّرْ فيها، نَزَلَ في ضُعفاءِ مُسْلِمي مَكَّةَ كانُوا فِي ضِيقٍ مِنْ إظْهارِ الإسْلامِ بِهَا]: فاللهُ عَزَّوَجَلَّ رَغِبَ في الهِجرةِ في قولِهِ: ﴿أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾، وأمَرَ بها في قولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾؛ لأن العِبادَةَ لا تَتَحَقَّقُ في بلدِ الكُفْرِ، فإذا لم تَتحَقَّقْ فما لا يَتِمُّ الواجِبُ إلا به فهو واجبٌ، فعلى هذا تكون الهِجْرَةُ واجِبَةً.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [نَزَلَ في ضُعفاء مُسْلِمِي مَكَّةَ] صحيح، كانوا في ضِيقٍ

مِنْ إظهارِ الإسلامِ بها فأُمِرُوا أن يُهاجِرُوا إلى بلادٍ يَسْتَطِيعُونَ أن يُقِيمُوا فيها دِينَهُم، فهاجَرَ جماعَةٌ مِنْهُمْ إلى الحَبَشَةِ، ثم قِيلَ: مِنْ مُشْرِكِي قُرَيشٍ أَسْلَمُوا، فرَجعوا، ولكن كفَّارَ قُريش ازْدَادُوا في اضطهَادِهِمْ -والعياذ بالله-، فرَجَعُوا مرةً ثانِيَةً إلى الحَبَشَةِ، ثم بعدَ ذلك أُذِنَ للنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يهاجِرَ هو وأصحَابُه إلى المدينَةِ فهاجَرُوا، فكانَ أوَّلَ بلدٍ إسلامَيٍّ تُقامُ فيها حكومةٌ إسلامِيَّةٌ هو المدينة، وتحقَّقَ ذلك بالهِجْرَةِ.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كانُوا فِي ضِيقٍ مِنْ إظْهَارِ الإسلامِ بِهَا]، الضيقُ الذي حصَلَ مِنَ الكفَّارِ متَنَوِّعٌ بالقَوْلِ وبالفِعْلِ، وربما أدَّى إلى القَتْلِ، فكانوا يُعَذِّبُونهُمْ في شِدَّةِ الحرِّ في الرَّمضاءِ ويَضَعُونَ الأحجارَ الحامِيَةَ على بطونِهِمْ، ولكن ذلك لا يُثْنِيهِمْ عن دِينِهِمْ أبدًا؛ لأنهم مؤمِنُونَ حقًّا ويَرَوْن أنَّ الدنيا هذه ليست بشيءٍ، مِثْلَما قال السَّحرَةُ الذين آمنوا بمُوسَى، قالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه:٧٢].

وهذا هو الإيمانُ الحَقِيقِيُّ أن الإنسان يَفْدِي دِينَهُ بنَفْسِه ومالِهِ، وأما الإيمانُ الهشُّ الذي إذَا أُوذِي صَاحِبُه في اللهِ جعلَ فِتْنَةَ الناسِ كعَذابِ اللهِ، فرجع عَمَّا كانَ عليه، هذا في الحقيقةِ إيمانٌ ناقِصٌ غايةَ النُّقْصَانِ، ومن حِكْمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَبْتَلِيَ الإنسانَ بالفِتَنِ في دِينِهِ لأجلِ أن يَتَبَيَّنَ صِدْقُ إيمانِه من ضَعْفِهِ كما تُفِيدُ هذه الآية، ولهذا قال بَعْدَهَا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أنَّ المؤمِنَ عبدُ اللهِ، والمرادُ هنا العُبُودِيَّةُ الخاصَّةُ، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

الفَائِدةُ الثَّانِية: شَرَفُ الإيمانِ بالله عَزَّوَجَلَّ حيثُ جَعَلَ الله تعالى هؤلاء المؤمنين

عِبَادًا، وإضَافَتُهم إلى الله بالعُبودِيَّةِ تشريفٌ لهم بلا شَكٍّ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: وجوبُ الهجْرَةِ، وأن الهِجرةَ من عِبادَةِ اللهِ لقوله: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾.

الفَائِدةُ الرَّابعة: الحِكْمَةُ من الهِجْرَةِ هو القيامُ بعبَادَةِ الله، لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾، وعليه إذا تَمَكَّنَ الإنسانُ من عبَادَةِ الله فلا تَجِبُ عليه الهِجْرَةُ، لكنَّ الأفضَلَ الهِجْرَةُ.

الفَائِدةُ الخامِسةُ: أن المهاجِرَ سيَجِدُ سَعةً في أرضِ اللهِ، لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ ويَشْهَدُ لهذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء:١٠٠]، فهؤلاءِ تَركُوا بلادَهُم التي ضُيِّق عليهم فيها، فعَوَّضَهُم اللهُ بِلادًا لا يجِدُونَ فيها الضِّيقَ بل يجِدُونها ذَاتَ سَعَةٍ، ومن تركَ شيئًا لله عوَّضَهُ اللهُ خيرًا مِنْهُ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: إنعامُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عِبادِهِ بالتَّرْغِيبِ بِفِعْلِ الواجباتِ، لقولِهِ: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾، وهذا فيه مِنَ التَّرْغِيبِ والحثِّ على القيامِ بالواجِبِ ما هو ظاهِرٌ وبيِّنٌ.

الفائِدَتانِ السَّابِعَةِ والثَّامِنَةِ: تَوجِيهُ الأمرِ للإنسانِ بما هو متَّصِفٌ بِهِ، لقوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ثم قَالَ: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾، ويَنْبَنِي على هَذِهِ الفَائِدة أن الأمْرَ الموجَّه لمن يتَّصِفُ به يرادُ به أمران هما: تحْقِيقُهُ، والاستِمْرارُ فيه وتَكمِيلُهُ؛ لأنك إذا قلت: يا قائمٌ قُمْ، فليس لهذا مَعْنًى إلا إذا كان الغَرضُ أن تأْمُرَهُ أن يستَمِرَّ في القيامِ، وكذلك لو قلت: يا رَجُلَ كُنْ رجلًا، أي: اثْبُتْ على هذا وحقِّقِ الرُّجولَةَ وكَمِّلْهَا.

الفَائِدةُ التَّاسِعةُ: وجوبُ الإخلاصُ لله عَزَّوَجَلَّ، لقولِهِ: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

الفَائِدةُ الْعاشِرَة: أن دارَ الإسلامِ تُضافُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنها مكانُ عبادَتِهِ، لقولـه: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾، وهذه الإضافَةُ كما تَقَدَّمَ ليْسَتْ إضافَةَ خلْقٍ وتكوينٍ؛ لأن كلَّ الأرَاضِي لله عَزَّوَجَلَّ، ولكِن إضافَة تشريفٍ، وأخَصُّ من ذلك أن أضافَ المكانَ المعَيَّنَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ مثل: المساجدُ بيوتُ الله عَزَّوَجَلَّ.

لو قال قائلٌ: الذين يُسَافِرُونَ من بلادِ الإسلامِ إلى بلادِ الكُفْرِ ويُقِيمُونَ عندهم، ويستَطِيعُونَ إقامَةَ شعائرِ الإسلامِ؛ هل يَجبُ عليهم أن يَسُبُّوا آلهةَ الكُفَّارِ ويُنْكِرُوا عليهم، ويُظْهِرُوا المخالَفَة لهؤلاءِ الكُفَّارِ؟

الجواب: الذين يُسَافِرُون إلى بلادِ الكُفَّار إذا كانوا يُقِيمونَ عِبادَتَهم مثلَ صلاةِ الجُمعَةِ وإقامَةِ الجماعاتِ والأمْرِ بالمعْروفِ والدَّعْوَةِ إلى اللهِ، فليس بواجبٍ عليهم أن يَسُبُّوا آلِهَةَ الكُفَّارِ ولا أن يُظِهُروا لهم المخالَفَةَ؛ لأنهم سيُخْرِجُونهم وسَيُؤْذُونهم، والكافِرُ يُقَرَّ على دِينِهِ عندَ عدَمِ الاستِطَاعَةِ.

لكني أَرَى أن السَّفَر إلى بلادِ الكُفَّارِ لا يجوزُ إلا بشُروطٍ:

الشرطُ الأَوَّلُ: الحاجَةُ، بحيث يسَافِرُ إلى شيءٍ لا يُوجَدُ في بَلَدِهِ مثل دَراسات لا توجدُ في بلَدِهِ، أو مَرَضٌ يحتَاجُ إلى علاجٍ لا يُوجَدُ في بَلَدِهِ، وما أشْبَه ذَلِك.

الشرطُ الثَّانِي: أن يكونَ عنـدَهُ مِنَ العِلمِ ما يَدْفَعُ به الشُّبهاتُ، فإن كان ليس عندَه من العِلْمِ ما يدْفَعُ به الشُّبهاتُ فلا يجوز؛ لأنه حِينئذٍ يُلَبَّسُ عليه دِينُه ويَضِلُّ.

الشَّرطُ الثالثُ: أن يكونَ عِنـدَهُ من التَّقْوى ما يَدْفَعُ به الشَّهـواتِ، فإن كان الإنسـان ضَعِيفًا في دِينِهِ ولا تَقْـوَى عنْدَهُ فإنه لا يجوزُ له السفر؛ لما في تلـك البلاد

من الفِتَـنِ العَظِيمَةِ، ولهذا رأَيْنَا مِن الناسِ من ذَهَبُوا ورَجَعُوا متأَثِّرينَ، وهذا خطرٌ عَظِيمٌ ليس بالأمرِ الهَيِّنِ.

فإذا تَمت هذه الشروطُ الثلاثةُ فيجوزُ، أما مجَرَّدُ أن يسافر -والعياذ بالله- لأجلِ النُّزْهَةِ أو يسافِرُ لأجلِ دراسَةٍ يجدُ في بلَدِهِ ما يقومُ عنْهَا، أو يسافرُ وهو يعْرِفُ من نَفْسِهِ اتِّبَاعَ الشَّهواتِ وضعفَ الدِّينِ؛ فإن هذا لا يجوزُ له السَّفَرُ مهما كان.

لو قالَ قائلٌ: ما مـن عِلْمٍ إلا وهو موجودٌ في بَلادِ المسْلِمينَ فكيفَ يُجِيزونَ السَّفَرَ لبلادِ الكُفَّار مِنْ أجلِ الدِّرَاسَةِ؟

الجواب: كَثيرُ من التَّخَصُّصاتِ الحديثةِ لا تُوجَدُ في بلادِ المسْلِمينَ كعلمِ الطبِّ والجُيُولوجيـا وغيرها، وقد اشتَرْطَنَـا العِلْمَ وقوةَ الإيمانِ وكذلك الحاجَـةَ، وكونُنَا نُشَـدِّدُ على الناس في هذا الأمر خطأٌ، فالمسألة ليست نظرية فقط، بل المسألةُ نَظَرِيَّةٌ وعَمَلِيَّةٌ؛ لأن معنى ذلك أن كلَّ الَّذِين ذَهبوا للدِّرَاسَةِ كلهم على معصيةِ الله منذ ذَهَابهم إلى أن يَرْجِعُوا، ويجبُ علينا أن نَهْجُرَهُمْ، فنعودُ إلى الجاهلِيَّةِ الأُولَى.

فيجبُ أن نعرفَ أن المسألةَ تحتاجُ إلى نوعٍ مِنَ المرُونَةِ في هذه الأمور، فالرجل الذي نعرف أنه ذهبَ إلى بلدٍ فيها تَخَصُّصاتٍ ليست في بلادِ المسْلِمِينَ ونعرفُ أن الرجلَ قُوِيُّ الإيمان وأن عِنْدَهُ عِلمًا؛ كيف نَمْنَعُه مِنْ إفادَةِ المسلِمينَ بهذه العُلومِ؟

لو نَحْظُرُ الأمر على الناس لقالوا: أنتم متَحَجِّرُونَ لا تُرِيدُونَ أن نَنْتَفِعَ بأيِّ شيء مما انتَفَع به النَّاسُ، دَعُونا نَذْهَبُ ونتَعَلَّمُ ونَرْجِعُ إليكم -إن شاء اللهُ- بالنَّفْعِ والعِلْـمِ، والآن -والحمد لله- تَحَسَّنَتِ الأمورُ كَثِيرًا بالنِّسْبَـةِ للمُبْتَعِثِينَ حسب مـا سمِعْنا، فهم يحرْصُون على إظْهَارِ دِينِهِمْ، بل وعلى الدعوةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ويَلْتَفُّ بعضهمُ حَول بعضٍ، فأنا أَرَى ألَّا نضْغَطَ على الناس ونقول: إن السفر حرامٌ مُطْلَقًا،

وما دامَ هذا للحاجَةِ وليس إقامةً دائِمَةً مع اشتراطِ العِلْمِ والتَّقْوى؛ فما المانع؟

وأما حديث: «مَنْ جَامَعَ المشْرِكَ...»[1] فقد يحْمَلُ على السُّكْنَى الدَّائِمَةِ التي يتَّخِذُ الإنسانُ فيها بلادَ الكُفَّارِ وطَنًا بلا ضرورةٍ، فالمسألةُ خَطِيرَةٌ من ناحِيَتَيْنِ: من ناحيةِ أن الناسَ في حاجة إلى هذا، ومن ناحِيَةٍ أن الناسَ في حاجةٍ إلى أن يَعْرِفُوا أولِياءَهم من أعدائهم، فالمسألةُ تحتاجُ إلى بَحْثٍ وتحريرٍ ومراجَعَةٍ كثيرة.

لو قِيلَ: ما حكمُ الذَّهابِ إلى بلادِ الكُفَّارِ مِنْ أجلِ الدَّعوة إلى الله؟

فالجواب: يجوزُ إذا كانَ الدَّاعِي إلى الله عِنْدَهُ عِلْمٌ وقوةُ إيمانٍ.

لكن لو قالَ قائلٌ: لا حاجةَ لذَهَابِهِ.

قلنا: بل له حاجَةٌ، وهي الدَّعوةُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ومعلوم أن الَّذِي ذَهَبَ لِيَدْعُوَ إلى الله ليس كالذي ذَهَبَ لِيَنْتَفِعَ مِنْ عُلومِهِمْ؛ لأن الثاني يَرَى أنه ذَلِيلٌ أمامَهُم ومحتاجٌ إليهم، لكنَّ الدَّاعِيَ إلى الله هُمُ المحْتَاجونَ إليه، فبينهما فَرْقٌ، ولهذا -والله أعلم- كان من الأسبابِ التي انْحرفَ بها مِنِ انحرفٍ من أولئكَ الذَّاهِبين.

ولو قيل: ما حُكْمُ من يسافرُ إلى بلاد الكفَّار لنيلِ شهادَةِ الدُّكتوراة في الشَّريعَةِ؟

فالجواب: هذا حرامٌ ولا إشكالَ من كونِهِ حَرَامًا؛ لأنه:

أوَّلًا: ليس بحاجَةٍ أن يَذْهَبَ ليدْرُسَ شريعةَ الإسلامِ في بلاد الكُفْرِ،

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الإقامة بأرض الشرك، رقم (٢٧٨٧)؛ والطبراني في الكبير (٧/ ٢٥١) (٧٠٢٣) عن سمرة بن جندب، ولفظ أبي داود: «مَنْ جَامَعَ المُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ».

قد يدرِّسون الإسلامَ محرَّفًا.

وثانيًا: لأنه تهَجْيِنٌ[1] بالغٌ للمسلمين، كأنَّ المسلمِينَ ليس عندهم تخَصُّصاتٌ شرْعِيَّةٌ ولا عندهم شيء يعْرِفُونَ به دِينهُم.

لو قالَ قائلٌ: ما حُكْمُ من يذهبُ لبلادِ الكفَّارِ لدِرَاسَةِ لغُتِهِمْ، ومن شُروطِ هذه الدراسةِ أن يَعِيشَ مع أسرةٍ غيرِ مُسلِمَةٍ من أجلِ تعَلُّمِ اللُّغةِ؟

فالجواب: هذا حرامٌ ولا يجوزُ؛ لأن الجلوسَ مع هذه الأسرةِ فيه مفاسِدُ كثيرةٌ، فقد يكونُ في هذه الأسرةِ فتياتٌ شَابَّاتٌ يُفْسِدْنَ هؤلاءِ الدارسين من المسلمين، ومشْكِلَةُ السفَرِ إلى بلاد الكفَّارِ مشكلةٌ عظيمةٌ جدًّا.

مسألة: ما حدُّ دارِ الإسلامِ ودارِ الكُفْرِ؟

دار الإسلامِ هي التي تُقامُ فيها شعائرُ الإسلامِ بقَطْعِ النَّظَرِ عن حكَّامهم؛ حتى لو تَوَلَّى عليهم حاكمٌ كافرٌ، فما دامُوا يُقِيمونَ شعائرَ الإسلامِ، كالأذانِ وإقامةِ الصلاةِ والجمعِ والأعيادِ الشَّرْعِيَّةِ والصومِ والحجِّ وما أشْبَهَ ذلك؛ فهذه دارُ إسلامٍ.

وأما قول من يقولُ: إن بلادَ الإسلامِ هي التي يحْكُمُها المسلمون، أي: يكونُ حُكَّامُهَا مسلمين، فهذا ليسَ بصَحِيحٍ.

ولكن إذا كان يَظْهَرُ فيها شعائرُ الإسلامِ وشعائرُ الكُفْرِ، كما لو كانت تُقامُ فيها الجُمَعُ والجماعاتُ، ولكن يُسْمَعُ فيها أيضًا أبواقُ اليهودِ ونواقِيسُ النَّصارى، وتُقامُ فيها صلواتُ النَّصارى واليهود، ففي هذه الحال قد نَرْجِعُ إلى الحُكَّامِ والأغْلَبِيَّةِ؛ لأن الحاكِمَ قد يَعْجَزُ عن إزالة شعائرِ الكُفْرِ، فإذا كان غالبُ البلد

(١) التهجين: التقبيح. انظر القاموس المحيط (هجن).

مُسلمين وحُكَّامُها مُسلمون، قلنا: هذه بلادُ إسلامٍ وإن كان فيها شيءٌ من شَعائرِ الكُفْرِ؛ لأن الغَلبةَ كمِّيَّةٌ وسُلْطَةٌ للمسلمين، لكن يَعْجَزُونَ عن إزالةِ شعائرِ الكُفْرِ؛ لأن إظهارَ شعائرِ الكُفر في بلادِ المسلمين لا يجوزُ ويجِبُ مَنْعُهُ، حتى إظهارُ الصَّليبِ ممنوعٌ في بلاد الإسلامِ، فكون الصَّليبِ يُرْفعُ على الكنائسِ أو في الطُّرقاتِ هذا ممنوعٌ في بلاد الإسلام.

الآيـة (٥٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:٥٧].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ هذه قَضِيَّةٌ عامَّة[1]؛ لأن جميعَ المخلوقات داخِلُونَ تحتَ عُمومِ: ﴿كُلُّ﴾ إلا ما دلَّ الدَّلِيلُ على استِثْنَائِهِ.

قوله: ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: مَيِّتَة، لكن عَبَّر عن حقيقةِ الموتِ بالذَّوْقِ لأن الإنسانَ يذوقُ مرارةَ الموتِ وألمَ فِراقِ الحياةِ، إلا إذا كانَ مؤمنًا فإنه يَذُوقُهُ مِنْ وجْهٍ لكن يُهَوِّنُ عليه الأمرُ، وجهٌ آخر: وهو أنه إذا بُشِّرَ بالجنَّةِ عند موتِهِ فإنَّهُ يُسَرُّ بذلكَ ولهذا يَسْهُلُ على نفسه الخُروجُ؛ لأن الملائكة تَتَنَزَّلُ عليهم: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠]، فيُسَرُّونَ بذلك ويَهونُ عليهم فراقُ الأحبَّةِ، ثم يَشْعُرونَ في هذه الحال أن إِمَامَهُم أَمَامهُم الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وخلَفاؤُه الراشِدُون والصَّحابَةُ، فيقولُ المؤمن: الحمدُ لله أني أنْتَقِلُ من دارِ العَناءِ والشَّقاءِ والابتلاءِ والامتحانِ، إلى دارِ النَّعِيمِ مع النَّبِيِّ ﷺ وخلفائِهِ الراشدينَ وأصحابِهِ، فيَزْدَادُ بُشْرَى ويهونُ عليه الفِراقُ.

فهن نقولُ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، ولكن فرق بينَ المذَاقَيْنِ: بين مذاقِ المؤمنِ ومذَاقِ غيرِ المؤمنِ.

---

(١) انظر: رسالة في المنطق، إيضاح المبهم في معاني السُّلَّم (ص: ٦٢).

وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ بعدَ الإشارةِ إلى الهِجرةِ كأنه يقولُ: بقاؤكُمْ في بلادِ الكُفْرِ من أجلِ التَّمَتُّعِ بالمالِ والبلاءِ والأوْطانِ نقصٌ في التَّفْكِيرِ؛ لأن هذا الأمرَ الذي أنتُمْ تحافِظُونَ عليه -وهو البقاءُ في البلادِ والتمتع بها- زَائِلٌ، فإذا كانَ زَائلًا ولا بُدَّ فكيف نُحافِظُ عليه ونَدَعُ ما هو أهمُّ وهو الهِجْرَةِ، ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: ثم بعدَ الموتِ نرْجِعُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا رَجَعْنَا يتبَيَّنُ الكشْفُ، أعني: كَشْفَ الحسابِ؛ لأن هذا الكتابَ ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩]، فلا يغادِرُ صغيرةً ولو صَغُرَتْ؛ لأن قوله: ﴿صَغِيرَةً﴾ نكرةٌ في سياقِ النَّفْيِ فتَعُمُّ، وكذلك لا يُغادِرُ كبيرةً ولو عَظُمَتْ إلا أحْصَاهَا.

ولو أن الإنسانَ أرادَ أن يُحْصِي ما يتكَلَّمُ به في اليوم لكان عنده في الأسبوعِ مجلَّدَاتٌ، ولقد جَرَّبْتُ هذا وتَبَيَّنَ لي عظِمَ الأمرِ، وذلك أن بعضَ الإخوانِ سجَّلُوا دُروسَنَا في الحرَمِ وكتَبُوها في أوراقٍ، ثم أتَوْنِي بها فوَجَدْتُها شيئًا كثيرًا ما ظَنَنْتُ أن تبْلُغَ هذا المبلَغَ، بعضُ الأسئلة يكونُ جوابُها صفْحَةً أو صَفْحَتَيْنِ، والإنسانُ يظن أن الجوابَ كلماتٌ يَسِيرَةٌ، نسألُ الله أن يعْفُو عَنِ الجميعِ.

فالإنسانُ يجِبُ عليه أن يَعْتَبِرَ بمثلِ هذه الأمورِ، وينْظُرَ كم تَبْلُغُ كلماتُه في كلِّ يومٍ، وفي كلِّ أسبوعٍ، وفي كلِّ شهرٍ، وفي كلِّ سَنَةٍ، وفي العُمْرِ كلِّه.

وقوله: [﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بالتَّاءِ والياءِ[1] بعدَ البَعْثِ]: بالتاءِ والياءِ قراءتانِ سَبْعِيَّتانِ: «يُرْجَعُون» و﴿تُرْجَعُونَ﴾، والفرق بينهما من حيثُ المعْنَى أن (يُرجعون) للغائبِ، و(تُرجعون) للمخاطبِ.

---

(١) السبعة في القراءات (ص:٥٠٢).

وفي قوله: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ ترغِيبٌ وتَرْهِيبٌ، فالإنسانُ إذا نظرَ إلى رحمةِ الله عَزَّوَجَلَّ وسَعَى في عَفْوِهِ رَغِبَ وقال: سأرجِعُ إلى ربٍّ عَفُوٍّ كريمٍ، وإذا نظَرَ إلى شدَّةِ عِقابِهِ وأن أَخْذَهُ أليم شديدٌ فإنه يخافُ.

وهل يُغَلِّبُ جانبَ الرجاءِ أو جانبَ الخوفِ؟

فيه آراء لأهلِ العِلم، منهم من قال: يُغَلِّبُ جانبِ الرَّجاءِ، ومنهم من قال: يُغَلِّبُ جانبَ الخوفِ، والآيات فيها دِليلٌ لكِلَا القولَيْنِ كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، فبدأ بالمغفرةِ والرَّحْمَةِ قبلَ ذلكَ العَذابِ، وكذلك قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨]، فبدأ بالتَّهْدِيدِ قبلَ الوَعِيدِ.

وقال بعضُ العلماء: في حالِ الصِّحَّةِ يُغَلِّبُ جانبَ الخوفِ حتى يَسْتَقِيمَ على أمرِ الله، وفي حالِ المَرَضِ يُغَلِّبُ جانبَ الرَّجاءِ، لأجل أن يُلاقِيَ اللهَ وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ، فاعتبَرُوا اختلافَ الحالينِ.

وقال آخرون: يجْعَلُ خوفَهُ ورَجَاءَهُ واحدًا، قال الإمامُ أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ينْبَغِي أن يكونَ خوفُهُ ورَجُاؤُه واحدًا، فأيهما غَلَّبَ هلَكَ صاحِبُه؛ لأن إن غلَّب جانب الخوفِ استَوْلَى عليه اليأسُ من رَحْمَةِ الله، وإن غلَّب جانبَ الرَّجاءِ استَوْلَى عليه الأمْنُ من مَكْرِ الله، فيكون بين هذا وهذا.

وقال بعضُ العلماء: في حالِ الطاعَةِ يغَلِّبُ جانبَ الرَّجاءِ، وفي حال المعْصِيَةِ يغَلِّبُ جانبَ الخوفِ، يعني: إذا عَمِلَ الطَّاعَةَ يقول: أرْجُو أن يَقْبَلَهَا الله فينْشَطُ على العبادةَ، وفي المعصية يُغَلِّبُ جانبَ الخوفِ لئلا يَفعَلَ المعْصِيَةِ أو يستمِرَّ عليها بدون تَوْبَةٍ.

والذي يظْهَرُ -والله أعلم- إذا لم يكن هناك سببٌ لتَغْلِيبِ أحَدِهما على الآخر فالأَوْلَى أن يكون سواء، أما إذا كان هناك سببٌ فإنه ينبَغِي أن يَتَّبِعَ ذلك السَّببَ، فإذا هَمَّ بالمعْصِيَةِ لو جعلَ رجاءَهُ وخوفَهُ سواء هانَتْ عليه؛ لكن لو غلَّب جانبَ الخوفِ وتَذَكَّرَ عظمَةَ من يَعْصِيهِ كان ذلك أدْعَى لتَجَنُّبِ المعصِيَةِ، وأما إذا وقعَ في المعصية وأراد التوبة قُلْنا: غَلَّب جانبَ الرَّجاءِ.

لو قالَ قائلٌ: الرَّسُولُ ﷺ دخل على غُلامٍ وهو يحتَضِرُ فقال: «**كَيْفَ حالُكَ؟**» فقال: أرجو الله وأخافُ ذُنُوبي. فقال الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا اجْتَمَعَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هذا الموْطِنِ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ**»[1]، أو كما قال ﷺ، ألا يَدُلُّ هذا على استواءِ الخوفِ والرَّجاءِ؟

فالجواب: أن المسألةَ لها أحوالٌ، وقد تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهَا، وهذا الحديث نَنْظُرُ صِحَّتَهُ من ضَعْفِهِ.

لو قال قائلٌ: الكلامُ المباحُ الذي ليس بحَسَنَةٍ ولا سَيِّئَةٍ هل يَكْتُبُه المَلَك، وهل يُمْحَى بعد ذلك أم لا؟

فالجواب: الكلامُ العَادِي -والله أعلم- المؤكَّدُ أنه يُكْتَبُ، أما مسألة هل يُمْحَى أو لا؟ فلا أَدْرِي، إلا ما أَخْبَرَ اللهُ به من أنَّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئاتِ قال تعالى:

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الجنائز، باب ما جاء أن المؤمن يموت بعرق الجبين، رقم (٩٨٣)؛ والنسائي في السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقول المريض إذا قيل له: كيف تجدك؛ رقم (١٠٩٠١)؛ وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد، رقم (٤٢٦١) عن أنس، ولفظ الترمذي: أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟» قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ».

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، فتُكْتَبُ الحسناتُ وتُمْحَى السَّيِّئاتُ، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:٣٩]، يدْخُلُ في هذا النَّوعِ، فالكلامُ العادِي يُكْتَبُ لكن لا يُجازَى به.

لو قال قائل: ورَدَ فيمن قال: تَعِسَتِ الدَّابَّةُ، أن مَلِكَ السَّيئاتِ يقول: ليست بحَسَنَةٍ ولا سَيِّئَة فأَكْتُبها[1]، وقال ملك الحسنات: ليستْ بحَسَنَةٍ ولا سيئةٍ فأَكْتُبها، فأخبرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ما ليس بحَسَنَةٍ ولا سَيِّئَةٍ يُكتَبُ سيئة؟

الجواب: هذا حرامٌ ولا يَجُوزُ أن يَنْسِبُوه إلى الله عَزَّوَجَلَّ، الله لم يَقُلْ تُكْتَبُ سيِّئة، بل قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن كلَّ المخلوقاتِ تموتُ والله جَلَّ وَعَلَا لا يموتُ، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨]، ولكن يُسْتَثْنَى مِنْ هذا العُمومِ ما دَلَّتْ النصوصُ على استِثْنائِهِ، وهم الذين خُلِقُوا للبقاءِ مِثْلُ: الحُورِ والوِلْدانِ، فإنهم يبْقَوْنَ كما هو ثابِتٌ ومعلومٌ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: إثباتُ البَعْثِ، لقولِهِ: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: محاسَبَةُ الإنسانِ لنَفْسِهِ، فينْبَغِي للإنسانِ أن يُحاسِب نَفْسَهُ لأن الله تعالى تَوَعَّدَ بأنهم يُرْجَعون إليه، يعني: فيُحَاسِبُهُمْ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٢١٨) بلفظ: بينما رجل راكبًا على حمار إذ عثر به، فقال: تعست. فقال صاحب اليمين: ما هي بحسنة فأكتبها، وقال صاحب الشمال: ما هي بسيئة فأكتبها، فنودي صاحب الشمال أن ما ترك صاحب اليمين فاكتب»؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٠١) (٥١٨٢) موقوفًا على حسان بن عطية.

قال عمرُ بنُ الخطَّابِ: «حاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أنْ تُحاسَبُوا، وزِنُوا أعْمالَكُمْ قَبْلَ أنْ تُوزَنُوا»[1].

الفَائِدةُ الرَّابِعة: أنه لا رُجوعَ لأحَدٍ سِوَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لقولِهِ: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، فالعَالَمُ مَهْمَا فَرُّوا فالنهايةُ والغَايةُ إلى اللهِ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، رقم (٢٤٥٩) موقوفًا على عمر بن الخطاب.

الآيــة (٥٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [العنكبوت:٥٨].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم ﴾ نُنَزِّلَنَّهُم، وفي قِراءَةٍ بالمثلثَةِ بعدَ النون[1]، مِنَ الثَّواءِ: الإقامَةِ، وتَعْدِيتُه إلى ﴿غُرَفًا﴾ بحذْفِ (في)] اهـ.

فالآية فيها قراءتانِ: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ بمعنى لنُنَزِّلَنَّهم، وعلى هذا فتكون الهاءُ في (نُبَوِّئنهم) المفعولَ الأولَ و﴿غُرَفًا﴾ المفعولَ الثاني.

وفي قراءةٍ أخرى بدلِ (الباء) (ثاء)، وبَدَلِ الهَمْزَةِ (ياء): «لنُثْوِيَنّهم» مأخوذةٌ من الثَّواءِ وهو الإقامَةُ، يقال: ثَوَى في المكانِ أقامَ فِيهِ، وعلى هذا فتكون ﴿غُرَفًا﴾ منصوبةً بنزعِ الخافِضِ أي: لنُقَيِّمَنَّهم في غُرَفٍ.

وقيل: إنها منصوبةٌ بتَعَدِّي الفِعْلِ إليها على سبيلِ التَوَسُّعِ، وهذا أصحُّ؛ لأننا على هذا الوجه لا نحتاج إلى تقديرِ (في).

والقراءتانِ يَثْبُتُ معناهما فتكونُ الآيةُ على الإنزالِ، وأنه إنزالُ إقامَةٍ لا إنزالَ

---

(١) السبعة في القراءات (ص:٥٠٢).

إعـارةٍ، يعني: لنُنْزِلَنَّهُم على وجه الإقامةِ الدائمةِ، كما في آياتٍ كثيرةٍ تَدُلُّ على دوامِ نعيمِ أهلِ الجنَّةِ.

وقـوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ يتكَرَّرُ في القرآنِ ذِكْـرُ الإيمانِ والعملِ الصالحِ، واعلم أنه إذا أطْلَقَ الإيمانَ شَمَلَ العَملِ الصالح، وإذا ذُكِرَ مع العملِ الصالحِ صارَ الإيمانُ في القلب والعَمَلِ في الجوارِحِ.

وقوله: ﴿غُرَفًا﴾ جمعُ غُرْفةٍ، وهي السَّكَنُ العَالي، والحُجْرَةُ هي السَّكَنُ الأسفلُ النازِلُ، ويُسَمَّى حجرة لأنه متَحَجِّرٌ.

قوله: ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: جمع نهرٍ، وهذه الأنهارُ أربعةُ أصنافٍ، كما قال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥]، اللهُ أكبرُ!

إنها تَجْري من لَبَنٍ وهذا اللبنُ لم يأتِ من بَقَرٍ ولا من إبل فالذي خَلَقَ اللَّبنَ في الدنيا من بينِ فَرْثٍ ودَمٍ قادِرٍ على أن يجْرِي أنهارًا في الجنة من هذا اللَّبَنِ، وكذلك العَسَلُ والماءُ والخَمْرُ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

واعلم أن أحوالَ الدُّنْيَا لا تُقاسُ بها أحوالُ الآخرةِ، وإنما تُفْهَمُ أحوالُ الآخرةِ مِنْ أحوالِ الدُّنيَا بالاسمِ فقط، أما حقيقَةُ المسَمَّى فإنه لا مُقَارَنَةَ ولا مساوَاةَ بينَ هذا وهذا، قال ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس فِي الدُّنْيَا مِمَّا في الجَنَّةِ إلَّا الأَسْمَاءُ فَقَطْ»[1]؛

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/ ١٧٢)؛ وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦٦)؛ والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ١٦)؛ وهناد في الزهد (١/ ٤٩).

لكنَّ الحقيقةَ التي هي عليها تَخْتَلِفُ اختِلافًا عَظِيمًا، وليس قَصْدُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن هذه الأسماءَ مُجَرَّدَةٌ عن المعَانِي، فالعَسَلُ معروفٌ، وهو الشَّرابُ الحُلْوُ، لكنَّ حلاوَتَه ولذَّتَهُ في الدُّنيا ليس كحَلاوَتِهِ ولَذَّتِهِ في الآخرة، فليس قَصْدُهُ أننا لا نعْرِفُ إلا اسمَ العَسَلِ فَقَطْ: (عين، سين، لام)، لو كان كذلك تَفْوِيضًا.

لو قال قائل: هل يوجَدُ في الجَنَّةِ غيرُ هذه الأنهارِ الأرْبَعَةِ؟

فالجواب -والله أعلم-: ليس فيها غَيْرُها؛ لأن مَقامَ الامْتِنَانِ يسْتَوْعِبُ كل ما يمكن أن يَمْتَنَّ الله به، ولما لم يَذْكُرِ اللهُ تعالى سِواهَا عُلِمَ أنه ليس فيها غيرها، ولكِنَّنَا لا نجْزِمُ بذلك؛ لأن هذه الأمور التي لا نُدْرِكُها يُقْتَصَرُ فيها على النَّصِّ.

وقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ انظر كيف يتَصَوَّرُ حُسْنَ المنظرِ إذا صَارتْ هذه الغُرفُ وهذه القصورُ العظِيمَةُ والخيام تَجْرِي مِنْ تحتِهَا الأنهارُ، فالمنْظَرُ يُبْهِجُ الناظرينَ ولا يُسَاوِيهِ شيءٌ في الحُسْنِ والسُّرُورِ، وهذه الأنهار كما قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ورَدَتْ أحاديثُ تَدُلُّ على أنها تَجْرِي بِدونِ أُخْدُودٍ[1]، يعني بدونِ شيءٍ يَمْنَعُها، فيتَصَرَّفُ فيها الناس كيفَمَا شَاءوا، فهذه الأنهارُ لا تَحْتَاجُ إلى عمَّالٍ ولا إلى مَسَاحي، قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ في النونية[2]:

أَنْهَارُهَا فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ جَرَتْ ... سُبْحَانَ مُمْسِكهَا عَنِ الْفَيَضَانِ

نعم سبحانه! ونَضْرِبُ مثلًا مِنَ الدُّنْيَا، وفرقٌ بين أمورِ الدُّنْيَا وأمورِ الآخرةِ: لو كان على يَدِكَ دَسَمٌ وجرى عليها الماءُ أليس ينْحَصِرُ في حُبَيْبَاتٍ؟ هذا الانحصارُ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٠٥).

(٢) في النونية (ص: ٣٢٦).

لا تُوجَدُ حدودٌ تَمْنَعُهُ، فإذا كان هذا الأمرُ مُمْكِنًا في الدنيا فإنه يُمْكِنُ في الآخرة ما هو أَشَدُّ وأَعْظَمُ، والله جَلَّ وَعَلَا الذي يُمسِكُ السماءَ بلا عَمَدٍ قادِرٍ على جريانِ هذه الأنهارِ في الجنة بِلا أُخْدُودٍ.

فالحاصل: أن هذه الأنهار عندَمَا يتَخَيَّلُها الإنسانُ وهي تجْري مِنْ تحتِ هذه الغُرفِ يتَصَوَّرُ منَظْرًا عَظِيمًا، ولا سيما الذين لهم ذَوْقٌ في هذه الأمورِ، وإلا فنحن ليس عندنا ذَوْقٌ في هذه الأمور، فلا نَتَصَوَّرُ كيف يكون هذا المنظرُ وهذه البهجَةُ.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُقَدَّرِين فيها الخُلودِ]، ذلك لأن كلمة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ تدلُّ على الخُلودِ، والخلودُ مستَمِرٌّ، فإذا كان مُسْتَمِرًا فإنه لا يكون مع الدخول، فتكونُ حالًا مُقَدَّرَةً، والحالُ المقَدَّرَةُ هي التي لا تأتي دَفْعَةً واحدة، مثاله: إذا قلت: (جاء الرَّجُلُ قائمًا)، هو حالُ مَجِيئِهِ قَائمًا، لكن في هذه الآية وَعْدُ اللهِ المؤمنين فقال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾، وهذا الخلودُ لم يحْصُلْ حينَ الوَعْدِ في قولِهِ: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾؛ لأن ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ فِعْلٌ للمُسْتَقْبَلِ فهو غَيْرُ حاصلٍ حالَ الوعْدِ؛ لأن هذا الوعدَ في الدُّنْيَا، فيكونُ الخلودُ مُقَدَّرًا؛ لأن الإنسانَ عندما يَنْزِلُ يبْقَى خَالِدًا إلى الأبد.

قوله جَلَّ وَعَلَا: [﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ هَذَا الأجْرُ]: قدَّرَ المُفَسِّر (هذا الأجر) لِيُبَيِّنَ المخصوص بالمدحِ؛ لأن نِعْمَ وبِئْسَ تحتاجُ إلى فاعِلٍ وإلى مخْصُوصٍ بالمَدْحِ أو الذمِّ، كما تقول: نعمَ الرجلُ زيدٌ، فزيد هو المخْصُوصُ بالمَدْحِ، والرجل فاعل، فقوله: ﴿نِعْمَ﴾ فعل ماضٍ جامد، أي: لا يتَصَرَّفُ.

وقوله: ﴿أَجْرُ﴾ فاعلٌ ومُضَافٌ، و﴿ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ مضافٌ إليه، وهذه الجملة تحتاجُ إلى مخصوصٍ بالمدْحِ فقَدَّرَهُ المُفَسِّر: [هَذَا الأجْرُ]، فالتقدير: نِعْمَ أجْرُ العاملين هَذا الأجْرُ والجزاءُ، وإعراب (هَذا الأجْرُ) أي المخصوص: مبْتَدَأٌ مؤخَّرٌ، وجملة

﴿نِعْمَ أَجْرُ﴾ خبرٌ مُقَدَّمٌ.

وسمَّى الله تعالى الثَّوابَ أجْرًا من بابِ إظهارِ كَرَمِهِ على عِبادِهِ كأنهم أُجَراءُ، فيكون هذا الثوابُ واجِبًا وُجوبَ الأُجْرَةِ للأجِيرِ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سَمَّى الإنفَاقَ في سبيلِهِ إقْراضًا فقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥]، كأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل هذا الإنفاقَ بمَنْزِلَةِ الشيءِ اللازِمِ رَدُّهُ كما يلزمُ رَدُّ القَرْضِ، وهذا لا شكَّ أنه مِنْ نِعْمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفضْلِهِ، وإلا فهو المتَفَضِّلُ أوَّلًا وآخِرًا.

فالله تعالى هو المتَفَضِّلُ بالعملِ وهو المتَفَضِّلُ بالجزاءِ، ولكِن لنِهَايَةِ كرَمِهِ وغايَةِ جُودِهِ جعلَ عَمَلَ الإنسانِ كأنَّهُ عَمِلَ مِنْ نَفْسِهِ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، نسأل اللهُ أن يجْعَلَنَا من المحْسِنِينَ المجازين بالإحسانِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن الإيمانَ إذا قُرِنَ بالعَملِ الصَّالِحِ فالمرادُ به ما فِي القَلبِ، ووَجْهُ ذلكَ: أن العطفَ يقْتَضِي المغايَرَةَ، أما إذا ذُكِرَ الإيمانُ وحدَهُ فإنه يدْخلُ فيه العملُ الصالحِ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: اشتراطُ أن يكونَ العملَ صَالحًا، والعملُ الصَّالحُ ما جمعَ شَرْطَيْنِ: الإخلاصِ، والمتابَعَةِ لرسولِ الله ﷺ.

فالمُرائِي بعملِهِ عَمَلُهُ ليس صَالحًا لفَقْدِ الإخلاصِ، والمخْلِصُ المبْتَدِعُ عَمَلُه كذلك غيرُ صالح؛ لأنه غيرُ متَابع للنَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لكن هل تُشْتَرَطُ المتابَعَةُ أو عدمُ العِلْمِ بالمنافَاةِ؟ يعني: هل يُشْتَرَطُ أن نعْلَمَ أن هذا العملَ فيه متابَعَةٌ وأنه مشروعٌ أو يُشْتَرَطُ ألا نَعْلَمَ أنه غيرُ مَشْرُوعٍ؟

الأَوَّلُ يَقِينًا، يعني يُشْتَرَطُ أن نعْلَمَ أن هذا العملَ فيه متَابَعَةٌ وأنه مشروعٌ؛ لأنـه ينْبَنِي على هذا لو أن إنْسَانًا تعَبَّدَ بعملٍ وقلنا له: لماذا تَتَعَبَّدُ بهذا؟ قال: أريدُ دَليـلًا على أنه غيرُ مَشروع، قلنا: ليس عِنْدَنَا دَلِيـلٌ ينُصُّ على أن هذا العمل ليس بمَشْرُوعٍ؛ فهل لنا سُلطَةٌ على مَنْعِهِ؟

الجواب: نعم؛ لأنه يُشتَرطُ أن نعْلَمَ أنه مشروعٌ لتَتَحَقَّقُ المتابعَةُ، فالمقامات ثلاثة:

تارةً نعلمُ أنه غير مشروعٌ كالنَّهْيِ عن صومِ العِيدَيْن، وما أشبه ذلك[1].

وتارة نَعْلمُ أنه مَشْرُوعٌ كصومِ يوم الاثنين[2].

وتارة لا نَعْلَمُ أنه مشروعٌ أو غيرُ مشروعٍ، مثل لو قال قائل: ائتوني بدليلٍ على اتخاذ ليلة ولادَةِ النَّبِيِّ ﷺ عِيدًا ليس بمشروع، أو قال: ائتوني بدَليلٍ على أن مَنْ لازَمَ ثلاثةَ آلاف تَسْبِيحة في اليوم وجَعَلَها سُنَّةً راتِبَةً؛ أن عَمَلَهُ غيرُ مَشْرُوعٍ؟

نقولُ: الدَّليلُ على الفاعِلِ؛ لأن الأصلَ في العباداتِ المنعُ حتى يقومَ دليلٌ على المشْروعِيَّةِ.

لو قال قائل: ورَدَ في الحديثِ: «مَنْ سَنَّ فِي الإسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب صوم يوم الفطر، رقم (١٨٨٩)؛ ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم يوم الفطر ويوم الأضحى، رقم (١١٣٧) عن عمر بن الخطاب، ولفظ مسلم: «إن هذين يومان نهى رسول الله ﷺ عن صيامهما، يوم فطركم من صيامكم، والآخر يوم تأكلون فيه من نسككم».

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس، رقم (١١٦٢) عن أبي قتادة الأنصاري، ولفظه: وسئل عن صوم الاثنين؟ قال: «ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ وَيَوْمٌ بُعِثْتُ -أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ- فِيهِ».

وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ...» الحديث[1]، أهلُ البِدَعِ يستَدِلُّونَ بهذا الحديثِ على جوازِ ما يبْتَدِعُونَهُ، فكيف الجوابُ عن هذا الحديثِ؟

الجواب: ليس مَعْنَى قوله: «مَنْ سَنَّ» أي: مَنْ شَرَعَ، بل معنى قوله: «مَنْ سَنَّ» أي: من فَعَلَ ما هو مَشْرُوعٌ وابتدأَ به.

ويَدُلُّ على هذا سببُ الحديثِ، فإن سببَهُ أن رَجُلًا لما دَعَا النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى التَّبَرُّعِ للقوم الذين جاءوا من مُضَرَ مُجْتَابِي النِّمار فُقَراء، فجاء رجلٌ مِنَ الأنصارِ بِصَرَّةٍ لا يستطيع أن يحْمِلهَا مِنْ ثِقَلِها، فأخَذَها النَّبِيُّ ﷺ ثم تَتَابَعَ الصحابةُ بعدَهُ، فقال ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا» فيُحْمَلُ الحديثُ على أن المراد بالسَّنِّ، الفعلُ، يعني: ابتداءَ العَملِ، يعْنِي: من بادَرَ وسابَقَ حتى صارَ قُدْوَةً للناسِ في ذلك، ولذلك قال: «فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا»، وإلا فلا يُمْكِنُ أن نقولَ إن البِدْعَةَ التي ابتُدِعَتْ إنها حَسَنةٌ، لقولِ الرَّسولِ ﷺ: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[2]، والضَّلالُ لا يوصَفُ بالحُسْنِ؛ هذا جوابٌ.

والجوابُ الثاني: أن يُقَالَ: المرادُ بـ«مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً» ما كان وَسِيلَةً إلى مأمورٍ به، مثاله: رجلٌ بَنَى بُيُوتًا لطلبَةِ العِلم، أو أنشأَ مطَابعَ لطِباعَةِ كُتبِ العلم وما أشبه ذلك، هذه سنَّةٌ ابتدائية لكنها وَسِيلَةٌ، ووسائلُ المشْرُوعِ مشروعة لا لِذَاتِهَا لكِنْ لغَايتِهَا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب مَنْ سنَّ سنة حسنة أو سيئة...، رقم (١٠١٧) عن جرير بن عبد الله البجلي.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧) عن جابر بن عبد الله.

وأما قولُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نِعْمَتِ البِدْعَةُ»[1] فالبدْعَةُ هنا نَسْبِيَّةٌ، فإن جمعَ الناسِ على إمامٍ واحدٍ بعدَ أن تَركَهُ النَّبِيُّ ﷺ وأبو بكرٍ وأَوَّلُ خلافةِ عُمَر يُعْتَبَرُ بِدْعَةً نِسبِيَّةً، أي: بالنِّسْبَةِ لتركِها هذه المدة.

أو نقول: إنها بِدْعَة لُغَوِيَّةٌ، والذي وردَ النَّهْي عنه والذَمُّ لفاعِلِه هي البِدْعَةُ الشرعِيَّةُ.

والمعنى الأوَّلُ أقْوى: أنها بِدْعَةٌ نَسْبِيَّةٌ إضافية بالنِّسْبَةِ لتَرْكِها هذه المدة بدون أن تُقامَ، وتَرْكُهَا كان لسببٍ، فلما انتَفَى هذا السببُ عادَتِ المشْرُوعِيَّةُ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن جزاءَ المؤمنين العامِلِينَ عَمَلًا صالحًا سُكْنَى الجنَّاتِ، لقولِهِ: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: الإقامَةُ الدَّائمَةُ في الجنَّةِ على قِراءةِ: (لنُثْوِيَنَهم) وأيضًا لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾؛ لكن لَيْسَتْ صَرِيحَةً.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: أن مَنازِلَ الجنَّةِ عالِيَةٌ، لقوله: ﴿غُرَفًا﴾.

الفَائِدةُ السَّادسَة: أن في الجنَّةِ أنهارًا، لقولِهِ: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، والأنهار قد تَقَدَّمَ أن أصنَافَهَا أرْبَعَةٌ.

الفَائِدةُ السَّابِعةُ: التَّنَعُّمُ في الجنَّةِ كما يكونُ بالأكْلِ والشُّرْبِ والنِّكَاحِ واللباسِ يكون كذلكَ بالنَّظَرِ وبالبَهْجَةِ، لقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فإنك لا تستَطِيعُ الآن أن تَتصورَ البَهْجَةَ التي تَنَالهَا، إذا رأيتَ هـذهِ الأنهارَ تجْرِي تحتَ قُصورِكَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة في رمضان، باب ما جاء في قيام رمضان، رقم (٢٥٠) بلفظ: «نعم البدعة هذه».

وغُرَفِكَ ولها منظرٌ لا يُتَصَوَّرُ.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: عِظَمُ هذا الثوابِ الذي يحصُلُ للذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ لأن الله أثْنَى عليه في قولِهِ: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾.

الفَائِدةُ الْعاشِرَة: الردُّ على الجَبْرِيَّةِ، لقوله: ﴿ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ حيث أضافَ العملَ إليهم، فدَلَّ هذا على أنهم يَعْمَلُونَ باخْتِيارِهِمْ وإلا لما استَحَقُّوا الثَّناءَ، فلولا أن الإنسانَ يعْمَلُ باختيارِهِ ما استَحَقَّ أن يُثْنَى عليه بالعملِ الصَّالِحِ، ولا أن يُذَمَّ بالعملِ السَّيِّئِ، ومن ثَمَّ قالت الجبريةُ: إن أفعالَ اللهِ غيرُ مُعَلَّلَةٍ، فالله عندَهُمْ يَظْلِمُ من شاءَ وإن كان هو الذي أَجْبَرَهُ على العَمَلِ، ويُثِيبُ مَنْ شاءَ وإن كان هو الذي أَجْبَرَهُ على العمل، ولا حِكمةَ في ذلك، فَهُمْ لا يُعَلِّلُونَ أفعالَ اللهِ، بل أفعالُ الله عندهم لمجَرَّدِ المشيئة.

• ● ❁ ● •

الآيــة (٥٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت:٥٩].

إعراب: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ فيه ثَلاثَةُ أوْجُهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أن يكونَ خَبَرًا لمبتدأ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: همُ الَّذين صَبَرُوا.

الوجه الثاني: أن يكونَ نَعْتًا مَقْطُوعًا فيكونُ مَنْصُوبًا على المدْحِ، يعني: أمْدَحُ الذين صَبَرُوا.

الوجه الثالثُ: أن يكونَ صِفَةً للعَامِلينَ فيكونُ نَعْتًا مَوْصُولًا.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ أيْ: عَلَى أَذَى المشْرِكِينَ والهِجْرَةِ لإظهارِ الدِّينِ]: صبَرُوا على أمْرَيْنِ: على أذَى المشْرِكِينَ، وعلى الهجْرَةِ لإظهارِ الدِّينِ؛ لأن في كِلَيْهِمَا مَشَقَّةٌ على النُّفوسِ، فهم صَبَرُوا على أَذَى المشركين المتَنَوِّعِ بالقولِ وبالفِعْلِ، كما يقـال: حربُ الأعْصابِ والمضَايقاتِ النَّفْسِيَّةِ، وصبَرُوا كذلك على الهجرةِ مِنْ بلادِهِمْ التي سَكَنُـوهَا وأقاموا فيها إلى بلاد أخرى يكونـون فيها غُرباءُ، كل هـذا لا شك أن فيه مَشَقَّةٌ على النُّفوسِ.

وإنما خصَّ المُفَسِّر الصَّبرَ بهذينِ الأمْرَيْـنِ لتَعْيِينِ السِّياقِ لهما، إذ إن السيـاقَ كُلَّهُ في مسألةِ الهجْرَةِ، ولو قيلَ بالعُمومِ لكانَ أَوْلَى، أَيْ: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ على كُلِّ ما أُمِرُوا بالصَّبْرِ عليه، فهم صَبروا على أقسامِ الصَّبْرِ الثلاثةِ: صَبَرُوا على طاعةِ اللهِ،

ومجاهَدَةِ النَّفْسِ على فعلها وإتمامِهَا وإتقانِهَا، وصَبَرُوا على المعصيةِ بحَبْسِ النَّفْس عن فعلها، وصَبَرُوا على أقْدارِ الله فحَبَسُوا أنْفُسَهُم عن التَّسَخُّطِ على القَدَرِ. فإن مقاماتِ المصابِ بأَذَى أربعةٌ.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ متعَلِّقٌ بـ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، وقدَّمَ الجارَّ والمجْرُورَ على عامِلِهِ لإفادَةِ الحَصْرِ.

والتوَكُّلُ معناه: الاعتمادُ، وعرَّفَهُ بعْضُهم بقَولِهِ: صِدْقُ الاعتمادِ على الله في جلبِ المنَافِعِ ودَفْعِ المضارِّ مع الثِّقَةِ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا يتوَكَّلُونَ على غيرِهِ.

واعلم أن التَّوَكُّلَ ينْقَسِمُ إلى ثلاثةِ أقْسامٍ:

الأولُ: توَكُّلُ عبادَةٍ مَقْرُونٌ بالخَشْيَةِ والمحَبَّةِ والتعظيمِ، وتفويضِ الأمر تَفْوِيضًا كاملًا إلى المعتَمَدِ عليه، وهذا النوعُ لا يجوزُ إلا لله عَزَّوَجَلَّ.

الثاني: توكُّلُ اعتمادٍ بلا عبادة، بمعنى أن الإنسان يَعْتَمِدُ على غَيرِهِ، لكنَّه اعتمادٌ لا يَشْعُرُ معه بأنه متَذَلِّلٌ وخاشِعٌ له ورَاغِبٌ إليه، وهذا القِسْمُ إذا كان على ما يمكن الاعتمادُ عليه فهو شِرْكٌ أصْغَرُ، وإن كان على ما لا يُمْكِنُ الاعتمادُ عليه فهو شِرْكٌ أكبَرُ، يعني: إذا كان على ميِّتٍ أو غائبٍ لا يمكنك أن تعْتَمِدَ عليه فيكون شِرْكًا أكبرَ؛ لأنه ليس لذلك معنى إلا أن تَعْتَقِدَ أن هذا المعتَمَدَ عليه متَصَرِّفٌ في الكُونِ بغير مباشَرَةٍ، وهذا يحْصُلُ لكثيرٍ مِنَ المشْرِكِينَ الذين يعْتَمِدُون على الأمواتِ والأولياءِ وإن كانوا بَعِيدِينَ.

أما إذا كان يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ وهو يُمْكِنُ أن يكونَ سَبَبًا في جَلْبِ المنفعةِ أو دفْعِ

المَضَرَّةِ؛ لكنه مُعْتَمِدٌ عليه على أنه أعْلى مِنْهُ، فإن هذا نوعٌ مِنَ الشِّرْكِ الأصغرِ، مثل اعتمادِ كثيرٍ من الناسِ الآن على رَواتِبِ الدَّولَةِ وما أشبه ذلك، فكونك تَعْتَمِدُ على الدولة على أنها مصدرُ رِزْقِكَ، فإن هذا نوعٌ مِنَ الشركِ الأصغر لأن الدولَةَ ليستْ إلا مجردَ سَببٍ، ولهذا من كان على هذا الحالِ تَجِدُه يُرَاعي المُتوكَّل عليه ويخَافُه وربما يَتْرُكُ ما أَوْجَبَ الله عليه مُراعَاة لَهُ ومُدَاهَنَةً، أو يَفْعَلُ ما حرَّمَ الله عليه منْ أجْلِهِ.

أما القِسْمُ الثالثُ: فهو الاعتمادُ على الغَيْرِ لا على سَبيلِ الخشْيَةِ والخوفِ والرَّغْبَةِ ولا على سَبيلِ أنه يَشْعُرُ أنه أعْلى مِنْهُ، بل على سَبيلِ أنك أنْتَ الَّذِي فوقَهُ وأنت الذي تُدَبِّرُهُ فتَعْزِلُ وتُنَصِّبُ، فهذا جائز ولا حرجَ فيه، وقد وَقَعَ مِنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإنه كان يَبْعَثُ السعاةَ تَوْكيلًا لهم على مَا يُرِيدُ، فهذا لا بأسَ بِهِ.

وهذا القِسْمُ يحصُلُ عن طريقِ الوِكَالَةِ، فعِنْدَمَا أُوَكِّلُ إنسانًا أن يَشْتَرِيَ لي شَيئًا أو يَبِيعَ لي شَيئًا وما أشْبَه ذَلِكَ، فأنا معتَمِدٌ عليه في هذا الأمرِ، لكن ليس على سَبيلِ الاحْتِياجِ إليه وأنه أعْلَى مِنِّي، بل على العَكْسِ؛ على سبيل الاعتقادِ بأنِّي أعْلَى منه، لا سِيَّما إذا كان بِعِوَضٍ، وأن الأمرَ إليَّ بشَأْنِهِ إن شئت عَزَلْتُ وإن شئت نَصبت.

وقد أجمعَ العلماء على جوازِ التَّوكِيلِ بالبَيْعِ والشِّراءِ وغيرِهِ مما تَدْخُلُ فيه الوِكالَةُ، والمراد من قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ القِسْمُ الأوَّلُ والثاني بنَوْعَيْهِ، فإنهم لا يعْتَمِدُونَ على أحدٍ سِوَى الله عَزَّوَجَلَّ في جَلْبِ المَنافِعِ ودَفْعِ المَضارِّ.

واعلم أن التَّوَكُّلَ أحدُ شَقَّي الدِّينِ، فإن الدين مُكَوَّنٌ منْ أمْرَيْنِ: من عِبَادَةٍ واسْتِعَانَةٍ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، وهذا كثيرٌ في القُرآنِ؛ لأن العبادةَ

لا تَكُونُ إلا بفعلٍ مِنَ العَبْدِ وبمَعُونَةٍ مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويجبُ على المرءِ عِنْدَما يتَعَبَّدُ لله أن يكونَ مُعْتَمِدًا على ربِّهِ؛ لأن الله لو وَكَلَهُ إلى نفْسِهِ لوكَلَه إلى ضَعْفٍ وعَجْزٍ وعَوْرَةٍ، فلا يستَطِيعُ أن يقومَ بما أوْجَبَ الله عليه.

قوله: [﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فيَرْزُقُهم مِنْ حيثُ لا يَحْتَسِبُونَ]: هذه الجملةُ من المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا تُناسِبُ التَّوَكُّلَ؛ لأن الذي يُنَاسِبُ التوكُّلَ أن يقول: فيكونُ حَسْبُهُم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، أما الرِّزْقُ من حيثُ لا يَشْعُرُ فيُنَاسِبُه التَّقْوَى لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣]، وفرْقٌ بينَ الأمْرَينِ، لكنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أتى بهذه الجُملةِ توطِئةً لما بعدها، وهو قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾، وإلا فبالنظَرِ إلى الآيةِ المفَسَّرَةِ لا يناسِبُها هذا القولُ.

لو قال قائل: التوكُّل ينَاسِبُه الرِّزْقُ؛ لأن النَّبِيَّ ﷺ يقولُ: «لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرُ...» الحديث[1]، فكيفَ الجوابُ عن هذا؟

فالجواب: معْنَى الحديثِ لو تَوَكَّلْتُمْ علَى الله في طَلَبِ الرِّزْقِ، لكِنَّ التَّوَكُّلَ المطْلَقَ هو أن يكونَ اللهُ حَسْبَهُ، فيقول: حَسْبُنَا اللهُ ونَعْم الوكيلُ.

فهل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يكونُ وَكِيلًا ومُوَكِّلًا؟

الجواب: نعم يكون الله وكيلًا، وهذا كَثيرٌ في القُرآنِ، وقال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب:٣]، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب:٣٩].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم (٢٣٤٤)؛ وابن ماجه: كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، رقم (٤١٦٤)؛ وأحمد (١/ ٣٠) (٢٠٥) عن عمر بن الخطاب.

ويكونُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مُوَكِّلًا، قال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩]، وليس التوكيلُ مِنَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كتَوْكِيلِي لفلانٍ وفلانٍ؛ لأن تَوْكِيلِي لفلانٍ وفلان إما لعَجْزِي أو لتَّقْصِيرِي أو ما أشبه ذلك، لكنَّ تَوْكيلَ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بمعنى أن الله عَزَّوَجَلَّ يجعلُ هؤلاءِ هُمُ القائِمُون بها، لا أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عاجزٌ.

وبعض الناس مِنَ العَوامِّ إذا وكَّلْتَهُ بشيءٍ قال: (وكِّلِ الله)، ولا بأس بمثل هذه العبارة، وقوله: (وكِّلِ الله) يعني: اجْعَله حَفِيظًا، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حفيظٌ على كلِّ شيءٍ، وليس معناها أنه هو الله، بل المعنى: اجعلِ الله وَكِيلًا وحَارِسًا، أي: حَفِيظًا، وأني سأقومُ بالأمَانَةِ؛ لأن الله تعالى لا يَغِيبُ عنه شيء، وهو عَليمٌ بكُلِّ شيءٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: وجوبُ إفرادِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالتَّوَكُّلِ والاعتمادِ، لقولِهِ: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

الفَائِدةُ الثَّانِية: ينْبَغِي للصابِرِ أن يعتَمِدَ على ربِّهِ في صبْرِهِ، لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وفائدةُ اعتمادِهِ في صَبْرِهِ على رَبِّهِ:

أولًا: الثَبَاتُ على ذَلِكَ، فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

ثانيًا: أن صَبْرَهُ يكون عبادةً؛ لأن بعضَ الناس يَصْبِرُ ويتَجَلَّدُ على حَدِّ قول الشاعرِ[1]:

---

(١) البيت لأبي ذؤيب قاله يرثي بنيه، ذكره الزمخشري في الكشاف (٢/ ٣٥٧).

وَتَجَلُّـــدِي لِلشَّـــامِتِينَ أُرِيهُـــمْ أَنِّي لِرَيْـبِ الـدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَـعُ

هذا الصَّبْرُ لا شك أنه خلق جميلٌ، لكنه لا يُثابُ عليه، وإنما يُثابُ على الصبْرِ المقرونِ بالتَّوَكُّلِ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو الذي يكونُ فيهِ الثَّوابُ والأجْرُ.

الفَائِدة الثَّالِثة: كفايةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لأنه لا يَتَوَكَّلُ إلا عَلَى مَنْ هو كافٍ.

الآيـة (٦٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت:٦٠].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَكَأَيِّن ﴾ كَمْ]: على هذا تكونُ خَبَرِيَّةً، يعني: وكَمْ من دَابَّةٍ، أي: كثيرٌ مِنَ الدَّوابِ.

والدابَّةُ في اللغة العربية: كل ما يَـدُبُّ على الأرضِ، سـواء مَشَى على بَطْنِـهِ أو على رِجْلَينِ أو على أربعٍ، أما في العُرْفِ فهي لذَواتِ الأربعِ فقـط، فلا تَشْمَلُ ما يَمْشِي على بَطْنِـهِ ولا ما يمْشِي على رِجْلين، ولا على ما يمْشِي على سبـعٍ وسبعين، وهي دابة عِنْدَنا تُسَمَّى أم سبعٍ وسبعين، وهي مثلُ الدُّودَةِ تَمْشِي ولها أرجلٌ كثيرةٌ -سبحان الله!- وقد أخْبَرَنِي بعضُ الطُّلابِ أنهم عَدُّوا هذه الأرجلَ فوجَدُوها فوق الخَمسين ودونَ السِّتِّين، ولعله نوعٌ آخَرُ أو لعل هذه التسمية على سبيلِ المبالَغَةِ الظاهِرَةِ.

لو قال قائل: هل السيارةُ تُسَمَّى دابَّةٌ؟

فالجواب: لا تُسَـمَّى دابة؛ لأن الدابَّـة هي التي تَدُبُّ بنَفْسِهَا، أما السيـارةُ فلا تَدُبُّ بنَفْـسِهَا بل بسائِقِهَا، وقد تَدْخُلُ السيارة في الفَـلكِ لأنها مِثْلُ السَّفِيـنَةِ لصاحِبِهَا.

وقوله: ﴿ وَكَأَيِّن ﴾: مبتدأٌ.

وقوله: ﴿مِّن دَآبَّةٍ ﴾: تَمْيِيزٌ لها.

وجملة: ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ قيل: إنها هي الخبرُ، وقيل: جملةٌ ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا ﴾ هي الخَبَرُ، وجملة: ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ صِفَةٌ لدَابَّةٍ، وهذا أقربُ؛ لأن الكلامَ لا يَتِمُّ إلا بقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ لا تستَطيعُ أن تَكْتَسِبَ وتحْمِلَ الرِّزْقَ حتى تقومَ بكفايَةِ نفْسِهَا، وهذا شيء كثيرٌ ويَرِدُ علَيْنَا نحنُ في حال الصِّغَرِ والطُّفولَةِ فلا نَسْتَطِيعُ أن نحملَ رِزْقنَا، ولولا أن اللهَ قيَّضَ لنا الأمَّ وقيَّضَ لنا الرضاعة من الأمِّ ما حَمَلْنَا الأرزَاقَ، كذلك يُوجَدُ دوابٌّ تأْتِيهَا أمراضٌ وعاهات فلا تستطيعُ أن تَطْلُبَ الرِّزْقَ فيُهَيِّئُ الله لها رِزْقًا بحيثُ يأْتِيهَا وهي في مكانِهَا.

وكم قُصَّ عَلَيْنَا مِنْ قصصٍ كَثِيرةٍ في هذا البابِ؛ كدابَّةٍ جاءَهَا أمراضٌ وكُسِرَتْ رِجْلُها أو عَمِيت، أو طائر كُسِرَ جنَاحُهُ وما أشْبَه ذلك، فيَجِدُونَ الأشياء تأتي إليها بإذنِ الله جَلَّ وَعَلَا، وتأكلُ وهي في مكَانِهَا، وتوجَدُ دوابُّ صغيرةٌ لا تستطيع أن تَذْهَبَ بَعِيدًا ثم يُقَيِّضُ الله لها طعامًا يَسْقُطُ حولها وتأتِي إليه، وهذه الدَّوَابُ منها ما يستَطِيعُ أن يدَّخِرَ الرزقَ بنَفْسِه، ومنها ما لا يَدَّخِر الرزقُ، ومنها من له أعوانٌ، ومنها من ليس له أعوانٌ، والذي يتَفَكَّرُ في مخلوقاتِ الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الأمرِ يجِدُ العَجَبَ العُجابَ!

وقد ذكَر ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قِصَّةً، أن رَجُلًا وضَعَ طَعَامًا لنَمْلةٍ فلما أحسَّتْ به عَجَزتَ عن أن تَحمِلَهُ فذهبت إلى صاحباتها مِنَ النملِ ودَعَتْهُم فجاءوا، فلما جاءوا وصارُوا حول المكان رُفِعَ الطعام فلم يجدوه، فجَرَوا وبقِيتْ هي تُفَتِّشُ حول المكان

فوضَعَه لها ثانية، فلما تَيَقَّنَتْهُ ذهبت ودَعَتْهُم، فلما أقْبَلُوا رَفَعَه، ثم بدأتْ تطلُبُه ورَجَعوا، ثم وضَعه في المرة الثالثة وذهبت ودَعَتْهُم فلمَّا رفَعَه ولم يجِدُوه قتَلُوها.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فذكرتها لشيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: إن الكَذِبَ لا يُحِبُّه أحدٌ، حتى النَّمْلَةُ لما كَذَبْتَ عليهم وأتَتْ بهم مِن بيوتِهِمْ واستَفْزَعَتْهُم قَتَلُوهَا[1].

فهذه الدوابُّ الضَّعِيفَةُ التي لا تستطيع أن تحمِلَ رِزْقَها يقومُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ برِزْقِها؛ لأن الله تعالى قال في كتابه عن نَفسِهِ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦].

وقوله: ﴿دَآبَّةٍ﴾ دابَّةٌ: نكِرَةٌ في سياقِ النَّفْي المُؤكَّدِ عُمومِه بـ(مِنْ) الزائدة، فأي دابَّةٍ في الأرض على اللهِ رِزْقُـهَا ويعْلَمُ مستَقَرَّهَا ومستَوْدَعَهَا كذلك، وليست الدوابُ كلها تَرْتِزَقُ من شيء واحد، بل بعْضُهَا يناسِبُه هذا وبعضها لا يناسبه، وأيًا كـان فإن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُقَدِّرُ لها الرزقَ المنـاسب لها، ومع ذلك يعلـم جَلَّ وَعَلَا مسْتَقَرَّهَا ومستَوْدَعَها، يعني: محل استقرَارِها ومحلَّ استِيدَاعِهَا.

فالمستَقَرُّ: ما تَؤُولُ إليه في يومِ القِيـامَةِ، والمستودَعُ: الدُّنيَا والبَرْزَخُ الذي بين الدنيا والآخرة؛ لأنَّ الإنسانَ يكون فيه بمَنْزِلَةِ الوَدِيعَةِ يبْقَى زَمَانًا ثم ينْتَقِلُ.

لو قال قائلٌ: إن قولَهُ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ يحتَمِلُ الأمْرَيْنِ: أي لا تَحْمِلُ رِزْقَها لضَعْفِها، وكذلك: لأنها لا تَسْتَطِيعُ التكَسُّبَ؟

فالجواب: لا تحتملُ الآيةُ الأمْرَيْنِ، فليس بصوابٍ أن نَقولَ: لا تَحْمِلُ رِزقَهَا

---

(١) شفاء العليل (ص: ٦٩، ٧٠).

لضَعْفِها؛ لأن هذا التَّعْليلَ معناه أنها لا تَحمِلُ رِزقها لأنها ضَعِيفَةٌ، إما ضَعِيفَةٌ في الإرَادَةِ أو ضَعِيفَةٌ في البَدَنِ، فليس هذا مَعْنَى الآية، بل معناها: لا تَسْتَطِيعُ أن تَكْتَسِبَ.

وكتابة الرِّزْقِ والأجلِ ليست خاصَّةً بالآدَمِيِّ بل الدَّوابُّ وغيرها داخلةٌ في هذا التَّقديرِ، لكن النُّصوصَ تَكاثَرَتْ في الآدَمِيِّ؛ لأنه هو مَحِلُّ الخطابِ والتَّكْليفِ حتى يَسْتَعِدَّ، وإلا فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولُ في القُرآنِ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨]، فقوله: [كُلُّ شَيءٍ] عامٌّ، فكلُّ شيءٍ مكتوبٌ أجَلُهُ وجميعُ حالاتِهِ مُقَدَّرَةٌ، قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، فما دَامَ اللهُ خَلَقَهُ فهو عالمٌ بِهِ جَلَّ وَعَلَا في كُلِّ أحْوالِهِ، وكلُّ أحْوالِهِ مُقَدَّرَةٌ، فما من شيء إلا عَلِمَهُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا وقَدَّرَهُ حتى القَطرةُ من المطرِ مكتوبةٌ ومُقَدَّرَةٌ، مع أنها ليست ذاتَ إرادَةٍ.

ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، فقال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾، وهذا يَدُلُّ على أن اللهَ عالمٌ بِهِ ومُقَدِّرُهُ، ثم قال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعني: كلَّ شيءٍ له حَياةٌ سيُبْعَثُ يومَ القِيامَةِ، وقُدْرَةُ الله عظيمةٌ لا يَتَصَوَّرَهَا الإنسانُ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

وكيف يقال: إن الله هو الذي خَلَقَ هذا الشيءَ وقدَّره فناءً ووجُودًا، ثم نقول: ما عِلَمَه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠]؟ فلا تَسْتَعْظِمْ هذا ولا يُبْهِرُكَ؛ لأن الأمر على الله جَلَّ وَعَلَا يَسِيرٌ، وقدرةُ الله جَلَّ وَعَلَا ليس لها منْتَهى وليس لها حَدٌّ.

فالمِهِمُّ: كلُّ شيءٍ مكتوبٌ ومقَدَّرٌ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَعْلَمُه، حتى إن أحدَ

أصحابِ الإمامِ أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ دخل عليه وهو مريضٌ، ويَئِنُّ من المرضِ، فقال: يا أبا عبدِ اللهِ كيفَ تَئِنُّ وقد رَوى طَاووسُ أن الملائكةَ تَكْتُبُ حتى أَنِينَ المرِيضِ[1]، فلما قال ذلك كفَّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وصارَ يتَحَمَّلُ ولا يَئِنُّ مِن مرضِهِ، مع أن الأنينَ أحيانًا يكون شَيْئًا طَبِيعِيًّا.

والشاهد: أنه يجبُ علينا أن نعتَقِدَ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالمٌ بكُلِّ شيءٍ، وأنه مقدِّرٌ لكلِّ شيء، وأن آجالَ كلِّ شيءٍ مكتوبةٌ، وكُلُّ حركاتِهَا وسكنَاتِهَا مكتوبة، وأنه لا يحدُثُ شيء في الأرضِ ولا في السماء إلا بعِلْمِ اللهِ وإرَادَتِهِ وخلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

مسألة: هل مَلَكُ الموتِ يَقْبِضُ أرواحَ الحشراتِ؟

هذا مَحَلُّ نِزاعٍ بينَ السَّلَفِ، والأدِلَّةُ فيها تكادُ تكونُ متكَافِئَةً، لكن الذي يظهرُ أن قبضَ ملكِ الموتِ للأرْواحِ عامٌّ؛ لأن (مَلك) مضافٌ إلى (الموت) فيُفِيدُ العمومَ، فيَشْمَلُ موتَ كُلِّ حَيوانٍ.

لو قال قائل: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾، هل هذا العُمومُ يَشْمَلُ بَنِي آدَمَ؟

فالجواب: لغةً يَشْمَلُ بني آدمَ، لكن لما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ عُلِمَ أن المرادَ ما سِوَى بَنِي آدَمَ، أما قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، فهو عامٌّ لبَنِي آدَمَ وغَيْرِهِ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أتى بالجُمْلَةِ الاسمية؛ لأن الجملَةَ الاسْمِيَّةَ تُفِيدُ بأصلِ وَضْعِهَا ثبوتَ الحُكمِ، والرزقُ: بمعنى العطاءِ بلا عِوَضٍ،

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥/ ٣٢٥).

والضمير في ﴿يَرْزُقُهَا﴾ أي: هَذِهِ الدَّابَّةُ، ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾: معطوفة على (الهاء)، والضميرُ هنا واجِبُ الانفصالِ إذ إن الضَّمِيرَ المتَّصِلَ لا يُمْكِنُ أن يتأتَّى هنا، فلا يَصِحُّ أن تقولَ: (الله يَرْزُقَها وكُم)، فالضمير إذا أتى بعدَ العَطْفِ أو بعد (إلا) فلا بُدَّ أن يكونَ مُنْفَصِلًا.

وقوله: [﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أيُّها المهاجِرُونَ وإن لَمْ يكُنْ مَعَكُمْ زادٌ ولا نَفَقَةٌ]: لأن الكلامَ -كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ سابقًا- مَسُوقٌ في الهِجْرَةِ ومغادَرَةِ البلَدِ، فاللهُ تعالى كما رَزَقَ هذه الدَّوابَّ الكثيرةَ التي لا تُحْصَى جِنْسًا، فضلًا عن النوع، فَضْلًا عن الأفرادِ، فأنتُمْ كذلك إذا هَاجَرْتُمْ لا يَضِيعُ رِزْقُكُمْ، بل رِزْقُكُم على الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال:٧٠]، وقد حَصَلَ، فأَسْرَى بَدْرٍ الذين أسْلَمُوا حَصَل لهم مِنَ الفَيْءِ والغنَائِمِ أكثرَ مِمَّا أُخِذَ منهم.

قوله: [﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقْوَالِكُمْ، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بضَمائِرِكُمْ]: فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سميعٌ لكُلِّ شيءٍ، يسمَعُ كلَّ صوتٍ وإن خَفِي، كما قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه:٧]، فهو يعلمُ كلَّ ما يكون من صوتٍ خَفِيٍّ، سواء كان قولًا أمْ غيرَ قولٍ، لكنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خصَّ القولَ لأنه مَحَطُّ التَّكْلِيفِ، ومَحَطُّ الإثمِ أو الأَجْرِ.

و﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: من أسماء اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وله مَعْنَيانِ:

أحدُها: إدْرَاكُ المسْمُوعِ.

والثاني: إجابَةُ الدُّعاءِ.

أما إدراكُ المسْمُوعِ فَلَهُ أمثِلَةٌ كثيرةٌ كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ

ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ [المجادلة:١].

وأما إجابَةُ الدُّعاءِ فكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، بمعنى: يَسْمَعُ صوتَ الدَّاعِي أو يُجيبُ دُعاءَهُ.

قوله: [﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بضَمائِرِكُمْ]: فعلى رأي المُفَسِّر تكونُ هذه الآية دَالَّةٌ على الأقوالِ وما في الضَّمائرِ فَقَطْ، مع أن هنَاكَ أفْعالًا وهي أفعالُ الجوارحِ.

فالآية بهذا التفسيرِ ليس فيها دليلٌ على عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأفعالِ النَّاسِ، ولهذا كان الصوابُ أن يقالَ: العَليمُ بجميعِ أحوالِكُمْ، فالله عليمٌ بما في الضمائرِ وعَلِيمٌ بما يَفْعَلُ وبما يسْمَعُ؛ لأن العلـمَ مِنْ أشملِ ما يكونُ مِنَ الصفـاتِ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق:١٢]، فهو من أعَمِّ الصفاتِ شُمُولًا.

وقوله: ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ يقولُ العلماءُ: إن العلمَ هو إدراكُ المعْلُومِ على ما هو عليه إدْرَاكًا جَازِمًا مطابقًا، وقولنا: (على مَا هُو عَلَيْهِ) يُغْنِي عن قولنا: (مُطَابِقًا)، لكن إذا قلنا: العِلْمُ إدراكُ الشيءِ إدْرَاكًا جازِمًا مُطَابقًا فهذا صحيحٌ.

المهم: لا بُدَّ أن يكونَ الإدراكُ (جَازِمًا) فنُخْرِجُ به الشَّكَّ والظَّنَّ والوَهْم.

و(مطابِقًا) نُخْرِجُ به الجَهْلَ المرَكَّبَ.

و(إدْرَاكًا) نُخْرِجُ به الجهلَ البَسِيطَ، فيكونُ الإدراكُ للأمورِ على سِتَّةِ أنواع: عِلْمٍ، وجهْلٍ بسيطٍ، وجَهْلٍ مُرَكَّبٍ، وشَّكٍ، وظَنٍّ، ووَهْمٍ.

ننظر إلى تفصيل ذلك:

العلم: أن تُدْرِكَ الشيءَ على ما هو عَلَيـه إدْراكًا جَازِمًا، فنَـفْرِضَ أنَّ أمامـك

جهازُ تَسجِيلٍ، فالعِلْمُ أن تُدركَ أن الذي أمامَك جهازُ تَسجيلٍ.

الجهْلُ البسيط: يقال لك: ما هذا الَّذِي أمَامَكَ؟ تقولُ: لا أَدْرِي.

الجهْلُ المرَكَّبُ: يقال لك: ما هذا الَّذِي أمَامَكَ؟ تقول: هذه أُلْعُوبَةُ أطفالٍ، هـذا جهْلٌ مُرَكَّبٌ من جهلِكَ بحقيـقةِ الحالِ ومن جَهْلِكَ بحالِكَ؛ حيـث ظَننتَ أنك عَالمٌ وأنت جاهلٌ.

الشكُّ: يقال لك: ما هذا الذي أمَامَـكَ؟ تقول: إما جهازُ تَسجيلٍ أو رادَيو؛ لأن أحدَ الاحتمالين صحيحٌ، فمَعَ التَّسَاوي يكونُ شَكًّا.

وإذا رجَّحتَ أنه جهازُ تَسجيلٍ فهو ظَنٌّ، والمرجوح يكونُ وَهْمًا.

وكل هذه الأشياء منْتَفِيَةٌ عن الله عَزَّوَجَلَّ، ما عدا العِلْم فإنَّه ثابِتٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كلِّ وَجْهٍ.

لكن لو قال قائلٌ: هذا الجزم بأن هذه الأمـور منْتَفِيَةٌ عنِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما عـدَا العِلْم، يَرُدُّه قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الحديـث القدسي: «وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[1]، فأثبـتَ أن الله عَزَّوَجَلَّ يتَرَدَّدُ في بعضِ أفعَالِهِ؟

والجوابُ: أن التَّرَدُّدَ قِسْمانِ:

الأوَّلُ: تَرَدُّدٌ لتَوَقُّفِ المتَرَدِّدِ في الأمرِ هلْ يكونُ خَيْرًا أو لَا، وهذا بالنِّسْبَةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ ممْتَنِعٌ؛ لأن الله تعالى يَعْلَمُ.

الثَّانِي: تَرَدُّدٌ باعتـبارِ النَّظَرِ، يعْنِي: تَرَدَّدَ لأمرٍ يتَعَلَّقُ بغَيْرِهِ مثـلُ هذه الحـالِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦١٣٧) عن أبي هريرة.

فإنَّ تَرَدُّدَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا لخفاءِ الأمْرِ عليه، ولكن لأنَّهُ يَكْرَهُ أن يَسُوءَ عَبْدَهُ، فيتَرَدَّدُ لا لشكٍّ في الأمر واستظهارٍ للواقِعِ، ولكن لأجلِ أن الأمرَ يتعَلَّقَ بغيرِهِ، فهذا لا يُعْتَبَرُ نَقْصًا بل كَمالًا؛ لأنه يدُلُّ على رحمةِ الله عَزَّوَجَلَّ، وبهَذَا يَزُولُ الإشكالُ.

وقوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ مِنَ الأسماءِ المتَعَدِّيَةِ، فيكونُ متَضَمِّنًا لثُبوتِ الاسمِ والصِّفَةِ والحُكْمِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: الإرشادُ إلى النَّظَرِ في مخلوقاتِ الله، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾؛ لأجلِ أن نَتَفَكَّرَ في هذه الدَّوابِ التي لا تَحْمِلُ رِزْقَها.

الفَائِدةُ الثَّانِية: إثباتُ عدةِ صِفَاتٍ من صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، منها كمالُ القُدْرَةِ؛ حيث يخْلُق هذه الدَّوابَّ الصَّغيرةَ التي لا تحْمِلُ رِزْقها، ويخلُقُ الدَّوابَّ العظيمة التي تَكْتَسِبُ الرِّزْقَ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: إثباتُ صِفَةِ القُدرةِ لله عَزَّوَجَلَّ، وإثباتُ عِلْمِهِ ورحْمَتِهِ وإحاطَتِهِ بكُلِّ شيءٍ؛ لأن هذه الدوابَّ الصغيرةَ الي لا تحْمِلُ رِزْقَهَا يعْلمُها ويَرْزُقها، لقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: إثباتُ اسْمَي السَّميعِ والعَليمِ وما يتَضَمَنَاهُ مِنَ الصِّفَةِ.

الآيــة (٦١)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:٦١].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَئِن﴾ لامُ قَسَمٍ ﴿سَأَلْتَهُم﴾ أي: الكُفَّارَ] اهـ.

يقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن﴾: (اللام) لامُ القَسَمِ، يعْنِي: موطِئَةٌ للقَسَمِ، وقد اجتَمَع في هذه الآية قَسَمٌ وشَرْطٌ، والقاعدة: إذا اجتَمَعَ شرطٌ وقَسَمٌ حُذِفَ جوابُ المتأخِّرِ، قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

وقوله: ﴿وَلَئِن﴾: (اللام) لامُ القَسَمِ، و(إن) شَرْطِيَّةٌ، فكانَ الجوابُ للقسمِ وهو قولُهُ: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وحُذِفَ جوابُ الشَّرْطِ.

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ فيها ضميران: (التاء) و(الهاء)، التاءُ خِطَابٌ للنَّبِيِّ ﷺ أو لكلِّ مَنْ يتأَتى خِطابُه، والهاء خطابٌ للمَسْؤولِينَ.

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: ولئنْ سألتَ هؤلاءِ الكُفَّارِ ﴿مَّنْ خَلَقَ﴾، (خلق): بمعنى أوْجَدَ، ولكن على تقديرِ مُعَيَّنٍ، فالخَلْقُ ليس بمعنى الإيجَادِ المجَرَّدِ، بل هو

---

(١) البيت رقم (٧٠٦) من ألفيته.

إيجادٌ على تَقْديرٍ مُعَيَّنٍ، أي: أنه يكون مَسْبُوقًا بتقديرٍ، ولذلك لا يكون إلا فيما فيه إتقانٌ وجودةٌ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: والسمواتُ تُجْمَعُ دائمًا في القرآنِ، والأرضُ لا تأتي إلا مُفْرَدَةً، ولكنَّ الثابتَ أن الأَرَضِين سبْعٌ كما أن السموات سبْعٌ.

قوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ﴾ بمعنى: ذَلَّلَ الشَّمْسَ وجَعلهَا مُذَلَّلَة لمصالحِ العِبادِ تَسيرُ بهذا النِّظامِ الذي لا يختَلِفُ ولا يتغَيَّرُ لا تَقَدُّمًا ولا تَأَخُّرًا، ولا عُلُوًّا ولا نُزُولًا، ولو تَدَبَرْت هذه الشمسَ لرَأَيْتَهَا على نظامٍ بديعٍ لا يَتَغَيَّرُ على عِظَمِهَا وكِبَرِها.

ثم إن فيها من آيات الله الكثيرةِ: انْظُرْ إلى حَرارَتِهَا في أيام الصيفِ، وهذه الحرارةُ العظيمةُ ما هي إلَّا نفَسٌ بسيطٌ مِنَ نَارِ جَهَنَّمَ، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: يا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ فِي الصَّيْفِ ونَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ**»[1]، هذه الحرارة العَظِيمَةُ مع أن المسافَةَ بَيننَا وبينها بَعِيدَةٌ جدًّا، ومع ذلك يقولون: لو قَرُبَ منها أَقْوَى حَدِيدٍ وأَمْنَعَ حديدٍ لصارَ هَباءً قبلَ أن يَصِلَ إليها مِنْ شِدَّةِ الحَرَارَةِ، وهذا أمرٌ مَعْلُومٌ؛ لأنك لو تُوقَدُ نارًا عَظِمية مِنْ أعظمِ نِيرانِ الدُّنيا فلا تَجِدُ هذه الحرارةَ العَظِيمَةَ من هذه المسافَةِ البعيدة.

ثم إن هذه الشمسَ كلَّ يومٍ لها مَطْلَعٌ، وكل يوم لها مَغْرِبٌ؛ وذلك لأن الله سَخَّرَها، ولولا ذَلِكَ ما اختلَفَتْ مشَارِقُ الشتاءِ ومشَارِقِ الصَّيْفِ.

الحاصلُ: أن الشَّمسَ مخلوقٌ عَظِيمٌ وأنها مُذَلَّلَةٌ لمصالِحِنَا بها تَنْضُج الثمارُ، وبها

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب الإبراد بالظهر في شدة الحر، رقم (٥١٢)؛ ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يمضي إلى جماعة...، رقم (٦١٧) عن أبي هريرة.

تُعْلَمُ السُّنونُ، ولو قَرُبَتْ أو بَعُدَتْ تَغَيَّرَ الجوُّ بلا شكٍّ، مع أنها تأتي يومَ القيامَةِ يكون بينها وبينَ الناسِ قَدْرَ مِيلٍ[1]، واللهُ على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، وأحوالُ الآخِرَةِ لا تُقاسُ بأحوالِ الدُّنْيَا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾: القَمَرُ معروف، وإنما ذَكَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا الشَّمْسَ والقَمْرَ لما فيهما مِنَ المصَالِحِ الظاهِرَةِ؛ لأن النُّجومَ والكواكبَ ليس فيها مصالِحُ ظاهِرَةٌ لنا، وإلا فقدْ سَخَّرَ اللهُ الشمسُ والقمر والنجوم، فكُلُّهَا مُسَخَّرَةٌ؛ لكنَّ المصالحَ في الشمسِ والقَمَرِ أظهرَ وأبيْنَ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ دليل على أنهما هُمَا اللذانِ يَجْرِيانِ حولَ الأرض، خِلافًا لمن قال: إنهما لا يَسِيرَانِ حولَ الأرض، وإنَّ اختلافَ الليلِ والنهار بسببِ دَورانِ الأرْضِ نَفْسِها.

ولا شكَّ أن الذي لا يعْتَقِدُ أنهما يَدُورانِ حولَ الأرضِ أنه على خَطَرٍ عظيم، ربما يَصِلُ به ذلك إلى الكُفْرِ؛ لأن الذي نُؤْمِنُ به ونعْتَقِدُهُ ما أخبرنا الله عنه من أنَّ الشمسَ هي التي تَدُورُ حولَ الأرضِ، وكذلك القَمَرُ قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٧]، فأضافَ الله هذه الأفعالَ الأرْبَعَةَ إلى الشمسِ: (طَلعت، تَزاور، غَرَبت، تَقْرِضهم).

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٧) (١٧٤٧٥)؛ والحاكم (٤/ ٦١٥) (٨٧٠٤) عن عقبة بن عامر، ولفظ أحمد: «تَدْنُو الشَّمْسُ مِنَ الأَرْضِ، فَيَعْرَقُ النَّاسُ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْلُغُ عَرَقُهُ عَقِبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْعَجُزَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الخَاصِرَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ مَنْكِبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ عُنُقَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ وَسْطَ فِيهِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ فَأَلْجَمَهَا فَاهُ، -رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يُشِيرُ هَكَذَا-، وَمِنْهُمْ مَنْ يُغَطِّيهِ عَرَقُهُ»، وضرب بيده إشارة.

ولو كان الأمرُ كما يقولُ هؤلاءِ الخرَّاصُونَ لكانت الأرضُ هي التي تَزَاورُ وهي التي تَطْلُعُ على الشَّمْسِ، وهي التي تَغْرُب عن الشمسِ، فَهُمْ ليس عندهم إلا أمورٌ ظَنِّيَّةٌ فقط، والقرآنُ دَلالَتُهُ ظاهرَةٌ على أن الشمسَ تَدُورُ حولَ الأرضِ، وكذلك القَمْرُ، والنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما غَرَبت الشمسُ قال لأبي ذَرٍّ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ»[1]، ولم يقل: أتَدْرِي أينَ نَذْهَبُ عن الشمسِ، بل الشمسُ هي التي تَذْهَبُ وهي التي تَأْتِي، وهي التي تستأذنُ وهي التي يُؤْذَنُ لها أو تُمْنَعُ.

ومن العَجِيبِ أن هذا القولَ المخالِفَ لظاهِرِ القُرآنِ قد سَرَى إلى أناس لا نَشُكُّ في دِيانَتِهِمْ، لكن غرَّهُم السَّرابُ فانْخَدَعُوا، والواجِبُ علينا في هذه الأمورِ أن نَمْشِيَ على ظاهِرِ القُرآنِ حتَّى يَتَبَيَّنَ لنا ما يكونُ مخالِفًا لهذا الظاهِرِ، أما ما دَلَّ عليه القرآنُ دلالَةً يَقينِيَّةً فإنه لا يُمْكِنُ لشيءٍ أن يخالِفَهُ، فدَلالَةُ القرآنِ إما ظاهِرَةٌ وإما صَرِيحَةٌ، فالصَّريحةُ قَطْعِيَّةُ الدِّلالَةِ، ولا يمكن لشيءٍ أن يخالِفَهَا، والظاهرةُ ظَنِّيَّةُ الدِّلَالَةِ فنبقى على الظاهِرِ حتَّى يَتَبَيَّنَ لنا بأمرٍ قَطعِيٍّ خلافُهُ، وحينئذٍ ما دام ظاهرًا فإنه يُمْكِنُ أن يُؤَوَّلَ.

فالحاصلُ: أن عِندنَا الآن ثلاثةُ مسائلَ:

الأُولَى: ثبوتُ الشمسِ والقَمَرِ، يعني: وُقوفُهُما، فقائلُ هذا مُكَذِّبٌ للقرآنِ.

والثانية: كونُ الليلِ والنَّهارِ بسببِ دَورانِ الأرضِ أو بسببِ دَوَرانِ الشمسِ والقمر، نقول: هذا خلافُ الظاهِرِ، فنُكَذِّبُهُم في قولهم: إن تَعَاقُبَ الليلِ والنَّهارِ بسببِ دَورانِ الأرضِ حتى يأْتُوا بدَلِيلٍ قَطْعِيٍّ واضحٍ مثل الشمسِ يكون حُجَّةً لنا

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣٠٢٧)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم (١٥٩) عن أبي ذر.

في تأويلِ ظاهِرِ القُرآنِ، وإلا فلا نَقْبَلُ قولَهم ولو اجتمَعُوا جميعًا؛ لأننا نعْرِفُ أن أقوالهم هذه تَخَرُّصَاتٍ، حتى إن الآخِرَ منهم يَنْقُلُ عبارةَ الأَوَّلِ بِنَصِّهَا، مما يدل على أن المتَأَخِّرِينَ ببغاوات كلما نطَقَ لهم نَطَقُوا بما سَمِعُوا.

الثالثة: دَورانُ الأرضِ حولَ نَفسِهَا، هذا لا يوجَدُ في القرآنِ دليلٌ -لا ظاهرٌ ولا صَريحٌ- يدُلُّ على أن الأرضَ تدورُ أو لا تَدُورُ، لكن قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان:١٠]، قد يقول قائل: إن قوله: (تَمِيدَ) يدل على أنه هناك حَركة، ووُضِعَتْ هذه الجبالُ لاتِّزَانِ هذه الحركةِ؛ لأن نَفْيَ الأَخَصِّ لا يَدُلُّ على نَفْيِ الأعَمِّ، ومع ذلك نقول: ما لنا ولمثل هذا البحث، لو أن هذا مِنَ الأمور التي يجبُ علينا اعتقادها أو اعتقادُ نَفْيِهَا لكان قد بُيِّنَ في القرآنِ غايَةَ البيانِ؛ لأن الله تعالى يقولُ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

ولو قالَ قائلٌ: لماذا نُشْغَلُ بهذه المسألةِ؟

فالجواب: إذا ابتُلِيَ الإنسانُ فلا بُدَّ أن يَنْزِلَ إلى الميدانِ.

ومثلُ هذا طُرُقُ أهلِ الكلامِ في إثباتِ العقيدةِ فهي ليست على طريقةِ السَّلفِ، لكنَّ السلفَ لم يتْرُكوهُمْ وشأنهم، بل خاضُوا معهم، وقبلَ أرْبعينَ سنةً كانَ الناسُ على عقائدهم الفطْرِيَّةُ أن الشَّمسَ تطْلُعُ وتَغِيبُ والقَمَرُ يطْلُعُ ويَغِيبُ، ولم يكن يَطْرَأُ ببالِهِمْ إطْلاقًا هذه الأُمورَ المحْدَثَة.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ تَسْخِيرُ القَمرِ أيضًا لمَنافِعِ العبادِ ومصالِحِهِمْ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، بيَّن اللهُ الحكمةَ مِنْ ذلك في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس:٥]،

فباختلافِ منازِلِ القَمَرِ نعلمُ عَدَدَ السِّنينَ والحسابَ؛ لأن الأَهِلَّةَ هي المواقيتُ العالميَّةُ الفِطْرية، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٩]، عامَّة، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٦]، وهذه الأَشْهُرُ التي بَيَّنَهَا الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: هي الأَشْهُرُ الهِلالِيَّةُ.

وبالمناسَبَةِ: حدَّثَنِي أحدُ الناس أن في بعضِ البلادِ يعْتَقِدُونَ أن سببَ الكسوفِ أن مخلوقًا يحولُ بينَ القمرِ وبين الأرض، وأيضًا في بعضِ البلاد يعتَقِدُونَ أن حيوانًا سَماويًا يترَصَّدُ بالقَمرِ -لعله حوت- فيحْجُبُه عن الأرضِ، ولذلك هم يخْرُجونَ بالطبولِ يهْتِفُون: يا فلانة يا فلانة انْقِذِي القَمَرَ، وهذا من البِدَعِ والمصائبِ التي حَلَّتْ بالمسلمين، والواجبُ على أهْلِ العلمِ التَّنْبيه على خَطر هذه البِدَعِ والتَّحْذِيرِ مِنْهَا.

قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ نونُ التوكيدِ اتَّصَلَتْ بالمضَارِعِ، والمعروفُ عندَ أهلِ النَّحْو أن نون التوكيد إذا اتصلتْ بالمضَارعِ يُبْنَى على الفَتْحِ، والموجودُ هنا ضمَّةٌ؟

والجواب: أن نون التوكيد إذا اتَّصَلَتْ بالمضارع فيُشْتَرَطُ أن تكونَ مباشِرةً للفعل لفظًا أو تَقْدِيرًا، ولذلك يقول ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

..... وَأَعْرَبُوا مُضَارِعًا إِنْ عَرِيَا

مِنْ نُونِ تَوْكِيدٍ مُبَاشِرٍ وَمِنْ نُونِ إِنَاثٍ كَـ(يَرُعْنَ مَنْ فُتِنْ)

فالنون في قولِه: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ ليستْ مبَاشِرَةً للفِعْلِ تقديرًا؛ لأنه حالَ بينها

(١) البيتان (١٩، ٢٠) من ألفيته.

وبين الفعلِ اسمٌ وهو (الواو)، وحرفٌ وهو (النون) أي: نُونُ المضارِعِ، وحُذِفَتْ نونُ المضارِعِ لتوالِي الأمثالِ، والواو حُذِفَتْ لالتقاءِ السَّاكنين؛ لأنه لما حُذِفَتِ النُّونُ الأُولَى لتَوالِي الأمثالِ والنُّونُ الثانِيَةُ مشَدَّدَةٌ، والحرفُ المشَدَّدُ أوله ساكن فيلتقي مِنْ ساكِنٍ، وهو الواو فتُحْذَفُ الواو، قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكافية:

إِنْ سَاكِنَانِ الْتَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ وَإِنْ يَكُنْ لَيْنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقْ

قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: المسؤولُونَ مِنَ الكفَّارِ.

لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ إعرابه: خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ تقْدِيرُهُ: (هو الله)، فالكفار يُقِرُّونَ بأن الله هو الذي خلقَ هذه الأشياء، ويعْتَرِفُونَ أن هذه الأشياءَ لا تَصْنَعُها الآلهةُ لا خَلْقًا ولا تَدْبِيرًا، والآية جمعتْ بين الإيجادِ والتَّدْبِيرِ في قوله -سبحانه-: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ ولم يقل: خَلَقَ الشمس والقمر.

والحاصل: أنهم مُقِرُّونَ بأن خالقَ السمواتِ والأرض ومُسَخِّرُ الشمس والقمر هو الله تعالى دونَ أصنَامِهِمْ، وهم لما أقَرُّوا هذا الإقرارَ أقامُوا الحُجَّةَ على أنفسهم؛ لأن مَنْ أقرَّ بالرُّبُوبِيَّةِ لَزِمَهُ أن يُقِرَّ بالألوهية، ومَنْ أقَرَّ بالألوهية فقد أقرَّ بالرُّبُوبِيَّةِ، فهما متلازِمَانِ، والإقرارُ بالرُّبوبِيَةِ أسبقُ لأن الإنسان لا يَعْبُد إلا ربًّا يعلَمُ أسماءَه وصِفَاتِه وأفْعَالَهُ.

قوله: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (أَنَّى): اسمُ استِفْهامٍ الغَرَضُ منه التَّوبِيخُ، يعني: بعد أن أَقَرُّوا بهذا كيف يُصْرَفُونَ؟ وسمَّي الصَّرْفُ إفْكًا لأنه صَرفٌ للشيءِ عن حَقِيقَتِهِ كما يُسَمَّى صَرْفُ الكلامِ عن الواقع إفْكًا، كما لو قال لكَ رجلٌ: (قَدِمَ زَيدٌ). وزيدٌ لم يَقْدم، هذا يُسَمَّى إفْكًا؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: أَنَّى يُصْرَفُونَ عن تَوْحِيدِهِ بعدَ إقْرارِهِمْ بِذَلكَ].

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: إقامَةُ الحَجَّةِ على الخَصْمِ حتى يُذْعِنَ ويُقِرَّ، لقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

الفَائِدةُ الثَّانِية: سَفَهُ هؤلاءِ المشركينَ باللهِ في عِبادَتِهم حيثُ يُقِرُّونَ بربوبِيَّتِهِ ثم يُنْكِرُونَ ألوهِيَّتَهُ، وكان مِنَ العَقْلِ أن من أَقَرَّ بالرُّبوبِيَّةِ يُقِرُّ بالألوهية.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: إثباتُ خلقِ السَّموات والأرضِ، وأن الذي خَلَقَهما هو الله، لقولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: أن تَدبيرَ الكونِ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لقولِهِ: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسةُ: رحمةُ الله عَزَّوَجَلَّ بخَلقِهِ، حيثُ سَخَّرَ لهم الشمس والقمر.

الفَائِدةُ السَّادسَة: إقرارُ المشْرِكينَ بربُوبِيَّةِ الله عَزَّوَجَلَّ، لقولِهِ: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

الفَائِدةُ السَّابِعة: أن الإقرارَ بالرُّبوبِيَّةِ لا يكْفِي في التوحيدِ، وبهذا نَعْرِفُ بطلانَ تفسيرِ من فسَّرَ الإله بالقادِرِ على الاختراعِ، فإن المتكَلِّمِين يُفَسِّرون الإلهَ بالقادِرِ على الاختراعِ، وإذا فَسَّرُوا الإله بهذا التَّفْسِيرِ لم يكن هناك فَرقٌ بين تَوحيدِهِمْ وبين توحيدِ المشْركينَ.

وأهلُ السُّنَّةِ يقولون: الإله هو المعبودُ حقًّا، وإن كان المعبودُ بالباطِلِ يُسَمَّى إلهًا لأنه يُعْبَدُ؛ لكِنَّ ألوهيَّتَهُ باطِلَةٌ.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: إثباتُ علمِ اللهِ للأمورِ التي تقَعُ في المستقبلِ، لقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾، فإن هذا خَبَرٌ عن أمرٍ مسْتَقْبَلٍ، ولا شكَّ أنه سيَقَعُ كما أخبرَ الله عَزَّوَجَلَّ.

الآيــة (٦٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [العنكبوت:٦٢].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ يُوَسِّعُهُ ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ امتِحَانًا، ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ يُضَيِّقُ ﴿لَهُۥٓ﴾ بعدَ البَسْطِ، أي: لِمَنْ يَشاءُ ابتِلاءً] اهـ.

وقوله: ﴿يَبۡسُطُ﴾ يعني: يُوَسِّعُ الرِّزقَ، والرزقُ بمعنى العَطاءِ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ المراد بالعبادِ هُنا المُتَعَبَّدُون له، بالمعْنَى العامِّ الشاملِ للمؤمن والكافرِ والبَرِّ والفَاجرِ، فالله تعالى يوسِّعُ الرزقَ لمن يشاءُ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ (مَنْ): اسم موصولٌ بمعنى الذي، وهو مِنَ الأسماءِ الموصولة العامَّةِ، ويشاء بَسْطَ الرزق لِهُ، ومفعولٌ ﴿يَشَآءُ﴾ محذوفٌ دَلَّ عليه السياقُ، وعنـدنا قاعِدَةٌ مهمَّة جدًّا وهي: أن كلَّ شيءٍ عَلَّقَهُ الله تعالى بالمشيئةِ، فالمرادُ المشِيئَةُ المبْنِيَّةُ على الحكمةِ؛ لأن جميعَ أفعالِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأحكامُهُ مَبْنِيَّةٌ على الحِكْمةِ عَلِمْنَاهَا أم جَعَلْنَاها.

قوله: [﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ امْتِحَانًا]: والامتحانُ هُو الابتلاءُ، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن سُلَيمانَ: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ [النمل:٤٠].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ﴾ بمَعْنَى يَضِيقُ، وفَسَّرْنَا ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ بمَعْنَى يَضَيِّقُ،

ولم نجعلِ القُدْرَةَ هنا بمعنى استطاعَةِ العملِ لمقابَلَتِهِ بالبَسْطِ ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق:٧]، فمَعْنَى ﴿قُدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: ضَيَّقَ عَلَيه.

وقوله: ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ الضَّميرُ يعودُ على ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، يعني: ويَقْدِرُ لمنْ يشاءُ.

وهل المبسوطُ له والمقَدَّرُ له واحد؟

ظاهرُ كلامِ المُفَسِّر أنه واحدٌ، ولهذا قال: ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ بعد البَسْطِ، والسببُ أن الضميرَ في قوله: ﴿لَهُۥٓ﴾ يعودُ بلا شك على قولِهِ: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ فكأن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أرادَ أن يعودَ عليه باعتِبارِ عَيْنِه، لكننا نقولُ: لا مانع من أن يعودَ إليه باعتبارِ جِنْسِهِ لا باعتبارِ عَيْنِه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر:١١]، فلا يَصْلُحُ أن يعودَ الضميرُ في قوله: ﴿مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ على المُعَمَّر؛ لأنه إذا نَقَصَ مِنْ عُمُرِه لم يكنْ مُعَمَّرًا، فالمرادُ من عمَّرَه باعتبارِ الجنْسِ، فيكون: [عُمُر مُعَمَّرٍ آخر].

ومثله أن تقول: (أعْطَيْتُ هذا الرجلَ دِرْهمًا ونِصْفَه) أي: نصفَ دِرْهَمٍ آخر؛ لأن قولك: (ونصفه) ليس المرادُ نصف هذا الدرهم، ولو كَسَرْتَ هذا الدِّرْهَم وأعطيتَهُ إياه كامِلًا أعطيتَهُ نِصْفين ولم تُعْطِه دِرْهمًا ونِصْفًا.

فالذي يَظْهَرُ أن الضميرَ في قوله: ﴿لَهُۥٓ﴾ يعودُ عَلَى ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ باعتبار الجِنْسِ لا الفعلين، فالله عَزَّوَجَلَّ يبْسُطُ الرِّزْق لهذا ويُضَيِّقُه على هذا، كما أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يبسُطُه لهذا أحيانًا ويُضَيِّقُه عليه أحيانًا، ونحن نرى مِنَ الأغنياءِ من رَجَع فقيرًا ومن الفُقراء من رجعَ غَنِيًّا، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يبْسُطُ الرزقَ باعتبارِ العَيْنِ وباعتبارِ الجِنْسِ.

وهذا البسطُ تابع لعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومنه البَسْطُ والتَّضْيِيقُ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يبسطُ أو يُضَيِّقُ إلا عن عَلْمٍ، ثم هذا العلم تَتْبَعُه الحكمة، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُغْنِي مَنْ يُصْلِحُهُ الغِنَى ويُفْقِرُ مَنْ يُصْلِحُهُ الفَقْرُ.

ولهذا جاء في الحديثِ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى، وإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَفْقَرْتُهُ لأَفْسَدَهُ الْفَقْرُ»(١)، وإذا مَنَّ الله على العَبْدِ وتَفَضَّلَ عليه وجَعَلَ رِزْقَهُ تابِعًا لمصلحَتِهِ حصَلَ بذلك خيرٌ كَثِيرٌ.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: مما يَفْعَلُهُ الله جَلَّ وَعَلَا ومما يَفْعَلُهُ عبادُهُ، فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَخْفَى عَلَيْه شيءٌ مِنْ ذلكَ.

قال بعضُ أهلِ العلمِ من أهلِ الأُصولِ: ما مَنْ عامٍّ إلا خُصَّ، إلا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكُلِّ شيءٍ عليمٍ لا يُسْتَثْنَى من ذلك شيءٌ، لا الواجبُ ولا الجائزُ ولا المستحيل، حتى المستَحِيلُ يعْلَمُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال هؤلاء: أما غَيْرُهُ مِنَ العُمومات فإنه مُخَصَّصٌ؛ بمَعْنَى أنه يُسْتَثْنَى منه شيء، إما بدَلالَةِ العَقْلِ أو بِدَلالةِ الشَّرْعِ، لكن هذا القولَ غيرُ صحيحٍ، والصوابُ أن الأصلَ في العُموماتِ بقاؤهَا على العُمومِ، نعم إن أرَادُوا التَصَوُّرَ والتَّقْدِيرُ فهذا ممكنٌ، أما إن أرَادُوا الواقعَ فَلا.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحيلة (٨/ ٣١٩) عن أنس بلفظ: «وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، وإن بسطت له أفسده ذلك».

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن الرِّزْقَ بيدِ الله عَزَّوَجَلَّ، فإن كان كذلِكَ فهو الذي يَطْلُبُ منه الرِّزقَ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن إثباتِ القَدَرِ لا يَعْنِي الكفَّ عنِ الأسبابِ، ففي هذه الآية بَيَّن اللهُ أن بسطَ الرِّزْقِ وتقديرَه بِيَدِهِ، وفي آيةٍ أُخْرَى يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك:١٥]، لم يقل: نَامُوا عَلَى الفُرُشِ ويأتِيكُمْ الرِّزْقَ، بل قالَ: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾.

فالقَدَرُ لا يُنافِي فِعلَ الأسبابِ؛ لأنه قد يكونُ مُقَدَّرًا عليك بهذا السبب، كما أن دُخولَ الجنَّةِ والنجاةِ مِنَ النَّارِ له سببٌ وهو العملُ، فإذا لم تَعْمَلْ لم يحصلْ لك الفوزُ بالجنَّة والنَّجاةِ مِنَ النارِ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: إثباتُ كمالِ التَّصرُّفِ لله عَزَّوَجَلَّ لقولِهِ: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ وقال تعالى في آيةٍ أُخْرَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران:٢٦]، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له التَّصرُّفُ المطْلَقُ في مخلوقَاتِهِ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: إثباتُ المشيئَةِ، لقولِهِ: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ فمَشِيئَةُ الله جَلَّ وَعَلَا تَتَعَلَّقُ بما يحبُّه وبما يَكْرَهُهُ، والمسلمون مجمعونَ على قولهم: «ما شَاءَ اللهُ كانَ وما لم يشأ لم يَكُنْ».

وأما إرادَتُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَفِيهَا تَفْصِيلٌ، فإرادتُهُ الشَّرْعِيَّةُ تَتَعَلَّقُ بما يحبُّهُ جَلَّ وَعَلَا، وإرادَتُهُ الكَوْنِيَّةُ تتعَلَّقُ بما يُحِبُّه وما لا يُحِبُّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الفَائِدةُ الخامِسة: إثبـاتُ عِلمِ الله عَزَّوَجَلَّ، لقـوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وأنه عامٌّ في كلِّ شيءٍ، فيشْمَلُ الصغيرَ والكبيرَ، ويشْمَلُ ما يتَعَـلَّقُ بفعْلِهِ وما يتعلق بفعلِ عِبادِهِ، وإذا كان يَعْلَمُ فِعْل عبادِهِ لزم أن يكونَ مُقَدَّرًا له؛ لأنه إذا كانَ عالمًا به فإنه لا يمْكِنُ أن يقَعَ خلافُ مَعْلُومِهِ، وحينئذٍ يكون مقَدَّرًا له، وقد قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المعْتزلَةِ والقَدَرِيَّةِ: «جَادِلوهُمْ بالعِلْمِ، فإن أنكَرُوه كَفَروا وإن أقَرُّوا بِهِ خُصِمُوا»[1]. وهذا صحيحٌ، وهذه الحُجَّةُ قائمةٌ وقَيِّمَةٌ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: فَضْلُ الله عَزَّوَجَلَّ بالرِّزْقِ سواء كان مَقْدُورًا أو مَبْسُوطًا، ولا نقـول: (مُقَدَّرًا) بل الصـواب: (مقدورًا) لأنه اسم مفعـول من فعل ثلاثي لا رُبَاعِيٍّ.

• • ۞ • •

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٢٧)، وشرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٠٢)، ومجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٩).

الآيــة (٦٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٦٣].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَئِن﴾ لامُ القَسَمِ]: وجوابُ القَسَمِ قولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

قوله: ﴿مَّن﴾: اسم استِفْهَامٍ في مَحَلِّ رَفْعٍ مُبْتَدَأ؛ لأنه وَقَعَ بعدَ سؤالٍ وهو قولُهُ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾.

قوله: ﴿نَّزَّلَ﴾: في مَحِلِّ رَفْعٍ خبرِ المبتدأ، و﴿نَّزَّلَ﴾ هنا بالتَّشْدِيدِ وفي آيات أخرى (أنزل)، والفرقَ بينهما: أن (نَزَّلَ) تُفيدُ نُزولَ الشيءِ شيئًا فشيئًا، كما قال تعالى في القرآن: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]، وأما (أنزَلَ] فتُفِيدُ نُزولَ الشيءِ جُملةً واحِدَةً.

قوله: ﴿نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لأن النزولَ يكونُ مِنْ أعْلَى، فالمرادُ بالسماءِ هنا العُلُوُّ، وليس المرادُ السَّقْفُ المحفوظُ بدليلِ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤]،

والمطرُ ينْزِلُ مِنَ السحابِ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور:٤٣]، وبهذا نَعْرِفُ أن المرادَ بالسماءِ هنا العُلُوُّ، فكلُّ ما علاكَ فَهُو سماءٌ؛ لأنه مِنْ (سما، يسمو) إذا عَلَا.

والحكمةُ مِنْ نُزولِهِ مِنَ السماءِ أنه إذا نَزَلَ من السماءِ شَمِلَ النَّازِلَ والعَالي، ولو كانَ ينْـزِلُ مِنَ الأرضِ لم يَصِلْ إلى العَالِي حتى يُدَمِّرَ النازِلَ، ولكنَّ حكمةَ الله أن نُزُولَهُ من أعْلَى.

وقوله: ﴿فَأَحْيَا﴾ (الفاء) هنا تَدُلُّ على التَّرْتيبِ والتَّعْقيبِ، لكنها إذا اتصلتْ بجملَةٍ تَدُلُّ على السَّبَبِيَّةِ مع التَّرْتيبِ والتَّعْـقيبِ، بخلافِ ما إذَا دخلتْ على اسمٍ فإنها لا تَدُلُّ على السَّبَبِيَّةِ، تقول: (قامَ زيدٌ فَعَمْرو) وليس المعنى أن قيامَ زيدٍ سببٌ في قيامِ عَمْرٍو، لكنَّ المعْنَى أن قيامَ عَمْرٍو بعدَ قيامِ زَيْدٍ؛ لكن إذا اتَّصَلَتْ بفِعلٍ فإن الغالبَ إنها تُفِيدُ مع التَّرْتِيبِ السَّبَبِيَّةَ.

وقوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يكونُ الماءُ سَببًا لإحياءِ الأرضِ، والإحياءُ يكون في الحالِ لأن السببَ لما كانَ مُؤَثِّرًا صارَ كأنَّ الأثرَ مترَتِّبٌ عليه فورًا، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج:٦٣]، فالأرضُ لا تُصْبِحُ مخضَرَّةً بمجرَّدِ نزولِ الماءِ في اللَّيْلِ، لكن هذا سببٌ مُوجِبٌ، فلما كان سببًا موجِبًا صارَ كأنَّ السببَ موجودٌ في الحالِ، ومن ذلك قولهم: تَزَوَّجَ فلان فولِدَ لَه، وإن كان هذا أضعفَ مما تَقَدَّمَ لكن قوله: [فولد له] نحن نعلم عِلْمَ اليَقِينِ أنه لا يُولَدُ له في ليلةِ الزَّواجِ لكنَّ الزواجَ سببٌ للوِلادَةِ، ويكون الترتيبُ بحَسَبِه، فلا يَلْزَمُ أن يكونَ عَقِبَ المسبِّبِ، لكن إذا كان السبَبُ مُوجِبًا صارَ كأن المسَبَّبَ عقب السببِ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ الجمادُ يَحْيَا ويمُوتُ، وكلُّ شيءٍ حياتُهُ وموتُهُ بحَسَبِهِ، فلا تَظُنَّ أن الحياةَ والموتَ لا تُضافُ إلا إلى ما يمكن أن يكونَ متحرِّكًا، فهذه الأصنامُ يقولُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل:٢٠-٢١]، وكلُّ شيءٍ لا حَرَكَة فيه ولا نُمُوَّ يمكن أن يُسَمَّى مَيِّتًا، وإن كان مما لا تَحِلُّهُ الحياة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ قيل: إن المرادَ بالأرضِ نَفْسُ الأرضِ، وإنها باخْتِلاطِ الماءِ فيها تكونُ حَيَّةً وبيَبْسِهَا تكونُ ميتة.

وقيل: المرادُ ما عليها مِنَ العُشْبِ والزَّرْعِ ونحو ذلك، يعني النبات، وأن الأرضَ لا تكونُ أَرْضًا في الحقيقةِ ينْتَفِعُ بها الناسُ إلا بالنَّباتِ الذي فوقها، فيكونُ المرادُ بحَياتِهَا وموتِهَا حياة نباتها وموت نباتها، وهو أظهَرُ؛ لأنه مَحِلُّ الانتِفَاعِ، وربما يسْتَشْهِدُ له بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩]، والخَاوِي على العُروشِ النَّباتُ، فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، فجعلَ الموتَ للنَّباتِ، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت:٣٩]، قال بعضُ العُلماءِ: التي تَهْتَزُّ هي الأرضُ نَفْسُها، لكِنَّ الظاهِرَ -والله أعلم- أنَّ المرادَ بالأرضِ النَّباتُ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ تقدم أن اللَّامَ واقِعَةٌ في جوابِ القَسَمِ، وأصْلُهَا (يقولونَنْنَ)، فحُذِفَتْ نُونُ الفِعْلِ لتوالي الأمثالِ، ولم تُحْذَفْ إحْدَى نُونَيِ التوكيدِ؛ لأن نونَ التوكيدِ جِيءَ بها لغرضٍ وهو التَّوكِيدُ، ونونُ الرفعِ دائمًا تُحْذَفُ في النَّصْبِ والجزمِ والتَّخْفِيفِ، ثم حُذِفَتِ الواوَ لالتقاءِ السَّاكنين؛ لأنَّ نونَ التوكيدِ مكونَةٌ من حَرفينِ أوَّلُهما ساكنٌ.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ لفظ الجَلالَةِ خَبَرٌ لمبتدأ محذوفٍ تقْديرُهُ: هو الله.

قوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، في هذه الآيةِ قالَ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وتَقَدَّمَ أنه قال: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ بعدَ قولِهِ: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وذلك لظُهورِ دَلالَةِ الخلْقِ والتَّدْبيرِ على الرُّبوبيَّةِ المستلزِمِ للإقْرارِ بالألوهيَّةِ، وهذا فيه تَخْلِيَةٌ.

وأما قوله هنا: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فهذا فِيهِ التَّحْلِيَةُ، ومن المعلومِ أن التَّخْلِيَةَ قبلَ التَّحْلِيَةِ، ففِيهِ إثباتُ الكمالِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنه يَسْتَحِقُّ الثَّناءُ؛ ولهذا قال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يعني: الحمدُ لله على قِيامِ البيِّنَةِ عليكُم وظهورِ الحُجَّةِ ووُضُوحِهَا.

وأما قولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فكَيْفَ يُشْرِكُونَ بِهِ]: فهذا أَتَى بِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على حدِّ قولِهِ في الآيَةِ الأُولَى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، ولكن عِنْدِي أن الآية الثانِيَةَ فيها إقامَةُ الحُجَّةِ على أمرٍ آخَرَ هم يُنْكِرُونَهُ وهو البَعْثُ، وحقيقةُ الأمرِ أن مُنْكِرَ البَعْثِ سيُشْرِكُ بالله وسيَعْمَلُ ما شاءَ؛ لأنه مُنْكِرٌ للبعثِ يَعْتَقِدُ أن لا جزاءَ ولا حِسابَ، ومن اعتقدَ هذا الاعتقادَ لا يَعْمَلُ، ولهذا تَرَوْنَ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَجْمَعُ دائمًا في القرآنِ بينَ الإيمان به وباليومِ الآخِرِ؛ لأن الإيمانَ باليومِ الآخِرِ هو الباعثُ للإنسانِ على العملِ؛ لأن من لا يعْتَقِدُ أن هناك جزاءً كيفَ يَعْمَلُ، فالَّذِي يَظْهَرُ -والله أعلم- أن الآية الثانية سِيقَتْ لإلْزامِهِمْ بالإقرارِ بالبَعْثِ.

وقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الحمدُ هُو: الثَّناءُ بالجميلِ الاختِيارِي، هكذا يُعرِّفُه الأكثَرُونَ، وهذا غيرُ صحيحٍ، فإن الثَّناءَ غيرُ الحمدِ، ودليلُ ذلك ما وردَ في الحديثِ القُدُسِيِّ من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: «**قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ**

ٱلدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي»[1]، وهذا دليلٌ واضِحٌ على أن الثَّناءَ غيرُ الحمْدِ، وإلا لكان تكرارًا.

وأيضًا: المعنى يقْتَضِي ذلك؛ لأن الثَّناء من الثَّني وهو الرُّجوعُ، فإنك إذا ثَنَيْتَ العَصَا رجَع طرفُها الآخرُ، ومنه لفظ (اثنين) يَعنِي: واحدًا وواحدًا فَفِيهِ رجوعٌ.

والصواب في تعريفِ الحَمْدِ هُوَ: وصفُ المحْمُودِ بالكمالِ مع المحَبَّةِ والتَّعْظِيمِ، وقولنا: مع المحَبَّةِ والتَّعْظِيمِ؛ حتى يخْرُجَ المدْحُ، فإن المدْحَ وصفُ الممدوحِ بالكمالِ، لكن قد يكون بمَحَبَّةٍ وتَعْظِيمٍ، وقد يكونُ لخوفٍ لا لمحَبَّةٍ، فهذا الرجل الذي وقَفَ أمام مَلِك ظالم جبَّارٍ، وقال: أنت الملكُ الكَريمُ المحسِنُ العادِلُ الذي لا تَظْلِمُ أحدًا؛ هذا مَدْحٌ لكن ليس عن مَحَبَّةٍ وتعْظيمٍ.

ومن الفُروقِ بينَ الحمْدِ والمدْحِ: أن المدْحَ قد يكونُ مُوافِقًا للواقِعِ، وقد يكونُ غيرَ مُوافِقٍ، والحمدُ لا بد أن يكونَ موافِقًا للواقِعِ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ (ال) فِي ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ يقولُ العلماءُ: إنها للاسْتِغْرَاقِ، فجميعُ المحامِدِ لله جَلَّوَعَلَا.

وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ (اللامُ) في لفْظِ الجلالَةِ لشِبْه المِلْك، قال ابنُ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]:

وَاللَّامُ لِلْمِلْكِ وَشِبْهِهِ وَفِي ... تَعْدِيَةٍ أَيْضًا وَتَعْلِيلٍ قُفِي

والشاهِدُ قولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [واللامُ للمِلْكِ وشِبْهِهِ]، فالحمْدُ مُسْتَحِقٌّ لله جَلَّوَعَلَا ومختَصٌّ بِهِ، والمراد بالحمدِ: الحمدُ الكاملُ، أما مجرَّدُ الحمدِ فلا يخْتَصُّ بالله، فقد يُحْمَدُ الإنسان على خَصْلَةٍ من الخِصالِ فيُحْمَدُ بقدْرِ هذه الخصْلَةِ، أما الحمْدُ الكاملُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥) عن أبي هريرة.

(٢) البيت رقم (٣٧٢) من ألفيته.

الواسِعُ فهو مختَصٌّ ومستَحِقٌّ لله وَحْدَهُ.

وقوله: [﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ تَناقُضُهم في ذَلِكَ]: قوله: ﴿بَلْ﴾ هنا للإضرابِ الانتِقَالِي، يعني: بعد أن ثَبَتَ الأمرُ وقامَتِ الحُجَّةُ واستَحَقَّ البارِي الحمدَ، حينئذٍ يَصِحُّ أن يُسَجِّلَ عليهم الجَهْلَ فـ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يعني: عندَهُم من السَّفَهِ ما هو ظاهِرٌ وبَيِّنٌ؛ لأنهم لو كان عِنْدَهُم عقول لكانَ إقرارَهُمْ بما أَقَرُّوا به مُلْزِمًا لإقرَارِهِمْ بما أنْكَرُوه، فهم أقَرُّوا أن الذي خلَقَ السمواتِ والأرضَ وسخَّر الشمسَ والقمر هو اللهُ، وأقَرُّوا أن الذي أنْزَلَ منَ السماءِ ماءً فأحْيَا بِهِ الأرْضَ بعدَ مَوْتِهَا هو الله، إذن: أين العقلُ وأنتم تُنْكِرُونَ البَعْثَ وتُشْرِكُونَ بالخالِقِ؟

ويُشْبِهُ هؤلاءِ الذين يدَّعُونَ أنَّهُمْ عُقلاءُ مِنَ المتكَلِّمينَ ثم يُنْكِرُونَ بعضَ صفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ، محتَجِّين أن العَقلَ لا يُقِرُّ هذه الصفاتِ، مع أن العقلَ يَلْزَمُهم أن يُقِرُّوا بما أنْكَرُوه نظيرَ إقرَارِهِمْ بما أقَرُّوا بِهِ، ونضْرِبُ مِثَالًا بالأشاعرة فيهم يقولون: نُثْبِتُ لله الإرادةَ ونُنْكِرُ الرَّحمةَ، قالوا: لأن الإرَادةَ دَلَّ عليها العَقْلُ، والرحمةُ دَلَّ العقلُ على بُطلانِهَا، فأثْبَتُوا الإرادَةَ لأن العقلَ دلَّ عليها بالتَّخْصِيصِ؛ تَخْصِيصُ كونِ السماءِ سماء والأرض أرضًا، والإنسان بَشَرًا والحمارُ حيوانًا وما أشبه ذَلِكَ، فالله جَلَّوَعَلَا أرادَ أن يكونَ الإنسانُ إنسانًا، وأن تكون السماء سماءً فكانتِ سماءً، والحيوانُ حيوانًا غيرَ ناطِق فكان حيوانًا... إلخ.

والرحمةُ يقولون: دلَّ العَقْلُ على إنكارِهَا؛ لأن الرحمةَ لِينٌ ورِقَّةٌ، والله جَلَّوَعَلَا لا يُوصَفُ باللِّين والرِّقَّةِ.

فقلنا لهم: أنتم استَدْلَلْتُم بالواقِعِ على الإرادَةِ، ونحن نَسْتَدِلُّ عليكُمْ بالواقع على الرَّحْمَةِ، ودَلالَةُ الواقِعِ على الرَّحمةِ أعظمُ من دلالَةِ الواقِعِ على الإرادَةِ، ولو تأتي

إلى العَامِّي وتقول: ما دليلُ الإرادة عقلًا؟ ما أَدْرَكَ هذا، ولو تقول له: إنزالُ المطرِ بعدَ الجَدْبِ حتى تَخْصِبَ الأرضُ، ورِزْقُ الله المال للفقيرِ فيُصْبِحُ غَنِيًّا بعد الفقر؛ على ماذا يدل؟ لأجاب العامي: يدلُّ على أن الله رَحِيمٌ، فدلالَةُ الواقع الذي لا يُحْصَى مِن نِعِمَ الله على رَحمةِ الله أبلغُ من دَلالة التَّخْصِيص على الإرادة، ومع ذلك يَزْعُمونَ أنهم أهلُ العقلِ.

وأما قولهم: إن الرحمةَ معناها اللِّينُ والرِّقَّةُ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منزه عن ذلك.

فالجواب عن هذا مِنْ ثلاثَةِ أَوْجُهٍ:

الوجهُ الأولُ: نقول: هذا لازِمٌ؛ لكن في رَحْمَةِ المخلوقِ ورَحْمَةُ الخالق غيرُ رَحْمَةِ المخلوقِ.

الوجه الثاني: أن الرِّقَّةَ واللِّينَ ثابِتَةٌ لله عَزَّوَجَلَّ، واللِّينُ للغَيْرِ لإيصالِ الإحسانِ إليه ليس بصِفَةِ نَقْصٍ.

الوجه الثالثُ: أن الرَّحْمَةَ ليست هي الرِّقَّةُ واللِّينُ، فقد يَرْحَمُ المِلِكُ فَقِيرًا من أفرادِ رَعِيَّتِهِ ويعْطِفُ عليه وهو باقٍ على عِزَّتِهِ ومُلْكِهِ، ولا ينْحَطُّ عنْ رُتْبَةِ القُوَّةِ والحَزْمِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: حِكْمَةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في إنزالِ المطَرِ منَ السماءِ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أنه لا يَقْدِرُ على إنزالِ المطرِ منَ السماء إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: عَجْزُ هؤلاء الذين أعْطاهُم الله تعالى مِنَ الصَّنائعِ أن يُنْزِلُوا المطرَ منَ السماء؛ لأن هذا خاصٌّ باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: قُدرةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على إحياءِ المَوْتَى، لقولِهِ: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: أن الجمادَ يوصَفُ بالحياةِ وبالموتِ.

الفَائِدةُ السَّادسَةُ: قياس الغائبِ على الشَّاهِدِ، الغائبُ هو البعث وإحياءُ الناسِ بعد الموتِ، والشاهِدُ هو إحياءُ الأرض بعدَ مَوْتِهَا.

الفَائِدةُ السَّابِعة: اعتبارُ القِياسِ الصحيحِ خِلافًا لمن أنْكَرَهُ أو غَلا فِيه؛ لأن الناس انْقَسَمُوا فيه إلى قسمين: منهم مَنْ غَلا، ومنهم من أنْكَرَهُ، يعني: منهم من أنكرَ القِياسَ مُطْلَقًا كابنِ حزْمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومع ذلك يَقِيسُ أحيانًا، ومنهم من غَلا فيه وتجاوزَ الحدَّ حتى بلغ بهم أن يَقِيسُوا صِفاتِ الخالقِ بصِفَاتِ المخلوق كالمشبِّهَةِ.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: حسنُ مناظَرَةِ القُرآنِ ومجادَلَتِه، وأن مناظَراتِه ومجادَلاتِهِ تكونُ ملْزِمَةً، وجهُ ذلك: أن إقْرارَهم بتَوحيدِ الرُّبُوبِيَّةِ مُلْزِمٌ لهم أن يُقِرُّوا بتوحيدِ الألوهية وكمالِ صِفاتِهِ جَلَّ وَعَلَا.

الفَائِدةُ التَّاسِعة: وجوبُ إعلانِ الثَّناءِ والحمدِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمامَ المشْرِكينَ، لقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

الفَائِدةُ العاشِرَةُ: إقرارُ المشْرِكينَ بما يختَصُّ به اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من القُدرةِ، هو في الحقيقةِ كمالُ لله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا أمَرَ نَبِيَّهُ أن يُثْنِيَ عليه بالحمدِ، وأن يصِفَهُ بالحمدِ بعدَ إقْرارِهِمْ، كما في قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

الفَائِدةُ الحَادِيَةَ عشْرَةَ: أن أكثرَ هؤلاءِ المشْرِكينَ سُفهاءُ، وأن أكْثَرَهُمْ غيرُ عقلاءِ؛ لأنهم لو كانُوا عقلاءُ لعَرَفُوا اللازمَ ومَلْزُوماتِه وأقَرُّوا به، لقوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

الفَائِدةُ الثانيةَ عشرةَ: أن الأشاعِرَةَ ونَحْوهُم فيما ذَهَبُوا إليه من إثباتِ بعضِ الصِّفَاتِ وإنكارِ بَعْضِها؛ ليس عندهُمْ مَعْقولٌ؛ لأنهم يُنكِرُون ما يُقِرُّونَ بمثله أو دُونَه، وتقدَّم أن كلَّ من أقرَّ بشيءٍ مِنْ صفاتِ الله تعالى وأفعالِهِ وأنْكَرَ آخر؛ فهو دَلِيلٌ على قِلَّةِ عَقلِهِ، وليس المرادُ بالعَقْلِ هنا عقلُ الجنونِ، بل عقْلُ الرَّشَدِ والهِدَايَةِ، وكذلك ليس عند هؤلاءِ الأشاعِرَةِ أثرٌ منقولٌ.

• • ❁ • •

الآيــة (٦٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

قوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾: (مَا): نافِيَـةٌ وليست حِجَازِيَّةً؛ لأن النَّـفْي انتَقَض، وابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول في الألْفِيَّةِ[1]:

إِعمالَ لَيْسَ أُعْمِلَتْ (مَا) دُوْنَ (إِنْ) مَـعَ بَقَـا النَّفْـيِ وَتَرْتِيـبٍ زُكِـنْ

فالشاهد قوله: [مَعَ بَقَا النَّفْيِ] أي: بشرطِ ألا يَنْتَقِض نفْيُها.

وقوله: ﴿هَٰذِهِ﴾ الإشارةُ هنا للتَّحْقِيرِ ودُنُوِّ مرْتَبَتُهَا، والإشارةُ للتَّحقِيرِ واردَةٌ في اللُّغةِ العربيَّةِ كما في قوله تعالى عن الكفَّارِ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٣٦]، يعني: ما هذا الحقيرُ الذَّلِيلُ الذي يذْكُرُ الآلهةَ، وهي عندهم عَظِيمَة وعالِيَةٌ.

وقوله: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ هي الدَّارُ التي نحن فيها، ووُصِفَتْ بالدُّنْيا لسببين: لدُنُوِّها زَمنًا، ودُنُوِّهَا مَرتبةً.

وقوله: ﴿ٱلْحَيَوَٰةُ﴾ جاء بها ليُقابِلَ بها الحياة الثانية.

---

(١) البيت رقم (١٥٨) من ألفيته.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ هذا الحصْرُ حَقِيقِيٌّ، فالدُّنْيَا تنْحَصِرُ في هذين الأمرين: في اللَّهْوِ واللَّعِبِ، والفرقُ بينَ اللَّهْوِ واللَّعِبِ أن اللَّعِبَ بالجوارِحِ، واللَّهْو باللِّسانِ، لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٦]، وقالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ [الطور:١٢].

وقيـل: إن اللَّهْوَ في القَلْبِ وهو غَفْلَتُهُ وانطلاقُهُ في الملاهِي، أي: فِيمَا يُلْهِيهِ عَنْ طاعَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، وأن اللعبَ بالجوارِحِ مِنَ اللسانِ وغيرِ اللِّسانِ، وهذا أقربُ: أن اللَّهْو في القُلوبِ واللَّعِبِ في الجَوارِحِ.

فحاصل الدنيا أنها لهو يَلْهُو به الإنسانُ، غَفَلاتٌ يَمِينٌ وشِمالٌ، وكذلك لَعِبَ، حتى الأمورُ الجِدِّيَّةُ التي في الدُّنْيا هي لَعِبٌ لأنها تذْهب ولا تَبْقى، أو يذْهَبُ عنها صاحِبُها، فهي كلَعِـبِ الأطفالِ يتَسَلَّوْنَ به ما دَامُوا أطْفالًا، ثم يهْجُـرونُه إذا كَبِروا وعَقَلوا وعرَفوا ما هم عليه.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَأَمَّا القُرَب فَمِنْ أمورِ الآخِرَةِ لظُهورِ ثَمرَتِهَا فيها]: هذا جوابٌ عن سؤالٍ مُقَدَّرٍ: كيف تكون الدُّنْيَا لهْوًا ولَعبًا، مع أن الإنسان يعْمَلُ فيها عمَلًا صَالحًا؛ يُصَلِّي ويزَكِّي ويصومُ ويحُجُّ ويَبَرُّ والِديه ويَصِلُ رَحِمَهُ، وما أشبه ذلك، هل هذا يُعَدُّ من اللَّعبِ؟

فيقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس بِلَعِبٍ مع أن هذه القرباتِ في الدُّنْيا وذلك لأن ظهـورَ ثَمرتِهَا في الآخرة، ولهذا قال: «أمَّا القُرَبَ فمِنْ أمورِ الآخِرَةِ لظهورِ ثَمَرتِهَا فيهَا» وصدَقَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن الأعمالَ الصالحَةَ ليست من أعمالِ الدُّنيا، ولهذا لو أرادَ بها الإنسانُ الدُّنْيَا لبَطَلت ولم يكن له أجْرٌ فيها.

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من حَجَّ لِيَأْخُذَ فليس له في الآخرة من خلاق». يعني: من نَصِيبٍ، ولا شكَّ أن هذا الكلامَ الذي ذكَرَهُ الشيخ يدُلُّ له قولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦]، ويُدَلِّلُ له قولُهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ...» الحديثَ[2]، والحاصلُ أن أعمالَ الآخرةِ ليست مِنْ أعمالِ الدُّنْيا، بل إذا أُرِيدَ بها أعمالُ الدنيا بَطَلَتْ.

قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ هذه الجملة مؤكّدَةٌ بثلاثةِ مؤكِّداتٍ: إن، واللام، وضميرِ الفصل.

وقوله: ﴿ٱلْحَيَوَانُ﴾ بمعنى الحياةِ، لكنها جاءتْ على هذا الوزنِ للمبالَغَةِ، ﴿ٱلْحَيَوَانُ﴾ على وزن (فَعَلان)، ففيها زيادَةُ الألفِ والنُّونِ للمبَالَغَةِ، والواو قيل: إنها منْقَلِبَةٌ عن (ياء) وأنها قُلِبَتْ واوًا لئلا تَلْتَبِسَ بالمثَنَّى، هذا رأي سِيبَويه لأن أصلَهَا (حَيِي يَحْيا)، وقيل: الواوُ أصلية، لكن قُلِبَتْ ياءً لتَحَرُّكِهَا وانكسارِ ما قبْلَهَا.

فالحياةُ الحقيقيةُ هي حياة الآخرة؛ لأن حياةَ الدُّنيا في الحقيقة ليست حياة، ولذلك يقولُ الكافِرُ يومَ القيامة: ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤]، فالحياة الدنيا ليست حياةً:

أولًا: لأنها منَغَّصَةٌ، فكُلُّ صَفْوِهَا كَدَرٌ.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٦/ ١٩، ٢٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال، رقم (٦٠٧١) عن أبي هريرة.

وثانيًا: أنها غَيْرُ باقِيَةٍ.

وثالثًا: أن الإنسانَ مُهدَّدٌ فيها فلا يَدْرِي متَى يَجِيئهُ أجَلُهُ صُبحًا أو مساءً، وكم مِنْ إنسان خرجَ من أهلِهِ ولم تَرْجِعْ إلا جُثَّتُهُ، وكم من إنسان على كرْسيه فجاءَهُ الموت فلم يُكْمِلِ الكتابَةَ التي يخُطُّها بيَمينِهِ، ولهذا يقول الشاعر[1]:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً ... لَذَّاتُـهُ بِادِّكَـارِ المَـوْتِ وَالهَـرَمِ

مهما طالتْ بك الحياة سوف تهْرَمُ وتَدَعُ هذا العيشَ الطَّيِّبَ، أو تموتَ فلا تَبْقَى لهذا العيش أصلًا.

والحاصل: أن الدارَ الآخرة -صدَقَ ربنا جل وعلا- هي الحيوانُ، فهي التي ينْبَغِي للإنسانِ العاقِلِ أن يَسْعَى لها، والغريبُ أنه إذا سَعَى للآخرة حصَّلَ الدنيا والآخرة، وإذا سَعَى للدُّنْيَا فقط فاتَتْهُ الدُّنيا والآخرة، والدَّليلُ على ذلك قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى:٢٠]، ومعنى: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ نُعْطِهِ حرْثَ الآخِرَةِ مع الدُّنْيَا، لقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ هذا جَزاءٌ عاجِلٌ، ثم قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، هذا الجزاءُ الآجِلُ، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى:٢٠]، ولا نُعْطِيهَا لغَيرِهِ، وهذا الوعدُ مَقْرُونٌ بالمشِيئَةِ كما في آية الإسراءِ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨]، قال: ﴿مَا نَشَآءُ﴾، ولم يَقُلْ: عَجَّلْنَا له فِيها مَا يُريدُ ولا بَعضَ ما يُرِيدُ، ثم قالَ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:١٨].

---

(١) البيت في أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (١/ ٢٤٧)، وتلخيص الشواهد لابن هشام (ص:٢٤١)، وغيرهما غير منسوبٍ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: [﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ذَلِكَ مَا آثَرُوا الحياةَ الدُّنْيَا عَلَيْهَا]: أي لو كانوا يَعْلمونَ الفَرْقَ بينَ الدُّنْيا والآخِرَةِ ما آثَرُوا الحياةَ الدُّنْيا عليها، وهذه جملَةٌ مستَأْنَفَةٌ، و(لَوْ) ليست صالةً تَتَعَلَّقُ بما قَبْلَهَا، ولكنها مسْتَأنَفَةٌ، فهي شَرطِيَّةٌ وجوابُ الشرطِ محذُوفٌ قدَّرَهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ذَلِكَ مَا آثَرُوا الدُّنْيَا عَلَيْهَا]، وتقديره رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَصِحُّ أن يكونُ جوابًا، لكنَّ الجوابَ أبلَغُ مِمَّا قدَّره المفَسِّرُ، فحُذِفَ لأجلِ أن يبْلُغَ الذِّهْنُ في تقدِيرِهِ كلَّ مبْلَغٍ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ لعَمِلُوا لها لَيْلًا ونَهارًا، والمعنى: أن مَنْ قَدِمَ الدُّنَيا على الآخِرَةِ فليس عنده عِلْمٌ، ولو كان يعلَمُ حقيقةَ ومن ذِوَي العِلْمِ والفَهمِ، ما قدَّمَها على الآخرة.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: بيانُ حقارةِ الدُّنْيَا وأنها ليستْ بشيءٍ مُطْلَقًا، لقوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾، فظاهرُ الآية أن الدُّنيا لَهْوٌ ولَعِبٌ على سَبيلِ الإطلاقِ، ويُمْكِنُ أن نقولَ إن ذَلِكَ على سبيلِ المقارَنَةِ بالآخِرَةِ، لقولِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، وأما القُرَب فقد سبقَ قولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنَّها مِنْ أعمالِ الآخِرَةِ لظُهورِ ثَمرتِهَا فِيهَا].

الفَائِدةُ الثَّانِيةُ: لا يجوز أن يُقْصَدَ بأعمالِ الآخرةِ شيئًا مِنْ أعمالِ الدُّنْيَا؛ لأن الدنيا لهوٌ ولَعِبٌ، والدارُ الآخرة هي الحيوانُ، وعليه فالمسائلُ التي يُقْصَدُ بها الآخرةُ لا يجوزُ أن يُؤخَذَ عليها عِوضٌ مِنَ الدنيا، وهذا فيه خِلافٌ بين أهلِ العِلم في باب الإجارَةِ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: كما حياةُ الآخرةِ، لقولِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾

وهو كذلك؛ لأن الدارَ الآخِرَةَ دائمةٌ إما عَلَى الخيرِ وإما عَلَى الشَّرِّ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: الحثُّ على العِلْمِ، لقولِهِ: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسة: أن مِنَ العِلْمِ بل من أفضلِ العُلومِ التفريقُ بين الأمور النافِعَةِ والأُمورِ الضَّارَّةِ، وهذا التَّفْرِيقُ من أعظمِ ما يكونُ، وإذا أُوتِيه طالبُ العِلمِ فقدْ أُوتِيَ خَيرًا كثيرًا، فإذا أُوتِيَ مَعْرِفةَ الفرقِ بينَ الأمورِ النافِعَةِ والضَّارَّةِ ومعرفةِ الفَرقِ بينَ الأمورِ المتَشَابِهةِ في العلم، فقَدْ نالَ خَيرًا كثيرًا.

ولذا أهلُ العلمِ يُؤَلِّفُونَ كُتُبًا يُسَمُّونَهَا الفروقَ والتَّقَاسِيمَ، يذْكُرونَ فيها الفَرْقَ بينَ الفرضِ والنَّفْلِ، والفَرْقَ بينَ الأذانِ والإقامَةِ، والفرقَ بين الجَعالَةِ والإجَارَةِ، والفَرقَ بينَ العَطِيَّةِ والوَصِيَّةِ، وهذه الكتُبُ مُفِيدَةٌ لطالبِ العِلْمِ، ولشيَخْنَا الشيخِ عبدِ الرَّحمنِ السَّعْدِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالةٌ في هذا الموضوعِ، وهي مُفِيدَةٌ في هذا البابِ.

الآيــة (٦٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥].

قوله: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ ﴾ الضَّمِيرُ يعـودُ على المشْرِكِينَ، يعني: سَلْ هؤلاءِ عن آلهَتِهِمْ هل هُمْ يَرْجِعونَ إليها عندَ الشَّدائدِ أم يَعْتَرِفُونَ بأنه لا يُفرِّج الكربَ والشِّدَّةَ إلا اللهُ؟

الجوابُ الثَّانِي: فهم معترِفُونَ بأن أصنَامَهُم لا تَنْفَعُهُم، واعترَفُوا فيما تقَدَّمَ منَ الآياتِ بأن الذي خلقَ السمواتِ والأرض هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن الذي يُنزِّل مِنَ السماءِ مَاءً هو الله جَلَّ وَعَلَا، وأن الَّذِي سَخَّرَ الشَّمسَ والقمَرَ هو الله جَلَّ وَعَلَا، وأن الذي يَدْفَعُ الضُرَّ هو الله جَلَّ وَعَلَا كما في هذه الآيَةِ.

قوله: ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ السُّفُن أو السفينة؛ لأنه لفْـظٌ صالِحٌ للجَمْعِ والمفْردِ، قـال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢]، فالفُلْكُ هنا مُفْرَدٌ.

قوله: ﴿دَعَوُاْ﴾: الفعلُ أصْلُهُ (دعا) فحُـذِفَتِ الألِفُ وبقِيَتِ الفتْـحةُ دَليلًا عليه، و(الواو) ضميرٌ في محلِّ رفعٍ، حُرِّكَتْ بالضَّمِّ لالتقاءِ الساكنين، سكونُ الواوُ وسكون (ال) في لفظِ الجَلالةِ، وإن كانتِ القاعِدَةُ أن تُحذَفَ الواوُ، وقد تَقَدَّمَ قولُ

ابنِ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكافية:

إِنْ سَاكِنَانِ الْتَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ وَإِنْ يَكُنْ لَيْنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقْ

لكنَّ حذْفَ الواوِ هنا غيرُ ممكنٍ؛ لأننا لو حَذَفْنَا الواوَ استَلْزَمَ ذلك إرجاعُ ألِفِ الفِعْلِ، وهذا يؤَدِّي إلى أنه لا يكونُ لدَينا دَليلٌ على الضَّميرِ، فصارَ وجودُ الضميرِ لا بُدَّ منه، وحُرِّكَ بالضمِّ لأنه يجَانِسُ الواو، ولأن ظُهورَ الفتحةِ على الواوِ ثقيلٌ جدًا، والضَّمة أقربُ لمجانَسَتِهَا الواو، وهذا كثير في القرآنِ.

قوله: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ دعاءُ مسألَةٍ.

وقوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ الإخلاصُ: تَنْقِيَةُ الشيءِ عما يَشُوبُهُ، فمعنى ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ﴾ أي: لا يجْعَلُونَ مع هذا الدعاءِ دعاءً لشيءٍ مِنَ الأصنامِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: الدُّعاءُ]: لأن الدُّعاءَ عِبادَةٌ فهو مِنَ الدِّينِ؛ لأن الإنسان حين يدْعُو رَبَّهُ متعَبِّدًا يَشْعُرُ بأنه سيُثَابُ على هذا فيكون من الدِّينِ، ولهذا قالَ: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَا يَدْعُونَ مَعهُ غَيْرَهُ] لأنهم في شِدَّةٍ لا يكْشِفُهَا إلا اللهُ، وهم بذلك معْتَرِفُونَ ومضَطَرُّونَ؛ لأن الواحدَ منهم في هذه الحالِ لا يُمكِنُ أن يَدْعُو صَنَمًا؛ لأنه يعْلمُ أن الصَّنَمَ لا ينْفَعُه، فلا يَدْعُونَ إلا الله، وهذه حُجَّةٌ رابِعَةٌ عليهم:

الحُجَّةُ الأُولَى: خَلْقُ السمواتِ والأرضِ.

الحُجَّةُ الثانيةُ: تَسْخِيرُ الشمسِ والقمرِ.

الحُجَّةُ الثالثةُ: إنزالُ الماءِ مِنَ السماءِ وإحياءِ الأرْضِ.

الحُجَّةُ الرابِعَةُ: دعاؤُهُم الله جَلَّ وَعَلَا في حالِ الشِّدَّةِ.

والحُجَّةُ الخامِسَةُ: إخلاصُهُم الدُّعاءَ في حالِ الشِّدَّةِ لله جَلَّ وَعَلَا.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا﴾ شَرْطِيَّةٌ، وفِعْلُ الشَّرطِ: ﴿نَجَّىٰهُمْ﴾ وجوابُهُ: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾، و﴿إِذَا﴾ يُسَمِّيهَا النَّحْويونَ فُجَائيةً، والفُجَاءَةُ الشيءُ الذي يَأْتِي بَغْتَةً، والمعنى أنهم إذا نُجُّوا إلى البَرِّ فاجَؤوا وبادَرُوا بالشركِ -أعوذ بالله- جزاءَ النِّعْمَةِ أن يكفروا.

والمعنى: فلما نَجَّاهُمْ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنْقَذَهُم مِنَ الشِّدَّةِ التي هم فيها إلى البَرِّ الذي هو شاطئُ السلامةِ ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ تُفِيدُ الثُّبوتَ، أي أن الشِّرْكَ صارَ كالصِّفَةِ اللازمة لهم، فهم مُسْتَمِرُّونَ على الشركِ مُبادِرُونَ به، وهذا غَايَةُ ما يكون من اللُّؤمِ؛ لأن الإنسانَ بطَبِيعَتِهِ وفِطْرتِهِ لا يَكْفُرُ بمن أنْعَمَ عليه، بل يَشْكُرُ مَنْ أنعَمَ عليه، أما هؤلاء فإنهم بمُجَرَّدِ حصولِ نِعمةِ النَّجاةِ يُشْرِكُونَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: بيانُ أن المشركينَ يُخْلِصُونَ في حالِ الشِّدَّةِ ويُشْرِكُونَ في الرخاءِ، لقولِهِ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

الفَائِدةُ الثَّانِية: اعترافُ المشرِكِينَ ضِمْنًا بأن آلهتَهم لا تَنْفَعُهم؛ لأنهم لو كانوا يعْتَقِدُونَ نَفْعَها لدَعَوْهَا في هذه الحال، لكن هم يَعْرِفُون بأنها لا تنْفَعُهُمْ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن إشراكَ السابِقِينَ أهونُ مِنْ إشراكِ مَنْ أشركَ مِنَ المتأَخِّرِينَ

من هـذه الأُمَّةِ؛ لأن المشركينَ المتـأَخِّرينَ يُشْرِكُون في الرَّخاءِ وفي الشِّـدَّةِ، وأيضًـا لا يَدْعُون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لكِنْ يَدْعُونَ أولياءَهُم، فالرافِضَةُ يدْعُون عليًّا، وسمعتُ رَجُلًا يَدْعُو عند المقامِ ويَرْفعُ صوته بقوةٍ: يا عَلِي يا علي، فجاء أحدُ رجالِ الحِسْبَةِ وزجَرَهُ، وقال: تشركُ عندَ الكعْبةِ، فقال أنا أقولُ: (يا علي) والله يقولُ في القرآنِ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى:٤]، وهذا من التَّقيَّةِ عندَهم التي هي سبيلُ المنَافقين؛ لأن هذا الرَّجلَ الظاهِرُ أنه يريدُ عَلِيًا وإلا لقال: يا رب، أو: اللهم، وما أشبه ذلك.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: أن اللُّجوءَ إلى الله في حالِ الشِّدَّةِ أمرٌ فِطْرِيٌّ، بدليل أن هؤلاء غَلَبَتْهم فِطْرتُهم حتى دَعَوا اللهَ وحْدَهُ مخْلِصينَ له الدِّينَ.

الفَائِدةُ الخامِسةُ: أن الدُّعـاءَ من الدِّينِ لقولِهِ: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ولا شكَّ أن الدُّعاءَ من الدِّينِ والعبادةِ؛ لأن فيه غايَةَ الذُّلِّ والاعترافِ بكمالِ الله عَزَّوَجَلَّ، وأنت عندما تقول: يا رَبِّ، فأنتَ مُفْتَقِرٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ومعناه أن اللهَ كامِلٌ، ولهذا «بايعَ الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ النبيَّ ﷺ على ألَّا يَسْأَلُوا الناسَ شيئًا، فكان الرَّجُلُ يسقُطُ سَوْطُه من بَعِيرِهِ فيَنْزِلُ ويأْخُذُهُ ولا يقول: نَاولِنْي إِيَّاه يا فُلانُ»[1]، بينما في وَقْتِنَا تجـدُ الإنسانَ يتَذَلَّلُ غايةَ الذُّلِّ في سؤالِ المال وهو غيرُ محتـاجٍ، فهؤلاء يأتون يومَ القيامَةِ وليس في وجوههم مِزْعَةُ لحْمٍ -والعياذ بالله-.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم (١٠٤٣) عن عوف بن مالك بلفظ: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ الله؟» وكنا حديث عهد ببيعة فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله. ثم قال: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ الله؟» فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله. ثم قال: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ الله؟» قال: فبسطنا أيدينا، وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟ قال: «عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَتُطِيعُوا -وأسر كلمة خفية- وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا». فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدًا يناوله إياه.

فالحاصل: أن الدُّعاءَ تَذَلُّلٌ، ولهذا كان مِنَ العابِدَةِ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: أن هؤلاءِ المشركينَ إذا نَجَوْا مِنَ الشدَّةِ كَفَرُوا بالنِّعْمَةِ، لقولِهِ: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

الفَائِدةُ السَّابِعةُ: سَفَهُ من يجْعَلُ النِّعَمَ سببًا للأشَرِ والبَطَرِ، فإن مَن فَعَلَ ذلك فيه شَبَهٌ من هؤلاءِ المشركين، لأن الواجِبَ على مَنْ أنعَمَ اللهُ عليه النِّعْمَةَ أن يزْدَادَ عبادَةً لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن العِبادَةَ مِنَ الشُّكْرِ، فإذا أنْعمَ عليكَ ربُّكَ بنِعْمَةٍ فازْدَدْ له شُكرًا، وقد تقدَّم أن الرَّسولَ ﷺ لما دَخَل مكَّة فاتحًا طأْطَأَ رأسَهُ[1]، حتى إنه ليُصِيبُ مَورِكَ رَحْلِهِ ﷺ، كلُّ هذا من أجلِ التَّذَلُّلِ للمُنعِمِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا تَجْعَلْ نِعَمَ الله سَبَبًا للأشر، بل اجْعلَها سببًا للشكرِ والذُّلِّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حتى تَزْدادَ هذه النِّعَم وتكون نِعِمًا حَقِيقَةً.

• • ❁ • •

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٣٣٩٣)؛ والحاكم في مستدركه (٣/ ٤٩) (٤٣٦٥)؛ وابن عساكر في تاريخه (٤/ ٨٠) عن أنس، ولفظ الحاكم: «دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على رحله متخشعًا».

الآيـة (٦٦)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٦].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ مِنَ النِّعْمَةِ ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ باجتِماعِهم عَلَى عبادَةِ الأصنَامِ، وفِي قِراءَةٍ بسُكونِ اللَّامِ، أَمْرُ تَهْدِيدٍ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عَاقِبَةَ ذَلكَ] اهـ.

قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ (اللام) هنا لامُ الأمْرِ على قِراءةِ تَسْكِينِ اللام في قوله: (ولْيَتَمَتَّعُوا) والأمر هنا المرادُ به التَّهْدِيدُ؛ لأن اللهَ لا يأمُرُ بالكفْرِ أمرَ إرشادٍ، ولا أمْرَ إلزامٍ، وعلى القراءة الثانية: وهي كَسْرُ اللامِ في قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ تكون (اللام) لام كَي، ولكن هذه اللامُ هِي لامُ التَّعْلِيلِ أو لامُ العاقِبَةِ؟

الجواب: هي لامُ العاقِبَةِ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يُنْجِهم إلى البرِّ لِكَي يُشْرِكُوا ويَكْفُروا، لكن صارَتْ عاقِبَتَهم الكُفْرُ، ولام العاقِبَةِ معروفةٌ في اللُّغَةِ العرَبِيَّةِ، قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، لكن هل آل فرعونَ الْتَقَطُوا مُوسَى لهذا الغَرضِ؟

الجواب: لا، لكن صارتِ العَاقِبَةُ هذه، وهُم لو عَلِمُوا أنه سيكونُ لهم عَدُوًّا وحَزَنًا ما التَقَطُوه، أو التَقَطُوه وأهْلَكُوه، فهنا العاقِبَةُ أنهم كَفَرُوا بما آتَيْنَاهُمْ.

وقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ الفِعْلُ (كَفَرَ) تَعَدَّى إلى مَفْعولِهِ بـ(الباء) مثل: كَفَرَ باللهِ، وكفر بالرسولِ.

وقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي: بما أعْطَيْنَاهُم من النِّعمَةِ، والنِّعْمَةُ هي إنجَاؤُهُم من الغَرقِ.

قوله: [﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ باجْتِماعِهِمْ على عِبادَةِ الأصنامِ]: ويُمْكِنُ أن يُقالَ: ولِيَتَمَتَّعُوا بالنِّعَمِ التي أعْطَاهَا اللهُ لهم، فهم كَفَرُوا بها فَلَم يَشْكُروهَا، وتمتَّعُوا بها إلى مآلهم ومَصِيرِهِمْ.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَفِي قِرَاءَةٍ بِسُكونِ اللَّامِ] في ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾، والعامَّةُ يَقْرَؤونَ بسكونِ اللامِ على القِراءةِ الثَّانِيَةِ التي تخالِفُ القراءةَ التي في المصحَفِ، فالواجبُ أن نَرُدَّ عليهم ونُصَحِّحَ لهم هذه القراءةَ، ونقولُ: ارجعوا أيها العَامَّةُ إلى المصْحَفِ وستَجِدُون ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ بالكَسْرِ لا بالسكونِ، فقِراءتُهم بالسكون عن جَهلٍ وعَدَمِ معرفة، أما لو كانَ القَارِئُ بالسكونِ طالبَ عِلمٍ فلا يُرَدُّ عليه.

لو قال قائل: قراءة العامي (ولْيتمتعوا) بالسُّكونِ في واقع الأمر صَحِيحَة كما قلنا بِصِحَّةِ أذانِ من قال: أشهد أن محمدًا رسولَ الله بنصب (رسول)، فكيف الجوابُ عن هَذَا؟

الجواب: أن العوَامَ ما أرَادُوا ما تَدُلُّ عليه اللُّغةُ العَربِيَّةُ من الأمرِ، بل أرادُوا الذي في المصْحَفِ، أرادُوا (لام العاقبة) لا (لام الأمر).

أما قولهم: أشهدُ أن مُحَمَّدًا رسولَ الله بنصبِ (رسول)، هؤلاء أرادُوا ما تدلُّ عليه اللغة العربية، أرادوا أن (رسول) خبر (أن)، فهم أرادُوا ما له وَجْهٌ في اللغة العربية.

ولو قيلَ: ما حكمُ مَنْ كان يقْرأُ القرآنَ وأخطأَ، لكنه أصابَ قراءةً سبْعِيَّةً صحيحةً؟

فالجواب: إذا كان عَامِّيًا نَرُدُّ عليه ويؤمَرُ بأن يقْرَأ بالقِراءةِ المعْرُوفَةِ، وإلا فلا يُخَطَّأُ ولا يُصوَّب، بل نسْتَفْسِرُ: هل قَصْدَتَ هذه القراءة أو قرأتَ خطأً؟

إذا قال: إنا لم أقْصِدْ إلا القِراءةَ المعروفةَ، نقول: أنتَ مُخْطِئٌ ثم نَنْصَحُهُ ألا يَتْلُوَ القرآنَ بقراءةٍ غيرِ مَشْهُورَةٍ عندَ العامَّةِ؛ لأن قراءةَ القرآنِ بغيرِ القِرَاءةِ المشهورةِ عندَ العامَّةِ تُحْدِثُ فِتْنة للعامَّةِ؛ لأن العامِّيَّ لا يَسْتَنكِرُ، ثم يُغادِرُ وقد ينَخْفِضُ قدْرَ المصحَفِ في نَظَرِهِ، حتى الأشرطةِ التي فيها قِراءاتٍ ويَسْمَعُهَا العامَّة نَرَى أنه مِنَ الخطأ أن تَنْتَشِرَ بينَهُم، أما إذا كانَ عندَ طلبَةِ عِلْمٍ حيثُ يُعَلِّمُهُم القراءاتُ فهذا لا بأس به؛ لأن السُّنَّةَ أن نَتْلُوَ القُرآنَ بكلِّ قراءةٍ ورَدَتْ، مثلَ غيرِهِ مِنَ العباداتِ التي جاءتْ على وُجوهٍ متَنَوِّعَةٍ، فإن الأفضلَ أن نأخُذَ بهذا الوَجْهِ مرَّةً وبهذا الوجه مرة، لأن كلَّ القِراءاتِ وردت عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

مسألة: هل كُلُّ القِراءاتِ السَّبْعِ متَواتِرَةٌ، وما رأيكُمْ في أسانِيدِ هذه القِراءاتِ؟

القراءاتُ السبْعُ كلُّها متَواتِرَةٌ بالإجماع، وأما إذا كانت القِراءةُ آحادًا فاختلفَ العلماءُ في جوازِ القِراءةِ بها، وتَقَدَّمَ أن الرَّاجِحَ أنه إذا صَحَّتْ عن النَّبِيِّ ﷺ فهي قراءةٌ مُعْتَبَرَةٌ.

أما هذه الأسانيد -أعني أسانيد القراءات- فإنها متواتِرَةٌ، والتواترُ يُغْنِي عن الأسانيدِ، كما لو قال لك أحدٌ: أين الدليل على أن هناك بلدًا تُسَمَّى واشَنطن؟ لا تقول له: حدثني فلان عن فلان؛ لأن هذا متواتر.

قوله: [﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عَاقِبَةَ ذَلِكَ]: يقول النحويون: إنها تُفِيدُ التوكيدَ بمُهْلَةٍ فهي حرف تَسْويفٍ عندهم بخلافِ السِّينِ؛ لأنها تُفِيدُ التَّحْقِيقَ بقُرْبٍ.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ الجملة خبَرِيَّةٌ ويرادُ بها التَّهديدُ، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة التكاثر: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣-٤]، وقال تعالى في سورةِ النَّبأ: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ:٤-٥]، أي: العذابَ -والعياذ بالله- نازِلٌ بهم لا مَحَالَةَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: تهديدُ أهلِ الكفْرِ والتَّمَتُّعِ المحرَّمِ؛ لأن الأمرَ هنا للتهديدِ، إذ لا يأمُرُ اللهُ أحدًا أن يَكْفُرَ ولا أن يتَمَتَّع تمتعًا محرَّمًا.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن هـؤلاءِ المشركينَ صارتْ عاقِبَةُ أمرِهم إلى الكفرِ والتمَتُّعِ الزائلِ، هذا على قراءةِ الكسْرِ، أي: أن اللام للعَاقِبَةِ.

الفَائِدة الثَّالِثة: الحذَرُ الشديدُ مما عليه بعضُ المسْلِمينَ اليوم، الذين ليس لهم هَمٌّ إلا التمتُّعُ بالدنيا فقط، فهؤلاء لا يتَحَدَّثُونَ إلى على الرَّفَاهِيَةِ والتَّرْفِيهِ، لكن أمراضَ القلوبِ وعِلَلَ وانحرافاتِ القُلوبِ قَلَّ أن يتكَلَّمُوا عليها مع أنها هي الأصلُ فإذا مَرِضَتْ القلوبُ فما الفَائِدةُ من تَرْفِيهِ الأبدانِ، ثم إن نَزَلَتْ نِقْمَةٌ مِنَ الله ازْدَادُوا حَسْرةً والعياذُ بالله، فترْفِيهِ القُلوبِ بطاعَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي فيه الفَائِدةُ الحَقِيقِيَّةُ للبدنِ وللقَلْبِ ولكِلِّ شيءٍ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

الآيــة (٦٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت:٦٧].

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ تقدَّمَ الكلامُ على مِثلِ هذا التركيبِ، وذَكَرْنَا أن الهمزةَ للاستفهامِ، والواو حرفُ عَطْفٍ، وهل الهمزةُ مقدَّمَة عن مكانها أو لا؟ وذَكَرْنَا أن في ذلك خلافًا، وأن الأرْجَحَ أن الهمزةَ للاستفهامِ، وأن الواو عاطِفَةٌ على ما قَبْلَها.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يَعْلَمُوا ذلِكَ]: لأن الرُّؤيَةَ نوعان: عِلْمِيَّةٌ، وبَصَرِيَّةٌ، إن تَعَدَّتْ إلى مَفْعولين فهي عِلْمِيَّةٌ، كقولك: (رأيتُ العِلْمَ نافِعًا)، وإن تعَدَّتْ إلى مفعولٍ واحد فَهِي بصَرِيَّة، كقولك: (رأيت فلانًا).

ومثال الرؤيةِ العِلمِيَّةِ في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦-٧]، أي: نَعْلَمُه قَرِيبًا، والرؤْيَةُ في ﴿يَرَوْنَهُۥ﴾ الأُولى رؤيةٌ ظَنٍّ أي: يَظُنُّونَه بعيدًا.

وقوله: ﴿جَعَلْنَا حَرَمًا﴾ الحَرَمُ ما له حُرْمَةٌ، أي: تَعْظِيمٌ، وسُمِّيَ التَّعْظِيمُ حُرمة؛ لأنه يمْنَعُ بهذا التَّعْظِيمِ ما كان سَائغًا لَوْلَاهُ، ومن جُملَةِ حُرماتِ مكَّةَ: تحريمُ قتلِ الصَّيْدِ، والقتالِ فيها، وقَطْعِ الشجَرِ، وحَشِّ الحَشِيشِ، حتى الحيواناتِ غيرِ المؤْذِيَةِ يجبُ أن تكون آمنة.

وقوله: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أهل المجاز يقولون: آمِنًا مَنْ فيه، والصواب أن الحرَمَ نَفْسَهُ آمن، ولهذا عَصَمَهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من كلِّ أحدٍ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل:١]، وحرَّمَ النبيُّ ﷺ القتالَ فِيهِ[1]، فهو نفْسُهُ آمِنٌ، وإذَا أمِنَ نفْسُه أمِنَ مَنْ فيه.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ قَتْلًا وسَبْيًا دُونهُم]: ففي عَهْدِ الجاهِلِيَّةِ كان غيرُ أهلِ الحرَمِ لا يعرِفُونَ الأمنَ والأمانَ، يُغَار عليهم ويُقتلَوُن ويُسْبَـون وتؤخَذُ أموالهُمْ ونساؤهم؛ لكنَّ أهلَ مكَّة آمنـون، حتى إن الإنسان يجِدُ قاتِلَ أبيهِ في الحرمِ ولا يَقْتُلُه مع شِـدَّةِ الحَمِيَّة عندهم، لكن في غيرِ الحرَمِ تَجِدُ القتلَ والسَّبْي والنَّهْبَ، فكانت نِعْمَةُ الأمْنِ على قريشٍ نِعْمَةً عظيمةً، وكان عليهم أن يُقابِلُوا هذه النِّعْمَةَ بالشُّكْرِ والتَّصْديقِ للرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، مع أنَّ الرسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ منهم يَعْرفونَهُ، ويُسَمُّونَه قبل أن يأتي بالرسالة بالأمينِ، ويحْتَكِمون إليه أحيانًا؛ لكن لما بُعِثَ بالرسالةِ وخالَفَ أهواءَهُم كَفَروا به، فالحَرَمُ آمِنٌ وهذه نِعْمَةٌ تُوجِبُ الشُّكْرَ، حتى في فِتنَةِ القَرامِطَةِ وأخْذِهِمُ الحَجَر ما تغَيَّر الحرم بل بقي آمنًا، ولم تَتَعَطَّلْ فريضةُ الحجِّ.

قوله: [﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ الباطِلُ: الصَّنَمُ]: وهذا فيه نَظَرٌ إلا إذا قَصَدَ

---

(١) روى البخاري معناه في كتاب المغازي، باب من شهد الفتح، رقم (٤٠٥٩)؛ ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٣) عن ابن عباس، ولفظ البخاري: أن رسول الله ﷺ قام يوم الفتح فقال: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهِيَ حَرَامٌ بِحَرَامِ الله إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي وَلَمْ تَحْلِلْ (تُحَلَّلْ) لِي قَطُّ إِلَّا سَاعَةً مِنَ الدَّهْرِ لَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا وَلَا يُعْضَدُ شَوْكُهَا (شَجَرُهَا) وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا وَلَا تَحِلُّ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ». فقال العباس بن عبد المطلب: إلا الإذخر يا رسول الله فإنه لا بد منه للقين والبيوت؟ فسكت ثم قال: «إِلَّا الْإِذْخِرَ فَإِنَّهُ حَلَالٌ».

المُفَسِّر التمثيلَ وأن مِنْ جُملةِ الأشياء الباطلةِ الأصنامَ، وإلا فإن الباطِلَ يشْمَلُ كلَّ ما لا خيرَ فيه من صَنَمٍ أو دُنيا أو رِئاسة أو غيرها، كلُّ شيءٍ سِوَى الحقِّ فهو باطل، قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ لَبِيدُ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ...»[1].

فعلى هذا نقول: الباطلُ أعَمُّ مما ذَكَرَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يُصَدِّقُونَ ويَطْمَئِنُّونَ إليه، فتَجِدُهُم في الأمورِ الباطِلَةِ مُطْمَئِنِّينَ مصَدِّقينَ متَّبِعِينَ، لكن بنعمةِ الله يَكْفُرونَ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: بما أنْعَمَ الله عليهمْ مِنَ المالِ والجاهِ والرئاسةِ وغيرها ﴿يَكْفُرُونَ﴾؛ لأن هـذه النِّعَمَ تحتاجُ إلى شُكرٍ بالرجوع إلى طاعـة الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا بَقِي الإنسانُ على مَعْصِيَةٍ معَ كَثْرَةِ النِّعَمِ صارَ بذلك كافرًا بالنِّعْمَةِ.

وبالنسبَةِ للمُسْلِمِينَ كُفْرهُم بنِعْـمَةِ الله يكونُ بكفْرِ النِّعْمَةِ المادِّيَّةِ والجسَدِيَّةِ والنعْمَةِ المعنَوِيَّةِ القَلْبِيَّةِ، فالإسلامُ أكبرُ النِّعَمِ، إذا كَفَرَ به الإنسان ولم يَقُمْ بواجباتِهِ فإنه يُوَبَّخُ ويقال له: أَلَسْتَ مُسْلِمًا؟ فسيقول: بلى، فنقولُ: إذنْ لماذا لم تصلِ؟ لماذا لم تزكِّ؟ لماذا لم يفْعَل كذا وكذا من واجِبَاتِكَ؟

فشكر نِعْمَةِ الإسلامِ واجبٌ، كما أن شُكْرَ نِعْمَة الله تعالى عَلَيْنَا في المالِ والبَنِينِ والأمْنِ والراحةِ وما أشبَـهَ ذلكَ واجـبٌ، بل الشُّكْرُ على نِعْـمَةِ الإسلام أوجبُ، وكُفْرُ نِعمةِ الإسلامِ أخْطَرُ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه، رقم (٥٧٩٥)؛ ومسلم: في بداية كتاب الشعر، رقم (٢٢٥٦) عن أبي هريرة.

فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩]؛ لأن الله يمكن أن يَنْزِعَ الإسلامُ من قـومٍ لا يقومونَ بواجِبَاتِهِمْ كما ينْتَزِعُ الأمنَ والرخاءَ من قـومٍ لا يَشكُرونَ، فالنِّعَمُ واحدةٌ وسَبِيلُهَا واحد.

وقوله: ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾: قُولُه: ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾ مفْـرَدٌ مضَافٌ فَيَعُمُّ، والدَّلِيلُ قوله: ﴿وَإِن تَعُـدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وقوله: ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾ متعَلِّقٌ بـ﴿يَكْفُرُونَ﴾ وقُدِّمِ لإفادَةِ الحَصْرِ ولمراعَاةِ الفَواصِلِ.

• • ❁ • •

الآيــة (٦٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٨].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَمَنْ ﴾ أي: لَا أحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ بأَنْ أشرَكَ بِهِ، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾ النَّبِيِّ أو الكِتابِ، ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى ﴾ مَأْوَى، ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: فِيهَا ذَلك وهُو مِنْهُم] اهـ.

قوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أي: اخْتَلَقَ عَلَى اللهِ كَذِبًا.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِأَنْ أَشْرَكَ بِهِ]، هذا أيضًا تفسيرٌ قاصِرٌ، إلا أن يُرِيدَ التَّمثِيلَ، فمن أشركَ بالله فقد افتَرَى على اللهِ كذِبًا؛ لأنه زَعَم أن مع الله إلهًا آخَرَ وهو كاذِبٌ.

فالافتراءُ على الله كَذِبًا له أنواع كثيرة، فمَنْ قال: إن الله حرَّمَ كَذَا، والله تعالى لم يحرِّمْه، فقد افتَرَى على الله كَذِبًا، ومن قال: إنَّ الله أرادَ بكلامِهِ كذا دونَ كذا، فقد افتَرَى على الله كَذِبًا، ومن قال إن الله ليس له يَدٌ حَقِيقية، وليس له وجْهٌ حقِيقِيٌّ، وليس له رِضًا حقيقي وما أشبه ذلك، فقد افتَرَى على الله كَذِبًا؛ فكلُّ من قال عَنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أو عنْ أفعالِهِ أو عن أحكامِهِ شيئًا لم يَقُله اللهُ ولا رسولُه؛ فإنه مفْتَرٍ على الله كَذِبًا.

فمن قال: إن لله شَريكًا فقدْ افترَى على اللهِ كَذِبًا، ومن قال: إن مِنْ أسماءِ الله كذا، وهو ليس من أسمائِهِ، فقد افترَى على الله كَذِبًا، وكذلك النَّصارَى الذين يسمونَ الله أبًا، والفلاسفة الذين يَقُولونَ إنه العِلَّةُ الفاعِلَةُ، كل هذا كذبٌ على الله عَزَّوَجَلَّ.

وكذلك الكذبُ على اللهِ في صِفاتِهِ -وقد تقدم- والكذِبُ على الله في أحكامِهِ، مثلُ الذي يقولُ: هذا حَلالٌ وهذا حرامٌ، وهو ليس بحلالٍ وليس بحرامٍ، فالله تعالى بيَّن أنه لا أحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

لكن يُشْكِلُ على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أن مثلَ هذه الصِّيغَةِ تأتي في سياقاتٍ أُخْرى وقد جمعهم الله تعالى في آيَةٍ واحدةٍ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٩٣]، وأيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة:١١٤]، وورد في الحديث: «ومَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»(١).

والجواب عن هذا: إما أن نَقُولَ: لا أحدَ أظْلَمُ في المعنى المعَيَّنِ، وذلك أن الافْتراءَ على اللهِ الكَذِبَ يكونُ على الله ويكون على غيرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكن الذي افْتَرَى على الله الكذِبَ أظلمُ ممن افْتَرى على غيرِهِ.

وكذلك من مَنَعَ مساجِدَ الله، ومن مَنَعَ الأسواق، ومن مَنَعَ بيتك أن تَدْخُله،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب نقض الصور، رقم (٥٦٠٩)؛ ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة...، رقم (٢١١١) عن أبي هريرة.

أيهم أعْظمُ منعًا؟ الذي منَعَ مساجِدَ الله، وهكذا نَجعلُ كلَّ شيءٍ مختصًّا بما يقْتَضِيهِ السِّياقُ.

أو نقول: إن الجمعَ اشتركَ في الأظْلَمِيَّةِ، يعني: لا أحدَ أظلمُ من هذا ولا أظلمُ من هذا، وتكون كلها اشتركت في الأظلمية.

قوله: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ الحقُّ هو الشيءُ الثابِتُ، فإن كان خَبَرًا فهو الصِّدْقُ، وإن كان حكمًا فهو العدل.

وقوله: ﴿لَمَّا﴾: بمعنى حين، أي: حين جاءَهُ الحقُّ كَذَّبَ به، وقال: ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ لأنه قَبْلَ مجيئِهِ لا يُلزمُ به؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ برَحْمَتِهِ وعدْلِهِ لا يُعاقِبُ أحدًا حتى تقومَ عليه الحجَّةُ في بلوغِ الشَّرعِ له.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ مَأْوَى ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: فِيهَا ذَلِكَ]: إشارة إلى أن المراد بالاستفهامِ هنا التَّقْرِيرُ، والغالبُ أنه إذا دَخَلَتْ همزةُ الاستفهام على أداةِ النَّفْي تكونُ للتَّقريرِ، مثاله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٤٠]، فكُلُّ ذلك يَدُلُّ على أن الهمزةَ المرادُ بها التَّقْرِيرُ.

قوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ المعنى: جهَنَّمُ مثْوًى للكافرين، ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: فِيهَا ذَلِكَ، وهو مِنْهُمْ].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ المثْوَى هو المَأْوى، لكنَّ المأْوَى الذي هو

مَحِلُّ إقامَةِ الإنسانِ، يَأْوي إليـه على أنه مَحِلُّ إقَامَتِهِ، فثَوَى في ذلك: أي: أقَـامَ فيه إقامةً دائِمَةً.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ هذا في الحقيقة إظهارٌ في موضعِ الإضمارِ، إذ إن مقْتَضَى السياقِ أن يقال: أليس في جهنَّم مثْوًى لهم، لكنه أظْهَرَ في موضع الإضمارِ، والإظهارُ في موضع الإضمار يُستَفادُ منه ثلاثةُ فوائدُ:

أَوَّلًا: تَعْميمُ الحُكْمِ.

ثانيًا: الحكْمُ على موضِعِ الضَّميرِ بما يقْتَضِيهِ هذا الوَصْفُ.

ثالثًا: الإشارةُ إلى العِلَّةِ، وهذا إذا كان مُشْتَقًّا.

الآيــة (٦٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

قوله: [﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ في حَقِّنَا]:

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأٌ، وجملة ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ خَبَرُه، والخبرُ مُؤَكَّدٌ بثلاثِ مؤكِّدَاتٍ: القَسمِ واللامِ ونونِ التوكيدِ.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ أي: بَذَلُوا الجَهْدَ للوصولِ إلى الغايةِ، هذا هو الجهادُ: بَذْلُ الجَهْدِ للوصولِ إلى الغايةِ.

وقوله: [﴿فِينَا﴾ فِي حَقِّنَا]: أي: في دِينِ الله عَزَّوَجَلَّ، وفيما يجِبُ له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفي بيانِ شَريعَتِهِ عَزَّوَجَلَّ، وفي الأمرِ بالمعْرُوفِ والنهْيِ عن المنْكَرِ، وفي كفِّ النفْس عما يحْرُمُ وإلزامُها بما يَجِبُ، وفي قتالِ الكفَّارِ لإعلاءِ كلَمِةِ الله، فالآية عامَّةٌ؛ كل هذا مِنَ الجهادِ في الله، فكُلُّ مَنْ بذلَ وجاهَدَ في الله فإن جزاءَهُ العاجلُ قبل الآجل: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ هدايةَ دِلالَةٍ وهِدَايَة تَوفيقٍ.

فالهدايةُ هنا شامِلَةٌ للأمْرَيْنِ، ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ ولم يَقُلْ: (لنهْدِينَّهُم إلى) بل قال: ﴿سُبُلَنَا﴾، فعَدَّى الهِدايةَ بنَفْسِها إلى المفعولِ الثَّانِي.

فيَشْمَلُ ذلكَ هِدايةَ الدِّلالَةِ والتَّوفيقِ، ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ في سورةِ الفاتحة:

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]، لم يَقُلْ: اهدِنْا إلى الصِّراطِ المستقيم، بل قال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾، فيَشْمَلُ الهِدايَةَ إليهِ، ويَشْمَلُ الهِدايَةَ فيهِ، فالهدايةُ إليه الدِّلالَةُ إليه، أي: يَدُلُّكَ على الصِّراطِ المستَقِيمِ، والهدايةُ فيه أن يُوَفِّقَكَ للعملِ في إطارِ هذا الصِّرَاطِ، فقوله تعالى: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ يشملُ الأمْرَينِ، هداية الدِّلالَةِ والعِلْمِ، وهِدَايَةَ التَّوفيقِ والإرْشادِ، وهذا وَعْدٌ من الله عَزَّوَجَلَّ مؤكَّدٌ بهذه المؤكدات الثلاثِ، فإذا كان الإنسانُ يؤمِنُ بهذا الوَعْدِ وأنه مِنَ الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا، وهو لا يُخْلِفُ الميعادَ لتمامِ عِلْمِهِ وقُدرَتِهِ وصِدْقِهِ، وإخلافُ الموعِدِ يكون بتَخَلُّفِ واحدٍ من هذه الثلاثة: العِلم والصدْقِ والقُدرةِ؛ فالذي يُخْلِفُ الموْعِدَ لا يكونَ إلا جاهِلًا وَعَدَكَ بشيءٍ وهو يَظُنُّ حُصولَهُ ولم يأتِ الأمرُ على ظَنِّهِ، أو أنه كاذِبٌ وَعَدَكَ وكذَبَكَ، أو أنه عاجِزٌ، أي: هو صَدوقٌ ويعْلَمُ الأسبابَ لكن عَجَزَ، لكن الله جَلَّوَعَلَا انْتَفَى بحَقِّه كلُّ هذه الثلاثة: الجَهلِ والكذبِ والعَجْزِ، فلِتمامِ قُدْرتِهِ وعِلمِه وصِدْقه لا يُخْلِفُ الميعادَ.

فمن صدَّق بهذا الوعدِ فإنه لا بُدَّ أن يَبْذُلَ جُهدَهُ في حق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا مِصْدَاقُ ما جاء في الآثارِ الكَثيرَةِ؛ من أن الإنسانَ إذا عَمِلَ بعِلمِهِ فإن الله يَزيدُهُ عِلْمًا، ويُثَبِّتُ عِلمَهُ الذي يعْمَلُ به، ولهذا قيل: قَيِّدُوا العِلمَ بالعَملِ، وقيل: إن العِلْمَ يهتِفُ بالعملِ فإن أجابَ وإلَّا ارْتَحَلَ، (يهتف) أي: يُنادِي، فإن عَمِلَ الإنسان بعلْمِهِ بَقِي وزادَ لأن قوله: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ هذه زيادَةٌ، وإن لم يُجِب ارْتَحَلَ.

وهذا حقٌّ يُؤَيِّدُه الواقعُ ويُؤيِّدُهُ المعلومُ بالشَّرعِ، فإن الواقعَ إذا صار طالبُ العِلمِ يعْمَلُ بعِلمِهِ، فإن عَمَلَهُ بالعلمِ دِراسَةٌ له؛ أنت عَلِمَتْ كيف كان رسول الله ﷺ يُصَلِّي وطبَّقْتَ ذلك في كل صَلواتِكَ لا تَنْسَاهُ؛ لأن التطبيقَ دراسة.

وهنا أُحِبُّ أن أُنَبِّه طالبَ العِلْمِ ألا يَهْتَمَّ بحفظِ المسائلِ فَقَطْ، فالتَّسجيلُ

أفضَلُ وأقْوَى منَّا حِفظًا للمسائلِ، لو تُعْطِيه ألفَ مسألة ثم تأتي بعدَ عِشرينَ سنَةً أعادَهَا عليك كما هي، المهم: أن يَفْهَمَ طالبُ العلم، فَفَهْمُ الدَّلالَةِ من القُرآنِ والسُّنَّةِ ومعرفةِ كَيفِيَّةِ استنباطِ الأحكامِ، إذا أُوتِيهِ طالبُ العِلمِ فقَدْ أُوتِيَ خيرًا كَثِيرًا وعِلمًا كثيرًا، والذي يُؤتَى الفَهمَ في الكتابِ والسُّنَّةِ كالطبيبِ، والذي يحْفَظُ العِلْمَ كالصَّيْدِلِيِّ يحفَظُ لك الدواءَ، لكنَّ الطَّبِيبَ هو الذي ينْتَفِعُ وينْفَعُ، ولذا قال عليُّ بنُ أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سئل: هل عندكُمْ كتابٌ؟ قال: لا، إلا كِتابَ اللهِ أو فَهْمٌ أُعْطِيَهُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ، أو ما فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ[1]، ولا شك أن عَلِيًا أُوتِي شَيئًا كَثِيرًا.

فالمهم: على طالبِ العِلْمِ أن يهْتَمَّ في دِرَاسَتِهِ للكتابِ والسُّنَّةِ بجانبِ الاستِنْباطِ والفَهْمِ والتَّفْرِيعِ أيضًا، وقد تقَدَّمَ أن دَلالَةَ اللَّفْظِ على معناه تكونُ على ثلاثةِ أَوْجُهٍ: مطابَقَةٍ وتضَمُّنٍ والتِزَامٍ، المطابِقَةُ والتَّضَمُّنُ أمرهُمَا بسيطٌ، أدْنَى طالِبُ عِلم يَفْهمها، لكن دَلالَةَ الالتزامِ هي التي يتَفَرَّعُ عليها مسائلُ لا يُحْصِيهَا إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا وُفِّقَ الإنسانُ لها يَنالُ خَيرًا كثيرًا.

ثانيًا: من النَّاحِيَةِ الشرعِيَّةِ يقولُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم:٧٦]، فكلُّ من اهْتَدَى فإنَّ الله يَزِيدُهُ هُدًى وعِلْمًا.

وفي الحقيقة نحنُ نعْرِفُ هذا ونَقْرؤهُ دائمًا، لكن يَغْلُبُ علينَا السَّهْوُ والغَفلَةُ والنِّسْيانُ.

وقوله: ﴿سُبُلَنَا﴾ الضمير (نا) جمْعٌ والمرادُ بِهِ التَّعْظِيمُ، وتقدَّمَ الرَّدُّ على زَعْمِ النَّصارَى الذين يقولونَ إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثة ويستَدِلُّونَ بالمتَشَابِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم (١١١) عن أبي جحيفة.

قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هذه الجملَةُ مُؤَكَّدَةٌ بـ(إن) و(اللام).

و(مَعَ): مِن النَّحويِّين من يَرَى أنها اسمٌ وهو الصحيحُ، ومنهم من يَرَى أنها حرف، وفيها لغتانِ: الفتحُ وهو الأكثر، والتَّسْكِينُ.

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَمَعَ مَعْ فِيهَا قَلِيلٌ وَنُقِلْ ... فَتْحٌ وَكَسْرٌ لِسُكُونٍ يَتَّصِلْ

الشاهد: ومَعَ مَعْ فيها قَلِيلٌ.

فالحاصل: أن (مَعَ) ظرف وهي اسمٌ؛ لأنها لا تُضَافُ إلا إلى الأسماءِ، فهي ظرفٌ منْصُوبٌ على الظَّرْفِيَّةِ لأنها تَدُلُّ على الصُّحْبَةِ، و(مَعَ) مضاف و﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مضاف إليه.

وقوله: [﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المؤمِنِينَ بالنَّصْرِ والعَوْنِ]: هذا تفسيرٌ ناقِصٌ؛ لأن المحسنين أَخَصُّ مِنَ المؤمنين، ولهذا قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ...» إلخ، ثم قال: «الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»[2] فكُلُّ مُحْسِنٍ إحسانًا شَرعيًا ليس عادِيًّا فهو مُؤمِنٌ ولا عَكْسَ.

وقولنا: (إحْسانًا شرعيًا) احتِرَازًا من الإحسانِ العادي؛ لأنه يَقَعُ حتى مِنَ الكافِرِ، لكن الإحسانَ الشَّرْعِيَّ هو الذي فَسَّرَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، فالمحسنُ أَخَصُّ مِنَ المؤمنِ.

---

(١) البيت رقم (٤٠٩) من ألفيته.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم (٥٠) عن أبي هريرة؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٨) عن عمر بن الخطاب.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالنَّصْرِ والعَوْنِ]. هـذا صحيحٌ، فالله جَلَّ وَعَلَا معـهم بالنَّصْرِ والعَوْنِ، وليس المرادُ أنه مَعَهم في مكانِهِمْ؛ لأن هذا شيء مُسْتَحِيلٌ، أي: مُسْتَحِيلٌ على اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يكونَ مع الناسِ في أمْكِنَتِهِمْ لا المحْسِنِينَ ولا غير المحسنين، وذلك لأن هذا القولَ يستَلْزِمُ نَفْي عُلُوِّهِ، وقد التزمَ بذلك من قال به مِنَ الجَهْمِيَّةِ القُدماءِ، أما المتَأَخِّرون فيَرَونَ بأنه لا داخلَ العالمِ ولا خارِجَهُ، ولا فوق العالمِ ولا تحْتَه، ولا مُتَّصِلٌ ولا مبَايِنٌ، هذا ما استَقَرَّ عليه مذهبُ الجهْمِيَّةِ، وتَبِعَهُم في ذلكَ الأشاعِرَةُ، فإنهم يرونَ هذا النَّفْي المحْضَ، والعياذُ بالله.

أما قدماءُ الجهمية فقالوا: بأن اللهَ تعالى بذاتِهِ في الأرضِ وليس في السماءِ - والعياذ بالله- فقَلَبُوا الحقائقَ، فمِنَ العَجائبِ أن يَنْفُوا العُلُوَّ مع تَطابُقِ الأدِلَّةِ على إثْباتِهِ، وأثبتُوا الحلُولَ مع تطابقِ الأدِلَّةِ على إنكاره.

والعُلُوُّ دَلَّ عليـه الكتابُ والسُّنَّـةُ والعقْلُ والفِطْرَةُ وإجماعُ سَلَـفِ الأمةِ، فالكتابُ مملوءٌ بما يَدُلُّ على عُلُوِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حتى إن بعضَ أهلِ العِلم قال: إن في الكتابِ ألْفَ دَلِيلٍ على عُلُوِّ الله عَزَّوَجَلَّ.

والسُّنَّةُ كذلك مملُوءةٌ من الدَّلالَةِ على عُلُوِّ الله عَزَّوَجَلَّ على وجوه متنَوِّعة، من قولٍ وفِعل وإقرارٍ.

قال النبي ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤، رقم١١٠٢١)، وابن حبان (١/ ٢٠٥) (٢٥)، وأصله عند البخاري: كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع، رقم (٤٠٩٤)؛ ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤) عن أبي سعيد الخدري بلفظ: «أَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَأْمَنُونِي؟ ».

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «والْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ»(١).

وأشارَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأُصْبعِهِ إلى السماءِ يَشْهَدُ الله على إقرارِ أُمَّتِهِ بالبلاغِ في أعظمِ مجمَعٍ للمسلمينَ يومَ عَرفة حين قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»(٢).

وكذلك دَعَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في خُطْبَةِ الجمعةِ رَبَّهَ، فرفَعَ يدَيْهِ يقول: «اللَّهُمَّ أَغِثْنَا»(٣)، فهذه سُنَّةٌ فِعْلِيَّةٌ.

وأما السُّنَّةُ الإقراريةُ فإنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سألَ الجارِيةَ قالَ: «أَيْنَ اللهُ؟» قالت: في السماء، قال: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»(٤).

وأما دلالةُ العقلِ فظاهِرَةٌ أيضًا، لأننا نقولُ: العُلُوُّ صِفَةُ كمالٍ أم صِفَةُ نقصٍ؟

والجواب: لا أحدَ يُنْكِرُ أن السُّفولَ صِفَةُ نقْصٍ والله عَزَّوَجَلَّ مستَحِقٌّ للكمالِ، أو واجبٌ له الكَمالُ مُنَزَّهٌ عن النَّقص.

أما الفِطْرَةُ: فسلِ الصَّبِيَّ والعَجوزَ والجاهِلَ الذي لا يعلم، فسيقُولونَ لك: إن اللهَ في السماءِ.

ومذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عَرْشِهِ بذَاتِهِ وهو معنا

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٩٧، رقم٦٨٦٠) عن عبد الله بن عمرو قوله: والعرش فوق ذلك، وفي العقود الدرية (١/ ٩٤): والعرش فوق ذلك والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨) عن جابر.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، رقم (٩٦٨)؛ ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧) عن أنس.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، رقم (٥٣٧) عن معاوية بن الحكم السلمي.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقًّا، وقالت الجهمية: إنه بِذاتِهِ في الأرضِ وليس في السماءِ -والعياذ بالله-، فقَلَبُوا الحقائقَ.

ثم إن طائفةً تَحَذْلَقَتْ وهم الأشْعَرِيَّةُ، حكَى ذَلكَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ عَنِ الأشْعَرِيِّ في المقالات -أعني مقالات الإسلاميين- قالوا: نحن نقول بالدَّلِيلَيْنِ، نقولُ: إن الله معَنَا بذَاتِهِ، وهو في السماءِ عَلَى العَرْشِ بذَاتِهِ، فيكون مكانُهُ على زَعمِهِمْ فوق، تحت، فهؤلاء وافَقُوا الجهْمِيَّةَ من وَجْه، ووافَقُوا أهلَ السُّنَّةِ من وَجْهٍ: وافَقُوا أهلَ السُّنَّةِ في قولهم: إن الله على عرشِهِ بذاتِهِ، ووافَقُوا الجهْمِيَّةَ في قولهم: إنه بذَاتِهِ في الأرض، وقالوا: نحن أخذنا بكلا الدليلين، فنحن أسعدُ بالدَّلِيلِ من أهلِ السُّنَّةِ والجماعة ومن الجهْمِيَّةِ، لأن أهلَ السُّنَّةِ أخذُوا بدليلٍ وتَرَكُوا دليلًا، أخذوا بنصوص العُلُوِّ وتَركُوا نصوصَ المعِيَّةِ، والجهمية أخَذُوا بنصوصِ المعِيَّةِ وتركوا نصوصَ العُلُوِّ، ضرَبُوا عنها صَفْحًا، وهم يزعمون أنهم أخَذُوا بالنصوص جميعًا.

والجوابُ عن هذه الشُّبهةِ: نقول: أنتم الآن جمعتُم بينَ النَّقِيضَين، إذا كان عاليًا كما هو الحق، فكيف يكونُ في الأرض؟ هل هو إلهٌ واحدٌ أم آلهة متعددة؟

الجواب: هو إله واحد، فإذا كان فوقَ فلا يمكن أن يكونَ تحتَ؛ لأن الفوقيةَ والتَّحتِيَّةَ من الأمورِ المتقابِلَةِ التي إذا انتَفَى أحدُهَا ثَبَتَ الآخر، ولا يمكن أن تجتمع بحال.

ثم نقول: إذا قُلتم بذَاتِهِ في الأرض، لَزِمَ منه إذا كانَ الإنسان في المسْجِدِ أن يكونَ الله في المسجدِ وإذا كان في السوقِ أن يكونَ الله في السوقِ، وإذا كان في البرِّ أن يكون الله في البرِّ، وإذا كان في الجوِّ أن يكون اللهُ في الجَوِّ، تَعَالى الله عما يقُولونَ عُلوًّا كَبِيرًا.

فإذا قالوا: وأنتم يا أهلَ السُّنَّةِ تقولون: إن الله مَعَنَا حقًّا وهو فوق العَرْشِ حقًّا؟!

قلنا لهم: هو مَعَنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقًّا، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فوقَ العرْشِ يعْلَمُنَا ويرَانا ويَسْمَعُنَا ويُدَبِّرُنا وله السلطةُ والهيمَنَةُ، ومن كان كذلك فهو معك وإن كان فوقك، فالذي يعْلَمُكَ ويَسْمَعُك ويراك ويحيطُ بك ويُهَيْمِنُ عليكَ تَدْبِيرًا وسُلطانًا لا شكَّ أنه معك، فالرجلُ يقال: إنه مع امرأتِهِ وهو في المكتَبِ وهي في بَيْتِهَا، والرجلُ له نوعُ سُلطةٍ على امرأتِهِ، والمصاحَبَةُ بسيطةٌ، فكيف بالخالقِ عَزَّوَجَلَّ الذي لا يُعْزُبُ عنه مثقالُ ذرَّةٍ في السموات ولا في الأرض، فنحن نقول: هذا أمرٌ مُمكِنٌ أن يكون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معنا وهو فَوْقَ عَرْشِهِ؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معنا محيطٌ بنا عِلْمًا وسَمعًا وبَصَرًا وقدرة وسُلْطانًا وتَدْبِيرًا، وغيرَ ذلك من معاني رُبوبِيَّتِه، والذي هذا شأنه يَصِحُّ أن يقال: إنه معك وهو فوق عَرْشِهِ.

وشيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أشار إلى مَثَلٍ يُقرِّبُ هذا الشيء فقال[1]: إن العرب تقول: ما زلنا نسير والقمر معنا، أو والنَّجْمُ مَعَنا، أو والقُطْبُ مَعَنَا، والقمرُ في السَّماءِ ونحْنُ في الأرضِ، مع أنه مخلوق، فكيف بالخالق جَلَّ وَعَلَا؟ !

فالحاصل: أن هذا التَّلْبِيسَ وهو قولهم: نحنُ نؤمِنُ بالدَّلِيلَيْنِ وأنتم يا أهلَ السُّنَّةِ لا تؤمنونَ إلا بدليلٍ واحدٍ، قد يُورِدُ شبْهَةً في قُلوبِ بعض الناس.

والجوابُ عن هذه الشُّبْهَةِ أن نقول لهم: ما آمنتم بالدَّليلَيْنِ، بل أنتم في الحقيقة أنْكَرْتُم الدَّليلين؛ لأن المعِيَّةَ لا يريدُ الله بها ذلِكَ أبدًا، لا يمكنُ أن يريدَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بمَعِيَّتِهِ أن يكونَ في الأرض، ولو قلنا: إن هذا هو حقيقةٌ أو ظاهرُ النصوص، أي: لو قلنا: إن ظاهِرَ نصوصِ المعِيَّةِ أن الله في الأرض، لكان لازمُ هذا القول أن ظاهرَ

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٠٣).

النصوصِ الكُفرُ؛ لأن الإنسان الذي يعْتَقِدُ أن الله في الأرضِ كافِرٌ مكَذِّبٌ للأدِلَّةِ العقلية والأثَرِيَّةِ الدَّالةِ على عُلُوِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولهذا الذي مَشَى عليه المُفَسِّر في تفسيرِهِ حقٌّ، فإذا قُلنا كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ والعَونِ]، صحَّ، وهذا النوعُ مِنَ المعِيَّةِ يقول أهلُ العلمِ: إنه من المعِيَّةِ الخاصَّةِ لا العَامَّة، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى.

لو قال قائل: يمكن أن نُجِيبَ على شُبهَةِ الجهمية التي هي الجَمْعُ بين الدليلين بقولنا: إن الله مَعَنَا بعِلْمِهِ؟

فالجواب: هذا ليس بصوابٍ؛ لأنهم سيَقُولونَ: قولكُمْ يا أهلَ السُّنَّةِ: إن الله مَعَنا بعِلْمِهِ تأويلٌ؛ لأن قولكُم: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد:٤]، أي: عِلْمُهُ معكم، خالفْتم فيه ظاهرَ اللَّفْظِ.

ولو قيل: نُجِيبُ على هذه الشُّبْهَةِ بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧]، فبَدَأَ بالعِلْمِ وانتَهى بالعِلمِ؟

فالجواب: هم في الحقيقة قد يُجِيبُونَ عن هذا، يقولون: الذي معك عالمٌ بِكَ، ونحن لم نَقُلْ: إنه مَعكُمْ وليس يَعْلَمُكُم؛ فهو معكم، ومن مُقْتَضَى معِيَّتِهِ أن يكونَ عالمًا، فكأنَّ قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ تعليلٌ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

واعلم أن المعيةَ نوعانِ: عَامَّةٌ وخاصَّةٌ.

المعيةُ العامَّةُ: التي تَشْمَلُ كلَّ أحدٍ، ومنه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧]، هذه مَعِيَّةٌ عامَّةٌ لأنها شامِلَةٌ للمؤمنِ والكافرِ والبَرِّ والفاجِرِ، والمقصودُ بها إحاطةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكُلِّ شيءٍ، ولهذا سُئِلَ إسحاقُ ابن رَاهِويه -وهو من أئمةِ السَّلَفِ- عن معنى هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧]، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حيثُما كُنْتَ فَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مَنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ]، ففَسَّرَ المعِيَّةَ بالقُرْبِ، وهذا التَّفْسِيرُ لا ينافي تَفْسِيرَ غيرِهِ من السَّلَفِ من أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معهم بالعِلْمِ.

إذن: المعِيَّةُ العامَّةُ تقتَضِي الإحاطةَ، وقد تكون للتَّهْدِيدِ، كقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨]، هذه المعِيَّةُ المقصودُ بها التَّهْديدُ، أي: بيانُ أن الله محيطٌ بهِمْ، وأيضًا ليُهَدِّدَهُم بسببِ هذا العملِ القَبيحِ، وهو كونهم ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾، حال كون الله جَلَّ وَعَلَا مُحِيطًا بهِمْ عِلْمًا وسَمْعًا وبَصَرًا وقُدْرَةً.

المعِيَّةُ الخاصَّةُ: نوعان: خاصَّةٌ بشخْصٍ، وخاصَّة بوصْفٍ، المخْصُوصَةُ بالشَّخْصِ: كما في قول الله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، وقول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]،

والخاصَّةُ بالوَصفِ: كما في هذه الآية: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩]. وقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، والآياتُ في هذا كَثيرَةٌ.

واعلم أنه لا يُوجَدُ تناقُضٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ؛ لأن التَّناقُض معناه أن أحدَهُما باطلٌ والآخَرُ حقٌّ، فليس في الكتابِ والسُّنَّةِ شيءٌ من التناقُضِ، فإذا توَهَّمْتَ تناقضًا فاعلَم أن ذلك لا يخلُو من ثلاثةِ أحوالٍ: إما لقُصورِ عِلْمِكَ، أو لنُقْصَانِ فهمِكَ، أو للتَّقْصِيرِ في التَّدَبُّرِ، ودليلُ ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

هذا في الذي يتوَهَّمُ تَنَاقُضًا، أما الذي يَدَّعِي تناقضًا فهذا نزيدُ على الثلاثةِ المتقدِّمَةِ أمْرًا رابعًا: وهو: سوءُ القَصْدِ، ودليله قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤].

ولِنَفْرِضَ أن رَجُلًا يُريد أن يتَدَبَّرَ القُرآن، فقَرَأ آيتيْنِ ظاهِرُهما التَّعارُضُ وأرادَ أن يجمَعَ بينهما، فعَجَزَ عن أن يجْمَعَ بينَ الآيتين، لا فَهِمَ وجْه الجَمْعِ، وأيضًا ليس عنْدَهُ عِلم أن إحدَاهما ناسِخَةٌ للأخرى، فماذا يَصْنَعُ؟

نقول: يقول -كما قالَ الرَّاسِخُون في العِلم-: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]، ويتَوَقَّفُ، لكن لا يكْفِي التَّوَقُّفُ وهو يعْتَقِدُ أن في القرآن تَنَاقُضًا وأن الأمرَ مُشْتَبِهٌ عليه، بل لا بُدَّ مع تَوَقُّفِهِ أن يعلَمَ أنه ليس في القرآن تناقضٌ، وأن يدَعَ جانبًا تَوَهُّمَ التعارضِ، فلا يبْقَى على تَوهُّمِهِ لأنه إن بَقِيَ على توهُّمِ التعارضِ فقد رَكَن إلى هذا التوهُّمِ، وهو في هذه الحال على خَطَرٍ، فالواجبُ أن يعْلم أنه ليس في كتابِ الله وليس بينَ الكِتابِ والسُّنَّةِ تعارُضٌ، وبهذا نعْرِفُ أن السُّنَّةَ كالقُرآنِ،

خِلافًا لمن قال: إنها ليست بحُجَّةٍ.

وهؤلاء الذين قَالُوا: إنَّ السُّنَّةَ ليست بحُجَّةٍ، قد أَخْبَرَ عنهم النَّبِيُّ ﷺ فقال: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ: لَا نَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللهِ اتَّبَعْنَاهُ»(١)، هذا الأمرُ وَقَعَ، ويُوجَدُ الآن أناسٌ -والعياذ بالله- يقولون: لا نَقْبَلُ ما في السُّنَّةِ إطْلاقًا، والذين لا يَقْبَلُونَ ما في السُّنَّةِ هم في الحقيقة كافِرُون بالقرآنِ نصًا؛ لأن القرآنَ يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر:٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]، فبيَّنَ أن مَعْصِيَةَ الرسولِ معصيةٌ لله، ولو كان المرادُ مَعْصِيَةَ الرسولِ فيما أَمَرَ الله به لم يكُنْ لِذِكْرِ الرَّسُولِ فائدة.

ثم إنَ الله تعالى يقولُ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، القرآنُ لم يُبَيِّنْ كلَّ شيءٍ تَفْصيلًا، بل أكثرُ التَّفْصِيلاتِ موجودةٌ في السُّنَّةِ.

إذن: تِبيانُ السُّنَّةِ من تِبيانِ القُرآنِ، والأدِلَّةُ في هذا ولله الحمدُ كثيرةٌ.

والغريبُ أنه ظَهَرَ في أمريكا أحدُ الخُبثاءِ -والعياذ بالله-، رَجُلٌ أصلُهُ مسلم يقال له، يعْمَلُ مُدَرِّسًا في إحْدَى الكلِّيات، يدَّعِي أنه أحدُ العلماءِ الرَّاسِخِينَ في العِلْمِ، هذا الرجلُ صارَ يجمع أموالًا، وألَّفَ طائفةً سمَّاها (طائفة الكِتاب)، وأخذ يدْعو إلى القُرآنِ وتَعْظِيمِ القرآن، والعملِ بالقرآنِ، ويُنْكِرُ السُّنَّةَ إنكارًا عظيمًا -والعياذ بالله-، ويقول: ما هؤلاء الذين يَعْمَلُونَ بالسُّنَّةِ إلا قومٌ مجانين مغفَّلون هَمَج، ليس

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٥)؛ والترمذي: كتاب العلم، باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث رسول الله ﷺ، رقم (٢٦٦٣)؛ وابن ماجه: افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه، رقم (١٣) عن أبي رافع.

عندهم مَعْرِفَةٌ، والقرآن هو الدستورُ الأعْظَمُ، وأما السُّنَّةُ فلا قيمةَ لها.

وصارَ -والعياذ بالله- يَدْعُو إلى هذا المذهبِ الخَبِيثِ، ولأنه جَمَعَ أموالًا كثيرة فقد استَخْدَمها في هذا الغرضِ، وألَّفَ كِتابًا في تفْسِيرِ القرآنِ كلُّهُ هجومٌ على السُّنَّةِ وعلى المتَمَسِّكِينَ بالسُّنَّةِ.

فالحاصل: أن القرآنَ والسُّنَّةَ كلاهما صِنْوانٌ، وكلاهُما مِنْ عندِ الله، وهما مصدرُ التَّشْرِيعِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [النساء:٥٩].

ويَغْلُب على ظَنِّي أن هذا الرجل كتب مقَالَةً في جريدة، قال: القرآنُ مركَّبٌ على العددِ تسعةَ عَشَرَ، وأن كلَّ شيءٍ فيه يَدُورُ على هذا العدد، فسُوَرُ القرآن مئة وأربع عشرة سورة، هي نتيجةُ ضَرْبِ تسعةَ عشَرَ في ستة.

وكذلك حرَّف قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠]، قال: (عليها)، أي: على صِحَّةِ ما جاءَ في القُرآنِ (تسعة عشر) أي: تسعةَ عَشَرَ حرفًا هي البَسْمَلَةُ، مع أن تفسير قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ يعني على النار مَلائكَةٌ، ومرادُهُ من وراءِ ذلك أن يَسْتَدِلَّ على أن هذا القرآنَ لا يمْكِنُ أن يأتِيَ به محمَّدٌ؛ لأن كونَ القرآنِ مكَوَّنٌ من هذا العددِ لم يُعرَف هذا إلا بعدَ ظهورِ الكمبيوتر.

ويقول أيضًا في قوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق:١]: ابتدأتِ السورةُ بالقاف؛ لأن مجموعَ ما فيها من القافات يُقْسَمُ على تسعة عشر، والدليلُ على ذلك لم يقل: «وقَوم لوط» بل قال: ﴿وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ﴾؛ لأنه لو قال: وقوم لوط لزاد قاف ولم تحْصُل القِسْمَةُ المطلوبةُ.

فهو على كلِّ حالٍ ملَبِّسٌ صاحبُ شُبهَةٍ، وقد كَتَبْنَا رَدًّا عليه.

وأول ما يمكن هَدْمُهُ مسألةُ البسملَةِ، فالبسملَةُ ليست بأَوَّلَ ما نَزَلَ من القرآن حتى نقول: إذًا القرآنُ مرَكَّبٌ عليها، بل أولُّ ما نزل قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق:١].

ثانيًا: البسملَةُ ليست كما زَعَم تسعةَ عشرَ حَرْفًا، فحروفُ البسملة هي: الباء، والسين، والميم، والهمزة، واللام، واللام الثانية، والهاء، والألف، والراء مكررة، والحاء، والميم، والألف، والنون، هؤلاء أربعة عَشَرَ حرفًا، وكذلك الهمزة والراء مكَرَّرَةٌ، والحاء والياء والميم، فهؤلاء عشرونَ لا تِسْعة عشرَ كما زعم؛ لكنَّه يقولُ: المعتبَرُ الكتابةُ، والرحمن ليست فيها أَلِفٌ؛ لأنه بإسقاط الأَلِفِ مِنَ الرحمن يكونُ العددُ تسعة عشر، ونحن نقول: إذا قلت هذا فأَثْبِتِ الألف التي في (الرحمن والرحيم) فإذا أَثْبَتَ الألِفَ صارَ العددُ واحدًا وعشرين.

ثم نقول له أيضًا: إذا اعْتَبَرْتَ الكتابة هل نزلَ القرآنُ مكتوبًا أم نَزَلَ منْطُوقًا؟

وأيضًا: لو كانت القاعِدَةُ الكتابيةُ على غير هذا الوجه لزادَتِ الحروفُ ونَقَصت، فالحروفُ المكتوبةُ تزيدُ وتنْقُص بتَغَيُّرِ القاعدةِ الكتابية، أما الحروف المنطوقةُ فلا تَزيدُ ولا تَنْقُص، ولذا نجِدُ في الكتابة الإنجليزية بعضُ الأحيان يكتبونَ الحركاتِ حُروفًا، وانظر إلى الصينيين عندهم آلاف الحروفِ.

الحاصل: أن الكتابةَ صناعِةٌ ليس لها دخلٌ في النُّطْقِ، والقرآن نزل باللُّغَةِ العربية، بلسانٍ عَرِبِيٍّ مُبِينٍ، لكنهم يُلَبِّسُونَ ويُلْقُونَ الشُبَهَ، ويزْعمونَ أنهم خدَمُوا القرآن بهذه الأفعال أمامَ هؤلاء الأجانب الذين لا يَعْرِفُون إلا المادَّةَ.

ولو أنهم بَيَّنُوا للناسِ هذا الدِّينَ وما جاء به من الأخلاقِ والمعامَلاتِ، لكانَ خيرًا لهم لو كانوا يَعْلَمُونَ!

• • ۞ • •

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث **الصفحة**

«قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ» ١٢

«مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ» ٢٣

«الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ، إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ» ٢٩

«الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا» ٣٠

«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ..... ٣١، ٧٨

«مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ» ..... ٤٠، ١٣٤

«لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» ٤٨

«وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ» ٥٦

«كَانَ النَّبِيُّ يُبعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» ..... ٥٩، ١٩٧

«لَو رَحِمَ اللهُ أَحَدًا مِنْ قَوْمِ نُوحٍ لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ» ٦١

العلماءَ ورَثَةُ الأنبياءِ ٧٣

«مَا سُكِتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ» ٧٥

«عَذَابُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ» ٨٨

«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا» ٨٩
النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وجبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ما استطاعا أن يَدْخلا السماءَ الدُّنْيا إلَّا بعد الاستفتاحِ والاستِئْذَانِ ٩٥
«أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ» ١٠١
«وَيُصْعَدُ بِها إِلى اللهِ تعالى» ١٠٦
«إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ» ١١٢
«عَلَى نَارِكُمْ هَذِهِ» ١١٨
«أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ» ١٢٠
«مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» ١٢٥
«لَيْسَ عَلى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ» ١٢٦
«وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» ١٢٨
«إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ» ١٣٢
«أَلَا يتَّقِي اللهَ زَيدٌ يجْعَلُ ابنَ الابنِ ابنًا، ولا يجعَلُ أَبَا الأبِ أَبًا» ١٣٣
«مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ، وَالْمَفْعُولَ بِهِ» ١٣٩
«لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» ١٤٤
«اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ» ..... ١٤٩، ٣١٤
«يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ» ١٥٠
فجِبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رآه النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وله سِتُّمِئة جناحٍ قد سَدَّ الأُفُقَ ١٥٥
مَجيء جبريلَ بصورة دِحْيَةَ الكَلْبيِّ ١٥٥

بصورةِ رجلٍ شديدِ بياضِ الثَّياب شَديدِ سوادِ الشَّعَرِ..... ١٥٥
«لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ، أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا» ١٥٦
«نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»..... ١٥٧
«لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»..... ١٦١
«أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا، قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ» ١٦١
فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: ورَبِّ الكَعْبَةِ، ويَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ ١٦١
«اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي؛ فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا» ١٦٣
«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ» ١٦٩
«المَالُ كَثِيرٌ وَالْعَهْدُ قَرِيبٌ»..... ١٧٠
«أَعْفُوا اللِّحَى» ١٧٣
«إِنِّي أَخَافُ اللهَ»..... ١٨٠
«الْكَلْبُ الأَسْوَدُ شَيطَانٌ» ١٩١
«مَا مِنَ الأَنْبِياءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ» ١٩٨
«وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ» ١٩٩
«مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ» ٢٣١
«الصَّلَاةُ نُورٌ»..... ٢٣٨
«القُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ» ٢٣٩
«مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا» ٢٣٩
«إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِه ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي»..... ٢٤٠

«أَنَّ مَنْ دَعَا رَجُلًا بالكُفْرِ أَوْ قَالَ: عَدُوُّ اللهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ» ٢٦٦
«أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ» ٢٦٧
«هَذَا، مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» ٢٧٣
«كان يُصيبنا ذلك، فنُؤمَرُ بقَضَاءِ الصَّومِ ولَا نُؤمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ» ٢٨٩
«إِنَّ مِنَ الْبَيانِ لَسِحْرًا» ٢٩٠
«تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وحَسَبِهَا، وجَمَالِهَا، ودِينِهَا» ٣٠٠
«كُلُّ لَهْوٍ يَلْهُو بِهِ ابْنُ آدَمَ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلَّا كَذَا وَكَذَا» ٣٠٢
«نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المسِيحِ الدَّجَّالِ» ٣٠٩
«واللهِ لا نَرْجِعُ حتى نَقْدَمَ بَدْرًا فنَنْحَرُ الجَزُورَ، ونُسْقَي الخمور، وتُعْزَفُ علينا القيانُ، ويَسْمَع بِنَا العرب فلا يزالونَ يهَابُونَنَا أَبَدًا» ٣١٥
«يَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ! هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللهُ حَقًّا، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللهُ حَقًّا» ٣١٥
«أُوقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ عَامٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ...» ٣١٧
«يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا» ٣٢١
«حَدِّثُوا النَّاسَ بما يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ» ٣٢٣
«بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» ٣٢٤
«إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا» ٣٢٨
«مَنْ جَامَعَ المشْرِكَ...» ٣٣٥

«مَا اجْتَمَعَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هذا الموْطِنِ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ» ٣٤١
«حاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحاسَبُوا، وزِنُوا أَعْمالَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا» ٣٤٣
«ليس فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الجَنَّةِ إِلَّا الأَسْماءُ فَقَطْ» ٣٤٥
«مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ...» ٣٤٩
«كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» ٣٥٠
«نِعْمَتِ البِدْعَةُ» ٣٥١
«لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرُ...» ٣٥٦
«وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ» ٣٦٦
«اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: يا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ فِي الصَّيْفِ ونَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ» ٣٦٩
«أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ» ٣٧١
«إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى، وإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَفْقَرْتُهُ لأَفْسَدَهُ الْفَقْرُ» ٣٧٨
«جَادِلوهُمْ بالعِلْمِ، فإن أنكَرُوه كَفَروا وإن أقَرُّوا بِه خُصِمُوا» ..... ٢٤٣، ٣٨٠
«قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ» ٣٨٤
«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ...» ٣٩٢
«بايعَ الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ النبيَّ ﷺ على ألَّا يَسْأَلُوا الناسَ شيئًا، فكان الرَّجُلُ يسقُطُ سَوْطُه من بَعِيرِهِ فيَنْزِلُ ويأْخُذُهُ ولا يقول: نَاولِنْي إِيَّاه يا فُلانُ» ٣٩٩

أن الرَّسولَ ﷺ لما دَخل مكَّة فاتحًا طأْطأَ رأسَهُ ٤٠٠
«أصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالهَا الشَّاعِرُ لَبِيدُ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ...» ٤٠٧
«ومَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي» ٤١٠
الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ...» ٤١٦
«أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ» ٤١٧
«والْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ» ٤١٨
«اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ٤١٨
«اللَّهُمَّ أَغِثْنَا» ٤١٨
«أعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» ٤١٨
«لَا أَلْفَيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ: لَا نَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللهِ اتَّبَعْنَاهُ» ٤٢٤

فهرس الفوائد

الفوائد	الصفحة

البَسْملةُ ٧

الحروفُ المركَّبةُ الهجائيَّةُ ليس لها مَعْنًى ٧

لا تَكادُ تَجدُ سُورةً مَبْدوءةً بهذه الحروفِ الهجائيَّةِ إلَّا وجدْتَ بعدها ذِكْرَ القُرآنِ أو ما هو مِنْ خصائصِ القُرآنِ ٨

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَبْتلي المرءَ تارَةً بأفْعالِهِ التي يفْعلُهَا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتارَةً بأفْعالِ غيرِهِ التي يُسَلَّطون بها عَليهِ ٩

من النَّاسِ أيضًا من يُؤْذَى بتحلِّيهِ بأخلاقِ المؤمِنينَ ١٠

قاعِدَةُ «المشَقَّةُ تَجلِبُ التَّيْسِيرَ» ١٠

أَكْلُ الميتةِ إذا اضْطُرِرْتَ إليه ١١

ما وقَعَ للإمام أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أيامِ المِحْنَةِ ١٢

مَنْ أُكْرِهِ على الكُفرِ وكان كُفرُهُ يستلزمُ كُفر غيرِهِ ١٢

الإمامُ أحمدُ لم يَقُلْ بخَلقِ القُرآنِ لأنه قدوةٌ ١٣

أن عِلمَ الله تعالى بالأشياءِ يَنقَسمُ إلى قِسْمين ١٤

ولا يقالُ: إن اللهَ لا يعْلمُ الشيءَ إلَّا بعدَ وقوعِهِ، كما قال ذلك غُلاةُ القَدَريَّةِ ١٥

أن السيِّئةَ هنا تَعُمُّ الصَّغائرَ والكَبائرَ ١٨

قوله: [نِعْمَ دارُ المتقينَ] ١٩

قَالُ المُفَسِّر في تَفْسيرِ ﴿يَرْجُوا۟﴾: «يخَافُ» وهذا صَرفٌ للَّفْظِ عن ظاهِرِه..... ٢١
كونُه تعالى سَمِيعًا هلْ يلْزَمُ منه إثباتُ الأُذُنِ؟ ٢٣
أن الجِهادَ ينْقسمُ إلى قِسمَينِ ٢٦
بماذا نُكَفِّرُ عنْهُمْ سيِّئاتِهِمْ؟ ٢٩
الجزاءُ بمَعنَى المكافَأةِ..... ٣٠
لا حاجَةَ إلى التَّأويلِ..... ٣٠
لا بُدَّ في العملِ من أن يكونَ صَالحًا ٣١
هل يُشْتَرطُ للإخلاصِ والمتابعةِ التَّصديقُ؟ ٣١
الوَصيَّةُ معناها: العَهدُ بالشَّيءِ المهِمِّ..... ٣٣
إثباتُ رَحْمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ٣٦
إذا قالَ والِدُكَ لك: قُمْ صَلِّ مع الجماعَةِ، وجبَ عليكَ أن تُصَلِّيَ..... ٣٧
قال شيخُ الإسلامِ: «إنَّ طاعَةَ الوالِدَينِ إنما تَجبُ فيما لهما فيه مَنْفَعَةٌ وليس عليه فِيهِ مَضَرَّةٌ» ٣٧
أنَّ أخصَّ الناسِ بوصفِ الصَّلاحِ هُم الأنبياءِ..... ٤٠
إذا جاءَ الاسمُ الموصولُ أو اسمُ الشَّرطِ العام للواحدِ والجماعةِ، فإنه يجوزُ في ضَميرِهِ أن يكونَ مجمُوعًا وأن يكون مُفْردًا..... ٤٤
أن الكفَّارَ مجتهِدُونَ ومُقَلِّدونَ، أي: رؤساءُ ومُقَلِّدونَ ٥٣
حذفُ نونِ الرفْع ٥٤
خطورةُ الدَّعوةِ إلى الضَّلالِ ٥٦
هل على الدَّاعِينَ إلى الضَّلالِ وِزْرٌ من كل الأعمالِ السيِّئَةِ للمَدْعُوِّين؟ ٥٧

«وعَاشَ نُوحٌ بعدَ الطُّوفانِ سِتِّينَ سَنَة أو أكثرَ حتى كَثُرَ الناسُ» ٦٤
عندنا مَثَلٌ عامِّيٌّ مشهور يقول: «عَسى عُمرُك عُمْر شُعَيبٍ» ٦٤
بعضُ النَّاسِ الجهالِ -في الواقع- يَصفُونَ النَّبِيَّ ﷺ بأنه حبيبُ الله وأن إبراهيمَ خليلُ الله، وهذا خطأ، فإن مُحَمَّدًا ﷺ خليلُ اللهِ أيضًا ٦٧
أن العبادةَ تنْقسمُ إلى قسمين ٦٨
كيف يمْكِنُ أن نُفَسِّرَ العبادةَ بمَعنى يُغَايِرُ معنى التَّقْوى؟ ٦٩
هل الصائمُ يتَّقِي الله عَزَّوَجَلَّ في كلِّ شيء بحيثُ يتْرُكُ الكذِبَ والغِيبةَ والشَّتْمَ والمحرَّم وقولَ الزورِ والعملَ بِهِ؟ ٦٩
وجوبُ شُكرِ النِّعمَةِ ٧٢
تَهديدُ المكذِّبينَ للرَّسولِ ﷺ ٧٣
وجوبُ الإبلاغِ على أهلِ العِلمِ؛ لأن العلماءَ ورَثَةُ الأنبياءِ ٧٣
أن القرآنَ متَضمِّنٌ لجميعِ الأحكامِ العَقَدِيَّةِ والعمليَّةِ ٧٤
الشبهات التي يحتَجُّ بها أهلُ التَّعطيلِ أو أهلُ التَّمْثِيلِ ٧٤
ما من قَضِيَّةٍ تقعُ إلا وحُكْمها موجودٌ في القرآنِ أو السُّنَّةِ باعتبارِ جِنسِهَا ٧٥
أسبابٌ أربعةٌ كلها تَحولُ بينَ الإنسانِ وبينَ الوُصولِ إلى معرفَةِ حُكمِ الله الذي في الكِتابِ أو السُّنَّةِ ٧٦
قولهُ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هل المرادُ السَّيْرُ بالبدنِ؟ أو السَّيْرُ بالقَلبِ؟ أو بهما جميعًا؟ ٨١
إذا نظَرنا إلى السَّيْرِ في الأرض -إلى واقعه- أيهما أكثرُ بالقَلْبِ أو بالقَدَمِ؟ ٨٢
القدرةُ غيرُ القوَّة ٨٤
هل قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ عامٌّ مخصوصٌ أم لا؟ ٨٤

إثباتُ الأفعالِ الاختِيَارِيَّةِ لله عَزَّوَجَلَّ ٨٧
أن الرَّحمَةَ لا تُطْلَبُ إلا من الله ٩٢
أن الوَلِيَّ من يتَوَلَّى الإنسانَ في جميعِ أحوالِهِ ٩٦
ضعفُ البَشَرِ بالنِّسبَةِ إلى الخالِ ٩٧
الآياتُ بعُمومِهَا دالَّةٌ على وُجودِ الخالِقِ ١٠٠
المرادُ بالرَّحمةِ ١٠١
الكَراماتُ التي حَصَلت لبعضِ أولياءِ اللهِ ١٠٣
إثبات الرُّؤيَةِ ١٠٣
لا يلزمُ مِن نَفْيِ الإدراكِ نَفْيِ الرؤية ١٠٥
المضافُ إلى الله تعالى نوعان: إما أعيانٌ وإما أَوْصافٌ ١٠٥
باب إضافَةِ المخلوقِ إلى الخالِقِ تَشْريفًا ١٠٥
قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ﴾ على قراءةِ التَّاءِ ١٠٨
أليسَ الإحْراقُ يحصلُ به القَتْلُ؟ ١٠٩
هل نَعلَمُ في الكلامِ شَيئًا أعْظَمَ آيةٍ من كلامِ اللهِ؟ ١١٢
إنَّ الآياتِ الكونِيَّةَ والشرعيَّةَ لا ينتَفِعُ بها إلا المؤمنُ ١١٢
هل ثبتَ أن أحدَ الصَّحابة نَجَا مِنَ النَّارِ بعدَ إلقائه فيها وكانت آيةً كإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ ١١٤
المَوَدَّة بينَ المُشْركينَ في الدُّنْيا فقط ١١٧
إثباتُ البعثِ ١١٩
إثباتُ النَّارِ ١١٩

أن المتَّقِينَ تبْقَى مودَّتهم يومَ القِيامةِ ١٢٠
قياسُ العَكسِ ١٢٠
الإيمانُ في اللغةِ: التَّصدِيقُ ١٢١
سَحرةُ فرْعونَ ١٢٢
(مفاعِلٌ) في اللغة العربية ١٢٣
إن الجَهْمِيَّةَ انقَسَمُوا في مسألةِ الجِهةِ إلى قِسمين ١٢٤
الحَكيمُ ليستْ مِنَ الحِكمَةِ فقط ١٢٧
حُكمُ الله عَزَّوَجَلَّ ينْقَسِمُ إلى قسمين: كَونِيٌّ وشَرْعِيٌّ ١٢٧
أن ابنَ الابنِ ابنٌ ١٣٢
أن الإنسانَ قد يُعَجَّلُ له الجزاءُ في الدنيا ١٣٣
إذا أمكنَ التَّعَدُّدُ سواءٌ مِنَ القائلِ أو بالقولِ حُمِلَ عليه ١٣٦
لا مانِعَ أن يُرَكِّزَ الدُّعاةُ على ما انْغَمَسَ فيه الناسُ وإن كان غيرُهُ مما لم ينْغَمِسُوا فيه أهمَّ منه ١٣٩
فُحْشُ اللُّواطِ ١٣٩
إنَّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجْمَعُوا على قَتْلِ اللُّوطِيِّ الفاعلَ والمفعولَ بِهِ، إلا أنهم اختلفوا كيف يُقْتَلُ ١٤٠
يستلزمُ الدعاءُ إثباتَ السَّمعِ لله جَلَّ وَعَلَا ١٤٩
إجابة الدُّعاءِ لا تستَلْزِمُ البصرَ ١٥٠
ينْبَغِي للدَّاعِي أن يبدأ بـ(باسم الله) ويَحْذِفَ ياء النداء ١٥٠
يجوزُ أن يقولَ: «يا رب» ١٥٠

القرية تُطْلَقُ على مكانِ القومِ ومساكِنِهم ١٥٢
أن القريةَ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ تَشملُ حتى أكبرَ المدُنِ..... ١٥٢
المجاز في اللُّغة العربية..... ١٥٣
أن الرَّسولَ يُطلَقُ على البشَرِ والمَلَكِ، بخلافِ النَّبِيِّ فإنه لا يُطلقُ إلا على البَشَرِ.... ١٥٤
أن الملائكةَ أجسامٌ وليسوا أرْواحًا أو عُقولًا..... ١٥٥
جوازُ إضافَةِ الحُكم إلى سَبَبِهِ..... ١٥٦
ما الفرقُ بين أن نقول: زوجة فلانٍ أو امرأةُ فُلانٍ؟ ١٥٩
إثباتُ القولِ والعِلْمِ للملائكَةِ..... ١٦٠
إذا أُضِيفَ السببُ الحسِّيُّ أو الشَّرعي مع اللهِ بالواو..... ١٦١
إذا أُضيفَ السَّببُ معَ الله بـ(ثُم)..... ١٦١
إذا أُضِيفَ السَّببُ مع اللهِ بـ(الفاء) ١٦٢
إن الأصلَ في الاستِثْناءِ الاتصالُ..... ١٦٢
أن الاتصالَ بالصالِحِ لا يستلزِمُ أن يكون المتَّصِلُ صالحًا وإن كان الاتصالُ بالصالحِ مِن أسبابِ الصَّلاحِ ١٦٢
هل وُجودُ الصَّالحينَ سببٌ لدَفْعِ العَذابِ؟ ١٦٣
إن الذَّرْعَ الطاقَةُ ١٦٦
الأنبياءُ كغَيرِهِمْ مِنَ البَشر يَلحَقُهم المساءَةُ والأحزانُ والسُّرورُ..... ١٦٩
قصَّة سُليمانَ في المرْأتَينِ اللَّتَيْنِ تنازَعَتَا الغُلامَ، فدَعَا عَلَيْهِ السَّلَامُ بالسِّكِّينِ ليَشُقَّهُ نِصْفَينِ ١٦٩
هل المرادُ بالسماءِ السَّقْفُ المحفوظُ أو العُلُوُّ؟ ١٧١

المشهور عندَ النَّحْوِيِّينَ من أنه إذا كانَ العائدُ مجرورًا، فلا بُدَّ أن يكونَ مُوافِقًا لاسم الموصول في نَوعِ العاملِ وفي نَوعِ حرفِ الجرِّ ١٧٢
إن صَحَّ عنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن جبرَيل حَمَل هذه القُرَى وقَلَبها فلا كلامَ لأَحَدٍ، وإن لم يَصِحَّ فإننا لا نَقُولُ بِهِ ١٧٤
إثباتُ العُلُوِّ لله عَزَّوَجَلَّ ١٧٤
أن الفِسْقَ سببٌ للعُقوباتِ ١٧٤
عقلُ الرُّشْدِ هو مناطُ المدْحِ والذَّمِّ ١٧٧
إن الأُخُوَّةَ في اللغة العربية ليست مطلَقَ الموافَقَةِ في البشرية ١٧٩
هل يجوزُ أن يقولَ المسلمُ للكافر: هذا قَرِينِي؟ ١٨٠
أن الشرائعَ تجْمَعُ بينَ الأمَرْينِ الإيجَابِيِّ والسَّلْبِيِّ ١٨٥
ما يُعانِيهِ الرُّسلُ -عليهم الصلاة والسلام- من أقوامِهِمْ ١٨٦
تَسْلِيَةُ الدُّعاةِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ ١٨٦
أن الشيطانَ يُزَيِّنُ الشِّركَ وكذلك يُزَيِّنُ المعاصي للإنسان ١٩٠
بيانُ قُدْرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ١٩٣
تَزْيِين الأعمالِ ١٩٣
الضابطُ في تَزْيِينِ الشَّيطانِ ١٩٣
قارون وفرعون وهامان كلها لا تَنْصَرِفُ ١٩٥
مُوسَى أُرْسِلَ إلى فرعون وإلى بني إسرائيل ١٩٧
إثباتُ الرَّحمةِ والحِكمةِ في آياتِ الأنْبياءِ ١٩٨
التنوين في (كلَّا) ٢٠٠

قومُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فأُغْرِقُوا بالطُّوفانِ العظيم ٢٠٢
الرَدُّ على الجَبْرِيَّةِ ومن وافَقَهُم مِنَ الأشْعرية الذين يُنْكِرُونَ الأسبابَ ٢٠٤
أن الجزاءَ من جِنْسِ العملِ ٢٠٥
أن العُقوباتِ لا تأتي مِن نوعٍ واحد ٢٠٥
كمال عَدْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ٢٠٥
الجَبْرِيَّةُ يقولون: إن الظلمَ مُحالٌ على الله لذَاتِهِ لا لعَدَمِ إرادةِ الله ٢٠٦
نَفْي الصِّفاتِ من حيثُ العُمومِ قد يتَضَمَّنُ الكمالَ وقد يتَضَمَّنُ النقْصَ ٢٠٧
أن العاصِي ظالمٌ ٢٠٨
والعنكبوتُ دُوَيْبَةٌ معروفة تَتَّخِذُ لها بيتًا من العُشِّ ٢١١
التَّشْبِيه التَّمْثِيلِيّ ٢١٢
جوازُ ضربِ الأمثالِ بالدُّونِ حسبَ ما تقتَضِيهِ الحالُ ٢١٤
أن أَوْهَنَ البيوتِ وأضْعَفَها بيتُ العنكبوتِ ٢١٤
العزَّة مِنْ ثلاثةِ وُجوهٍ: عزَّةُ القَدْر، وعزَّةُ القَهرِ، وعزَّة الامتِنَاعِ ٢١٨
الحِكمةُ ثابتَةٌ لله عَزَّوَجَلَّ وهي تَنزيلُ الأشياءِ منازِلها ٢١٩
إثباتُ الحُكْمِ والحِكْمَةِ ٢٢١
أسلوبُ التَّعْميمِ ثم التَّخْصِيصِ كثيرٌ في القرآنِ ٢٢٤
ما أضافَه الله إلى نفسه بصيغَةِ الإفرادِ فهو لله عَزَّوَجَلَّ ٢٢٥
الآياتُ الكونِيَّةُ لا ينتَفِعُ بها إلا المؤمنُ ٢٢٨
انتِفَاعُ المؤمن بالآياتِ الشَّرعِيَّةِ والكونِيَّةِ يكون بزيادةِ إيمانِهِ ٢٢٩
المُرْجِئَةُ هم الذين قالوا: إن الإيمانَ لا يزيدُ ولا ينْقَصُ ٢٢٩

الردُّ على أهلِ الطَّبيعَةِ الذين يقولون: إن السمواتِ والأرضَ ليس لها خالقٌ ٢٣٠
إثباتُ أن السمواتِ سبعٌ ٢٣١
إثباتُ أن الأَرَضِينَ سبْعٌ ٢٣١
اطمئنانُ المؤمن بما يحْدِثُه اللهُ في السمواتِ والأرضِ ٢٣١
معنى قولِ البعضِ: «منَازَعَةُ الأقْدَارِ بالشَّرْعِ واجِبَةٌ» ٢٣١
قوله: ﴿ ٱتْلُ ﴾ يتَضَمَّنُ التلاوةَ اللَّفْظِيَّةَ، والتلاوة الحُكمِيَّةَ ٢٣٣
أن الخطابَ الموَجَّهَ للرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ثلاثةُ أقسامٍ ٢٣٤
الوحْيُ في الشَّرعِ ٢٣٥
تَوجِيهُ الخِطابِ لمن يتَّصِفُ به ٢٣٥
التَّعبير بالنَّهْي أبلغُ من التَّعْبِيرِ بالمنْعِ ٢٣٧
«القُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ» ٢٣٩
أن الصلاةَ تنْهَى عَنِ الفَحشاءِ والمنْكرِ ٢٣٩
المجازَاةُ تكونُ في الدُّنْيا ويومَ القِيامة ٢٤١
هل الأمراضُ والمصَائبُ التي تُصِيبُ العبدَ عُقوبة أو ابتلاء؟ ٢٤١
الابتلاءُ والفِتْنَةُ قد تكونُ بالخيرِ والشَّرِّ ٢٤٢
الأمورُ الإيجابِيَّةُ أكمَلُ من الأمورِ السَّلْبِيَّةِ ٢٤٣
قال الشافِعِيُّ وغيره: «جَادِلُوهُمْ بالعِلْمِ فإنْ أقَرُّوا بِه خُصِمُوا، وإنْ أنْكَرُوه كَفَرُوا» ... ٢٤٣
قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾ الخطابُ للأمَّةِ جَميعًا ٢٤٥
الطريقَةِ المثْلَى التي يتَوَصَّلُ بها إلى إفْحَامِ الخَصمِ وهِي الأَدَاءُ ٢٤٦

إذا رَأيتَ بسُلوكك أحدَ الطُّرقِ أنه قد ينْفتِحُ عليك بابُ المعارضة، فاسلُكِ الطريقَ الآخَرَ ٢٤٧
حُجَّةُ مُنْكِري صفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ ٢٤٧
المجادَلَةُ بالآياتِ الكونيَّةِ ٢٤٩
مناظَرَةُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في الذي حَاجَّه في رَبِّهِ ٢٤٩
المنَازَعَة والمحَاجَّة ٢٥١
قوله: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ ٢٥٣
لو قال قائل: قولنا: «لَا إِلَهَ إِلَّا الله»، لماذا لا نَقُدِّر الخبر بـ(موجود) ونجعل تلكَ الآلهة مجرَّد أسماء؟ ٢٥٣
المرادُ بالإسلامِ ٢٥٥
الإسلامُ عندَ ذِكْرِه وَحْدَهُ يشْمَلُ الإيمانَ، والإيمانُ إذا ذُكِرَ وَحْدَهُ يَشْمَلُ الإسلامَ وإذا اجتَمَعا صارَ الإيمانُ للباطِنِ والإسلامُ للظاهِرِ ٢٥٥
يجِبُ على المرءِ أن يعرفَ ما عند خَصْمِه ليجادِلَهُ به ٢٥٦
أن المقصودَ من المجادَلَةِ الوصولُ إلى الحقِّ لا مجرَّدَ الغلَبةِ ٢٥٦
الكُلَّابيَّةُ أتباعُ سعيدِ بن كُلَّابٍ ٢٥٩
المعتزلة أكثر شجَاعَةً من الأشْعَرِيَّةِ ٢٦٠
أن الإيمانَ عندَ الإطلاق يرادُ به التَّصدِيقُ المستَلْزِمُ لقبولِ ما جاءِ به الرسولُ ﷺ .. ٢٦٢
أن كُلَّ من جَحدَ بآياتِ اللهِ فهو كافِرٌ ٢٦٥
من جَحَدَ شيئًا مِنَ الشَّريعَةِ الإسلاميةِ فإنَّهُ كافِرٌ ولو آمَنَ بالبَاقِي ٢٦٥
من نَشَأ بالبَادِيَةِ أو بِدَارِ كُفْرٍ وجَحَدَ ما هو معلومٌ عندَ المسْلِمينَ بالضَّرورَةِ فإنه لا يكْفُرُ حتى يُعرَّف به ٢٦٦

الحكمُ بالتَّكفيرِ حُكمٌ من أحكامِ الله ٢٦٦
لو نشَأ إنسانٌ في بلادٍ كُلِّها رِبوِيَّةٍ تعمل البنوكُ فيها بالرِّبَا..... ٢٦٨
لو ادَّعَى رَجُلٌ الجهلَ في صَرْفِ شيء مما يختَصُّ بالله مِنَ العبادات إلى غيرِ الله ٢٦٩
قريةٌ كامِلَةٌ يَدْعُو أصحابها القبورَ هل نَحكمُ بكُفرهِمْ؟ ٢٦٩
التعبيرُ بلفظِ (زائد) على شيء مِنْ ألفاظِ القرآن..... ٢٧١
اختلَفَ العُلماءُ هل صارَ النَّبيُّ ﷺ يُحْسِنُ الكِتابَةَ والقِراءةَ بعدَ نُزولِ القُرآنِ أو لَا؟ ٢٧٣
هل يترَتَّبُ على الخلافِ في كونِ النَّبيِّ ﷺ كاتِبًا أو غَيْرَ كاتبٍ أثَر؟ ٢٧٦
هل نأْخُذُ مما سَبقَ استِحْبابُ عدمِ تعَلُّمِ القِراءةِ والكِتابَةِ ٢٧٦
ينْبَغِي في المناظَرَةِ التَّنَزُّلُ مع الخَصْمِ وإبطالُ ما يحتَجُّ به ٢٧٦
هل غيرُ المؤمنين مِنْ أَوْلي العِلم يكونُ القرآنُ آياتٍ بيِّنَاتٍ لهم؟ ٢٨٠
أن مَحَلَّ العقلِ والوعْي القَلْبُ ٢٨١
الإنذارُ هو الإخْبارُ بالمُخَوَّفِ، أما الإخبارُ بالمرْغُوبِ فيُسَمَّى بِشَارَةً ٢٨٧
أن إضافَةَ الأمورِ إلى الله تَقْطَعُ الحُجَجَ..... ٢٨٨
من بَلاغَةِ الكلام أن يكونَ الخِطابُ مُوافِقًا لمقْتَضَى الحال..... ٢٩٠
كم من رَجُلٍ قليلِ العِلْمِ لكِنَّهُ قويُّ الفصاحَةِ ٢٩٠
هل هناك عواملُ تساعِدُ على الفصاحَةِ؟ ٢٩١
القرآن آياتٌ بَيِّنَاتٌ في صُدورِ الذين أُوتُوا العِلْمَ..... ٢٩٣
(مَا) اسم موصولٌ يُفيدُ العُمومَ..... ٢٩٩
(مَا) يُعْبَّرُ بها عن الصِّفَةِ دونَ الموصوفِ..... ٣٠٠

هل يُقَدَّرُ صلةُ الموصول فعلًا أو اسمًا؟ ٣٠٠
تجِدُ الكلمة الواحدةَ في سِياقٍ لها معنى وفي سياقٍ آخرَ لها معنى آخر بحَسَبِ السِّياقِ.. ٣٠٢
ضميرُ الفَصْلِ يُفِيدُ الحَصْرَ..... ٣٠٣
إطلاقُ الشَّهادةِ على الحُكم ٣٠٥
إذا كان عندَ الحاكِمِ شهادةٌ هل يحكُمُ بها؟ ٣٠٦
ما فَسَدَتْ أحوالُ العالم الإسلامي وغيرِ الإسلامي إلا بالحُكْمِ بغيرِ ما أَنْزَلَ الله ... ٣٠٧
هل التَّحاكُمُ للمحاكِمِ غيرِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ الإيمانِ بالباطلِ، وهل هُو كُفْرٌ؟ ٣٠٧
ما الحكم إذا قَرَّبُوا هذه القَوانِينَ الوضْعِيَّةَ إلى الإسلامِ؟ ٣٠٨
ما حُكْمُ التَّحَاكُمِ إلى المحاكِمِ غيرِ الشَّرْعِيَّةِ، أي: التي تَحْكُمُ بالأحكامِ المخالِفَةِ للشَّرْعِيَّةِ؟ ٣٠٩
هل المبَاهَلَةُ تكون معَ المسلِمِينَ أم معَ الكفَّارِ فَقَط؟ ٣١٢
هل يستفادُ من قوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ جواز أن يقولَ الإنسانُ: هذا وَقَعَ صِدْفَةً؟ ... ٣١٦
إن عذابَ أهلِ النَّارِ يزيدُ سُرورَ أهلِ الجنَّة واغْتِباطَهُم بنِعْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ ٣١٨
ما الدَّاعِي لصَرْفِ اللَّفْظِ عن ظَاهِرِهِ؟ ٣٢٠
مَنْ يعْتَقِدُ مَذْهبًا مِنَ المذاهبِ تَجِدُهُ يحرِّفُ الكلِمَ عن مواضِعِه لأجلِ أن يُوافِقَ ذلك المذْهَبَ ٣٢٠
ذكرَ شيخُ الإسلامِ أن مسألةَ الذاتِ لم ترِدْ في لسانِ العربِ العُرباءِ..... ٣٢٢
جوازَ تَغَيُّرِ الفَتْوى بتَغَيُّرِ الزمانِ..... ٣٢٢
كثيرًا ما ينْدَمُ الإنسان على تَصَرُّفاتِهِ بسببِ عدمِ الحِكْمةِ ٣٢٥
أن تعْذِيبَ الكفارِ جِسْمِيٌّ ونَفْسِيٌّ..... ٣٢٦

جوازُ التَّعْبِيرِ بالسَّببِ عن المسَبَّبِ ٣٢٧
أن الجزاءَ مِنْ جِنْسِ العَملِ ٣٢٧
مُقْتَضَى العبودِيَّةِ والإيمانِ ٣٢٨
أن العِبادَةَ تَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ: عبادةٍ كَوْنِيَّةٍ، وعبادة شَرْعِيَّةٍ ٣٢٨
الإيمانُ الحَقِيقِيُّ أن الإنسان يَفْدِي دِينَهُ بنَفْسِه ومالِهِ ٣٣١
تَوجِيهُ الأمرِ للإنسانِ بما هو متَّصِفٌ بِهِ ٣٣٢
الذين يُسَافِرُونَ من بلادِ الإسلامِ إلى بلادِ الكُفْرِ ويُقِيمُونَ عندهم ٣٣٣
أن السَّفَر إلى بلادِ الكُفَّارِ لا يجوزُ إلا بشُروطٍ ٣٣٣
كَثيرُ من التَّخَصُّصاتِ الحديثةِ لا تُوجَدُ في بلادِ المسْلِمينَ ٣٣٤
حكمُ الذَّهابِ إلى بلادِ الكُفَّارِ مِنْ أجلِ الدَّعوة إلى الله ٣٣٥
حُكْمُ من يسافرُ إلى بلاد الكفَّار لنيلِ شهادَةِ الدُّكتوراة في الشَّريعَةِ ٣٣٥
حُكْمُ من يذهبُ لبلادِ الكفَّارِ لدِرَاسَةِ لغُتِهِمْ ٣٣٦
حدُّ دارِ الإسلامِ ودارِ الكُفْرِ ٣٣٦
أن الإنسانَ أرادَ أن يُحْصِي ما يتكَلَّمُ به في اليوم لكان عنده في الأسبوعِ مجلَّدَاتٌ ٣٣٩
هل يُغَلِّبُ جانبَ الرجاءِ أو جانبَ الخوفِ؟ ٣٤٠
أن المسألةَ لها أحوالٌ ٣٤١
أن أحوالَ الدُّنْيَا لا تُقاسُ بها أحوالُ الآخرةِ ٣٤٥
هل يوجَدُ في الجَنَّةِ غيرُ هذه الأنهارِ الأرْبَعَةِ؟ ٣٤٦
المُرائِي بعملِهِ عَمَلُهُ ليس صَالحًا لفَقْدِ الإخلاصِ ٣٤٨

ليس مَعْنَى قوله: «مَنْ سَنَّ» أي: مَنْ شَرعَ، بل معنى قوله: «مَنْ سَنَّ» أي: من فَعَلَ ما هو مَشْرُوعٌ وابتدأَ به ٣٥٠
الضَّلالُ لا يوصَفُ بالحُسْنِ ٣٥٠
قولُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نِعْمَتِ البِدْعَةُ» ٣٥١
التَّنَعُّمُ في الجنَّةِ كما يكونُ بالأكْلِ والشُّرْبِ والنِّكَاحِ واللباسِ يكون كذلكَ بالنَّظَرِ وبالبَهْجَةِ ٣٥١
الردُّ على الجَبْرِيَّةِ ٣٥٢
أن التَّوَكُّلَ ينْقَسِمُ إلى ثلاثةِ أقْسامٍ ٣٥٤
أجمعَ العلماء على جوازِ التَّوكِيلِ بالبَيْعِ والشِّراءِ وغيرِهِ مما تَدْخُلُ فيه الوِكالَةُ ٣٥٥
أن التَّوَكُّلَ أحدُ شَقَّيِ الدِّينِ ٣٥٥
هل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يكونُ وَكِيلًا ومُوَكِّلًا؟ ٣٥٦
هل السيارةُ تُسَمَّى دابَّةٌ؟ ٣٥٩
إن الكَذِبَ لا يُحِبُّه أحدٌ، حتى النَّمْلَةُ ٣٦١
كلُّ شيءٍ مكتوبٌ ومقَدَّرٌ ٣٦٢
هل مَلَكُ الموتِ يَقْبِضُ أرواحَ الحشراتِ؟ ٣٦٣
﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: من أسماء اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وله مَعْنَيانِ ٣٦٤
قوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ ٣٦٥
السمواتُ تُجْمَعُ دائمًا في القرآنِ، والأرضُ لا تأتي إلا مُفْرَدَةً ٣٦٩
دَورانُ الأرضِ حولَ نَفسِهَا ٣٧٢
أن الإقرارَ بالرُّبوبِيَّةِ لا يكْفِي في التوحيدِ ٣٧٥

هل المبسوطُ له والمقَدَّرُ له واحد؟ ٣٧٧
قال بعضُ أهلِ العلمِ من أهلِ الأُصولِ: ما مَنْ عامٌّ إلا خُصَّ، إلا قوله تعالى:
﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ٣٧٨
أن إثباتِ القَدَرِ لا يَعْنِي الكفَّ عنِ الأسبابِ ٣٧٩
إثباتُ كمالِ التَّصَرُّفِ لله عَزَّوَجَلَّ ٣٧٩
الحكمةُ مِنْ نُزولِهِ مِنَ السماءِ ٣٨٢
الصواب في تعريفِ الحَمْدِ ٣٨٥
من الفُروقِ بينَ الحمْدِ والمدْحِ ٣٨٥
اعتبارُ القِياسِ الصحيحِ ٣٨٨
إن اللَّهْوَ في القَلْبِ ٣٩١
(من حَجَّ لِيَأْخُذَ فليس له في الآخرة من خلاق) ٣٩٢
الحياةُ الحقيقيةُ هي حياة الآخرة ٣٩٢
لا يجوز أن يُقْصَدَ بأعمالِ الآخرةِ شيئًا مِنْ أعمالِ الدُّنْيَا ٣٩٤
اعترافُ المشرِكِينَ ضِمْنًا بأن آلهتَهم لا تَنْفَعُهم ٣٩٨
أن إشراكَ السابِقِينَ أهونُ مِنْ إشراكِ مَنْ أشركَ مِنَ المتأَخِّرِينَ من هذه الأُمَّةِ ٣٩٨
أن الدُّعاءَ من الدِّينِ ٣٩٩
لامُ العاقِبَةِ ٤٠١
ما حكمُ مَنْ كان يقرأُ القرآنَ وأخطأَ، لكنه أصابَ قراءةً سبْعِيَّةً صحيحةً؟ ٤٠٣
هل كُلُّ القِراءاتِ السَّبْعِ متواتِرَةٌ، وما رأيكُمْ في أسانِيدِ هذه القِراءاتِ؟ ٤٠٣
الرؤيةِ العِلمِيَّةِ ٤٠٥

شكر نِعْمَةِ الإسلامِ واجبٌ..... ٤٠٧
الافتراءُ على الله كَذِبًا له أنواع كثيرة..... ٤٠٩
المهم: أن يَفْهَمَ طالبُ العلم ٤١٥
على طالبِ العِلْمِ أن يهْتَمَّ في دِرَاسَتِهِ للكتابِ والسُّنَّةِ بجانبِ الاستِنْباطِ والفَهْمِ والتَّفْرِيعِ ٤١٥
العُلُوُّ دَلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ والعقْلُ والفِطْرَةُ وإجماعُ سَلَفِ الأمةِ..... ٤١٧
مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أن الله جَلَّ وَعَلَا على عَرْشِهِ بذَاتِهِ وهو معنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقًّا ٤١٨
أن المعيةَ نوعانِ: عَامَّةٌ وخاصَّةٌ..... ٤٢٢
المعِيَّةُ العامَّةُ تقتَضِي الإحاطةَ..... ٤٢٢
المعِيَّةُ الخاصَّةُ: نوعان: خاصَّةٌ بشخْصٍ، وخاصَّة بوصْفٍ..... ٤٢٢
لا يُوجَدُ تناقُضٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ ٤٢٣
تِبيانُ السُّنَّةِ من تِبيانِ القُرآنِ ٤٢٤
ظَهَرَ في أمريكا أحدُ الخُبثاءِ يدَّعِي أنه أحدُ العلماءِ الرَّاسِخِينَ في العِلْمِ..... ٤٢٤

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة
تقديم	٥
" قال الله عزّوجلّ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾	٧
" قال الله عزّوجلّ: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾	١٢
" قال الله عزّوجلّ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٤﴾	١٧
" قال الله عزّوجلّ: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٥﴾	٢١
" قال الله عزّوجلّ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾	٢٦
" قال الله عزّوجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٧﴾	٢٨
" قال الله عزّوجلّ: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٨﴾	٣٣
" قال الله عزّوجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾	٤٠
" قال الله عزّوجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ	

ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ ٤٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ ٤٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ ٥٠

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ ٥٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ .. ٦٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ ٦٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ ٧١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ ٧٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ ٧٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ ٨١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ ٨٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٢٢﴾ ٩٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٣﴾ ٩٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٤﴾ ١٠٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥﴾ ١١٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ ١٢١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ ١٣٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾ ١٣٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾ ١٤٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠﴾ ١٤٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١﴾ ١٥١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ ١٥٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ ١٦٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ ١٧١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ١٧٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ١٧٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ . ١٨٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ ١٩٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ ٢٠٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ ٢١٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ ٢١٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ٢٢٢

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ٢٢٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ٢٣٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ٢٤٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ٢٥٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ٢٧٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ٢٧٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ ٢٨٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ٢٩٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ ٢٩٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ٣١١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ . ٣٢٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ ٣٣٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ ٣٤٤

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ٣٥٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ ٣٥٩

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ ٣٦٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ ٣٧٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ٣٨١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ٣٩٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ٣٩٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ٤٠١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ٤٠٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ٤٠٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ٤١٣

فهرس الأحاديث والآثار ٤٢٧

فهرس الفوائد ٤٣٣

فهرس آيات السورة ٤٤٩

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٨)

تفسير القرآن الكريم

سورة الروم

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٨)

تفسير القرآن الكريم

سورة الروم

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة الروم. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
٣٥٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٣٨)
ردمك: ٩ ـ ٥٥ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة الروم ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٣٧

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٣٧
ردمك: ٩ ـ ٥٥ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من :
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لِتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ) [1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[1]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخ مُحَمَّد بنِ صالِح العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَرِيمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزَاء، ويُضَاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ فِي المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سورة الروم

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

قال المُفَسِّر[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَكِّيَّة إلا آيَة ١٧، فمدنيَّةٌ، وآياتها ستون] اهـ.

المكِّيُّ هو الَّذي نزل قبْلَ الهجرة، والمدَنِيُّ ما نزل بعدها سواءٌ نزل في مكَّة أم لا، وعلى هَذا فإن قوْلُه تَعالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، هو من المدنيِّ، رغم أنه نزلَ بعرفَة يومَ حجة الوداع، أي قَد نزلَ بمكة.

وقوله: [وآياتها ستون]: أو تِسعٌ وخمسُونَ آيةً، إنْ جعلنا ﴿الٓمٓ﴾ آيةً مستقلَّةً صارتْ سِتِّينَ آيةً، وإلَّا فتِسعٌ وخَمْسونَ.

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

تقدَّم[1] أنَّ البسملةَ آيَةٌ مستقلَّةٌ يُؤْتَى بِها فِي ابتداءِ السّوَرِ، وليست تابِعَةً لما بعدَها لَا فِي الفاتِحَةِ ولا في غيرِها؛ خِلافًا لِبعضِ العلَماء الَّذِين يقُولونَ هِي آيَةٌ مِن الفاتحةِ، فيحْسِبُونَ الفاتِحَةَ سبْعَ آياتٍ منْهَا البسملة، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:١-٧]، هَذِهِ سبْعٌ بالبسملةِ، والصّحِيحُ أنَّ البسملةَ ليست آيَةً مِن الفاتِحَةِ ولَا مِنْ غيرِها، فأوَّلُ آياتِ الفاتحة هِي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فإن قِيلَ: لكنها سبعُ آياتٍ بالِاتِّفاق، فأَيْنَ الآيَةُ السّابِعَةُ؟

قُلْنَا: قوْله تعالَى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ آيتَان، فقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هو الآية السَّادِسة، و﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ هو الآيَةُ السّابعةُ، وفي المصحَفِ المنتشر بينَ النّاس نجدُ أن البسملةَ مِن الفاتحةِ آيةً، ومِنْ غيرِها ليسَتْ آيةً، ولكِنَّ الصّحِيحَ أنَّه لا فرقَ.

(١) انظر الكلام على البسملة في (تفسير سورة الفاتحة) لفضيلة الشّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

الآيــة (١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿الٓمٓ﴾ الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ فِي ذَلِكَ] اهـ.

نعم، إذا لم نعلم شيئًا فالواجبُ أن نقولَ: «الله أعلمُ بما أرادَ»، وَهَذا قدْ قِيل أَنَّه نِصْفُ العلْمِ[1]؛ لأَنَّ الإنسان إمَّا عالمٌ وإمّا جَاهِلٌ، فإِذَا قَال فِيما يعْلَمُ بما عَلِم وفيما يجْهَل: «الله أعلم» صارَ نِصْف العلْمِ، ولَا شَكَّ أنَّ قولَ الإنسان: «الله أعْلَمُ» فيما لم يعلَمْه هُو الواجِبُ، فَلا تقُلْ: إذا قلْتُ: «لا أَدْري» نقَص قدْرِي عندَ النّاسِ، فإنَّ قدْرَك عِنْد النّاس لنْ ينْقُص بل سيزْدَاد عنْدَهم، فكَما أَنَّه لا ينْقُص عنْدَ الله فإِنَّهُ لَا ينْقُص عنْدَ النّاس؛ لأَنَّ النّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول: «مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إلا رَفَعَهُ الله»[2]، وَهَذا مِن بَاب التّواضُع للهِ أَنَّك تقُولُ فِيما لا تعلَمُ: «لا أعلم»، وهُوَ نظِيرُ العفْوِ لا يَزِيدُ الإنسان إلا عِزًّا، ونَظِيرُ الصّدقَةِ لا ينْقُص بِها المالُ[3]، فكَذَلِك قولُ: «لا أدري» لا ينْقُص بِه قدْرُ الإنسان في العِلْم، بَلْ يزْدَادُ لأَنَّ النّاس إِذا رَأَوْا هَذا

---

(١) أخرجه الدّارمي (١/ ٦٣) والفقيه المتفقه (٢/ ٣٦٩) عن الشّعبي في قولة: (لا أدري).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨)، ونصه: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ الله عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إِلَّا رَفَعَهُ الله».

الرّجُلَ محترِزًا يقُولُ فِيما يعْلَمُ ويتوقَّفُ عمَّا لا يَعْلَمُ وثِقُوا بِه، وعرَفُوا أنَّه لا يتكلَّمُ إلا بما عَلِم.

فقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الله أعلم بمراده بذلك]، هَذا هُو الوَاجِبُ عَلَى كلِّ إِنْسَانٍ لا يَدْرِي مَا أرادَ الله.

ولَكِنْ إذا رجَعْنَا إِلَى قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣]، عَلِمْنا أنَّ هَذا القرآنَ بمُقْتَضى اللُّغَةِ العرَبِيَّةِ، وأنَّه لا تُوجَدُ فِيهِ كلِمَةٌ إلا وَهِي معْقُولَةٌ، وإلّا لَكانَ الله أَنْزَلَ شيْئًا لا نَعْرِفُ معْنَاهُ، فإذَا طبَّقْنَا هَذِهِ الحرُوفَ الهجَائِيَّةَ عَلَى هَذِهِ القاعِدَةِ، والقاعِدَةُ هِي قوْله تَعالَى: ﴿جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وجَدْنا أنَّ مَثل هَذا التّركيبِ في اللُّغَةِ العرَبِيَّةِ ﴿الٓمٓ﴾ لَيْس له معْنًى فيها، إنَّما هِيَ مجمُوعَةُ حُروفٍ هجَائِيَّةٍ: (ألف، ولَامٌ، ومِيمٌ)؛ وَلِهَذا أنْتَ لا تنْطِقُ بِها فتَقُول: (ألم)، بَلْ تقُول: (ألف، لام، ميم).

إِذَنْ: فهِيَ بمقْتَضى اللِّسَانِ العرَبِيِّ الَّذي نزَل بِهِ القرآنُ لِنَعْقِلَهُ لَيْسَ لها معْنًى، وإنَّما هِي حُروفٌ هِجائِيَّةٌ ليْس لها معْنًى في ذاتِها، وحِينَئِذٍ نَكونُ قَدْ علِمْنَا.

لَكِن مَا مُرَادُ الله بِها؟

ذَكَر شيخُ الإسْلام وكَثِيرٌ مِنْ أهْلِ العلْم أنَّ الغرضَ منْهَا بَيان أنَّ القرآنَ مُعجِزٌ معَ كونِه مِنْ هَذِهِ الحرُوفِ الهجَائِيَّة التّي يتكَلَّمُ النّاسُ بِها، فَلَمْ يَأْتِ بحُروفٍ غريبةٍ جديدةٍ حتَّى نقُولَ أنَّه أَعْجَز النّاسَ لأنَّهُ أَتَى بحُروفٍ لا يفْهَمُونَها وَلا ينْطِقُونَ بِها، بلْ هِي حُروفٌ يتَركَّبُ منْهَا كلَامُهُمْ.

إِذَنْ: فالإِعْجازُ ليس مِنْ حيْثُ الحُروفُ، يعني ليسَ أنَّه أَتى بحرُوفٍ جديدةٍ،

بَلْ مِن حيْثُ التّركِيبُ والسّيَاقُ والمعَانِي الجليلَةُ النّافِعَةُ، وَهَذا الَّذي ذَهَب إِلَيْهِ شَيْخُ الإسْلام لَا شَكَّ أَنَّه قَوِيٌّ وأنَّ هَذِهِ الحروفَ الهجَائِيَّةَ فِي حدِّ ذاتِها ليْسَ لَها معْنًى، لَكِنْ لها مغْزًى ومُرَادٌ، وهُوَ أنَّ هَذا القرآنَ الَّذي أعْجَزَ كُلَّ الخلْقِ لمْ يَأْتِ بجَدِيدٍ في الحرُوفِ، وَإِنَّما هُوَ مِنَ الحرُوفِ التّي يتكلَّمُونَ بِهَا.

وَذَهبَ بعْضُ المعَاصِرينَ إِلَى أنَّ هَذِهِ الحروفَ كالمِفتَاح لِلسُّورَةِ التّي هِيَ فِيها بمَعْنَى أنَّكَ إِذا وجَدْت (لَام، وَمِيم) مُصَدَّرًا بِها سُورَةٌ مِنَ القرآنِ فَما ذَاكَ إلا لِكَثْرَةِ (الَّلامِ والميم) فِيها، فتكُونُ كَالمِفتَاح لهَا، وَكَذلِكَ إِذَا وجدْتَ (نون) فهُوَ لكَثْرَةِ النّونِ فِيها، وَإِذا وَجدتَ فِيها (اللَّام، والرّاء) فَهِي لكَثْرَةِ اللَّامِ والرّاءِ، لكِنَّ هَذا مُنْتَقِضٌ، وَإِلَّا لَو اطَّردَ هَذا لَكانَ أيضًا لَهُ وَجْهٌ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: نحْنُ نعْلَمُ بمقْتَضى كَوْنِ القرآنِ بِاللِّسانِ العرَبِيِّ لنَعْقِلَه أنَّ هَذِهِ الحرُوفَ الهجَائِيَّةَ فِي حدِّ ذاتِها ليْسَ لها معْنًى.

• • ❁ • •

الآيــة (٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الرّوم:٢].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، وَهُمْ أَهْل الكتَاب، غَلَبَتْهَا فَارِسُ وَلَيْسُوا أَهْلَ كِتَابٍ، بَلْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ، فَفَرِحَ كُفَّار مكَّة بِذَلِكَ، وَقَالُوا لِلْمُسْلِمِينَ: نَحْنُ نَغْلِبكُمْ كَمَا غَلَبَتْ فَارِس الرّومَ] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿غُلِبَتِ﴾: فعلٌ مبني للمجهول، و﴿ٱلرُّومُ﴾ نائبُ فاعِلٍ، وأَنَّثَها فقال: ﴿غُلِبَتِ﴾، لم يقل غُلِب الرّوم معَ أن الَّذي يحارِبُهم هُمُ الرّجالُ، لكِنَّهُ أَنَّثَها باعتبارِ القبِيلَةِ، والَّذي غَلَبَها الفرْسُ، والحكْمَةُ -واللهُ أعْلَمُ- في حَذْفِ الفاعِلِ لِسَبَبَيْنِ:

السّبَبُ الأوَّلُ: لِيَكُونَ ذَلِك أعْظَمَ إِهَانَةً للفُرْسِ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِلذِّكْرِ.

السّبَبُ الثّانِي: لِيَكُونَ هَذا أخْفَى بِالنّسْبَةِ لِذُلِّ الرّوم وخِذْلانِها، أَيْ: تَهْوِينًا للأَمْرِ عَلَى الرّومِ؛ لأَنَّهُ إِذا قِيلَ لَلإِنْسَانِ: أَنْتَ غُلِبْتَ، أَهْونُ مِن أَنْ يُقالَ لَه: غَلبَكَ فُلانٌ؛ فإِنَّهُ إِذا قِيل لَهُ: غَلبَك فُلانٌ صارَ معْنَاه أَنَّه ذَلِيلٌ لهذَا الرّجُلِ المذْكُورِ.

وقـوْلهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلرُّومُ﴾ هُمْ أهْـلُ الكتَابِ]: ولـوْ قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أهـلُ كتابٍ) لكَانَ أحْسَـنَ؛ لأَنَّ الرّوم نَصارَى، وأَهْـلُ الكتَابِ يَشْمَلُ اليَهُودَ والنّصَارَى.

قوْلهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [غَلَبَتْهَا فارسُ، وَلَيْسُوا أَهْلَ كِتَابٍ، بَلْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ]، لأنَّهم مجوسٌ يعبدونَ النّارَ، [فَفَرِحَ كُفَّارُ مكَّة بِذَلِكَ، وَقَالُوا لِلْمُسْلِمِينَ: نَحْنُ نَغْلِبُكُمْ كَمَا غَلَبَتْ فارسُ الرّومَ]، يعني أنَّ كُفَّارَ مكَّة تفاءَلُوا بِهَذا الشّيْءِ، وقَالُوا: إِذا كان الرّوم أهلَ كتابٍ وغلبَتْهم الفرْسُ وهُمْ أَهْلُ أَوْثَانٍ فهَذا مِفتَاح نصْرٍ لَنا أَنْ نغْلِبَ المسْلِمِينَ الَّذِين هُمْ أَهْلُ كِتَابٍ ونَحْنُ أَهْلُ أَوْثَانٍ.

• • ۞ • •

الآيــة (٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾ [الرّوم:٣].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾: أَيْ أَقْرَبَ أَرْضِ الرّوم إِلَى فَارِسٍ بِالجزِيرَةِ التّقَى فِيهَا الجيْشَانِ، وَالبادِي بِالغزْوِ الفرْسُ، ﴿وَهُم﴾ أَيْ الرّوم، ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ أُضِيفَ المصْدَرُ إِلَى المفْعُولِ، أَيْ غَلَبَة فَارِسٍ إِيَّاهُمْ ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ فَارِسَ] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ قِيلَ: المعْنَى أقربَ الأرْض إِلَى فارسَ، وأنَّ فارِسَ اعتَدَوْا عَلَى الرّومِ، فحَصل القتَالُ بَيْنَهُما، وقِيلَ: إِنَّ معْنَى قوْله تَعالَى: ﴿ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أيْ فِي أقْرَبِها إِلَى أَرْض العرَبِ، وَهَذا يرْجِعُ إِلَى التّاريخِ الَّذي يُحَدِّد موقعَ هَذِهِ المعْرَكَةِ حتَّى نعرِفَ أدْنَى الأرْض، إِنَّما لا شَكَّ أنَّ (أدْنَى) بمعْنَى أقْرَب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُم﴾ أي الرّوم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ أضيف المصدر إِلَى المفعول أي غلبة فارس إياهم ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ فارس]، انظر تأكيدَ هَذا الوعدِ، حيْثُ صُدِّر بالاسْمِ ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ﴾؛ لأنَّهُ إذا صُدِّر بالاسْمِ صارَ جمْلَةً اسْمِيَّةً دالَّةً عَلَى الدّوامِ والثّبوتِ، وأكَّد مِنْ وَجْهٍ آخَر بقُرْبِه حيْثُ كانَ الخبَرُ مقرونًا بالسّين الدّالَّةِ عَلَى القرْب، ثمَّ أكَّدَه أيضًا بمؤكِّد ثالِث وهُوَ قولُه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾؛

لِتَحَقُّق الغلَبَـةِ، وأنَّ هَذا أَمْـرٌ لا بُدَّ أنْ يقَعَ وَلَوْ كَانُوا مغلُوبِينَ؛ لأَنَّهُ لو حُـذِف قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ فقال: (وهم سيغلبون) لقِيلَ: سَيَغْلِبُون، ولَوْ غُلِبُوا: لقَال البعْضُ: إِذَا كَانُوا قَدْ غُلِبوا فإنَّهُم لا يَغْلِبُون، فلمَّا قَال: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ صَارَ فِي ذَلِك تأكِيدٌ للْغَلَبَةِ، فصَارَ تأكِيدُ غَلَبَةِ هَؤُلاءِ مِنْ وُجوهٍ ثلاثَةٍ.

• • ۞ • •

الآيتان (٤، ٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الرّوم:٤-٥].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ هُوَ مَا بَيْن الثّلَاث إِلَى التّسْع أَوْ العشْر فَالتقَى الجيْشَانِ فِي السّنَة السّابِعَة مِنْ الالتقَاء الأَوَّل وَغَلَبَتْ الرّوم فَارِس ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أَيْ مِنْ قَبْل غَلْب الرّوم وَمِنْ بَعْده المعْنَى أَنَّ غَلَبَة فَارِس أَوَّلًا وَغَلَبَة الرّوم ثَانِيًا بِأَمْرِ الله أَيْ إِرَادَته ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أَيْ يوم تغلب الرّوم ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ إِيَّاهُمْ عَلَى فَارِس وَقَدْ فَرِحُوا بِذَلِكَ وَعَلِمُوا بِهِ يَوْم وُقُوعه أَيْ يَوْم بَدْر بِنُزُولِ جِبْرِيل بِذَلِكَ مَعَ فَرَحهمْ بِنَصْرِهِمْ عَلَى المشْرِكِينَ فِيهِ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بِالمؤْمِنِينَ] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ متعلِّقٌ بقوْله تَعالَى: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ أي في خِلالِ هَذا البضْع، والبضْعُ هُوَ مَا بَيْن الثّلاثِ إِلَى التّسْعِ، أَوْ مَا بَيْن الثّلاثِ إِلَى العشْر، يَعْني إمَّا خمْسُ سنَواتٍ وإمّا سِتّ سنواتٍ هَذا البضْعُ، فَإِذا قُلْنا إنَّه مَا بَيْن الثّلاثِ إِلَى العشْر، فهي: (أَرْبعٌ وخمْسٌ وسِتٌّ وسَبْعٌ وثَمانٍ وتِسْعٌ)، فَهَذِه سِتٌّ، وإِذَا قُلنَا إنَّه مَا بَيْنَ الثّلاثِ إِلَى التّسْعِ يكونُ: (أَرْبَعٌ وخَمْسٌ وسِتٌّ وسَبْعٌ وثَمانٍ)،

فهذهِ خمْسُ سنَواتٍ، يَعْني الثّلاثُ غيْرُ داخِلَةٍ، لأَنَّ مَا بَيْن الشّيءِ والشّيْءِ لَا يدْخُلُ فِيه الجانِبَانِ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فالتقى الجيْشَانِ فِي السّنَةِ السّابِعَةِ مِن الالتقَاء الأوَّل وغَلَبَتِ الرّوم فَارِس]: يعْنِي حصَل بَيْنَهُما حَرْبٌ أُخْرَى فغَلَبَتِ الرّوم فارِسَ، فصَدَق بذَلِك خَبَرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأَنَّهُمْ سيَغْلِبُونَ في بِضْع سِنينَ؛ لأَنَّ الأمْر لم يتَجَاوَزْ سبْعَ سَنَواتٍ حتَّى كانَتِ الغلبَةُ لِلرُّومِ عَلَى الفرْسِ، فَصدَقَ الله وَعْدَهُ.

قوْله تَعالَى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ المعْنَى أنَّ الغلَبَةَ تتِمُّ في خِلَالِ بِضْع سِنِينَ، ولَيْس المعْنَى أنَّ الغلبَةَ تحْصُل بعْدَ سَبْع سَنوَاتٍ.

قوْله تَعالَى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾: هَـذِهِ الجملة اسميَّةٌ قُـدِّم فِيها الخبَرُ لإفَـادَةِ الاخْتِصَاصِ للهِ وحْدَه، و(أل) هُنَا للاسْتِغْرَاقِ، يَعْني كُلُّ الأمْرِ، أيْ لاسْتِغرَاق الجنْس، و(أل) التي للاسْتِغْراقِ هِي التي يحِلُّ محلَّها (كُلُّ) فَإِنْ كانَتْ لاسْتِغْراقِ المعْنَى فَهِي لاسْتِغْراقِ المعْنَى، وإِنْ كَانَت لاسْتِغْراقِ الأفْرادِ فَهِي لاسْتِغْراقِ الجِنْس، فَفِي قوْلِه تَعالَى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النّساء:٢٨]، (أل) لاسْتِغراق الجِنْس؛ لأَنَّهُ يَصِحُّ أنْ يَحِلَّ محلَّها (كُلُّ)، فيُقَالُ: وَخُلِق كُلُّ إِنْسَانٍ ضَعيفًا، وَفي قوْلِه تَعالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:١-٢]، هَذِهِ أيضًا لاسْتِغْراقِ الجِنْس، أيْ كُلُّ إنسانٍ، وإِنْ كانَت لاسْتِغْراقِ المعْنَى فَهِي لاسْتِغْراقِ المعْنَى، ومثَّلوا لِذَلِكَ بقَوْلِهم: (زَيْدٌ نِعْم الرّجُلُ)، أَي: نِعْم الشّخْصُ الجامِعُ لِصِفَات الرّجُولَةِ.

وَهِلِ المرَادُ بالأمْر هُنا الأمْرُ الكوْنِيُّ أو الأمْرُ الشّرْعِيُّ؟

والجوابُ: الأمْرُ الكوْنِيُّ، أَي أنَّ جَمِيعَ الأمورِ تَرْجِـعُ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ، المتعَلِّقَة

بأفْعَالِ العبادِ والمتعَلِّقَة بأفْعَالِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنَّها راجِعَةٌ إلَيْهِ، والأمْرُ الإلهيُّ ينْقَسِمُ إلَى قِسْمَيْنِ: أَمْرٌ كَوْنِيٌّ وأَمْرٌ شَرْعِيٌّ.

مِثالُ الأمْرِ الكوْنِيِّ: قوْلُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

ومِثالُ الأمْرِ الشّرْعِيِّ: قوْلُه تعالَى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾، أي عَنْ أَمْرِه الشّرْعِيِّ، ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، ومِثْلُ قوْلِه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ﴾ [النّساء:٥٨]، هَذا أَمْرٌ شَرْعِيٌّ.

وعَلَيْهِ فإنَّ قوْلَه تعالَى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء:١٦]، مِنَ الأمْرِ الكوْنِيِّ، وهَذا هُوَ المتَعَيَّنُ، فَيَأْمُرُهُم الله أمرًا كونِيًّا بالفسْقِ فيَفْسُقُونَ، وأمَّا مَن قَال: إنَّ المرادَ بِالأمْر في الآيَة هُو الأمْر الشّرْعِيُّ وأنَّ الله يأْمُرُهم بالطّاعَةِ فيَفْسُقونَ ثمَّ يأْخُذُهم بِالعذابِ، فَهذا القوْلُ بَاطِلٌ لأنَّهُ يقْتَضِي أنْ يكُونَ المعْنَى أنَّ الله يُرْسِلُ الرّسُلَ فيَأْمُرونَ النّاسَ بِطَاعَةِ الله؛ لأَجْلِ أنْ يَفْسُقوا فَيحلَّ بِهم العقابُ، وَهَذا يَرْجِعُ إِلَى أنَّ المعْنَى أنَّ الله بعَثَ الرّسُلَ نِقْمَةً عَلَى العبَادِ، وهُوَ أَمْرٌ لا يُمْكِنُ، ثمَّ إنَّنا نقُولُ: إنَّ الأمرَ الشّرْعِيَّ لَا يخْتَصُّ بالمتْرَفِينَ، بَلْ هُوَ عامٌّ لهُمْ ولِغَيْرِهمْ.

المُهِمُّ: أنَّ هَذا القوْلَ ضعيفٌ وبَاطِلٌ ويُنافي حكْمةَ الله عَزَّوَجَلَّ بإرسالِ الرّسُلِ.

فقوْلُه تعالَى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ﴾ يُرَادُ بِه الأمرُ الكوْنِيُّ.

وقوْله تعالَى: ﴿قَبْلُ﴾: ضُمَّتْ مَع أنَّ قبْلَها حَرْفَ الجرِّ ﴿مِن﴾؛ لأَنَّ ﴿قَبْلُ﴾ و﴿بَعْدُ﴾ إذَا حُذِف المضَافُ إِلَيْهِ ونُوِي مَعْنَاهُ بُنِيا عَلَى الضّمِّ، هَذا السّبَبُ فَإِنْ

وُجِد المضَافُ صَارا مُعْرَبَيْنِ فتَقُول: (أَتيتُ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِي زيْدٌ) فتَجُرَّها، وَكَذلِكَ إِذا حُذِف المضَافُ إِلَيْهِ ولم يُنْوَ لَا لفْظًا ولَا معْنًى، فإِنَّها تُعْرَبُ كَقَوْل الشّاعِر[1]:

فَسَاغَ لِي الشّرَابُ وَكُنْتُ قَبْلًا ... أَكَادُ أَغَصُّ بِالماءِ الفرَاتِ

وَكَذلِكَ إِذَا حُذِف المضَافُ إِلَيْهِ وَنُوِي لفْظُهُ فَإِنَّها تُعْرَبُ، لكِنَّها لا تُنَوَّنُ فيُقَالُ مَثلًا: (كُنْتُ حَرِيصًا عَلَى الدّرْسِ، فأَتَيْتُ مِنْ قَبْلِ)، أَي: مِنْ قَبْلِ ابْتِدَاءِ الدّرْس، فهُنا حُذِف المضَافُ ونُوِي لفْظُهُ، وَالَّذي دلَّنا عَلَى أَنَّه نُوِي لفْظُه أَوْ نُوِي مَعْناهُ الإِعْرَاب نفْسُه، فَإِذا كَانَتْ مبْنِيَّةً عَلَى الضّمِّ عَلِمْنا أَنَّه قَدْ حُذِف وَأُرِيد المعْنَى، وَإِذا لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ عَلِمنا أَنَّهُ قدْ حُذِف وَأُرِيد اللَّفْظُ، فَإِنْ نُوِّنَتْ علِمْنا أَنَّه ما أُرِيد اللَّفْظُ ولَا المعْنَى.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لَو حُذِف المضاف إِلَيْهِ في كلام الله عَزَّوَجَلَّ فهل يصح أن نقول: أَنَّه منوي؟

قُلْنَا: لا، لا نقول ذَلِك، لكن يصِحُّ أن نقولَ: هو المُراد، أي أنَّ الله أراد بالنّسبة للمضاف إِلَيْهِ؛ لأَنَّ الإرادَة في جنابِ الله عَزَّوَجَلَّ بمعنى النّية للخَلْق.

---

(١) اخْتُلِفَ في نسبة البيت، كما اخْتُلِفَ في عجزه. فنسبه العيني في المقاصد النّحوية (٣/ ٤٣٥)، إلى عبد الله بن يعرب، وعجزه: (أكاد أغص بالماء الحميم). ووافقه في النّسبة والعجز: الجرجاوي في شرح شواهد ابن عقيل (ص:١٦٦)، والعدوي في فتح الجليل (ص:١٦٦). ووافقه في النّسبة دون العجز: الشّنقيطي في الدّرر اللوامع (٣/ ١١٢)، وعجزه: (أكاد أغص بالماء الفرات)، وابن حمدون في حاشيته على شرح المكودي (١/ ٣٤٥)، وعجزه: (أكاد أغص بالماء الزّلال). ونسبه البغدادي في خزانة الأدب (١/ ٢٠٤) ليزيد بن الصّعق، وعجزه: (أغص بنقطة الماء الحميم). والرّواية المحفوظة: (الحميم)، ولكن رواية: (الفرات) هي المشهورة، كما قال ابن يعيش في شرح المفصل (٤/ ٨٨)، وهي الّتي رجحها العيني، والجرجاوي، والعدوي. ويرى ابن حمدون أن رواية: (بالماء الزّلال) مناسبة لمعناها.

قَوْلُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ [بِأَمْرِ الله إرادتـه]: هَذا في الحقيقةِ تحريـفٌ، بَلِ الصّوابُ أنّـه (بأمرِه)، أيْ بقَوْلِه، قَال تَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فإنَّ الله تعالَى لَا يُقَدِّر شَيْئًا إلا بِالقوْلِ، و﴿شَيْـًٔا﴾ نَكِرَةٌ في سِيَاق الشّرطِ فتَعُمُّ كُلَّ شَيْءٍ أَرادَهُ الله، فإنما ﴿يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، فالصّوابُ أنَّ المرادَ بالأمْرِ هُنا هُو القوْلُ.

وَالإرَادَةُ ليْسَت هِيَ القوْلُ فإنَّ الإرَادَةَ صِفَةٌ لا تسْتَلْزم القوْلَ إذْ إنَّ المرِيدَ قَدْ يفْعَلُ مَا أَرادَ، أَوْ قَدْ يقُولُهُ، وأمَّا القوْلُ فإنَّهُ أخصُّ مِنَ الإرَادَةِ، كُلُّ قَوْلٍ فهُوَ متضَمِّنٌ لِلإرَادَةِ، وليْسَت كُلُّ إرادَةٍ متضمِّنَةً للقَوْلِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ﴾: (يومَ) ظرفٌ متعلِّقٌ بـ(يفرح)، وهِي مُضافَةٌ إِلَى (إِذْ)، ونُوِّنَت (إِذْ) تنْوِينَ عِوَضٍ عَن جُمْلَةٍ؛ وَلِهَذا قَال: (أَيْ يَوْمَ تَغْلِبُ الرّومُ) فالمحْذُوفُ جُمْلَةٌ، وَالفرَحُ لا يُمكن لِلإنْسَانِ أن يُعَبِّر عنْهُ، لذا قد نقول: الفرح خِفَّةُ النّفْسِ وسُرُورُ النّفْسِ، أَوْ نَقُولُ: الفرَحُ معْلُومٌ؛ وَلِهَذا نَجِدُ صاحِبَ القامُوسِ إذا عرَّف مثْلَ هَذِهِ الأشْيَاء قَال: (م)[1]، يعْنِي أنَّه مَعْرُوفٌ وَلا حاجَةَ لأنْ يُبَيَّن.

وقوْله تَعالَى: ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: المرَادُ بِهم النّبيّ ﷺ وأصحَابُهُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾: متعلِّقٌ بـ(يفْرَحُ) وهُو مصْدَرٌ مُضَافٌ إِلَى فاعِلِه، أمَّا مفعولُه فمَحْذوفٌ، وتقْدِيرُه (بِنَصْر الله الرّوم عَلَى الفرْسِ)؛ وَلِهَذا قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِنَصْرِ الله إِيَّاهُمْ عَلَى فَارِسَ]، والنّصْر معْناهُ العوْنُ والظّهورُ، أَيْ أنَّ الله يُعِينُهُم حتَّى يَظْهَرُوا عَلَى أعْدَائِهم.

---

(١) هو الفيروزآبادي في القاموس المحيط، ومن ذلك قوله في (ص:٣٧): «الحِذَأَةُ، كَعِنَبَةٍ: طَائِرٌ م، ج: حِذَأٌ وحِذَاءٌ وحِذْآنٌ بالكسْرِ».

وسُمِّي ذَلِك نَصْرًا مَع أنَّه لِكُفَّارٍ عَلَى كُفَّارٍ لأنَّ النّصْر هُو العوْنُ والظّهُورُ، وهُوَ لا فَرْق بَيْن أنْ يكُونَ بَيْن مُؤْمِنٍ وكَافِرٍ، أَوْ بَيْن كافِرٍ وكافِرٍ، ثمَّ إنَّ أهْلَ الكتَابِ أقْرَبُ مِن الفرْسِ؛ وَلِهَذا لَهُمْ أحْكَامٌ خاصَّةٌ تُقرِّبُهم مِنَ المسْلِمِينَ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَرِحُوا بِذَلِكَ وعلِمُوا بِهِ يَوْمَ وُقوعِهِ يَوْمَ بَدْرٍ بِنُزولِ جِبْرِيلَ بِذَلِكَ مَع فَرَحِهم بِنَصْرِهِمْ عَلَى المشْرِكِينَ فِيهِ]، يعْنِي أنَّ الواقِعَة حصَلَتْ بَيْن فارِسَ والرّومِ في الزّمَن الَّذي حَصلَتْ فِيه الواقِعَةُ بيْنَ الكفَّار وَالمؤْمِنِينَ، وَذَلِكَ في بَدْرٍ، وَعَلى هَذا فتكُونُ هَذِهِ الآيَة نَازِلَةً قبْلَ الهجْرَةِ بخَمْسِ سَنَواتٍ؛ لأنَّهُ إذا كانَتِ المدَّةُ التي حصَلتْ فِيها الغلَبَة سبْعَ سنَواتٍ، وبَدْرٌ كانَتْ فِي السّنَةِ الثّانِيَةِ لَزِم أنْ يكُونَ نُزولُ الآيَة وغَلَبَةُ فَارِسَ لِلرُّومِ قبْلَ الهجْرَةِ بخَمْسِ سَنوَاتٍ.

وقولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَع فَرَحِهِمْ بِنَصْرِهِمْ عَلَى المشْرِكِينَ فِيهِ]، فيَكُونُ فِي هَذا الزّمَنِ اجْتَمعَ نصْرُ أهْلِ الكتابِ عَلَى المجُوسِ ونَصْرُ المسْلِمينَ عَلَى المشْرِكِينَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل قولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ علَيْه دَليلٌ نقْلِيٌّ؟

فالظّاهِرُ أنَّه تابعٌ للتَّارِيخِ فقَطْ، أمَّا عَنِ الرّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فَلا يُوجَدُ دَلِيلٌ، لكنَّ التّارِيخَ يقُولُ هَذا.

قوْله تَعالَى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾: هَذِهِ عامَّةٌ تعُمُّ كلَّ منْصُورٍ، سواءٌ كانَ المنْصُورُ كافِرًا أوْ مؤمِنًا؛ لأَنَّ الأمْرَ بيَدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكُلُّ شيْءٍ مقيَّدٌ بالمشِيئَةِ فإِنَّهُ يتضَمَّنُ الحكْمَةَ؛ لأَنَّ الله تَعالَى لا يَشَاءُ شيْئًا إلا لِحِكْمَةٍ، فينْصُرُ مَنْ يشَاءُ نصْرَه لحكْمَةٍ اقتْضَتْ ذلِكَ.

قوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب]: هَذا أحَدُ مَعانِي العزَّةِ؛ لأَنَّ العزَّةَ

تنْقَسِمُ إِلَى ثَلاثَة أَقْسَامٍ: عِزَّةُ القدْر، وعِزَّةُ القهْر، وعِزَّةُ الامتِنَاعِ.

عِزَّةُ القدْر: بمعْنَى أَنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عظِيمُ القدْر، وكُلَّما كانَ الشَّيْءُ عظِيمَ القدْرِ كان عزيزًا، أيْ قَلِيلَ الوُجُودِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا مِثْلَ لَهُ، عَظِيمٌ لا نَظِيرَ لَهُ في قدْرِه وعظَمَتِهِ.

وعِزَّةُ القهْر: بمعْنَى الغلَبَةِ والظّهُورِ، بمعْنَى أَنَّه قاهِرٌ وَغَالب لكُلِّ شيْء.

وعِزَّةُ الامتِنَاعِ: معْنَاها امْتِنَاعُ جَمِيع النّقْصِ علَيْه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أيْ أَنَّه يمتَنِعُ علَيْه كُلُّ نقْصٍ، ومِنْ هَذا المعْنَى قولُهُم: (أَرْض عَزَازٌ)[1]، أي الصّلْبَةُ التي يمتَنِعُ أن يُؤثِّر فِيها شيْءٌ.

فالله عَزَّوَجَلَّ متَّصِفٌ بالعزَّةِ مِن جَمِيعِ هَذِهِ الوُجُوهِ الثّلَاثةِ.

وقوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنيـن]: استدلَالٌ بقوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، والصّوابُ أنَّ رحمَةَ الله تَعالَى تكُونُ عامَّةً وخاصَّةً، فإنَّ كُلَّ مَن في السّموَات وَالأرْض فَهُم في رَحْمَةِ الله العامَّةِ، ولَوْلا هذِه الرّحْمَةُ العامَّةُ لما بَقِي أحدٌ مِن الكفَّارِ، فكَوْنُ الله يُدِرُّ علَيْهِمُ الأرْزَاقَ والعافِيَةَ وَالنّشاطَ والعقْل ومَا أشْبَه ذَلِك لا شَكَّ أنَّه مِن رحْمَةِ الله، ولكِنَّ الرّحْمَةَ التي تَكُونُ بِها رَحمَةُ الدّنيا والآخرةِ خَاصَّةٌ بالمؤمِنِينَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ كَلامَ الله عَزَّوَجَلَّ بالحروفِ، يَعْني ﴿الٓمٓ﴾ حُرُوفٌ، فَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الأشْعَرِيَّةِ الَّذِين يقُولونَ إِنَّ كَلامَ الله هُو المعْنَى القائِمُ بالنّفْسِ ولَيْسَ الحرُوفَ،

(١) تاج العروس من جواهر القاموس (١٥/ ٢٢٢)، و لسان العرب (٥/ ٣٧٤).

وَأنَّ هَذِهِ الحرُوفَ مخلُوقَةٌ لِتعبِّر عَن هَذا المعنى القائِم بنفسِهِ، ثمَّ يقُولونَ أيضًا: إنَّ هَذا المعْنَى القائِمَ بالنّفْسِ لا يتغَيَّرُ ولَا يخْتَلِفُ، فهُوَ واحِدٌ سوَاءً كانَ اسْتِفْهامًا أوْ خبرًا أو أمْرًا أو نَهْيًا أو قُرآنًا أوْ زَبُورًا أو تَوْرَاةً أو إنْجِيلًا، فالتّوْارَةُ هِي الإنْجِيلُ وهِي القرآنُ وهِي الزّبُورُ وهِي صُحُفُ إبْراهِيمَ وصُحُف مُوسَى، ويقُولونَ أنَّها اخْتَلفَتْ في التّعْبيرِ، فَإن عبَّر عَن هَذا الكلامِ بالعرَبِيَّةِ صارَ قُرآنًا، أَو بالعبْرِيَّةِ صَار تَوْرَاةً، أوْ بالسُّرْيانِيَّة صارَ إنجيلًا، أوْ بلُغَةِ داوُدَ صَار زَبُورًا... وهَكذا، وتصُوُّرُ هَذا غيْرُ ممكِنٍ، وَهُو معْنًى غيْرُ معقولٍ، ثمَّ يقُولونَ أيضًا: إنَّ الاسْتِفْهام وَالخبْر معنَاهُما واحِدٌ، فإذا جَاء اسْتِفْهام مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ فَهُو كالخبَرِ عنْهُ ومعناهما واحدٌ، وَلا شكَّ أن مجرَّد تصورِ هذَا القولِ كافٍ في رَدِّه وإبْطَاله.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: إثْبَات عِلْمِ الله بِالغيْبِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: إثْبَات رِسالَةِ النّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأَنَّ الإخبارَ عَنِ الغيْبِ لَا يكُونُ إلا بِوَحْيٍ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَامِلُ السّلْطانِ والتّدْبيرِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أنَّ كُلَّ الأشْيَاء لَا تكونُ إلا بِأَمْرِ الله؛ لأَنَّهُ لما قَالَ: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾، قَال: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾.

إذَنْ: فكوْنُهُمْ غُلِبوا فَبِأَمْرِ الله، وكَذلك انْتِصارُهم بِأمْرِ الله، فكُلُّ الأمُورِ بتَقْديرِ الله تَعالَى وأمْرِه، فكُلُّ الأشْيَاء بِأَمْرِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: الرّدُّ عَلَى القـدَرِيَّةِ الَّذِين يقُولونَ باسْـتِقْلالِ العبْد بِفِعْلِه، فَهُم يقُولونَ: إِنَّ العبْدَ مسْـتَقِلٌّ بفعْلِه ولَيْس للهِ تَعالَى فِيه تقْـدِيرٌ ولَا أَمْرٌ ولَا إِنْشاءٌ ولَا مَشِيئَةٌ.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: جَوازُ التّعْبيرِ بمَا يُدْخِلُ الخوفَ وَالحزْنَ عَلَى العدُوِّ؛ لأَنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وهِي مِن ثَلاثَةٍ إِلَى عَشْرٍ، أَو إِلَى تِسْعٍ، معْنَاه أَنَّه سيَبْقَى هَؤُلاءِ الفرْسُ في ذُعْرٍ وخَوْفٍ، كُلَّ سنَةٍ تَأْتِي يقُولونَ: هَذِهِ سَنَةُ الغلَبَةِ، ولَا شَكَّ أَنَّ هَذا مما يَزِيدُهم ذُعرًا وخوفًا؛ لأَنَّهُم لَو غُلِبوا في أَوَّلِ سنَةٍ انْتَهى الأَمْرُ، لكِنَّ كوْنَهُم يتوَعَّدُون بأَمْرٍ لا يُدْرَى في خِلالِ سَبْعِ سِنِينَ لَا شكَّ أَنَّهُ أَشَدُّ علَيْهِم مِنْ أَنْ يَأْتِي الأَمْرُ ويَنْتَهِي.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أَنَّ مِن البلاغَةِ حذْفَ الفاعِلِ إِذْلالًا لَهُ وإِهانَةً؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، فلَمْ يَذْكُر الغالب إِذلالًا لَهُم، وَرِفْقًا بِالرّومِ.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: جَوازُ فَرَحِ المؤْمِنينَ بانْتِصَارِ بعْضِ الكفَّار بعضِهم عَلَى بعْضٍ، إِذا كَان في ذَلِك مصلَحَةٌ للإِسْلَامِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾، ما انْتَصر مُسلِمُون عَلَى كُفَّار، بَلِ انْتَصر كُفَّار عَلَى كُفَّارٍ، لكنَّ هَذا في مصلحَةِ الإِسْلام؛ فلَا بأْسَ أَنْ نفْرَح بانْتِصارِ بعضِهم عَلَى بعْضٍ إِذا كانَ المنتَصِرُ فِيه نفْعٌ للإِسلامِ، ثمَّ يُساعِدُون المسْلِمينَ بِالمالِ والسّلاحِ، أَوْ عَلَى الأَقَلِّ قدْ كَفَّ شرَّهُ مَع أَنَّ الثّانِيَ فيه شرٌّ لكِنَّهُ أَقَلُّ شرًّا مِن هؤُلاءِ.

فعَلى هَذا إِذا اقتَتَلَتْ دوْلَتانِ مِنْ دُوَلِ الكفَّار وكانَتْ إِحْداهُما أَقْربَ إِلَى نفْعِ المسْلِمين مِنَ الأُخرى، فهلْ فرَحُنا بانتصارِها جَائِزٌ، أم نقولُ: كيفَ نَفْرَح بانْتِصارِ كَافِرٍ عَلَى كَافِرٍ، فهو حرامٌ؟

والجوابُ: هُو جَائِزٌ كَما فَرِح المؤْمِنُون بانْتِصار الرّوم عَلَى فارِسَ، مَع أنَّ كِلَيْهما مِن الكفَّار، لكِنَّ هَؤُلاءِ أهلُ كِتَابٍ، فَهُمْ أقْرَبُ مِن المؤْمِنينَ، وأقْرَبُ إِلَى الإسْلام ومُرَاعاةِ المسْلِمينَ مِنَ المجُوسِ.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: جَوَازُ تَسْمِيةِ غَلَبَةِ الكفَّار نَصْرًا؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيْف تجْمَعُونَ بَيْن هَذِهِ الآيَة وبَيْنَ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١]، مَع أنَّ الرّوم لا يتَّصِفُون بِهَذِه الصّفَةِ؟

فالجوابُ: أنَّ النّصر نَوْعانِ:

١- **نَصْرٌ مُطْلَقٌ دَائِمٌ**: فَهذَا لا يَكُونُ إلا لِمَنْ يَنْصُر الله.

٢- **نَصْرٌ عارِضٌ مؤقَّتٌ**: فهَذا يَكُونُ لهؤُلاءِ ولِغَيْرِهمْ.

ونَصْرُ الله لِلرُّومِ عَلَى الفرْسِ ليْسَ نَصْرًا دائمًا، والدّلِيلُ أنَّه بعْدَ ذَلِك نَصَرَ الله المؤْمِنينَ عَلَى الفرْسِ وعَلى الرّومِ، فافْتَتَحُوا ممالك كِسْرَى وممالك قَيْصَرَ، فَلَمْ يَكُن هَذا نصْرًا دائِمًا.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: إثْبَات المشيئَةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾.

الفوائِدُ الثّانِيَةَ عشْرةَ والثالِثَةَ عشْرةَ والرّابِعةَ عشْرَةَ: إثْبَات العزَّةِ لله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾، وإثْبَات الرّحمةِ في قوْله تَعالَى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، وإثْبَات كَمالِ عِزَّتِه حيْثُ قُرِنَتْ بالرّحمَةِ؛ فإنَّنا ينبَغِي أنْ نعرِفَ أنَّ الأسْماءَ الحسْنَى تدُلّ كُلُّ واحدةٍ منْهَا

عَلَى كمالٍ بانفِرادِه، ثمَّ باجْتماعِ الاسْمَيْن بعضِهما إِلَى بَعْضٍ يدُلَّان عَلَى كَمالٍ مرَكَّبٍ، فالعزِيزُ يدُلُّ عَلَى الكمالِ، والرّحِيمُ يُدُلُّ عَلَى الكمالِ فإِذا اجْتَمعَا أُخِذ مِن ذَلِك كمالٌ آخَرُ فوْقَ الكمالِ الَّذي يتضمَّنُه كُلُّ اسْمٍ عَلَى انفرَادِهِ، وهُو أنْ تَكُونَ عِزَّتُه مقرونَةً بالرّحْمَةِ؛ لأَنَّ عِزَّةَ غيرِه قَدْ تكُونُ خالِيَةً مِنَ الرّحْمَةِ، فَإِذا صَار عزِيزًا أَخذ الَّذي هُو ظاهِرٌ علَيْه أَخْذَ عزِيزٍ مُقتَدِرٍ ولم يرْحَمْه، بِخَلافِ عِزَّة الله فَهِي مقرونَةٌ بالرّحْمَةِ، وهِيَ أيضًا مقرونَةٌ بالحكْمَةِ.

مثالُ ذَلِك: لَوْ أنَّ رجُلًا غلَب عَلَى قوْمٍ وصَار عزِيزًا وهُمْ أَذِلَّاءُ فإِنَّ هَذا الرّجُلَ قدْ تأْخُذُه العزَّةُ بالإِثْمِ، فيَبْطِشُ بِهم ولَا يرحمُهُم، لكِنَّ عِزَّةَ الله عَزَّوَجَلَّ لَيْسَتْ كَذَلِكَ، بِل أنَّها مقرونَةٌ بالرّحْمَةِ كَما أنَّها مقرونَةٌ بالحكْمَةِ؛ وَلِهَذا دَائِمًا يَقْرِنُ الله العزَّةَ بالحكْمَةِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كلُّ اسْمٍ مِنْ أَسْماءِ الله عَزَّوَجَلَّ يتضمَّنُ صِفةً، فهَلْ كُلُّ صِفَةٍ يُشتَقُّ منْهَا اسْمٌ؟

فالجوابُ: لَا يجُوزُ، فمثلًا المشِيئَةُ لَا نقُولُ إِنَّ مِن أَسْمَاءِ الله: (الشّائي)، أَو المرِيد أو المتكَلِّم، فلَا نقُولُ أنَّ هَذه من أَسْمَاءِ الله، فالصّفَاتُ أَوْسَعُ بِلا شَكٍّ، فيُخْبَر عَنِ الله بأَشْيَاءَ ولَا يُسَمَّى بِها، ولكِنْ لَا يُخْبَرُ عنْهُ بصِفَةٍ إلا حيْثُ ورَدَتْ، فلَيْس كُلُّ صِفَةٍ يجُوزُ أن يُخْبَر بِها عَنِ الله، فَلا يَجُوزُ أَنْ نُسمِّيَ الله مَثَلا بالحزِين، ولا نُسَمِّيه بالعاشِقِ، ولا نُسَمِّيه بالهمَّام، ومَا أَشْبَه ذَلِك، فالصّفَاتُ تَكُون توقِيفِيَّةً، لا نَخْتَرِعُ مِن أنفُسِنا صِفَةً لَهُ، لكِنَّ الصّفاتِ أَوْسَعُ مِن الأَسْماءِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل (المنْعِم) مِنْ أسماءِ الله عَزَّوَجَلَّ؟

قُلْنَا: لَيْسَ مِن أَسْمَاءِ الله، لكنَّ الله جَلَّ وَعَلَا يُنْعِمُ، فَهِي صِفَةٌ، قَال الله تَعالَى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١]، ولا تَكُونُ نِعْمَةٌ بِدُون مُنْعِمٍ، وَكَذلِكَ قوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧]، يُؤْخَذُ منْهَا (المنْعِم).

أمَّا (المحْسِنُ) فوَرَدَ أنَّه مِن أسْمَاءِ الله عَزَّوَجَلَّ في قَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ الله مُحْسِنٌ، كَتَبَ الإحسَان عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ»[1]، وَبِهذَا يَزُولُ الإشْكال الَّذي يَرِدُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النّاسِ، في التّسْمِيَةِ بـ(عَبْد المحْسِنِ).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَل يَجُوز التّسمِّي بعبْدِ المنْعِم؟

قُلْنَا: إنْ ثَبَت أنَّه مِن أسْمَاءِ الله عَزَّوَجَلَّ، وإلا فَقَدْ يقُولُ قَائِلٌ: إنَّه يجُوزُ؛ لأَنَّ المنْعِم عَلَى الإطْلَاقِ هُوَ الله عَزَّوَجَلَّ، وكُلُّ إنْسَانٍ لَهُ نعْمَةٌ فهِي مقيَّدَةٌ، وإلا فقَوْلُنا: (أنْعَمْتَ عليْهِ) تكُونُ حتَّى للإنْسَانِ، قَال تَعالَى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٣٧].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ابْنُ حزمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ بجوازِ التّسْمِيَةِ بـ(عبْدِ المطَّلبِ)[2]؟

قُلْنَا: هَذا غلطٌ مِنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والتّسمِيَةُ بِهِ ليْسَتْ سلِيمَةً.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَل يجُوز التّسمِّي بـ(حَمِيد) و(مُحْسِن)؟

قُلْنَا: هَذا لَيْس بالأحْسَنِ، لكِنْ إذا لم تُقْصَد الصّفةُ فَلا بَأْسَ، فقَدْ وَردَتِ التّسمِيَةُ بِـ(حَكِيم) في عهْدِ الرّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولم يُغَيِّرْه، معَ أنَّ الحكِيمَ مِنْ أسْمَاءِ الله؛ لأَنَّهُ ما أُرِيد بِه الصّفَة، فأسْمَاء الله عَزَّوَجَلَّ يُرادُ بِها إثْبَات الصّفَة مَع الاسْمِ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصّيد والذّبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذّبح والقتل وتحديد الشّفرة، رقم (١٩٥٥).

(٢) مراتب الإجماع (ص:١٥٤).

وَقَدْ يُسمي أحدُهم وَلده بـ(حكيم) وهُوَ مِن أسْفَهِ النّاس، وَكَذلِكَ قدْ يُسمِّيه بـ(مُحسن) وهُوَ مِن أشَدِّ النّاس جَوْرًا فضْلًا عَن الإحسَان، أمَّا (عبْدُ الحكِيم) فيَجُوزُ، ولَيْس فِيه شَيْءٌ، وَكَذلِكَ (عَبْد الحمِيدِ)؛ لأَنَّ الحمِيدَ مِنْ أسْمَاءِ الله عَزَّوَجَلَّ، قَال تَعالَى: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوْله تَعالَى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ إِلَى آخِرِه، هَل نقِفُ عَلَى الآيَات ولو تعَلَّق بِها ما بَعْدَها، أو نَصِلُ ونُراعِي المعْنَى؟

قُلْنَا: في هَذا قَوْلانِ لأَهْلِ العلْمِ:

فمِنْهم مَن يَرَى أنْ نَقِف عَلَى الآيَات، ويَقُولُ هَذا هُوَ الوَارِدُ عَنِ النّبيّ ﷺ، أنَّهُ كَان يقْرَأُ القرآنَ آيَةً آيَةً[1]، والدّليلُ عَلَى ذَلِك أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ جعلَها آيَةً فتَقِفُ علَيْها ولَوْ تعلَّقَ بِها مَا بعْدَها، وَهَذا كثِيرٌ فِي القرآنِ، كَما فِي قوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون:٤]، هَذِهِ آيَةٌ فيَجوُز أنْ نقِفَ، وقوْلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢١٩ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [البقرة:٢١٩]، فيَجُوزُ أنْ نَقِفَ عَلى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، وقوْلُه تَعالَى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ آيَةٌ، وقوْلُه تَعالَى: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ.

وبعْضُ أهلِ العلْم يَرى أنْ تراعِي المعْنَى فتقِفَ عنْدَ انتِهَاءِ المعْنَى، ولَا تفصِلَ الآيَة عَنْ آيَةٍ تتعلَّقُ بِها.

وَلو قِيل بالتَّفْصيل، فَإِذا كانَ يَسْرِدُ وهُوَ يقْرَأُ فإِنَّهُ يَقِفُ عَلَى كُلِّ آيَةٍ؛ لأَنَّ الكلامَ لَنْ ينْقَطِع بَلْ سيَتَّصِل ويتَّضِحُ المعْنَى، وَإِذا كنْتَ تُريد أنْ تتكَلَّم عَلَى معَانِي

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الحروف والقراءات، رقم (٤٠٠١).

الآيات فإنَّك تُراعِي المعْنَى، لكَانَ لَهُ وجْهٌ، لكنْ لَا أعْلَمُ هَلْ قالَ بِذَلك أحدٌ مِن أهلِ العلْمِ، إنّما القولُ بِه عَلَى حسَبِ قواعَدِ أهْلِ العلْم لَا بأْسَ بِه؛ لأَنَّ إِحْدَاثَ قولٍ ثالِث يتكوَّنُ مِن القوْلَيْنِ قبْلَه لَا بَأْسَ بِهِ.

وهَذِه مسـألَةٌ محلُّ بحثِها أصولُ الفقْـهِ، وهِي هَلْ يَجُوزُ إِذا أجْمَع العلَماء عَلَى قوْلَيْنِ إِحْداثُ قولٍ ثالِث؟

والصّوابُ: أنَّه إِذا كانَ القولُ الثالِث لا يخْرُجُ عنْهُما فَغايَةُ مَا هُنالك أنَّه يُفَصَّل فِيه، فهُوَ جائِزٌ لأَنَّهُ لا يَكُونُ قدْ خرَج عنِ الخلَافِ، أمَّا إِذا كَانَ يخْرُجُ عنْهُما فَلا يَجُوزُ.

فإِذَا قُلْنا بالتَّفْصيل هُنا مَا خرَج عنِ القوْلَيْنِ، لكِنَّهُ يقَفِ في شيْءٍ، ولَا يقِفُ في شيْءٍ آخَرَ، ومِثْلُ هذَا الوِتْرُ، فمِنَ العلَماء مَنْ قَال بأنَّ الوترَ واجِبٌ، وقالَ آخرُونَ: إنَّ الوِتْرَ ليْسَ بواجِبٍ، فإِذا قُلْنا إنَّه واجِبٌ عَلَى مَن كَان كَذا، وغيرُ واجبٍ عَلَى مَن كَان كَذا، كَما اخْتَار شيخُ الإِسْلام أنَّه واجِبٌ عَلَى مَن لَهُ وِرْدٌ مِن الليلِ يقُومُ بِهِ، وغَيْرُ واجِبٍ عَلَى مَن سِوَاه[1]، صار هَذا القولُ الثالِث لا يخرُج عَنِ الإِجْمَاعِ؛ لأَنَّهُ يُوافِقُ أحَدَ القوْلَيْنِ في حالٍ، ويُوافِقُ القولَ الآخر في حالٍ أُخْرَى، فيَكُون قولًا ثالِثًا لكِنَّهُ لا يَخْرُج عنْهُما، أمَّا إِذا كانَ واحِدٌ يَقُولُ بالتّحْرِيم وَوَاحِدٌ يقُول بالحلِّ، ثمَّ جاءَ قولٌ ثالِث يقُولُ بالوُجُوبِ فهَذا لَا يمْكِنُ؛ لأَنَّهُ في هذِهِ الحالِ لَا يُوافِقُ القوْلَيْنِ.

• • ❁ • •

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٨٨).

الآيــة (٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرّوم:٦].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، مَصْدَرٌ بَدَلٌ مِن اللَّفْظِ بِفِعْلِهِ، والأَصْلُ وَعَدَهُمُ الله النّصْرَ]؛ نعْلَم أنَّه مصْدَرٌ وليْسَ فعْلًا، مصْدَرٌ مضَافٌ إِلَى الفاعِل، يعْنِي وَعَد الله إِيَّاهُم، فالمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: [إنه بدَلٌ مِن فِعْلِه]، أيْ نَائِبٌ منَابَ الفعْلِ، أيْ وعَدَهُمُ الله وقِيلَ: مصْدَرٌ فعلُهُ محذوفٌ وليْسَ نائِبًا عنْهُ، وعَلى هَذا فيكُونُ المقَدَّرُ كالموجُودِ، أيْ وعَدْناهُم وعْدَ الله، وَهَذا أقرَب، والمعْنَى أنَّ الله وعدَهُم وعدًا مُضافًا إِلَيْهِ، والوَعْدُ المضَافُ إِلَيْهِ لا يختَلِفُ؛ وَلِهَذا قَال: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾، فهذِه الجمْلَةُ كالتّوكِيد لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ لأَنَّ المضاف إِلَيْهِ في ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ لا يُمْكِنُ أن يخلِفَ أبَدًا، إِذ إِنَّ إِخْلَاف الوَعْدِ ناشِئٌ عَن كذِبٍ أوْ عَجْزٍ، فإِذا وَعدَكَ أحدٌ فأخْلَفَك فَهُو إِمَّا كاذِبٌ وإِمَّا عاجِزٌ، والكذِبُ والعجزُ ممتَنِعانِ عِنِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لكِمالِ صِدْقِهِ وقُدرَتِه، فعَلى هَذا لا يُخْلِف الله وعدَه، ولَا يُمْكِنُ أن يُخْلِفَه.

وإِخْلَافُ الوَعْدِ أنْ يَأْتِي الوَاعِدُ بخلَافِ ما وَعَد بِه، مثلًا رجُلٌ قَال لَك: سأزُورُك غدًا في السّاعَةِ الثّامنَةِ، ثمَّ تأْتِي الثّامِنةُ ولَا يزُورُكَ، فهذا أخْلَف وعْدَه، وسبَبُ إخلَافِه إمَّا أنَّه عاجِزٌ أوْ هُو كاذِبٌ مِنْ أوَّلِ الأمْر أوْ نَسِي، والنّسيانُ أيضًا

عَيْبٌ، فعَلى هَذا نقُولُ: إنَّ الله لا يُخْلِفُ وعدَه؛ لِكَمال صِدْقِه في خَبَرِه، وكَمالِ قُدْرَتِه في تنْفِيذِ وعْدِه، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كامِلُ القُدْرَة، وكَلامُهُ كامِلُ الصّدْقِ؛ وَلِهَذا قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ به]، أيْ بالنّصْر، والنّصْرُ الَّذي وُعِدوا، ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾.

وفِي الآيَات التي سبَقَتْ وعْدٌ آخَرُ للمُؤْمِنينَ بالفَرَح؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، فوَعَدَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بانتصار الرّوم عَلَى الفرْس وبِفَرَح المؤْمِنينَ، ولا شَكَّ أنَّ الفرَحَ فِيه مِن انبِسَاط النّفْس وسُرورِها وانْشِراحِها مَا هُو نعمَةٌ يُنْعِمُ الله بِه عَلَى الفرِحِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ عُطِف علَيْه قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾، أو يحتَمِلُ أنَّه معطُوفٌ عَلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾، و(لكنَّ) تنصِبُ الاسْم وترْفَعُ الخبَر، واسْمُها ﴿أَكْثَرَ﴾ وخبَرُها جُمْلَةُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أي كُفَّار مكة]: تخصِيصُ ذَلِك بكُفَّارِ مكَّةَ فِيه نَظَرٌ، والصّوابُ أنَّه يشْمَلُ كُفَّار مكَّةَ وغيرَهم، وكلُّ مَن ليْسَ عنْدَه إيمانٌ فإنَّهُ لَا يعْلَمُ ما للهِ تَعالَى مِن تنفيذِ الوَعْدِ؛ لأنَّهُ بيْنَ مكذِّبٍ وشَاكٍّ متردِّدٍ فلَا يعْلَمُه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعدَه تَعالَى بنصرهم]: والظّاهرُ أنَّهُم لا يعلمُونَ وعدَه تعالَى بنصرِهم، ولا يعلمونَ أنَّ الله تَعالَى لا يُخْلِف الوَعْدَ، أيْ لا يعْلَمُون الأمْرَيْنِ جميعًا، فَلا يعْلَمُون أنَّ الله تَعالَى سيُحَقِّق النّصْرَ لَهُمْ إمَّا لجهلهم بمَا أخْبَرَ الله بِه، وإمَّا لشَكِّهم في صِدْقِه أو قُدْرَةِ الله علَيْهِ، ولَا يَعْلَمُونَ أيضًا أنَّ الله لا يُخْلِفُ الوَعْدَ فِي هَذا وفِي غيْرِه لشَكِّهم في صِدْقِ الله وفي قُدْرَتِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَى إنْفاذِ موْعُودِهِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: مقْتَضاهُ أنَّ أقلَّ النّاس يعْلَمُونَ، لأنَّهم مُؤمِنُون باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبما لَهُ مِن القُدْرَة والصّدْقِ والقوْلِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ غلبَةَ الرّومِ للْفُرسِ وفرَحَ المؤْمِنينَ بذَلِك خبَرٌ متَضَمِّنٌ للوَعْدِ.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: امتِنَاع إخْلَافِ الله تَعالَى وعْدَه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: ثُبوتُ القُدْرَة والصّدْقِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ مأخُوذَةً مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾؛ لأنَّهُ متضَمِّنٌ لكمالِ الصّدْقِ والقُدْرَة.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ أكْثَر النّاسِ غَيْرُ عَالمينَ بما يسْتَحِقُّه الله تَعالَى مِن صِفاتِ الكمالِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أنَّ العلْمَ الحقيقِيَّ هُو العلْمُ باللهِ تَعالَى وأسمائِهِ وصِفاتِهِ؛ لا العلْمُ بالدّنيا؛ لقوْلِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، ثمَّ قالَ في الآيَة التي بعدَهَا ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا﴾، فنَفَى العلْمَ عنْهُم لأَنَّ علْمَ الدّنيا في الحقيقةِ ليْسَ بعِلْمٍ، فيُستفَاد منْهَا أنَّ العلْم الحقيقِيَّ الَّذي يُمْدَح علَيْه المرْءُ هُو العلْمُ باللهِ وأسمَائِه وصفَاتِه وأحْكَامِه.

الآيـة (٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الرّوم:٧].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ مَعَايِشَهَا مِنْ التّجَارَة وَالزِّرَاعَة وَالبنَاء وَالغرْس وَغَيْر ذَلِك ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ إعَادَة هُمْ تأكيد] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿ يَعْلَمُونَ﴾ خَبَرٌ ثانٍ لـ(لكنَّ)، والخبَر الأوَّلُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقِيل أنَّه بدَلٌ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، ورُدَّ هَذا القوْلُ لأنَّهُ لا يُبْدَلُ المثبتُ مِن المنَفِيِّ للتَّضادِ، فَكيْفَ تُبْدِلُ شيْئًا مثبتًا مِن شيْءٍ مضَادٍّ لَه، وعَلى هَذا فَإِنَّ ﴿ يَعْلَمُونَ﴾ الثّانيَة خبَرٌ ثانٍ لـ(لكنَّ)، وتعَدُّد الخبَر جائِزٌ.

قوْله تَعالَى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ سبحانَ الله العظيمِ! أثْبَت لَهُمُ العلْمَ لكِنَّهُ علْمٌ قاصِرٌ مِن وجْهَيْنِ:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنَّهم إنّما يعلَمُونَ ظاهِرًا مِن الحياةِ الدّنْيا، لَا باطِنًا، وكَمْ مِنَ الأمورِ الخفِيَّةِ في هَذِهِ الحيَاةِ لا يعْلَمُها أُولئكَ الكفَّارُ، فالكفَّارُ لا يعْلَمُونَ كُلَّ خفِيٍّ في هَذِهِ الدّنيا، والدّليلُ عَلَى هَذا تطوُّرُ الصّنائعِ والمختَرعاتِ لأَنَّ هَذا التّطوُّرَ بالنّسبَةِ للسَّابِقينَ غيْرُ معلومٍ، ثمَّ سيَأْتِي تطوُّرٌ آخَرُ يكونُ بالنّسبَةِ للمَوْجُودِينَ غيرَ معلومٍ.

إِذَنْ: هُم إنما ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فلَا يعْلَمُون كُلَّ مَا في الدّنيا مِن ظَاهِرٍ وبَاطِنٍ.

الوَجْهُ الثَّاني: أنَّهم يعلَمونَ ﴿ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وليْسَ كلَّ ظاهِرٍ، وفرْقٌ بينَ أنْ يعْلَمُوا كلَّ ظاهِرٍ مِن الحياةِ الدّنيا وأنْ يعْلَمُوا الظّاهِرَ مِن الحيَاةِ الدّنيا وأنْ يعْلَمُوا ظاهِرًا منهَا، فالتّعبِيرُ يكُونُ عَلَى هَذِهِ الوُجُوهِ، والأخِيرُ يعني أنَّهم لَا يَعْلَمُونَ كُلَّ ظاهِرٍ إنما يعْلَمُون ظاهِرًا منْهَا فقَطْ، وأنَّ هناك ظَواهِرَ أخْرَى لَا يعْلَمُونَها أيضًا، فعُلم بِهَذا قُصُورُ عِلْمِ هَؤُلاءِ، فهُمْ فِيما يتعلَّقُ باللهِ جَلَّ وَعَلَا جُهّالٌ لا يعلمونَ، وفِيما يتعلَّق بالدّنْيا إنَّما يعْلَمُونَ ظاهِرًا مِنَ الحيَاةِ الدّنيا فقَطْ.

أمَّا فِيما يتعلَّقُ بالآخرةِ فيقولُ تعالَى: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾، وهذَهِ جمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ أُكِّد فِيها المبتدأُ (هم) بتكرارِه، فـ(هُم) الثّانية توكِيدٌ للأُوْلى، ولَو حُذِفَت وقِيلَ: (وَهُم عَن الآخرةِ غَافِلُون) كانَ الكلامُ مستقيمًا، لكنَّه كُرِّر للتَّوكِيد، يَعْني هُم بالنّسْبَة لأُمُورِ الآخرة غافِلُون مُعْرِضُون عنْها لا يُفكِّرونَ فِيها، تَجِد الواحِدَ منْهُم في أُمُور الدّنيا فتَنبَهِرُ مِن علْمِه بِها، ولكن فِي أُمورِ الآخرةِ عنْدَه غفْلَةٌ لا يُفكِّر فِيها، ولَا يُحاوِلُ أن يُعمِلَ فِكْرَهُ، ولا أنْ يَنْظُرَ في هَذا الخلْقِ العظِيم، غَافِل عنْ مَاذا يكونُ مآلُه؟ وكَيْف خُلِق؟ وإِلى أيْنَ ينْتَهي؟

وقالَ الله تَعالَى في آيَةٍ أخْرَى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [المؤمنون:٦٣]، يعْني مِنْ أَمْر الإِيمَان باللهِ وبِرَسُولِه ﷺ، ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أعمَالٌ أخْرَى، ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ [المؤمنون:٦٣]، يُدرِكونَها تمامًا، لكِنْ في أمْرِ الإِيمَان باللهِ واليَوْمِ الآخر قلوبُهم في غمْرَةٍ؛ وَلِهَذا يجِدُ جزاءَ هذهِ الغمرةِ إذا قِيلَ لَهُ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢]، وَهَذا يكُونُ يوْمَ القيامَةِ.

المُهِمُّ: أنَّ هَؤُلاءِ الَّذِين غَفَلُوا عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعَنِ الآخرة عنْدَهم عِلْمٌ مِنَ الحياةِ الدّنيا، راجِعِ الآن الصّنائِع تجِدْ شيْئًا يُبْهِرُك لكِنْ مِنْ قَوْمٍ هُم في أمْرِ الآخرةِ أُمِّيـونَ لَا يعْلَمُونَ شيْئًا؛ لأنَّهُم -والعياذُ باللهِ- عنْدَهم غفْلةٌ وَلِهَذا تتعجَّبُ: كيْـفَ يَصِلُ هـؤُلاءِ إِلَى الأجْواءِ ويصْنَعونَ الطّائراتِ والآلاتِ الغرِيبَةَ، ومَع ذَلِك ليْسَ عنْدَهُم عِلْمٌ بِاللهِ واليَوْمِ الآخر، فلَو سألتَ الطّفل مِن المسْلِمينَ أجابَك، ولو سألت أكبْرَ واحدٍ منْهُم مِن المختَرِعِينَ ما أجَاب، وَذَلِكَ فضْلُ الله يُؤتيهِ مَنْ يشَاءُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هلِ الضّمِيرُ في قوْله تَعالَى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعودُ عَلَى الكفَّار أمْ يعُودُ عَلَى غيرِهم مِن المسْلِمينَ الغافِلِينَ؟

قُلْنَا: يَعُود عَلَى الكفَّارِ؛ لأَنَّ المقْصُودَ بِهَذا تأْكِيدُ الذّمِّ في حقِّهم، وإلّا فحَتَّى المؤمِنُون لا يَعْلَمُونَ إلا ظاهرًا مِنَ الحيَاةِ الدّنيا، بِدَليلِ قوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النّحل:٨].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعْضُ المسْلِمينَ غافِلُون عَنْ أكْثَرِ أُمـورِ الدّينِ، ولكنَّهُم عالمونَ بأمُور دُنياهُم؟

قُلْنَا: هذَا صحِيحٌ، وَهَذا فِيه شبَهٌ مِنَ الكفَّارِ حيْثُ حقَّق أمورَ الدّنيا، وأَعْرضَ عَن أُمورِ الآخرةِ.

الحاصِلُ: أنَّ المقْصُودَ مِن هَذا تأكِيدُ الذّمِّ بِالنّسبَةِ لهُم، هَؤُلاءِ الَّذِين جهِلُوا باللهِ وصِدْقِ وعدِه لا لِقُصورٍ فِيهم أَو في أفْهامِهِمْ، لكِنْ لغَفْلَتِهم، وإلَّا فإنَّ المؤمنِين أيضًا يعْلَمُون ظَاهرًا مِن الحيَاةِ الدّنيا ولَا يعْلَمونَ كُلَّ شيْءٍ، لكنَّ المؤمنِين معَهُم عِلْمٌ باللهِ وأسمائِهِ وصِفَاتِهِ وحِينَئِذٍ لا يكُونُ هَذا نقْصًا فِيهم، إنما مَحَطُّ النّقْصِ هُو أنَّ هَؤُلاءِ لا يَعْلَمُونَ ما يتعلَّقُ بالإِيمَان باللهِ، ويَعْلَمُون ظاهِرًا مِنَ الحيَاةِ الدّنْيا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَل الكفَّارُ يُؤمِنُون بوجُودِ الله أمْ يُنْكِرونَ وُجودَه؟

قُلْنَا: يخْتَلِفُـون، فمِنْهم مَن يُنْكِرُ وُجودَ الله، ومِنْهُم مَن لَا يُنْكِرُ، لكِنَّ الَّـذي لا يُنْكِرُ وُجُودَ الله ويُؤْمِنُ بِوجُود الله ثمَّ يَعْبُد غيرَهُ ويُشْرِكُ فهَذا مُتَناقِضٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: قُصُور عِلْم المرْءِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، ليْسَ كُـلَّ الظّاهِر، وليْسَ الباطِنَ، فالمرْءُ علْمُـه قاصِرٌ حتّى في أُمـورِ الدّنيَا أيضًا، فَلا يمْكِنُ للمَرْء الإحَاطَةُ بعِلْمِ الدّنْيا.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: ذَمُّ الَّذِين يتكالَبُون عَلَى العلومِ الدّنْيويَّةِ مَع غفْلَتِهم عَن الآخرةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: أنَّها تتضمَّنُ مدْحَ مَنْ يُقْبِلونَ عَلَى الآخرةِ، ويَحْرِصُونَ علَيْها وإنْ فَاتَهُم شيْءٌ مِنْ أُمورِ الدّنيا؛ لأنَّهُ إذَا ذَمَّ مَن كانَ عَلَى العكْس فذَمُّ الضّدِّ مدْحٌ لضِدِّه، فالَّذِين يُقْبِلُونَ عَلَى الآخرةِ -وإنْ كانَ ليْسَ عنْدَهُم إلا عُلُومٌ قليلَةٌ مِن الدّنيا- أكْمَلُ بكَثِيـرٍ مِنَ الَّذِين يُقْبِلُـون عَلَى الدّنيا ويَغْفَلُونَ عنِ الآخرةِ، وَهَذا ما تدُلّ علَيْه هَذِهِ الآيَات.

• • ۞ • •

الآيــة (٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الرّوم:٨].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ لِيَرْجِعُوا عَنْ غَفْلَتِهِمْ ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لِذَلِكَ تَفْنَى عِنْد انْتِهَائِهِ وَبَعْده البعْث ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أَيْ كُفَّار مَكَّة ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ أَيْ لَا يؤمنون بالبعث بعد الموت] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾: مثْلُ هَذا التّركيبِ فِي إعرابِه للنَّحْويِّينَ قولَان:

أحدُهُما: أنَّ الهمزَةَ مُقَدَّمَةٌ عَلَى مكانِها، وأنَّ أصلَها: (وَأَلَم يتفكَّرُوا)، فتكُونُ الجمْلَةُ معطوفَةً عَلَى مَا سبق.

والوَجْهُ الثَّاني: أن تكُونَ الهمزَةُ داخِلَةً عَلَى محذوفٍ يُقَدَّر بحسب السّيَاقِ، ويكُونُ ما بعْدَها مِن حرْفِ العطْفِ عاطِفًا عَلَى ذَلِك المحذوفِ، وفي هَذِهِ الآيَة يَكُون التّقْدِيرُ: (أَغَفَلوا وَلم يتفكَّرُوا)؛ لأَنَّهُ لما قال: ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ قَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾، والاسْتِفْهام للتَّوبيخِ؛ لأَنَّ الإنسان مأْمُورٌ بأَنْ يتفكَّرَ.

قوْله تَعالَى: ﴿فِي أَنفُسِهِم﴾ هـلْ هُو محَـلُّ التّفكُّر أو آلَـةُ التّفكُّر، بمعْنَى هَـلِ المقْصودُ مِنَ الآيَة الحثُّ عَلَى تفكُّرِهم في أنْفُسِهم كَما في قوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ

أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذّاريات:٢١]، أوِ الحثُّ عَلَى التّفكُّرِ في خلْقِ السّموَات وَالأرْض في أنْفُسِهم؟

نَقُول: يُراد بِه كِلا الأمْرَينِ، لكنَّ الأقربَ الأخيرُ؛ وَلِهَذا قالَ: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، فالمعْنَى: (أَوَلم يَرْجِعُوا إِلَى أنْفُسِهم ويتفكَّروا تفكيرًا حقيقيًّا في هَذا الكوْنِ ليَعْرِفُوا بذَلِك حكمَةَ الله عَزَّوَجَلَّ وما يتضَمَّنُه مِن صفَاتِه العظِيمَةِ).

قوْله تَعالَى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: ﴿مَّا﴾ نَافِيَةٌ، والدّلِيلُ قوْله تَعالَى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، وَ﴿خَلَقَ﴾ بمعْنَى أوْجَد وأبْدَع، ولا يَكُون غالبًا إلا بتَقْدِيرٍ وتنظيمٍ؛ لأَنَّ أصلَ الخلْقِ التّقْدِيرُ في النّفْسِ، كما قال الشّاعر:

وَلأنْتَ تَفْـرِي ما خَلَـقْتَ وَبَعْـ ـضُ النّاس يَخْلُـقُ ثمَّ لا يَفْرِي[1]

يَعْني تُمْضِي ما قَدَّرتَ، فالخلْقُ هُو الإبْداعُ بتَقْديرٍ وتنْظِيمٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: المرَادُ بِها الطّباقُ، وكانَتْ سبْعًا.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: مفْرَدٌ، والمرَادُ الجِنْس، فيَشْمَلُ جَميعَ الأرْضينَ وهِي سبْعٌ، وعُطِفت عَلَى السّمَوَاتِ وهِي منصُوبَةٌ؛ وَلِهَذا فُتِحَتْ بخلَافِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّهَا جَمْعُ مؤنَّثٍ سالِمٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾: ﴿مَا﴾ اسْمٌ موصُولٌ معطُوفٌ عَلَى السّمواتِ، والعلَماءُ يقُولونَ أنَّه إذا تعدَّدَتِ المعطُوفَاتُ فالمعطُوفُ علَيْه هُو الأوَّل؛ لأنَّهُ المبَاشِرُ للعامِلِ وما بَعْـدَه فرْعٌ علَيْهِ، فيكُونُ العطْـفُ إِذَنْ عَلَى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، فلَو قُلْتَ: جاءَ زيْدٌ وعمْرٌو وبَكْرٌ وخالدٌ وسعيدٌ، فسَعِيدٌ معطُوفٌ عَلَى زيدٍ الأوَّلِ؛ لأنَّهُ المباشِرُ

(١) ذكر الجوهري في الصّحاح (٤/ ١٤٧١)، ونسبه إلى الشّاعر زهير بن أبي سلمى.

ومَا بعْدَه فرْعٌ، والفرْعُ لا يُعْطَفُ عَلَى فرْعٍ، بَل يُعْطَفُ عَلَى أصْلٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ البيْنيَّةُ لا تقتضِي التماسَّ، فقَدْ يكونُ الشّيْءُ بيْنَ الشّيئَيْن وهُوَ لا يمسُّ أحدَهما، فهنا الَّذي بيْنَ السّماءِ والأرْض لا يلزمُ أنْ يمَسَّ أحدَهما، لكنَّه يمكِن أن يمسَّ، فعَلى هَذا نقولُ: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ يشمَلُ السّحابَ والرّياحَ والنّجومَ والشّمسَ والقمرَ وغيرَ ذَلِك مِنَ المخلوقَاتِ العظِيمَةِ التي لا نعلَمُها، وفي التّنْصيصِ عَلَى ذِكْر مَا بيْنَ السّموَاتِ وَالأرْض دلِيلٌ عَلَى أنَّ ما بَيْنَهُما أمْرٌ عظِيمٌ يُقارَنُ بنَفْسِ السّموَاتِ وَالأرْض، وَهَذا يعلَمُهُ أهْلُ الفلَكِ الَّذِين يَطَّلِعُونَ عَلَى مَا في الأفُقِ مِنَ الآيَات العظِيمَةِ التي تدُلّ عَلَى مَا تدُلّ علَيْه مِنْ كَمالِ الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: هَذا محَطُّ الفائِدَةِ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، فهذَا حصْرٌ، أيْ هَذا الخلْقُ مُقارَنٌ بالحقِّ، فـ(الباءُ) إِذَنْ للمُصاحَبَةِ والملَابَسَةِ، أيْ أنَّ خلْقَهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى مصْحُوبٌ بالحقِّ؛ لأنَّهُ مُتضمِّنٌ لكَمالِ العدْلِ وكَمالِ الصّدْق، فمَا قامَتِ السّموَاتُ وَالأرْض إلا بالعدْل، والعدْلُ حقٌّ، وهذَا يشْمَلُ أنْ يكُونَ الغايَةُ منْ خلقِها الحقَّ ابتداءً وانتهاءً، كمَا قالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦]، وَلَوْ كانَتْ هَذِهِ السّموَاتُ وَالأرْض خُلِقَتْ لتَحْيا الخليقَةُ عليْها وتَعِيشَ وتمُوتَ بِدُونِ جَزَاءٍ ولا حِسابٍ ولا ثَوابٍ ولا عِقابٍ لكَانَ خلْقُها بَاطِلًا ولَيْس بحَقٍّ.

إِذَنْ: لا بُدَّ لهذِهِ المخلُوقاتِ العظِيمَةِ أنْ يكُونَ لها غَايَةٌ، وهَذِه الغايَةُ هِيَ الحقُّ، فعَلى هَذا نَقُولُ: إنَّ قوْله تَعالَى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يشمْلُ الابْتِداءَ والانْتِهاءَ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: معطُوفٌ عَلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، يعْنِي ما خلَقَهم أيضًا إلا بأَجَلٍ مُسمًّى، أيْ مُعيَّن، والأجَلُ غايَةُ الشّيْءِ، وهُوَ مُسمًّى مِن

قِبَل الله تَعالَى، فهُو الَّذي عيَّنه، وهذَا التّعْيينُ يشْمَلُ الابتِداءَ والانتِهاءَ، فابتِداؤُها بأجَلٍ وانتِهاؤُها بأَجَلٍ أيضًا، فإِنَّ الله تَعالَى أَوْجَد هَذِهِ السّموَاتِ وَالأرْض بَعْدَ أنْ كانَتْ معدُومَةً، وإيجادُهُ لها كَانَ بِالأجَلِ المعَيَّنِ عنْدَه، وَكَذلِكَ سوْفَ يُنْهِي السّموَاتِ وَالأرْضَ، وإنْهاؤُه إيَّاها بالأجَلِ.

إِذَنْ: كُلُّ شيءٍ عنْدَ الله عَزَّوَجَلَّ مُقَدَّرٌ، حتَّى الحوادِثُ التي تَحْدُث فِي السّموات وَفي الأرْض بعْدَ خلْقِها، وإيجَادُها كُلُّه بأَجَلٍ لا يتَقَدَّمُ ولا يتَأَخَّرُ، وإذا تأمَّلْتَ قلِيلًا عرَفْتَ بذَلِك كمَالَ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وكيْفَ أنَّ هَذِهِ الأمُورَ والشّؤُونَ العظِيمَةَ الكثِيرَةَ كُلَّها تُدَبَّرُ بأَجَلٍ لا يتقَدَّمُ ولا يتأَخَّرُ، فنَحْنُ مثَلًا نُقَرِّرُ أنْ نبْدأَ الدّرْسَ في السّاعَةِ الثّامِنَةِ، ولكِنْ أحيانًا نبْدَأُ السّاعَة الثّامِنَةَ والنّصْفَ، وأحْيانًا السّاعَةَ الثّامِنَةَ والثّلُثَ، فنتَأَخَّرُ وَلا يَنْتَظِمُ أمرُنا مَع أنَّه بَسِيطٌ، وهَكذَا كُلُّ شُؤونِ الخلْقِ لا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يَضْبِط جَمِيعَ أعمَاله بأَجَلِها المحَدَّدِ مهْما بلَغَ فِي الحرْصِ؛ لأنَّهُ قد يَعْتَرِيه مَا لا طَاقَةَ لهُ بِه؛ فَلا يستَطِيعُ، لكِنَّ الرّبَّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حدَّدَ كُلَّ شيْءٍ بأَجَلِه لا يتَقَدَّمُ ولا يتَأَخَّرُ، ولا شَكَّ أنَّ هذَا مِن كَمالِ الحكْمَةِ والصّنْع، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النّمل:٨٨].

فإِذَا تأمَّلْنا هَذا الكوْنَ العظِيمَ عَلَى مَا فِيه مِنَ الحوَادِث الفلَكِيَّةِ والأرْضيَّةِ والعامَّةِ والخاصَّةِ فإِنَّنا فِي الحقِيقَةِ نسْتَدِلُّ بِه دَلالَةً واضِحَةً عَلَى كَمال قُدْرَةِ المدَبِّرِ لهذَا الكوْن الخالِق لَه، وأنَّ كُلَّ شيْءٍ بِأجَلٍ.

وفي آيَةٍ أُخْرَى ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرّعد:٨]، فهُو أيضًا بمِقْدارٍ، فهُوَ بأَجَلِه وبمقْدَارِه، لا يَزِيدُ ولا يَنْقُصُ، سُبْحانَ الله العظِيمِ.

قولُه رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لِذَلِكَ تَفْنَى عِنْدَ انْتِهَائِهِ وبَعْدَهُ البعْثُ]: أي:

تَفْنى السّموَاتُ وَالأرْض وما بَيْنَهُما عنْدَ انتهاءِ هَذا الأجَلِ، ثمَّ يأْتِي البعثُ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي كُفَّار مكَّة]: خصَّه المُفَسِّر بأَهْلِ مكَّةَ، والصّوابُ العُمُوم، فيَشْمَلُ أهْلَ مكَّةَ وغيْرَهم، فكثِيْر مِنَ النّاسِ يُنْكِرُونَ البعْثَ، بلْ يُمْكِنُ أنْ نَجِد في غيرِ أهْلِ مكَّةَ مَنْ هُم أشَدُّ منْهُم إنْكارًا للْبَعْثِ، فتَخْصِيصُ العامِّ في القرآنِ أمْرٌ لا يَنْبَغِي إلا إذَا قَامَ الدّلِيلُ عَلَى هَذا.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾: اللِّقَاءُ بمعْنَى المواجَهَةِ والمقابَلَةِ، وكُلُّ إنْسَانٍ سواءٌ مؤمنًا أو كافِرًا سوْفَ يَلْقى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانْشِقاق:٦]؛ لأَنَّهُ قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وَهَذا عَامٌّ، ثمَّ قالَ بعدَ قوْله تَعالَى: ﴿فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانْشِقاق:٦-٧]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانْشِقاق:١٠]، فدَلَّ هَذا عَلَى أنَّه عامٌّ، فكُلُّ أحدٍ ملاقٍ الله عَزَّوَجَلَّ، وسوْفَ يحاسِبُه، ولكِنَّ حِسابَ الله للنَّاسِ يخْتَلِفُ، فالمؤْمِنُ يُقرِّرُه الله بذُنُوبِه، فَإِذا أقَرَّ بِها غَفَر لهُ، وأمَّا الكافِرُ -والعياذُ باللهِ- فإِنَّهُ يُخْزَى بِها ويُعاقَبُ علَيْها، ويَكُونُ هوانًا لَهُ.

والكفْرُ في اللُّغَة السّتْرُ، ومنْه سُمِّي الكفُرَّى الَّذي هُو كافُورُ النّخْل -غُلاف الطّلْع-؛ لأَنَّهُ يسْتُرُهُ والمرَادُ بالكفْر سَتْرُ نعمةِ الله عَزَّوَجَلَّ عَلَى المرْءِ بحَيْثُ يَعْصِيهِ إذا أمَرَه ويجْحَدُه إذا طلَبَ مِنْه الإيمَان، وأنْوَاعُ الكفْر كثِيرَةٌ:

منْهَا: الكفْر المخْرِجُ عَن الملَّةِ.

ومِنْها: الكفر أَي: خِصالُ كَفْرٍ، وليْس الكفْر المطْلَقِ.

وَهَذا يَرْجِعُ إِلَى حَسَبِ النّصُوصِ الشّرْعِيَّةِ.

فَائِدَةٌ: الَّذي لَا يَعْمَلُ بمقْتَضَى إيمانِه فوُجودُ إيمَانِهِ كالعدَمِ؛ لأَنَّ الكفْرَ نَوْعَانِ:

- كُفْرُ جَحْدٍ.

- وكُفْرُ اسْتِكْبارٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾: (اللام) للتوكيد، و(كافِرُون) خبَرُ إنَّ، و﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّقٌ بِه، وقُدِّم علَيْه لمَراعَاةِ الفواصِلِ، ومُراعَاةُ الفواصِلِ في القرآنِ الكرِيم ظاهِـرٌ؛ لأَنَّ القرآنَ -أوْ لأَنَّ الكلامَ عامَّةً- إذا كانَتْ لَهُ فواصِـلُ متَّفِقَةٌ يَكُونُ هَذا أنْشَطَ للنَّفْسِ وأرْغَبَ فِي استِماعِهِ وتِلَاوَتِهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفوائِدُ الأوْلى والثّانِيَةُ والثالِثةُ: تَوبِيـخُ مَن أعْرَض عَنِ التّفكُّرِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾؛ لأَنَّ الاسْتِفْهام هُنا للتَّوبِيخِ، ويتفَرَّعُ عَلَى هَذِهِ الفائِدَةِ فائِدَةٌ ثانيَةٌ: وهِي الحثُّ عَلَى التّفَكُّرِ، ويتفرَّع علَيْه الفائِدَةُ الثالِثةُ وهِي أهميَّةُ التّفكُّرِ؛ لأَنَّ الله لا يَحُثُّ عَلَى شَيْءٍ ويُوبِّخُ عَلَى ترْكِه إلا لما فِيهِ مِنَ الفائِدَةِ والمصْلَحِة.

الفائِدَتانِ الرّابِعَـةُ والخامِسَةُ: أنَّ محَلَّ التّفْكِيـرِ هُو العقْـلُ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾، هَذا إذا قُلْنا: إنَّ المرَاد كَوْنُ النّفْسِ آلةَ التّفَكُّر وطرِيقَ التّفَكُّرِ.

أمَّا إذا قُلْنَا أنَّها محَلُّ التّفَكُّر فيُستَفاد منِه فائِدَةٌ وهِي عظِيمُ صُنْعِ الله عَزَّوَجَلَّ في نَفْسِ الإنسان، ومَا أوْدَعهُ فِيه مَنَ العجائِبِ، وإذا أرَدْتَ أنْ تعْرِفَ ذَلِك فاذْهَبْ إلَى أهْلِ العلومِ والطّـبِّ تجدْ في جِسْمِك العجَبَ العجابَ، فهَذا الطّـعامُ الَّذي تأْكُلُه يتحَوَّلُ إلَى دَمٍ، ويتَوزَّعُ عَلَى الجسْمِ بحسَبِ أنْسِجَتِه، فتُعطَى الأعْصابُ كمِّيَّةً تلِيقُ بِها، ويُعطَى اللَّحْمُ كمِّيَّةً تلِيقُ بِه، وتُعطَـى العظَامُ كميَّةً تلِيقُ بِها، فهَذِه الأنَابِيـبُ الدّقِيقَةُ مثْلَ الشّعْرِ توزِّعُ عَلَى هَذا الجسْمِ بقَدْرِ ما يَحْتَاجُ إلَيْهِ.

وقَدْ ذَكر ابْنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِ (مِفْتَاحُ دَارِ السّعادَةِ) مِنْ هَذا شيئًا كثيرًا، وهَذا قَبْلَ أنْ يَرْتَقِي الطّبُّ إِلَى ما ارْتَقى إِلَيْهِ اليَوْمَ.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أنَّ خالق السّموَاتِ وَالأرْض هُو الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، فلَمْ يَخْلُقْهُما أحَدٌ؛ وَلِهَذا قَال فِي سُورَةِ الطّورِ ﴿أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطّور:٣٦].

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: إثْبَات تعدُّدِ السّموَاتِ وهِي سَبْعٌ، وأمَّا الأرْض فَهِي دَائِمًا تُفْرَدُ فِي القرآنِ، ومَا ذُكِـرَتْ في القرآنِ مجمْوعَةً، لكِنْ أُشِير إِلَى أنَّها جَـمْعٌ فِي قوْله تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطّلاق:١٢].

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أنَّ بَيْن السّموَاتِ وَالأرْض مِن المخْلُوقاتِ العظِيمَةِ مَا استَحَقَّ أنْ يُجْعَل قَسِيمًا لخَلْقِ السّموَات وَالأرْض، لقولِه تعالَى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، وهَذِه ثلاثَةُ أشْيَاءِ: (السّموَاتُ، وَالأرْض، ومَا بَيْنَهُما)، وكُلُّنا يعْلَم عِظَم الأرْض وعِظَمَ السّماءِ، إِذَنْ: فعِظَمُ مَا بَيْنَهُما مُوازٍ لهُما.

الفائِدَتَانِ التّاسِعَةُ والعاشِرَةُ: عِظَم قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ وبَالغ حكْمَتِه، أمَّا الحكْمَةُ فنَأْخُـذُها مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، فهِي ليْسَتْ عبَـثًا بِل بالحقِّ، أمَّا القُـدْرَة فنأْخُذُها مِن عِظَم المقْدُورِ، فعِظَمُ المقْدُورِ يَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ الخلْقِ، وَهَذا مِنَ الدّلالَةِ بِاللّازِم، وَإِنَّ الله إِذا فتَحَ عَلَى العبْدِ مَعْرِفَـةُ لوَازِمِ النّصـوصِ اسْتَفادَ بِذَلِكَ فـوَائِدَ عظِيمَةً، حتَّى أنَّه يأْخُذُ مِنَ النّصِّ الوَاحِدِ مِنَ المسَائِلِ مَا لا يَأْخُذُ غَيْرُه نِصْفَها أوْ أقَلَّ.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: أنَّه ينْبَغِي لِلإِنْسَانِ أنْ لا يُضيِّعَ وقتَهُ سبَهْلَلًا[1] وسُدًى؛

(١) قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط (ص:١٣٠٩): «يَمْشِي سَبَهْلَلًا: إذا جاء وذهَبَ في غيرِ شيءٍ».

نأْخُذُه مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأَنَّ ضِدَّهُ الباطِلُ، والباطِلُ إِمَّا ضارٌّ وإِمَّا غيرُ ضارٍّ ولَا نافِعٍ، وكُلُّ لهوٍ يلْهُو بِه ابْنُ آدَم فهُوَ بَاطِلٌ إلا كَذا وكَذا[1].

والمُهِمُّ: أَنَّه ما دَامَتِ السّموَاتُ وَالأَرْض كُلُّها خُلِقَتْ بالحقِّ والجدِّ والصّدْقِ والثّباتِ فيَنْبغِي لكَ أنْ تكُونَ موافِقًا لهذِه الحكْمَةِ التي مِنْ أجْلِها خُلِقَتِ السّموَاتُ وَالأَرْض.

الفائِدَتانِ الثّانِيَةَ عشْرَةَ والثالِثَةَ عشْرَةَ: أنَّ هَذا الخلْقَ عَلَى عِظَمِه لَه أَجَلٌ محدُودٌ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي مُعَيّنٍ، وكلُّ شيءٍ في السّموَاتِ وَالأَرْض كُلِّيًّا كَان أمْ جُزْئِيًّا فإِنَّهُ مُحَدَّدٌ إِلَى أجَلٍ مُسَمًّى، وسوَاءٌ كانَ ذَلِك عيْنًا أَوْ صِفَةً فإِنَّها محدَّدَةٌ إِلَى أجَلٍ مُسَمًّى؛ وَمِن الحكَم المشْهُورَةِ (دَوَامُ الحالِ مِنَ المحَالِ)، وَهَذا يتفَرَّعُ علَيْه فائِدَةٌ أُخْرَى وَهِي أنَّ الخلْقَ ناقِصٌ، حيْثُ لم يُقَدَّر لَهُ الأَبدِيَّةُ، فَهُوَ نَاقِصٌ، وَلِهَذا تأْتِي الحيَاةُ الآخرةُ كامِلَةً؛ لأنَّها مؤَبَّدَةٌ.

الفائِدَةُ الرّابِعةَ عشْرَةَ: كَمالُ الحكْمَةِ؛ حيْثُ كانَ كُلُّ شيْءٍ لَهُ أجَلٌ مقَدَّرٌ منظَّمٌ، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرّعد:٨]، والمقْدَارُ يشْمَلُ مِقْدَارَ الكمِّيَّةِ ومِقْدَارَ الكيْفِيَّةِ ومِقْدَارَ الزّمنِيَّـةِ ومِقْدَارَ المكَانِيَّةِ، فكُلُّ هـذِه الأنْواعِ الأرْبَعَـةِ يشْمُلُها قوْلُه تَعالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرّعد:٨].

الفائِدَةُ الخامِسَةَ عشْرَةَ: أنَّه مَع هَذِهِ الآيَات العظْمَى -خَلَقِ السّموَاتِ وَالأَرْض وما بَيْنَهُمـا، وتأْجِيلِ ذَلِك بأجَـلٍ مُسَمًّى، وتقْدِيرِه بتَقْدِيرٍ مُعَيَّـنٍ- كَثِيرٌ مِن النّاسِ يُنْكِرُون لِقاءَ الله.

---

(١) كما ورد في الحديث: «كُلُّ مَا يَلْهُو بِهِ الرّجُلُ المسْلِمُ بَاطِلٌ إلا رَمْيَهُ بِقَوْسِهِ، وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتَهُ أَهْلَهُ، فَإِنَّهُنَّ مِنْ الحقِّ»، أخرجه التّرمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرّمي في سبيل الله، رقم (١٦٧٣).

والحقِيقَةُ أنَّ العاقِلَ يَسْتَدِلُّ بِهَذا التّأجِيلِ عَلَى وُجوبِ لِقَاءِ الله إِذَا رَأَى أصْحابَهُ وقُرنَاءَه الَّذِين كانُوا بالأمْسِ معَهُ يذْهَبُون واحِدًا فَواحِدًا، فَلا شكَّ أنَّ هذَا يحْمِلُه عَلَى الإِيمَان؛ لأَنَّهُ يعْلَمُ أنَّه لَو دامَتِ الدّنيا لأَحَدٍ مَا وصَلَتْ إِلَيْهِ، فإِنَّها مَا وصلَتْ إِلَيْك إلا بعْدَ أنْ خلَّفَتْ غيرَكَ.

إِذَنْ: يُستَدَلُّ بهذِه الآجالِ المقَدَّرةِ عَلَى أنَّه لا بُدَّ أنْ يكُونَ هُناكَ شيْءٌ ورَاء هَذا كلِّهِ، ومِنَ المؤَكَّد أنَّه ليْسَ مِن الحكْمَةِ أنْ تُنْشَأَ هَذِهِ الخلِيقَةُ العظِيمَةُ، وَبِهذَا النّظَامِ البدِيعِ، ثمَّ تكُونُ النّهايَةُ أنْ يَمُوتَ الإنسان كَجِيفَةِ حِمَارٍ؛ وَلِهَذا قالَ الله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، فهَذِه الشّرائِعُ التي نزَلتْ لا بُدَّ أنْ يكُونَ وراءَها شيْءٌ وهُوَ البعْثُ الَّذي بِه لِقَاءُ الله عَزَّوَجَلَّ، لكِنْ مَع هَذا ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.

الفائِدةُ السّادسَةَ عشْرَةَ: إثْبَات البعْثِ المفْهُومِ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.

الفائِدةُ السّابعَةَ عشْرَةَ: أنَّ كُلَّ أحَدٍ سيُلاقِي الله عَزَّوَجَلَّ؛ نأْخُذُه مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ﴾، وقَال تَعالَى فِي سُورَةِ الانْشِقاق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانْشِقاق:٦].

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَل هَذا اللِّقاءُ شامِلٌ للمُؤْمِنِ والكافِرِ؟

قُلْنَا: نَعَمْ، لكِنْ هُناكَ فَرْقٌ بيْنَ اللِّقائَيْنِ، كَما أنَّ الرّجُلَ يُلاقِي زيْدًا ويُلاقِي عَمْرًا ويَكُونُ بَيْن اللِّقائَيْنِ فَرْقٌ عظِيمٌ، فَيُلاقِي هَذا بِوَجْهِ غَضَبٍ، ويُلاقِي هَذا بوَجْهِ رِضًا، وَهَذا بِوَجْهِ انْقبَاضٍ وَهَذا بِوَجْهِ انْبِسَاطٍ، ومَا أشْبَهَ ذَلِكَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَلِ المرادُ باللِّقاءِ هُنا اللِّقاءُ المجَرَّدُ أَم المرادُ بِه الرّؤْيَةُ؟

قُلْنَا: المرْادُ باللِّقاءِ المواجَهَةُ، لكِنَّها بَعْد البعْثِ، فمِنْ لازِمِها البعْثُ، أمَّا مسأَلَةُ الرّؤْيَةِ فاللهُ أعْلَمُ، لأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر فِي الكفَّارِ ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥].

الفائِدَةُ الثّامِنَةَ عشْرَةَ: إثْبَات الرّبُوبِيَّة العامَّةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾، معَ أنَّه يتكَلَّمُ عَن الكافِرِينَ، فَهِي الرّبُوبِيَّة العامَّةُ.

والرّبُوبِيَّةُ تنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: عامَّةٍ وخَاصَّةٍ، وقَدِ اجْتَمعَا فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢]، فالأُولى عامَّةٌ والثّانِيَةُ خاصَّةٌ، والفرْقُ بَيْنَهُما أنَّ الرّبُوبِيَّةَ العامَّةَ تَسْتَلْزِمُ التّصرُّفَ المطْلَقَ فِي المرْبُوبِ، والخاصَّةُ تسْتَلْزِم مَع التّصرُّفِ المطْلَقِ العنَايَةَ بِهِ ونصْرَه وتأْيِيدَهُ ومَا أشْبَه ذَلِك، ومِثْلُ هذَا نقُولُه فِي المعِيَّةِ العامَّةِ والخاصَّةِ، ومَسائِلَ كثِيرَةٍ مِن هَذا النّوْعِ.

الفائِدَةُ التّاسِعَةَ عشْرَةَ: ذَمُّ مَن كَفَرُوا بِلِقاءِ الله عَزَّوَجَلَّ مَع آيَاتِهِ العظِيمَةِ الدّالَّةِ عَلَى وُجُودِهِ وحِكْمَتِه؛ لقوْلِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾، وهَذِه الجمْلَةُ بِلا رَيْبٍ تدُلّ عَلَى الذّمِّ.

الآيــة (٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الرّوم:٩].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِنْ الأمَم وَهِيَ إهْلَاكهمْ بِتكْذِيبِهِمْ رُسُلهمْ ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كَعَادٍ وَثَمُود ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ حَرَثُوهَا وَقَلَّبُوهَا لِلزَّرْعِ وَالغرْس ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أَيْ كُفَّار مَكَّة ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالحجَجِ الظَّاهِرَات ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بِإِهْلَاكِهِمْ بِغَيْر جُرْم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بِتكْذِيبِهِمْ رُسُلهمْ] اهـ.

قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ معْطُوفٌ عَلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾، فالتّفكُّر في خلْقِ السّموَاتِ وَالأرْض، والسّيرُ في الأرْض فقَط، ثمَّ السّيْرُ في الأرْضِ إمَّا أنْ يكُونَ سيْرًا بالأقْدَامِ أوْ سَيْرًا بالأفْهَامِ، فَإنْ كانَ سيْرًا بالأفْهامِ فَهُو داخِلٌ فِيما سبَقَ، وقَدْ نَقُولُ: إنَّ هَذا أخَصُّ مما سَبَقَ؛ لأنَّهُ قَال هُنَا: ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، فهُوَ نَظَرٌ في حوَادِثَ لَا في خلْقِ الأرْض؛ فتكُونُ هَذِهِ الآيَة منفصَلِةً عَنِ التي قبْلَها مِن حيْثُ المعْنَى، فالأُولى تفْكِيرٌ؛ وَلِهَذا جاءَ متعلِّقُها

عامًّا: (فِي السَّمَوَاتِ والأَرْض ومَا بَيْنَهُما)، وَهَذا السَّيْرُ لأمْرٍ مخصُوصٍ، أي الحوادِثِ، أنْ ينْظُروا كيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِين مِنْ قبْلِهِمْ، فيَشْمَلُ السَّيْرَ بالقدَمِ، والسَّيْرَ بالفكْرِ والفهْمِ، عَلَى القوْلِ بأنَّه سيْرُ أقْدَامٍ يكُونُ السَّيْرُ حسِّيًّا، وعَلى الثَّاني يكُونُ معنَوِيًّا، فيَشْمَلُ السَّيْرَ الحسِّيَّ والسَّيْرَ المعْنَوِيَّ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيْفَ تطْلُبونَ مِنَ الإنسان أنْ يسيرَ بقَدَمِه إِلَى مَواقِعِ العذابِ وقَدْ نَهى النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ ندْخُلَ مواقِعَ العقَابِ إلا ونحْنُ بَاكُونَ؟

قُلْنَا: لا تعارُضَ؛ لأَنَّ هَذا هُو المقْصُودُ، فالسَّيْرُ إِلَى مَوَاقِعِ العذابِ المقْصُودُ بِه الاتِّعاظُ والانْزِجارُ، وَهَذا يتحَقَّقُ بالبكاءِ، وَلِهَذا نَهى النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنْ ندْخُل دِيَارَ ثَمُودَ إلا ونَحْنُ بَاكُونَ، وقَالَ: «**إِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا**»[1]، وبعْضُ النَّاسِ يذْهَبُ إِلَى دِيَارِ ثمُودَ عَلَى سبِيلِ النَّزْهةِ والطَّرَبِ والتَّمتُّعِ بالـمنَاظِرِ؛ وَلِهَذا يأْخُـذُونَ لها صُوَرًا؛ إعْجابًا بها لا خوفًا، وَهَذا مِنْ قسْـوَةِ القلْبِ -والعياذُ باللهِ-، والجهْلِ بِمَا جَاء بِهِ النَّبيّ ﷺ؛ لأَنَّ غالب هَؤُلاءِ الَّذِين يذْهَبُون لِهَذا المقْصَدِ يَكُونُونَ جاهِلِينَ، ولَا نَقُولُ: إِنَّ كلَّهم عنْدَهم قسْوَةُ قلْبٍ تعمَّدوا مخالفةَ الحقِّ، لكنَّنا نقُولُ أنَّ عنْدَهم شيْئًا مِنَ الجهْلِ أوِ الغالب عليْهِمُ الجهْلُ، وإلا لا يُمْكِنُ أنْ يفرَحَ أحدٌ في مكَانٍ نَهى الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عنْ دُخُولِه إلا في حَالِ البكاءِ، وإلا فَإِنَّ الإنسان الَّذي لا يعْرِفُ مِن نفْسِه أنَّه إِذا ذَهَبَ سيتَأَثَّرُ حتَّى يَبْكي لا يَجُوزُ لَهُ أنْ يدْخُلَ؛ لأَنَّ النَّبيّ ﷺ نَهى عَنْ ذَلِك.

---

(١) في قوله ﷺ: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ المعَذَّبِينَ إلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ لَا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ**»، أخرجه البخاري: كتاب الصّلاة، باب الصّلاة في مواضع الخسف والعذاب رقم (٤٣٣)، ومسلم: كتاب الزّهد والرّقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذّين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، رقم (٢٩٨٠).

وقوْله تَعالَى: ﴿فِي﴾ معناها (عَلى)؛ لأنَّهَا لو أُخِذَتْ بِظاهِرِهَا لكَانَ السّيْرُ في سَرَادِيبَ تحْتَ الأرْض؛ لأَنَّ ﴿فِي﴾ للظَّرْفِيَّةِ، والظّرْفُ مُحِيطٌ بِالمظْروفِ مِن جَمِيعِ الجوَانِبِ، ولا يُمْكِنُ أنْ تُحِيطَ بِك الأرْض مِن جَمِيعِ الجوانِبِ إلا إذَا كُنْتَ دَاخِلَ الأرْض في سرْدَابٍ، ولَيْس هَذا مُرادًا، فَعلَى هَذا تكُونُ ﴿فِي﴾ بِمَعْنَى (عَلَى).

وقِيلَ إنَّ ﴿فِي﴾ للظَّرْفِيَّةِ عَلَى بَابِها ولَا حاجَةَ إلَى تأْوِيلِها، وأنَّ ظَرْفِيَّةَ كُلِّ شيءٍ بحسَبِه؛ فيَكونَ معنَى قوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: فِي ظَهْر الأرْض، وكُلُّ أحدٍ يعْرِفُ أنَّه لا يُرادُ أنْ تخْرِقَ الأرْض وتَمْشِيَ في أسْفَلِها، ولَا أحدَ يفْهَمُ هَذا، وأيًّا كَان فَإِنَّ المرَادَ السّيْرُ عَلَى ظَهْرِ الأرْضِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذَا كانَ يسِيرُ عَلَى ظهْرِ الأرْضِ فإنَّ الأرْضَ تكونُ محيطَةً بِه؟

قُلْنَا: لَا تكونُ محيطَةً بِه مِنْ يمينِه ويَسَارِه، إذْ لَا تُوجَدُ جُدْرانٌ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: فالمعْنَى واضِحٌ، وحَتّى لَوْ قُلْنا إنّ ﴿فِي﴾ للظَّرْفِيَّةِ، فإنَّ الظّرْفَ في كُلِّ موْضِعٍ بحسَبِهِ، وليْسَ بِلَازِمٍ أنْ يكُونَ (في) بمعنَى جَوْف.

وقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾: الأرْضُ مفرَدٌ، والمرادُ بِه الجِنْس، أي الأراضِي التي وَقَع العذَابُ بأَهْلِها، مثْلَ دِيارِ ثَمُودَ والأحْقَافِ ودِيَارِ قَوْمِ لُوطٍ، كَما قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر:٧٦].

قوْله تَعالَى: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾: هَل نظَرَ بَصَرٍ أوْ نظَرَ بَصِيرَةٍ؟

والجوابُ: إنْ كانَ السّيْرُ بالقدَمِ فالنّظَرُ نظَرُ البصَرِ، وإنْ كانَ السّيْرُ بالفهْمِ فالنّظَرُ نظَرُ بَصِيرَةٍ، يعْني فينْظُروا بعَيْنِ البصِيرَةِ أوْ بعَيْن البصَر حسَبَ السّيْرِ كَما سَبَق.

والمرَادُ بعَيْنِ البصِر الَّذي يُؤدِّي إلَى عيْنِ البصِيرَةِ، وَليْس المقْصُود أنَّك إذا

سِرْتَ بقدَمِك وَوصلْتَ المكانَ تُغْمِضُ، بلْ تنْظُر بعَيْنِك.

وهلْ النّظَرُ بالعيْن يُفيدُ أوْ لا يُفيدُ؟

إن كانَ ليْسَ فِيه بصِيرَةٌ فَلا يُفِيدُ، فالمرَادُ بالسّيْرِ عَلَى القدَمِ النّظَرُ بالعيْنِ لِيُؤدِّيَ ذَلِك إِلَى النّظَرِ بالبصِيرَةِ، وإلّا فالنّظرُ المبَاشِرُ بالسّيرِ عَلَى القدمِ هُو بِالعيْن.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾: (الفاء) هنَا يَجوز فِيها وجْهَانِ:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنْ تكُونَ عاطِفَةً، والمعْنَى: أفَلَمْ يَسيرُوا فَلَمْ ينْظُروا.

الوَجْهُ الثَّاني: أنْ تكُونَ سبَبِيَّةً، والمعْنَى: أفَلَمْ يَسيرُوا فَيَنْظُروا، فبِسَبب سيْرِهم ينْظُرون كيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِين مِن قبْلِهم.

وقوْله تَعالَى: ﴿يَسِيرُواْ﴾ و﴿فَيَنظُرُواْ﴾: مجْزومانِ بحذْفِ النّونِ، والوَاوُ فَاعِلٌ؛ لأنَّهما مِنَ الأفْعَالِ الخمْسَةِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿كَيْفَ﴾: اسمُ اسْتِفْهامٍ خبرُ ﴿كَانَ﴾ مقَدَّمًا، و﴿عَٰقِبَةُ﴾ اسْمُها فِي مكانِها، والعاقِبَةُ مصْدَرٌ بمعْنَى العقْبى، وعاقِبَةُ الشّيْءِ ما يتْلُوه ويَأْتِي بعْدَهُ، فقوْلُه تَعالَى: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أيْ مَا تَلا تكْذِيبَهُمْ لِلرُّسُلِ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ الأمَم، وهِي إهْلَاكُهُم بتكْذِيبهم رُسُلَهم]: كانَت عاقِبَةُ ثمودَ الإهلاكَ والدّمارَ، وعادٌ الَّذِين استكْبَرُوا في الأرْضِ وقَالُوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أيْ: لَا يُوجَدُ أحَدٌ أشَدُّ منَّا قُوَّةً، كانَتْ عاقبَتُهم أنْ أُهْلِكُوا بأَمْرٍ مِن ألْطَف الأشْيَاء وهُو الرّيحُ، وَالرّيحُ جسْمٌ لطِيفٌ لَا يُرَى، لكنَّ هَؤُلاءِ كِبارَ الأجسامِ شدَيدي القوى أُهْلِكُوا بهذِه الرّيحِ اللَّطيفَةِ التي لا تُرى ليتبَيَّنَ ضعْفُ الإنسان، وأنَّه مهْما كانَ فاللهُ عَزَّوَجَلَّ أقْوَى مِنْهُ، كَما قَال تعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ

أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، وَكَذلِكَ قُرَى قومِ لوطٍ الَّذِين أُتْرِفُوا فتَلِفُوا -والعياذُ باللهِ-، أُتْرِفُوا ونُعِّمُوا حتَّى كانُوا مِنْ شِدَّةِ التّرفِ -والعياذُ باللهِ- يعْدِلُونَ عمَّا خلقَ الله لهمْ مِنْ أزْوَاجِهِمْ إِلَى إِتْيانِ الذّكُورِ، نسْأَلُ الله العافِيَةَ.

قوْله تَعالَى: ﴿كَانُوٓاْ﴾: جملَةٌ استئنَافِيَّةٌ يُراد بِها بَيان حَال هَؤُلاءِ السّابِقِينَ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كعاد وثمود]: لا أشُكُّ أنَّهم أشَدُّ مِن قُرَيْشٍ قوَّةً، فعَادٌ معرُوفَةٌ قوَّتُهم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر:٦-٨]، وثمودُ أيضًا الَّذِين ينْحِتُون مِن الجبال بُيوتًا فارِهِين، بُيوتًا آمِنَة عاليَةً شامخةً مِنَ الجبَالِ وَالأحْجَار، وَهَذا يدُلُّ عَلَى القوَّةِ، ومِنَ السّهولِ يتَّخِذُون قصورًا عظِيمةً فخْمَةً، ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ [الأعراف:٧٤]، وهَذا لمْ يحَصُلْ لأهْلِ مكَّةَ، ومَع ذَلِك دمَّرهم الله عَزَّوَجَلَّ بكُفْرِهم وتكْذِيبِهِمْ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾: معطُوفٌ عَلَى ﴿كَانَ﴾، وليْسَ معطوفًا عَلَى خَبَرِ كانَ، أيْ عاقبةُ الَّذِين مِنْ قبْلِهم أثَارُوا الأرْضَ، وليْسَتْ معطُوفةً عَلَى ﴿أَشَدَّ﴾، حتَّى نقُولَ: كانُوا أشَدَّ منْهُم وكانُوا أثَارُوا الأرْضَ وعَمَرُوها، بَلْ معطُوفَةً عَلَى كَانَ.

قوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ حرثـوها وقلبوها للزرع والغرس]: هَـذِهِ إثـارَةُ الأرْض، فالإنسان إذا حرَثَ الأرْضَ لَا شكَّ أنَّه يُثِيـرُهَا، والحرْثُ معرُوفٌ بالمسحاة[1] أوْ بالجرَّاراتِ تُثِيـرُ الأرْض يعْنِي ترفَـعُها، وَكَذلِكَ أيضًا الغـرْس فإِنَّ الإنسان يُثِيرُ الأرْضَ ليَحْفِرَ للشَّجَرةِ حتَّى يثبِّتَها، فهَؤُلاءِ أشَدُّ منْهُم قوَّةً، وأيضًا قَد أثَارُوا الأرَاضِيَ، أمَّا أهْلُ مكَّةَ فلَمْ يُثِيروا الأرْضَ؛ لأنَّهُم فِي وادٍ غيْرِ ذِي زَرْعٍ.

---

(١) المسحاة: كالمجرفة إلا أنها من حديد، الصّحاح للجوهري (٧/ ٢٢٣).

قوْله تَعالَى: ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾: أي السّابِقُون عمَرُوا الأرْضَ بالتّجارَةِ والبنَاءِ والمصانِع وغيرِها، فسُلَيْمانُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قالَ الله لَهُ: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ:١٣]، والجفانُ الصّحَافُ التي فِيها الطّعامُ، ﴿كَٱلۡجَوَابِ﴾ والجابِيَةُ هِي بِرْكَة الماءِ، فَالصّحْفَةُ مِثْل بِرْكَةِ الماءِ، هَذا عظِيمٌ ﴿وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍ﴾ لا تُحْمَلُ مِنْ كِبَرها وكثْرَةِ الطّعامِ فِيها، هَذا كُلُّه ومَا هُو مِثْلُه لمْ يحْصُلْ لِقُرَيْشٍ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجَجِ الظّاهِرَاتِ]: (الباءُ) للمُصَاحَبَةِ أوْ للتَّعْدِيَةِ، والمعْنَى أنَّ الرّسَل -علَيْهِمُ الصّلاةُ والسّلامُ- جاءَتْهُم مِنْ قِبَل الله تعالى ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، أي بالحجَج البيِّنات، أوْ قُل: بِالآيات البيِّنَاتِ التي تشْمَلُ الحجَجَ والأحْكامَ؛ فإنَّ الحكْمَ إذا كانَ حُكْمًا عادِلًا نافِعًا للعِبَادِ فإنَّهُ بَيِّنَةٌ تدُلّ عَلَى صِدْق مَن أَتَى بِه، فَالرّسُلُ كُلُّهم جاؤُوا بالبيِّناتِ، ومَا مِنْ رسُولٍ إلا أَتى بِبَيِّنَةٍ، ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥].

إِذَنْ: فمَعَ كُلِّ نَبِيٍّ كِتابٌ، كُلُّ نبِيٍّ لَهُ كِتَابٌ، وكُلُّ نَبِيٍّ لَه آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ، ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

المُهِمُّ: أنَّه مَا مِن رسُولٍ إلا مَعَه بَيِّنَةٌ وكِتَابٌ.

قولُه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾: (اللَّامُ) في قولِه ﴿لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ تُسَمَّى لامَ الجحُودِ، أيْ لامَ النّفْي؛ لملازَمَتِها لَهُ، وهِي التي سبقَها (لم يكن)، أو (ما كان)، وهِيَ تنْصِبُ الفعْلَ المضَارِعَ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾: إذا قِيلَ: (مَا كانَ الله ليَفْعَل كَذا)

ومَا أشْبَه ذَلِك فاعْلَم أنَّه مُمْتَنِعٌ غايةَ الامْتِنَاعِ، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤]، أيْ ممتَنِعٌ غايَةَ الامْتِنَاعِ، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص:٥٩]، مُمْتَنِعٌ غايَةَ الامتِنَاعِ، وهَكذا كُلَّما جَاء مثْلُ هَذا التّعبيرِ، فالمرَادُ أنَّه ممتَنِعٌ غايَةَ الامْتِنَاعِ.

والظّلمُ في أصْلِ اللُّغَة النّقْصُ، ومِنْهُ قولُه تَعالَى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣]، وهُوَ في الشّرع كَذَلِكَ نَقْصٌ فِيما يَجِبُ، فيَشْمَلُ الإهْمالَ في الوَاجِبِ والتّعدِّي في المحَرَّم، فالتّعدِّي في المحَرَّمِ نقْصٌ؛ لأنَّك بَخَسْتَ نفْسَك حقَّها؛ حيْثُ لَمْ تجتَنِبِ المحَرَّمَ، وَكَذلِكَ أيضًا التّقْصِيرُ في الوَاجِبِ نقْصٌ، فمَنْ قصَّرَ فِي واجبٍ فقَدْ ظَلَم نفْسَهُ، ومَنْ تعدَّى فِي مُحَرَّمٍ فقَدْ ظلَم نفْسَهُ؛ لأنَّهُ نَقَص مِمَّا يَجِبُ أنْ يُعامِلَ بِه نفْسَهُ، فيَكُونُ الظّلْمُ إمَّا تركًا لوَاجِبٍ، وإمَّا فِعْلًا لِمُحَرَّمٍ.

وبِالنّسبَةِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنَّ نَفْيَ الظّلْمِ صِفَةٌ سلبيَّةٌ، تتضَمَّنُ كمَالَ العدْلِ، فهُوَ لَا يظْلِمُهُمْ لا لأنَّهُ عاجِزٌ عنْهُم، ولا لأنَّهُ غَيْرُ قابِلٍ لَهُ، ولكِنَّهُ لِكَمالِ عدْلِه عَزَّوَجَلَّ لَا يُمْكِنُ أنْ يَظْلِم.

ونَفْيُ الظّلْمِ يكُونُ لِثلاثَةِ أسْبَابٍ: إمَّا لِكمال العدْلِ، أَو العجْزِ، أوْ عدَمِ القابِلِيَّةِ.

فَإذا قُلْت: إنَّ الجدارَ لَا يَظْلِمُ فهُو لِعَدم القابِلِيَّةِ لَا يَقَع منْهُ الظّلْمُ أصْلًا.

وإذا قُلْتَ: فُلانٌ ضعِيفٌ لَا يظْلِمُ عدُوَّه، فهَذا للْعَجْزِ، قَال الشّاعِرُ[1]:

قَبِيلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ ... وَلَا يَظْلِمُونَ النّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

---

(١) هو النّجاشي الحارثي واسمه قيس بن عمرو، انظر الحماسة الشّجرية (٤٥٢)، والشّعر والشّعراء (١/ ٢٨٨).

فهُم لا يظْلِمُونَ لِعَجْزِهم.

وإِذَا قُلْتَ: إِنَّ الله لا يَظْلِمُ النّاسَ شيْئًا، فهُوَ لِكَمالِ عدْلِه، فإِنَّه قادِرٌ جَلَّ وَعَلَا أَنْ يظْلِمَ لكِنَّهُ ممتَنِعٌ علَيْه لكَمالِ صِفاتِهِ، وقَالت الجبْرِيَّةُ أَنَّه لا يَظْلِمُ لعَدَمِ قابِلِيَّتِه، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يمْلِكُ جَمِيعَ الخلْقِ فتصَرُّفُه في مُلْكِه ليْسَ بظُلْمٍ، ولا يُتَصَوَّرُ الظّلْمُ في حَقِّ الله لَا لِكَمالِ عدْلِه، ولكِنْ لأَنَّهُ غيْرُ قابِلٍ لَهُ؛ وَلِهَذا قَال ابْنُ القيِّم[1]:

وَالظّـلْمُ عِنْـدَهُمُ المحُـالُ لِذَاتِـهِ .....

فهُو مُحَال لذَاتِه عنْدَهُمْ، لا يُتَصَوَّرُ الظّلْمُ في حقِّ الله، ولكِنَّ قولَهم هَذا لَا يُعَدُّ مدْحًا لله عَزَّوَجَلَّ ولا ثناءً ولا كمالًا، إِذْ نَفْيُ الظّلمِ لا يكونُ مدْحًا وكَمالًا إلا إِذا كانَ مَع القُدْرَة علَيْه وإِمْكَانِه، لكِنْ منعَه كمالُ عدلِه منْهُ.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: منْصوبَةٌ عَلَى أَنَّها مفْعُولٌ مُقَدَّمٌ لـ﴿يَظْلِمُونَ﴾، يعْنِي ولَكِنْ كانُوا يظْلِمُونَ أَنْفُسَهُم، والمرادُ أَنَّهم يظْلِمُونَ أَنْفُسَهم بمعصِيَةِ الله، إِمَّا بتَرْك واجِبٍ أَوْ فِعْلِ مُحَرَّمٍ، وسيَأْتِينا إِنْ شَاءَ الله في الفوائِدِ مَا تدُلّ علَيْه هَذِهِ الجمْلَةُ.

المُهِمُّ: أَنَّ الله تَعالَى مَا ظَلَم هَؤُلاءِ المكَذِّبِينَ الَّذِين أَهْلَكُهم، ولَكِنْ هُمُ الَّذِين ظلَمُوا أَنْفُسَهم، فالجنَايَةُ منْهُم عَلَى أَنْفُسِهم، واللهُ عَزَّوَجَلَّ عامَلَهُم بِكَمالِ العدْلِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَتَانِ الأوْلَى والثّانِيَةُ: تَوْبِيخُ مَنْ غَفِلوا عَنِ السّيْرِ في الأرْضِ سواءٌ بأبْدَانِهم أَوْ بقُلُوبِهم؛ لأَنَّ الاسْتِفْهام في قوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ للتَّوبيخِ، ويتفَرَّعُ عَلَى ذَلِك الحثُّ عَلَى السّيْرِ في الأرْضِ، ومِن السّيْرِ في الأرْضِ بالقلوب مراجَعَةُ كُتُبِ

(١) الكافية الشّافية في الانتصار للفرقة النّاجية - القصيدة النّونية (ص:٦٣).

التّارِيخِ والأمَمِ؛ لأَنَّ مَن راجَعَها لا سِيَّما التّوارِيخَ الحرِيصَةَ عَلَى الضّبْطِ والمَوْثُوقَةِ، مَن راجَعَها يتبَيَّنُ لَه العجَبُ العجَابُ فِي خَلْقِ الله عَزَّوَجَلَّ ومداوَلتِه الأيَّامَ بَيْنَ النّاسِ، وتغْيِيرِهِ للأُمورِ، وتَزِيدُ الإنسان إيمانًا باللهِ، لكِنْ إنْ كانَتْ هَذِهِ الحوادِثُ مِنَ السّيرَةِ النّبويَّةِ وسِيَرِ الخلَفاءِ الرّاشِدِينَ ازْدَادَ بِها مَع الإيمَان باللهِ أنْ يصْطَبِغَ بِصِبْغَتِها، ويَحْتَذي حذْوَها في السّيْرِ، وإنْ كانَتْ مِنَ الأمُورِ العامَّةِ العابِرَةِ فإنَّهُ يَسْتدِلُّ بِها عَلَى قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ وكَمالِ سْلطانِهِ وتغْيِيرِ الأمُورِ.

فالمُهِمُّ: أنَّ السّيْرَ في الأرْضِ -بمعْنَى مُراجَعةِ الحوادِثِ والتّوارِيخِ- يُفِيدُ المرْءَ، وَيعْتَبِر بِها، ولكِنَّها لا تُفِيد كُلَّ أحَدٍ، كَما قَال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

الفائِدَةُ الثالِثةُ: أنَّ عاقِبةَ الكفّارِ وخِيمَةٌ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ الإنسان مهْمَا قَوِيَ فهُو ضعِيفٌ بالنّسْبَةِ لِقُوَّةِ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، ومَعَ ذَلِك لَمْ يتَحَصَّنُوا بِهَذا مِنْ عَذابِ الله، بَلْ إنَّ الله تَعالَى بحكْمَتِه أهْلَك أعْتَى أهْلِ الأرْضِ بأَهْوَنِ الأشْياءِ وألطَفِها، وهُمْ عَادٌ أُهْلِكُوا بالرّيحِ، ومَنْ كَانَ يفْتَخِرُ بالأنْهارِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِ أهْلَكَهُ بالماءِ الّذي كانَ يفْتَخِرُ بِه بالأمْسِ، وَهَذا مما يدُلُّ عَلَى كَمالِ سُلطانِ الله تَعالَى وعظَمَتِهِ، وأنَّه مهْمَا قوِيَ الإنسان فهُوَ ضَعِيفٌ بالنّسْبَةِ لقُوَّةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأظُنُّ أنَّهُ فِي حَوالي عَامِ ألف وأرْبَعِمِئَةٍ حصَلتْ هزَّةٌ أرضِيَّةٌ في إيرانَ دمَّرَتْ في لَمْحِ البصَرِ خمسًا وعِشْرِينَ ألف نَسمَةٍ مِنْ بَني آدَم، فضْلًا عَنِ الحيَواناتِ والمواشِي ومَا إلَى ذَلِكَ، ودمَّرَتْ مِئَتَيْنِ وثَلاثِينَ قرْيَةً ومَدِينَتَيْنِ كبِيرَتَيْنِ، والهزَّة ليْسَت

تهُزُّ مثْلَ الأرْجُوحَةِ، إنَّما هِي كلَمْحِ البصرِ مثْلَ ما حكَاهَا إنْسَانٌ كَتَبَ للشَّيخِ عبْدِ العزيزِ بْنِ بَازٍ في الهزَّةِ التي أصَابَتِ اليَمَنَ، فصوَّرَها تصْوِيرًا عجِيبًا في سُرْعَتِها، وأصواتِ صَحِبَتْهَا وحالِ النّاسِ والرّعْبِ الَّذي أصَابَهُم حتَّى أنَّها، ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج:٢].

فهَذِه القُدْرَة العظِيمَةُ لَا يُمْكِنُ لأحَدٍ أنْ ينْجُو منْهَا إذا شاءَها الله عَزَّوَجَلَّ أبدًا، ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥].

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أنَّ التّأمُّلَ في حَال الكفَّارِ للاعْتِبَارِ، يعْنِي أنْ يعْتَبِر بِه الإنسان أمْرًا مطلوبًا لَوْ جَاء إنْسَانٌ وَأرَادَ أنْ يدْرُسَ تارِيخَ أمَّةٍ كافِرَةٍ ماذَا حصَل لَها ومَا الَّذي جاءَها، فإنَّنا لا نَنْهاه عنْ ذَلك ما دامَ يُرِيدُ أنْ ينْتَفِع بِهَذا، ويَعْرِفَ مَاذا كانَتْ عاقِبَةُ المجْرِمينَ، فإنَّهُ مأمُورٌ بِه، أمَّا إذا كَانَ يُرِيدُ أن يتَعَجَّبَ مِنْ قُوَّتهم وصنْعَتِهم ومَا إلَى ذَلِك فإنَّهُ يُنْهَى عنْهُ، مِثْل مَا قُلْنا في الَّذِين يذْهَبُونَ إلَى دِيَارِ ثَمُودَ قصْدُهُمُ التّفرُّج والنّزْهَةُ، فهَذا حرَامٌ والَّذِين قصْدُهُم الاعْتِبار فهَذا جَائِزٌ بالشّرْطِ الَّذي ذَكَرَهُ النّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهُوَ ألَّا يدْخُلوها إلا وهُم بَاكُون(١).

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أنَّ إثارَةَ الأرْضِ مِنْ أسْبَابِ القوَّةِ، أي الاشْتِغَالُ بِالزّراعَةِ مِنْ أسْبَابِ القوَّةِ بِلا شَكٍّ؛ لأنَّهَا يحْصُل بها الاكْتِفاءُ الذّاتِيُّ عَنِ الغيْرِ، فإذا كَانَتْ بِلادُنا -مثَلًا- تُنْتِجُ الثّمارَ والزّروعَ استَغْنَيْنَا بذَلِك عنْ غَيرِنا، وَرُبَّما يكُونُ لدَيْنا فائِضٌ

(١) في قوله ﷺ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ المعَذَّبِينَ إلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ لَا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ»، أخرجه البخاري: كتاب الصّلاة، باب الصّلاة في مواضع الخسف والعذاب رقم (٤٣٣)، ومسلم: كتاب الزّهد والرّقائق، باب لا تدخلوا مساكن الّذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، رقم (٢٩٨٠).

نُصدِّرُه لغَيْرِنا فنكْسبُ، فإِثَارَة الأرْضِ مِنْ أسْبَابِ القوَّةِ، وَكَذلِكَ عُمْرَانُ الأرْضِ بِغَيْرِ الإثَارةِ بالبنَاءِ والتّجَارَةِ وما أشْبَهَ ذَلِك مِنْ أسْبابِ القوَّةِ.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما تَرك أحدًا بدُونِ رُسُلٍ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أنَّ كلَّ رسولٍ معَه بيِّنَةٌ تُؤَيِّدُهُ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

الفائِدَتانِ التّاسِعَةُ والعاشِرَةُ: نسْتَفِيدُ مِن إرْسالِ الرّسُلِ وإيتَائِهِمُ البيِّناتِ فائِدَتَيْن وهُمَا:

أولًا: رحْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ وحِكْمَتُه، أمَّا الرّحمَةُ فلأنَّ العقُولَ لا يُمْكِنُ أن تهتَدِيَ لما يُريدُهُ الله منْهَا إلا بالوَحْي، فَلا يُمْكِنُ لِلإنْسَانِ بعقْلِه أنْ يعْرِفَ كيْفَ يتوضَّأُ، وكَيْف يُصلِّي، وكَيْفَ يصُومُ، وكَيْفَ يَحُجُّ.

إِذَنْ: لا بُدَّ مِن أنْ يكُونَ هناكَ رسُولٌ يَأتِيهِ الوَحْيُ مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ ليبيِّنَ لنا مَا يرْضَاهُ الله ومَا لا يَرْضَاهُ.

ثانيًا: كونُ هَؤُلاءِ الرّسُل يأتُونَ بالبيِّناتِ مِن الرّحمَةِ لَوْ أَرْسَل الله الرّسُلَ بدُونِ بيِّنَاتٍ وألزَم العبَادَ أنْ يَخْضَعُوا لهُمْ بِدُون أنْ يكُونَ هُناكَ بيِّنَةٌ يطْمَئنُّونَ إلَيْها يكُون في هَذا مِن العنَتِ والمشَقَّةِ مَا لا يعْلَمُه إلا الله، ولكِنْ مِن رَحْمَةِ الله جَلَّوَعَلَا أنْ جعَلَ مَعَ كُلِّ نَبيٍّ بيِّنَةً، ولاَحِظ أنَّ الأنْبياءَ الَّذِين تُقَيَّدُ نُبوَّتُهم ورسالَتُهم بزَمَنٍ أوْ مكَانٍ وهُمْ جَمِيعُ الأنْبياءِ مَا عَدا محَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَجِدْ آياتِهِمْ غالبًا آيَاتٍ حِسيَّةً تنْتَهي بانْتِهائِهِمْ، وتكُونُ بعْدَ موْتِهم خبَرًا يُنْقَلُ ويُؤثَر، أمَّا النّبيّ ﷺ فآيَاتُه اشتَمَلَتْ عَلَى

الأمْرَيْنِ: عَلَى أُمورٍ حِسِّيَّةٍ نُقِلَتْ بعْدَه وأُثِرَتْ، وعَلى أُمورٍ معْنَوِيَّةٍ بقِيَتْ بعْدَه مثْلَ القرآنِ العظِيمِ، ومِثْلَ إخْبَارِه ببَعْض الأمُورِ الغيْبِيَّةِ التي وقعَتْ كَما أخْبَرَ؛ لأَنَّ رسالَةَ النّبيّ ﷺ دائِمَةٌ ومستَمِرَّةٌ وثابِتَةٌ، فلا بُدَّ أن تكُونَ الآيَات المؤيِّدةُ للرَّسُولِ ﷺ باقيَةً حتَّى تقُومَ بها الحجَّةُ عَلَى الباقِينَ مِنَ النّاس لأَنَّ الباقِينَ مِنَ النّاسِ لم يشْهَدُوا الشّيْءَ بأيْدِيهم، وإنما هِي أخْبَارٌ تُؤْثَرُ، فإِنَّهُ كَما جاءَ في الحدِيث: «لَيْسَ الخبَرُ كَالمعَايَنَةِ»[1].

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عَشرَةَ: انتِفَاءُ الظّلْمِ عنِ الله؛ لكَمالِ عدْلِهِ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: انتْفَاءُ الظّلْمِ عنِ الله نُوافِقُكُمْ علَيْه؛ لأَنَّ الله نفَاهُ عَنْ نفْسِه ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، لكنْ مِن أيْنَ لكُم قولَكُمْ: (لكَمالِ عدْلِه)؟

فالجوابُ: لأنَّ النّفيَ يدُلُّ عَلَى انْتِفَاءِ المنْفي، والانْتِفاءُ يُساوِي العدَمَ، والعدَمُ نفْسُه ليْسَ بشَيْءٍ، العدَمُ عدَمٌ عَلَى اسْمِهِ، فإذا كَانَ ليْسَ بشَيْءٍ فلَا يكُونُ صفَةَ كَمالٍ يُثْنِي الله بِها عَلَى نفْسِه لأَنَّهُ ليْسَ بشَيْءٍ.

إِذَنْ: لا بُدَّ مِن أنْ يكُونَ متضَمِّنًا لشَيْءٍ وهُو الإثْبَات، هَذا الإثْبَات إمَّا أنْ يكُونَ للعَجْزِ، وإمَّا أنْ يكُونَ لعدَمِ القابليَّةِ، وإمَّا أنْ يكُونَ لكَمالِ العدْلِ، والاحْتِمال اللائِقُ بالله عَزَّوَجَلَّ هوَ كَمالُ العدْلِ، وَبِهذَا عرَفْنَا أنَّ التِزام نفْيِ الظّلْمِ لكَمالِ العدْلِ لازِمٌ عقْلِيٌّ لا بُدَّ منْهُ بالنّسْبَةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ ليْسَ بالنّسْبةِ لكُلِّ مَن يُنْفَى عنْه الظّلْمُ، وحِينَئِذٍ يُسْتَفَادُ منْهَا انتِفَاءُ الظّلْمِ لِكَمالِ عدْلِ الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥، رقم ١٨٤٢).

الفائِدَةُ الثّانِيةَ عَشْرَةَ: أنَّ نفسَ الإنسان عنْدَه أمانَةٌ؛ تُؤخَـذُ مِنْ قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، فأثْبَتَ الله تَعالَى ظُلْمَ الإنسان نفسَه، ولو كانَتْ غيْرَ أمانَةٍ لكَان غيرَ ظالم؛ لأنَّهُ يتصرَّفُ ويتحَكَّمُ، لكنَّها أمانَةٌ عنْدَهُ يَجِبُ علَيْه أن يَرْعاهَا حقَّ رعايَتِها؛ وَلِهَذا قَالَ النّبيُّ ﷺ: «**إنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**»(١)، وَهَذا كَمـا يشْمَلُ إعْطَاءَ النّفْسِ راحَتَها يشْمَلُ إعْطَاءَ النّفْسِ حقَّها مِنَ العبادَةِ فَلا تُهْمِلْها، والإنسان فِيه ثلاثَةُ أنْفُسٍ: أمَّارَةٌ، ومطمَئِنَّةٌ، ولوَّامَةٌ.

أمَّا المطْمَئِنَّةُ: فهِيَ التي تأمُرُه بِرِضَى الله.

وأمَّا الأمَّارَةُ بالسّوءِ: فهِيَ التي تأمُرُه بمعْصِيَةِ الله.

وأمَّا اللَّوَّامَةُ: فَهِي التي تلُومُـه، سواءٌ لامَتْـه عَلَى ترْكِ الشّرِّ فهذِه مِنَ النّفْسِ الأمَّارَةِ التي تقولُ لَهُ: لماذا لَمْ تذْهَبْ مَع هَؤُلاءِ تشْرَبُ الخمْرَ وتَزْنِي وتُقامِرُ إلَى آخرِه، فتَلُومُه عَلَى ما تَركَ من فِعْل السّوءِ، فهذِه تكونُ مِن الأمَّارَةِ بالسّوءِ، وكذَلِك تُوجَدُ نفْسٌ لوَّامَةٌ تلُومُهُ عَلَى فِعْل الشّرِّ وتَرْكِ الخيْرِ، وهَذِه هِي النّفْسُ المطْمَئِنَّةُ.

فَفِي الإنسان ثَلاثُ أنْفُسٍ، كَما ذكرَ الله تَعالَى، وكُلُّ إنْسَانٍ لا بُدَّ أنْ يكُونَ لَدَيْهِ هَذِهِ الأنْفُسُ، وهِي فِي الحقِيقَةِ أوْصَافٌ وإلَّا فنَفْس العقْل أوِ التّفكِيرُ واحِدٌ، الإنسان يُوجَدُ فِيه الجميعُ، يُحِسُّ مِن نفسِه أحْيانًا بما يأْمُرُه بالمعْصِيَةِ، ويُحِسُّ أحْيانًا بما يَعْمَلُ مِنَ الخيْر، ويُحِسُّ أحيَانًا بما يَلُومُهُ.

ويُنْظَرُ أيُّهما التي تغْلِبُ، فَمِن النّاس مَن تغْلِبُه نفْسُهُ الأمَّارَةُ، وَمِنَ النّاسِ مَنْ تغْلِبُه المطْمَئِنَّةُ، لكِنِ ابْتداءً خَلَق الله فِيه هَذِهِ القوى، فهَذِه القوَى النّفسِيَّةُ مخْلُوقَةٌ في الإنسان.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب صنع الطّعام والتّكلف له، رقم (٦١٣٩).

الفائِدَةُ الثالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الإنسان بمعصِيَتِه لا يضُرُّ إلا نفسَهُ، ويدُلُّ لهذَا قوْلُ الله عَزَّوَجَلَّ في الحدِيثِ القدسِيِّ: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِك فِي مُلْكِي شَيْئًا**»(١)، يعْنِي لا يضُرُّه، فحتَّى لوْ خَرَجْتُم عنْ عِبَادِتي والتّعبُّدِ لي فإنَّ ذَلِك لا يَضُرُّني.

الفائِدَةُ الرّابِعَةَ عشْرَةَ: أنَّ العبْدَ فاعِلٌ مخْتَارٌ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، فأثْبَتَ الظّلْمَ منْهُم لأنْفُسِهِمْ، ومِنْ وجْهٍ آخَر يُؤْخَذُ أيضًا مِن نفْسِ الآيَة ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾؛ لأنَّهُ لَو كانَ يُجْبِرُهم عَلَى ذَلِك لكانَتْ عُقوبَتُهم ظُلْمًا، لو اعْتَقَدَ الإنسان أنَّ الله يُجْبِرُ الإنسان عَلَى فِعْلِ المعْصِيَةِ ثمَّ يُعاقِبُهُ علَيْها فإنَّ هَذا ظلمٌ، فَفِيها دَلِيلٌ عَلَى الأفْعَالِ الاخْتِياريَّةِ مِن جِهَتَيْنِ:

- مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.
- ومِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الظّلْمَ في حَقِّ الله مِنْ حيْثُ هُو مُمكِنٌ يعْني مِن حيْثُ القُدْرَةُ علَيْه فهُو ممكِنٌ؛ وَلِهَذا أثْنَى الله عَلَى نفْسِه بانْتِفَاءِ الظّلمِ عنْهُ، أوْ أثْنَى عَلَى نفْسِه بنَفْيِهِ ظُلْمَه للعِبادِ، وَهَذا أحْسَنُ، ولَوْ كَان هَذا مِنَ الأمورِ المستَحِيلَةِ مَا كانَ هُناكَ محَلٌّ للثّناءِ، فهُوَ قَادِرٌ عَزَّوَجَلَّ عَلَى أنْ يظْلِمَ لَوْ شَاء، لكِنَّهُ لا يَشَاءُ ذَلِك لكَمالِ عدْلِه.

إذَنْ: فالظّلْمُ ممتَنِعٌ عَنِ الله لكَمَالِ عدْلِهِ خِلافًا للجَهْمِيَّةِ الَّذِين يقُولونَ إنَّ الظّلْمَ ممتَنِعٌ لاستحالته بذَاتِهِ عَلَى الله، قَالُوا هَذا شيْءٌ مستَحِيلٌ فجَعلُوا محَلَّ الثّناءِ أمْرًا مستَحِيلًا عقْلًا.

• • ❁ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، رقم (٢٥٧٧).

الآيــة (١٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الرّوم:١٠].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ تأْنِيث الأسْوأ الأقْبح خَبَر كَانَ عَلَى رَفْع عَاقِبَة وَاسْم كَانَ عَلَى نَصْب عَاقِبَة وَالمَراد بِهَا جَهَنَّم وَإِسَاءَتهمْ ﴿أَن﴾ أَيْ بِأَنْ ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ﴾ العاقِبَـةُ مصْدَرٌ بمَعْنى العقْبَى، وفِيها قِراءَتَانِ سبْعِيَّتَانِ[1]: النّصبُ ﴿عَٰقِبَةَ﴾، والثّانِيَةُ الرّفْعُ «عاقبةُ»، أمَّا عَلَى قِرَاءَةِ الرّفْعِ فإنَّها اسْمُ ﴿كَانَ﴾، وأمَّا عَلَى قِرَاءَةِ النّصْبِ فإنَّها خبَرُ ﴿كَانَ﴾ مُقَدَّمًـا، يَبْقَى النّظَرُ: أيْنَ اسْمُ ﴿كَانَ﴾ عَلَى قِراءَةِ النّصْبِ، أوْ خبَرُها عَلَى قراءَةِ الرّفْعِ، سيَذْكُرُه المُفَسِّر.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾: أيْ عَمِلُوا العملَ السّيِّئَ مِن الكفَّارِ المكذِّبِينَ للرُّسُلِ كَمـا قَصَّ الله عَزَّوَجَلَّ، و﴿أَسَٰٓـُٔواْ﴾ ضِدَّها أحْسَنُوا. فالَّذِين أَحْسَنوا قالَ الله فِيهِمْ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [يونس:٢٦]، والَّذِين أسَاؤُوا كَان عاقِبَتهُم مَا ذَكَرَهُ الله هُنَا.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ تأنيث الأسوأ الأقبح]، قوْله تَعالَى: ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ اسْمُ

(١) التيسير في القراءات السّبع (ص:١١٥).

تفْضِيلٍ مثْلِ ما نَقُولُ الفضْلَى اسْمَ تفْضِيلٍ، والعظْمَى اسْمَ تفْضِيلٍ، ومُذَكَّرُ الفضْلَى الأفْضَلُ، ومُذَكَّرُ العظْمى الأعْظَم، ومُذَكَّر الأُولى الأوَّلُ، ومُذَكَّرُ ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ الأسْوَأُ.

إِذَنْ: فـ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ اسْمُ تفْضِيلٍ مؤَنَّثِ (الأسْوَأ)، ومعْنَى الأسْوَأ: الأقْبَحُ، يعْنِي عمَلُهم السّيِّئ كانَتْ نَتِيجَتُه أسْوأَ، وَهَذا أسْوَأُ بالنّسْبَةِ لما هُمْ علَيْه مِنَ النّعِيمِ فِي الدّنْيَا فلَاقَوْا بعْدَ ذَلِك الجحِيمَ، ولا تَظُنَّ أنَّ هَذِهِ الآيَة تدُلّ عَلَى أن السّيِّئَةَ تُجزَى بأسْوَأ منْهَا؛ لأَنَّ الله يقُولُ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠]، لكِنَّ الأسْوَأ باعْتِبَارِ حالهم لَا باعْتِبَارِ الجزاءِ عَلَى سُوئِهِمْ، فهُمْ كانُوا فِي الدّنيا مُنَعَّمِينَ وكانَتِ الدّنيا بالنّسْبَةِ للْكَافِرِ جنَّةً فلَمَّا ماتُوا عَلَى الكفْر انتَقَلُوا إِلَى أسْوَأَ وأسْوَأَ بكَثِيرٍ، ولا يُنْسَبُ إِلَى حالهم فِي الدّنْيَا.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: خبَرُ ﴿كَانَ﴾ عَلَى رَفْعِ (عَاقِبَةُ)، واسْمُ كَان عَلَى نَصْبِ ﴿عَٰقِبَةَ﴾]، أفَادَنا المُفَسِّر أنَّ في ﴿عَٰقِبَةَ﴾ قرَاءَتَيْن: النّصْبُ والرّفْعُ، فعَلى قِراءَةِ الرّفْع نعْرِب ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ اسمَ ﴿كَانَ﴾ و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ خبرُهَا منْصُوبٌ بفَتْحَةٍ مُقَدَّرَةٍ عَلَى الأَلِف منَع مِنْ ظُهورِها التّعَذُّرُ، وعَلى قِراءَةِ النّصْبِ نعْرِبُ ﴿عَٰقِبَةَ﴾ خبَرَ ﴿كَانَ﴾ مُقَدَّمًا، و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ اسمُها مؤخَّرٌ، وهَذا أحَدُ الأوْجُه فِي الأعْرَابِ.

وقِيل إِنَّ ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ مفْعُولٌ مُطْلَقٌ يعْنِي أسَاؤُوا السّيِّئَة السّوأَى، فيكُونُ مفْعُولًا مُطْلَقًا ويَكُونُ الخبَرُ أَو الاسْم هُو المصْدَرُ المؤَوَّلُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾، أيْ صَار عاقِبَتُهم حِين أسَاؤُوا أنْ كَذَّبُوا؛ لأَنَّ الأعْمَالَ السّيِّئَةَ -والعياذُ باللهِ- تَجُرُّ إِلَى السّيِّئَةِ كَما أنَّ الحسَنَاتِ يَجْرُرْن إِلَى الحسَنَاتِ.

ولكِنْ مَا ذَهبَ إِلَيْهِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَوْلى، فنَجْعَلُ السّوأَى إمَّا خبَرَ ﴿كَانَ﴾ عَلَى قِراءَةِ الرّفْعِ، وإِمَّا اسمَها عَلَى قِراءَةِ النّصْبِ.

قولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَالمرَادُ بِها جهَنَّم وَإِسَاءَتهم ﴿أَن﴾ أَيْ بِأَنْ ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرْآنِ ﴿وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾]: بَيَّنَ لنا المُفَسِّر أنَّ العاقِبَةَ أنَّهُم عُذِّبُوا بالنّارِ، وأنَّ المصْدَر في قوْلِه تَعالَى: ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾ عِلَّةٌ لكَوْنِ عاقِبَتِهم السّوءَ، أيْ لأنَّهم كذَّبُوا بآيَاتِنا، لكِنَّ المُفَسِّر أَتى بـ(الباءِ)، والباءُ تكُونُ للسَّبَبِيَّةِ ولِلتَّعْلِيل، والمعْنَى واحِدٌ، أيْ كانَتْ عاقِبَتُهم السّوأَى لأنَّهم كذَّبُوا بآيَاتِ الله، هَذا بِالنّسْبَةِ لأخْبَار الآيَات كذَّبُوا بِها، وقَالُوا ليْسَتْ بِصَحِيحَةٍ، وبِالنّسْبَةِ للْعَمَل ﴿وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾، فجَمَعُوا بيْـنَ الاسْتِهْزَاءِ بالأحْكَامِ والتّكْذِيـبِ بالأخْبَارِ وَهَذا الَّذي ذَهَب إِلَيْهِ فِي إِعْرَابِ ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾ أحـدُ الأوْجُهِ أيْضًا؛ لأَنَّ هناكَ وجهًا آخَـرَ يقُولُ: إِنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾ بَدْل مِنَ السّوأَى، أوْ بَيان لَها، ويَكُونُ المعْنَى أَساؤُوا السّوأَى، وهُوَ تَكْذِيبُهم فيَكُون عاقِبَتَهم إِذَن التّكذيب والاستهزاءُ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: سواءً قُلْنا أنَّها بدَلٌ أو عطْفُ بَيان مِنَ السّوأَى، أوْ: أنَّها لِلتَّعْلِيلِ في ثُبوتِ السّوأَى لَهُم فإِنَّهُ يدُلُّ عَلَى أنَّ هَؤُلاءِ كانُوا مُكَذِّبينَ ومُسْتهزِئِينَ مُكَذِّبِينَ بالخبَرِ ومُسْتهزِئينَ بالحكْمِ، يتَّخذُونَ آياتِ الله هُزُوًا فِي الأحْكامِ وكَذِبًا بالأخْبارِ، فتَجِدُهم مَثَلًا في صَلاتِهم عنْدَ البيْتِ يُصَلُّون مُكَاءً وتَصْدِيَةً، ويسْخَرُونَ مِن الَّذِين آمَنُوا، ومَا إِلَى ذَلِك فيتَّخِذُونَه هُزُوًا.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن]: فِيه نَظَرٌ ظَاهِرٌ؛ لأَنَّ الآيَة عامَّةٌ، فتَشْمَلُ مَن كذَّبَ بآيَاتِ الله بالقرآنِ بعْدَ بعْثَةِ الرّسُولِ ﷺ، ومَنْ كذَّب بالتّورَاة فِي زَمَن مُوسَى، وبالإنْجيلِ فِي زَمن عِيسَى، فالصّوابُ في الآيَة العُمُوم.

بَل لَوْ قِيلَ: لا يَدْخُل فِيها مَنْ كَذَّب بالقرآنِ لكَانَ لَهُ وجْهٌ، يعْنِي لَوْ قِيلَ: إِنَّ الأمْرَ عَكْسُ مَا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟

كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾، فالسّياقُ في قومٍ سَبقُوا لَا في قومٍ حَاضِرينَ، فكَوْنُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجْعَلُ الآيات هُنا بمَعْنَى القرآنِ بَعِيدٌ جدًّا، بَلْ إِمَّا أنْ نَجْعَلَها للعُمُوم، وإِمَّا أنْ نجْعَلها للأُمَم السّابِقِينَ، أمَّا أنْ نَخُصَّها بالقرآنِ فهَذا فِيه نَظَرٌ ظَاهِرٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ المَرادُ بالآيات هُنا الآيات الشّرْعِيَّةُ لأنَّهَا محَلُّ التّكذِيبِ، وقَدْ يَكُونُ التّكْذِيبُ أيْضًا بالآيات الكوْنِيَّةِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾: الاسْتِهزَاءُ يشْمَلُ الاسْتِهزاءَ القوْلِيَّ، والاسْتِهزاءَ الفعْلِيَّ، فالاسْتِهزاءُ القوْلِيُّ أنْ يسْخَر بِها، مثْلَ مَا وَردَ فِي المنَافِقِينَ، قَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ ألسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ[1]، والاستِهْزاءُ الفعْلِيُّ كأَنْ يَحُجَّ ساخِرًا، أوْ يفْعَلَ شيْئًا مِن العبادَاتِ عَلَى وَجْهِ السّخرِيَةِ والاسْتِهزَاءِ والتّحْقِيرِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدتَانِ الأوْلى والثّانِيَةُ: سُوءُ العاقِبَةِ للمُسيئِينَ؛ لأَنَّ عاقِبَةَ هَؤُلاءِ الَّذِين أَسَاؤُوا عاقِبَتُهم السّوأَى؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾، وَهَذا عَلَى رأْيِ المُفَسِّر ظَاهِرٌ؛ لأَنَّهُ جَعَل ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ هِي خبَرَ ﴿كَانَ﴾ أوِ اسْمَها عَلَى اخْتِلَافِ القرَاءَةِ فِي ﴿عَٰقِبَةُ﴾، ويتَفَرَّعُ عَلَى هَذِهِ الفائِدَةِ أنَّ عاقِبَةَ المحْسِن الحسْنَى لأَنَّ الحكْم يدُورُ مَع علَّتِه، فإِذا كانَتْ عاقِبَةُ المسيئِينَ السّوأَى، كَانتْ عاقِبَةُ المحسِنِينَ الحسْنَى، ويُؤيِّدُ ذَلِك قوْله تَعالَى:

(١) تفسير الطّبري (١٤/ ٣٣٣).

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

الفائِدَةُ الثالِثةُ: أنَّ الإساءَة هُنا هِي التّكذِيبُ بآيَاتِ الله، والاسْتِهزاءُ بِها عَلَى تقْدِيرِ المُفَسِّر؛ لأنَّهُ قَال بأنْ كَذَّبُوا، وعَلى الرّأْيِ الثّاني يكُونُ قوْلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾ هِي العاقِبَةُ فيُستَفادُ منْهَا أنَّ عاقِبَةَ المعَاصِي تكُون الكفَّر والتّكذيبَ بآيَاتِ الله والاسْتهزَاءَ بِها، لقَوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾، إذا قلْنَا إنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أيْ عَمِلُوا السّيِّئاتِ فكان عاقِبتُهُم التّكذِيبَ والاستِهْزاءَ، ويكُونُ معْنَى ذَلِك أنَّ المعَاصِي تكُونُ سببًا للْكُفْرِ، وهُو كَذَلِكَ، وقَدْ قَال أهْلُ العلْم: إنَّ المعَاصِيَ بَرِيدُ الكفْرِ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ الوَحْي الَّذي أنْزَلَهُ الله عَلَى الرّسُلِ مِن آيَاتِه لقوْلِه تَعالَى: ﴿أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وإنَّما كانَ مِن آيَاتِه لَما يشْتَمِلُ علَيْه مِنَ الصّدْقِ في الأخْبَارِ والنّفْعِ فِي القصَصِ والعدْلِ في الأحْكامِ والإصْلاحِ، فكُلُّ الكتُبِ النّازِلَةِ متضمِّنَةٌ لهذِه الأمورِ: صِدْقٌ في الخبَرِ، نفْعُ القصَصِ، عدْلٌ في الأحْكَامِ، مصْلَحَةٌ للعِبَادِ؛ فلِهَذا كانَتْ هَذِهِ الكتُبُ مِن آيَاتِ الله؛ لأنَّهُ لا يُمْكِنُ للْبَشَرِ أنْ يضَعُوا مثْلَها.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: الفرْقُ بيْنَ التّكذِيبِ والاستِهْزَاءِ، فالتّكذِيبُ ردُّ الخبَرِ، والاستِهْزاءُ السّخرِيَةُ بالأعْمَالِ الظّاهرَةِ أوِ الباطِنَةِ، والاستِهْزَاءُ أشَدُّ؛ لأنَّهُ جامِعٌ بيْنَ التّكذِيبِ والسّخرِيَةِ.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: التّحذِيرُ مِنْ أعْمَالِ السّيِّئاتِ حيْثُ كانَتْ هَذِهِ عاقبَتَها، سواء قلْنَا إنَّ السّوأَى هِي العاقِبَةُ، أوْ أنَّ العاقِبَةَ هِي التّكْذيبُ، فإنَّهُ يتضَمَّنُ التّحذِيرَ مِنَ الأعْمَالِ السّيِّئَةِ.

الآيـة (١١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الرّوم:١١].

هَذا لتَأْكِيدِ الإِيمَان بِاليْومِ الآخر، ذَكَّر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عبادَه بأَمْرٍ يعْتَرِفُون بِه، وهُو أَنَّه بدَأَ الخلْقَ ولَا أحَدَ يُنْكِرُ ذَلِك، لا أحَدَ يدَّعِي أَنَّه خلَقَ نفْسَه، فَكُلُّ إِنْسَانٍ يعْرِف أَنَّه مخلُوقٌ مِن عدَم، ومِنَ المعْلُومِ أَنَّه لو ادَّعى أَنَّه خُلِق مِنْ غير خالق فإِنَّ كُلَّ أحدٍ يُكذِّبُه، وإِذَا أقَرَّ بأَنَّه لَا بُدَّ مِن خالق فنَقُول لَهُ: مَنْ، عَيِّنْهُ لنا؟ وحِينَئِذٍ لَا يستَطِيعُ أن يعيِّنَ، فنَقُولُ: إِنَّ الَّذي خلَقَكَ هُوَ الله.

قوْله تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ أيْ يُنْشِئُه أوَّلَ مرَّةٍ، كَما قالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [يس:٧٩]، وتطْوِيرُ الخلْقِ وجعْلُه أطوارًا أمْرٌ معلُومٌ؛ لأَنَّ هَذا هُو مقْتَضَى الحكْمَةِ، فمُقْتَضى حِكْمَةِ الله تَعالَى أنَّ الأشْيَاءَ تَتَطَوَّرُ شيْئًا فشيْئًا حتَّى تَصِل إِلَى حَدِّ الكمَالِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب بمهلَةٍ؛ لأَنَّ الإعادَةَ لا تَكُونُ إلا عنْدَ قِيَامِ السّاعَةِ، فقِيامُ السّاعَة يتأَخَّرُ كَثِيرًا عَنِ ابْتِدَاءِ الخلْقِ، ﴿يُعِيدُهُۥ﴾ أيْ يُرْجِعُه مرَّةً ثانِيَةً، وليْسَ يَبْتَدِئ خلْقًا جديدًا، وَإِنما يُعِيدُ المخْلُوقَ الأوَّلَ، فلَيْس إِنْشَاءَ خلْقٍ جدِيدٍ، بَلْ إعادَةُ مَا سبَقَ، وفرْقٌ بَيْن الأمْرَيْن؛ لأَنَّنا إِذا قُلْنا أَنَّه ابْتِدَاءُ خلْقٍ جدِيدٍ فمَعْنى ذَلِكَ أنْ يُعَذِّبَ مَنْ لم يَعْمَل، وأنْ يُنْعِّم مَنْ لم يعْمَل، وأيْضًا فإِنَّ كوْنَه يَبْتَدِئ خلقًا جديدًا

لا ينْكِرُه المكذِّبونَ بالبعْثِ؛ لأنَّهم يُقرُّونَ بالابْتِدَاءِ، إنما هُمْ يُنْكِرُون الإعادَةَ، ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، وعَلَى هَذا فالبعْثُ إعَادَةُ وجمْعُ مَا تفرَّقَ، وليْس ابتدَاءَ خلْقٍ جدِيدٍ.

وَإذا قِيلَ: هَذا المتفرِّقُ صَار رَمِيمًـا، ثمَّ تُرابًا وتَلاشَى، أوْ أنَّ الإنسان أكلَتْه السّباعُ أوْ الحيتَانُ، أَوْ مَا أشْبَهَ ذَلِك.

قُلْنَا: مَهمـا كَانَ، فاللهُ تَعالَى قادِرٌ عَلَى أنْ يجْمَعَهُ ثمَّ يُعيدَه، وَلِهَذا قَالَ: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ لَا إِلَى غيْرِه، ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فِيها قراءَتَانِ «يُرْجَعُونَ» و﴿تُرْجَعُونَ﴾[1]، فعَلى قراءَةِ التاء تكونُ الجمْلَةُ للخِطَابِ، وعَلى قِراءَةِ اليَاءِ تَكونُ الجمْلَةُ للغَيْبَةِ.

ويُشْكِـلُ عَلَى هَذا أنَّه قَال: «يُرْجَعُونَ» مَع أنَّ الخلْـق في قوْلِه تَعالَى: ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ مفْرَدٌ، ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، ومقْتَضـى السّياقِ أنْ يقُـولَ: «ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُ»، لكنَّه قال: «يُرْجَعُونَ».

والجوابُ عَلَى ذَلِكَ: أنَّ (الخلْقَ) مصْدَرٌ بمعْنَى اسْمِ مفْعُولٍ، فمَعْنَى يبْدَأُ الخلْق يعْنِي يبْدَأُ المخْلُوقِينَ، ولكنْ لَمَّا كَان مصْدَرًا فإِنَّ المصْدَر لا يُثَنَّى ولَا يُجْمَعُ، قَال ابْنُ مَالك في الألفيَّةِ[2]:

ونَعتُـوا بِمَصْـدَرٍ كَثِيـرَا فالتـزَمُـوا الإفْـرَادَ وَالتّـذْكِيرَا

(١) الحجة للقراء السّبعة (٥/ ٤٤٤).

(٢) البيت رقم (٥١٣) من ألفيته.

وعَلى هَذا فنَقُول: إنَّ الخلْقَ بمعْنَى المخْلُوقِين، يَعْنِي ثمَّ إِلَى الله يَرْجِعُ هَؤُلاءِ المخلُوقُونَ بَعْدَ الإعادَةِ، وَهَذا الرّدُّ إِلَى الله والإرْجاعُ مِنْ أجْلِ الجزاءِ والحسَابِ، ثمَّ المآلُ إِلَى دَار النّعِيمِ أوْ إِلَى دَارِ الجحِيم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: قدْرَةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حيْثُ ابْتَدَأ الخلْقَ.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: ثُبوتُ حُدوثِ العالم، وأنَّهُ ليْسَ قَدِيمًا لَا أوَّلَ لَه كَما زعَمَتِ الفلاسفَةُ أنَّ الله ابْتَدأَهُ، والمبْتَدَأُ معْنَاه كَان بالأوَّلِ عدمًا.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: ثُبُوت البعْثِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ البعْثَ ليْسَ ابْتِداءَ خلْقٍ، ولكنَّه إعادَةٌ، خِلافًا لمَنْ قَال: إنَّ البعْثَ ابتِدَاءُ خلْقٍ؛ نأخُذُها مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، والضّمِيرُ يعُودُ إِلَى الخلْق المبْتَدَأِ، وقَد سبَق فِي كلامِنا عَلَى هَذِهِ الآيَة أنَّه لوْ كانَتِ الإعادَةُ ابتداءَ خلْقٍ جدِيدٍ لكانَ يُعَذَّبُ مَنْ لم يَعْمَلْ، ويُنَعَّمُ مَنْ لم يَعْمَلْ، ولكِنَّ البعْثَ إعادَةٌ لما سَبَقَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هلِ المرَادُ إعادَةُ نفْسِ الأجْسَام أمْ تنْبُتُ نَباتًا جديدًا؟

قُلْنَا: نفْسُ الأعْيَانِ التي تفتَّتت وذَهبَتْ يُعِيدُها الله، فإذَا تحوَّلَ إِلَى تُرابٍ يُعادُ، وَهَذا الجسْمُ المخْلُوقُ هُو نفْسُ الأوَّل، يجْمَعُ الله تَعالَى ما تفرَّقَ منْهُ ثمَّ يُحْيِيهِ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: الاسْتِدلال بالمبْدَأ عَلَى المعَادِ، تُؤْخَذُ مِنْ قوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَبْدَؤُا۟﴾، و﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، فإنَّ هَذا استِدْلالٌ بالمبْدَأِ عَلَى المعَادِ، والاسْتِدلال بالمبْدَأِ عَلَى المعَادِ استِدْلَالٌ حقِيقِيٌّ ومنْطِقِيٌّ ومعقُولٌ، فالمبْدَأُ أشَدُّ وأصْعَبُ، فالقادِرُ عَلَى الابتِـدَاءِ قادِرٌ عَلَى الإعادَةِ؛ وَلِهَذا قالَ الله تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ

وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الرّوم:٢٧]، الكلُّ هيِّنٌ لكِنَّ هَذا أهْوَنُ؛ لأَنَّ هَذا إعَادَةٌ.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أنَّ مرجِعَ الخلائِق إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ في الدّنْيا وفِي الآخرةِ، أمَّا فِي الآخرةِ فيَرْجِعُونَ إِلَى الله ليحْكُم بيْنَهُم بالجزاءِ، وأمَّا فِي الدّنيا فيَرْجِعُونَ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ ليحْكُمَ بيْنَهُم بالعمَلِ، ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشّورى:١٠]، هَذا خَبَرٌ، وقالَ ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النّساء:٥٩].

فالمُهِمُّ: أنَّ المرْجِعَ إِلَى الله في الدّنْيا والآخرةِ، فالمرْجِعُ إِلَى الله تَعالَى في أُمُورِ دُنْيانا وفِي أُمورِ دِينِنا، وَكَذلِكَ فِي أمْرِ الآخرةِ نُرجَع إِلَى الله ويُجازِينا بِمَا نستَحِقُّ، وإِنْ كانَتْ تَعْني الآخرةُ بالأوْلَويَّةِ فقَطْ؛ لأنَّهَا في سِيَاقِ هَذا، لكِنْ لَا مانِعَ مِنْ أنْ تُحْمَل عَلَى العُمُوم، لا سِيَّما أنَّه ذَكَر ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّه لا يَجوزُ التّحاكُمُ إِلَى غيرِ الله؛ تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾، وجهُه الحصْرُ فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿إِلَيْهِ﴾، يعْنِي لَا إِلَى غيْرِه.

الآيــة (١٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [الرّوم:١٢].

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ يَسْكُت المشْرِكُـونَ لانقطاع حجتهم] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿ وَيَوْمَ ﴾: ظرْفٌ متعلِّقٌ بقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُبْلِسُ﴾، وهِي مُضافَةٌ إِلَى الجمْلَةِ بعْدَها، والجمْلَةُ بعْدَها ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، فالجمْلَةُ إِذَنْ في محلِّ جرٍّ بالإضافَةِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾: أيْ تأْتِي، كَما قَالَ الله تَعالَى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾، والسّاعةُ المرادُ بِها ساعَةُ البعْثِ، فـ(أل) فِيها للْعَهْدِ الذّهْنِيِّ، يعْنِي السّاعَةَ المعهُودَةَ العظِيمةَ التي فِيها قِيَامُ الخلْقِ مِنْ قُبورِهِم إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ.

قوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ يسكـت]: فالإِبْلاس بمعْنَى السّكـوتِ، وقِيلَ الإِبْلاس بمَعْنى اليَأسِ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾ [الرّوم:٤٩]، أي لآيِسِينَ، ومِنْه (إِبْلِيسُ)؛ لأَنَّهُ أَيِس مِن رحْمَةِ الله، وعَلى هَذا فيكُونُ (يُبْلِسُ) بمعْنَى يَيأَسُ، ولا يَبْعُدُ أنْ تَكُونَ الآيَة جامِعَةً للمَعْنَيَيْنِ أيْ يَيْأَسُونَ فيَسْكُتُونَ؛ لأَنَّهُ إِذا أَيِس سكَتَ ولَمْ يتكَلَّمْ بشَيْءٍ، إِذ إِنَّ الكلامَ لَا ينْفَعُهُ، وعَلى هَذا فنَقُولُ: إِنَّ مَعْنى (يُبْلِسُ) يَيْأَسُ مَع السّكوتِ.

وقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: اسْمُ فاعِلٍ مِنْ (أَجْرَمَ)، أيْ فَعَل الجرْمَ، وهُو الذّنْبُ العظِيم؛ وَلِهَذا فسَّرها المُفَسِّر بقَوْلِه: (المشْرِكُونَ)، ويُسْتَدَلُّ عَلَى أنَّ المرَادَ بِه المشْرِكُونَ بقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾، فهُمْ يَوْمَ القيامَةِ يَيْأَسُونَ ويَسْكُتونَ ولَا يجِدُونَ لهُمْ حُجَّةً.

• ● ۞ ● •

الآيــة (١٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الرّوم:١٣].

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَلَمْ يَكُن ﴾ أَيْ لَا يَكُـون ﴿لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ مِمَّنْ أَشْرَكُـوهُمْ بِالله وَهُمْ الأَصْنَام لِيَشْفَعُـوا لَهُمْ ﴿شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ﴾ أَيْ يَكُونُـونَ ﴿بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ أَيْ مُتَبَرِّئِينَ مِنْهُمْ] اهـ.

قوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَلَمْ يَكُن ﴾ أي لا يكون]: فسَّر (لم) بـ(لا)؛ لأَنَّ (لم) في قوْلِه تَعالَى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ ﴾ للْمَاضِي، فتَقْتَضِي أن يكونَ هَذا الأَمْرُ قدْ وَقَع وهُوَ لم يأتِ لأَنَّهُ يَوْمَ القيَامَةِ، فَعلَى هَذا يكُونُ الماضِي بمَعْنى المسْتَقْبَلِ، أيْ: ولَمْ يَكُنْ لَهُم حِينَئِذٍ، وعِنْدِي أَنَّه لَا حاجَةَ إِلَى هَذا التَّأْوِيلِ، أيْ لَا حاجَةَ إِلَى أنْ نَجْعَلَ (لم) بمعْنَى (لا)؛ لأَنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿ وَلَمْ يَكُن ﴾ مقيَّدَةٌ بِكلِمَةِ (يُبْلِس)، يعْنِي ولَمْ يكُنْ لَهُم فِي حالِ الإِبْلاس، وحَالُ الإِبْلاس يكُونُ يوْمَ القيامَةِ، لكِنَّ المُفَسِّر أخَذ الآيَة عَلَى أنَّها مُطْلَقَةٌ بدُونِ أنْ تُقَيَّدَ بقَوْلِهِ: (يُبْلِسُ)، وعَلى هَذا لا بُدَّ أنْ نَقُولَ: إنَّ (لم) بمَعْنَى (لا).

قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾ اسْمُ ﴿يَكُن﴾، ﴿مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ خبرُها مقَدَّمٌ، و﴿شُرَكَآئِهِمْ﴾ جمْعُ شَرِيكٍ، وهُو بمَعْنى اسْمِ مفْعُولٍ، مثلُ قَتِيل بمَعْنى مقْتُول، أيْ مشْرُوك بِه، والمعْنى مَن جَعلُوهم شُركَاءَ مَع الله كَمـا قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ مَنْ

أَشْرَكُوهُمْ بِاللهِ]، فصَارَتِ الإضافَةُ هُنا مِنْ بَابِ إِضافَةِ الشَّيْءِ إِلَى مفْعُولِهِ، أي الَّذِين جَعلُوهُمْ شُركَاءَ لَهُمْ.

وقوْله تَعالَى: ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ جَمْعُ (شَفيع) بمعْنَى شَافِع، وَالشَّافِعُ هُو مَن يتوسَّطُ للغَيْرِ إمَّا لجَلْبِ منفَعَةٍ، وإمَّا لدَفْع مضَرَّةٍ، وسُمِّي شافِعًا لأنَّك بِه كُنْتَ شِفْعًا بعْدَما كنْتَ قبْلَه منْفَرِدًا؛ وَلِهَذا سُمِّي الشَّفِيع شافِعًا لهذا الوَجْهِ، أما الشَّفاعةُ لجلْبِ المنْفَعة فكأَنْ يَكُونَ فَقِيرًا فيتوسَّطُ لَه عنْدَ الملِكِ ليُعْطِيَه مالًا. وأمَّا دفْعُ المضَرَّة فكَأَنْ يتوسَّطَ لَهُ ليُخْرِجَهُ مِن السّجْنِ، ومثاله أيْضًا في الشَّرْعِ شفاعَةُ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي أهْلِ النَّارِ أنْ لَا يدْخُلوهَا، فهَذِهِ شفاعَةٌ لدَفْعِ مضَرَّةٍ، وشفاعَتُه لأهْلِ الجنَّة أنْ يدْخلُوهَا جلْبٌ لمنْفَعَةٍ، فهَؤُلاءِ لم يَكُنْ لهم مِنْ شُركائِهم شُفَعَاءُ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانُواْ﴾ أي يكونونِ]: مثْلُ مَا قَال فِي: ﴿وَلَمْ يَكُن﴾.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي متبرِّئِينَ منهم]: نَعَمْ، فِي يوْمِ القيَامَةِ هَؤُلاءِ الشّركَاءُ الَّذِين كانُوا يَرْجُونَ منْفَعَتَهُم فِي يوْمِ القيامَةِ يَكْفُرونَ بِهم ويتبَرَّؤُونَ منْهُم، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ [البقرة:١٦٧]، فهُمْ يكْفُرونَ بِهم يوْمَ القيامَةِ لَا هَؤُلاءِ ولَا هَؤُلاءِ المعبُودُونَ يكْفُرونَ والعابِدُون أيضًا يكْفُرونُ، كُلٌّ منْهُم يكْفُرُ بِبَعْضٍ -والعياذُ باللهِ-، بيْنَما كانُوا فِي الدّنيا يَرْجُونَ شفَاعَتَهُم وخيْرَهُم، قَال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزّمر:٣]، لكِنَّهُم فِي يَوْمِ القيَامَةِ -والعياذُ باللهِ- يتبرَّأُ بعضُهُمْ مِن بعضٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: قِيامُ السّاعَة وأنَّه كائِنٌ لَا محالَةَ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: أنَّ أهْلَ الشّرْكِ إذا قامَتِ القيَامَةُ سكَتُوا وأَيِسُوا مِن الرّحْمَةِ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ بخِلَافِهم فِي الدّنْيا، فإنَّهم فِي الدّنيا يُعانِدُونَ ويسْتَعْلُونَ بآلهتِهم كَما قَال أَبُو سُفْيانَ: أُعْلُ هُبَل، ولكِنْ فِي الآخرةِ لَا حِراكَ لَهُمْ ولَا قولَ، ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: أنَّ هَذِهِ المعبُوداتِ لا تنْفَعُ أصحَابَها فِي أَحْوَجِ ما يَكُونُونَ إليْها؛ وجْـهُ ذَلِك من الآيَة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾، فذَلِك اليَـوْم هُو محَلُّ الشّفاعَةِ لكِنَّهُم لَا يسْتَفِيدُونَ مِن هَذِهِ الأصْنَامِ، بَلْ أكْثَرُ مِن هَذا أنَّهُم يَكْفُرون بِهَذا، ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾، يكْفُرون بِهم كَما أنَّ الأصْنَامَ تَكْفُر بِهم أيضًا، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦]، فيتبَرَّأُ كُلٌّ مِن الآخر مَع أنَّ ذَلِك هُو محَلُّ الأزْمَةِ ومحَلُّ الفرَج.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: الإشارة إِلَى أنَّ هَؤُلاءِ المشْرِكينَ إنَّما أشْركُوا لطلَبِ أنْ يكُونَ هَؤُلاءِ المشْـرَك بِهم شُفعاءَ، وَهَذا ما صـرَّح الله بِه في قوْلِه تَعالَى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزّمر:٣]، فإذا قَال هَؤُلاءِ الَّذِين يعْبُدونَ القبـورَ: نَحْن مَـا نعْبُدهُمْ لأنَّنا نرْجو منْهُم نفعًا مباشِرًا لكِن نعْبُدهم ليَشْفَعُوا لنَا إِلَى الله.

قُلْنَا: هَذا شِرْكُ الأوَّلِين، وَهَذا مَا حَكاهُ الله عَن المشْرِكِينَ أنَّهم لَا يُريدُونَ النّفْع المبَاشِرَ لكنَّهُم يُريدُونَ أنْ تَكُونَ شفِيعَةً لهُمْ عِنْدَ الله عَزَّوَجَلَّ.

• • ۞ • •

الآيتان (١٤، ١٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ [الرّوم:١٤-١٥].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ ﴾ تَأْكِيد ﴿يَتَفَرَّقُونَ ﴾ المؤْمِنُونَ والكافِرون، ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ ﴾ جَنَّة ﴿يُحْبَرُونَ ﴾ يَسُرُّونَ، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ القرْآن ﴿وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ البعث وغيره ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾] اهـ.

نقُولُ فِيها كما قُلْنا فِيما سبَقَ أَنَّ المرَادَ بالسّاعَةِ ساعَةُ البعْثِ المعْهُودَةِ المعْلُومَةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿يَتَفَرَّقُونَ ﴾: مُتَعَلَّقٌ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ يعْنِي أنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ﴿يَتَفَرَّقُونَ ﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ ﴾ تأكيدٌ للأُوْلَى، والدّلِيلُ عَلَى أنَّها تأكِيدٌ أنَّها لَوْ حُذِفَتْ وقِيلَ: (ويَوْم تَقُومُ السّاعَةُ يتفرَّقُون) اسْتَقامَ الكلامُ لكِنْ يفُوتُ التّوْكِيدُ الَّذي أرادَهُ الله عَزَّوَجَلَّ، يعْنِي فِي ذَلِك اليَوْمِ بالتّأكِيدِ.

والتّنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ -وفي كُلِّ موارِدِها- عِوَضٌ عنْ جُمْلَةٍ، أيْ (يَوْمَ إِذْ تَقُومُ السّاعَةُ) وَكَذلِكَ يُقَالُ في (حينَئِذٍ) و(وقتِئذٍ)، التّنوينُ فِيها عِوَضٌ عنْ جُمْلَةٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿يَتَفَرَّقُونَ ﴾: الضّميرُ يعُودُ عَلَى الخلْقِ فيشْمَلُ المؤْمِنَ والكافِرَ حَتَّى لَو كانُوا أقَارِبَ لوْ كَان أبٌ مسْلِمٌ وابْنٌ كافِرٌ أوْ بالعكْسِ تفرَّقُوا لأنَّها دارُ

الجزاءِ وكلٌّ يُجْزَى بعمَلِه.

قولُه تعالَى: ﴿ فَأَمَّا ﴾: حرْفُ شَرْطٍ وتفْصِيلٍ؛ ولذَلِك يُؤْتَى بِها دَائِمًا في مَواضِعِ التَّفْصيل، كَما فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ [الليل:٥]، ثمَّ قالَ في ضِدِّه: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ [الليل:٨]، وهِي أيْضًا حرْفُ شرْطٍ؛ ولِذَلِك تَحْتاجُ إِلَى جَوابٍ، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ [الليل:٥-٧]، وهنَا قالَ تعالَى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ ﴾ فتكُونُ إِذَنْ حرْفَ شرْطٍ وتفْصيلٍ، وهِي أيْضًا متضَمِّنَةٌ لمعْنَى التّوكِيدِ، فإِنَّها تُؤكِّدُ لأَنَّ قولَك: (أمَّا مَن فعلَ كَذا فَلَهُ كذا) أقْوَى مِنْ قَولِكَ: (مَن فعَلَ كذا فلَهُ كَذا)، فهيَ عَلَى هَذا تفِيدُ الشّرْطِيَّةَ وَالتَّفْصيل والتّوكِيدَ، وهُوَ تقْوِيةُ الكلامِ، وأيْضًا تُفيدُ حصْرَ التّفرُّق عَلَى هذَيْنِ الفريقَيْنِ.

قوْله تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مبْتَدأٌ، والخبَرُ ﴿فَهُمْ﴾ مِنْ جُملة ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾.

وقوْله تَعالَى: ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يعْنِي جَمَعُوا بيْنَ الإِيمَان وَالعمَلِ، واعْلَمْ أنَّ الإِيمَان إِذا أُفْرِد شَمِلَ العمَل كَما أنَّ عمَلَ الصّالحاتِ إِذا أُفْرِد يشْمَلُ الإِيمَان، فَإِذا قُرِن أحَدُهما بالآخر صَار الإِيمَان يعْني الأعمالَ الباطِنَةَ، وعَملُ الصّالحاتِ للأَعْمالِ الظّاهِرة أيْ عَمل الجوارِحِ، والإِيمَان يَشْمَلُ الإِيمَان باللهِ وملائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ والَيْومِ الآخر والقدَرِ خيْرِه وشَرِّه، هكَذا فسَّرهُ النّبيُّ ﷺ لجبْرِيلَ حينَ سأله مَا الإِيمَان؟ قَال: «**أنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخر وَتُؤْمِنَ بِالقدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإِيمَان، باب بيان الإِيمَان والإسلام والإحسان، رقم (٨).

قوْله تَعالَى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: ﴿عَمِلُوا۟﴾ تشمَلُ الفعْلَ والقوْلَ، والعمَلُ الصّالح يشْمَل قوْلَ اللّسانِ وعمَلَ الجوارِحِ، والعمَلُ الصّالح هُو ما جَمعَ بَيْنَ أمْرَينِ:

- الإِخْلاص للهِ عَزَّوَجَلَّ.

- والمتَابَعَة لرَسُولِهِ ﷺ.

فقوْلُه تَعالَى: ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِن هَذيْن الأمْرَيْنِ إيمانٌ وعمَلٌ، ومجردُ الإِيمَان لا ينْفَعُ بدُونِ عمَلٍ، وَالعمَلُ بدُونِ إيمانٍ أيْضًا لا ينْفَعُ، بلْ لا بُدَّ مِن إيمانٍ وعمَلٍ، وَبِهذَا نعْرِفُ أنَّ بعْضَ النّصوصِ المطْلَقَةِ التي فيها الوَعْدُ بالجنَّةِ لمنْ كَانَ فِي قلْبِهِ أدْنَى حَبَّةِ خرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ ومَا أشْبَهَ ذَلِك أنَّ المرادَ الإِيمَان المتضمِّنُ للعَملِ تحقِيقًا أو تقْديرًا، تحقِيقًا بأنْ يكُونَ عامِلًا فعْلًا، وتقْدِيرًا بأنْ يكُونَ لم يتمَكَّنْ مِن العمَلِ، ولكِن مَعه الإِيمَان، كَما لَوْ آمَن عنْدَ قُربِ وفَاتِهِ مثْل الأصَيْرِم مِن بَنِي عبْدِ الأشْهَل قصَّتُه معروفَةٌ فِي أُحُدٍ[1].

وقوْله تَعالَى: ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾: جمْلَةٌ اسْميَّةٌ، للدّلالَةِ عَلَى الثّبوتِ

---

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: حَدِّثُونِي عَنْ رَجُلٍ دَخَلَ الجَنَّةَ لَمْ يُصَلِّ قَطُّ؟، فَلَمَّا لَمْ يَعْرِفْهُ النَّاسُ سَأَلُوهُ مَنْ هو؟ فَقَالَ: أُصَيْرِمُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، عَمْرُو بْنُ ثَابِتِ بْنِ وَقْشٍ، قَالَ الحصَيْنُ: فَقُلْتُ لِمَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ: كَيْفَ كَانَ شَأْنُ الأُصَيْرِمِ؟، قَالَ: كَانَ يَأْبَى الإِسْلَامَ عَلَى قَوْمِهِ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أُحُدٍ، بَدَا لَهُ الإِسْلَامُ فَأَسْلَمَ، فَأَخَذَ سَيْفَهُ فَغَدَا حَتَّى أَتَى القَوْمَ، فَدَخَلَ فِي عُرْضِ النَّاسِ فَقَاتَلَ حَتَّى أَثْبَتَتْهُ الجِرَاحَةُ، فَبَيْنَمَا رِجَالُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ يَلْتَمِسُونَ قَتْلَاهُمْ فِي المَعْرَكَةِ إِذَا هُمْ بِهِ، فَقَالُوا: وَاللهِ إِنَّ هَذَا لَلْأُصَيْرِمُ وَمَا جَاءَ، لَقَدْ تَرَكْنَاهُ وَإِنَّهُ لَمُنْكِرٌ هَذَا الحَدِيثَ، فَسَأَلُوهُ فَقَالُوا: مَا جَاءَ بِكَ يَا عَمْرُو؟، أَحَرْبًا عَلَى قَوْمِكَ أَوْ رَغْبَةً فِي الإِسْلَامِ؟، فَقَالَ: بَلْ رَغْبَةً فِي الإِسْلَامِ، آمَنْتُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَسْلَمْتُ، ثُمَّ أَخَذْتُ سَيْفِي فَغَدَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَاتَلْتُ حَتَّى أَصَابَنِي مَا أَصَابَنِي، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ فِي أَيْدِيهِمْ، فَذَكَرُوهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»، أخرجه أحمد (٣٩/ ٤١، رقم ٢٣٦٣٤) طبعة الرّسالة.

والاسْتِمرارِ ﴿فِي رَوْضَةٍ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جنَّة] وهِي كذَلِك، فالرَّوْضَةُ عبَارَةٌ عَنِ البساتِينِ المشْتَمِلَةِ عَلَى الأزْهارِ وَالأشْجارِ وَالرّوائِح الطّيِّبَةِ وَالمنَاظِرِ البهِيجَةِ؛ وَلِهَذا قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُحْبَرُونَ﴾: أيْ يُسَرُّون]، وقِيلَ: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يُنَعَّمُون، وهُمَا متَلازِمَانِ؛ لأَنَّ النّعِيمَ يحْصُلُ بِه السّرورُ، هَؤُلاءِ الَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحاتِ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُون.

قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُحْبَرُونَ﴾: الماضِي منْهُ (حُبِرَ)، وهُوَ فِعْلٌ مضَارِعٌ مبْنِيٌّ للمَجْهُولِ والماضِي منْهُ إذا كَان فِيه الفاعِلُ الظّاهِرُ بالكسْرِ (حَبِرَ)، فتكُونُ مثْلَ (فَرِح يَفْرَح، حَبِرَ يَحْبَرُ).

الآيــة (١٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الرّوم:١٦].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ القرْآن ﴿وَلِقَآيِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ البعث وغيره ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾] اهـ.

فِي هذِهِ الآيَة بَيان للْقِسْمِ الثّانِي، وَهُمُ الَّذِين كفَرُوا بتَـرْك العمل الصّالح، ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ فلَمْ يُؤْمِنُوا.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ القرْآن]، غيرُ صحِيـحٍ، بَل قطْعًا يشْمَلُ القرآنَ وغَيْرَ القرآنِ؛ لأَنَّ الَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحاتِ والَّذِين كَفَرُوا وكذَّبُوا بِآيَاتِ الله ولِقَائِهِ هَؤُلاءِ يَكُونُونَ في هَذِهِ الأمَّةِ ويَكُونُونَ فِي غيْرِها.

وقوْلهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلِقَآيِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ البعْثِ وغَيْرِه]، البعْثُ الإخراج مِنَ القبورِ وغَيْرُه مِن الحسَابِ والجزاءِ وَالجنَّةِ والنّار، فيُكَذِّبُونَ بِها فيَقُولونَ لَا تُوجَدُ جَنَّةٌ ولا نَارٌ ولا حِسابٌ ولَا عَذابٌ، والعجِيبُ أنَّ هَذا القوْلَ الباطِلَ الفاسِدَ نَحا إِلَيْهِ مَنْ يُسمُّونَ أنْفُسَهُم بِالحكَماءِ وهُمُ الفلاسِفَةُ، يقُولونَ أنَّه لا تُوجَدُ جنَّةٌ ولا نَارٌ ولا بَعْثٌ، ولَكِنَّ الرّسلَ قَالوا لِلنَّاسِ هَذا مِن أجْلِ إقامَتِهم عَلَى الطّريق التي اخترَعُوها لَهُم، ويَزْعُمونَ -وَالعياذُ بِاللهِ- أنَّ الرّسُلَ رجَالٌ عبَاقِرَةٌ عنْدَهُم ذكَاءٌ وحُسْنُ سِيرَةٍ وتنْظِيمٌ، لكِنَّهم

لَو قَالُوا لِلنَّاس: افْعَلُوا كَذا أَوْ لَا تفْعَلُوا كَذا بدُونِ ترْهِيبٍ ولَا ترْغِيبٍ مَا أطَاعَهُم النّاسُ، فكَانُوا يقُولونَ لِلنَّاسِ: إِنَّ لكُم ربًّا عظِيمًا وإلهًا قادِرًا، وإِنَّ لكُم معادًا يَكُونُ فِيه الجنَّةُ أوِ النّارُ، والأمْرُ ليْسَ كَذَلِكَ عنْدَهُم، يعْنِي إِنَّما ذَكَرُوا ذَلِك مِنْ أجْلِ إِقَامَةِ النّاسِ عَلَى الطّـرِيقِ التي سَنُّوها لَهُم، وَهَذا معْنَاهُ الكفْر بالبعْـثِ وَبِالرّسالَةِ وحتَّى بأنْفُسِهم؛ لأَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ باللهِ عَزَّوَجَلَّ فقَدْ كَفَر أوَّلَ مَا كَفَر بنَفْسِه؛ لأَنَّهُ أنْكَرُ أنْ يكُونَ لَه خالِقٌ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾: أعُوذُ باللهِ، المرَادُ بِالعذَابِ هُنَا العقوبَةُ، وجَعل العذابَ ظرْفًا لَهُم لأَنَّهُ مِحيطٌ بِهِمْ مِن كُلِّ جانِبٍ، كَما قَالَ الله تَعالَى: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ [العنكبوت:٥٥].

وقوْله تَعالَى: ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ مِن الإحْضَارِ أحْضَرْتُه، بمَعْنى: جعَلْتُه يَحْضُر هَذا الشّيْءَ، فهَؤُلاءِ مُحضَرُونَ فِي العذابِ بدُونِ اخْتِيارِهِمْ، لَوْ رَجع الأمْرُ إِلَى أنْفُسِهم مَا حَضَرُوا، لكِنَّهم يُحْضَرونَ فِيه كَرْهًا.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائِدَةُ الأولَى: إثْبَات القيَامَةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: أنَّه في ذَلِك اليَومِ يتفَرَّقُ النّاسُ إِلَى فَريقَيْنِ: فَريقٌ في الجنَّةِ، وفَريقٌ في السّعِيرِ.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: أنَّ الآباءَ مَع أوْلادِهِم والأمَّهاتِ مَع أوْلَادِهم إِذا كانَ أحَدُهم كافِرًا والثّاني مُؤْمِنًا يتفرَّقونَ، ولَا يُمْكِنُ أنْ يُنْقِذَ أحَدٌ أحدًا فِي ذَلِك اليَوْمِ لِعُمُوم قوْله تَعالَى: ﴿يَنَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ولم يَسْتَثْنِ الأوْلادَ مَع والدِيهم

أوْ بالعكْس فَفي ذَلِكَ اليَوم لَا يُوجَدُ اجتِماعٌ إلا إذا كَانُوا عَلَى الحقِّ، وَهَذا لا يَشْمَلُ المؤْمِنيـنَ؛ لأَنَّ المؤْمِنيـنَ تَفرُّقُهم إِلَى جِهَةٍ واحِدَةٍ؛ وَلِهَذا قَال: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ فجعلَهُم قِسْمَيْنِ: إمَّا في منَازِلِهم فِي الجنَّةِ، كُلٌّ في منْزِلَتِه لكِنْ فِي عَرُصاتِ القيَامَةِ يَكُونُ فَرِيقُ المؤْمِنينَ جَمِيعًا، وفَرِيقُ الكفَّارِ جَمِيعًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل كُلُّ إِنْسَانٍ مستقِلٌّ بنفْسِه حتَّى ولَوْ كانَ مُؤْمِنًا؟

قُلْنَا: هَذا لَيْسَ بظَاهِرٍ؛ لأَنَّ قوْلَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، وقولَه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ يقْتَضِي أنَّ المقْصُودَ تفرُّقُ الجِنْس ينْقَسِمُونَ مثْلَ مَا قَالَ الله تَعالَى: ﴿فَرِيقٌ فِي الجنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧].

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: إثْبَات الجزَاءِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ ﴾، وقوْلِه تَعالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴾.

الفائِدتَانِ الخامِسَةُ والسّادِسَةُ: فضِيلَةُ الإيمَـان والعمَلِ الصّالح؛ حيْثُ كانَ جَزاؤُه مَا ذَكر والتّحْذِيرُ مِنَ الكفْر، حيْثُ كَان جَزاؤُه مَا ذَكر أيْضًا.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّ الإيمَان والعمل يتَّفِقانِ إذا افْتَرقَا ويَخْتلِفانِ إذا اجتْمَعا، فعَلى هَذا يكُونُ كُلٌّ منْهُما بمَعْنَى الآخر عنْدَ الانْفِرادِ، ويخْتَلِفُ كلٌّ منْهُما عَنِ الآخر عنْدَ الاجْتِماعِ.

الفائِدتَانِ الثّامِنةُ والتّاسِعةُ: أنَّ العمَل لا ينْفَعُ إلا إذا كَان صَالحًا؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، وحيْثُ إنَّنا فسَّرْنا الصّالح بأنَّه مَا اجْتَمع فِيه الإخْلاص والمتابَعَةُ يُسْتَفادُ مِنْهُ أنَّ العمَل الَّذي فِيه الشّرْكُ لَا ينْفَعُ صاحِبَهُ، وَهَذا واضِحٌ، وفِي

الصّحيحِ مِن حَدِيثِ أَبي هُريْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنِ النّبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أَنَّ الله قَال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُه وَشِرْكَهُ»(١)، وهَل هَذا يشْمَلُ الشّـركَ في الصّفَةِ، وفِي أَصْلِ العمَلِ، أَوْ نَقُولُ: إِذا كَانَ أَصْلُ العمَلِ لَا شِرْكَ فِيه والصّفَةُ فِيها شِرْكٌ قُبِل أَصْلُ العمَل دُونَ صِفَتِه، مثـلًا رجَلٌ أَرَادَ أَنْ يُصلِّي الرّاتِبَةَ لكِنَّهُ أَحسنَها وأَتْقَنَـها واطمَأَنَّ فِيها رياءً، فإِنَّ هَذا لا ينْفَعُه، فَمَنْ ذَكَر الله: يُسَبِّحُ مرَّةً واحِدَةً، ولكنَّه من باب الرّياءِ يُسَبِّحُ ثلاثًا، فَتسبِيحُه الثّلاثُ لَا ينْفَعُه، لكِنْ لا نقُولُ أَنَّه يحْبَطُ عَمَلُه، بَل يأْثَمُ عَلَى ذَلِك؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النّساء:٤٨]، فالشّرك مِن خصائِصِه ولَوْ كانَ أَصْغَر ألا يُغفَر إلا بتَوْبَةٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَل يُفرَّقُ بيْنَ الاسْتمرارِ عَلَى الشّرْك الأَصْغَرِ وعَدمِ الاسْتمرارِ؟

قُلْنَا: لا يُفرَّق بَيْنَهُما، مَا دامَ أَنَّه لَا يصِلُ إِلَى حدِّ الأَكْبَر فهُوَ أَصْغَرُ، لكِنْ يُفَرَّقُ بيْنَهم مِن جِهَةِ الإِصْرارِ علَيْه، فيَكُون أَعْظَم مِن فِعْلِه مرَّةً ثمَّ ترْكِه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الرّياءُ إِذا طرَأَ فِي أَثْنَاءِ العبادَةِ، هلْ يَكُون مُبْطِلًا للعِبادَةِ؟

قُلْنَا: الرّياءُ إِذا طَرأَ فِي أَثْناءِ العبادَةِ فإِنْ كافَحَه ودَافَعه مَا ضَرَّه، وإِنِ اسْتَرْسَل معَه واطمأَنَّ إِلَيْهِ فإِنَّهُ يضُرُّه، أَمَّا هَل يكُونُ مُبْطِلًا للعِبادَةِ أَوْ غيْرَ مُبْطِلٍ فإِنْ كانَتِ العبادَةُ تتَجَزَّأُ، كَما لَو أَرَادَ أَنْ يتَصدَّقَ بصَاعَيْنِ فأَخْرَج صاعًا بدُونِ رِيَاءٍ، ثمَّ أَخْرَج الثّانِي بِرِيَاءٍ فإِنَّ البطْلانَ يخْتَصُّ بِما حصَل بِه الرّياءُ فقَطْ، يعْنِي الأَوَّلُ يكُونُ صحِيحًا، وَإِنْ كانَتِ العبادةُ لا تتجَزَّأُ -كَما فِي الصّلاةِ- فإِنَّ مِن أَهْلِ العلْمِ مَن يَرى أَنَّ الصّلاةَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزّهد والرّقائق، باب من اشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

تبْطُل لأَنَّ الرّياءَ طَرَأَ عليْهَا وهِي لا تتَجَزَّأُ، فَلا يُمْكِنُ أنْ يَصِحَّ أوَّلُها دُونَ آخِرِها ومِنْهُم مَن يقُولُ: لَا تَبْطُل لأَنَّ أصْلَ هَذا العمَلِ خَالصٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، فَلا يُبْطِلُه الرّياءُ.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أنَّ الجنَّة روْضَةٌ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾، ويُرْوَى أنَّ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَال لِلنَّبيِّ ﷺ ليْلَة عُرِج بِه: «أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أنَّ الجنَّةَ قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَها: سُبْحَانَ الله، وَالحمْدُ لله، وَلَا إله إلا الله، وَاللهُ أَكْبَرُ»(١).

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: أنَّ هَذِهِ الجنَّةَ مملُوءَةٌ بالسّرورِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾؛ لأَنَّ الحبورَ معْنَاه التّنَعُّمُ والسّرور الَّذي لا شيْءَ فوْقَهُ.

الفائِدَةُ الثّانِيةَ عَشْرَةَ: أنَّ الكفْر أعَمُّ مِن التّكذِيبِ؛ لأَنَّ العطْفَ يقْتَضِي المغايَرَةَ، كَفَرُوا وكَذَّبُوا لأَنَّ الكفْر ينْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: إمَّا جحْدٌ وإِمَّا اسْتِكْبَارٌ، وَلِهَذا كَان أعَمَّ مِنَ التّكْذِيبِ.

الفائِدَةُ الثالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الكتُبَ المنَزَّلَةَ مِن آيَاتِ الله، وسبَقَ قبْلَ قلِيلٍ وجْهُ كونِها مِنْ آيَاتِ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

الفائِدَةُ الرّابِعةَ عشْرَةَ: إثْبَات البعْثِ، وأنَّ مُنْكِرَه كافِرٌ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾، هَذا اللِّقاءُ العظِيمُ الَّذي يتَلاقَى فِيه كُلُّ المخْلُوقاتِ، ويُلاقُونَ الله تَعالَى.

الفائِدَةُ الخامِسَةَ عشْرَةَ: أنَّ هَؤُلاءِ المكذِّبِينَ الكافِرينَ يُحْضَرونَ إِلَى العذَابِ قصْرًا وقهْرًا؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾، وهُوَ كقوْلِه تَعالَى:

---

(١) أخرجه التّرمذي: كتاب الدّعوات، باب ما جاء في فضل التّسبيح والتّكبير والتّهليل والتّحميد، رقم (٣٤٦٢).

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطّور:١٣]، يعْنِي يُدْفَعُونَ بعُنْفٍ وشِدَّةٍ -والعياذُ باللهِ-، ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطّور:١٤]، ومعْلُومٌ أنَّهم لوْ رجَعَ الأمْرُ لاخْتِيارِهِم لَا يدْخُلونَ، لكنَّهم يُدْفَعُونَ بعُنْفٍ وشِدَّةٍ حتَّى يدْخُلُوها.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا الصّحِيحُ فيمَنْ تُوفِّي قبْلَ البلُوغِ؟

قُلْنَا: الصّحِيحُ فيمَنْ تُوفِّي دُونَ البلوغِ ومَنْ لَمْ تبلُغْه الدّعوَةُ أيْضًا، إنْ كانَ مَن تُوفِّي قبْلَ البلوغ مِن أوْلادِ المؤْمِنينَ فهُو مؤْمِنٌ مطلقًا؛ تبعًا لأَبَوَيْه أوْ للمُؤْمِن منْهُما، ولَا يُشْهَدُ لَهُم بالجنَّةِ كَما لَا يُشْهَد لآبَائِهم، لكِنْ يُشْهَد بالعُمُوم والجِنْس، فنَشْهَدُ لكلِّ مُؤمِنٍ بأنَّه في الجنَّةِ، وأمَّا التّعيينُ فيَحْتَاجُ إِلَى نَصٍّ، وأمَّا مَن تُوفِّي وهُو لَمْ يُميِّزْ، يعْنِي قبْلَ البلُـوغِ، وهُو مِن الكفَّارِ فالمنَاطُ التّمْييزُ لَا البلـوغُ، فإنَّ أصَحَّ الأقْوالِ فِيه أنَّه يُمْتَحَنُ يومَ القيامَةِ بِما يشَاءُ الله عَزَّوَجَلَّ، ثمَّ تَكونُ النّتيجَةُ إمَّا إِلَى الجنَّةِ وإِمَّا إِلَى النّارِ، والامْتِحانُ ورَد فِيه آثَارٌ: أحادِيثُ ضعيفَةٌ وآثَارٌ عنِ الصّحابَةِ.

وقَدْ وَرَد حدِيثَانِ فِي أوْلادِ المشْرِكينَ، قَال ﷺ: «هُمْ مِنْهُمْ»[1]، وقال: «الله أعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ»[2]، أمَّا قولُه: «هُمْ مِنْهُمْ» فالمرادُ بِه أحكامُ الدّنْيا، فوَلَدُ المشْرِكِ الَّذي أبواهُ كافِرَانِ يُحْكَمُ بأنَّه كافِرٌ فَلا يُغَسَّلُ، ولَا يُكَفَّنُ، ولَا يُصَلَّى علَيْهِ، ولَا يُدْفَنُ مِع المسْلِمينَ، ولكِنْ فِي الآخرةِ يكونُ الجوَابُ الثّاني، حِينَ قالَ الرّسولُ ﷺ لِعَائِشَةَ: «الله أعْلَمُ بِما كَانُوا عَامِلِينَ».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسّير، باب أهل الدّار يبيتون فيصاب الولدان والذّراري، رقم (٣٠١٣)، ومسلم: كتاب الجهاد والسّير، باب جواز قتل النّساء والصّبيان في البيات، رقم (١٧٤٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم (١٣٨٣)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم (٢٦٥٨).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لو امتُحِنَ لآمَـنَ؛ لأَنَّ الله هُو الممْتَحِنُ، وكُلُّ شَيْءٍ مِن أهْـوالِ القيَامَةِ أمَامَه؟

فالجوابُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقُـولُ: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، فالآيَات التي جاءَتْ بِها الرّسلُ واضِحَةٌ، ومَعَ ذَلِك كفَرُوا وأيْضًا قدْ لَا يُمْتَحن بأنْ يُقالَ لَهُ: هَل تُصدِّقُ بِهَذا اليْومِ أوْ لَا؟ وقَدْ يُمْتَحَن في أُمورٍ أُخْرَى؛ وَلِهَذا قُلنَا: الله أعْلَمُ فِيما يمتَحِنُه بِه، قَدْ يمتَحِنُه بأمْرٍ يُمْكِنُ أنْ يَقع فِيه اشْتِبَاهٌ.

• ● ❁ ● •

الآيتان (١٧، ١٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الرّوم:١٧-١٨].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ سَبِّحُوا الله بِمَعْنَى صَلُّوا ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ أَيْ تَدْخُلُونَ فِي المسَاء وَفِيهِ صَلَاتَانِ المغْرِب وَالعشَاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ تَدْخُلُونَ فِي الصّبَاح وَفِيهِ صَلَاة الصّبْح، ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعْتِرَاض وَمَعْنَاهُ يَحْمَدهُ أَهْلهمَا ﴿وَعَشِيًّا﴾ عَطْف عَلَى حِين وَفِيهِ صَلَاة العصْر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ تَدْخُلُونَ فِي الظّهِيرَة وَفِيهِ صَلَاة الظّهْر] اهـ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ سَبِّحُوا الله]، (سبحان) منصُوبَةٌ عَلَى المفْعُولِيَّةِ المطْلَقَةِ، وعامِلُها محذُوفٌ، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعلَ المفْعُولَ المطْلَق بمَعْنى فِعل الأمْر، لَا عَلَى أنَّ عامِلَه محذُوفٌ بَلْ جعَلَه نائبًا عَن فِعلِه.

وتَسْبِيحُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معْنَاه تنْزِيهُ عمَّا لا يَلِيقُ بِه، والتّنزيهُ يتضمَّنُ أمْرَيْن:

أحدُهما: تَنزيهُ الله عَنْ كُلِّ نَقْصٍ في صِفات كمَاله.

وثَانِيهما: تَنْزيهُ الله عَنْ مُشابَهَةِ المخْلُوقِين.

أمَّا الأوَّلُ: فإنَّنا نَرى كَثيرًا مَا يَذْكُر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه لا يَتْعَبُ ولَا يظْلِمُ ولَا يَغْفُل ومَا أشْبَه ذَلِك؛ لِكمَالِ صِفاتِه.

وأمَّا مشابَهةُ المخلُوقِين: فقَدْ قَال الله تَعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وتَنْزيهُ الله عَنْ مُشابَهَةِ المخْلُوقِينَ هُو فِي الحقِيقَةِ تنْزِيهٌ لهُ عَنِ النّقْص؛ لأَنَّ المخلُوقَ ناقِصٌ، وتشْبِيهُ الكامِل بالنّاقِص يجْعَلُه ناقِصًا، بِل إنَّ المقَارنَةَ بينَهما تحُطُّ مِن رُتبَة الكامِل، كَما قِيلَ:

أَلم تَـرَ أَنَّ السّـيْـفَ يَنْـقُـصُ قَـدْرُهُ ... إِذَا قِيلَ إِنَّ السّيْفَ أَمْضَى مِنَ العصَا

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سبحوا الله بمعنى صلوا]: أفادَنا المُفَسِّر بهذَا أنَّ المرادَ بتَسْبِيحِ الله تَعالَى هنَا تَسبِيحٌ خاصٌّ وهُوَ الصّلاة، فلَمْ يجْعل التّسبيحَ عامًّا يشْمَلُ الصّلاةَ وغيْرَها، لتَقْييدِه بهَذِه الأوقاتِ، فإِنَّ تقْييدَه بهَذِه الأوْقَاتِ يدُلُّ عَلَى أنَّ المرَادَ الصّلاةُ وأُطْلِق عَلَى الصّلاةِ تَسْبِيحٌ لأَنَّ التّسبِيحَ مِن واجِباتِها كَما قَال الله تَعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤]، قَالَ النّبيُّ ﷺ: «اجْعَلُوها فِي رُكوعِكُمْ»، و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، قَالَ: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»(١)، وعَلى هَذا فتكُونُ الصّلاةُ هِي المرَادُ بالتّسبِيحِ، ويَدُلُّ عَلَى التّخِصيصِ تقْيِيدُها بأوْقَاتِ الصّلاةِ، وأيْضًا التّسبيحُ المطْلَقُ خصّهُ الله بوَقْتَيْـنِ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]، وَلَمَّا جعَل هَذا خمْسَةَ أوْقَاتٍ عُلِم مِنْ قَرينَةِ التّقْسِيمِ فِي الوَقْتِ أنَّ المرادَ بِذَلِكَ الصّلواتُ الخمْسُ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ مبْتَدأٌ وخَبَرٌ، والخبَرُ مُقدَّمٌ لإِفادَةِ الحصْرِ، فَلَهُ وحْدَه الحمْدُ، وحَمْدُ الله تَعالَى يخْتَصُّ بأَنَّه حمْدٌ يستَحِقُّه المحمودُ؛ وَلِهَذا نقُولُ: إِنَّ (اللامَ)

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٥، رقم ١٧٤٥٠)، وأبو داود: كتاب الصّلاة، باب ما يقول الرّجل في ركوعه وسجوده، رقم (٨٦٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصّلاة والسّنة فيها، باب التّسبيح في الرّكوع والسّجود، رقم (٨٨٧).

هُنا للاستِحْقاقِ والاخْتِصَاصِ، وقولُه (أَل) فِي (الحمْد) للعُمُوم، يعْنِي جميعُ المحامِدِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي السّمَـوَاتِ وَالأرْضِ، وهُو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ محْمُودٌ عَلَى كُلِّ حَـالٍ، وَكانَ النّبيّ ﷺ إذا أصَابَه ما يَسرُّه قَال: «**الحمْدُ للهِ الَّذي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصّالحاتُ**»، وَإذا كَان الأمْرُ عَلَى خِلافِ ذَلِك قَالَ: «**الحمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**»(١)، وأمَّا مَا يقُولُه بعْضُ العامَّةِ: (الحمد لله الَّذي لا يُحمَدُ عَلَى مكروهٍ سواه) فهَذا وإن كانَ حقًّا لكِنَّهُ لا ينْبَغِي التّعبِيرُ بِهَذا الشّيْءِ؛ لأَنَّ فِيه شيئًا مِن العتب عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ في قولِهِ: (الَّذي لا يُحْمَد عَلَى مكروهٍ سواه)، وإنَّما يُقالُ كَما قالَ النّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الحمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**».

قوْلُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعْتِرَاضٌ، ومَعْنَاهُ يَحْمَدُهُ أهْلُهُمَا): لا شَكَّ أنَّه داخِلٌ في الآيَةِ، وأنَّ قوْله تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ يَعْني أنَّه يُحْمَدُ، ولكِنْ ينْبَغِي أنْ يُقالَ بِما هُو أعَمُّ، أيْ أنَّ مَا خَلَقَهُ في السّموِاتِ والأرْضِ فإنَّهُ مُستَحِقٌّ لِلْحَمْدِ علَيْه، سواءً حُمِدَ أمْ لم يُحْمَدْ، فكُلُّ مَا في السّموَات وَالأرْضِ فإنَّهُ شيْءٌ يُحْمَدُ الله علَيْه، أمَّا في أمُورِ الخيرِ فظَاهِرٌ، وأمَّا في أُمُورِ الشّرِّ فيَظْهَرُ ذَلِك؛ لأَنَّ الشّرَّ بالنّسبةِ لِفِعْلِ الله وإيجَادِه لَه ليْسَ بِشَرٍّ، بَل قالَ النّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَالشّرُّ لَيْسَ إلَيْكَ**»(٢)، فلا يُنْسَب إلَيْهِ الشّرُّ.

مثَالُ ذَلِكَ: الجدْبُ والمرضُ والفقْرُ والجهْلُ والاقْتِتالُ بينَ النّاسِ والخسوفاتُ في الأرْضِ، هَذِهِ كلُّها بالنّسبَةِ لِلإنْسَانِ شَرٌّ، لكِنَّها بالنّسبَةِ لقَضاءِ الله خيْرٌ لأَنَّ الله ما قَضاهَا إلا لِحكْمَةٍ، وحِينَئِذٍ يكونُ محْمُودًا علَيْها، والشّر في المقْضِيِّ لا فِي القضاءِ؛

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدّعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١).

وَلِهَذا فِي حَدِيث الحسَنِ بْنِ عَلِيٍّ قَال: «وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ»[١]، أيْ شَرَّ الَّذي قضَيْتَ، فأَضافَ الشَّرَّ إِلَى المقْضِيِّ لَا إِلَى القضاءِ.

واعْلَم أيْضًا أنَّ المقْضِيَّ نفسَه ليْسَ شَرًّا محْضًا، بَل هُو شَرٌّ مِنْ وَجْهٍ، خَيْرٌ مِنْ وجْهٍ آخَر، أوْ شَرٌّ فِي محلٍّ، خيْرٌ فِي محلٍّ آخَر، مثَلًا الفسادُ في البرِّ والبحْرِ شَرٌّ، لكِنَّهُ خيْرٌ مِن جِهَة عاقِبَتِه؛ لأَنَّ الله قالَ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرّوم:٤١].

إِذَنْ: هَذا خَيْرٌ، كَذَلِكَ أيْضًا قدْ يَكُون شَرًّا في مكَانٍ لكِنَّهُ خيْرٌ في مَكَانٍ آخَر، فإِهْلَاكُ الأمَم السّابِقينَ بذُنُوبِهم شَرٌّ بالنّسْبَةِ لهُمْ، فقدْ أُهْلكوا ولم يَرْجِعُوا ولَم يَسْتَفِيدُوا، لكِنْ بالنّسْبَةِ لغَيْرِهم ممَّن يَعْتَبِرُ بحالهم خيْرٌ، فيَكُونُ هَذا شرًّا في محلِّه خيرًا فِي محلٍّ آخَر.

والمُهِمُّ: أنَّ قضَاء الله نفسَه ليْسَ فِيه شَرٌّ أبدًا، بَل هُو خَيْرٌ؛ وَلِهَذا قالَ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في جَمِيعِ الأحْوَالِ، المقْضِيُّ يَكُون فِيه الشَّرُّ، ومَع ذَلِك فإِنَّنا نَقُولُ أيْ مَع إِثْبَاتنا أنَّ الشَّرَّ في المفْعُولاتِ لَا في الفعْل، نَقُول أيْضًا إِنَّ هَذا الشَّرَّ في المفْعُولاتِ ليْسَ شرًّا محْضًا لَا خَيْرَ فِيه، بَلْ قَدْ يَكُونُ شرًّا مِن وَجْهٍ وخيرًا مِنْ وَجْهٍ فِي نفْسِ المحَلِّ، كقوْلِه تَعالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرّوم:٤١]، وقدْ يَكُون شرًّا في محلِّه خيرًا في محلٍّ آخَر.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصّلاة، باب القنوت في الوتر، رقم (١٤٢٥)، والتّرمذي: كتاب الصّلاة، باب ما جاء في القنوت في الوتر، رقم (٤٦٤)، والنّسائي: كتاب قيام الليل وتطوع النّهار، باب الدّعاء في الوتر، رقم (١٧٤٥)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصّلاة والسّنة فيها، باب ما جاء في القنوت في الوتر، رقم (١١٧٨).

وقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خصَّهُما بِالذِّكْر لأنَّهُما محَلُّ نُفوذِ فعْلِه، فإنَّ الَّذي في السّموَات وَالأرْض مِن الملائِكَةِ والبشر والجنِّ وغيرِها كلُّها تَحْمَدُ الله، وكلُّها محَلُّ حمْدِه.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هلِ الكافِرُ يحْمَدُ الله؟

فالجوابُ: بِلِسانِ المقَالِ لَا، أمّا بِلِسَانِ الحالِ فنَعم، بمَعْنى أنَّ حاله تسْتَوْجِبُ لَمَنْ تأمَّلَها أنْ يَحْمَدَ الله، هَذا معْنَى قوْلِهم: إنَّ هَذا يحْمَدُ بلِسَانِ الحالِ، أوْ يُسَبِّحُ بِلسانِ الحالِ، يَعْنِي أنَّ حاله مَن تأمَّلَها عرَفَ بِها مَا يسْتَحِقُّه الله تَعالَى مِنَ الحمْدِ والتّنْزِيه.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَعَشِيًّا﴾: معْطوفٌ عَلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، يعْنِي وسَبِّحُوا الله عَشِيًّا، والعشِيُّ مِنَ الزّوالِ إِلَى غُروبِ الشّمْسِ، وَفي حدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي المسِيءِ فِي صَلاتِه قَالَ: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله ﷺ إِحْدَىَ صَلَاتَي العشِيِّ»(١).

قوْله تَعالَى: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: معْطوفٌ عَلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، والقاعِدَةُ في المعطُوفاتِ أنْ يكُونَ العطْفُ عَلَى أوَّلِ واحِدٍ لأنَّهُ هُو المحَلُّ الَّذي وَقع علَيْه عمَلُ العامِلِ، فيَكُونُ العطْفُ عَلَى الأوَّلِ، فإذا قُلْتَ: (قامَ زيْدٌ وبَكْرٌ وعمْرٌو) فإن عمرًا معْطُوفٌ عَلَى زيدٍ، فهَذِهِ الأوْقاتُ الخمْسَةُ هِي أبْسَطُ مَا ذكَرهُ الله تَعالَى في القرآنِ مِن أوْقَاتِ الصّلَواتِ وذَكَرها مُجْمَلَةً في قوْلِه تَعالَى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسْراء:٧٨]، ففِي هَذِهِ الآية ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾، يَعْنِي وقْتَ دُلُوكِ الشّمْسِ؛ لأَنَّ (اللامَ) للتَّوْقِيتِ مثْلَ ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطّلاق:١]، أيْ وقْتَ اسْتِقبَالِ عِدَّتِهِنَّ، فَـ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ لِزَوالها

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصّلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم (٤٨٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصّلاة، باب السّهو في الصّلاة والسّجود له، رقم (٥٧٣).

﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾، أي نصْفِه، وهُو شِدَّةُ ظلْمَتِه، وَذَلِكَ عنْدَ انتِصافِه؛ لأَنَّ أشدَّ ما يَكُون اللَّيلُ ظلْمَةً إِذا انْتصفَ؛ لأَنَّ نصْفَ اللَّيْل هُو أبْعَدُ مَا تكُون الشّمْسُ عَن سطْحِ الأرْضِ، ويدْخُل في هَذا -مِن زَوالِ الشّمْسِ إِلَى نصْفِ اللَّيلِ- أرْبَعُ صلَواتٍ: الظّهرُ والعصْرُ والمغْرِبُ والعشاءُ ثمَّ قالَ: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ فَفَصَلَه والمرَادُ بِه صلاةُ الصّبحِ، وفَصْلُه عمَّا قبْلَه يدُلُّ عَلَى أنَّ وقْتَ العشاءِ ينْتَهي بنِصْفِ اللَّيْلِ، وَهَذا هُو الَّذي دلَّتْ علَيْهِ السّنَّةُ أيْضًا، ومَنْ قَال أنَّه ينْتَهِي بِطُلوعِ الفجْر فلَا دَلِيلَ لَه، وهَذِه المسألَةُ ينْبَنِي علَيْها مَا لو طَهُرت المرْأَةُ في نصْفِ اللَّيلِ الثّاني هَلْ يلْزَمُها صلَاةُ العشَاءِ؟ فعَلى قَوْل مَن يقُولُ إِنَّ وقْتَ العشَاءِ يمتَدُّ إِلَى طُلوعِ الفجْر يلْزَمُها العشَاءُ، وَكَذلِكَ المغْرِبُ أيْضًا، وعَلى القوْل الرّاجِح لَا تلْزَمُها صَلاةُ العشَاءِ لأَنَّ صلاةَ العشَاءِ إِلَى مُنْتَصَفِ اللَّيلِ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائِدَةُ الأولَى: رحْمَةُ الله تَعالَى بعِبَادِه؛ حيْثُ علَّمَهُم مَا فِيه مصْلَحَتُهم.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: أنَّ الصّلاةَ تسْبِيحٌ وتنْزِيهٌ لله؛ لأَنَّ الله أطْلَقَ علَيْها اسْمَ التّسْبيحِ.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: وُجوبُ التّسبيحِ فِي الصّلاةِ؛ لأنَّ القاعِـدة أنَّه إِذا أُطْلِـق عَلَى العبادَةِ جُزْءٌ منْهَا دَلَّ ذَلِك عَلَى أنَّ هَذا الجزْء مِن وَاجِباتِها، وأنَّه لا بُدَّ منْهُ فِيها.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: بَيان الأوْقَاتِ الخمْسَةِ مفصَّلَةً؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾.

الفائِدَتانِ الخامِسَةُ والسّادِسَةُ: أنَّ المسَاء يُطلَقُ عَلَى أوَّلِ اللَّيلِ، فإنَّ قوْله تَعالَى: ﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾ يدْخُل فِيه المغْرِبُ والعشَاءُ، وقَدْ يُؤْخَذُ مِن هَذا جَوازُ رَمْيِ الجمَراتِ

ليْلًا؛ لأَنَّ رجُلًا قَال: يَا رسُولَ الله! رَمَيْتُ بعْدَ مَا أمْسَيْتُ؟ فقَالَ: «لَا حَرَجَ»[1]، فإِذا كَان المسَاءُ يُطْلقُ عَلَى أوَّلِ اللَّيْل، وأطْلَق النّبيُّ ﷺ نَفْيَ الحرَجِ، عُلِمَ أنَّه جَائِزٌ.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: حِكْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ في تَوْزِيع الصّلوَاتِ عَلَى هَذِهِ الأوْقَاتِ، ووَجْهُ الحكْمَةِ أمْرَانِ:

الأمْرُ الأوَّلُ: أنَّها لَو جُمِعَت في وقْتٍ واحِدٍ لخلَتْ بقيَّةُ الأوْقَاتِ عَن الاتِّصال باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعْنِي لَو جَعَل الإنسان يُصلِّي في الفجْرِ كُلَّ الصّلواتِ الخمْسِ جميعًا فسَيَبْقى بقيَّةَ النّهارِ واللَّيْل بِلا صَلواتٍ مفْروضَةٍ.

الأمْرُ الثّانِي: أنَّه لو جُعِلت هَذِهِ في وقْتٍ واحدٍ لكَان فِي ذَلِك نَوعٌ مِن المشَقَّةِ، يعْنِي يُوجِبُ عَلَى الإنسان أنْ يُصَلِّي سبْعَ عشْرَةَ ركْعَةً في آنٍ واحِدٍ، فَهَذا فِيه مشقَّةٌ عَلَى الأقْوِياءِ الأصحَّاءِ، فكَيْف بِالضّعفَاءِ والمرْضَى؟!

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: كَمالُ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أنَّه وحْدَه المستَحِقُّ لأَنْ يُحمَد عَلَى وَجْهِ الإطْلاقِ؛ نأْخُذه مِن تقْدِيم الخبَرِ فِي ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أنَّ كُلَّ ما يحْدُث في السّموَات وَالأرْضِ مِن خيْرٍ أوْ شَرٍّ فإنَّ الله تَعالَى يستَحِقُّ علَيْه الحمْدَ؛ تُؤْخَذُ مِن الإطْلاقِ فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾، ولم يَقُلْ: عَلَى الخيْر أوْ عَلَى مَا يَنْفَعُ، بَلْ أطْلَق، فيُسْتفادُ مِنْه أنَّ الله تَعالَى محمُودٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب الذّبح قبل الحلق، رقم (١٧٢٣).

الآيــة (١٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الرّوم:١٩].

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ كالإنسانِ مِنَ النُّطفَةِ، والطّيرِ مِن البَيْضةِ]: أما البيضَةُ فليس عنْدِي فيها عِلْمٌ فلا نَقْدِرُ أن ننْفِي إنْ كانَ فِيها حياةٌ في بعْضِ الأجْزاءِ التي يتكون منْهَا الطّائِرُ أم لا، والنّطفَةُ باعْتبارِ مَا يظْهَرُ لنا ميِّتَةٌ، وَكَذلِكَ البَيْضةُ، لكِنْ في الواقِعِ إنَّ النّطفَة ليْسَتْ ميِّتَةً، فلقَدْ سُئِل النّبيّ ﷺ عَن العَزْل فقَالَ: «**هُوَ الوَأْدُ الخَفِيُّ**»[1]، فجَعَله وأدًا، والوَأْدُ لا يكُونُ إلَّا لحَيٍّ، فالحيَوانَاتُ المنوِيَّةُ حيَّةٌ، لكِنَّها لَا تُرى، وهَذِهِ النّطْفَةُ البَسيطَةُ التي ليْسَتْ بشَيْءٍ يقُولونَ -والله أعلمُ إنْ كانَ هـذَا مبالغـةً أو لا- فِيها حوالَي خمْسَةِ مَلايِيـنَ أوْ أكْثَر مِن الحيَوانَاتِ المنَوِيَّةِ، وهِي التي تُرى بَسِيطَةً.

إذَنْ: فبِاعْتِبارِ مَا يُرى ويَظْهَر أن النُّطفَةَ ميِّتَةٌ جَمادٌ، لكِنْ باعتِبارِ الحقِيقَةِ ليْسَتْ كَذلِكَ، وإخْراجُ الميِّتِ مِن الحيِّ ليْسَ مشْكِلَةً، لكِنَّ المشْكِلَةَ إخْرَاجُ الحيِّ مِن الميِّت.

وقوْله تَعالَى: ﴿ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾، هَل المُرادُ الحياةُ الحسيَّة أوِ المعنَوِيَّة؟

والحقِيقَةُ أنَّ المُرادَ الأمْـرانِ، فإنَّ الكافر ميِّتٌ معنًـى، ويخْرُج منْه المسْلِـمُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب النكاح، باب جواز الغيلة... وكراهة العزل، رقم (١٤٤٢).

أوِ بالعَكْسِ، قَال الله تَعَالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، يعْنِي أنَّ هَؤُلاءِ الكفَّارَ بمنْزِلةِ الأمْواتِ، والمُؤمِنُ حيٌّ ولا سيِّما العالِم، قالَ الله تَعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، وسمَّى الله القرآنَ رُوحًا فدَلَّ هَذا عَلَى أنَّ مَن عَمِل بِه فهُوَ حَي فالآيَة أعمُّ مما قاله المُفَسِّر، وَإِن كَان سياقُها يقْتَضِي أنَّ المرادَ بِها بالأَوْلى الحياةُ الحسِّيَّةُ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: بِما أنْزَل الله علَيْها مِن المَطَرِ، ولَا أحَدَ يسْتَطِيعُ أنْ يفْعَل ذَلِك إِلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، هَذِهِ الأرْضُ الهامِدَةُ اليَابسَةُ التي ليْس فِيها خُضْرَةٌ يُنزِلُ الله عليْها الماءَ فتُصْبِح الأرْضُ مخضَرَّةً بأمْرِ الله تَعَالى، ولَوِ اجْتَمعَ الخلائِقُ كلُّهُم عَلَى أنْ يفْعَلُوا ذَلِك لَما استطَاعُوا، ولَنْ يُخْرِجُوا ولَا أدْنى حشِيشَةٍ مِن هَذِهِ الحشائِشِ، ولكِنَّ الله تَعالَى بقُدْرَتِه يفْعَلُ ذَلِكَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعْضُ الحشراتِ تتوَلَّدُ وتَخْرُجُ مِنْ طَعامٍ أوْ غيرِه، ونُواةُ التَّمر يخْرُج منْهَا نبَاتٌ؟

قُلْنَا: هَذِهِ حياةٌ بِلا إِدْراكٍ، والمتَوَلِّدُ واضِحٌ أيضًا أنَّه حَيٌّ مِن ميِّتٍ؛ لأَنَّ المتَولِّد يخْرُج مِن العفونات والقاذورات وهو حيٌّ يتحرك.

قوْله تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: الكافُ اسْمٌ بمَعْنى مثْل، يعْنِي ومِثْلُ ذَلِك الإخراج تخْرُجونَ، فتكونُ مفعُولًا مطْلَقًا، ويَجُوزُ أنْ تكُونَ هُنا حرْفَ جَرٍّ، و(ذَا) اسْمُ إِشارَةٍ مبْنِيٌّ عَلَى السُّكونِ في محَلِّ جرٍّ، يعْنِي وكَهذا الإخراجِ تخْرُجونَ، ولَا تكُونُ مفعولًا مُطْلَقًا.

وقوْلهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَخْرُجُونَ مِنَ القُبُورِ]: ظاهِرُ الآيَات الكَريمَاتِ أنَّ خُروجَ النّاسِ مِنَ القُبورِ يُشْبِهُ خُروجَ النّباتِ مِنَ الأرْضِ، وخُروجُ النّباتِ مِنَ الأرْضِ

يكُون بِنُزولِ المَطرِ علَيْها، فيكُونُ فِي هَذِهِ الآيَة إشَارَةٌ إِلَى مَا ورَد في الحديثِ مِنْ أنَّ الله تَعالَى يُمْطِرُ عَلَى القُبورِ مَطرًا غَلِيظًا كَمَنِيِّ الرّجالِ أرْبَعِينَ يوْمًا تنْبتُ مِنْهُ الأجسادُ فِي القُبـورِ[1]، ثمَّ بعْدَ ذَلِك تخْرُج إذا نُفِخ فِي الصّـور، وَهَذا ورَدَتْ بِه أحادِيث في إسْنَادِها مقَالٌ، لكِنَّ مجمُوعَها يقْضِي بأنّها أحادِيثُ حسَنَةٌ، وظَاهِرُ القرآنِ أيضًا يُشيرُ إلَيْه.

وقوْلهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالبِنَاءِ للْفَاعِل والمْفعولِ]: البَناءُ للفاعل «تَخْرجُون»، وللمَفْعول «تُخْرجُون»، قراءَتَانِ سبْعِيَّتانِ[2]؛ لأَنَّ مِن عادَةِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه إذا أتَى بقِرَاءَةٍ شاذَّةٍ يقولُ: (وَقُرِئ).

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: بَيانُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيْثُ يُخرِجُ الحيَّ مِن المَيِّتِ وبالعَكْس، وَهَذا مِن تَمامِ القُدْرَة أنَّه يُخرِج الشّيْءَ مِن ضِدِّه.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: قُدْرَتُه عَلَى إحْيَاءِ الأرْض مِنْ بعْدِ موْتِها؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: ثُبوتُ قِيامِ الأفْعَالِ الاخْتِياريَّةِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالأفْعالُ الاخْتِيارِيَّةُ هِي التي يفْعَلُها بمشِيئَتِه، إنْ شَاء فَعَلَ وإنْ شاءَ لَـمْ يفْعَلْ؛ تُؤخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى:

---

(١) أخرج الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٩٧) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ثُمَّ يَكُونُ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ مَا شَاءَ الله أَنْ يَكُونَ، فَلَيْسَ مِنْ بَنِي آدَمَ خَلْقٌ إلاَّ مِنْهُ شَيْءٌ، قَالَ: فَيُرْسِلُ الله مَاءً مِنْ تَحْتِ العَرْشِ كَمَنِيِّ الرِّجَالِ، فَتَنْبُتُ لُحُمَانُهُمْ وَجُثْمَانُهُمْ مِنْ ذَلِكَ المَاءِ، كَمَا يُنْبِتُ الأَرْضُ مِنَ الثَّرَى»، ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ الله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر:٩].

(٢) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص:٣٩٥).

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾، وقوْلِه تعالَى: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ والبَعْدِيَّةُ تقْتَضِي حُدوثَ هَذَا الشَّيْءِ، وقِيامُ الأفْعَالِ الاخْتِياريَّةِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ هُو الَّذي علَيْهِ أهْلُ السّنَّةِ والجَماعةِ قاطِبَةً، ولَا أحَدَ منْهُمْ أنْكَر ذَلِك، فيُثْبِتُونَ الاسْتِواءَ عَلَى العرْشِ فعْلًا لله، والنُّزولَ إِلَى السَّماءِ الدّنْيا فعْلًا لله، والمَجِيءَ للفَصْل بيْنَ العِبادِ فعْلًا لله، والعجَبَ فعْلًا لله، والضَّحِكَ فعْلًا لله، والخلْقَ فِعْلًا لله، ويَقُولونَ إِنَّ الله تَعالَى يفْعَلُ مَا يشَاءُ، كيْفَ شَاءَ، متَى شَاءَ.

ولكِنَّ أهْلَ البدَعِ مِن المُعْتزِلة والأشعَرِيَّة وغيرِهم يُنْكِرُون قِيامَ الأفْعالِ الاخْتِيارِيَّةِ بِه، ويَقُولونَ لَو قامَتْ بِه الحوادِثُ لكَان حادِثًا، واللهُ تَعالَى لَمْ وَلا يَزالُ، فنَقُولُ: هَذا قولٌ بَاطِلٌ؛ أوَّلًا لأنَّهُ قِياسٌ فِي مُقابَلَةِ النّصِّ، فإِنَّ النُّصوصَ متكاثِرَةٌ في إثْبَات الأفْعالِ الاخْتِيارِيَّةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ التي تتعَلَّقُ بمشِيئَتِه، وثَانِيًا قوْلُكُم إِنَّ الحوادِثَ لَا تَقُوم إِلا بحَادِثٍ ليْسَ بِصَحِيحٍ فإِنَّ الحوادِثَ لَا تَقُومُ إِلَّا بِكامِلٍ قَادِرٍ عَلَى مَا يَشَاءُ، أمَّا كوْنُها لَا تقُومُ إِلا بحَادِثٍ فَما هُو العَقْلُ الَّذي يُوجِبُ هَذا.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: قِياسُ الغائِبِ عَلَى الشّاهِدِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾، فإِنَّ قِياسَ الغائِب عَلَى الشّاهِد لَيَحْمِلُ عَلَى الإقرار بِه طريقَةً مُتَّبَعَةً.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: إثْبَاتُ البَعْثِ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: إثْبَاتُ القِياسِ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾، وإثْبَاتُ القِياسِ لَه أدِلَّةٌ كثِيرَةٌ في القُرآنِ منْهَا عَلَى سَبِيل التّعْمِيم والحدِّ كُلُّ مَثَلٍ ضَربَه الله في القُرْآنِ فَهُو دالٌّ عَلَى ثُبُوتِ القِيَاسِ، ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس:٢٤]، و﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٧]، ومَا أشْبَه ذَلِك، فإِنَّ الأمْثَالَ ضَرْبُها تشْبِيهُ حالٍ بحالٍ، أوْ فَرْدٍ بِفَرْدٍ، فتكُونُ دالَّةً عَلَى ثُبُوتِ القِياسِ، وَكَذلِكَ القَصَصُ التي قَال الله

تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف:١١١]، وفي السُّنَّة أيْضًا كثِيرٌ مِن ذَلِك، مثْلَ قوْلِه ﷺ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟» قال: نعم، قال: «فَمَا لَوْنُهَا» قال: حمر[1]، الحديثَ، وقوْلُه: «أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ»[2].

وَكَذلِكَ العَقْلُ يقْتَضِي ثُبوتَ القِيَاسِ، فإِنَّ العَقْلَ السّلِيمَ الصَّرِيحَ لَا يُمْكِنُ أنْ يُفَرِّقَ بيْنَ مُتماثِلَيْنِ أبدًا، ودَائِمًا حتَّى الصّبيُّ إذا منَعْتَه مِن شَيْءٍ وأَبَحْتَ لَهُ نَظِيرَه، قَال: لماذا؟ أَلَيْسَ هَذا مثْلَ هَذَا؟! فهَذا مِمَّا تشْهَدُ العُقولُ وَالنّصوصُ والفِطَرُ بثُبوتِه، لكنَّ القِياسَ الباطِلَ الَّذي يتوَسَّعُ فِيه بعضُ النّاسِ حتَّى يُعطِّلُوا دِلالَةَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ لا شَكَّ أنَّه بَاطِلٌ، أمَّا القِيَاسُ الصَّحِيحُ فإِنَّهُ لَا رَيْبَ فِي ثُبوتِهِ، والَّذِين أنْكَرُوا القِيَاسَ هُمْ فِي الحقِيقَةِ مُضطَّرِبُونَ، فأحْيَانًا يقُولُونَ بالقِياسِ مِن حيْثُ لا يَشْعُرونَ وَلا يُمْكِنُهم إِلَّا أنْ يَقِيسُوا لأَنَّنا لَو أرَدْنا أنْ نَحْصُرَ دَلالَةَ الكِتابِ والسُّنَّةِ عَلَى الأحْكامِ عَلَى سَبِيلِ العُمُوم والقَواعِدِ والضَّوابِطِ فهِي وَافِيةٌ، لكِنَّ الأفْرادَ والجزْئِيَّاتِ لَا مُنْتَهى لَها وَلا حصْرَ لَها، وهُمْ لا بُدَّ أنْ يُضطَّرُوا إِلَى إِثْبَاتِ ذَلِك.

يَدْخُلُ فِي العُمُومِ مِن حيْثُ الشُّمولُ اللَّفْظِي إِنْ كَان داخِلًا فِي اللَّفْظِ أحْيانًا لَا يدْخُلُ في اللَّفْظ لكِنْ يشْمَلُه العُمُومُ المعنَوِيُّ وهُوَ القِياسُ؛ لأَنَّ العُمُومَ المعْنَوِيَّ هُو القِيَاسُ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد، رقم (٥٣٠٥)، ومسلم: كتاب اللعان، رقم (١٥٠٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب من شبه أصلًا معلومًا بأصل مبين قد بين الله حكمهما ليفهم السائل، رقم (٧٣١٥).

الآيــة (٢٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الرّوم:٢٠].

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ تَعَالَى الدَّالَّةِ عَلَى قُـدْرَتِهِ ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ أَيْ أَصْلكُـمْ آدَمُ، ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾ مِنْ دَمٍ وَلَحْـمٍ ﴿تَنتَشِرُونَ ﴾ فِي الأَرْضِ] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾: (من) للتَّبْعِيضِ، يعْنِي بعْضُ آيَاتِه، و(مِنَ) التّبْعِيضِيَّةِ قالَ العلَماءُ: هِي التي يصِحُّ أنْ يَحِلَّ محلَّها بعْضُ، وَ(آيَاتِهِ) جمْعُ آيَةٍ، وهِي العَلامَةُ، أي العَلامَةُ البيِّنةُ الواضِحَةُ الدّالَّةُ عَلَى مَا تخْتَصُّ بِه مِنْ صِفاتِ الله حسَبَ مَا سِيقَتْ لَهُ، وكُلُّ شيْءٍ مِن آيَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ فإِنَّهُ يدُلُّ عَلَى كَثيرٍ مِن صِفَاتِ الله تَعالَى دلالَةً مطَابِقَةً باعْتِبَارِ مَا ذَكَر فِيها أوْ مَا ذَكَر مِنْ هَذِهِ الآيَات، ودَلالَةُ التِزامٍ بِما يلْزَمُ مِنْ وُجودِ هَذِهِ الصِّفَةِ، مَثلًا قوْلُه تَعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾، فخَلْقُنا مِن تُرابٍ إِلَى أنْ نكُونَ بَشرًا، هَذا مِن الآيَات إِذْ إنَّ قلْبَ الجمادِ إِلَى حَيَوانٍ لَا شَكَّ أنَّه مِنَ الآيَات، ولكِنَّ كوْنَهُ دالًّا مثَلًا عَلَى القُدْرَة والعِلْم والحكْمَةِ ومَا أشْبَه ذَلِك، هَذِهِ دلَالَةُ التِزامٍ، ودلالة الالتِزام مِن أفْيَدِ مَا يَكُون لِطالب العِلْم إِذا وُفِّق للْفَهْم الصَّحيحِ فِيما يَلْزَمُ مِن كَلامٍ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ تَكُونُ الأَشْيَاءُ عَلامَةً عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ وهُوَ أَبْيَنُ وأَظْهَرُ؛ لأَنَّ معرِفَتَهُ مرْكُوزَةٌ في الفِطَرِ والعُقولِ؟

فالجوابُ: أَوَّلًا: أَنَّ بعْضَ الفِطَرِ قَدْ يَعْتَرِيها مَا يصْرِفُها عَن الصِّراطِ المُسْتَقِيم فتَحْتَاجُ إِلَى دَعْمٍ لِبَيانِ الآيَات.

ثانيًا: أَنَّ هَذِهِ الآيَات كُلُّ آيَةٍ تدُلّ عَلَى نوعٍ خَاصٍّ مِن صِفَاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِخِلافِ العَقْلِ والفِطْرَةِ، فإِنَّهُ يهْتَدِي إِلَى وُجودِ الخالِق عَزَّوَجَلَّ، مِنْ حيْثُ الجمْلَةُ أَمَّا التَّفْصيلُ فَلا يُمْكِنُ إِلا بِذِكْرِ هَذِهِ الأَجْنَاس والأَنْوَاعِ؛ وَلِهَذا لَا يُمْكِنُ الوُصولُ إِلَى الإِحاطَةِ بِذَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ، نُحِيطُ بِالآيَات الدّالَّةِ عَلَى صِفَاتِه، أَمَّا أَنْ تُحِيطَ بِذَاتِ الله فَهذَا أَمْرٌ لَا يُمْكِنُ؛ وَلِهَذا يُرْوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّه قَال: «تَفَكَّرُوا فِي آيَاتِ الله، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ الله»[1].

قوْله تَعالَى: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾: ﴿أَنْ﴾ مَصْدَرِيَّةٌ لأَنَّ المخَفَّفَةَ هِي التي تَكُونُ بَعْدَ عِلْمٍ أَوْ ظَنٍّ، مثْلُ قوْلِه تَعالَى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ [المزمل:٢٠]، ومِثْلُ قوْلِه تَعالَى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء:٨٧]، وأَمَّا هَذِهِ فليْسَتْ كَذَلِكَ، وَعَلى هَذا فتكُونُ مصْدَرِيَّةً، ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ فتكُونُ هِي ومَا بعْدَها فِي تأْوِيلِ مصْدَرٍ مبْتَدَأٌ مؤَخَّرٌ يعْنِي خلَقَكُم والخَبَرُ قوْلُه تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ تَعالَى الدّالة عَلَى قدرته]: قيَّدها بالدّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِه لأَنَّهَا أَبْرَزُ شَيْءٍ فِي الآيَات فِي هَذا الخَلْقِ، وَإِلَّا فَهُو دَالٌّ عَلَى الحكْمَةِ العَظِيمَةِ إِذْ لَا خلْقَ إِلَّا بعْدَ عِلْمٍ، كَما قَالَ تَعالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

---

(١) أخرجه أبو الشيخ (١/ ٢٤١، رقم ٢٢) عن ابن عباس موقوفًا عليه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: أصلكم آدم]: (أصلكم) تفسيرٌ للكَاف في قوْلِه: ﴿خَلَقَكُم﴾، يعْنِي باعْتِبَارِ أصْلِنا بالاعْتِبار المُباشِرِ فإِنَّ الإِنْسانَ خُلِق مِنْ نُطْفَةٍ كَما قالَ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢-١٣]، والسُّلالَةُ خالصُ كُلِّ شيْءٍ عَلَى حَسَبِ مَا يَبِينُ، فقوْلُه تَعالَى: ﴿مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ آدَم، وقوْلُه تَعالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ هَؤُلاءِ بَنُو آدَمَ، وقَوْلُه: ﴿جَعَلْنَـٰهُ﴾ أيِ الإِنسانُ بِاعْتِبَارِ جِنْسِه.

قوْله تَعالَى: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾: (مِنْ) لابْتِدَاءِ الغايَةِ، وَالمَعْنى أنَّ ابْتِدَاءَ الخلْقِ مِن التُّرابِ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾ مِنْ دَمٍ وَلَحْمٍ ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ فِي الأرْضِ]: كُنْتُم تُرابًا والتُّرابُ لا يتحَرَّكُ مِن مَكانِهِ ولَا يَنْتَشِرُ وَلَيْس فِيه حرَكَةٌ، ثمَّ بعْدَ ذَلِك إِذَا أَنْتُم بَشَرٌ تنْتَشِرُونَ، (ثُمَّ) دالَّةٌ عَلَى المُهْلَةِ؛ لأَنَّهُ بعْدَ خلْقِ آدَم لَمْ يأْتِ الأوْلَادُ مباشَرَةً بَلْ خُلِق لَهُ زوْجَةٌ ثمَّ جَاء مِنْ هَذِهِ الزَّوْجَةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾: ﴿إِذَآ﴾ فُجائِيَّةٌ، يعْنِي ثمَّ صَارَتِ المُفاجَأَةُ عَلَى هَذا الوَجْه.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَآ﴾: قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إنَّ في هَذا ما ظَاهِرُه التَّناقُضُ لأَنَّ (إِذا) هُنا فُجائِيَّةٌ، وَ(ثُمَّ) للمُهْلَةِ، والمُفاجَأَةُ والمُهْلَةُ متناقِضَانِ، إذ إِنَّ المُفاجَأَةَ تدُلّ عَلَى المُبادَرَةِ فيُجَابُ عَنْ ذَلِك بأنَّ المفاجَأَةَ بعْدَ المُهْلَةِ؛ لأَنَّ التُّرابَ لَا يَكُونُ بَشرًا في الحالِ، وإِنَّما تطَوَّر لمدَّةٍ حتَّى وَصَلَ إِلَى البَشرِيَّةِ، هَذا إِذا قُلْنا: إِنَّ المُرادَ بالبَشَر خُصوصُ آدَم، أمَّا إِذا قُلْنَا: المُرادُ بِهِ ذُرِّيَّتُه، فالمُهْلَةُ ظَاهِرَةٌ؛ لأَنَّ هَذا يشْمَلُ الذُّرِّيَّةَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَة فالمُهلَةُ ظاهِرَةٌ، لكِنَّ المفاجَأَةَ فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾، قدْ تُوحِي إِلَى أنَّ المُرادَ

بِه آدَمُ، فإِنَّ آدَم بَشَرٌ وذُرِّيَّتُه انْتَشرَتْ فِي الأرْضِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾ مبْتَدَأٌ وخبَرٌ، وجُمْلَةُ ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ في محَلِّ رفْعِ صفَةٍ لـ(بَشَرٌ)، وإِذا جعَلْناها صِفَةً لِـ(بَشَرٌ) صَار فِيها إِشْكَالٌ مِنْ جِهة أنَّ (بَشَرٌ) مفْرَدٌ و(تنتشرون) جمْعٌ، لكن المُفْرد المُرادَ بِه الجِنْس يكُونُ لِلْجَمْعِ.

وسُمِي الإِنْسانُ بَشرًا قِيلَ لأَنَّ بشْرَتَه بَادِيَةٌ، إِذْ إِنَّ الحيوانَاتِ الأخرى عَلَى أبْشَارِها مَا يستُرُها لحكْمَةٍ، وأمَّا الآدَمِيّ فإِنَّ بشْرَتَهُ بَارِزَةٌ ظَاهِرَةٌ، وقِيلَ: لأَنَّهُ تبْدُو عَلَى بشْرَتِه انفعالاتُه النّفسيَّةُ، مثْلُ الغَضبِ والفَرَحِ ومَا أشْبَهَ ذَلِك، فإِنَّها تبْدُو ظَاهِرَةً عَلَى وجْهِه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَنتَشِرُونَ﴾ في الأرْض]، قيَّدَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الانْتِشارَ بأَنَّه فِي الأَرْضِ، لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة:١٠]، فالانتِشارُ والتّوسُّع فِي الأرْضِ، فقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ أيْ تذْهَبُون يَمِينًا وَشِمالًا؛ وَلِهَذا لا شَكَّ أنَّ بَنِي آدَم كانُوا فِي أَوَّلِ أمْرِهِمْ فِي مكَانٍ واحِدٍ، ثمَّ انْتَشرُوا فِي جَمِيعِ القارَّاتِ عَلَى تبَاعُدِ مَا بيْنَها، وانْظُر الآن البَشر منتَشِرٌ في جَمِيعِ أقْطَارِ الدّنيا، وسُبْحانَ الله العظيمِ، فمَنِ الَّذي أوْصَل أهلَ أمَرِيكا إِلَى أمِرِيكا، ومَنِ الَّذي أوْصَلَهُم إِلَى البِلادِ الأخرى مَع هَذِهِ المحِيطاتِ العَظِيمَةِ؛ لأَنَّ آدَم لا شَكَّ كانَ فِي إِحْدَى القارَّاتِ، لكنْ مَنِ الَّذي أوْصَل بَنِيه إِلَى القارَّاتِ الأخرى؟ الله أعلَمُ، وقدْ يَكُونُ الله يسَّر لَهُم فِي ذَلِك الوَقْتِ مِنَ الأسْبَابِ مَا قدْ زَالَ الآنَ ولَا نعْرِفُه حتَّى وصَلُوا إِلَى هَذِهِ البِلَادِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما صِحَّةُ مَا ساقَهُ القُرطُبِيُّ في تفسِيرِ آيَةِ الحَجِّ مَن أنَّ المَنِيَّ فِيه تُرابٌ؟

قُلْنَا: لا نسْتَطِيعُ أنْ نَجْزِمَ بنفي هذَا أوْ إثْبَاتِه؛ لأَنَّهُ يجُوزُ أنَّ نَفْسَ الإنْسَانِ فِيه مادَّةٌ تُرابِيَّةٌ، والآنَ هُمْ يقُولونَ: إنَّ الإنْسانَ فِيه مِنْ جَمِيعِ مَعادِنِ الأرْضِ، فِيه رَصاصٌ ونُحَاسٌ وجِيرٌ وحَدِيدٌ وتُرَابٌ وكُلُّ شَيْءٍ، فنَفْسُ الجِسْم مُكَوَّنٌ مِن هَذِهِ الأشْيَاءِ، فلَا يبْعُدُ أن تكونَ هَذِهِ السّلالة التي تخْرُج منهُ فِيهَا هَذِهِ المَوادُّ، والحقِيقَةُ ليْسَ عنْدَنا عِلْمٌ عمِيقٌ فِي هَذِهِ المسْأَلةِ، لكِنَّ الله عَلَى كُلِّ شيْءٍ قَدِيرٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعْضُ النّاسِ يقُولونَ إنَّ آدَم أوَّلَ مَا خَرَجَ مِنَ الجنَّةِ ونَزل إِلَى الأرْضِ نَزل بسِيلَانٍ؟

قُلْنَا: الله أعْلَمُ، لَا يُوجَدُ حَديثٌ صَحِيحٌ عنِ النّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إنَّما كُلُّها آثَارٌ إسْرَائِيلِيَّةٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: إثْبَات الآيَاتِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، أي العَلامَاتِ الدّالَّةِ عَلَى مَا تدُلّ علَيْهِ مِن صِفاتِهِ لأَنَّ كُلَّ فعْلٍ يدُلُّ عَلَى نوْعٍ مِنَ الآيَاتِ لكِنْ هِي عَلَى سَبيلِ العُمُومِ تدُلّ عَلَى القُدْرَة فجَمِيعُ الآيَاتِ تدُلّ عَلَى القُدْرَة والحكْمَة، لكِنْ لكُلِّ نوْعٍ منْهَا آيَةٌ خاصَّةٌ: الحكْمَةُ، القُدْرَة، العِزَّةُ، ومَا أشْبَه ذَلِكَ.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: أنَّ أصْلَ بَني آدَمَ مِنْ تُرابٍ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: أنَّ ابْتِداءَ خلْقِ الإنْسَانِ مِن تُرابٍ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: إبْطَالُ النّظرِيَّة الملْحِدَة الخاطِئَةِ، وهِي نظرِيَّةُ النّشوءِ والتّطَوُّر

التي ذَهب إليْها أوْ كَان قائِدَها (دَارُون)، فهِي نظريَّةٌ خاطِئَةٌ وباطِلَةٌ بِلا شَكٍّ، وجْهُ ذَلِك مِنَ الآيَة أنَّ الله يقُولُ: ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ فيُخاطِبُ البَشرَ باعْتِبَارِه بَشَرًا.

إِذَنْ: فهُو بشَرٌ منْذُ أنْشِئ مِنَ التُّرابِ إِلَى اليَوْم، أمَّا أُولئِكَ فيَقُولُونَ: إِنَّ أصْلَ الإنْسَانِ ليْسَ بشَرًا، بَلْ أصْلُ الإنْسَانِ قِرْدٌ ثمَّ تطَوَّر فصَار بَشَرًا، ويُمكِنُ أنْ يتطَوَّر بعْدَ ذَلِك ويَصِير مَلَكًا، ولَا أَدْرِي مَاذا يقُولُ فِي أصْلِ الحَمِيرِ وَالبِغَالِ والخيْلِ والدَّجاجِ مَا أصلُها وتطَوَّرَتْ إِلَى مَاذا؟ ثمَّ لا نَدْري مَا هو التّطوُّرُ الآخَرُ، هَل نحْنُ نكوُن ملائِكَةً؟

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: إنَّ هَذِهِ النظرِيَّةَ -الحمْدُ لله- حتَّى فَلاسِفَةُ الغرْبِ وعُلَماءُ الطّبِيعَةِ مِنَ الكفَّار الآن أبْطَلُوها، وتبيَّن لَهُمْ أنَّها نظَرِيَّةٌ باطِلَةٌ خاطِئَةٌ، ثمَّ نَحْنُ نَعْلَمُ عِلْمَ اليَقِين بِدُونِ أيِّ نَظَرٍ أنَّها باطِلَةٌ، وَأنَّ اعتِقَادَها كُفْرٌ لأنَّها تكْذِيبٌ للْقُرآنِ والسُّنَّةِ وَإِجْماعِ المُسلِمِينَ، فكُلُّ هَذا لا شَكَّ أنَّه كَذِبٌ ولَا أصْلَ لَهُ، فالإنْسانُ خُلِقَ مِنْ تُرابٍ كَما قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ، تُرابٌ جعَلَهُ الله طِينًا، ثمَّ فَخَّارًا حتَّى كانَ صَلْصالًا لَهُ صَلْصَلَةٌ إِذا ضرَبْتَ علَيْهِ فَهُو كالفَخَّارِ، كَما قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ ثمَّ تكَوَّنَ الإنسَانُ، واللهُ عَلَى كُلِّ شيْءٍ قَدِيرٌ، فَهَذا وغَيْرُه تكْذِيبٌ لصَرِيحِ القُرآنِ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: حكْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ فِي كَوْن الآدَمِيّ بَشَرًا، أَيْ بَادِي البَشْرَةِ؛ لأنَّكَ إِذا علِمْتَ أنَّك مُفتَقِرٌ إِلَى اللِّبَاس الحسِّيِّ علِمْتَ أنَّك مُفتَقِرٌ إِلَى اللِّبَاس المعْنَوِيِّ: لِبَاسِ التّقْوَى كَما قَال الله تَعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف:٢٦].

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أنَّ هَذا البَشَر الَّذي خُلِق مِن أصْلٍ واحِدٍ انْتَشر ومَلأ الأرْضَ، فَهَذا البَشَرُ مِن طَبيعَتِه الانْتِشَارُ والذّهَابُ والمَجِيءُ وطلَبُ الرِّزقِ وطلَبُ الصَّنائِع

وطلَبُ الأعْمَالِ، وَهَذا هُو الوَاقِع؛ وَلِهَذا قَالَ: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾، وَهَذا مِن آيَاتِ الله: كيْفَ مِن أصْلٍ واحِدٍ مِنْ رَجُلٍ وَاحِدٍ انْتَشَرَتْ هَذِهِ الخلِيقَةُ فِي جَمِيعِ أنْحَاءِ الأرْضِ؟

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّ الإنْسَانَ متَحَرِّكٌ بالطَّبعِ لا بُدَّ أنْ يتَحَرَّكَ وينْتَشِر ويَذْهَب ويَجِيءَ؛ وَلِهَذا قَال النّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَصْدَقُ الأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ**»[1]، لأَنَّ الإنسان دَائِمًا يهتَمُّ ويحرث ويطْلُب رزقه.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: مِنْ فَوائِد الآيَةِ ومَا بعْدَها مِنَ الآيَات مِنَّةُ الله عَزَّوَجَلَّ عَلَى عِبَادِهِ بتَنْبِيهِهِمْ إِلَى آيَاتِه، يعْنِي أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ مَنَّ عَلَى العِبَادِ بتَنْبِيهِهِمْ إِلَى الآيَاتِ، ولَمْ يَكِلْهُمْ إِلَى مَا في فِطَرِهم مِن الاعتَرافِ بالخالِق، بَل أعَانَهُم عَلَى ذَلِك وأمَدَّهُم بالتَّنبِيهِ عَلَى مَا فِي هَذا الكَوْنِ مِنْ آيَاتِه فَفِيها مِنَّةٌ عظِيمَةٌ لأَنَّ الإنْسَانَ كَما قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ بَشَرٌ يَغْفُل ويَنْسَى فيُنَبِّهُه الله عَزَّوَجَلَّ.

• • ❁ • •

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٤٥، رقم ١٩٠٥٤)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، رقم (٤٩٥٠)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٣٧، رقم ٤٤٠٦).

الآيــة (٢١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرّوم:٢١].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ فَخُلِقَتْ حَوَّاءُ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ، وَسَائِرُ النَّاسِ مِنْ نُطَفِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ وَتَأْلَفُوهَا ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم ﴾ جَمِيعًا ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المَذْكُورِ ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فِي صُنْعِ الله تَعَالَى] اهـ.

بَدأ أوّلًا بخلْقِ النّفْسِ، ثمَّ بخَلْق الزَّوْجِ؛ لأَنَّهُ لَا يَتِمُّ التّناسُلُ إلا بالأَزْوَاجِ، ونَقُولُ في قوْلِه تَعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم ﴾، كَما قُلْنَا فِي قوْلِه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم ﴾ أنَّ معْنَى قوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أيْ مِنْ ذَوَاتِكُم، فعَلَى رأْيِ المُفَسِّر المُرادُ بالنّفْسِ هُنَا الذّاتُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم ﴾: (اللامُ) للاخْتِصاصِ وليْسَت للمُلْكِ؛ لأَنَّ الإنْسَانَ لَا يمْلِكُ زوْجَته، ويُحْتَملُ أنْ تكونَ للتَّعْلِيل كَما فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، أيْ خَلَق لأجْلِكُم، لكِنَّ المَعْنى أبْلَغُ فِي الإنْعَامِ، حيْثُ إنَّ كُلَّ إنْسَانٍ زوْجَتُه تخْتَصُّ بِه؛ وَلِهَذا لَا يَجُوزُ للْمَرْأَةِ أنْ تتَزَوَّجَ أكْثَر مِنْ رَجُلٍ فِي آنٍ واحِدٍ.

قوْله تَعالَى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: مشَى المُفَسِّر عَلَى أنَّ المُرادَ بالنّفْسِ الذّاتُ، وأنَّ (مِن) للتَّبْعِيضِ، يعْنِي أنَّ نَفْسَ هَذِهِ الزّوجَةِ مِن نَفْسِ الإنْسَانِ، جُزْءٌ منْهُ؛ وَلِهَذا فسَّرهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بخَلْق حوَّاءَ مِنْ ضِلْع آدَمَ وسَائِرَ النّساءِ مِن نُطَفِ الرّجال والنّساءِ.

ويُحْتَملُ أنَّ المُرادَ بالنّفْس الجِنسُ، كَما قالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التّوبة:٢٨]، يعْنِي مِن جنْسِكُم ولَيْس المُرادُ مِن أنْفُسكُم، أيْ مِن نَفْسِ الإنْسَانِ إلّا باعْتِبارِ حوَّاءَ؛ فإنَّها خُلِقَتْ مِن ضِلْع آدَم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فالمُرادُ بالنّفْسِ الجِنْس، ويُؤَيِّدُ هَذا المَعْنى قوْلُه تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾؛ فإنَّ الإنسانَ يسْكُن إلَى بَني جنْسِه دُونَ غيْرِهم، فلَو كانَتِ المرأةُ تخالِفُ الرّجلَ وليْسَت مِن جنِسِه لَكانَ في ذَلِك مشْكِلَةٌ ولَا يُمْكِنُه أنْ يسْكُنَ إلَيْها، ومَا حصَل بَيْنَهُما ائْتِلافٌ ومودَّةٌ لبُعْدِ الفَرْقِ بَيْنَهُما؛ لهذا جعَلَها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنْ جنْسِه؛ لأجْلِ أنْ يسْكُن إلَيْها، لكِنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُريدُ أنَّ المرادَ بالنّفْس في ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الذّات، أيْ مِن ذَواتِكُم، بِدَلِيل أنَّه فسَّرها بآدَم، خُلِقَت منْهُ حوَّاءُ، وبَقِيَّةُ النّاسِ خُلِقوا مِنَ النُّطَفِ التي مِن الإنْسَانِ الذّكر والأُنْثى، ولكِنَّ الَّذي ذكَرْناهُ أوْجَهُ؛ بدَلِيلِ قوْلِه تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، إذ إنَّ هَذا التّعْلِيلَ يُناسِبُ أنْ يكُونَ المُراد بالنَّفس أيْ الجِنْس، عَلَى أنَّه لا يَمْنَعُ أنْ تَكُونَ النّساءُ مخلوقَةً مِن ذَواتِ الرِّجالِ؛ لأَنَّ مَا ذَكَرَهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ صحِيحٌ، لكِنَّ التّعْلِيلَ يُؤَيِّدُ القَوْلَ الأوَّلَ.

قوْله تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾: اللَّامُ للتَّعْليلِ، أي لأَجْلِ أنْ تسْكُنوا، وهِي مُعلِّلَةٌ لقوْلِه تَعالَى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، والسّكُونُ معْناهُ الاستِقْرارُ، ومنْه السُّكْنى في البَلدِ اسْتِقْرارُه فِيها، فقوْلُه تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ مِن السُّكونِ، وهُوَ عدَمُ النُّفورِ

مَنَ الشَّيْءِ؛ لأَنَّ السّاكِنَ هُو المسْتَقِرُّ؛ وَلِهَذا نقُول لمن في البيْتِ أنَّه ساكِنٌ مِن السُّكْنى، فالمَعْنى: لتستَقِرُوا وتطْمَئِنُّوا لها وتألَفُوها كَما قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوْله تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾: ضَمَّن السّكونَ معْنَى المَيْل؛ فعَدَّاه بـ(إلى)، إِذْ لم يقُلْ لتسْكُنوا منْهَا ولَا عنْدَها، ولكِنْ ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، وَلِهَذا كَان الرّجُل ميَّالًا بطبْعِه إِلَى المَرْأَةِ وسَاكِنًا إِلَيْها، وَلا سيَّما إِذا وُفِّق لامْرَأةٍ تكُونُ مُلائِمَةً لَهُ، فَإِنَّ هَذا يبْدُو ظاهِرًا جِدًّا مِنَ التَّعلِيل.

قوْلهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ جميعًا]: هل المُراد بيْن الزّوج وزوجَتِه، أوْ بيْنَ النّاس جميعًا؟ كلامُ المُفَسِّر يقْتَضِي العُمُومَ، لكِنَّ ظاهِرَ السِّياقِ يخْتَصُّ بالمَرْأَةِ وزَوْجِها، فإنَّ هَذِهِ المرأةَ الأجْنبِيَّةَ التي لا تعْرِفُها ولَا تعْرِفُك مِنْ قَبْلُ إِذا تَمَّ العَقْدُ بيْنكُما ألقَى الله تَعالَى في قُلوبِكُما المودَّةَ والرّحمةَ.

قوْله تَعالَى: ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾: المَودَّةُ: خالصُ الحبِّ. والرّحمةُ: الرّأفَةُ والحُنُوُّ والعَطْفُ، وهَل هَذا عَلَى سَبيلِ التّوزِيعِ أوْ عَلَى سَبيلِ الجَمْع، بِمَعْنى: هَلِ المودَّةُ مِنَ المَرْأَةِ للرَّجُل والرّحمةُ منْهُ لَها، أوْ أنَّه عَلَى سَبيلِ الجمْعِ أيْ كُلُّ واحِدٍ منْهُم يَودُّ الآخَرَ ويَرْحَمُه؟ والظّاهِرُ أنَّهُ عَلَى سبيلِ الجمْعِ، فالمودَّةُ في قلْبِ المَرْأَةِ، والرّحْمَةُ في قلْبِ الرّجُل؛ لأنَّهُ هُو الَّذي لَهُ السُّلْطانُ علَيْها، وهِي التي تَميلُ إِلَيْهِ، فتكُونُ المودَّةُ منْهَا والرّحْمَةُ منْهُ، فيَكُون الوَصْفانِ مُوزَّعَيْنِ عَلَى الزّوْجِ والزّوجَةِ.

والأقْرَبُ أنَّ الوَصْفَيْنِ لكُلٍّ مِن الزّوْجَيْنِ يعْنِي أنَّ المودَّةَ تكُونُ بَيْنَ الزّوجِ وزوْجَتِه، وَكَذلِكَ الرّحمَةُ تكُونُ بيْنَ الزّوْجِ وزوْجَتِه، هَذا هُو الأقْرَبُ وهُوَ الَّذي يُؤَيِّدُه الوَاقِعُ أيْضًا، فإِنَّ المَرْأَةَ إِذا ودَّتْ زوْجَها يكُونُ فِيها رحْمَةٌ لوْلَا أنَّ الأمَّ أرْحَمُ النِّساءِ، لقُلْنا أنَّها مثْلُ رحْمَةِ الأمِّ؛ وَلِهَذا تَجِدُها تتْبَعُ زوْجَها وتدَعُ أُمَّها وأَباها وأهْلَها

ووَطَنَها؛ وَلِهَذا تجِدُها تُلاحِظُه إذا مَرِضَ، وتجِدُ أنَّه يجِدُ مِن عِنايَتِها أكْثَر مِمَّا يَجِدُ مِن عِنَايَةِ أَبِيهِ وأُمِّهِ بِه، وتَحْزَنُ إذا حَزِن وتُسَرُّ إذا سُرَّ، وإذا كانَتِ الحالُ بَيْنَهُما جيِّدَةً يُمْكِنُ أنْ تَبِيعَ كُلَّ مَا تَمْلِكُ مِن أجْلِ راحَتِه وإسْعَادِهِ، حتَّى إنَّ بعْضَ النّساءِ تَبِيعُ حُلِيَّها ومَا زَاد عَنْ ضَرورَتِها مِن الثّيابِ مِنْ أجْلِ الرَّحمَةِ بزَوْجِها، هَذا لا شَكَّ أنَّه رحْمَةٌ.

وبالنِّسبة للرَّجُل كَذَلِكَ ظاهِرٌ، فإنَّ مودَّةَ الرَّجلِ لزَوْجَتِه أمْرٌ لا يُنْكَرُ، وَكَذلِكَ رحْمَتُه إيَّاها أمْرٌ لا يُنْكَرُ، وأمَّا المودَّةُ فظَاهِرَةٌ ولَوْلا قُوَّةُ المودَّةِ بيْنَ الزَّوْجَيْنِ مَا حصَل الاتِّصالُ بَيْنَهُما الَّذي أرادَهُ الله عَزَّوَجَلَّ لأجْلِ أنْ تكْمُل هَذِهِ الخليقَةُ وتنْمُو، فمِنْ أجْلِ هَذا جعَلَ الله تَعالَى المودَّةَ والرّحْمَةَ.

وَقالَ ابْنُ الجوْزِيِّ فِي (صَيْد الخاطِرِ) قَالَ: لوْلَا أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحكْمَتِه قَضَى أنْ تَبْقَى هَذِهِ الخلِيقَةُ لكَانَ الاتِّصَالُ بَيْن الزَّوْجِ وزَوْجَتِه مِنْ أقْبَح الأُمورِ، فكُلُّ واحِدٍ منْهُما يكْشِفُ عوْرَتَهُ للآخَرِ، ثمَّ يحْصُل هَذا الشّيءُ الَّذي قدْ يكُونُ مسْتَكْرهًا في أذْوَاقِ بعْضِ النّاسِ، لكنْ جَعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذِهِ المودَّةَ بَيْنَهُما لأَجْلِ أنْ تَسْتقِيمَ الأُمورُ وتَنْمُوَ الخليقَةُ، وَهَذا صحِيحٌ، وَهَذا حقٌّ فلوْلَا أنَّ الله جعَل هَذا الأمْرَ مودَّةً مَا حصَل الاتِّصالُ بيْنَ الزَّوْجَيْنِ؛ وَلِهَذا كلَّما كانَ الزَّوْجُ أوِ الزّوْجَة بعضُهم لبعْضٍ كارِهًا قَلَّ الاتِّصالُ بَيْنَهُما.

والجَمْعُ بيْنَ المودَّةِ والرّحْمَةِ مِنْ أبْلَغ مَا يكُونُ لأنَّهُ إذا كانَ أحدُهما مُحتاجًا إلَى الرَّحمَةِ حلَّتِ الرّحمَةُ وزادَتْ عَلَى المودَّةِ، والعَكْسُ بالعَكْسِ، وإذا اجْتَمع مودَّةٌ ورحْمَةٌ فإنَّهُ يَنْشَأُ مِن هاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ صفَةٌ أقْوَى مِمَّا لوِ انْفَردَتْ إحدَاهُما؛ وَلِهَذا تجِدُ الإنْسانَ ينْظُر إلَى الفقِيرِ نظرَةَ رحْمَةٍ لَا مودَّةٍ، لكِنْ إذا اجْتمَعَتِ الرَّحمةُ مَع المودَّةِ تولَّدَ مِن هَذا صفَةٌ أعْلَى مِنَ انْفِرَادِ كُلِّ واحِدَةٍ بنَفْسِها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المَذْكُورِ ﴿لَآيَٰتٍ﴾]: (اللام) للتَّوْكيدِ، والآيَاتُ جمْعُ آيَةٍ، وتأمَّل قوْلَه تعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، ثمَّ قالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا هَذا التّنَافُر، حيْثُ قالَ فِي أوَّلِ الآيَة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾؟

قُلْنَا: لا تنَافُرَ في الواقِعِ، أوّلًا لأنَّ قوْلَه تعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ للتَّبْعيضِ، وبَعْضُ الآيَاتِ قدْ يَكونُ آيَةً واحِدَةً، وقدْ يَكُونُ أكْثَر مِنْ آيَةٍ، ثمَّ إنَّ قوْلَه تعالَى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ هَذِهِ أرْبَعُ آيَاتٍ، فيَكُونُ في أصْلِ الخلْقِ آيَةٌ واحِدَةٌ، لكِن فِي أوْصَافِ هَذا الخلْقِ المتطَوِّر آيَاتٌ، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيَّن أنَّ اسْم الإشارَةِ وإنْ كَان مُفْردًا لكِنَّهُ عائِدٌ إِلَى متعَدِّدٍ. فقولُه: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ هَذِهِ آيَةٌ، وكوْنُها مِن النَّفْسِ آيَةٌ أخْرَى، و﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ هَاتَان آيَتَانِ، فالجَمِيعُ أرْبَعُ آيَاتٍ كَما تقدَّمَ، والتّعبيرُ بكَلِمَةِ (ذلك) بيَّن المُفَسِّر أن السَّببَ فِيه أنَّ اسْمَ الإشَارةِ يعُودُ إِلَى المذْكُورِ وإنْ كَان أكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ أي: متعدِّدًا، وَهَذا كَثِيرٌ في اللُّغَةِ العرَبيَّةِ وَفِي القرآنِ أيْضًا.

وقوْله تعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾: نصبت (آيات) لأنَّهَا اسْمُ (إنَّ) مؤخَّرًا.

واعْلَمْ أنَّ هَذِهِ الآيَاتِ تكُونُ مِن كُلِّ صفَةٍ مِن هَذِهِ المذكورَاتِ الأرْبَعِ، وتكُونُ فِي اجتمَاعِها، ولكنَّها تحْتَاجُ إِلَى تأمُّلٍ وإلى تفكُّرٍ؛ وَلِهَذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فِي صُنْعِ الله تعالَى]؛ أيْ فِي خَلْقِه، ولكِنَّ المَعْنى أعَمُّ مِن ذَلِك، أيْ: يتفَكَّرونَ فِي صُنْعِه وهُوَ الخَلْقُ وفي حِكْمَتِه وفي رَحْمَتِه وفي غَيْرِ ذَلِك مِمَّا يتعلَّق بِهَذا المَعْنى.

وهَلِ المودَّةُ في أوَّلِ الحياةِ الزَّوجِيَّةِ والرَّحمَةُ بعْدَ الأوْلادِ؟

هَذَا خِلافُ الظَّاهِرِ؛ لأَنَّ الظّاهِرَ أنَّ المودَّةَ والرّحمَةَ مُقترِنَانِ.

وهَلْ يُتبادَلانِ بَعْد العَقْدِ أوْ بعْدَ الاتِّصالِ أوْ بعْدَ المعامَلَةِ؟

الجوابُ: هَذا يَرْجِعُ إِلَى ما يَجْرِي بيْنَ الزَّوْجَيْنِ، أمَّا المودَّةُ فالظَّاهِرُ أنَّها تكُونُ مِنْ قبْلُ، مِنْ حِين أنْ يَخْطُبَ المَرْأَةَ وتُوافِقَ، لا تنْشَأُ هَذِهِ الخطْبَةُ والموافَقَةُ إِلَّا عنْ مودَّةٍ، لكنَّها تنْمُو وتَزِيدُ بحسَبِ الاتِّصالِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: رحْمَةُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِنا حيْثُ جعَل أزْوَاجَنا مِنْ أنْفُسِنا، أيْ مِنْ جِنْسِنا، فَفِيها نعْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ لكَوْنِ الأزْوَاجِ مِنَ الأنْفُسِ، أيْ مِنَ الجِنْس ليتَحَقَّق بِذَلِك أغراضُ النِّكاحِ ومقاصِدُه.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: أنَّ مِن أهَمِّ أغْرَاضِ النِّكاح ومقاصِدِه السُّكُونَ إِلَى الزّوجَةِ، والاطْمِئْنانَ إِلَيْها والحياةَ مَعها حيَاةً سَعِيدَةً، فالحِكْمَةُ مِن الزَّوجيَّةِ هِي السُّكونُ، أيْ سُكُونُ أحدِ الزَّوْجَيْنِ إِلَى الآخَرِ، ويتفرَّعُ عَلَى ذَلِك أنَّه لَوْ حَصَلَ التَّنافُرُ فإِنَّ مِن الحِكْمَةِ التَّفريقَ بَيْنَهُما؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، فإِذا فاتَتْ هَذِهِ الحكْمَةُ فإِنَّهُ لا زَواجَ؛ وَلِهَذا لما فاتَتِ الحكْمَةُ بيْنَ ثابِتِ بْن قيْسٍ وزوجَتِه قالَ الرّسولُ ﷺ: «خُذِ الحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا»[1]، وكيْفَ يُمْكِنُ أنْ تسْتَمِرَّ الزَّوجِيَّةُ بينَ زوجَيْنِ يتباغَضَان ويتنَافرانِ وكُلُّ واحدٍ منْهُما يُحِبُّ أنْ يَرى المَوْتَ ولَا يَرَى صاحِبَه؟! فالإِنْسَانُ إِذا رأَى عدَم السُّكونِ ولَمْ تلْتَئِمِ الحالُ يَنْبَغِي لهُ أنْ يُفارِقَ؛ وَلِهَذا قالَ أهْلُ العِلْمِ إِنَّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الخلع وكيف الطلاق فيه، رقم (٥٢٧٣).

الطَّلاقَ يُستَحَبُّ لتَضَرُّر المرأةِ بالبَقاءِ مَع الزَّوجِ، فلَو كانَتْ تتضَرَّرُ ولا تسْتَأْنِسُ معَ الزَّوج لَا ينبَغِي أنْ يُكْرِهَها عَلَى أنْ تَبْقى مَعَهُ، فإنَّ بعْضَ النّاسِ -والعياذُ باللهِ- يُكْرِهُونَهنَّ عَلَى البقَاءِ أو يَعْضِلُونَهُنَّ لأجْلِ أنْ يفْتَدِينَ ويُسَلِّمْنَ مبالِغَ مِن المالِ مِنْ أجْلِ أنْ يُطلِّقَها، كُلُّ هَذا حرامٌ، والَّذي ينْبَغي إذا رَأَيْتَ مِن الزّوْجَةِ أنَّها لا تسْتَطِيعُ أنْ تعِيشَ معَك عِيشَةً سَعِيدَةً فيَنْبَغي لكَ أنْ تُطلِّقَها، والنّبيُّ ﷺ يقولُ: «مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا فَرَّجَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ»[1]، ويقولُ ﷺ: «وَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»[2]، وَفي القُرْآنِ ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النّساء:١٣٠]، فأَنْتَ إذا نَوَيْتَ الخيْرَ بالتّوْسِعَةِ عَلَى هَذِهِ المَرْأَةِ وفارَقْتها فلعَلَّ الله تَعالَى أنْ يُيسِّرَ لكَ الأمْرَ بِحُصولِ زوْجَةٍ تالفُها وتالفُك.

المُهِمُّ: أنَّ مِن أهَمِّ أغْراضِ النِّكاحِ السّكونَ والطُّمأنِينَةَ إلَى الزَّوجَةِ والحياةَ حياةً سعِيدةً.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: ما القَى الله تَعالَى في قُلوبِ الزَّوجَيْنِ مِن المودَّةِ والرَّحمَةِ، هَذَا مِنَ الآيَاتِ العظِيمَةِ، امْرأةٌ لَا تعْرِفُها إلَّا بالذِّكر عنْدَ خِطْبَتِها وليْسَ بيْنَك وبيْنَها قرَابَةٌ ثمَّ يَجْعَلُ الله بيْنَ قُلوبِكُما مِنَ المودَّةِ والرَّحْمةِ مَا يرْبُو أحْيَانًا عَلَى مودَّةِ الأُمِّ والأَبِ، وَهَذا لا شَكَّ أنَّه مِنْ آيَاتِ الله؛ وَلِهَذا قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان:٥٤]، جَعَلَ الله في هَذِهِ الآيَةِ الصَّهر قَسِيمًا لِلنَّسبِ، يَعْني كأنَّ البشَرِيَّةَ إمَّا مُصاهَرَةٌ وإمَّا قرابَةُ نَسَبٍ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (٢٦٩٩).

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ المودَّةَ لا تُنالُ بالكَسْبِ، يعْنِي أنَّ الله قَدْ يجْعَلُها فِي قلْبِ الإنسانِ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، يعْني أنْتَ لوْ أرَدْتَ أن تُجْبِر نفسَكَ عَلَى محبَّةِ شَيْءٍ واللهُ عَزَّوَجَلَّ لم يجْعَلْ في قلبِكَ مودتَه فلَنْ تحبَّه؛ وَلِهَذا مَنَّ الله عَلَى المؤْمِنينَ بقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الحجرات:٧]، وأنْتَ تقُولُ فِي الدُّعاءِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ العَمَلِ الَّذِي يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ**»(١).

إِذَنْ: فالمودَّةُ يُلقِيها الله عَزَّوَجَلَّ فِي القَلْبِ، فأنْتَ ينْبَغِي لَك أن تَسْأَل الله دَائِمًا أنْ تَكُونَ محبَّتُك للهِ وفِي الله لِتكُونَ المحبَّةُ بِاللهِ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أنَّ مُا ذُكِر ليْسَ آيَةً واحِدَةً؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾، ثمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾: أولًا: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ثانِيًا: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ فتكونُ آياتٍ متعدِّدَةً.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: وُجوبُ التّراحُمِ بيْنَ الزَّوْجَيْنِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَرَحْمَةً﴾.

وهَلْ يُؤخَذُ منْهَا وُجوبُ معالَجَةِ الزَّوجَةِ إذا مَرِضَتْ لأنَّهَا مِنَ الرَّحمَةِ؟

الفقهاءُ يقُولونَ: لَا يَجِبُ أنْ تُعالِجَها، ولَا يَجِبُ أنْ تُعطِيها قِيمَةَ الدَّواءِ؛ لأَنَّ هَذا ليْسَ مِن النّفَقَةِ، وكَوْنُ الله يجْعَلُ بيْنكُم رحمَةً ليْسَ معْنَاهُ أنْ يُلْزِمَك بِشَيْءٍ لَا يلْزَمُكَ، إِنَّما هَذا بَيَانٌ للوَاقِعِ وَهَذا صَحِيحٌ، فالرَّحمَةُ تُوجَدُ لكِنْ هَل تلْزَمُه؟ هَذا محَلُّ نظَرٍ؛ وَلِهَذا قالَ الفُقهاءُ أنَّه لا يَلْزَمُ الدَّواءُ وأُجْرَةُ الطَّبيبِ، وبعْضُ العُلَماءِ يقُولُ: يَلْزَمُ إِلَّا إِذا كانَ الشَّيْءُ كثِيرًا يجْحَفُ بِمَالِه فإِنَّهُ لَا يلْزَمُه.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ﴿صٓ﴾، رقم (٣٢٣٥).

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: إثْبَاتُ حِكْمَةِ الله وقدُرَتِه ورحْمَتِه أيْضًا، حيْثُ جعَل بَيْنَ الزَّوجَيْن مودَّةً ورحْمَةً.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: الرَّدُّ عَلَى الجهْمِيَّةِ وَكَذلِكَ الأشَاعِرَةِ الَّذِين ينْفُونَ حكْمَةَ الله عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا المُعتزِلَةُ فإنَّهم يغْلُونَ فِي إثْبَاتِ الحكْمَةِ؛ وَلِهَذا يرَوْن أنَّه يجِبُ عَلَى الله فِعْلُ الأصْلَحِ أوِ الصَّلاحِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: المُبتَدِعَةُ في ردِّهم للصِّفاتِ هَلْ هُمْ يبْنُونَ عَلَى مقدِّماتٍ عقْلِيَّةٍ متَّفَقٍ عليْهَا بيْنَهُم، أمْ أنَّ كُلَّ واحِدٍ منْهُم يُعَلِّلُ بعَقْلِه؟

قُلْنَا: بِعَقْلِه، كُلُّ واحدٍ منْهُم يُعَلِّلُ فيخْتَلِفُونَ في تعْلِيلِ هَذا الرَّدِّ، أحْيَانًا يقُولُونَ أنَّه يستَلْزِمُ الجسْمِيَّةَ، ولكنَّ غالِبَ ما يدُورُونَ أنَّها مستَلْزِمَةٌ للتَّمْثِيلِ، فيَخْتَلِفُونَ فِي الطُّرُقِ الموَصِّلة إلَيْه.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: الثَّناءُ عَلَى التَّفْكِيرِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فإنَّ هَذا واضِحٌ أنَّه محَلُّ ثنَاءٍ لَهُم.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: الحثُّ عَلَى التّفكُّر؛ تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لأَنَّ التّفَكُّرَ مِفْتَاحُ العِلْمِ، ولَا يُمْكِنُ عِلْمٌ بلا تفكُّرٍ أبدًا، تفكَّرْ أولًا لتَعْلَمَ، فالتّفْكِيرُ ينْفتِحُ بِه أبوابٌ كثِيرةٌ يعْرِفُ الإنسانُ بِها مْن أحكَامِ الله وحِكَمِهِ ما لا يَحْصُل لَهُ لَوْ لم يُفَكِّرْ؛ لأَنَّهُ خصَّ الآيَاتِ بالقَوْم الَّذِين يتفكَّرُون، فدَلَّ هَذا عَلَى أنَّه يحْصُل بالتّفكُّرِ مِن الاطِّلاعِ عَلَى أحكَامِ الله وحِكَمِه ما لا يحْصُل بالغفْلَةِ.

التّفكُّر يكُونُ فِي آيَاتِ الله، أيْ مخلُوقاتِه ومشْرُوعاتِه؛ لأَنَّ الآيَاتِ كَما سبَق إمَّا كَونيَّةٌ، وإمَّا شرعِيَّةٌ، يحْصُل التّفكُّر فِي صفاتِ الله مِن وَجْه المَعْنى، أمَّا مِن حيْثُ

الكيْفِيَّةُ فَلا يَجُوزُ التّفكُّرُ في الصِّفاتِ؛ لأَنَّ ذَلِك محاوَلَةٌ لما لَا يُمْكِنُ الحصولُ علَيْهِ؛ وَلِهَذا قَال الإِمَامُ مالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»، فَلا يجُوزُ أنْ نتفكَّر في كيْفِيَّةِ صفَةٍ مِن صفاتِ الله، بلْ نتفكَّرُ في المَعْنى دُونَ الصِّفَة.

ومثْلُه التّفكُّر في ذَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يَجُوزُ؛ لأَنَّهُ مُحاوَلةٌ لما لَا يُمْكِنُ الوُصولُ إِلَيْهِ، ثمَّ التّفْكيرُ في هَذِهِ الأمُورِ يجُرُّ إِلَى بَلايَا ومهَالِكَ، والَّذي ضَرَّ مَنْ ضُرَّ مِن أهْلِ التّعْطِيل وأهْلِ التَّشبيهِ هُو محاوَلَتُهم الوصولَ إِلَى الكَيفيَّة؛ فلِهَذا آلَ بِهِمُ الأمْرُ إِلَى التَّعْطِيلِ أو التَّمْثيلِ.

والمُهِمُّ: أنَّ التّفكُّرَ يكُونُ في مخلُوقاتِ الله وفِي مشْرُوعاتِهِ وفِي معَانِي أسمَائِه وصِفَاتِهِ، أمَّا في ذَاتِه وكيْفِيَّةِ صفَاتِه فإِنَّهُ لا تفكُّر، وَذَلِكَ لأَنَّهُ مهْما بلَغ الإنسانُ فإنَّ الفِكْر سيَرْجِعُ خاسِئًا وهُو حَسيرٌ، والإعْراضُ عنْ هَذا هُو الوَاجِبُ، كَما قَال الإِمَامُ مالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الآيــة (٢٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الرّوم:٢٢].

قـال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أَيْ لُغَاتكُمْ مِنْ عَرَبِيَّة وَعَجَمِيَّة وَغَيْرهَا ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ مِنْ بَيَاض وَسَوَاد وَغَيْرهمَا وَأَنْتُمْ أَوْلَاد رَجُل وَاحِد وَامْرَأَة وَاحِدَة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ دَلَالَات عَلَى قُدْرَته تَعَالَى ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ بِفَتْحِ اللَّام وَكَسْرهَا أَيْ ذَوِي العُقُول وأولي العلم] اهـ.

اعلَمْ أنني راجَعْتُ الكثير من التَّفاسِير فَما وجَدْتُ الحِكمَة في أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقُولُ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم ﴾، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم ﴾، يعْنِي ما رأَيْت أحدًا بيَّن الحِكْمَة في كوْنِه يأْتِي مرَّةً بالمَصْدَرِ، ومرَّةً بـ(أَنْ) الدّاخلَةِ عَلَى الفِعْل، هِي تُؤَوَّلُ بمصْدَرٍ، لكَنْ هَل نقُول إنَّ هَذا مِنْ بَابِ الاخْتِلاف في التّعْبير المُراعَى بِه جانِبُ اللَّفْظ، أوْ أنَّه مِن بابِ التَّعبيرِ المُراعَى بِه جانِبُ المَعْنى؟ فَإنْ قُلنا أنَّه مِن بَابِ التَّعبير المُراعَى بِه جَانِبُ اللَّفْظُ فالأَمْر بَسِيطٌ، ونَقُول إنَّ الله تَعالَى غايَرَ بَيْن العِباراتِ لأَجْلِ أنْ لَا يَمَلَّ السَّامِعُ إذا كَان الكَلامُ عَلَى وَتيرَةٍ واحِدَةٍ؛ لأَنَّ الاخْتِلافَ في التَّعبيرِ ممَّا يَزِيدُ الإنسانَ نَشاطًا وتجَدُّدًا، أمَّا إذا قُلْنا إنَّ هناكَ أمْرًا معنَوِيًّا فأنَا إلَى الآنَ مَا عرَفْتُه، ولا ذَكرَه الزّمخشَرِيُّ ولَا أَبُو السُّعودِ، ولَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ يتكلَّمُونَ عَلَى مثْلِ هَذِهِ الأُمُورِ.

قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ خبرٌ مقدَّمٌ، و﴿خَلْقُ﴾ مبْتدأٌ مؤخَّرٌ، وخلْقُ السَّمواتِ: أيْ إيجادُهَا بتَقْدِيرٍ ونظامٍ بدِيعٍ، وَهَذا يشْمَلُ خلْق هَذِهِ السّموات باعْتِبارِ كَوْنِها أجْرَامًا عَظِيمَةً وباعْتِبارِها مصْلَحةً للعْبَادِ، فهَذا مِن آيَاتِ الله، فمِنْ آيَاتِه العَظِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِه ورَحْمَتِه وحِكْمَتِه خَلْقُ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ، والسَّمواتُ جمْعٌ وجَمْعُها ظَاهِرٌ لأنَّها سبْعُ سمَواتٍ، والأرْضُ مُفْرَدٌ، ولكِنَّ المُرادَ بِه الجِنْس؛ لأنَّهُ لا شَكَّ أنَّ الأرَضِينَ سبْعٌ، والدَّلِيلُ قوْله تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطّلاق:١٢]، والمِثْلِيَّةُ هُنا لَا يُمْكِنُ أنْ تكُونَ فِي الصِّفَةِ أبَدًا، إذْ لا يُمْكِنُ أنْ تكونَ الأرَضونَ مثْلَ السّموَاتِ فِي الصّفةِ لِظُهورِ الفَرْقِ التَّامِّ بَيْنَهُما، فإذا تعذَّرَتِ الصِّفَةُ رجَعْنا إلَى العَدَدِ، أيْ ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فِي العَدَدِ، ثمَّ جاءَتِ السُّنَّةُ مُبَيِّنَةً ذَلِك صَرِيحًا، مثْلَ قولِه ﷺ في الحديث الصَّحِيح المُتَّفَق علَيْهِ: «**طَوَّقَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»(١).

وقوْلُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾: أيْ لُغَاتِكُمْ مِنْ عَرَبِيَّةٍ وَعَجَمِيَّةٍ وَغَيْرِهَا]: اختلاف معطُوفَةٌ عَلَى (خلْق) يعْنِي ومِنْ آيَاتِه أيْضًا اختِلافُ ألسِنَتِكُم، وصَحِيحٌ أنَّ اختِلافَ الألسِنَةِ مِن آيَاتِ الله بحسَبِ اللُّغاتِ عرَبِيَّةً وعجَمِيَّةً وغيْرَها، إنْ أرَدْنا بَالعَجَم اسْم القَوْمِ الخاصِّ، فكَلِمَةُ (غيْرَها) صحِيحَةٌ، وإذا أرَدْنا بِالعَجَمِ مَنْ سِوى العَرَبِ فإنَّ قوْلَه: (وَغَيْرَهَا) ليْسَ بِصَحِيحٍ، وَهَذا هُو الأفْضَلُ أنَّه يُقَال: (عَرَبٌ وَعَجَمٌ) ويُراد بالعَجَم مَا سِوى العَرَبِ، فيَشْمَلُ جَمِيعَ لُغاتِ العالَمِ، ثمَّ إنَّ اختِلافَ الألسِنَة أيْضًا قَدْ نُنْزِلُه عَلَى اختِلَافِ اللُّغَة نفسِها، واخْتِلافِ النُّطقِ نفْسِه، فأنْتَ تَرى الإنْسَانَ ينْطِقُ بخُروجِ الهَواءِ مِنَ الرِّئَتَيْنِ، ثمَّ مُرورِهِ عَلَى

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠).

مخارِجِ الحُروفِ، كُلَّما مَرَّ عَلَى مخْرَجٍ تغيَّر والهَواءُ واحِدٌ، فإذَا مَرَّ عَلَى مخْرَجِ الصَّادِ صَار صَادًا، وإذَا مرَّ عَلَى مخْرَجِ الجِيمِ صَار جِيمًا، وَإذا مَرَّ عَلَى مخْرَجِ الدَّالِ صارَ دالًا، مَع أنَّ الهواءَ واحِدٌ، ثمَّ إنَّه أيْضًا لَا يحْتَاجُ إِلَى عمَلِيَّةٍ؟ فهَل نَجِدُ تَعبًا بنَقْلِ البَاء إِلَى النُّونِ إِلَى القَافِ إِلَى اللَّام، فَهُو شَيْءٌ واحِدٌ ومَع ذَلِك تجِدُ الحُروفَ تتنَوَّعُ بمُرورِها عَلَى هَذِهِ المخَارِج، فَهذا أيْضًا مِنْ آيَاتِ الله العظيمَةِ، وهُوَ دَاخِلٌ في قوْلِه تَعالَى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾.

فاخْتِلافُ الألسِنَة أيْضًا مِن آيَاتِ الله ووجْهُ ذَلِك أنَّ هَذِهِ الألسُنَ مِن نوعٍ واحِدٍ، أوْ مِن جنْسٍ واحِدٍ، كلُّنا بشَرٌ، وكلُّنا مِن أَبٍ واحِدٍ، ومَع ذَلِك تخْتَلِفُ الألسُن اختِلَافًا عظِيمًا، كَذَلِكَ أيْضًا هُوَ مِنْ آيَاتِ الله لأَنَّ كلَّ إِنْسَانٍ يعرِفُ جنسَه بلُغَتِه، أنا أعْرِفُ مثَلًا أنَّ هَذا هنْدِيٌّ، وَهَذا تُرْكِيٌّ، وَهَذا إنجْلِيزِيٌّ، وَهَذا ألمانِيٌّ، وَهَذا رُوسِيٌّ، بسَبَب لُغَتِه، وَهَذا أيْضًا مِن آيَاتِ الله أنْ جعَلَها دَلِيلًا عَلَى جِنْسِ الإِنْسَانِ.

وقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يشْمَلُ أصْلَ اللُّغَة، ويَشْمَلُ اللَّهَجاتِ، ويشْمَلُ السَّلامةَ مِن العُيوبِ، ويشْمَلُ العُيوبَ أيْضًا، ويشْمَلُ الفصاحَةَ، ويشْمَلُ العِيَّ؛ لأَنَّ بعضَ النَّاس يُعَبِّر عنِ المَعْنى تعْبِيرًا يسْتَطِيعُ الإقْنَاع إذا أرَاد أنْ يُقْنِع، ويسْتَطِيعُ التَّنْفِيرَ إذا أرَادَ أنْ يُنَفِّرَ، وبعْضُ النَّاس عنْدَه عِيٌّ بحيْثُ أنَّه لا يسْتَطِيعُ أنْ يُعَبِّرَ حتَّى عنِ المَعْنى الصَّحيحِ حتَّى أنَّه إذَا عبَّر عن المعَانِي الَّتي يُريدُها، رُبما لا تُقبَلُ منْهُ لضعف تعْبيرِه، يعْنِي لا تَظُنَّ أنَّ اخْتِلافَ الألسِنَة فقَط في جِنْس اللُّغَةِ، لا بَلْ بِكُلِّ هذَا، فأجْنَاسُ اللُّغاتِ مِن آيَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ، وكوْنُ هَذا الإنسانِ ينْطِقُ بالحُروفِ نُطْقًا تَامًّا، هَذا مِنْ آيَاتِ الله، والثَّاني بالعَكْس ينْطِقُ بِها عَلَى وجْهِ اللَّثْغَةِ أوْ يتثَاقَلُ أوْ مَا أشْبَه ذَلِك، كَذَلِكَ أيْضًا قدْ نَقُولُ: إنَّ مِن اخْتِلافِ اللِّسانِ اختلافَ

الأصْوَاتِ، فهَذا صوْتُه جَيِّدٌ، وَهَذا حسَنٌ، والآخَرُ بالعَكْسِ، كَذَلِكَ مِن اخْتِلافِ الألسُـن الفصاحَةَ وعدَمَها، فإِنَّ مِن النَّاسِ مَن يُعطِيهُ الله تَعالَى بلَاغَةً فِي الكَـلامِ وحُسْنَ أدَاءٍ حتَّى أنَّه يؤدِّي إلَيْك المَعْنَى بعِبارةٍ واضحَةٍ تفْهَمُها مِن أوَّلِ مرَّةٍ ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ بالعَكْسِ فجَمِيعُ مَا يمْكِنُ أنْ يَرد عَلَى اخْتِلَافِ اللِّسانِ فإِنَّهُ داخِلٌ في كوْنِه مِنْ آيَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوْلُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ مِنْ بَيَاضٍ وَسَـوَادٍ وغَيْرِهِمَا]: هَذا صحِيـحٌ، اخْتِلافُ الألوانِ مِن بَياضٍ وسَوَادٍ وغَيْرِهما، أيْ مَا بيْنَ السَّوادِ والبَياضِ يعْنِي أسْودُ خالصٌ، وأبْيضُ خالصٌ، ومَا بَيْنَهُمـا هُو غيْرُهما، وَهَذا أيْضًا مِن آيَاتِ الله؛ وَلِهَـذا لا تَكَادُ تَجِدُ اثْنَيْنِ متَّفِقَيْنِ فِي اللَّوْنِ أبَدًا حتَّى لَوْ كَانا توْأمَيْنِ لا بُدَّ أنْ يكُونَ هناكَ اختْلافٌ، لكِنْ منْهُ ما يكُونُ ظاهِرًا، ومنْهُ مَا يكُونُ غَيْرَ ظاهِرٍ، إمَّا بمَيْلِه إلَى الحُمْرَةِ أو إلَى السَّوادِ أوْ إلَى البَياضِ، أوْ يكُونُ الجلْدُ ليْسَ عَلَى وتِيـرَةٍ واحَدَةٍ، وَهَذا شيْءٌ مُشاهَدٌ، فالرَّجُل الأبْيَضُ الأُوربِّي بيْنَه وبَيْن الرَّجُل الأسْوَد الَّذي عَلَى خطِّ الاسْتِواءِ فرْقٌ شاسِعٌ، ومَا بَيْن ذَلِك درَجَاتٌ متفاوِتَةٌ، لكِنْ لَا تكَادُ تَجِدُ اثْنَيْن عَلَى لوْنٍ واحِدٍ، هَذا مِنَ الحكْمَةِ؛ لأنَّهُ لوْلَا هَذا لَكَانَ النَّاسُ يختَلِفُ بعْضُهم عَلَى بعْضٍ، وربَّما طَالبُوا بحقُوقِهم مَنْ ليْسَ لهُمْ عنْدَه حقٌّ لمجرَّدِ الشَّبَهِ.

ويُقالُ أنَّ الله جعَل لكُلِّ إنْسَانٍ أرْبَعِينَ شَبِيهًا، ولَكِنْ لَا أظُنُّ أنَّ هَذا يَصِحُّ، بَلْ إنَّهُم يقُولونَ إنَّ البَصماتِ الَّتي في الأنَامِل تخْتَلِفُ، كُلُّ واحِدٍ لَهُ بصَماتٌ عَلَى شكْلٍ لَا يُوافِقُ الآخَرَ وَهَذا هُوَ الظَّاهِرُ، وَلِهَذا تُعْتَبَرُ البَصماتُ فِي التَّحْقِيقاتِ الجنَائِيَّةِ، ممَّا يدُلُّ عَلَى أنَّها تخْتَلِفُ قطْعًا، وَهَذا ممَّا يدُلُّ عَلَى قدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هَذا الاخْتِلافَ العظيمَ، ملَايِينُ المَلَايِينِ مِنَ البَشَرِ، ومَع ذَلِك كُلُّ إنْسَانٍ لَا يُمْكِنُ أنْ يُطابِقَ الآخَر

مِنْ كُلِّ وجْهٍ، لَا بُدَّ أنْ تَكُونَ هُناكَ علامَةٌ فارِقَةٌ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَأَنْتُمْ أَوْلَادُ رَجُلٍ وَاحِدٍ وامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ]: صحِيحٌ، نحْنُ أوَّل مَا نشَأْنا مِن آدَم وحواء، ومَع ذَلِك نخْتَلِفُ هَذا الاخْتِلافَ العظِيمَ في الألوانِ، ولَمْ يذْكُرِ الله عَزَّوَجَلَّ الاخْتِلافَ في الأَجْسامِ مَا بَيْنَ صَغيرٍ وكَبيرٍ ومتوسِّطٍ؛ لأَنَّ القُدْرَة عَلَى خَلْقِهم باخْتِلافِ ألوَانِهم أبْلَغَ مِنَ القُدْرَة باخْتلَافِ خلْقِهم عَلَى كِبَرِ أجْسَامِهم وصِغَرِها؛ وَلِهَذا ذَكر الألسِنَةَ والألوانَ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ دَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِه تعالَى ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ بِفَتْحِ اللَّامِ وكَسْرِها، أَيْ ذَوِي العُقُولِ وأُولِي العِلْمِ]: بفَتْح اللَّام وكسْرِها، يعْنِي يَجُوزُ أنْ تَكونَ (لِلْعَالَمِينَ) و(لِلْعَالِمِينَ)، والقِراءتَانِ سبْعِيَّتانِ[1]؛ لأَنَّ قاعِدَةَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا ذَكَر الوَجْهَيْن فهُما قِراءَتانِ سبْعِيَّتَانِ، أمَّا إذا قَال: (وقُرِئ) فالقِراءَةُ شاذَّةٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ أو «للعالَمين»، العالِمون ذوُو العِلْم، والعالَمون جمعُ عَالَمٍ، يعْنِي الخلْقَ، وهَلْ نأخُذُ مِنَ اخْتِلافِ القِرَاءَتَيْن أنَّ المرادَ بالعالَمين ذوي العلْم؛ لأَنَّ العالَمين أعمُّ مِن العالِمين؛ لأَنَّ العالِمين تختَصُّ بذَوي العِلْم، والعالَمِين عامَّةٌ لَهُم ولغَيْرِهم، فهَل نقُولُ: إنَّ الآيَة تدُلُّ عَلَى أنَّ هَذا فِيه آيَاتٌ للعالِمين، أوْ نقُولُ إنَّ الآيَاتِ للعالَمِين كلِّهم العالِم وغَيْرِ العالِم، ولكنَّ العالِم لَهُ مزيَّةٌ، فتكُونُ دالَّةً عَلَى أنَّ اخْتِلافَ الألسُنِ والألوانِ أمْرٌ معْلُومٌ لكُلِّ أحَدٍ، لكنَّ مَا ورَاء ذَلِك الظَّاهِرِ أمرٌ لا يعْلَمُه إلَّا أهْلُ العِلْمِ، ويكُونُ فِي الآيَةِ إشَارَةٌ إلَى أنَّه ينْبَغي لنَا أن نتَعَمَّقَ فِي هَذا الأمرِ حتَّى يتبَيَّنَ لنا بعلْمِنا ما ليْسَ بائِنًا لغيْرِنا، وَهَذا هُو الأحْسَنُ.

---

(١) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص:٦١٩).

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ خلْقَ السَّمـوَاتِ وَالأرْضِ مِن آيَاتِ الله، ووَجْهُ كَوْنِه مِـن آيَاتِ الله عِظَمُهما واتِّساعُهما ومَا فِيهما مِنَ الكَواكِبِ والنُّجومِ والأَشْجارِ والبِحارِ والأَنْهارِ وغَيْرِ ذَلِكَ، كُلُّه مِنْ آيَاتِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِه وقُدْرَتِه.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: أنَّ السَّمواتِ جمْعٌ والأرْضَ كَذَلِكَ، لكِنْ ليْسَ فِي الآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى هَذَا، إنَّما يُسْتَفادُ كَوْنُ الأرْضِ جَمْعًا مِن أدِلَّةٍ أُخْرَى.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: أنَّ اختِلافَ الألسُنِ والأَلوانِ مِن آيَاتِ الله أيْضًا، وهلِ اختِلافُ الألسُنِ والألوانِ هُو بِطُولِ اللِّسَانِ وقِصَرِه، أوِ المُرادُ اختِلافُ اللُّغَة؟ المُرادُ اختِلافُ اللُّغاتِ واخْتِلافُ الفَصاحَةِ والبَيانِ؛ فإنَّ النَّاسَ يخْتَلِفُون فِي هَذا اختِلافًا عظِيمًا، تَجِدُ المَعْنى الوَاحِدَ يتكَلَّمُ بِه إنْسَانٌ فيَقْتَنِعُ الحاضِرونَ لقُوَّةِ بَيانِهِ وفَصاحَتِهِ، ويتكَلَّمُ فِيه آخَرُ لَا يلْتَفِتُونَ إلَيْهِ ولا يُقْنِعُهم، وتَجِدُ رَجُلَيْنِ يتكَلَّمَانِ، أحَدُهُما يشُدُّ النَّاسَ إلَى نفْسِه، والآخَرُ يتكلَّمُ ولَا يُسْتَمَعُ إلَيْهِ، مَع أنَّ الكَلامَ واحِدٌ والمَوْضوعَ واحِدٌ، لكِنَّ اخْتِلافَ الإلقاءِ والفصَاحَةِ هُو الَّذي جعَل النَّاسَ يتأَثَّرُونَ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ الألوانَ لا تتَّفِقُ، نأْخُذه مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾، وَلِهَذا يقُولُ العُلَمـاءُ أنَّه لَا يُمْكِنُ أن يُوجد شخصَانِ متَّفِقانِ مِنْ كُلِّ وجْهٍ أبَدًا عَلَى كثْرَة النَّاسِ، حتَّى التَّوْأمانِ لا يتَّفقانِ مِنْ كُلِّ وجْهٍ، صحيحٌ أنَّ بعْضَ النَّاسِ يتقَارَبُـونَ وَلا تعْرِفُ بعْضَهُم مِن بعْضٍ، لا سِيَّما إذَا كُنْتَ لَا تَراهُما إلَّا نادِرًا، لكِنْ عنْدَ التَّأمُّل لَا بُدَّ أنْ يكُونَ هُناكَ علَامَةٌ فارِقَةٌ، ولا تأْخُذْ بالمَلامِحِ الظّاهِرَةِ، وَهَذا مِنْ آيَاتِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حتَّى الأَعْضاء الآنَ لَا تظُنَّ أنَّ أعضَاءكَ متَّفِقَةٌ، فأعْضَاؤُك تخْتَلِفُ، فكِّرْ فِي العُروقِ: عُروقُ اليَدَيْنِ تجِدُها مختَلِفَةً، عروقُ الرِّجْليْنِ تجِدُها مختَلِفَةً، البَنانُ الَّتي

يُسمُّونَها بصَماتٍ تجِدُها مختَلِفَةً عَلَى كثْرَة النَّاسِ، لا يُمْكِنُ أنْ يتَّفِقُوا أبدا وَهَذا دليل واضح عَلَى عظِيمِ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبَالِغْ حِكْمتَه.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: مدْحُ أُولِي العِلْم؛ تُؤخَذُ مِن قَوْلِه: (العالِمِين) بِكَسْر اللَّامِ، فإِنَّهُ يدُلُّ عَلَى فضِيلَةِ أهْلِ العِلْمِ، ولَا شَكَّ أنَّ أهْلَ العِلْمِ لَهُمْ فَضْلٌ. فالعالِمُون باللهِ وآيَاتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَهُم مِن الفَضائِلِ بِحَسَبِ عِلْمِهِمْ.

• ● ❁ ● •

الآيــة (٢٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الرّوم:٢٣].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بِإِرَادَتِهِ رَاحَةً لَكُمْ]؛ مِن آيَاتـه أيْضًا منَامُكُم بِاللَّيْـلِ والنَّهارِ -وَ(البَاءُ) هُنا بمَعْنى (فِي)- فَهِي للظَّرْفِيَّـةِ -و(البَاءُ) تأتي للظَّرفِيَّةِ كَثِيرًا- ومِنْهُ قوْلُه تَعالَى:﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصّافات:١٣٧-١٣٨]، أيْ وفِي اللَّيْلِ، فالبَاءُ فِي قَوْلُه ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ ظَرْفِيَّةٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ لَمْ يذْكُرِ الله وقتًا مُعَيّنًا مِن اللَّيْلِ، ولا وَقْتًا مُعيَّنًا مِن النَّهارِ؛ لأنَّ النَّومَ فِي أيِّ سَاعَةٍ مِن اللَّيْل أوِ النَّهارِ هُوَ مِن آيَاتِ الله، أمَّا كوْنُك يُكْرَهُ لَك أنْ تَنامَ فِي هَذا الوَقْتِ أوْ لا تَنامُ فهَذا موْكُولٌ إِلَى الشَّرعِ، وهُو مِنَ الآيَاتِ الشَّرْعيَّةِ ولَيْس مِنَ الآيَاتِ الكَوْنِيَّةِ.

وقوْلهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [رَاحَةً] هَلْ هِي مفْعُولٌ مِن أجْلِه أوْ مفْعُولٌ لـ(إِرَادَة)، أيْ أنَّه يُرِيدُ الرّاحةَ لكُمْ؟ يحْتَملُ كلامُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجْهَيْن: إمَّا المَعْنى بِإرَادَتِه أنْ تَسْتَرِيحُوا، أو المَعْنى أنَّ نوْمَكُم بِإرَادَتِه راحةٌ لكُمْ، فيُفِيدُ أنَّ النَّوْمَ ليْسَ باخْتِيارِ الإِنْسانِ، الإِنسَانُ غايَةُ مَا يفْعَلُ أنَّه يفْعَلُ الأسْبابَ الَّتي يكُونُ بِها النَّوْمُ، أمَّا أنْ يُخْرِجَ رُوحَهُ مِنْ جَسَدِه

حتَّى ينَامَ أوْ يرُدَّ رُوحَهُ إِلَى جسَدِه حتَّى يسْتَيْقِظَ فهَذا ليْس إِلَيْهِ، بَلْ هُو إِلَى الله، وَلِهَذا أحْيَانًا الإِنسَانُ يُرِيدُ النّومَ ويَكُون عَلَى الفِراشِ ويُحَاوِلُ بقَدْرِ ما يَسْتطِيعُ أنْ ينَامَ، ثمَّ لَا ينَامُ، وأحْيَانًا يغْلِبه النَّومُ ولَوْ لَمْ يتَهَيَّأْ لَه.

إِذَنْ: النّومُ بِإِرَادَةِ الله، وهُوَ وفَاةٌ صُغْرَى، فكَما أنَّ الوفَاةَ الكُبْرى إِنَّما تَكُونُ بأَمْرِ الله وبِإِرَادَتِه فكَذَلِكَ الوَفاةُ الصُّغْرَى.

قالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم﴾ بِالنَّهَارِ ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أيْ: تَصَرُّفُكُمْ فِي طَلَبِ المَعِيشَةِ بِإِرَادَتِهِ]: (ابتغاؤُكم) معْطُوفَةٌ عَلَى (منامِكم)، ومعْنَى (ابتغاؤُكم) أيْ طلبُكم ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾، (مِن) لِبَيان الجِنْس، أيْ مِن عطَائِه ورِزْقِه، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خصَّ الابْتِغاءَ بالنَّهارِ، ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، والأَحْسَنُ أنْ نجْعَلَها مُطْلَقَةً كَما أطلَقَها الله؛ لأَنَّ مِن النَّاس مَنْ يبْتَغِي مِنْ فَضْل الله بالنَّهارِ، ومِنْهُم مَن يبْتَغِي مِنْ فضْلِ الله بِاللَّيْل، فكَوْنُها تبْقَى عَلَى مَا هِي علَيْهِ بدُونِ تقْيِيدٍ هَذا هُوَ الأَوْلى؛ لأَنَّ التَّقْيِيدَ يُضَيِّقُ المَعْنى فيَجعلُ الابْتِغاءَ بالنَّهارِ مَع أنَّه يُوجَدُ أنَاسٌ لا يطْلُبونَ الرِّزْق إِلا فِي اللَّيْل، مثْلُ الحرَّاس وأصْحَابِ الأَمْن، ومَا أشْبَه ذَلِك.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: تقْيِيدُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ النَّوْمَ باللَّيْلِ وابْتِغاءَ الفَضلِ بالنَّهارِ مع أن النَّومَ يَكُونُ بالنَّهار وابْتِغاءِ الفَضْل باللَّيْل، هلْ هَذا باعْتِبار الأَغْلَبِ؟

قُلْنَا: لَو قُيِّدَتْ لقُلْنا هَذا باعْتِبارِ الأَغْلب، يعْني لَوْ قَال: (مِنْ آيَاتِه منَامُكُم بِاللَّيل وابْتِغَاؤُكم مِنْ فضْلِهِ بالنَّهار)، أمَّا أنْ تأْتِي عامَّةً ثمَّ نُقَيِّدُها فَلا وجْهَ لَهُ، وأيْضًا لا تُفَسَّرُ بِالآيَاتِ المقَيِّدَةِ؛ لأَنَّ الآيَاتِ المقَيِّدة لا تُنافِي هَذِه.

قوْله تَعالَى: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾: الفَضْل بمَعْنى العَطاءِ، وقوْلُ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيْ تصَـرُّفُكُمْ فِي طَلَبِ المَعِيشَـةِ بِإِرَادَتِهِ]، والإِرادَةُ هُنا إِرَادَةُ الله عَزَّوَجَلَّ،

والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يُثْبِتَ مذْهَب الجبْرِيَّة، ولكِنْ يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ تصرُّفَنا وإِنْ كُنَّا مستَقِلِّينَ بِه مِن وَجْهٍ، فإِنَّنا لسْنَا مستَقِلِّينَ بِه مِن وجْهٍ، وابْتِغاءُ الفضْلِ بإِرَادَةِ الله والمَنامُ بِإرادَةِ الله، وبَيْنَهُما فرْقٌ لأَنَّ المنَام ليْسَ لنَا فِيه حُرِّيَّةٌ إطْلاقًا، ولَا إرادَةَ بِخلَافِ الابْتِغَاءِ مِن فضْلِه، فإِنَّ لنَا فِيه إرادَةً، ولكِنَّها تابِعَةٌ لإرادَةِ الله، ثمَّ قَال تَعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

قوْلُه تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾: إنَّ في ذَلِك المَذْكُورِ، كَما قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أولًا: [﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ سَماعَ تَدَبُّرٍ واعْتِبَارٍ]: وأَتَى بقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾؛ لأَنَّهُ بدَأ بالنَّوْمِ وبدَأ باللَّيْلِ، واللَّيْلُ وَظِيفَةُ الإنْسَانِ فِيه السَّمْعُ؛ لأَنَّهُ لَا يَرى باللَّيْل، فالَّذِي يُناسِبُه السَّمعُ.

ولكِن مَا المُرادُ بالسّمْعِ هُنا، هَل المُرادُ مطْلَقُه؟

لَا، بَل المُرادُ سَماعُ التَّدبُّر والاعْتِبَارُ؛ لأَنَّ السَّمْع كَما سبَق يُطْلَقُ عَلَى سمْعِ الإدْرَاكِ المُجَرَّدِ، وعلَى سمْعِ الإدْرَاك المُنْتَفِع بِه، ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١]، يعْنِي لا يسْمَعُون سَماعَ تدَبُّرٍ واتِّعاظٍ وانْقِيادٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ النَّومَ مِن آيَاتِ الله؛ وجْهُ ذَلِك أَنَّ هَذا الإنْسانَ ذَا الشُّعورِ إِذا نَام فقَدَ شُعُورَه، والرُّوحُ متَّصِلةٌ بالبَدن تمَامَ الاتِّصالِ، فإِذا نامَ حصَل منْهَا نوْعُ انفِصَالٍ؛ وَلِهَذا سَمَّى الله تَعالَى النَّوْمَ وفَاةً لكِنْ ليْسَتِ الوفاةَ الكامِلَةَ التي تُقْبَضُ فِيها الرُّوحُ مِن البَدنِ وتنْفَصِل عنْه انفصالًا كامِلًا، لكنَّها تنْفَصِلُ عنْه انفِصالًا جُزْئِيًّا،

هَذا الانْفصَالُ الجزْئِيُّ الَّذِي تبْقَى معَهُ الحَياةُ دُونَ الوَعْي مِن آيَاتِ الله، فلا أحَدَ يسْتَطِيعُ أنْ يفْعَل هَذا إلا الله، وَكَذلِكَ أيْضًا لَا أحَد يسْتَطِيعُ أنْ يرُدَّها إلا بإذْنِ الله عَزَّوَجَلَّ.

فَإذَا قَالَ قَائِلٌ: مَاذا تقُولونَ فِي النَّوم بالتّنويم، الَّذي يسُمُّونَه التّنويمَ المغناطِيسيَّ، حيث يُنوِّم شخْصٌ آخَرَ؟

قُلْنَا: هُو لا يُنَوِّمُه، وإذا ادَّعى مُدَّعٍ أنَّ النَّوْمَ المغَناطِيسِيَّ تنْوِيمٌ بِغَيْر الله، فهُو كادِّعَاءِ الَّذي يقولُ: (أنا أُحْيِي وَأُميتُ)، وهُو يُحْيِي ويُمْيتُ حيْثُ يَقْتُل ويُبْقِي، لكِنْ ليْسَ صحِيحًا أنَّه أحْيَا، بَلْ فَعلَ سبَبَ الحيَاةِ أوْ سبَبَ المَوْتِ فقَطْ، كَذَلِكَ المُنوِّم مَا جلَب النَّوْمَ، لكِنْ فعَل سببَه، والتّنْويمُ المغناطِيسيُّ معْنَاه اسْتِسْلامُ النَّفْس البَاطِنة لهذَا المنوِّمِ ثمَّ ينَامُ، يسْتَرْخِي ويَفْقِدُ الوَعْيَ إلَّا الذّاكِرةَ؛ وَلِهَذا تجِدُ المنوِّمَ المَغناطِيسيَّ عَلَى مَا يقُولُونَ إذا اسْتَجابَ لَه المنَوَّم بدَأَ يُخاطِبُه فِي العَقْل البَاطِن، وذَاك يتكَلَّمُ بِدُون شُعورٍ ويُخْبِرُه بِكُلِّ الَّذِي في دِماغِه، أيُّ شيْءٍ يسألُه عنْه يُعَلِّمُه بِه حتَّى الأُمورُ الَّتي لم يَطَّلِعْ علَيْها أحَدٌ مِن النَّاسِ يُعلِّمُه بِها، لكِنْ بِشَرْط أنَّ المنَوَّم يسْتَسْلِمُ استِسْلامًا كامِلًا وعِنْدَهُم حرَكَاتٌ معيَّنَةٌ، يقُولُ لَك: لا تتعَدَّاها ويَبْدَأُ يتحَرَّكُ ويتحَرَّكُ ويَرْفَعُ ويَخْفِضُ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: عنْدَهُم طُرُقٌ فِي هَذا، وعنْدَهُم وسَائِلُ إلَى أنْ يسْتَرْخِي الإنْسانُ وأعْظَمُ مِن هَذا القَتْلُ الَّذي يُسمِّيهُ الفُقهاءُ (القَتْل بالحال) أنَّه يسلط نفسه عَلَى نفس هَذا الرّجل ويخنق نفسه ويموت وَلِهَذا ذَكَرُوا فِي بَابِ القصاصِ هَل القتْلُ بالحالِ عَمْدٌ يُقتَلُ بِه القاتِلُ أَو خطأً أو شبْهَ عمْدٍ.

وإذا قُلنَا أنَّه يُقْتَل فهَلْ يُقْتَلُ بالحالِ أو يُقْتَلُ بالسَّيف؟

والصّوابُ: أنَّ القاتِل بالحَالِ يُقتَلُ، سَواءٌ قلْنَا أنَّه قصاصٌ أوْ قُلنا أنَّه مِنْ بَابِ دفْعِ الفَسادِ فِي الأرْض، لكِنَّ بعْضَ الفُقهاءِ يقُولُ: إذا أرَدْنا المُقاصَّةَ تَمامًا نأْتِي بِوَاحِدٍ آخَر يَقْتُل بالحالِ ونَجْعَلُه يقْتَلُ هَذا الرّجُلَ، فيُقْتَلُ بما قَتَل بِه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤]، إنَّما لا شَكَّ أنَّ القَتْل بالحالِ يَجِبُ فيه قتْلُ القاتِل بكُلِّ حالٍ، سواءً قُلنا أنَّه قصاصٌ، أو قُلْنا أنَّه مِن بَاب دفْعِ الفَسادِ؛ لأَنَّ هَذا أشَدُّ مِن السَّيفِ -والعياذُ باللهِ-، فالَّذِي يقْتُل بالسَّيف يسْتَطِيعُ الإنسانُ أن يَهْرِبَ منْه، لكن هَذا مُشْكِلةٌ.

وقَد ذكروا هَذا وتكلَّمُوا علَيْه في باب القصاصِ، وَهَذَا غيْرُ العَيْن.

والعيَّانُ أيْضًا -الَّذِي يقْتُل بعَيْنِه- اختَلَفُوا فِيه: هَلْ هُو عمْدٌ أوْ شبْهُ عمْدٍ، وإذا قُلْنا أنَّه عمْدٌ فهَل نقْتُله بالسَّيْف، أوْ نقْتُلُه بعَائِنٍ نأْتِي بوَاحِدٍ يُعِينُه إلَى أنْ يقْتُلَه؟

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: ذِكْر المتقَابِلَاتِ ﴿مَنَامُكُم﴾، ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، وابْتِغَاءُ الفَضْل يكُون فِي اليَقَظةِ، فهَذا جمْعٌ بيْن الشّيْءِ ومقابِله، فالمَنام آيَةٌ، وابْتِغَاءُ الإنْسانِ مِن فضْلِ الله أيْضًا آيَةٌ.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: جوَازُ النَّوْمِ ليْلًا ونهارًا؛ لأَنَّ الله تَعالَى جعَلَهُ مِنْ آيَاتِه الَّتي امتَنَّ بِها عَلَى العِبَادِ، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، لكِنْ أصَحُّها نوْمُ اللَّيل بالاتِّفَاقِ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّه ينبَغِي لِلإنْسَانِ أنْ يطْلُب رِزْقَ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: الرِّزْقُ مكْتُوبٌ كالأَجلِ، فهُو محتُومُ الوُجودِ.

قُلْنَا: ولكِنَّه مكْتُوبٌ بسبَبٍ، ولَا يُمْكِنُ لأيِّ إِنْسَانٍ أنْ يَقُول: المَكْتُوبُ لي سيَأْتِي ولَنْ أتحَرَّكَ أبَدًا، إلا رجُلًا جاهِلًا أحْمَق، وَلِهَذا لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كانَ الله كتَبَ لِي ذُرِّيَّةً ستأْتِي بدُونِ زوَاجٍ، فهَذا لَا يُعْقَل أبَدًا، فنَقُول: قوْلَه تَعالَى: ﴿وَٱبْتَغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ يدُلُّ عَلَى أنَّه ينْبَغي لِلإِنْسَانِ أنْ يطْلُب الرِّزْقَ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: كرَاهَةُ سُؤالِ النَّاسِ، أوْ أنَّه مِن الأُمُورِ الَّتي لا تنْبَغِي؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾، وأنْت إذا طلَبْت الرِّزْقَ مِن الله عَزَّوَجَلَّ فقَدْ طلبْتَه مِن أهْلِه، مِمَّنْ لَه المِنَّة عليْكَ.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرّوم:٢٤].

قالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ﴾ أيْ إِرَاءَتُكُـمْ ﴿ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾].

قوْله تَعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ جارٌّ ومجْرُورٌ، ﴿يُرِيكُمُ ﴾ فعْلٌ مضارِعٌ.

وهَل ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ متعلِّقَةٌ بـ﴿يُرِيكُمُ ﴾، أوْ متعلِّقَةٌ بمحذُوفٍ ويكُونُ تأْوِيلُ قوْلِه تَعالَى: ﴿يُرِيكُمُ ﴾ مبْتَدأٌ مؤخَّرٌ؟

ظاهِرُ كلامِ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيْ: إِرَاءَتُكُم] يقْتَضـي أنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ خبرٌ مقدَّمٌ، و﴿يُرِيكُمُ ﴾ مبتدأٌ مؤخَّرٌ؛ لأنَّهُ أوَّلَها إِلَى مصْدَرٍ، يعْنِي ولَيْس المَعْنى ويُرِيكُم مِن آيَاتِه كَذا وكَذا، ويُرِيكُم مِن آيَاتِه البَرْقَ خوْفًا وطَمَعًا، ففي إعْرَاب هَذِهِ الآيَة وجْهَانِ:

الوَجْهُ الأوَّلُ: مَا مشَى علَيْه المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بأن نجعَل ﴿يُرِيكُمُ ﴾ فعلًا مضارِعًا مُؤوَّلًا بمَصْدَرٍ تقْدِيرُه (إِراءَتُكم)، مع أنَّه ليْسَ فيه حرْفٌ مصْدَرِيٌّ، وَهَذا موْجودٌ فِي اللُّغَةِ العرَبِيَّةِ، ومنْهُ قولُهم: (تَسْمَع بالمُعِيدِيِّ خيْرٌ مِنْ أنْ تَراهُ)، فـ(تَسْمَعُ)

هَذِهِ مبتَدَأٌ بدَلِيل قولِه: (خَيْرٌ مِنْ أنْ تَراهُ)، معَ أنَّه ليْس فِيها حرْفٌ مصْدَرِيٌّ تنْسَبِكُ بِه.

والوَجْهُ الثَّاني: أنْ نقُولَ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ متعلِّقةٌ بـ﴿يُرِيكُمُ ﴾، يعْنِي يُريكُم مِن آيَاتِه البَرْقَ خوْفًا وطمَعًا.

ويُرجِّحُ الوجْهَ الأوَّلَ سِياقُ الآيَاتِ، سِياقُ الآيَاتِ كُلِّها يدُلُّ عَلَى أنَّ هَذا الفعْلَ مُنْسَبِكٌ بمَصْدَرٍ، والتَّقدِيرِ: (ومِنْ آيَاتِه إراءَتُكم)، كالآيَات الَّتي قبْلَها، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ ﴾، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾، ويُرجِّحُ الوجْهَ الثَّانِيَ أنَّنا نتَحاشَى انْسِبَاكَ المَصْدَرِ بدُونِ حرْفٍ مصْدَرِيٍّ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا ﴾ لِلْمُسَافِرِ مَنَ الصَّواعِقِ، ﴿وَطَمَعًا ﴾ لِلْمُقِيمِ فِي المَطَرِ].

قوْلُه تَعالَى: ﴿خَوْفًا ﴾ مفعولٌ لأجْلِه، وهذا مُشْكِلٌ لأَنَّ ابنَ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ[1]:

وَهْو بِمَا يَعْمَلُ فِيهِ مُتَّحِدْ ... وَقْتاً وَفَاعِلاً.....

وهُنا ﴿يُرِيكُمُ ﴾ الفاعِل الله، والخائِف الطَّامِعُ: بَنُو آدَمَ، فاختَلَف الفَاعِلُ، فالوَقْت متَّحِدٌ ولكنَّ الفاعِلَ لم يتَّحِدْ، وعلَيْه فيكُون ﴿خَوْفًا ﴾ مصدَرًا في موْضِع الحَالِ، أي: يُرِيكُم البَرْق خائِفِينَ وطَامِعِينَ، أمَّا إذا أسْقَطْنا اشْتِراطَ ابْنِ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ اتِّحادَ الفاعِلِ فتكُون ﴿خَوْفًا ﴾ مفعولًا لأجْلِه.

---

(١) البيت رقم (٢٩٩) من الألفية.

ولكِنْ عنـدِي أنَّ هُناكَ وجْهًا آخـر، أنْ نجْعَل ﴿خَوْفًا﴾ بمَعْنى تَخْوِيفًا، فإذا جعَلْنا خوْفًا بمعْنَى تخْوِيفًا زَال الإِشْكالُ؛ لأَنَّ التّخْوِيفَ يكُونُ مِن الله وهُو المُرِي، والإِطْماعُ أيْضًا مِن الله، وهُو المُرِي، وحِينَئِذٍ نسْلَمُ مِن مخالَفَةِ شرْطِ ابْنِ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكِنْ لا بُدَّ مِنْ تأْوِيلٍ، حيْثُ حوَّلْنا ﴿خَوْفًا﴾ إِلَى إِخافَةٍ، ﴿وَطَمَعًا﴾ إِلَى إطْماعٍ.

فالوُجُوهُ إِذَنْ ثلاثَةٌ:

- إمَّا أنْ نجْعَل ﴿خَوْفًا﴾ ﴿وَطَمَعًا﴾ مصْدَرَيْنِ في موْضِع الحَالِ.

- أوْ نجْعَلَهُما مصْدَرَيْن عَلَى أنَّهُما مفْعُولٌ مِن أجْلِه، ولا نَعْتَبِر اشْتِراطَ اتِّحادِ الفاعِل.

- أوْ نجْعَلَهُما مصْدَرَيْن، لكِنْ بمَعْنى التّخويفِ والإِطْماعِ، وحِينَئِذٍ نكُونُ قد اعتَبْرنا اتِّحادَ الفاعِل ولم نُؤَوِّلْهُما إِلَى الحالِ.

وقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿خَوْفًا﴾ لِلْمُسَافِرِ مِنَ الصَّوَاعِقِ، ﴿وَطَمَعًا﴾ لِلْمُقِيمِ فِي المَطَرِ]: ظَاهِرُ كَلامِ المُفَسِّر أنَّ هَذا عَلَى سَبيلِ التَّوثِيقِ خوْفًا لأُناسٍ، وطمَعا لأُناسٍ، والصَّوابُ خِلافُ كلامِه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإِنَّ البرْقَ خوْفٌ وطمَعٌ للجَميعِ، فالمُسافِرُ يخَافُ ويطْمَعُ، والمُقِيمُ أيْضًا يخَافُ ويطْمَعُ، ومَنْ ذَا الَّذي سَلِم مِن الصَّواعِق بسبَبِ كوْنِه فِي البِنَاءِ؟ فالصَّاعِقَة إذَا نزَلَتْ نزَلَتْ حتَّى عَلَى البِنَاءِ وهدَمَتْه، وقتَلَتْ مَنْ فِيه، وَكَذلِكَ المُسَافِرُ أيْضًا مَا أكْثَر المُسافِرِينَ الَّذِين نَجَوْا مِن الصَّواعِقِ وهِي تصْعَقُ حوْلَهم.

فالصّوابُ أنَّه عائِدٌ عَلَى الجَمِيعِ، لكِنَّ تقْدِيمَ الخَوْف عَلَى الطَّمَعِ يدُلُّ عَلَى أنَّ خوْفَ النَّاسِ بالبرِّ أكْثَرُ مِن طَمَعِهم، وَهَذا -واللهُ أعْلَمُ- بناءٌ عَلَى الغالِب؛ لأَنَّ أكْثَر

النَّاسِ لَا سِيَّما فِي الرُّعودِ الثَّقِيلَةِ والبَرْقِ العَظِيم يخَافُونَ أكْثَر مِمَّا يطْمَعُون، ويُوجَدُ أُناسٌ لا يهْتَمُّونَ بِهَذا الأَمْر، مهْمَا قَوِي البَرْقُ ومهْمَا قَوِي الرَّعْدُ، لا يهْتَمُّون فَهُم دَائِمًا في طَمَعٍ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أيْ شَيْئًا فَشَيْئًا، مَا ظنُّك لَوْ كَان هَذا المَطَرُ ينْزِلُ دُفعَةً واحِدةً مِن السَّماءِ فلَن يُبْقِي مبَانِيَ، بَل لا يُبْقِي الآدَمِيّينَ ولا ينْفَعُ شيْئًا، يُتْلِفُ ولَا ينْفَعُ، ومِنْه أيْضًا -أيْ كونِه مِن آيَاتِ الله- أنَّ هَذا الماءَ ينْزِلُ مِن السَّماءِ، فلَو كانَ ينْزِلُ مِن شيْءٍ طامن لكَان يُغْرِقُ الأسْفَل قبْلَ أنْ يَصِلَ إِلَى الأَعْلَى، ولكِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ جعلَه مِن فَوْقَ؛ حتَّى يَسْقِي بِه الأعْلى والأسْفَل.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾: ﴿فَيُحْيِۦ﴾ أيْ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿بِهِ﴾: البَاءُ للسَّببيَّةِ، وهِي تُفِيد -كَما سيأْتي إِنْ شَاء الله تَعالَى- إثْبَاتَ العِلَل في أفْعَالِ الله، فأفْعَالُ الله وشرْعُه كلُّه مقْرُونٌ بالحكْمَةِ والتَّعْليلِ، ومنْهُ مَا سبَق في قوْلِه تَعالَى: ﴿لِتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، مِن أنَّ اللامَ للتَّعْليل، فتُفِيدُ ثُبوتَ الحكْمَةِ فِي أفْعَالِ الله، ومِن أهْل البِدَعِ مَن يُنْكِرُ الحكْمَةَ، فَالجهمِيَّةُ يُنْكِرُونَ الحكْمَة، أمَّا المُعتَزِلة فعَلَى العَكْس يُوجبونها؛ وَلِهَذا قالُوا: أنَّه يَجِبُ عَلَى الله فعْلُ الأصْلَحِ.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ هَل المرادُ بـ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ ذاتُ الأرْضِ تَحيا، أوِ المُرادُ النَّباتُ الَّذِي في الأرْضِ يَحْيا؟ المُرادُ النَّباتُ الَّذِي في الأرْضِ، وحِينَئِذٍ قدْ يعْتَرِضُ علَيْنا معتَرِضٌ ويقُولُ: إنَّكُم تقُولونَ أنَّه لَا مجَازَ فِي القُرْآنِ، وهنَا إذا حمَلْتُم الأرْضَ عَلَى نباتِها فقَدْ قُلْتُم بالمَجازِ؟

والجوابُ عَلَى هَذا: أنَّ الكلِمَةَ فِي حدِّ ذاتِها لا يُفْهَمُ معْنَاها إلَّا بسِيَاقِها فقوْلُه تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا شكَّ أنَّ المُرادَ ذاتُ الأرْضِ، لكِنَّ

قوْلَه تَعالَى: ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يُخاطِبُ أُناسًا يعرِفُون الَّذي يَحْيا، والَّذِي يَمُوتُ، يعْرِفُونَ الَّذِي يَحْيا بالمَطر والَّذِي يمُوتُ بفَقْدِ المَطرِ، فهَلْ أحَدٌ ممَّن يُخاطَبُ بهذِه الآيَةِ يقُولُ: إنَّ هَذا الطِّينَ وَهَذا الرَّمْلَ وَهَذا الحجَر يمُوتُ بفَقْدِ المَطَرِ، ويَحْيا بوُجودِه؟! الكلِمَةُ يُعيِّن معنَاها السّياقُ، وَبِهذَا نسْلَمُ مِنَ القَوْلِ بالمَجازِ؛ لأَنَّ مِنْ أبْرَزِ عَلامَاتِ المجَازِ أنَّه يصِحُّ نفْيُه، والقُرْآنُ لَا يُوجَدُ فِيه شيْءٌ يصِحُّ نفْيُه؛ لأَنَّهُ لَوْ صَحَّ نفْيُ شيْءٍ في القُرآنِ لكَان معْنَاه التّكْذِيبَ، مِثَالُ ذَلِك قوْلُه تَعالَى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف:٧٧].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الجِدارُ لَا يُرِيدُ فما معْنَى هَذا؟

قُلْنَا: معْنَى هَذا نفْيُ مَا أثْبَتَ الله عَزَّوَجَلَّ، وَهَذا هُو الَّذي جعَل بعْضَ أهْلِ العِلمِ يُنْكِرُ المَجازَ فِي القُرآنِ، وَيُثْبِتُه في غيْرِه مِنَ اللُّغَةِ العرَبِيَّة، يقُولُ: لأَنَّهُ ليْسَ في القُرآنِ شيْءٌ يصِحُّ نفْيُه، وأبْرزُ علاماتِ المَجازِ أنَّه يصِحُّ نفْيُه، ولكنَّ الصّوابَ مَا اختَارهُ شيْخُ الإسْلام ابْنُ تيْمِيةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه لا مجازَ لَا في القُرآنِ ولَا فِي اللُّغَة العرَبِيَّة؛ لأَنَّنا نقُول: إنَّ الَّذي يُعَيِّنُ المَعْنى هُو السِّياقُ، وعلَيْه فَإذا تعيَّن معْنَى الكلِمَةِ فهُو حقِيقَتُها فِي كُلِّ سِيَاقٍ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المَذْكُورِ]؛ المُشارُ إلَيْهم كُلُّ مَا سبَق ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ هَذِهِ ثلاثَةٌ، هَذا المذْكُور فِيه آيَاتٌ لقَوْمٍ يعْقِلُون.

يقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتَدَبَّرُون]، وهُنَا قَال: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أيْ لِذَوي عقْلٍ، والعَقْلُ ينْقَسِم إلَى قِسْمَيْنِ: عقلِ إدْراكٍ، وعقْلِ رَشَدٍ.

عقْلُ الإدْراكِ الَّذي هُو مناطُ التّكْليفِ، الَّذِي يقُولُ فِيه العلَماءُ: يُشْتَرطُ لوُجوبِ الصَّلاةِ أنْ يَكُونَ عاقلًا، فهَذا نُسمِّيه عقْلَ إدْرَاكٍ؛ لأَنَّ الإنْسانَ بِه يُدْرِكُ الأُمورَ، فيُمَيِّز بَيْن النّافِعِ والضَّارِ وغَيْرِه.

العَقْل الثّاني: عقْلُ الرّشَدِ الَّذي هو مناطُ الثّناءِ والمَدْحِ، وعقْلُ الرّشَد هُو الَّذي يُوجَدُ فِي القرْآنِ كَثيرًا، مثلًا نفَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العَقْل عَن الكُفَّار معَ أنَّهم أذْكِياءُ عنْدَهُم عقْلُ إدْرَاكٍ، لكِنَّهم ليْسَ عنْدَهم عقْلُ رَشَدٍ يتصَرَّفُونَ فِيه تصرُّف العَاقِل.

وسُمِّي العقْلُ عقْلًا لأَنَّهُ يعْقِلُ صاحِبَهُ عمَّا يضُرُّه، وَهَذا هُو الَّذي جعَله يُسمَّى عقْلًا، أو يُسمَّى حِجْرًا ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر:٥]، لأَنَّهُ يَحْجر صاحِبَه ويحْجِزُه عمَّا لا ينْبَغِي.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أَتَى بالعَقْل هُنا إشَارَةً لما سيُذْكَرُ فِيما بعْدُ؛ لأَنَّ الآيَاتِ -كَما نُشاهِدُ- كلُّها في تقْريرِ إعَادَةِ المَوْتَى، وانتِقالِ العقْل مِن هَذِهِ الأشْيَاءِ المحسُوسَةِ إِلَى أشياءَ منْظُورةٍ موعُودَةٍ، إنَّما يكُونُ عَنْ طَرِيقِ العَقْل؛ وَلِهَذا قَال هُنَا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ البَرْق مِن آيَاتِ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: أنَّ البَرْق يشْتَمِلُ عَلَى الخَوْفِ وَالرَّجاءِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، والصَّحِيحُ أنَّها ليْسَتْ موزَّعَةً كَما ذَهب إِلَيْهِ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بَلْ هِي صِفَةٌ مجْتَمِعَةٌ.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: عظِيمُ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بإنْزالِ المَاءِ مِنَ السَّماءِ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: رحْمَتُه بالخَلْق حيْثُ كانَ إنْزالُ هَذا المَطَر مِنَ السَّماءِ، هَذا واحِدٌ، وحيْثُ كانَ ينْزِلُ شيْئًا فشَيْئًا؛ لأَنَّهُ لَو كَان يَنْزِل دُفعةً واحِدةً لأهْلَك النَّاسَ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: بَيانُ قُدْرَةِ الله تَعالَى؛ حيْثُ يُحْيِي الأرْضَ بعْدَ موتِها، تَجِدُ الأرْضَ يابِسَةً ليْسَ فِيها عُودٌ أخْضَرُ، ثمَّ بعْدَ نُزولِ المَطَرِ تصْبِحُ مخْضَرَّةً تهتَزُّ.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: رحمَتُـه بالخلْقِ أيْضًا؛ فإنَّ إحْـياءَ الأرْضِ نافِـعٌ لِلإنْسَانِ والحيَوانِ.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّه لَا ينْتَفِعُ بالآيَاتِ إلَّا ذَوُو العُقولِ؛ تُؤخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: استِعْمالُ العَقْلِ فِي القِيَاسِ: في قِيَاسِ الأشْيَاءِ المتشَابِهَةِ، والنّظيرِ عَلَى نَظِيرِهِ.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أنَّ القِياسَ مِن الأدِلَّةِ العقْلِيَّةِ، وإنْ كَان ثابِتًا بالشَّرْعِ لكِنَّ طرِيقَهُ هُو العَقْل؛ لأَنَّ العَقْل يهْتَدِي بِهَذا عَلَى هَذا، وينْتَقِلُ مِن هَذا إلَى هَذَا.

الآيــة (٢٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الرّوم:٢٥].

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ﴾ نقولُ فِيها كُما قُلْنا فِيما سبَق: أيْ مِن آيَاتِه قِيامُ السَّمواتِ والأرْضِ بأَمْرِه.

وقوْلهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بِإِرَادَتِه مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ]: أفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ المُرادَ بالأمْرِ هُنا هو الأَمْر الكَوْنِيُّ؛ لأنَّهُ قَالَ: [بإرَادَتِه]، وإنْ كانَ في تفْسِير الأمْرِ بالإِرادَةِ شيْءٌ مِنَ الشّكِّ إذْ إنَّني أخْشَى أنَّه فسَّر الأَمْر بالإِرَادةِ فِرارًا مِنْ إثْبَات الكلامِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّ الأَمْرَ ولَوْ كانَ كوْنِيًّا يَكُونُ بالكلامِ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فأخْشَى أنَّ المُفَسِّر -غفَر الله له- أرادَ بتَفْسِير الأَمْرِ بالإِرادَةِ الفرارَ مِن إثْبَاتِ الكَلامِ، ومعرُوفٌ أنَّ الأشاعِرةَ لا يُثبِتونَ الكلامَ بالحرْفِ والصَّوتِ، وإنما يُثبِتونَ الكلَامَ عَلَى أنَّه المَعْنى القائِمَ بالنَّفْسِ، أمَّا الحرفُ المكتوبُ والصَّوتُ المسْموعُ يقُولونَ أنَّه عِبارَةٌ عَنْ كَلامِ الله، وَليْس هُو كلامَ الله.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَن تَقُومَ﴾: فسَّره رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقَوْلِه: [مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ]، وَهَذا يدُلُّ عَلَى أنَّه ذَهب إِلَى أنَّ المُرادَ بالقِيَامِ هُنا القِيامُ الحسِّيُّ، يعْنِي أنْ تَبْقَى غيْرَ واقِعَةٍ عَلَى

الأرْضِ، بَل هِي مُمْسَكَةٌ بأمْرِ الله عَزَّوَجَلَّ بِغَيْر عَمَدٍ، وهَذا تفْسِيرٌ قاصِرٌ، والصّوابُ أنَّ قِيام السّموَاتِ وَالأرْضِ أعمُّ مِن كوْنِه قِيامًا حِسيًّا أو قِيامًا معنَوِيًّا، بمَعْنى أنَّه يشْمَل القِيامَ الحِسِّي والقيامَ المَعنويَّ، فالسَّمواتُ قائِمةٌ بأمْر الله قِيامًا حِسِّيًّا بِما فِيها من الانْتِظام فِيما خَلق الله عَزَّوَجَلَّ مِن الأَجرام، وبِما فِيها مِن الأفْلاك المتضَمِّنة الشّمسَ والقَمرَ والنُّجومَ وغيْرَ ذَلِك، وكَذَلِكَ الأرْضُ قَائِمةٌ قِيامًا حِسِّيًّا بما أوْدَع الله تَعالَى فِيها مِنْ مصالِحِ الخَلْقِ مِنْ أشجارٍ وَنباتٍ وأنْهارٍ وبحارٍ وغَيْر ذَلِك، هَذا قيامٌ حِسِّيٌّ، ويُوجَد أيْضًا قِيامٌ معنَوِيٌّ وهُوَ قِيامُ هَذِهِ بطَاعَةِ الله، فإنَّ المعَاصِيَ إفْسَادٌ في الأرْضِ، كَما قَال الله تَعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، فالسَّمواتُ أيْضًا والأرْضُ تَقُومُ بأَمْرِ الله الشَّرعِيِّ كَما تقُومُ بأَمْرِه الكَوْنِيِّ، ولَا قِيامَ للأَرْض ولَا لِلسَّمواتِ إلَّا بالتِزامِ أمْرِ الله الشّرعيِّ، فتَصلُحُ وتبْقَى بطَاعَةِ الله، فحِينَئِذٍ نُفسِّرُ القيامَ بأنَّه القيامُ الحسِّيُّ والقيامُ المعنوِيُّ، فالآيَة شامِلَةٌ للمَعْنَيينْ، وعَلى هَذا يكُونُ المُرادُ بالأَمْرِ الأمرَ الكوْنِيَّ والأَمْر الشّرعِيَّ.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾: أَتى بِـ(ثُمَّ) بعْدَ ذِكر قِيامِ السَّمواتِ والأَرْضِ؛ لأَنَّ البعْثَ متأَخِّرٌ لا يَكُونُ إلا بعْدَ قِيامِ السّاعَةِ، يقُولُ: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾، الفاعِلُ هُو الله عَزَّوَجَلَّ ﴿دَعْوَةً﴾ أيْ واحِدَةً ﴿مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

قوْله تَعالَى: ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾، يقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِأَنْ ينفُخَ إسْرَافِيلُ فِي الصُّورِ، فَيُبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ، ﴿إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ مِنْهَا أحْيَاءً، فَخُرُوجُكُمْ مِنْهَا بِدَعْوَةٍ مِنْ آيَاتِهِ تَعالَى].

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾، قوْله تَعالَى: ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾،

هَل تتعَلَّقُ بِـ﴿ تَخْرُجُونَ ﴾، يعْنِي إذَا دعاكُم دعْـوَةً تخْرُجـونَ مِن الأرْضِ، أو متعَلِّقٌ بِـ(دعا)؟ نقُول هُو متعلِّقٌ بـ(دَعا) إذا دعَاكُم دعْـوةً مِن الأَرْضِ، ولَيْس متعلِّقًا بـ﴿ تَخْرُجُونَ ﴾؛ لأنَّهُ لا يتعَلَّقُ مَا قبْلَ (إذا) الفُجائِيَّةِ بما بعْدَها.

قوْله تَعالَى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾: ﴿إِذَا﴾ شرْطِيَّةٌ، وقوْلُه تَعالَى: ﴿إِذَآ أَنتُمْ﴾: ﴿إِذَآ﴾ فُجائِيَّةٌ، فهِي نائِبَةٌ منَابَ الفاءِ الوَاقِعَةِ فِي جَوابِ الشَّرْط.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: يعْنِي دعَاكُم منْهَا.

وهَلْ دَعوَةُ الله تكُونُ مِن الأرْضِ أمِ المرادُ أنَّكُم أنْتُم فِي الأرْضِ؟

الجوابُ: المُرادَ (إذا دَعاكُم مِن الأرْضِ)، مثْلَما تقُولُ دعَوْتُه مِن بيْتِه، فليْسَ المُراد: (أنِّي في البَيْتِ)، لكنَّه هُو في البَيْت فدَعَوْتُه منْه ليحْضُر، وهذِه الآيَةُ كقوْله تَعالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النّازعات:١٣-١٤]، يعْنِي عَلَى وجْهِ الأرْضِ.

قوْله تَعالَى: ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾: هَذا مِنْ آيَاتِ الله أيْضًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ قيامَ السَّمـواتِ والأرْضِ بأمْرِ الله ليْسَ للمَخْلُوقِيـن فِيه تعلُّقٌ إطْلاقًا، فاللهُ تَعالَى هُو الَّذي يُقِيم السَّمـواتِ والأرْضَ، سواءٌ القيامُ الحسِّيُّ أو المعنَوِيُّ.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: إثْبَاتُ الكلامِ لله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [بإرادَتِه]، وتقدَّم التَّنبيهُ عَلَى هَذَا، وأنَّ المُرادَ بقوْلِه تَعالَى: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ الكلامُ، فالأمْرُ الكلَامُ.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: تمامُ قدْرَة الله تَعالَى ببَعْث المَوْتى بكَلِمَةٍ واحِدَةٍ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، ولاحِظْ أنَّ المسألَةَ ليْسَتْ هِي بخلْقٍ واحِدٍ أوِ اثْنَيْن أوْ ثلاثَةٍ أوْ عشَرَةٍ، بَلْ هِي مَا لا يُحصِيه إلّا الله عَزَّوَجَلَّ، دعْوَةٌ واحِدَةٌ يكُون بِها جميعُ الخلْق خَارجِينَ، وهَذا لا شَكَّ أنَّ فِيه ما هُو مِنْ أبْلَغِ القدَرِ، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى كُلِّ شيْءٍ قدِيرٌ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ مقرَّ بَني آدَم الأرْضُ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، ويُؤَيِّدُ ذَلِك قوْلُه تَعالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥]، فالمَعْمُولُ فِي هَذِهِ الآيَةِ مُقَدَّمٌ (فِيها) و(مِنْها) وتقْدِيمُ المعمولِ يدُلُّ عَلَى الحصْرِ مِن هَذا الشّيْءِ لَا مِن غَيْرِه إِذَنْ، فالحيَاةُ عَلَى الكَوَاكِب متعذِّرَةٌ بالنِّسبة لبَنِي آدَم، فظَاهِرُ الآيَاتِ أنَّ بَني آدَم خُلِقوا مِن الأرْضِ ويَرْجِعونَ إِلَى الأرْضِ ويُدْعَوْن يَوْم القيامَةِ مِنَ الأرْضِ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: إثْبَاتُ الكلامِ للهِ في قوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

الآيـة (٢٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [الرّوم:٢٦].

قوْله تَعالَى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾: الضَّمِيرُ في قولِه: (لَه) يَعودُ عَلَى الله، وهُو خبرٌ مقدَّمٌ، وتقْدِيمُ الخبَر -كَما هُو معْروفٌ في عِلْمِ البَلاغةِ- يُفيدُ الحَصْرَ، يعْنِي: فاللهُ وحْدَه لَه مَنْ في السَّموَاتِ وَالأرْضِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بمحْذُوفٍ تقْدِيرُه: (استقرَّ)؛ لأَنَّ الجارَّ والمجْرورَ الواقِعَ صِلةً للمَوْصولِ يُقَدَّرُ بفِعْلٍ، بخِلَافِ الواقِع خبرًا لمبتَدَأٍ، فإِنَّهُ يُقدَّر باسْمٍ، ولْيُنْتَبَهْ للْفَرْق بَيْنَهُما، الجارُّ والمجْرورُ أوِ الظّرفُ إذا وقَع صِلَةً لموْصُولٍ فَقَدِّرْ متعلِّقَه فعلًا؛ لأَنَّ الأصْلَ في صِلَةِ المَوْصولِ أنْ يكُونَ جُمْلَةً، لكِنْ إذا وقَع الجارُّ والمجْرُورُ أوِ الظَّرْفُ خبرًا لمبْتَدَأٍ فقَدِّرْه باسْمٍ؛ لأَنَّ الأصْلَ فِي الخَبَرِ أنْ يكُونَ مفْرَدًا لا جُمْلَةً، تقولُ: (زَيدٌ في البَيْتِ) فقدِّرْه (كَائِنٌ في البَيْتِ)؛ لأجْل أنْ يكُونَ (زَيْدٌ) مبتدَأً، و(كَائِنٌ) خَبرٌ، لكِنْ لوْ قُلْتَ: (زَيْدٌ فِي البَيْتِ) أيْ زيْدٌ استقَرَّ في البَيْتِ، صَار الخبَرُ جملَةً والأصْلُ فِي الخبَرِ أنْ يكُونَ مُفرَدًا، أمَّا إذا قُلْت: (يُعْجِبُني الَّذِي فِي المَسْجِد)، لا تقُلِ: (الَّذي كائِنٌ في المسْجِد)؛ لأنَّك إذَا قدَّرْت (الَّذِي كائِنٌ في المسْجِد) لَزِم أن تُقَدِّر مبتدَأً أيْضًا، أيْ: (الَّذي هُو كَائِنٌ فِي المسْجِد)؛ لأَنَّ صلَةَ المُوْصولِ لَا بُدَّ

أنْ تكُونَ جمْلَةً، بخِلافِ خَبَرِ المُبْتَدأ، فإِنَّهُ يكُونُ مُفْردًا.

إذَنْ: عنْدَما نُقدِّر المتعلِّقَ للجَارِّ والمَجْرورِ الوَاقِعِ صلَةً نُقدِّرُه فِعْلًا؛ ليَكُون ذَلِك جمْلَةً، وعنْدَما نُقدِّر متعلِّقَ الجارِّ والمجْرورِ أو الظّرفِ بالمُبتدَأِ نُقدِّرُه اسمًا.

قوْله تَعالَى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾: أيْ مَنِ استقرَّ في السّموَاتِ وَالأرْضِ، مَن فِي السّمواتِ مِنَ الملائِكةِ، ومَن في الأرْض مِنَ البَشرِ والحيَوانِ، وهُنا قَال: ﴿مَن﴾ تغْلِيبًا للعاقِلِ، وَإِلَّا فإِنَّ الأرْضَ فِيها العاقِلُ وغيرُ العاقِل.

قوْله تَعالَى: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُلْكًا وخَلْقًا وعَبِيدًا].

كَان الأَوْلى أنْ يُقَدِّم الخَلْق ثمَّ المُلْك ثمَّ العَبِيدَ، فلَهُ مَن فِي السَّمواتِ هُو الَّذي يمْلِكُهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهُوَ الَّذي خلَقَهم، وهُوَ رَبُّهم وهُم عَبِيدُه، فلَهُ مَن فِي السَّمواتِ وَالأرْضِ وَلا أحدَ يُعارِضُ في ذَلِك، كُلُّ مَن فِي السَّموَاتِ وَالأرْضِ كَما قالَ الله تَعالَى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم:٩٣].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ مُطِيعُونَ]، ﴿كُلٌّ﴾ مبتَدَأٌ، و﴿قَٰنِتُونَ﴾ خَبَرُه، والجارُّ والمجْرورُ ﴿لَّهُۥ﴾ متعلِّقٌ بِـ﴿قَٰنِتُونَ﴾، لكِنَّهُ قُدِّم علَيْه للاخْتِصاصِ والحَصْر.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿كُلٌّ﴾ التَّنْوِينُ عِوَضٌ عن مفرَدٍ، وكلَّما جاءَتْ ﴿كُلٌّ﴾ أوْ (بعْضُ) منوَّنَةً فإِنَّها عوَضٌ عْن مُفْرَدٍ، والتّقْدِيرُ: كُلُّ مَنْ فِي السَّموَاتِ وَالأرْضِ.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾، يقُولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُطِيعُون]، والطَّاعة هُنا طاعَةٌ وخُضوعٌ للأَمْرِ الكَوْنيِّ، وهَذا شامِلٌ للمُؤْمِن وغَيْرِ المُؤْمِن، والثّاني طاعَةٌ

وقُنوتٌ للأَمْر الشّرْعِيِّ، وهَذا خاصٌّ بالمُؤْمِن وعَلى هَذا يكونُ المرادُ بالقُنوتِ هُنا الكونيَّ، لأَنَّهُ قالَ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ﴾، ولَا يُتصوَّرُ هَذا إلا فِي الكوْنِيِّ، فالكُلُّ خاضِعٌ لأمْرِ الله، قانِتٌ باعْتِبَارِ أمْرِه الكوْنِيِّ، إذا أرَاد شيْئًا عَلَى مَن فِي السَّمواتِ وَالأرْضِ قَال لَهُ: (كُنْ) فيَكُونُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: عُمُـومُ مُلْكِ الله؛ يُؤْخَذُ العُمُـوم مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأَنَّ (مَنْ) اسْم موصُول، والمَوصولاتُ كلُّها تُفِيدُ العُمُومَ.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: انْفِرادُ الله عَزَّوَجَلَّ بالمُلْك، واخْتِصاصُهُ بِه؛ يُؤخَذُ مِن تقْدِيم الخبَرِ، ﴿وَلَهُۥ مَن فِي﴾، يَعْني لَا لِغَيْرِه، وَهُنا يَرِد علينا إشْكَالٌ في قوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، هَذا العُمُوم نجِدُ أنَّ بَني آدَم يمْلِكُونَ أشْيَاءَ مِن هَذا، فمَـا الجوَابُ عَنْ ذَلِك؟

الجوابُ عَن هَذا: أنَّ مُلْك بَني آدَم مُلْكٌ مقيَّدٌ بتمْلِيكِ مَنْ لَه المُلْكُ؛ ولِذَلك أنْتَ لا تسْتَطِيعُ أن تتصَرَّفَ بمالِكَ كَما تشَاءُ، فأنْتَ لا تَمْلِكُ أن تُحْرِقَ مَالَك، ولا أنْ تُتْلِفَه، صحيحٌ أنَّك تمْلِكُه بالنِّسبةِ لغَيْرِك مِن الآدَمِيّينَ، فَلا يقْدِرونَ أنْ يَمْنَعُوك، لكِن بالنِّسبَةِ للخالِق الَّذي لَهُ المُلك يمْنَعُك مِن هَذا، فصَار مُلْكُنا لما نَمْلِكُ لَيْس مُلكًا تَامًّا، دَلِيلُه أوْ وَجْهُه أنَّنا لَا نسْتَطِيعُ ولَا نمْلِكُ أنْ نتصَرَّف فِيما بَيْن أيْدِينا كَما نَشاءُ.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: خُضـوعُ الكائِنَاتِ لرَبِّها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾، وأنَّ جَمِيعَ الكَائناتِ خاضِعَةٌ لله.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ القُنُوتَ لَا يخْتَصُّ بالقُنوتِ الشَّرعيِّ، وَأكْثَرُ النَّاس يظُنُّون أنَّ القُنوتَ يخْتَصُّ بالقُنوتِ الشَّرعِيِّ، ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، هَذا قُنوتٌ شرْعِيٌّ لا شَكَّ، ولكِنَّ هذَه الآيَةَ ومَا أشْبَهها تدُلُّ عَلَى أنَّ القُنوتَ هُو الخُضوعُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، سواءٌ كَان ذَلِك خُضوعًا شَرعيًّا أمْ كونيًّا.

• • ۞ • •

الآيـة (٢٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الرّوم:٢٧].

قالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ للنّاسِ ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ، ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ مِنَ البَدْءِ].

قوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾: أيْ يبْتَدِئُه، وأَتى بكَلِمَةِ ﴿يَبْدَؤُا۟﴾ لأَنَّ الخلْقَ مستَمِرٌّ، كلُّ يوْمٍ يكُونُ فِيه ابْتِداءُ خلْقٍ، الأجِنَّةُ فِي بُطونِ الأمَّهاتِ تنْشَأُ كلَّ يوْمٍ، وكَم في الدُّنيا فِي اليَوْم الواحِدِ مِن جَنينٍ يُكَوَّنُ؟ كَثيرًا جِدًّا وَلِهَذا أَتى بالفِعْلِ المُضارِعِ الدَّالِّ عَلَى الاسْتِمرارِ ولَمْ يقُلْ (بَدَأَ).

وقوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: يَعْنـي ثمَّ هُو -أيْ الله عَزَّوَجَلَّ- يُعِيدُه، ومَعْنـى الإِعادَةِ ردُّه عَلَى مَا كانَ أوَّلًا، كَما فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، وأَخْبَرَ النّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّ النّاس يُحشَرُون يَوْم القِيامَةِ حُفاةً عُراةً غُرْلًا كَما بُدِئُوا[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، رقم (٣٣٤٩)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٦٠).

قوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ﴾: الضَّميرُ يعودُ عَلَى الإعادَةِ المفُهومَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يُعِيدُهُۥ﴾، فمَرْجِعُ الضَّميرِ إِذَنْ المَصدَرُ المَفْهومُ مِن الفِعْل، وَمرْجِعُ الضَّميرِ قَدْ لا يُذْكَرُ بلفْظِه، ولكِنْ يُذْكَرُ مَا يدُلُّ عليْه، انظُرْ إِلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، ومرْجِعُ الضَّمير في قوْلِه تَعالَى: ﴿هُوَ﴾ العدْلُ المفْهومُ مِن كلِمَةِ ﴿ٱعْدِلُواْ﴾.

إِذَنْ: قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ﴾، أي الإعادَةُ، والإعادَةُ مصْدَرٌ، فَصَحَّ أن يعُودَ الضَّمِيرُ عليْها مُذَكَّرًا.

قوْله تَعالَى: ﴿أَهْوَنُ﴾: اسْمُ تفْضيلٍ مِنْ (هَانَ يَهُونُ)، واسْمُ التَّفضيلِ يدُلُّ عَلَى أنَّ الهَوْنَ دَرجاتٌ، هَيِّنٌ وأَهْوَنُ، ودَرجاتُ الهَوْنِ قَد تُوحِي بأنَّ هُناك مشقَّةً لأنَّهُ لَوْلا أنَّ فِي بعْضِها مشَقَّةً مَا صارَ بعضُها أهْوَنَ مِن بعْضٍ؛ ولِذَلِكَ اخْتلَف المُفسِّرُون فِي اسْمِ التّفضِيل هُنا، ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ﴾، فَقِيل أنَّه بِمَعْنى هَيِّن، ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أيْ وهُو هَيِّنٌ عليْه، وقالَ بعْضُ المُفسِّرينَ مَا ذَهَب إِلَيْهِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهُو أنَّه أهْوَنُ عليْه مِن البَدْء بالنّظر إِلَى ما عِنْدَ المُخاطَبِينَ مِن أنَّ إعادَةَ الشّيْءِ أسْهَلُ مِن ابتدَائِه وإلَّا فهُمَا عنْدَ الله تَعالَى سوَاءٌ فِي السُّهولَةِ.

وهلْ قولُه: ﴿أَهْوَنُ﴾ عَلَى بابِها؟

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشَى عَلَى أنَّها عَلَى بابِها، لكِنَّها باعْتِبَارِ المُخاطَبِين؛ لأَنَّ المُخاطَب يعْرِف أنَّ إعادَةَ الشّيْءِ أهْوَنُ مِنَ ابْتِدَائِه، وسبَبُ ذَلِك أن إعادَتَهُ لا تَحْتَاجُ إِلَى تفْكِيرٍ جَديدٍ؛ لأَنَّهُ قَد سبَق فِيها التّفْكِيرُ، ثانيًا: لأَنَّ موادَّ التّكْوينِ موْجُودةٌ، افرِضْ مثَلًا أَنّني صنَعْتُ سيارةً، فعنْدما أُرِيدُ صُنْعها أوَّلًا تحتاجُ إِلَى تفْكِيرٍ وموادَّ، فإِذَا أَرَدْتُ أنْ أُعِيدَها مرَّةً ثانِيَةً مثْلَ أنْ تكُونَ قدْ تفَكَّكتْ هَذِهِ السّيارةُ، وَأَرَدْتُ أنْ أُعيدَها فستكونُ الإعادَةُ أهْونَ؛ لأَنَّ التَّفكِيرَ قَدْ فرَغْتُ منِه، والموادُّ موجُودةٌ مُحضَّرةٌ فتكُونُ الإعادَةُ

أهوَنَ باعْتِبارِ المُخاطَبِ، أمَّا بالنِّسبَةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ فَلا نَقُولُ: إنَّ فِي حقِّه مَا هُو أهْوَنُ، ومَا هُو هيِّنٌ، بَلِ الكلُّ عنْدَ الله تَعالَى هيِّنٌ سهْلٌ.

وقالَ بعْضُ المُفسِّرينَ: إنَّ (أهْون) بمَعْنى هَيِّن، فَعلى هَذا يكُونُ الهَوْن بالنِّسبَةِ إلَى الله عَزَّوَجَلَّ، لَا بالنِّسبَةِ لما عنْدَنا نَحْن، وَفِي الحدِيثِ عَنِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ الله تَعالَى قالَ: «كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ»[1]، فهُو مفُسِّرٌ للآيَة، فهُو يُفَسِّر أنَّ كُلَّ ذَلِك هيِّنٌ علَيْه، ولكِنْ لا شَكَّ أنَّ الإعادَةَ أهْوَنُ باعْتِبارِ المَفْهومِ عنْدَ المُخاطَبِينَ، فَما مشَى علَيْه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هُنا جيِّدٌ.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أيْ الصِّفَةُ العُلْيَا وَهِي أنَّه لَا إلَه إلَّا الله]: (له) خَبَرٌ مقدَّمٌ، و(المَثَلُ) مُبتَدأٌ مؤخَّرٌ، والمَثَل والمِثْل معناهُما واحِدٌ، ويُطْلَق عَلَى عدَّةِ معانٍ:

فيُطْلَقُ عَلَى الشَّبه؛ كقوْلِه تَعالَى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٧]، يعْنِي شَبَهُهم كشَبَه الَّذي اسْتوْقَد نَارًا.

ويُطْلق المَثَل عَلَى الصِّفة؛ كقوْلِه تَعالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد:١٥].

ويُطلَقُ المَثَل عَلَى الذّاتِ؛ قالُوا كقوْلِه تَعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشّورى:١١]، يعْنِي ليْسَ كذَاتِه، وقالُوا مِنْه قولُ الشَّاعِرِ[2]:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب يقال: لا ينون (أحد) أي واحد، رقم (٤٩٧٤).

(٢) البيت في البحر المحيط (٧/ ٤٨٨)، والدر المصون (٩/ ٥٤٥) منسوبًا لأوس بن حجر، لكن لم أقف على البيت في ديوانه المطبوع.

لَيْـسَ كَمِثْـلِ الفَـتَـى زُهَـيْرِ .....

والمُرادُ هُنا بالمَثَل فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الصِّفةُ، أيْ لَهُ الصِّفةُ العُلْيا فِي السَّموَاتِ وَالأرْضِ، كُلُّ صِفَةٍ كَاملَةٍ فلِله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أكمَلُها، وكُلُّ صفَةِ نقْصٍ فإِنَّهُ مُنَزَّهٌ عنْهَا؛ لأَنَّهُ مَا دَام قَد ثَبَت لَهُ الصِّفَةُ الكَامِلَةُ العُلْيا، فإِنَّهُ بالضَّرُورةِ العَقْلِيَّةِ ينْتَفِي عنْهُ النَّقْص؛ لأَنَّهُ لَو اتَّصَف بنَقْصٍ ما اسْتَحقَّ أنْ يَكُونَ لَهُ المَثَلُ الأَعْلى.

إِذَنْ: هَذِهِ الآيَةُ الكَريمَةُ تدُلُّ عَلَى صِفَاتِ الكَمال للهِ عَزَّوَجَلَّ، الكَمالُ المُطْلَقُ؛ لأَنَّهُ قَال: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وعَلى انْتِفاء النَّقْص مِن جَمِيع الوُجوهِ إِذْ أنَّه لوِ اتَّصفَ بنَقْصٍ مَا اسْتحَقَّ أنْ يكُونَ لَه المَثَلُ الأَعْلى، ونَأْخُذُ مِن هَذا أنَّ كُلَّ مَا وَصَفَ الله بِه نفسَهُ فهُو صفَةُ كَمالٍ، وَلَيْس فِيه نقْصٌ، وكُلُّ كَمالٍ فإِنَّ الله تَعالَى مستَحِقٌّ لَه، فهَذان شيْئَانِ:

الأولُ: أنْ نَعْلم عِلْمَ اليَقِينِ أنَّ كُلَّ مَا وَصَفَ الله بِه نفسَهُ فهُوَ صِفةُ كَمالٍ.

الثَّاني: أنْ نَعْلم أنَّ كُلَّ صِفَةِ كَمالٍ فاللهُ تَعالَى مستَحِقٌّ لَها، فَهُو أهْلٌ لَها، كَما قَالَ الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ**»[1]، وسيَأْتِي -إنْ شاءَ الله- فِي الفوائِد مَا يُسْتَدلُّ بِه عَلَى الرّدِّ عَلَى الَّذِين يُنكِرونَ صِفاتِ الله بحُجَّةِ أنَّها تسْتَلْزِمُ النَّقصَ وهُو التَّشبِيهُ.

وقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: معْنى المَثل الأَعْلى فِي السَّموَاتِ وَالأرْضِ يعْنِي عنْدَ أهْلِ السَّموات مَن المَلائِكَةِ، وعِنْدَ أهْلِ الأرْضِ، فكُلُّ الفِطَر السَّليمة تعْتَرِفُ بأنَّ المَثل الأعْلَى والصِّفةَ العُليا للهِ وحْدَه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام، رقم (٤٧١).

وأمَّا قولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَهِيَ أَنَّه لَا إِلَهَ إِلَّا الله]، فهَذا فرْدٌ مِن أفْرادِ المَثَل الأعْلَى، وليْسَ هُو المَثل الأَعْلى كُلَّه، فإِنَّ لَا إِلَه إِلَّا الله تدُلُّ عَلَى تفـرُّدِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالأُلوهِيَّةِ، وَهَذا مِن المَثَلِ الأَعْلى، لكِنَّ المَثَلَ الأَعْلى أعَمُّ مِن ذَلِك، فلَهُ مثلًا القُدْرَةُ الكامِلَةُ والعِلْم الكامِلُ والحيَاةُ الكاملَةُ والسَّمْعُ الكامِلُ والبَصر الكامِلُ والحكْمَةُ البالِغةُ، وَهكَذا فَهِي أعَمُّ مِن تفرُّدِه بالأُلوهِيَّةِ.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فِي خَلْقِه]: تفْسِيرُه هَذَا فِيه قُصورٌ، فـ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ يعْنِي: ذُو العِزَّة، وَهِي الغَلبَةُ والقَهْر والقَدْرُ، فلَه عزَّةُ القهْرِ والقَدْرِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والامتناعِ، فالعزة إِذَنْ ثلاثَةُ معَانٍ:

المَعْنى الأوَّلُ: عزَّةُ القَهْرِ، بمَعْنى أنَّه القاهِرُ لكُلِّ شيْءٍ، فلَا يغْلِبُه أحَدٌ، قالَ الله تَعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

المَعْنى الثَّاني: عِزَّةُ القَـدْرِ، ومعْنى عِزَّة القَـدْر أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا نظِيـر لَه، ولَا شبَه له؛ لكمَال قدْرِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعظَمَتِه، ومنْهُ قوْلُهم: (هَذا الشَّيْءُ عزِيزٌ)، أيْ نادِرُ الوُجودِ لَا نظِيرَ لَهُ.

المَعْنى الثَّالث: عِزَّةُ الامتِناعِ، بمَعْنى أنَّه يمتَنِع علَيْه النَّقْص لِكمَالِ قُوَّتِه، ومنْهُ قوْلُهم: هَذِهِ الأرْضَ عزازٌ[1]، يعْنِى شَديـدَةٌ قويَّةٌ لا يُمْكِنُ أنْ ينْفـذَ إليها شيْءٌ، والأرْضُ الرَّخوَةُ بالعَكْس، كُلُّ شيْءٍ يؤَثِّرُ فِيها حتَّى الرَّجُل إِذا مشَى علَيْها يُؤثِّرُ، بخلَافِ الأَرْض الصّلْبة التي تُسمَّى العزَاز.

فصارَتِ العزَّةُ الآن عزَّة القدْرِ وعِزَّةَ القهْرِ وعِزَّةَ الامتَناع.

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس (١٥/ ٢٢٢)، و لسان العرب (٥/ ٣٧٤).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوْلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم:٢٠]، مِن أَيِّ المَعاني؟

قُلْنَا: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ أيْ بمُمْتنِعٍ، فهُو مِن عِزَّةِ الامْتِنَاعِ.

وأمَّا قولُه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فالمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: هو [الحَكِيمُ فِي خَلْقِهِ] وأحيانًا يقُول: (في صُنْعِه)، ومعْنَاهُما واحِدٌ، لكِنَّ هَذا قاصِرٌ أيْضًا؛ لأَنَّ الحكِيمَ مشْتَقٌّ مِن الحُكْم والحِكْمة، فعَلى قولِنا أنَّه مُشتَقٌّ مِن الحُكم يَكُون (حَكِيمٌ) بمَعْنى حَاكِم، مثْلُ رَحِيمٍ بمَعْنى رَاحِم، وَعَلَى قوْلِنا أنَّه مِن الحكْمَة يكُونُ (حَكِيمٌ) بمَعْنى مُتْقِن، فَهُو مِن أَحْكَمَ يُحْكِمُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: وهل يَأْتِي (فَعيل) بمعنى (مُفْعِل) في اللُّغَة العربية؟

فالجوابُ: نَعم، وَمِنْه قوْلُه تَعالَى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٠]، بمعْنى (مُؤْلِم)، ومِنْه قولُ الشّاعر[1]:

أَمِـنْ رَيْحَـانَة الدَّاعِـي السَّـمِـيعُ ... يُؤَرِّقُـنِي وَأَصْـحَـابِي هُـجُـوعُ

السَّميعُ أي: المُسْمِع؛ لأَنَّ الدّاعِي يُسْمِعُ غيرَه، ولَيْس هُو نفسُه سَمِيعًا.

إِذَنْ: نقُولُ: (حِكيم) مأخُوذَةٌ مِن الحُكم والحِكْمة، فعَلى أنَّه مأخُوذٌ مِن الحُكْم يكُونُ بمَعْنى (حَاكِم) مثْلُ (رَحيم) بمَعْنى (رَاحم)، و(سَمِيع) بمَعْنى (سَامِع)، وإِذا قُلنا أنَّها مِن الحكْمَة فَهُو مِن أحْكَمَ فَهُو حَكِيمٌ، بمَعنى مُحْكِم، أيْ اسمُ فاعِلٍ مِنَ الرُّباعِيِّ.

---

(١) البيت لعمرِو بنِ معدِ يكربَ الزبيديِّ في مطلعِ عَيْنِيَّتِهِ المشهورةِ، في الأصمعيات (ص:١٧٢)، الشعر والشعراء لابن قتيبة (ص:٢٤٠)، شرح الكافية الشافية لابن مالك (٢/ ١٠٣٤).

وحُكْمُ الله عَزَّوَجَلَّ ينقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: كَوْنِيٍّ وشَرْعِيٍّ، فالكوْنِيُّ نافِذٌ في جَمِيعِ الخلْق شاؤُوا أمْ أَبَوْا، والشَّرعِيُّ نافِذٌ فِيمَن أطَاعَ الله عَزَّوَجَلَّ، أمَّا مَنْ لَم يُطِعْه فإِنَّهُ لا يُنْفِذُ حُكْمُه.

وهَل هُناك أمْثِلَةٌ مِن القُرآنِ تدُلُّ عَلَى هَذا التّقسيمِ مِن أنَّ الحُكْم كوْنِيٌّ وشَرْعِيٌّ؟

الجوابُ: نعم، قالَ أحَدُ إخْوَةِ يُوسُفَ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠]، المُراد بالحُكم هُنا الحكمُ الكَوْنِيُّ القَدَرِيُّ، يَعْنِي: أوْ يُقَدِّرُ الله ذَلِك، أمَّا الحُكْم الشّرعِيُّ فإِنَّ الله لما ذَكر مَا يَجِبُ فِي النِّساءِ المُهاجِراتِ فِي سُورةِ المُمْتَحِنة قَال: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:١٠]، والمُراد بالحُكْم هُنا الحُكْمُ الشّرْعِيُّ؛ لأَنَّ مَا ذُكِرَ مِن الأُمُورِ كُلُّه أمُورٌ شرْعِيَّةٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما تقُولونَ فِي قوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٧٠]، أيُّ الحُكْمَين؟

قُلْنَا: هذَا شَامِلٌ، وَكَذلِكَ قوْلُه تَعالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، الظَّاهِر أنَّه شامِلٌ، وإِنْ كَان فِي الشَّرع فِي هَذِهِ الآيَةِ أظْهَرَ؛ لأَنَّ الله قال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

إِذَن: الحكِيمُ مِن الحُكْم تنْقِسمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: حُكْمٌ شرْعِيٌّ، وحُكْمٌ كوْنِيٌّ، والحُكمُ الكونِيُّ هُو قَضاؤُه وقدَرُه، وكُلُّ أحَدٍ خاضِعٌ لَهُ، والحُكْمُ الشَّرْعِيُّ مَا حَكَمَ بِه شرْعًا، ولا يَخْضَعُ لَهُ كلُّ أحدٍ.

أمَّا إذا قُلنا أنَّه مِن (أحْكَمَ) فحَكِيمٌ مِن الحكْمَة بمَعْنى مُحْكِم، فإِنَّ الحِكْمة تنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْن: حكْمَةٌ غائِيَّةٌ، وحِكْمةٌ صُورِيَّةٌ، يعْنِي صورَةُ الشّيْء كَذا وكَذا،

فكَوْن الشَّيْء عَلَى صُورَةٍ معيَّنَةٍ نَجِد أنَّ جَمِيعَ مَا خلَقَه الله فِي صِفَاتِه كُلُّه عَلَى صِفَةٍ مُوافِقَةٍ للحِكْمة، تدَبَّرِ المخْلوقاتِ تجِدْ أنَّ المخْلوقاتِ في ذَواتِها وحَركاتِها وهَيْئاتِها وصِفاتِها كُلُّها مُوافِقَةٌ للحِكْمة، الحكْمَةُ الغائِيَّةُ هِي الغايَاتُ المحمُودَةُ فِي أفْعَالِه وأحْكامِه الشَّرْعِيَّةِ كُل مَا خَلق الله تَعالَى، فإنَّهُ لغايَةٍ محمُودَةٍ ليْسَ عبثًا ولا سُدىً ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدّخان:٣٨-٣٩]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧]، حتَّى مَا يُقدِّرُه الله مِن الأُمورِ المُؤلِمَةِ فإنَّهُ حكْمَةٌ، فهَزِيمَةُ المُؤْمِنينَ يومَ أُحُدٍ حكْمَةٌ لَا شكَّ، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ [آل عمران:١٦٦-١٦٧]، وقَال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١].

إذَنْ: كُلُّ أفعالِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكْمَةٌ، ولَها غايَةٌ محمُودَةٌ، كَذَلِكَ أيضًا أحْكَامُه الشَّرْعِيَّةُ مثْلُ الأحْكَام الكوْنِيَّةِ، هِي عَلَى وضْعِها عَلَى صِفَةٍ معيَّنَةٍ موافِقَةٍ للحِكْمَةِ، ثمَّ غايَاتُها الحمِيدَةُ التي بِها صَلاحُ القُلوبِ والبِلادِ والعِبَادِ أيْضًا حِكْمَةٌ.

فصَارتِ الحكمَةُ نوْعَين: حكْمَةٌ فِي الشَّيْءِ عَلَى صِفَته المعيَّنَةِ، وحكْمَةٌ فِي غَايَتِه الحمِيدَةِ، ثمَّ إنَّ هَذِهِ الحكْمَةَ تكونُ فِي الشَّرع، وتَكُونُ في القَدَر أي: فِي الكَوْن، إنَّنا إذا عَلِمْنا أنَّ الله تَعالَى حكِيمٌ فإنَّنا نطْمَئِنُّ غايَةَ الاطْمِئْنان لما قَضاه وقدَّرَهُ ولما شَرَعَه وحَكَم بِه، نطْمَئِنُّ أنَّه موافِقٌ للحِكْمَةِ، وحِينَئِذٍ لا يُمْكِنُ أنْ نوُرِد ولَا أنْ يَرِد عَلَى قُلوبِنا: لماذَا جَاء كَذا؟ ومِن أيْن شَرَع كَذا؟ إلا عَلَى سبيل الاسْتِرشَادِ، فالإنسانُ الَّذِي يسْأَلُ عَن الحِكْمَةِ مُسترْشِدًا فَلا بَأْس، أمَّا الَّذِي يسْأَلُ عَن الحِكْمَةِ مُعتَرِضًا فإنَّهُ قَاصِرٌ، ولَم يُقدِّرِ الله حقَّ قدْرِه.

ولنَنْتَبه إِلَى كلِمة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، وَبِهذَا التَّفسيرِ الَّذي فسَّرناهَا بِه يتبيَّنُ أنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قدْ قصَّر فِي تفسِيرِه.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَتانِ الأُولَى والثّانيةُ: أنَّ الخَلْق حادِثٌ بعْدَ أنْ لم يَكُن يُؤْخَذُ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾، فيَكُون فِي الآيَةِ ردٌّ لقولِ الفَلاسِفَةِ القَائِلينَ بقِدَمِ العالَم، والصَّوابُ أنَّ العالَم حادِثٌ بعْدَ أنْ لَم يكُنْ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: إثْبَاتُ إعادَةِ الخلْقِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: استِعْمالُ قياسِ الأَوْلى، وقِياسَ الأَوْلى معرُوفٌ فِي أُصولِ الفِقْه، فالاسْتِدلال بالنَّظيرِ عَلَى نظيرِه يُسمَّى قِياس مساوَاةٍ، والاسْتِدلال عَلَى الشّيْءِ بِما هُو أَوْلى -يَعْني نسْتَدِلُّ عَلَى الشّيء الَّذِي يكُونُ أوْلى مِن المَقِيس علَيْه- هَذا يُسمُّونَه قِياس الأَوْلى، فهُنَا في الآيَةِ استِعْمالُ قياسِ الأَوْلى؛ يُؤْخذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، أيْ إعادَتُه، فإِنَّهُ إذا كَان قادِرًا عَلَى الابْتِداءِ فَهُو عَلَى الإعادَةِ مِن بَابِ أَوْلى عَلَى ما مَشَى علَيْه المُفَسِّر.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: إثْبَاتُ كمالِ الصّفات لله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: الرّدُّ عَلَى أهْلِ التّعطيلِ الَّذِين يُنْكِرُون صِفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإِنَّ الَّذِين يُنْكِرونَ صِفاتِ الله مَا جعلُوا لَهُ المَثَل الأَعْلى، بَلْ جَعلُوه موْصُوفًا بالنّقائِص -والعياذُ باللهِ-، سواء كَان هَذا التّعْطِيلُ كُليًّا أو جُزئيًّا؛ لأَنَّهُ إنْ كانَ كُلِّيًّا كَما فَعل

الجهْمِيَّةُ وسلَبُوه جَمِيعَ الصِّفاتِ، وَكَذلِكَ المعتزلِةُ قَالُوا: لَه أسْمَاءٌ بِدونِ صِفاتٍ، فظَاهِرٌ أنَّهم سلَبُوا الكَمال عَنِ الله، أمَّا إذا كانَ جُزئِيًّا كَما فعَل الأشَاعِرةُ والماتُرِيديَّةُ ونحْوُهم فَإنَّ هَذا فِيه سلْبُ الكَمالِ عَنِ الله فِيما وَصفَ بِه نفْسَهُ، فقوْلُه تَعالَى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، الاسْتِواءُ صِفةُ كَمال وهُمْ يقُولونَ: (اسْتوى بمَعْنى اسْتَوْلَى)، فلَم يجْعَلُوا للْعَرش خَصِيصةً بالاسْتِواءِ علَيْه؛ لأَنَّ الله تَعالَى مستولٍ عَلَى كُلِّ شيْءٍ، وَكَذلِكَ أيْضًا إذا قالُوا إنَّ المُرادَ بالآيَاتِ خِلافُ الظَّاهِر، فإنَّهم وصَفُوا الله تَعالَى بالنَّقْص؛ لأَنَّ إرادَة المتكَلِّم بكَلامِه خِلافَ الظَّاهِر بدُونِ بَيانٍ يُعتَبَرُ تدْلِيسًا وتَمْوِيهًا، واللهُ عَزَّوَجَلَّ مَا أنْزل القرآنَ إلَّا لِلْبيانِ، قَال تَعالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النّساء:٢٦]، وقَال تَعالَى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النّساء:١٧٦]، وقَال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ [النّحل:٤٤]، والآيَاتُ في هَذا كثِيرَةٌ.

فإذَا قُلْنَا: إنَّ الله أرادَ بِهَذا خِلافَ الظَّاهِر، فهَذا وصْفٌ لَه بالتَّعْمِيَةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنَّه لا يُرِيدُ البيانَ، وهَذا لا شَكَّ أنَّه نقْصٌ، وَلِهَذا نقُولُ: إنَّ جَمِيعَ مَنْ أنْكَرُوا صِفَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ كُلِّيَّةً أوْ جُزْئِيَّةً فإنَّهم قدْ وَصَفُوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالنَّقْص.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّ كُلَّ صِفَةٍ وُصَف الله بِها نفْسَهُ فَهِي صِفَةُ كَمالٍ؛ تُؤخَذ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ﴾، فإذا أثْبَتَ لنفْسِه صِفةً علِمْنا أنَّها صِفة كَمالٍ، الرّحمَةُ أثْبَتها الله لنَفْسِه صفَةَ كَمالٍ لا نقْصٍ، لكنَّها عنْد أهْل التَّعطِيل المُحَرِّفِينَ هِي صِفةُ نقْصٍ، يقُولونَ: إنَّ الرّحمةَ تدُلُّ عَلَى الخَوَرِ والضَّعْفِ؛ فلِهَذا قالوا أنَّ رَحمةَ الله لَا يُرادُ بِها الرَّحمةُ، وإنَّما يُرادُ بِها الإحسَان، أَوْ إرادَةُ الإحسَان، يُفسِّرونها إمَّا بالجَزاءِ المفْعُولِ المخْلُوقِ وإمَّا بإرَادَتِه.

وهَلْ يُستَفادُ مِن هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ اسْتِعْمالُ قِياسِ الأَوْلى فِي حَقِّ الله، فنَقولُ: كُلُّ صَفَةِ كَمالٍ فِي المخْلُوقِ فالخالِقُ أَوْلى بِهَا؟

نَعم، شيْخُ الإسْلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُقرِّرُ هَذا، بأنَّ استِعْمالَ قِيَاسِ الأَوْلى فِي حَقِّ الله جَائِزٌ، أمَّا قِياسُ التَّمْثيلِ وقِياسُ الشُّمولِ فهذَا مُمْتَنِعٌ؛ لأنَّهُ هُو التَّشْبِيهُ، فإذا قُلْنا: كُلُّ صفَةِ كَمالٍ فِي المخْلُوق فالخالِقُ أَوْلى بِها صَحَّ، لكِنْ يَجِبُ أنْ نعلَمَ أنَّ صِفَاتِ المخْلُوقِ الكامِلَةَ التي تُكَمِّلُ نقْصَهُ فَهِي كامِلَةٌ في حقِّه، لكِنْ لتكْمِيلِ نقْصِه، فَهَذِهِ لا يُوصَفُ الله بِها، يَعْني هِي كامِلَةٌ فِي حقِّ المَخْلوقِ، لكِنْ لتكْمِيلِ نقْصِه؛ فإنَّ الخالِق لا يُوصَفُ بِها؛ لأنَّها وإنْ كَانت كامِلَةً فَهِي فِي الوَاقِع نقْصٌ، مِثْلُ الأَكْل والنَّوم والنِّكَاحِ، ومَا أشْبَه ذَلِك، فهَذِهِ الصِّفاتُ فِي حقِّ المخلُوقِ صفَةُ كَمالٍ؛ لأَنَّ الَّذِي لا يأْكُل معْنَاه أنَّه مرِيضٌ، والَّذِي لا ينَامُ معْنَاه أنَّه مرِيضٌ، والَّذي لا يتزَوَّجُ معْنَاه أنَّه مرِيضٌ، ففَواتُ هَذِهِ الصِّفاتِ نقْصٌ فِي المخْلُوقِ، لكِنَّها لما كانَتْ تَكْمِيلًا لنقْصِه صارَتْ لا يُوصَفُ بِها الخالِقُ لحاجَةِ الإِنْسانِ إِلَى الأَكْل صَار يأْكُل، والَّذِي لَا يشْتَهِي ولَا يأْكُل آخِرُه المَوْت، وَكَذلِكَ لَمَّا كانَ الإنْسانُ يتْعَبُ ويحْتَاجُ إِلَى صِفَةٍ تقْطَعُ هَذا التّعب ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ:٩]، صَار النَّوْم فِي حقِّه كَمالًا، وَكَذلِكَ لَمَّا كانَ الإِنْسانُ مُحتَاجًا إِلَى بقَاءِ النَّسْل والنَّوْع صارَ النِّكَاحُ فِي حقِّه كَمالًا، فَهُو في الحَقِيقَةِ تكْمِيلٌ لنَقْصٍ، لكِنْ لَا يُوصَفُ الله بِه عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّ الله كامِلٌ مِن جَمِيع الصِّفاتِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إنَّ الصِّفاتِ توْقِيفيَّةٌ، ولوْ فتَحْنا هَذا البابَ -كَما قَالَ شيخُ الإسْلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ- باسْتِعمال قِيَاسِ الأَوْلى فِي حَقِّ الله لكَانَ كُلُّ إِنْسَانٍ يَقِيسُ بعَقْلِه ويُخْطِئُ؛ لأَنَّهُ قدْ يظُنُّ أنَّ هَذا كَمالٌ، وهُو ليْس بِكَمالٍ؟

قُلْنَا: يَرِد علينا هَذَا، لكِنْ نقُولُ: كُلُّ صفَةِ كَمالٍ مِن حيْثُ العُمُومُ والجِنْس

إِمَّا أَنْ نقُولَ: كلُّ صفَةٍ تَثْبُت للمَخْلوقِ نُثْبِتُها للخالِق، وهَذا لا يُمْكِنُ ولَا يسْتَقِيمُ، إنَّما مِن حيْثُ الجِنْس كُلُّ صفَةِ كمَالٍ فِي المَخْلُوقِ فاللهُ أَوْلى بِها، والسَّمع مُؤَيِّدٌ، قَالَ تعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فِيما ورَد مِنَ الصِّفاتِ؟

قُلْنَا: لَا، بَلْ مُطْلَقًا، حتَّى الأَشْيَاءُ الَّتي قَدْ لَا تَكُونُ موْجُودةً فِي النّصِّ وهِيَ مِن صِفَاتِ الله، قصْدِي أنَّها مِنَ الكَمالِ، فاللهُ تَعالَى مُتَّصِفٌ بِها، لكِنْ فِي الصِّفاتِ الخبَرِيَّةِ قدْ نَقُولُ أنَّه يَمْتَنِعُ أنْ يُقاسَ الله بِالخلْقِ حتَّى قِياسَ الأَوْلى كَالعَيْن وَاليَدِ ومَا أَشْبَهَها، فهَذِه قَدْ نقُولُ: لَا يُمْكِنُ أنْ نَقِيسَ فِيها قِيَاسَ الأَوْلى، فالأُذُن فِي المَخْلُوقِ كَمالٌ لكِنَّها فِي الخالِق لا تثْبُتُ لَهُ؛ لأنَّهَا لمْ يَرِدْ بِها الشّرعُ.

الفوَائِدُ الثّامِنَةُ والتّاسِعةُ والعَاشِرَةُ: إثْبَاتُ العِزَّةِ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ وإثْبَاتُ الحِكْمةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، وإثْبَاتُ الحُكْمِ أيْضًا مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: يتفرَّع عَلَى إثْبَاتِ الحِكْمَةِ قطْعُ الاعْتِراضِ عَلَى الخَلْق والشّرع، بمَعْنى أنَّك لا تعْتَرِضُ عَلَى خَلْقِ الله أوْ عَلَى شرْعِه، وإنَّما تُسَلِّم؛ لأنَّك إذا آمَنْت بالحِكْمَةِ وأنَّ الله تَعالَى حَكِيمٌ فحِينَئِذٍ ينْقَطِعُ الاعْتِراضُ نِهائِيًّا، فلا تَقُلْ لمَ؟ ولَا مِن أيْنَ؟ إلا عَلَى سَبِيل الاسْتِرْشادِ.

الفائِدَةُ الثّانِيةَ عَشْرَةَ: اطْمِئنانُ الإنْسانِ التَّامِّ بما قَدَّرَ الله تَعالَى وشَرَعَهُ، حيْثُ أنَّه صادِرٌ عَنِ الحِكْمَةِ.

الآيـة (٢٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرّوم:٢٨].

قوْله تَعالَى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾: المَثل بمَعْنى الشَّبَه والنَّظير، يعْنِي: ضَرب لكُمْ أمْرًا نَظِيرًا لما فعَلْتُم أنْتُم فِي جَانِب الله عَزَّوَجَلَّ، وهَذا المثل: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

يقُولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَهُوَ ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ﴾]، (مِمَّا) أيْ مِنَ الَّذي ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، يقُولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ مِن مَمَالِيكِكُم ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ لَكُمْ].

قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ﴾: أيْ مِن الَّذِي ملكَتْ أيمانُكُم ﴿مَلَكَتْ﴾، هَذِهِ هِي صِلَةُ المَوْصولِ، والعَائِدُ محْذُوفٌ، والتَّقْديرُ ملَكَتْه أيْمانُكُم.

وقوْله تَعالَى: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾: الإِيمَان جَمْعُ يَمِينٍ، وهِي اليَدُ، وأُضِيفَ المُلْكُ إِلَى اليَدِ؛ لأَنَّ غالِب تصرُّفاتِ الإِنسانِ بِيَدِه، وأُضِيف إِلَى اليَمِينِ لأَنَّهُ أشْرَفُ مِن اليَسَارِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾: المُرادُ مَا ملَكَتِ الإِيمَان مِن الإِنسانِ؛ وَلِهَذا قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ مِنْ مَمَالِيكِكُمْ].

وقولُه ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾: مبْتَدَأٌ، و﴿لَّكُم﴾ خَبَرُها مُقدَّمٌ، ولكِنَّ المُبتدَأ دخلتْ علَيْهِ ﴿مِّن﴾ لأَجْلِ العُمُومِ أوْ للتَّنْصِيص عَلَى العُمُومِ؛ لأَنَّ ﴿مِّن﴾ الزَّائدة تُفيدُ التَّنصيصَ عَلَى العُمُوم، ولكنَّه قدْ يشْكل علَيْنا أنَّ ﴿مِّن﴾ لا تُزاد إِلَّا بعدَ النَّفي، وابْنُ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقُولُ في هَذِهِ المسألَةِ[1]:

وَزِيدَ في نَفْيٍ وَشِبْهِهِ فَجَرّ نكِرَةً كَـ(مَا لِبَاغٍ مِنْ مَفَرّ)

فـ﴿مِّن﴾ زائِدةٌ إعْرابًا، ولكِنَّها فِي المَعْنى لها معْنًى، وهُوَ التَّنصِيصُ عَلَى العُمُوم، وذَكر ابْنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّها لا تُزادُ إِلَّا بعْدَ نفْيٍ وشِبْهِه، وهُنا سُبِقت بشِبْهِ نفْيٍ؛ لأَنَّهُ اسْتِفْهامٌ بمَعْنى النَّفْي، يعْنِي: مَا لكُمْ مِمَّا ملكَتْ أَيْمانُكُم مِن شُرَكاءَ فِيما رَزَقْناكُم.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾: أيْ مُشارِكِينَ لكُمْ.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ مِنَ الأَمْوالِ وغيْرِها فأَنْتم وهُمْ ﴿فِيهِ سَوَآءٌ﴾]، قوْله تَعالَى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ ليْسَتْ عائِدَةً عَلَى النَّفْي، لكِنَّها عائِدَةٌ عَلَى المنْفِيِّ، يعْنِي: فهَلْ أنْتُم سَواءٌ فِيما رَزقْناكُمْ.

قوْلُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: أيْ أمثالِكُمْ مِنَ الأَحْرارِ]، فجَعل الأَنْفُس هُنا بمَعْنى الجِنْس؛ لأَنَّ النَّفْس تأْتِي بمَعْنى الجِنْس، يعْنِي: هَل هَؤُلاءِ المَماليكُ شُرَكاءُ لكُمْ فِي رزْقِكُم مِن الأَمْوالِ والأَولادِ ومُساوُونَ لَكُم وتَخافُونَهُمْ كَما تخافُونَ مِن أَنْفُسِكُمْ؟

والجوابُ: لَا، ليْسَ لَنا مِمَّا مَلكَتْ أَيمانُنا شُركاءُ فِيما رُزِقْنا، فالمَمْلوكُ لَا يُشارِكُك فِي مالِكَ، ولَا يُشارِكُك أيْضًا فِي وَلدِكَ، ولَا يُشارِكُكَ فِي أيِّ شيْءٍ تملِكُه، فإِذا كَان كَذَلِكَ فلِماذَا تجْعَلُون هَذِهِ الأَصْنامَ شُركاءَ مَع الله وهِي مخْلُوقةٌ لَهُ مملُوكةٌ مرْبُوبةٌ لَه؟!

(١) البيت رقم (٣٧٠) من ألفيته.

إِذَن: المثَلُ واضِحٌ جدًّا فِي أنَّ هَؤُلاءِ المُشْرِكِينَ يُفرِّقونَ بيْنَ المُتماثِلَيْن، فكَما أنَّكُم الآنَ وبإقْرَارِكُم أنَّ عَبِيدَكُم لا يُساوُونكُم فِي المَنْزلةِ ولَا يُشارِكُونكُم فِي الرِّزقِ، فكَذَلِك أيْضًا مَا يمْلِكُه الله عَزَّوَجَلَّ مِن هَذِهِ الأصنامِ وغيْـرِها لَا يُساوُونَ الله تَعالَى فِي المَنْزلَةِ، ولَا يُشارِكُونَه فِي الحُقوقِ، وَهَذا مَثَلٌ ظاهِرٌ جدًّا.

ومثالُه مِن أنْفُسِنا نَحْنُ: هَذا رجُـلٌ يُؤدِّبُ ولدَه إذا أخْطَأ، فقَال لَهُ بعْـضُ النَّاسِ: لماذَا تضْرِبُه؟ لماذَا تنْهَرُه؟ فإنَّه سيقُولُ: ألَسْت تفْعَلُ بِولَدِك مثْلَ هَذَا؟!

والجوابُ: بَلى، إذَنْ كيْفَ تلُومُني عَلَى شيْءٍ تفْعلُه أنْتَ؟!

فيُقالُ لَهم: كيْف تَجْعلُون مَع الله شَرِيكًا فِيما يسْتَحِقُّه وحدَه، وأنْتم لَا تجْعَلُون لأنْفُسِكُم شرِيكًا مِن عَبيدِكُم فِيما تخْتَصُّونَ بِه مِنَ الرِّزْقِ؟! هَذا الَّذِي ذَكر الله عنْهُم.

والعجِيبُ أن هَذِهِ الآيَةَ استدَلَّ بِها مَن يَرَوْن الاشْتِراكِيَّـة[1]، فأوَّل مَا ظهرَتْ الاشْتـراكِيَّةُ فِي العالَمِ العربيِّ بدَؤُوا يأْتُون بالنُّصوصِ المُتشابِهَـةِ، وقالُوا: هَذِهِ الآيَةُ صرِيحَةٌ فِي الاشْتراكِيَّةِ؛ لأنَّهُ يقولُ: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾، فانْظُرْ: كيف التّلبيسُ؟ وهذِه ليْسَتْ عَلَى ما أرَادُوا، إذْ هِي داخلَةٌ فِي النَّفْي، يعْني لسْتُم فِيه سَواءً، لكِن دَائِمًا أهْلُ الباطِلِ يُلَبِّسونَ لبَاطِلِهم بمُتَشابَهِ النُّصوصِ، وهَذِهِ مِنْ حكْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، أنَّه جعَل فِي النُّصوصِ أشْياءَ متُشابِهةً ليضِلَّ بِها مَن يضِلُّ.

وقولُ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَنتُمْ﴾ وَهُمْ ﴿فِيهِ سَوَآءٌ﴾]، المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أتَى بكَلِمـة (وَهُم) لأنَّ المُسـاواةَ لَا تكُونُ إلا بيْنَ شيْئَيْـنِ؛ فلِهَذا أتَى بقَوْله: (وَهُم)، ولَا حاجَة إلَيْها فِي الحقِيقَةِ، فالكلامُ تامٌّ بدُونِها إذْ مِن المُمْكِنِ أنْ نقُولَ: ﴿فَأَنتُمْ﴾،

(١) انظر كتاب (بطلان الاشتراكية) لفضيلة الشّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الضَّميرُ يعُودُ عَلَى المالِك والمَمْلوكِ فأنْتُم أيُّها المالِكُون والمَمْلوُكونَ فِيه سواءٌ، وحِينَئِذٍ لا نحْتاجُ إِلَى تقْدِير (وَهُمْ).

وقوْله تَعالَى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾: هَذَا الَّذي تسلَّطَ علَيْه النَّفْيُ، يعْنِي لسْتُم فِيه سواءً.

قوْله تَعالَى: ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾: الضَّمِيرُ يعُودُ عَلَى (مَا)، بِاعْتِبارِ المَعْنى؛ لأَنَّ (مَا) لَو عادَ إِلَيْها الضَّمِيرُ باعْتِبارِ اللَّفْظ لعَادَ إِلَيْها مُفْردًا، فلمَّا عادَ إِلَيْها جَمْعًا صَار باعْتِبَارِ المَعْنى.

وقوْله تَعالَى: ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعَل الأنْفُس بمَعْنى الجِنْس، يعْنِي كَما تخافُونَ مِن جِنْسِكُم، ولِهذَا قالَ: [أيْ أمثالُكم مِنَ الأَحْرَارِ]، ويُمْكِن أنْ يُقال أنَّه يَعُودُ عَلَى ذَاتِ الإنْسَانِ، ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، يعْنِي كَما أنَّ لكُم التّسلُّطَ عَلَى أموالِكُم، فأَنْتُم تخافُونَ أنْ يتسلَّطُوا عَلَى هَذِهِ الأموالِ كَما تتسلَّطُ أنْفُسُكُمْ.

وقوْله تَعالَى: ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: مصدْرٌ مضافٌ إِلَى الفاعِل، و(أَنْفُس) هِي المفْعولُ.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [والاسْتِفْهامُ بمَعْنى النَّفْي، أيْ لَيْس مماليكُكم شُركاءَ لكُمْ إِلَى آخِرِه عنْدَكُم، فكَيْف تَجْعلُون بعْضَ مَماليكِ الله شُركاءَ لَهُ]، وَهَذا مثَلٌ واضِحٌ، إذا كنْتَ أنْتَ الَّذي تمْلِكُ لَا يُشارِكُك في مالِك، وفِيما هُو مِنْ خَصائِصِكَ، فكَيْف تجْعَلُ للهِ تَعالَى شَرِيكًا فِيما هُو مِن خَصائِصِه، الكلامُ واضِحٌ جِدًّا فِي إلْزام هَؤُلاءِ بعَدمِ الشّرْكِ، وَلهذَا قالَ الله تَعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [الأعراف:٣٢]، قالَ المُفَسِّر: [نُبيِّنُها مثْلَ ذَلِك التَّفْصِيلِ ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبَّرونَ].

قوْله تَعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكَافُ اسْمٌ بمَعْنى مثْلِ، فهُو إِذَنْ مفْعُولٌ مطْلَقٌ عامِلُه ﴿نُفَصِّلُ﴾، أيْ مثْلَ ذَلِك التَّفْصيلِ والتَّبْيينِ، نُفصِّلُ الآيَاتِ، ولكِن مَن الَّذي ينْتَفِعُ بِها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: إنَّ الله تَعالَى فصَّل الآيَات للعَاقِلِينَ وغَيْرِ العاقِلِينَ، فلِماذا خصَّ ذَلِك بالعاقِلِينَ؟

فالجوابُ: لأنَّهم المُنْتفعونَ بِهَذا التَّفْصيلِ، مثْلَ مَا وصَفَ الله القُرآنَ بأنَّه هُدًى للمُتَّقِينَ، وَفِي آيَاتٍ أُخْرى هُدًى للنَّاسِ عامَّةً، فبِاعْتبارِ الهِدايَةِ المُطْلَقةِ هُو عامٌّ، وبِاعْتبارِ الانْتِفاعِ هُو خاصٌّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: رحْمَةُ الله تَعالَى بخلْقِه بضَرْب الأمْثَالِ لَهُم؛ ليَصِلوا إِلَى الكمَال بِالهِدَايَةِ.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: بَلاغَةُ القُرآنِ بضَرْب الأَمْثالِ، وهُو أسْلوبٌ مِن أسَاليبِ اللُّغَة العرَبيَّة فِي مُنْتهى البَلاغَةِ.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: المُناداةُ بجَهْل هَؤُلاءِ المُشْرِكينَ وعِنادِهم؛ لأنَّهم جَعلُوا للهِ شُرَكاءَ مِن مملُوكِيهم، وأمَّا عِنادُهم؛ لأَنَّ الأمْـرَ واضِحٌ؛ وَلِهَذا قال: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ومَع هَذا عانَدُوا وأصَرُّوا عَلَى الشِّرْك، حتَّى إنَّهُم في تلْبِيَتِهم يقُولونَ: لبَّيْك لَا شَرِيكَ لكَ، إلا شَرِيكٌ هُو لَكَ، تَمْلِكُه وَما مَلَك[1] فانْظُرِ الجَهْلَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها، رقم (١١٨٥).

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ العَبِيدَ لا يَمْلِكُونَ؛ وجْهُ ذَلِك أنَّه إذا انْتَفَتْ مُشارَكَتُهم لأَسْيادِهِم فِي أموالِهِم فغَيْرُهم مْن بَاب أَوْلى، وانْفِرادُهم أيْضًا مِن باب أَوْلى إذا كَانُوا لَا يمْلِكُون المُشارَكَةَ مع أسْيَادِهم، فَالغَير مِن بَاب أَوْلى، والَّذِي لَا يمْلِكُ المُشارَكَةَ لَا يمْلِكُ الانْفِرادَ، فالَّذِي لا يَمْلكُ المُشارَكَة مَع سيِّدِه وَهُو أقْرَبُ مِن غيْرِه فَلا يمْلِكُ مَع غيْرِه، هَذا مَع أنَّه جاءَ فِي الحدِيث الصَّحيح عَنْ رَسُول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّه قَال: «مَنْ بَاعَ عَبْدًا وَلَهُ مَالٌ فَمَالُه لِلَّذِي بَاعَهُ إِلَّا أَنْ يَشْتَرِطَ المُبْتَاعُ»[1]، قَالَ: «فَمَالُه لِلَّذِي بَاعَهُ».

ولَا تظُنَّ أنَّ هَذا مِن بَاب التَّنافُرِ حيْثُ أضَافَ المَالَ إِلَيْهِ ثمَّ قَال: «مالُه لِلَّذِي بَاعَهُ»؛ لأَنَّ الإِضافَةَ ليْسَتْ لِلتَّمْليكِ ولكِنَّها للاخْتِصَاصِ كَما تَقُول: سَرْجُ الدَّابَّةِ، وزِمَامُ الدَّابَّةِ، وحُجرة الدَّابَّةِ، ومَا أشْبَه ذَلِك.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: الرَّدُّ عَلَى أهْلِ الاشْتراكِيَّةِ الَّذِين قالُوا: إنَّ الآيَةَ تدُلُّ عَلَى ثُبوتِ الاشْتراكِيَّةِ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾، يعْنِي ليْسَ فِيها دَلِيلٌ عَلَى ثُبوت الاشْتَراكِيَّة خِلافًا لمَنْ قَال ذَلِك، بَلْ فِيها دَلِيل عَلَى نَفْي الاشْتِراكِيَّةِ؛ لأَنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ مِن مَدْخُولِ النَّفْي، ﴿هَل لَّكُم﴾ يعْنِي: لا يُمْكِنُ أنْ يكُونَ هكَذا، فالمَمْلوكُ لَا يكُونُ شَرِيكًا.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أنَّ هَذا القُرآنَ مُفَصَّلٌ للآيَاتِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [الأعراف:٣٢].

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب البيوع، باب في العبد يباع وله مال، رقم (٣٤٣٣)، والترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في ابتياع النخل بعد التأبير والعبد وله مال، رقم (١٢٤٤)، والنسائي: كتاب البيوع، باب العبد يباع ويستثنى المشتري ماله، رقم (٤٦٣٦).

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّه لَا يُدْرِكُ هَذا التَّفْصيلَ إلا أهْلُ العَقْل؛ والدَّليلُ قوْلُه تَعالَى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: مدْحُ العَقْل؛ لأَنَّ بِه يُدْرِكُ الإنْسانُ هَذا التَّفْصِيلَ الَّذي يُفصِّلُه الله عَزَّوَجَلَّ.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: إثْباتُ عظَمَةِ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿نُفَصِّلُ﴾؛ لأَنَّ ﴿نُفَصِّلُ﴾ أيْ نحْنُ، وهَذِه لا تَكُون إلا للْمُعَظِّم نفسَه، أوِ الَّذِي معَه غيْرُه، وكوْنُه معَه غيْرُه ممْتَنِعٌ، فيَكُونُ دالًّا عَلَى التَّعْظِيم.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أنَّ المعْبُودَ مِن دُونِ الله مِلْكٌ لله؛ لأَنَّ الله قال: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، وَلَا شكَّ أنَّ كُلَّ مَا في السَّموَاتِ وَالأرْضِ فهُو مِلْكٌ لله.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: أنَّ الرِّزقَ لَا يُنالُ بالكَسْب، وَإنَّما هُو فَضْلٌ مِن الله، لكِنْ لَه أسبْابٌ لا شَكَّ، مثْل غيْرِه مِن الأُمورِ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ لكِنَّ هَذا الرِّزْقَ لَه أسبَابٌ شرعيَّةٌ، وأسبَابٌ كونِيَّةٌ، فمَثلًا مِن الأَسْبابِ الشَّرعيَّةِ انْتِقَالُ المَالِ بالإرْثِ، واسْتِحقاقُ الفَقيرِ مِن الزّكاةِ، وَما أشْبَه ذَلِك، والأسْبَابُ الكونِيَّةُ أنَّ الإنْسانَ يسْعَى لِحِرَاثَةِ الأرْضِ وَالبَيْع والشِّراءِ وَما أشْبَه ذَلِك.

الفائِدَةُ الثّانِيةَ عَشْرَةَ: إثْبَاتُ القِيَاسِ؛ وجْهُ ذَلِك ضـرْبُ المَثَل، ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ كوْنَ القِيَاسِ دَلِيلًا هُو مِن طَرِيق العَقْل؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ ولأَنَّ الحاقَ الفرعِ بالأَصْلَ وهُو القِياسُ يَحْتاجُ إلَى علَّةٍ جَامِعَةٍ تُدْرَكُ بالعَقْل.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: إِذا قُلْتم إنَّ طَرِيقَ القِيَاسِ هُو العَقْل، فكَيْف يصِحُّ أنْ يكُونَ دَليلًا شرعيًّا؟

فالجوابُ: أنَّ الشّارِعَ اعتبَره وجعَلَه دَلِيلًا شرْعِيًّا، بِدَليلِ ضَرْب الأَمْثالِ، وقوْله تَعالَى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف:١١١].

• • ❁ • •

الآيــة (٢٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الرّوم:٢٩].

قوْله تَعالَى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ﴾: للإضْرابِ، والإضراب هُنا انْتِقاليٌّ وليْسَ إبْطالِيًّا؛ ووَجْه ذَلِك أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بَيَّنَ هَذِهِ الآيَاتِ الدّالَّةَ عَلَى قُدْرَتِه عَلَى أنَّه واحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ بضَرْب المَثل الأَخِيرِ، المثَلُ الَّذِي لا يُنَازِع فِيه إلَّا مكابِرٌ، المَثَل الأَخِيرُ هُو أنَّه كيْفَ تجْعَلُون للهِ شرِيكًا هُو يمْلِكُه، أيْ الله يمْلِكُه فهَل لكُمْ أنْتُم شركاءُ فِي أموالِكُم ومَمالِيكِكُم؟

والجوابُ: لَا، إذَنْ فإنَّهُ يدُلُّ عَلَى أنَّ الله لا شَرِيكَ لَهُ.

بعْدَ هَذا بَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّ الَّذِين خرَجُوا عَن ذَلِك وَأنْكَرُوا البَعْث وأنْكَروا الوَحْدانِيَّةَ أنَّهُم ليْسُوا عَلَى حَقٍّ، وَإنَّما هُم ظَالِمُونَ؛ وَلِهذَا قَال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾.

قوْله تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾: قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالإشْرَاكِ]، وَهَذا تخْصِيصٌ في غيْرِ محلِّه، وَالظّاهِرُ لي أنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خصَّصه مُراعَاةً للمَثَل الَّذي قبْلَه؛ لأنَّ المَثَل الَّذي قبْلَه واضِحٌ في أنَّ الغَرَض مِنْهُ إبْطَالُ الشِّركِ، ولكِنْ لَو قِيلَ: إنَّه يشْمَلُ هَذا وغيْرَه مِن الظُّلمِ كإنْكَارِ البَعْث مثَلًا، فَإنْكَارُ البَعْثِ لا شَكَّ أنَّه ظُلْمٌ؛

لأَنَّهُ يسْتَلْزِمُ تكْذِيبَ الله عَزَّوَجَلَّ، كَما ثَبَتَ فِي الحدِيثِ القُدسيِّ أنَّ تَكْذِيبَ الله: أنَّ الله تَعالَى لَنْ يُعِيدَه كَما بَدَأَه[1]، وقَدْ سَبق ذِكْرُه فيكُون المُرادُ بالظُّلمِ هُنا الإشْراكُ وغيْرُه ممَّا ظلَمُوا فِيه أنْفُسَهُم.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَهْوَآءَهُم﴾: جَمْعُ هوًى، والهَوَى فِي الأصْلِ المَيْلُ، ثمَّ أنَّه لا يُطْلَقُ فِي الغالِب إلَّا عَلَى الهَوى المَذْمُومِ، فيُقالُ: اتَّبع هَواهُ دُون هُدَاه، وقَدْ يأْتِي لِلْهَوى المحْمُودِ كَما فِي الحدِيث، وَإِن كَان فِيه ضعْفٌ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»[2]، فهُنا الهَوى التَّابِع لما جاءَ بِه الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا شكَّ أنَّه هوًى محْمُودٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: يعْنِي أنَّ هَذا الاتِّباعَ ليْس مبْنِيًّا عَلَى علْمٍ، بَل هُو مبْنِيٌّ عَلَى الجَهْل والضَّلالِ فيمَنْ كَانُوا جاهِلِينَ، وعلى الاسْتِهتارِ والعِنَادِ فيمَنْ كَانُوا مُعانِدِينَ، فالَّذِين اتَّبعُوا أهْواءَهم اتَّبَعُوها بِغَيْر علْمٍ إذا كانُوا جَاهِلِينَ، فالأَمْر ظَاهِرٌ أنَّه لا علْمِ لهُمْ باتِّباعِ أهْوَائِهم.

وإِذا كانُوا مُعانِدِينَ، فهَلْ نقُولُ: إنَّهم اتَّبَعُوا أهواءَهُم بِغَيْر علْمٍ؟

الجوابُ: نعَمْ، نقُولُ إنَّهُم اتَّبعُوا أهواءَهُم بِغَيْـر علْمٍ؛ لأَنَّ مَن اسْتكْبر وعَانَد الحقَّ فإِنَّهُ كالجَاهِل بِمـا يسْتَحِقُّ الرّبُّ عَزَّوَجَلَّ، فهُو فِي الحَقِيقَةِ غيْرُ عَالِمٍ، بَل الجَاهِلُ خيْرٌ منْهُ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيْفَ يصِحُّ نفْيُ العِلْم مَع وُجودِه؟

قُلْنَا: كَما يصِحُّ نفْيُ السَّمْع مَع وُجودِه، ونَفْيُ البَصر مَع وُجودِهِ لِمَنْ لَمْ ينْتَفِعْ بِه،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب يقال: لا ينون (أحد) أي واحد، رقم (٤٩٧٤).

(٢) ذكره الحكيم (٤/ ١٦٤)، وأخرجه الخطيب (٤/ ٣٦٨).

أَلَيْس الله يقُولُ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال:٢١]، وقَالَ: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٨]، أَوْ ﴿لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٧٠].

المُهِمُّ: أنَّ نفيَ العِلْم لِمَنْ لم ينْتَفِعْ بِه صَحِيحٌ كنَفْي السَّمْع عمَّنْ لم ينْتَفِعْ بِه، والحَاصِلُ أنَّ المُتَّبِعِينَ لأهْوَائِهم ينْقَسِمونَ إِلَى قِسْمَيْنِ:

▪ قسْمٌ جاهِلٌ حقًّا، بَنى هَواهُ عَلَى الضَّلالِ، وَيُمْكن أنْ نُمَثِّل هَؤُلاءِ بالنَّصارَى؛ فإِنَّ النَّصارَى ضالُّون.

▪ وقِسْمٌ آخر مُسْتَكْبِرٌ مُعانِدٌ، فهَذا فِي الحقِيقَةِ لا عِلْم عنْدَهُ، وَإِن كَان لَهُ علْمٌ فإِنَّهُ لَا ينْفَعُه، بلْ ضرَّه كاليَهُودِ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِى ﴾: (مَن) اسمُ اسْتِفْهامٍ، والمُرادُ بالاسْتِفْهامِ هُنا النَّفْيُ، والقَاعِدَةُ أنَّ الاسْتِفْهامَ إِذا جَاء بمَعْنى النَّفْي صارَ مُشَرَّبًا بالتَّحدِّي؛ لأنَّك إِذا قُلْت: مَنْ يفْعَلُ كذَا، أعظْمُ مَما إِذا قُلْت: لَا أحَدَ يفْعَلُه، كأنَّك تقُولُ: هَذَا أمْرٌ لا يُمْكِنُ، فإِنْ كُنْت صادِقًا فَأَرِني مَنْ يفْعَلُه، فإِذا جَاء الاسْتِفْهامُ بمَعْنى النَّفي صَار أبْلَغ مِن النَّفْي المُجَرَّدِ؛ لأَنَّ الاسْتِفْهامَ بمَعْنى النَّفْي مُشرَّبٌ مَعْنى التَّحدِّي.

وقوْله تَعالَى: ﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾: ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعِلٌ، والمَفْعُول محذُوفٌ، والتَّقدِيرُ: مَنْ أضَلَّهُ الله، وَهَذا المفْعُول هو عائِدُ المَوصُولِ الَّذِي يعُودُ إِلَيْهِ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾: قال المُفَسِّر: [أَيْ لَا هَادِيَ لَهُ]، فسَّر الاسْتِفْهامَ بالنَّفْي، وهُو حَقٌّ لكِنَّهُ أبْلَغُ مِن النَّفي المُجرَّدِ.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ مَانِعِينَ مِنْ عَذَابِ الله]: الظَّاهِرُ أنَّ (الوَاو) هُنا للاسْتِئْنافِ؛ لأَنَّ الجمْلَةَ خبَرِيَّةٌ، والتي قبْلَها إِنْشائِيَّةٌ، لأَنَّ الاسْتِفْهامَ

مِن قِسْم الإنْشاءِ فِي البَلاغَةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّصِرِينَ﴾: يعْنِي أنَّ هَؤُلاءِ الَّذِينَ اتَّبعُوا أهْواءَهُم بِغَيْر علْمٍ مُستَحِقُّونَ للعَذَابِ، ولَنْ يَجِدُوا أحَدًا ينْصُرهُمْ مِنْه، أيْ يمنَعُه مِنَ العَذابِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّصِرِينَ﴾: النَّفْي هُنا مؤكَّدٌ بِـ(مِن) الزّائدَةِ الدَّاخلَةِ عَلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿نَّصِرِينَ﴾، وأصْلُ الكَلامِ: ومَا لهُمْ نَاصِرُونَ.

وهَل (مَا) هُنا حِجازِيَّةٌ أوْ عرَبِيَّةٌ؟

الجوابُ: عرَبِيَّةٌ لاخْتِلافِ التَّرتيبِ؛ لأَنَّ خبَرها قُدِّمَ، ولَا تكُونُ حجازِيَّةً إلا إذا كانَتْ مُرتَّبَةً، الاسمُ قبْلَ الخَبَرِ، والحجَازِيُّ معْنَاه الَّذي يخْتَصُّ بِه الحجَازِيُّونَ، والعَرَبِيُّ الَّذي يكُون للحِجَازِيِّين والتَّمِيميِّينَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ المشْرِكِينَ وغيْرَهُم مِن الَّذِين ظلَمُوا أنْفُسَهُم إنَّما اتَّبعُوا أهواءَهُم، أمَّا العَقْلُ مَا استَعْمَلُوه، ولكِن مجَرَّدُ هَوًى، ولَوِ اتَّبعُوا العُقُولَ مَا خالَفُوا المنْقُول.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: جَوازُ نفْيِ الصِّفَةِ عمَّن لا ينْتَفِعُ بِها؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: أنَّ الأُمُورَ كلَّها -الهدايَةَ والضَّلالَ والصَّلاحَ والفَسادَ- بيَدِ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: لفْتُ انْتِباهِ الإنْسانِ إلَى سُؤالِ الهدَايَةِ مِن رَبِّه دَائِمًا؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، إذا عَلِمْت أنَّه لَا أحَدَ يهْدِي مَنْ أضَلَّ الله فَإلى مَنْ تلْجَأُ

فِي طلَبِ الهِدَايَةِ؟ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ، حتَّى نفسُك لا تعْتَمِدْ علَيْها، اعْتَمِدْ عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ فِي الهدَايَةِ واسأَلْه دَائِمًا الثّبات، وَلِهَذا يقُولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، هُم آمَنُوا بِاللهِ ورَسُولِه، لكِنَّ المُرادَ اثْبُتُوا عَلَى هَذَا الشَّيْءِ، اثْبُتوا عَلَيْه وحقِّقُوه، وَهَذا كُلُّه لا يُنَال إِلَّا باللهِ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أنَّ هَؤُلاءِ الظّالِمِينَ لَا يَجِدُون مَن يَنْصُرهم مِن عذَابِ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُضِلُّ أحدًا إلَّا لظُلْمِه إِذْ هُو الَّذِي بَدَأ وانْحرفَ فِي إرادَةٍ سيِّئَةٍ، فظَلم فأضَلَّهُ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، هَذا مُفرَّعٌ عَلَى الَّذِي قبْلَهُ؛ وَلِهَذا أُتِي بِـ(الفَاءِ)، ﴿فَمَن يَهْدِى﴾ إشارَةً إِلَى أنَّ إِضْلالَهُم إِنَّما كانَ بِسَبَبِ ظُلْمِهم، هُمُ الَّذِين ظَلَمُوا فأُضِلُّوا والعِيَاذُ بِاللهِ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ هَل يُشْكِل علَيْه مَا وقَع مِن نصْرِ المُشْرِكِين في أُحُدٍ، حيثُ حصَلَتْ هَزِيمةٌ عَلَى المُسْلِمِينَ، ومعْلُومٌ أنَّه انْتِصارٌ للكَافِرِينَ؛ لأَنَّ الهزيمةَ لخَصْمٍ انْتِصارٌ للخَصْم الآخَرِ، وَلِهَذا قالَ أَبُو سُفيانَ: «أُعْلُ هُبَل»[1] فِي ذَلِكَ اليَوْم، فهَلْ يُنافي الآيَةَ الكَرِيمةَ؟

قُلْنَا: كانَّ نصْرَهم لَيْسَ لأَجْلِ أنْ ينْتَصِروا، ولكِنْ لأَجْل ابْتِلاءِ الآخَرِينَ؛ وَلِهَذا كانَتِ العاقِبَةُ لِلْمُؤمنينَ، بلْ قَال الله عَزَّوَجَلَّ مُشيرًا إِلَى الحِكْمَةِ مِنَ انْتِصارِهم:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، رقم (٣٠٣٩).

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ [آل عمران:١٢٧]، قَالَ أَهْلُ العِلْم: إنَّ انْتِصارَهُم هَذَا يُؤدّي إِلَى أنْ يتشَجَّعُوا عَلَى مُحَارَبَةِ الرَّسُولِ ﷺ، حتَّى تكُونَ نهايَتُهم أنْ يُقْطَع طرَفٌ منْهُم.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: حقيقَةُ هَذا الظُّهورِ عَلَى المُسْلِمينَ ليْسَ نصْرًا لهَؤُلاءِ، ولكِنْ مِن أجْلِ الاسْتِدْراجِ بالنِّسبَةِ لَهُم، والابْتِلاءُ والامْتِحانُ بالنِّسبَةِ للمُؤْمِنينِ لمخَالفَتِهم؛ لقَوْلِه تَعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران:١٥٢]، يعْنِي: بعْدَ مَا أَراكُم مَا تُحِبُّون حصَل مَا تكْرَهُونَ.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: الحثُّ عَلَى طلَبِ العِلْم والعَمَلِ بِه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وهَلْ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى ما ذَهَبت إِلَيْهِ الجبريَّةُ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾؟

قُلْنَا: ليْس فِيه دَلِيلٌ؛ لأَنَّ إضْلَالَ الله لَهُم كانَ بِسَبَبِهم، فيكُونونَ هُم السَّبب بِدَلِيل أنَّه قَال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾، فكَانُوا هُم الظَّالِمِينَ أوَّلًا، فأُضِلُّوا والعِيَاذُ بِاللهِ.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: الرّدُّ عَلَى القدَرِيَّةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، فنَسَب الله تَعالَى الإِضْلالَ إِلَيْهِ، والَّذي يضِلُّ هُم هَؤُلاءِ الَّذِين حقَّتْ علَيْهِم الضّلالةُ، فدَلَّ هَذَا عَلَى أنَّ فِعْل العَبْد بتقْدِير الله وخَلْقِه.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذا مُشْكِلٌ أنْ تَقُولوا أنَّه هُو بِخَلْق الله وهُو فعْلُ الإِنْسَانِ، وهَل يُمْكِنُ أنْ يكُونَ الشّيءُ الواحِدُ مفْعُولًا لفاعِلَيْن؟

قُلْنَا: الشَّيْءُ الواحِدُ لا يُمْكِنُ أنْ يكُونَ مفعولًا لِفاعِلَيْن إلَّا إذا اخْتلَفَتِ الجِهَةُ، وإلّا فأَنا إذا قُمْتُ لا يُمكِنُ أنْ يكُونَ قِيامِي قِيامًا لشَخْصٍ آخَر، ولَا يُمكِنُ أنْ يكُونَ فِعْلي فِعْلًا لفَاعِلٍ آخَر، هَذا مُستَحِيلٌ، لكِن إذا اختلَفَتِ الجِهَةُ صحَّ ذَلك، فأقُولُ: إنَّ فعْلَ العَبْدِ بالنِّسبَةِ للعَبْدِ فِعْلٌ مباشِرٌ لَه.

فإذا جلسْتُ وأنَا لا أُريدُ القِيامَ فأَنا جالِسٌ لأَنِّي ما أرَدْتُ، لكِنِّي مرَّةً أردْتُ القِيام ولكِنِّي عاجِزٌ لَا أسْتَطِيعُ أنْ أقُومَ، أيْضًا لا يَحْصُل القِيامُ الأوَّلُ لانْتِفَاءِ الإرادَةِ، والثَّاني لانْتِفاءِ القُدْرَة.

فمَن الَّذِي خَلق هَذِهِ الإرادةَ والقُدْرَةَ؟

الله عَزَّوَجَلَّ هُو الَّذي خلَق هَذِهِ الإرادَةَ والقُدْرَةَ، فصَارَت نسبَةُ الفِعْلِ إلَى الله واضِحةً، نسبَةُ السَّببِ إلَى مُسبِّبِه، أمَّا المُباشِرُ فهُو الإنْسانُ نفْسُه، وَبِهذَا نرُدُّ عَلَى القدَرِيَّةِ الَّذِين قالُوا: لا يُمْكِنُ أنْ يكُونَ الفِعلُ الواحِدُ مفعولًا لفاعِلَيْن، فنَقُول: هَذا حقٌّ، ولكنَّهُ يصِحُّ أنْ يكُونَ مفعولًا لفاعِلَيْن باعْتِبَارِ اختِلافِ الجِهَةِ، وَهَذا هُو الَّذي علَيْه أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ، أنَّ فِعْل الإنْسَانِ يُنسَب إلَيْهِ حقيقَةً.

أمَّا الأَشاعِرَةُ فَقَالوا قولًا غيْرَ معْقُولٍ فِي هَذا البابِ، قالُوا أنَّه لا يُنسَبُ لِلإنْسَانِ حقيقةً، بل هُو كَسْبٌ له، ولكنَّه ليْسَ له حقِيقَةً، حتى إنَّهُم يقُولونَ: إذَا قُمْت فإنَّ القيامَ لم يحْصُل بِك، لكِن حصَل عنْدَك، ويقُولونَ: الإنْسانُ إذا أخَذ السِّكِّينَ وذَبح الشَّاةَ فإنَّها لا تموتُ بذَبْحِه، ولكِنْ عنْدَ ذَبْحِه، ويقُولونَ أيْضًا: إذا أخذْتَ الحَجر ورَمَيْت الزُّجاجَةَ وانْكَسَرَتْ، مَا انكَسَرتْ بالحَجَر، بلِ انكَسَرتْ عنْدَه؛ لأنَّهم يقُولونَ: لو أنَّك أثبَتَّ أنَّ هَذِهِ الأشْيَاء تحْصُل بهَذِه الأشْيَاءِ أثبَتَّ خالِقَيْن، يعْنِي: هَذا الكَسْرُ إذا قُلْت أنَّه مِن الحَجر الَّذِي ضَرب الزُّجاجَةَ معْنَاه أنَّك أثبَتَّ خالِقًا،

وهُو هَذا الحَجَرُ الَّذِي خلَق الكَسْر، وهَذا ليْس معْقُولًا، ولِذلِك يقُولونَ: إنَّ مسألَةَ الكَسْر عنْدَ الأشَاعِرَةِ هِي مَن الأُمُور الَّتي لا تُعقَلُ، ولا حقِيقةَ لَها، وكُلُّ إِنْسَانٍ يعْرِفُ أن المسَبَّب يحْصُل بالسَّببِ مبَاشرَةً.

ومَن الَّذِي جَعل هَذا السَّبب مُؤثِّرًا في المسَبَّب؟

الله عَزَّوَجَلَّ هُو الَّذِي جَعل النَّار مُحْرِقَةً، فيقولونَ: إِذا أدخَلْتَ وَرَقةً في النَّار واحْتَرقَتْ مَا احترَقَتْ بِالنَّارِ، لكِنْ عنْدَ النَّارِ، أمَّا المُحْرِقُ فهُو الله.

وهَذا لو تُحَدِّثُ بِه الصّبيانَ قالُوا هَذا كَلامٌ غيْرُ معْقُولٍ.

• • ۞ • •

الآيـة (٣٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الرّوم:٣٠].

قوْله تَعالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾: بعْدَ أنْ توعَّد هَؤُلاءِ المُشرِكينَ بما توعَّدهم بِهِ، وبيَّنَ أن لا أحدَ يهْدِيهم، قَال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَائِلًا إِلَيْه: أَيْ أَخْلِصْ دِينَكَ للهِ أَنْتَ وَمَنْ تَبِعَكَ].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مائلًا إليه]، ونقُولُ: مَائلًا إِلَيْهِ وعمَّا سِواه أيْضًا؛ وَلِهَذا حُذِف المتَعلِّق لِيَكُونَ شَامِلًا للْمَيْل إِلَى الدِّين، والمَيْل عَن الدِّين، وأصْلُ الحَنَف ميْلُ الرِّجْل، فالرِّجل المَائِلَةُ تُسمَّى حَنْفَاء، فَالحنِيفُ معْنَاه المَائِل (عَنْ) و(إلى)؛ عَن الشّركِ إِلَى التَّوحِيد، وعَنِ المَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ.

وقوْلهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيْ أَخْلِص دِينَك للهِ أَنْتَ وَمَنْ تَبِعَك]: هَذا تفسِيرٌ معنَوِيٌّ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ ولَو جُعِل أعمَّ مِن ذَلِك لكَان أَوْلى؛ لأَنَّ إقامَةَ الوَجْه تشْمَلُ الإِخْلاص وتمام الاتِّباعِ؛ لأَنَّ إقامَة الوَجْه نحْوَ الشّيْءِ يسْتَلْزِمُ متابَعَتَه، وعدَمَ المخالَفَةِ، فيكُونُ شامِلًا لإِخْلاصِ النِّيَّةِ ولِلاتِّباع اللَّذَيْن هُما أَسَاسُ العَمَل، كُلُّ عمَلٍ لا ينْبَني عَلَى الإِخْلاص والمُتابَعَةِ فَهُو بَاطِلٌ لأَنَّهُ إذا فُقِد الإِخْلاص صارَ شِـرْكًا،

وإِنْ فُقِد الاتِّباعُ صَار بدْعَةً، وقَدْ قَال النّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»(١)، وَهَذا لِلْإِخلاصِ، وقَال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُو رَدٌّ»(٢)، وَهَذا لِلاتِّبَاعِ.

وقوْلهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَنْتَ وَمَنْ تَبِعَكَ]: أَتَى المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بقَولِه: [وَمَنْ تَبِعَكَ]؛ لأَنَّهُ سيأْتِينا وصْفٌ مجْمُوعٌ، وهو قوْلُه تَعالَى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾، آخِرَه، ولَا يُمْكِنُ أنْ تكُونَ الحَالُ المجْمُوعةُ لمُفْرَدٍ؛ لأَنَّ الحالَ وصْفٌ، فكَما لا يُخْبَر عَن الواحِد بالجَمْع لا تُجعَلُ الحالُ الجمْعُ لواحِدٍ، ومَا ذَهب إِلَيْهِ المُفَسِّر صحِيحٌ مِنْ وجْهَيْن:

أولًا: مُراعاة اللَّفْظ الآتِي.

ثانيًا: أنَّ الخطابَ للرَّسُولِ ﷺ خطابٌ لَهُ وللأُمَّـةِ؛ لأَنَّ زَعِيمَ القَوْم يُوَجَّه إِلَيْهِ الخطابُ الموجَّهُ للجَمِيعِ، مثَلًا الرّكن في الجيْشِ يقُولُ للقَائِد: اذْهَبْ إِلَى الجَبْهَةِ الفُلانِيَّة، فإِنَّه يُرِيدُ القَائِدَ ومَنْ مَعَه لَا يُرِيدُه وحْدَه، فالخِطابُ لزَعيم القَوْم خِطابٌ للجَمِيع، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ يُوجِّهُ الخِطابَ للرَّسُولِ ﷺ، والمُرادُ هُو والأُمَّةُ، والدَّلِيلُ عَلَى هَذا قوْلُه تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطّلاق:١]، فالخِطابُ مُفرَدٌ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وبَعْدَه ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ ليْسَ النّبيَّ ﷺ وحدَه، بلْ كُلّ الأمَّةِ، ويدُلُّ لِذَلِكَ أيْضًا قوْلُه تَعالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١]، فنَحْنُ لَنا فِيه أُسوةٌ، ونحْنُ لَهُ تَبعٌ.

إِذَنْ: وجْهُ كوْنِ الخِطابِ الخاصِّ بالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للأُمَّةِ لَه وجْهَانِ كَما تقَدَّم:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية...»، رقم (١٩٠٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أنَّ خِطابَ الزَّعيمِ خِطابٌ لَهُ ولِمَنْ تَبِعه؛ بِدليلِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطّلاق:١].

الوَجْهُ الثَّاني: أنَّنا مأمُورُونَ باتِّباعِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فكُلُّ خِطابٍ لَه يُؤْمَرُ بِه أوْ يُنْهى عنْهُ فإنَّنا تَبَعٌ لَه في ذَلِك، والفَرْق بيْنَ الوَجْهَيْن ظاهِرٌ؛ لأنَّهُ عَلَى الوَجْه الأوَّلِ يكُونُ تناولَ الخِطابَ لنا أصْلًا معَ الرَّسولِ ﷺ، وعَلى الوَجْه الثَّاني يكُونُ تَوْجِيهُ الخِطابِ لَنا عَنْ طَرِيق التَّبعيَّةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿فِطْرَتَ﴾: البحثُ فِيها مِن وَجْهَيْن:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: مِن حيْثُ الرّسمُ، فالرَّسم غيْرُ جارٍ عَلَى القواعِدِ المعْرُوفَةِ، لَا في الرَّسْم العُثْمانِيِّ، ولَا فِي الرَّسم الحاضِر، وجْهُ ذَلِك أنَّ التّاء مُطلَقَةٌ ﴿فِطْرَتَ﴾، وهِي مربوطَةٌ؛ لأنَّها مُفرَدٌ، والمُفْرَدُ تكونُ التّاءُ فِيه مربُوطَةً وليْسَ فِي القُرآنِ ﴿فِطْرَتَ﴾ مطلقَةٌ إلَّا هَذه، ولا نقُولُ مفتوحَةٌ؛ لأَنَّ الفَتْح ضِدَّ الكَسْرِ، نحنُ نُسمِّيها مربُوطَةً ومُطلقَةً؛ لأَنَّ ضِد الرّبْط الإطْلاقِ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: فخَطُّ القُرآنِ يتْبَعُ فِيه الرَّسم العثمانيَّ.

استِطْرادًا في البحْثِ اختَلف العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: هَل يجُوزُ لِلإنْسَانِ أنْ يكْتُب المصْحَفَ عَلَى غيْرِ الرَّسم العُثْمانِيِّ أوْ لَا يجُوزُ؟

فمِنْهُم مَن قَال أنَّه جائِزٌ؛ لأَنَّ الرَّسْم العُثمانِيَّ عبارَةٌ عنْ شكلٍ وَصُورةٍ، ولَوْ كَان الرَّسم العُثمانِيُّ فِي ذَلِك العهْدِ عَلَى غيْرِ هَذا الوَضْع لكُتِب القُرآنَ بِه.

إذَنْ: فخضُوعه للرَّسم العُثمانِيِّ فِي ذَلِك الوَقْت ليْس عَلَى سَبِيل أنَّه نزَل عَلَى هَذا الوَجْه، لكِن عَلَى سَبيلِ أنَّ الرَّسْم في ذَلِك الوَقْت كانَ عَلَى هَذِهِ الصّورَةِ، ولا شَكَّ

أنَّه لوْ كَان عَلَى الصُّورةِ المُوجودَةِ حاليًا لا شَكَّ أنَّه سيُكْتَب علَيْها، مثلًا (الصَّلاةَ) الصّورةُ الحالِيَةُ -يعْنِي القاعِدَةُ الحاضِرة- أن تكتب بعْدَ الصّادِ (لامَ ألف)، لكِن عَلَى الرَّسم العثمَانِي مكتوبٌ (لَام واوٌ)، الزّكاة مثلُها، والرِّبا أيضًا بالواوِ معَ أنَّها عَلَى الرّسمِ الموجُودِ بالألِف.

فالحاصِلُ: أنَّ بعضَ العُلَمـاءِ يقُول أنَّه يجُوزُ أنْ يُكتَب القُرآنُ عَلَى القَواعِـد المعْرُوفةِ حَالِيًا، وتعْلِيلُهم أنَّ هَذا الرَّسْم شكلٌ صادَف أنَّه في ذَلِك الوَقْتِ عَلَى هَذا النّحوِ فكَتَبُوه، وليْسَ القُرآنُ نَازلًا مكْتُوبًا بِهَذا، ولَو كَان نَازِلًا مكْتُوبًا بِهَذا لقُلْنا: رُبَّما لَا يجُوزُ لكِنَ هَذا اصْطِلاحٌ، وَإِذا كَان اصْطِلاحًا فكُلُّ مَا يتأَدَّى بِه الغَرضُ فإِنَّهُ يجُوزُ.

ومنْهُم مَن يقول أنَّه لا يَجُوزُ مُطلَقًا أنْ يخالَف الرَّسْمُ العثْمـانِيُّ، وأنَّهُ يَجِبُ أنْ يَبْقى الرَّسْمُ حتَّى لو رُسِمَتْ لِلصِّبْيانِ عَلَى السّبورةِ يَجِبُ أنْ يكُونَ بالرَّسْم العُثْمانِيِّ احترامًا للقُرْآنِ.

ومنْهُم مَن فَصَّل وقَال إِن المُبْتدِئَ يجُوزُ أن نرْسُمَه لَهُ بحسَبِ القَواعِد المعْرُوفةِ عنْدَه، وغيْرُه لا يَجُوزُ، قالُوا: لأَنَّ المبتَدِئَ يحتَاجُ إِلَى تعْلِيمٍ، ولَو أنَّك كتبْتَه بالرَّسْم العُثْمَانِيِّ للمُبتَدِئِ، وقلْت ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة:٢٧٦]، فإنَّه سيقْرَؤُها: (يمحق الله الرِّبَوْ)، وفي (الزّكاة) سيَقُول: (الزّكَوَة)، وفِي الصّلاة سيقولُ: (الصَّلَوَة)، وما أشْبه ذَلِك، بِخِلَافِ الإنْسان العالِمِ فإِنَّهُ يكتُبه بالرَّسْم العُثْمانِيِّ.

وأيًّا كَان مِن هَذِهِ الأَقْوال صَحِيحًا فإنَّ مَا يفْعَلُه بعْضَ النَّاس اليومَ مِن حيْثُ إنَّهم يكْتُبونَ القُرآنَ عَلَى صورَةِ النُّقوشِ ويجْعَلُونها فِي بَراوِيزَ أيُّهم أحْسَنُ نقْشًا؟! فإنَّ هَذا مُحرَّمٌ عَلَى كلِّ الأَقْوالِ؛ لأَنَّنا إذا عمِلْنا هَذا العمَل كأَنَّنا جعلْنَا القُرآنَ وشْيًا وتطْرِيزًا، فتَضِيع قيمَتُه، وأقْبَحُ مِن ذَلِك أنْ يُجْعَل عَلَى صُورَةِ إِنْسَانٍ، فقَدْ شاهدْتُ في منشورٍ

صورةَ إِنْسَانٍ فِي آيَةٍ مِن القُرآنِ جُعِل الرّأسُ والرِّجْلانُ كأنَّه جالسٌ مفترِشٌ، أعوذُ باللهِ، مُضادَّةٌ ظاهِرَةٌ ومُحَادَّةٌ للهِ ورسُولِهِ، الصّورةُ محرَّمَةٌ فكيْفَ تَكتُب بِها القُرآنَ، تجْعَلُها كِتابَةً لِلْقُرآنِ.

والحاصِلُ: أنَّ النّاسَ -نسْأَلُ الله لنَا ولهُم الهِدايَـةَ- صَارُوا يُبالِغُونَ فِي أشْياءَ تضرُّهُم، ولَا تنْفَعُهم بِالنِّسبَةِ للْقُرآنِ الكَرِيم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لَوْ كُتِب القُرآنُ الكَرِيمُ بالرَّسْم الحدِيثِ لضَاعتِ القِرَاءاتُ؟

قُلْنَا: صحيحٌ، لكِنَّ الَّذِين يقُولونَ بالجَوازِ يقُولونَ: نحْنُ نكْتُبهُ عَلَى قِـرَاءَةٍ واحِدَةٍ، والقِراءَاتُ الآنَ ضُبِطَتْ ليْسَ بِالرَّسْم، بَل ضُبِطَتْ الحرَكاتُ، وما سمعتُ بإجْمَاعٍ في هَذِهِ المسأَلَةِ، فالخلافُ فِي هَذا مشهُورٌ، ولَا يُوجَدُ إجْمَاعٌ.

والبحثُ الثّاني: في قوْلِه تَعالَى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾، مَا الَّذي نصبَها؟

الَّذِي نصَبها فِعْلٌ محذُوفٌ قدَّره المُفَسِّر بقولِه: (الزَموا)، أي: الزَموا فطْرَة الله، ومثْل هَذا يقُولونَ أنَّه منصُوبٌ عَلَى الإغْراءِ، فهُو إِذَنْ أبْلَغُ مِن ذِكْر العامِل الَّذِي هُو (الزَموا)، فحذْفُه أبْلَغُ لأنَّهُ إذا وُجِد العامِل تقيَّدَتِ الجُملَةُ بِه، لكِن إذا حُذِف العامِلُ صارَتِ الجمْلَةُ صالِحَةً لَهُ ولِسواهُ مِمَّا يُمْكِنُ أن يتسلَّط عَلَى المعْمُولِ: (الزَمُوها)، (اعْتَنُوا بِها)، (تمَسَّكُوا بِها)، ومَا أشْبَه ذَلِك؛ فلِهَذا يقُولونَ أنَّه منْصُوبٌ عَلَى الإغراءِ، وهُو المُبالَغَةُ فِي الحثِّ.

المبحث الثالث: كلمة ﴿فِطْرَتَ﴾ مشتقَّةٌ مِن (فَطَرَ الشّيء) أي ابْتَدعَهُ عَلَى غيْرِ مِثالٍ سابِقٍ كَما في قوْلِه تَعالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:١]، أيْ: مبْدِعهُما عَلَى غيْر مِثالٍ سابِقٍ، هَذِهِ الفِطْرةُ أبْدَعها الله عَزَّوَجَلَّ في الإنسانِ أوْ فِي النَّاس كَما فِي

لفْظِ الآيَةِ عَلَى غيْرِ مثَالٍ سابِقٍ؛ وَلِهَذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ خِلْقَتَه ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، وَهِي دِينُه، أيْ: الزَمُوهَا]. المُراد بالفِطْرة هُنا توْحِيدُ الله ودِينُ الله، وهذِه الآيَةُ شاهِدٌ للحدِيثِ الصَّحيح: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»(١). لو أنَّ المخلُوقَ تُرِكَ وفِطْرَتَه مَا عبَدَ إلَّا الله؛ ولِهَذا البهائِمُ العجمُ الَّتي ليْسَ لها مَا يُغرِيها أو يُصَرِّفُها: هلْ يُمكِن أنْ تعبُدَ اللاتَ والعُزَّى والشَّمْس والقَمر؟

الجوابُ: لَا؛ لأَنَّ الله تَعالَى يقُولُ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، فأصْلُ الخلْقِ مفطُورٌ عَلَى توْحِيدِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ: الخالِق، لكِنْ مَن أُعْطُوا العقولَ هُم الَّذين رُبَّما ينْحَرِفُونَ لأَنَّ لهم إرادَاتٍ واتِّجاهاتٍ بخلافِ مَنْ ليْسَ لَهُ إلا العقْلُ المعِيشيُّ، فإِنَّهُ لا ينْصَرِفُ عَن هَذِهِ الفِطرَةِ، وَلِهَذا البهائِمُ العُجْم -كَما قُلتُ- تعرِفُ خالِقَها وفاطِرَها ولَا تُسبِّحُ إلا الله.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ لدِينِه، أيْ لَا تُبَدِّلُوهُ بِأَنْ تُشْرِكُوا].

وقوْله تَعالَى: ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾ نفْيٌ؛ لأَنَّ ﴿لَا﴾ نافِيةٌ للجِنْس، فهَلْ هُو باقٍ عَلَى كونِه نفْيًا، يعْنِي لفْظًا ومعْنًى، أوْ أنَّه نفْيٌ لفظًا، خبَرٌ معْنًى؟ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشَى عَلَى الأَخِيرِ، وأنَّه نفْيٌ بمَعْنى النَّهيِ، أيْ: لَا تُبدِّلُوا هَذِهِ الفطْرَةَ بالإشْراكِ، والنَّفْيُ يأْتِي بمعْنَى النَّهيِ كثِيرًا، مثْلُ قوْلِه تَعالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ﴾ [البقرة:١-٢]، فِيها تفْسِيرانِ كَما تقدَّم أحدُهُما أنَّها بمَعْنى النَّفيِ، أيْ: ليْسَ فِيه رَيْبٌ ولا شَكٌّ، والثَّانِي بمعْنَى النَّهيِ لا ترتابوا فيه، ومثل قوْله تَعالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج:٧]،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم (١٣٨٥).

فقوْله تَعالَى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أيْ لا تُبدِّلُوا خلْقَ الله بالإشْراكِ، بَلْ أَقِيمُوا وُجوهَكُم حُنَفاءَ، ويَجُوز أنْ يكُونَ نفْيًا عَلَى ظاهِرِه، وأنَّه لا أحَد يُبَدِّلُ خلْقَ الله كَما فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٥]، ويكُونُ المَعْنى أنَّ الأَمْر بيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ، فمَن شَاء هُدَاه بَقِي عَلَى فطْرَتِه، ومَنْ شَاء أنْ يُضلَّه أضلَّه، فلا أحَدَ يسْتَطِيعُ أن يبَدِّل خلْقَ الله، وإنَّما الَّذي بيَدِه الأَمْرُ هُو الله، وعَلى هَذا يكُونُ فِي الآيَةِ وجْهَانِ:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنَّها خبَرٌ بمَعْنى النَّهْي.

الوَجْهُ الثَّاني: أنَّها خبَرٌ عَلَى بابِها.

وعَلى الأوَّلِ الأَمرُ ظاهِرٌ، يعْني: المَعْنى ظاهِرٌ أنَّكُم لا تُبدِّلُوا، فيكُونُ الله نَهانَا عَن الإشْراكِ، وعَلى الثَّاني يكُونُ وجْهُه أنَّ هَذِهِ الفِطْرَةَ الَّتِي فطَر الله علَيْها الخلْقَ، لا أحَد يسْتَطيعُ أنْ يُبدِّلَها، بَلِ الَّذي يُبدِّلُها هُو الله، فمَنْ أَراد الله هِدايَتَه لَنْ يُضِلَّه أحَدٌ، وَمن أرَادَ الله إضْلالَه لَنْ يهْدِيَه أحَدٌ، لا سِيَّما أنَّه قالَ قبْلَ هَذا، ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، فمَا قالَه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ له وجْهٌ؛ لوُرُودِ ذَلِك فِي اللُّغَةِ العرَبِيَّة، والوَجْهُ الثَّاني هُو الأَصْل؛ لأَنَّ الَّذي عنْدَنا نفْيٌ، فمَنْ صرَفَه عَنْ ظَاهِره يحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَذا التَّفْسيرُ أَلا يُوافِق قولَ الجَبريَّةِ؟

فالجوابُ: لَا، الرّسولُ ﷺ يقولُ فِي خُطْبَتِه: «مَنْ يَهْدِهِ الله فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ»[1]، لا أحَدَ يسْتَطِيعُ هِدايةَ إِنْسَانٍ أبدًا، أو انحرافَ إِنْسَانٍ إلَّا بإِذْنِ الله، هَذا النّبيُّ ﷺ حرِصَ غايَةَ الحِرْصِ وَبذَل ما يستَطِيعُ مِن جهْدٍ فِي هِدايَةِ عمِّه

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

أَبِي طالِبٍ، ولكِن لم يتمَكَّنْ، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]، وليْسَ معْنَى ذَلِك أَنَّنا إِذا قُلْنا: إِنَّ الأَمْر بيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ وَأَنَّه هُو الَّذي يُضِلُّ ويَهْدِي، ليْسَ معْنَى ذَلِك أَلَّا نفعلَ الأَسْبابَ كَما أَنَّ الأَمْر بيَدِ الله فِي إِيجادِ الأَشْياء، إِيجادِ الرِّزْقِ وإِيجادِ الوَلَدِ، وَدَفْع الضَّرر، بل نفْعَلُ الأَسْبابَ، ونَقولُ: الهدايَةُ بِيَدِ الله، والإِضلالُ بِيَدِ الله، لكِن لكُلٍّ منْهُما سبَبٌ مِن جُمْلَة أَسْبَابِ التَّبْديلِ.

ومِن جُملَةِ أَسْبَابِ التَّبدِيل مَا ذَكرَهُ الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في قولِه: «فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»(١)، وذِكْرُ الأَبَوَيْن ليْس عَلَى سبيلِ الحَصْر، وإِنَّما هُو عَلَى سبيلِ التَّنْظيرِ والتَّمْثيلِ، يعْني أَنَّ مَن يتَّصِلُ بِهَذا الإِنْسانِ يجْعَلُه يهودِيًّا أو نصْرَانِيًّا، وكَمْ مِن إِنْسَانٍ تنَصَّر لَا عَنْ طَرِيق الأَبَوَيْن، ولكِن عَن طَرِيقِ الجُلَساءِ والرُّفقاءِ ومن ثمَّ حذر النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مِن جَلِيسِ السُّوءِ ورَغَّب فِي الجَلِيس الصَّالِح، وقَال: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»(٢).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما معْنَى النَّفْيِ فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾؟ [النساء:٩٢]، (مَا كَان لمُؤْمِنٍ)، هَذِهِ بمَعْنى أَنَّه ممتَنِعٌ غايَةَ الامْتِناعِ؛ لأَنَّ (مَا كَانَ) (ومَا ينْبَغِي) ومَا أَشْبَهَ ذَلِك فِي القُرآنِ، تأْتِي بمَعْنى امتَنَع غايَةَ الامْتِناعِ، وأَيْضًا مثْل قوْلِه تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ [التوبة:١١٥].

---

(١) تقدم قريبًا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، رقم (٢٦٢٨).

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المُسْتَقِيمُ تَوْحِيدُ الله]، ﴿ذَٰلِكَ﴾ المُشارُ إِلَيْهِ قوْلُه تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أيْ: إِقامَةُ وجْهِك لِلدِّين حنِيفًا هُو الدِّينُ القَيِّمُ، قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ المُسْتَقِيمُ]، لكِنَّ (القَيِّم) أبْلَغُ لأَنَّ القَيِّمَ عَلَى وزْنِ (فَيْعِل)، فهِي صفَةٌ مشبَّهَةٌ يَعْني هُو قَيِّمٌ، أبلَغُ مِن قوْلِنا أنَّه مستَقيمٌ؛ لأَنَّ المستَقِيمَ ضِدَّ المعوَجِّ، لكِنَّ القيِّم الكامِلَ في قِيَامِه فهُوَ أَبْلَغُ، يعْنِي أنَّ هَذا الدِّينَ هُو الدِّينُ القَيِّمُ، أي الكامِلُ الَّذِي ليْسَ فِيه اعْوِجاجٌ، وَلَيْس فِيه نقْصٌ ولا شَكَّ أنَّه هُو القَيِّمُ، كَما قَال الله تَعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، فلَا أقُومُ لِلْعبادِ وَلا أنْفَعُ لِلْعِبادِ مِنَ اتِّبَاعِ شَرِيعَةِ الله تَعالَى.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أيْ كُفَّارُ مَكَّةَ، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ تَوْحِيدُ الله]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كُفَّار مكَّةَ]، وَهَذا لا شكَّ أنَّه تخْصِيصٌ بدُونِ دَلِيلٍ، بَل الدَّلِيلُ يُخالِفُه؛ لأَنَّ كُفَّار مكَّةَ ليْسُوا أكْثَر النَّاسِ، ثمَّ إِنَّ الله يقُولُ: ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾، مَا قَال: أهْلُ مكَّةَ، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وصدَق الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّ أهْلَ النَّارِ مِنْ بَنِي آدَم تسْعُمِئَةٍ وتِسعَةٌ وتِسعُونَ مِن الألفِ، فهُم الأَكْثَرُ، أكثَرُ النَّاسِ لا يعْلَمُونَ، لَو علِمُوا ما كَانُوا مِنْ أصْحابِ الجَحِيم، فهُمْ لا يعْلَمُون.

ومَا معْنَى قوْلِه تَعالَى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، أيْ: لَا يعْلَمُونَ أنَّ هَذا هُو الدِّينُ القَيِّمُ، أوْ لا يعْلَمُون مَا ينْبَغِي لهُم أنْ يكُونُوا علَيْه، أمْ مَاذا؟

نقولُ: الآيَةُ مُطلَقَةٌ، فتشْمَل كُلَّ شيْءٍ يُنافِي هَذا الدِّينَ، فمَن خَرَج عَنْ هَذا الدِّين فإِنَّهُ لا يعْلَمُ أنَّ هَذا الدِّينَ قَيِّمٌ، وإِنْ عَلِم بِه ولم يتْبَعه صَار علْمُه كالمعدُومِ، كَذَلِكَ لا يعْلَم حَقِيقةَ أمْرِه وحالِه، وأنَّه يجِبُ أنْ يكُونَ دائِنًا للهِ عَزَّوَجَلَّ بِما دَان بِه خلْقَه،

كَذَلِكَ لا يعْلَمُ مَا يترتَّبُ عَلَى هَذا مِنْ جَزاءٍ بالثَّوابِ الجزِيل لمنْ قَام بِهِ، وبِالعُقوبَةِ والعَذابِ الأَلِيم لمَنْ خالَفه.

المُهِمُّ: أنَّ حذْف المفعُولِ يقْتَضي العُمُومَ، وهذِه قاعِدَةٌ معروفَةٌ عنْد أهْل العِلْم، أنَّ حذْف المعْمُول يُفِيدُ العُمُومَ، ولَهُ أمْثِلةٌ كثِيرَةٌ في القُرآنِ، وفِي كَلامِ العَربِ، ومِنْه -بَلْ مِن أوْضَحِه- قوْلُه تَعالَى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٦-٨]، قولُه تعالى: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ الإيواءُ للرَّسولِ ﷺ ولِمَنْ تَبِعَه، وقولُه: ﴿ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ الهدايَةُ له ولِمَنِ اهْتَدى بسُنَّتِه، وقولُه: ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ الغِنَى لهُ ولأُمَّتِه، قَال ﷺ: «وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي»(١).

المُهِمُّ: أنَّ تخصِيصَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقولِه: [كُفَّار مكَّةَ] لَا وجْهَ لَهُ، والصَّوابُ أنَّ أكْثَر النَّاس مِن بَني آدَم -مِن كُفَّارِ مكَّةَ وغيرِهم- لَا يعْلَمُون.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كونُ السّورة مكيَّةً ألا يدُلُّ عَلَى أنَّ الخِطابَ خاصٌّ بأهْلِ مكَّةَ، كَما قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟

إذَا قُلنا بالعُمُومِ شَمِل كُفَّارَ مكَّةَ، فكَان فِيه التَّسلِيَةُ للرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأمَّا كوْنُ السُّورَةِ مكيَّةً فَلا يدُلُّ عَلَى أنَّ جَمِيعَ الخِطاباتِ الَّتي فِيها تُشِيرُ إِلَى أهْل مكَّةَ، بلْ هِي عامَّةٌ.

مسْألةٌ: هلْ يأْجُوجُ ومأْجُوجُ مِن بَني آدَم؟

نعَم، هُم مِن بَني آدَم؛ وَلِهَذا الصّحابَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لما حدَّثَهم بأنَّ بعْثَ النَّارِ تِسعُمئَةٍ وتِسعةٌ وتِسعُونَ مِن الألف فَزِعوا، قَالُوا: يا رَسُولَ الله أيُّنا ذَلِك الواحِدُ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾، رقم (٣٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢١).

فقَال لَهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَبْشِرُوا فإنَّكُم لَمع خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتَا فِي شَيْءٍ إِلَّا كَثَّرَتَاهُ، يَأْجُوجُ ومَأْجُوجُ»(١).

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: وُجوبُ الإِخْلاص للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: أن الإِخْلاص لا يتِمُّ إلا بسلْبٍ وإيجابٍ، وهُو مضْمونُ قولِ الإِنسانِ: (لَا إلَه إِلَّا الله)، فإِنَّ هَذِهِ الجملَة العَظِيمةَ مشْتَمِلةٌ عَلَى النَّفْي والإِثْبَات، ولا إخْلاصَ إلا بنَفْيٍ وإثْبَاتٍ، فهَذِه الآيَةُ فِيها نفْيٌ وإثْبَاتٌ، فقوْلُه تَعالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ إثْبَاتٌ، وقوْلُه تَعالَى: ﴿حَنِيفًا﴾ نفْيٌ يعْنِي مَائِلًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوْلُه تَعالَى: ﴿حَنِيفًا﴾ هَل يُؤخَذُ منْه سلبٌ وإِيجابٌ؟

فالجوابُ: يُمْكِنُ أنْ يُؤخَذ بطَرِيق اللُّزومِ، ولكِن ليْس لَهُ داعٍ، وعنْدَنا قوْلُه تَعالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: أنَّ الإِخْلاص هُو الفِطْرة، نأْخُذه مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، فتكونُ الآيَةُ هَذِهِ شاهِدةً لقَوْلِ الرّسولِ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ»(٢).

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: إثْبَاتُ الخَلقِ للهِ، وأنَّه الخالِقُ وحْدَه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحج، رقم (٣١٦٩).

(٢) تقدم قريبًا.

الفائِدَتانِ الخَامسَةُ والسَّادِسَةُ: أن ما يقدره الله عَزَّوَجَلَّ لا يمكن أن يُغير لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ عَلَى أحَدِ المَعْنَيَيْن، أمَّا عَلَى مَا ذَهَب إِلَيْهِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيُسْتفَادُ منْه النَّهْيُ عَن الشِّرْكِ.

هل يمْكِنُ أن نقولَ: إنَّ الآيَة تدُلّ عَلَى المعْنَيَيْن جمِيعًا، وأنَّها صالِحَةٌ للمَعْنَيَيْن جَمِيعًا، يعْنِي صالِحَةٌ كَي تكونَ للنَّفْي، وأنْ تكُونَ خبرِيَّةً أوْ أنْ تكُونَ للطَّلبِ فتكونَ إنشَائِيَّةً؟

في الحقيقةِ: أن الإنشاءَ والخَبَر مُتعارِضَانِ، لكِن إذا جعَلْنا كُلَّ واحِدٍ عَلَى انْفِرادٍ بمعْنَى أنَّنا لَا ندْرِي هَلْ أرادَ الله هَذا أوْ هَذا، ومَا دامَتِ الآيَةُ صالِحَةً لهَذَا وَلِهَذا، فإنَّنا نقولُ: هِي لِلْمعْنَيَيْنِ جمِيعًا، يعني أنَّه لا أحَدَ يسْتَطِيعُ أن يُغيِّر مَا خلَق الله، ولَا يجُوزُ لَنا نحْنُ أنْ نغيِّرَ هَذِهِ الفِطْرَةَ الَّتي خُلِقْنا علَيْها مِن الإِخْلاص إِلَى الشَّرك.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّ أقوَم الأَدْيانِ مَا بُنِي عَلَى الإِخْلاص؛ لقَوْلِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، المشارُ إِلَيْهِ هُو ما سَبق مِن الفِطْرة التّي فُطِر النّاسُ عليْها، والتّي أمَر الله بِها في قوْلِه تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ فالدِّينُ القيِّمُ هُو الَّذي أقَامَ الإنسانُ فِيه وجْهَه للهِ حَنِيفًا، وهِي الفِطْرةُ الَّتي فُطِر النّاسُ علَيْها.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أنَّ هَذا الدِّين المَبْنِيَّ عَلَى الإِخْلاص اجْتَمع فِيه الشَّرْعُ والفِطْرَةُ، أمَّا الشَّرعُ فلأنَّهُ أُمِر بِه، وأمَّا الفِطرة فلأَنَّ النَّاس خُلِقوا علَيْها وجُبِلوا علَيْها، ولوْلا ما يحْصُل مِن المَوانِع والعوارِضِ لِبَنِي آدَم لكَانَ النَّاسُ كلُّهم مُؤْمِنِينَ عَلَى الفِطْرَةِ كَما جَاء فِي الحَدِيثِ: «أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[1].

---

(١) تقدم قريبًا.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أنَّ أكْثَر النَّاسِ فِي هَذا البَابِ عَلَى جهْلٍ وضَلالٍ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فهُمْ بَيْن أمْرَيْن، إمَّا عالِمٌ استكْبَر فعِلْمُه لَمْ ينْفَعْه، وإمَّا جَاهِلٌ، فالعامَّةُ المتَّبِعونَ لرُؤَساءِ الكُفْر والضَّلالِ نَصِفُهم بالجَهل وعدَم العِلم، والزُّعماءُ منْهُم العارِفُون نَصِفُهم بالجَهْل لِعدَمِ انْتِفاعِهم بِما عَلِمُوا، لكنَّهم في الحقيقَةِ يستَحقُّونَ وصْفًا أعظَمَ، فهُم جَاهِلُونَ مُستكْبِرونَ، والمُخالَفَةُ عَن عِلْمٍ تُسمَّى (الجَهْل المُركَّب)، فهؤُلاءِ الزُّعماءُ -والعِياذُ باللهِ- يعْلَمُون أنَّهم عَلَى ضَلالٍ، قَال الله تَعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤]، وقَال مُوسَى لِفِرْعَوْنَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:١٠٢]، ولم يقُل فرْعَوْنُ: إنَّني مَا علِمْتُ، فسكُوتُه إقْرَارٌ، لكِنْ عنْدَهُم -والعياذُ باللهِ- العِنَادُ.

• • ❁ • •

الآيتان (٣١، ٣٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الرّوم:٣١-٣٢].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مُنِيبِينَ﴾ رَاجِعِينَ]، مِن (أنابَ يُنِيب)، إذا رَجع، وقوْلُه تَعالَى: ﴿إِلَيْهِ﴾، يعْنِي إِلَى الله تَعالَى فِيما أَمَر بِه، ونَهى عنْه يعْنِي الرُّجوعَ مِن معْصِيَةِ الله إِلَى طاعتِهِ، وقبْلَ ذَلِك مِن الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحيدِ، هَذَا معْنَى الإِنابَةِ.

وقد أَثْنى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى المُنِيبِينَ علَيْه، كَما فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص:٢٤]، فالإِنابَةُ مِن أفْضَل الأَحْوَالِ لِلْعابِدِينَ؛ لأَنَّ المُنِيبَ إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دَائِمًا يذْكُر الله بقلْبِه؛ لأَنَّهُ يعْلَمُ أَنَّه قدِ انْتَقل مِن معصِيَتِه إِلَى طاعَتِه، ومِنَ الإِشْراكِ بِه إِلَى توْحِيدِه؛ حتَّى يعْبُدَ الله كأَنَّهُ يَراهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَراهُ فإِنَّ الله يَراهُ.

يقُولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [حَالٌ مِنْ فَاعِلِ (أَقِمْ)، وَمَا أُرِيدَ بِه: أَيْ أَقِيمُوا]، حالٌ مِن فاعلِ (أَقم) فِي قولِه تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾، [وَمَا أُرِيدَ بِه] لأَنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ قالَ: [﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أَنْتَ ومَنْ تَبِعَك]، فتكُون ﴿مُنِيبِينَ﴾ حالًا مِنَ الفَاعِل ومَا تَبِعه، وَهَذا مبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الخطابَ في قوْلِه: (أَقِم) لِلرَّسولِ ﷺ شخصِيًّا، أَمَّا إِذا قُلْنا: إِنَّ المُرادَ بِه الأُمَّة خُوطِب بِها زَعِيمُها فَلا حاجَةَ إِلَى هَذا التَّقْدِير،

فنقُول: ﴿مُنِيبِينَ﴾ حالٌ مِن فَاعِل (أَقِم)، ولَا مَانِعَ أنْ يكُونَ جمْعًا؛ لأَنَّ المُرادَ بالمُفْرَدِ في أوَّل الآيَةِ الجمْعُ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ خَافُوهُ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾].

التَّقْوَى مأخوذَةٌ مِن الوِقايَةِ، وأصْلُها (وَقْوَى)، والمُراد بالتَّقْوى اتِّخاذُ وِقايَةٍ مِن عذَابِ الله بفِعْل أوَامِره واجْتِنابِ نَواهِيه، وجَميعُ التَّفاسِير الَّتي فُسِّرت بِها التَّقوى ترْجِعُ إِلَى هَذا المَعْنى الجَامِع العَامِّ، وهِي اتِّخَاذُ وِقايَةٍ مِن عَذابِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِفِعْل أوامِره واجْتِنابِ نَواهِيه، فمَنْ كَان يعْبُدُ الله بِفِعْل الأَوامِر لكِنَّهُ يفْعَلُ النَّواهِيَ فليْسَ بمُتَّقٍ، عنْدَه تقْوَى مِن وجْهٍ دُونَ وجْهٍ.

واعْلَم أنَّ التَّقوى عنْد الإطْلاقِ تشْمَلُ الدِّينَ كُلَّه كَما يقْتَضِيه هَذا التَّفْسيرُ، فإِنْ قُرِنَتْ بالبِرِّ كقوْلِه تَعالَى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢]، صَار المُرادُ بِها ترْكُ المحْظُوراتِ، وصارَ المُرادُ بالبِرِّ فِعْلُ المأْمُوراتِ، وَهَذا اللَّفْظ لهُ نَظِيرٌ كثِيرٌ في اللُّغَة العرَبِيَّةِ، يكُونُ اللَّفْظ لَهُ معْنًى عنْد الانْفِرادِ ومعْنًى آخَر عنْد الاجْتِماعِ، والَّذي يُعَيِّن ذَلِك هُو سِياقُ الكَلامِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: ائْتُوا بها قويمةً، وليْسَ المُراد بإِقامَتِها لفْظُ (قَدْ قامَتِ الصَّلاةُ)، بَل أنْ تأْتِي بِها قَويمَةً، وإِقامَتُها عَلَى نوْعَيْن:

- إقامَةٌ واجِبةٌ لا بُدَّ لصحَّةِ الصَّلاةِ مِنْهَا، وذَلك: الإِتيانُ بِالشُّروطِ والأَرْكانِ والوَاجِبَاتِ.

- وإقامَةٌ مُكمِّلةٌ، وهِي إضافَة المُستحبَّاتِ إِلَى ما ذُكِر، فإِنَّ هَذِهِ إقامَةٌ مُكمِّلةٌ،

ومِن إقامَتِها المُكمِّلةِ أنْ يَأْتِي الإِنْسانُ بالنَّوافِلِ؛ لأَنَّ النَّوافِلَ -صلاةُ تطوُّعٍ- تُكَمِّلُ بِها الفَرائِضُ يوْمَ القِيامَةِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: عَطْفُها عَلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ مِن بَاب عطْفِ الخَاصِّ عَلَى العامِّ، وعطْفُ الخاصِّ عَلَى العامِّ يقْتَضِي زيادةَ الاعتناءِ به فهو دليلٌ عَلَى أهمِّيةِ الصّلاةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: الخِطابُ هنا يعودُ عَلَى الفاعلِ في ﴿مُنِيبِينَ﴾، يعني حالَ كَوْنِكُم مُنِيبينَ غيرَ مُشركينَ أيضًا في إنابَتِكُم.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يُشرِكونَ باللهِ وهو شاملٌ للشركِ الأصغرِ، والشّركِ الأكبرِ، وَلِهَذا يُنهى الإنسانُ أنْ يفعلَ الشّركَ أيًّا كان نوعُهُ، قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ الشِّرْكَ لَا يَغْفِرُهُ الله وَلَوْ كَانَ أَصْغَرَ، وَالكَبَائِرَ تَحْتَ المَشِيئَةِ»[1]، واستدلَّ لِذَلِكَ بقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨]، ووجهُ الدَّلالةِ من الآيَة أنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ مُؤَوَّلٌ بمصدرٍ، فيكونُ المَعنى (إِنَّ الله لَا يَغْفِرُ إِشْرَاكًا بِهِ)، فهو إِذَنْ نكرةٌ في سياقِ النّفي، فيشملُ جميعَ أنواعِ الشّركِ، وَلِهَذا قال ابنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا»[2]؛ لأَنَّ سيئةَ الشّركِ أعظمُ من سيئةِ الكَذِبِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل ما ذهبَ إِلَيْهِ شيخُ الإِسْلامِ صحيحٌ؟

قُلْنَا: ظاهرُ الآيةِ أنه صحيحٌ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: فالشّركُ الأصغرُ لا يُخَلِّدُ صاحبُه في النَّارِ، بل يُعَذَّبُ به ولا بُدَّ.

---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية (٢/ ٢٥٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٨/ ٤٦٨، رقم ١٥٩٢٩).

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: إذا قِيلَ: إن هَذا خطابٌ للرسولِ ﷺ والشّركُ في حقِّه ممتنِعٌ.

قُلْنَا: لا يمتنعُ أنْ نُخَاطِبَ شخصًا بإثْبَاتِ ما هو علَيْه، أو بنفي ما هو مُنْتَفٍ عنه، ويكون المعنى الثُّبوت عَلَى ما ذُكِرَ، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النّساء:١٣٦]، هم مؤمنونَ، لكن المعنى: اثبتوا كَذَلِكَ، فأنتَ إذا قُلتَ لشخصٍ: (لَا تُشْرِكْ)، وهو لا يشركُ، صار المعنى: اثبت عَلَى نفي الشِّركِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ بَدَلٌ بِإعَادَةِ الجَارِّ]، بدلٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وأفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ البدلَ عَلَى نوعَيْنِ، تَارَة بإعادةِ العاملِ، وتَارَة يكونُ بعدمِ الإعادةِ، فإذا قلتَ: (مَرَرْتُ بِزَيْدٍ أَخِيكَ) فَهَذَا بعدمِ إعادةِ العاملِ، وإذَا قُلْتَ: (مَرَرْتُ بِزَيْدٍ بِأَخِيكَ) فهَذا بإعادةِ العاملِ، وهنا قَالَ: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ مِنَ ٱلَّذِينَ﴾، بدلٌ بإعادةِ العاملِ الَّذي هو حرفُ الجَرِّ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ بِاخْتِلافِهِمْ فِيمَا يَعْبُدُونَهُ، ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ فِرَقًا فِي ذَلِكَ ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾ مِنْهُمْ ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ عِنْدَهُمْ ﴿فَرِحُونَ﴾ مَسْرُورُونَ].

قوْله تَعالَى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾: هَذَا وَصْفٌ لهَؤُلاءِ المُشْرِكِينَ، وصفٌ مذمومٌ ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ حيْثُ كان لكلِّ واحدٍ منهم مِلَّةٌ ونِحْلَةٌ، فهَؤُلاءِ يعبدونَ حَجَرًا، وأولئكَ يعبدونَ شمسًا، والآخرونَ يعبدونَ قمرًا، والرّابعُ يعبدُ شجرًا... وهكَذا، ثمَّ إنَّ لهم نِحَلًا مختلفةً فيما يَسْلُكونَهُ في مِنْهَاجِ عِبادتِهم، فَهُمْ فرَّقوا دِينَهُم، وفي قوْله تَعالَى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ أي: شَتَّتُوهُ ووزَّعُوه، دليلٌ عَلَى أنَّه لا ينبَغِي للأمَّةِ الإسْلامِيَّة أنْ تُفَرِّقَ دِينَها؛ فاليهودُ والنّصارى فرَّقوا دِينَهُم، اليَهُودُ

افْتَرَقُوا عَلَى إحْدى وسبعينَ، والنَّصارى افْتَرَقُوا عَلَى اثنتَيْنِ وسبعينَ[1]، والمشركونَ الجاهليُّونَ حَدِّثْ ولا حَرَجَ في افتراقِهِم، فهَؤُلاءِ فرَّقوا دِينَهم، ودِينُهم ما يَدِينُونَ به، سواء كانوا يَدِينُونَ لِمَخْلُوقٍ أو لِخَالِقٍ عَلَى زَعْمِهِمْ؛ لأَنَّ المُشْرِكِينَ يقُولونَ في آلهتِهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، أولئكَ أُناسٌ آخرونَ يَعْبُدُونَ ما يَعْبُدُونَ مِن الآلهةِ لا لِتُقَرِّبَهُمْ إِلَى الله، لكنْ لاعتقادِ أنَّها هي الآلهةُ وأنه لا إِلَهَ إلا هَذا المعبودُ عِنْدَهُمْ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾: شِيَعًا يعني فِرَقًا، وأَصْلُ التَّشَيُّعِ أو الشِّيعة أصلُها الانتصارُ للشيء، فيُقَالُ: (شِيعَةُ فُلانٍ) أي أنصارُه فَهُم شِيَعٌ، كلُّ طائفةٍ منهم تَنْصُرُ ما هي علَيْه وتؤيِّدهُ، يعني أنهم لم يقتصِرُوا عَلَى أن تَفَرَّقُوا فقط، بلْ كل واحدةٍ تدعو إِلَى ما هي علَيْه، ومعلومٌ أن من يدعو إِلَى ما هو علَيْه لا بُدَّ أن يحذرَ ممَّا يخالِفُه إذْ لا يتِمُّ الانتصارُ إلا بهذا.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كُلُّ حِزْبِۭ﴾ مِنْهُمْ].

حِزْبٌ بمعنى طَائِفَة، وسُمِّيَتِ الطَّائِفَة المُتَّفِقة عَلَى رَأْيٍ أو هَدَفٍ أو دِينٍ سُمِّيَتْ حِزْبًا؛ لأَنَّ كلَّ واحدٍ منْهَا يَحْزِبُ الآخَرَ أي يُقَوِّيهِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾: أي بالَّذي ﴿لَدَيْهِمْ﴾، بمعنى عندَهُم.

وهل ﴿لَدَيْهِمْ﴾ صِلةُ الموصولِ أو متعلقُها صلةُ الموصولِ؟

مُتَعَلقُها هو صِلة الموصولِ؛ لأَنَّ (لَدَى) ظرفٌ، بُنِيَ عَلَى السُّكونِ هنا لإضافَتِه

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب شرح السنة، رقم (٤٥٩٦)، والترمذي: أبواب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، رقم (٢٦٤٠).

إِلَى الهاء، وإلَّا فأصلُها مبنيٌّ عَلَى فَتْحٍ مُقَدَّرٍ عَلَى آخِرِه، تقولُ: (جَلَسْتُ لَدَى زَيْدٍ) أي عِنْدَهُ، لكنْ هنا أُضِيفَ إِلَى الهاء، مثل: (إلى) أُضِيفَتْ إِلَى الهاء، يُقال فيها: (إليه)، و(على) يُقال فيها: (عليه)، وتقدَّم أنَّ الصلةَ هي متعلقُ الظَّرف، والجارُّ والمجرورُ يُقَدَّرُ فِعْلًا، بخلافِ خبر المُبتدأ فإِنَّهُ يُقَدَّرُ اسمًا، فإذَا قُلْت: (زَيْدٌ عِنْدَكَ) فالتّقديرُ: (زَيْدٌ عِنْدَكَ كَائِنٌ، أَوْ مُسْتَقِرٌّ)، وإذَا قُلْت: (أَكْرَمْتُ الَّذِي عِنْدَكَ)، أقولُ: (الَّذِي اسْتَقَرَّ عِنْدَكَ)، والفرقُ بَيْنَهُما أنَّ الأصلَ في خبرِ المبتدأ أنْ يكُونَ مفردًا يعني لا جُمْلة، وأمَّا صلةُ الموصولِ فالأصلُ أنْ تكونَ جملةً، عَلَى أنَّه يجوزُ أنْ تُقَدِّرَ (مُسْتَقِر) في صلةِ الموصولِ، لكنْ إذا قَدَّرْتَ المُسْتَقِرَّ في صلةِ الموصولِ فإِنَّهُ يجبُ أنْ تُقَدِّرَ مبتدأً لتكونَ جملةً، ومنْ أجلِ هَذا قلنَا: إنَّ الأَوْلى أنْ يقدِّرَ مِنَ الأصلِ فِعْلًا حتى لا يحتاجَ إِلَى تقديرِ مُبْتَدأ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَرِحُونَ﴾: خَبَرُ ﴿كُلُّ﴾. وقالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَسْرُورُونَ]، لكن هَذا الفَرَحُ إنما وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ به لأَنَّ مَنْ فَرِحَ بشيء لازَمَهُ، ولكنَّهُ فَرَحٌ مذمومٌ لأَنَّهُ فرحٌ بِباطلٍ، والفَرَحُ بالباطلِ لا شَكَّ أنَّه باطلٌ، لكنْ لو فَرِحُوا بما عندهُم من الحقِّ لَكَان فرحًا مسرورًا؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]، فالفرحُ لا يُذَمُّ من حيْثُ هو فرحٌ، ولكنه يُذَمُّ من حيْثُ مُتَعَلِّقه فإن كان فرحًا بباطلٍ فهو مذمومٌ، وإن كان فرحًا بحقٍّ فهو محمودٌ، أمَّا الأَشَرُ والبَطَرُ الَّذي يَنتجُ عن الفرح فَهَذَا مذمومٌ بكلِّ حَالٍ، حتى لو كان فرحُ الإنسانِ بحقٍّ وأدَّاهُ ذَلِك الفرحُ إِلَى الأَشَرِ والبَطَرِ، مثل أنْ يفرحَ بما أعطاهُ الله من المالِ والبنينَ لكِنَّهُ -وَالعياذُ بِاللهِ- يتخذُ من هَذا وسيلةً إِلَى العُلُوِّ والاسْتِكْبَارِ، فإنَّ ذَلِك فَرَحٌ مذمومٌ لِنَتيجَتِه لا لِذَاتِه.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ إذا طَبَّقْناهُ الآن عَلَى الأحزابِ الموجودةِ وأنَّ كلَّ حزبٍ فَرِحٌ بما هو عليْه مُسْتَمْسِكٌ به مُدَافِعٌ عنه مُوهِنٌ لِغَيرِهِ وَجَدْنَا أنَّ الآيَةَ تَنْطَبِقُ تمامًا عَلَى ما يوجدُ الآن مِنَ الأحزابِ وَلا سِيَّما في الأمةِ العربيةِ، الأمةُ العرَبِيَّةُ الآنَ مُتَحَزِّبَةٌ، كلُّ حزبٍ فَرِحٌ بما عندهُ، لكنَّ الأمةَ الإسْلامِيَّةَ لا تَتَحَزَّبُ لأنَّها حزبٌ واحدٌ هو الإسْلامُ حتى لو اختلفَتْ آراؤهُم، هَذا شافعيٌّ وَهَذا مالكيٌّ وَهَذا حنفيٌّ وَهَذا حنبليٌّ وَهَذا ظاهريٌّ وما أَشْبَهَ ذَلِكَ، فإنها في الحقيقةِ مُتَّفِقَةٌ؛ لأَنَّ كل واحدٍ من هَذِهِ الأحزابِ لا يُضَلِّلُ الآخرَ، بل إنَّه يمدحُه إذا خالَفه بمقتضَى الدَّليلِ عنده، الإنسانُ العاقلُ المؤمنُ حَقًّا هو الَّذي إذا خالَفه غيرُه بمقتضى الدّليلِ عنده لا يَكْرَهُه بل يَحْمَدُه عَلَى هَذِهِ المخالفةِ؛ لأَنَّهُ ما خالَفني لأني فُلان، خالَفني لأَنَّهُ يعتقدُ أنَّ الحقَّ معه، وَهَذا هو الواجبُ عليه، وواجبٌ عَلَى كلِّ مؤمنٍ أنْ يتبعَ الحقَّ إذا تَبَيَّنَ له ولو خَالَفَ غيره.

إِذَنْ: فالطَّريقُ واحدٌ ولو اختلفَ المِنْهَاجُ؛ لأننا كلنا نُحَكِّمُ الكتابَ والسُّنةَ، وكلنا نعتقدُ أنَّ هَذا هو الحَق، فلماذا أَكْرَهُه لأَنَّهُ خالَفني؟ والله تَعالَى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، نَعَمْ مَنْ تَبَيَّنَ لهُ الحَقُّ وأَصَرَّ وعاندَ وعَلِمْنَا أنَّه مُجادِلٌ بالباطلِ فَهَذَا يَنزِلُ مَنزِلتَه، وَهَذا هو الميزانُ في قولهم: (لا إِنْكَارَ فِي مَسَائِلِ الاجْتِهَادِ)، فإن هَذِهِ العبارةَ اشتهرَتْ عَلَى الألسُنِ لكنها ليستْ عَلَى إطلاقِها؛ لأَنَّ مسائلَ الاجتهادِ نوعانِ:

أحدهُما: ما يَحْتَمِلُه الاجتهادُ، فَهَذَا لا إنكارَ فيه لأَنَّ كلَّ إِنْسَانٍ إذا اجتهدَ؛ إِنْ أصابَ فلهُ أجْرانِ، وإِنْ أخطأَ فلهُ أَجْرٌ، ولا يمكِنُ أنْ نَزِنَ النَّاسَ بميزانٍ واحدٍ؛ لأَنَّ العِلْمَ بالأحكامِ الشّرعيةِ يَتَفَاوَتُ بحسبِ الإِيمَان وحسب العلمِ وحسب الفَهْمِ،

فالعلمُ بالأحكامِ الشَّرعيةِ يَتَفَاوَتُ بهذه الثَّلاثةِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يكونُ معه إيمانٌ صافٍ حتى يرى الحقَّ عَلَى ما هو علَيْه ويُفتح له بابُ الهِدايةِ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ يكونُ في إيمانِه ضَعْفٌ فيُحْجَبُ عنه مِنَ الهِدايةِ بِقَدْرِ ما نقص من إيمانه، فالإِيمَان له أثرٌ كبيرٌ حتى في العِلم، كما قال الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المَعَاصِي
وَقَالَ اعْلَمْ بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ ... وَنُورُ الله لَا يُؤْتَاهُ عَاصِ

واللهُ عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال:٢٩]، ولا فُرقانَ إلا بعلمٍ، فالنّاسُ يختلفونَ في هَذا اختلافًا عظيمًا بحسبِ ما معهم من الإِيمَان والتَّقوى.

كذلك أيضًا يختلفُ النَّاس في العلمِ، مثلًا رجلانِ أحدُهما يعرفُ كُتُبَ السُّنة -البُخاري ومُسلم وغيرها من كُتب السُّنة- والثاني لا يعرفُ شيئًا، فلا شك أن الأولَّ أَعْلَمُ.

والثَّالثُ الفَهْم، فإنَّ النَّاسَ يختلفونَ فيه اختلافًا عظيمًا؛ وَلِهَذا قِيلَ لِعَلِيِّ بنِ أبي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: هَلْ عَهِدَ إِلَيْكُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِشَيْءٍ؟ فَقَالَ: «مَا عَهِدَ إِلَيْنَا بِشَيْءٍ إِلَّا مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، أَوْ فَهْمًا يُؤْتِيهِ الله تَعالَى فِي القُرْآنِ»[2]، ولا شك أن النّاسَ يختلفونَ في الفهمِ، حتى إنَّ النَّصَّ الواحدَ تجدُ بعضَ النَّاسِ يَسْتَنْبِطُ منهُ عَشْرَ مَسَائِلَ، وآخَر لا يستنبطُ إلا مسألتينِ أو ثلاثة، وثالث يقول: أنَا أقرأُ لكم الحديثَ وعليكم الاسْتِنباط.

---

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٤/ ٨٦).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم (١١١).

فالحاصِلُ: أنَّ النّاسَ يَخْتَلِفُونَ لِذَلِكَ، أهل السُّنةِ والجماعةِ، والمسلمونَ عُمُومًا يقُولونَ: إنَّ اختلافَنا في الآراءِ ليس اختلافًا في الدِّينِ؛ لأننا كلنا عَلَى هَدَفٍ واحد ولا يُضَلِّلُ بعضُنا بعضًا إلا مَنْ عَلِمَ الحَقَّ وتَبَيَّنَ لهُ وعَلِمْنَا أنَّه مُعَانِدٌ.

قوْله تَعالَى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَفِي قِرَاءَةٍ: «فَارَقُوا» أي: تركوا دينَهُم الَّذي أُمِروا به].

قوْلهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في قراءة]، أي: قراءة سَبْعِيَّة؛ لأَنَّ اصطلاحَ المُفَسِّر إذا قَالَ: (في قراءة) فهي سبعيَّة، وإذا قَالَ: (قُرِئَ) فهي شاذَّةٌ، هذا اصطلاحُ صاحبُ الجلالينِ، أمَّا غيرُه إذا قَالَ: (قُرِئَ) فقد تكونُ سبعيَّة أحيانًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ الخِطابَ للرسولِ ﷺ خطابٌ له ولأمتهِ؛ تُؤخَذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿مُنِيبِينَ﴾.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: وُجوبُ التَّقوى؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: وُجوبُ إقامةِ الصَّلاةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

الفائِدَةُ الرَّابِعَةُ: شَرَفُ الصَّلاة وفضلُها؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خَصَّهَا.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: النَّهْيُ عن الشِّرك صَغِيرِه وكبيرِه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

الفائِدَةُ السَّادِسَةُ: شدةُ التَّنفيرِ من الشِّركِ؛ نأخُذها مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا

مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، بعدَ قوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ فإِنَّهُ لا شك أنَّ تَرْكَ الشِّـرْكِ من التَّقوى، لكن هَذا يكون عطفَ خَاصٍّ عَلَى عامٍّ.

الفائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ أهلَ الشَّركِ من شأنِهم ودَأْبِهم وعادتِهم التَّفَرُّقُ في الدِّين؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾.

الفائِدَةُ الثَّامِنَةُ: التَّنبيهُ عَلَى أنَّه لا ينبغِي للمؤمنينَ أنْ يَتَفَرَّقوا في دينِهم؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾، والرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أخبرَ أنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ سَتَتَّبِعُ سَنَنَ مَنْ كان قبْلها، ومع ذَلِكَ فاتباعُ سَنَنِ مَنْ قبلها مُحَرَّمٌ فَهَذَا أيضًا مثلُه، هَذا التَّفرق وإن كان موجودًا قَدَرًا لكِنَّهُ غيرُ محبوبٍ إِلَى الله شرعًا، وكانت هَذِهِ الأمةُ أكثرَ تفرقًا وإن كانت ليست أكثرَ تفرقًا في الواقعِ، لكن لما كانت ستتبعُ سَنَنَ مَنْ كان قبلها صارَ لا بُدَّ أنْ يكُونَ لها اثنتانِ وسبعونَ فِرقةً، يبقى من لم يتَّبع الفِرَقَ السَّابقةَ وهي واحدةٌ وهي الثَّالثة والسَّبعونَ، هَذا السَّبب في أن هَذِهِ الأمة ستفتـرقُ عَلَى ثلاثةٍ وسبعيـنَ فرقةً لأَنَّ اليَهُودَ واحدٌ وسَبْعُونَ، والنّصارى اثنتانِ وسبعونَ فرقةً، والرَّسول ﷺ لما قالوا: اليَهُود والنّصارى؟ قَالَ: «فَمَنْ»[1]، فَهَذَا يدلُّ عَلَى أنهم هَؤُلاءِ.

ويحتملُ أنْ يكُونَ معنى (فَمَنْ) باعتبارِ الجِنْس، يعني: هَؤُلاءِ وغيرهم، لكن حديث: «افْتَرَقَتِ اليَهُودُ... وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى»[2]، يدلُّ عَلَى أنهم يُشْبِهُونَ هَؤُلاءِ.

والحاصلُ: أنَّ هَذِهِ الأمةَ ثلاثةٌ وسـبعونَ فرقةً، منْهَا اثنتان وسـبعون مُتَّبِعَةٌ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»، رقم (٧٣٢٠)، ومسلم: كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩).

(٢) سبق تخريجه.

لليهودِ والنَّصارَى، ومنها واحدةٌ سالمةٌ ناجيةٌ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: فقد حاولَ بعضُ العُلَماء أن يَعُدَّ الفِرَقَ، حاولوا أن يَعُدُّوها فقسموا بحسبِ أصولِ البِدَعِ إِلَى خمسةِ أقسامٍ، ثمَّ فرَّقوا هَذِهِ الأقسامَ حتى أوصلوها إِلَى اثنتينِ وسبعينَ فرقةً، ولكن المسألةَ فيها نظرٌ؛ لأننا لا ندري هَذِهِ الفِرَقَ. فإِلَى الآن لم تَقُم القيامةُ، وقد توجد فِرَقٌ لم توجد الآن تنتسبُ إِلَى الإسْلام وهي بعيدةٌ منه.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أنَّ التَّفرق في الدِّين مُشابَهةٌ للمُشْرِكِينَ، فأولئك الَّذِينَ يتفرقونَ في دِينِهم من أجْل مسائلَ بسيطةٍ من فروعِ الدِّين القليلة أيضا، هَؤُلاءِ فيهم شَبَهٌ من المُشْرِكِينَ تجد بعض النّاس يعادي صاحبَه أو أخاهُ من أجل أنَّه لا يطبِّق سُنَّةً يراها، وَهَذا التّارك لها لا يراها، هَذا خطأ؛ لأنَّهُ تقدَّمَ أنَّه يجب عَلَى الإنسانِ أَلا يجعلَ الخلافَ المبنيَّ عَلَى الاجتهادِ سببًا للنزاعِ والبغضاءِ والتَّفَرُّقِ، بل العاقلُ يرى أن مَنْ خالَفه من أجلِ قيام الدَّليل عنده فهو في الحقيقةِ موافقٌ له؛ لأَنَّ السَّبيل والمِنْهاجَ واحدٌ، كلنا نمشي عَلَى الدَّليل.

إِذَنْ: فأنْتَ مُوافِقٌ لي والمنتهى واحدٌ، وإنِ اختلفَت الطُّرُقُ.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أنَّ أحزابَ المُشْرِكِينَ مستمسِكونَ بما هم علَيْه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ أولئك الَّذِين أُوتوا شيئًا من العلومِ العصريةِ وفَرِحوا ورَفَعوا رؤوسَهم فِيهِم شَبَهٌ من المُشْرِكِينَ؛ لأَنَّ هنا أناسًا -والعياذُ باللهِ- أُوتوا شيئًا من العلوم العصريةِ فاحتقروا الدِّين واحتقروا العلوم الشَّرعية، وصاروا فرحين بما أوتوا فضلُّوا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر:٨٣]، تجدُ الواحدَ منهم إذا أدركَ مسألةً من

مسائلِ الكونِ البسيطةِ رأى كأنه أدركَ تفاسيرَ القرآنِ وأمهاتِ السُّنة، وأنه هو العالِمِ الحَبْرُ الَّذي لا يوجد له نَظِيرٌ واحتقرَ مَنْ سِوَاهُ، وهذه مشكلةٌ وقَع فيها بعضُ النَّاس اليوم.

الفائِدَةُ الثَّانِيةَ عَشْرَةَ: أنَّه لا يجوز التَّحَزُّبُ في الدِّين والتَّشيع فَيَكون في هَذا ذَمٌّ لأولئك المتعصبينَ لمذاهبهم لأنهم يُشَيِّعُون النّاسَ في الواقعِ، حتى إنَّ بعض المُفْتينَ إذا استُفتي قال عَلَى أي مذهب تُريدُ أنْ أفتيَكَ، المذهب الشَّافعي، أم المالِكي، أم الحنبلي إلَى آخره؟ وَهَذا لا شك تفريقٌ للأمةِ؛ وَلِهَذا ذكروا فيما سبق في التّاريخ أنَّه يحصلُ إلَى حَدِّ القتالِ بين أصحابِ المذاهبِ المتبوعةِ، وأئمَّةُ هَذِهِ المذاهبِ لا يَرْضون هَذا أبدًا، ولا يرضون لأحدٍ أن يُقَدِّمَ أقوالَهم عَلَى قولِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أو أنْ يجعلَ أقوالَهم مَسارًا للنزاعِ والجَدَلِ والعداوةِ والبَغْضَاءِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الَّذِينَ يُقَلِّدُونَ الكُفَّارَ أَلا يَدْخُلُونُ في هَذِهِ الفِرَقِ؟

الجوابُ: لا، لا يَدخُلونَ؛ لأَنَّ هَذا خلافٌ في فرعٍ من الفروعِ لا بُدَّ أنْ يكُونَ هناك أصلٌ يشتركونَ فيه.

الآيــة (٣٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الرّوم:٣٣].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ أي كُفَّارَ مكَّةَ ﴿ضُرٌّ﴾ شدةٌ ﴿دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ﴾ راجعينَ ﴿إِلَيْهِ﴾ دون غيرِه ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ بالمَطر ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾].

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خصَّ هَذِهِ الآيَة من وجهيْنِ:

- من جهة المراد بها.
- ومن جهة الضُّر.

فقَالَ: [﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾: أي كُفَّارَ مكةَ] وَهَذا ليس بصحيحٍ، بل النَّاس عُمُومًا.

وهل المرادُ بالنَّاس عُمُومهم؟

ننظر الحالة الَّتي تحدث الله عنها هل تنطبق عَلَى المؤْمِنينَ أو خاصة بالكفار؟ فإنها خاصةٌ بالكفار.

إِذَن: النَّاس من حيْثُ هم ناس، أو نقول: المراد بالعُمُوم هنا الخصوص، وهم الكفَّار؟ فعندنا الآن وجهان:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنْ نقولَ المراد بالنَّاس النَّاس من حيْثُ هم ناس بقطعِ النَّظر عما يتصفونَ به من الإيمَان أو الكفرِ.

الوَجْهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالنَّاس الكفَّارُ فيكون عامًّا أُريدَ به الخاصُّ، مثل قوْله تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣]، ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الأولى يراد بها واحد وهو نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ أو غيرُه. وقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟﴾ المرادُ بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الثَّانية واحد وهو أَبُو سُفْيَانَ أو جنسُ أتباعِه.

المُهِمُّ: أن كلمة ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ المرادُ بها أحدُ أمرين:

- إمَّا أن يراد بها الكافرون عينًا.
- أو المُؤْمِنُونَ والكَافِرُونَ، وهذا لا يصح؛ لأَنَّ الحال الَّتِي ذكر الله لا تنطبق عَلَى المُؤْمِنِينَ.

ثانيًا: يقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ضُرٌّ﴾ شدة] ثمَّ قَالَ: «إِذَا أَصَابَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ؛ بِالمَطَرِ].

إذا قُلْنَا: الرَّحمة مطرٌ صارت الشّدةُ القحطَ، وهو عدمُ المطرِ، والأمر ليس كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بل هو أعم؛ لأَنَّ كلمةَ ﴿ضُرٌّ﴾ نكرةٌ في سياق الشَّرط، فتكونُ للعُمُوم، أَيُّ ضر يكون سواء قَحْط أو مرض أو فَقْدُ مالٍ أو غيرُ ذَلِك، فإنهم عندما يُصابونَ بضرٍّ ﴿دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ﴾ راجعين إليه؛ كقوْله تَعالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، فإذا أُصيبوا بالشِّدة عرفوا الله، خلاف ما أمر به النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في قوله: «تَعَرَّفْ إِلَى الله فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»[1]،

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧).

فالَّذي لا يعرفُ ربَّه إلا في الشَّدة لم يعبدْ ربَّه رغبةً، وَهَذا الَّذي تحدَّثَ الله عنه أخفُّ حالًا ممن إذا أصيبوا بالشِّدة دَعَوُا المخلوقَ، هَؤُلاءِ أقبحُ ممن تحدثَ الله عنهم.

وقوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ حالٌ من فاعل ﴿دَعَوُاْ﴾.

وعندنا إشكالٌ في ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾، لماذا ضمَّ الواوَ مع أن الواو ساكنةٌ؟

والجوابُ: حُرِّكت لالتقاءِ السَّاكنين.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: التّحريك لالتقاءِ السَّاكنين يكونُ بالكسرِ مثل ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البينة:١].

قُلْنَا: لكن الكسر لا يناسب الواوَ، ويناسبها الضَّم، فعلى هَذا نقول: حُركت بالضَّم لالتقاءِ السَّاكنين، فالواو والياء إذا تحرَّكَا بالفتحة فإنها تظهر عليهما، لكن إن تحرَّكَا بالضَّم والكسرة فإنهما تقدران حيث يمنع من ظهورها الثِّقل.

لكن لا ثقل في قوله تعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾، بل تُنطق بسهولة؛ والسَّبب أن هَذِهِ الضَّمة عارضة للتخلص من التقاءِ السَّاكنيـن، أما قوله تعالى: ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم﴾ فليس فيها إشكالٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم﴾: كلمةُ (رَب) بمعنى الخالِق المالِك المدبِّر، والرُّبُوبِيَّة تقتضي خَلْقًا، فالَّذي أوجد النَّاس هو الله، والمالكُ هو الله ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة:١٢٠]، وهو مدبِّرٌ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس:٣]، هَذا هو الرَّب قَالَ: ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم﴾ لما وقعوا في الشِّدة عَرَفوا أنَّ الأمورَ بيدِه فَدَعَوْهُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿مُخْلِصِينَ﴾: حالٌ من الواو.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُنِيبِينَ﴾ راجعين ﴿إِلَيْهِ﴾ دونَ غيره ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ بالمَطَرِ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾].

﴿أَذَاقَهُم﴾ يعني أصابتهم الرَّحمة حتى يتحقَّقوها كما يتحققُ الإنسانُ الطَّعامَ في فمِه، وَلِهَذا عبَّر بالإِذَاقَةِ، وإن كان هَذا لا يُذاق لأَنَّهُ لا يدخل في الفم لكن لِتَحَقُّقِ إصابتِه صار كالشَّيء الَّذي يُؤكلُ فَيُذاقُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّنْهُ رَحْمَةً﴾: المراد بالرَّحمة ما يقابل الضُّر، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ فمثلًا إذا كان الجدبُ فالمرادُ بالرَّحمة المطرُ والخِصْبُ، وإذا كان مرضًا فالمرادُ بها الشِّفاءُ، وإذا كان فقرًا فالمرادُ بها الغِنى، فالمُهِمُّ: أنَّه يُقابل بالضُّرِّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ﴿أَذَاقَهُم﴾ أَلا يدل اللفظ عَلَى عدمِ الاستمرار، يعني مجرد وقت قليل، أذاقهم الرَّحمة فنكَصُوا؟ وهذا مفهومٌ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾، لأَنَّ ﴿إِذَا﴾ فُجَائية.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَا﴾: فُجَائية، وهي حرف مع أنَّ ﴿إِذَا﴾ الشَّرطية اسم؛ لأَنَّ ﴿إِذَا﴾ الشَّرطية نابَت مَنابَ اسمِ الشَّرط، وأما ﴿إِذَا﴾ الفجائية فنابت مَناب الفاء، والفاءُ حرفٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَرِيقٌ﴾ مبتدأ، وقوْله تَعالَى: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ خبر جملة.

وهنا نسأل: لماذا جاء المبتدأ نكرةً وابن مالِكٍ يقول[1]:

وَلَا يَجُوزُ الِابْتِدَا بِالنَّكِرَة ... مَا لَمْ تُفِدْ.....

---

(١) ألفية ابن مالك (ص:١٧)، ط. دار التعاون.

الجوابُ: لأنَّهَا أفادتْ، وبالخصوص نقولُ: لأنَّهَا وقعتْ بعد ﴿إِذَا﴾ الفجائية، فإذا جاءَ المبتدأُ بعد ﴿إِذَا﴾ الفجائية فلا بأسَ أنْ يكُونَ نكرةً.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، وقال هنا: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ﴾ يعني وفريقٌ آخَرُ لا يشركُ، مع أنَّه في آيةٍ أخرى يقول: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، وفي آية ثالثة ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان:٣٢]، فهل نقول: إن الآيات الَّتِي يقول الله فيها: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ تُحمل عَلَى المُشْرِكِينَ، والآيات الَّتِي فيها ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أو ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ تنزل عَلَى العُمُوم؟

والجوابُ: هَذا الإشكالُ ما وَرَدَ عِنْدي إلَّا الآن لَمَّا وصلنا آخرَ الآية وإلَّا ففي الأول قرَّرنا أنَّها للمُشْرِكِينَ أو النَّاس من حيْثُ هم ناسٌ ولكن لما قَالَ: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ صَارَ عندي تَرَدُّدٌ، هل الآيَةُ عامة فنقول: إن المؤْمِنينَ إذا أُصيبوا بالضَّراء لا شك أنهم يلجؤونَ إِلَى الله أكثرَ كما هو مُشاهد؛ وَلِهَذا قال الرَّسول ﷺ: «تَعَرَّفْ إِلَى الله فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»[1]، فَهَذَا دليلٌ عَلَى أنَّ الإنسانَ في حال الرَّخاءِ قد يحصُل منه غفلةٌ عن الله عَزَّوَجَلَّ وعَدَمُ تَعَرُّفٍ، لكن في حال الشِّدة يلجؤونَ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ، قال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الخُسوف: «إِنَّ الله يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبادَهُ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِ الله»[2]، فالآيَة تحتاج إِلَى تأمُّلٍ.

والَّذي يبدو لي الآن أن الآياتِ الَّتِي يقولُ الله فيها: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾ ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ تكون خاصَّةً بالمُشْرِكِينَ، أمَّا الآياتُ الَّتِي يقولُ الله فيها: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري: أبواب الكسوف، باب الذكر في الكسوف، رقم (١٠٥٩)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف الصلاة جامعة، رقم (٩١٢).

و﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ فإنها تصلحُ للعُمُوم؛ لأَنَّ النَّاس -حتى المؤْمِنينَ- إذا أصابهم الضُّرُّ صار عندهم من الرُّجوع إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ واللجوء إِلَيْهِ أكثر. فصلاةُ الاستقساءُ رجوعٌ إِلَى الله وإنابةٌ أكثر، ومثلها صلاة الكُسوف، وحتى أنْتَ بنفسك إذا وقعتَ في شدةٍ تجد عندك من اللجوء إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ والافتقار أكثرَ مما إذا كنت في رخاء.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدتانِ الأولى والثَّانية: أنَّ طبيعةَ الإنسان عند الضَّراء اللجوءُ إِلَى ربِّه لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾، ويتفرعُ عَلَى هَذا أنَّ أولئك الَّذِين إذا مسَّهم الضُّر لجَؤوا إِلَى غير الله أنهم خالَفوا جميع فِطَرِ البشر لأَنَّهُ يوجد ناس الآن إذا وقع في ضر ما دعا الله، بل يدعو الولي الَّذي يتبعه، أو الَّذي يراه وليًّا، وإذا وقع في الأمر الهيِّن دعا الله فيجعلون الشَّدائد لمن لا يستطيع أن يدفع عنهم شيئًا أبدًا، بل ولا يستجيب له، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥]، بخلافِ النَّاس -حتى غير المسلمين- إذا وقعوا في شِدَّةٍ لا يلجَؤُون إلا إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّ أولئك الَّذِين يلجؤون إِلَى ربهم في الشَّدائد إذا زالت عنهم الشَّدائد وأصيبوا بالرَّحمة انقسموا إِلَى قِسْمَيْنِ:

- منهم مَنْ يشركُ ويبقى عَلَى شركه.
- ومنهم مَنْ يبقى عَلَى إيمانه إذا كان من المُؤْمِنِينَ.

الفائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ أولئك المُشْرِكِينَ لا يتأَنَّون في شركهم بعد أنْ ينجوا من الشِّدة، بل يستمرون علَيْه فورًا؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾؛ لأَنَّ ﴿إِذَا﴾ فجائية.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: الرَّد عَلَى أولئك الَّذِين يقدمـون أولياءهم أو أولئك الَّذِين لا يلجؤون إِلَى أحد.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: إثْبَات الرّحمة لله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: التَّنديد بإشـراكِ هَؤُلاءِ؛ لأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ﴾ فكيف يليقُ بهم أن يشركوا بربهم الَّذي خلقهم؟ لأَنَّ الخالِق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجب أن تكون العبادةُ له وحده.

الفائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الشَّرَّ لا يُضاف إِلَى الله، ولكن يرد عَلَى هَذا بالنِّسبة للضرر والنَّفع؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾، إنما الشَّرُّ مطلقًا لا يضاف إِلَى الله، وإنما يضاف إِلَى المخلوقات المفعولات.

• • ❁ • •

الآيتان (٣٤، ٣٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الرّوم:٣٤-٣٥].

قولُه تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا﴾: (اللام) هنا للعاقبةِ، يعني أنهم بإشراكِهم صارَ عاقبتُهم الكفرَ بما آتاهم الله عَزَّوَجَلَّ وقوله: (آتاهُم) أي أعطاهُم.

وهل الباء في ﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ للسببيَّة، أو للتخصيص بمعنى أنهم يَكْفُرُونَ بِهَذا الشَّيء؟

الجوابُ: يحتملُ أنْ تكونَ للسببيةِ، أي بسببِ ما آتاهم الله تَعالَى من الرَّحمة والإنقاذ من الشّدة، صار ذَلِك سببًا لأشرهم وبطرهم وكفرهم، كما هي عادة الإنسان إلا من عصمه الله عَزَّوَجَلَّ أو يُقَال: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾، أي: يكفروا بِهَذا الشَّيء الَّذي آتيناهم حيْثُ لا يؤدونَ شُكرَه، وكان الواجبُ عليهم أن يؤدوا الشُّكر للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾: هَذا يسمونَه في البلاغة التِفاتًا، يعني لم يقل: وليتمتعوا، كما قال في آية أخرى، ولكنه أمرهم أنْ يتمتعوا، والأمرُ هنا للتهديدِ كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أُريدَ به التَّهديد ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾]؛ فالأمر هنا للتهديد وليس للإباحة، والدَّليل عَلَى ذَلِك قوْله تَعالَى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ثمَّ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَاقِبَةُ تَمَتُّعِكُمْ، فِيهِ التِفَاتٌ عَنِ الغَيْبَةِ].

الغَيْبَة ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾، والالتفاتُ له فائدتان:

الفائدةُ الأولى: فائدةٌ لازمة في كل التفاتٍ، وهي التَّنبيهُ؛ لأَنَّ الكلام إذا كان عَلَى نسق واحد استمر الإنسان فيه مُنساقًا معه، فإذا اختلفَ انتبَه: لماذا اختلف السِّياق؟ لماذا كانت الجملةُ للغائب ثمَّ صارتْ للمُخاطبِ أو بالعكس؟ فيقفُ ويحصل بذلك تَأَمُّلٌ.

أما الفائدةُ الثَّانية: فإنها تختلف بحسب السِّياقِ، وهي في هَـذِهِ الآيَـة: أنهم إذا قُوبِلوا بالأمر ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ صار أشدَّ وأبلغَ تهديدًا مما إذا قال: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ [العنكبوت:٦٦].

وقوْله تَعالَى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: قد قيل إنَّ (سوف) تفيدُ التَّحقيق، لكنها تفيد أيضًا التَّراخي بخلاف السِّين، فإنها تفيد التَّحقيق والفورية، وكل شيء بحسبه، وإنما كان كَذَلِكَ هنا لأَنَّ أشد العقابِ الَّذي يأتيهم سيكون يوم القيامة وهو متأخر.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمْ﴾ بمعنى همزة الإنكار ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ حُجَّةً وَكِتَابًا ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تَكَلُّمَ دَلالَةٍ ﴿بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ أيْ يَأْمُرُهُمْ بِالإِشْرَاكِ! لَا].

﴿أَمْ﴾ هنا يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بمعنى همزة الإنكار]؛ وَهَذا أحدُ القولين فيها، والقول الثَّاني: أنَّها بمعنى (بَلْ) و(الهمزة)، فتكون مفيدةً للإضراب، وهنا الإضـراب الانتقالي يعني: بل أنزلنا عليهم سلطانًا، والاسْتِفْهام إذا كان للإنكار

فمعناه النَّفي، يعني: هل نحن أنزلنا عليهم سلطانًا يؤيد شركهم ويثبته ويقول إِنَّه حق؟ والجوابُ: لا، ما أنزلنا ذلك.

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿سُلْطَٰنًا﴾ حُجَّةً وَكِتَابًا]، والحجة تسمى سلطانًا لأَنَّ المحتَجَّ بها له سلطةٌ عَلَى المحجوج؛ فلِهَذا تُسمى سلطانًا، كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ [يونس:٦٨]، أي حجة، واعلم أن السُّلطان يُطلق عَلَى عدة معانٍ، فيجمعها كلها السُّلطة عَلَى الشّيء، فتارةً تأتي بمعنى الحاكم كما جاء في الحديث: «فَإِن تَشَاجَرُوا فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لَا وَلِيَّ لَهُ»[1]، وَكَذلِكَ: «إِنَّ الله يَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالقُرْآنِ»[2]، وتأتي (السُّلطان) بمعنى الحُجة وهو كثير، وتأتي بمعنى القُدْرَة مثل قوْله تَعالَى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرّحمن:٣٣]، أي بقدرة وليس لكم قدرة، وكلها يجمعها هَذا المعنى السُّلطة الَّتِي بها السَّيطرة والغَلَبَةُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَكَلُّمَ دلَالَةٍ]؛ فهو يتكلم بلسان الحال وليس بلسان المقال، هَذا ما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولكنه يحتمل أن تبقى عَلَى ظاهرها لأَنَّ الَّذي يَنزل من عند الله كلامُ الله، وكلامُ الله تَعالَى يصح أن ينسب الكلام إِلَيْهِ كما في قوْله تَعالَى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية:٢٩]، وكما في قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النّمل:٧٦].

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح، باب النكاح، باب في الولي، رقم (٢٠٨٣)، والترمذي: أبواب النكاح، رقم (١١٠٢)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، رقم (١٨٧٩).

(٢) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة من قول عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (٢/ ٩٨٨).

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾: (الباء) هنا للاختصاصِ أيضًا، أي يتكلم بِهَذا الشَّيء ويقول إنَّه حق.

والجوابُ: لا، إِذَنْ فليس عندهم حُجَّةٌ لا عقلية ولا فطرية، أمَّا العقلية فقد سبق أنَّ فطرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلها الإِخْلاص لله، وأما الشَّرعية فإِنَّهُ لم يأتِ في كتابٍ من الكتب المُنَزَّلة أن الشِّرك حق، فجميعُ الكتب المنزلة وجميع الرُّسل المرسلين كلهم يقُولونَ: اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره، وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أن الله تَعالَى قد يجعلُ النِّعم سببًا للكُفر ويكونُ كفرهم عَلَى هَذا النَّحو؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾؛ لأننا ذكرنا أن اللام هنا للعاقبة.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: إثْبَات الأسبابُ إذا جعلنا (الباء) في قوْله تَعالَى: ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ سببية، أمَّا إن جعلناها للاختصاص فليس فيها دليل.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أن ما أصابنا من نِعَمٍ فإِنَّهُ من الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾.

الفائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تهديدُ الكَافِرِينَ، وأنَّ انبساطَهم بنِعَمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ضررٌ عليهم لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: بلاغةُ القرآن، وَذَلِكَ بالانتقال من الغَيْبَةِ إِلَى الخِطاب الَّذي يسمى في اصطلاح البلاغيين التِفاتًا.

الفائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثْبَات الجزاء؛ نأخذه مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

الفائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ أولئك المُشْرِكِينَ لَيْسَ لهم حجةٌ عَلَى شِركهم؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾.

الفائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ مَنْ صنع شيئًا بدليلٍ فلا لوم علَيْه؛ يُؤخذ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾، يعني لو كان لهم سلطانٌ لا نلومهم ولا نعذبهم.

الفائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ المجتهدَ المتأوِّلَ لا إِثْمَ علَيْه لاعتماده في اجتهادِه عَلَى دليلٍ، يعني أنَّه استند إِلَى دليل، وَلِهَذا لم يُضَمِّن النَّبيُّ ﷺ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ الرَّجلَ الَّذي قتلَه بعد أن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله[1]؛ لأَنَّهُ مُتَأَوِّلٌ، ولم يُلزِم عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ بقضاءِ الصَّلاة حين تيممَ عن الجنابة بالتَّقلب عَلَى الأرْض والتَّمرُّغ فيها[2]؛لأَنَّهُ مُتَأَوِّلٌ، ولم يُلزِمِ المرأةَ المُستحاضةَ بقضاءِ الصَّلاة وهي تتركها وقت الاستحاضة[3]؛ لأَنَّهَا مُتَأَوِّلَةٌ.

وعلى هَذا فكل مُتَأَوِّلٍ يظن أنَّه عَلَى صواب فإِنَّهُ لا إثمَ علَيْه، لكن هل هَذا يشمل الأصولَ والفروعَ أو هو خاصٌّ بفروعِ الدِّين؟

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ: إنَّه يشملُ الأصولَ والفروعَ[4]، وأنكرَ شيخُ الإسْلام وتلميذُه ابنُ القَيِّمِ أنْ يكُونَ الدِّين منقسِمًا إِلَى أصول وفروع، وقال: إن هَذا التَّقسيمَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة، رقم (٤٢٦٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، رقم (٩٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب التيمم ضربة، رقم (٣٤٧)، ومسلم: باب التيمم، رقم (٣٦٨).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب من قال إذا أقبلت الحيضة تدع الصلاة، رقم (٢٨٧)، والترمذي: أبواب الطهارة، باب في المستحاضة أنها تجمع بين الصلاتين بغسل واحد، رقم (١٢٨)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب ما جاء في المستحاضة التي قد عدت أيام أقرائها، قبل أن يستمر بها الدم، رقم (٦٢٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٢٥).

لا أصلَ له لا في الكتابِ ولا في السُّنة، فهذه الصَّلاة عند المقسمين من قسمِ الفروعِ وهي من آصلِ الأصولِ، هي الرُّكن الثَّاني من أركان الإسْلام، ومع ذَلِك هي عندهم من قسم الفروعِ، وأشياء يَخْتَلِفُونَ فيها وهي عِنْدَهُم من قسمِ الأصولِ، ويرونَ أنَّ للاختلافَ فيها مُساغًا كاختلافِهم في رؤيةِ النَّبيِّ ﷺ ربَّه، واختلافهم في نَعِيمِ القبرِ وعذاب القبر في بعض الصُّور، وما أشبهَ ذَلِك مما هو من العقائد، ومع ذَلِك يرون أنَّ الاخْتِلافَ فيه سائغٌ.

فالشَّاهـدُ أنَّ المدارَ كلَّه عَلَى قاعدةٍ من قـواعدِ الشّـرعِ، وَهِيَ قوْله تَعالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فمَنِ اجتهدَ في طلبِ الحقِّ وتحرَّاه ولكنه لم يوفقْ له مع حُسْنِ النِّيةِ وصحةِ المَسْلَكِ فلا يمكن أنْ نقولَ: هَذا آثم، مثلًا يوجد عُلَمَاءُ أجِلَّاء نشهدُ لهم بالدِّينِ والصَّلاحِ وحُبِّ الإسْلامِ والانتصار للإسلام، ومع ذَلِك هم مخالِفونَ للسلفِ في العقيدةِ، ونحبهم ولا نؤثمهم كابنِ حَجَرٍ، وابن الجَوْزِيِّ، وَكَذلِكَ النَّوَوِيُّ، وطوائف من العلَمـاء معروفينَ بالصَّلاحِ والإصلاحِ وحب الخيـرِ، ونعلم أنهم مجتهدونَ، نَعَم الإنسانُ الَّذي تبيَّن له الحق ولكنه عانَد وأصرَّ فيُعامَل بما يقتضيهِ عنادُه وإصرارُه.

وهنا قوْله تَعالَى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ هِيَ فِي مَسْأَلَة أُصُولِيَّة فِي الشِّرك، لو كَانَ لَهُم حُجَّةٌ يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهَا مَا استحقوا العذابَ ولا اللومَ ولكنْ لَيْسَ لَهُم حُجَّةٌ.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أنَّه لا بُـدَّ أنْ يكُونَ السُّلطانُ أو الحُجـة الَّتِي يحتجـونَ بِهَا واضحةً؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾، والتّعبيرُ بالكلامِ هُوَ أوضحُ مَا يَكُونُ مِنَ الإظهارِ.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عَشْرَةَ: ظهورُ عدلِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإلَّا لكانَ عَزَّوَجَلَّ يعذبُهم بدون أنْ يقيمَ عَلَيْهِمُ الحُجةَ، ولكنْ لإظهارِ عَدْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صارَ يطالبُ بحُجةِ هَؤُلاءِ مَعَ العِلْم بِأَنَّهُ لا حُجَّةَ لَهُم، ومن هَذَا النَّوع المَوازينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، والكُتُبُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فكل هَذَا لإظهارِ عدلِ الله، وإلَّا فإن الله تَعالَى له الحُكْمُ وَإِلَيْهِ المُنتهى، قادرٌ عَلَى أنَّ يعذب بدونِ ميزانٍ وبدون كتابٍ، ولَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لكمالِ عدلهِ يُعطَى الإنسانُ كتابَه ويُقال له: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤]، قَالَ بعضُ السَّلفِ: «لَقَدْ أَنْصَفَكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبًا عَلَى نَفْسِكَ»[1]، لو كَانَ بينكَ وبينَ أحدٍ معاملةٌ من حسابٍ وصادرٍ ووارِدٍ، فقلتَ له: خُذِ الدَّفتر أنْتَ وحاسبْ، فلا شك أن هذا عدلٌ، بخلاف مَا لو أجملتَ الحساب وقلتَ: عليكَ كذا ولكَ كذا، وقد يَكُون فِي هَذَا شبهةٌ، لكن كونه يعطيكَ الدَّفتر ويقول: (أَنْتَ حَاسِبْ نَفْسَكَ)، فَهَذا غايةُ الإنصافِ.

• • ❁ • •

(١) إيجاز البيان عن معاني القرآن لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٤٩٧).

الآيـة (٣٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الرّوم:٣٦].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ ﴾ كُفَّار مكَّة وغيرَهم].

هَذَا أحسنُ حيثُ جعلها عامةً، وأفادنا المُفَسِّر بقوله: [كُفَّار مَكَّة وغيرهم] أنَّ المرادَ بالنَّاسِ هُنَا الكفَّار، فيكونُ من بابِ العامِّ المستعملِ فِي الخاصِّ، والعامُّ المرادُ به الخصوصُ غيرُ العامِّ المخصوصِ، وفي أصولِ الفقهِ أنَّ العامَّ المخصوصَ غير العامِّ الَّذي أُريدَ بِهِ الخصوصُ، فالعامُّ الَّذي أُريدَ بِهِ الخصوصُ لم يُرِدْ معنى العُمُومِ فِيهِ من أولِّ الأمرِ، وَإِنَّمَا أُريدَ بِهِ المَعْنَى الخَاص فَقَطْ، كقوْله تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ [آل عمران:١٧٣]، لم يُرِدْ بِهِ عُمُوم النَّاسِ من الأولِ، وأما العام الَّذي دخله التّخصيصُ يعني العامَّ المخصوصَ فَهُوَ أُريدَ بِهِ العُمُومُ، وَهُوَ تناولُه لجميعِ الأفرادِ ثمَّ أُخرج بعضُ أفرادِه من هَذَا الحُكم، فيكونُ عامًّا مخصوصًا.

وَعَلَى هَذَا فلا يمكنُ أنْ يستدلَّ مستدِلٌ بالعامِّ المرادِ بِهِ الخصوصُ عَلَى عُمُومِ الحُكمِ؛ لأنَّهُ لم يُرَدْ بِهِ العُمُومُ، بخلافِ الثَّاني: العام المخصوص، فإِنَّهُ يمكنُ أنْ يُستدلَّ بِهِ عَلَى عُمُومِ الحكمِ، ويقولُ لِمَنْ أخرجَ شيئًا مِنْ أفرادِه: هاتِ الدَّليلَ عَلَى التّخصيصِ؟

إِذَن: المُرادُ بالنَّاس فِي قولهِ: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا﴾ عامٌّ أُريدَ بِهِ الخصوصُ، يعني الكفَّارَ؛ لأَنَّ هَذَا الوصفَ لا ينطبقُ إلا عَلَيْهِم، أمَّا المُؤْمِن فإِنَّهُ إِذا قَضَى الله له قضاءً لم يكنْ بِهَذا الوصفِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وغيرَهم] بالنَّصب؛ لأَنَّ [كفارَ] بالنّصب.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿رَحْمَةً﴾ نِعْمَةً ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ فَرَحَ بَطَرٍ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ شِدَّةٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ يَيْأَسُونَ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَمِنْ شَأْنِ المُؤْمِنِ أَنْ يَشْكُرَ عِنْدَ النِّعْمَةِ وَيَرْجُو رَبَّهُ عِنْدَ الشِّدَّةِ].

قوْله تَعالَى: ﴿رَحْمَةً﴾ تشملُ جميعَ النِّعم من مالٍ وأولادٍ وأمنٍ ورخاءٍ فِي العيشِ وغيرِ ذَلِك، فكلُّ مَا يَنْعَمُ بِهِ الإنسانُ فإِنَّهُ داخِلٌ فِي ذَلِك؛ وَلِهَذا قَالَ [نِعْمَةً].

وقوْله تَعالَى: ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ قيَّدها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [فَرَحَ بَطَرٍ]، احترازًا من الفرحِ بنعمةِ الله فَرَحَ شُكْرٍ، فإن هَذَا لا يُذم كما قَالَ الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس:٥٨]، فأمرَ الله تَعالَى أنْ نفرحَ بفضلِ الله ورحمتِه، وَعَلَى هَذَا فالفرحُ نوعان، فرحُ بطرٍ يؤدي إِلَى الأشَرِ والاستكبارِ عنِ الحقِّ والتّعالي عَلَى الخَلْقِ، فَهَذَا هُوَ المذمومُ.

والثَّاني فرحُ شُكْرٍ يَكُونُ الإنسانُ فَرِحًا بنعمةِ الله، لكنَّ هَذَا الفرحَ يحملهُ عَلَى شكرِ النِّعمةِ، فَهَذَا لَيْسَ بمذمومٍ، وَهُوَ من طبيعةِ الإنسانِ، فإنَّ الإنسانَ إِذَا رُزِقَ ولدًا فَرِحَ، وَإِذَا رُزِقَ مالًا فَرِحَ، وَإِذَا كَانَ طالِبَ علمٍ فتوصَّلَ إِلَى مَسْأَلَةٍ من مسائلِ العِلْمِ فَرِحَ، فَهُوَ من الأمورِ الطّبيعيةِ، لكنْ إنْ أبدلَ فرحَه إِلَى الأَشَرِ فإِنَّهُ محرمٌ ومذمومٌ وإلا فلا.

وقوْله تَعالَى: ﴿سَيِّئَةٌ﴾ المرادُ بالسّيئةِ هُنَا مَا يَسُوؤُهُمْ، وَهُوَ ضدُّ الرَّحمةِ مثل فقرٍ وجَدْبٍ وخوفٍ وفقدانِ مالٍ وما أشبَه ذَلِك، وسُميت سيئةً لأنَّهَا تَسوؤهم.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: (البَاءُ) للسببيةِ أي بِسَبب، و(مَا) موصولةٌ، أي بالَّذي، وَعَلَى هَذَا فالعائدُ محذوفٌ والتّقديرُ بما قدمَتْه أيديهم إِذَا هم يَقْنَطُونَ، ولاحظْ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أطلقَ الرّحمةَ، ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾، أمَّا السّيئةُ فقيَّدها بقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وَذَلِكَ لأَنَّ السّيئاتِ سببُها أعمالُ العبادِ، كما قَالَ تَعالَى فِي الآيَة التّالية إنْ شاء الله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الرّوم:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشّورى:٣٠]، وَلِهَذا قَالَ هنا: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ المرادُ بما قدَّموا، فعبَّرَ بالأيدي عن النَّفْسِ؛ لأَنَّ غالِبَ الأعمالِ بها، وَهَذا كثيرٌ فِي القرآن أنَّ الله تَعالَى يُضيفُ الشّيءَ إِلَى الأيدي، والمرادُ بِهَا نفسُ العاملِ بل إِنَّ الله أضافَ الأيدي إِلَى نفسِه، والمرادُ بِهَا نفسُه مثل قوْله تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس:٧١]، فإنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ لَيْسَ كقوْلِه تَعالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥]، والفرقُ أنَّ المرادَ بقوْله تَعالَى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾، أي: مما عَمِلناه، وأما قوْله تَعالَى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، فأضافَ الخَلْقَ إِلَى نفسِه مُعدى إِلَى اليدِ بـ(الباءِ) فصارتِ اليدُ حصلَ بِهَا الفعلُ، وأما الخلقُ فأضافَهُ إِلَى نفسِه المقدسةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعدَّاه إِلَى اليدِ بـ(الباء) وَلِهَذا يغلطُ مَنْ جعَلَ قوْله تَعالَى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ مثل قوْله تَعالَى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾.

إِذَنْ: قوْله تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بما كَسَبَتْ، وعبَّرَ بالأيدي عن النَّفسِ لأنَّهَا آلةُ الفِعْلِ غالبًا.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ إِذَا فُجائيةٌ واقعةٌ فِي جواب الشّرط وَهُوَ قوْله تَعالَى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾، وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أتى بالجملةِ الاسميةِ للدَّلالةِ عَلَى أنهم اتصفُوا بِذَلِكَ عَلَى سبيلِ الدَّوامِ فهمْ دَائِمًا فِي قنوطٍ مَا دامتِ السّيئةُ فيهم، والقنوطُ، يقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَيْأَسُونَ] ولَكِنَّهُ تفسيرٌ فِيهِ شيءٌ من القصورِ؛ لأَنَّ القنوطَ لَيْسَ اليأسَ بل هُوَ أشدُّ اليأسِ لأَنَّ اليأسَ إِذَا كَانَ فِيهِ شيءٌ من الرَّجاء لا يُسمى قنوطًا وإن سميَّ يأسًا لكن إِذَا بلغَ اليأسُ غايتَه سُمِيَّ قنوطًا، وقد قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن إبراهيمَ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]، الجاهلونَ بما لله عَزَّوَجَلَّ من الحكمةِ فيما يَجري عَلَى عبادهِ من الضَّراءِ والسّراءِ، يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَمِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَشْكُرَ عِنْدَ النِّعْمَةِ وَيَرْجُو رَبَّهُ عِنْدَ الشِّدَّةِ]، وَعَلَى هَذَا فتكونُ الآيَةُ فِي الكفارِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ الرّحمةَ من الله تَفَضُّلٌ منهُ وامتنانٌ، أمَّا كَوْنُها مِنْهُ فلقوْلِه تَعالَى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا﴾، وأما كَوْنُها تَفَضُّلًا فلأنه لم يذكرْ لها سببًا، فكانتْ تَفَضُّلًا وامتنانًا.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: ذَمُّ الفَرَحِ إِذَا كَانَ عَلَى سبيلِ الأَشَرِ والبَطَرِ، قد نقولُ من أين يُؤْخَذُ من الآيَةِ تقييدُ الفرحِ بالأَشَرِ والبَطَرِ؟

والجوابُ: مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾، يمكنُ أنْ يُؤخذَ الفرحُ المذمومُ من الصِّفةِ الَّتِي بعده.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّ السَّيِّئَةَ لا تُضافُ إِلَى الله لأنَّهُ قَالَ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ وإنْ أَصَبْنَاهُمْ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ تَعالَى فِي سورةِ النِّساءِ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٧٨]، فما هُوَ الجَمْعُ وقد قلنا إنَّ السَّيِّئَةَ لا تُضافُ إِلَى الله؟

قُلْنَا: إيقاعُها لَيْسَ بسيئةٍ، هِيَ سيئةٌ لكنْ إيجادُها لَيْسَ سيئةً، بل هُوَ لحكمةٍ فالشّيءُ بنفسِه قد يَكُونُ سوءًا لكنْ بالنّسبةِ لفعلِ الفاعلِ لا يَكُونُ فعلُ الفاعلِ سوءًا، هَذَا رجلٌ مَرِضَ ابنُه واحتاجَ الابنُ إِلَى كَيٍّ فأَحْمى الحديدةَ فِي النّارِ وكَوَاهُ فَصرخَ الابنُ ألمًا.

إِذَنْ: هَذِهِ سيئةٌ لكنْ كَيُّ وَالدِهِ إياهُ حَسَنَة، فحينئذٍ يجبُ أنْ نعرِفَ الفرقَ بين الفعلِ والمفعولِ، فالسّوءُ والشّرُّ إنما هُوَ بالنِّسبةِ لمفعولِ الله له ذاتٌ منفصلةٌ عن الله، وأما بالنّسبةِ للفعلِ الَّذي هُوَ فِعْلُ نفسِه، فإِنَّهُ لا يمكنُ أنْ يكُونَ شرًّا أبدًا، بل هُوَ خيرٌ ويمكنُ أنْ نقولَ إنَّ الخيرَ نوعانِ: خيرٌ لذاتِه، وخيرٌ لغيرِه، فما كَانَ شرًّا فِي نفسِه وقَدَّره الله فَهُوَ خيرٌ لغيره، وما كَانَ خيرًا فِي نفسِه فَهُوَ خيرٌ.

إِذَنْ: لنا عن هَذَا جوابانِ:

الجوابُ الأولُ: أنْ يُقالَ إنَّ الشَّرَّ لَيْسَ فِي فعلِ الله بل هُوَ فِي مفعولِه، أمَّا إيجادُ الله له فَهُوَ خيرٌ لما يتضمنُه من الحكمةِ البالغةِ، هَذَا واحدٌ، ونَظِيرُهُ كَيُّ الإنسانِ ابْنَهُ لِيَشْفَى مِنَ المَرَضِ؛ فالكَيُّ فِي ذاتِهِ شَرٌّ، لَكِنْ بالنِّسبةِ لِفِعْلِ الأَبِ لَهُ خَيْرٌ، هَذَا وَجْهٌ.

الجوابُ الثاني: أنْ يُقالَ إنَّ الخيرَ نوعانِ: خَيْرٌ لذاتِه وخيرٌ لغيرِه، فما كَانَ خيرًا مَحْضًا فَهُوَ خيرٌ لذاتِه كالمطرِ والنّباتِ والرّزقِ والأمنِ وما أشبهَ ذَلِكَ وما كَانَ شرًّا

بذاتِه فَهُوَ خيرٌ لغيرِه إِذَا كَانَ الشَّرُّ خيرًا لغيرِه صارَ بِهَذا خيرًا، فالجَدْبُ والقَحْطُ والخَوْفُ وما أشبَه ذَلِكَ خيرٌ لأَنَّهُ يؤدي إِلَى خيرٍ كما قالَ الله تَعالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ لماذا؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرّوم:٤١].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا وَرَدَ من إضافةِ الإضلالِ إِلَى الله فِي مثلِ قوْله تَعالَى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ [الأنعام:١٣٩]، كيف نُجيبُ عليه؟

قُلْنَا: إضافةُ الإضلالِ إِلَيْهِ يعني لِكَمالِ تَصَرُّفِهِ وَلِهَذا قُرِنَ بالهدايةِ لبيانِ كمالِ التَّصَرُّفِ، فالمقصودُ بَيانُ كمالِ التَّصَرُّفِ وليسَ معناهُ إرادةَ الشَّرِّ المَحْضِ، ثمَّ إنَّ إضلالَ الله له فِي الغالبِ كمـا قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصّف:٥]، فيكونُ هَذَا من بابِ العدْلِ فِي حقِّ هَذَا الرَّجلِ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ السُّوءَ لا يَنَالُ النَّاسَ إِلَّا بأعمالِهم؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

سؤالٌ: هل هَذَا يشملُ السُّوءَ فِي الأمورِ الدِّينيةِ والأمورِ الدُّنيويةِ أو فِي الأمورِ الدُّنيويةِ فقط؟

والجوابُ: فيهما جميعًا فالجَدْبُ والقَحْـطُ بسببِ الأعمـالِ السَّيِّئَةِ والمعاصي كَذَلِكَ: فَزَيْغُ القلبِ بسببِ المعاصي ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

إِذَن: المصائبُ الدِّينيةُ والدُّنيويةُ كلُّها بسببِ أعمالِنَا نحنُ فلو اسْتَقَمْنَا استقامَتْ لنا الأمورُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٢٩]، انظر ﴿فُرْقَانًا﴾.

إِذَن: التَّقوى سببٌ للعلمِ لأَنَّ الفُرْقانَ لا يَكُونُ إِلَّا بعلمٍ يُفَرِّقُ بِهِ الإنسانُ بَيْنَ النَّافعِ والضَّارِّ والحقِّ والباطلِ.

إِذَنْ: نقولُ هَذَا يشملُ أمورَ الدِّينِ وأمورَ الدُّنيا.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: تحريمُ القُنُوطِ من رحمةِ الله؛ لأَنَّ الله ساقَهُ عَلَى سبيلِ الذَّمِّ ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ هَذَا دليلٌ عَلَى تحريمِهِ، ودليلٌ عَلَى تحريمِهِ من النَّظرِ أنَّ القُنُوطَ يستلزمُ عدمَ الرُّجوعِ إِلَى الله تَعالَى لأَنَّهُ إِذَا قَنَطَ من رحمةِ الله كَيْفَ يرجو رحمةَ الله؟ فيستحسِرُ وييأسُ -والعياذُ باللهِ- ولا يتعرضُ لما بِهِ الرّجاءِ والأملِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ نُفَرِّقُ بَيْنَ البلاءِ والابتلاءِ؟

قُلْنَا: البلاءُ بما يُؤْلِمُ هَذَا سوءٌ، والبلاءُ بما يَسُرُّ هَذَا ابتلاءٌ، والمُؤْمِنُ يُبتلى عَلَى قَدْرِ إيمانِه؛ لأَنَّ الابتلاءَ أحيانًا يَكُون بالمصائبِ لَيْسَ من أجلِ العقوبةِ لكن من أجل التَّمْحِيصِ والبيانِ، وَهَذا مَرَّ أنَّه قد يقعُ، قَالَ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد:٣١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة:٢١٤]، وقلنا: إنَّ الابتلاءَ مَعَ استقامةِ الحالِ لَيْسَ المرادُ بِهِ تكفيرَ سيئةٍ حصلتْ بل المرادُ بِهِ رفعُ الدّرجاتِ لأَنَّ الصَّبْرَ لا يَكُونُ إِلَّا عَلَى بلوى، والصَّبْرُ مرتبةٌ عالية لا يُنالُ إِلَّا بمشقةٍ.

الفائدتان السّادسة والسّابعة: إِثْبَاتُ الاخْتِيارِ للبشرِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، فيكونُ فِي ذَلِكَ رَدٌّ لقول الجَبريَّةِ الَّذِين يقُولونَ إنَّ الإنسانَ لَيْسَ له اختيارٌ فِي العملِ.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أنَّ الإنسانَ قد يُعاقبُ عَلَى أعمالِ القلوبِ أو قد يُذم عَلَى أعمال القلوب لأَنَّ القنوطَ من أعمالِ القلوبِ إذْ إِنَّه أشدُّ اليأسِ ومحلُّه القلبُ.

الآيــة (٣٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم:٣٧].

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعلموا]؛ وَعَلَى هَذَا فالرُّؤية علمية ويؤيد تفسيرَ المُفَسِّـر أنَّها جاءت فِي آياتٍ أخرى ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا﴾، وَهِيَ فِي سورة الزُّمَر: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الزمر:٥٢].

إِذَنْ: فأحسنُ مَا يُفَسَّرُ بِهِ القرآن هُوَ القرآن، وَهُوَ أعلى أنواع التّفسير، ويمكن أن يقال إنَّ لكل آية معنى فنفسر الرُّؤيةَ هُنَا برؤية البصرِ لا برؤيةِ البصيرةِ الَّتِي هِيَ العِلْم، ونفسرها هناك بالعِلْم كما هُوَ لفظُ الآيَة ويكونُ البسطُ والتّضييق معلومًا بالقلب مرئيًّا بالعين، فإنَّ الإنسانَ أيضًا يرى توسيع الرِّزقِ بعينه كما يعلمه أيضًا بقلبه.

وأيهما أعم، يعلمون أو يرون إِذَا لم يفسر ﴿يَرَوْا﴾ بـ﴿يَعْلَمُوا﴾؟

الجوابُ: العِلْم أعمُّ؛ لأَنَّ العِلْم قد يَكُون بالرُّؤية وقد يَكُون بالسَّماع، قد لا أرى أن الله بسَط الرِّزقَ لعباده وقدَّرَه لكنني أسمعُ أنَّه فِي البلاد الفلانية فَقْرٌ وفي البلاد الغنية غنى، وما أشبه ذَلِك، فالعِلْمُ أعم وَذَلِكَ لأَنَّ وسائلَ العِلْم متعددة بخلاف الرُّؤية فإن طريقها البصر، العِلْمُ كل الحواسِّ الخمسةِ المعروفة كلها توصل

إِلَيْهِ، فاللمسُ والشَّمُّ والذَّوقُ والرُّؤية والسَّماع كلها تفيد العِلْم، فَهُوَ أعم لأَنَّهُ إِذَا رأى عَلِمَ، لكنَّ العِلْمَ أعم لأَنَّ وسائلَه أكثرُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ البسطُ بمعنى التَّوسيعُ، كما قَالَ الله تعالى: ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الرّوم:٤٨]، يعني يوسعه، وقوْله تَعالَى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ سَبَقَ أنَّ كُلَّ شيء قيده الله بالمشيئة فإِنَّهُ مقرون بالحكمة وليست مشيئة الله تَعالَى مشيئةً مجردةً لأننا نعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ حكيمٌ لا يفعلُ شيئًا ولا يُشَرِّعُ شَيْئًا إِلَّا لحكمةٍ، فكلما مَرَّ عليك شيءٌ مُقَيَّدٌ بالمشيئةِ فاعلمْ أَنَّه مُقَيَّدٌ بالحكمةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [امتحانًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُ لِمَنْ يَشَاءُ ابْتِلَاءً]، ففرَّق المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بَيْنَ تضييقِ الرّزق وبين بَسْطِه وجعل البسطَ امتحانًا والتّضييق ابتلاءً، والصّواب أنهما سواءٌ كما قَالَ تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، فكلها ابتلاءٌ، وقال سُليمانُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النّمل:٤٠]، فالصَّوابُ أنَّ كلَّها ابتلاءٌ، والامتحانُ قريبٌ من معنى الابتلاءِ، لكنَّ الإِصَابَةَ ببسطِ الرّزقِ لبسطِ الرّزقِ تقتضي شكرًا، وبتضييقِه تقتضي صبرًا، هَذَا الفرق بَيْنَهُما، والمُؤْمِن يقوم بالوظيفتيْنِ إن أصابَتْهُ سراءَ شكرَ فكانَ خيرًا له، وإن أصابته ضراءَ صَبَرَ فكان خيرًا له، وَهَذا لَيْسَ إِلَّا للمؤمنِ فقط.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ الاسْتِفْهامُ هُنَا المُرَادُ بِهِ التَّقرير، يعني أنهم يَرَوْنَ أنَّ الأمورَ بيدِ الله عَزَّوَجَلَّ وأنه يبسط الرّزق لمن يشاءُ ويَقْدِرُ، فكيف يقنَطُونَ إِذَا أصابتهم السَّيِّئَةُ وكيف يفرحونَ ويبطرونَ إِذَا أصابتهم الرَّحمةُ؟ بل الواجبُ عَلَيْهِم أن يعلموا أن ذَلِك بحكمةٍ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ الواو هُنَا حرفُ عطفٍ وَلِيَتْ أداةَ الاسْتِفْهام،

وأداةُ الاسْتِفْهامِ لها الصّدارة، فإذا لم تسبق الواو بشيء يعطف علَيْه فما هُوَ الجواب؟

نَقُول: إنَّ لعُلَماءِ النّحو فِي مثل هَذَا التّركيب قولَيْن:

القولُ الأول: أن الواو عاطفة عَلَى مُقَدَّرٍ بعد الهمزةِ.

القولُ الثَّاني: أنَّ الواو عاطفة عَلَى مَا سبق، وَعَلَى هَذَا فتكون الهمزةُ مقدمة قبل العاطف وذكرنا أن هَذَا الرّأي أولى لأَنَّ الأول وإن كَانَ جيدًا من حيْثُ الأسلوبُ لكِنَّهُ فِي بعض الأحيان يصعُبُ عَلَى الإنسان أن يقدِّرَ شَيْئًا يرى أنَّه مناسبٌ للسياقِ.

وعليه فيكونُ القولُ بأن الهمزةَ للاسْتِفْهام وأن الواو مُقَدَّرَةٌ قبلها يعني وَأَلَمْ يَرَوْا أَسْهَل.

قوْله تَعالَى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ لا شك أن بَسْطَ الرِّزقِ وتضييقهِ ابتلاءٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَذَلِكَ لأَنَّ العبدَ أحيانًا يناسبُه أنْ يُبْسَطَ له الرِّزقُ وأحيانًا بالعكس حسب مَا تقتضيه الحكمةُ.

قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي فِي بسطِ الرّزقِ وتضييقِه ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ الَّذي نصَبَها ﴿إِنَّ﴾ فهي اسمُها مُؤَخَّرًا و﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ خبرُها مُقَدَّمًا.

وقوْله تَعالَى: ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ أي لَعَلَامَاتٍ دالةٍ عَلَى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له التّصرفُ المطلقُ فِي عباده، وأظنُّنا نرى أحيانًا مِن بعض النَّاس أنَّه يسعى بقدر مَا يستطيع فِي أسبابِ الرّزق ومع ذَلِك لا ينتجُ، تجدُه يبيع ويشتري ويسافر يضرب فِي الأرْض يبتغي من فضلِ الله ومع هَذَا لَيْسَ كثيرَ المالِ، مُضَيَّقٌ علَيْه، وتجد بعض النَّاس يسعى سعيًا بسيطًا ولكن الله تَعالَى يبارك له فِي سعيه حتى يَكُون عنده رزق كثير مما يدل

عَلَى أن الأمور لا تُنال بالكسب، فالكَسْبُ سَبَبٌ لكن فوق ذَلِك إرادةُ الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم هم الَّذِين ينتفعون بهذه الرّؤية وَهَذا التّفكر، أمَّا غير المُؤْمِن فإِنَّهُ لا ينتفع بِهَذا؛ ولذلك تجد هَؤُلاءِ الَّذِين لا يؤمنون إِذَا حصلت مثل هَذِهِ الأمور يَنْسُبُونَهَا إِلَى الطّبيعةِ، إِذَا كثر المطر قالوا: هَذَا بسببِ كذا، وَإِذَا قَلَّ قالوا هَذَا بسبب كذا، ونحن لا ننكر أن الأمورَ لها أسبابٌ، ولكننا ننكر أن تكون الأسباب هِيَ الفاعلة، فإن الفاعلَ هُوَ الله عَزَّوَجَلَّ وما الأسبابُ إِلَّا وسائلُ يُستدلُّ بِهَا عَلَى حكمةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنه حكيمٌ حيْثُ ربط المسببات بأسبابها.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: تقريرُ مَا يحدث فِي الكون من بَسْطِ الرّزقِ وتضييقِه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ لأَنَّ الاسْتِفْهامَ للتقريرِ كما سبق.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أنَّ سَعَةَ الرّزقِ وتضييق الرّزقِ كله بيد الله عَزَّوَجَلَّ.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: إثْبَات المشيئةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّه لا ينتفعُ بالآيَات إِلَّا المُؤْمِنُونَ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الآيــة (٣٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [الرّوم:٣٨].

قوْله تَعالَى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ إِلَى آخره (آتِ) بمعنى أَعْطِ لأنَّهَا من الرُّباعي، لو كانت من الثُّلاثي لكانت بمعنى جِئْ، لكنها من الرّباعي الَّذي بمعنى أَعْطَى.

وقوْله تَعالَى: ﴿ فَـَٔاتِ﴾ الخطابُ مفردٌ، فهل هُوَ للرسول ﷺ شخصيًا أو لكل مَنْ يتوجَّهُ إِلَيْهِ الخطابُ؟ للعُلَمَـاء فِي هَذَا رأيانِ، إِلَّا مَا دل الدّليلُ عَلَى أَنَّه خاصٌّ بالرَّسول ﷺ فَهَذَا يختص بِهِ مثل قوْله تَعالَى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ [الشّرح:١]، هَذَا خاصٌّ بالرَّسول ﷺ، وقوْله تَعالَى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضّحى:٨]، (وجدك) أي الرَّسول لكِنَّهُ أغنى بك جميعَ من انتفع بهذا، ومثل قوْله تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

وقوْله تَعالَى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي صاحِبَ القرابةِ، وَلِهَذا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القرابة]، فالقُرْبى بمعنى القرابةِ ﴿حَقَّهُۥ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنَ البِرِّ وَالصِّلَةِ]، وأَحَقُّ النَّاسِ بِذَلِكَ الأُمُّ والأَبُ وإنْ عَلَوَا، وصلتُهما تُسمى بِرًّا؛ لأَنَّهُ يجب أن تكونَ أعلى من صلة غيرهما، و(البِرُّ) كثرةُ الخير، وصلة غيرهما تسمى صلة؛ لأَنَّ المقصود

الوصل فقط بخلاف الأب والأم، فـ﴿حَقَّهُۥ﴾ هُنَا مُجْمَلٌ ولَكِنَّهُ مُبَيَّنٌ بنصوصٍ أُخْرَى من القرآنِ، والسُّنةِ وَهُوَ أنَّ حقَّ الأبوين البرُّ، وحقَّ غيرِهما الصِّلةُ فيمكنُ أنْ يكُونَ قولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من البر والصّلةِ عَلَى سبيلِ التّوزيعِ من البر بالأبوين والصّلة بغيرهما من ذوي الأرحامِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يَعُمُّ كلَّ قريبٍ ولو كَانَ كافرًا لأَنَّ العِلَّةَ القرابةُ ليست الإسْلامَ، لو قَالَ آتِ المُؤْمِنَ حقَّه قلنا العلةُ الإيمانُ فيختصُّ الحكمُ به.

قوْله تَعالَى: ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المِسْكِينُ هُوَ الفقيرُ وهنا أُطْلِقَ المِسْكِينُ والمُرَادُ بِهِ الفَقِيرُ والمِسْكِينُ فِي آيةِ الصَّدقةِ، وقد مر أنَّ المِسْكِينَ إِذَا أُطْلِقَ يشملُ الفَقِيرَ، والفَقِيرَ إِذَا أُطْلِقَ يشملُ المِسْكِينَ، وَإِذَا قُرِنَا جَمِيعًا افترقَا، المِسْكِينُ له حقٌّ، مَا حقُّه؟ حقُّه دَفْعُ حاجتِه لأَنَّهُ فقيرٌ، قَالَ أهل العِلْم: وإطعامُ الجائعِ وكِسْوَةُ العَاري فَرْضُ كفايةٍ إِذَا قَامَ بِهَا مَنْ يكفي سقطَ عَنِ الباقِينَ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُسَافِرُ مِنَ الصَّدَقَةِ وَأُمَّةُ النَّبِيِّ ﷺ تَبَعٌ لَهُ فِي ذَلِكَ]، وسُمِّيَ ابن سَبِيلٍ لِمُلازمتِه لَهُ، والسّبيلُ الطّريقُ، وكل مَنْ لازمَ شَيْئًا يُسمى ابنًا لَهُ، قَالُوا كما يُقَال ابن الماءِ لطيره، طَيْرُ الماء يُسَمَّى ابنَ الماءِ، ويُقَال للرجل الَّذي يُكْثِرُ السَّفر فِي الليل ابن الليالي وما أشبهَ ذلك، فالابنُ لكل مَنْ لازمَ الشّيء، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من الصّدقة]، هَذَا تفسير لحق المِسْكِين وابن السّبيل، وقيل المُرَادُ بابن السّبيل الضّيفُ لأَنَّهُ عابرُ سبيلٍ، ولكن الصّحيح أنَّه المسافر ويشمل الضّيف لأَنَّ الضّيف مسافر.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وأمة النَّبيّ ﷺ تبعٌ لَهُ فِي ذلك] أفادنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الجملة أنَّ الخطابَ فِي قوْله تَعالَى: ﴿فَـَٔاتِ﴾ موجَّهٌ للرسول ﷺ شخصيًا والأمة

تَبَعٌ لَهُ، وقد سبق أن وجه ذَلِك أن الرَّسول ﷺ هُوَ زعيمُ أمته فَوُجِّه الخطاب إِلَيْهِ وإن كَانَ شاملًا أو أنَّه خاصٌّ بِهِ وتكون أمته تبع لَهُ عَلَى سبيل التّأسِّي به.

قوْله تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المُشارُ إِلَيْهِ إيتاء ذي القربى حقه والمِسْكِين وابن السّبيل.

قوْله تَعالَى: ﴿خَيْرٌ﴾ كلمة خير هُنَا هل يراد بِهَا التّفضيلُ أو أنَّها اسم وليست بتفضيل؟ قلنا فيما سبق أن خيرًا وشرًّا تستعملان اسمَيْ تفضيل وتستعملان اسمًا مجردًا عن التّفضيل كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزّلزلة:٧-٨]، هُنَا لَيْسَ المُرَادُ بِهَا التّفضيلَ كَذَلِكَ هُنَا قَالَ ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ الظّاهر أنَّه لا يراد بِهَا التّفضيل وأن المُراد أن هَذَا خير ضد الشّر، لكِنَّهُ قُيِّدَ بقوْله تَعالَى: ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ وَهَذا دليل عَلَى الإِخْلاص يعني خيرًا للمخلصين الَّذِين يريدون وجه الله، أمَّا غيرُ المخلص فإِنَّهُ لَيْسَ خيرًا لَهُ لكن هل هُوَ خير للمخلص؟ قَالَ الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النّساء:١١٤]، فجعل الله تَعالَى ذَلِك خيرًا مطلقا ثمَّ قَالَ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النّساء:١١٤]، فجعل هَذَا الشّيء خيرًا مطلقًا لما فِيهِ من النّفع المتعدي ولَكِنَّهُ لا يَكُون خيرًا للفاعل إِلَّا بالنّية؛ بنيةِ الإِخْلاصِ وأظنُّ أن هَذَا ظاهرٌ، لو أنَّك تصدقْتَ عَلَى شخصٍ بدراهمَ أو بثوب يلبَسُه انتفعَ، أما أنت فقد تنتفعُ وقد تنضرُّ وقد لا تنتفع ولا تنضر، فإن فعلتَ ذَلِك رياءً انضرَرْتَ، وإن فعلته إخلاصًا انتفعتَ وإن فعلته مجرد سجية وطبيعة فإنك لا تنتفع وَلِهَذا قَالَ هُنَا ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ فنقول: لا يَكُون خيرًا إِلَّا للذين يريدون وجه الله هَذَا بالنّسبة للمعطي، أمَّا بالنّسبة للمُعطى فَهُوَ خير لَهُ حتى لو يعطي كافرٌ شخصًا مالًا

انتفع بِهِ وصار خيرًا لَهُ فلا يَكُون خيرًا للمعطي إِلَّا بالنّية، أمَّا بالنّسبة للمعطى فَهُوَ خيرٌ لَهُ عَلَى كل حَالٍ.

ولم يذكر الله فِي الآيَة هُنَا الخير للمعطي إِلَّا بهذه النّية أمَّا المعطى فلا شك أنَّه خير لَهُ عَلَى كل حَالٍ كما تفسره آياتٌ أُخْرَى، قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي ثَوَابُهُ بِمَا يَعْمَلُونَ]، قول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي ثوابه] هَذَا تفسير لَيْسَ بصحيح وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى طريق أهل التّأويل الَّذِين لا يؤمنون بالصّفات الخبرية الَّتِي أخبر بِهَا الله عن نفسهِ كالوجهِ واليدين والقدم وما أشبهها، فتفسير الوجه بالثّواب خطأ وليس عَلَى طريق أهل السّنة والجماعة، بل هُوَ عَلَى طريق أهل البدع الْمُؤَوِّلِينَ الَّذِين يُسمونَ أنفسهم مُؤَوِّلِينَ وهم فِي الحقيقةِ مُحَرِّفُونَ.

والصّوابُ: أن الْمُرَادَ بِهِ وجهُ الله: وجهُه الَّذي هُوَ صفتُه، وأنَّ فِي الآيَة إشارةً إِلَى أن من فعل مثل هَذِهِ الأمورِ لله فإِنَّهُ سَوْفَ يرى الله عَزَّوَجَلَّ ويلقاهُ كما ثَبَتَ ذَلِك فِي الكتابِ والسّنةِ وإجماعِ السّلفِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ كَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ(١)، قَالَ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القِيَامَة:٢٢-٢٣]، الأولى ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ بالضَّادِ بمعنى حَسَنَةٍ وَبَهِيَّةٍ، والثّانية بالظّاء لأنَّهَا من النَّظَرِ بالعَيْنِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: (أولاءِ) مبتدأٌ و(هم) ضميرُ فصلٍ والمفلحونَ خبرُه، الْمُفْلِحُ هُوَ الَّذي فازَ بالمطلوبِ وَنَجا مِنْ المرهوبِ مَنْ أَفْلَحَ إِذَا فَازَ، والفلاحُ أصلُه البقاءُ، كما قَالَ الشّاعر(٢):

..... وَالْمُسْيُ وَالصُّبْحُ لَا فَلَاحَ مَعَه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (٦٣٣).

(٢) البيت للأضبط بن قريع، البيان والتبيين (٣/ ٢٢٣).

يعني لا بقاءَ، ولَكِنَّهُ صار شاملًا لكل مَا حصلَ بِهِ المطلوبُ ونجا بِهِ من المرهوبِ، وقوْله تَعالَى: ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الجملة اسمية تدُلّ عَلَى أنَّ الفلاحَ لازمٌ له.

وضمير الفصل هل هُوَ اسمٌ أو حرفٌ؟

الصّحيح أنَّه حرفٌ لا محل لَهُ من الإعرابِ ولا يُعرب.

إِذَنْ: مَا الفائدة من ضمير الفصل؟

له ثلاثُ فوائدَ: الأولى الحصر، والثّانية التّوكيد، والثَّالثة الفرق بَيْنَ الصّفة والخبر، مثال ذَلِك إذَا قُلْتَ: (زَيْدٌ العَاقِلُ)، فـ(زيد) مبتدأ و(العاقل) خبره، لكن يحتمل أن تكون (العاقل) صفة لـ(زيد)، وأن الخبر لم يأتِ بعد، مثل: (زَيْدٌ العَاقِلُ مَحْمُودٌ) مثلًا، لكن إذَا قُلْتَ: (زيد هُوَ العاقل) تعيّن أن تكون (العاقل) خبرًا، وَلِهَذا قيل له: ضمير فصل؛ لأنَّهُ يفصل ويميز بَيْنَ التّابع الَّذي هُوَ النّعت وبين الخبر، أمَّا إفادتُه للتوكيد فواضحةٌ، فإن قولك: (زيد هُوَ العاقل) أقوى فِي الدّلالة عَلَى الحصر من قولك: (زيد العاقل)، أمَّا كَونُه لا محل لَهُ من الإعراب فظاهر، فِي القرآن ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء:٤٠]، لو كَانَ لَهُ محلٌّ من الإعراب لقَالَ: إن كانوا هم الغالبونَ، ونقول (هم) مبتدأ والغالِبونَ خبرٌ، والجملة خبر (كان)، فدل هَذَا عَلَى أنَّه لا محل لَهُ من الإعراب، وَهُوَ -عَلَى المشهور عند النّحويين- حرف جِيء بِهِ للفَصلِ، فصورته صورة الضَّمير، لكن معناهُ لَيْسَ معنى الضّمير الَّذي يَكُون اسمًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أن هَؤُلاءِ الأصناف الثّلاثة حقَّ القريبِ والمِسْكِينِ وابنِ السّبيلِ.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: وجوب إيتاء هَؤُلاءِ حقهم؛ تؤخذ من الأمـرِ فِي قوْله تَعالَى: ﴿ فَـَٔاتِ﴾ والأصلُ فِي الأمرِ الوجوبُ.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّ الأقربَ فالأقربَ أحقُّ؛ تؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

لكن كَيْفَ الأخذ؟

الأخذ: هُـوَ أن لدينا قاعـدة سبق أنْ قَرَّرناها وَهِيَ أن الحكمَ إِذَا عُلِّقَ عَلَى وَصْفٍ فكلما كَانَ أكثر فِي هَذَا الوصف فَهُوَ أحقُّ إِذَا عُلِّقَ الحكمُ عَلَى وصف فكلما كَانَ هَذَا الوصفُ أشدَّ تَمَكُّنًا فِي شيءٍ فَهُوَ أَحَقُّ به، فمثلاً إِذَا قُلْتَ: (أَدِّبِ العَاصِي)، عُلِّقَ التّأديبُ بالعصيانِ، فيقتضي هذا أن كل من كَانَ أَشَدَّ معصيةً كَانَ أَشَدَّ تأديبًا، وَإِذَا قلنا: (أَكْرِمِ المُؤْمِنَ) صَارَ معنى ذَلِكَ: أنَّ كلَّ من كَانَ أقوى إيمانًا صَارَ أحقَّ بالإكرامِ، قوْله تَعالَى: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ عُلِّقَ الحقُّ بالقرابةِ، فكلما كَانَ أقربَ كَانَ أحقَّ بالإيتاءِ، وهذهِ القاعدةُ مفيدةٌ لطالبِ العِلْمِ أنَّه إِذَا عُلِّقَ الحُكْمُ عَلَى وصفٍ، قَوِيَ ذَلِك الحكم بقوة ذَلِك الوصف؛ نظرًا لأَنَّ تعليقَه بالوصف يفيد علِّيته وهذه أيضًا قاعدة ثانية: (أَنَّ تَعْلِيقَ الحُكْمِ بِالوَصْفِ يُفِيدُ أَنَّ ذَلِكَ الوَصْفَ عِلَّةٌ)، فمثلًا تقول أكرمِ المُؤْمِنَ لماذا؟ لإيمانِه، أدِّبِ الفاسقَ لفسقِه ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:٦٤]، معناه لإفسادِهم وهكذا.

فنَقُول: إن تعليقَ الحكمِ بالوصفِ يدلُّ عَلَى عِلِّية ذَلِك الوصف، وأنَّه عِلَّةُ الحُكْمِ، وبناء عَلَى هَذِهِ القاعدةِ تأتي القاعدةُ الأولى أيضًا.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ كل من كَانَ أحقَّ بالإحسَانِ فَهُوَ أولى به؛ لأَنَّ المِسْكِينَ أحقُّ بالإحسَانِ من الغني، وابنَ السّبيل المسافر المنقطع بِهِ سفره أحقُّ من غيره.

الفائدتان الخامسة والسّادسة: أن النَّفْعَ المتعدي خيرٌ فِي نفسه.

وهل هُوَ خير للفاعل؟

نعم، هُوَ خير للفاعل بشرط، فَهُوَ خير فِي نفسه وإن لم ينتفع بِهِ الفاعل.

ويتفرع عَلَى هَذَا أن مَا يبذله الكفَّار من منافع للمسلمين هِيَ خير للمسلمين، لا نقول هَذِهِ صدرت من كافرٍ فليست بخير وليس فيها خيرٌ.

مثلًا لو أن أحدًا من الكفَّار أصلحَ طريقًا من الطّرق، من هَذِهِ الشّركات الكافرة فيكونُ فِي هَذَا الإصلاح خيرٌ لا شك، لكن لَيْسَ خيرا لهُم إنما هُوَ خير لغيرهم.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: التّنبيهُ عَلَى أهمية الإِخْلاصِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أنَّه كلما كَانَ العمل أخْلَصَ للهِ كَانَ أكثرَ خيرًا للفاعل نأخذ هَذَا الحكم من القاعدة الَّتِي مرت بأن هَذَا الحكم عُلِّق بعلة ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾؛ لأن اسم الموصول مَعَ صلته كاسم الفاعل تمامًا، فيكون خيرًا للذين يريدون.

إِذَنْ: فكلما كَانَ الإنسانُ أخلصَ فِي إرادة وجه الله كَانَ أكثرَ خيرًا له.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: إثْبَات الوجه لله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ووجه الله عَزَّوَجَلَّ قَالَ أهل العِلْم: أنَّه من الصّفات الخبرية لأَنَّ عِنْدَهُم من الصّفاتِ مَا هِيَ خبريةٌ محضةٌ، فيعبرونَ عنها بالخبرية؛ لئلا يقعوا فِي المحذور فلا يقُولونَ إِنَّها بعضيَّة مثلًا أو جزئيَّة لأَنَّ التّبعُّض والتّجزئة فِي ذات الله عَزَّوَجَلَّ محرمٌ إطلاقًا، فالوجهُ واليدُ والعين والسّاق والقدم كل هَذِهِ يُعَبَّرُ عنها بالصّفاتِ الخبريةِ، لكنَّ السّمعَ والعِلْمَ والقُدْرَةَ والحياة تُسمى صفاتٍ معنويةً: صفات معانٍ، والفرقُ بَيْنَ الصّفات المعنوية والخبرية

أن الصّفات المعنوية تدُلُّ عَلَى معانٍ كالسَّمعِ والبصر والعِلْم والقُدْرَة وما أشبهها، وأما الصّفات الخبرية فهي تدُلُّ عَلَى صفاتٍ هِيَ بالنّسبة لنا أبعاض، فَيَدُ الإنسانِ ووجه الإنسان وساق الإنسان وقدم الإنسان وعينُه مثلًا هَـذِهِ أبعاض لَهُ ولكن لا نسميها بالنّسبة لله أبعاضًا بل سماها أهل العِلْم الصّفات الخبرية.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: الإشارةُ إِلَى رؤية الله عَزَّوَجَلَّ لقوْلِه تَعالَى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ولا شك أن رؤية الله عَزَّوَجَلَّ ثابتة بالقرآن والسّنة وإجماع السّلف، ففي القرآنِ قَالَ الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [المائدة:٢٢-٢٣]، معنى ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ الأولى من النَّضارة وَهِيَ الحُسْنُ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بالظَّاءِ من النّظر وَهُوَ الرّؤية بالعين وهذه الآية من أَصْرَحِ مَا فِي القرآن وتوجد آية أُخْرَى وَهِيَ قوْله تَعالَى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣]، وتوجد آيـة ثالِثة وَهِـيَ قوْله تَعالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فسرها النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأنها النّظر إِلَى وجه الله، وتوجد آية رابعة وَهِيَ قوْله تَعالَى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، وتوجد آية خامسةٌ وَهِيَ قوله تَعالَى فِي الأنعام: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]، لأَنَّ هَذِهِ الآيَةَ تدُلُّ عَلَى الرّؤية لأَنَّ الله تَعالَى قَالَ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ ونَفْيُ الإدراك يدل عَلَى ثبوتِ الأصل، ولو كَانَ لا يُرى لقَالَ: (لا تَراهُ الأَبْصَارُ)، فنفي الأَخَصِّ يقتضي وجود الأعمِّ؛ وَلِهَذا كانت هَذِهِ الآيَةُ الَّتِي يُستدل بِهَا أهل التّعطيل عَلَى نفي رؤية الله دليلًا عَلَيْهِم لا دليلًا لهم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ورد فِي الحديث أن يَوْمَ القِيَامَة يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: من كَانَ يعبدُ الطّواغيتَ فليعبد الطّواغيتَ، ومن كَانَ يعبدُ الشَّمسَ فليعبدِ الشّمسَ فيأتيهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي صورة غير صورته الَّتِي يعرفونها فيقولُ أنا ربكم فيقولونَ نعوذُ

بالله منكَ هَذَا مكانُنا حتى يأتينا ربنا، قَالَ ثمَّ يأتيهِمْ فِي صورتِه الَّتِي يعرفونَ فيقولُ أنا ربُّكم، فيقولونَ أنْتَ ربُّنا، فينطلقُ ثمَّ يتبعونَه[1]، والإشكال هو: مَا معنى قوله: فينطلق ثمَّ يتبعونه؟

فالجوابُ: أن هذه اللفظةَ غيرُ ورادةٍ، فلا أدري معناها، ولا نبحثُ فيها حتى تؤكَّدَ، وَإنَّما ورد أن الأممَ تتبعُ مَنْ كانتْ تعبدُ حتى تُلقى فِي النَّارِ[2].

وفي الحديث: «فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للهِ تَعالَى فِي الدُّنْيَا»[3].

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: أنَّ الفلاحَ يَكُونُ بأمرين: بالإِخْلاصِ وفعلِ المأمورِ بِهِ نأخذُها مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وهَؤُلاءِ المُشارُ إليهم أَتَوْا بالفعلِ والثّاني الإِخْلاصُ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٥٧٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢). ولفظ: «فينطلق بهم ويتبعونه» أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، رقم (٤٥٨١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، رقم (٤٩١٩).

الآيــة (٣٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [الرّوم:٣٩].

لَمَّا أمرَ الله تَعالَى بإيتاءِ ذي القربى حقه فِي قوْله تَعالَى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ ﴾ إِلَى آخره، حذَّر من هَذَا الأمر ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ ﴾، والرّبا فِي اللُّغَة الزّيادةُ كقوْله تَعالَى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [الحج:٥]، أي علت، ومنه الرَّبْوَةُ للمكانِ المرتفعِ، أمَّا فِي الشّرع فالرِّبا المحرَّمُ هُوَ زيادةٌ فِي أَشْيَاءَ أو نَسِيءٌ فِي أَشْيَاءَ، فَهُوَ إمَّا أَشْيَاءُ يزيدُ فِيهَا كما لو باعَ صاعًا من البُرِّ بصاعين مِنْهُ ولو يَدًا بِيَدٍ فَهُوَ ربًا: ربَا فَضْلٍ. أو باع دنانيرَ بدراهمَ مَعَ تأخيرِ القبْضِ فَهَذَا رِبَا نَسِيئَةٍ، وكلاهُما مُحَرَّمٌ.

وأما الرّبا هُنَا فِي الآيَة ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا ﴾ فالمُرَادُ بِهِ الزّيادة فَهُوَ رِبًا لُغَوِيٌّ، هَذَا هُوَ الَّذي علَيْه جمهورُ المفسرين، فقوْله تَعالَى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم ﴾ أي وما أعطيتُم من ربًا ليربوا فِي أموالِ النَّاسِ فلا يَرْبُو عندَ الله، وقولنا: وما أعطيتُم من ربًا؟ فسره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [بِأَنْ يُعْطِيَ شَيْئًا هِبَةً أَوْ هَدِيَّةً لِيَطْلُبَ أَكْثَرَ مِنْهُ]، تُهدِي لشخصٍ لأجلِ أنْ يعطيَك أكثرَ أو تَهبُهُ من أجلِ أن يَرُدَّ عليكَ أكثرَ مما وهبتَ الآن آتيتَ شَيْئًا ليرد عليك أكثر منه، نقول آتيتَ ربًا.

لَكِنْ إِذَا قَالَ قَائِلٌ: أنا مَا أعطيتُ ربًا أنا أعطيتُ شَيْئًا حصل بِهِ الرِّبا؟

أجاب الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هَذَا: [فَسُمِّيَ بِاسْمِ المَطْلُوبِ مِنَ الزِّيَادَةِ فِي الْمُعَامَلَةِ]، فيكونُ هَذَا الَّذي أعطى ليُعطى أكثرَ كأنَّه أعطى رِبًا لأَنَّهُ أُعطِيه، هَذَا مَا علَيْه أكثر المفسرين.

وَعَلَى هَذَا فيكون الرِّبا هُنَا لُغَوِيًّا، وهنا قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هِبَةً أَوْ هَدِيَّةً] الفرقُ بَيْنَ الهبةِ والهديةِ أن الهبةَ يقصد بِهَا مجردَ الإحسَانِ إِلَى الْمُعطَى فَقَطْ، والهديةُ يُقصدُ بِهَا التَّوددُ والإكرام؛ وَلِهَذا قَالَ الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «تَهَادُوا تَحَابُّوا»[1]، يوجدُ شيءٌ ثالثٌ يُسَمَّى صدقةً يُقْصَدُ بِهِ ثوابُ الآخرةِ فما يُقصدُ بِهِ ثوابُ الآخرةِ فَهُوَ صدقةٌ، وما يُقْصَدُ بِهِ التَّوددُ والإكرامُ فَهُوَ هديةٌ، وما يُقْصَدُ بِهِ نفعُ المعطَى فَهُوَ رِبًا.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ كأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ حذَّرَ مِنْ أن يؤتي الإنسانُ أحدًا من ذوي القربةِ أو المساكينِ أو ابنِ السّبيلِ لأجلِ أنْ يُعطى أكثرَ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي فلا يزيد عند الله عَزَّوَجَلَّ لأَنَّ هَذِهِ الحالةَ حالُ دُنْيَا نازلةٍ، وَلِهَذا نهى الله عنها رسوله ﷺ فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:٦]، يعني لا تُعطِ لأجلِ أنْ تعطَى أكثرَ، ولما كانتْ هَذِهِ الحالة نازلةً، قَالَ هُنَا ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ الْمُعطينَ أي يزيدُ]، ﴿فَلَا يَرْبُواْ﴾ يعني فلا يزيدُ، قَالَ الْمُفَسِّر: [فلا يَزْكُو ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي لا ثَوابَ فِيهِ للمُعطينَ]، وَذَلِكَ لأَنَّهَا حالٌ لا تنبغي فلا يَكُون فِيهَا أجرٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ هَذَا مَا ذكره المفسرون فِي تفسير هَذِهِ الآيَة ورَوَوْهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وغيره.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٠٨، رقم ٥٩٤).

وعندي أنَّه يحتملُ فِي الآيَة معنًى آخر يَكُون قوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ الرِّبا الشَّرعي، ويخاطب الله عَزَّوَجَلَّ المعطين للرِّبَا يعني أن الرِّبا الَّذي تعطونه غيركم وإن كَانَ يزيد فِي أموالهم فإِنَّهُ لا يَرْبُو عند الله بل إنَّه عَلَى العكس يحصُلُ بِهِ المَحْقُ والسُّحْتُ للمال الطَّيب، فلا خيرَ فِيهِ ويؤيد ذَلِك قوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ فَفَرَّقَ بَيْنَ المُرابي وبين المُتَصَدِّقِ، كما أن الله عَزَّوَجَلَّ يقرن بَيْنَهُما فِي بعض الآيَات مثل مَا ذكر فِي سورة البقرة ذكر الله الإنفاق وذكر بعده الرِّبا، وَكَذلِكَ أيضًا فِي سورة آل عمران ﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٠-١٣٣]، وذكرَ من جملةِ أوصافهم أنهم يُنفِقونَ فِي السَّرَّاءِ والضَّراء، ولكنْ هَذَا الاحتمالُ حتى الآن مَا رأيتُ أحدًا قَالَ بِهِ، وَإِنَّما يقُولونَ بالمَعْنَى الأول وَهُوَ أن يُعطي الإنسان شَيْئًا هِبَةً أو هديةً ليُعطَى أكثرَ فإنَّ هَذَا وإن زاد فِي أموال المعطين فليس فِيهِ زيادة عند الله لأنَّهُ خُلُقٌ مذمومٌ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فيما لو أهدينا إِلَى شخصٍ معروف بالمكافأة وأنا مَا قصدت فهل يجوز أم لا؟

قُلْنَا: مَا دام أنَّك مَا قصدتَ فإِنَّهُ لا يضرُّ.

وهل الإهداءُ للأمراء والملوك والوزراء وما أشبههم يدخل فِي هَذَا النّهي؟

غالِب الَّذِين يُهدون خصوصًا عَلَى الملوك والكبار من الأمراء إنما يريدون الزّيادة، يريدون أكثر؛ وَلِهَذا إِذَا عُرِفَ الإنسانُ بِأَنَّهُ لا يعطي إِلَّا مثل القيمة أو دونها لا يُعطَى هدايا، فلا يعطى هدايا إِلَّا من عُرِفَ أنَّه يبذل أكثرَ ويردُّ أكثرَ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ يعني أعطيتم ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾: (مِن) حرف جر وَهِيَ بيانية بَيان لـ(ما) فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾، و(ما) هُنَا إعرابها شرطية بدليل قوْله تَعالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ فارتبطت (الفاء) فِي الجواب يعني ومهما آتيتم من زكاة بِهَذا القيد تريدونَ وجهَ الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر: [صَدَقَة]، وفي هَذَا القيد نظر إن قصد بِهَا صدقة التّطوع أمَّا إن قصد بِهَا الصّدقة مطلقًا فَنَعَمْ لأَنَّ الصّدقة تُطلق عَلَى الواجب والمستحب والدّليل عَلَى إطلاقها عَلَى الواجب قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠]، فَهَذَا للواجبِ والمستحب.

إِذَنْ نَقُول: ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾ المُراد بِهَا الزّكاة الواجبة.

فبالمَعْنَى الأول كَيْفَ نحوِّلها إِلَى صدقةٍ عَلَى أن المُراد بِهَا التَّطوعُ؟

والصّواب: أن المُراد بالزّكاة هِيَ الزّكاة الواجبة لأنَّهَا مرادة عند الإطلاق، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣]، المُراد الواجب، إِذَنْ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ أي من صدقة واجبة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الزّكاةُ فُرِضَتْ بالمدينة وهذه السُّورة مكِّية؟

قُلْنَا: هَذِهِ لا تدُلُّ عَلَى الفرض، وَإِنَّمَا تدُلُّ عَلَى الأجر فقط، مَعَ أن الصّحيح أن الزّكاة مفروضةٌ بمكةَ لكن تقديرها وتقدير أَنْصِبَائِها هُوَ الَّذي كَانَ فِي المدينة هَذَا هُوَ الصّحيح.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ يعني تريدونَ بهذه الزّكاة الَّتِي آتيتم، تريدون وجهَ الله، هَذِهِ جملة شرط للثواب والأجر أن يريد الإنسان

وجه الله؛ لأَنَّ مَنْ لا يريدُ وجه الله إمَّا أن يريد وجه غيره أو أن لا يريد شَيْئًا، إِذَا أراد وجهَ غيرِه فليس لَهُ أجر بل علَيْه وِزْرٌ لأَنَّهُ مُراءٍ مشْرِكٌ فلا تقبل مِنْهُ، وإن لم يُرِدْ وجه الله ولا غيره لكِنَّهُ أراد إبْراءَ ذِمته فقط كما هُوَ حال غالب من يؤدي الزّكاة بل -الله يعاملنا بعفوه- غالِب من يؤدي حتى الصّلاة، أكثر النَّاس عندما يأتي إِلَى الصّلاة تجده يريد إبراء ذمته لا يشعر بأن هَذِهِ الصّلاة تقربه إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ ويريد القرب بِهَا إِلَى الله هَذا، فغالب النَّاس -إلا من وفق وصار ينتبه عند فعل الطّاعات بإرادة وجه الله وَهُوَ الإِخْلاص واتباع الرَّسول ﷺ- فِي هَذِهِ العبادة لا يُراد وجهُ الله ولا يراد وجه غيره، وَإِنَّما أراد بِهَا إبراء ذمته تنفعه بلا شك وتبرأ بِهَا ذِمتُه وربما يُؤجر لقيامه بركن من أركان الإِسْلام، بل يقينًا يُؤجر لكن ربما يُؤجر أيضًا بكونه يشعر أن هَذِهِ مما أوجب الله علَيْه فيؤديه؛ لأَنَّ هَذَا لا شك أَنَّه تَعَبُّدٌ لله يعني فَعَلَه تَعَبُّدًا لكنْ كونُه يريد بِذَلِكَ وجه الله والتّقرب إِلَيْهِ هَذِهِ حالة أعلى من كونِه يريد مجرَّد إبراء ذمته.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قوْله تَعالَى: ﴿تُرِيدُونَ﴾ بِهَا ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ثَوابَهُمْ بِمَا أَرَادُوهُ].

قوْله تَعالَى: ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ المُفَسِّر لم يفسِّرْها هنا، لكِنَّهُ فسرها فِي الآيَة الَّتِي قبلها بأنها ثوابه والصّواب أن المُرَادَ بوجه الله ذات وجه الله لا ثوابه وفيه إشارة كما سبق إِلَى رؤية المؤْمِنينَ ربهم.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ جوابُ الشَّرط، ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، ﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ خبر (أولئك) ومعنى ﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي الحاصلونَ عَلَى التَّضعيفِ لأَنَّ الفعلَ الثُّلاثي إِذَا دخلت علَيْه الهمزة فقد يراد بِهِ الدُّخول فِي الشّيء مثل قولهم: (أنجد) أي دخل نجدًا فمعنى (أضعف) هُنَا أي صَارَ من ذوي الأضعافِ، والأضعافُ

معناه الزّيادةُ يعني أولئك هم المضعفون الَّذِين حصلوا عَلَى مضاعفة الأجر والثّواب بخلاف الأولين الَّذِين آتوُا الرِّبَا ليربوا فِي أموالِ النَّاس، فهَؤُلاءِ لَيْسَ لَهُم زيادةٌ، فالزِّيادةُ للذين آتوا الزَّكاة يريدونَ وجهَ الله، هَؤُلاءِ هم المضعفون أي الدَّاخلونَ فِي المضاعفةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ قول المُفَسِّر: [﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ثوابهم] يعني الَّذِين ضاعفوه وزادوه بما أرادوه.

ثمَّ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيهِ التفاتٌ عن الخِطابِ إِلَى الغَيْبَةِ]، والخطاب هُوَ قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾، هَذَا خطاب، وكان مقتضى السّياق إِذَا كَانَ عَلَى نسق واحد أن يُقَال لَأَنْتُم المضعفون، لكن قَالَ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ وفائدة الالتِفات التّنبيه وفيه تَعْلِيَةٌ للشأن مثل التّعبير بقوْله تَعالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾ [غافر:٦٠]، لم يقل وقلت لكم أو أقول لكم، تعظيمًا لشأنه تَعالَى فيكون المُرَاد بِذَلِكَ تعظيم شأن هَؤُلاءِ الَّذِين أردوا وجه الله عَزَّوَجَلَّ بكونهم حصلوا عَلَى مضاعفة الأجر والثّواب بخلاف الأولين.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أن من بذل مالَه من أجل الحصول عَلَى أمر الدّنيا فإِنَّهُ لا أجْرَ لَهُ فِي ذَلِك تؤخذ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وَهَذا عكس الأولين الَّذِين سبقوا فِي الآيَة السّابقة، الَّذِين أعطوا فِي الآيَة السّابقة يريدون وجه الله هَؤُلاءِ بالعكس يريدون الازدياد بما أعطوا.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: التّنبيه عَلَى أهمية الإِخْلاص لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ تؤخذ من قوله: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّ مضاعفةَ الأعمـال تكون بحسب الإِخْلاص لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ فقد رتب الله تَعالَى الأضعاف عَلَى إرادة وجه الله، وَعَلَى مَا قررنا فِي القاعدة قبل قليل يَكُون كل من كَانَ أخلص لله فعمله أكثرُ مضاعفةً، وَهَذا أمر لا شك فِيهِ، فإن مضاعفة الأعمال تكون بأسباب كثيرة منْهَا شرفُ الزَّمانِ، ومنها شرفُ المكانِ ومنها شرف الفاعل، ومنها شرف العمل، ومنها الإِخْلاص، ومنها الاتِّباع، كل هَذِهِ الأسباب السّتة من أسباب المضاعفة.

المضاعفة بسبب شرف الزّمان كرمضان والعشر الأُوَلِ من ذي الحجة هَذَا لشرف الزّمان.

ومنها: المكان كالحرمين والأقصى فإِنَّهُ العمل فِيهَا أشرف من غيرها فالصّلاة فِي المساجد الثّلاثة أشرف من غيرها.

المضاعفة أيضًا بحسـبِ العملِ، أي بحسـب جِنس العملِ وليس بكثرتها، فالصّلاة أفضل من غيرها، والفرض من كل عمل أفضل من نَفْلِهِ وأشرفُ، والجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله ذُرْوَةُ سَنَامِ الإِسْلَامِ[1]، وهكذا كما يتبين لنا كثيرًا.

ومنها: المضاعفَةُ بحسب الفاعل، كالصّحابة الَّذِين قَالَ فيهم الرَّسول ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»[2]، ويلحق بِهَذا العاملون فِي آخر الزّمان فِي أيام الصّبر الَّذِين يتمسكون بسنة الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الإِيمَان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٥٤١).

مَعَ تباعد النَّاس عنها، فإن هَؤُلاءِ يُضاعَف لَهُم الأجرُ وإن كانوا لا ينالون من مرتبة الصّحابة لكن يضاعف أجرهم بسبب مَا يجدونه من الغرابة ومخالَفة النَّاس لَهُم؛ لأَنَّهُ لا أحد يشك أن الإنسان الَّذي يعمل فِي محيط يعملون كما يعمل أن العمل يَكُون علَيْه هيِّن، بل مخالَفة النَّاس هِيَ الصّعبة، فعمل الإنسان فِي محيط لا يعملونه هَذَا هُوَ الصّعب والشّاق لا سِيَّما أن المعارضة ستكون عنيفة لأَنَّ هَذَا متمسك بطاعة الله والمخالَفون لَهُ عَلَى العكس، وأعنف صراع يَكُون بَيْنَ المتخالَفين هُوَ مَا يَكُون بَيْنَ المتمسكين بدين الله والمتحللين منه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا معنى قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**العَامِلُ فِي أَيَّامِ الصَّبْرِ لَهُ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ**»[1]؟

قُلْنَا: المَعْنَى لَهُ أجر خمسين فِي هَذِهِ الخصلة الَّتِي عانى بِهَا وتعب، فأصل العمل مثلًا الصّدقة مضاعفة بعشر أمثالها، عشر الأمثال موجودة فِي الصّحابة وموجودة فِي هَذَا الزّمن المتأخر لكِنَّهُ يضاعف ذَلِك فيكون أجر هَذَا مثل أجر خمسين من الصّحابة لما يجده من المعاناة، لكن الكمية الَّتِي تحصل للصحابة التّي: لو أنفق أحدنا مثل أُحد ذهبًا مَا بلغ مد أحدهم ولا نصيفه[2]، هَذِهِ خاصة بهم، فعندنا ثواب عَلَى أصل العمل وثواب مضاعف بحسب العامل، فالَّذي فِي أصل العمل كالصّدقة مثلًا يَكُون لهَؤُلاءِ المتأخرين أجر خمسين من عمل الصّحابة باعتبار أصله لا باعتبار أنَّه وقع من الصّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٤١)، والترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾، رقم (٤٠١٤).

(٢) سبق تخريجه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ألا يردُّ عَلَى هَذَا قولهم: منا أو منهم؟ قَالَ: «**بَلْ مِنْكُمْ**»؟

فالجوابُ: لا يردُّ عَلَى هَذَا لأننا نعتبر أصل العمل لا المضاعفة بحسب كونه صحابيًا بالنّسبة لأصل العمل، الصّحابي لولا الصّحبة لكان لَهُ أجر أصل العمل فَقَطْ، فبالصّحبة يزداد فيكون معنى قول الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أجر خمسين منكم**»، يعني: باعتبار أصل العمل ويجب الرّجوع إِلَى هَذَا لأَنَّهُ لا يمكن الجمع بينه وبين هَذَا الحديث إِلَّا عَلَى هَذَا الوجه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لماذا قَالَ فِي الحديث أجر خمسين عاملًا ولم يقل أجر خمسين صحابيًا؟

قُلْنَا: لا نستطيع أن نقول لماذا لم يقل، والمَسْأَلَة الآن مَسْأَلَة جمع ولو كَانَ الأمر واضحًا مَا احتجنا أن نقول مَا وجه الجمع بَيْنَهُما، فما دامت المَسْأَلَة مَسْأَلَة جمع يحتاج أن ننظر أدنى دائرة يمكن أن تجمع بَيْنَ النّصين.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل الصّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتفاضلون؟

فالجوابُ: معلوم أن الصّحابة يتفاضلون، والرَّسول ﷺ يخاطب الصّحابة: يخاطب خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ فِي مقابلة سبِّه لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوْفٍ من السّابقين الأولين، وخالد بن الوليد متأخر إسلامه، وكان بَيْنَهُما مَسَابَّةٌ فقال له: «**مَهْلًا يَا خَالِدُ، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»[1].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: وهل لَحِقَ خالدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَذا الفضل؟

---

(١) سبق تخريجه.

قُلْنَا: بالنّسبة لمن دونه يلحق لا شك لكن بالنّسبة لمن فوقه ظاهر الحديث أنّه لا يلحق وَلِهَذا قالَ الله تَعالَى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

والخامس: بحسب الإِخْلاص كما فِي هَذِهِ الآيَة فكلما كَانَ الإنسان أخلصَ ولو كَانَ العمل واحدًا كَانَ عملُه أشرفَ من الآخر؛ وَلِهَذا تجد رجلين ركبا سيارة واحدة وخرجا ودخلا جَمِيعًا فِي الحج أو فِي العمرة ورجعا جَمِيعًا عَلَى السّيارة وأفعالُهما واحدة وأقوالُهما واحدة، وبَيْنَهُما تفاوت أكثر مَا بَيْنَ المشرق والمغرب بحسب الإِخْلاص لله.

والسّادس: بحسب الاتِّباع وَلِهَذا أخبر النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَنَّ أَفْضَلَ الأَعْمَالِ بَعْدَ الإِيمَانِ بِاللهِ الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا**»[1]؛ لأنَّهَا حصلت عَلَى وجه المتابعة للرسول ﷺ.

هَذِهِ الأسباب فِي الشّرف كلها مما يوجب للعبد العناية بأعمالِه وأن يتحقق بما يستطيع من هَذِهِ الأسباب.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٢٧)، ومسلم: كتاب الإِيمَان، باب بيان كون الإِيمَان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (٨٥).

الآيــة (٤٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الرّوم:٤٠].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ ممن أشركتم بالله ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ لا؛ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به].

قوْله تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ يعني أوجدكم من العدم، لكنَّ الخلقَ لَيْسَ مجرد الإيجاد بل هُوَ الإيجاد بتقدير، بل إن بعضهم قَالَ إن الخلق فِي الأصل هُوَ التّقدير واستدلوا لِذَلِكَ بقول الشّاعر:

وَلأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْـ ـضُ النَّاس يَخْلُقُ ثمَّ لا يَفْرِي[1]

معنى: (ما خلقتَ) أي مَا قدرت ولكن الصّحيح أنَّه يطلق عَلَى الإيجاد المسبوق بالتّقدير فمعنى ﴿خَلَقَكُمْ﴾ أوجدكم إيجادًا مسبوقًا بالتّقدير والإحكام والإتقان وَهَذا مُسلَّم حتى عند المُشْرِكِينَ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزّخرف:٨٧]، ولا يمكن لأحد أبدًا إِلَّا المجنون أن يدعي أنَّه خلق نفسه، أو يدعي أنَّه خُلق بدون

(١) ذكره الجوهري في الصّحاح (٤/ ١٤٧١)، ونسبه إلى الشّاعر زهير بن أبي سلمى.

خالق ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]، فأنت مَا خلقك أبوك ولا خلقتك أمك ولا خلقك أحد من البشر ولا من غير البشر سوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَهَذَا أمر مُسَلَّمٌ، وأما أهل الطّبيعة فيقولون هَذَا شيء وجد فِي الأزل عَلَى هَذَا الصّفة وصار يتفاعل ويتوالدّ وما أشبه ذَلِك لكن يقرون بموجد فلا يقُولونَ إن هَذَا الإنسان مثلًا أو هَذَا الحيوان وجد هكذا صدفة يقرون بموجد وَهِيَ الطّبيعة، فنقول لَهُم هَذِهِ الطّبيعة من الَّذي أوجدها؟ لكن هَؤُلاءِ مكابرون ولا عبرة بقولهم.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي أعطاكم. والرّزق فِي اللُّغَة العطاء ومنه قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النّساء:٨]، أعطوهم وهل أحد يدعي أن الرّازق سوى الله؟ قد يدعي أحد. قد يقول: الله قَالَ: ﴿فَارْزُقُوهُم﴾ فأنا رزقت هَذَا الإنسان أي أعطيته فيُقَال لكن مَن الَّذي خلق مَا أعطيت؟ الله، الَّذي رزقك هَذَا هُوَ الله، ومهما كَانَ من عمل بني آدم فإنما هُوَ تحويل لا إيجاد كل أعمال بني آدم حتى الصّنائع والبناء وغير ذَلِك لَيْسَ إِلَّا مجرد تحويل يعني تغيير من شيء إِلَى شيء وإلا فالأصل هُوَ الله عَزَّوَجَلَّ هُوَ الخالِق وَهُوَ الموجد، هَذَا الرّزق الَّذي أعطيت أو هَذَا الرّجل أعطيته كيسًا من الطّعام صحيح أنَّك رزقته لكن من الَّذي أوجد هَذَا الكيس؟ الله عَزَّوَجَلَّ فإذًا الرّزق أصله من الله وإن كَانَ قد يوجد عَلَى أيدي بعض النَّاس لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾.

وقول الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ»[1]، لكن يُقَال من الَّذي خلق هَذَا الرّزق؟ ومن الَّذي جلبه إليك؟ ومن الَّذي قَدَّرَ أن تعطيه؟ والجوابُ على كل هذا: هُوَ الله.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

وقوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ يعني بعد هَذَا الخلق والإمداد، الخلق إعداد، والرّزق إمداد، الله عَزَّوَجَلَّ أوجدك وأعدك وهيأك ثمَّ أمدك بما بِهِ قوامك بعد ذَلِك. ﴿يُمِيتُكُمْ﴾ يعني بعد الحياة: حياة الدّنيا يَكُون الموت وَهُوَ مفارقة الرُّوح البدن مفارقة تامة لأَنَّ النّوم فِيهِ مفارقة تفارق الرّوح البدن ولكن ليست مفارقة تامة، أمَّا الموتُ الَّذي هُوَ الموت فهي مفارقة تامة ولكنها تُعاد إِلَيْهِ فِي قبره إعادة بَرْزَخِيَّةً لا كإعادتها فِي الدّنيا.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة الآخرة الَّتِي لَيْسَ بعدها فناء.

قوْله تَعالَى: ﴿شُرَكَآئِكُم﴾ أي: من شركائكم الَّذِين أشركتموهم، فتكون مضافة إِلَى المفعول، يعني هل من هَؤُلاءِ الَّذِين أشركتموهم بالله؛ وَلِهَذا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ممن أشركتم بالله]، أي ممن أشركتموهم، والإنسان إِذَا أشرك فالمشْرَك بِهِ مفعول وليس معنى شركائكم هم الَّذِين شاركوكم أو أشركوكم، بل أنتم الَّذِين أشركتموهم مَعَ الله فَهُوَ مضاف إِلَى مفعوله.

قوْله تَعالَى: ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ إعراب ﴿مَّن يَفْعَلُ﴾ محلها من الإعراب يحتمل أن تكون نكرة موصوفة والتّقدير ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أحدٌ يفعل ذَلِك ويحتمل أن تكون موصولة عَلَى أنَّها مبتدأ مؤخر أي هل الَّذي يفعل ذَلِك من شركائكم، والأول أحسن أن تكون نكرة موصوفة يعني هل من شركائكم أحد يفعل شَيْئًا من ذلك.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ من زائدة وصحت زيادتها لأَنَّ الاسْتِفْهام هُنَا بمعنى النّفي و﴿مِّن﴾ تزاد فِي النّفي كما قَالَ ابن مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

---

(١) البيت رقم (٣٧٠) من ألفيته.

وَزِيــدَ فِي نَفْــيٍ وَشِــبْهِهِ فَجَــرّ نَكِـرَةً كَــ (مَـا لِبَـاغٍ مِـنْ مَفَـرّ)

وقوْله تَعالَى: ﴿مِن ذَٰلِكُم﴾ المُشار إِلَيْهِ الخلق والرّزق والإحياء والإماتة، فعلى هَذَا يَكُون الجواب عن كونه مفردًا مذكرًا مَعَ أن السّابق أربعة أَشْيَاء: جمع، يُقَال لأَنَّهُ أُوِّلَ بالمذكور ﴿مَن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم﴾ أي من ذلكم المذكور، فصح أن يأتي اسم الإِشارة مفردًا مذكرًا لأَنَّهُ عائد إِلَى مذكور.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ يعنـي لا يمكن أن يفعل هَـؤُلاءِ أي شيء من هَذِهِ الأمور لا الخلق ولا الرّزق والإحياء ولا الإماتة وَهَذا عَلَى سبيل التّحدي، فإذا كانت هَذِهِ الآلهةُ الَّتِي أُشْركت بالله لا تفعل شَيْئًا من هَذَا هل يصح أن تكون آلهة؟ لا بل تَأْلِيهُهَا باطلٌ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان:٣٠].

يبقى النّظر لو ادعى مدعٍ أَنَّه يحيي ويميت كالَّذي حَاجَّ إبراهيمَ فِي ربِّه، إبراهيم ﷺ قَالَ له: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]. فمـا هُوَ الجواب لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إن من المعبودين من يستطيع أن يحيي ويميت؟

نَقُول: هَذِهِ دعـوى باطلة؛ لأَنَّ الإحياء والإماتة من الإنسان ليسـت إحياء وإماتة ولكنها فعل سبب.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: الاسْتِدلال بالأَجْلى والأَوْضح لأَنَّ الله استدل عَلَى بطلان آلهة المُشْرِكِينَ بأمر يقرونه هم، وآلهتهم لا تفعله وَهُوَ الخلق والرّزق والإماتة والإحياء.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: تمام قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وَذَلِكَ بالأمور الأربعة الخلق والرّزق إِلَى آخره.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: إثْبَات أن مَا اكتسبه الإنسان فَهُوَ من الله لأَنَّ هَذِهِ الأربعة فِيهَا ثلاثة لا أحد يُماري فِيهَا وَهِيَ الخلق والإماتة والإحياء لكن الرّزق قد يماري فِيهِ ممارٍ، فَقَارُونُ قَالَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨]، فقد فُسِّر: (عَلَى علم مني بوجوه المكاسب)، والمَعْنَى أني أنا ماهر فِي معرفة المكاسب وحصلت هَذَا المال، ولكننا نقول هَذَا التّحصيل الَّذي حصلته بمهارتك إنما جاءك من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّ هَذَا الَّذي حَصَل لك بسببٍ وخالِقُ الأسباب هُوَ الله.

الفائدة الرّابعة والخامسة: أنَّه ينبغي لنا استجلاب الرّزق من ربنا وحده لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمۡ﴾، وَإِذَا كَانَ الأمر كَذَلِكَ فإِنَّهُ يترتب عَلَى هَذَا فائدة أُخْرَى وَهِيَ أن لا نطلب رزقه بمعاصيه، وجهه: إِذَا كنت تطلب الرّزق من الله هل من اللائق عقلًا أنْ تُقَدِّمَ لَهُ معصيةً ليرزقك، الَّذي يستدر الرّزق من غيره يُقَدِّمُ طاعته والخضوع لَهُ، وَلِهَذا قَالَ الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطّلاق:٢-٣].

إِذَنْ: مَنِ استجلبَ رزق الله بمعاصيه فقد خالَف الحكمة والصّواب. فهَؤُلاءِ الَّذِين يطلبون الرّزق بالرّبا ويطلبون الرّزق بالغش ويطلبونه بالكذب وغير ذَلِك من الوسائل المحرمة هم فِي الحقيقة أشبه مَا يَكُونُونَ بالمستهزئين بالله عَزَّوَجَلَّ السّاخرين بِهِ كأنهم يقُولونَ يا ربنا إننا نعصيك لترزقنا! وَهَذا من أعظم مَا يَكُون؛ وَلِهَذا جعل الله الَّذِين يطلبون زيادة المال بالرّبا جعلهم محاربين لَهُ، كما فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩]، والرّبا كما قَالَ شيخ الإسْلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما ورد فِي ذنب من الذّنوب دون الشّرك أعظم مما ورد فِي الرّبا»، الَّذي أصبح عند

النَّاس الآن من أسهل الأشْيَاء وأبسطها حتى كانوا يتعاطونه بالصّراحة، ويتعاطونه بالتّحيل، وتعاطيه بالتّحيل أخبث من تعاطيه بالصّراحة، مثلما أنَّ تعاطيَ الكفر بالنّفاق أخبثُ من تعاطيه بالكفر الصّـريح؛ لأَنَّ هَذَا المتحيل مخادع لله عَزَّوَجَلَّ جَمَـعَ -والعياذُ باللهِ- بَيْنَ مَفْسَدَةِ الرِّبا ومفسدة الخداع والتّحيل، فالرّب عَزَّوَجَلَّ إِذَا حرم شَيْئًا لَيْسَ كغيـره تخفى علَيْه الأشْيَاء فَهُوَ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]، ونبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وضَّح أنَّ: «**الأَعْمَال بِالنِّيَّاتِ**»[1]، فمـا دُمْتَ نويتَ الرّبا الآن لكن تحايلت علَيْه بإدخال سلعة غير مقصودة هَذَا تلاعب واستهزاء بآيات الله عَزَّوَجَلَّ يأتي إِلَيْهِ يقول أنا أريد منك مئة ألف عَلَى أن تكون بمئة وعشرين ألفًا إِلَى سنة كَيْفَ الوصول إِلَى هذا، يقول والله نحن مسلمون لا أستطيع أن أعطيك مئة ألف نقدًا وأكتبها عليك بمئة وعشرين لأننا نخشى الله ولكن نلوذ من جهة أُخْرَى ونجعل حاجزًا بيننا وبين الله بأي سلعة تتَّفق، فيذْهَبون ينظرون الَّذي عند النَّاس، فإن وجدوا سكرًا قَالُوا: نشتري سكرًا، وإن وجدوا هيلًا قَالُوا: نشتري هيلًا، وإن وجدوا سيارات اشتروا سيارات، حتى لو وجدوا أكياسًا لا يدرون مَا فِيهَا لعله أنْ يكُونَ رملًا قَالُوا نشتري هَذِهِ الأكياس، وهَذا هُوَ الواقع؛ وَلِهَذا لا ينظرون إِلَى هَذِهِ الأكياس ولا يدرون مَا فيها، وأكثر مَا يَكُون فِي القبض أَنَّه يمرر يده عَلَيْهَا أو يعدها، ويقولون إن هَذَا هُوَ القبض، وليس هَذَا هُوَ القبض لغةً أو عرفًا أو شرعًا، ولا يعد هَذَا قبضًا؛ لأَنَّ القبض معناه أنْ يكُونَ الشّيء فِي قبضتك وَهَذا الشّيء مركون فِي مكانه ترد علَيْه عدة مبايعات فِي خلال ساعة أو ساعتين، وهذه البَلِيَّةُ الَّتِي ابْتُلِيَ بِهَا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمـال بالنية»، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال، رقم (١٩٠٧).

النَّاس الآن نسأل الله أن ينقذهم منْهَا بلية عظيمة، ويقبحها أنهم يعتقدون أنَّها حلال وأن عمل البنوك حرام، حتى إن بعضهم يأتي يتغيظ ويتضجر، أعوذ بالله انظروا الحرام الرّبا يعلن صريحًا فِي البنوك وَهُوَ ممن يتعاملون بهذه المعاملة يبكي غيره ولا يبكي نفسه، وَهُوَ أحق بأن يبكي نفسه.

فالمُهِمُّ: أن الرّزق إِذَا كَانَ من الله عَزَّوَجَلَّ فإِنَّهُ يجب عليك شرعًا وعقلًا أن تستمد هَذَا الرّزق بطاعة الله لا بمعصيته.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل التَّوَرُّقُ داخل فِي هذا؟

التَّوَرُّق يقول شيخ الإسْلام إِنَّه داخل فِي هَذَا، ويقول عنه تلميذه ابن القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن شيخنا يُسأل عن هَذَا مرارًا فيصر عَلَى أَنَّه حرام». وقد كَانَ التَّورُّق غير التَّورُّق المتعامل بِهِ بَيْنَ الناس اليوم، قَالَ العلَمـاء وعبارتهم: «ومَنِ احْتَاجَ إِلَى نَقْدٍ فَاشْتَرَى مَا يُسَاوِي مِئَةً بِمِئَةٍ وعِشْرِينَ فَلَا بَأْسَ بِهِ وَهِيَ مَسْأَلَةُ التَّوَرُّقِ»[1]، هَذِهِ عبارة (الرّوض المربع) شرح الزّاد.

أولًا: قَالَ: «ومن احتاج» فعلمنا أنَّها لا تكون إِلَّا للحاجة.

ثانيًا: قَالَ: «فاشترى مَا يساوى مئة بمئة وعشرين»، وقع العقد عَلَى عين المبيع ولم يقولوا العشر أحد عشر ولا اثنا عشر.

وكلمة: «اشترى» تحمل عَلَى الشّراء الشّرعي الَّذي يجمع الشّروط ومن جملتها، العِلْم بالمبيع ونوعه وجنسه إِلَى آخره، وهَذا غير موجود فِي عمل النَّاس الآن.

---

(١) الروض المربع شرح زاد المستقنع (ص:٣١٨)، ط. دار المؤيد - مؤسسة الرسالة، ونصها: «ومن احتاج إلى نقد فاشترى ما يساوي مائة بأكثر ليتوسع بثمنه فلا بأس، وتسمى: مسألة التورق».

كَذَلِكَ قوله: «اشترى بما يساوي مئة بمئة وعشرين إِلَى أجل» ينطبق لأنهم يقُولونَ لكل عشرة اثنا عشر وثلاثة عشر وأحد عشر حسب الاتفاق، ثمَّ نفس الفقهاء الَّذِين أباحوا ذَلِك قَالُوا يُكره أن يقول فِي المرابحة أي فِي بيع المرابحة المعروف أن يقول العشر أحد عشر وذكروا عن الإِمَام أحمد نصًّا بِأَنَّهُ يحرم أن يقول العشر أحد عشر حتى فِي غير مَسْأَلَة التّورُّق، ففي بيع المرابحة المعروف يحرم فِيهِ عَلَى إحدى الرّوايات عن أحمد أن يقول العشرة أحد عشر وَهُوَ يريد السّلعة نفسها لا يريد النّقد.

والمذهب: أنَّه يكره والرّواية الثّانية عن أحمد أنَّه يحرم، مثلًا لو اشتريت هَذَا الكتاب وأنت تريد هَذَا الكتاب نفسه لا تريد دراهمه فقلتَ لي سأشتريه منك مرابحة، قلت لا بأس أنا شاريه بمئة وسأبيعه عليك عَلَى أن أربح بكل عشرة دراهم درهمًا، أي تكون المئةُ مئةً وعشرة، هَذَا جائز لكن لو قلتَ سأشتريه منك العشرة أحد عشر، قَالُوا إِنَّه يكره عَلَى المذهب ويحرم عَلَى الرّواية الثّانية مَعَ أنَّها ليست هِيَ مَسْأَلَة التَّورُّق فهَؤُلاءِ النَّاس الآن جمعوا بَيْنَ الأمرين بَيْنَ العشرة أحد عشر أو اثنا عشر وبين التَّوَرُّق.

أمَّا عمل الناس الآن فَهُوَ لا ينطبق علَيْه، حتى عَلَى قول من يقول بجواز التَّوَرُّق؛ ولاحظ أن الإِمَام أحمد عنه رواية بأنها جائزة والرّواية الثّانية بأنها من مسائل العِينَةِ، ذكرها عنه شيخ الإِسْلام ابن تَيْمِيةَ[1]، وذكرها ابن القَيِّمِ فِي تهذيب السُّنن[2]، أن مَسْأَلَة التَّوَرُّق من مسائل العِينَةِ والعِينَةُ معروف أنَّها حرام.

فالحاصِلُ: أننا فِي عصرنا الحاضر لما كَانَ النَّاس لا يبالون إِلَّا أن يكتسبوا المال

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٩/ ٣٠).

(٢) تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته (٢/ ١٥٦)، وإعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ٢٠١).

فقد جعلوا المال مقصودًا مخدومًا بعد أن كَانَ وسيلة خادمًا، وحَقِيقَةُ المالِ أنَّه وسيلة خادم ولكن جعلناه الآن مقصودًا مخدومًا، وَهَذا من سفه الإنسان أن يستخدمه مالُه الَّذي خلق لَهُ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٩].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل الإيداع فِي البنوك يعتبر إيداعًا شرعًا؟

قُلْنَا: إن قولنا فِي البنوك أني وضعت مالي وديعة عِنْدَهُم هَذَا غير صحيح لا ينطبق علَيْه شرعًا. فمعنى الوديعة شرعًا هُوَ أن تعطيه المال ليحفظه بعينه لا أن تعطيه مالَك يضعه فِي صندوق وينتفع به، حتى إنَّ العلَماءَ قَالُوا لو أن المودِع أذن للمودَع بالانتفاع بالوديعة صارت قرضًا يثبت فِي ذمته.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا حكم السَّلَمِ؟

السَّلَمُ معروفٌ، وَهُوَ أن أعطي شخصًا دراهمَ نقدًا بسلعةٍ مؤجَلة، عكس الشّراء، فأعطيك مثلا عشرة آلاف ريال عَلَى أن تعطيني بعد سنة مئة كيس سكر أو سيارة وصفها كذا وكذا هَذَا لَيْسَ فِيهِ شيء؛ لأَنَّ الصّحابة كانوا يفعلونه فِي عهد الرَّسول ﷺ كانوا يسلفون فِي الثّمار السّنة والسّنتين[1]، فقال النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ أَسْلَفَ فِي شَيْءٍ فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ**»[2]، ووجه أنَّه لَيْسَ فِيهِ شيء هُوَ أنَّهُ لَيْسَ هناك ربحٌ مضمون لأحد الطّرفين، فأنا إِذَا أعطيتك مثلًا عشرة آلاف ريال فِي سيارة إِلَى أجل لا أدري، هل أنا الَّذي أربح أو أنت؟ لأنَّهُ عند انتهاء الأجل يمكن أن أجد السّيارة بستة آلاف ريال ويمكن لا أجدها

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب السلم، باب السلم إلى أجل معلوم، رقم (٢٢٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب السلم، رقم (١٦٠٤).

(٢) التخريج السابق.

إِلَّا بخمسة عشر ألف ريال، وَهَذا لا بُدَّ أن يقع، ونادرًا أن تكون الأسعار إِلَى سنة لا تقل، فإذا كَانَ فِي الذّمة فليس فِيهِ شيء، وَلِهَذا قَالَ الفقهاء: لو أَسْلَمَ فِي ثَمَرِ بستان معين مَا صح لأَنَّهُ صَارَ محله الآن البستان ولم يعد فِي الذّمة فلا بد من تمام الشّروط.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الَّذي يحتاج فلوسًا ماذا يفعل؟

قُلْنَا: إِذَا احتاج فلوسًا يأتي للواحد يقول تعال أعطنا فلوسًا بشيء مؤجل أو يشتري المواد الَّتِي يحتاج بثمن مؤجل أكثر من النّقد، وليس هذا من التَّورُّق، إِذَا اشترى السّلعة يريدها بعينها لَيْسَ تورقًا، ففي التَّوَرُّق هُوَ لا يريد السّلعة وَلِهَذا سمي تورقًا، مأخوذ من الوَرِق لأَنَّهُ لا يريد إِلَّا الفضة.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: عجز هَذِهِ الآلهة عن فعل شيء يختص بالرُّبُوبِيَّة لقوْلِه تَعالَى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾؛ لأَنَّ هَذَا الاسْتِفْهام كما قررنا بمعنى النّفي.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: ثبوت التّلازم بَيْنَ التّوحيدين: توحيد الرُّبُوبِيَّة وتوحيد الألوهية وأن من أقر بتوحيد الرُّبُوبِيَّة لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية وَهَذا المَعْنَى قرره الله تَعالَى فِي عدة آيات.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: تنزيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن كل نقص يؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أن المُشْرِكِينَ بالله عَزَّوَجَلَّ قد وقعوا فِي تَنَقُّصِ الله لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أن الله تَعالَى يجمع فيما وصف وسمى بِهِ نفسه بَيْنَ النّفي

والإثْبَات، فالنّفي فِي قوْله تَعالَى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، والإثْبَات فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: قوة الإقناع فِي أسلوب القرآن لأَنَّ مثل هَذَا التّحـدي ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ هَذَا أقوى مَا يَكُون فِي الإقناع كل منهم سيكون جوابه لا.

إِذَنْ: لماذا تعبدونها مَعَ الله هل يستفاد من هَذِهِ الآيَة استنباط أقسام التّوحيد الثّلاثة؟ الرّبُوبِيَّـة موجودة، والألوهيـة موجودة لالتزام الإقرار بالرّبُوبِيَّـة الإقرارَ بالألوهيـة ثمَّ إن قوْله تَعالَى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ المقصود بِهِ إبطال أُلوهيَّتهـم، والأسماء والصّفات موجودة فِي قوْله تَعالَى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

• • ❁ • •

الآيــة (٤١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرّوم:٤١].

قوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ﴾ بمعنى بان واتضح، وقوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْفَسَادُ﴾ ضد الصّلاح وَهُوَ من كل شيء بحسبه ففساد الزّروع بيبسها وتلفها بالعواصف والأمطار المغرقة والبرق المتلف وَكَذلِكَ فساد المواشي بهلاكها ومرضها، وفساد الثّمار بنقصها وما أشبه ذلك، المهم الفساد فِي كل شيء بحسبه وهل الفسادُ هُنَا يراد بِهِ الفسادُ الحسي أو يشمل الفساد الحسي والمعنوي؟ الصّحيح أنّه يشمل الفساد الحسي والمعنوي، فالحسي مَا ذكرنا أمثلته قبل، والمعنوي هُوَ كثرة المعاصي والفسوق وانتشارها بَيْنَ النَّاس وعدم المبالاة بِهَا حتى يصبح المنكر معروفًا والمعروف منكرًا، فإن هَذَا من أعظم الفساد قَالَ الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، قَالَ العلَماء لا تفسدوها بالمعاصي.

وقوْله تَعالَى: ﴿فِى ٱلْبَرِّ﴾؛ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي القفَار بِقَحْطِ المَطَرِ وَقِلَّةِ النَّبَاتِ].

البَرُّ القفَارُ، يعني الفَيافِي الخارجة عن المدن والسُّكان، وقيل المُراد بالبَرِّ مَا لَيْسَ ببحر فيشمل المدن والأمصار والقفار وغيرها.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: البلادُ الَّتِي عَلَى الأنهارِ بِقِلَّةِ مَائِهَا]، فمشى المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَلَى أن المُرَاد بالبَرِّ مَا سوى العمران، والمُرَاد بالبحر العمران الَّذي عَلَى شواطئ البحار، وَبِهذَا قَالَ كثير من المفسرين ولكن الصّواب أن المُرَاد بالبر مَا سوى البحر، والمُرَاد بالبحر الماء؛ لأَنَّ مَا ذكرناه هُنَا أعم مما ذكره المُفَسِّر وغيره وَهُوَ الأظهر أيضًا، فإن البحر إِذَا أُطلقَ فِي القرآن يُراد بِهِ الماء، ففساد البر كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالقحط وقلة النّبات]، وفساد النّبات أيضًا بعد وجوده؛ وَلِهَذا أرسل الله عَلَى آل فِرْعَوْنَ الجَرادَ والقُمَّلَ والضَّفادع والدَّمَ، أربع آفات، الجراد يفسد الزّروع بعد خروجها ويأكلها، القمل يفسد القوت، إِذَا حصد وأُدْخِلَ جاءه القمل وَهُوَ السّوس الَّذي يتلفه فَهُوَ مَا يدخل من السّوس فِي القوت يسمونه عندنا (النّخشية) وَهِيَ عبارة عن دودة تكون فِي الحبوب فتفسده وتأكله فيكون قشورًا فقط. والضّفادع بالماء، امتلأت مياههم ضفادع حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يشرب الماء بسبب الضّفادع -والعياذُ باللهِ-. والدّم: الصّحيح أن المُرَاد بِهِ النّزيف وإن كَانَ بعض العلَماء يقول إن المُرَاد بالدّم أنْ يكُونَ الماء عند آل فرعون كالدّم والصّواب أنَّه النّزيف لأَنَّ الله ذكر إفساد الماء بالضّفادع فكان القوت من أوله إِلَى آخره وغايته وَهُوَ الدّم لأَنَّ الدّم يَكُون من القوت فصارت الأقوات -والعياذُ باللهِ- لا تنفعهم لا قبل دخولها أجوافهم ولا بعد الدّخول، وهذا من فساد البر.

فكيف كَانَ الفسادُ فِي البحر؟

قال العلَماء يَكُون بموتِ الحيتان وفسادها، وَكَذلِكَ تَغَيُّرُ المياه وعدم اطرادها كالعادة.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾: (الباء) للسببية و(ما) يحتمل أن تكون مصدرية

ويحتمل أن تكون موصولة، إِذَا كانت موصولة فلا بد لها من عائد محذوف فالتّقدير بما كسبته أيدي النَّاس، وإن كانت مصدرية لا تحتاج إِلَى عائد ويكون المَعْنَى بكسب أيدي النَّاس.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من المعاصي].

وقوْله تَعالَى: ﴿أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ جمع يد والمُراد مَا كسبوا وَهَذا من أساليب اللُّغَة العرَبِيَّة أن يعبر باليد عن صاحب اليد وليس المُراد مَا كسبت اليد فقط؛ لأَنَّ المعاصي لا تكون بالأيدي فَقَطْ، بل تكون باليد وبالرّجل وبالعين وباللسان وبالأذن وكل الحواس يمكن لِلإِنْسَانِ أن يعمل بِهَا المعصية فيكون المُراد بالأيدي هُنَا الأنفس لا اليد الَّتِي هِيَ عضو من أعضاء البدن، وليست مجازًا لأَنَّهَا بسياقها دالة عَلَى أن المُراد مَا كسبوه فلا تكون مجازا، أمَّا قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة:٣٣]، فالمُراد بـ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ الأعضاء فالكلمة فِي سياقها حقيقة فِي معناها وَلِهَذا لو أراد أن يصرف قوْله تَعالَى: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ﴾ إِلَى أن المَعْنَى أو تقطع أبدانهم مَا استطاع، كما أَنَّه لو أراد أن يجعل بما كسبت أيدي النَّاس أي بما كسبت اليد نفسها فقط دون بقية الأعضاء مَا استطاع وَهَذا هُوَ وجه قول شيخ الإِسْلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّه لا مجاز فِي القرآن ولا فِي اللُّغَة العرَبِيَّة؛ لأَنَّهُ إِذَا كانت الكلمة قد تعين معناها بسياقها صارت بمقتضى هَذَا السّياق حقيقة فِي هَذَا المَعْنَى وحِينَئِذٍ لا نحتاج إِلَى تأويل.

وقوْله تَعالَى: ﴿ٱلنَّاسِ﴾ أصلها أناس لكن حذفت الهمزة للتخفيف كما هِيَ فِي قَوْلِهِ فِي شر وخير وأصلها أشر وأخير وكما هِيَ فِي قوْله تَعالَى: ﴿ٱللَّهَ﴾ فإنَّ أَصْلَهُ

الألاه، هكذا قيل فِي الله وفي النّفس من هَذَا شيء.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِيُذِيقَهُم﴾ بـ(الياء) و(النّون) بعض الَّذي عَمِلُوا].

﴿لِيُذِيقَهُم﴾: (اللام) هُنَا للتعليل والمعلل مُتَعلَّقُ هَذِهِ اللام واللام متعلقة بـ(ظهر) هَذَا هُوَ المعلل ظهر لأجل أن يذيقهم، وفيها قراءتان سبعيتان وَهِيَ (لِيُذِيقَهُمْ)[1]، مضاف فِيهَا الفعل إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ أو ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ مضاف فِيهَا الفعل إِلَى ضمير الغائب، ومع ذَلِك فإن هَذَا الغائب يعود إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوْله تَعالَى: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ يُعبر دَائِمًا بالإِذَاقَة عن الإصَابَة لأَنَّ الذّوق هُوَ أعلى أنواع الإدراك الحسي، فإن الإنسان يسمع بالشّيء ثمَّ يراه ثمَّ يذوقه، أقول لك عندي تفاحة إدراكك للتفاحة الآن بالسّماع ثمَّ أُخرجها وأريك إياها يَكُون بالرّؤية، والرّؤية أقوى من السّماع ثمَّ أُعطِيكها فتأكلها فيكون هَذَا بالذّوق وَهَذا أعلى مَا يكون؛ لأني إِذَا قلت عندي تفاحة ولم ترَها أنْتَ يحتمل أن قولي هَذَا كذب، وَإِذَا أريتك إياها ولكنك مَا ذقتها يحتمل أن تكون نباتًا آخر يشبه التّفاحة ويحتمل أن تكون من التّفاح الصّناعي الَّذي يصنعونه من البلاستيك تشاهده كأنه تفاح حقيقي، فإذا ذقتها صارت حق اليقين؛ وَلِهَذا يعبر الله عَزَّوَجَلَّ دَائِمًا عن الإصَابَة بالإِذَاقَة لأنَّهَا أعلى أنواع الإدراك.

وقوْله تَعالَى: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي عقوبته]، لأَنَّ الَّذي عملوا غير الفساد الظّاهر فِي البر والبحر ولكن الفساد هُوَ عقوبته.

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: لماذا عبر عن العقوبة بالفعل؟

---

(١) الحجة في القراءات السبع (٥/ ٤٥١)، وهي قراءة ابن كثير.

فنَقُول: عبَّر عن العقوبة بالفعل فِي قوْله تَعالَى: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ لوجهين:

الوَجْهُ الأوَّلُ: بَيان سبب هَذِهِ العقوبة وأن سبب العقوبة هَذَا العمل.

الوَجْهُ الثَّاني: أن هَذِهِ العقوبة بقدر العمل تمامًا ولذلك عُبِّرَ عنها بالعمل إشارة إِلَى أنَّها بَقَدْرِه لَيْسَ فِيهَا ظلم، وَهَذا كثير فِي القرآن، يعبر الله تَعالَى عن العقوبة بالفعل من أجل هذين الوجهين.

وقوْله تَعالَى: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ يعني لا كله لأَنَّ الله يقول: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥]، وقَالَ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، وَهَذا حق لو أن الله تَعالَى عاقب النَّاس بقدر ذنوبهم مَا ترك عَلَيْهَا من دابة، كَانَ كل النَّاس يموتون ولا يبقون ولَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يصيبهم ببعض ذنوبهم فقط. الحكمة قَالَ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يتوبون]، (ولعل) هُنَا للتعليل، وكلما جاءت (لعل) فِي كلام الله فإنها للتعليل أو توقع الشّيء إِذَا كَانَ من المتوقع أي لأجل أن يرجعوا إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ وهذه من حِكم الله، أن الله تَعالَى يبتلي العباد بالضّراء لأجل أن يرجعوا إِلَى الله، وكم من إِنْسَان صارت عقوبته بالضّراء سببًا لرجوعه إِلَى ربه، بل إنَّها أحيانًا تكون سببًا مباشرًا ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ [لقمان:٣٢]، أين يذهبون؟ ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان:٣٢]، هَذَا رجوع لكنهم -والعياذُ باللهِ- إِذَا نجوا عادوا إِلَى كفرهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ الفسادَ سببه أعمال بني آدم لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى

ٱلنَّاسِ﴾ ويدل لهذا أيضًا قوْله تَعالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: إثْبَات العلل والأسباب وأن أفعال الله عَزَّوَجَلَّ مُعَلَّلَةٌ لا بُدَّ لها من علة تؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ ولا شك أن أفعال الله تَعالَى وأحكامه مُعَلَّلَةٌ لأَنَّ من أسمائه الحكيم.

الفائدتان الثّالثَة والرّابعة: أن النَّاس لا يعاقبون إِلَّا بأسبابهم لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ فيتفرع عن ذَلِك أن من أراد أن ترفع عنه العقوبة فَلْيَتُبْ إِلَى الله؛ فإن التّوبة من أسباب رفع العقوبة وجلب المثوبة وَلِهَذا قَالَ هود لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾[هود:٣]، ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود:٥٢]، وقال نوح لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح:١٠-١٢].

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أن الجزاء من جنس العمل وبقدر العمل؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: بطلان مذهب الجبرية، فالجبرية يقُولونَ إن الإنسان مُجبَر عَلَى عمله لا يفعل باختياره ولا يُضاف الفعل إِلَيْهِ إِلَّا عَلَى سبيل المجاز، فيُقَال صام، زكَّى مجازًا لا حقيقة، الآية الكريمة تَرُدُّ عَلَيْهِم من وجهين:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: قوْله تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ فأضاف الكسب إِلَى أيدي النَّاس.

الوَجْهُ الثَّاني: أن الله تَعالَى عاقبهم عَلَى هَذَا الفعل ولو كانوا مجبرين علَيْه لكانت عقوبتهم ظلما لَهُم، إذ كَيْفَ يعاقبون عَلَى مَا لَيْسَ باختيارهم.

ففيها رد من وجهين؛ وجه لفظي وَهُوَ إضافة الكسب إِلَى أيديهم، ووجه معنوي وَهُوَ أنَّه يلزم من عقوبتهم عَلَى ذَلِك لو كانوا مجبرين أنْ يكُونَ الله تَعالَى ظالِمًا لَهُم، والله تَعالَى لَيْسَ بظلام للعبيد وَكَذلِكَ أيضًا يؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿عَمِلُواْ﴾ حيث أضاف العمل إليهم.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: بَيان سَعَةِ رحمة الله وأن رحمته سبقت غضبه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾، ولو أن الغضب كَانَ بقدر الرّحمة لكان الله يذيقنا كل الَّذي عملنا، ولو كَانَ غالبا للرحمة لكان يذيقنا أكثر مما عملنا، فالأمور ثلاثة: إذاقة البعض أو المثل أو الأكثر، والمثل أو الأكثر ممتنع، وَإِنَّمَا يذيق الله تَعالَى البعض لأَنَّهُ ثبت فِي الحديث الصّحيح: «أنَّ الله تَعالَى كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[1]، ولولا هَذَا لكان الله تَعالَى يؤاخذ النَّاس بما عملوا.

الفائدتان الثّامنة والتّاسعة: أن العقوبات قد تَكُون سَبَبًا للرجوع إِلَى الله لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ كما أنَّها قد تكون بالعكس، أي: قد تَكُون سَبَبًا للازدياد فِي العتو والنّفور -والعياذُ باللهِ- يدل عَلَى ذَلِك قوْله تَعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾ [الحج:١١]، والجمع بَيْنَ هَذِهِ الآية والآية الَّتِي نفسرها أن العقوبات عَلَى سبيل العُمُوم مفيدة لكن عَلَى سبيل الخصوص قد لا تفيد؛ لأَنَّ الله تَعالَى قَالَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ عَلَى أن قوْله تَعالَى: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ يحتمل أن يراد بِهَا فتنة الدِّين بحيث

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، رقم (٧٤٢٢).

لا يَكُون عنده مقاومة فيقع فِي الهاوية -والعياذُ باللهِ- لكن الأظهر أنَّها عامة ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

• ● ❁ ● •

الآيــة (٤٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الرّوم:٤٢].

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ﴾ لكفار مكَّة ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾].

الخطاب فِي قوْله تَعالَى: ﴿قُلْ﴾ للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويحتمل أنْ يكُونَ لَهُ ولكلِّ من دعا إِلَى شريعته ودعا النَّاس إِلَى الاتعاظِ والاعْتِبار.

وقوْله تَعالَى: ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ السَّير معناه المشي و﴿فِي﴾ بمعنى (على) يعني عَلَى الأرْض وليس المُرَاد فِي داخلها وقِيلَ: إن ﴿فِي﴾ للظرفية، وإن الظّرف يختلف بحسب المظروف وبحسب الظّرف أيضًا يعني مثلًا إِذَا قلنا الماء فِي الكوز صَارَ فِي جوف الكوز، هُوَ والكأس أو الطّاسة أو القدر فهنا صَارَ الماء فِي جوفه، وَإِذَا قلنا الكتابة فِي الورق اختلف، وَإِذَا قلنا الوجه فِي المرآة اختلف، فيرى بعض العلَماء أن ﴿فِي﴾ هُنَا للظرفية ولكن ظرف كل شيء بحسبه، والسّيـر المأمور بِهِ هُنَا لا أحد يتصور أن المُرَاد احفروا لكم خندقًا فِي الأرْض وادخلوا فِيهِ لا أحد يتصور هَذَا فهنا وجهان فِي كلمة ﴿فِي﴾:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أن تُجعل بمعنى (على) سيروا عَلَى الأرْض أي عَلَى ظاهرها.

الوَجْهُ الثَّاني: أن تُجعل ﴿فِي﴾ للظرفية ويُقَال إن الظّرفية فِي كل مكان بحسبه هَذَا تفسير ﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

وهل المُرَاد السّير بالأقدام أو السّير بالعقول والتّفكير؟

يشمل السّيـر بالأبدان بأن يذهب الإنسان إِلَى مساكن القوم ليتعظ ويعتبـر أو السّير بالقلوب بأن يقرأ تواريخهم وأحداثهم حتى يعتبر بها، وكم من سير بالقلب صَارَ أعظم من السّير بالقدم ولكن السّير بالقدم لأجل التّفرج والنّزهة هَذَا محرم كما يفعله بعض النَّاس الآن، يذهبون إِلَى ديار ثمود من أجل التّفرج والنّزهة والاطِّلاع عَلَى مَا لَهُم من قوة سابقة مَعَ أن الرَّسول ﷺ يقول: «**لا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلاءِ القَوْمِ إِلَّا وَأَنْتُمْ بَاكُونَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلا تَدْخُلُوهَا**»[1]، أين الَّذِين يذهبون إِلَى ديار ثمود وهم يبكون والرَّسول ﷺ لما مر بِهَا فِي ذهابه إِلَى تبوكَ مشى مسرعًا وقَنَّعَ رأسه: نَزَّلها عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأسرع وَعَلَى هَذَا فنقول إِذَا سرت فِي أرض هَؤُلاءِ المعاقبين فسر سير متعظ معتبر كما أمر النَّبيّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ نظر اعتبار وتفكر أو نظر عين؟

عَلَى حسب مَا قلنا فِي السّيـر إن كَانَ سيرًا بالقدم فَهُوَ نظرٌ بالعيـن، وإن كَانَ سيرًا بالقلب فَهُوَ نظر بعين البصيرة: التّفكر والتّأمل، ويمكن أن نقول أيضًا حتى إِذَا فسرنا السّير هُنَا بالسّير الحسي عَلَى الأقدام فإِنَّهُ لا بُدَّ أنْ يكُونَ مقرونًا بالنّظر بعين البصيرة والاعْتِبار إذ النّظر بالعين المجردة لا يفيد شيئًا.

---

(١) في قوله ﷺ: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ المعَذَّبِينَ إلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ لَا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ**»، أخرجه البخاري: كتاب الصّلاة، باب الصّلاة في مواضع الخسف والعذاب رقم (٤٣٣)، ومسلم: كتاب الزّهد والرّقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذّين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، رقم (٢٩٨٠).

قوْله تَعالَى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾: ﴿كَيْفَ﴾ محلها النّصب خبرًا لـ﴿كَانَ﴾ مقدمًا، و﴿عَٰقِبَةُ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾ والجملة مُعَلِّقَةٌ عن العمل مُعَلِّقة لكلمة (انظروا) الجملة المعَلِّقة فِي تأويل الاسم المفرد والتّقدير فانظروا حالهم كَيْفَ كان.

وقوْله تَعالَى: ﴿عَٰقِبَةُ﴾ هُنَا مصدر وَلِهَذا ذُكِّرَ الفعل أي بمعنى عقبى.

قوْله تَعالَى: ﴿مِن﴾ حرف جر ﴿قَبْلُ﴾ مبنية عَلَى الضّم لقطعها عن الإضافة حُذِف المضاف ونوي معناه فتبنى عَلَى الضّم لأنهم يقُولونَ فِي (قبل) و(بعدُ) إن وجد المضاف لفظا فهي معربة غير منونة، وإن حذف لفظًا ومعنى فهي معربة منونة، هذان حالان متقابلان إِذَا وجد المضاف إِلَيْهِ فهي معربة غير منونة، تقول أتيت من قَبْلِ زيد ومن بَعْدِه، وَإِذَا حُذِفَ المضاف لفظًا ومعنى فهي معربةٌ منونةٌ، وَإِذَا حُذِفَ المضافُ إِلَيْهِ ونوي لفظه فهي معربة غير منونة كما لو وجد لفظه، وَإِذَا حذف المضاف إِلَيْهِ ونوي معناه فهي مبنية عَلَى الضّم ولها أربع حالات.

قوْله تَعالَى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ كأن الإنسان يتوقع ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ أهلكوا وأتلفوا وما أشبه ذَلِك ولكن البيان جاء عَلَى غير المتوقع ماذا تتوقع أَنْتَ لما قالَ الله تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [فاطر:٤٤]؟ تتوقع أهلكناهم ودمرناهم وما أشبه ذَلِك؛ لأَنَّ هَذِهِ عاقبتهم لكن جاء الأمر عَلَى خلاف المتوقع ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ جاء مبيِّنًا لسبب هَذِهِ العاقبة لأنَّهَا هِيَ الحال الَّتِي عَلَيْهَا هَؤُلاءِ المكذبون وَهُوَ الشّرك يعني فأنتم الآن مشركون وهم كانوا مُشْرِكِينَ فدمروا، فمعنى ذَلِك أن عاقبتكم أنتم ستكون مثلهم مآلها التّدمير والهلاك، وَهَذا من بلاغة القرآن أن الله تَعالَى ذكر سبب هلاك أولئك القوم.

الَّذي كَانَ علَيْه الآن هَؤُلاءِ المخاطبون، هَؤُلاءِ المخاطبون الآن مشركون كانوا عَلَى الشّرك إِذَنْ إِلَى الآن مَا وجدوا العاقبة، لكن إِذَا علموا أن سبب عاقبة هَؤُلاءِ هُوَ الشّرك فلا شك إِذَا كَانَ لَهُم عقول أن ينتهوا عن الشّرك.

قوْله تَعالَى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾؛ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فأُهْلِكُوا بِإِشْرَاكِهِمْ، ومَسَاكِنُهُمْ وَمَنَازِلُهُمْ خَاوِيَةٌ].

قوْله تَعالَى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ ظاهر الآيَة الكريمة أن البعض الآخر وَهُوَ الأقل لم يكن مشركا، وهاهنا إشكال هل أُهلك الموحدون مَعَ المُشْرِكِينَ مَعَ أن الله تَعالَى ذكر فِي آيات كثيرة فِي الأمم السّابقة، قَالَ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الأعراف:٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ [الزّمر:٦١]، فظاهره أن المؤْمِنينَ لم يُهْلَكوا أو نقول: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ باعتبار القادة والرّؤساء الَّذِين يعرفون أنهم عَلَى شرك، أمَّا العامة الَّذِين لا يدرون فهم تابعون وراضون وإن لم يكن عِنْدَهُم شرك لكن هم يظنون أن هَذَا هُوَ الحق، فأي الاحتمالين أولى، أو احتمال ثالِث أن يُقَال إن الله تَعالَى أمرنا أن ننظر كَيْفَ كانت عاقبة السّابقين، وَإِذَا نظرنا وجدنا أن أكثرهم مشرك فأُهلك، وأن المُؤْمِن نجا فيكون فِي هَذَا تحذيرٌ من الشّرك وترغيب فِي الإيمان والتّوحيد فها هُنَا ثلاثة احتمالات:

الاحْتِمال الأول: أن الجميع أُهلك، وَهَذا يشكل علَيْه آيات كثيرة بأن الله تَعالَى أنجى المُؤْمِنِينَ.

الاحْتِمال الثّاني: أن المُرَاد بقوْله تَعالَى: ﴿أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ الَّذِين يعرفون أنهم عَلَى شرك دون الغوغاء والعامة الَّذِين لا يدرون مَا هم علَيْه وَإِنَّمَا هم أتباع كل ناعق.

الاحْتِمال الثّالث: أن يُقَال العاقبة حميدة وذميمة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ ونحن نعلم أن من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ أن يجازي المشركَ عَلَى شركه والمُؤْمِنَ عَلَى إيمانه، وحِينَئِذٍ يَكُون فِي الآية ترغيب فِي الإيمان والتّوحيد وترهيب عن الشّرك والكفر، فأي الاحْتِمالات أولى؟ الظّاهر أن الأخير أولى يعني أن ينظروا كَيْفَ كانت عاقبة السّابقين، وأن من كَانَ مشركًا منهم أُخذ بشركه، ومَنْ كَانَ مؤمنًا نُجِّيَ بإيمانه من أجل أن يؤمنوا هم ومن أجل أن يثبت المُؤْمِنُونَ من هَذِهِ الأمة عَلَى إيمانهم.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَأُهْلِكُوا بِإِشْرَاكِهِمْ وَمَسَاكِنُهُمْ وَمَنَازِلُهُمْ خَاوِيَةٌ] هَذَا هُوَ الواقعُ فمثلًا قوم صالح، صالح والَّذِين معه نجوا، وقومهم أخذتهم الرَّجْفَةُ والصَّيْحَةُ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف:٧٨]، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النّمل:٥٢]، تجدها الآن خاوية ولم تُسكن فيما نعلم بعدهم، مَا سُكنت إِلَى الآن.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: الأمر بالاعْتِبار بما جرى للسابقين لقوْلِه تَعالَى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أنَّه ينبغي لِلإِنْسَانِ أنْ يقرأ كُتُبَ التّاريخ الماضية للاعتبار، ولكن كما نعلم جميعًا كتب التّاريخ بعضها مزيف لَيْسَ عَلَى حقيقته فمصدر التّاريخ فِي الأمم السّابقة مَا أخبر الله بِهِ ورسوله، قَالَ الله تَعالَى فِي سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [التّوبة:٧٠]، ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]، فنفى أنْ يكُونَ لأحدٍ علمٌ بِهِ إِلَّا الله.

إِذَنْ: من أين نأخـذ أخبارهم مَا دام أنَّه لا يعلمهم إِلَّا الله؟ نأخـذها من الله إمَّا من الكتاب أو من السّنة.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أن أسباب هلاك الأمم السّابقين كانت إشراك أكثرهم لقوْلِه تَعالَى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أن العقوبة إِذَا حلت قد تصيب الصّالح وغيره لأنَّهُ قَالَ: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ يعني والبعض لم يشرك ومن ذَلِك قوْله تَعالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥]، وقد ينجي الله المؤْمِنينَ كما أنجى الله تَعالَى الرّسل ومن آمن معهم.

• ● ❁ ● •

الآيــة (٤٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الرّوم:٤٣].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ دِين الإِسْلامِ].

أقم الخطاب للرسول ﷺ أو لكل من يتوجه إِلَيْهِ الخطاب، وقد سبق توجيه القول الأول إِذَا جعلنا الخطاب للرسول ﷺ فإما أنْ يكُونَ المُرَاد بِهِ الرَّسول نفسه وتكون أمته تبعًا لَهُ، وإما أن يُراد بِهِ الرَّسول والأمة، لكن خوطب بِهِ الرَّسول لأَنَّهُ زعيمُهم وإمامهم.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ هل المُرَاد بالوجه الاتجاه أو المُرَاد الوجه الحسي الَّذي فِي الرّأس؟

الظّاهر أن المُرَاد الاتجاه؛ لأَنَّ الوجه يراد بِهِ الجهة كما قَالَ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥]، لأَنَّهُ سبق أن فِيهَا قوليْن للمفسرين:

- قولٌ أنَّ المُرَاد بِهِ وجه الله الحقيقي.
- وقول أن المُرَاد بِهِ الجهة.

ولا شك أن الوجه يراد بِهِ الجهة، وَإِذَا قلنا إن المُرَاد بالوجه الجهة، اتجاهك للدين شمل مَا إِذَا كَانَ الوجه الحسي فيما يطلب مِنْهُ الاتِّجاه للقبلة مثلًا.

وقوْله تَعالَى: ﴿لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ المُراد بالدّين هُنَا العمل وقد سبق أن الدّين فِي القرآن يراد بِهِ العمل والجزاء فقوْله تَعالَى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، وقوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧]، المُراد بالدّين الجزاء وأما قوْله تَعالَى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، فالمُراد بِهِ العمل كما فِي هَذِهِ الآية.

وقوْله تَعالَى: ﴿ٱلْقَيِّمِ﴾ القيم ضد المعوج كما قَالَ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام:١٦١]، يعني قَيِّمًا، فدينُ الإسْلام دين مستقيم لَيْسَ فِيهِ اعوجاج لا بالنّسبة لمعاملة الله عَزَّوَجَلَّ وَهِيَ العبادة ولا بالنّسبة لمعاملة المخلوق؛ وَلِهَذا تجد فِي المعاملات حرم الكذب والغش والخديعة وما أشبه ذَلِك، وحرم الجور والظّلم، وتحريم تفضيل الأولاد وما أشبه ذَلِك؛ لأَنَّ كل هَذَا خلاف الاستقامة، وفي العبادات حرم الشّرك والابْتداع لما فِي ذَلِك من الانحراف عن الصّراط المستقيم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، هل يشمل الأَعمال الظّاهرة والباطنة؟

قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، هَذَا يشمل العقيدة ويشمل الأَعمال الظّاهرة، مثل الإسْلام إِذَا قرن بالإيمان كَانَ الإسْلام للأعمال الظّاهرة والإيمان للأعمال الباطنة، وَإِذَا أفرد أحدهما شمل الآخر.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وَهُوَ يَوْمُ القِيَامَةِ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾]، قوْله تَعالَى: ﴿مِن قَبْلِ﴾ متعلق بـ(أَقِمْ) يعني أقمه من قبل هَذَا اليوم.

وقوْله تَعالَى: ﴿يَوْمٌ﴾ نُكر للتعظيم لأَنَّ هَذَا اليوم كما وصفه الله تَعالَى فِي قوْله تَعالَى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٥٥].

وقوْله تَعالَى: ﴿مَرَدَّ﴾ هَذَا مصدر ميمي أي لا رد لَهُ، يعني لا يمكن أن يرد هَذَا اليوم لأَنَّ الله تَعالَى قضى به.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلقٌ بصفة لـ(يوم) يعني من قبل أن يأتي يَوْم من الله، يعني هَذَا اليوم من الله لا من غيره، ويحتملُ أنْ يكُونَ متعلقًا بـ﴿يَأْتِيَ﴾ أن يأتي من الله يَوْم، والأَول أبلغ أنْ يكُونَ صفة لـ(يوم) لأَنَّ كونه من الله يدل عَلَى عظمته وأنه لا يمكن أن يرد هَذَا اليوم.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾، إِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذِهِ الآيَة خوطب بِهَا النَّاس فِي عهد الرَّسول ﷺ ومعلوم أن القِيَامَة لا تكون فِي عهد الرَّسول ﷺ فكيف قَالَ: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾؟

فالجوابُ: أنَّ الموتَ واقعٌ حتى فِي عهد الرَّسول ﷺ ومن مات قامت قيامته وانقطع عمله ولا فرق بَيْنَ من يموت فِي ذَلِك الوقت وبين من يموت وَهُوَ آخر النَّاس موتًا بالنّسبة لانقطاع العمل كل منهم انقطع عمله، فكأن من يموت فِي عهد الرَّسول ﷺ كأنه بلغ يَوْم القِيَامَة؛ وَلِهَذا يقول العلَماء: إن موت الإنسان قيامة بالنّسبة إِلَيْهِ وَهُوَ قيامة صغرى بالنّسبة إِلَى عُمُوم النَّاس لأَنَّ العمل انقطع وانتهى.

وقوْله تَعالَى: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يفيد بأن هَذَا أمر لا بُدَّ أن يقع وَهُوَ كَذَلِكَ فإن يَوْم القِيَامَة هُوَ الَّذي من أجله خُلق النَّاس، خلق النَّاس لعبادة الله، وجزاؤها يَكُون يَوْم القِيَامَة.

قوْله تَعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيه إدغام التّاء فِي الأَصل فِي الصّاد ومعناه يتفرقون بعد الحساب إِلَى الجنة والنّار].

قوْله تَعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: (إذ) منونة والتّنوين هُنَا عِوَضٌ عن جملة يعني يَوْم إذ يأتي يَصَّدَّعُونَ، ويقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيه إدغام التّاء فِي الأَصل فِي الصّاد]، أي أن أصلها يتصدعون، فقوله: [إدغام التّاء فِي الأصل] أي باعتبار الأصل يعني أن الصّاد الَّتِي أدغمت فِي أختها أصلها تاء فأدغمت فِيهَا بعد قلبها صادًا ومعنى يَصَّدَّعُونَ يتفرقون، فالتَّصَدُّعُ التّفرق ومنه تَصَدُّعُ الأرْضِ لأَنَّ تَصَدُّعَهَا تَفَرُّقٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: وجوب الاتِّجاه إِلَى الدّين؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ ويلزم من وجوب الاتِّجاه إِلَيْهِ وجوبُ الإعراضِ عما سواه؛ لأَنَّ الوجهة واحدة، إمَّا إِلَى هُنَا وإما إِلَى هُنَا، فإذا لزم أن تتجه إِلَى الدّين لزم أن تنحرف عن غيره.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: تحريم الحكم بِغَيْر مَا أنزل الله لأَنَّهُ مخالَف للاتجاه للدين القيم والحكم بِغَيْر مَا أنزل الله مِنْهُ مَا يَكُون كفرًا ومنه مَا يَكُون فسقًا ومنه مَا يَكُون ظلمًا كما ذكر الله تَعالَى ذَلِك فِي سورة المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، وفي الآيَة الثّانية ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥]، وفي الآيَة الثَّالثة ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧]، وهذه الأوصاف تتنزل عَلَى حال الحاكم فقد يَكُون كافرًا أو ظالمًا أو فاسقًا.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّ هَذَا الدِّينَ قَيِّمٌ، ومعنى قيم: معتدل لا اعوجاج فِيهِ فِي جانب العبادة ولا فِي جانب المعاملة.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّك إِذَا ظننت أن فِي الدِّين مَا يخالِف الاستقامة فاعلم أنَّك قاصر إمَّا فِي علمك وإما فِي فهمك وجه ذَلِك أن الله وصف هَذَا الدّين بِأَنَّهُ قيم، كل شيء تستعرضه فِي دين الله فيبدو لك أنَّه لَيْسَ عَلَى الاستقامة فاعلم أنَّك مخطئ لقصور علمك أو لقصور فهمك، والإنسان يؤتى من هاتين النّاحيتين إمَّا لقصور علمه يعني لَيْسَ عنده علم، وإما لقصور فهمه عنده علم لكن لا يفهم.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أنَّه ينبغي لمن أَمَرَ بشيء أن يذكر مَا يُغْرِي بِهِ ويُرَغِّبُ فِيهِ، يؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿ٱلْقَيِّمِ﴾ فالإنسان إِذَا عرف أنَّ الدِّين قيم لا شك أنَّه يتجه إِلَيْهِ، فأنت إِذَا أردت أن تأمر بشيء فاذكر الأسباب الَّتِي توجب للناس الإقبال علَيْه بأوصافه المحبوبة وثمراته الحميدة.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: الجمع بَيْنَ التّرغيب والتّرهيب: التّرغيب فِي قوْله تَعالَى: ﴿ٱلْقَيِّمِ﴾ والتّرهيب فِي قوْله تَعالَى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: إثْبَات يَوْم القِيَامَة وأنه آتٍ لا محالة لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أن يَوْم القِيَامَة يَوْم عظيم يؤخذ من تنكير ﴿يَوْمٌ﴾ فِي قوْله تَعالَى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ والتّنكير يفيد التّعظيم، ويدل لعظم هَذَا اليوم قوْله تَعالَى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦].

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أن الحكم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ فلا أحد يستطيع أن يمنع مَا أراد الله ولا أن يجلب مَا لم يُرِدِ الله أبدًا «اللهم لا مانِعَ

لما أعطيتَ ولا مُعْطِيَ لما مَنَعْتَ ولا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»[1].

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أن النَّاس يَوْم القِيَامَة ينقسمون ويتفرقون؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾.

• • ❁ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب لا مانع لما أعطى الله، رقم (٦٦١٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٣).

الآيــة (٤٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ [الرّوم:٤٤].

قوْله تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَبَالُ كُفْرِهِ وَهُوَ النَّارُ]، هَذَا كالتّفسير لقوْلِه تَعالَى: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ لأَنَّ معنى ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ يتفرقون بحسب أعمالهم.

قوْله تَعالَى: ﴿مَن﴾ شرطية، وفعل الشّرط ﴿كَفَرَ﴾، وجوابه جملة ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾ وقوْله تَعالَى: ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾ جملة خبرية مكونة من مبتدأ وخبر، المبتدأ قوْله تَعالَى: ﴿كُفۡرُهُۥۖ﴾ والخبر قوْله تَعالَى: ﴿فَعَلَيۡهِ﴾ مقدم، وفائدة التّقديم الحَصْرُ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ مثلها شرطية وجواب الشّرط قوْله تَعالَى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ وقُدِّم المعمولُ ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ للحَصْرِ وَهِيَ فائدة معنويةٌ ولمراعاة الفواصل وَهِيَ فائدة لفظية؛ لأَنَّهُ لو قَالَ فيمهدون لأنفسهم استقام الكلام لكِنَّهُ قُدِّم لهاتين الفائدتين.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾ يعني أَيَّ إِنْسَان يكفر فإنَّ وَبَالَ كفره علَيْه لا يضر إِلَّا نفسه، وهل يَكُون عَلَى غيره؟ لا يَكُون عَلَى غيره إِلَّا أنْ يكُونَ ذَلِك الغير سببًا فيه، فإن كَانَ سببًا فِيهِ صَارَ علَيْه مثل وزره قَالَ الله تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ

أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل:٢٥]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت:١٣]، وثبت عن النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»(١).

فإذا قِيلَ: هل هَذَا يناقض الآيَة ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾؟

فالجوابُ: لا يناقضها لأَنَّهُ إِذَا كَانَ هُوَ السّبب فإن ذَلِك من عمله لكن صورة المَسْأَلَة مختلفة أَنَّه عمل غيره وعمل نفسه، إنما حقيقة الأمر أن الدّال عَلَى الكفر فاعل لما يؤزر عليه.

قوْله تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ الكفر فِي اللُّغَة العرَبِيَّة هُوَ السّتر ومنه الكُفُرَّى الَّذي هُوَ غلاف طَلْعِ النّخل، فالكفر فِي الأصل هُوَ هَذَا والمُراد بِهِ الخروج عن طاعة الله؛ لأَنَّ الخارج عن طاعة الله قد ستر مَا أنعم الله بِهِ علَيْه من العقل والعِلْم وما أشبه ذلك.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ قَالَ أهل العلم: العمل الصّالِح هُوَ مَا جمع شرطين أساسيين أحدهما الإِخْلاص والثّاني المتابعة للرسول ﷺ، والإِخْلاص ضده الشّرك، والمتابعة ضدها الابتداع فمثلًا إِذَا وجدنا رجلًا يصلي الصّلاة المعتادة لكِنَّهُ يرائي النَّاس بِهَا فعمله لَيْسَ بصالح لأنه فقد الإِخْلاص، وَإِذَا وجدنا رجلًا قد أحدث نوعًا من العبادات لم يُرِدْ بِهِ الشّرع لكِنَّهُ مخلص يريد بِذَلِكَ وجه الله وتجده خاشعًا يبكي ويتأثر بهذه العبادة لكنها عَلَى غير شريعة الله فَهَذَا عبادته باطلة؛

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، رقم (١٠١٧).

لفقد المتابعة للرسول ﷺ.

ومن ذَلِك مَا إِذَا أخرج العبادات المشروعة عما شرعت عليه، وَهِيَ عبادة مشروعة فِي الأصل لكن أخرجها عما كانت علَيْه، فإِنَّهُ لا يُقبل عمله كما لو صلى الصّلاة بعد خروج وقتها متعمدًا بدون عذر فَهَذَا لا يقبل مِنْهُ لأَنَّهُ لا توجد متابعة هُوَ مخلص لكِنَّهُ غير متابع، وَكَذلِكَ لو صلى صلاة لا يطمئن فِيهَا إِذَا قَالَ: (سمع الله لمن حمده) سجد بسرعة إِذَا قَامَ من السّجود سجد الثّانية بسرعة فصلاته باطلة، لو صلى إِلَى يَوْم الدِّين مَا قَبِلَ الله مِنْهُ لعدم المتابعة؛ وَلِهَذا لما صلى رجل صلاة لا يطمئن فِيهَا قَالَ لَهُ الرَّسول ﷺ: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكِ لَمْ تُصَلِّ»[1]، فنفى عنه الفعل لانتفاع صحته وإلا فإِنَّهُ قد صلى لكنها ليست صلاةً، ولو سألتَهُ لماذا صليتَ؟ قَالَ: مَا صليتُ إِلَّا لله، لكِنَّهُ خَالَفَ أمْرَ الله.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل هَذَا يُنافي الإِخْلاص؟

قُلْنَا: لا ينافي الإِخْلاصَ، فالإِخْلاصُ فِي القلب، وَهُوَ مَا قَامَ يصلي من أجل النَّاس، ولا همُّه النَّاس، فَهُوَ صلى لله، لَكِنَّهُ خالَف أمر الله.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يلزم المصلي أن يفقَه مَا يقولُ؟

قُلْنَا: لَيْسَ بلازم لكِنَّهُ أفضل إِذَا فقه مَا يقول، فإذا كَانَ قلبه حاضرًا يعني خاشعًا فِي صلاته وحاضر القلب فَهُوَ أفضل.

وهل المصلي يَكُون خشوعه فِي أمور داخلَ الصَّلاة أم خارجَها؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب أمر النبي ﷺ الذي لا يتم ركوعه بالإعادة، رقم (٧٩٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٧).

الجوابُ: يخشع فِي أمور داخل الصّلاة يعني يستحضر مَا يقول فِي صلاته وما يفعل فِي صلاته، فمثلًا لا يذهب يتذكر جلسة كَانَ خاشعًا فِيهَا فيما سبق.

لو قِيلَ: المصلي قد يتذكر القبور والجنة والنّار، فهل يصح؟

الجوابُ: لا يصح إِلَّا إِذَا مرَّتْ بِهِ أثناء قراءته.

قوْله تَعالَى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ المهد والتَّمهيد بمعنى التّوطئة، ومنه قولهم هَذَا طريق مُمَهَّدٌ يعني موطأ مُحَسَّن لأجل أن تطأه الأقدام فمعنى ﴿يَمْهَدُونَ﴾ أي يحسنون الشَّيْءَ حتى يَكُون موطئًا لَهُم، وَذَلِكَ لأَنَّ الَّذِين يعملون صالحًا يتوصلون بعملهم الصّالِح إِلَى دخول الجنة فيسهل لَهُم الطّريق الَّذي يوصلهم إليها.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ تقديم المعمول يفيد الحَصْرَ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هل هَذَا ينافي مَا ثبت فِيهِ الحديث من أن «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فِي الإِسْلامِ فلَهُ أَجْرُها وأجْرُ مَنِ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْم القِيَامَةِ»[1]؟

قُلْنَا: لا ينافيه؛ لأَنَّ الَّذِين يسنونَ الحسناتِ عملوا فتُوبِعُوا عَلَى ذَلِك، فالأجر الَّذي حصل لَهُم من أجل اتباع غيرهم لَهُم هُوَ فِي الحقيقة من فعلهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: الجمعُ بَيْنَ التّرغيب والتّرهيب، فالتّرهيب فِي قوْله تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ والتّرغيب فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أن شؤم الكافر لا يتعداه إِلَى غيره؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، رقم (١٠١٧).

فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ وتقديم الخبر يدل عَلَى الحَصْرِ.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّه لا يتم الثّواب إلَّا بالعمل الصّالِح المبني عَلَى أمرين وهما الإِخْلاص لله تَعالَى والمتابعة لرسوله ﷺ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أن الحَزْمَ والكِيَاسَةَ فِي العمل الصّالح لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾؛ لأنهم إِذَا فعلوا ذَلِك استراحوا فِي المستقبلِ إذ إنهم وطئوا لأنفسهم منزلًا هُوَ خير المنازل، وقد ذكرنا الجمع بَيْنَ قوْله تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ وبين قوله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»، وقوْله تَعالَى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣]، وقوْله تَعالَى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النّحل:٢٥]، وذكرنا فِي الجمع أنهم هم السَّبَبُ.

• ● ❁ ● •

الآيــة (٤٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الرّوم:٤٥].

قوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ﴾؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُتَعَلِّقٌ بـ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾]، دَائِمًا نرى العلَماء إِذَا جاء ظرف أو جار ومجرور يقُولونَ متعلِّق بكذا.

فما معنى قولهم مُتَعلِّق؟

يعني أن هَذَا هُوَ الَّذي عمل فِيهِ لأَنَّ الجَارَّ والمجرورَ والظَّرْفَ بمنزلة المفعول به، والمفعول بِهِ لا بُدَّ لَهُ من عامل يعمل به، فإذا قِيلَ: (متعلق بكذا) يعني أن هَذَا هُوَ الَّذي عمل فيه، ولا بد لكل جار أو ظرف لا بُدَّ لَهُ من متعلق، قَالَ الناظمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

لابُــدَّ للجَــارِّ مِــنَ التَّعَلُّــقِ ... بِفِعْــلٍ أَوْ مَعْنَــاهُ نَحْــوَ مُرْتَقِــي

فيكون معنى قوله: [متعلق بـ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾] أن العامل فِي كلمة ﴿لِيَجْزِيَ﴾ قوْله تَعالَى: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ وَهَذا رأي المُفَسِّر، ويحتمل أنْ يكُونَ مُتَعَلِّقًا بقوله ﴿يَأْتِيَ﴾ في: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لأَنَّ التَّصَدُّعَ فِي الحقيقة هُوَ

(١) نظم قواعد الإعراب للجواد بن شبيب بن حية.

نفس الجزاء، فكيف يَكُون الشّيء علة لنفسه؟! هَذَا مَا يبعد كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن إِذَا قيل يأتي هَذَا اليوم لأجل المجازاة صَارَ المَعْنَى مستقيمًا وواضحًا.

فإذا قُلْنَا: إن هَذِهِ اللام فِي قوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ -لأَنَّ اللام حرف جر- متعلقة بـ﴿يَأْتِيَ﴾ فَهُوَ أوضح من قولنا أنَّها متعلقة بـ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾؛ لأَنَّ نفس التَّصَدُّعَ والتّفريق إِلَى الجنة وإلى النّار هُوَ نفس الجزاء.

وقال بعض المعربين إنَّه خبر لمبتدأ محذوف، فَهُوَ متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوفٍ، والتّقدير ذَلِك ليجزي والمشار إِلَيْهِ مَا سبق، وَهَذا أيضًا وجيه جدًّا أن يُجعل متعلقًا بمحذوفٍ خبرًا لمبتدأ محذوفٍ.

قُلْنَا: إن اللام فِي قوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ حرف جر، والمعلوم أن حروف الجر لا تدخل إِلَّا عَلَى الأسماء، ومن علامات الاسم الجر، ومن أسبابه دخول حرف الجر علَيْه، صاحب الأجروميَّة يقولُ[1]: (الاسْمُ يُعْرَفُ بِالخَفْضِ، وَالتَّنْوِينِ، وَدُخُولِ الأَلِفِ وَاللَّامِ، وَحُرُوف الخَفْضِ...)، فكيف صحَّ أن نقول إن اللام فِي قوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ حرف جر مَعَ أنَّها داخلة عَلَى فعل؟

فنَقُول: لأَنَّ هَذَا الفعل بمنزلة الاسم، إذ إِنَّه فعلٌ مُقَدَّرٌ فِيهِ (أَنْ) لأَنَّ التّقدير لأَنْ يجزيَ، و(أنْ) مصدرية تحول الفعل إِلَى مصدر، والمصدر اسم، وعليه فيكون المَعْنَى لجزاء الَّذِين آمنوا وعملوا الصّالحات إِلَى آخره، فإذا دخلت اللام: لام التّعليل عَلَى الفعل، فإِنَّهُ يقدر بينها وبين الفعل أن المصدرية، والتّقدير: لأَنَّ يجزي فالفعل منصوب بـ(أن) مضمرة بعد اللام، واللام جارة لما بعدها باعتبار أن الفعل سيكون مصدرًا، فهي نفسها حرف جر وَهِيَ نفسها لام التّعليل الَّتِي يُنْصَب الفعل المضارع

---

(١) متن الآجرومية لابن آجروم الصنهاجي (ص:٥)، ط. دار الصميعي.

بـ(أن) بعدها عَلَى رأي البصريين، فاللام واحدة ولام التّعليل كما تدخل عَلَى الأفعال تدخل عَلَى الأسماء، فلو قلت: (جئت لإكْرَامِكَ) فهي لام التّعليل، وتقول: (جئت لأُكْرِمَكَ) هِيَ لام التّعليل.

وقوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الفاعل: فاعل الجزاء هُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَهُوَ ضمير مستتر يعود عليه.

وقوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الجزاء بمعنى المكافأة يعني ليكافئهم ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يُثِيبَهُمْ]، هَذَا تفسيرٌ للجزاء بمعنى الإثابة والثّواب هُوَ المكافأة وسمي ثوابًا لأَنَّهُ من ثاب يثوب إِذَا رجع لأَنَّهُ يرجع إِلَى الإنسان جزاء عمله.

وقوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ انتبه لهذين الشّرطين؛ إيمان، وعمل صالح، فالإيمان وحده لا يكفي، والعمل الصّالِح وحده لا يكفي، هَذَا إِذَا قُرن الإيمانُ بالعمل، أمَّا إِذَا قِيلَ: عمل صالِح يكفي، أو إيمان يدخل فِيهِ العمل، والإيمان يَكُون بالقلب، فمن لا إيمان فِي قلبه لو عمل من الصّالِحات مهما عمل لم ينفعه، والمنافق يذكر الله ويصلي وينفق وربما يخرج فِي الجهاد ولا ينفعه عمله؛ لأَنَّهُ لا إيمان فِي قلبه، الإنسان الَّذي عنده إيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لكِنَّهُ لم يعمل عملًا صالِحًا يمكن أن يُجزى إِلَّا فِي واحدة فقط وَهِيَ الصّلاة، فإِنَّهُ إِذَا لم يعملْها لا ينفعه إيمان لأَنَّهُ قد دلت الأدلة عَلَى أن هَذَا العمل وإن كَانَ عملًا بدنيا لكِنَّهُ يَكْفُرُ الإنسان بتركه كفرًا مخرجًا عن الملة، أمَّا غير الصّلاة من الأعمال فقد قَالَ عَبْدُ الله بْنُ شَقِيقٍ: «كَانَ أصحاب النَّبيّ ﷺ لا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ إِلَّا الصّلاةَ»[1]، يعني لو لم يُزكِّ

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم (٢٦٢٢).

فإِنَّهُ لا يخرج من الإِيمَان، لو لم يَصُمْ فإِنَّهُ لا يخرج من الإِيمَان، لو لم يَحُجَّ فإِنَّهُ لا يخرج من الإِيمَان، هَذَا هُوَ الصّحيح، وعن الإِمَام أحمد رواية أن جميع أركان الإِسْلام إِذَا تركها الإنسان متهاونًا فَهُوَ كافر، فإذا لم يُزَكِّ فَهُوَ كافر، إِذَا لم يَصُمْ فَهُوَ كافر، إِذَا لم يَحُجَّ فَهُوَ كافر، يقول: لأَنَّ الرُّكنَ علَيْه الاعتماد، ركن الشّيء علَيْه اعتماد الشّيء، فإذا لم يوجد الرّكن مَا قَامَ الشّيء، وَهَذا لا شك أن لَهُ وجهًا لكن الأدلة تمنع من القول بِهَذا، فإن حديث أبي هريرة الصّحيح فيمن لا يؤدي زكاته، ذكر النَّبيّ ﷺ عقوبته ثمَّ قَالَ: «ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»[1]، فَهَذَا يدلُّ عَلَى أنَّه لا يكفر بمنع الزّكاة، وجهه لأَنَّهُ لو كفر بِذَلِكَ مَا كَانَ لَهُ سبيل إِلَى الجنة، وَهَذا واضح، فإذا لم يكفر بترك الزّكاة فما دونها من باب أولى، ولا شك أن أركان الإِسْلام الَّتِي دون الزّكاة أنَّها دونها فالصِّيام دون الزّكاة والحج دون الزَّكاة.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فِي قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧]، فإن ظاهره من كفر فلم يحج فإن الله غنيٌّ عن العالمين؟

فالجوابُ: إن المُرَاد بالكفر هُنَا سوى الكفر الأكبر يعني كفر دون كفر، وَلِهَذا لم يقل ومن لم يحج فَهُوَ الكافر، أو وتَرْكُ الحج هُوَ الكفر كما قَالَ فِي الصّلاة، و(كَفَرَ) فِعْلٌ، والفعل يدل عَلَى الإطلاق ولا يدل عن العُمُوم، فَهَذَا الجواب عن هَذِهِ الآيَة، والَّذِين قَالُوا إِنَّه يكفر بترك الحج احتجوا بهذه الآيَة، وأما قول عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيًّا»[2]، هَذَا يُقَال من باب

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم (٩٨٧).

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الحج، باب ما جاء في التغليظ في ترك الحج، رقم (٨١٢).

التّهديد أو أن هَذَا رأي لَهُ، وَهَذا أيضًا إن صح الحديث؛ لأَنَّ فِي الحديث مقالًا، لكن إن صح فَهُوَ يُحمل عَلَى أن المُراد أن هَذَا من باب التّحذير أو أنَّه رأي لَهُ كما رآه غيره من أهل العلم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: حديثُ مَنْ لَمْ يَغْزُ ولَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالغَزْوِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً[1]. كَيْفَ نُجِيبُ عَلَى هَذَا الحديث؟

قُلْنَا: لا يمنع أن الإنسان يموت ميتة جاهلية لأَنَّهُ فعل فعلًا من أفعال الجاهلية حيْثُ لم يَقُمْ بواجب الجهاد.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: إثْبَاتُ العِلَلِ فِي أفعال الله لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وقد انقسم النَّاس فِي هَذَا إِلَى ثلاثة أقسام:

▪ قسم: أنكروا العلل فِي أفعال الله وفي شرعه وقَالُوا إِنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يفعل مَا يشاء ويحكم بما شاء بدون أي علة أو حكمة كالجبرية.

▪ وقسم آخر: أثبتوا العلل فِي أفعال الله وقَالُوا إن الله تَعالَى لا يفعل إِلَّا لحكمة ولا يشرع إِلَّا لحكمة، لكنهم جعلوا تلك العلل موجبة وقَالُوا يجب علَيْه أن يفعل كذا لكذا، وهَؤُلاءِ المعتزلة.

▪ وقسم ثالِث: توسطوا وقَالُوا أفعال الله تَعالَى لحكمة وشرائعه لحكمة لكن ليست هَذِهِ الحكمة موجبة بل الَّذي أوجب عَلَى نفسه الحكمة هُوَ الله، والحكمة من

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب ذم من مات، ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، رقم (١٩١٠)، ولفظه: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ».

مقتضى اسمه الحكيم فتكون واجبة ليست بإيجاب أحد ولكنها بمقتضى كونه حكيمًا هُوَ الَّذي أوجبها عَلَى نفسه وَهَذا القول هُوَ الصّحيح وَإِذَا قلنا بِهِ فإننا لا يمكن أن نعترض عَلَى أي حكم من أحكام الله كونيا كَانَ أم قدريا لأننا نعلم أن الَّذي أوجب أن تقترن أفعاله وشرائعه بالحكم هُوَ الله لا نحن فلا نقول: إن الله يجب علَيْه فعل الأصلح ولا فعل الصّلاح إيجابًا مستقلًّا عن إرادته وَهَذا القول هُوَ الحق.

إِذَنْ: نأخذ مِنْهُ أن جميع أفعال الله وأحكام الله كلها معللة بالحكمة بمقتضى اسمه الحكيم.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أن الجزاءَ لَيْسَ واجبًا عَلَى الله لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ لكِنَّهُ أوجبه عَلَى نفسه لقوْلِه تَعالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤]، أوجبه هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى نفسه وَلِهَذا قَالَ الشّاعر[1]:

مَـا لِلْعِبَـادِ علَيْـهِ حَـقٌّ وَاجِـب ... كَـلَّا وَلا عَمَـلٌ لَدَيْـهِ ضَـائِعُ

إِنْ عُـذِّبُوا فَبِعَدْلِـهِ أَوْ نُعِّمُـوا ... فَبِفَضْـلِهِ وَهُـوَ الكَـرِيمُ الوَاسِـعُ

وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ نظم معنى هذين البيتين لكِنَّهُ علل فقال[2]:

مَـا لِلْعِبَـادِ علَيْـهِ حَـقٌّ وَاجِـب ... هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ العَظِيمَ الشَّانِ

إِنْ عُـذِّبُوا فَبِعَدْلِـهِ أَوْ نُعِّمُـوا ... فَبِفَضْـلِهِ وَالفَضْـلُ لِلْمَنَّـانِ

فقيد المطلق فِي البيتين السّابقين أنَّه هُوَ الَّذي أوجب ذَلِك تَفَضُّلًا مِنْهُ عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٦٢).

(٢) الكافية الشافية لابن القيم (ص:٢٠٨، ٢٠٩)، ط. مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: إثْبَات المحبة لله تؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لكن هَذَا نفي كَيْفَ نأخذ مِنْهُ الإثْبَات؟

لأَنَّهُ إِذَا انتفى محبته عن الكَافِرِينَ لزم محبته للمؤمنين، فإن لم يكن، لم يكن فرق بَيْنَ المؤْمِنينَ وبين الكَافِرِينَ، لو كانت المحبة منتفية فِي هَؤُلاءِ وهَؤُلاءِ مَا كَانَ بينهم فرق، وَلِهَذا استدل أهل العِلْم عَلَى إثْبَات رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوْله تَعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، قَالُوا: فلما حجب هَؤُلاءِ فِي حال السّخط دل عَلَى أنَّه لا يحجب الآخرون فِي مقام الرّضا.

إِذَنْ: نأخذ من هَذِهِ الآيَة إثْبَات المحبة وَهِيَ كما سبق الكلام علَيْه صفة ثابتة لله عَلَى وجه الحقيقة وليست بمعنى الثّواب ولا إرادة الثّواب، وَإِنَّما ذَلِك من لازمها ومقتضاها إِذَا أحب قومًا أثابهم ولا يثيبهم إِلَّا بإرادة ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: الحث عَلَى الإيمَان والعمل الصّالِح، الله جَلَّ وَعَلَا مَا قَالَ آمِنُوا واعْمَلُوا، لكنْ ذِكْرُ الجزاءِ يستلزم الحث عَلَى الفعل، وَهَذا أحد الطّرق الَّتِي يُستدل بِهَا عَلَى أن الشّيء مأمور بِهِ، لا تظن أن الشّيء المأمور بِهِ هُوَ مَا جاء بصيغة الشّيء افعل، بل الأمر يستفاد من عدة أمور، فإذا ورد التّرغيب فِي شيء فَهُوَ مأمور به.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: ذم الكفر يؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإذا نفى الله المحبة عن هَؤُلاءِ فإِنَّهُ يقتضي ذم عملهم.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أن الحكم إِذَا علق بمشتق -وهذه فائدة أُصُولِيَّة- فَهُوَ دليل عَلَى أن ذَلِك المشتق هُوَ علة فِي الحكم، مثلًا قوْله تَعالَى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فالعلة هُنَا كفرهم، أي أن الحكم بعدم حبهم عُلق عَلَى وصفٍ هُوَ كفرهم.

إِذَنْ: فالكفر علة انتفاء المحبة.

وكما لو قَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا﴾ [الصّف:٤]، فالعلة فِي المحبة هِيَ القتال فِي سبيله صفًّا.

وهكذا كُلُّ حُكْمٍ معلَّق بمشتق فإِنَّهُ يدل عَلَى عِلِّية ذَلِك الشّيء.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: اعتبار اللازم بمعنى أنَّه إِذَا لزم من الشّيء كذا وكذا فإِنَّهُ يثبت هَذَا اللازم تبعًا لثبوت الملزوم، فمثلًا لاحِظ فِي المؤْمِنينَ قَالَ: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مَا قَالَ إِنَّه يحب أو لا يحب الكَافِرِينَ قَالَ: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ فالمقابل: أنَّه لا يحب الكَافِرِينَ، فالَّذي يلزم مِنْهُ ألَّا يجزيَهم من فضله وَإِنَّما يعاملهم بعدله، فعقاب الكَافِرِينَ مأخوذ من لازم انتفاء المحبة.

ودلالة التّلازم هَذِهِ مفيدة جدًّا لطالب العلم، ومعناها أنَّه يلزم من كذا وكذا، كذا وكذا، لكن لا بُدَّ من شرطين:

الشّرط الأول: أنْ يكُونَ اللازم صحيحًا، فإن كَانَ اللازم فاسدًا فإِنَّهُ لَيْسَ بلازم حتى لو ادعى الإنسان أنَّه لازم فليس بلازم.

الشّرط الثّاني: أنْ يكُونَ ذَلِك فِي كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

أما الشّرط الأول -أنْ يكُونَ التّلازم صحيحًا- فإننا نحترز بِهِ عما إِذَا كَانَ التّلازم غير صحيح، مثلًا أهل التّعطيل الَّذِين أنكروا الصّفات أو بعضها، شُبْهَتُهُمْ فِي الإنكار قَالُوا إِنَّه يلزم التّمثيل، لكن هَذَا اللازم لَيْسَ بصحيح؛ ولذلك لا نقول إِنَّه يلزم من إِثْبَات الصّفات التّمثيل لأَنَّهُ لَيْسَ بلازم.

في كلام الله وكلام رسوله إِذَا كَانَ اللازم صحيحًا فَهُوَ حق ويكون النّص دالًّا

عليْه، لكن فِي كلام غيره لا يَكُون اللازم قولا لصاحب القول الملزوم، وَلِهَذا العلَماء عِنْدَهُم ترجمة فِي هَذِهِ المسألة: (هلْ لازِمُ القَوْلِ قَوْلٌ أَوْ لَيْسَ بِقَوْلٍ؟) فمنهم من قَالَ إن لازم القول لَيْسَ بقول، ومنهم من قَالَ إن لازم القول قول.

والصّحيح أن لازم القول فِي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قول لكن بشرط أنْ يكُونَ اللازمُ صحيحًا، ويكون قولًا لأَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يعلم مَا يترتب عَلَى كلامه من اللوازم وَإِذَا لم ينفها الله دل ذَلِك عَلَى ثبوتها، لكن الإنسان البشر لا يعلم دوما مَا يلزم عَلَى قوله، فأحيانًا يقول الإنسان قولا يظنه صوابًا ويكون هَذَا القول يلزم مِنْهُ لزوما صحيحًا حقيقيًّا أمور فاسدة لو نُبِّهَ القائل لها لرجع عن قوله؛ فلذلك نقول إن لازم القول فِي غير كتاب الله وسنة رسوله لَيْسَ بقول، صحيح أنَّه يستدل بِهِ عَلَى بطلان القول لكن مَا يُقَال إنَّه قول فلان.

فالحاصِلُ فِي هَذِهِ المسألة: أنه ينبغي التّنبه لها، وَإِنَّمَا نقول بِذَلِكَ لأَنَّ الإنسانَ بشرٌ لا يحيط بما يستلزمه كلامه من اللوازم الصّحيحة أو اللوازم الباطلة، الآن نرى كثيرًا مَا يـأمر الإنسان بشيء أو ينهى عن شيء فِي أولاده ثمَّ إِذَا فعلوه علم أنَّه يستلزم مفسدة فيرجع عنه، هَذَا اللازم هل كَانَ عالِمًا بِهِ من قبل؟ لو كَانَ عالِمًا مَا أمرهم، وكثيرًا مَا ينهاهم عن شيء ثمَّ إِذَا تركوه رأى فِي ذَلِك مفسدة يعني استلزم مفسدة مَا كَانَ يعلم بِهَا حين النّهي فتجده يرجع، فلازم القول فِي كتاب الله وسنة رسوله قول لكن بشرط أنْ يكُونَ التّلازم صحيحًا، أمَّا فِي غيره فليس كَذَلِكَ، لَيْسَ بقول.

• • ❁ • •

الآيـة (٤٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم:٤٦].

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾: ﴿مِنْ﴾ للتبعيض و﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ مجرور بـ(من) و﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ فعلٌ مُؤَوَّلٌ بالمصدر هُوَ المبتدأ، أي من آياته إرسال الرّياح ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ حال من الرّياح].

يقول الله عَزَّوَجَلَّ فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ أي بعض آياته لأَنَّ ﴿مِنْ﴾ هُنَا للتبعيض؛ وَذَلِكَ لأَنَّ آيات الله عَزَّوَجَلَّ لا يمكن إحصاؤها ولا حصرها.

فَفِـي كُـلِّ شَيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ تَـدُلُّ عَـلَى أَنَّـه وَاحِـدُ[1]

لو أراد الإنسان أن يحصي آيات الله عَزَّوَجَلَّ الَّتِي فِي جسمه هُوَ فقط مَا استطاع إِلَى ذَلِك سبيلًا، فكيف بآيات الله تَعالَى الَّتِي ملأت الكون؛ وَلِهَذا تأتي ﴿مِنْ﴾ الدّالة عَلَى التّبعيض.

وقوْله تَعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ أي عـلاماته واعلم أن كل آيـة فإنها تدُلّ عَلَى العِلْم وتدل عَلَى القُدْرَة وتدل عَلَى الحكمة، لا بُدَّ من ذَلِك فِي كل آية أنَّها تكون آية وعلامة عَلَى هَذِهِ الأمور الثّلاثة: العِلْم والقُدْرَة والحكمة، ثمَّ تختص بعض الآيات

(١) البيت لأبي العتاهية، ديوان (ص:١٠٤).

بما تختص به، إمَّا أن تكون الآيَة الَّتِي بعدها آية رحمة أو بعدها شيء يدل عَلَى السّلطان والعظمة.

والمُهِمُّ: أن لكل آية معنى خاصًّا ومعنى عامًّا، فالمعنى العام هُوَ هَذِهِ الثّلاثة: العِلْم والقُدْرَة والحكمة، فقوْله تَعالَى: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ يضاف إِلَى هَذِهِ الثّلاث الرّحمة لأَنَّ هَذِهِ الرّياح تبشر بالمطر وقوْله تَعالَى: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ الإرسال بمعنى الإطلاق ومنه قول الشّاعر[1]:

فَأَرْسَلَهَا العِـرَاكُ..... .....

يعني أطلقها، ومنه قول الفرضيين: (دَيْنٌ مُرْسَلٌ) يعني مطلقا لَيْسَ بِهِ رهن فقوْله تَعالَى: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ أي يطلقها عَزَّوَجَلَّ، والرّياح جمع ريح وَهِيَ الأهوية، واعلم أن الرّيح تُذْكَرُ مفردةً وتذكر مجموعةً، فإذا ذكرت مجموعة فإنها تكون غالِبًا للرحمة، وَإِذَا ذُكرت مفردةً فإنها تكون غالِبًا للعقاب كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦]، قَالَ (ريح)، وقوْله تَعالَى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذّاريات:٤١]، وقوْله تَعالَى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف:٢٤]، وما أشبه ذَلِك، ولكنها أعني الرّيح قد تُفرد وتكون فِي مقام النّعمة لا سِيَّما إِذَا وصفت بما يدل عَلَى ذَلِك.

كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢]، فالرّيح هُنَا عقوبة نعمة، وَإِنَّمَا كانت نعمة لأنَّهَا وصفت بقوْله تَعالَى: ﴿طَيِّبَةٍ﴾، أما بالنّسبة للسفن فالأَوْلَى اتحاد الرّيح لا اختلافها؛ لأنَّهَا إِذَا اختلفت اختلف سير السّفينة، وفي الماضي

(١) البيت للبيد، وتمامه:

فأرسلها العراك وَلم يذدها وَلم يشفق على نغص الدّخال

لما كانت السّفن شراعية كانت الرّياح فِي مقام النّعمة وَلِهَذا جمعت.

قوْله تَعالَى: ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ مبشرات حال من الرّياح أي تبشر بالخير وَلِهَذا بعض الرّياح إِذَا هبت استبشر النَّاس لأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أجرى العادة أن هَذِهِ الرّيح المعينة يتكون منْهَا السّحاب ثمَّ المطر، وأحيانًا يستبشرون بالرّيح إِذَا رأوها تجمع السّحاب، تجمعه وتكثفه، استبشروا بها.

وقوْله تَعالَى: ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ البشارة هِيَ الإخبار بما يسر غالبًا، وسميت بشارة لأَنَّهَا تؤثر عَلَى البشرة، فالإنسان إِذَا استبشر ينيرُ وجهُه ويُسْفرُ وتجدُ علَيْه علامة البشـرى، وقد تطلق البشارة بمـا يسوء كقوْله تَعالَى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بمعنى لِتُبَشِّرَكُمْ بِالمَطَرِ].

فسر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ اسم الفاعل بالفعل المعلل، وقَالَ: [بمعنى لِتُبَشِّرَكُمْ] لأجل أن يسهل العطف فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ لأَنَّ ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ يجد الإنسان بَيْنَهُما فجوة، هَذِهِ الفجوة أراد المُفَسِّر أن يقربها بقوله: [بمعنى لِيُبَشِّرَكُمْ بها]، ولكن الصّحيح عندي أن المبشرات عَلَى حالها تعتبر اسمًـا ولكننا نقدر فعلًا يناسب مَا بعده لأجل أن يصح عطف الفعل علَيْه، والَّذي أرى أن يقدر: [﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ لتستبشـروا بِهَا ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾]، أو نجعل لتبشركم كما قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا نجعلها بمعنى مبشرات بل نجعلها فعلًا مستقلًّا قدرناه ليصح العطف فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ بِهَا ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ المَطَر والخِصْب].

تقدم أن الله تَعالَى يعبر عن الإصَابَة بالإِذَاقَة لأنَّهَا أعلى أنواع الإصَابَة وأبلغها ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ بِهَا ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾.

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المطر والخصب] ففسر الرّحمة بأثرها، وَعَلَى هَذَا فلا تكون الرّحمة مخلوقة وليست صفة من صفات الله، وَهَذا الَّذي فسرها بِهِ محتمل لأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يطلق الرّحمة عَلَى الشّيء المخلوق الَّذي يَكُون من آثار رحمته كما ثبت فِي الحديث الصّحيح أن الله قَالَ للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1]، ومن المعلوم أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يُرِدْ أنَّها رحمته الَّتِي هِيَ صفته؛ لأَنَّ الجنة مخلوق بائن دائم ولكن أراد أنَّها من أثر رحمتـه أو مقتضى رحمته، فهنا يصح أن نقول: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي من هَذَا المطر والخصب وتكون الرّحمة هُنَا مخلوقة من المخلوقات.

وإن جعلناها الصّفة فهي للابتداء يعني ليذيقكم نعمة صادرة من هَذِهِ الرّحمة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ السُّفُنُ بِهَا ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بإرادته ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ تطلبوا ﴿من فضله﴾ الرِّزق بالتِّجارة فِي البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾].

قوْله تَعالَى: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [السُّفُنُ بها] الضّمير يعود عَلَى الرّياح، فالله تَعالَى يرسل الرّياح لتسير بِهَا المياه فِي أجواء السّماء وَهُوَ السّحاب ويرسل الرّياح لتسير بِهَا السّفن فِي البحار، وكُلٌّ من السّحاب ومن السّفن يحمل نعمًا كثيرة، السّفن تحمل الأرزاقَ والأَنَاسِيَّ والحيوانَ وغيرَها، والسُّحـب تحمل الماء الَّذي هُوَ مادة الحياة، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة:٦٨-٦٩]، ففي الرّياح إِذَنْ فائدتان:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٦).

- تسيير السُّحب فِي أجواء السّماء.

- وتسيير السُّفن فِي أجواء البحار.

وقوْله تَعالَى: ﴿ٱلْفُلْكُ﴾ تصلح للجمع وللمفرد، وَهَذا فِي القرآن موجود، مثالُها للجماعة قوْله تَعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢]، هَذَا جمع؛ لأَنَّهُ قَالَ: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ﴾ لم يقل فِي الفلك وجرى، وقوْله تَعالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر:٢٢]، أيضًا جمع، ومثالها للمفرد قوْله تَعالَى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [البقرة:١٦٤]، قَالَ: ﴿ٱلَّتِى﴾ ولم يقل اللاتي، وقد ذكر الفقهاء أن الأحدب ينوي الرّكوع بقلبه، فالأحدب لَيْسَ بقائمٍ حتى يركع، بل ينويه بقلبه، قَالَ بعض الفقهاء: فَهُوَ شبيه للفُلْكِ فِي اللُّغَة العرَبِيَّة يعني انحناء هَذَا الأحدب شبيه بالفلك فِي اللُّغَة العرَبِيَّة، مَا يُعرف إِلَّا بالنِّية، فالفلك صالِح للمفرد وللجماعة ولا يعرف إِلَّا بالنّية أو القرينة، وكَذَلِكَ الأحدب فِي حال الرّكوع، فما الَّذي يُعلمنا أنَّه راكع أو غير راكع فركوعه وقيامه سواء.

ويمكن أن يستدل بمَسْأَلَة الأحدب عَلَى مَا ذُكر عن الكسائي أنه قَالَ: إن الإنسان إِذَا أتقن شَيْئًا من العِلْم أمكنه أن يفهم غيرَه من العلوم[1]، وذكروا قصة أنَّه كَانَ هُوَ وأبو يوسفَ عند الرَّشِيدِ -أحد خلفاء بني العباس- وأنهم تناظروا فِي مَسْأَلَة فقال أبو يوسف للكِسَائِيِّ: مَا رأيك لو سها الإنسان فِي سجود السَّهْوِ، هل نَحْوُكَ يعلمك بحكم هَذِهِ المسألة؟ قَالَ: نعم إِذَا سها فِي سجود السّهو فإِنَّهُ لا يسجد، قَالَ: أين تجد هذا فِي نحوك؟ قَالَ: عندنا قاعدة فِي النّحو أن المصغر لا يصغر، فاستدل بأن سجود السّهو صلاة مصغرة فإذا سها فِيهِ فإِنَّهُ لا يصغر مرة ثانية، وهل هَذَا

(١) الوافي بالوفيات (٢١/ ٤٨).

واقع أو غير واقع؟ الله أعلم لكنهم ذكروه.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بإرادته]، والصّحيح ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ من الأمر الَّذي هُوَ بالقول وليس المُراد بالإرادة فقط لأَنَّ الفلك مَا تَعْلَمُ عما يريد الله عَزَّوَجَلَّ لكنها إنما تأتمر بأمره القولي وقد قَالَ الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فكلُّ مرادِ الله إن لم يقترن بالقول فإِنَّهُ لا يقع، وكيف تحدث الكائنات بمجرد إرادةٍ لا يعلم بِهَا إِلَّا الله؟ فلا بد من قول، فالصّواب أن المُراد بأمره: أمره القولي لقوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، ولا يمنعُ ذَلِك أنْ يكُونَ هَذَا الجريانُ بأمره بأسباب محسوسة معلومة لنا؛ لأَنَّ المُقَدِّرَ للأسباب هُوَ الله عَزَّوَجَلَّ فَهُوَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يخلق ويُسَخِّرُ ولكن بأسباب.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ كل هَذَا مما خلقه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لهذه الحِكَمِ العظيمة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلِتَبْتَغُواْ﴾ تطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ الرِّزق بالتِّجارة فِي البحر]، وَهُوَ كَذَلِكَ، وكم من أناس كانت تجارتهم فِي البحار ينقلون الأرزاق من جهة إِلَى جهة بواسطة هَذِهِ السّفن، لولا هَذِهِ السّفن لكان من المتعذر أن تنتقل الأرزاق من الجهة الَّتِي خلف البحر إِلَى الجهة الأُخْرَى، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ جعل هَذِهِ السّفن لأجل أن تنقل هَذِهِ الأرزاق والنّعم.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: (لعل) هَذِهِ معناها التّعليل، تشكرون؛ الشّكر هُوَ القيام بطاعة المنعم ويكون باللسان وبالقلب وبالجوارح، فأما الشّكر بالقلب فأن يؤمن الإنسان بأن هَذِهِ النّعمة من الله عَزَّوَجَلَّ هُوَ الَّذي أمده بِهَا وَهُوَ الَّذي يسرها

لَهُ وَهُوَ الَّذي جلبها إِلَيْهِ هَذَا بالقلب، والشّكر باللسان أن يحمد الله عَلَيْهَا فإن هَذَا من شكر النّعمة وأن يتحدث بِهَا اعترافًا لله بالفضل لا افتخارًا بِهَا عَلَى غيره، وأما الشّكر بالجوارح فأن يقوم لله تَعالَى بالعمل البدني من صلاة وزكاة وحج وغيره، وَلِهَذا يقول الشّاعر[1]:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِير المُحَجَّبَا

فيدي الجوارح، واللسان القول، والضّمير المحجب القلب.

ما الواسطة بَيْنَ الحمد والشّكر، أو النّسبة بَيْنَ الحمد والشّكر؟

الحمد أعم من حيْثُ السَّببُ، والشّكر أعم من حيْثُ التَّعَلُّقُ؛ لأَنَّ الحمد يَكُون باللسان ويكون عَلَى النّعم وَعَلَى كمال صفات المحمود، يعني أَنَّه يحمد المحمود عَلَى نعمه وإحسانه عَلَى الحامد وَعَلَى كمال صفاته، وأما فِي المُتَعَلَّق فإِنَّهُ يتعلقُ باللسان خاصة الحمد يَكُون باللسان فَقَطْ، وربما يَكُون بالقلب أيضًا بأن يعتقد الإنسان كمال هَذَا المحمود لكِنَّهُ لا يُسَمَّى حمدًا لغة إِلَّا باللسان، وأما الشُّكرُ فَهُوَ أخص من الحمد باعتبار سببه وأعم باعتبار متعلِّقه، أخص باعتبار سببه لأَنَّ سببه الإنعام عَلَى الشّاكر، ولو كَانَ الإنسان المحمود من أكمل النَّاس ولم يعطِك شَيْئًا لا تشكره، فالشّكر يَكُون عَلَى النّعم فَهُوَ أخص من حيْثُ السّبب ويكون بالقلب واللسان والجوارح فَهُوَ من حيْثُ المتُعَلَّق أعم.

إِذَن: النّسبة بَيْنَهُما العُمُوم والخصوص الوجهي.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الشّكر هُوَ القيام بطاعة المنعم هَذَا بالمَعْنَى العام،

---

(١) نهاية الأرب في فنون العرب للنويري (٣/ ٢٤٨).

لكن شكر النّعمة الخاصة يَكُون بالقيام بوظيفتها من الطّاعة، يَكُون بالقيام بوظيفتها الخاصة، مثلًا شكر الإنسان ربه عَلَى العِلْم يَكُون بالعمل بِهِ وتعليمه، هَذَا شكر خاص لنعمة خاصة، شكرُ الإنسانِ ربَّه عَلَى المسكن مثلًا يَكُون بطاعته فِي هَذَا المسكن بأن لا يَكُون فِيهِ مثلًا إسراف ولا تبذير وما أشبه ذَلِك فالشّكر هُنَا لَهُ معنيان:

- المَعْنَى العام هُوَ القيام بطاعة المنعم.

- والشّكر الخاص هُوَ القيام بطاعة الله تَعالَى لما يتعلق بهذه النّعمة الخاصة، وكل نعمة لها شكر خاص.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أن هناك علاماتٍ ودلالاتٍ عَلَى وجود الخالِق وَعَلَى علمه وقدرته وحكمته هَذِهِ الآيات. هَذِهِ الآيات الَّتِي تَعَرَّضَ الله بِهَا لعباده من نعمة الله عَلَيْهِم أن الله تَعالَى يريهم آياتِه ليقوموا بشكره ويعترفوا بفضله.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: من آياته أيضًا -زيادة عَلَى الآيات الثّلاثة الَّتِي ذكرنا- ثبوتُ الرَّحمة لقوْلِه تَعالَى: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ هَذِهِ الرّياح لو اجتمع الخلق كلهم عَلَى أن ينفخوا بجميع وسائل النّفخ فإنهم لا يستطيعون أن يغطوا بِهَذا النّفخ بلدًا واحدًا، والرّب جلت قدرته يغمر مَا شاء أن يغمر بهذه الرّيح الَّتِي قد تقلع الأشجار وتهدم الدّيار، أليس هَذَا دليلًا عَلَى قدرة الله العظيمة؟ وكونها مبشرات فِيهِ إثْبَات الرّحمة.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: نعمة الله تَعالَى بالفلك الَّتِي تجري بأمره لولا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسر من الأسباب مَا يَكُون بِهِ ذَلِك مَا عرف النَّاس كَيْفَ يتعدون من بر إِلَى بر بواسطة البحر.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ ظهورَ الآيَاتِ لِلإِنْسَانِ سببٌ لشكر نعمة الله علَيْه، نأخذُه مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: إثْبَاتُ العِلَلِ والحِكَمِ فِي أفعال الله تَعالَى؛ لقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ لأنَّهَا للتعليل.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرّوم:٤٧].

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ اللام فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ﴾ مُوَطِّئَةٌ للقَسَمِ يعني أنَّها جواب لقسم محذوف، التّقدير والله لقد، وَبِهذَا نعرف أن الجملة هُنَا مُؤَكدة بثلاثة أمور وَهِيَ القسم واللام وقد.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ من المشهور المعروف عند أهل العِلْم أنَّ الرَّسولَ مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بشرع وأُمِر بتبليغه لأَنَّهُ مرسل، وَهَذا الصّنف من النَّاس هُوَ أعلى أنواع الأصناف من بني آدم ويليهم الأنبياء ثمَّ الصّديقون ثمَّ الشّهداء ثمَّ الصّالحون، فأعلى أجناس البشر الرّسل -علَيْهِمُ الصّلاةُ والسّلامُ- لأنهم جمعوا بَيْنَ الاختصاص بالرّسالة والعبادة، والله أعلم حيْثُ يجعل رسالته، لا يعطي الرّسالة إِلَّا لمن هُوَ أهل لها، فأحق النَّاس بالرّسالة بلا شك هم هَؤُلاءِ الأعيان الَّذِين أرسلهم الله عَزَّوَجَلَّ ولا يمكن أنْ يكُونَ أحد من النَّاس أحق منهم بِهَا، وَبِهذَا نعرف ضلالَ بل وكُفْرَ من قَالُوا إن عَلِيَّ بنَ أبي طَالِبٍ أَحَقُّ بالرِّسالة من مُحَمَّدٍ ﷺ لأنهم بِذَلِكَ طعنوا فِي الله عَزَّوَجَلَّ ونسبوه إِلَى مَا لا يليق بِهِ، لأَنَّهُ إِذَا كَانَ أعطى الرّسالة محمدًا وعليٌّ أولى بِهَا فَهُوَ إمَّا جاهل بالأحقية وإما غير مريد لإعطاء الحق أهله هَذَا

الصّواب، وكلا الأمرين بالنّسبة إِلَى الله مُحالٌ وممتنِعٌ، وأي أحد يصف الله بِهَذا أو بما يستلزم هَذَا فإِنَّهُ كافر بلا شك.

إِذَن: الرّسل -علَيْهِمُ الصّلاةُ والسّلامُ- هم أشرفُ أصنافِ الخلقِ وهم أحق النَّاس بالرّسالة بلا شك ولا أحد أحق منهم، ويوجد -والعياذُ باللهِ- بعض النَّاس -الفلاسفة- يرون أن الرّسل من آخر مراتب الخلق ويقولون إن الولي أفضل من النّبي، والنّبي أفضل من الرَّسول لأَنَّ الولي خاص الخاصة، وليٌّ عَلَى اسمه، والنّبي لَهُ مَزِيَّةُ الوحي، والرَّسول بمنزلة الخادم الَّذي فِي البيت يُرْسَلُ ليشتريَ الحوائج، انظر كَيْفَ -والعياذُ باللهِ- الضّلالَ ويقولون فيما يقولون[1]:

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الوَلِي

أعوذ بالله، مقام النّبوة برزخ فويق الرَّسول، يعني فوق الرَّسول بقليل وبالنّسبة للولي دون منحط بعيد عن الولي، وَعَلَى هَذَا فتكون رتبة الولاية عِنْدَهُم أعلى شيء، وَهَذا لا شك أَنَّه كُفْرٌ، بل نقول إن مقامَ الرِّسالة فوق كل شيء ثمَّ النّبوة ثمَّ الولاية؛ لأَنَّ الرَّسول جامعٌ بَيْنَ الرّسالة والنّبوة والولاية والنّبي لَهُ النّبوة والولاية والولي لَهُ الولاية دون النّبوة والرّسالة، ومعلوم أَنَّه كلما ازدادت صفة الكمال فِي شخص كَانَ أكمل من غيره.

قوْله تَعالَى: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ القوم هم الطّائفة الَّذِين ينتسب إليهم الإنسان لأَنَّ

---

(١) نقله شيخ الإسلام ابن تيمية عن ابن عربي في منهاج السنة (٥/ ٣٣٦)، وفي كتاب لطائف الأسرار لابن عربي، ط. دار الفكر العربي (ص:٤٩):

سماء النبوة في برزخ دوين الولي وفوق الرسول

وفي الفتوحات المكية (٢/ ٢٥٢) يقول:

بين الولاية والرسالة برزخ فيه النبوة حكمها لا يجهل

بهم قوامه فَهُوَ يقوم بهم، وهم بِهِ يقومون.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ لأَنَّهُ مَا من رسول أُرسل سوى رسول الله ﷺ إِلَّا ورسالته خاصة كما ثبت فِي الحديث الصّحيح: حديث جَابِرٍ «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(١).

قوْله تَعالَى: ﴿فَجَآءُوهُم﴾ الفاعل للرسل والمفعول للقوم.

قوْله تَعالَى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالحُجَجِ الوَاضِحَاتِ عَلَى صِدْقِهِمْ فِي رِسَالَتِهِمْ إِلَيْهِمْ فَكَذَّبُوهُمْ].

قوْله تَعالَى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ معلوم أنَّ البينات تعني الواضحات لكن هل المُرَاد بالبينات هُنَا مَا يبين صدق رسالتهم فيكون المُرَاد بِهَا المعجزات الَّتِي أُيِّدوا بِهَا، أو المُرَاد بالبينات أي بالشّرائع البينات الظّاهرة الَّتِي كل من استَقْرَأَها عَرَفَ أنَّها من عند الله، أو المُرَاد الأمران؟ المُرَاد الأمران فالرُّسل أتوا بالآيَات البينات الَّتِي تؤيدهم وتدل عَلَى صدقهم وأتوا أيضًا ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالشّرائع البينة الظّاهرة الَّتِي يعلم أنَّها من عند الله عَزَّوَجَلَّ فالباء فِي قَوْلِهِ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ تكون للمصاحبة، يعني أُرسلوا رسالةً مصحوبة بالبينات، أو للاختصاص عَلَى القول بأن المُرَاد بالبينات الشّرائع، وَهَذا من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته أن الله مَا أرسل رسولًا إِلَّا أيده بآية من حكمته ورحمته؛ لأَنَّهُ لو جاء الرَّسولُ بدون آية إِلَى النَّاس وقال أنا رسول الله بدون آية هل يقبلونه؟ من طبيعة البشر أن لا يقبلوا حتى يعرفوا، كما أنَّه لو جاء واحد من النَّاس وقَالَ: أنا عالِم عندي علم بالشّرع استفتوني فِي أي شيء أفتكم، فلا يطيعونه حتى يمتحنوه

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، رقم (٥٢١).

ويسألوه، فكيف إِذَنْ بالَّذي يدعي أَنَّه يُوحَى إِلَيْهِ، لا يقبل إِلَّا إِذَا جاء بآية فَهَذَا من حكمة الله.

من رحمته أيضًا أَلَّا يعاقب أحدًا بذنب بدون حجة لأَنَّهُ لو أرسل الرّسل بدون آيات وكذبهم الأمم لكانوا معذورين بالتّكذيب لعدم وجود الآيَة، وقد لا يُعذرون لأنهم يجب عَلَيْهِم أن يستسلموا، لكن من رحمته أن جعل معهم آيات بينات ليطمئن النَّاس إليهم ويؤمنوا بهم عن اقتناعٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ ربما يُستفاد من كلمة ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ لا رسول بعده كما سنذكره إن شاء الله تَعالَى فِي الفوائد ونناقش هَذِهِ الفائدة.

قوْله تَعالَى: ﴿فَانتَقَمْنَا﴾ الانْتِقام هُوَ الأخذ بالعقوبة، وَهَذا من فعل الله وليس من أسمائه؛ وَلِهَذا الحديث الَّذي فِيهِ سياق الأسماء الحسنى وَهِيَ مدرجة مَا صحت عن الرَّسول ﷺ فِيهَا أن من أسمائه المنتقم وليس كَذَلِكَ، لَيْسَ من أسمائه بل هُوَ من أوصافه وأفعالِه وَلِهَذا مَا جاء مطلقا قَالَ: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السّجدة:٢٢]، ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ فَهُوَ فِعْلٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ الإجرام فعل الجرم، وكل مَا يَكُون سببًا فِي الإثم فَهُوَ جُرْمٌ، والمُراد بالإجرام هُنَا الكفر، وفُهِمَ من الآيَة الكريمة ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أن من لم يجرم لم يُنتقم منه؛ وَلِهَذا قَالَ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الله أكبر، ﴿نَصْرُ﴾ إعرابها اسم (كان)، وخبرها ﴿حَقًّا﴾، هَذَا أحسن مَا يَكُون فِي إعراب الآيَة، وأوجه مَا يَكُون وأسهل مَا يكون، وإلا ففيها أوجهٌ أُخْرَى.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ الحق بمعنى الشّيء الثّابت اللازم ﴿نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾: المؤْمنينَ بما يجب الإِيمَان بِهِ من الإِيمَان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم

الآخر والقدر خيره وشره، فأوجب الله عَزَّوَجَلَّ عَلَى نفسه أن ينصرَ المُؤْمِنِينَ، أوجب ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ التِـزامٌ من الله عَزَّوَجَلَّ ﴿نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نَصْرُهم أي منعُهم من أعدائهم، وَذَلِكَ بأن يجعل لَهُم من النّصر الحسي والمعنوي مَا تكون العاقبة لَهُم، وَهَذا كقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَذَا الحق الَّذي التَزم الله بِهِ قد يشكل علينا أن الله تَعالَى يخذل المؤْمِنينَ أحيانًا كما فِي أُحُدٍ مثلًا، فإن النّصر فِي أُحُدٍ كَانَ لقريش وأتباعها فما هُوَ الجواب عن هَذِهِ الآية؟

نَقُول: إن الجواب إن نصر قريش عَلَى الرَّسول ﷺ لَيْسَ نصرًا دَائِمًا كانت العاقبة فِيهِ لَهُم، بل إن هَذَا فِي الحقيقة من نصر المؤْمِنينَ عَلَيْهِم، وَإِذَا شئت أن يتبين لك ذَلِك فاقرأ مَا عَلَّلَ الله بِهِ هَذِهِ الغزوة فِي سورة آل عمران من جملة مَا ذكر من الحكم ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١].

إِذَنْ: فَهُوَ نصر لجلبهم لأنهم لو هُزِموا فِي كل مقام مَا قاموا ولا حاربوا، لكن إِذَا صَارَ لَهُم شيء من النّصر فإن ذَلِك يُغرِيهم بالقتال حتى تكون العاقبةُ للمؤمنين، ويبيدهم الله عَزَّوَجَلَّ ومنها أيضًا نصر المؤْمِنينَ عَلَى أنفسهم لأنهم مَا أتاهم مَا أتاهم فِي أحد إِلَّا بسببِ مخالَفتهم كما قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، فهنا يعرفون قدر المعصية وأنه يفوت بِهَا من المحبوب مَا لا يخطر عَلَى بالٍ.

فالحاصِلُ: أن هَذِهِ الآيَة عَلَى بابها أن الله تَعالَى ينصر المؤْمِنينَ حقًّا علَيْه أوجبه

هُوَ بنفسه عَلَى نفسه كما فِي قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: تسليةُ الرَّسولِ ﷺ وتحذيرُ المخالِفين لَهُ، تسليته بمن سبقه من الرّسل فقد كُذِّبوا وأُوذوا، فإذا علم أن أَحَدًا شاركه فِي ذَلِك هان علَيْه الأمر لأَنَّ كل إِنْسَان يتسلى بما أُصيب بِهِ غيره بمثله؛ وَلِهَذا قالَ الله تَعالَى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزّخرف:٣٩].

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: تحذيرُ المخالِفين لَهُ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: رحمةُ الله عبادَه بإرسال الرّسل إذ لولا هَذِهِ الرّسالة مَا عرف النَّاس كَيْفَ يَعْبُدُونَ الله عَزَّوَجَلَّ بل ولا عرفوا مَا عرفوا من تفاصيل أسمائه وصفاته كما سبق فِي درس التّوحيد، فالرّسل رحمة عظيمة للخلق كما قَالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ الانْتِقامَ من المكذبين كَانَ بسبب فعلهم لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ أي لإجرامهم.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أن الرِّسالاتِ السَّابقةَ خاصةٌ لقوْلِه تَعالَى: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ ويبيِّنه الحديث الثّابت فِي الصّحيحين: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[1].

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أن الله تَعالَى مَا أرسل الرّسل إِلَّا ببينات تشهد بصدقهم

(١) التخريج السابق.

وبشرائع بينة لا توجب لَبْسًا عَلَى المتبعين تؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالآيَات البينات الدّالة عَلَى صدقهم وبالشّرائع البينات الواضحة الَّتِي لا تقتضي لَبْسًا عَلَى المتبع، قَالَ أهل العِلْم: وآياتُ الأنبياء عَلَى حسب عصرهم ففي عهد موسى انتشر السّحر وكثر فأعطاه الله تَعالَى من الآيَات مَا تبطل السّحر وليست بسحر، أعطاه الله تَعالَى اليد، وأعطاه العصا.

قَالُوا وفي عهد عيسى تقدم الطِّبُّ فأعطاه الله من الآيَات مَا لا يمكن للطب أن يقوم بِهِ وَهُوَ إبراءُ الأَكْمَهِ والأَبْرَصِ وإحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم، هَذَا لا يمكن أن يقوم بِهِ الطِّبُّ أبدًا، فالميت لا يمكن أن يحيا بالطّب، وقَالُوا أيضًا إن الأبرص لا يمكن شفاؤه بالطّب، والأكمه قَالُوا أنَّه الَّذي خُلق بلا عين، هَذَا فيما سبق من العصور لا يمكن أن يوضع لَهُ عين لكن الآن إِذَا وجد مكان العين يمكن أن يوضع لَهُ عين فِي الطّب، لكن إِذَا لم يوجد مثلا خلقه الله عَزَّوَجَلَّ بدون أن يخلق لَهُ مكانًا للعين لا يمكن أن يوضع لَهُ عين.

في عهد الرَّسول ﷺ قَالُوا: إن البلاغة بلغت أعلى ذروتها فكان من أعظم آيات الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هَذَا القرآن الَّذي أعجز البُلَغَاءَ والفُصَحاءَ بل تحدى الله بِهِ كل الجن والإنس ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٨]، لا انفرادًا ولا تعاونًا، وَلِهَذا قَالَ: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الَّذِين يقُولونَ بالإعجاز العلمي فِي القرآن يقولون: الآن زالتِ البلاغة فالنَّاس لا يستطيعون أن يميزوا أوجه البلاغة والفصاحة ولكن الإعجاز العلمي فِيهِ إشارات علمية لكي يصدق أهل هَذَا العصر؟

فأقولُ: هَذَا لَيْسَ ببعيد، يمكن أنْ يكُونَ صحيحًا يعني أن القرآن فِي كل عصر يَكُون معجزةً بما تناسب العصر لأَنَّهُ نزل إِلَى جميع الخلق إِلَى يَوْم القِيَامَة فلا يبعد هذا، القرآن لكل معنى لكِنَّهُ فِي ذَلِك الوقت أشد مَا فِيهِ البلاغة.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: إثْبَات فعل الانْتِقام لله عَزَّوَجَلَّ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: إثْبَات العظمة لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ و﴿أَرْسَلْنَا﴾ فإن هَذَا للتعظيم وليس للتعدد بإجماع المسلمين إنما هُوَ للتعظيم.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أن عَلَى الله حقًّا أوجبه عَلَى نفسه لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾.

فإذا سُئلنا: هل يجب عَلَى الله شيء؟

قُلْنَا: أمَّا بعقولنا فلا يجب عَلَى الله شيء، وأما أن يوجب عَلَى نفسه شَيْئًا فَهَذَا أمر واقع.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أن الله أوجب عَلَى نفسه نصر المؤْمِنينَ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: أن هَذَا النَّصر لا بُدَّ أن يكون؛ لأَنَّهُ أتى بصيغة التَّعظيم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾، ولم يقل عليَّ بل قَالَ: ﴿عَلَيْنَا﴾ إشارة إِلَى أن هَذَا الحق لا بُدَّ أنْ يكُونَ لأَنَّ الله تَعالَى أعظم من كل شيء.

الفائِدَةُ الثّانِيَةَ عَشْرَةَ: فضيلة الإِيمَان وأنه سبب للنصر لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الفائِدَةُ الثَّالثةَ عَشْرَةَ: أن غير المؤْمِنيـنَ لا ينصرون؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإذا أورد إِنْسَان علينا مَا حصـل من الانتصارات الخاطفة للكفار فمـا هُوَ الجواب؟

الجوابُ: أن هَذَا استدراجٌ من الله عَزَّوَجَلَّ حتى يتم النّصر للمؤمنين فِي النّهاية، وقد يَكُون من مصلحة المؤْمِنينَ لأَنَّهُ نصر لأنفسهم عَلَى أنفسهم ثمَّ أَنَّه لا يدوم هَذَا النّصر أبدًا، فالعاقبة لا بُدَّ أن تكون للمؤمنين، وقال بعض أهل العِلْم إن النّصر نوعان:

- نصرٌ بالحُجَّةِ والبُرهان.
- ونصرٌ بالسَّيف والسِّنان.

فأما النّصر بالحجة والبرهان فَهُوَ مضمون وثابت وليس فِيهِ استثناء لأَنَّ الحجة والبرهان مَعَ المؤْمِنينَ عَلَى كل حَالٍ حتى لو هُزِموا عسكريًّا فإن الحجة والبرهان معهم، غالِبون بحجتهم وبرهانهم وَهَذا لا استثناء فيه.

الثّاني: النّصر العسكري يعني بالسّيف والسِّنان ونحن نقول الآن بالطّائرة والقنابل وما أشبهها، فقد يحصل نصر لغير المؤْمِنينَ امتحانًا للمؤمنين واستدراجًا للكافرين.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل هَذِهِ الآيَة تدُلّ عَلَى ختم الرّسالة بالرَّسول ﷺ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أو لا تدل؟

فالجوابُ: قد تدُلُّ من حيْثُ إن الرَّسول مرسل إِلَى النَّاس عامة، والعُمُوم هَذَا يشمل العُمُوم فِي الوقت والمكان والأمم وَهَذا يستلـزم أن لا يوجد رسول بعـد،

لو وجد رسول بعد انتفى العُمُومُ إِلَى النَّاس كافة، وصار معناه أن الرَّسول الَّذي بعده يَكُون رسولا إِلَى هَؤُلاءِ النَّاس دون محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كون الرَّسول أرسل إِلَى النَّاس كافة، لَيْسَ فِيهِ دليل عَلَى أَنَّه آخر الرّسل؟

قُلْنَا: لأَنَّهُ إِذَا لم يكن آخرهم فالَّذي يأتي من بعده يَكُون أرسل إِلَى بعض النَّاس وهم الَّذِين تأخروا.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: أخذها فِيهِ شيء من الغموض والأمر فِي هَذَا واضح.

والغريب أن بعض النَّاس -على سبيل الاستطراد- أنكر نزول عيسى بن مريم ﷺ وقَالَ: إننا لو قلنا بنزوله لكان ذَلِك تكذيبًا للقرآن ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وهل استدلالهُم بالآيَة صحيح أو لا؟

الجوابُ: غير صحيح؛ لأَنَّ عيسى لا ينزل مشرعًا وَإِنَّمَا ينزل تابعًا للرسول ﷺ ولا ينشئ شَيْئًا من الشَّريعة حتى كسر الصَّليب وقتل الخِنزير[1]، هَذَا أخبر بِهِ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فأقره يعني يُقَال أَنَّه يأتي ويحكم بِذَلِكَ ولا يقبل إِلَّا الإِسْلام لا توجد جزية بعد نزول عيسى، لا يوجد أخذ جزية ولا عهد، لا يوجد إِلَّا الإِسْلام فيُقَال إن هَذَا لَيْسَ شرعًا جديدًا ناسخًا لشرع الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بل هُوَ شرع مُقَرَّرٌ من الرَّسول ﷺ، الرَّسولُ أخبرَ بِأَنَّهُ سيفعل هَذَا مقررا لَهُ، فَهُوَ لم ينزل عَلَى أَنَّه رسول

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، رقم (٢٢٢٢)، ومسلم: كتاب الإِيمَان، باب نزول عيسى بن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٥).

بشرع جديد، بل عَلَى أَنَّه تابع للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولعل هَذَا والله أعلم ليتحقق مَا أخبر الله بِهِ بالفعل، ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١]، هَذَا خبر من الله عَزَّوَجَلَّ.

وهل نحن علِمْنا بأن نبيًّا من الأنبياء تَابَعَ الرَّسول فعلًا؟

الجوابُ: لا، لكن نزول عيسى ومتابعته ولرسالة الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تكون هَذِهِ حق اليقين لأَنَّ آية آل عمران فِيهَا علم اليَقِينِ، فإذا وجد ذَلِك بالفعل صَارَ حَقَّ اليقين، فَهَذَا من الحكمة فِي نزوله ﷺ فِي آخر الزّمان، وأيضًا عندنا أحاديث واضحة صحيحة صريحة متلقاة بالقبول عند أهل العِلْم فكيف ينكر ذَلِك؟ لكن -والعياذُ باللهِ- بعض النَّاس يأتي بقاعدة من أفسدِ القواعد وأبطلِ القواعد، وَهِيَ أن العقيدة لا تثبت بأخبار الآحاد ولو كَانَ الخبر صحيحًا، وَهَذا فِي الحقيقة مزلة ممن قاله لأننا نقول لَهُ أَنْتَ تثبت من الأحكام العملية: تثبت الحكم العملي بدليل لا يصل إِلَى درجة الصّحة تثبته بدليل يصل إِلَى درجة الحسن وربما يَكُون إِلَى درجة الحسن عندك أَنْتَ وعند غيرك لا يصل إِلَى درجة الحسن، وإِثْبَات الحكم العملي مستلزم للعقيدة؛ لأَنَّ تنفيذه مقتضى الإِيمَان ولأن الإنسان لا يعمل بِهَذا إِلَّا بعد أن يعتقد أَنَّه من شريعة الله وإلا لما عمل بِهِ فهناك عقيدة سابقة أن هَذَا من حكم الله ومن شريعة الله وأنه مقرب إِلَى الله وأنه عبادة لله ثمَّ العمل به، ثمَّ إِذَا أخذنا بِذَلِكَ لزم أن ننكر أَشْيَاء كثيرة مما يتعلق بالأمور العلمية لأَنَّ الشّرع كما هُوَ معلوم إمَّا أمور علمية أو أمور عملية، والصّواب بلا شك أَنَّه لا فرق بَيْنَهُما وأن مَا صح عن رسول الله ﷺ

فإِنَّهُ يجب الإِيمَان بِهِ عقيدةً وعملًا وَإِذَا شئت مزيد إيضاح فاقرأ مَا كتبه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي آخر الصّواعق المرسلة فإِنَّهُ تكلم عَلَى هَذِهِ المَسْأَلَة كلامًا شافيًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: عند نزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يلهمه الصّواب فِي مسائل الشّريعة أم ماذا؟

قُلْنَا: الظّاهر -والله أعلم- أن القرآن والسّنة محفوظان إِلَى ذَلِك الوقت، والعجيب أن بعضهم ذكر من شُبَهِ إنكار نزوله أن لغة عيسى سريانية ولغة الرَّسول ﷺ عربية، قَالَ: كَيْفَ ينزل ويحكم بالشّريعة وَهُوَ سرياني؟!

نَقُول: نعم الجواب بالتّسليم وبالمنع:

أولًا: الآن يوجد أناس يتكلمون بِغَيْر اللُّغَة العَرَبِيَّة وهم مسلمون ملتزمون بأحكام الإِسْلام قائمون بِهِ عَلَى أتم وجه ولغتهم غير عربية.

الثَّاني: أن الله جَلَّ وَعَلَا عَلَى كل شيء قدير يمكن أنْ يكُونَ لسانه عربيًّا إِذَا كَانَ بالممارسة والمخالطة ينقلب لسان الإنسان من سرياني إِلَى عربي فكيف بقدرة الله، لكن سبحان الله العظيم الإنسان إِذَا اشتهى شَيْئًا أتى بشبهٍ لا تنطلي عَلَى أحد.

• • ❁ • •

الآيتان (٤٨، ٤٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾ [الرّوم:٤٨-٤٩].

قوْله تَعالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُزْعِجُهُ]، لأَنَّهُ مأخوذ من (أثار الصَّيد) إِذَا أزعجه ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ ﴾، يعني يبعثها كَيْفَ شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُزْعِجُهُ] كإثارة الصّيد، فإن إثارة الصّيد من مكانه يعني إزعاجه حتى يقوم وقوْله تَعالَى: ﴿سَحَابًا﴾ السّحاب معروف هُوَ الغيم ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ قِلَّةٍ وَكَثْرَةٍ]، يبسطه البسط معناه النّشر ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ تعود إِلَى كيفية هَذَا النّشر قد يَكُون واسعًا وقد يَكُون قليلًا وقد يَكُون كثيفًا وقد يَكُون خفيفًا، وَلِهَذا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ بفتحِ السِّين وسُكُونها: قِطَعًا مُتَفَرِّقَةً]، بفتح السّين يعني ﴿كِسَفًا﴾ وسكونها يعني (كِسْفًا) وقد الله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطّور:٤٤]، كِسْفًا؛ الكسَف معناه القطع، وكأن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يريد أن يبين أن السّحاب قد يَكُون واسعًا منتشرًا مبسوطًا وقد يَكُون قليلًا قطعًا متفرقة، وقال بعض المفسرين معنى كونه كسفًا أَنَّه قِطَعٌ متراكبة بعضها فوق بعض حتى يَسْوَدَّ ويَدْلَهِمَّ ويحصل فِيهِ الرّعد والبرق وهَذا أولى، وَهَو فِي الغالب أكثر مطرًا.

قوْله تَعالَى: ﴿فَتَرَى﴾ الخطاب لكل من يتأتى خطابه لأَنَّ هَذِهِ الرّؤية ليست خاصةً بالرَّسول ﷺ، وقوْله تَعالَى: ﴿ٱلْوَدْقَ﴾ يعني المطر يعني حبات المطر تسمى وَدْقًا.

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي وَسطِه]، وقيل من بينه: من بَيْنَ هَذَا السَّحاب.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾؛ إِذَا قَالَ قَائِلٌ: نحن لا نـراها بأعينـنا المجـردة لا نرى أن المطر يتخلل هَذَا السّحاب وينزل فيُقَال أَنَّه خبر صدق فيكون كالمشاهدة مَا دام أن الله تَعالَى أخبر بِهِ فإننا كأنما نشاهده بأعيننا ثمَّ أَنَّه فِي الوقت الحاضر وجدت الآلات القوية الَّتِي يستطيع الإنسان بِهَا أن يرى كَيْفَ يخرج هَذَا المطر: هَذِهِ النّقط من خلال السّحاب.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالوَدْقِ ﴿مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾]، هَذِهِ جملة شرطية ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ ﴿إِذَا هُمْ﴾ تدُلّ عَلَى أن هَؤُلاءِ الَّذِين أُصيبوا بالمطر أنهم فِي غاية الاشتياق إِلَيْهِ وَلِهَذا بمجرد مَا يصيبهم يحصل الاسْتِبْشَار، وقولنا بمجرد لَيْسَ نتيـجة عن ترتب جواب الشّرط عَلَى فعل الشّرط ولَكِنَّـهُ نتيجة لِذَلِـكَ وزيادة أمر آخر وَهُوَ الإتيان بـ(إذا) الفجائية الَّتِي تدُلّ عَلَى المفاجئة والسُّرعة.

إِذَنْ: (إِذَا) تفيد الشّرط وفعل الشّرط (أصاب) وجواب الشّرط جملة ﴿هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ المصدرة بـ(إذا) الفُجائية.

قُلْنَا: إن هَذَا التّعبير يدل عَلَى أن هَؤُلاءِ فِي غاية مَا يَكُون من الاشتياق إِلَى نزول الغيث وجه ذَلِك استبشارهم بمجرد الإصَابَة وليس استبشارا عاديا كترتب

الجواب عَلَى فعل الشّرط ولَكِنَّهُ أبلغ لأَنَّهُ أتى بـ(إِذَا) الفُجائية الدّالة عَلَى المبادرة لوجود ذَلِك الشّيء.

وقوْله تَعالَى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَفْرَحُونَ بالمَطَرِ]، الاسْتِبْشَار أشد من مجرد الفرح بل هُوَ يستبشر بنفسه وربما يهنئ غيره ويبشره وَلِهَذا ففي أول مَا يأتي المطر فِي أيام موسم المطر تجد النَّاس إِذَا رأى بعضهم بعضا لا سِيَّما الَّذِين يأتون من البراري يقول أبشرك أَنَّه قد نزل مطر وأنه كثير أو حسب مَا يكون، فالاسْتِبْشَار هُنَا أبلغ من مجرد الفرح لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ربما يفسره بالتّقريب.

وقوْله تَعالَى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ لا: «ما يشاء النَّاس» فالَّذي ينزل الغيثَ هُوَ الله عَزَّوَجَلَّ وليس أحد يستطيع أن ينزله، وأما مَا ذُكِرَ من أنهم الآن يُسلِّطون مَوَادَّ كيماوية عَلَى السّحاب فينزل المطر فإن صح هَذَا الأمر فنقول: من الَّذي خلق هَذَا المطر؟ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ والَّذي أوجد هَذَا السّحاب هُوَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وكونهم يتوصلون إِلَى أسباب يتبخر بِهَا هَذَا السّحاب حتى ينزل مطرًا هَذَا لا ينافي أنْ يكُونَ الله عَزَّوَجَلَّ هُوَ الَّذي ينزل الغيث، ثمَّ إن قوله فِي الآيَة ﴿يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أبلغ من ينزل المطر إذ إن المطر قد ينزل ولا يَكُون غيثًا كما ثبت فِي صحيح مسلم: «لَيْسَ السَّنَةُ أَنْ لَا تُمْطَرُوا إِنَّمَا السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَلَا تُنْبِتُ الأَرْضُ»[1]، السّنة معناها الجَدْبُ والقَحْطُ يعني لَيْسَ السّنة أَنَّه لا يأتي المطر، السّنة الحقيقية أن يأتي ولا يحصل نبات.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ المُرَادُ بالعباد هُنَا جمع عبد وَهِيَ العبودية العامة لأَنَّ المطر ينزل عَلَى المؤْمِنينَ وَعَلَى الكَافِرِينَ، بل ربما يَكُون

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في سكنى المدينة وعمارتها قبل الساعة، رقم (٢٩٠٤).

نزوله عَلَى الكَافِرِينَ أكثر وأغدق وأشد استمرارًا، امتحانًا لَهُم لتُعَجَّلَ لَهُم طيباتهم فِي حياتهم الدّنيا كما قَالَ الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف:٢٠]، أي بهذه الطّيبات ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأحقاف:٢٠]، إِلَى آخره.

قوْله تَعالَى: ﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ قَالَ المُفَسِّر: [وقد كانوا]، قدر (إنْ) بـ(قد) وتَبعَ فِي ذَلِك البَغَوِيَّ لأَنَّ الجلالَيْنِ مأخوذ من البغوي يعني كأنه مختصر لَهُ لأنك إِذَا تأملت تفسيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجدت أَنَّه هُوَ تفسير البغوي بعينه لكن البغوي مبسوط وَهَذا مختصر؛ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِن﴾ قد]، ولا أحد من أهل النّحو قَالَ بِهَذا القول إِلَّا أن يقوله عَلَى سبيل التّفسير فقط، والصّواب الَّذي لا شك فِيهِ هُوَ أن (إنْ) مخففة من الثّقيلة كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وَعَلَى هَذَا فنقول (إنْ) أصلها (إنَّ) فخففت واسمها ضمير الشَّأْنِ محذوف والتّقدير وإنهم، وقد سبق أن القول الصّحيح من أقوال النّحويين أن ضمير الشّأن لا يقدر مفردًا مذكرًا وَإِنَّما يقدر بحسب السّياق إن كَانَ السّياق يقتضي التّأنيث فَهُوَ مؤنث وإن كَانَ السّياق يقتضي التّذكير فَهُوَ مذكر وإن كَانَ يقتضي الجمع فَهُوَ مجموع وإن كَانَ يقتضي التّثنية فَهُوَ مثنى.

إِذَنْ: أصله وإنهم كانوا لكن خففت (إنَّ) فحذف اسمها عَلَى أَنَّه ضمير الشّأن ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ أي: من قبل أن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم المطر، وعرفنا أنَّ المراد بِهِ المطر من قوْله تَعالَى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ فإن الوَدْقَ إِذَا خرج من خلال السَّحاب ينزل إِلَى الأرْض.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ يعبر الله عَزَّوَجَلَّ عن نزول المطر بالإنزال

والتّنزيل وَذَلِكَ لأَنَّ المطر أحيانًا يأتي دفعةً واحدة بكثـرة وغزارة فيكون إنزالًا، وأحيانًا يأتي بالتّدريج ضعيفًا متقطعًا فيُسَمَّى تنزيلًا لأَنَّ التّنزيل معناه إنزال الشّيء شَيْئًا فشيئًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بالنّسبة لتغاير الإنزال والتّنزيل هل نقول أَنْزَلَ باعتبار المطر ككل وباعتبار أفراده نقول نَزَّلَ؟

فالجوابُ: لا، بل هُوَ باعتبار الكثرة والتّفريق، يعني بعد أيام يأتي، ثمَّ يأتي أيضًا قليلًا أحيانًا، مثلا يَكُون المطر يومين أو ثلاثة ولَكِنَّهُ قليل وأحيانًا يأتي كما هُوَ مُشاهَد سُحبًا عظمية كأنها أفواه القرب.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ اختلف فِيهَا أهل العِلْم فقال بعضهم كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنَّها تأكيدٌ كقوْله تَعالَى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [آل عمران:١٨٨]، كرَّر الفعل توكيدًا، هَذَا قول وَهُوَ الَّذي مشى علَيْه المُفَسِّر وعليه أكثر المفسرين أن قوله ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل أن يُنزَّل عَلَيْهِم قَالَ: وإن كانوا من قبل أن ينزل عَلَيْهِم، من قبل أن ينزل عَلَيْهِم لَـمُبْلِسِينَ، فيكون تكرارها للتوكيد.

وقال بعض المفسـرين إنَّها كُررت للتأسيـس لا للتوكيد، ومعلوم أنَّه إِذَا دار الكلام بَيْنَ أنْ يكُونَ توكيدا وأن يَكُون تأسيسًا فالأصل التّأسيس لأَنَّ الأصل عدم التّوكيد لأَنَّ التّوكيد تكرار والأصل عدم التّكرار، ولينتبه للفرق فِي تعبير العلَمـاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، فالفرق بَيْنَ التّوكيد والتّأسيس أن التّوكيد معناه أن هَذَا هُوَ الأول، والتّأسيس معناه أن هَذَا غير الأول وأنه كلام مستقل.

وعَلَى القول بِأَنَّهُ تأسيسٌ فما معناه؟

قال بعضهم ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل الاسْتِبْشَار ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ﴾ من قبل الاسْتِبْشَار ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ فذكر الله لَهُم حالين: قبل الاسْتِبْشَار وبعده، وَهَذا مَا مشى علَيْه أبو السّعود وَهُوَ جيد وليس فِيهِ إشكال من حيْثُ التّصور والمَعْنَى، ويكون المَعْنَى وإن كانوا من قبل إنزال المطر من قبل ذَلِك الاسْتِبْشَار لمبلسين فنبههم الله عَلَى حالهم قبل الاسْتِبْشَار وَهُوَ الإبلاس وَعَلَى حالهم بعد ذلك.

وقال بعضهم ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل قبل أن ينزل عَلَيْهِم ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل ذَلِك القبل فيجعلون الضّمير فِي قوْله تَعالَى: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ لَيْسَ عائدًا إِلَى المطر ولا عائدًا إِلَى الاسْتِبْشَار وَإِنَّمَا يجعلونه عائدا إِلَى القبل فالمَعْنَى عَلَى هَذا: (وإن كانوا من قبل أن ينزل عَلَيْهِم من قبل ذَلِك القبل لمبلسين)، فيكون فائدتها أن الإِبْلاس مستمر معهم من قديم الزّمان فيأتي موسم لا يأتي فِيهِ مطر فيبلسون ثمَّ يأتي موسم آخر فيبلسون ثمَّ يأتي موسم آخر فيبلسون وهكذا، ومعلوم أنَّه إِذَا تكررت مواسم ولم ينزل مطر كَانَ أشد فِي الإِبْلاس ويكون المَعْنَى أن هَذَا الاسْتِبْشَار أتى بعد يأس مرتين فأكثر وَهَذا أيضًا ذكره ابن كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي تفسيره.

فصار لدينا فِي قوله: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنَّه توكيدٌ.

القول الثّاني: أن الضّمير يعود عَلَى الاسْتِبْشَار.

القول الثّالثُ: أن الضّمير يعود عَلَى القَبْل.

أمَّا قوْله تَعالَى: ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ فهي بالنّصب خبر لـ(كان) فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَإِن كَانُواْ﴾ واقترنت (اللام) بِهَا من أجل (إنْ).

والاقتران هُنَا هل هُوَ واجب أو جائز؟

والجوابُ: إننا لو أسقطناها فسوف تشتبه (إنْ) المخففة بـ(إنْ) النّافية، فيفهمها البعض: لو كانت (وما كانوا من قبل أن ينزل عَلَيْهِم مبلسين)، يعني يستبشرون أنهم مَا أبلسوا ولا يئسوا، يعني: يستبشرون وإن كَانَ لَيْسَ عِنْدَهُم يأس من قبل، لذا فالظّاهر وجوب هذا الاقتران، لأنَّهَا قد تشتبه بـ(إن) النّافية، أمَّا إِذَا لم تشتبه فلا يجب الاقتران هل هناك شاهد فِي كلام العرب لذلك؟ نعم قول الشّاعر[1]:

..... وإن مالِك كانت كِرَامَ المَعَادِن

يفتخر بِأَنَّهُ من بني مالِك ثمَّ يقول: (وإن مالِك كانت كرام المعادن) هُنَا لا يمكن أن تشتبه (إنْ) بـ(ما) لأَنَّهُ لا يمكن أن يفتخر بقوم يسلب عنهم كرم المعدن لو تقول مثلا أنا من قبيلة هَذِهِ القبيلة مَا كانت كرام المعادن لا يستقيم.

فالحاصِلُ: أن اللام هُنَا للتوكيد ويسميها بعض العلَماء (اللام الفارقة)، وَهَذا أدق فِي التّعبير وَهِيَ مَعَ كونها فارقة تفيد التّوكيد وَإِنَّمَا سموها اللام الفارقة لأنَّهَا تفرق بَيْنَ (إنْ) النّافية وبين (إنْ) المخففة.

إِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل يمكن أن تقترن باللام مَعَ كون (إنْ) بمعنى النّفي؟

فالجوابُ: لا، وَهَذا هُوَ السّر فِي أنَّها فارقة لا يمكن أن تقترن بِهَا اللام لأَنَّ اللام تفيد توكيد الإثْبَات، والنّفي بخلاف ذَلِك، فالنّفي يفيد النَّفي.

---

(١) البيت للطرماح، في ديوانه (ص:١٧٣)، وشطره الأول:

أنا ابن أُباة الضَّيم من آل مالك .....

قوْله تَعالَى: ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [آيِسينَ مِنْ إِنْزَالِهِ]، والإِبْلاس مثل القُنُوطِ أَشَدُّ اليَأْسِ ومنه سمي إبليس نعوذ بالله مِنْهُ لأَنَّهُ مُبْلِسٌ آيس من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائِدَةُ الأُولَى: كمال قدرة الله من خمسة أوجه:

أولًا: إرسال الرّياح.

ثانيًا: إثارتها السّحاب.

ثالثًا: بسطه فِي السّماء.

رابعًا: جعله كِسَفًا.

خامسًا: نزول المطر منه.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أن السّماء يُطلَق عَلَى كل مَا علا لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، فإِنَّهُ لا يُبسط فِي السّماء الَّتِي هِيَ السّقف المحفوظ وَإِنَّما يُبسط فِي الجو العالي.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: حكمةُ الله عَزَّوَجَلَّ فِي نزول المطر من أعلى لأَنَّهُ إِذَا نزل من أعلى عم النّازل والمرتفع بخلاف مَا لو كَانَ يجري فِي الأَرْض، لو كَانَ يجري فِي الأَرْض فإِنَّهُ يغرق النّازل قبل أن يصل إِلَى العالي.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: بَيان شدة افتقار الخلق إِلَى رحمة الله لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: إثْبَات المشيئة لقوْلِه تَعالَى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: إثْبَات العبودية العامة لقوْلِه تَعالَى: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: جواز الاسْتِبْشَار بالمطر وأن يبشر النَّاس بعضهم بعضًا به.

ولننظـر هل تصح هَذِهِ الفائدة أم لا؟ يعني: هل يمكن أن يؤخذ منْهَا جواز الاسْتِبْشَار بالمطر أو يُقَال إن هَذَا خبر عن واقع فلا يتأتى مِنْهُ حكم؟

فيه احتمال أن يؤخـذ منْهَا الاسْتِـبْشَار بالمطر وفيه احتمال أنْ يكُونَ هَذَا بيانًا للواقع فلا يؤخـذ مِنْهُ حكم، وغايـة مَا فِيهِ أن يُقَال إنَّه مباح لأَنَّ الله تَعالَى ذكـره ولم ينكره.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: بَيان رحمة الله عَزَّوَجَلَّ لكون المطر ينزل نقطًا لا أنَّه ينزل دفعة واحـدة؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ لأَنَّهُ لو نـزل كأفواه القـرب أو كالأودية الَّتِي تمشي لكان مدمرًا للمنازل مدمرًا للأشجار مؤثرًا عَلَى مَنْ ينـزل علَيْه من حيوان ولكن الله عَزَّوَجَلَّ جعله بِهَذا الرَّذاذ.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: بَيان حال العبد قبل نـزول المطر وأن العبد ضعيـف لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ فإِنَّهُ ضعيف إِذَا أصيب بشيء أَيِسَ واستبعد الفرج، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يزيل عنه هَذَا الأمر، تؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾.

الآيــة (٥٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الرّوم:٥٠].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [«فَانْظُرْ إِلَى أَثَرِ» وفي قراءة ﴿ءَاثَٰرِ﴾].

قوْله تَعالَى: ﴿ فَٱنظُرۡ ﴾ الخطاب لِلإِنْسَانِ لَيْسَ للرسول أي الخطاب لمن يتأتى خطابه، الرَّسول ﷺ وغيره لأَنَّهُ قَالَ فِي الآيَة الَّتِي قبلها ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ ثمَّ قَالَ هُنَا ﴿ فَٱنظُرۡ ﴾ أي انظر أيها الإنسان (إلى أثرِ رحمةِ الله) وفي قراءة يقول المُفَسِّر: ﴿ءَاثَٰرِ﴾، والرّسم العثماني من فوائد التِزامه أنَّه لا يتغير بتغير القراءات ﴿ءَاثَٰرِ﴾ عَلَى مقتضى قواعد الرّسم العصرية تكتب بألف بَيْنَ الثّاء والرّاء، لكنها عَلَى قواعد المصحف العثماني لا يكتب فِيهَا ألف (أثر) ثاء وراء فتصلح (آثار) وتصلح (أثر).

وقوْله تَعالَى: ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ﴾ و(إلى أثر) لا فرق بَيْنَهُما فِي الجملة من حيْثُ المَعْنَى لأَنَّ (آثار) مضاف فيفيد العُمُوم و(أثر) مضاف فيفيد العُمُوم أيضًا؛ لأَنَّ المفرد إِذَا أضيف أفاد العُمُوم فأثر وآثار من حيْثُ الجملة لا فرق بَيْنَهُما لأَنَّ قوله: (أثر رحمة الله) بمعنى آثار لكن الفرق بَيْنَهُما من حيْثُ المَعْنَى الخاص أن أثر يشمل الجنس باعتباره شَيْئًا واحدًا، وأما آثار فتشمل الجنس باعتباره أنواعًا.

كيف باعتباره أنواعًا؟

مثلًا أثر المطر يخرج بِهِ الزّرع ويخرج بِهِ الشّجر ويخرج بِهِ شيء صغير وشيء كبير وشيء لَهُ أشجار مُفَطَّحَةٌ[1]، وشيء لَهُ أشجار دَقِيقَةٌ كالعيدان، فلِهَذا تعتبر هَذِهِ آثارًا باعتبار أنواعها، ثمَّ أيضًا الآثَار تختلف من أرض إِلَى أرض، هَذِهِ الأرْض تُنْبِتُ كذا وهذه الأرْض تنبت كذا هَذِهِ ينبت فِيهَا الكلأ وهذه لا ينبت وهكذا فهي آثار باعتبار الأنواع، أمَّا باعتبار الجنس وأن كله حصل بسبب المطر فَهُوَ شيء واحد وَهَذا هُوَ الفرق الخاص بَيْنَ أثر وآثار.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي نعمته بالمطر].

وقد سبق أن الرّحمة فِي مثل هَذَا يصح أن تكون اسمًا للمخلوق ويصح أن تكون من صفات الله، فإن كَانَ المُرَاد الأثر المباشر فالمُرَاد بالرّحمة المطر لأَنَّ هَذَا النّبات نبت بالمطر، وإن كَانَ المُرَاد السّبب غير المباشر فالمُرَاد بالرّحمة صفة الله يعني لكون الله جَلَّ وَعَلَا رحيمًا، فهذه من آثار الرّحمة أنَّه ينزل المطر وتنبت بِهِ الأرْض ويزول بِهِ القحط، فالآية صالحة لهذا وَلِهَذا.

قوْله تَعالَى: ﴿كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ هَذَا مما يرجِّح أن المُرَاد بالرّحمة: رحمة الله: الصّفة ﴿كَيۡفَ يُحۡيِ﴾ هُوَ أي بالرّحمة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ يجعلها حيَّة ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيْ يُبْسِهَا]، وحياة كل شيء بحسبه فالأرْض اليابسة الَّتِي لَيْسَ فِيهَا خضار تسمى ميتة لَيْسَ فِيهَا شيء حي، فإذا نزل علَيْه المطر وحيي النّبات سميت حية ﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ وَهَذا دليل عَلَى قدرة الرّب عَزَّوَجَلَّ وَعَلَى رحمته؛ لأَنَّ من يقدر عَلَى أن يفلقَ النَّوَى فِي باطن الأرْض حتى يخرج مِنْهُ

(١) مُفَطَّحٌ: عَريض، لسان العرب (٢/ ٥٤٥).

هَذَا النّبات النّامي هل أحد يقدر عَلَى هذا؟ لا أحد يقدر؛ وَلِهَذا قد جاء فِي الحديث الصّحيح القدسي: «فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»(١)، ولا يستطيع أحد منهم ولا من غيرهم أن يخلق هَذا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام:٩٥].

قوْله تَعالَى: ﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يعني انظر إِلَى الكيفية والقُدْرَة كَيْفَ هَذِهِ الأرْض الَّتِي كانت غبراء كأنها محترقة أصبحت الآن روضة خضراء.

قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي يبسها بأن تنبت ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾].

قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ هَذَا الكون العظيم لا يمكن أنْ يكُونَ عبثًا، يُخْلَقُ بشر عاقل، يعرف، ويعقل ويتصرف ويقتل بعضه بعضًا وينهب بعضه بعضًا ويسالِم بعضه بعضًا والنّتيجة أن يكونوا ترابًا، هَذَا لا يمكن أبدًا، يعني لو تصوره الإنسان أدنى تصور لوجد أن العقل يدل دلالة قطعية عَلَى أنّه لا بُدَّ من بعث ومجازاة وإلا لكانت الدّنيا كلها عَبَثًا، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

أَلَسْنا نشاهد مَنْ يخالِفُنا فِي العمل، ومن يخالِفنا فِي الأخلاق، ومن يخالِفنا فِي العقيدة ونتألَّم من ذَلِك، لولا أن الله يسلي الرَّسول ﷺ ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]، وما أشبه ذَلِك مما يسليه بِهِ لتقطع قلبه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نحن الآن نتألَّم لمن يخالِفنا فِي العقيدة ومن يخالِفنا فِي الأخلاق ومن يخالِفنا فِي الأعمال، هَذَا الألم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، رقم (٧٥٥٩)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة، رقم (٢١١١).

يؤثر علينا ولكن يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النّساء:١٠٤]، لكن هناك فارق ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النّساء:١٠٤].

فالحاصِلُ: أن هَذَا الكونَ العظيم لا يمكن أنْ يكُونَ عَبَثًا هكذا يحيا ثمَّ يَكُون ترابًا، والله عَزَّوَجَلَّ يحيي الموتى لَيْسَ بني آدم فقط ولكن بنو آدم وغيرهم ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٥]، وأخبر النَّبيّ ﷺ أن البهائم يُقْتَصُّ من القَرْنَاءِ لِلْجَلْحَاءِ[1]، حتى البهائم يقضى بينها وَلِهَذا نقول قوْله تَعالَى: ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لا يختص بالإنسان فقط بل بالإنسان وغير الإنسان.

ثم أكد إحياء الموتى بمؤكَّدٍ آخر فِي الجملة الَّتِي بعدها وَهُوَ قوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

إِذَنْ: فقد أُكِّد أحياء الموتى بمؤكديْن لفظييْن ومؤكديْن معنوييْن.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ كل شيء الله قادر علَيْه بدون استثناء كل مَا تتعلق بِهِ القُدْرَة ويمكن أنْ يكُونَ قادرًا علَيْه، فإن الله تَعالَى قادر، عَلَى كل شيء قدير، لَيْسَ عَلَى مَا يشاء فقط بل عَلَى مَا يشاء وما لا يشاء، فهداية الكافر الَّذي مات عَلَى كفره الله قادر عَلَيْهَا، مَا شاءها وَهُوَ قادر عَلَيْهَا، فلا تختص قدرته بما شاءه، وَبِهذَا نعرف أن تعبير بعض النَّاس: (أنَّه عَلَى مَا يشاء قدير) أنَّه لا ينبغي، بل قل كما قَالَ الله عن نفسه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]، وأما حديث الرّجل الَّذي يبعثه الله يَوْم القِيَامَة، ذكر القصة وفيها أن الله قَالَ لَهُ: «إنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[2]،

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٢).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجا، رقم (١٨٧).

فهذه لَيْسَ المُرَاد بِهَا وصف الله بالقُدْرَة مطلقًا بل وصف الله بالقُدْرَة عَلَى هَذَا الشّيء المعين الَّذي استبعده المخاطَب، فالله يقول قد شئته فأنا قادر علَيْه وَكَذلِكَ قوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ فالقيد بالمشيئة هُنَا لَيْسَ عائدًا عَلَى القُدْرَة لكِنَّهُ عائد عَلَى الجمع، الشّيء المعين يمكن أن تقيده بالقُدْرَة، أمَّا إِذَا أردتَ وصف الله بالقُدْرَة فلا تقيدها بالمشيئة، ففرق بَيْنَ أن تُعَلِّق القُدْرَة بشيء معين خاص وبين أن تُذْكَرَ عَلَى سبيل الوصف العام لله، إِذَا كانت وصفًا عامًّا لله، فالله تَعالَى مَا ذكر قَيْدَ المشيئة أبدًا ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان:٥٤]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب:٢٧]، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤]، وما أشبه ذلك.

والقُدْرَة ضد العجز انظر إِلَى قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، وأتى بالعِلْم هُنَا لأَنَّ العاجز قد يعجز لعدم علمه بالشّيء، مهندس لكن فِيهِ روماتيزم لا يقدر أن يتحرك، قلنا لَهُ اصنع هَذِهِ السّيارة لا يقدر لأَنَّهُ لَيْسَ عنده القُدْرَة؛ لأَنَّهُ عاجز لا يقدر أن يتحرك، وآخرُ نشيط يحمل الحجر الَّذي أكبر مِنْهُ لكِنَّهُ لا يعرف الصّناعة أبدًا قلنا لَهُ اصنع سيارة قَالَ لا أقدر؛ لعدم العلم، فانتفاء القُدْرَة قد يَكُون لعدم العِلْم وقد يَكُون لعدم القُدْرَة الحسية لَيْسَ عنده علم لَيْسَ عنده شيء يعني عاجزًا.

ذكر صاحب هَذَا التّفسير هَذَا فِي قوْله تَعالَى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٢٠]، آخر سورة المائدة، ذكر عبارة منكرة -والله أعلم- مَا أراد بِهَا سوءًا فقَالَ: [وخص العقلُ ذاتَه فليس عَلَيْهَا بقادرٍ]، يعني أن العقل يقتضي تخصيص ذات الله فالله لا يقدر عَلَيْهَا هَذَا لَيْسَ بصحيح بل الله عَلَى كل شيء قدير وَلِهَذا الله تَعالَى استوى عَلَى العرش بفعله وقدرته، ينزل إِلَى السّماء الدّنيا، يأتي

للفصل بَيْنَ عباده، يتكلم بما أراد، كل هَذَا مما يتعلق بذاته وَهُوَ قادر علَيْه.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الله يقـدر عَلَى إماتة فلان هل يقـدر عَلَى أن يميت نفسه، هَذَا لا يمكن لا لانتفاء القُدْرَة لكن لأَنَّ هَذَا أمر لا يليق بِهِ وَهُوَ أشد من العجز.

فنَقُول: امتناع هَذَا لأَنَّهُ مستحـيل عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ وَلِهَذا السّفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي العقيدة لما ذكر صفة القُدْرَة قال[1]:

بِقُـــدْرَةٍ تَعَلَّقَـــتْ بِمُمْكِـــن .....

أما المستحيل فَهُوَ مستحيل، لا يمكن، المستحيل أصله مستحيل لا تتعلق بِهِ القُدْرَة.

يُقَال إن الشَّيطان يفرح إِذَا مات العالِم، يفرح فرحًا عظيمًـا وَإِذَا مات العابد لا يهمه، قَالَ جنوده لَهُ كَيْفَ تفرح لموت العالم هَذَا الفرح ولا تفرح لموت العابد الَّذي طول نهاره فِي المحـراب؟ قَالَ نعم لأَنَّ العالم أشد علينا من العابد وَإِذَا شئتم أن أضرب لكم مثلًا الآن، فذهب إِلَى العابد وقال لَهُ هل يقدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعل السّموَات وَالأَرْض فِي جوف بيضة؟ قَالَ العابد لا يقدر، قَالَ هل يقدر الله أن يخلق مثله؟ قَالَ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، يمكن أن يقدر أن يخلق مثله هَذَا غير صحيح وغير ممكن فذهب إِلَى العالم فقال لَهُ مثل هَذَا القول، قَالَ أمَّا خلق مثله فَهَذَا شيء مستحيل ولا يمكن للمخلوق أنْ يكُونَ مثل الخالِق أبدًا مهما كان، وأما كونه يجعل السّموَات وَالأَرْض فِي جوف بيضة فَهُوَ عَلَى كل شيء قدير، قَالَ الشّيطان: انظروا المِسْكِين العابد كَفَرَ من وجهين أثبت مَا لا يمكن

(١) العقيدة السفارينية (ص:٥٢)، ط. مكتبة أضواء السلف.

ونفى مَا يمكن، وَهَذا حقيقة يعني: أن العباد مثل مَا قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: «مَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ اليَهُودِ، واليَهُودُ أَخْبَثُ مِنَ النَّصَارَى»[1]، لا شك لأَنَّ العالمَ فساده -والعياذُ باللهِ- عن عِلم، والعابدَ فسادُه عن جهلٍ، وما كَانَ عن جهل فَهُوَ أَهْوَنُ مما كَانَ عن علم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بالنّسبة لقول من قَالَ إنَّه عَلَى مَا يشاء قدير، يمكن نستخلص قاعدة وَهِيَ أن الصّفات الذّاتية لا تناقض المشيئة والصّفات الفعلية تناقض المشيئة؟

قُلْنَا: صحيح، هَذِهِ القاعدة، فالقاعدة عِنْدَهُم أن الصّفات الذّاتية هِيَ اللازمة للذات والفعلية مَا تتعلق بالمشيئة هَذِهِ قاعدتهم.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ تعبير القرآن مرة بالإنزال، ومرة بالتَّنزيل؟

قُلْنَا: إِذَا وَرَدَ أَنَّه منزل مثل ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، يَكُون المُرَاد كإنزالنا يعني أنزلنا جملةً مِنْهُ لَيْسَ كله، فأما التَّنزيل فإِنَّهُ يَكُون نازلًا شَيْئًا فشيئًا كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]، مَعَ أَنَّه قد يأتي التّنزيل لشيء وقع جملةً واحدة مثل قوْله تَعالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾ [النّساء:١٤٠]، فعلى هَذَا تكون القاعدة الَّتِي ذكرها أهل العِلْم فِي هَذِهِ المَسْأَلَة قاعدة أغلبية ليست لازمة.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأُولَى: الأمرُ بالنَّظر ويكون بالعين الباصرة وبعين البصيرة أيضًا فالأمر هُنَا بالنّظر للوجهين جَمِيعًا الإنسان ينظر بعينه الباصرة وبعين البصيرة.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٧٩).

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أن النّظر كما يَكُون نافعًا لِلإِنْسَانِ فَهُوَ مأمور بِهِ شرعًا أي بمعنى ثواب الإنسان أو إثابة الإنسان عَلَى النَّظر فِي آيات الله لأَنَّهُ مأمور به.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أن الآثَار الَّتِي تنتج عن المطر كلها من رحمة الله إحياء الأرْض بالنّبات وكثرة المياه فِيهَا كله من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: إثْبَات قدرة الله تَعالَى عَلَى إحياء الموتى لقوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: الاسْتِدلالُ بالمحسوس المنظور عَلَى المحسوسِ المنتظر، المحسوسُ المنظور مَا يحصل من حياة الأرْض، والمحسوس المنتظر مَا يحصل من إحياء الموتى.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أنَّه لا بُدَّ أنْ يكُونَ الدّليل أجلى وأظهر من المدلول علَيْه بمعنى أنَّه لا يمكن أن نستدل بالأخفى عَلَى الأظهر والأوضح؛ لأَنَّ الدَّليلَ مُعَرِّفٌ للمدلولِ ومُبَيِّنٌ لَهُ فكيف يمكن أن تستدلَّ بشيء خفي عَلَى شيء واضح؟

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: رحمة الله تَعالَى بعباده حيْثُ يضرب لَهُم الأمثالَ ويبيِّن لَهُم الأدلةَ ليتوصلوا إِلَى اليقين فيما يجب الإِيمَان بِهِ؛ لأَنَّهُ يكفي أن يقول الله عَزَّوَجَلَّ آمنوا بأني أحيي الموتى، يكفي فِي إقامة الحجة عَلَيْهِم، لكن من رحمته أنَّه يُبَيِّنُ لنا ويضربُ لنَا الأمثالَ لنصل إِلَى درجة اليقين فيما أخبرنا بِهِ، نأخذه مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: نعمةُ الله عَلَى العباد بإحياءِ الأرْض لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أنَّ الجمادَ يوصف بالحياةِ والموتِ، ففيه رَدٌّ عَلَى الفلاسفة الَّذِين يقُولونَ إن الجماد لا يمكن أن يوصف بالحياة والموت؛ لأَنَّهُ غير قابل لها؛ فنقول إن الله تَعالَى وصف الجماد بِأَنَّهُ حي وميت كما فِي هَذِهِ الآيَة وكما فِي قوْله تَعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ [النّحل:٢٠-٢١]، مَعَ أنَّها أصنامٌ من الأحجار والأشجار وما أشبهها.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: ثبوتُ صفة القُدْرَة وعُمُومِها لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يُعْجِزُهُ شيء فِي السّماوات ولا فِي الأرْض.

• • ❁ • •

الآيــة (٥١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ [الرّوم:٥١].

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَئِنْ﴾ اللام هُنَا لام قسم دخلت عَلَى (إن) الشّرطية، وقوْله تَعالَى: ﴿لَّظَلُّوا﴾ هَذَا هُوَ الجواب، لَكِنَّهُ جواب لأيهما: للشرط أو للقسم؟ هُوَ جوابٌ للقسم؛ لأَنَّهُ لو كَانَ جوابًا للشرط مَا احتاج إِلَى اللام، الفعل الماضي يُجاب بِهِ الشَّرط بدون واسطة، وأيضًا فإن القاعدةَ عند أهل العِلْم بالعربية أَنَّه إِذَا اجتمع شرط وقسم يحذف جواب المتأخر منْهُما، قَالَ ابن مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَم ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهُوَ مُلْتَزَم

فالقَسَمُ دَلَّ علَيْه اللام الموطئة للقسم، ويوجد شرط (إنْ) والجوابُ الآن للقَسَم ﴿لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ وجوابُ الشَّرط محذوف دل علَيْه جواب القسم ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ انظر الفرق فِي الأول يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وهنا قَالَ: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ مفرد، وقد ذكرنا سابقًا أن الجمع يَكُون رحمةً، والإفرادَ يَكُون عذابًا هَذَا الغالب.

قوْله تَعالَى: ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾: (رأوه) الضّمير لا يعود عَلَى الرّيح لكِنَّهُ يعود

(١) ألفية ابن مالك (ص:٥٩).

عَلَى مَا حَيِيَ بالماء الَّذي نزل من السَّماء، لأَنَّهُ تقدم قوْله تَعالَى: ﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾، يعنى: ولئن أرسلنا رِيحًا فرأوا هَذَا الَّذي حَيِيَ مُصْفَرًّا يعني يابسًا حطيمًا بهذه الرّياح ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾.

نقرأ كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَئِنْ﴾ يقول لام قسم ﴿أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ مُضِرَّةً عَلَى نَبَاتٍ ﴿فَرَأَوْهُ﴾]، الضّمير يعود عَلَى النّبات ثمَّ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ﴾ صاروا جواب القسم ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد أي بعد اصفراره ﴿يَكْفُرُونَ﴾ يَجْحَدُونَ النِّعْمَةَ بِالمَطَرِ]، يعني أن الله عَزَّوَجَلَّ إِذَا أحيا الأرْض بعد موتها وأرسل عَلَيْهَا ريحًا فاصفر النّبات وبعد اصفراره سيتلف امتحانًا مِنْهُ جَلَّوَعَلَا لكانوا من بعد هَذَا الاسْتِبْشَار وبعد أن رأوا آثار الرّحمة صاروا يَكْفُرُونَ ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ يقُولونَ: كَيْفَ هَذَا يأتي المطر وينزل وتحيا الأرْض ثمَّ تأتي هَذِهِ الرّيح فتهلكه فيَكْفُرُونَ -والعياذُ باللهِ- وينسون نعمة الله السّابقة، وَهَذا من الامتحان وَهُوَ داخل فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾ [الحج:١١]، وكان عَلَيْهِم إِذَا أرسل الله هَذِهِ الرّيح واصفر النّبات بِهَا كَانَ عَلَيْهِم أن يقابلوا ذَلِك بالصَّبر لا بالكفر، بالصّبر عَلَى هَذِهِ البلية فإن الصّابر يوفى أجره بِغَيْر حسابٍ، وربما تزولُ هَذِهِ المحنة إِلَى نعمة أُخْرَى لأَنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يقول: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النّحل:١٢٦]، ويقول: ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ [محمد:٣٦]، ويقول: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦]، فالمُؤْمِنُ يصبر عند البلاء ويشكرُ عند الرَّخاء.

الآيــة (٥٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الرّوم:٥٢].

قوْله تَعالَى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ويجوز أنْ يكُونَ الخطابُ عامًّا لكل من يَتَأَتَّى خِطَابه ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، يعني لا تُسْمِعُهم سماعًا ينتفعون بِهِ أو لا تسمعهم حين الدّعوة، والأقرب الأول لأَنَّهُ لَيْسَ من المعقول أن أحدًا يقف عَلَى الأموات ويقول يا أيها النَّاس اعبدوا الله واتقوه، هَذَا لَيْسَ بمعقول لكن لو فرض أنَّه دعا فهل يسمعون سماعًا ينتفعون به؟

الجوابُ: لا يسمعون سماعًا ينتفعون به.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذَا تقييدٌ للآية، الآية مطلقةٌ ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فكيف ساغَ لكم أن تقيدوها بقولكم: (سماعًا) ينتفعون به؟

قُلْنَا: إن نفي السَّماع يطلق عَلَى نفي السَّماع النَّافع كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١]، هم يسمعون بآذانهم لكن لا يسمعون سماعًا ينتفعون به، ولا نحمله عَلَى الإطلاق لأَنَّ سماع الموتى قد وردت بِهِ الآثَار، فإن رسول الله ﷺ ثبت عنه أنَّه وقف عَلَى أصحاب قَلِيبِ بَدْرٍ من المُشْرِكِينَ وجعل يدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فُلان بن فُلان، يا فلان بن فلان،

هل وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا» فقال عمر: يا رسول الله مَا تخاطب من قوم قد جَيَّفُوا يعني كَيْفَ تخاطب الجِيَفَ، موتى، فقَالَ: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ»[1]، يعني هم يسمعون أشد من سماعكم، فإذًا ثبت أن الموتى يسمعون، وَكَذلِكَ صحح ابن عبد البَرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديثًا ورد عن الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَى مَيِّتٍ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا رَدَّ الله عَلَيْهِ رُوحَهُ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ»[2]، وَهَذا ذَكَرَهُ ابْنُ القَيِّمِ فِي كتاب الرُّوح[3]، وذكر تصحيح ابن عبد البَرِّ لَهُ ولم يتعقبْه، وَعَلَى هَذَا فهم يسمعون لكنهم لا ينتفعون بِهَذا السّماع، ووردت آثار أيضًا عن الصّحابة فِي هَذَا الأمر ذكرها ابن كَثِيرٍ عند هَذَا الآيَة، وثبت أيضًا فِي الصّحيح: «أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا انْصَرَفَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ بَعْدَ الدَّفْنِ حَتَّى إِنَّه لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ يَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ»[4]، عَلَى الأرْض كما يمشي الإنسان عَلَى السّقف فيسمع مشيه عَلَى السّقف وَهَذا أيضًا يقول يسمع قرع النّعال، ولكن الله تَعالَى يجعلهم يسمعون ذَلِك.

فالحاصِلُ: أننا نقول كل هَذَا يؤيد أن المَعْنَى ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني سماعًا ينتفعون بِهِ ومعلوم أن الرَّسول ﷺ مَا دعا الموتى، مَا ذهب إِلَى القبور يدعوهم،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، رقم (٣٩٧٦)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، رقم (٢٨٧٥).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠/ ٣٨٠، رقم ٢٥٩٢).

(٣) كتاب الروح لابن القيم (ص:٥)، ط. دار الكتب العلمية.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم (١٣٧٤)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، رقم (٢٨٧٠).

ولكن الَّذِين يدعوهم من الأحياء كالموتى لا يستجيبون ولا ينتفعون بالدّعوة.

قوْله تَعالَى: ﴿ٱلصُّمَّ﴾ مفعولٌ أول، و﴿ٱلدُّعَآءَ﴾ مفعولٌ ثانٍ أمَّا ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، الأولى فقد حذف المفعول الثّاني لأَنَّ هَذَا فَضْلَةٌ وقد سبق أنَّه يجوز حذف الفَضْلَةِ ولو بلا دليل.

قوْله تَعالَى: ﴿ٱلصُّمَّ﴾ جمع أصم وَهُوَ الَّذي لا يسمع، الَّذي لا يسمع لا تستطيع أن تسمعه لا سِيَّما إِذَا اقترن بِهِ الإدبار ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ وَهَذا أشد مَا يَكُون انتفاء السّماع عن الأصم، فَهُوَ لا يسمع ولو كَانَ مقابلًا لك، فيكف إِذَا أدبر؟! يَكُون أعظم وأعظم، وَلِهَذا فالأصم إِذَا كَانَ أمامك ودعوته بصوتٍ ربما يسمع لكن إِذَا ولى مهما دعوته لا يسمع إِلَّا إِذَا أدركته فمسكته، فالصّم إِذَا ولوا مدبرين لا يسمعون وَإِنَّمَا قَيَّدَ الله عَزَّوَجَلَّ الصّم بهذه الحال لأَنَّهَا هِيَ الحال الَّتِي لا يسمعون بِهَا مطلقًا بخلاف مَا إِذَا كانوا أمامك فإنهم قد يسمعون ويستدلون عَلَى مَا تقول بحركات شفتيك.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِتَحْقِيقِ الهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اليَاءِ]، ﴿ٱلدُّعَآءَ إِذَا﴾ هَذَا تحقيقٌ. وتسهيلُ الثَّانية بينها أي بَيْنَ الهمزة المحققة وبين الياء، أي: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا﴾ تجعلها بَيْنَ الهمزة وبين الياء والقراءتان سَبْعِيَّتَانِ[1].

• • ۞ • •

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ٣٨٦).

الآيــة (٥٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [الرّوم:٥٣].

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾ انظر الآن انتقال الموتى، الصُّم، العُمْي ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾: (ما) حجازية و(أنت) اسمها و(الباء) حرف زائد و(هادِ) خبرها.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ﴾ اسم فاعل ﴿بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ﴾ العُمْيُ جمع أعمى لأَنَّ أَفْعَلَ جمعُه فُعْلٌ قَالَ ابن مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

فُعْــلٌ لِنَحْــوِ أَحْمَــر وحَمْــرَا .....

أَحْمَر مثل أعمى، وحَمْرَاء مثل عَمْياء، فَعُمْيٌ جمع للذكور والإناث.

قوْله تَعالَى: ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾ ضلالتّهم يعني متاهتهم إِذَا تاهـوا فِي الطّريق، فمـا أَنْتَ بهادي العمي عنه، فكَذَلِكَ هَؤُلاءِ الَّذِين عموا عن الحق -والعياذُ باللهِ- فلا يرونه وصموا عنه فلا يسمعونه وماتوا عنه فلا يفقهونه هَؤُلاءِ أيضًا لا تستطيع أن تهديهم، فتأمل الآن فِي مَسْأَلَة الموت ومَسْأَلَة الصَّمَم، قَالَ إِنَّك لا تُسمِعُ الموتى ولا تسمع الصّم، وفي باب العمى قَالَ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ﴾ مَا قَالَ مَا أَنْتَ بمبصر؛

(١) ألفية ابن مالك (ص:٦٦).

السّبب لأَنَّ البصر تتعلق بِهِ الدّلالة وَهِيَ الهداية بخلاف الصَّمَمِ فيتعلق بِهِ السّمع.

قال الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِن﴾ مَا ﴿تُسْمِعُ﴾ سماعَ إفهام وقبول ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآن ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾].

فسر الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنْ) بـ(ما) التفسيرية؛ وَلِهَذا لا تدغم بـ(إن) لا يُقَال (إمَّا) بل يُقَال (إن) ثمَّ يُقَال (ما) عَلَى سبيل الإظهار لأَنَّ (ما) تفسير لها فهي هي.

قوْله تَعالَى: ﴿تُسْمِعُ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سماع إفهام وقبول، مَا تسمع ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآن ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾]، أي فبناءً عَلَى إيمانهم هم مسلمون منقادون؛ لأَنَّهُ كلما تم الإِيمَان تم الانقياد، فكلما كَانَ الإنسانُ أقوى إيمانًا فإِنَّهُ يَكُون أعظم انقيادًا؛ وَلِهَذا فإن الإِيمَان يستلزم الإِسْلامَ، كل مؤمنٍ مسلمٌ ولا عَكْسَ، فليس كل مسلم مؤمنًا، قد يستسلم الإنسان ظاهرًا وقلبه مُنْطَوٍ عَلَى الكفر -وَالعياذُ بِاللهِ- بخلاف الإِيمَان، وَلِهَذا رتَّب عَلَى الإِيمَان، الإِسْلام بالفاء ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ فهم من أجل إيمانهم مسلمون منقادون.

قوْله تَعالَى: ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قَالَ الْمُفَسِّر: إنَّها القرآن، مَعَ أن آيات جمع وليست مفردًا، فما هُوَ الجواب عن قول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟

الجوابُ: أن فِي قَوْلِهِ قُصورا، والحق أن الْمُرَاد بالآيَات مَا هُوَ أعم من القرآن فيشمل جميع الكتب المنزلة ويشمل كَذَلِكَ الآيَات الكونية بأن يؤمن بأن هَذَا الكون خلقه الله عَزَّوَجَلَّ لأَنَّ من النَّاس من لا يؤمن بالآيَات الكونية انظر ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ [الطّور:٤٤]، ماذا يقولون؟ ﴿يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ شيء طبيعي، يقُولونَ: الكون مادة وطبيعة تتفاعل ويَنْتُجُ بعضها من بعض وما أشبه ذَلِك مَا آمنوا بالآيَات.

والآيَات الشّرعية كَذَلِكَ، فمن النَّاس من لا يؤمن بها، ويكذبُ بأخبارها ويستكبرُ عن أحكامها، وَهَذا كثيرٌ.

إِذَن: الصّواب أن المُرَاد بقوْله تَعالَى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ لا يشمل الآيَات الشّرعية كلها لكل الكتب النّازلة والآيَات الكونية كلها؛ لأَنَّ من النَّاس من ينكر الآيَات الكونية كما هُوَ معلوم.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ معلومٌ أن المُؤْمِنَ سامعٌ فكيف يقول: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ﴾ والمُؤْمِنُ سامعٌ فكيف نُجِيبُ عن هذا؟

فالجوابُ: عن هَذَا من أحد وجهيْن:

- **إمَّا أن يُقَالَ:** ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ﴾ أي إِلَّا من كَانَ مستعدًا للإيمان بما تقول ومكتوب عند الله عَزَّوَجَلَّ أَنَّه مؤمن بحيث إن الله قدر لَهُ ذَلِك فَهَذَا يسمع وينتفع، وَهَذا أمر غير معلوم للرسول ﷺ لكن يجب علَيْه أن يبذلَ الدَّعوة فيُسمِعُها من كَانَ فِي عِلْمِ الله أَنَّه مؤمنٌ وكان مستعدًا للإيمان هَذَا وجه.

- **أو يُقَال:** إن الدّين شرائعُ لَيْسَ شَيْئًا واحدًا بل هُوَ شرائعُ وشعائرُ متعددة، فالَّذي ينتفع بهذه الشّعائر ويطبقها هُوَ المُؤْمِن بِهَا يعني الَّذي يسمع مَا يتلقى بعد ذَلِك من شعائر الإسْلام وشرائعه، هَذَا المُؤْمِن الَّذي وقع الإِيمَان مِنْهُ فعلًا هُوَ الَّذي يسمع كل مَا دعا إِلَيْهِ الرَّسول ﷺ من جميع شرائع الدّين وَعَلَى قول من يثبتون للدين أصولًا وفروعًا نقول أصول الدّين وفروعه.

لكن شيخ الإسْلام ابن تيمية يقول: «إن تقسيم الدّين إِلَى أصول وفروع قولٌ مُبْتَدَعٌ لا دليل علَيْه»، وَهُوَ صحيح لا تجد فِي القرآن والسّنة أصولًا وفروعًا فِيهَا

مَا يدل عَلَى الرّكنية يعني عَلَى أن هَذَا ركن كما فِي قوله: «بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ»[1]، أمَّا أنْ نقولَ أصولٌ وفروعٌ؛ فشيخ الإسْلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنكرَ هَذَا لا لأَنَّهُ مُجَرَّدُ اصطلاحٍ، فلا مُشَاحَّةَ فِي الاصطلاحِ، لكِنَّهُ توصل بِهِ إِلَى أمورٍ منكَرةٍ، فقَالُوا مثلًا لا نَحْتَجُّ بأخبار الآحَادِ فِي أصول الدِّين وجعلوا هَذَا بابًا يَلِجُونَ بِهِ إِلَى إنكارِ الصِّفات وإلى إنكار مَا ورد فِي أخبار اليوم الآخر وما أشبه ذلك.

قوْله تَعالَى: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ المُؤْمِنُ مسلمٌ ظاهرًا وباطنًا، والمنافق مسلم ظاهرًا لا باطنًا، والمعلِنُ بكفره لَيْسَ مؤمنًا لا ظاهرًا ولا باطنًا، والنَّاس لا يخرجون عن هَذِهِ الأحوال الثّلاثة:

- مَنْ كَفَرَ ظاهرًا وباطنًا.
- ومَنْ آمن ظاهرًا وباطنًا.
- ومَنْ آمن ظاهرًا لا باطنًا.
- توجدُ قسمةٌ رابعةٌ وهي: مَنْ آمن باطنًا لا ظاهرًا، وَهَذا لا يمكن، صحيح أنَّه قد يَكُون ضعيف الإِيمَان فتجد فِيهِ مخالَفاتٍ فِي ظاهره كالمُؤْمِن الفاسق، أمَّا أنَّه يَكُون لَيْسَ عنده إسلام أبدا فَهَذَا لا يمكن.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإِيمَان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، رقم (٨)، ومسلم: كتاب الإِيمَان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، رقم (١٦).

الآيــة (٥٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الرّوم:٥٤].

قوْله تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ هَـذِهِ الآيَة سِيقَـتْ لِبيانِ حـالِ الإنسانِ وكمالِ قدرةِ الله عَزَّوَجَلَّ قَالَ: ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأٌ و﴿ٱلَّذِى﴾ خبرُه.

قوْله تَعالَى: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ يُقَال بفتـح الضَّاد وبضمها، ضمها لغـة الحجازيين، وفتحها لغة بني تميم، وَلِهَذا يروى عن ابن عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّه قَالَ: أَقْرَأَنِي رسولُ الله ﷺ مِنْ ضُعْـفٍ بِضَمِّ الضَّادِ[1]، «خَلَقَكُمْ مِنْ ضُعْـفٍ» لكنَّ الحديثَ ضعيفٌ، إنما ذكروا أن الضّاد مفتوحة ومضمومة قِراءَتَانِ سبعيتان[2]، فقراءة الضَّم صحيحة وأي إِنْسَان يقرأ بكل قراءة ثابتة فَهُوَ صحيح.

قوْله تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ مَا هُوَ الضَّعف؟

يقول المُفَسِّـر رَحِمَهُٱللَّهُ: [ماء مَهِين]، فجعل الضَّعف هُوَ النُّطفة لأَنَّهُ كمـا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ و(مِنْ) هُنَا للابتـداء كقوْله تَعالَى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾

---

(١) أخرجه أبو داود: أبواب قراءة القرآن وتحزيبه، كتاب الحروف والقراءات، رقم (٣٩٧٨)، والترمذي: أبواب القراءات، باب ومن سورة الروم، رقم (٢٩٣٦).

(٢) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٨٤).

[الأنبياء:٣٧]، وقِيلَ: المُرَادُ بالضَّعف ضعفُه بعد نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ، إِذْ إِنَّه حال النُّطفة جَمَاد لا يوصف بِأَنَّهُ ضعيف ولا أَنَّه قوي، ولكن المُرَاد بالضَّعف بعد نفخ الرُّوح فِيهِ وَهَذا هُوَ الصّحيح، فإن الإنسان لا يَكُون خلقًا تامًّا إِلَّا بعد نَفْخِ الرُّوح، وَلِهَذا قالَ الله تَعالَى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المُؤْمِنُونَ:١٤]، هَذَا الإنشاءُ هُوَ أولُ مَا يَكُون بِهِ الإنسان إنسانًا؛ لأَنَّ الإنسانَ إِنْسَانٌ ببدنِه وروحِه، وَعَلَى هَذَا فنقولُ المُرَادُ بالضَّعف بعد نفخ الرُّوح فيه: ضعف الطُّفولة، ويبتدأ من كونه حيًّا فِي بطن أمه، وَهَذا ظاهر لا يحتاج إِلَى دليل، فالإنسانُ الصّغير ضعيف والضّعف أيضًا بقواه الحسيةِ وقواه المَعْنَوِيَّةِ، فَهُوَ ضعيفٌ بالتّفكير وَهِيَ القوى المَعْنَوِيَّةُ.

• • ❁ • •

الآيات (٥٥- ٥٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرّوم:٥٥-٥٩].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ﴾ يَحْلِفُ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾ فِي الْقُبُورِ ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ يُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ: الْبَعْثِ كَمَا صُرِفُوا عَنِ الْحَقِّ الصِّدْقِ فِي مُدَّةِ اللَّبْثِ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فِيمَا كَتَبَهُ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الَّذِي أَنْكَرْتُمُوهُ ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وُقُوعَهُ.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ فِي إِنْكَارِهِمْ لَهُ ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لَا يُطْلَبُ مِنْهُمُ الْعُتْبَى: أَي الرُّجُوعُ إِلَى مَا يُرْضِي اللهَ.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ جَعَلْنَا ﴿لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ تَنْبِيهًا لَهُمْ

﴿وَلَئِن﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿جِئْتَهُم﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ مِثْلِ الْعَصَا وَالْيَدِ لِمُوسَى ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ حُذِفَ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ لِتَوَالِي النُّونَاتِ وَالْوَاوُ ضَمِيرُ الْجَمْعِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ مِنْهُمْ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَنتُمْ﴾ أَيْ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أَصْحَابُ أَبَاطِيلَ.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ التَّوْحِيدَ كَمَا طَبَعَ عَلَى قُلُوبِ هَؤُلَاءِ]اهـ[1].

• • ۞ • •

(١) لم يوجد تسجيل صوتي لتفسير هذه الآيات، ولهذا نُقل تفسيرها من تفسير الجلالين رحمهما الله تعالى.

الآيــة (٦٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الرّوم:٦٠].

هذا تَأْدِيبٌ مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولغيـرِه أيضًا، بأنَّ الإنسانَ يصبِرُ ولا يَسْتَخِفَّنَهُ الذين لا يؤمنونَ بما وعدَ الله الصابرينَ، وهذا يقعُ لكثيـرٍ من الناس، تجد بعضَ الناسِ مثلًا يحصُلُ لَهُ مَا يحصلُ من الأمور، فمثلًا لو كَانَ لَهُ جارٌ يؤذيهِ، يأتيهِ بعضُ الناس يقولون: كَيْفَ تتحمَّلُ من جارك هذه الأذِيَّةَ، أو كَيْفَ تتحمَّـلُ من صاحِبكَ هذه الأذِيَّـةَ، أو من أهلِكَ أو مَا أشبـه ذلك، فيستخِفُّـونه فلا يصبر.

ولكن الذي يَنبغِـي للإنسانِ العاقـلِ أنْ لا يَسْتَخِفَّـهُ أولئكَ القـومُ الذين لا يؤمنونَ بما وَعَدَ الله بِهِ الصابرينَ، بل يصبرُ ولا يهمهُ كلامُ الناسِ حتى يحقِّقَ الله لَهُ مَا وَعَدَهُ.

وبهذا انتهت سورة الروم.

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة
«مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إلا رَفَعَهُ الله»	١١
«إِنَّ الله مُحْسِنٌ، كَتَبَ الإحسَان عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ»	٢٩
«إِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا»	٥٠، ٢٦٢
«إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»	٦١
«يَا عِبَادِيَ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِك فِي مُلْكِي شَيْئًا»	٦٢
«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخر وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»	٧٨
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُه وَشِرْكَهُ»	٨٤
«أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجنَّةَ قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَها: سُبْحَانَ الله، وَالحَمْدُ لله، وَلَا اله إلا الله، وَاللهُ أَكْبَرُ»	٨٥
«هُمْ مِنْهُمْ»	٨٦
«الله أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ»	٨٦
«اجْعَلُوها فِي رُكوعِكُمْ»	٨٩
«اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»	٨٩
«الحَمْدُ للهِ الَّذي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالحاتُ»	٩٠
«وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»	٩٠
«وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ»	٩١

«صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله ﷺ إِحْدَى صَلَاتَي العشِيِّ» ٩٢
«هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟ فَمَا لَوْنُهَا» ٩٩
«أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ» ٩٩
«تَفَكَّرُوا فِي آيَاتِ الله، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ الله» ١٠١
«أَصْدَقُ الأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ» ١٠٦
«خُذِ الحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا» ١١٢
«مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا فَرَّجَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ» . ١١٣
«وَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ» ١١٣
«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ العَمَلِ الَّذِي يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ» ١١٤
«السُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ» ١١٦
«طَوَّقَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ» ١١٨
«كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ» ١٤٧
«أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ» ١٤٨
«مَنْ بَاعَ عَبْدًا وَلَهُ مَالٌ فَمَالُه لِلَّذِي بَاعَهُ إِلَّا أَنْ يَشْتَرِطَ المُبْتَاعُ» ١٦٢
«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» ١٦٦
«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» ..... ١٧٤، ٢٤٧
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُو رَدٌّ» ١٧٤
«مَنْ يَهْدِهِ الله فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ» ١٧٩
«مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ

إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً» ١٨٠
«وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي» ١٨٢
«أَبْشِرُوا فإِنَّكُم لَمع خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتَا فِي شَيْءٍ إِلَّا كَثَّرَتَاهُ، يَأْجُوجُ ومَأْجُوجُ» ١٨٣
«كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» ..١٧٨، ١٨٠، ١٨٤
«لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا» ١٨٨
«افْتَرَقَتِ اليَهُودُ... وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى» ١٩٥
«تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ» ..... ١٩٩، ٢٠٢
«إِنَّ اللهَ يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ» ٢٠٢
«فَإِن تَشَاجَرُوا فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لَا وَلِيَّ لَهُ» ٢٠٧
«إِنَّ اللهَ يَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالقُرْآنِ» ٢٠٧
«أَنَّ المُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ كَمَا يَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ» ٢٢٦
«فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للهِ تَعالَى فِي الدُّنْيَا» ٢٣١
«الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ ذُرْوَةُ سَنَامِ الإِسْلَامِ» ٢٣٨
«لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» ٢٣٨
«العَامِلُ فِي أَيَّامِ الصَّبْرِ لَهُ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ» ٢٣٩
«مَهْلًا يَا خَالِدُ، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» ٢٤٠
«أَنَّ أَفْضَلَ الأَعْمَالِ بَعْدَ الإِيمَانِ بِاللهِ الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا» ٢٤١
«وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ» ٢٤٣

«مَنْ أَسْلَفَ فِي شَيْءٍ فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ» ٢٥٠
«أَنَّ اللهَ تَعالَى كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي» ٢٥٩
«اللهم لا مانِعَ لما أعطيتَ ولا مُعْطِيَ لما مَنَعْتَ ولا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ» ٢٧١
«ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكِ لَمْ تُصَلِّ» ٢٧٥
«مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ» ..... ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧
«لا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ إِلَّا الصَّلاةَ» ٢٨٠
«ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ» ٢٨١
«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيًّا» ٢٨١
«أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ» ٢٩٠
«وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» ..... ٢٩٨، ٣٠١
«لَيْسَ السَّنَةُ أَنْ لَا تُمْطَرُوا إِنَّمَا السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَلَا تُنْبِتُ الأَرْضُ» ٣١٠
«فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً» ٣١٩
«إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ» ٣٢٠
«مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ» ٣٢٩
«أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَى مَيِّتٍ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ» ٣٢٩
«أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا انْصَرَفَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ بَعْدَ الدَّفْنِ حَتَّى إِنَّه لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ يَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ» ٣٢٩
«بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ» ٣٣٤

فهرس الفوائد

الفوائد	الصفحة

تعريف المكي والمدني ٧
الكلام عن البسملة ٩
فضل قول: (لا أَدْري) ٩
أقوال العلماء في الحروف المقطعة ١٢
تعريف البضْع ١٨
كلام عن (أل) الاسْتِغراق ١٩
أحوال ضبط «قبل» ٢٠
متى حصلت الواقِعَة الثانية بَيْن فارِسَ والرّومِ ٢٣
أقسام صفة العزَّة ٢٣
كَلامُ الله عَزَّوَجَلَّ بالحروفِ ٢٤
كُلُّ الأشْيَاء لَا تكونُ إلا بِأَمْرِ الله ٢٥
جَوازُ فَرَحِ المؤْمِنينَ بانْتِصَارِ بعْضِ الكفَّار بعضِهم عَلَى بعْضٍ ٢٦
النّصر نَصْرٌ مُطْلَقٌ دَائِمٌ، أو نَصْرٌ عارِضٌ مؤقَّتٌ ٢٧
هَلْ كُلُّ صِفَةٍ يُشتَقُّ منْهَا اسْمٌ؟ ٢٨
هل (المنْعِم) مِنْ أسماءِ الله عَزَّوَجَلَّ؟ ٢٨
هَل يَجُوز التّسمِّي بعبْدِ المنْعِم؟ ٢٩

هَل يجُوز التّسمِّي بـ(حَمِيد) و(مُحْسِن)؟ ٢٩
كلام عن الوقف والوصل ٣١
هَلْ يَجُوزُ إِذا أَجْمَع العلَماء عَلَى قوْلَيْنِ إِحْداثُ قولٍ ثالِث؟ ٣١
أسباب إِخْلَاف الوَعْدِ وتنزه الله عنه ٣٢
العلْم الحقيقِيّ هُو العلْمُ باللهِ تَعالَى وأسمائِهِ وصِفاتِهِ ٣٤
قصور علم الكفار ٣٦
هَل الكفَّارُ يُؤمِنُون بوجُودِ الله أمْ يُنْكِرونَ وُجودَه؟ ٣٨
التراكيب مثل: (أولم يتَفَكَّرُوا) في النحو ٣٩
كُلُّ شيءٍ عنْدَ الله عَزَّوَجَلَّ مُقَدَّرٌ ٤٢
تعريف الكفْر وأنواعه ٤٣
محَلُّ التّفْكِيرِ هُو العقْلُ ٤٤
ينْبَغِي لِلإِنْسَانِ أنْ لا يُضيِّعَ وقتَهُ سبَهْلَلًا وسُدًى ٤٥
الخلْق عَلَى عِظَمِه لَه أَجَلٌ محدُودٌ ٤٦
المُؤْمِن والكافِر سيلقيان الله لكِنْ هُناكَ فَرْقٌ بيْنَ اللِّقائَيْنِ ٤٧
هَلِ المرادُ باللِّقاءِ هُنا اللِّقاءُ المجَرَّدُ أَم المرادُ بِه الرّؤْيَةُ؟ ٤٨
الرّبُوبِيَّةُ تنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ ٤٨
كيْفَ يُطْلب مِنَ الإنسان أنْ يسيرَ بقَدَمِه إِلَى مَواقِعِ العذابِ ٥٠
هلْ النّظَرُ بالعيْن يُفيدُ أوْ لا يُفيدُ؟ ٥٢
تعريف الظّلم ٥٥
نَفْي الظّلْم صِفَةٌ سلبِيَّةٌ ٥٥

السّيْر في الأرْضِ -بمعْنَى مُراجَعةِ الحوادِثِ والتّوارِيخِ- يُفِيدُ المرْءَ ٥٧
أنَّ الإنسان مهْمَا قَوِيَ فهُو ضعِيفٌ بالنّسْبَةِ لِقُوَّةِ الله ٥٧
نفسُ الإنسان عنْدَه أمانَةٌ ٦١
الإنسان بمعصِيَتِه لا يضُرُّ إلا نفسَهُ ٦٢
الفرْقُ بيْنَ التّكذِيبِ والاستِهْزَاءِ ٦٧
هلِ إعادَةُ الإنسان هي إعادة نفْسِ الأجْسَام أمْ تنْبُتُ نَباتًا جديدًا؟ ٧٠
قِيامُ السّاعَة كائِنٌ لَا محالَةَ ٧٥
التنوين في: (حينئذٍ، ويومئذٍ) ٧٧
مآل ذراري الكفار ٨٢
هَل يُفرَّقُ بيْنَ الاسْتمرارِ عَلَى الشّرْك الأصْغَرِ وعَدمِ الاسْتمرارِ؟ ٨٤
الرّياءُ إذا طرَأَ فِي أثْنَاءِ العبادَةِ، هلْ يَكُون مُبْطِلًا للعِبادَةِ؟ ٨٤
مَا الصّحِيحُ فيمَنْ تُوفِّي قبْلَ البلُوغِ؟ ٨٦
حدِيثَانِ فِي أوْلادِ المشْرِكينَ ٨٦
الشّرّ بالنّسبةِ لِفعْلِ الله وإيجَادِه لَه ليْسَ بِشَرٍّ ٩٠
هلِ الكافِرُ يحْمَدُ الله؟ ٩٢
أمثلة لإخراج الحي من الميت ٩٦
قِيام الأفْعَالِ الاخْتِياريَّةِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ ٩٧
رأي أهْلِ البدَعِ في الأفْعالِ الاخْتِيارِيَّةِ ٩٨
كيْفَ تكُونُ الأشْيَاءُ عَلامَةً عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ وهُوَ أبْيَنُ وأظْهَرُ؟ ١٠١
لِمَ سُمِيَّ الإنْسانُ بَشرًا ١٠٣

مَا ساقَهُ القُرطُبِيُّ في تفسِيرِ آيَةِ الحَجِّ مَن أنَّ المَنِيَّ فِيه تُرابٌ؟ ١٠٣
الكلام عن نظرية النشوء والارتقاء (الداروينية) ١٠٤
هل المودة والرحمة موزعان بين الزوجين أم مشتركان ١٠٩
هَلِ المودَّةُ في أوَّلِ الحياةِ الزَّوجِيَّةِ والرَّحمَةُ بعْدَ الأوْلادِ؟ ١١٢
مِن أهَمِّ أغْرَاضِ النِّكاح ومقاصِدِه السُّكُون بين الزوجين ١١٢
المودَّةُ لا تُنالُ بالكَسْبِ ١١٤
فضل التّفكُّر ١١٥
صفة اخْتِلاف الألسِنَة ١١٨
قول البعض: لكُلِّ إنْسَانٍ أرْبَعِونَ شَبِيهًا ١٢٠
مدْحُ أُولِي العِلْم ١٢١
مَا المُرادُ بالسّمْعِ ١٢٦
النَّوم مِن آيَاتِ الله ١٢٦
التّنويم المغناطِيسيّ ١٢٧
جواز الابتداء بالمضارع المؤول مصدرا ١٣٠
الإرادة في اللغة والشرع ١٣٣
القِياس مِن الأدِلَّةِ العقْلِيَّةِ ١٣٦
هَلْ دَعوَةُ الله تكُونُ مِن الأرْضِ أمِ المرادُ أنَّكُم أنْتُم فِي الأرْضِ؟ ١٣٩
مقَرّ بَني آدَم الأرْضُ ١٤٠
انْفِرادُ الله عَزَّوَجَلَّ بالمُلْك ١٤٣
وجه تأويل صاحب الجلالين لقوله تعالى: ﴿أَهْوَنُ﴾ ١٤٦

هل يَأْتي (فَعيل) بمعنى (مُفْعِل) في اللُّغَة العربية؟ ١٥٠
صفة الحكمة ١٥٠
قياس الأَوْلى ١٥٣
الرّدُّ عَلَى أهْلِ التّعطيلِ ١٥٣
كُلّ صِفَةٍ وُصَف الله بِها نفْسَهُ فَهِي صِفَةُ كَمالٍ ١٥٤
لي الاشتراكيين أعناق النصوص بدعوى موافقتهم للإسلام ١٥٩
العَبِيد لا يَمْلِكُونَ ١٦٢
لفْتُ انْتِبَاهِ الإِنْسانِ إِلَى سُؤالِ الهدَايَةِ مِن رَبِّه دَائِمًا ١٦٨
الحثُّ عَلَى طلَبِ العِلْم والعَمَلِ بِه ١٧٠
الرَّسم العُثْمانِيّ للمصحف ١٧٥
لَوْ كُتِب القُرآنُ الكَرِيمُ بالرَّسْم الحدِيثِ لضَاعتِ القِرَاءاتُ ١٧٧
تعليق الهداية والإضلال بمشيئة الله لا يعني صواب نهج الجبرية ١٧٩
هلْ يأْجُوجُ ومأْجُوجُ مِن بَني آدَم؟ ١٨٢
الإِخْلاص لا يتِمُّ إلا بسلْبٍ وإيجابٍ ١٨٣
تعريف التَّقْوَى ١٨٧
الفرحُ لا يُذَمُّ من حيْثُ هو فرحٌ ١٩١
اختلاف المسلمين في الآراءِ لا يلزمه الاختلاف في الدِّينِ ١٩٤
كلام عن حديث افتراق الأمة ١٩٥
لا يجوز التَّحَزُّبُ في الدِّين ١٩٧
هل الَّذِينَ يُقَلِّدُونَ الكُفَّارَ يَدْخُلُونُ في الفِرَقِ؟ ١٩٧

الشَّرّ لا يُضاف إِلَى الله ٢٠٤
كل مُتَأَوِّلٍ يظن أَنَّه عَلَى صواب فإِنَّهُ لا إثمَ علَيْه ٢٠٩
تحريمُ القُنُوطِ من رحمةِ الله..... ٢١٨
كَيْفَ نُفَرِّقُ بَيْنَ البلاءِ والابتلاءِ؟ ٢١٨
إِذَا عُلِّقَ الحكمُ عَلَى وصف فكلما كَانَ هَذَا الوصفُ أشدَّ تَمَكُّنًا فِي شيءٍ فَهُوَ أَحَقُّ .. ٢٢٨
تفضيل النَّفْعَ المتعدي ٢٢٩
تحريم الربا والتحيل عليه..... ٢٣٢
أسباب مضاعفة الأجر..... ٢٣٧
هل الصّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتفاضلون؟ ٢٤٠
مَنِ استجلبَ رزق الله بمعاصيه فقد خالَف الحكمة والصّواب ٢٤٦
تحريم الرِّبا..... ٢٤٦
هل التَّوَرُّقُ داخل فِي التحيل على الكسب؟ ٢٤٨
هل الإيداع فِي البنوك يعتبر إيداعًا شرعًا؟ ٢٥٠
مَا حكم السَّلَمِ؟ ٢٥٠
كيف كَانَ الفسادُ فِي البحر؟ ٢٥٤
من عقوبات قوم فرعون ٢٥٤
وجه التعبير بالإِذَاقَة عن الإِصَابَة ٢٥٦
بطلان مذهب الجبرية ٢٥٨
هل المُراد السّير بالأقدام أو السّير بالعقول والتّفكير؟..... ٢٦٢
تحريم الحكم بِغَيْر مَا أنزل الله ٢٧٠

ينبغي لمن أَمَرَ بشيء أن يذكر مَا يُرَغِّبُ فِيهِ ٢٧١
هل يلزم المصلي أن يفقَه مَا يقولُ؟ ٢٧٥
ما معنى قول النحاة: مُتَعلِّق؟ ٢٧٨
اعتبار اللازم ٢٨٥
اصطفاء الرسل ٢٩٦
كيف نوجه انتصارات الكفار الحربية؟ ٣٠٤
عندما ينزل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في نهاية الزمان سيكون من أتباع النبي ﷺ ٣٠٥
فرح الناس بالغيث ٣٠٩
فضل الرسم العثماني للمصحف الكريم ٣١٧
قول صاحب الجلالين: «وخص العقلُ ذاتَه فليس عَلَيْهَا بقادرٍ» ٣٢١
الحكمة من تعبير القرآن مرة بالإنزال، ومرة بالتَّنزيل؟ ٣٢٣
الدِّين شرائعُ وشعائرُ ٣٣٣

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة

تقديم ٥

سورة الروم ٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ ١١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ ١٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾ ١٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ ١٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾ ١١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ ٣٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ ٣٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٩﴾ ٤٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ

وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٦٣
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ٦٨
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ٧٢
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ ٧٤
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ٧٧
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ٨١
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ٨٨
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ٩٥
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ١٠٠
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ١٠٧
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ١١٧
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ١٢٤
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ

ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ١٣٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ١٣٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ ١٤١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ١٤٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ١٥٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ١٦٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ١٧٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ١٨٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ١٩٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ٢٠٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ٢١٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ٢١٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ٢٢٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ٢٣٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ٢٤٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ٢٥٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ٢٦١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ٢٦٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .. ٢٧٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ٢٧٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ٢٨٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ ٢٩٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) ﴾ ٣٠٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ ٣١٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) ﴾ ٣٢٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) ﴾ ٣٢٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) ﴾ ٣٣١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾ ٣٣٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) ﴾ ٣٣٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ ٣٣٩

فهرس الأحاديث والآثار ٣٤١

فهرس الفوائد ٣٤٥

فهرس آيات السورة ٣٥٣

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٩)

تفسير القرآن الكريم

سورة لقمان

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٩)

تفسير القرآن الكريم

سورة لقمان

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

٦٨١٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة لقمان. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
٢٢٦ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٣٩)
ردمك: ٦ ـ ٤٣ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة لقمان ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٢٥

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٢٥
ردمك: ٦ ـ ٤٣ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من :
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[1]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخِ مُحَمَّد بنِ صالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراجِ ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَرِيمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضَاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ فِي المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سورة لقمان

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

يَقـول المُفَسِّر[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهي مَكِّيَّة] المَكِّيُّ أَرجَـحُ الأقوال -والذي عليـه الجُمهور-: أن ما نزَل بعد وصول الرسول ﷺ إلى المدينةَ فهو مدَنيٌّ، ولو نزَل بمَكَّةَ، وما نزَل قبل وصوله إلى المدينة فهو مَكِّيٌّ، هذا هو القول الراجِح، فعلى هذا المُعتبَرُ هو الزمَن لا المكان، وهذا أَرَيَحُ أيضًا للإنسان.

يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مكِّيَّة، إلَّا: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ ﴾ [لقمان:٢٧]]، وفي نُسخة [أو إلَّا] وبينهما فَرْق؛ لأن قـول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إلَّا ﴿ وَلَوْ ﴾] أن هذا اقتِصار على قول واحِد وجزَم به، أمَّا على النُّسخة الثانية [أو إلَّا] فهو إشارة إلى أن في المَسأَلة قولين، وأنه لم يُجزَم بأحَدِهما.

والصحيـح ما سبَقَ لنا أن السورة إذا كانت مَكِّيَّة فإننا لا نَستَثْنِي منها شيئًا إلَّا بنَـصٍّ صريح واضِح، وإذا كانت مدَنيـة فإننا لا نَستَثنِي منها شيـئًا إلَّا بنَصٍّ صريح واضِح؛ لأن الأصل أنَّ السورة تَكون مُتَتالِيةً، وأن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَضَع كل آية في مكانها، أو يَأمُر بوَضْعها.

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

وعلى هذا فنقول: إن جاء مَن أَثبتَ أن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾، نزَلَت بعد الهِجرة، وأَثبَت ذلك بنَصٍّ فعَلَى العَيْن والرأس، وإلَّا فالأَصْل أن السورة كامِلة مكِّيَّة.

• ● ❁ ● •

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

[بسم الله الرحمن الرحيم] تَقدَّم الكلام على البَسمَلة إعرابًا ومَعنًى وحُكمًا:

أما إعرابها فإنها جارٌّ ومجرور مُتعَلِّق بمَحذوف، فِعْل مُؤخَّر مُناسِب للمَقام، الآنَ نُريد أن نَقرَأ هذه السورةَ فنَقول: بسم الله الرحمن الرحيم أَقرَأُ. أو نُريد أن نُفسِّر نَقول: بسم الله الرحمن الرحيم أُفسِّرُ. ويُريد الإنسان أن يَتوضَّأ يَقول: بسم الله أَتوضَّأ، وقدَّرناه فِعْلًا؛ لأن الأَصْل في العامِل أن يَكون فِعْلًا، لا سيَّما وأنه مَحذوف.

وقدَّرْناه خاصًّا، لم نَقُلْ مثلًا: بسم الله الرحمن الرحيم أَبتَدِئ. بل قُلْنا: كُنَّا إن كنت تُريد أن تَقرَأ قَدِّر: أَقرَأُ، تُريد أن تَأكُل قَدِّر: آكُلُ، تُريد أن تَشرَب قَدِّر: أَشرَبُ، فاختَرْنا أن يَكون تقديرُه خاصًّا لأَجْل أن يُناسِب كل حال بعَيْنه؛ ولأن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «مَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ بِسْمِ اللهِ»[1] فهو إشارة إلى أنه يُقدَّر الفعل المَحذوف بما يُناسِب الفِعْل المُبتَدَأ به.

واختَرْنا أن يَكون تَقديرُه مُتأخِّرًا؛ لأَجْل البَداءة بـ(بسم الله)، ولإفادة الحَصْر والاختِصاص؛ لأن تَقديم المَعموم يُفيد الحَصْر والاختِصاص، فكأنك تَقول:

(١) أخرجه البخاري: كتاب العيدين، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد، رقم (٩٨٥)، ومسلم: كتاب الأضاحي، باب وقتها، رقم (١٩٦٠)، من حديث جندب بن سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لا أَبتَدِئ إلَّا بسم الله، هذا هو السبَب في أن نُقدِّره مُتأخِّرًا.

فهي (اسم) مُضاف، ولفظ الجَلالة مُضاف إليه، و(الرحمن) صِفة لله تعالى، و(الرحيم) صِفة لله تعالى أيضًا.

وأمَّا حُكْمها: فإنها آية من كِتاب الله تعالى تَكلَّم الله تعالى بها، وأَنزَلها على الرسول ﷺ، لكنها ليسَتْ آيةً من السورة، إنما جُعِلت علامةً على ابتِداء السورة فقَطْ، وليسَتْ منها، وتَجِد في المَصاحِف أنه لم يُكتَب عليها رقمٌ إلَّا في الفاتِحة، فإنها رُقِّمت، والسبَب أنَّ الفاتِحة ذهَب كثير من أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ إلى أن البَسمَلة منها، والصواب أنَّها ليسَتْ منها، بل كغيرها، وأن أوَّل آية في سورة الفاتِحة هي قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٢-٦]، هؤلاء خمسُ آيات والفاتِحة سبعُ آياتٍ، إذن السابِعة: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، هذه السابِعة، هذا هو الصحيح، مع أنك تَجِد في المَصاحِف ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آية واحِدة بِناءً على أن البَسمَلة هي الآية الأُولى. أي: أن حُكْمها باعتِبار تِلاوتها في الصلاة.

فإن قُلنا: إنها من الفاتِحة فهي آية منها، ولا بُدَّ من قِراءتها، وتُقرَأُ جَهْرًا كما يُجهَر بالفاتِحة، وإذا قُلْنا: ليسَت منها فإنه لا تَجِب قِراءَتُها ولا يُجهَر بها.

الآيــة (١)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ﴾ [لقمان:١].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿الٓمٓ﴾ اللهُ أَعلَمُ بمُراده به] قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ ثلاثة حُروف هِجائية، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [اللهُ أَعلَمُ بمُراده به]، وفي هذا إثباتٌ؛ لأن الله تعالى أَراد به شيئًا، لكنه لا يُعلَم، فنأْخُذ من كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه يَرَى أن لهذه الحُروفِ مَعنًى، ولكن الله أَعلَمُ به، وقال بعـضُ أهلِ العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إن لها مَعنًى، وجعَلوا يَتَخبَّطون بهذا المَعنَى، ويَجعَلونها رُموزًا لَمَّا جعَلوها له، وقال مُجـاهِد: إنه لا مَعنَى لها[1]، فنَقول: لا مَعنَى لها.

ولا نَقول: اللهُ أَعلَـمُ بما أَراد؛ وذلك لأن القُرآن نزَل باللغـة العربية كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣]، واللغة العرَبية ليس لهذه الحُروفِ فيها مَعنًى، وعلى هذا فنَقول: إنه لا مَعنَى لها، ونَقول ذلك لأن هذا هو مُقتَضى اللُّغة العرَبية التي نزَل بها القُرآن.

فإذا قال قائِل: إذا قلت: لا مَعنَى لها. كيف يَسوغ لك أن تَجزِم بنَفيِ المَعنَى؟

فالجَوابُ: نعَمْ، يَسـوغ لنا ذلك؛ لأن القُرآن باللغة العربية، وهذه الحُروفُ

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٠٩)، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧٠).

الهِجائيـة بمُقتَضى اللغة العربية ليس لهـا مَعنًى، فأَجزِم بذلك؛ لأن القُرآن باللغـة العربية.

وإذا كان الأَمْر هكذا؛ فما الفائِدة من وُجودها في القُرآن؟

الجَوابُ: هـذه هي التي قد نَقول: اللهُ أَعلَمُ بذلك، ولكن بعـض أهل العِلْم التَمَس لهذا حِكْمة، بأنه إشارةٌ إلى أن هذا القُرآنَ الذي أَعجَزَكم ما أَتَى بحُروف جديدة حتى تَقول: واللهِ هذه ليسَتْ من حُروفنا، وإنما هو من الحُروف التي يَتَركَّب منها الكلام العرَبيُّ، ومع ذلك أَعجَزَكم.

قالوا: ولهـذا لا يَأتي الابتِداء بهـذه الحُروفِ الهِجائية إلَّا وبعـده ذِكْر القُرآن، أو ما هو من خَصائِص القرآن: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، وهناك بعضُ السُّوَر مِثْل: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾، ليس فيها ذِكْر القرآن، لكن فيها ذِكْر ما هو من خَصائِصه، فـ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ هذا من أمور الغَيْب، ولا يُعـلَم إلَّا بالوَحْيِ، كذلـك ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ هذا فيه إخبار عمَّن سبَق، وهو من أُمور الغَيْب أيضًا، ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٣].

وعلى كل حال: هذا الذي ذكَرْناه أخيرًا هو ما ذهَبَ إليه شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ وسبَقه إليه الزَّمخشَريُّ في كِتابه (الكَشَّاف)[٢].

• • ۞ • •

(١) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٧١).
(٢) الكشاف (١/ ٢٦).

الآيــة (٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [لقمان:٢].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ تِلْكَ ﴾ أي: هذه الآياتُ ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ القُرآن ﴿ٱلْحَكِيمِ ﴾ ذي الحِكْمة، والإضافة بمَعنَى مِن] قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ﴾: المُشار إليه آيات القُرآن، وتَجِد أن الإشارة هنا بصيغة البَعيد، والقرآن ليس بَعيدًا؛ لأنه بين أَيدينا، ولكنه عالِي المَرتَبة؛ فلهذا أُشير إليه بإشارة البعيد.

وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: المَكتوب وهو القُرآن، وذكَرْنا فيما سبَق أنه مَكتوب في ثلاثة مَواضِع: في اللوح المَحفوظ، وفي الصُّحُف التي بين يدَيِ المَلائِكة، وفي الصُّحُف التي بين أَيْدينا.

وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الإضافة هنا يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنها على تَقدير (مِن) يَعنِي: آيات مِن الكِتاب، والآياتُ كما تَقدَّم كونيةٌ وشرعيةٌ، وآيات الكِتاب من الشَّرْعية.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ذي الحِكْمة]، ولكن يُمكِن أن يُقال: ذي الحِكْمة والحُكْم أيضًا؛ لأنه مَرجِع الناس في الحُكْم؛ ولأنه يَشتَمِل على الحِكْمة، وهو أيضًا صالِح لأَنْ يُجعَل بمَعنَى المُحكِم، فيَكون فَعيل بمعنى مُفعِل.

فالقُرآن إذَنْ: حَكيم لاشتِماله على الحِكْمة وعلى الحُكْم بين الناس؛ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء:١٠٥].

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: حِكْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في إنزال هذه الحُروفِ الهِجائية، وهي ﴿الٓمٓ﴾ وما أَشبَهها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ يَتكَلَّم بحَرْف، وكذلك بصَوْت؛ لأن ﴿الٓمٓ﴾ من كَلام الله تعالى، وهي حُروف، وهذا هو مَذهَب أهل السُّنَّة والجَماعة، وقد تَقدَّم لنا البحث فيه مِرارًا، وأن أهل السُّنَّة والجماعة يَقولون: إن كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَرْف وصَوْت.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عُلوُّ شَأْن هذا القُرآنِ؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن القُرآن آية وعلامة على مُنزِلِه؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، والإضافة على تَقدير (مِن) فهي إضافة جِنْسية، وهو آية على مُنزِلِه جَلَّ وَعَلَا:

من حيث صِدْق أَخباره ومُطابَقَتها لهذا الواقِعِ، ومن حُسْن قِصصه وحُبِّها للنُّفوس، وعدَم مَلَلها منها؛ لأن ما من كلام يُردَّد إلَّا ويُمَلُّ إلَّا القرآن.

وكذلك من حيث الأحكام: حيث إنها أَحكام عادِلة نافِعة للعِباد في مَعاشِهم ومَعادِهم؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن القُرآن مَكتوب كما هو مَقروء؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الثَّناء على هذا القُرآنِ بهذا الوَصْفِ العَظيم وهو: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنه لا يُوجَد في القُرآن خبَر سِيق عبَثًا، ولا حُكمٌ أُثبِتَ عبَثًا، يُؤخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾؛ لأن العبَث يُنافِي الحِكْمة، ولا يُمكِن أن يَكون في القُرآن شيءٌ عبَثًا، لا خبَرًا ولا حُكْمًا.

الآيــة (٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ [لقمان:٣].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(هُدًى وَرَحْمَةٌ) بالرَّفْع] هذه محلُّها من الإعراب خبَر لمُبتَدَأ محذوف، قدَّرَه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [هو (هُدًى وَرَحْمَةٌ)] هُدى: بمَعنَى: دَلالة، ورحمةٌ: بمَعنَى: أن الله رحِم به الخَلْق حيث أَنزَله عليهم، فالقُرآن هِداية ورحمة، مَن تَمسَّك به نجا واهتَدَى، فلا يَضِلُّ مَن تَمسَّك بهذا القُرآنِ ولا يَشقَى؛ لأنه هُدًى ورَحمة.

وعلى هذا فنَقول لكل إنسان أَراد العِلْم: عليك بالقرآن؛ لأنه هُدًى، ولكل إنسان أَراد الرحمة: عليك بالقُرآن؛ لأنه هُدًى؛ فهو (هُدًى وَرَحْمَةٌ)، ولكن ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أَحسَنوا في عِبادة الله تعالى وأَحسَنوا إلى عِباد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والإحسان ضِدُّ الإساءة، والإساءة إمَّا أن تكون بتَرْك الواجِب أو بفِعْل المُحرَّم، فمَن ترَكَ ما أَوْجَب الله تعالى عليه لنفسه من الصلاة وغيرها فليس بمُحسِن، ومَن فعَلَ ما حرَّمَ الله تعالى عليه فليس بمُحسِن، ومَن ترَكَ ما يَجِب للناس من صِلة الرَّحِم وبِرِّ الوالِدين والإحسان إليهم فليس بمُحسِن، ومَنِ اعتَدَى عليهم فليس بمُحسِن.

وقوله تعالى: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ يُستَفاد منه أنه كلَّما ازداد الإنسان إحسانًا ازداد انتِفاعًا بالقُرآن بالهِداية والرحمة، بِناءً على القاعِدة: أنَّ الحُكْم إذا عُلِّق بوَصْف كان يَقوَى بحسَب وجود ذلك الوَصْفِ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ فهل غير المُحسِنين لا يَهتَدون به ولا يُرحَمون؟

الجَوابُ: نعَـمْ؛ لأن المُحسِنين هم الذين يَنتَـفِعون بذلك، وإلَّا فهـو هُدًى للناس كلِّهم مَصدَر هِداية للجَميع، لكن لا يَنتَفِع به إلَّا الذين أَحسَنوا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قِراءة العامة بالنَّصْب حالًا من الآيات] غَريبٌ هذا التَّعبيرُ من المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقوله: [وفي قِراءة العامَّة] يَفهَم منه مَن لا يَعرِف الاصطِلاح أن المُراد بالعامَّة عامَّة الناس، ما سِوى العُلَماء، وهذا ليس كذلك، إنما المُراد بالعامَّة عامَّة القُرَّاء ما عدا قارِئًا واحِدًا الذي قرَأَ بالرَّفْع؛ فقال: [بالنَّصْب حالًا من الآيات، العامِل فيها ما في ﴿تِلْكَ﴾ مِن مَعنَى الإشارة].

فقـوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ حـالَ كونها ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾، فإذا قال قائِل: الحال تَحتاج إلى عامِل مثل: الظَّرْف والجارِّ والمَجرور والمَفعول به، فما هو العامِل؟

فالجَوابُ: العامِل فيها ما في ﴿تِلْكَ﴾ من مَعنَى الإشارة؛ فـ﴿تِلْكَ﴾ اسمٌ جـامِد غير مُشتَرَط، لكنه بمَعـنَى: أُشير، فإذا قلت: هذا زيـدٌ. المَعنَى: أُشيرُ إليه، فـ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ بمَعـنَى: أُشير إلى هـذه الآياتِ، فلمَّا كانت مُتضَمِّنـة لمَعنَى الفِعْل صارت صالِحة لأَنْ تكون عامِلًا في الحال.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: التَّرْغيب في هذا القُرآنِ؛ لقوله تعالى: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾، وكل أحَدٍ منَّا يَطلُب الهُدى والرحمة، فهو هُدًى في العِلْم ورحمة في العمَل، إذ إن العامِل به يَنال رحمة الله تعالى، والمُهتَدِي به على هُدًى وبصيرة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن القُرآن الكريم جمَع الخيرَ كلَّه، فهو عِلْم نافِع؛ لقوله تعالى: ﴿ هُدًى ﴾، وعمَل صالِح؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً ﴾؛ لأن الرحمة لا تُنال إلَّا بالعمَل الصالِح.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحثُّ على الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الإحسان سبَب لنَيْل العِلْم والعمَل الصالِح، لما جعَله هُدًى ورحمةً للمُحسِنين.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه كلَّما ازداد إحسان العبد ازداد عِلْمه وعمَله الصالِح؛ لأن الحُكْم إذا عُلِّق على وَصْف ازداد بزيادته ونقَص بنَقْصه كما تَقدَّم.

الآيــة (٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان:٤].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بَيان للمُحسِنين] وعلى هذا فلا تَكون نعتًا، بل تَكون بيانًا أي: عَطْفَ بيان؛ والمُحسِنون هم: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَعني: يَأتـون بها قويمة تامَّة، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَشـمَل الفريضة والتَّـطوُّع، فإقامتها بفِعْل الواجِبات، وتَرْك المُفسِدات، وكذلك تَتِمُّ الإقامة بفِعْل المُكمِّلات والمُستَحبَّات.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: يُعطونها، والزكاة هي جُزْء مُقدَّر شرعًا في مال خاصٍّ لطائِفة مَخصوصة، ومَفعول ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ الثاني مَحذوف تَقديرُه: ويُؤتون الزكاة أهلَها. وإنما جاز حَذْفه؛ لأنه فَضْلة، وقد سبَق أن جميع المَفاعيل الفَضْلة يَجوز حَذْفها.

وقوله تعـالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ سُمِّيَ هذا المالُ المُؤدَّى زكاةً؛ لأنها تَزكـو بها أخلاق المُزكِّي، ويَزكو بها المال أيضًا ويَزيدُ؛ لأن الزكاة في اللغة النَّماء والزِّيادة.

ولم يَذكُرِ الله من الأفعال إلَّا الصلاة والزكاة، وقرَن بينـهما في القرآن كثيرًا؛ وذلك لأنهما آكَـدُ أركان الإسلام بعـد الشَّهادتين، وتَرْكهما جميـعًا مُوجِب للكُفْر،

وأمَّا تَرْك واحِدة منهما؛ فالصلاةُ: الصحيح أنه يَكفُر، والزكاةُ: الصحيح أنه لا يَكفُر.

قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: ﴿هُمْ﴾ مُبتَدَأ و﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾ جارٌّ ومجرور مُتعلِّق بـ﴿يُوقِنُونَ﴾، و﴿هُمْ﴾ الثانيـة يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هُمْ﴾ الثانية تَأكيـد] تَأكيد لفظيٌّ لـ﴿هُمْ﴾ الأُولى.

قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَمَـا مِـنَ التَّوْكِيـدِ لَفْظِـيٌّ يَجِـي مُكَرَّرًا كَقَوْلِكَ: ادْرُجِي ادْرُجِـي[1]

قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ المُراد بالآخِرة يوم القِيامة، وسُمِّيَ آخِرة؛ لأنه آخِرُ ما يَكون، فالإنسان له أَربَع مَراحِلَ:

المَرحَلة الأُولى: في بَطْن أُمِّه.

والمَرحَلة الثانِية: في الدنيا.

والمَرحَلة الثالِثة: في البَرزَخ.

والمَرحَلة الرابِعة والأخيرة: يَوم القِيامة.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ الإيمان بالآخِرة ليس مَعناه أن تُؤمِن بأن القيامة ستَقوم فقَطْ، قال شيخ الإسلام ابن تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العَقيدة الواسِطية[2]: «وقد دَخَل في الإيمان باليوم الآخِر: الإيمان بكلِّ ما أَخبَر به النبيُّ ﷺ ممَّا يَكون بعد الموت»، فيَشمَل فِتْنة القَبْر، وعذاب القَبْر، ونعيـم القَبْر، والصِّراط، والحِسـاب، والميزان، والكُتُب التي تُنشَر يوم القيامة، وغير ذلك.

---

(١) الألفية (ص٤٦).

(٢) العقيدة الواسطية (ص٩٥).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن إقامة الصلاة من الإحسان؛ لأن ما بعدَها بيانٌ لها: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الصلاة أَحبُّ الأعمال إلى الله تعالى؛ لأن الله تعالى قدَّمها على إيتاء الزكاة مع أن إيتاء الزكاة فيه نَفْع مُتَعدٍّ للغير، ولكن الصلاة أَحَبُّ إلى الله تعالى منها وأفضَلُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحثُّ على إقامة الصلاة، يُؤخَذ ذلك من: ثَناء الله تعالى على المُقيمين لها، والثَّناء لا يَكون إلَّا على فِعْل شيء مَحبوب مَرغوب من الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فَضْل إيتاء الزكاة، وأنها تَلِي الصلاةَ في الفضيلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الثناء على مَن أَيْقَن بالآخِرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات البَعْث.

الآيــة (٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [لقمان:٥].

القرآن الكريم أحيانًا يُكرِّر الآياتِ بعَيْنها، فهذه الآيةُ مُكرَّرة في سورة البـقَرة، وإن كان فيها اختِـلاف يَسيرٌ في الآية الأُولى التي قبـلها، أمَّا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ فهي آية واحِدة.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أَتى بـ﴿عَلَىٰ﴾ الدالَّة على الاستِعْلاء، يَعني: أنهم على هُدًى يَسيرون عليه، وهم به عالون مُرتَفِعون؛ لارتِفاع مَرتَبَتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ هذه الجُملةُ جُملة اسمِيَّة مُؤكَّد خبَرها بضمير الفصل، وهو قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، فإنَّ ﴿هُمُ﴾ ضمير فَصْل، وضَمير الفَصْل يُفيد ثلاث فَوائِدَ:

الفائِدةُ الأُولى: الفَصْل بين الصِّفة والخبَر.

والفائِدةُ الثانِية: الحَصْر.

الفائِدةُ الثالِثة: التوكيدُ.

فإذا قلت: (زَيْدٌ القائِمُ)، هذا: مُبتَدَأ وخبَر، لكن يُحتَمَل أن تكون (القائِمُ) صِفةً لـ(زَيدٌ) وأن الخبَر مُنتَـظَر: (زَيدٌ القائِمُ فاضِلٌ) مثَلًا، فإذا قلت: (زيدٌ هو القائِمُ)،

تَعيَّن أن تَكون (القائِمُ) خبَرًا، ففَصَلت الآن بين الصِّفة والخبَر، كذلك إذا قلت: (زَيدٌ هو القائِمُ)، فإنه يُفيد الحَصْر، (زَيْدٌ هو) يَعنِي: لا غيره هو (القائِمُ)، كذلك إذا قلت: (زَيْدٌ هو القائِمُ)، أَبلَغُ في التوكيد من قولك: (زيدٌ القائِمُ).

فهنا قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ يَعنِي: لا غيرهم، والمُفلِح يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو الفائِزُ] والفائِزُ هو السَّعيد، والمُفلِح يَقولون: إنه مَن أَدرَك المَطلوب ونجا من المَرغوب، فحصَل له ما يُريد وسلِم ممَّا لا يُريد.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن المُتَّصِفين بما تَقدَّم همُ الذين على الهُدَى، فيَتَفرَّع على ذلك: أن مَن خالَف فيما تَقدَّم فليس على هُدًى، وأنه فاتـه من الهُدى بقَدْر ما فاته من العمَل واليَقين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إظهار فَضْل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على هَؤلاءِ الفُضَلاءِ؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الإشارة إلى أن رُبوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نوعان: عامَّة، وخاصَّة؛ فالعامة: لجميع الخَلْق ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾، والخاصَّة: للمُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن بهذه الأَعمالِ الفاضِلةِ الجَليلة والاعتِقادات النافِعة يَحصُل الفَلاح؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنـه لا سَبيلَ إلى الفَلاح إلَّا بذلك؛ وجهُه: الحَصْر في قـوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

الآيــة (٦)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [لقمان:٦].

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾: (مِن) للتَّبعيض، والجارُّ والمَجرور خبَر مُقدَّم، و﴿مَن يَشْتَرِى﴾ مُبتَدأ مُؤخَّر.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن يَشْتَرِى﴾ مَعنَى الاشتِراء: الاختِيار، يَعنِي: مَن يَختار، وعبَّر عن الاختِيار بالاشتِراء إشارةً إلى حِرْصهم على هذا الأَمرِ؛ لأن الاشتِراء إنما يَكون بالمُعاوَضة، فكأنهم لقُوَّة اختِيارهم هذا الشيءَ بذَلوا فيه أموالهم ليَنالوه.

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ الفَرْق بين (يَشتَري) و(يَشْري) أن (يَشرِي) بمَعنَى: يَبيع، و(يَشتَرِي) بمَعنَى: يَبتاع، وعند الناس أن الشِّرَى هو الاشتِراء، وليس كذلك، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ يَشرِي نفسه يَعنِي: يَبيعُها، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ﴾ [التوبة:١١١]، اشتَرَى أَنفُسهم فهم بائِعون.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ أي: ما يُلهِي منه عمَّا يَعنِي] ﴿لَهْوَ﴾ مُضافة إلى ﴿ٱلْحَدِيثِ ﴾ من باب إضافة الشيء إلى نَوْعه، فالإضافة على تَقدير (مِنْ) كما يُقال: ثُوبُ خَزٍّ، ثوبُ صُوفٍ، خاتَمُ حَديدٍ، خاتَمُ فِضةٍ، وما أَشبَه ذلك؛ فهي على

تَقدير (مِنْ) وهكذا كلَّما أُضيف الشيء إلى نَوْعه فالإضافة فيه على تَقدير (مِنْ).

إِذَنْ: ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: لَهْوًا من الحديث، واللَّهْو كل ما يُلهَى به، والذي يُلهَى به أَغلَبُ ما يَكون في الشيء الباطِل، وقد يُلهَى بالخير عن الشَّرِّ، لكن أكثَر ما يُطلَق اللهو في مَقام الذَّمِّ، وكـل لَهْوٍ يَلهو به ابنُ آدَمَ فهو باطِل، إلَّا مُداعَبـة أهله، وتَرويض فرَسه، وما أَشبَه ذلك ممَّا يَكون فيه مَصلَحة، وإلَّا فإن الأصل أن ما يُلهَى به باطِل.

والذي يُلهَى به نوعان: حديثٌ وهو القول، والثاني: فِعْل. أي: حرَكات، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكَرَ هنا لهوَ الحديث فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: ما يُلهَى به عمَّا يَعنِي] كل ما يُلهَى به عمَّا يَعنِي فهو مِن لَهْو الحديث، وأمَّا ما يَعنِي الإنسانَ ولكن يَلهو بالمَفـضول عن الفاضِل، فليس هذا من لَهْو الحديث؛ لأن له فائِدةً في اللَّهْو في المَفضول، لكنها فائِدة ناقِصة، ولا شـكَّ أن الأقوال مَراتِبُ كما أن الأفعال مَراحِلُ، فلو تَلهَّى الإنسان بحديث فيه فائِدة عن حديثٍ أَفيَـدَ منه، فليس هذا من لَهْـو الحديث؛ لأن فيه فائِدةً، ليس مُجرَّد لَهْوٍ يَلهو به الإنسان، وإذا كان فيه فائِدة فإننا نَقـول لهذا الرجُلِ: إن اختيارك للمَفضول عن الفاضِل يُعتبَر سُوء تَصرُّف منك، والذي يَنبَغي أن تَلهو بالأفضل عن المَفْضول.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(لِيَضِلَّ) بفَتْح الياء وضَمِّها] وأمَّا الضادُ فهي مَكسورة على القِراءَتَيْن: (لِيَضِلَّ) أي: هو، و﴿لِيُضِلَّ﴾، أي: يُضِلُّ غيره. وفائِدة القِراءَتين هنا اشتِمال هذا الكلِمةِ على المَعنيَيْن، وهُما: الضلال بنَفْسه وإضلال غيرِه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طريق الإسلام] والصَّواب أن يُقال:

(طريق الله وهو الإِسْلام)؛ فسَبيل الله تعالى طريقه المُوصِّل إليه، والذي وضَعه هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو الإسلام، فسُمِّيَ سبيل الله أو طريق الله؛ لأنه مُوصِّل إليه، ولأنه سبحانه هو الذي وضَعَه وشرَعه لعِباده؛ ويُطلَق على سبيل المُؤمِنين كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النساء:١١٥].

ولا تَنافيَ بين الإضافَتين فهو مُضاف إلى الله تعالى؛ لأنه مُوصِّل إليه، وهو الذي وضَعه وشرَعه، ومُضاف إلى المُؤمِنين؛ لأنهم هُمُ الذين يَسلُكونه، ومثله: الصِّراط، أُضيف إلى السالِكين في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، وأُضيف إلى الله؛ لأنه الذي شرَعه ووضَعه لعِباده: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣].

قوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ هذا لا يَعنِي أن هناك لَهْوًا يَضِلُّ به الإنسان بعِلْم، فهي إِذَنْ: صِفة كاشِفة مُبيِّنة لحقيقة الأَمْر، أي: أن فِعْله هذا ناشِئٌ عن الجَهْل بالله عَزَّوَجَلَّ، وعن الجَهْل بشَرْعه، وعن الجَهْل بحقيقة ما خُلِق له، إذ كيف تَتلهَّى بأَمْر لا تَستفيد منه؟! هذا جَهْل بما يَنبَغي أن تَعلَمه؛ لتَعتبِر به.

ولم يُمثِّل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن كثيرًا من المُفسِّرين قال: إن المُراد بلَهْو الحديث هو الغِناء، وممَّن قال بذلك ابنُ مَسعود[1] رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكذلك ابنُ عبَّاس[2] رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وجماعة، حتى إن ابنَ مَسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَحلِف فيقول: واللهِ الذي لا إلهَ إلَّا هو

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ١٠١)، والطبري في تفسيره (١٨/ ٥٣٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤١١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ١٠١)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٧٨٦)، والطبري في تفسيره (١٨/ ٥٣٥).

إنه الغِناءُ، والغِناء يُنبِت النِّفاق في القَلْب.

وتفسير الصَّحابيِّ حُجَّة، حتى ذهَب الحاكِم[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجماعة من أهل العِلْم إلى أن تفسير الصحابيِّ له حُكْم الرَّفْع، يَعنِي: يَكون كالحديث المَرفوع، والصحيح أنه ليس له حُكْم الرفع، إلَّا أن يَكون ممَّا لا مَجالَ للاجتِهاد فيه، فأمَّا مُجرَّد تفسير آية بمُقتَضى اللغة العربية فإنَّ الصحيح أن تَفسير الصحابيِّ ليس في حُكْم الرَّفْع، لكنه مُقدَّم على غيره.

ثُمَّ اعلَمْ أنَّ المُفسِّرين من الصحابة والتابِعين ومَن بعدَهم قد يَذكُرون تفسير الآية على سبيل المِثال، لا على سبيل الحَصْر، فإذا قال ابنُ مَسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إن المُراد بلَهْو الحديث الغِناءُ، لا يَعنِي أنه لا يَتَناوَل غيره، قد يَكون هذا على سبيل التَّمثيل فقَطْ.

ويَدُلُّك لهذا قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢]، قال بعضُ العُلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في التَّفسير: الظالِم لنَفْسه هو الذي يُؤخِّر الصلاة عن وقتها. وقال آخَرون: هو الذي لا يُزكِّي، ثُمَّ قال: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾: إذَنِ المُقتَصِد هو الذي يَأتِي بالصلاة في آخِر وقتها، وقال آخَرون: هو الذي يُؤدِّي الزكاة المَطلوبةَ فقَطْ، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ قال بعضهم: هو الذي يُصلِّي الصلاة في أوَّل وَقْتها. وقال آخَرون: هو الذي يُؤدِّي الزكاةَ والصدَقاتِ.

وهذا يَدُلُّ على أن العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ قد يُفسِّرون الآية ببعض الأمثِلة، فلا يُنافِي أن تَكون الآية مُتناوِلة لغيرها، فتَفسير ابنِ مَسعود وابنِ عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما

---

(١) معرفة علوم الحديث (ص٢٠).

لِلَهْو الحديث بأنه الغِناء، لا يَعنِي أنه يَمتَنِع أن يُراد بالآية ما هو أعمُّ.

وعلى هذا فنَقول: الآية تَشمَل كل لهـوِ حديثٍ لا نَفْعَ فيه من الغِناء، ومنه أيضًا مُطالَعة ما يُكتَب في الصحُف والمَجلَّات من الكلام الهُراء الذي لا فائِدةَ منه فإنه في الحقيقة مَضيَعة للوَقْت، وإذا كان يَشُدُّ الإنسانَ إلى ما هو أبطَلُ، صار أشدَّ.

فعلى كل حال نَقول: لهوُ الحديث كل حديث لا فائِدةَ منه، سواء كان ذلك يَجُرُّ إلى مُحرَّم، أو لا يَجُرُّ إلى مُحرَّم، لكن إن جَرَّ إلى مُحرَّم صار أعظَمَ.

فإذا قال قائِل: الآية يَقول الله تعالى فيها: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أو (لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) وأنت قلـت: إن لَهْو الحَديث كل ما لا نَفعَ فيه، وما لا نَفْعَ فيه قد يُضِلُّ وقد لا يُضِلُّ.

فإننا نَقول: إن الإنسان إذا عوَّد نَفْسه على أن يَشتَغِل بهذا اللهوِ الذي لا نَفعَ فيه جرَّته إلى ما فيه مَضرَّة؛ لأن النفس إمَّا أن تَشغَلها بالحَقِّ أو تَشغَلك بالباطِل؛ واللَّام في قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) أو ﴿لِيُضِلَّ﴾ هل هي للتعليل أو للعاقِبة؟

الجَوابُ: هي صالِحة للأَمْرين، فإن كان الإنسان يَقصِد بلَهْو الحديث أن يُضِلَّ غيره به، فاللَّام للتَّعليل، وإن كان لا يَقصِد ذلك فاللَّام للعاقِبة، مثال التي للعاقِبة: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، فاللَّام هنا لا شَكَّ أنها للعاقِبة؛ لأنهم ما أَرادوا أن يَكون لهم عَدُوًّا وحزَنًا، إنما أَرادوا العَكْس، إنما العاقِبة صارت كذلك.

فإن قال قائِل: تَفسير اللهوِ بالغِناء، هل هو الغِناء المُحرَّم أم كل الغِناء؟

فالجَوابُ: الغِناء المُحرَّم، أمَّا الغِناء الذي ليس مُحرَّمًا فلا يَدُلُّ في الآية إلَّا إن شغَل عن ما هو أهمُّ منه صار داخِلًا فيه.

فإن قيل: ما ليس فيه فائِدة مِثْل بعض الأشعار التي لا يُستَفاد منها اللغة العربية، ولا يُستَفاد منها مَوْعِظة أو ترقيق قَلْب، هل يَدخُل في لَهْو الحديث؟

فالجَوابُ: الظاهِر أنها تَدخُل في لَهْو الحديث الذي لا يَنفَع ولا يَضُرُّ، لكنه قد يَجُرُّ إلى ما يَضُرُّ، وإن لم يَكُن من ضرَره إلَّا أنه يُلهِي عمَّا هو أهَمُّ.

ومن لَهْو الحَديث أيضًا: الذي قد يُضِلُّ عن سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما يُوجَد في قصائِد الصُّوفية البَريئة من الشِّرْك، وإلَّا بعضها شِرْك -والعِياذُ بالله- بعضها يُفضِي إلى الحُلول، وأن الله عَزَّوَجَلَّ حالٌّ في المخلوقات، وهذا مَعروف شأنه حتى لو كان نَثْرًا، فإنه مُحَرَّم.

ولكن بعضها ليس كذلك إلَّا أن بعض الناس يَتَلهَّى به عن مَواعِظ القُرآن والسُّنَّة حتى يَكون ذلك دَيدَنَه، وهذا لا يَجوز.

ويُوجَد الآنَ ما يُسمَّى بالأناشيد الإسلامية التي استَوْلت على عُقول كثير من الناس حتى صار كأنما يَقرَأ القرآن، فهي دائِمًا على لِسانه وعلى قَلْبه، وهذا ذَكَر شيخُ الإسلام في الفَتاوى[1]: أن ذلك ممَّا يُلهِي عن الكِتاب والسُّنَّة وحذَّر منه تَحذيرًا كثيرًا.

ولكن عندما يَكون عندك مثَلًا ضَعْف وخوَر وكسَل وتُريد أن تَسمَع هذه الأشياءَ؛ لتُرقِّق قلبك هذا لا بَأسَ به، ولكن قَصْدي بأُولئك الذين اتَّخَذوها دَيْدنًا لهم؛ فالإكثار منها والاشتِغال بها عن مَواعِظ القُرآن والسُّنَّة هو المَحظور.

فإن قال قائِل: إذا كان إنسان قد تَعوَّد على الغِناء فترة، ثُمَّ لمدَّة شَهْر أو شهرين أَراد سَماع الأناشيد للمُعالجَة؟

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٩٤).

فالجَوابُ: أمَّا إذا كانت للمُعالَجة، فالإنسان قد يُعالَج بالسَّمِّ القَتَّال، يُمكِن أن يُعالَج بالسَّمِّ، وهذا نحن الآنَ نَراهم يُعطون الناس حُبوبًا وجُرعاتٍ تَكون قاتِلة، لكن يَتَّخِذونها للعِلاج، فإذا لم يَكُن طريق إلَّا هذا فلا حرَجَ، لكن أيضًا تَكون مع الحذَر الشديد.

وإن قيل: قد يَكون صوت الغُلام المُنشِد جميلًا، وقد يَكون أشَدَّ تأثيرًا من صوت النِّساء؟

فالجَوابُ: أنَّ مَسأَلة حُسْن الصوت إن كان يُؤدِّي إلى فَساد وثَوَران شَهْوة فهذا مُحرَّم، وإن كان لا يُؤدِّي ولكنه يَزيد الإنسان استِماعًا، هذا فلا بأسَ منه.

ثُمَّ إن بعض الناس يَجعَل أيضًا مع هذه القَصائِدِ دُفًّا، فيَكون إلى اللَّهْو أقرَبَ منه إلى الذِّكْر.

وبعض الناس يَقول: هذِه أَهْونُ من الأغاني! فنَقول: لست مجبرًا على فعل أحَد الأمرَيْن حتى تقول: أنا مُخيَّر بينَهما فأختارُ أَيْسَرُهما؛ فقد يَفعَلها الإنسان وهو يَشعُر أنه مُذنِب فيُحاوِل الإقلاع، لكن هذا يَفعَله على أنه مُتقرِّب إلى الله تعالى بذلك فيَستَمِرُّ عليه.

وما هذا إلَّا نَظير هؤلاء الذين يَتَحيَّلون على الرِّبا بالخِداع وبيع القماش والهيل وما أشبَهَها، يَقولون: هل هذا أَحسَنُ أمِ الرِّبا الذي في البُنوك؟!

فنَقول: ليس الإنسان مُخيَّرًا بين هذا أو هذا، والحمد لله فهناك أشياءُ مُباحة يَتمَكَّن من فِعْلها دون أن يَفعَل هذه الأشياءَ التي تَصُدُّه عن القُرآن وعن السُّنَّة.

إذَنِ: الضابِط في لَهْو الحديث هو: كل كلام لا فائِدةَ منه، وأمَّا ما فيه فائِدة

ولكن اشتَغَل به عمَّا هو أَفْيَدُ فليس لَهْوًا، لكنه خِلاف الحِكْمة، إذ إن الحِكْمة أن يَشتَغِل الإنسان بالأفضَل عن المَفضول.

إِذَنْ: لَهْو الحديث هو كل كلام لا فائِدةَ منه، وعاقِبته ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالنَّصْب عَطْفًا على (يَضِل)، وبالرفع عَطْفًا على ﴿يَشْتَرِى﴾] قِراءتان (لِيَضل عن سبيل الله) ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ يَكون عَطْفًا على (يَضل)، أو ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ عَطفًا على ﴿يَشْتَرِى﴾ يَعنِي: ومن الناس مَن يَتَّخِذها هُزوًا، وبينهما فَرْق؛ لأن قِراءة النصِّ تَجعَل الحامِل على مَن يَشتَرِي لهوَ الحديث أمرين: الضلال، واتِّخاذه هُزوًا، وأمَّا على قِراءة الرفع: فإن الحامِل على شِراء لَهْو الحديث شيء واحِد، لكن من الناس أيضًا مَن يَتَّخِذ آياتِ الله تعالى هُزوًا، أي: مَكانًا للاستِهْزاء.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ مَهزوءًا بها] أَشار المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [مَهزوءًا] إلى أن المَصدَر هنا بمَعنَى اسم المَفعول، وهو كثيرًا ما يَأتي في اللغة العربية، يَعنِي: مَهزوءًا بها.

واتِّخاذ آيات الله تعالى هُزوًا له أنواعٌ كثيرة:

١- منها: أن يَستَهزِئ بالقرآن في نَظْمه وتَرْكيبه.

٢- ومنها: أن يَستَهزِئ بالقرآن في أَخباره، ويَقول: أساطيرُ الأوَّلين.

٣- ومنها: أن يَستَهزِئ بالقُرآن في أَحْكامه.

٤- ومنها: أن يَستَهزِئ بالسُّنَّة.

٥- ومنها: أن يَستَهزِئ بالرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

٦- ومنها: أن يَستَهزِئ بمَن تَمسَّك بالسُّنَّة، لا لشَخْصه ولكن لعمَله، وهي كثيرة حتى إنَّ بعض أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يَقول: إنَّ الإنسان إذا صلَّى وهو مُحدِث، فهذا استِهْزاء بآيات الله تعالى؛ ويَقول: إنه إذا عمِل مُبطِلًا من مُبطِلات العِبادة فهو مُستَهزِئ بآيات الله تعالى.

وعلى كل حال: كل مَن حوَّل آياتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى هُزءٍ بالقَوْل أو بالفِعْل أو بالهَيْئة، فإنه يُعتبَر مُتَّخِذًا لها هُزؤًا.

والاستِهْزاء بآيات الله عَزَّوَجَلَّ ليس بالأمر الهيِّن، حتى إنَّ أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يَقولون: مَن قال كُفْرًا أو فعَل كُفْرًا ولو هازِلًا فإنه يَكفُر، واستَدَلُّوا لذلك بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾: (أُولاءِ) اسمُ إشارة للجَمْع، مع أن الضمائِر التي قَبلها للمُفرَد ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى ﴾ ﴿لِيُضِلَّ﴾ ﴿وَيَتَّخِذَهَا ﴾ فهي للمُفرَد، وهنا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ﴾ جمع؛ لأن ﴿مَن﴾ اسمٌ مَوْصول تَصلُح للمُفرَد والجماعة، فإن أَفرَدت ما يَعود عليها صِرْت مُتَّبِعًا للَفْهوهم، وإن جمَعْته فأنت مُتَّبِع لمَعناه.

ويَجوز أن تُراعِيَ لفظها أو مَعناها في كل الكلام ويَجوز أن تُغيِّر، انظُرْ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ كل هذا على سبيل الإفراد التابع للَّفْظ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ هذا باعتِبار المَعنَى، ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق:١١] باعتِبار اللَّفْظ، فهي آية واحِدة ومع ذلك غُيِّرت فيها الضمائِر من مُراعاة اللَّفْظ إلى مُراعاة المَعنَى إلى مُراعاة اللَّفْظ.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين يَفعَلون هذا الفِعْلَ ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أَتى بـ﴿لَهُمۡ﴾ -وهو الخبَر- قبل المُبتَدَأ لإفادة الحَصْر، وأَتى بالجُمْلة الاسْمِية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ﴾ لإفادة الثُّبوت والدوام والاستِحْقاق لهذا العَذابِ.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ العَذاب بمَعنَى: العُقوبة، و﴿مُّهِينٞ﴾ أي: ذو إهانة. يَعنِي: يُهينهم -والعِياذ بالله- فلمَّا كانوا يَستَعِزُّون بأنفُسهم، ويَسخَرون بآيات الله تعالى حتى يَضَعوها عن مَكانها اللائِق بها عُوقبوا بمِثْل جِنايتهم، ودائِمًا: الجزاء من جِنْس العمَل في الدُّنيا والآخِرة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ وزِيادة بعدها: ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد:٧] قال ﷺ: «**ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»(١) مِثْلًا بمِثْل، وعلى هذا فقِسْ.

فالجَزاءُ من جِنْس العمَل، فهذا الرجُلُ الذي اتَّخَذ آياتِ الله تعالى هُزوًا غرَضُه من ذلك أن يَضَعها بين الناس، وأن يَجعَلها مَحَلَّ سُخرية، غير مَعبوءٍ بها، ولا مُهتَمٍّ بها، فصار جَزاؤُه- والعِياذ بالله- أن الله تعالى يَجزيه بالعَذاب المُهين الذي يُهينه ويُذِلُّه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: ذَمُّ مَن يَرْكَن إلى لَهْو الحَديث، وهو ما لا خَيرَ فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي...﴾ إلى آخِره.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَحرِيم الغِناء؛ لِأَنَّ ابنَ مَسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَقسَم بالذي لا إلهَ إلَّا هو

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٦٠)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في الرحمة، رقم (٤٩٤١)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الناس، رقم (١٩٢٤)، من حديث عبد الله ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أنَّه الغِنـاء، وتَفسيرُ الصحابيِّ حُجَّـة، حتى ذهَب الحاكِم وجماعة مِن أهـل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ إلى أنَّ تَفسيرَه في حُكْم المَرفوع، ولا شَـكَّ أنَّ الغِناء المُشْتَمِل على آلَةِ اللَّهْو لا شَكَّ أنَّه حرام؛ لأن نَفْس آلة اللَّهْو حرام، قرَنَها رسول الله ﷺ بالزِّنا والخَمْر والحَرير، فقال -كما في صحيح البخاري مِن حديث أبي مالِك الأشعريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لَيَكُونَنَّ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتِي يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ وَالحَرِيرَ وَالخَمْرَ وَالمَعَازِفَ»[1] فكلِمة «يَسْتَحِلُّونَ»، دليل على أنَّها حرام، واستِحْلالهم لها إمَّا باعتِقادِهم أنَّها حلال، وإمَّا بفِعـلِهم إيَّاها فِعلَ المُسْتَحِلِّ لهـا الذي لا يُبـالي، والمَوجود الآنَ الأمران، فـإنَّ مِن الناس مَنِ استَحَلَّ هذه المَعازِفَ -والعِياذ بالله- وقال: إنها حلال، ومِنهم مَن يَعتَقِدُ تَحريمها، لكنه يَفعَلها فِعْل المُستَحِلِّ لها بدون مُبالاة.

ولا يَغُرَّنَّكُم ما وقَـع فيه الناس اليـومَ مِن الانهِماك بِها، فإنَّه أَصبَـحَ لها تأثيرٌ عظيم على قُلوبِهم ودِينِهم وسُلوكِهم، وانظُرْ إلى المُبْتَلَيْنَ بهذا الأمرِ -والعِياذُ بالله- يَكون ما هَمُّهُم إلَّا هذا الأَمرُ، وهُم أَبْعَدُ الناس عن مَعرِفة القُرآن والسُّنَّة ومَواعِظ القُرآن والسُّنَّة.

ولهذا ذَكَر بعضُ أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أنَّه لا يَجتَمِع حُبُّ الغِناء، وحُبُّ كِتابِ الله عَزَّوَجَلَّ، قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حُبُّ الْكِتَابِ وَحُبُّ أَلْحَانِ الْغِنَـا ... فِي قَلْبِ عَبْـدٍ لَـيْسَ يَجْتَمِعَـانِ[2]

ولهذا قال هنا: ﴿يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه معلقًا البخاري: كتاب الأشربة، باب فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه، رقم (٥٥٩٠)، من حديث أبي عامر أو أبي مالك الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) النونية (ص٣٢٦).

والغِناء بدون آلَةٍ إن اشتَمَل على مُحَرَّم فهو حرام، وقد يَصِل إلى حَدِّ الشِّرْك، كما لو اشتَمَل على الغُلُوِّ في مَدْح أحدٍ غُلُوًّا يَصِل بـه إلى درجة الخالِق، وقد يَكون مُحَرَّمًا وفِسْقًا كما لو اشتَمَل على تَحقيـق الفِسْق والمُجُون وما أَشبَهَ ذلك، وقد يَكون مُحَرَّمًا تَحريمَ الغِيبَة كما لو كان يَسُبُّ شَخْصًا مُعَيَّنًا، المُهِمُّ أنَّه درجات.

أمَّا إذا كان مُباحًا فإنَّه لا شَكَّ أنه مِن اللَّهْوِ، لكنَّه إذا اسْتُعِين به على شيء مُباح فلا حرَجَ فيه، مِثْل: غِناء العُمَّال الذين يُغَنُّون لِأَجْل أن يَتَقَوَّوْا على ذلك، وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في حَفْرِ الخَندق يَرتَجِزون، والرسول ﷺ يُجِيبُهُم، يَقولون:

نَحْـنُ الَّـذِينَ بَـايَعُوا مُحَمَّـدَا ... عَـلَى الْجِهَـادِ مَـا بَقِينَـا أَبَـدَا

والرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُجِيبُهُم ويَقول:

اللَّهُمَّ لَا خَـيْرَ إِلَّا خَـيْرُ الْآخِـرَهْ ... فَـارْحَمِ الْأَنْصَـارَ وَالْمُهَـاجِرَهْ[1]

الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَنقُل التُّراب ويَرْتَجِزُ بقول عبد الله بنِ رواحةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

اللَّهُـمَّ لَـوْلَا أَنْـتَ مَـا اهْتَـدَيْنَا ... وَلَا تَصَـدَّقْنَا وَلَا صَـلَّيْنَا

فَـأَنْزِلَنْ سَـكِينَةً عَلَيْنَـا ... وَثَبِّـتِ الْأَقْـدَامَ إِنْ لَاقَيْنَـا

إِنَّ الْأُلَى قَـدْ بَغَـوْا عَلَيْنَـا ... وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَـةً أَبَيْنَـا

قال البَراءُ بنُ عازِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راوِي الحديث: «يَمُدُّ صوتَه بِآخِرِها»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب حفر الخندق، رقم (٢٨٣٥)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٨٠٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم (٤١٠٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٨٠٣).

فهذا لا بأسَ به لِما فيه مِن الإعانَة على العمَل.

ومِنه حُدَاءُ الإبِل فَإِنَّه كان يُحْدَى بين يَدَيِ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الإبِل؛ لأنَّ حُدَاءَ الإبِل يَزيدُها مَشْيًا فتُسرِع، فإنهم يَذكُرون مِن أحوالها أَشياءَ عَجيبة عندما يَحدو الحادِي إذا كان حَسَن الصوت تَمشِي مِن غير شُرُود؛ ولهذا كان الرسول ﷺ يَقول: «**يَا أَنْجَشَةُ رِفْقًا بِالْقَوَارِيرِ**»(١) يَعنِي: بِالنساء، وشَبَّهَهَا بالقوارير لِأَجْل أن يَرْفُق بِها أكثَر؛ لأنَّ القوارِير مَع الحرَكة تَتكَسَّر.

فالحاصِلُ: أن نَقول: إن الغِناء له الأحوال له التي ذُكِرت، إنِ اقتَرَن بآلة لَهْو كما هـو المَوجود الآنَ فهو حرام ولا شَكَّ فِيـه؛ لأنَّه داخِل في حديث أبي مالـك الأشعريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي رواه البخاري(٢) رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهو حَرام لا رَيبَ فيه، وإذا خَلا فهو على حَسَب الحال.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ لَهْو الفِعْل أيضًا لا يَجوز التَّساهُل فيه، ويُؤْخَذ ذلك مِن قوله تعالى: ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ فإنَّ القِياس أنَّ لَهْو الفِعْل كذلك؛ لأنَّ الكُلَّ لَهْوٌ وضَياعُ وَقْتٍ.

وعلى هذا فالألعاب التي لا تَزِيد الإنسان نَشاطًا ولا قُوَّةً، ويَضيع بها الوقت تَدْخُلُ في هَذا.

مسألة: الشِّطْرَنْج فيه خِلاف بين أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، والصَّحِيح أنَّه حرام.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز، رقم (٦١٤٩)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب في رحمة النبي ﷺ للنساء، رقم (٢٣٢٣)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه معلقًا البخاري: كتاب الأشربة، باب فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه، رقم (٥٥٩٠)، من حديث أبي عامر أو أبي مالك الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقد ادَّعى بعضُهم: أنَّ الشطرنج تَشْحَذُ الأَذْهان، واعترَض عليه آخَرُ، فقال: إنَّ الذين يَلعَبونها مِن أبلَدِ الناسِ أَذْهانًا؛ لأنَّهم لا يَعرِفون أشياءَ زائِدةً عمَّا يَتعلَّق بهذه اللُّعبةِ، فهم بُلَداءُ فيما سِواها؛ ولهذا لو نَاقَشْتَهم في أمور لا تَتعلَّق بهذه اللُّعبةِ لوجَدْتَهم من أبلَدِ الناس؛ لأن أفكارَهم انحَصَرَت في هذه اللُّعبةِ؛ فأينَ ما يُقال: إنه شَحْذ لِلذِّهْن؟!.

فالمُهِمُّ: أنَّه يُؤخَذ مِن فَحوى الآية الكريمة: أنَّ لهْو الفِعْل كَلَهْوِ الحَديث.

فإن قال قائِل: هل الكُرَةُ تَدخُل في هذا أو لا؟

فالجَوابُ: أنَّ الكُرَة لا تَدخُل هنا؛ لأنَّ الكُرَة فيها رِياضة بدَنِيَّة إلَّا إذا ترتَّب عليها محذُور شَرعي مِن تَرك واجبٍ أو فِعل محرَّم، أو كانَت تَشتَمِل على كَشْفِ العَورة، كما لو كانوا مثَلًا يُبْدُون أفْخَاذَهم، فإنَّ تكون محرَّمة؛ كالبَيع والشِّراء - الذِي هو جائِز بالإِجْماع- إذا أَلْهى عَن واجِب صارَ حرامًا، لكن إذا انتَفَت عن المَحظُور فلا أَرَى بِها بأسًا؛ لأنَّها تُفِيد البَدَن.

لكن في بعض الأحيان تَكون الكُرَة مُغالَبة بين فريقَيْن يَنتَميان إلى نادِيَيْن، ثُمَّ إذا غُلِبَ أحدُهما بدَأَ الآخَرون يَحذِفون بالحِجارة أحيانًا ويُكَسِّرُون السيَّاراتِ، فهذه رُبَّما نَقول: مِن هذه الناحيةِ قد تَكون مُحَرَّمَة؛ فيَحدُث هذا ممَّن يَنْتَمون إلى النَّوادِي حسبَ ما سَمِعت، وبعضهم قد يَكون مُعْتَدِلًا ولا يَحصُل مِنه هذا الشيءُ.

لكن افرِضْ أنَّ جماعة مِن الناس خرَجوا إلى نُزْهة، وكان عندهم فَراغ مَثَلًا، وأَرادوا أن يَفعَلوا هذه، فلا نَقول: هذا حرام.

المُهِمُّ: أنَّها في الأصل هي مُباحة، فإنِ اقتَرَن بها ما يَقتَضِي التَحْرِيم حُرِّمت،

فكل المُباحات إذا اقتَرَن بها ما يَقتَضي التحريم تَكون حرامًا، وإذا اقتَرَن بها ما يَقتَضي الوجوب صارت واجِبًا؛ لأن المُباح لِذَاته قد تَتَعَلَّق به الأحكام الخَمْسة كما هو مَعروف.

وأنا أُحِبُّ أن نَفهَم القواعد، فـ(تَحرِيم الحلال أَشَدُّ من تَحليل الحرام)؛ لأن الله تعالى يُحِبُّ أن يُيَسِّر على عِباده ويُوسِّع لهم، فلا يُمكِن أن نُقدِم على شيء ونَقول: هو حرام إلَّا بالدليل؛ لأننا مَسؤُولون عن هذا يوم القِيامة، مَسؤُولون عن نِسبته إلى الله تعالى أنَّ الله تعالى حرَّمه، ومَسؤُولون عن التَّضييق على عِباد الله تعالى فيما أَباحَه الله تعالى لهم، فالمَسأَلة ليست هَيِّنَةً.

ولْنكُن مُعتَدِلين لا نَميل إلى قول مَن يَقول: إن الكُرَة تَصِل إلى درجة الاستِحْباب أو الوُجوب. ولا إلى قول مَن يَقول بالتَّحريم مُطلَقًا، نَقول: هي في الأصل مُباحة. هذا رَأْيِي، وإنِ اقتَرَن بها ما يَقتَضي التحريم صارت حَرامًا وإلَّا فَلا.

فإذا تَضَمَّنت إشغال الإنسان عمَّا هو أهَمُّ، أو عن واجِب لا شَكَّ أنَّها حرام، عمَّا هو أهمُّ خِلَاف العِقْل فيها نوع مِن السَّفَه، ولكن لا نَقول: حرام؛ لأنَّ الإنسان يَجُوز أن يَشتَغِل بما ليس بأَهَمَّ عن الأهَمِّ إذا لم يَكُن واجِبًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ذَمُّ كُلِّ ما يَصُدُّ عن سبيل الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ثُمَّ إن كان يُضِلُّ عن واجِب صار حرامًا، وإن كان يُضِلُّ عن مُسْتَحَبٍّ لم يَكُن حرامًا، لكنَّه يُذَمُّ بلا شكٍّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَحريم الهُزْء بآيات الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾، والاستِهْزاء بآيات الله تعالى حُكْمُه الكُفْر، فمَنِ استَهْزَأ بآيات الله تعالى فهو كافِر

بِنَصِّ القُرآن: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة:٦٤-٦٥] وماذا قال؟ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾، فهو صَريح في الكُفْر؛ ولهذا قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنَّ مَن قالَ قَوْلَ الكُفْر ولو كان هازِلًا أو مازِحًا فهو كافِر، فمَن سبَّ الله تعالى أو رسولَه أو دِينَه ولو كان هازِلًا فهو كافِر، يَعنِي أن هذا -والعِياذ بالله- أَعظَمُ مِن أن يَسُبَّهُ جادًّا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الوعيدُ الشديد على مَن هذه حالُه؛ لِقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

الآيــة (٧)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان:٧].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا ﴾ أي: القرآن ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾ مُتكبِّرًا ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾].

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي: تُقرَأ عليه آياتُنا من أيِّ إنسان: الرسول ﷺ أو الصحابة أو التابِعين أو أيِّ إنسان.

فإذا قُرِئت عليه آياتُ الله تعالى فإنه يُولِّي مُستكْبِرًا ويُعرِض، وليس إعراضًا على وجه المُماثَلة، أو إعراضًا لشُغْل آخَرَ، ولكنه يُعرِض مُستكبِرًا، والعِياذ بالله.

والاستِكْبار هنا استِفْعال من الكِبْر، والسين والتاء فيه للمُبالَغة، وليسَت للطلَب؛ لأنَّ السين والتاء تارةً تَكون للطلَب كقولك: أَستَغفِر الله. أي: أَطلُب مَغفِرته، وتارةً تَكون للمُبالَغة مثل: استكبَر، فهنا ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾ أي: مُبالِغًا في كِبريائه -والعِياذ بالله- وإعراضه عن آيات الله تعالى.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ هذا تَشبيه في مَوضِع الحال، يَعني: كحال الذي لم يَسمَعها في عدَم الانتِفاع بها، لكنه أَخبَثُ منه؛ لكونه ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾ فالذي لم يَسمَعها قد يَكون مَعذورًا، لكن مَن سمِعها وولَّى مُستكبِرًا فهو كالذي لم يَسمَعها

باعتِبار عدَم الانتِفاع، لكنه أشَدّ باعتِبار تَولِّيه مُستكبِرًا.

ثُمَّ قال: [﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾ صَمَمًا] الوَقْر: الصمَم، كأن الصمَم يَسُدُّ الأذُن، فليس المعنى أنه -والعِياذُ بالله- لم يَسمَع الآياتِ، بل كأن أذُنه التي هي مَحَلُّ السَّمْع غير مُستَعِدَّة للسَّمْع فهو لم يَسمَع، وليس عنده آلة سَمْع، كأن في أُذُنيه وَقْرًا.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وجُمْلَتا التَّشبيه حالان من ضمير ﴿وَلَّىٰ﴾، أو الثانية بَيانٌ للأُولى] إنما هُما في مَحَلِّ نَصْب على الحال من فاعِل ﴿وَلَّىٰ﴾، يَعنِي: ولَّى مُستَكبِرًا، مُشابِهًا لَمن لا يَسمَع، ومُشابِهًا لَمن في أُذُنَيْه وَقْر.

وهذا في غاية ما يَكون من بيان حال هذا الرجُلِ في إعراضه، وعدَم انتِفاعه بآيات الله تعالى.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ البُشرى إذا أُطلِقت فهي بخير، وإن قُيِّدت بالخَيْر صار ذلك تَأكيدًا، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [البقرة:٢٥]، وإن قُيِّدت بالشَّرِّ فهي للشَّرِّ.

فالبُشرَى إمَّا أن تُطلَق أو تُقيَّد:

فإذا أُطلِقت فهي بالخير، مثالُه: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [يونس:٦٣]، ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ [الزُّمَر:١٧].

وإن قُيِّدت بالخير فهي خير، ويَكون ذلك تَأكيدًا مثل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾.

وإن قُيِّدت بالشَّرِّ فهي للشَّرِّ، لكن هل قيلت فيه على سبيل الحَقيقة، أو على سبيل التَّهكُّم؟

الجَوابُ: المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجماعة يَرَوْن أنه قيلت على سَبيل التَّهكُّم؛ لأن الأصل فيها الخير، فإذا قُيِّدت بالشَّرِّ فهو من باب التَّهكُّم به كما في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] على القول بأن المُراد: العزيز الكريم في تِلكَ الحالِ، لا أنك أنت العَزيز الكَريم في الدنيا من قَبلُ.

ولكن قد يَقول قائِل: إن البُشرى إذا قُيِّدت بالشَّرِّ فهي على حَقيقتها، وأن أصل البُشرى من البشَرة، وهي: الإعلام بما يَتغَيَّر به الوجهُ، فإن تَغيَّر بالسرور والانشِراح فهي بالخير، وإن تَغيَّر بالانقِباض والعُبوس فهي في الشَّرِّ، فكل ما كان مُؤثِّرًا على بشَرة الإنسان فهو بُشرى، لكن هي في الأصل في الخَيْر.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: ﴿أَلِيمٍ﴾ بمَعنَى: مُؤلِم، ففي الأوَّل عَذاب مُهين، ذو إهانة، وفي الثاني عذاب أَليم ذو إيلامٍ؛ لأنه فعَل أفعالًا أعظَمَ من الأوَّل، هذا الأخيرُ إذا تُتلَى عليه آياتُ الله تعالى ولَّى مُستكبِرًا، فهو أَعظَمُ من الذي يَشتَرِي لَهْوَ الحديث، فالأوَّل يُصاب بعذاب مُهين، والثاني يُصاب بعَذاب أليم، والمَوْصوف واحِد في الحقيقة، لكن أحواله مُتغَيِّرة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهو النَّضْر بن الحارِث[1] كان يَأتِي الحِيرة يَتَّجِر فيَشتَري كتُب أخبار الأعاجِم ويُحدِّث بها أهل مَكَّةَ، ويَقول: إن مُحَمَّدًا يُحدِّثكم أحاديثَ عادٍ وثمودَ، وأنا أُحدِّثكم أحاديث فارِسَ والرومِ، فيَستَحِلُّون حديثه ويَترُكون استِماع القرآن].

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول: [وهو النَّضْر]، وتَعيينها بالنَّضْر فقَطْ، لا شكَّ أنه قُصور، **والصواب:** أنها عامَّة له ولغَيْره، وسواءٌ بهذه الطَّريقةِ التي كان يَتَّخِذها هو أو بغيرها

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٤٨٣٠)، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

كما سبَق لنا في الأمثِلة، فالصواب العُموم، لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ دائِمًا يَخُصُّ القرآن بالعموم، كما تَقدَّم كثيرًا يَحمِل الآياتِ التي تَتَحَدَّث بالكُفْر والشِّرْك على أهل مكَّة دائِمًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ مِن علامات هذا الصِّنْفِ مِن النَّاس إعراضَهم عن سَماعِ آياتِ الله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذا الذي تُتْلى عليه آياتُ الله تعالى وهو قدِ اشترَى لَهْوَ الحديث يَكون -والعِياذُ بالله- كالإنسان الذي به صمَمٌ لا يُمكِن أن يَصِل إلَيْه سماعُ الحقِّ؛ لقولِه تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الوعيدُ الشديدُ على مَن إذا تُلِيَت عليه آياتُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَلَّى مُستكْبِرًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ثُبوتُ المَدْح والثَّناء لِمَن كان على العكس مِن ذلك؛ لأنَّ الذمَّ على صِفَة يَقتَضي مَدْح مَن اتَّصَف بِضِدِّها، وهذه قاعِدة مُفيدة، فيُؤْخَذ مِنه: مَدْح مَن إذا تُلِيَت عليه آيات الرحمن أَقْبَل إليها واستَمَع إليها؛ ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان:٧٣] لم يَخِرُّوا صُمًّا؛ يَعنِي: ولا عُمْيَانًا، وإنما يُقْبِلُون إليها بآذان سامِعة، وأَعيُنٍ مُبصِرة.

فإذا قال قائِل: هل مِن الإعراض عن آيات الله تعالى مَن يَقُول للقارِئ: انْتَهِ مِن القِراءة؟

فالجَوابُ: لا، بمَعنَى أنك إذا جعَلْت واحِدًا يَقرَأ عليك، ثُم قُلْت: يَكفِي،

ليس مِن هذا؛ لأنَّه قد ثبَت عن النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّه قال لابن مَسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، فقال: يا رسول الله أَقرأُ عليك القرآنَ وعليك أُنزِلَ! قال: «نَعَمْ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فتَلا عليه سورة النساء، فلما بلَغ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١] قال: «حَسْبُكَ» يَعنِي: قِفْ، يَقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فرَأَيْتُ النبيَّ ﷺ عَيناهُ تَذْرِفانِ[1].

وعلى هذا فيَجوز للإنسان أن يَقول للقارِئ: أَوْقِفِ القِراءةَ، كما يَدُلُّ أيضًا على جواز غَلْق (الراديو) إذا كان يَقرَأ القرآن، ولا حرَجَ عليه، وكذلك أيضًا في المُسَجِّل، حتى وإن كان يَتْلو في وسَط القِراءة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ البِشَارة تُطلَق على ما يَسُوء؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾، رقم (٤٥٨٢)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل استماع القرآن، رقم (٨٠٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيتان (٨، ٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [لقمان:٨-٩].

وهذه طريقة القرآن إذا ذَكَر آياتِ الوَعيد وصِفات مَن يَستَحِقُّون ذلك الوعيدَ، ذكَرَ بعدها آياتِ الوَعْد وصِفاتِ مَن يَستَحِقُّ ذلك الوَعدَ.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والإيمان مَحلُّه القَلْب، يَعني: آمَنوا بما يَجِب الإيمان به، وهو كما قال الرسول ﷺ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يَعني: الأعمالَ الصالحاتِ، والعمل الصالِح هو كل ما جمَع بين شَرْطين: الإخلاص لله تعالى، والمُتابَعة للرسول ﷺ، ولا يَدخُل في ذلك التَّرْكُ، فالذي لا يَزني لا نَقول: إنه عمِل.

إذَنْ: مُجرَّد التَّرْك في الحقيقة ليس بعمَل، لكن إذا اقتَرَن به نيـة صار عمَلًا؛ لأنه إذا اقتَرَنَت به النية صار كفًّا للنَّفْس، والكفُّ عمَل؛ ولهذا جاء في الحديث: «**مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ حَسَنَةً كَامِلَةً**»(٢)، لكنه ذكَر عِلَّتها، فقال: «**إِنَّهُ تَرَكَهَا**

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن منده في الإيمان رقم (٣٧٦)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٦٦٤٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مِنْ جَرَّائِي»، أي: من أَجْلي.

فهذا هو الفَصْل في الخِلاف: هل التَّرْك فِعْل وعمَل أم لا؟ نَقول: التَّرْك ليس بفِعْل ولا عمَل إلَّا إذا اقترَن به نِيَّة، فإنه إذا اقترَن به نِيَّة صار فيه كفٌّ للنَّفْس، وحينئذ يَكون بهذا الاعتِبار عمَلًا.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾: ﴿لَهُمْ﴾ خبَر مُقدَّم، و﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ مُبتَدَأ مُؤخَّر، والجُملة من المُبتَدَأ والخبَر في مَحلِّ رَفْع خبَر (إنَّ).

وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ﴾ جَمْع جَنَّة، وجُمِعت باعتِبار أنواعها، وكذلك تُجمَع باعتِبار مَراتبها، والجَنَّة في اللغة هي: البُستان كثير الأشجار، سُمِّيَت بذلك؛ لأنها تَجِنُّ مَن كان فيها. أي: تَستُرُه وتُغطِّيه؛ ولهذا سُمِّيَت جَنَّة.

أمَّا الجَنَّة التي وُعِد المُتَّقون، فإنها: (الدار التي أَعدَّها الله لأَوْليائه، فيها ما لا عَيْنٌ رأَتْ، ولا أُذُن سمِعَت، ولا خطَرَ على قَلْب بشَر).

فيَنبَغي أن تُعرَّف الجَنَّة التي وُعِد المُتَّقون بهذا، لا يُقال: إن الجَنَّة هي الحائِط الكثير البُستان؛ لأنك إذا قلت هذا في تَعريف الجَنَّة التي وُعِد المُتَّقون لا تَشعُر بأن لها من المَقام والعظَمة ما كنت تَتخَيَّله من قبلُ، ولكنك تَقول: (هي دار النَّعيم التي أَعَدَّها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمُتَّقين، فيها ما لا عَينٌ رأَتْ، ولا أُذُن سمِعَت، ولا خطَرَ على قَلْب بشَرٍ).

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾، النَّعيم كلِمة جامِعة، تَشمَل سُرور القَلْب، وتَرَف البدَن، فالإنسان مُنعَّم فيها، في ظاهِره وباطِنه، أمَّا في الدنيا فلا يُمكِن أن يَجتَمِع الأمران، فالغالِب أن مَن تَنعَّم بدنُه فإن قلبه يَغتَمُّ بحُزْن وعَذاب، ومن الناس مَن يُجمَع له بين الأمرين -والعِياذ بالله- أمَّا أهل الجَنَّة فإنهم جمَع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم

بين سُرور القَلْب وبين وترَف البدَن.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مُقدَّرة] اعلَمْ أن الحال تَنقَسِم إلى قِسْمين: حال مُقرَّرة، بمَعنَى أن صاحِبها مُتلَبِّس بها الآنَ، وحال مُقدَّرة بمَعنى أنها ستكون لصاحِبها، فهنا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ فهذا وَعْد، وليس خبرًا، فلم يَقُل: يَدخُلون جَنات النَّعيم، بل وعَدَهم بأن لهم جناتِ النعيم؛ ثُم قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، فهل هم خالِدون فيها حال وَعْدهم بها، أو بعد أن يُبعَثوا؟

الجَوابُ: بعد أن يُبعَثوا؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حالٌ مُقدَّرة؛ أي: مُقدَّرًا خُلودهم فيها إذا دخَلوها] أمَّا الآنَ فليسوا خالِدين فيها؛ لأنهم إلى الآنَ لم يَبعَثوا، ولا وصَلوا إليها، وعليه فنَقول: إنها حال مُقدَّرة، يَعنِي أن صاحِبها لا يَتلَبَّس بها الآنَ.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ الخلود هو: المُكْث، إمَّا الدائِم، وإمَّا الطويل، يَعنِي: أنه قد يَكون مُكْثًا دائِمًا، وقد يَكون مُكْثًا طويلًا، فإذا أُكِّد بالتأبيد وقيل: أبَدًا، فهو قَطْعًا للمُكْث الدائِم؛ لأنه أُكِّد به.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، والوعد هو: مثل العَهْد، أي: أن الواعِد يَتعَهَّد بالموعود بما وعَده به، ويُقال: وَعْد ووَعيد، فالوَعْد فيما يَسُرُّ، والوعيد فيما يَسوء.

وقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ عِندنا مَصدَران؛ فقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مَصدَر عامِله مَحذوف، أي: وُعِدوا وَعْدَ الله، أو وعَدَهم الله وعدَ الله، وأمَّا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَقًّا﴾ فهي أيضًا مَصدَر، ولكن عامِلها أيضًا مَحذوف، التَّقدير: أحقَّه حقًّا، أو حقُّه حقٌّ.

فعليه يَكون الله تعالى أكَّد هذه الجُمْلة الخبَرية بمُؤكِّدين مَعنَوِيَّين:

أحدُهما: أنها وَعْد الله، ووَعْد الله عَزَّوَجَلَّ لا يُخلِف، لأنه لا يُخلِف الميعاد؛ لتَمام صِدْقه وقُدْرته، والإخلاف للوَعْد إنما يَأتي من أَمْرين:

١- إمَّا أن يَكون الواعِد كاذِبًا فليس مَحلًّا للصِّدْق.

٢- وإمَّا أن يَكون صادِقًا لكن يَعجِز عن الوفاء بما وعَدَ.

والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد انتَفَى بحَقِّه الأمران، فهو مُنزَّهٌ عن الكذِب، ومُنزَّهٌ عن العَجْز، فإذا كان مُنزَّهًا عن الكذِب وعن العَجْز لزِم أن يَكون كامِل الصِّدْق والقُدْرة، وحينئذ يَتحَقَّق ما وعَدَ به.

وأمَّا المُؤكِّد الثاني فهو قوله تعالى: ﴿حَقًّا﴾، يَعنِي: أُؤكِّده تأكيدًا وأَحقَّه حقًّا، وهذا من زيادة التَّوْكيد في الوَعْد.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنه الغالِب الذي لا يَمنَعه شيء من تَنفيذ وَعْده ووَعيده] ولكن سبَق لنا أن العِزَّة التي وصَف الله بها نَفْسه لها ثلاثة مَعانٍ: عِزَّة القَهْر، وعِزَّة القَدْر، وعِزَّة الامتِناع.

أمَّا عِزَّة القَهْر: فمَعناها أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الغالِب الذي لا يُغلَب؛ ولهذا يُقال: فُلان عزيز. يَعنِي: غالِب في الجِهاد والقِتال، قال الله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:٣].

الثانِي: عِزَّة القَدْر: بمَعنى أنه ذو قَدْر عظيم.

والثالِث: عِزَّة الامتِناع: بمَعنَى أنه يَمتَنِع عليه النَّقْص، ومنهم قولهم: أرض عِزاز. للأرض القَوِيَّة الشديدة الصُّلْبة. نحن نُسمِّيها باللغة العامية: (عَزَا) يَعنِي: قوِيَّة صُلْبة.

إِذَنْ: فـ(العزيز): هو المُتَّصِف بالعِزَّة، وعِزَّته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ثلاثة أنواع: عِزَّة قَدْر، وعِزَّة قَهْر، وعِزَّة امتِناع.

فأمَّا عِزَّة القَهْر: فمَعناها أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قاهِر لكل شيء لا يَغلِبه شيء.

وأمَّا عِزَّة القَدْر: فهو كماله في ذاته أنه ذو قَدْر عظيم.

وأمَّا عِزَّة الامتِناع: فهو امتِناعه عن كل نَقْص وعِلَّة.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يَضَع شيئًا إلَّا في مَحلِّه] قوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ تَقدَّم لنا أنه مُشتَقٌّ من الحُكْم والحِكْمة، وأن الحُكْم نوعان: حُكْم كونيٌّ قدَريٌّ، وحُكْم شَرْعيٌّ دِينيٌّ، فما جاءت به الرُّسُل من الأوامِر والنَّواهِي: هذه أحكام شرعية دِينية، وما يَتعلَّق بالخَلْق والتَّكوين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فهذا حُكْم كونيٌّ.

ثُمَّ إن هذين الحُكْمين مَقرونان بالحِكْمة، وهي مُوافِقة الصواب، ومُوافَقة الصواب: مَعناها أن يَضَع كل شيء في مَوضِعه، فكل شيء من أَحكام الله تعالى الكونية وأحكامه الشَّرْعية، فإنه في غاية ما يَكون من الصواب وفي غاية ما يَكون من المُطابَقة لمَحَلِّه، فلم يَخلُقِ الله تعالى شيئًا سفَهًا ولا شرَعَ شيئًا سفَهًا، بل كل مَشروعاته فإنها حِكْمة، وكل مَخلوقاته حِكْمة.

وتَقدَّم لنا أن الحِكْمة أيضًا نَوْعان: حِكْمة غائِية، وحِكْمة صورية، والصورية مَعناها: أنَّ الشيء على هذه الصُّورةِ المُعيَّنة مُوافِق للحِكْمة، والغائِية مَعناها: أن إيجاد هذا الشيءِ له حِكْمة وغاية مَحمودة.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ هـذا القُرآنَ مِن طريقته أنه إذا ذَكَر العـذاب ذَكَر النعيم، وإذا ذَكَر المُؤمِنين ذَكَر الكافِرين، وهكذا؛ لأنَّه لو ذُكِر الإيمان أو المُؤمِنون ولم يُذْكَر ما يُضَادُّه غَلَبَ على الإنسـان جَانِبُ الرجاء، ولو ذُكِرَ التخويف وأهل النار غَلَب عليه جانِبُ الخوف، وهذا يَضُرُّ المرء، وإنَّما يَكون المَرْء أَتَمَّ إذا صار يَسير إلى الله عَزَّوَجَلَّ بَيْن الخوف والرجاء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلةُ الإيمان والعمَل الصالِح، ويُؤْخَذُ ذلك من قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ﴾؛ ووجهُه: أنَّ الثواب بِالحُسنى على العَمَل يَدُلُّ على مَدحِه والثَّناءِ على فاعِلِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الإيمان لا يَكفِي، بل لا بُدَّ مِن عَمَلٍ صالِح، فمُجَرَّد العقيدة لا تَكفِي إذا لم يَكُن عمـلٌ صالِح، بل ربما نَقول: إنَّه إذا لم يَكُن عمَل صالِح فهو دليل على أنَّه لا عَقيدةَ؛ لأنَّ النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقول: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ**»(١).

لكن مِن الأعمال مَا لا يُخْرِج مِن الإيمان، لا فِعْلُه ولا تَرْكُه، فيَكون من الكبائر لكن لا يُخْرِج مِن الإيمان، وإنَّما يَدُلُّ على ضَعْف العَقيدة والإيمان، ومِن الأعمال ما يَكون فِعْلُه أو تَرْكُه كُفْرًا، فلو أنَّ أحـدًا غلا بِشخصٍ حتى رفَعَه إلى مَنـزِلة الرَبِّ، كان بذلك كافِرًا، وإن كان يَعتَقِد أن الله تعالى مَوْجود، وأن الله لَه الأسباب الكامِلة، ولو أن أحَدًا لم يُصَلِّ كان كافِرًا، ولو كان يَقول: أَشهَدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ الله.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال ابنُ القيِّم[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا تَغتَرَّ بِمَن قال: إنَّ رجُلًا يُحافِظ على تَرْك الصلاة، ثُمَّ يَقول: إنه مُؤمِن فإنَّ هذا لا يَدرِي عن أعمال القلوب وشُؤُونِها وأحوالِها، ولا يُمكِن لإنسان يُحافِظ على تَرْك الصلاة ثمَّ يَقول: إنَّه مُؤمِـن، لو قال ذلك فهو كافِر، إذْ إنَّ الإيمان حقًّا لا يَدَعُه يَترُك الصلاة مع عِلْمِه بِفضلِها والوعيد على تَرْكِها.

فكيف تُؤمِن بأنَّ الرسول ﷺ قال: «مَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ» ثُمَّ لا تُصَلِّي؟ وكيف تُؤمِن بأنَّ الرسول ﷺ يَقول: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ»[٢] ثُمَّ لا تُصلِّي! فأين الإيمانُ؟ وكيف تُؤمِن بأنَّ هذه الصلاةَ ما فُرِضَت على الرسول ﷺ إلَّا وهو في أعلى مَكان وفي أَشرَفِ ليلة، وبدُونِ واسِطة، وعلى أنَّها خَمسون صلاةً[٣]، وكلُّ هذا يَدُلُّ على عِناية عظيمة بهذه الصلاةِ، ثُمَّ لا تُحافِظ عليها، وتَقول: إنَّك مُؤمِن!!.

أَعتَـقِد لو أنَّ أحدًا مِن النـاس قال له ملِـك من المُلوك: إذا زُرْتَني في بيـتي أَعطَيْتُك كذا، وإذا لم تَزُرْني عاقَبْتك بِكَذا. ثُم لَمْ يزُرْه هل يَكون عندَه الثِّقة بِما قال هذا المِلِكُ؟ لا يَكون عِنده ثِقَة، لو كان عنـده ثِقَة لذهَب بلا شَكٍّ على رأسه لا على رِجْلَيـه! فكيف بوَعْدِ الله عَزَّوَجَلَّ ووعيدِه!!.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ الجنَّة؛ لِقوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾، وهي مَوْجودة الآنَ، وقد دخَلها النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ورأَى فيها قَصْرًا لِعُمَرَ بنِ الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) انظر: الصلاة وأحكام تاركها (ص٦٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٤٦)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم (٢٦٢١)، والنسائي: كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة، رقم (٤٦٣)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، رقم (١٠٧٩)، من حديث بريدة بن المحصب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، رقم (١٦٤)، من حديث مالك بن صعصعة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هذه الجَنَّاتِ مُشْتَمِلَة على النعيم الذي هو سُرُورُ القَلْب، وتَرَفُ البدَن، فأبدانُهم في غاية ما يَكون مِن التَّرَف، وقلوبهم في غايةِ ما يَكون مِن السرور؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان:١١] ﴿نَضْرَةً﴾ في أبدانِهم، ﴿وَسُرُورًا﴾ في قلوبِهم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ هذه الجَنَّاتِ جَنَّاتُ خُلْد لا مَوتَ فيها؛ لِقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، وقد ورَدَ في عِدَّة آيات مِن القرآن ذِكْر التَّأْبِيد لِهذا النعيمِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الآية تَدُلُّ على أنَّه لا مرَضَ في الجَنَّة، ووجهه قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ لأنَّ المرَض يُنافي النعيم، وعلى أنَّه ليس فيها شَيْخوخة؛ لأنَّ الشَّيْخُوخَة تُنافِي ذلك أيضًا، وعلى أنَّه ليس فيها هَمٌّ أو كَدَر أو تَنغِيص أبدًا، كُلُّ هذا يُنافِي النعيم، اللهُمَّ اجعَلْنا من أهلها خالِدين فيها.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ هذا الوعدَ حَقٌّ لا يُمكِن أن يُخْلَف؛ لِقولِه تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾؛ ويُمكِن أن يُستَفاد مِنه: أنَّه لا حُجَّةَ لهم بعد أن أَكَّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا الوَعْدَ بهذا التَّأكيدِ، وبعد أَنْ ذكَر أيضًا الوعيد على مَن خالَف.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فضلُ الله تعالى عَلى عِباده بِكونِه يُؤكِّد لهم هذه الأمورَ هذه التأكيداتِ، مَع أنَّه جَلَّ وَعَلَا يَكفِي خبرُه، لكنَّه يُؤَكِّد هذا الخبَرَ وهذا الوعدَ مِن أَجْل أن يَقْوَى الناسُ على الحُصول على هذا النَّعيمِ، وذلك بالإيمان والعمَل الصالِح.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثبات العِزَّة والحِكْمة لله تعالى؛ لِقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وإثباتُ هذين الاسمَيْن مِن أسماء الله تعالى، وهما: العزيز والحكيم.

• • ۞ • •

الآيـة (١٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان:١٠].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ أي: العَمَد جمع عِماد، وهو الأُسطوانة، وهو صادِق بأن لا عَمَدَ أَصلًا] قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جَمْع سَماء، ويُطلَق السماء على كل ما علا، ويُطلَق على السموات ذات الأَجْرام المَحسوسة، والمُراد هنا ذات الأجرام المَحسوسة، خلَقها الله عَزَّوَجَلَّ بغَيْر عمَد.

وقوله: [والعَمَد جَمْع عِماد كالأُسطوانة]، فالعَمود المَعروف، يَعنِي: ليس لها أَعمِدة تَحمِلها؛ وهل المَعنَى أن لها عمَدًا لا تُرَى، أو أن المَعنَى أنه لا عمَدَ لها؟

الجَوابُ: فيه اختِلاف؛ فقيل: إنه لا عمَدَ لها، وهو ما جرَى عليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [وهو صادِق بأن لا عَمَدَ أصلًا] بمَعنَى أنه يَصلُح أن تَقول: هذا ليس له عمَد تُرَى، يَعنِي: إذا انتَفَت رُؤْيتها انتَفَتْ هي؛ لأنه لو كانت لرأَيْناها كما نَرَى السماء، فلمَّا لم نَرَها فمَعناه: أنه لا وُجودَ لها.

وقال بعضُهم: نعَمْ، هي ليس لها عمَدٌ، لكن الضمير في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ لا يَعود على العَمَد، إنما يَعود على السماء؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي: السمَواتِ كذلك لا عمَدَ لها.

وقال بعضُ المُفسِّرين: إن مَعنَى قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أن لها عمَدًا، لكن لا تُرَى.

والصواب: أنه لا عمَدَ لها، وأن الله عَزَّوَجَلَّ أمسَكها بقُدْرته، كما قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج:٦٥]، فكونها لا يَكون لها عمَدٌ أبلَغُ في قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ.

فالآيةُ لها مَعنَيان: الأوَّل: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾؛ أي: لا عمَدَ لها، والثاني: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، أي: لها عمَدٌ، لكن لا تُرَى، والمَعنَى الأوَّل هو الصحيح، ولكن المَعنى الأوَّل له تَخريجان:

أحَدُهما: أن يَكون قوله تعالى: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ الهاء تَعود على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يَعني: أنكم تَرَوْنها كذلك لا عمَدَ لها، فهي لا عمَدَ لها.

والثاني: يَعود على العمَد، أي: بغَيْر عمَد تَرَوْنها، وهو صادِق بأنه ليس لها عمَد أَصْلًا كما تَقول: ليس في هذا المكانِ عَمود أَراه. المَعنى: ليس فيه عَمود.

وهذا -أَعني: كونَه لا عَمدَ لها- أَصَحُّ وأبلَغُ في قُدْرة الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ جِبالًا مُرتَفِعة] ﴿وَأَلْقَىٰ﴾ بمَعنَى: وضَع ﴿فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ جَمْع راسِية، وهذه الرَّواسِي هي: الجِبال.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٢]، فهي رَواسٍ لنَفْسها، وهي أيضًا مُرْسِية للأرض مُثبِّتة لها.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَن﴾ لا ﴿تَمِيدَ﴾ تَتَحرَّك ﴿بِكُمْ﴾] فقَدَّر (لا) النافية بعد (أَنْ)، وهذا مَوْجود، فإنَّ (لا) النافيةَ قد تُقدَّر بعد (أَنْ) مع حَذْفها؛ وقد تُوجَد بعد (أَنْ) وهي زائِدة مثل قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، فهنا (لا) زائِدة بعد (أَنْ)، والتقدير: لأَنْ يَعلَم أهل الكتاب أَنْ لا يَقدِرون.

وقد تُحذَف وتَكون مُقدَّرة كما في هذه الآيةِ: أن لا تَميد بكم؛ لأنَّهُ مِن المعلوم أنَّ الله تعالى ما أَلقَى هذه الرواسِيَ لِأَجْل أن تَميدَ بنا، وإنما أَلقاها لئَلَّا تَميد، فتكون (لا) هنا عَيَّنَها السِّياق.

وقال بعض المُعْرِبين: أنه لا تُقدَّر (لا)، بل يُقدَّر اسمٌ مُناسِب، أي: كراهةَ أن تَميدَ بكُمْ، نعَمْ، وقالوا: إنَّ هذا أَوْلى؛ لئلا نُفسِّرَ الإثباتَ بالنفيِ؛ لأننا إذا قلنا: التقدير: أن لا تَميد بكم. فسَّرنا الإثباتَ بالنفيِ، فإذا قُلْنا: كراهةَ أن تَميد بكم. فإننا نُفسِّر الإثباتَ بإثباتٍ، لكن على تَقدير المُضاف.

وهذا له نظير مِثْل قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء:١٧٦]، فالبَيان هنا سبَبٌ لِعدَم الضلال، إِذَنِ المَعنَى: يُبيِّن الله تعالى لكم كراهةَ أن تَضِلُّوا، على قول، أو أَنْ لا تَضِلُّوا، على قولٍ آخَرَ.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾: ﴿تَمِيدَ﴾، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَتَحرَّك بِكُمْ]، فَسَّر المُفَسِّر المَيَدَان بِالحرَكة.

والصواب: أنَّ المَيَدان حرَكة خاصة، وهو الاضطِراب، وليس مُجرَّد الحرَكة، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَلقَى في الأرض رَواسِيَ حتى لا تَميدَ؛ أي: لا تَضطَرِب، وذلك لأنَّ الأرض مَوْضوعة على الماء، فإنَّ جميع جوانب الأرض من كل ناحية ماء،

والجِسْم إذا وُضِع في الماء يَتحرَّك ويَضطَرِب لا شَكَّ، فإذا كان كذلك فلا بُدَّ مِن شيء يَحفَظُ تَوازُنه، وذلك الشيء هو الجِبال، فجعَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الجِبال فيها على الأرض حتى لا تَضطَرِب بالناس.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، يَعنِي: أن تَضطَرِب، وعند عُلماء الجُيُولُوجيا مِن هـذه الحِكَم والعِلَل شيءٌ كثير؛ لأنه في بعـض الأماكن تَكثُرُ الجبال العظيـمة الطويلةُ الكبيرة، وفي بعض الأماكِن تَقِلُّ، وهذا يَرجِع إلى الحِكْمة التي خلَقها الله عَزَّوَجَلَّ، وقد تَخْفَى علينا، لكنها عند العُلَماء مَعروفة.

قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ﴾ بمَعنَى: نَشَرَ ووَزَّع ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ الدَّابَّة: اسم فاعِل؛ أي: مِن كُلِّ نفسٍ دابَّةٍ، فهي اسم فاعِل من دَبَّ يَدُبُّ، إذا ضَرَبَ ونَشَر، والدابَّة يُطلَق عُرْفًا على ذاتِ الأربَع، ويُطلَق أيضًا في عُرفٍ أخَصَّ على الحِمار فقَطْ.

أمَّا مَعناها في اللغة العربية فهي: كل ما دَبَّ على الأرض، سواءٌ يَمشِي على أربع، أو على اثنَيْن، أو على أكثَر، أو على بطنِه أو على رِجْلَيْن، كُل ذلك يُسَمَّى دابَّةً.

ونَشَرَ الله عَزَّوَجَلَّ في الأرض هذه الدوابَّ لِحكمةٍ عظيمة؛ لأنَّ مِن هذه الدوابِّ ما هو نافِع ويَنتَفِعُ الناس به، ومنها ما هو ضارٌّ، فيَحتَرِز الناس عنه، ومنها ما لا نَفعَ فيه ولا ضرَرَ، فيَعرِفُه الناس بما جعَل الله عَزَّوَجَلَّ فيه مِن الآيات، فيَعرفون به كمالَ قُدرةِ الله تعالى وحِكْمتِه.

فالأشياءُ النافِعة ظاهِرةٌ حِكمتُها مثل نَفْع العِباد، وقيام مَصالِح دِينِهم ودُنيَاهُم بها، مِثْل قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا

مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس:٧١-٧٣] هذا نَفْع.

ومِنها ما هو ضارٌّ، والحِكْمة مِن خَلْق الضارِّ كثيرة مِنها:

١- بيانُ كَمالِ قُدرةِ الله عَزَّوَجَلَّ حيث كان قادِرًا على أن يَخلُقَ ما فيه مَنفَعة ومَصلَحَة، وما فيه مَضرَّة، فالكلُّ خَلْقُ الله تعالى، والكُلُّ دَابَّة، والكلُّ مِن مَاء، ومع ذلك هذا نافِع وهذا ضارٌّ، هل العَقْرب أكبَرُ أم البَعير؛ ولا يَحتاج أن أَقول: إن البعير أكبَرُ. لكن مع ذلك العَقربُ مؤذِيَة ضارَّة والبعِير بالعَكْس، تَجِد البعير يَأتي الطِّفْل الصغير يَقوده لِمَا يُريد، فتَمشِي معه، وهذه حِكْمة.

٢- أنَّ الإنسان يَعرِفُ بذلك قَدْرَ نفسِه؛ فهذا الإنسانُ المُتَمَرِّد المُستكبِر يَعرِف قَدْر نَفْسه في هذه المَخلوقاتِ المُؤذِية؛ ولهذا يُقال: إن مَلِكًا جبَّارًا كان جالِسًا وحولَه مِن أهل العِلْم مَن حَولَه، فكان يَقول: ما الحِكْمة مِن خلْق هذه الذُّبابةِ؟ فقال له رجُل: الحِكْمة مِن ذلك أن يُرغِمَ الله تعالى بها أُنوف الجبابِرة مِثلك، فهذه الذُّبابةُ تَقَع على أَنْف أيِّ إنسان وتَذْرِق عليه، فهذا من الحِكْمة: أن يَعرِف الإنسان قَدْر نفسِه، وأنَّه ضعيف بالنِّسبة إلى قُوَّةِ الله عَزَّوَجَلَّ، فالبَعوضة ليست بشيء، ضَعيفة مَهِينَة، ومع ذلك تُقِضُّ مَضْجع الإنسان حتى لا يَنام، فهذا مِن الحِكْمة.

٣- أنَّ الإنسان يَذوق الألَم بها والعَذاب حتى يَعرِف أنَّ العذاب غير مُلائِم له، فيُوجِبُ له ذلك النُّفورَ مِن مَعصية الله إلى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

٤- أنَّ الإنسان ربما يَحمِله الخوف منها على أن يَقومَ بما يَنبَغي أن يَقومَ به مِن الأوراد والأذكار، فكثيرٌ مِن الناس قد يُورِد ويَقرَأ ما يَعصِمه مِن الأذى ليس بسبَب شَياطين الجِنِّ، ولكن خوفًا ممَّا يُؤذيه حِسًّا، وهذا شيء مُجرَّب ومُشاهَد.

وقد حكَى لي بعض الناس الثِّقات أنَّه كان مِن عادتِه أن يَقرَأ آية الكُرسيِّ كلَّ ليلة يَقول: فنَسِيتها ذاتَ ليلة فلُدِغْتُ بعد النوم. لُدِغ لأنَّه ليس عنده مِن الله تعالى شيءٌ حافِظ، وقد قال ﷺ: «وَمَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ»(١).

هذه مِن الحِكَم: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بَثَّ في الأرض مِن هذه الدوابِّ المُؤذِية.

أمَّا ما لا نَفعَ فيه ولا ضرَرَ من الدواب فإنَّ الإنسان يَستَدِلُّ به على حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ وأنه مُحيطٌ بكل شيء، تَجِد هذه الدوابَّ على كَثْرة أنواعها لا تَستَطيع أن تُحصِي أنواعَها فَضْلًا عن أفرادِها، فما بالُك وقد أعطاها الله تعالى الهِداية لما هو مِن مَصالِحها؟! قال موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا قال له فِرعونُ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

وأنت إذا رأَيْت هذه النَّملةَ الصغيرة كيف هَداها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى مَصلَحتِها ومَنفَعتِها؟ كيف تَدَّخِر القُوتَ لها؟ وكيف تَجْلُبُه مِن بعيد؟ وكيف تُكَسِّر أطراف الحُبوب؟ السِّرُّ الذي مِنه تَنْبُت تُكَسِّرُه قبل أن تَختَزِنه، حتى لا يَنبُت؛ لأنَّه إذا جاءَه المَطَر والنَّدى فإنه يَنْبُت، لكن إذا كُسِر أعلاه الذي هو سِرُّه الذي يَنبُت مِنه فإنَّه لا يَنبُت، مَن الذي أَلهَمَها ذلك؟ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هي ما درَسَت في مَدارِس، ولا تَخرَّجت في الثانوية، ولا قرَأَت في كُلِّيَّة العُلوم، لكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي عَلَّمها ذلك.

وقد شاهَدْتُ أنا عندما تَسقِي النَّخلة وحولها ذَرٌّ ويَأتِي النَّدى إلى أولادها؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا، رقم (٢٣١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَخرُج بأولادها حامِلةً لهم -وأولادها بَيْض لم يَحْيَ بعدُ إلى الآنَ- تَجِد كل واحدة مِنهم حامِلة ولَدها تَخرُج به عن هذا الماءِ؛ حتى لا يُصيبَه أو يُهلِكَه، وهذا مِن آيات الله عَزَّوَجَلَّ، يَتبيَّن بِه الإنسان حِكْمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأنَّه واسِع عليم، وأنه بكل شيء مُحِيط، وأنه لا يَخفَى عليه شيء في الأرض ولا في السَّماء.

وقد ذكَر ابنُ القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ في (مِفتاح دار السعادة)[1] مِن هذه الأمورِ أشياءَ عَجيبةً، وذَكَرَ أنه ذُكِرَ لِشيخِ الإسلام ابنِ تيميَّةَ رَحِمَهُٱللَّهُ أنَّ رجلًا وَضَعَ شيئًا من الطُّعْم لِذَرَّة مِن الذرَّات، فلما رأَتِ الطُّعْم هـذا لم تَستَطِع أن تَحمِلَه فهو كبير، فذهَبَت إلى أخواتها، فاستَصْرَخَتْهم، فجاؤُوا إلى هذا المكانِ، يَقول: فلما أَقبَلوا نَزَعَ الطُّعْم، فجعَلوا يَبحَثون في مَكان فلم يَجِدوا شيئًا فرَجَعوا، فوضَعه ثانِيةً، فلمَّا وجَدَتْه الذَّرَّة ذهَبَت إلى أخواتها فاستَصْرَخَتْهم فجاؤُوا، ولكن لَمَّا أَقبَلوا رفَعَه، فلمَّا لم يَجِدوا شيئًا رجَعوا، في المرة الثالثة فعَل بهم كذلك، يَقول: فاجتَمَع الذَّرُّ عليها فقتَلوها.

وقال شيخُ الإسلام: هذا لأن جميع النُّفوس مَجبولة على بُغْض الكذَّاب الظالِم، وهذه لَمَّا كذَبَتْ عليهم ظلَمَتْهم، فأَخَذَتْهم من بُيوتهم وهم في تعَب وعَناء، والنتيجة لا شيءَ، وهذا شيءٌ عظيم؛ فإذا تَأمَّل الإنسان هذه الأُمورَ يَجِد العجَب العُجاب! سبحان الله!

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أنزلنا﴾ يَقول رَحِمَهُٱللَّهُ: [فيه التِفات من الغَيْبة] إلى المُتكَلِّم؛ وقد سبَقَ لنا أنَّ الفائِدة في الالتِفات: تَنبيهُ المُخاطَب أو القارِئ؛

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٤٣).

لأنَّه إذا تَغيَّر أُسلوب الكلام لا بُدَّ أن يَنتبِه، وهنا الفائِدة الثانية في هذا: بَيان القُدرَة أنَّ الأرض مُفْتَقِرَة إلى السماء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وهو المَطَر، والمُراد بالسماء هنا العُلُوُّ؛ لأن المطَر ليس يَنزِل مِن السماء التي هي السَّقْف المحفُوظ، وإنما يَنزِل مِن العُلُوِّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ صِنْف حَسَن] (صِنْف) تَفسير لـ﴿زَوْجٍ﴾، و(حَسَن) تَفسير لـ﴿كَرِيمٍ﴾، وعِندي أن الكريم هو الحَسَن وزِيادة، وهو ما يَنتَفِع الناس به مِن هذا النباتِ، كأنَّه رجُل مِعْطَاءٌ يُعطِي ويُغدِق هذا الخيرَ فهو نَبَاتٌ حَسَن، ومع ذلك نافِع بسبَب ما فيه، والزوج يَأتي بمَعنَى: الصِّنْف، ومنْه قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص:٥٨] ومِنه قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢]، أي: أَصنافَهم وأَشكالَهم. والله أَعلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ خلقِ الله تعالى لِلسَّموات.

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: إبطالُ قولِ الفلاسِفة في قِدَم الأفلاك، فالفلاسِفة يَقولون: إنَّ الأفلاك قَديمة، وأنها لا تَتغيَّر؛ لأنَّ القديم عندهم الذي لا ابتِداءَ له، ومَا لا ابتِداءَ له لا انتِهاءَ له، فيَكون في هذا إبطالٌ لِقولِ الفلاسِفة: إن الأفلاك قديمة وإنَّها لا تَتغيَّر. ومِن ثَمَّ أَنكَرُوا انشِقاقَ القمر إنكارًا شديدًا، وقالوا: القمَرُ لا يُمكِن أن يَنشَقَّ؛ لأنَّه مِن الأفلاك، وإنَّما مَعنَى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]؛ أي: بَانَ صِدْقُ الرِّسالة، وأَنكَرُوا الأحاديث الوارِدة في ذلك والتي تَلَقَّتْها الأُمَّة بالقَبُول.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ قُدْرةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في خَلْقِ هذه السمَواتِ العَظيمة؛ قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَانُ القُـدرة مِن وجهٍ آخَرَ، وهي أنَّ هذه السمَـواتِ العَظيمةَ والسَّقْـف الواسِع بغير عَمَد؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، وأَظُنُّنا لو رأَيْنا بِنـاءً واسِعًا ليس فيه أَعمِدة لَكُنَّا نَتَعَـجَّب مِن هذا البِناءِ، كيف هذا البِنـاءُ الواسِع ليس فيه عَمَد؟! معَ أنَّ بِناء السَّماء أَوْسَع وأَعظَمُ، ومعَ ذلك بغير عَمَد.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيَانُ حِكْمَة اللهِ ورحمتِه في إلقاء الرَّواسِي؛ لئَلَّا تَميدَ بالخَلْق.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الأرض تَدور، يَقولون: لِأن قولَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يَدُلُّ على وجود أَصْل الحَرَكة؛ لأنَّ نَفْيَ الأَخصِّ يَدُلُّ على وُجُودِ الأَعَمِّ، أَلَمْ تَرَوْا إلى قـولِه تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ حيث كان دليـلًا على وُجود أَصلِ الرُّؤْيَة! فقولُه تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أَلَيْس دَليلًا على أنَّ الرؤية مَوْجودة! وهذه الآيةُ استَدَلَّ بها أهلُ السُّنَّة على إثباتِ رُؤْيَة الله تعالى، وأهلُ البِدْعة على نَفيِ رُؤيةِ الله تعـالى، ولكن الصواب مع أهل السُّنَّة؛ لأنَّ نَفْيَ الأخص يَقتَضِي وُجودَ الأعمِّ، إذ ليس مِن المَعقول أن يُنْفَى الأخـصُّ مع انتِفَاءِ الأعمِّ، ثُم لا يُتَـطَرَّقُ لَهُ؛ ولو كان الأخصُّ مُنْتَفِيًا لوَجَب أن يُنْفَى الأعمُّ لِأَجْل أن يَدْخُل فيه الأخصُّ، لو كان الله تعالى لا يُرَى لقال الله عَزَّوَجَلَّ: لا تَراه الأبصار. حتى تَنْتَفي الرُّؤية ويَنتَفِيَ الإدراك مِن بابِ أَوْلى، فلَمَّا قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ عُلِمَ أنَّ أصل الرؤية مَوجُود، لكنَّه لا يُدْرَك عَزَّوَجَلَّ؛ وهنا لَمَّا قال تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ والمَيَدان الاضطِراب عُلِم أنَّ أصلَ الحَرَكة مَوْجود، لكن هذه الرَّواسيَ لأَجْل اتِّزان الحَرَكة حتى لا تَضطَرِب. هذا هو تَقدير مَن يَرَى أنَّ في الآية دَليلًا على أنَّ الأرض تَدور.

أمَّا الذين يَقولون: فيها دليل على أن الأَرْض لا تَدُور. فيَقولون: إننا لا نُسَلِّم أن المَيَدَان مَعناه: الاضطِراب، بل نَقول: إن المَيَدَان هُو الحرَكة، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ أن تَرسوَ ولا تَتَحَرَّك، فيُفسِّرون المَيَدَان بِمُطْلَق الحرَكَة.

وإذا كان الأمرُ كذلك، فإنَّ الواجِب أن نَرجِع إلى اللغة العربية، فإذا كانت اللغةُ العربية تَدُلُّ على أنَّ المَيَدَان هو الاضطِراب، فنحن نَقول: إنَّ فيها دليلًا على وُجُود أصلِ الحرَكة. وإذا كانت اللغة العربية تَقول: إنَّ المَيَدَان هو الحرَكة. فإننا نَقول: فيه دليل على أنَّها لا تَدُور. ونحن إذا قُلْنا: إنَّها تَدور لا يَنقُصُ الله تعالى شيئًا، بل هو في الواقِع زِيادة في قُدْرَتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ حيث تَدور هذِه الأرضُ بجَميع ما فيها مِن بِحَار وأنهَار وأَشْجار ومَدَر وحَجَر وكُلِّ شيء تَدُور، ومَع ذلك بهذا الاتِّزَانِ البَدِيع الذي لا يَتَغَيَّر، هذا دليل على قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ، كما أنَّ سكونَها وهي على الماء دليل على قُدْرَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لكن الشَيْء الذي يَجِب أن يُنْكَر -حتى يَتبيَّن لنا كالشمس- هو القول بأنَّ اخْتِلاف اللَّيل والنَّهار بسبب دَوَران الأرض، فهذا لا نُسَلِّم به، بل نَقول: إنَّ الليل والنهار بسبَب دَوَرَان الشَّمس على الأرْض؛ لأنَّ هذا هو ظَاهِرُ القُرآن، ولا يُمكِن أن نَتَزَحْزَح عَنْه إلَّا بدليل فيه مِثل الشمس.

فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَثبَت الفِعْل لِلشَّمْس: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف:١٧]، ولم يَقُل: إذا طَلَع الكهفُ عليهم يَتزَاوَر، وأَثبَت ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ ولو كانت الحرَكة للأرض لكانَت الأرض هي التي تَزَاوَر، ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾ هذا الفِعلُ الثالِث، ولو كانت الأرض هي التي يَكون بدورانها اختِلاف الليل والنهار لقال: وإذا غرَبَتِ الأرض، أو خَفِيَ جُزءُ الأرض. أو ما أَشبَه ذلك؛ و﴿تَقْرِضُهُمْ﴾

نَفْس الشيء: فِعْل، والنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا غرَبَتِ الشمس قال لأبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»[1] فأَخبَر أنها تَذهَب هي بنفسِها.

وهذا هو الصواب بلا شكٍّ، إلَّا إذا ظهَر لنا دَلِيل مِثْل الشمس، فإنَّه يُمكِن أَنْ تُؤَوَّل هذه الآياتُ إلى أن المَعنَى: غَرَبَت وطَلَعَت باعتِبارِ رُؤْيَة الرَّائِي، وإن كان الرائِي هو الطالِع، فأنت تَسِير في سيارة، وفي سَيْرك طلَع عليك مثلًا ناقةٌ تَقول: بينما أَسير إذ طلَعَت عليَّ ناقة؛ فتَقول: طلعَت علينا. مع أنَّك أنت الطالِع عليها، هذا مُمكِن لُغةً، لكنَّا ما دُمْنا لم نَتَيقَّن هذا الأمرَ، وإنما هي نظريَّاتٌ مِن قومٍ لا يُؤْمِنون بالقرآن، ولا يُؤمِنون بالشرائِع، فإننا لا نَقْبَلُ ذلك مِنْهَم، بل نَأْخُذ بظاهر كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائِل: إن قولَكم هذا يُناقِض قولَكم بإمكانِ دَوَرَانِ الأَرْض، يَعنِي: إذا أَمكَن دوَران الأرض لزِم أن يَكُون تَعَاقُب الليل والنهار بِسبَب دَوَرَانها.

فالجَوابُ: إن هذا لا يَلزَمُنا؛ لأنَّه مِن المُمْكِن أن يَدُور هذا وهذا، وتَكون حَرَكَةُ الشمس ودورانُها أسرَعَ، وإذا كان أسرَعَ لَزِم مِن ذلك أن تَطُوفَ بِالأَرْض ولَو مَعَ دَوَرَانِ الأرْض، يَعنِي: يُمكِن أن تَكون الأرض تَدور قليلًا وهذه تَكون أكثَر، فيُمكِنُها أن تَلُفَّ علَى الأرض.

فالحاصِلُ: أنَّ هذه المَسائِلَ لا شَكَّ أنَّ الواجِب على المُؤْمِن أن يَأْخُذ بِظاهِر القُرآن والسُّنَّة، فإن هذا الواجِبَ في الأمور الغَيْبية وفي الأمور التي لا يُمكِن إدراكُها حِسًّا، ثُمَّ إذا تَبيَّن له بعد ذلك بِالحِسِّ أنَّ ظَاهِر القُرآن غَيْرُ مُراد، فإنَّنا يَجِب علينا

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣١٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٩/ ٢٥٠).

أن نُؤَوِّل ظاهِرَ القرآن؛ لأنه لا يُمكِن أن يَتَعَارَض القرآن مَع الوَاقِع، فمُستَحِيل هذا، ولو أننا جَوَّزْنا ذلك عَقْلًا لَلَزِم أن يَكُونَ في القرآن ما هو كَذِب؛ لأنَّ الكَذِب هو خِلاف الواقِع، وهذا أَمْر مُستحيل.

ولذلك يَجِب علينا أمام هذه النَّظَرياتِ أن نَجعلَها كأحاديث بَنِي إسرائيلَ:

أوَّلًا: ما وافَقَ القُرآن فهو حَقٌّ وأخَذْنَا بِه، ولكِنَّنَا لا نَأخُذ به على أنَّه هو الذي أَثْبَتَه، بل على أنَّ القرآن هو الذي أَثْبَتَه، وإنما نَقول ذلك: لِئَلَّا يَكُون لَهُم الفَضْلُ علَيْنَا.

ثانيًا: مَا خَالَفَ القُرآن وَجَبَ عليْنَا رَدُّه.

ثالثًا: ما لا نَعلَمُ مُوافَقَتَه لِلقرآن ولا مُخالفتَه فهذا العَقلُ والشَّرْع يَقتَضِي أن نَتَوَقَّف، ونَقُول: إننَا لا نُصَدِّق ولَا نُكَذِّب. وحينئذٍ يَحتاجُ الإنسان طَالِب العِلْم إلى أن يَتَعَمَّق ويَتَأَمَّل ويَنْظُر نَظَرًا عَمِيقًا جِدًّا في نُصُوص الكِتاب والسُّنَّة؛ حتى لا يَحْكُمَ بِأنَّ الوَاقعَ يُخالِفُها، فيَكونُ في ذلك رَدُّ فِعْلٍ لِمَن لا يُؤْمِنُ بالإسلام.

فمثَلًا لو أنَّ أحدًا أَنْكَر مِثْل هذه النَظَرِّياتِ بِدون تَأَمُّلٍ في دَلالة الكِتاب والسُّنَّة، كما يَفعَل بعض العامَّة فهذا -للحقيقة- ليس مِن خِدْمَةِ الإِسْلام، هذا كأَخْذ الإنسان خِنْجَرًا بيدِه وطَعَنَ بِه صَدْرَه وهو لا يَشْعُر، فالواجِب تُجاه هذه الأُمورِ كما قُلْت لَكُم: أن نَعْرِضَهَا على الكِتَاب والسُّنَّة، فَمَا وافقَ الكِتَاب والسُّنَّة فهو حَقٌّ؛ لِكونه وافَق الكِتَاب والسُّنَّة، وما خالَفَهما فهو بَاطِل، وما لا تُعْلَم مُوَافَقَتُه ولا مُخَالَفَته فالواجِب فيه التَّوَقُّف وأن يَقول الإنسان: إن تَبَيَّن لي بِحَسَب إدراكِي -وإن كان عِلْمي قاصِرًا في هذه الأُمورِ- فأنا أُصَدِّقُ به، وإذا لم يَظهَر لي فأنا لَسْتُ مُلْزَمًا بأن أُصَدِّق أو أُكَذِّب، أَقِف مِن هذا مَوْقِف المُحَايِد، وهذا هو العَقْل.

فإن قال قائِل هذه النَّظرِيةِ: هذه تُخالِف القرآن. يَعنِي: هناك مَن يَقول: الشمس طالِعة والأرض هي التي تَدور عليها.

فالجَوابُ: نحن قُلنا: مَسأَلة الشمس ثابِتة أَبطَلنَاها؛ وقُلْنا: هذا لا يَجُوز؛ مع أنهم يَقولون: إن الشمس ليسَتْ بثابِتة، وإنها تَدور في الأَوَجِ العالي تَسير سيرًا عظيمًا، وفي كُتَيِّب صغير اسمُه عِلْم الفلَك القَديم يَقول: تَنطَلِق في الثانية آلاف الأميال.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيَانُ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِبَثِّ هذِه الدوابِّ في الأرض؛ لِقوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾؛ أَي: نَشَر؛ وَجْه دَلالتها على القُدرة: اختِلاف هذه الدوابِّ في أجناسِها وأنواعِها وأشكالِها وأحوالِها، وقد سَبَق لنا بَيانُ بعضِ الحِكَم في خَلْق ما هو ضارٌّ منها، وذكَرْنا عِدَّة حِكَم في خَلْق هذا الضَّارِّ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بيان قُدْرَة اللهِ أيضًا وحِكْمَتِه ورَحْمَتِه في إنزالِ الماء مِن السَّماء، فالقُدْرة أَنَّنا نَجِد هذا الماءَ يَنزِل مِن فوقُ، فمَعنَى ذلك أن هناك بِحارًا عَظيمةً تَطوف بِالأرْض -بَيْن السَّماء والأَرض-، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ سبحان الله! جِبَال بين السماء والأرض مِن البَرَد يَنْطَلِق مِنْها هذه الأَجزاءُ حتى يَنْزِل الأرض، ولو شاء الله تعالى لَأَنْزَل الجبَلَ جميعًا على الأرض.

وقُلْنا: فيه أيضًا دليل على الرحمة حيثُ كان نُزولُه مِن العُلُوِّ لأَجْل أن يَشمَل المُرتَفِع والمُنْخَفِض.

وفيه أيضًا دليل على الرحمة: أنَّ هذا الماءَ لنا فيه فائدتان عَظيمتان: إنبات ما يَنْبُت مِنْه، والثاني: خَزْنُه في الأرض، قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر:٢٢]، وقال في آية أُخرى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٢١]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ

أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة:٦٨-٦٩]، ففيه أيضًا مَادَّةُ حَيَاةِ الإنسان: في طعامِه وفي شَرابِه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثباتُ الأَسْباب؛ لِقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا﴾، ويُؤخَذ إثبات الأسباب مِن فاءِ السببيَّة ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾، وإثباتُ الأسباب مِن حِكْمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالمُنْكِر للأسباب طاعنٌ في حِكمةِ الله تعالى لا شَكَّ؛ لأنَّ الله حَكِيم جَلَّ وَعَلَا؛ وكلُّ شيء عِنده بِسبب؛ لِتَقُومَ الأشياء وتَمشِيَ على نِظَام.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بَيان قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ على تَصْنِيف هذا النَّبَاتِ مَع أنَّ أَرْضَه واحِدة ومَاءَه وَاحِد؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: مِن كل صِنْف، فتَرَى هذه الشجرةَ كَبيرة وهذه صَغيرة، وهذه خَضْراءَ وهذه بُنِّيَّةً، هذه زهرتُها بَيضاءُ وهذه صَفراءُ، وهذه بِلَوْنٍ آخَرَ، ألوان مُختَلِفة، مع أنَّ الماءَ واحدٌ والأرضَ وَاحِدَة، وهذا دليل على كمالِ قُدرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن هذا النَّابِتِ فيه مَنفَعتان وهما النَظَر إليه، والبَهْجَة والسرور بِه؛ ولهذا إذا وقَف الإنسان على رَوضَةٍ مُعْشِبَة تَتكفَّأ الرياحُ أَزْهَارَها يَجِد سُرورًا وأُنْسًا، ثانيًا: ما يَحصُل مِن هذا النباتِ مِن المَنافِع لنا ولبَهَائِمنا، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن السمواتِ أَجْرَامٌ محسُوسة، ومَن أَنكَرَها فهو مُكَذِّبٌ للقرآن، والمُكَذِّبُ بالقُرآن يَكُون كَافرًا، وهذه مَسْأَلَة خَطِيرَة؛ لأنَّ الآن مَن لا يُؤمِنون بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واليوم الآخر لا يُقِرُّون بأنَّ هناك أجرامًا سماوِيَّة، يَقولون: أَفلاك ومجرَّات ونجوم. وما أَشبَه ذلك، ولا يُقِرُّون بالسَّماء، والذي يُصَدِّقُهم في ذلك مُكذِّبٌ لِلقُرآن، فيَكون كافِرًا به، والعِيَاذُ بالله.

الآيــة (١١)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان:١١].

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ المُشَار إليه ما سبَق، وهي خَلْقُ السمَواتِ بغيرِ عَمَد، وإلقاء الرواسِي في الأرض، وبثُّ الدابَّة، والإنزال الماء مِن السَّماء، والإنبات فيها مِن كُلِّ زَوْج كَريم.

فهذه خمسة أَشياءَ مُشاهَدَةٌ محسوسة؛ ولهذا أَشار إليها بالإشارة الحِسِّية فقال: [﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ أي: مَخْلُوقُه] فهو مِن باب إطلاق المَصدَر وإرادة اسم المَفعول، وليس المُرادُ به خَلْقَ الله الذي هو فِعْلُه؛ فإنَ فعلَه لا يُشاهَد وأنَّ المُشاهَد مَفعولُه.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَرُونِي ﴾ أَخبِروني يا أهلَ مَكَّةَ ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾] قوله تعالى: ﴿فَأَرُونِي ﴾ فسَّر الإراءة هنا بالإخبار، ولكن الأَوْلَى إبقاؤُها على ظاهِرها أنَّ المُراد بالإرَاءَة يَعني: أَبصِروني، أَروني شيئًا خَلَقَه أحدٌ سِوى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فقوله تعالى: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أبلغُ مِن تَفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [أَخبِروني]؛ لأنَّ التَّحَدِّيَ فيها ظاهِر، إِذْ مِن المُمْكِن أن يُخْبِرُوه بأمرٍ وهُمْ كاذِبون، فيَقولون: نعَمْ، إنه يُوجَد كذا وكذا خلَقَهُ كذا وكذا. لكن إذا قال: (أَروني) بِالتَّحدِّي بما يُرَى فحِينَئِذٍ يُبْهَتُون.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَرُونِي﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يا أهلَ مَكَّةَ] بِناءً على أنَّ كُلَّ خِطاب في سُورةٍ مَكِّيَّة يَتعَلَّق بالكُفَّار فالمُراد به أهلُ مكَّةَ، والصواب: أنَّه عامٌّ؛ ويُمكِن حتى الآنَ أن نَقول بهذا التَّحدِّي في عصرِنا الحاضِر، والأَمْر هنا في قوله تعالى: ﴿فَأَرُونِي﴾ لِلتَّعجيز والتَّهديد.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ غيرِه؛ أي: آلهتِكم حتى أَشرَكْتُموها به تعالى] يَعنِي: أَروني ماذا خَلَقوا، فإذا أَرَيْتُموني أنَّها خَلَقَت شيئًا، فإنَّه قد يَكون عُذْرًا لكم في تَشْرِيكِها مع الله تعالى في العِبادة، أَمَا والأمر ليس كذلك ولا يُمكِن أن يُوجَد خَالِقٌ سِوى الربِّ عَزَّوَجَلَّ، فإنه لا يَجوز أن يُعْبَد معه غيرُه؛ لأنَّه إذا أَقرَرْتم بأنه لا خالِقَ إلَّا الله تعالى يَجِب أن تُقِرُّوا بأنَّه لا مَعبودَ إلَّا الله تعالى، وأنه كما أَقرَرْتم بالربوبية يَجِب أن تُقِرُّوا بِالأُلُوهِيَّة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَاذَا خَلَقَ﴾ يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(ما) استِفْهامُ إنْكار مُبتَدَأٌ، و(ذا) بمَعنَى (الذي) بِصِلتِه خَبَرُه، و(أَروني) مُعَلَّقٌ عَنِ العَمَل، وما بعده سَدَّ مَسَدَّ المَفعولَيْن].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أَعرَبَه المُفَسِّر إعرابًا صحيحًا، ونَقول: (ما) اسمُ استِفْهام و(ذا) اسمٌ مَوْصول مَبنيٌّ على السكون في مَحَلِّ رَفْع، و﴿خَلَقَ﴾ فِعْلٌ ماضٍ، والجملة صِلة المَوْصول لا مَحَلَّ لها مِن الإعراب، والعائِد مَحذوف، والتقدير: ماذا خلقَهُ الذين مِن دونِه، والجُملة ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ جُملة استِفْهام مُعَلَّقَة عَنِ عمَل ﴿فَأَرُونِي﴾.

وقوله: [وما بعدَه سَدَّ مَسَدَّ المَفعولين] هذا إذا قُلْنا: إنَّ الرؤيا بمَعنَى العِلْم، أمَّا إذا قُلْنا: إنَّ الرُّؤيا بمَعنَى: رُؤيَة البصَر، فإنَّ ما بعده سَدَّ مَسَدَّ مَفعولٍ واحِد فَقَط.

وقوله تعالى: ﴿مَاذَا﴾: (ما) أَعْرَبَها على أنَّها غير مُلغَاة، ويَجوز إلغاؤُها، بل قد يُقَال: إن إلغاءَها أَوْلى؛ لأنك إذا أَلْغَيتَها جعَلْت ﴿مَاذَا﴾ مَفعول مُقدَّم لِـ﴿خَلَقَ﴾ وحِينئذ لا نَحتاج إلى هذا، والأصل عدَمُ الحَذْف، وإلغاؤُها لَه وجهان: إمَّا أن تَكون (ما) اسمَ استِفهام و(ذا) زائِدة، أو تَقول: (ماذا) جميعًا اسمُ استِفْهام.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: مَن سِوى الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا التَّحَدِّي وكلُّ تَحدٍّ في القرآن لا يُمكِن أن يَكون مَوجودًا؛ لأنَّه لو كان الشيء مُمكِنًا لكان التَّحدِّي لَغوًا لا فائِدةَ فِيه.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَلِ﴾ للانتِقال ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّن بإشْراكِهم وأنتم مِنْهم] يَعنِي: أنَّ الأمرَ واضِحٌ، وأنَّه لا خالِقَ إلَّا الله تعالى، وأنه لا يُمكِن أن يُوجَد أحَد يَخلُق، ولكن استِمْرار المُشرِكين في شِرْكهم يُعتبَرُ ظُلمًا وضلالًا مُبينًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: المُشرِكون الذين أَشرَكوا مع الله تعالى في العِبادة مع أنَّهم مُؤمِنون بأنَّه لا شريكَ له في الخَلْق.

وقوله تعالى: ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بيِّن] وكلِمة (مُبين) تَأتِي بمَعنى: بيِّن، أي: ظاهِر، وبمَعنَى: مُظْهِر؛ لأنها مُشتَقَّة من (أَبانَ) الرُّباعِيِّ، و(أَبان) الرُّباعِيُّ يَأتي مُتَعَدِّيًا، ويَأتي لازِمًا، فيَأتي (أَبانَ) بمَعنَى: (بَان)، أي: ظَهَر، وحينئذٍ يَكون لازِمًا، ويَأتي بمَعنَى: (أَظهَر) أَبان الشيءَ: أَظهَرَه، وحينَئِذٍ يَكون مُتعَدِّيًا، وفي هـذه الآيةِ: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ مِن اللازِم؛ ولهذا فسَّرها بقوله: [بيِّن].

ومثاله من المُتعَدِّي في القرآن الكريم؛ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ يَعنِي: البيِّن بنَفْسِه المُبين لِلحَقِّ، وكذلك: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾؛ أي: مُظْهِر.

فالحاصِلُ: أنَّ (مُبين) لا يُظَنُّ أنها دائِمًا مُتعدِّيَة، فقد تَكون لازِمةً بمَعنَى: بيِّن،

وقد تكون مُتعدِّيَة بمَعنَى: مُظْهِر.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الاستِدلال بِتوحيد الرُّبوبية على توحيد الأُلوهية؛ لِقولِه تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾، يَعنِي: مَخْلُوقَه، وهم يُقِرُّون بأنه خَلْقُ الله تعالى، فإذا أَقَرُّوا به يَلزَمُهم الإقرار بِتوحيد الأُلوهية، وعلى هذا فنَقول: يُؤخَذ مِن هذه الآية الاستِدلالُ بتوحيدِ الربوبية على تَوحيد الأُلوهية، ولهذا نَظَائِرُ في القرآن؛ مِنها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]، فقال تعالى: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ كأنَّه يَسْتَدِلُّ بكَونِه ربًّا خالِقًا على أنَّه يَجِب أن تَكُون العِبَادَةُ لَه وَحْدَه، وهذا دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ مُلْزِم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الاسْتِدْلَال بالأظْهَر على ما يُنْكِره الخَصْم، فإنَّ هَذَا اسْتِدْلال بأَمْر ظاهِر وَاضِح على أمرٍ يُنكِرُه الخَصم، وهو إنكار انفِراد الله تعالى بالأُلُوهِيَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: استعمالُ التَّحَدِّي في المناظرة، لِقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ أولَئِكَ المُنْكِرين لِتوحِيد الأُلُوهية في ضَلال، أنَّهم ظَالِمون وفي ضَلَالٍ مُبين؛ لِقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: عَجْزُ جَمِيعِ الأَصْنَامِ المَعْبُودة أن يَخْلُقُوا مِثْل خَلقِ الله تعالى؛ لِقوله تعالى: ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾، وإذا كانت عاجِزةً عنِ الخَلْق كانت غيرَ مُستَحِقَّةٍ لِلعبَادة، قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ زِدْ على ذلك: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

الآيــة (١٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان:١٢].

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ منها: العِلْم والدِّيانة والإِصابة في القول، وحِكَمُهُ كثيرةٌ مَأْثُورة].

قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ الجُمْلة هذه مُؤكَّدة بثلاث مُؤكِّدات هي اللَّام و(قَدْ) والقسَم.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ أي: أَعطَيْنا، وهذا الإعطاءُ إعطاءٌ كَوْنِيٌّ، أي: آتاه الله تعالى الشيءَ إيتاءً كَونِيًّا.

وقوله تعالى: ﴿لُقْمَٰنَ﴾ هو اسمُ رجُل، وأكثرُ أهلِ العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ على أنه رجُلٌ أَعطاه الله تعالى حِكْمةً ودِرايةً في الأمور وليس نَبيًّا.

قال ابنُ كَثير[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أكثرُ الناس على أنَّه ليس بِنَبيٍّ، ويُروى عن عِكْرمةَ[2] -إن صَحَّ عنه- هكذا قال: إنه نَبيٌّ. ولكن الصحيح أنَّه ليس بِنَبيٍّ، وإنما هو رجُل حَكيم ذُو أَمْرٍ رَشيد، أَعطاهُ اللهُ تعالى هذه الحِكْمةَ، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٩٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٥٤٩).

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ الحِكْمة في الأصل هي مُوافَقَةُ الصواب.

وبمَعنَى هذا قولُهم: إنَّها وَضْعُ الأشياء في مَواضِعِها، فصَاحِبُ الرأيِ الرشِيد والتَّصَرُّفِ السَّدِيد هذا يُعْتَبَرُ حَكِيمًا؛ لأنَّه يَضَع الأشياءَ في مَواضِعها؛ وهما بمَعنًى واحِد؛ لأن مُوافقَة الصواب هو وَضْع الشيء في مَواضِعه.

يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [منها العِلْم والدِّيانة والإِصابة في القول] الأوَّل: العِلْم تُنال به الحِكْمة، والثاني: الدِّيانة حِكْمة، والثالِث: الإصابة في القول أيضًا حِكْمة، وكذلك الإصابة في الفِعْل حِكْمة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وحِكَمُه كثيرةٌ مَأْثورة، كان يُفتِي قبلَ بِعْثة داودَ، وأَدرَك بِعثتَه، وأَخذَ عنه العِلْم، وترَك الفُتْيا، وقال في ذلك: أَلَا أَكتَفي إذا كُفِيت. وقيلَ له: أيُّ الناس شَرٌّ؟ قال: الذي لا يُبالي إن رآه الناس مُسِيئًا] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كُفِيت] هذه مِن الحِكْمة، فإنَّ الإنسان إذا كُفِيَ يَكتَفي؛ لأنه إذا كُفِيَ ثم عَمِل بما كُفِيَ فيه لم يَكُن مِنه إلَّا إضاعة الوَقْت والتعَب.

وأمَّا قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيُّ الناس شَرٌّ؟ فقال: الذي لا يُبالي إن رآه الناس مُسيئًا] هذا قد يُنازَع فيه؛ لأن هذا الذي لا يُبالي إن رآه الناس مُسِيئًا يُعتبَر فاقِدَ الحَياءِ فقَطْ، ولا يُعتبَر شرَّ الناس، بل شرُّ الناس -في الواقِع- هو الذي يُشرِك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ هذا أَظلَم الناس فيَكونُ شرَّ الناس.

ثُمَّ إن هاتين الجُمْلتين قد تَكون صحيحة إلى لُقمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد تَكون غير صحيحة، يَعني: لا يُجزَم بها؛ لأنه ليس هناك سَنَد صَحيح إلى لُقمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مُتَّصِل، ولم يُخْبِر النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بذلك عنه، ومِثْلها جميع الأخبار السابِقة إذا لم تَكُن

عن طريق الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنَّه يُنْظَر فيها؛ لأنَّها تَأتينا بِغير إسناد إِذْ تُؤْخَذ عَن أهلِ الكِتاب، وأهلُ الكِتاب غَيرُ مَأْمُونِين.

مَسأَلة: ما تَوجيهُ قوله ﷺ: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ»[1]، ومَن كان خارِج بني إسرائيلَ فما حُكْمه؟

الجَوابُ: إن بني إسرائيلَ عِندهم كِتاب، وأَثارةٌ مِن عِلْم، وإلَّا غيرهم قد لا تَجِد عنده شيئًا، ولكن كل الأحاديث عمَّن سبَقَ لا تَخلو مِن ثلاثة أحوال كما هو مَعروف: إمَّا أن تُوافِق الشَّرْع، أو تُخالِفه، أو لا يَكون فيها مُوافَقة ولا مُخالَفة؛ فما وافَق الشَّرْع فهو مَقبول، وما خالَفَه فهو مَردود، وما لم تَكُن فيه مُوافَقة ولا مُخالَفة فإنه لا يُصَدَّق ولا يُكَذَّب.

قال: [﴿أَنِ﴾ أي: وقُلنا له: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ على ما أَعطاك مِن الحِكْمة].

فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ ثُمَّ قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾؛ ولو أنَّ أحَدًا قال: إنَّ قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ تَفسير للحِكْمة يَعني ﴿أَنِ﴾ هُنا تَفسير الحِكْمة لم يَكُن بعيدًا.

أمَّا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيَرَى أنها مَفْعُولٌ لِقَولٍ مَحذوف تَقديره: وقُلْنا له: أنِ اشْكُرْ لله. يَعني: على ما آتاك مِن الحِكْمة.

أمَّا على الاحتِمال الأوَّل الذي هو ظاهِر القرآن ولا يَحتاج إلى تَقدير، فالأَمْر ظاهِر أنَّ شُكْرَ نعمةِ الله تعالى مِن الحِكْمة، بل هو رأسُ الحِكْمة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦١)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله تعالى: ﴿ٱشۡكُرۡ لِلَّهِ﴾ اللَّام هنا لِلاختِصاص والاستِحقاق؛ لأنَّه لا يَختَصُّ بالشُّكْر المُطْلَق، ولا يَستَحِقُّ الشُّكْر المُطلَق إلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والشُّكْر: هو القيام بطاعة المُنْعِم اعتِرافًا بالقَلْب، وثَناءً باللسان، وطاعةً بالأركان.

فمُتَعَلَّقُ الشُّكْر ثلاثة: اللسان، والقَلْب، والجَوارِح، وسببُه واحِد: وهو النِّعْمة؛ ولهذا كان بينه وبين الحَمْد عُمُوم وخُصوص:

فمِن جِهَة السَّبَب الحَمْدُ أعَمُّ، ومِن جِهَة المُتَعَلَّق الشُّكْرُ أعَمُّ، وذلك لأن الحَمْد سببُه أمران: كَمالُ المَحْمُود وإنْعَام المحْمُود؛ ولهذا تَحْمَدُ الله عَزَّوَجَلَّ على كَمالِه، وتَحْمَدُهُ على إنْعَامِه.

ولكنَّ الحَمْدَ مِن حَيْث المُتعلَّق يَختَصُّ باللسان فقط، أمَّا الشُّكْر فإنَّه من حيث السبَب أَخصُّ؛ لأنَّه لا يَكون إلَّا في مُقابَلَةِ نِعْمة، لكن مِن حيث المُتَعَلَّق أعَمُّ يَكُون بِالقلْب واللِّسان والجوارِح، وعليه قولُ الشاعِر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا[1]

وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِ﴾ قُلْنا: إنَّ اللام هنا للاختِصاص والاستِحقاق، فيَجِب على العَبْد أن يُخْلِص الشُّكرَ له، وأن يَعتَقِد بقلبِه أنَّه لا يَستَحِقُّ الشُّكْرَ المُطلَقَ إلَّا اللهُ تعالى.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ﴾؛ لأنَّ ثواب شُكْرِه لَه ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بالنِّعمة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن خَلْقِه ﴿حَمِيدٌ﴾ مَحْمُودٌ في صُنْعِه].

(١) غير منسوب، وانظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤).

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ الجُملةُ هذِه شَرْطِيَّة، فِعْل الشرط فيها مَجزوم بـ(مَن)، وجواب الشرط: جُمْلةُ قولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، و(إنَّما) أداة حَصْر، و﴿يَشْكُرُ﴾ فِعْل مُضارِع؛ وجواب الشَّرْط هو الجُملة: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، لا قوله تعالى: ﴿يَشْكُرُ﴾ فقط.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ كيف قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ ثُمَّ قال: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؟ قد يُقال: إن المُتوَقَّع أن يَقول: ومَن يَشكُر فإنما يَشكُرُ الله؟

ولكن نَقول مَثلَما قال المُفَسِّر: إن مَعنَى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: أنه يَعُودُ ثَوابُ الشُّكرِ إليه، فهو لِمَصلحتِه، وليس الشُّكْر يَعود إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيَنتَفِعُ به؛ لأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَنْتَفِع بالطاعة، ولا يَتَضَرَّرُ بالمَعصية، وإنما يَعود إليك أنت نَفْسِك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ وهو ضِدُّ الشُّكْر.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ غَنِيٌّ عَنه إذا كفَرَ نِعمَة الله تعالى، و﴿حَمِيدٌ﴾ فَعِيل بمَعنَى: مَفْعُول، ويَجوز أن يَكون ﴿حَمِيدٌ﴾ بمَعنَى: فَاعِل حَامِد، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَحْمُودٌ وحَامِدٌ؛ لأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَصِفُ مَن يَستَحِقُّ الصِّفاتِ الكَامِلَةَ بِمَا يَسْتَحِقُّه؛ ولهذا أَثنَى على أنبيائِه وعلى أَوْليائِه، وهذا حَمْدٌ لهم، وهو أيضًا مَحمُود مِن عِبادِه، فهو فَعِيل بمَعنَى: فَاعِل، وبمعنى: مَفعول.

ووجهُ ارتِباط جملة جواب الشرط: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ بالشرط ظاهِر، يَعنِي: مَن كفَر فإنَّه لن يَضُرَّ الله تعالى، ولن يَنْقُصَ مِن مُلكِه؛ لأنَّه غَنِيٌّ، وكذلك لن يَكون في ذلك قُصُورٌ مِن حِكْمته؛ لأنه جَلَّ وَعَلَا حَمِيد، فإيجادُ الشاكِرين ممَّا يُحْمَدُ الله عليه، وإيجاد الكافِرين ممَّا يُحمَد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه، ولولا هذا ما عُرِف

قَدْرُ الشُّكْر، ولا عُرِف أيضًا مَضَرَّةُ الكُفْر، فلولا هذا لكان النَّاس على حَدٍّ سواءٍ لا يَتَميَّز فيهِم الطَّيِّب مِن الخَبيث.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ الغَنِيُّ مِن أسماء الله تعالى، والحَميد مِن أسمائِه أيضًا.

وقول المُفَسِّر: [﴿حَمِيدٌ﴾ محمود في صُنْعه] هذا قُصُور، فـ﴿حَمِيدٌ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها: [محمود في صُنْعه]، والصواب أنَّه مَحْمُود في صُنْعِه وشَرْعِه، وفي جميع صِفاتِه فهو مَحمود على صِفاتِه الكامِلة، وعلى أفعالِه وعلى شرْعِه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ مِنَّةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على لُقْمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بإعطائِه الحِكْمة؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الحِكْمة قد يَنالُها مَن ليس بِنَبِيٍّ؛ لأنَّ لقمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على قول الجمهور ليس نَبِيًّا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وجوبُ الشُّكْرِ لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ شُكْرَ الله تعالى مِن الحِكْمَة؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾، هذا مِن تفسير الحِكمة، والشُّكْر لله لا شكَّ أنَّه مِن الحِكمة؛ لأنَّ الحِكمة هي مُوافَقَة الصَّواب أو وَضْعُ الشَّيْءِ في مَوضِعِه، ولا شَكَّ أنَّ شُكْرَ الله تعالى مُوَافِقٌ للصَّوَاب، وأنَّهُ وَضْع لِلشَّيْء في مَوْضِعِه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الشَّاكِرَ ثوابُه لِنَفْسِه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ كُل مَن مَنَّ الله تعالى عَلِيه بالحِكمة فعليه أن يَشْكُرَ الله تعالى أكثرَ مِن غيرِه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الله تعالى لا يَنْتَفِعُ بطاعةِ الطائِعين، بل طاعَةُ الطائِعين لِأَنْفُسِهِم.

ويَتفَرَّعُ على هذِه الفَائِدةِ: أنَّ أمر الله عَزَّوَجَلَّ عبادَه بِطاعتِه أو بِعبادِته أنَّه مُجَرَّدُ إحسانٍ إليهم؛ لأنَّ هذا النَّفْعَ لهم كَما لو كُنتَ تُرَبِّي الصغير، وتَقول: كُلْ مِن هذا الطعامِ، والبَسْ هذا الثوبَ، واشرَبْ هذا الماءَ. فأنت تَأمُرُه، لكن الأَمْر لِمصلحَتِه هُو.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الكافِر لا يَضُرُّ الله تعالى شيئًا؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، وفي الحديث القُدسيِّ: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلَكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»[1].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ هذين الاسْمَين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهما: الغَنِيُّ والحَميد، وإثبات ما تَضَمَّنَاه مِن صِفَة وهي: الغِنَى والحَمْد، سواء كان حامِدًا أو مَحْمُودًا.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: اتِّصَافُ الله تعالى بالصِّفَة المُرَكَّبَة مِن الوَصْفَيْن وهُما: الغِنَى والحَمْد، فليس كل غنيٍّ يُحْمَد، وليس كُل مَحْمُودٍ غَنِيًّا، أمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فقد اجْتَمَع في حَقِّه الغِنَى معَ الحَمْد؛ وذلك لِكَمال جُودِه وكرَمِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (١٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿و﴾ اذْكُرْ إِذْ ﴿قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ﴾ تَصْغِيرُ إِشْفَاق ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ﴾ بالله ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فرجع إليه وأَسْلَم].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿و﴾ اذكُرْ إِذْ ﴿قَالَ﴾] أَفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ (إِذْ) مَفعولٌ لِفِعْل مَحذوف، أو ظَرْف مُتَعَلِّق بفِعْل مَحذوف، يَعنِي: اذكُرْ هذا الوقتَ الذي قالَ فيه لُقمانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنِه.. إلى آخِرِه.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾ جُمْلة: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ حالِيَّة، حالٌ مِن فاعِل ﴿قَالَ﴾ وهو لُقمانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يَعنِي: والحال أنه يَعِظُ فيه ابنَه، والمَوْعِظة هي التَّذْكِير المَقرُون بالتَّخويفِ أو التَّرْغِيب.

قال له: ﴿يَٰبُنَىَّ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنه تَصْغِير إشفَاق] وهو كذلك، وليس تصغِيرَ احْتِقَار؛ لأنَّ المَقَام لا يَقتَضيه، ولكنَّه تَصغِير إشفاقٍ عليه.

وقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ هذا مَقولُ القول في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أي: لا تَجعَلْ معه شَريكًا في العِبادة، وفي الخَلْق والتقْدِير، وفي أسمائِه وصِفاتِه؛ لأن التَّوْحيد -كما هو مَعروف عند أهل العِلْم- يَنقسِم إلى ثلاثةِ أقسام: تَوحيدُ الرُبُوبِيَّة، وتَوحيدُ الأُلُوهِيَّة، وتَوْحِيدُ الأسْمَاءِ والصِّفَات.

فالشِّرْك بالله تعالى: أن يُشرِكَ بالله تعالى في أحَدِ هذه الأقسام، فمَنِ اعتَقَد أنَّ معَ الله تعالى خالِقًا فهو مُشْرِك في الربوبية، ومَنِ اعتقدَ أنَّ معَ الله تعالى مَن يَسْتَحِقُّ أن يُعْبَد فهو شِرك أُلوهية، ومَن اعتَقَد أن لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنازِعًا في أسمائِه وصِفاتِه فهو مِن باب الشِّرْك في الأسماءِ والصفات.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ﴾ بالله ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾] أكَّد لُقمانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كون الشِّرْك ظُلمًا بِمُؤكِّدَيْن وهما: (إنَّ)، واللَّامُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ الجُملة تَعليلٌ لِما قبلَها، وهو قوله تعالى: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾، فجمَعَ له لُقمانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بَيْن الحُكْم والحِكْمَة، فنَهاه عن الشِّرْك، وبَيَّنَ أنه ظُلْم عَظيم، والظُّلْم في الأصْل النَّقْص، ومِنه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣] أي: لم تَنْقُص.

وأمَّا في الشَّرْع فإنَّ الظُّلم: هو نَقْص كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وعلى هذا فالشِّرْك نَقْصٌ في حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ.

وقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ هذا مِن باب تَعظِيم الشِّرْك والحَذَرِ مِنه، وَلا يُوجَد أَعْظَمُ ظُلْمًا مِن الشِرك؛ لأنه مهما كان فإنَّ ظُلْمَ الشِّرْك أعْظَمُ مِن كُلِّ شيء، فالذي خلَقَك أَوْجدَك مِن العدَم، والذي أَمدَّكَ بما تَقومُ به حياتُك هو الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والذي أَعدَّكَ وجعَلَك مُستَعِدًّا لِمَا تَنتفِعُ به هو الله عَزَّوَجَلَّ، فهو المُوجِد المُعِدُّ المُمِدُّ، وإذا كان كذلك فلا يُوجَد أحَدٌ أعْظَمُ حَقًّا عليك مِن الله تعالى، فإذا نَقصْتَ اللهَ تعالى حقَّه كان ذلك أَعظمَ الظُّلْم؛ ولهذا مَن كان إليك أكثرَ إحسانًا فإن إساءَتَك إليه تَكونُ أعظَمَ مِن غيرِه، فإنَّ الذي يُحسِن إليك ويُعطِيك ويُرْبِيك ثُم تُسيءُ إليه أعظَمُ مِمَّا لو أَسأْتَ إلى أحَدٍ لم يَكُنْ مِنْه ذلك.

قال: [﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فرَجَعَ إليه وأَسْلَم] الذي رجَع الابن.

وعلى كُلِّ حال: لا نَعرِف هـل هذه المَسأَلةُ كَما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ أنَّ الابن كان مُشْرِكًا، فلمَّا وعَظَه أَبُوه رجَع فأَسلَم، أو أنَّه -أي: الابن- خافَ عليه أبوه مِن الشِّرْك فنَهاه عنْه، وبَيَّنَ لَه أن الشِّرك لَظُلم عظيم.

ولا يَلزمُ مِن النَّهيِ عنِ الشِّرْك أن يَكونَ الإنسان قد أَشرَك؛ لأنَّه قد يُنْهَى عن الشيء خوفًا مِن وقوعِه لا رَفْعًا لما وقعَ مِنْـه، وهذا أمرٌ مَوْجـود مُطَّرِد في القرآن، وفي السُّنَّـة، وفي كلامِ الناس، فتَقول لِلرَّجُل مثـلًا: لا تُصاحبِ الأشرار. فلا يَلزَم مِن هذا النهيِ أن يَكون مُصاحِبًا لهم، فقد يَكون نهيًا لِما يُخَاف أن يَحصُل مِنه.

فكلِمـة ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ ليسَت صريحةً في أنَّ الابن قد وقَـع في الشِّرْك حتى يُقـال: إنَّه رجَع وأَسلَمَ، بل قد يَكونُ أبوهُ نهاهُ عن الشِّرْك خـوفًا مِن أن يَقَعَ فِيه، والعِلْمُ عِنْد الله تعالى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: مُلَاطَفَة المُخَاطَب لاسْتِدْعَاء قَبُولِه لما يُوَجَّه إليه؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾، فإنَّ هذا مِن بابِ المُلَاطَفَة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَهَمِّيَّةُ هذه النَّصِيحةِ؛ لأنَّها صدَرَت مِن أبٍ مُشْفِق إلى ابنِه، فإذن: هي مِن أهَمِّ ما يَكُون مِن الوصَايَا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تحريمُ الشِّرْكِ بالله تعالى؛ لِقولِه تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾، ويَكفي أن نَقول: تَحريم الشِّرْك؛ لأنَّ الله تعالى يَقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف:٣٣]، وقد يَقول قائِل إذا سَمِعَني أَقول: إنَّ الشِّرك حَرام. قال: لا يَكفِي أن يَكون حرامًا؛ ونَقول: بل يَكفِي؛ لأنَّ الله تعالى قال هذا، لكن هُو أشدُّ المُحَرَّمَات إثمًا وظُلْمًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وُجوبُ توحيدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِأنَّ النهيَ عن الشِّرْك يَقْتَضي وُجُوب التوحيد.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الشِّرْك ظُلْمٌ عَظِيم؛ لِقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّه ينْبَغي قَرْنُ الأحْكَام بِعِلَلِهَا لِلفوائد التي سَبقَتْ، ويُؤْخَذ ذلك من قَولُه تعالى: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ مِن أهمِّ ما تَنْبَغِي العِنَايَةُ به التَّرْكِيزُ على التَّوحيد وعَدَم الشِّرْك؛ لأنَّه ذَكَر: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ فبَدَأ بِه قَبْل كُلِّ شَيْء، وكان الرسول ﷺ إذا بَعَثَ أحَدًا يَدْعُو إلى الإسْلَام يَأمُره أوَّلَ ما يَبدَأُ بِه الدَّعْوَة إلى التوحيد[1]؛ لأنَّها هي الأَصْل، وإذا لم يَكُن عِنْد الإنسان تَوحِيد فَمَنْ يَعْبُد؟!

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فلا بُدَّ أن يُرَكَّز على التوحيـد، ولكن لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَال، فإذا كُنَّا في بلـدٍ يَكْثُر فيها الشِّرك فإنه يَنبَـغي أن يَكُونَ كَلامُنَا في التوحيد أكْثَرَ، وإذا كُنَّا في بَلدٍ بالعكس لكن عِنْدَهُم مُخَالَفَات في أمورٍ أخرى يَنبَغي أن نُرَكِّز عليها أكثَرَ، وذلك مَأخوذٌ مِن طريقةِ القرآن، فَفِي مكَّةَ كانَ التَّرْكيز على التوحيد في آياتِ القرآن أكثَرَ، وفي المدينة كان التركِيز على المُعَامَلات وفُرُوع العِبادات أكثَرَ، فَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَال.

ولذلك قد يَعْتَرِض بعض الناس، ويَقول: لِمَاذا لا تُكثِرُون الكلام في التوحيد في المَمْلكة السُّعُودية مثَلًا، ولاسِيَّما في نَجْدٍ؟!

نَقول: إنَّ الكلامَ في التوحيد لا شَكَّ أنَّه مُهِمٌّ؛ لأنَّه أهَمُّ الأشياء، لكِن إذا كُنَّا في قَومٍ قد وَحَّدُوا -ولله الحَمْد- وعرَفوا الأمر وهم بَعِيدُونَ عن الشِّرْك، وإنَّما يُخالِفُون في الأمورِ الأخرى دُونَ الشِّرْك، فَنَحْنُ نُرَكِّز على ما فِيه هذه المُخَالَفَةُ، على أنه لَو طَرَأَ مَا يَكْلُمُ التوحيد يَجِب أن يُرَكَّزَ عليه، كما يُوجَد في الآوِنَة الأخِيرَة مِن ظُهُور بَعض الأشياء الشِّرْكِيَّة والبِدْعِية مِن هـذه الكُتَيِّبَاتِ الصِّغَار التي فيها أذْكَار وأَوْرَاد كُلُّهَا كَذِب أو غالبُها كَذِب، فيَجِب أن يُرَكَّز عليه، كذلك أيضًا وُجِد تَمَائِمُ تُعَلَّق، تَمَائِمُ مِن النُّحَاس يُقَال: إنَّها تَنْفَع مِن الرُّومَاتِزْم، هذا أيضًا نوع مِن الشِّرْك، وكذلك أيضًا ما وُجِد مِن قَضِيَّة الدّبْلَة وما يَتَعَلَّق بها، فالرجُل يَكتُب اسمَهُ على خَاتَم امْرَأَتِه، وهي تَكتُب اسمَها على خَاتِم زَوجِها، ويَعتَقِدون أنَّ هذا يُوجِب المحَبَّة والاحْتِرام، كأنَّه رِبَاط، هذا أيضًا مِن الشِّرْك، وهو مِن التِّوَلَة، فإذا طَرَأَت مِثْل هذه الأمورِ يَجِب أن تُحـارَب، وأن يُركَّز عليها، وأن يُكْثَرَ القولُ فيها حتى لا تَنْتَشِر، فالمُهِمُّ أنه لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ كما قيل.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: توجِيـهُ المَواعِظ مِن الآباء إلى أبْنَائِهم؛ لأنَّ هـذا مِن الحِكْمة؛

لِقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّه يَنبَغِي لِلإنسان المُوَجِّه أن يَقْرِن توجيهَه بالموعظة؛ لِقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾.

وهل يَكفِي مَثَلًا أن تَقُول لإنسان: هذا حرام، وهذا واجِب. أو يُنْظَر في حالِ الشخص؟

الجَوابُ: يُنْظَر في حالِ الشَّخْص، فمِن الناس مَن يَكْفِي أن تَقُول لَه: إنَّه حرام أو واجِب، وَيَمْتَثِل، ومِن الناس مَن لا يَكفِي أن تَقول: هذا حرام أو وَاجِب، حَتَّى تَقْرُنَ ذلِك لَه بِالمَوْعِظَة، فتَقول: اتَّقِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، اخشَ الله تعالى. مثَلًا، كيف تُصِرُّ على هذا وهو مَعْصِية لله تعالى ورسولِه ﷺ. وما أَشْبَه ذلك.

فالمُهِمُّ: أَنَّه لِكُلِّ مَقَام مَقَال، وكذلك أيضًا تَذْكُر ما وَرَد فِيه مِن الوعيد في القرآن والسُّنَّة، كما لو تَوَدُّ أن تُوَجِّه نصِيحة إلى رَجُلٍ مَغْمُور بالمعامَلة بالرِّبا هذا لا يَكفي أن تَقول: الرِّبا حرام؛ لأَنَّه عارِف، فلا أحدَ يُشْكِل عليه أنَّ الرِّبا حَرَام لكِن يَحْتَاج إلى مَوْعِظة تُلَيِّنُ قَلْبَه لِلحَقِّ والتَّوبَة مِن البَاطِل.

• • ۞ • •

الآيـة (١٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان:١٤].

ثُمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾، هذه الجُملةُ ليسَتْ مِن كلام لُقمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بل هي مِـن كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فهي مُعـتَرِضَة بين كلام لُقمانَ الأوَّلِ، وكلام لقمان الثاني؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دائِمًا يَقرُن حقَّ الوالِدين بحَقِّه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء:٢٣]، ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الأنعام:١٥١].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ أَمَرْناه أن يَبَرَّهما] ففَسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الوَصِيَّةَ بالأَمْر، ولكنـها أَخَصُّ مِن الأمر المُطْلَق، فالوَصيـةُ عهْدٌ بما يَنبَغي الاعتِـنَاءُ به، ليسَت مُجـرَّد أَمْر، بل هي عَـهدٌ بما يَنبَغي الاعتِناءُ به، ولا شـكَّ أنَّ بِرَّ الوالدَين مما ينبغي الاعتناء به.

وقوله: [أن يبرَّهما] لو قال: (أن يُحسِن إليهما) لكان أَوْلى؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول في آيـة أخرى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ [الأحقاف:١٥] ولكن المُفَسِّر فسَّره بالبِر؛ لأنَّ البرَّ من الإحسان.

وقـوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ كُلَّما كَبُر الجَنِين كَانَ ذَلك أشـدَّ وأعظَم،

فإنَّ الإنسان يجِد مِن نفسه أنَّه لو شَبِع وامتلأ بطنُه يتعب معَ أنَّ هذا الغـذاء يُمِدُّهُ بِالطَّاقَـة، فَكَيف بالجنـينِ الذي يملأُ بطنَـها ويأكُل مِن طاقتِها -لأنَّه يتغـذَّى مِن غِذائِها-؛ فيكون هذا أشدّ وأعظَم؛ لأنه جامعٌ بيْن الإثْقال وبيْنَ المُشَاركة في الغِذاء؛ ولهذا تَحتاجُ المرأة الحامِل إلى غِذاءٍ أكثَر، ومِن ثَمَّ أَباحَ الشرعُ لها أن تُفْطِر في رمضانَ؛ مِن أَجْل ألَّا يَنْقُصَ الغِذاءُ عليها فَتَتَعَب هِي ويَتَضرَّر الجَنين، وهذه مِن حِكمةِ الله عَزَّوَجَلَّ، كذلك أيضًا يَلحَـقها وَهَنٌ عِنْد الطَّلْق، فالطَّلْق يُؤْلِم ويُوجِع فليس بالأمرِ الهيِّن؛ لأنَّ الطَّلْق -بإذنِ الله- يَأتي مِن أَجْلِ أن يَنْقلِب الجَنين حتى يَسْتَعِدَّ للخُرُوج.

فإن وَضْعَ الجَنِين في بَطْنِ أُمِّه: أنَّ رأسَه إلى جِهَة رأسِ الأُمِّ، ووجهُه إلى جِهَة ظهْرِ الأُمِّ، وظَهرُه إلى جِهَة بَطنِـها، فهو مُعَاكِسٌ لأُمِّه في الاستِقْبَال، وهذه حِكْمة؛ لأنَّه إذا كان وجهُـه إلى الظَّهْر صارَ الظَّهْرُ حاميًا لَه؛ لأنَّه عِظَام يَحْمِي وجهَ الجَنين، لو كان وجهُ الجنين إلى وجهِ أمِّه فليس هناك شيءٌ يَحمِيه، وكان أدْنَى ضَرْبة -مثلًا- أو شَيء تُصِيب وجهَه، لكن مِن حِكْمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنَّه جعَلَهُ هكذا.

ولذلك قال العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: لو ماتَتِ امرأةٌ كافِرة كِتَابِيَّة حامِلٌ بِولدٍ مِن مُسْلِم تُدْفَن على جَنْبها الأَيسَر، إن أَمكَن أن تُدْفن وحدَها لا في مَقـابِرِ المُسلِمين، ولا في مَقابِرِ الكُفَّار فهو أَوْلى، فإنْ تَعذَّر، فإنَّها تُدفَن في مَقابِرِ المُسْلِمين على جنبِها الأيسَرِ؛ لِيكُون الولَد على الجَنْب الأَيمن مُستَقبِل القِبْلة.

فالطَّلْق يَحصُل عند انطِلاق هذا الولَدِ، هذا الولَدُ سيَنْقلِب عِند الوضْع لِأَجْل أن يَكون رأسُه هو الأسْفَل حتى يَخرُج، وأوَّل ما يَخرُج مِن الجنين هو الرأسُ، وتَتألَّم مِن هذا الطَّلْقِ بِلا شَكٍّ، ثُمَّ عند الوَلَادة أيضًا تتألَّم ويَلحَقُها ضَعْف، ورُبَّما يَلحَقُها إغماء وتَعَب، وربما تَمُوت، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُذَكِّرُ الإنسان حالَ الأُمِّ في هذه الأحوالِ

التي كُلُّها أحوال ضَعْف عَلى ضَعْف.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾؛ أي: ضعُفَت لِلحَمْل، وضعُفَت لِلطَّلْق، وضَعُفَت لِلولادة، ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾؛ أي: فِطامُه ﴿فِى عَامَيْنِ﴾].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِطامه]، لكن مُخْرَجٌ مِنها مُدَّةُ الحَمْل؛ لأن الله تعالى قال في آية أُخرى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ فإذا أَسقَطْنَا أقلَّ مُدَّة الحَمْل سِتَّةَ أَشهُر بَقِي أربعة وعِشرون شهرًا، وهي عَامَان.

و﴿عَلَىٰ﴾ هنا للاستِعلاء يَعنِي: وهنٌ مُضافٌ على وَهْن. مِثلما تَقول مثَلًا: وضَعْتُ كِيسًا على كِيس، ولَبِنَةً على لَبِنَة، وما أَشبَه ذلك.

الوهَن كلُّه بسبَب الحَمْل، ولكن ذاك عند نَشْئِه، والثاني عِند الطَّلْق، والثالث عند الولادة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، وقُلْنا له: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾] قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ يَعنِي: أنَّه لا يَنفَصِل مِن أُمِّه إلَّا بعد عامَيْن، فيُضَاف إلى الحَمْل مُدَّة الفِصال، ففيها تعَب لا شَكَّ، فإنها تُرضِعُه وتَسْهَرُ لسَهَرِه، ويَتألَّم قلبُها لأَلَمِه، وتُصلِحُ شأنَه مِن تَنظيفِه، وتَنظيفِ ثيابِه، وحمْلِه عِند البُكَاء، وغيرِ ذلك، إذن فهي في تعَبٍ مِن حين يُحمَل إلى أن يُفصَل بعدَ ولادتِه في عامين.

ولمْ يَذكُرِ الله عَزَّوَجَلَّ في حقِّ الأبِ شيئًا؛ لِأَنَّ الأبَ فِي الغالِب يُتَّقَى ويُخْشَى، فلا حَاجَةَ إلى أن يُبيَّنَ ما يَنالُه مِن ابنِه حتَّى يَكُونَ حَافِزًا للابْن على القِيام بحقِّه،

لكنِ الأمُّ لَمَّا كانت ضَعيفَةً، ورُبما يَتهاوَن الإنسانُ بِحقِّها ذَكَرَ الله عَزَّوَجَلَّ مِن أحوالها ما يَكونُ سببًا لِقيام الابْنِ بِواجبِه.

وهذا تَرَوْنَه كثيرًا في القرآن، فالشيءُ الذي يُخشَى فيه التَّهاوُن يُؤَكَّد؛ مثال ذلك: الوصِيَّة والدَّيْن في التَّرِكَة، فالدَّينُ يُقَدَّم عَلى الوَصِيَّة بالإجماع، ومع ذلك ذَكَر اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الوصِية في آياتِ المَوارِيث قَبل الدَّيْن، وقدَّمها في الذِّكْرِ على الدَّيْن؛ لأنَّ الوَصِيَّـة حقٌّ قَد يَتَهاوَن بِه الوَرَثَة، والدَّيْن لا يَتَـهاوَن بِه الوَرَثَة، فورَاءَه مَن يُطالِب بِه، وهو صاحِبُه، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد يَدْعَم الأشياء التي يُخشَى فيها التَّهاوُن بِأوصافٍ تَحمِل على القِيام بما يَنبَغي أن يَقومَ به.

فهنا لَمَّا كانتِ الأُمُّ ضعيفةً، وكان الإنسان قد يَعتَدِي عليها وعلى حقِّها أكثَرَ ذَكَرَ الله تعالى مِن أسباب بِرِّهَا الموجِبَة ما لم يَذكُرْه في حقِّ الأبِ، وأَظُنُّنا كُلنا يَعلَم أنَّ الابِن قَد يَعتَدِي على أُمِّه بالسَّبِّ والشَّتْم، وربَّما بالضَّرب، لكن على أبيه لا يَستَطِيع، ولا يَعتَدي عليه بمِثْل اعتِدائِه على أُمِّه، وإذا لم يَقُم بحَقِّه فإنَّ أباه يَفرِضُ ذلك عليه؛ فلهذا ذَكَرَ الله تعالى هذه الصِّفاتِ في الأُمِ؛ ليَكونَ حَثًّا لنا على القيام بحَقِّها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عِنَاية الله عَزَّوَجَلَّ بمُعامَلةِ الوالِدين؛ ولهذا أَوْصَى بها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وَصِيَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه سبحانه أَرْحَمُ بالوالدين مِن أولادهما؛ لأنَّ الله تعالى أَوْصى الأولاد بالوالِدين.

إِذَنْ: فهو أرحَمُ بالوالدين مِن الأولاد، كما قلنا في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ

فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ [النساء:١١]: أنَّ في الآية دليلًا على أنَّ الله تعالى أرحمُ بالولَد مِن وَالِدَيْه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيانُ عِظَمُ حُقُوقِ الوالِدين؛ ولهذا جعَلَها الله وَصِية، والوصية كما سبَقَ هي أن يُعْهَدَ إلى شَخْصٍ بأمْرٍ هَامٍّ، فهذا دليل على عِظَم حُقُوقُ الوالِدَيْن.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن يُذْكَر لِلمُخاطَب ما يَحْمِلُه على امتِثَال ما وُجِّهَ إليه؛ لقوله تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه يَنبَغي تَقْوِيَةُ الجانِبِ الضعيف بما يُقَوِّيه، ويُؤْخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾، فإنَّ الله تعالى ذَكَر ما يَحْسُن للأُمِّ إغراءً لِلقِيامِ بِحَقِّها، ولم يَذْكُر ما يَحْسُن للأَب؛ لأن -كما قُلنا في التَّفسير- الأمَّ ضَعيفة تَحتاج إلى مَن يُقَوِّي جَانِبَها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ حَقَّ الأُمِّ أوجَبُ مِن حَقِّ الأَبِ، فالله تعالى ذَكَر ما تُعانيه الأُمُّ مِن المَشَاقِّ إشارةً إلى أنها أحَقُّ؛ لأنَّه بالنسبة للأبِ لا يَجِد كثيرًا من هذه المَشاقِّ، ولكن الأُمَّ هي التي تَجِد تِلك المَشاقَّ، صحيحٌ أنَّ الأبَ قد يَتَحَمَّلُ مَشَاقًّا أُخرى مثل حُصُول النَّفَقَة، وما أَشبَه ذلك، لكن الأَلَم البدَنيَّ للأُمِّ لا يَكُون لِلأبِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه يَنبَغي للأُمِّ أن تَصْبِر على ما يَنَالُها مِن مَشَقَّة الحَمْل؛ لأنَّه أمْرٌ طَبِيعِيٌّ؛ لِقوله تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٍ﴾.

يَتَفَرَّع مِن هذه الفائِدةِ: بيان خَطَأ بعضِ النِّسَاء اليَوم اللاتي لا يَصْبِرْنَ على وَهْن الحَمْل، فتَجِد المرأة تَستَعمِل حُبُوبًا لِمَنْع الحَمْل، تَقول: لأنه يَلحَقهن مَشَقَّة. وما أَشْبَه ذلك، وبعض النساء يُحاوِلْن أن يَلِدْن عن طَرِيق العَمَلِيَّة، تَقول بأنَّه أهْوَنُ.

كل هـذا فِرَارًا مِمَّا جُبِلَت عليه المَرأة مِن الضَّعْف عند الحَمْـل، وعِند الطَّلْق، وعند الوِلَادة، نعَمْ إِنِ احتاج الأمر إلى عَمَلِيَّة هذا لا بأسَ بِه لِلضرورة، وإلَّا فإنَّه لا يَنبَغي ذلك؛ لأن هذا خِلاف ما فَطَرَ اللهُ تعالى عليه المرأة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ أقلَّ الحَمْل سِتَّةُ أَشْهُر، مِن قَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾، وقد قال تعـالى في سورة الأحقـاف: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥]، فإذا أَسقَطْت عامين مِن ثلاثِين شَهرًا بَقِي سِتَّة أشهُرٍ.

وذَكَر ابنُ قتيبةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المعارِف): أنَّ عبد المِلك بن مَرْوانَ وُلِد لِستَّة أَشهُر. وهو الخَليـفة المُحَنَّك كما هو مَعْرُوف، ويَقول الخُبَرَاءُ في هذه الأُمـورِ: إنه إذا وُلِد لِستَّة أشهر يُمكِن أن يَعِيـش لكن لِسبعة أَشهُر قَد لا يَعِيش؛ وهذا حِكْمة لا نَعلَم عنها شيئًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: وُجـوب الشُّكْر لِلوالِدين كما يَجِـبُ الشُّكْر لله تعالى؛ لِقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ شُكْرَ الله تعالى مُقَدَّم على غيره؛ لأنَّه قَدَّمَه في قولِه تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾، فقَدَّم الشُّكْرَ له على شُكْر الوالِدين مع عِظَمِ حَقِّهِمَا.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ مَرْجِـع الأمُورِ إلى الله تعـالى؛ لِقوله تعالى: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، وتقدِيمُ الخَبَر يَدُلُّ على الحَصْر؛ أي: أنَّه إلى اللهِ وَحْدَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: التحْـذِيرُ والتخْـوِيفُ مِن المُخالَفة؛ لأنَّ قوله تعـالى: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ يَعـنِي: وسَأُحَاسِبُك أيها الإنسانُ، فَصِلَةُ هذه الجُـملةِ بما قَبْلها أنَّها تُفِيدُ التهدِيد والتحذِير لِلمُخَالِف.

الآيــة (١٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان:١٥].

الضمير في قولِه تعالى: ﴿جَـٰهَدَاكَ﴾ ضمير فاعِل يَعُود على الوالِدَين، ومَعنَى ﴿جَـٰهَدَاكَ﴾ نَقول: لم يَذكُر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مَعناها، لكن مَعناها: بَذَلَا الجُهْد مَعك.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يَعنِي: على أن تَجْعَل مَعِي شَرِيكًا لا عِلْمَ لَك بِه.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ هو قَيْدٌ لِبَيَان الواقِع، وليس قَيْدًا احْتِرَازِيًّا؛ لأنَّه لا يُمْكِن أن يُوجَدَ عِلْمٌ بأنَّ لله تعالى شَرِيكًا، وهذا كقولِه تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ [المؤمنون:١١٧].

فإن قال قائِل: ما فَائِدةُ هذا القَيْدِ، وقد عُلِم أنَّه لن يُوجَد؟

قلنا: الفائِدةُ فيه تَحْقِيق هذا الأَمرِ، حتى لا يُحاوِل أحَدٌ أن يَبحَث ويَطْلُبَ عِلْمًا أو بُرْهَانًا بأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَه شَريك، فكأنَّه يَقول: هذا هو حقيقةُ الواقِع، وما كانَ حقيقةَ الواقِعِ فلا يُمكِن أن يَتَخَلَّف، وهذا هو فائِدة قولِه تعالى: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَيْسَ﴾: ﴿مَا﴾ هذه يُحتَمَل أن تَكُونَ اسْمًا مَوْصُولًا، أي: الذي ليس لك به عِلْم، ويُحتَمَل أن تَكُونَ نَكِرَةً مَنصوبةً، أي: أن تُشْرِك بِي شَرِيكًا ليس لك بِه عِلْم.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ جوابُ الشَّرْط، وهو: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ إن جاهَداك فلا تُطِعْهما، وتَأَمَّلْ قولَه تعالى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، ولم يَقُل: فلا تَبَرَّهُما، ولم يَقُل أيضًا: فاعْصِهِمَا؛ لِأَنَّ كَلِمة ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أهـوَنُ في النَّفْس مِن كلِمة: فاعْصِهما؛ ولهذا كان قولُ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم:٤٣] أهونَ مِن قوله: يا أبَتِ إنك جاهِل بما عندي؛ لذا قال تعالى: ﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾؛ لأنَّ نفيَ الكَمال أهوَنُ مِن إثْبات النَّقْص على النُّفوس.

ويُذْكَر أنَّ أحـدَ الملوك رأَى في المَنام أنَّ أسنـانَه قد سَقَطَت، فقال: ادعوا لي مُعَبِّرًا يُعَبِّر هـذه الرؤيا. فجاؤُوا برجُل لِيَعْبُرَها، فقَـصَّ عليه الرؤيا، فقال: يَموتُ أهلُك. فلَمَّا قال: يَموتُ أهلُكَ. فَزِع المِلك وهَلَع وقال: اجلِدُوه، فَجَلَدُوه وانصرَف. قال: أَعطوني غَيرَه فجاؤُوا برجُلٍ آخَرَ، فقَصَّ عليه الرؤيا، فقال: المِلك يَكون أَطولَ أهلِه عُمُرًا. فأَكْرَمَه وأَسْبَغ عَليه النِّعَم، ومعنى ذلك مُتقارِب، فإذا كان أطولَهم عُمُرًا فمَعناه: أنهم يَموتون قبله.

والحاصِلُ: أنَّ التعْـبير له أثَرٌ على النَّفْس، فكلمة: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أهوَنُ مِن كَلِمة: اعْصِهما. ثُمَّ قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ لم يَقُل: لا تَبَرَّهما، أو: لا تَقُمْ بحَقِّهما، فحَقُّهما واجِب، ولو أَمَرَاك بالشِّرْك فإذا كان الوالِـدان لهما حقٌّ واجِب ولو أمَراك بالشِّرْك، فكيف إذا أمَرَاك بما دُونَ الشِّرْك؟! ولهذا حقُّ الوالدين ليس بالأَمْر الهَيِّن.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾؛ لأنَّه لا طاعةَ لِمَخْلوقٍ في معصِيةِ الخالِق، فإنَّ حقَّ اللهِ أوجَبُ مِن حقِّ الوالِدين، هو الذي أَوْجَبَ لهما الحَقَّ فكيف نُضِيع حقَّه مِن أجْلِ حقِّهما؟!

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ مُوافَقَةً للواقِع] هذا تَفسيرٌ لِقولِه: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: أن هذا هو الأمرُ الواقِعُ ليس لك به عِلْم.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾؛ أي: بالمَعروف: البِرِّ والصِّلَة]، قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾، كلِمة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ ظَرْفِية لا شَكَّ فيها، ويُحتَمَل أن يَكون المُراد بالدنيا شُؤُونها؛ يَعنِي: في أمُورِ الدنيا صاحِبْهُما مَعْرُوفًا، أمَّا في أمُورِ الدِّين فلا تَتَعدَّى ما أمَرَك اللهُ بِه، ويُحتَمَل أن يَكون في الدنيا؛ أَيْ: في هذه الدُّنيا، لكن المعنى الأوَّل أبلَغُ؛ لأنَّه مِن المَعْلوم أنَّ المُصاحَبة بَيْن الوالِدين والوَلَد إنما تَكونُ في الدنيا، فلا حاجَةَ إلى التقدِير، فالظاهِر أنَّ المَعنَى ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: فيما يَتَعلَّق بأمُورِ الدُّنْيا صاحِبْهما مَعروفًا.

قال المُفَسِّر: [بالمعرُوف] ومعنى هذا التَّفسيرِ أنَّ ﴿مَعْرُوفًا﴾ مَنْصُوبٌ بِنَزْعِ الخَافِض، والنصبُ بِنَزْعِ الخَافِض مع غَيْر (أنَّ) و(أَنْ) ليس بِمُطَّرِد، بل هو شاذٌّ، وإذا كان كذلك فإنَّه لا يَنبَغي أن يُحال القرآن عليه، ولو قيل: إنَّ ﴿مَعْرُوفًا﴾ صِفَة لِمَصدرٍ مَحذُوف، التقدير: صَاحِبْهما صِحَابًا مَعْرُوفًا، يَعنِي: صُحْبَةً مَعْرُوفَة، ليس فيها عُنْف، وليس فيها تَوبِيخ، ولا لَوْم، وليس فيها نَقْصٌ مِمَّا يَجِبُ لهما لكان هذا أَوْلى.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالبِرِّ والصِّلَة] البِرُّ: كثرة الخَيْر، والصِّلَة: عَدَم القَطِيعَة، فالمَعنَى: صِلْهما وبِرَّهما بما يَستَحِقَّان مِنك، لكن في أُمُورِ الدُّنيا فَقَطْ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ﴾ طَرِيق ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ رجَعَ ﴿إِلَيَّ﴾ بالطَّاعَة]

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾: ﴿مَنْ﴾ هذه اسمٌ مَوْصول، والاسمُ المَوْصول يُفيدُ العُموم، فهل هو على عُمومِه أي: اتَّبع سبيل مَن أناب إلَيَّ مِنْهما أو مِن غيرِهما، أو هُو عامٌّ أُرِيدَ به الخُصُوص؛ أي: مَن أناب إلَيَّ مَنهما؟

الجَوابُ: الأَوْلَى أن نَقُول بالعموم ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ مِن كُلِّ النَّاس، وعلَيْه فمَن أنابَ مِن الوالِدَين إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَكونُ اتِّباعُ سبيلِه مِن بابِ أَوْلى.

وقوله تعالى: ﴿أَنَابَ﴾ بمَعنَى: رَجَع مِن المَعصِية إلى الطاعة، ومِن الشِّرْك إلى التوحيد، ومِن الفُسُوق إلى الاستِقامة والتَّقْوى.

ويُقال: إن سعـدَ بنَ أبي وقَّاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أَسلَم قالت له أُمُّه: ما هذا الدِّينُ الذي أَتَيْت به؟ فقال: هذا هو الحقُّ. فقالت له: لَتَتْرُكَنَّه أو لَأَدَعَنَّ الطعامَ والشَّرابَ حتَّى أمُوت، فَتُعَيَّرَ بي. فقال: هذا حـقٌّ لا أَدَعُه. فأَمْسَكَت عن الطَّعـام والشراب يومًا كامِلًا، فلمَّا أَصبَحَت إذا هي مُجْهَدَة -يَعنِي: مُتعَبة مِن الجُوع والعَطَش- فطلَب منـها ولَدُها أن تَأكُل وتَشْرَب، وقال: أنا لَن أَرْجِع عن هـذا الدِّينِ. ولكنَّها أَبَتْ، وفي اليوم الثاني: أَصبَحت أكثَرَ جُهْدًا، فقال لها: كما قال في الأوَّل: إنِّي لن أَدَع هذا الدِّينَ. فبَقِيت على عِنَادِها، فلمَّا كان في اليَوْم الثَّالِث، وإذا هِي قَد أَصْبَحَت مُجْهَدَة جُهْدًا شَدِيدًا، فقال لها: يا أُمِّي تَعلَمِين أنَّ هذا هُو الحَقُّ، واللهِ لو كانت نَفسُكِ مِئَة نَفْس وماتَت كُلُّ نَفْس -يَعنِي: وحدَها- واللهِ ما أَدَع هذا الدِّينَ. فلمَّا رأَت أنَّ الرَّجُل عَازِم أَكَلَتْ[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب في فضل سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، رقم (١٧٤٨)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بنحوه.

فمِثْل هذه الحالِ لا يَجُوز للإنسان إذا رأَى أن أُمَّه سوف تَموت أو أبوه سوف يَموت لا يَجوز له أن يُشرِك.

فإن قال قائِل: لو أَراد أن يَقول: إنَّه مُشْرِك بِلسَانِه مُتَأَوِّلًا هل يَجوز ذلك؟

فالجَوابُ: لا يَجوز أن يُوافِق ولو بِالتَّأْوِيل، فلْيَصْبِر، ويَقـول: أنا ما ضرَرْتُك شيئًا، أيُّ شيء تُريدين مِن أمور الدُّنيا فأنا مُسْتَعِدٌّ له. يَعنِي: ما ضرَرْتُك، فإن شِئْتِ فكُلِي، وإن شِئْتِ فلا تَأكُلِي.

المُهِمُّ: أنه لا يَجوز أن يَقول ولو مُتَأَوِّلًا، إلَّا إذا لو خَافَ على نفسِه هو، وهذا فَرْق بين مَن يَخَاف على نَفْس غيرِه أو على نَفْسِه، فلو خافَ على نَفْسِه هو أن يُقْتَل فلَه أن يَقُولَ ذلك مُتَأَوِّلًا؛ لقولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل:١٠٦] على أنَّه -أي: المَسأَلة الأخيرة- لا يَجوز فيما إذا كان فيه نُصْرةٌ للإسلام، فإنَّه إذا كان في ثُبُوتِه نُصْرة للإسلام وفي مُوافقَتِه ظاهِرًا خُذْلانٌ لِلإسلام حَرُم عليه ذلك؛ لأنَّه حينئذٍ يَدخُل في باب الجِهَاد مِثْل ما حصَل للإمامِ أحمَدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، دُعِيَ إلى القَوْل بخَلْقِ القرآن، ودُعِيَ غيرُه أيضًا إلى القولِ بخَلْق القرآن، فَمِن العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ مَن تَأَوَّل وأَجابَ ظاهِرًا بما يُدْعَى إليه، ومِنهم مَن أَصَرَّ فقُتِل، ومِنْهم مَن أَصَرَّ فحماهُ الله تعـالى مِن القتل كالإمامِ أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالإمام أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يُجِبْهم ولو بالتأويلِ؛ لأنَّ الناس يَنظُرُون ماذا يَقولُ الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلو قال: إنَّ القُرْآن مَخلوق. ولو بالتَّـأوِيل، سيَقول العامةُ: إنه مَخْلُوق. وتَنطَلِي هذه البِـدْعةُ على عُمُوم المُسلِمين، فرأَى رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يَجوز أن يَتَأَوَّل في هذه الحالِ؛ لِما في ذلك مِن خُذْلان الحقِّ وإثبَاتِ البَاطِل.

وقـوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ هذا التَّعـقيبُ لَمَّا ذكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

أنهما إذا أَمَرا بالشِّرْك فلا تُطِعْهما، وأنَّ الواجِبَ عليك اتِّباع سبيل مَن أَناب إلى الله تعالى، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ﴾ أي: بعد هذه المُحاولاتِ مِنهما بأن تُشْرِك بالله تعالى، وبعد أن تُطِيع فالمَرجِع إلى الله تعالى.

وقولُه تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ جُملة اسمِيَّة خَبَرية قُدِّم فيها الخبر لِإفادة الحَصْر، ﴿إِلَيَّ﴾ لا إلى غَيْرِي، ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ يَعنِي: مَرَدُّكم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [فاطر:٤].

وقوله تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ بمَعنَى: أُخبِرُكم، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، والإنبَاءُ هذا يَستَلْزِم المُجَازَاة، وقد لا يَكون هناك مُجازَاة؛ ولهذا دائِمًا يُعَبِّر الله عَزَّوَجَلَّ بالإنبَاء -أي: الإخبار- لأنَّه قد يُجازِي وقد لا يُجازِي، فإنَّه يَخلو بعَبْدِه المُؤمِن ويُخبِرُه بذنوبِه ويُقرِّرُه بها، ثم بَعْد ذلك يَقول: «**سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**»(١).

وقولُه تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بالذي كُنْتم تَعمَلون، وهو شامِل لكل ما يَعمَله الإنسان مِن صَغِير وكبِير دون ما لم يَعمَله، فلو هَمَّ بالشيء فلم يَعمَلْه فإنه لا يُجازَى عليه، لكن قد يُثَاب عليه إذا كان مَعصيةً ترَكَها مِن أَجْل الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يُثَاب على هذا التَّرْكِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فأُجازِيكم عليه، وجُملة الوَصِيَّة وما بعدَها اعْتِراض] فقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فأُجازيكم عليه] كأنَّه جعَل مِن لازِم الإنباء المُجَازاة، ولكن كما قُلْت: ليس لازِمًا؛ ولهذا عبَّر الله عَزَّوَجَلَّ بالإنباءِ؛ ليَكونَ الأمرُ جائِزًا أو دائِرًا بين

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

أن يُجازَى عليه وبَيْن أن لا يُجازَى عليه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وجُملةُ الوَصية وما بعدَها اعتِراض] الوصية مُبتَدَأَة مِن قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ اعتِراضٌ مِن قولِ الله عَزَّوَجَلَّ، وليس ذلك مِن قول لُقمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنِه؛ لأنَّ الذي وصَّى الوالدين إحسانًا ووجَّه الإحسان هو الله عَزَّوَجَلَّ، وإنَّما جاءَتْ هـذه الوصيةُ بعد ذِكْر الشِّرْك؛ لأنَّ عُقُـوق الوالِدين يَرِد بَعْد حَقِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي الوصية أيضًا جُمْلَة اعتِرَاضية، هي قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾؛ لأنَّ قـولَه تعـالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ هـو المُوصَى به: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾.

إذَنْ نقول في هذا: الوَصِيَّةُ اعتِراضِية بين كَلامَيْ لُقْمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابْنِه؛ وقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ اعتِراض أيضًا بَين فِعْل الوصية والمُوصَى به.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَحـريمُ طاعَةِ الوالدين إذا أَمَرَا بالشِّرْك؛ لِقَولِه تعـالى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، ويُقـاس على ذلك كل مَعْصِيَة أمَرَا بها فإنهما لا يُطَاعَان؛ لِقَوْلِ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ**»[1].

---

(١) أخرجه بلفظه الطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ١٧٠، رقم ٣٨١) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ويشهد له ما أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب السمع والطاعة للإمام، رقم (٢٩٥٥)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، رقم (١٨٣٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بلفظ: «السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بالمعصية، فإذا أمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة».

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ فُسُوقَ الوالدَيْن وكُفْرَهُمَا لا يُسْقِطُ حَقَّهُمَا مِنَ البِرِّ، يُؤْخذ ذلك مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، فإنَّه أَمَر بِمُصَاحَبَتِهِمَا مَعْرُوفًا مَع أنَّهُمَا كَافِرَيْن ويَأمُرَان بالكُفْر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وُجُوب اتِّبَاع سَبِيل المُؤْمِنِين؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾، ويُؤَيِّدهُ قَولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ جَمِيعَ الخَلَائِق مُؤْمِنِهم وكَافِرِهم مَرْجِعُهُم إلى الله تعالى؛ لِقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الحُكْمَ بَيْن الخَلْقِ إلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ فإنَّ تَقْدِيم الخبَر يَدُلُّ على الحَصْر.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إحاطَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكُلِّ شَيءٍ عِلْمًا؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فإنَّ الإنْبَاءَ بما نَعْمَل لا يَكُون إلَّا عن عِلْم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثْبَاتُ الكلامِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقولِه تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ والإنباءُ إخْبَار.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: تَحذير الإنسان مِن الأعمَال السَّيِّئَة فإنَّ قولَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ يُفِيدُ التَّحْذِير، حتى لا نَقَعَ في أمْرٍ حَرَّمَهُ اللهُ تعالى علينا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بُلُوغُ الغَايةِ في البَلاغَة في القرآنِ الكَرِيم؛ لِقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ ولم يَقُل: فأُجازِيكم؛ وذلك أنَّه قد يُنَبَّأُ الإنسان يومَ القيامة بِمَا عَمِل،

ثُم يُغْفَر له، فذَكَرَ الله تعـالى الإنباء؛ لأنَّه مُؤَكَّد، أمَّا المُجازَاة فإن الله تعالى قد يَغفِر عن المُذنِب ذُنوبه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إن قال قائِل: هل يُؤْخَـذ مِن الآيةِ الكريمة: وُجُوبُ طَاعةِ الوالِدَين في غير مَعصِية الله تعالى؟

فالجَوابُ: إذا أَمَرَا بغير المَعصية فالآيةُ سكَتَتْ عن ذلك، فحَرَّمَت الطاعَة في المعصية وسكَتَتْ عمَّا عَدَا ذلك، لكن قد يُقال: إنَّ قولَه تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ يَدُلُّ على وُجُوبِ طاعتِهما في غَيْر المَعْصِيَة؛ لأنَّه لا شَكَّ أن مُصاحَبتَهما في المَعروف بِامتِثَال أمرِهما، وعلى هذا فقَدْ يُسْتَدَلُّ بعُمومِ قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ على وجوبِ طاعتِهما في غير المَعْصِيَة، ولكنَّه سَبَق لنا أثناء التَّفسير أنَّ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول: تَجِبُ طاعتُهما فيما فيه نَفْعٌ لهما ولا ضرَرَ عليه فيه، أمَّا ما فيـه ضرَرٌ عليه فلا يَجِبُ عليه الطاعة؛ ولهذا لَمَّا ذَكَرَ أهـلُ العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أن لِلأَبِ أن يَتَمَلَّكَ مِن مَالِ ولَدِه ما شاء قالوا: بشَرْط ألَّا يَضُرَّ الولَد، فإنْ ضَرَّ الولَد فإنه ليس له أن يَتَمَلَّك، بل قالوا: بشَرْط ألَّا يَضُرَّه وألَّا تَتَعَلَّقَ بِه حاجتُه، فإن تَعلَّقَت به حاجتُهُ فليس له أن يَتَملَّكَه.

والمَقصود بالحاجة هنـا حاجتُه الخاصَّة بمَـعنَى أنه مثَلًا لا يَجِـد غيره، أو كل شيء يَحتاجه، لكن مثلًا إناء يَحتاجه فيَشتَرِي بدَله، أمَّا (زُهْرِيَّة) يَحتاجُها فلا نَقول للأَبِ: أن تَتَمَلَّكَها؛ لأن هذا يُفَوِّت على الابنِ حاجتَه واستِمْتاعَه بها.

فإن قال قائِل: قد قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ

(١) انظر: الاختيارات العلمية (٥/ ٣٨١).

ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤] ألَا يُنافِي ذلك أمرَه بمُصاحَبتهما بالمَعروف؟

فالجَوابُ: لا مُنافاةَ بينهما؛ لأنه ليس مَعنَى مُصاحَبتِهما بالمَعروف أن تُبْدِيَ لهما المَحَبَّة والوِلاية، بل أنت تُبغِض ما هُما عليه مِن الكُفْر والشِّرْك، وتُبغِضُهما على هذه الصِّفاتِ التي اتَّصَفا بها، ولكن تُعْطِيهما ما يَجِبُ لهما.

فإن قال قائِل: هل يَجوز إظهار البَشَاشَة لهما؟

فالجَوابُ: لا يَمنَع ذلك إذا لم يَكُن هذا سَببه الدِّين، فهذا أَمْر تَقتَضيه الطبيعة، والعَداوة والبَغضاء في القَلْب؛ لأن العَداوة ضِدُّ الولاية، ولكن لا نُؤذِيهم.

ثُمَّ يُقال أيضًا: قد نَقول: لكلِّ مَقَامٍ مَقال. فمثَلًا إذا كان الوالِدان أو غيرهم يَتبَجَّحَان بالكُفْر ويَفتَخِران به، فلنا أن نُعْلِن هذه البَرَاءَةَ والعَدَاوَةَ والبَغْضَاء، وإذا كانا سَاكِتَيْن مُسَالِمَيْن فنحن لا نَتَعرَّض لهما، ولكننا نَتَبَرَّأ -على صِفَةِ العُمُوم- ممَّا هُمْ عليه مِن الدِّين.

والمُهِمُّ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقول: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أمَّا فيما يَتعَلَّق بالدِّين فلا تُصاحِبْهما بمعروف أبَدًا فيما يَتَعلَّق بالدِّين يَجِب أن تَكْرَههما وتَبتَعِد عنها وتُعَادِيهما.

• • ۞ • •

الآيــة (١٦)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ [لقمان:١٦].

ثُمَّ قال الله عَزَّوَجَلَّ عَوْدًا على وصَايَا لُقْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ [لقمان:١٦].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّهَآ﴾ أي: الخَصْلةَ السَّيِّئَةَ] فيه قُصور؛ لأنَّ الصواب المُراد ﴿إِنَّهَآ﴾ أي: الخَصْلة السَّيِّئة أو الحَسَنة كلُّ شَيء مِن حَسَن أو سَيِّئٍ.

وقوله تعالى: ﴿إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾: ﴿مِثۡقَالَ﴾؛ أي: وَزْن، وسُمِّيَ الوَزْنُ مِثقالًا؛ لأنه يُعتبَر بِثِقَلِه، فإنَّ الشيء يُوزَن لِيُعْلَم ثِقلُه مِن خِفَّتِه.

وقوله تعالى: ﴿حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾ هذه حُبُوب معروفَة صَغِيرة.

وقوله تعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ﴾ في صَخْرة في أيِّ مكان مِن الأَرْض؛ لأننا لا نَعرِف صُخُورًا إلَّا في الأَرْض، لكن الذين خرَجوا إلى القَمَر جاؤُوا لَنَا مِنْه بِصُخُورٍ، فلا نَدرِي هل هذا صَحِيح أو ليس بِصحِيح، والمَعروف أنَّ الصُّخُور في الأرض، وقوله تعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ﴾ إمَّا أن تكون على سبيل المُبَالَغة، أو يَكون مثلًا في هذه الصَّخرةِ شيءٌ من جِنْس هذا بقَدْر حَبَّة الخَرْدل فيُعْتَبَر فيها، أو يُقال:

إنَّ المُراد أنَّ حَبَّةَ الخَرْدل قد تكون في شَقٍّ مِن هذِه الصَّخرةِ.

وأنا شاهَدْتُ في الغضَا[1] يَخرُج فيه حُبَيْبَات بقدر الأُنمُلة خُضْر مَخْتُومَة تمامًا، إذا فتَحْتَها وجَدْتَ فيها دَابَّة، تَدُبُّ على بَطنِها، وهي مَختُومة، وفي نَفْس الغُصْن، ليس فيها فتحة، يَعنِي: مَخلوقٌ مِنْها هذا الشَيْءُ.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أو في أعلى السَّموَات أو أَنزَلِها، أو في الأرض في أعلاها أو أَنزَلِها. قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في أَخفَى مَكان مِن ذلك].

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾: ﴿يَأْتِ﴾ بحَذْف الياء؛ لأنَّها جواب الشرط في قوله تعالى: ﴿إِن تَكُ﴾ فإنَّ ﴿إِن﴾ شَرْطِيَّة و﴿تَكُ﴾ فِعْلٌ مُضارِع مَجزُوم بـ(إِنْ) الشَّرْطِيَّة، وعلامَةُ جَزْمِه السُّكون على النون المحْذُوفة لِلتَّخْفِيف، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَأْتِ﴾ جوابُ الشَّرْط مَجزومٌ بـ(إِنْ) وعلامَةُ جزمِه حَذْفُ الياء.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ فيُحَاسِبُ عليها] هذا مِن أَخفَى ما يَكُون، ومع ذلك قال تعالى: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾، ولم يَقُل: يَعلَمْهَا الله؛ لأنه مِن لازِمِ الإتيانِ بِها العِلْم بها، لكن الإِتْيَان أبلَغُ، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَأتِي بها ويُجازِي عليْهَا، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَأْتِ بِهَا﴾ بمَعنَى أنها لا تَفوت ولا تَهْرُبُ منه، ولا بُدَّ أن يَأتِيَ بها ويُحاسِب عليها، أو يَأتِي بها لِيُظهِرَ قُدرَتَه عليها.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بِاسْتِخْرَاجِهَا ﴿خَبِيرٌ﴾ بِمَكَانِهَا] المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ دائِمًا يُخَصِّص العُموم بِمُقْتَضَى السِّيَاق، والمعروف عند أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ

---

(١) الغضا: شجر معروف. انظر تاج العروس (غضي).

أنَّ العِبْرَة بعُمُوم اللَّفْظ، فهنا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ جعَل اللُّطْف بالاستِخْراج، والخِبْرة بالمَكَان، والصَّواب أنها أعمُّ مِن ذلك، فإنَّ اللطيف مِن أسماءِ الله تعالى، قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَهْـوَ اللَّطِيـفُ بِعَبْـدِهِ وَلِعَبْـدِهِ ... وَاللُّطْـفُ فِي أَوْصَـافِهِ نَوْعَـانِ[1]

فالله تعالى لَطيفٌ بعَبْده ولطيفٌ لعَبْدِه:

اللُّطفُ الأوَّل: إدرَاك أسرَارِ الأمُور وخَفَايا الأمور.

والثاني: اللُّطْفُ عند مَواقِعِ الإحسان -الذي هو الإحْسَان إلى العَبْد- يَلْطُف له بمَعنَى: يُقَـدِّم له مِن الإحسان ودَفْـع السُّوء ما لا يَعلَمُ به، فيَكون قـوله تعالى: ﴿لَطِيفٌ﴾ يَتعَدَّى بالباء، ويَتعَدَّى باللَّام، فإنْ تَعدَّى بالباء فهو بمَعنَى: العِلْم بِخَفَايا الأمُور، وإن تَعدَّى باللَّام لَطِيفٌ لَهم فهو بمَعنَى الإحسان بِجَلْب المَطْلُوب، ودَفْع المكرُوه أو المَخُوف، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف:١٠٠]، هذا قول يُوسُفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يَعنِي: ومِن لُطْفِه أن يَسَّر الاجْتِمَاع بِكُم بعد الفِرَاق ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠].

فالحاصِلُ: أنَّ اللطيفَ مِن أسْمَائِه تعالى، ولَه مَعْنَيَان حسَب ما يُتَعَدَّى به: إنْ تَعَدَّى باللَّام ﴿لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ فمَعْناه: الإحسان، وإن تَعَدَّى بالبَاء فمَعناه: العِلْم بالخَفَايا، فهو لِكمالِ عِلمِه لَطِيف، كُلُّ شيءٍ يَعلَمُ به.

هناك مَعنًى ثالِثٌ -لكن ما لا نَدرِي هل يَنطَبِق على أوصَاف الله تعالى أم لا؟- اللطيـف هو الرَّقيق عند الناس يَقولون: فُلان لطيـف، يَعنِي: رقيق حَسَنُ الخُلُق،

(١) النونية (ص٢٠٧).

وعندي أنَّ هذا داخِلٌ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ لأنه تَعدَّى باللَّام يَعنِي: مَعناه الإحسان، فإن الإحسان أخصُّ أيضًا مِن حُسْن الخُلُق؛ لأنه يَتضَمَّن الإنعام على مَن لَطَفَ لَه.

وأمَّا قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿خَبِيرٌ﴾ الخَبير هو العلِيم ببواطِنِ الأمور، وهو مع اللطيف كالمُؤَكِّدِ لَه، وقُلْنا: العِلْم ببواطن الأمور خِبْرَة، مَأخوذٌ من الخُبَار يَعنِي: الأرض الرِّخْوة التي تُبذَرُ فيها البُذُور وتُدَسُّ فيها، فهو خَبيرٌ عَزَّوَجَلَّ عالِمٌ ببواطنِ الأمور، ومِنها هذه الحَبَّةُ التي مِن خَردَل تَكونُ في صَخْرة أو في السَّمَوات أو في الأرض.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: في هذه الوَصيةِ فائِدَة: وهي تَحذِيرُ الابْنِ مِن المُخَالَفة؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ فلا تَخفَى عليه ولا تَفُوتُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عُمُوم عِلْمِ الله عَزَّوَجَلَّ، وتَمَامُ قُدْرتِه، ويُؤخَذ العُمُوم مِن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والذي يَكون بادِيًا على الأرض، وليس في الصحراء مِن باب أَوْلى، فيُستَفاد مِنه: عُمُوم عِلْم الله تعالى وإِحَاطَتِه وتَمامُ قدرته أيضًا، وذلك بالإتيانِ بِها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثْبَاتُ هَذَيْن الاسمَيْن مِن أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ وإثباتُ ما تَضَمَّنَاه مِن الصِّفَة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ السمَواتِ مُتَعَدِّدةٌ؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وعدَدُها مَعرُوف، وهو سَبْع، وأمَّا الأرض فلم تُذْكَر مَجْمُوعَةً في القرآن، فكلُّ ما في القُرآن

مِن ذِكْرِ الأرض فإنَّـه بالإفراد، ولكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَشار إلى أنَّها جَمْع في قولِـه عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ يُرَاد المِثْلِيَّـة في العدَد، إِذْ إنَّ المِثْلية في الكَيْفِيَّة مُسْتَحِيـلة، فَلَزِمَ أن تكون مِثْلِيَّة في العَدَد فقَطْ.

• • ۞ • •

الآيــة (١٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان:١٧].

هذه أربعةُ أَوامِرَ: ﴿ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وانظُرْ إلى الأوَّل فهو نَهيٌ: ﴿ يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣]، ثُمَّ تَحذير بقوله تعالى: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾، ثُمَّ بعد ذلك أَمْرٌ: ﴿ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾؛ ولهذا يُقال: (التَّخْلِيَةُ قبل التَّحْلِيَة)، يَعنِي: مَعناها: أزِلِ الشَّوَائِب، ثُمَّ ائْتِ بالمُكَمِّلَات.

فقوله تعالى هنا: ﴿ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أَمْر بإقَامَة الصَّلَاة، ومَعنَى إقامَتِها: أن يَأتِيَ بها الإنسَان تامَّةً بأركانِها وشُروطِها وواجِباتِها ومُكَمِّلاتِها، وقوله تعالى: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ شامِل للمَفْرُوضَات والنَّوَافِل.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ مَفعول ﴿وَأْمُرْ﴾ مَحذُوف التقدير: النَّاس أو غيرَهم، وَاؤْمُر غيرَك بالمعروف؛ أي: بالقولِ المَعروف والفِعْلِ المَعروف، والمَعْرُوف ما أَمَرَ به الشَّرْع، لأنَّ ما أَمَرَ به الشَّرْع قد أَقرَّهُ الشرع، وأَقرَّتْه الفِطَرُ السَّلِيمَة.

فالمَعروفُ إِذَنْ: كل ما أُمِرَ به شَرْعًا، سَواءٌ ما يَتعلَّق بحقِّ الله عَزَّوَجَلَّ أو بحَقِّ العِباد.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ المُنْكَر: كُلُّ ما أَنْكَرهُ الشَّرْع، أي: نَهَى عنه سواءٌ ما يَتعَلَّق بحقِّ الله تعالى، أو بحُقوق العِباد، الأَمْر بالمَعروف والنَّهْي عن المُنكَر واجِبٌ على الكِفَاية؛ لِقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤]، إذا جعَلْنا (مِن) للتَّبعيض، أمَّا إن جعَلْنا (مِن) لِبَيَـان الجِنْس والمَعنَى: ولتكونـوا أُمَّةً تَأمُرُ بالمعروف وتَنـهَى عن المُنكَر، فإنَّه يَكونُ فَرْضَ عَيْن، ولكن الصَّواب أنه فَرْض كِفَايَة؛ لأنَّ المَقصودَ به إصلاحُ الغَيْر، فإذا حَصَل إصلاحُ الغَيْرِ بغَيرِك حَصَل المَقْصُود، أمَّا إذا لم يَحصُل فإنه يَجِب أن تَأمُر، فإذَا وجَدْنَا مِن الناس تَهاوُنًا في هذا الأَمْرِ وتَكَاسُلًا صار فرضًا علينا، أمَّا إذا رأَيْنا أنَّ الناس قد استَقامُوا على هذا وصاروا يَأمُرُون بالمعروف ويَنهَوْن عَن المُنكَر، فإنه يَكون في حَقِّنا فَرْضَ كِفَاية.

وقوله تعـالى: ﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ حتى والِدَيك تَأمُرُهما بالمَعروف وتَنهاهُما عن المُنكَر، بل إنَّ حقَّ الوالِدين أَعظَمُ مِن حقِّ غيرِهما؛ لأنَّ الأَمْر بالمَعروف والنَّهي عن المُنـكَر إحسانٌ للمَأْمُور والمَنْهِيِّ، وليـس إساءةً، فإذا كان كذلك فأَحَقُّ مَنْ تُحْسِنُ إِلَيْه وَالِدَاك.

فإن قال قائِل: الأَمْر بالمَعـروف والنـهيُ عن المُنكَر هل هو المَوْعِظَة فقَـطْ أم غيرها؟

فالجَوابُ: لا، نحن ذَكَرْنا فيما سَبَق، أنَّ المُراد: الثَّلَاثَة؛ بَيَانٌ ودَعْوَة، وأَمْر ونَهْي، وتَغْيِير، فالبَيَـانُ والدَّعوة واجِبان على كل أَحَد، فإنه يَجِب عليـه أَنْ يُبَيِّن إذا دَعَتِ الحَاجَةُ إلى البَيَان أو سُئِلَ عن عِلْم، وكل أَحَد عليه أن يُبَلِّغ إذا اقتَضَتِ الحالُ ذلك، وأمَّا الأَمْر فهو أَخَصُّ مِن الدعوة؛ لأن الأمر أن تُوَجِّهَ أمرًا إلى شَخْص مُعيَّن ما هو

بأن تُبيِّن أن تَقُوم في الناس، وتَقُول: هذا حَلَال، وهذا حَرَام، هذا يُعْتَبَر مَوْعِظَة، وأمَّا التغْيِير: فَأَن تُغَيِّرَ بيدك تَأخُذ هذا المُنكَر تُكَسِّره مثلًا، نعَمْ، أو تَقول بِلِسانك، إذا عَجَزْت عَن الفِعْل تُغَيِّر باللسان، إمَّا بِرَفْع الأَمْر إلى مَن يَسْتَطيع التغيير، وإمَّا بالانتِهار والتوبِيخ والزَّجْر، فإن لَم تَسْتَطِع هذا ولا هذَا فيَكُون التَّغْيِير بالقَلْب وهو الكراهَة والبَغْضَاء؛ وهذا في الحقيقة لا يَحصُل التغيير المُطْلَق يَعنِي: أنَّ المُنكَر لو تُنكِره بقَلْبك لا يَزُول، لكن هذا أَدْنى دَرَجاتِ التَّغْيِير؛ ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في ذلك: «وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»(١).

ومن شروط ذلك: الاستِطاعة، وهذا شَرْطٌ في كل واجِب؛ لقَولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

ومِن الشُّرُوط أيضًا: أن لا يَخْشَى ضرَرًا مُحَقَّقًا، فإن خَشِيَ الضرَر في مالِه أو بدَنِه لم يَلْزَمْهُ، فإن خَشِيَ الأذِيَّة لَزِمَه؛ لأنَّه لا بُدَّ مِن أذًى، لكن أذِيَّة ما فيها ضَرَر؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ هَذَا تَوْطِئَة وتَمْهِيد كَأَنَّه يَقُول له: إذا أَمَرْت بالمَعروف ونَهيْت عن المُنكَر فلا بُدَّ أن يَحْصُل لك أَذِيَّةٌ فاصبِرْ على هذا.

وهذا هو الواقِع، فإنَّ الآمِرَ بالمعروف والنَّاهِيَ عن المُنكَر غالبًا يُؤْذَى، يُؤْذِيه المَأمُور والمنْهِيُّ، إمَّا بالقول وإمَّا بالسُّخْرِيَة، ورُبَّما تَصِل الحال إلى أنه يَرْمِيه بالحِجَارة أحيانًا، وربما تَصِل الحال إلى أنَّه يُخَرِّبُ سَيَّارَتَه، أو يَكْسِر بابَه، أو ما أَشبَهَ ذلك، لكن الأخير هـذا ضرَرٌ في المال، ولكن لا بُدَّ أن يَكون أمرًا مُحقَّقًا، أمَّا إذا كان وَهْمًا عن الضَّرَر فَلَيْسَ بِشَيْء.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم (٤٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ المُشار إليه ما سَبَق مِن الأمُورِ الأرْبَعَة ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: مَعْزُومَاتِهَا التي يُعْزَم عليها لِوُجُوبِها].

قوله تعالى: ﴿ٱلْأُمُورِ﴾ بمَعنَى: الشُّؤُون والأَحْوال، والعَزْم هنا مَصدَر بمَعنى اسْمِ المَفْعُول، أي: مَعْزُومَاتِهَا التي يُعْزَمُ عليها؛ لِأَنَّها وَاجِبَة، والله أَعلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّه يَنْبَغِي للآبَاء أن يُوصوا أبناءَهم بهذه الخِصَالِ الأربَعِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّه يَنبَغي لِلأَبِ أن يَقْرُنَ مَوْعِظَتَه لِابنِه بالتَّرْغِيب والتَّرْهِيب، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ تَأْكِيدٌ وحَقٌّ على الابنِ أن يَقومَ بهذه الوَصَايا الأَرْبَعِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: مِن كُلِّ هذه الوصايا، قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ يُؤْخَذُ مِنه تَلَطُّف الإنسان بِمُخَاطَبة ابنِه، لا سِيَّما في مَقَام المَوْعِظَة.

ويَتَفَرَّع على هذا أيضًا: بَيانُ سُوءِ مُعَاملةِ بعض الآباء إذا أَراد أن يَعِظَ ابنَه عامَلَه بالعُنْف والشِّدَّة، وهذا خَطَأ وقد قال النَبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ يُعْطِي بِالرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ**»[1]، وأنتَ إذا عمِلْتَ بهذا الشَّيْءِ فإنَّك سوف تَتعَامَل بالرِّفْق؛ لأنَّ الرَّسُول ﷺ أَخْبَر بأن الله تعالى يُعْطِي بالرِّفْق ما لا يُعْطِي على العُنْف، فإذا كان يَحصُل لك مَقْصُودُك بالعُنْف فإنَّ حصُولَه بالرِّفق مِن بَابِ أَوْلَى.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم (٦٠٢٤)، دون الجملة الأخيرة، وأخرجها مسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، رقم (٢٥٩٣)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وعلى هذا فيَنبَغِي الرِّفْق في الأُمُور لا سِيَّما في مَقَامِ الوَعْظ لِهَؤُلَاءِ الأَبْنَاءِ الذين لا يُحِيطُون عِلْمًا بما هم عليه، أمَّا المُعَانِدُ والمُسْتَكْبِرُ فهذا له حَالٌ أُخْرى، لكِنْ كلامُنا في مَقَامِ الدَّعْوة، وفي مَقَامِ التَّوْجِيه والإِرْشَاد، فإنه يَنْبَغي التَّلَطُّف وعَدَم العُنْف.

• • ۞ • •

الآيــة (١٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان:١٨].

قوله تعـالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ ﴾ هذه مَعطُـوفة على قولِه تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، فهـو إِذَنْ مِن وصايا لُقمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنِه، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَلَا تُصَعِّرْ ﴾ وفي قِرَاءة: (وَلَا تُصَاعِرْ) ﴿ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ لَا تُمِل وَجْهَك عنهم تَكَبُّرًا] التَّصْعِيرُ هُو الإمَالَة، ومِنـه: الصَّعَرُ فِي الوَجْه، وهو المَيَال بحيث تَكُون العُنُق مُلْتَوِية، تَمِيلُ إمَّا يَمِينًا وإمَّا شِمَالًا.

وقوله تعالى: ﴿ خَدَّكَ ﴾ أي: وجهَك، فهو مِن إطْلاقِ البَعْضِ وإرادَةِ الكُلِّ، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَكَبُّرًا] نَعَم؛ هذا مَحَطُّ النهيِ، أن يَفعَلَ ذلك على سَبِيلِ التكَبُّر، أمَّا لو فعَلَه على سبيـل الإعْراض عَمَّا لا يَجـوز النظَر إليه، كما لو قابَلَتْـه امرأة فَصَدَّ وأَعْرَض فإنَّه لا يَدخُل في الآية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ وأمَّا إذا صَعَّرْت وجْهِي أو خَدِّي لأَجْل ألَّا أَرَى أيَّ شيءٍ مُحَرَّم فإنَّه لا يَدخُل في هذه الآيةِ.

وقوله تعـالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أي: عنْهُم فتُمِله تَكَبُّرًا. وقوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ ﴾ عامٌّ، يَشْمَل المُؤْمِن والكَافِر، ولكن الكَافِرَ لا يُعامَل كما يُعامَل المُؤمِن في مِثْل هذه الأُمُورِ، وقد يُقالُ: إنَّ شَرْعَنـا وَرَدَ بخِلافِه، وأنَّ الكافِر يُصَعَّرُ له الخَـدُّ

ويُعرَض عَنه، وقد يُقال: إنَّ الكافِر إذا جاءَك مُقبِلًا فأَقْبِلْ عليه، فإنَّ هذا مِن باب التَّأْلِيف على الإسلام، وأمَّا إذا أَعْرَضَ فأَعْرِضْ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾: ﴿وَلَا تَمْشِ﴾ هذا مجزُوم بحَذفِ الياء ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: على الأرض ﴿مَرَحًا﴾ قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: خُيَلَاءَ]، فالمَرَح بمَعنَى: البَطَرِ والأَشَرِ والخُيَلَاءِ مِن ذلك، فلا تكون مُتبَخْتِرًا في مِشْيَتِك مُتَعَالِيًا في نفسِك، ولكنِ امْشِ مِشْيَةَ المُتَذَلِّل الخَاضِعِ لله عَزَّوَجَلَّ، غَيْرُ المُتَعَلِّي على عِبَادِ الله تعالى.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ذَكَرَ هنا: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾، فالأوَّل: في مُعَامَلَة النَّاس ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، والثاني: في هَيْئَتِه بِنَفْسِهِ ألَّا يَمْشِيَ في الأرْضِ مَرَحًا، وإنَّما يَمشِي كما يَمشِي عِبَادُ الرحْمَن: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ مُتبَخْتِرٍ في مَشْيِه ﴿فَخُورٍ﴾ عَلَى النَّاسِ].

قوله تعالى: ﴿مُخْتَالٍ﴾ أي: فَاعِل لِلخُيَلَاء، و﴿فَخُورٍ﴾ أي: مُفْتَخِرٍ بِنَفْسِه، والفرْقُ بينهما أنَّ الاخْتِيَالَ يَكونُ بالنَّفْس، والفَخْر يَكون بالقَوْل، فهذا الرَّجُلُ عِندَه خُيَلَاءُ في نفسِه، واخْتِيالٌ على عِبَادِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعنده فَخْرٌ بلسَانِه يَفْخَرُ بنفسِه، ويَقول: أنا فُلَانُ بنُ فُلَان، ويَمْتَدِحُ نفسَه، ولكن هذا ما لم يَكُنْ في الحَرْب، فإن كَان في الحَرْب فلا بأسَ أن يَفْخَرَ الإنْسَان، كما قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:

«أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ ... أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ»(١)

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، رقم (٢٨٦٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، رقم (١٧٧٦)، من حديث البراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ورأى بعضَ أصحابِه يَمْشِي مِشْيَة المُتبَخْتِر فقال ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ لَمِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللهُ إِلَّا فِي هَذَا المَوْقِفِ»[1]، ففي بَابِ الحَرْب يَجوزُ للإِنْسَان أن يَفْتَخِر، ويَجوزُ أن يَتَعَاظَمَ في نفسِه؛ لأنَّه أَمَامَ أعداءِ الله تعالى الذِين يَنْبَغِي إذْلَالُهُم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: ذَمُّ هاتَيْن الخَصْلَتَيْن؛ تَصْعِيرِ الخَدِّ للنَّاس تَكَبُّرًا وتَعَاظُمًا، والمَشْيِ في الأَرْضِ مَرَحًا، وقد دَلَّتِ الآيَاتُ الأُخْرَى على أَنَّهُما مِن المُحَرَّمَات؛ كما في سُورَة الإِسْرَاء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّه يَنْبَغِي لِلإِنْسَان عِنْد مُحَادَثَةِ غيْرِه أن يَكُونَ مُقْبِلًا إِلَيْه بِوَجْهِه؛ لِأَنَّ النَّهيَ عن تَصْعِير الخَدِّ يَدُلُّ على الأَمْر بِضِدِّه، وهو أن يَكُون مُقْبِلًا إِلَيْه بوجْهِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِثْبَاتُ أَنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ؛ مِن قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وَوَجْهُ الدَّلَالَة أَنَّ نَفْيَ مَحَبَّةِ اللهِ تعالى لِهَؤلَاء يَدُلُّ على ثُبُوتِها لِغَيرِهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَحْرِيمُ الاخْتِيَال والفَخْر؛ لأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَفَى مَحَبَّتَه له، وقَد سَبَقَ الفَرْق بَين الاخْتِيَال والفَخْر، الفَخْر بالقَوْل، والاخْتِيَال بالفِعْل.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ١٠٤ رقم ٦٥٠٨).

الآيــة (١٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٩].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ تَوَسَّطْ فِيه بَيْنَ الدَّبِيبِ والإِسْرَاع، وعَلَيكَ السَّكِينَة ﴿وَٱغۡضُضۡ﴾ اخْفِضْ ﴿مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾ أَقْبَحَهَا ﴿لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ أَوَّلُهُ زَفِير وَآخِرُهُ شَهِيق].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ القَصْد مَعنَاهُ الوَسَط في الأُمُور، فالوَسَطُ في الأمور مَعناه: أنَّ الإنسان يَكُونُ وَسَطًا في مَشْيِه بين الذي يَمْشِي مُسْرِعًا والذي يَمْشِي مُتَبَاطِئًا، والقَصْدُ في كُلِّ شيْءٍ هو الوَسَط؛ ولهذا وَرَدَ في الدُّعَاء المَأْثُور: «**وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى**»[1]، فمَعنَى (القَصْد) يَعنِي: التَوَسُّط في الأُمُور، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾[الفرقان:٦٧].

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾، تَوَسَّطْ فيه بين الدَّبِيبِ والإِسْرَاع وعليك السَّكِينَةُ والوَقَار] يَعنِي: لا تَدُبَّ دَبِيبًا وأنت تَمْشِي، ولا تُسْرِعْ سُرَعَةً تُخِلُّ بالمُرُوءَة،

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٦٤)، والنسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء (أي بعد الذكر)، رقم (١٣٠٥)، من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ولكِنْ لِيَكُنْ مَشْيُـك وَسَطًا بيْنَ هذا وهذا، دَالًّا على القُـوَّة وعلى النَّشَاط كما كان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَفْعَلُ في مَشْيِه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾: ﴿مِن﴾ هذه لِلتَّبعيض، فلَمْ يَقُلِ: اغْضُضْ صَوتَك. بل قال: مِنْهُ. وذلك لأنَّ الإنسان لا يُحْمَد على رَفْعِ الصَّوْتِ جِدًّا، ولا على خَفْضِهِ جِدًّا، والنَّاس مِنـهم مَن يَكُون عَالِيَ الصَّوْت إِذَا قَام يَتكَلَّم وإذَا هـو كأنَّما يَتكَلَّمُ على جَمَاعَةٍ بَعِيدِين، ومِن الناس مَن يَكُون بالعَكْس، يُكَلِّمُك رُبَّما لا تَفْهَمُ مِنْه إلَّا الكَلِمَـة بَعْد الكَلِمة، كُلُّ هذا لَيْس بِجَيِّد؛ ولهذا قَال تعـالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾، ولم يَقُـلِ: اغْضُضْه كُلَّه. فلا ينبَـغِي هذا ولا هذا، بل يَكُـون أيضًا قَصْدًا بين رَفْعِ الصَّوْت والإخْفَاء.

فقولُه تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ المُراد به: عند المُخَاطَبَة، ثُمَّ إنَّ ﴿مِن﴾ هنا تُفِيـدُ التَّبعيض في الكَيْفِيَّة، وكذلك في الكَمِّيَّة، في بعض أحيـان يَكون الأفضَل أن تَرْفَع صَوتَك، افْرِضْ أنَّك تُنَادِي قومًا بعيدِين مُتَرَامِي الأطْرَاف تُريد أن تَحُثَّهم على قِتَـال أو ما أشْبَهَ ذلك؛ فيَجُـوز رَفْعُ الصَّوْت؛ ولهذا العَبَّـاسُ بنُ عَبْد المُطَّلِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الحديث الصَّحيح لَمَّا انصرَفَ الناس أمَرَه النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يُنَادِيَ فقال -بأَعلَى صوتِه-: يَا أَهْل الشَّجَرَة، يَا أَصْحَابَ سُورَةِ البَقَرَة[1]. بأَعلَى صوتِه، وهذا لا شَكَّ أنَّه ليس غَضًّا مِن الصَّوْت؛ لأنَّ الله تعالى يَقُول: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾.

فصارَ الغَضُّ مِن الصَّوْت باعتِبَار الكَمِّيَّة وباعْتِبَارِ الكَيْفِيَّة؛ نَقُول مثلًا: إذا كُنت تُخَاطِبُ مَن إلى جَانِبك لا تَرْفَعِ الصَّوْت ولا تَخْفِضْهُ بِحَيْـثُ لا يَسْمَع، هذا باعتِبَار

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد، باب في غزوة حنين، رقم (١٧٧٥)، من حديث العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، دون قوله: «يا أصحاب البقرة»، وهي في رواية الإمام أحمد (١/ ٢٠٧).

الكَيفِيَّة، أمَّا باعتِبار الكَمِّيَّة فأحيانًا رُبَّما تُضطَرُّ إلى رَفْعِ الصوت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾ يَعنِي: أحيانًا، لكِنْ في بعضِ الأحيان تَسْتَدْعي الحَالُ أن تَرْفَعَ صَوْتَك بِقَدْرِ ما تُسْمِع.

ثُمَّ علَّلَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ﴾ يُحتَمَل أن يَكُون مِن كلام لُقْمَانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأنه الأصْل، ويُحتَمَل أن يَكُونَ مِن كلامِ الله تعالى خَتَمَ اللهُ به الآيَةَ.

وقولُه: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾ تَعْلِيلٌ لقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾، ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾ يَعنِي: أقبحَها وأبْشَعَهَا، ولَيْسَ أعْلَاها، لكِنْ أَنْكَرَهَا؛ لأنَّ في الحَيْوَان مَن هو أعلَى صوْتًا مِن الحِمَار، لَكنْ في القُبْح ليس هناك أَقْبَحُ مِن صَوتِ الحَمِير.

وقولُه تعالى: ﴿أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ الجُمْلة هذه مُؤَكَّدَة بِمُؤَكِّدَين وهي (إنَّ) واللَّام، ووَجْهُ ذلك ما ذكَرَه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ أوَّلَه زَفِير وآخِرَه شَهِيق.

والفَرْق بين الزَّفِير والشَّهِيق أن الشَّهِيق يَكونُ بَاطِنًا في الصَّدْر، والزَّفِير يَكُون خَارِجًا؛ ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ [الفرقان:١٢].

وكذلك الآيةُ الثانية: ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ﴾ [هود:١٠٦]، هذا باعتِبار السَّاكِنِين، وقال في آيَةٍ أُخْرَى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ﴾ [الملك:٧] فَذكَرَ الله تعالى لِلنار زَفِيرًا وشَهِيقًا كما أنَّ لِسَاكِنِيها -أيضًا- زَفِيرًا وشَهِيقًا، نَعُوذُ باللهِ تعالى مِنه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ انْتَهَتِ الوِصَايَة النَّافِعَة التي هِي مِن الحِكْمَة التي أَعْطَاهَا اللهُ تعالى لُقْمَان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّه يَنبَغي لِلإنسَان أن يَكونَ مَشْيُه قَصدًا لا إِسْراعًا مُخِلًّا، ولا دَبِيبًا مُتَبَاطِئًا، فالإِسْرَاع الذي فِيه التَّهَوُّر والعَجَلَة والطَّيْش مَذْمُوم، والتَّبَاطُؤ والدَّبِيب أيضًا مَذْمُوم.

فإن قال قائِل: إذا احتاج إلى السرعة في المَشيِ في بعض الأوقات، فهل له ذلك؟ أو أنه أَراد أن يَذهَب إلى عمَله؛ ليَصِل في وَقْته فهل له أن يَمشِيَ كلَّ يوم هكذا؟

فالجَوابُ: ليس فيه بأسٌ، بل قد يَجِب أحيانًا كما لوِ احتاج لإنقاذ نَفْسه، أو إِنْقاذ غيره من هَلاكه، فكل مَقام له مَقال، فالمَقصود هنا في المَشيِ العادي؛ أمَّا في شُغْله فالأَوْلى أن يُرتِّب وقته، حتى يَخرُج إلى شُغْله بالمَشيِ المُعتاد؛ لكن لو فُرِض أنه تَأَخَّر في يوم من الأيام فله أن يَفعَل.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن يُقال: إذا كان هذا في المَشيِ الحِسِّيِّ؛ فلْيَكُن كذلك في المَشيِ المَعنَويِّ إلى الآداب والأخلاق، لا يَنبَغي للإنسان أن يُسرِع سُرعة مُخِلَّة، ولا أن يَتَباطَأ تَباطُؤًا مُفوِّتًا للمَقصود، أمَّا الإسراع إلى الخَيْر فقَدْ أمَر الله تعالى به، ولكنه لا يَتَجاوَز الحَدَّ؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، وَلَا تُسْرِعُوا**»(١).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه يَنبَغي للإنسان أن يَغُضَّ من صوته؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾، وذكَرْنا أنه يَشمَل الكِمِّيَّة والكيفية، فإنه في بعض الأحيان

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب لا يسعى إلى الصلاة، رقم (٦٣٦)، ومسلم: كتاب المساجد، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، رقم (٦٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَنبَغي رَفْع الصوت؛ كما في الأذان والخُطبة وما أَشبَهَه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن رَفْع الصوت في غير مَحلِّه مُحرَّم؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٩]، فإنَّ هذا التَّشبيهَ يَقتَضي التَّنفير منه، وقد قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ**»(١).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: ذَمُّ أصوات الحَمير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

ويُؤخَذ منها أنَّ للجارِ أن يُطالِب جاره إذا كان عنده حِمارًا نَهَّاقًا ببَيْعه وإزالته وكان نَهيقه غيرَ مُعتاد؛ لأن بعض الحَمير كثيرة النَّهيق؛ فعلى هذا له أن يُطالِب مِثلَما قال الفُقَهاءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنَّ لَهُ أَنْ يَمنَعه من الرَّحى التي يُطحَن بها دائِمًا، وكذلك من تَغسيل الثِّياب ودَقِّها دائِمًا، كل ما يُؤذِي الجار فلِجاره أن يَمنَعه منه؛ فإذا كان الله سبحانه قد وَصَف النَّهيق بأنه أَنكَرُ الأصوات، فإن له أن يُطالِب، فيَقول: بِعْ هذا الحِمارَ، وإلَّا اجعَلْه في مَكان آخَرَ، حتى لا أَتأَذَّى به.

فإن قال قائِل: هل له أن يُطالِبه بإزالة آلات اللَّهْو التي هي أعظَمُ من النَّهيق؟

فالجَوابُ: نعَمْ، له أن يُطالِب جارَه بذلك، يَعنِي: لو أنه صار يَرفَع أصوات المَزامير -والعِياذُ بالله- والغِناء، فله الحَقُّ أن يُطالِب، حتى وإنْ لم تُزعِجْهم؛ لأنَّ هذا مُنكَر.

ولو كان له جار، يَصعَد إلى السَّطْح في أيام الصيف، وعنده مُسجِّل فيه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب لا يحل لأحد أن يرجع في هبته وصدقته، رقم (٢٦٢٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

أَشرِطة من القرآن، ثُم يَفتَحها بآخِر صوت، فلجاره أن يُطالِب بالمَنْع، فلو قال: كيف تَمنَعُني أن أَسمَع القرآن؟ يَقول له: لَسْتُ أَمنَعك، ولكن أَقول: استَمِعْ، لكن اخفِضِ الصوت؛ لأنَّ هذا يُؤذِيني، وليس يُؤذِيني لأني أَكرَه القرآن، ولكن لأني أُريد النَّوْم، وأولادي يُريدون النَّوْم، وأهلي يُريدون النَّـوْم، والنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقـول: «لَا يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْقُرْآنِ»[1]، فله أن يَمنَـعه، رَغْم أنَّ هذه عند العامـة أَمْرها كبير، فلو أن أَحَـدًا طالَب مَنْع جاره أن يَرفَع صوتـه بقِراءة القرآن؛ لحَمْل الناس عليه راية الإنكار، لكن إنكار العامة أو إقرارهم ليس له تَأثير.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٣٤٤)، ومالك في الموطأ (١/ ٨٠ رقم ٢٩)، والنسائي في الكبرى رقم (٣٣٤٧)، من حديث البياضي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٢٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان:٢٠].

ثُمَّ قال اللهُ تعالى مُقَرِّرًا ما أَنعَمَ اللهُ تعالى به على عِبادِه: [﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ تَعْلَمُوا يا مُخاطَبِين ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ مِن الشَّمْس والقمَر والنُّجوم؛ لِتَنْتَفِعُوا بها ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مِن الثِّمار والأنهار والدوابِّ ﴿وَأَسْبَغَ﴾ أَوْسَعَ وَأَتَمَّ ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً﴾ وهي حُسْنُ الصورة وتَسْوِيَةُ الأعْضاء وغير ذلك، ﴿وَبَاطِنَةً﴾ وهي المعْرِفَةُ وغيرُها].

يُقرِّرُ اللهُ تعالى في هذه الآيَةِ ما أَنْعَمَ اللهُ تعالى به على العِبَاد فيقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ وإنما قُلتُ: (يُقَرِّر)؛ لأنَّ همزةَ الاستِفْهَام إذا دَخَلَتْ على (لَمْ) أَفادَت التَّقْرِير، فيَنْقَلِبُ الفِعْل المُضارِع إلى مُؤَوَّلٍ بماضٍ مُؤَكَّدٍ بـ(قَدْ)، فمثَلًا ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أي: قد رَأَيْتُم، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، أي: قَدْ شَرَحْنَا لَك صَدْرَك.

إذَنِ: الاستِفْهام للتقرِير؛ لأنَّه إذا دخَلَت همزَةُ الاستِفْهَام على (لَمْ) أَفادَت التقرِير، فيَنقَلِبُ الفِعْلُ المُضارِع فِي المعْنَى إلى فِعْلٍ ماضٍ مُؤَكَّدٍ بـ(قَدْ)، فيكون

مَعنَى ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أي: قد رَأَيْتُم؛ ولهذا في سُورَةِ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ قال الله تعالى بعدَه: ﴿وَوَضَعْنَا﴾ فَعَطَفَ فِعْلًا ماضِيًا على ما سَبَق؛ لأنَّ ما قبْلَه بمَعنى الفِعْلِ المَاضِي.

وقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾: ﴿سَخَّرَ﴾ بمَعنَى: ذَلَّل، ذَلَّلَها لَكم، أو لِمَصَالِحِكُم، ومَنَافِعِكُم ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن الشَّمس والقمَر والنُّجُوم]، وهذا على سبيل التَّمْثِيل، وإلَّا فَإِنَّه قَد سَخَّرَ لَنَا أَيْضًا الرِّيَاح، وهي بَيْنَ السَّمَاء والأَرْض، وسَخَّر لَنا السَّحاب؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤] وهو لنـا، فهو عامٌّ لِكُلِّ مَا سَخَّرَهُ اللهُ تعالى من مَصالِحِنا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مِن الثِّمار والأنهَار والدوَابِّ، وغيرها أيضًا، حتَّى المَعَـادِن وغيرها سَخَّرَها الله تعـالى لنا وذَلَّلَها لَنا، فكُلُّ ما في الأرض مُسَـخَّرٌ مُذَلَّل، لكنَّ بَعضَه مُسَخَّرٌ بِطَبِيـعَتِه، وبعضُه مُسَخَّرٌ بِوَاسِطَة، فالحدِيد والمعادِن وما أَشبَهَها مُسَخَّرَة، لكنَّها بواسِطَة، والدوَابُّ والأنهَار والأشْجَار مُسَخَّرَة بِدُونِ وَاسِطَة، يَجِدُها الإنْسَان مُهَيَّأَةً كَامِلَةً.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ﴾ فَسَّرَها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأَمْرَيْن بالسَّعَة والإِتْمَام؛ أي: [أَوْسَعَ وَأَتَمَّ] ومنـه قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ**»[1] يَعـنِي: إِتْمَامُ الوُضُوء، ومَعـنَى ﴿وَأَسْبَغَ﴾ يَعنِي: أَوْسَعَ وأَتَـمَّ، أَمَّا (أَتَمَّ) فمِثالُه ما ذَكَرْت: إِسْبَاغُ الوُضُوءِ على المَكَارِهِ، وأَمَّا (أَوْسَعَ) فَمِنهُ قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ:١١]؛ أي: دُرُوعًا سَابِغَاتٍ: وَاسِعَةً، ومنها أيضًا قولُهم: ثَوْبٌ سَابِغ. يَعنِي: وَاسِع،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، رقم (٢٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ويَدْخُل فيه الإتْمام أيضًا.

فالمُهِمُّ: أنَّ الإسْباغ يَتَناوَل شَيْئَيْن: الأوَّل: إتْمام الشَيْء، والثاني: تَوْفِيره، والنِّعَم التي أَنعَمَ اللهُ تعالى بها عَلَيْنَا شَامِلَةٌ لِلْأَمْرَيْن، فَهِي وَاسِعَة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وهي أيضًا تامَّة، ليس فيها نَقْص، كُلُّ ما يَحتاجُه الإنسان في حياتِه، بل وكُلُّ ما يَحتاجُه في دِينِه فإنَّ اللهَ تعالى قد أَتَمَّه، والحَمْدُ لله تعالى.

وقولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ فسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿ظَٰهِرَةً﴾ بأنها الحِسِّيَّة الظَّاهِرة، والبَاطِنَة هي المَعرِفَة وغيرُها، فالنِّعَم جعَلَها اللهُ تعالى ظَاهِرَةً وَبَاطِنَة: ظَاهِرَة للعَيَان، وذكَرَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن أَمْثِلَتِها حُسْنَ الصُّورَة واسْتِقَامَةَ الخَلْق وما أَشبَه ذلك، والباطِنَة يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هي المَعْرِفة]؛ لأنَّها في القَلْب غيرُ مَعْلُومة، وهذا لا شَكَّ أنَّه تَفْسِير نَاقِصٌ جِدًّا.

وأمَّا الظاهِرَة فالصَّوَاب أنَّها أَعَمُّ مِن ذلك فالنِّعَم إمَّا ظَاهِرَةٌ لِكُلِّ أَحَد، وإمَّا باطِنَة لا يَعلَمُهَا إلَّا الإنْسَان، هذا واحِد.

وإمَّا ظَاهِرَة أيضًا بحيث كُلٌّ يَعْرَف أنها نِعْمَة، وباطِنة بحيث لا يُرَى أنَّها نِعْمَة إلَّا مِن آثارِها؛ لأن بَعْض الأشيَاء حين وُجُودِها لا تَظُنُّ أنَّها نِعْمَة، لكن إذا عَرَفْتَ آثَارَها وجَدْتَ أنَّها نِعْمَة، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]، فإنَّ الإنسان أحيانًا يُصيبُه ما يُصِيبُه مِن قَضَاءِ الله تعالى وقَدَرِه فلا يَرَى أنَّه نِعْمَة حتَّى يَعْرِف آثَارَهَا فِيما بَعْدُ.

والمُهِمُّ: أنَّ النِّعَم -والحمدُ لله- ظَاهِرة بَيِّنَة لِلعِيَان، وعَامَّة شَامِلَة لِلخَلْق، وشيءٌ باطِنٌ لا يَعرِفُه إلَّا مَن أَنعَمَ اللهُ تعالى به علَيه، وأيضًا هناك شيءٌ ظَاهِر وَاضِح

أنَّه نِعْمَة، وشيءٌ باطِن لا يَتبيَّن أنَّه نِعْمَة إلَّا فِيمَا بَعْدُ.

ثُمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: (مِن) للتَّبعيض، وقدِ اختَلَف المُعرِبون في (مِن) التَّبعيضية، هل هي اسمٌ؛ لأنها في مَعنَى (بَعْض)، أو أنَّها حَرْفٌ دَالٌّ على هذا المَعنَى.

وعلى هـذا الاختِلافِ يَنبَغي الاختِـلافُ في الإِعْراب: فإذا قُلْنـا (مِن) اسمٌ بمَعنَى (بَعْض)، فإننا نَقـول: (مَن) مُبتَدَأ، و﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾ خبَرُه؛ وإذا قُلْنـا: إنها حَرْف، فإنها تَكـون حرفَ جَرٍّ، والجـارُّ والمَجرور مُتعَلِّق بمَحـذوف خبَر مُقدَّم، و﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾ مُبتَدَأ مُؤخَّر.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أهل مَكَّةَ] بِناءً على قاعِدته رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن كل السُّوَر المَكِّية يُحمَل فيها العُموم بمِثْل هذا السِّياقِ على الخُصوص: وهم أهل مَكَّةَ، والصواب أنَّ ذلك عامٌّ، يَعنِي: من الناس من أهل مَكَّةَ وغيرهم.

وقوله تعـالى: ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ المُجادَلة مَأخوذة من الجَدْل، وهو فَتْـل الحَبْل لإِحْكامه، ومنه ما يُسمَّى الجَدائِل، جَدائِل المرأة أي: فَتْـل رأسها وإحكامها، هذا مَعناها في اللغة.

لكن في الاصطِلاح المُجادَلة: هي المُمانَعة، بمَعنَى: أن كل واحِد من المُتَناظِرين يُحكِم الحُجَّة من أَجْـل إفحام خَصْمـه، فهي إِذَن إحكام الحُجَّـة لإِفْحام الخَصْم وتَعجيزه.

والمُجادَلة إن كانت بعِلْم وحِكْمة فهي مَمدوحة بلا شَكٍّ، وقد تَكون واجِبة

أحيانًا كما في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، وإن كانت بغَيْر عِلْم فإنها مَذمومة، فمَن يُجادِل بإيراد الحُجَج والعِلَل الواهية؛ لإفْحام خَصْمه ونَقْض قوله ولو بالباطِل؛ فهذا من المُنكَر المُحرَّم، قال تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡ﴾ [غافر:٥].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ هل المُراد في ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أو المُراد في رُبوبيته أو أُلوهيته، أو أَسمائه وصِفاته، أو أَحكامه وأَفعاله؟

الجَوابُ: تَشمَل كل هذا، فمِن الناس مَن يُجادِل في ذات الله تعالى، فهو يُنكِر وجود الله تعالى أَصْلًا، ويُجادِل في ذاته، ومن الناس مَن يُجادِل في وَحْدانيته، يُقِرُّ به، لكن يُنكِر الأُلوهية، ومِنَ الناس مَن يُجادِل في أُلوهيته، أي: في تَفرُّده في الأُلوهية، ومن الناس مَن يُجادِل في أَسْمائه وصِفاته، وأكثَرُ ما وقَع فيه الجَدَل بين المسلمين في باب الأسماء والصِّفات، وهذا بين المُسلِمين! وليس بين المُسلِمين والكافِرين، لكنِ المُسلِمون الذين يَنتَسِبون إلى الإسلام ويُسمَّوْن أهلَ القِبْلة، هؤلاءِ كثُرَ الجَدَل بينهم في باب أسماء الله تعالى وصِفاته.

كذلك من الناس مَن يُجادِل في أحكام الله تعالى، وما أكثَرَ المُجادِلين في أحكام الله تعالى! تَجِده يُجادِل؛ تَقول: هذا الشيءُ حرامٌ. ثُمَّ يَأتِي ويُجادِلك: ما الذي حرَّمَه؟ وما الفَرْق بين كذا وكذا؟ وهاتِ الدليلَ، وهذا الدليلُ مَنقوض، وهاتِ التَّعليلَ، وهذا التَّعليلُ باطِل، وهكذا.

قوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ أمَّا إذا كان بعِلْم فليس فيه ذَنْب، لكن بغير عِلْم ففيه ذنب.

كذلك من الناس مَن يُجادِل في أفعال الله، فيَقول: لماذا أَنعَم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

على هؤلاء الكافِرين بالنِّعَم الكثيرة، ومن المُسلِمين مَن هو في جَهْد شَديد ومرَض وفَقْر وجَهْل، وما أَشبَهَ ذلك؛ كذلك يُجادِل في أفعال الله تعالى في مَسأَلة القَدَر، فيقول مثلًا: إمَّا أن يَكون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد قـدَّر على الإنسان عمَله أو لا، فإن كان قـدَّر عليه عمَله؛ فكيف يُعاقِبه؟ وإن لم يُقدِّر عليه عمَله، فمَعنَى ذلك أن الإنسان مُستَقِلٌّ به، فيَكون مُنفَرِدًا بالحوادِث ومُشارِكًا لله تعالى فيها، وما أَشبَه هذا من الجَدَل الذي يَكون بغير عِلْم.

ولهذا يَنبَغي للإنسان في مَسائِل الشرع وفي مَسائِل القدَر؛ أنَّ يَستَسلِم لما دلَّ عليه الكِتاب والسُّنَّة، وأن لا يُجادِل؛ لأنه إن فتَح على نَفْسه باب الجدَل فلن يَستَقِرَّ له قدَم أَبَدًا، ولهذا قال ابن حجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن المَسائِل العَقْلية ليس لها دَخْل في الأمور الخبَرية»؛ لأننا لو أَرَدْنا أن نُحيل هذه الأمورَ على العَقْل، فإن العاقِل قد يُجوِّز ما كان مُمتَنِعًا شرعًا غايةَ الامتِناع، كما أنه قد يَمنَع ما هو جائِز، والمُراد بالعَقْل ما ادعَى صاحبه أنه عَقْل، أمَّا العَقْـل الصحيح الصريح فإنه لا بُدَّ أن يُوافِـق النَّقْل الصحيـح؛ وإذا شِئْتم أن يَتبيَّن لكم هذا فاقرَؤُوا كتاب شيـخ الإسلام ابنِ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ -إن أَطَقْتُـموه- المُسمَّى بكتاب العَـقْل والنَّقْل أو مُوافَقة صريح المَعـقول لصحيح المَنقول.

المُهِمُّ: أنَّ الجدَل بابُه واسِع، والكلام هنا في المُجادَلة المَذمومة، وهي المُجادَلة بغير عِلْم.

إذَنْ: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾: في ذاتِه، وفي رُبوبيته، وأُلوهيته، وأَسمائه وصِفاته، وأَحْكامه، وأَفْعاله.

---

(١) فتح الباري (١/ ١٩٣).

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يَعني: ما عِنده عِلْمٌ ذاتُه، ولكنه مُكابَرة ومُعانَدة.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا هُدًى﴾ مِن رَسول] فهو ليس عِنده عِلْم في نَفْسه يَهتَدِي به، وليس عنده عِلْم من غيره يَهتَدِي به.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أَنزَله الله تعالى؛ بل بالتَّقليد]، فهو ليس عِنده عِلْم، ولا اهتِداء بهَدْيِ رَسول، ولا كِتاب أَنزَله الله تعالى فيَهتَدِي به، إِذَنْ فهو يُجادِل بالباطِل، وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالتَّقليد]؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢١]، فهذا الذي أَوجَب للمُؤلِّف أن يَقول: [بَلْ بالتَّقليد]؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيان نِعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عِباده، بهذه النِّعمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا يُحِبُّ أن يُتمَدَّح بما أَسْدى إلى عِباده من النِّعَم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الله تعالى سخِر لنا ما في السموات وما في الأرض، وهو ظاهِر، وقد قال الله تعالى في آية أُخرى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جَواز استِخدام ما في هذا الكَوْنِ في السموات والأرض لَمصالِحنا؛ لأنه مُسخَّر لنا، فإذا كان مُسخَّرًا لنا، فلنا أن نَنتَفِع به، فيما أَحَلَّ الله تعالى لنا.

فلو قال قائِل مثَلًا: هل لنا أن نَأخُذ المعادِن الجارية والجامِدة؟

نَقول: نعَمْ. هل لنا أن نُحاوِل الصعود إلى الكواكِب والنُّجوم لنَرَى ما فيها من الآيات؟ وكيف تَظهَر لنا؟

الجَوابُ: نعَمْ.

ولكن إذا كان هذا يُكلِّف نَفَقاتٍ باهِظةً، أكثَرَ ممَّا نَستَفيد منه؛ فإن الحِكْمة تَقتَضي أن لا نَفعَل؛ لأن هذه المُحاولاتِ يَكون فيها من نَفاد الأموال شيء كثير؛ فإذا قُدِّر أنَّ ما فيها من نَفاد الأموال أكثَرُ بأضعاف وأضعاف ممَّا نَستَفيد منها؛ فإنَّ العقل يَقتَضي أن لا نَفعَل؛ لأن هذا من السفَه والتَّبذير، والإنسان العاقِل لا يَبذُل المال إلَّا وهو يَرَى أنه يَنتَفِع بأكثَرَ ممَّا يَبذُل.

فلو فُرِض أنك بذَلْت مالًا قَدْره أَلْف ريال؛ لتَحصُل على مَنفَعة تُساوِي ألفَيْ ريال؛ فهذا محمود، وبالعَكْس، فلو بذَلْت مالًا يَبلُغ ألفي ريال؛ لتَحصيل مَنفَعة بقَدْر أَلْف ريال، هذا مَذموم؛ لأنك أَضَعْت ألف ريال بدون فائِدة، فيَكون هذا من إضاعة المال والإسراف.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ نِعَم الله عَزَّوَجَلَّ وافِرة، يَعنِي: كثيرة كامِلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ نِعَم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نوعان: ظاهِرة وباطِنة؛ سَواءٌ فَسَّرنَا الظَّاهِرة بالأُمور المَحسوسة والباطِنة بالأُمور المَعنوية، أو فسَّرْناها بالظاهِرة التي يَعرِفها كل أحَد، والباطِنة ما لا يَعرِفها إلَّا صاحِبها، أو فسَّرْنا الظاهِر بما هو عامٌّ يَعُمُّ جميع الناس، كالمطَر والخَصْب. والباطن بما هو دونَ ذلك، فالنِّعَم وافِرة وسابِغة من كل وَجْه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: ما أَعطاه الله تعالى لُلْقمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ من الحِكَم؛ فإن كل ما أَوْصَى به ابنَه، كلُّه حِكَم مُوافِق للعَقْل، والشَّرْع أيضًا يُؤيِّده.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ إذا قصَّ علينا نبأَ أحَد؛ فإن كان ذلك خيرًا فإنه يُريد مِنَّا أن نَفعَله، وإن كان غير ذلك فإنه يُريد مِنَّا أن نَتجنَّبه، فلمَّا قصَّ علينا قِصَّة قارونَ قال تَعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٦-٧٨]، فقَصَّ علينا ذلك؛ لنَحذَر ونَخاف؛ ولأَجْل أن لا نَسكُت على مَن رَأَيْناه يُبذِّر ويُسرِف في الأرض؛ وهنا قَصَّ علينا قصص لُقمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ من أَجْل أن نَعتَبِر بها في الحِكَم، وأن نَقتَدِيَ به في نصيحة أَبنائنا وأَهْلنا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: ذمُّ الجدَل بغير بُرْهانٍ؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن الجدَل بالعِلْم والهُدَى والدليلِ من القُرآن لا يُذَمُّ صاحِبه؛ لأنه حَقٌّ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنه يَنبَغي للمُجادِل أن يَكون له دليل من العَقْل أو من النَّقْل؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فهذا العِلْمُ الذاتيُّ الذي يَكون بطريق العَقْل، وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ هذا العِلمُ المُكتَسَب؛ فالهُدَى مِن الرَّسول ﷺ، والكِتاب المُنير القُرآن.

• • ۞ • •

الآيــة (٢١)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [لقمان:٢١].

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ﴾ هذه مَبنيٌّ للمَجهول، فالقائِل: الله تعالى، أو الرَّسولُ ﷺ، أو المُؤمِنون، كل هذا يُمكِن أن يَكون؛ قال الله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ [الأعراف:٣]، والنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَحُثُّ الأُمَّة على اتِّباعه، والمُؤمِنون كذلك يَدْعون الناس إلى اتِّباع ما أَنزَل الله تعالى، فيَكون هنا حُذِف الفاعِل لإرادة العُموم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾، فهذا أَعَمُّ ممَّا لو قال: (وإذا قال الله لهم، أو: وإذا قال لهم الرسول، أو: وإذا قال لَهُمُ المُؤمِنون)؛ فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ يَكون أَشمَلَ.

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: ﴿مَآ﴾ مَفعول ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾، و﴿ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ المُراد به القُرآن لا شَكَّ؛ لأنَّ الله تعالى أَنزَله؛ وأمَّا السُّنَّـة فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ [النساء:١١٣]، قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: الحِكْمـة هي: السُّنَّة، إِذَنْ ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ من القُرآن ومـن السُّنَّة؛ لأنَّ السُّنَّـة وَحْي إن كان الله تعـالى أَوْحاها إلى رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإلَّا فإِقْراره سبحانه إيَّاها بمَنزِلة الوَحْيِ؛ ولهذا قال العُلماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنَّ إقرار النبيِّ ﷺ بمَنزِلة قوله.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ﴾: ﴿بَلْ﴾ للإِضْراب الإِبْطاليِّ، يَعنِي: بل لا نَتَّبع ما أَنزَل الله تعالى، وإنما نَتَّبع ما وجَدْنا عليه آباءَنا، واللهِ! هذا مُعارَضة حَقٍّ بباطِل؛ لأنهم الآنَ عدَلوا عمَّا أَنزَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى الآراء فقَطْ والأهواء: ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ولو كان شِرْكًا، وأيضًا لو كان طاعة، فلو كان طاعةً يَكون اتِّباعُهم لما عليه آباؤُهم؛ لا لأنه شَرْع، ولكن لأنَّ عليه آباءَهم؛ فحينئذ لا يَكون اتِّباع آبائِهم في هذه الحالِ اتِّباعًا للشَّرْع، ولا اتِّباعًا محمودًا.

وعلى هذا فنَقول فيمَن دُعِيَ إلى الكِتاب والسُّنَّة، وقال: أنا أُريد أن أَتَّبع فلانًا -الإمامَ الفُلانِيَّ أو العالِمَ الفُلانيَّ- مع بيان السُّنَّة ووُضوحها: إنه يَكون مُشابِهًا لهؤلاء المُشرِكين.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾: ﴿أَوَلَوْ كَانَ﴾ هذا استِفْهام يَتْلوه حَرْف عَطْف، وقد تَقدَّم لنا مِرارًا وتكرارًا أنَّ حرف العَطْف إذا وَلِيَ استِفْهامًا ففي إعرابه قَوْلان:

أحدُهما: أنَّ همزة الاستِفْهام دخَلتَ على مَحذوف عُطِف عليه ما بعد حَرفْ العَطْف، ويُقَدَّر هذا المَحذوفُ بحسَب السِّياق، وعلى هذا؛ فهَمْزة الاستِفْهام في مَكانها، والمُستَفهَم عنه -يَعنِي: مَسؤول الاستِفْهام- مَحذوف.

والقول الثاني: أن الواو حَرْف عَطْف، والمعطوف عليه ما سبَق، ومَحَلُّ الهمزة بعد حَرْف العطف، وقلنا: إنَّ هذا أهوَنُ من الأوَّل، فالأوَّلُ: أبلَغُ في التَّقعيد وهذا أَسهَلُ، ووجه سُهولته: أنَّ الأوَّل قد يَخفَى على الإنسان ماذا يُقدِّره، وربما يَصعُب أحيانًا تَقدير شيء مُناسِب، وأمَّا هذه فلا تَحتاج إلى شيء فتكُون مَعطوفة على ما سبَق.

أمَّا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فمَشَى على القـول الأوَّل، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيَتَّبِعونه ولو كان الشَّيْطانَ]، فحَرْف الاستِفْهام دخَل على شيء محـذوف، وحَرْف العَطْف عاطِف على ذلك الشيء المَحذوف.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: مُوجِباته؟ لا]، يَقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أَيَتَّبِعون آباءَهم دون ما أَنزَل الله تعالى حتى في هذه الحالِ، وهو أن الشيطان يَدْعوهم، و﴿يَدْعُوهُمْ﴾ أَظُنُّها تَشمَل أن يَدعوَ الآباء ويَدعوَ هَؤلاءِ.

وقوله تعـالى: ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يَعنِي: إلى ما يُوجِب عذاب السَّعير من أعمال الشِّرْك والكُفْر وغيرها.

وظاهِر كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الاستِفْـهام للإنكار والنَّـفيِ؛ لقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا]، ولكنه للنَّفْيِ فيه إشكال؛ لأنه لا شَكَّ أنهم يَتَّبِعونه، أمَّا للإنكار فنَعَمْ، يَقول الله عَزَّوَجَلَّ أَنكَر عليهم أن يَتَّبِعوا آباءَهم والشيطانُ يَدعوهم إلى عَذاب السَّعير.

وقوله تعالى: ﴿عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هو عَذاب النار، وأُضيف إلى السعير باعتِبار اللَّفْظ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ أن هـؤلاءِ المُجادِلين ليس عنـدهم سِوَى التَّقليد؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ذَمُّ مَن خَالَفَ الحـقَّ؛ لاتِّباع الآباء؛ لقـوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هذا الحقَّ، قالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تحريم التَّقليد مع ظُهور الحُجَّة، ويُؤخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أيًّا كان المُقلَّد إذا بانت الحُجَّة فإنه لا تَقليدَ، ولكن تُتْبَع الحُجَّة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن التَّقليد قد يُسمَّى اتِّباعًا؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ والمَعروف المَشهور بين أهل العِلْم أنَّ الاتِّباع يَكون عن دليلٍ؛ فيُقال للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: اتَّبَعْنا الرسولَ ﷺ. والتقليد هو الذي يَكون عن غير دَليل، لكن هذه الآيَةَ تَدُلُّ على أن كل مَن تابَعَ أحَدًا فهو مُتَّبِع له.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيان أنَّ هؤلاءِ المُخالِفين كان عندهم عِلْم بالحَقِّ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، فيَكون هذا أشَدَّ في ذَمِّهم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ظُهور العَصَبية في هؤلاء؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾، وهذا تَعصُّب للآباء، والتَّعصُّب للآباء والقبائِل من شَأْن أهل الجاهِلية.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن مُخالَفةَ الدَّليل للتَّقليد من إجابة الشَّيْطان؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن مُخالَفةَ ما أنزَل اللهُ تعالى سبَب لدُخول النَّار؛ لقوله تعالى: ﴿يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن وَسْوسة الشَّيْطان التي يُلْقيها في قَلْب بني آدَمَ من الدَّعْوة؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَدۡعُوهُمۡ﴾ إذْ إن الشَّيْطان ليس يَمْثُل أَمامهم، ويَقول: اتَّبِعوا كذا. ولكنه يُوَسْوِس في صُدورهم حتى يَتَّبِعوه، وهكذا الشيطانُ يَأمُر بالشَّرِّ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الحذَر من وَساوِس الشَّيْطان؛ لأنَّ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، هذا للتَّوْبيخِ والإنكار.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن كل شيء يُوجِب العُقوبة فهو من تَلْبية طلَب الشَّيْطان والإِثْم، واعلَمْ أنه من تَلْبية طلَب الشَّيْطان؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فمثَلًا لو أَراد الإنسان أن يَسرِق، أو أن يَزنِيَ، أو أن يَشرَبَ الخَمْر، أو أن يَقتُل نَفْسًا مُحرَّمة، قُلْنا: هذا من الشَّيْطان، وتَلْبية لطلَبِه؛ لأنَّ الشَّيْطان هو الذي يَدْعو إلى عَذاب السَّعير.

ويُؤخَذ من ذلك أن الشَّيْطان له عَقْل وإرادة، وقد قال الله تعالى في سُورة النِّساء: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠]، فالشَّيْطان له إرادة وله تَزْيين، و له تَلْبيس؛ ولهذا يَجِب الحذَرُ منه غايةَ الحذَر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن مَن دعا إلى ما يُوجِب العِقاب فهو شَبيهٌ بالشَّياطين، بل لنا أن نَقول: إنه شَيْطان، ولهذا قال النبيُّ عليه الصلاة و السلام في الذي يُمانِع إذا مُنِع من المُرور بين يدَي المُصلِّي قال: «**فَإِنْ أَبَى فَلْيُقَاتِلْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ**»(١)، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، يرد المصلي من مر بين يديه، رقم (٥٠٩)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب منع المار بين يدي المصلي، رقم (٥٠٥)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٢٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان:٢٢].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يُقبِل على طاعته ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ مُوحِّد ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾] (مَن) هذه شَرْطية جوابها قَولُه تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ﴾ وقُرِن الجَواب بالفاء؛ لأنَّه اقترَن بـ(قَدْ)، والجوابُ يَقترِن بالفاء إذا كان أحَدَ أمور سَبْعة:

اسْـــمِيَّةٌ طَلَبِيَّـــةٌ وَبِجَامِـــدِ ... وَبِـ(مَا) وَ(قَدْ) وبـ(لنْ) وَبِالتَّنْفِيسِ

وهنا اقترَن بالجواب (قَدْ)، فوجَب أن يُقرَن بالفاء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مَعناه: يَنقاد له تَمام الانقِياد، بحيثُ يُسلِمه إليه، وهذا غاية ما يَكون من التَّذلُّل والتَّوكُّل فقال تعالى: ﴿يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ولم يَقُل: لله؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أَبلَغُ، كأنه أَعْطاه الله عَزَّوَجَلَّ وبلَغ غايته بالوصول إلى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَجۡهَهُۥٓ﴾ المُراد: وجهُ قَلْبه، وليس وجهَ بدَنِه، يَعنِي: اتِّجاهَه، فهو من الوجهة أي: مَن يَتَّجِه إلى الله قَصْدًا وتَوكُّلًا واعتِمادًا.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ الجُمْلة هذه حالية، حال من فاعِل ﴿يُسۡلِمۡ﴾،

يَعنِي: والحـال أنه مُحسِـن. والمُراد بالإحسان؛ يَقـول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُوحِّد] أي: التوحيد، ولكن الصواب خِلاف كلامه، لأنَّ التَّوْحيد مَفهوم من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، لكن قوله تعـالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: مُحسِن باتِّباع شريعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيَكون في الآية إشـارة إلى الحُكْمين الأَساسِيَّين في العِبادة، وهما: الإخلاص والمُتابَعة؛ فقـوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ يَعنِي: في اتِّبـاع الشريعة، يَعنِي: مُتَّبِع لشريعته على وجهِ الإحسان.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ﴾ استَمْسَك بمَعنَى: تَمسَّك، لكنها أَتَتْ بهذه الصِّيغةِ (استَفعَل) للمُبالَغة، أي: للمُبالَغة في التَّمسُّك؛ لأن (استَمْسَك بكذا) أَقوَى من قولك: تَمسَّك به؛ لأنهم يَقـولون: إن زيادة المَبنَى تَدُلُّ على زِيادة المَعنَى؛ فلمَّا كثُرَت حروف (استَمْسَك) صارت أَقوى في مَعناها من: (تَمسَّكَ).

وقـوله تعالى: ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ يَقـول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ بالطرف الأَوْثَق، الذي لا يَخاف انقِطاعه] الإنسـان عندما يَتمَسَّك بالحَبْـل؛ فتارةً يَتمسَّك به بطرَفه وليس له عُروة، وتارة يَتمَسَّك به بطرَفه وهو مَعقود، وتارةً يَتمسَّك به بطرَفه وهو مَثـنِيٌّ كالعُروة؛ فالأَبلَغُ العُـروة؛ لأنَّ الإنسـان لو تَمسَّك بطرَفه ربما يُزلَق فيَسقُط، وكذلك بطرَفه مَعقودًا لا يَتمَكَّن مثلما يَتمكَّن بطرَفه إذا كان عُروة.

و﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾ مُؤنَّث (أَوثَق)؛ لأنَّ العروة التي هي أَوْثَق شيء، ولا ريبَ أن مَن أَسلَم وجهه لله تعالى وهو مُحسِن فإنه سيَنجو من كل مَكروهٍ، ويَفوز بكُلِّ مَطلوب؛ لأنَّ هذا هو الطريق الأمثل الذي يُوصِل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أن تُسلِم وجهَكَ إليه وأنت مُحسِن.

وورد مِثـلُها في القُرآن قال تعـالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ

فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ لَمَّا بيَّن أنَّ الذي يُسلِم وجهَه إلى الله تعالى وهو مُحسِن أنه مُستَمْسِك بالعُروة الوُثْقى، وأن الإنسان في حال الإسلام إلى الله تعالى والإحسان قد يَعتَريه أمورٌ يَشُكُّ هل هو مُستَمْسِك بالعُروة الوثقى أم لا؟ مثل أن يَتخلَّف عنه النَّصر في يوم من الأيام وما أَشبَه ذلك، فيَخشَى أن يَكون على غير حَقٍّ، فبيَّن الله تعالى أنَّ عاقِبة الأمور إلى الله تعالى.

وهذا كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج:٤٠-٤١]؛ لأنَّ الإنسان قد يَقول: ما قيمة هذه الأشياءِ بالنِّسبة للقَنابل والصواريخ، وما أَشبَه ذلك؟ فبيَّن الله تعالى أن عاقِبة الأمور لله تعالى؛ فأنت ما دُمْت قُمْت بأسباب النَّصْر التي بيَّنها الله تعالى لك؛ فلا يَخْدَعَنَّك ما أُعطِيَ أعداءُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من القُوَّة المادِّية؛ لأنَّ هذه القُوَّة المادِّية تَتَضاءَل بكلِمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا أَراد عَزَّوَجَلَّ أن يَخسِف بهم جميعًا الأرض، أو يُفسِد عليهم مُعدَّاتهم قال: (كُنْ فيَكون)؛ ولهذا أَعقَبها بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾، حتى لا يَستَبعِد الإنسان نَصْر الله عَزَّوَجَلَّ بسبب ما أُوتِيَ أعداؤُه من القُوَّة؛ لأنَّ العاقِبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وهذه مِثلُها أيضًا، فيُسلِم الإنسان وجهَه لله تعالى وهو مُحسِن، ويَنتابُه بعضَ الأحيان شُكوك، وهل هو على حَقٍّ أم على غير حَقٍّ، وهل هذا الاستِمْساك حقيقيٌّ أم لا؟ فبيَّن الله تعالى أن عاقِبة الأمور إلى الله تعالى، وأنك متى أَسلَمْت وجهَك إلى الله تعالى وأنت مُحسِن فلا بُدَّ أن تَنجوَ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾: (إلى) تُفيد الغاية؛ يَعني:

غاية عاقِبة الأمور إلى الله تعالى لا إلى غيره، فهو الذي يُدبِّر الأمور كيف يَشاء حتى تَصِل إلى ما يُريده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْأُمُورِ﴾ جَمْع أَمْر، واحِد الأمور، يَعنِي: الشُّؤون، كل الشُّؤون الدِّينية والدُّنيوية العامة والخاصة، كلُّها عاقِبَتها إلى الله تعالى.

هذا قِسْم من الناس: الذي أَسلَم وجهَه إلى الله تعالى وهو مُحسِن؛ والثاني: الكافِر؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿كُفْرُهُۥٓ﴾ لا تَهتَمَّ بكُفْره ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾...] إلخ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الفائِدةُ العَظيمة في الإخلاص والمُتابَعة؛ الإخلاص من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، والمُتابَعة من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ مَن لم يَكُن كذلك فهو هالِكٌ لا مُتَمَسَّكَ له؛ لأنه رَتَّب الاستِمْساك على هَذَيْن: إسلام الوجهِ للهِ تعالى مع الإحسان؛ وعلى هذا فمَنْ لم يَأتِ بهما فلَيْس له نَجاةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ أَوْثَقَ ما يَستَمْسِكُ به الإنسان من نَجاة هو الإخلاصُ والمُتابَعة؛ لأنَّ كلِمة (الوُثْقَى) اسمُ تَفضيل، فهي مِثْل (أَوثَق) في المُذكَّر.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فضيلة الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، وقد سبَقَ لنا أنَّ الإِحْسان يَكون في عِبادة الله تعالى، ويَكون في مُعامَلة عباد الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ عواقِبَ الأُمور إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فهو الذي بيَدِه مَلكوت السمَواتِ والأَرْض، وكَمْ مِن إنسان يُقدِّر، ولكن أَمْر الله تعالى يَأْتي على خِلاف

تَقديره؛ والدَّليلُ قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الإشارة إلى أنَّه يَنبَغي لِمَن أَسلَم وجهَهُ لله تعالى وهو مُحسِن أن يَصبِر؛ لأن العاقِبة له، فلا يَتعَجَّل أو يَستَبعِد الفرَجَ، أو يَستَبْعِد النَّصْر؛ لأنَّ الأمورَ كلَّها تَرجِع إلى ربِّ العِزَّة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه لا أحَدَ يَستَطيع أن يُدَبِّر في الكون، ويُؤخَذ ذلك من تَقديم الخبَر الدالِّ على الحَصْر.

• • ❁ • •

الآيــة (٢٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [لقمان:٢٣].

قوله تعـالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ ﴾: (مَن) هذه شَرْطية، وفِعْل الشَّرْط ﴿كَفَرَ ﴾، وجوابه قوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ ﴾، وقُرِن بالفاء؛ لأنَّ (لا) ناهِية.

وقوله تعـالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ هذا عامٌّ من الأقارِب والآباء، لأنَّ الرسول ﷺ يَحزَن لكُفْر الكافِرين سواء كانوا أقارِبَ له أم أباعِدَ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا يَحْزُنكَ ﴾ يا مُحَمَّدُ] أَبانَ المُفَسِّر أنَّ الخِطاب في قوله تعـالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ ﴾ للرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويُحتَـمَل أن يَكون مُوجَّهًا للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولكل مَن يَصِحُّ خِطابـه ممَّن شأنه أن يَحزَن إذا كفَر عِباد الله تعالى؛ فيَكون على هذا المَعنَى أعمَّ ممَّا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله تعـالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ الحُزْن هو ضِدُّ السرور، وإذا قيل: حُزْن وخَوْف؛ صار الحُزْن على الماضي، والخَوْف للمُستقبَل. وقد يُطلَق الحُزْن على الخَوْف، كما في قوله تعـالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة:٤٠]، يَعـنِي: لا تَحزَن، أي: لا تَخَفْ، فإنَّ الله تعـالى معَنا، على أنه يُحتَمَل أن يَكون المَعنَى: لا تَحزَن على ما فعَلْنا من اللُّجوء إلى هذا الغارِ، فيَكون على الأصل.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا تَهتَمَّ بكُفْرهم] وظاهِر كلامه: أنَّ الحُزْن هنا بمَعنَى الاهتِمام بالشيء، يَعنِي: لا يُهِمَّنَّك أَمرُهم، ولكن الحزن أَخَصُّ من الاهتِمام، فإبقاء الآية على ظاهِرها وهو أن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَحزَن إذا كفَر الناس، وكذلك مَن كان ناصِحًا لله تعالى ولرسوله ﷺ يَحزَن إذا كفَر الناس؛ أَقول: إن حَمْلها على ظاهِرها أَوْلى.

وفِعْلًا فإن الإنسان الناصِح يَحزَن إذا كفَر الناس، يَحزَن لأَمْرين:

أوَّلًا: رحمةً بهؤلاء الذين كفَروا.

وثانيًا: حُزْنًا على ما فات الإسلامَ من كثرة المُتَّبِعين؛ لأن كَثْرة مُتَّبِعي الإسلام عِزٌّ للإسلام.

والدليل آيتان تَدُلَّان على أن الكَثرة عِزَّة: قال شُعَيْبٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف:٨٦]، وقال تعالى مُمتَنًّا على بني إسرائيلَ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء:٦].

فالكثرةُ عِزٌّ في الدليل الشَّرْعيِّ والواقِعيِّ.

أمَّا أعداء المُسلِمين الآنَ فيُحبِّذون المُسلِمين أن يُقلِّلوا النَّسْل، فتارةً يَقولون: إذا كثَّرْتمُ النَّسْل ضاق الرِّزْق؛ كقَوْل الكُفَّار الذين يَقتُلون أولادَهم خَشْية الإملاق، وتارة يَقولون: إذا كثُرَ الأولاد عجَزْتم عن تَرْبيتهم، إساءةَ ظَنٍّ بالله عَزَّوَجَلَّ، وتارة يَقولون: إذا كبُر السِّنُّ ضعُفَتِ المرأةُ، ولَحِقها الضَّعْفُ. وهكذا؛ وهذا لا بُدَّ منه، فلا بُدَّ أن تَضعُف المرأة، كما قال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان:١٤].

والحاصِلُ: أنَّ كثرة الأُمَم عِزٌّ لها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جُمْلة خَبْرية قُدِّم فيها الخبَر لإفادة الحَصْر.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْنَا﴾ يَعنِي: نحن الله عَزَّوَجَلَّ، لا إلى غَيْره.

وقوله: ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ مَصدَر مِيميٌّ؛ أي: رُجوعهم؛ فرُجوعهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ لا إلى غيره، وهو الذي يُحاسِبهم على أعمالهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ نُخبِرهم، وإذا أُخبِروا بذلك يُجازَوْن عليه، فإن الكافِر لا بُدَّ أن يُجازَى على ذَنْبه، ولكنه يُجازَى بالعَدْل؛ ولهذا كانت النار دَرَكاتٍ بحسَب جُرْم الكافِرين، والمُنافِقون في الدَّرْك الأسفَل من النار؛ فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ أي: نُخبِرهم على سبيل التَّوْبيخ والإهانة، ثُمَّ نُجازيهم بما يَستَحِقُّون.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْنَا﴾ و﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ هنا ضَمير جَمْع، لكن المُراد به التَّعْظيم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ هذا تَكميل للتَّهديد، يَعنِي: أنَّ الله عليم بذات الصُّدور، وذات الصُّدور هي القلوب؛ لأنها فيها، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، فمَعنَى ذاتِ الصُّدور أي: صاحِبة الصُّدور، وهي القُلوب؛ وقال تعالى: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ دون القُلوب؛ لأنَّ ما كان داخِلَ الصَّدْر مَحجوب عن الخَلْق، لا يَعلَمه إلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ دليلٌ على أنَّ الكافِر يُحاسَب على عمَل القَلْب، وهو كذلك؛ لأنه لولا أنه يُحاسَب لم يَكُن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كبيرُ فائِدةٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يَحزَن لكُفْر مَن يَكْفُر؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾.

فإن قال قائِل: هذا ليس بصريحٍ على ذلك!

قلنا: إذا لم يَكُن صَريحًا فإنه يَـدُلُّ على أنَّ ذلك مُتَـوقَّع من الرسـول ﷺ، إذ لو لم يَكُن مَوْجودًا أو مُتَوقَّعًا، لكان النَّهيُ عنه لا فائِدةَ منه، وقد قـال الله عَزَّوَجَلَّ في آية أُخرَى ما يَدُلُّ على أنه كان يَحزَن كما في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود:١٢]، وما أَشبَهَ ذلك مِمَّا يَدُلُّ على أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يَحزَن.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ كلامه عَزَّوَجَلَّ بصَـوْت مَسموع؛ لقوله تعـالى: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾؛ لأنَّ ما لا يُسمَـع لا يَكون فيه إنباءٌ؛ فلا إنباءَ إلَّا بصَوْت مَسمـوع، وهذا الصوتُ ليـس كأصواتِ المَخلوقين، بل هو أَعظَـمُ وأجَلُّ؛ ولهذا إذا تَكلَّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالوَحْيِ صَعِـق أهلُ السَّمَواتِ وارْتَجَفَتِ السمَوات، ومَعلوم أنَّ صَوْت أَحَـدٍ منَ الخَلْق لا يَحدُث منه هذا الشيءُ، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ أَعظَمُ وأَجَلُّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ عِـلْمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: التَّخويفُ من مُخالَفة الإنسان باطِنًا؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فإيَّاكَ والمُخالَفةَ في الباطِن، لا تَقُـلْ: إنني لم أُظهِر، ولا أَحَـدَ يَعلَم،

فإنه وإن لم يَعلَمِ الخَلْقُ؛ فالله تعالى يَعلَم مَهمَا تَكتُمِ الشيءَ، فإن الله تعالى يَعلَمه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه يَنبَغي للإنسان مُراقَبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دائِمًا؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ ولهذا جاء في الحديث: «**أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ**»(١)؛ لأنك إذا علِمْت بذلك، وأَيْقَنْت به، أَوْجَب لك ذلكَ مُراقَبةَ الله عَزَّوَجَلَّ والرَّغْبة إليه، وأن تكون هِمَّتُك دائمًا في طلَب ما يُرضِي اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإذا كان الإنسانُ يُؤمِن بهذا الأمرِ، وبمُراقَبة الله عَزَّوَجَلَّ لِمَا في قَلْبه؛ فإنه لو هَمَّ بمَعصية في أَخفَى ما يَكون في الأرض، فسيَردَعه ذلك الإيمانُ عن هذه المَعصيةِ؛ ولهذا حِماية الإيمانِ لمُعتَنِقيه أعظَمُ بكَثير من حِماية السُّلُطات لِما تُوجِّهُ إليه؛ فالشَّعْب المُؤمِن لا يَحتاج إلى مُراقَبة السُّلُطاتِ؛ لأنه يَعلَم أنه مُراقَب من قِبَل مَن يَعلَم خائِنة الأَعْيُن وما تُخفِي الصُّدور؛ لكن إذا ضعُف الإيمان احتاج إلى قُوَّة السُّلْطان، فإِنْ ضَعُف الإيمان والسُّلْطان فسَدَتِ الأَدْيانُ والبُلْدان؛ فإذا اجتَمَعَتِ القُوَّتان: قوَّةُ الإيمان وقوَّةُ السُّلْطان؛ فهذا هو الكَمال، وإن ضَعُفا جميعًا فهذا هو الهَلاك، وإن ضعُف أَحَدُهما دون الآخَر ففيه حَياة ومَوْت.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم (٨٧٩٦)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة رقم (١٦٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٢٧)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٢٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان:٢٤].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ ﴾ يَعنِي: نَجعَلهم يَتَمتَّعون؛ يَأكُلون ما شاؤُوا، ويَلبَسون ما شاؤُوا، ويَركَبون ما شاؤُوا، ويَسكُنون ما شاؤُوا، ويَتنَعَّمون بكل نعيم الدنيـا، ولكنَّ هذا قليل وقليـل وقليل، يَقول الرسـول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»(١)، فمَوضِع السَّوْط خير من الدُّنْيا، وليسَت هي دُنيـاك التي أنت فيها فقط، بل من أوَّلِهـا إلى آخِرها: «**مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**».

فهؤلاء -والعِياذُ بالله- يُمتَّعون قليلًا، وما أقلَّ الدنيا ومَتاعَها! كلُّ ما مضَى من الدنيا إلى ساعَتِـك الحاضِرة كأنه لم يَكُن، كأنه أضغاث أحلام؛ يُعَـمَّر الإنسان فيها ما يُعَمَّر، ومع ذلك يـوم يَرَوْن ما يُوعَدون؛ قال تعـالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾ [يونس:٤٥]، فيُمَتَّعون قليلًا.

والقِلَّة هنا باعتِبار نَوْع المَتاع، وباعتِبار زمَنه؛ فنَوْع المَتاع بالنِّسْبة لمَتاع الآخِرة قليل جِدًّا، وليس يُنسَب، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَيسَ في الدُّنْيا مِمَّا في الآخِرة

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إلَّا الأَسْماءُ»[1]؛ كذلك بالنسبة للزمَن، فالزمَن قليل جِدًّا، ولا يُنسَب أيضًا، يَعنِي: لا يُنسَب إلى زمَن الآخِرة الأَبَديِّ.

وقد بيَّنَ الله تعالى في آية أُخرى صِفة هذا التَّمتيعِ، وقال جلَّ ذِكْرُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [محمد:١٢]، ثُمَّ النَّارُ مَثوًى لهم، هذا صِفة هذا التَّمتُّعِ، فهم شَهْوانيُّون ليس لهم إلَّا شَهْوة البَطْن وشَهْوة الفَرْج، كما تَفعَل الأنعام تمامًا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾: ﴿ثُمَّ﴾ يَعنِي: بعد هذا التَّمتيعِ القليل نَضطرُّهم في الآخِرة إلى عَذاب غَليظ، وهو عذاب النار، ولا يَجِدون عنه مَحيصًا؛ فقوله تعالى: ﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾ يَعنِي: نُلجِئُهم، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ [النحل:١١٥] يَعنِي: فمَنْ أُلجِئَ، وأَصلُه مَأخوذ من الإِلْجاء إلى الضرَر؛ لأنَّ (نَضْطَرُّ) أصلها (نَضْتَرُّ)؛ ولهذا كل شيء يُلجِئ الإنسانَ يُسمَّى ضَرورة؛ لأنه يُلجِئه إلى هذا الشيءِ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ لأنهم هم لا يُريدونه، فلا يُريدون النار، ولا يُريدون هذا العذابَ، لكنهم يُجبَرون عليه -والعِياذُ بالله-؛ لأنهم عمِلوا أَسبابه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾ في الآخِرة] المُراد بالآخِرة يوم القِيامة، ويَدخُل فيه القبر؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابنُ تيميَّةَ[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العَقيدة الواسِطية:

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦٦)، وأبو نعيم في صفة الجنة رقم (١٢٤).

(٢) العقيدة الواسطية (ص٩٥).

«وممَّا يَدخُل في الإيمان باليوم الآخِر كلُّ ما أَخبَرَ به النبيُّ ﷺ مِمَّا يَكون بعد الموت»، كلُّه من اليوم الآخِر، فهم بعد هذا المَتاعِ يُلجَؤُون إلى العَذاب -والعِياذ بالله-.

وقوله تعالى: ﴿نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ﴾ العَذاب: العُقوبة، و﴿غَلِيظٍ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه [عَذاب النار] وضِدُّ غَليظ: رقيق.

وغِلَظ عذاب النار في كَيْفيته وفي نَوْعه -والعِياذُ بالله-:

أمَّا الكيفيةُ؛ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقول: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]، ويَقول فيما يُعذَّبون فيه: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧] -والعِياذُ بالله تعالى-.

أمَّا نَوْعه: فإنه لا يَخطُر بالبال ولا بالخَيال؛ فيُسْقَوْن ماءً حميمًا، فإذا ماتوا من العطَش واستَغاثوا وطلَبوا الغَوْث فإنهم يُغاثون: ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف:٢٩]، وهو الرَّصاص المُذاب -والعِياذُ بالله- ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩]، فإذا أَقبَل على الوجه شَوَى الوَجْه؛ وإذا نَزَل إلى الأمعاء: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٥] وأحيانًا يُسقَوْن من ماء صديد: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم:١٧].

فهذا العَذابُ -والعِياذ بالله- بأنواعه الشديدة العَظيمة، يَستَحِقُّ أن يُوصَف بأنه عَذاب غَليظ، ليس فيه رِقَّة ولا دِقَّة، بل هو غَليظ شديد.

وقول المُفَسِّر: [وهو عَذاب النار ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء:١٢١]] قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ هكذا في القُرآن، يَعني: لا يَجِدون مَفَرًّا

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف:٥٣]، بل إنهم -والعِياذُ بالله- يَأْتون إليها وِرْدًا عِطاشًا، وتُمَثَّل لهم كأنها سَراب ماء، والعَطْشان إذا رأَى الماء ولو كان سَرابًا يَظُنُّه ماءً لشِدَّة التِفاتِه إلى الماء، فيَرِدونها على هذا الوجهِ -والعياذُ بالله- ويَتَساقَطون فيها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الكافِر قد يُمتَّـع في الدنيـا أَكثَرَ مِمَّا يُمتَّع المُؤمِن؛ لأنه تعالى قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ وهذا هو الواقِعُ؛ فإنَّ بعضَ الكُفَّار يَكون أَشَدَّ تَمَتُّعًا في الدنيا من المُؤمِنين، ولكنه كما قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَلِيلًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن التَّمتيع في الدُّنْيا قليل في زمَنه ونَوْعه، أمَّا زمَنه فظاهِر؛ قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦]، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وأمَّا نوعُـه فقد قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»(١).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ عَذاب الكُفَّار عَذاب غَليظ، لقوله تعـالى: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الكُفَّـار يُضطَرُّون ويَلْجـؤون إلى دُخول هذا العـذابِ؛ لقوله تعالى: ﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾.

واعلَمْ أنَّ هذا الاضطِرارَ يَكون عند خُروج الرُّوح، ويَكون كذلك في الآخِرة:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أمَّا عند خُروج الرُّوح فإنه قد ورَد في حَديث البَراء الطويلِ: «أَنَّهُ إِذَا حَضَرَ المَوْتُ إِلَى هَـؤُلَاءِ الْكُفَّارِ وَبُشِّرَتْ رُوحُهُ بِالْغَضَبِ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَإِنَّهَا تَتَفَرَّقُ فِي بَدَنِهِ؛ تَتَشَبَّثُ فِيهِ، حَتَّى يَنْتَزِعُوهَا مِنَ الْبَدَنِ، كَمَا يُنْزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ»[1] يَعنِي: بشِدَّة.

ويَدُلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:٩٣]، فقوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓا۟﴾ يَدُلُّ هذا الأمرُ على أنهم كانوا أَشِحَّاءَ في إِخْراجها؛ ثُمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ...﴾ إلى آخِرِه؛ هذا مَعنَى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي: لا يَأْتون مُختارِين مُنقادِين، وهذا واضِح.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآخِرة: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣] يُدفَعون بعُنْف، حتى يَدخُلوها والعِياذُ بالله تعالى.

• • ❁ • •

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨).

الآيــة (٢٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان:٢٥].

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَئِن﴾ لام قسَم ﴿سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾]، قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يَقول: [لام قَسَم]، مَقرون بـ(إِنِ) الشَّرْطية، حُذِف جَواب الشرط، وبَقِيَ جواب القَسَم؛ وهو ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وقد قال ابنُ مالِك:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ[1]

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يُحتَمَل أنه الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أو مَن يَتَأَتَّى خِطابه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هذا هو صِيغة السُّؤال: مَن خلَق السمواتِ والأرضَ؟ خلَقها اللَّات أو العُزَّى أو مَناة أو هُبَل أَمْ مَنْ؟

الجَوابُ: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فهم يَعترِفون بأنَّ خالِق السمواتِ والأرضِ هو الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) الألفية (ص٥٩).

وقوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ جَواب القسَم، قال المُفَسِّر: [حُذِف منه نون الرَّفع؛ لتَوالِي الأمثـال، وهو الضمير لالتِـقاء الساكِنَيْن] أصله: (لَيَقولُونَنَّ)، هذا أصلُـه؛ لأن هذا فِعْل مُضارِع من الأفعـال الخمسة، لا بُدَّ فيه من الواو والنون، فنَقول: ليَـقولون. وإذا أَرَدْت أن تُؤكِّد المَعنَى: (ليَقولُونَنَّ)، فاجتَـمَع عِندنا ثلاثُ نونات كلُّهن زائِدات، ونَفصِل بينهن بحُكْم، يَقول: إن حذَفْنا نون الرَّفْع بَقِيَت نونُ التوكيد، وإن حذَفْنا نون التوكيد بقِيَت نون الرَّفْع؛ فنَحذِف نون الرَّفْع لسببَيْن:

السبَب الأوَّل: أنَّ نون الرفع اعتِـيدَ حَذْفُها، فيـما إذا كان الفِعْـل مَنـصوبًا أو مَجزومًا، بل إنها قد تُحذَف في غير حالَي النَّصْب والجَزْم، فتُحذَف للتَّخفيف، كما في قول الرسول ﷺ: «وَاللهِ لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا»[1] «لَا تَدْخُلُوا» هذه ليس فيها لا ناصِبٌ ولا جازِمٌ، حُذِفَت للتخفيف، وأصله: (لا تَدْخُلونَ) حُذِفَت النون للتخفيف.

السبَب الثاني: أن النون تُحذَف مع الوِقاية كثيرًا؛ إِذَنْ فهي أحقُّ بالحذف، فتَبقَى نون التَّوْكيد؛ لأننا لو حذَفْنا نون التوكيد فات المَقصود، ونحن نُريد أن نُؤكِّد الفِعْل، وتوكيد الفِعْـل هنا واجِب؛ لأنه مُثبَت، في قَسَم، مُستَقبَل، لم يُفصَل بين لامه وبين فِعْله؛ فيَكون تَوكيدُه واجِبًا.

أمَّا الواو مع نون التَّوْكيد، الواو ساكِنة ونون التوكيد مُشدَّدَة، فالحَرْف الأوَّل منـها ساكِن، فاجتَمَع ساكِنان، ولا يُمـكِن اجتِماع ساكِنَيْن؛ لأن السُّكون والحَرَكة نَقيضان، فلا يُمكِن أن يَجتَمِع الشيء ساكِن وساكِن، فإذًا لا بُدَّ من أن نَعمَل عمَلًا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم (٥٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

يُخرِجنا من اجتِماع الساكِنَيْن؛ فإن كان الحرف الذي قبل الساكِن صحيحًا كسَرْناه، إذا كان الحرف الصحيح الذي قبل الساكِن صحيحًا كسَرْناه، وإن كان الحرف غيرَ صحيح -حرف لين- فإننا نَحذِفه.

قال ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إِنْ سَاكِنَان الْتَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ وَإِنْ يَكُنْ لَيْنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقْ[1]

فهنا الساكِنُ الأوَّل الواو حَرْف لين؛ إذن نَحذِفه، فتَلتَقي اللامُ مع النون، (ليَقُولُنَّ).

فصار عندنا في هذا الفِعْلِ حَذْفان: حَذْف النون؛ لتَوالي الأمثال، وحَذْف واو الرَّفْع؛ لالتِقاء الساكِنَيْن، وعلى هذا يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حُذِف منه نونُ الرَّفْع؛ لتَوالِي الأمثال، وواوُ الضَّمير؛ لالتِقاء الساكِنَيْن].

إعراب قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾ في ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فاعِل لِفعْل مَحذوف، والتَّقدير: (خلَقَهُنَّ الله)، ويَدُلُّ لذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزُّخرُف:٩] ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ﴾ فذكَر الله تعالى الفِعْل، أمَّا هنا فالمَحذوف الفِعْل، ويَصِحُّ أن نَقول: إن المَحذوف اسمٌ، التَّقدير (هو الله)، لكِنْ خِلاف الأَوْلى؛ لأن السؤال مُعاد في الجَواب، والسُّؤال بلَفْظ الفِعْل: مَنْ خلَق؟ فيَقتَضِي أن يَكون الجَواب كالسُّؤال؛ بالفِعْل: خلَقَهن.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ﴿قُلِ﴾ يَعنِي: إذا أَقرُّوا واعتَرَفوا.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ مُبتَدَأ، و﴿لِلَّهِ﴾ خبَره، فالحمد لله تعالى

(١) ذكره الصبان في حاشيته على شرح الأشموني (١/ ١٣٤).

على بيان الحُجَّة، وظُهور المَحجَّة، فالآنَ هُمُ اعترَفوا بأنهم على ضَلال في شِرْكهم، فالحَمْد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا على بَيان الحُجَّة وإظهارها؛ لأنهم خُصِموا في ذلك؛ فإنهم إذا أَقَرُّوا واعترَفوا أن خالِق السموات والأرض هو الله تعالى، وأن هذه الأَصنامَ لا تَخلُقُ؛ فقَدْ أَقَرُّوا على أنفسهم بأنَّ هـذه الأصنامَ لا تَستَحِقُّ العِبادة؛ ولهذا: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

كما يُمكِن أن نَقول مع ذلك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على خَلْق السَّموات والأرض، أي: أنه يُحمَد على أنه الخالِقُ عَزَّوَجَلَّ دون غيره؛ فيُحمَد على ما له من صِفات الكَمال، ومن جميل الأفعال.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ظُهور الحُجَّة عليهم]، الحَمْد تَقدَّم لنا مِرارًا وتكرارًا بأنه وَصْف المَحمود بالكَمال، مع المَحبَّة والتَّعظيم، واللَّام في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ للاستِحْقاق والاختِصاص، للاستِحْقاق؛ لأنه هو المُستَحِقُّ للحَمْد، كما قال النـبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ»[1]، وللاختِـصاص؛ لأن الذي يَستَحِقُّ الحمد المُطلَق هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعـالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بل هنـا للإِضْراب الانتِقاليِّ، فهو انتِـقال مِمَّا سبَق للتَّسجيل عليـهم بالجَهْل التامِّ؛ ولهذا قـال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وجوبَه عليهم]؛ يَعنِي: التَّوْحيد، وإنما نَفَى العِلْم عنهم؛ لانتِفاء فائِدته، والشيء قد يُنفَى لانتِفاء فائِدَته؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ يَسمَعون بآذانهم، ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١] نفَى السَّمْع عنهم؛

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، رقم (٤٧٨)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

لانتِفاء فائِدته بالنِّسبة إليهم، ففي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نفَى العِلْم عنهم، وإن كانوا يُقِرُّون بأن الله تعالى هو الخالِق، لكنهم لم يَنتَفِعوا بهذا العِلْمِ، وعالِمٌ لم يَنتَفِع أَشَدُّ قُبْحًا من جاهِل لا يَدرِي؛ لأنه جاهِل مُركَّب، وذاك جاهِل بسيط؛ ولأنه مُعَانِدٌ مُسْتكبِر، والآخَرُ غير مُعانِد، فالجَهْل المُركَّب أَشَدُّ قبحًا، والعِناد عن عِلْم أَشَدُّ من العِناد عن جَهْل، يَقول الشاعِرُ بيتين:

وَمَنْ رَامَ الْعُلُومَ بِغَيْرِ شَيْخٍ ... يَضِلُّ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ

وَتَلْتَبِسُ الْعُلُومُ عَلَيْهِ حَتَّى ... يَكُونَ أَضَلَّ مِنْ تَوْمَا الحَكِيمِ[1]

(تُومَا) جاهِل مُركَّب يُسمُّونه الحَكيمَ، لكنه غرَّه أنهم سمَّوْه الحكيمَ، وبدَأَ يُفتِي في كل شيء، حتى أَفتَى بأنه مَن تَصدَّق على إنسان بابنَتِه فإنه يَدخُل الجَنَّة، فقيل:

تَصَدَّقَ بِالْبَنَاتِ عَلَى رِجَالٍ ... يُرِيدُ بِذَاكَ جَنَّاتِ النَّعِيمِ!

فلو قال قائِل: ما الفَرْقُ بين الجَهْل المُركَّب والجَهْل البَسيط؟

فالجَوابُ: الجَهْل المُركَّب والبَسيط نَظْمُه في البَيْتَيْن الآتِيَيْن:

قَالَ حِمَارُ الحَكِيمِ تُومَا ... لَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ كُنْتُ أَرْكَبْ

لِأَنَّنِي جَاهِلٌ بَسِيطٌ ... وَصَاحِبِي جَاهِلٌ مُرَكَّبْ[2]

---

(١) ذكرهما ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ١٢٥)، وعزاهما لأبي حيان النحوي، وانظر: نفح الطيب للتلمساني (٢/ ٥٦٤).

(٢) غير منسوب، وانظره في: نهاية الأرب للنويري (١٠/ ١٠٠)، والآداب الشرعية (٢/ ١٢٦)، وزهر الأكم للحسن اليوسي (١/ ١٩٨).

فالحِمار يَقول: إني جـاهِل بَسيط، وصاحِبه الذي هو تُومـا جاهِل مُركَّب، فالجاهِـل هو الذي لا يَدرِي أنه جاهِل، هذا مُركَّب، والبَسيـط هو الجاهِل الذي يَعلَم أنه جاهِل.

ويَتَّضِح بالمِثال: إذا قال لك قائِل: متى كانت غَزوةُ بَدْر؟ فقلـتَ: لا أَدرِي، نُسمِّي هذا جاهِلًا بَسيطًا، فإنسانٌ لا يَعرِف وعرِف أنه لا يَعرِف، وقال: لا أَعرِف. وقال رجُـلٌ لآخَرَ: متى كانت غَزوةُ بَدْر؟ قال: الحمد لله الذي فتَحَ على الجاهِلين، كانت غَزوةُ بَـدْر في جُمادَى الآخِرة سَنَـةَ تِسْع من الهِجْرة؛ فالآنَ هو جاهِـل وهو لا يَدرِي أنه جاهِل؛ ولهذا استَفْتَح بقوله: الحمدُ لله الذي فتَحَ على الجاهِلين، فيُقال: أنت لم يَفتَحِ الله عليك! لأنك جاهِل.

ومعنى مُركَّب أنه مُركَّب من جَهْلَيْن؛ جهلِه بالواقِع، وجهلِه بحاله.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن فيها دَليلًا على أنَّ المُشرِكين في عهد الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُقِرُّون برُبوبية الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذا التَّوْحيـدَ -تَوحيدَ الربوبية- لا يَنفَع مَن أَقَرَّ به فقَطْ؛ لأن هؤلاءِ المُشرِكين لم يَنتَـفِعوا بهذا الإقرارِ، بَـلْ لا بُدَّ من أن يُضاف إليـه تَوْحيد الأُلوهية والأسماء والصِّفات.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات أن خالِق السمَواتِ والأرضِ هو الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائِل: هل المَخلوق يَخلُق؟

قُلْنا: لا، المَخلوق لا يُمكِن أن يَخلُق، وخَلْق المَخلوق إنما هو تَحويل شيءٍ إلى

شيءٍ، فيَجعَل الخشَبَ بابًا، ويَجعَل المَدَر بيتًا، وما أَشبَهَ ذلك، ولكن لا يَخلُق خشَبةً ليَجعَلها بابًا، ولا يَخلُق مَدَرًا كي يَجعَله بيتًا؛ فكُلُّ ما في الإنسان من مَصنوعات ومُبتكَرات ومُبتَدَعات إنما هو تَغيير وتَحويل من شيء إلى شيء، أمَّا إيجاد ذواتِ الأشياء فهو إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا يَتبيَّن مَعنَى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وإلَّا فالإنسان يَخلُق، لكن خَلْقه ليس مَعناهُ: إبداعًا وإيجادًا بعد عدَم، ولكن -كما أَقولُه وأُكرِّره حتى يَتبيَّن لكم- مَعنَى قولِه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، فأَثبَت أنَّ مع الله تعالى خَلْقًا، لكنَّ هذا الخَلْقَ ليس خَلْقَ إيجاد، ولكنه خَلْق تَحويل وتَغيير لبعض الأَشْياء، حسَب ما أَعطاه الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ من قُدْرة عِلْمية وبدَنية.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات أنَّ السماءَ مُتعدِّدة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وقد بُيِّن في آية أُخرى أنَّ عدَدها سَبْع: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:٨٦-٨٧].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن اعتِراف الإنسان بالحَقِّ ممَّا يُحمَد الله تعالى عليه؛ لقوله للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لأنه لا شَكَّ أنَّ إقرار الإنسان واعترافه بالحَقِّ إظهار للحُجَّة، وإذا ظَهَرتِ الحُجَّة كان في ذلك من الثَّناء على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما هو أَهْل له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ أكثَرَ هؤلاء المُعانِدين والمُشرِكين كانوا لا يَعلَمون: إمَّا للجَهْل، وإمَّا لعَدَم الانتِفاع بعِلْمهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه يَنبَغي تَأكيد الكلام في مَوْضِع التأكيد؛ لأنه قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾، ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ فأَكَّد الله عَزَّوَجَلَّ أنهم سيَقولون ذلك؛ لئَلَّا يَقول قائِل:

هل هَؤلاء يُقِرُّون بتَوْحيد الرُّبوبية أو لا يُقِرُّون، فبَيَّن الله تعالى أنهم يُقِرُّون به وأَكَّد ذلك، حتى لا يُقال: كيف يُقِرُّون بتَوْحيد الرُّبوبية ثُمَّ يُنكِرون تَوْحيد الأُلوهية؟!

• • ۞ • •

الآيـة (٢٦)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان:٢٦].

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الجُمْلة هنا خبَرِيَّة وفيها حَصْر، وطريقه تَقديمُ الخَبَر؛ لأنَّ تَقديمَ ما حَقُّه التَّأخير يُفيد الحَصْر، فـ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يَعني: لا لغيرِه، بل هو له وحدَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: ما كان فيها، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ كذلك، وأَتى بـ(ما) التي لغير العاقِل؛ لأنه يُراد بها مِلْك الذَّوات والصِّفات، وإذا أُريد بها مِلْك الذوات والصِّفات أُتِيَ بـ(ما)؛ لأنَّها أَكثَرُ؛ فإن كلَّ ذاتٍ لها صِفة، وأيضًا ليس كلُّ الذوات عاقِلة، بل الدوابُّ والبَهائِمُ وشَبَهها من قَسْم غير العاقِل.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِلْكًا وخَلْقًا وعَبيدًا] والمِلْك يَشمَل مِلْك الذوات، والتَّصرُّف في هذه الذواتِ؛ ولهذا قال: [وعَبيدًا] والمُراد بالعُبودية هنا العُبُودِية العامَّة دون الخاصَّة؛ لأنَّ العُبودية الخاصَّة تَختَصُّ بالطائِعين الذين تَذلَّلوا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ طاعة بالمَعنَى الشَّرْعي، وأمَّا العِبادة العامَّة فهي تَشمَل كل الخَلْق؛ لأنَّ جميع الخَلْق مُتذلِّل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باعتِبار الكَوْن.

والتَّقـديرُ: لا أحَدَ يَستَطيع أن يُعارِض قَضاء الله تعالى وقَـدْره؛ لكن الكُفَّار يَستَطيعون أن يُعارِضوا شَرْع الله تعالى؛ ولهذا عارَضوا وأنكَروا الشَّرْع واستكْبَروا عن الحقِّ.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فلا يَستَحِقُّ العِبادة فيهما غيرُه] في السَّموات والأرض لا يَستَـحِقُّ العِبادة إلَّا الله تعالى؛ لأنه بمُقتَضى العَقْـل والفِطْرة: أنَّ المالِك الخالِق المُدبِّر يَجِب أن يَكون هـو المَعبودَ؛ ولهذا يَستَدِلُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على وُجوب العِبادة بالرُّبوبية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة:٢١]، وتَقدَّم قوله تعـالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾، وهـذا ظاهِر أنَّ مَن له الخَلْق يَجِب أن تكون له العِبادة وحدَه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عن خَلْقه ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ المَحمود في صُنْعه] الجُمْلة هنا استِئْنافية؛ لبَيان ما لله عَزَّوَجَلَّ من هَذَيْن الاسمَيْن، وما تَضمَّناه من الصِّفة؛ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾ الضَّمير ضَمير فَصْل، ولِضَمير الفَصْل ثلاثُ فَوائِدَ:

الفائِدةُ الأُولى: التَّوكيدُ.

والثانيةُ: الحَصْر.

والثالِثة: التَّمييز بين الخبَر والصِّفة.

فإذا قُلْت: زيدٌ الفـاضِل. فـ(زَيْد) مُبتَدَأ، و(الفاضِل) يُحتَمَل أن تكون صِفة لـ(زَيْد)، وأنَّ الخبَر لم يَأتِ بعدُ، وأن التَّقدير: زَيْدٌ الفاضِل مَحبوبٌ مثلًا، فإذا قلت: زَيْـد هو الفاضِل. لا يُحتَمَل أن يَكون صِفـة، بل يَكون خبَرًا؛ ولهذا سُمِّيَ ضَميرَ فَصْل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عن خَلْقه] وهو كذلِكَ: غَنِيٌّ في نَفْسه غَنِيٌّ عن غيره؛ فهو غَنِيٌّ في نَفْسه؛ لكَثْرة ما عِنده؛ لأن كل شيء فهو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا تَمام الغِنى، وهو غَنيٌّ عن خَلْقه؛ فلا يَحتاج إلى أحَد؛ والدليل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

أمَّا مَن سِواه فإنه مُفتَقِر إلى الله عَزَّوَجَلَّ قبل كلِّ شَيْء، ثُمَّ إن الناسَ بعضهم مُفتَقِر إلى بعض، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزُّخرُف:٣٢]؛ فالناس بعضُهم إلى بَعضٍ في حاجة، بل في ضَرورة أحيانًا، والجميع إلى الله تعالى في حاجة وضَرورة.

أمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فإنه في غِنًى عن غيره، كما أنه غَنِيٌّ بنَفْسه أيضًا.

إذَن: غِناه يَتَضمَّن شَيْئين: الغِنَى الذاتي، بمَعنى: كَثْرة ما يَملِكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذ كلُّ شيء فهو مِلْكه، الثاني: الغِنَى عن الغير؛ بحيثُ لا يَحتاج إلى أحَد، وغيره مُحتاج إليه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المَحمود في صُنْعه] فقَصَّر في التَّقْدير من وَجْهين:

الأوَّل: قال الحَميد بمَعنَى: المَحمود، والصحيح: أنها بمَعنَى: المَحمود والحامِد؛ فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حامِدٌ مَن يَستَحِقُّ الحمد، وما أكثَرَ الثَّناء على مَن يَستَحِقُّون الثَّناء في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو كذلك مَحمود على كَمال صِفاته وتَمام إنعامه، فيُحمَد على أمرين: على كَمال صِفاته، وعلى تَمام إنْعامه.

الوجهُ الثاني ممَّا قصَّر فيه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه قال: [المَحمود في صُنْعه].

والصوابُ: أنه مَحمود في صُنْعه وفي شَرْعه أيضًا؛ فإن شَرْعه عَزَّوَجَلَّ أكمَلُ الشَّرائع وأَنفَعُها للعِباد، ومَن سنَّ للخَلْق طريقًا تَستَقيم به أُمورهم فهو أهلٌ للحَمْد؛ فالآنَ لو أنَّ أحَدًا دلَّك على طريق بلد في سَفْرة واحِدة من سفراتك فإنك تَحمَده؛ فكيف بمَن دلَّكَ على طريق الآخِرة في كلِّ ما تَحتاج إليه؟!

فالصَّوابُ: أنَّ حَميد بمَعنَى حامِد ومَحمود، وحَميد في صُنْعه وفي شَرْعِهِ؛ فصُنْعه الذي هو الخَلْق يُحمَد عليه عَزَّوَجَلَّ على إيجاده، وعلى إعداده وعلى إِمْداده، وهو أيضًا حَميد في شَرْعه، يُحمَد عليه؛ لِمَا في شَرْعه من العَدْل والحِكْمة والرحمة التي لا نَظيرَ لها.

وما أعظَمَ الفائِدةَ في اقتِران الحَميد بالغَنيِّ! لأنه -كما تَقدَّم- أسماء اللهِ تعالى كلُّها حُسنَى، وتَدُلُّ على مَعنًى أَحسَنَ؛ لكن قد يَدُلُّ الاسْمان على صِفة ثالِثة حصَلَت باقتِرانهما؛ فالغِنَى مع الحَمْد يَزداد كَمالًا، لأنه قد يَكون الغَنيُّ غنِيًّا، ولكن غِنًى لا يُحمَد عليه، مِثل البَخيل الغَنيِّ، فإنه غَنيٌّ لكن لا يُحمَد على غِناه؛ لأنه لا يُستَفاد من ماله، وقد حرَم نَفْسه من مَصلحة ماله، لكن الله عَزَّوَجَلَّ له الغِنَى المُقتَرِن بالحَمْد؛ لكمال إِحْسانه على خَلْقه من هذا الغِنَى؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن مُلْك السَّمَوات لله تعالى، وأنه خاصٌّ به، يُؤخَذ من تَقديم الخبَر؛ لأنَّ تَقديم ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيد الحَصْر والاختِصاص.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الناس لا يَمْلِكُون أموالهم مِلْكًا مُطلَقًا؛ فمثَلًا: أنا أَملِك بَيْتي وسيَّارتي. وما أَشبَه ذلك، لكن مِلْكي لها ليس مُطلَقًا؛ لأنَّ المِلْك المُطلَق لله عَزَّوَجَلَّ؛

ولهذا تَصرُّفي فيـها على حسَب ما أَذِن الله تعـالى به، ما هو على حسَـب ما أُريدُ أنا، وبهـذا يَزول الإشكالُ الَّذي يُورَد فيُقال: إذا قُلْتـم: إن مِلْك السمَوات والأرض خاصٌّ بالله تعالى، أَلَيْس الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد أَضاف المِلْك إلى الإنسان: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٣].

إِذَنْ: فهذا المِلْكُ ليس مِلْكًا مُطلَقًا بدليل أنه مُقيَّد بإِذْنِ الله تعالى بما أَذِن اللهُ تعالى فيه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات اسمَيْن من أسماء الله تعـالى، وهُما: الغَنيُّ والحَميد. وما دلَّا عليه من الصِّفة، وهي: الغَناء والحَمْد. وما دلَّ عليه اجتِماعُهما من الصِّفة أيضًا، وهو أنَّ غِنَى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مَقـرون بكَوْنه محمودًا، فيَـدُلُّ على أنه غِنًى ذاتِيٌّ، وأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مع كونه غَنيًّا جَوَادٌ يَجود بما عِندَه، إذ ليس كل غَنيٍّ حَميدًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيـان أنَّ مِلْك الله للسمَـوات والأرض مِلْكٌ مُشتَـمِل على الفَضْل والحَمْد؛ لأنه ذكَرَه بعد قولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾، فكونه غَنيًّا يُتمَدَّح سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بغِناه بعد ذِكْر مِلْك السمَوات والأرض؛ يَدُلُّ على فَضْله بهذا الغِنَى، وعلى حَمْده على هذا المِلْكِ، أنه مِلْك مَبنيٌّ على الحَمْد، وهذا كقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] حَمِد نَفْسه لكونه ربًّا للعالَمين؛ لأن رُبوبيته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ رُبوبية يُحمَـد عليها، لما فيها من كَمال الفَضْل والإحسان والعَدْل إلى غير ذلك.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: افتِـقار ما في السمَوات والأرض إلى الله؛ لأنَّ قوله تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ دليل على أن ما في السمَوات والأرض مُحتاجون إليه فُقراءُ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات أنَّ السمَـواتِ جَمْع، وعدَدُها سَبْع، تُؤخَـذ من قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أمَّا تَعيين العَدَد بالسَّبْع؛ فمِن آياتٍ أُخرى.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان:٢٧].

﴿ وَلَوْ ﴾ هذه شَرْطية، وفِعْل الشَّرْط مَحذوف؛ أي: ولو ثبَت أن ما في الأَرْض من شجَرة.. إلى آخِره، و(ما) اسمٌ مَوْصول بمَعنَى: الذي، و﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جارٌّ ومَجرور مُتعَلِّق بمَحذوف صِلة المَوْصول، يَعنِي: ولو أنَّ الذي استَقَرَّ في الأرض، و﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ جارٌّ ومَجرور بيانٌ لـ(ما) الاسْمِ المَوْصول؛ لأن الاسمَ المَوْصول مُبهَم يَحتاج إلى بيانٍ؛ فـ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ بيانٌ له؛ يَعنِي: لو أن الذي في الأَرْض من الشجَر.

وقوله تعالى: ﴿أَقْلَٰمٌ﴾ خبَر (أن)، يَعنِي: ولو أنَّ الذي في الأرض من الأشجار كان أقلامًا هذا المَعنَى، كان أقلامًا يُكتَب بها، (والبَحْرَ) يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عطف على اسم (أنَّ)]، وفي قِراءة: ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ وهي المَوْجودة في المُصحَف، لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا قال: مَنْصوبة. قال: [عطف على اسْمِ (أنَّ)]، ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ إذا كانت بالرَّفْع فهي مُبتَدَأ، قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَجَائِزٌ رَفْعُكَ مَعْطُوفًا عَلَى ... مَنْصُوبِ إِنَّ بَعْدَ أَنْ تَسْتَكْمِلَا

وَأُلْحِقَتْ بِإِنَّ لكِنَّ وَأَنْ ... .

(١) الألفية (ص:٢٢).

وهذه (أن).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(والبَحْرَ) عطف على اسم (أنَّ)]، فتكون بالنَّصْب.

وقوله تعالى: ﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾ الخبَر محذوف قدَّره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [مِدادًا] يَعني: لو أن ما في الأرض من الأشجار أقلامٌ، وما فيها من البِحار مِدادٌ، يَعنِي: حِبرًا يُكتَب به، وجوابُ الشَّرْط قوله تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ المُعبَّر بها عن مَعلومات... إلى آخِره.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾: (نفِد) مَعناه: انتهَى، و﴿كَلِمَٰتُ﴾ فاعِل؛ فـ﴿نَفِدَتۡ﴾ الكَوْنية، وأمَّا الشَّرْعية فلا تَنفَد؛ لأنه عَزَّوَجَلَّ لم يَزَل ولا يَزال مُتكَلِّمًا، والخَلْق لا نِهايةَ له؛ لأنَّه إذا دخَل الناس الجَنَّة أو النار يَكون خُلودًا دائِمًا سَرْمَديًّا أبدِيًّا.

فإذَن: كل شيء يَخلُقه الله تعالى فإنما يَخلُقه بالكلِمة: (كُنْ فيَكون).

فإذا كانَتِ المَخلوقاتِ لا تَنتَهي، وكذلك أيضًا أفعال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الأزَل لا نِهايةَ لها، فإنها لا يُمكِن أن تَنفَد أبَدًا، حتى لو فُرِض أنَّ البَحْر ومِن بعده سَبْعةُ أَبحُرٍ تَمُدُّه، والشجَر -كل الشجَر الذي في الأرض- أَقْلام وصار يُكتَب بها، فإن كلِماتِ الله تعالى لا تَنفَد.

ووجهُ ذلك واضِح؛ لأن المَخلوقاتِ لا تَنفَد، وكلُّ مَخلوق فإنه يَكون بالكلِمة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

إِذَنْ: يَتبيَّن لنا وَجْه كَوْن هذه الجُمْلةِ الخبَرية صِدْقًا مَحضًا، وهي صِدْق لا شَكَّ، فخبَرُ الله تعالى صِدْق.

لكن قد يَقول قائِل: كيف؟ وما وجهُ هذا؟

فنَقول: هذا وجهُه؛ إذ إن الإنسان قد يَستَعظِم أن تكون البِحار -البحر المُحيط ومِن ورائِه سَبْعة أَبحُر- مِدادًا، وما في الأرض من الشجَر أقلامًا يُكتَب بها ثُمَّ لا تَنفَد الكلماتُ، قد يَستَعظِم هذا الشيءَ، ولكنه إذا عرَف كَمال قُدْرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعظَمته لم يَستَعظِم هذا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُعبَّر بها عن مَعلوماته بكَتْبها بتِلْك الأَقْلام بذلك المِدادِ، ولا بأَكثَرَ من ذلك، لأنَّ مَعلوماتِه تعالى غير مُتَناهِية]، عفا الله عن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هذا تَحريف! فقد عَبَّر بقوله: إن المُراد بالكَلِمات المعلوماتُ، مَعلوماتُ الله تعالى. يَعنِي: ما نَفِد لا يَعلِمه.

لكن هذا تَحريف ظاهِر للقُرآن، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقول: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ﴾ والكلِمات هي التي تُكتَب، أمَّا المَعلوماتُ فقَدْ تُكتَب وقد لا تُكتَب، فهل كل المَعلومات تَكتُبها؟! لكِنَّ كلِماتِك إذا أَرَدْتَ أن تُعبِّر عنها للغَيْر تَنطِق بها وتَكتُبها.

فالمَعنَى: ما نفِدَت كلماتُ الله تعالى، أي: كلِماته بالحَقِّ حقيقة، يَعنِي: الكلِمات الحقيقية لو أُمِليت على أحَدٍ، وصارت البِحَارُ مِدَادًا لها، والأشجار أقلامًا لها، ما نفِدَتْ. ووجهُ ذلك ظاهِرٌ، وهذا يَدُلُّ على عظَمة الله عَزَّوَجَلَّ وكَمال قُدْرته.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُعجِزه شيء، ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يَخرُج شيءٌ عن عِلْمه وحِكْمته].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَزِيزٌ﴾ يَقول: [لا يُعجِزه شيء] وأحيانا يُعبِّر المُفَسِّر نَفْسه، يَقول: عزيزٌ لا يَغلِبه شيءٌ. وذلك لأنَّ العِزَّة -كما سبَق- تَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام:

عِزَّة القدَر، والثاني: عِزَّة القَهْر وهي الغلَبة، والثالِث: عِزَّة الامتِناع، وهي: أنه عَزَّوَجَلَّ لا يَناله شيء بسُوء أبَدًا، فهو مُمتَنِع عن كل سُوء لِقُوَّته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾ فهو هنا قال: [لا يَخرُج شيء عن عِلْمه وحِكْمته] ففَسَّر الحِكْمة بالعِلْم، وقد سبَقَ لنا أن الحكيم مُشتَقَّة من الحُكْم والحِكْمة؛ فهو حَكيم لا يَخرُج عن مُلكِه شيء وحُكْمِه، وحَكيم لا يَخرُج عن حِكْمته شيء، إذَنْ هو حاكِم مُحكَم، كلها تُؤخَذ من كلِمة حَكيم.

وفي قَرْن العَزيز بالحَكيم إثباتُ صِفة ثالِثة غير العِزَّة والحِكْمة، وهي: أن عِزَّته عَزَّوَجَلَّ مَقرونة بحِكْمة، فتكون عِزَّةً أكمَلَ، وتَكون حِكْمةً أكمَلَ، وذلك أن العزيزَ من الخَلْق قد تَأخُذه العِزَّة بالإِثْم، فلا يَكون حَكيمًا في تَصرُّفه، لكن الله عَزَّوَجَلَّ عِزَّته مَقرونة بالحِكْمة، لا يُمكِن أن تَخْرُج أفعاله عن الحِكْمة التي هي مُوافَقة الصَّواب.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَتكَلَّم؛ لقوله تعالى: ﴿كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قال بعضُهم: إنَّ كلماتِه تعالى مَسموعة؛ لأنها تُكتَب، ولا يُكتَب إلَّا ما كان مَسموعًا.

وهذه الفائِدةُ فيها نظَر؛ لأنه يُمكِن أن تَكتُب الشيءَ مُجرَّد كِتابة؛ يَعنِي: أن الإنسان يُمكِن أن يَكتُب كلِماتِه هو دون أن يُسمِع غيرَه.

إِذَنْ: هذه الفائِدةُ فيها نظَرٌ، لكن يُؤخَذ من إثبات أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَتكلَّم بصَوْت: أنَّ الكَلام لا يُسمَّى كلامًا إلَّا حيث يَكون صوتًا، أمَّا مُجرَّد ما في النَّفْس فليس بكَلام.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان أنَّ كلِماتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا نَفادَ لها، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ ووجهُ ذلك ما تَقدَّم في التَّفسير: أنَّ الله تعالى لم يَزَل ولا يَزال خَلَّاقًا، فعَّالًا لما يُريد، ومن لازِمِ ذلك أن يَكون مُتكَلِّمًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَمامُ قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ حيثُ كان قادِرًا على كلام لا يَنفَد.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ العِزَّة والحِكْمة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وإثباتُ الحُكْم أيضًا من قوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾، وإثبات هَذَيْن الاسمَيْن عَزيز وحَكيم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ما دَلَّ عليه اجتِماع العِزَّة والحِكْمة من صِفة الكَمال، قُلْنا: إن الاسم قد يَكون له مَعنًى في ذاتِه، ومَعنًى باجتِماعه إلى غيره؛ فاجتِماع العِزَّة مع الحِكْمة يُفيد كَمالًا أكثَرَ ممَّا لوِ انفَرَدَتِ العِزَّة أو الحِكْمة، وهو أنَّ عِزَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَربوطة بالحِكْمة.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان:٢٨].

ثُمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُبيِّنًا كَمال قُدْرته بعد أن بَيَّن عُموم مِلْكه، وكمال كلِماته قال: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ خَلْقًا وبَعْثًا؛ لأنه بكلِمة (كُنْ) فيَكون؛ لأنه يَعلَم الخَلْق والبَعْث؛ فما خَلْقكم جميعًا إلَّا كنَفْسٍ واحِدة، وما بَعثُكم جميعًا إلَّا كنَفْسٍ واحِدة.

إذَنِ: الكَثْرة لا تُعجِز الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ الكَثْرة عِنده والقِلَّة على حَدٍّ سَواءٍ، إذِ الكُلُّ تَتعلَّق به القُدرةُ، وهذا كلُّه سَهْل عليه؛ لأنه يَكون بكلِمة (كُنْ) فالله عَزَّوَجَلَّ لَمَّا خَلَق السمواتِ والأرضَ لم يَحتَجْ إلى عمال وعوامِلَ؛ ولهذا يُقال: إذا كان البِناء واسِعًا كان أشَقَّ، وإذا كان ضَيِّقًا كان أهوَنَ؛ لكن عند الله تعالى فلا؛ إنما هو بكلِمة (كُنْ)، وما كان بكلِمة (كُنْ)، فلا فَرْقَ بين أن يَكون كثيرًا، أو قليلًا؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في آية أُخرَى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل:٧٧]، يَعنِي: بل هو أَقرَبُ من لَمحِ البصَر، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القمر:٥٠]، وهذا غاية ما يَكون من السُّرْعة والإنجاز. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤]، فكُلُّ هذا يَدُلُّ على

كَمال قُدْرته عَزَّوَجَلَّ.

والجَوابُ عمَّا يُورَد على المَرءِ: لماذا خلَقَ الله تعالى السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّة أيام؟ ولماذا يَخلُق الجَنين في بَطْن أُمِّه لُمدَّة تِسْعة أشهُرٍ؟ وما أَشبَهَ ذلك؟

والجَوابُ: أنَّ أفعاله مَقرونة بحِكْمة، وأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جعَل الأسباب مَربوطةً بمُسبَّباتها؛ فلا بُدَّ من أن يَكون هناك سبَب ويَنتُجُ عنه مُسبَّب، ولا بُدَّ من أن يَكون هذا السبَبُ مُطابِقًا مُوافِقًا؛ حتى يَتِمَّ الخَلْق على كَماله.

فهذا الخَلْق يَحتاج إلى أشياءَ، مُقدِّمات وأَسْباب يَحصُل بها كَمال الخَلْق، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قادِر على أن يَخلُق الجَنين في بَطْن أُمِّه بدون أن يَتَناوَلها الرَّجُل كما حصَل في عيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومع هذا فإن الله تعالى قد جعَل لهذا أسبابًا: اتِّصال ماء الرَّجُل بالمرأة، ثُمَّ بعد ذلك الجَنينُ يَتطَوَّر شيئًا فشيئًا حتى يَصِل إلى الغاية، ثُمَّ إذا كان قابِلًا لأَنْ يَخرُج إلى الدنيا خرَج، ثُمَّ مع ذلك يَنمو شيئًا فشيئًا، لا يَأتيه العَقْل كامِلًا دفعة واحِدة، ولا يَأتيه النُّموُّ دفعة واحِدة، ولكنه على وَفْق الحِكْمة.

وقوله تعالى: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ يَسمَع كلَّ مَسموع، ﴿بَصِيرٌ﴾ يُبصِر كل مُبصَر، لا يَشغَله شيء عن شيءٍ]؛ قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ يَبصُر كلَّ مُبصَر] وكلُّ مُبصَر فهو خَلْق مَخلوق، فما ثَمَّ إلَّا خالِق أو مَخلوق، فكل مُبصَر يَعنِي: كل ما مِن شَأْنه أن يَتعلَّق به البصَر، ولو أني أنا ما أُبصِره، لكن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُبصِره، فتَتفاوَت؛ فهناك شيء يُبصِره زَيْد ولا يُبصِره عَمرٌو.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ تَقدَّم أنَّ السميع يَنقَسِم إلى قِسْمين: قِسْم: بمَعنَى مُجيب، وقِسْم: بمَعنَى سامِع، يَعنِي مُدرِك للأصوات؛ فالسَّميع الذي بمَعنَى مُجيب.

مثل قول إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، أي: مُجيبُه، ومن المعلوم أيضًا أنه لا يُجيبه إلَّا بعدَ أن يَسمَعه سَمْعَ إدراكٍ، ولكن الفائِدة من الدُّعاء هي إجابة الداعِي، أمَّا مُجرَّد أن يُسمَع دُعاؤُه؛ فلا فائِدةَ له من ذلك حتى يُجاب.

وتَقدَّم أنَّ سَمْع الإدراك يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام:

ما يُفيد التهديد.

وما يُفيد التَّأْييد.

وما يُفيد سَعةَ سَمْع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإدراكُه لكل مَسموع.

فمما يُفيد التَّهديد: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزُّخرُف:٨٠].

ومِمَّا يُفيد التأييد قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لمُوسى وهارونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

وممَّا يُفيد الشُّمول؛ أي: شُمول سَمْع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لكل ما يُسمَع مثل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة:١]؛ ولهذا قالَتْ عائِشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: تَبارَك الَّذي وَسِعَ سَمْعُه الأصواتَ، إني فِي طرَفِ الحُجْرة وإنه ليَخفَى عليَّ بَعضُ حَدِيثِها[1]، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِن فَوْقِ سَبْع سَمَواتٍ يَسْمَعُ هَذا الحَديثَ والتَّحاوُرَ كُلَّهُ، ولَمْ يَفُتْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شَيْءٌ.

---

(١) علقه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، (٩/ ١١٧)، ووصله الإمام أحمد (٦/ ٤٦)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه: في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨).

أمَّا قوله تعـالى: ﴿بَصِيرٌ﴾ فالبَصير بمَعنَى: مُبصِر، أَيْ: مُدرِك ببَصَره عَزَّوَجَلَّ فلله تعالى بصَرٌ يُبـصِر به المُبصَرات، كما جاء في الحديثِ الصحيـح: «**حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»(١).

وقد يَكون البَصير أيضًا دالًّا على العِلْم، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:٢٦٥]، أي: عَليم به، وعند الناس الآنَ إذا قالوا: فُلان بَصير بالأشياء، يَعنِي: عنده عِلْم بها وخِبْرة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات الخَلْق والبَعْث؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: كَمال قُدْرة الله تعالى حيث جعَل جَلَّجَلَالُهُ الخَلْقَ والبَعْث لجميع الخَلْق كنَفْس واحِدة، وهذا في غاية ما يَكون من القُدْرة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات البَعْث؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا بَعْثُكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الاستِدْلال بالمَشهود على المَوْعود، فالمَشهود الخَلْق، والمَوْعود البَعْث، وقد قرَنَهما الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جَميعًا؛ لإثباتِ كلِّ واحِد منهما، وأنه كما قَدَر على الخَلْق أوَّلًا فهو قادِر على البَعْث ثانيًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات اسمَيِ (السَّميع) و(البَصير) لله تعالى، وإثبات ما دَلَّا عليه من صِفـات، وإثبات الكَمال باجتِماعهما السَّمع والبَصْر، إِذْ ليـس كلُّ سَميع بَصيرًا، وليس كلُّ بَصير سميعًا، وقد سَبَق لنا مَعنَى السَّميع ومَعنَى البَصير.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إن الله لا ينام»، رقم (١٧٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الآيــة (٢٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٢٩].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الهَمْزة هنا للاستِفْهام التَّقريريِّ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمَعنَى: قد رأَيْت، فهو يُقرِّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه القَضيةَ المُشاهَدةَ المَعلومة لكل أحَدٍ.

والخِطـاب في قوله: ﴿تَرَ﴾ إمَّا للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أو لكُلِّ مَن يَصلُح للخِطاب. والمَعنَى الثاني أَشمَلُ وأعَمُّ؛ فتكون شامِلة لكُلِّ مَن يَصلُح له الخِطاب.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرَّائي المُخاطَب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ﴾ يُدخِل ﴿ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ﴾ يُدخِله ﴿فِى ٱلَّيْلِ﴾، وهذا الإيلاجُ والإِدْخـال لا يَكون إلَّا بقُدْرة عَظيمة، يُولِج الليل في النـهار، ويُولِج النهار في الليل، فهل المُراد إقبـال الليل وإقبال النَّهار؛ لأنك تَرَى الليل إذا أَقبَلَ يَدخُل سوادُه في النهار، فيَدخُل على النهار ويَطرُده، وتَرَى النهار أيضًا إذا أَقبَل يَلِج في الليل فيَطرُده؛ فيَكون هذا عِبارة عن تَقرير طُلوع الفجر وإقبال اللَّيْل.

وقد أَقسَم الله تعالى بذلك في القُرآن الكَريم ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدَّثر:٣٣-٣٤]، ولا يُقسِم بشَيْء من المَخلوقات إلَّا لعِظَمه، فيَكون مَعـنَى الإيلاج الإِدْخال به؛ أي: إدخال الليـل بالنهار أو العَكْس عند كل صَباح وعند كل مَساء.

هذا وَجْه.

أو أنَّ المَعنَى: يُولِج الليل في النَّهار، بمَعنَى أنه يَزدادُ النَّهار مُدَّةً حتى يَدخُل في الليل، ويَزداد الليل مُدَّة حتى يَدخُل في النهار، يَعنِي: يَطول النهار؛ فإذا طال أَخَذ من الليـل، فمَعنَى ذلك أنه دخَل عليـه، ويَطول الليـل فإذا طال أَخَذ من النَّهار، فيَكون قد دخَل عليه واختَلَس منه، هذا أيضًا مَعنَى لكلِمة الإيلاج.

وكلاهما مَعـنًى صَحيحٌ، ففي إقبـال الليل وإدباره آية عَظيـمة من آيات الله تعالى، وفي كون هذا يَزيد وهذا يَنقُص أيضًا آيةٌ من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الخَلْق لوِ اجتَمَعوا كلُّهم على أن يَأْتوا بالليل في النهار، أو بالنهار في الليـل لا يَستَطيعون، لوِ اجتَمَعوا كلُّهم على أن يَزيدوا في النهار دَقيـقةً واحِدةً، أو في الليل دَقيقة واحِدة لا يَستَطيعون، مَهما أُوتوا من قُوَّة.

إذَنْ: فهذا دليل على كَمال قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ إنَّ في إيلاج الليل بالنَّهار على المَعنى الثاني والعكس فيه دَليل على رحمة اللهِ تعـالى؛ لأن تَناوُب الليل والنهار بالزيادة والنَّقْص فيه مَصلَحة عَظيـمة جِدًّا؛ لأن الليل إذا طال حصَل البَرْد والشِّتاء وظهَرَت أَشجار الشِّتاء، وماتَت الحشَرات التي قد يَكون بَقاؤُها ضارًّا بالإنسان والنَّبات.

وكذلك إذا ازداد النَّهار ازداد الحَرُّ فنَضِجت الثِّمار وزال البُخار من الأرض، وماتَتْ بذلك حشَراتٌ كثيرةٌ من أَجْل الحَرِّ، لو أنها بقِيَت وتَنامَت لأَضَرَّت بالناس، فيَكون هذا أيضًا فيه دَليل على كمال الحِكْمة والرَّحْمة مع القُدْرة.

قوله تعـالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: ذلَّلَهما لمَصالِح العِبـاد، والدليل

على ذلك قوله تعالى في الآية العامة الشامِلة: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم﴾ كلِمة ﴿لَكُم﴾ إذَن كل ما ذُكِر من التَّسخير في الكون فهو لبني آدَمَ؛ ولهذا يُقال في بعض الآثار: «يَا ابْنَ آدَمَ خَلَقْتُكَ مِنْ أَجْلِي، وَخَلَقْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلِكَ»، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، ويقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣]، أي: لكم أنتُم.

وذكَر الشمسَ والقَمَرَ بعد ذِكْر الليل والنهار؛ لأن الشَّمْس آيةُ النَّهار، والقمَر آيةُ الليـل؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ وهو القمَر ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:١٢]؛ ولذلك القمَرُ لا نُورَ فيه، إنما يَستَفيد نُورَه من الشَّمْس، كلَّما قابَلـها ازداد نُورُه، فإذا تمَّتِ المُقابَلة بيـنه وبين الشَّمْس في ليلة من ليال الإدْبار كمَلَ نُوره، ثُمَّ كُلَّما ضعُفَتِ المُقابَلة ضعُف نُورُه.

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ﴾ مِنهما ﴿يَجْرِىٓ﴾ في فَلَكه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القِيامة] ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ﴾: ﴿كُلٌّ﴾ هذا التَّنوينُ؛ يَقول النَّحويون: إنه عِوَض عن مَحذوف، عن كلِمة، يَعنِي: كل واحِد من الشَّمْس والقمَر يَجرِي إلى أَجَل مُسمًّى، العَجيب أنه رُوِيَ عن ابن عَبَّـاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: إن الشَّمْس والقمَر يَجريان في فلَكهما في النهار، ويَجرِيان في فلَكهما تَحتَ الأرض في اللَّيْل[1]. وهذا يَدُلُّ على أنَّ ابن عَبَّـاس يَرَى الأرض كُروية؛ لأنَّ إذا كان يَجرِي تَحت الأرض فمَعنـاه

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٤/ ١١٥٠-١١٥١)، وعزاه ابن كثير في تفسيره (٦/ ٣١٣) لابن أبي حاتم، وانظر: الدر المنثور (٥/ ٤٣).

أنها كُروية، وهو كذلك؛ لأن الشمس والقمَر بالليل يَجريان تَحتَ الأَرْض، كما قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والأرضُ هي أرضُنا هذه، والأرَضون السِّتُّ الباقية تَحتَها، يَعنِي: الأرض طبَقات مثل السماء طبَقات بعضُها فوق بَعْض، أَلَمْ تَرَ إلى البَيْضة فيها القِشْرة الأعلى، ثُمَّ القِشْرة الثانية والتي يَليها البَياض، ثُمَّ البَياض، ثُمَّ قِشْرة رقيقة، ثُمَّ الأَصْفَر؛ فطبَقات الأرض مثل البَيْضة هكذا، كذلك أيضًا السمَوات نَفْس الشيء طبَقات مُكوَّرَة.

فإن قال قائِل: هل هي مُنفَصِلة؟

فالجَوابُ: فيه خِلافٌ؛ بعض العُلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقول: إن بَينَهُنَّ فَصْلًا وهَواءً، يَعنِي: مثل ما أنَّ السمَواتِ بينها هَواءٌ وفَصْل. وبعضُهم يَقول: لا فَصْلَ بينها.

فإن قيل: إذا قُلْنا: إنه تَدور الشمس والقمَر من تَحت الأرَضين السَّبْع كلِّها؛ فكيف ذلك؟

فالجَوابُ: الأرَضون السبعُ هي الكُتْلة، فكُتْلة الأرض هذه التي يُسمُّونها الكُرةَ الأَرْضية، هذه مُتَضمِّنة للسَّبْع، فالسَّبْع في جَوْفها، والدليلُ على هذا قولُه ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[1]؛ لأنه إذا ظلَم الأرض العُليا التي نحن عليها الآنَ، فيَكون قدِ اعتَدى على التي تَحتَها، والتي تَحتَها، والتي تَحتَها إلى السَّبْع.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئا من الأرض، رقم (٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، رقم (١٦١٢/ ١٤٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ هنا: الرُّؤْية بمَعنَى العِلْم في المَوْضِعين، كما قدَّرها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يَعنِي: أَوَلَمْ تَعلَم أنَّ الله تعالى بما تَعمَلون خَبير.

فإن قال قائِل: عِلْمي بأنَّ الله تعالى يُولِج الليل في النهار، وأنه سخَّر الشمس والقمَر، عِلْمٌ طريقُه الحِسُّ، فأنا أُشاهِد ذلك، لكن: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ما طريق هذا العِلْمِ، هل هو الحِسُّ الشاهِدُ أو الخبَرُ الصادِقُ؟

فالجَوابُ: الخبَر الصادِق لا شَكَّ، نحن نَعلَم أن الله تعالى بما نَعمَل خَبير؛ لأنه أَعلَمنا بذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو أَصدَق القائِلين، ونحن نَعلَم ذلك أيضًا عن طريق الحِسِّ الشاهِدِ؛ لِما نُشاهِد من عُقوبات المَعاصِي مثلًا، ومن ثواب الطائِعين، وممَّا يَحدُث للإنسان نَفْسِه من أثَر الطاعة، ومِن أثَر المَعصية، فالإنسان المُؤمِن يَحصُل له من المَعصية أثرٌ سَيِّئ في نَفْسه، حتى إن بعض الناس يَضيق صَدْره، ولا يَدرِي ما السبَبُ، لكن سبَبه مَعصية خَفِيَت عليه كما قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ»[1] أو كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فالإنسانُ يُحِسُّ بعِلْم الله عَزَّوَجَلَّ وخِبْرته بما يَعمَل من الآثار.

والحاصِلُ: في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أن نَقول: نحن نَعلَم ذلك عن طَريقين هُما: الخبَرُ الصادِق والحِسُّ الشاهِد؛ فنُحِسُّ بذلك بما نَرى من آثار أعمالنا الصالِحة، أو آثار أعمالنا السَّيِّئة، ومن الفرَج عند الكَرْب، فهذا أيضًا من العَلامات، فالحاصِلُ من هذا: أن يَكون هذا التَّقديرُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعلَم، وقيل: للأَمْر الواقِع المُشاهَد المَحسوس، والأَمْر المَعلوم عن طريق الخبَر الصادِق.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم (٢٧٠٢)، من حديث الأغر المزني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبـاتُ قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ بإيلاج اللَّيْـل في النَّهار وإيلاج النَّهار في اللَّيل.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان رَحْمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ هذا الإيلاجَ فيه من المَصالِح الكثيرة، ما هو مُشاهَد مَعلوم، وما ليس بمَعلوم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان نِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ على عِباده، بتَسخير الشَّمْس والقمَر؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الشَّمْس والقمَر يَجريان؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيانُ كَمال النِّظام في أفعـال الله تعالى؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مُعيَّن لا يَختَلِف لا تَقَدُّمًا ولا تَأَخُّرًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الرَّدُّ على مَن قال: إنَّ الشمسَ والقمَر ثابِتـان؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ﴾ وهذا خبَر مِن خالِقهما سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو أَعلَمُ بما خلَق، قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [المُلك:١٤]، فيَكون فيـه رَدٌّ واضِح على الذيـن يَقولون: إنهما ثابِتان لا يَجريان.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن لكُلِّ مَوْجود مِن الخَلْق غايةً؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلَّا الجَنَّة والنار؛ فإنهما باقِيان أَبَدَ الآبِدِينَ؛ لإبقـاء الله تعالى لَهُما، وليس بَقاؤُهُما ذاتِيًّا؛ لأن (ما جازَ حُدوثه جازَ عدَمُه)، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ قضَى بأَبَدية الجَنَّة والنار، كما تَدُلُّ على ذلك الأدِلَّة الصريحة الصَّحيحة.

إِذَنْ: فكُلُّ مَوْجود له غاية، نَأْخُذه بالقِياس على هذا: جَرَيان الشَّمس والقَمَر مع أنهما دائِمًا وأبَدًا كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ [إبراهيم:٣٣]؛ فمَعَ كونِهما دائِبَيْن لهما غايةٌ؛ فما سِواهُما مِثْلهما.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثباتُ اسمِ الخَبير من أسماءِ الله تعالى؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تَحذير المَرْء من المُخالَفة؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ يَعنِي: فاحْذَرْ أن تُخالِف في عمَلِك، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَليم به، وقوله تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ لا يُستَفاد منه الحَصْر؛ لأنه قدَّم المَعمول: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لأن أَصلَه: وأن الله خَبير بما تَعمَلون. فنَقول: هذا الحَصْرُ إضافيٌّ، والغرَض منه التَّحذير، فكأنه يُقال: لو لم يَكُن خَبيرًا بالشيء لكان خَبيرًا بأعمالكم، فإفادةُ الحَصْر هنا: لتَمام التَّحذير، يَعنِي: كأَنْ يُقال: لو لم يَكُن خَبيرًا بشيء لكان خَبيرًا بأعمالكم فاحْذَرُوا المُخالَفةَ.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان:٣٠].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المُشار إليه ما ذُكِر من تَسخير الشَّمْس والقمَر، والقُدْرة على البَعْث والخَلْق، أي: ذلك المَذكورِ السابِق.

وقوله تعـالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الباء للسَّبَبية، أي: بسبَب أنَّ الله تعالى هو الحقُّ؛ ولكونه جعَله هو الحقَّ صارَت هذه الأُمورُ وتَنَظَّمَت هذه النُّظُمُ؛ لأنه جَلَّوَعَلَا حَقٌّ في ذاته، وحَقٌّ في أفعاله، وحَقٌّ في أحكامه، وحَقٌّ في أسمائه وصِفاته؛ فرُسُله حَقٌّ، وكِتابه حَقٌّ، ووَعْده حَقٌّ، وثوابه حَقٌّ، وعِقابه حَقٌّ، وكل ما صدَر عنه فهو حَقٌّ.

والحَقُّ هو ضِدُّ الباطِل، والباطِل هو اللغوُ والعبَث الذي لا خَيْرَ فيه؛ فيَكون المَعنى: أن كل ما صدَر عن الله عَزَّوَجَلَّ فإنه حَقٌّ وخَيْر ثابِت.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾: ﴿وَأَنَّ﴾ مَعطوفة على (أنَّ) المَفتوحة.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَا يَدْعُونَ﴾: ﴿مَا﴾ هذه اسمٌ مَوْصول، يَعنِي: وأن الذي يَدْعون، وقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ﴾ يَشمَل دُعاء العِبادة، ودُعاء المَسأَلة؛ لأنَّ الأصنام التي تُعبَد من دون الله تعالى تُدْعى بمَعنَى: تُعبَد، وتُدْعَى بمَعنى: تُسْأَل.

والدُّعاء له مَعنَيان: دُعاء عِبادة، ودُعاء مَسأَلة؛ فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦] دُعاءَ مَسْألة، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، هذا دُعاءُ عِبادة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر:٥٠]. أَيْ: ما عِبادتُهم إلَّا في ضَلال.

فالدُّعاء إِذَنْ: يَكون بمَعنَى دُعاء المَسأَلة، ودُعاء العِبادة؛ فقوله تعالى: ﴿مَا يَدْعُونَ﴾ يَشمَل المَعنَيَيْن؛ يَعنِي: ما يَعبُدون، وما يَطلُبون منه الحوائِج.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ بالياء والتاء] يَعنِي قِراءَتانِ سَبْعيَّتان: (وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ)، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ وكِلاهما صحيح، لكن في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ خِطاب، ولا يَكون إلَّا للكافِرين؛ لأنَّ الخِطاب في مِثْل هذا لا يُمكِن أن يَكون للرسول ﷺ ولا للمُؤمِنين من أصحابه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: مِن سِواهُ، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَعبُدون] هذا فيه قُصور، والصواب: يَعبُدون ويَسأَلون، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يَدعو يَعنِي: يَسأَل؛ ﴿مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف:٥].

فهنا يَنبَغي أن يُضاف: يَعبُدون ويَسأَلون.

وقوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: مِن سِواهُ.

وقوله تعالى: ﴿الْبَاطِلُ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الزائِل] وهذا فيه نظَر؛ لأنَّ المُراد الباطِل يَعنِي: الذي لا خَيرَ فيه، ومنه حَديثُ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ

كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ»[1] «بَاطِل» يَعنِي: لا خَيرَ فيه.

وهلِ المُرادُ الباطِل في عِبادتهم إيَّاه، أو الباطِل حتى في نَفْسه؛ فليس مُستَحِقًّا للعِبادة؟

الجَوابُ: كِلَا الأَمْرين؛ فهو باطِل بالنِّسبة لعِبادتهم إيَّاه، وهو باطِل في نَفْسه لا يَستَحِقُّ من الأُلوهية شَيْئًا.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ على خَلْقه بالقَهْر ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ العَظيم]، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ هذه الجُملةُ جُملةٌ خبَرية مُؤكَّدة بضَمير الفَصْل.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ يَعنِي: لا غيرُه، والعَلِيُّ صِفة مُشبَّهة؛ لأنها على وَزْن فَعيل، والصِّفة المُشبَّهة يَقول أهلُ العِلْم باللُّغة العرَبية: إنها تُفيد الثُّبوت والاستِمْرار.

ومَعناهُ: العَليُّ بذاته والعَليُّ بصِفاته، فعُلُوُّه ذاتِيٌّ لازِمٌ أبَدًا سواءٌ كان عليًّا بذاته أو عليًّا بصِفاته؛ وتَقدَّم لنا من أهل البِدَع مَن يُنكِر العُلوَّ الذاتِيَّ، وأمَّا عُلوُّ المَعنَى فهو مُتَّفَق عليه بين المُسلِمين.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ على خَلْقه بالقَهْر] هذا فيه قُصور؛ لأن الصواب أنه عليٌّ بذاته وصِفاته.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [العَظيم] فهو كبير بمَعنَى: عظيم في ذاته وفي صِفاته؛ قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب أيام الجاهلية، رقم (٣٨٤١)، ومسلم: كتاب الشعر، رقم (٢٢٥٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأَخبَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن السمَواتِ: ﴿مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]، وأن الأرضَ: ﴿جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر:٦٧]، وأنه يَطوِي ﴿ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، فكُلُّ هذا يَدُلُّ على عِظَم ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما أنه عَظيم في صِفاته.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ﴾: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هنا لَمَّا ذكَر أن له الحَقَّ، وأن ما دونَه دونَ الباطِل قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، فلِعُلُوِّه وكِبْريائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَتبيَّن أن هـذه الأصنامَ على الضِّدِّ من ذلـك، فهي سافِلة لا عُلوَّ فيـها، وهي ذَليلة وصغيرة ليس فيها شيء من الكِبْرياء.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الله هو الحَقُّ، والحَقُّ ضِدُّ الباطِل، والباطِل كل شيء لا فائِدةَ منه، ولا خَيرَ فيه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن كل ما يَصدُر عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهُوَ حَقٌّ؛ لأنه لا يَصدُر عن الحَقِّ إلَّا حَقٌّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن عِبادة غيرِ الله تعالى باطِلة.

الآيــة (٣١)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان:٣١].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ السُّفُن ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم﴾ يا مُخاطَبِين بذلك ﴿مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ عِبَرًا ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن مَعاصِي الله تعالى ﴿شَكُورٍ﴾ لِنِعْمَته].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ هذا الاستِفْهامُ للتَّقرير؛ لأن هذا أَمْرٌ مَرئِيٌّ، فلا يَسأَل عن ثُبوته، ولكن يُقرِّر ثُبوتَه، والخِطاب في قوله تعالى: ﴿تَرَ﴾ يَعود إمَّا للرسولِ ﷺ، وإمَّا لكُلِّ مَن يَصِحُّ منه الخِطاب، وهذا أَعَمُّ.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [السُّفُن]، فكأنه حمَلَه على الجَمْع مع أنه يُحتَمَل أن يُراد به المُفرَد؛ لقوله تعالى: ﴿تَجْرِى﴾ والفُلْك كما سبَق كلِمة تُطلَق على الجَمْع وعلى الواحِد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢]، فالفُلْك هنا للجَمْع، فقوله: ﴿وَجَرَيْنَ﴾ نونُ النِّسوة جَمْع، ولم يَقُل: وجَرَتْ، وأمَّا هنا أن (الفُلْك تَجرِي) فظاهِر الآية الكَريمة أن المُرادَ بها المُفرَد، إذ لم يَقُلْ: (أَلَمْ تَرَى أن الفُلْك يَجرِينَ)، ومع ذلك فالمُفرَد يُراد به الجَمْع من حيثُ المَعنَى؛ لأن الفُلْك ليس واحِدًا بالعَيْن، لكنه واحِدٌ بالجِنْس.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾: ﴿فِي﴾ للظَّرْفية، وهل هي على بابها أو بمَعنَى (على)؟

الجَوابُ: أن الفُلْك التي تُحمَل الأنعام هذه على سَطْحه، لكنها في الحَقيقة في وسَطه في الواقِع لا يُغطِّيها، لكن أَسفَلها مُغطًّى بالماء.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ الباء مُتعَلِّقة بـ﴿تَجْرِي﴾ يَعنِي: تَجرِي بالنِّعَم أي: حامِلةً النِّعَم، ويُحتَمَل أن تكون الباء للسببِيَّة، أي: تَجرِي بسبَب نِعْمة الله تعالى، أي: أن الله تعالى أَنعَمَ على عِباده بجرَيانها، وبين المَعنَيَيْن فَرْق؛ لأنها على المَعنَى الأوَّلِ تُفيد أن هذه السُّفُنَ تَحمِل النِّعَم، وأمَّا المَعنَى الثاني تُفيد أن السُّفُن تَجرِي بنِعْمة الله تعالى، يَعنِي: أن جَرَيانها من إنعام الله تعالى علَيْنا.

والآية تَحتَمِل المَعنَيَيْن بدون مُناقَضة، وقد ذكَرْنا مِرارًا وتَكرارًا: أن الآيَةَ إذا كانَتْ تَحتَمِل المَعنَيَيْن بدون مُناقَضة حُمِلَت على المَعنَيَيْن.

فإنها قد تَجرِي فارِغةً ليس فيها شيء، ومُجرَّد تَمكين الله عَزَّوَجَلَّ لهذه السُّفُن من أن تَجرِي في الماء والماء ليس جِرْمًا صُلْبًا يَحمِل، بل هو جِرْم لَيِّن، لولا أن الله تعالى أن يَسير عليه هذه السُّفُنِ تَمشِي عليه ما مشَتْ، وإذا كانت رُكَّابًا فقط فهي تَكون في المَعنَى الأوَّلِ بإنعام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والغالِب أنه يَكون فيها من نِعَمِ الله تعالى مِن الأرزاق ما هو شيء كثير؛ لكن -واللهُ أَعلَمُ- أنها المَعنَى الثاني.

قوله تعالى: ﴿تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ اللَّامُ مُتَعلِّقة بـ﴿تَجْرِي﴾ وهي لامُ التَّعليل، أي: لأَجْل أن يُرِيَكم، ومَعنَى ﴿لِيُرِيَكُمْ﴾ يُظهِرَه حتى تَرَوْه؛ يَعنِي: لأَجْل أن تَرَوْا من آيات الله تعالى ما يُبهِر عُقولكم.

وقوله تعالى: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾: ﴿مِّنْ﴾ هنا للتَّبْعيض؛ إِذْ إن السُّفُن والراكِبَ عليها لا يَرَى كلَّ آيات الله تعالى، ولكنه يَرَى بعضًا منها.

وقوله تعالى: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: ممَّا يَدُلُّ على كَماله في القُدرة والإنعام وغيرِ ذلك، والآياتُ جَمْع آيةٍ وهي في اللُّغة: العَلامة، والمُراد بها كلُّ ما يُستَدَلُّ به على كَمال الله عَزَّوَجَلَّ في ذاته وصِفاته.

والآياتُ التي تُرَى: ما في البَحْر من الأسماك والحِيتان العَظيمة المُتنَوِّعة، وكذلك أيضًا من آياته ما يُشاهَد في البَحْر في أَمواجه وشِدَّتها وخِفَّتها، وكذلك أيضًا ما يُشاهَد من البحر من الأبخِرة التي تَتَصاعَد وتَتكوَّن سَحابًا بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

المُهِمُّ: أن هذه الآياتِ العَظيمةَ أيضًا هي ليسَتْ كلَّ الآيات، ولكنها من آيات الله تعالى بعض آياتِه.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المُشار إليه: ما ذُكِر في البَحْر من جرَيان السُّفُن بنِعَم الله، وما يُشاهَد في البَحْر من آيات الله تعالى.

وقولُه تعالى: ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ أي: لعَلاماتٍ كَثيرة و﴿آيَاتٍ﴾ هذه اسمُ (إنَّ) مُؤخَّر و﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ جارٌّ ومجرور خبَرها مُقدَّمٌ.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عِبَرًا] يَعتَبِر بها الإنسانُ، ويَستَدِلُّ بها على كَمال قُدْرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ [﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن مَعاصِي الله ﴿شَكُورٍ﴾ لنِعَمِه].

وقوله تعالى: ﴿صَبَّارٍ﴾ صِيغة مُبالَغة، يَعنِي: كثير الصَّبْر.

وقوله تعالى: ﴿شَكُورٍ﴾ صِيغة مُبالَغة أيضًا، أي: كثير الشُّكْر.

والمُناسَبة لذِكْر (الصَّبَّار الشَّكور) بعد ذِكْر أن (الفُلْك تَجرِي في البَحْر بنِعْمة الله)

ظاهِرة جِدًّا؛ لأن هذه الفُلْكَ التي تَجرِي في البَحْر تارةً تَعصِف بها الأمواجُ ويَتأَذَّى الإنسان بذلك وربما يَتَضرَّر فيُقابِل ذلك بالصَّبْر، وقد يَكون الأمر بالعَكْس فيَشْمَل العبورَ على البَحْر، ويَحصُل بذلك خير كثير، فيُقابِل ذلك بالشُّكْر؛ فلمَّا كانت هذه السُّفُنُ بها سرَّاءُ وضرَّاءُ ختَمَ الله تعالى الآية بقوله: ﴿لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

وعلى هذا فنَقول في قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن مَعاصِي الله] فيه شيء من القُصور، بل نَقول: لكل صبَّار عن مَعاصيه وعلى أقدارِه المُؤلِمة.

وفي قوله: ﴿شَكُورٍ﴾ أي: [لنِعَمِه]؛ كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَقريرُ المُخاطَب بهذه النِّعْمةِ وهي جرَيانُ الفُلْك في البَحْر بنِعْمة الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن جرَيانَ الفُلْك على هذا الماءِ السَّيَّال مع أنها تَحمِل الأثقال الثَّقيلة، من نِعْمة الله؛ بِناءً على أن الباء للسَّبَبية.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حِماية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للخَلْق في إظهار آياته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الآياتِ إنما يَنتَفِع مَن جَمَع بَيْن الصَّبْر والشُّكْر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ صبَّار عند الضَّرَّاء وشَكور عند السَّرَّاء.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن آياتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خَلْقه: حِسِّيَّة ومَعْنوية؛ فالفُلْك الذي في البَحْر حِسِّيٌّ، وقد جعَلَه الله تعالى مِن آياته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾.

الآيــة (٣٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان:٣٢].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ أي: علَا الكُفَّارَ ﴿مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ أي: كالجِبال التي تُظلِّل مَن تَحتَها]؛ قوله تعالى: ﴿غَشِيَهُم﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: عَلَا الكُفَّارَ] وأَصْل التَّغْشية أي: التَّغْطية، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الرعد:٣] أي: يُغطِّيه، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل:١] أي: يُغطِّي ويَستُر؛ فأمثِلة ذلك كثيرة، فمَعنَى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ أي: غَطَّاهم، ولا يُغطِّيهم إلَّا بعد عُلُوِّه عليهم.

و(المَوْجُ): ما يَحصُل من الماء المُتَجَمِّع الذي يَعلُو حتى يُغطِّيَ السُّفُن ويُغرِقها.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَالظُّلَلِ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كالجِبال التي تُظلِّل مَن تَحتَها]، وهذا مُشاهَد، فإذا رأَيْت البَحْر في شِدَّة الأمواج تَجِد المِياه تَأتِي كأنها جِبال، وأحيانًا تَتَلاطَم ثُمَّ يَعْلو منها زُمْرَةٌ كبيرة عالية جِدًّا في البَحْر.

وهـذه الأَمْواجُ إذا غشِيَتْـهم: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ وهـمُ الكُفَّار؛ فيَدْعون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَسأَلونه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لا يَسأَلون غيرَه؛ ففي هذه الحالِ لا يَقول عابِدو اللاتِ: يا لاتُ أَنْقِذِينا؛ لأنه يَعرِف أنها لا تُنقِذ، ولا عابِدُ العُزَّى ومَناةَ،

ولا عابِدُ هُبَل ولا غيرها من الأصنام؛ فلا يُمكِن أن يَدْعوَ الأصنام في هذه الحالِ؛ لأنه يَعرِف أنها لا تُنقِذُه، وإنما يَدعو الله تعالى مُخلِصًا له الدِّينَ.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾ المَقصود به [أيِ: الدُّعاء بأن يُنجِّيهم أي: لا يَدْعون معَه غيرَه] أَخَذ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قولَه: [دونَ غيرِه] من قوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ﴾؛ لأن الإخلاص بمَعنَى التَّخليد يَعنِي: أنه يُجعَل لهذا الشيءِ وحدَه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيِّنة:٥]، فهُـمْ في هذه الحالِ يَعرِفون الله تعـالى ويَدْعونه، وهذا يَدُلُّ على أن شِرْك مَن سبَق أخفُّ مِن شِرْك مَن لَحِقَ، فهناك أُناس الآنَ إذا غَشِيـهم مَوْج كالظُّلَل أو أَصابَتْهم الضَّرَّاء مَن يَدْعون مَخلوقًا، فتَجِده بدَلًا من أن يَقـول: اللَّهُمَّ أَنقِذْني! يَقول: يا عليُّ أَنقِـذْني! يا عبدَ القادِر أَنقِـذْني! يا فلانُ أَنقِذْني! فصار شِرْك هؤلاءِ أقبَـحَ من شِرْك الأوَّلِين؛ لأن الأوَّلِين يَعرِفون الحَقَّ إذا أَصابَتْهمُ الضرَّاء، وأنه لا يَكشِف هذه الضَّرَّاءَ إلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأَمَّا هؤلاءِ فإنهم يَزدادون عمًى إلى عَماهُمْ.

ومن المَعلوم أنه لا يُمكِن أن يَكشِف به مِن الضَّرَّاء لا عَبْدُ القادِر ولا البدَويُّ ولا عليُّ بن أبي طـالِب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ولا غـيرهم؛ بل كـلُّ هَؤلاءِ -وهُمْ بأنفـسهم- لو أَصابَتهم الضَّرَّاءُ ما استَطاعوا أن يَكشِفوها عن أنفسهم، فكيف يَكشِفونها عن غيرهم، وهذا مع أنهم قد ماتوا وانقَطَع الرجاء بهم من كل وَجْه؛ لكن لو كانوا أحياءً حاضِرين ربَّما يَستَعين الإنسان بهـم، فيَنتَقِل، لكن إذا كانوا أمواتًا فلا يُمكِن أن يَستَغيث بهم إلَّا جاهِـلٌ، ولا يُمكِن أن يَأتِيَ عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من قَبْره من أَجْل أن يُنقِذَك أو عبدُ القادر يَأتِي من قَبْره لأَجْل أن يُنقِذك أو البدويُّ من قَبْره لأَجْل أن يُنقِذك، أو غيرهم ممَّن يُدْعَى عند الشدائِد ليُنقِذ!! والله أَعلَمُ.

وقوله تعالى: [﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ يَعنِي: [لا يَدْعون غيرَه] ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾] هذه ضُمِّنت مَعنَى الإيصال، يَعنِي: نجَّاهم وأَوْصَلهم إلى البَرِّ لم يَقُل: فلمَّا نجَّاهم من هـذه الظُّلَل فقَطْ؛ بل نَجَّاهم إنجاءً وصَلوا فيه إلى شاطِئ السلامة إلى البَرِّ، والبَرُّ هنا ضدُّ البَحْر، فيَشمَل ما لو نجَّاهم إلى بلد، فإن البلد في هذه الآيةِ من البَرِّ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾: (لَمَّا) هنا شَرْطية؛ والجَوابُ: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ يَعنِي: ومِنهم غير مُقتَـصِد؛ فالجوابُ إِذَنْ مَحذوف دل عليه قوله تعـالى: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: فلما نجَّـاهم إلى البَرِّ انقَسَموا قِسْـمين: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ ومِنهم كافِر.

و(لَمَّا) لها عِدَّة مَعـانٍ: تَأتِي شَرْطية، وتَأتِي جازِمة نافيـة، وتَأتِي بمَعنَى (إلَّا)، وتَأتِي بمَعنَى حين، هذه أربعةُ مَعانٍ.

فتَأتِي شَرْطية كما في هذه الآيةِ، ومثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف:١٦٦].

وقد تَأتِي بمَعنى (إلَّا) كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤] أي: إلَّا عليها حافِظ.

وتَأتِي جازِمة نافِية كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص:٨]، أي: بل لم يَذوقوا عَذابي.

وتَأتِي ظَرْفًا بمَعنَى حين فقُلْ: زُرْتُك لَمَّا سمِعْت بقُـدومك أي: حين سمِعْت بقُدومك.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ انقَسَموا إلى قِسْمين، هذا الجَوابُ محذوف ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ هذه (من) للتَّبعيض يَعني: فبعضُهم مُقتَصِد؛ قال المُفسِّر: [مُتوسِّط بين الكُفْر والإيمان، ومنهم باقٍ على كُفْره] هذا القَسِيمُ الثاني؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: [مُتوسِّط] والاقتِصاد في كل شيء هو التَّوسُّط فيه؛ فالمعنى أن منهم مَن صار لا مُؤمِنًا ولا كافِرًا إذا ذُكِر عليه نِعْمة الله بالإيمان جاء آمَن وشكَر ربَّه، وإن غرَّته السلامة كفَر وطغَى فيكون مُقتَصِدًا.

ومنهم المُقابِل وهو الكافِر، والدليل أن المُراد بالمُقابِل هنا كافِر قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ وإلَّا فقَدْ يَقول قائِل: مَن الذي يَدُلُّكم عن أن المُقابِل هو الكافِر؛ ألَا يُمكِن أن يَكون المُقابِل هو المُؤمِنَ؟ كما في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢]؟

قُلْنا: هذا مُمكِن؛ لكن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ يَدُلُّ على أن المُقابِل للمُقتَصِد هو الكافِر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الجَحْد بمَعنَى النَّفي والكِتْمان، وقد يُضمَّن مَعنَى التَّكذيب كما هنا، فإنه ضُمِّن مَعنَى التَّكذيب؛ لأن الجَحْد الذي بمَعنَى الكِتْمان يَتعدَّى بنَفْسه فيُقال: جحَدَه. أي: كتَمَه، لكن هنا ضُمِّن مَعنَى التَّكذيب؛ ولذلك تَعدَّى بالباء فقيل: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: ما يُكذِّب بها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ ومنها الإنْجاء من الموت ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدَّار ﴿كَفُورٍ﴾ لنِعَم الله] أيْ: ما يَجحَد بآيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويُنكِرها ويُكذِّب بها، والمُراد بـ(الآيات) هنا كل ما يَدُلُّ على نِعَمه وتَوحيده من الآيات الشَّرْعية والآيات الكَوْنية: ما يَجحَد بها ويُكذِّب إلَّا من جَمْع هذين الوَصْفين:

الخَتْر وهو الغَدْر، والثاني الكُفْر وهو الاستِكْبار.

فإذا قال قائِل: كيف الغَدْر هنا؟

قُلْنا: لأن كل إنسان قد عاهَدَ ربَّه قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠]، فكل إنسان قد عاهَد ربَّه بمُقتَضى فِطْرته أن يُؤمِن به، فإذا كفَر صار غادِرًا لم يَفِ بالعَهْد.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن إرسالَ الأَمْواج من الله عَزَّوَجَلَّ امتِحان لعِباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ حتى رحِمَهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات رِسالة الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾؛ والرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما ركِبَ البَحْر حتى يَعرِف هذه الأمواجَ، وأنها كالظُّلَل، ولكنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَلِم بها مِن خَبَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾؛ ولهذا قال بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إن كونَ هذه الآيةِ تُفيدُ كأنَّ الرسول ﷺ في وسَط البَحْر وهذا المَوجُ يَغشَى: يَدُلُّ على أنه رسولُ الله حَقًّا، لأنه لم يَركَبِ البَحْر، ولا يُقال: إنه ربَّما أُخْبِرَ بذلك؛ لأن الله أَبطَلَ هذا في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هؤلاءِ المُشرِكين إذا وقَعوا في الشِّدَّة عرَفوا الله تعالى.

فيَتفرَّع على ذلك: أن مَعرِفة الله تعالى في مِثلِ هذه الحالِ لا تُجْدي؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»(١).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن المُشرِكين يُقِرُّون بالرُّبوبية؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ ولا يَدْعونه إلَّا لأنهم يَعلَمون أنه قادِر على إنْقاذهم، وإلَّا فلا يُمكِن أن يَدْعوا مَن لا يَعتَقِدون أنه قادِر.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن المُشرِكين فيما سبَقَ أحسَنُ حالًا من المُشرِكين الآنَ؛ لأن المُشرِكين الآنَ إذا أَصابَتْهم الشِّدَّةُ يَدْعون آلهَتَهم أيًّا كان! ولا يَدْعون الله تعالى، بل يَدْعون الوليَّ الفُلانيَّ والصَّحابيَّ الفُلانيَّ، وما أَشبَه ذلك؛ أمَّا المُشرِكون السابِقون فإنهم يَدْعون الله تعالى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ يُجيب دُعاءَهم مع عِلْمه بأنه سيَكفُرون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وهو يَعلَم ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إجابةُ دَعْوة المُضطَرِّ ولو كان كافِرًا؛ فهؤلاءِ أَجاب اللهُ تعالى دَعْوتهم مع عِلْمه بأنهم كُفَّار وسيَكفُرون؛ ويُؤيِّد هذا عُمومُ قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ ولم يَقُلِ: المُؤمِن. بلِ قال: المُضطَرَّ، وهو عامٌّ، وكذلك أيضًا المَظلوم تُستَجاب دَعْوته ولو كان كافِرًا؛ لعُموم قول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لمُعاذِ ابنِ جبَل: «اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»(٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٠٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن مَن نجا من نِقْمة من النِّقَم فإنه إمَّا أن يَقوم بما يَجِب عليه فيَكون مُقتَصِدًا، أو يَرجِع إلى كُفْره فيَكون غَدَّارًا خَدَّاعًا؛ لأنه لَمَّا دَعا الله تعالى مُخلِصًا له الدِّينَ في هذه الشِّدةِ كان مُقتَضى ذلك أن يَكون بينَه وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَهْد بأن يَبقَى على إخلاصِه، فلو كفَرَ صار غَدَّارًا خَتَّارًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثباتُ عِلْمه عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ سَمْعه عَزَّوَجَلَّ.

فالسَّمْع والعِلْم والقُدْرة تُؤخَذ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾؛ لأنه لا يُنَجِّيهم إذا دَعَوْا إلَّا بعد أن يَسمَع دُعاءَهم ويَعلَم بحالِهم ويَقدِر على إزالة ضَرَرِهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن مَن كان وفيَّ العَهْد فإنه لا يَجحَد بآيات الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: التحذيرُ من الغَدْر؛ لأنه قد يَكون سببًا في الكُفْر والجَحْد؛ ولهذا قال الرسولُ ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ» وذكَر منها: «إِذَا عَاهَدَ غَدَرَ»[1]؛ فإذا كان لا يَجحَد بالآيات إلَّا الغَدَّار فمَعنَى ذلك أن الغَدْر يَكون سببًا للجَحْد والكُفْر.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «وإذا وعد أخلف»، وأخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٨)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بلفظ: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا... وإذا عاهد غدر».

الآيــة (٣٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان:٣٣].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ فما دام هو الربُّ فهو الخالِق، وما دامَ هو الخالِق فيَجِب أن يَكون هو الذي يُتَّقى؛ فكأنه يُعلِّل الأمر بالتَّقوى: (اتَّقُوا رَبَّكُم؛ لأنه ربُّكم الذي أَوْجَدكم وأَعَدَّكم وأَمَدَّكم) فهنا إيجاد وإعداد وإنزال، فالله تعالى (أَوْجَد) الناس، و(أَعَدَّهم): هيَّأَهم لما يَنبَغي أن يَكونوا عليه؛ و(أَمَدَّهُم): أَمَدَّهم بالعُقول وأَمَدَّهم بالرسُل التي جاءَت بشريعة الله تعالى.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى﴾ لا يُغنِي ﴿وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ فيه شَيْـًٔا] قوله تعالى: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا﴾ الخَشْية تَقدَّم لنا أنها أَخصُّ من الخَوْف؛ لأنها تَكون مع العِلْم بحال المَخشِيِّ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨]؛ ولأن سببها قُوَّة المَخشِيِّ، وأمَّا الخَوْف سببه ضَعْف الخائِفِ -وهذا هو الغالِب- أمَّا الخَشْية فأَخصُّ؛ يَعنِي: اخشَوْا هذا اليومَ العَظيمَ الذي صِفَته كيت وكيت، وقد بيَّنَه الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله الله: [﴿يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ فيه ﴿شَيْـًٔا﴾] ومَعنَى ﴿يَجْزِى﴾

يُغنِي؛ فلا أحَدَ يَستَطيع أن يَدفَع عن أولاده شَرَّ ذلك اليومِ أبَدًا مع أنه بالدنيا يُغنِي عنهم ويُدافِع ربَّما يُلقِي بنَفْسه للتَّهْلكة من أَجْل حَياة أولاده، لكن في الآخِرة لا؛ بل إنه كما قال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:٣٣-٣٥]؛ يَفِرُّ منهم خَشيةَ أن يَتعلَّقوا به بتَقْصير حَقٍّ قصَّر فيه نحوهم؛ قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١]، فلا أَحَدَ يُسأَل عن أحَد، فكُلٌّ يَقول: نَفْسي نَفْسي؛ لأن الأمر عظيم، إذِ الجِبال تَندَكُّ حتى تَكُون كثيبًا مَهيلًا، ثُمَّ بعد ذلك تَكون كالعِهْن المَنفوش، ثُم تَتَطاير وتَكون هَباءً مَنثورًا هَباءً يَطير في الجَوِّ، فالأمرُ أَعظَمُ من أن يُغنِي أو أن يَجزِي والِدٌ عن والِده شَيْئًا.

وكلِمة ﴿وَالِدٌ﴾ نكِرة في سِياق النفيِ، يَشمَل الأبَ والجَدَّ والأُمَّ والجَدَّة وإن علَوْا؛ وقوله تعالى: ﴿عَن وَلَدِهِۦ﴾ أيِ: الذَّكَر والأُنْثى؛ لأن الولَد يُطلَق على الذَّكَر والأُنثَى في اللغة العرَبية؛ قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١].

وقوله تعالى: ﴿مَّوْلُودٌ﴾ يَجوز في إعرابِها وَجْهان:

١- أن تَكون مُبتَدَأ و﴿هُوَ جَازٍ﴾ الجُمْلة هذه خبَرُ المُبتَدَأ، فـ﴿مَّوْلُودٌ﴾ مُبتَدَأ، و﴿هُوَ﴾ مُبتَدَأ ثانٍ و﴿جَازٍ﴾ خبَر المُبتَدَأ الثاني، والجُمْلة من المُبتَدَأ الثاني وخبَرِه في مَحَلِّ رَفْع المُبتَدَأ الأوَّل؛ وسَوَّغ الابتِداءَ بالنَّكِرة في قوله تعالى: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ أنها وارِدة في مَقام التَّقسيم.

٢- ويَجوز أن يَكون قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ مَعطوفًا على قوله تعالى: ﴿وَالِدِهِۦ﴾ يَعنِي: ولا يَجزِي مَولود.

فعلى الوجهِ الأوَّلِ: لا إشكالَ فيه في المَعنَى، لكن فيه إشكال في تَغيير النَّظْم،

يَعنِي: في تغيير الأُسْلوب حيث أتَى بالنِّسبة للوالِد في الفِعْل، وأتَى بالنِّسبة للمَوْلود بالجُمْلة الاسمِيَّة، والجوابُ على هذا أن يُقال: إنه أَتَى بمَوْلود في الجُمْلة الاسمِيَّة؛ لئَلَّا يَطمَع أحَدٌ من المُسلِمين الذين قد أَسلَموا في كِفايتهم عن آبائِهم شيئًا أي: لئَلَّا يَطمَع المَوْلود المُسلِم في الإغناء عن أبيه الكافِر أَتَى بالجُمْلة الاسمِية للدَّلالة على الثُّبوت والاستِمْرار.

وعلى الوجهِ الثاني: إنه مَعطوف على والِد؛ وعلى هذا الوجهِ يَرِد إشكال في قوله تعالى: ﴿هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ إِذْ إن المَعنَى يَكون ولا يَجزِي مَوْلود هو جازٍ عن والِده شيئًا قُلْنا: الجَواب على ذلك أن مَعنَى ﴿هُوَ جَازٍ﴾ أي: هو أهل لكِفايته، ولكنه في ذلك اليَوْمِ لا يَدرِي وإن كان من أهل الإِجْزاء أو من أهل الجَزاء.

فإذا قال قائِل: لماذا لم يُقيِّد الوالِد بهذا القَيْدَ أيضًا؟

قُلْنا: لأن الوالِد غالِبًا أهلٌ لأَنْ يَجزِي؛ لأنه الوالِد هو الأكبَرُ، ويُمكِن أن يَجزِيَ بخِلاف الولَد، فالولَدُ يُمكِن أن يَكون صغيرًا لا يَجزِي شيئًا؛ ولهذا قُيِّدت بالنِّسبة للمَولود بكَوْنه أَهْلًا لأَنْ يَجزِيَ.

فقوله تعالى: ﴿هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ إذَنْ ما الذي يَنفَع الإنسان في ذلك اليومِ؟

الجَوابُ: يَنفَعه ما ذكَره الله تعالى عن إبراهيمَ الخليل ﷺ: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ۝٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء:٨٧-٨٩]، هذا الذي يَنتَفِع؛ فقوله تعالى: ﴿مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ أي: سَليم من كل ما يُنَقِّصه من الشِّرْك فما دونَه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بالبَعْث] يَعنِي بالبَعْث وما فيه، وليس بالبَعْث فقَطْ، بل بالبَعْث والحِساب والجَزاء من خَيْر وشَرٍّ.

وقوله تعالى: ﴿حَقٌّ﴾ بمَعنَى: ثابِت واقِع، وهذا من ضِمْن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [لقمان:٣٠] من كونه حَقًّا: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقٌّ، ووَعْدُ غيره قد يَكون حَقًّا وقد يَكون باطِلًا غير مُوفًّى به؛ لأن غير الله عَزَّوَجَلَّ قد يَتَخلَّف مَوْعوده إمَّا لكذِبٍ في الواعِد وإمَّا لعَجْز فيه.

فمثَلًا: رجُل قال لك: سآتِي إليك بعد صلاة العَصْر مُباشَرةً بطبَق من الخُبْز وكَأْس من المرَق، وبعد العَصْر لم يَجِئْ لك بشيء، وعنده أطباق الخُبْز وعِنده كُؤوس المرَق؛ لكن لم يَجِئْ بشيء لكَذِبه؛ وفي اليوم الثاني ما جاء لك بشيء؛ لأنه ليس عنده شيء، لا عنده فُلوس يَشتَرِي بها، ولا عنده شيء في البَيْت، فهذا أيضًا أَخلَف المَوعِد للعَجْز.

ومِن العَجْز أيضًا النِّسيان؛ لأن النِّسيان في الحَقيقة نَقْص في الإنسان، فالله عَزَّوَجَلَّ وَعْده حَقٌّ لا بُدَّ أن يَقَع.

فقول المُفَسِّر: [بالبعث] الصوابُ: بالبَعْث وغيرِه، ممَّا يَكون في ذلك اليومِ من الحِساب والجَزاء.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ هنا الفِعْل مُؤكَّد بنون التَّوْكيد، والتَّوكيد في الفِعْل من غير الواجِب؛ فإنه ليس واقِعًا في جواب القَسَم، فما دام في جَواب القَسَم ليس بواجِب فإِذَنْ: هو من غير الواجِب، لكنه كثير.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ الغُرور: الخِداع؛ يَعنِي

لا تَخدَعَنَّكم بزُخرفها ولذاتها ومَسَرَّاتها؛ وذلك عن [الإسلام] وشَرائعه؛ فـ(عن الإسلام): إن كان الإنسان كافِرًا، و(عن شَرائِعه): إن كان مُسلِمًا.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ تَزهيد في هذه الحَياةِ؛ لأنه قال: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ والدنيا فُعْلَى من الدُّنُوِّ، وهي دانية الزمَن، دانية المَعنَى والمَرتَبة، فهي دُنيا؛ لأنها سابِقة للآخِرة؛ ودنيا لأنها ناقِصة، كما تَقول: هذا دون هذا، يَعنِي: أَنقَصَ منه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ نون التَّوْكيد دليل على أن غُرورها شديد؛ ولهذا أكَّدَ النَّهيَ بالنون: ولا تَغُرَّنَّكم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِٱللَّهِ﴾ في حِلْمه وإمهاله] يَعنِي: لا يَغُرَّنَّكم بالله، والأمر -كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ- بإمْهاله وحِلْمه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ صِفَة مُشبَّهة، ويُراد بها [الشَّيْطان]، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠].

والشيطانُ يَغُرُّ الإنسانَ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فمَثَلًا: يَقول له: لو أنك على باطِل لعاقَبَك الله تعالى؛ أو يَقول له: إن رحمة الله واسِعة والله غَفور رحيم؛ أو يُمنِّيه بالتَّوْبة يَقول: صحيحٌ أن هذه مَعصية، والإنسان مُعرِّضٌ نَفسَه للعُقوبة، لكن التَّوْبة أمامَك، فالآنَ تَمَتَّعْ بهذه المَعصيةِ وبعدَئِذٍ تَتوبُ.

ومن ذلك ما يُمنِّيه بعض الناس بأن يَقول: لا تُصَلِّ حتى تَبلُغ أربَعين سَنَةً. وهذا مَوْجود عند بعض الناس، فبعض الأجانب يَقولون: إن أهلَهُم يَقولون:

ما تَجِب عليكم الصلاةُ إلَّا بعدَ بُلوغ أَرْبَعين سَنَةً؛ ولهذا يَسأَلون دائمًا عن الصَّلاة الماضية: هل يَقضُونها أم لا؟ فهذا من غُرور الشَّيْطان.

ومن غُرور الشَّيْطان أيضًا أنه يَقول في الشيء الذي يَعتَقِد الإنسان أنه مَعصية: هذه مَسأَلة خِلافية، وما دام فيها خِلافٌ تَجَشَّمْها، مع أنه هو يَعتَقِد أنها مَعصية؛ وكذلك من غُروره أنه يَقول في الشيء الذي يَعتَقِد الإنسان أنه واجِب يَقول له: هذه المَسأَلةُ خِلافيةٌ، فيَكون هذا الرجُلُ إنِ احتاج لمُحرَّم قال: المَسأَلةُ خِلافية وافْعَلْهُ، وإن لم يَحتَجْ له قال: الذي أَدِين اللهَ به أن هذا مُحرَّم، ولا أَفعَلُه. فيَكون هذا الشيءُ دِينًا بالأمسِ غيرَ دِينِ اليومَ، أو يَقول مثَلًا إذا هَواهُ فِعْل واجِب: والله هذا واجِب، يَجِب عليَّ أن أَفعَله. فالمُسلِم يَلتَزِم بأحكام الله تعالى، وإذا صار له شُغْل ذاك اليومَ يَقول: المَسأَلة خِلافية، والأَمْر سَهْل ما دامَتْ خِلافية فليس مَجزومًا بها.

مِثالُ ذلك: الصلاة في المَساجِد جماعةً هذه مَسأَلة خِلافية؛ فصلاة الجَماعة نَفْسُها خِلافية وكونها في المَسجِد خِلافية أيضًا، وهو يَعتَقِد أن الصلاة في المَساجِد جَماعةً واجِبةٌ، وأنه لا يَجوز لإنسان أن يَترُك الجَماعة، ولا يَجوز أن يُصلِّيَها جَماعةً في بَيْته، لكن إذا صار له شُغل يَختار: المَسأَلة خِلافية؛ فالحاصِل أن هذا من غُرور الشَّيْطان.

ومن غُرور الشَّيْطان أيضًا أن يُفتِيَ للناس بشيء ويُفتِيَ لنفسه بشيءٍ آخَرَ؛ فيُرخِّص لها ويُسهِّل لها، ولغَيْره يُشَدِّد، فمِثْل هذه المَسائِلِ كلِّها من خِداع الشَّيْطان، والواجِب أن يَكون الإنسان على دِين واحِد: على دِين الله تعالى لنَفْسه ولغيره وفي جميع أحواله.

مَسأَلَةٌ: إذا كان يُشدِّد على نَفْسه تَربيةً لنفسه فلا بَأسَ ما دامَ يَعتَقِد أن حُكْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو التَّسهيل، لكن يُشدِّد على نَفْسه تَوَرُّعًا، وله من الأصل من الدَّليل فلا بأسَ؛ فمثَلًا: بعض الناس يَتَوَرَّعون عن بعض المأكولات، هو نفسه لا يَأكُل، لكن لا يَقول للناس: لا تَأكلوا؛ لأنه ليس عِنده دَليل، أو يَتورَّع عن بعض الأَطياب، لكن لا يُحرِّمها على النـاس؛ لأنه ليـس فيها دَليل، أو مثَلًا يُلزِم نَفْسه بِفِعْل شيء ليستِ الأدِلَّة صَريحة بالوُجوب فيه، فهو لا يُوجِبه على الناس، لكن هو لا يُحِبُّ أن يَتأخَّر، فهذا ليس فيه بأسٌ؛ لأن هذا ليـس فيه هوًى، فالمُشكِلة الهَوى: بأن يُسهِّل على نَفْسه ويُشدِّد على الناس.

فإن قال قائِل: أنا أُبيح لنَفْسي فِعْل هذا الشيءِ؛ لأني أَضبِطُ نَفْسي، فلا أَتَجاوَز الحَلال؛ وأَنهَى الناس عنه؛ لأنَّني لو رَخَّصْت لهم فيه يَتَجاوَزون الحَلال فأنا أَمنَعُه؛ لئَلَّا يَتَجاوَزوا الحَلال، وأمَّا بالنِّسْبة لنَفْسي فأنا ضابِط نَفْسي أني لا أَتعَدَّى الحَلال؟

فالجَوابُ: أن نَقول: لا تَقُلْ: (حرام) على الناس، لكن قُلْ: (أَخشَى عليك أن تَتَجاوَز) وما أَشبَه ذلك؛ هذا الواقِعُ؛ أمَّا أن تَقول له: (حَرام) فتَمنَع هذا الرجُلَ من هذا الشيءِ وأنت تَتَمَتَّع به كما تَشاءُ، فهذا لا يَصلُح، لكن قُلْ له: (أنا أَخافُ عليك أن تَتَجاوَز الحَلال أو أن يَقتَدِيَ بك مَن يَتَجاوَز به)، وما أَشبَه ذلك حتى يَتَبيَّن له الأمر: أنَّ حُكْم الله تعالى فيه حلالٌ، ولكنه يَخشَى من أن يَزيد الناس فيه، والله أَعلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجوبُ تَقْـوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقـوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾ فالأمرُ ولا سِيَّما أنه قُرِن بالتحذير باليَوْم الآخِر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات اليومِ الآخِرِ؛ لقَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا﴾، ولولا تَحقُّقه ما حذَّر منه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هذا اليَـوْمَ لا يَنفَع فيه قَريبٌ قريبَه؛ فإذا قال قائِل: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يَذكُر إلَّا الوالِد والولَد؟ فنَقول: إذا انتَفَى الوالِدُ بولَده والولَدُ بوالِده فغيرُه من بابِ أَوْلى؛ لأن الولَـد بَضْعة من أَبيـه، فإذا كان البَضعـة لا يَنتَفِع بكُلِّه، والكُلُّ لا يَنتَفِع ببَضْعته فمِن بابِ أَوْلى مَن سِوى ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَأكيدُ هذا اليومِ ووقُوعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: التَّحـذيرُ من الدُّنيا وغَدْرها وغُرورها؛ لقـوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الدُّنيا من أكبَرِ الأسباب التي تَحول بين المَرْء وبين خَشْيته لليَـوْم الآخِر؛ لأنه فرَّع عليـه قوله تعالى: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا﴾، ثُمَّ قال تعـالى: ﴿فَلَا﴾ ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ وهو كذلك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التَّحذير من الشَّيْطان؛ لقوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الشَّيْطان خَدَّاع؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ فهي إمَّا صِيغة مُبالَغة، وإمَّا صِفَة مُشَبَّهة، وكِلاهما يَدُلُّ على الثُّبوت والكَثْرة.

ويُحتَمَل أنها تَشمَل حتى شَياطينَ الإِنْس، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:١١٢]؛ فإن غرَّه مالُه أو ولَـدُه فإنه إذا غرَّه عن الحَقِّ فهو من الشَّيـاطين، ولكن ظاهِر الآية: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ أن هذا الوَصْفَ لازِم، فيَكون هذا من الشَّيْطان.

الآيــة (٣٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾ [لقمان:٣٤].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ مَعروفٌ أنَّ الله -لفظ الجلالة- اسمُ ﴿ إِنَّ ﴾، و﴿عِندَهُۥ﴾ خبَر مُقدَّم، و﴿عِلۡمُ﴾ مُبتَدأ مُؤخَّر، والجُمْلة خبَرُ (إنَّ) الجُمْلة الخبَرية فيها حَصْر، وهو مُستَفاد من تَقديم الخبَر؛ فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ يَعني: لا عندَ غيره ﴿عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

ويَدُلُّ على هذا الحَصرِ قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ [الأعراف:١٨٧] حَصْر بقَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا﴾ ﴿إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ فلو أن مُدَّعِيًا قال: إن الحَصْر هنا في الخبَر لا في الجُملة كلها؛ قُلْنا: لكن الخبَر هو الذي دلَّ على انحِصار عِلْم الساعة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ويَدُلُّ عليه ويُؤكِّده الآية التي ذكَرْناها؛ فإذا جاءَتْ مثل العِبارة هذه: ﴿إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ فالمَعنَى: لا يَعلَمها إلَّا رَبِّي؛ كما إذا قُلْت: (إنَّما القائِمُ زَيْد)؛ فمَعناهُ: لا قائِمَ إلَّا زَيْدٌ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ متَى تكون؛ وفي أيِّ وَقْت؛ ولا يَعلَمه إلَّا اللهُ تعالى؛ ولهذا سأَل جِبريلُ النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟»

قال: «**مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»(١)، فتَأَمَّلْ: رَسولان أحدُهما أفضَلُ المَلائِكة والثـاني أفضَلُ البَشَر، كِلاهما يَقول: لا عِلمَ عِنْـدي؛ لأن قوله ﷺ: «**مَا المَسْؤُولُ بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**» يَعنِي: إذا كنتَ أنتَ لا تَعلَم فأنا من باب أَوْلى لا أَعلَمُ.

فإِذَنْ: عِلْمها يَختَصُّ بالله تعـالى، ولقَدْ كذَب مَنِ ادَّعى أنه يَعلَمـها، ولا سِيَّما بالواسِطة التي ذَكَر أنها دالَّة عليها، كما نُشِر عن شَخْص يُسمَّى رَشاد خَليفة، هذا رجُل في أمريكا، وهو رجُل عِنـده عِلْم، لكنه اغتَرَّ اغتِرارًا عَظيمًا بما يُسمِّيه (العدد التاسِعَ عَشَرَ)؛ حيـثُ ادَّعَى أن القُرآن كُلَّه مُركَّب على تِسعـةَ عَشَرَ حَرْفًا، وأن هذا الماثِلَ عنده: التِّسْعةَ عَشَرَ، استَدَلَّ به على أنه يَعرِف متى تَقوم الساعة، وحدَّدَها - أَظُنُّ- فوق الأَلْفَيْن بسَنوات قليلة.

وهذا الرجُلُ في الواقِـع الله أَعلَمُ: هل هو مُتَأَوِّل، أو مُعانِد؟! لكنَّ كلَّ مَنِ ادَّعى عِلْم الساعة فهو كافِر؛ لأنه مُكـذِّب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وإجماع المُسلِمين، والمُسلِمـون مُجمِوعون إجماعًا قَطعيًّـا على أنه لا يَعلَم متى تَقوم الساعةُ إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الساعة هي القِيامة، وسُمِّيَت الساعةَ؛ لأنها أَعظَمُ حدَثٍ يَكون، ولأن فيها وَعيدًا للمُكذِّبين؛ ولهذا يُتَوعَّد بالساعة؛ فيُقال مثَلًا: (ساعَتُك عِندي) إذا أَرَدْت أن تُهدِّد إنسانًا تُهدِّده بكلِمة (الساعة)؛ لأنه يَقَعُ فيها حدَث عَظيم.

وقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ ولم يَقُل: ويَعلَم متى يَنْزِل الغَيْث، بل قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ فاختِلاف التَّعبير له مَعنًى عَظيمٌ، وإلَّا فإنَّ هذه الخَمْسةَ كلَّها

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من عِلْم الغَيْب، فإن النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَسَّر قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ بهذه الخَمْسةِ، ولفظ الحَديث: «وَمَا يَدْرِي أَحَدٌ مَتَى يَجِيءُ المَطَرُ»[1]، لكن في القُرآن يَقول الله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فكَيْف نَقول: إنه يُراد بها: (لَا يَعْلَمُ مَتى يَنزِل الغَيْثَ إلَّا اللهُ)؟

نَقول: لأن الله تعالى إذا كان هو الذي يُنزِّل الغَيْث، فلا يَعلَمه إلَّا اللهُ تعالى؛ لأنه هو المُنزِّل له، والمُنزِّل للشيء هو الذي يَعلَمه، وغيرُه لا يَعلَمه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْغَيْثَ﴾ أي: المَطَر وسُمِّيَ غَيْثًا؛ لأن به تَزول الشِّدَّةُ، والاستِغاثة طلَب إزالة الشِّدَّة، ففي المطَر تَزول الشدائِد؛ شَدائِدُ القَحْط وشدائِدُ الجَدْب، فيَبقَى الناس عندهم ماء ثُمَّ عِندهم مَزارِعُ.

وهناك إِشْكال في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فبَعضُهم يَقول: إنه سيَكون غدًا مطَرٌ في النشرة الجَويَّة؛ فهل هذا من عِلْم الغَيْب؟

الجَوابُ: لا، ليسَتْ من عِلْم الغَيْب، وأنها تَوَقُّعات بواسِطة الآلات الدَّقيقة التي يَعلَمون بها تَكيُّف الجَوِّ وصلاحيته لأَنْ يَكون مُمطِرًا أم غيرَ مُمطِر؛ ولهذا أحيانًا لا يَكون الأمر كما تَوقَّعوا، ثُمَّ هُمْ لا يَستَطيعون أن يَتَنبَّؤُوا بالأمطار بعد سَنَوات؛ غاية ما هناك أن يَكون في المُدَّة القَليلة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتَّخفيف والتَّشديد] (يُنْزل) و(يُنزِّل) وكِلاهما جاء في القُرآن؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [البقرة:٢٢] هذه على قِراءة التَّخفيف، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ [غافر:١٣]

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب الاستسقاء، باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله، رقم (١٠٣٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

هذه على قِراءة التَّشديد.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْغَيْثَ﴾ بوَقْت يَعلَمه] هذا هو الشاهِدُ الذي بيَّن به المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المُراد بتَنزيلِ الغَيْث في الوقت الذي يَعلَمه؛ ليَكون هذا من عِلْم الغَيْب.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾: ﴿وَيَعْلَمُ مَا﴾ أي: الذي في الأَرْحام، وعبَّرَ بـ﴿مَا﴾ لأنها أَعَمُّ وأشمَلُ من (مَن)؛ إذ إنَّ: (مَن) تَختَصُّ بالعاقِل، هذا من جِهة، ومن جِهة أُخرى: أن ﴿مَا﴾ تَختَصُّ بالصِّفات و(مَن) بالذَّواتِ؛ أَلَمْ تَرَ إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣] ولَمْ يَقُلْ: مَن طاب. مع أن المَنكوحة من ذوات العَقْل، ولكنه قال: ﴿مَا طَابَ﴾ دون (مَنْ)؛ لأن النِّكاح يَرتَكِز على صِفة المَرأة كما قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ»[1].

وهنا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا﴾ دون (مَن) لأن عِلْم ما في الأَرْحام من حيثُ الصِّفة أَبلَغُ من عِلْمه من حيث الذات، أي: أَبلَغُ من حيث كونه ذكَرًا أو أُنْثى، فالجَنين الذي في الرَّحِم ليس العِلْم المُختَصُّ به مُجَرَّدَ كونه ذكَرًا أو أُنثَى، أو طويلًا أو قصيرًا، أو صغيرًا أو كبيرًا؛ بل هناك ما هو أَبلَغُ من ذلك، وهو صِفات هذا الجَنينِ، هل يَكون شقيًّا أم سَعيدًا، طويلَ العُمر أم قَصير العُمر، وهل عمَله صالِح أو عمَلُه فاسِد؛ ولهذا جاء التَّعبيرُ بـ﴿مَا﴾ التي يُلاحَظ فيها الصِّفات؛ لأن عِلْم ما في الأَرْحام من هذه الوِجهةِ أَعظَمُ من كَوْنه ذكَرًا أو أُنثَى؛ ومن هذا ما يَطَّلِعون على عِلْمه بكَوْنه ذكَرًا أم أُنثَى الآنَ فيَعرِفون ذلك قبل أن يُولَد.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم (٥٠٩٠)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، رقم (١٤٦٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فعلى هذا يَتبيَّن بلاغة القُرآن حيث عبَّر بـ﴿مَا﴾ دون (مَن)؛ لأن (مَن) تُحدِّد الشخصية شَخصيةَ عاقِلٍ، وإذا كان غَيرَ عاقِل يُقال: (ما). أمَّا ما يَتعلَّق بالصِّفات والأعمال فهذه يُعبَّر عنها بـ(ما)، وأنا ضرَبْتُ لكم شاهِدًا قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ﴾ [النساء:٣] دون مَن طاب.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ الأرحام جَمْع رَحِم، وهو وِعاء الجَنين، والجَنينُ مُحاط بثَلاثة جُدران: البَطْن، والرَّحِم، والمَشْيَمَة، فالمَشيمة هذا القُمقُمُ الذي فيه الجَنين، وهذا القُمقُمُ -سُبحان الله العظيمِ- مادَّة غَريبة لا هي مائِيَّة مَحضَة، ولا جامِدة محضة، ولكنها لَزِجة سَهْلة لأَجْل أن يَتيَسَّر حرَكة الجَنين؛ حتى أُمُّه لا تُحِسُّ بالتَّعَب وهو أيضًا لا يُحِسُّ بالتَّعَب؛ فالله عَليم حَكيم جَلَّ وَعَلَا.

وهذه الظُّلُماتُ الثَّلاثُ كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزُّمَر:٦]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات:٢١]، يَعنِي: لا يَدخُله أيُّ شيء يُؤذِي هذا الجَنينَ لا هَواءٌ ولا غَيرُه.

وقوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ مُتعلَّق هذا العِلْم كَونُه ذكَرًا أو أُنثَى، وكذلك ما يَتعَلَّق من صِفات كونِـه: سَعيدًا أو شَقيًّا، وكونه عامِلًا عمَلًا صالِحًا أو عمَلًا سَيِّئًا، وكونُ رِزْقه واسِعًا أو ضَيِّقًا، وكون عُمرِه طَويلًا أم قصيرًا؛ فكل هذه تَتعلَّق بعِلْم الأَجِنَّة، فمِنها شيء لا يُمكِن أن يُعلَم أبَدًا، ما يَعلَمه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، ومنها ما يُعلَم -كالأَمْر المُشاهَد- بالأَمْر المَحسوس، فهذا يُمكِن أن يُشاهَد ويُوصَل إليه الآنَ؛ ولكن هل يُمكِن أن يَعلَموا أن هذا الجَنينَ ذكَر أم أُنْثَى قبل أن يُخلَّق؟

الجَوابُ: إلى الآنَ ما وصَلوا إلى ذلك، ولا نَقول: (لا)، بل نَقول: (إلى الآنَ ما وصَلوا)، وقد سمِعْت أن بعضَهم يَستَدِلُّ على أن كَوْنه ذكَرًا أو أُنثَى بنَفْس

الحَيوان المَنوِيِّ، وأنَّ الذكَر له صِفة خاصة والأُنثى لها صِفة خاصَّة، فإذا صَحَّ هذا فلا تَقُل: من أَيْن؟

فإن قال قائِل: كيف ذلك في نَفْس الحَيوان إذ لم تَتَلَقَّح نفسُ البُوْيضة بعدُ؟

فالجَوابُ: هُـمُ الآنَ أَثبَتوا هـذا، وصَوَّرها أيضًا، صَوَّروا هذا؛ فقـالوا: إن الحَيوان المَنَوِيَّ الذكَر هذا له إشعاع خاصٌّ، يَنطَلِق بإشعاع خاصٍّ، واللهُ أَعلَمُ.

وعلى كل حال: هم إذا تَوَصَّلوا إلى ذلك فإننا نَقول: مَن يَعلَم أنه سيُقدِّر الذكَر أو الأُنثى إلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثُمَّ الأحوال الأُخرى التي ذكَرْنا أنها مُتعَلَّق مَن عِلْم الأَجِنَّة لا يُمكِن أن يَعلَموها.

وأَقول: يَجِب أن لا نُعارِض الشيءَ هكذا، بل يَجِب أن نَتَرَيَّث؛ لأننا لو نَدفَع هذا الشيءَ ثُمَّ نَقول: هذا الشيءُ مُحال. ثُم يَكون ثابِتًا بمُقتَضى العُلوم الحَديثة، فإنه يُؤدِّي ذلك إلى رَدِّ القُرآن أو التَّشكيك فيه، ونحن نَعـلَم أنه لا يُمكِن أن يَتَناقَض أمران يَقِينِيَّان، فكل أَمْرَيْن يَقينِيَّين فإنه لا يُمكِن أن يَتعارَضا أبدًا، فهذا مُستَحيل.

فإن قال قائِل: الإنسان الذي يُحاوِل بهذه الأُمور على أن يَعلَم هل يَأثَم أو لا؟

فالجَوابُ: لا، لا يَأثَم، قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ ولم يَقُلْ: لا تَعلَموا، فنحن نَعلَم الآنَ عندما نَتَوصَّل بهذه الوسائِلِ فليس عِلْمَ غَيْب.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ أذَكَر أم أُنْثَى، ولا يَعلَم واحِدًا من الثلاثة غيرُ الله تعالى] اقتِصاره على [أذَكَر أم أُنْثى] فيه نظَرٌ؛ لأن عِلْم ما في الأرحام ليس مُتعَلِّقًا بالذكَر أو الأُنْثَى فقَطْ، بل ما هو أعَمُّ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَلا يَعلَم واحِدًا من الثَّلاثة غيرُ الله] هذا قَبْل تَكوينه مُمكِن،

لكن بعد أن يَتكوَّن يَعلَمه غيرُ الله فهذا المَلَك يَعلَم أنه ذَكَر أم أُنثَى.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾: ﴿نَفْسٌ﴾ نَكِرة في سِياق النَّفي، و﴿تَدْرِى﴾ بمَعنَى: تَعلَم، والنَّفْس هنا نَكِرة في سِياق النَّفْي فتَعُمُّ كلَّ نَفْس، فأيُّ نَفْس لا تَدرِي ماذا تَكسِب غدًا حتى لو كان من أَمهَر الناس في التَّدبير والتَّنظيم لوَقْته فلا يَدرِي ماذا يَكسِب غَدًا؛ وإذا كانت النَّفْس لا تَدرِي ماذا تَكسِب فإنها لا تَدرِي ماذا يَكسِب غيرُها من بابِ أَوْلى؛ وإذا كانَتْ لا تَستَطيع أن تَعلَم ما يَتعَلَّق بعِلْم المَخلوق فكيف تَعلَم ما يَتعَلَّق بعِلْم الخالِق؛ فمِن بابِ أَوْلى أن لا تَعلَمه.

إِذَنْ: فلا أحَدَ يَدرِي ماذا يَكسِب غَدًا من خيرٍ أو شَرٍّ أو مال أو ولَد أو غير ذلك؛ وقد يَتوقَّع الإنسانُ الشيء، ولكنه لا يَحصُل له؛ إذ يُصرَف عنه أو يُحال بَينَه وبَينَه بسبَب فلا يَصِل إلى كَسْبه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ ما المُرادُ بالغَدِ: اليَوْم المُباشِر ليَوْمك أو كل المُستَقبَل؟

الجَوابُ: المُرادُ كل المُستَقبَل، فلا تَدرِي ماذا تَكسِب فيه ولو كان بَعيدًا، لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨] فهل يَعنِي: ليوم الأَحَد بعد يوم السَّبْت؟

الجَوابُ: لا، بل ليوم القِيامة، فكُلُّ مُستَقبَل يَصِحُّ أن يُطلَق عليه غَد.

وكلِمة ﴿غَدًا﴾ مَنصوبة، وهي مَفعول لـ﴿تَكْسِبُ﴾ مَفعول فيه؛ لأنها ظَرْف؛ يَعنِي: ماذا تَكسِب في غَدٍ؛ ومنه قول الشاعِر:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِي[1]

إِذَنْ: فهي ظَرْف.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خَيرٍ أو شَرٍّ]، ولكن الذي يَعلَمه الله تعالى؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ويَعلَمه إلَّا الله تعالى].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ نَقول في: ﴿نَفْسٌ﴾ مثل ما قُلْنا في (نَفْس) الأُولى: نَكِرة في سِياق النَّفي فتَعُمُّ كلَّ نَفْس.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَدْرِى بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ هل هي بأَرْضها التي وُلِدت فيها أو بقَريب منها أو ببَعيد لا تَدرِي، ولا تَدرِي بأيِّ زمَنٍ تَموت، بل من بابِ أَوْلى؛ لأن المَكان للإنسان فيه اختِيار، فيَختار أن يَكون هنا أو يَختار أن يَكون هناك؛ أو يَختار أن يَكون في مَحلٍّ آخَرَ ثالِثٍ، لكن الزمَن ليس لك فيه اختِيار؛ فإذا كنت لا تَعلَم المكان الذي تَموت فيه مع أن لك فيه اختِيارًا فمن بابِ أَوْلى أن لا تَعلَم الزمَن الذي تَموت فيه.

وهذه من حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ: أَنْ أَخفَى على الإنسان اليومَ الذي يَعلَم أنه يَموت فيه أو المكان الذي يَعلَم الله تعالى أن الإنسان يَموت فيه؛ لأن الإنسان لو عَلِم بهذا لقَلِقَ في حَياته؛ فما يَكون هَمُّه إلَّا حِسَاب ما بَقِيَ؛ أي: ما بَقِي إلَّا كذا وكذا من السنَوات أو من الأَشهُر أو من الأَيَّام، ويَتعَب تَعَبًا عظيمًا.

لكن الآنَ كلُّ يومٍ يَجيء على الإنسان يُؤمِّل فيه وقد يَكون الأجَلُ أَقرَبَ من شِراك نَعْله؛ لكِنِ المُهِمُّ أن عنده أمَلًا في الطول، ولا يَلتَفِت إلى هذه المَسأَلةِ إطلاقًا؛

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى من معلقته المشهورة، انظر: ديوانه (ص٧٠).

لأنه يَعلَم أنه لا عِلمَ له فيها، وأن عِلْمها عند الله، وهذا من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بنا.

وهل الإنسانُ يُقَدِّر أنه يَموت بالأرض الفُلانية؟

الجَوابُ: قد يُقدِّر هذا، وأحيانًا إذا قيل له: ألَا تُسافِر؟ قال: أبَدًا أنا بلَدي فيها أَحْيا وفيها أَموتُ، ولكن عند قُرْب أَجَله يُسافِر؛ فتَحصُل له حاجة حتى يُحمَل إلى الأرض التي يَموت فيها.

وأنا أَعرِف رجُلًا ما خرَج من بَلَدِه عنيزةَ أبَدًا منذ سنَوات بعيدة، ولَمَّا مَرِضَ قُدِّر أن يَكون عِلاجُه في مِصرَ، وهو ما خرَجَ من عنيزةَ عُمرَه إلَّا أَظُنُّـه للحَجِّ مرَّةً ولا عِنده نِيَّة، فكَبِر وانتهى عُمُره، لكن سُبحانَ اللهِ! لَمَّا أَراد أن يَنقُله الله تعالى إلى أَرْضه التي يَموت فيها نُقِل إلى مِصرَ ومات هناك.

وأَعرِفُ أُناسًا كَثيرين نُقِلوا إلى أماكِنَ بَعيـدة ما كانوا يَحلُمون أنهم يَذهَبون إليها، وهناك قِصَّة حدَّثَني بها الثِّقة في المرأة المريضة التي رجَعوا بها من الحَجِّ، ولَمَّا كانوا في الريع -الجِبال المُحيطة بالحِجاز- ونزَلوا ليلةً من الليالي، فلَمَّا أَصبَحوا حمَلوا إبِلَهم على أنهم سيَمْشون، وهذا الرجُلُ كان معه أُمُّه مَريضة فبَقِيَ ليُوطِّئ لها المكانَ على الراحِلة، فمَشَى الناس وهو في مَكانه، ولَمَّا أَنهَى ما أَحَبَّ أن يُنهِيَه من تَوْطِئة الرَّحْل لأُمِّه وركِبَـت مشَى فضَيَّعهم، لم يَعرِف أين ذهَبوا؛ فدخَـل في الريع وظلَّ يَمشِي ويَمشِي ولا يَسمَع حِسًّا ولا حولَه أحَـدٌ حتى وصَل إلى خِباءٍ -خِدْر صَغـير لبَـدْوٍ- ونزَل عِندهم وسأَلَهم عن الطريق قالـوا: الطريق وراءَك؛ فقال: سأَرْتـاح قليلًا؛ فلَمَّا نزَل -سُبحانَ الله العَظيمِ- ونزَّل والِدتُه ماتَتْ في ذلك المَكانِ الذي ما كان هو ولا غيره يَقدِر أن يَأتِيَ إليه، لكن من أَجْل أن تُحمَل هذه المَرأةُ إلى أرضِ مَوْتِها حَصَل ما حَصَل من الأسباب.

وهكذا أيضًا تَجِدون الحوادِثَ الآنَ؛ فالإنسان في البلَد لا يُقدِّر أنه سيَموت في مَكان ما من البَرِّ، ولكنه يُنقَل إلى المكان الذي يَموت فيه، حتى إنه يَموت في المَكان بالضَّبْط على نفس حَبَّات التُّراب التي قُدِّر أن يَموت فيها، وهذا أَمْر مُشاهَد.

وفي الزمَن كذلك: لا يَدرِي الإنسان متى يَموت، رُبَّما يَتأخَّر لَحَظاتٍ من أَجْل أن يَستكمِل زمَنه ومُدَّته، وهذا له شَواهِدُ؛ منها أيضًا ما حصَل في عنيزةَ: أن رجُلًا جاءَ بسَيَّارته مع الطريق العامِّ، وهناك شَابَّان على (دبَّاب) (دَرَّاجة ناريَّة) قد أَتَيا من طريق آخَرَ مُعتَرِض، فلمَّا قرُب الكُلُّ من نِهاية نُقْطة المُلاقاة وقَفَ كلٌّ منهم يَنتَظِر أن يَعبُر الآخَرُ؛ فقال الآخَرُ: سأَمشِي فمشَوْا جميعًا فصَدَمت السيَّارة المُؤخَّر من (الدبَّاب) الذي فيه الشابَّان وماتا في الحال؛ فلماذا وَقَف هذه الوَقْفة التي هي لحظاتٌ؟ الجَوابُ: من أَجْل أن يُستكمَل الزمَن المُحدَّد.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ويَعلَمه الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكُلِّ شيء ﴿خَبِيرٌۢ﴾ بباطِنه كظاهِره] وأيُّهما أخَصُّ: الخَبير أو العَليم؟

الجَوابُ: الخَبيرُ أَخَصُّ؛ لأن العِلْم يَتعَلَّق بالظاهِر والباطِن، والخِبْرة تَتعلَّق بالباطِن؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿خَبِيرٌۢ﴾ بباطِنه كظاهِره]؛ لأن العليم بالباطِن من بابِ أَوْلى أن يَكون عَليمًا بالظاهِر.

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [روَى البُخارِيُّ عن ابنِ عُمرَ حديثَ: مَفاتِح الغَيْب خَمْسة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ...﴾[1] إلخ السُّورة] قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله، رقم (١٠٣٩).

وقد بيَّنَّا في شَرْح صحيح البُخارِيِّ وجهَ كَوْنها مَفاتِحَ فقُلْنا: الساعة مِفتاح الآخِرة؛ وتَنزيل الغَيْث مِفتاح للحياة؛ حياة الأرض والنبات؛ وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ مِفتاح لحَياة الإنسان وابتِداء خَلْقه؛ فأوَّلُ ما يَمُرُّ بعد التَّكوين بالرَّحِم؛ ولهذا الإنسانُ له أربَعُ دُور: الدار الأُولى في بَطْن أُمِّه، والثانية في الدنيا، والثالثة في البَرْزَخ، والرابعة في الآخِرة؛ قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ مِفتاح للعمَل في المُستقبَل؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ مِفتاح للآخِرة بالنِّسبة لمَوْت كل إنسان بعَيْنه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن عِلْم الساعة من خَصائص عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ وحدَه؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فقوله تعالى: ﴿عِندَهُۥ﴾ تُفيد الحَصْر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان فَضْل الله عَزَّوَجَلَّ في إنزال الغَيْث؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ والمُنزِّل للشيء هو العالِمُ به.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: اختِصاص الله تعالى بعِلْم الغَيْب.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن عِلْمَ ما في الأرحام إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحدَه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾.

وإذا نظَرْنا إلى ظاهِر السِّياق ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ لا نَنفِي أن غَيرَه يَعلَم؛ لأن كونَ الله تعالى يَعلَم نحن يُمكِن أن نَعلَم، لكن تَفسير الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

بأن هذه بعِلْم الغَيْب التي لا يَعلَمها إلَّا الله تعالى يَدُلُّ على أنه لا يَعلَم ما في الأَرْحام إلَّا الله تعالى.

فإن قال قائِل: لماذا لم تَكُن بهذه الصِّيغةِ: (ولا يَعلَم ما في الأَرْحام إلَّا الله)؟

فالجَوابُ -واللهُ أَعلَمُ-: أنه لَمَّا كان عِلْم الأَجِنَّة قد يُتَمكَّن منه ببعض الأَحْوال قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الإنسان لا يَعلَم الغَيْب في المُستَقبَل؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ فإذا كانت يَقصِد بـ(ماذا تَكسِب) هو نَفْسه، فما يَقدِر عليه إلَّا الله تعالى فجَهْله به من بابِ أَوْلى، وما يَكسِبه غيرُه فجَهْله فيه من بابِ أَوْلى، وعلى هذا فلوِ ادَّعَى مُدَّعٍ أن الله تعالى يُقدِّر على هذا الرجُل كذا وكذا فإننا نَجزِم أنه كاذِب؛ لأنه لا يَعلَم ما في غَدٍ إلَّا اللهُ تعالى.

ولَمَّا قالَتْ إحدى النِّساء في حَضْرة النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَفِينَا نَبِيٌّ يَعلَم ما في غَدٍ» نَهاها الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقال ﷺ: «قُولي ببَعْضِ ما تَقولِينَ»[1]؛ وهذا لا يَجوز على الرسولِ ﷺ ولا غيرِه أن يُدَّعَى أنه يَعلَم ما في الغَيْب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الإنسان لا يَدرِي بأيِّ أَرْض يَموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: هل يُقال: إنه لا يُمكِن أن يَموت أحَد فَوقَ الجاذِبية في فضاء؟ فيه احتِمال؛ لكنه ضَعيف؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ قد يَكون هذا مَبنِيًّا على الغالِب مع أن لدَيْنا آيةً في القُرآن يَقول الله عَزَّوَجَلَّ فيها: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، رقم (٤٠٠١)، من حديث الرُّبَيِّع بنت معوذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:٢٥]، فتَقديم المَعمول الَّذي هو الظَّرْف ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ يَدُلُّ على الحَصْر، وهذا هو الأَصْل، فإن تَبيَّن فيما بعدُ أن يَموت أحَدٌ في الفَضاء ولا يَرجِع إلى الأرض فإننا نَقول: إن هذا احتِمال. بِناءً على الأَغلَب الكثير، وما سمِعْنا أن أحَدًا مات فوقَ الجاذِبية، بل حتى لو مات فالظاهِرُ أنه لا بُدَّ أن يُرَدَّ، وليس المَقصودُ الرُّوحَ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنه لا يَعلَم أحَدٌ متى يَموت؛ تُؤخَذ: من أن جَهْلنا بمَكان مَوْتنا يُبيِّن جَهْلنا بزمان مَوْتنا، فالجَهْل هنا بالزَّمان أَوْلى.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات اثنَيْن من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهُما: العَليم والخَبير، وما تَضَمَّناه من صفتَيِ العِلْم والخِبْرة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن مَنِ ادَّعى عِلْم شيء ممَّا اختُصَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعِلْمه فهو كافِر؛ لأنه مُكذِّب لله تعالى، والتَّكذيب لله تعالى كُفْر.

• • ❁ • •

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة
«مَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ بِسْمِ اللهِ»	٩
«ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»	٣٣
«لَيَكُونَنَّ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتِي يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ»	٣٤
«يَمُدُّ صوتَه بِآخِرِها»	٣٥
«يَا أَنْجَشَةُ رِفْقًا بِالْقَوَارِيرِ»	٣٦
«نَعَمْ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»	٤٤
«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»	٤٥
«مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ حَسَنَةً كَامِلَةً»	٤٥
«أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»	٥٠
«الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ»	٥١
«وَمَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ»	٥٨
«أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»	٦٣
«حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ»	٧٣
«يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»	٧٧

«سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» ٩٥
«لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ» ٩٦
«وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» ١٠٧
«إِنَّ اللهَ يُعْطِي بِالرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ» ١٠٨
«إِنَّ هَذِهِ لَمِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللهُ إِلَّا فِي هَذَا المَوْقِفِ» ١١٢
«وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى» ١١٣
«إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، وَلَا تُسْرِعُوا» .. ١١٦
«لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ» ١١٧
«لَا يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْقُرْآنِ» ١١٨
«إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى المَكَارِهِ» ١٢٠
«فَإِنْ أَبَى فَلْيُقَاتِلْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ» ١٣٢
«أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ» ١٤٢
«لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ١٤٣
«لَيسَ في الدُّنْيا مِمَّا في الآخِرة إِلَّا الأَسْماءُ» ١٤٣
«لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ١٤٦
«أَنَّهُ إِذَا حَضَرَ المَوْتُ إِلَى هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ وَبُشِّرَتْ رُوحُهُ بِالْغَضَبِ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَإِنَّهَا تَتَفَرَّقُ فِي بَدَنِهِ؛ تَتَشَبَّثُ فِيهِ، حَتَّى يَنْتَزِعُوهَا مِنَ الْبَدَنِ، كَمَا يُنْزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ» ١٤٧
«وَاللهِ لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا» ١٤٩
«أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ» ١٥١

«حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» .. ١٧٠
«يَا ابْنَ آدَمَ خَلَقْتُكَ مِنْ أَجْلِي، وَخَلَقْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلِكَ» ١٧٣
«مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ» ١٧٤
«إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ» ١٧٥
«أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ» ١٧٩-١٨٠
«تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ» ١٩١
«اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» ١٩١
«آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ» ١٩٢
«مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» ٢٠٢-٢٠٣
«وَمَا يَدْرِي أَحَدٌ مَتَى يَجِيءُ الْمَطَرُ» ٢٠٤
«تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ» ٢٠٤
«قُولِي بِبَعْضِ مَا تَقُولِينَ» ٢١٢

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة
أَرجَحُ الأقوال في المكي والمدني	٧
السورة إذا كانت مَكِّيَّة فإننا لا نَستَثْنِي منها شيئًا إلَّا بنَصٍّ صريح واضِح	٧
الكلامُ على البَسْمَلة معنًى وحُكمًا وإعرابًا	٩
الفائِدة من وُجود الحروف المقطعة في القُرآن	١٢
الحِكمة مِن قَرْن الصَّلاة بالزَّكاة في القرآن كثيرًا	١٩
ضَمير الفَصْل يُفيد ثلاث فَوائِدَ	٢٢
تفسير الصَّحابيُّ حُجَّة	٢٧
تَفسير اللهوِ بالغِناء لا يعني أنه لا يتناول غيره	٢٧
إذا كان إنسان قد تَعوَّد على الغِناء فترة، ثُمَّ لمدَّة شَهْر أو شهرين أَراد سَماع الأناشيد للمُعالجة؟	٢٩
اتِّخاذ آيات الله تعالى هُزوًا له أنواعٌ كثيرة	٣١
الكلام على تَحرِيم الغِناء	٣٣
هل مِن الإعراض عن آيات الله تعالى مَن يَقُول للقارِئ: انْتَهِ مِن القِراءة؟	٤٣
العِزَّة التي وصَف الله بها نَفْسه لها ثلاثة مَعانٍ	٤٨
الحِكْمة مِن خَلْق الضارِّ	٥٧
إبطالُ قولِ الفلاسِفة في قِدَم الأفلاك	٦٠

يَجِب علينا أمام بعض النَّظَرياتِ أن نَجعلَها كأحاديث بَنِي إسرائيلَ ٦٤
(مُبِين) لا يُظَنُّ أنها دائِمًا مُتَعدِّيَة، فقد تكون لازِمةً وقَد تكُون مُتعدِّية ٦٩
ما تَوجيهُ قوله ﷺ: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ» ومَن كان خارِج بني إسرائيلَ فما حُكْمه؟ ٧٣
مُتَعَلَّقُ الشُّكْر ثلاثة ٧٤
لا يَلزمُ مِن النَّهيِ عنِ الشِّرْك أن يَكونَ الإنسان قد أَشرَك ٨٠
الجوابُ علَى مَن قالَ: لِمَاذا لا تُكثِرُون الكلام في التوحيد في المَمْلكة السُّعُودية مثَلًا، ولاسِيَّما في نَجْدٍ؟! ٨٢
فوائَد الطَّلْق الذِي يَحصُل عند انطِلاق المولُود ٨٥
الوهَن كلُّه بسبَب الحَمْل ٨٦
بيان خَطَأِ بعضِ النِّسَاء اليَوم اللاتي لا يَصْبِرْنَ على وَهْن الحَمْل ٨٨
نفيَ الكَمَال أهوَنُ مِن إثْبَات النَّقْص على النُّفوس ٩١
هَل يَجُوز التأوُّل في الشِّرْك؟ ٩٤
حكم طَاعةِ الوالِدَين في غير مَعصِية الله تعالى ٩٦
الله تعالى لَطيفٌ بعَبْده ولطيفٌ لعَبْدِه ١٠٢
أحكام الأَمْر بالمَعروف والنهيُ عن المُنكَر ١٠٦
الغَضُّ مِن الصَّوْت باعتِبَار الكَمِّيَّة وباعْتِبَارِ الكَيْفِيَّة ١١٤
الإسْبَاغ يَتَنَاوَل شَيْئَيْن ١٢١
المَسائِل العَقْلية ليس لها دَخْل في الأمور الخبَرية ١٢٤
هل لنا أن نُحاوِل الصعود إلى الكواكِب والنُّجوم لنَرَى ما فيها من الآيات؟ ١٢٦

الإنسان الناصِح يَحزَن إذا كفَر الناس ١٣٨
غِلَظ عذاب النار في كَيْفيته وفي نَوْعه..... ١٤٥
يَنبَغي تَأكيد الكلام في مَوْضِع التأكيد ١٥٤
الدُّعاء له مَعنَيان: دُعاء عِبادة، ودُعاء مَسأَلة ١٧٩
(لـمَّا) لها عِدَّة مَعانٍ ١٨٨
وَجْهُ كَون مَفاتِح الغَيْب مفاتِح ٢١١

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة
تقديم	٥
سورة لقمان	٧
البسملة	٩
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ ١﴾	١١
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ٢﴾	١٣
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ٣﴾	١٦
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤﴾	١٩
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥﴾	٢٢
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٦﴾	٢٤
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧﴾	٤٠
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٩﴾	٤٥
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ	

زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ٥٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾ ﴾ ٦٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿١٢﴾ ﴾ ٧١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾ ﴾ ٧٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ ٨٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ٩٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ ﴾ ١٠٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ ١٠٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ ﴾ ١١٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ ١١٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى

وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ١١٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾ ١٢٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ ١٣٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾ ١٣٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ ١٤٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ١٤٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾ .. ١٥٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ ١٦٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ ١٦٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ ١٧١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾ ١٧٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ

ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٣١﴾﴾ ١٨٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ﴿٣٢﴾﴾ ١٨٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ ١٩٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾﴾ ٢٠١

فهرس الأحاديث والآثار ٢١٥

فهرس الفوائد ٢١٩

فهرس آيات السورة ٢٢٣

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٠)

تفسير القرآن الكريم

سورة السجدة

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٠)

تفسير القرآن الكريم

سورة السجدة

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة السجدة. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
١٣٩ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٤٠)
ردمك: ٧ ـ ٤٦ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة السجدة ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٢٨

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٢٨
ردمك: ٧ ـ ٤٦ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَي الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمَدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[1]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخ مُحَمَّد بنِ صالِح العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَرِيمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضَاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سورة السجدة

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

قال المفسر[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سُورة السَّجْدة] الإضافة هنا بَيانية، يَعنِي: السورة التي تُذكَر فيها السَّجْدة، والسَّجْدة ستَأتي -إن شاء الله تعالى- في أثنائِها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهي مَكِّيَّة ثلاثون آيةً] وكلُّ سُورة مُبتَدَأَةٍ بالحُروف الهِجائية فهي مَكِّية إلَّا سورَتَيْن: البَقَرة وآل عِمرانَ فإنهما مدَنِيَّتان، وإلَّا فكُلُّ سُورة ابتُدِئَت بالحروف الهِجائية فهي مَكِّيَّة.

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

الآيتان (١، ٢)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ١-٢].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿الٓمٓ﴾ الله أَعلَمُ بمُراده به].

وسبَقَ لنا أن العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ انقَسَموا في ذلك ثلاثةَ أَقْسام:

قِسْم ادَّعَى أن لهذه الحُروفِ مَعانِيَ، وأنها رُموز لِتِلكَ المَعانِي، وهذا قَوْل لا دليلَ عليه، وهو ضَعيف، بل باطِل.

والقول الثاني: أن لها مَعانِيَ، لكن الله تعالى أَعلَمُ بها فتكون من المُتَشابِه الذي لا يَعلَمه إلَّا الله تعالى.

والقِسْم الثالِث: يَقولون: إنه ليس لها مَعانٍ أصلًا؛ لأن القرآن نزل باللِّسانِ العَرَبيِّ، واللِّسانُ العربيُّ لا يكون لهذه الحروفِ معانٍ أبدًا، وهذا قولُ مُجاهدٍ[1]، وهو الصَّحيحُ؛ أنَّه لا معانيَ له.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كيف تَجْزِمونَ بأنَّه لا معانيَ لها، والنَّفْيُ يحتاجُ إلى حُجَّةٍ؟

قُلْنَا: نجزم بذلك؛ لأنَّ القرآنَ نزل بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ، واللِّسان العربيُّ ليس فيه

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٠٩)، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧٠).

هـذه الحروفُ الهجائيَّة، وهذه الحروفُ في اللِّسان العربيِّ معناها أنَّها حروفٌ يكون منها الكلامُ فقط، ولكنْ ذكروا أنَّ هذه الحروفَ الهجائيَّـةَ لها مَغزًى؛ وهو إظهارُ عَجْزِ هؤلاء المُكذِّبينَ بأنَّ هذا القُرآنَ من هذه الحروفِ التي تكوِّنونَ منها كلامَكم، ومع ذلك فقد أعجزكم، فهو لم يأْتِ بشيءٍ بديلٍ، إنَّما أتى بالحروف التي تُرَكِّبونَ كلامَكم منها؛ قالوا: ويدلُّ لذلك أنَّـكَ لا تكاد ترى سورةً ابتُدِئَتْ بهذه إلا ويليها ذكْرُ القرآنِ.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: القرآنِ، المرادُ بالكتابِ القرآنُ، وهو فِعالٌ بمعنى مفعولٍ؛ أي: مَكْتوب؛ وسُمِّيَ كتابًا؛ لأنَّه كُتِبَ في اللَّوْح المَحْفوظِ، وفي الصُّحُفِ التي بأيدي الملائِكَة، وفي الصُّحُفِ التي بِأَيْدينا؛ ولهذا سُمِّي كتابًا.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مبتدأٌ] أي ﴿تَنزِيلُ﴾؛ لأنَّ الكتابَ مضافٌ إليه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا رَيۡبَ﴾ شكَّ ﴿فِيهِ﴾ خبرٌ أوَّلُ] ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ يعني: أنَّ تنزيلَ الكتابِ مؤكَّدٌ ليس فيه رَيْبٌ، وهل النَّفيُ هنا على بابِهِ، أو هو نَفْيٌ بمعنى النَّهْيِ؛ أي: لا تَرْتابوا فيه؟

الجوابُ: فيه قولانِ: فمِنَ العُلماءِ من يقولُ: إنَّ النَّفْيَ هنا بِمَعْنى النَّهْيِ؛ فمعنى ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أي: لا تَرْتَابوا فيه، وبعضُ أَهْلِ العِلْمِ يقولُ: إنَّ المرادَ بالنَّفْيِ حقيقَتُه، والمعنى: أنَّ هذا الكتابَ ليس فيه رَيْبٌ، وإذا لم يكنْ فيه رَيْبٌ لَزِمَ مِن ذلك النَّهْيُ عَنِ الرَّيْبِ؛ لأنَّه إذا انتفى الرَّيْبُ في القرآنِ فلا يَحِلُّ لنا أنْ نَرْتَابَ فيه.

وهذا القَوْلُ أَبْلَغُ: أن يكونَ بالنَّفْيِ ليس فيه رَيْبٌ، سواءٌ ارْتابَ فيه مَنِ ارْتابَ أمْ لم يَرْتَبْ، فهو حقيقةٌ لا رَيْبَ فيه.

والرَّيْبُ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّه الشَّكُّ؛ ولكنْ ذهب بعضُ أَهْلِ العِلْمِ إلى أنَّه لا يوجدُ كلمتانِ مترادِفَتانِ في المعاني، بل لا بدَّ أن يكون هناك فارِقٌ، وقالوا: إنَّ الرَّيْبَ شَكٌّ مع قَلَقٍ ورِيبَةٍ؛ وليس مُطْلَقَ شكٍّ، بل هو شكٌّ خاصٌّ، وهو الذي يكون فيه القَلَقُ والارتيابُ، وكونُ النَّفْسِ يكون معها انشغالٌ بخلافِ الشكِّ المجرَّدِ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خبرٌ ثانٍ] والمعنى: تنزيلُ الكتابِ مؤكَّدٌ لا رَيْبَ فيه، تنزيلُ الكتابِ من ربِّ العالمينَ.

وعلى هذا فيكون الخبرُ الأَوَّلُ جملةً؛ فالخبرُ الأوَّلُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ جملةٌ؛ لأنَّ ﴿لَا﴾ نافِيَة للجِنْس و﴿رَيْبَ﴾ اسْمُها و﴿فِيهِ﴾ خبرٌ، وهو جُملة، والخبرُ الثاني ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ شِبْه جملةٍ من جارٍّ ومجرورٍ.

وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ربُّ العالمينَ الذي خَلَقَه ومَلَكَه ومَلَكَ التَّصَرُّفَ فيه؛ والرُّبوبيَّةُ تشملُ ثلاثةَ أشياءَ: الخَلْق، والمِلْك، والتَّدبير

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المرادُ به ما سِوَى الله عَزَّوَجَلَّ، وسُمِّيَ ما سِوَى الله عالَمًا؛ لأنهم عَلَمٌ على خالِقِهم، وما من شيءٍ إلا فيه آيةٌ من آياتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَشْهَد له بالوحدانيَّة والقُدْرةِ والعِزَّةِ وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني أنَّ تنزيلَ الكتابِ من الله لا إشكالَ فيه، فليس قولَ محمدٍ ولا قولَ جبريلَ ولا قولَ أحدٍ من الخَلْق، بل هو مِنْ رَبِّ العالمين وَحْدَه.

ويجوز في الإِعْرابِ أن نجعل ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في مَوْضِع نصبٍ على الحالِ: ذلك الكتابُ خاليًا من الرَّيْبِ؛ من أين هو؟ الجوابُ: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ويجوز أن نَجْعَلَ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبرًا واحدًا؛ و﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حالٌ من قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ فتَجْعَلُ الجُمْلَتَينِ خبرينِ، أو إحداهما خبرًا والأخرى حالًا.

وعلى كلِّ حالٍ: فمعنى الآيةِ الكريمةِ أنَّ تنزيلَ الكتابِ أمرٌ لا شكَّ فيه، وأنَّه ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أيضًا لا شكَّ فيه، وعندي أنَّ أَحْسَنَ ما يُقالُ في الإعرابِ: أنْ يُجْعَلَ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو الحالَ؛ تنزيلُ الكتابِ من رَبِّ العالمينَ لا مِن غَيْرِه، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يكونُ حالًا.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ القرآنَ الكريمَ لم يأتِ بجديدٍ؛ أتى بالحروفِ التي يتكلَّمُ بها النَّاس، ومع ذلك أَعْجَزَهُم؛ يؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ لأن الصَّحيحَ أنه ليس له معنًى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن القرآنَ كلامُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وجه ذلك: أنَّ القرآنَ كلامٌ وأضافه الله إلى نَفْسِه، فيقتضي أن يكونَ كلامَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ عُلُوِّ الله؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والنُّزُولُ لا يكون إلا مِنْ أعلى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ أن القرآنَ الكريمَ مكتوبٌ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ ولقد سبق لنا أنه مكتوبٌ في لَوْحٍ مَحْفوظٍ، وفي الصُّحُف التي بِيَدِ الملائكة، وفي الصُّحُف التي بأيدينا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تأكيدُ أنَّ هذا القرآنَ مُنَزَّل مِنْ عند الله؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ ربوبيَّةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لجميعِ الخَلْقِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الإشارَةُ إلى أنَّ هذا القرآنَ مُلزَمٌ به جميعُ النَّاسِ؛ تُؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فإذا كان ربُّهم الذي أنزله فمعناه أنه يَلْزَمُهُم جميعًا العَمَلُ بهذا القرآنِ.

الآية (٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة:٣].

ثم قال: [﴿أَمْ﴾ بل ﴿يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ محمدٌ؟ لا].

﴿أَمْ﴾ يقول المُفَسِّر إنَّها بمعنى [بل] إذَنْ فهي للإضراب الانتقاليِّ، وليست للإضراب الإبطاليِّ؛ لأنَّها لم تُبْطِل ما سَبَقَها، ولكنَّها مع ذلك مُضَمَّنةٌ معنى بل والهمزة، وأَصْلها: بل أَيَقُولون افْتَراه؟ والاسْتِفْهامُ في هذه الآية للإِنْكارِ بدليلِ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا]، يعني أنه ليس مُفْتَرًى، والافتراءُ معناه الكَذِب، فمعنى ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: كَذَب بادِّعائِهِ أنَّه من عند الله.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: القرآنُ أو الكِتابُ؛ كما عبَّر الله به.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي: الثَّابتُ الذي لا يَتَزَلْزَل، وهو الحقُّ المشتَمِلُ على كلِّ خيرٍ.

وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ حالٌ من قوله: ﴿هُوَ﴾ يعني: حالَ كَوْنِه من ربِّك، وتأمَّلْ في الآية الأُولى قال: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهنا قال: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ لأنَّ الذي اتُّهِمَ بالافتراءِ هو الرَّسولُ ﷺ، فأراد الله تعالى أن يُبَيِّنَ أنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يُمْكِن أن يَفْتَرِيَ الكَذِبَ؛ لأنَّ له من الله ربوبيَّةً خاصَّةً وهي قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فالرُّبوبيَّةُ هنا

ربوبيَّة خاصَّة؛ ثم بيَّنَ الله الحكمةَ من ذلك قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا...﴾ إلخ.

والحكمة من اختلافِ التَّعبيرِ بين قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وهو أنَّه لما أراد أن يتبع أمْر القرآنِ من حيثُ هو قرآنٌ بيَّن أنَّه نازلٌ من ربِّ العالمين الذي يَعْتَمِدُ عليه هؤلاء العالَمونَ، فنُزِّلَ عليهم الكتابُ؛ لأنه لما كان ربَّ العالمين وجب على جميع العالَمينَ أن يَقْبَلوا هذا وأنَّه من ربِّنا؛ أمَّا في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فلأنَّه لما نُسِبَ الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى الكَذِبِ في هذا القرآن ذَكَرَ الله تعالى ربوبيَّته الخاصَّة: ﴿مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ﴾ إشارةً إلى أنَّه رسولُ الله، وأمَّا المُنْذِر في القرآن فهو ربُّه الذي يعتني به ويَرُبُّه ربوبيَّةً خاصَّةً.

ففي الأوَّل من حيث وَصْفُ القرآنِ بأنَّه قرآنٌ قال: ﴿تَنزِيلٌ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وفي الثاني قال: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الذي يَرُبُّكَ ربوبيَّةً خاصَّة، وأنت مربوبٌ له.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ المفعولُ الثَّاني محذوفٌ تقديره (به)، ولكِنْ في المسألَةِ نَظَرٌ، إن كان مفعولًا به ففيه نظرٌ، ولكن لا شكَّ أنَّ التَّقْديرَ (به)، وأنه هو آلة الإنذارِ التي يُنْذَر به أي بِسَبَبِه، ولكن المفعول الثَّاني محذوفٌ عُرِف في غير ما ذكره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿لِتُنذِرَ﴾ به ﴿قَوْمًا﴾ العذاب، وإنما اخترت ذلك لما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فُصِّلَت:١٣]؛ وقد بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ في آيةٍ أخرى ما هو المنذَرُ به.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَآ﴾ نافِيَة ﴿أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بإنذارِكَ] قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ [﴿مَآ﴾ نافية] وفي سورة يس: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس:٦] وهذا الذي قرَّرَه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ -أنَّ (ما) نافية- هو الصَّوابُ في إعرابها، وإن كان بعضُهُم ذكر

أنَّها اسمٌ موصولٌ؛ أي: لِتُنْـذِرَ قومًا الذي أتاهُم مِن النُّذُرِ قبلك؛ يعني: تُنْـذِرُهم العذابَ، وعلى هذا الرَّأي تكون (ما) اسمًا موصولًا، وهو المفعولُ الثاني في الجملة، لكنَّ الذي مشى عليه المُفَسِّر أَصْوَبُ: أنَّ ما نافية.

والخلاصةُ في إعراب (ما) قولانِ:

أحدهما: أنَّها نافِيَة، فيكون معنى الآيَةِ الكريمة: لِتُنْذِرَ قومًا لم يَأْتِهِمْ نذيرٌ قبلك.

القولُ الثاني: أنَّ ما اسمٌ موصولٌ؛ أي: لِتُنْذِرَ قومًا الذي أتاهم من النُّذُر قبلك.

والصَّواب الأوَّل.

والعرب لم يُرْسَلْ إليهم رسولٌ بعد إسماعيلَ إلا محمدٌ ﷺ؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَنا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ**»[1] في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ ...﴾ إلخ.

وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، **إِذَا قَالَ قَائِلٌ**: ما هي الفائِدَةُ في وَصْف هؤلاء القومِ لِكَوْنِهِمْ لم يأتِهِمْ نذيرٌ من قبلُ؟

الجوابُ: الفائِدَة في ذلك أمران:

الأمرُ الأوَّلُ: بيانُ شدَّة حاجَتِهِم إلى الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأنَّهم في غايَةِ ما يكون من ضرورةٍ إلى بَعْثَتِه.

الأمرُ الثَّاني: بيانُ نِعْمَة الله عليهم بهذا الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ حيث إنَّه هو الرَّسولُ الذي أتاهم ولم يَأْتِهِمْ نذيرٌ مِن قبلِهِ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٢٧)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٨)، من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يكثُرُ في القرآنِ الكريمِ مثلُ هذا التَّعبيرِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٢]، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩] فهل هو للرَّجاءِ أم للتوقُّعِ؟

الجوابُ: قال بعضُهُم: إنَّها للرَّجاء، ولكن باعتبارِ حالِ المخاطَبِ لا باعتبارِ حالِ المتكلِّم؛ لأن الرَّجاءَ هو الطَّمَعُ في نَيْلِ ما يَعْسُر إدراكُه، قد لا يتعذَّرُ، لكنه يؤمَّلُ إلا أنه فيه نوعُ شِدَّةٍ، والرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ لا يُمْكِنُ وَصْفُه بهذا الوَصْفِ، فيكون مُتَرَجِّيًا باعتبارِ حالِ المخاطَبِ.

وجملة (لعلَّ) للتَّعليل، وكونُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجعل الشَّيءَ علَّةً للشَّيء؛ ليس فيه نَقْصٌ، بل هو من كماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يبني من الأسبابَ أسبابًا.

يَرِدُ على هذا القَوْل: أن العلَّة ملازِمَةٌ للمعلولِ، فإذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ لَزِمَ أن يهتدوا فما دَامَتْ علَّة، فالعِلَّةُ ملازِمَةٌ للمَعْلول: فلما جاءهم هذا النَّذيرُ يلزم اتِّباعُه.

والجوابُ على ذلك أن يُقالَ: إنَّ العلَّةَ علَّتانِ: عِلَّةٌ باعِثَةٌ، وعلَّةٌ غائِيَّةٌ، والعلَّةُ الباعِثَة مُوجِبة وغيرُ مُوجِبَة، وهذه كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] مع أنَّهم ما يعبدون الله كلُّهُم، وكقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٦٤]. ومعلومٌ أنَّ كثيرًا من الرُّسُل ما أُطيعوا، فيكون هنا العِلَّة الباعِثَة غيرَ الموجِبَة؛ يعني أنَّ الحكمةَ من هذا هو هذا، ثم قد تَحْصُل وقد لا تَحْصُل، ومثَّلوا لذلك بقولهم: شَرَيْتُ القَلَمَ لأكتبَ به، أو لهذه الغايَةِ، ولكن: هل يلزَمُ أن تَكْتُبَ؟

الجوابُ: قد تكتب، وقد لا تَكْتُب.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ الاهتداءُ هنا يَشْمَلُ الهدايَةَ: هدايةَ الدَّلالَةِ، وهدايةَ التَّوفيقِ؛ فإنَّ الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جاء بهدايَةِ الدَّلالةِ، والتوفيقُ بِيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ، ولا توفيقَ إلا بعد عِلْمٍ؛ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بإنْذارِكَ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ جُرْأَةِ هؤلاء المُكَذِّبين؛ لقولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: اخْتَلَقَه وكَذَبَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ القُرآنَ حقٌّ غيرُ مُفْتَرًى؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ رِسالَةِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: عناية الله برسوله ﷺ؛ حيث أضافَ إليه الرُّبوبيَّةَ الخاصَّة في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الحِكْمَةِ في إنزالِ هذا القُرْآنِ؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ﴾ لأنَّ اللَّام للتَّعليلِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيانُ مِنَّة الله على هؤلاء الذين أُرْسِلَ إليهِمُ الرَّسولُ ﷺ، تُؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿مَآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: شِدَّةُ الضَّرورةِ إلى إرسالِ الرَّسولِ ﷺ؛ تُؤْخَذُ مِنْ كَوْنِه لم يَأْتِهِم نذيرٌ مِن قَبْلِك، فهم في ضرورَةٍ إلى رسالَتِه، هذا على القَوْلِ بأنَّ (ما) نافِيَة، أمَّا على القَوْلِ بأنَّها اسمٌ موصول، فيُسْتَفادُ منها: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَنْذَرَ ما أَنْذَرَتْ به الأنبياءُ مِن قَبْلِه، فيكون إذن: مُصَدِّقًا لما سَبَقَه من الرِّسالاتِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الإنذارَ سببٌ للهدايَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وهذا يشْهَدُ به الواقِعُ؛ فكم من إنسانٍ اهتدى بما أُنذِرَ!

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ رَحْمةِ الله تعالى بالخَلْقِ؛ حيث أرسل إليهم النُّذُرَ من أجل هدايَتِهِم.

• • ۞ • •

الآية (٤)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة:٤].

ثم قال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ ﴾ مبتدأٌ و﴿ ٱلَّذِى ﴾ اسمٌ موصولٌ خَبَرٌ، و﴿ خَلَقَ ﴾ بمعنى أَوْجَبَ بتقديرٍ ونظام، وأنَّ الخَلْق في الأصل في اللُّغَة: التَّقْديرُ؛ كما في قول الشَّاعِر:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ ... وَبَعْضُ النَّاسِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي[1]

ويُطْلَقُ الخلْقُ على: الإيجادِ في تقديرٍ، وهو المرادُ به هنا.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ هي الأَجْرامُ المحسوسَةُ، وهي سَبْعَةٌ، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ ﴾ المرادُ بها الجِنْسُ، ويشمل جميعَ الأَرَضِينَ.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ يعني: والذي بينهما، وهو السَّحابُ، وكذلك النُّجُومُ والقمر وما أشبهها، وهذا يدلُّ على أنَّ هناك أشياءَ كثيرةً قد لا نَعْلَمُها إلى الآن، فإلى الآن نكتشِفُ أشياءَ كثيرةً مما بين السَّماء والأَرْض، ويدلُّ على أنَّ ما بين السَّماء والأرض أنه ليس مُجَرَّد سحاب فقط بل وراءَ ذلك؛ أن الله تعالى جَعَلَه قسيمًا لخلق السَّمواتِ والأرض، ولا بُدَّ أن يكون شيئًا عظيمًا يقابِلُ هذه المخلوقاتِ.

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، انظر: ديوانه (ص:٣٢).

وقوله تعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَوَّلُها الأَحَدُ، وآخِرُها الجُمُعَة] وقد فصَّل الله تعالى هذه الأَرْبَعَة في سورة فُصِّلَتْ، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت:٩-١٠]؛ فالآن خَلْقُ الأَرْضِ في أَرْبَعَة أَيَّام، ثمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:١١-١٢] فتكون الأيامُ ستَّة: أَوَّلُها الأحَدُ وآخرها الجمعة.

وهل هذه الأيـام كأيَّامِنا؟ أو كُلُّ يومٍ مقدارُهُ ألفُ سَنَةٍ؟ أو هي أيـام بمعنى ساعاتٍ أو لحظاتٍ؟

أقوالٌ؛ فمنهم من قال: إنَّها أيَّامٌ؛ يعني لحظات؛ لأن الله إذا أرادَ شيئًا قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧] وعبَّر بالأيَّامِ عن مطلَقِ الزَّمَن، ومنهم من قال: إنَّها أيَّام كلُّ يومٍ منها مقدارُهُ ألفُ سنةٍ، فتكون سِتَّةَ آلافِ سَنَة، ومنهم من قال: إنَّها أيَّام كأيامِنا، وإنَّ الأيـام أُطْلِقَت والمرادُ بها هذه الأيَّامُ المعروفَةُ، لاسيَّما وأنَّـه في سورة فُصِّلَتْ: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾، ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ ولا يمكن أن نَخْرُجَ من قراءةِ القرآنِ عن معهودِ المَعْروفِ في اللُّغَة العربيَّة.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هذا القَوْلُ وإن كان ظاهِرَ القرآن يَرِدُ عليه أمرانِ:

الأمر الأوَّل: أنَّه لَمَّا خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ ليس هناك شمسٌ حتى تُحَدَّدَ بالأيَّامِ؛ فماذا نقولُ؟

الأمر الثَّاني: أن يُقال: لماذا سِتَّةُ أيام؟ ولماذا لم تكن في لحظَةٍ، أو تكون في أيامٍ طويلةٍ جدًّا في لحظة باعتبارِ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ مهما عظُمَ الشَّيءُ،

في نسبة طويلة باعتبارِ هذه المخلوقاتِ؛ يعني لا يكفيها ألفُ سنة ولا أَلْفَا سنةٍ ولا مائَةُ ألفِ سَنَة، لأنَّ المخلوقاتِ عظيمةٌ لا يكفيها هذه المدَّةُ القصيرةُ؛ فإمَّا أن تُقاسَ بقُدْرَة الله أو تقاس بحَسَبِ واقِعِها، فإنْ قِسْتُمُوها بحَسَبِ قدرة الله أنها في لحظَةٍ فالأيَّام السِّتة ليسَ لها معنًى؛ وإن قِسْتُمُوها بحسب واقعها لا بحسَب قُدرة الله فإنَّ المخلوقاتِ عظيمةٌ جدًّا منظَّمَةٌ في غايَةِ النِّظام.

فالجوابُ على هذينِ الإيرادَيْنِ:

الأَوَّل: أن هذا بِحَسَبِ عِلْمِ الله، والله يعلم متى يكون.

والثَّاني: والجوابُ عنه أن يُقالَ: هكذا قال الله عَزَّوَجَلَّ، وليس لنا أن نتعدَّى ما أَخْبَرَنا الله به؛ لأنَّ هذا أمرٌ لا يَسَعُنا الإحاطَةُ به، وقد قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف:٥١]. ونحن لا شكَّ نقيسُ هذه الأشياء بحَسَبِ قدرة الله لا بِحَسَبِ واقِعِها، فواقِعُها لا يعلَمُه إلا الله عَزَّوَجَلَّ فإذن يجب أن تُقاسَ بِقُدْرَةِ الله، ويُقال: إنَّ تقديرَها في ستَّةِ أيَّام حسَبَ ما تقْتَضِيه حكمةُ الله عَزَّوَجَلَّ، وليس لنا أن نتكلَّمَ في شيء من ذلك.

ولهذا، اليهود -لعنةُ الله عليهم- قالوا: إن الله تعالى خلقَ السَّمواتِ والأَرْضَ في ستَّة أيامٍ، ولما كان يومُ السَّبْتِ استراح! نعوذ بالله! وإنَّ يَوْمَ راحَةِ الله هو يومُ عيده، وجعلوا عيدَهُم السَّبْتَ وكَذَبُوا فِي هَذا فالله عَزَّوَجَلَّ لا يَتْعَبُ حتى يحتاجَ إلى راحةٍ.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعنى علا، استوى على الشيء، وقد ذَكَرْنا فيما سبق أنَّ ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ وردت في القرآن على أَرْبَعَةِ أَوْجُه: مُطْلَقَة، ومُقَيَّدَة بـ(إلى)، ومُقيَّدَة بـ(على)، ومُقيَّدة بواو المعِيَّة:

١- فإذا جاءت مُطْلَقَة، فهي بمعنى كَمُلَ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي: كَمُلَ.

٢- وإذا قُيِّدَت بـ(إلى) فهي بمعنى القَصْدِ التَّامِّ؛ كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ وفي هذه الآية قولٌ ثانٍ: أنَّ استوى بمعنى علا: (ثم علا إليها) لكنْ هذا كغيره من الصِّفاتِ التي لا تُعْلَمُ كيفيَّتُها.

٣- مُقَيَّدة بـ(على) وتكون بمعنى العُلُوِّ والاسْتِقْرارِ؛ كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: لِتَعْلُوا على ظُهُوره وتَسْتَقِرُّوا، ولم تأتِ بغيرِ هذا المعنى أبدًا في اللُّغَةِ العربيَّةِ، فإذا قُيِّدَتْ بـ(على) لا تأتي إلا بهذا المعنى، ولا تكون بغيره أبدًا.

٤- مُقَيَّدَة بواوِ المعيَّة فتكون بمعنى تساوَى، فاستوى بمعنى تساوَى؛ كقولهم: «استوى الماءُ والخَشَبَةَ» يعني: استوى الماءُ مع الخَشَبَةِ؛ صارا سِيَّانِ.

المُهِمُّ هنا: هو ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ لا تأتي بصورة غير هذا المعنى إطلاقًا، وقد جاءت في القرآن الكريمِ في سَبْعَةِ مواضِعَ، ما فيها موضِعٌ واحدٌ اختَلَفَ فيه التَّعْبيرُ عن هذا؛ إلا: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] وما أشبه ذلك فهو عند أهل السُّنَّة والجماعَةِ بمعنى (علا على العَرْش واسْتَقَرَّ عليه)، ورُوِيَ عنهم (ارْتَفَع) ورُوِيَ عنهم (صَعِدَ وارْتَفَع) و(صَعِدَ) و(علا) معناهما متقارِبٌ؛ ولهذا اخْتَرْنا أن نقول بمعنى (علا واسْتَقَرَّ)، أما (ارتفع) و(صَعِدَ) فهو مقابِلٌ لـ(علا).

وهذا الاستواءُ استواءٌ بمعنى العُلُوِّ والاسْتِقْرار، وقد يَرِدُ عليكم سؤالٌ، ويُقال: أَلَسْتُم تقولون إنَّ عُلَوَّ الله عَزَّوَجَلَّ بذاتِهِ صِفَةٌ ذاتِيَّةٌ أزلِيَّةٌ أَبَدِيَّةٌ؟

نَقُول: بلى، عُلُوُّ الله بذاته صفةٌ أزليَّة أبديَّةٌ لا تنفَكُّ عن الله، خلَق ثم اسْتَوَى، فمعنى ذلك أنه حين الخَلْقِ ليس مُسْتَوِيًا على العَرْش، وهذا حقٌّ؛ لأن الاستواءَ على العَرْشِ أخَصُّ من مُطْلَقِ العُلُوِّ؛ فالاستواءُ على العَرْشِ والعُلُوُّ على العَرْشِ خاصَّةً هذا معنًى خاصٌّ غيرُ معنى (مُطْلَقِ العُلُوِّ) فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالٍ دائمًا لكنْ كَوْنُه على العرش بنفسه هذا حادِثٌ قطعًا؛ لأنَّ العَرْشَ مخلوقٌ. وقد بيَّنَ الله أنَّه استوى على العَرْشِ بعد خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، ولا نعلم عمَّا قبل ذلك، والله أعلم.

ولكنَّ السؤالَ الآن: إذا قُلْتُمْ إنَّ معنى (استوى على العرش) أي: علا واسْتَقَرَّ عليه، فإنه يَرِدُ علينا إشكالٌ: بأنَّ عُلُوَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَصْفٌ ذاتيٌّ أزليٌّ أبديٌّ، فكيف تقولون إنَّ معنى صَعِدَ علا عليه، وأنتم تقولون إنَّ العُلُوَّ صفةٌ ذاتيَّةٌ أزَلِيَّة أبديَّة، وفي العُلُوِّ عُلُوَّانِ: مُطْلَقُ عُلُوٍّ، وعُلُوٌّ خاصٌّ بالعكس؛ فالأوَّلُ الذي هو مُطْلَق العُلُوِّ صفةٌ ذاتيَّة أزليَّة أبديَّة، فالله لم يَزَلْ ولا يزالُ عاليًا بذاتِهِ على جميع الخلق، أما الاستواءُ على العَرْشِ فهو صفةٌ فعليَّة خاصَّةٌ في العرش.

وأضْرِبُ مثلًا يُقَرِّبُ المعنى: فالإنسانُ إذا كان على السَّطح فهو عالٍ على مَنْ تحت السطحِ، فإذا وُضِعَ له كرسِيٌّ في السَّطح وجلس عليه صار عُلُوُّه على هذا الكرسيِّ علوًّا خاصًّا مع ثبوتِ العُلُوِّ الأوَّلِ الذي هو مُطْلَق العُلُوِّ، لكنَّ هذا عُلُوٌّ خاصٌّ: على هذا الكرسيِّ.

فتبيَّنَ أنَّ هناك فرقًا بين العُلُوِّ بالمعنى العامِّ؛ فإنه وَصْفٌ ذاتيٌّ أزليٌّ أبديٌّ، وبين استوائه على العَرْش الذي هو علوٌّ خاصٌّ على ذلك العَرْش؛ ولهذا بعضُ السَّلَفِ ورد عنه تَفْسيرُه: (بأنَّه جلس عليه) وهذا قريبٌ من تفسيره بالاستقرار، فهذا علوٌّ خاصٌّ، ففرَّقَ بين العُلُوِّ الخاصِّ، وبين العُلُوِّ بالمعنى العامِّ.

وننتقل من هذا المعنى إلى أن نقولَ: هل الاستواءُ على العرش من الصِّفاتِ الفِعْلِيَّةِ أم من الصِّفاتِ الذَّاتِيَّةِ؟

الجوابُ: الاستواءُ من الصِّفاتِ الفِعْلِيَّة، وأنَّ كل شيء يتعلَّقُ بالمشيئة إن شاء الله فَعَلَ وإنْ شَاء لم يَفْعل، فهو من الصِّفاتِ الفِعْلِيَّة فضلًا عن الاسْتِوَاء على العَرْشِ، فإنَّه من الصِّفات الفعليَّة.

وأهلُ السُّنَّة يقولون: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي علا عليه واستقرَّ، وكيف كان ذلك العُلُوُّ والاستقرارُ؟

لا ندري؛ ولهذا قال الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما سُئِلَ؛ قيل له: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ فأَطْرَقَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِرَأْسِهِ حتى علاه الرُّحَضَاءُ -العَرَقُ- من شِدَّة وقْعِ هذا السُّؤالِ على قلبه، ثم رَفَعَ رأسه، وقال: «الاسْتِواءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، والكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، والإيمانُ به واجِبٌ، والسُّؤَالُ عنه بِدْعَةٌ»[1]؛ ويُنْقَلُ عن مالكٍ على غيرِ هذا اللَّفْظِ أنه قال: «الاستواءُ مَعْلومٌ، والكَيْفُ مَجْهولٌ، والإيمانُ عنه واجِبٌ، والسُّؤالُ عنه بدعة»[2] لكن الذي صَحَّ عنه بالسَّنَدِ هو اللَّفْظُ الأَوَّلُ، وهو: «الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكَيْفُ غير مَعْقولٍ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤالُ عنه بِدْعَةٌ» ثم قال: «ما أُراكَ إلا مُبْتَدِعًا!» مع أنه يُحْتَمَلُ أنه سألَ سُؤالَ اسْتِفْسارٍ ولم يسألْهُ إفحامًا، ولهذا قال: وما أُراك أوْ ما أظُنُّك إلَّا مُبْتَدِعًا، ثم أمر به فأُخْرِجَ من الحَلْقَة لئلَّا يُشَوِّشَ على النَّاس.

---

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة رقم (٦٦٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٨٦٧)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والدارمي في الرد على الجهمية رقم (١٠٤).

(٢) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص:٣٨)، والملل والنحل (١/ ٩٣)، والعرش للذهبي (١/ ١١٧-١١٨).

الحاصل: أننا نقولُ: الاستواءُ غير مجهولٌ، أو أنه مَعْلومٌ معنًى في اللُّغَة العربيَّة والقرآنُ نزل باللُّغة العربيَّة؛ فمعناه لغةً: علا واستقرَّ.

وقولـه: «الكيفُ غير معقولٍ» يعني: ما نَعْقِـلُه نحن، وهذا أبْلَغُ من كَلِـمَة مجهول، يعني لا يُمكن أن يُدْرِكَه العَقْلُ أو يُحيطَ به، فالله أعظمُ من أن تُدْرِكَ العقولُ كُنْهَ ذاتِهِ وصفاتِه.

ثم إذا انتفى عنه الدليل العقليُّ أثبت الدليلُ السَّمْعِي، ولم يَرِدِ السَّمْعُ بذكْرِ الكيفيَّةِ، فإذا انتـفى عنه الدَّليـلانِ: العقليُّ والسَّمْعِيُّ، فإنَّه يجـب التَّوَقُّفُ؛ ولهذا الصَّحابةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ التَزَموا جانِبَ التَّوَقُّفِ، مع أنَّهم أَحْرَصُ منَّا على القَوْل وعلى العِلْم؛ فهل سألوا الرَّسولَ ﷺ فقالوا: كيف استوى أو لا؟

لا؛ ولهذا قال رَحِمَهُٱللَّهُ: «والسُّؤالُ عنه بِدْعَةٌ»: «السؤال عنه» يعني عن الكيفيَّة بدعة، فما كان الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يسألون عن هذا، ولا يُمكِنُ الوصولُ إليه، فإذن السُّؤالُ عنه تكلُّفٌ من حيث لا يُمْكِنُ الوصولُ إليه، وبدعَةٌ من حيث لم يَسْأَلْ عنه الصَّحابَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

وقوله: «والإيمانُ به واجبٌ»: «الإيمان به» بالاستواءِ على العَرْش، «واجِبٌ» لأنَّ الله أخبر به عن نَفْسِه، وما أَخْبَرَ الله به عن نَفْسِه وَجَبَ علينا قَبُولُه، وألَّا نقيسَ ذلك بعقولنا.

فإذن -الحمد لله- الاستواءُ واضِحٌ؛ فالاسْتِواءُ معناه: العُلُوُّ والاسْتِقْرار وهو معلومُ المعنى، لكنَّ الكيفيَّةَ مجهولةٌ غَيْر مَعْقولة، يعني لا يُدْرِكُها العَقْلُ، ولا يستدلُّ عليها، والسَّمْعُ لم يَدُلَّ عليها؛ فوجب الوقوفُ؛ ولهذا قال الإمامُ مالك رَحِمَهُٱللَّهُ: «الكيفُ مجهولٌ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤالُ عنه بِدْعةٌ».

وأهل البِدَعِ يَنْفونَ هذا الشَّيءَ، ويقولون: مُحالٌ أن يكون استوى على العَرْشِ؛ أي: علا عليه واستقرَّ، ولكنَّ معناه: استولى على العَرْشِ وقَهَرَ ومَلَكَ، وإنَّ الاستواءَ فيه معنى ذلك؛ وقالوا: وَجَدْناه في قول القائِلِ:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلى العِرَاقِ ... مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ أَوْ دَمٍ مُهْرَاقِ

(استوى على العِراقِ) يعني: استولى عليها، فنَرُدُّ كلامَ الله إلى هذا البَيْتِ الذي أُنْشِدَ في عَهْدِ بِشْرِ بْنِ مَروانَ حين استولى على العراقِ!

وهذا البيتُ يُقال: إنَّ قائِلَه مجهولٌ لا يُعْلَم، وسبحانَ الله أن نَحْمِلَ القرآنَ الكريم على بيتٍ من الشِّعْر قائِلُه مجهولٌ! والرِّوايَةُ إذا كان فيها راوٍ مجهولٌ، فهي مَرْدودة حتى يَتَبَيَّن.

ثم نَقُول: على فَرْضِ أنَّ القائِلَ معلومٌ، وأنه من أَقْحاحِ العَرَبِ الذين لم تَتَلَوَّثْ ألسنتهم بِعُجْمَة؛ فإنَّ استوى على العراقِ يَصِحُّ أن نقولَ بمعنى علا على العراقِ؛ أي عُلُوًّا معنويًّا وليس حِسِّيًّا، ويَمْنَعُ أن يكون المرادُ به العُلُوَّ الحِسِّيَّ أنَّ العِراقَ لا يمكن أن يَجْلِسَ عليه بِشْرٌ؛ فيكون معناها هنا أمرًا عقليًّا، ويكون الاستواءُ هنا استواءً معنويًّا؛ بمعنى أنه علا عليه عُلُوًّا مَعْنَويًّا؛ وإذا فَسَّرْناها بمعنى علا عُلُوًّا معنويًّا كان أبلغَ من تفسيره بالاستواء؛ لأن مجرَّدَ الاستيلاءِ قد لا يَحْصُل به العُلُوُّ؛ قد يكون مُسْتَوِيًا لكنه كالعصا، فإذ قلنا استوى بمعنى علا علوًّا معنويًّا صار أبلغَ في التمَلُّك والقَهْر، فتبيَّن أنَّه لا حُجَّة في هذا البيت على كلِّ تقديرٍ.

ثم إنَّه مخالِفٌ لظاهِرِ القرآن، ومخالِفٌ لِما أَجْمَعَ عليه السَّلَفُ والأَئِمَّةُ من أنَّ الاستواءَ بمعنى العُلُوِّ والاسْتِقْرار، ويكون هذا باطلًا.

إِذَن: الذي نؤمِنُ به أنَّ الله تعالى استوى على عَرْشِه استواءً يليقُ به؛ بمعنى علا واستقَرَّ؛ وعلى التَّرتيب فمِن بعدِ خلْق السَّموات استوى، لكن قبل أن يَخْلُق السَّموات مسكوتٌ عنه، فهو حين الخلق غير مستوٍ، وبعد الخلق مُسْتَوٍ. وأمَّا قبله فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو في اللُّغَةِ سَريرُ المَلِكِ] استوى على العَرْش؛ إذن هو سريرٌ خاصٌّ يليق بالمَلِك وبِمُلْكِه؛ قال الله تعالى عن مَلِكَة سبأٍ كما أخبر عنها الهُدْهُدُ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣] وقال تعالى في قِصَّة يوسُفَ ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف:١٠٠] يعني السرير الخاص بالمَلِك، ولا بُدَّ أن يكون سريرًا مُفخَّمًا حَسَبَ مُلْكِه، هذا هو السَّريرُ، فيكون عَرْشُ الرحمنِ عَزَّوَجَلَّ أعظَمَ شيء؛ لأنه عَرْشٌ لأَعظمِ الأشياءِ وهُو الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا جاء في الحديث: «**أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الكُرْسِيِّ كَحَلْقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ**»[1] أي: حلقة الدِّرْعِ، نسبة صغيرة؛ أُلْقِيَت في فَلاةٍ من الأرض، فلو أُلْقِيَتْ حلْقَةٌ في فلاةِ الْأرضِ هل يَصِحُّ أن تُنْسَبَ إلى الفَلاة كم مُدَّتُها؟ ولا واحد من المليون، ليست بشيءٍ، ويمكن ألَّا تَقْدِرَ أن تُشاهِدَها «**وإنَّ فَضْلَ العَرْشِ على الكُرْسيِّ كفَضْلِ الفَلَاةِ على هذه الحَلْقَةِ**».

إِذَن: الكرسيُّ بالنِّسْبة للعرش كحَلْقَة أُلْقِيَت في فلاةٍ من الأرضِ، ومن هذا تَعْرِف مقدارَ عَظَمَةِ الخالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كيف خلق هذه الأشياءَ العظيمة.

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [استواءً يليقُ به] نريد أن نناقِشَ المُفَسِّر عن هذه الكلمة،

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٣٦١)، وابن بطة في الإبانة (٧/ ١٨١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

هل هذا الكلام يدلُّ على أنه على مَذْهَبِ السَّلَفِ في صِفَة الاستواءِ، أو على مذهب الخَلَفِ؟ لأن الخَلَف يقولون: الاستواءُ الذي يليقُ به: الاستيلاءُ، هذا الذي يليقُ عندهم! والسَّلَفُ يقولون: الاستواءُ الذي يليق به: العُلُوُّ على الوَجْهِ الذي يليق بالله.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾: ﴿مَا لَكُم﴾: ﴿مَا﴾ نافِيَة، والخطابُ في قوله تعالى: ﴿لَكُم﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يا كُفَّارَ مكَّةَ] والصوابُ العُمُوم؛ يعني: ما لكم أيُّها المخاطَبُون، ويَشْمَلُ كفَّارَ مكَّة وغَيْرَهم.

وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ الدُّونُ بمعنى سِوَى؛ يعني: ما لكم مِنْ سِوَاه؛ ولهذا قال المُفَسِّر [مِنْ غَيْرِه].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِن وَلِيٍّ﴾ اسْمُ (ما) بِزيادَةِ مِنْ] وزيادَتُها هنا مِن أجْلِ التَّوْكيد والتَّنْصيصِ على العموم، ولكن قوله (اسْمُ ما) خطأٌ؛ قال ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

..... مَعَ بَقَا النَّفْـيِ وَتَرْتيـبٍ زُكِـنْ[1]

فلا بدَّ في (ما) أن تكون مُرَتَّبَة؛ يعني: الاسْمُ قبل الخبر، فإن لم تكن كذلك فإنَّها لا تَعْمَلُ؛ لأنها ما تعملُ إلا على لُغَةِ الحِجازِيِّينَ بالشُّروطِ التي ذَكَر ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فيكون قولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [اسمُ (ما)] قد يكون سَقْطَةَ قَلَمٍ أو سهوًا، فإنَّ (ما) هنا غيرُ عامِلَةٍ، وهنا (ما) نافية فقط، وسبب بُطلانِ عَمَلِها عَدَمُ التَّرْتِيب.

وخبر المبتدأ إذن: قَوْلُه: (لكم): ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ يقول: [أي ناصِرٌ] ولا شفيعٌ، فَسَّر الوليَّ هنا بالنَّاصِر، وقد اعترضوا عليه؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول

(١) الألفية (ص: ٢٠).

في آية أخرى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى:٣١] والعَطْفُ يقتضي المُغايَرة، وأنَّ النَّصيرَ غيرُ الوليِّ؛ ولهذا الأَوْلى أن يُفسِّر الوَلِيَّ لمن يتولَّى أَمْر الإنسان؛ يتولى أَمْرَه بِجَلْبِ الخَيْرِ له ودَفْع الضَّرَر عنه، ثم إن قُرِنَتْ بالنَّصيرِ صارت خاصَّة بجلب الخيرِ، والنَّصير بدَفْع الشَّرِّ؛ فالمراد: مِنْ وَلِيٍّ؛ أي: من مُتَوَلٍّ لأَمْره بِجَلْب الخير له، ودَفْعِ الشَّرِّ عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: شافِع يَشْفَعُ لكم؛ ولهذا قال: [﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ يَدْفَعُ عذابه عنكم] هذا أيضًا فيه نظر؛ لأنَّ الشَّفيع ليس يَشْفَع، ولكنه يُشْفَع ويُطْلب، الدَّافِعُ هو النَّاصر والوليُّ، أما الشَّفيع فإنَّه ليس يَدْفَعُ ولكنَّه يتوسَّط؛ ولهذا قالوا في تعريف الشَّفاعَةِ: هي التَّوسُّط للغير بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ أو دَفْعِ مَضَرَّة، فيثبُتُ للغَيْر؛ لأنَّ الشَّفيع يأتي شافعًا للمَشْفوع له، فبعد أن كان فردًا صارا اثنينِ.

فالصَّوابُ أنَّ المراد بالشَّفيعِ؛ أيْ: شفيع يشفَعُ لكم عند الله، فنحن ليس لنا أحدٌ يتولَّانا من دون الله، وليس لنا أحدٌ يَشْفَعُ لنا عند الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾؛ ولهذا لا تكون الشَّفاعة إلا بإذن الله، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ هذا، فتُؤْمِنون] ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تقدَّمَ لنا مِرارًا وتكرارًا أنَّ مِثْل هذه الجُمْلَة يرى النحويُّون في إعرابها وَجْهَينِ:

الوَجْه الأوَّل: أن تكون الهَمْزَةُ داخِلَةً على شيء محذوفٍ مناسِبٍ للمَقامِ، والفاء عاطِفة على ذلك المحْذوفِ.

الوَجْه الثاني: أن تكون الهَمْزَة داخِلَةً على الجملة التي بعد العاطِفِ، والعاطِفُ عاطِفٌ على ما سبق.

وَقُلْنَا: إن هذا الوَجْه أَسْهَلُ؛ لأن الأوَّل يحتاجُ إلى تقديرٍ، وقد يكون المقدَّرُ صَعْبًا؛ إذ قد يُشْكِلُ على الإنسان ملاءَمَتُه للسِّياق، فإذا قلتَ: الهَمْزَة للاستفهامِ وَهِيَ مقدَّمة على حرف العطف، والفاءُ حرف عطف، والمعطوف عليه ما سبق، والتَّقدير بدُون تَقْديم وتَأْخير: فَأَلَا تَتَذَكَّرون.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هذا، فتؤمنون] [هذا] أفادنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله [هذا] أنَّ المرادَ بالتذكُّر البَصَرُ به والعِلْمُ به؛ ويُحْتَمَلُ أن يكون المرادُ بالتَّذَكُّرِ الاتِّعاظَ، وعلى هذا فيكون لازمًا لا مُتَعَدِّيًا؛ يعني: أفلا تَتَّعِظونَ بعد أن عَرَفْتُم مخلوقاتِه العظيمةَ واستواءَه على عَرْشِه، وأنه ليس لكم من دونه من وليٍّ ولا شَفيعٍ؛ أفلا تَتَّعِظون فتُؤْمِنون؟!

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الذي خلق السَّمواتِ هو الله لا شريك له؛ تُؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ من كون المبتدأِ والخَبَر مَعْرِفَتينِ، وإذا كان المبتدأُ والخبرُ مَعْرِفَتَين فإنَّهما يُفيدانِ الحَصْرَ: الله الذي خلق لا غَيْرُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ ما تضَمَّنَتْه هذه الجُمْلَةُ من العِلْمِ والقُدْرَة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي لا خَلْقَ بدون عِلْمٍ، ولا خَلْقَ بدون قُدْرَة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيانُ عَظَمَةِ قُدْرَةِ الله؛ لأنَّ خَلْقَ هذه السَّمواتِ والأَرْضِ العظيمة يدُلُّ على عظمة الخالِقِ؛ فكما أنَّنا لو رأينا قَصْرًا مَشِيدًا وبِناءً مُحْكَمًا استَدْلَلْنا به على عَظَمَة الباني.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ بين السَّمَواتِ والأَرْضِ من الآياتِ شيئًا كبيرًا، حيثُ جَعَلَه

قسيمًا لخلق السَّمواتِ والأرض ومقابلًا له.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ خَلْقَ السَّمواتِ والأرض تَمَّ في سِتَّة أيام، مفصَّلَة في سورة فُصِّلَتْ: أربعة للأَرْضِ، ويومان في السَّماء.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات عُلُوِّ الله؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ والعَرْشُ أعلى المخلوقاتِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ استواءِ الله على عَرْشِه، وهو عُلُوُّه واسْتِقْرارُه عليه، بدون تَكْييفٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثباتُ قيامِ الأفعالِ الاخْتِياريَّة بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ لأنَّه من الأفعالِ التي يَفْعَلُها بِمَشيئَتِه، وهي التي يُعَبَّرُ عنها أحيانًا بالصِّفاتِ الفِعْلِيَّة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ عظمة الله وسُلْطانِهِ؛ تُؤْخَذُ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ لأن العرش سرير المَلِك، وقُلْنا إنَّ العَرْشَ يَعْظُمُ بعِظَمِ مَلِكِه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثبـات العَرْش والعرش سرير المَلِك، وهل هو الكرسي أو غيره؟

نَقُول: هو عند أهل السُّنَّةِ غيرُ الكرسي.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنه ليس للخَلْقِ وليٌّ مِنْ دونِ الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنه لا شفيع لهم من دون الله.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: إبطال تعلُّق المُشْركينَ بآلهَتِهِم؛ وَجْهُه: أنَّهم إن أرادوا أن تكونَ وليًّا لهم مُغيثًا مُنْقِذًا من الشِّدَّة، فلن يكون ذلك، وإن أرادوا أن يكونوا شفعاءَ، فلن يكون ذلك؛ يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] وأحيانًا يطلبونَ منهم جَلْبَ الخيرِ ودَفْعَ الضَّرَرِ، وكلُّ هذا لا متعلَّقَ لهم به فهو باطِلٌ؛ إذ لا يكون ذلك إلا بإذن الله؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ ففي الآية -كما قلتُ-: تَعَلَّقَ المشركونَ بآلهَتِهِم سواء جَعَلوها أولياءَ أو جعلوها شُفَعاءَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَوْبيخُ من لا يتذكَّرُ بعد هذا البيانِ؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

وهذه الفائِدَة تترتَّبُ عليها فائِدَةٌ أخرى، وهي وجوبُ التَّذَكُّرِ بآياتِ الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ الإنسانَ يتذكَّرُ بآياتِ الله، ولا يكون كأنَّه يَمُرُّ عليها كأنَّها ألفاظٌ عابِرَةٌ.

• • ۞ • •

الآية (٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة:٥].

قولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ مُدَّةَ الدُّنيا ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ يَرْجِعُ الأَمْرُ والتَّدبيرُ ﴿إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ في الدُّنيا، وفي سورة (سأل): ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤] وهو يومُ القيامَةِ لشِدَّة أَهْوَالِهِ بالنِّسْبَة إلى الكُفَّار].

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ المرادُ بالسَّماءِ هنا: تلك الأجرامُ المعهودَةُ المعروفة، يدبِّرُها من السَّماء إلى الأرض ثم يَعْرُجُ إليه؛ يعني: من السَّماءِ الدُّنيا إلى الأَرْضِ، ثم يَعْرُجُ إليه؛ أي: إلى الله تعالى، ولا يَلْزَمُ أن يكون الله في السَّماءِ الدُّنيا.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ يعني: يَرْجِعُ إليه؛ فقوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ الذي يَعْرُج إليه هو: ما يَتَرَتَّبُ على ذلك الأَمْرِ؛ أمَّا الأَمْرُ فهو نازِلٌ؛ مِثْل لو أَمَر عَزَّوَجَلَّ بأن يقومَ هذا الرَّجُل بعبادَةِ الله، تكون عبادة، ثم يَرْجِعُ إليه ثوابُ العمل أو العقاب عليه حَسَب ما يَفْعَلُه هذا العبدُ، كذلك أيضًا ينزل الأَمْرُ من السَّماءِ بنُزُولِ المَطَرِ، ثم يَرْجِعُ إليه: حصل هذا الشَّيءُ بأنَّه نزل فأحيا به الأَرْضَ بعد موتها وما أشبه ذلك، فالأَمْرُ نازِلٌ وصاعِدٌ؛ من السَّماء إلى الأَرْض.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الله، يَعْرُج بمعنى يَصْعَد؛ لكنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّر الآية بأنَّه يدبِّرُه من السَّماء إلى الأرض في الدُّنيا، ثم يَعْرُجُ إليه في الآخِرَة، وجعل العُرُوج بمعنى الرُّجوع، ولا شَكَّ أن هذا تحريفٌ؛ لأنَّ العُرُوجَ غيرُ الرُّجُوع، فمعنى العُرُوج الصُّعودُ: يَصْعَد إليه، وليس بمعنى أنه يَرْجِعُ إليه في يوم القيامة حتى يُثِيبَ عليه أو يُعاقِبَ.

فالمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ في كل مُدَّةِ الدُّنيا، تدبيرٌ: أَمْرٌ ينزل من السَّماء إلى الأرض.

أمَّا العُرُوج فيكون يومَ القيامَةِ، وفسَّرَه بالرُّجُوع، على رأي المُفَسِّر يكون في يومٍ كان مقدارُهُ ألفَ سَنَةٍ ممَّا تَعُدُّون؛ يخالف ما ذكره الله تعالى في سورة سأل؛ لأنَّه في سورة سأل قال: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤].

أجاب المُفَسِّر بما يقتضي أنه يختلف باختلافِ التَّقْديرِ، فيكون على قومٍ بمقدارِ خمسينَ ألفَ سَنَةٍ، وعلى قوم بمقدار ألفِ سَنَةٍ، وعلى آخرينَ بمقدارِ أداءِ الفريضَةِ كما قال: [وَأَمَّا المُؤْمِن فَيَكُونُ أَخفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا كَمَا جَاءَ في الحديثِ(١)].

إِذَن: خلاصة رأي المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ تدبيرَ الأَمْرِ من السَّماء إلى الأرض بالدُّنيا من أوَّلِها إلى آخِرِها، وأنَّ العُرُوجَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ بهذا الأَمْرِ في الآخرة، وفسَّرَ العُرُوجَ بالرُّجُوعِ، فرارًا من إثباتِ العُلُوِّ الذاتيِّ.

ويبقى على المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إشْكالٌ: وهو أنَّنا إذا جعلنا الرُّجوعَ في يوم القيامة،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٧٥)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ففي الآيَةِ هنا مقدارُهُ أَلْفُ سَنَةٍ، وفي سورة المعارِجِ مقدارُهُ خمسونَ أَلْفَ سَنَةٍ.

والجوابُ عند المُفَسِّر أن يُقال: إنَّ اخْتلافَ التَّقديرِ هنا باعتبارِ أحوالِ النَّاسِ؛ فمنهم من يُخَفَّفُ عنه حتى يكون كألْفِ سَنَةٍ، بل قد يكون كأداءِ صلاةٍ مكتوبةٍ، ومنهم من يُثَقَّلُ حتى يكونَ بمقدارِ خَمْسينَ ألفَ سنةٍ.

أما على القولِ الصَّحيحِ الذي مشى عليه ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] وأَكَّدَهُ في التَّفْسيرِ؛ فيقولون: إنَّ هذا كلَّه في الدُّنيا: التَّدْبير والعُرُوج، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يدبِّرُ الأَمْرَ من السَّماء إلى الأرض، ثم يَعْرُجُ إليه آثارُ هذا التَّدْبير؛ يعني في الدُّنْيا، ويقولون معنى ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: بأنَّ مسافَةَ ما بين السَّماء إلى الأَرْضِ خَمْسُ مئة سَنَةٍ، هذا نزولٌ، ومسافتها عُرُوجًا خَمْسُ مِئَةِ سَنَةٍ، فيكون الجميعُ أَلْفًا، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ باعتبارِ النُّزُولِ وباعتبارِ العُرُوجِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لماذا خَصَّ السَّماء الدُّنيا؟

فالجوابُ: لأنه عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ لأنَّه لو كان الأَمْر في السَّماء السَّابِعَة مثلًا؛ فليست هذه المدَّة إذا جعلنا بين كلِّ سماء إلى سماء خَمْسَ مئة عامٍ، وكِثَفَ كُلِّ سماءٍ خَمْسَ مئَةِ عامٍ، كلُّ عامٍ يكون أَكْثَرَ من هذا؛ فإن مَسافَةَ ما بَيْن السَّمواتِ كما جاءَ في الحديثِ: أنَّ كِثَفَ كُلِّ سماءٍ خَمْسُ مئَةٍ عامٍ، وما بين السَّماءِ والأَرْضِ: خمسُ مئَةِ عامٍ[2].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ﴾: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ هل لا بدَّ أن يكون في يومٍ كامِلٍ

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٢١).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحديد، رقم (٣٢٩٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أو في للظَّرْفِيَّة ولا تقتضي الاستيعابَ؟

الجوابُ: أنَّ (في) للظَّرْفِيَّة ولا تَسْتَلْزِمُ الاستيعابَ؛ يعني: ليس بلازِمٍ أنَّ الأَمْرَ يَنْزِلُ مثلًا عند صلاة الفجر ولا يَعْرُج إلا في الغروب؛ فقد يَنْزِلُ ويَعْرُج في لحظَةٍ حسب ما أراد الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ (في) لا تقتضي الاستيعابَ، فإذا قُلْتَ: (زُرْتُكَ في يَوْمِ الأَحَدِ) فلا يقتضي أن تكون الزِّيارَةُ مُسْتَوْعِبَةً لجميع اليوم، ولكن في وَقْتٍ من هذا اليوم، فإذن ﴿فِي يَوْمٍ﴾ أي: في وقْتٍ من هذا اليَوْمِ، وهذا اليَوْمُ كان مِقْدارُهُ أَلْفَ سنة ممَّا تعدُّون.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذه الآية دليلٌ على كمالِ سُلْطان الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث جعل تدبيرَ الأمورِ إليه، ﴿يُدَبِّرُ﴾ هو؛ ففيه كمال السُّلْطان، وأنَّ الكمال له وَحْدَه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: رَدٌّ على القَدَرِيَّة، الذين يدَّعُون أنَّ أَمْرَ الإنسان مستَقِلٌّ به؛ لأننا نقول: إنَّ فِعْلَ الإنسان من الأمور، والذي يُدَبِّرُه هو الله عَزَّوَجَلَّ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وفيه دليلٌ لقَوْلِ الجَبْرِيَّةِ!

فالجوابُ أن نقول: لكنْ هناك آياتٌ تدلُّ على أنَّ الإنسانَ فاعلٌ بالاختيارِ؛ لقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩] وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢] وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ [المائدة:٢] وما أشبه ذلك؛ فكلُّها تدلُّ على أن للإنسان إرادةً واختيارًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات عُلُوِّ الله عَزَّوَجَلَّ؛ من قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ فقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا النُّزُولُ، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ هذا الصُّعودُ، ولا نُزُولَ إلا من عالٍ، ولا صعود إلا إلى عالٍ، فيُستفادُ عُلُوُّ الله تعالى من الجملتين جميعًا؛ يعني كل واحدة على انفراد.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ أَمْرَ الله عَزَّوَجَلَّ شامِلٌ للسَّماء والأرض؛ لأنَّه إذا كان يُدَبِّرُ الأَمْرَ من السَّماء إلى الأرض، فالسَّماءُ من باب أولى؛ فالسَّماء أَقْرَبُ إليه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هذا التَّدْبير الذي يكون بلحظة: في يومٍ مقدارُه أَلْفُ سَنَةٍ: نزولٌ وعروجٌ يكون هذا بلحْظَةٍ؛ لأنَّ الله يقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وهذا يدلُّ على كمال نفوذِ إرادَةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأنَّه لا يَمْنَعُها بُعْدٌ.

• • ۞ • •

الآية (٦)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [السجدة:٦].

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الخالِقُ المدَبِّرُ] وأتى باسْمِ الإشارَةِ الدَّالَة على البُعْد؛ لِعِظَمِ شأنِهِ وعُلُوِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وقوله [الخالِقُ المدَبِّرُ] الذي تقدم من الصِّفاتِ: الخالِق، المستوي على عَرْشِه، المدَبِّر لخَلْقِه.

والاستواءُ على عرشه من أَهَمِّ ما يكونُ في هذا المقامِ؛ لأنَّه مع عُلُوِّه لا يخفى عليه ما غاب ولا ما شُوهِدَ، فكان ينبغي أن يَذْكُرَه المُفَسِّر مع هذا.

فهو الخالِقُ، وهو المدَبِّر، وهو المُسْتَوِي على عَرْشِه، ومع عُلُوِّه واسْتِوَائه على عَرْشِه لا يخفى عليه شيءٌ، ومع خَلْقِه أيضًا وتَدْبيرِهِ لا يخفى عليه شيءٌ، ولهذا الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلَمُ منك بنفسِكَ؛ لأنَّه هو الخالِقُ، فهو الذي خلق جِسْمَك، وهو الذي يُنمِّيه، وإذا نَما الجِسْمُ بمقدارِ ذرَّةٍ، فإنَّ الله تعالى قد خلق هذا النُّمُوَّ، وأنت لا تَشْعُرُ بما ينمو في جِسْمِك بمقدارِ ذرَّةٍ.

إِذَن: فالله أعْلَمُ منك بنَفْسِك؛ لأنَّه الخالِقُ وهو المدَبِّرُ، وهو المستوي على عَرْشِه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أي: ما غاب عن الخَلْقِ وما حَضَرَ] الغَيْبُ: ما غاب عن الخَلْق، وهو نوعان: غَيْبٌ مُطْلَقٌ لا يَعْلَمُه إلا الله، وغَيْبٌ نِسْبِيٌّ؛

بحيث يكون غائبًا عن شَخْصٍ غيرَ غائبٍ عن آخَرَ، والمراد كلاهما؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَعْلَمُ ما غاب عن الخَلْقِ غَيْبًا مُطْلَقًا بحيث لا يَعْلَمُه أحدٌ، وما غاب عنهما غيبًا نسبيًّا؛ فمثلًا الآن الذي في الشَّارِعِ غائِبٌ عنَّا لا نعلمه، لكنَّ الذين هناك يَعْلَمُونه، وما هنا نحن نَعْلَمُه، وهم لا يَعْلَمُونه؛ فهذا الغَيْبُ النِّسْبيُّ؛ أما عِلْمُ المستَقْبَلِ، وما يكون مِمَّا لم يُخْبِرْنا الله به، فإنه غَيْبٌ مُطْلَقٌ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الشَّهادة يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنَّها الحُضُورُ؛ لأنَّ (شَهِدَ) بمعنى حضر وبمعنى أخبر؛ فلها معانٍ، فهنا المرادُ بالشَّهادةِ الحاضِرُ، فهو يَعْلَمُ الغائِبَ والحاضِرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المَنيعُ في مُلْكِهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأَهْلِ طاعَتِهِ] ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ فسَّرَه المُفَسِّر بأنه [المنيعُ في مُلْكِهِ] ودائمًا يمر علينا في تفسيرِ المُفَسِّر نفسه فيقول: العزيزُ بمعنى الغالِب، وقد سبق لنا: أنَّ العزيزَ هو منِ اتَّصَفَ بالعِزَّة، وأنَّ العِزَّةَ ثلاثَةُ معانٍ: عِزَّةُ القَدْرِ، وعِزَّةُ القَهْرِ، وعِزَّةُ الامتناعِ.

فإذا قُلْتَ: هذا الشَّيءُ عزيزٌ؛ بمعنى أنه ذو قَدْرٍ، كما يقول قائِلٌ لأخيه: أنت عزيزٌ عندي؛ يعني: لك قَدْرٌ عندي ومَنْزِلَةٌ، وعزيزُ القَهْرِ؛ كما يُقال: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:٣] يعني: تَقْهَرُ به الأَعْداءَ. والثَّالث: عِزَّة الامْتِناعِ، وهذا كما يُقال في الأشياء النَّادِرَة: هذا عزيزٌ، وكما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:٢٠] أي: بمُمْتَنِعٍ.

فمعنى الامتناع باعتبارِ كوْنِهِ صفةً لله: أنه يَمْتَنِعُ أن يناله نَقْصٌ في ذاتِهِ أو صِفاتِهِ؛ ولهذا يقول المُفَسِّر هنا [المنيعُ في مُلْكِهِ] فلا يَلْحَقُه نقصٌ لا في ذاتِهِ ولا في صفاتِهِ.

وأمَّا قوله [﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأهْلِ طاعَتِهِ] فكأنه أخذ هذا التَّخصيصَ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣] والصَّوابُ: أنَّ الرَّحيمَ هو مَن رَحِمَ غيرَه، ويَشْمَل المؤمنينَ وغيرَ المُؤمنينَ، ولكنَّه إذا قيل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ فالمراد بالرَّحيمِ هنا الرَّحمةُ الخاصَّةُ، أمَّا إذا أُطْلِقَ فهو رحيمٌ بالخَلْقِ كُلِّهِمْ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣] فهؤلاء الكُفَّارُ هل الله عَزَّوَجَلَّ رَحِمَهُم؟

الجوابُ: نعم، بالمعنى العامِّ رَحِمَهُم؛ فهو تعالى يُنْزِلُ عليهم المَطَرَ ويُنْبِتُ لهم النَّبات ويُعْطيهم الرِّزْقَ والصِّحَّة، وغير ذلك، لكن هذه رَحْمَةٌ عامَّة.

أما رَحْمَتُه بالمؤمنينَ فهي رحمةٌ عامَّة وخاصَّة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ عمومِ عِلْمِ الله؛ لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ هذين الاسمينِ من أسمائه: العزيز الرَّحيم، وما تضَمَّناه من الصِّفَة وهي العِزَّة والرَّحمة، وكمالُ عِزَّته ورَحْمَته باجتماعهما: أنه مع كونه عزيزًا قاهرًا غالِبًا فهو أيضًا رحيمٌ؛ لأنَّ بعض الأَعِزَّاء إذا عَزَّ لا يَرْحَم، وبعض الرُّحَماءِ تَصِلُ به الرَّحْمَةُ إلى أن يكون في مقامِ الذُّلِّ؛ فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جامِعٌ بين العِزِّ والرَّحْمَةِ، وهذا من كماله؛ يعني: الجمعُ بين العِزَّة والرَّحمة فيه كمالٌ أكثَرُ من إثباتِ العِزَّة والرَّحْمة، وهو: أنَّ رَحْمَتَه مقرونَةٌ بعِزٍّ ليست رحمةَ ذلٍّ، وأنَّ عِزَّته أيضًا مقرونَةٌ برَحْمَةٍ ليست عِزَّةَ جَبَروتٍ لا رحْمَةَ فيها.

• • ۞ • •

الآيات (٧-٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ [السجدة:٧-٩].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ بفتح اللام فعلًا ماضيًا؛ صِفَةٌ، وبِسُكُونها بدلُ اشْتِمالٍ] «الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ» القراءَةُ الثَّانية سَبْعِيَّةٌ؛ فعلى القِراءَةِ الأُولى ﴿أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ الجُمْلَة فعليَّة صِفَةٌ لشَيْءٍ؛ وعلى القِراءَةِ الثَّانية: «الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ» يقول: [بَدَلُ اشتمال] ويكون المعنى: الَّذي أَحْسَنَ خَلْقَ كُلِّ شَيْءٍ؛ لأنَّه سَبَقَ لنا أن القاعِدَةَ في بدلِ الاشتمالِ: أنه يَصِحُّ إضافَتُهُ إلى المُبْدَلِ منه؛ تقول: نَفَعَنِي زَيْدٌ عِلْمُهُ؛ فتقول: نفعني عِلْمُ زَيْدٍ، وتقول: أَعْجَبَنِي زَيْدٌ فَهْمُهُ؛ أي: فَهْمُ زَيْدٍ، وتقول: اشْتَرَيْتُ زَيْدًا ثَوْبَهُ؛ أي: ثَوْبَ زَيْدٍ، هذا بدلُ الاشتمالِ، فإنَّه يصِحُّ أن يُضافَ إلى المُبْدَلِ منه؛ على أنَّه يُحْتَمَلُ أنْ تكون (ثَوْبَه) بَدَلَ غَلَط، كأنَّه أراد أن يقول: اشْتَرَيْتُ ثَوْبَ زَيْدٍ، فقال: اشتريتُ زيدًا ثوبَه.

فهنا نقول قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ» يعني: الذي أَحْسَنَ خَلْقَ كُلِّ شيءٍ، والمعنى أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الخالِقُ، وأنَّ كلَّ شيء خَلَقَه فقد أَحْسَنَه، ولكنَّ هذا الإحسان يتفاوَتُ؛ ففي الآدَمِيِّ يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ

فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين:٤] وقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار:٧] أحسن خِلْقَة من الحيواناتِ هو الآدميُّ، ولكِنْ مع ذلك كلُّ شيءٍ له خِلْقَة تُناسِبُه وهي بالنِّسْبة إليه حَسَنَةٌ، ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗا﴾ [الأنعام:١٤٢] الحَمُولَةُ: ما يُحْمَلُ عليه، والفَرْشُ ما لا يُحْمَلُ عليه، كلُّ شيءٍ من هذا وهذا فإنَّه قد خُلِقَ على أَحْسَنِ ما يكون وأَنْسَبِ ما يكون لِمَا خُلِقَ له.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَبَدَأَ﴾ يعني: ابتدأه، وقوله تعالى: ﴿خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ هل المرادُ الجِنْسُ أو المراد العَيْنُ؛ بدأ خلق الإنسان؟ المُفَسِّر مشى على المراد العَيْن، وهو الإنسان المُعَيَّنُ وهو آدم، ويُحْتَمَل أن يكون المرادُ به الجِنْسَ، وبدأ خلْق الإنسان؛ لأنَّ آدَمَ من الإنسان فإن الله بيَّن أنَّ ابتداء خلق هذا الإنسان أَصْلُه من الطِّينِ، وفَرْقٌ بين قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ وبين: ﴿خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ فإنَّ الأخيرة أَبْيَنُ في كون المرادِ به شيئًا فشخصًا مُعَيَّنًا بخلاف (بدأ).

على كلِّ حالٍ: فالآيةُ مُحْتَمِلَة أن يكون آدَمَ أو أن يكون المرادُ به الجِنْسَ، على القول: أنه آدم نمشي.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾ أي: نَسْلَ الإنسانِ الذي ابتدأ من الطِّينَ؛ جعَلَ نَسْلَهُ يقول: [ذُرِّيَّته]؛ لأن النَّسْلَ بمعنى الانفصالِ؛ كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء:٩٦] أي: يَنْفَصِلونَ مُسْرعينَ، فالنَّسْلُ هو الذُّرِّيَّة؛ لأنَّها ناسِلَةٌ من أبيها؛ أي: مُنْفَصِلَة من سُلالَةٍ من ماءٍ مَهينٍ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ﴾ من ماء: هذه صِفَةٌ لسُلالَةٍ؛ سلالَة من الماء، والغريبُ أن المُفَسِّر فسَّر السُّلالَة بـ[العَلَقَة] وليس كذلك، بل السُّلالَة: الخالِصُ من الشَّيء؛ فسلالةُ الشَّيء خالِصُه الذي يسَل منه، فقوله تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ﴾

أي: من خالصٍ من هذا الماء؛ لأنَّ الماء بإذن الله الذي هو المنيُّ يشتمل على حيواناتٍ منويَّة؛ منها يُخْلَقُ الإنسانُ، فهذه النُّطْفَة بمنـزلة القُمْقُم في الرَّحِم؛ يعني: فيها نُمُوُّ الحيوانات المنويَّة، فهذا هو السُّلالَة.

وقوله تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ صِفَةٌ لـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ فإن هذه السُّلالة من هذا الماء.

وقد يُقال: لماذا لا تجعلون ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ بيانًا لقوله تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ يعني: من سُلالَةٍ هِيَ الماءُ المهينُ؟

نَقُول: هذا خلافُ الظَّاهِرُ، والظَّاهِرُ: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ من هذا الماء، والماءُ المَهينُ يكون ضعيـفًا وهو النُّطْفَة، ووُصِفَ بأنه ضعيفٌ؛ لأنه لا يسيلُ سَيَـلانَ الماءِ فهو يَسيلُ بِبُـطْء، والماءُ أقوى منه سَيَلَانًا؛ ولهذا قال: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ لأنَّ الماءَ الغليظَ ليس مِثْلَ الماءِ الَّذي ليس فيه غِلْظَةٌ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ إذا مشَيْنا على ما قال المُفَسِّر ففيه إشكالٌ كبيرٌ، وهو أنَّه يقتضي أنَّ تَسْوِيةَ آدَمَ بعد جعْلِ السُّلالَةِ من ماءٍ مهينٍ. وهذا خِلافُ الواقِعِ؛ يعني: تَسْوِيَة آدَمَ قبل أن تكونَ سلالَتُه من ماءٍ مهينٍ، فما هو الجوابُ عن هذا؟

الجوابُ من أحد وَجْهَيْنِ: إمَّا أن يُقالَ: إنَّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ هذه جُمْلَة مُعْتَرِضَةٌ لبيانِ أنَّ آدَمَ الذي كان من طينٍ كان نَفْسُه من السُّلالَةِ، ثم عاد إلى آدَمَ فقال: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾، وإمَّا أن يُقالَ: إنَّ هذا من بابِ التَّرتيبِ الذِّكْريِّ، وليس من باب التَّرتيبِ المَعْنَويِّ أو الوَقْتيِّ، والتَّرتيبُ الذِّكْريُّ موجودٌ في كلام العَرَبِ، ومنه قولُ الشَّاعِر:

إِنَّ مَـنْ سـادَ ثُـمَّ سـادَ أَبُـوهُ ثُمَّ سادَ مِـنْ بَعْـدِ ذَلِـكَ جَـدَّه[1]

وهذا التَّرتيبُ على خلافِ الواقِعِ، هذا أَحَدُ الوَجْهَينِ.

وأَمَّا إذا قُلْنَا: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي: النَّفْخ ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ كما قالَهُ بَعْضُ المُفَسِّرينَ، فالآيَةُ على التَّرتيبِ ليس فيها إشكالٌ، لكنْ هذا القولُ فيه إشكالٌ في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ فإنَّ هذا الوَصْفَ خاصٌّ بآدَمَ؛ كما قال موسى له وهو يُحاجُّه: «أَنْتَ الَّذِي عَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَرْسَلَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ»[2]، فظاهِرُه أنَّ هذا خاصٌّ بآدَمَ.

ولهذا، الوَجْهُ الأَوَّلُ أَوْلَى من هذا الوَجْهِ، وإن كان الوَجْهُ الأَوَّلُ له قُوَّةٌ من حيث الترتيبُ بـ(ثُمَّ) لكنْ من حيث إنَّ نَفْخَ الرُّوحِ ما كان إلا في آدَمَ وفي عيسى كما هو معلومٌ، فإنَّه يدلُّ على أنَّ المرادَ بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ المراد به آدمُ، ويكون عَوْدًا على بَدْءٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ كَلِمَةُ ﴿مِن رُّوحِهِۦ﴾ مضافةٌ إلى الله، وفيها إشكالٌ؛ إذ إنَّ ظاهِرَها أنَّ آدمَ فيه شيءٌ من رُوحِ الله، فيكون جزءًا من الله، وهذا شيءٌ مُمْتَنِع مستحيلٌ، فمعنى الإضافَةِ إذن: إضافَة خَلْقٍ وتَشْريفٍ؛ كما قال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ بيتي، وهل الكَعْبَةُ بيتٌ لله يَسْكُنُه؟

الجوابُ: لا، لكنَّه بيتٌ أضافَهُ الله عَزَّوَجَلَّ لنَفْسِهِ على سبيلِ التَّشْريفِ والتَّعظيمِ،

---

(١) البيت لأبي نواس الحسن بن هانئ، يمدح به العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر. انظر: ديوانه ط. آصاف (ص:١٢٢)، خزانة الأدب (١١/ ٤٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم (٢٦٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٤] وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس:١٣] فهذه الإضافَةُ على سبيلِ التَّشْريفِ والتَّعْظيمِ لهذا الشَّيْء.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أَيْ: جَعَلَهُ حَيًّا حَسَّاسًا بَعْد أَنْ كَانَ جَمَادًا].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ هذا الْتِفاتٌ من الغَيْبة إلى الخطابِ؛ فإنَّه بدأ خَلْقَ الإنسانِ من طينٍ، ثم جعل نَسْلَه، كلُّ هذا غَيْبَةٌ، ثم سوَّاه: غَيْبة، ونَفَخ فيه من روحه: هذا غَيْبَة؛ ثم قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ هذا خِطابٌ.

والالتفاتُ له فوائِدُ:

الفائِدةُ الأُولَى: تنبيهُ المُخاطَب؛ لأنَّ الكلامَ إذا كان على وتيرة واحِدَة؛ ما حَصَل تَنَقُّلٌ، لكن إذا اختلف يَحْصُلُ التنقُّلُ سواء اختلف بعَوْدِ الضَّمائِرِ؛ كالانتقالِ من الغَيْبَة إلى الخطاب أو بالعَكْس، أو اخْتَلَف في شِدَّةِ الصَّوْت، فعندما يكون الإنسانُ كلامُه هادئًا على وَتيرَةٍ واحِدَةٍ لا يكون هناك انْتِباهٌ، لكن لو أتى بِزَجْرٍ في بعض الأَحْيانِ يَحْصُل الانتباهُ؛ فالالتفاتُ أو تغيُّر الخطابِ؛ كُلُّه يَحْصُلُ به الانْتِباهُ.

والفائِدَة الثانِيَة: تكونُ حَسَبَ السِّيَاق؛ إمَّا مثلًا الزيادَةُ في التَّوبيخِ، أو الزِّيادَة في بيان النِّعْمَةِ، وما أشبه ذلك حَسَبَ السِّياقِ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَكُمُ﴾ أي: لِذُرِّيَّتِه]، فالخطابُ لا شكَّ أنه للذُّرِّيَّة كما قال المُفَسِّر.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ قال المُفَسِّر [بمعنى الأَسْماعِ] وأوَّلَها إلى الأَسْماعِ؛

لأن ﴿لَكُمُ﴾ خطاب لِجَمْع، وإذا كان الخطابُ لجمْعٍ لَزِمَ أن يكون السَّمْعُ لكُلِّ واحِدٍ، فيكون جمعًا.

قال أهلُ اللُّغَة: وإنَّما أَفْرد السَّمْعَ وجَمَعَ الأبصار؛ لأنَّ السَّمْعَ مَصْدَرُ سَمِعَ يَسْمَعُ سَمْعًا، والمصدَرُ لا يُجمَعُ ولا يُثَنَّى، وإنَّما يبقى مُفردًا ويكون مُرادًا به الجِنْس، والأبصارُ جَمْعُ بَصَرٍ، وهو القوَّة الباصِرَة وليس مصدرًا؛ لأنَّ المَصْدَرَ إبصارٌ؛ أَبْصَرَ يُبْصِرُ إبصارًا؛ ولهذا جَمَع؛ حيث إنَّ المرادَ به الجِنْسُ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ الأفْئِدَة يعني [القلوب]، فذكر الله عَزَّوَجَلَّ طريقَ الفَهْم ومكانَ الفَهْم؛ فطريقُ الفَهْمِ هو السَّمْعُ والبَصَر؛ ومَحَلُّ الفَهْم والوَعْي هو القَلْبُ؛ ولهذا يكون السَّمْعُ والبَصَرُ كقَنَاتَيْنِ تَصُبَّان في القَلْب، فيتلقَّى ما يَسْمَع أو يُبْصِر ثم يَصبَّان في القلب، وهو مَحَلُّ الوعي والإدراك.

ولماذا لم يَذْكُرِ الشَّمَّ والذَّوْق واللَّمْسَ؟

الجوابُ: لأنَّ الاتِّعاظَ بالآياتِ يكون بالسَّمْعِ والبَصَر، وبدأ بالسَّمْعِ؛ لأنَّه أَشْمَلُ وأعَمُّ؛ لأنك تَسْمَعُ ما لا تراه، ولما كان أَشْمَلَ وأعَمَّ كان الابتلاء به -والحمد لله- أقَلَّ، لو نَسَبْت الشَّمَّ إلى العمى لوجدْتَ النِّسْبَةَ قليلةً؛ لأنَّ الصَّمَمَ أَشَدُّ، فوجود السَّمْع أهَمُّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [﴿قَلِيلًا مَّا﴾ ما: زَائِدَة مُؤَكِّدَة لِلْقِلَّةِ] ﴿قَلِيلًا﴾ مفعولٌ مُطْلَق يعني: تشكرون شُكْرًا قليلًا؛ يعني: مع هذه النِّعَم التي ساقها الله عَزَّوَجَلَّ منذ ابْتَدَأ خَلْقَ الإنسانِ إلى انتقالِهِ في الأَرْحام إلى خُرُوجه بالسَّمْع والبَصَر والقلب؛ مع هذه النِّعَم العظيمَةِ فالشُّكْرُ قليلٌ؛ أي:

تَشْكرونَ شُكْرًا قليلًا.

و(ما) هذه يقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [زائِدَةٌ مُؤَكِّدَة للقِلَّة] وهذا معروفٌ حتى في الأساليب العُرْفِيَّة الآن؛ تقول: (قليلًا ما...) يعني: توكيدٌ لهذه القِلَّة، فـ(ما) زائِدَةٌ.

من فوائد الآيات الكريمة:

يُسْتَفاد من قَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: كمالُ خَلْقِ الله تعالى؛ لأنه أَحْسَنَه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ كلَّ مخلوقٍ خُلِقَ على ما يُناسِبُ حالَه، وَجْهُ الدَّلالة من الآية: أنَّه لو لم يكن الأَمْرُ كذلك لما كان إحسانُ خَلْقٍ، فإذا كان هذا كذا وضَمَمْتَها إلى آيةِ سُورَة طه وهي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ يعني خَلْقَه المناسِبَ له، ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠] أي: هداه لمصالحه المناسِبَة له، فلو أنَّ هناك مسابقَةً في وظيفَةٍ فلا تُسابِقُ فيه البَقَرُ؛ فليس مِن شَأْنها، لكن لو أُلْقِيَ عَلَفٌ في زاوِيَةٍ من البيت تسابَقَت إليه؛ لأنَّ الله هدى كلَّ مخلوقٍ لما يناسِبُه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تكذيب النَّظَرِيَّةِ الكاذِبَة، وهي نظريَّةُ دَارون الذي يقول: إنَّ الخَلْق نشأ بالتَّطَوُّر، وأنَّ أَصْلَ الإنسان قِرْدٌ، ثم صار على طول الزَّمَنِ إنسانًا، وعلى قاعِدَتِه لا ندري ماذا سيكون الإنسانُ على طول الزَّمَنِ؟! ولا شكَّ أنَّ هذه النَّظَرِيَّة باطِلَةٌ وكُفْرٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ نأخذها من قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ فلا أَصْدَق من هذه الآية شَيْء.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تمامُ قُدْرَتِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ حيث خَلَق هذا الإنسانَ العجيبَ في خَلْقِه وفَهْمِه وتَدْبيرِهِ وذكائِهِ من هذا الشَّيْءِ الجمادِ، وهو الطِّينُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ أَفْعالِ الله الاختياريَّة التي تتعلَّقُ بِمَشيئَتِه؛ تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ﴾، فإنَّ البَدْءَ يكون عَنْ عَدَم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الإنسانَ حادِثٌ بعد أنْ لم يكنْ؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ﴾.

ويُسْتَفاد من قَوْلِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ هذا الإنسانَ الذي خُلِقَ من الطِّينِ له نَسْلٌ، وجعَلَ له نسلًا من أجل أن يبقى هذا النَّوعُ من المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإنسان يُخْلَقُ من المَنِيِّ؛ لقوله تعالى: ﴿نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ والسُّلالَةُ هي الخُلاصَة، والماء المَهينُ هو المنِيُّ، وعلى هذا فهو مَخْلوقٌ من مَنِيِّ الرَّجُلِ لا مَنِيِّ الأُنثى؛ لأنه ماءٌ من المَنِيِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حكمة الله عَزَّوَجَلَّ لهذا الماء؛ حيث جَعَلَه على هذا الضَّعْفِ وعلى هذا النَّوْعِ من أجل حِفْظِ الحيوانِ المنويِّ؛ إذ لو كان سائلًا سُيُولَةَ الماء ما احتفظ بهذه الحيواناتِ، ولو كان غليظًا أَثْخَنَ من هذا لكان منه ضَرَرٌ على هذه الحيواناتِ، فربما تموتُ، ولكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ جعله على هذا الوَضْعِ المُناسِب.

ويُسْتَفاد من قَوْلِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ...﴾ إلى آخره:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَكْمَلَ خَلْقَ الإنسانِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ ويؤيِّدُ ذلك قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] وقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإنسانَ جِسْمٌ، ولا يكون إنسانًا إلا بالرُّوحِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ومنها -وليس بذاك القويِّ-: أنَّ الرُّوحَ جِسْمٌ؛ لأنَّها تُنْفَخُ في هذا الجِسْم البائِدِ، وهو كذلك، فإنَّ الرُّوح جِسْمٌ لكنَّها جِسْمٌ لطيف لا يُرَى، مع أنَّ الملائِكَة تَقْبِضُه وتَجْعَلُه في الحَنُوط وتَصْعَدُ به إلى السَّماء، لكن نحن لا نراه عندما تَخْرُج رُوحُ الميِّت ونحن عنده.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بيان نِعْمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الإنسانِ بجَعْل السَّمْع والأَبْصارِ والأَفْئِدَة التي بها إدراكُ المعقولِ وعقله؛ فإدراكُ المَعْقولِ بالسَّمْع والبَصَر، وعقله بالقَلْبِ ووَعْيه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الإنسان قليلُ الشُّكْر؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ كما أنَّ الشَّاكِرَ قليل أيضًا، فالشاكِرُ قليلٌ والقائِمُ بالشُّكْر على الوَجْهِ المطلوبِ قليلٌ؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، والشَّاكِرُ قليلٌ؛ لأنه من حيث الأفرادُ والأشخاصُ واحِدٌ في العَشْرة، وهذا قليلٌ، ونَفْسُ الواحِدِ هذا أيضًا شُكْرُه قليلٌ، فالشَّاكِرُ قليلٌ، وشُكْرُ الشَّاكِرِ أيضًا قليلٌ.

فقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ هذا باعتبارِ شُكْرِ الشَّاكِرِ، وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ باعتبارِ الأَفْرادِ الشَّاكرينَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ذَمُّ من لا يَشْكُرُ؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه ينبغي للإنسانِ أن يكون شُكْرُه على حَسَبِ النِّعْمَةِ؛ ففي السَّمْعِ يَسْتَعْمِل السَّمْعَ فيما يُقَرِّبُ إلى الله ويَمْنَعُه عما حَرَّم الله، وكذلك في البَصَر؛

أما القَلْبُ فيجب عليه أن يُعْرِضَ بِقَلْبِهِ عن كلِّ ما حَرَّم الله، وأن يُقْبِلَ بقَلْبِهِ على كلِّ ما أَمَر الله به.

• ● ۞ ● •

الآية (١٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ [السجدة:١٠].

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ قال المُفَسِّر [أي: مُنْكِرو البَعْثِ] قالوا: يريدونَ هذه الشُّبْهةَ: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ غِبْنا فيها بأنْ صِرْنا ترابًا مُخْتَلِطًا بتُرابِها] هذا معنى ﴿ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا﴾ يعني: غِبْنا فيها وصِرْنا ترابًا كسائِرِ التُّرابِ، فإذا حصل ذلك: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ اسْتِفْهامُ إنكارٍ؛ يعني: أَنكُونُ في خَلْقٍ جديدٍ بعد أن أَكَلَتْنَا الأرضُ وضَلَلْنا فيها؟! والاسْتِفْهامُ هنا إنكارِيٌّ؛ يعني: لن نكون ذلك، هذه الشُّبْهَة.

وهل هي حُجَّةٌ أم غير حُجَّةٍ؟

الجوابُ: ليست بحُجَّةٍ؛ لأنَّنا نقول: أنتم خُلِقْتُم من تراب، والذي خلقكم أوَّلًا من تراب قادِرٌ على أن يُعيدَكُم ثانيًا من هذا التُّراب؛ ولهذا جاءت هذه الآيةُ بعد ذِكْرِ خلْق الإنسانِ من طين.

وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾: (إذا) هذه شرطِيَّةٌ، جوابها مفهومٌ من الجُمْلَة بعدها؛ يعني: أإذا ضَلَلْنا في الأرض نَنْشَأُ خَلْقًا جديدًا؟! وقولهم: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ يعني: أَيَتَأَكَّدُ أَنَّنا في خلقٍ جديدٍ.

وَلِهَذَا لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كانَتِ الجُمْلَةُ الاسْتِفْهامِيَّة هنا للإنكارِ، فكيفَ تأتي اللَّامُ الدَّالَّةُ على التَّوْكيدِ ﴿أَءِنَّا لَفِى﴾؟

نَقُول: المراد يُنْكِرونَ أن يتأكَّدَ ذلك، يعني: أيتَأَكَّدُ أنَّنا في خلقٍ جديدٍ بعد أن تأْكُلَنا الأَرْضُ، وهو كقولِ إخْوَةِ يُوسُفَ: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ [يوسف:٩٠].

فالمُهِمُّ: أنَّ هذا التَّأْكيدَ كأنَّهم يُنْكِرونَ ما أُكِّدَ من كَوْنِهم يُرْجَعونَ ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَفِى خَلْقٍ﴾ هل الخَلْقُ هنا بمعنى المَخْلوقِ؛ يعني: أَإِنَّا لَنكونُ في أمَّة جديدة، أو أنه مَصْدَرٌ بمعنى التَّقريبِ؛ يعني ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ﴾ أي: لأن يَخْلُقَنا الله؟

يحتمل المعنيينِ، وكلاهما صحيحٌ ولا يَتَعارضانِ، يعني أَنَكُونُ في خلقٍ جديدٍ وأمَّةٍ جديدة، أو أَنَخْلَقُ خَلقًا جديدًا بعد أن ضَلَلْنا في الأَرْض وكنَّا ترابًا؟!

والجوابُ: وما ذلك على الله بِعَزيزٍ، فالذي أنشأَكُم من التُّرابِ قادِرٌ على أن يُعيدَكُم منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ حتى لو فَنِيَ الإنسانُ كلُّه، مع أنه ورد في الحديث أنه «يَفْنَى كُلُّهُ إِلَّا عَجَبَ الذَّنَبِ»[1] فإنَّه منه يُخْلَقُ الإنسانُ كالنَّواةِ بالشَّجرة، فيُسْتَثْنى من ذلك الأنبياءُ عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ فإنَّ الله حرَّم على الأرضِ أن تأكُلَ أجسادَ الأنبياءِ، وهذا دليلٌ على قُدْرَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإلَّا فالأنبياءُ بَشَرٌ؛ لأنَّهم خُلِقُوا أصلًا من ترابٍ، لكن الآن من لَحْم وعَظْم وجِلْد كسائر بني آدَمَ، ومع ذلك الأَرْضُ لا تأكُلُ منهم شيئًا أبدًا، أمَّا غير الأنبياءِ فإنَّها تأكُلُهُم، لكن قد يَحْمي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، رقم (٤٩٣٥)، ومسلم: كتاب الفتن، باب ما بين النفختين، رقم (٢٩٥٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَدَنَ بَعْضِ النَّاس لا تأكله الأَرْض؛ على نوعٍ من الكرامَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فيها قراءَةٌ: بتحقيقِ الهَمْزَتين، وتسهيل الثانيةِ، وإدخال أَلِفٍ بينهما على الوَجْهَين في الموضعَيْنِ، وحصار عجيب، وفي تحقيق الهمزتين في الموضعين فيُقْرَأ: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذا التَّحْقيقُ، وإدخالُ ألف بين هَمْزَتين محقَّقَتَيْنِ: (آإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ آإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيد) هذا إدخالُ الأَلِف، فعندنا ثلاثَةُ ألفاتٍ؛ وتسهيل الثانية (أَيِذَا) لا تجعلها مُحَقَّقة بل بين الهمزة والياء: (أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْض) بدون ألف، وبألف (أَاِذَا) لا تُبَيِّنْ هذا، واجعلها بين الهمزة والياء، إذن فالقراءاتُ أَرْبَعٌ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث ﴿كَٰفِرُونَ﴾] يعني: ﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الإبطاليِّ؛ يعني: بل الأَمْرُ ليس كما شَبَّهوا ولبَّسُوا، فهم يعلمون قُدْرَة الله لكنَّهم جاحدون: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿كَٰفِرُونَ﴾ و﴿كَٰفِرُونَ﴾ خبرُ المبتدأ ﴿هُم﴾ أي: بل هم كافرون بلقاءِ ربِّهم أو بملاقاتِهِ. ومتى تكون الملاقاةُ؟

الجوابُ: تكون بالبَعْثِ، ومن كذَّبَ بلقاءِ الله فقد كفر بالله؛ ولهذا قال المُفَسِّر مفسِّرًا لها بالمراد لا بالمعنى؛ قال: [بالبعث] وإلَّا فهي أخصُّ من البَعْث؛ فاللِّقاءُ بمعنى الملاقاةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦] الإنسانُ أيُّ إنسانٍ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق:٧] إلى آخره.

فهؤلاء الكافرونَ بلقاء الله؛ لأنَّهم لا يؤمنون بالبَعْثِ، ومن لم يُؤْمِنْ بالبَعْث لم يؤمِنْ بلقاءِ الله.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: توبيخُ هؤلاءِ الْمُنْكِرِينَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤلاء المكَذِّبينَ كانوا شاكِّينَ في قُدْرَةِ الله؛ لقولهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا أَفَتَرَيْنَا... أَءِنَّا﴾ ويُحْتَمَل أن يكون ذلك منهم مكابَرَةً وأنَّهُم عالِمون بقُدْرَة الله، لكن يُكابِرون، ويُؤَيِّد هذا قوله تعالى: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ يعني أنَّ الأَمْرَ واضِحٌ لكنْ هؤلاء كُفَّارٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تمامُ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ بإعادَةِ الأَمْواتِ بعد أن غابوا في الأَرْض واضمحَلُّوا فيها، فيُنْشِئُهُم الله تعالى خلقًا جديدًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إبطالُ قَوْلِ من يقول: إنَّ البَعْثَ إيجادٌ مِن عَدَمٍ؛ فإن هناك من يقولُ: إنَّ هذا الخَلْقَ يُعْدَم بالكُلِّيَّة ثم يُنْشَأُ من جديدٍ، وهذا قولٌ باطِلٌ؛ لأنه لو كان الأمْرُ كذلك لكان الثوابُ لمن لا يَعْمَلُ، والعُقوبة على من لم يَعْمَلْ، ولو قلنا إنَّه يُعْدَمُ بالكلِّيَّة ثم يُنْشَأُ خَلْقًا جديدًا ويُحاسَبُ، فهذا الجديدُ ليس موجودًا بالأَوَّلِ فيكون معاقَبًا على ما لم يَفْعَلْ ومُثَابًا بما لا يَفْعَلُ؛ والله تعالى قد بَيَّنَ أنَّ الإنسانَ نَفْسَه هو الذي يُعادُ وليس يُعْدَمُ ثم يُخْلَقُ من جديدٍ، ولكنَّه يُعادُ، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ فلم يَقُلْ نَخْلُق غَيْرَه.

والشَّاهِدُ قَوْلُه: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾ يقولون: كيفَ بعدما نَغيبُ في الأَرْضِ ونكون ترابًا كيف نُبْعَث؟! فدلَّ هذا على أنَّ البَعْثَ هو إعادةُ ما سَبَقَ وليس باستدعاءِ خَلْقٍ جديدٍ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هؤلاء الْمُنْكِرِينَ للبَعْثِ ليس عندهم حُجَّةٌ إلا مُجَرَّد الكُفْرِ؛

لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ ملاقاةِ الله عَزَّوَجَلَّ يومَ القِيامَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿بِلِقَآءِ﴾ ومِثْلُه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

الآية (١١)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة:١١].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ﴾ لهم ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: بِقَبْضِ أرواحِكُم] ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ يَقْبِضُكُم، كما تقول: توفَّيتُ حقِّي من فلانٍ؛ أي: طَلَبْتُه وكذلك استوفَيْتُه؛ أي: قَبَضْتُه على سبيل الوفاء وهو الكمالُ، فمعنى يتوفَّاكُم أي يَقْبِضُكم، والمراد قَبْضُ الأَرْواح.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ مَلَكٌ: مُفْرَد ملائِكَةٍ، أو مُفْرَدُ أَمْلاك، وهو مُشْتَقٌّ من الأَلُوكَةِ بمعنى الرِّسالَةِ، وعلى هذا فأصْلُه مَأْلَكٌ، ثم حُوِّل فقُدِّمَتِ اللَّام وأُخِّرَت الهمزةُ، فكانت (مَلْأَك) ثم خُفِّفَ فحُذِفَتِ الهمزةُ فصار: مَلَكًا؛ ولهذا إذا جُمِع جاءت الهمْزَة فقيل: ملائكة، ولا يقال: مَأَلِكَة؛ لأنَّ فيه إعلالًا بالتَّحويلِ؛ يعني: تقديم وتأخير وهو من الأَلُوكَة؛ أي: الرِّسالة؛ فمَلَكُ الموتِ معناه الذي أَرْسَلَه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لقَبْضِ الأرواح؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ أُضِيفَ إلى الموت؛ لأنه يُميتُ النَّاسَ بإذن الله، فسُمِّيَ مَلَكَ الموت، وقد سُمِّيَ في بعض الآثارِ بعِزْرَائِيلَ، ولكنَّه لم يَصِحَّ

عن رسول الله ﷺ؛ وقد صَحَّ من أسمائهم: جِبْرائِيلُ ومِيكائيلُ وإِسْرافيلُ[١] ومالِكٌ خازِنُ النَّارِ ورِضْوانُ خازِنُ الجنَّة[٢].

وعلى كلِّ حالٍ: عِزْرائيلُ لم يَثْبُت عن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على الرَّغْمِ أنَّ هذا الاسم أشْهَرُ أسماءِ الملائكة عند العامَّة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ وكَّلَهُ الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا التَّوْكيلُ ليس توكيلًا لحاجَةٍ، ولكنَّه توكيلُ سُلْطانٍ وعظمة؛ لأنَّ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ لا يحتاج إلى أحد يُعِينُه، وَكُلُّ من وُكِّلَ مِنَ الملائكة بشيءٍ فَلَيْسَ ذلك على سبيل الحاجَةِ، أمَّا أنا إذا وَكَّلْتُ أحدًا فقد أكون محتاجًا إلى هذا؛ لأنَّني لا أستطيع مُباشَرَةَ العمل، لكِنْ ربُّنا عَزَّوَجَلَّ لا يحتاج، وإذا أراد شيئًا قال له كُنْ فيكونُ، لكنَّه يُوَكِّلُ ذلك توكيلَ سُلْطانٍ وعَظَمَة؛ لبيان سُلْطانه وعَظَمَتِه، وأنَّ كلَّ شيء في خِدْمَته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي عبادته.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: وَكَّلَه الله؛ إذن الله وَكيلٌ ومُوَكِّلٌ؛ قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب:٣] ومُوَكِّلٌ كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ [الأنعام:٨٩] وهنا قال: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ولكنْ ليس كونُه وكيلًا بمعنى أنه مُتَوَكِّل لغيره، والمُوَكِّل أعْلى منه كما هو مَعْهودٌ، ولكنَّه وكيلٌ بمعنى رَقيب على عباده مُهَيْمِن عليهم.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ هنا مُفْرَدٌ ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ﴾ وفي آية أخرى في سورة الأنعام ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ فقال: ﴿رُسُلُنَا﴾ فجمَعَ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه الدارقطني في جزء رؤية الله رقم (٦٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ في الزُّمَر، فكيف نَجْمَعُ بين هذه الآيات الثَّلاثِ؟

الجوابُ: جمع أهل العلم بينهُنَّ: بأنَّ قولَه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ ﴾ هذا هو الأَصْلُ، أما المتوفِّي هو الله لأنَّه المُدَبِّر، المدبِّرُ للشيء، والمدبِّرُ للشيء فاعلٌ له؛ كما تقول: بنى المَلِكُ قصرًا للحُكْم؛ فهل يعني ذهب وجاء بالزنبيل وجاء بالفاروعِ، وجاء بالمِسْحَاة، وجاء بالماءِ وجَهَّز الطينَ وحمل على مَتْنِه ليبنِيَ؟

الجوابُ: ليس المعنى كذلك؛ إذن معنى بناه؛ أي: أَمَرَ ببنائِهِ، لكنْ لما كان هذا البناءُ لا يتِمُّ إلا بأَمْرِه أُسْنِدَ إليه؛ فالله تعالى يتوفَّى الأَنْفُسَ فلا يكون تَوَفِّيها إلا بأمره، فأُسْنِدَتِ الوفاةُ إليه.

أما قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ فإمَّا أن يقال: إنَّ مَلَكَ الموت هنا مفردٌ مضاف، وهذا له وَجْهٌ في اللُّغَة العربيَّة، لكن ليس بصحيحٍ من ناحِيَة الواقِعِ، ولكنَّ الواقِعَ أن مَلَكَ الموتِ له أعوانٌ، له أعوانٌ قَبْل قَبْضِ الرُّوح، وأعوانٌ بَعْد قَبْضِ الرُّوح؛ فالأعوانُ قبل القَبْضِ يسوقونَ الرُّوحَ من البَدَن حتى تَصِلَ إلى الحُلْقُومِ ثم يَقْبِضُها، وأعوانٌ بعد ذلك إذا قبضها فهناك ملائِكَةُ الرَّحمة تنتظِرُ هذه الرُّوحَ بالكَفَنِ الذي من الجَنَّة فلا يَدَعُونَها في يده طَرْفَةَ عين حتى يَقْبِضوها ويَجْعَلوها في ذلك الكفَنِ، وإن كان الإنسانُ بالعَكْس -والعياذ بالله- فيكون عنده ملائِكَةُ العذابِ، معهم كفنٌ من نار لا يَدَعُونها في يده طَرْفَةَ عينٍ.

فيكون هنا المرادُ: الجمع بينهما: أنَّ إسنادَ الوفاة إلى الرُّسُل إلى الملائكة وهم جَمْعٌ؛ لأنَّهُم أعوانُ مَلَكِ الموتِ، فكان لهم نَوْعُ مُشارَكَةٍ في هذا الفعل، ومَلَكُ الموت هو الذي يقبضها إذا بلغت الحُلْقُومَ، وبهذا الجَمْعِ يزول الإشكالُ.

ونحن قد بيَّنَّا كثيرًا أنَّ القرآنَ والسُّنَّة ليس فيهما تعارُضٌ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا﴾ [النساء:٨٢] لأنه إذا رَأَيْتَ في شيء منهما تعارضًا فاعلم أن ذلك من سُوءِ فَهْمِك أو قِلَّة عِلْمِك، فتَدَبَّرْ وتَعَلَّمْ حتى يتبيَّنَ لك الأمرُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وما الجوابُ عن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾؟

فالجوابُ: لكنَّ الذي يتولى إخْراجَها مباشَرَةً من عند الحُلْقُوم هو مَلَكُ الموتِ، ثم هؤلاء الملائِكَةُ الباسطونَ أيديهم، إن كان أنَّهُم الذين يَنْتَظِرون قَبْلها فهم يَنْتَظِرون قبل أن يَأْخُذَها منه، وإن كان الآخرونَ الذين يُخْرِجونها حتى تَصِلَ إلى الحُلْقُوم فكذلك، وليس هناك مُشْكِلَةٌ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي بِقَبْضِ أَرْواحِكُم] يعني: لم يُوَكَّلْ بنا في كُلِّ شيء، ولكنَّه وُكِّلَ بنا بِقَبْض الأرواح فقط، لكنْ هناك ملائِكَةٌ مُوَكَّلونَ بنا في حِفْظ أعمالنا وفي حِفْظنا أيضًا، وكذلك ملائِكَةٌ موكَّلون في أعمالنا يجوبون الأرضَ وينظرون مجالِسَ الذِّكْرِ فَيَجْلِسون فيها.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أحياءً فيُجازيكُم بأَعْمالكم] يعني بعد الموتِ يَرْجِعُ الإنسان إلى ربِّه فيُجازَى بِعَمَلِه إنْ خَيْرًا فخَيْرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الذي يتولَّى قَبْضَ الأَرْواحِ مَلَكُ الموتِ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ الملائِكَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ والملائِكَةُ عالَمٌ غَيْبِيٌّ

خَلَقَهم الله تعالى من نور، وجعلهم من السَّامعين المطيعينَ له، وأَقْدَرَهُم على فِعْلِ المأمورِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩] وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦] لكمالِ الامتثالِ وكمالِ القُدْرَة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تمام تنظيم الله عَزَّوَجَلَّ للأُمُورِ وإحكامه لها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ فإنَّ كلَّ مَلَكٍ مُوَكَّلٌ بِشَيءٍ من الأشياء لتمامِ النِّظَامِ وإحْكَامِهِ وإِحْسانِهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: عَظَمَةُ سُلْطانِ الله؛ تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ وقد سبق لنا: أنَّ هذا التَّوْكيلَ ليس عَجْزًا من الله عَزَّوَجَلَّ ولكِنَّه نظامُ سُلْطَانِهِ وعَظَمَتِه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الرُّجُوعِ إلى الله؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، ويُؤْخَذُ منه إثباتُ الجَزاءِ؛ لأنَّه هذا هو المقصودُ مِن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

• • ۞ • •

الآية (١٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢].

قول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الكافرونَ ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ﴾ مُطَأْطِئُوها حياءً، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ ما أَنْكَرْنا من البَعْثِ ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منكَ تَصْدِيقَ الرُّسُل فيما كذَّبْناه فيك، ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدُّنْيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ فيها ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآنَ].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الخطابُ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ إمَّا للرَّسول ﷺ، وإمَّا إلى كُلِّ من يتوجَّهُ إليه الخطابُ، وهذا المعنى أعَمُّ والأَخْذُ به أَوْلى؛ لعمومه؛ ولهذا الخطاباتُ التي تأتي للمُفْرَدِ في جميع القرآن الأَوْلَى أن تُحْمَل على العموم وأن يُرادَ بها كُلُّ من يتوجَّه إليه الرَّأيُ، إلا إذا منع من ذلك مانِعٌ، فتكون خاصَّةً بالرَّسُولِ ﷺ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾: (لو) هذه شرطِيَّة، و(لو) الشَّرْطيَّة تحتاجُ إلى شَرْط وإلى جواب الشَّرْطِ؛ فالشَّرْطُ قوله تعالى: ﴿تَرَىٰٓ﴾ والجوابُ محذوفٌ تقديرُهُ: لَرَأَيْتَ أَمْرًا فظيعًا.

وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾: ﴿إِذِ﴾ هذه ظَرْفٌ؛ يعني:

لو ترى ذلك الوَقْتَ الذي فيه المُجْرِمون على هذا الوَصْفِ لرَأَيْت أمرًا مُوجِعًا فظيعًا، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ مبتدأٌ، و﴿نَاكِسُوا۟﴾ خبرٌ، والنُّونُ التي في (ناكِسُونَ) حُذِفَتْ لأَجْلِ الإضافَةِ.

وقوله تعالى: ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: مُطَأْطِئُوها؛ يعني: خافِضُوها، والعياذُ بالله.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: عند الله عَزَّوَجَلَّ وَهُم بين يديه يومَ القيامَةِ، ولكن ناكِسُوها، يقول المُفَسِّر [حياءً] وفي النَّفْسِ من هذا التَّفْسيرِ شيءٌ، ولَكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهُم ناكِسُوها ذُلًّا وخُضُوعًا لسلطانِ الله؛ بدليل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ أمَّا حياءً فالحياءُ محمودٌ، لكنْ كَوْنُهم يَنْكسونها ذلًّا هذا هو الواقِعُ: ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ذلًّا؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الشورى:٤٥].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ جملة: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ مقولٌ لِقَوْلٍ محذوفٍ؛ تقديره: يقولون ربنا أَبْصَرْنا، يعني يا رَبَّنا، ونادَوُا الله تعالى باسم الرُّبُوبِيَّة؛ لأنَّ الغالِبَ أنَّ الجُمَل الدُّعائِيَّة تأتي مُصَدَّرَة برَبٍّ؛ لأنَّ (رب) هو المالِكُ المتصَرِّفُ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ ما أَنْكَرْنا من البَعْثِ] هذا ما قاله المُفَسِّر؛ وعليه فيكون مفعولُ أَبْصَرْنا محذوفًا، والتَّقْديرُ: ما أَنْكَرْنا من البَعْثِ.

ويُحْتَمَل أنَّ ﴿أَبْصَرْنَا﴾ هنا أي: حَضَرَت أَبْصارُنا وبصائِرُنا، فيكون أعَمَّ مما قدَّرَه المُفَسِّر؛ يعني: صِرْنا ذَوِي بَصَر وبصيرة الآن، فيكون أعَمَّ؛ يعني كأنَّهُم يقولون: الآن صِرْنا ذَوِي بَصَر وبصيرة، وهذا المعنى أعَمُّ وأَبْلَغ.

وكذلك (سَمِعْنا) يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(سَمِعْنا) منكَ تَصْديقَ الرُّسُلِ فيما كذَّبْناهُم فيه] لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢] ولكن أيضًا هذا الذي قال المُفَسِّر لنا فيه وجْهٌ أحْسَنُ مما قال؛ فيكون معنى ﴿سَمِعْنَا﴾ أي كنا ذوي سَمْع الآن؛ ولهذا يقولون: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ يعني فيما مضى ﴿أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠] أمَّا في يوم القيامة فيقولون: الآنَ صِرْنا ذَوِي بصر، وصِرْنا ذَوِي سَمْع.

وقوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ﴾ ارْجِعْنا إلى الدُّنيا، وهو فِعْلُ طَلَبٍ أو دعاء، وليس فِعْلَ أمرٍ؛ لأنَّ المخلوقَ لا يوجِّه أمرًا إلى الخالِقِ، وقوله تعالى: ﴿نَعْمَلْ﴾ هذا جوابُ الطَّلَب مجزومٌ؛ يعني: إن تَرْجِعْنا نَعْمَلْ صالحًا.

وقوله تعالى: ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ يعني عملًا صالحًا، والعَمَلُ الصَّالح تقدَّم كثيرًا أنَّه ما جمع شرطينِ؛ هما: الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمُتابَعَة للرَّسول ﷺ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآن، فما يَنْفَعُهُم ذلك ولا يَرْجعون] معلومٌ أنه لا يَنْفَعُهم، إذا شاهدوا العذابَ فإنَّ الإيمانَ لا يَنْفَعُهم؛ فكُلُّ من شاهَدَ العذابَ فإنَّه لا ينفعه الإيمانُ؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر:٨٤] قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:٨٥] ولا أَحَدَ ينفَعُه إيمانُه بعد العذابِ إلا قَرْيَة واحِدَة وهم قومُ يونُسَ؛ لَمَّا آمنوا كَشَفَ الله عنهم العذابَ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ فالآن شاهَدَ العذابَ فلا يَنْفَعُ؛ ولهذا يَجِبُ على الإنسانِ أن يبادِرَ عُمُرَه قبل أن يَحِلَّ به أَجَلُه فلا يستطيعُ الخلاصَ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ جاء بالجُمْلَة الاسمِيَّة الدَّالَّةِ على الثُّبُوتِ والاسْتِمْرار ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآن؛ لكن لا يَنْفَعُ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ وهذا خبرُ الله عَزَّوَجَلَّ والذي لا يَكْذِبُ ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٧-٢٨].

والمراد الكُفَّارُ، أمَّا الفُسَّاقُ فليسوا دائمين في النَّارِ؛ فعذابُهُم بقَدْر أَعْمالهم، ثم إنَّهم يَدْخُلون الجنَّةَ، والفُسَّاقُ يَعْبُرونَ الصِّراطَ ولا يُذْهَبُ بهم إلى النَّارِ مباشرة، بل يَعْبُرون الصِّراطَ ثم يَتساقَطُون في النَّارِ بِحَسَبِ أَعْمالهم.

قال المُفَسِّر: [وجوابُ (لو): لَرَأَيْتَ أَمْرًا فظيعًا] يعني: الجوابُ محذوفٌ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: ما هي الحِكْمَةُ في حَذْفِ الجواب؟ ولماذا لا يُذْكَرُ من أجل ألَّا يكونَ هناك اختلاف؟ وما هي الحِكْمَة في الإبهامِ في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨]؟ ولماذا لا يُذْكَرُ لأنَّه أَبْيَنُ؟

الجوابُ: أنَّه في مقام التَّهويل ينبغي الإبهامُ؛ لأجل أن يَذْهَبَ الذِّهْنُ كلَّ مَذْهَبٍ في تعظيم الأَمْرِ وهَوْلِه؛ لأنَّه إذا ذُكِرَ الشَّيْء قد يهونُ؛ فلو قيل لك: والله هناك سَبُعٌ عظيم يأكل النَّاسَ ويفعل ويفعل ويفعل! وهوَّلَ لديك وأنت لم تَرَهُ فسيكونُ عندك رُعْبٌ، لكنْ ربَّما إذا رأيته يَهُون عليك الأَمْر؛ كذلك مِثْلُ هذه الأمور العظيمة؛ إذا أَبْهَمَها الله فإنَّها أعظم وأَوْقَع في النَّفْس وأَشَدُّ وأَعْظَمُ؛ ولهذا حُذِفَ الجوابُ هنا، وأُبْهِمَ الغاشي في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ وأُبْهِمَتِ الحاقَّة والقارعة في مثل: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٣]، ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١-٢] وما أشبه ذلك، وكلُّ هذا من باب التَّعظيمِ والتَّهويلِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذا بيانُ فَظَاعَةِ ما يَحِلُّ بالكافرينَ يَوْمَ القيامَةِ؛ يؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ والمُقَدَّرُ جوابُها: لَرَأَيْتَ أَمْرًا فظيعًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤلاءِ المُجْرِمين المُسْتَكْبِرينَ في الدُّنْيا الرَّافِعي رُؤُوسِهم ستكونُ حالُهُم في يوم القِيامَةِ على العكس من ذلك؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ﴾؛ وقد قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حياءً] والصَّواب: أنه ذلًّا وعارًا وخِزْيًا، والعياذُ بالله.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ المجرمينَ يومَ القيامة يُقِرُّونَ بالحقِّ؛ تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ ولكن لا ينفعُ هذا بعد أن شاهد الإنسانُ الجَزاءَ، فلا يَنْفَعُه أن يتوبَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هؤلاءِ يَطْلبونَ الرَّجْعَة إلى الدُّنْيا؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾.

ويتفَرَّعُ عليها: أنَّ الآخِرَة قد يكون فيها شيءٌ من العباداتِ؛ لأنَّ الدُّعاءَ من العبادَةِ وهم يَدْعُونَ الله، وعليه فمن نفى أنَّ الآخِرَةَ دارُ عَمَل فإنَّ نَفْيَه على سبيل العُمُومِ فيه نَظَرٌ ظاهِرٌ، فإنَّ الآخِرَة قد يكون فيها تكليفٌ؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢].

مسألة: التَّكليفُ في الآخِرَةِ هل يكونُ عليه ثوابٌ؟

الجوابُ: نعم، ولهذا أَهْلُ الفترة يُكَلَّفُون في الآخِرَة، فمن أطاع منهم دخلَ الجَنَّة ومن عصى دخل النَّار.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هؤلاء المكَذِّبينَ يُوقِنونَ بالعَمَل في الآخِرَة؛ لقولهم: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إقرارُهُم على أَنْفُسِهِم بأنَّ عَمَلَهم السَّابِقَ ليس بصالِحٍ، تُؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾؛ لأنَّهُم كأنَّهُم بالأَوَّلِ لا يَعْمَلون صالحًا.

• ● ۞ ● •

الآية (١٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة:١٣].

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ اللهمَّ اهْدِنْا فيمن هَدَيْتَ! قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ فتهتدي بالإيمانِ والطَّاعة باختيارٍ منها].

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ الضَّميرُ يعودُ على الله عَزَّوَجَلَّ، وأتى بضميرِ الجَمْع تعظيمًا.

فإذا قال النَّصْرانيُّ: الآلِهَة ثلاثَةٌ؛ ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ وهنا للجمْع؛ هاتوا لنا دليلًا يُخرِج هذا اللَّفْظَ عن معناه، وإلا فالصَّوَابُ مَعَنا، وأنتم أيُّها الموحِّدون على ضلالٍ، وإلا لقال الله: ولو شِئْتُ؟

فالجوابُ: أنَّ هذا من باب التَّشْبيهِ والتَّلبيسِ، وإلَّا فارْجِعْ إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٣] فيكون قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ من باب التَّعْظيمِ، والله تعالى عظيمٌ بصفاته، فكلُّ صِفَةٍ منه من صفاته تقتضي عظمةً غيرَ ما تقتضيه الصِّفَةُ الأخرى، وباجتماعِ هذه الصِّفات يكون هناك عِظَمٌ أعْظَمُ وأَجَلُّ.

وقوله تعالى: ﴿لَآتَيْنَا﴾ هذا الجوابُ الأوَّل، و﴿لَآتَيْنَا﴾ أَعْطَيْنا؛ ولهذا نَصَبَتْ مفعولينِ: المفعولُ الأوَّل: ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾؛ والثَّاني: ﴿هُدَىٰهَا﴾ والهُدى بمعنى الدَّلالَة والتَّوْفيق؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فتَهْتَدي بالإيمانِ والطَّاعة] ولو شاء الله تعالى لفَعَلَ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آيات أخرى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود:١١٨-١١٩]؛ فالله عَزَّوَجَلَّ لو شاء لجَعَلَ النَّاسَ أمَّةً واحِدَةً على الإيمان والتَّوْحيدِ والاستقامَةِ، ولكن حِكْمَةُ الله تأبى ذلك لأسبابٍ كثيرةٍ؛ منها: أنه جَلَّوَعَلَا قال للنَّارِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؛ فقال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ وهذا قَسَمٌ وتَعَهُّدٌ من الله عَزَّوَجَلَّ للنَّارِ أن يَمْلَأَها: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾، ولو كان النَّاس أمَّة واحدةً على التوحيد ما صَدَق هذا.

فإذَن: لا بدَّ أن يَصْدُق، واعلم أنه لو كان النَّاسُ أمَّةً واحدةً على التَّوْحيدِ هل يتَمَيَّز المؤمِنُ من الكافِرِ؟ لا؛ فكلُّهم واحِدٌ، فلا امتحان ولا اختبار، ولو كان النَّاسُ أمَّةً واحدةً على التَّوحيد لانْسَدَّ بابُ الأمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المُنْكَر، والسَّبَبُ أنه ليس هناك مُنْكَرٌ قد يحتاج إلى نَهْيٍ عن المُنْكَرِ، ولو كان النَّاسُ على أمَّةٍ على التَّوْحيدِ لبَطَلَ الجهادُ، أو فمَنْ نُجاهِدُ؟ لا أحد.

المُهِمُّ: أنَّ هناك حِكَمًا كثيرةً في كون الله عَزَّوَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ على قِسْمين؛ ولهذا قال هنا: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي﴾: ﴿حَقَّ﴾ بمعنى وَجَبَ وثَبَت، و﴿ٱلْقَوْلُ﴾ فاعلٌ و﴿مِنِّي﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ حالٌ من القَوْلِ، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ حالَ كَوْنِه صادرًا ﴿مِنِّي﴾ وهذا القولُ هو: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ الجِنِّ ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وهنا الفِعْلُ ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ مؤكَّدٌ بالنُّون وباللَّام وبالقَسَمِ المقَدَّر، والتَّأْكيد هنا واجِبٌ

من النَّاحِيَة النَّحْوِيَّة؛ واجبٌ لأنه في قَسَمٍ مُثْبَتٍ مُسْتَقْبَلٍ لم يُفْصَلْ بينه وبين لامِهِ بفاصِلٍ.

وقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ﴾ هذا اسْمٌ من أسماءِ النَّار، قيل: إنَّها عَرَبِيَّة، والنُّون فيها زائدة وأنَّها من الجَهْمِ أو من التَّجَهُّم وهو الظُّلْمَة، وقيل: إنَّها اسمٌ مُعَرَّب وليس بعَرَبِيٍّ، ولكنَّه مُعَرَّب، وعلى كل الأحوالِ فالمرادُ بها النَّار، نسألُ الله العافِيَةَ!

وقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾: ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ هي الجِنُّ، و﴿وَٱلنَّاسِ﴾ بنو آدَمَ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ فتُمْلَأُ من هؤلاء وهؤلاء، وأيُّهما أكثر؟ الله أعلم، لكن ظاهِرُ القِسْمَةِ أنَّهُم سواءٌ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

مسألة: بإجماعِ المُسْلِمينَ أنَّ كافِرَ الجِنِّ يَدْخُل النَّار، أما مُؤْمِنُ الجِنِّ؛ فهل يدخُلُ الجَنَّة؟

الجوابُ: اختلف فيه العلماءُ، والصَّوابُ: أنَّهُم يَدْخُلونَ الجَنَّةَ؛ قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام:١٣٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ [الأعراف:٣٥] أي: من الجِنِّ والإِنْسِ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف:٣٥-٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦] ثم قال: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٧] يُخاطِبُ الجِنَّ والإنْسَ، فهذا بَيِّنٌ أيضًا على أنَّهُم يدخلون الجَنَّة، وكذلك قولُه تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٥٦] يدلُّ على أنَّهُم يدخلونَ الجنَّة، وهذا هو الذي عليه جُمْهُورُ أهْلِ العِلْم.

وقال بَعْضُهم: إنَّهم لا يدخلون الجَنَّة؛ لأنَّ الذين: ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأحقاف:٢٩-٣١] ولم يقولوا: (يُدْخِلْكم الجَنَّة)، فهذا دليل على أنَّ المؤْمِنَ منهم يُجارُ من العذابِ الأليم فقط!

فيقال: إنَّ هذا استدلالٌ بنصٍّ وتَرْكُ نُصوصٍ، وما هكذا حالُ الإنسانِ الذي يُوَفِّقُ بين الأدلَّة، ثم إنَّ مقامَ هؤلاء القَوْمِ مقامُ إنذارٍ وتَخْويفٍ: ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ دون مُبَشِّرينَ، فهو مقامُ إنذارٍ وتخويفٍ، وهم إذا استقاموا وخافوا فإنَّه لا شَكَّ أنَّهُم يدخلونَ الجَنَّة؛ لأنَّ من أُجيرَ من العذابِ الأَليمِ من المُكَلَّفينَ فلا بدَّ أن يدخلَ الجَنَّة؛ إذ إنَّ مآل الوَرَى إلى الجنَّة أو النَّار.

وهذا القول هو الحَقُّ: أنَّ مُؤْمِنَهم يدخُلُ الجَنَّة وكافِرَهُم يدخُلُ النَّار؛ والثاني: أن كافِرَهُم يدخل النَّارَ بالإجماعِ، وليس فيه خلافٌ؛ لأنه نَصٌّ بالقُرآنِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ مشيئةِ الله؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تمامُ سلطانِهِ؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ حِكْمَته؛ حيث لم يُؤتِ كُلَّ نَفْسٍ هداها؛ وقد سبق لنا شيءٌ من الحِكَمِ في اختلافِ النَّاسِ إلى مُؤْمِنٍ وكافِرٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الرَّدُّ على القَدَرِيَّة، والقَدَرِيَّةُ هم الذين يقولون: إنَّ الإنسانَ مُسْتَقِلٌّ بعَمَلِه، ليس لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه تقديرٌ ولا خَلْقٌ، يشاء لِنَفْسِه ويَفْعَلُ بنفسه،

وليس لله تَعَلُّقٌ بفعله، هؤلاء هم القَدَرِيَّة، فَقَوْلُ الله: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا ﴾ يَرُدُّ عليه.

ولكن هل في الآيَةِ دليلٌ لِمَذْهَبِ الجَبْرِيَّة؟

الجوابُ: ظاهِرُها؛ إلَّا أنَّ الآياتِ الأخرى تدلُّ على أنه لا حُجَّة فيها لهم؛ لأنَّ الله تعالى أعطى الإنسانَ قُدْرَةً واختيارًا، ونحن -مَعْشَرَ أَهْلِ السُّنَّة- لا نَأْخُذُ ببعض الكتاب ونَدَعُ بعضًا، بل نأخُذُ بالكتابِ كلِّه، فنؤمِنُ بأنَّ مَشِيئَةَ الله فَوْقَ كُلِّ شيء ونؤمِنُ بأنَّ للإنسانِ مَشيئةً وإرادَةً وقُدْرَةً على العمل، وأنَّ الإنسانَ هو الفاعل وليس الله تعالى هو الفاعِلَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ كلامِ الله؛ أنَّ الله يتكلَّم؛ لقوله تعالى: ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن كلامه تعالى بِحَرْفٍ؛ لأن قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ حروفٌ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الرَّدُّ على من زعم أن كلامَ الله هو المعنى القائِمُ بالنَّفْس؛ إذ لو كان كذلك لقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ولكن أَرَدْتُ أن أَمْلأَ؛ ولم يَقُلْ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات النَّار؛ لقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا أوفَى المعاهِدِينَ؛ أنه وعَد أنَّ النَّار يَمْلَؤُها وفاءً لها بما وعدها؛ ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ الجِنَّ يدخلون النَّارَ، تُؤخَذُ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وهل يدخلون الجَنَّة؟

الجوابُ: تقدَّم أنَّ في ذلك خلافًا، وأنَّ الصَّواب أنَّهُم يَدْخُلونها وبَيَّنَّا الأدِلَّة على ذلك من القرآن.

• ● ۞ ● •

الآية (١٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٤].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وتقول لهم الخَزَنَة إذا دخلوها: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ﴾] وهل يُوافِقُ ظاهِرَ الآية؟ فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ هل يناسِبُ أن يكون القائِلُ الملائِكَةَ في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾؟

الجوابُ: لا؛ إذن القائِلُ هو الله؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ فالصَّوابُ: أنَّ هذا القَوْلَ من قَوْلِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يقولُهُ لهم تقريعًا وتوبيخًا وتنديمًا أيضًا؛ يقول: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ﴾ الأمْرُ هنا ليس للإكرامِ ولا لِمُجَرَّدِ الأَمْرِ، ولكن للتَّوْبيخِ والتَّقْريعِ والإهانَةِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَذُوقُواْ﴾ العذابَ] أفادنا بهذا التَّقْديرِ أنَّ مفعول (ذوقوا) مفعوله محذوفٌ تقديرُهُ: العذاب، ويُحْتَمَلُ ألَّا يكون لها مفعولٌ، والمعنى كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] فيكون المرادُ مُجَرَّدَ التَّوْبيخِ والإهانَةِ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ أي: بِتَرْكِكُمُ الإيمانَ به] والعَمَلَ له وأفادنا بقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِتَرْكِكُم] أن (ما) مصدريَّة، وأنَّ ﴿نَسِيتُمْ﴾

بمعنى تَرَكْتُمْ، وهو كذلك؛ فإن (ما) مصدريَّة؛ أي: بنسيان، والنِّسيانُ هنا بمعنى التَّرْكِ، وليس النِّسيانُ الذي هو ذهولُ القَلْبِ عن مَعْلومٍ؛ لأنَّ النِّسْيانَ المَعْروفَ هو ذُهُولُ القلب عن معلومٍ، وهذا لا يُعاقَبُ عليه الإنسانُ، ويُطْلَقُ النِّسْيانُ على التَّرْك، وهو الذي يعاقَبُ عليه، والدَّليلُ على إطلاق النِّسْيانِ على التَّرْك قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ بمعنى تَرَكْناكُم، وليس معناها ذهولَ القَلْبِ عن معلومٍ؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] النِّسْيانُ المُثْبَتُ لله هو التَّرْكُ، والنِّسْيانُ المنفِيُّ عنه هو الذُّهولُ عن الشَّيْء، وأمَّا الإنسانُ فإنَّه يَثْبُتُ له.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ تركتم اللِّقاءَ، والمراد تَرَكْتُمُ العَمَلَ له والإيمانَ به.

و قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ تركناكم في العَذابِ] نسألُ الله العافِيَةَ! تركهم الله عَزَّوَجَلَّ وما نَسِيَهم، فلا يزال يَعْلَمُ بهم جَلَّوَعَلَا، ولكنَّه تَرَكَهُم، وقال لهم بعد المراجعاتِ: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨] فهل يتكلَّمونَ بعد ذلك بِرَفْع العذابِ؟

أبدًا لأنَّ في الآخِرَة لا يَقْدِرُونَ أن يُخالِفوا؛ لأنه لما قال: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ انقطع رجاؤُهُم من كل رجاء -والعياذ بالله- وأَيِسُوا من كلِّ خير.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ﴾ تركناكُمْ في العذابِ ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ الدَّائِمَ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكُفْرِ والتَّكْذيبِ] هذا إقرارٌ للتَّأْكيدِ وبيانِ أنَّ ما ذاقوه لا يُمْكِنُ أن يزولَ عنهم مع أنَّهُم قالوا فيما سبق:

ارْجِعْنا نَعْمَلْ صالحًا، فقال: ليس هناك رُجوعٌ: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ يعني العذابَ الدَّائِمَ، وهذا من باب إضافةِ الشَّيْء إلى مَوْعِدِهِ أو على تقدير (في) للظَّرفيَّةِ؛ يعني: عذاب في الخُلْد؛ وعلى كلِّ حالٍ: هو عذاب دائِمٌ.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: (ما) هنا يُحْتَملُ أن تكون اسمًا موصولًا؛ أي: بالذي كنتم في الدُّنْيا تَعْمَلُونه، ويُحْتَمَل أن تكون مصدريَّة، ولكنْ ظاهِرُ تفسيرِ المُفَسِّر أنها اسمٌ موصولٌ، قال: [﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكُفْرِ والتَّكذيب].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ أهلَ النَّار يُوَبَّخونَ بتركِهِم العَمَلَ للنَّجاةِ منها؛ لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾.

ويتفرَّعُ على هذه الفائِدَة: زيادَةُ التَّعذيب: التَّعذيب القلبي؛ لأنَّ الإنسانَ إذا وُبِّخَ على عملٍ عَمِلَه فإنَّه يزدادُ حَسْرةً وندمًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إطلاقُ النِّسْيانِ على التَّرْكِ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الأفعال الاختياريَّة لله؛ لقوله تعالى: ﴿نَسِينَٰكُمْ﴾ يعني: تَرْكناكُم، وهذا يدلُّ على أنه تعالى يترُكُ من شاء ويُقْبِل على من شاءَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن عذابَ النَّارِ دائِمٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ وهذا هو الذي عليه أهل السُّنَّة والجماعَةِ: أنَّ عذابَ النَّارِ أَبَديٌّ سَرْمَدِيٌّ؛ كما أنَّ نعيمَ الجَنَّة أبديٌّ سرمديٌّ، لكنْ ذَكَرَ ابنُ القيم[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه يُخْتَلَفُ في أبديَّةِ النَّار على قَوْلَيْنِ، وأمَّا عذابُها فهو أبديٌّ ما دامَتِ النَّارُ موجودةً، فلا يَخْرُجُ منها أهْلُها

(١) انظر: شفاء العليل (ص:٢٥٤).

ما دامت موجودةً أبدًا؛ ولكنَّ الكلامَ في أَبَدِيَّتِها هي، فهل هي مُؤَبَّدة أو مُؤَمَّدةٌ؟

والصَّواب: أنَّها مُؤَبَّدَةٌ، وقد ذكر الله تعالى ذلك في ثلاثِ آياتٍ من القرآن في سورة النِّساءِ، وفي سورة الأحزابِ، وفي سورة الجِنِّ.

ففي سورة النساءِ قولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩].

وفي سورة الأحزاب قَوْلُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٢٣].

وفي سورة الجِنِّ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: إنَّ التَّأبيد هنا لخُلُودِهِم؟

قُلْنَا: لا تأبيدَ لخلودٍ إلا والمكانُ خالِدٌ فيه؛ فإذا تأبَّدَ الخلودُ فإنَّما مكانُ الخُلْدِ يكون مُؤبَّدًا بالضَّرورةِ، ولهذا الصَّوابُ المقطوعُ به: أنَّ النَّار أَبَدِيَّةٌ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَظْلِمُ أحدًا؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الجَزاء من جِنْس العَمَل، فكما أنَّهُم أَفْنَوْا حياتَهُم في مَعْصِيَة الله فإنَّ حياتَهُم الآخِرَة أيضًا ستكونُ في عذابِ الله.

الآية (١٥)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴾ [السجدة:١٥].

ثم بيَّنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَنِ المؤمِنُ حقًّا، فقال: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ﴾ أداة حَصْرٍ، حَصَرَتِ الإيمانَ في الذين إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهم خَرُّوا سُجَّدًا.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القرآنِ] وعلى هذا فهي الآياتُ الشَّرْعيَّة، والصَّواب أنها عامَّة حتى الآيات الكونيَّة كمن ذُكِّرَ بما يفعَلُه الله عَزَّوَجَلَّ في المكَذِّبين والمُجْرِمين، فإنَّ ذلك داخِلٌ في الآية ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القرآن] يقتضي أنَّ هذا القَوْلَ خاصٌّ بهذا الأُمَّة ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ لأنَّهُم أَهْلُ القرآنِ، ولكِنَّ الأَوْلى أن تُؤْخَذ على سبيل العُمُومِ حتى فيما سبق، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [الإسراء:١٠٧].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا ﴾: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعِلُ ﴿يُؤْمِنُ﴾، يعني (لا يُؤْمِنُ إلا الذين...)، والمرادُ الإيمانُ الكامِلُ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ وُعِظُوا ﴿بِهَا﴾] أي جُعِلَت مَوْعِظَةً لهم وبُيِّنَتْ لهم الآياتُ، فإذا وُعِظُوا بها ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾: ﴿خَرُّواْ﴾ جوابُ ﴿إِذَا﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ الخُرورُ يكون من أعلى إلى أسفل، ومنه خرورُ الماءِ من السَّاقِيَة من فوق إلى تحت، ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ أي: من القيامِ ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ حالَ السُّجُودِ ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾.

هذه الآية أورد عليها بَعْضُ العلماء إشكالًا، وقال: هل لِكُلِّ من ذُكِّرَ بآياتِ الله أن يَسْجُد؟ فإذا قُرِئَ عليه آيةٌ سَجَدَ، أو إذا ما وعَظْتَهُ بموعظة سَجَدَ؟

والجوابُ عن هذه الآيَةِ: قال بعضهم: المرادُ خَرُّوا سُجَّدًا في مَوْضِعِ السُّجُود؛ يعني: خرُّوا سُجَّدًا؛ إذا مَرَّت بهم آياتُ سَجْدَة سجدوا، أمَّا إذا ذُكِّرُوا بآياتِ رَبِّهم بدون أن تَمُرَّ بهم آياتُ سَجْدَة فإنَّهم لا يسجدون.

ولكنَّ الصَّوابَ خلافُ ذلك؛ فالصَّوابُ أنَّ المعنى: الذين إذا ذُكِّروا بها انقادوا لها وخَضَعُوا لها، ولا يَلْزَمُ من ذلك أن يكون السُّجُودُ مباشرًا للتَّذْكيرِ؛ فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ يعني: حتى في المُسْتَقبل، فلا يلزم أن يكون جوابُ الشَّرْطِ مباشِرًا له.

وما يقتضي التَّرْتيب للحُرُوفِ أو التَّركيب قد يُرادُ به التَّرتيبُ في مَوْضِعِه وفي كُلِّ شيء بِحَسَبه؛ ولهذا لو قُلْتَ: تَزَوَّجَ زَيْدٌ فوُلِدَ له، الفاءُ للتَّرتيبِ والتَّعْقيب، ومن المعلومِ أنه لا يُولَدُ له فَوْرَ عَقْدِ النِّكاحِ له؛ فنقول: الفاءُ للتَّرتيبِ والتَّعْقيبِ، وتَعْقِيبُ كُلِّ شيء بِحَسَبِه، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ وهل المَطَرُ إذا نزل وصار الصَّباحُ فإذا هي مُخْضَرَّةٌ؟

الجوابُ: لا، ولكنْ بعد مُـدَّة تَخْضَرُّ، وبعد مُدَّة يُوْلَدُ لهذا المتـزَوِّج؛ فكذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ﴾ لا يلزم من ذلك أن يباشِرُوا فبمجرَّد التَّذْكير يَخِرُّونَ، بل المعنى أنَّهُم يَلْتزِمونَ بذلك فإذا ذُكِّروا بها التزَموا بذلك بالسَّمْعِ والطَّاعَة فسجدوا في مَوْضِعِ السُّجودِ ولم يوجد منهم استكبارٌ، وعلى هذا فلا إشكالَ في الآية.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾: ﴿سُجَّدًا﴾ حالٌ من فاعِلِ ﴿خَرُّواْ﴾. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَبَّحُواْ﴾ معطـوفٌ على: ﴿خَرُّواْ﴾ ومعنى: سبَّحوا أي نَزَّهوا، فالمفعـولُ محذوفٌ تقديرُهُ وسبحوا ربَّهُم؛ أي: سَبَّحُوا الله.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُتَلَبِّسينَ ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾] أفادنا المُفَسِّر بأنَّ الباءَ في قوله تعالى: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أنَّ الباء للمُلابَسَةِ؛ يعني: معناها أنَّ التَّصْديقَ مَقْرونٌ بالحَمْدِ، ولو أنَّه ذهب إلى أنَّ الباء للمصاحَبَة: وسَبَّحوا تسبيحًا مُصاحِبًا بِحَمْد ربِّهم؛ لكان أَوْلى.

وقوله: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي قالوا: سبحانَ الله وبِحَمْدِهِ] ويُحْتَمَل ألَّا يكونَ المرادُ بالتَّسبيحِ والحَمْد: تسْبيحَ اللِّسانِ وحَمْدَه، وأنَّ المرادَ نَزَّهُوهُ بِقُلُوبهم وحَمِدُوه بألْسِنَـتِهم، فنَزَّهُوه بقُلُوبِهم عمَّا لا يليـقُ به وحَمِدُوه بأَلْسِنَتِهم بما يستحقُّه.

فقوله: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يعني: يَسْجُدون لله ويُسَبِّحونَه حالَ السُّجُود؛ ولهذا مما يُشْرَعُ في السُّجود أن تقول: «سُبْحانَكَ اللهمَّ ربَّنَا وَبِحَمْدِكَ»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ الجملةُ حالٌ، يعني: والحالُ أنَّهُم: [﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان والطَّاعَةِ] بل ينقادون ويَخْضَعون.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء في الركوع، رقم (٧٩٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (٤٨٤)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن للإيمانِ علاماتٍ؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟﴾ إلى آخره.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن من ادَّعى الإيمانَ بدون علامَةٍ فدعواهُمْ باطِلَةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الاستدلالُ بالأَحْوال والقرائِنِ؛ لأنَّ الله ذَكَرَ علامةً على الإيمان في هذه الأفعال، والإيمانُ مَحَلُّه القَلْبُ فلا يُعْلَمُ، لكنْ هذه الأعمالُ قرائِنُ وأحوالٌ تدُلُّ على وجودِ ما هي دليلٌ عليه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الاستدلالُ بالقرائِنِ والأَحْوال على حقيقة الشَّيْء، وهذه مُفيدَةٌ غايةَ الفائدةِ للقُضاةِ.

وقد استدلَّ بالقرائِنِ أحَدُ الأنبياءِ الكِرامِ، وهو سليمانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

واستدلَّ بالقرائِنِ أيضًا النَّبِيُّ ﷺ في قِصَّةِ مالِ حُيَيِّ بْنِ أخْطَبَ لما سأل عنه بعد غزوةِ خَيْبر، قالوا: إنَّه أَفْنَتْه الحروب، فقال الرَّسُولُ ﷺ: «**المالُ كَثيرٌ والعَهْدُ قَريبٌ**»[1] يعني لا يمكن أن تُفْنِيَه، فحُيَيُّ بنُ أخطبَ من أغنياءِ بني النَّضيرِ وإن ذهب مالُه؛ ثم دفعه إلى الزُّبَيرِ بْنِ العوَّام وقال له: فمَسَّهُ بعذابٍ، وعند ضَرْبِهِ قال: أنا سأدُلُّكم على شيءٍ كان حُيَيٌّ يختلفُ إليه كثيرًا، فدلَّهم على خَرِبَةٍ، فإذا المال مدفونٌ فيها، فاستدلَّ الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالقرائِنِ على وجود الشَّيْء.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن للإيمان تمامًا ونُقْصانًا؛ لأنَّ هذه الآية لا شَكَّ أنها في كمالِ الإيمانِ.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٥١٩٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ من علامَةِ المؤمِنِ انقيادَهُ للمواعِظِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الإنسانَ المؤمِنَ قد يطرأ عليه الجَهْلُ والنِّسْيانُ، تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾ فقد يَنْسَوْن أو يَجْهَلُون.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: فضيلة السُّجُود؛ لقوله تعالى: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ وقد ثبت في الحديث: «**إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**»(١)، وأَمَرَ النبيُّ ﷺ بالاجتهادِ في الدُّعاءِ في حالِ السُّجُود، وأخبر أنه أَحْرى بالإجابَةِ(٢).

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الجَمْعُ بين انتفاءِ العَيْب والنَّقْص عن الله مع ثبوتِ الكمالِ له؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ففي التَّسْبيحِ تَنْزيهٌ، وفي الحَمْد كمالٌ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ من صفات المؤمِن التَّواضُعَ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فالتَّواضُعُ للحَقِّ وللخَلْقِ، ولكن يَجِبُ أن نَعْرِفَ الفَرْق بين التَّواضُع والذُّلِّ؛ فالمُؤْمِنُ لا يكون ذليلًا، ولكنَّه يكون متواضِعًا؛ فإذا تبيَّنَ له الحَقُّ انقادَ له، فهذا تواضُعٌ للحَقِّ، وإذا عامَل الخَلْقَ عامَلَهُم بالتَّواضُع، لكن لا يُذِلُّ نَفْسَه، فهو لا يستكْبِرُ على النَّاسِ ولا يَغْمِطُ النَّاسَ حَقَّهُم، ولكنَّه لا يَذِلُّ لهم.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ التَّعَصُّبَ في التَّقْليد ليس من طريقِ المؤمنينَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ويوجد في المُتَعَصِّبينَ في التَّقْليد من يَسْتَكْبِرُ عن الحقِّ؛

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، رقم (٤٧٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إذا عُرِضَ عليه أَبَى وضَرَب بقول فلان كذا وكذا من المقلَّدينَ، وهـذا نوعٌ من الاستكبارِ عن الحقِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: ذَمُّ من أَصَرَّ على رأيه بباطِلٍ؛ تُؤخَذُ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، فمن النَّاسِ من إذا قال قولًا لا يُمْكِنُ أن يتنازَلَ عنه ولو بان الحَقُّ، وهذا نَوْعٌ من الاستكبار، والواجِبُ أن تَعْرِفَ نَفْسَك وأنك بَشَرٌ، وأنَّه يفوتك العِلْمُ إمَّا نسيانًا وإمَّا جَهلًا، ويفوتك أيضًا: الوصولُ إلى الغايَةِ، فقد يكون عندك عِلْمٌ، لكن يَنْقُصُك التَّفْكيرُ والتَّأَمُّلُ والجَمْعُ بين الأدِلَّة وما أشبه ذلك، فتحتاجُ إلى أن تَتيقَّظَ.

• • ۞ • •

الآية (١٦)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة:١٦].

ثم بيَّنَ الله تعالى من صفاتهم ما بَيَّن بقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ ﴾ تَرْتَفِع] وتَبْتَعِد أيضًا لأنَّ المجافاةَ الإبعادُ، ومنه: «كان النَّبِيُّ ﷺ يُجَافِي عَضُدَيْهِ فِي السُّجُودِ»[1] يعني: يُبْعِدُهُما عن جَنْبَيْه، فمعناه إذن: الإبعادُ والارْتِفاعُ، والارْتِفاعُ يَسْتَلْزِمُ البُعْدَ.

وقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ المضاجِعُ جَمْعُ مَضْجَعٍ، وهو مكان الاضْطِجاعِ والاضطجاع النَّوْمُ؛ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَوَاضِعُ الِاضْطِجَاعِ بِفُرُشِهَا لِصَلَاتِهِمْ بِاللَّيْلِ تَهَجُّدًا] فلا ينامونَ؛ أي: تتجافى جنوبُهُم عن المضاجِعِ فلا ينامون، ولكنَّ هذا مُقَيَّدٌ بما جاءت به السُّنَّة: أنَّهُم يتَهَجَّدون ليس كلَّ اللَّيلِ، ولكِنِ الزَّمَنَ المَشْروعَ التهَجُّدُ فيه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا ﴾ من عِقَابِهِ ﴿وَطَمَعًا ﴾ في رَحْمَتِه].

يَدْعُون هذه جُمْلَةٌ حالِيَّة من فاعِلِ ﴿ تَتَجَافَىٰ ﴾ أو من المضافِ إليه بـ﴿جُنُوبُهُمْ ﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٠)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب صفة السجود، رقم (٩٠٠)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب السجود، رقم (٨٨٦)، من حديث أحمر بن جزء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يعني حالَ كَوْنِهم يَدْعُونَ ربَّهُم، فيَدْعُونَه دُعاءَ مَسْأَلةٍ وعبادَةٍ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ خوفًا من عقابِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وطَمَعًا في رَحْمَته؛ لكِنَّ الحامِلَ على الخَوْفِ والطَّمَع أنَّهُم إذا نظروا إلى تَقْصِيرهم وعَظَمَةِ الله وشِدَّة عقابه غلب عليهم جانِبُ الخَوْفِ، وإذا نظروا إلى سَعَةِ رَحْمَةِ الله وعَفْوِه، وأنَّهُم قاموا بما يَنْبَغِي أن يقوموا به غَلَبَ عليهم جانِبُ الطَّمَع، فهم يسيرون بِجَناحَيْنِ؛ جَناحَيِ الخَيْرِ والطَّمَعِ، ولكن أيُّهما ينبغي أن يُغلَّبَ؟

الجوابُ: فيه خلاف؛ قال الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: ينبغي أن يكون خَوْفُه ورجاؤُه واحدًا، فأيُّهما غَلَب هَلَكَ صاحِبُه؛ ولأنَّه إن غَلَّبَ جانِبَ الخَوْفِ قَنِطَ من رحمة الله وإن غلَّب جانِبَ الرَّجاءِ أَمِنَ مَكْرَ الله، ولكن يكونُ بينَ بينَ.

وقيل: الصَّحيحُ يُغَلِّبُ جانِبَ الخَوْفِ، والمريضُ يُغَلِّب جانِبَ الطَّمَع، فعند الموتِ يُغَلِّبُ جانب الطَّمَع والرَّجاء، وفي حال الصِّحَّةِ يُغَلِّب جانِبَ الخَوْف. وقيل: إنْ فَعَلَ الطَّاعَةِ فَلْيُغَلِّبْ جانِبَ الرَّجاء، وإن هَمَّ بالمَعْصِيَة أو عَمِلَها فَلْيُغَلِّبْ جانِبَ الخَوْفِ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يتصَدَّقونَ].

(مِن) هل هي لبيانِ الجِنْس أو أنها للتَّبْعيضِ؛ يعني بعضَ ما رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ؟

الجوابُ: إذا قُلْتَ إنَّها للتَّبْعيضِ، صار من يَبْذُلُ كلَّ مالِهِ تقرُّبًا إلى الله صار مذمومًا، لو قُلْتَ: إنَّها لبيانِ الجِنْس وأنَّهُم يُنْفِقون ممَّا رَزَقْناهم، فإنَّه لا يَقْتَضي أن يكون مَنْ بَذَلَ مالَه كُلَّه مذمومًا؛ يعني: المرادُ بيانُ الجِنْس، فيَشْمَلُ القَليلَ والكثيرَ.

---

(١) انظر: الاختيارات لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٣٥٩).

وهذه المسألة اختلف فيها العُلماءُ؛ هل يَبْذُلُ الإنسانُ كُلَّ مالِهِ في طاعَةِ الله وفي سبيل الله، أو يَقْتَصِرُ على بعضه؟

والصَّواب: أن ذلك يرجِعُ إلى حالِ الشَّخْصِ، وإلى الأسبابِ التي بها يَدْفَع الضَّرورَة عن نفسه وأَهْلِه، فإن كان الإنسانُ ضعيفَ التَّوَكُّلِ أو ضعيفَ القُدْرَة على التكسُّبِ، فالأَفْضَلُ أن يُنْفِقَ شيئًا من مالِهِ، وإن كان الأَمْرُ بالعكس فله أن يتصدَّقَ بِجَميعِ مالِهِ؛ كما فعل أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]، أما أبو لُبابَةَ لَمَّا نَذَرَ أن يَنْخَلِعَ من ماله صدقَةً لله ورَسُولِهِ، قال له الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ؛ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**»[2] فَجَعَلَ من الخير له أن يُمْسِكَ بَعْضَ المالِ.

وقوله تعالى: ﴿يُنفِقُونَ﴾ الإنفاقُ يعني: البَذْل.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فَضيلَةُ قيام اللَّيلِ؛ لأنَّ الله تعالى ذكره في سياقِ المَدْحِ، فقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ لكنْ هذا الإطلاقُ مقيَّدٌ بما جاء في السُّنَّة؛ يعني بألَّا يكون جميعَ الليل، بل تتجافى جُنُوبُهم عن المضاجعِ في حدود ما جاءت به السُّنَّة، وبهذا نَعْرِفُ خَطَأَ ما يوجد في كُتُبِ الوَعْظِ من أنَّ فُلانًا صلَّى صلاةَ الفَجْرِ بِوُضوءِ العِشاءِ أَرْبَعينَ سَنَةً! يعني: أنَّه ما نام اللَّيلَ بل يقوم اللَّيلَ، وهذا خطأٌ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب الرخصة في ذلك؛ أي أن يخرج الرجل من ماله، رقم (١٦٧٨)، والترمذي: كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كليهما، رقم (٣٦٧٥)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب إذا تصدق أو أوقف بعض ماله أو بعض رقيقه أو دوابه فهو جائز، رقم (٢٧٥٧)، من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وليس فيه ذكر أبي لبابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأما خبر أبي لبابة فأخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٥٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب فيمن نذر أن يتصدق بماله، رقم (٣٣١٩)، بلفظ: «**يجزئ عنك الثلث**».

وهذا تَبَرَّأَ منه الرَّسُولُ ﷺ؛ فقالت الجماعَةُ الذين قال أحَدُهُم: أنا أقوم اللَّيلَ ولا أنام، قال: «**أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[1].

لكِنْ مُشْكِلُ هؤلاءِ الوُعَّاظ الذين يَكْتبون هذه الكُتُبَ يريدون أن يُرَغِّبوا النَّاسَ لكن يُرَغِّبونهم في الباطِلِ، ولو أنَّ النَّاس اقْتَصَر لهم بما صَحَّ عن رَسُولِ الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من التَّبْشيرِ والإِنْذار ومِنَ الأعمالِ الصَّالِحَة لاستقاموا، لكن عندما أسْمَعُ هذا رَجُل أثنى عليه أنه أربعينَ سنةً صلَّى الفَجْرَ بوضوء العشاء! أقول: أينَ أنا من هذا؟ فسأبقى على ما أنا عليه وأصلي سُنَّةَ العِشاء ركعتينِ والوِتْر أقَلُّه ركعةٌ، فأُصَلِّي ركعة، ولا يَجِبُ إلا قراءةُ الفاتِحَة فأقتصر على الفاتِحَة، ولا يجب (سبحان ربي الأَعْلى) إلا مرَّة في السُّجُود، و(سبحان ربي العظيم) مَرَّة في الرُّكوع، فأقتصر على مَرَّة في الرُّكوع وفي السُّجود، ويمشي، لكن لو أنَّ النَّاسَ بُيِّنَتْ لهم السُّنَّةُ حقًّا لكفى بها واعِظًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلَةُ الدُّعاء؛ لقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه ينبغي للدَّاعي وللعامِلِ العابد: أن يكون دعاؤُهُ وعبادتُهُ بين الخَوْفِ والرَّجاءِ؛ لقوله تعالى: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فضيلةُ الإنفاقِ مما رَزَقَك الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ على حَسَب التَّفْصيلِ الذي ذكرناه في التَّفسيرِ.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣)، ومسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، رقم (١٤٠١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (١٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧].

قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾ أيَّ نَفْسٍ تكونُ؛ لا مَلَكٌ مُقَرَّب ولا نَبِيٌّ مُرْسَل.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ وهذا نَفْيٌ لعِلْم الحقيقَةِ لا لِعِلْم المعنى، فإنَّ المعنى معلومٌ فيما أخفى الله من قُرَّة الأَعْيُنِ، لكنْ حقيقَةُ ذلك الشَّيْءِ مجهولة؛ ولهذا قال ابنُ عبَّاسٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَيْسَ في الدُّنْيا مِمَّا في الجَنَّة إلَّا الأَسْمَاءُ»[1] فنعلم أن في الجَنَّة نخلًا ورمَّانًا وفاكهةً ولبنًا وعَسلًا وماءً وخَمْرًا وطيرًا، وما أشبه ذلك، فنعلَمُ هذا من المعنى، لكنْ حَقْيقَةُ ذلك الشَّيْءِ مَجْهُولَةٌ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم ﴾ ما أُخْفِيَ لهم؛ أي: حقيقةَ ما أُخْفِيَ، وليس معنى ما أُخْفِيَ، فالمعنى معلومٌ.

وقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ما تَقَرُّ به أَعْيُنُهم] قَرَّتْ عينُه بمعنى: جَمُدَت، وقَرَّت عَيْنُه بمعنى: سَكَنَت، فعلى الأوَّل تكون من القُرَّةِ والبَرْدِ؛ ولهذا يقال:

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦٦)، وأبو نعيم في صفة الجنة رقم (١٢٤).

إنَّ دَمْعَةَ السُّرور بارِدَة، ودَمْعَة الحُزْن حارَّة؛ ولهذا قال: قَرَّتْ عَيْنُه إذا سُرَّتْ، أما إذا كان هنا القَرَارُ وهي أنها لا تَلْتَفِت إلى سوى ما هي تَنْظُر إليه؛ يعني: أنَّ عُيُونهم قارَّةٌ لا تَلْتَفِتُ إلى سوى ما هي عليه، وكلا المعنيين صحيحٌ؛ فإن معنى قَرَّتْ عينُه؛ أي: بَرُدَتْ فلم يَلْحَقْها حرارَةُ الحُزْنِ، ومعنى قَرَّتْ عينُكَ؛ أي: سَكَنَت، فلا تنظُرُ إلى شيء سوى ما هي عليه، وهذا يكون معناه غايَةَ الأُمْنِيَة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قراءةٍ بسكونِ الياءِ؛ مضارعٌ] فـ﴿أُخْفِيَ﴾ فِعْلٌ ماضٍ، و(أُخْفِيْ) فِعْلٌ مضارعٌ؛ و(أُخْفِيْ) يعني: أُخْفِيْ أنَا، (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيْ لَهُمْ) ما أُخْفِيْ لهم أَنا، أي: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، أمَّا ﴿مَّآ أُخْفِيَ﴾ لهم فهو فِعْلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمَجْهولِ، وفاعله مستَتِرٌ جوازًا، وإذا كانت (أُخْفِيْ) بالسكونِ فهي فعل مضارِعٌ، وفاعل مُسْتَتِرٌ وجوبًا تقديره أنا.

والمعنى على كلتا القراءتين صحيحٌ؛ فالله هو الذي أخفاه حتى على البِنَاء للمجهولِ: ﴿مَّآ أُخْفِيَ﴾ فإنَّ المُخْفِيَ هو الله: ﴿مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ جزاءً: مفعولٌ من أجله، ولكن هل عامِلُ المفعول من أجله: ﴿أُخْفِيَ﴾ أو: ﴿قُرَّةِ﴾؟

الظَّاهِرُ: أنَّها ﴿قُرَّةِ﴾ يعني: قَرَّتْ أَعْيُنُهم جزاءً، وليس المعنى أُخْفِيَ لهم جزاءً؛ لأنه قد يقال: إنَّ الإظهارَ أَبْلَغُ في الجزاءِ، لكنَّها من قُرَّةِ أعينٍ جَزَاءً.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي بالذي كانوا يَعْمَلونه في الدُّنْيا من طاعَةِ الله.

فإن قلتَ: هذا يدلُّ على أنَّهُم يُجازَوْنَ بعمل، وقد ثبت عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه قال: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟ قال: «وَلَا أَنَا،

إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ الله بِرَحْمَتِهِ»[١] فما هو الجَمْعُ بين هذا الحديث وبين هذه الآية وأمثالِها؟

قال أهلُ العِلْمِ: إنَّ الجَمْعَ بينهما اختلافٌ في معنى الباء، فالباءُ التي للسَبَبِيَّة هي الموجودة في مثل هذه الآيَةِ ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ﴾ أي بِسَبَبِ ما كانوا يعملونَ، والباء التي للعِوَضِ هي المذكورَةُ في قوله: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» أي: عِوَضًا عن عمله؛ لأنَّنا لو أَرَدْنا المعاوضَةَ والمُقاصَّةَ لَظَهر العامِلُ مغبونًا مطلوبًا، ولكان العامِلُ مهما عَمِلَ من الصَّالحاتِ فهو مطلوبٌ، ونِعْمَةٌ واحدة من نِعَمِ الله عليك تَسْتَوْعِبُ جميع الأعمالِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذه الآيَةِ الدَّليلُ على عِظَمِ نَعيمِ الجَنَّة، يُؤخَذُ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ لأنَّه لا شكَّ أنَّ الإبهامَ يدلُّ على التَّفْخِيم، كما قلنا في التَّفْسيرِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ في الجنَّة من قُرَّةِ العَيْن في المأكولِ والملبوسِ والمنْكوحِ والمسْكَنِ ما لا يَخْطُر على البالِ؛ لأن كلَّ هذه الأرْبَعَة تَقَرُّ بها العَيْنُ؛ وقيل:

وَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وَتَقَرَّ عَيْنِي ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ[٢]

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فَضْلُ الله عَزَّوَجَلَّ على العبادِ المؤمنينَ، فَضْلُه السَّابِقُ واللاحِقُ، فالسَّابقُ أنْ وفَّقَهُم للإيمان والعَمَل الصَّالح، واللَّاحِقُ أنْ جَعَلَ هذا الجزاءَ على عَمَلِه؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البيت لَمَيْسون بنت بَحْدل، انظر: الكتاب لسيبويه (٣/ ٤٥)، وخزانة الأدب (٨/ ٥٠٣).

قال تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ كأنَّ هذه النِّعَم التي في الجَنَّة جزاءٌ على عَمَلٍ لهم، بل هي حقيقة العَمَل لهم، لكن فيه: أنَّ الفَضْل من الله عَزَّوَجَلَّ عليهم كأنَّه فَضْلٌ منهم على أَنْفُسِهِم؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ مِثْل قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ فإحسانُ العَمَلِ بإحسانِ الجزاء، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ إذ يَمُنُّ عليهم بالسَّعْيِ الحميدِ، ثم يَشْكُرُهم عليه، يَمُنُّ عليهم هنا بالتَّوْفيقِ للهدايَةِ، ثم يقول: أُجازيكُم على عَمَلِكم، وهذا لا شَكَّ أنه من تمامِ نِعْمَة الله عَزَّوَجَلَّ.

• ● ۞ ● •

الآية (١٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [السجدة:١٨].

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ المراد بالفِسْقِ هنا الفسق الأكبر المُخْرِجُ عن الإسلام، وليس الفِسْق الأَصْغَر الذي يبقى فيه الإنسانُ مؤمنًا ناقِصَ الإيمانِ، ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾؟

الجوابُ: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ وانْتَبِهْ أيُّها القارِئُ وَقِفْ على قوله تعالى: ﴿فَاسِقًا﴾ فإنَّ كثيرًا من القُرَّاءِ يَقْرَأُ ويستمِرُّ ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ ولا يَصِحُّ هذا، فإذا قرأْتَ: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ فقِفْ، ثم قُلْ: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ فهذا هو الجوابُ؛ وهو جوابُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنَّ الله تعالى اسْتَفْهَم وأجاب نَفْسَه: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾؟ ثم أجابَ: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ أي المؤمنونَ والفاسِقون؛ بماذا؟ ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا﴾ هو ما يُعَدُّ للضَّيْفِ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذه الآيَةِ تقريرُ أنَّه لا مساواة بين المؤْمِنِ والكافِرِ، وأنَّ هذا أمْرٌ لا يُمْكِنُ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ وقد قال الله تعالى في آياتٍ أخرى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بل من السَّفَهِ ومن الخطأ في الحُكْمِ

أن يُجْعَلَ المسلمُ كالمجرمِ أو الفاسِقُ كالمؤمِنِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ المؤمِنَ خَيْرٌ من الفاسِقِ، ولو كان الفاسِقُ أعظَمَ جاهًا في الدُّنْيا عند الخَلْق؛ تُؤخَذ من عموم قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَمَن﴾: (من) هذه اسْمُ اسْتِفْهامٍ، وأسماءُ الاسْتِفْهام من صِيَغِ العُمومِ، فلا يمكنُ لأيِّ فاسقٍ أن يكون كالمؤْمِنِ، ولو عَظُمَتْ به الدُّنْيا، ولو نال من الدُّنْيا ما ينالُ، فإنَّه ليس كالمؤْمِنِ تمامًا، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾.

• • ۞ • •

الآية (١٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٩].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ ﴾: ﴿ أَمَّا ﴾ هذه حَرْفُ شَرْطٍ وتفصيلٍ، وتُفيدُ مع الشَّرْطِ والتَّفْصيلِ: التَّوْكيدَ؛ كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ وهنا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ فيكون فيها ثلاثُ فوائِدَ:

١- شرطِيَّة: بدليلِ أنَّها أتى لها جوابٌ: ﴿فَلَهُمْ﴾.

٢- تَفْصِيليَّة: لأنَّها أتت بِقِسْمَيْنِ ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ و﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾.

٣- توكيديَّة: لأنَّه لا شكَّ أنَّ هذه الصِّيغَةَ تُفيدُ التَّوْكيدَ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ﴾ هذا جوابُ الشَّرْطِ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ الجناتُ جَمْعُ جَنَّة، وهي في اللُّغَة: الحديقةُ الكَثيرَةُ الأشجارِ، وسُمِّيَت به لأنها تَجُنُّ مَن فيها أي تَسْتُرُه، لكنَّها في الشَّرْعِ: الدَّار التي أعدَّها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأوليائه، فهي أعلى مما يدور في الخيال أو يَخْطُر على البالِ.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ يعني التي هي مأواهُم، لا يَبْغُون عنها حِوَلًا ولا يتَحَوَّلون عنها، فهي مأوًى، كما أنَّ الجحيمَ مأوى الكافرينَ لا يَتَحَوَّلون عنها، فالمأوى مكان الإيواءِ؛ أي إنَّها هي الجناتُ التي يَأْوُونَ إليها ولا يَخْرُجون منها.

وقوله تعالى: ﴿نُزُلًا﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو ما يُعَدُّ للضَّيْفِ] وعلى هذا فهي تكونُ مَصْدرًا في مَوْضِعِ الحال، يعني أنه يُعَدُّ لهم هذا النُّزُلُ.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الباءُ هنا سَبَبِيَّة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ المؤْمِنَ لا يساوي الكافِرَ لا في عَمَلِه ولا في جزائِهِ؛ أمَّا العَمَلُ فظاهرٌ، هذا مؤمنٌ وهذا فاسقٌ، وأما الجزاءُ فبيَّنَ الله الفَرْقَ بِقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ وأولئكَ مأواهم النَّارُ، وفَرْقٌ بَيْن هذا وهذا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإيمانَ لا يَتِمُّ إلا بالعَمَلِ الصَّالِحِ؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فلا يكفي مُجَرَّدُ العقيدةِ، بل لا بدَّ من عَمَلٍ صالحٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ الجَنَّة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ وهي موجودَةٌ الآن؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهي فِعْلٌ ماضٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: طِيبُ منازِلِ الجَنَّةِ ومَقَرِّها؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ يعني: الجنَّات التي لا يتمنَّى الإنسان إلا أنْ يَأْوِيَ إليها، وكلُّ أَحَدٍ يتمنَّى هذا المأوى لكن لا ينالُهُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ أَهْل الجَنَّـة يُكْرَمُون بما يُنَـعَّمون به كما يُكْرَمُ الضَّيْـفُ بضيافته؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نُزُلًا﴾ وتعلمون ما يُجْلَبُ للضَّيفِ من السُّرورِ في نَفْسِه

إذا أُكْرِمَ بالضِّيافَةِ بخلاف الذي يُقَدَّمُ له الطَّعام عادِيًّا، يرى أنَّه شيء معتادٌ ليس له أهمِّيَّة، لكن الذي يُقَدَّم له كضيافة وكأنه رجلٌ مُكْرَمٌ ومُحْتَرَم يجد في نفسه تلذُّذَه بالطَّعامِ التَّلَذُّذَ الجَسَدِيَّ ويجد تلذُّذًا وراحةً نَفْسِيَّة وإكرامًا، ولهذا سَمَّاه الله تعالى: ﴿نُزُلًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الجزاءَ مِن جِنْس العَمَلِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

• ● ۞ ● •

الآية (٢٠)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة: ٢٠].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ ﴾ بالكُفْر والتَّكْذيب ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾] والعياذُ بالله (مأواهم) أي: مَرْجِعُهُم النَّار لا يَخْرُجونَ منها، ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ وانظر إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ ﴾ يُمَنَّوْنَ بالخروجِ فترتَفِعُ بهم إلى أن يَقْرُبوا من أبوابِها ثم بعد أن يتَمَنَّوُا الخروجَ ويُرِيدُوه يُعادُونَ فيـها، وهذا أشَدُّ -والعياذ بالله- في التَّعْذيب، فلو فَرَضْتَ أنَّك محبوسٌ في مكانٍ فقيل لك: تعالَ، تعالَ، وكلَّما قَرُبْتَ من البـاب ردَّكَ أو أن تبقى في حُجْرَة الحَبْس؛ فأيٌّ أشَدُّ؟

الجوابُ: أن يُقَرَّبَ إلى الباب ثم إذا أراد أن يَخْرُجَ قيل له: ارْجِعْ؛ لأنه -والعياذ بالله- إذا فعل هكذا صار كأنه يُحْبَس عدَّة مراتٍ؛ لأنَّ مَن أَشْرَفَ على الحياةِ ثم عاد إلى الموت صار ذلك مَوْتًا آخَرَ فتكون عَوْدَتُه إلى مَحْبِسِه حبسًا ثانيًا.

وهكذا أهلُ النَّار -والعياذُ بالله- يُمَنَّوْنَ الخروجَ، وكلَّما أرادوا أن يخرجوا أُعيدوا فيها، وقيل لهم أيضًا توبيخًا ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ فيجتمع عليهم -والعياذ بالله- العذابُ الجسميُّ والعذابُ القَلْبِيُّ؛

فالجِسْمِيُّ من النَّارِ، والعياذُ بالله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ والقلبيُّ من هذا التَّوْبيخِ، قال تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ وأيُّ حَسْرَة للإنسانِ عندما يقال له هكذا؟! ألَا يتحَسَّرُ ويقول: ليتني ما كَذَّبْتُ! كيف أُكَذِّبُ؟! ويَتَمَنَّى!

ففيه -والعياذ بالله- من التَّوبيخِ والتَّنْديم وإدخالِ الحَسْرَةِ ما هو ظاهِرٌ؛ ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ في آيةٍ أخرى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ونحن إذا فاتنا شيءٌ في قضاء الله وقَدَرِه وهو مما يَسُرُّنا فهل الواحِدُ يَنْدَمُ؟

الجوابُ: يندَمُ، ويقول: ليتني فَعَلْتُ، وليتني فعلْتُ، مع أنه مَنْهِيٌّ عنه؛ لأنَّ هذا يفتَحُ عَمَلَ الشَّيطانِ، ويفتح بابَ النَّدمِ أو الاعْتِرَاض على القَدَرِ؛ ولهذا نهى رسولُ الله ﷺ عنه[1].

فالمُهِمُّ: أنَّ هذا التَّوْبيخَ يكون عذابًا قلبيًّا، وأمَّا كونُهم يُرَدَّدُونَ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ فهو عذاب جسمِيٌّ بدني، فهم دائمًا -والعياذُ بالله- في عذابٍ وحَسْرَةٍ ونَدَمٍ، كما قال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف:٧٥] دائمًا وأبدًا، ليس هناك فَتْرَةُ راحةٍ؛ ولهذا يقولون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩] فانظر -والعياذُ بالله- إلى الخِزْيِ والتَّقاصُرِ، فما قالوا: ادْعُوا ربَّكُمْ يَرْفَعِ العَذابَ، ولكن قالوا: ﴿يُخَفِّفْ﴾ فقط، ولَا قالوا: ﴿يُخَفِّفْ﴾ دائمًا؛ بل قالوا: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾، وهذا يدلُّ على شدَّة يَأْسِهم؛ لأنَّهم أُيْئِسُوا من الرَّحْمة -والعياذ بالله- يتَمَنَّوْنَ، وليس لهم وجهٌ على الله

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أن يسألوه، فيطلبونَ من خَزَنَةِ جَهَنَّمَ أن يشفعوا لهم إلى الله أن يُخَفِّف عنهم، قال عَزَّوَجَلَّ عنهم: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ ولكن تقول لهم الخزنة وتُوَبِّخُهُم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فيقولون ﴿بَلَىٰ﴾ ثم يقولون: إذن نحن بُرَآءُ منكم ولا نتدخَّلُ في شَأْنِكُم.

وقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟﴾ ادعوا أنتم؛ يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ ضائع لا يَنْفَعُهُم؛ ولهذا إذا ألَحُّوا على ربِّهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ وانظرْ إلى التَّضَرُّعِ: ﴿رَبَّنَا﴾ والاعترافِ: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ فهم حكموا على أنْفُسِهِم، وكلُّ هذا من باب التَّضَرُّعِ؛ لأنَّ الإنسان إذا اعْتَبَرَ بإساءته فإنَّ هذا مَدْعَاةٌ لرحمته، فإذا جاءك واحِدٌ يَعْتَذِر بذنبه ويعترف بذنبه، فهذا يوجِبُ أنَّك تَرْحَمُه، فهم يعترفون لعلهم يُرْحَمُون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾؛ قال الله تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟﴾ أي ذلُّوا وكونوا حقارَى ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ بأي كلمة حينئذ -والعياذ بالله- فيَيْئَسونَ من كل خَيْرٍ، نسألُ الله السَّلامَةَ؛ ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الفِسْقَ نوعان: فِسْقٌ أَكْبَرُ، وهو الكُفْرُ، وفِسْقٌ دون ذلك وهو المعاصي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الكُفَّارَ مأواهم النَّار؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ الفِسْق المُخْرِج من المِلَّة، وهناك فِسْقٌ آخَرُ ليس مُخْرِجًا من المِلَّة؛ مثل

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾.

وهنا قال: ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ ولم يَقُلْ: فلهم النَّارُ مأوًى أو فلهم نارُ المأوى، والفارق: أنَّ النَّار كلُّ أَحَدٍ لا يُحِبُّ أن تكون مأواه، بخلاف الأَوَّلِ؛ فالجَنَّة كُلٌّ يُحِبُّ أن تكون هي المأوى، وأمَّا هذا فلا، وإن كان هذا الفَرْقُ قد يختلف في بعض الآيات؛ مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٧-٤١].

ولكنْ لكُلِّ مقامٍ مقالٌ؛ فهنا المقامُ مقامُ مُعادَلَة وموازَنَة، فلهذا فَرَّقَ بينهما؛ قال: ﴿جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ وهنا قال: ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أما هنا فليس هناك مُعادَلَة؛ لأنَّه لما ذكر أنَّ قومًا يَدَّعُون لأنْفُسِهم أنَّهُم على الحَقِّ، فأنكر الله ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ النَّار؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ وهي موجودة الآن، والدَّليلُ قولُه تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: شِدَّةُ عذابِ أَهْلِ النَّارِ لِكَوْنِهم يُمَنَّوْنَ بالخُرُوجِ ويُرْفَعُونَ فيرتَفِعُ بهم اللهب حتى إذا ظَنُّوا أنَّهُم يَخْرُجونَ أعيدوا فيها: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ أَهْلَ النَّار يُجْمَعُ لهم بين العذابِ الجِسْمِيِّ والعذابِ القَلْبِيِّ للتَّوْبيخِ؛ قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

الآية (٢١)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ هذا فِعْلٌ مُؤَكَّدٌ بالنون واللام ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ تأكيدًا وجوبيًّا لأنَّه مُثْبَتٌ مُستقبَلٌ في جواب قَسَمٍ غير مَفْصولٍ من لامِهِ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ عذاب الدُّنيا بالقَتْلِ والأَسْر والجَدْب سنينَ والأَمْراضِ ﴿دُونَ﴾ قَبْلَ ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ عذابِ الآخِرَة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي مَنْ بَقِيَ منهم ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إلى الإيمان] وهذا وعيدٌ من الله عَزَّوَجَلَّ أنه يُذيقَهُم العذابَ الأدنى قبل العذابِ الأَكْبَرِ، وهو عذاب الآخِرَة لعلَّهُم يرجعون؛ و(لعلَّ) للتَّعْليل.

ولكن هل رجعوا؟

الجوابُ: منهم من رَجَعَ، ومنهم من لم يَرْجِعْ؛ فإن قريشًا أُصيبوا بالجَدْبِ والسِّنينَ والقَتْلِ ببدر. فقد قُتِلَ شُرَفاؤهم، والأَسْرِ أيضًا، ومع ذلك منهم من رَجَعَ ومنهم من لم يرجع، فمن أراد الله له النَّجاة أحيا الله قَلْبَه بهذه المواعظ فرجع، ومن طَبَعَ الله على قلبه بقي على ما هو عليه ولم يَرْجِعْ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ حِكْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ فيما يبتلي به من المصائِب؛ تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن عـذابَ الدُّنيا لا يُنْسَبُ إلى عَذابِ الآخِـرَة؛ لما بينهما من الفَرْقِ العظيم، فهذا أدنى وذاك أَكْبَرُ؛ يعني: كلاهما في طَرَفَيْ نَقيضٍ، يعني أدنى اسم تفضيلٍ، وأَكْبَرُ اسم تفضيلٍ، فإذن: هل يُنْسَبُ أدنى شيءٍ إلى أعلى شيءٍ؟

الجوابُ: لا نِسْبَةَ، ولهذا نقول: الفَرْقُ عظيمٌ بين عذاب الدُّنيا وعذابِ الآخِرَة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قَبُول التَّوبَةِ من الكافِرِ؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ حِكْمَةِ الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فإنَّ (لعلَّ) للتَّعليلِ، والتَّعْليل هو الحِكْمَةُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ العذابِ في الآخِرَة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ فإنَّ المرادَ به عذابُ الآخِرَة.

الآية (٢٢)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ القرآنِ ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ أي لا أَحَدَ أظلَمُ منه ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المشركينَ ﴿مُنتَقِمُونَ﴾].

[﴿مَنْ أَظْلَمُ﴾ أفاد المُفَسِّر بقوله: [لا أَحَدَ أظْلَمُ] أنَّ الاسْتِفْهامَ هنا للنَّفْي؛ أي: لا أحد أظْلَمُ منه، والظُّلْم سبق لنا عدة مرات أنَّ المراد النَّقْصُ في الأصل؛ لقوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي لم تَنْقُصْ، والمراد به نَقْص الإنسان فيما يجب عليه فيدَعُه؛ أو نَقْصُه فيما مُنِعَ منه فيرتَكِبُ المُحَرَّمَ.

وقوله: ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾: ﴿ذُكِّرَ﴾ ما قال: ممن ذكَّره الرَّسُولُ ﷺ لأجل أن يَشْمَلَ كُلَّ مُذَكِّرٍ؛ لأنَّ بَعْضَ النَّاس قد يخضع لبعضِ المُذَكِّرينَ لكونه فلانًا، وهذا ليس خاضعًا للآياتِ، بل هذا خاضع للأشخاصِ فتَجِدُه إذا ذُكِّرَ بهذه الآيَةِ إن ذكَّره فلانٌ قَبِل وإن ذَكَّره آخَرُ لم يَقْبَلْ، ويُوجَدُ أناسٌ إذا أَمَرَهم إنسانٌ بأمرٍ معروفٍ لم يُهِمَّه، بل ربما يَسْتَهْزِئ به، وإذا أَمَرَهم به آخَرُ امْتَثَلَ وأظهر الموافَقَة؛ ولهذا قال: ﴿مِمَّن ذُكِّرَ﴾ لئلا يتقَيَّدَ بمذكِّرٍ مُعَيَّنٍ، بل أيَّ مُذَكِّر يكونُ.

وقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المراد به [القرآن] والأصَحُّ

أنه أعَمُّ من القرآن ويَشْمَلُ حتى من ذُكِّروا بالتَّوْراة في زَمَنِ التَّوراة، ومن ذُكِّروا بالإنجيل في زمَنِ الإنجيل، وبالزَّبورِ في زمن الزَّبُور؛ لأنَّ هذا حُكْمٌ عامٌّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أتى بالرُّبُوبيَّة المقْتَضِيَةِ للانقياد؛ لأنه ما دام التَّذْكيرُ بآيات ربٍّ لك فأنت مربوبٌ عبدٌ، والمربوبُ في تدبيرِ ربِّه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ﴾ وفي آيَةٍ أخرى ﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ والفَرْقُ أنَّه في الآيات الأخرى ﴿فَأَعۡرَضَ﴾ أنه بادَرَ بالإعراضِ، وفي الثَّانِيَة بعدما فكَّر وقدَّر، وفي هـذه الآية: أَعْرَض، والنَّاسُ هكذا منهـم من يُعْرِضُ لأوَّل وَهْلَة ولا يَلْتَـفِت ولا يُفَكِّر، ومنهم من قد يفكِّر، ولكن في النهاية يُعْرِضُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ الجملة استئنافِيَّة لبيان أو لتهديدِ هؤلاء المُعْرِضينِ، وبيانِ أنَّهُم من المجرمينَ؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ وهو إظهـارٌ في مَوْضِعِ الإضمار، والأَصْل: (إنَّا مِنهم)، لكنْ أظْهَـرَ في مَوْضِعِ الإضمار للسَّبَبين السابِقَيْن اللذينِ أَشَرْنا إليهما:

١- أنه من أَجْل أن يحكم على هؤلاء بالإجرامِ.

٢- ولأجل أن يكون الحُكْمُ عامًّا لكلِّ مُجْرِمٍ فيهم وفي غيرهم.

والإجرامُ بمعنى الإثْم، والمُجْرِمُ هو الآثِم الذي ارتَكَبَ ما لا يحِلُّ له؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ مُنْتَـقِمون، جَمَعَ ليطابِقَ المبتـدأَ ﴿إِنَّا﴾ الذي هو اسم (إنَّ) يعني أصبحت (إنَّنَا) لكن حُذِفَتْ النُّونُ الثَّانِيَة تخفيفًا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ الجمع هنا وفي كل ما يضاف

إلى الله يُرادُ به التَّعظيمُ، وقد سبق لنا أنَّ النَّصْرانيَّ لو استدلَّ بالجمع على التَّعَدُّد، قلنا له: أنت من أصحاب الزَّيْغِ الذين يتَّبِعون ما تشابه منه؛ لأنَّك لو رجَعْتَ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ زال عنك هذا الاشتباه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ هي كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ فكلمة: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ تعني أنه صاحِبُ انتقامٍ؛ يعني: لمن يستحِقُّه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ مُقَيَّدَةٌ: منتقمون من المجرمينَ، وبهذا نعرف أنَّ المُنْتَقِمَ ليس من أسماء الله؛ لأنَّ الاسْمَ من أسماء الله يكون مُطْلَقًا دالًّا على المعنى الأَحْسَنِ على كلِّ تقديرٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فكل كلمة تحتمل هذا وهذا فإنَّها لا تكون من أسماءِ الله؛ لأنَّ الله يقولُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والانتقامُ لا شكَّ أنه حَسَنٌ في محلِّه؛ وعليه فلا يَصِحُّ أن يُوصَفَ الله به على سبيل الإطلاقِ، وهو معدودٌ من الأسماء الحسنى المشهورَةِ، لكنَّ هذه الأَسماءَ الحسنى المشهورة كما قال شَيْخُ الإسلامِ[1] وغَيْرُه من أهل التَّحقيقِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: «ليست ثابِتَةً عن الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ» لأن فيها أشياءَ من الأَسْماء لا تصِحُّ اسمًا لله.

إِذَن: فهل يُوصَفُ الله بالانتقامِ مطلقًا، فيقال: المُنْتَقِم؟

والجوابُ: لا؛ لأنه ما ورد إلا مقَيَّدًا، وورد ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ نَكِرَةً في سياقِ الإثباتِ فلا تدلُّ على العمومِ؛ لأنَّ النَّكِرَةَ في سياق الإثباتِ -كما هو معروف- لا تُفيدُ العمومَ، وإنَّما تفيدُ العمومَ إذا كانت في سياقِ النَّفْي أو النَّهْي أو الشَّرط أو الاسْتِفْهامِ الإنكاريِّ، كما ذكره أهلُ الأُصولِ.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٣٧٩).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ من كان على هذا الوَصْفِ فإنَّه لا يكون أحدٌ أظْلَمَ منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾.

وها هنا مسألةٌ، وهي أن مِثْل هذه العبارة جاءت في غَيْرِ هؤلاءِ، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، وفي السُّنَّة: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي**»[1] فكيف نَجْمَعُ بين هذه النُّصوصِ؟

الجوابُ: ذكرنا فيما سبق أنَّ الجَمْعَ بأحَدِ وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: أن نقولَ: إن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا يفيدُ أنَّ الظالمَ لا يُوجَدُ مُشارِكٌ أو مساوٍ له في هذا الظُّلْمِ، وإمَّا نقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ﴾ اشتركا في الأَظْلَمِيَّة، وأنَّ هذا أعلى ما يكون في الظُّلْمِ.

والوجه الثاني: أن نقول: إنَّ الأَظْلَمَ بالنِّسْبَةِ لما تحته مِن نَوْعِهِ، وهنا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ يعني هذا أظْلَمُ ما يكون مِنَ المذكورينَ، بخلاف مَن ذُكِّرَ ثم أَعْرَض عن البَعْضِ، أو ما أشبه ذلك، فيصير هذا الأَظْلَمَ بالنِّسْبة لما تحته من نَوْعِه؛ كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ يعني لا أَحَدَ أظلَمُ في مَنْعِ شيء من الأشياء مِمَّن منع مساجِدَ الله، وعلى هذا فَقِسْ، فصار الجوابُ بأحَدِ وجهين.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، رقم (٧٥٥٩)، ومسلم: كتاب اللباس، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإنسانَ يجب أن يَقْبَلَ التَّذْكيرَ من أيِّ مَن ذَكَّره، تُؤخَذُ من بيانِ الفِعْل ﴿ذُكِّرَ﴾، فلم يَقُل: ممن ذكَّره الرَّسُول، أو ذَكَّرَه فلان أو فلان، فإذا وَقَعَ التَّذْكيرُ أو أتاك التَّذكيرُ من أيِّ جِهَةٍ فالواجِبُ عليك القَبولُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الإعراضَ بعد العِلْم أقْبَحُ منه حالَ الجَهْلِ؛ لأنَّ الله تعالى جَعَلَ هذا أعظمَ الفِسْقِ: أن تُذَكَّرَ ثُمَّ تُعْرِضَ، لكن مَن أَعْرَضَ بدون تذَكُّرٍ فهو أَهْوَنُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الجزاءَ من جنْسِ العمل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الإعراضَ عن آيـات الله بعد التَّذْكيرِ بها إجـرامٌ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جواز إضافَةِ الانتقامِ إلى الله مُقَيَّدًا؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ يعني الإخبار عن الله بأنه مُنْتَقِمٌ، لكنْ مُقَيَّدًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ عَظَمَةِ الله؛ لقوله تعالى: ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ فإنَّ الجَمْعَ هنا للتَّعْظيم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بلاغَةُ القُرْآنِ وأنَّه في أعلى ما يكون من البلاغَةِ والفصاحَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ولم يَقُلْ: إنَّا منه؛ من أجل أن نَسْتَفيدَ فائِدَتَيْنِ:

الفائِدَة الأولى: أنَّ هذا مُجْرِمٌ.

الفائدة الثَّانِيَة: أنَّ الحُكْمَ يعمُّهُ وغَيْرَه من المجرمينَ.

الآية (٢٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [السجدة:٢٣].

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بمعنى أَعْطَيْنا، وهو إعطاء شرعي قَدَرِيٌّ، وقوله تعالى: ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾: ﴿مُوسَى﴾ مفعولٌ أوَّلُ، و﴿ٱلْكِتَٰبَ ﴾ مفعولٌ ثانٍ، و(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ ﴾ للعَهْدِ الذِّهْني؛ لأنَّه لم يُسْبَقْ له ذِكْرٌ حتى يُحالَ على المذكورِ، وليس شيئًا حاضرًا حتى يقولَ: إنَّه عَهْدٌ حضوريٌّ.

إِذَن: فهو عَهْدٌ ذِهْنِيٌّ؛ لأنه كتابٌ معهودٌ معروفٌ، وهو التَّوْراةُ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ﴾ شكٍّ ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾] ﴿فَلَا تَكُن ﴾ الخطابُ هنا -على ما مشى عليه المُفَسِّر- للرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والضَّميرُ في لقائه يعودُ على موسى، والمعنى: فلا تكُنْ يا محمَّدُ في مِرْيةٍ؛ أي في شكٍّ ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي لقاءِ موسى؛ يعني فإنَّكَ سَتُلاقيهِ، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وقد التَقَيَا ليلَةَ الإسراء] هذا ما ذهب إليه المُفَسِّر وذهب إليه كثيرٌ من المُفَسِّرين أيضًا؛ أنَّ الخطابَ للرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والضَّميرُ يعودُ على موسى، والمعنى: لا تكُنْ يا محمَّدُ في شكٍّ من مُلاقاةِ موسى؛ فإنَّكَ سَتُلاقيه، وقد لاقاه في لَيْلَة الإسراءِ.

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الإسراء] لأنَّ الإسْراءَ والمعْراجَ في ليلةٍ واحِدَة، هذا ما ذَهَبَ إليه المُفَسِّر؛ ويُحْتَمَلُ أنَّ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن﴾ خطابٌ لموسى؛ يعني: آتَيْنا موسى الكتابَ قائلينَ له: لا تَكُنْ في مِرْيَةٍ من لقائِهِ؛ أي لقاءِ الجَزاءِ عليه؛ أي: على الكتابِ، والمعنى أنَّ هذا الكتابَ الذي آتيناكَ إيَّاه لا بدَّ أن يُحاسَبَ عليه مَن نَزَلَ إليهم حتى يلاقُوا جزاءَهُم.

ويُحتَمَل أنَّ المعنى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي لقاء ما لَقِيَه موسى من الأذى؛ فإنَّ موسى أُوذِيَ، وقال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَقَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ هَذا فَصَبَرَ**»[1] وهذا أيضًا من المعنى الحَسَن: أنَّ المعنى: أنَّنا آتَيْناه وآتَيْناكَ أيضًا وأُوذِيَ فستُؤْذَى؛ فلا تَكُنْ في شكٍّ من هذا، وهذا هو الواقِعُ؛ فإنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَقِيَ من الأذى الشَّيْءَ الكثيرَ، وكُلُّ من تَبِعَ شَريعَتَه وانْتَهَج مِنهاجَهُ في الدَّعْوة إلى الله والعَمَل في شَريعَةِ الله فَسَيَلْقى الأذى، ولكنَّ الشَّأْنَ كلَّ الشَّأْنِ: هل يَلْزَمُ من الأذى الضَّرَرُ؟

الجوابُ: لا يَلْزَمُ من الأذى الضَّرَرُ؛ ولهذا يَصِحُّ أن نقولَ: إنَّ الله يُؤْذَى ولا يتضَرَّرُ؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الحديث القُدُسِيِّ: «**يُؤْذِيني ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ**»[2] مع أنه قال عَزَّوَجَلَّ في الحديثِ القُدُسِيِّ: «**يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لم تَبْلُغُوا ضُرِّي**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى، رقم (٦١٠٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، رقم (١٠٦٢)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ الآية، رقم (٤٨٢٦)، ومسلم: كتاب الأدب، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فَتَضُرُّونِي»[١] فلا يَلْزَمُ من الأذى الضَّرَرُ، فها نحن الآن نتأذَّى برائِحَةِ إنسانٍ أَكَلَ بصَلًا أو ثُومًا ولا نتَضَرَّر، فلا يَلْزَمُ من الأَذى الضَّرَرُ، والرَّسولُ ﷺ لا شكَّ أنَّه أُوذِيَ، ولكن ما ضَرَّه ذلك، والحمْدُ لله! صار الأَمْرُ والعاقِبَةُ للرَّسول ﷺ.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ فالمعنى أنه لن يضرُّوكم أبدًا، ولكن مِن أذًى؛ ولهذا قالوا: إنَّ الاسْتِثْناءَ في هذه الآيَةِ مُنْقَطِعٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى﴾ ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾: الضميرُ يعود على موسى أو الكِتاب؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي موسى أو الكتابَ ﴿هُدًى﴾ هاديًا ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾].

﴿هُدًى﴾ مصدرٌ، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّه بمعنى اسْمِ الفاعِلِ [هاديًا ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾]، واسْمُ الفاعِلِ صالِحٌ للكتابِ وصالِحٌ لموسى.

وقوله تعالى: ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بنو إسرائيلَ أي: ذُرِّيَّة إسرائيلَ، فيشْمَلُ الذُّكورَ والإناثَ، لكِنْ لو قُلْتَ: (بنو فلان) وهو شَخْصٌ، وليس هو بقبيلَةٍ، فـ(بنو): للذُّكور، فإذا قلْتَ مثلًا: (بنو محمَّدٍ) فالمعنى: الذُّكور، وإذا قُلْتَ: (بنو تميمٍ) فيشْمَلُ الذُّكورَ والإناثَ؛ لأنَّهم قبيلةٌ، وإذا قلتَ: (بنو آدَمَ) فيَشْمَلُ الذُّكورَ والإناثَ، وأما قوْلُ الرَّسُولِ ﷺ: «إِنَّ هَذَا شَيْءٌ كَتَبَهُ الله عَلَى بَنَاتِ آدَمَ»[٢] فخاصٌّ بهنَّ.

وإسرائيلُ هو يعقوبُ بْنُ إسحاقَ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وهُوَ نَبِيٌّ من الأنبياءِ، ويقولون: معنى (إسرائيلَ) أي: عَبْدُ الله، وهو لقبٌ له.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب كيف كان بدء الحيض، رقم (٢٩٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام (١٢١١)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ رسالَةِ موسى؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، وتأكيدُ هذه الرِّسالَةِ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ لأنَّ الجملة مُؤَكَّدَةٌ بثلاثَةِ مُؤَكِّداتٍ: اللام، وقَدْ، والقَسَم المُقَدَّر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رسولٌ حقًّا لا يجوز الشَّكُّ فيه؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ يعني أنَّ هذا حَقٌّ؛ فلا تكُنْ في شَكٍّ من أنَّه حصل لموسى هذا الذي حصل، وهذا على التَّفسيرِ الذي ذكرنا، أمَّا على ما قاله المُفَسِّر فيُسْتفادُ منه: أن محمدًا ﷺ سوف يُلاقي موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ التَّوْراةَ كالقرآنِ هُدًى؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى﴾ لكن لبيانٍ مَخْصوصٍ وهو: ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإشارَةُ إلى أنَّه لا ينبغي لنا أن نطلُبَ الهُدى من التَّوْراة؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أما مِن بَعْدِ بَعْثَة الرَّسُول فالهدى لهم هو القُرْآنُ.

الآية (٢٤)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أي: صيَّرْنا، والجَعْل هنا كونيٌّ، وغالِبُ الجَعْلِ المذكور في القرآن كونيٌّ، وإن كان يأتي بمعنى الشَّرْعيِّ؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ﴾ إذ المعنى: ما جعله شَرْعًا وأمَّا كَوْنًا فقد وقع.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي: مِنْ بني إسرائيل.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَئِمَّةً ﴾ بتحقيقِ الهمزتين وإبدال الثانية ياءً] هذه هي تفسيرٌ للأئِمَّة، فـ(أئمة) هذا تحقيق، و(أَيِمَّة) إبدال الثانية ياءً، وكثيرٌ من القُرَّاء عندنا يقرؤونها بالتَّسْهيل دائمًا يقولون: (أَيِمَّة).

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [قادة] تفسير لأئِمَّة؛ لأنَّ الإمامَ هو الشَّيْء الذي يُقتدَى به ويُتَّبَع.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يَهْدُونَ﴾ النَّاسَ ﴿بِأَمْرِنَا ﴾] ﴿يَهْدُونَ﴾ أي يَدُلُّون النَّاس، والمراد بالهدايَةِ هنا هدايَةُ الدَّلالَةِ؛ لأن هدايَةَ التَّوْفيق لا تكونُ إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لكن هذه هدايَةُ دلالَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿بِأَمْرِنَا﴾ يُحتَمَل أن يكون الأمْر الشَّرْعي أو الأَمْر الكَوْني، فإن كان المرادُ به الشَّرْعيَّ، فالمعنى: يَهْدُون النَّاسَ بالشَّرْع؛ أي: إليه، وإن كان الأَمْرُ قَدَرِيًّا فالمعنى: أنَّهُم يَهْدونَ ذلك ويَدُلُّونهم بقَدَرِنا وتَقْدِيرنا، والحقيقةُ: أنَّ الأَمْر هنا شاملٌ للمعنيينِ جميعًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾ على دينهم وعلى البلاءِ مِنْ عَدُوِّهِم، وفي قراءةٍ بِكَسْرِ اللام وتخفيف الميم] وهي: (لِـمَا صَبَرُوا)].

فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾ لما هذه فيها قراءتان: قراءة: (لِـمَا صَبَرُوا)، وقراءة: ﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾، أما على قراءَةِ: ﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾ فهي بمعنى حينَ، فهي إذن ظَرْف، وأما على قراءة (لِـمَا صَبَرُوا) فاللَّامُ حَرْفُ جَرٍّ و(ما) مَصْدَرِيَّة؛ أي: لصَبْرِهم، وتكون اللام هنا لامَ التَّعليل.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿صَبَرُواْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [على دينهم وعلى البَلاءِ من عَدُوِّهم]، وهذا هو الحق، فيقول: الصَّبْرُ هنا على أحكامِ الله الكَوْنيَّة والشَّرعيَّة؛ فالشَّرعيَّة على دِينِهم، والكَوْنِيَّة على قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وعلى البلاءِ مِن عَدُوِّهم].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ الدالَّةِ على قُدْرَتِنا ووَحْدَانِيَّتنا ﴿يُوقِنُونَ﴾] ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ الواو حرف عطف، و(كان) معطوفَةٌ على ﴿صَبَرُواْ﴾، يعني لهذين الأَمْرَينِ: الصَّبْرِ واليقينِ، واليقينُ هو أعلى درجاتِ الإيمان؛ لأنَّ اليقينَ معناه: أنه يقينٌ لا تَزَعْزُعَ معه ولا شَكَّ فيه، وقد قيل: (بالصَّبْر واليَقينِ تُنالُ الإمامةُ في الدِّينِ)، وهي مأخوذَةٌ من هذه الآيَةِ: ﴿لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ الدَّالَّة على قُدْرَتنا ووَحْدانِيَّتنا] يَشْمَلُ الآياتِ الشَّرعيَّةَ والكونيَّةَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فضيلةُ الصَّبْرِ؛ تُؤخَذُ من الجزاءِ عليه؛ أي: مِن كَوْن الصَّابِر يكون إمامًا، وهذا دليلٌ على أنَّ الصَّبْرَ محبوبٌ إلى الله ويجازي عليه بهذا الجزاء العَظيم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فضيلَةُ اليقينِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: نَيْلُ الإِمامَةِ في الدِّينِ بهذين الوَصْفَيْنِ؛ وهما: الصَّبْرُ واليقين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الجزاءَ مِن جِنْسِ العمل؛ لأنَّ هؤلاء لما صَبَروا وأيقنوا صاروا أَئِمَّةً يُقتَدَى بهم؛ فكلما أصاب الإنسانَ شيءٌ قال: لقد أُصيبَ فُلانٌ فصبر فلْتَصْبِرْ، وكلما وردت عليه شُبْهَةٌ قال: لقد كان فلان مُوقنًا فأنا أُوقِنُ، فيكون الإنسانُ بذلك إمامًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الآياتِ لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

الآية (٢٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [السجدة:٢٥].

قوله: [﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أَمْرِ الدِّينِ] ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ ﴾ الفَصْل بمعنى: القضاء؛ أي يقضي ويَحْكُمُ حتى يَمِيزَ الحقَّ لهؤلاء وهؤلاء.

والحُكم كما قال الفُقَهَاء: هو فَصْلُ الخُصوماتِ؛ لأنه به يَتَميَّزُ هذا من هذا ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ في حُكْمِهِ الجزائيِّ؛ لأن حُكْمَه الشرعِيَّ فاصِلٌ في الدُّنيا، فهؤلاء على حقٍّ، وهؤلاء على ضَلالٍ، لكن مرادُه: الحكْمُ الجزائيُّ الذي هو غايَةُ الشَّرْعِ، فيومَ القيامَةِ يَفْصِلُ بينهم؛ فهؤلاء إلى النَّار، وهؤلاء إلى الجَنَّة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فقد كانوا يختلفونَ في الدُّنْيا؛ فالمؤمنون يقولون: إنَّ هذا هو الحَقُّ، وأولئك يقولون: ليس هذا هو الحَقَّ، لكنْ يَوْمَ القيامَةِ يُفْصَل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، ويَتَبَيَّن مَن هو الذي على الحقِّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنه لا حاكِمَ في الآخِرَة إلا الله، تُؤخَذُ من ضميرِ الفَصْل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ فهو وَحْدَه يَفْصِلُ، وقد قال الله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، وقال: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ يَوْم القيامَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَحْكُمُ بين المؤمنين والكافرين في ذلك اليَوْمِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيقول: أنتم على حَقٍّ، وأنتم على باطِلٍ؛ وهؤلاء للجَنَّةِ، وهؤلاء للنَّارِ، والغالِبُ المُنْتَصِرُ هم المؤمنون.

وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١]، فانظر! قاضٍ يُعْلِنُ الحُكْمَ بين الخَصْمَيْنِ ويقول: أنتَ الغالِبُ، يعلن بالحُكْمِ قبل القَضِيَّة، وهذا في حَقِّ الله عَزَّوَجَلَّ لا شَكَّ أنه جائِزٌ، لكنْ في قضيَّة في الدُّنْيا ويأتي القاضي ويقول: يا فلانُ أنت كاذِبٌ، وذاك ليس له سبيلٌ عليكَ، فهذا لا يجوز:

أولًا: لأنَّ القاضيَ إلى الآن ما عُرِضَتْ عليه هذه القضيَّة ولا يدري.

ثانيًا: أنَّ الخَصْمَ غالبًا يَذْكُرُ الحُجَّة التي له سواء إنْ قَصَدَ إخفاءَ قضِيَّة خَصْمِه أم ظنَّ أنها لا تَنْفَعُه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه لا وِفاقَ بين المؤمنينَ والكافرين؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فأيُّ إنسانٍ يحاوِلُ أن يقارِبَ بين الإسلامِ والنَّصْرانيَّة

أو بين الإسلامِ واليهودِيَّة فإنَّه أراد أن يَرُدَّ اللَّبَنَ في الضَّرْعِ! وهذا غير مُمكِنٍ؛ فكلُّ كافرٍ مهما كان سواءٌ انتسَبَ إلى الإسلامِ أم كان كافرًا مُعْلِنًا كُفْرَه فإنَّه لا يُمْكِنُ أن يتوافَقَ مع المؤمنين أبدًا، ومن زعم ذلك فقد أَبْعَدَ النَّجْعَةَ وحاول شيئًا مُسْتَحيلًا.

• • ۞ • •

الآية (٢٦)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة:٢٦].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ أي: يتبيَّنْ لكفَّارِ مكَّة إهلاكُنا كثيرًا ﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الهَمْزة هنا للاسْتِفْهام، والواو حرفُ عَطْف، وقد سبق لنا في مثل هذا التَّرْكيب أنَّ للعلماءِ في ذلك قولَيْنِ في الإعرابِ.

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِ لَهُمْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَتبيَّنْ لهم]، وفي الحقيقَةِ أنَّ هذا التفسيرَ تفسيرٌ باللازِمِ، وإلا فإنَّ الهدايَةَ في الأَصْلِ: الدَّلالَة، لكن بالدَّلالَةِ يكون البيانُ؛ فلهذا فسَّروها باللَّازِمِ: (أَوَلَمْ يَتبيَّنْ لهم).

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾: ﴿كَمْ﴾ هذه خبرية، وهي في محل نَصْبٍ مفعولٌ مقدَّمٌ لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، وهذه الجملة: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، تؤول بمصدر مِن غير حرف مصدري، يعني: أولم يتبين لهم إهلاكُنا، وقد سبق لنا أن جُملًا قد تُؤَوَّل بمصدرٍ مِن غير حرفٍ مصدريٍّ، مثال ذلك قوله: ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ يعني سواء عليهم إنذارك وعدمه، وسواء عليهم استغفارك وعدمه، فهذه مما يؤول بمصدرٍ بدون حرفٍ مصدري.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ أي يتبين لكفَّار مكة] المُفَسِّر دائمًا يخُصُّ مثل هذه العباراتِ لأهْلِ مكَّة، وكأنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أنَّ كونَ الآيات المكية تُعَيِّنُ المرادَ، ولكِنَّ الأَوْلى أن يُقالَ: العِبْرةُ بِعُمومِ اللَّفْظِ لا بخصوص المكانِ، كما أنَّ العِبْرة بعمومِ اللَّفْظ لا بخصوص السبَّب، فإذا لم يكن هناك سببٌ يقتضي تخصيصَ المكان به فإنَّ العِبْرةَ بالعموم.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الأُمَم بكُفْرِهم] أي: بسببِ الكُفْر، والقرونُ جَمْعُ قرنٍ، والمراد بالقَرْنِ الأُمَّة من النَّاس، كما في الحديث الصَّحيحِ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الذينَ يَلُونَهُمْ**»(١).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَمْشُونَ﴾ حالٌ من ضميرِ ﴿لَهُمْ﴾] في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾؛ فـ﴿يَمْشُونَ﴾ حالٌ من ضمير لهم، وإن كان يُحْتَمَلُ الحالُ ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ لكِنْ ﴿لَهُمْ﴾ أحسن، لأنها مبتدأُ الكلام؛ يعني: حالَ كَوْنِ هؤلاء يمشون.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ في أَسْفارِهِم إلى الشَّام وغيرها] يعني أنَّ هؤلاء الذين بَقُوا إلى وقت نزولِ القرآن قد تبيَّنَ لهم إهلاكُ الأُمم السَّابِقَة، وهؤلاء الذين بَقُوا إلى وقت نزولِ القُرْآنِ يَمْشُون في مساكِنِ أولئك المعَذَّبينَ، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في أَسْفارِهِم إلى الشَّامِ] أي في طريقهم إلى الشام -بمعنى أنَّ المراد كُفَّارُ مكَّة- مثل ديار ثمودَ ومثل ديارِ قوْمِ لوطٍ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة الحِجْرِ: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، وكونهم يمشون في مساكنهم هذا أَبْلَغُ في النَّظَر وفي التبيُّنِ؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم (٢٦٥٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لأنَّهُم يرون ذلك عَيْنَ اليقين، وعينُ اليقينِ أشدُّ من عِلْمِ اليقين؛ ولهذا قال إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فإحياءُ الموتى عند إبراهيم قبل أن يشاهِدَه بِعَيْنِه من باب عِلْمِ اليَقينِ، فإذا شاهدهم صار من بابِ عَيْن اليقينِ.

وقد ذكر العلماءُ أنَّ لليقينِ ثلاثَ درجاتٍ: (علمًا) و(عينًا) و(حقًّا)، وكل ذلك مذكور في القرآنِ؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ فهذا عَيْنٌ وعِلْمٌ في سورة واحدة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ هذا حقُّ اليقين، هذه مراتِبُ اليقينِ الثَّلاثُ.

والفرق بينها: أنَّنا نحن نعلم عِلْمَ اليَقينِ أنَّ في الجَنَّة نَخْلًا ورمَّانًا وفاكِهَةً، فإذا رأيناها بأعْيُنِنا -ونسأل الله أن يَجْعَلَنا وإيَّاكُم نراها- إذا رأيناها بأعْيُنِنا صار ذلك عَيْنَ اليقينِ، فإذا أكلناها صار حَقَّ اليقينِ.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: لماذا لا يكون عينُ اليقينِ حقَّ اليقينِ؟

فَنَقُول: الآن هناك عَناقيدُ عِنَبٍ من البلاستيكِ الذي يراها عينَ اليقينِ يَحْسَبُها عنبًا، ولو تُعْطِي شَخْصًا بذْرَةً صغيرةً منها لأخذها وأَكَلَها؛ نحو قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ لكِنْ عندما نأكُلُ تلك البلاستيك تتبيَّنُ الحقيقةُ.

فـ(حق اليقينِ) أعلى من (عين اليقين)، لكن ما لا يُدْرَكُ إلا بالرُّؤْيَةِ فتكون رُؤْيَتُه (حقَّ اليقين). وكلُّ هذا تقريرٌ على قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ لأنَّ كَوْنَهم يمشونَ في مساكنهم معناه: أنَّهُم يُدْرِكونَ ذلك (عينَ اليَقينِ) فيشاهِدُون بأَعْيُنِهم، وهو أبلَغُ من الخَبَر.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ دلالاتٍ على قُدْرَتِنا] ولو قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعلى انتقامِنا من المُجْرمينَ» لكان أَوْلى وأَنْسَبَ، لأنَّ المقامَ الآن مقامُ اعتبارٍ بما جرى، فيكون هذا فيه دلالَةٌ على الانتقام من المكَذِّبينِ، فيكون أدعى للاعتبارِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ هذا للتَّوْبيخِ، الاسْتِفْهامُ للتَّوْبيخ، والمرادُ: قال المُفَسِّر: [﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ سَماعَ تدبُّرٍ واتِّعاظٍ] وإلا فهم يسمعون سماعَ إدراكٍ، لكنْ سماعُ الإدراكِ لا يُجْزِئ، بل يَضُرُّ، فإذا لم تنتفِعْ بسماعِ الإدراك -يعني بالأذن- كان ضررًا عليك، كما أنَّ العِلْمَ إذا لم تَنْتَفِعْ به كان ضررًا، فالمراد هنا: سَماعُ الاتِّعاظِ والاعْتِبارِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: استعمالُ ضَرْبِ الأمثالِ؛ تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ يعني: فإذا كنَّا أهْلَكْنا مَنْ قَبْلَهُم فسَنُهْلِكُهُم إذا كانوا مِثْلَهم؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الاستدلالُ بالشَّيْء المحسوسِ على الشَّيْء المعقولِ؛ لقوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾؛ أو بعبارة أخرى: الاستدلالُ بِعَيْنِ اليقينِ على صِدْقِ عِلْمِ اليقين؛ فقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ هذا عِلْمُ اليقينِ، وقوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ هذا عين اليَقينِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جواز المشي بدارِ المُعَذَّبينَ ومساكِنِهم؛ تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ ولكن: هل ذِكْر الخَبر عن الشَّيْء يفيد حِلَّه؟ والحقيقة أنه لا يُفيدُ، يعني: كَوْنُ هذا هو الواقِعَ الحقيقة أنَّهُم يمشون في مساكِنِهم لا يدُلُّ أنَّ هذا المشي مأذون فيـه، وقد أخبر النَّبِيُّ ﷺ أنَّ الظَّعينة تمشي من حَضرمَوْتَ إلى صنعاءَ مسيرًا لا تخشى إلا الله[1]، والظَّعِينة وحدها حرامٌ أن تسيرَ هذا المسير، وقال الرَّسُول ﷺ: «**لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ الْيَهُود والنَّصَارَى**»[2] وهذا حرامٌ.

فالإخبار عن كَوْنِهم يَمْشُون في مساكِنِهم لا يدلُّ على أنَّ المَشْي حلالٌ، لَكِنْ هل يدلُّ على أنَّه حرامٌ؟

الجوابُ: لا يدلُّ على أنَّه حلال ولا على أنَّه حرامٌ؛ فنَرْجِعُ إذن إلى الأدِلَّةِ الدَّالَّة على ذلك على التَّحْريمِ أو التَّحْليل، فنجد أنَّ الأَدِلَّة تدُلُّ على أنَّ السَّيْرَ فيها جائِزٌ، وأمَّا السكنى فلا تجوز، ومع ذلك فقد قال الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَـؤُلاءِ المُعَذَّبينَ إِلَّا أن تَكُونوا بـاكينَ، فإن لم تَكُونوا باكينَ فَلَا تَدْخُلُـوهَا**»[3]

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٩٥)، من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «**لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله**». وأخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٢)، من حديث خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «**والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه**».

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٥٦)، ومسلم: كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحِجر، رقم (٤٤١٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالإنسان الذي يَقْصِدُها نقول: لا تَدْخُلْها إلا باكيًا، وأما الذي يَمُرُّ بها مرورًا فلَهُ أن يَمُرَّ، ولكن يُسْرِعُ كما أسرع النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

أما الذَّهابُ إلى هذه المساكِنِ من أجل أنْ يتفرج ويقول: حضارةٌ عظيمةٌ، وانْظُرْ هذه الحضارَةَ القديمةَ! هل يوجد في الحضارَةِ الجديدة مثلُها! ويُشَمُّ من كلامِهِ تعظيمُ هؤلاء؛ فهذا لا نوافِقُ عليه؛ لأنَّ هذا من السَّيْرِ في الأرض المنْهِيِّ عنه؛ لأن كَوْنَنا ندخل على هؤلاء متفرجين مُنْبَسِطينَ مُنْبَهِرينَ بِقُوَّتِهم متناسينَ ما وقع بهم من العذاب لمخالَفَتِهِم أَمْرَ الله ورُسُلِه، فإن هذا مذمومٌ، وليس محمودًا ولا مأمورًا به.

وعليه، فنقول لكلِّ من أراد أن يَذْهَبَ إلى هذه البلادِ: إذا كنتم فَعَلْتُم ذلك على سبيل النُّزْهَة فهذا حرامٌ عليكم، أما على سبيل الاعتبارِ والاتِّعاظِ بما جرى لهم من العذابِ والنَّكَالِ وأن تتأثَّرُوا بذلك حتى تَبْكُوا فهذا جائِزٌ، وإلا فلا تدخلوا حتى لا تُعَرِّضُوا أَنْفُسَكُم للعذابِ، وأمَّا عن شَدِّ الرِّحالِ فليس فيه بأسٌ؛ لأنه ليس على سبيل التَّعَبُّدِ بهذا المكان نَفْسِه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ في إهلاكِ الأُمَمِ عِبْرَةً وآيةً؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ فهو آيةٌ لِكَوْنِ الله تعالى أَخَذَهُم وأَهْلَكَهُم مع قُوَّتِهم؛ وهي عبرةٌ؛ أنَّ الله أخذَهُم لمخالفته؛ كما قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، وكلُّ هذا يُفيدُ بأنه يَجِبُ علينا نحن أن نَعْتَبِر بهذه الآياتِ وأن نخافَ.

الآية (٢٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة:٢٧].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ اليابِسَةِ التي لا نباتَ فيها ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ هذا، فيَعْلَمُون أنَّا نَقْدِر على إعادَتِهم].

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ﴾ هل المرادُ بالرُّؤْية رُؤْيَةُ البَصَر أو العِلْمِ أو كلتاهما؟

الجوابُ: كلتاهما، فإذا كان ذلك بأَرْضِهم رَأَوْه بأَعْيُنِهم، وإذا كان في أَرْضِ غَيْرِهم رأَوْه بِقُلُوبهم رؤيةَ عِلْم، وهذا مُشاهَدٌ.

وقوله تعالى: ﴿نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ وهل نسوقُ الماءَ في الجَوِّ أو نسوقُه على الأرض، أو كلاهما؟

الجوابُ: كلاهما، فالأوَّل: ماء المَطَر نسوقُه في الجوِّ؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ والثَّاني الأنهار؛ تُساقُ إلى الأراضي القاحِلَة فتَنْبُت، وسواء كانت الأنهارُ كبيرةً كالأنهارِ المَشْهورة المعروفة أو صغيرة كالمياه النَّابِعَة، فإنَّها أنهارُ عيونٍ تسوقهم إلى الأَرْضِ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ بمعنى الخالِيَة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ خالِيَةً من كلِّ شيء، أرضٌ جُرُزٌ لا شيءَ فيها، وليس فيها أيُّ شجرةٍ فيأتيها المطَرُ أو يأتيها ماءُ النَّهْر.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ تأكُلُ منهم أنعامُهُم؛ أي: الإبِلُ والبَقَرُ والغَنَمُ، وكذلك غيرُها، لكنَّه خَصَّ الأنعامَ؛ لأنَّها أكثرُ بأيدي النَّاس وأكثرُ مُلابَسَةً، وقوله تعالى: ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ أي: إنَّهم يأكلونَ من هذا الزَّرْعِ النَّابِتِ منه.

والغالِبُ الذي يَنْبُت من الماء من الأنهارِ ومن السُّيول لا يحتاجُ إلى حَرْثٍ؛ إذ تُنْبِتُه الأَرْضُ، فكُلُّ البراري تَنْبُت بدون حَرْثٍ.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ الاسْتِفْهامُ هنا للتَّوبيخِ، يعني فالواجِبُ أن يُبْصِروا ما يرونه بأَعْيُنِهم ويستدِلُّوا به على كمالِ نعْمَةِ الله وقُدْرَتِه؛ ويَسْتَدِلُّون به على أَمْرٍ آخر وهو القُدْرَةُ على إحياءِ الموتى، فالأَرْضُ الجُرُزُ الخالِيَةُ من النَّبات يأتيها هذا الماءُ فتَنْبُتُ بإذن الله عَزَّوَجَلَّ فالله تعالى القادِرُ على إحيائها قادرٌ على إحياءِ الموتى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: وجوبُ النَّظَرِ في الآيات؛ لأنَّ الاسْتِفْهامَ هنا للتَّوْبيخِ ولِلَوْمِ مَنْ لم يَنْتَفِعْ بذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ أفعالِ الله الاختياريَّة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّا نَسُوقُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيان قُدْرَةِ الله؛ حيثُ يَسُوقُ الماءَ جوًّا أو برًّا إلى هذه الأَراضي الخالِيَة المَيْتة الهامِدَة فتَنْبُت؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الأَصْلَ فيما نَبَتَ في الأرض الحِلُّ، يُؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾؛ فالأَصْلُ فيما نبت في الأرض أنه حلالٌ حتى يقومَ دليلٌ على التَّحْريمِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيان قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ بإحياءِ الأرضِ بعد مَوْتِها؛ لقوله تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الإشارَةُ إلى أعلى درجاتِ اليَقينِ، وهي (حَقُّ اليقينِ) تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ﴾ فهم لا ينظرون إليه فقط، ولكنَّهم يأكلون منه، وهذا هو حقُّ اليَقينِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ المِلْك بالأَنْعام؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ فالإضافَةُ هنا إضافَةُ مِلْكٍ، ولكنَّه سبق لنا أنَّ كُلَّ مِلْكٍ يَثْبُتُ للإنسان فهو مِلْكٌ لله، لكنَّه مِلْك مقيَّدٌ، فالإنسانُ لا يملك الشَّيْء مِلْكًا مُطْلَقًا يتصرف فيه كما شاء، وإنما يَمْلِكُ مِلْكًا مُقَيَّدًا في تَحْصِيله وتَمْويلِهِ وتَصْريفِهِ.

فهو مقيَّدٌ بالتَّحْصيل؛ فلا تُحَصِّلْه إلا على الوَجْهِ المَشْروعِ، وفي تمويله يعني الاتِّجار به، وفي تَصْريفِهِ؛ أي: لا تُصَرِّفه إلا مُقَيَّدًا، فهل بعد هذا يكون المِلْكُ حقيقيًّا؟

الجوابُ: لا، إذَنْ مِلْكُكَ للأشياءِ -حتى مِلْكُكَ الخاصُّ كالبيت والسيارة والثَّوْب- ليس مِلْكًا مُطْلقًا، بل هو مِلْكٌ مُقَيَّد.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الحَثُّ على النَّظَر والتَّبَصُّر، يُؤْخَذ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

• • ۞ • •

الآيتان (٢٨، ٢٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [السجدة:٢٨-٢٩].

قال تعالى: [﴿وَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنينَ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ بيننا وبينكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾] أعوذ بالله! اسْتَبْطَؤُوا العذابَ فقالوا: متى هذا الفَتْحُ؟ وليس المرادُ فَتْحَ مكَّةَ، بل المراد: (الحُكْمُ بيننا؛ بأن تكون العاقِبَةُ لكم أيُّها المؤمنون وعلينا أيُّها الكافرون؛ متى يكون هذا الذي تُوعَدُون به!!)، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وهذا الاسْتِفْهامُ للاستبطاءِ الدَّالِّ على الإنكارِ، وليس للاسْتِعْلامِ والاسْتِرْشادِ، ولكنَّه استبطاءٌ دالٌّ على الإنكارِ؛ يعني كأنَّهم يقولون: إن كُنْتُم صادقينَ بأنَّكُم على حقٍّ، وأنَّ العاقِبَة ستكون لكم، فأينَ ذلك؟!

وهذا في غايَةِ ما يكون من العِنادِ -والعياذُ بالله- وكان الواجِبُ عليهم أن يخافوا ممَّا وَعَدَهم به المؤمنونَ، لكن هم لا يُصَدِّقونَ كِبْرًا وعنادًا؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ بإنزالِ العذابِ بهم ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾] فيه التفاتٌ من الخِطابِ إلى الغَيْبَةِ؛ لَمَّا قال: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾

قال: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ للعمومِ وللتَّسْجيلِ عليهم بما يَقْتَضيهِ الفِعْلُ، وهو الكُفْر.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ يعني: يومَ الفَصْلِ بيننا وبينكم والحُكْمِ: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ﴾: ﴿يَوْمَ﴾ ظرفٌ منصوبٌ على الظَّرْفِيَّة، وعامِلُه قَوْلُه: ﴿يَنفَعُ﴾؛ ومن هنا نأخُذُ فائِدَةً نَحْوِيَّة عظيمةً، وهي: أنَّ (لا) النافِيَةَ لا تَمْنَعُ عَمَلَ ما بَعْدَها فيما قَبْلَها.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يُمْهَلونَ لتوبةٍ أو مَعْذِرَة] فإذا جاءَ العذابُ للمُكَذِّبين فإن ذلك لا يَنْفَعُهُم، فإذا جاء العذابُ، ولو قالوا: آمنا؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ فإلى الآن نحن في قَضِيَّة معيَّنة، وليس هناك عمومٌ، لكن قال: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾ فقد مَضَتْ، يعني مَضَتْ سُنَّةُ الله عَزَّوَجَلَّ، أمَّا من آمن بعد معايَنَةِ العذابِ، فإن ذلك لا يَنْفَعُه؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ فليس له توبةٌ، وأمَّا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٨] فواضحٌ أنَّهُم ماتوا على الكُفْرِ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فيها دليلٌ على سَفَهِ هؤلاء المكَذِّبين وحُمْقِهِم؛ لقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ والاسْتِفْهامُ قلنا: إنَّه لِلاسْتِبْطاء والتَّحَدِّي للرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ومن كان معه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الحُكْمَ بين المؤْمِنِ والكافِرِ من الفَتْحِ؛ لأنَّ الله قال: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ﴾ فأقَرَّ هذه التَّسْمِيَة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيان عُتُوِّ الكافرين وإجرامِهم؛ لِكَوْنِهم يَتَحَدَّوْنَ الرَّسُولَ ﷺ والمؤمنينَ: متى هذا الحُكْمُ بيننا إن كنتم صادقينَ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ العذابَ إذا نزل لا يَنْفَعُ الإيمانُ، يُؤْخَذُ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه إذا نزلَ العذابُ فلا إِنْظَارَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ العذابَ قد يُؤَجَّلُ قَبْل نزوله؛ لأنه يقول: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ﴾ فظاهِرُ الآية: أنه لو كان هذا الإيمانُ قبل نزولِ العَذابِ فإنَّ الله تعالى يَرْفَعُه بالإيمانِ؛ ولهذا أمر النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عند الكُسوفِ بالصَّلاةِ والدُّعَاءِ والاسْتِغْفار[1] والصَّدَقَة والتَّكْبير[2] من أجل أن يُرْفَعَ العذابُ الذي هذا إنذارٌ به؛ فإنَّ الكسوفَ إنذارٌ بالعذابِ، وهو نَفْسُه ليس عذابًا، لكنَّه إنذارٌ بأن يُعذَّبَ الخَلْقُ، فإذا فَزِعُوا إلى الصَّلَاةِ وإلى الذِّكْر والدُّعَاء والاسْتِغْفار رُفِعَ عنهم.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الكسوف، باب الذكر في الكسوف، رقم (١٠٥٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف، رقم (١٠٤٤)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، رقم (٩٠١)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الآية (٣٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ [السجدة:٣٠].

قول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ﴾ إنزالَ العذابِ بهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ بكَ حادِثَ موتٍ أو قَتْلٍ فيَسْتَريحونَ منكَ، وهذا قبلَ الأَمْر بقتالِهم].

قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ﴾ أَعْرِضْ عنهم، ليس المرادُ إعراضًا عن دَعْوَتِهم، بل المراد: لا تَهْتَمَّ بهم، يعني لا تَجْعَلْ نَفْسَك متعلِّقَةً بهم وانتظِرْ، وهنا المفعولُ محذوفٌ؛ يعني: انتظر نزولَ العذابِ بهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ يُحتَمَل أن يكون المعنى ما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي مُنْتَظِرون أن يَنْزِلَ بك هلاكٌ بقتلٍ أو غَيْرِه، أو: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ باعتبارِ الواقِعِ، لا أنَّهُم منتظِرونَ إهلاكَكَ؛ يعني أنَّهُم منتظرونَ العذابَ الواقِعَ بهم، فهم كأنَّهُم لِتَماديهمْ في الكُفْرِ ينتظرونَ ما يَنْزِلُ بهم من العذابِ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ [هذا قبلَ الأَمْرِ بقِتالِهم] معناه: أنَّ الآيَةَ مَنْسُوخةٌ، وليس كذلك، بل الصَّحيحُ أنها قَبْلَ الأَمْر بالقتالِ؛ لأن هذه السُّورة مكيَّة فهي قبل الأمر بالقتال بلا شكٍّ، لكنَّها ليست منسوخَةً؛ لأنَّ الأَمْرَ هنا بالإعراضِ عنهم، والانتظارُ ليس معناه ألَّا نقومَ بما يَجِبُ.

فالآن نحن نَنْتَظِرُ أن يُنْزِلَ الله تعالى العذابَ في الكفَّارِ، لكنْ مع ذلك ندعوهم ونُقاتِلُهُم إذا كان لدينا قُدْرَةٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ المكابِرَ يُعرَضُ عنه ويُتْرَكُ حتى ينزِلَ به العذابُ؛ فإذا رَأَيْتَ من يكابِرُ، تَأْمُرُه بالحقِّ ولكن يكابِرُ ويجادِلُ ويعانِدُ، فاتْرُكْه؛ لأن بقاءَكَ معه لا يُجْدي شيئًا، فالإنسانُ المكابِرُ الذي يقول: هذه لَيْسَتْ بِشَمْسٍ، ولكن هذا قَمَرٌ، وهو الآن في الضُّحى، ونقول: انظر الشَّمْس! قال: لا، أنت غلطان؛ نحن الآن بعْدَ صلاةِ العِشاء، وهذا الذي تراه إنما هو القَمَر؛ فهذا لا تَتَكَلَّمْ معه أبدًا، بل تَطْلُب من يَقْرَأ عليه أو من يداويهِ لأنه مجنونٌ، وكذلك من تُريهِ الحَقَّ مثلَ الشَّمْسِ والحَقَّ أَبْيَنَ من الشَّمْس، ثم يقول: لا، هذا غيرُ صحيحٍ، فإن هذا ينبغي أن يُطْلَبَ له من يداوي عَقْلَه قبل فِكْرِه؛ فهذا مكابِرٌ لا فائِدَة للكلامِ معه؛ ولهذا يقول الشاعر:

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأَفْهَامِ شَيْءٌ ... إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلِ[1]

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ المُكَذِّبَ لا يَنْتَظِرُ إلا العذابَ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾.

وأما تفسيرُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أن يحِلَّ بك هلاكٌ أو نحوه؛ فهذا فيه نَظَرٌ، بل يقال: إنَّهم مُنْتَظِرونَ للعذاب لِكَوْنِهِمُ اسْتَمَرُّوا على كُفْرِهم فهم كالمُنْتَظِرينَ لما يَنْزِلُ بهم، وقد يقال: إنَّ الآيَةَ تَشْمَلُ المعنيينِ جميعًا؛ يعني: هم ينتظرون أن تموتَ ويَنْتَظِرون عذابَهُم باستمرارِهِم على المَعْصِيَة؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

---

(١) البيت للمتنبي، انظر: ديوانه (ص:٣٤٣).

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ ولهذا إذا مات الكافِرُ يُعذَّبُ مباشرةً، بل إنَّه يُحِسُّ بالعذابِ في حالِ النَّزْع؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

وبهذا انتهت هذه السُّورَةُ التي كان الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقرأ بها في فَجْرِ يومِ الجُمُعَةِ[1] ويُضيفُ إليها في الرَّكْعَةِ الثَّانِيَة: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ سورةُ الإنسان.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة، رقم (٨٩١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في يوم الجمعة، رقم (٨٨٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة
«أَنا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ»	١٦
«الاستواءُ مَعْلومٌ، والكَيْفُ مَجْهولٌ، والإيمانُ بِهِ واجِبٌ، والسُّؤالُ عنه بدعة»	٢٥
«أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الكُرْسِيِّ كَحَلْقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ»	٢٨
«أَنْتَ الَّذِي عَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَرْسَلَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ»	٤٥
«يَفْنَى كُلُّهُ إِلَّا عَجَبَ الذَّنَبِ»	٥٣
«سُبْحانَكَ اللهمَّ ربَّنَا وَبِحَمْدِكَ»	٨٠
«المالُ كَثيرٌ والعَهْدُ قَريبٌ»	٨١
«إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»	٨٢
«كان النَّبِيُّ ﷺ يُجَافِي عَضُدَيْهِ فِي السُّجُودِ»	٨٤
«أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ؛ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»	٨٦
«أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ وَأَنامُ، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»	٨٧
«لَيْسَ فِي الدُّنْيا مِمَّا فِي الجَنَّةِ إِلَّا الأَسْمَاءُ»	٨٨
«لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»	٨٩
«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»	١٠٦
«لَقَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ هَذا فَصَبَرَ»	١٠٩

«يُؤْذِيني ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ» ١٠٩
«يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لم تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي» ١٠٩
«إِنَّ هَذَا شَيْءٌ كَتَبَهُ الله عَلَى بَنَاتِ آدَمَ» ١١٠
«خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الذينَ يَلُونَهُمْ» ١١٩
«لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ الْيَهُود والنَّصَارَى» ١٢٢
«لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَـؤُلاءِ المُعَذَّبينَ إِلَّا أن تَكُونوا بـاكينَ، فإن لم تَكُونوا باكينَ فَلَا تَدْخُلُـوهَا» ١٢٢

فهرس الفوائد

الحديث **الصفحة**

أقوال العلماء في الحروف المقطعة في أوائل سور القرآن ٩
الحكمة من اختلافِ التَّعبيرِ بين قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ ١٥
الخلاصةُ في إعراب (ما) قولانِ..... ١٦
قوله تعالى ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ وردت في القرآن على أَرْبَعَةِ أَوْجُه ٢٣
العُلُوُّ عُلُوَّانِ: مُطْلَقُ عُلُوٍّ، وعُلُوٌّ خاصٌّ ٢٤
العرش عند أهل السُّنَّةِ غيرُ الكرسي ٣٢
الكُفَّارُ هل الله عَزَّوَجَلَّ رَحِمَهُم؟..... ٤١
الالتفاتُ في اللغة العربية له فوائِدُ ٤٦
المَلَك مُشْتَقٌّ من الأَلُوكَةِ..... ٥٧
عِزْرائيلُ لم يَثْبُت عن الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على الرَّغْمِ أنَّ هذا الاسم أَشْهَرُ أسماءِ الملائكة عند العامَّة..... ٥٧
التَّكليفُ في الآخِرَةِ هل يكونُ عليه ثوابٌ؟ ٦٦
مُؤْمِنُ الجِنِّ هل يدخُلُ الجَنَّة؟ ٧٠
هل يَبْذُلُ الإنسانُ كُلَّ مالِهِ في طاعَةِ الله وفي سبيل الله، أو يَقْتَصِرُ على بعضه؟ ٨٦
التَّوْبيخُ يكون عذابًا قلبيًّا..... ٩٨

هل يُوصَفُ الله بالانتقامِ مطلقًا، فيقال: المُنْتَقِم؟ ١٠٥
هل يَلْزَمُ من الأَذى الضَّرَرُ؟ ١٠٩
معنى (إسرائيلَ) أي: عَبْدُ الله ١١٠
لليقينِ ثلاث درجاتٍ ١٢٠

فهرس آيات السورة

الآيـــة	الصفحة
تقديم	٥
سورة السجدة	٧
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾	٩
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾	١٤
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾	٢٠
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾	٣٤
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾	٣٩
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾	٤٢
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾	٥٢
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ	

تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ٥٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ ٦٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ ٦٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ ٧٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ ٧٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ ٨٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ ٨٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ ٩٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ ٩٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ ٩٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ ١٠١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ

ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ١٠٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾ ١٠٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ١١٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ١١٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ ١١٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ١٢٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ١٢٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ١٣٠

فهرس الأحاديث والآثار ١٣٣

فهرس الفوائد ١٣٥

فهرس آيات السورة ١٣٧

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤١)

تفسير القرآن الكريم

سورة الأحزاب

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤١)

تفسير القرآن الكريم

سورة الأحزاب

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة الأحزاب. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
٥٦٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٤١)
ردمك: ٩ ـ ٤٢ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة الأحزاب ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٢٤

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٢٤
ردمك: ٩ ـ ٤٢ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من :
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحِ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[1]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخ مُحَمَّد بنِ صالِح العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَرِيم؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزَاء، ويُضَاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ فِي المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعِينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

الحمدُ لله ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. أمَّا بَعد:

البَسمَلة تَقدَّم الكلام عليها من حيثُ المَعنى، ومِن حيثُ الإعراب، وقُلْنا في الإعراب: إنها جارٌّ ومَجرور مُتعلِّق بمَحذوف، وأنه يَنبَغي أن يُقدَّر ذلك المَحذوف فِعْلًا خاصًّا مُتأخِّرًا.

مثال ذلك: عندما تُريد أن تَقرَأ تَقول: بسم الله الرحمن الرحيم. يَكون التقديرُ: بسم الله الرحمن الرحيم أَقرَأُ، وهو أَحسَنُ من أن تَقول: التَّقديرُ: ابتدائي بسمِ الله الرحمن الرحيم، أو التقديرُ: ابتدِئْ بسم الله الرحمن الرحيم؛ لأننا إذا قدَّرْناه فِعْلًا خاصًّا كان أدلَّ على المَقصود؛ فإن كلِمة (ابتِداء) عامَّة في كل ما يُبتَدَأ به، لكن إذا عَيَّنت الفِعْل وقلتَ: بسم اللهِ أَقرَأُ؛ كان أدَلَّ على المَقصود.

فنُقدِّره فِعْلًا؛ لأنَّ الأصل في الأعمال هي الأفعال؛ ولهذا تَعمَل بدون شَرْط، وأمَّا ما يَعمَل من الأسماء فإنه لا يَعمَل إلَّا بشروط؛ كاسْمِ الفاعِل، واسم المَفعول، والمَصدَر، وما أَشبَه ذلك.

ونَجعَله مُتأخِّرًا لسبَبين:

السبَب الأوَّل: التَّبرُّك بالبَداءة بسم الله.

والسبَب الثاني: الدَّلالـة على الحَـصْر؛ لأن تَأخير العامِل يَـدُلُّ على الحَصْر، أو بعِبارة أعمَّ: لأن تَأخير ما حَقُّه التقديمُ يَدُلُّ على الحَصْر.

إذن: نَقول في البَسْملة: كلَّما جاءت مُتعلِّقة بمحذوف، ويُقدَّر هذا المَحذوفُ فِعْلًا خاصًّا مُتأخِّرًا؛ أمَّا عندما تُريد أن تَتَوضَّأ، فتُقدِّر: بسم الله أَتوضَّأ؛ وعندما يُريد الإنسان أن يَذبَح ذبيحة، يَقول: التقدير: باسْمِ الله أَذبَحُ، وعلى هذا فقِسْ.

يَقول المفسر[1]: [بسم الله الرحمن الرحيم] وهنا (اسْمِ) مُضاف للَفْظ (اللهِ) وهو مُفرَد فيُفيد العموم؛ ولهذا قَـدَّره الشُّرَّاح بأن المَعنى: بكلِّ اسم من أسماء الله تعالى.

والاسم مَأخوذ من السُّمُوِّ وهو الارْتِفاع، وقيل: من السِّمة وهي العَلَامة، ولو قيل بأنه مَأخوذ من هذا وهذا لم يَكُن بعيدًا؛ لأنه يُظهِر المُسمَّى فيَكون فيه مَعنَى الارتِفاع، ولأنه يُميِّزه فيَكون فيه مَعنَى العلامة.

(الله) علَمٌ على ذات الله عَزَّوَجَلَّ، وهو أصل الأَعلام، وأسماء الله تعالى -كما نَعرِف- أعلام وأَوْصاف، لكن أصلها كلِمة (الله)؛ ولهذا تَأتي الأسماء دائِمًا تبَعًا لها، فهي الأصل، وربما تَأتي لفظ الجَلالة تابِعةً لغيرها من الأسماء، مثل ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، فهنـا تَأتي (الله) تابِعـةً لما قبلها.

وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اسمان مُشتَقَّان من الرحمة، لكن الأوَّل منهما يَدُلُّ على الرحمة باعتِبارها وصفًا لله عَزَّوَجَلَّ، والثـاني يَدُلُّ على الرحمة باعتِبـارها فِعْلًا له، فهو

(١) المقصود بـ(المُفَسِّر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

رحمن وهو رحيم، مُتَّصِف بالرحمة، وفاعِل للرحمة، يَعنِي: أنه عَزَّوَجَلَّ مع كونه رحيمًا فإنه يَرحَم، وهذا الذي قرَّرْته هو ما قرَّره ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفَرْق بين الرحمن وبين الرحيم[1].

وإن كان بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يُفرِّق بينهما بأن الرحمن ذو الرحمة العامَّة، والرحيم ذو الرحمة الخاصَّة، ويَقول: إنه يَدُلُّ على ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، لكن المعنى الذي أَشار إليه ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَبلَغُ وأَحسَنُ؛ ولـهذا جاءت (الرحمن) على وَزْن (فَعْـلان)، وهذا الوزنُ يَدُلُّ غالِـبًا على السَّعة والامتِلاء، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واسِع الرحمة، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَرحَم مَن يَشاء، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾.

والبسملة آية من كِتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تَأتي في مُبتَدَأ كلِّ سورة، إلَّا في سورة (براءَة)، فإنه ليس فيها بَسْملة، وذَكَر أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أن سبب سُقوط البَسمَلة في (براءة) أن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَشْكَلَ عليهم: هل هي من سورة الأَنفال أو هي سُورة مُستَقِلَّة؟ فجعَلوا بينهما فاصِلًا، ولم يَكتُبوا: بسم الله الرحمن الرحيم[2]. وهذا واضِح.

لكن أَوْضَحُ منه أنه لو كانت البَسمَلة قد نزَلَتْ بين سورة الأنفال و(براءة) لم يُمـكِن أن تَسقُط؛ لأن الله تعـالى يَقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، لكن لـمَّا أَشْكَل على الصحابة هل (براءة) مُستَقِلَّة، أو من سورة الأَنفال وضَعوا الفاصِل فقط.

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٥٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٥٧)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب من جهر بها -أي البسملة-، رقم (٧٨٦)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٨٦)، من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآيـة (١)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب:١].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ النِّداء هنا للنبيِّ ﷺ بوَصْفه نبيًّا، وقـد يُناديه الله عَزَّوَجَلَّ بوَصْفه رسولًا، فيُخاطِبـه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بوَصْفه رسولًا في مَقام الرِّسالة، كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

و(النبيُّ) مُشتَقٌّ، وأصلها: (النَّبيءُ)، وقيل: أَصلها (النَّبيو) بالواو، فعلى القول الأوَّل يَكون مُشتَقًّا من النَّبأ، وأُبدِلت الهمزةُ بالياء تخفيفًا، وعلى القول الثاني يَكون مُشتَقًّا من النَّبْوَة، وهي الارتِفاع، ولا شَكَّ أن مَقام النُّبوَّة مَقام رفيع، وأن النبيَّ مُخبِر ومُخبَر أيضًا؛ فهو فَعيل بمَعنى فاعِل وبمَعنى مَفعول.

يَقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، والمُراد به: نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ دُمْ على تَقواهُ]، صَرَفَها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ظاهِر لَفْظها؛ لأنَّك إذا أَمَرْتَ أحدًا بشيء فالأصل أنـه غير مُتَلبِّس به، فإذا قلت: يا فُلانُ قُمْ. فهل هو قائِم؟ لا، هذا هو الأصل، فالأصل أن الأَمْر إنشاءُ ما لم يَكُن، فإذا قُلتَ: يا فُـلانُ قُمْ. أو يا فُلانُ اقْعُدْ؛ فإنه حين توجيه الأمر إليه ليـس مُتَّصِفًا بهذا الوَصْفِ.

فالنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، فلو أَخَذْنا بظاهِرِ العِبـارة لكان النبيُّ ﷺ حين تَوجيه الخِطاب إليه لم يَكُن مُتَّقيًا، وهذا أمر لا يُمكِن؛ لذلك يَكون مَعنَى ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: دُمْ على تَقواه؛ ومن هنا نَأْخُذ أن الأمر بالشيء قد يَكون أمرًا بتَجديده، وقد يَكون أمرًا بالاستِمْرار عليه، وقد يَكون أمرًا بالتَّفصيل لهذا المَأْمورِ به.

فمثلًا: إذا قلت: يا أيُّها المُؤمِنُ آمِنْ. فالمَعنى: دُمْ على إيمانك وحَقِّقْه، وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦]، الأمر هُنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: داوِموا عليه، لكن فيه تَفصيل، يَعني: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ مُجمَل، ثُم قال: ﴿ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ فصار إِذَنْ تَوْجيه الأَمْر في الأصل إلى مَن لم يَكُن مُتَلَبِّسا به، هذا هو الأصل، وقد يُوجَّه إليه لطلب الاستِمْرار، وقد يُوجَّه إليه لبَيان التَّفصيل، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

وقوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ تَأْتي التَّقوى في القرآن الكريم كثيرًا، فما مَعنَى التَّقوى؟ ومِن أين هي مُشتَقَّة؟

نَقول: هي مُشتَقَّة من الوِقاية؛ ولهذا يَقولون: إن أصل التاء فيها واوٌ، فـ(تَقوَى) بمَعنى: (وَقْوَى)، هذا أَصلُها، وإذا كانت بمَعنى الوِقاية فإن التَّقوى هي أن يَتَّخِذ الإنسان وِقاية من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، ولا وِقايةَ من عذاب الله تعالى إلَّا بفِعْل أَوامِره واجتِناب نَواهيه، وعلى هذا فنَقول: إن المُراد بالتَّقوى فِعْلُ أَوامِر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واجتِناب نَواهِيه.

ومن المَعلوم أننا إذا قُلْنا: فِعْل أَوامِر الله تعالى، (أَوامِر) مُضاف إلى الله تعالى: أن الإنسان سيَنوِي بهذا الفِعْلِ امتِثال أَمْر الله تعالى، وكذلك إذا قُلنا: اجتِنابُ نَهي الله تعالى، فإن الإنسان سيَجتَنِبه؛ لأن الله تعالى نهَى عنه؛ لأن مُجرَّد الفِعْل بدون نِيَّة ليس بتَقوَى، ومُجرَّد التَّرْك بدون نِيَّة ليس بتَقوَى، لكن لَمَّا كان الفِعْل والتَّرْك مُضافًا إلى الله تعالى صار لا بُدَّ فيه من نِيَّة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيما يُخالِف شَريعتك]، عَطْف قولِه: ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ على ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ من باب عَطْف الخاصِّ على العامِّ؛ لأن تَرْك طاعة هؤلاء من تَقوَى الله عَزَّوَجَلَّ، فيَكون عَطْفه على التَّقوى من باب عَطْف الخاصِّ على العامِّ، وهذا كثير في القُرآن والسُّنَّة وكلام العرَب.

قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الكافِر هو الذي صرَّح بكُفْره وأَعلَنَه، وأمَّا المُنافِق فهو الذي أَخفَى كُفْره، وأَظهَر أنه مُؤمِن، فمن أين اشتُقَّ الكُفْر أو الكافِر؟

يَقولون: إن الكُفْر في الأصل: السَّتْر، ومنه: (الكُفُرَّة) وهو غِلاف الطَّلْع؛ لأنه يَستُرُه، هذا في الأصل، وسُمِّيَ الذي لا يُؤمِن بالله تعالى كافِرًا؛ لأنه سَتَر نِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ، وجَحَد شَريعته، فصار بذلك ساتِرًا للحَقِّ، وساتِرًا للنِّعْمة التي أَنعَمَ الله تعالى بها عليه.

وأمَّا النِّفاق فإنه مَأخوذ من نافِقاء اليَرْبوع، واليَرْبوع: الدُّوَيْبة المَعروفة، تَتَّخِذ بيتًا في الأرض وتَحفُر الجُحْر، وتَجعَل له بابًا، وتَجعَل في آخِره بابًا مُغلَقًا بشيء من التُّراب، بمَعنَى: أنها تَحفُر فإذا وصَلَتْ إلى مُنتَهى الجُحْر حَفَرَت، إلى أن يَبقَى عليها شيء قليل من طبَقة الأرض، بحيث إذا دفَعه برَأْسه انفتَح، هذه هي النافِقاء، ويَصنَع ذلك لأَجْل ما إذا فُجِئ من باب الجُحْر خرَج من هذا، فهكذا المُنافِق، إذا خُوطِب

بالإيمان قال: إنه مُؤمِن. فتَخلَّص، كما أنه إذا أَتَى إلى قومه يَقول: إنه كافِر. فيَتخَلَّص من مَلامة هؤلاءِ ومَلامة هَؤلاءِ.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ معلوم أن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يُمكِن أن يُطيع الكافِر، لكن الذي قد يُمكِن أن يُطيع المُنافِق؛ لأنَّ المُنافِق لا يُحَسُّ بنِفاقه وكُفْره، ولا يُعلَم عنه؛ فقد يَغتَرُّ به الإنسان؛ فلهذا قدَّم الله تعالى الكافِرين هنا على المُنافِقين، مع أنه في باب الوعيد يُقدِّم المُنافِقين على الكافِرين، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب:٧٣].

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيما يُخالِف شَريعتَكَ]، هذا القَيدُ يَقتَضي تَخصيص النَّهي مع أن النَّهيَ مُطلَق ﴿لَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، فما الذي حَمَل المُفَسِّر على أن يُقيِّده بما يُخالِف الشريعة؟

حَمَلَه على ذلك:

١- أنه لو فُرِض أن الكافِر أو المُنافِق أَمَر بما يُوافِق الشريعة؛ لكان لِزامًا علينا أن نُطيعه؛ لا لأنه أَمَر، ولكن لأن هذا مُقتَضى الشريعة، هذا وجهٌ.

٢- ووجهٌ آخَرُ، هو أن يُقال: إن تَقييد المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك بيانٌ للواقِع؛ لأن الكافِر والمُنافِق -لِعَداوتهما لشريعة النبيِّ ﷺ- لا يُمكِن أن يَأمُرَا إلَّا بما يُخالِف الشريعة، فيَكون هذا القَيْدُ بَيانًا للواقِع، والقيدُ الذي يَكون بيانًا للواقِع لا يُقيِّد؛ لأنه لا يُراد.

وفي ذلك أَمثِلة، منها: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ

وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فإن قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ قَيْد مُبيِّن للواقِع، وليس المَعنى أن هناك رَبًّا لم يَخلُق وربًّا خلَق؛ والأمثِلة في هذا كثير.

فهنا يُمكِن أن نَحمِل كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: [فيما يُخالِف شريعتَكَ] على أنه بَيـان للواقِع، وهو أن الكافِر والمُنافِق لا يُمكِن أن يَأمُر إلَّا بما يُخالِـف الشَّريعة؛ لأن الكافِر كافِر بها، والمُنافِق أيضًا كافِر بها، لكنه يُظهِر الإيمان.

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يَكون قَبْلَ كونه، ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يَخلُقه]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، هذه الجُمْـلةُ مَوضِعها ممَّا قَبْلها في المَعنى تَعليـلية، ووجهُ كَونِها تَعليلًا لما قَبْلها أن الله تعالى لَمَّا أَمَر نبـيَّه ﷺ بالتَّقوى ونهاهُ عن طاعة الكافِرين؛ بيَّن أن هذا الأَمْرَ والنهيَ صادِر عن عِلْم وحِكْمة، وأنه عَزَّوَجَلَّ أَعلَم بما يَكيده هؤلاءِ الأعداءُ من الكُفَّار والمُنافِقين، فلا تُطِعْهم؛ فليسوا أهلَ نُصْح لكَ أبدًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يَكون قبل كَوْنه]، وهذا التَّقييدُ غير صحيح؛ لأنه تعالى عليم بما يَكون قبل كَوْنه، وبعد كَوْنه: حالَ كَوْنه مَوجودًا، وبعدَ كَوْنه: حالَ كَوْنه مَعدومًا، فعِلْم الله تعالى يَتعَلَّق بالأشياء في أَحوالها الثلاثِ؛ قبل الوُجود، وحين الوُجود، وبعد العَدَم.

أمَّا عِلْم المَخلوق فلا يَتعلَّق بالأشياء في هذه الأَحوالِ كُلِّها:

قبلَ الوُجود مَعلوم أنه لا يَعلَمها.

وحين الوُجود: لنَفرِضْ أنه يَعلَمها.

وبعد العَدَم: قد يَنْساها.

فعِلْم المَخلوق مَحفوف بنَقْصين: جَهْل سابِق، ونِسْيان لاحِق.

أمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فإن عِلْمه كامِل، جُملةً وتَفصيلًا، في جميع الأحوال؛ قبل الوُجود، وحين الوُجود، وبعدَ العدَم؛ ولهذا قال مُوسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، فنَفَى عنه الضَّلال الذي هو الجَهْل، والنِّسْيان الذي هو: الذُّهول عن الشيءِ بعد عِلْمه.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ إِذَنْ نَقول: عَليمًا بما يَكون قبلَ كَوْنه، وبما يَكون حين كونه، وبما يَكون بعد عدَمه في كل الأحوال.

﴿حَكِيمًا﴾ تَقدَّمَت كثيرًا، وبيَّنَّا أنه مُشتَقٌّ من الحِكْمة والحُكْم، وأن حُكْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كَوْنيٌّ وشَرْعيٌّ، وأن الحِكْمة نَوعان أيضًا: غائِيَّة وصُوريَّة، والصُّوريَّة ليس المعنى أنها بالصُّورة فقط، لكن كون الشيء على هذه الصورةِ حِكْمة، والغاية منه حِكْمة أُخرى، فإذا كان كذلك فتكون الأقسامُ أَربَعةً:

١- حُكْم مُشتَمِل على الحِكْمة في صورته وغايَته.

٢- حُكْم شَرْعيٌّ مُشتَمِل على الحِكْمة في صورته وفي غايَته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وهنا إِشْكال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾؛ لأن المعروف أن الشيءَ الماضِيَ قد مضَى، ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾، فهل يُفيد أنه الآنَ ليس بعَليم؟ لا؛ لأن (كان) قد تَكون مَسلوبة الزمان، ويُقصَد بها اتِّصاف اسمِها بخبَرها، وتَحقُّق ذلك الاتِّصافِ بدون أن يُلاحَظ الزمَن فيها، وهي كلَّما جاءَت بالنِّسبة إلى الله تعالى وأسمائه وصِفاته؛ فإنها على هذا البابِ: أنها تُفيد تَحقُّق اتِّصاف المَوْصوف -الذي هو اسمُها- بصِفَته -وهو خَبَرُها-، بقَطْع النَّظَر

عن الزمان، فعليه نَقول: إن الفِعْل هنا مَسلوب الزمان، يَعني: لم يَزَلْ ولا يَزال عَليمًا حكيمًا.

وهلِ العِلْم والحِكْمة من الصِّفات الذاتية أو الفِعْلية؟

الجوابُ: من الصِّفات الذاتـية؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ لم يَزَل ولا يَزال عَليمًا، ولم يَزَل ولا يَزال حَكيمًا. والله تعالى أَعلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ناداه بوَصْف النُّبوَّة مع الأنبياء الذين سِواهُ، يُنـادِيهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأسمائهم: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [المائدة:٢٢]، ﴿يَٰعِيسَى﴾ [المائدة:١١٦]، وما أَشبَهَ ذلك، أمَّا النبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ما ناداه إلَّا بوَصْف النُّبوَّة أو الرِّسالة.

فإن قلت: أَلَيْس الله عَزَّوَجَلَّ قد قال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح:٢٩]؟

فالجوابُ: أن هذا ليس مقامَ نداء خطاب لكنه مقام خبر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وجوبُ التَّقوى على الأُمَّة، فإذا كان الرسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يُؤمَر بالتَّقوى فغيرُه من بابِ أَوْلى هذا وجهٌ. وجهٌ آخَرُ: أن الخِطاب المُوجَّه للرسول ﷺ مُوجَّه له ولأُمَّته ما لم يَقُم دليل على تَخصيصه.

وبهذه المُناسَبة فالخِطابات المُوجَّهة للرسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: إمَّا أن يَقوم دليل على العُموم، بأن يَكون في نفس الخِطاب ما يَدُلُّ على العُموم، أو فيه ما يَدُلُّ على الخُصوص، أو فيه ما لا يَدُلُّ على هذا ولا على هذا.

فالذي فيه ما يَدُلُّ على العُموم للعُموم مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ

ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق:١].

والَّذي فيه ما يَدُلُّ على الخُصوص مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم:١].

والذي فيه ما لا يَـدُلُّ على هذا ولا هذا، مثل هذه الآيةِ، ولكنَّ حُكمَـها عامٌّ للنبيِّ ﷺ ولأُمَّتِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن النبيَّ ﷺ عبدٌ مأمورٌ مُكلَّفٌ؛ لأَمْره بالتَّقوى، وعدَم إطاعة الكافِرين والمُنافِقين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الإنسان مَهما بلَغ من المَرتَبة، فإن التَّكاليف لا تَسقُط عنه؛ وعلى هذا فيَتَفرَّع من هذه القاعِدةِ: بيانُ ضَلال أُولئكَ الصوفيةِ الذين يَقولون: إن الإنسان إذا وصَل إلى درجة المُعايَنة سقَطَت عنه التكاليفُ!.

قُلنا: لا؛ لأنه لا أحَدَ يَبلُغ مَرتَبـة النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عنـد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومع ذلك لم تَسقُط عنه التَّكاليفُ.

فإن قالوا: إن الله تعالى يَقول: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحِجر:٩٩]، يَعنِي: حتى تَصِل إلى درجة اليَقين، ثُم تَمتَنِع عن العِبادة؟

فالجَوابُ: أن المُراد باليَقين هنا هو الموت، قولهم -أي: أصحاب الجَحيم- كما قال تعالى عنهم: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدَّثر:٤٦-٤٧]؛ أَتاهم اليَقينُ، يَعنِي: أنَّهم وصَلوا إلى درجة اليَقين؟ أبدًا، إذ ماتوا على التكذيب ولم يَصِلوا إلى درجة اليَقين، وإذا كان هؤلاء يَقولون: إننا وصَلْنا إلى درجة يَقين يَكونون به من أصحاب الجَحيم، فنحن نُوافِقهم على ذلك.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَحريمُ طاعة الكافِرين والمُنافِقين والرُّكونِ إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الكافِر والمُنافِق لا يُمكِن أن يَكون ناصِحًا للمُؤمِنين أبَدًا، ولو كان يُمكِن أن يَكون فيه نُصِح ما نَهَى تعالى عن طاعتهم مُطلَقًا؛ لأن الناصِح يُطاع.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات اسمَيْن من أسماء الله تعالى، وهُما: العليم والحكيم.

وهل عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَشمَل الحاضِر والمُستَقبَل والماضي؟ وهل هو مُتعَلِّق بالواجِب أو بالمُستَحيل أو بالمُمكِن أو بالجميع؟

الجوابُ: إذا لم يُمكِن أن يَكون في السَّموات أو في الأرض آلِهة غير الله تعالى، وكذلك ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١]، فإن هذا من المُستَحيل.

ومِثال تَعلُّق عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالواجِبِ كثير جِدًّا؛ فكُلُّ ما أَخبَر الله تعالى به عن نفسه فهو من العِلْم الواجِب؛ لأن الله تعالى يَجِب له صِفات الكمال، فإذا أَخبَر عن نَفْسه بهذه الصِّفاتِ صار مُتعَلِّقًا بالواجِب.

أمَّا المُمكِن فمنه قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد:٨]؛ لأن حَمْل الأنثى وغيض الأَرحام وزيادة الأرحام مُمكِن.

إِذَنْ: فصار عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شامِلًا لكل شيء جُملةً وتَفصيلًا، حاضِرًا ومُستَقبَلًا وماضِيًا واجِبًا ومُمكِنًا وجائِزًا؛ ولهذا يَقول السَّفارينيُّ في عَقيدته:

وَالْعِلْـمُ وَالْكَـلَامُ قَـدْ تَعَلَّقَـا بِكُـلِّ شَيْءٍ يَـا خَلِـيلِي مُطْلَقَـا[1]

فائِدة: الواجِب عندهم ضِدُّ المُستَحيل والمُمكِن؛ لأنهم يَقولون على الأشياء ثلاثة أُمور: إمَّا واجِبة -يَعني: لا بد من وُجودها، وليس الواجِب الذي يُثاب فاعِله ويَستَحِقُّ العِقابَ تارِكُه-، بل الواجِب الذي لا بُدَّ منه، والمُستَحيل الذي لا يُمكِن، والمُمكِن الذي هو جائِز الوقوع وعدَمه.

• • ❁ • •

(١) العقيدة السفارينية (ص:٥٢).

الآيــة (٢)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٢].

قوله تعالى: «بِمَا يَعْمَلُونَ» حسب النُّسخة التي عِندي.

﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ نَقول في: ﴿اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ كما قُلنا في ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾، يَعنِي: استَمِرَّ على اتِّباعه، واتِّباع ما يُوحَى إلى النبيِّ ﷺ بالنِّسبة للرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَشمَل: اتِّباعَه بالتَّبليغ، واتِّباعه بالدَّعوة، واتِّباعه بالعمَل؛ لأن النبيَّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مأمور بالأمور الثلاث؛ مَأْمور بتَبليغه، وبالدَّعوة إليه، وبالعمَل به.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ الوحيُ في الأصل: الإعلام بسُرعة وخَفاء، والمُراد به هنا: إبلاغُ النبيِّ ﷺ ما شرَعه الله عَزَّوَجَلَّ؛ سواء كان بواسِطة أو بغير واسِطة.

ومعلوم أن إبلاغ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لنَبيِّه ﷺ الوحيَ لا يَكون ظاهِرًا للناس؛ لأن رسول الله ﷺ ما يُعرَف أنه يُوحَى إليه إلَّا بما يَظهَر من علامات الوَحيِ، لكن لا نَدرِي كيف يُوحَى إليه لولا أنه أَخبَرنا بذلك.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾: ﴿مَا﴾ هذه اسم موصول من صِيَغ العُموم، تَشمَل كلَّ ما يُوحَى إلى النبيِّ ﷺ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرًا» يُفيد أن هَؤلاءِ الكافِرين والمُنافِقين كانوا يُحاوِلون من النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يُخالِف شريعته، ولكن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد لا يَعلَم بذلك؛ ولهذا قال: «إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرًا» أي: هَـؤلاء الكُفَّار والمُنافِقون ﴿خَبِيرًا﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿خَبِيرًا﴾ والخَبير مُشتَقٌّ من الخِبرة، وهي: العِلْم ببَواطِن الأمور؛ ولهذا سُمِّيَ صاحِب الحَرْث والزَّرْع خَبيرًا، وسُمِّيت المُزارعة مُخابَرة؛ لأن الحَبَّ يُدفَن في الأرض فيَكون باطِنًا غير ظاهِر؛ فالخَبير هو العَليم ببواطِن الأمور؛ إِذَنِ: الخَبـير أَخَصُّ من العليم؛ لأن العليم يَشمَل العالِم بظواهِر الأمور وبواطِنها، لكن الخَبـير أخصُّ، هو العالِم ببواطِن الأُمور، والعالِم بالبـواطِن عالِم بالظواهِر من بابِ أَوْلى.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قِراءَة بالفَوقانية]، فيُقال: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، وقوله: «في قِراءَة»؛ في اصطِلاح المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا قال: «في قِراءة» فهي سَبْعية، وإذا قال: قُرِئ، فهي شاذَّة.

وعلى هذا ففي الآية قِراءَتان سَبْعيتان؛ تَجوز القِراءة بكُلٍّ مِنهما، وعندما نَقول: تَجوز. فليس مَعناه أن القِراءة بهذا وبهذا على حدٍّ سَواءٍ، لكنِ المعنى أن القِراءةَ بهما غيرُ مَمنوعة؛ لأن الأفضل أن تَقرَأ بهذه تارةً وبهذه تارةً، فإن اختِلاف القِراءات كاختِلاف العِبادات، وقد ذكَرْنا أن الأفضلَ في العِبادات الوارِدة على وجوهٍ مُتنوِّعةٍ: أن تَأتيَ بهذه مرةً وبهذه مرةً؛ لأجل أن تكون قد عمِلت بالسُّنَّة في جميع وجوهها، كذلك في القِراءات الأفضل أن تَأتيَ بهذه مرَّةً وبهذهِ أُخرى بشَرْط أن تكون عالِمًا بالقِراءة.

ولكن هذا القولَ الذي نَقوله إنما هو في قِراءة الإنسان الخاصَّة، أمَّا قِراءته على العامَّة، فإنه لا يَنبَغي أن يَخرُج عن القِراءة المَوْجودة بين أيديهم؛ لأن العامِّيَّ لا يُدرِك هـذه القِراءاتِ أو لا يُدرِك اختِلاف هذه القِراءاتِ، فإذا قرَأت القُرآن بغـير ما بين يديه، فإنه سيُنْكِر عليك ولكن هذا الإنكارَ ربُّما تُجيب عنه، لكن سيَقَع في نَفْسه شيء من الشَّكِّ، يَقول: إذَنِ القُرآن ما ضُبِط ما دام أَحَدهم يَقرَأ بهذا وأَحَدهم يَقرَأ بهذا؛ فيَقَع في قَلْبه شيء من الشَّـكِّ؛ ولهذا يَنبَغي لنا أن نُحـدِّث الناس بما تُدرِكه عُقولهم، كما في حديث عَليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ»(١).

فالحاصِل: أن الإنسـان -طالِب العِلْم الذي يَعرِف القِراءات- يَنبَـغي له أن يَقرَأ أحيانًا بهذه وأحيانًا بهذه، ولكن هل يَجمَع بين القِراءَتَيْن؛ يَعنِي مثلًا هنا أَقول: «إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرًا»، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾؟

الجوابُ: لا، الأفضَلُ يَأتي بهذا مرَّةً وبهذا مرَّةً؛ لأنك إذا جمَعْت بين القِراءَتَيْن فقد خالَفْت، إذ إن مَن قرَأَها بالتـاء لا يَقرَؤُها بالياء، فكيف يَجمَع بينـهما؟! ولكن بعـض أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقول: لا بأسَ أن تَجـمَع بين القِراءَتَيْن، سواء كانـت مُنفَصِلةً أو غير مُنفَصِلة، بمعنى أنه يَجوز أن تَقرَأ في القِراءَتَيْن في الآية الواحِدة؛ أن تَقرَأ بالقِراءَتَيْن في الآية الواحِدة، ويَجوز أن تَقرَأ في آية بقِراءة قارِئ وفي آية أُخرى بقِراءة قارِئٍ آخَرَ؛ وأمَّا الثـانية وهي أن تَقرَأ في آية بقِراءة قارِئٍ وفي آيـة أُخرى بقِراءة قارِئٍ آخَرَ فهي جائِزة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا، رقم (١٢٧).

أمَّا الجَمْع بين القِراءَتَيْن في آية واحدة وفي تِلاوة واحِدة فإن في جوازها نظَرًا؛ فمَثَلًا: تَقرَأ: «إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرًا» على قِراءة أحَدِ القُرَّاء، ثُمَّ تَأتي مثَلًا بقِراءة ثانية تُخالِفه في آية أُخرى فتَقرَأ بها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وجوبُ اتِّباع ما أُنْزِل على النَّبيِّ ﷺ، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

فإن قلت: هل هذا على العُموم؛ أي: أنه يَجِب اتِّباع ما أُنْزِل على الرسول ﷺ؛ فيَجِب إِذَنْ أن نَرفَع الأَيدِيَ في الصلاة، ويَجِب أن نُسبِّح أكثرَ من مرَّة؟

فالجَوابُ: أن نَقول: هذا يُستَثنى منه ما قام الدليلُ على أنَّه ليس بواجِب، لكن ما صحَّ عن الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولو كان غيرَ واجِب يَجِب اعتِقاد مَشروعيته، حتَّى وإن كان غيرَ واجِب الفِعْل؛ فعِندنا اعتِقاد المَشروعية وتَنفيذ هذا المَشروع على حسب ما جاء في الأَدِلَّة إمَّا واجِب وإمَّا مُستَحَبٌّ.

وأمَّا اعتِقاد المَشروعية فيما صحَّ فهو واجِب؛ فمثَلًا: يَجِب عليَّ أن أَعتَقِد مَشروعية مُجافاة العَضُدين عن الجَنْبين في السُّجود، وأن نَعتَقِد مَشروعية الالتِفات في الصلاة عند السلام، لكن فِعْل ذلك يَتوَقَّف على الأدِلَّة التَّفصيلية، إن دلَّت الأدِلَّة على وجوبه فهو واجِب، وإن دلَّتْ على أنَّه مُستَحَبٌّ فهو مُستَحَبٌّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ثُبوت رسالة النَّبيِّ ﷺ ونُبوَّته؛ تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ومن قوله تعالى: ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن لله تعالى رُبوبيةً خاصَّةً بالنِّسبة إلى الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛

لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وقد تَقدَّم كثيرًا بأن الرُّبوبيـة نَوعانِ والعُبودية نوعـان: رُبوبية عامَّة ورُبوبية خاصَّة.

فمِثال الرُّبوبية العامة: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الصافات:٥].

ومثال الرُّبوبية الخاصَّة هذه الآية: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

وقد اجتَمَع النوعان في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢].

وكذلك العُبودية نَوْعان: عامَّة وخاصَّة.

فالعامة مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٤].

والخاصَّة مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، والمُراد الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ عِلمَ الله تعالى شامِلٌ للأُمور الباطِنـة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَحذير الإنسان من المُخالَفة؛ لأن هذا يُوجِب أنَّنا لا نُخَالف الله تعالى ما دُمْنا نَعلَم أنه خَبير بما نَعمَل، فإنه لا يُمكِن أن نُخالِف الله عَزَّوَجَلَّ، مِثْل ما لو قُلْـت: اذهَبْ وأنا أَعلَمُ ما تَفعَل. فالمُراد: التهديـدُ والتحذيرُ من المُخالَفة، فكلُّ نَصٍّ يُبيِّن الله تعالى فيه أنه يَعلَم ما نَعمَل فهو تَحذير لنا من مُخالَفته.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وجوبُ تَقـديم الوحيِ على الرأيِ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ فإن هذا الخِطابَ مُوجَّهٌ إلى رسول الله ﷺ وإلى أمَّتِه بالأَوْلى،

فيُفيدُ وجوبَ تَقديم الوحيِ على الرأيِ.

وتقديمُ الرأيِ على الوَحيِ لَهُ أقسام: منها ما يَصِل إلى الكُفْر، ومنها ما هو دون ذلك، فالذين يُقدِّمون الرأيَ على الوَحْي مع عِلْمهم بالوَحيِ مُعتَقِدين أن غير الوحيِ مُساوٍ له أو أكمَلُ منه، أو أنَّه يَجوز الحُكْم بالرَّأْي المُخالِف للوَحيِ مع العِلْم به، هؤلاء يُعتبَرون كُفَّارًا.

وفي هذه الأحوالِ الثلاثةِ إذا اعتقَدوا أن الرأيَ أكمَلُ وأنفَعُ من الوَحيِ، أو أنَّه مساوٍ له، أو أنه يَجوز تَقديمُه على الوحيِ مع العِلْم به، فهؤُلاء كُفَّارٌ؛ لأنهم حكَموا بغير ما أنزَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤].

وأمَّا مَن قدَّموه بتأويلٍ ظنًّا منهم أن ذلك لا يُخالِف الوَحيَ، أو أنه طريق يُوصِّلهم إلى الوَحيِ، فهؤلاء لا يَصِلون إلى درَجة الكُفْر، وذلك مثل كثير من المُتعَصِّبين للمَذاهِب، فإنهم لا يَرَوْن أن هذه المذاهِبَ خارِجةٌ عن الوحي، وإنَّما يَرَوْن أن ذلك طريق إلى العمَل بالوحيِ، فيَقُولون: هذا إمامُنا أعلَمُ مِنَّا وأفْهَمُ، فنتَّبِعه ونَتَّهِم رأيَنا بالنسبة إلى رَأْيه، وإلَّا فنحن مُتمسِّكون بشريعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مُحكِّمين لكتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ.

ونَقول: إنه إذا تَبيَّن لهم الحَقُّ وجَب عليهم اتِّباعُه ولو خالَف مَتبوعهم من الأئِمَّة؛ وذلك لأن الحقَّ لا يُخطِئُ والأئِمَّة يُخطِئون، ولا يُمكِن أن يُدَّعَى العِصمةُ لأحَدٍ من البشَر إلَّا رسول الله ﷺ، لا يُمكِن أن يَدَّعِيَ العِصمة إلَّا رجُلٌ ضالٌّ.

فالذي يَدَّعي العِصْمة لغير الرُّسُل رجُل ضالٌّ كما يَفعَل الرافِضة بأئِمَّتهم

وهذا ضَلال بيِّنٌ؛ لأن أئِمَّتهم قد يُخطِئون كما يُخطِئ غيرهم، وقد وقَع لعليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو إمام الأئِمَّة بالنسبة لأُولئك القومِ أنه أخطأَ حين أعطاه النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حُلَّة من حرير فلَبِسها، فقال: «**إِنِّي مَا أَعْطَيْتُكَهَا لِتَلْبِسَهَا، وَإِنَّمَا لِتُعْطِيَهَا لِفَاطِمَةَ**»[1]، وكذلك ما هـو مَشْهور عنه من: أن المَرأة إذا كانت حامِلًا وتُوُفِّيَ عنها زوجها، فإنَّهَا تَعتَدُّ بأطوَل الأجَلَيْن[2]، وهذا مُخالِف للسُّنَّة الصحيحة الصريحة[3].

والحاصلُ: أننا نَقول: إن في الآية الكريمة: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وُجُوبَ تَقديم الوحيِ على الرأيِ، وأنه يَجِب الحُكْم بما جاء به الشَّرْع مُطلَقًا، سواءٌ خالَف رأيَ مَتبوعِيك أو لم يُخَالِف.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الهبة، باب هدية ما يكره لبسها، رقم (٢٦١٤)، ومسلم: كتاب اللباس، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء، رقم (٢٠٧١)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في السنن رقم (١٥١٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٩/ ٣١٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، رقم (٥٣٢٠)، من حديث المسور بن مخرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن سبيعة الأسلمية نفست بعد وفاة زوجها بليال، فأذن لها النبي ﷺ أن تنكح.

الآيــة (٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب:٣].

قالَ المُفَسِّر: [﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في أَمْرك] وكفَى بالله وكيلًا حافِظًا لك.

والتَّوكُّل بمَعنَى الاعتِماد مع الثِّقة؛ ولهذا فسَّرُوه بأنه صِدْق الاعتِماد على الله تعالى في جَلْب المَنافِع ودَفْع المَضارِّ مع الثِّقَة بالله عَزَّوَجَلَّ بأن يَكون القَلْب مُعتَمِدًا على الله تعالى لا على غيره في جَلْب المَنافِع، وفي دَفْع المَضارِّ، مع ثِقَته بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يَعنِي: واثِقًا بأن الله تعالى سيَكْفيه؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] كافِيه، فإذا صدَقْت الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سيكفيكَ، فهذا هو تَمام التَّوكُّل.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ جاءَت هذه في القُرآن في عِدَّة مَواضِعَ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ [المائدة:٢٣]، وعلى هـذا فيَكون التَّوكُّل من العِبادة؛ لأن الله تعـالى أَمَر به، وما أَمَر الله تعالى به شَرْعًا فهو من العِبادة، وسيَأتي -إن شاء الله تعالى- في الفوائِد أقسام التَّوكُّل.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ البـاء يَقول أهل الإعراب: إنهـا زائِدة؛ لتَحسين اللَّفْظ، وإن لَفْظ الجَلالة هو الفاعِل، والتَّقدير: - وكفَى الله شَهيدًا - وَكيلًا حالٌ من الفاعِل، والمَعنَى: ما أَعظَمَ كِفايةَ الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الشيءِ! إن كان

﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الإسراء:٩٦] فما أَعظَمَ كِفايةَ الله تعالى في شَهادته! وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ المَعنَى: ما أَعظَمَ كِفايةَ الله تعالى في وَكالته!.

وقوله: ﴿وَكِيلًا﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حافِظًا لكَ]، وعلى هذا ففَعيل هنا بمَعنى: فاعِل، وليسَت بمَعنى: مَفعول؛ لأن الوَكيل إذا قلت: وكَّلت هذا الوكيلَ؛ فإن (وكيلًا) بمَعنَى: مَفعول؛ لأنه مُوكَّل، لكن هنا بمَعنَى: فاعِل أي: أنه حافِظ فالاعتِماد من الإنسان، والحِماية والحِفْظ من الله تعالى.

ويَدُلُّ لتَفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] [أي: كافِيه]، وسَوْف يَقوم الله عَزَّوَجَلَّ بحِفْظه وبتَحقيق ما تَوكَّل به عليه.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وأُمَّته تَبَع له في ذلك كلِّه]، إنما قال هـذا؛ لأن الخِطاب في الآيات مُوجَّه للنبيِّ ﷺ فأُمَّتُه تَبَع له، عِلمنا ذلك من أحَد طريقين:

الطريق الأوَّل: أن الله أمَرَنا بالتَّأسِّي به، فكلُّ أَمْر مُوجَّه للرسول ﷺ لا يَدُلُّ الدليل على تَخصيصه به، فهو لنـا أيضًا نحن مَأمورون باتِّباعه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١].

ثانيًا: أنـه من المَعروف في الخِطاب أن الخِطاب المُوجَّـه إلى المَتبوع خِطاب له ولتـابِعه؛ ولهذا يَقول القائِد لضابِط الجَيْـش: (اذهَبْ إلى المَكان الفُلاني)، هل هو يُريد: اذهَبْ أنت بنَفْسك أم أنت بمَن تَبِعك؟

والجوابُ: أنت بمَن تَبِعك، فالخِطاب في اللغة العربية إذَا وجِّه للمَتبُوع فهو له وللتابِع، فصار وَجهُ كون الأُمَّة تبَعًا للرسول ﷺ في هذه الأوامِرِ وما تَضمَّنَتْه من النهيِ له طريقان:

الطريق الأوَّل: أننا أُمِرنا باتِّباع الرسول ﷺ.

والطريق الثاني: أن الخِطاب المُوجَّه للمَتبوع فهو له ولتابِعه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فيها دليل على وُجوب التَّوكُّل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد ذكَرْنا في (كتاب التوحيد) أن التَّوكُّل يَنقَسِم إلى أقسام:

أَحَدُها: تَوكُّل العِبادة: وهو شُعور الإنسان بافتِقاره إلى المُتوكِّل عليه، وذُله بين يَدَيْه، وهذا لا يَجوز صَرْفه لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وصَرْفه لغير الله كُفْر شِرْك؛ لأنه إِشْراك بالله تعالى فيما لا يَستَحِقُّه إلَّا الله تعالى، وهو شِرْك أكبَرُ.

والثَّاني: الاعتِماد على الغير الذي جعَلْته نائبًا عن نفسك، فهذا جائِز، وقد وقَع حتَّى من الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإنه وكَّل عُرْوةَ بنَ الجَعْد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على أن يَشتَرِيَ له أُضحِيَّة[1]، وكان له وكيلٌ في خَيبرَ[2]، وكذلك وكَّل عليَّ بنَ أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ذَبْح ما بَقِيَ من الهَدْي[3]، وهو جائِز ولا إشكالَ فيه، ووكَّل عليَّ بن أبي طالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين ذهَب إلى تَبوكَ[4]؛ أن يَكون خليفةً له في أهله، وموسى ﷺ وكَّل هارونَ ﷺ حين ذهَب إلى الطور، وقال: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف:١٤٢].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، رقم (٣٦٤٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، رقم (٢٢٠١)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلا بمثل، رقم (١٥٩٣)، من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، رقم (٤٤١٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رقم (٢٤٠٤)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إذنْ: هذا جائِز، ولا إشكالَ فيه؛ لوقوعِه من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ ولأنه عَقْد من العُقود، والأصل في العُقود الحِلُّ إلَّا ما قام الدليلُ على مَنْعه.

الثالِث: أن يَعتَـمِد على مَن لا يَصِحُّ الاعتِماد عليه، على قُوَّة سِرِّيَّة، نَعـلَم أنه لا أثَرَ لها في هذا الاعتِمادِ، وهذا شِرْك قد يَكون أكبَرَ، وقد يَكون أصغَرَ، مثل: اعتِماد أولئك الذين يَتَـوسَّلون بالأموات، ويَعتَقِدون أن في الاعتِماد عليهم خَيرًا، هؤلاء قد يَصِلُّ بهم الأمرُ إلى الشِّرْك الأكبَر؛ وإلَّا فمُجرَّد اعتِمادهم عليهم شِرْكٌ ولا يَحِلُّ.

الرابعُ: أن يَعتَمِد على قوة ظاهِرةٍ مُؤثِّرةٍ، لكنه يَعتَمِد عليها لا باعتِبار أنها نائِبةٌ عنه، بل باعتِبار أنها مُجديةٌ له، وأنها مَصدَر سَعادته وفَلاحه ورِزْقه وما أَشبَه ذلك، فهذا مَكروهٌ وقد يَصِل إلى درجة التحريم، كاعتِماد الإنسان على الراتِب وعلى المَعاش من الوزارة التي يَعمَل فيها أو الإدارة أو الرِّئاسة أو ما أَشبَه ذلك، فإنَّ هذا فيه نوع من الشعور بالافتِقار إلى هذا الشيءِ والتَّذلُّل له.

ولذَلِك تَجِد الذين ابتُلوا بهذا النوعِ تَجِدهم يُحابُون مَن كانوا يَعتَمِدون عليه، يُحابون كُبَراءَهم من الوزراء وغير ذلك في أَمْر لا يَجوز، أمَّا مُجامَلة في ما هو جائِز فهذا أَمْر لا بأسَ به، لكن مُحاباتهم في المُحرَّم هذا لا يَجوز، لكن هذا قد يَقَع؛ لأنهم يَشعُرُونَ أنَّهم يَفتَـقِرون إلى هؤُلاء، فهذا أقلُّ أحواله الكراهة، والإنسان يَنـبَغي له أن يَكون عزيزَ النَّفْس لا يَعتَمِد إلَّا على ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن كِفـاية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فوق كل كِفـايةٍ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ زَعم بعـضُ أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أن مِثْل هذا التركيبِ يُفيـد التَّعجُّب، يَعنِي: ما أعظَمَ كِفـايةَ الله تعالى! وهذا ليس ببعيد: أن كون هذه الصِّيغةِ تُحوَّلُ مِن (وكفى اللهُ وَكيلًا) إلى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ لا يَبعُد أن يَكون المُراد

بذلك المُبالَغة في كِفايته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ويَدُلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

الآيــة (٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب:٤].

ثُـمَّ قـال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾: ﴿ مَّا ﴾ نافِية، ولفظُ الجلالة فاعِل، و﴿مِّن قَلْبَيْنِ ﴾ مَفعول ﴿جَعَلَ﴾ الأوَّل مُؤخَّر، ومَفعولها الثاني قوله: ﴿لِرَجُلٍ﴾، و﴿مِّن﴾ هنا نَقول: إنها زائِدة من حيثُ الإعراب.

فنُعْرب ﴿قَلْبَيْنِ ﴾ على أنها مَفعولٌ به مَنصوبٌ، وعلامة نَصْبه ياءٌ مُقدَّرة على هذه الياءِ التي جُلِبت لماذا؟ جُلِبَت للحَرْف؛ لأن عَمَلَ الأداة الظاهِرة أَقوى من عمَل الأداة الغير ظاهِر؛ مثلًا: (جعَل) تَنصِب (قَلْبين)، لكن عارَضَها عامِلٌ مُباشِر أَقوى، وهو حـرف الجَرِّ، فيَقولون: إن اليـاء هذه ليسَت ياءَ النَّصب، ولكنَّـهَا ياءُ حَرْف الجَرِّ الزائِد، وعلى هذا نَقول: علامة نَصْبه ياءٌ مُقدَّرة في مكان الياء المَوجودة التي اجتُلِبَت من أجل حَرْف الجَرِّ الزائِد.

قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ﴾ هذا الجَعْلُ كونيٌّ؛ لأن الجَعْل الذي يُضاف إلى الله تعالى يَنقَسِم إلى قِسْمين:

١ - جعَل شَرْعِي، بمَعنى: ما شَرَع.

٢- وجعَل كَوني، بمَعنى: ما خَلَق.

مِثال الجَعْل الشرعيِّ: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ [المائدة:١٠٣]، هذا جَعْل شَرعيٌّ، والدليلُ أنه كونًا واقِعٌ، لكنه شرعًا لم يَجعَل ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ [المائدة:١٠٣].

وأمَّا الجَعْل الكَوْنيُّ فهو كثير، مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء:٦]، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ:١٠-١١].

وفي هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ﴾ من الجَعْل الكونيِّ، وأكَّدَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا النفيَ بحَرْف الجَرِّ الزائِد؛ لأن الحروفَ الزوائد من أدوات التوكيد؛ إِذَنْ: مُحالٌ أن يَكون في الإنسان الواحِد قَلْبان، ولكن هل هذه الجُمْلةُ مُرادةٌ لذاتها أو مُرادة لغيرها؟

يَرَى المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجماعة من عُلَماء التفسير أنها مُرادةٌ لذاتها، وأنها نَفيٌ لأَمْر قدِ ادُّعيَ؛ ولهذا قال رَدًّا على مَن قال مِن الكفار: إن له قَلْبين يَعقِل بكُلٍّ منهما؛ أفضَل من عَقْل مُحَمَّد ﷺ؛ هذا ما ذهَبَ إليه جماعة من أهل العِلْم.

يَعنِي: أن هذا نَفيٌ لأَمْر قدِ ادُّعيَ وهو رجُل من الكُفَّار يَقول: إن له قَلْبين، وإذا كان له قَلْبان كان له عَقْلان، وإذا كان له عَقْلان كان أَفضَلَ من النبيِّ ﷺ؛ لأنه ما له إلَّا قَلْب واحِد.

وذهَبَ بعض المُفسِّرين وعلى رَأْسهم الزُّهريُّ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن هذه الجُملةَ ليسَت مَقصودةً لذاتها؛ لأنها أمرٌ مَعلوم؛ لأنه ليس لإنسان قَلْبان، لكنها تَوْطِئة وتَمهيد

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٣/ ٣٠)، ومن طريقه الطبري في التفسير (١٩/ ٩).

لما يَأتي بعدها؛ لأنه ذَكَر في الآية الكريمة ثلاثةَ أشياءَ:

١ - ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾.

٢ - ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾.

٣ - ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

فكما أنكم تُقِرُّون بأنه لا قَلْبين لرجُل في جَوْفه، فكذلك ليسَتِ الزوجة أُمًّا؛ لأن الله تعالى لم يَجعَل للإنسان أُمَّيْن كما أنه ليس له قَلْبان، وكذلك ليس هناك ابنٌ غير حَقيقيٍّ، ليس للإنسان ابنٌ خُلِق من مائِهِ وابنٌ نُسِب إليه ولم يُخلَق من مائِهِ، بل إن ابنك مَن خُلِق من مائِكَ؛ وهذا ما اختاره ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]. على أن هذه الجُملةَ تَوْطئة؛ لأن انتِفاء القَلْبين في الجوف الواحِد أمرٌ مَعلوم، والقِصَّة التي ذَكَروها يُنظَر في صِحَّتها، وحتى لو صَحَّت، فإن هذا الذي يَقول: إنَّ له قَلْبين. ادِّعاؤه ذلك يَدُلُّ أنه لا قَلبَ له؛ لأن هذا أمر مُستَحيل.

يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾، فهل قوله تعالى: ﴿فِى جَوْفِهِۦ ﴾ قَيْدٌ؟ يُعتبَر قيدًا شَرْطيًّا له مَفهوم، فيُقال: إن له قَلْبينِ خارِج جَوْفه؟ لا، ولكنها لِبَيان الواقِع؛ لأن من المعلوم أن القُلوب في الأجواف، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨]؛ لأن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ كقول الإنسان: ولا ماشٍ يَمشِي برِجْلَين؛ لِبَيان الواقِع.

وإن كان بعض المُتأخِّرين في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٦).

قال: إنها قَيْد شَرْطي؛ لتَخْرُج الطائِرة المَعروفة؛ لأنها تَطير بغير جَناحَيْها، وقد يُقال: إن هذا ليس بصحيح. أيضًا حتى الطائِرة الآنَ تَطير بجَناحَيْها، لأن النفَّاثاتِ التي تَطير بها في الجَناحَيْن، والمَراوِح التي كانت في الأوَّل في نفس الجَناحَيْن؛ لكن لا شكَّ أن الطائِرةَ ليست من الأُمَم التي هي أمثالُنا بل هي من صُنْعنا؛ إذَنْ: قوله تعالى: ﴿فِي جَوْفِهِۦ﴾؛ لِبَيان الواقِع.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي﴾ يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾ بهَمْزٍ وبِياءٍ وبلا ياءٍ]، يَعنِي: بهَمْز بلا ياء: (اللاءِ)، و(اللائِي) جَمْع (الَّتي) فهي مثل (الَّذين) في الذُّكور جمع (الَّذي).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [«تَظَّهَّرون» بلا أَلِف قبل الهاء، وبهاءٍ، والتاءُ الثانية في الأصل مُدغَمة في الظاء] «تَظَّهَّرون» هذه قِراءة، يَقول: [بلا أَلِفٍ قبل الهاءِ]، و[بهاءٍ] يَعنِي: بأَلِف قبل الهاءِ، فتكون: «تَظَّاهرون»؛ هذه قِراءتان، والقِراءة المشهورة عندنا هي: ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾.

فتكون ثلاثة قِراءات: «تَظَّهَّرون»، «تَظَّاهرون»، والثالِثة ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾.

و«تَظَّهَّرون»، «تَظَّاهرون» يَقول: [إن الظاء في الأصل مُدغَمة في الظاء]؛ التاء مُدغَمة في الظاء، وأصلُها: (تَتَظَاهَرون) أو (تَتَظهَّرون) لكن صارت «تَظَّهَّرون»، وأُدغِمَت التاءُ في الظاء.

وأمَّا الأَفضَلُ في القِراءة؛ فمنهم مَن يَقرَأ بالقِراءة التي فيها الزيادة؛ لأن فيها زيادة حَرْف والحَرْف فيه عَشْر حَسَناتٍ، فعلى هذا القولِ تَكون: «تَظَّاهَرون»؛ لأنها أكثَرُها حُروفًا.

ومن العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ مَن يَقول: الأفضَلُ أن تَقرَأ بكلِّ قِراءة، أن تَأخُذ بكُلِّ قِراءة، تَقرَأ بهذه مَرَّة وبهذه مَرَّة؛ وهو الصحيح: بأن تَقرَأ بهذه مرَّة وهـذه مرَّة إذا كُنْت تَعرِف؛ لأن كلَّ قِراءة صحَّتْ عن النبيِّ ﷺ، فيَنبَغي أن تَقرَأ بها لفائِدتَيْن:

الفائِدة الأُولى: العمَل بكلا السُّنَّتَيْن.

الثانية: حِفْظ هذه القِراءات.

ولذلـك نحن الآنَ لَمَّا كُنَّا نَعتَـمِد على القِراءة التي عِنـدنا ما نَعرِف القِراءة الأخرى، فإذا كان الإنسان إذا قيل للإنسان: يَنبَغي لك أن تَقرَأ بكل قِراءة صحَّت، فإن هذا يَكون فيه حِفْظ للقِراءات؛ ولهذا يَنبَغي للصِّغار مِنَّا -والعـادة أن الكِبار صَعْب عليهم الحِفْظ- أن يَحرِصوا علىَ القِراءات، وأن يَتعَلَّموها لأجل أن يَعمَلوا بالسُّنَّة هذه فلا تَبقَى مَهجورة.

ومَعنَى ﴿تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ﴾ أي: تَقولون: إنهن عليكم كظُهور أُمَّهاتكم.

وهذه صِيغة طلاقٍ في الجاهلية، إذا أَراد الإنسان أن يُطلِّق امرأته طلاقًا بائِنًا قال لها: أنت عَليَّ كظَهْر أُمِّي. فتَطلُق طلاقًا بائِنًا؛ لأن ظَهْر أُمِّه لا يَحِلُّ له بحال من الأحوال، وخُصَّ الظَّهْر؛ لأنه مَحْل الرُّكوب، والإنسان يَركَب زَوْجته؛ لأنها فِراش كما قال الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ[1].

فقوله تعالى: ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ أي: تَقولون لَهُنَّ: (أنتُن علينا كظَهْر أُمِّنا)، يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: كالأُمَّهات في تَحريمها بذلك المُعَدِّ في الجاهِلية طلاقًا، وإنَّما تَجِب به

(١) في قوله ﷺ: «الولد للفراش». أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب تفسير المشبهات، رقم (٢٠٥٣)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب الولد للفراش، رقم (١٤٥٧)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

الكفَّارة بشَرْطه كما ذُكِر في سورة المُجادَلة]، وأمَّا في الإسلام فليس بطلاق، ولكنه تَحريم تَجِب به الكفَّارة، ولكنه العَوْد لقَوْل الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المجادلة:٣].

يَقول المُفَسِّر: [يَقول الواحِد مثَلًا لزوجته: أنتِ عليَّ كظَهْر أُمِّي]، وقد يَقول الواحِد غير هذه العِبارةِ، فيَقول: أنتِ عليَّ كظَهْر أُخْتي. ويُمكِن أن يَقول: أنت عليَّ كبَطْن أُمِّي. فالعِبْرة بالمَعنَى لا بالصِّيغة، وقد ذُكِر في كتاب الظِّهار: «هو أن يُشبِّه الرجلُ زوجتَهُ بمَنْ تَحرُم عليه تَحريمًا مُؤبَّدًا بنسَب أو سبَب مُباح»، المُهِمُّ تَحريمًا مُؤبَّدًا، هذا هو الظِّهار عند أهل العِلْم، وفيه الخِلاف فيما لو حرَّمها أو لو ظاهَر منها أو شبَّهها بما تَحرُم عليه تَحريمًا إلى أَمَد.

وفي جملة: ﴿جَعَلَ﴾ المَفعول الأوَّل: ﴿أَزْوَٰجَكُمُ﴾ و﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾ صِفتها، و﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ صِلة المَوْصول، و﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ المَفعول الثاني.

وقوله تعالى: ﴿أَدْعِيَآءَكُمْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جَمْع دَعِيٍّ، وهو مَن يَدَّعِي لغَيْر أبيه ابنًا له] أدعياءُ جَمْع دَعِيٍّ، كأَغنياء جمع غَنيٍّ، وأَكفِياء جمع كَفِيٍّ، ولها أمثلة، ودَعِيٌّ: فَعِيل بمَعنى مَفعول، وأصلُها (دَعِيو) بالواو، لكن قُلِبت الواوُ ياءً لعِلَّةٍ تصريفية، إذَنْ: دَعِيٌّ بمَعنى مَدْعُوٌّ، والدعاء في الأصل طلَب الإِقْبال، والمُراد بالدُّعاء هنا النسبة بأن يُنسَب إلى غير أبيه، فيقال: هذا ابن فُلان. وليس ابنًا له حقيقةً.

وهؤلاءِ الأدعياءُ ما جعَلَهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أبناءً لا شَرْعًا ولا قَدَرًا، أمَّا قَدَرًا فواضِح أنهم ليسوا بأبناءٍ قدَرًا، وأمَّا شَرْعًا فهنا نَفَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك، قال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾؛ فإذا كان الأَدْعياء ليسوا أبناءً لا قَدَرًا ولا شَرْعًا، فإنه لا يَتوجَّه الذِّهْن إليهم شَرْعًا، هذه الكلِمةُ التي أَقولها يَتبيَّنُ بها ضَعْفُ قولِ

مَنْ يَقول في قوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ [النساء:٢٣] يَقول: إن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ إنها قَيْد يُحتَرَز به عن ابنِ التَّبنِّي؛ لأننا نَقول: ابن التَّبنِّي لا يَدخُل في الابن أَصْلًا. فلا يَذهَب إليه وَهْم حتى نَقول: إنه يَحتاج إلى قَيْد يُحتَرَز به عنه.

المُهِمُّ أن الأدعِياء ما جعَلَهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أبناءً لا شَرْعًا ولا قدَرًا، وكانوا في الجاهِلية يَدعون الإنسان لغير أبيه يَكون هذا الرجُل شريفًا وذا نسَب، وهذا الدَّعِيُّ وَضِيعًا نسَبه عند الناس، ليس بذاك الشيءِ، أو ليس له نسَبٌ معلومٌ فيُدعَى إلى هذا الأبِ؛ من أَجْل رِفْعته فأَبطَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك؛ لأن دعوة الإنسان إلى غير أبيه يَترَتَّب عليها أمور.

كلُّ ما يَترَتَّب على النسَب من تَحريم وتحليل وإِرْث ونفَقات وغيرها، كلها ربَّما تَنتَقِل إلى هذا الدَّعِيِّ؛ بسبَب أنه دُعِيَ إلى هذا الرجُلِ؛ فلذلك مَنَع الله تعالى ذلك شَرْعًا؛ لأن تَسميةَ الشيءِ بشيءٍ أو باسْمٍ بعيدٍ عن حقيقته هذا يُوجِب أن تَنقَلِب الأَوْضاع؛ حتى إن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «لَا تَغْلِبَنَّكُمُ الْأَعْرَابُ عَلَى تَسْمِيَتِكُمْ عَلَى صَلَاتِكُمُ العِشَاءِ، يَدْعُونَهَا العَتَمَةَ، وَهِي تُعْتِمُ بِإِبِلِهَا، وَإِنَّمَا هِيَ فِي كِتَابِ اللهِ: الْعِشَاءُ»(١)؛ فكلُّ الأَشْياء التي ربما إذا سُمِّيت باسمٍ آخَرَ ربَّما تَختَلِف أحكامُها، فإن الشَّرْع نهَى عنها.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ حقيقةً] تَفسير لأبناءٍ يَعنِي: ما جعَلَهم أبناءً على وجه الحقيقة [﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡ﴾ أيِ: اليَهود والمُنافِقين] ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾،

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب وقت العشاء وتأخيرها، رقم (٦٤٤)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

المُفَسِّر يُريد أن يَكون الخِطاب هنا لليَهود والمُنافِقين، والصواب أنه عائِد لكل مَن دعـا شَخْصًا لغير أبيه من الأدعياء، سَواءٌ كان من المُنافِقـين أو من اليَهود أو من المُشرِكين أو من المُسلِمـين، فإن هذا قولٌ يَقوله الإنسان بفِيـهِ، وليس حقيقةً هو نفسه يَعلَم أن هذا الدَّعيَّ ليس ابْنًا لهذا المَدعُوِّ إليه، فكيف يَقول ما يَعتَقِد أن الأمر بخِلافه؟

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أتَى بضَمير الجَمْع في الخِطاب؛ لأن المُخاطَبِين جماعةٌ، وأن اسْمَ الإشارة يُراعَى به المُشار إليه، والكاف يُراعَى بها المُخاطَب، وهنا المُشار إليه مُفرَد مُذكَّر، وهو دَعْوة الرجُل إلى غير أبيه، والمُخاطَبون جماعة ذُكور.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ يَعنِي: تَقـولونه بأَلْسنَتِكم وأنتم تَعرِفون الحقيقة أنها ليسَتْ كذلك؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيِ: اليَهود والمُنافِقين] وجعَلها بالياء؛ لأنها تفسير لقَوْله: ﴿قَوْلُكُم﴾ الكافِ، وهي مَجرورة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قالوا: لَمَّا تَزوَّج النبيُّ ﷺ زينبَ بِنتَ جَحْش التي كانت امرأةَ زَيْدِ بنِ حارِثةَ الذي تَبنَّاه النبيُّ ﷺ قالوا: تَزوَّج مُحَمَّد امرأةَ ابنِه، فأَكذَبهم الله تعالى في ذلك]؛ وكلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعيـدٌ من ظاهِر الآية، إِذْ إن كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول: إنه بعـد أن تَزوَّج النبيُّ ﷺ زينبَ بِنتَ جَحْش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وكانـت في الأوَّل عند زَيدِ بنِ حارِثةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قالوا هذا القول[1]، والآية ما فيها إشارة للقصة إطلاقًا، إنَّما الآية يَتحَدَّث الله تعالى فيها عن ابن التَّبنِّي، فما تَحدَّث الله تعالى ولا أَشار إلى تَزوُّج الرَّجُل بزوجة ابنِه الذي تَبنَّاه، لكن هذه ستَأتينا في الآيات: أن الآية إنما هي في نِسْبة الإنسان إلى غير أبيه تَبنِّيًا.

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي (ص:٣٥٢).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ في ذلك ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ سبيل الحقِّ]، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ المُفَسِّر قيَّدها فقال: [في ذلك]، والصوابُ عدمُ القَيْد حتى وإن كان السبَب هو هذا؛ لأن العِبْرة بعُموم اللَّفْظ لا بخُصوص السبب.

فما هو الحقُّ الذي يَقوله الله عَزَّوَجَلَّ فيما يَقول؟

فسَّرَه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القُرآن نفسِه قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] هذا هو الحقُّ الذي يَقوله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ صِدقٌ في الأَخْبار، وعَدْلٌ في الأحكام، فكلُّ ما قاله الله عَزَّوَجَلَّ فهو دائِر بين أَمْرين، إمَّا خبرٌ وإمَّا حُكْمٌ، فالخَبَر أَحقِّيَّته الصِّدْق، والحُكْم أَحقِّيَّته العَدْل، وخَيرُ ما يُفسَّر به القُرآنُ القرآنُ.

ولهذا إذا قال قائِل: ما هو الحقُّ في قول الله تعالى؟

نَقول: الحقُّ في قول الله تعالى هو ما ذكَرَه الله تعالى في قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾، لم يَقُل: ويَهدِي السبيلَ؛ لأن الجُمْلة الثانية تَتعدَّى للغير، فهناك هادٍ ومَهدِيٌّ ومَهدِيٌّ إليه وفيه أيضًا، هناك هادٍ وهو الله تعالى، ومَهدِيٌّ وهو الإنسان مثلًا ومَهدِيٌّ إليه، وفيه أيضًا وهو الدِّين.

فالسبيل المُوصِّل إلى الله مَهديٌّ إليه؛ هذه هِداية الدَّلالة، ومَهديٌّ فيه هذه هِداية التَّوْفيق؛ لأنك تَقول: دلَلْتُه إلى كذا، وهدَيْتُه في كذا. بمَعنى: جعَلْته عامِلًا فيه.

وهذا هو الحِكْمة في أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال في سُورة الفاتِحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، ولم يَقُل عَزَّوَجَلَّ: إلى الصِّراط المُستقيم؛ لأجل أن يَعُمَّ الهِداية إليه بالدَّلالة إليه وبَيانه.

والثاني: الهِداية فيه بالعمَل به، وهذا مَقصود كلِّ داعٍ يَدعو الله تعالى بالهِداية: أن الله تعالى يَهديه إلى الشيء فيَعرِفه ويَعلَمه، ويَهديه فيه فلا يَضِلُّ عنه.

قوله تعالى: ﴿يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾: (أل) هـذه للعَهْد الذِّهْنيِّ، والمُراد سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، والدَّليلُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

إِذَنِ: السبيلُ التي يَهدِي الله تعالى إليها هي سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهي طريق الحَقِّ.

ومن جُمْلـة ذلك أنه عَزَّوَجَلَّ لم يَجعَلِ الزَّوْجات اللائِي يُظاهَر منـهن أزواجهن لم يَجعَلْهنَّ أُمَّهاتٍ، ولم يَجعَل الأدعياء أبناءً، فقال الحقَّ في ذلك، وهَدانا السبيل في ذلك، فالزوجة زوجةٌ والابنُ الدَّعِيُّ ليس ابنًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ القرآن قد بلَغ الغاية القصوى في الإقناع وإقامة البُرهان، وجهُ ذلك أنَّه قدَّم الدليل على المَدلُول بِصُورة لا يَمـتَرِي فيها أحَد؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾، فإن هـذا أَمْر مَعلوم ولا يَتَنازَع فيـه اثنان: أنه ليس للإِنْسان إلَّا قَلْبٌ واحدٌ ما فيه قَلْبان؛ لأن هذين القَلْبَين إنِ اتَّفَقا على أمرٍ واحـدٍ صار القَلْب الثاني لا فائِدةَ منه، وإنِ اختَلَفا تَناقَضا في عَيْنٍ واحِدةٍ، فماذا يَصنَع الإنسان هل يَتبَع القلبَ الأيمَنَ أم يَتبَع القلبَ الأَيْسرَ؟! فيبقَى مُحتارًا؛ لذلك ما جعَل الله تعالى لرَجُل من قَلْبَيْن إلَّا قلبًا واحِدًا فقط؛ لأنه في جِسْم واحِد.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِى جَوْفِهِۦ﴾ يُستَفاد منها فائِدة غير أنَّها بيانٌ للواقِع، يُستَفاد: أن الجوف الواحِد لا يَتَناسَب معه إلَّا قَلْب واحِد، وإلَّا لكان القَلْبان

في جَوْفين لا في جوف واحِد، فصار فيها فائِدة غير ما سَبَق، وهي أنها بَيان للواقِع؛ لأن الجَوْف الواحِد لا يُمكِن أن يُديرَه إلَّا قلبٌ واحدٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ الشيء بالبُرهان الذي يَكون قاطِعًا لا يَمتَرِي فيه أحَد.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن المَرأة المُظَاهَر منها ليست أُمًّا؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾.

يَتفرَّع على هذه الآيةِ: أنَّ جَعْلها أمًّا في الظِّهار كذِبٌ وزُورٌ ومُنكَر؛ ولهذا قال الله تعالى في آية الظِّهار: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة:٢]، فهو مُنكَرٌ لمُخالَفة الشَّرْع، وزُورٌ لمُخالَفة الواقِع والحقيقة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الإشارة أو التَّنْبيه على تَحريم الظِّهار؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ فإذا كان اللهُ تعالى لم يَجْعَل ذلك، فإنه لا يَحِلُّ لنا أن نَجعَل شيئًا لم يَجعَلْه الله تعالى؛ لأن الأَمْر إلى اللهِ تعالى وحدَه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الأبناءَ الأَدْعياء ليسوا بأَبناءٍ حقيقةً ولا شَرْعًا، فهم ليسوا أبناءً قَدَرًا، وليسوا أَبناءً شَرْعًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنه إذا لم يَكُن الابنُ الدَّعِيُّ ابنًا لا شَرْعًا ولا حقيقةً، فإنه لا يَحتاج إلى قَيْد يُخْرِجه من مَعنى البُنُوَّة؛ لأنه غيرُ داخِل فيها أصلًا حتى نَحتاج إلى قَيْد نُخرِجه به.

ويَتفرَّع على هذه الآيةِ على هذه الفائِدةِ: بيانُ ضَعْفِ قول مَن يَقولُ: إن الاحترازَ في قوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء:٢٣] عن ابنِ التَّبَنِّي؛ لأننا نَقول: إنه أَصْلًا لم يَدخُل حتى يُحتاجَ إلى قَيْد يُخرِجه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الإنسان قد يَقول قولًا لا يَعتَقِده: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنه ليس من الرُّجولة وليس من العَقْل أن يَقول الإنسانُ قولًا بِفيهِ وهو لا يَعتَقِده بقَلْبه، لأن المُراد من قوله تعالى: ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ التنديدُ بهم والتوبيخُ لهم، كيف تَقولون شيئًا بأفواهكم وأنتم تَعتَرِفون بقُلوبكم بأنه ليس مُوافِقًا للواقِع.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ قولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كُلُّه حَقٌّ ليس فيه باطِل؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾، والحقُّ سبَق في كلام الله عَزَّوَجَلَّ هو الصِّدْق والعَدْل؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، فهو باعتِبار الخبَر صِدْق، وباعتِبار الحُكْم عَدْل.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ليس فيه تَناقُض؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ والتَّناقُض لا يَكون إلَّا في الباطِل، فالحقُّ لا يُمكِن أن يَتَناقَض.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ ما وصَف الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به نَفْسَه في كِتابه فهو على حقيقته، وليس فيه تَحريف أو تَأويل؛ لأننا لو كان خِلاف ظاهِره لكان ظاهِرُه يَدُلُّ على باطِل، وإذا قلنا: إنه على خِلاف الظاهِر لزِم أن يَكون دالًّا على باطِل، فإذا قُلْنا: إن المُراد بآيات الصِّفات خِلافُ الظاهِر صار الظاهِر باطِلًا؛ لأنه خِلافَ المُراد وهذا يُنافِي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾، فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يَقولُ إلَّا الحقَّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّه مع ظُهورِ: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَقول الحقَّ فإن الناس لا يَتَّفِقون عليه؛ لقوله: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾، يَعنِي: حتى مع أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يَقول إلَّا الحقَّ فليس كل أحَدٍ يَهتَدي لذلك، فالهِدَاية بيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أنه يَجِب على المَرْء أن يَلجَأ إلى ربه عَزَّوَجَلَّ في سُؤَاله الهِداية؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾، وتَأمَّل تَغيير الصِّيغة، حيث قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾، ثُمَّ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾، ولم يَقُل: ويَهدِي السبيلَ؛ لأَجْل أن تَكون الجُمْلة الثانية مُستَقِلَّة برُكْنيها بمُبتدَئِها وخبَرها؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَهْدِى﴾ هو مُبتدؤُهَا، وجملةُ ﴿يَهْدِى﴾ خبَرُها، فكانت الجُملةُ مُسْتَقِلَّة عن الأولى، لأن ذلك أبلَغُ في بيان أنَّ الهِداية بيَدِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ طريق الحقِّ واحِد؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾، وهُو مُفرَد، وهكذا تَجِد أن السُّبُلَ تَأتي جَمْعًا فيما يُخالِف الحقَّ؛ قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وهنا أَفرَد الصِّراط، أمَّا الصِّراط المُخالِف لِصراط الله تعالى فهو جَمْع، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وإذا جاء طريق الحقِّ مجموعًا فالمُرادُ تَنوُّع الشرائِع، وكذلك الوليُّ الكافِر: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة:٢٥٧]؛ لأنَّ سُبُل غير الحقِّ مُتنوِّعة، وكل نَوْع منها عليه طاغوت يَدعو إليه.

• • ۞ • •

الآيــة (٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفسير: [لكن ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾] أتى بالاستِدْراك وفي ظَنِّي أنه لا حاجةَ للاستِدْراك وأن الجُمْلة استِئْنافيَّة لما أَبطَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَكون هؤلاء الأدعياءِ أَبناءً أَمَر بأن نَدعُوَهم لآبائهم.

وكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَمَّا كانت الآيةُ الثانيةُ غيرَ مُقابِلة لَمَّا نَفاه الله تعالى في الأوَّل؛ يَعنِي: ما جعَل أَدْعياءكم أبناءَكم، لكن جعَلهم أبناءَ آبائِهم فادْعوهم لآبائِهم؛ رأى رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا هو وَجهُ الاستِدْراك: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ لكن جعَلَهم أبناءً لآبائِهم فادْعُوهم لآبائهم.

ونَقول: هذا لا حاجةَ إليه، فالجُمْلة استِئْنافيَّة ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ أي: انسُبوهم لآبائِهم فقولوا: يا ابنَ فُلان.

وكلمة ﴿لِآبَآئِهِمْ ﴾ جَمْع أبٍ، وهل المُراد بالجَمْع هنا باعتِبار المَدعوِّين؟ يَعنِي لأن الناس كثيرون أو أن المُراد آباؤُهم بالنِّسبة لكل شَخْص، بمَعنى: أن الإنسان

يُنسَب إلى أبيه وجَدِّه وأبي جَدِّه وهكذا، أو شامِل للأَمْرين؟

الجواب: هو شامِل للأَمْرين فالإنسان يُدعَى إلى أبيه يُقال: فلان ابن فلان ابن فلان، فالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المُطَّلب، بل إنه ﷺ قال: «أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ»[1]، فهو فيما يَظهَر: أنه شامِل يَعنِي: أنه جَمْع باعتِبار أفراد الناس، وجَمْع باعتِبار الآباء؛ لأن الآباء أَبٌ أَدنَى وأَبٌ فوقَه.

قال تعالى: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: ﴿هُوَ﴾ الضميرُ يَعود على المَصدَر المَفهوم من قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ ﴾؛ أي: ﴿هُوَ﴾ أي: دُعاؤُهم، وهذا نَظيرُ قوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، هو أيِ: العَدْل المَفْهوم من الفِعْل، فهنا ﴿هُوَ﴾ أي: دُعاؤُهم لآبائِهم.

وقوله تعالى: ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: [أَعدَل] عند الله تعالى؛ فسَّرها بعضهم باسْمِ الفاعِل: هو قَاسِط عند الله تعالى، يَعنِي: هُو العَدْل عند الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما لَجَأ إلى ذلك؛ لأن المَعروف أن اسمَ التَّفضيل يَشتَرِك في أصل مَعناه: المُفضَّل والمُفضَّل عليه، فإذا قلت: فُلانٌ أَشجَعُ من فُلَان، فكِلاهما شُجَاع، لكن هذا أَشجَعُ.

فهنا إذا جعَلنا اسمَ التفضيل على بابه، وقلنا: دُعَاؤُهم لآبائِهم أَقسَطُ عند الله من دُعائهم لمَن تَبنَّاهُم، صار في دُعائهم لمَن تَبنَّاهم عَدْلٌ، مع أنه لا عَدلَ فيه؛ ولذلك قال بعض المُفسِّرين: إن أَفعَلَ التَّفضيل هنا ﴿أَقْسَطُ﴾ بمَعنى اسم الفاعِل؛ حتى لا يَكونَ في الطرَف الثاني منه شيءٌ؛ وقال بعضُ المُفسِّرين: هو على بابه، واللغة العَرَبية تأتي باسْمِ التَّفضيل دائِمًا فيما ليس في الطرَف الآخَر منه شيء؛ ومنه

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، رقم (٢٨٦٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، رقم (١٧٧٦)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤]، مع أنَّ أصحابَ النارِ لا خيرَ في مُستقرِّهم.

وعلى هذا فنَقول: إبقاءُ الآية على ظاهِرها يَكون أَوْلى، فإذا قيل ذلك، فإنه يَرِد علينا سُؤالٌ: لماذا عبَّر بـ(أفعَل) التَّفضيل في طرفٍ ليس في الطرَف الآخَر منه شيءٌ؟

قُلْنا: لبيـان أن هذا غاية ما يَكون من العَدْل؛ ويَكون فائِـدتها: أن دُعاءَهُم لآبائهم أعدلُ شيءٍ، وهُو غَاية ما يَكون من العَدْل، فاسْمُ التفضيل هنا باعتِبار المعْنَى أَي: أن هذا أَعدَلُ شيء.

وكلمـة ﴿أَقْسَطُ﴾ اسمُ تَفضيـل من الثُّلَاثي؛ لأن اسمَ التَّفـضيل لا يُصَـاغ إلَّا من الثلاثي؛ قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَصُغْهُمَا مِـنْ ذِي ثَـلَاثٍ صُرِفَـا .....

ثمَّ إن الرُّبَاعيَّ من هذه المادَّةِ ليس بمَعنَى العَدْل، بل بمَعنى الجَوْر، فالقاسِط هو الجائِر، والمُقسِط هو العادِل؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحُجُرات:٩].

إِذَن: يرِدُ علينا إشكالٌ في مَسأَلة ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾، فهنا ﴿هُوَ أَقْسَطُ﴾.

فنَقول في الجواب عنه: إن في هذا دليلًا على صِحَّة مَذهَب الكُوفيين، الذين يَقـولون بجَوَاز صياغة اسمِ التَّفضيـل من غير الثُّلَاثي، يَقـولون: أَقسَطُ من باب الإِقساط يَعنِي: أنَّ ذلك أعدَلُ.

---

(١) الألفية (ص:٤٢).

وقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ يَعنِي: في حُكْمه؛ لأن حُكْم الله عَزَّوَجَلَّ يُضَاف إليه، وهذا نَظير قوله تعالى في الذين يَرمُون المُحصَنات: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور:١٣]، وتَأمَّل قوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فإذَا قذَف رجُلٌ امرأةً بالزِّنا؛ فهو باعتِبار الواقِع قد يَكون حقًّا أنها زَنَت، وقد يَكون كذِبًا، لكنها في حُكْم الله تعالى كذِبٌ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور:١٣]، ما قال: فأُولئِك هم الكاذِبون؛ لأنَّه قد يَكون حقيقةً باعتِبار الواقِع، لكن في شَرْع الله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾؛ ولهذا يَجِب عليهم حدُّ القَذْفِ إذا لم يَأتوا بأربَعةِ شُهداءَ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ إن لم تَعلَموا آباءَ هَؤلاءِ الأَدْعياء، ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ يَعنِي: ليسوا أبناءَكم، يَعنِي: حتى في الحال التي لا يُعْرف لهذا الرَّجُلِ أبٌ، فإنه لا يَجوز أن يُنسَب إلى غير أبيه، ولكن يَكون أخًا لنا في الدِّين ومَولًى لنا إذا كان قد دخَل في مِلْكنا ثُم حرَّرْناه مثلًا؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في قصة اختِصام عليٍّ وجعفَرٍ وزيدِ ابن حارثةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، قال لزَيدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا»[1].

فهو (أخي) في الدِّين، وليس (ابنًا) لي، وهو أيضًا (مَوْلايَ) إذا كنت قد أَعتَقْتُه، ولو لم أَعرِف أباه فهو لا يُنسَب إليَّ.

ولهذا تَجِدون العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ الذين يَكتُبون أسماءَ الرِّجال، عندما يَنسبون أحَدًا من الموالي إلى مَن أَعتَقَه يَقول: (القُرَشيُّ مولَاهم) أو: (التَّميميُّ مَوْلاهم)؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب كيف يكتب هذا: ما صالح فلان بن فلان، رقم (٢٦٩٩)، من حديث البراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لأنه لو قال: القُرَشيُّ. فقط، يَظُن الظانُّ أنه قرَشيٌّ حقيقةً، فإذَا قال: مَوْلاهم، يَعنِي: أنه نُسِب إليهم؛ لكونه مَوْلًى لهم، و«مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ»(١)، حتى إن العُلَماء قالوا في الصدَقة قالوا: إنها تَحرُم على مَوالي بني هاشِمٍ؛ لأن مَوْلى القَوْم منهم، لكنهم لا يُنسَبون إليهم نسَبًا حقيقيًّا، بل لا بُدَّ من أن يُقَيَّد.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿جُنَاحٌ﴾ هو اسمٌ ليس مُؤخَّرًا، و﴿عَلَيْكُمْ﴾ جارٌّ ومجرور خبَرهم مُقدَّم.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في ذلك] أي: في دُعائهم لغير آبائِهم يَعني: الإنسانُ لو أَخطَأَ فدعَا شخْصًا لغير أبيه فإنه ليس عليه جُناح ليس عليه إِثْم؛ لأنَّه أَخطَأ، والخطَأ مَرْفوع عن هذه الأُمَّةِ.

وفي قوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ المُفَسِّر يَقول [في ذلك] فكأنَّه خَصَّ الآية، والصَّواب أنها عامة؛ لأن العِبْرة بعُموم اللَّفْظ لا بخُصوص السبَب، فإذا كان السبَب هو دَعوة الإنسان لغير أبيه، فإنه لا يَقتَضِي تخصيص هذا العامِّ بهذه المَسألةِ؛ لأنَّ العِبْرة -في القاعِدة المُقرَّرة- بعُموم اللَّفْظ لا بخُصوص السبَب.

وهذه القاعِدةُ لها أدِلَّة من القُرآن والسُّنَّة:

فمِن القرآن: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفرائض، باب مولى القوم من أنفسهم، رقم (٦٧٦١)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «مولى القوم من أنفسهم»، وأخرجه بلفظه الإمام أحمد (٤/ ٣٤٠)، والنسائي: كتاب الزكاة، باب مولى القوم منهم، رقم (٢٦١٢)، من حديث أبي رافع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وَتَشْتَكِي إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ [المجادلة:١-٢]، فَالسبَب خَاصٌّ، ولكن الحُكْمَ عامٌّ.

وكذلك في السُّنَّة: رأَى النبيُّ ﷺ رجُلًا في السفَر قد ظُلِّل عليه وحولَه زِحام من الناس، فقال: «مَا هَذَا؟» قالوا: صائِم. فقال ﷺ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ»[1]، إلَّا أن قوله ﷺ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ»، إذا قُلنا: إن العِبْرَة بعُموم اللَّفْظ لا بخصوص السبَب، فإنه يُشكِل على هذا أن النبيَّ ﷺ كان يَصوم في السفَر، كما في حديث أبي الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما فينا صائِمٌ إلَّا رسول الله ﷺ وعبدُ الله بنُ رواحةَ[2]؛ فكيف نُجيب عن حديث: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ...»، هل النبيُّ ﷺ لم يَفعَل بِرًّا؟

الجواب: كلَّا، نَقول -كما أَشار ابنُ دَقيقِ العيدِ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى هذه المَسأَلةِ: إن العِبْرة بعُموم اللفظ، لكن يُراعَى المَعنى الذي من أَجْله ورَدَت هذه الصِّيغةُ[3]؛ والمَعنَى هُو المَشَقَّة.

فنَقول: إنَّ العِبْرة بعُموم اللفظ لا بخُصوص السبَب، أي: أنه لا يُخَصُّ هذا الحُكْمُ على هذا الرَّجُلِ بعَيْنه، لكنه عامٌّ في جميع الناس، إلَّا أنه يَجِب أن يُراعَى المعنى الذي من أَجْله ورَدَت هذه الصِّيغةُ العامَّة، وهو المَشقَّة؛ فنَقول: ليسَ البِرُّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ لمن ظُلل عليه واشتد الحر: «ليس من البر الصوم في السفر»، رقم (١٩٤٦)، ومسلم: كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر، رقم (١١١٥)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب إذا صام أياما من رمضان ثم سافر، رقم (١٩٤٥)، ومسلم: كتاب الصيام، باب التخيير في الصوم والفطر في السفر، رقم (١١٢٢).

(٣) إحكام الأحكام (٢/ ٢١).

الصِّيامَ في السَّفر إذا أدَّى إلى مِثْل هذه الحالِ، فهل هذا خرَج عن القاعِدة: العِبْرة بعُموم اللَّفْظ؟ لا؛ لأنه لو خُصَّ الحُكْم بالرَّجُل المُعيَّن لكان خارِجًا عن القاعِدة، لكنـه ما خُصَّ به، قيل: إنه عامٌّ لكل مَن صام ولَحِقـه ما لَحِق بهذا الرَّجُلِ، إذَنْ فالحديث لم يَخرُج عن القاعِدة.

إذن: قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾، لا يَختَصُّ فيمن دعا رجُلًا بغير أبيه مُخطِئًا، بل هو عامٌّ، وهذه القاعِدةُ العَظيمة في الشَّريعة الإسلامية سَيأْتي -إن شاءَ اللهُ تعالى- بيانُ ما يَترَتَّب عليها من فوائِدَ.

ثُمَّ قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾، ظَاهِره العُموم في المأمورات وفي المَنهيَّات، ولكن مَن تَدبَّر النُّصوص وجَد أنَّ هذا خاصٌّ بالمَنهيَّات فقط، أن الإنسان ليس عليه جُناح فيما أَخطَأ به، أمَّا في المَأمورات فليس عليه جُنَاح فيما أَخطَأ به، ولكِنَّ هذه المَأموراتِ إذا كان خَطَؤُه مُخِلًّا بصِحَّتها فلا بُدَّ من إعادتها على وجهٍ صحيحٍ.

فهُنَـا بالنِّسبة للمَنهيَّات ليس عليـه جُناح ولا تَبِعةٌ ولا أثَر، لكن بالنِّسبـة للمَأمورات ليس عليه جُنـاح فيما أَخطَأ به إلَّا أنه إذا كان هذا الخطَأُ مُخِلًّا بصِحَّـة المأمور فإنه يَجِب إعادة المأمور على وجه صحيح، انظُرْ إلى الرجُل الأَعرابي الذي صلَّى بغـير طُمَأْنينة مُخطِئًا؛ لأنه جاهِل، يَقول: والذي بعثَـكَ بالحقِّ لا أُحسِنُ غير هذا فعَلِّمْني[1]. فهل النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ترَكَه أو أَمَره أن يُعيد الصلاة؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَمَره أن يُعيد الصلاة؛ فلهذا نَقول: إنه ليس عليه إِثْم في صلاته الأُولى التي أَخَلَّ فيها بواجِب الطُّمَأْنينة؛ لأنه جاهِل، لكن يَجِب عليه أن يُعيد العِبادة على وجهٍ صحيحٍ.

وكذلك لو أن أَحَدًا تَرَك واجِبًا من واجِبات الحجِّ جاهِلًا، فإنه لا إِثْمَ عليه، لكن عليه إعادةُ ذلك الواجِبِ إذا كان يُمكِن تَدارُكه، فإن لم يُمكِن تَدارُكُه فعليه بدَلُه عند جماهير أهل العِلْم، وهو فِدْية يَذبَحها في مكَّةَ، ويُوَزِّعها على الفُقَراء.

وقوله تعالى: ﴿فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾: (ما) هذه من صِيَغ العُموم تَشمَل كل ما حصَل فيه الخطَأ، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾ فيه، وهو بعد النهيِ] أمَّا قَبْل النهيِ فإنه لا يُؤَاخَذ به الإنسان؛ لأن الحُكْم لم يَتقَرَّر بعد؛ ولهذا قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾ [النساء:٢٢]؛ ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾؛ لأنه قَبْل تَقرير الحُكْم وثُبوته شَرْعًا، فالأصل البَراءة، وهو ما يُعبِّر عنه الأُصوليُّون بالبَراءة الأَصْلية.

وقوله تعالى: ﴿مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾؛ لأن المَدار على القَلْب إذ إنه هو الذي يُدبِّر الجوارِح؛ لقول النبيِّ ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»[1]، وهذا القَلْبُ هو عِبارة عن هذه البَضْعة من اللَّحْم، أو أن المُراد بالقَلْب العَقْل المُفكِّر ومَحَلُّها هذه القِطْعة من اللَّحْم الثانية، ولكن أين مَحَلُّ العَقْل؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الجواب: الصحيحُ أنه القَلْب؛ لأن الله تعالى قال في القُرآن: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ...﴾ [الحج:٤٦]، فخَصَّ القَلْب والعَقْل؛ ولهذا قال الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن العَقْل في القَلْب، وله اتِّصال بالدِّماغ[1].

ولكنني رأَيْت كلامًا لشيخ الإسلام ابن تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقرَبَ إلى الواقِع وإلى الطبِّ الحديث يَقول: إن أَصْل التفكير في الدِّماغ فهو المُفكِّر، ثُمَّ القَلْب يُدبِّر ويَأمُر ويَنهَى[2]؛ فيَكون للمُخِّ كالسِّكِرْتير للقَلْب يُفكِّر ويَنظُر، ثُمَّ يُرسِل إلى القَلْب، والقَلْب هو الذي يُدبِّر بلا شكٍّ؛ لأن الكِتاب والسُّنَّة يَدُلَّان على أن القَلْب هو الذي يُدبِّر كما في الآية، وكما قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[3].

ولكن الاتِّصال بين المُخِّ والقَلْب سَريع أو بَطيء؟

الجواب: سريع، لا نَتصوَّر سُرْعته، وهذا من تَمام عَظَمة الخالِق عَزَّوَجَلَّ، حيث إنَّ هذه المُعدَّات العظِيمة في هذا البدَنِ، مَعامِل وآلات إِلْكترونية وأَشياءُ -سبحان الله العظيم- إذا بحَثَها الإنسان يَجِد ما قاله الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠-٢١].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لِما كان من قَوْلكم قبل النهيِ ﴿رَّحِيمًا﴾ بكُم في ذلك]، قوله: [﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣)، والتبيان في أقسام القرآن لابن القيم (ص:٤٠٤).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣-٣٠٤).
(٣) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

لِما كان من قَوْلكم قبل النهيِ]، في هذا نظَرٌ ظاهِرٌ جدًّا، ووجهُه: أنه قبل النهيِ لم يَثبُت الحُكْم؛ حتى يَكون الإنسان مُخالِفًا يُوصَف عدَمُ مُؤَاخذته بالمَغفِرة؛ لأن المَغفِرة فَرْع عن وجود الذَّنْب، وهنا لا ذَنْبَ قبل أن يَتقرَّرَ الحُكْم.

والصواب: أنه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فيما وقَع من قولكم بعد النهيِ على سبيل الخَطَأ، فإن هذا مِن مَغفِرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورحمتِهِ أنَّه يَرْفعُ الخَطَأ عمَّن فعَله بعد النهيِ وتقرير الحُكْم.

ثُم يقال أيضًا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تَعود إلى الفِعْل الخطَأ والفِعْل العَمْد، أمَّا الفِعْل الخطَأ فإن رَفْعَ المُؤَاخَذة به من آثار الرحمة، ولو شاء الله عَزَّوَجَلَّ لكان يُؤَاخِذ عِباده، بالجَهْل كما يُؤَاخِذهم بالعَمْد، لكن رحمته سبقَتْ غضَبَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأمَّا غَفورٌ فإنه يَعود إلى ما فُعِلَ عَمْدًا، فإن من مُقتَضى كون الله تعالى غَفورًا أن يَسعَى الإنسان في أسباب مَغفِرته وذلك بالتَّوْبة ممَّا حصَل منه، فإذا تاب فإن الله تعالى يَتوب عليه ويَغفِر له.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجُوب دَعوة الإنسان إلى أبيه ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾، يَعنِي: انسُبوهم لآبائهم لَفْظًا وحقيقةً، أمَّا لفظًا، فتَقول: يا فُلان ابنَ فُلان. وأمَّا حقيقةً بأن تَعتَقِد أن البُنُوَّة الحقَّ إنما هي للأَبِ الحقيقيِّ الذي وُلِد الإنسان من صُلْبه، لا للأبِ الذي ادُّعِي أنه أبٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه لا يَنبَغي أن يُدعَى الإنسان لغير أبيه، وهذا نوعان:

الأوَّل: أن يَدَّعِيَ لغير أبيه لَفْظًا وحقيقةً، فهذا لا يَجوز، بل إن الرسول ﷺ

قد جعَـل ذلك من الكُفْر[١]، فإذا ادَّعى الإنسان إلى غير أبيه وهو يَعلَمه، فإن ذلك كُفْر، فإنه كُفْر بكم أن تَرغَبوا عن آبائكم.

الثَّاني: أن يَدَّعيَ إلى غير أبيه لفظًا، ولكن لا تَثبُت أحكام البُنوَّة إطلاقًا إلى مَن ادَّعى إليه، فهذا نَقول: إنه خِلاف ما أمَر الله تعالى به، ولكن أهل العِلْم يَقولون: إن الإنسان إذا اشتَـهرَ به مع عدَم الالتِفات إلى أحكامه ومُقتَـضياته، فإنه جائِزٌ، وذكَروا لذلك مِثـل المِقداد بنِ الأسوَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإن المِقـدادَ ابنَ الأسوَد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس أبوه هو الأسـودَ، ولكن الأسودَ كان قد تَبنَّاه[٢] واشتَهَر بهـذا، بهذِهِ الكنْيَةِ، واستَمَرَّ عليها حتى أَبطَل الله تعالى التَّبَنِّيَ، ولكن بَقِيَ مَشهورًا بذلك، قالوا: فهذا لا يَضُرُّ؛ لأنه انتفَت عنه أحكام التَّبنِّي ولم يَبقَ إلَّا اللَّفْظ، ومع هذا فإن الأفضَل بلا شكٍّ هو أن يُدعَى إلى أبيه، لكن المُشكِل أن الشيءَ إذا اشتَهَر فوَصَفْته بما اشتَهَر به حصَل بهذا التِباسٌ، الآنَ لو قلنا: عن عبد الرحمن بن صَخْر أن النبيَّ ﷺ قال: كذا وكذا. يُمكِن أن كثيرًا من النـاس لا يَدرِي مَن هُو، لكن إذا قـلت: عن أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلُّنا يَعرِفه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: في الآية الكريمة دَلِيل على أنَّ الأعمال تَتَفاضَل عندَ الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يَعنِي: أبلَغ في العَدْل.

ووجه ذلك: أن هذَا الرجُلَ الدَّعِيَّ كوننـا نَنسُبه إلى غير أبيه هو باعتِبـار أبيه ظُلْم، إذْ كيف تَنسبه إلى شخص ما أَتَى مِن صُلْبه، وتَحرِم مَن أَتَى من صُلْبه من

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، رقم (٣٥٠٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم، رقم (٦١)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) انظر: الاستيعاب (٤/ ١٤٨٠).

دَعْوته إليه، هذا لا شكَّ أنه جَوْر؛ ولهذا قُلْنا فيما تَقدَّم: أن اسم التَّفضيل هنا ليس في الطرَف الآخَر منه شيء؛ لأنـه ليس فيه أيُّ عَدْل في أَنْ تَنْسُب الإنسـان إلى غير أبيه، وقلنا: إن فائِدة التَّفضيل هنا بيان أن هذا الشيءَ قد بلَغ الغاية في العَدْل؛ لهذا جِيء به اسمِ التفضيل ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن مَن ليـس له أبٌ فإنه يُدعَى بأُخوَّة الدِّيـن والولاية في الدِّين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾، أمَّا كونُهم إخوانَنا في الدِّين فظاهِر، وأمَّا كونهم مواليَ فإن كان عَتيقًا للمَرْء فهو مَوْلًى له بالعِتْـق، وإن لم يَكُن عتيقًا له فهو مَوْلًى له في الدِّين؛ لأن المُؤمِنـين كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١]، فهم إخوانُكم ومواليكم.

فيَصِحُّ أن تَقول: يا أخي، وأن تَقـول: يا ابن أخي؛ والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول: [ومواليكم بنو عَمِّكم]، فجعَل الولاية هنا ولاية النسَب، وليسَتْ ولايـة الدِّين، لكن في النفس من هذا شيء، فالولاية إمَّا ولاية دِين، وإمَّا ولاية عِتْق، فأمَّا ولاية العِتْق فواضِح أن العَتيق مَولًى لَمن أَعتَقه، وأمَّا ولاية الدِّين فظاهِر أيضًا أن كل مُؤمِن وليٌّ لأخيه المُؤمِن.

أمَّا ولاية النسَب كقوله: [بنو عمِّكم] فهذه إن كانت اللُّغة العربية يَأتي فيها مثـل هذا التَّعبيرِ فنحن نَقبَل ذلك؛ لأن القُرْآن عرَبيٌّ ولا مانِـعَ أن يَكون للمَعنى الواحد أو للَّفْظ الواحِد عِدَّة مَعانٍ إذا كانت لا تَناقُض بينها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: نفيُ الإِثْم فِي الخطَأ؛ لقوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾؛ نَفي الحِنْـث في الخطَأ، وأيضًا الحِنْـث يَعني: الحِنـث في اليَمين، إذا حلَف على يَمينٍ أن لا يَفعَل شيئًا، ففَعَله جاهِلًا به، مثل حَلَف أن لا يُكلِّم إنسانًا،

فكلَّم شَخْصا لا يَدرِي أنه فلان الذي حلَف على تَرْك تكليمه، فإنه ليس عليه حِنْث، وكذلك أيضا الطلاق، لو علَّق الطلاق على شيءٍ ففعَله جاهلًا أنه هو الشيء الذي علَّق الطلاق عليه فإنَّه لا حِنْثَ عليه، وكذلك لو فعَل مُكَفِّرًا جَاهِلًا أنَّه مُكفِّرٌ فإنه لا إِثْمَ عليه، يُؤخَذ هذا كلُّه من العُموم في قوله تعالى: ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾.

ثُم إن نَفيَ الإِثْم لا يَستَلزِم نَفيَ القضاءِ فيما يَجِب قَضاؤُه، وعلى هذا فتكون الآية في باب المَحذورات لا في باب المَأمورات؛ ولهذا لم يَأذَنِ النَّبيُّ ﷺ للجاهِل الذي كان يُصلِّي ولا يَطمَئِنُّ في الصلاة، جعَله يُعيد مرَّة بعد أُخرى، وبيَّن له[1].

إِذَن نَقول: بابُ المأمورات لا يُؤاخَذ الإنسان بتَرْكه إياها، لكن لا يَلزَم من عدَم مُؤَاخَذته بتَرْكها جاهِلًا أن يَسقُط عنه فِعْلُها أو فِعْل بدَلها، والدليل أن النبيَّ ﷺ لَمْ يَعْذُر الجاهِلَ في تَرْك الطُّمَأنينة.

وقد سبَق لنا: أنَّه قد يَكون الإنسان مُفرِّطًا في تَرْك السُّؤال فيَلزَمه الإثمُ لتَفْريطه، ثُمَّ هل هذه الآيةُ عامَّةٌ في حقِّ الله تعالى وفي حقِّ الآدَميِّ؟

نَنظُر ونَقول: حتى في حقِّ الآدَمي؛ لأن الآيةَ عامَّةٌ ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾، لكن لا يَلزَم من انتِفاء الإِثْم انتِفاءُ الضَّمان في حَقِّ الآدَمي؛ فَلو أنَّ رجُلًا أَكَل طعامَ إنسانٍ جاهِلًا أنَّه طعامُه فهل عليه إثمٌ؟ لا، لكن يَلزَمه ضمانُ الطعام؛ لأنه حقُّ آدَميٍّ، أمَّا لو عَلِم أنه طعام فلانٍ فإنه يَأثَم مع الضمان.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: سَعَة رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حيثُ أَسقَط الإِثْم عمَّن كان مُخطِئًا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

﴿فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ مَدار الأحكام والمُؤاخَذة عليها هُو القَلْب؛ لِقَوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾، وهذا له شَواهِدُ كثيرةٌ منها قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾ [المائدة:٨٩]، وفي الآية الأخرى ﴿بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾ [البقرة:٢٢٥]، ومِنها قولُه تعالى في جزاء الصَّيْد: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة:٩٥]، وبِناءً على ذلك لو أنَّ المُحرِم قَتَل صيدًا غيرَ مُتعَمِّد لا يَأثَم ولا يَضمَن؛ لأنه حَقٌّ لله تعالى، واللهُ تعالى قد عفا عن حَقِّه.

وبه يُعرَف ضَعْف قول مَن قال: إن جزاء الصَّيْد واجِب حتى على مَن قتَله خطأً في حال الإحرام، مع أن الآية صريحة: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾.

ويَلحَق بذلك ما لو قَصَّ أظفارَه جَاهِلًا وهو مُحرِم، أو حلَق رأسَه من بابِ أَوْلى، ويَلحَق به ما لو جامَع زوجتـه، مثل: لو أنَّ رجُلًا في مُزدَلِفةَ جامَـع زوجته وهي في مُزدَلِفةَ جاهِلًا استِنادًا إلى قول النبيِّ ﷺ: «الحَجُّ عَرَفَةُ»[1]، وهذا يَقَع فليس عليه ليـس عليه شيءٌ؛ لا إِثْمٌ، ولا فَساد نُسُك، ولا قـضاءٌ؛ لأنه جاهِل ما تَعمَّد.

ولهذا بعض الناس بنَى على ذلك مَسألةً أَغرَبَ من ذلك، إذا وقَف بعرَفةَ ثُمَّ انصَرَف فله أن يُسافِر إلى أهله وفِعْلًا حصَل هذا، منهم مَن يَتورَّع، وإذا سافَر وكَّل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٣٠٩)، وأبو داود: كتاب المناسك، باب من لم يدرك عرفة، رقم (١٩٤٩)، والترمذي: كتاب الحج، باب فيمن أدرك الإمام بجمع، رقم (٨٨٩)، والنسائي: كتاب مناسك الحج، باب فرض الوقوف بعرفة، رقم (٣٠١٦)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب من أتى عرفة قبل الفجر، رقم (٣٠١٥)، من حديث عبد الرحمن بن يعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أحدًا يَبيت في مِنًى ويَرمِي عنه، ومنهم مَن يَقول: عُدُّوا لي كَمْ من واجِب تَرَكْت، وأنا أُعطِي لكم ذبائِحَ عنها.

الخُلَاصةُ: الآنَ أنَّ كُلَّ شيءٍ لا يَتعمَّدُه الإنسانُ بِقَلبه فإنَّه لا إِثْم عليه فيه، وإذا كان من حَقِّ الله تعالى سقَطَ عنهُ الإثم والضَّمان إنْ كان ممَّا يُضْمَن أو ممَّا تَجِب به الكفَّارة، وإذا كان لحَقِّ آدَمي سقَط عنه الإِثْم وَوجَب الضَّمان، إلَّا أنه يُسْتَثنَى من هذا مَسألةٌ واحِدة، وهي قَتْل النفس، فإن قَتْل النفس وإن كان خطأً تَجِب فيه الكفَّارة، ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٩٢].

فأَوجَب الله عَزَّوَجَلَّ حقَّهُ وحقَّ العِباد، وذلك لعِظَم قَتْل النَّفْس؛ لأن قَتْل النَّفْس -والعِياذُ بالله- عَمْدًا لا تُحِلُّه الكَفَّارة ولا يَنفَع فيه إلَّا التَّوْبة النَّصوح مع استِيفاء الحُقوق؛ ولا أَعلَم شيئًا يُسْتَثْنى منها إلَّا مسألةَ القَتْل، والقَتْل إنما هو لعِظَمه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات اسمَيْن كريمين من أسماء الله؛ لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وما تَضمَّناه من الصِّفة وما تَضمَّناه من الحُكْم أيضًا -وهو الأثَر-؛ لأنَّ الغفور والرحيم مُتعَدِّيانِ يَتعلَّقان بالغير، والقاعِدة في أسماء الله تعالى وصِفاته: أنه إذا كان الاسمُ مُتعدِّيًا فإنه يَلزَم الإيمانُ به اسمًا لله تعالى، وبما تَضمَّنه من صِفة، وبما يَترَتَّب عليه من الحُكْم، وبعضُهم يَقول: الأثَر.

• ● ۞ ● •

الآيـة (٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب:٦].

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾: ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ مُبتدأ، و﴿أَوْلَىٰ﴾ خبرٌ، وهي اسمُ تفضيل من الولاية، أَوْلى بهم.

قال: [﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فيما دعاهم إليه ودَعَتْهم أنفسُهم إلى خِلافه] فحوَّل المَعنى، يَعنِي: أن الرسول ﷺ إذا دعاك إلى شيء ودَعَتْك نفسُك إلى خِلاف هذا الشيءِ، فإن النبيَّ أَوْلى بك من نَفْسك، فأَطِعِ النبيَّ ﷺ، وخالِفْ نَفْسك، وهذا لا شكَّ أنه داخِل في الآية، لكن الآية أعمُّ وأشمَلُ وأدَقُّ، يَعنِي: إذا كان الإنسان يَسعَى لنَفْسه بما فيه الخير، فإنَّ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَوْلى به من نَفْسه، ويَشمَل عِدَّة وُجوهٍ:

أَوَّلًا: أنَّ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالنِّسْبة للمُؤمِنين أبلَغُ من أنفُسِهم في مُراعاة مَصالِحِهم وما يَنفَعهم، وفي دَفْع الضرَر عنهم؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا فَعَلَيَّ»(١)، هذه داخِلة

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفرائض، باب قول النبي ﷺ: «من ترك مالًا فلأهله»، رقم (٦٧٣١)، ومسلم: كتاب الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته، رقم (١٦١٩)، من حديث أبي هريرة.

في جُملة: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

ثانيًا: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ في تَقديمه على أَنفُسِهم؛ ولهذا لا يُمكِن لا يَتِمُّ الإيمان؛ حتى يَكون النبيُّ ﷺ أحبَّ إليك من نَفْسك، كما قال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: واللهِ يا رسولَ اللهِ إنَّكَ لأَحَبُّ إليَّ مِن كلِّ شيءٍ إلَّا مِن نَفْسي. فقال ﷺ: «**وَمِنْ نَفْسِكَ يَا عُمَرُ**»، فقال: وَمِن نَفْسي. قال ﷺ: «**الْآنَ يَا عُمَرُ**»(١)، فيَجِب على كل مُؤمِن أن يُحِبَّ النبيَّ ﷺ أكثَرَ من محبَّته لنَفْسه.

ثالثًا: ما أَشار إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ من أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْلى بك من نَفْسك فيما يَدعوك إليه، وتَدْعوك نَفْسك إليه، فإذا دَعَتْك نَفْسُك إلى شيءٍ يُخالِفُ ما دعاك إليه النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإن النبيَّ ﷺ أَوْلى بك من نَفْسك.

فإذَنِ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ كلِمة عامَّة تَشمَل كلَّ ما فيه ولاية وتَولٍّ، فالرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْلى بالمُؤمِنين من أنفسهم، أمَّا غير المُؤمِنين فإن هذا الوَصْفَ لا يَنطَبِق عليهم بالنِّسبة للرسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أزواجُ النبيِّ ﷺ أُمَّهات المُؤمِنين، فانظُرْ إلى التَّعبير فهنا ما قال: النبيُّ أبٌ للمُؤمِنين وأزواجهم أُمَّهاتُهم. بل قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فأبوك ليس أَوْلى بك من نَفْسك، لكن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْلى بك من نَفْسك، فهذا أعظَمُ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾، ومن أَجْل هذه الولايةِ كانت أزواجُه أُمَّهاتٍ لنا من قَبْلهن ومن قَبْلنا، يَعنِي: هُنَّ يَنظُرن إلينا كالنظَر إلى الأبناء، ونحن نَنظُر إليهن كنظَر الأُمَّهات.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، رقم (٦٦٣٢)، من حديث عبد الله بن هشام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ونحن نَعلَم أن أُمَّهات المُؤمِنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ بالنسبة لأُمَّة مُحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُمَّة الإجابة، يَنظُرنَ إلى هذه الأُمَّةِ كما تَنظُر المرأة الأُمُّ إلى أولادها، ونحن يَجِب أن نَنظُر إليهنَّ كما نَنظُرُ إلى الأُمَّهات؛ لأنهن زوجاتُ مَن هو أَوْلى بنا من أَنفُسِنا، النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلا جَرَمَ أن يَكُنَّ بمَنزِلة الأُمَّهات في الاحتِرام والتَّقدير والدِّفاع عنهنَّ، وعدَم التَّعرُّض لما وقَع في مُخالَفتهن، بغَيْرةٍ وغيرها؛ لأن النِّساء الزوجاتِ -كما تَعرِفون- يَكون بينَهُن غَيْرةٌ، فقد تُخطِئ المرأة خطأً يَحمِلها عليه الغَيْرةُ، والغَيْرة أَمْر يَملِك الإنسانَ ولا يَملِكه، كما أن الغضَب يَملِك الإنسان ولا يَملِكه.

فما وقـع في مثل قوله تعـالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم:٤] مِثل هذا يَجِب علينا أن نُدافِع بقَدْر ما نَستَطيع، فمَنِ اتَّخذوا من مثل هذه القَضيَّةِ، اتَّخَذوا مَنفَذًا للطعن في زوجات النبيِّ ﷺ، ولا رَيْبَ أن مَن طعَنَ في زوجَات النبيِّ ﷺ فإنه لا يَقتَصِر طَعنُه عَليهنَّ، بل يَشمَل الرسول ﷺ، أَسأَلُك: لو أنَّ رجُلًا اتَّخَذ من فواسِقِ النساء زَوْجاتٍ له، هل هذا مَدْح له أو قَدْح؟

قَدْحٌ بلا شكٍّ، فمَن قَدَح في واحِدةٍ من أُمَّهات المُؤمِنين فإن قَدْحه يَتعَدَّى إلى النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بلا شَكٍّ، ولا سيَّما إذا كان القَـدْح فيما يَتعَلَّق بالشَّرَف والنزاهة؛ ولهذا الصحيحُ من أقوال أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ أن مَن رمَى بالزِّنا واحِدةً من أُمَّهات المُؤمِنين، فإنَّه يَكون كافِرًا كُفْرًا مُخْرِجًا عنِ المِلَّة.

أمَّا عائِشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إذا رمَاها بما برَّأَها الله تعـالى به فلا شكَّ في كُفْره؛ لأنَّه مُكذِّب للقُرآن، وأمَّا غيرُها فإنه إذا قـذَف واحِدةً بالزِّنا فإنه مُكذِّب للقُرآن أيضًا من جهة أُخرى يَقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ

وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور:٢٦]، ولا شكَّ أن الزِّنا -والعِياذُ بالله- خُبْث، فأنت إذا وصَفْت واحِدة من أُمَّهات المُؤمِنين بالزِّنا وإن لم تكُن عائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ فقد وصَفْت النبيَّ ﷺ بالخُبْث، نَسأَل الله تعالى العافِية، وحينئذٍ يَكون الإنسان كافِرًا لا شكَّ.

والصوابُ -الذي عليه المُحقِّقون من أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ-: أنَّ مَن قَذَف واحِدةً من أُمَّهات المُؤمِنين فإنه يَكون كافِرًا كُفْرًا مُخرِجًا عن المِلَّة، وكذلك من قذَف غيرَهن من زوجات الأنبياء يَكون كافِرًا؛ للآية التي ذُكِرت: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ...﴾ [النور:٢٦] إلى آخِرها.

فما مِن شَكٍّ أن مَن يُكفِّر واحِدة من أُمَّهات المُؤمِنين فهو كافِر؛ لأنه يَلزَم من تكفِيره واحِدةً من أُمَّهات المُؤمِنين أن يَكون النبيُّ ﷺ قد استَباح امرأةً كافِرةً، وهذا قَذْفٌ في الرسول ﷺ.

إذَنْ: أزواجه أُمَّهاتهم من الناحِيَتين، يَعنِي: أننا لزَوْجات الرسول ﷺ بمَثابةِ الأبناء، وأنهنَّ لنا بمَنزِلة الأُمَّهات، لكن هل هُو في المَحرَميَّة والنظَر والخَلْوة أو في الاحتِرام فقَطْ؟

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [في حُرْمة نِكاحِهنَّ عليهم]، ولا يَكفِي هذا في حُرْمة نكاحِهن عليهم، لا شكَّ أنه لا يَحِلُّ لأحَد أن يَتزَوَّج امرأةً بعد وفاة النبيِّ ﷺ من زَوْجاته، ولكِنَّ هذا الاحتِرامَ ليس لهُنَّ فحَسْب، بل حتى للرسول ﷺ إكرامًا له؛ ولذلك إذا تُوفِّيَ الرجُل عن المرأة ولو كانت لا تَحيض تَعتَدُّ بأربعة أشهر وعَشْرٍ؛ احتِرامًا للنِّكاح الأَوَّل إلَّا إذا كانت حامِلًا فعِدَّتها بالحَمْل.

أَقول: إنهن أُمَّهات المُؤمِنين في حُرْمة النِّكاح وفي وُجوب احتِرامِهن.

وفيها قراءَة لبَعض السلَف: «وأَزواجُه أُمَّهاتُهم وهو أَبٌ لَهم»، ولكنها قِراءة لا تُعتبَر من القِراءات السَّبْعية، إلَّا أن بعـضَهم قَرَأ بها، ولكنك إذا تَأمَّلت: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وجَدْتَ أنه أعظَمُ من الأبِ.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ سيأتينا -إن شاءَ الله تعالى- في الفوائِد: هل أولادُهنَّ إِخوةٌ للمُؤمِنين وهل إخوانُهنَّ أخوالٌ للمُؤمِنات وهل آباؤُهنَّ آباءٌ للمُؤمِنين؟ وما أَشبَهَ ذلك، يَأتينا هذا -إن شاءَ الله تعالى- في الفوائِد.

قـال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ ذَوُو القَرابـات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في الإِرْث ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ من المُؤمِنين والمُهاجِرين، أي: من الإرث بالإيمان والهِجْرة الذي كان أوَّل الإسلام فَنُسِخ].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مُتعلِّق بـ﴿أَوْلَىٰ﴾، أَوْلى من المُؤمِنين والمُهاجِرين، وعلى هـذا فإن (مِن) هي الدالَّة على المُفضَّل عليـه، فإذا قلت: فُلان أَفضَلُ من فلان، فإن (مِن) هذه لتَعيين المُفضَّل عَليه، وهنا أُولو الأرحام بعضهم أَوْلى ببعض من المُؤمِنين والمُهاجِرين.

وقيـل: إن (مِنْ)، بَيانيَّـة يَعنِي: وأُولو الأرحـام من المُؤمِنين والمُهاجِـرين بعضُهم أَوْلى ببعـض، يَعنِي: أُولو الأرحـام سَواءٌ كانوا مُؤمِنينَ فقَطْ أو مُؤْمنـينَ مُهاجِرينَ فإن بعضَهم أَوْلى بِبَعض، فإذا قُلْنا: أُولو الأَرْحام بعضُهم أَوْلى ببعض في الإِرْث مِن المُؤمِنـين والمُهاجِرين. أو قُلْنا: أُولو الأرحام بعضُهم أَوْلى ببعـض من المُؤمِنين. صار المَعنى الأَخير أعمَّ وأشمَلَ.

وعلى كلِّ حال: الآيةُ فيها قولان للمُفسِّرين:

القولُ الأوَّلُ: إن هذه ناسِخة للإِرْث الثابِت في أوَّل الإسلام بين المُؤمِنين من الأنصار والمُهاجِرين من المُسلِمين، فكان في الأوَّل جَعَل الرسول بَينهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُخوَّةً، رتَّب أُخوَّةً يَتوارَثون بها، حتى أَنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آيةَ الإِرْث، وجعَل ذَوي الأَرْحام بعضُهم أَوْلى بِبَعض.

القول الثاني: يَقول: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ مِن المُؤمِنين والمُهاجِرين بعضُهم أَوْلى ببعض، وعلى هذا فتكون الآية مُحْكَمة، ليس فيها نَسْخٌ، وتَكون أَعمَّ من الإِرْث أَوْلى ببعضِهم في كل شيءٍ حتى في ولاية النِّكاح وغير ذلك، فهُمْ بعضُهم أَوْلى ببعض.

و(أُولُو) بمَعنى: أصحاب، و(الأَرْحام) جَمع رحِم وهو القَرَابة يَعنِي: ولهذا قال المُفَسِّر: [ذَوِي القَرابات]، وأن ما اشتَهَر عندنا في عُرْفنا أن الأَرْحام أَقارِبُ الزوجة فهذا غيرُ صحيح، أقارِبُ الزوجة يُسمَّوْن أصهارًا، ومن أَجْل هذا الخطَأِ في المَعنَى صار بعض الناس يَقول: أنتم تَقولون: إن أسباب الإرث ثلاثة: رحِم ونِكاح وولَد، فأينَ الثالِثُ؟! فالرحِم والنِّكاحُ واحِد عند هؤلاء.

ونَقول: إن فَهْمكم للرحِم فهم خاطِئ، وهذا ما يَرمِي إليه الشَّرْعُ من تَسمية الأشياء بأسمائِها الشرعية حتى لا يَحصُل الخطَأ.

فالآنَ عندنا كلِمة العَمِّ تُطْلَق على زَوج الأُمِّ، فلو سأَلَك سائلٌ فإنك تَبنِي أَنت على أنَّه عَمُّه أَخو أبيه! ثُمَّ تَجِد أنه أَراد بالعَمِّ زَوجَ أُمِّه، فكلُّ هذه الأشياءِ يَنبَغي لنا أن نُصحِّح كلامنا فيها؛ حتى لا يَقَع الخطَأ.

وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: مَكتوبه، فهو فِعَال بمَعنَى: مَفعول، وهل المُراد في كِتاب الله تعالى، أي: في الوَحْي أو في كِتاب الله أي: في فَرْض الله تعالى؛

لأن الكَتْب يُطلق بمَعْنى الفَرْض، كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣]، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣]، يُحتَمَل هذا وهذا.

ولكن الأقرَب أنَّ ﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: في مَكتوبه، أي: فيما كتَبه الله عَزَّوَجَلَّ، ونَقول: إن كان المُراد بكِتاب الله تعالى اللوحَ المَحفوظَ فالأَمْر ظَاهِر؛ لأن الله تعالى كتَب فِي اللَّوْح المَحفوظ مَقاديرَ كلِّ شيءٍ، وإن كان المُرَاد بكِتاب الله هذا القُرآنَ، فإنه مَكتوبٌ بأَيْدي الملائِكة ومَكتوب بأَيْدي المُؤمِنين من بني آدَمَ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّآ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لكن ﴿إِلَّآ﴾] تَقدير (إلَّا) بـ(لكِن)؛ لأن الاستِثْناء هنا مُنقَطِع، وإذا كان الاستِثْناء مُنقَطِعًا فإنه تُقدَّر (إلَّا) بـ(لكِن)، والانقِطاع كما يَكون في الذوات يَكون في المَعاني أيضًا، فقول النَّحوِيِّين: جاء القَوْمُ إلَّا حِمارًا. هذا استِثْناء مُنقَطِع باعتِبار الذوات، القوم يَعنِي: ذواتَهم إلَّا حِمارًا، ومثل هذه الآيةِ: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ﴾ استِثناء مُنقَطِع بالمعاني، فالاستِثْناء المُنقَطِع يَكون في المَعاني، ويَكون أيضًا في الذوات: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذا مُتَّصِل؛ لأن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ لكن ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم﴾ هذا لا يَدخُل في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾؛ لأن أَوْلياءَنا هؤلاء ليسوا من ذَوي الأرحام، بل بيننا وبينهم مُوالاة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ بوَصية فجائِز.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم﴾ جَمْع وَلِيٍّ، والمُراد بالوَلِيِّ هنا مَن كان بينك وبينه مُوالاة ومُناصَرة كالذي حصَل بين المُهاجِرين والأَنْصار في أوَّل الهِجرة، فإذا كان بينك وبينه مَعروف، تَفعَل فيه مَعروفًا فإن هذا جائِز.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بوَصيَّة]، وخَصَّ المَعروف بالوَصِيَّة؛ لأن الكلام الآنَ في التَّوارُث، والتَّوارُث ما يَكون إلَّا بعد الموت، كذلك الوَصيَّةُ ما تَكون إلَّا بعد الموت.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: نَسْخ الإِرْث بالإيمان والهِجْرة بإِرْث ذَوِي الأرحام، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ وأُريد بالكِتاب في المَوْضِعين: اللوحُ المَحفوظ].

قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ المُشار إليه كون أُولي الأرحام بعضُهم أَوْلى ببعض من المُؤمِنين والمُهاجِرين.

قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في اللَّوْح المَحفوظ على كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو ظاهِر في المَسأَلة الأَخيرة؛ لأن (كان) تَدُلُّ على الماضي، وهذا يَدُلُّ على أن الذي في الكِتاب المَحفوظ أن الإِرْث يَكون لذَوِي الأرحام، لكنه كان بالمُوالاة في زمَنٍ غير طويل، أوَّل ما قدِم المُهاجِرون إلى المدينة صاروا يَتَعاقَدون أُخوَّةً بينهم يَثبُت بها الإِرْث، لكنَّ هذا ليس هو الذي كتبَه الله تعالى مُستَقرًّا على عِباده، وإنما حصَل ذلك لعارِض وهو ثُبوت الأُخوَّة التامة بين المُهاجِرين والأنصار، وإلَّا فإن الفَرْض المُستَقِرَّ هو ما في الكِتاب المَحفوظ من أن الإِرْث إنما يَكون بالرَّحِم.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾: (ذا) اسمُ إشارةٍ هو الاسم، ﴿مَسْطُورًا﴾ خبَرُ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ و﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ جارٌّ ومجرور مُتعلِّق بمَسطور على أنه اسمُ مَفعول، واسمُ المَفعول يَعمَل عمَل فِعْله بالشُّروط السابِقة وهي تامَّة هنا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجُوب تَقْديم مَحَبَّة النبيِّ ﷺ على النَّفس؛ لِقَوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فهو أَوْلى بك من نَفْسك.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عِظَم شَفَقة النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على أُمَّته؛ لِكَونه أَوْلى بهم من أَنْفُسهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وجوبُ طاعة النبيِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتَقديمها على طاعة النَّفْس؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يَدخُل فيه هذه المَسأَلةُ: أنه إذا أَمَرك بالشيء ودعَتْك نفسُك إلى ضِدِّه فقَدِّمْ ما أَمَر به النَّبيُّ ﷺ.

فصار النبيُّ أَوْلى بالمُؤمِنين من أَنْفُسهم بالنِّسبة لك وبالنِّسبة له، بالنِّسبة له يَجِب عليك أن تُقدِّم مَحبَّته وطاعته على مَحبَّة نَفْسك وطاعتها، وبالنِّسبة له هو أَوْلى بك وأَرفَقُ بك وأَشفَقُ عليك من نفسِك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن زَوْجاتِ النَّبيِّ ﷺ أُمَّهاتُ المُؤمنين؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ ما قلنا: أُمَّهاتهم أُمَّة كلها، لأنه قال تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

وقد استَدَلَّ بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ على أنَّ مَن أَبْغَض عائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فليس بِمُؤمِن؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكَر أنَّها أم المُؤمِنين، ولا يُمكِن أن يُبغِض الإنسان أُمَّه، فإذا أَبغَضها فليس بمُؤمِن؛ لأنه لو كان مُؤمِنًا كانت أُمًّا له، ولو كانت أُمًّا له لَمَا أَبغَضَها، وهذا استِنْباط جيِّد.

واختَلَف العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: هل يُسمَّى أقارِبُ زَوْجات الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بما يَقتَضيه النسَبُ؟ يُسمَّى إخوَةُ زَوجاتِ الرسول ﷺ أَخوالًا للمُؤمِنين أو لا؟

وهل يُسَمَّى أيضًا آباؤُهنَّ آباءً للمُؤمِنين، وأَبناؤُهن إِخوةً للمُؤمِنين؟

في هذا خِلاف بين أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، والصحيحُ أنه لا يُسمَّى هؤلاءِ بما يُسمَّى نَظِيرُه في النَّسَب؛ لأن هذه الأُمومة خاصَّة بعَلَاقتِهنَّ بالنبيِّ ﷺ، وأَقارِبُهن ليس لهم عَلاقة برسول الله ﷺ، فلا يُسَمَّى أحَدٌ من إخوانهن بأَخوال المُؤمِنين، ولا أحَد من آبائِهن بأبِي المُؤمنين، ولا أَحَد من أبنائِهن بأخي المُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مَنزِلته بالنِّسْبة للمُؤمِنين أعلى من مَنْزِلة الأُبُوَّةِ؛ لأنه قال تعالى: ﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، وعلى هذا فلا حَاجةَ للقِراءةِ الَّتي قرَأ بها بعضُ السلَف، وهو قوله: «وهُوَ أَبٌ لَهُم»؛ لأن الأُبُوة بل أعلى من الأُبوَّة مُستَفاد من قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَحريم نِكاح زَوْجات النبيِّ ﷺ بعدَهُ؛ لِكَونِهن أُمَّهات المُؤمِنين، وسيَأتِي في هذه السُّورةِ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٢]، وهذا من حِماية الله تعالى لفِراش النبيِّ ﷺ، أنه حتى بعد مَوْته لا أَحَدَ يَتزَوَّج أحَدًا من نِسائه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: نَسْخُ التَّوارُثِ بالمُوالاة؛ لِقَوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ على أحَد التَّفسيرين: على أَنَّ (مِنْ) دَاخِلةٌ على المُفضَّل عليه.

أمَّا إذا جعَلْنا (مِنْ) بَيانيَّة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾، فإنها لا تَدُلُّ على ذلك، وقد تَدُلُّ عليه من باب اللُّزوم لا من باب الدَّلالة المُطابِقة اللَّفْظية.

فإذا لم يُوجَد أحَدٌ من ذَوِي الأرحام هَل يَعود الإِرْث بالمُوَالَاة والمُنَاصَرة؟

أَكثَرُ أهل العِلْم على أنه لا يَعود وأن أسباب الإِرْث تَنحَصِر في ثلاثة فقط وهي: النِّكاح، والنَّسَب، والولَد، ولكن شيخ الإسلام ابن تَيمِيَّةَ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُجَوِّزُ إذا لم يُوجَد إذا لم تُوجَدِ الأسباب الثلاثة المُجمَع عليها يَجوز التَّوارُث بالمُوالاة والمُنَاصَرة، يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأنه لَمَّا عُدِم الأرحامُ زال السبَب المانِع من التَّوارُث بالمُوالاة والمُناصَرة»، لكن أكثَر أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ على خِلاف هذا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن صِلة الرحِم كما تَكون في الحياة تَكون بعد الموت؛ لأن هذه الأَوْلوية تَكون في الحياة وفي الموت.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ مَن كان أَقرَبَ من ذَوِي الأرحام فهو أَحَقُّ بالإرث؛ وجهُه: أنه سبَق لنا قاعِدة في هذا البابِ وهو أنه إذا عُلِّق الحُكْم على وَصْف، فكلَّما كان الوصفُ في شيءٍ أقوى كان الحُكْم فيه أَوْلى، فما دام أُولو الأرحام أَوْلى؛ لأنهم ذَوِي أرحام، فمَن كانت رحِمه أَقوَى فهو أَوْلى؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»[2].

فأنا لو قُلت لك: إذا رأَيْت فاسِقًا فاجْلِدْه. مثلًا، فهل هذا الأَمرُ بالجَلْد هل يَختَلِف باختِلاف الفاسِقين أو أَفسَقِهم أو أَقَلِّهم على حدٍّ سَوَاء؟ يَختَلِف؛ لأن القاعِدة: أنه إذا عُلِّق الحُكْم بوَصْف فإنه متى كان الوَصْفُ ذا مَحَلٍّ أَقوى كان ذلك المَحلُّ في الحُكْم أَوْلى.

---

(١) انظر: الاختيارات العلمية (٥/ ٤٤٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الفرائض، باب ميراث الولد من أبيه وأمه، رقم (٦٧٣٢)، ومسلم: كتاب الفرائض، باب ألحقوا الفرائض بأهلها، رقم (١٦١٥)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: فضيلة الهِجْرة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾؛ لأن المُهاجِرَ مُؤمِنٌ تَخْصيصهُ بالعَطْف يَدُلُّ على شَرَفه وفَضْله، كما في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤] الرُّوح هو جِبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتَخصيصه بالعَطْف وهو من المَلائِكة دليل على شرَفه وتكريمه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: ثُبُوت الإِرْثِ لِذَوِي الأَرْحام، وذَوُو الأرحام في اصطِلاح الفَرضيين: كُلُّ قَرِيب لَيْس بِذِي فَرْض ولا عَصَبة، والعُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ قدِ اخْتَلفوا فيهم، فمِنهم مَن قال: إنهم لا يَرِثون.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: جواز الوَصية لَمن بيْنَك وبينَهُ مُوَالاة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ﴾ وظاهِر الآية الإطلاق، لكنَّه مُقَيَّد بالنُّصوص الدالَّة على أنَّ الوصِية لا تَزيد على الثُّلُث، ومنه حديث سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين عَاده النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِن وجَعٍ كان به، فلمَّا رآه النبيُّ ﷺ استَغَلَّ الفُرْصة، -أَعنِي: سَعْدًا- وقال: يا رسول الله، إنِّي ذو مال ولا يَرِثُني إلَّا ابنةٌ لي -ومُرادُه: لا يَرِثُني من صُلْبي، وإلَّا فإنَّ له بَني عمٍّ وعصَبة- أَفَأَتَصدَّق بثُلُثَيْ مالي؟ قال: «لا» قال: فالشَّطْر؟ -يَعنِي: النِّصْف- قال: فالثُّلُث؟ قال: «الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ»[1].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الإحسَان من المعروف؛ لِقَوله تعالى: ﴿مَّعْرُوفًا﴾ يَعنِي: إحسانًا بالوَصِية وعلى هذا فالمَعروف إذا قلت: مُرْ بالمَعروف يَشمَلُ الأمر بالإحسان، ولا شكَّ أن الإحسان مَعروفٌ عند الله تعالى وعند الخَلْق.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: بلاغةُ القُرآن في الاحتِرازِ في مَوْضِع الإيهامِ؛ لأنه لما

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب الوصية بالثلث، رقم (٢٧٤٤)، ومسلم: كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم (١٦٢٨)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ قد يَتوَهَّم الإنسان أن مَن بينَه وبينَهم مُوَالاة لا يُمكِن أن يَنتَفِع بشيءٍ من ماله، فاحترَز عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾؛ ولهذا أمثِلة كثيرة مِثْل: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أن اللَّوح المَحفوظ قد كُتِبت فيه الأشياءُ مُستقِرَّة لقوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ وهو أَوْلويَّة ذَوِي الأرحام بعضِهم ببعْض، وقد اختَلَف أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في الكُتُب التي بأَيْدي الملائِكة هل تُغَيَّر وتُبَدَّل بالزِّيادة والنَّقْص والتَّغيير؟

والصوابُ أن ذلك مُمكِن، الصحُف التي بأَيدي المَلائِكة، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩]، أَصْل الكِتاب عند الله تعالى ليس فيه تَغيير ولا تَبديل، لكن الصُّحُف التي بأَيْدي الملائِكة يُمكِن أن يَقَعَ فيها التَّغيير والتَّبديل.

مثال ذلك: رجُل فعَل سَيِّئةً تُكتَب فإذا اسْتَغفر مُحِيَت أو إِنْسان فَعَل حسَنةً كصدَقة مثلًا، ثُم مَنَّ بها إذا مَنَّ بها تُمْحَى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤]، وهذا ما قرَّره شيخُ الإسلام[1] وغيرُه من المُحقِّقين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ مِن أن ما في أُمِّ الكِتاب ثابِت لا يَتغيَّر؛ لأنه قد كُتِب فيه استِقرار الأشياء في الأزَل إلى الأَبَد، وأمَّا ما بأَيْدي الملائِكة فهُو الذي يُمكِن أن يَقَع فيه المَحوُ والإثبات.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٩٢).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: تَمامُ عِناية الله عَزَّوَجَلَّ بشَرْعه وتَقدِيره؛ تُؤْخَذ من قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ يَعنِي: ليس الأَمْر أَمْرًا ارتِجاليًّا، بل كلُّه مَكتوبٌ مُحكَمٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ لا الأمور الشَّرْعية ولا الأُمور القدَرية، وهذا من تَمام حِكْمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ كلَّ شيءٍ مُحصَّنٌ عنده مُرتَّبٌ مُنظَّمٌ لا تَغييرَ فيه ولا تَبديلَ.

• • ۞ • •

الآيــة (٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [واذْكُرْ إِذْ] فتكون (إِذْ) مَفعولًا لفِعْل مَحذوف تقديره: اذكُرْ، وهذا كثير في القرآن أن تَأتيَ (إِذْ) مَفعولًا لفِعْل مَحذوف يُقدَّر بـ(اذكُرْ)، أي: اذكُرْ للناس إِذْ أَخَذْنا، أوِ اذكُرْ لنفسك مُذكِّرًا إيَّاها إذ أَخَذْنا من النَّبيِّين مِيثاقهم.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِيثَـٰقَهُمْ﴾ حين أُخرِجوا من صُلْب آدَمَ كالذَّرِّ جمع ذرَّة وهي أَصغَرُ النَّمْل]؛ لأن الله تعالى استَخْرَج من آدَمَ ذُرِّيَّته أمثالَ الذَّرِّ، وأَخذ عليهم العَهْد والمِيثاق أن يُؤمِنوا به، جاءت في ذلك أَحادِيث بعضُها صحيح وبعضُها حسَن، لكن كونه استَخْرَجهم، وقال: «هؤلاء إلى النار ولا أُبالي، وهؤلاءِ إلى الجَنَّة ولا أُبالي»[1] وهذا صحيح؛ فإنما أَخْذُ المِيثاق والإِشْهاد عليهم هذا هو الذي اختَلَف العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في صِحَّته.

وعلى كل حال فهذا مَوضِعُ بَحثِه في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وقد بسَط البَحثَ فيه

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٤٤١)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

شارِحُ (الطحاوِية)[1]، فمَن أَراد أن يَرجِع إليه فلْيَرجِعْ.

أمَّا في هذه الآيةِ فلا يَتعيَّن أن يَكون المِيثاق ما أَخَذه الله تعالى على بني آدَمَ حين استَخْرَجهم من صُلْبـه، بل إن المِيثاق عهد بين الإنسان وبين ربه في كل نِعْمة أَنعَم الله تعـالى بها عليه أن يُؤدِّيَ هذه النِّعْمةَ على ما أَمَرَه به ربُّه، كل نِعمة؛ لأن هذا من شُكْرها، فإذا أَنعَم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليك النِّعْمة بالعِلْم صار الواجِبُ عليك عهدًا بيـنَك وبينَ الله أن تُبيِّنه، ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ وإذْ أَنعَم الله تعـالى على إنسان بالنُّبوَّة، والنُّبوَّة بعـد مُحَمَّد ﷺ مُتعذِّرة، لكن إذا أَنعَم الله تعالى على عَبْده بالنُّبوَّة وجَب عليه أن يُبلِّغ، مِيثاق غَليظ ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ وفي أهل العِلْم ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ ولم يَقُل: مِيثاقًا غليظًا؛ لأن المِيثـاق على الأنبياء أعظَمُ وأغلَظُ.

قـوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ﴾: (منـك) عَطْفًا على ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بإعادة الجارِّ ﴿وَمِنكَ﴾، وإنَّما أُعيد الجارُّ إمَّا لأن الضمير مُتَّصِل ولا بُـدَّ فيه من أن يَظهَر الجارُّ، أن يَظهَر العامِل؛ لأن الضمـير المُتَّصِل لا بُـدَّ له أن يَكون عامِله ظاهِرًا، ولا يَأتي مُنفَصِلًا العامِل إلَّا شذوذًا بعد (إلَّا)، أو يُقال أيضًا -وهو يُقال من حيث المَعنَى-: أُعيد حَرْف الجرِّ للتأكيد بالنسبة إلى هؤلاء الخَمسة قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنكَ﴾، وتَخصيصهم بالذِّكْر بعـد العُموم يَدُلُّ على فَضْلهم ولا شكَّ فيها.

قوله تعـالى: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ منـك ومن نُوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبين مُحَمَّـد ﷺ

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص:٢١٤).

ونوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنبياءُ آخرون من أُولي العَزْم، ولكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بدَأَ بآخِر واحِد منهم وأَوَّل واحِد، فبدَأ بالطرَفين، ثُم جاء بالوسَط ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾.

ونوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أوَّلُ رسول أَرسَله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى أهل الأرض؛ لأن الصحيح أن آدَمَ نبيٌّ، لكنه ليس برَسولٍ، فأوَّلُ الرُّسُل نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾، وفي حديث الشَّفاعة الطويلِ: أن الناس يَأتون إلى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ويَقولون: أنت أوَّلُ رسول بعثَه الله تعالى إلى أهل الأرض[1].

وليس نُوحٌ أَفضَلَ من إبراهيمَ ولا من مُوسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، لكن -كما قُلت- قدَّمه؛ ليَتلاقَى الطرَفان الآخِرُ والأوَّلُ؛ وقدَّم مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أشرَفُ الرُّسُل.

والترتيب: بالنِّسبة لإبراهيمَ ومُوسى وعِيسى الثلاثة رُتِّبوا بالزمَن والفَضْل، وأمَّا نُوحٌ ومُحَمَّد ﷺ فبَدَأ بالطرَف الأخير؛ لأنه أشرَفُ، ثُمَّ بالطرَف الأوَّل.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ إبراهيم ولم يَذكُر أباه، ومُوسى ولم يَذكُر أباه، وعِيسى وذكَر أُمَّه؛ لبَيان الآية والمُعجِزة في عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه خُلِق من أُمٍّ بلا أَبٍ، وخُلِقت حوَّاءُ من أبٍ بلا أُمٍّ، وخُلِق آدَمُ من غير أُمٍّ ولا أبٍ، وخُلِق الناس من أبٍ وأُمٍّ، نعَم، كل هذا يُستَدَلُّ به على أن الطبيعة لا شأنَ لها في التَّكوين والخَلْق، وإلَّا لكانت على وَتيرة واحِدة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾، رقم (٣٣٤٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة.

قال: [﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ شديدًا بالوفاء بما حُمِّلوه وهو اليمين بالله تعالى ثُم أخَذَ اللهُ تعالى المِيثاق] المِيثاق العَهْد، لكن المُفَسِّر يَقول: [وهو اليمين بالله] كأنه يُشير إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ ولكن هذا فيه نظَر.

والصوابُ: أن العهد الذي أُخِذ على الرُّسُل هو أن يُبلِّغوا الرِّسالة ويَقوم أيضًا بالإيمان بما يَجِب الإيمان به من بابِ أَوْلى؛ لأنهم إذا أُرسِلوا إلى غيرهم فلأنفُسِهم أَوْلى، فيَشمَل أو فيَكون قوله تعالى: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ فَردًا من أفراد هذا العهدِ والمِيثاق.

فإن قال قائِل: بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ مثل ابنِ عَقيل والقُرطُبيِّ[1] يَقولون: المُفاضَلة من جهة الرِّسالة أو النُّبوَّة. فيَقولون: لا يَنبَغي للإنسان أن يَذكُر هذا، لكن إذا ذكَر المُفاضَلة فإنما تَكون من جهة بعض المُميِّزات التي تَكون في الأنبياء من شِدَّة العزيمة والصبر وغيرهما، فما الجَوابُ عن ذلك؟

فالجوابُ: يُمكِن أن يَكون قصدُهم أنه يَخشَى أن المُفضَّل عليه يَقعَ في نفس الإنسان تَنقُّصًا له؛ ولهذا الرسولُ ﷺ نَهَى أن نُفضِّل بين الأنبياء قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ»[2] فإذا كان هناك مثَلًا مَحذور فيُعْرَض عنه، أمَّا إذا كان يُريد

---

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٢٦٢-٢٦٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، رقم (٣٤١٤)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، رقم (٢٣٧٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أن يُبيِّن مدَى قُوَّتهم في تبليغ الدَّعْوة وصَبرهم عليها وكثرة أَتباعهم وما اصطفاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، فقد صرَّح الله عَزَّوَجَلَّ بذلك فقال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

وهل هذا المِيثاقُ هو الأوَّلُ أو غيره؟

اختلَف المُفسِّرون فيه:

فقال بعضهم: إنه هو المِيثاق الأوَّل، وإنما أُعيد من أَجْل الوَصْف، وهو قوله تعالى: ﴿غَلِيظًا﴾، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

وقال آخَرون: إنه غير الأوَّل؛ لأن القاعِدة أن الاسم إذا تَكرَّر فإن كان بلفظ المَعرِفة فالغالِب أن الثانيَ هو الأوَّل، وإن كان بلَفْظ النكِرة فالغالِب أن الثانيَ غير الأوَّل، هذا الغالِب وليس دائِمًا، فإنك تَرى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ جاء مُعرَّفًا بـ(أل)، والإحسان الثاني قطعًا غير الإحسان الأوَّل، لكن الأكثَر أنه إذا أُعيد الاسم مُنكَّرًا صار غير الأوَّل، وإن أُعيد مُعرَّفًا صار الأوَّل، فهنا أُعيد المِيثاق مُنكَّرًا قال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا﴾، فيَكون المِيثاق الثاني غيرَ المِيثاق الأوَّل.

ووجهُ المُغايَرة: يَقول: إن المِيثاق الأوَّل هو المِيثاق الذي أُخِذ على جميع بني آدَمَ، والمِيثاق الثاني هو المِيثاق الخاصُّ بالرُّسُل بما حُمِّلوه من القِيام بعِبادة الله عَزَّوَجَلَّ وتَبليغ شريعته والدَّعوة إليه.

وأمَّا إذا قُلْنا: إن المِيثاق الثانيَ هو الأوَّل، فتكون فائِدة إعادته هو وَصْفه بالغِلَظ، يَعنِي: أنه مِيثاق شديد أشَدُّ من الميثاق الذي أُخِذ على غيرهم.

ولكن ذَكَر المِيثاق العامِّ من باب التَّنويه به بالنسبة لهؤلاء الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ ولهذا عقَّبه بقوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ يقول: ثُم أَخَذ المِيثاق؛ ليَسأَل الصادِقين عن صِدْقهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عِظَم المَسؤُولية على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وجهُ ذلك أن الله تعالى خصَّصَهم بأَخْذ المِيثاق.

ويُسْتَفاد منها فَرْعًا على هذه الفائِدةِ: عِظَم المَسؤُولية على أهل العِلْم؛ لأنَّهم ورَثة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن مَن أَنعَم الله تعالى عليه بنِعْمة، فإن لله تعالى عليها شُكْرًا خاصًّا غير النِّعْمة العامَّة، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِيثَـٰقَهُمْ﴾، فإن الإضافة هنا تَدُلُّ على التخصيص، المِيثاقَ الخاصَّ بهم، فكُلُّ مَن أَنعَم الله تعالى عليه بنِعْمة، فإن لله تعالى عليه فيها عَهْدًا أن يَقوم بهذه النِّعْمةِ.

وبهذا التَّقريرِ نَسْلَم ممَّا ذكره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أن المِيثاق هنا يُرَاد به المِيثاق الذي أُخِذ عليهم من ظَهْر أبيهم آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذا أَنعَم الله تعالى عليك بنِعْمة فإن هذا عَهْد أَعْطاك فأَعْطِه، قال الله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠].

وذكَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا العَهْدَ في سورة المائِدة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا

حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [المائدة:١٢]، فهذا عَهْدٌ ومِيثاقٌ.

إذَنْ: إنَّ عهد النَّبيِّين عليهم الصلاة والسلام هي مَسؤُولية عَظيمة وهي تَبليغ الرِّسالة والعمَل والدَّعوة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فضيلة هؤلاء الأَنبياءِ الكِرام الخَمْسة: وجهُ الدَّلالة تَخصيصُهم بالذِّكْر، فإن تَخصيص أفراد العامِّ بالذِّكْر يَدُلُّ على شرَف ذلك المُخصَّص.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أفضَلُ هؤلاء الخَمْسةِ، وجهُه: تَقْديمه عليهم ذِكرًا مع أنه مُتأخِّر عنهم زمَنًا، وكان مُقْتَضى الحال لَو كانوا مُتَساوِين في الفَضيلة أَنْ يُذْكَروا بحسَب التَّرْتيب الزمَني.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن ترتيب هَؤُلاء في الفضِيلة: مُحَمَّد، ثُمَّ إبْراهيمُ، ثُمَّ موسَى، ثُمَّ عيْسَى، لكن تقديمَ الذِّكْر لا شَكَّ دلِيلٌ على العِنَاية والأفضَلية وما أَشبَه ذلك، والظاهِر لي: أنه لا يُستَفاد من الآية؛ لأننا لا نَعلَم أن إبراهيمَ أفضَلُ من نُوحٍ إلَّا بدليل خارِجيٍّ؛ صحيح أن مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَعلَم أنه أَفضَلُهم؛ لأنه لو كان المَقصود التَّرتيبَ الذِّكْريَّ لكان هو آخِرَهم، لكن جاء في الآية بعد ذِكْر مُحَمَّد ﷺ نُوحٌ وإبراهيمُ ومُوسَى وعِيسَى، وهذا تَرتيبٌ زمَنيٌّ فلا يَدُلُّ على الترتيب الفَضْلِيِّ، والأدِلَّة الخارجية واضِحة.

وقدِ اختَلَف العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: أَيُّهما أفضَلُ عِيسى أو نُوحٌ؟ بعد اتِّفاقهم على أن مُحَمَّدًا أفضَلُ، ثُمَّ إبراهيمُ، ثُم مُوسى، لكن اختَلَفوا: أيُّهما أفضلُ عِيسى أو نوحٌ؟.

فقال بعضُهم: إن نوحًا أفضَلُ؛ لأنه أوَّلُ رَسول أَرسَله الله تعالى؛ ولأنه كابَدَ

من قومه ما لم يُكابِدْه غيره؛ لأنه بَقِيَ فيهم أَلْفَ سَنَةٍ إلَّا خَمسينَ عامًا، لا يَزيدهم دُعاؤُه إيَّاهم إلَّا فِرارًا -والعِياذُ بالله- وسُخريةً.

وقال بعضُهم: بل إنَّ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أفضَلُ؛ لأنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أُوذِي أيضًا حتى إنه هُدِّد بالقَتْـل حتى إنه قِيل: إنه قُتِل. فإن اليَهود يَرَوْن أنهم شَفَـوْا أنفسهم حين قَتَـلوا مَن أَلقَى اللهُ تعالى شَبَـهَ عِيسى عَلَيْـه ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٥٧].

وعِندي في هذا: التَّوقُّفُ؛ لأن لكلٍّ واحـدٍ مِنهما مَزِيةً يَكون فيها أَفضَلَ من الثاني.

كما يَدُلُّ علَى أنَّ مَسؤُوليةَ أُولي العَزْم أعظَمُ من مَسؤُولية غَيْرهم وهو كذلك، ومن أَجْل أن مَسؤُوليتَهم أَعظَمُ وأنَّهم قاموا بها سُمُّوا أُولي العَزْم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَغليظُ المَسؤُولية على الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: عظَمةُ الربِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذلك بالتَّحدُّث عن نفسه بضمير العظَمة ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ واللهُ عَزَّوَجَلَّ يَتحدَّث عن نَفْسه تارةً بضمير العظَمة وتارةً بضمير الإِفْراد، وهو كثير في القُـرآن، ولا حاجةَ لِذِكْر أمثِـلة؛ لأنه واضِحٌ.

الآيــة (٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٨].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾ اللَّام للتعليل من حيث المَعنَى، وهي من حيث الإعراب حَرْف جَرٍّ، والفِعْل بعدها مَنصوب بـ(أَنْ) مُضمَرةً جوازًا بعد لامِ الجَرِّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ السائِل هو الله تعالى، والضميرُ هنا ضميرُ غَيْبة، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾ ضَمير المُتكلِّم، فيَكون فيه التِفات من التَّكلُّم إلى الغَيْبة، والالتِفات أُسلوبٌ من أَساليب اللغة البلاغِية، ويَختَلِف، قد يَكون من غَيْبة إلى حُضور، ومن حُضور إلى غَيْبة، فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾، هذا التِفاتٌ من الغَيْبة إلى الحُضور ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾، ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾، وهنا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ثُم قال: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾، ولم يَقُل: لنَسأَل. فهو التِفات.

فائِدةُ الالتِفات العامَّة في كل مَوضِع هو التنبيهُ، تَنبيهُ القارِئ والمُخاطَب، وجهُ ذلك: أن الكلام إذا كان على أُسلوب واحِد، فإن الإنسان يَسير معه من غير أن يَكون هناك شيء يُوجِب انتباهَه، فإذا تَغيَّر الأُسلوب حصَل حينئذٍ تَوقُّف كيف انتَقَل من هذا إلى هذا، فيَكون في هذا تَنبيهٌ للقارِئ وللمُخاطَب.

ثُمَّ إن هناك فوائِدَ خاصَّةً تكون بحسَب السِّياق والقَرينة، انظُرْ إلى قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ ما قال: وما يُدريه. مُوافقةً لـ﴿عَبَسَ﴾، ولا قال: عبَسْت مُوافقةً لـ﴿يُدۡرِيكَ﴾، وعلَّلوا ذلك بأن الله عَزَّوَجَلَّ كرِهَ أن يُخاطِب نَبيَّه بوَصْف يَقتَضي الذَّنْب وهو العُبوس والتَّولِّي، فقال تعالى: ﴿عَبَسَ﴾ كأَنَّ التَّحدُّث عن غير الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ﴿وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾، ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ خاطَبه بذلك؛ ليَتبيَّن أن الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس عنده عِلْم من الغَيْب، وهذا ليس فيه قَدْح في الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ألَّا يَكون عالِمًا للغَيْب؛ لأن هذا هو شَأْن جميع البشَر.

والحاصِلُ: أن الالتِفاتَ الفائِدةُ العامَّة منه هو التَّنبيهُ، ثُم يَكون في كل مَوضِع فائِدة خاصَّة في ذلك المَوضِع، وهنا فائِدتُه -والله تعالى أَعلَمُ- أنه لَمَّا قال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾ وكان مِيثاق الأنبياءِ دائِرًا بين أَمْرٍ يَقومون به وأَمْرٍ يُواجَهون به من البشَر، وكلا الأَمْرين يَكون صِدْقًا ويَكون غيرَ صِدْق، لكنَّ غير الصِّدْق في جانب الأنبياء مُستحيل، لكن غير الصِّدْق في جانب المَدعُوِّين مُمكِن.

قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ﴾ كراهيةَ أن يُخاطِب أو أن يَنسُب السُّؤال لنَفْسه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مع أنه يَدخُل في ضِمْنه الأنبياءُ؛ لأن الخِطاب، أو لأن التَّحدُّث بضمير الحُضور: (لنَسأل) أَقوَى في النفس من أن يَكون التَّحدُّث بضَمير الغَيْبة.

يَقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الله] تَفسير للضَّمير المُستَتِر ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في تَبليغ الرِّسالة]، وهذا بِناءً على ما يَراه في تَفسير الآية أن السُّؤال للأنبياء فقَطْ، والصوابُ أن السُّؤال لهم ولِمَن دُعوا، قال الله تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾

وكل مِنهما يُسأَل، فالصواب أنه ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ في تَبليغ الرِّسالة بالنِّسبة للأنبياء، وفي قَبول ذلك بالنِّسبة للمَدعوِّين.

قال: [تَبكيتًا للكافِرين بهم] (تَبكيتًا) هذا تَعليل لسُؤال الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، يَعنِي: يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الله عَزَّوَجَلَّ يَسأَل الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، لا لأنه يُمكِن ألَّا يَقوموا بالواجِب، ولكن تَبكيتًا للكافِرين بهم، يَعنِي: تَقريعًا ولَوْمًا للكافِرين بهم، فإنه إذا سَأَل الرُّسُلَ: هل بلَّغْتُمُ الرِّسالة؟ -أمام المَدعُوِّين- سيَقولون: نعَمْ، فيَكون في هذا تَبكيتٌ لهَؤلاء الكافِرين.

وسُؤال الغَيْر لتَبكيت غيره جاء به القُرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ المَوْءودة هي الطِّفلة، أو بعِبارة أعَمَّ هي الأُنثَى التي تُوأَدُ، وكان من طريق بعض الكُفَّار أنهم يَئِدون البناتِ يَدفِنونَهن وهُنَّ حيَّاتٍ، خوفًا من أن يُعيَّر، يُقال: هذا الرجُلُ ما عنده إلَّا بِنْت، أو هذا الرجُلُ وُلِدَ له بِنْت؛ ولهذا إذا بُشِّر ﴿بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ يَستَتِر، يَخاف أن يُعيَّر ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ -أَعوذ باللهِ تعالى، ثُم يَقول في نَفْسه: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ ما يَعدو هذا، ما يُمكِن أن يُمسِكه على عِزٍّ وكَرامة أبَدًا.

إِذَنْ: على رأيِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَكون المُرادُ بسُؤال النَّبيِّين عن تَبليغ الرِّسالة تَبكيت هؤلاء الكافِرين بهم وتَقريعهم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَعَدَّ﴾ تعالى ﴿لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ للكافِرين بهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مُؤلِمًا].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾، ﴿وَأَعَدَّ﴾ قد يَقول قائِل: بين المَعطوف والمعطوف عليه تَنافُر؛ لأنه لو كان بينهما ائتِلاف، لكانت العِبارة: لِيَسأَل الصادِقين عن صِدْقهم

ويُعِدَّ للكافِرين، لكنه قال: ﴿وَأَعَدَّ﴾ نعَم ﴿وَأَعَدَّ﴾ فكيف نَقول فيها؟ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو عَطْف على ﴿أَخَذْنَا﴾] ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا﴾، والظاهِر من قَصْده ﴿أَخَذْنَا﴾ الأَخيرة يَعنِي: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾، ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾، وعلى رأيِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَكون فيها أيضًا التِفات من الحُضور إلى الغَيْبة، ويُمكِن أن نَقول: إنه معطوف على قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾، نعَم لكنه جاء بلَفْظ الماضي تَحقيقًا لوُقوعه، وأنه أَمْر ثابِت.

قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ أَلِيمًا﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُؤلِم]، يَعنِي: مُوجِع، فعيل بمَعنَى: مُفعِل تَأتي في اللغة العربية، وإن كان الأكثَر أن فَعيلًا بمعنى: فاعِل، ففعيل بمَعنَى: فاعل كثيرة جِدًّا، مثل سميع بصير وعزيز أَمثِلتها كثيرة، لكن فعيل بمَعنَى: مُفعِل قليل، ومنه هذه الآية، أَليم بمَعنَى: مُؤلِم، وقول الشاعر:

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ ... يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ[1]

هو الداعِي السَّميع، يَعنِي: المُسمِع.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ البَعْث؛ لأن هذا السُّؤالَ ما كان في الدُّنيا، وليس هناك إلَّا دنيا وأُخْرى، فيَكون من لازِم ذَلك ثُبوت الآخِرة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن السُّؤال ليس سُؤالًا خاصًّا بالمُعانِدين والكافِرين، حتى

(١) البيت لعمرو بن معدي كرب، انظر: الأصمعيات (ص:١٧٢)، الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣٦٠).

الصادِق يُسأَل عن صِدْقه؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾، فَيتفرَّع عن هذه الفائِدةِ: وجوبُ الحَذَر، ووجوبُ الاستِعْداد لهذا السُّؤالِ؛ فإذا كان الصادِقُ يُسأَل فما بالُك بالكاذِبِ؟! الكاذِبُ جَزاؤُه ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ لأن الكافِرين لا يُسأَلون سُؤالًا يُحاسَبون عليه، كمُحاسَبة أهل الخير.

والسُّؤال هنا ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾، هل هو خاصٌّ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو عَامٌّ؟

قلنا: إنه عامٌّ؛ لأن النَّبيِّين الذين ذُكِروا رُسُل، وكلُّ رَسول لا بُدَّ من مُرسَل إليه، والرسولُ لا شَكَّ أنَّه صَادِق، فبَقِيَ التقسيمُ إلى صادِق أو غيرِ صادِق محلُّه المُرْسَل إليه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثْبَات الجزاءِ ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن النَّار مَوْجودة الآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ﴾ بلَفْظ الماضي، والإعداد بمَعنَى: التَّهيئة، والنُّصوص في وجود النار ووجود الجَنَّة الآنَ من القُرآن والسُّنَّة كثيرة، فهما الآنَ مَوْجودتان، وهما لا تَفنَيان على مُعتَقَد أهل السُّنَّة، وإن كان ذُكِر خِلاف عن السلَف في أبديَّة النار: هل هي مُؤَبَّدة أم لا؟ والصحيحُ أنها مُؤبَّدة لا شكَّ.

والدليلُ على ذلك قوله تعالى يُخاطِب الذين آمَنوا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٠-١٣١]، فحَذَّر المُؤمِنين من النار التي أُعدَّتْ للكافِرين، والصواب بلا شَكٍّ أن النار مُؤَبَّدة، وفي ذلك ثلاثُ آيات من كِتاب الله تعالى: آية في النِّساء، وآية في الأحزاب، وآية في الجِنِّ.

فأمَّا آية النِّساء فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٩].

وأمَّا في الأحزاب ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

وأمَّا في سورة الجِنِّ ففي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

وإذا كان هَؤلاء خَالِدين أبَدًا فإنَّه يَلزَم من تَأبيد الخالِد تَأبيدُ المكان الذي هو فيه، حتى في الجَنَّة أيضًا، فمَعناه: أن هذا كائِن بمَشيئة الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: في الآية دليلٌ على أن أهل النار يَذوقون العذاب ويَتألَّمون منه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلِيمًا﴾، فيَكون في هذه الفائِدةِ ردٌّ على قول مَن يَقول: إن أهل النار يَكونون جَهنَّمِيِّين، فلا يُحِسُّون بعذابٍ -والعِياذُ باللهِ-، ومَعنَى ذلك أنهم إذا كانوا لا يُحِسُّون بعذاب انتَفَى العَذاب.

وقد ذكَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن جُلُودهم تَنضَج ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦]، وأَخبَر أنها تُحرِق ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠]، فبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن الجُلود تَنضَج ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾، ولولا أنهم يَتألَّمون بذلك لكانوا عندما بُدِّلوا بجُلود أُخرى ما ذاقوا العَذاب.

فإن قيل: كيف يَصبِرون المُدَدَ العظيمة، وهم في حَريق وجُلود تُبدَّل -والعِياذُ بالله-؟

قُلْنا: إن الله تعالى على كل شيء قَديرٌ، وأحوال الآخِرة لا تُقاس بأحوال الدُّنيا،

هذه الدنيا يَحتَرِق الجِسْم لكن الروحُ تَخرُج منه وتَدَعُه ولا تَحتَرِق، لكن في الآخِرة يَبقَى الجِسْم وإن كان يَحتَرِق، وإن كان يَنضَج، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا نِهايةَ لقُدْرته، ولا يُمكِن الإحاطةُ بها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التحذير من الكُفْر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: التحذير من خِصال الكُفْر: يَعنِي ورَدَت في النُّصوص أعمالٌ وأقوالٌ وَصَفها الشَّارِع بأنَّها كُفْر فيَجِب الحَذَر منها.

ومن المُؤسِف أن كثيرًا من طلَبة العِلْم يَبحَثون مَسأَلة أن هذا كُفْرٌ وأن هذا غيرُ كُفْرٍ، يَبحَثونها على أنها مسألة نَظَرية، فتَجِدهم يَفرِضون الخِلاف مع المُعتَزِلة والخَوارِج، لكن لا يَشعُرون -ولا يُشْعِرون غيرَهم- أن مَسأَلة كون هذا من الكُفْر مَعناه أنه يُعذَّب على هذه الخِصْلةِ عَذابَ الكافِرين، وإن كان لا يُخلَّد، لكن يُعذَّب بحسَب ذَنْبه عذابَ الكافِرين؛ لأنه عمِل كُفْرًا فيَستَحِقُّ فاعِله جزاءَ الكُفْر في هذه المَسأَلةِ، وهذه مَسألةٌ عَظيمة جِدًّا، يَنبَغي لنا أن تَكون على بالنا.

وفيه أيضًا بِناءً على هذه القاعِدةِ على أن الَّذين يُعَذَّبون في النار بقَدْر مَعاصيهم يَجِدون حَرَّها وأَلَمها وعَذابها خِلافًا لمَن قال: إنهم لا يَجِدون ألمًا؛ فالصوابُ أنَّهم يَجِدون ألمًا، الذين لا يَجِدون ألمًا هم الذين يَرِدُونها بِناءً على أن الوُرود في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١] الدخولُ دون المُرور على الصِّراط، والمَسأَلة فيها قولانِ للمُفسِّرين من السلَفِ والخلَف، والله أَعلَمُ.

• • ❁ • •

الآيــة (٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب:٩].

هنا صدَّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا الأَمْرَ بالنِّداء المُتَّصِف المُنادَى بِهِ بالإيمان، فأوَّلًا تَصديرُ الخِطاب بالنِّداء يَدُلُّ على الاهتِمام بِه؛ لأن النِّداء يُوجِب الانتباهَ؛ فلذلك إذا وجَدْت مثلَ هذا التَّعبيرِ فاعلَمْ أن الأمر هامٌّ.

ثُمَّ إن توجيه الخِطاب والنِّداء إلى مَنِ اتَّصَفوا بالإيمان يَدُلُّ على أن هذا من مُقتَضيات الإيمان؛ لأنه لا يُوَجَّه الخِطاب لمَوْصوفٍ بصِفةٍ إلَّا أن ذلك من مُقتَضَيات صِفَته، فإذا قلت: يا رجُلُ افعل كذا وكذا. فمَعنَى هذا أنَّ المأمورَ به من صِفات الرِّجال.

ثُمَّ إن في وَصْفهم بالإيمان إغراءً لقَبول ما وُجِّه إليهم، يَعني: إذا قلت: يا مُؤمِنُ. مَعناه: أني أُغريك أن تَقبَل، إذ إن الإيمان يَقتَضي أن تَقبَل، ففيه إغراءٌ على قَبول ما أَمَر الله تعالى به؛ قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا سمِعْتَ الله تعالى يَقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأَرْعِها سَمْعَك -يَعني: استَمِع لها- فإمَّا خيرٌ تُؤمَر به، وإمَّا شرٌّ تُنْهَى عنه»[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد رقم (٨٦٦)، وسعيد بن منصور في السنن رقم (٥٠) [ط.الصميعي]، وابن أبي حاتم في التفسير (١/ ١٩٦).

وقدِ اجتَمَع الأمران في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ [الحشر:١٨-١٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الخِطاب هنا عامٌّ، الخِطاب يَعني: المُخاطَب عامٌّ، يُوَجَّه لأُناس مَوْصُوفين بالإيمان، هل يَختَصُّ بالمُؤمِنين في زمَن النُّزول، أو هو عائِد إلى كل المُؤمِنين؟

هو شامِل لكل المُؤمِنين، إذ إن الله تعالى إذا أَنعَم على سلَف الأُمَّة بنِعْمة، فهو نِعْمة على الأُمَّة كلها؛ ولهذا يَذكُر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بني إسرائيلَ بنِعَم أَنعَم بها على بني إسرائيلَ في عَهْد مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن الطائِفةَ واحِدةٌ ولا شكَّ أنَّ نِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ على نَبيِّنا مُحَمَّد ﷺ وعلى أصحابه أنه نِعْمة علينا، وأن نَصْر الله تعالى له ودِفاعه عنه نَصْرٌ لنا ودِفاعٌ عنَّا.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ نِعْمة الله تعالى عامٌّ؛ لأنه مُفرَد مُضاف فيَعُمُّ، والشاهِد على أن المُفرَد المُضاف يَعُمُّ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل:١٨]، فليس المُرادُ نِعْمةً واحِدة، بل نِعَمٌ كثيرةٌ لا تُحصَى.

وقوله تعالى: ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: إِحْسانه وفَضْله، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ﴾ هذا التَّقييدُ لا يَعني تَخصيص النِّعْمة العامَّة في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ لكنه كالتَّمجيد لشيء من هذه النِّعَم ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾: (إِذْ) أي: حين ﴿جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾، وهذه النِّعْمةُ خاصَّة بالذِّكْر؛ لأنها نِعْمةٌ عظيمةٌ كما سيَتبيَّن من تصوير الله عَزَّوَجَلَّ لها قال: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ كلِمة (جُنود) هي نَكِرة، لكنها يُراد بها التَّعظيمُ والتَّكثيرُ، يَعني: إذ جاءَتْكم جُنود كثيرة، وهؤلاءِ الجُنودُ همُ الأحزابُ

من المُشرِكين واليَهود الذين تَحزَّبوا لقِتال النبيِّ ﷺ وكانت هذه في السَّنَة الخامِسة من الهِجْرة في شَوَّال[١].

هذا الصحيحُ المشهورُ؛ لأنه من المعلوم أن أُحُد كانت في السَّنَة الثالثة من الهِجْرة في شَوَّال[٢]، وكانت السَّنَة التي تَليها مِيعادًا لقُرَيْش، لكنهم ما حضَروا، ثُم في السَّنَة الثالِثة -وهي الخامِسة- صارت غَزوة الأَحْزاب.

وسببُها أن الأشرافَ من بني النَّضير الذين أَجْلاهم النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من المَدينة لا شكَّ أن قُلوبَهم امتَلأَت حِقْدًا على النبيِّ ﷺ وعَداوةً، فلمَّا رأَوُا انتِصارَ قُرَيْش في أُحُد أَرادوا أن يَستَغِلُّوا هذا الأمرَ، فذهَبوا إلى قُرَيْش وحرَّضُوهم على قِتال النبيِّ ﷺ ووعَدوهم أن يَنصُروهم بكلِّ ما يَستَطيعون، وأن يَتَّصِلوا ببني قُرَيْظَةَ الذين بَقُوا في المدينة يَتَّصِلوا ببني قُرَيْظَةَ من أجل أن يُساعِدوهم على قِتال النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فاجتَمَعَت أَحزابٌ عظيمةٌ قُدِّرت بعشَرة آلاف مُقاتِل، معَهم العُدَّة والسِّلاح والعَتاد وحضَروا إلى المدينة.

ولَمَّا عَلِم بهمُ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اهتَمَّ بذلك اهتِمامًا عظيمًا، ولكن اهتِمام الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يَعنِي الجُبْن والخَوَر والضَّعْف، ولكنه يَعنِي الاستِعْداد وأَخْذ الحذَر؛ أَخْذًا بتوجيهات الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله تعالى دائِمًا يُحذِّر من الأعداء، ويَأمُر بأن نُعِدَّ لهم ما استَطَعْنا من قوَّةٍ، فخرَج بأصحابه بثلاثة آلافِ مُقاتِلٍ فقط، وقيل: بأقَلَّ من ذلك حتى قال بعضُهم: إلى سَبْع مئةِ مُقاتِلٍ، ونزَلوا عند سَلْعٍ، وجعَلوه خَلْف ظُهورهم، وحفَروا الخَنْدق بمَشورة سَلْمانَ الفارِسيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢١٤).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٠).

الحَرَّة الشرقية إلى الحَرَّة الغربية، حفَروه مع ما بهم من الجَهْد والتَّعَب والمَشقَّة والجُوع والبَرْد، وكان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَحفُر معهم، حتى إن التُّرابَ وارَى جِلْدةَ بَطْنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكان يُردِّد معهم:

«اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ»(١)

ويُردِّد أيضًا قوله ﷺ:

«اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا
إِنَّ العِدَا قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا»(٢)

لأن هذا الإِنْشادَ في هذا المَوْطِن يُثِير الهِمَم ويُنشِّط، وكان يَمُدُّ صَوْته بقوله ﷺ: «أَبَيْنَا».

المُهِمُّ: أنه حصَل فيه أشياءُ كَثيرةٌ ليس هذا مَوضِعَ ذِكْرها، لكنها تَدُلُّ على مِحَنٍ عظيمةٍ أَصابَت المُسلِمين، وهم مع ذلك صابِرون، ولَمَّا نزَل الأحزابُ نزَلوا من الشَّمال من الشَّرْق والغَرْب ﴿مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾.

ثُمَّ إن الله عَزَّوَجَلَّ بحِكْمته امتَحَن المُسلِمين بزِيَادة البَلاء، وهو أن بني النَّضِير اتَّصلُوا ببني قُرَيظةَ، وطلَبوا منهم أن يَنْقُضوا العَهْد الذي بينهم وبين النبيِّ ﷺ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب حفر الخندق، رقم (٢٨٣٥)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٨٠٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم (٤١٠٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٨٠٣)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فتَلَكَّأت بنو قُرَيْظَةَ فقالوا: كيف نَنقُض العَهْد بيننا وبين مُحَمَّد ﷺ، وهؤلاءِ الجُنودُ التي أَتَيْتم بهم ليس هذا محَلَّ إِقامتهم ولا سُكْناهم، إن رأَوْا نَصْرًا شارَكونا بالغَنائم، وإن رأَوْا هَزيمةً ذهَبوا إلى بلادهم وبَقِينا نحن تحت سُلْطة مُحَمَّد ﷺ.

وهذا كلام مَعْقول، لكنه مَعقول من الناحية الدُّنيوية فقَطْ، وأَبَوْا أن يُشارِكوهم، لكنهم ما زالوا بهم حتى أَغْرَوهم ونقَضوا العَهْد، فازداد ذلك في مَشقَّة المُسلِمين.

ولكن اللهَ عَزَّوَجَلَّ قال في كِتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج:٣٨]، وإذا دَافَع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن شَخْص فلا تَسأَل عن حاله، فإنه في حِصْن حَصين في مُدافَعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ولهذا يَقول يَذكُر اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ المُؤمِنين في هذه النِّعْمةِ: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾، والتَّنْكير هنا للتَّعظيم والكَثْرة، يَعنِي: جُنود كثيرة، لكن بماذا قُوبلوا؟ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ سلَّط الله عَزَّوَجَلَّ هذه الرِّيحَ، الريح الشرقيَّة شَديدة، يَعنِي: جعَلها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ريحًا شَديدةً عظيمةً وبارِدةً حتى هَدَمت خِيامهم، وأَكفَأَتْ قُدورهم، وصارت الحِجارة تَرميهم كأنَّما يُرجمون بها رَجْمًا، يَعنِي: بدَأَتِ الريح تَحمِل الحِجارة وتَضرِب بها قُدورهم، تَضرِب بها خَيْلهم وإبِلَهم وأَبدانهم أيضًا، وقَلِقُوا قَلقًا عظيمًا، والجُنود الآخَرون -الملائِكة- تُزَلْزِلُ بهم وتُلقِي في قُلوبهم الرُّعْب؛ ولم تُقاتِل لأنه ما حصَل قِتال، لكنها زَلْزَلت بهم بإِذْن الله عَزَّوَجَلَّ.

وقِصَّة حُذَيْفةَ بنِ اليَمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في تلك الليلةِ العَصِيبة؛ لَمَّا هبَّتِ الرِّياح طلَب النَّبيُّ ﷺ من أصحابه أن يَنتَدِب أحدًا منهم، وضَمِن أن يَرجِع سالِمًا، وأن يَكون رفيقَ النَّبيِّ ﷺ في الجَنَّة، يَعنِي: ضَمِن أمرَيْن؛ السلامة، وأن يَكون رفيقَ الرسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في الجَنَّة، لكِن الصَّحابة معَهم تعَبٌ عظيم وجُوع شديد

وبَرْد شديد ما قام أَحَد، ثُم ذهَب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُصلِّي حتى مضَى هَوِيٌّ من الليل، ثُم رَجَع وقال هذا الكلامَ مرَّةً أُخرى، فلم يَقُم أَحَد، ثُم رجَع يُصلِّي، ثُم رجَع فقال هذا الكلامَ، فلَمْ يَقُم أَحَد.

فنَصَّ على حُذَيْفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال ﷺ: «قُمْ يَا حُذَيْفَةُ» يَقول: فلمَّا ذَكَرني لم يَكُن لي بُدٌّ من طاعة اللهِ ورَسولِه. قام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأَوْصاه الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يَذهَب إلى القوم ويَنظُر خبرَهم، وألَّا يُحدِث شيئًا أبدًا يَقول: لَمَّا انصَرَفْت من عند الرسول ﷺ صِرْت كأنما أنا في حَمَّام، لا أُحِسُّ بِرِيح ولا بِبَرد حتى وصَلْتُ إلى القَوْم، وجعَلْت أُشاهِد أبا سُفْيانَ؛ لأنه رئيس قُرَيْش أُشاهِده وهو يَصطَلي على النار من شِدَّة البَرْد، ويَأذَن بالرَّحيل، يَأمُرهم بأن يَرحَلوا: ليس لنا مُقام هنا. ووَضَع سهمًا في قَوْسه يُريد أن يَرمِيَه؛ لأنه قريب منه، لكنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَذكَّر قولَ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا تُحْدِثْ شَيْئًا»، فامتَنَع، يَقول: فقال أبو سُفْيانَ: يَنظُر كلُّ واحِد منكم جَليسَه؛ خاف من الجَواسيس والعُيون، فأَمسَكْت برَجُل من جانبي وقُلْتُ: مَن أنت؟ ابتَدَأ به قَبْل أن يَسأَل هُو قال: أنا فُلان بن فُلان.

فأَخَذ الخَبَر ثُم رجَع إلى النبيِّ ﷺ كأنما هو في حَمَّام لا هواءَ ولا بَرْدَ، لكن لَمَّا وصَل للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ واستَقَرَّ أَحَسَّ بالبَرْد، فلمَّا أَحَسَّ بالبَرْد وضَع النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عليه لِباسًا كان معه؛ ليَدفَأ به، ونامَ، والنبيُّ ﷺ يُصلِّي ويَتهَجَّد، يَقول: فلمَّا أَصبَح الصُّبْح أَيْقَظني وقال: «يَا نَوْمَانُ قُمْ قُمْ يَا نَوْمَانُ»[1].

فالحاصِلُ: أن هذه الرِّيحَ كانت شديدةً جِدًّا أرَّقتهم حتى انصَرَفوا مع ما أَلقَت

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٧٨٨)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المَلائِكة في قُلوبهم من رُعْب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ لأن الله تعالى حجَبَ المَلائِكة عن أَعيُنِ الناس؛ لأن المَلائِكة تَحضُر مجالِس الذِّكْر، والملائِكة يَتَعاقَبون في بني آدَمَ بالليل والنهار، والمَلائِكة ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧]، ومع ذلك لا نَراهم؛ لأن الله تعالى حجَبَهم، يَأتينا -إن شاء اللهُ تعالى- في الفَوائد أن في هذا دَلالةً بيِّنةً على ضَعْف بني آدَمَ، فأَجرام مَحسوسة مَوْجودة بين أيديهم، بل عن أيمانهم وعن شَمائِلهم، ومع ذلك لا يَرَوْنها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ مِن المَلائِكة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء من حَفْر الخَنْدق، وبالياء من تَحذير المُشرِكين]، يَعنِي: فيها قِراءَتان «بِمَا يَعْمَلُونَ» و﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ هذه الرِّيحُ هي الريح الشَّرْقية؛ ولهذا جاء في الحديث: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ»[1]، الدَّبور: الرِّيح الغَرْبية، يَقول: [بما تَعمَلون بالتاء من حَفْر الخَنْدق]، ولكن هذا التَّخصِيصَ لا يَنبَغي؛ لأَنَّنا إذا خصَّصنا العُمُوم في الآية قصَرْنا معنَى اللَّفْظ أو قصَرْنا اللَّفْظ على بعض مَعناه، والصوابُ: أنها بما تَعمَلون من حَفْر الخَنْدق وغيره من كل ما عمِلْتم في هذه الغزوةِ.

قوله تعالى: ﴿بَصِيرًا﴾ أَيْ: عليمًا، أو بما يَعمَلون، يَعنِي: الجُنود ﴿إِذْ جَآءُوكُمْ جُنُودٌ﴾ واللهُ تعالى بما يَعمَلون بَصير، من التَّحزُّب على النبيِّ ﷺ، والقُدوم إلى بلَد الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأَجْل القَضاء عليه على زَعْمهم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم (٤١٠٥)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور، رقم (٩٠٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ مِنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذه الأُمَّة أَوَّلها وآخِرها بهذا الدِّفاع من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن المُؤمِنين، ووجهُه: أن الله تعالى أَمَرنا بأن نَذكُر هذه النِّعْمةَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن نِعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إمَّا إيجاب المَحبوب، أو دَفْع مَكروه، والذي في الآية من باب دَفْع المَكروه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان شِدَّة عَداوة الكُفَّار للمُؤمِنين؛ لأنَّهُم تَحزَّبُوا ضِدَّهم، فقد تَكون هذه القبائِلُ ليس بينهَا رابِطةٌ في حَدِّ ذاتها، ولكن من أجل أنها اتَّفقت في عَداوة الإسلام اجتَمَعت.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن اليَهود لا عَهْدَ لهم، وأنهم أهلُ غَدرٍ وخِيانةٍ، ووجهُه: نقضُ بني قُرَيْظةَ للعهد الذي بينهم وبين الرسول ﷺ، وكل القبائل الثلاث من اليَهود كلها عاهَدَتِ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين قدِم المدينة، ومع ذلك فإنهم نَقَضوا العهد: بنو قَيْنقاع وبنو النَّضير وبنو قُرَيْظةَ، كلُّهم نقَضوا العَهْد؛ لأن اليَهود من أشَدِّ الناس غَدْرًا وكذِبًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيانُ قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ من قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ما أَشار إليه بعض أَهْل العِلْم من أن الريح إذا جاءَت مُفرَدةً، فإنها تَكون في العذاب، وإذا جاءَت مَجموعةً فإنها تَكونُ في الرحمة، إلَّا أنَّها قد تَأتِي مُفرَدةً في الرحمة، إذا وُصِفت بما يَدُلُّ على ذلك؛ مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ [يونس:٢٢].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن المَلائِكة جُنُود لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

فإن قُلْت: هنا ما أُضيفت إلى الله عَزَّوَجَلَّ فكيف تَقول: إنهم جُنود الله تعالى؟ لأنه يَقول: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾، فأَضاف إرسالَهم إليه، وقد قال تعالى في آيات أُخرى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدَّثر:٣١]، فهلِ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ مُحْتاج إلى جُنودٍ؟

فالجَوابُ: لا، ولا يُمكِن أن يَكون محتاجًا، لكن سُمُّوا جُنودًا مع أنه لا حاجةَ به إليهم؛ لأنهم يَقومون بأَمْره، ويُدافِعون عن أوليائه، فهُمْ بمَنْزِلة الجُنود، وإلَّا فالله عَزَّوَجَلَّ لا يَحتاج إليهم ولا إلى غيرهم فإنه غَنيٌّ عن كلِّ أحَد.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الأَصْل أنَّ الناس لا يَرَوْن الملائِكة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾، وهو كذلك، لكن قد يَرَوْنهم مِثْلما رأَى الناس جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين جاء إلى النبيِّ ﷺ يَسأَله عن الإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ والساعةِ وأَمَاراتها.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: عُمُوم عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ في كلِّ ما نَعمَل؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، ويَشمَل ذلك عمَل القَلْب بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق:١٦]، وهو عمَل قَلْبٍ، أمَّا عمَل الجَوارح فظاهِرٌ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الترغيب والترهيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٩]، فإن هذا فيه بالنِّسبة للعمَل الصالِح ترغيب، وأن هذا العمَلَ لم يُهدَر؛ لأنه معلومٌ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا بُدَّ أن يُجازِيَ عليه، وترهيبٌ لكل مَن عمِل سَيِّئةً، وتهديدٌ لهم، فعِندما تُحدِّثك نَفْسُك يومًا من الأيام بأن تَعمَل سَيِّئةً؛ لأنه لا يَطَّلِع عليها أحَدٌ من الخَلْق، فاذْكُر أن الله تعالى يَطَّلِع عليك، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ»[1]، ليس معَك في مَكانك، ولكنه معَك وهو على عَرْشه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مُحيط بك.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم (٨٧٩٦)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة رقم (١٦٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٢٧)، من حديث عبادة ين الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (١٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب:١٠].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [مِن أَعْلى الوادِي وأَسفَلِه من المَشرِق والمَغرِب]، جاؤُوا من المَشْرق ومن المَغرِب، فجاءت قُرَيْش من الناحية الشَّمالية الشرقية، وجاءت غَطَفانُ ويَهودُ بني قُرَيْظَةَ من الناحية الجَنوبية الغربية، فجاؤُوا من فوق المُسلِمين ومن أسفَلَ منهم.

وكما قُلْت قبلَ قليل: إن الخَنْدق من الحَرَّة الشرقية إلى الحَرَّة الغربية، كل الشَّمال الآنَ مَحفوظ بالخَنْدق، هم جاؤُوا من فَوْقهم ومن أَسفَلَ منهم؛ ليَكونوا كفَكَّيِ الأسَد حتى يُطبِقوا على المدينة، هذا تَخطيطهم، ولكن الله تعالى بما يَعمَلون مُحيط.

يَقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ زاغَتِ الأبصار، زَاغ الشيء بمَعنَى: مال، ومنه: زاغَتِ الشمس إذا مالَت بالزوال، ومنه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧] أي: ما مال، والأبصار (أل) هنا للعَهْد الذِّهنِيِّ، يَعنِي: زاغَتِ الأبصار منكم، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفسيرها: [مالت عن كُلِّ شَيءٍ إلى عدوها من كل جانِب]، يَعنِي: أن الأبصار ما صار لها نظَر إلَّا هذا العدو، وكل شَيءٍ

غفلَت عنه، النظَر إليه إلَّا هذا العدو، وقد فسَّرها بعض المُفسِّرين: زاغَتْ بمَعنَى: مالت عن استِقْرارها، أي: شَخَصت من قوَّة الرُّعْب.

صار الإنسان لا يَنظُر إلَّا إلى هذا الذي أمامه يُراقِبه ويَخشَى منه، وهذا شيء مُشاهَد في طبيعة البشَر أن الإنسان إذا خاف من شيء يَتَّجِه بصَرُه إلى أيِّ شَيْء إلى هذا الشيءِ إلى ناحيته، وتَجِد البصَر -كما يَقول العامَّة:- لا يُغضِي أبدًا، مُنفَتِح يَخشَى من مُباغَتته، فالأَبْصار زاغَتْ ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ القُلوب، يَعنِي: منكم قُلوبكم بلَغَتِ الحناجِر جَمْع حَنْجرة، وهى مُنتَهى الحُلقوم.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن شِدَّة الخَوْف] تعليل لقَوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿زَاغَتِ﴾ وبلَغَت ﴿ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [جَمْع حَنْجرة، وهي مُنتَهى الحُلقوم]، وهل حقيقةً بلَغَتِ القُلوب الحناجِر؟ قال بعضُهم: إنها حقيقة، وأنَّ الخائِف إذا اشتَدَّ خوفُه انتَفَخَت رِئَته فإذا انتَفَخَت ضَيَّقت على القَلْب وخرَج ارتَفَع؛ ولهذا يُقال في الجَبان أو في الخائِف: انتَفَخ سَحره. يَعنِي: رِئَته، والأصل حَمْل الشيء على حقيقته، ويَجوز أن يَكون هذا تصويرًا عن شِدَّة الرُّعْب، يَعنِي: حتى إنها من شِدَّة الرُّعْب زالتِ القُلوب عن أماكنها، فلا تَتَنفَّس طبيعيًّا، ولا تَنبُض طبيعيًّا؛ لأنها زالَت عن أماكنها.

ثُم قال: [﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ المُختَلِفةَ بالنَّصْر واليَأْس] هذا الاختِلافُ ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ أي: أَنْتم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ الأَلِف للإِطْلاق، والظُّنون هذه جمع ظَنٍّ، والمَصدر لا يُجْمَع إلَّا إذا كان أنواعًا، أمَّا إذا كان نَوعًا واحِدًا لا يُمْكِن جَمعه وإن كثُرَ، أمَّا إذا كان أنواعًا صحَّ جَمْعه، فهنا جُمِعت (ظن) وهو مَصدر؛ لتَنوُّعه، يَعنِي: الظُّنون تَدور في أذهانهم أو في أفكارهم مُختَلِفةً طولًا وعَرْضًا، يَعنِي: هل سيَزول هؤلاء الأحزابُ؟ هل سَيَقْضون علينا؟ هل سنَنْتَصِر؟

ومعروف في مَكان الخـوف ماذا يَحدُث للإنسان من الظُّنون والتَّفكيرات القريبة والبَعيدة.

فمِنهم مَن أَيِسَ وقال: ما بَعْد هذا شيءٌ. ومنهم مَن ظَنَّ النَّصْر، مع أن المَقام حالِك جدًّا؛ لأنه يُؤمِن بأنَّ النَّصْر مع الصَّبْر، وأن الفرَج مع الكَرْب، وأن مع العُسْر يُسْرًا، ويقول: نَحن على حَقٍّ، فإنْ كنَّا على حقٍّ وصَبَرْنا فإنَّ النَّصْر مَضمونٌ؛ فلذلك يَظُنُّ النَّصْر.

ومنهم أصحاب المادَّة أو الظواهِر الحِسِّيَّة، فيَظُنُّون الهلاك ويَيأْسون من النَّصْر؛ لأنه ليس لديهم رَصيدٌ من الإيمان يَعتَـمِدون عليه، ولا شكَّ أن في الذين خرَجـوا لهذا أن فيهم مُنَافِقينَ كما يُذكَر في القِصَّة.

المُهِمُّ: أنَّ الله تعالى قال: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾، وأَطلَق ذلك وأَتى به بالجَمْع؛ لأَجْـل أنَّ يَذهَب الإنسان في تَصوُّر هـذا الظَّنِّ كلَّ مَذهَب، ظُنُـون كثيرةٌ مُختَلِفـة مُتضارِبة؛ ولهذا جاءَتِ الظُّنون بالجَمْع.

قوله تعالى: ﴿ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ﴾ وإن وقَفْتَ قُلتَ: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾، والثالثة: (وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَ هُنَالِكَ) يَعنِي: وَصْلًا ووَقفًا، ومثل ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ في سورة الأحزاب: ﴿أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب:٦٦]، ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب:٦٧]، فيها هذه القِراءاتُ الثلاثة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنه يَنبَغِي لِمَن ذُكِّر أن يُذكَر له وجهُ ما ذُكِّر به، الإجمال ليس كالتَّفْصيل. إذَنْ نَأْخُذ من هذا فائِدة: أنه يَنبَغي للمُذكِّر أن يُفصِّل فيما ذكَّر به؛ ليَكون ذلك أبلغَ في تَذكُّر المُخاطَب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الحالَ الَّتي وقَع في المسلمين حالٌ عظيمةٌ رهيبةٌ، وأنَّهم لا يَستَطيعون أن يَدفَعوا بأنفسهم، وبهذا يَتبيَّن وجه نِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم؛ لأن الأعداءَ مُحيطونَ بهم؛ ولأن أَبْصارهم زَاغَت وقُلُوبهم بَلَغتِ الحَناجِر، والأوهام والأفكار التي عِنْدهم قد تكون دوَّخَتْهم من هنا ومن هناك؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ المَخاوِف تُرْبِك الإنسان حتى في تَصوُّراته؛ لقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾، فإن الإنسانَ المُستَقِرَّ لا تكون عنده ظُنونٌ مُتباينة مُتعارِضة؛ لأنه مُستَقِرٌّ، لكن عندما يَحصُل الفزَع، وعندما يَحصُل الخوف تَأتِي الظُّنون من كل وجهٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن خَوف الإنسانِ الخوفَ الطَّبيعيَّ منَ المخلوقِ لا يُعَدُّ شِرْكًا، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾؛ لأن هذا من شِدَّة الخَوْف، وهو خوفٌ من مَخلوقٍ، لكن الباعِث عليه الأمرُ الطبيعيُّ، وإذا كان الأمر طَبيعيًّا فإنه لا يُؤخَذ به الإنسان؛ ولهذا وُصِفَ به أُولو العَزْم من الرُّسُل، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:٢١]، ولَمَّا كلَّفه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالرِّسالة قال: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص:٣٣]، فهذا خَوْف طبيعيٌّ لا يُلام عليه الإنسان.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ على ما هُم علَيْه من المَرتَبة العالية قد تَعتَرِضهم الظُّنون بسبب الضِّيق؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾، وهو يُخاطِب المُؤمِنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، فهُمْ لِشِدَّة ضِيق قد تَعتَريهم مثلُ هذه الوَساوِسِ، لكنها في الحقيقة سَحابة صَيْف عندما يَرجِع الإنسان إلى وَعْد الله عَزَّوَجَلَّ يَزول عنه هذا كلُّه ويَتبَدَّد؛ ولهذا سيأتينا في سياق الآيات قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب:٢٢] سُبحانَ الله! يَرَوْن هـذه الأحزابَ العَظيمةَ، ثُم يُطَمْئِنون أنفسهم بأن هذا ما وعَد الله ورسولُه، وصَدَق اللهُ ورسولُه؛ لأن النَّصْر مع الصَّبْر، والفرَج مع الكَرْب، فهُـمْ لَمَّا رأَوْا هذه الأحزابَ العَظيمة، وما يَترَتَّب عليـها على وُجودهم من الشِّدَّة والضِّيق عرَفوا أن النَّصْر قريب، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤] فانظُرْ إلى نَصْر الله تعالى فإنه قريب في مثل هذه الحالِ، قال تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ فإذا طبَّقتَ هذه على حالِ المُؤمِنين في وقت الأحزاب وجَدْتَ أنها تَنطَبِق؛ ثُم قال تعالى في آخِر الآية: ﴿إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ إِذَنْ: صَدَق عليهم أن هذا ما وعَدَ الله ورسوله، وصَدَق الله ورسوله بقُرْب النَّصْر.

والحاصِلُ: أن مِثلَ هذه الأمورِ التي تَأتِي عارِضة لا تُؤثِّر على مَرتَبةِ الإنسان وعلى حاله؛ لأنها تَزولُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الإنسـان إذا غَلَبته الحـالُ حتى ورَدَتْ عليه مثـلُ هذه الظُّنونِ، فإنه لا يَحُطُّ من مَرتَبَته، لكن -كما قُلْت قبلَ قليل- إذا استَقَرَّتْ به الحال، وهدَأَت هذه الظُّنونُ عرَف الحَقَّ.

• • ۞ • •

الآيــة (١١)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب:١١].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (هُنالِك) هذه اسمُ إشارة تَصلُح للزَّمان وللمَكان، ولكن الأصل أنَّها للمَكان، وتَأتِي للزَّمان، قال الله تعالى: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر:٨٥]، أي: في ذلك الزمَّنِ خَسِر الكافِرون، (فهُنالك) (هُنَا) صالِحةٌ للزمان وللمَكان، واللام للبُعْد، والكاف للخِطاب.

قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ اخْتُبِروا، والذي ابْتَلاهم هو الله عَزَّوَجَلَّ اختبَرهم بما حصَل لهم من هذا الضِّيقِ العَظيمِ، الذي لا يُمْكِن أن نُعبِّرَ عنه بالنُّطْق، ولا يُمكِن أن نُحِسَّ به إلَّا مَن وَقَع فيه، نحن هنا نَعجِز عن تَصوُّر تلك الحالِ، ونَعجِز عن تَصويرها، ولكن الذي وقَع فيها يَدرِي عنها.

يَقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ اختُبِروا؛ لِيَتبيَّن المُخلِص من غيرِه، ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ حُرِّكوا زلزالًا شديدًا من شِدَّة الفزَع]، ابتِلاءٌ عظيمٌ وزِلزالٌ عظيمٌ ابتُلوا به؛ هذا الزِّلزالُ الذي أَصابَهم ليس زِلزالَ الأرض، لكِنْ زلزالُ النُّفوسِ، فالنُّفوس تَزَلْزَلت، وحصَل عليها شيءٌ عظيم؛ لأنه اجتَمَع في هذه الغَزوةِ اجتِماعُ الأحزابُ من العَرَب ونَقْضُ بني قُرَيْظَةَ، والجُوعُ والتَّعَبُ والإعياءُ والبَرْدُ؛ خمسةُ

أشياءَ واحِد منها يَكفِي في زَلزَلة النَّفْس، فكيف إذا اجتَمَعت! أمورٌ صعبةٌ؛ فقد كان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في ذلك المَكانِ؛ كان يَعْصِب على بَطْنه الحَجَر من الجُوع[1]، كيف تَتصوَّر الحال، لا يُمكِن الإنسان يُعبِّر عنها في الواقِع؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا﴾ قوِيًّا عظيمًا زَلْزَل نُفوسَهم؛ لتُجمَع هذه الابتِلاءاتُ عليهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ولهذا بزَغَ النِّفاق، وتكلَّم المُنافِقون، ورأَوْا أنَّ في هذا فُرْصةً للكلام؛ لأن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعِدُهم النَّصْر حتى في تِلك الغزوةِ يَعِدُهم النَّصْر، وقِصَّة الصَّخْرة التي عجَزوا عنها وتَكسَّرت الفُؤوس وتَعِبوا حتى جاؤُوا إلى الرسول ﷺ وقالوا: «يَا رَسُولَ اللهِ أَنْتَ خَطَطْتَ لَنَا»[2]؛ لأن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَطَّ لهم مَكان الخَنْدق، خَطَّ لهم بقَدَمه من حِكْمة الله عَزَّ وَجَلَّ أنه صار الخَطُّ على هذه الصَّخْرة التي عجَزوا عنها، لكن لشِدَّة امتِثالهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ما قالوا: نَعطِف يَمينًا أو يَسارًا، لكنهم جاؤُوا إلى النبيِّ ﷺ وأَخبَروه، فنَزَل من عَريشه الذي كان قد بُنِيَ له على تَلٍّ هنالك يُشرِف على القَوْم نزَل وأَخذ المِعوَل، فضرَبها ضَرْبةً.

يَقول ابنُ إسحاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَمَّا ضَرَبها الضَّرْبة أَضاءَت إضاءةً عظيمةً كأنما نحن في نهار واندَكَّ منها ما اندَكَّ، وكبَّر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فكانت في الليل، ثُم ضرَبها الثانيةَ، فأَضاءَت، وكبَّر تكبيرةَ الفَتْح، تكبيرةً عظيمةً، ثُمَّ ضرَبها الثالِثةَ وكبَّر، وقالوا: يا رسول الله، لماذا صَنَعْت هذا؟ قال: «رأَيْت في التَّكْبِيرةِ الأُولَى قُصورَ الرُّوم، وَفِي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم (٤١٠١)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤١٨)، من حديث عمرو بن عوف المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: فإنا لا نحب أن نجاوز خطك.

الثَّانِية قُصورَ كِسْرَى، وَفِي الثَّالِثَة قُصورَ صَنْعَاءِ اليَمَنِ، وَأَنَّهَا سَتُفْتَحُ»[1] وهذه بِشارة للمُؤمِنين وتَقوِية.

لكنَّ المُنافِقين -والعِياذُ باللهِ- الذين لا يَثِقون بوَعْد الله ورَسوله، قالوا: كيف هذا، الإنسان الآنَ لا يَستَطيع أن يَذهَب إلى الغائِط؛ ليَقضِيَ حاجته؟! فكَيْف نَملِك قُصورَ كِسْرى وقَيْصر وتُبَّعٍ؟! هذا ليس صحيحًا!!

ولهذا يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ضَعْف اعتِقاد ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ بالنَّصْر ﴿إِلَّا غُرُورًا ﴾].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تصويرُ الحال التي كان عليها المُؤمِنون في تلكَ اللَّحظةِ، وهو الابتِلاء العَظيم؛ هذا ابتِلاء بالنِّسبة لما حصَل من الأحزاب.

وبالنِّسبة لنُفوسهم هل هي مُستَقِرَّة؟

الجوابُ: لا، قال تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾، فَاجتَمَع عليهم الابتِلاءُ الظَّاهريُّ الذي يُشاهَد بالعَيان والابتِلاء الباطِني الذي هو زَلزلة النُّفوس، وعدَم استِقْرارها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ القاعِدة العامَّة؛ وهو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَذكُر النِّعَم مُضافةً إليه، ويَذكُر النِّقَم غالِبًا في البِناء للمَجهول، ومن هنا قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ﴾، ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾، فمِن أين وقَع؟ وممَّن وقَع ذلك؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٣٠٣)، والنسائي في السنن الكبرى، رقم (٨٨٠٧)، من حديث البراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الجوابُ: من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكنه في مَقام الخَيْر يُضِيف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الشيء إلى نَفْسه تَمَدُّحًا، وفي مَقام خِلاف ذلك تَأتي الأفعال مَبنيَّةً للمَجهول، وانظُرْ إلى قول الجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠]، ففي الشَّرِّ قالوا: ﴿أُرِيدَ﴾، وفي الرَّشَد أَضافوه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الشَّرَّ لا يُضَاف إلى الله تعالى كما قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1]، فلا يَجوز للإنسان أن يُضيف الشَّرَّ إلى الله تعالى أبدًا.

فالشَّرُّ إنما يَكون في المَفْعولات لا في الفِعْل؛ لأن مَفْعولاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لها جِهتان:

١- جِهة باعتِبارها فِعْلًا لله تعالى.

٢- وجِهة باعتِبار ذاتِها.

أمَّا باعتِبار ذاتِها، أي: ذات المَفعولات، ففيها خيرٌ وشرٌّ بذاتها ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق:١-٢].

وأمَّا باعتِبارها فِعْلًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فليس فيها شرٌّ؛ لأن الله تعالى ما قدَّرها إلَّا لِحِكْمةٍ.

ثُمَّ لو تَأمَّلتَ الأشياءَ التي هي شَرٌّ لوجَدْت أنها تَتَضمَّن خيرًا ولو كانت شَرًّا؛ فالفَساد في البَرِّ والبَحْر من الجَدْب والفَقْر وغير ذلك شَرٌّ، لكِن مآلُهُ الخيرُ؛ قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران:٧٢].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَسأَلة: صَحيح أن الآنَ ليس مثل السابِق، وأن الفَقْر لباسٌ طَيِّب في الحقيقة، فالحاصِلُ: أن الفقر قد يَكون فيه خير، فإنَّ من عِباد الله تعالى مَن لو أَغْناه الله تعالى لأَفسَده الغِنَى؛ لكن مع ذلك لا تَيأَسْ، فكَمْ من قَلْب لانَ للحَقِّ وهو من أَفسَقِ عِباد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ! هذا شيء، الذي يَجعَلنا بالحقيقة نَستَحسِر هو اليَأسُ، ويَعقوبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال لبَنِيه: ﴿ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٧]، مع أنه في تِلكَ الساعةِ يَظُنُّ أنهم لن يَجدوه، لكن مع هذا لَقُوَّة رَجائه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأن الأمور لا تَقيسها بما تُشاهِد، هناك شَيءٌ وراءَ المادَّة، هناك شَيْء وراء المُشَاهَدة وما تَسمَع، وهو إرادة الله عَزَّوَجَلَّ وقُدْرته، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣] من بابِ ما كانَ يَظُنُّ أن يَأتيَه الرِّزْق منه، فهذه الوقائِعُ قد تُعطِي القَلْب يَأسًا، نَسأَل الله تعالى أن يَرزُقنا وإيَّاكم اليَقينَ.

• ● ۞ ● •

الآيـة (١٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب:١٢].

يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ضَعْف اعتِقاد ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ بالنَّصْر ﴿إِلَّا غُرُورًا ﴾] أَعوذُ باللهِ تعالى، كيف يَنطِق البشَر بمِثْل هذا الكلامِ؟! لكـن -والعِياذُ باللهِ- ما دامَت قُلُوبهم مُنطَوِيةً على الكُفْـر أو الشَّكِّ؛ لأن الذين في قُلوبهم مرَضٌ عندهم شَـكٌّ ضَعْفُ اعتِقاد، والمُنافِقـون عندهم كُفْر قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾، سُبحان الله العَظيمِ! اللهُ ورسولُه يَعِدكم غُرورًا ويَكذِب عليكم ويَخدَعُكم، هذا لا يُمكِن، بل ما وعَـدَ اللهُ ورسولُه إلَّا حَقًّا، ولكن لا يُمكِن أن تَجْنِيَ العَسَل إلَّا بعد ذَوْق شَوْك النَّحْل، لا بُدَّ من تعَب، ولا بُدَّ من مُثابَرةٍ؛ لأنه لولا هذا ما عُرِف الصادِقُ من الكاذِب ولا عُرِف المُؤمِن من الكافِر، فلا بُدَّ من الابتِلاء.

وبالمُناسَبة فطلَبَةُ العِلْم قد يُوَاجِهون بعضَ المَصاعِبِ في الدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ قـد يُواجِهون ذلك حتى في أَنفُسهـم، ولكن عليهم أن يَصبِروا، وأن يَتحَـمَّلوا في الدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنهم ليس يَدْعون إلى سَبيل فُلان وفُلان من سُبُل الطاغوت، لكن يَدْعون إلى سبيل الله تعالى التي تُوصِلهم وتُوصِل عِباد الله تعالى إلى الله عَزَّوَجَلَّ،

فعَلَيْهم أن يَصبِروا، ليس بمُجرَّد أن يُقال لهم: أنت مطوّع، أنت مُتَشدِّد، أنت فيك كذا وكذا. يَنحَسِر ويَدَع، هذا ليس بصحيح، لا بُدَّ أن يَصبِر ويُصابِر ويَعمَل بالحِكْمة، وليس بالعُنْف، ولكل شيء من الحالات مَنزِلته.

والحاصِلُ: أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد وعَدَ أصحابه بالنَّصْر، فآمَن بذلك المُؤمِنون، وتكلَّم المُنافِقون والذين في قُلوبهم مَرَض بهذا الكلامِ، ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ وكذَبوا، واللهِ ما وعَدَهم اللهُ ورسولُه إلَّا الحقَّ والصِّدْق.

وقد حصَل -والحَمْد لله تعالى- فإن هذه الأُمَّة -ولله الحَمدُ- بما خلَّفه لها رسولُه ﷺ من العِلْم والهُدَى وبما قام به خُلَفاؤه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فتَحوا قُصور قَيْصرَ وكِسرى واليَمَن، وأُنفِقت كُنوزُ كِسرى وقَيْصرَ في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وجِيء بتاج كِسرى من المدائن إلى المدينة في خِلافة عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1] فتَحقَّق ما وعَد اللهُ ورسولُه، وإن كان النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تُوُفِّيَ قبل أن يَحصُل ذلك، لكنه في الحقيقة هو الذي فتَح هذا؛ لأن الصحابة ما فتَحوها إلَّا بشريعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فصار ذلك نَصرًا للنبيِّ ﷺ؛ لأن النَّصْر -كما نَقول كثيرًا- ليس انتِصار الإنسان بشَخْصه، بلِ انتِصاره بما جاء به ودعا إليه، ولو كان على أَيْدي أَتْباعه، ولو كان ذلك من بعد موته، والله أَعلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ أن المُنافِقين يَنْتهِزون الفُرَص، ووجهُه أنهم في هذه الفُرصةِ وهذه الحالِ الضَّيِّقة الحالِكة، بدَؤُوا نشاطَهم وانتَهَزوا الفُرصةَ وقالوا: أين الوعدُ؟

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٠/ ١٨).

ففيه دليل على أن المُنافِق على اسمه مُنافِق، إن لم يَجِد فُرْصةً سكَت وصانَع وداهَن، وإن وجَد فُرْصةً نطَق وتكلَّم، وهذا دأبُهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة:١٤].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الحذَرُ من المُنافِقينَ؛ لأنهم لا يَألون المُؤمِنين خَبالًا، كلَّما وجَدوا مَطعَنًا أو مَكانًا للطَّعْن هجَموا، نَسأَل الله تعالى أن يُعيذَنا منهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن القُلوب تَنقَسِم إلى صحيحةٍ ومَريضةٍ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وكذلك الأبدانُ تَنقَسِم إلى مَريضةٍ وصَحيحةٍ، وانظُرْ حال الناس اليومَ، هل هُمْ أشَدُّ على مُداواة القُلوب من مُداواة الأبدانِ أو على مُداواة الأبدان من مُداواة القُلوب؟

الجَوابُ: الأخير، إلَّا ما شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فأكثَرُ الناس اليومَ حَريصون على مُداواة الأبدان التي مَآلها أن تكون جيفةً يَأكُلها الدودُ، دون القلوب التي عليها مَدار السَّعادة في الدُّنيا والآخِرة، فتَجِد الإنسان يَمْرَض قلبُه، ورُبَّما يَصِل إلى درجة الاحتِضار، ولكنه لا يُبالي به، فإذا أُصِيب بشَوْكة في بدَنه هُرِع إلى الأطبَّاء، ولو حصَل في ذلك مَشقَّةٌ وتعَبٌ، ولكن العاقِل المُؤمِن هو الذي يَكون دائِمًا في نظَرٍ إلى قَلْبه ومرَضه وصِحَّته وسلامته وعطَبِه، هذا هو المُؤمِن حَقًّا، ولا شكَّ أن القَلْب إذا صحَّ صحَّ البدَن، ولستُ أقولُ: صحَّ البدَن. يَعنِي: أن المُؤمِن لا يَمْرض، لكنَّ المُؤمِن لو مرِض يَرى أن في هذا المَرَضِ مَنفَعةً له ومَصلَحةً، وبهذا يَكون مرَضُ بدَنه صِحَّةً لقَلْبه؛ لما يَحصُل عنده من الصَّبْر، والرِّضا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وانتِظار الفَرَج، وفِعْل الأسباب التي جعَلها الله أسبابًا، فيَعتَمِد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما جعَله سببًا.

فالحاصِل: أن مَرَض القَلْب أخطَرُ من مرَضِ البدَن بكثيرٍ، والعاقل يَعتَني بهذا عِنايةً أشدَّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله تعالى ورسوله قد وعَـد المُؤمِنين بالنَّصْر؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، والوَعْد مَذكور في القُرآن والسُّنَّة للمُؤمِنين؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، انظُرِ الوَعْد العظيم ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ مُؤكَّدًا ﴿نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والمُلتَزِم بهذا هو الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ الذي بيده مَلكوت السَّمَوات والأرض، لكن مع الأسف الشديد كثيرٌ من المُؤمِنين لا يَلحَظون هذه الأشياءَ، مع أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تكفَّل بها، وفي السُّنَّة قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»[1]، ونَصْر النبيِّ ﷺ ليس نَصْرًا لذاته، ولكنه نَصرٌ لما جاء به، فيكون النَّصْر له ولأُمَّته من بعده أيضًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيانُ أن المُنافِق نظرُهُ قاصِرٌ، وكذلك مَن في قَلْبه مرَضٌ نظَرهُ قاصِرٌ؛ وجهه أنه ما نظَروا إلَّا في الساعة الحاضِرة، ما فكَّروا في العاقِبة، ومثل هذه الأُمورِ التي تَرِد أمورٌ عوارضُ، لكن العاقِبة للمُتَّقين، فالأمور العَوارِضُ لا يَبنِي عليها أحَـد إلَّا ضعيف البصيرة، حتى في أمـور الدُّنيا أيضًا لا تَنـظُر إلى الأمـور العارِضة، فإنه كما قيـل: دوام الحال من المُحـال، ولكن ما دُمْت واثِقًا بوَعْـد الله عَزَّوَجَلَّ فَثِق أنَّ هذا الوَعْـدَ سوف يَتحقَّق، لكن تَعتَريه عوارِضُ؛ لِحِكْمة من حِكَـم الله عَزَّوَجَلَّ يَبتَليه، ثُمَّ تكون العاقِبة للمُتَّقين.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم (٥٢١)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيــة (١٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب:١٣].

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت ﴾ هذه مَعطوفة على ما سبَق، ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ ﴾ يَعنِي: واذكُرْ هذه القَوْلةَ المُنكَرة ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ الطائِفة: الجامِعة من الناس ﴿مِّنْهُمْ ﴾ الضمير يَعود على المُنافِقين، كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ [أَيْ: مِن المُنافِقين] ﴿يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يَثرِب يَقول: [هي أرض المدينة]، وقيل: هي المدينة نَفسُها، فأهل العِلْم بالتاريخ اختَلَفوا: هل يَثرِبُ اسمٌ للمَكان والمَنطِقة التي فيها المدينة، أو أن يَثْربَ هي نفس المدينة؟ وظاهِر الحديث أن يَثرِب هي المدينة.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ هي أرضُ المدينة، ولم تُصرَف للعَلَمية، وَوَزْن الفِعْل]، يَعنِي: أنها مَمْنوعة من الصَّرْف لهاتين العِلَّتين؛ العَلَمية، ووزن الفِعْل، ويَدُلُّنا على أنَّها مَمنوعة من الصَّرْف أنها جُرَّت بالفتحة؛ لأنها مُضافٌ إليه، وحقُّ المُضاف إليه أن يَكون مَجرورًا، وهنا الكلِمة مَفتوحة؛ لأنها تُجَرُّ بالفتحة كسائِر الأَسْماء التي لا تَنْصرِف.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [للعلَمية ووَزْن الفِعْل]؛ لأن يَثرِبَ التي هي على وَزْن يَفْعِل، الذي هو فِعْل، ولها عِلَّة أخْرَى غير وزن الفِعْل، وهي التَّأنيث، العلَمية والتَّأْنيث؛ لأنها اسمٌ لبُقعة، وكأن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [العلَمية ووَزْن الفِعْل]؛ ليُشير أن هذه الكلِمةَ يَثرِب مَأخوذةٌ من التَّثريب، وهو اللَّوْم والتوبيخ، وما أَشبَه ذلك من الكلِمات التي فيها عَتَب.

ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى، يَقُولُونَ: يَثْرِبُ؛ وَهِيَ الْمَدِينَةُ**»(١)، وهذا دليل على أن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَرِه أن تُسمَّى يَثرِبَ، وهو أحَد القولين في المَسأَلة، وأمَّا الحديث الذي روِيَ: «**مَنْ قَالَ لِلْمَدِينَةِ: يَثْرِبُ. فَلْيَسْتَغْفِرِ اللهَ**»(٢)، فَهو ضعيف، لكن يَكْفِي عن هذا الحديثِ في الصحيحين: «**يَقُولُونَ: يَثْرِبُ؛ وَهِيَ الْمَدِينَةُ، تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ**»(٣).

الحاصِلُ: أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾ كأن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختار أن يَقول: لم يُؤخَذ من الفِعْل لهذا السبَبِ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ بضَمِّ الميم وفَتْحها أي: لا إقامةَ ولا مكانَ]، ﴿مُقَامَ﴾ [بضَمِّ الميم وفتحها]، ومعنى كلام المُفَسِّر: أي: فيها قِراءتان: «لَا مَقَامَ»

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل المدينة، باب فضل المدينة، رقم (١٨٧١)، ومسلم: كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها، رقم (١٣٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٥)، وأبو يعلى في المسند رقم (١٦٨٨)، من حديث البراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٣٠٠): رجاله ثقات، وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٢٢٠) وقال: لا يصح.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب فضائل المدينة، باب فضل المدينة، رقم (١٨٧١)، ومسلم: كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها، رقم (١٣٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

و﴿لَا مُقَامَ﴾ قال: [لا إِقامةَ ولا مَكانةَ]: [لا إقامةَ] تفسيرٌ للضَّمِّ: مُقام؛ لأنه من الرُّباعي، والرباعي يُقال في مَصدره المِيمِيِّ: مُقَام، ومَقَام: لا مَكانة على أنَّها اسمُ مَكَان، واسم مَكان بفَتْح الميم، والمعنى: لا مَوْضِع للإقامة؛ على كونها اسم مَكان، أو لا إقامةَ لكم، ويَقولون: لا إقامةَ لكم؛ لأنهم يُرِيدون الفِرَار، ولا يُرِيدون البقاء مع النبيِّ ﷺ في القِتال، إذ إنهم مُنافِقون، والمُنافِق ليس صَبورًا على القِتال، بل لا يُريد القِتال، ولو ظهَر الأمرُ في يَدِه لقاتَل المُسلِمين.

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾ إشارة واضِحة إلى القَوْميَّةِ والعَصَبيَّة؛ لأنه دعاهم باسْمِ الوطَن ما قال: يا إِخْوَتنا. ولا قال: يا أيُّها المسلِمون! إنما قال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾؛ لأنه ليس عنده دِينٌ يُقاتِل من أَجْله، وإنما هو قوميٌّ يُريد الحَمِيَّة فقط.

وقوله تعالى: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إلى مَنازِلكم من المدينة وكانوا خرَجوا مع النبيِّ ﷺ إلى سَلْعٍ جَبلٍ خارِج المَدينة للقِتال].

وقوله تعالى: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ حسب ما يُعرَف في اللغة العربية أنَّه نَفْيٌ عامٌّ؛ لأن (لا) النافية للجِنْس تُفيد العُموم، يَعنِي: ليس هناك أيُّ مُقام على أيِّ حال من الأحوال فارجِعوا، ومثل هذا التعبير إذا قيل لقومٍ ليس في قُلوبهم إيمانٌ لا يُبقِي منهم أحَدًا، لا بُدَّ أن يَرجِعوا.

ثُمَّ قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بناءً على هذا الأمرِ وأنه لا مُقامَ لهم: ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾ وهَؤلاء أَهونُ من الأوَّلين؛ لأن الأوَّلين دَعَوْا إلى الفِرار بدون استِئْذان، قالوا: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْ﴾، أمَّا هؤلاء فإنهم يَستَأذِنون النبيَّ ﷺ، ولكن استِئْذانهم للرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس كاستِئْذان المُؤمِنين الذين إذا كانوا معه على أَمْرٍ جامِع لم يَذهَبوا حتى يَستَأذِنوه، لكنهم يَستَأذِنون خِداعًا وتَمويهًا؛

ولهذا يَقـول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ﴾ أي: من المُنـافِقين ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ ﷺ إلى الرجوع.

يَقـولون: (يَستَأذِن) بمَعنى: يَطلُب الإِذْن؛ لأن (استَفعَل) تَأتي كثيرًا بمَعنَى: طلَب الشيءِ، ومَنِ استَغْفَرَ طلَب المَغفِرة، واستَعتَب: طلَب العُتبة والعِظة.

ويَقولون: الجُمْلة إمَّا أنَّها حال من ﴿فَرِيقٌ﴾ يَعنِي: حال قولهم يَقولون، وإمَّا أن تَكون عَطْفَ بيان أو بَدلًا من قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ﴾ وكِلاهما له وَجْهٌ:

أمَّا على قولنـا إنها حال؛ فلأَنَّ النَّكِرة هنـا وُصِفت، والنَّكِـرة إذا وُصِفت تَخصَّصت، فجاز وقوع الحال منها.

وأمَّا على قولنا بأنها بَدَلٌ أو عَطْف بيانٍ، فعلى حدِّ قول ابن مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَيُبْدَلُ الْفِعْلُ مِـنَ الْفِعْـلِ كَمَـنْ يَصِـلْ إِلَيْنـا يَسْـتَعِنْ بِنَـا يُعَـنْ[1]

إِذَن: يَجوز فيها وجهان: أن تَكون بدَلًا من قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ﴾، وأن تَكون عَطْفًا مثل البدَل، وأن تَكون حالًا من فاعِل (يَستَأذِن).

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [غير حَصينة يُخْشَى عليها]، يَقولون ذلك للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في مُبرِّر الاستِئْذان: إن بُيوتنا عورةٌ، ونَخْشى عليها من العَدوِّ. والعورة هنا يَعنِي: غير حَصينة؛ لأن الحِصْن يَحميها ويَستُرها، كما يَستُر الثوبُ عورة الرَّجُل، هذا مَعنَى قولهم: إنها عَورة؛ يَعنِي: مَكشوفة، ولا يُمكِن أن نَأمَن من هُجوم العَدُو عليها، وفي قِراءة لكنها غير سَبْعيةٍ: «عَوِرَةٌ» بكَسْر الواو، أَيْ: مَعِيبة.

---

(١) الألفية (ص:٤٩).

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُبطِلًا دَعْواهم: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ما] ﴿يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، وهنا يَنبَغي الوقوفُ على قوله تعالى: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾؛ لأنك لو وصَلت لأَوهَم أن قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ من قول المُنافِقين، فيَكون في ذلك تَناقُضٌ وفَسادٌ للمَعنى، فتَقول: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ وتَقِف، ثُمَّ تَستأنِف القِراءة وتَقول: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾: (ما) مَبنِيَّة على السُّكون.

ولو قال قائِل: مَن الذي يَقول: إنها حِجازِيَّة؟ لأن النصبَ ليس بظاهِر على الخبَر، أفلا يَجوز أن تَكون ﴿بِعَوْرَةٍ﴾ خبَر المُبتَدَأ مَرفوعة بضَمَّةٍ مُقدَّرةٍ على آخِرها مَنَع من ظُهورها اشتِغال المَحَلِّ؟

فالجَوابُ: دليلُه شاهِد من القُرآن، قال تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ فنَصَب؛ فدلَّ ذلك على أن القُرآن نزَلَ بمُقتَضى لُغة الحِجازِيِّين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾: ﴿إِن﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ما] فـ(إن) هنا نافِية؛ لأنها فُسِّرت بـ(ما)، و(ما) نافِية، ويَدُلُّ لذلك إتْيان (إلَّا) بعدها: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، فهذا دليلٌ على أنَّها نافيةٌ، و(إن) تَأتِي نافِية كما هنا، وتَأتِي شَرْطية، ومثاله: ﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ﴾، وتَأتِي مُخَفَّفة من الثَّقيلة: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾، وكقول الشاعِر:

مَا إِنْ أَنْتُمُ ذَهَبٌ وَلَا ... صَرِيف وَلَكِنْ أَنْتُمُ الخَزَفُ[1]

---

(١) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٦٦)، وشرح الأشموني (١/ ٢٥٤)، وهمع الهوامع (١/ ٤٤٩).

هذه زائِدة؛ لأن: ما إِنْ أَنْتُمْ: أي: ما أَنتُم.

وما الذي يُعيِّن هذه المعانِيَ؟

الجَوابُ: الذي يُعيِّن هو السِّياق، وهذا باتِّفاق العُلَماءِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، أي: أنَّ وُجود الأَلْفاظ المُشتَرَكة التي تَتَعَيَّن بالسِّياق ثَابِت في اللغة العربية.

لكنهم اختَلَفوا في مَسأَلة الحقيقة والمَجاز، فمِنْهم مَن أَثبَت ذلك، ومِنهم مَن نفَى وقال: إن المَجاز كالاشتِراك في المَعنَى، والاشتِراك أنتم تَقولون به، وهذا هو القول الراجِحُ كما سبَق عِدَّة مرَّات بأن الصحيح: أنه لا مَجاز في اللُّغة العربية.

يَقول تعالى: ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ هذا كلام الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، يَعنِي: ما يُريدون إلَّا فِرارًا، وهذه الجُملةُ جُملةٌ حَصريَّةٌ، يَعنِي: تُفيد الحَصْر، أي: أن هؤلاء ما لهم إرادة أبدًا سِوَى الفِرار من القِتال، فالبُيوت مُحَصَّنة، ولا يُخشَى عليها أكثَرَ ممَّا يُخشَى على المدينة، وليس لهم أَيُّ عُذْرٍ إلَّا عُذْرًا واحِدًا وهو الفِرار من القِتال؛ لأنهم لا يُريدون مُواجَهة العَدوِّ، بل هم العَدوُّ كما قال الله عنهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيان إِرجاف المُنافِقين بالمُؤمِنين، والإرجاف: هو أن يُذكَر للإنسان ما يَكون به الخوف والقلَق، وفي باب القِتال مُرْجِف ومُخَذِّل، والفرق بينهما أن المُرجِف من يُخوِّف، والمُخذِّل مَن يقَلِّل الرَّغْبة في الخير؛ فالمُرجِف يُرهِّبك، وأمَّا المُخذِّل فهو يُثبِّط عَزيمتك، يَقول: ما لكَ؟ وما الفائِدةُ؟ وما كذا؟ فبينهما فرق. فهؤلاء مُرْجِفون، ويَقولون: ليس هنا مَقام لكم؛ لأنه خطَرٌ عليكم؛ ولهذا قالوا: ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾، فيُستَفاد منه أن المُنافِقين من شأنهم الإِرْجاف بالمُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الاعتِزاز بالوطَن -حميَّةً للوطن- من صِفات المُنافِقين؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾، وقَصدُهم بذلك إِحْمَاءُ حمِيَّتهم الوطنية، وأمَّا الحديث الذي يُرْوَى: «حُبُّ الوَطَنِ مِنَ الإِيمَانِ»[1]، فإنه كذِب على الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وليس صحيح. أمَّا الاعتِزازُ بالوطَن لكَوْنه إسلاميًّا فهذا لا بأسَ بِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جَواز تَسْمِيـة المدينة بيَثرِبَ، هكذا استَدَلَّ به بعضهم، ووجهُ قول هـذا القائِلِ: إن الله تعالى حَكاه عنهم وأَقرَّه، ولكن بعض أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ قـال: لا يَدُلُّ على ذلك، بل إنما يَـدُلُّ على العكس، وأن تَسميتـها بيَثرِبَ إنما يَكون من المُنافِقين؛ لأن الله تعالى يَحكِي الكُفْر عن الكافِرين، فيَحكِي كلَّ ما يقوله هؤلاءِ الكُفَّارُ، من المُنافِقين وغيرهم، وهل ما حَكاه عنه من الكُفْر إقرارٌ له؟

الجوابُ: لا، إذَنْ: يُسْتَفاد من الآية أن تَسْمية المدينة بيَثرِبَ من شأن المُنافِقين؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «يَقُولُونَ: يَثْرِبُ. وَهِيَ المَدِينَةُ»[2]، وهذا وَاضِح بأن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يَرتَضِ بهذه التَّسميةِ.

ويَتفرَّع على هـذه الفائِدةِ: بيانُ ما كان عليـه من أُولئِك المُؤرِّخين -لا نَقول: العرَب بَل نَقول: الإسلامِيِّين- الذين هم إمَّعَةٌ، جاء المُستَشرِقون فكانوا يَتحَدَّثون عن الرسول ﷺ باسْمِ مُحَمَّد فقَـطْ قالوا: مُحَمَّد. كما قال الكُفَّـار في عهد الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ويَتحَدَّثون عن المدينـة بأنها يَثرِبُ، فجاء هؤلاء المَساكينُ يُقلِّدون أُولئكَ المُستَشرِقين، فساروا يُعبِّرُون عن الرسول بكلِمة مُحَمَّدٍ، ويُعبِّرون عن المدينة

---

(١) انظر: الموضوعات للصغاني رقم (٨١)، والمقاصد الحسنة للسخاوي رقم (٣٨٦)، والفوائد المجموعة للشوكاني رقم (١٧٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل المدينة، باب فضل المدينة، رقم (١٨٧١)، ومسلم: كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها، رقم (١٣٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

بكلِمة يَثرِبَ، وكأنَّ هذا هو الفَخْر والرُّقِيُّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن أولئك المُرْجِفين لم يَقْتَصِروا على الإِرْجاف بل ضَلَّلوا الناس بقولهم: ﴿فَٱرْجِعُواْ﴾، فيُستَفاد منه فائِدة ما تَتَفرَّع على هذا: أن كل مَن دعا إلى الرُّجوع عن الحقِّ ففيه شبَهٌ بالمُنافِقين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعُواْ﴾ هؤلاء أَرجَفوا أوَّلًا، ثُم دعَوْا إلى التَّرْك ﴿فَٱرْجِعُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيانُ مَكْر المُنافِقين حيث جاؤُوا يَستَأذِنون الرسول ﷺ تَمويهًا، وأنه ليس في النِّية البَقاء، لكن يُموِّهون ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾، ففيه دليلٌ على تمويهِ المُنافِق، وإظهار حاله بحال المُؤمِن المُنْقاد الذي لا يَنصَرِف إلَّا بعد الاستِئْذان، مع أن الاستِئْذان في مثل هذا الأَمرِ أو في مثل هذه الحالِ من الاستِئْذان بالحَقِّ من شأن المُؤمِنين، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور:٦٢].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن مِن شَأْن المُنافِقين الكذِبَ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ وهُمْ كَاذِبون.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيَانُ إحاطة عِلْم الله تعالى بِمَا في القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

أمَّا قوله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ فهذا قد يُعلَم؛ لأنه ظاهِر أن البُيوت حَصينة ولا عليها من العَدُوِّ، لكن ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ الإرادة في القَلْب لا يَعلَمها إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ أو صاحبها، أو مَن أَطلَعه الله تعالى عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وُجوبُ تكذيب الناطِق بالباطِل، فهل يَصِحُّ التعبير بكلمة (وُجوبِ) أن نَقول: (مَشروعِيَّة)؟ إن نظَرْنا إلى أن البعض يَجِب إبطاله قلنا: (يَجِب)،

لكن الكَـلام على: هل يُؤخَذ من الآية مَشروعية إبطال قول النـاطِق بالباطِل؛ لأن الله تعالى أَبطَله في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾.

• ● ۞ ● •

الآيــة (١٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب:١٤].

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾: (لو) هذه شَرْطية، وفِعْل الشَّرْط فيها ﴿دُخِلَتْ﴾، وجوابُ الشَّرْط: ﴿لَآتَوْهَا﴾، ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ نائِب الفاعِل فسَّره المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ [بالمَدينة]، يَعنِي: لو دُخِلَتِ المدينة عليهم من أَقْطارها، وتَفسيره إيَّاها بالمدينة يُؤيِّده قوله تعالى في أول الآية: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾.

وفسَّره بعضُهُم بالبُيوت أي: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ البُيوت ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾، ويُؤَيِّد هذا التَّفسيرَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، لكن يُرجِّح الأوَّل أنها المدينة قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾؛ لأن الغالِب أن كلِمة ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ لا تَأتِي للبُيوت؛ لأن البُيوت صَغيرة، فجِهاتُها لا يُطْلَق عليها قُطْرٌ، وإنما الأقطار تكون في الشيء الكبير؛ ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي: نَواحيها]، يَعنِي: لو دخَل العَدوُّ المدينةَ من نواحيها كلِّها، أو مِن أيِّ ناحيةٍ منها [﴿ثُمَّ سُئِلُوا﴾ أي: سأَلهم الداخِلون الفِتْنة، ﴿لَآتَوْهَا﴾ بالمَدِّ والقَصْر أي: أَعطوها].

وقوله تعالى: ﴿سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ نائِب الفاعِل المُنافِقون، والسائِل -الفاعِل

في المَعنَى- الذي دخَل المدينة من أَقطارها.

فلو سأَلَهم هذا الداخِلُ الفِتْنة يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الشِّرْكَ]، والدليل على أن الفِتْنة بمَعنى الشِّرْك قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة:١٩٣]، هذا يَكون شِرْكًا؛ وقال الإمامُ أحمَدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣]، قال: «أَتَدْرِي ما الفِتْنة؟ الفِتْنة: الشِّرْك»(١).

فهؤلاء لو دُخِلت عليهم المدينة لَمْ يَكُن عندهم إخلاصٌ في الإسلام وبَقاءٌ علَيه فبمُجرَّد ما يَسأَلُهم الداخِلون الكُفْر يُوَافِقون عليه؛ لأنهم قَوْمٌ لا يُريدون إلَّا الدنيا فقط، يُريدون أن يَعيشوا في الدنيا ولو عِيشةَ الحِمار! أمَّا أن يَعيشوا عِيشة المُؤمِنين فإنهم لا يُريدون هذا.

ولذلك يَقول: «لَآتَوْهَا» هذا المَدُّ، والفَرْق بينهما أن (أَتَى) بمعنى: جاء، و(آتَى) بمعنى: أَعطَى، وتفسيرُ القِراءَتَيْن أو مجموع التَّفسير يَدُلُّ على أنَّهم يُعطُون ما سُئِلوا، ويَأتون إليه بانقِياد، يَعنِي: أَتَى الشيءَ يَعنِي: جاءَهُ باختياره، وآتاه بمَعنى: أَعطاه ولو عن كُرهٍ، ولكن مع ذلك هَؤلاء قَوْم يُعطُون ما سُئِلوا عن اختيار؛ ولهذا في القِراءة الثانية: ﴿لَأَتَوْهَا﴾ لجاؤُوها.

فصار هَؤلاء القومُ الذين يَستَأْذِنون النبيَّ ﷺ بحُجَّة أن بُيوتَهم عَورةٌ صار الأَمْر خِلافَ ما قالوا؛ لأن الله تعالى أَخبَر عنهم، وهو عَزَّوَجَلَّ أَعلَمُ بما في قُلُوبهم، وهذا مِنِ اطِّلاع الله تعالى على ما في القُلوب؛ أَخبَر عن أَمْر مُستَقبَل لم يَقَع، يَصدُر من قَوْم لا نَعلَم نحن ما في قُلوبهم ولكن الله تعالى يَعلَم؛ واللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَعلَم

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى رقم (٩٧)، وذكره ابن تيمية في الصارم المسلول (ص:٥٦).

ماذا يَحدُث من عَبدِه، لو حصَل لهم ما يَحصُل به هذا القَصدُ، بل إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَعلَم أَبْلَغَ من ذلك، قال عن الذين يَقولون: إنهم لو رُدُّوا إلى الدُّنْيا لعمِلوا صالِحًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨]؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَعلَم ما في قَلْب الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾: ﴿تَلَبَّثُواْ﴾ بمَعنَى: تَريَّثوا، يَعنِي: لا يَتريَّثُون في إعطاءِ الفِتْنة وقَبُولها إلَّا يَسيرًا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ قيل: إن هذا بمَعنَى: إلَّا عدَمًا؛ لأن اليَسير والقليل قد يُراد به العدَمُ، وقال بعضهم: ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي: إلَّا قليلًا على وجه الحقيقةِ، وهذا الزمَنُ اليَسيرُ هو ما بين السُّؤال والجواب، يَعنِي: ما بين أن يُسأَل ثُمَّ يُجيب، هذه المَسافة من المُدَّة قَصيرة جِدًّا، وهي كالمَسافة التي بين قول القائِل: بِعْتُك هذا الشيءَ. فيَقول المُشتَرِي: قبِلْتُ. يَعنِي: أنهم -والعِياذُ بالله- لا يَتلبَّثون ولا يَتريَّثون أبدًا، بل يَقبَلون فَوْرًا، فليس بين قَبولهم وسُؤال فِتْنة إلَّا ما بين مُدَّتَيِ السؤال والجواب.

وفي الحَقيقة أنَّ هذه المُدَّةَ قصيرةٌ كالعدَمِ؛ ولهذا فُسِّر قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ يَعنِي: إلَّا عدَمًا ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن المُنافِقين أشَدُّ الناس ذُعْرًا؛ لِقَوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾؛ لأنَّ عِندهم ذُعْرًا من هؤلاء الذين دخَلوا من أَقطارها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قُرْب المُنافِقين من الكُفْر والشِّرْك؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سُئِلُواْ

ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا﴾ مُبَادِرين، لَا يَتلبَّثُون ويَقولون: نَنْظُر في الأمر!.

وهل يُسْتَفاد من هذه الآيةِ أنَّه لا حُكمَ للإِكْراه، وأن الإنسانَ إذا كفَر مُكرهًا، فإنه يَترتَّب على كُفْره حُكْم الكافِر؟ أَقول: هل يُستَفاد من الآية أنه لا حُكمَ للإكراه وأن مَن كَفر مُكرهًا فعليه الإِثْمُ؟

الجَوابُ: أن هَؤلاءِ سُئِلوا ما أُكرِهوا بمُجرَّد السؤال وافَقوا، فليس فيه مُعارَضةٌ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ [النحل:١٠٦] لا يُعارِض هذه الآيةَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيانُ أن المُنافِق حياتُه حياةٌ مادِّيةٌ يُريد أن يَعيش سَواءٌ كان كافِرًا أو غير كافِر؛ لأن هؤلاء إذا سُئِلوا الفِتْنَةَ آتَوْها، إِذَنْ: فإيمانهم ليس إيمانًا حقيقيًّا، وإلَّا المُؤمِن الحَقيقيُّ لو سُئِل الشِّركَ ما أَشرَك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَؤُلاءِ المُنافِقين أنَّ المُنافِقين أصحابُ غَدْرٍ وخِيَانة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾، وهُمُ الآنَ يُحاوِلون الإِدْبَار، لكنَّهم يُموِّهون بسؤال النَّبيِّ ﷺ واستِئْذانه.

إِذَنْ يَتفرَّعُ على هذه الفائِدةِ: أن كلَّ مَن نقَض العهد ففيه شبَهٌ من المُنافِقين؛ ولهذا جاء الحديثُ عن النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: وَمِنْهَا إِذَا عَاهَدَ غَدَرَ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «**وإذا وعد أخلف**»، وأخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٨)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بلفظ: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا... وإذا عاهد غدر**».

ويَتفرَّع على ذلك: أنه إذا كان الغَـدْر من صِفات المُنافِـقين، فالواجِبُ على المُؤمِن البُعدُ عنه، ولو لم يَكُن من الغَدْر إلَّا أنه من صِفات المُنافِقين لكان ذلك كافِيًا في وُجُوب البُعْد والحَذَر منه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: استِهانةُ المُنافِق بحقِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾ يَعنِي: نَقْض العَهْد مع إنسان مِثْلك قد يَكون أهونَ، لَكِن نَقْض العهد مع الله عَزَّوَجَلَّ أشَدُّ وأعظَمُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تحريم تَوْليـةِ الأدبار عند مُلاقاة العَـدوِّ؛ وجهُ ذلك أن الله تعالى ذكَرَ هـذا عن المُنافِقين تحذيرًا منه، وقد دلَّتِ الآية الكريمة في سـورة الأنفال على أنهم من كبائر الذُّنوب؛ لقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَـٰرَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال:١٥-١٦]، وجاءَت في الأحاديث بِعَد ذلك من المُوبِقات، يَعنِي: من المُهلِكات؛ لأنه من الكبائِر.

• • ۞ • •

الآيــة (١٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ [الأحزاب:١٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟﴾ الجُمْلة هذه مُؤكَّدة باللَّام و(قد)، قَسَمٌ مُقدَّر، كلَّما جاء مثل هذا التَّعبيرِ في القُرآن، فإنه مُؤكَّدٌ بالمُؤكِّدات الثلاثة، يَعنِي: واللهِ لقد كانوا عاهَدوا الله تعالى مَن قَبلُ.

وتَقدَّم لنا أن الله تعالى يُقسِم عن الشيء لا في جانب الإنكار، ولكن في جانب الأهمية، وقد يُقسِم عليه في جانب الإنكار مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧]، هنا أكَّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا العَهْد مِنْهم أنَّهم: ﴿عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾، وهذا العَهدُ بينهم وبين الرسول ﷺ، والمُعاهَدة مع الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مُعاهَدة مع الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:١٠]، فهُم عاهَدوا الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ألَّا يَفِرُّوا ولا يُوَلُّون الأدبار، ولكنهم نقَضوا العهد؛ لأن نَقْض العهد والخِيانة والكذِب من خِصال المُنافِقين، فهذه سَجِيَّة فيهم.

قوله تعالى: ﴿عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾؛ ما مَحلُّ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يُوَلُّونَ﴾ من الإعراب؟

قال بعضُهم: إنها لا مَحلَّ لها من الإِعْراب؛ لأنها جوابٌ لقَوْله: ﴿عَٰهَدُواْ﴾، وقال بعضهم: إنها بَيان للمُعاهَدة؛ لأن المُعاهَدة التي وقَعَت أنهم لا يُولُّون الأدبار، وكلِمة: ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ تَحتاج إلى مَفعولَيْن؛ المَفعول الأوَّل: ﴿ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ والمَفعول الثاني: مَحذوف، والتقدير: لا يُولُّون عَدوَّهم أَدْبارَهم، أَوْ تولية الدُّبر. ومَعناه: الانصِراف والانحِراف، فبَدَلًا من أن تَكون وجوهُهم نحوَ العَدوِّ تَكون أدبارهم نحو العَدوِّ، فهم أَقسَموا بالأوَّل، وعاهَدوا أنهم لا يُوَلُّون الأدبار عند مُلاقاة الأعداء، ولكنهم نقَضوا العَهْد.

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كان عَهْد الله مَسؤُولًا عن الوَفاء به]، فعلى هذا تَكون المَسؤُولية ليس على العَهْد نفسِه بل عن الوَفاء به، فالعَهْد مَسؤول، يَعنِي: مَسؤُول عن الوفاء به، والسُّؤال عن الوفاء به سُؤال عن وقوعه أيضًا، فيُقال مثلًا: أليس بيني وبينك عَهْد؟ ألم تَنقُض العهد؟ فيَكون السؤال عن نَفْس العَهْد وعن الوَفاء به.

وهذه المَسؤُولية متى تَكون في الدُّنيا أو في الآخِرة؟

والجوابُ: أمَّا المَسؤُولية التي بين الإنسان وبين ربه فإنها في الآخِرة، وأمَّا المَسؤُولية التي تَكون بينه وبين الناس فهي في الدنيا، يُطالَب بالوفاء بالعَهْد، قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

إثبات الحِساب؛ لقوله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾، فكُلُّ ما بَيْنَك وبين الله عَزَّوَجَلَّ من الحُقوق، فإنَّك مَسؤُول عنه يوم القِيامة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف:٦-٧].

الآيــة (١٦)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب:١٦].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾: ﴿لَّن﴾ تُفيد ثلاثَةَ أشياءَ؛ النَّفي والنَّصْب والاستِقْبال، يَعنِي: أن الفِعْل المُضارِع مُحتَمِل لأَنْ يَكون للحال أو للاستِقْبال، فإذا دَخلَت عليه (لَنْ) تَعيَّن أن يَكون للاستِقْبال.

وهل (لَنْ) للنَّفْي المُؤَبَّد، أم تَكون للتَّأْبيد وغير التأبيد؟

الجوابُ: لغير التَّأبيـد دائِمًا، وتَكون للتأبيـد، يَعنِي: تَكون لهذا ولهذا، فمِثال التأبيد قوله تعـالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة:٢٤]، وقوله تعـالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾، وتَأتِي لغَيْر التأبيد، أو رُبَّما يَنْـظُرون لأكثَرَ من هذا، هل هي للتأبيد أو لغير التأبيد؟ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران:١١١] هل أنهم قد يَضُرُّون المُؤمِنين بغير أذًى أو لا يَضُرُّونهم إلَّا أذًى.

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة:٩٥] هـذا للتَّأْبيـد، فهُمْ قد يَتمَنَّوْن الموت في عذاب النار يَتمَنَّوْن الموت، وفي الدنيا لا يَتمنَّوْن الموت، ولكن حتى ولو في الدُّنْيا فإنها مُؤكَّدة بقوله تعالى: ﴿أَبَدًۢا﴾.

الصَّحيحُ: أنَّ (لن) لا تَطلُب التَّأبيد كما قال ابن مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَمَـنْ رَأَى النَّفْـيَ بِلَـنْ مُؤَبَّـدَا فَقَوْلَـهُ ارْدُدْ، وَسِـوَاهُ فَاعْضُـدَا

فلا يُمكِن أن تَأتِيَ للتأبيد أبدًا يَعنِي: مَعنـاه: لا تَسْتَلزِم التأبِيد وإلَّا قد تُفيده؛ ولهذا قال أهل السُّنَّة: إن قول الله تعالى لِموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣] لا يَستَـلزِم أنه لا يَرَى الله تعالى لا في الدنيـا ولا في الآخِرة، وأمَّا المُعـتَزِلة ومُنْكِرو رُؤْيَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنهم يَقولون: (لَنْ) تُفيد التأبيد، فتَدُلُّ على أنَّ الله تعالى لن يُرَى أبدًا.

يَقـول الله تعـالى: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ يَعنِي: فإنْ لَم تَفِرُّوا من الموت أو القَتْـل نفَعكم الفِرارُ، هذا القيد لِبَيانٍ واقِع؛ لأنه لا فِرارَ إلَّا إذا فَرُّوا، فإنه لا يَنفَعُهم أيُّ شيء من الموت أو القَتْل.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذًا﴾ يَعنِي: لو فُرِض أنكم فرَرْتُم من الموت أو القَتْل، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذًا﴾ إن فرَرْتم ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا بعد فراركم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ بقية آجالِكم]، يَعنِي: على فَرْض أنكم فرَرْتُم من الموت أو من القَتْـل، فهل ستَبقَوْن في الحياة؟ لا، لا يَبقَوْن إن فرُّوا، ولا يُمتَّعون إلَّا قليلًا، وهو بَقيَّة آجالِهم.

وهذا على تَقـدير فِرارهم، وحينـئذٍ ما الفائِدة من أن يَـدَع الإنسان القِتـال المَفروض عليه ويُولِّي الدُّبر لأَمْر قد يَنفَعُه وقد لا يَنفَعُه، فقد يَموت في حال تَولِّيه، وقد يَبـقَى ويُعَمَّر، لكن لو بَقِيَ وعُمِّر هل سيَبـقَى أبدًا؟ لا، فلا يُمتَّـع إلَّا قليلًا، ومَهما طال الأمَد به فإنه قليل.

---

(١) انظر: شرح الكافية لابن مالك (٣/ ١٥١٥).

ولهذا الدُّنيا كلُّها بالنِّسبة للآخِرة ليست بشيءٍ؛ قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، وأَخبرَ النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن: «مَوْضِع سَوْطِ الْإِنْسَانِ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١)، فالمَتاع في الدُّنيا في الحقيقة ليس بشيء بالنسبة لوَقْت الآخِرة؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ثُمَّ هناك شيءٌ آخَرُ: أنَّهم لو قُتِلوا في سبيل الله تعالى فإنهم قُتِلوا ولكنهم أحياءٌ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٥٤].

هذا القَوْلُ باللسان نُهينا عنه وحتى الظَّنُّ بالقَلْب نُهينا عنه، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]، فلا يَجوز القولُ ولا الحُسْبان بأن مَن قُتِل في سبيل الله تعالى يَكون ميتًا، بل هو ميت البدَن، لكنه حيُّ الرُّوح حياة بَرْزخية، وليست كحياة الدُّنيا، ولو كانت كحَياة الدُّنيا ما جاز أن يُدْفَن هؤلاء؛ لأنا لو دَفَنَّاهم وهم أحياءٌ كالحياة الدُّنيوية لكنا قد قتَلْناهم وأَهلَكْناهم.

وبهذا نَعْرِف ضَلال مَن قالوا: إنهم أحياءٌ يَسأَلون لك إذا سأَلْتَهم أن يَدعوا الله تعالى لك، ويُجيبونك ويَتوَصَّلون بهذا الشيءِ إلى الإشراكِ بهمْ وبالأنبياء وبمَن يَزعُمونهم أَولياءُ؛ لأَجْل تعميم الأحوال كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨]، أو يُقال أيضًا لهؤلاء الذين جاؤُوا للقِتال

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قد يَموتون بدون قَتْل، خاصَّة في الشُّهداء ومَن هُو أفْضَل منهم؛ هذا هو الظاهِر، ويُحْتَمَل أن يَكون هذا خاصًّا بالشُّهَداء؛ لأن الشُّهَداء تَعرَّضوا للموت ابتِغاءَ وَجْه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فبَعضُ أهـل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يَقول: إذا ثبَت هذا للشُّهداء في الحَيـاة البَرْزَخية فلِمَن هو أفضَلُ منهم أثبَتُ، مثل: الصِّدِّيقين والأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

ولكن عِنـدي أن فيه احتِمالًا بأن هذا خاصٌّ بالشُّهَـداء؛ وذلك لأن الشَّهيد ليس كغيره، إذِ الشَّهيـد عرَّض نَفْسه للمَوْت وباع نفسَه فيُجازَى بأن يَكون حيًّا، لكن المشهور أن مَن هو أعلى من الشُّهَداء له ذلك الحُكْمُ، والأنبيـاء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لهم خِصيصة أخرى أيضًا ليست في غيرهم، وهي أن الأرض لا تَأكُل أَجسادَهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٨٨]، وقال: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:٤٦] ومثل هذا التَّعبيرِ ذكَر المُفسِّرون أنه يُراد به العدَم، يَعنِي: لا يُؤمِنون أبدًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: في الآية هذه دَليـلٌ على أنه لا فِرارَ من قدَر الله تعالى؛ لقـوله: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾، قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ مُتعَـلِّقٌ بـ﴿فَرَرْتُم﴾ أم بالفِرار؟ ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ إن فرَرْتُم، وتَكون جُملةً شَرْطيـة، و﴿إِن فَرَرْتُم﴾ جُملة مُعتَرِضة، وهذا أَوضَحُ في المَعنَى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه لا فِرارَ من قدَر الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وهَلْ يُسْتَفاد من الآية الكريمة إِبْطال الأَسباب؛ لأن الإنسان لو رأَى نارًا تَلْتَهِم الشجَر مُقْبِلة عنه، هل يَهْرَب أم لَا؟ يَهرَب، فربَّما يَنجو.

فلو قال قائِل: هذه الآيةُ تَنفِي العمَل بالسبَب؟.

فالجَوابُ على ذلك أن نَقول: إذا كـان العمَل بالسبَب مُبـطِلًا لحُكْم شَرْعه، فإنه لا يَجـوز كهذه الحالِ، فإبطال الأَسْباب القدَرية بانتِهاك الأحكام الشَّرْعية هذا لا يَجوز، يَعنِي: أن يَترُك الإنسان الحُكْم الشَّرْعيَّ الواجِب خوفًا من آثاره هذا ليس بجائِز، لكن سببٌ حقيقيٌّ مَأذونٌ فيه شرعًا يُفعَل أم لا؟

الجَوابُ: إذا كان سببًا حقيـقيًّا مَأذونًا فيه شَرْعًا فلْتَفعَلْه، فما نَقـول للرجُل: إذا رأيت النـار مُقبِلةً عليك فقِفْ لا تَفِرَّ، لا يَنفَـعُك الفِرار!! هذا ليـس بصحيح، بل نَقول في هذه الحالِ: فِرَّ؛ لأن هذا سببٌ مُبَاح مَأذونٌ فيه شَرْعًا وسبَب حقيقيٌّ، لكن بأن نَجعَل الأسباب مُعطِّلة للأحكام الشرعية هذا لا يَجوز.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بيان نُفُـوذ حُكْم الله عَزَّوَجَلَّ الشَّرْعيِّ والقدَريِّ، أمَّا القـدَريُّ فلا إرادةَ لك فيـه، وأمَّا الشَّرْعيُّ فلك فيـه إرادة؛ ولهـذا نَقول: بالنسبة للشَّرْعيِّ وجوبُ تَنْفيذ حُكْم الله الشَّرْعي؛ لأن الله تعالى عاب هؤلاء الفارِّين؛ لكون فِرارِهم يَتضمَّن إِسْقاطَ حُكْمٍ شَرْعيٍّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن البَقاء في الدنيـا وإن طال فهو قليل؛ لقوله تعـالى: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقد قال الله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٧٧].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَوْبيـخ هَؤُلاء الذين فرُّوا للبَقاء على حيـاتهم؛ أو للإِبْقـاء على حياتهم يُؤْخَذ من أَمْر الله تعـالى نَبيَّه ﷺ أن يَقول لهم: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾، وهذا لا شكَّ أنه على سبيل التَّوْبيخ لهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذًا﴾ يَعـنِي: لو فرَرْتم ونجَـوْتم من هذه الحادِثةِ لا تَنجُـون من الموت،

فـ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن المُنـافِقين أهلُ جُبْـن وذُلٍّ وخَـوف ورُعْب، وهـذا أيضًا يَتَرَتَّب عليه مُشكِلة، وهي أن الخوف من الموت أمرٌ طبيعيٌّ، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عـن مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص:٣٣]، وهذه فيها إِشْكال.

وهؤلاء يَخافون من القَتْل كما أشَرْنا إليها قبل قَلِيل، فالخَوْف من القَتْل الذي يَسْتـلزِم إِبْطال حُكْم شَرْعيٍّ هذا لا يَجوز، أمَّا هـذا خاف من القَتْل؛ لأنه تَسبَّب له وهو مُمكِن أن يُقتَـل أم لا؟ فمُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يُمكِن أن يُقتَل؛ لأنه فعَـل ما يَستَلزِم القَتْل عند هؤلاء.

• ● ۞ ● •

الآيــة (١٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب:١٧].

ثُمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مَعنَى ﴿يَعْصِمُكُم﴾: [يُجيرُكم]، ولكن الصواب المُراد بها يَمنَعُكم؛ لأن العِصْمة هي المَنْع، ومنه المَعْصوم يَعنِي: المَمنوع من الخطَأ، فالصواب أن يَعصِمكم أن يَمنَعَكم من الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى﴾ إعرابُ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾: ﴿ذَا﴾ مُلغاةٌ؛ لأنها إذا جاء بعدها اسمٌ مَوْصولٌ، فإنها تكون مُلغاةً مثل: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ومِثل: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾ يَنفَعُكم ﴿يَعْصِمُكُم﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم﴾ الاستِفْهام هنا يُراد به النَّفيُ، يَعنِي: لا أحَدَ يَعْصِمُكم، وإذا جاء النَّفيُ بصِيغةِ الاستِفهام فإنه أبلَغُ من النَّفيِ المُجرَّد؛ لأنه يَكون نَفيًا مُشْرَبًا بالتَّحدِّي كأنه يَقول: أَخبِروني أَيَعْصِمكم أحَدٌ من الله تعالى إن أَراد بكم سُوءًا.

فهذه قاعِدة في كل ما يَكون فيه الاستِفْهام بمَعنَى النَّفيِ، أن نَقول: (عُدِل عن النَّفْيِ المَحْض إلى الاستِفْهام؛ ليَكون مُشرَبًا بمَعنَى التَّحدِّي).

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: يَمنَعُكم منه إن أَراد بكم سُوءًا؟

الجَـوابُ: لا أحَـدَ؛ يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا ﴾ هَلاكًا أو هَزيمـةً]، هلاكًا إذا لم يَكُن هناك قِتالٌ، أو كان قِتالٌ فقُتِلتم أو هَزيمةٌ إذا غُلِبتم وبقِيتم، وكلُّ ذلك سوءٌ، لكنه سُوء بالنِّسْبة للمُكلَّف، أمَّا بالنِّسْبة لفِعْل الله عَزَّوَجَلَّ فإنه خَيرٌ؛ لأنه لِحِكْمة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أو يُصيبكم بسُوء إن أَراد الله بكُمْ رَحمةً خَيرًا]، المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قدَّر هذه الجُمْلةَ لأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكِيٌّ جِدًّا قال: أو يُصيبكم بسُوءٍ. (يُصيبكم) معطوفةٌ على (يَعصِمكم)، يَعنِي: أو مَن ذا الذي يُصيبُكم بسُوءٍ إن أَراد الله تعالى بكم ﴿رَحْمَةً﴾ خيرًا.

والجَوابُ أيضًا كالسابِق لا أحَدَ، وإنما قدَّمَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [أو يُصيبكم بسُوء] على خِلاف ظاهِر السِّياق؛ لأن الرحمة لا تُعَدُّ مُصيبةً حتى تَحتاجَ إلى العِصْمةِ، فإنَّه إذا أَراد الله عَزَّوَجَلَّ بالإنسان رحمةً لا يُقـال: مَن ذا الذي يَعصِمكم منه، لأن الرحمـة مَطلوبة، لا يَتَطلَّب الإنسان فيـها أحَدًا يَعصِمه منها؛ فلهذا قَدَّر قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: [أو يُصيبكم بسُوء] يَعـنِي أي: يُصِيبكم أحَـدٌ بسُوءٍ إن أَراد الله تعالى بكُمْ رَحْمـةً، ولكن الصحيح أنَّه لا حاجةَ إلى هذا التَّقديرِ، فإذا جَعَلنا العِصْمة بمَعنَى المَنْع فالمَعنَى: مَن الذي يَمنَعُكم من الله تعالى إن أَراد بكُمْ سُوءًا، ومَن الذي يَمنَعُكم من رَحْمته إن أَراد بكم رَحْمة، فالفِرار لا يَمنَـعُكم من السوء الذي أَراد الله تعالى بكُمْ، والبَقاء لا يَجلِب لكم الرَّحْمة التي أَراد الله تعالى بكم، فالكُلُّ بيَدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَنفَعُكم الفِرارُ ولا البَقاء.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خَيْرًا]، فإذا كُنَّا فسَّرْنا الأوَّل بالهلاك والهَزيمة، فالمُراد بالخَيْر هنا النَّصْر والبَقاء.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غيره ﴿وَلِيًّا﴾ يَمنَعهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يَدفَع الضُّرَّ عنهم]؛ أي: لا يَجِدون لهم -أي: هؤلاء الذين فرُّوا من القِتال- أحَدًا يَنفَعهم، أو يَجلِب لهم الخَيْر، أو يَدفَع عنهم الضُّرَّ، لا يَجِدون وَلِيًّا، والوليُّ هو مَن يَتولَّى أمرًا، ويَعتَنِي به، فهؤلاء لا يَجِدون أحَدًا سِوَى الله تعالى.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِيًّا﴾ يَعنِي: بالولاية العامة؛ لأن ولاية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَنقَسِم إلى قِسْمَيْن:

ولاية عامَّة: تَشمَل كلَّ أحَدٍ.

وولاية خاصَّة: للمُؤمِنين فقَطْ.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:١١].

أمَّا في المَعنَى العامِّ فمِثْل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦٢]، فإن هذه هي الولاية العامَّة؛ لأن الله تعالى وَلِيٌّ على كل أحَد بالمَعنَى العامِّ الذي هو التَّدْبير والمُلْك والسُّلطان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ النَّصير: هو الذي يَنصُرُك عند مُلاقاة الأعداء ويَمْنَعُك منهم، فهؤلاء ليس لهم أحَد يَتَوَلَّاهم لجَلْب الخير لهم، ولا يَنصُرهم لدَفْع الضَّرَر عنهم؛ لأن الأَمْر كلَّه لله تعالى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: نَفاذ حُكْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أنَّ حُكْم الله تعالى نافِذٌ في الخَلْق لا يَمنَعه أحَد، وجهُ ذلك ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، والاستِفْهام هنا كما سَبَق بمَعنَى النَّفي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات الإرادة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الرَّدُّ على بعض طوائِف القَدَرية الذين يَقولون: إن الله تعالى لا يُريد السُّوء، يُريد الخيرَ، لكن لا يُريد السُّوء؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾، وفي الآيَة إِشْكال: وهو أن ظاهِرها أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُريد السُّوء، مع أن النبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَقول: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1]، فما هو الجَوابُ؟

نَقول: السُّوء بالنِّسبة للمَفعولات، أمَّا بالنِّسبة لِفِعْل الله تعالى نفسِه -الذي هو فِعْله- فليس بسُوءٍ، فالمَرَضُ مثَلًا سوءٌ بالنسبة للعَبْد يَسوؤُه ولا يَسُرُّه، لكنه بالنِّسبة لتَقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له خيرٌ وحِكْمةٌ، كما أَشَرْنا إلى هذا كثيرًا؛ إذَنْ: نَقول في الجواب على هذا الإِشْكالِ: إن السُّوءَ عائِدٌ إلى المَفعول لا إلى الفِعْل الذي هو تَقدير الله تعالى.

ونَظير ذلك: لو أن أبًا شَفيقًا رحيمًا أُصيب ولَده بداءٍ فكَواه بالحديدة المَحماةِ على النار، لكان هذا لا شَكَّ يَسوء الطِّفْل أو يَسوء الولَد؛ لأنه يُؤْلِمه أو يُوجِعه، وهو بالنِّسبة لِفِعْل الأَبِ ليس إساءةً، بل هو خَيْر وإن كان يُؤلِمُ الطِّفْل الولد.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١)، من حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا مَانِعَ لما أَعطَى ولا مُعطِيَ لما منَعَ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾، فلا أَحَدَ يَمنَع ما أَعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا أَحَد يُعْطِي ما منَعه الله تعالى، وعلى هذا قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ**»(١).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن فيها حَثًّا على تَعَلُّق الإنسان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دُوْن غيره؛ لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾، فإذا كان الأَمْر كلُّه بيَد الله تعالى فإن الإنسان يَتعَلَّق بربِّه دون غيره.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن أُولئِك الكُفَّارِ لن يَجِدوا أحَدًا يَنصُرهم أو يَتولَّاهم دون الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ويَترَتَّب على ذلك: قَطْع كل عُلقَةٍ تَكون بين المُشرِكين وبين أَصنامهم، وأن أَصنامهم لا تَنفَعهم مَهما كان الأمرُ، ولكنه يَرِدُ على هذا إشكالٌ وَهو أن هؤلاء الذين يَدْعون الأصنام قد يَحْصُل لهم ما دعَوْهُ أو ما دعَوْا به هذه الأصنامَ، فكيف نَقول: إنها لا تَنفَعهم؟

فالجواب: أن هـذا قد يَقَع ابتِلاءً وامتِحانًا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ونحن نَعلَم أن هذا لم يَحصُل بدُعـاء هذه الأصنامِ، وإنما حصَل عنـده وما حصَل عنـد الشيء ليس كالذي حصَل بالشَّيء.

فإن قلت: نحن لا نَقبَـل منك: أنه حصَلَ لا بدُعائهم، ما دام الرجُل دعا ثُم حصَل المُراد؛ فكيـف تَقول: إنه من أَمْرٍ خارِج ليس من الدُّعـاء من دُعائهم! فهذا رجُل دعا صاحِب القبر وقال: يا سَيِّدِي يا مَوْلاي يا فُلانُ يا فُلانُ، أنا فَقيرٌ أَرجو

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، وأخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أن تُعطيَني مالًا! وفي اليوم نفسِه مات قريبُه الذي خلَّف مَلايين ولا يَعصِبه إلَّا هو، فأنت تَقول: من تَقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو يَقول: هذا من الوليِّ؛ فمَن قال لكَ: إنه استِدْراج؟

والجَواب: هو ابتِلاء -يا إخواني- ولكن ما حصَل هو فِتنةٌ وامتِحانٌ، وقد قُلنا له: هذه فِتنةٌ ودُعاؤُك لم تُحصِّل منه شيئًا، لكن هذا حصَل عند دُعائِك لا بدُعائِك.

فقد يَقول: تبًّا لكم أنتم لا تَعرِفون قَدْر الأَوْلِيَاء، وأنا دَعَوْت وحصَل لي مُرادي، ورُبَّما يَتحدَّانا يَقول: أَدْعُو مرةً أُخرى فيَأتي القدَر مُوافِقًا!

ونَقول: الله عَزَّوَجَلَّ قطَع كلَّ تَعلُّق بغيره ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأحقاف:٥]، ونَعلَم بالآية الكريمة أن هذا لا يَستَجيب لك إلى يوم القِيامة وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ ﴾ [فاطر:١٤]، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ:٢١-٢٢].

وهذه آياتٌ واضِحة جدًّا أنه لا يُمكِن أن يَستجيب له، وإذا لَمْ يُمكِن أن يَستَجيبَ له، فنَعلَم عِلْم اليَقين أن هذا الذي حَصَل ليس بدُعاء هذا الوليِّ، بل حصَل في وقت الدُّعاء وليس بالدُّعاء، فعِند الشيء يَعنِي: أنه قريبٌ منه، وهذا تَقدَّم: أن مَذهَب الأشاعِرة يَقولون: إن الأسباب لا تُؤثِّر بنفسها، وإنما يَحصُل التأثير عِندها لا بها، فلمَّا ضَرَبت الزجاجَ بالحجَر وانكَسَر قالوا: ما انكَسَر، هذا من ارتِطام الزُّجاج بالحجَر، حصَل عِنده عند ارتِطامها، ولكن ليس بها، على كل حال.

الآيــة (١٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب:١٨].

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ المُثبِّطين منكم ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾] (قد) هنا للتَّحقيق، والأصل أنها إذا دَخلت على المُضارع تكون للتَّقليل، كما يُقال: قد يَجود البَخيل. لكن هنا للتَّحقيق؛ لأن عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُحقَّق، وليس للتَّقليل، وإنما جاءَت: ﴿قَدْ يَعْلَمُ﴾ دونَ: قد عَلِم؛ ليُفيد أن عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ مُستَمِرٌّ بهم من ذلك الوقتِ إلى اليَوْم، فإن الله تعالى عالِمٌ بهم وبأحوالهم وتَقلُّباتهم.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُثبِّطين]؛ لأن المُثبِّط يَعوق الإنسان المُثبَّط أَيْ: يَحول دونه ودون مُراده، وهو ما يُسَمَّى عند الفُقَهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ بـ(المُخَذِّل) فالفُقَهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يَقولون في باب الجِهاد: «يَجِب على الإمام أن يَمنَع المُخَذِّل والمُرْجِف»، فالمُخذِّل الذي يُثبِّط العَزائِم يَقول: لا داعِيَ للجِهاد، وليس عندنا استِعدادٌ. وما أَشبَهَ ذلك، والمُرْجِف هو الذي يُرْهِب مِن الأعداء ويُخَوِّف مِنْهم، فيَقول: أَعداؤُكم كثيرون، وأسلِحَتُهم قويَّةٌ. وما أَشبَهَ ذلك.

يَقول تعالى: ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ الخِطاب للنبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ والصَّحابة.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ﴾ تَعالَوْا ﴿إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ القتال

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ رِياءً وسُمْعةً] ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ﴾ مَعطوفةٌ على ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ يَعنِي: يَعلَم القائِلين لإخوانهم: هلُمَّ إلينا. وهذا غيرُ التَّعويق؛ لأن المُعَوِّق هو الذي يَعرِض الشيء الذي يُعوِّق الإنسان، لكن لا يَدْعوه، ولكن هؤلاءِ يَقولون لإخوانهم، فهو أَبلَغُ من التَّعويق.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ هذه غير المُعوِّقين، فليس عَطْفَ صفةٍ، ولكنه عَطْف ذاتٍ، والأصلُ في التَّعاطُف أن يَكونَ لتَغَيُّر الذوات، وقد يَكون لِتَغيُّر الصِّفات، وقد يَكون لِتَغيُّر اللَّفظ، ومنه قولُه:

..... وَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنًا[1]

فَمَا تَغيَّر المَعنَى، لكن تَغيَّر اللفظ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ هذا في المُنافِقين وسُمُّوا إخوانَهم في النَّسَب، وليسوا إخوانَهم في الدِّين اللهُمَّ إلَّا أن يُرَاد الأُخوَّة الظَّاهِرة، فإن هؤلاء يَتظاهَرون بأنهم مُؤمِنون.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: [﴿هَلُمَّ﴾ تَعالَوْا ﴿إِلَيْنَا﴾] هَلُمَّ، هل هي فِعْل أَمْر أو اسْمُ فِعْل أمرٍ؟ اسمُ فعلِ أمرٍ؛ لأن ليس كلُّ ما دلَّ على الطلَب فهو فِعْل أَمْر، فالمَصدَر قد يَدُلُّ على الطلَب كما قُلت: ضَرْبًا زيدًا. لكن ما يَدُلُّ على الطلَب بذاته -يَعنِي: بغير أداة خارِجية- فإمَّا أن يَقبَل علامة فِعْلِ الأمر أو لا، فإن قبِلها فهو فِعْل أَمْر وإن لم يَقبَل فهو اسمُ فِعْل أمرٍ، أو قد يَكون مَصدَرًا نائِبًا عن الأمر، وقولنا: (بغَيْر أداةٍ خارجيةٍ) احترازًا من المُضارِع المَقرونِ بلَام الأَمْر، فالمُضارِع المَقرون بلام الأَمْر

(١) البيت لعدي بن زيد العُبادي، انظر: طبقات فحول الشعراء لابن سلام (ص:١٤٠)، الصحاح (٦/ ٢٢١٠).

يَدُلُّ على الأمر، لكن لا بذاته، بل بأداةٍ أُخرى خارِجية، وهي لام الأَمْر.

(هَلُمَّ) هنا اسمُ فِعْل أَمْر؛ فمثَلًا: عيسى نَقول له: هلمَّ إلينا! هلمَّ إلى الدَّرْس! وأَحمدُ وعِيسى جميعًا نَقول لهُما: هلُمَّ إلينا جميعًا. ونَضُمُّ إليهما زَيْدًا ونَقول: هلمَّ إلى الدَّرْس. فما تَغيَّر، مُفرَد ومُثنًّى وجَمْع.

أمَّا لو كنَّا نُخاطِب واحِدًا ونَقول: هلُمَّ إلينا. ونُخاطِب اثنَيْن فَنَقول: هَلُمَّا إلينا. ونُخاطِب ثلاثة ونَقول: هَلُمُّوا هَلُمُّوا إلينا. لكان فِعْلَ أَمْر؛ ولهذا نَقول: قُمْ وقوموا، فهي إِذَنِ اسمُ فِعْل أَمْر تُخاطِب بها الواحِد والاثنين والجماعة ولا تَتَغيَّر، هذا على لُغةِ أهل الحِجاز.

أمَّا بنو تَميمٍ فإنها عندهم فِعْلُ أمرٍ؛ ولهذا يَقولون للواحِد: هَلُمَّ إلينا. وللاثنين: هَلُمَّا إلينا. وللجماعة: هلُمُّوا إلينا. فالأَمْر هنا يَدُلُّنا على الاثنَيْن اسم فِعْل أمر؛ لأنها لو كانت فِعْلَ أمر لقال: هلُمُّوا إلينا.

قوله تعالى: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ يَعنِي: تعَالَوْا، هذا بالنِّسْبة لغيرهم، يَدْعون غيرَهم إلى تَرْك القِتال.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ والقَليل هنا قد يَكون المُرادُ به العدَمَ، وقد يَكون المُرادُ به الشيءَ اليَسيرَ القِلَّة، ويُمكِن أن يُراد به العدَمُ بالنسبة لقَوْم، والقِلَّة بالنِّسبة لآخَرين من المُنافِقين؛ لأن من المُنافِقين مَن لا يَحضُر القِتال أصلًا ومنهم مَن يَحضُر قليلًا للرِّياءِ والسُّمْعة، ومَعلوم أن مَن يُلاحِظ الرِّياء والسُّمعة فإنه إذا كان في مَحلٍّ يَجِد الرِّياءَ والسُّمعة حضَر، وإذا كان في مَحلٍّ لا يَجِد الرِّياء ولا السُّمْعة لم يَحضُر.

وما الفَرْق بين الرِّياء والسُّمْعة؟

الرِّياء يَعود إلى الأفعال، والسُّمْعة تَعود إلى الأقوال؛ لأن الأفعال تُرَى والأقوال تُسمَع؛ ولهذا جاء في الحديث: «مَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ، وَمَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ»[1]، فإذا تَكلَّم شَخْص بذِكْر ورفَع صَوْته؛ ليُسمَع ويُثْنَى عليه به، فنَصِفُ فِعْله بأنه سُمْعة، وإذا قام يُصلِّي؛ ليَراه الناس فهو رِياءٌ، وقد يُطلَق الرِّياء عليهما جميعًا، لكن عندما يَجتَمِعان يَكون الرِّياء يَتعلَّق بالأَفْعال والسُّمْعة بالأَقْوال؛ يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [رِياءً وسُمْعةً].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إحاطة عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكُلِّ شيء؛ لأن هذه مَسأَلة جُزئيَّة من العالَم فقَولُ هؤلاءِ: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ وتَعويقهم فَرْد من أفراد العالَم، جُزءٌ بَسيط لا يُنْسَب إلى العالَم، ومع ذلك يَعلَمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والعالِم بالدَّقيق عالِم بالجَليل من بابِ أَوْلى؛ ففيها إثبات إحاطة عِلْم الله تعالى بكُلِّ شيء جُملةً وتَفصيلًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ثُبُوت عِلْم الله تعالى بالمُستَقبَل؛ لأنه جاءَت بصيغة المُضارِع، ومنها التهديد والتَّحذير من التَّعويق عن القِتال، وجهُه قد يَعلَم الله تعالى، وهذا من أَجْل تَهديدهم حتى لا يَفعَلوا ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَعاوُن المُنافِقين بعضِهم مع بعض؛ لقوله: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾، وإذا كان كذلك فإن القائِلين تَكون عَطْفًا على المُعوِّقين من باب عَطْف الصِّفات،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة، رقم (٦٤٩٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٧)، من حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وذكَرْنا في التفسير أنه مُحْتَمَل أن تكون عطفَ الصِّفات أو عطفَ الذوات، فإن كانت عطفَ الصِّفات صار المُعوِّقون هُمُ القائِلين، وإن كان عطفَ ذَوات صاروا قِسْمين؛ مُعَوِّق وقائِل، فالمُعوِّق قد يَدْعو وقد لا يَدْعو، ولكن على كل حال: هي في المُنافِقين؛ لأن آخِر الآية يُبطِل الاحتِمال الذي ذكَرْناه بأن تكون في أَحَدٍ من المُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن أُولئِك المُعوِّقين لغيرهم هم بأنفسهم جُبَناءُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهم جُبَناءُ ومُخَذَّرون مُرْجِفون.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن كلَّ إنسانٍ يُصَاحِب غيره ويَمتَزِج به؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾، فإن هذه أُخوَّة في الشَّرِّ والنِّفاق، وليسَت في الإيمان.

• • ۞ • •

الآيــة (١٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب:١٩].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ بالمُعاوَنة جَمْع شحيحٍ وهو حال من ضَمير يَأتون] في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾: ﴿أَشِحَّةً﴾ جمع شحيح، والشحيح هو المانِع مع الحِرْص، والبَخيل هو المانِع بدون حِرْص، فإذا كان الإنسان مَنوعًا جَموعًا، يَعنِي: مع الحِرْص يُسمَّى ذلك شحيحًا، وإذا كان بَخيلًا لكنه ليس ذاك الرجُلَ الذي يَكون حريصًا على جَمْع المال مثلًا، فإنه يُسَمَّى بخيلًا؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مُحَذِّرًا من الشُّحِّ: «**اتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»(١).

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ نُصِبت على الحال من فاعِل ﴿يَأْتُونَ﴾ يَعنِي: لا يَأتون إلَّا قليلًا، ومع ذلك يَأتون أشِحَّةً عليكم، يَعنِي: وهم أشِحَّاءُ عليكم، لا يُريدون أن تَصِلوا إلى خَيْرٍ، بل يُحِبُّون أن يَمنَعوا كلَّ خَيْر عنكم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾: ﴿جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ الخَوفُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٨)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

ليس ذاتًا تَأتي لكنـه مَعنًى يَأتي، والمَجِيء يَكون للمَعـاني ويَكون للذَّوات، فتَقول: جاءَهُ المَرَض. وتَقول: جاء زيدٌ.

والمَجيء هنـا أُسْنِد إلى مَعنَى ﴿جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ فهُوَ عامٌّ، فإذا جاء الخَوْف سواءٌ جاء من الأَعْداء الذين حـضَروا إلى المدينة، أو الخوف من الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين يَطَّلِع على أَحْوالهـم، فيَخافُون منه، من أن يَفضَحَهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأفعالهم أو يُسَلِّط عليهم رسولَهُ ﷺ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ الخِطاب هنا هل هو للرسول ﷺ أو لكُلِّ مَن يَتوجَّه إليه الخِطاب؟

الجَوابُ: يُحْتَمَل أن يَكون للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهو الأَقْربُ ويُحْتَمَل أن يَكون لكلِّ مَن يُوَجَّه إليه الخِطاب.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ الرُّؤْية هنا بصَريةٌ، وعلى هذا فلا تَنصِب إلَّا مَفعولًا واحِدًا وهو الهاء، وتَكون كلِمةُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ حالًا من الهاء: رأيتَهُم حالَ كَوْنهم يَنظُرون إليك.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾؛ لأن الخائِف غالِبًا يُركِّز على جِهةِ الخَوْف، سواءٌ كان شَخْصًا أو أشخاصًا، وتَدور عينُه على غير نظَرٍ سليم، يَعنِي: كأنَّها تَدُور بغير اختِيارهم من شِدَّة الخَوْف.

ثُم شبَّهَ حالهم بعد أن شَبَّه أبصارَهم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كنَظَر أو كدَوَران]، فإن كانت ﴿كَٱلَّذِى﴾ عائِدة على ﴿يَنظُرُونَ﴾ قـدَّرنا: النظَر، وإن كانت عائِدة على ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ قـدَّرنا: كدَوَران،

ولكن الذي يُناسِب القُرآن الأوَّلُ: نظَر، كما قال تعالى في سُورة القِتال: ﴿مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد:٢٠].

وربما نَقول: يَنظُرون إليك تَدُور أعيُنُهم كالذي يُغْشَى عليه من المَوْت، ليس عائِدًا على النظَر، وإنما هو عائِد على حالهم، يَعنِي: كالإنسان المَغشِيِّ عليه من الموت؛ لا يَستَطيعون أن يَتكلَّموا؛ لأن أَرياقهم يَبِسَت، ودِماؤهم غارَت بسَبَب الخوف، فإذا جاء الخوف فإنها تَتَغيَّر أبصارُهم وتَتغيَّر أحوالُهم أيضًا ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ والذي يُغشَى عليه من الموت لا شَكَّ أنه يَصفَرُّ وجهُهُ، ولا يَستَطيع أن يَنطِق في الغالِب ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن سَكَراته] أي: سَكَراته يُغشَى عليه ﴿مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾: (من) هنا للسبَبية وهل تَأتي (مِن) للسَّبَبية؟

الجَوابُ: نعَم، تَأتِي في مَواضِعَ كثيرةٍ، والأصل فيها أنها للابتِداء، حتى زعَم بعضُ النَّحوِيِّين أنها في كل مَكان تَكون للابتِداءِ، حتى فيما إذا كانت سبَبيَّةً قال: لأنها ابتِداء السبَب. لكن الصحيحَ ما ذهَب إليه ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وغيرُه من النَّحوِيِّين أنها تَأتي لمَعانٍ كثيرةٍ- قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَعِّضْ وَبَيِّنْ وَابْتَدِئْ فِي الْأَمْكِنَهْ ... بِمِنْ وقَدْ تَأْتِي لِبَدْأِ الْأَزْمِنَهْ

وَزِيدَ فِي نفْيٍ وشِبْهِهِ فَجُرّ ... نَكِرَةً كَمَا لِبَاغٍ مِنْ مَفَرّ[1]

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ وحِيزت الغَنائِمُ ﴿سَلَقُوكُم﴾ آذَوْكم أو ضَرَبوكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي: الغَنيمة يَطلُبونها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾

(١) الألفية (ص:٣٥).

حقيقةً ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾]، فإذا ذهَبَ الخَوْفُ صار هؤلاءِ الذين كانوا حين الخَوْف كالمَغشِيِّ عليه من الخَوْف صاروا يَنطِقون بطَلاقةٍ، ﴿سَلَقُوكُم﴾ يَعنِي: أَصابوكم بشِدَّة ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: شَديدةٍ قوِيَّةٍ.

والمُراد بالأَلسِنة هنا الكلامُ؛ لأن الكلام يُعَبَّر عنه باللسان، المَعنى: أنهم يُجادِلون ويُناظِرون ويَقولون: نحن معَكم، نحن نُساعِد، نحن خرَجنا، وما أَشبَه ذلك، كما قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء:١٤١] وأَبْدَوا وأَعادوا في غَلبتهم للمُسلِمين؛ لأنه لا شَكَّ أن الإنسان قد يَغلِب خَصْمه بالكلام كما قال الله تعالى في قِصَّة داودَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] غلَبَني، والإنسان اللَّسِن الذي عنده بَيان وعنده فَصاحة قد يَغلِب ولو كان على باطِل.

ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِيَ لَهُ بِنَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ**»(١)، يَعنِي: وإن كان على باطِل؛ فالإنسان قد يَغلِب ببَيانِه الحقَّ؛ ولهذا كما تَعلَمون جاء في الحديث الصحيح: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**»(٢)، فهؤلاءِ المُنافِقون الذين في حال الخوف على الصورة التي صوَّرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ لكِن ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ واطمَأَنُّوا ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ يَعنِي: أَصابوكم بشِدَّة بهذه الأَلسِنة الحِداد.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب إثم من خاصم في باطل، رقم (٢٤٥٨)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، رقم (١٧١٣)، من حديث أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٥١٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ هـذه حال من الواو في قوله تعالى: ﴿سَلَقُوكُم﴾، وما المُراد بالخَيْر هنا؟

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الغَنائم التي أَصابها المُسلِمون بانتِصارهم؛ قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ حَقيقةً، ولو آمَنوا، أَقول: (ولَوْ آمَنوا) ما فعَلوا هذا الفِعْلَ، ولَمَا كانوا يَخافون من البَأْس، ولا كانوا يَدَّعون ما لا يَستَحِقُّون فيما إذا انتَهَتِ المَعْركة.

وقـوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يَعنِي: أَبطَلها؛ حتى لا يَنتَـفِعوا بها، وكان ذلك الإِحْباطُ على الله عَزَّوَجَلَّ يَسيرًا [بإِرادته]، فهو يَسير على الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه عَزَّوَجَلَّ لا يَخْشَى من أَحَدٍ، كما قال تعالى في قول قوم صالِحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس:١٤-١٥] فلا يَخاف عَزَّوَجَلَّ من عاقِبته، بِخَـلاف المَخلوق، فالمَخلوق قد يُنكِّل بشَخْص ويُعاقِبه، ولكنه يَخْشَى من عاقِبتـه؛ فيَخْشى من قبيلتِهِ، ويَخشَى من الغَـدْر به، وما أَشبَه ذلك؛ أَمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فإن كلَّ أَمْرٍ يَسيرٌ عليه، ولا يَخافُ من أَحَدٍ حين يَنتَقِم منه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: في هذه الآيةِ دليـلٌ على بُخْل المُنافِقين بما يَنفَع المُؤمِنين، وأَنَّهم لا يَأتونهم إلَّا عن كَراهية، كالشَّحيح في بيع الماء كقَوْله: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: جُبْن المُنافِقين، وأنهُم في غاية الجُبْن؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ إلى آخِره، وبهذا نَعرِف أنهم أَحَقُّ الناس بما وَصَفُوا به النَّبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأصحابه حيث قالوا: «ما رَأَيْنا مِثْلَ قُرَّائِنا هؤلاءِ أَرْغَب بُطُونًا

ولا أَكذَب أَلْسُنًا، ولا أَجبَن عِنْد اللِّقاءِ»[١]، فنَقول: إن هذه الأَوْصافَ أنتُمْ أحَقُّ الناسِ بها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: شِدَّة فزَع المُنافِقين عنـد الخَوْف؛ لأن تَصويرهم بهذه الصُّورةِ يَدُلُّ على الفزَع العَظيم الذي يَنالُهم عند الخَوْف.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: شِدَّة مَحبَّة المُنافِقين للحياة؛ لأنهم إنما بَلَغوا هذا المَبلَغَ من الخَوْف حِرْصًا على الحَياة وخَوْفًا من الموت بالقِتال.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: قوَّةُ تصوير القُرآن للأَحْوال الواقِعة؛ لأن هذه الصُّورةَ التي ذكَرَها الله تعالى صورة مُدْهِشة تَجعَل الإنسان يَتخَيَّلُ شِدَّة فزَعهم كأنه رَأيُ عَيْنٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن للمَوْت سكَراتٍ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾، وهذا بالنِّسبـة للمَوْت العادِي، أمَّا الموت المُبـاغِت فقد لا يَكون فيـه سكَرات، فقد يَموت الإنسان بَغْتـة كالذي يَحدُث بالحوادِث وسَكتات القُلوب وما أَشبَهها.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن هؤلاءِ الجُبَناءَ المُنافِقين إذا ذهَب الخَوْف -على أنهم حين الخَوْف كالأموات أو كالذي يُغْشى عليه من الموت-، صاروا أبطالَ الكَلام، وأُمَراءَ الفَصاحـة والتَّسلُّط؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم﴾ فإذا ذهَـب الخَوْف بدَؤُوا يَتكَلَّمون.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: شِدَّة المُنافِقين على المُؤمِنين، وأنهم عليهم أَشِدَّاءُ غِلاظٌ؛ لقوله

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٥٤٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٢٩)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

تعالى: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن المُنافِقين كما قال الشاعِر:

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الحُرُوبِ نَعَامَةٌ ..... (١)

فهُمْ على المُؤمِنين أُسودٌ بالباطِل، وطبعًا ليس بالحَقِّ، وعند الكُفَّار نَعامة، فالنَّعامة من جُبْنها إذا رأَتِ الصَّيَّاد تَدخُل رَأْسها في التُّراب؛ لئَلَّا يَراها!.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: عِلْمُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما في القُلوب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾؛ لأن الظاهِر لنا أنهم مُؤمِنون لكن الواقِع غير مُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: التحذير من هذه الصِّفاتِ التي يَتَّصِف بها المُنافِق حتى وإن كان الإنسان مُؤمِنًا؛ لأنها صِفات غيرِ المُؤمِنين؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾، والمُؤمِن مَنهيٌّ عن الاتِّصاف بصِفات غير المُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن الكُفْر مُحبِط للعمَل سواءٌ كان ظاهِرًا أم باطِنًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، فأَحبَط الله تعالى أَعمالهم.

وفي الجُمْلة من هذه الآيةِ إشكال؛ لأن الإِحْباط فَرْعٌ عن قيام الشيء، وهُمْ مُنافِقون، أَعمالهم باطِلة من الأصل؟

والجَوابُ أن يُقال: إنَّ الإِحْباط نَوعان: إِحْباطُ ما تَمَّ، وإحباطُ ما لم يَتِمَّ، فإِحْباط ما تَمَّ ظاهِر، وإحباط ما لَم يَتِمَّ أن يَكون من الأصل حابِطًا، ومنه قول بعض الفُقَهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إذا لم يُكَبِّر تكبيرةَ الإحرام بَطَلت صَلاته، فنَحن نَقول هنا:

---

(١) البيت نسبه البعض لعمرَان بن حطَّان قاله للحجاج، انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة (١/ ٢٦٣)، وثمار القلوب للثعالبي (ص:٤٤٣)، وربيع الأبرار للزمخشري (٤/ ١٠٦).

ما صلَّى حتى تَبْطُل، لكن هذا بُطلانُ ما لم يَتِمَّ.

أو جَوابٌ ثانٍ: أن نَقول: ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: إن أعمالهم ظاهِره الصِّحَّة؛ لأنه من قَوْمٍ يَدَّعون الإسلام، ويَفعَلونها على ظاهِر الشَّرْع، لكنها في الواقِع باطِلةٌ؛ لعدَم الأساس.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أَهَمِّية الإِخْلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ﴾، فجَعَل الإِحْباط فَرْعًا عن عدَم الإيمان، وهذا يَدُلُّ على أنَّ الرَّكيزة الأصلِيَّة للأعمال هي الإيمان.

وهل يُؤخَذ من الآية الكريمة أن الأَعْمال تَزدادُ قوَّةً بقُوَّةِ الإيمانِ وفَضْلًا؟

الجوابُ: نعَم؛ لأنه لَمَّا حبِط العمَلُ لِعَدَم الإيمان دلَّ هذا أنه يَقوَى بقُوَّة الإيمان؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الصحابة: «لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»[1]، فالعمَل واحِد، لكن العامِل مُختَلِف، ففَرْق بين مَن يَعمَل بإيمان راسِخٍ قوِيٍّ كأنما يُشاهِد الثَّواب له بعَيْنه، وبين شَخْصٍ ليس على هذه الحالِ.

فإذَن: تَفاضُلُ الأعمال يَكون مَبنِيًّا على تَفاضُل ما في القُلوب، ويُذكَر عن بعض السَّلف أنه قال: واللهِ ما سبقَهم أبو بَكْر بكَثْرة صِيامٍ ولا صَلاةٍ، ولكنه سبقَهم بما وقَرَ في قَلْبه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من الإيمان العَظيم الراسِخ[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ رقم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكره ابن تيمية في منهاج السنة (٦/ ٢٢٣)، عن أبي بكر بن عياش، وذكره صاحب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص:٤٨) عن بكر بن عبد الله المزني.

ولا يُقال: إن هذا فَتْحُ باب للعَصاة، فالعاصِي إذا قال له قائِل: اتَّقِ الله تعالى اتْرُكِ المَعصية، اتَّقِ الله تعالى أَقِمِ الواجِب. قال: التَّقوى هاهنا. ثُمَّ ضرَب على صَدْره ضربةً، التَّقوى هاهنا! فنَقول له: التَّقوى هاهنا صحيح، لكن هذه كلِمة حقٍّ أُريد بها باطِل، نَقول: لوِ اتَّقى ما هاهنا لاتَّقَى ما هاهنا؛ لقول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ**»[1] لو صلَح ما هاهنا لصلَح الظاهِر.

فالحاصِل: أن هـذه الآيةَ واضِحة، الدَّليلُ فيها دليـل واضِح على أنَّ الأعمال تتفَاضَل بِحَسَب ما في القلوب من الإيمان، والشاهِد من الحديث هو قول النبيِّ ﷺ للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «**لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**».

فإن قال قائِل: مُدَّ أحَدهم من الذهَب أو مُدَّ أحَدِهم من الطعام؟

فالجَوابُ: يُحتَـمَل؛ فبعضُهم يَقول: مُـدَّ أحَدهم من الطَّعـام؛ لأنه هو الذي جرَتِ العادة أن يُكال. يَعنِي: لو أَنفَق أحدُكم مثل أحُدٍ ذهَبًا ما بلَغ مُدَّ واحِد منهم من التَّمْر؛ لأنه هو الذي يُكال عادةً، وبعضُهم يَقول: ما بلَغَ مُدَّ أحدِهم من الذهَب؛ لأن التَّفاضُل بين الطعام والذهَب بَعيدٌ، لكن التَّفاضُل بين الذهَب القليل والذهَب الكثير.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيــة (٢٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب:٢٠].

قوله تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ ﴾ بمَعنَى: يَظُنُّون، وهي تَنصِب مَفعولين أصلُهما المُبتَدَأُ والخبَرُ، والمَفعول الأوَّل هنا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْأَحْزَابَ﴾ والمَفعول الثاني: جُمْلة ﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ يَعنِي: يَظُنُّ هؤلاء المُنافِقون أن الأحزاب لم يَذهَبوا، وهذا يَدُلُّ على جُبْنهم وخَوْفهم وذُعْرهم؛ لأنه حتى بعد ذَهاب الأحزاب وتَفريقهم يَظُنُّ هؤلاء المُنافِقون أنهم لم يَذهَبوا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ إلى مكَّةَ؛ لخَوْفهم منهم ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كرَّة أُخرى ﴿يَوَدُّوا۟﴾ يَتَمَنَّوا ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي: كائِنون في البادية ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أَخبارِكم مع الكُفَّار].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يَأْتِ﴾ هذا على سبيل الفَرْض والتقدير، وقوله تعالى: ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾ جَمْع حِزْب وهُمُ الطوائِف الذين تَحزَّبُوا على النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من قُرَيشٍ وغَطَفانَ وأَسَد وغيرهم، لو أَتَى هؤلاءِ الأحزابُ مرَّةً أخرَى لوَدَّ هؤلاءِ المُنافِقون أنَّهم ﴿بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ البادِي: هو الساكِن البادِيَةَ، ومنه قول النبيِّ

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ»[1]، فبادٍ هذه اسمُ فاعِل ومَعناها ساكِن البادية، فيَوَدُّ هؤلاءِ أنهُمْ ﴿بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي: ساكِنون البادِية؛ لِأَجْل النَّجاة من هؤلاء الأَحزابِ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ جُمْلة حالِيَّة من الفاعِل في قوله تعالى: ﴿بَادُونَ﴾ يَعنِي: يَوَدُّ هؤلاءِ المُنافِقون أنهم في البادِية يَسأَلون عن أَنبائِكم، ولا يُشارِكونكم في القِتال، فبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذُعْر هؤلاءِ المُنافِقين بوَجْهين:

الوَجْه الأوَّل: أنهم يَظُنُّون أن الأحزاب ما زالوا باقين، مع أن الأحزاب قد انصَرَفوا.

الوجه الثاني: أنه لو فُرِض أن الأحزاب رجَعوا فإنهم يَتَمنَّوْن أنهم في البادية لا يَلحَقهم مُناوَشاتٌ ولا قِتال، وإنَّما يَسأَلون عن أنبائِكم، إذَن فجُمْلة: ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ نَقول: إنها في مَوضِع نَصْب على الحال من فاعِل ﴿بَادُونَ﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم﴾ هذه الكَرَّة ﴿مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ رِياءً وخَوْفًا من التعيير]، يَعنِي: (لو) هذه شَرْطية، وجَوابها هنا مَقرون بـ(ما)، وإذا كانت (لو) الشَّرْطية مَقرونةً بـ(ما)، فإن الأكثَر ألَّا يَقتَرِن الجوابُ باللَّام؛ لأن (ما) للنَّفيِ، واللَّامُ للتَّوكيد واجتِماع حَرْف يَدُلُّ على التَّوكيد مع حَرْف يَدُلُّ على النَّفيِ فيه شيء من التَّعارُض والتَّناقُض، فتَقول: لو جاء زَيْدٌ ما كلَّمْتُك. ولا تَقول: لو جاء زَيْدٌ لَمَا كلَّمْتُك. يَرحَمك الله تعالى، لكن إذا كان جَوابُها مُثبَتًا فإن الكثير أن تَقتَرِن به اللَّام، تَقول: لو جاءَ زَيْدٌ لكَلَّمتُك؛ هذا الأكثَرُ، ويَجوز: لو جاء زَيْدٌ كلَّمتُكَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب النهي للبائع أن لا يحفل الإبل، رقم (٢١٥٠)، ومسلم: كتاب النكاح، باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه، رقم (١٤١٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورة الواقِعة: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة:٦٥]، هذه اقترَنَت بها اللَّام ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة:٧٠]، أمَّا (ما) هنا فلَمْ تَقترِن بها اللَّامُ، لكن قد تَقْتَرِن بها اللَّام قليلًا، ومنه قول الشاعِر:

وَلَوْ نُعْطَى الخِيَارَ لَمَا افْتَرَقْنَا ... وَلَكِنْ لَا خِيَارَ مَعَ اللَّيَالِي[1]

يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾: ﴿قَلِيلًا﴾ هنا بمَعنَى: إلَّا عدَمًا، أو هي على ظاهِرها أنَّهم يُقاتِلون، ولكن قِتالًا قليلًا، هذا هو الأقرَب؛ لأن الأصل إبْقاء الكلام على ظاهِره، إلَّا أن يَقوم دليلٌ على أن ظاهِره غَيرُ مُراد، فهؤلاءِ لو كانوا فينا حينما يَأتِي الأحزاب لوَجَدْتهم من جُبْنهم لا يُقاتِلون إلَّا قليلًا.

وفسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا القِلَّةَ بأنها من أَجْل الرِّياء وخَوف التَّعيير؛ يَعنِي: يُراؤُون الناس بأنهم يُقاتِلون في سبيل الله تعالى، ويَخافون من تَعْيِير الناس لهم، فهم لا يُقاتِلون؛ لتكون كلِمةُ الله هي العُليا، وهذا من أهَمِّ ما يَكون، أَعنِي: إخلاصَ الإنسان عِبادته لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا من أهَمِّ ما يَكون، ومن أشَدِّ ما يَكون عِلاجًا على النَّفْس؛ لأن الأعمال الظاهِرة كلُّ أحَدٍ يَستَطيع أن يَجعَلها على أحسَنِ ما يُرام؛ كلُّ أحَد يَستَطيع أنه يَقوم ويُصلِّي بقِراءةٍ مُتأنِّيةٍ وبرُكوعٍ مُتأنٍّ وبسُجودٍ مُتأنٍّ وبقِيامٍ مُتأنٍّ وبقُعودٍ مُتأنٍّ؛ لكن إصلاح القَلْب هو الصَّعْب؛ ولهذا كان صَلاح القَلْب مُوجِبًا لصلاح البدَن، ولا عكسَ، كما قال النبيُّ ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[2].

---

(١) غير منسوب، وانظره في: مغني اللبيب (ص:٣٥٨)، وشرح التصريح (٢/ ٤٢٤)، وهمع الهوامع (٢/ ٥٧٢)، وخزانة الأدب (١٠/ ٨٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فهَؤُلاءِ المُنافِقون ليس لدَيْهم رغبةٌ حقيقيةٌ في القِتال الذي يَرجُون به إِحْدى الحُسْنَيَيْن، إمَّا الشهادة وإمَّا الظَّفر والسَّعادة، لكنهم إنما يُقاتِلون رِياءً وخَوْفًا من التَّعيير فقَطْ لا لله تعالى، وإن كانت هذه نِيَّته فإنه لن يُقاتِل القِتال الذي يَنبَغي أن يَكون، سيَكون فاتِرًا، بخِلاف الإنسان صاحِب النِّيَّة الخالِصة لله عَزَّوَجَلَّ، فسيَكون لدَيْه دافِع قوِيٌّ يَحْدُوه إلى العَمَل بما يَرَى أنه من طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: قُوَّة جُبن هؤلاءِ المُنافِقين، حيث يَظُنُّون أن العَدوَّ باقٍ وهو قد ذهَب؛ ولهذا شاهِدٌ، فلو أن رجُلًا جَبانًا رأى أسَدًا في مَغارة وذهَبَ الأسَد من هذه المَغارة وأُخرِج فقلتَ لهذا الرَّجُل الجَبانِ: نَمشِي من عند المَغارة هذه؟ سيَقول: لا، ففيها أسَد؛ لأنه جَبان، فالجَبان يَظُنُّ أن عَدوَّه لم يَبرَح مكانه، ويَخشَى حتى من ظِلِّه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هَؤلاء المُنافِقين لو عاد الأحزاب مرَّةً أُخرى لودُّوا أنهم في الأعراب، لا في المدُن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ مع أن عَيْش المُدُن أحسَنُ، لكن لجُبْنهم يَتمَنَّوْن أن يَذهَبوا للأعراب في البادِيَة، ولا يَحضُرون هؤلاء الأَحْزابِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هؤلاءِ المُنافِقين لا يُريدون أن يُشارِكوا المُؤمِنين في مَعارِكهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ فهُمْ يُحِبُّون أن يَكونوا بعيدين عن المَعارِك، ولا يَتحَسَّسون إلَّا الأخبارَ فقَطْ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن المُنافِق لو شارَك المُؤمِنين في القِتال، فإنه لن يُقاتِل إلَّا قليلًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وهاهُنا مَسأَلة: هل يَجوز لنا أن نُشرِك المُنافِقين في قِتالنا إذا علِمنا أنَّهم مُنافِقون؟

فنَقول: لا نُشرِكهم؛ لأن ضرَرهم عَلَيْنا أكْثَرُ بكثيرٍ من نَفْعهم، أمَّا مَن لا نَعْلَم حاله فإن الأصل أن يُؤاخَذ الإنسانُ بظاهِر حاله.

فإن قال قائِل: مَن كان عنده خَوْف شَديد ودُعِيَ إلى القِتال فرفَض من أَجْل خَوْفه، فهل يُقال عليه: مُنافِق؟

فالجَوابُ: الله تعالى أَعلَمُ بما في قَلبه، لكن في ظَنِّي أنه ليس هناك أحَد يَخاف إلى هذا الحَدِّ؛ لأن غاية ما عِنده: القَتْل، وهو إذا قُتِل في سبيل الله تعالى خيرٌ من أن يَموت على فِراشه، فيَجِب على الإنسان أن يَتغَلَّب على هذه الأشياءِ، فكلُّ خوف يَمنَعك من واجِب فهو مَذموم.

• • ۞ • •

الآيــة (٢١)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١].

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ ﴾ بكَسْر الهَمْزة وضَمِّها] ﴿ لَّقَدْ ﴾ اللَّام مُوطِّئة للقَسَم، و(قَدْ) للتَّحقيق، وعلى هذا فالجُمْلة مُؤكَّدة بثلاثةِ مُؤكِّدات وهي: القسَم المُقدَّر واللَّام و(قَدْ).

وقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾: ﴿كَانَ﴾ فِعْلٌ ماضٍ، وكيف يَتوَجَّه أن يَكون فِعْلًا ماضِيًا والتَّأسِّي بالرسول ﷺ مُستَمِرٌّ دائِمٌ، والمَعروف أن الفِعْل الماضِيَ قد انقَضَى زمَنُه، فيُقال -والله أَعلَمُ-: لقد كان لكُم في عِلْم الله تعالى وفي شَرْع الله عَزَّوَجَلَّ أُسْوةٌ حسَنةٌ.

وقوله تعالى: ﴿فِي رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ ولم يَقُل: في مُحَمَّد. ولم يَقُل: في النَّبيِّ. إشارةً إلى أنَّ الأُسْوة فيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأنه رَسولُ الله تعالى، فهذا الوَصْفُ يُفيد العِلِّيَّة أي: أنَّ عِلَّة الأُسْوة كونُه رسولَ الله ﷺ، وإلَّا ما كان علينا أن نَتَأسَّى به؛ لأنه رَجُل من الناس؛ لكن لأنه رَسول الله تعالى كان لنا فيه أُسْوة حَسَنة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «إِسْوَةٌ» بكَسْر الهَمْزة وضمِّها قِراءتان سَبْعيَّتان؛ لأن طريق المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا عبَّر بهذا التَّعبيرِ فالقِراءَتان سَبْعِيَّتان مُتساوِيَتان، أمَّا إذا قال: (قُرِئَ)

فالقِراءة الثانية شاذَّةٌ.

إِذَنْ: يَجوز أن أَقول: «إِسْوَةٌ» و ﴿أُسْوَةٌ﴾.

وهلِ الأَفضَل أن أَقتَصِر على واحِدة من القِراءات أو أن أَقرَأ بهذه تارةً وبهذه أُخرى؟

الجَوابُ: سبَق لنـا أن الأفضَل لَمن عَلِـم القِراءةَ وتَأكَّدها: أن يَقرَأ بهـذه تارةً وبهذه أُخرى، لكن ليس عِند العامَّة، فلو قرَأْنا بهذه القِراءةِ عِنـد العامة حصَل في ذلك تَشويشٌ ورَدُّ فِعْـلٍ؛ فيَقولون: كيف هذا يُغـيِّر في القُرآن ويُحرِّف. أمَّا فيما بين الإنسان وبين نَفْسه فإذا كان يَعلَم أن هناك قِراءَتَيْن فإن من الأفضَل أن يَقرَأ بهذه مرَّةً وبهذه أُخرَى؛ لأن كِلْتا القِراءَتَيْن ثابِتةٌ عن رسول الله ﷺ، فلا يَنبَغِي أن نَقتَصِر على واحِدةٍ فقَطْ؛ لأننا إذا اقتَصَرْنا على واحِدة فقَطْ هجَرْنا البَقِيَّة

فإذا جاء شَخْص يَتعلَّم القِراءات نُعلِّمه، لكِنَّ الرجُل العامِّيَّ لا يَدرِي عن هذه الأُمورِ، فلا شَكَّ أنه قد يُوجَد عنده التَّشوِيش من جِهة، ثُم إنه قد يُجرِّئه على أن يَقرَأ بهذه القِراءةِ على وَجْه الخَطَأ.

وليَكُن لا يَضُرُّ -الاقتِصار على واحِدة- لأنه بالإِجْماع الاقتِصارُ على واحِدة جائِزٌ، وليس هو على سَبيل الوُجُوب، فإذا كان يَحصُل من فِعْل القِراءة الثانية مَفسَدةٌ فلا حرَجَ من عدَم قِراءتها.

وقوله: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [اقتِداءٌ به في القِتال والثَّبات في مَواطِنه]، هذا التَّفسيرُ من المُفَسِّر فيه نَظرٌ؛ وجهُه: أنه خَصَّصه بالقِتال، والحَقيقة أنه أُسْوة حسَنةٌ في كل ما يَفعَله، فكلُّ ما كان من سُنَّتِه فإن لنا فيه أُسْوةً حسَنةً.

وقوله تعالى: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فيها مَعْنيان:

المَعنَى الأَوَّل: أنَّ التَّأسِّيَ بالرسول ﷺ كلُّه حسَن؛ لأنه ﷺ مَعصوم من الخَطَأ في التَّشريع، فكُلُّ التَّأسِّي به فهو حسَنٌ، بخِلاف التَّأسِّي بغيره، فقد يَكون حسَنًا، وقد يَكون غيرَ حسَنٍ.

المَعنَى الثاني: أُسْوة حسَنة باعتِبار تَأسِّينا به، لا باعتِبار ما هو عليه، والأُسوة الحسَنة باعتِبار تَأسِّينا به هو أن نَكون مُوافِقين له في القَوْل والفِعْل والقَصْد -الذي هو العَقيدة-، فنُوافِقه في هذه الأُمور الثلاثة: في العَقيدة والقَوْل والفِعْل، هذه الأُسْوةُ الحسَنة.

فمَن وافَقَه في قوله دون فِعْله لم يَتأَسَّ به أُسْوةً حسَنة، ومَن وافَقه في فِعْله دون قَوْله، لم يَتأَسَّ به أُسْوة حَسَنةً، ومَن تَأسَّ به في قَوْله وفِعْله دون عَقيدته وقَصْده لَمْ يَتأَسَّ به أُسْوة حسَنة.

ويَدخُل في الأُسْوة الحسَنة الدَّعوةُ إلى دِين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإن الرسول ﷺ لا شَكَّ أنه يَدعو إلى دِين الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨].

وبهذا نَعرِف أنه يَنبَغي لطالِب العِلْم أن يَكون له نشاطٌ في مُجتَمَعه، لا نُسخةَ كِتاب فقَطْ، بمَعنَى أن يَكون مُحرِّكًا لضمائر الناس ومَشاعِرهم وتَوجيههم، ويَكون لدَيْه عَزيمة في إصلاح الخَلْق؛ حتى لا يَكونَ مُجرَّد نُسْخةٍ؛ لأن مُجرَّد نُسخةٍ ما الفائِدة منه! تَقول: والله حفِظْتُ مثلًا (مَتْن الزادِ) وحفِظْتُ (بُلوغ المَرام) وحفِظْتُ (المُنتَقى) وحفِظْت ما أَشبَه ذلك، وغايَتُه أن يَقول: سأَجلِس في بيتي وإن جاء أَحَدٌ يَسأَلُني علَّمْتُه!!.

فيَجِب أن نَبُثَّ الوَعيَ بين المُسلِمين، ولا سيَّما في هذا الوَقْتِ؛ لأن الناس بدَؤُوا يَتحرَّكون سَئِموا الحياة السابِقة، لكن يَحتاجون إلى هِداية ودَلالة؛ لأنه قد يَتحرَّكون إلى شيء سَيِّءٍ، إنَّما إذا تَولَّى طلَبة العِلْم الذين وهَبَهم الله تعالى العِلْم تَوجيهَ الناس في هذه الأُمورِ حصَل في هذا خَيرٌ كثير، كما كان نَبيُّنا ﷺ يَفعَل، فالأُسْوة الحسَنة في الرسول ﷺ يَدخُل فيها الدَّعْوة إلى دِين الله عَزَّوَجَلَّ.

فصارت (الحسَنة) في ذاتها وفي تَطبيقها؛ في ذاتها بِمَعنَى: أن التَّأَسِّيَ به حسَنةٌ، ولا يُمكِن أن يَكون الرسولُ ﷺ شَيْءٌ من أَفْعاله غير مَوْصوف بالحُسْنى، وحسَنة في تَطبيق هذا التَّأَسِّي في العَقيدة والقَوْل والفِعْل، القَوْل والفِعْل.

لكن قال تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾: ﴿لِّمَن كَانَ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بدَلٌ من ﴿لَكُمۡ﴾]، في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾، لكِن ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ﴾ فهو بدَلُ بَعْض مِن كُلٍّ بإِعادة العامِل.

والخِطاب يَشمَل مَن يَرجو الله واليَوْم الآخِر ومَن لم يَرجُهُ، و﴿لِّمَن كَانَ﴾ يَخُصُّ مَن (كان يَرجو اللهَ واليَوْم الآخِر)، فهو بدَلُ بَعْضٍ من كلٍّ، وهل هو بدَل بعضٍ من كُلٍّ: في الذات أو في المَعنَى والصِّفات؟

فالجَوابُ: إذا قُلْت: «أَكرِمِ القَومَ بعضَهُم» هذا بدَلُ بعضٍ من الكُلِّ في الذات، لكن هنا في الآية في الصِّفات ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾.

وقولُنا: «بإعادة العامِل» العامِل الذي أُعيد هو اللَّام حَرْف الجَرِّ، فإنها مَوْجودة في البَدَل والمُبْدَل منه؛ مَوْجودة في المُبْدَل منه في قوله تعالى: ﴿لَكُمۡ﴾، وفي البَدَل في قوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَخاف الله].

ولعَلَّ قائِلًا يَقول: كيف يُفسِّر الرجاءَ بالخَوْف؛ لأن الرجاء هو طلَب أو تَمنِّي ما كان قريبَ الحُصول، فكيف يُفَسِّره بالخَوْف؟

فيُقال: إن الرجاء يُطلَق على الخَوْف، ويُطلَق على الأمَل، فالرَّجاء في المَحبوب والخَوْف في المَكروه، ولا يَلزَم أن يُفَسَّر بما فسَّر به المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن المُراد بالرَّجاء الخَوْف؛ لأن رَجَاء الله واليَوْم الآخِر ثابِت أيضًا، الذي هو تَمَنِّي حُصول المَطلوب.

فإن ما عند الله تعالى من الثَّواب لِمَن تَأَسَّوا بالرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يُوجِب الرَّجاء وما في اليَوْم الآخِر أيضًا من السَّعادة يُوجِب الرَّجاء أيضًا، فالذي يَظْهَر أن المُراد بـ(الرَّجاء) هنا مَعناه الحَقيقيُّ الذي هو طلَب ما فيه، أو أن يَأمُل الإنسان ما فيه مَصلحة له وخَيْر له.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ المُراد به يَوْم القِيامة، وسُمِّي اليومَ الآخِر؛ لأنه لا يَوْمَ بعدَه؛ ولأن ذلك اليَوْم هو آخِر مَراحِل الخَلْق؛ لأن للإنسان في هذه الدُّنيا أربعَ مَراحِلَ: مَرحَلة في بَطْن أُمِّه، ومَرْحلة في الدُّنْيا، ومَرْحلة في البَرْزَخ، ومَرحَلة رابِعة يومَ القِيامة، فهذه أربَعُ دُور، فليس هناك ليلٌ ولا نَهارٌ، فكُلُّه لا ليلَ ولا نهارَ؛ لأن الشَّمسَ تُكوَّر وتُرمَى في النار.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ يَقرُن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دائِمًا الإيمانَ به باليومِ الآخِر كثيرًا في القُرآن: ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النساء:٣٩]؛ لأن الإيمان باليَوْم الآخِر يَستَلزِم العمَل؛ لأنك إذا آمَنْت بأن هناك يَوْمًا تُجازَى فيه على عمِلك فسَوْف تَعمَل لذلك اليَوْم، بخِلاف الإنسان المُنكِر له، فالمُنكِر لليَوْم الآخِر لا يَعمَل له؛ لأنه يَعتَقِد أنه ما هناك إلَّا دُنيا فقَطْ؛ أرحامٌ تَدْفَع، وأَرْض تَبْلَع، ولا شيءَ! لكن إذا آمَن الإنسانُ باليَوْم الآخِر أَوْجَب له ذلك أَنْ يَعمَل.

ولهذا يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بخِلافِ مَنْ لَيْس كذلِكَ]، فقَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ﴾ الواو هنا حَرْف عَطْف و﴿وَذَكَرَ﴾ مَعطوف على ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ يَعنِي: ولِمَن كان ذَكَر الله عَزَّوَجَلَّ، أو مَعطوفة على ﴿كَانَ﴾، أي: لَمن كَـان ولَمن ذكَر، فمَعطوفة على ﴿كَانَ﴾؛ لأن الفِعْـل الماضي يُعْطَف على الفِعْـل الماضِي، وأيضًا إذا جَعَلْتـه مَعطوفًا على ﴿كَانَ﴾ اتَّضَح المَعـنَى أكثَرَ، فقَولُه تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا عمَل قَلْبيٌّ، وقولُه تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ﴾ عمَلُ جَوارِحَ، فيَكون مَعطوفًا على ﴿كَانَ﴾.

وقوله: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾: ﴿كَثِيرًا﴾ هذه مَفعول مُطلَق، أي: ذِكْرًا كثيرًا، وذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ يَكون بالقَلْب وباللِّسان وبالجَوارِح:

فيَكون بالقَلْب بأن يَتَفَـكَّر الإنسان في آيات الله تعـالى، وفي أسمائه وصِفاته، ويَكون بالجوارِح باللِّسان كالتَّسبيح والتَّهليل والتَّحميـد، وما أَشبَه ذلك، ويَكون بالجَـوارِح غيرِ اللِّسان مثل: الصلاة فيها رُكوع وسُجُـود وقِيَام وقُعود وهي ذِكْر، فالذِّكْر إذَنْ يَكون في القَلْب وفي اللِّسان وفي الجَوارِح.

والإنسان العاقِل الحازِم المُؤمِن لا يَزال يَذكُر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن في كل شَيْء من مَخلوقاته آيةً تَدُلُّ على وَحْدانيَّته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعلى حِكْمته، فأيَّ شَيءٍ تُشاهِد من هذا الكَوْنِ فسيُذكِّرُكَ بالله عَزَّوَجَلَّ.

كذلك بالنِّسبة لأَعمالك إذا كُنتَ حَازِمًا فإنك تَستَطيع ألَّا تَعمَل عمَلًا إلَّا كان عِبـادةً، والإنسان الحـازِم يَجعَـل من العادات عِبـاداتٍ، والإنسان الغافِـل يَجعَل من العِباداتِ عاداتٍ، فإذا كان الإنسان حازِمًا، فإنه لن يَضيع عليه لحظةٌ من عُمرِهِ إلَّا ولا بُدَّ أن يَستَغِلَّها في ذِكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالأَمْر بالمَعروف والنَهيِ عن المُنكَر من ذِكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقِراءة القُرآن من ذِكْر الله تعالى، وكلُّ قول أو فِعْل يُقرِّب إلى الله عَزَّوَجَلَّ فإنه من ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجُوب التَّأَسِّي بالنَّبيِّ ﷺ؛ يُؤْخَذ من قوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾؛ لأن رَجاء الله تعالى واليَوْم الآخِر واجِب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رسول الله؛ لقوله تعالى: ﴿فِي رَسُولِ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن جَميع طريق النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حسَنٌ ليس فيه سيِّئٌ؛ لقوله تعالى: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الواجِب علينا أن يَكون تَأسِّينا بالرسول ﷺ تَأسِّيًا حسَنًا، لا غُلوَّ فيه ولا تَفْريطَ؛ لقوله تعالى: ﴿حَسَنَةٌ﴾؛ لأن الغُلُوَّ زيادة، والتَّفريط نُقصان، ودِين الله عَزَّوَجَلَّ بين الغالي فيه والمُفرِّط فيه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وُجُوب رَجاء الله عَزَّوَجَلَّ واليوم الآخِر؛ لأن من تَمام الإيمان بالرسول أن نَتأَسَّى به رجاءً بالله تعالى واليوم الآخِر.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الإيمان باليوم الآخِر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ وسُمِّيَ يومًا آخِرًا؛ لأنه آخِر مَراحِل الإنسان، كما سبَق لنا في التَّفسير.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: مَشْروعية كثرةِ الذِّكْر؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، وقد بيَّن الله تعالى في سورة آل عِمرانَ عن أُولي الأَلباب أنهم يَذكُرون الله تعالى قِيامًا وقُعودًا وعلى جُنوبهم، والإنسان إمَّا قائِم أو قاعِد أو على جَنْبه، وهُمْ يَذكُرون الله تعالى في كل هذه الأَحوالِ.

الآيــة (٢٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ من الكُفَّار ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ من الابتِلاء والنَّصْر ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ في الوَعْد ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذلك ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ تَصديقًا بوَعْد الله تعالى ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأَمْره].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾: (لَمَّا) شَرْطية لكنها لا تَجزِم، وفِعْل الشَّرْط في الآية ﴿رَءَا﴾، وجوابُه: ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ﴾، وقد تَقدَّم أن (لَمَّا) تَأتي في اللغة العرَبية على عِدَّة وُجُوه: منها الشَّرْطية، كما في هذه الآيةِ، ومنها الجازِمة كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص:٨]، ومنها أن تكون بمَعنَى (إلَّا) كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤] يَعنِي: إلَّا عليها حافِظ.

والمُراد بالأَحْزاب هنا الأَحْزاب الذين تَألَّبُوا على النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من قُرَيش وغطَفانَ وغيرِهم، لَمَّا رأَوْهم رُؤْيةً بصَريةً قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ بأن هـؤلاء الأَحزابَ سيأتون؛ قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

فإن الله تعالى بيَّن في هذه الآيةِ أنَّه لا يُمكِن أن يَدخُل الجَنَّة إلَّا بعد هذه الأُمورِ، فيكون مُتَضمِّنًا لوَعْد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهُمْ أن يَرَوْا مثل هذه الأَشياءِ التي تُزَلزِلُهم؛ يَقول تعالى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، وهذا دَليل على ثَباتهم وإيمانهم وصِدْق نَواياهم، لكِنِ المُنافِقون تَقدَّم أنهم كانوا يَهزَؤُون بالرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما ضَرَب الحجَر الذي اعترَضهم في حَفْر الخَنْدق، وقال: إنه رأَى مَدائِن كِسرى وقُصورَ قَيصرَ واليَمَن؛ فقالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ يَقول: يُريد أن يَملِك اليَمَن والشام والعِراق وهو الآنَ مُضَيَّق عليه هذا التَّضييقَ!! هذا كَذِب! وليس بصحيح؛ لكنَّ المُؤمِنين قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، فهُمْ عكسُ هؤلاءِ المُنافِقين الذين قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الصِّدْق هو الإِخبارُ بالواقِع على حَسب ما هو واقِع، وإن شِئْت فقُلْ: هو الإِخْبار المُطابِق للواقِع، وضِدُّه الكذِب؛ ويُقال: صَدَقَني الحديثَ. وصدَّقني الحديثَ. وبينهما فَرْق (صدَقَني الحديثَ) يَعنِي: أَخبَرني بالصِّدْق، و(صدَّقني الحديث) يَعنِي: قال: إن ما حدَّثْته به صِدقٌ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران:١٥٢] مَعنَى ﴿صَدَقَكُمُ﴾: أَخبَرَكم بالصِّدْق وبيَّن لكم أنَّ ما وعَدَكم به حَقٌّ، حين حَسَسْتُموهم بإِذْنه.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ في هذه الجُملةِ ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ سِيق هذا الكَلامُ على سبيل المَدْح، ولكنه قد يُشْكِل على بعضِهم: كيف قَرَن وَعْد رسول الله ﷺ بوَعْد الله تعالى بالواو؛ وقَرَن أيضًا صِدْق رسول الله ﷺ بصِدْق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالواو؟ وقد قال النبيُّ ﷺ لرجُلٍ حين قال له:

ما شاءَ الله وشِئْتَ؛ قال له النبيُّ ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا»[1]، فكَيْف نَجمَع بين هذا وبين ما في هذه الآيةِ؟

الجَوابُ: أن يُقال: ما كان من أُمور الشَّرْع فإنه لا بَأْس أن يُضاف إلى الله تعالى ورسولِه ﷺ بالواو؛ لأن ما شَرَعه النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فهو من شَرْع الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وأمَّا ما كان من أُمور القَدَر، فإنه لا يَجوز أن يُضاف إلى الله تعالى ورسولِه ﷺ بالواو، بل لا بُدَّ أن يَكون بـ(ثُمَّ)؛ وذلك لأن قُدْرة الإنسان ومَشيئة الإنسان تابِعةٌ لَمشيئة الله تعالى وقُدْرته.

فمثَلًا: تَقول لرجُل سَألَك: ما حُكْم الصلاة جَماعةً؟ وأنت لا تَدْري ما حُكْمها؛ فتَقول: اللهُ ورسولُه أَعلَمُ؛ لأن هذا حُكْمٌ شَرْعيٌّ، وأمَّا إذا كان من الأُمور القَدَرية فإنه لا يُمكِن أن يُشرَّك غيرُ اللهِ تعالى مع الله تعالى بالواو؛ وذلك لأن مَشيئة غير الله تعالى وقُدرة غير الله تعالى تابِعةً لَمشيئة الله تعالى، ولا يُمكِن أن تَكون مُساوِيةً لها.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾: (ما زادَهُم) الفاعِل في ﴿زَادَهُمْ﴾ يَعود على رُؤيةِ الأحزاب، يَعنِي: ما زادَهم رُؤيةُ هَؤلاء الأحزاب وتَألُّبهم على رسول الله ﷺ إلَّا إيمانًا.

يَقول المُفَسِّر: [﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ تَصديقًا بوَعْد الله تعالى ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأَمْره] إيمانًا بالقَلْب وتَسليمًا بالجَوارِح؛ لأن الإيمان مَحلُّه القَلْب، والتَّسليم والانقِياد مَحلُّه الجوارِح، والإنسان لا يَتِمُّ دِينه إلَّا بهَذين الأَمْرين: بالإيمان والتسليم، فمَنِ استَسْلَم ولم يُؤْمِن فهو مُنافِق، ومَن آمَن ولم يَستَسْلِم فهو مُستكْبِر، فإذا اجتَمَع للإنسان

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٩٣)، وابن ماجه: كتاب الكفارات، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت، رقم (٢١١٨)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الإيمانُ والتَّسليمُ صار مُؤمِنًا حقًّا عابِدًا حقًّا، فالإنسان المُؤمِن لكنه لا يَسْتسلِم نَقُول: هذا مُسْتكْبِر. والإنسان المُستَسلِم لكنه غيرُ مُؤمِن نَقول: هذا مُنافِق؛ لأن المُنافِقين يَسْتَسْلِمون ظاهِرًا؛ ولا يَتِمُّ الإيمان إلَّا بهذين الأَمْرين: الإيمان والتسليم، ولا يَتِمُّ الشَّرْع إلَّا بهذين الأَمْرين الإيمان والتسليم.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾: ﴿إِيمَٰنًا﴾ مَفعول ثانٍ، والمَفعول الأوَّل (الهاء)، فـ(زاد) تَنصِب مَفعولين أوَّلُهما: الهاءُ، والثاني في هذه الآيةِ: ﴿إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ كان مُقتَضى الحال أن يَلحَقهم الخوفُ والذُّعرُ كما حصَل للمُنافِقين؛ فمن فوائِدها: كمالُ تَصديقهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورسولِه ﷺ في قولهم: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فهُمْ شاهَدوا ما وعَد الله تعالى، ثُم أَظهَروا الإيقان بذلك بأَلسِنَتِهم في قولهم: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

وقدِ استَدَلَّ بعضُ الجُهَّال في هذا الآيةِ على مَشروعية خَتْم القُرآن بقوله تعالى: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ﴾ وقالوا: كيف تُنكِرون علينا إذا أَتْمَمْنا القِراءة وقُلْنا: صدقَ الله العَظيمُ. مع أن الله تعالى يَقول: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ويَقول تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٩٥] فما هو الجَوابُ عن هذه الشُّبْهةِ؟

نَقول: نحن لا نُنكِر أن يَقول أحَدٌ: صدَق اللهُ ورسولُه. بل نَراه من الإيمان أن يَقول الإنسان: صدَق اللهُ ورسولُه. وأمَّا مَن لَمْ تَكُن عَقيدته هذه فهو كافِر، لكننا نُنْكِر أن نَجعَل هذا الثَّناءَ على الله عَزَّوَجَلَّ عند الانتِهاء من التِّلاوة مع أنه لَمْ يَرِد،

فهل نَحن أَعلَمُ بشريعة الله تعـالى من رسول الله ﷺ؟ وهل نحن أَحرَصُ منه على تَطبيق شريعة الله تعالى؟ أَبَدًا، وإذا لم يَكُن كذلك؛ فإن الواجِب علينا أن نَحذُوَ حَذْوَه، فإذا كان يَقول عند خَتْم عِند انتِهاء تِلاوته: (صدَقَ اللهُ) فإننا نَقولها على العَيْن والرأس، وإذا كان لا يَقولها فلا نَقولها.

ونَقول لهم: إذا كُنْتم تَعتَقِدون مَشروعية ذلك فقولوها أيضًا في الصلاة إذا انتَهَيْتُم من القِراءة في الصلاة قبل أن تُكبِّروا؛ لأن التِّلاوة في نفس الصلاة أفضَلُ منها في خارِج الصلاة، المُهِمُّ: أنه لا دليلَ لهؤلاء في مِثْل هذه الآيةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن المُؤمِن يَزْداد إيمانًا عند رُؤْية الآيات الكونية أو الشَّرْعية كقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: صِحَّة مَذهَب أهل السُّنَّة والجماعة الذين يَقولون: إن الإيمان يَزيـد ويَنقُص كذا، وقد ذكَرْنا أن زِيَـادة الإيمان باعتِبـار قُوَّة اليَقـين، وباعتِبار كثرة العمَل، وباعتِبار الإخلاص فيه، وباعتِبار أن المُعامَلة المُتابَعة للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وباعتِبار العامِل نَفسِه.

فكُلُّ هذه الاعتِباراتِ يَزيد بها الإيمان:

الأَوَّلُ: باعتِبار قُوَّة اليَقين فإبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠]، فليس الخبَرُ كالمُعايَنـة لو أَخبَرك مَن تَثِقُ به تَمامَ الثِّـقة عن وجود شيءٍ آمَنْت به، لكن إذا رأَيْتـه بعَيْنك صار ذلك أَقوى إيمانًا.

الثاني: باعتِبار كَثْرة العمَل.

الثالِث: بِحَسب الإِخْلاص في العِبادة، فكُلَّما كان الإنسان في العِبادة أخلَصَ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كان زيادةُ الإيمان بها أكمَلَ وأقوَى؛ ولهذا تَجِد الفرقَ إذا عبَدْت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بإِخْلاص، وإذا عبَدْتَه بغَفْلة؛ تَجِد الفَرْق العظيم في تَأَثُّر قلبك مع أن العِبادة واحِدة، فكيف إذا عبَدْت الله تعالى برِياءٍ وسُمْعة؟ نَسأَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَحمِيَنا وإيَّاكم من ذلك- تَكون أشَدَّ وأشَدَّ في عدَم تَأَثُّر القَلْب بهذه العِبادةِ!.

الرابع: باعتِبار مُتابَعة الإنسان للرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فكلَّما ازداد الإنسان اتِّباعًا للرسول ﷺ في عِبادته ازداد إيمانه بذلك؛ لأنه عِندما يَزداد اتِّباعًا للرسول ﷺ يَشعُر كأَنَّ الرسول ﷺ أمامَه يُتابع أثَرَه، وهذا لا شَكَّ أنه يَزيد في الإيمان.

الخامِس: باعتِبار حال العامِل، فالنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقول: «لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَه»[1]، يَعنِي: الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأنهم أَقوَى إيمانًا ممَّن بعدهم، وأشَدُّ ثباتًا.

والحاصِلُ: أن الإيمان زِيادته لها عِدَّة اعتِبارات، ومنها أيضًا تَرْك المَعاصي خوفًا من الله تعالى، فإن الإيمان يَزداد به، وفي (كتاب التَّوْحيد) شَرْح ذلك على وجهٍ أكمَلَ.

المُهِمُّ: أن أهل السُّنَّة والجَماعة يَقولون: إن الإيمان يَزيد ويَنقُص.

وقالتِ المُرجِئة: إن الإيمان لا يَزيد ولا يَنقُص؛ لأن الإيمان في القَلْب، والعمَل الصالِح ما له دَخْل في الإيمان وما في القَلْب لا يَتفاوَت، فنحن الآنَ نُؤمِن بالشَّمْس

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رقم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

جميعًا، إيماننا بالشَّمْس على حدٍّ سَواءٍ ما يَتَفاوَت، فالناس عندهم كما قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنهم:

النَّـاسُ فِي الْإِيـمَانِ شَيْءٌ وَاحِـدٌ كَالْمُشْطِ عِنْـدَ تَمَاثُـلِ الْأَسْـنَانِ[1]

وهذا القولُ لا شَكَّ أنه خطأ يَرُدُّه الواقِعُ والشَّرْع.

وقالَتِ الخَوارِجُ والمُعتَزِلة: الإيمان لا يَزيد ولا يَنقُص، إمَّا أن يُوجَد جُملة كامِلًا، وإمَّا أن يُعْدَم بالكُلِّية؛ لأنهم يَقولون: إن فاعِلَ الكبيرة كافِر خارِج عن الإيمان، فإمَّا كافِر، وإمَّا في مَنزِلة بين مَنزِلتين؛ فالخَوارِج يَقولون: إن فاعِل الكبيرة كافِر ليس عِنده إيمان أبَدًا، والمُعتَزِلة يَقولون: لا إيمانَ عِنده، لكِن لا نَقول: إنه كافِر، بل هو في مَنزِلةٍ بين مَنزِلتين، ومَن لم يَكُن فاعِلَ كبيرةٍ فالناس في الإيمان سَواءٌ كلهم على حَدٍّ سواءٍ.

فالذين لا يَرَوْن زيادة الإيمان ولا نُقْصانه طائِفتان إمَّا مُرْجِئة أو وَعيدية، وهُمُ الخَوارِجُ والمُعتَزِلة.

وقال بعضُ أهل السُّنَّة: كالإمام مالِك[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: الإيمان يَزيد ولا نَقول: يَنقُص؛ لأن زيادة الإيمان في القُرآن والسُّنَّة كثيرة، ولكن ليس فيهما ذِكْر نَقْص الإيمان، ولكن قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضعيف؛ لأن في السُّنَّة: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ»[3]، والإيمان بلا شَكٍّ من الدِّينِ، فيَكون داخِلًا في هذا الحديثِ.

---

(١) النونية (ص:٨).

(٢) انظر: البيان والتحصيل (١٨/ ٥٣٦).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقص الإيمان، رقم (٨٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأيضًا: فإن الزيادة والنُّقْصان من الأمور المُتقابِلة التي إذا وُجِد أحدُها انتَفَى الآخَر، ولا يُعقَل وجودُ أحدهما إلَّا بوجود الآخَر، فمثَلًا الزيادة لا تُعقَل إلَّا بنَقْص فنَقول له مثَلًا: أنت تَقول: إن فُلانًا أَزيَدُ إيمانًا من فُلان. مَعنَى ذلك أن المَزيد عليه ناقِص، ولا تَتَصوَّر غير هذا، فالصواب أن الإيمان يَزيد ويَنقُص، وأَسباب الزيادة والنُّقْصان كما شرَحْنا قبلُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الناس يَختَلِفون في الانقِياد والتَّسليم كما يَختَلِفون في الإيمان زيادةً ونَقْصًا؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسۡلِيمًا﴾؛ لأن عامة المُؤمِنين كلهم مُنقادون للشَّرْع، لكن منهم مَن يَنْقاد بطُمَأْنينة وانشِراح وقَبول ومَحَبَّة، ومِنهم مَن يُسْلِم على وجهٍ دون ذلك، فمنهم مَن يَأتي إلى الصلاة مثَلًا وهو يَرَى أنها نِعْمة من الله عَزَّوَجَلَّ يَأتي إليها مُقبِلًا غير مُدْبِر، نَشِطًا، مُنْشرِح الصَّدْر، مُحِبًّا لها، يَنتَظِر الصلاة بعد الصلاة بفارِغ الصَّبْر.

ومِنهم أُناسٌ بالعَكْس يَأتون إلى الصلاة ولا يَتَخلَّفون، لكن ببُطْء وتَثاقُل وعدَم انقِيادٍ لها؛ إذَنْ فالناس يَختَلِفون في التسليم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسۡلِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن التَّأمُّل في الآيات ووُضوح الآيات للعَبْد تَزيد في إيمانه وتَسليمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمۡ﴾ أي: ما رأَوْه من الأحزاب إلَّا ﴿إِيمَٰنًا﴾ بالله تعالى ﴿وَتَسۡلِيمًا﴾ لشَرْعه.

• • ❁ • •

الآيــة (٢٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ من الثَّبات مع النبيِّ ﷺ].

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ الجُمْلة هذه مُكوَّنةٌ من مُبتَدأٍ وخبَرٍ، والخبَر مُقدَّم والمُبتَدَأ مُؤخَّرٌ، فالمُبتَدَأ قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ والخبَرُ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإن قال قائِل: ﴿رِجَالٌ﴾ نكِرة، والابتِداء بالنَّكِرة ليس بجائِز؟

فالجَوابُ: أن ابن مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول:

وَلَا يَجُــوزُ الِابْتِــدَا بِــالنَّكِرَهْ ... مَــا لَمْ تُفِـدْ كَعِنْـدَ زَيْـدٍ نَمِـرَهْ[1]

والآيةُ التي معَنا مثل هذا المِثالِ: عِندَ زيدٍ نَمِرة، والمُسَوِّغ للابتِداء بالنكِرة هنا تَأخير المُبتَدَأ، كذلك في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟﴾ المُسوِّغ تَأخيرُ المُبتَدَأ، كما أن في الآية أيضًا مُسوِّغًا آخَرَ وهو وَصْف هذه النَّكِرةِ؛ لأن وَصْف النَّكِرة يُخصِّصها.

---

(١) الألفية (ص:١٧).

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: ﴿مِّنَ﴾ للتَّبعيض؛ لأنها تُقدَّر بـ(بَعْض)، واختَلَف النَّحويُّون في (مِن) التَّبعيضية فقال بعضهم: إنها اسْمٌ، وهي بحَسب العوامِل، لكن لا يَظْهَر عليها عمَل العامِل؛ لأنها حَرْف فيَنتَقِل العامل إلى ما بعدَها، ومنهم مَن قال: إنها حَرْف جَرٍّ، ولكن مَعناها: التَّبعيض وهذا هو الذي عليه أكثَرُ] أهل النَّحو.

وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ مَعنَى ﴿صَدَقُواْ﴾ أي: قاموا بهم، كما تَقول: صدَق لي الوَعْد. يَعني: وفَى لي بالوَعْد، فهُمْ وفَوْا بما عاهَدوا اللهَ تعالى عليه من الثَّبات مع النبيِّ ﷺ مِثْل: أبي بَكْر وعُمرَ وعُثمانَ وعليٍّ، وكثير نَحوهم.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ مات أو قُتِل في سبيل الله تعالى، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ ذلك ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ في العَهْد، وهُم بخِلاف حال المُنافِقين].

قسَّم الله تعالى هؤلاءِ الرِّجال الذين صدَقوا ما عاهَدوا الله عليه إلى قِسْمين: قِسْم قضَى نَحْبه يَعني: قَضى حَياته وقُتِل في سبيل الله تعالى كحَمزةَ بنِ عبدِ المُطَّلِب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فإنه قُتِل شهيدًا في سبيل الله تعالى، وكذلك بقية شُهَداء أُحُد.

ومنهم مَن يَنتَظِر القِتال في سبيل الله؛ لأنه قد صدَق الرسول ﷺ أو قَدْ ﴿صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾، فهُم يَنتَظِرون أن يُستَشهَدوا، ولكن هل يَحصُل لهم ذلك أم لا؟ قد يَحصُل وقد لا يَحْصُل؛ ولهذا يُقال: إن خالدَ بن الوَليد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ تَأسَّف في حال مرَضه أنه لم يُقتَل شهيدًا في سبيل الله تعالى، يَعني: يَندَم أنه ما ترَك مَعرَكةً إلَّا خاضَها قال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «وَهَا أَنَا أَموتُ عَلى فِراشِي كما يَموتُ الحِمارُ»[1]؛

(١) أخرجه الدينوري في المجالسة رقم (٨٣٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٦/ ٢٣٧).

لأنهم يُريدون أن يُستَشهَدوا في سبيل الله تعالى.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ هذا مَعطوف على ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: ومِنهم رِجال ما بدَّلوا تَبديلًا؛ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في العَهْد] والتَّبديل في العَهْد يَشمَل نَقْضَه بالكُلية، ويَشمَل الإخلال بشيء من شُروطه يَعني: يَشمَل نَقْضه بالكُلية وعدَم الالتِفات إليه، ويَشمَل الإخلال بشَيْء من شُروطه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ خبَر مُقدَّم ﴿رِجَالٌ﴾ مُبتَدأ مُؤَخَّر، ﴿صَدَقُوا۟﴾ الجُمْلة صِفة للرِّجال ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أَيْ: أنهم صدَقوا أَقوالهم بأَفْعالهم، فالعَهْد الذي عاهَدوا الله تعالى عليه قاموا به ووفَوْا به.

واعلَمْ أن مَعنَى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟﴾ أن من المُؤمِنين رِجالٌ عاهَدوا الله تعالى وصدَقوا ما عاهَدوا الله تعالى عليه، وليس المَعنَى أن من المُؤمِنين رِجال صدَقوا ومِنهم مَن لم يَصدُق حتى يَتشبَّث به من سَبِّ الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، أو قال: إنهم ليسوا كلُّهم صادِقين.

فالمَعنَى: أن من المُؤمِنين رِجالًا عاهَدوا الله تعالى فصدَقوا ما عاهَدوا الله تعالى عليه، بل مِنَ المُؤمِنين مَن لم يُعاهِد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على شيء، بل هو مُستَمِرٌّ على طاعة رَبِّه، حيث ما أُمِر، ممَّن عاهَد الله تعالى أَنَسُ بنُ النَّضْر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فإن أَنَس ابنَ النَّضْر لم يَشهَد بَدْرًا، فلمَّا رجَع النبيُّ ﷺ من بَدْر قال: يا رسول اللهِ، هذه أَوَّلُ غَزوة قاتَلْتَ فيها المُشرِكين، واللهِ، لئِنْ أَبقاني اللهُ تعالى لَيَرَيَنَّ الله ما أَصنَع. فلمَّا صارَتْ غَزوةُ أُحُد قاتَل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حتى قُتِل، فكانَتْ فيه بِضْعٌ وثَمانون ما بين طَعْنة

رُمْح أو ضَرْبة سَيْف[1]، فصدَق ما عاهَد اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه، هذا هو مَعنَى الآية ﴿صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾ فقوله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ليَرَيَنَّ اللهُ ما أَصنَعُ» هذا عَهْد؛ لأنه التِزام التزَم به على نَفْسه.

قال تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾ يَعنِي: فمِن هؤلاء الذين عاهَدوا الله عَزَّوَجَلَّ مَن قَضَى نَحْبه، أي: عَهْده والتِزامه وقِيل: مَن قضَى نَحْبه أي: أَجَلَه، أي: مات وقُتِل، ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ يَعنِي: يَنتَظِر الموت والقَتْل شَهيدًا في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ يَعنِي: ما حصَل منهم تَبديل لا بالنَّقْض بالكُلية ولا بالتَّغيير؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ﴾ والتَّبديلُ يَكون بالتَّرْك كُلِّيةً ويَكون بالتَّغيير بالنَّقْص أو بالزِّيادة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهُمْ بخِلاف حال المُنافِقين]، فإن حال المُنافِقين على العَكْس يُعاهِدون الله ولا يُوفُّون، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [التوبة:٧٥-٧٦]، أمَّا المُؤمِن فإنه يَفِي بما عاهَدَ اللهَ تعالى عليه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾، رقم (٢٨٠٥)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم (١٩٠٣)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الثَّناءُ على أُولَئِك المُؤمِنين الذين عاهَدوا الله تعالى فصدَقوه، وجهُ ذلك السِّياقِ ﴿رِجَالٌ﴾، فإن ﴿رِجَالٌ﴾ نكِرةٌ للتعظيم، يَعنِي: رِجالًا عُظَماءَ صدَقوا ما عاهَدوا الله تعالى عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن أُولَئِك الذين صدَقوا ما عاهَدوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منهم مَن تُوفِّي واستُشْهِد، ومنهم بَقِيَ، وقد ذكَّرْنا مثلًا بمَنِ استُشهِد وهو أَنَسُ بن النَّضْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه استُشهِد في أُحُد، ووُجِد فيه بِضْعٌ وثمانون ضَرْبةً[1].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ أَثنَى على هؤلاء أنهم أَتَوْا بما عاهَدوا الله تعالى عليه على وجهِ الكَمال بدون نَقْص ولا تَغيير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن مَن مات سابِقًا ومَن مات لاحِقًا إذا كان سَواءً فيما قام به ممَّا يَجِب، فإنه لا فرقَ بين المُتقَدِّم والمُتأخِّر؛ لأنه قال تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾، وجعَل الثَّناء عليهم واحِدًا، لكن في الأعمال الأخرى مَن تَأخَّر موتُه فازداد عمَلًا صالِحًا فهو أكمَلُ من الأوَّل، ولكنه بالنِّسبة لما اتَّفَق فيه من العمَل الصالِح لا فَرْقَ بين الأوَّل والآخِر.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾، رقم (٢٨٠٥)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم (١٩٠٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٢٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٤].

قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ﴾ اللَّام هذه للتَّعليل، يَعني: أن الأمرَ وقَع كذلك على الوَفاء وعلى النَّقْض، فعلى الوَفاء من المُؤمِنين وعلى النَّقْض من المُنافِقين، وقد وقَعَ هذا؛ ليَجزِيَ اللهُ تعالى الصادِقين بِصِدْقهم ويُعَذِّب المُنافِقين، ولولا اختِلاف الناس في الأعمال ما اختَلَفوا في الجَزاء، ولو لم يَختَلِفوا في الجَزاء ما كان لخَلْق الجَنَّة والنار فائِدة؛ ولهذا قال الله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، فالله عَزَّوَجَلَّ حكيم خلَقَ الجَنَّة وخلَق لها سُكَّانًا، وخلَق النار وخلَق لها سُكَّانًا، وسُكَّانُ هذه وهذه لا بُدَّ أن يَكون لهم أعمال يَقومون بها حتَّى يَستَحِقُّوا أن يَكونوا من أهلها.

وقوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ الباء هنا للسَّبَبية وليست للعِوَض؛ لأن الجَزاء على الأعمال ليس من باب المُعاوَضة، ولكنه من باب قَرْن المُسبَّب بسبَبه؛ لقول النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»[1]،

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالأعمال الصالِحة أسباب، وإلَّا فلو أن الله عَزَّوَجَلَّ أَراد أن يُعاوِضنا على أعمالنا مُعاوَضةً بمَعنَى المُعاوَضة لكان لو قابَلنا بنِعْمة واحِدة من نِعَمه علينا ما قابَلَت كلَّ أعمالنا، أو ما قابَلَتْها كلُّ أعمالنا، ولكن الأعمال سبَبٌ.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ إذا كان الجَزاء بالصِّدْق فسيَكون الجزاء على حَسب ذلك الصِّدقِ، فالذين صدَقوا ما عاهَدوا الله تعالى عليه يَكون جَزاؤُهم على صِدْقهم بحَسب ما قاموا به، فإذا كانوا أَطوَعَ لله عَزَّوَجَلَّ وأشدَّ تَنفيذًا لأوامِره وأكثَرَ فِعْلًا لطاعته صار جَزاؤُهم أكثَرَ، والعَكْس بالعَكْس.

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ المُنافِق هو الذي أَظهَر الإيمان وأَبطَن الكُفْر، مَأخوذٌ من النافِقاء وهي نافِقاء اليَرْبوع الذي يَجعَلها في جُحْره حتى إذا أتاه أحَدٌ من بابه خرَج من هذه النافِقاءِ.

وقوله تعالى: [﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ بأن يُميتَهم على نِفاقهم].

أَشار المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ في قوله: [بأن يُميتَهم على نِفاقهم] إلى أن تَعذيب المُنافِقين المُعلَّق بالمَشيئة هنا ليس المَعنى أنه إن شاء عذَّبَهم وإن شاء لم يُعذِّبْهم، وقد ماتوا على النِّفاق؛ لأنهم إذا ماتوا على النِّفاق فقد أَخبَرَنا الله تعالى أنهم في الدَّرْك الأسفَل من النار، وليسوا تَحتَ المَشيئة ويَكون قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِن شَآءَ﴾ بأَنْ يَبْقَوْا على نِفاقهم حتى يَموتوا فإذا بَقُوا على نِفاقهم إلى الموت عَلِمنا أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد شاء تَعذيبهم، أمَّا إن هَداهم الله فإن المُنافِقين قد اهْتَدَوا؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يُوَفِّقهم للتَّوْبة، والصواب كما تَقدَّم كثيرًا أنَّ المُنافِق تَصِحُّ تَوْبته وهي نَصٌّ في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ

فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤٥-١٤٦].

وقوله: ﴿أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يَمُنَّ عليهم بالتَّوْبة فيَتوبوا وحينئذٍ لا يُعَذَّبون.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ غَفور: هـذه اسمُ فاعِـل على صيغة المُبالَغة، يَعنِي: كثير المَغـفِرة، ويَجوز أن تَكون صِفةً مُشبَّهة، أي: ذو مَغفِرة، والصِّفة المُشبَّهة أبلَغُ من اسمِ الفاعِل؛ لأن اسمَ الفاعِل يَدُلُّ على الفِعْل، والصِّفـة المُشبَّهة تَدُلُّ على الوَصْف، أي: على اتِّصاف مَن هي وَصْفـه بها دائِمًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿غَفُورًا﴾ لَمن تاب] فيه شَيء من النَّظَر؛ لأن الله تعالى يَغفِر حتى لَمن لَمْ يَتُب ممَّن هو تحت المَشيئة، كفاعِل المَعاصي، ولو أن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَبقاها على إطلاقها لكان أَسلَمَ له، فقـوله تعالى: ﴿غَفُورًا﴾ أي: كثير المَغفِرة أو ذو مَغفِرة مُتَّصِفٌ بها دائِمًا، وهذا أَقرَبُ كما قُلْت؛ لأنه يَدُلُّ على الوَصْف الدائِم، ويَدُلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد:٦].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿رَّحِيمًا﴾ به] يَقول: [به] أي: بمَن تاب، والصوابُ: أنه رحيـم بمَن تاب وبغَيْره، وأن رحمةَ الله عَزَّوَجَلَّ بالمَعنى العامِّ تَشْمَل المُؤمِن والكافِر، والبَرَّ والفاجِـرَ، وكلَّ أحَد، كلُّ أحَـدٍ، فإنه داخِل في رحمة الله تعـالى هذا بالمَعنَى العامِّ، أمَّا بالمَعنَى الخاصِّ فإن الرحمة تَختَصُّ بالمُؤمِنين.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ في المُجازاة عن العمَل، كقَوْله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الجَزاء من جِنْس العمَل؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾،

فإن البـاء للسَّببية والمُسبَّب مَرْبوط بالسَّبَب يَقوَى بقُوَّته ويَضعُف بضَعْفه، ويَزداد بزِيادته ويَنقُص بنُقْصانه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الثَّناء على الصادِقين وأنهم أهلٌ للجَزاء الحسَن؛ لقوله تعـالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ الصادِقين في العَقيدة وفي القول وفي الفِعْل وفي العمَل.

وقد أَمَر الله تعـالى بالصِّدْق، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، وقال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حاثًّا على الصِّدق: «**عَلَيْـكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْـدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُـورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّـارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُـلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**»(١).

والصِّدْق كما أنه مَحَلُّ ثَناء من الله عَزَّوَجَلَّ ومَحَلُّ ثواب جَزيل، فإنه مَحَلُّ ثَناءٍ من الخَلْق؛ ولهذا تَجِد الصادِقين تُنشَر آثارهم، وتُؤثَر أقوالهم، ويُثنَى عليهم في المَجالِس حتى بعد مَوْتهم، بخِلاف أهل الكَذِب -والعِياذ باللهِ- والنِّفاق، فإنهم على العكس من ذلك، فعليـك بالصِّدْق! ولا تَظُنَّ أن الصادِق يَخيب أبَدًا، كما يصوِّر الشيطان أحيانًا للإنسان: أنه لو صدَق لكان في ذلك ضرَرٌ عليه، فلْيَكُن كاذِبًا أو فلْيَكذِب، فإن هذا من وَسْواس الشيطان، والصِّدق مَنجاة؛ ولهذا قال أحَدُهم: رأيتُ في

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، رقم (٦٠٩٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الكذِب نَجاةً. فقال الثاني له: الصِّدْق أَنجَى. وصدَقَ.

واعلَمْ أن الصادِق وإن كان الأمر مُرًّا عليه في أوَّل أَمْره لكنه تكون العاقِبة له في النهاية، وإذا أَرَدت مثَلًا على ذلك فانظُرْ إلى حال الثلاثة الذين خُلِّفوا في غزوة تَبوكَ[1] كيف كان أوَّلُ أَمْرهم؟ كانوا في تِلك المَرارةِ العَظيمةِ حتى ضاقت عليهمُ الأرض بما رحُبَت، وضاقت عليهم أنفُسُهم، وتَنكَّرتِ الأرض لهم، حتى إن كعبَ بنَ مالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقول: حتى كأَنَّ الناس الذين على الأرض كأنهم ليسوا همُ الناس الذين أَعرِف؛ قال تعالى: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [التوبة:١١٨]، والنَّتيجة أنه نزَلت فيهم آياتٌ تُتلى إلى يوم القِيامة، لولا هذا الصِّدْقِ ما بقِيَت هذه الآياتُ، حتى قِيل للناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، فعِندما ذُكِرَت قِصَّتهم فهذا نهاية عظيمة جِدًّا للصادِقين، فأنت اصدُقْ وإن حصَل عليك ضرَر في أوَّل أَمْركَ، لكن العاقبة لكَ، ولا تُعوِّد نَفْسك الكذِب.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ذَمُّ النِّفاق وأنه سبَب للعَذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن المُنافِق له تَوْبة في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن شَآءَ﴾، فإنه يَشاء أن يُعذِّبهم إذا ماتوا على النِّفاق، أمَّا إذا تابوا فقد شاء ألَّا يُعذِّبهم، ولكن -كما تَقدَّم في تفسير هذه الآيةِ- تَوْبة المُنافِق ذُكِر فيها شُروط لا بُدَّ من مُراعاتها، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء:١٤٦]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم (٤٤١٨)، مسلم: كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم (٢٧٦٩)، من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لا بُدَّ أن تَظْهَر هذه الأُمورُ على المُنافِق وإلَّا فإن تَوْبته لا تُقبَل في الدنيا، أمَّا في الآخِرة فأَمْره إلى الله تعالى، لكن في الدُّنيا لا نَقبَلها إلَّا إذا ظهَرت عليه هذه الأَوْصافُ التي اشتَرَط الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ترغيب المُنافِقين في التَّوْبة؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ فهو مُنافِقٌ خادِعٌ خادِرٌ ماكِرٌ، ومع ذلك يُقال له: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا دَليل على أن رحمة الله تعالى سبقَت غضَبُه؛ ولهذا أُولئك الذين يُعذِّبون أَوْلياءَه ويُحرِقونهم بالنار يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠]، وكذلك الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣] عرَضَ الله تعالى عليهم التَّوْبة! وكلُّ هذا دليل على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحِبُّ العَفْو أكثَرَ من العِقاب.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات اسمَيْن من أسماء الله وهما: الغَفور والرَّحيم وما تَضمَّناه أيضًا من الصِّفتَيْن وهما المَغفِرة والرحمة، وما يَتعلَّق بهما من حُكْم وأَثَر، وهو أنه يَغفِر ويَرحَم.

وأَسماء الله تعالى نَوْعان: مُتعَدٍّ ولازِم؛ فالمُتعدِّي لا يَتِمُّ إيمانك به إلَّا بأُمورٍ ثلاثة:

أ-أن تُؤمِن به اسمًا لله تعالى.

ب- أن تُؤمِن بما تَضمَّنه من صِفة.

ج- أن تُؤمِن بما تَضمَّنه من الحُكْم والأَثَر.

فالاسمان الكَريمان الغَفور الرَّحيم من الأسماء المُتعدِّية التي لا يَتِمُّ الإيمان بها

إلَّا بأُمور ثلاثة؛ ففي (الغَفور) تُؤمِن بأن الغَفور من أسماء الله تعالى وأنه تعالى ذو مَغفِرة، والثالِث وأنه يَغفِر، ومثله الرَّحيم.

وإذا كان غير النَّوْع الثاني: إذا كان غير مُتعَدٍّ فلا يَتِمُّ الإيمان به إلَّا بأمرين:

أ- الإيمان به اسمًا من أسماءِ الله تعالى.

ب- الإيمان بما تَضمَّنه من الصِّفة.

مِثل: العَلِي العَظيم الكَريم وما أَشبَهها، وربما نَقول: إن الكريم من النوع الأَوَّل.

وفي الآية إشكال وهو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، كان الله يَعنِي: والآنَ؟

فنَقول: إنَّ (كانَ) يُراد بها اتِّصاف اسمِها بخبَرها بقَطْع النظَر عن الزمَن، وهو ما يُعرَف بـ(مَسلوبة الزمَن)، يَعنِي: لا يُراد بها الزمَن إطلاقًا، بل يُراد بها تَحقُّق هذا الوصفِ، فـ(كان) يَعنِي: ثبَت، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يَعنِي: أنه عَزَّوَجَلَّ لم يَزَل ولا يَزال كذلك غَفورًا رحيمًا.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب:٢٥].

ردَّهُم أي: أَرجَعهم على أَدْبارهم خائِبين، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يَعنِي: الأحزابَ من قُرَيْش وغيرِهم.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ الباء هنا للمُلابَسة، أي: مُتلَبِّسين بالغَيْظ، الجارُّ والمَجرور في مَوْضِع نصب على الحال، يَعنِي: أنهم رجَعوا مُغتاظِين غايةَ الغَيْظ، ووجهُ اغتِياظهم أنهم جاؤُوا بهذا الجَمعِ الكثيرِ الذي لم يُشْهَد له نَظِير في ذلك الوقتِ، يُريدون القَضاء على النبيِّ ﷺ، ومع ذلك حصَل لهم التَّعَب والعَناء والجُوع والبَلاء، وآخِر الأَمْر أَنْ رجَعوا هارِبين، ولا شَكَّ أن مِثْل هذا سَوف يُؤَثِّر على الإنسان، فسوف يَملأ قلبه غَيْظًا وحَسْرةً وندَمًا، كيف يَأتِي بهذا الجَيْشِ الذي جَمَع له وأَبدَى فيه وأَعاد وآخِر الأَمْر أن يَنقلِب ولا يَكون معركة؟! ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾.

وقوله: ﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾ لا مِن أَمْر الدُّنيا ولا مِن أَمْر الآخِرة، أمَّا أَمْر الآخِرة فإنهم لن يَنالوا خيرًا بقِتالهم للنبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على كلِّ حال. وأمَّا أَمْر الدُّنيا الذي يَرَوْنه هم خيرًا لأنفسهم فما نالوه؛ فما نالوا خيرًا لا في الدِّين ولا في الدُّنيا

-ولله الحَمدُ- حتى ما يَظُنُّونه خيرًا من هَزيمة رسول الله ﷺ والقضاء عليه وعلى أصحابه ما حصَل لهم ذلك، لم يَنالوا خيرًا.

وقوله تعالى: ﴿خَيْرًا﴾ نكِرة في سِياق النفيِ (لم) فتُفيد العُمُوم يَعنِي: ما نالوا أيَّ خيرٍ لا قليلًا ولا كثيرًا، وهذه من نِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأَضاف الله تعالى الرَّدَّ إلى نَفْسه ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأن رُجُوعهم ليسَ بِحَوْل النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولا بقُوَّته ولا بحَوْل أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ولا قُوَّتهم، ولكنه بحَوْل الله تعالى وقُوَّته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾ مُرادهم من الظَّفر بالمُؤمِنين ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾] والحمد لله! كفَى اللهُ تعالى المُؤمِنين القِتال، يَعنِي: أن الله تعالى أَراح المُؤمِنين من القِتال فلم يُقاتِلوا، وأمَّا ما حصَل من المُناوَشات التي حصَلَت لبعض الصحابة مع بعض المُشرِكين، فهذا لا يُعَدُّ قِتالًا؛ لأن الكلام على الجَيْش كله جَمعاءَ فإنه لم يَحصُل فيه قِتالٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ ونِعْمَ الحسْبُ هو الكَفيُّ عَزَّوَجَلَّ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالرِّيح والمَلائِكة] الرِّيح سبَق أن الله تعالى أَرسَل عليهم الرِّيحَ الشرقيةَ البارِدة الشديدة، وأنها كفَأَت قُدُورهم وزَلزَلْت خِيامهم، ورَمَتْهم بالحِجارة تَحمِلها الرِّياح مع البَرْد الشَّديد، حتى كانوا يَصطَلون بالنار، ويَقولون: النَّجا النَّجا؛ وأمَّا المَلائِكة فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سلَّط المَلائِكة عليهم بأن تُلقِيَ في قُلوبهم الرُّعْب والفزَع والخَوْف، وتوحُّشهم حتى يَنصَرِفوا من المكان، وهذا من نَصْر الله عَزَّوَجَلَّ للرسول ﷺ.

وقوله: [﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إيجاد ما يُريده ﴿عَزِيزًا﴾ غالِبًا على أَمْره]

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ القُوَّة صِفةٌ يَتمَكَّن بها القويُّ من فِعْل ما يُريد بدون ضَعْف، وهي أعلى من القُدْرة؛ لأن القُـدْرة صِفةٌ يَتمكَّن بها القادِر من فِعْـل ما يُريد بدون عَجْز، فالقُوَّة أعلى، وانظُرْ إلى رَجُلَيْن حمَلا صَخْرةً، أحدُهُما حمَلها لكن مع نوعٍ من المَشقَّة، فنَقـول: هذا قادِر، ولكن ليس بقَـوِيٍّ، والآخَر حمَلها وكأنها شيءٌ بَسيـطٌ نَقول: هذا قوِيٌّ.

وقوَّةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا مُنْتهَى لها، ولَا مِقْياسَ لها، بَل هي فَوْق ما يَتـصوَّره الإنسان، لَمَّا قالت عادٌ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فُصِّلَت:١٥-١٦].

وأمَّا قوله تعـالى: ﴿عَزِيزًا﴾ فيَقـول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [غالِبًا على أَمْره]، فالعزيز من أسماء الله تعالى له ثَلاثة مَعانٍ:

١- عَزيز القَدْر.

٢- وعَزيز القَهْر.

٣- وعَزيز الامتِناع.

أمَّا عزيز الامتِناع: فمَعناه: أنه يَمتَنِع أن يَناله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سوءٌ أو نَقْصٌ في جميع صِفاته وجميع أَفْعاله.

وأمَّا عِزَّة القَدْر: فمَعنـاه: أنه ذو قَـدْر عظيم رفيـع مثلَما تَقول: فُـلَان عَزيزُ النَّفْس. يَعني: له عِزَّة وتَرَفُّعٌ عن الدَّنايا.

وأمَّا عِزَّة القَـهْر التي من الغَلَبة: فمَعنـاها أنه غالِب على كل شيء حـتى بالجاهِلية، يَقول الشاعِر:

أَيْـــنَ المَفَـــرُّ وَالْإِلَـــهُ الطَّالِـــبُ وَالْأَشْرَمُ المَغْلُوبُ لَـيْسَ الْغَالِـبُ[1]

واللهُ عَزَّوَجَلَّ هو الغالِب على أَمْره وهو غالِب على كل شيء، لا شيءَ يَكون أمام غلَبَته.

فصار العزيزُ له ثلاثة مَعانٍ: عِزَّة القَـدْر وعِزَّة القَهْر، وعِزَّة الامتِنـاع، وكلها ثابِتةٌ لله عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيان قُدْرة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى حيث رَدَّ هذه الأحزابَ الكثيرة العَظيمة مع ما في قُلوبهم من الغَيْظ والحَنَق الشديد على رسول الله ﷺ وأصحابه ردَّهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بغَيْظهم ما اشتَفَوْا، ولا نالوا مُرَادهم قال الله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ﴾؛ ولـهذا أَثْنى النبيُّ ﷺ على ربِّه بهَزيمة الأحزاب، فقـال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ أَنْجزَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ»[2].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هؤلاءِ الأحزابَ قدِ امتَلأت قلوبُهم غَيْظًا على رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾، فإن الباء للمُصاحَبة وللمُلابَسة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الأحزاب لم يَنالوا مع هذا التَّعَبِ الشديد خيرًا لا في الدُّنيا

---

(١) نسبه ابن هشام في السيرة (١/ ٥٣) لنفيل بن حبيب.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العمرة، باب ما يقول إذا رجع من الحج أو العمرة أو الغزو، رقم (١٧٩٧)، ومسلم: كتاب الحج، باب ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره، رقم (١٣٤٤)، من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

ولا في الآخِرة، فما نالوا خيرًا في الدنيا من غنائِم وغيرها ولا نالوا خيرًا في الآخِرة من الأُجور والثَّواب.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ كفَى المُؤمِنين القِتالَ بعد هذه الغَزوةِ؛ ولـهذا لـم يُقاتِل النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أحَدًا من المُشرِكين بعد تِلك الغَزوةِ حتى قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**الْآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا**»(١)؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ في هذه الغَزوةِ وما بعدَها، فإن العرَب لم يَقوموا بغزوٍ لرسول الله ﷺ بعد هذه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ يُدافِـع عن المُؤمِنين؛ لقوله تعـالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ يُؤْخَذ من الآية: أنـه خصَّه بالمُؤمِنين فدَلَّ هـذا على أنه كَفاهم القِتال لإيمانهم؛ فالمُؤمِنون يَكفيهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما أَهمَّهم؛ فيُدافِع عنهم لإيمانهم كما قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزُّمَر:٦١].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات القُوَّة والعِزة لله تعالى في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، وفيها إثبات هَذين الاسمَيْن من أسمائه، وهما: القويُّ والعَزيز.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم (٤١١٠)، من حديث سليمان بن صرد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٢٦)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ [الأحزاب:٢٦].

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي: قُرَيْظَةَ ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ حُصونِهم جمع صِيصَة وهو ما يُتَحصَّن به ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾: (أَنزَل) الضمير يَعود على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم ﴾ أي: أَعانوهم وساعَدوهم، والمُظاهَرة بمَعنَى المُساعَدة، وتَظاهَرَ على كذا: أي: تَساعَدَ وتَسانَد عليه، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ ﴾ [التحريم:٤]، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨] يُعين مُساعِدًا ومُعينًا، فقوله تعالى: ﴿ظَٰهَرُوهُم ﴾ أي: أَعانوهم وساعَدوهم من أهل الكِتاب.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ المُراد بـ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ اليَهود والنَّصارى، لكن المُراد بهم هنا في الآية: طائِفةٌ من اليَهود، وهم بنو قُرَيظةَ، وسبَق أنَّ بني قُرَيظةَ وبني النَّضير وبني قَيْنُقاع ثلاث قبائِلَ من اليَهود، قدِم النَّبيُّ ﷺ

المَدينة وهم ساكِنون فيها، فأَجرَى بينهم وبينه عَهْدًا، ولكنهم نقَضوا ذلك العهدَ، ولم يَبق إلَّا بنو قُرَيظةَ، ثُم إنَّ بني قُرَيظةَ نَقَضوا العهد بمُساعدةٍ مِن الأحزاب على رسول الله ﷺ.

ولَمَّا رجَع النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من الأحزاب ودخَل بَيْته واغتَسَل جاءَه جِبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقال له: «اخْرُجْ لِهَؤُلَاءِ» مُشيرًا إلى بني قُرَيظةَ فإنهم نقَضوا العهد، فرجَع، فأَمَر النبيُّ ﷺ أصحابه أمَرَهم بالخُروج وقال ﷺ: «لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»(١)، فما تَوانَى الصحابةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وما تَأَخَّروا مع ما هم فيه من التعَب والضَّعْف، فخرَجوا فحاصَروا بني قُرَيظةَ لُمدَّة عِشْرين يومًا حتى نزَلوا على حُكْم سعدِ بنِ مُعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(٢).

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّق بـ(أَنْزَل) يَعنِي: أَنزَل هؤلاءِ من صَياصيهم أي: من مَآمِنهم، والأصل في صَياصي حَظائِر البقَر؛ لأنها تُؤمَّن فيها، فـ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ يَعنِي: من مَآمِنهم وحُصونهم التي تَحصَّنوا فيها، ولكن ذلك لم يُغنِهم من الله تعالى شيئًا.

وقوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ قذَف: بمَعنَى: رمَى، وهو أشدُّ وقعًا من قوله: وضَع، يَعنِي: لو قال: (وضَع في قُلوبِهم الرُّعْب) أَفاد أنَّ الرُّعْب قد صار

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب، رقم (٩٤٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب المبادرة بالغزو، رقم (١٧٧٠) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. وعند مسلم: صلاة الظهر.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدو على حكم رجل، رقم (٣٠٤٣)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم، رقم (١٧٦٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

في القُلوب، لكن إذا قال: (قذَف) صار أشَدَّ.

و﴿ٱلرُّعۡبَ﴾ بمَعنَى: الخَوْف، وإذا وقَع الخَوْف في القلب، فلا تَسأَل عن الخائِف، إذ يَظُنُّ أن الشَّجَر إنسانٌ، فلا يَتصوَّر الأمور على حَقائقها حتى لو ناداه أحَدٌ من أصحابه ظنَّ أنه عَدُوُّه يُناديه؛ ليَقتُله، ولا أشدَّ من سِلاحٍ يَفتِكُ بالعَدوِّ من الرُّعْب؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»(١).

أمَّا إذا ثبَت القَلْبُ واطمَأنَّ فإن المُقاتِل سَيَثبُت كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥]، وذِكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَطْمَئِنُّ به القُلوب، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، وأَخبَر الله عَزَّوَجَلَّ أن الله تعالى أَنزَل على أهل بَدْر المطَر؛ لِيُثبِّت به الأقدام، وتَكون به السَّكينة.

والحاصِلُ: أن الرُّعْب من أشَدِّ الأسلِحة فَتْكًا للعَدوِّ.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ مِنهم وهُمُ المُقاتِلة ﴿وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا﴾ مِنهم، أي: الذَّراري] فهُمْ لَمَّا طال بهِمُ الحِصار، ونزَلوا على حُكْم الرسول ﷺ خيَّرهم قال: «مَنْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِهِ؟» قَالُوا: نُريد أن نَنزِل على حُكْم سعد بنِ مُعاذ. وكان سَعدُ بنُ مُعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حَليفًا لهم فظَنُّوا أنه سيَفعَل مِثلَما فعَل عبد الله بنُ أُبَيٍّ في حُلَفائه من اليَهود حين شفَع فيهم لرسول إلى رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فتَركهم، لكن سعدًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لَمَّا جاء وكان في خَيْمةٍ له في المَسجِد؛ لأنه أُصِيب في الأحزاب في أَكحَله،

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم (٥٢١)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وضرَب له النبيُّ ﷺ خيمةً في المسجد؛ ليَعودَه من قريب؛ لأنه سيِّد قَوْمه -سيِّد الأَوْس- جاء على حِمار من مَسجِد الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى مَكان الحِصار.

فأَخبَره النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأنهم حكَّموه، فقال: حُكْمي نافِذ عليهم -ويُشير إلى الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أوَحُكْمي فيهم نافِذ؟! ويُشير إلى الرسول ﷺ ويُشير إليهم أيضًا فقالوا: نعَمْ! فالنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكذلك هَؤلاءِ اليَهودُ رَضُوا؛ فقال: لقَدْ آن لسَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن لا تَأْخُذه في الله تعالى لومةُ لائِمٍ! هذا مَقام مِحنةٍ عظيمةٍ، فحكَم فيهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بحُكمٍ عظيم حُكمٍ صائِب مُطابِق للحقِّ، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَحكُم بأَنْ تُقْتَل مُقَاتِلتُهم، وتُسْبَى ذُرِّيَّتهُم، وتُغنَم أموالهم؛ فقال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ»، ثُمَّ أمَر النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأن تُقتَل مُقاتِلتُهم وهمُ الرِّجال البالِغون، وأمَّا الذَّراري من النِّساء والرِّجال غير البالِغين، فإنها تُسبَى والأموال تُغنَم، فقُتِلوا في المدينة ما بين السَّبْعِ مِئة إلى ثَمانِ مِئة[1].

فقُتِلوا في يوم واحِد بِناءً على حُكْمٍ همُ الذين رضُوا به، فهذا هو مَعنَى قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾.

وهنا قُدِّم المَفعول في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وأُخِّر المَفعول في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ فهلِ الفائِدة من ذلك مُراعاة الفواصِل فقط

(١) هذا الخبر مجموع من عدة روايات منها ما أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، رقم (٤١٢٢)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد، رقم (١٧٦٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وما أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدو على حكم رجل، رقم (٣٠٤٣)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد، رقم (١٧٦٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فتكون الفائِدة لَفْظية، أم أن هناك فائِدةً مَعنوِيةً؟

الجوابُ: بلِ الأمران، وذلك لأن الحُكْم الأوَّل أشَدُّ وأبلَغُ؛ فلهذا قُدِّم مَفعولُه قال تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ والثاني دون ذلك؛ لأن الأسير ربما يُمَنُّ عليه بإطْلاقه فقال: ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ هذا مع مُراعاة اللَّفْظ الذي هو مُراعاة الفواصِل -فواصِل الآيات-؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة البقَرة: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

فلمَّا كان التَّكذيب للرُّسُل شديدًا قُدِّم فيه المَفعول كما قُدِّم المَفعول في قَتْلهم، فهذه قِصَّة الأحزاب انتهَت على قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: مِنَّة أُخرى على المُؤمِنين، وهي إنزال هؤلاء الذين غدَروا من اليَهود من بني قُرَيْظَةَ من حُصونهم التي تَحصَّنوا بها في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن اليَهود والنَّصارى أعداءٌ للمُسلِمين مُوالون للمُشرِكين؛ لأن بني قُرَيظةَ والَوُا الأَحزابَ وظاهَروهم على رسول الله ﷺ مع ما عليهم من العَهْد والمِيثاق الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن إلقاء الرُّعْب في القُلوب من أعظَمِ الهَزيمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإشارة إلى انحِطاط هؤلاء اليَهودِ وذُلِّهم ونُزُولهم من الأعلى

إلى الأَسفَل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ وفِعْلًا: فإنهم حصَل لهم مع خُروجهم من حُصونهم من الذُّلِّ والعار والخِزيِ ما هو باقٍ إلى يوم القيامة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَباح للمُؤمِنين هؤلاءِ اليَهودَ قتلًا وأَسْرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات غَدْر اليَهود، وأنهم أهلُ غَدْر وخِيانة، وهذا شيء مَعلوم أن اليَهود من حالِهم منذ كان فيهم نَبيُّهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مُوسى إلى يَوْمنا هذا، فهُمْ أَشَدُّ الناس غدرًا ومَكْرًا وخِيانة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾.

• • ۞ • •

الآيـة (٢٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب:٢٧].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ وهي خَيبرُ وأُخِذت بعد قُرَيْظَةَ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾] ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ (أَورَثَ) هذه تَنصِب مَفعولين؛ المَفعول الأوَّلُ الكافُ والثاني: ﴿أَرْضَهُمْ﴾؛ والأرض والدِّيار بينهما فَرْق، فالدِّيار جَمْع دار، وهِي المَساكِن والأحياء، وأمَّا الأرض فهي أعَمُّ من ذلك، والأموال هي الأَمتِعة والدراهِم والدَّنانير، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ يَعنِي: ما وطِئْتُموها حتى الآنَ، ولكنكم سترِثونها، وهي أرض خيبرَ، فإن النبيَّ ﷺ فتَحها بعد ذلك في السَّنَة السابعة[1].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ فلا يُعجِزه شيءٌ، وقُدِّم المَفعول لتَحقُّق وقوعِ الفِعْل به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ ولا تَقُلْ كما يَقول بعض الناس: (إنه على ما يَشاءُ قَديرٌ)؛ لأنك إذا قُلْت: (على ما يَشاء قَديرٌ) خصَصْتَ قُدْرته بما يَشاءُ، مع أن القُدْرة تَتعلَّق بالذي شاءَه والذي لم يَشَأْه، حتى الذي لم يَشَأْه هو قادِر عليه.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٣٢٨)، والبداية والنهاية (٦/ ٢٤٩).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن المُؤمنين إذا فتَحوا بلَدًا ملَكوا الأَرْض؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ وإذا ملَكوا الأرض فهل تُقْسَم بين الغانِمين أو تُوْقَف لبيت المال، أو تُوَزَّع على المُؤمِنين بخَراج؟

فيه خِلاف بين أهل العِلْم رَحِمَهُ ٱللَّهُ والصحيح أنه يَجِب على وَلِيِّ الأَمْر أن يَنظُر ما هُو الأَصلَح، إن رأَى أن يُوَزِّعها على الغانِمين فعَل، كما فعَلَ النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في خَيبرَ[1]، وإن رأَى أن يُبقِيَها لمَصالِح المُسلِمين أَبقاها وإن رأَى أن يُوزِّعها على المُسلِمين بخَراج يُضرَب عليها فعَل، مثلَما فعَل عُمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[2] فيَقول مثَلًا: نحن نُقسِّمها عليكم على أن يَكون على كل مئة مِتْر كذا وكذا دراهِمَ مثل: الصُّبرة، وتَكون هذه الدراهِمُ للمُسلِمين يَنتَفِعون بها.

المُهِمُّ أن أرض الكُفَّار إذا فُتِحت عَنْوة فهي للمُسلِمين؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾، فأَهْل خَيبرَ اليَهود أَبقاهم فيها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على أنهم فلاليحُ؛ لأنهم يَعرِفون كيف يُدَبِّرون هذه الفلائِحَ، فجعَل لهم شَطْر ما يَأْخُذون منها من ثَمَر أو زَرْع والأرض للمُسلِمين وليست هي لهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حِلُّ أموال الكُفَّار للمُسلِمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ فإن الغَنائم تَحِلُّ للمُسلِمين، وهي من خَصائِص هذه الأُمَّة، قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٣٦)، وأبو داود: كتاب الخراج، باب ما جاء في حكم أرض خيبر، رقم (٣٠١٢)، من حديث بشير بن يسار، عن رجال من أصحاب النبي ﷺ.

(٢) أخرجه أبو عبيد في الأموال رقم (١٤٦)، وسعيد بن منصور في السنن [ط الأعظمي] رقم (٢٥٨٩).

«أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(١).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: البِشارة بأن المُسلِمين سيَتولَّوْن على أراضٍ أُخرَى للكُفَّار؛ تُؤْخَذ من قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ وهي خَيبرُ وغيرها من بِلاد الكُفَّار، إنما فيه بِشارة بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سَيُورِث المُسلِمين أراضِيَ الكافِرين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ قُدرةِ الله تعالى على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ وكل شيء، فإن اللهَ تعالى قادِر عليه لا يُعْجِزه ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فمَهما ظَنَنْت من بُعْد الشيء ووُقوع الشيء، من بُعد وقوع الشيء، فلا تَستَبْعِده على قُدْرة الله تعالى فإن الأمر عليه هَيِّن كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، الكل عليه هَيِّن، ولكن هذا أَهوَنُ، والحاصِل أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كل شيءٍ قَديرٌ.

وقد قال في سورة المائِدة لَمَّا قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٧] قال: [وخَصَّ العَقْل ذاته فليس عليها بقادِر] أي: أن الله تعالى لا يَقدِر على ذَاتِه، والذي خصَّص هذا العُموم العَقْل على زَعْمِه، فيُقَال: ما هذا العَقْلُ الذي يُخصِّص هذا العُمومَ؟ وكيف لا يَكون اللهُ قادرًا على ذاتِه؟ بل هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادِرٌ على كل شيء

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم (٥٢١)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

حتى على ذاتِه، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَسْتَوِي على العَرْش ويَنزِل إلى السَّماء الدُّنيا ويَأتِي للفَصْل بين عِباده ويَفعَل ما يَشاء، وهذه قُدْرة على الذات.

أمَّا إن أَراد أنه غيرُ قادِر على ذاتـه فلا يُعـدِمها مثَلًا فيُقال: إن هـذا الشيءَ مُستَحيل، والمُستَحيل لا تَتعَلَّق به القُدرة أصلًا فهو غير وارِد ولا داخِل في الآية من الأصل، فأمَّا كونه داخِلًا ثُم يَخُصُّه العَقْل، فهذا تخصيص لما عَمَّمه الله عَزَّوَجَلَّ أي: آية ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٢٠] آخِر السورة.

فلو قال قائِل: هل يَقدِر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَجعَل الشيء مُتحَرِّكًا ساكِنًا في آنٍ واحِد؟

نَقول: هذا شيء مُستَحيـل؛ لأنه إن كان مُتحرِّكًا فليـس بساكِن، وإن كان ساكِنًا فليـس بمُتحرِّكٍ، فإذا جعَـله الله مُتَحرِّكًا لم يَكُن ساكِنًا، وإن جعَـله ساكِنًـا لم يَكُن مُتحَرِّكًا من الأصل.

وهو واضِح؛ لأنك إذا وصَفْتـه بالحرَكة انتَفَى عنـه السُّكون، وإذا وصَفْتـه بالسُّكون انتَفَت عنه الحرَكة قَطْعًا، وهذا شيء مَعروف لا يَحتاج إلى نظَر، كما لو قلت: كل حادِث لا بُدَّ له من مُحْدِث فهذا شيءٌ مَعقول، فالأُمور العَقْلية المَعلومة بالضَّرورة لا تَحتاج إلى تَأمُّل ولا إلى تَفكير، فالحرَكة والسُّكون مُتناقِضان، والسَّواد والبَياض مُتَضادَّان.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ [الأحزاب:٢٨].

ثُمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ لم يُخاطِب اللهُ تعالى نبيَّه مُحَمَّدًا ﷺ إلَّا بوَصْف النُّبـوَّة والرِّسالة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، بينما كان يُخاطِب غـيرَه من الأنبياء كثيرًا بأَسْمائهـم مثل: يا مُوسى، يا نُوحُ، يا إبراهيمُ، وما أشبَـهَ ذلك، وأمَّا النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في القُرآن فلَمْ يُخاطِبْه الله تعالى باسْمِه يَعنِي: لم يَقُل: يا مُحَمَّدُ. وإن كان جعَل ذلك في الأحاديث، لكن في القرآن: يا أَيُّها النبيُّ.

والنبيُّ مُسَهَّل من النَّبيءِ بالهَمْزة، وقيل: إنه غَيْر مُسهَّل، وأصل هذا الخِلافِ: هل النبيُّ من النَّبـأ أو من النَّبوَّة؟ إذا قُلنا: من النَّبْـوة لم يَكُن فيه تَسهيل؛ لأن الياء أَصلِيَّة، وإذا قُلنـا: من النبأ ففيه تَسْهيـل، وأَصله النَّبيء، فسُهِّلت الهَمـزة إلى ياء، والصحيح أنه مُشتَـقٌّ من المَعنَيَيْن جميعًا، فإن النَّبيء مُشتَقٌّ من النبأ؛ لأنه مُنبَأ مُنْبِئ ومُشتَقٌّ أيضًا من النُّبوَّة؛ لعُلوِّ مَرتبة النَّبيِّين.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ الأزواج جَمْع زوج، والزوج في اللغة العرَبية يُطلَق على الأُنثَى والذَّكَر، وفيه لُغة ولكِنها رَديئة قليلة تَقول للمَرأة: زَوْجة.

ولكن هذه اللُّغةَ الرَّديئة القَليلة هي التي استَعمَلها الفَرضيون، فيَقولون: زَوْجٌ. للذَّكَر، وزوجـة. للأُنثَى من أجل البيـان والإيضاح، وهذا أَمْر لا بُدَّ منـه في باب الفَرائض.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ وهُنَّ تِسْع]، خمسٌ مِنهُنَّ قُرَشِيَّات وأربَع غير قُرَشِيَّات [وطلَبْنَ منه من زِينة الدُّنيا ما ليس عِنْده] طلَبْن منه نفَقةً كِسوةً وغير ذلك ممَّا تُريده النِّساء من الرجال من الأموال، والنبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما نَعلَم جميعًا كان قليلَ ذاتِ اليَدِ؛ لأنه كان يُنفِق ما عِنده ولا يُبقِي لنفسه شيئًا، فطلَبْن منه النفَقة وضَيَّقن عليـه، وآلَى مِنهنَّ شهرًا كامِلًا[1] اعتزَلَهُنَّ ثُم نزَل في آخِر الشَّهْر، فأَنزَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه هذه الآيَة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلى آخِره.

وقوله تعـالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾: ﴿إِن﴾ شَرْطيـة، وفِعْل الشَّرْط (كان) ﴿كُنتُنَّ﴾، وجَواب الشَّرْط ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الحَياة الدُّنيا يَعنِي: مُتَعَها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ ما فيها من الأموال والقُصور والمَراكِب وما أَشبَه ذلك.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ تَعالَيْن فِعْل أَمْر؛ لأنه تَلحَقه العَلامات، فإذا كانت تَلحَقه العَلامات فهو فِعْل أمرٍ؛ ولهذا يُقال: تَعالَيْن. ويُقال: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾، بخِـلاف (هَلُمَّ) فإنها لا تَلحَقها العَلامات، فهي اسم فِعْل؛ فقوله

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة، رقم (٢٤٦٨)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء، رقم (١٤٧٩)، من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ يَعنِي: أَقبِلنَ إليَّ.

وقوله تعالى: ﴿أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أُمتِّعْكن هذه جَواب الطلَب في قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ يَعنِي: أُعطِيكن مَتاعًا تَتمَتَّعن به ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أُطلِّقكن؛ لأن التَّسريح ضِدُّ التَّقييد، وهذا من الآداب العالية التي أَمَر الله تعالى بها نبيَّه مُحمَّدًا ﷺ، وإلَّا كان مُقتَضى الحال أن يَقول: إن كُنْتُن تُرِدْن الحياة الدُّنيا وزِينَتها فتَعالَيْن أُطلِّقكن، ولا خيرَ فيمَن لا تُريد إلَّا الدُّنيا، ولكن من كَمال الرِّعَاية قال: أُمتِّعكن وأُسرِّحكن وأُعطِيكن مالًا تَتمَتَّعْنَ به وأُسرِّحكُنَّ: أُطلِّقكنَّ.

وقوله تعالى: ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ يَعنِي: ليس فيه عَداوة، وليس فيه بَغْضاءُ، وليس فيه حَجرٌ؛ لكن بعد ذلك؛ ولهذا لو أن هذا وقَع لكان يَحِلُّ لهن أن يَتزَوَّجْن بغيره؛ لأن هذا من السَّراح الجَميل، إذَنْ لا فائِدةَ من كونها تَتسَرَّح من الرسول ﷺ، ثُم تَبقَى مَحبوسةً، ولكن الأمر لم يَقَع.

وقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي: كل النِّساء كلهن.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجوب تَخيير النبيِّ ﷺ زَوجاتِه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن التَّخيير لا يَكون طلاقًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حِماية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لرسوله ﷺ، ودِفاعه عنه؛ حيثُ أَمَره أن يُخيِّر أزواجه هذا التَّخييرَ؛ لَمَّا ضَيَّقْن عليه، وطَلَبْنَ منه النَّفقة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن في ذلك حِمايةً لِفِراش الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أن يَكون فيه مَن يُريد الحياة الدُّنيا وزِينَتَها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيانُ فَضَائِلِ أُمَّهات المُؤمِنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ؛ لأنَّهن اختَرْن الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخِرة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: كمال خُلُق النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حيث أمَرَه الله تعالى أن يَقول: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، بينما كان مُقتَضى الحال أن يُوبَّخن على ذلك، ويُؤَنَّبْن عليه، لكنه قِيل: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: حِلُّ زَوْجات النبيِّ ﷺ لغيره لَوِ اختَرْنَ الحياة الدُّنيا وزينتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

الآيـة (٢٩)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٢٩].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: الجنَّة؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ بإرادة الآخِرة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: الجنَّة].

وإنما بدأ بالدُّنيا ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ لأنهن كُنَّ يُطالِبن بالنَّفقة، وهي ممَّا يَتعلَّق بالدُّنيا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾، وهذه هي الحال الثانية لهُنَّ؛ فإنَّ الله تعالى أعَدَّ للمُحسِنات مِنكُن، ولم يَقُل: لَكُنَّ. بل قال: ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ﴾ فأظهَر في مَوضِع الإضمار ليَتبيَّن أنَّ هذه الإرادة إحسانٌ، وأنَّهنَّ إذا أَرَدْن الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخِرة؛ فإنَّ ذلك من الإحسان، وأنَّ الله تعالى أعدَّ للمُحسِنات مِنهن أجرًا عظيمًا.

و(من) هنا ليست للتَّبعيض، ولكنَّها للبَيان، فتَشمَل ما لو أَرَدْن كلهن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ والدار الآخِرة، فإن الله تعالى يُعِدُّ لهن جميعًا أجرًا عظيمًا.

فبَدَأ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أوَّلَ ما بدَأ بأَحَبِّ نِسائه إليه، وهي عائِشةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وقال

لها: «لَا عَلَيْكَ أَلَّا تَسْتَعْجِلِي، فتستأْمِري أبوَيْك»[١]، خاف أنها شابَّة صغيرة أنها تَتَعجَّل وتَقول: أُريد الدُّنيـا، فطلَب منـها ألَّا تَتَعجَّل حتى تَستـأمِر أبوَيْها، يَعنِي: تَستأْذِنهما، ومعلومٌ أنَّ أبوَيْها لا يُريدان لها أن تَختار الدنيا وزِينتها على الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخِرة، ولكنَّها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كان لها على صِغَر سِنِّها نَظْرة بعيدة، فقالت: يا رسولَ الله، أفِي هذا أَستأْمِر أبوَيَّ! يَعنِي: هذا أُشاوِر فيه أَبوَيَّ؟! لا، إنما أُريد الله تعالى ورسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والدارَ الآخِرة، ولكن لا تُخبِر نِساءَك بما قلت، قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ مُيَسِّرًا لَا مُتَعَنِّتًا وَمُعَنِّتًا، وَأَيُّ امْرَأَةٍ تَسْأَلُنِي فَسَأُخْبِرُهَا»[٢]، لكن كل نِسائه ما سأَلْن، كل امرأة تَقول: إنها تُريـد الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخِرة، فصِرْن على الحال الكامِلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، على ما كان عليه الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِن شَغَف العَيْش، وقِلَّة ذات اليَدِ، ومع هذا وفَّقهن الله تعالى ومَنَّ عليهن، وهذا بلا شَكٍّ من عِناية الله تعالى برسوله ﷺ، أن يَختار له مثل هؤلاءِ النِّساءِ فكان جَزاؤُهن أنَّ الله تعالى قال له: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب:٥٢].

فهؤلاءِ النِّسوةُ اللاتي اختَرْن الله تعالى ورسوله ﷺ والدارَ الآخِرة، بعد أن خُيِّرن كان لهُنَّ -مع ما في ثواب الآخِرة- هذا الجزاءُ الدُّنيويُّ، أنَّ الرسول مُنِع مِن أن يَتزَوَّج بعد ذلك بواحدةٍ من النِّساء أو يُبدِّل واحِدةً بامرأة جديدة، ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾، رقم (٤٧٨٥)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، رقم (١٤٧٥)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه بنحوه مسلم: كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، رقم (١٤٧٥/ ٣٥).

بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾، واللهُ تعالى أَعلَمُ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ بفَتْح الياء وكَسْرها] مُبيِّنَة مُبيَّنة [أي: بُيِّنت أو هي بيِّنة، ﴿يُضَٰعَفْ﴾ وفي قِراءة بالتَّضعيف: «يُضَعَّف» بالتَّشديد، وفي أُخرى «نُضَعِّف» بالنون معه مع التَّشديد ونَصْب العَذاب] «نُضَعِّفْ لها العَذابَ» ففيها إِذَن ثلاثُ قِراءات: يُضَاعَفْ، ويُضَعَّفْ، ونُضَعِّفْ، فعلى القِراءَتَين الأَولَيَيْن يَكون العذاب بالرَّفع يُضَاعَف أو يُضَعَّف العَذاب بالرفع نائِب فاعِل، وعلى القِراءة الثالثة: «نُضَعِّفْ» يَكون العَذاب بالنَّصْب على أنه مَفعول به؛ ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ ضِعْفَي عذاب غيرِهن، أَيْ: مِثْليه، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ إرادة الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخِرة من الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن النِّيَّة لها أَثَرٌ عظيم في زيادة الثَّواب، لأنَّه رَتَّبَ هـذا الثَّوابَ على هذه الإرادةِ والنِّيَّة الطَّيِّبة.

الآيــة (٣٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ [الأحزاب:٣٠].

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ النِّداء من الله عَزَّوَجَلَّ، مُوجَّه إلى زَوْجات الرسولِ ﷺ، وذلك لأَهمِّية ما سيُوجَّه إليهن؛ ولتَنبيهِهنَّ على ما سيُلْقَى إلَيْهن: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ﴾: ﴿مَن﴾ هذه شَرْطية، وفِعْل الشَّرْط ﴿يَأۡتِ﴾ و﴿يُضَٰعَفۡ﴾ جَوابُ الشَّرْط.

وما المُراد بالفاحِشة: هل المُراد بالفاحِشة (الزِّنا)، أو المُراد بالفاحِشة (الكلام البَذيء والمُتطاوَل فيه على رسول الله ﷺ والخارِج عن المروءة)؛ أو المُراد هذا وهذا؟

قال بعض أهلِ العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنَّ المُراد الأَخير، ولا يُراد به الزِّنا، مع أنَّ الفاحِشة تَأْتي في القُرآن مُرادًا بها الزِّنا، وتَأتي مُرادًا بها بَذاءة اللِّسان والتَّطاوُل، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ﴾ [النساء:١٥]، فالمُراد بالفاحِشة هنا الزِّنا، وقال تعالى: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ [الطلاق:١]، والمُراد بالفاحِشة هنا بَذاءة اللِّسان وسَلاطته؛ فإذا كانت بَذيئة اللِّسان سَليطته تَأتِي بكلماتٍ خارِجة عن المروءة؛ فلزَوْجها أَنْ يُخرِجها من البيت أثناء العِدَّة.

وهذه الآيةُ إنْ قُلْنا بأنها تَشْمَلُ الفَاحِشَة التي هي الزِّنا، والفاحِشة التي هي بَذاءة اللسان؛ فإن ذلك لا يَعنِي أنه يَقَع مِنهن، لأنَّ الشَّرْط لا يَلزَم وقوعه، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزُّخرُف:٨١]، وهل يُمكِن ذلك؟! لا يُمكِن؛ وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، وهل يُمكِن ذلك؟ لا يُمكِن، وقال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَر:٦٥]، لا يُمكِن هذا أبَدًا، فالإِتْيان بالشيء مُعلَّقًا بالشَّرْط لا يَلزَمُ منه جَواز وقوع الشَّرْط، وعلى هذا فلْتكُنِ الآيةُ ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾ شامِلة للزِّنا، لكن هذا شيء مُحالٌ.

أمَّا إذا قُلْنا: إن المُراد بالفاحِشة هي سَلاطة اللِّسان، والخُروج بالقَوْل عن المَألوف والمُروءة؛ فهذا قد يَقَع من النِّساء حتى من أُمَّهات المُؤمِنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُنَّ ولا عَيْبَ عليهن في ذلك؛ لأنه من طَبيعة النِّساء: الغَيْرة، وعدَم حِفْظ اللسان، وعدَم التَّأنِّي في الأمور، وأيًّا كان فإن الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾؛ وذلك لشَرَفها وعُلوِّ مَنزِلتها، فكان الذَّنْب منها أعظَمَ من الذَّنْب من غيرها؛ ولهذا إذا زَنَتِ الحُرَّة تُجْلَدُ أو تُرْجَم، وإذا زنَتِ الأَمَة فليس عليها إلَّا نِصْف ما على المُحصَنات من العَذاب؛ لشَرَف الأُولى وانحِطاط مَرْتَبة الثانية، فزَوْجات الرسول ﷺ لهُنَّ من المَقام الرفيع، والحِصْن المَنيع ما يَقتَضي أن يُضاعَف العذابُ عَلَيْهن، إذا أَتَيْن بفاحِشة مُبيِّنة، ولهذا قال تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

فإذا كان جَزاء سَيِّئة سيِّئةً مِثْلَها، فجزاءُ السَّيِّئة التي ذكَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا الفاحِشة المُبيِّنة بالنِّسبة لزَوْجات الرسول سَيِّئتان، جَزاؤها سَيِّئتان؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، أي: يُكرَّر عليها مرَّتَيْن، وكان ذلك،

أي: تَضعيف العذاب عليهن.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَىٰ يَسِيرًا﴾؛ فالمُشار إليه هو تَضعيف العَذاب، كان ذلك يَسيرًا على الله تعالى، ليس صَعْبًا عليه، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾؛ لئَلَّا يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ هذا أمرٌ صَعْب على الله تعالى؛ لكون الأمر يَتعَلَّق بزَوْجات نبيِّه مُحمَّد ﷺ فبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ هذا أمرٌ يَسيرٌ عليه، لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس بَينَه وبين خَلْقه نسَب، وأكرَم الخَلْق عنده أَتْقاهم له، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجُرات:١٣].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الذَّنْب من المُقرَّبين أَشَدُّ من الذَّنْب من غير المُقرَّبين، يُؤخَذ من قول الله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حِماية فِراش النبيِّ ﷺ التامَّة؛ لكون المرأة إذا أَتَت بفاحِشة مُبيِّنة من زوجاته فإنَّ الله تعالى يُضاعِفُ لها العَذاب، كل ذلك من أَجْل حماية فِراش النبيِّ ﷺ، وسواءٌ قُلْنا: إنَّ المُراد بالفاحِشة الزِّنا، أو المُراد بها بَذاءة اللِّسان.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ له أن يَفعَل ما يَشاء في مُضاعَفة الثَّواب والعِقاب، وأنَّ هذا الأمرَ عليه هيِّن؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

الآيــة (٣١)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:٣١].

هذه عكس الأُولى، لَمَّا كنَّ إذا أَتَيْن بفاحِشةٍ مُبيِّنة، ضُعِّفَ العَذابُ عَليهن، جازاهُنَّ الله تعالى بالعَفْو من جِهة أُخرى فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [يَقنُتْ: يُطِع]، ولكن القُنوت لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غير القُنوت للرسول ﷺ، القُنوت لله تعالى قُنوت عِبادة وتَذلُّل وتَعظيم، والقُنوت للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قُنوت طاعة الزَّوْج، وليس هو كقُنوتِهن لله عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: ﴿لِلَّهِ﴾ في الطاعة والعِبادة و(لرَسول اللهِ) ﷺ بأداء حُقوقه التي تَجِبُ للزَّوج على زَوْجته.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ تَعمَل عمَلًا صالِحًا، والعَمَل الصالِح ما كان خالِصًا صوابًا، والخالِص الصواب يَعني أنه جمَع بين الشَّرْطين الأساسِيَّين في كل عِبادة، وهُما الإخلاصُ لله تعالى، والمُتابَعة لرسول الله ﷺ، فكلُّ عِبادة لا بُدَّ فيها من هَذَيْن الشَّرْطين؛ فمَنِ اتَّبَع الرسول ﷺ ولم يُخلِص لله تعالى؛ فصلاته باطِلة، لأنَّها رِياءٌ، ومَن أَخْلَصَ لله تعالى ولم يَتَّبِع الرسول ﷺ فصلاتُه باطِلة أيضًا، فعِبادته باطِلة لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا**

فَهُوَ رَدٌّ»[(١)].

فالمُتابَعة مع الإخلاص، وإذا وُجِد مُتابَعـة بدون إخلاص فلا يُقبَل العمَل، وإذا وُجِـد إخلاصٌ بلا مُتابَعة فلا يُقبَل، فلا بُدَّ من الأمرين، وهكذا إذا ذكَر الله عَزَّوَجَلَّ عمَلًا صالِحًا؛ فالمُرادُ بالصَّالِح ما تَضَمَّنَ هذين الشَّرْطين الأساسِيَّين.

قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾: ﴿نُّؤْتِهَآ﴾ لم يَقُل: (نُؤتِيها) بالياء؛ لأنها جوابُ الشَّرْط -وهو قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾- يَكون مجزومًا، والفِعْل هنا مَجزوم بحَذْف حَرْف العِلَّة، وأَصلُه نُؤتيها، فلمَّا جُزِم حُذِف حَرْف العِلَّة ﴿نُّؤْتِهَآ﴾؛ فمَعنَى: ﴿نُّؤْتِهَآ﴾ أَيْ: نُعْطِها؛ ولهذا نصَبَتْ مَفْعُولين المَفعول الأوَّل (هَا)، والثاني ﴿أَجْرَهَا﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي: مِثْلَيْ ثواب غيرِهن من النِّساء، وفي قِراءةٍ بالتَّحتانية في «تَعمَل»] (ويَعمَل) [و﴿نُّؤْتِهَآ﴾] يَعنِي: و«يُؤتِها» والقِراءة هذه سَبْعيَّة، حسب اصطِلاح المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، و«يُؤتِها» أيِ: اللهُ، و﴿نُّؤْتِهَآ﴾ أي: نحن فالضَّمير يَعود على الله عَزَّوَجَلَّ.

فقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي: كما أنها إذا أَتَت بفاحِشة مُبيِّنة يُضَاعَف لها العَذاب يوم القِيامة، فإذا قَنَتَتْ لله تعالى ورسوله ﷺ، وعمِلَت صالِحًا آتاها الله تعالى أَجرَها مَرَّتَين، وإيتاء الأَجْر مَرَّتين ليس بغريب؛ فقد أَثبَت الله تعالى الأَجْر مرَّتين في عِدَّة مَسائِلَ، مِثل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص:٥٤].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وأَخبَرَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ الرجُل من أهل الكِتاب إذا آمَن بكِتابه، ثُم آمَن بمُحمَّد ﷺ، فإن الله تعالى يُؤتيه أَجرَه مرَّتَين[1]، وقال كثير من أهلِ العِلْم رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد:٢٨]: إنَّ هذا هو أَجْر هذه الأُمَّةِ: يُضَاعَفُ على غيرها مرَّتَين.

والمُهِمُّ: أنَّ فَضْل الله تعالى واسِعٌ، فقد يُصيبُ العَامِل أَجْره مرَّتين لسبب من الأسباب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾: (أعتَدْنا) أي: هيَّأْنا لها، ﴿رِزْقًا﴾ عطاءً ﴿كَرِيمًا﴾ حسَنًا وكثيرًا، لأنَّ الكَرَم في كل مَوضِع بحَسَبه؛ فالكَريمةُ مِنَ الشَّاة مَعناها: الحسَنة الجَميلة، الكثيرة اللبَن، كما في قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»[2].

وهُنا المُراد بالرِّزق الكَريم: العَطاء الكثير الحسَن الجَميل، وهذا إنَّما يَكون في الجَنَّة، كما يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [في الجَنَّة زِيادةً].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: مَزِيَّة عظيمة لزوجات النبيِّ ﷺ حيثُ كانت المَرأةُ إذا عمِلت عمَلًا صالِحًا، وأَطاعَتِ الله تعالى ورسوله ﷺ آتاها اللهُ تعالى أَجرَها مَرَّتين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: كمالُ عَدْل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فلمَّا ضُعِّفَ لها العَذاب ضُعِّفَ لها

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢٥٩)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الثواب والأَجْر، ولهذا قال تعالى: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله تعالى أَعَدَّ لهؤلاءِ المُؤمِنات من أزواج النبيِّ ﷺ أَجْرًا كريمًا، أي: كثيرًا جميلًا حسَنًا؛ لقوله تعالى: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

الآيــة (٣٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ [الأحزاب:٣٢].

قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ الخِطاب هنا وجَّهَه الله عَزَّوَجَلَّ بعد أن وجَّهه لرسوله ﷺ: وجَّهه إلى نِسائه، فقال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾، وهذا بعدَ التَّخيير يَدُلُّ على أنَّ الزَّوجية استقَرَّت لزوجات النبيِّ ﷺ؛ ولهذا خاطَبَهُن في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، ﴿لَسۡتُنَّ﴾ أصلُها (ليس)، لكنه لَمَّا سُكِّنَتْ السِّينُ حُذِفَتِ الياءُ؛ لأنها حَرْف لَيِّن، والحَرْف اللَّيِّن عند التِقاء الساكِنَيْن يُحذَف كما قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إِنْ سَاكِنَانِ التَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ ... وَإِنْ يَكُنْ لِينًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقّ[1]

وقوله: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ﴾ يَعنِي: أنَّ زَوْجَاتِ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَسْن كأحدٍ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كجماعةٍ من النِّساء] وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كجماعةٍ من النِّساء] فيه نظَر؛ لأنَّ (أحَد) تُطْلَقُ على الفَرْد، يَعنِي: ليس هناك أحَدٌ مِنَ النِّسَاء مِثْلَكُنَّ، لستُنَّ كأحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ، أي: لا تُشْبِهن أحَدًا، واحِدةً فأكثَر من النِّساء.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: سِواكن، إنِ اتَّقَيْتُنَّ الله تعالى فإنَّكن أعظَمُ، يَعنِي: لستُنَّ كأحَد من النِّساء إنِ اتَّقَيْتُن، والمُراد بالشَّرْط: الحثُّ والإغْراء على التَّقوى،

(١) ذكره الصبان في حاشيته على شرح الأشموني (١/ ١٣٤).

يَعنِي: إن كُنْتُنَّ مُتَّقِيات لله تعالى حقيقةً فلا تَقِسْنَ أنفسَكن بغَيْرِكن فلَسْتُنَّ كأحَد من النساء؛ لِما لهُنَّ من المَزِيَّة بالاتِّصال برسول الله ﷺ، فكان عليهن من حِماية فِراشه أعظَمُ ممَّا على غَيْرهن من حِماية فُرُش أزواجِهن، لعِظَم حقِّ النبيِّ ﷺ وعُلوِّ مَرتَبَته.

فالفَرْق عظيم بين فِراش النبيِّ ﷺ وفِراش غيره، ولهذا مَن قذَف زوجة من زَوجات الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالزِّنا كان كافِرًا، ومَن قذَف زَوْجة غيره لم يَكُن كافِرًا؛ لأنَّ قَذْف زوجة من زَوْجات الرسول ﷺ مَعناه: الطَّعْن في رسول الله ﷺ، وأنَّه -والعِياذُ بالله- خبيثٌ؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقول: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾.

فعَلى هذا تكون حِماية فِراش النبيِّ ﷺ أعظَمُ وُجوبًا من حِماية فِراش غيره.

ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ للرِّجَال] الخُضوع بمَعنَى: التَّطامُن والذُّلِّ والخُنوع، فالمَعنَى: لا تَتَطامَنَّ ولا تَذلَّلَنَّ ولا تَخنَعنَّ لأحَد من الرِّجال بالقَوْل، يَعنِي: لا يَكُن قولُكن في مُخاطَبة الرِّجال رقيقًا وَضيعًا هيِّنًا، لأنَّ المَرأة فِتْنة، فإذا خضَعَت بالقَوْل دبَّ الشيطان بينها وبين الرجُل الذي تُخاطِبه مهما كان الإنسانُ من شَرَف ومن نزاهة، فإن المرأة إذا خاطَبَته بصوت خاضِع؛ فإنها قد تَغُرُّه؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»(١).

والرجُل الحازِم الفَطِن الكَيِّس لا أحَدَ يُذهِب لُبَّه، أي: عَقْله مِثل ما تُذْهِبُه

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقص الإيمان، رقم (٨٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

المَرأة؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾، بل يَجِبُ على المرأة أن تكون عند مُخاطَبة الرِّجال من أَبعَد ما يَكون على الخُضوع بالقول، ولِين القَوْل، وظَرافته، بحيثُ تُؤدِّي إلى هذا الأمرِ العَظيم، وهو قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ يَطمَع فِيكُنَّ، إمَّا بِفِعْل الفاحِشة أو بالتَّمتُّع والتَّلذُّذ بخِطابهن.

فإن الإنسان الذي في قَلْبه مرَض إذا خضَعَت له المرأة بالقَوْل فإنه يَستَمِرُّ معها في مُخاطَبَتها حتى يُغريَه الشَّيْطان، ورُبَّما يَحصُل بعد ذلك مَوعِد ولِقاء وفاحِشة، كما يُوجَد كثيرٌ من السُّفَهاء الآنَ تَجِده -والعِياذُ بالله-، ولا سِيَّما بعد وجود هذه الهَواتِفِ- يَفتَح مثَلًا، أيَّ رقمٍ يَكون، فإذا خاطَبَتْه امرأةٌ بدَأَ معها بالكلام اللَّيِّن الخاضِع، حتى يُغرِيَه الشيطان يُغرِيَه بها، ويُغرِيَها به؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نِفاق] والصَّواب: أنَّ المُراد بالمَرَض هنا مرَض الشَّهْوة والتَّمتُّع، لا مرَض النِّفاق لأنَّ بعض المُنافِقين قد لا يَكون في نُفوسهم هذا الشيءُ، كما أن بعض المُؤمِنين قد يَكون في قُلوبهم هذا الشيءُ، فالمُراد بالمَرَض هنا مرَضُ التَّمتُّع والتَّلذُّذ بصوت المرأة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾: (قُلْنَ) فِعْل أَمْر مَبنيٌّ على السُّكون لاتِّصاله بضمير الرَّفْع المُتحرِّك.

فلمَّا نَهاهُن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن الخُضوع بالقَوْل أمَرَهن بأن يَقُلْن قولًا مَعروفًا؛ لئَلَّا يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ المَرْأة لا تُخاطِبُ الرَّجُلَ مُطْلقًا، وليس كذلك، بلِ المرأة مُخاطَبتها للرِّجال جائِزةٌ، لكن بالقَوْل المَعروف.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ من غير خُضوع، وما المُراد بالمَعروف؟ هل المُراد بالمَعروف المُتعارَف عليه بين الناس من مُخاطَبة الرِّجال والنِّساء، أو المُراد

بالمَعروف ما ليس بمُنكَر؟

المُراد الأخير؛ لأنَّ الأوَّل لو قُلْنا: إنه ما يَتعارَف الناس عليه من الخِطاب بين الرجُل والمرأة، لكان هذا خاضِعًا لاختِلاف الأعراف، فيُوجَد مثَلًا من النَّاس مَن عُرْفُهم أنَّ المرأة تُخَاطِب الرَّجُل وتَضحَك إليه وتُمَازِحُه كما يُوجَد الآنَ في كثير -مع الأسَف- من بِلاد المُسلِمين، المَرأة مع الرجُل الأجنبي الذي لا تَعرِفه، تَجِدها تَقِف معه وتُمازِحه، وتَضحَك كأنها تُخاطِب زَوْجها -والعِياذُ بالله- وهذا لا شَكَّ أنه حرام، وأنه دَعوة إلى الفُجور.

إذَنِ: المُراد بالمَعروف: ما ليس بمُنكَر، يَعنِي: ما عرَفه الشَّرْعُ وأَقَرَّهُ مِنَ الكلام الذي يَكون بعيدًا عن الخُضوع بالقَوْل، وعن التَّمتُّع والتَّلذُّذ به.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾: ﴿قَوْلًا﴾ هـذه مَصدَر، و﴿مَّعْرُوفًا﴾ هذه صِفـة، فهي مُبَيِّنَة لنَوْع هذا القَولِ، وهو أنه قول المَعروف، لا قـول المُنكَر، إذا قُلْنا: ما أَقرَّه الشَّرْع يَكفِي؛ لأن الشَّرْع يُقِرُّ كلَّ ما تَعارَف الناس ممَّا لا يُخالِفُ الحقَّ، فالمَعروف مِثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١١٠].

مَسأَلة: إذا اتَّصَل بامرأةٍ فلْيَقُلِ: السلامُ عليكم. ولا شيء فيه، لكن لا يَقول: (أَلو) لأنَّ (أَلو) هذه تَحيَّة النَّصارى، مع أنها الآنَ مع الآسَف شائِعة، حتى يُكلِّمك ناسٌ من أَهْل العِلْم وأَهْل المَعرِفة يَقول لكَ: (أَلو)، وهو الذي يَتكلَّم، هـو الذي يَتكَلَّم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الميزَة والخصيصة لنِسَاء النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لقوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾. فإن قُلتَ: ما الحِكْمة في أنهن لَسْن كأحَد من النِّساء؟

فالجَوابُ: لأنهن تَحت رسول الله ﷺ الذي هو أَطيَبُ الطَّيِّبين من الخَلْق، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور:٢٦].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإنسان قد يَشرُفُ بشَرَف مَن اتَّصَل به، تُؤخَذ من شرَف أُمَّهات المُؤمِنين، باتِّصالهِن بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ ولهذا حَثَّ النَّبيُّ ﷺ على الجليس الصالِح، وقال: «**إِنَّ مَثَلَ الجَلِيسِ الصَّالِحِ كَحَامِلِ المِسْكِ؛ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ يَبِيعَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً طَيِّبَةً**»(١) وحذَّر من جَليس السُّوء؛ لأن الإنسان بلا شَكٍّ يَشْرُف بشَرَفِ مَن يَتَّصِل به، ويَنزِل بنُزول مَن يَتَّصِل به.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وجوبُ التَّقوى، حتى على زَوْجات الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَحريم خُضوع المَرأة في مُخاطَبة الرِّجال؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾.

فإنْ قُلْتَ: أفَلا يَكون هذا خاصًّا بزَوْجات الرسول ﷺ لِمَا لهُنَّ من المَكانة والشَّرَف، حتى يَبعُدن عن مَواضِع الفِتَن؟

فالجَوابُ: أنَّه إذا كان نِسَاءُ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهُنَّ أَطهَرُ النِّساء،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم (٢٦٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأبعَدُهن عن الفِتْنة، مَنْهيَّات عن الخُضوع بالقول، مُعَلِّلًا ذلك النهيَ بخَوْف طَمَع مَن في قَلْبه مرَض، فإنَّ الحُكم يَدُور مع عِلَّته وجودًا وعدَمًا، فإذا كان هذا في النساء الطاهِرات المُبرَّءات، فغَيْرهن من بابِ أَوْلى، وإذا كانت العِلَّة خوفَ طمَع مَن في قلبه مرَض، فهذه العِلَّةُ لا تَختَصُّ بزَوْجات الرسول ﷺ.

وعلى هذا فيَحرُم خُضوع المرأة بالقَوْل لأيِّ أحَد من النَّاس، اللهُمَّ إلَّا لمَحارِمها مع أَمْن الفِتْنة أيضًا، يَعنِي: حتى المَحارِم؛ فإن الشَّيْطان يَجرِي من ابن آدَمَ مَجرَى الدمِ، رُبَّما مع خُضوعها بالقول، رُبَّما تَحصُل الفِتْنة، ولا سيَّما المَحارِم بالرَّضاع والمُصَاهَرة؛ لأنَّ نفور الطبيعة عن المَحارِم بالرَّضاع والمُصاهَرة أقَلُّ من نفورها عن المَحارِم بالنسَب والقَرابة، وهذا أمرٌ مُشاهَد؛ ولهذا يَجِب التَّحرُّز في المَحارِم في الرَّضاع والمُصَاهَرة أكثَرَ من التَّحرُّز عن المَحارِم بالنسَب.

وعلى كل حال: كلَّما كان هناك قَرابة صار الإنسان يَنفِر من التَّعلُّق بها تَعلُّقًا شَهوانيًّا فيَنفِر أكثَرَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه لا بأسَ بمُخاطَبة المرأة الرِّجال لكن بالمَعروف، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ صَوْت المرأة ليس بعَوْرة خِلافًا لمَن قال: إنه عَوْرة من أهل العِلْم، فالصوابُ أن صوت المرأة لَيْس بعَوْرة؛ ولهذا كان النِّساء يَأتين إلى رسول الله ﷺ يَسألْنه وحولَه أصحابه، ولا يَنهاهُن عن ذلك، ولو كان صَوْت المَرأة عَورة لنَهاهُن النبيُّ ﷺ عن الكلام مع حُضور الرِّجال.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنه يَجِبُ على الإنسان أن يَكون مُتَّبِعًا لما جاء به الشَّرْع في أقواله وأَفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ فِتْنة النِّسَاء مَرَضٌ في القَلْب، يَحتاج الإنسان فيه إلى مُعَالَجَة، وإلى مُداواة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ وهذا المَرَضُ مرَضٌ فتَّاك -نَسأَل اللهَ تعالى السَّلامةَ منه- مرَضٌ في القَلْب كمرَض السرَطان في البدَن، إذا لم يَتدارَكِ الله العبدَ بعَفْوه وتَوفيقه وتَسديده؛ فإنه يَهلِك؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»[1]، فالواجِب الحذَر من هذا الأمرِ، وألَّا يُمِلِيَ الإنسان لنَفْسه ويُمهِلها في هذا البابِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ مَن كان صحيحَ القَلْب، فإنَّه أبعَدُ النَّاس عن مَواضِع الفِتَن؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ مَن جعَل اللهُ تعالى قَلْبه صحيحًا، فإن المَرأة لا تُغرِيه بما تَفعَله من أسباب الفِتْنة، لأنه تعالى قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ ولم يَقُل: لا تَخْضَعْن بالقول فيَطمَع الناس فِيكُنَّ. بل قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ لكن مع ذلك لو كان الإنسان صحيحَ القَلْب سليمًا، ثُمَّ أَحَسَّ في نَفْسه شيئًا من الفِتْنة؛ فالواجِبُ عليه البُعْد عن ذلك، لا يَقُل: إني سَليمٌ، إني والحَمْد لله تعالى لا يُهِمُّني هذا الأمرُ. لا يَقُلْ هكذا، فإن الإنسان قد يَرَى نفسه مُتحَصِّنًا بحِصْن التَّقوى، ولكن الشيطان يَخدَعه عند مَواضِع الفِتَن.

ولهذا أمَر النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مَن سَمِعَ بالدَّجَّال أن يَنأَى عنه[2] -يَعنِي:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، رقم (٥٠٩٦)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، رقم (٢٧٤٠)، من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٤٣١)، وأبو داود: كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، رقم (٤٣١٩)، من حديث عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يَبعُد- فإنَّ الإنسان يَأتِيه، وهو يَرَى أنه مُؤمِن، فلا يَزالُ يَقذِف له بالشُّبُهات حتى يَتبَعه.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

«وَقِرْنَ» بالكَسْرة؛ ولهذا قال: [بكَسْر القاف وفَتْحها]، وهو من القَرار، وهو: البَقاء مع السُّكون والاستِقرار، وهو أبلَغُ من قوله: وابقَيْن في بُيوتِكن؛ لأنَّ القَرارَ بَقَاءٌ وزِيادة مع سُكون؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ من القَرار وأَصلُه: اقرِرْنَ بِكَسْرِ الرَّاء وفَتْحها] اقرِرْنَ واقْرَرْنَ، [من قَرَرْتُ بفتح الرَّاء، وكسرِها قَرَرْتُ وقَرِرْتُ، نُقِلت حرَكة الراء إلى القاف، وحُذِفت مع هَمْزة الوَصْل] فأَصْل قَرْن اقْرَرْن أوِ اقْرِرْنَ، فما الذي حدَث؟ نُقِلَتْ فَتْحة الرَّاء إلى القـاف السَّاكِنة، وصارَت الراء ساكِنـة، وصارت القاف مَفتوحة أو مَكسورة، ثُمَّ حُـذِفَتْ هَمْزَةُ الوَصْلِ فصَارَتْ: ﴿وَقَرْنَ﴾.

وقـوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾: ﴿بُيُوتِكُنَّ﴾ هنـا للإضافة، يُحتَمَل أنها للتَّمليك، وأنَّ بُيوت زَوْجات رسول الله ﷺ مِلْك لهُنَّ، ويُحتَمَل أنها للاختِصاص، وأنَّ البُيوت مِلْك لرسول الله ﷺ، والأقرَبُ أنها للتَّمليك بدليل أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا تُوفِّيَ بقِيَتْ هذه البُيوتُ لزَوْجاته، ولو كانت البُيوتُ لرسول الله ﷺ لم تُورَث من بعده،

لأنَّ الأنبياءَ لا يُورَثون، كما قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُوْرَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»[1]؛ لأنه يُفسِد المَعنَى، الرَّافِضة يَقولون: إنَّ لفظ الحديث: إنَّا مَعاشِرَ الأنبياءِ لا نُورِثُ ما ترَكْنا صدَقةً؛ لأَجْل أن يَقولوا: إنَّ الذي ترَكوه غير صدَقة يُورَث، وأنَّ أبا بكر وعمرَ وبقيةَ الصحابة ظلَموا ورَثة النبيِّ ﷺ حيث لم يُورِّثوهم، لكنَّ أهل السُّنَّة والجماعة يَقولون: كذَبْتم أيُّها الرافِضةُ، بل إنَّ لفظ الحديثِ: «إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُوْرَثُ» فانتَهَتِ الجُمْلة الأُولى، ثُم قال مُبيِّنًا ماذا يَكون مَآل المال بعدهم، قال: «مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»، أي: الذي تَرَكْناهُ صدَقة.

والمعنى الذي ذهَبَت إليه الرافِضة باطِل؛ لأنَّ ما تُرِكَ صدَقة لا يُورَث، حتى في غير الأنبياءِ، يَعنِي: ما ترَكه الإنسان صدَقة بعد مَوْته لا يَرِثه ورَثَته، حتى ولو كان غير نَبيٍّ فهم مُحرِّفون للحديث لَفْظًا ومعنًى، يَقولون: إننا لا نُورِّث الذي ترَكْناه صدَقةً، يَعنِي: إن مَعناها: إذا وقَفنا شيئًا مثَلًا نحن وجعَلْناه في سبيل الله تعالى فإنَّنا لا نُورِّث هذا الشيءَ، إنما نُورِّث الأَمْلاك الأخرى، وهل هو خاصٌّ بالرسُل؟ لا، ليس خاصًّا بهم.

إِذَنْ: نَقولُ قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ الأقرَب أنَّ الإضافة للتَّمليك.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ بتَرْك إحدى التاءَيْن من أَصْله] (تَبَرَّجْن) فِعْل مُضارِع، والدليل (لا) النَّاهية فإنها لا تَدخُل إلَّا على المُضارِع، وإلَّا فإنَّ كَلِمَة (تَبَرَّج) والنِّساءُ تَبرَّجْن، هذا فِعْلٌ ماضٍ، لكن في الآية: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾، هذا فِعْل مُضارِع، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بتَرْك إحدى التاءَيْن] وأَصلُها: تَتَبَرَّجْن، هذا أَصلُها:

(١) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، رقم (٣٠٩٣)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «لا نورث»، رقم (١٧٥٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ولا تَتَبَرَّجْن، وحَذْف إحدى التاءَيْن في المُضارِع كثير في القُرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤] أي: تَتَلظَّى.

إذَنْ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ فِعْلٌ مُضارِع مَبنيٌّ على السُّكون، لاتِّصاله بنون النِّسوة في مَحَلِّ جَزْم بـ(لا) النَّاهيةِ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: ما قَبْل الإسلام] ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، التَّبرُّج في الأصل مَأخوذ من التَّعالي والتَّرفُّع، ومنه البُرْج الحِصْن المَنيع الرَّفيع كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨]، وكما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان:٦١]، أي: جعَل فيها كُتَلًا عظيمة من النُّجوم كالبُروج المُشيَّدة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ أَيْ: تَتعالَيْن وتَتَرَفَّعْن باللِّباس وغيره.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ هذا مَصدَر مُبيِّن للنَّوْع بالإضافة إلى الجاهِلية، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾، ومَعلوم أن المَصدَر يَكون لبَيان العَدَد وبيان النَّوْع والتوكيد وغير ذلك ممَّا ذكَره أهلُ العِلْم بالنَّحوِ، وقوله تعالى: ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أَضافَه إلى (الجاهِلية)؛ لأنه مَبنيٌّ على الجَهْل والسفَهِ؛ لأنَّ المرْأة إذا تَبرَّجَت فإنَّ ذلك يُعْتَبر جَهْلًا منها وسفَهًا؛ ولهذا أُضِيفَ إلى الجاهلية، ثُمَّ أُضِيفَ إلى الأُولى، وهل المُراد الأُولى زمَنًا؟ أو الأُولى مَرتَبةً؟ أو كِلاهما؟ يَعنِي: هل مَعنَى (الجاهِلية الأُولى): الأعظم جَهْلًا من نَوْعها، كما يُقال: هذا هو الأوَّلُ في الجَهْل، هذا هو الأوَّلُ في السفَهِ، هذا الأوَّلُ في الإسلام، هذا هو الأوَّلُ في الإصلاح، وما أَشبَه ذلك، أو المُرادُ بالأُولى الأُولى من حيثُ الزَّمَن أو كِلاهما؟

كِلاهما في الواقِع فهي جاهِلية من الطِّراز الأوَّل من الجَهْل، وهي جاهِلية أُولى؛

لأنها سبقَتِ الإسلام، ولا يَعنِي بذلك أنها الجاهِلية المُباشِرة للإسلام؛ لأنَّ الجاهِلية المُباشِرة للإسلام امتِدادٌ لجاهِلية سبقَت منذ زمَنٍ بعيدٍ.

فالجاهِلية الأُولى استَمَرَّت إلى أن محاها الإسلام بالعِلْم والتَّقوى والحَمْد لله تعالى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، والمُراد بالإضافة هنا -كما قُلْت قبلَ قَليل- بَيان النَّوع، وما أَقبَح نوعًا يَكون جهلًا! وعلى هذا فالمُرادُ به التَّقبيح، تَقبيح هذا التَّبرُّجِ، وأنَّه تَبرُّجٌ مَبنيٌّ على الجَهْل والسفَهِ، والبُعْد عن الإيمان والعِلْم، والرُّشْد.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: ما قَبْل الإسلام من إظهار النِّساء مَحاسِنَهُن للرِّجال. نعَم؛ في الجاهِلية تَتبرَّج المرأة، وتَخرُج بأَحسَن ما يَكون عِندها من اللِّباس والحُلِيِّ.

ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، فهذا التَّبرُّج يَكون بنَوْع اللِّباس، ويَكون بالطِّيب، ويَكون بتَحسين البدَن بالحِنَّاء، والتَّحمير وتَسويد العَيْن بالكُحْل، وما يُسَمَّى عندنا في الوَقْت الحاضِر بالمكياج، وما يُسمَّى بالمَناكِير، وعلى هذا فقِسْ، كل هذا من التَّبرُّج الذي يُعتبَر من تَبرُّج الجاهلية الأُولى.

ولهذا يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنَّ إظهار النِّساء مَحاسِنَهن للرِّجال، والإظهارُ بعد الإسلام مَذكور في آية: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾] رحِمَ الله تعالى المُفَسِّر فإنَّ هذا ليس بصَواب منه، ما في الإسلام إظهار للزِّينة أبَدًا، إلَّا في نَوْعين: النَّوْع الأوَّل: الإظهارُ العامُّ لكل أحَد، والنَّوْع الثاني: الإظْهار الخاصِّ للبُعولة والمَحارِم.

فالإِظْهار العامُّ؛ إلَّا ما ظهَر منها، والمُراد بما ظهَر منها، ما جرَتِ العادة بأنه لا بُدَّ من ظُهوره، كالجِلْباب والعَباءة وما أَشبَه ذلك، كما فسَّرَه بذلك ابنُ مَسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]، فعلى هذا يَكون الاستِثْناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ استِثْناءً مُنقطِعًا ليس مُتَّصِلًا، لأنَّ ما ظهَر ليس من الزِّينة في الواقِع، فما ظهَر وما جرَتِ العادة بظُهوره ولا بُدَّ منه هذا أَمْر ليس من الزينة، حتى لو سُمِّيَ زينةً ولِباسًا؛ فإنه لا بُدَّ من ظُهوره.

أمَّا الزِّينة الأُخرى التي خَصَّها الله بقَوْمٍ مُعَيَّنين فقال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ وهذه هي الزِّينة البَاطِنَة كالثِّياب التي تكون داخِل الجِلْباب والعَباءَة، وما أَشبَه ذلك، لا يُبْدِينَهُ إلَّا لبُعولَتِهن أو آبائِهن... إلى آخِره.

والحاصِلُ: أنَّ التَّبرُّج لم يَأذَنِ الله تعالى فيه أبَدًا، فالتَّبرُّج النهيُ عنه عامٌّ.

وأمَّا التَّزيُّن للزَّوْج فهذا أَمْر مَطلوب من المَرأة أن تَتجمَّل لزَوْجها، لما في ذلك من تَأكيد الحِكْمة التي من أَجلِها شُرِعَ الزواج كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١].

ولا شَكَّ أن المرأة إذا تَجمَّلَت لزوجها بأنواع الجَمال فإنَّ ذلك ممَّا يُوجِب سُكونه إليها، ومَودَّته لها، فيَكون هذا من باب تَأكيد الحِكْمة التي من أَجْلها شُرِعَ الزواج؛ ولهذا تُؤمَر المرأة بأن تَتَجمَّل لزوجها، كما أنَّ الزوج أيضًا كما قال بعض السَّلَف: إن مِن حقِّها عليَّ أَنْ أَتَجمَّل لها، كما أنَّ مِن حَقِّي عليها أن تَتَجمَّل لي، أمَّا أن يَأتيَ الزَّوج زوجَتَه كلابِسِ الخيشة، وما أَشبَه ذلك، ويُريد منها أن تُلائِمه، ويَقول: لِمَ لا تَتجمَّلين لي؟! وهو يَلبَس أَردَأَ اللِّباس، فهذا من غيرِ العَدْل!

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٩/ ٢٨٠)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩٧).

فالإنسان يَجِب عليه أن يُراعِيَ العَدْل في كل مُعَامَلاته، فالخُشونة في المَواضِع مثـل: إذا ركِب الخَيْل فلْيَكُن خشِنًا، ولْيَلْـبَسِ الخَيْش والمِغـفَر، لكن مع المرأة لا، فلِكُلِّ مَقامٍ مَقال.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أَيْ: ائتِين بها مُسْتقيمةً، وذلك بفِعْل شُروطها وأركانها، وواجِباتها، ومُسْتَحَبَّاتها، لكن الإتيان بالثلاثة الأُولى على سبيل الوُجوب، وفي الرابع على سبيل الكَمال والاستِحباب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَشمَل الفَريضة والنافِلة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أَيْ: أَعطينَـها، والزَّكاة في اللُّغة النَّماء والزيادة، وفي الشَّرْع: مالٌ مُقدَّر مَخصوصٌ في مال المَخْصُوص، يَعنِي: جُزْء من أموال مَخصوصة يُدفَع لِمُستَحقِّيه؛ أو: التَّعبُّد لله تعالى بإِخْراج جُزءٍ مَعلوم من المال على حَسب ما جاءَت به الشَّريعةُ، وهذا أَوضَحُ.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: (آتِينَ) تَنصِب مَفعولين؛ لأنها من باب كَسا وأَعطَى؛ فالمَفعولُ الأوَّل الزَّكاة والمَفعول الثاني مَحذوف، أي: مُسْتَحِقَّها؛ لأن إيتاء الزكاة لغير أهلها لا يَنفَع، كما لو صلَّى الإنسان في غير الوقت.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بعد الأَمْر بإقامة الصلاة؛ فيه دليل على تَأكُّد الزكاة، وهل يَلزَمُ منه أنَّ أُمَّهات المُؤمِنين عِندهن مالٌ يُزكِّينه، إذا قُلْنا: لا يَلزَم. صار تَوجيهُ الخِطاب إليهن بإيتاء الزكاة من باب اللَّغوِ؛ لأنهم سيَقولن: ما عِندنا مال. أو يُقال: أُمِرْنا بإيتاء الزكاة إمَّا التِزامًا، وإمَّا إعطاءً بالفِعْل، التِزامًا إذا لم يَكُن عندهن شيء، وإعطاءً بالفِعْل إذا كان عِندهن شيء، ولا شكَّ أنَّ عِندهن ما تَجِب

الزكاة فيه، أو عند بَعضِهن من الحُلِيِّ كما في حديث أُمِّ سلَمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها كانت تَلبَس أَوْضاحًا من ذهَب؛ فقالت: يا رسولَ اللهِ، أَكَنْزٌ هو؟ قال: «إِذَا أَدَّيْتِ زَكَاتَهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ»(١).

فهُنَّ عِندهن ما يُزكِّين به، قد لا يَكون دراهِمَ ودنانيرَ، ولكن من الحُلِيِّ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أَطِعْنَ الله، الطاعة قال العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: هي مُوافَقة الأَمْر. أي: عدَم المَعصية، فتُوافِقُ أمرَ المُطَاع إنْ كَانَ مَطْلُوبًا بالفِعْل، وإنْ كان مَنهيًّا عنه بالتَّرْك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ عَطْف طاعة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على طاعة الله تعالى بالواو؛ لأنَّ طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، وقد سبَقَ لنا مِرارًا وتَكرارًا: أنَّ المَسائِل الشرعية يَجوزُ أن يُقرَن فيها بين الله تعالى وبين الرسول ﷺ؛ لأنَّ ما جاء به النَّبيُّ ﷺ من المَسائِل الشَّرْعية هو ممَّا أمَرَ الله تعالى به.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ هل المُراد هنا طاعة التَّعبُّد؟ أم المُراد بها عدَم المُخالَفة؟ أمَّا بالنِّسْبة لطاعة الله تعالى فهي طاعة التَّعبُّد، والتَّذلُّل ورجاء الثَّواب والخوف من العِقاب، وأمَّا طاعَةُ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنها طاعة بمَعنَى: مُوافَقة الأَمْر سَواء كان فيما يَأمُرُ به من الشَّرْع، أو فيما يَأمُر به من حوائِجه الخاصة؛ فإنَّ الرسول ﷺ يُوجِّه الأمر إلى أهله، إمَّا على سبيل العِبادة، ممَّا أَمَره الله تعالى به، وإمَّا على سبيل الأمور الخاصَّة المُتعلِّقة به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب الكنز ما هو وزكاة الحلي، رقم (١٥٦٤).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ الإِثْم يا ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: نِساء النبيِّ ﷺ ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ منه ﴿تَطْهِيرًا﴾].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ﴾: ﴿إِنَّمَا﴾ هذه أداة حَصْر، والحَصْر يَقول العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: مَعناه: إثبات الحُكْم في المَذكور، ونَفيُه عمَّا سِواه، والحَصْر هنا إضافِيٌّ أو حَقيقيٌّ؟ إضافيٌّ؛ لأنَّ الله تعالى يُريد هذا وغيرَه.

فالإضافيُّ هو الذي لا يَكون مَحصورًا بحسب الواقِع في هذا الشيءِ.

والحَقيقيُّ هو الذي يَكون مَحصورًا في هذا الشيءِ، بحَسب الواقِع.

فإذا قُلْت: لا طَالِبَ يَلتَفِت إلَّا خالِدٌ. فإن كان لا يَلتَفِت غيرُه فهو حقيقيٌّ، وإن كان أحَد يَلتَفِت غيره فهو إضافيٌّ؛ وفائِدة الإضافيِّ: كأنَّ هذا الرجُلَ لكثرة التِفاته لا يَلتَفِت أحدٌ سِواه، كما لو قلت: لا شُجاعَ إلَّا خالدٌ. أي: خالد بن الوليد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ إضافيٌّ لأن هُناك شُجعانَ كَثيرين غير خالد بن الوليد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولو قُلْت: لا خاتَمَ للأنبياء سِوى مُحَمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهذا حقيقيٌّ؛ لأنه ليس هناك خاتَم للأَنبياء إلَّا مُحَمَّد رسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ هل الله عَزَّوَجَلَّ لا يُريد بأَهْل البيت إلَّا ذلك؟ الجوابُ: لا، بَلْ يُريد الله تعالى بهم أَنْ يُذهِب عنهمُ الرِّجْس ويُطَهِّرَهم وأن يُنعِم عليهم، وأَنْ يُغْدِق عليهم بفَضْل... إلى آخِره.

وهل الإرادة هنا شَرْعية أو كَوْنية؟ الإرادة كَوْنية، وهذه هي الفائِدة منِ اختِصاص أَهْل البيت بذلك، أمَّا إرادة عدَم الرِّجْس فهي لكل أحَد من الناحِية الشَّرْعية.

والإرادة -كما سبَق لنا- نَوْعان: إرادة شَرْعية وكَوْنية، وهل هما مُتلازِمان؟ لا، قد تُوجَد إحداهما بدون الأخرى، وقد تَجتَمِعان، فما هو الفَرْق بينهما حتى نَعرِف اجتِماعهما وافتِراقهما؟

أوَّلًا: الإرادة الكَوْنية تَتعلَّق فيما يُحِبُّه الله تعالى، وفيما لا يُحِبُّه، والإرادة الشرعية فيما يُحِبُّه الله تعالى فقَطْ؛ فإذا قلتَ: يُريد أَيْ: شَرْعًا فمَعناه: يُحِبُّ.

ثانيًا: الإرادة الكَوْنية يَلزَم فيها وُقوع المُراد، والإرادة الشرعية لا يَلزَم فيها وُقوع المُراد.

إِذَنِ: الفَرْق من وَجْهين فقد تَجتَمِع الإرادتان في شيء، وقد تَنتَفيان جميعًا، وقد تُوجَد إحداهما دون الأخرى، فإذا سأَلْنا شَخْصًا: ما تَقول في إيمان أبي بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ أهو مُرادٌ لله تعالى شَرْعًا أم كونًا؟ فالجَوابُ: كونًا وشَرْعًا؛ كونًا لأنه وقَع؛ وشَرْعًا لأن الله تعالى يُحِبُّه، إِذَنِ: اجتَمَعَتِ الإرادتان.

وإذا قيل: ما تَقول في إيمان أبي لَهَبٍ؟ فالجَوابُ: غير مُراد كونًا ومُرادٌ شَرْعًا! فالله تعالى يُريد منه أن يُسلِم.

وإذا قيل: ما تَقول في كُفر أبي بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ فالجَوابُ: غيرُ مُرادٍ كونًا؛ لأنه لم يَقَع، ولا شَرْعًا لأن الله تعالى لا يُحِبُّه.

وما يُقال في كُفْر أبي لَهَب؟

الجَوابُ: مُرادٌ كونًا لا شَرْعًا؛ لأنَّ الله تعالى لا يُحِبُّه.

فالكُفْر مُراد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كونًا، وأيُّ إنسان يَكفُر فقد أَراد الله تعالى كُفْره كَوْنًا.

أَمثِلة من القُرآن:

قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

الإِرادة هذه شَرْعية؛ والدليل أنَّ الله تعالى قد يُعسِر على الإنسان فلو كانت الإرادة كونية لكان في الواقِع تكذيب للآية، إِذَنْ: يُريد هنا بمَعنِى: يُحِبُّ، يُحِبُّ الله تعالى بكُمُ اليُسْر، ولا يُحِبُّ العُسْر، وأمَّا كونًا فإن الله تعالى يُريد بنا العُسْر قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشَّرح:٥-٦].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن نوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود:٣٤]، أي: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ هذه إرادة كونية، لأن الله تعالى لا يُريد من خَلْقه الإغواءَ، والدليل أنه لا يُريد الإِغْواء قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء:١٧٦]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٦].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾: ﴿لِيُذْهِبَ﴾ اللَّام هنا جاءت في مَفعول (يُريد)، والمعروف أن (يُريد) تَتعدَّى بنَفْسها فتَقول: أَرَدْت كذا. ولا تَقول: أرَدْت لكذا.

إِذَنِ: فاللَّام هنا زائِدة من حيث المَعنى، يَعنِي: من حيث الإعراب زائِدة، والتَّقدير: إنما يُريد الله أن يُذهِب عنكم الرِّجْس، فاللَّام يَقول النَّحويُّون: إنها زائِدة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الإِثْم]، والصوابُ أنَّ الرِّجْس هو النَّجاسة لأنَّ الرِّجْس في الأصل النَّجَس، سَواءٌ كان نَجاسة مَعنَوية أو نَجاسة حِسِّية.

فمِن الرِّجْس بالمَعنى الحِسِّيِّ بالنَّجاسة الحِسِّيَّة، قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾ [الأنعام:١٤٥].

وأمَّا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة:٩٠]، فهذا رِجْسٌ مَعنويٌّ.

وهنا في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ الرِّجْس المَعنويُّ؛ لأنَّ الرِّجْس الحِسِّيِّ ما أَراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُذهِبه عنهم، بل هو مَوْجود فيهم، هم يَبولون ويَتغوَّطون وبَولُهم نَجِس، وغائِطهم نَجِس، إذَنْ: فالمُراد بالرِّجْس الذي أَراد الله تعالى أن يُذهِبه عن أهل البيت هو الرِّجْس المَعنَوِيُّ، وهو السافِل من الأخلاق والأعمال.

وقوله تعالى: ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ أَفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [يَا ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾] أنَّ أهل مَنصوب على النِّداء، وحُذِف منه حَرْف النِّداء.

ومَن المُراد بأَهْل البيت؟

الجَوابُ: لا شَكَّ أنَّ المُراد به نِساء الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأنَّ الآياتِ كلَّها في سِياق نِساء الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٢-٣٤].

فلا شَكَّ أنَّ المُراد بذلك نِساء الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وهل يُنافِي ذلك ما ثبَت عن النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أنَّه وضَع الكِساء على عَليٍّ وفاطِمةَ والحسَن والحُسَيْن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقال: «هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْبَيْتِ اللَّهُمَّ فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا»(١)؟

نَقول: لا يُنافيه؛ لأنَّ هؤلاءِ أهلُ البيت من حيثُ القَرابة، وهؤلاء أهلُ البَيْت من حيث الزَّوْجيـة، فكلُّهم أهـلُ البيت بلا شَـكٍّ، لا أهـلُ عَليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بل إن آل البيـت أعمُّ من هَؤلاء الأربعةِ؛ لأنَّ أهل البيت تَشمَل كل مَن تَحرُم عليهـمُ الصدَقة من بني هاشِمٍ، فدخَل فيهم آلُ عِليٍّ وآلُ جَعفَرٍ وآلُ العَبَّاس وآلُ الحارِث ابنِ عبد المُطَّلِب، وكل مَن كان من ذُرِّية هاشِمٍ فالرسول ﷺ مُحَمَّدُ بنُ عبد الله بنِ عبد المُطَّلِب بن هـاشِمٍ، فكُلُّ مَن كان من آلِ هاشِمٍ فإنه من آل البَيْـت لا تَحِلُّ له الصدَقة.

وعلى هذا فنَقـول: إنَّ تَفسيرنا لأهل البيت هنا بأنَّهن زَوجـاتُ الرسول ﷺ الذي يُعيِّنه السِّياق، خِـلافًا للرافِضة الذين أَخرَجوا الكلام عن سِياقه، وجعَلوا كلام الله عَزَّوَجَلَّ عِضِين مُتفرِّقًا، فقالوا: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ يُريد بهم آلَ البيت الأربعة فقَطْ، وأمَّا زوجاتُ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنه لا يُريد اللهُ تعالى ليُذهِب عنهمُ الرِّجْس؛ ولهذا يَرمُون عائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالفَحْشاء -والعِياذُ بالله- ولا يُبالون بذلك.

وأنا سمِعْـت شَريطًا للأخِ إحسـان إلَهي ظَهير يَرُدُّ على رجُـل من الشِّيعة،

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٢٩٢)، والترمذي: كتاب المناقب، باب ما جاء في فضل فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٣٨٧١)، من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ويَتكلَّم على هذه الآيةِ بشِدَّة وبقُوَّة، يَقول: إنَّ الذي يَصرِف الآية هذه لآل البيتِ الأربعة، لا يَعرِف اللُّغة العرَبية ولا يَعرِف أساليبَ الكَلام، إذْ كيف إنه يُخرِج الآيةَ هذه من بين الآيات كُلِّها المُحيطة بها، والتي تُوَجَّه إلى أُمَّهات المُؤمِنين، ثُم يُخرِج هذه الآيةَ!.

وأَقـول: إن قولَه: (آلُ البَيْت) هنـا وفي أصحاب الكِساء الأربعـة، وفي آلِ البيت الذين لا تَحِلُّ لهم الصدَقة، كلُّها لا يُنافِي بعضُها بعضًا.

ولذلك كان القول الراجِحُ: أنَّ زوجاتِ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا تَحِلُّ لهنَّ الصدَقة؛ لقول الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِآلِ مُحَمَّدٍ**»[1] وزوجاته بلا شَـكٍّ من آله، كما في هـذا الحديثِ، وعلى هذا فإننا نَقـول: إنه لا تَعارُض بين الأَدِلَّة.

ونَظير ذلك: أن الرسول ﷺ سُئِل ما هو المَسجِد الذي أُسِّس على التَّقوى من أوَّل يوم؟ فقال: «**مَسْجِدِي هَذَا**»[2]، مع أنَّ المَسجِـد الذي أُسِّس على التَّقـوى من أوَّل يوم هو مَسجِد قُبـاءٍ أيضًا، كلٌّ منهما أُسِّس على التَّقوى من أوَّل يوم، فإنَّ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَسَّس مَسجِده من أوَّل يَوْم قدِمَ، وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كلٌّ منهم يَقول: النُّزول عِنْدي، النُّزول عِندي، النُّزول عِندي. فيَقول: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ**» يَعنِي: ناقَتـه، فلمَّا وصَلـت إلى مَكان مَسجِده برَكَت، فزَجَـرها النبيُّ ﷺ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٧٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأصله في الصحيحين؛ أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ صدقة التمر عند صرام النخل، رقم (١٤٨٥)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وعلى آله، رقم (١٠٦٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ بالمدينة، رقم (١٣٩٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقامَت ثُمَّ التَفَتَت يَمينًا وشِمالًا، ثُمَّ رجَعَت إلى مَكانها الأوَّل فبَرَكت، فقال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «المَنْزِلُ هَاهُنَا إِنْ شَاءَ اللهُ»[1]، ثُم نزَل، وكان أَقرَبُ البُيوت إليه بيتَ أبي أيُّوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فذهَب إليه من أوَّل يوم نزَل وهو شارِع في تَخطيط المَسجِد.

ولهذا يَنبَغِي للمَسؤُولين في البلَديات وفي الأَوْقاف أن يَجعَلوا أكبَرَ هَمِّهم في المُخطَّطات الجديدة وَضْع المَساجِد، فيَعتَنُوا بها قبل كل شيء.

على كل حال إني أَقول: إنَّ وَصْف الشيء بصِفَة، ووَصْف غيره بصِفة لا يَقتَضِي أن يَكون ذلك تَناقُضًا، بل كلٌّ منهما له نَصيبٌ من هذا الوَصْفِ، وقوله تعالى: ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾: (البَيْت) هنا (أل) للعَهْد الذِّهْني، يَعنِي: أهل البَيْت المَعهود المَعروف، وهو هذا البيتُ الطاهِر بيت رسول الله ﷺ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ مِنْه] أَيْ: من الرِّجْس ﴿تَطْهِيرًا﴾، و(تَطهيرًا) هنا مَصدَر طهُر، مَصدَر للفِعْل السابِق، والمُراد به التَّوْكيد، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾.

والتَّطهير من الرِّجْس أبلَغُ من ذَهاب الرِّجْس؛ لأنَّه بعد ذَهاب الرِّجْس قد يَبقَى له أثَرٌ، فإذا قال: يُذهِبه ويُطهِّركم، صار ذلك أبلَغَ؛ لأنه يَذهَب ذلك الرِّجْسُ ويَطهُر مَكانه بحيث لا يَبقَى له أثَرٌ.

ولا رَيبَ أنَّ بيت الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أبعَدُ البُيوت عن الرِّجْس، وأطهَرُ البيوت من الرِّجْس، هذا لا يَشُكُّ فيه مُؤمِن أبَدًا، وكلُّ مَن قدَح في بيت الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في زوجاته فإنه يُعتبَر قادِحًا بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لأنَّ الله تعالى

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٩٥)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٥٠١).

يَقول في القُرآن الكريم: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النور:٢٦].

ونحن نَعلَم عِلْم اليَقين أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما كان ليَختارَ لنَبيِّه إلَّا أفضَلَ نِساء العالَمِين بلا شَكٍّ، وقد ثبَتَ في كِتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بَراءَة عائِشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ممَّا رماها به أصحاب الإِفْك من المُنافِقين، وغيرهم ممَّنِ انخَدَعوا من المُسلِمين، عفا الله تعالى عنهم.

وقد قال الله في حادِثة الإِفْك: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [النور:١٥-١٦]، يَعنِي: هلَّا إذا سمِعتُموه ﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾: ﴿مَّا يَكُونُ﴾ يَعنِي: يَمتَنِع غاية الامتِناع، أن نَتكلَّم بهذا ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا لك ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾، فانظُرْ كيف قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ فالتَّنزِيه في هذا الأمرِ يَعنِي: نُنزِّهُك يا ربَّنا أن يَقَع ذلك في إحدى أُمَّهات المُؤمِنين، زَوجات خاتَم النَّبيِّين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ يَعنِي: تَنزيهًا لك أن يَقَع مثل هذا في زَوْجات نبيِّك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

هذا التَّأكيدُ العَظيمُ نَرى الآنَ ممَّن يَنتَسِبون للإسلام، وهم بَريئُون منه، والإسلام مِنهم بَراءٌ، يَقولون: إن عائِشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا -والعِياذُ باللهِ- بَغِيٌّ ومَع ذلك قد برَّأَها الله تعالى من ذلك في القُرآن الكَريم، فمَن قذَف واحِدة من زَوْجات الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عائِشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أو غيرها فهو كافِر بلا شَكٍّ، ويَجِب أن يُقتَل ولو تاب، إن تاب تَوْبة نَصوحة فهي بينَه وبينَ الله تعالى، لكن نحن علينا أن نَغارَ لِرَسُول الله ﷺ، وأن نَقتُل هذا الذي قذَف واحِدةً من أُمَّهات المُؤمِنين.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: مَشروعيـة قَرار المرأة في بَيْتـها؛ لأنَّ القول بوُجـوب القَرار، يُخالِفه ما جاء في السُّنَّة من الإِذْن للنِّساء بالخُروج، لكن بدون تَبرُّج.

وعلى هـذا فنَقُول: (مَشروعِيَّـة)؛ لأنَّ كلِمـة (مَشروعيـة) تَتَّسِع للواجِـب والمُستَحَبِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ بُيوت أزواج النبيِّ ﷺ مِلْك لهُنَّ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.

فإن قال قائِل: الإضافة هنا للاختِصاص وليست للتَّمليك، كما تَقول السَّرْج للدابَّة، والمقود للبعير، وهل هي تَمِلكه؟

لو قال قائِل ذلك بأنَّ الإضافة هنـا للاختِصاص، وأنَّ بُيوت أزواج النبيِّ ﷺ للنبيِّ ﷺ؟

فالجَوابُ: أن نَقـول: إن الواقِع يُخـالِف ذلك؛ لأنَّ هـذه البُيوتَ لو كانت للرَّسول ﷺ ما بقِيَتْ مع أُمَّهات المُؤمِنين بعد موته، إذ إنَّ النبيَّ ﷺ لا يُورَث.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الفائِدة المَأخوذة من الإضافة ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، فإن فيها الإِغْراء على لُزوم البَيـت؛ لأنه بَيتُـها وسِترُها، يَعنِي كلِمة ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أَبلَغُ من كلِمـة: (وقَرْن فِي البُيوت) كأنَّه يَقول: هذا البَيْتُ ما بُنِيَ إلَّا لكِ، سَترًا لكِ وصَونًا، فالْزَمي هذا البيتَ الذي من أَجلِكِ بُنِيَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تحريم تَبرُّج الجاهِلية؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جواز التَّبرُّج إذا كان مَبنيًّا على العِلْم والسُّنَّة؛ لأن المَنهيَّ عنه هو تَبرُّج الجاهِلية؛ ولهذا يَجوز للمَرأة أن تَتَبرَّج في بعض المَواضِع، وليس حرامًا عليها كُلُّ تَبرُّج.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ذمُّ الجَهْل؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فإنَّ نِسْبَة هذا إلى الجَهْل لا شَكَّ أنه يُراد به التَّنفير.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: مَدْح ما كان مَبنيًّا على العِلْم؛ لأنَّ ذم الضِّدِّ يَدُلُّ على مَدْح ضِدِّه، كما قيل:

..... وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الْأَشْيَاءُ[1]

فإذا كان التَّبرُّج المَبنيُّ على الجَهْل مَذمومًا؛ فإنَّ ما بُنِيَ على العِلْم ليس مَذمومًا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنه يَنبَغي عند الإغراء أو التَّحذير أن يُذكَر كلُّ وَصْف يَسْتَلْزِمُ الإغراءَ، أو التحذيرَ؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ الأُولى -كما قُلنا فيما سبَق- زمَنًا أوِ الأُولى نوعًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: وُجوب إقامة الصلاة على النِّساء، كما هو واجِب على الرِّجال؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ووجوب إيتاء الزَّكاة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الإشارة إلى أنَّ إقامة الصلاة وإيتاء الزَّكاة من المَوانِع عن المُحَرَّمات نعَمْ؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾، ثُمَّ قال: ﴿وَأَقِمْنَ﴾ فدلَّ هذا على أنَّ مِن أسباب عدَم التَّبرُّج إقامةَ الصلاة، ولا رَيبَ في هذا؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يَقول:

---

(١) البيت للمتنبي، انظر: ديوانه (ص:١٢٧).

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: فَضيلة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ تُؤخَذ من الأَمْر بهذا، ثُمَّ بعد ذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، وطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ يَدخُل فيها إقامةُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة؛ فالنَّصُّ على بعض أفراد العامِّ يَدُلُّ على العِنَاية به، سواءٌ تَقدَّم الخاصُّ أو تَأَخَّر، فمثَلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ [الحج:٧٧]، هذا تَقدَّم الخاصُّ على العامِّ، قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ وهذا من فِعْل الخَيْر، ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾، ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤]، هذا من باب تَقدُّم العامِّ على الخاصِّ، وسَواءٌ تَقدَّم العامُّ على الخاصِّ، أو تَأَخَّر فإنَّه يَدُلُّ على العِناية بالخاصِّ؛ ولهذا نَصَّ عليه من بين أفراد العامِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: وُجوبُ طَاعَةِ الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى؛ للعَطْف بالواو الدالَّة على الاشتِراك، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القُرآن الكريم: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن الله عَزَّوَجَلَّ أَراد بحِكْمته البالِغة أن يُذْهِبَ الرِّجْس عن آل البيت؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الخُضوع بالقَوْل وأن تَبرُّج الجاهلية من الرِّجْس، وأنَّ القرار في البُيوت وإقامَ الصلاة وإيتاءَ الزكاة وطاعةَ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ

من أسباب زَوال الرِّجْس؛ لأن ما تَقدَّم أوامِرُ ونَواهٍ، بيَّن الله تعالى أنه إنما أمَرَ بها ونهَى عنها، من أَجْل أن يُذْهِبَ عن هذا البيتِ الرِّجسَ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ زوجاتِ الإنسان من آل بَيْته.

فإذا قال قائِلٌ: هذا وَقْف على آل بيتي. شمِلَ النِّساءَ، وإذا قال في الأُضحِيَّةِ: اللهُمَّ إن هـذا عنِّي وعن أهل بيتي. شمِلَ النساءَ؛ لأنَّ الله تعالى جعَل زوجات الرسول ﷺ من آل بَيْته.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَفخيم هذا البيت وتَعظيمه؛ لقوله تعالى: ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ لأنَّ (أل) للعَهْد الذِّهْنيِّ، كأن هذا البيتَ مَعهود مَعلوم بأَذْهان الناس، لا يَغيب عنها؛ لِمَا لهذا البَيتِ من المَكانة الرفيعة، والخِصْلة الحَميدة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَرادَ أن يُذْهِبَ الرِّجْس وأثَرَ الرِّجس أيضًا، الرِّجْس وأثَره؛ يُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وهذا فوق ذَهاب الرِّجْس؛ لأننا لو ضَرَبنا هذا بمِثال حِسِّيٍّ، وقُلنا: إنَّ هذا الثوبَ تَلَطَّخَ بنَجاسة، فحَكَكْنا هذه النَّجاسةَ حتى زالَت عَينُها فهذا يُسمَّى إذهابَ الرِّجْس، فإذا صبَبْنا الماء حتى نَظُف المكان تمامًا، وزال الأثَرُ صار ذلك تَطهيرًا؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح في دُعاء الاستِفْتاح: «**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ**»[1]، فذكَر المُباعَدة أوَّلًا قبل التَّلبُّث

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب ما يقول بعد التكبير، رقم (٧٤٤)، ومسلم: كتاب المساجد، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة، رقم (٥٩٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بالخَطِية، ثُم ذكَر التَّنقية من الخَطِية بعد التَّلبُّث بها، ثُمَّ ذكَر أبلَغَ من ذلك وهو الغَسْل، غَسْل هذه الخَطِيةَ وآثارَها بالماء والثَّلْج والبَرَد.

والحاصِلُ: أننا نَقول: إن قوله تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ هذا فَوْق إذهاب الرِّجْس.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: إثبات الإرادة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

الْفَائِدَةُ العِشْرُون: أنَّ البيت المُطَهَّر من الرِّجْس، سواءٌ بيتُ الرسول ﷺ أو غيره من البُيوتات؛ فإنَّ البَيْت المُطَهَّر يُعتبَر من أفضَل البُيوتات، ويُعتبَر تَطهيرُه من أكبَر النِّعَم عليهم، يُؤخَذ من أنَّ الله تعالى امتَنَّ بذلك على آل بيت الرسول ﷺ، وهذا شيء مَعلوم في الناس، فالناس مَعادِن كمَعادِن الذَّهَب والفِضَّة، فمِنَ الناس مَعدِن خَبيث، ومن الناس مَعدِن طَيِّب.

ولهذا لو أن أحَدًا تَلبَّس برِجْسٍ من الأرْجَاس من قَبيلة طيبة فالناس يَستَغْرِبونه ويَستَنْكِرونه، ويَرَوْن هذا أشَدَّ، لكن لو تَلبَّس أحَد برِجْس من الأرْجاس، وهو من قبيلة مَعروفة بذلك، فلا يَستَغرِبون، ويَقولون: إن الغُصْن من الشَّجَرة، وليس هو بغريب أن يَفعَل مثل هذا الفِعْلِ؛ لأنَّ آباءَه وإخوانه وأعمامه، وما أَشبَه ذلك فعَلوا مثله، ولا شَكَّ أنَّ الله تعالى إذا مَنَّ على آل بيتٍ من البُيوت بالتَّطهير والكرَم والنَّظافة والنَّزاهة؛ فإنَّ ذلك مِن نِعْمَة الله تعالى عليه.

واعلم أنَّ الله تعالى قد يَجعَل على يَدِ الشَّخْص الواحِد طَهارة كلِّ قبيلته، كما هو مُشاهَد يَخرُج رجلٌ واحِد صالِحٌ مُصلِحٌ يُنذِر عَشيرته الأقرَبين، ويَحرِص على دَعْوتهم إلى الحَقِّ، فيُصلِح الله تعالى على يَديه كلَّ قَبيلته، إذا جاء ذلك بإِخْلاص

وبامتِثال لأَمْره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، لكن عندنا تَفريط وإِهْمال، فالإنسان لا يَتفَقَّد أهلَه الذين في بيته، ولا يَتفَقَّد أهلَه قرابته الذين في غير بَيْته، فهذا هو الواقِع، يَعنِي: الناس الآنَ غايةُ ما يَتواصَلون به إن تَواصَلوا به في الأمور الدُّنْيوية، لكن هدايا الدِّين ما أَقلَّها! وإن كان -والحمدُ لله تعالى- يُوجَد، وأنا لا أَقول: إِنَّني أُقنِّطُكم من رحمة الله تعالى، يُوجَد -والحَمدُ لله تعالى- مَن إذا رأَى في بَيْت أقارِبه ما يُكرَه يَنصَحُهم ويُرشِدهم، ويُبيِّن لهم ذلك، ورُبَّما بعضُ الناس يَهْجُرهم، ما يَذهَب إليهم، كلُّ هذا من أَجْل الحِرْص على تَقويمهم.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٤].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ القُرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ السُّنَّة] (اذكُرْنَ) الأمر هنا للإرشاد، وبَيان المِنَّة والفَضْل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهن، وقوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ يُحتَمَل أن يَكون المُراد به تَذكَّرن وتَدبَّرن هذا الأمرَ واعرِفْن ما فيه من فَضْل الله تعالى علَيْكُن، ويُحتَمَل أن المَعنى: اذكُرْنه بتِلاوَتِه.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾: ﴿يُتْلَىٰ﴾ بمَعنَى: يَقرَأ، والتِّلاوة نوعان؛ تِلاوة لَفْظية وتِلاوة مَعنوية، فإذا قُلْت: تَلا كِتاب الله تعالى حتى أَكمَله، فالمعنى: اللَّفْظية، وإذا قلت: سَجْدة التِّلاوة فهي التِّلاوة اللَّفْظية، أمَّا التِّلاوة المَعْنوية فهي اتِّباع القرآن، تَلاه يَتلُوه إذا اتَّبَعه، فالتِّلاوة المَعنَوية بمَعنَى: اتِّباع القُرآن في عقائِدِه، في أخلاقِه، في أعمالِه، هذه التِّلاوةُ.

وأيُّهما المَقصود الأَعظَمُ؟

المَقصود الأَعظَم: هو التِّلاوة المَعنَوية، أمَّا التِّلاوة اللَّفْظية فلا شَكَّ أنها مَقصودة، وأنَّ مَن قرَأ حَرْفًا من كِتاب الله تعالى فله به عَشْر حسَنات؛ لكِنَّ المُهِمَّ التِّلاوة المَعنَوية

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وقوله تعالى: ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾: ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا شَكَّ أنها القُرآن كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

والآياتُ هنا المُراد بها الآياتُ الشَّرْعية؛ فإنَّ آياتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَنقَسِم إلى قِسْمين:

١- آيات كَوْنية، وهي ما خلَقَه الله تعالى ويَخْلُقه في هذا الكَوْنِ؛ فإنَّ كلَّه آياتٌ علاماتٌ على خالِقه عَزَّوَجَلَّ لما فيه من بَديع الصَّنْعة والنِّظام الحَكيم البالِغ، الذي لا يَتناقَض ولا يَتنافَر؛ ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:٩١]، وإذَا ذهَب كلُّ إله بما خلَق، لم يَكُنِ الكون مُنتظِمًا؛ لأنَّ كل إلهٍ يَخلُق على ما يُريد، ثُمَّ لا بُدَّ من عُلوِّ أحدِهما على الآخَر، لأنهما إن تَمانَعا وعجَز كل واحِد منهما عن الآخِر، لم يَصِحَّ أن يَكونا إلهين، وإن غلَبَ أحدُهما الآخَرَ فالمَغلوب لا يَصِحُّ، وحينئذٍ تكون الدَّلالة العَقْلية على أنه لا بُدَّ من إلَهٍ واحِد فقَطْ، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ المُهِمُّ: أن الآياتِ الكونيةَ كلُّ ما يَخلُق الله تعالى في الكون.

٢- أمَّا الآياتُ الشرعية فهي ما جاءَت به الرُّسُل من الوَحيِ، وسُمِّيَت آياتٍ؛ لأنها علامات على مُشَرِّعها ومُنزِلها؛ لما فيها مِنِ انتِظام المَصالِح، وانتِفاء المَفاسِد؛ فإن الشَّرْعَ كُلَّه تَحصيلٌ للمَصالِح، وتقليلٌ للمَفاسِد؛ ولذلك ما من شَيء يَتَضَمَّنُ مَصْلَحَة رَاجِحة أو خالِصةً إلَّا أمَر به الشَّرعُ، وما من شيء يَتضَمَّن مَفسَدةً خالِصةً أو راجِحة إلَّا نهَى عنه الشَّرْع؛ لكن من المَصالِح ما نُدرِكه بعُقولنا،

ومن المَفاسِد ما نُدرِكه بعُقولنا، ومنه ما لا نُدرِكه، ولكنَّنا نَعلَم عِلْم اليَقين أنَّ مُقتَضى حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ ومن أَسمائه الحَكيم، أنه لا يُمكِن أن يَأمُر إلَّا بما فيه مَصلَحة؛ إمَّا خالِصة وإمَّا راجِحة، ولا يَنهَى إلَّا عمَّا فيه مَفسَدة إمَّا خالِصة وإمَّا راجِحة؛ ولهذا سُمِّيَتِ الكُتُب النازِلة من السَّماء آياتٍ؛ لأنها علامات على مَن شَرَّعها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وعلى مَن أَنزَلها، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

وهنا مَسأَلة بدَأَ الناس يَفعَلونها: يُقسِمون بآيات الله تعالى، يَقول: قسَمًا بآيات الله ما كان كذا وكذا. أو قسَمًا بآيات الله لأَفعَلنَّ كذا وكذا. وفيه تَفصيل: إنْ قَصَد الآياتِ الكونيةَ فهو حرامٌ؛ لأنه حلَف بغير الله تعالى، حلَفَ بالمَخلوقات، وإن أَراد بالآياتِ الآياتِ الشَّرعية، فهو حلَفٌ بكلِمات الله تعالى، والحلِف بكلِمات الله جائِز؛ لأن كلِمات الله تعالى من صِفاته، والغالِب على العامة حينما يُقسِمون هذا القسَمَ -فيما أَظُنُّ- هو الآيات الشرعية، أنهم ما يُريدون قسَمًا بآيات الله تعالى، أمَّا قسَمًا بالشمس وبالقمَر وبالنُّجوم وبالليل وبالنَّهار، فلا يُقسِمون بهذا، بل (قسَمًا بآياتِ الله) يَقصِدون بذلك القُرآنَ، وحينئذٍ يَكون هذا القسَمُ جائِزًا باعتِبار الدَّلالة العُرْفية على المُراد به، أمَّا لو نظَرْنا إلى لفظه فلا بُدَّ من التَّفصيل.

وعلى كل حال: الإِقْسام على المُصحَف هذا من البِدَع؛ لأنه لم يَرِد عن النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ والذي ورَد في تَغليظ الأَيمان ما ذكَره الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في سورة المائِدة: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [المائدة:١٠٦]، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا ﴾ قبلَه ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي: صلاة العَصْر، وفي باب الدَّعاوَى: أنَّ التَّغليظ يَكون بالزمان، ويَكون بالمَكان، ويَكون بالهَيْئة،

ويَكون بالصِّيغة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هي السُّنَّة] كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣].

والأصل في العَطْف المُغايَرةُ، وإلَّا فلِقائِلٍ أَنْ يَقُول: إنَّ القرآن الكريم قد تَضمَّن الحِكْمَة فيَكون تعليم القرآن تَعليم الأحكام، وتَعليم حِكَم الأَحْكام؛ لأنَّ مَعرِفة أحكام الشريعة أمرٌ عظيمٌ جِدًّا؛ فالإنسان إذا عرَف حِكْمة الأحكام الشرعية يَستَنير قَلْبه أكثَر، ويَقتَنِع بالأحكام الشرعية أكثَر، ويَعرِف من صِفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحِكَمه ما هو أكثَر، ويَستَطيع أيضًا أن يُقنِع الخَصْم؛ لأنَّ الخَصْم لو تَقول مثلًا: هذا حرام؛ لأنَّ القُرآن حرَّمه؛ فهو قد لا يَكون ممَّن يُؤمِن بالقُرآن أو يَطمَئِنُّ إليه، لكن إذا كان لدَيْك مَعرِفةٌ بحِكَم الشَّريعة أَمكَنَك أن تُقنِع هذا الشخصَ.

ولهذا مَعرِفة حِكْمة الشَّرْع مُهِمٌّ جِدًّا، بل إنَّ غالِب القِياس إنما جاء من مَعرِفة الحِكْمة؛ لأنَّه إلحاق فَرْع بأَصْلٍ في حُكْمٍ لعِلَّة جامِعة، وعلى هذا فرُبَّما يَقول قائِل: إنَّ المُراد بالحِكْمة ما يُعْلَم من أسرار أحكام الشَّريعة وحِكَمِها.

ولكنَّ أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ من السلَف والخلَف أئِمَّة الخلَف فسَّروا الحِكْمة بأنَّها السُّنَّة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ لطيفًا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بأَوْليائه ﴿خَبِيرًا﴾ بجَميع خَلْقه] (اللَّطيف) فسَّره أَهلُ الباطِل بأنه الذي لا يُدرَك لِصِغَره -أَعوذُ بالله!-، فسَّروه بذلك وكذَبوا.

وفسَّره أهلُ السُّنَّة فقالوا: إن اللَّطيف جاء في كِتاب الله تعالى مُعدًّى باللَّام ومُعدًّى بالباء، قال تعالى ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف:١٠٠]، فعُدِّيَ بالباء وعُدِّيَ باللَّام.

وعلى هذا فيكون اللَّطيف له مَعنَيان:

أحدُهما: اللُّطْف للعَبْد، وهو أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُقدِّر له مَواقِع الإحسان، بمَعنى أنه يَلطُف له فيُيَسِّر له الأمرَ، ويُسهِّله عليه.

الثاني: اللَّطيف به بالباء، وهو بمَعنى: إدراك الأمور الخَفِيَّة؛ لأن اللطيف مَعناه: الذي يُدرِك ما لطُف، فمَعنى ﴿لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾، أي: مُدرِكٌ لما خَفِيَ من أمورهم، فيكون بمَعنَى الخَبير، بل أدَقُّ من مَعنى الخَبير؛ ولهذا جمَع الله تعالى بينهما فقال: ﴿خَبِيرًا﴾، والخَبير قال العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: هو العالِم ببَواطِن الأمور.

يَقول ابنُ القيِّم في النونية -وهي من أحسَنِ ما نُظِمَ في التَّوْحيد وأَجمَعِه-:

وَهْوَ اللَّطِيفُ بِعَبْدِهِ وَلِعَبْدِهِ ... وَاللُّطْفُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ

إِدْرَاكُ أَسْرَارِ الْأُمُورِ بِحِكْمَةٍ ... وَاللُّطْفُ عِنْدَ مَوَاقِعِ الْإِحْسَانِ[1]

فصار اللَّطيف له مَعنَيان: اللَّطيف للعَبْد، واللَّطيف به؛ فاللَّطيف به بمَعنَى: الخَبير ببَواطِن أُموره، وما لَطُفَ من أَمْره، وله الذي يُقَدِّرُ له من أَسرار حِكْمته أو من أَسرار إِحْسانه وفَضْله ما لا يُدرِكه بعَقْله.

---

(١) النونية (ص:٢٠٧).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَذكير أُمَّهات المُؤمنين بهذه النِّعمةِ العَظيمةِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ مَن أَعطاه الله تعالى عِلمًا كان طلَبُ الاستِقامة منه أَوْكدَ وأَوْثقَ، فإذا آتَى اللهُ تعالى الإنسان عِلمًا؛ فإنه يُطلَب منه من الاستِقامة أكثَرَ ممَّا يُطلَب ممَّن لم يُؤتَ عِلْمًا؛ لأنه قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ﴾، فليس عليكن نقص في العِلْم، بل إنَّ العِلْم ﴿يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾.

مَسأَلة: رُبما يَكون عند المرأة أَشرِطة تَستَمِع إليها، فيُقال: كل امرأة يُوجَد في بيتها، أو يُتلَى في بيتها حقٌّ من كِتاب الله تعالى، أو سُنَّة رسوله ﷺ أو كلام أَهْل العِلْم المَبنيِّ على الكِتاب والسُّنَّة؛ فعَلَيْها من الوَاجِب أكثَرَ ممَّن لم تَعرِف.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن البيت الذي يُتلَى فيه كِتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خيرٌ من البَيْت الذي لا يُتلَى فيه كِتاب الله تعالى؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾؛ ولهذا قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**»[1]، يَعنِي: لا تَجعَلوها مثلَ القُبور لا تُصلُّون فيها، وفي الحديثِ الصحيحِ عنه: «**أَفْضَلُ صَلَاةِ المَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا المَكْتُوبَةِ**»[2]، وكان من هَدْيِ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنه تُسمَع لبُيوتهم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٦٧)، وأبو داود: كتاب المناسك، باب زيارة القبور، رقم (٢٠٤٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد، رقم (٧٨٠)، بلفظ: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر**».

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب صلاة الليل، رقم (٧٣١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، رقم (٧٨١)، من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من تِلاوة كِتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دويٌّ كدَوِيِّ النَّحْل[1] من قِراءة كِتاب الله تعالى في البُيوت.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ القُرآن من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وقد سبَقَ في التَّفسير بَيان كَوْنه من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لما يَتَضمَّن عليه من المَصالِح، والحِكَم والأَسْرار.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه إذا قُرِنَت الحِكْمة بالكِتاب؛ فالمُراد بها السُّنَّة؛ لأنَّ السُّنَّة أيضًا تَتَضمَّن الحِكْمَة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يَصِفِ السُّنَّة بالحِكْمَة لأنَّ القُرآن ليس فيه حِكْمة، ولكن لَمَّا كان القُرآن من عِند الله تعالى، وكلامَ الله تعالى؛ فإنَّ احتِمال أَنْ لا يَتَضَمَّنَ الحِكْمة بعيدٌ جِدًّا؛ لكن لَمَّا كانت السُّنَّة من كلام الرسول ﷺ فإنَّ كلام البَشَر قد يَرِد عليه احتِمال أن لا يَكون مُشتَمِلًا على الحِكْمَة فبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن السُّنَّة حِكْمة، وإن كانت مِن كَلام الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أو مِن فِعْله، فإنها حِكْمة؛ لأنها مُوافِقةٌ للصواب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فيها رَدٌّ على مُنكِري السُّنَّة؛ ورَدٌّ على آخِرين يُقابِلونهم يَأخُذون بالسُّنَّة ولا يَأخُذون بالقُرآن، لأن هناك ناسًا الآنَ -مع الأسَف- يَعتَنون بالسُّنَّة اعتِناءً عَظيمًا، نَعَمْ حتى إنهم يَغوصون على أَشياءَ قد لا تَكون صحيحةً، ويَأتون بها لكن في القُرآن تُخاطِبهم في القُرآن لا يَعرِفون شيئًا في القُرآن، لا في تَفسيره ولا في إِعْرابه، ولا في شيء أبَدًا منه، بينما هُمْ في السُّنَّة يُذهِبُون ليلَهم

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص:٣٢ رقم ٩٨)، والإمام أحمد في الزهد رقم (٢٠٢٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٩/ ٢٩٠)، عن أبي الأحوص، انظر: مختصر قيام الليل للمقريزي (ص:١٣٤).

ونهارَهم، وهذا خطأ؛ لأنَّ أوَّلَ ما يَجِب أن نَتعَلَّم القُرآن، ثُم بعد ذلك السُّنَّة؛ لأنَّ بالقُرآن هو الأصل.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات هَذَيْن الاسمَيْن من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ (اللَّطيف، والخَبير).

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الله تعالى كان لَطيفًا خَبِيرًا؛ و(كان) هذه مَسلوبةُ الدَّلالة على الزَّمان، وإنما يُراد بها اتِّصاف المُبتَدَأ أو الاسمِ بالخَبَر فقط، بقَطْع النَّظَر عن الزَّمان، والفائِدة منها: تَحقُّق الاتِّصاف بهذا الوَصْفِ، يَعنِي: قد تَحقَّق ذلك في حَقِّه، وهو أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَطيفٌ خَبير.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: ما تَضمَّنَه هذان الاسْمَان من صِفات الله عَزَّوَجَلَّ، من اللُّطْفِ والخِبْرة.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥].

أَوَّلًا: أنَّ القرآن الكريم في غالِب ما يَتَحَدَّث عن الأحكام الجَزائية، والأَحْكام العمَلِية أكثَرَ ما يَتحدَّث مُخاطِبًا الرِّجال؛ لأنَّ الرِّجال أَشرَفُ من النِّساء؛ ولأنَّ الرِّجال قوَّامون على النِّساء، فإذا صَلَحَ الرِّجال صَلَحَت النِّساءُ؛ ولأنه إذا اجتَمَع جِنْسان فإنه يُغلَّب أَشرَفُهما وأَعْلاهما؛ ولهذا أَكثَر الخِطابات الوارِدة في القُرآن تُوجَّه إلى الرِّجال؛ لهذه الأَسبابِ الثَّلاثة ولغيرها.

لكن في بَعْض الآيات تُذكَر الأحكامُ للرِّجال والنِّساء، إمَّا على سبيل التَّفصيل، وإمَّا على سَبيل الإِجْمال:

مِثال الأوَّلِ: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ إلى آخِره.

ومِثال الثاني: قولُه تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:١٩٥]، فإنَّ في هذا إجمالًا.

ثانيًا: في هذه الآياتِ ذكَر المُفسِّرون أنَّ من أَسباب نُزولها: أنَّ أُمَّ سلَمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: يا رسول اللهِ، إن الله تعالى إذا تكلَّم إنما يَتكَلَّم عن الرِّجال ولا يَذكُر النِّساء، فأَنزَل الله تعالى هذه الآياتِ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ إلى آخِره[1].

ففي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ هذه (إنَّ) التَّوْكِيدية التي تَنصِب المُبتَدَأ والخبَر، وفي قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ ما قال: أَعَدَّ الله تعالى لهم ولهن، بل قال تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ فَدَلَّ ذلك على تَغليب جانِب الذُّكورية، كما أن في قَولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ تَقديمَ الذُّكور، يَدُلُّ على شرَف الذُّكور، وهذا أَمْر لا يَمتَرِي فيه عاقِل، لكن لَمَّا جاء الغَرْب الخَبيثُ القَبيح المَقلوب فِطرةً ودِينًا، وصار يُقدِّم النِّساء من أجل إثارة الفِتْنة بهن، وتَشريفهن على الرِّجال؛ تَبِعه الذين يَتبَعون كلَّ ناعِقٍ، وصاروا يُقدِّمون النِّساء على الرِّجال؛ حتى كانوا لا يُطلِقون على النِّساء إلَّا كلِمة (السيِّدات) يَعني: أنَّهُنَّ سيِّدات للرِّجال، فقلَبوا الحَقائِق والأَوْضاع؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد قلَب فِطَرهم فعبَدوا المادَّة دون خالِقها، وكذلك تَصرَّفوا في تُصرُّفاتهم هذه، ويَجِب على المُسلِمين الحذَرُ والتَّنبُّه من مُغالَطات أُولَئِك الكفَرةِ، لا في هذا ولا في غيرِه، حتى يَكونوا على بَيِّنة من أَمْرهم، ودِينهم -والحمد لله- قد بيَّن الله تعالى فيه كلَّ شيء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الإسلام: في أَعمال الجَوارِح الظاهِرة؛ لأنَّه يَشمَل أو يُراد به أن يَستَسلِم الإنسانُ لله تعالى ظاهِرًا بجَوارحه، بلِسانه بيَديه برِجْليه بعَيْنه بأُذُنِه؛ هذا الاستِسلامُ الظاهِر يُسمَّى

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٣٠١)، والنسائي في الكبرى رقم (١١٣٤١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٦).

إسلامًا، وقد يَقَـع من غير المُؤمِن، فقد يَقَـع من المُنافِق، وقد يَقَـع من ضعيف الإيمان، قال الله تعـالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤]، وهذا الإسلامُ مَرتَبَتُـه دون الإيمان، لأنه يَقَع من المُؤمِن حَقًّا، ومن المُنـافِق، ومن ضعيف الإيمان، لأن الاستِسْلام لله تعالى بالجَوارِح الظاهِرة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ هذا الاستِسْلامُ لله تعالى باطِنًا؛ وذلك بالإيمان بالله تعـالى، ومَلائِكته، وكتُبه، ورُسُله، واليَوْم الآخِر والقدَر خَيرِه وشَرِّه؛ ولَسْنـا بحاجة إلى تَفسير أحـدٍ للإيمان بعد أن فَسَّره النبيُّ ﷺ حـين سأَلَه جِـبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ما الإيمانُ؟ قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِـهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1]، وتَفاصيل هذه الجُمْلةِ قد تَكلَّمنا عليه مِرارًا، وليس هذا مَوضِعَ بَسْطه.

إذَنِ: الإيمانُ هو: الاستِسْلام لله تعـالى باطِنًا بحيث يُؤمِن الإنسان بما يَجِب الإيمانُ به، وهو: الإيمانُ بالله تعالى ومَلائِكَته...إلى آخِره.

والإيمان أَعلى من الإسـلام؛ لأنَّ الإيمان يَستَـلزِم الإسلام ولا عكسَ؛ فكُلُّ مُؤمِن لا بُـدَّ أن يَكون مُسلِمًا؛ لأنه إذا صلَـح القَلْب صَلَحَتِ الأَعضـاءُ، كما قال النبيُّ ﷺ: «أَلَا وَأَنَّ فِي الجَسَـدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَـدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[2]، ولكنَّ بعض الناس يَعمَلُ المَعاصِيَ، ويَحتَجُّ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بقول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «التَّقْوَى هَاهُنَا»[1]، إذا قُلْت: يا أخي، اتَّقِ الله، صَلِّ مع الجَماعة! اتَّقِ الله، دَعْ حَلْق اللِّحْيـة! اتَّقِ اللهَ اتْرُكِ الغِيبةَ! وما أَشبَه ذلك يَقول لك: «التَّقْوَى هَاهُنَا».

وكَيْف يُرَدُّ عليهِ؟

الجَوابُ: أن نَقول له: لوِ اتَّقَى ما هاهنا لاتَّقَى ما هاهنا. يَعنِي: لوِ اتَّقى الباطِن لاتَّقَى الظـاهِر؛ لأنَّ الرَّسولَ ﷺ يَقـول: «إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ»، فجعَـل الأَمْر جُمْلة شَرْطية، والمَعـروف في اللُّغة والعُـرْف والشَّرْع أنَّ الجُمْـلة الشَّرْطية يَتحَـقَّق فيها المَشروط متى تَحقَّق الشَّرْط.

ونَقول: صحيـح -ونَحْن معَك- بأنَّ هذا الذَّنْبَ الذي تَعمَـله دون الشِّرْك قابِلٌ لأَنْ يَغفِره الله تعالى، ولكن الله تعـالى لم يَقُل: ويَغفِر ما دون ذلكَ لكُلِّ أحَـدٍ. بل قال تعـالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ [النجم:٢٦]، فهل تَشْهَدُ أنك أنتَ ممَّن شاءَ الله أن يَغفِر لهم؟! إذَنْ: فأنت على خطَأ، والأصل أن الوَعيد على المَعاصِي ثابِت؛ لأنَّ رَفْعه تَحت المَشيئة، ووقوعه بمُقتَضى الوَعْد؛ فالأَصْلُ ثُبوته؛ فلا حُجَّةَ له في هذا.

وقولـه رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ المُطيـعات] كان عليـه أن يَقـول: المُطيعين، ويَصير: والقانِتات مَعروف أنها المُطيعات.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ القُنـوت ليس مُطلَق الطاعة كما يُفهَـم من كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، ولكنه: الطاعة بدَوام وذُلٍّ وسُكون، ويَدُلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، ولَمَّا نزَلَت

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، رقم (٢٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذه الآيةُ أُمِروا بالسكوت ونُهُوا عن الكلام، فدلَّ هذا على أن القُنوت ليس مُجَرَّدَ فِعْل الطاعة، بل هي طاعة مع ذُلٍّ وخُضوع، ودوامٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ القُنوت أَعلى ممَّا سبَقه؛ لأنَّ القانِت معه الإيمان والإسلام، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر:٩].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ في الإيمان] الصِّدْق هو: الإخبار بما يُطابِق الواقِع؛ هذا الأصلُ في مَعنَى الصِّدْق، مثل: أن أَقول لك: إن هذه المَروحةَ تَشتَغِل. هذا صِدْق؛ لأنه إِخْبار بما يُطابِق الواقِع، ولو قُلت: إنَّ هذه المَرْوحةَ لا تَشتَغِل. لم يَكُن صِدْقًا، لأنه إخبار بما يُخالِف الواقِع، ولكن الصِّدْق هل هو في القَوْل فقَطْ أو يَكون الصِّدْق في القول والعمَل والعَقيدة؟ الجوابُ: الأخيرُ.

فيَكون الصِّدْق في العَقيدة: بأن يَكون الإنسان صادِقَ الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ في كُلِّ أعماله، صادِقَ العَقيدة بحَيْثُ تكُونُ مُطابِقة لما جاء به الشَّرْع.

ويَكون الصِّدْق كذلك في الأقوال، بألَّا يَقول إلَّا صِدْقًا، ولو كان الأمر عليه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

وانظُرْ إلى نَتيجة الصِّدْق في قِصَّة الثلاثة الذين خُلِّفوا، يَعني: أُرجِئَ أَمْرُهم؛ لأنهم جاؤُوا وأَخبَروا بالصِّدْق، والمُنافِقون كانوا يَأتون يَقولون: يا رسول الله، لنا عُذْر، ولنا عُذْر. فيَستَغفِر لهم ويَكِلُ سَرائِرَهم إلى الله تعالى، لكن هؤلاء صدَقوا فخُلِّفوا عن الحُكْم عليهم بما حُكِم على المُنافِقين، وليس المُراد أنهم خُلِّفوا عن الغَزوة،

لو كان كذلك لقال: الذين تَخلَّفوا. هؤلاءِ الثلاثةُ وهم: كَعبُ بنُ مالِك، وهِلالُ ابنُ أُميَّةَ، ومُرارةُ بنُ الرَّبيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، هؤلاءِ صدَقوا رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأَشَدُّ مَن تكلَّم وأَبيَنُ مَن تكلَّم وأَفصَحُ مَن تكلَّم من هؤلاءِ الثَّلاثةِ كَعبُ بنُ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه أَشبَهُم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فتكلَّم كلامًا عَجيبًا، ويَحسُن بكم أن تُراجِعوا قِصَّته[1]؛ لأنها في الحقيقة تَزيد في الإيمان، هَؤلاءِ صدَقوا فكانت نَتيجةُ صِدْقهم: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنزَل فيهم كِتابًا يُتلَى إلى يوم القِيامة، في مَدْحهم والثَّناء عليهم؛ حتى قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للناس كلِّهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، أمَّا الآخَرون فقال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة:٩٥].

فانظُرِ الفَرْق بين الأَمْرين، هؤلاءِ كذَبوا فأَرْجَسوا -والعِياذُ بالله- وهؤلاءِ صدَقوا فرُفِعوا، فعَلَيْك بالصِّدْق فإن الصِّدْق يَهدِي إلى البِرِّ، وإن البِرَّ يَهدِي إلى الجَنَّة، ولا يَزال الرجُل يَصدُق ويَتحرَّى الصِّدْق حتى يُكتَبَ عند الله تعالى صِدِّيقًا.

فالمُهِمُّ أن ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ نَقول: في الإيمان، وفي القَوْل، وفي العمَل، فالصِّدْق في العمَل أن يَكون مُطابِقًا للباطِن؛ فلا تَعمَل رِياءً ولا سُمْعةً، ولا مُصانَعة، ولا مُجامَلة، ولا لأَجْل شيءٍ من الدُّنيا، مِثال ذلك رجُل أَخرَج من

---

(١) أخرجها البخاري: كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم (٤٤١٨)، مسلم: كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم (٢٧٦٩)، من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

جَيْبه أَلفَ دِرهَم فتَصدَّق بها؛ لأنَّ الناس يُشاهِدونه، فقال: أُريد أن يَقولَ النَّاسُ: ما أَكرَمَ فلانًا! فهل صَدَق في فِعْله؟ ظاهِر فِعْله أنه لله تعالى صادِق، ولكنَّ حقيقة أَمْره العكسُ؛ فكان كاذِبًا، ومن الصِّدْق في الأقوال أو في الأَعْمال مُتابَعة الرسول ﷺ فإنها دليل على صِدْق مَحبَّة الإنسان لله تعالى ورسولِه ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١]، فصار الصِّدْق في العَقيدة في القَوْل وفي العمَل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ لَمَّا كان الصِّدْق قد يَتَرتَّب عليه من مُجاهَدة النَّفْس ما يَترتَّب؛ لأنَّ إخبار الإنسان بالصِّدْق ولا سيَّما على نفسه أَمْرٌ صَعْب، أَعقَبه بذِكْر الصَّبْر، يَعنِي كأنما يَقول: اصدُقْ واصبِرْ على صِدْقِكَ. فقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾.

والصَّبْر في اللُّغة: الحَبْسُ، ومنه قولهم: قُتِلَ صَبرًا. يَعنِي: حَبْسًا.

وفي الشَّرْع: حَبْس النَّفْس عن التَّسخُّط والكراهة لحُكْم الله عَزَّوَجَلَّ والتَّضجُّر منه.

فقَوْلنا: لحُكْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَشمَل الحُكْم الكَوْنيَّ والحُكْم الشَّرْعيَّ، وهذا التَّعريفُ يَشمَل أنواع الصَّبْر الثلاثةَ التي تَكلَّم عليها أهلُ العِلْم، حيث قالوا: إنَّ الصَّبْر ثلاثة أنواع: صَبْرٌ على طاعة اللهِ تعالى، وصَبْرٌ عن مَعْصية الله، وصَبْرٌ على أَقدار الله تعالى المُؤلِمة.

فنَحنُ إذا قُلْنا: حَبْس النَّفْس عن التَّسخُّط والكراهة لحُكْم الله تعالى. يَشمَل الأنواع الثلاثة؛ لأنه كلَّه حُكْم الله تعالى الكَونيُّ والشَّرْعيُّ؛ فالكونيُّ يَتعلَّق بالصَّبْر على أقدار الله تعالى، والشَّرْعيُّ يَتعلَّق بالصبر على طاعة الله تعالى، وعن مَعصِيَته.

وأمَّا تَعريف ابنِ القَيِّم[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ للصَّبْر، فيَقول: هو حَبْس النَّفْس عن الجَزَع، واللِّسان عن التَّشكِّي، والجَوارِحِ عن لَطْم الخُدود وشَقِّ الجُيوب؛ وهو صحيح وقولنا: (عَن الكَراهةِ لحُكْم اللهِ تعالى) أعَمُّ ممَّا قاله رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أمَّا الصَّبْر على طاعة الله تعالى: فهو أَعلى أنواع الصَّبْر؛ لأنَّه صَبْرُ النَّفس على عمَلٍ وحرَكة وتعَب، والصبر عن مَعْصِية الله تعالى دونه في المَرْتَبة؛ لأنَّ فيه حَبْسًا للنفس عمَّا تَشتَهِيه، من أجل أنه مَعصية لله عَزَّوَجَلَّ، لكن هل فيه عمَل كالصَّبْر على طاعة اللهِ تعالى؟ لا، ليس فيه عمَل، ما فيه إلَّا كفُّ النَّفْس عن هذا المُحرَّم، فبِهذا تَميَّز الصَّبْر على طاعة الله تعالى على الصبر عن مَعصِيته؛ لأن في كلٍّ مِنهما جِهادًا للنَّفْس، لكِنَّ الصَّبْرَ على الطاعة فيه تَكليف النَّفْس بالعمَل، وهذا ليس فيه تَكليفُ نفسٍ بالعمَل، ولكِنْ فيه الكَفُّ عن مَعصية الله تعالى؛ فلهذا كان دون الأَوَّل في المَرتَبة، ولكننا نحن نَقول: دونَ الأوَّل في المَرْتَبةِ. باعتِبار نَفْس النَّوْع لا باعتِبار الصابِرين؛ لأن بعض الصابِرين يُعانِي من المَشقَّة من الصبر على مَعصية الله تعالى أكثَرَ ممَّا يُعاني من الصَّبْر على طاعة الله تعالى، فلو فرَضْنا أن رجُلًا تُساوِره نَفْسه وتَدْعوه إلى فِعْل الفاحِشة بضَغْطٍ شديد، ولكنه عِندما يُصلِّي يَجِد نفسه مُرتاحًا بدون عَناء ولا مَشقَّة، لا شكَّ أن مُعاناتَه الأُولى أشَدُّ، ولكن نحن نَتكلَّم عن أنواع الصبر من حيث هي نَوعٌ، بقَطْع النظَر عن الصابِر وما يَتعَلَّق بحاله.

أمَّا القِسْم الثالِث: فهو صَبْر على أقدار الله تعالى المُؤلِمة، وهذا أَدْنى أنواع الصَّبْر؛ لأنه صَبْرٌ على ما لا فِعْلَ للإنسان به، صَبْرٌ على أمرٍ ليس من فِعْلك، ولا من مَقدورك، لكن الصبر على الطاعة وعن المَعصية من مَقدورك، أمَّا أقدارُ الله تعالى

---

(١) عدة الصابرين (ص:١٥).

فإنها ليسَتْ من مَقدورك، فهو صَبْرٌ على أَمْرٍ ليس بمَقدورك؛ لهذا كان أَدنَى منها؛ ولذلك قال بعضُ السَّلَف في المُصاب: إمَّا أن يَصْبِرَ صَبرَ الكِرام، أو يَسلُوا سَلْوَ البَهائِم.

وهذا صحيح؛ مَن مِنَّا لم يُصَب ببَدَنه أو أهله أو ماله، ثُمَّ تَكون المُصيبة عَظيمة جِدًّا وبعد مُضِيِّ مُدة من الزمَن يَنساها ما كأنها شيء؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»(١)، هذا حَقيقةُ الصَّبْر، أمَّا بعد ذلك تَبرُد النَّفْس، وتَتَلهَّى بأَمْر بما يَحدُث لها من شُؤُونها في حياتها حتى تَتَسلَّى ولا كأنَّ شيئًا جَرَى.

إِذَنِ: الصَّبْر أنواعه ثلاثة: صَبْرٌ على طاعة الله تعالى، وصَبْرٌ عن مَعْصيته، وصَبْرٌ على أقداره المُؤلِمة.

فصَبْرُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على ما مَسَّه من الضُّرِّ من باب الصَّبْر على أقدار الله تعالى، وصَبْرُ يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن فِعْل الفاحِشة في امرأة العَزيز صَبْرٌ عن مَعصية الله تعالى، وفي صَبْره على ما ناله من أَلَمِ السَّجْن وأَذِيَّته صَبْر على أقدار الله تعالى المُؤلِمة، وهل ليُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صَبْرٌ على طاعة الله تعالى؟

الجَوابُ: نعَمْ، دَعْوته أهلَ السِّجْن إلى عِبادة الله تعالى وإلى تَوحيده، هذا من الصَّبْر على طاعة الله تعالى.

فاجتَمَع في حَقِّه أنواع الصَّبْر الثلاثة، وهكذا تَكون أنواع الصَّبْر الثلاثة لكثير من عِباد الله تعالى، فالرسول ﷺ صَبَر على طاعة الله تعالى، وعن مَعصِيته، وعلى أَقداره، وهذا شيءٌ كثيرٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، رقم (١٢٨٣)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب في الصبر عند الصدمة الأولى، رقم (٩٢٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والصَّبْر على أقدار الله تعالى المُؤْلِمة لا يُنال أجرُها ومَرْتبتُها إلَّا بوجود أَسبابها؛ فأمَّا أن يَقـول الإنسان: أنا صابِر. ثُمَّ لا يَصبِر فإنه لا يَنـال تِلكَ المَرْتبةَ؛ ولهذا كانَ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَناله من أقـدار الله تعالى المُؤلِمة أكثَرَ من غيره، كما ثَبَت عنه أنه قال: «إِنَّهُ يُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ الرَّجُلَانِ»(١)، يَعنِي: بمَعـنَى أنه يُصاب بالحُمَّى كما يُصاب الرَّجُلان، وفي سِياق المَوْت شُدِّدَ عليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أَجْل أن تَتِمَّ له هذه المَرْتبةُ، مَرْتَبةُ الصابِرين؛ حتى يَنال أَعلاها.

والصبرُ هل هو واجِبٌ أو مُستَحَبٌّ؟

الصَّبْر واجِب، وقُلْنـا -المَعنى العامُّ للصَّبْر: حَبْس النَّفْس عن التَّسخُّـط والكراهةِ لأحكام الله تعـالى- ما قُلنا لشَريعة الله تعـالى؛ وقُلْنا: (لأحـكام الله)؛ لأَجْل أن يَشمَل هذا الصَّبرُ على أقـدار اللهِ تعالى المُؤلِمة، فالصَّبْر إِذَنْ: واجِبٌ، وفيه أَجْرٌ كثير، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر:١٠]؛ ولهذا قال الله تعـالى في الصوم: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ؛ الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجزِي بِهِ»(٢)؛ لأنَّ الصَّومَ حقيقةً اجتَمَع فيه أنواع الصَّبْر الثَّلاثة فهو صَبْرٌ على طاعة الله تعالى، وصَبْرٌ عن مَعصِيَّته، وصَبْرٌ على أقداره المُؤلِمة.

ففيه صَبْرٌ على طاعة الله تعالى؛ لأنه صَبْر على الصوم، وحَبْس نَفْسه على الرِّضا به فصَامَ، وصَبْرٌ عن معصية الله تعـالى، فالصائِم مَأمور بأن يَجتَنِب أشيـاءَ كَثيرةً فاجتِنابُها صَبْر عن معصية الله تعـالى، وصبرٌ على أقدار الله تعـالى فالجُوع والعَطَش

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب أشد الناس بلاء الأنبياء، رقم (٥٦٤٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه، رقم (٢٥٧١)، من حديث عبد الله بن مسعود.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم، رقم (١٩٠٤)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم (١١٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والتَّألُّم من هذا الجُوعِ والعـطَش، إذَنْ صَبْرٌ على أقدار الله تعـالى المُؤلِمة؛ ففيه أنواع الصَّبْر الثلاثة: صبرٌ على طاعة الله تعـالى، وصبرٌ عن مَعصية الله تعـالى، وصبرٌ على أقدار الله تعالى المُؤلِمة.

قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُتواضِعِين] الخاشِع المُتواضِع المُتطامِن، وضِدُّه المُتعالِي المُسْتكبِر؛ فالخُشوع إذَنْ: تَطامُن، وخُضوع، وتَواضُع، وهو من أعلى مَراتِب الإيمان، ومن أكمَلِ أحوال القَلْب، والخُشوع له مَواضِعُ منها الخُشـوع في الصلاة؛ فسَّرَه الفُقَهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ بأنَّه سُكونٌ في القَلْب، يَتبيَّن على الجَوارِح، وبعضُـهم قال: مَعنًى في النَّفْس، يَظهَر منه خُشوع الأطراف. فهو في القَلْب ويَظهَر أثَرُه على الجوارِح.

ولهـذا يُروَى عن عُمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه رأَى رَجُلًا يَعْبَثُ بلِحيتـه وهو يُصلِّي، فقال: لو سَكَن قَلْب هذا لسَكَنَت جوارِحُه[1]. وقد رُوِيَ مَرفوعًا[2] ولا يَصِحُّ، وإنما هو عن عُمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على ما فيه ضَعْف عنه.

فالخُشوع في الصلاة: هو سُكون القَلْب الذي يَظـهَر أثَره على الجَـوارِح، أو مَعنًى يَكـون بالنَّفْس يَظهَر منه سُكـون الأطراف، وهناك أيضًا خُشوع في بَقيَّـة الطاعات، بأن يُؤدِّيَها الإنسان، وهو مُتَواضِع مُتطامِنًا لله عَزَّوَجَلَّ، ومنه ما حصَل

---

(١) ذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٧٣)، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (ص:٤١٩ رقم ١١٨٨)، وعبد الرزاق في المصنف (٢/ ٢٦٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ٤٨٢)، عن ابن المسيب من قوله.

(٢) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ٢١٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وعزاه له العراقي في تخريج الإحياء (١/ ١٧٨) وقال: سنده ضعيف، والمعروف أنه من قول سعيد ابن المسيب.

لرسول الله ﷺ حين فتَحَ مكَّةَ وانتَصر على أهلها؛ فإنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يَدخُل دُخول العالِي المُستكبِر، وإنما دخَل مُطَأْطِئًا رأسَه ﷺ خاضِعًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى[1].

ومنه أيضًا الخُشُوع في الحَجِّ والعُمرة؛ حيث يُؤدِّيها الإنسان بتَطامُن، وذُلٍّ، وهو يَعْتَقِدُ أنَّه يَعْبُد الله تعالى، فأنت إذا دخَلْت في العُمرة أو الحَجِّ فاعتَقِدْ أنك في عِبادة، من حين أن تَقول: (لبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيكَ) إلى أن تَنتَهيَ، ولكننا -مع الأسَف الشديد- لا نَشعُر بهذا، فتَجِد الإنسان يَتلبَّس بمَحظورات الإحرام وبغَيْرها من المُحرَّمات، إلَّا مَن شاء الله تعالى.

إِذَنِ: الخُشوع يَشمَل جميع الطاعات، بأن يُؤدِّيَها الإنسان بتَواضُع وذُلٍّ وتَطامُن، ليس في قَلْبه استِكْبار ولا عُلوٌّ، ولا فَرقَ في هذا بين أن يَكون الخُشوع في أثناء فِعْل العِبادة، أو بعد فِعْل العِبادة أيضًا؛ لأنَّ من الناس مَن يَخشَع في العِبادة لكن إذا انتَهى منها رأَى نَفْسه في درجة عالية، وأنه مُرتَفِع، وأنه قد نال درجةً ما نالَها غيرُه، وهذا من الإعجاب بالنَّفْس وبالعمَل؛ فالإنسانُ يَنبَغي له إذا أدَّى العِبادة أن يَكون كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، إن نظَروا إلى تَقصيرهم خافُوا، وإن نظَروا إلى فَضْل الله تعالى طمِعوا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ المُتصدِّقين يَعنِي: الباذِلين للصَّدَقة، والصَّدَقَةُ هي بَذْلُ المالِ تَقَرُّبًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويَشمَل الزكاة؛ فإنها أَعلى الصدَقات، ويَشمَل البَذْل التَّطوُّعيَ كصدَقة التَّطوُّع، وكالإنفاق على الضيف وعلى الأهل، وعلى النَّفْس، كل هذا من الصدَقة فما يَجعَله الإنسان في فَمِ امرأته من الصدَقة،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٧)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وانظر: السيرة لابن هشام (٢/ ٤٠٥).

وما يَأكُله من الصدَقة.

وكلُّ شيء من المال تَبـذُله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهـو من الصَّدَقة، وقد يُقـال: إنَّ المُتصدِّقين أعـمُّ من الباذِلين لمالهم في ما يُرضِي الله عَزَّوَجَلَّ، فيَشمَل فِعْـل كلِّ خَيْر؛ لأن الرسول ﷺ يَقول: «كُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَضَعَ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»[1].

فإذا أَخَذْنا بهذا العُمـومِ صار المُتَصدِّقون والمُتصَدِّقات يَشمَلُ مَن قـام بأيِّ طاعة من طاعات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكنه من المَعروف أنَّ المُتصَدِّقين والمُتصَدِّقات، يَتبادَر إلى الذِّهْن أنَّهم الباذِلون لمالِهم فيما يُرضِي اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

ولا حاجـةَ بنا إلى التَّطويل في تَفصيـل الصدَقاتِ، وما يَنبَغي للإنسـان أن يَتصَدَّق به، وهل يَجوز أن يَتصَدَّق بكُلِّ ماله ويَدَعَ عائِلته فُقَراءَ، أو لا يَجوز؟ فإن هذا له وَضْعٌ آخَرُ.

المُهِمُّ: أن الله تعالى أَثنَى على المُتصَدِّقين والمُتصَدِّقات.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ ففي الصدَقة بَذْل، وفي الصِّيام إمساك، والصائِمون همُ الذين قاموا بالتَّعبُّد لله تعالى بالصِّيام.

والصِّيام هو: التَّعبُّد لله تعـالى بالإمساك عن المُفطِّرات من طُلوع الفَجْر إلى غُروب الشَّمْس.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٦)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهو أنواع: منه ما هو رُكْن من أركان الإسلام، ومنه ما هو واجِب، وليس برُكْن، ومنه ما هو سُنَّة مُعيَّنة مُقيَّدة، ومنه ما هو سُنَّة مُطْلَقة، أَرْبَعَةُ أنواعٍ:

١- فالواجِب الذي هو فَرْض من فُروض الإسلام، وكذلك قَضاء الصَّوْم.

٢- والواجِب الذي ليس من أركان الإسلام النَّذْر الذي أَوْجَبْته على نَفْسك.

٣- ومنه ما هو سُنَّة مُقيَّدة مُعيَّنة بوَقْت مُعيَّن مُقيَّدة بوَقْت مُعيَّن، كأيام البِيض[١] والاثنين والخَميس[٢]، ومنه عاشُوراءُ[٣] وتِسعُ ذي الحِجَّة[٤] ويَوْمُ عرَفةَ[٥]؛ وسِتٌّ من شوَّال[٦] تَدخُل في المُعيَّن، لكنها في كل الشَّهْر.

٤- ومنه ما هو مُطلَق مثل أن يَصوم الإنسان لله تعالى يومًا من الأيام إلَّا أنه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٦٢)، والترمذي: كتاب الصوم، باب ما جاء في صوم ثلاثة أيام من كل شهر، رقم (٧٦١)، والنسائي: كتاب الصيام، باب ذكر الاختلاف على موسى بن طلحة في الخبر في صيام ثلاثة أيام من الشهر، رقم (٢٤٢٢)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٨٠)، والترمذي: كتاب الصوم، باب ما جاء في صوم يوم الاثنين والخميس، رقم (٧٤٥)، والنسائي: كتاب الصيام، رقم (٢١٨٦)، وابن ماجه: كتاب الصيام، باب صيام يوم الاثنين والخميس، رقم (١٧٣٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام وعاشوراء، رقم (١١٦٢)، من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢٧١)، وأبو داود: كتاب الصوم، باب في صوم العشر، رقم (٢٤٣٧)، والنسائي: كتاب الصيام، باب صوم النبي ﷺ، رقم (٢٣٧٢)، عن بعض أزواج النبي ﷺ.

(٥) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام وعاشوراء، رقم (١١٦٢)، من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعًا، رقم (١١٦٤)، من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُكرَه أن يَصوم الإنسان يومَ جُمُعة مُنفرِدًا، بل إمَّا أن يَصوم يومًا قبلَه أو يومًا بعدَه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ مُمسِكون عن مَلاذِّهم وشَهَواتهم، عن الأكل والشُّرْب والجِماع وما يَتبَع ذلك؛ لكن هذه هي الأساسياتُ في المَلاذِّ؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في الحَديث القُدسيِّ في الصائِم: «يَدَعُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهوَتَهُ مِنْ أَجْلِي»[1]، والصِّيام يَدخُل في الصبر، ولكنه عِبادةٌ مُستَقِلَّة بنَفْسه، مُتضمِنٌ الصَّبْر.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عن الحَرام] وهي كلِمةٌ جامِعة، تَشمَل حِفْظ الفَرْج عن الزِّنا، وحِفْظ الفَرْج عن النظَر، وحِفْظ الفَرْج عن العمَل المُحرَّم، الذي هو دُون الزِّنا.

وقد بيَّنَ الله عَزَّوَجَلَّ مَن يُحفَظ عنه الفَرْج أو مَن لا يُحفَظ فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المعارج:٢٩-٣١]، فأَعلى شيءٍ يُحفَظ عنه الفَرْج الزِّنا، وهو فِعْل الفاحِشة في قُبُلٍ أو دُبُر، إلَّا أنَّه إذا تَعلَّق بذَكَر سُمِّيَ لوَاطًا واللِّواط أَعظَمُ من الزِّنا، والعِياذُ بالله؛ لأنَّ اللِّواط عُقوبته القَتْل بكل حال، سَواءٌ كان الفاعِل مُحصَنًا أم غير مُحصَن، لكن بشَرْط أن يَكون مُكلَّفًا، أي: بالِغًا عاقِلًا، فإذا تَلوَّط ذكَرٌ بآخَرَ وهُما عاقِلان بالِغان وجَبَ قَتْلُهما، وإن لم يَكونا مُحصَنَيْن.

ولكن كيف يُقتَلان؟

اختَلَفَ في ذلك الصحابةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ومَن بَعدَهم فقيل: يُرجَمان بالحِجارة كالزاني المُحصَن. وقيل: يُلقَيان من أعلى مَكان في البلَد، ويُتبَعان بالحِجارة. وقيل:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب فضل الصوم، رقم (١٨٩٤)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم (١١٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يُحرَقان بالنار كما فعَل أبو بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين كتَب إلى خالِد بنِ الوليدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا قال له: «إِنَّ عِندَهُ رَجُلًا يُنكَح كما تُنكَح المَرأةُ. فكَتَب إليه أبو بَكْر أن يُحرِقه مُبالَغةً في عُقوبَتِه»(١).

فائِدةٌ: استِخدام لَفْظ (اللِّواط) ليس فيه إساءة إلى لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا شَيءٌ مُتعارَف، فالنِّسبة يَجوز فيها أن تَنسُب إلى المُضاف أو المُضاف إليه، هذا في مُقتَضى اللغة العربية قَوْم لُوط، يَعني: لُوطيٌّ أي: مُنتَسِب إلى هؤلاء القَوْمِ.

إذَنْ: أَوْجَب ما يَكون أن يُحفَظ عنه الفَرْجُ هو الزنا، كذلك النَّظَر يَجِب أن يَحفَظ الإنسان فَرْجَه عن النظَر، حتى الجِنْس مع جِنْسه؛ ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «لَا تَنْظُرِ المَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ المَرْأَةِ، وَلَا الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ»(٢)، فيَجِب حِفْظ العَوْرة عن النظَر إلَّا على الزوجة وما ملَكَت يَمينُه.

كذلك حِفْظ الفَرْج عن الأفعال المُحرَّمة غير الزِّنا واللِّواط والنظَر؛ كالاستِمْناء مثَلًا، وهو ما يُعرَف عند الناس بالعادة السِّرِّية، ويَكون في الرِّجال ويَكون في الإناث أيضًا، حتى بعض الإناث يَستَعمِلن ذلك! وهذه أيضًا مُحَرَّمة لا تَحِلُّ، وذلك لأنه ليس فيها حِفْظ للفَرْج، فإنَّ الإنسان الذي يَبتَغِي نَيْلَ شَهْوته بغير امرأته وما مَلَكَتْ يَمينُه يَدخُل في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾، فهو حَرام بالقُرآن وبالسُّنَّة أيضًا.

والسُّنَّة ذكَرْنا أن من أدِلَّتها قولَ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي رقم (١٤٠)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق رقم (٤٢٨)، والآجري في ذم اللواط رقم (٢٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٣٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحيض، باب تحريم النظر إلى العورات، رقم (٣٣٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»[١]، وَجهُ الدَّلالة من الحديث: أن الرسولَ ﷺ أَرشَد إلى الصوم، وهو أَشَقُّ من هـذه الفِعْلةِ، ولو كانت هذه الفِعْلةُ جائِزة لأَرشَد إليها الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنها أَسهَلُ وأيسَرُ، وقـد قالت عائِشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما خُيِّرَ النَّبيُّ ﷺ بَيْنَ أَمْـرَيْن إلَّا اختـار أَيسَرَهُما ما لَمْ يَكُنْ إِثْمًا»[٢]، فلمَّا لم يَخْتَرْ هـذا الأيسَرَ عُلِمَ أنه إِثْمٌ مُحَرَّم.

مَسأَلةٌ: إذا استَمْنَى رجُل في رَمضانَ فهل عليه كفَّارة؟

الجَوابُ: لا، ليس عليه كفَّارة، الكفَّارة لا تكون إلَّا بالجِماع فقَطْ.

مَسأَلة أُخرَى: أَحـادِيثُ وَطْء المَرأة في الدُّبُـر كلها فيها مَقـال[٣]، لكن يَشُدُّ بعضُها بعضًا، وتَدُلُّ على التحريم، وقد تَقدَّم في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة:٢٢٢] أنَّ من فَوائِدِها: تَحريمَ وَطْء الدُّبُر، أمَّا الإِثْم فنعَمْ، فهي اللُّوطِيةُ الصُّغْرى.

فائِدةٌ: تَحريم الوَطْء على مَن تَلبَّس بنُسُـك أو تَلبَّس بصوم أو تَلبَّس بصـلاة مَفروضة، ليس هو من أَجْل حِفْظ الفَرْج، لكن من أَجْل احتِرام هذه العِبادةِ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ ختَمَ الآيةَ الكريمةَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم، رقم (٥٠٦٦)، ومسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنه، رقم (١٤٠٠)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي - ﷺ -، رقم (٣٥٦٠)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب مباعدته - ﷺ - للآثام، رقم (٢٣٢٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) من ذلك ما أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٤٤٤)، وأبو داود: كتاب النكاح، باب في جامع النكاح، رقم (٢١٦٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ملعون من أتى امرأته في دبرها». وانظر: بلوغ المرام (ص:٣٠٩).

بهذا الوَصْفِ العَظيمِ، وهو ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ، وهو شامِل لكل عِبادة، فكلُّ عِبادة فهي ذِكْر لله عَزَّوَجَلَّ، حتى دِراسة العِلْم هي مِن ذِكْر الله؛ ولهذا تُسمَّى حِلَقُ العِلْم حِلَقَ الذِّكْر، أو مَجالِسَ الذِّكْر، فكلُّ ما يُقرِّب إلى الله تعالى كلُّ عِبادة فهي من ذِكْر الله تعالى.

وذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ يَكون بالقَلْب، ويَكون باللِّسان، ويَكون بالجَوارِح، فبالقَلْب التَّفكُّر، وباللِّسان النُّطْق، وبالجَوارِح الفِعْل والعمَل، أيُّها أفضَلُ: ذِكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باللِّسان، أو ذِكْر الله تعالى بالقَلْب أو ذِكْر الله تعالى بالجَوارِح؟

لا شَكَّ أن الجَمْع أَفضَلُ وهذا مَعلوم، فالقَلْب وحدَه لا يَكفِي، واللِّسان وحدَه لا يَكفِي، والجَوارِحُ وحدَها لا تَكفِي، يَعنِي: لو أن الإنسان قال: سأَتفكَّر في آيات الله عَزَّوَجَلَّ وفي أَسمائِه وصِفاته ولكن ليس بذاكِر، هل يَكون مُسلِمًا؟ لا بُدَّ أن يَقول مَن قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ. وكذلك أيضًا بالنسبة للجوارِح.

لكن لا شَكَّ أن اختِلال الذِّكْر بالقَلْب له أثَر عَظيم جِدًّا؛ لأن المَدار على القَلْب، ولا شَكَّ أيضًا أن تَأثيرَ ذِكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالقَلْب أَبلَغُ في تقوية الإيمان، وفي التَّقرُّب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الذِّكْر بالجَوارِح؛ لأن المَدار كُلَّه على ما في القَلْب، لا بالنِّسبة للأَعمال وقوام الأعمال ولا بالنِّسبة للجَزاء كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق:٩-١٠].

وذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ يَكون مُطلقًا في كل وَقْت، ويَكون مُقيَّدًا بأَحوال، ويَكون مُقيَّدًا بأَماكِنَ، ويَكون مُقيَّدًا بأزمان، فهو إذَن أربعةُ أنواع:

١- أمَّا المُطلَق فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١]، هذا في كلِّ وَقْت، في كل حالٍ، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢]، وكما في هذه الآيةِ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

٢- المُقيَّد بزمَن؛ مثل: أَدبار الصلوات، وكذلك الذِّكْر في أوَّل النَّهار وفي آخِره، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ [ق:٣٩].

٣- المُقيَّد بأَمكِنة، كدُخول المَسجِد، ودُخول المَنزِل والخُروج منه، ورَمي الجمَراتِ، ورُكوب السيَّارات.

٤- أمَّا المُقيَّد بحال من الأحوال فهو أيضًا كثيرٌ: عند الهَمِّ والحُزْن، وعند الأكل والشُّرْب، وعند الاستِسْقاء، وما أَشبَه ذلك.

وعلى كل حال: الذِّكْر إمَّا مُطلَق وإمَّا مُقيَّد، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شرَع لعِباده ذلك لأَجْل أن يَكونوا دائِمًا على ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ حتى عند لُبْس الثَّوْب، وعند الأَكْل والشُّرْب، والفَراغ مِنهما.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾: ﴿أَعَدَّ﴾ فِعلٌ ماضٍ، ولَفظُ الجَلالة فاعِل، والجُملة من الفِعْل والفاعِل خبَرُ (إنَّ) واسمُ (إنَّ) ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾، وما عُطِف عليه، وقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ أي: لهؤلاء، والمِيمُ علامة جَمْع الذُّكور، وفيه دَلالة واضِحة على تَفضيل الرِّجال على النِّساء، لم يَقُلِ الله عَزَّوَجَلَّ: أَعَدَّ الله لهُمْ ولهُنَّ. ولم يَقُلْ: أَعَدَّ اللهُ لهُنَّ. وإنما قال تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ﴾ بمَعنَى: هيَّأَ لهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿مَّغْفِرَةً﴾ المَغفِرة مَأخوذة من الغَفْر وهو السَّتْر أو السَّتْر مع الوِقاية؛ لأن أصلَها من المِغْفَر الذي يُوضَع على الرأس؛ لاتِّقاءِ السِّهام، والمِغفَر

الذي يُوضَع على الرأس؛ لاتِّقاء السِّهام يَحصُل به السَّتْر والوِقاية.

إِذَنِ: المَغفِرة نَقول: هي سَتْر الذُّنوب، والتَّجاوُز عنـها، ليست سَتْرَ الذُّنوب فقَطْ، بل هي سَتْر مع التَّجاوُز، سَتْر عن الخَلْق، وتَجاوُز عن العُقوبة؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «أَنَّ اللهَ يَخْلُو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ يُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(١).

إِذَنْ: بإِعداد المَغفِرة يَسلَمون من الآثام وأَوْزارِها وعَواقِبها.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أَيْ: ثوابًا ذا عظَمة في نَفْسه، هذا الأجرُ العظيمُ هو دُخول الجَنَّة، وهو أَجْر لا يُمكِن أن يُحيط به البَشَر؛ لأنَّ الله تعالى يَقول في الحديث القُدسيِّ: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(٢)، وفي القُرآن الكريم يَقـول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]، ويَقـول تعـالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

هذا الأَجرُ العَظيم الذي لا يُقدِّر قَدْره إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، يَكون لِهؤلاء المُتَّصِفين بهذه الصِّفاتِ، وإذا كان الله تعالى قد بيَّن القائِمين بهذه الصِّفاتِ، وبيَّن ما أَعَدَّ لهم من الأَجرِ والثَّواب فهل المُراد بذلك مُجَرَّدُ إعلام الناس بهذا أو أن المُراد شيءٌ وراءَ ذلك؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، رقم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجَوابُ: المُراد شيءٌ وراءَ ذلك، وهو أن يَقوم الناس بهذه الصِّفاتِ العَظيمةِ حتَّى يَنالوا ذلك الأجرَ العَظيمَ والمَغفِرةَ.

وقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، كلِمة (مَغفِرة) نكِرة، فهل نَقول: إنها نُكِّرت للتَّعظيم، بدليل العَطْف عليها ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أو ماذا؟

الجَوابُ: الظاهِر: أنها نُكِّرت للتَّعظيم، أي: مَغفِرة عَظيمة، كما أن لهم أَجْرًا عظيمًا يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿مَّغْفِرَةً﴾ للمَعاصِي ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على الطاعاتِ] وهذا جَيِّد؛ فالمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعَل المَغفِرة في مُقابِل المَعاصِي، والأَجْر في مُقابِل الطاعات.

ولكن هل لتَرْك المَعاصِي أَجْر؟

الجَوابُ: إن قُلْت: لا. أَخطَأْت، وإن قُلْتم: نعَمْ. أَخطَأْت، ونَقول: تارِكُ المَعاصِي له ثلاثُ حالات:

إمَّا أن يَترُكها عَجْزًا عنها مع فِعْل الأسباب المُوصِّلة إليها.

وإمَّا أن يَترُكها؛ لأنها لم تَطرَأ له على بالِه.

وإمَّا أن يَترُكها مع كونها على باله، لكن تَركها لله عَزَّوَجَلَّ.

أمَّا الحالُ الأُولى: الذي تَرَك المَعصية عَجْزًا عنها مع فِعْل الأسباب المُوصِّلة إليها، فهذا له حُكْم الفاعِل، مثال ذلك: رجُل أتى بالسُّلَّم؛ ليَصعَد إلى البيت فيَسرِق، وحين أَراد أن يَصعَد سمِعَ صوتًا، ونظَر وإذا حولَه أُناس، فتَرَك، له حُكْم الفاعِل لكن عِند الله تعالى، أمَّا في الدُّنيا فلا نَقطَع يَدَه، لكن عند الله تعالى له حُكْم الفاعِل، والدليل قوله ﷺ: «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»،

قالوا: يا رسولَ اللهِ، هذا القاتِلُ فما بالُ المَقتولِ؟ يَعنِي: كيف يَكون مَقتولًا ويَصير في النـار، قال ﷺ: «لَأَنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»(١): «حَريصًا» فهذا فِعْل له سبَب، فحَكَم عليه الرسول ﷺ بالنار؛ لأنه كان حَريصًا على قَتْل صاحِبه.

الحال الثانية: مَن تَركها؛ لأنها لم تَطرَأ له على بالٍ، مثل: إنسـان مثلًا لا سرَق ولا زنَى ولا شرِبَ الخَمْر؛ لأن نفسَه ما دَعَتْه إلى ذلك يومًا من الأيام، فما الحُكْمُ؟

الجَوابُ: هذا ليس له شيء وليس عليه شيء؛ لأنه ما فعَل إثْمًا، ولا تَقرَّب إلى الله تعالى بِنيَّة، فلا يَكون له شيء، ولا عليه شيء.

الحالُ الثالِثة: رجُل هَـمَّ بمَعصية، وربما فعَـل أسبابَها، ولكنه ترَكَها لله عَزَّوَجَلَّ عِندما تَذكَّر عظَمة الله تعـالى، خَشِيَ الله عَزَّوَجَلَّ وخافَه، فهذا حُكْمه أن له أجرًا على التَّرْك، كما جـاء في الحديث الصحيـح: «مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ تَعَالَى حَسَنَـةً كَامِلَةً»(٢)، قـال: «لَأَنَّهُ إِنَّمَا تَرَكَ ذَلِكَ مِنْ جَرَّائِي»(٣)، أي: من أَجْلي، فـإذا ترَكْتها لله تعالى فإنه فإنَّك تُؤجَر على ذلك.

ولو أنَّ الإنسان همَّ بالمَعْصية وفعَل الأسبابَ، لكن ترَكها لا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا لعِباد الله تعالى، هل يَأثَم أو ما يَأثَم؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾، رقم (٣١)، ومسلم: كتاب الفتن، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، رقم (٢٨٨٨)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب، رقم (١٣١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه ابن منده في الإيمان رقم (٣٧٦)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٦٦٤٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يعني: واحِد هَمَّ بالسرِقة وأتى بالسُّلَّم، ولَمَّا أَراد أن يَصعَد رجَع لنَفْسه، وقال: لماذا تَسرِق ما دام أن الله أَرْضاك، فعِندك مالٌ، ولسْتَ في حاجة إلى السرِقة. فترَكها؛ ونَقول: هو ليس عليه إِثْم السرِقة، ولا له أَجْر، لكن هل يَأثَم على فِعْل السبَب؟

الجَوابُ: يَأثَم على فِعْل السبَب هو الظاهِر، وإن كان أن الغاية لم يَصِل إليها، لكن نَقول: هذا السبَبُ الذي فعَلْت؛ وقد قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

فهو لم يَرجِع؛ لأن الأسباب الأُولى ما تَرَكها لله تعالى، إنما تَرَكها؛ لأنه نظَرَ أنه ليس بحاجة للسَّرِقة فترَكها.

ونَقول: أمَّا السَّرِقة فلا تَأثَم -وإن كُنْت قد نَوَيْتها في الأوَّل- لأنك ما فعَلْتها، وأمَّا فِعْل الأسباب، فإن هذه الأَسْباب مُحرَّمة.

وهـذا رجُل ترَك المَعصية لشَرَفه، يَعـنِي: ترَك الزِّنا مع تَيَسُّره؛ لأنه رجُـل شَريف، لا يُحِبُّ أن يَتلوَّث بهذه الأخلاقِ السافِلةِ، فهل يُؤجَر أو لا يُؤجَر؟

الجَوابُ: أمَّا على تَرْك الزِّنـا فالظاهِر: أنه لا يُؤجَـر؛ لأنه ما ترَكَه لله تعـالى، وأمَّا على حِماية شرَفه فإنه يُؤجَر؛ لأن الإنسان يَنبَـغي له أن يُدافِع عن شرَفه، حتى إن النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا قـال: «هَذِهِ صَفِيَّةُ»، وهذا ليس لدَفْع التُّهْمة عن نَفْسه؛ لأن هذا شيء بعيد، لكن لِئَلَّا تَقَع التُّهْمة في أُولئِكَ فيَهلِكوا؛ ولهذا قال ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، رقم (٢٠٣٨)، ومسلم: كتاب السلام، باب يستحب لمن رئي خاليا بامرأة..، رقم (٢١٧٥)، من حديث صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فالظاهِرُ لي: أنَّ الإنسان الذي يَترُك الشيء مُحافَظةً على شرَفه وعلى سُمْعتِه فإنه يُؤجَر على ذلك؛ لأنه صان نَفْسه، وفي الحَديث: «رَحِمَ اللهُ امْرَأً كَفَّ الْغِيبَةَ عَنْ نَفْسِهِ»[1]، ولا أَدرِي عن صِحَّته.

لكن الإنسان مَأمور بحِماية شرَفه بلا شَكٍّ، والذَّودِ عن نَفْسه، وإزالة التُّهْمة عنها، فإذا كانت هذه نِيَّتَه، فإنه يُؤجَر، لكن لا يُؤجَر أجرَ مَن تَرَك الزِّنا لله تعالى؛ لأن بينهما فَرْقًا عظيمًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: التفصيلُ في ذِكْر الرِّجال والنِّساء؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ...﴾ وهذا وإن كان مَوْجودًا في القُرآن لكنه قَليل.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإسلام غيرُ الإيمان؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والعَطْف يَقتَضي المُغايَرة، وقدِ اختَلَف الناس: هل الإسلام هو الإيمانُ؟ أو هلِ الإسلامُ هو الإيمانُ أو غيرُه؟ والصوابُ في ذلك التَّفصيلُ، فإذا أُطلِق الإسلامُ دخَل فيه الإيمانُ، وإذا أُطلِق الإيمانُ دخَل فيه الإسلامُ، و(أُطلِق) يَعنِي: ذُكِرَ مُفرَدًا، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩] يَدخُل فيه الإيمانُ لا شَكَّ.

وأمَّا إذا ذُكِرَا جميعًا فإنهما يَختَلِفان؛ ولهذا سَأَل جِبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ النبيَّ ﷺ عن الإسلامِ، فذَكَر له أشياءَ، وسأَله عن الإيمانِ فذكَر له أَشياءَ تُخالِف الأُولى[2]؛ فإذا ذُكِرَا جميعًا صار الإيمانُ في القَلْب والإسلام عَلانية في الجَوارح.

---

(١) لا أصل له، وانظر: كشف الخفاء للعجلوني رقم (١٣٦٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأيُّهما أكمَلُ؟ الإيمان أكمَلُ؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحُجُرات:١٤]، هذا من القُرآن.

ومِن السُّنَّة: أن رجُلًا أَثنَى عند النبيِّ ﷺ على رجُل فقال: إنه مُؤمِنٌ. فقال النبيُّ ﷺ: «أَوْ مُسْلِمٌ»(١)، فدَلَّ ذلك على أن الإسلام أَضعَفُ من الإيمان؛ لأنَّ الرجُلَ كان يُثنِي عليه يَمدَحه، فقال: إنه مُؤمِن فقال ﷺ: «أَوْ مُسلِمٌ» يُكرِّرها.

وعلى هذا فنَقول: إن الإيمان أَعلى من الإسلام، وهو مُغايِر له إذا ذُكِرَا جَميعًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فضيلة الإسلام والإيمان، وكلُّ ما ذُكِر بعد ذلك.

فإن قال قائِل: إن الفَضْل جاء لِمَنِ اتَّصَفوا بهذه الصِّفاتِ كلِّها؟

قُلْنا: لكن لـمَّا جاء هذا الفَضلُ لها مَجموعًا دلَّ على أن كلَّ واحِد منها له فَضْل، وإلَّا لما كان لِذِكْرها جميعًا فائِدة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فضيلة القُنوت؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فَضيلة الصِّدْق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾، وإذا كان الصِّدْق فَضيلةً كان ضِدُّه وهو الكذِبُ رَذيلةً، وهو كذلك فإن الرسول ﷺ قال: «**إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة، رقم (٢٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه، رقم (١٥٠)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، رقم (٦٠٩٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن قُلْت: أفلا يَجوز الكَذِب الأبيضُ؟

فالجَوابُ: ليس في الكذِب أَبيضُ، كلُّ الكذِب أَسوَدُ، وعند العوامِّ: الكذِبُ الأبيضُ هو الذي لا يَستَلزِم أَكْل المال، اكْذِبْ كما شِئْتَ، لكن لا تَأْكُلْ أَموال الناس بالكذِب، ولكنَّ هذا خِلافُ تَحذير النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين قال: «إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ».

وهل رُخِّص في شيء من الكَذِب؟

الجَوابُ: في الإصلاح بين الناس والحَرْب وحديث الرجُلِ مع امرأته والمَرأةِ مع زَوْجها[1].

لكن بعضَ أهلِ العِلْم يَقول: لم يُرخَّص في شيء من الكذِب إطلاقًا، وقال: إنَّ المُراد بالكذِب في هذا الحديثِ التَّوْريةُ، فالتَّوْريةُ كما هو مَعلوم كذِب من وجهٍ، وصِدْق من وَجْـهٍ آخَرَ، فهي باعتِبـار نِيَّة الفاعِل القائِل صِدْق، وباعتِبـار ما فهِمَه المُخاطَب كذِب، فيَقولون: إنَّ عُمومات الحديث تَدُلُّ على الكذِب، ويُجمَـع بينه وبين الحَديث الذي فيه الاستِثْناء بأن هـذا من باب التَّوْرية، وقالوا: إنَّ الإصلاح بين النـاس إذا بُنِيَ على الكذِب فقـد تكون النَّتيجةُ فيما بعد عَكسيـةً، إذا علِـمَ المُتصالِحان فيما بعدُ أنَّ الأمرَ ليس على ما ذُكِر، فيُمكِن أن يَزيدَ الشَّقُّ، ويَنتَقِض

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه، رقم (٢٦٠٥)، عن ابن شهاب الزهري قال: ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس كذب إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها.

وأخرج البخاري: كتاب الصلح، باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس، رقم (٢٦٩٢)، ومسلم: رقم (٢٦٠٥)، من حديث أم كلثوم بنت عقبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيرًا، أو يقول خيرًا».

الصُّلْحُ، وقالوا أيضًا: إن الكذِب في الحَرْب رُبَّما يُنتِج نَتيجةً سيِّئةً، حيث يَتبيَّن للعَدوِّ أنَّ الأمر ليس على ما قيل، مثل أن يُقال له: إن عندنا جَمْعًا كثيرًا، وما أَشبَهَ ذلك، بدون تَوْرية، فهذا خطأ.

قالوا: وأيضًا حديثُ المَرأة، حديثُ الرجُل زوجتَه، وحديثُ المرأة زوجَها، هذا أيضًا لو أَجَزْنا الكذِبَ صارت مَشاكِلُ عظيمةٌ، فيَجيءُ الرَّجُل يَقول: أنا عِنْدي مِليون ريالٍ، وعِندي مِئة سيَّارةٍ، وعِندي ثَلاثون بيتًا، وما أَشبَه ذلك، وما عنده إلَّا ثِيابُه، فتَقول المرأة: أنت كذَّاب، ولا تَصلُح زوجًا لي. وكذلك بالعكسِ فالمَرأةُ تُحدِّث زَوْجها يَقول: لِمَ تَذهَبِين إلى السُّوق؟ فتَقول: أبدًا، ما عُمْري طَلَعْت للسُّوق، ولا أَعرِف السُّوق، ولا أَعرِف الرِّجال! فإذا الأَمْر بالعكسِ، ففيه خُطورة؛ ولهذا قال بعضُ أهلِ العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إن المُراد بذلك التَّورِية، والتَّوريةُ لا تَجوز إلَّا في حالين وهُما: الحاجةُ أو المَصلَحة.

فظاهِرُ الحديث الاستِثْناءُ: إن هذا من الكذِب الصَّريح، وأنه لا بأسَ به، ولكن حتى على القَوْل بأن الاستِثْناء يَعود على الكذِب الصَّريح دون التَّوْريةِ، يَجِب أن يُقال: هذا من المُباحِ، والمُباح إذا تَضمَّن ضرَرًا كان حرامًا؛ لأن القاعِدة عِندنا: كلُّ المُباحات يُمكِن أن تَجرِيَ فيها الأحكام الخَمسةُ، كلُّ ما كان مُباحًا فإنه يُمكِن أن تَجرِيَ فيها الأحكامُ الخمسةُ؛ ولهذا ذهَب بعض الأصوليِّين إلى أنه ليس في الشريعة شيءٌ اسمُه مُباحٌ، يَعنِي: مُستَوِي الطَّرفَيْن، بل لا بُدَّ من تَرجيح، لكن جُمهور العُلَماء على أن المُباح ثابِت في الشَّريعة.

الحاصِلُ: أنه إذا كان الحديث صَريحًا في جواز الكذِب في هذه الأُمورِ الثَّلاثةِ فيَجِب أن يُقيَّد بما إذا لم يَتضَمَّن ضرَرًا، فإن تَضمَّن ضرَرًا مُنِع منه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فضيلة الصَّبْر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ وقد سبَق لنا بيانُ أَقسام الصَّبْر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: فضيلة الخُشوع في العِبادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾، ولا سِيَّما في الصلاة التي نَصَّ الله تعالى على الخُشوع فيها، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١-٢].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: فضيلة الصدَقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾، وهو شامِل للواجِب والمُستَحَبِّ، والواجِب أَفضَلُ بالنصِّ والنظَر -أي: بدَلالة الأَثَر والنظَر-؛ أمَّا الأثَر فقَدْ قال الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القُدسيِّ: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»[1]، وهذا صريح، وأمَّا النظَر فنَقول: لولا أن الواجِب أحَبُّ إلى الله تعالى ما فرَضَه الله تعالى على العِباد، لجَعَله تَطوُّعًا، لك الخِيارُ فيه، فإيجاب الله تعالى له دليلٌ على محَبَّته له.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فضيلة الصَّوْم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ فَرْضه ونَفْله، وأفضَلُ النَّفْل في الصوم صومُ يَوْمٍ وفِطْر يَوْمٍ، وهو صِيام داوُدَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ[2].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: فضيلة حِفْظ الفَرْج؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾، ويُستَثْنَى من ذلك حِفْظ الفَرْج عن الزوجة، وما ملَكَتِ اليَمينُ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب من نام عند السحر، رقم (١١٣١)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، رقم (١١٥٩)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فإن الإنسان لا يُلام عليه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنه يَنبَغي اتِّخاذُ الوسائِل التي يَنبَغي بها حِفْظ الفَرْج؛ لأن الثَّناء على شيء ثَناء عليه وعلى وَسائِله، فكلُّ ما يَحصُل به حِفْظ الفَرْج فإنه مَطلوب ومَشروع؛ ولهذا حرُم النَّظَر إلى الأجنبِيَّة، وحرُم التَّلذُّذ بمُخاطَبَتها، والاستِماع إلى صَوْتها، وحرُم أيضًا مُصافَحة المَرأة الأَجنَبِيَّة، وحرُمَت الخَلْوةُ بها، وحرُم سَفَرُها بلا مَحرَم، وما أَشبَه ذلك، ممَّا يَكون سببًا في حِفْظ الفُروج، فإذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَثنَى على الحافِظين فُروجَهم فإن الوسائِلَ التي تُؤدِّي إلى حِفْظ الفَرْج من الأُمور المَطلوبة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: فضيلة كثرة ذِكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ وجَدير بالمَرْء أن يَكون دائِمًا ذاكِرًا لربه عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه ما من نِعْمة هو فيها إلَّا وهي من الله تعالى، فإذا كان الله تعالى قَدْ أَدام عليك النِّعَم وأكثَرَ عليك النِّعَم، فلماذا لا تُديم ذِكْره؟! حقيقةُ الأمر أنَّ الإنسان لو فكَّر لوجَد أنه لو يَستَوْعِب ليلَه ونَهارَه في ذِكْر الله تعالى ما كَفَى؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «سُبْحَانَكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[1]، فالإنسان لا يُمكِن أن يُحصِيَ الثَّناءَ على الله تعالى أبَدًا مَهما كانَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعَدَّ لهؤلاء المُتَّصِفين بهذه الصِّفاتِ المَغفِرةَ من الذُّنوب والأَجرَ العظيمَ على الطاعات؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، والأوصافُ التي ذُكِرت عَشَرة: (المُسلِمين، والمُؤمِنين،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٦)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

والقانِتين، والصادِقين، والصابِرين، والخاشِعين، والمُتصدِّقين، والصائِمين، والحافِظين فُروجَهم، والذاكِرين اللهَ كثيرًا) مع المَعطوف عليها تَكون عِشرين، هذه العِشرون كفَى عنها ضميرٌ واحِد، وهو قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ لو جاء يُعدِّد هؤلاء كان يَقول: (أعَدَّ الله للمُسلِمين والمُسلِمات والمُؤمِنين والمُؤمِنات)، ولكن هذا من فوائِد الضمائِر، وهو أنها تَختَصِر الكلام الكثير بضَمير واحِد.

فائِدةٌ: لا شَكَّ أن هناك تَفاضُلًا، فكُلٌّ يُعطَى بحَسَبه، يَعنِي: إذا أَعَدَّ الله تعالى للجَميع فمثَلًا: للذين يَتَّصِفون بهذه الصِّفاتِ العشَرةِ كلِّها أَكمَلُ ممَّن يَتَّصِفون ببَعْضها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَفضيل الرِّجال على النِّساء؛ لأنه قدَّم في الذِّكْر الرِّجال، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ التَّغليب في جانِب المُذكَّر؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُم﴾ ولم يَقُل: (لَهُم ولَهُنَّ).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنه يَنبَغي عند ذِكْر الرِّجال والنِّساء أن يُقدَّم الرِّجال، كما في هذه الآيةِ وغيرِها من الآيات، وأمَّا مَن تَغرَّبوا فصاروا يُقدِّمون النِّساء على الرِّجال، فأُولئك يُولِّهُمُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما تَولَّوْا من مُشابَهة الكُفَّار، وقَلْب الفِطْرة، وانتِكاس الحال، أن يُقدِّموا النِّساء على الرِّجال، عندما يَقول مثَلًا: (سَيِّداتِه وساداتِه) سَيِّداته! يُقدِّم النِّساء على الرِّجال، بل الأَعجَب من ذلك أنَّهم يُسمُّون النِّساء سَيِّدات، السيِّدة فُلانة، والرَّجُل لا يُقال له: السيِّد فُلان. أخَذوا ذلك من الغَرْب والكُفَّار؛ لأنَّ الرجُلَ في الحقيقة هو السيِّد على المرأة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف:٢٥]، أمَّا المَرأةُ فليست سيِّدةً على الرَّجُل أبَدًا، لكن هؤلاء

كما قُلتُ: قلَبَ اللهُ تعالى فِطْرتهم بسبب أنهم تابَعوا أعداءَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكثير من المُسلِمين -مع الأَسَف- الآنَ لا يُحِسُّون بهذه المَسائِلِ، ولا يَرَوْنها شيئًا، فهُمْ ماشُون مع العالَم حتى الأَلفاظ التي قد تَكون مُحَرَّمة يَمشون فيها!.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن جَزاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعظَمُ من عمَل المَرء؛ لأنَّ هذه الأعمالَ التي ذكَرها الله عَزَّوَجَلَّ جعَل الثَّواب عليها أَمْرَيْن: مَغفِرة الذُّنوب، والأَجْر العَظيم؛ وهـذا الأَجرُ العَظيمُ المُبهَمُ هنـا قد بُيِّن في نُصوص من الكِتـاب والسُّنَّة: الحسَنة بعَشْر أَمثـالها، إلى سَبْع مِئة ضِعْف، إلى أضعاف كثيرة[1]، وهذا مِمَّا يَدُلُّ على فَضْل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن العجَب: أنَّ فضلَ الله تعالى عليك بالثَّواب كفَضْله عليك بالعمَل، فإنَّ فَضْل الله على الإنسان بالعمَل فَضْل لا يَعدِله شيء؛ ولهذا جعَل الله تعالى ذلك من إتمام النِّعْمة، فقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وجعَل ذلك من مِنَّتِه حيث قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ [آل عمران:١٦٤]، وقال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ [الحُجُرات:١٧]، وانظُرِ الآنَ إلى أن الله تعالى هو الذي مَنَّ عليك بالعمَل، ثُمَّ مَنَّ عليك بالثواب، ثُم قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، مع أنه هو الذي أَحسَنَ إليك، وإحسان الله تعالى عليك بالعمَل مَسبوق بإِحْسانه عليك بشَيءٍ آخَرَ وهو الهِداية والعِلْم؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب، رقم (١٣١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لأنه لا عمَلَ إلَّا بعِلْم، فيَكون عمَل الإنسان مَسبوقًا بنِعْمة الله تعالى عليه بالعِلْم، ثُمَّ بنِعْمة الله تعالى عليه بالتَّوْفيق، ومَلحوق بنِعْمة الله تعالى عليه بالقَبول والجَزاء، فتَأمَّل مثل هذه الأُمورِ حتى يَتَّضِح لك فَضْلُ الله تعالى عليك.

مَسأَلة: هل يَلزَم شَرْط مُطلَق الإيمان للدُّخول للجَنَّة؟

الجَوابُ: مُطلَق الإيمان يَستَوْجِب أن يَكون في الجَنَّة ولو مآلًا، يَعنِي: قد يُعذَّب بذُنوبه لكن قد يَدخُل الجَنَّة، فكلُّ مَن في قَلْبه أدنى مِثقال حَبَّة من خَرْدَل من إيمان فإنه من أهل الجَنَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الجَنَّة مَوجودة الآنَ؛ لقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ﴾؛ لأنَّ الإعداد بمَعنَى التَّهيئة، وأَعَدَّ: فِعْل ماضٍ، فيَكون لازِمُ ذلك: أن تَكون الجَنَّة مَوْجودة، وهذا أَمْر مَعلوم عند أهل السُّنَّة والجَماعة، ومَدعوم بنُصوص الكِتاب والسُّنَّة، أنَّ الجَنَّة والنار مَوْجودتان الآنَ.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

(ما) هذه نافِيـة، و﴿كَانَ﴾ فِعْـل ماضٍ ناقِصٌ، وخبَـرُها: ﴿لِمُؤْمِنٍ﴾ الجـارُّ والمَجرور، و﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، هذا هو اسمُها مُؤخَّرًا.

يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾، يَعنِي: هذا أَمْـر لا يُمكِـن أن يَكـون، فهو نَفيٌ للإِمْكان، ولكنه للإِمْكان الشَّـرعيِّ دون القدَريِّ، إِذْ إِنَّ المُؤمِـن أو المُؤمِنة قد يَكون لهُمُ الخِيَرة من أَمْرهم فيمـا قَضاه الله تعالى ورسوله ﷺ، ولكن شَرْعًا لا يَكون هذا.

يَقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [«أن تَكون» بالتاء والياء ﴿لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ أي: الاختِيارُ ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ خِلافَ أَمْر اللهِ ورسولِه].

وقوله تعالى: ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ -وكمـا سَبَق- فيه ذِكْر الذُّكور والإناث، ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾، المُراد بالقَضاء هنا: القَضاء الشَّرعيُّ، إذ إنَّ القَضاء الكونيَّ لا يُمكِن لأَحَد أن يَختار خِلافَه، لا مُؤمِن،

ولا كافِر، لأنَّ القَضاء الكونيَّ لا بُدَّ أن يَقَع، فالمُراد هنا ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ﴾، أي: قَضاءً شَرْعيًّا.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ عَطَف رسولَه بالواو؛ لأنَّ قضاء الرسول ﷺ الشرعيَّ من قضاء الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾: ﴿أَمْرًا﴾ هنا واحِد الأمـور؛ يَعنِي: إذا قضَى شأنًا سَـواءٌ كان ذلك الشأن أمرًا أو نَهيًا، ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ «أن تَكون لـهَمُ الخِيَرةُ» و﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، أمَّا على قِراءة التاء، فالأمر فيها ظاهِر؛ لأن اسمَها مُؤنَّث، فأُنِّثَ الفِعْل من أجلها «أن تَكون»، وأمَّا عن قِراءة الياء، فإنَّ الفِعْل يَكون مُذكَّرًا مع أنَّ الاسم مُؤنَّث، ولكن هنا لا يَجِب التأنيثُ لوَجْهَيْن:

الوجهُ الأوَّل: الفَصلُ بين الفِعْل وفاعِله، وهنا بين الفِعْل واسمِه.

والثاني: أنَّ التأنيثَ في الخِيَرة تأنيثٌ مَجازيٌّ، وابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول:

وَإِنَّـمَا تَلْـزَمُ فِعْـلَ مُضْـمَرِ مُتَّصِـلٍ أَوْ مُفْهِـمٍ ذَاتِ حِـرِ[1]

وقوله تعالى: ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ أي: الاختِيار، أَفَادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الخِيَرة هنا اسمُ مَصدَر بمَعنَى الاختِيار، أو بمَعنى التَّخيُّـر؛ كالطِّيَرة بمعنى التَّطيُّـر، فهي إِذَنِ اسمُ مَصدَر؛ بمَعنى: الاختيار، وإن شِئْت فقُلْ: بمَعنى التَّخيُّر، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، قد يَقول قائِل: إنَّ المُتبادِر أن يَقول: (مِن أَمْرِه)؛ لأنَّ ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ مُفرَد، والمُتبادِر أن يَقول: (وما كان لمُؤمِن ولا مُؤمِنة إذا قَضَى الله ورسـوله أمرًا أن يَكون له الخِيَرة من أَمْرِه)، ولكنه جمَع؛ لأنَّ (مُؤمِن) و(مُؤمِنة) جاءا مُنكَرًا في سِياق

(١) الألفية (ص:٢٥).

النَّفي، فيَكون للعُموم، فعاد الضمير إليه باعتِبار المَعنَى، لا باعتِبار اللَّفْظ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ مَعناه: أي: من شَأْنهم، ويَجوز أن يَكون ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾؛ أي: من أَمْر الله تعالى إيَّاهم، فعلى الأوَّل: يَكون الإضافة من باب إضافة الشيء إلى فاعِله، وعلى الثاني: من باب إضافته إلى مَفعوله، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خِلاَفَ] هذه بالنَّصْب مَفعولٌ للخِيَرة بمَعنى الاختيار، يَعنِي: ما كان لهم أن يَختاروا [خِلافَ أَمْر اللهِ ورَسولِه]، فتَبيَّن الآنَ مَعنَى الآية.

فمَعنَى الآية: أنَّ الله تعالى يَقول: لا يُمكِن لمُؤمِن ولا مُؤمِنة، -لا يُمكِن شَرْعًا، فإذا قضَى الله تعالى ورسولُه ﷺ أَمْرًا أن يُخالِفوا أمرَ الله تعالى ورسوله ﷺ، وأن يَختاروا خِلافَ أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، ولا يُمكِن؛ لأنَّ ما في قُلوبهم من الإيمان يَمنَعهم من المُخالَفة، ألَا تَرى إلى قول النبيِّ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»؛ لأنه لو كان في قَلْبه إيمان حين الزِّنا، ما زنَى، «وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[1]، فالإيمان إذا وقَر في القَلْب لا يُمكِن أن يَكونَ صاحِبه مُخالِفًا لأَمْر الله تعالى ورسوله ﷺ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نَزَلَت في عبد الله بن جَحْش وأُختِه زَينبَ خطَبها النبيُّ ﷺ لزَيدِ بنِ حارِثةَ، فكَرِها ذلك حين عَلِم بظَنِّهما قَبْلُ أنَّ النبيَّ ﷺ خطَبَها لنَفْسه ثُمَّ رَضِيَا للآية].

هكذا ذكَرَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّها نزَلَت في هذه القِصَّةِ، وهذ القِصَّةُ ضَعيفة[2]؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب النهبى بغير إذن صاحبه، رقم (٢٤٧٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي، رقم (٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجها عبد الرزاق في التفسير (٣/ ٤٠)، والطبري في التفسير (١٩/ ١١٣)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٤/ ٤٥)، عن قتادة.

لأنها مُعضَلة ومُنقَطِعة، فهي ضعيفة، ونحن لا يُهِمُّنا في الحقيقة سببُ النُّزول -وسبَب النُّزول صَحيح أنَّ فيه فائِدةً، وهو أنه يَكشِف أحيانًا المَعنَى؛ ليُبيِّنه ويُوضِّحه-، لكن المُهِمَّ الحُكْم، وهو أنه لا يُمكِن لمُؤمِن إذا قضَى الله تعالى ورسوله ﷺ أَمْرًا أن يَخْتار خِلافَ أَمْر الله تعالى ورسوله ﷺ ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾؛ لأنهم لا بُدَّ أن يُوافِقوا أمر الله تعالى ورسوله ﷺ لِمَا في قُلوبهم من الإيمان؛ ولهذا كُلَّما هَمَّ المُؤمِن بمَعصية ذكَّرَه إيمانُه بالله تعالى فكَفَّ عنها.

أَلَا تَرَى إلى قول النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في السَّبْعة الذين يُظِلُّهم الله تعالى في ظِلِّه، قال ﷺ: «وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ»[1]، وهذه الدَّعوةُ كانت في مَحَلٍّ خالٍ، لا يَطَّلِع عليهما أحَدٌ سِوَى الله تعالى «فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ»، فمَنَعه إيمانه من أن يَفعَل الفاحِشة مع سُهولة أسبابها.

وكذلك أحَدُ الثلاثة الذين انطَبَق عليهم الغارُ حين مَكَّنَتْه ابنةُ عمِّه من نَفْسها، فلمَّا جلَس منها مَجلِس الرَّجُل مع امرأته -وأَعتقِد في هذه الحالِ أنَّ الرَّغبةَ ستكون شديدةً وقويَّةً، وأنه لا يَفصِمها إلَّا إيمانٌ قويٌّ؛ فلمَّا جلَس منها مَجلِس الرجُل مع امرأته، قالت له: «يَا هَذَا اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ»[2]، فقام منها، وهي أحبُّ الناس إليه، هذا من الإيمان بلا شَكٍّ.

إِذَنْ: نحن لا يُهِمُّنا أن تكون نزَلَت في زَينبَ بنتِ جَحْش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وأَخيها

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم (٦٢٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرًا فترك الأجير أجره، رقم (٢٢٧٢)، ومسلم: كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، رقم (٢٧٤٣)، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

عبد الله أو في غيرِهما، المُهِمُّ أنَّ حال المُؤمِن تَمنَعه من مُخالَفة أَمْر الله تعالى ورسوله ﷺ، وأمَّا ما ذكَره المُفسِّر فهو يَقول: [إنَّ النبيَّ ﷺ خطَبَ زَينبَ بِنتَ جَحْشٍ]، وقد خُطِبَت -كما ذكَرَه غيرُه- من قِبَل رِجال شُرَفاءَ وذَوِي جاهٍ، فخَطَبها النبيُّ ﷺ، فظَنُّوا أنه خطَبَها لنَفْسِه، ثُم بعد ذلك بيَّن لهم أنه خطَبها لزَيدِ بنِ حارِثةَ مَولى رسول الله ﷺ، وكان -حَسب ما ذَكَر أهلُ السِّيَر- عَبْدًا لخَديجةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فوهَبَتْه للنبيِّ ﷺ، فأَعتَقَه[1]، فلمَّا عَلِمَا أنه خطَبها لزيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ امتَنَعا، فلمَّا نزَلَتِ الآية رَضِيَا بذلك، وهذا ليس بغريب على الصحابة، لو صحَّ الحديثُ، ليس بغريب أن يُقدِّموا أمر الله تعالى ورسوله ﷺ على ما تَهواهُ أَنفُسُهم.

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ﴾: ﴿وَمَن﴾ شَرْطية، وعُلِم أنها شَرْطِية من فِعْل الشَّرْط؛ لأنه مَجزوم ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ﴾، لكنه مَجزوم بحَذْف حَرْف العِلَّة.

وقوله تعالى: ﴿يَعْصِ ٱللَّهَ﴾؛ المَعصية: مُخالَفة الأَمْر، أو إنْ شِئْت فقُلِ: المَعصية خِلافُ الطاعة، سواءٌ كانت وقوعًا في مَنهيٍّ عنه، أو تَرْكًا لمأمورٍ به، لكن إذا قيل: طاعة ومَعصية، صارَتِ الطاعة فِعلَ المأمور، والمَعصيةُ فِعْل المَحظور، أمَّا إذا قِيل: (مَعصِيَة) وحدَها، أو (طاعة) وحدَها، فإنَّها تَشمَل الأَمْرَين.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ سواءٌ عصاهما جَميعًا، يَعنِي: أَمْر من الله تعالى، وأَمْر من رسوله ﷺ، وقَعَتْ فيه المَعصِية، أو عصَى اللهَ تعالى وحدَه، أو عصَى الرسولَ ﷺ وحدَه، فإنه قد ضَلَّ ضَلالًا مُبينًا.

---

(١) انظر: الاستيعاب (٢/ ٥٤٣)، والإصابة (٢/ ٤٩٥).

ومَعصِيتُهما جميعًا مِثالُها: قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، وقال النبيُّ ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»(١)، فلو خالَف الإنسان في ذلك يَكون قد عصَى الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لأنَّ الأَمْر هنا من الله تعالى ومن رسوله ﷺ، وأَحيانًا يَرِد الأمرُ في القُرآن دون السُّنَّة، فإذا عَصاه الإنسان صار عاصِيًا لله تعالى، وأحيانًا يَرِد في السُّنَّة دون القُرآن، فإذا عَصاه الإنسان صار عاصِيًا للرَّسول ﷺ.

ولكن لِتَعلَم أنَّ مَعصية الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مَعصية لله تعالى؛ لأن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَتكَلَّم عمَّن أَرسَلَه، فإذا عصَيْتَه فقَدْ عَصَيْت من أَرسَلَه، فلو أن رجُلًا أَتاك وقال: إن فُلانًا أَرسَلَني إليك. وقال: لِيَفعَلْ كذا وكذا. فخالَفْتَ الرسولَ فتكون مُخالِفًا في الواقِع للمُرسِل؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

فعلى هذا يَكون ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ سواءً على سَبيل الانفِراد أو على سبيل الاشتِراك.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، هذا جوابُ الشَّرْط، وقُرِن بالفاء؛ لأنَّها اقتَرَنَت في ﴿فَقَدْ﴾، وهناك ضوابِطُ لجَواب الشَّرْط الذي يَجِب اقترانُه بالفاء، ذُكِرَت في بيتٍ:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدٍ وَبِـ(مَا) وَ(قَدْ) وَبِـ(لَنْ) وَبِالتَّنْفِيسِ

فإذا كان جوابُ الشَّرْط أَحَدَ هذه الأشياءِ السَّبْعة فإنه يَقتَرِن بالفاء وجوبًا،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٨)، ومسلم: كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، رقم (١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ولا يَشِذُّ عن هذه القاعِدةِ إلَّا أَمْرٌ نادِر كقول الشاعِر[1]:

مَنْ يَفْعَلِ الحَسَنَاتِ اللهُ يَشْكُرُهَا .....

ولم يَقُلْ: فاللهُ يَشكُرُه. لكن هذا نادِر أو ضَرورة.

وهنا مَعَنا من الأشياءِ السَّبْعة: (قد).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَيِّنًا] ونحن تكلَّمنا من قبلُ أنَّ (أَبان) الرُّباعية تَكون مُتعَدِّية، وتَكون لازِمة، وإذا كانت لازِمةً فهي بمَعنَى (بانَ)، وإذا كانت مُتعَدِّيةً فهي بمَعنى (أَظهَر)، وهنا قال تعالى: ﴿ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ هل تَصلُح بمَعنَى (أَظهَر) بمَعنَى: ضَلالًا مُظهَرًا؟ الجـوابُ: لا تَصلُح.

إِذَنْ: فهي من (أَبان) اللازِمِ الذي يَكون منه الاسمُ على (بَيِّن) لا على (مُبين)، وقُلْنا: لا على (مُبين) بمَعنَى (مُظهِر)، فما هو (المُبين) بمَعنى (مُظهِر)؟ الجَوابُ: مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩]، هذا من المُتعَدِّي يَقينًا؛ لأن القُرآن مُظهِر للحَقائِق؛ ولهذا قال بعده: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس:٧٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فزَوَّجها النبيُّ ﷺ لزَيدٍ، ثُمَّ وقَع بَصَـرُه عليها بعد حِين فبَلَغ في نَفْسـه حُبُّها، وفي نَفْس زيدٍ كَراهَتُها، ثُمَّ قال للنبيِّ ﷺ: أُريدُ فُراقَها. فقالَ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ»،

---

(١) اختلف في قائله، فنسبه سيبويه في الكتاب (٣/ ٦٤-٦٥) لحسان بن ثابت، ونسبه ابن هشام في مغني اللبيب (ص:٨٠) لعبد الرحمن بن حسان، ونسبه جماعة لكعب بن مالك كما في خزانة الأدب (٩/ ٥١).

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾]، هذا الذي ذكَره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذُكِر عن بعض المُفسِّرين من السَّلَف والخَلَف، لكنه كما قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أقوالٌ يَنبَغي أن يَضرِب الإنسانُ عنها صَفْحًا»[1]؛ لأنها أقوالٌ باطِلة، لا تَليق بمَقام النبيِّ ﷺ؛ لأنَّ القِصَّة إذا قرَأها الإنسان يَتصوَّر أنَّ الرسول ﷺ كان عاشِقًا من العُشَّاق.

وما أَشبَهَ هذه القِصةَ الباطِلةَ بقِصَّة داودَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ[2]، التي ذكَروا فيها: أن داودَ طلَبَ من أحَد جُنوده أن يَتزَوَّج امرأتَه، ولكنه أَبى، فاحْتَال عليه بحيلة، قال: فأَرسَلَه مع الجَيْش لأَجْل أن يُقتَل فيَتزَوَّج امرأتَه! وهل هذا يُمكِن أن يَقَع من نَبيٍّ من أنبياء الله تعالى؟! أبَدًا، وهذه لو قال قائِل: إنَّها وقَعَت من أحَد السُّوقة من الناس. لقيل: ما أَظلَمَ هذا الرجُلَ! وما أَجهَلَه! فكيف بنَبيٍّ من أنبياء الله تعالى؟

فالرَّسولُ ﷺ هل يُمكِن أن يَتصوَّر أحَدٌ أنه عَشِق هذه المرأةَ؟ ويُلاحَظ الآنَ أن بعض الناس -حتى بعض المُفسِّرين والعِياذُ بالله- صار يَتلَفَّظ بهذا اللَّفظِ، يَقول: الرسولُ عَشِق المَرأةَ زينبَ! ولكن هذا قول باطِل، وسيَأتي -إن شاءَ الله تعالى- في الكلام على تَفسير الآية بَيانُ مَعنى الآية، وأن مَعناها ناصِع واضِح.

ولم يَكُن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال له: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ»، وأنه أَخفَى حُبَّها؛ وذلك: لأن الله تعالى قال في نفس الآية: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، فبيَّن الله تعالى أنه سيُبدِي ما أَخفاه في نَفْسه، لو كان الذي أَخفاه النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في نَفْسه الحُبَّ لكان الله تعالى يُبديه، لكن ما الذي أَبدَى الله تعالى؟ الذي أَبدَى الله تعالى تَزويجه، أنه زوَّجه إيَّاها، فكان الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَخفَى

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٧٨).

(٢) أخرجها الطبري في تفسيره (٢٠/ ٦٤-٦٦)، وانظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٥١).

في نفسه ما أَعلَمه الله تعالى أنه سيَتَزَوَّجها، بدون أن يَكون هناك حُبٌّ وعَلاقة، لكن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلِم بما أَعلَمه الله تعالى أنه سيَتَزَوَّجها، فلمَّا جاء هذا الرجُلُ يَستَشيره قال ﷺ له: «اتَّقِ الله» لا تُطلِّقِ المرأةَ، فعاتَب الله تعالى رسوله ﷺ، لماذا قال له: اتَّقِ الله وأَمسِكها! وقد عَلِم أنَّ الله تعالى سيُزوِّجه إيَّاها، فالمَسأَلة واضِحة ليس فيها أيُّ إشكال.

ولكن المُشكِل أنَّ بعض المُفسِّرين يَأخُذون عن بعضٍ مِن غَيْر تَمحيص، ومِن غَيْـر أن يَكون هناك تَـرَوٍّ في المَسأَلة، حتى إنَّ بعض الناس اعتَـذَر وقال: (إنَّ مَحبَّـة الإنسانِ للمَرْأة ولو كانـت عند زَوْجٍ آخَرَ أَمرٌ لا يُنكَر، إنَّمـا الذي يُنكَر أن يُحـاوِل التَّوصُّل إلى هذه المَرأةِ بطريق غيرِ شَرعيٍّ، وأمَّا أن يَقَع في نَفْسه مَحبَّة امرأةٍ عند زَوْج فهذا لا بَأسَ به، وهو أَمْر جِبِلِّيٌّ قد تَدْعو إليه الجِبِلَّة والطبيعة).

وهذا وإن كانتِ المَسأَلة تَحتاج إلى نظَر في هذا القـولِ: وهو أنَّ مَحبَّة الإنسان لزوجة غيره إمَّا أن تَكون مَحبَّة للجِنْس، أو مَحبَّة للشَّخْص، فإن كان مَحبَّة للجِنْس فهذا أمر جائِز، أي: جِنْس هذا الطِّرازِ من النساء، وهذا المُراد بقَوْلي: (الجنس)، فإن كان مَحبَّة للجِنْس يَعنِي: أنه يَرغَب مثل هذه المرأةِ فهذا لا بأسَ به، والإنسان دائِمًا إذا سمِع مثَلًا من امرأةِ رجُلٍ أنها امرأةٌ صالِحة قانِتة حافِظة للغَيْب بمـا حَفِظ الله تعالى يُحِبُّها ويُحِبُّ أن يَكون له مِثْلُها.

وأمَّا إذا كان حُبًّا شخصيًّا فعِندي أن في جَواز ذلك نظَرًا، وأنَّ الإنسان يَجِب عليه أن إذا تَعلَّقَت نَفْسُه بامرأة تَعلُّقًا شخصيًّا أو مَحبَّة شَخْصية يَجِب عليه أن يُحاوِل التَّخلُّص من هذا؛ لأنَّها مُشكِلة، فالمَحبَّة -في الحقيقة- جذَّابة، المَحبَّة كأنها رِشًا من حديد يَجذِب الإنسان، فإذا تَعلَّق قلبه بامْرَأة فإن الغالِب أن يُحاوِل الوصول إليها؛

فإن لم تكُن مُزوَّجة فيُمكِن أن يَخطِبها، وإن كانت مُزوَّجة فمُشكِلة.

فالذي أَرَى في هذه المَسأَلةِ أنه اذا أَحبَّها مَحبَّة جِنْس -بمعنى: أَحَبَّ جِنْس هذه المَرأةِ- فهذا لا شَكَّ أنَّه ليس فيه مانِع، ولا يَحصُل فيه مَفسَدة، وأمَّا إذا أَحبَّها مَحبَّة شَخْصية فإنَّ الأمر خَطير.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ مُقتَضَى الإيمان ألَّا يُخالِف المُؤمِن أَمْر الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ...﴾ إلى آخِره.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه كلَّما قَوِيَ الإيمان قَوِيَتِ المُوافَقة؛ وجهُهُ: أنَّ الحُكم المُرتَّب على وَصْف يَقوَى بقُوَّته، ويَضعُف بضَعْفه. وعليه فتَحصُل الفائِدة الثالِثة:

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه كلَّما نَقَص الإيمان وضَعُف كثُرَت المُخالَفة؛ ولهذا قال أَهلُ العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنَّ الإيمان يَزيدُ بالطاعة، ويَنقُص بالمَعصِية.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ ما قَضاه الرسول ﷺ من الأُمور فهو كما قَضاه الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الخَيْر كلَّ الخَيْر فيما قَضاه الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ يَعنِي: لا يَختارُون غَيرَه؛ لأنهم يَرَوْن أنَّ الخَيْر فيما قَضاه الله تعالى ورسوله ﷺ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ المَعْصية ضَلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه كلَّما كانتِ المَعصيةُ أكبَرَ أو أكثَرَ كان الضلال أبيَنَ وأَوْضَحَ؛

وجهُهُ: ما أَشَرْنا إليه من قبلُ أنَّ الحُكْم المُرتَّب على وَصْف يَزيد بزِيادته ويَنقُص بنُقْصانه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ مَعصية الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كمَعصية الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، فإذا أَتانا آتٍ ونَهَيْناه عن أَمْر جاء به النهيُ في السُّنَّة، وقال: هذا ليس في القُرآن. نَقول: ما في السُّنَّة كما في القُرآن، وقد تَوقَّع النبيُّ ﷺ ذلك فقال: «يُوشِكُ أَحَدُكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي، فَيَقُولُ لَا نَدْرِي مَا وَجَدْنَا فِي الْكِتَابِ اتَّبَعْنَاهُ، أَلَا وَإِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»(١)، وهذا الذي تَوقَّعه النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقَعَ، بل صرَّحوا بأنه لا احتِجاجَ إلَّا بما جاء في القُرآن، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:٨٠].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: جَواز تَشريك الله تعالى ورسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالواو في الأَحْكام الشَّرْعية؛ تُؤخَذ من قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بخِلاف الأُمور الكَوْنية، فإنَّ الرسول ﷺ لا يُشرَّك مع الله تعالى بالواو؛ ولهذا لَمَّا قال له الرجُلُ: ما شاء اللهُ وشِئْتَ. قال ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»(٢).

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثباتُ رِسالة النبيِّ ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، ورِسالة النبيِّ ﷺ عامَّة لجميع البَشَر منذُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٣٠)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٤)، من حديث المقدام بن معدي كرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٩٣)، وابن ماجه: كتاب الكفارات، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت، رقم (٢١١٨)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بُعِث إلى أن تَقوم الساعةُ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، والخاتَمُ لا شيءَ بعدَه.

وكانت شَريعة الرسول ﷺ -لِكَوْنها عامَّة شامِلة إلى يوم القِيامة- صالِحة لكل زَمان ومَكان وأُمَّة، ومَعنَى كَونِها صالِحةً: أنَّ العمَل بها لا يُنافِي المَصالِح في أيِّ زَمان أو مَكان، بل هو عَيْنُ المَصلَحة، وليس كما فعَلَه بعض النَّاس وتَصرَّف بهذه العِبارةِ، حيث زعَمَ أنَّ الإسلام صالِح لكل زَمان ومَكان، بمَعنَى: أنَّه خاضِع لكل زَمان ومَكان، فجعَلوا الشَّرْع تابِعًا لا مَتبوعًا، وقالوا: إنَّ العَصْر إذا اقتَضَى -في زَعْمِهم- المَصلَحة فإنَّ الشَّرْع لا يُعارِضه، وبنَوْا على ذلك استِحْسان ما استَحْسَنوه من الأمور التي لا شَكَّ في تَحريمها، كتَجويز الرِّبا، وأنَّ هذا يُنمِّي الاقتِصاد، ويُقوِّي الأُمَّة، وكتَجويز التَّأمينات التي هي المَيْسِر حقيقةً، والتي قرَنها الله تعالى بالخَمْر والأنصاب والأَزْلام.. إلى غير ذلك ممَّا يَرَوْن أنَّه داخِل في مُسمَّى الدِّين الإسلامي بحُجَّة أنَّ الإسلام صالِح لكل زَمان ومَكان.

ونحن نَقول: صالِح. ولا نَقول: خاضِع. فاعمَلْ أنت بالإسلام في أيِّ زَمان أو مَكان أو أُمَّة، وانظُرْ هل يُنافي المَصالِح أو يُنمِّي المَصالِح؟ قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

الآيــة (٣٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب:٣٧].

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنه مَنصوب باذْكُرْ] و(اذْكُرْ) مَحذوف، أي: اذكُرْ يا مُحَمَّدُ إذ تَقول للذي أَنعَم الله تعالى عليه... إلى آخره، اذْكُرْ هذا القَوْلَ حتى تكون مُستَعِدًّا لِما يُلقَى إليك من المَوعِظة؛ لأنَّ الله تعالى وعَظَه في هذه الآيةِ مَوْعِظة عظيمة، حتى قالت عائِشةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «لَوْ كان مُحَمَّدٌ كاتِمًا ما أُنزِل إليه لكَتَمَ هذه الآيةَ»(١).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالإِعْتاق] بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ هـذا الرجُلَ الذي أَبهَم اسـمَهُ هنا، ثُم أَوضَحَه فيمـا بعد أنَّ عليه نِعمَتَيْن؛ النِّعْمة الأُولى: لله تعالى، والثانية: للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهنا قال تعالى: ﴿لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ﴾، فأَتَى بالواو الدالَّة على الاشتِراك، مع أن هذا ليس من باب التَّشريكِ، حتى نَقول: إنه يَجوز إشراك الله تعالى مع الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معنى قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، رقم (١٧٧/ ٢٨٨).

بل هو من بابِ النِّعْمة والعَطاء والفَضْل، فكيف جَمَع بين إِنْعام الرسول ﷺ وإنعام الله تعالى بالواو الدالَّة على التَّشريك؟

فالجَوابُ أن نَقول: جمَع بينهما بالواو الدالَّة على التَّشريك؛ لأنَّ النِّعْمَتَيْن مُختَلِفَتان، فالنِّعمة الأُولى من الله تعالى بالإسلام، والثانية: النِّعْمة من الرسول ﷺ بالعِتْق، فلمَّا اختَلَفَتِ النِّعْمتان صارتِ الواو لا تَدُلُّ على الاشتِراك؛ لامتِناع الاشتِراك بين شَيْئَيْن مُختَلِفَين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالإعتاق وهو زيدُ بنُ حارِثَةَ كان مِن سَبْي الجاهِلية اشتَراه النبيُّ ﷺ قبل البعثة وأَعتَقَه وتَبنَّاه] المَشهور أنَّ زيدَ بنَ حارثةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان مَملوكًا لخَديجةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، فوهَبَتْه للنبيِّ ﷺ، هذا هو المَعروف في السِّيَر[1]، وأيًّا كان فإنَّ زيدَ بنَ حارِثةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان مَملوكًا للرسول ﷺ، ثُمَّ أَعتَقَه وتَبنَّاه أيضًا، فرَفَع مَعنَويَّاتِه بكونه أَضافَه إليه ابنًا له، وكان يُدعَى زَيدَ بنَ مُحَمَّدٍ[2]، حتى أَبطَل الله تعالى ذلك في قوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وبقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أَمْر طلاقِها: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ﴾ هُنا عَدَّى ﴿أَمْسِكْ﴾ بـ(عَلَى)؛ لأنَّها بمَعنى: اضمُمْ عليك زوجَك، يَعني: اجعَلْها مُنضمَّة عليك ولا تُفارِقْها.

---

(١) انظر: الاستيعاب (٢/ ٥٤٣)، والإصابة (٢/ ٤٩٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، رقم (٤٧٨٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، رقم (٢٤٢٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله تعالى: ﴿زَوْجَكَ﴾ المُراد بها: زينبُ بنتُ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكان زَيدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد تَزوَّجها بمَشورة النبيِّ ﷺ، فَجاء يَستَشيره في طلاقِها، فقال له النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾؛ يَعنِي: لا تُطلِّقْها، وأَمَره بأَنْ يَتَّقيَ الله تعالى: ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾، إغراءً له على إِمْساكها، وإن كان الرجُل لم يَفعَل خَطيئةً؛ لأنَّ الطلاق ممَّا يُباح للرِّجال، لكن من باب الإِغْراء على إِمْساكها.

وقال بعضُ المُفسِّرين: إنه -أَي: زَيدُ بنُ حارِثةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ذكر زَينبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعَيْبٍ، فقال له الرسول ﷺ: ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ يَعنِي: لا تَصِفْها بالعَيْب، وليس المَعنَى: اتَّقِ الله لا تُطلِّقْها؛ لأنَّ الأصل في الطلاق أنه مُباح.

قال الله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، الواو حَرْف عَطْف، ﴿وَتُخْفِي﴾ مَعطوفة على قوله تعالى: ﴿تَقُولُ﴾، يَعنِي: واذْكُرْ أيضًا إذ تُخفِي في نَفْسِك ما الله تعالى مُبديه، وأَبهَمَ الله تعالى ما أَخفاه، لكنه بيَّن أنه سيُبدِيه، ونَنظُر ماذا أَبدَى الله عَزَّوَجَلَّ:

قال تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا﴾: ﴿مَا﴾ هذه اسْمٌ مَوصولٌ في مَحلِّ نَصْب مَفعول لـ﴿وَتُخْفِي﴾، و﴿اللَّهُ﴾ مُبتَدأ، و﴿مُبْدِيهِ﴾ خبَرُه، والجُملةُ صِلة المَوْصول لا مَحلَّ لها من الإعراب، يَعنِي: تُخفِي في نفسك الذي الله تعالى مُبدِيه، وهنا لم يَقُلْ: وتُخفِي في نَفْسك ما يُبديه الله تعالى، بل قال تعالى: ﴿مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، فأَتَى بالجُمْلة الاسمِيَّة الدالَّة على الثُّبوت كأن هذا أَمْر لا بُدَّ منه، أي: لا بُدَّ أن يُبديَه الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا هو الذي وقَعَ.

ومَعنَى: ﴿مُبْدِيهِ﴾؛ أي: مُظهِره، وهو مُقابِل لِقَوْله: ﴿وَتُخْفِي﴾، قال تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ إلَّا أنَّ المُقابَلة اختَلَفَت من حيث الصِّيغة،

فالصِّيغةُ في الإِخْفاء جاءت بالمُضارِع، وأمَّا الصِّيغةُ بالإِبْداء فجاءَتْ بالجُمْلة الاسمِيَّة.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ مُظهِرُه من مَحبَّتها، وأن لو فارَقَها زيدٌ تَزوَّجْتَها] هذا ما زعَمَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَبعًا لكثير من المُفسِّرين: أنَّ الذي أَخفاه النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو مَحبَّتُه لهذه المرأةِ، فأَبدَى الله تعالى ذلك، ولكنَّك إذا تَأمَّلْتَ الآياتِ وجَدْتَ أنَّ الذي أَخفاه هو (نِيَّة الزَّواج بها بأَمْر الله عَزَّوَجَلَّ)، فإنَّ الله تعالى أَمَرَه أن يَتزَوَّجها بعد زَيْدِ بنِ حارِثَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكأن هذا -واللهُ تعالى أَعلَمُ- من أَجْل جَبْر قَلْبها حيث تَزوَّجَتْ زَيدَ بنَ حارِثَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو مَوْلًى، وهي من صميم العرَب، فأَراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يُكافِئَها على خُضوعها لَمشورة النبيِّ ﷺ بأن يَتزَوَّجها الرسول ﷺ، هذه من جِهةٍ.

ومن جِهة أُخرى: أَمَرَه الله تعالى أن يَتزَوَّجها لأَجْل أن يَزول ما كان مَشهورًا عِندهم في الجاهِلية؛ من أنَّ ابن التَّبنِّي لا يَجوز لَمن تَبنَّاه أن يَتزوَّج بامرأته، فيَكون هذا من باب البَيان بالفِعْل الذي هو أَقوَى من البَيان بالقَوْل.

وإذا نظَرْنا إلى الذي أَبداه الله تعالى وجَدْنا أنه زواجُه، لا أنه تُحِبُّها، فلم يَقُلِ الله تعالى في القُرآن: إنك تُحِبُّها؛ أَبدًا! ولا تَعرَّض للحُبِّ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: تَخاف من قولهم، ومن كلامِهم، بأن يَقولوا: تَزوَّج زوجةَ ابنِهِ، وهذا عِند العَرَب عَيْب، فهُمْ يَرَوْنه من المُنكَرات.

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في كُلِّ شيء وتَزوَّجها، ولا عليك من قول الناس، ثُمَّ طلَّقها زَيْدٌ وانقَضَت عِدَّتها]؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ من الناس، ولكنه هنا أَطلَق، فقال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾، ولم يَذكُرِ المُفضَّل عليه من أَجْل العُمـوم؛ لأنَّه دائِمًا يَكون الحَذفُ مُفيـدًا للعُموم، يَعنِي: أَحَقُّ أن تَخشـاه من كل أحَد من النَّاس، ومن الجِنِّ، ومن غيرهم.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَخۡشَىٰهُ﴾، يَعنِي: أن تَخافَه، ولكن الخَشْية خَـوْف مع عِلْم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، والخَشْـية أيضًا خَـوْف مع قُـوَّة المَخشِيِّ وعظَمَته، فالخَوْف دون الخَشْية؛ لأنَّ الخَوْف يَقَعُ بدون عِلْم؛ ولأنَّ الخَوْف يَقَع من ضَعْف الخائِف، لا من قُوَّة المَخُوف؛ ولهذا كانتِ الخَشْية أَرفَعَ مَرتَبة وأَقوَى، ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا﴾، حاجةً، ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ فدخَل عليها النبيُّ ﷺ بدون إِذْنٍ وأَشبَع المُسلِمين خُبْزًا ولَحْمًا].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا﴾؛ أي: حاجةً، وهذا دليلٌ على أنَّ زَيْدًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ طلَّقَها عن رَغْبة، وأنها انقَضَتْ حاجته منها، ولم يُطلِّقها عن ضَغْط أو إِكْراهٍ.

وقوله تعالى: ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ شَـرْعًا وقدَرًا، لكِنَّ المُهِمَّ: شَـرْعًا؛ لأنه لو كان المُراد قدَرًا فقط لم يَكُن بينها وبين أُمَّهات المُؤمِنين فَرْق؛ لأنَّ أُمَّهات المُؤمِنين أيضًا ممَّا زَوَّجهن الله تعالى قدَرًا، وكانت هي -أي: زَينبُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا- تَفتَخِر على نِساء النبيِّ ﷺ، فتَقول: «زَوَّجَكـن أَهالِيكُنَّ، وزَوَّجَني الله من فوقِ سَبْع سَمَـواتٍ»[1]، وهذا دليل على أنه تَزويج شَرْعيٌّ، ولكنَّه قدَريٌّ أيضًا في نَفْس الوقت.

وقوله تعالى: ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ في هذا ضَميران مَفْعولان؛ الضَّمير الأَوَّل: الكافُ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾، رقم (٧٤٢٠)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والثاني: (ها)، وهو مُتمَشٍّ على القاعِدة، وابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول:

وَقَـدِّمِ الْأَخَـصَّ فِي اتِّصَـالِ وَقَدِّمَنْ مَـا شِـئْتَ فِي انْفِصَـالِ[1]

وضَميرُ المُخاطَب أَخصُّ من ضمير الغائِب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾.

والحِكْمة من ذلك: قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ﴾ اللَّام هنا للتَّعليل، و(كَيْ) حَرْف مَصدَر؛ لأنها بعد اللَّام مَصدَرية مَحضَة؛ أي: (لأن)، و(لا) نافِية.

وقوله تعالى: ﴿حَرَجٌ﴾؛ أي: ضِيق ومَشقَّة.

وقوله تعالى: ﴿فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ أدعياؤُهم: أَبناؤُهم الذين تَبنَّوْهم، هؤلاءِ همُ الأَدْعياءُ، وهؤلاءِ الأدعياءُ ليسوا بأبناءٍ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب:٤]، وتَأمَّلْ قوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾، ولم يَقُلْ: (أَبنائِهم الذين تَبنَّوْهم)؛ لأنَّ هذه البُنوَّةَ مُنتَفية شَرْعًا وباطِلة شَرْعًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَدْعِيَآءَكُمْ﴾.

وبهذا نَعرِف أنَّ قول مَن قال في قوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾: (إن قولَه: ﴿مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ احترازٌ مِن ابنِ التَّبنِّي) يَتبيَّن لنا أنَّ هذا القولَ لا وَجهَ له؛ لأنَّ ابنَ التَّبنِّي لم يُسمِّه الله تعالى ابنًا أَبدًا، بل نفَى عنه البُنوَّة، فقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾، وقال هنا: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾، وإذا كان ابنُ التَّبنِّي لا يُسمَّى ابنًا شَرْعًا، فإنه لا حاجةَ إلى

---

(١) الألفية (ص:١٣).

أن نَأتِيَ بصِفة تُخرِجه؛ لأنَّه ليس بداخِل أصلًا حتى يَخرُج بهذه الصِّفةِ الذين من أَصلابِكم؛ ولكنها احتِراز من ابنِ الرَّضاعة، كما هو اختيار شيخِ الإسلام ابنِ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾: ﴿إِذَا قَضَوْا۟﴾ الفاعِل يَعود على الأَدْعياء، وقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ فيه إشارة إلى أنَّه لو كان ذلك بضَغْط من الأبِ المُدَّعي لكان ذلك فيه حرَج، بل لا بُدَّ أن يَكونوا قد قضَوْا مِنهُنَّ وطَرًا وأنْهَوْا رَغْبَتَهُن فيهِنَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَقضِيُّه ﴿مَفْعُولًا﴾]، ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الكَوْني؛ لأنَّ الشَّرعيَّ قد يُفعَل وقد لا يُفعَل، ولكن الأمر الذي لا بُدَّ أن يُفعَل هو أمر الله تعالى الكَوْنيُّ، فإذا أمَرَ الله تعالى بشيء كونًا فلا بُدَّ أن يَقَعَ.

وخُلاصَةُ تفسير هذه الآيةِ أن نَقول: إن الله عَزَّوَجَلَّ ذكَّر نبيَّه ﷺ بهذا الأَمرِ العَظيمِ، وهو قولُه لزَيدِ بنِ حارِثةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين جاء يَستَشيره في طلاق زَوجَتِه: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، مع عِلْم النبيِّ ﷺ بأن الله تعالى سَوْف يُزوِّجه إيَّاها، وكان على النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يَسكُت على الأقَلِّ، ويَقول: انظُرْ ما يَبدو لك في هذا الأَمرِ، لكنه أَشار عليه أن يُمسِكَ؛ لأنَّه يَخشَى أن يَقول الناس: تَزوَّج امرأةَ ابنِه الذي تَبنَّاه. فكان النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَخاف من هذا الأَمرِ، ولكن الله تعالى وجَّهَه هذا التوجيهَ السليمَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَذكير النبيِّ ﷺ بالأُمور التي يَحسُن أن يُوعَظ فيها؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ ﴾ حيثُ قُلْنا: إنَّها مَنصوبة بفِعْل مَحذوف تَقديرُه: اذكُرْ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ مِنَّة الله تعالى على زَيدِ بنِ حارِثةَ بالإسلام، والتَّمسُّك به، حتى إن أباه وأَعمامه لَمَّا جاؤُوا يَطلُبونه، وخيَّرهُ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بينَهُم وبينَهُ، اختار أن يَكون مع الرسول ﷺ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الإِعْتاق نِعْمة من المُعتِق على عَتيقه، وهو كذلك، والفَرضِيُّون يُعبِّرون بـ(النِّعمة) عن الإِعْتاق.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّه يَجوز عَطْف الأمور غير الشَّرْعية بالواو إذا اختَلَف المَعنَى، وقُلْنا: لا يُسوَّى بين الله تعالى وبين الرسول ﷺ بالواو في غير الأُمور الشَّرْعية، وهنا عَطَف نِعْمة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على نِعْمة الله تعالى بالواو، مع أنَّها ليست من الأُمور الشَّرْعية، لكنَّ الذي سَوَّغ ذلك اختِلافُ النِّعْمَتَيْن؛ فالنِّعْمة الأُولى: الإسلامُ، والنِّعْمة الثانية: العِتْقُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الزوجة تابِعة للزَّوْج؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ﴾ فكأنَّه يَضُمُّها ويَحرُسُها ويَصونها، وكأنَّها تابِعة له، كما في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٤].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: استِشارة ذَوِي الرَّأْيِ؛ لأنَّ زيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استَشار النبيَّ ﷺ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه يَجِب على المُستَشار أن يَبذُل ما يَراه الأَوْلى -ولو باجتِهاده؛ لأنَّ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَشار على زَيْد بإِمْساكها اجتِهادًا منه خَوْفًا من إثارة

المُنافِقين والمُشرِكين عليه، ولكن لا يَعنِي ذلك أن يَكون المُشير مُصيبًا فيما يَتصرَّف فيه، قد يُخطِئ فيما يَتصرَّف فيه، لكن هو في حال إشارته يَرَى أنَّ ذلك هو الصَّوابُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الأفضل للزَّوْج ألَّا يَتعجَّل بالطلاق، وأَنْ يُمسِك عليه زَوْجَته؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، فأَشار عليه بعدَم الطلاق، وإن كان للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أغراضٌ أُخرى، لكن لا يَمنَع أن تَتعدَّد الأسباب في الأَمْر بإِمْساكها، ومَعلوم أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال في كِتابه المُبين: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: ثُبوت رِسالة النبيِّ ﷺ، وأَنها رِسالة حَقٍّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾، فلو كان النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كاذِبًا -وحاشاهُ من ذلك- لكان يَكتُم مثل هذه الأَشياءِ؛ لأنَّها صَعْبة في حَقِّه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد يَفعَل خِلاف ما كان عليه الرسول ﷺ، بمَعنَى أنَّ اجتِهاد النبيِّ ﷺ قد يَكون مُخالِفًا لما يُريده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، فالرسول ﷺ أَخفَى في نَفْسه هذا الأَمرَ، لكنَّ الله تعالى خالَفَه في ذلك فأَبْداه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ خوف النَّاس قد يَقَع من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولكنهم لا يُقَرُّون عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: وُجوبُ تَقديم خَشْية الله عَزَّوَجَلَّ على خَشْية كل أحَدٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾، فالواجِبُ على المَرْء ألَّا يَخاف في الله تعالى لَوْمةَ لائِمٍ، وأن يَتَّقِ الله عَزَّوَجَلَّ في بَيان الحَقِّ والعمَل به، لا يَقُل: إنَّ الناس يَشمَتون بي،

إنَّ الناس يَسخَرون مِنِّي، إنَّ الناس يَستَهْزِئون بي. وليكن ذلك! فإنه لا يَزداد بهذه السُّخريةِ والاستِهْزاءِ إلَّا رِفعةً عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّه لا يَصِحُّ التزويج حتى يَنتَهِيَ حقُّ الزَّوْج الأوَّل من الزوجة بالكُلِّية؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، فكان التزويجُ بعد انتِهاء زَيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منها بالكُلِّية، ولا يَرِد على ذلك أن يُقال: إنَّ ظاهِر الآية جَواز التزويجِ بعد الطلاق مُباشَـرةً؛ لأنَّا نَقـول: إن الوَطَر والحاجة ما تَنتَهي إلَّا بانتِهاء العِدَّة، إذ إنَّ الإنسان لو أَراد أن يَرجِع إلى زَوْجتـه في العِدَّة وهي رَجْعية لحَصَل له ذلك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: إثبات العَظَمة لله عَزَّوَجَلَّ والسُّلْطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ لِمَا له من العظَمة والسُّلْطان.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: فَضيلة زينبَ بنتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حيث زوَّجها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لرسوله ﷺ؛ وجهُهُ: أنَّ غيـرها يُزوِّجه أولياؤُها وأهلُها، وأمَّا هي فقَدْ تَولَّى الله عَزَّوَجَلَّ تَزويجها، وهذه مَنْقَبة عظيمة لها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُثيب عبدَه أكثَرَ من عمَله؛ لأنَّ هذه المرأةَ -كما سبَقَ- تَزوَّجت زيدَ بنَ حارِثةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مع أنَّ زيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من المَوالي، وهي من صميم العرَب، وقد يَكون في ذلك غضٌّ من حَقِّها ومَرتَبَتها، فرفَعَ الله تعالى من شَأْنها، حيث زوَّجها رسولَه محمدًا ﷺ هو بنَفْسه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولا شَكَّ أنَّ هذا رِفعة من شَأْنها، فهي بعد أن كانت تَحتَ هذا المَولَى وهي من صميم العرب، وكان في ذلك شيء من الغَضاضة عليها، رفَعَ الله تعالى من شأنها بهذا الأَمرِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ ما ثبَتَ في حقِّ النَّبيِّ ﷺ من أحكام فهو ثابِت في حقِّ الأُمَّة؛ لأنَّه هذا الحُكمَ خُوطِب به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثُمَّ ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾، فدَلَّ ذلك على أن ما ثبَتَ للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من الأحكام فأُمَّتُه تَبع له، إلَّا ما قام الدليل على تَخصيصه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: جَواز تَزوُّج الرجُل بزَوْجة مَن تَبنَّاه؛ تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ ابنَ التَّبنِّي لا يُسمَّى شَرْعًا ابنًا، ولم يُسمِّه الله تعالى ابنًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَدْعِيَآئِهِمْ﴾، وقوله في أوَّلِ السُّورة: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: أنَّ قوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾: فهذا القيدُ ليس لإخراج ابنِ التَّبنِّي؛ لأنَّه ما دخَل في الأبناء حتى يَحتاج إلى إخراجِه.

الْفَائِدَةُ العِشْرُون: أنَّ أَمْرَ الله عَزَّوَجَلَّ الأَمْرَ الكونيَّ لا بُدَّ أن يَقَعَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

ولو قال قائِل: ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ مُفرَد مُضاف فيَعُمُّ الأَمْرَ الكونيَّ والشرعيَّ، فنُجيبه: بأن الأَمْر الشرعيَّ ليس مَفعولًا لكُلِّ أحَدٍ، بل فيمَن لا يَفعَله.

الآيـة (٣٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب:٣٨].

قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ﴾: ﴿ مَّا ﴾ نافِية، و﴿كَانَ﴾ فِعْل ماضٍ ناقِص، واسمُها قوله تعالى: ﴿ حَرَجٍ ﴾، لكِنْ فيها ﴿مِنْ﴾ الزائِدةُ لإِثْبات النَّفيِ وتَوكِيده، وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾، هذا خبَرُها مُقدَّم.

ومَعنَى ﴿فِيمَا فَرَضَ﴾ أي: فيما أَحَلَّ الله تعالى له، أيًّا كان، فكُلُّ ما أَحَلَّ الله تعالى، فإنه لا حرَجَ عليه عِند الله تعالى، وإذا كان لا حرَجَ عليه عند الله تعالى فإنه لا يَجوز لأحَدٍ أن يَتكلَّم في هذا الذي أحَلَّ الله تعالى له، ويَقول: لِمَ فعَلَ؟ لِمَ صنَع؟ وسيَأتي -إن شاء الله تعالى- في الفَوائِد: أنَّ هذا عامٌّ للرسول ﷺ ولغَيْره.

وقوله تعالى: ﴿فِيمَا فَرَضَ﴾ الفَرْض تارةً يَتعدَّى باللَّام، وتارةً يَتعدَّى بـ(عَلى)، فيَتعدَّى باللَّام مثل هذه الآيةِ: ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾، ويَتعدَّى بـ(على) مِثْل: فرَض الله علينا كذا وكذا. فإنْ تَعدَّى بـ(على) فهو بمَعنَى: أَوْجَب، وإن تَعدَّى باللَّام فهو بمَعنَى: أحَلَّ؛ لأنَّ الفَرْض في الأصل بمَعنَى التَّقدير، والمُقدَّر قد يَكون واجِبًا، وقد يَكون مُحلَّلًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أي: كسُنَّة الله تعالى، فنُصِب بنَزْع الخافِض]

يَعنِي: أنَّ الله تعالى نَفَى عنه الحرَج فيما أَحَلَّ له؛ لأنَّ هذا هو سُنَّة الله تعالى فيمَن سبَقَ، و﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: طَريقته، والمَعنَى: كطريقة الله تعالى فيمَن سبَقَ من الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ من الأنبياءِ: أن لَا حَرَجَ عليهم في ذلك تَوسِعة لهم في النِّكاحِ، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ فِعْلُه، ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾؛ مَقضِيًّا].

يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: إنَّ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كغَيْره من الأنبياءِ السابقين، فما أَحَلَّ الله تعالى له فإنه لا حرَجَ عليه فيه، يَعنِي: لا تَضييق لا مِن قِبَل الله تعالى ولا مِن قِبَل عِباد الله تعالى، وهكذا الأنبياءُ السابِقون ليس عليهم حرَجٌ فيما فرَضَ الله تعالى لهم يَفعَلون ما يَشاؤُون، ما دام الأمرُ مُحَلَّلًا لهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّه لا حرَجَ على النبيِّ ﷺ فيما أَحَلَّ الله تعالى له، وإن كان مُخالِفًا لما يَعتاده الناس؛ لعُموم قوله تعالى: ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ و﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ﴾؛ لأن (ما) اسمٌ مَوْصول، فكُلُّ ما أَحَلَّ الله تعالى للرسول ﷺ فلا حَرَجَ عليه فيه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه لا حرَجَ على الإنسان غير الرسول ﷺ فيما أَحَلَّ الله تعالى له؛ لأنَّ ما ثبَتَ في حقِّ النبيِّ ﷺ ثبَتَ في حَقِّ أُمَّته إلَّا بدليل، ولكن يَجِب على الإنسان أن يُراعِيَ أحوال الناس، وما يُستَنكَر عليه فيهِم، حتى لا يُعرِّض نفْسَه للذَّمِّ والقَدْح، فمُراعاة أحوال الناس أَمْرٌ لا بُدَّ منه إلَّا في الأمور الشَّرْعية، فإنَّ الواجِب على المَرْء إبانتُها وإظهارُها.

ويُراعِي الشخصُ ذمَّ الناس له -وليس ذمَّ الله تعالى فقَطْ- فبعض الأشياء

المُحلَّلة إذا فعَلها الإنسان صار خارِجًا عن المُروءة في عُـرْف الناس، ومُراعاة هذا الأمرِ لا نَأخُذُه من هذه الآيةِ، فمُـراعاة هذا الأمرِ أمرٌ لا بُدَّ منه، يَعنِي: افـرِضْ أن هناك شَيئًا حلالًا، لكن النَّاس يَنتَقِدونه عليك، وليس هو من الأمور الشرعية التي لا بُدَّ من إبانتها، فالأفضَلُ أن الإنسان أن يَدَعَ هذا.

مَسأَلةٌ: ما الجَوابُ عن حديثِ: «لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ»[1]؟

الجَوابُ: هذا من مُراعاة دَفْع المَفاسِد؛ لأنَّه إذا تَحقَّقتِ المَفسَدة فإن المَفسَدة لا يَجوز للإنسان أن يُمارِسَها يَجِب عليه الكَفُّ عنها، فلا تَكون داخِلةً في ما أَحَلَّ الله تعالى له.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَكليف النبيِّ ﷺ وأنه يَلحَقه الحرَجُ فيما لم يُحِلَّه الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾، فيُستَفاد من هذا: أنَّ الرسول ﷺ عبدٌ من عِباد الله تعالى، لا يَخرُج عن طاعته وشريعته، كما قال شيخُ الإسلام محمدُ بنُ عبد الوهَّاب: «إنَّ الرسول مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدٌ لا يُعبَد، ورسولٌ لا يُكَذَّب»[2]، وهو كذلك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن البَيان بالفِعْل أبلَغُ وأَقوَى من البيان بالقَوْل؛ تُؤخَذ من كونِ اللهِ تعالى زوَّج زينبَ بنتَ جَحْش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسولَه ﷺ، فإنَّ هذا أبلَغُ في الطُّمَأْنينة وثُبوت الحُكْم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ ما شرَعَه الله تعالى لرسوله ﷺ في هذه الآيةِ فهو مَشروع لَمن كان قَبْله؛ لقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾؛ ورُبَّما يُؤخَذ منها

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها، رقم (١٥٨٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، رقم (١٣٣٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) ثلاثة الأصول (ص:٣٨).

فائِدة أيضًا: وهي أن شَرْع من قَبْلنا شَرْع لنا؛ لأن الله تعالى جعَل هذا سُنَّة الأَوَّلين، وقد يُنازَع في ذلك، فيُقال: إن الله تعالى بيَّن أنما شَرَعه لنَبيِّه ﷺ، أو ما نفاه عنه من الحرَج فيما فرَض له، هو سُنَّة مَن قَبْلَه، ولا يَعنِي ذلك أن يُوافِقه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ أَمْر الله تعالى قد كُتِب وقُدِّر؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾، والمُراد بالأمر هنا الأمر الكَوْنيُّ.

• ● ❁ ● •

الآيـة (٣٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب:٣٩].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إعرابها: [﴿ٱلَّذِينَ﴾ نَعْتٌ للذين قَبْلَه]، أي: في قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُ﴾ أي: في الذين يُبلِّغون.

وقوله تعالى: ﴿يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾، جَمْع رِسالة، والمُراد بها المُرسَل به، فهم يُبلِّغون ما أَرسَلَهم الله تعالى به، والتَّبليغُ مَعناه: الإيصال، ومنه ما جاء في الحديث: «لَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ لأنَّ الخَشْية عِبادة، والعِبادة لا تكون إلَّا لله عَزَّوَجَلَّ، هـذا في الأَصْل مع أنَّ الخَشْية قد تكون غيـر عِبادة، قد تكون خَـوْفًا طبيعيًّا لا يَتعَبَّد به الإنسان الخائِف، فيُفرَّق بين خَشْية الإنسان للناس، وبين خَشْية الإنسان لله تعالى، قال: [فلَا يَخْشَـوْن مَقالة الناس فيمـا أَحَلَّ اللهُ لَهُمْ] وكذلك في غَيْرها.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾؛ حافِظًا لأعمال خَلْقه ومُحاسَبَتهم] إعرابُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، رقم (٣٤٦٤)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: (كفى) تَتعدَّى بالباء على أنه حَرْف جَرٍّ زائِدٌ، وهو كثير، وقد تَتعدَّى بنَفْسها إلى الفاعِل، كقول الشاعِر:

..... كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا[1]

فلَمْ يَأتِ بالباء، لكِنَّ الأكثَرَ أن يَأتِيَ بها.

من فوائد الآية الكريمة:

بِناءً على إعراب المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ (الَّذين) بدَلٌ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾، يَكون من فَوائِد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الثَّناء على الرسُل السابِقين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الثَّناء على مَن بلَّغ شيئًا من شريعة الله تعالى من غير الرُّسُل، وجهُ ذلك أنَّه إنَّما أُثنِيَ على الرُّسُل؛ لكونهم بلَّغوا الرِّسالة، ولم يَخشَوْا أحَدًا، فمَن كان مِثلَهم في ذلك فهو مَحَلُّ الثَّناء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ مِن صِفات الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام ألَّا يَخشَوْا أحَدًا في تبليغ الرِّسالة، وإنما يَخشَوْن الله تعالى في عدَم تَبليغه، لا يَخشَوْن الناس في تَبليغها، ويَخشَوْن الله تعالى في عدَم تَبليغها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ إبلاغ الرِّسالة من خَشْية الله تعالى، فإنَّه لولا خَشية الله تعالى ما بلَّغوا رِسالَتَه.

---

(١) البيت لسحيم مولى بني الحسحاس، انظر: الأدب المفرد للبخاري رقم (١٢٣٨)، والبيان والتبيين (١/ ٧٩)، وسر صناعة الإعراب (١/ ١٥١).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الرِّسالاتِ فيمَن سبَقَ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾، واعلَمْ أنَّه ما مِن أُمَّة من الأُمَم إلَّا أَرسَل الله تعالى إليها رَسولًا؛ لأَجْل أن تَنتَفيَ الحُجَّة عن الله تعالى وتَزول المَعذِرة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ حِفْظ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في غاية ما يَكون من الحِفْظ؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾، هذا إذا جعَلْنا (الحَسيب) بمَعنَى: (الحَفيظ الكافِي)؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، أمَّا إذا جعَلْنا (الحَسيب) بمَعنَى: (المُحاسِب)، فإنَّه يُؤخَذ منها فائِدة وهي: كَمال مُحاسَبة الله عَزَّوَجَلَّ عِباده، وأنه لا يَفوته شيءٌ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إِثْبات عِلْم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾، سَواء كان (الحَسيب) بمَعنَى: (المُحاسِب) أو بمَعنَى: (الحَفيظ)، فإنَّه لا مُحاسَبةَ إلَّا عن عِلْم، ولا حِفْظ إلَّا بعِلْم.

• • ❁ • •

الآيــة (٤٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٤٠].

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾: ﴿ مَّا ﴾ نافِية، وهل هي حِجازية أو غير عامِلة؟

الجَوابُ: غير عامِلة؛ لأنَّ العمَل لـ(كان) وليس لها، ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ ﴾ يَعني: رسولَ الله ﷺ ﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾، لم يَقُلْ: ما كانُ رسول الله. بل قال: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ ﴾ فتَحدَّث عنه باعتِباره شَخصًا من النَّاس، ثُمَّ قال بعد ذلك: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾، فأَثبَت له الرِّسالة.

وقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾: ﴿أَبَآ ﴾ بالأَلِف؛ لأنَّها خبرُ (كان)، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ فليس أبا زَيدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أي: والِده، فلا يَحرُم عليه التَّزوُّج بزَوْجته زَينبَ].

قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ تَبنِّيًا، ووِلادةً أيضًا؛ لأن أبناء الرسـول ﷺ الثلاثة تُوُفُّوا قبل أن يَبلُغـوا الرُّجولة، كلُّهم تُوُفُّوا وهُمْ صِغار، وقال بعضُ أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إن المُراد: أبا أحَدٍ من رِجالكم تَبنِّيًا؛ لأنه تعالى قال: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾، فأَضاف الرِّجال إليه، ولم يَقُل: أبا أحَدٍ من الرِّجال.

وعلى هذا فلا يَكـون في الآية دَليل على أنَّه ليس أبًا لأحَـد من الرِّجال نَسَبًا وتَبنِّيًا، وهذا هو الأقرَبُ: أن المُراد: أبا أحَد من رِجالكم تَبنِّيًا؛ لأَجْل أن يَنفِيَ ما كان مَعروفًا عندهم من أنَّ زَيدَ بنَ حارِثةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابنٌ لرسول ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ تَقـدَّم فيمـا سبَق في قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أنَّ بعض السَّلَـف قرَأَ: «وَهُوَ أَبٌ لَهمْ» فكيـف يُجمَع بَينَه وبين هذه الآيةِ؟

الجَمْع بينهما أن يُقال: هنا ليس أبًا أحَدٍ من الرِّجال بالتَّبنِّي، ولكنه أبٌ للمُؤمِنين باعتِبار التعليم والتَّوْجيه والإرشاد.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾] أفادَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ مَنصوبة بفِعْل مَحذوف تَقديرُه: كان رسولَ الله.

وقوله تعالى: ﴿رَّسُولَ﴾ بمَعنَى: مُرسَل؛ أي: مُرسَل اللهِ عَزَّوَجَلَّ لعِباده، ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ يَعنِي: وكان خاتَمَ النَّبيِّين، قال: [فلا يَكون له ابنٌ رجُلٌ بعدَه يَكون نَبيًّا] وهذا التَّفسيرُ الذي ذهَب إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه نظَر؛ لأنه يَقول: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إِذَنْ ليس له ولَدٌ بعده يَكون رجُلًا فيَكون نَبيًّا، وهذا بِناءً على أنَّه يَلزَم أن يَكون ابنُ نَبيٍّ بعدَه نبيًّا، وهذا ليس بلازِم، فإنَّ بعض الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ليس كلهم أولادُهم أنبياءُ، صحيح أنَّ كثيرًا من الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ صار أولادُه أنبياءً كإبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مثلًا، ولكن لا يَعنِي ذلك أن جميع الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ يَلزَم من كونهم أَنبياءَ إذا خلَّفوا أَولادًا أن يَكونوا أنبياءً، ولكن معنى قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أنه لا نَبيَّ بعده، هذا مَعنَى الآية التي لا يُحتَمَل غيرُه.

وقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ﴾ فيها قِراءَتان إحداهُما بالكَسْر والثانية بالفَتْح، وهي عِندي في التفسير بالكَسْر «وخاتِم النَّبيِّين» على أن (خاتِم) اسمُ فاعِل، يَعنِي: الذي يَختِمُهم، قال: [وفي قِراءة بفَتْح التاء، كآلة الخَتْم، أي: به خُتِموا] ففَتْح التاء ﴿وَخَاتَمَ﴾ والخاتَم ما يُختَم به الشيء، مثل الخاتَم الذي يَكون في الإِصبَع، وكُتِب عليه اسمُ صاحِبه، فإذا أَراد أن يَختِم الكِتاب ختَمَه بهذا الخاتَم، والنبيُّ ﷺ خاتِم وخاتَم، فهو خاتِم؛ لأنه آخِرُهم، وخاتَم كأنه طَبْع على الرِّسالات، بعد ذلك فلا يُمكِن أن يَأتِيَ بعده رِسالة، وهذه هي فائِدة القِراءَتَيْن.

وقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ هذا كما تَرَوْن في القُرآن، وفي السُّنَّة أيضًا أدِلَّة كثيرة تَدُلُّ على أنه خاتَم الأنبياء عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وعلى هذا فلا نَبيَّ بعدَه.

فإن قلتَ: أَلَمْ يَثبُت أنَّ عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَنزِل في آخِر الزمان وهو نَبيٌّ؟

فالجَوابُ: بلى، يَنزِل وهو نَبيٌّ، لكن نُبوَّة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم تَتجدَّد بعدُ، بل كان نبيًّا من قَبلِ أن يُرفَع، ولم يَتجَدَّد له نُبوَّة بعد نُبوَّة النبيِّ ﷺ، فكان النبيُّ ﷺ خاتَمَ الأنبياء، وهل يَأتي عِيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بشَريعة جَديدة؟ لا.

فإن قُلتَ: أَلَيْس يَضَع الجِزْية، ويَكسِر الصَّلِيب، ويَقتُل الخِنزير، ولا يَقبَل إلَّا الإسلام؟

فالجَوابُ: بلى! وهذه الأحكامُ مُخالِفة لحُكْم الشَّريعة الآنَ، فهل مَعنَى ذلك بأنه يَأتي بأحكام مُتجَدِّدة؟

الجَوابُ: لا؛ لأنَّ إخبار النَّبيِّ ﷺ بذلك[1] يَكون إقرارًا له، فيَكون هذا من سُنَّة

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، رقم (٢٢٢٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ رقم (١٥٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الرسول ﷺ؛ لأنه من المَعلوم أنَّ سُنَّة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هي قوله وفِعْله وإقرارُه، فإذا قال ذلك عن عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُقرِّرًا له صار ذلك من سُنَّته، وحينئذ فلم يَأتِ عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بنُبوَّة جَديدة، ولم يَأتِ بتَشريع جَديد، ولا إشْكالَ في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾: (كان) هنا مَسلوبة الزَّمان، وإنَّما يُؤتَى بها لتَحقُّق الصِّفة، وهي العِلْم، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ منه بأَنْ لا نَبيَّ بعدَه] يَعنِي: من العِلْم الذي عَلِمه اللهُ تعالى أنه لا نَبيَّ بعده؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يَشمَل حتى أعمال بَني آدَمَ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦]، قَبْل أن يَعمَله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وإذا نزَلَ السَّيِّد عِيسَى يَحكُم بشَريعتهم] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إذا نَزَل السَّيِّد] والله ما وصفه بهذا، ففي سورة آل عمرانَ: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران:٤٦] قال: ﴿وَجِيهًا﴾ لكن ما قال: سَيِّد.

وعلى كل حالٍ: أنا أَخشَى أنَّ هذه الكلِمةَ دخَلت على المُفَسِّر من عِبارات النَّصارى؛ لأنَّهم دائِمًا يَقولون: السَّيِّد المَسيح، السَّيِّد المَسيح. ولا شَكَّ أنَّه سَيِّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنه نَبيٌّ من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَحكُم بشَريعته] وحِينئذ لا يَأتي بشَريعة جَديدة، فلا يُنافِي الآيةَ: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وقد علِمتُم أنه يَرِد على قَضية نُزول عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَرِد عليها إيرادانِ:

أوَّلًا: أنَّه نَبيٌّ فكيف يَكون نَبيًّا والرسولُ ﷺ هو خاتَمُ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ثانِيًا: أنه يَحصُل به تَغيير لبعض أَحكام الشَّريعة، وأَجَبْنا عن ذلك.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إِبْطال بُنوَّة الأَدْعياء؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾.

وهل يُستَفاد منها أنَّ الرسول ﷺ ليس أبًا لأَحَد من الرَّضاع أو لأَحَد من النَّسَب؟

الجَوابُ: لا يُستَفاد؛ لأنه ثبَت أن له أبناءً، لكن بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقولون: إنَّ أبناءَه لم يَبلُغوا أن يَكونوا رِجالًا، فالآية عامَّة، ولكنه تَبيَّن لي أنَّ هذا لا يَصِحُّ أيضًا؛ لأنَّ الرسول ﷺ له أبناءٌ كانوا رِجالًا، ولهم ذُرِّيَّة، وهم: الحَسَن والحُسَين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فالرسول ﷺ قال: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ»[1]، فسمَّاه ابنًا، وقد عقَّ أيضًا عن الحَسَنِ والحُسَينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو بنَفْسه[2].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ثُبوت رِسالة النبيِّ ﷺ؛ لقَوْله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ رسول الله ﷺ آخِرُ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ لقوله تعالى: «وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ابني هذا سيد»، رقم (٢٧٠٤)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الضحايا، باب في العقيقة، رقم (٢٨٤١)، والنسائي: كتاب العقيقة، باب كم يعق عن الجارية، رقم (٤٢١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه أَفضَلُ الأنبياء على قِراءة: ﴿وَخَاتَمَ﴾ بالفَتْح؛ لأنَّ الخاتَم هو الطابَع على الشيء، وهو الشيءُ الذي يَكمُل به الشيء ويَنتَهِي؛ ولهذا وصَفَ النبيُّ ﷺ نَفْسه مع الأنبياء بأنه كأنه كقَصْر مَشيد يَطوف به الناس ويَقولون: ما أجمَلَ هذا القَصرَ! إلَّا أن فيه مَوضِعَ لَبِنة لم يَتِمَّ إلَّا مَوضِع هذه اللَّبِنةِ! فقال الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ»(١).

فبه تَمَّتِ الرِّسالات وكمَلَت؛ ولهذا دِينُ الرسولِ ﷺ لاحَظوا أن دِين الرسول ﷺ شامِل لجَميع مَحاسِن الأديان، فكُلُّ مَحاسِن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ التي تُوجَد فيها من نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مُحَمَّد ﷺ، فإنَّ دِينه شامِل لجَميع مَحاسِنهم، والدليلُ على ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾، فكلُّ هُدَى الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قدِ اقتَدَى به النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إذَنْ فما من صَلاح في جميع الأديان وكمال إلَّا وجاء به مُحَمَّد ﷺ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه لا نَبيَّ بعد مُحَمَّد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، «وَخَاتِم».

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ مَنِ ادَّعى النُّبوَّة بعده فهو كاذِب، ولو جاء بما جاء به من الخَوارِق؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وهذا خَبَر، وخبَرُ الله تعالى صِدْق لا يُمكِن أن يَتطَرَّق إليه الكَذِب بوَجْه من الوُجوه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ مَن صدَّق مُدَّعِي النُّبوَّة بعد مُحَمَّد ﷺ فهو كافِر؛ لأنه مُكذِّب للقُرآن، ومُكذِّبُ القُرآن كافِر.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ، رقم (٣٥٣٥)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، رقم (٢٢٨٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنه لا نَبيَّ ولا رسولَ بعد مُحَمَّد ﷺ، أو نَكتَفِي بالفائِدة التي قَبلَها، ولا نبيَّ ولا رَسولَ أيضًا إذا انتَفَتِ النُّبوةُ انتَفَتِ الرسالةُ، إذ إن الرسول نَبيٌّ وزِيادةٌ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات النُّبوَّات السابِقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، و﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جَمْع نَبيٍّ، وهُم كَثيرون جِدًّا، لكن الرُّسُل منهم ثلاثُ مِئة وبِضعة عشَرَ رجُلًا، لم يُذكَر منهم في القُرآن إلَّا خَمْسة وعِشْرون، وكلُّ مَن ذُكِر في القُرآن من الأنبياءِ فهو رَسولٌ حتى وإن لَمْ يُوصَف بالرِّسالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨]، فدَلَّ هذا على أن كل مَن قَصَّ الله تعالى علينا نَبأَه في القُرآن فهو رسولٌ حتى وإن لم يُوصَف بالرِّسالة مثل: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم:٤١]، وما أَشبَهَها.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: عُموم عِلْم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ إقرار الله تعالى للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وتَأييده له شاهِدٌ لِصِدْق رِسالته؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، فلو عَلِم الله تعالى أن مُحَمَّدًا غيرُ رسولٍ لكان كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٦]، ﴿ٱلْوَتِينَ﴾: عِرْق في القَلْب لو قُطِع مات، فكَوْن الله تعالى يُؤيِّده ويَنصُره ويَفتَح على يَدَيْه، وهو يَقول: إنه رسول الله تعالى، وإنه أَذِن له باستِباحة أَموالكم، وأَخْذ رِقابكم إذا لم تَدخُلوا في الإسلام، ولم تُؤدُّوا الجِزْية. يَكون هذا آيةً من آيات الله تعالى له؛ ولهذا خَتَم الآية هذه التي أَثبَتَت له الرِّسالة بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: وُجوب مُراقَبة العبد رَبَّه؛ تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، فأنت إذا عَلِمت أنَّ الله عالِمٌ بكُلِّ شَيء، ومِن الشَّيءِ: قَولُك، وفِعْلك، وفِكْرك، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾، واللهِ لو كان عِندنا هذا الإيمانُ ثابِتً راسِخًا لكان الإنسان تَقِلُّ مَعاصيه ومُخالَفته، لكن الإنسان في غَفْلة، إذا علِمت أنك تَحرَّكت عَلِم الله تعالى بِكَ، إن سكَنْت عَلِمَ اللهُ تعالى بك، إن نطَقْت عَلِم اللهُ تعالى بك، إن سكَتَّ عَلِمَ الله تعالى بكَ، إن فكَّرْتَ عَلِم الله تعالى بك، هذا يُوجِب لك مُراقَبة الله عَزَّوَجَلَّ، وألَّا يَفقِدك حيث أَمَرَك، ولا يَراك حيث نَهاك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: الرَّدُّ على غُلاة القَدَرية؛ فإنهم أَنكَروا عِلْم الله تعالى بما يَصنَعه العِباد قبل وُقوعه مِنْهم، والآيَةُ هذه فيها رَدٌّ عليهم: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: سَعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، سَعته في كل شيء، في صِفاته، وفي أسمائه، وفي أفعاله، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٣٠]، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٧]، فتُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ الذي بكُلِّ شَيْء عَليم لا شَكَّ أنه واسِع.

• • ❁ • •

الآيتان (٤١، ٤٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢].

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قال ابنُ مَسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا سمِعْـت الله تعالى يَقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأَرْعِها سَمْعك، فإمَّا خَيْـرٌ تُؤمَر به، وإمَّا شَرٌّ تُنهَى عنه»(١)، وإذا نادَى الله تعالى المُؤمِنين بوَصْف الإيمان فإن هذا من باب الإغراء لهم على امتِثال الأَمْر إن كان المُوجَّه إليهم أَمْرًا، وعلى اجتِناب النهيِ إن كان المُوجَّه إليهم نَهيًا؛ لأنك إذا ذكَرْت الإنسان بوَصْف يَقتَضي الامتِثال فمَعنَى ذلك أنك تُغريه بأن يَمتَثِل، وإذا خاطَب الله تعالى المُؤمِنين بوَصْف الإيمان كان ذلك دَليلًا على أنها ما خُوطِبوا به من مُقتَضيات الإيمان، وأن مُخالَفته نَقْص في الإيمان، وإذا صدَّر الله تعالى الحُكْم بالنِّداء كان في ذلك دليلٌ على أَهمِّيَّته والاعتِناء به ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾.

والذِّكْر كما سبَق يَكون باللِّسان، ويَكون بالقَلْب، ويَكون بالجَوارِح، وقوله تعالى: ﴿ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ غيـرُ مُقيَّد بمِئة ولا مِئَتَيـن ولا أَلْفٍ ولا أَلْفَيْـن ﴿ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾، والإنسانُ العاقِل يُمكِنه أن يَذكُر الله تعالى دائِمًا، والإنسان الغافِل يَغفُل عن ذلك.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد رقم (٨٦٦)، وسعيد بن منصور في السنن رقم (٥٠) [ط. الصميعي]، وابن أبي حاتم في التفسير (١/ ١٩٦).

وقوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ هذا ذِكْر خاصٌّ بعد عامٍّ في العمَل وفي الزمَن، أمَّا في العمَل فإنَّ التَّسبيح من الذِّكْر فهو تَخصيص بعد تَعميم، وأمَّا في الزمَن فهنا خَصَّه بالبُكْرة والأصيل.

وأمَّا الذِّكْر فأُطلِق، وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠].

وقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ﴾ التَّسبيحُ مَعناه: التَّنزيهُ عن كل نَقْص وعَيْب، ومن العَيْب مُشابَهة المَخلوقين أو مُماثَلة المَخلوقين، فأنت إذا قُلْت: سُبحانَ الله. فالمَعنَى أنك تُنزِّه الله تعالى عن كل نَقْص وعَيْب، ومِنه -أي: من العُيوب- مُماثَلة المَخلوقين، فهو مُنزَّهٌ عن مُماثَلة المَخلوقين، وعن كل نَقْص في صِفاته، فهو سَميع مُنزَّهٌ عن نَقْص السَّمْع، عليم مُنزَّهٌ عن نَقْص العِلْم، وهكذا بَقيَّة الصِّفات.

وقوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أوَّل النَّهار وآخِره] يَعنِي: البُكْرة أوَّلُ النَّهار، والأصيلُ آخِرُ النَّهار، وعلى هذا فيَكون الله عَزَّوَجَلَّ قد أَمَرَنا أن نُسبِّحه الصَّباحَ والمَساءَ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيان العِناية بالذِّكْر؛ لأن الله تعالى عند الأَمْر به صَدَّره بالنِّداء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الذِّكْر من الإيمان بالله تعالى ومن مُقتَضياته؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الإيمان يَزيدُ به -أَيِ: الذِّكْر-، وجهُه: أنَّ كل ما كان من مُقتَضيات الشيء فإنه يَزداد به.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ نَقْص الذِّكر نَقْص في الإيمان.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: مَشروعية ذِكْر الله تعالى بكثرة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: مَشروعية التَّسبيح؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾، لكن في الغُدوِّ والآصال، قال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ ولا شَكَّ أنَّ التَّسبيح في كل وَقْت، لكن كثرة التَّسبيح في أوَّل اليَوْم وآخِره.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَنزُّهُ الله تعالى عن كل نَقْص وعَيْب؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾، فأَمَرنا بأن نُنزِّهَه؛ لأنه مُستَحِقٌّ لذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الذِّكْر حَياة للقَلْب؛ لأن الله تعالى أَمَر به على وَجْه الكَثْرة، فلولا الفائِدة العَظيمة منه ما أَمَر به على سَبيل الكَثْرة.

الآيـة (٤٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب:٤٣].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ ﴾ أي: يرحمكم ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾؛ أي: يَستَغفِرون لكم] فسَّرَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الصلاة بالنِّسبة إلى الله تعالى: بالرَّحْمة، وبالنِّسبة إلى المَلائِكة: بالاستِغْفار، فقال تعالى: ﴿يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ يرحمكم، ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ يَستَغفِرون لكم، وهذا فيه نظَرٌ، والصواب أنَّ مَعنَى ﴿يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: يُثني عليكم في المَلَأ الأَعْلى، والمَلائِكة أيضًا يُثنُون عليكم، هذا هو مَعنَى الصلاة من الله تعالى ومن المَلائِكة أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ فيها إِشْكال من حيث الإعراب فقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ مَرفوعة، وابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول:

وَإِنْ عَلَى ضَمِيرِ رَفْعٍ مُتَّصِلْ ... عَطَفْتَ فَافْصِلْ بِالضَّمِيرِ المُنْفَصِلْ

أو فاصِلٍ ما..... ..... (١)

وهُنا لم يَأتِ بالضمير، وما قال: (هو الذي يُصلِّي عَلَيْكم هو ومَلائِكَتُه)،

---

(١) الألفية (ص:٤٨).

أو فاصِل ما، وهذا داخِل في قوله: (أو فاصِل ما) والفاصِل هنا هو الجارُّ والمَجرور؛ ولذلك إذا قُلْت: قُمْتُ وزَيْدٌ. هذا ضعيف، والأَرجَح منه أن تَقول: قُمتُ وزَيْدًا. على أنها مَفعول معه، أمَّا إذا فصَلْت فقلت: قُمْـت أنا وزَيْدٌ. أو قُمْـتُ في الناس خَطيبًا وزَيْدٌ. وفصَلْتَ، فهذا لا بأسَ به، وهنا فَصَل بالجارِّ والمَجرور.

وقوله تعالى: ﴿يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ أَضاف الله تعالى المَلائِكة إليه من باب التَّشريف لهم؛ لأنهم ملائِكته، وهم أيضًا مَخلوقون له، والمَلائِكة كما تَقدَّم هم عالَم غَيبيٌّ خلَقَهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من نُور، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

وهل يُمكِن أن يَكونوا من عالَمِ الشَّهادة؟

نعَمْ، كما جاء جِبـريلُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى مَـرْيَمَ عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٧]، وجاء إلى النبيِّ ﷺ يَسـأله عن الإسلام والإيمـان والإحسان في صورة رجُلٍ؛ شَديدِ بَياضِ الثِّياب، شَديد سَـواد الشَّعْر، لا يُرى عليه أثَرُ السَّفَر، ولا يَعرِفه أحَدٌ من الصَّحابة[1]، وكما جاء في صُورة دِحيةَ الكَلْبيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[2]، وغير ذلك، لكنَّ الأصل أنَّهم عالَمٌ غَيبيٌّ.

ولهم أَجْساد، ولا جسَـدَ إلَّا بِرُوح، فلَهُم أَجْساد وأَرْواح؛ ولهـذا سَمَّى الله تعالى جِبـريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رُوحًا، ورآه النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على خِلْقته مَرَّتَيـن، وله

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦٣٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، رقم (٢٤٥١)، من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

سِتُّ مِئة جَناح[1] قد سَدَّ الأُفُق[2].

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ اللَّام في قوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ للتَّعليل، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِيُديم إِخراجه إيَّاكُم] إنما صرَف اللَّفْظ إلى مَعنَى الإِدامة؛ لأنه يُخاطِب المُؤمِنين، وإذا كان يُخاطِب المُؤمِنين فإنهم قد أُخرِجوا من الظُّلُمات إلى النُّور من الأَصْل، ولكن قد يُقال: إنه لا حاجةَ إلى هذا التَّأويلِ، وأنَّ مَعنَى قولِه تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ أي: ليَزيدَكم عِلْمًا وإيمانًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ أي: الكُفْر، ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: الإِيمان]، لا شَكَّ أنَّ الكُفْر ظُلُمات، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، ولا شَكَّ أيضًا أنَّ الإيمان نُور، ولكن الآية أعَمُّ ممَّا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهو قال: ليُخرِجَكم من ظُلمات الجَهْل والكُفْر إلى نُور العِلْم والإيمان، فيَكون المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد قَصَّر أو تَقاصَر في تَفسيره للآية، والصواب أنه يُخرِجهم من ظُلُمات الجَهْل والكُفْر إلى نور العِلْم والإيمان.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾: (كان) يَعنِي: الله عَزَّوَجَلَّ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جارٌّ ومَجرور مُتعلِّق بـ﴿رَحِيمًا﴾ قُدِّم عليه للحَصْر؛ لأن هذه الرحمةَ رَحمة خاصَّة للمُؤمِنين، تَقتَضي العِناية بهم وتَوفيقهم وهِدايتهم إلى الخَيْر، وأمَّا الرحمة العامة فهي للمُؤمِنين وغير المُؤمِنين، لكن الرحمة الخاصَّة للمُؤمِنين فقَطْ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم (١٧٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معنى قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، رقم (١٧٧)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فَضيلة الإيمان، وأنه سبَب في ثَناء الله تعالى وملائكته على عَبْده؛ تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ بعد أن قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ الكلام لله عَزَّوَجَلَّ؛ تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿يُصَلِّى﴾؛ لأنَّ الصلاة منه تعالى هي: الثَّناء على العَبْد في المَلأ الأَعْلى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: مَحبَّة الله تعالى للمُؤمِنين، ومَحبَّة المَلائِكة لهم؛ تُؤخَذ من الثَّناء عليهم، والصلاة عليهم؛ لأن مَن يُحِبُّك يُثني عليك، ومَن يُبغِضُك يَذُمُّك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّه يَجِب علينا مَحبَّة الله عَزَّوَجَلَّ ومَلائِكته؛ لما لَهُمْ علينا من الفَضْل والإحسان، فإنَّهم يُصلُّون علينا، فهذا يَقتَضي أن نُحِبَّهم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الملائِكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فضيلة المَلائِكة؛ تُؤخَذ من قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ فالإِضافة للتَّشرِيف والتَّكريم، ففيه فَضيلة المَلائِكة؛ لأن الله تعالى أَضافهم إليه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات العِلَل والحِكَم لأفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الجَهْل والكُفْر ظُلْم؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام:١٢٢]؛ أي: في الجَهْل، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فَضيلة المُؤمِنين، وأنَّ لهم عِند الله تعالى رَحمةً خاصَّةً؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الحَثُّ على الإيمان والتَّرغيب فيه؛ تُؤخَذ من قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، فإنَّ الله تعالى ما أَخبَرَنا هنا في هذه الآيةِ الكَريمةِ لُمجَرَّد أن نَعلَم أنه رَحيم بالمُؤمِنين، ولكن من أَجْل أن نَتعَرَّض لهذه الرَّحمةِ الخاصَّة، فنكون من المُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات الرحمة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: الرَّدُّ على الأَشعَرِيَّة ونَحوِهم ممَّن يُنكِرون وَصْف الله تعالى بالرَّحْمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ﴾ فالضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ﴾ يَعود على (الله)، و(الرحيم) خبرٌ لُمبتَدَأ، فهو وَصْفه.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٤].

قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ الضَّمير يَعود على المُؤمِنين، والتَّحيَّة مَعناها: الدعاءُ بالبَقاء، فإذا قال: حيَّاكَ؛ أي: دعا لكَ بالبَقاء، ثُم صارت اسْمًا لما يُستَقبَل به الضَّيْف، أو الداخِل، أو ما أَشبَه ذلك ممَّا يَدُلُّ على الإكرام، فالتَّحيَّة إذَنْ في الأصل: الدُّعاء بالبَقاء والحَياة، ثُمَّ نُقِلت في العُرْف إلى كل ما يُحيَّا به المَرْء، ويُستَقبَل به من عِبارات التَّكريم، فتَحيَّتُهم؛ أي: تَحيَّة المُؤمِنين.

﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ يَلقَوْن الله تعالى، يَوْم يَلقَوْن الله تعالى، وذلك يَوْم القِيامة، سواءٌ كان في عرَصات القِيامة، أو كان بعد دُخولهم الجَنَّة، فتَحيَّتُهم حينئذٍ ﴿سَلَٰمٌ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بلِسان المَلائِكة] يَعنِي: أنَّ المَلائِكة همُ الذين يُسلِّمون على هؤلاء بأَمْر الله تعالى، فإذا سلَّموا على هَؤلاء بأَمْر الله تعالى صار كأن المُسلِّم هو الله تعالى، ولكن هذا صَرْف للآية عن ظاهِرها، فإن ظاهِر الآية أن الذي يُسلِّم هو الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا كان السَّلام من الله تعالى فهو خبَرٌ مَحْضٌ، وليس دُعاءً؛ لأن الله تعالى لا يَدعو أحَدًا، ولكن يُخبِر بالسَّلام الدائِم الذي لا يَعتريه أيُّ نَقْص أو أي خَوْف.

أمَّا إذا كان مِن الملائِكة فإنه يَحتَمِل الخبَر، ويَحتَمِل الدُّعاء، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ

عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤].

إنَّما الصَّواب -بلا شَكٍّ- أنَّ هذا السلامَ من الله تعالى؛ لأنَّه يَقول: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾، المُلاقَى هو الذي يُسلِّم، وهو الذي يُحيِّي هؤلاءِ، ولا شَكَّ أنَّ الربَّ عَزَّوَجَلَّ إذا قال لهم: سَلام عليكم. سيَنزِل عنهم كلُّ خَوْف؛ ولهذا تُسمَّى الجَنَّة دارَ السَّلام، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥]؛ لأنها دار سالِمة من كُلِّ آفَةٍ، لا فيها مرَضٌ، ولا فيها مَوْتٌ، ولا فيها هرمٌ، ولا فيها نَقْصٌ في الرِّزْق، بل فيها ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أذُنٌ سَمِعتْ، ولا خطَرَ على قَلْب بشَرٍ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

إِذَنْ: لَمَّا قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: من الآفات ذكَرَ بعد ذلك: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾، وهذا تَحْلية بعد تَخْلية، حين أَخبَرَهم أنهم سالِمون من كُلِّ آفَةٍ بيَّن أنه أَعَدَّ لهم أَجْرًا كريمًا، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو الجَنَّة] والأَجْر بمَعنَى: الثَّواب، وهو ما يُعطَى الأجيرَ في مُقابَلة عمَله، ويُسمَّى أجرًا، ويُسمَّى أُجْرةً، ولكن سَبَق لنا مَرَّاتٍ كثيرةً: أنَّ أَجْر العامِلين على عمَلهم ليس من باب المُعاوَضة؛ لأنه لو كان من باب المُعاوَضة لكان نِعْمة واحِدة من نِعَم الله تعالى على العَبْد تَستَوعِب جميع عمَله، بل لو كان على سبيل المُعاوَضة لكان تُوفيقُك للعمَل نِعْمة يَحتاج إلى أَجْر؛ ولهذا قال بعضُهم:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ[1]

---

(١) الأبيات لمحمود الوراق، انظر: الشكر لابن أبي الدنيا رقم (٨٣)، والصناعتين لأبي هلال العسكري (ص:٢٣٢)، وشعب الإيمان للبيهقي رقم (٤٠٩٩).

وثَبَت عن النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قال: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»، قالوا: ولا أَنْت يا رَسولَ الله؟ قال: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ»(١).

إِذَنْ: فالعمَل نَصِفُه إذا لم يَكُن عِوَضًا بأنه سبَب، وليس بعِوَض؛ ولهذا صرَّح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في عِدَّة آيات بأن الثَّواب هذا جَزاءً بما كانوا يَعمَلون؛ أي: بسبَب ما كانوا يَعمَلون، فالباء للسَّبَبيَّة في قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، والباء للعِوَض في قول الرسول ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»، وبهذا يُجمَع بين النَّصَّيْن.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾ الأَجْر هو الكريمُ أَمِ الكريمُ هو المُتفَضِّلُ بالأَجْر؟

الجَوابُ: يَجِب أن نَعلَم أن الكريم يُطلَق على الجَوَاد الباذِل للمال، ويُطلَق على الشيء الحسَن، ومنه قوله ﷺ لمُعاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»(٢) يَعني: الحَسَنة، فقوله تعالى: ﴿أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾؛ أي: حسَنًا، فما وجهُ كرَم هذا الثَّوابِ أو هذا الأَجْرِ؟

الجَوابُ: أنَّ الله تعالى جعَل الحسَنة بعَشْر أمثالها إلى سَبعِ مِئة ضِعْف إلى أَضعاف كثيرة، هذا من وَجْه، ومن وَجْهٍ آخَرَ أنَّ مُدَّة بقاء الإنسان في الدنيا بالنِّسبة للآخِرة ليست بشَيْء إطلاقًا ولا يُنسَب، فالرسول ﷺ يقول: «لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1]، فـ«مَوْضِعُ السَّوْطِ» السَّوْط -كما يُعرَف- حوالي مِتر، خَيْر من الدُّنيا وما فيها، إذَنْ فكَرَم هذا الثوابِ يَعنِي: لا يُنسَب العمَل إليه؛ لأنه كَرَم واسِع لا نِهايةَ له ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، اللهُمَّ اجعَلْنا وإيَّاكم منهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات البَعْث؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثْبات كلام الله تعالى، وأنه يَتكَلَّم؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَلَٰمٌ﴾، ويُؤيِّده قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]؛ لأنه يَتكَلَّم به تعالى، ويَقوله قولًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: البُشْرى العَظيمة للمُؤمِنين، وأنَّ الله نفسه جَلَّ وَعَلَا يُحَيِّيهم بهذه التَّحيَّةِ؛ لقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾، لو أنَّ مَلِكًا من مُلوك الدُّنيا وعَدَك بهذا، وقال: إنه سيُحَيِّيك بالسَّلام، ويُقدِّم لك القِرَى الكريم الحسَن كيف يَكون فرَحُك؟! فكيف إذا كان الله عَزَّوَجَلَّ يُخبِر عن نفسه بأنه سيُحَيِّي المُؤمِنين بهذه التَّحيةِ مع تَقديم هذا الأَجْرِ العظيمِ؛ ولهذا تُعتبَر هذه الآيةُ فيها بِشارة، وهي من فَوائِدها: البِشارة العُظمى للمُؤمِنين، بأن الله تعالى يُحَيِّيهم، ويُعِدُّ لهم الأَجْر الكَريم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الآخِرة فيها آفاتٌ وأذًى يَسلَم منها مَن يَسلَم ويَعطَب فيها مَن يَعطَب؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾، أمَّا غيرُهم فلا سَلامَ لهم؛ لأنهم يُعذَّبون في النار، والعِياذُ بالله.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الجَزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الأَجْر الذي أَعَدَّه الله تعالى للمُؤمِنين أَجْر حسَن، بل هو كما قال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾، يَعني: أحسَن شيء، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

الآيتان (٤٥، ٤٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

ثُمَّ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ تَشريفًا له وإظهارًا لنُبوَّته.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ جَمَع له بين الوَصْفين؛ النُّبوَّة والرِّسالة على وَجْه صريح، وإلَّا فلو وُصِف بالرِّسالة وحدَها لتَضمَّنَت وَصْفه بالنُّبوَّة؛ لأنَّ كلَّ رَسول نبيٌّ، وليس كل نَبِيٍّ رَسولًا، لكن الجَمْع بين الوَصْفين أَوْلى على وجه النَّصِّ والتَّعيين، وفي حديث البَراءِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -فيما يُقال من الذِّكْر عند النَّوْم-؛ أنَّ النبيَّ ﷺ علَّمه إذا أَوَى إلى فِراشه أن يَقول مِمَّا يَقول: «آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»، فلمَّا أعادَها عليه البَراءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «آمَنْتُ بكِتابِكَ الَّذي أَنزَلْتَ وبِرَسولِكَ الَّذي أَرْسَلْتَ»، فقال ﷺ له: «وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»[1]، قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: لأَجْل أن يَجمَع له بين وَصْفَيِ النُّبوَّة والرِّسالة على وجهِ التَّعيين؛ لأنَّ دَلالة الرِّسالة على النُّبوَّة من باب دَلالة الالتِزام، وأمَّا دَلالة النُّبوَّة على النُّبوَّة فهو من باب دَلالة النَّصِّ والتَّعيين، هذا من وَجْه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء، رقم (٢٤٧)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٠).

وجهٌ آخَرُ: أنَّه إذا قال: (وَرَسُولِكَ الَّذي أَرْسَلْتَ) لم يَكُن نصًّا في الإيمان بمُحمَّد ﷺ، إذ قد يَجوز أن يُراد به الرسولُ المَلَكيِّ دون الرسولِ البَشَريِّ.

هنا يَقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، ولم يَقُل: (يا أيُّها الرسولُ إنا أَرسَلناكَ)؛ ليَجمَع له بين وَصفَيِ النُّبوَّة والرِّسالة على سبيل التَّعيين والنَّصِّ، لكن انظُرْ إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [المائدة:٦٧]، حيثُ قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، ثُمَّ قال تعالى: ﴿بَلِّغۡ﴾؛ لأنَّه إنما يَأمُره بالبَلاغ، وهذا يُناسِب الرِّسالةَ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ على مَن أُرسِلْتَ إِلَيْهِم]، وكلِمة ﴿شَٰهِدٗا﴾ حال من الكاف في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، والشاهِدُ يُطلَق على المُخبِر، ويُطلَق على الحاكِم، والنبيُّ ﷺ شاهِد مُخبِر حاكِم، فهو مُخبِر عن الله عَزَّوَجَلَّ بما أَرسَله به، وكذلك مُخبِر عمَّن أُرسِل إليهم، بالقَبول أو الرَّفْض، وكذلك هو حاكِم، فإن الحُكْم لله تعالى ورسولِه ﷺ.

والدَّليلُ على أنَّ الشاهِد بمَعنَى: الحاكِم قولُه تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٢٦-٢٧]، إذَنْ (شاهِد) بمَعنَى: (مُخبِر) و(حاكِم)، فهو مُخبِر عن الله تعالى، ومُخبِر عن عِباد الله تعالى، مُخبِر عن الله تعالى بما أَوحاه إليه، ومُخبِر عن عِباد الله تعالى بالقَبول أو الرَّفْض.

وكذلك هو شاهِد على مَن سبَقه من الأُمَم في تَبليغ رِسالات الرُّسُل، وفي تكذيب قَوْمهم لهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة:١٤٣]، إذَنْ: شاهِد بما أَوْحاه الله تعالى إليه، وحاكِم به، وشاهِد على مَن أُرسِلَ إليهم، وشاهِد على مَن سبَقه مِن الأُمَم.

وقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ مَعطوف على ﴿شَٰهِدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾، أي: أَرسَلْناك مُبشِّرًا، والبِشارة تَقتَضي أربعة أُمور: مُبشِّر، ومُبشَّر، ومُبشَّر به، وسبَب يُوصِل إلى المُبشَّر به، فالرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: مُبشِّر، فإذا كان الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُبشِّرًا، فلا بُدَّ أن يَكون هناك مَن يُبشِّره، وهم الذين أُرسِل إليهم، واتَّبَعوه على ما دعا إليه، ولا بُدَّ أن يَكون هناك مُبشَّرًا به، وهو الجَنَّة، تَقدَّمنا في هذه الآياتِ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾، ولا بُدَّ أن يَكون هناك سبَب يُوصِل إلى المُبشَّر به الأَعمال الصالِحة.

إِذَنْ: فالنَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد بيَّن وبلَّغَ الرِّسالة إلى المُبشِّرين، وبيَّنَ المُبشَّرَ به، وما يَتَضمَّنه من الثَّواب، وأنواع النَّعيم، وبيَّن الأسباب المُوصِلة إلى ذلك، وهي الأَعْمال الصالِحة؛ ولهذا ترَكَ النَّبيُّ ﷺ أُمَّته على مَحجَّةٍ بَيْضاءَ، ليلُها كنَهارِها، لا يَزيغُ عنها إلَّا هالِك.

قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ النَّذير هو: مَن أَتَى بالإنذار، وهو الإعلام المَقْرون بالتَّخويف يُسمَّى إنذارًا، وفي حديث جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صِفة خُطْبة النبيِّ ﷺ يَقول: «كأَنَّه مُنْذِرُ جَيْش يَقول: صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَنَذِيرًا﴾ نَقول فيها كما قُلْنا في ﴿بَشِيرًا﴾: لا بُدَّ فيها من أُمور أَرْبعة: مُنذِر، ومُنذَر، ومُنذَر بِهِ، وأسباب تُوصِل إلى ذلك، فكلُّها قد جاء بها النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فالمُنذَر: الأُمَّة عُمومًا، والمُنذَر بِهِ: النارُ، وأسبابُه: الأعمال السَّيِّئة، والمُنذِر: هو

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

الرسـولُ ﷺ، فقد بيَّن النَّبيُّ ﷺ كلَّ هذه الأمورِ، بيَّن لكُلِّ المُنذَرين، وأدَّى إليهم الرِّسالةَ، أو أدَّى الأمانةَ، وكـذلك بيَّن المُنذَر به، وما فيه من العُقـوبات المُتنوِّعات والعذاب الأليم.

وقوله تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمُبَشِّرًا ﴾ مَن صدَقَـك بالجَنَّـة ﴿وَنَـذِيرًا ﴾ مُنذِرًا مَن كذَّبَك بالنار ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ إلى طاعَتِه بإِذْنه بأَمْره].

هذا الوَصْفُ الرابعُ: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أن يَدعُوَ الناس إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إلى طاعَتِه] فيه نظَرٌ؛ فالأَوْلى أن تَبقَى الآية على ظاهِرها وأن النَّبيَّ ﷺ يَدْعو إلى الله عَزَّوَجَلَّ وإلى الوُصـولِ إليه في دار كَرامَتِه، ولا وصـولَ إليه في دار كَرامَتِه إلَّا بامتِثال أَمْرِه واجتِناب نَهْيِه، فهو داعٍ إلى الله تعالى بطاعَتِه واجتِناب نَهْيِه.

وقوله تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ لَمْ يُبيِّن هنا كَيْفيـة الدَّعوة، ولكنه بيَّنَها في آيـةٍ أُخْـرى في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

والدَّعوةُ لا بُدَّ فيها أيضًا من أُمور أربعة: داعٍ، ومَدعُوٌّ، ومَدعُوٌّ إليه، وسبَبٌ يُوصِل إلى المَدعُوِّ إليه، وكلُّ هذا جاء به النبيُّ ﷺ.

وقد كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَدْعو الناس سِرًّا وجَهْرًا حَسْب ما تَقتَضيه المَصلَحةُ والحاجةُ، فكان أوَّلُ دَعْوته سِرًّا؛ لأنه كان يَخشَى أن تُصادَم هذه الدَّعوةُ حتى تُدفَن، ثُم بعد ذلك جهَرَ بالدَّعوة لَمَّا قال له الله تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحِجر:٩٤]، ثُمَّ صار يَدعو مَن قرُبَ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤]، ثُمَّ مَن بَعُدَ على حَسَب ما تَقتَضيه الدَّعوةُ.

وقوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَعنِي: لا إلى نَفْسك؛ ولهذا كان النبيُّ ﷺ لا يَنتَقِم لنَفْسه قَطُّ أَبَدًا إلَّا أن تُنْتَهَك حُرُماتُ الله عَزَّوَجَلَّ، فإنه كان أَشَدَّ الناس غضَبًا لله تعالى؛ لأنه ليس يَدْعو إلى نَفْسه كما يُوجَد من كثير من الدُّعاة يَدْعون إلى أنفُسِهم في الواقِع، يُريدون أن يُعَظِّمهم الناس وأن يَأْخُذوا بقولهم، حتى إنهم إذا خُولِفوا في ذلك تَجِد الإنسان يَتكَدَّر؛ لا لأنه خُولِف أمرُ اللهِ تعالى؛ ولكن لأنه خُولِف هو، الذي هذا شَأْنُه إنما يَدعُو إلى نَفْسه وليس يَدْعو إلى ربه، ففَتِّشْ نَفْسَك: هل فِيكَ سِرٌّ من هذا؟ إن كان فِيكَ سِرٌّ من هذا فأَصلِح الأَمْر، وإن كُنْت لا تَغضَبُ إلَّا لله تعالى، ولا تَرضَى إلَّا لله تعالى، فهذا هو الداعِيةُ حَقيقةً.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ الإِذْن هنا يَشمَل الإِذْن الكَوْنيَّ والإِذْنَ الشَّرعيَّ، فإن كان المُرادُ به ما يُدْعَى به فهو الشَّرْعيُّ، يَعنِي: إن كان المَعنَى: داعِيًا إلى الله تعالى بأَمْره الذي أمَرَك بالدعوة إليه فالمُراد به الإِذْن الشَّرعيُّ، وإن كان المُرادُ داعِيًا إلى الله تعالى بقَدَره يَعنِي: حيث قوَّاك على ذلك، وهيَّأَ لك الأسبابَ فهو إذنٌ كونيٌّ، والآيةُ تَشمَل هذا وهذا، فإن الرسول ﷺ إنما يَدعو بقَضاء الله تعالى وقدَره، ويَدعُو كذلك بدِينه وشَرْعه فهو داعٍ بالأمرين جميعًا.

الوصف الخامس: قولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ أي: مِثْله في الاهتِداء به سِراجًا، والسِّراج ما يُستَضاءُ به، ووَصَفْه بأنه ﴿مُّنِيرًا﴾ إمَّا لبَيان الواقِع؛ لأن كل سِراج فله إنارة؛ وإمَّا لِبَيان أن هذا السِّراجَ كان له إضاءةٌ قوِيَّة فهو مُنيرٌ لما حَوْله، وهذا هو الأَقْرَب؛ لأن عندنا من القَواعِد المُقرَّرة أنه إذا دَار الأَمْر بين أن يَكون الكلام تَأْسيسًا أو تَوْكيدًا فالأصل أنه تَأْسيسٌ؛ لأن التَّأْسيس فيه زِيادةَ مَعنًى، بخِلاف التَّوْكيد، التَّوْكيد ليس فيه إلَّا التَّقْوية، لكِنَّ التَّأْسيس فيه زيادةُ مَعنًى، وعلى هذا

فالأَظهَرُ أن هذا وَصْف للسِّراج باعتِبار قُوَّته وإضاءَتِه، ولا شَكَّ أن النبيَّ ﷺ عَلَمٌ يُهْتَدَى به في الظلُمات، فهو قد فَتَحَ للناس نُورَ العِلْم ونورَ الإيمان حتى ترَكَ أُمَّتَه على مَحجَّةٍ بَيْضاءَ ليلُها كنَهارِها.

هذه الأَوْصافُ الخَمْسةُ التي بيَّنها الله تعالى لرسوله ﷺ ويُمكِن أن نُضيف إليها وَصْفًا سادِسًا ووَصْفًا سابِعًا.

الوَصْفُ السادِسُ: قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ فإن هذا فيه إِثْبات الرِّسالة له.

الوَصْفُ السابعُ: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ فإن فيه أيضًا إثباتًا للنَّبيِّ ﷺ.

وعلى هذا فالآيةُ تَضمَّنَتْ سَبْعة أَوْصافٍ للرسول ﷺ: النُّبوَّة والرِّسالة والشَّهادة والبِشارة والإِنْذار والدَّعْوة إلى الله تعالى بإِذْنه، وكونه سَراجًا مُنيرًا.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: ثُبُوت رِسالة النبيِّ ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الرسول ﷺ مُبشِّر في قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾.

ويَتَفرَّع على ذلك: أنه أَتَى بالأسباب التي تُوجِب البِشَارة من الأعمال الصالِحة والطاعات.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه مُنذِر أيضًا؛ لأن كَوْنه مُنذِرًا وكونه مُبشِّرًا فائِدتان.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الجَمْع بينهما فائِدةٌ ثالِثةٌ: أن النبيَّ ﷺ جَمَع بين البِشارة والإنذار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن رَسول الله ﷺ داعٍ إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الإشارة إلى أنه يَجِب على الداعِية أن تكون دَعْوته إلى الله تعالى لا إلى حَظِّ نَفْسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾، فإن هذا وَصْف الرسول ﷺ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن دَعوةَ رسول الله ﷺ إلى الله تعالى كانت بإِذْنٍ منه؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾.

وهذه يَتفرَّع عليها فائِدةٌ أُخرى: وهي رِضَا الله تعالى عمَّا كان الرسول ﷺ يَدْعو إليه، أليس كذلك؟ لأن الله تعالى لا يَأذَن إلَّا بما يُحِبُّه ويَرْضاه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ دَعوة النبيِّ ﷺ مَبنِيَّةٌ على شَرْع الله تعالى بكَيْفيَّتها وفيما يَدْعو إليه؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، فهو داعٍ إلى الله تعالى بإِذْنه أي: على حَسَب أَمْره وبشَرْعه، فيَدعو إلى سبيل الله تعالى بالحِكْمة، والمَوْعِظة الحسَنة ويُجادِل بالتي هي أَحسَنُ، وكذلك يَدعو إلى شَرْع الله تعالى لا يَتجاوَزُه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن النبيَّ ﷺ لا يُمكِن أن يُشرِّع مِن عِندِه؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ لا بشيءٍ من عِنْده.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن ما يَدعو إليه الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فهو من الله تعالى.

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: أن طاعة الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ طاعةٌ لله تعالى، ومعصيةَ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ معصيةٌ لله تعالى؛ ولهذا لَمَّا جاءَتِ امرأةٌ إلى ابنِ مَسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقالت: إنك تَقول: إن المُتفلِّجاتِ للحُسْن مَلعُوناتٌ بكِتاب اللهِ، وإنني فَتَحْتُ المُصحَف أو قرَأْتُ المُصحَف من فاتِحَتِه إلى خاتِمَتِه فلَمْ أَجِدْ ذلك. فقال: بلَى. ثُمَّ قرَأ عليها الحديثَ، وتَلا قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا

نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧]»[1].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إِثْبات الإِذْن لله تعالى، وإِذْن الله تعالى -كما سَبَقَ في التَّفسير- يَنقَسِم إلى قِسْمَيْن: شَرعيٌّ وكَوْنيٌّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن ما جاء به النبيُّ ﷺ فهو نُورٌ كالسِّراج يُضيء الظُّلَم؛ لقوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: مَن قال: إن النبيَّ ﷺ لا ظِلَّ له. يَعنِي: لو وقَفَ في الشمس والشَّمْس مائِلة لا يَكون له ظِلالٌ، فهذا غيرُ صحيح، فإن قوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ أي: سِراجًا مَعنَويًّا، وإلَّا فإن الرسول ﷺ له ظِلٌّ كغيره؛ لأنه بشَرٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن كلَّ مَن حكَمَ بشَريعة النبيِّ ﷺ فإنه على سِراج مُنير؛ لقوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: فَضيلة النبيِّ ﷺ حيث جَمَع الله تعالى له بين هذه الأَوْصافِ العَظيمة النُّبوَّة والرِّسالة والشَّهادة والبِشارة والإنذار، والدعوة إلى الله تعالى بإِذْنه، وأنه السِّراج المُنير.

• • ❁ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب المتنمصات، رقم (٥٩٣٩)، ومسلم: كتاب اللباس، باب تحريم فعل الواصلة، رقم (٢١٢٥)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيـة (٤٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤٧].

قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا عَطْف، ولكنه مُبيِّن للمُبَشَّر في قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا ﴾ بشِّرِ المُؤمِنين بأن لهم من الله تعالى فَضْلًا كبيرًا، والمُؤمِنون هنا يُراد بهم المُؤمِنون والمُسلِمون جميعًا؛ لأنه تَقدَّم أن الإيمان إذا ذُكِر وحدَه شَمِل الإسلام، والإسلام إذا ذُكِر وحدَه شَمِل الإيمان، وإن ذُكِرَا جميعًا صار الإيمان في القَلْب والإسلام في الجَوارِح.

فقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لم يَقُلْ: بَشِّرِ المُسلِمين؛ لأن من المسلمين مَن يَكون إسلامُهُم ظاهِرًا، ويَكون الإيمانُ في قُلُوبهم إمَّا مَفقودًا وإمَّا ضَعيفًا، فالذين لَهم البِشارة المُطلَقة هُمُ المُؤمِنون الذين وقَرَ الإيمان في قُلوبهم، وصاروا يُنفِّذون مُقتَضى ذلك الإيمانِ؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [يونس:٦١-٦٣]، فالبِشارة المُطلَقة لا تَكون إلَّا للمُؤمِنين.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كُلَّما جاءَت لَفْظة (المُؤمِنين) مُفرَدةً -كما قُلْت قبلَ قَليل- فإنها تَشْمَل المُؤمِن والمُسلِم، قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ فَضْلًا مَنصوبة بـ(أنَّ) فهي اسمُها مُؤخَّرًا.

والفَضْل الكَبير هو الجَنَّة، ولا شيءَ أكبَرُ من فَضْل الجَنَّة قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥]، ولا نَعيمَ أعظَمُ من دُخول الجَنَّة بما يَكون في ضِمْنه، بل هو أعلى شيء فيه، وهو النظَر إلى وجهِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنه يَجِب على النبيِّ ﷺ أن يُبشِّر المُؤمِنين بأن لهم من الله تعالى فضلًا كبيرًا؛ تُؤخَذ من قولِهِ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ﴾، والأَمْر للوجوب لا سيَّما على النبيِّ ﷺ، فإن الأَمْر للوجوب على كل حال؛ لأن الله تعالى إذَا أَمَر رَسولَه ﷺ بشَيْءٍ فإنما يَأمُره أن يَفعَله ويُبلِّغَه إلى الناس، وتَبليغ الرسول ﷺ الرِّسالة واجِب؛ ولهذا نَقول: إن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَجِب عليه أن يُبَلِّغ حتى السُّنَن، فيَجِب عليه أن يُخبِر بالسُّنَّة، وأن يَفعَلها حتى يَحصُل البَلاغ، ثُمَّ بعد ذلك تَكون مَندوبًا في حَقِّه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلة الإيمان، وجهُهُ أن المُتَّصِفين به هم أَهلُ البِشارة؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ثَواب المُؤمِنين بهذا الفَضلِ الكَبير ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيانُ مِنَّة الله عَزَّوَجَلَّ على المُؤمِنين وأن الفَضْل فضلهُ؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يَعنِي: لا من غَيْره؛ ولهذا قُدِّم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مع أنه مُتعَلِّق بـ﴿فَضْلًا كَبِيرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الجَزاء على الإيمان أكثَرُ ممَّا عمِله العَبْد من قوله تعالى: ﴿فَضْلًا كَبِيرًا﴾، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيُؤخَذ من الأمرين، أمَّا وَجْه أَخْذه من

الأوَّل؛ فلِقَوْله تعالى: ﴿كَبِيرًا﴾، والكبير إذا وَصَف الشيء بالكبير فهو كبيرٌ جِدًّا، وأمَّا الثاني؛ فلأنه أَضاف الفَضْل إلى الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وكما قال المَثَلُ: (العَطيَّة على قَدْر مُعطِيها)، فإذا كان هذا الفَضلُ من الله تعالى فإنه سيَكون فَضْلًا لا يَخطُر على البال؛ ولهذا في الحديث الذي علَّمه النبيُّ ﷺ أبا بَكْر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يَدعوَ به في صلاته قال: «فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي»[1]، وكونها من عِند الله تعالى لها مَزِيَّة.

• • ❁ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥)، من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٤٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب:٤٨].

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ لـمَّا كان الناس يَنقَسِمون إلى ثلاثة أقسام:

١- مُؤمِنٍ ظاهِرًا وباطِنًا.

٢- كافِرٍ ظاهِرًا وباطِنًا.

٣- مُؤمِنٍ ظاهِرًا، كافِرٍ باطِنًا.

بيَّن الله تعالى هؤلاءِ الأقسامَ في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، والله تعالى يَقرُن بين هؤلاء الأصنافِ الثلاثةِ في عِدَّة مَواضِعَ من القُرآن، ففي أوَّل سُورة البقَرة ذكَر الله تعالى الأصنافَ الثَّلاثةَ، وفي سُورة الأحزاب لَمَّا ذكَرَ الأمانة وتَحمُّلَها ذكَرَ الأصناف الثلاثة، وهنا ذَكَر الأصناف الثلاثة قال تعالى: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ وَلَا تُطِعِ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

والكافِر كلُّ مَن كفَرَ بالله تعالى سواءٌ كان كُفْره عن جُحودٍ أو عن استِكْبار؛ لأن الكُفْر كلَّه يَدور على هَذين الأمرَيْن؛ إمَّا الجُحود وهو التَّكذيب، وإمَّا الاستِكْبار

عن الطاعة، فمَن كَفَر بالله تعالى وأعلَن كُفْره فهو من الكافِرين، ومَن ستَر كُفْره فهو من المُنافِقين.

فالمُنافِق إذَنْ: مَن يُظهِر الإسلام ويُبطِن الكُفْر مَأخوذٌ من نَافِقَاءِ اليَرْبُوع، نافِقاءُ اليَـرْبوع هي بَيتُه؛ لأن اليَـربوع له حِيلة؛ يَحفُر في الأرض جُحْرًا له، ويَجعَل له بابًا، ويَجعَل في أطرف الجُحْر قِشْرة رقيقة؛ لأَجْل إذا حُجِر مع بابه، نَتَق مع هذه القِشرةِ الرقيقة فيُقال: نافِقاءُ اليَربوعِ، والمُنافِق هكذا عَمَلُه إذا حُجِر فَعَل ما يَتخَلَّص به، لكن نِفاقًا، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة:١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب:١]، وهذا النَّهيُ نَهْيٌ عمَّا لم يَكُن؛ لِئَلَّا يَكون، وليس نَهيًا عمَّا كان لِئَلَّا يَستَمِرَّ، وبينَهما فَرْق، فهو نَهيٌ عمَّا لم يَكُن لِئَلَّا يَكون، وليس نهيًا عمَّا كان لِئَلَّا يَستَمِرَّ.

فإذا قُلْت لشَخْص: يا فُلان لا تَسرِقْ. وهو يَسرِقُ فهو نهيٌ عمَّا كان لِئَلَّا يَستَمِرَّ، وإذا قُلتَ لَمن لم يَسرِقْ، لكنه هَمَّ بالسَّرِقة أو لم يَهُمَّ فهذا نَهيٌ عمَّا لم يَكُن لِئَلَّا يَكون، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ ليسَ المَعنَى أن الرسولَ ﷺ كان يُطيعهم -حاشاه من ذلك- لكنه لأَجْل ألَّا يَكون أَذِيَّتهم له ومُضايَقتهم له وإِحْراجهم إيَّاه؛ لِئَلَّا يَكون سببًا لأَنْ يَتنازَل عن شيءٍ ممَّا أُمِر به من أَجْل دَفْع أَذاهم وإلَّا فإن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يُمكِن أن يُطيع المُنافِقين والكافِرين في مَعْصية الله تعالى، ولكن النَّفْس البشَرية قد تَجتَهِد في أَمْر من الأُمور، وتَرَى أن من المَصلَحة التَّنازُل عن بعض الأَشياء لدَفْع ما هو أَعظَمُ في نظَر المُكلَّف، ويَكون الأَمْر ليس كذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ قال بعض المُفسِّرين: إنها مُضافةٌ إلى المَفعول به. يَعنِي:

لا تُؤذِهْم، وقال بعضُ المُفسِّرين: إنها مُضافةٌ إلى الفاعِل يَعنِي: دَعْ أَذِيَّتهم إيَّاك، فلا تَلْتَفِت لها، ولا تَهْتَمَّ بها.

والصحيح: هو القولُ الثاني؛ لأن الأوَّلَ غيرُ وَارِد، الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يُؤذِهِمْ، ولكنَّه يُؤْذَى مِنهم، وعلى هذا يَكون المَصدَر هنا مُضافًا إلى الفاعِل، يَعنِي: دَعْ أَذِيَّتهم إيَّاك.

وهذا الأمرُ إمَّا أن يَكون للتَّهديد، وإمَّا أن يَكون للتَّأييد والتَّقوية، وإمَّا أن يَكون لهما جميعًا.

إمَّا أن يَكون للتهديد: تَهديد هؤلاءِ الكافِرين والمُنافِقين، يَعنِي: دَعْ أَذاهُم إيَّاكَ، فسوف يَنتَقِم الله تعالى مِنهم بدليل قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

أو أن المَعنَى: التَّأييدُ، يَعنِي: دَعْ أَذاهم، أي: اصْبِرْ عليهم، فيَكون هذا من باب تَأييد الله تعالى لرسوله ﷺ بأَنْ يَأمُره بأن يَدَعَ أَذاهم ولا يَهتَمَّ بِهِمْ ولا يُبالي بهم؛ لأن العاقِبة ستَكون للرسولِ ﷺ حتى مع هذه الأذِيَّة التي قاموا بها بالنِّسبة لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فائِدةٌ: الفَرْق بين الشِّرْك والكُفْر: أن الكُفْر أعمُّ فإن كلَّ مُشرِك كافِرٌ، وليس كلُّ كافِرٍ مُشرِكًا، قد يَجحَد الإنسان شيئًا ممَّا أَنزَل الله تعالى فيَكون كافِرًا، وليس بمُشرِك.

وقوله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ التَّوكُّل: ذَكَروا في حَدِّه أقوالًا مُتعَدِّدةً، ولكِنَّ أَقرَبَ ما يُقال فيه: إنه صِدْق الاعتِماد على الله تعالى في جَلْب المَنافِعِ،

ودَفْع المَضارِّ، مع الثِّقَة بالله تعالى صِدْق الاعتِماد على الله تعالى في جَلْب المَنافِع، ودَفْع المَضارِّ مع الثِّقَة به.

وهذا أحسَنُ ما قيل في تفسير التَّوكُّل؛ لأن الإنسان إذا اعتَمَد على الله تعالى في جَلْب المَنافِع ودَفْع المَضارِّ مع الثِّقَة به صار ذلك أَقوَى له وأَطمَنَ لقَلْبه، ولكن مع هذا فإن التَّوكُّل لا يُنافِي فِعْل الأسباب الشَّرعية التي ثبَتَت إمَّا عن طريق الشَّرْع، وإمَّا عن طريق الحِسِّ.

ومَن زعَمَ أن هذا يُنافِي التَّوكُّل فقَدْ أَخطَأ؛ وذلك لأن الرسول ﷺ لا شَكَّ أنه إمام المُتوكِّلين، وسيِّدُ بني آدَمَ، ومع هذا فكان يَفعَل الأسباب، فقَدْ كان يَتَّقي من البَرْد، ويَتَّقِي من الحَرِّ، ويَتَّقِي من البَأْس، فكان يَلبَس الدُّروع كما ظاهَرَ في يوم أُحُد بين دِرْعَيْن، ومع هذا فإنه لا يُقال: إن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ضعيفُ التَّوكُّل.

إِذَنْ: فِعْل الأسباب من تَمام التَّوكُّل على الله تعالى؛ لأن دَرْءَ ما تَخافه يَكون بأَمْرين: أمرٍ من قِبَلِكَ أنتَ، وأمرٍ آخَرَ من قِبَل اللهِ تعالى، فالأشياءُ الخَفِيَّة التي تُدرِكها ولا طاقةَ لك بها هذا من قِبَل الله تعالى، والأشياءُ الظاهِرة التي لك بها قِبَلٌ هذه من قِبَلِ نَفْسك، فعليك أن تَفعَل هذا، وأن تَعتَمِد على الله تعالى فيما لا تُدرِكه ولا يَصِل إليه ذِهْنكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: (كفَى) فِعْلٌ ماضٍ كما هو مَعروف، والباء حرفُ جرٍّ زائِدٌ؛ لتَحْسين اللَّفْظ، و(الله) لَفْظ الجَلالة فاعِل مَرفوع بضمَّةٍ مُقدَّرة على آخِره منعَ من ظُهورها اشتِغال المَحلِّ بحرَكة حَرْف الجَرِّ الزائِد.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ﴾ تارةً تَتعدَّى بنفسها؛ فإذا كان المُراد بَيان الكِفاية فقَطْ فإنها تَتعدَّى بدون حَرْف الجَرِّ، مِثل: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ مثل: أن تَقول:

كفاكَ اللهُ تعالى شَرَّ أعدائِكَ. وما أَشبَهَها، وتارةً تَتَعدَّى بالباء إذا كان المُراد بها مَعنَى التَّعجُّب، يَعنِي: ما أَبلَغَ كِفايَتَه! مثل قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، وما أَشبَهَها.

وهنا المُراد بها التَّعجُّب، يَعنِي: أنهما أَشَدُّ كِفاية الله تعالى، وما أَبلَغَ كِفايَتَه!

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: ﴿وَكِيلًا﴾ هذه حالٌ من فاعِل (كَفَى)، وقوله تعالى: ﴿وَكِيلًا﴾ بمَعنَى: حَفيظًا وكافِيًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، أي: كافِيهِ.

واعلَمْ أن الله تعالى أَطلَق على نَفْسه الوَكيل وأَطلَق على نَفْسه المُوكِّل، يَعنِي: وصَفَ نَفْسه بالمُوكِّل؛ فأمَّا الوَكيل فكثيرٌ في كِتاب الله تعالى، ومَعناه: الكافِي الحافِظ، وما أَشبَه ذلك، وأمَّا وَصْف الله تعالى بالتَّوكيل أنه مُوكِّل، ففي قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ [الأنعام:٨٩] ثم قال: ﴿وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾، ومُناسَبة قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ لقَوْله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ مُناسَبَتها أنك إذا تَوَكَّلْت عليه كفاك كلَّ شيءٍ، وحَفِظك، وصار رَقيبًا عليكَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تحريمُ طاعةِ الكافِرين والمُنافِقين لكن ليس على إطلاقه، بل طاعتهم فيما يُخالِف أَمْر الله تعالى، فلو أُمِروا بشيءٍ لا يُخالِف أمرَ الله تعالى فإن طاعَتَهم ليست حَرامًا، كما لو أَمَرك كافِرٌ بأن تُركِّب على هذا البابِ مِفتاحًا مثلًا، فهل نَقول: حرامٌ عليك أن تُطيعهُ؟ لا، إِذَنْ: لا تُطِعْهم فيما يُخالِف أَمْر الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن القُرآن على أَكمَل ما يَكون من البَلاغة، فإننا نَجِده في مَواضِعَ يُقدِّم المُنافِقين على الكافِرين، وفي هذه الآيةِ قدَّم الكافِرين على المُنافِقين؛ لأنه

في مَقام الجزاء وفي مَقام الذَّنْب يُقدِّم المُنافِقين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠]، ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأحزاب:٧٣]؛ لأن ذَنْب المُنافِق أعظَمُ من ذَنْب الكافِر الصريح.

وأمَّا هنا فالذي يُعارِض الرسول ﷺ صراحةً هو الكافِر؛ ولهذا قدَّمه على المُنافِق؛ لأن المُنافِق لا يَأْمُر بمُخالَفة الشَّرْع كما يَأمُر بها الكافِر، إذ إنه يَتستَّر بنِفاقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فبَدَأ بهم؛ لأن مُعارَضَتهم للشَّرْع أبيَنُ وأظهَرُ من المُنافِقين.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه قد يَتوجَّه النَّهيُ عمَّا لم يُفعَل؛ لئلا يُفْعَل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، فإن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما كان يُطِيعهم لكنه نُهِيَ أن يُطيعَهم؛ لئلَّا يَفعَل في المُستَقبَل.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن النَّهيَ قد يَكون أو قد يَرِد على الأُمور البَعيدةِ أو المُستَحيلةِ، وجهُهُ: ولا تُطِعِ الكافِرين والمُنافِقين، فإن هذا بعيد أو مُستَحيل على الرسول ﷺ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَهديد الكافِرين والمُنافِقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَأييد النَّبيِّ ﷺ وتَسلِيَتُه من قوله تعالى أيضًا: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن من طَبيعة الكافِرين والمُنافِقين أَذِيَّة المُؤمِنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾.

لكن قد يَقول قائِل: هذا آذَى الرسولَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فنَقول: إن مَن آذَى النبيَّ ﷺ فإنه مُؤْذٍ للمُؤمِنين، وأيضًا فإن مَن عادَى الرُّسُل سَيُعادِي أَتْباعَهم ويُؤذِيهم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وُجوب الصَّبْر على أذَى الكُفَّار والمُنافِقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ فإن هذا أَمْرٌ بالصَّبْر على أَذِيَّتهم.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: وجوبُ التَّـوكُّل على الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، والأَمْر للوُجوب.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن النبيَّ ﷺ لا يَملِك لنَفْسه نَفْعًا ولا ضَـرًّا، ولا لغَيْره من بابِ أَوْلى؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، فهو مُفتَقِرٌ إلى رَبِّه مَأمورٌ بأن يَتوكَّل عليه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: عِظَم كِفاية الله عَزَّوَجَلَّ للمُتَوكِّلين عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، فإنا ذكَرْنا فيمـا سبَقَ أن هذا يُراد به التَّعجُّب من كِفاية الله تعالى لَمن تَوكَّل عليه.

• ● ۞ ● •

الآيـة (٤٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ [الأحزاب:٤٩].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ تَقدَّم لنا الكَلام على تَصْدير الخِطاب بمِثْل هذا النِّداءِ، وأنه يَدُلُّ على أهمِّيَّة المَوْضوع، وأنه يَدُلُّ على أن امتِثال ما سيأتي من مُقتَضيات الإيمان وأن مُخالَفته من نَواقِص الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ المُراد بالنِّكاح هنا العَقْد، والنِّكاح يُطلَق على العَقْد وعلى الجِماع؛ وذلك لأن أَصْله في اللغة العربية الضَّمُّ والجَمْع؛ لأن العَقْد يَضُمُّ الزوجَ إلى زَوْجته والزَّوْجة إلى زَوْجها، وهو يُطلَق بمَعنَى هذا وهذا، ولكنه إذا أُضِيف إلى أَجْنَبية فهو بمَعنَى العَقْد، وإذا أُضيف إلى زوجة فهو بمَعنَى الجِماع، فإذا قِيل: نكَحَ الرجُلُ زوجَتَه. أي: جامَعَها، وإذا قيل: نَكَحَ فُلَانة بنتَ فُلانٍ. المَعنَى: عَقَد عليها.

وهي في القُرآن بمَعنَى العَقْد، كلَّما جاءَتْ فهي بمَعنَى العَقْد، والغريب أن بعضَ أهلِ العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يقول: لم تَأتِ بمَعنَى العَقْد إلَّا في هذه الآيةِ، وأنها في القُرآن جاءت بمَعنَى الجِماعِ.

ولكنَّ هذا ليس بصَواب، فالصَّواب العَكسُ وهو: أنها ما جاءَتْ في القُرآن إلَّا بمَعنَى العَقْد.

ونَستَعرِض الآياتِ الوارِدةَ في هذا؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة:٢٢١] المَعنَى: العَقْد، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ [البقرة:٢٢١] العَقْد، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٢٢] العَقْد.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور:٣] العَقْد، فالزاني لا يَنكِح أَيْ: لا يَعقِد إلَّا على زانِية أو مُشرِكة، والزانية لا يَتزَوَّجها إلَّا زانٍ أو مُشرِكٌ، فقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ قال في آخِر الآية: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٣]، فإذا كان نِكاح الزانية حَرامًا ونِكاح الزانِي حَرامًا، فإذا عَقَد على زانِية وهو حَرام: فإمَّا أن يَعتَقِد التحريم فيَكون زانِيًا؛ لأنه جامَعها وهو يَعتَقِد أنه حرام، وإمَّا ألَّا يَعتَقِد التَّحريم، ويَقول: هذا حَلال. فتَحليل ما حرَّم الله تعالى شِرْك، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة:٣١]، هذا هو مَعنَى الآية التي لا تَحتَمِل سِواهُ، وهو الذي قرَّره شيخُ الإسلامِ[1] وابنُ القيِّم[2] رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ.

مَسأَلة: إذا تَزوَّج الإنسانُ امرأةً ووجَد أنها قد جُومِعت من قبلُ فلا يَجِب عليه أن يُفارِقها إلَّا إذا عَلِم أنها لا تَزال على إِصْرارها، أمَّا إذا تابَت فيَجوز أن يَتزَوَّجها.

وفي قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣٢/ ١١٣)، والفتاوى الكبرى (٣/ ١٧٨).

(٢) انظر: الصواعق المرسلة (٢/ ٥٧٢).

[البقرة:٢٣٠] العَقْد، لكن السُّنَّة بيَّنت أَضافَت إلى هذا شَرْطًا آخَرَ وهو «أن يَذُوقَ عُسَيْلَتَهَا وتَذُوقَ عُسَيْلَتَهُ»(١)، وإلَّا فهو العَقْد، وهذا واضِح.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ [النور:٣٢] اعقدوا لهم.

المُهِمُّ: كلَّما جاءت في القُرآن فهي بمَعنَى العَقْد حتى في هذه الآيةِ، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ يَعنِي: مِن قَبْلِ أن تُجامِعوهن.

قوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ أَيْ: عقَدْتُم علَيْهِن.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ بِناءً على الأغلَبِ أن الأغلَبَ أن المُؤمِن لا يَتزَوَّج إلَّا مُؤمِنةً، ولكن لو كانت يَهوديَّةً أو نصرانِيةً فالحُكْم لا يَختَلِف، فعلى هذا يَكون من باب الاقتِصار، وليس من باب الاختِصار؛ من باب الاقتِصار على أَحَد الصِّنْفين، وأمَّا الصِّنْف الآخَرُ؛ فلأنه قَليل بالنِّسبة إلى نِكاح المُؤمِنات.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ ولم يَقُلْ: وطلَّقْتُموهن أو فطَلَّقْتُموهنَّ؛ ليَتبيَّن به أنه لو تَأَخَّر الطلاق عن العَقْد مُدَّة طويلة فالحُكْم لا يَتغَيَّر كما أنه لو طلَّقَها مُباشَرةً، فالحُكْم لا يَتغَيَّر أيضًا، فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ أي: بَعْد العَقْد.

والطلاق في اللُّغة حَلُّ قَيْد البَعير ونحوِهِ، يَعنِي: حَلُّ القَيْد يُسمَّى طلاقًا، وهو اسمُ مَصدَرِ (طلَّقَ)، والمَصدَر من (طلَّق) تَطليقًا، مثل: كَلَّم والمَصدَر تَكليمًا، واسْمُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب شهادة المختبي، رقم (٢٦٣٩)، ومسلم: كتاب النكاح، باب لا تحل المطلقة ثلاثًا لمطلقها حتى تنكح زوجًا غيره، رقم (١٤٣٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

المَصدَر كَلَام، (طلَّقَ) المَصدَر تَطْلِيق، واسْمُ المَصدَر طَلَاق؛ فالطَّلاق إِذَن: هو حَلُّ القَيْد.

أمَّا في الاصطِلاح أو في الشَّرْع فطَلاق المَرأة مَعناه: حَلُّ قَيْد النِّكاح أو بعضِه، فإن كان الطلاق بائِنًا لا تَحِلُّ به الزوجة، فهو حَلٌّ لقَيْد النِّكاح مُطلَقًا، وإن كان رَجعِيًّا فهو حلٌّ لبَعْضه، إذ إنه يَجُوز له أن يُراجِع.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: مِن قَبْل أن تجَامِعوهن، وهذا من باب الكِناية عمَّا يُسْتَقْبَح ذِكْره بما يَدُلُّ عليه؛ ولهذا لم يَأتِ الجِماع بلَفْظٍ صريح في القُرآن الكَريم، وإنما كُنِّيَ عنه في كل مَوضِع بما يَتَناسَب والمَقامَ، فمَرَّةً يُعَبَّر عنه بالإِتْيان، ومرَّةً بالإِفْضاء، ومرَّةً بالمَسِّ، ومرَّة بالمُلامَسة، وما أَشبَه ذلك، كل هذا من باب استِعْمال ما لا تَمُجُّه الأَسْماع من الكلِمات.

وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَفِي قِراءَةٍ: «تُمَاسُّوهُنَّ» أي: تُجامِعوهُنَّ] يَقول تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ فما لَكُم: (ما) هذه نافِية، و﴿لَكُمْ﴾ جارٌّ ومجرور خبَرٌ مُقدَّم و﴿مِنْ﴾ حَرْفُ جرٍّ زائِدٌ لمَعنًى زائِدٍ، وقد قُلنا: إنه حَرْفٌ زائدٌ زائِدٌ. وكلِمة (زائِدٌ) الثانية تَأسيس لا تَوكِيد، فهو حَرْفُ جرٍّ زائِدٌ لفظًا، لكنه يَزيد المَعنَى، (زائِد) الأُولى من (زادَ) اللازِم، و(زائِدٌ) الثانية من (زادَ) المُتعَدِّي، فإذا قُلت: زاد إيمان الرجُلِ. هذا لازِم، وإذا قُلت: زادَهُم إيمانًا. هذا مُتَعدٍّ، فنَقول: هذا حَرْفُ جَرٍّ (زائِدٌ) من (زادَ) اللازِمة، أو: (زائِدٌ) من (زادَ) المُتعَدِّي، يَعنِي: زائِدٌ بنَفْسه، زائِدٌ مَعنًى في غيره.

المُهِمُّ: أن قوله تعالى: ﴿مِنْ عِدَّةٍ﴾: ﴿مِنْ﴾ حَرْفُ جَرٍّ زائِدٌ لفظًا لا مَعْنًى.

وقوله تعالى: ﴿عِدَّةٍ﴾ مُبتَدَأ مُؤخَّر مَرفوع بضَمَّة مُقدَّرة على آخِره منَعَ ظُهورَها اشتِغالُ المَحلِّ بحرَكة حَرْف الجَرِّ الزائِدِ.

ولو قال لنا قائِل: هل يَجوز أن نَجعَل (ما) هنا حِجازيةً؟

الجَوابُ: لا يَجوز؛ لأن خبرها مُقدَّم، وابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول:

..... مَعَ بَقَا النَّفْيِ وَتَرْتِيبٍ زُكِنْ[1]

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُحصُونها].

والعِدَّة في اللُّغة: اسمٌ مَأخوذ من العَدَد، ولكنَّها في الاصطِلاح أو الشَّرْع: تَربُّص مُفارَقةٍ في الحياة أو في المَمات مُحدودٌ شَرْعًا.

وقوله تعالى: ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُحصُونها بالأَقْراء وغيرِها]: [بالأَقْراء] إن كانت من ذَوات الأَقْراء، وعددُها ثلاثة قُروء، [وغيرِها] إن لم تَكُن من ذوات الأَقْراء وهُنَّ الحوامِلُ ومَن لا تَحيض لصِغَرٍ أو إِياسٍ، فالحامِلُ عِدَّتها وَضْعُ الحَمْل، ومَن لا تَحيض عِدَّتُها ثلاثة أَشهُرٍ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أَعطوهُنَّ ما يَسْتَمتِعْن به، أي: إن لم يُسَمَّ لهُنَّ أَصدِقة، وإلَّا فلَهُنَّ نِصْف المُسمَّى فقَطْ، قاله ابنُ عبَّاسٍ وعليه الشافِعيُّ].

وقوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ الفاء حَرْف عَطْف، و(مَتِّعوهن) أي: أَعطُوهُن ما يَستَمْتِعْن به من الدراهِم، ومن الثِّياب، ومن المَتاع، ومِن العَقار، ومن أيِّ شيءٍ، فالله عَزَّوَجَلَّ أَطلَقها، ثُمَّ إنَّها مُطْلَقةٌ من جِهةِ الكِمِّيَّة كما أنَّها مُطلَقة من جِهة النَّوْعيَّة

---

(١) الألفية (ص: ٢٠).

الكِمِّية، فإذا أَرَدْت أن أُعطِيَها دراهِمَ، فكما قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٦] أي: حَسَب حال الزَّوْج.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ بعدَ قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ يُستَثْنى من ذلك مَن سُمِّيَ لها مَهْرٌ، فإنَّ مَن سُمِّيَ لها مَهْرٌ لا يَجِب لها إلَّا نِصْفُه؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧]، فبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أن لَهُنَّ نِصْفَ ما فرَضْنا، وهذا إذا سُمِّيَ لها المَهْرُ سواءٌ قلَّ أو كثُر.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ خَلُّوا سَبيلَهُنَّ من غير إضرارٍ]، فأَمَرَ الله عَزَّوَجَلَّ بأَمْرين:

١- التَّمتيع وهو بَذْل المال.

٢- والسَّراح الجَميل وهو بَذْل الخُلُق.

وذلك بأن تَكون المُفارَقة عن رِضًا، وبالقول اللَّيِّن الذي يَجبُر الخاطِر؛ لأن المَرأة إذا طُلِّقت بعد أن عُقِد عليها ولم يَدخُل بها لا شَكَّ أنه يَنكَسِر خاطِرها، وأنها تَتَأَثَّر، وأن الناس سوف يَتكلَّمون: لماذا طُلِّقت قبل أن يَدخُل بها؟ ما هو السبَب؟ هل رأى فيها عَيْبًا؟ هل سمِع عنها بشيء؟ ولا سيَّما إذا كانت هي راغِبة أيضًا بالزوج ثُمَّ طلَّقَها من قَبْلِ أن يَتَّصِل بها، فإنه لا بُدَّ أن يَكون هناك ردودُ فِعْل في نَفْسها، فأَرْحَم الراحِمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَمَرَنا أن نُمتِّعَهنَّ بالمال، وأن نُسرِّحَهنَّ سَراحًا جميلًا بالقول والمُعامَلة الطَّيِّبة.

وذلك مثل أن نَقول لها: هذا أَمْر لم يُقدَّر، وهذا أَمْرٌ أَرادَه الله عَزَّوَجَلَّ، وأنا ما

فارَقْتُك لسُوء خُلُقك؛ أو لأني سمِعْت عنك ما يَسوءُ، أو ما أَشبَهَ ذلك من الكلام حتى تَنفَصِل منه وهي طَيِّبة النَّفْس مُنشَرِحة الصَّدْر، ثُمَّ بعد ذلك لا يَحصُل منها أو من أهلها كَلام؛ لأنه ربما إذا طلَّقَها ولم يُمتِّعها، أو مَتَّعَها بما دون ما تَستَحِقُّه، أو سرَّحها سَراحًا غيرَ جميل، ربما يَحصُل منها أو من أهلها كلام في الرَّجُل يَتكلَّمون فيه وفي عِرْضه وفي أَهْله، وما أَشبَهَ ذلك.

فهذا من آداب الله عَزَّوَجَلَّ التي أَدَّب بها عِبادَه إذا طلَّق المرأة قبل المَسيس، فإن الواجِب عليه أمران: التَّمتيع بالمال، والسَّراح الجَميل بالقَوْل والفِعْل وطلاقةِ الوَجْه وانبِساط القَلْب، وما أَشبَه ذلك.

وقد يَقول قائِل: كيف يُمكِن هذا والرجُلُ لم يُطلِّقها في هذه الحالِ إلَّا وهو كارِهٌ لها بلا شَكٍّ؟ ولو كان عِنده أَدْنى مَحبَّةٍ لكان دخَل بها وجامَعها، ونظَرَ ربما تَتغيَّر الأمور، يَعنِي: لو كان زَهِد فيها بعضَ الزُّهْد لكان في قَلْبه مَحبَّة لها هل يُغامِر ويُطلِّقها من قَبلِ أن يُجامِع، العَقْل لا يَقْتَضي ذلك، يَقتَضي أن تَنتَظِر وتُجامِعها لأنه رُبَّما تَغيَّرت الأمورُ.

ومِن ثَمَّ نُهِيَ عن الطلاق في الحَيْض؛ لأن الإنسان إذا كانت امرَأَتُه حائِضًا فإنه لا يُجامِعها، لكن فيَبقَى كارِهًا لها، ولا يُوجَد هناك سبَبٌ يَدعو إلى المَحبَّة وهو الجِماع؛ فلهذا نُهِيَ عنه.

فهذه من الحِكَم في النَّهي عن الطلاق في الحَيْض، وليسَتْ هي الحِكْمةَ الوحيدةَ ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَهمِّيَّة النِّكاح والطلاق؛ لأن الله تعالى صَدَّره بالنِّداء الذي يُطلَب به تَنبُّه المُنادَى لِمَا سيُلقَى عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن التِزام أحكام الشريعة في النِّكاح والطلاق من مُقتَضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فإن هذا من مُقتَضاه إيمانُهم أن يَمتَثِلوا لِمَا أُمِروا به.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه لا طَلاقَ قبل النِّكاح؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ﴾ و(ثُمَّ) للتَّرْتيب، فلا طلاقَ قَبْل النِّكاح، ولا فَرْقَ في ذلك بين أن يَكون الطلاق لمُعيَّنةٍ أو على سبيل العُموم، فلو قال رجُل لامرأةٍ: إن تَزوَّجْتُكِ فأنتِ طالِقٌ. ثُمَّ تَزوَّجها فإنها لا تَطلُق؛ لأن الطلاق كان قبلَ النِّكاح، وكذلك لو قال: كلُّ امرأةٍ أَتزَوَّجها فهي طالِق. فإنه إذا تَزوَّج امرأةً لا تَطْلُق؛ لأنه لا طلاقَ إلَّا بعد النِّكاح.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه لا إيلاءَ ولا ظِهارَ ولا تَحريمَ على امرأة إلَّا بعد النِّكاح؛ لأنه إذا كان الطلاق وهو أَعظَمُ فُرْقةً من الظِّهار والإيلاء وما أَشبَهَه لا يَكون إلَّا بعد النِّكاح، فكذلك ما دُونَه، إلَّا أنَّ التحريم إذا حرَّم الرجُل امرأةً مُعيَّنة ثُمَّ تَزوَّجها بعد ذلك، فإن عليه كفَّارة يَمين، وكذلك الظِّهار إذا قصَد به التَّحريم وظاهَرَ مِن امرأة قَبْل أن يَتزوَّجَها، فإن عليه كفارةَ يمينٍ، وليس عليه كفَّارةُ ظِهار؛ لأن الظِّهار لا يَصِحُّ إلَّا من زَوْجة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جَواز الطَّلاق؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، وَلَمْ يَلُمِ الله تعالى المُؤمِنين على الطلاق ولو كان حَرامًا لَلَامَهُم عليه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جَوازُ الطَّلاق قبل المَسيس؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ وهذه فائِدة غير فائِدة: جَواز الطلاق مُطلَقًا؛ لأن الطلاق قبل المَسيس قد يَكون فيه شيءٌ من غَضِّ حَقِّ المَرأة، فيُقال: هذا الرجُلُ لولا أنه عَلِم بأن فيها بَلاءً ما طلَّقَها قبل أن يَدخُل بها ويَمَسَّها؛ لأن العادة أنَّ الإنسان إذا تَزوَّج فإنما يَتزوَّج عن رَغبةٍ، فإذا طلَّقها قبل أن يَمَسَّها فهو دليلٌ على أن فيها شَيْئًا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنه إذا طلَّقها قبل الجِماع فلا عِدَّةَ عليها، وهذا فيه خِلَافٌ؛ فإنَّ بعض أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وهُمُ الجُمهور على أنه إذا خلا بها، فإن عَلَيْها العِدَّةَ فجعَلوا الخَلْوة بمَنزِلة الجِماع، وهذا هو الذي قضَى به الخُلَفاءُ الراشِدون[1]، وعليه جُمهور الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، بل جُمهور الأُمَّة، ولم يُخالِف في ذلك إلَّا نفرٌ قليل منهم الإمامُ الشافِعيُّ[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله الجَديد، فإنه رأَى أنه إذا لم يُجامِعْها فلا عِدَّةَ عليها، ولو خلا بها.

ولا شَكَّ أن هذا هو ظاهِر الآية، لكن الوارِد عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ولا سِيَّما الخُلَفاءُ الراشِدون يَثبُت بأن عليها العِدَّة إذا خلا بها.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وُجُوب المُتْعة على مَن طلَّق قبل الدُّخول؛ تُؤْخَذ من قوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾، وهذا مُقَيَّد بالآية الأُخرى، وهي ما إذا فرَض لها فريضةً، فإنها إذا فرَض لها مَهرًا فليس عليه إلَّا نِصْف المَهْر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة:٢٣٧].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٦/ ٢٨٨)، وسعيد بن منصور في سننه رقم (٧٦٢)، وابن أبي شيبة (٩/ ٢٠٦)، والبيهقي (٧/ ٢٥٥).

(٢) الأم (٦/ ٥٤٥-٥٤٦)، ونهاية المطلب (١٥/ ١٩٣).

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: التَّكْنيـة عمَّـا يُسْتَحْيا من ذِكْـره؛ لقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن الْمُعتَـدَّةَ من وَفَاةٍ عليها العِـدَّةُ مُطلَقة، وإن لم يَدخُل بها؛ تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، فجعَل الله تعالى هذا الحُكْمَ في الطـلاق، فيبقَى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤]، يَبقَى على إطلاقه أن الْمُتوفَّى عنها تَجِب عليها العِدَّةُ وإن لم يَدخُل بها.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: رحمةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعِباده وخَلْقه؛ حيثُ أَوْجَب الْمُتْعةَ على مَن طُلِّقَت قبلَ الدُّخول، وجهُ ذلك: أن فيه جَبْرًا لخاطِرها وإزالةً لِلْهَمِّ والغَمِّ الذي اعتَراها بعد الطلاق.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: وُجُوب التَّسريح الجَميل في الْمُفارَقة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أن العدَّة حَقٌّ للزوج وجهُهُ قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ﴾ فهي حقٌّ للزَّوْج على المرأة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: ممَّا يَنبَغِي أن يُحْصِيَ الإنسان عِدَّة زَوْجته، ويَعتَنيَ بها، ولا يَدَعها هَمَلًا لا يَدرِي عنها؛ لقوله تعالى: ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾، فإن هذا دليلٌ على أن مِن شأنِ الأزواج أن يَعتَـدُّوا عِدَّةَ أزواجِهنَّ وأن يُحصـوها ويُراقِبـوها؛ لأنها فِراشٌ له ما دامت في العِدَّة إذا كانت رَجْعية.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: لا يُؤخَـذ من مَفهـوم قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أنه إذا نَكَحوا الكِتابيَّات تَغيَّر الحُكْم؛ لأن هذا قَيْدٌ أَغلَبيٌّ، وقد ذكَرَ

أهل العِلْم في الأُصول أن ما كان قَيْدًا أَغلَبيًّا فإنه لا مَفهومَ له، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ لأن هذا الحُكْمَ شامِل للمُؤمِنات ولغَيْرِهن.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنه لا عِدَّةَ في الطلاق بعد الدُّخول ولو طالَتِ المُدَّةُ؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن الطَّلاق بيَدِ الزوج؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ فلا يَملِك الأبُ ولا الجَدُّ ولا العَمُّ ولا الخالُ ولا غيرُهم أن يُطلِّقوا على الإنسان.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: أنه لا عِدَّةَ لغَيْر المُطلَّقة كالمَفسوخة بِخُلْع أو غيره؛ وهذه الفائِدةُ قد لا تكون إلى ذاك الظُّهورِ إلَّا أن القول الراجِح إلَّا أن المُفارَقة بغير الطلاق ليس عليها عِدَّة؛ ثم إن المُختَلِعة إنما تُسْتَبْرَأ بِحَيضة ثُم تَحِلُّ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: الجَمْع بين الإحسان المالي والفِعْلي؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ هذا الإحسانُ الماليُّ، وقوله تعالى: ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ وهذا الإحسان الفِعْليُّ.

الْفَائِدَةُ العِشْرُون: يُستَثْنى من الآية مَن فُرِض لها فَريضةٌ فلها نِصْف الفَريضة، وليس على الزَّوْج مُتْعة.

• • ۞ • •

الآيـة (٥٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [الأحزاب:٥٠].

ثُمَّ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُهورَهُن].

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ مِثْل: هـذه الصِّيغـة تَدُلُّ على تَعظيم المُخاطَـب حيثُ وُجِّه إليه الخِطاب بالنِّداء؛ هذا من وجهٍ. ومن وجهٍ آخَرَ أنه وُصِـف بالنُّبوَّة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾، ففي ذلك تَعظيم وتَفخيم لرسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ﴾: ﴿أَحۡلَلۡنَا ﴾ أي: جَعَلْناهن حِلًّا لك.

وهل المُرادُ أَزْواجـك اللاتي تُريـد أن تَتزوَّج بهنَّ؟ أو المُراد أزواجُـك اللاتي تَزوَّجت بهن؟

الجَوابُ: في هذا قَوْلان لأَهْل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ:

فمِنهم مَن قال: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ يَعنِي: أزواجَك اللَّاتِي تُريد أن تَتزوَّج بهِنَّ وتُؤتِيَهنَّ أُجُورهَن.

وحُجَّةُ هَؤلاءِ: أننا لو حَمَلْناها على مَن تَزوَّج بهن لكان ذلك من باب تَحصيل الحاصِل؛ لأنه إذا كانَتِ الزوجة معَه وقد أَقَرَّه الله تعالى عليه فلا حاجةَ إلى أن يَقول: إنا أَحْلَلْنا لك؛ لأنهن عِنده مُتزَوِّج بهِنَّ.

والقول الثاني: أن المُراد أَحْلَلْنا لك أزواجك اللاتي تَزوَّجْت بهِنَّ؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾، وهذا القولُ الثاني هو المُوافِق لظاهِر الآية؛ لأن قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡتَ﴾ فِعْلٌ ماضٍ؛ وعلى القول الأوَّل يَجِب أن نُؤوِّل الفِعْل الماضِي بالفِعْل المُضارِع، يَعنِي: اللاتي تُؤتِي أُجورَهُن وهذا خِلاف ظاهِر الآية.

ويُجاب عمَّا أيَّد به أولئِكَ قولهم: أنه إذا كان المُرادُ الزوجاتِ اللاتِي في حِبالِه، فإن ذِكْر الإحلال من باب تَحصيل الحاصِل.

ويُجاب على هذا: بأن ذِكْر الإحلال من باب التَّوْكيد، ومَعناهُ: أن هؤلاءِ حلالٌ لك ليس فِيهنَّ شُبْهة، وليس فِيهنَّ مُعارضةٌ.

ويُمكِن أن يَكون للامتِنان، لكن الظُّهور دَفْع ما يُمكِن أن يُوجَّه إليه من لَوْمٍ.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾: ﴿ءَاتَيۡتَ﴾ بمَعنَى: أَعطَيْت، وأمَّا (أَتيتَ) بغير مَدٍّ فهي بمَعنى: جِئْت، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: [مُهورَهُن]، وسُمِّيَ المَهرُ أجرًا؛ لأنه عِوَضٌ عن الانتِفاع بالزوجة والاستِمْتاع بها، وليس عِوَضًا عن ذاتها، ولو كان عِوَضًا عن ذاتها لسُمِّيَ ثمنًا، لكنه عِوَضُ الاستِمْتاع بها والانتِفاع بها؛ ولهذا سُمِّيَ أُجْرة.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ إذا كانت (آتَيْتَ) بمَعنَى: أَعطَيْت، فهي تَنصِب مَفعولَيْن، المَفعول الأوَّل محذوف، والتَّقدير: آتَيْتَهنَّ، و﴿أُجُورَهُنَّ﴾ هو المَفعول الثاني، وجائِزٌ حَذْف المَفعول مع العِلْم به.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ الواو حَرْف عَطْف، و(ما) مَعطوفة على قوله تعالى: ﴿أَزْوَاجَكَ﴾ يَعنِي: وأَحْلَلْنا لك ما مَلَكَتْ يَمينُك، أي: ملَكْتَ ذاتَه أو الانتِفاع به؛ ومَلْك الذات يَستَلزِم مَلْك المَنافِع؛ لأنَّ مَن مَلَك شيئًا ملَكَ مَنافِعَه، ومَن مَلَك المَنافِع لم يَلزَم أن يَملِك الأعيان أو الذات.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ يَمينك ويَداك وما أَشبَه ذلك يُعبَّر بها عن الذاتِ؛ لأنها غالِبًا وَسيلة الأَخْذ والإعطاء، فقوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ يَعنِي: بما كَسَبْتم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي: ممَّا ملَكْتَ، لكنَّه عبَّر باليمين عن الذات؛ لأن الغالِب أن الأَخْذ والإعطاء هنا باليَد، واليَمين أَشرَفُ من اليَسار، فهي الَّتي يُؤخَذ ويُعْطَى بها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾: (مِنْ) هذه بَيانِيَّةٌ وما هو المُبَيَّن؟ المُبيَّن اسمُ المَوْصول -واسمُ الشَّرْط واسمُ الاستِفْهام كلُّها من الأشياءِ المُبهَمة فيَأتي البَيان بعدَها-؛ فقوله: (مِن) بيان (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن الكُفَّار بالسَّبْيِ] (أَفاءَ) بمَعنَى: رَدَّ، ومنه الفَيْءُ، وهو الظِّلُّ بعد الشَّمْس؛ لأنه رجَع بعد أن نَسَخْته الشمس، فصار ظِلًّا كما هو الحالُ قبل أن تَأتِيَه الشمس.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ المُراد به هنا الغَنيمة؛ لأن الغَنيمة في الحَقيقة

ردٌّ للمال من غير أهله إلى أهله، فإننا نحن -المُسلِمين- المُستَحِقُّون حَقًّا لِمَا رزَقَ الله تعالى الخَلْق، والكُفَّار يَستَمْتِعون به على وَجهِ الظُّلْم؛ ولهذا يُؤاخَذون به، وقد تَقَدَّم أن الكُفَّار يُحَاسَبون على الأكل والشُّرْب واللِّباس، وذكَرْنا في ذلك دليلًا من القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]، فهذه فيها اللِّباس، والأَكْل ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾، و﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذه اللَّامُ للإباحة والاستِحْقاق ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ للمُؤمِنين، أمَا أُولَئِك فلَيْست لهم ولَيْسَت خالِصةً لهم يوم القيامة، فهي في الدنيا حرامٌ عليهم، ويُحاسَبون عليها يوم القِيامة.

والآيةُ التي فيها الدَّليل على أن الأَكْل والشُّرْب حرامٌ على الكُفَّار هي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ مَفهومُهُ: أن الذين لم يُؤمِنوا ولم يَعمَلوا الصالِحاتِ عليهم جُناحٌ فيما طعِموا.

إِذَنْ: بهذا يَتبيَّن وجهُ كون الغَنيمة فَيْئًا، والفَيْءُ بمَعنَى: الرجوع والردِّ؛ فلهذا يَكون المال الذي بأَيْدي الكُفَّار إذا غنِمَه المُسلِمون فقد عاد إلى أهله، كأنهم يَأخُذون المال بغير حَقٍّ، فإذا أَخَذْناه منهم عاد إلى مُستَحِقِّه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن الكُفَّار بالسَّبْي كصَفِيَّةَ وجُوَيْرِيَةَ]، وصَفيَّةُ من سَبايا خَيبرَ، وجُوَيْرِيةُ من سَبايا غزوةِ بَني المُصطَلِق، وهُما من أُمَّهات المُؤمِنين.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ ظاهِرُه أن ما ملَكَتْ يَمِينه من غير ذلك لا تَحِلُّ له، ولكنه غَيرُ مُراد، بدليل أن مارِيةَ القِبْطيةَ استَحَلَّها النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ،

وأَتَتْ منه بولَدٍ[١]، وكانتا -صَفيةُ[٢] وجُوَيْرِيةُ[٣]- من مِلْك اليَمين أوَّلًا، ثُمَّ أَعتَقَهُنَّ وتَزَوَّجهن.

وقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بخِلاف مَن لَمْ يُهاجِرْن].

وهؤلاءِ الأَرْبعُ هُنَّ الحَلائِلُ من الأقارِب، وما عَداهُنَّ من الأقارِب فحَرام كما في سُورة النِّساء، فصار الأقارِبُ الآنَ مُحلَّلاتٍ ومُحرَّماتٍ، أمَّا المُحرَّماتُ فما ذُكِرْن في سورة النِّساء في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء:٢٣]، وهُنَّ سَبْع، والمُحلَّلات من الأقارِب أَربَعٌ: بناتُ العَمِّ يَعنِي: وإن نزَلْنَ، وبناتُ العَمَّة وإن نزَلْن، وبناتُ الخالِ وإن نزَلْن، وبناتُ الخالةِ وإن نزَلْن، هؤلاءِ كُلُّهن حلالٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ تَكلَّم المُفسِّرون على قوله: بنات عمِّك وعمَّاتك وخالِك وخالاتِك؛ فقالوا: لَمَّا أَفرَد في الذُّكور وجَمَع في الإناث، فقال في الذُّكور: عَمِّك وخالِك. وفي الإناث قال: عمَّاتِك وخالاتِك. فقال بعضُهم: إن هذا من باب التَّشريف؛ الذكورة كأن الواحِدُ يُقابِله من النِّساء جَمْع، وإلى هذا ذهَبَ ابنُ كثيرٍ[٤] رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٨/ ٢١٢)، و المستدرك للحاكم (٤/ ٣٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب ما يذكر في الفخذ، رقم (٣٧١)، ومسلم: كتاب النكاح، باب فضيلة إعتاقه أمته، رقم (١٣٦٥)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب من ملك من العرب رقيقًا، رقم (٢٥٤١)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام، رقم (١٧٣٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٩١).

وقال بعضُهم: أنه لَمَّا كان لَفْظ العَمِّ والخالِ كلَفْظ المَصدَر صار الأنسَبُ ألَّا يُجمَع؛ لأن المَعروف أن المَصادِر لا تُجمَع ولا تُثنَّى، لكن هذا في النَّفْس منه شيء.

والأقرَبُ: ما ذكَرَه ابنُ كَثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن قوة صِلة العَمِّ بالإنسان أَقوى من قُوَّة صِلة العَمَّة به؛ فلهذا جُمِع، وإلَّا فمِن المعلوم أن الإنسان له أعمام وليس له عَمٌّ واحِد فقَطْ، وبناتُ أَعْمامه كلُّهن حَلال.

وقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ فيه زِيادة قَيْد بالنِّسبة للرسول ﷺ وهو قوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ يَعنِي: هاجَرْن من مكَّةَ إلى المدينة، وسواءٌ كُنَّ في مَعِيَّته مُباشَرة أو في مَعِيَّته بالمَعنَى، أي: بالهِجرة، فليس بلازِمٍ أن تَكون بنتُ العَمِّ أو بِنتُ الخالِ مع الرسولِ ﷺ مُباشَرة يَعنِي: تَسير معه، بل لو هاجَرَت قَبلَه أو بعدَه فهي داخِلة في هذا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ يَطلُب نِكاحها غير صَداق ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ النِّكاح بلَفْظ الهِبَة من غير صَداق]، يَعنِي: الخالِص هو النِّكاح ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ إلخ.

قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ يَعنِي: وأَحْلَلْنا لك امرأةً مُؤمِنةً، وهذا نَكِرة في سِياق الإثبات، والمَعروف أن النَّكِرة في سِياق الإِثْبات لا تَقتَضي العُموم، لكن لَمَّا كان السِّياق سِياقَ مِنَّة صارَتْ للعُموم، والأصل في النَّكِرة ألَّا تَعُمَّ إذا كانت في سِياق الإثبات، فإذا قُلْت لك: اضْرِبْ رجُلًا. ليس مَعناها أَنِّي آمُرك أن تَضرِب جميعَ الرِّجال، لكن إذا كانتِ النَّكِرة في سِياق الإثبات يُراد بها الامتِناع صارت للعُموم؛ لأنها لو قُيِّدت بالواحِدة لم تَكْمُلْ بها المِنَّة، فلا تَكمُلُ المِنَّة إلَّا إذا كانت يُراد بها العُمومُ.

إِذَنْ: نَقول: قوله: (امرأةً) وإن كانت صِياغتها صيغة الواحِد، لكن المُراد بها العُموم، لأنها سِيقت للامتِنان، والامتِنان بالواحِدة لا يَكْمُل إلَّا إذا كانت امتِنانًا بكل فَرْد من أفراد هذه النَّكِرة.

إِذَنْ: يَكون معنى الآية: وأَحلَلْنا لك أيَّ امرأة، وقوله تعالى: ﴿مُّؤْمِنَةً﴾ هذا قَيْد يَخرُج به غير المُؤمِنة ولو كانت كِتابيَّةً، فإنها لا تَحِلُّ للنَّبيِّ ﷺ؛ ولهذا ذهَبَ بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ إلى أنَّ من خَصائِص النبي ﷺ في النِّكاح ألَّا يَتزَوَّج امرأةً كِتابيةً، وهذا لم يَقَعْ، لم يَقَعْ أن النبيَّ ﷺ تَزوَّج امرأةً كِتابيةً.

ومن المَعلـوم أن من خَصائص الرسول ﷺ في النِّكاح ما هو تَوسِعة وما هو تَضييق، فالتَّوْسِعة النِّكاح بالهِبَة والتَّزوُّج بأكثَرَ من أربعٍ، والتَّضييق أنه لا يَحِلُّ له من بنات عمِّه وبنات عَمَّاته وبنات خاله وبنات خالاته إلَّا مَن هاجَرْن معَه.

وكذلك على القولِ الراجِح أنه بعد تَخيير النبيِّ ﷺ لزوجاتِه لا يَحِلُّ له النِّساء، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ وهَبَت هي بدون وَلِيِّها، وهَبَت نفْسَها أي: أَعطَتْها للنبيِّ ﷺ بلا عِوَضٍ؛ لأن الهِبة تَعريفها: بَذْلُ المال بدون عِوَض. فمَعنَى ﴿وَهَبَتْ نَفْسَهَا﴾ يَعنِي: جاءت للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقالت له: قد وهَبْتُ نَفْسي لكَ. فتَحِلُّ له، لكن لَمَّا كان الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مُخيَّرًا في ذلك، وليس واجِبًا عليه أن يَقبَـل قال تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾، وهذا الشَّـرْطُ داخِل في الشَّـرْط الأوَّل؛ وقد عَلِم أن الشَّـرْط الثانيَ قَيْد في الشَّـرْط الأوَّل، فهو مُتأخِّر لفظًا مُتقَدِّم مَعنًى؛ وكُلَّما تَداخَلَتِ الشروط فاجعَلِ الشَّرْطَ الأخيرَ قَيْدًا فيما قبلَه فهو مُتأخِّر رُتْبةً، لكنْ مُتَقدِّمٌ مَعنًى؛ فإذا تَعدَّدَتِ الشـروط (إِنِ) الشَّـرْطية أو (إذا) أو ما أَشبَه، فإن

الشَّرْط الأخير يَكون شَرْطًا فيما قبلَه، فيَكون مُتأخِّرًا لفظًا مُتقدِّمًا مَعنًى ورُتبةً، مثلًا إذا قلت: أَخْبِرني إذا ضَرَبَك زيدٌ إن ظَلَمَكَ. صار الظُّلْم سابِقًا على الضَّرْب، وإن كان مُتأخِّرًا عنه في الذِّكْر، ويَتَّضِح ذلك تمامًا في قول الشاعِر:

إِنْ تَسْتَغِيثُوا بِنَا إِنْ تُذْعَرُوا تَجِدُوا ... مِنَّا مَعَاقِلَ عِزٍّ زَانَهَا كَرَمُ[1]

فالشَّرْط الأوَّلُ: (إِنْ تَستَغِيثُوا)، والثاني: (إِنْ تُذْعَرُوا)، والشَّرْط الثاني مُتأخِّر عن الأوَّل في اللفظ، لكن مُتَقدِّم عنه في المعنى والرُّتْبة؛ لأن الذُّعْر سابِق على الاستِغاثة.

وهذه قاعِدة: كلَّما تَعدَّدَتِ الشروط فإن الشَّرْط الثاني سابِق على الشَّرْط الأوَّل، أو على الشَّرْط الذي قَبْله لو تَعدَّدَت؛ ولو كانت ثلاثة شروط أو أربعة شروط فالثاني سابِقٌ لقَبْله، فإذا كانت ثَلاثة شُروط فالثالِثُ سابِق على الثاني، والثاني سابِق على الأوَّلِ، يَعنِي: بالعكس.

وهنا قال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ﴾ الإرادةُ تَسبِق الحِلَّ والقَبول؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾، وفائِدة هذا الشَّرْطِ أنه لَمَّا كان ردُّ النبيِّ ﷺ للمَرأة إذا وهَبَت نَفْسها النبيَّ ﷺ لـمَّا كان أمرًا شديدًا وكان النبيُّ ﷺ أشدَّ الناس حَياءً كان عَرْض المَرأةِ نَفْسَها على الرسول ﷺ قد يَكون شِبهَ مُلزِم له بمُقتَضى خُلُقه، فلمَّا كان كذلك فتَحَ الله تعالى لرسوله ﷺ البابَ على مِصراعَيْه؛ حيث أَثبَتَ له الإرادة والتَّخيير في هذه الحالِ، فقال تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ﴾.

---

(١) غير منسوب، وانظره في: شرح الكافية الشافية (٣/ ١٦١٤)، ومغني اللبيب (ص:٨٠١)، وهمع الهوامع (٢/ ٥٦٤).

إِذَن: فما فائِدة ذِكْر الإرادة مع أن المَوْهوب له إن شاء قَبِلَ الهِبَة، وإن شاء لم يَقبَل؛ يَعنِي: هذا أَمْر مَعلوم؟

الجَوابُ: الفائِدة من قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾؛ لِئَلَّا يُلزِم النبيُّ ﷺ نَفسَه قَبولَ الهِبَة لِمَا عُلِمَ من خُلُقه ﷺ أنه أَشَدُّ الناس حَياءً، ومَعلوم أن رَدَّ الإِنْسان هِبة المَرأة نَفْسها له أَمْر صَعْب، كيف امرأةٌ تَهَبُ نفسَها لك، وتَأتي راغِبة فيكَ أَشَدَّ الرَّغبة، بحيث إنها فَدَتْك بنفسها، فكيف تَرُدُّها؟! هذا أَمْر فيه صُعوبة في الواقِع، وقد يَكون ردُّها مُنافيًا للمُروءة، والنبيُّ ﷺ أَشَدُّ الناس حِرصًا على المُروءة وأَشَدُّ الناس حَياءً في مِثْل هذه الأمورِ، لكن الله تعالى أَراد أن يَفتَح له الباب حتى لا يَعتَرِض أَحَدٌ أو يَقول قائِل: كيف رَدَّها؟! ويَكون الرسولُ ﷺ أَعطاها الحُرِّيَّة الكامِلة في ذلك في قَبولها أو رَدِّها.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَطلُب نِكاحها] والصوابُ: يُوافِق على نِكاحها؛ لأنه مَطلوب، والصَّواب: أن المُراد أن يَستَنكِحها، أَيْ: أن يَقبَل نِكاحها.

قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ يُحتَمَل أن تَكون صِفةً لقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾، ويُحتَمَل أن تَكون مَفعولًا لِفِعْل مَحذوف، والتقديرُ: جعَلْناها خالِصةً لك، أي: هذه الشَّريعة أو هذه الشِّرْعة جعَلْناها خالِصةً لك، والخالِص من الشيء هو الذي لا يُخالِطه غيرُه، فمَعنَى ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ يَعنِي: لا يُشارِكك أَحَدٌ فيها، فيما إذا وهَبَتِ امرأةٌ نَفْسها لأَحَد، فإنها لا تَحِلُّ له.

وهلِ المُراد بالخالِص هنا أن يَتَزوَّج بلا مَهْرٍ ولا وَلِيٍّ، أو أن يَقَع ذلك بلَفْظ الهِبَة؟

الجَوابُ: الصحيح الأوَّلُ: أن الخالِص أن يَكون ذلك بلا مَهْرٍ ولا وَلِيٍّ ولا شُروطٍ على القول باشتِراط الشُّروط؛ لأن الهِبة هي التَّبرُّع بلا عِوضٍ، فالمَقصود: المَعنَى لا اللَّفْظ، يَعنِي: أن الذي اختُصَّ به الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو أن المَرأةَ تَأتي إليه وتَقول: وهَبْت نَفْسي لك. ويَأخُذها، وهذا قد وقَعَ فِعْلًا أكثَرَ من مرَّة، تَأتِي النِّساء إلى الرسول ﷺ ويَهَبْنَ أَنفُسَهنَّ له، فالخالِص للرسول ﷺ والخاصُّ به هو أن يَكون النِّكاح مجَّانًا بلا وليٍّ ولا شُروطٍ.

وأمَّا الهِبَة فإن العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ اختَلَفوا: هل يَصِحُّ النِّكاح بلَفْظ الهِبَة مثل أن أَقول: وهَبْتُك بِنْتي على صَداق قَدْره كذا وكذا، أو مَلَّكْتُكَ بِنْتي على صَداق قدرُهُ كذا وكذا. اختَلَف فيه العُلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ على قولين: مِنهم مَن يَرَى أنه لا يَصِحُّ، وأنه لا بُدَّ أن يَكون عَقْد النِّكاح بلَفْظ التَّزويج أو بلَفْظ الإِنْكاح، ومِنهم مَن يَرى أنه يَصِحُّ، وهذا له مَحَلٌّ آخَرُ.

وقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: ﴿دُونِ﴾ بمَعنَى: سِوى، أي: مِن سِواهم، والمَعنَى: أن المُؤمِنين لا يَحِلُّ لهم ذلك، والكافِرون من بابِ أَوْلى، فإن الكافِر لا يَحِلُّ له أن يَتزوَّج بالهِبة وكذلك المُؤمِن.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ النِّكاح بلَفْظ الهِبَة من غير صَداق هذا خاصٌّ للرَّسول ﷺ من دون المُؤمِنين].

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: المُؤمِنين ﴿فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ مِن الأَحكام] ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾: ﴿قَدْ﴾ هذه للتَّحقيق، وقد قيل: إن ﴿قَدْ﴾ إذا دخَلَت على الماضِي فهي للتَّحقيق، وإن دخَلَتْ على المُضارِع فهي للتَّقليل، وقد يُراد بها التَّحقيقُ، فإن قُلت: قد قُمْت. فهذا للتَّحقيق، وإن قُلْت: قد يَجود البَخيل وقد

يَصدُق الكذَّاب. فهذا للتَّقليل، لكن تَأتي للتَّحقيق في مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور:٦٤]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب:١٨]، هذه لا شَكَّ أنها للتَّحقيق.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾، يَعنِي: أننا قد فرَضْنا عليهم أشياءَ، وعلِمْنا أن المَصلَحة تَقتَضي ما فرَضْنا دون سِواه، فليس المُراد بالآية مُجرَّدَ العِلْم أو مُجرَّد الإخبار بأن الله تعالى قد عَلِم ما فرَضَ؛ لأن كون الله تعالى قد عَلِم ما فرَضَ أَمْرٌ مَعلوم، فإن كون الله تعالى فرَضه مَعلوم أنه صادِر عن عِلْم، لكن المُراد أن ما فرَضْناه قد صدَر عن عِلْم منَّا بما يُناسِبهم في أزواجهم، وليس عن جَهْل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾: ﴿فَرَضْنَا﴾ هنا بمَعنَى: أَوْجَبْنا عليهم؛ أي: على المُؤمِنين ﴿فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ من الأَحْكام.

قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾: (أزواج) جَمْع زَوْجة أو جَمْع زَوْج؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن الأَحْكام بألَّا يَزيدوا عن أربَعِ نِسوةٍ، ولا يَتزَوَّجوا إلَّا بوَليٍّ وشُهود ومَهْر] وغير ذلك من الأشياءِ التي تُخالِف الأحكامَ الثابِتة للرسول ﷺ؛ لأن النبيَّ ﷺ خُصَّ بالنِّكاح بأَحكام، وخُصَّ المُؤمِنون بأحكام، وكلُّ ذلك عن عِلْم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعن حِكْمة.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بألَّا يَزيدوا على أَرْبَعٍ] فلا يَحِلُّ لمُؤمِن أن يَزيد على أربَعِ زَوْجات؛ لقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء:٣]، فجعَل آخِرَ شيء الرُّباع، أي: الأَرْبع، مع العِلْم بأن المَقام يَقتَضِي الزِّيادة لو كان هناك زيادة بدَليل أن الآية إنما ذَكَر الله تعالى فيها العدَد المُمكِن؛ لأنها رُتِّبَت على شَرْط، وهو ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ يَعنِي: إن

خِفْتم ألَّا تَعدِلوا في اليَتامى في النِّساء التي بين أَيْديكم كَبِنْت العَمِّ وشَبَهها إن خِفْتم ألَّا تَعدِلوا فيها فلَدَيْكمُ النِّساء كثير، فلو كان هناك زيادة على الأَربَع لكان الله تعالى يَذكُرها حتى يَكون المَجال أوسَعَ، فالآية نزَلَت مُقيَّدة بشَرْط ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ أي: ألَّا تَعدِلوا في نِكاحِهن.

وكانوا في الجاهِلية إذا كان الإنسان عِنده بِنْت عَمٍّ يَتيمةٌ كان يَظلِمها في النِّكاح، إمَّا أن يَمنَعها أو بأن يُعلِّقَها على أنها تَكون له، فأَنزَل الله تعالى هذه الآيَةَ.

وقوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا﴾ يَعنِي: فالنساء سِواهُنَّ كثير، قال تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾، فلو كان عدَد زائِد على الأربع جائِزًا لذُكِر هنا، ولَقِيل مثَلًا: فانكِحوا ما شِئْتم من النِّساء، أو لقال: فانْكِحوا ما طاب لكم من النِّساء. ولم يُقيِّد، فلمَّا قيَّد عُلِمَ أنه لا يَجوز أكثَرُ من أَرْبَع، ولم يُخالِف في ذلك إلَّا شُذَّاذٌ من أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ أو الرافِضة.

والرافِضةُ عِندهم تَوسُّع في مَسائِل النِّكاح، منها هذه المَسأَلةُ يُجوِّزون أن يَتَزَوَّج الإنسان إلى تِسْع، ومنها مَسأَلة المُتْعة، وهذا ممَّا يُوجِب لضُعَفاء الإيمان أن يَعتَنِقوا مَذهَبهم؛ لأنهم يَجِدون فيه إشباعًا لرغَباتهم، فإذا كانوا يُجيزون المُتْعة للإنسان إذا نزَل ببَلَد له أن يَذهَب إلى امرأة فيَقول لها: زوِّجِيني نَفْسَكِ لمدَّة سَبْعة أيام، أو لمُدَّة عشَرة أيام، أو لمُدَّة شَهْر. هُم يُجوِّزون ذلك!! ويُجوِّزون أيضًا أن يَتزوَّج الإنسان إلى تِسْع!!.

كذلك يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ولا يَتزوَّج إلَّا بوَلِيٍّ] لا يَجوز النِّكاح إلَّا بوَلِيٍّ، والدليل على ذلك من القُرآن قولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور:٣٢] أَيْ: زوِّجوا، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:٢٢١] لا تُزوِّجوا، وقوله تعالى:

﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٢]، ولولا أن الوَلِيَّ شَرْط لم يَكُن لعَضْله حُكْم.

ثانيًا: [ولا شُهود] الشُّهود مُختَلَف في اشتِراطه في النِّكاح، فالمَشهور أنه لا بُدَّ من الشُّهود؛ لأن عَقْد النِّكاح خَطيـر، ويَتَرَتَّب عليه مَسائِلُ وحُقوق نسَب ومالٍ؛ وغيره من العُقود الأُخرى تَجِدها إمَّا مالِيَّةً وإمَّا حُقوقيةً أخرى غيـر المال، لكن هو جامِع بين المال والنسَب والحُقوق؛ فالمال كالمَهْر والنَّفَقة والإِرْث، والنسَب كإلحاق الولَد بأبيه في الزواج، والحُقوق ما يَجِب على الزَّوْج وزَوْجته من المُعاشَرة بالمَعروف، فلا بُدَّ من شُهود.

وابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يَشتَرِط الشُّهود، بينما اشتَرَط إعلان النِّكاح أو الشهود، فإن وُجِدَ الإعلان ولو بلا شُهود كفَى، فإمَّا أن يَجتَمِع الإِشْهاد والإعلان، وهذا أَعلى الأَقْسام، وإمَّا أن يُفقَد الإِشْهاد والإِعْلان وهذا لا يَصِحُّ، وإمَّا أن يُوجَد الإشهاد بلا إعلانٍ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي صِحَّة النِّكاح هنا تَردُّد ونظَرٌ»[1]؛ وإمَّا أن يُوجَد الإعلان بلا إشهادٍ، وهذا عِندهم صحيح.

فالأَقْسام إِذَنْ أَرْبعة:

١- أن يُوجَد الإعلان والإِشْهاد.

٢- أن يُعْدَم الإِعْلان والإِشْهاد.

٣- أن يُوجَد الإِشْهاد دون الإِعْلان.

٤- أن يُوجَد الإِعْلان دون الإِشْهاد.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٢/ ١٣٠).

فيَشهَدون على العَقْد، أمَّا الإشهاد على الرِّضا فهو سُنَّة وليس بواجِبٍ.

والإعلانُ ليس لازِمًا بالوَليمة، فقد يَكـون الإعلان مثَلًا بالمَشْي ليلة الزِّفاف بالأسواق، كما يُصْنَع فيما سبَق، وكذلك الآنَ في السيَّارات إعلانٌ بَيِّنٌ، وكذلك في وَضْع الأنوار على بَيْت الزَّوْج وبَيْت الزوجة هذا أيضًا من الإعلانِ، وإذا لم يَحصُل فلا يَكون إعلانًا، فإذا كان لا يَظْهَر أنه عُرْس فلا يَكون إعلانًا، أمَّا إن ظهَر فإن كان المُجتَمَع اعتبَر من العادة أن هذا إعلانٌ فهو إعلانٌ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إلَّا بوَليٍّ وشُهود ومَهْر] المَهْر: الصَّداق، وظاهِر كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المَهْر شَرْط في النِّكاح.

واعْلَمْ أن للمَهْرِ ثلاثَ حالاتٍ:

- تارةً يُذكَر مُعيَّنًا.
- وتارةً يُنفَى.
- وتارةً يُسكَت عنه.

ثلاثُ حالات تارة يُنفَى، وتارة يُثبَـت مُعيَّنًا، وتارة يُسكَـت عنه فلا يُذكَر مُعيَّنًا ولا يُنفَى.

الحال الأُولى: الذي يُذْكَر مُعيَّنًا مثل أن يَقول: زوَّجْتُكَ ابنَتِي بعشَرة ريالات. فيَصِحُّ، أو يَقول: زوَّجْتُك ابنَتِي بريال واحِد. يَصِحُّ؛ وتَزوَّج رجُل امـرأة بريال، فلمَّا صارَتِ الضُّحى وهو عِندها قرَع البابَ رجُل، فذهَبَ يَفتَح له فتَنازَعوا إيَّاه، وعلَتْ أَصواتهما، فلمَّا رجَع إليها قالت زَوْجَته: مَن هذا الرجُلُ الذي يَأتي يُخاصِمك في أوَّل يَوْم من زواجِكَ. قال: هذا رجُل يَطلُبني؛ قالت: خُذْ هذا الرِّيالَ أَعطِهِ إيَّاه،

وكان مَهرَها، لكن الآنَ لا يُوجَد أحَدٌ يُزوِّج بريال.

فهذا إثباته مُعيَّن، يَعنِي يَقول زوَّجْتُك ابنَتي بريال أو بعشَرة رِيالات أو بمِئة رِيال أو بأكثَرَ أو أقَلَّ.

الحال الثانية: أن يَنفِيَ فيَقول: زوَّجْتُك ابنَتي. فيَقول: قَبِلْتُ بلا مَهْر. فاختَلَفَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في هذا العَقْدِ هل يَصِحُّ أو لا يَصِحُّ؟ والمَشهور من المَذهَب[1] أن العَقْد صحيح، ولها مَهْر المِثْل، واختار شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن العَقْد لا يَصِحُّ[2]؛ لأنه تَزوَّج على غير الشرط الذي ذكَرَ الله تعالى؛ لأن الله تعالى يَقول ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء:٢٤].

الحالُ الثالِثةُ: أن يَسكُت عنه فلا يُذكَر مُعيَّنًا ولا يُنفَى بأن يَقول: زوَّجْتُك ابنَتِي. فيَقول قَبِلْتُ. فالعَقْد هنا صحيح، ولها مَهْر المِثْل، وقد نَصَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٦]، فهُنا يَجِب مَهْر المِثْل إذا دخَل بها، فإن لم يَدخُل بها وطلَّقَها قبل الدُّخول وَجَبَتِ المُتْعة.

وظاهِرُ كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: [وشُهود ومَهْر] أن المَهْر شَرْط في صِحَّة العَقْد، فيَكون ذلك مُوافِقًا لكلام شيخِ الإسلام ابنِ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾: (فرَض) إذا تَعدَّت باللَّام فهي بمَعنَى: أَحَلَّ كما في قوله تعالى فيما سبَقَ: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي: فيما أَحَلَّ، وكقوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾

---

(١) انظر: الهداية (ص:٤٠٢)، والمغني (٧/ ٤٩)، وكشاف القناع (٥/ ١٥٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٩/ ٣٥٢).

[التحريم:٢]، أي: أَحَلَّها وشرَعها، أمَّا إذا تَعدَّت بـ(على) فهي بمَعنَى الإيجاب كما هنا ﴿قَدْ عَلِمْنَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾.

فائِدةٌ: النَّفيُ يُحمَل أوَّلًا على نَفيِ الوُجود، فإن لم يُمكِن فعلى نَفيِ الصِّحَّة، فإن لم يُمكِن فعلى نَفيِ الكَمال، مثالُه في نَفيِ الوُجود: لا إلهَ حَقٌّ إلَّا اللهُ، ومِثالُه لنَفيِ الصِّحَّة: لا صلاةَ إلَّا بوُضوء؛ لأنه يُمكِن أن يُصلِّيَ الإنسان بدون وُضوء، ومِثاله في نَفيِ الكَمال لا صلاةَ بحَضْرة طَعام؛ لأنه لو صلَّى لصَحَّت، ولا يُمكِن أن نَحمِلَه على الكَمال وهو يُمكِن نَفيُه على الصِّحَّة: لا نِكاحَ صحيحًا إلَّا بوَليٍّ، فما دام يُمكِن حَملُه على نَفيِ الصِّحَّة يَجِب، فأوَّل ما نُسلِّط النَّفيَ على نَفيِ الوجود؛ لأن هذا هو ظاهِر اللَّفْظ؛ فإن لم يُمكِن بأن كان مَوْجودًا حمَلْناه على نَفيِ الصِّحَّة؛ لأن نَفيَ الصِّحَّة نَفيٌ للوُجود شَرْعًا، فإن لم يُمكِن فإن دلَّتِ النُّصوص على الصِّحَّة يُحمَل على نفيِ الكَمال.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن الإماءِ] يَعنِي: وعلِمنا ما فرَضْنا عليهم فيما ملَكَتْ أيمانهم من الإماءِ، خَصَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ما) العامَّة بالإماء؛ لأن (ما) اسمٌ مَوْصول، تُفيد العُموم، والإنسان يَملِك الإماءَ، ويَملِك المَواشيَ، ويَملِك الدراهِمَ، ويَملِك البِناءَ، ويَملِك الأراضِيَ، فهل (ما) هنا للعُموم؛ يَعنِي: وفيما ملَكَت أيمانهم من كل شيء من الإماءِ كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟

نَقول: إن اللَّفْظ العامَّ لا يُمكِن أن نَخُصِّصه نحن إلَّا بدليل، وإلَّا فالواجِبُ إبقاءُ العُموم على عُمومه، وهنا خَصَّصناه بالإماء بدليل قَرْنه بالأزواجِ.

والكلام الآنَ فيما يَتعلَّق بالحُقوق الزوجيةِ، فقال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من الإماءِ، فتكون الدَّلالةُ على

التَّخصيص من قوله تعالى: ﴿أَزْوَٰجِهِمْ﴾.

وعلى هذا فنَقول: كلُّ مَوضِع ذُكِر فيه الأَزْواج وما ملَكَتِ اليَمين، فالمُراد بها ملَكَت اليَمينُ: الإماءُ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بشِراءٍ وغَيرِه] يَعنِي: علِمْنا ما فرَضْنا عليهم من الإماءِ بالشِّراء وبغير الشِّراء، وهل يُمكِن أن يَملِك الإنسان الأَمَةَ بغير الشِّراء؟

الجَوابُ: يُمكِن، بالسَّبْي، وبالهِبَة، وبالإِرْث، وأَسْباب التَّملُّك كثيرة.

المُهِمُّ: أنَّ مِلْك اليَمين أسبابُه مُتعَدِّدة.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بأن تَكون الأمَةُ ممَّنْ تَحِلُّ لمالِكها كالكِتابيَّة بخِلاف المَجوسية والوَثَنيَّة] أَفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه لا يَحِلُّ من الإماء إلَّا الأَمَة غير الكِتابيَّة، وهي اليَهودية والنَّصرانية، فأمَّا الأَمَة المَجوسية فلا تَحِلُّ، يَعنِي: لو سَبَيْنَا إماءً من المَجوس، فإنه لا يَحِلُّ لنا وَطْؤُهنَّ، وكذلك الوَثَنيَّة وهي التي تَعبُد الأَوْثان، فهي لا تَحِلُّ لنا بمِلْك اليَمين.

وما الفَرْق بين المَجوسية والوَثنيَّة؟

الفَرْق بينهما أن المَجوسية تَعبُد النار، والوَثَنية تَعبُد الأصنام من الأشجار والأحجار وما أَشبَهَ ذلك، وكذلك مَن يَعبُد القُبور، وكذلك مَن لا تُصلِّي، لكن مَن لا تُصلِّي مُرتَدَّة يَجِب أن تُقْتَل إذا لم تَتُبْ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بخِلاف المَجوسِيَّة والوَثَنيَّة] هذا أحَدُ القَوْلين في المَسأَلة، والصحيح أن المَجوسِيَّة والوَثنيَّة حلال بمِلْك اليمين؛ لعُموم قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون:٦]،

فكلِمة (ما مَلَكَت أَيمانُهم) عامٌّ، يَشمَل ما ملَكْتَه من الكِتابيَّات وما مَلَكْتَه من المَجوسِيَّات وما مَلَكْتَه من الوَثَنيَّات والشُّيُوعِيَّات وغير ذلك، ولا دليلَ على التَّقييد بالكِتابية.

نعَم؛ النِّكاح هو الذي لا يَحِلُّ إلَّا من الكِتابية، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة:٥] ما قال: إذا ملَكْتُموهنَّ. قال تعالى: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، فدَلَّ هذا على أنَّ المُراد بذلك النِّكاحُ؛ لأنها هي التي تُؤتِي أَجْرها، أمَّا المَملوكة فتُشْتَرى.

فالصَّوابُ: أنه تَحِلُّ لنا المَملوكة إذا كانت مَجوسية أو كِتابيَّة لعُموم الكِتاب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وأن تُسْتَبْرَأَ قَبْل الوَطْء] هذا أيضًا ممَّا فرَضه الله تعالى علينا، أن نَسْتَبرِئ الأَمَة التي ملَكْناها قبل أن نَطَأَها؛ لأن النبيَّ ﷺ في غَزوة أَوْطاس نهَى أن تُوطَأ حامِل حتى تَضَعَ، وأن لا تُوطَأ ذاتُ حَيْض حتى تَحيض[1]، فلا بُدَّ من الاسْتِبراء إن كانَت حامِلًا فبِوَضْع الحَمْل، وإن كانت تَحيض فبِحَيْضة.

وهلِ الاستِبْراء واجِب بكل حال أو لا تُسْتَبرَأ البِكْر؟

ذهَبَ بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ إلى أن الاستِبْراء واجِب حتى في الأَبْكار، وقال بعضُ أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ -ومِنهم شيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: إن البِكر لا تُسْتَبرَأُ؛ لأن الغرَض من الاستِبْراء العِلْم ببَراءة الرَّحِم، والبِكْر بَراءة رَحِمها مَعلوم، واحتِمال أن تَتَحمَّل بعِلاج غير الوَطْء وارِد لكنه بعيد، يَعنِي: يُحتَمَل أن تكون بِكْرًا،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٢٨)، وأبو داود: كتاب النكاح، باب في وطء السبايا، رقم (٢١٥٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الفتاوى الكبرى (٤/ ١٦٠).

لكن تَتَحمَّل بمَنيِّ رجُل من الناس وتَحْمِل؛ لكن هذا بَعيد، فإذا مَلَكها رجُل أَمينٌ وأَخبَره أنه قد استَبْرَأَها قبل البَيْع، فالمَذهَب يَجِب الاستِبْراءُ، والقول الثاني في المَسأَلة أنه لا يَجِب الاستِبْراء ما دام البائِعُ أمينًا.

وقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: ﴿لِكَيْلَا﴾: (كَيْ) مَصدَرية، ولا يَصِحُّ أن تكون حَرفَ جَرٍّ للتَّعليل، كما لو قُلْتَ: جِئْتُ كي أَقرَأَ. فإنه إذا اقتَرَنَت باللام تَعيَّن أن تكون مَصدَريَّة؛ لِئَلا يُجمَع بين حَرفَيْ تَعليل، فإن لم تُسبَق باللَّام صارت حَرْفَ تعليل، والفِعْل بعدها مَنصوب بـ(أَنْ).

إِذَنْ: في (لِكَيْ): اللَّامُ حَرْف جَرٍّ، و(كَيْ) مَصدَرية، و(لا) نافِية، و﴿يَكُونَ﴾ فِعْلٌ مُضارِعٌ مَنصوب بـ(كَيْ)، وعلامة نَصْبه الفَتْحة الظاهِرة على آخِره.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ﴾ يَعنِي: على النبيِّ ﷺ، فالخِطاب للرسول ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿حَرَجٌ﴾ أي: ضِيقٌ في النِّكاح، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُتعَلِّق بما قبلَ ذَلكَ]، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قبلَ ذَلكَ] يُحتَمَل أن يُريد أنه مُتعَلِّق بـ(أَحْلَلْنا): ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب:٥٠] إلى قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾.

ويُحتَمَل أن تكون مُتعَلِّقة بـ(خالِصة لكَ): ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: خالِصةً لك؛ لكَيْ لا يَكون عليك حرَجٌ.

وكِلا المَعنيَيْن صَحيح؛ ولهذا قال بعض العُلَماءِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنها مُتعَلِّقة بـ(أَحْلَلْنا). وقال بعضُهم: إنها مُتعلِّقة بـ(خالِصةً). وكلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ صالِح للوَجْهين، لكَيْ لا يَكون عليك حرَجٌ، يَعنِي: أَنَّنا أَحْلَلْنا لك هذا الحِلَّ حتى لا يَكون علَيْك ضِيق في النِّكاح.

ومعلوم أن النبيَّ ﷺ مَطلوب، فالنِّساء قد يَأتِينَ إليه يَعرِضْنَ أَنفُسَهنَّ عليه، فإذا لم تَحِلَّ له الواهِبةُ نَفْسَها صار عليه في ذلك ضِيق من وَجْهين:

١- إن رَغِبها ففيه ضِيق عليه ألَّا يَتزَوَّجها.

٢- وإن لم يَرغَبْها ففيه ضِيق عليه إن رَدَّها.

والله عَزَّوَجَلَّ جعَلَ الخِيار له قال تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أَيْ: ضِيق حتى يَتَّسِع له المَجال، والرسول ﷺ خُصَّ بهذا -أَيْ: بأن يَتزَوَّج مَن شاء- حتى فيمَن وهَبَتْ نَفْسها له؛ لأن اتِّصاله بهِنَّ فيه مَصلَحة عَظيمة، لهُنَّ ولأهلِهِنَّ وللمُسلِمين:

١- لهُنَّ ظاهِر.

٢- ولأَهلِهِنَّ؛ لأنه لا شَكَّ أنه من الشَّرَف أن يَتزوَّج النَّبيُّ ﷺ بامرأة؛ لأنه ليس من الشَّكِّ في أن لِمَنْ تَزوَّج النبيُّ ﷺ منهم الشَّرَفَ في مُصاهَرة النبيِّ ﷺ.

٣- وللمُسلِمين؛ لأن هذه المَرأةَ سيَكون عندها عِلْمٌ من سُنَّة رسول الله ﷺ؛ لولا العِلْم لولا اتِّصاله به ما حَصَّلتْهُ؛ ولهذا كثير من السُّنَن البَيتيَّة، تُلُقِّيَت من زوجات الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يَجمَع الله تعالى دائِمًا بين هذَيْن الاسمَيْن الكريمين؛ لأن بالمَغفِرة زوال المَكروهِ، وبالرَّحمة حُصول المَطلوب، وإذا زال المَكروهُ وحصَل المَطلوب فقَدْ تَمَّتِ الأُمور.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾: (كان) هنا مَسلوبةُ الدَّلالة على الزمَن،

والمُراد بها تَحقُّق المَوْصوف بالصِّفة، أي: أن الصِّفة هذه في هذا المَوْصوفِ حقيقة.

وقوله تعالى: ﴿غَفُورًا﴾ يُحتَمَل أن تكون صِيغة مُبالَغة، وأن تكون صِفة مُشبَّهة، وأيًّا كان فإنها مُشتَقَّة من المَغفِرة وهي سَتْر الذَّنْب والتَّجاوُز عنه.

وقوله تعالى: ﴿رَّحِيمًا﴾ مُشتَقَّة من الرحمة، وهي صِفة تَتعلَّق بذاتِ الله عَزَّوَجَلَّ من مُقتَضاها الإِحْسان والإِنْعام.

والغَفور والرَّحيم من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكلُّ اسمٍ من أسماء الله تعالى فإنه دالٌّ على أُمور ثلاثة إذا كان مُتعَدِّيًا، وعلى أَمْرين إذا كان غير مُتعَدٍّ.

فالثَّلاثة إذا كان مُتعدِّيًا: الاسمُ والصِّفةُ والأثَرُ. مِثال ذلك في الغَفور أن الغَفور من أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والصِّفة في الغَفور المَغفِرة، والأثَر أنه يَغفِر الذنوب جميعًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والرَّحيم مِثلُها: الاسمُ الرَّحيم، والصِّفة الرحمة، والأثَر يَرحَم.

أمَّا إذا كان لازِمًا فلا يَتعدَّى، فيُستَفاد فائِدتان: الاسمُ والصِّفة، الاسم مِثْل: ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، يُستَفاد من العَليِّ الاسمُ والصِّفةُ وهي العُلوُّ، ولا تَتعدَّى لأحَد حتى نَقول: يُستَفاد منها أثَرٌ. والعَظيم كذلك.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ بما يَحصُل التَّحرُّز منه ﴿رَّحِيمًا﴾ بالتَّوْسِعة في ذلك] هذا مِن بَعْد المَغفِرة والرحمة، وليس هو المَغفِرةَ والرَّحْمة، بل المَغفِرة فيما يُقابِل الذُّنوب، والرحمة فيما يَحصُل به المَطلوب.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عُلُوُّ شَأْن النَّبيِّ ﷺ؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، فإنها -كما سَبَق- تَصديرُها بالنِّداء مع وَصْف النُّبوَّة يَدُلُّ على رِفعة شأنه ﷺ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الإحلالَ والتَّحريمَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾، وهذا لا يُنافِي أن يَكون النَّبيُّ ﷺ يَجتَهِد أحيانًا ويَحكُم، فإن القولَ الراجِحَ: أن الرسول ﷺ له أن يُشرِّع، ثُمَّ إن أَقرَّه الله تعالى على ذلك كان شَريعة، وإن لم يُقِرَّه كان على حَسَب ما أَراد الله عَزَّوَجَلَّ.

والدليلُ على أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَستَقِلُّ بالتَّشريع عِدَّة أحاديثَ، بل من القُرآن؛ فلِقولِه تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وهذا يَدُلُّ على أن للنبيِّ ﷺ أَمْرًا مُستَقِلًّا.

ومن السُّنَّة مثل قوله ﷺ: «لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ»(١)، وهذا دَليل على أنه يَأمُر ويَنهَى، وإلَّا لقال: لَوْلا أن الله تعالى لم يَأمُرْني لأَمَرْته، فلا يُعلِّقها بإرادته هو، بل بإرادة الله تعالى.

ومِنها قوله ﷺ: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الْغِيلَةِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا الرُّومُ يُغِيلُونَ فَلَمْ يَضُرَّهُمْ شَيْءٌ»(٢).

ومِثْل قوله ﷺ في صلاة العِشاء: «أَنَّهُ لَوَقْتُهَا لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي»(٣).

وغير ذلك من الأَمثِلة.

والحاصِلُ: أن النبيَّ ﷺ له أن يَأمُر ويَنهَى ويُحلِّل ويُحرِّم، ولكن إن أَقرَّه الله

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب متى يقوم الناس إذا رأوا الإمام، رقم (٦٣٧)، ومسلم: كتاب المساجد، باب متى يقوم الناس للصلاة، رقم (٦٠٤)، من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب النكاح، باب جواز الغيلة، رقم (١٤٤٢)، من حديث جدامة بنت وهب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب وقت العشاء وتأخيرها، رقم (٦٣٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

تعالى على ذلك كان ذلك من شَريعة الله تعالى، وإلَّا فالأَمْر إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه لا بُدَّ في النِّكاح من المَهْر لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن النِّكاح عَقْد على المَنفَعة، وليس على العَيْـن؛ لقوله تعالى: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾، والإِجارة عَقْـد على مَنافِعَ لا على أعيانٍ؛ ولهـذا نُملِّك المَرأةَ نَفْسها بالبيع والشراء والهِبَة وغير ذلك، وليس لزَوْجها أن يَعتَرِض على هذه الأُمورِ؛ لأنه إنما يَملِك مَنفَعة الاستِمْتاع فقَطْ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جَواز الوَطْء بمِلك اليَميـن؛ لقوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: صِحَّة إضافة الشيءِ إلى البَعض؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾، وهذا كثيـر في القُـرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ فإن الإنسان لا يُحرِّر الرقَبة وحدَها، بل يُحرِّر كل العَبْد.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن سبَبَ مِلْك اليَمين سبَبُه الفيءُ؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن أَموال الكُفَّار إذا عادَت إلى المُسلِمين فقَدْ عادَت إلى أهلها، تُؤخَذ من قوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَآءَ﴾؛ لأن الفيءَ بمَعنَى: الرُّجـوع، فالكُفَّار يَتمتَّعون بأموالهم، لكنهم بغَيْر حَقٍّ؛ ولهذا يُحاسَـبون عليها يومَ القِيامة، أمَّا الأموال فهي في الحَقيقة للمُسلِمين.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: جواز هـؤلاء الأَرْبَعِ مـن الأقارِب وهُمْ: بناتُ العمِّ وبناتُ

العَمَّات وبناتُ الخالِ وبناتُ الخالاتِ، وأمَّا غيرُهن من الأقارِب فحَرام كما في آية النِّساء.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنه يُشترَط لِحِلِّ هؤلاءِ الأقارِبِ في حقِّ النَّبيِّ ﷺ أن يَكُنَّ قد هاجَرْن معه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾.

ويَتفرَّع على هـذه الفائِدةِ: أن النبيَّ ﷺ قد يُخَصُّ بأَشياءَ في النِّكاح تَضْييقًا وتَوْسيعًا؛ تُؤخَـذ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾؛ لأن في هذا تَضييـقًا؛ لأن غيرَه يَحِلُّ له بَناتُ العمِّ والعمَّاتِ والخالِ والخالاتِ مُطلَقًا بخِلاف النبيِّ ﷺ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: جَواز تَزوُّج النبيِّ ﷺ بالهِبَة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، ويُشتَـرَط في هذه الواهِبـةِ أن تكون مُؤمِنةً؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَـةً﴾، فلو وهَبَتْ كِتابيَّة نَفْسها للنبيِّ ﷺ لم تَحِلَّ له.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: لُطفُ الله تعالى بنَبيِّه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: بَيـان عُلـوِّ شَأْن النَّبيِّ ﷺ حيـث قال تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾، ولم يَقُلْ: إن أَرَدْت. مع أن المَقام يَقتَضي أن تَقول: إن أَرَدْت أن تَستَنْكِحها؛ لأن الخِطاب له، قال تعالى: ﴿أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ فكان مُقتَضى السِّياق أن يَقـول: وامرأة مُؤمِنة إن وهَبَـت نَفْسـها لك إن أَرَدْت أن تَستَنْكِحها، ولكنه أَتَى بالنَّبيِّ؛ لبَيان عُلوِّ شَأْنه ومَرتَبته.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن الإظهار هنا لِبَيان عِلَّة الحُكْم؛ فالإظهار هنا في مَقام الإِضْمار من فَوائِده: بَيان عِلَّة الحُكْم، فلو قال: وامرأة مُؤمِنة إن وهَبَت نفسها لك إن أَرَدْت أن تَستَنْكِحها، لَمَا تَبيَّن لنا وَجهُ الخُصوصِيَّة، لكن لَمَّا قال تعالى: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾ تَبيَّن الآنَ وجهُ الخُصوصية؛ لأنه كان نَبيًّا، فالعِلَّة أنه نَبيٌّ، فأُحِلَّت له هذه الواهِبةُ نَفْسَها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: الرَّدُّ على الجَبْرية إن أَراد، حيث أَثبَت للنبيِّ ﷺ إرادة، والجَبْرية لا يُثبِتون إرادة للإنسان يَقولون: إنه مُجبَر على عمَله!.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أن جَواز النِّكاح بالهِبة من خَصائِص النبيِّ ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن الحُكْم الثابِت للرسول ﷺ ثابِت لأُمَّته إلَّا بدليل؛ لقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فلَوْلا أن الحُكْم الثابِت له ثابِت لأُمَّته لكان قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لَغْوًا لا فائِدةَ منه؛ فلَمَّا أَخرَج المُؤمِنين من ذلك الحُكْم عُلِم أن الأَصْل مُشارَكة أُمَّته له في الأَحْكام.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: أن لله تعالى أن يَختَصَّ بأحكامه مَن شاء؛ يُؤخَذ من تَخصيص النبيِّ ﷺ بهذا الحُكْمِ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له أن يَختَصَّ بأحكامه مَن يَشاء.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: أن التَّخصيص بالحُكْم لا بُدَّ أن يَكون له عِلَّة تَقتَضي تَخصيص ذلك المَحكومِ عليه أو له؛ يُؤخَذ من أن التَّخصيص لا بُدَّ له من عِلَّة تَقتَضي ذلك التَّخصيصَ، ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ فإن العِلَّة في ذلك أنه نَبيٌّ، وهذه العِلَّةُ لا تَكون للمُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ العِشْرُون: إثباتُ العِلْم لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةُ وَالعِشْرُون: أن الله تعالى فرَضَ علينا فرائِضَ في أزواجِنا علينا مُراعاتُها؛ لقوله تعالى: ﴿مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾، وكذلك نَقول في مِلْك اليَمين: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالعِشْرُون: جَواز الوَطْء بمِلْك اليَمين وقد سَبَق.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ وَالعِشْرُون: أن الأحكام -أحكام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- مُعلَّلة بالحُكْم أو مَقرونة بحُكْمها؛ لقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ وَالعِشْرُون: عِنايةُ الله تعالى برَسوله ﷺ ولُطْفه به، حيث أَحَلَّ له ما يَزول به عنه الحَرَجُ؛ لقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ وَالعِشْرُون: إِثْبات اسمَيْن من أسماء الله تعالى وهما الغُفور والرَّحيم، وإثباتُ ما تَضمَّناه من الوَصْف أو من الصِّفة ومن الأَثَر، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٩].

مَسأَلَةٌ: هل النِّكاح بلَفْظ الهِبَة لا يَصِحُّ، كما لو قال: وهَبْتُكَ بِنْتي؟

الجَوابُ: الظاهِر: أنه يَصِحُّ؛ لأن العِلَّة: إن وهَبَت نَفْسها للنبيِّ أنه يَتَزوَّج بدون مَهْر، وليس العِلَّة اللَّفْظ، بل العِلَّة أن يَكون الزواج بدون مَهْر، فهذا هو الذي يَكون خاصًّا بالنَّبيِّ ﷺ، أمَّا لَفْظ الهِبة فإنه قد جاء في أَحَد ألفاظ حديث سَهْل بنِ سَعْد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الواهِبة نَفْسَها أن النبيَّ ﷺ قال للرَّجُل: «مَلَّكْتُكَها بِمَا مَعَكَ مِنَ

الْقُرْآنِ»[1]، وهذا أَحَد أَلْفاظ البُخاريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا يَدُلُّ على جواز عَقْد النِّكاح بمِثْل هذا اللَّفْظِ.

فائِدةٌ: لتَعْلموا أن العِلْم ليس بالأَمْر الهَيِّن، العِلْم يَحتاج إلى تعَبٍ؛ ولهذا قال بَعضُ السلَف: العِلْم لا يُنال براحة الجِسْم. الذي يُريد أن يَستَريح لا يَقول: إنه طالِب عِلْم. فلا بُدَّ لطالِبِ العِلْم أن يَكون طالِبَ عِلْم على سبيل الحَقيقة، وسيَجِد أثَرَ ذلك فيما بَعدُ، سيَجِد النَّتيجة والتَّحصيل، وهو قد يَشُقُّ عليه في أوَّل الأمر أن يَحبِس نَفْسَه على العِلْم، لكن إذا اعتاد حَبْس نَفْسه على العِلْم صار ذلك سَجِيَّةً له وطَبيعةً له؛ حتى إنه إذا فقَدَ ذلك الحَبْسَ انحَبَس، وجَرِّبْ تَجِدْ؛ فأنا قد جَرَّبْتُ وغيري قد جرَّب، فإذا حبَسْت نَفْسَك على العِلْم فإنك تَفقِد ذلك الحَبْسَ لو تَأَخَّرْت عنه؛ أمَّا إذا عوَّدْت نَفْسَك الإهمالَ وعدَم المُبالاة فاعلَمْ أنك ستَبقَى كالمَريض بِسِلِّ المُؤنَّث، فإن السِّلَّ المُذكَّر صاحِبه لا يَبقَى إلَّا شَهْرين أو ثلاثة ويَمشِي للمَقبَرة، لكن البَلاء في السِّلِّ المُؤنَّث يَبقَى فيه السَّنَوات العديدة فهو لا حيٌّ ولا مَيتٌ، وهكذا طالِب العِلْم إذا لم يَجِدَّ في طلَبِ العِلْم يَبقَى لا حيًّا ولا ميتًا.

فاللهَ اللهَ! على الحِرْص في طلَب العِلْم إن كُنْتم تُريدون العِلْم، أمَّا إذا كُنْتم تُريدون أن تَقطَعوا الوقت ويَمشِي الوقت في ما كان فهذا شيء آخَرُ، لكن الذي يُريد العِلْم لا بُدَّ أن يُكَبَّ عليه وأن يَجتَهِد، وهو وإن أَتعَبَ جِسْمه الآنَ سيَجِد الراحة فيما بعد، ولا سيَّما في الشباب مِنْكم، فالشَّباب هو الذي إذا حفِظ العِلْم ما شاء الله لا يَنساه، لكن ثِقُوا أنه إذا تَقادَمَت بكم السِّنُّ فإنكم تَدرُسون اليومَ وتَنسَوْن غدًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراءة عن ظهر القلب، رقم (٥٠٣٠)، ومسلم: النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد، رقم (١٤٢٥/ ٧٦).

صحيح أن الإنسان إذا تَقدَّم في العِلْم يَكون فَهْمه أَقدَرَ وأَوسَعَ وأَدَقَّ، لكن في الحِفْظ ما في حِفْظ إلَّا في الصغير أبَدًا، فأنتم -إن شاء الله تعالى- تَحرِصون على طلَب العِلْم، لا تَظُنُّوا أنكم في نُزْهة إلَّا في نُزْهة واحِدة وهي نُزْهة العُلوم؛ لأن العُلوم فيها من كُلِّ فاكِهة زَوْجان؛ هذا فِقْه، وهذا حديث، وهذا تَفسير، وهذا تَوْحيد، وهذا نَحوٌ، وما شاء الله! ثمَرات مُتنوِّعة، فلْيَكُن نُزهَتُكم هذا العِلمَ، وأَسأَلُ الله تعالى لنا ولكمُ التَّوفيقَ.

• • ۞ • •

الآيــة (٥١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥١].

ثُمَّ قال تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قوله تعالى: «تُرْجِئُ» يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالهَمْزة والياء، بَدَلَه: تُؤخِّر] «تُرْجِئُ» و﴿تُرْجِي﴾ بمَعنَى: تُؤخِّر، وقوله تعالى: ﴿مَن تَشَآءُ﴾ هذه مَفعول ﴿تُرْجِي﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي: أزواجَك عن نَوْبتها، ﴿وَتُـْٔوِيٓ﴾ تَضُمُّ ﴿إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ فتَأتِيها ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ طلَبْتَ ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ مِن القِسْمة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ في طلَبِها وضَمِّها إليك، خُيِّر في ذلك بعد أن كان قَسْمه واجِبًا عليه].

كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآنَ يَدُلُّ على أن قَوْله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أن الضَّمير يَعود على زَوْجات النبيِّ ﷺ اللَّاتي في حِباله، ومَعنَى (تُرجِي): تُؤخِّرها فلا تَقسِم لها، و(تُؤْوِي): تَضُمُّها فتَقسِم لها، فتكون الآية نازِلةً في قَسْم النبيِّ ﷺ لزَوْجاته وأن الله تعالى خيَّره، خيَّره بين أن يُرجِئ وبَيْن أن يَضُمَّ، يَعنِي: خيَّره بأن

يَقسِم للزوجات وأن لا يَقسِم، فيَكون في هذا تَوسِعة للنَّبيِّ ﷺ في القَسْم، إن شاء قَسَم وإن شاء لم يَقْسِم.

وهذا هو أحَدُ القَوْلين في تَفْسير الآية الكريمة، وربَّما يَدُلُّ عليه السِّياق، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ [الأحزاب:٥٠] إلى أن قال تعالى: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ أَيْ: من أزواجك ﴿وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ فيَكون الإِرْجاء بمَعنَى: تَرْك القَسْم، والإيواءُ بمَعنَى: القَسْم.

والقول الثاني في المَسأَلة: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ أي: من الواهِبات أَنفُسَهن لك، يَعنِي: أنك إن شِئْت قبِلْت وإن شِئْت رَدَدْتَ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ﴾ يَعنِي: لو أنك رَدَدْتها أوَّلًا ثُمَّ أَرَدْتها ثانيًا فلا جُناحَ عليك، وقد سَبَق لنا قاعِدة في التَّفسير: أنَّ الآية إذا كانَت تَحتَمِل مَعنَيَيْن لا يَتَنافَيان فإن الواجِب حَمْلها على المَعنَيَيْن؛ ولهذا اختار ابنُ جَرِيرٍ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الآية شامِلة للمَعنَيَيْن جميعًا، وأن الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خُيِّر بين القَسْم وعدَمه، وخُيِّر بين قَبول الهِبَة وعدَمها، وأنه أيضًا إذا لم يَقسِم ثُمَّ أَراد أن يَقسِم فله ذلك، وإذا رَدَّ الهِبَة ثُمَّ أَراد أن يَقبَل فله ذلك، فليس للمَرْأة إذا لم يَقسِم لها ثُمَّ أَراد القَسْم ليس لها أَن تَمتَنِع؛ لأن الخِيار بيَدِ النَّبيِّ ﷺ.

فقَسْمه لمَن عِنده عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس على سَبيل الوُجوب من الله تعالى، يَعنِي: هو مِن ذات نَفْسه يَقْسِم مع أنه مُخيَّر، والدَّليل على أنه مُخيَّر هذه الآيةُ، وقد فسَّرَها السلَفُ في ذلك فهي صالِحة للوَجْهين.

---

(١) تفسير الطبري (١٩/ ١٤٣).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذَٰلِكَ﴾ التَّخيير] ذلك المُشارُ إليه، التَّخيير: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ﴾] أي: ذلك التَّخيير المُستفاد من الجُمْلتَيْن [﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أقرب إلى ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾] ما ذكَر المُخيَّر فيه ﴿كُلُّهُنَّ﴾.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ وجهُ كَوْن ذلك أقرَبَ إلى أن تَقَرَّ أَعيُنُهنَّ؛ لأنهنَّ إذا عَلِمْنَ أن التَّخيير بين القَسْم وعدَمه من الله عَزَّوَجَلَّ قرَّت أَعيُنُهنَّ؛ لأنهنَّ يَرضَيْنَ بحُكْم الله عَزَّوَجَلَّ، لكن لو كان هذا من النَّبيِّ ﷺ إن شاء قَسَم وإن شاء لم يَقْسِم لكان في نُفُوسِهنَّ بعض الشيء تَظُنُّ الواحِدة مِنهنَّ أن ذلك من قِبَل النَّبيِّ ﷺ وليس من شَرْع الله تعالى، فإذا علِمَتِ النِّساء أن هذا من شَرْع الله تعالى فإن أَعيُنَهنَّ تَقَرُّ.

وكلِمة ﴿تَقَرَّ﴾ مَأخُوذة إمَّا من القَرار وإمَّا من القَرُورة والبَرْد، وذلك أن العَيْن إذا برَدَتْ فمَعناها أنها غَيرُ حَزينة، وإذا حَمِيَت فمَعناها الحُزْن؛ ولهذا يُقال: دَمْع الحُزْن حارٌّ؛ لأنه يَخرُج من العَيْن إذا حَمِيَت من الحُزْن، أمَّا إذا لم يَكُن هناك حُزْن فإنها تَبرُد وتَستَقِرُّ.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحْزَنَ﴾ مَعطوفة على قَوْله تعالى: ﴿تَقَرَّ﴾، و﴿تَقَرَّ﴾ مَنصوبة بـ(أَنْ) و﴿يَحْزَنَ﴾ مَعطوف عليه، وليس مَنصوبًا، ولكِنْ مَبنيٌّ على السُّكون؛ لاتِّصاله بنُون النِّسوة، ونونُ الفِعْل مُدغَمة في نون النِّسوة؛ لأن ﴿يَحْزَنَ﴾ هذا الفِعْلُ، والنونُ الثانية هي نونُ النِّسوة، وهي فاعِل.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ الواو حَرْف عَطْف، ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ مَعطوف على ﴿تَقَرَّ﴾، وليس على ﴿يَحْزَنَ﴾؛ لأنه لو كان على ﴿يَحْزَنَ﴾ لفَسَد المَعنَى؛ إذ لو كان مَعطوفًا على ﴿يَحْزَنَ﴾ لكان المَعنَى: ولا يَحزَنَّ ولا يَرْضَيْنَ، والمُراد خِلاف ذلك،

فالمُراد: ذلك أَدْنى أن تَقَرَّ أَعيُنُهُنَّ ويَرضَيْنَ.

فإن قُلتَ: ما الفائِدةُ مِن اعتِراض الجُمْلة الثانية ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾؟

فالجَوابُ: لأن صِلَتها بقَوْله تعالى: ﴿تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أَقوَى، فإن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ يُراد به كَمال قَرار العَيْن، يَعنِي: أنها تَقَرُّ أَعيُنُهُنَّ حتى لا يَبقَى فيها حُزْن إطلاقًا؛ فلهذا اعتَرَضَتْ هذه الجُملةُ بين المعطوف والمعطوف عليه.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾: ﴿ءَاتَيْتَهُنَّ﴾ بالمَدِّ بمَعنَى: أَعطَيْتَهُنَّ، و(آتى) تَنصِب مَفعولَيْن، وهنا مَفعولُها الأوَّلُ الهاء ومَفعولُها الثاني مَحذوف، قدَّرَه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [ما ذُكِر] وما الذي ذُكِر قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُخيَّر فيه]، يَعنِي: أنهنَّ يَرضَيْنَ بما أَعطَيْتُموهُنَّ من التَّخيير من القَسْم وعدَمِه.

وسبَقَ أنَّا بيَّنَّا العِلَّة في قوله تعالى: ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ بذلك وهو أنه إذا جاء الحُكْم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رَضِين به بخِلاف ما لم لو كان من النَّبيِّ ﷺ فقَدْ لا يَرْضَيْن بذلك، فقد تَظُنُّ الواحِدة مِنهن أنه هَوًى من النَّبيِّ ﷺ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كُلُّهُنَّ﴾ تأكيد للفاعِل في ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾]، وإنَّما قال ذلك لأنه لو كان تَأكيدًا للهاء في قوله تعالى: ﴿بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾ لكانت مَنصوبة ﴿بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾، لكنها كما قال تَأكيد للفاعِل في قوله تعالى: ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾؛ ألَا يَصِحُّ أن تَكون تأكيدًا للضَّمير في قوله تعالى: ﴿أَعْيُنُهُنَّ﴾؟

الجَوابُ: لا يَصِحُّ؛ لأنه لو كان تَأكيدًا له لكان مَجرورَ ﴿كُلُّهُنَّ﴾ فإذَن: يَتعيَّن أن يَكون تَأكيدًا لقوله تعالى: ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من أَمْر النساء والمَيْل لبَعْضهن] لما

بيَّنَ الله عَزَّوَجَلَّ أن النبيَّ ﷺ مُخيَّر بيَّنَ أنه عَزَّوَجَلَّ يَعلَم ما في القُلوب من مَيْل الإنسان إلى بعض النِّساء دون بعض.

وقد بَيَّن الله تعالى هذا المَعلومَ بقوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ [النساء:١٢٩]، وهذا أَمْر يُؤيِّده الواقِع ويَشهَد له، فإن الإنسان لا يُمكِن أن تكون مَوَدَّة زَوْجتَيْه على حدٍّ سواءٍ، حتى لو فُرِض أن إحداهما كانت عِنده أرجَحَ من وَجْه، والأخرى أرجَحَ من وَجْهٍ آخَرَ فلا يُمكِن التَّساوِي، وهذا ما يُؤيِّده قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ هل يُستَفاد منها التهديدُ والوعيدُ؟ أم يُستَفاد منها أن هذا أَمْر لا تَملِكونه؟ الظاهِر الثاني، وأن هذا أَمْر لا نَملِكه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: [﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بخَلْقه ﴿حَلِيمًا﴾ عن عِقابِهم] هذا كالتَّعليل لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الأحزاب:٥١]، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليم بكُلِّ شَيْء، ومنه ما في قُلوبنا من المَيْل إلى بعض النِّساء دون بعض.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَلِيمًا﴾ الحِلْم هو عدَم التَّعجُّل بالعُقوبة، وليس هو تَرْكَ العُقوبة، ولهذا قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَهُوَ الْحَلِيمُ فَلَا يُعَاجِلُ عَبْدَهُ ... بِعُقُوبَةٍ لِيَتُوبَ مِنْ عِصْيَانِ[1]

فالحِلْم إِذَنْ تَأخير العُقوبة وليس العَفوَ عنها؛ فيُؤخِّر العُقوبة لعَلَّ هذا المُذنِبَ يَتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ فتَرتَفِع العُقوبة عنه.

---

(١) النونية (ص:٢٠٧).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن لله عَزَّوَجَلَّ أن يَخْتَصَّ بأحكامه مَن يَشاء بقوله تعالى: ﴿تُرْجِي﴾ و﴿وَتُـْٔوِيٓ﴾ على القول بأن المُراد بذلك العَدْل أو القَسْم، فالله تعالى خيَّره بين التِزام القَسْم وعدَمه، وهذا من خَصائِص النبيِّ ﷺ أمَّا الأُمَّة فقَدْ قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَة وَشِقُّهُ مَائِلٌ»[1]، وهذا يَدُلُّ على وُجوب العَدْل بين الزَّوْجات في الأُمَّة.

وعلى القول الثاني في قوله تعالى: ﴿تُرْجِي﴾ و﴿وَتُـْٔوِيٓ﴾: إن المُراد به قَبول مَن وهَبَت نَفْسها ورَدُّها، فيَكون فيه أيضًا دَليل على تَوسيع الله تعالى لنَبيِّه مُحَمَّد ﷺ فيما يَتعلَّق بالنِّكاح، أنَّ له أَنْ يَقبَل وله ألَّا يَقبَل.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه يَجوز للإنسان أن يَرجِع في حَقِّه بعد إسقاطه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ هذا إذا كان الحَقُّ مُتَجدِّدًا، أمَّا إذا كان الحَقُّ غيرَ مُتجَدِّد، فإن الإنسان إذا أَسقَطه لا يَملِك الرُّجوع فيه.

مِثال ذلك: أَسقَطَتِ المرأة نَصيبَها أو حقَّها من نفَقة ماضية بأن يَكون الزوج قد ترَك الإنْفاق عليها لمُدَّة سَنَة، فأَسقَط الحقَّ، فليس لها رُجوع؛ لأن الحقَّ هنا غَيرُ مُتجَدِّد، بل هو في شيء مضَى، أمَّا إذا أَسقَطَتِ المرأة حَقَّها من القَسْم، فلها أن تَرجِع؛ لأن حقَّها يَتَجدَّد، اللَّهُم إلَّا أَنْ يَكون ذلك مَشروطًا في العَقْد بأَنْ شَرَط الزوجُ على

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٤٧)، وأبو داود: كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء، رقم (٢١٣٣)، والترمذي: كتاب النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر، رقم (١١٤١)، والنسائي: كتاب عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض، رقم (٣٩٤٢)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء، رقم (١٩٦٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

زوجته الجديدةِ ألَّا يَقسِم لها فقَبِلَت، ففي هذه الحالِ لا تَملِك الرُّجوع؛ لأنه صار شَرْطًا في العَقْد، والشَّرْط في العَقْد يَجِب الوفاء به؛ لدُخوله في عُموم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة:١]، بخِلاف ما لو أَسقَطَتْه بعد العَقْد، فإن هذا إِسقاط لها أَنْ تَرجِع فيه؛ لأنها لا تَملِك إسقاط المُستَقبَل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن النبيَّ ﷺ داخِل في التَّكليف لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَ﴾؛ لأن نَفيَ الوَصْف عن شيء ما يَدُلُّ على إمكان اتِّصافها به، إذ لو كان مُنتَفيًا من الأصل ما احتِيج إلى نَفيِه، فدَّل هذا على أنه يُمكِن أن يَكون على النبيِّ ﷺ جُناح، وهذا دليلٌ على تَكليفه بأَحْكام الرِّسالة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الرَّدُّ على الجَبْرية، ويُؤخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ﴾ أي: طلَبْت وأرَدْت. والجَبْرية يَرَوْن أنَّ الإنسان ليس له إرادة وإنما يُجبَر ويُسخَّر على عَمَله بدون إرادة منه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات العِلَل والحِكَم للأَحْكام، حيث إن الأحكامَ مَربوطة بعِلَلها وحِكَمِها، ويُؤخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ﴾، وإثبات الحِكَم في أحكام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكوَنْية والقَدَرية كثيرة جِدًّا، وكلُّها تُرَدُّ أيضًا على الجَبْرية؛ لأن الجَبْرية يَرَوْن أن أفعال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأَحْكامه غير مُعلَّلة، وأنه تعالى يَفعَل لا لعِلَّة وحِكْمة، بل لمُجرَّد المَشيئة.

وهل في ذلك ما يُؤيِّد مَذهَب المُعتَزِلة القائِلين بوُجوب الأَصْلح، أو الصَّلاح في حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ؟

الجَوابُ: ورَدَ في العَقيدة السَّفارِينيَّة قوله:

فَلَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ فِعْلُ الْأَصْلَحِ وَلَا الصَّلَاحُ وَيْحَ مَنْ لَمْ يُفْلِحِ[1]

والمُعتَزِلة يَقولون: إنه يَجِب عليه فِعْل الأَصْلح فيما إذا تَعارَض الصالِح والأَصلَح، وفِعْل الصالِح فيما إذا تَعارَض الصالِح والفاسِد.

ولكن الصحيح أنَّ في ذلك تَفصيلًا:

إن قُلْنا بالوجوب بمَعنى أنَّ عُقولنا أَوْجَبت على الله تعالى ذلك فهذا باطِل؛ إذ إنَّ العُقول لا تُوجِب على الله تعالى شيئًا، فهي أَدْنى وأَحقَرُ من أن تُوجِب على الله تعالى شيئًا، وإن قُلْنا: إن ذلك واجِب بمُقتَضى حِكْمته، فهذا حقٌّ وصحيح، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يَفعَل شيئًا إلَّا وهو أَصلَحُ، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:٦٤] فإذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَثْنَى على المُصلِحين، ونفَى أن يَكون مُحِبًّا للفَساد أو المُفسِدين دلَّ ذلك على أنه لا يُمكِن أن يُريد ذلك. أي: الفَساد.

وعلى هذا فنَقول: المُعتَزِلة أَخطَؤوا حيث أَوْجَبوا ذلك على الله تعالى بعُقولهم؛ لأن العَقْل أَدْنى وأحقَرُ من أن يُوجِب على الله تعالى شيئًا، وقد يَرَى العَقْل أن هذا الشيء واجِب وهو في الحقيقة غير واجِب؛ لأن العُقول قاصِرة؛ فقد تَرَى هذا أصلَحَ وليس هذا بأَصلَحَ، وقد أَشار الله تعالى إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

وأمَّا أن نَقول: إنه واجِب بمُقتَضى حِكْمته فهذا حقٌّ.

الخُلاصَة: هنا نَقول: إن إثبات العِلَل فيه رَدٌّ على الجَبْرية وهمُ الجَهْمية أيضًا

---

(١) العقيدة السفارينية (ص:٦٣).

في هذا البابِ، وليس فيه تَأييد لقول المُعتَزِلة القائِلين بوُجوب الأصلَحِ أو الصلاح.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: مُراعاة قُلوب زَوْجات الرسول ﷺ وإِدْخال السُّرور عليهن، يُؤخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾، فإن في هذا مُراعاةً لقُلوب هؤلاءِ النِّساءِ حتى تَقَرَّ أعينُهُن.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنه يَنبَغِي مُراعاة المُؤمِن بإِدْخال السُّرور عليه وانتِفاء الحُزْن عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾، أي: لا يَدخُلهن الحُزْن والغَمُّ ممَّا مضَى، وهذه الحالُ للمُؤمِن تُنافِي حال الشيطان، فإن الشيطان يَسعَى لكل ما يَحزُن بَني آدَمَ كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المجادلة:١٠]، ولهذا كُلُّ مَن حاوَل إدخال الحُزْن على أخيه المُسلِم فإنه شَبِيهٌ بالشَّيْطان الذي يُريد إدخال الأحزان على المُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ يُدافِع عن نبيِّه ﷺ بأنواع من الأساليب الدِّفاعية، وَجْهُهُ: أنَّ الله تعالى لَمَّا خيَّره بيَّن أن هذا الحُكْم من الله تعالى؛ حتى إذا علِمَت زوجات الرسول ﷺ أن هذا الحُكْم من الله تعالى زال ما في نُفوسِهن من عدَم الرِّضا أو من الحُزْن؛ لأن رِضا الإنسان بما كان من الله تعالى أبلَغُ من رِضاه بما كان من غيرِ الله تعالى، هذا من جِهة.

وإن كان المُؤمِن يَرضَى من رسول ﷺ كما يَرضَى بالشيء الذي هو من الله تعالى، لكن لَمَّا كان النبيُّ ﷺ زوجًا لهؤلاء النِّساء، فإنه يُمكِن أن يَرِدَ في نُفوسِهنَّ أن كون الرسول ﷺ يَقْسِم ولا يَقْسِم، أو يَقبَل ويَرُدُّ أن ذلك لُمجرَّد هوًى في نَفْسه، وإذا اعتَقَدْنَ أن ذلك مُجرَّد هوًى في نَفْسه دخَل عليهن الحُزْن، فإذا علِمْنَ أن ذلك من الله تعالى، وأن الله تعالى هو الذي وسَّع له في هذا زال عنهن الحُزْن.

يَتفَرَّع على الفائِدة السابِقة: أنه يَنبَغي للإنسان أن يَدفَع عن نفسه ما يُلام عليه به، فكل شيء تَخشَى أن يَلومك الناس فيه فادْفَعِ الشُّبْهة عن نفسك؛ ولهذا أصلٌ، فقَدْ خرَج الرسول ﷺ مع زَوْجته ورآه رجُل فأَسرَعَ وراءَهُ، وقال له: «إِنَّهَا صَفِيَّةُ»[1].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: استِعْمال أدوات التَّوْكيد فيما تَدعو الحاجة إليه؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّهُنَّ﴾ حتى لا يَتوهَّم واهِم أن رِضَا بعضِهنَّ وانتِفاء الحُزْن عنه كافٍ في ذلك، بلِ الرِّضا يَكون للجَميع.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: عُموم عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالظَّواهِر والبَواطِن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن ما في القَلْب ممَّا لا يَملِكه الإنسان لا يُؤاخَذ عليه؛ لأنه لَمَّا ذَكَرَ أنَّ الرسول ﷺ مُخيَّر قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ يَعنِي: من الشيء الذي لا تَملِكونه؛ ولهذا لا يَحْرُم على الإنسان أن يُفضِّل إحدى نِسائِه على الأُخرى في المَحبَّة؛ لأن المَحبَّة مَحلُّها القَلْب، ولا يُمكِن للإنسان أن يُسلِّط قلبه ويُسخِّره حتى يُحِبَّ ويَكرَهَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن مَحَلَّ الإرادات هو القَلْب؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وهل المُرادُ بالقَلْب القلبُ الحِسِّيُّ أو القَلْب المَعنوِيُّ الذي هو العَقْل؟

الجَوابُ: القَلْب الحِسِّيُّ؛ لأن الصحيح أن القَلْب الحِسِّيُّ هو الذي عليه المَدار، كما قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، رقم (٢٠٣٨)، ومسلم: كتاب السلام، باب يستحب لمن رئي خاليا بامرأة..، رقم (٢١٧٥)، من حديث صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[١].

وقدِ اختلَف العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: هلِ العَقْل في القَلْب أو العَقْلُ في الدِّماغ؟ وظاهِر القُرآن الكريم أن العَقْل في القَلْب كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦]، ويَدُلُّ لهذا أيضًا من السُّنَّة قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»، فدلَّ هذا على أن العَقْل في القَلْب، ولكن قال الإمام أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ له اتِّصالًا بالدِّماغ[٢]. يَعنِي: هو في القَلْب ولكن له اتِّصال في الدِّماغ؛ ولهذا إذا فسَد الدِّماغ فسَد العَقْل.

وذكَرَ شيخُ الإسلام[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مَواضِعَ من كلامه بأن الدِّماغ مَحَلُّ التَّصوُّر وتكييف الأشياء، وأن القَلْب مَحَلُّ التَّدبير والتصريف، فكأَنَّ الدِّماغ سِكرتير القَلْب، يُهيِّئ الأمور له ويُصوِّرها ويُكيِّفها، ثُم يُرسِلها إلى القَلْب، والقَلْب يَأمُر أو يَنهَى أو يُقِرُّ أو يُنكِر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: إثبات اسمَيْن من أسماء الله تعالى: وهُما العَليم والحَليم، فالعَليم هو الذي أَحاط بكل شيء عِلْمًا.

والعِلْم عِند الأُصوليِّين: هو إدراك الشيء إدراكًا جازِمًا مُطابِقًا. فقَوْلهم (جازِمًا) خرَج به الشَّكُّ والظَّنُّ والوَهْم، فهذا لا يُسمَّى عِلْمًا؛ لأنه غير جازِم، وخرَج

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣)، والتبيان في أقسام القرآن لابن القيم (ص:٤٠٤).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣-٣٠٤).

بقولهم: (مُطابِقًا) الجَهلُ المُركَّب؛ لأن الجَهْل المُركَّب يُدْرِكُ الإنسان به الشيء إدراكًا غيرَ مُطابِق، وخرَج بقولهم: (إدراكُ الشيءِ) الجَهْل البَسيط؛ لأن الجهل البَسيط ليس فيه إدراك إطلاقًا. وهذا هو العِلْم، والله عَزَّوَجَلَّ لا يَتجَدَّد له العِلْم، وإنما الذي يَتجدَّد المَعلوم، وتَعلُّق عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ بالمَعلوم له حالان:

١- تَعلُّق به قبلَ وقوعه.

٢- تَعلُّق به بعد وقوعه.

فالتَّعلُّق به قبل وقوعه مَعناه أنه عالِم بأنه سيَقَع، والتَّعلُّق به بعد الوقوع أنه عالِم بأنه وقَعَ، والذي يَترتَّب عليه الجَزاء هو التَّعلُّق الثاني التَّعلُّق بالمَعلوم بعد وقوعه.

وعلى هذا يَزول الإِشْكال الذي أَوْرَده بعضُ أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ [محمد:٣١] ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ هل لم يَعلَم المُجاهِدين؟ نَقول: هو عالِم بِهِمْ لكن العِلْم الذي يَترتَّب عليه الجَزاء هو العِلْم بالشيء بعد الوقوع، فالتَّجدُّد إِذَنْ ليس للعِلْم ولكن للمَعلوم.

وهل عِلْم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَتعلَّق بالواجِب والمُمكِن والمُستَحيل؟ أو بالواجِب والمُمكِن دون المُستَحيل؟ أو بالمُمكِن فقط؟

الجَوابُ: بالجَميع؛ بالواجِب والمُمكِن والمُستَحيل.

أمَّا عِلْم الله تعالى بالواجِب فعِلْمه بما يَستَحِقُّه من الأسماء والصِّفات؛ لأن هذا عِلْم بالواجِب فإن الله تعالى قد وجَب له من الكَمال ما هو أَهْله.

وأمَّا عِلْم الله تعالى بالمُستَحيل ففي مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

[المؤمنون:٩١]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، فإن هذا من العِلْم المُستَحيل.

وأمَّا المُمكِن فمَعروف عِلْمه بما يَفعَل الإنسان وما لا يَفعَله؛ فهذا من العِلْم بالمُمكِن.

أمَّا الاسْمُ الآخَر وهو (الحَليم)، فالحَليم هو الذي لا يُعاجِل في العُقوبة، وليس الذي لا يُعاقِب، الذي لا يُعاقِب هو العَفوُّ، وهذا هو الفَرْق بين الحَليم وبين العَفُوِّ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حَليم لا يُعاجِل بالعُقوبة وعَفُوٌّ يَعفو عن الذَّنْب فلا يُعاقِب عليه.

الآيــة (٥٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب:٥٢].

ثُمَّ قال تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [«لَا تَحِلُّ» بالتاء والياء]، لا تَحِلُّ ولا يَحِلُّ. فأمَّا على قِراءة: «لَا تَحِلُّ» فلا إشكالَ؛ لأن النِّساء جمع نِسوة، والنِّسوة جمع امرأة؛ لأن امرأةً ليس لها جَمْع من لَفْظها، وإنما لها جَمْع من مَعناها كالإِبِل جَمْع بَعِير ليس لها جَمْع من لَفْظها، أي: ليس لها مُفرَد من لَفْظها، فقوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ لا إشكالَ فيه، لكنَّ قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ كيف ذكَّر الفِعْل مع أن الفاعِل مُؤنَّث؟

الجَواب: قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في اتِّصال تاء التَّأنيث بالماضِي:

وَإِنَّمَا تَلْزَمُ فِعْلَ مُضْمَرِ ... مُتَّصِلٍ أَوْ مُفْهِمٍ ذَاتِ حِرِ[1]

وهذا مع الاتِّصال؛ أمَّا مع الفَصْل فيَجوز.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بعدَ التِّسْع التي اختَرْنَكَ] كان مُقتَضى الكلام أن يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اللَّاتي اختَرْنَك. والمَعنى أن النَّبيَّ ﷺ لَمَّا خَيَّر نِساءَه اختَرْن الله تعالى ورسوله ﷺ، فلمَّا اختَرْنَ الله تعالى ورسوله ﷺ

(١) الألفية (ص:٢٥).

شكَرَ الله تعالى لهنَّ، وقال تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾، وعلى هذا يَكون هذا من باب الجَزاء العاجِل، ولهُنَّ الجَزاء الآجِل أيضًا؛ لأنهن لَمَّا اختَرْن الله تعالى ورسوله ﷺ على الدُّنيا وزِينتها شكَرَ الله تعالى لهُنَّ، فمنَع نبيَّه ﷺ من أن يَتزوَّج بسِواهُنَّ، أو أن يُطلِّق واحِدة ويَتزوَّج سِواها فقال تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾، وهذا أحَدُ القَوْلين في الآية.

والقول الثاني: أن مَعنَى الآية ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: مِن بعد ما ذكَرْنا لك، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ [الأحزاب:٥٠].

والمَعنَى على هذا: لا يَحِلُّ لك النِّساء من بعدِ ما ذكَرْنا لك، وعليه فلا يَحِلُّ للنبيِّ ﷺ أن يَتزوَّج امرأة من العرَب سِوى بناتِ عَمِّه وبناتِ عمَّاته وبنات خاله وبنات خالاته اللاتي هاجَرْن معه، ولا يَحِلُّ له أن يَتزوَّج امرأةً من أهل الكِتاب؛ لأنها ليسَتْ من هؤلاء.

واختار ابنُ جَريرٍ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الآية شامِلة للمَعنَيَيْن جميعًا، فلا يَحِلُّ له أن يَتزوَّج على أُمَّهات المُؤمِنين، ولا أن يَتزوَّج سِوى هؤلاء.

فإن قُلْت: أفَلَا يُمكِن أن نَقول: إن المَعنى الأوَّل الذي هو: لا يَحِلُّ لك النِّساء سِوى هؤلاء النِّساءِ، يَدخُل فيه المَعنى الثاني، فلا حاجةَ إلى القول الثاني. أي: إذا قُلْنا لك: لا يَحِلُّ لك سِوى هؤلاءِ اللَّاتي معَك. فإن هذا يَدخُل فيه القَوْل الثاني: إنه لا يَحِلُّ له سِوى مَن ذُكِر: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ فما فائِدة القَوْل الثاني إِذَنْ؟

---

(١) تفسير الطبري (١٩/ ١٥٠).

الجَوابُ: أنه لو قُدِّر أن هؤلاءِ النِّساءَ مُتْنَ في حَياة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فهل يَحِلُّ له أن يَتزَوَّج سِوى هؤلاءِ اللَّاتي أحَلَّ الله تعالى له؟ فحِينئذ يَكون للقول الثاني فائِدة، وهذه الفائِدةُ تَظهَر فيما لو قُدِّر أن زَوجاتِ الرسول ﷺ اللَّاتي معه يَتَوَفَّيْن قبلَه، فإنه لا يَحِلُّ له من النساء إلَّا ما ذكَرَ الله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بتَرْك إحْدى التاءَيْن في الأَصْل] وهي كلِمة ﴿تَبَدَّلَ﴾ أَصْلها: تَتبَدَّل، والدَّليل على أن أَصْلها تَتبدَّل وأنها ليسَتْ فِعْلًا ماضيًا أنَّ (أَنْ) دخَلَت عليها ونَصَبَتْها، و(أن) لا تَدخُل وتَنصِب إلَّا المُضارِع، وإلَّا فإن كلِمة ﴿تَبَدَّلَ﴾ تَصِحُّ أن تكون فعلًا ماضِيًا، لكنه لَمَّا دخَلَت عليها (أَنْ) وعَمِلت فيها النَّصْب عُلِم أنه فِعْل مُضارِع حُذِفت منه إحْدى التاءَيْن، ولهذا نَظير مِثْل قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [القدر:٤]، أي: تَتَنَزَّل الملائِكة، وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤] أَيْ: تَتَلظَّى.

فإن قال قائِل: طلاق الرسول ﷺ لبَعْض نِسائه مثل حَفْصةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ومُراجَعته مُنافٍ للمَعنَى الأوَّل، كيف يَكون مع هذا المَعنَى ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾؟

فالجَوابُ: أنه لا يُنافِي، فهو لا يَجوز أن يَتزَوَّج غيرَهُن؛ ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾، ولا يَجوز أنه يُطلِّق واحِدة ليَتزَوَّج أُخرى غيرَها ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ ولم يَقُلْ: ولا أن تُطلِّق، قال تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ بأن تُطلِّق واحِدة وتَزوَّج غيرها.

فإن قال قائِل: هل مَقصِدها الالتِزام؟

فالجَوابُ: نعَمْ ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ بأن تُطلِّقَهن أو بعضَهن وتَنكِح

بَدَلَ مَن طلَّقت، هذا أيضًا لا يَحِلُّ له، ولم يَفعَلِ النَّبيُّ ﷺ بعد أن نزَلَت هذه الآيةُ، فإنه لم يُطلِّق واحِدة ليَتزوَّج أُخرى، ولا تَزوَّج عليهن سِواهن، بل بَقِين معه إلى أن تُوفِّيَ، ولكنه تُوفِّيَ له من زوجاته في حَياته زَوْجتان هما خَديجةُ وزينبُ بنتُ خُزَيْمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهذه تَزوَّجها بعد أن استُشهِد زَوجُها في أُحُد، وبَقِيت عنده أَشهُرًا ثُمَّ تُوفِّيت[1]، والبَقيَّة من نِسائه تُوفِّي عَنهن.

قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ المُرادُ الحُسْن الظاهِر، أو الحُسْن الباطن، أو كِلاهما؟

يَشمَل هذا وهذا، فالنَّبيُّ ﷺ كغيره من البَشَر، قد يَتزوَّج المرأة لجَمالها لكن مع الدِّين، وقد يَتَزوَّجها لدِينها أو لمَعرِفتها وفَهْمها، فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، يَشمَل الحُسْن الظاهِر والحُسْن الباطِن، وقوله تعالى: ﴿أَعْجَبَكَ﴾ أي: بلَغَ الإعْجاب بك مِنك، أي: بلَغ الإعجابُ مِنك، وذلك لكَمال حُسْنها الظاهِر والباطِن.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ من الإماء، فتَحِلُّ لك...] إلخ؛ يَعنِي: استَثْنى الله عَزَّوَجَلَّ ما ملَكَت يَمينه؛ وذلك لأن ما ملَكَت يَمينه لا يَحصُل للزوجة غَيْرةٌ منها، بخِلاف الزوجة، وإنما لا يَحصُل للزوجة غَيْرةٌ من مِلْك اليَمين؛ لأنها لا تُسامِيها ولا تُساوِيها؛ ولأنها ليس لها قَسْم، فإن مِلْك اليَمين لا يَجِب لهُنَّ القَسْم.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ لَمَّا بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ ما أَحَلَّ لرسوله ﷺ وما حرَّم عليه ختَمَ الآية بذِكْر رَقابَته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على كل شيء، بيَّن الله تعالى رَقابتهُ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٣)، وانظر: الاستيعاب (٤/ ١٨٥٣).

على كل شيء؛ لأَجْل الحذَر من مُخالَفة أَمْره؛ لأنه إذا كان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رقيبًا على كل شيء، فإن الإنسان يَحذَر ويَخاف من مُخالَفته.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ تَقدَّم نَظيرُها عِدَّة مرات، وقُلْنا: إن الماضِيَ هنا مَسلوب الدَّلالة على الزمَن؛ إذ ليس المَعنَى أن الله تعالى كان في زمَن مضَى، وتَخَلَّف الحُكْم عنه في هذا الزَّمَنِ، وإنما هو لتَحقيق اتِّصاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالرَّقابة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ على كل شيء، فيَشمَل ما كان خَفيًّا وما كان ظاهِرًا، وما كان خاصًّا بالرسول ﷺ وما كان عامًّا فيه وفي الأُمَّة، ويَشمَل ما كان من أعمال الجَوارِح، وما كان من أعمال القُلوب كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن النَّبيَّ ﷺ مُكلَّف كغَيرِه من البشَر؛ لأنه يُحلَّل له ويُحرَّم عليه.

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: أن التَّكليف لا يُمكِن أن يَسقُط عن أحَدٍ مَهما بلَغَت مَنزِلته في الدِّين، فيَكون في ذلك رَدٌّ على أُولئِك الذين يَزعُمون أنَّ الأولياء إذا بلَغوا مَرتبة من المَراتِب سقَط عنهمُ التَّكليف؛ لأننا نَعلَم أنَّ أَعلى درَجات الخَلْق عند الله تعالى همُ الأَنْبياء والرسُل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وأن أَعلاهم مُحَمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإذا كان هو مُحِلًّا للتَّكليف فمَن دُونَه من بابِ أَوْلى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثْبات شُكْر الله عَزَّوَجَلَّ لمَن قام بطاعَته واتَّبَع مَرْضاته، وهذا من مُقتَضى اسمه الشَّكورِ، فإن الله تعالى سَمَّى نفسَه بالشَّكور في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ فمِن شُكْره أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُنْعِم على مَن قام بطاعته حَسَب ما تَقتَضيه

تِلكَ الطاعةُ؛ بِناءً على أن قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: من بعد التَّخيير.

أمَّا على الرأيِ الثاني: أن المُراد من بعد هَؤلاء النِّساءِ، فلا تَتأتَّى هذه الفائِدةُ، ولكنا ذكَرْنا أن الآية إذا صلَحَت لمَعنيَيْن لا يَتنافَيان فإن الواجِب حَمْلها عليهما.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه لا يَجوز للنَّبيِّ ﷺ أن يُطلِّق أحَدًا من نِسائه ليَتزوَّج غيرها؛ لقوله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾، والله عَزَّوَجَلَّ لم يُحرِّم عليه الطلاق، وإنما حرَّم عليه أن يَتبَدَّل بهن من أزواج، وفَرْق بين الطلاق وبين أن يَتبَدَّل بهِنَّ من أزاوج.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن النَّبيَّ ﷺ كغيره من البَشَر، يُعْجِبه حُسْن النِّساء الظاهِر والباطِن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جَواز تَزوُّج الرجُل المَرأة لحُسْنها؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾.

ويُؤيِّد هذا قولُ الرسول ﷺ: «تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ»(١).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الوَطْء بمِلْك اليَمين أهوَنُ على المرأة من الوَطْء بالزَّواج؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾؛ ولهذا أَباح الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الإنسان ألَّا يَعدِل بين سَرارِيه؛ لأن الغَيْرة بينَهن ليسَت كالغَيْرة بين الزَّوْجات؛ فلهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات الرِّقِّ؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾، والرِّقُّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم (٥٠٩٠)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، رقم (١٤٦٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ثابِت في الإسلام، ومَن أَنكَر وُجود الرِّقِّ فقَدْ أَنكَر القُرآن والسُّنَّة وإجماع المُسلِمين، فيَكون مُرتَدًّا حتى يَتوب ويُقِرَّ بثُبوت الرِّقِّ.

والناس في هذا البابِ طرَفان ووَسَط:

١- مِنهم مَن يَستَرِقُّ الأَحرار.

٢- ومِنهم مَن يُنكِر ثُبوت الرِّقِّ مُطلَقًا.

٣- ومِنهم مَن يثبِت الرِّقَّ بأسبابه وشُروطه.

فنَسمَع عن بعض فِئات من الناس أنهم يَستَرِقُّون أولادهم ويَبيعونهم على غيرهم، وهذا كثير في أَفريقيا وفي شَرْق آسيا، حتى إن بعض الهمَج والرِّعاع ظنُّوا أن ذلك يُبيح الوَطْء بهذا المِلْك الفاسِد، فصاروا يَشتَرون من هؤلاء بَناتِهن ويَطؤُونَهن بهذا المِلْكِ الفاسِد، وهذا لا يَثبُت به المِلْك وليس سببًا للرِّقِّ، وقد ثبَت بالحديث الصحيح عن النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن الله تعالى قال: «ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ»[1]، هذا قِسْم من الناس.

القِسْم الثاني: مَن يُنكِر الرِّق مُطلَقًا حتى مع وُجود أسبابه الشَّرْعية، وهذا يَقوله أُولَئِك الأُمَم المُتَمَدْينةُ التي تَزعُم الحَضارة والتَّقدُّم، لكن العجَب أنهم يُنكِرون الرِّقَّ الذي له أسباب شرعية إلَهية، ولكنهم يَستَرِقُّون عِباد الله تعالى استِرْقاقًا أَشَدَّ من الاستِرقاق الإسلامي بغَيْر سبَب شَرْعيٍّ، وما مُشكِلة جنوب إفريقيا الحاضِرة الآنَ إلَّا أُنموذَج من ذلك، فإنهم يَستَرِقُّون السُّود استِرقاقًا مُشينًا، ويَحرِمونهم من

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، إثم من باع حرًّا، رقم (٢٢٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حُقوقهم، وهذا أَقبَحُ بكثير من الاسترِقاق الشَّرعيِّ الإسلاميِّ؛ على أن الاسترِقاق الشرعيَّ الإسلاميَّ ليس فيه قُبْح؛ لأنك إذا تَأمَّلتَ النُّصوص الوارِدة في أحكام الرقيق وجَدْت أن الشَّرْع إنما أَباح استرِقاقهم لمَصلَحتهم؛ لأن سبَب الرِّقِّ واحِد، وأسباب الحُرِّيَّة مُتعَدِّدة، ولأن الرقيق يَجِب على مالِكه أن يُعامِله بالمَعروف.

وعلى هذا فيَكون الطريق الثالِث الذي هو إثبات الرِّقِّ بالأسباب الشرعية الإلهية هو الحَقَّ، وقد دلَّ عليه الكِتاب والسُّنَّة والإجماع، ولا يُنكِره إلَّا مُكابِر، ومَن أَنكَره فهو كافِر.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: جَواز التعبير بالبَعْض عن الكُلِّ؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ ومِنه تَفضيل اليمين على الشِّمال؛ حيث نَسَب المِلْكية إليها دون الشِّمال، ولم يُعبِّر باليد الشِّمال عن الذات أبَدًا، ولكن عَبَّر بالأَيْدي عمومًا وعَبَّر باليمين، وأمَّا التعبير بالشِّمال فلم يَرِدْ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات اسمٍ من أسماء الله تعالى وهو الرقيب؛ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ والرَّقيب بمَعنَى: الحَفيظ، والإيمان برَقابة الله عَزَّوَجَلَّ يُوجِب للعبد كمالَ مُراقبة الله تعالى والخَوْف منه، وألَّا يَتجَرَّأ على مَعصِيته، وألَّا يَتَخَلَّف عن طاعته؛ لأنه لو كان أحَدُ المُلوك -مُلوك الدنيا- قد جعَل عليك رقيبًا، فهل يُمكِنك أن تَتكلَّم أو أن تَفعَل ما يَكون سببًا لعُقوبتك عند هذا المَلِكِ؟ **الجَوابُ**: لا، وهذا بالنِّسبة للمَخلوق، فرَقابة الخالِق عَزَّوَجَلَّ أكمَلُ وأعظَمُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: بلاغة القُرآن، حيث يَختِم الآيات بما يُناسِب الأحكامَ الموجودةَ فيها؛ لأنه لَمَّا كان المَقام مَقام تَحليل وتحريم ختَمَها بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ يَعنِي: فهو يُراقِبك لو خالَفْت ما شَرَع لك.

الآيتان (٥٣، ٥٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٣-٥٤].

ثُمَّ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ في الدُّخول بالدُّعاء ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ فتدخُلوا، ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ﴾ مُنتظِرين ﴿إِنَىٰهُ﴾ نُضْجَه مَصدَر أَنَى يَأْنِي].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبَق لنا الكلام على مِثْل هذه العِبارةِ، وبيَّنَّا أن تَصدير الحُكْم بالنِّداء يَدُلُّ على الاهتِمام به والعِناية به؛ لأن النِّداء يَستَلزِم انتِباه المُنادَى، وأنَّ وَصْفَ هذا النِّداءَ بالإيمان يَدُلُّ على أن التِزام هذا الحُكمِ من مُقتَضَيات الإيمان، وأنَّ التَّخلُّف عنه سببٌ لنُقصان الإيمان.

ثُمَّ إنَّ التعبير بالإيمان فيه إغراءٌ وحثٌّ؛ لأن المُؤمِن حقًّا يَلتَزِم ما أُمِر به ويَترُك

ما نُهِيَ عنه، ومن ذلك إذا قُلْت: يا رجَلُ افعَلْ كذا. فالمَعنَى: بمُقتَضى رُجولِيَّتك يَلزَمك أن تَفعَل؛ وكذا: يا مُؤمِنُ افعَلْ كذا، أي: بمُقتَضى إيمانك؛ يَلزَم أن تَفعَل كذا، ففيه إغراءٌ وحثٌّ.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يَعنِي: لإيمانكم وجَّهنا إليكم هذا الخِطابَ.

قوله تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ بُيوت النَّبيِّ جَمْع ومُضاف إلى الرسول ﷺ؛ لأن بُيوته كانت تِسْعة، كلُّ امْرَأة من نِسائه لها بيتٌ، لم يَجمَعْهنَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في بيت واحِد، بل جعَل لكل امرأة بيتًا.

وإضافته إلى النبيِّ ﷺ مع أنه أُضيف إلى النِّساء أنفسِهنَّ، كما سبَق في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٣٤] هل هذا يَتناقَض مع ذاك؟

الجَوابُ: لا، لا يَتناقَض فهو مُضاف إلى كلِّ شيء منهما بنَسْبةٍ مُعيَّنةٍ، فباعتِبار أن هذه البُيوتَ مَأْوَى النبيِّ ﷺ ومَسكنُهُ أُضِيفت إليه، وباعتِبار أنها -أي: هذه البُيوتَ- مِلْك لزَوْجاته أُضيفَتِ البُيوت إليهِنَّ.

والعُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ اختلَفوا: هل بُيوت زَوْجات الرسول ﷺ مِلْك لهنَّ أو مِلْك للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟ فيه قَوْلان لأَهْل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، وسبَق لنا أن الأظهَر أنها مِلْك للزَّوْجات، بدليل أنهن وَرِثْن هذه البُيوتَ، ولو كانَت مِلْكًا للرسول ﷺ ما ورَثْنها؛ لأن النبيَّ ﷺ يَقول: «إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»[1]،

(١) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، رقم (٣٠٩٣)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «لا نورث»، رقم (١٧٥٩)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

ولا يَرِد على هذا أن هذه البُيوتَ أُدْخِلت في المَسجِد فيما بعدُ؛ لأنها إمَّا أن تكون أُخِذَت بعِوَض، وإمَّا أن تكون أُخِذت برِضاءِ مُستَحِقِّيها، وهذا لا يُنافِي التَّنبيهَ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ﴾ بالبِناء للمَجهول، ولم يَقُل: إلَّا أن يَأذَن النبيُّ؛ لأنه قد تَأْذَن المرأة من نِسائه لأَحَد فيَدخُل، فليس بشَرْط أن يَكون الإِذْن من الرسول ﷺ، ولكن الله تعالى اشتَرَط ثلاثة شُروط:

الأَوَّل: الإِذْن.

والثاني: إلى طعام.

والثالِث: غير ناظِرين إِناهُ.

ولْنَنظُرْ هذه القُيودَ: هل هي مُعتبَرة أم لا؟

فالأَوَّل: قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ يَشمَل: الإِذْن العُرفيَّ، والإِذْن اللَّفظِيَّ.

فالإِذْن اللَّفظِيَّ: أن يُقال: ادْخُلْ.

والإِذْن العُرفيُّ: أن يَكون هناك علامة تَدُلُّ على أن المَقام مَقام إِذن؛ كفَتْح الباب وما أَشبَه ذلك.

فلا يُمكِن الدُّخول بدون إِذْن، فالإِذْن إِذْن مُعْتَبر فهو قَيْد.

والثاني: قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾، هذا لا يَدُلُّ على أنهم لو أُذِنَ لهم في الدُّخول إلى غير طعام لا يَحِلُّ، فلو دُعِيَ إلى غير طعام هل يَدخُل أو لا؟ إن نظَرْنا إلى ظاهِر

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ قُلْنا: لا يَدخُل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾، ولكنَّنا نَقول: إن هذا القَيْدَ بَيان للواقِع، وما كان بَيانًا للواقِع فإنه لا مَفهومَ له، فالآية ورَدَت في قضية مُعيَّنة وهي دُخول هَؤلاءِ إلى الطَّعام بدون دَعْوة؛ فلهذا قُيِّدَت بقَوْله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾.

والثالث: قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾، ناظِر إن تَعَدَّت بـ(إلى) فهي من النَّظَر بالعَيْن، وإن تَعدَّت بنَفْسها فهي بمَعنَى: الانتِظار، تَقول: نظَرْت إليه. وتقول: نظَرْتُه. بمَعنَى: انتَظَرْته، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنعام:١٥٨]، و﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف:٥٣]، والمَعنَى: هل يَنتَظِرون؛ لأنها تَعَدَّت بنَفْسها، وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، هذا من النَّظَر بالعَيْن؛ وهنا ﴿نَٰظِرِينَ﴾ مُتعَدِّية بنَفْسها، فتكون بمَعنَى: مُنتَظِرين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَىٰهُ﴾ أي: نُضْجه؛ وهل هذا شَرْط أم لا؟ نَقول: إنه شَرْط لجَواز الدُّخول أن يَدخُلوا لطعام غير مُنتَظِرين نُضْجَه، وكانوا يَتحرَّوْنَ نُضْجَ الطعام، فإذا تَحرَّوْا أنه قد نَضِج وقارَب أن يُقدَّم أو قُدِّم دخَلوا البيوت؛ لكي يَأكُلوا.

ولا شَكَّ أن مُفاجأة الإنسان عند أَكْله تُؤذِيه، ويُسمَّى هذا الذي يَفجَأُ الناس عند تَقديمهم الطعامَ يُسمَّى طُفَيْليًّا، وضَيْفَن بالنون؛ لأن هذه مِثل الذي يَتَّكِئ على عصًا كأنه ثَقيل، فإذا كان عِندك ضَيْف لا تُحِبُّ أن يَكون عندك، فقُلتَ لصاحِبك: هل عِندك ضَيفٌ؟ قلت: لا، عِندي ضَيْفَن. يَعنِي: ثَقيل، طُفَيْليٌّ جاء بلا دَعوةٍ، ونام على نَهْض[1] صاحِب البيت، فلا يَتَزَحْزَح ولا يَخرُج، ويَتَطلَّب: هاتِ ماءً، هاتِ شرابًا، هات كذا، أُريد الحَمَّام، أُريد أن أَروح لكذا... فيُتْعِبك.

---

(١) النهض من البعير: ما بين المنكب والكتف. تاج العروس (نهض).

المُهِمُّ: أن قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ هذا شَـرْط، يَعنِي: لا يَجوز لكم أن تَتَحرَّوا إِنَى الطَّعام حتى تَدخُلوا لما في ذلك من التَّضييق على النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ويُحتَمَل أن المَعنَى: لا تَدخُلوا مُبكِّرين بحيث تَبقَوْن في البيوت حتى يَنضَج الطعام؛ لأن في هذا أيضًا إِشْقاقًا على صاحِب البيت، فإذا كان تَجهيز الغَداء في الساعة الواحِدة، فجاء هؤلاءِ في الساعة الثانيةَ عشْرةَ، فانتَظَروا ساعة، وهذا فيه تَضييق على النبيِّ ﷺ، والنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَيِيٌّ كريم، لو استَأْذَنوا عليه قبل نُضْج الطعام بساعة لم يَرُدَّهم ﷺ، وإن كان يَتَأَذَّى بذلك، لكن لكَرَمه وحَيائِه لا يَرُدُّهم.

فتَبيَّن بهذا النَّهيِ عن دُخول بيوت النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلَّا بثَلاثة شُروط:

١- الإِذْن.

٢- وأن يَكون إلى طعام.

٣- وأن يَكونوا غير ناظِرين إِناهُ.

ولكن ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ يَقولـون: إن هذا ليس بشَـرْط؛ لأنه قَيْد لبَيان الواقِـع فلا مَفهومَ له، وكلُّ قَيْد لبَيان الواقِع فإنه لا مَفهومَ له؛ ولهذا لو دُعُوا إلى غير الطَّعام فلا بَأسَ أن يَدخُلوا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [في الدُّخول بالدُّعاء ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾]، فأَفادَنا المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ أن قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ لا يَتعلَّـق بقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ إلَّا على وَجْه التَّضمين؛ لأن (يُؤذَن) لا تَتعدَّى بـ(إلى)، وإنمـا تَتعدَّى بـ(فِي) أو باللَّام، لكنها باللَّام للمَأذون له لا للمَأذون إليه، فتَتعدَّى بـ(في): إلَّا أن يُؤذَن لكم في طَعام، لكنها جاءت بـ(إلى)؛ لأن الإِذْن هُنا ضُمِّن مَعنَى الدُّعاء، يَعنِي: إلَّا أن تُدْعَوْا إلى طعام.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ جاءت مَنصوبةً، مع أن الذي قَبْلها مَجرور -يَعنِي: لم تَكُن بلَفْظ: إلى طَعام غيرِ ناظِرين إِناهُ-؛ لأنها حال من الكاف في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾، أي: حالَ كَوْنِكم غيرَ ناظِرين إِناهُ، فإن كُنْتم مُنتَظِرين نُضْجَه وتَتَحرَّون نُضْجه فلا تَدخُلوا عليه أيضًا؛ لما في ذلك من الإِشْقاق والأَذِيَّة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَىٰهُ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنها [مَصدَر أَنَى يَأْنِي] إِنًى، فهي ليس فيها شيء مَحذوف، يَعنِي: لست (إِناءَه) في الأصل، بل هي (إِناهُ) أصلًا وفَرْعًا، مَصدَر أَنى يَأْنِي إِنًى.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ لَمَّا كان قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ قد يَتوَهَّم منه واهِمٌ أنهم لا يَدخُلون أَبَدًا؛ قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾، فكان في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ كان فيه فائِدة، وهي أنهم متَى دُعوا دَخَلوا، فكَوْنهم هم يَدخُلون بأنفسهم لا يَجوز إلَّا بالشُّروط السابِقة، لكن إذا دُعوا فإنهم يَدخُلون، فإذا طعِموا فإنهم يَنتَشِرون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾، أي: ولا تَدخُلوا بغير دَعْوة.

وهذا غير قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾؛ لأن (يُؤذَن) مَعناها: أنهم جاؤُوا فاستَأْذَنوا، وأمَّا التي معَنا -الجُمْلة الثانية ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ﴾- فهُنا هم الذين دُعُوا.

وقد كان الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَدْعو الناس إلى طَعامه، كما دعا أبو هُريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين وَجَدَهُ جائِعًا في يوم من الأيام، فقد خرَج أبو هُريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من بيته

وهو جائِع حتى كاد يَسقُط مَغشِيًّا عليه من الجوع، فلمَّا خرَجَ الناس تَبع عُمرَ بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسأَلُه عن آية من كِتاب الله تعالى، وأبو هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما سأَله عن الآية يَعرِف الآية لكن يُؤَمِّل لعَلَّ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقول: اتْبَعْني. ولكن عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يُفكِّر في هذا الأَمْرِ، أَخبَرَه بالآية ومَضَى، يَقول: فلمَّا جاء الرسول ﷺ ورآني عرَف ما في وَجْهي. فدَعاه فدخَل، فجِيء بلَبَن إلى النبيِّ ﷺ فأَمَرَه أن يَدعُوَ أهل الصُّفَّة -وأهلُ الصُّفَّة: همُ الفُقَراء المُهاجِرون الذين ليس لهم مَأوًى في المَدينة، كان لهم صُفَّة في المَسجِد يَجتَمِعون فيها، أحيانًا يَبلُغون الثَّمانين، وأحيانًا يَكون أكثَرَ، وأحيانًا يَكون أقَلَّ- يَقول: لَمَّا قال: ادْعُ أهل الصُّفَّة. واللَّبَن قليل، فكأنه تَردَّد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: ما يُغنِي هذا اللَّبَنُ لأهل الصُّفَّة؟ فإذا دَعَوْت أهل الصُّفَّة وشَرِبوا اللبَن بَقِيتُ أنا جائِعًا، ولكن لم يَكُن لي بُدٌّ من طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، فذهَبَ فدعا أهل الصُّفَّة فجاؤُوا فشَرِبوا، كُلٌّ يَشرَب من هذا اللَّبَنِ، وكُلٌّ يَشرَب، فلمَّا بَقِيَ بقيَّةٌ قال: «اشْرَبْ». يَقول: فَشَرِبت حتى رَوِيتُ. فقال: «اشرَبْ أبا هرٍّ»، فقلتُ: والله يا رسول الله لا أَجِد له مَسارًا. فبَقِيَت بقيَّةٌ فشَرِبها النبيُّ ﷺ[1].

ففي هذه دَعوة عامَّة ودعوة خاصَّة، وكذلك في حديث أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا صنَع النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ طعامًا، قال: اخرُجْ فادْعُ لي مَن لَقِيتَ[2]؛ فإذا دُعِيَ المُسلِمون إلى طعام فادْخُلوا، ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ ولم يَقُل: فإذا شبِعْتُم. قال: إذا طَعِمْتُم؛ لأن الطَّعام قد يُشبِع وقد لا يُشبِع.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه، رقم (٦٤٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الهدية للعروس، رقم (٥١٦٣) معلقًا، ومسلم: كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش، رقم (١٤٢٨)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾ أي: تَفرَّقوا؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا﴾ تَمكُثوا ﴿مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾]، أَفادَنا المُفَسِّر بقوله: [﴿وَلَا﴾ تَمكُثوا] أن كلِمة ﴿مُسۡتَـٔۡنِسِينَ﴾ حال من فاعِل مَحذوف مع فِعْله، والتَّقدير: ولا تَمكُثوا مُستأنِسين لحديثٍ.

والاستِئْناس بالشيء مَعناه: الاطمِئْنان إليه، يَعنِي: لا تَبقَوْا بعد الأكل تَتحدَّثون وتَنبَسِطون وتَطمَئِنُّون، وأمَّا الحَديث العابِر فلا بأسَ به بعد الأَكْل، ولكن هذا ليس من آداب الطاعِم على كل حال؛ لأنه عُلِّل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسۡتَحۡىِۦ مِنكُمۡ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ من بَعْضكم لبَعْض ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ﴾ المُكْث ﴿كَانَ يُؤۡذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسۡتَحۡىِۦ مِنكُمۡ﴾ أن يُخرِجكم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡىِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ أن يُخرِجكم]. وعلى هذا فيُنهَوْن عن البَقاء مُطمَئِنِّين للحديث لِعِلَّة وهي الأذِيَّة، أذِيَّة النبيِّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وبِناءً على هذه العِلَّةِ لو قُدِّر أنه لا يَتأذَّى بذلك فلا حَرَجَ على الإنسان أن يَبقَى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِى ٱلنَّبِىَّ﴾، أَعاد الاسمَ الظاهِر في مَوضِع الضمير؛ تَعْلِيةً لشأن الرسول ﷺ، وإلَّا لكان المُتوقَّع أن يَقول: إن ذَلِكم كان يُؤذيه، ولكن قال تعالى: ﴿يُؤۡذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ إعلاءً لشَأْنه ﷺ، وإشارة إلى أنه لنُبوَّته يَجِب أن يَتحاشَى المَرءُ أَذِيَّته لما له من الفَضْل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ﴾ لماذا جَمَع فيها الخِطاب؟

الجَوابُ: لأن المُخاطَبِين جَمْع، واسمُ الإشارة إذا اقتَرَن بالكاف فإنه يُراعَى فيه المُخاطَب والمُشار إليه، والمُشارُ إليه يَتغيَّر به اسمُ الإشارة، والمُخاطَب تَتغيَّر به الكاف.

فالقاعِدةُ: أنه إذا اقتَرَنَتِ الكاف باسْمِ الإشارة فإنه يُراعَى في اسم الإشارة المُشار إليه، وفي الكاف المُخاطَب.

فلْنَفْرِضْ أنَّني أُشير إلى جماعة وأُخاطِب واحِدًا أَقول: أُولَئِك. وبالعَكس أُشير إلى واحِد وأُخاطِب جماعة أَقول: ذَلِكم. وأُشير إلى جماعة وأُخاطِب جماعة فأَقول: أُولَئِكم. وأُشير إلى جَماعة وأُخاطِب جماعة نِساء فأَقول: أُولَئِكن. وأُشير إلى واحِد وأُخاطِب جماعة نِساء فأَقول: ذلِكُنَّ، قال تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف:٣٢].

الخُلاصةُ: أن اسم الإشارة إذا اقتَرَنت به الكاف؛ فإنه يُراعَى في الكاف المُخاطَب، ويُراعَى في اسم الإشارة المُشارُ إليه، فإن كان جَمْعًا فاجْمَعها، وإن كان مُثنًّى فثَنِّها، وإن كان مُفرَدًا فَأَفرِدها. فإذا كنت تُشير إلى اثنَيْن مُخاطِبًا اثنَيْن تَقول: ذانِكما. وإذا كنتَ تُشير إلى اثنَتَيْن مُخاطِبًا اثنَتَيْن تَقول: تانِكما؛ لأن المُثنَّى المُؤنَّث يُقال له: تانِ. قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَذَانِ تَـانِ لِلْمُثَنَّـى الْمُرْتَفِـعْ ..... (١)

وهذه يَغْلَط فيها كثير من الطلَبة فيَلْتَبِس عليه المُشار إليه بالمُخاطَب.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ المُشار إليه هنا مُفرَد، والمُخاطَب جَمْع؛ لأنه يُخاطِب جماعة المُؤمِنين، ويُشير إلى شيء مَذْكور، أي: إن ذلك المَذكورَ ﴿يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ الأذِيَّة ليست هي الضَّرَرَ؛ إذْ قد يَتأذَّى المُتأذِّي

(١) الألفية (ص:١٤).

ولا يَتضَرَّر بذلك؛ ولهذا يُوصَف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتَّأذِّي ولا يُوصَف بالضرَر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧]، وقال تعالى في الحَديث القُدسيِّ: «يُؤْذِيني ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ»(١)، أمَّا في الضرَر فقال في الحديث القُدسيِّ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»(٢)، ونحن نُشاهِد الآنَ في أنفُسِنا أننا نَتأذَّى بالشيء ولا نَتَضَرَّر به، إذ يَتأذَّى الإنسان بالرائِحة الكرِيهة؛ كرائِحة البَصَل والكُرَّاث والنَّتْن والوَسَخ والعَرَق وما أَشبَه ذلك، ولكنه لا يَتَضرَّر به، فلا يَلزَم من الأذِيَّة الضرَرُ.

يَقول تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ الفاء عاطِفة على قوله تعالى: ﴿يُؤْذِى﴾؛ يَعنِي: فكان أيضًا يَستَحْيِي منكم، أي: يَستَحْيِي منكم أن يُخرِجكم إذا دَخَلْتم في هذه الحالِ.

وقوله تعالى: ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ إذا قيل لنا: ما هو الحَياء؟ أو عَرِّف الحَياء؟ فنَقول: الحَياء نَكتُب عليه ميم بخَطٍّ عَريض، أي: معروف، ففي القاموس إذا جاءَت كلِمةٌ مَعروفةٌ كُتِب: ميم، يَعنِي: مَعروف، فلا يَحتاج إلى أن نَحُدَّه، كما لو قيل لك: ما هي المَحبَّة؟ فلا تَستَطيع أن تَحُدَّها، مثلما قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في روضة المُحبِّين(٣): إن المَحبَّة لا تُحَدُّ بأَوْضَحَ من لَفْظها، المَحبَّة هي المَحبَّة. وكذلك: الكراهة هي الكراهة؛ لأن هذه انفِعالاتٌ نَفْسية يُحِسُّ بها الإنسان من نَفْسه، ولا يَستَطيع أن يُعبِّر عنها، فالحَياءُ هو الحَياءُ، وكذلك: النَّوْم هو النَّوْم مَعروف، وبعضهم يَقول: إنها غَشْية

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، رقم (٤٨٢٦)، ومسلم: كتاب الأدب، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: طريق الهجرتين (ص:٣١٠)، ومدارج السالكين (٣/ ١١).

ثَقيلة تَهجُم على المُخِّ فتُفقِد الوَعْيَ والإِحساس، فلو تَصوَّرتُ أن هذا هو النَّوْم ما جاءَني نَوْم، فلا أَتصَوَّر أنه غَشْية!.

وكذلك: الجَوْع، من صِفات البَطْن من قِلَّة الطعام، هـذا أثَرُه، أمَّا هو فإنه مَعروف. فهذه المَعانِي النَّفسِية لا يُمكِن في الحقيقة أن يُعرِّفها أحَـدٌ، ولا يُمكِن أن تُعرَّف بأَوْضَحَ من لَفْظها.

إِذَنِ: الحَياء مَعروف، والنبيُّ ﷺ يَستَحْيِي من هؤلاء؛ لأنه ﷺ أَكمَلُ الناس إيمانًا، والحياءُ من الإيمان؛ ولأنه ﷺ أَكرَمُ الناس، والكريم يَستَحْيِي من ضَيْفه أن يُحرِجَه، أو أن يَتبرَّم بوُجوده، أو أن يَتكرَّهَ له؛ ولهذا الرسولُ ﷺ يَصبِر وإن كان مُتأَذِّيًا من ذلك؛ لِمَا جَبَلَهُ الله تعالى عليه من كمال الإيمان وكمال الكرَم، فيَستَحْي منكم.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ أن يُحرِجَكم] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَنْ يُحرِجَكم]، هذه في مَحَلِّ جَرٍّ بدلِ اشتِمال؛ لأن التَّقدير: فيَستَحْيِي من إخراجِكم.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، والحقُّ هو: العَدْل في الأحكام، والصِّدْق في الأخبار، فالرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ لا يَستَحْي من الحقِّ؛ لأن الحَياء من الحقِّ يَستَلزِم تَرْك الحقِّ والخَوَر وعدَم الحَزْم، والله عَزَّوَجَلَّ لا يَستَحْيي من أن يُبيِّن الحقِّ.

ويَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أن يُحرِجَكم]، هكذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفيما قاله نظَر، بلِ الصوابُ: ﴿لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أَنْ يُبيِّنَه لكم؛ لأن المَقام هنا ليس مَقام إخـراجٍ، بل المَقامُ مَقامُ تَبْيين لما يَجِب على هؤلاء الذين استَأْذَنوا على الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فالمَعنَى: لا يَستَحْيِي من الحَقِّ، كما قلتُ: إن الحَقَّ هو الصِّدْق في الأخبار والعَدْل في الأحكام، بينما المُراد بالحَـقِّ هنا -على رَأْيِ

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ- هو الإخراجُ، يَعنِي لا يَستَحْيِي أن يُخرِجَكم، ولكن الصواب لا يَستَحيِ أن يُبيِّن لكم ما يَلزَمكم فتَخرُجوا.

ثُمَّ قال المُفَسِّر عفا الله عنه: [أي: لا يَتْرُك بَيانَه]، أي: لا يَترُك بَيان الحَقِّ، وهذا من التَّحريف؛ حيث فسَّر الحَياء بلازِمه وهو التَّرْك؛ لأن من لازِم الحَياء من الشيء أن يَدَعه حَياءً منه، فالمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّر الحَياءَ بلازِمِه وهو التَّرْك، أي: لا يَترُك بَيان الحَقِّ، وفي قوله: لا يَتْرُك بَيان الحَقِّ. مع قوله: [﴿لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ أن يُخرِجَكم] هناك شيء من التَّناقُض؛ لأنه جعَل المُستَحْيَا منه هنا بيانَ الحَقِّ وجعَله في القول الأوَّلِ الإخراجَ، والصواب قوله الثاني، أي: لا يَستَحي من بَيان الحَقِّ، لكن تَفسيره الاستِحياءَ بالتَّرْك هذا باطِل؛ لأنه خِلاف ظاهِر اللَّفْظ.

والواجِبُ عَلَيْنا فيما يَتعَلَّق بأَسماء الله وصِفاته: أن نُجْرِيَها على ظاهِرها اللائِق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مُعتَقِدين أنه لا مَثيلَ له في هذه الصِّفَةِ، ومُبتَعِدين عن تَكليفها، أمَّا وُجوب إِجْرائها على ظاهِرها؛ فلأن الله تعالى خاطَبَنا بلِسان عرَبيٍّ مُبين، ولو أَراد خِلاف ذلك الظاهِرِ لكان التَّعبيرُ بهذا الذي يُفيد ظاهِرُهُ الكُفْرَ أو التَّمثيلَ خِلافَ البَيان، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:٢٦]، فكيف يُعبِّر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أو يَتكَلَّم بما هو خِلاف البَيان فيما يُعتَبَر صميمَ العَقيدة، وهو ما يَتعَلَّق بأسماء الله تعالى وصِفاته؟! ولهذا كان طريقُ هَؤلاء المُنحَرِفين من أبلَغِ ما يَكون طَعْنًا في كلام الله عَزَّوَجَلَّ، بل من أَبلَغِ ما يَكون طَعْنًا في الله تعالى نَفْسه؛ إذ إن طَريقَتَهم تَستَلْزِم أن يَكون الله عَزَّوَجَلَّ لم يُبيِّن الحقَّ فيما يَتعَلَّق بأسماء الله تعالى وصِفاته، وجعَل الحَقَّ مَوْكولًا إلى ما تَقتَضِيه عُقولهم، ويُحاوِلون بعد ذلك أن يَرُدُّوا كلام الله عَزَّوَجَلَّ وكلام رسوله ﷺ إلى ما تَقتَضيه هذه العُقولُ الفاسِدةُ المُتَناقِضةُ، والطريق الأَسلَمُ والأَعلَمُ والأَحكَمُ هي

طريق السَّلَفِ، أن تَأخُذ كلام الله تعالى ورسوله ﷺ على ظاهِره؛ لأنَّنا:

١- نَعلَم عِلْم اليَقين أنه لا أَحَدَ أَعلَمُ بالله تعالى من نَفْسه، ولا أَحَدَ من الخَلْق أَعلَمُ بالله تعالى من رَسول الله ﷺ.

٢- ونَعلَم أيضًا أنه لا أَحَدَ أصدَقُ كَلامًا من الله تعالى، ولا أَحَدَ من المَخلوقين أصدَقُ كلامًا من رسول الله ﷺ، وهذا ثابِت أيضًا.

٣- والأَمْر الثالِث: نَعلَم أنه لا أَحَدَ أوضَحُ بيانًا في كلامه من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولا أَحَدَ من المَخلوقين أَعظَمُ بيانًا من رسول الله ﷺ.

٤- نَعلَم أيضًا أنه لا أَحَدَ أَصَحُّ إرادةً وقصدًا من الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن الله تعالى ما أَراد من عِباده إلَّا أن يُبيِّن لهُمُ الحَقَّ، وكذلك بالنِّسبة لرسول الله ﷺ لا نَعلَم أَحَدًا أَنصَحَ منه للخَلْق، وأصدَقَ إرادةً في بيان الحَقِّ.

فإذا تَمَّت هذه الأمورُ الأربعةُ في أيِّ كلام يَكون: صار ما يَدُّل عليه ظاهِره هو المرادَ الذي يَجِب علينا أن نَأخُذ به، فهذه أمور أَرْبعة إذا اجتَمَعَت في الكلام صار الكلام واجِبَ الأَخْذ بظاهِره؛ وهذه الأمورُ الأربعةُ هي: العِلْم والقَصْد والصِّدْق والبَيان.

وضِدُّها لا يُؤخَذ ولا يُعتبَر، فلو جاء إنسانٌ جاهِلٌ يَتكَلَّم لك بكَلام من أَفصَحِ البيان، وهو رجُل نَعرِف أنه من أَنصَحِ الخَلْق، وأصدَقِهم؛ لا تَثِق بقوله.

ولو جاء رجُل يَتكَلَّم عن الطِّبِّ، ونحن نَعلَم أنه لم يَدرُس الطِّبَّ أبَدًا، وقام يَشرَح لنا الطِّبَّ؛ لا نَثِق به؛ لأنه جاهِل.

ولو جاء عالِم نَعرِف أنه عالِم بما يَتكلَّم به، لكنه كَذُوب؛ لا نَثِق بكلامه؛ لأنه

كذوب، قد يَكذِب علينا.

ولو جاءَنا رجُل عالِم، وصَدوق، لكنه سَيِّئُ الإرادة قد يَغُشُّ ويَقصِد ضَلال الخَلْق، هذا أيضًا لا نَثِق به؛ لأننا نَخْشَى أن يَغُشَّنا فيما قال.

ولو جاءَنا إنسان عالِم، وناصِح، وصَدوق، لكن ما يُحسِن يُعبِّر، مثل إنسان فارِسيٍّ لا يَعرِف باللغة العربية، وقام يُعبِّر باللغة العربية؛ فلا نَثِق بقوله؛ لأنه لا يُحسِن التعبير، فأحيانًا يَقول إذا أَراد أن يُضيف الضَّمير إلى نَفْسه: أنت أكَلْت. أي: أنه إذا أَراد أن يَقول: أنا أَكَلْتُ. يَقول: أنتَ أكَلْتَ. وإذا أَراد أن يَقول: أنت أكَلْتَ. يَقول: أنا أَكَلْتُ. فلا نَثِقُ بكلامه، لأنه قد يَقلِب الكلام؛ لأنه عَيِيٌّ.

لكن كلام الله تعالى وكلام الرسول ﷺ اجتَمَعَت فيه صِفات القَبول الأَرْبَع؛ فلهذا يَجِب عَلينا أن نُؤْمِن بكل صِفة وَصَفَ الله تعالى بها نَفْسَه.

فإن قال قائِل: الآية وما أَشبَهَها فيها نَفيُ الحَياء، والنَّفيُ ضِدُّ الإثبات، فكيف تَقول: إن في الآية إِثباتَ الحَياء؟!

فالجَوابُ: مَنطوق الآيةِ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، ومَفهومها: يَستَحْيِي من غيـر الحَقِّ؛ إذ لو لم يَكُن الأمر كذلك لكان نَفيُ الاستِحْياء عن الحـقِّ لَغْوًا من القَوْل لا مَعنَى له.

ثُمَّ نَقول: إنه قد ثَبَتَتْ صِفة الحَياء لله عَزَّوَجَلَّ بصيغة الإثبات، كما في الحَديث الذي في المُسنَد: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ»[1] فـ(حَيِيٌّ) فيها إثبات الحَياء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٤٣٨)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٨٨)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب ١٠٥، رقم (٣٥٥٦)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء، رقم (٣٨٦٥) من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فكُلُّ صِفة أَثبَتَها الله تعالى لنَفْسه؛ فإنه يَجِب علينا أن نَأخُذها بالقَبول، ولكنَّنا نُنزِّهُ اعتِقادنا عن مَحذورَيْن عظيمَيْن وهما: التَّمثيل، والتَّكييف.

والتَّعبير بـ(التَّمثيل) أحسَنُ من التعبير بـ(التَّشبيه)؛ لأن هذا هو الذي نَفاه الله تعالى عن نَفْسه؛ ولأن نَفيَ التَّشبِيه المُطلَق هذا ليس بصواب، كما ذَكَرْنا أنه ما من مَوْجودَيْن إلَّا ويَشتَرِكان في صِفة الوُجود، وإنْ كانا يَتبايَنان فيما تَقتَضِيه هذه الصِّفةُ في مُقتَضياتها ومُستَلزَماتها، وما من سَمِيعَيْن إلَّا ويَشتَرِكان في صِفة السَّمْع وإن كانا يَختَلِفان في مَلزوماتها ومُقتَضَياتها، وما مِن بَصِيرَيْن إلَّا ويَشتَرِكان في صِفة البَصَر، فيَكون بينهما مُشابَهة من بعض الوُجوه فيما يَشتَرِكان فيه؛ ولهذا فنَفيُ التَّمثيل هو الذي يَنبَغِي لنا -مَعشَرَ طلَبةِ العِلْم- أَنْ نُعبِّر به؛ لأنه هو الذي جاء في القُرآن وهو أَسلَمُ.

فإن قال قائِل: هل التَّعبيرُ بـ(تَشبيه) يَكون فيه قُصور، لا يُؤدِّي المَطلوب؟

فالجَوابُ: أنه لا يُؤدِّي المَطلوب، وفيه قُصور؛ لأنه بخِلاف تَعبير القُرآن، ولأن هذا أدَّى إلى أن تُنْكَر كثيرٌ من الصِّفات بهذه الدَّعوى؛ ولهذا شَيْخ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العَقيدة الواسِطية لم يَقُلْ: من غير تَشبيه، قال: «مِن غَيْر تَحريف ولا تَعطِيل ولا تَكْيِيف ولا تَمْثِيل»[1]، وهذا هو الأَوْلى.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا يَتْرُكُ بَيانَه، وقُرِئ: «يَسْتَحِي» بياءٍ واحِدة]، فـ(قُرِئ) تَعنِي: قِراءة شاذَّة؛ لأن قاعِدة المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا قال: (وَقُرِئَ)، فهي قِراءة شاذَّة بخِلاف ما إذا قال: (وفِي قِراءَةٍ)، أو قال: بالياء والنون، أو بالياء والتاء، وما أَشبَهَ ذلك؛ فهما قِراءَتان سَبْعِيَّتان.

---

(١) العقيدة الواسطية (ص:٥٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ الفاعِل يَعود على الصَّحابة، والمَفعول يَعود على نِساء النبيِّ ﷺ، وهُنَّ لم يَسْبِقْ لهُنَّ ذِكْر في الآية، لكن قوله تعالى: ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ يَدُلُّ على ذلك؛ لأن ساكِنَ بُيوت النبيِّ هُنَّ أزواجُ النَّبيِّ ﷺ.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أي: أَزواجَ النبيِّ ﷺ]: [أَيْ] هذه تَفسيرية، و[أَزْواجَ] عَطْفُ بَيان للهاء في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أي: أزواجَ النبيِّ ﷺ ﴿مَتَٰعًا﴾ المُراد بالمَتاع: ما يُتَمتَّع به من مَلابِسَ ومَطاعِمَ ومَشارِبَ وغيرِها، حتى الدراهِم تُعتبَر مَتاعًا، فكل ما يُتمتَّع به فهو مَتاع.

قوله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ سِتْر] و(اسْأَلوهُنَّ) تَنصِب مَفعولَيْن؛ الأوَّل: الهاء في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾، والثاني: مَحذوف دلَّ عليه ما قَبْله، أي: فاسْأَلوهُنَّ المَتاع من وراء حِجاب.

وقوله تعالى: ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ حِجاب بمَعنى سِتْر، وكلِمة ﴿مِن﴾ تَدُلُّ على أنَّ هذا السِّتْر لا بُدَّ أن يَنفَصِل، وأنه غير سَتْر الوَجْه أو البدَن بالثِّياب، بل هو سَتْرٌ آخَرُ: حِجاب، وحِجاب أُمَّهات المُؤمِنين غيرُ حِجاب نِساء المُؤمِنين؛ لأن حِجاب نِساء المُؤمِنين يَصِحُّ أن يَكون مُتَّصِلًا بالبَدَن كالخِمار والمِلحَفة، وما أَشبَهَهُما، أمَّا حِجاب أُمَّهات المُؤمِنين فإنه حِجاب آخَرُ مُنفَصِل يَحُول بين الرجُل وبين رُؤْية أُمَّهات المُؤمِنين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ فتَدُلُّ على أنَّ هذا الحِجابَ مُنفَصِل عنِ المُسْتَتِر به، ومنه قوله تعالى عن الكُفَّار يَقول للرسول ﷺ: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فُصِّلَت:٥].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ﴾ لماذا قال: (ذَا) مُفرَد و(كَمْ) جَمْع، فكيف يَتلاءَمُ جَمْع مع مُفرَد؟

الجَوابُ: لاختِلاف المَرجِع، فاسمُ الإشارة يَعود على المُشار إليه، والكاف للخِطاب يَعود على المُخاطَب، فقد يَكون المُشار إليه مُفرَدًا والمُخاطَب جَمْعًا كما هنا: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: المَذكور والخِطاب للصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾: ﴿أَطْهَرُ﴾ يَعني: أَبلَغ في طُهْر القُلوب لقُلوبكم أيُّها السائِلون ﴿وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: المَسؤُولات، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِن الخَواطِر المُريبة] وانْظُرْ! فهذا الخِطابُ للصحابة وهُمْ أَطهَرُ هذه الأُمَّةِ قُلوبًا في جانِب نِساء النبيِّ ﷺ، وهنَّ أَعظَمُ النساء عِفَّةً وبُعدًا عن المَكروه، فإذا كان هذا الخِطابُ في مِثْل هؤلاء القَوْمِ لهؤلاءِ النِّساءِ، فما بالُكَ بمَن سِواهُم، إذا كان احتِمال تَدَنُّس القَلْب بمُخاطَبة المرأة من دون حِجاب وارِدًا في مثل هؤلاءِ القَوْمِ، فما بالُكَ فيمَن دونَهم بمَراحِلَ لا في الزمَن ولا في الرُّتْبة؟! يَكون هذا أشدَّ وأَشَدَّ؛ ولذلك يُنكَر إنكارًا عظيمًا على مَن قال: إن الحِجاب خاصٌّ بأُمَّهات المُؤمِنين؛ فمِن أين الخُصوصية؟! فإذا كان الله تعالى علَّل بأنه أَطهَرُ لقُلوبهم، أي: قُلوب المُخاطَبين والمُخاطَبات، وهُنَّ -بلا شَكٍّ- أطهَرُ النساء وأَعفُّهُنَّ، وكذلك الذين يُخاطِبونهنَّ خير الناس كما جاء في الحديث: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي»[1] فما بالُكَ بمَن دُونَهم؛ فاحتِمال تَنَجُّس القَلْب من مُخاطَبة المرأة بدون حِجاب فيمَن بعد الصحابة أَقرَبُ وأقرَبُ بكثير، وإذا كان هذا باعتِبار الصحابة مع زوجاتِ الرسول ﷺ فغَيرُهم مع نِساء دُونَهُنَّ بكثير من بابِ أَوْلى.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم (٢٦٥٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول: [مِن الخَواطِر المُريبة] الخَواطِر التي تَرِدُ على القَلْب والخَواطِر التي تَرِد على القَلْب إذا لم يَطمَئِنَّ الإنسان إليها ويَستَرسِل معها فإنه لا يُعاقَب عليها؛ لأنها من حديث النَّفْس، بل هي ممَّا يَصُولُ عن النَّفْس، والتَّحرُّز منها أشَدُّ؛ لأن الرسول ﷺ ثبَتَ عنه أنه قال: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهَا أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»(١)، فإذا كان هذا في حديث النَّفْس، فما بالُك بما يَهْجُم على النَّفْس بدون قَصْد؟ إِذْ يَكون قصد العَفْو عنه من بابِ أَوْلى.

فالخَواطِر التي تَرِد على القَلْب إذا لم يَسْتَرْسِل معها الإنسان ويَطمَئِنَّ إليها فإنها لا تَضُرُّه، سواءٌ كانت هذه الخَواطِرُ فيما يَتعلَّق بجلال الله عَزَّوَجَلَّ أو فيما يَتعلَّق برَسوله ﷺ، أو فيما يَتعلَّق بشَهْوة النَّفْس وإراداتها، فإنها لا تَضُرُّ الإنسان بشَرْط ألَّا يَستَرْسِل، بل إن هذه الخَواطِرَ ما تَرِد إلَّا على قَلْب سَليم، يُهاجِم الشَّيْطان بها القَلْب حتى يُفْسِده؛ ولهذا لمَّا شَكا الصحابة إلى النبيِّ ﷺ مِثْل هذه الخَواطِر، قال: «أَوَجَدْتُمْ ذَلِكَ» قالوا: نعم. قال: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»(٢)، يَعنِي: خالِصهُ؛ لأن الشيطان لا يَهجُم على قَلْب فاسِد، وإنما يَهجُم على القُلوب الصالِحة ليُفسِدها، ودواءُ ذلك أن تَستعيذَ بالله تعالى من الشَّيْطان الرجيم، وأن تَنتَهيَ، وأن تُثنِيَ على الله عَزَّوَجَلَّ بما هو أَهْلُه، فتَقول: الله أَحَدٌ صمَدٌ لم يَلِد، ولم يُولَد، ولم يكن له كُفوًا أَحَد، استِجارةً بالله تعالى وانتِهاءً، ووصفًا لله تعالى بالكَمال، وبعد ذلك تَزول عنك شيئًا فشيئًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره، رقم (٥٢٦٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، رقم (١٣٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ الخِطاب للصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكذلك مَن بَعدَهم من بابِ أَوْلى؛ (مَا كَانَ لَكُمْ)، ومِثْل هذه العِبارةِ تَدُلُّ على المُمتَنِع غايةَ الامتِناع؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ بشَيْء] ولم يُبيِّنها، يَعنِي: لا يَصلُح ولا يَستَقيم، ولا يُمكِن لكم أن تُؤذوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومِثْل هذا التَّعبيرِ يَدُلُّ على امتِناع الشيء مثل قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون:٩١] المَعنَى أن ذلك مُمتَنِع لا يَصلُح ولا يَستَقيم، فكلُّ مُؤمِن لا يُمكِن في حَقِّه ولا يَستَقيم ولا يَصلُح في حَقِّه أن يُؤذِيَ رسول الله ﷺ لا بالقول ولا بالفِعْل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، وأَذِيَّة الرسول ﷺ من أعمال المُشرِكين، فهُمُ الذين يُؤذون الرسول ﷺ بالقَوْل وبالفِعْل.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب:٥٣]، وهنا قال: ﴿أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾، وأوَّلُ آية يَقول: ﴿النَّبِيَّ﴾ إشارةً إلى أن الرسول ﷺ شَرُفَ لعِظَمِ مَن أَرسَله وهو الله تعالى، فلمَّا كان رسول الله ﷺ فلا يُمكِن أن يُؤذَى؛ لأنه رسول من عِند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَذِيَّة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في حَياته ما يَتَّصِل بشَخْصه، وأَذِيَّة الرسول ﷺ بعد مَماته ما يَتَّصِل بسُنَّته، فإنه لا يَنبَغي ولا يَصلُح لأيِّ مُؤمِن أن يَقول في سُنَّة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على وَجْهٍ يَتأذَّى به الرسول ﷺ مثل رَدِّها وتَحريفها وما أَشبَهَ ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾.

إِذَنْ: هل نَجلِس مُستَأنِسين للحديث بعد الطَّعام، يَعنِي: في حقِّ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

الجَوابُ: لا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾، إِذَنْ: ما كان لنا أن نَجلِس ما دام فيه أذِيَّةٌ للرسول ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ يَعنِي: وما كان لكم أن تَنْكِحوا أزواجَه من بعدِه أبَدًا؛ وقوله تعالى: ﴿تَنكِحُوٓاْ﴾ المُراد بالنِّكاح هنا العَقْد، يَعنِي: لا يُمكِن أن تَعقِدوا على أزواجه من بَعْده، وكلُّ نِكاح في القُرآن فإنه بمَعنَى العَقْد، خِلافًا لمَن قال: كلُّ نِكاح في القُرآن فهو بمَعنَى الوَطْء إلَّا قولَه تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٢٢]، والصَّوابُ: أن كل نِكاح في القرآن فإنه بمَعنَى العَقْد، وأمَّا مَن قال: إنه بمَعنَى الجِماع إلَّا في الآية هذه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب:٤٩] فليس بصحيح.

وقوله تعالى: ﴿أَزْوَٰجَهُۥ﴾ تكون المَرأة زَوْجة للإنسان بالعَقْد عليها.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي: من بعد مُفارَقته لها، ومُفارَقة النبيِّ ﷺ لها تكون بالحياة وتكون في الموت، والمُفارَقة في الحَياة تكون قبل الدُّخول وبعد الدُّخول، فهاهنا ثلاثُ حالات:

الحالُ الأُولى: مَن فارَقَها بمَوْته، فهذه لا تَحِلُّ لأَحَد من بعده بالإِجْماع، ولم يُخالِف في ذلك أحَدٌ.

الحال الثانِية: مَن فارَقها في حياته بدون دُخول، فهذه تَحِلُّ، ولا نِزاعَ فيها كما ذكَره ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفسير[1].

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٠٣).

الحال الثالِثة: مَن فارَقَها في حياته بعد دُخوله بها، فهذه مَوضِع خِلاف بين أَهْل العِلْم.

فمِنهم مَن قال: إنها تَحِلُّ. ومِنهم مَن قال: إنها لا تَحِلُّ. وعلى هذا الرأيِ الذي يَقول: إنها لا تَحِلُّ؛ يَقول: إنه يَصْدُق عليها أنها زَوْجته، وأنها من بعده، ولولا أنَّ مَنْ عَقَدَ عليها ثُمَّ فارَقها قبل الدُّخول لولا الإجماعُ لقُلنا أيضًا لا تَحِلُّ لمَن بعدَه.

فصارتِ الأَحوالُ ثَلاثةً: مَن فارَقها بموته فهذه لا تَحِلُّ بالإجماع، ومَن فارَقها في حَياته قبل الدُّخول بها فهذه جائِزة تَحِلُّ لغيره، قال ابنُ كَثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا نِزاعَ في ذلك. ومَن فارَقها في حَياته بعد الدُّخول بها ففيها خِلاف بين العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، منهم مَن قال: إنها تَحِلُّ. ومِنهم مَن قال: إنها لا تَحِلُّ.

فائِدةٌ: لا نَعلَم أن أحَدًا تَزوَّج زوجة للرسول ﷺ بعدَ الدُّخول بها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ المُشار إليه: إيذاءُ النبيِّ ﷺ ونِكاحُ زوجاته مِن بَعدِه.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾: ﴿كَانَ﴾ هنا مُسلوبة الدَّلالة على الزمَن، والمُراد إثبات عِظَم ذلك عند الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾، وفي كَوْن هذا الأمرِ عَظيمًا عند الله عَزَّوَجَلَّ دليلٌ على حِماية الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله ﷺ، ولا سيَّما فيما يَتعلَّق بالنِّكاح؛ ولهذا قال الله في قِصَّة الإِفْك: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥].

فهُنا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ عَظيمًا أي: في إِثْمه وجُرْمه.

وعلى هذا فالعِظَمُ مَعناهُ: عِظَم الشيء، يَعنِي: كِبَره، وهو شامِل لما يَكون مَدْحًا، ولما يَكون ذَمًّا، فهنا كان عند الله عَظيمًا في إِثْمه قال: [فيُجازِيكم عليه] على حسَب الذَّنْب الذي قُمْتم به؛ لأن الجَزاء من جِنْس العمَل، ونِكاح زَوْجات الرسول ﷺ من بَعدِه عَظيم عن الله تعالى.

وقد حذَّر تعالى من مُخالَفة ذلك في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [الأحزاب:٥٤]، والجُمْلة هُنا شَرْطية و﴿شَيْـًٔا﴾ نكِرة في سِياق الشَّرْط، فتكون دالَّةً على العُموم: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في نِكاحِهنَّ بَعدَهُ]، والصَّوابُ في الآية عدَمُ التَّقييد، وأنها عامَّة في كل شيء، في نِكاح زوجات النَّبيِّ ﷺ بعده وفي غَير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يَعنِي: فلا تُظهِروه لأَحَد، تُخفُوه في أَنفُسكم، أو تُخفوه فيما بينكم وبين أقارِبكم؛ لأن الإِخْفاء أو الإِظْهار أمرٌ نِسبِيٌّ، أَشَدُّه ما أَخفاه الإنسان في نَفْسه، ثُمَّ ما أَظهَره لذَوِيه وأصحابه وأَخْفاه عن غيره، ثُمَّ ما أَظهَره لأهل بلَده، ثُمَّ ما أَظهَره لعُموم الناس، وأيًّا كان فإن كل ما أَبداه الإنسان أو أَخفاه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٤].

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ الجُملة هنا جَواب الشَّرْط، واقتَرَنت بالفاءِ؛ لأنها جُملة اسمِيَّة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ فهي جُملة اسمِيَّة وإن قُرِنت بـ(إنَّ) الدالَّة على التَّوْكيد، ووجهُ ارتِباطها بما قَبْلها -أي: بفِعْل الشَّرْط-: أنه إذا كان الله تعالى عالِمًا به، فسَوْف نُجازِيكم عليه؛ إن خَيرًا فخَير، وإن شرًّا فشَرٌّ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ أنه لا يَحِلُّ لأحَد من المُؤمِنين أن يَدخُل بُيوت النَّبيِّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلَّا بالشُّروط المَذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾، والأصل في النَّهيِ التَّحريم حتى يَقوم دليلٌ على أنه لغَيْر التَّحريم، ويُؤيِّد التَّحريم هنا أن هذا يَتعَلَّق بحقِّ الآدميِّ، وما كان مُتعلِّقًا بحَقِّ الآدميِّ فإنه لا يُسامَح فيه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الإضافة تَكون لأَدْنى مَلابَسة؛ فإضافة الشيء إلى الشيء تَكون لأَدْنى مُلابَسة، سواءٌ كان ذلك على صِفة المِلْكِيَّة أو الاخْتِصاصيَّة أو الصُّحْبة أو القُرْب أو غير ذلك؛ ولهذا من قَواعِدهم المَعروفة: أنَّ الإضافة تَكون لأَدْنى مُلابَسة، لكن لا بُدَّ أن يَكون بين المُضاف والمُضاف إليه شيء من الارتِباط؛ تُؤخَذ هذه من قوله تعالى: ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾؛ لأن إضافَتَها إلى النبيِّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ باعتِبارها مَأواهُ، وإلَّا فهي مِلْك لزوجاته على القولِ الراجِح.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الإِذْن بالدُّخول مُعْتَبر، سواء كان من صاحِب البَيْت أو مِمَّن أَنابَهُ؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾، ولم يَقُل: إلَّا أن يَأذَن لكم -أيِ: النبيُّ- فإذا أُذِن للإنسان للدُّخول سواءٌ كان من صاحِب البَيْت أو من خادِمه أو من ابنِه أو ما أَشبَه ذلك جاز الدُّخول، وهل يُستَفاد من جَواز الدُّخول إذا وَجَدْت الباب مَفتوحًا وقد كان بينَك وبين صاحِبك وَعْد؟

الجَوابُ: إن قُلْنا بأن الإِذْن العُرفيَّ كالإِذْن اللَّفْظيِّ فهو مُستَفاد من ذلك، ويُؤيِّد هذا قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النور:٢٧]، فإن الاستِئْناس -وهو الاطْمِئْنان- يَشمَل الاستِئْذان

باللَّفْظ والاستِئْذان بالفِعْل والعُرْف.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه يَجوز دُخول بُيـوت النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بهذه الشُّـروطِ: الإِذْن، وألَّا يَكـون ذلك بانتِظار نُضْج الطعام؛ لما في المُفاجأة من الإيـذاء؛ لأنه إذا نَضِج طعامُك ثُم جاء إنسان يَسـتَأذِن صار في هذا نوعٌ من الإيذاء؛ لأنك إن منَعْته شقَّ عليك، وإن أَذِنْـت له شقَّ عليك أيضًا، فلهذا لا يَجـوز الدُّخول لمُنتَظِـر نُضْج الطعام.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَحريم التَّطفُّل؛ لأن الطُّفَيْليَّ عادَتُه أنه يَنتَظِر متى يُقدَّم الطعام، فإذا قُدِّم الطعام استَأذَن أو هجَم هُجومًا بدون استِئْذان؛ لأنه قَبْل أن يَنضَج الطعام ويُقدَّم يُمكِن أن يَدخُل، ثُم يُقال له: اخْرُجْ. لكن بعد أن يُقدَّم الطعام لا بدَّ أن يَأكُل.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: مَشروعية إجابة الدَّعوة؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾، وهل يُستَفاد منها دُخول الإنسان المَدعوِّ وإن لم يُؤذَن له إذا وَجَد الباب على هَيْئة تَدُلُّ على الإِذْن؟

الجَوابُ: نعَمْ، وهو واضِح؛ لأنه تعالى قال: ﴿إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ ولم يَقُل: إذا دُعيتم فأَجيبوا، والدُّخول أخَصُّ، وعلى هذا فإذا كنتُ مَدعُوًّا وحَضَرْتُ إلى الباب فلي أن أَدخُل إذا عَلِمْنا بالقَرينة أن الباب قد وُضِعَ مَوضِع الإِذْن، كما لو كان مَفتوحًا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الإنسان يَنبَغي له إذا قضَى حاجته من الطعام أن يَنصَرِف؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾، وهذا كما أنه في بُيوت النبيِّ ﷺ فهو أيضًا في بُيوت غيره.

فإن الأَفضَل لَمن دُعِيَ إلى طعام أنه إذا طَعِم أن يَنْتشِر؛ لأن بَقاءَه قد يَشُقُّ على

صاحِب البَيْت؛ ولأن الحاجة التي جاء من أَجْلها قد انتهَت، وإذا تَأمَّلْت الشريعة وجَدت أن الإنسان من حُسْن أدَبه وسُلوكه أنه كلَّما فرَغ من حاجته التي يُريد: يَنتَهي منها ويَنصَرِف إلى حاجاتٍ أخرى؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في المُسافِر: «إِذَا قَضَى حَاجَتَهُ فَلْيَعْجَلْ إِلَى أَهْلِهِ وَلَا يَنْتَظِرْ»(١).

ولو أننا حَفِظْنا أوقاتَنا بِمِثْل هذا الأدَبِ لكانت أَوْقاتُنا مُبارَكةً، لكن نَجِدنا نُضيِّع أَوْقاتَنا، ولَسْنا نُراعِي هذه الحالَ، أنه كلَّما انتَهى الشُّغْل لا نَنتَظِر، بل نَمشِي إلى شُغْل آخَرَ، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشَّرح:٧-٨]، فلا تُضيِّعِ الوقتَ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن مَن دخَل بُيـوت النبيِّ ﷺ بدَعوة، ثُمَّ طَعِمَ فإنه لا يَجلِس للحديث؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا مُسْتَـٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾، وهذا فَوْق قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾؛ لأن ذلك أَمْـر، أمَّا هذا فنَهيٌ، يُنهَى أن يَبقَى هـؤلاءِ المَدعُوُّون مُستَأنِسين للحديث بعد فَراغهم من الطعام.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن هذا الحُكمَ إنما يَكون في حال تَأذِّي صاحِب البيتِ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ أمَّا إذا كان لا يَتأذَّى به بل يُسَـرُّ به، بل قد يَكون بطلَبه، فإذا فرَغ من الطعام قال: انتَظِروا، اجلِسـوا نَستَأنِس، ونَتحَدَّث، فإن هذا ليس مَنهيًّا عنه، بل جائِز، ولا بأسَ به؛ لأن القاعِدة عند أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ: أنَّ الحُكْم يَدور مع عِلَّته وُجودًا وعدَمًا، فإذا وُجِدَتِ العِلَّة وُجِد المعلول، وإذا انتَفَتِ العِلَّةُ انتَفَى المَعلول.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العمرة، باب السفر قطعة من العذاب، رقم (١٨٠٤)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب السفر قطعة من العذاب، رقم (١٩٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن النبيَّ ﷺ كغَيْره من البشَـر يَتَأذَّى كما يَتَأذَّى غيره؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾، لكنه يَختَلِف عن غيره في قُوَّة صَبْره وتَحمُّله ﷺ، بخِلاف غيره من البشَر فإن غيرَه لا يَصبِر ويَسأَم ولا يَتحَمَّل كما يَتحَمَّل النبيُّ ﷺ؛ ولهذا كان الرسولُ ﷺ يَتَأذَّى من بَقائِهم مُستَأنِسين لحَديث ولا يَنهاهُم حتَّى نَهاهُمُ الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: عِناية الله عَزَّوَجَلَّ بنَبيِّه ﷺ وذلك بالدِّفاع عن كل ما يُؤذِيه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: كمال حَياء الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وكَرَمه؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾، وإنما كان يَستَحيِي لشِدَّة حَيائِه، فإنه كما وُصِف: أَحْيَى من العَذراء في خِدْرها[1]، و«الحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَـانِ»[2] كما ثبَتَ به الحديث عن النبيِّ ﷺ، وهو أيضًا دَليل على كرَمه؛ لأن الكريمَ يَستَحيِي أن يُخجِل أَضيافه بقَوله: اخرُجوا! أو يُخجِلهم بالتَّبرُّم مِنهم والتَّكرُّه لتَصرُّفهم؛ فلهذا كان الرسول ﷺ يُعامِلهم وكأنه مَسرور منهم حتى بيَّن الله تعالى ذلك للصَّحابة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أن القُرآن شامِلٌ لكلِّ شَيءٍ، يَعنِي حتى آداب الدُّخول والجُلوس والطَّعام وما أَشبَـه ذلك قد بيَّنه القُرآن، فيَكـون في ذلك إيضاحٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم (٣٥٦٢)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ، رقم (٢٣٢٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان، رقم (٢٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، رقم (٣٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

ودَلالةُ القُرآن على الأشياءِ نَوْعان:

دَلالة عَيْنِيَّة: بمَعنى أنها تَدُلُّ على الشيءِ بِعَيْنه وهذا واضِح.

ودَلالة شُمول: لَفْظيٌّ أو مَعنَوِيٌّ.

فالشُّمول اللَّفظيُّ: بمَعنَى أنه يَكون اللَّفْظ عامًّا في صِيغته يَشمَل كلَّ ما يَحتَمِله ذلك اللَّفظُ من المَعنى.

والعُموم المَعنويُّ: هو ما يُعرَف عند أهل العِلْم بالقِياس؛ لأنه يَكون المَقِيسُ والمَقِيسُ عليه مُتَّفِقَيْن في العِلَّة، فيَكون بينهما عُموم في المَعنَى.

فدَلالة القُرآن على هذا الشيءِ تَكون على هذا الوَجْهِ، إمَّا دَلالة لَفْظيـة، وإمَّا دَلالة مَعنَويَّة بالشُّمول اللَّفْظيِّ أو المَعنَويِّ.

وهُناك أيضًا دَلالة الالتِزام وهي مُتفَرِّعة أو داخِلة فيما ذكَرنا من الدَّلالتين.

فإن قُلت: يَرِدُ عليك أنه لا يُوجَد في القُرآن مِقْـدار أَنصِبة الزكاة ولا مِقْـدار الواجِب، ولا يُوجَـد عدَد الركعات، ولا مِقـدار ما يُسَنُّ فيها من الذِّكْر، فمـا هو الجوابُ؟

فالجَوابُ: أن السُّنَّة قد بَيَّنت ذلك، وقد أمَرنا الله تعالى في كِتابه أن نَأخُذ بما جـاء عن رسـول الله ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧]، فقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ﴾ يَشمَل ما آتانا من المال، وما آتانا من العِلْم، والعِلْم يُسمَّى إيتاءً، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٥٦]، فكما أن إعْطاء المال يُسمَّى إيتاءً فإعطاء العِلْم أيضًا يُسمَّى إيتاءً، فقَوْله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [الحشر:٧] يَشمَل ما آتانا من المال وما آتانا من

العِلْم، وكذلك قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]؛ وكلُّ هذا يَدُلُّ على أن ما جاءت به السُّنَّة فهو ممَّا جاءَ به القُرآن.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: وَصْفُ الله تعالى بالحَياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وَجهُ الدَّلالة أنه لو كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُوصَف بالحَياء ما صَحَّ أن يُنفَى عنه الحَياء في حال من الأَحْوال دون الحال الأُخرى، وعلى هذا فتكون الآية دَليلًا على أن الله تعالى مَوصوف بالحَياء، ولكن حَياء الله تعالى ليس كَحَياء الإنسان؛ لأن الله تعالى يَقول في كتابه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أن من الأُمور ما هو حقٌّ ومِنها ما هو باطِل، فالحَقُّ في الأخبار هو: الصِّدْق، وفي الأَحْكام: العَدْل، والباطِل فيهما عَكْس ذلك، فالباطِل في الأَخْبار هو الكذِب، وفي الأحكام هو الجَوْر.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا ...﴾ أنه لا يَجوز سُؤال زوجات النَّبيِّ ﷺ شيئًا إلَّا من وراء حِجاب، والآية في ذلك صَريحة: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: جَواز تَكليم زوجات النبيِّ ﷺ؛ وجهُه قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾، فأَباح الله تعالى سُؤالَهُن، والسُّؤال هنا ليسَ فقَطْ سُؤالَ استِجْداء، ولكن سُؤال العِلْم من بابِ أَوْلى.

وهل يُستَفاد منه جَواز مُكالَمَة النِّساء غيرِ زَوْجات الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟

الجَوابُ: نعَمْ؛ يُستَفاد لأنه إذا جاز في زَوْجات الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع ما

لهُن من الاحترام والتَّعظيم ففي غَيْرهن من بابِ أَوْلى، ولكنه يُشتَرَط في ذلك الأَمْن من الفِتْنة، فإن خِيفَتِ الفِتْنة من المُكلِّم أو من المَرأة كان ذلك حرامًا، وكذلك يُشتَرَط ألَّا يَتمتَّع الإنسان بمُكالمة المرأة وإن لم يَكُن تَمَتُّعَ شَهوة، يَعنِي: قد يَكون الإنسان مثلًا يَتمتَّع بمُخاطَبة المرأةِ ليس من الناحِية الجِنْسية الغَريزية، ولكنه يُحِبُّ أن يَستَمِرَّ معَها في الكَلام، فهذا أيضًا لا يَجوز، اللَّهُمَّ إذا كانت من مَحارِمه، وأَراد أن يَتَحدَّث معها ليُؤنِسَها أو يَستَأنِس بها، فهذا لا بأسَ به.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: أن الحِجاب المَذكور هنا ليس هو سَترَ الوَجْه فقَطْ، بل هو شيء فَوْق ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾، ولم يَقُل: مُتحَجِّبات، وهذا يَدُلُّ على أنها الحِجاب مُنفَصِل وليس من ثِياب المرأة، بل هو شيء مُنفَصِل، مثل أن تَكون في خِدْرِها فيَتحَدَّث الناس إليها.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: ثُبوت تَعليل الأحكام الشَّرْعية؛ تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ﴾، ومِن قوله تعالى فيما سَبَق: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾.

الْفَائِدَةُ العِشْرُونَ: أنه يَجِب على المَرْء أن يَسعَى في كل ما فيه تَطهير قَلْبه، وأن يَبتَعِد عن كل ما فيه تَدنيسُ قَلْبه؛ لأنه عَلَّل الأمر بالحِجاب؛ لكونه أَطهَرَ للقُلوب، ولا فرقَ في ذلك بين طَهارة القَلْب من الأخلاق الرَّذيلة كالزِّنا واللِّواط أو طَهارته من الاعتِقادات الفاسِدة أو الإرادات السَّيِّئة؛ فكلُّ هذا يَجِب على المَرْء أن يُطهِّر قلبه مِنه، وأن يَبتَعِد عن كل ما يُدَنِّس قَلْبه من ذلك.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةُ وَالعِشْرُون: أن الفِتْنة في مُخاطَبة النِّساء قد تَكون من الرجُل وحدَه ومن المرأة وحدَها، ومنهما جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾؛ فقَدْ يَكون الرجُل هو الذي يَتَلذَّذ بمُخاطَبة المرأة، والمرأة ليس على بالها هذا الأمرُ ولا اهتَمَّتْ

به، ولا فكَّرَتْ في هذا المَوْضوعِ، لكن هو يَتَلذَّذ بهذه المُخاطَبةِ، فيَكون الدَّنَس في قَلْب الرَّجُل، وقد يَكون الأمر بالعكس، تَتَحدَّث المرأة إلى الرجُل وهي تَتَلذَّذ بهذه المُخاطَبةِ والرجُل ليس على باله هذا الأَمرُ، فيَكون هنا الدَّنَس في قَلْبها هي، وقد يَكون من الطرَفَيْن فيَكون الدَّنَس في قلبَيْهما جميعًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالعِشْرُونَ: تَحريم نِكاح زوجات النبيِّ ﷺ بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ وَالعِشْرُونَ: أن التَّحريم فيهن مُؤبَّد؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًا﴾، وعلى هذا فالمُحرَّماتُ إلى الأَبَد: مُحرَّمات بالنَّسَب، وبالرَّضاع، وبالصِّهْر، وبالمُلاعَنة، وبالاحترام؛ فهذه خمسة أَنْواع.

أمَّا المُحرَّمات بالنَّسَب فسَبْع، ذُكِرْنَ في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ﴾ [النساء:٢٣].

وبالرَّضاع في قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء:٢٣]، وقول النبيِّ ﷺ: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»(١).

وبالصِّهْر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقۡتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٢٢]، وفي قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب، رقم (٢٦٤٥)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب تحريم ابنة الأخ من الرضاعة، رقم (١٤٤٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ﴾ [النساء:٢٣].

والمُحرَّماتُ باللِّعان هو: أن الرَّجُل إذا قذَف امرأته بالزِّنا ولم تُقِرَّ به ولم يَثْبُت بِبَيِّنة فإنه يُلاعِنها، فإذا تَمَّ اللِّعان حُرِّمت عليه على التَّأبيد.

وأمَّا المُحرَّمات إلى الأَبَد بالاحترام، فهن زَوْجاتُ النبيِّ ﷺ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ وَالعِشْرُونَ: عِظَم إِثْم مَن تَزوَّج واحِدة من زوجات الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من بعده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ وَالعِشْرُونَ: أن الذُّنوب تَتَفاوَت في العِظَم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾، وهو كذلك، فإن في الذُّنوب كبائِرَ وصغائِرَ، والكبائِرُ فيها ما هو أكبَرُ وما هو دون ذلك، والصغائِرُ كذلك تَختَلِف، وكذلك الطاعاتُ تَختَلِف منها ما هو من أُصول الإيمان والإسلام، ومنها ما هو دون ذلك.

وهل يُستَفاد من الآيةِ الكَريمة أنه لا يَنبَغِي للضَّيْف أن يَسأَل عن طعام المُضَيِّف إذا قدَّمه له، فيقول مثلًا -لو قُدِّم له دَجاج-: هذا الدَّجاجُ مُستَوْرَد أو غيرُ مُستَوْرَد؟

الجَوابُ: قال تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ ﴾ فلم يَأمُرِ الله تعالى بالسُّؤال عن الطَّعام، وهو كذلك، فإنه ليس من المَشروع ولا من الأَدَب أيضًا أن تَسأَل صاحِبَك الذي قدَّم لكَ الطَّعام، وتَقول: من أين هذا؟ وهل هو حَلال أو حَرام؟! لأن هذا خِلاف هَدْيِ النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فالنَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قَدَّمَت له امرأةٌ من اليَهود

شاةً فأكَلَ منها[١] ولم يَسأَل، ودعاه يَهودِيٌّ إلى طعام فأَكَل مِنه[٢] ولم يَسأَلْ، ثُمَّ إنك إذا سَأَلْت أَخجَلْت صاحِبك، رجُل أَكرَمك بالضِّيافة تَقول له: من أين هذا؟ هل من المَشروع أو من المُستَوْرَد؟ وإذا فتَحْنا هذا البابَ نَقول: أصل هذا الطَّعام من أين جاءَك؟ فيُمكِن أنه غاصِبُه أو سارِقه! وإذا انتَفَى هذا فيُمكِن أن هذا الرجُلَ له كَسْب حَرام، فلا نَدرِي عنه! فنَقول له: من أين جاءَكَ؟ يَقول: هذا شَرَيْته من السُّوق. نَقول له: هاتِ شُهودًا أنك شارِيه؟ فهذه مُشكِلة! إذا فتَحْنا هذا البابَ انفتَح علينا أبوابٌ كثيرة؛ ولهذا كانت من حِكْمة الشَّرْع أن الإنسان لا يُشرَع له السُّؤال أبَدًا مهما كان، حتى لو كان الذي قَدَّم لك الطعام يَهوديًّا أو نَصرانيًّا فلا تَسأَله عن الطعام؛ لأن هذا من التَّعنُّت والتَّعمُّق، وفيه إِشقاق على صاحِبك وإِشقاق على نَفْسك؛ لأنك إذا عَوَّدت نَفْسك أنك لا تَأكُل إلَّا بعد البَحْث فمَعناه: كل شيء تَأكُله تَكون شاكًّا فيه، والحَمْدُ لله تعالى على السلامة.

فإن قال قائِل: أَلَا يُسْأَل عن لَحْم البَعير؟

فالجَوابُ: أبَدًا، ولا يُسأَل عن لَحْم البَعير؛ أوَّلًا لأن لَحْم البَعير في الغالِب أنه معروف، إلَّا إذا كان (حاشي صغير)[٣]، والإنسان هذا ما تَمَرَّن في أَكْل اللَّحْم مُمكِن يَشْتَبِه عليه.

فإن كان الشَّخْص مَريضًا فربما يَسأَل لأجل دَفْع الضَّرَر، وليس لأَجْل التَّعمُّق،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الهبة، باب قبول الهدية من المشركين، رقم (٢٦١٧)، ومسلم: كتاب السلام، باب السم، رقم (٢١٩٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٢١١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) هو الجمل صغير السن.

فمثَلًا إذا كان قد قِيل له: لا تَأكُل لَحْم الإِبِل، وشَكَّ في هذا: هل هذا لَحْمُ إبِلٍ أم لا؟ فهذا قد نَقول له: إنَّ السُّؤال لا من أَجْل الحِلِّ أو من أَجْل: هل يَجِب عليه الوُضوء أو لا يَجِب؟ فهذا لدَفْع الضَّرَر لا بأسَ به.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ وَالعِشْرُونَ: تَحريم أذِيَّة الرسول ﷺ وامتِناعه أشَدَّ الامتِناع من المُؤمِنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾، فالإشارة إلى امتِناع ذلك -أي: امتِناع الأذِيَّة- لكونه رَسولًا من عند الله تعالى امتَنَع غايةَ الامتِناع من المُؤمِنين أن يُؤْذوه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ وَالعِشْرُونَ: أَنَّ تَشَوُّفَ الشَّرْع إلى ما يَكون سببًا لطهارة القلوب؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ وَالعِشْرُونَ: أنه إذا أَوْجَب الله تعالى في ذلك العَصْرِ ما يَكون سببًا لكمال طَهارة القُلوب، ففي عَصْرنا من بابِ أَوْلى، فكل ما يَكون سببًا لطَهارة القُلوب، وبعدها عن دَناءة الأَخْلاق، فإنه يَكون واجِبًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ وَالعِشْرُونَ: وتَعليقًا على ما سَبَق من قَرْن الأحكام بحِكَمِها نَقول: إن من فَوائِدِ ذلك: طُمَأْنينة الإنسان للحُكْم، وبَيان سُمُوِّ الشريعة، وأن أَحكامها ليسَتْ لَهْوًا ولا باطِلًا، وإلحاق ما وافَق الحُكْم في عِلَّته بحُكْمه، يَعنِي: نُلحِق بهذا الحُكْمِ ما وافَقَه في تِلكَ العِلَّةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثُونَ: عُموم عِلْم الله تعالى بكُلِّ شيء؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ: تَحذير المُكلَّف من مُخالَفة الله عَزَّوَجَلَّ بقَليل أو كثير؛

لأن الفائِدة من ذِكْر عِلْمه هو التَّحذيرُ من المُخالَفة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ: الرَّدُّ على القَدَرية على غُلاة القَدَرية المُنكِرين لعِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأَفْعال العَبْد؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ إذا إنه يَشمَل ما سيَفعَله الإنسانُ وما قد فعَله.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ وَالثَّلَاثُونَ: أن ما يَفعَله العَبْد من خَيْرٍ أو شَرٍّ فإنه مُحاسَب عليه، إمَّا له وإمَّا عليه؛ لعُموم كلِمة: ﴿شَيْءٍ﴾، وفي آيةٍ أُخرى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾، لكِنَّ هذه الآيَةَ أعمُّ.

• • ❁ • •

الآيـة (٥٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب:٥٥].

قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ يعود على زَوْجات الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذي قال الله تعالى في حَقِّهنَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾، فكأنَّ هذه الآيةَ استِثْناءٌ ممَّا سبق ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾؛ حيثُ إن الآيـةَ ﴿سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ تَشمَل المَحارِمَ وغيرَهم، فاستَثْنى المَحارِم فقال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾.

والجُناح بمَعنَى: الإِثْم؛ أي: لا جُناحَ عليهنَّ أن يَبرُزنَ لآبائهن، وأن يَسألَهُن آباؤهنَّ بدون حِجاب، وهذا كقوله تعالى في سُورة النُّور: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ ...﴾ [النور:٣١].

وقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ وآباء: يَشْمَل الآباء من جهة الأُمِّ والآباء من جهة الأبِ؛ فالجَدُّ من جِهة الأُمِّ في باب النِّكاح كالجَدِّ من جِهة الأبِ، ولقد كان الناس يَسألون كثيرًا عن أبِي الأُمِّ هو مَحْرَم لزوجة ابنِ ابنَتِه أم لا؟

والجَواب: يَكون مَحْرَمًا؛ لأن باب النِّكاح لا يُفرَّق فيه بين الأُبوَّة من جِهة الأُمِّ

والأُبوة من جِهة الأبِ، فليس كالإِرْث، فأَبو الأُمِّ لا يَرِث بخِلاف أبِي الأبِ، لكِنَّ أَبا الأُمِّ في باب النِّكاح كأبِي الأب، فقوله إِذَن: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ يَشمَل الأَجداد من جِهة الأبِ ومن جِهة الأُمِّ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ يَعنِي: أبنائِهن من الصُّلب وأبنائهن من البَطْن أي: أبناء الأبناء وأبناء البَنات وإن نزَلوا، وفي هذه الحالِ يَكُنَّ جَدَّاتٍ لهؤلاء الأبناءِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ يَعنِي: ولا جُناح عليهنَّ في إخوانهم؛ سواءٌ كانوا أَشِقَّاءَ أَمْ لأبٍ أَمْ لأمٍّ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ يَعنِي: وإن نزَلوا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ يَعنِي: وإن نزَلوا، سواءٌ كانوا أشِقَّاءَ أَمْ لأبٍ أَمْ لأمٍّ.

ولم يَذكُر: (ولا أَبناء أَعمامِهِنَّ) لأنهم ليسوا مَحارِمَ، فأبناءُ الأعمام وأبناء العَمَّات وأبناء الأخوال وأبناء الخالات لَيْسوا مَحارِمَ، لكن لم يُذكَرِ العمُّ والخال مع أن العمَّ والخال مُحرَّم ولم يُذْكَرا في هذه الآيةِ ولا في آية النُّور أيضًا: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾، فلم يُذكَر العمُّ ولا الخال، وهنا كذلك لم يُذكَر العمُّ ولا الخالُ مع أن العمَّ والخال مَحارِمُ؟!

الجَوابُ: أَبدَى بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ مُناسَبَة في هذا وقالوا: إنه لم يُذكَر لا لأنه يَحْرُم إبداءُ الزينة لهما، ولكن لبَيان التَّحرُّز منهما؛ لئَلَّا يَصِفْن المرأة لأَبنائِهن؛ لأن أبناء العَمَّ والخال يَجوز أن يَتزوَّجوا بهنَّ، فلمَّا كان يُخْشَى أن العمَّ والخال يَصِف المرأة لابنه لم يُذْكَرا للتَّحرُّز لا لمُخالَفة الحُكْم، وهذا التعليلُ له بعض الوَجْه، والله أَعلَمُ بما أَرادَ.

وعلى كل حالٍ: إن كان هذا هو الحِكمةَ من عدَم الذِّكْر فله وَجْه، وإن لم يَكُن له الحِكْمة، فالله أَعلَمُ، ما وصَلْنا إلى الحِكْمة في ذلك.

ولا شَكَّ أنَّ قوَّة المَحْرميَّة في العَمِّ والخال أضعَفُ من قوَّتها فيمَن عَداهم، وإن كان ابنُ الأخ وابنَ الأُخت بالنِّسبة لعَمَّته وخالته الصِّلةُ بينهما مُتقارِبة مع العمِّ والخال، لكن ابن الأخت من الأخ والأُخْت فُرُوعُهما مَحارِمُ، فالعِلَّة التي قِيلت في العمِّ والخال مُنْتَفية فيهما، فيَقول: لا جُناحَ علينا في هَؤلاء، وفيما عَدا هؤلاءِ عليهن جُناح، يَعنِي: ما عدا هؤلاءِ من الأقارِبِ فإن عليهنَّ جُناح في عدَم التَّحَجُّب منهم.

مَسأَلَةٌ: الأخُ من الرَّضاع وابنُ الأخ من الرَّضاع وما أَشبَه ذلك ما ذُكِر في هذه الآيةِ، نَقول: صحيح ما ذُكِر؛ لكنه ذُكِر في قول الرسول ﷺ: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: المُؤمِنات] أي: ولا جُناحَ عليهنَّ في نِسائِهنَّ المُؤمِنات؛ لأن النِّساء أُضِيفت إلى ضمير المُؤمِنات، فيَكون مُضافًا من جِنْس المُضاف إليه، أي: ولا النِّساء المُؤمِنات؛ فللمرأة أن تَكشِف وجهها للمرأة المُؤمِنة، ومَفهومه: أن الكافِرة لا يَحِلُّ لها أن تَكشِف وَجهَها له، وأن

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب، رقم (٢٦٤٥)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب تحريم ابنة الأخ من الرضاعة، رقم (١٤٤٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

المَرأة الكافِرة بالنِّسبة للمَرْأة المُؤمِنة كالرجُل مع المرأة، وهذا أحَدُ القولين في هذه المَسأَلةِ؛ على أن الإضافة هنا من باب إضافة المَوصوف إلى صِفته، بمَعنَى: أنها إضافة صِفة أي: ولا النِّساء اللاتي شارَكْنَهنَّ في الإيمان.

وعلَّلوا ذلك أيضًا بأن المَرأة الكافِرة لا يُؤْمَن مَن أن تُفْشِيَ ما تَراه من المرأة المُؤمِنة؛ لأنها ليس عندها إيمان يَرْدَعُها؛ وبِناءً على هذا القَوْلِ فإنه يَجِب على أُولئك الجَماعةِ الذين عندهم من الخَدَم الكافِرات يَجِب على نِسائهم أن يَحْتَجِبوا عن هؤلاءِ الخادِماتِ؛ لأنهنَّ كافِراتٌ، ونحن نَقول هذا -مع بالِغ الأسَف- أن يَكون لدى المُؤمِنين خدَمٌ من غير المُسلِمين؛ لأن معنى ذلك أن الرجُل أو المَرأة يتَصبَّح ويَتمَسَّى، وفي كل وقت يَنظُر بمِلْء عَيْنيه إلى مَن هو عَدوٌّ لله تعالى ولرسوله ﷺ وعَدُوٌّ له أيضًا، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة:١] ليس هو عَدوَّ الله تعالى فقَطْ، بل عَدوٌّ لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمُؤمِنين؛ ولهذا الذي هو في بَيْتِه.

ومع ذلك -نَسأَلُ الله تعالى السلامة والعافِية- تَجِد هَؤلاء يَحتَضِنون مثل هؤلاءِ الكُفَّارِ غيرَ مُبالين بهِمْ وغيرَ مُبالين بكَوْنهم مُخالِفين لهم في الدِّين والعَقيدة والعمَل، بل إن بعضهم يَحتَضِنُهم فَرحًا بهم؛ لأن الشَّيْطان زيَّن لهم أنهم أَنصَحُ في العمَل وأَتقَنُ وأَجْلَدُ وأَصْبَرُ، وهذا من البَلِيَّة والمِحْنة التي امْتُحِن بها الناس في هذا الزمانِ ولا سيَّما في هذه الجَزيرةِ العرَبية مع قول الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»[1]، «وَأَخْرِجُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب هل يستشفع إلى أهل الذمة؟، رقم (٣٠٥٣)، ومسلم: كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء، رقم (١٦٣٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»[1]، وهؤلاءِ بدَلَ أن يُخرِجوهم يَحتَضِنونهم.

ثُمَّ إنه لو لم يَكُن من مَضرَّة هؤلاءِ الخدَمِ الكافِراتِ إلَّا أن هؤلاء -الذين يَقولون: إنهم مُسلِمون وهُمْ كما قالوا- تَذهَب عنهمُ الغَيْرةُ من نفوسهم وكراهة الكُفَّار، حتى يَكون هؤلاء كغَيْرهم كأنهم مُسلِمون؛ لأنهم يَألَفونهم ويَرَوْنهم ويُشاهِدونهم، وكما قيل: إذا كثُرَ الإمساسُ قَلَّ الإحْساس.

وهذه مَسأَلة خَطيرة جِدًّا، نَسأَل الله تعالى أن يُسلِّط ولاة الأُمور على مَنْعها من هذه البِلادِ؛ لأنه:

أوَّلًا: قد يَكون لا داعِيَ إلى وجود الخادِمِ في البيت.

ثانيًا: إذا دعَتِ الحاجة فلْتَكُن مُسلِمة، من الدوَلِ المُسلِمة الفَقيرة التي يَنتَفِع المُسلِمون بما يُدْفَع لهذه الخادِمِ من الأُجْرة، أمَّا أن يَجعَل كُفَّارًا يُؤخَذ من أُجورهم ما تُعْمَر به الكَنائِسُ وما يُقَوَّى به دَعوة التَّنصير فإن هذا -لا شَكَّ عند التَّأمُّل فيه-: يَجِد هؤلاءِ القَوْمُ الذين يَستَخدِمون الكافِراتِ والكافِرين: أنهم مُخطِئُون خطأً عظيمًا فادِحًا إن كان لهم قُلوب.

فأمَّا إن كان قُلوبهم قد عمِيَت، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، فيُمكِن أن قلوبهم قد مَرِضت وصَدَأَت من المَعاصي وعدَم المُبالاة وعدَم الغَيْرة، فلا يُحِسُّون بهذا الأَمرِ الخَطير، ولكن بلَغَني أن رجُلًا كان من أهل الخير وقدِ اغْتَرَّ ببعض هؤلاء الخَدَمِ، كان يَجلِس مع أولادِه ويُعلِّمهم مَبادِئ

---

(١) أخرجه البزار في مسنده رقم (٢٣٠)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وهو عند مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، رقم (١٧٦٧)، بلفظ: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب».

الإسلام فقال لواحِد من الصِّغار: مَن ربُّك؟ قال: ربِّي عِيسى ابنُ مَريَمَ!! من أين جاء هذا الطِّفلُ وهو في عُشِّ المُسلِمين إلَّا من هذه الخادِمةِ، هذه الخادِمةُ قد تَكون مَغرورة ومَخدوعة في بني قومها ولا تَعرِف إلَّا هذا، لكن هذا الطِّفلُ عاشَ بين المُسلِمين كيف لا يَعرِف إلَّا هذا؟! فهذا من الخَطَرِ العظيم بالنِّسبة لهؤلاء الخَدَمِ من الكُفَّار والكافِرات، نَسأَل الله تعالى السلامةَ.

المُهِمُّ: أن كثيرًا من أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يَقولون: إن مَعنَى قوله تعالى: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ أيِ: المُؤمِنات ولا النِّساء المُشارِكات لهُنَّ في الإيمان؛ لأن المُضاف من جِنْس المُضاف إليه.

وقال بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: المُراد بنِسائِهنَّ ما كان من جِنْسهنَّ؛ أيِ: النِّساء اللاتي يُشارِكْنَهنَّ في الأُنوثة؛ فهو من باب إضافة الجِنْس إلى جِنْسه، وهذا القولُ هو مَذهَب الإمامِ أَحمدَ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ المَشهورِ مِن مَذهَبه، وهو أَقرَب إلى الصواب؛ لأن تَعلُّق المرأة بالمرأة لا يَختَلِف باختِلاف الدِّين، وليس كتَعلُّق الرجُل بالمَرأة، فالصواب أن المُراد بنِسائِهنَّ أي: النِّساء اللاتي من جِنْسِهنَّ في الأُنوثة.

فإن قال قائِل: لماذا قُلْنا في الآية الأُولى: إن فيها مُستَثْنًى منه، وهمُ الرِّجالُ، وفي الآية الأُخرى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ أيِ: النساءِ؟

فالجَوابُ: لأن قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ يَتعَلَّق بشَيْئَين: سائِل ومَسؤول؛ ففي الأَوَّل علَّق الخِطاب بالسائِل، وفي الثاني علَّق بالمَسؤُول من باب التَّفنُّن، ولأَجْل أن يَشمَل هذا ما إذا كانت المسألةُ في سُؤال المَتاع وفي غيرِه.

---

(١) انظر: المغني (٧/ ١٠٥)، والشرح الكبير (٧/ ٣٥١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ يَعني: ولا جُناح عليهنَّ في ما ملَكَت أيمانُهنَّ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن الإماءِ والعَبيد].

قوله تعالى: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أي: ملَكَتْه مِلْكًا تامًّا لا مِلْكًا مُشتَرَكًا، فلو كان عَبْدٌ بين امرأتَيْن، فإنه لا يَحِلُّ لواحِدة منهما أن تَكْشِف وجهَها له؛ وذلك لأنه ليس مِلْك لإِحْداهما، بل مِلْك لهما جميعًا، والآيةُ: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أَضاف المِلْك إلى اليمين؛ لأن الأَخْذ والإعطاء يَكون باليَمين غالِبًا، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن الإماءِ والعَبيد]، أمَّا قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن العَبيد] فظاهِر، وأمَّا قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن الإماء] فبِناءً على أن قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: المُؤمِنات]، فإذا كان للمَرأة أَمَةٌ كافِرة فلا يَلزَمها أن تَحْتَجِبَ عنها؛ لأنها ممَّا ملَكت يَمينُها، وكلُّ هؤلاءِ المُستَثْنَيْن كلُّهم مَحارِمُ إلَّا ما ملَكَت أيمانُهن فلَيْسوا بمَحارِمَ؛ لأن التَّحريم فيهم إلى أَمَدٍ، والمَحرَمية إنما تَثبُت فيما إذا كان التَّحريم مُؤبَّدًا؛ ولهذا أُخْتُ الزوجة حَرام وليسَت بمَحْرَم، والمَملوك حرام على مَملوكته، ولا يَلزَمها أن تَحتَجِب عنه، ولكنه ليس بمَحْرَم لها بدليل أنه إذا خرَج عن مِلْكها لَزِمها أن تَحتَجِب عنه؛ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ من الإماءِ والعَبيد أن يَرَوْهُنَّ ويُكلِّموهنَّ من غَيرِ حِجاب].

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ فيما أُمِرْتُنَّ به] ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ الواو حَرْف عَطْف، و(اتَّقِينَ) فِعْل أَمْر، لكن حَذْفُ الفِعْل الياء، والنُّون فاعِلٌ، وهنا في الجُمْلة الْتِفاتٌ من الغيبة إلى الخِطاب؛ فقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ هذا ضَمير غائِب، ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ ضمير مُخاطَب، وقد ذكَرْنا أنه من فوائِد الالْتِفات: تَنبيهُ المُخاطَب؛ لأن الكلام إذا كان على نَسَق واحِد فقَدْ لا يَكون من الإنسان انتِباهٌ، فإذا اختَلَف النَّسَق

حصَل التَّنبُّه، ثُمَّ إن في الالتِفات هنا فائِدة أُخرى: وهي مُواجَهَتُهُنَّ بالأَمْر بتَقوى الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا الخِطابُ مُوجَّه لأَطهَر النِّساء على الإطلاق، وهنَّ زوجاتُ النبيِّ ﷺ: اتَّقِينَ الله تعالى أن تَرَيْن أحَدًا سِوى هؤلاء، أو أن يَرَاكُنَّ أحَدٌ سِوى هؤلاء، فإذا كان هذا الخِطابُ مُوجَّهًا إلى زوجات الرسول ﷺ وهُنَّ أطهَرُ النساء وأكرَمُهنَّ عِفَّةً، فما بالُك بمَن دونهنَّ؟! فإنه يُوجَّه إليهنَّ من الأمر بالتَّقوَى أكثَرَ ممَّا يُوجَّه إلى نِساء النبيِّ ﷺ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ لا يَخْفى عليه شَيْء]، وهنا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾؛ لأن الحِجاب وعدَمه ممَّا يُرَى، فناسَب أن يَختِم الآية بذِكْر شهادة الله عَزَّوَجَلَّ على كل شيء تَحذيرًا من مُخالَفته بعدَم الاحتِجاب ممَّن يَجِب الاحتِجاب عنه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنه لا يَجِب الاحتِجاب عمَّن ذُكِر في هذه الآيةِ؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن نِساء النبيِّ ﷺ مُكلَّفاتٌ، يَعنِي: يَلحَقهم التَّكليفُ كغيرهنَّ من النساء؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن المُحرَّمات في النِّكاح مَحارِمُ؛ لأن هؤلاءِ المَذكورين مُحرَّمون في النِّكاح فهم مَحارِمُ، وهذه قاعِدةٌ: كُلُّ مَن يَحرُم في النِّكاح تحريمًا مُؤبَّدًا فهن مَحارِمُ، وأمَّا مَن يَحرُم تَحريمًا إلى أمَدٍ فلَيْسوا بمَحارِمَ، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ ليسوا بمَحارِمَ؛ لأن التحريم إلى أمَدٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه لا يَجِب على المرأة أَنْ تَحتَجِبَ عن المَرأة؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ وهل يُشتَرَط أن تكون مُؤمِنة؟ فيه قولان لأهل العِلْم، والراجِحُ أنه لا يُشتَرَط، وأنه ليس العِلَّةُ الكُفْرَ، وإنما العِلَّة الجِنْس، فما دامت من جِنْسها فإنها لا تَتَعلَّق بها كما يَتعلَّق الرجاء بالنِّساء.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وُجوبُ تَقوى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ والعِناية بها حيث انتَقَل فيها من أُسلوب إلى آخَرَ للتَّنبُّه لها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الأمر المُوجَّه للإنسان بالتَّقوى لا يَعنِي أنه غير مُتَّقٍ، إذ قد يُراد به الأمر بالاستِمرار على التَّقوى، ويَدُلُّ لذلك أيضًا قوله في أوَّل السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ مع أن بعض الناس لو تَقولُ له: يا أَخي اتَّقِ الله. لاشتاط غضَبًا، وقال: أنا لن أَتَّقِيَ. فيُقال له: إن الله تعالى أمَرَ نَبيَّه ﷺ وهو أَتقَى مِنك بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، وهذه ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ أَمْرٌ لنِساء النبيِّ ﷺ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَحذير الإنسان من مُخالَفة تَقوَى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ فإن خالَفْتُن ولم تَتَّقِين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فالله تعالى شَهيد عليكن.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات اسمِ الشَّهيد لله تعالى، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾، والشَّهيد مَعناه: هو الحاضِر الذي لا يَغيب، المُطَّلِع الذي لا يَخْفى عليه شيء، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حاضِر لا يَغيب، لكن ليس حاضِرًا بمَعنَى أنه في الأرض، بل هو في السَّماء على عَرْشه، وهو مُطَّلِع لا يَخْفَى عليه شيء.

مَسأَلة: المَقتول في المَعرَكة يُطْلَق عليه شَهيد؛ وتَقدَّم أن مَعنَى الشَّهيد: الذي لا يَغيب، فما الوجه بينه وبين شَهيد المَعرَكة؟

الجَوابُ: الشَّهيد في المَعرَكة؛ لأن عَرْضَ نَفْسِه للقَتْل دليلٌ على شهادته الفِعْلية بصِحَّة ما هو عليه، أو أن مَعناه: الشَّهيد الذي تَشهَده مَلائِكة الله تعالى المُقرَّبون وما أَشبَهَ ذلك، والمَعنَى الأوَّل أَوضَحُ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: عِناية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ برسوله مُحَمَّد ﷺ، وذلك بتَوْجيه هذه الإرشاداتِ إلى نِسائِهِ.

• • ۞ • •

الآيـة (٥٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

ثُمَّ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ إن الله ومَلائِكته هذا خَبَر مُؤكَّدٌ بـ﴿ إِنَّ ﴾ ، وعَطَف المَلائِكة على الله عَزَّوَجَلَّ بالواو؛ لأنهم مُشارِكون لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بهذا الفِعْلِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ ﴾، المَلائِكة تَقدَّم أنهم جَمْع مَلَكٍ، وأن أَصْل المَلَك (مَأْلك) من الأَلوكة وهي الرِّسالة، ولكنها حصَل فيها إعلال بالتَّقديم والتَّأخير، فصارت بدَل (مَألَك)، فصارت (مَلْأك)، ثُمَّ حُذِفت الهَمْزة للتَّخفيف لكَثْرة الاستِعْمال، فصارت مَلَك، أمَّا الجَمْع فإنها رُدَّت الهَمْزة وقِيل فيها: مَلائِكة.

واشتُقَّ المَلَك من الأَلوكة، والأَلوكة في اللُّغة بمَعنَى: الرِّسالة، والمَلائِكة رُسُل، فأَصلُها إِذَنْ: مَأْلَك يَعنِي: من الأَلوكة، ثُمَّ أُعِلَّ بالتقديم والتأخير فصارت مَلْأَك، ثُمَّ حُذِفَتِ الهمزة للتَّخفيف؛ لكَثْرة الاستِعْمال، ونُقِلت حرَكتُها إلى اللام فصارت (مَلَك)، أمَّا الجَمْع فمَلائِكة.

فالمَلائِكة همُ الذين جعَلهمُ الله تعالى رُسُلًا، وهم عالَمٌ غَيْبيٌّ، مَخلوقون من نور، مُمتَثِلون لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، قائِمون بعِبادته آناء الليل والنَّهار، كما ذكَر الله تعالى عنهم: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٠]، وهم مع ذلك لا يَعْصون الله تعالى

ما أمَرَهم؛ لقُوَّة امتِثالهم لأَمْر الله تعالى، ويَفعَلون ما يُؤمَرون؛ لقوَّتِهم على التَّنفيذ، فيَقول تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾، هذا باعتِبار الإرادات، ما عِندهم إرادة تُخالِف أَمْر الله تعالى، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ باعتِبار التَّنفيذ والعمَل.

وهُم -أي: المَلائِكة- أصناف في أَشكالهم، وفي أعمالهم، وفي صِفاتهم؛ وما نَعلَم من هذا إلَّا ما أَعلَمَنا الله تعالى به ورسوله ﷺ، والباقي مَجهول لنا، فنُؤمِن بما علِمنا من أَسمائهم وأَشكالهم وأَوْصافهم وأَعمالهم، وما لم نَعلَمه نُؤمِن به على سبيل الإِجْمال، نَقول: (آمَنَّا باللهِ ومَلائِكتِهِ).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ الخَبَر ﴿يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ ولهذا قال: [مُحَمَّد ﷺ].

وما مَعنَى ﴿يُصَلُّونَ﴾؟

اشتُهِر عند كثير من أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أن الصلاة من الله تعالى رحمة، ومن المَلائِكة الاستِغْفار؛ وعلى هذا فيُفَسَّر ﴿يُصَلُّونَ﴾ باعتِباره من الله تعالى بمَعنَى: الرَّحْمة، ومن المَلائِكة الاستِغْفار، ولكِنَّ هذا التَّفسيرَ خطَأ، فإن الرحمة أعمُّ من الصلاة؛ لأن الرحمة يُدعَى بها لكل أحَد، والصلاة خاصَّة بالأنبياء، فهي شِعارُهم، ولا تُقال لأَحَد سِواهم إلَّا على سبيل لا يَكون شِعارًا، وأمَّا الرحمة فهي عامة حتى إن بَعْض أَهْل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يَقول: لا يَجوز أن تَدعوَ للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالرَّحْمة، لا تَقُل: (مُحَمَّد رَحِمَهُ ٱللَّهُ)، (قال رسولُ الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ)، لكِنَّ هذا القَولَ ضعيف؛ لأن النبيَّ ﷺ كان يَدْعو لنَفْسه بالرحمة، يَقول: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي»[1]؛ وفي قِصة الأَعرابيِّ:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣١٥)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء بين السجدتين، رقم (٨٥٠)، والترمذي: كتاب الصلاة، باب ما يقول بين السجدتين، رقم (٢٨٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

«اللَّهُمَّ ارْحَمْني ومُحَمَّدًا»[1]، ولم يُنكِر عليه النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكنها عند السَّلَف يُدعَى للرسول ﷺ بالصلاة، ولغيره بالرَّحْمة والرِّضا، وما أَشبَه ذلك.

والصَّوابُ: أن صلاة الله تعالى على رسوله ﷺ مَعناها: ثَناؤُه عليه في المَلَأ الأعلى، وليست رَحمَتُه إياه بدليل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٥٧]، قال تعالى: ﴿صَلَوَٰتٌ﴾، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾، فدَلَّ هذا على أن الرحمة غيرُ الصلاة، وهو كذلك.

أمَّا صلاة المَلائِكة على الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيُحتَمَل أن تَكون بمَعنَى: الدُّعاء أنهم يَدْعون له بالصلاة، ويُحتَمَل أنَّ المعنى: أنهم يُثنُون عليه مع الله تعالى، وهذا أَقرَبُ، حتى لا يَتوزَّع المَعنى في كلِمة ﴿يُصَلُّونَ﴾، ويَكون المَعنَى أن الله تعالى يُثني عليه، والمَلائِكة كذلك يُثنون عليه، وهذا من تَعْلية شَأْن الرسول ﷺ؛ ولهذا قدَّم هذه الجُملةَ الخبَريةَ على الجُمْلة الإِنْشائية الطلَبية في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ﴾؛ لأن النَّفْس إذا عَلِمت شَرَف هذا النبيِّ ﷺ، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَفْسَه ومَلائِكته المُقرَّبين وغير المُقرَّبين من المَلائِكة الآخَرين، فإنهم يُصلُّون عليه؛ وأنا قُلتُ: (المَلائِكةَ المُقرَّبين)؛ لأن المَلائِكة كلَّهم مُقرَّبون بالمَعنَى العامِّ، لكن هناك مَلائِكة مُقرَّبون عند الله تعالى كحَمَلة العَرْش ونحوهم، وكل هؤلاء يُصلُّون على النبيِّ ﷺ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ فلَمَّا تَقرَّر في النُّفوس عُلوُّ شأن الرسول ﷺ بهذه الجُمْلةِ وجَّه الله تعالى الخِطاب إلى المُؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾، وتَصدير الجُمْلة بالنِّداء يَدُلُّ على الأهمِّيَّة والعِناية

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم (٦٠١٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بها؛ لأن النِّداء يَستَلزِم انتِباهَ المُنادَى، ولا داعِيَ لتَنبيه المُخاطَب إلَّا لأَمْر هامٍّ.

ثُمَّ النِّداء بهذا الوَصْفِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه إغراءٌ لامتِثال الخِطاب المُوجَّه؛ ولهذا قال ابنُ مَسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذا قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأَرْعِها سَمْعك[1]. يَعنِي: استَمِع لها، فإمَّا خَيْر تُؤمَر به، وإمَّا شَرٌّ تُنهَى عنه، وفي وَصْف الإيمان مع كونه إغراءً دَليلٌ على أن امتِثال هذا الأَمْرِ من مُقتَضيات الإيمان، وأن مَعصِيته نَقْص في الإيمان.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ﴾ يَعنِي: ادْعُوا له بالصلاة فليس المُراد بالصلاة إذا قُلْت: صلِّ على فلان؛ ليس مَعناها: الدُّعاءَ المُطلَق، بل الدُّعاء بالصلاة؛ ولهذا لَمَّا أَمَر الله تعالى نبيَّه بأن يُصلِّيَ على مَن أَعطاه الصدَقة صار يَقول: اللَّهُمَّ صلِّ عليه. فالصلاة في الدُّعاء صحيح، ولكن إذا أَمَرتك أن تُصلِّيَ على شخص فالمَعنَى أن تَدْعوَ له بصلاة الله تعالى عليه، فمَعنَى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ﴾: أَمْر بالصلاة على رسول الله ﷺ، وهو أَمْر مُطلَق غَيْر مُقيَّد؛ فإِذَنْ تَكون الصلاة على رسول الله ﷺ مُطلَقة غير مُقيَّدة؛ فنُصلِّي عليه بأيِّ صيغة صلَّيْنا، ونُصلِّي عليه في أيِّ وَقْت، وفي كل مَكان؛ لكن هناك أَمكِنة تَتأكَّد فيها الصلاة، وأَمكِنة لا تَنبَغي فيها الصلاة، وأَمكِنة تُستَحَبُّ فيها الصلاة مُطلَقًا، يَعنِي: ليس بتَأكُّد.

فمِمَّا تَتأكَّد الصلاة على النبيِّ ﷺ فيه:

أوَّلًا: إذا ذُكِر اسمه فإن الصلاة واجِبة عليه؛ لقوله ﷺ في حديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**أَتَانِي جِبْرِيلُ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ**

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد رقم (٨٦٦)، وسعيد بن منصور في السنن رقم (٥٠) [ط. الصميعي]، وابن أبي حاتم في التفسير (١/ ١٩٦).

عَلَيْكَ»[١]، وهذا دُعاء له بإِرْغام الله تعالى أَنْفه في التُّراب، وإرغام الأَنْف في التُّراب دليل على الذُّلِّ والإهانة، وهذا يَدُلُّ على وُجوب الصلاة على الرسول ﷺ إذا ذُكِر اسمُه.

ثانيًا: الصلاة عليه في التَّشهُّد الأخير رُكْنٌ لا تَصِحُّ الصلاة إلَّا به على مَذهَب الحَنابِلة[٢] والشافِعية[٣]، ولا فَرقَ بين الفَريضة والنافِلة.

ثالِثًا: أنه يُستَحَبُّ الصلاة على النبيِّ ﷺ في الدُّعاء مُقدَّمة عليه أو مُؤخَّرة عنه.

رابِعًا: عند الأذان، قال ﷺ: «فَقُولُوا مِثْلَمَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ»[٤].

والمَواضِع مُتعَدِّدة، لكن منها على سَبيل الوجوب، ومنها على سَبيل الاستِحْباب.

أمَّا كراهة الصلاة على النبيِّ ﷺ فذكَروا أنها تُكرَه الصلاة عليه عند الذَّبْح، إذا قُلْت: بسم الله والله أَكبَرُ. لا تَقُلِ: اللهُمَّ صلِّ على مُحمَّد. قالوا: لأن المَقام مَقام إخلاص وتَوْحيد فلا يَنبَغي أن يُذكَر مع اسمِ الله تعالى غيرُه، فتَقول: بسم الله والله أكبَرُ. ولا تُصَلِّ على النبيِّ ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ قُلْت لكم: إنه مُطلَق بأيِّ صِفةٍ كانت، فما ورَدَ عن النبيِّ ﷺ عندما سأَله الصحابة قالوا: كيف نُصلِّي عليك؟ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (٦٤٦)، وابن خزيمة في صحيحه رقم (١٨٨٨).

(٢) انظر: مختصر الخرقي (ص:٢٦)، والهداية (ص:٨٧)، والمغني (١/ ٣٨٨).

(٣) انظر: الأم (٢/ ٢٣٣، ٢٧١)، والمجموع (٣/ ٤٦٥).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن، رقم (٣٨٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

«قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ»[١]، هذا على سَبيل الاستِحْباب، وليس على سَبيل الوُجوب؛ ولهذا أَجمَعَ العُلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ على أن الصلاة على آل الرسول ﷺ لا تَجِب مع أن الصِّيغة التي علَّمها النبيُّ ﷺ أُمَّته فيها الصلاة على آله؛ مع أنها لَيْسَت بواجِبة ممَّا يَدُلُّ على أنها على سَبيل الاستِحْباب.

ورُبما يُستَدَلُّ لذلك أيضًا بأن الصِّيَغ التي أَمَر بها الرسول ﷺ في كيفية الصلاة عليه مُختلِفةٌ، وليسَت كلُّها على صيغة واحِدة، وهذا يَدُلُّ على أن أيَّ صِيغة أَتَيت بها فهي مُجْزِئة.

وقوله تعالى: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾: ﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ أي: قولوا: السَّلام عليك. أي: ادْعُوا له بالسلام، فقولوا: السلام عليك أيُّها النبيُّ. والسلام على النبيِّ ﷺ مع كونه غائِبًا أَمْر مَشروع؛ ولهذا نَقول في صلاتنا: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ»[٢]؛ مع أنه غائِب، والصحابة يَقولون: السلام عليك أيُّها النَّبيُّ. مع أنه غائِب ولا يَسمَعهم، حتى لو كانوا معه في الصلاة فهو لا يَسمَعهم؛ لكن لأن هناك مَلائِكةً سيَّاحين يُبلِّغون النبيَّ ﷺ السلام من أُمَّته؛ ولأنه لَمَّا كان الإنسان قوِيَ الإيمان بالرسول ﷺ صار كأنه حاضِرًا عنده يُخاطِبه.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟...﴾ الآيةَ، فيها تَقديم الصلاة على السلام مع أنه في التَّشهُّد يُقدَّم السَّلام على الصلاة، فهل بين الآية وما ثبَتَ به الحديثُ والتَّشهُّد تَناقُض؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٦٣٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم (٤٠٦)، من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة، رقم (٨٣١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الجَوابُ: لا، لأن العَطْف بالواو لا يَستَلزِم وُجوب التَّقديم، وإن كان قد يَقتَضيه، لكنه لا يَستَلزِمه؛ لأن الواو كما قال أهل اللُّغةِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: تَدُلُّ على مُطلَق الاشتِراك بدون تَرتيب؛ ولهذا إذا ما قُلْت: ما شاء الله تعالى وشِئْتَ. مع أنك قدَّمْت مَشيئة الله تعالى صار هذا نوعًا من الشِّرْك؛ لأن الواوَ تَقتَضي التَّسْوية، وليسَتْ تَستَلزِم التَّرتيب.

فإذا قال قائِل: لماذا أكَّدَ التسليم بالمَصدَر، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ ولم يُؤكِّدِ الصلاة؟

فالجَوابُ: أن الصلاة تَقدَّم ما يُؤكِّدها وهو إِخْبار الله تعالى بأنه يُصلِّي عليه ومَلائِكته، وهذا يُعطِي الإنسان قوَّة في الصلاة عليه متى عَلِم بأن الرسول ﷺ يُصلِّي الله تعالى ومَلائِكته عليه؛ ولهذا جاء التَّوْكيد في التَّسليم دون الصلاة؛ لأن الصلاة أُكِّدَت تَأكيدًا مَعنَويًّا بذِكْر أن الله تعالى وملائكته يُصلُّون على النبيِّ ﷺ، وأمَّا التَّسليم فأُكِّد تَأكيدًا لفظيًّا؛ لأن قوله تعالى: ﴿تَسْلِيمًا﴾ مَصدَر لقَوْله تعالى: ﴿وَسَلِّمُوا۟﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ مُحَمَّد ﷺ] ولم يُفسِّر ﴿يُصَلُّونَ﴾ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا نَقْص في التَّفْسير.

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ أي: قولوا: اللَّهُمَّ صلِّ على مُحمَّد وسلِّمْ] ولم يُفسِّر التسليم، فما مَعنَى التَّسليم؟ قال بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنك إذا قُلْت: السلام عليك. فالسلام من أَسماء الله تعالى، يَعني: (اللهُ عَلَيْك)، وما مَعنَى: (اللهُ عَلَيْك)؟ أي: الله تعالى حَفيظ عليك يُراقِبك ويَحفَظك.

وقال بعضُ العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: السلام عليك، أي: التَّسليم عليك، فهي جملة خبَرية بمَعنَى الدُّعاء، والسلام اسمُ مَصدَر بمَعنَى: سَلَم، مِثْل الكلام اسمُ مَصدَر

كَلِم، فمَعنَى السلام عليك، أَيْ: تسليم الله تعالى عليك؛ أي: تَسليمك من الآفات.

وهذا المَعنَى هو الصحيح: أنك إذا قُلْت للإنسان: السلام عليك. أنك تَسأَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُسلِّمه من الآفات؛ الآفات الحِسِّيَّة والمَعنَوية، فالسلامة الحِسِّيَّة سلامة البَدَن والعِرْض والمال، والسلامة المَعنَوية سلامة الدِّين من الآفات؛ لأن الإنسان مَحوط بآفَتَيْن، آفة الدِّين وآفة الدُّنيا، والسلامة منهما جميعًا من أكبَرِ نِعَم الله تعالى على العَبْد.

فإن قال قائِل: الإنسان إذا سلَّم ولم يَستَحضِرِ المَعنَى؟

فالجَوابُ: لا بُدَّ أن يَستَحضِر المَعنى وإلَّا كان لَغْوًا من القول، وأكثَرُ الناس عندما يُسلِّم يَستَحضِر أنها تحية فقَطْ، وكذلك الرَّدُّ، وهذا لا يَنبَغي، بل الذي يَنبَغي أن تَستَحضِر أنها دُعاء له بالسَّلامة من الآفات؛ لأنك إذا كنت لا تَستَحضِر إلَّا أنها تَحيَّة فلا فرقَ بينها وبين قولِك: (أهلًا وسَهْلًا)، بل ربما تكون التَّحيَّة بـ(أهلًا وسَهْلًا، مَرْحبًا يا أبا فُلان، حيَّاك الله وبيَّاك)، وما أَشبَه ذلك من الكلِمات التَّرحيبية تكون أبلَغَ من هذا.

وما دُمْنا لم نَقصِد المَعنَى الذي قصَدَه الشارِع صار لَفْظًا مُجرَّدًا، فيَنبَغي لنا إذا سلَّمنا على أحَد أن نَستَحضِر أننا نَدعو له بالسلامة من الآفات؛ ولهذا لو أَتَيْت بكل تَرحيب ما قابَل هذه الجُملةَ الدُّعائِية: أن تَدعوَ الله تعالى له بالسلامة.

فالحاصِلُ: أن أكثَرَ الناس يَقولون: (السَّلام عليكم) من باب التَّحيَّة فقَطْ، ونحن يَنبَغي لنا أن نَستَحضِر المعانيَ في كل ما نَقول حتى الآنَ: التَّحيَّات لله- تاب الله علينا وعليكم- هل نَستَحضِر معنى التَّحيَّات، ومَعنَى الصلَوات، ومَعنَى الطَّيِّبات أم أَلْفاظ تُقرَأ؟!

فإن قال قائِل: أحيانًا وأحيانًا!

فالجَوابُ: هـذا أيضًا لا يَنبَـغي، بل يَنبَـغي أن نَستَحضِـر لكل لَفْظ مَعناه، وإلَّا صارت ألفاظًا جوفاءَ، كثِياب ليس فيها أَجْسام أو أجسام ليس فيها أَرْواح، وماذا تَقول في: (التَّحيَّات لله والصلوات والطَّيِّبات) وأنت لاهٍ ما عِندك إلَّا ألفاظ تَمُرُّ على القَلْب فقَطْ؟! لذلك يَنبَغي كُلَّما قرَأْتَها أن تَستَحضِرها وأنت تُصلِّي، ما مَعنَى التَّحيَّات لله، والصَّلوات، والطَّيِّبات؟

فـ(التَّحيَّات): كل لَفْظ دالٌّ على البَقاء والتَّعظيم والتَّكريم؛ لأن التَّحية مَعروفة تعظيم للمُحَيَّا وتَكريم له.

و(لله) مَعروف أنها مُستَحَقَّة لله، وأنها خاصَّة به.

و(الصلَـوات): الفَريضة أو النافِلة، وهي العِبادة المَخصـوصة ويَدخُل فيها الدُّعاء، فالصَّلوات بمَعنَى العِبادة المَخصوصة وبمَعنَى الدُّعاء أيضًا، كلُّه لله عَزَّوَجَلَّ، فلا يُدعَى إلَّا اللهُ تعالى، ولا يُتعَبَّد بالصلاة إلَّا لله تعالى.

و(الطَّـيِّبات): من الأقـوال والأفعال خاصَّـة بالله تعالى، وكذلك أَوْصافـه، فالطَّيِّبات منَّا والطَّيِّبات منه، فكلُّ صِفاته طيِّبة، وكلُّ أَفْعاله طيِّبة، وكل أقواله طيِّبة، ومنَّا أيضًا: ما يَكون لله تعالى، ولا يَقبَله الله تعالى إلَّا ما كان طيِّبًا؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ طَيِّبًا لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا**»(١).

فمَن يَستَحضِر هذين المَعنيَيْن وهو يُصلِّي أن الطَّيِّباتِ باعتِبارها صِفة لله تعالى

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ووَصْفًا لِفِعْل المَخلوق؟! والثاني: أن الطَّيِّبات الواقِعة منَّا تَكون لله تعالى لا يَقبَل الله تعالى سِواها، فكِلا المَعنَيَيْن حقٌّ: أن الله طَيِّـب، وهذا باعتِبار ما يَتعَلَّق بالله تعالى، ولا يَقبَل إلَّا طيِّبًا باعتِبار بما يَفعَله العَبْد.

ومَعنَى: (السلام عليك أيُّها النَّبيُّ) تَقدَّم ذِكْرها.

ومَعنَى: (ورحمـة الله وبركاته) الرحمـة هي الدُّعاء له بالرحمـة، وهي حُصول المَطلوب، وبالسَّلام زوال المَكْروه.

و(بركاته) يَعنِي: الخَيْر الثابِت الكثير، فأنت بعدما دعوت له بالرحمة سألْت الله تعالى أن يَجعَل ذلك برَكةً عليه مُستَمِرَّة.

وأمَّا: (السلام علينا وعلى عِباد الله الصالِحين) فقد فَسَّـرَها النبيُّ ﷺ وقال: «إِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمْ ذَلِكَ فَقَدْ سَلَّمْتُمْ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»[1]، فمَنْ يَستَحضِر إذا سلَّم أنه يُسلِّم على الأنبياء والمَلائِكة والأَوْلياء والصالِحين من هذه الأُمَّة وغيـرها، حتى نُسلِّم بهذا الكلامِ على الحَوارِيِّيـن الذين اختارهم عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والسَّبْعيـن الذين اختارهم مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والقليل الذين آمَنوا بنُـوْح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأَصْحـاب الكَهْـف، وآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وغيـره، مَن يَستَحضِـر هـذا؟! الغالِـب أننا لا نَستَحضِرُ!.

فإن قال قائِل: قول الرسول ﷺ أمَا يَدُلُّ على أن الصحابة لم يَستَحضِروا أنه قال: «إِذَا سَلَّمْتَ فَقَدْ سَلَّمْتَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة، رقم (٨٣١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالجَوابُ: لا، لأنهم كانوا يَقولون: السلام على جِبريلَ وعلى مِيكائِيلَ وعلى فُلان وعلى فُلان؛ لأن ذلك التَّخصيصَ الذي أنت خصَصته ليس له حاجة، فإذا قُلْتم: (السَّلام علينا وعلى عِباد الله الصالِحين) دخَلَ في هذا ما خَصَصْتم.

فإن قال قائِل: هل مَعنَى ذلك أنهم ما كانوا يَستَحضِرون؟

فالجَوابُ: لا، بل كانوا يَستَحضِرونه؛ ولهذا خَصُّوه.

أمَّا قوله: (أَشهَد أن لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأن مُحَمَّدًا عبدُه ورَسولُه) فهذا واضِح.

(أَشهَدُ) يَعنِي: أُقِرُّ، لكِنْ إقرارًا كالمُشاهِد بالعَيْن، يَعنِي: ليس هو إقرارًا هَزيلًا، و(أَشهَد) أَصْل الشُّهود والشَّهادة لِمَا رُئِيَ أو سُمِع بالأُذُن؛ لكن هنا عَبَّر عمَّا في القَلْب بالشَّهادة كأن الإنسان يُشاهِد ما أَقَرَّ به.

وأمَّا (ألَّا إلهَ إلَّا الله) فإن العامة يُخطِئون فيها يَقولون: (أَشهَدُ أنَّ لا إلهَ إلَّا الله) (أشهد أنَّ)، وهذا خطَأ من حيث اللُّغة؛ لأن (أنَّ) المُشدَّدة لا يُحذَف اسمُها، ولكنها (أَنِ) المُخَفَّفة، فيَقول: (ألَّا إلهَ إلَّا الله)، يَعنِي: لا إلهَ حَقٌّ. أي: لا مَعبودَ حقٌّ إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، والمَعبودات التي تُعبَد بدونه باطِلة.

(وأَشهَد أن مُحَمَّدًا عبده ورسوله) فيها أيضًا الإقرار المُتيَقَّن، كأنما يُشاهِد بأن مُحَمَّدًا عبد الله ورسوله، فهو عَبْد ليس له حقُّ الرُّبوبية، ورَسول ليس فيه شيء من الخِيانة، فهو رَسولٌ حَقًّا.

وهذه مَعانٍ ظاهِرة عابِرة، ومع هذا أكثَرُ الناس لا يَستَحضِرونها!.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات المَلائِكة؛ لقَوْله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: شَرَف المَلائِكة بإِضافتهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ فإِضافتهم إلى الله تعالى إضافةُ تَشريف.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان عُلُوِّ شَأْن النبيِّ ﷺ؛ لكون الله تعالى ومَلائِكته يُصلُّون عليه، فهذا من عُلوِّ شَأْنه ورِفعة ذِكْره.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الأمر بالصلاة والسلام على الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الصلاة والسلام عليه من مُقتَضيات الإيمان وأنه زِيادة في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الصلاة والسلام عليه واجِبان؛ لأن الأَصْل في الأَمْر الوجوبُ؛ ولأن ذلك من قَضاء حقِّ النبيِّ ﷺ الذي له على أُمَّته؛ فإن حقَّه على أُمَّته أَعظَمُ من حَقِّ الوالِدين على أَوْلادهم؛ ولكن الوَجوب يَحصُل بفِعْله مرَّةً واحِدة؛ فإذا دلَّ دَليل على التَّكرار وجَبَ أن نَأْخُذ بمُقتَضى الدليل.

وقد قال كثير من أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ بوُجوب الصلاة والسلام عليه ﷺ في الصلاة وذلك في التَّشهُّد، فإن الإنسان يَقول: (السَّلام عليك أَيُّها النَّبيُّ)، ويَقول: (اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ).

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن المَشروع أن يُصلِّيَ الإنسان عليه باللَّفْظ؛ لقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾؛ ولا يَكفِي السلام أو الصلاة بالقَلْب، وعلى هذا فينبَغي عندما نَكتُب أحادِيثَ أن نَكتُب: ﷺ. وأمَّا ما يَفعَله بعض الناس من كِتابة: (ص) أو (صلعم) فإن أَهْل العِلْم كرِهوا ذلك، وقالوا: إن الأفضَل أن نَكتُب: ﷺ.

وربَّما كان الإمام أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ربما كتَب الحديث ولم يَذكُر ﷺ[1]، وأَجاب بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ عن ذلك: بأنه كان يَترُكها حِرْصًا على اغتِنام الوَقْت، لأنه كان يُصلِّي عليه بلِسانه دون قلَمه.

وقد تَقدَّم لنا في الشَّرْح والتَّفسير: أن الصلاة على النبيِّ ﷺ تَنقَسِم إلى قِسْمين: مُطلَقة ومُقيَّدة، وأنها في المَواضِع المُقيَّدة قد تَكون واجِبة وقد تَكون مُستَحبَّة، وأنها في بعض الأماكِن قد تَكون مَكروهة.

فهي إمَّا أن تَكتُبها كامِلة وإمَّا أن تَدَعها، فهي وإن كانت غيرَ مُشكِلة في القِراءة، إلَّا أنه إذا أَراد الإنسان أن يَقرَأ ولا يَعرِف اصطِلاح الكُتَّاب فسَوْف يَقول: «رسول الله (ص)» أو «قال رَسول الله (صلعم)».

مَسأَلة: هل تَجوز الصلاة على غير الأنبياء؟

الجَوابُ: في هذا للعُلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أَقوال ثلاثة: الجَواز، والمَنْع والجَواز إذا لم يَكُن شِعارًا له، وهذا هو الصحيح أنه يَجوز أن تُصلِّيَ على شخص بشَرْط ألَّا تَجعَل ذلك شِعارًا له كلَّما ذكَرْته صلَّيْت عليه، أو سلَّمْت عليه، وقد نَصَّ أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ على أن ما وُجِد في بعض الكُتُب عند ذِكْر: علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يَقولون: (عليٌّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ)،

---

(١) انظر: الجامع لأخلاق الراوي للخطيب البغدادي (١/ ٢٧١)، ومقدمة ابن الصلاح (ص:٢٩٩)، وتدريب الراوي (١/ ٥٠٥).

أو (عليٌّ كرَّم الله وَجهَه)؛ أن ذلك من عمَل بعض النُّسَّاخ، ومَن يَكتُبها يَقول: إنه لم يَسجُد لصنَم، وإن الله تعالى كرَّم وجهه بهذا. والأصل أن الذين يَكتُبون هذا يُريدون أن يَجعَلوا مِيزة لعَليِّ بنِ أبي طالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقَطْ، وهذا أهَمُّ شيء عندهم سَواءٌ كان ذلك أحسَنَ أو ليس بأحسَنَ، يُريدون أن يَجعَلوا له مِيزة.

وأن الأَفضَل أن يُقال له كما يُقال لغيره من الصَّحابة: عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. مع أن (عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أكمَلُ مِن (عِلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وأكمَلُ من (عِلِيٌّ كرَّم اللهُ وجهَه)؛ لأن الرِّضا مَرتَبة عَظيمة.

أمَّا إذا صُلِّيَ على غير الأنبياء بالتَّبَع فهذا جائِز بالاتِّفاق، وقد علَّم النبيُّ ﷺ أُمَّته أن يَقولوا: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ»(١).

وسبَق لنا أيضًا الدُّعاء بالرحمة للرسول ﷺ هل يُدعَى له بالرحمة، وأن من أهل العِلْم مَن كرِهَ ذلك، والصحيح أنه ليس بمَكروه.

فائِدةٌ: (ر) (ض) في قولهم: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَمْز أيضًا.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٦٣٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم (٤٠٦)، من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٥٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧].

ثُمَّ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهُمُ الكُفَّار يَصِفون الله تعالى بما هو مُنَزَّهٌ عنه من الولَد والشَّريك، ويُكذِّبون رسولَه]، هذا من الإيذاء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾ جُمْلة خبَرية مُؤكَّدة بـ(إِنَّ)، وخبَر (إِنَّ) قولُه تعالى: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ يُؤذون الله تعالى بوَصْفه بالعُيوب التي لا تَليق به، مثل قول بعضهم عن الله تعالى: فَقير. ومِثْل: سَبِّ الدَّهْر؛ والله تعالى يَقول: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ»[1]، ومِثْل أن يَقولوا: إن الله تعالى اتَّخَذ صاحِبة أو ولَدًا، أو إن الله تَعالى لَمَّا خلَق السَّمواتِ والأرضَ تَعِب واستَراح يومَ السَّبْت. وما أَشبَه ذلك، فإيذاء الله تعالى يَكون بأن يُوصَف بما لا يَليق به.

ومنه إِنْكار أسمائه وصِفاته؛ لأن هذا -لا شَكَّ- سَلْب للكمال عنه فيَتَضَمَّن

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، رقم (٤٨٢٦)، ومسلم: كتاب الأدب، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

النَّقْص؛ لأن الكَمال والنَّقْص مُتضادَّان، فما من شيء إلَّا مَوصوف بالكَمال أو بالنَّقْص، فإذا سُلِبَت عنه صِفات الكَمال لزِمَ ذلك اتِّصافه بالنَّقْص وهو نَوْع من الإيذاء.

وأمَّا إيذاء الرسول ﷺ فيكون بالقَوْل وبالفِعْل؛ فبالقول: أن يُوصَف الرسول ﷺ بأنه ساحِر أو شاعِر أو كاهِن أو مَجنون، والغريب أن الساحِر والمَجنون، وُصِف به جميع الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فكُلُّ الأنبياء السابِقين المُرسَلين إلى قَوْمهم وُصِفوا بهذا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، فهذه الأَوْصافُ -لا شَكَّ- أنها تُؤذِي الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وتُؤذِي كلَّ وَلِيٍّ لله تعالى ورسوله ﷺ أن يُوصَف النبيُّ ﷺ بهذه الأَوْصافِ الكاذِبة.

وكذلك إيذاء الرسول بالفِعْل ما صنَعت قُريشٌ به ﷺ حين أَتَوْا بسَلى الناقة وهو ساجِد في المسجد الحَرام أمام بيت الله عَزَّوَجَلَّ، فوَضَعوا سَلى الناقة على ظَهْره وهو ساجِد[1]، وأيُّ أذيَّة أَبلَغُ من هذا؟! رجُل لم يَتعرَّض لهم فإنما يَعبُد الله عَزَّوَجَلَّ في آمَنِ مَكانٍ على وجهِ الأرض؛ أمام بيت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى! وأَقرَبُ ما يَكون من ربه! ثُمَّ يَأتي هؤلاءِ الظلَمةُ المُعتَدون فيَضَعون عليه هذه القاذُوراتِ؛ أَعتَقِد أن هذا من أَبلَغِ ما يَكون من الأذِيَّة حتى جاءتِ ابنتُه الطِّفلة الصغيرة فأَزالَتْه عنه.

وكذلك من الأذية ما ذكَروا أنهم كانوا يُلقون الأَنْتانَ والقاذوراتِ على عَتَبة بابه ﷺ في مَكَّة حتى إنه كان يَخرُج ويَقول: «أيُّ جِوَارٍ هَذَا؟!»[2] يَعنِي: لو كنت

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذرًا أو جيفة، رقم (٢٤٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، رقم (١٧٩٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٠١)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وانظر سيرة ابن هشام (١/ ٤١٦).

جارًا لكم ولَسْت مِنْكم لم تَفعَلوا بي هذا الفِعْلَ! فهؤلاء الذين يُؤذون الله تعالى ورسوله ﷺ لعَنَهم الله تعالى في الدنيا والآخِرة -والعِياذُ بالله- يَعنِي: أَبعَدَهم الله عن رحمته في الدُّنيا وفي الآخِرة؛ لأن اللَّعْن بمَعنَى: الطَّرْد والإبعاد عن رحمة الله.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ ولم يَقُلْ: (آذَوْا الله)؛ لأنهم مُستَمِرُّون في الأذية، وما داموا مُستَمِرِّين في الأذية فإن لهم اللَّعْن في الدنيا والآخِرة، أمَّا إذا منَّ الله تعالى عليهم بالهِداية ورجَعوا إلى الله تعالى وتابوا من شِرْكهم؛ فإن اللَّعْنة تَرتَفِع عنهم؛ لأن الحُكْم يَدور مع عِلَّتِه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أبعَدَهم ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾] ﴿وَأَعَدَّ﴾ بمَعنَى: هيَّأ، والعَذاب بمَعنَى: العُقوبة و﴿مُّهِينًا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ذا إهانةٍ وهو النار] عذاب النار -والعِياذُ بالله- إهانة بدَنية وإهانة نَفْسية؛ ولهذا يُقال لأصحاب النار: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان:٤٧]، ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾ أي: ادْفَعوه بشِدَّة وعُنْف إلى سواء الجَحيم، يَعنِي: قَعْرها وأَصْلها، ﴿ثُمَّ صُبُّوا﴾ من ﴿فَوْقَ رَأْسِهِۦ﴾ الرَّأس الذي لم يَكُن يَنحَنِي لأَحَد ولا لله تعالى، ﴿صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ الحَميم الماء الشديد الحَرارة؛ ثُمَّ يُقال له بعد الإهانة بالفِعْل يُقال له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩]، هذا تَهَكُّم به، يَعنِي: إنك كنتَ في نَفْسك عزيزًا كريمًا؛ لكنك الآنَ ذَليل مَهين خِلاف المَجْد والكرَم، فهذا هو العَذاب الأليم الذي أُعِدَّ للكافِرين -عسَى الله تعالى أن يُسلِّمَنا وإيَّاكم منه- فصارت عُقوبة هَؤلاء المُؤذِين لله تعالى ولرسوله ﷺ أَمْرين عَظيمين، أَحَدُهما اللَّعْن وهو الطَّرْد والإبْعاد من رحمة الله تعالى، والثاني العَذاب المُهين الذي يُوقِعهم في الهَوان والذُّلِّ، المُؤمِنون والمُؤمِنات.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن أذِيَّة الله تعالى ورسوله ﷺ من كَبائِر الذُّنوب، وجهُ ذلك أن الله تعالى تَوعَّد عليها باللَّعْن والعَـذاب، وكلُّ شيء تَوعَّد الله تعالى علَّيْه باللَّعْن أو العَذاب فإنه من كبائر الذُّنوب.

وقدِ اختَلَف العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في الكبائِر هل تُعَدُّ أو تُحَدُّ، فمِنهم مَن عدَّها عَدًّا، ومِنهم مَن حدَّها حَدًّا، وقالوا: إن الكبيرة كل ما رُتِّب عليه عُقوبة خاصَّة فهو كبيرة، وهذا حـدٌّ لشَيْخ الإسلام ابنِ تَيميَّةَ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كلُّ ذَنْب رُتِّـب عليه عُقوبة خاصَّة دُنيوية أو أُخروية؛ فإنه من كبائر الذُّنـوب، سواء كان لَعْنة أو غضَبًا أو نَفيَ إيمـان أو تَبـرُّؤًا منه أو عَذابًا، وما أَشبَه ذلك، فكلُّ شيء له عُقوبة خاصَّة فهو من كبائِـر الذُّنوب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وَصْف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنه يَتَأَذَّى؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان كَمال الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه إذا كان يَتأذَّى من الأَشياء المُنكَرة التي لا تَليق به دلَّ ذلك على كَماله؛ ولهذا عِند الناس من العَيْب أن الإنسان لا يَتَأذَّى بما يُوصَف به من عَيْب؛ ولهذا يُسمُّون مِثْل هذا الرَّجُل يُسمُّونه (الحِمار)؛ لبَلادته وعدَم أَهمِّيته، فهو لا يُفرِّق بين مَن يَمدَحه ومَن يَقدَح فيه؛ كلُّه سَواءٌ عنده، لكن الإنسان الذي يَتأذَّى للعَيْب هذا الذي له شُعور وعاطِفة، ثُمَّ إذا صبَر واحتَسَب واستَعمَل الحِكْمة في ذلك كان خيرًا.

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٠).

المُهِمُّ: أن الأذِيَّة ممَّا ليس بمَحمود تُعتبَر كمالًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن أذِيَّة الرسول ﷺ كأَذِيَّة الله لأن الله جمَع بينهما بالواو ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فكما أن طاعة الرسول ﷺ كطاعة الله تعالى، ومَعصية الرسول ﷺ كمَعصية الله تعالى، فأَذِيَّة الرسول ﷺ كأذِيَّة الله تعالى، يَعنِي: من حيث التَّحريم، وأنها من الكبائِر، وإلَّا فإن أذِيَّة الله تعالى أَعظَمُ من حيث الجِهة التي نُسِب إليها الذمُّ والعَيْب.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات اللَّعْنة، أي: لَعْنة الله تعالى وهي طَرْده وإبعاده، وهي من الصِّفات الفِعْلية؛ لأن كل صِفة لله تعالى مُعلَّقة بسبَب فهي من الصِّفات الفِعْلية؛ لأن هذا السبَب يَتجَدَّد فتكون الصِّفة بعد وُجوده.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: العَذاب المُهين كُلُّنا يَعرِف أنه في النار؛ لأنها هي التي عَذابها مُهين.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الجَزاء من جِنْس العمَل، فكما تَعالَى هَؤلاءِ وتَعاظَموا وأَهانوا الرَّسول ﷺ بأذِيَّته عاقَبهم الله تعالى بما يُهينهم ويُذِلُّهم من العَذاب.

الآيــة (٥٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ يَرْمونهم بغير ما عمِلوا ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ تَحمَّلوا كذِبًا و ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ بيِّنًا].

تَأمَّلِ الفَرْق بين أذِيَّة الله تعالى ورسوله ﷺ وأَذِيَّة المُؤمِنين تَجِد بينهما فَرْقًا كبيرًا في العُقوبة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ هذا لم يُذكَر في الآية الأُولى بسبَب أنه لا يُمكِن أن يَكون من فِعْل الله تعالى أو من فِعْل رَسوله ﷺ ما يَستَحِقُّون به الأذِيَّة، لكنَّ المُؤمِنين يُمكِن أن يَقَع منهم ما يَستَحِقُّون به الأذِيَّة؛ ولهذا قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾؛ لأن المُؤمِن قد يَكتَسِب شيئًا يَستَحِقُّ الأَذِيَّة عليه.

وأيضًا قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ولم يَقُل: لعَنَهمُ الله ولا أَعَدَّ لهم عذابًا مُهينًا، بل قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا﴾ يَعني: كذِبًا وتَحمَّلوه، والبُهتان هو أن تَذكُر أخاك بما ليس فيه؛ ولهذا لَمَّا سأَل النَّبيُّ ﷺ عن الغِيبة قال ﷺ: «هِيَ ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قال: يا رسول الله أَرَأَيْت إن كان في أخي ما أَقول؟ قال:

«إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ»(١).

إِذَن: أَذِيَّة المُؤمِنين بماذا تكون؟

الجَوابُ: تكون بالقَوْل وبالفِعل وهي كثيرة لا حَصرَ لها، مِنها أذِيَّة الجارِّ حتى إن العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يقولون: لا يَجوز للإنسان أن يَدُقَّ وتَدًا في الجِدار المُشتَرَك بينه وبين جاره على نَحو يُؤذِي جارَه، ولا يَجوز أن يَسقِيَ نَخْله إذا كان الماء يَتسرَّب إلى جاره، ولا يَجوز أن يَجعَل رَحًا تَطحَن حول جاره؛ لأن ذلك يُؤذِيه، فالأَذِيَة كثيرة.

ومن هذا النوع أن يُهينه عندما يَأتي لطَلَب حَقِّه فإن بعض المُوظَّفين- والعِياذُ بالله- إذا جاءَهم الناس لإجراء مُعاملاتهم تَجِدهم يَمتَهِنونهم ويُؤذونهم، هذا أيضًا من أَذِيَّة المُؤمِنين بغير ما اكتَسَبوا، وأَنواعها لا يُمكِن حَصْرها، والشيء العامُّ هو أن يَحصُل للمُؤمِن أَذِيَّة من فِعْل أو قَوْل، فالذين يُؤذون المُؤمِنين بغير ما اكتَسَبوا فقَدِ احتَمَلوا بُهتانًا وإثمًا مُبينًا، نَسأَل الله تعالى العافِية.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَحريم أَذِيَّة المُؤمِنين بغير حَقٍّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَحريم كلِّ أذيَّة أيًّا كان نوعها سَواء كانت قَوْلية أو فِعْلية؛ لعُموم اللَّفظ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾ واسمُ المَوْصول من صِيَغ العُموم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن أَذِيَّة المُؤمِن بما هو من كَسْبه ليس فيها وعيدٌ، وليست إِثْمًا ولا بُهتانًا لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الغيبة (٢٥٨٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه لا يَجوز أن يُؤذَى بأكثَرَ مِمَّا يَستَحِقُّ، فلأنه سَبَّكَ فلا تَسُبَّه أكثَرَ؛ لأنك إذا سبَبْته بِمِثْل ما سبَّك فقد آذَيْته بقَدْر ما اكتَسَب، وقد قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الرَّدُّ على الجَبْرية؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ﴾ فأَضاف الفِعْل إليهم، والجَبْرية يَقولون: إن الإنسان مُجبَر على عمَله، وأنه لا حَوْلَ له ولا قوَّةَ، يَفعَل الشيء بغير اختِيار، ويَدَعه بغير اختِياره!.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ذَمُّ الكذِب؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا﴾ ولا سِيَّما إذا كان الكذِب يُؤدِّي إلى أذِيَّة الغَيْر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: جَواز أذِيَّة غير المُؤمِنين؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ﴾، لكن إذا كان الإنسان غيرُ المُؤمِن ذِمِّيًّا أو مُعاهَدًا أو مُستأمَنًا فإنه لا تَجوز أذِيَّته بما يُخالِف عَهْده، فإذَن: غير المُؤمِن فيه تَفصيلٌ، أمَّا المُؤمِن فأذِيَّته حرامٌ في كلِّ حالٍ، وغير المُؤمِن فيه تَفصيلٌ: إذا آذَيْناه أكثَرَ ممَّا يَقتَضيه العَهْد فهو حرام ولا يَجوز، وإن آذَيْته في حُدود ما يَقتَضيه العهد فإنه لا حُرمةَ له إلَّا فيما يَقتَضيه عهدُه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الذَّنْب قد يَجمَع بين وَصْفين ذَمِيمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، فهُمْ بكَذِبهم احتَمَلوا البُهْتان وبعُدوانهم احتَمَلوا الإثم المُبين.

الآيــة (٥٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٥٩].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ الخِطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ تَقدَّم التَّنبيهُ عليه بأن الله عَزَّوَجَلَّ نادَى مُحمَّدًا ﷺ بوَصْفه نبيًّا، والنبيُّ يُنفِّذ ما أُوحِيَ إليه، ولا يَتأخَّر عنه، وسَبَق أن النبيَّ مَأخوذ من النَّبأ أو النَّبْوَة أو مِنهما جَميعًا، فإنه مُنْبِئٌ مُنْبَأ، وذو رِفْعة فهو مُشتَقٌّ من النَّبأ سواء كان واقِعًا منه أو واقِعًا عليه، ومن النَّبْوة وهي الرِّفْعة فالشيء النابِي هو الشيء المُرتَفِع.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: ﴿قُل﴾ هذه فِعْل أَمْر ومن المَعلوم أن الرسول ﷺ قد أُمِر أن يَقول جميعَ القُرآن وأن يُبلِّغه، لكن إذا كان الحَكَم مُصدَّرًا بـ(قُلْ) فهو دَليل على العِناية به؛ لأنه أُمِر أن يُبلِّغه بخُصوصه؛ فيَكون في هذا دليل على أنه -أي: هذا الشيءُ الذي أُمِر أن يَقوله الرسول ﷺ- أَمْر هامٌّ.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ جَمْع زَوْج، وزَوْج يُطلَق على الرجُل والمرأة؛ لأنه مَأخوذ من الازدِواج وهو الاختِلاط، واللُّغة الفُصحى فيه أَنْ لا تَفريقَ بين الذَّكَر والأُنثى ولكن الفَرضِيِّين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ التَزَموا أن يَجعَلوا الأُنثى بالهاء والرجُل بدون هاء؛

تَفريقًا بين الوسائِل؛ لأنه إذا قالوا: مات مَيْت عن زَوْج وابنٍ، وأَرادوا بالزوج الأُنثى اشتبَه هل يُراد بالزَّوْج الذَّكَر أو الأُنثى فالتَزَموا أن يُفرِّقوا بين الذكَر والأُنثى بالتاء؛ على أنه قد قِيل: إنها لُغَة لكِنَّها قليلة.

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ وبدَأ بالأزواج؛ لأن الحِماية لهُنَّ والغَيْـرة فيهِن أَشَدُّ وأبلَغُ.

وقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِكَ﴾ قُلنا: إنهن أربعة، لكن إذا كانت هذه الآيةُ قد نزَلَت في السَّنَة السادِسة للهِجْرة فإن بعضَهن قد مات، وعلى هذا نَقول: المُراد المَوْجود مِنهن ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عامٌّ في كل امرأة من المُؤمِنين؛ وإنما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دون أن يَقول: (والنساء)؛ لأَجْل الإِغْراء والحَثِّ، كقوله ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»[1]، وإلَّا فإن الكافِرات يَجِب عليهن من الحِجاب ما يَجِب على المُؤمِنات؛ لئلا يَفتِنَ الناس بهِنَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَشمَل زَوجاتِ المُؤمِنيـن ومَن للمُؤمِنيـن عليهن ولاية، من البَنات والأَخوات والعَمَّات والخالات والأُمَّهات وغير ذلك، وفي قوله تعالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دَليل على أن الرِّجال قوَّامون على النِّساء، وإلَّا لاكتَفى بقول: (والنِّساء المُؤمِنات).

فإن قال قائِل: الكِتابيات إذا تَزوَّجْن من المُسلِمين هل يُخاطَبْن بالحِجاب، رغم قوله تعالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهل يُقال: إنها غيرُ مُكلَّفة فلا تُخاطَب؟

---

(١) من ذلك ما أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إحداد المرأة على غير زوجها، رقم (١٢٨٠)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب وجوب الإحداد في عدة الوفاة، رقم (١٤٨٦)، من حديث أم حبيبة بنت أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث».

فالجَوابُ: في قَوله تعالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الخِطاب مُوجَّه لهُنَّ، وإلَّا فغَيْر المُؤمِنات يَجِب أن يَستُرْن وُجوهَهُن؛ لأن الفِتْنة حاصِلة، بل ربما تَكون الفِتْنة في غير المُؤمِنات أكثَرَ؛ لأن الرجُل يَقول: هذه كافِرة، فذَنْبها أعظَمُ؛ لأنه قد يُحارِشها أو يَتوصَّل إليها بالزِّنا.

وهي مُخاطَبة، ولا سيَّما في الأُمور الظاهِرة؛ ولهذا يَمنَعون من إظهار الخَمْر والخِنزِير وما أَشبَه ذلك، مع أنه مُباح في شَريعتهم.

قوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ جُمْلة: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ تَحتَمِل أن تكون مَرفوعة وأن تكون مَجزومة؛ وعلى كل حال هي: مَبنيَّة الآنَ لاتِّصالها بنون النِّسْوة، والفِعْل المُضارِع يَكون مَبنيًّا في مَوضِعين إذا اتَّصَلت به نون النِّسوة أو نون التَّوْكيد، وهنا اتَّصَلت به نون النِّسوة، فهو مَبنيٌّ على السُّكون، لكن هل هو في مَحلِّ رَفْع أو في مَحلِّ جَزْم؟

الجَوابُ: إن كانت ﴿يُدْنِينَ﴾ مَقول القول فهي في مَحلِّ رَفْع، يَعنِي: قل لهؤلاء: أَدْنِينَ. وإن كانت جَوابًا للأمر فإنها في مَحلِّ جَزْم؛ لأن جواب الأَمْر يَكون مَجزومًا، وقِيل: إنها مَجزومة على تَقدير اللَّام، أي: قُلْ لأَزْواجك وبناتِك ونِساء المُؤمِنين ليُدْنِين عليهن من جَلابِيبهن هذه على تَقدير لامِ الأَمْر كقول الشاعِر:

مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ ..... (١)

(تَفْدِ): التَزَمها على تقدير اللَّام، أي: لتَفْدِ نَفْسَك؛ وأيُّ الاحتِمالين أرجَحُ

---

(١) ذكره سيبويه في الكتاب (٣/ ٨) ولم ينسبه، ونسبه ابن هشام في شرح شذور الذهب (ص:٢٧٥) إلى أبي طالب عم الرسول ﷺ، وقال البغدادي في خزانة الأدب (٩/ ١٤): «لا يعرف قائله، ونسبه الشارح لحسان وليس موجودًا في ديوانه».

أن تَكون مَقولًا للقول في مَحلِّ رَفْع أو أن تَكون في مَحلِّ جَزْم؟

فالجَوابُ: القُرآن قد بيَّن ذلك، قال الله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء:٥٣] هذا يَدُلُّ على أنها مَجزومة على أنها جَواب الأَمْر، إذ لو كانت مَرفوعة لقال: يَقولون التي هي أَحسَنُ فلمَّا قال: ﴿يَقُولُوا۟﴾ دلَّ عن أنها جوابُ الأمر، وهي أيضًا من حيث المَعنَى أبلَغُ؛ إذا كانت جوابًا للأمر كأنَّهم يَفعَلون ذلك مُباشَرة؛ يَعنِي: كأن فِعْلهم هذا جوابٌ للأَمْر، أي: أنه مُتسَبِّب عنه فيَكون ذلك أبلَغَ في الامتِثال من أن يُؤمَروا أَمْرًا قد يَمتَثِلونه وقد لا يَمتَثِلونه.

فقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ [النور:٣٠] وماذا يُؤيِّد أنها جواب الأمر أو أنها مَقول القَوْل؟ الجواب: أنها جَواب الأَمْر؛ ولهذا يَقول: ﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ فجَزَمها بحَذْف النون، ولم يَقُل (يَغُضُّون من أَبصارِهم).

وقوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ ﴾ [النور:٣١] وماذا يُؤيِّد؟

الجوابُ: لا دليلَ فيه؛ لأنه مَبنيٌّ، فليس فيه دليلٌ على هذا ولا على هذا.

المُهِمُّ: أن الأَوْلَى أن نَجعَل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ﴾ جَوابًا للأَمْر، ويُؤيِّد ذلك: السِّياقُ في كِتاب الله، ويُؤيد ذلك: أنه أَقْوى في الامتِثال والتَّنفيذ؛ حيث كان جوابًا لمُجرَّد القول: كأنهن يَفعَلن ويَمتَثِلن.

وقوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ﴾: ﴿مِن﴾ ليسَت زائِدة كما قيل؛ لأن (مِن) لا تُزاد إلَّا في النَّفيِ كما قال ابن مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَزِيدَ فِي نَفْيٍ وَشِبْهِهِ فَجُرّ ... نَكِرَةً كَـ(مَا لِبَاغٍ مِنْ مَفَرّ)[1]

---

(١) الألفية (ص:٣٥).

وعلى هذا فـ(مِن) ليسَت بزائِدة، يَعنِي: ليس المَعنَى: يُدْنين عليهن جَلابِيبَهن، بل (مِن) للتَّبعيض، أي: يُدنين عليهم من جَلابِيبهن، أي: بعض جَلابيبهن.

وهل التَّبعيض هنا تَبعيض جُزْء من كلٍّ، أو تَبعيض فَرْد من فَرْد، بمَعنَى هل قوله تعالى: ﴿مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ أي: من الجَلابيب التي عِندهن؛ لأن الواحِدة قد يَكون عِندها جِلْبابان أو أكثَرُ، أو أن المعنى ببَعْض الجِلْباب التي عليها؟

الجَوابُ: هذا الأخيرُ هو الأقرَبُ، يَعنِي: تُدْني عليها بعض جِلْبابها.

والجِلْباب: هو الرِّداء أو المَلاءة أو المِلحَفة، يَعنِي: الشيء الواسِع الذي يَشمَل جميع البدَن أو أكثَرَه.

و﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ﴾ ولم يَقُل: (إليهن) بل قال تعالى: ﴿عَلَيْهِنَّ﴾؛ ليَكون الإدْناء مُلاصِقًا لهن، فكأنه ضَمَّن مَعنى: يَضْمُمْنَ عليهن؛ ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ أي: يُقرِّبنه حتى يَضُمَّمنه عليهن.

وقوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ لم يَقُل: (على وُجوهِهن) ولا (على نُحورِهِنَّ) ولا (على صُدورهِنَّ)، فيَكون شامِلًا لجميع البدَن؛ فقال تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: على جميع البدَن، ولكن من المَعروف أن الجِلباب ساتِر لأكثَر البدَن، والعادة عندهم أن المرأة تَكشِف وجهَها وتَخرُج مَكشوفة الوَجه ومَكشوفة النَّحْر، فأَمَر الله عَزَّوَجَلَّ أن يُدْنين عليهن من جَلابِيبهن، أي: على هذا المَكشوفِ الذي يَكشِف عادة وهو الوَجْهُ والنَّحْر، كما قال ذلك ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره: بأن تُغطِّيَ وجهها ولا تُبدِ إلَّا عَيْنًا واحِدةً[1] تَنظُر بها للضَّرورة، وهذا فيما إذا كان الجِلباب صَفيقًا بحيث

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٨١).

إذا غطَّتْ وجهَها لا تَرَى، أمَّا إذا كان خَفيفًا كما هو مَعروف عندنا في الوَقْت الحاضِر فلا حاجةَ إلى إبداء العَيْن؛ لأن إبداء العَيْن إنما هو للضَّرورة؛ بدليل أن الصحابة كابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيرِه رخَّصوا في إبداء العَيْن الواحِدة؛ لأنها بقَدْر الضَّرورة وإلَّا لكانوا يَقولون: تُخرِج العَيْنَيْن جميعًا.

وعلى كل حال: فالمَعنَى يُدْنين عليهن من جَلابيبهن فيما يَكشِفنه من أبدانهم وهو الوَجْهُ، فهذا ما جرَتْ عليه العادة.

وكان هذا الكَشْفُ عامًّا للإماء والحَرائِر، فصار بعض مَن في قَلْبه مرَض مِن المُنافِقين الذين يُؤذون المُؤمِنين والمُؤمِنات يُلاحِقونهن فإذا عثَر عليهم قالوا هذه حَسِبْناها أَمَةً فعيَّرْناها وهي حُرَّة! فشُكِيَ ذلك إلى الرسول ﷺ فأَنزَل الله تعالى هذه الآيَةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ هكذا قال بَعضُهم في سبَب النُّزول، لكنه غيرُ مُسنَد، ونحن لا يُهِمُّنا أن تكون آية لها سبَب في نُزولها أم لَيْسَت لها سبَب؛ المُهِمُّ: هو الحُكْم الذي دلَّت عليه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ جَمْع جِلْباب وهي المُلاءة التي تَشتَمِل بها المُرأة، أي: يُرْخين بعضَها على الوجوه إذا خرَجْن لحاجتِهن إلَّا عينًا واحِدة] لضَرورة النظَر.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جَمْع جِلْباب وهي المُلاءَة]، وهي تُشبِه العَباءة عندنا، ولَمَّا أَمَر النبيُّ ﷺ بخُروج النساء في العيد للصلاة، قالت أُمُّ عَطيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا رسول الله، إحدانا ليس لها جِلباب. فقال ﷺ: «لِتُلبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا»[1]، ولم يَقُل: لتَخرُج

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب شهود الحائض العيدين، رقم (٣٢٤)، ومسلم: كتاب صلاة العيدين، باب ذكر إباحة خروج النساء في العيدين، رقم (٨٩٠)، من حديث أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

بدون جِلباب. وهذا يَدُلُّ على أنه لا بُدَّ أن تَخرُج المرأة بما يَستُرُها ولا يُبيِّن حَجْم جِسْمها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾ أقرَبُ إلى ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ بأنَّهن حَرائِرُ ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ بالتَّعرُّض لهُنَّ] قوله: [يُعرَفْن بأنهن حَرائِرُ] هذا بِناءً على ما قُلْت، ولكن لنا أن نَقول: ﴿أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ بأنهن مُحتَشِمات وبَعيدات عن الرِّيَب ولا يُرِدن السُّوء ولا الفاحِشة؛ لأن المرأة إذا كانَت مُحتَشِمة مُتحَجِّبة دل ذلك على كَمال عِفَّتها، وأنها لا تُريد أن تَقَع في مَواضِعَ الرِّيَب، بخِلاف المرأة العاهِرة -والعِياذُ بالله- فإنها تَتبرَّج وتَكشِف وجهَها وتُخرِج يديها وذِراعَيْها وحُلِيَّها وما أَشبَه ذلك، فإذا كانت المرأةُ مُتحَجِّبة عُلِم أنها امرأة مُحتَشِمة عَفيفة؛ ولهذا قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾، وإذا كانت عَفيفة مُحتَشِمة فإن الفُسَّاق لا يَتعرَّضون لها؛ لأنهم يَعلَمون أنها ليسَتْ من أَصحابهم، وإنما هي امرأة حامِيةٌ نَفسَها مُحتَفِظة، هذا من جِهة؛ ويُحتَمَل ما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ بأنَّهُنَّ حَرائِرُ]؛ والآية صالِحة لهذا ولهذا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ بالتَّعرُّض لهن بخِلاف الإماء فلا يُغطِّين وُجوهَهن، فكان المُنافِقون يَتعرَّضون لهُنَّ] وهكذا كانت الإِماء في عهد رسول الله ﷺ وفي عهد الخُلَفاء لا يَحتَجِبْن لأنَّهن مَملوكات، ولا يَتعلَّق بهن إلَّا رَديء النَّفْس.

ولكن شَيْخ الإسلام ابن تَيميَّةَ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «إن هذا في الإِماء اللاتي لا يُخشَى مِنهن فِتْنة، وأمَّا الإِماء الجَميلات اللاتي يَفْتِنَّ فإنه يَجِب عليهن أن يُغطِّين وُجوهَهن؛ وذلك لِخَوْف الفِتْنة لا لإِلْحاقِهن بالحَرائر»، وما قاله رَحِمَهُ ٱللَّهُ صحيح، والمَعنَى يُؤيِّده، فإن كل ما يُخشَى منه الفِتْنة فإنه يَجِب البُعد عنه؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٧٣).

بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾؛ لأن الخَلْخال الذي يُسمَع إذا ضرَبَتِ المرأة برِجْلها يُخشَى منه الفِتْنة، وخَشْية الفِتْنة بمَخفيٍّ عند ضَرْب المَرْأة برِجْلها أقلُّ بكثير من أن تُخرِج المرأة وجهَها، ذلك الوجهَ الجَميل المُجمَّل بالكُحْل والتَّحمير وغير ذلك.

وكلٌّ يَعلَم أن هذا أَعظَمُ فِتْنةً من خَلْخال مَستور يُسمَع صوته عند الضرب بالرِّجْل، وتَأبَى حِكْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَنهَى عن ضَرْب المَرأة برِجْلها؛ لئَلَّا يُسمَع خَلْخالها، ثُم يُرخِّص لامرأة من أجمَل النِّساء أن تُظهِر وَجْهها وكفَّيْها!! فهذا تَأباه حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائِلٌ: لم ضَرَب عُمرُ الأَمَة حينما غطَّتْ رأسها[1]؟

فالجَوابُ: ضَرَبها لئَلَّا تَتَشبَّه بالحرائر خَوْفًا من أن يَختَلِط هؤلاء بهؤلاء، ثُمَّ يَبقَى الفَرْق والمِيزة بينهما لا أثَرَ لها، فإذا كانت الإِماء يُغطِّين وُجوهَهن بَقِيت الحَرائِر غيرَ مَعلومات؛ ولا يُحتَجُّ به؛ لأن عِندنا قواعِدَ عامة وهي التَّعرُّض للفِتَن ممنوع في الشَّرْع.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لِمَا سبَق منهن مَن تَرَك التَّستُّر، رَحيمًا بهِنَّ إذ ستَرَهن] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ سبَقَ تَفسير الغُفور والرَّحيم، وأن الله تعالى يَجمَع بينهما دائِمًا لأَجْل أن يَترَكَّب من الاسْمَيْن زوال المَكروه وحُصول المَطلوب، فزَوال المَكروه بالمَغْفِرة وحُصول المَطلوب بالرَّحْمة.

واللهُ عَزَّوَجَلَّ يَذكُر دائِمًا المَغفِرة والرحمة عن أَمْر قد سلَف ولم يَنزِل به حُكْم مثل

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ١٣٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ٣٤٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٢٣]؛ لأنه لولا مَغفِرة الله تعالى ورحمته لكان يُعاقِبنا على المُخالَفة التي لا تَليق، لكن الله تعالى من مَغفِرته ورحمته لا يُؤاخِذنا بما لم يَشرَع لنا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَهمِّية ما أَمَر الله تعالى به رسولَه ﷺ في هذه الآيةِ، وجهُ ذلك: أن اللهَ تعالى أمَرَه أن يُبلِّغها أمرًا خاصًا في قوله تعالى: ﴿قُل﴾، وإلَّا فكُل القُرآن مَأمور بقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، لكن بعض الأَحْكام يُصدِرها الله عَزَّوَجَلَّ، فيَكون كأنه أَرسَل بهذه الآيةِ إِرْسالًا خاصًّا، فيَكون في ذلك دليلٌ على أهمِّية هذا الأمرِ الذي أمَر الله تعالى به رسوله ﷺ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه يَجِب على الإنسان أن يَغار على زَوْجته أكثَرَ من غيرها؛ لأنها فِراشُه، وفي فَسادها فَسادٌ لفِراشه، وتَشكيك في نَسْله، وجه ذلك: أن الله تعالى بدَأَ بالأزواج فقال تعالى: ﴿قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الإنسان مَسؤول عمَّن تحت رِعايته سَواء كانت تِلكَ المَسؤوليةُ عامَّةً أَمْ خاصَّة، وفي هذه الآيةِ مَسؤُوليَّتان على رسول الله ﷺ خاصَّةً وعامَّة؛ فالخاصَّة قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾، والعامَّة قوله تعالى: ﴿وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الإيمان مُقتَضٍ للعمَل بهذه الآيةِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن على المُؤمِنين مَسؤوليةً في نِسائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنِسَاءِ

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، ولم يَقُل: (ونِساء المُؤمِنات) إشارة إلى أن المُؤمِن يَجِب أن يَكون مُلاحِظًا لنِسائه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وُجوب حِجاب الوَجْه؛ لقوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾.

ويَتفرَّع على هذا: أنه يَجِب أن نَعرِف مَفهوم الحِجاب الشَّرْعيِّ؛ لأن أكثَرَ الناس يَظُنُّون أن الحِجاب الشَّرعيَّ هو أن تُغطِّيَ المرأة جميع جسَدها إلَّا وجهَها وكَفَّيْها، وهذا فهِمناه نحن من الأسئِلة التي تَرِد إلينا: أنهم إذا قالوا: الحِجاب الشَّرْعي. يَعنِي: حَجْب وسَتْر جميع البدَن إلَّا الوجهَ والكَفَّيْن، وهذا خطَأ، فالحِجاب الشَّرْعيُّ أوَّلُ وأَوْلى ما يَدخُل فيه حِجاب الوَجْه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن من عادة نِساء الصحابة لُبْس الجَلابيب؛ لقوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾، ويَدُلُّ لذلك أيضًا: أن النبيَّ ﷺ لَمَّا أَمَرهُنَّ بالخُروج إلى مُصلَّى العيد قُلْن: يا رسول الله، إحدانا ليس لها جِلباب فقال ﷺ: «لِتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا»[1].

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: أن الشَّرْع يَتشوَّف إلى أن تَكون المرأة بَعيدةً عن إبراز مَفاتِنها؛ لأن الجِلباب يَكون دائِمًا واسِعًا لا تَظهَر منه مَفاتِن الجِسْم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: رحمةُ الله تعالى بعِباده حيث يُبيِّن لهم عِلَل الأحكام الشَّرْعية، وجهُ ذلك أن ذِكْر العِلَل يُفيد في:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب شهود الحائض العيدين، رقم (٣٢٤)، ومسلم: كتاب صلاة العيدين، باب ذكر إباحة خروج النساء في العيدين، رقم (٨٩٠)، من حديث أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

أ- طُمَأْنينة النَّفْس واقتِناعها اقتِناعًا أكثَرَ بذلك الحُكْمِ المُعلَّل.

ب- سُموُّ الشريعة وأنها لا تَأمُر بشيء عبَثًا، بل لا بُدَّ لكل شيء تَأمُر به من الحِكْمة المُناسِبة التي يَنبَنِي عليها الحُكْم.

ج- أن العِلَّة إذا كانت عامَّة أَمكَن أن نَقيس على المُعلَّل ما وافَقَه في تِلك العِلَّةِ فنُلحِقه به في الحُكْم.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: عِناية الله عَزَّوَجَلَّ بالمَرأة بدَفْع ما يُمكِن أن يَكون فيه أذًى عليها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن في الحِجاب كَفَّ الأذى عن المرأة، فيَكون في ذلك كَرامة لها، وإِعْزاز لها ورِفعة لها من أن تُؤذَى.

ويَتفَرَّع على هذه القاعِدةِ: بَيان قُصور نظَر أُولئِك الذين يَقولون: إن الحِجاب ونَحوَه إذلال للمَرأة، وخَفْضٌ من كَرامتها وإهانة لها.

فنَقول لهم: كذَبْتم أعظَمَ الكذِب، وافتَرَيْتُم أعظَمَ الفِرى؛ فإن حِجابها هو الذي يَدفَع عنها الأذى: أذَى الفُسَّاق، وتَتبُّعَهم لها؛ لأن المَرأة الجَميلة تَكون بالنِّسبة لهؤلاء الأَراذِل كالجِيفة أمام الكِلاب، لا بُدَّ أن يَتْبعوها ولو على الرائِحة!.

وبهذا نَعرِف ما انزَلَق فيه كثير من الشُّعوب الإسلامية في رَفْع الحِجاب الشَّرْعيِّ عن المَرأة، حيث أدَّى إلى المَفاسِد الكبيرة، ولو فتَّشْت ما فتَّشْت في أُولَئِك الأُمَمِ الذين يَدَّعون التَّمَدُّن والتَّحضُّر لوجَدْت كثيرًا وكثيرًا من الحوامِل من البِغاء والزِّنا، هذا فضلًا عمَّن يَستَعمِلن الحُبوب المانِعة من الحَمْل، وفضلًا عمَّن يُجهِضْن الحَمْل قبل أن يَستَتِمَّ، وكلُّ هذا يَدُلُّ على أن الإسلام ومَناهِج الإسلام أَسمَى كل

المَناهِج، وأَحسَنُ من كل الأَنظِمة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات المَغفِرة والرحمة لله عَزَّوَجَلَّ وهي مَأخوذة من هَذَيْن الاسمَيْن الكَريمين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ هذان الوَصْفان دلَّ عليهما الاسمان دَلالةَ مُطابَقةٍ، وهذان الاِسْمان يَدُلَّان على الكرَم دَلالة التِزام؛ لأن الكريم هو الذي يَغفِر وهو الذي يَرحَم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

• • ۞ • •

الآيـة (٦٠-٦١)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴾ [الأحزاب:٦٠-٦١].

ثُمَّ قال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾: ﴿لَّئِن﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لام قسَمٍ] يَعني: مُوطِّئة للقَسَم، وليسَتْ هي أداةَ القسَم، والقسَم محذوف، والتَّقدير: واللهِ لئِنْ لم يَنتَهِ، أو وربِّكَ لئِنْ لم يَنتَهِ. فهِيَ مُوطِّئة للقسَم، وإنما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لام قسَم]؛ لئَلَّا يَتوهَّم واهِم أنها لامُ الابتِداء، وقوله: (إنْ) هذه شَرْطية، وقوله تعالى: ﴿لَّمْ يَنتَهِ﴾ مَجزومة، والدليل حَذْف حَرْف العِلَّة الياء، والجازِم لها ﴿لَّمْ﴾؛ لأنها هي المُباشِرة.

قال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ يَعني: [عن نِفاقِهم]؛ كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإنما قال: [عن نِفاقِهم]؛ لأنه هو الوَصْف الذي اشتُقَّ منه اسمُ (المُنافقون)، وإلَّا قد يَكون المَعنَى: لئِنْ لم يَنتَهِ المُنافِقون عن نِفاقهم وعن أَذِيَّتهم للمُؤمِنين وغير ذلك.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ بالزِّنا] وهذا بِناءً على أن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أن المُراد الأذِيَّة بالتَّعرُّض لهن بالفاحِشة، فالمَعنَى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ همُ الذين يَتعرَّضون للنساء بطلَب الفاحِشة والزِّنا.

ويُحتَمَل أن يَكون المعنى أعمَّ ممَّا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ أي: في قُلوبهم مرَض من الشَّكِّ أو سُوء الخُلُق، وغير ذلك، وهو أعمُّ وأحسَنُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ المُؤمِنين...] المُؤمِنين مَفعول ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ﴾؛ لأنه مَن أَرجَف يُرجِف، وهي مَأخوذة من الرَّجْفة، وهي الزَّلزلة، والمُرجِف هو الذي يَقول: قد آتاكم العَدُوُّ، وإن لكم عَدُوًّا كثيرًا، وسَراياكم قد قُتِلَت، وهُزِمت الجُنودُ، وما أَشبَهَ ذلك؛ ليُدخِل الخَوْف والرُّعبَ في قلوب الناس، وسُمِّيَ ذلك إرجافًا؛ لأنه يُزلزِل ثِقَة الإنسان بنَفْسه وبإِخْوانه؛ ولأنه يُزلزِل أَمْنه وطُمَأْنينته، قال بعضُهم: ولأنه لا ثَباتَ له؛ لأنه قول الكذِب، كل هذه المَعانِي يُحتَمَل أن يَكون الإِرْجاف مُشتَقًّا منها أو دالًّا عليها.

إِذَنْ: فالمُرجِف هو الذي يُخبِر بما يُزلزِل طُمَأْنينة المُؤمِنين من هَزيمة أو قَتْل عَدُوٍّ أو كثرة جُنود أو ما أَشبَه ذلك، ويُوجَد أُناس من هذا النَّوْعِ في المدينة إذا بعَثَ النبيُّ ﷺ السرايا قاموا يَبُثُّون مثل هذه الأقوالِ بأن السَّرِيَّة قد هُزِمَت، وأُسِرت، وقُتِلَت، وما أَشبَه ذلك.

فهَلِ الإِرجاف خاصٌّ بالمدينة؟

الجَوابُ: المَدينة وغيرها سواءٌ، ولكن الإِرْجاف في المَدينة بَيان للواقِع، والقَيْد إن كان لبَيان الواقِع فلا مَفهومَ له.

قال تعالى: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ اللَّام في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾ واقِعة في جَواب القسَم المُقدَّر.

فالجُمْلة إِذَنْ: جَواب القسَم وليست للشَّرْط؛ لأن القاعِدة أنه إذا اجتَمَع قسَم

وشَرْط فالجَواب للسابِق منها، كما قال ابنُ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ[1]

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾ لنُسلِّطَنَّك عليهم]، وهذا التَّفسيرُ تَفسير باللازِم؛ لأن الإغراءَ مَعناه: الحَثُّ بإزعاج على أن يُنكِّل بهم، ومنه إغْراء الإنسان بالعَدُوِّ، بمَعنى أنه يَحُثَّ عليه بإزعاج ليُوقِع به ويَقتُله أو يَهزِمه وما أَشبَهَ ذلك.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ يُساكِنونك ﴿فِيهَآ﴾ يَعنِي: في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ثُمَّ يَخرُجون ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ مُبْعَدين من الرَّحْمة الله]، يَعنِي: نُغرِيَنَّك بهم بالتَّسلُّط عليهم؛ إمَّا بالتَّعزير أو بالتَّأديب أو بالقَتْل أو بغَيْر ذلك، فإذا ضاقَت عليهمُ المَدينة خرَجوا؛ ولهذا قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ ولم يَقُل: فلا يُجاوِرُنَّك؛ وذلك لتَأخُّر انتِفاء المُجاوَرة عن الإغراءِ؛ لأن الله تعالى يُغريهم بهم فيَحصُل لهم من التعذيب والتَّعزير والإهانة ما لا يَتمكَّنون معه من البَقاء في المَدينة؛ ولهذا جاءَتْ بـ(ثُمَّ)، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يُحتَمَل أن المَعنَى: إلَّا قليلًا من الزمَن أو إلَّا قليلًا منهم.

وعلى كِلا الاحتِمالين فإن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ حال من الفاعِل في ﴿يُجَاوِرُونَكَ﴾، وعلى تَقدير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هي حال من فاعِل حُذِف مع عامِله؛ حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثُمَّ يَخرُجون ﴿مَّلْعُونِينَ﴾]، ولكن الأقرَب أن لا نُقدِّر، بل المَعنَى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في حال كونهم مَلعونين حال المُجاورة،

---

(١) الألفية (ص:٥٩).

يَعنِي: حتى في بَقائهم عِندك يَكونون مَلعونين مَطرودِين مُبعَدين لا يَألَفُهم أحَـدٌ ولا يَحنو عليهم.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ قـال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ﴾ وُجِدوا ﴿أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾] ﴿أَيْنَمَا﴾ هذه أداة شَرْط تُفيد العُمـوم في المَكان، وفِعْل الشَّـرْط قولُه تعالى: ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾ وجَواب الشَّـرْط ﴿أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾، يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: الحُكْم فيهم هذا على جِهة الأَمْر به]، الجُمْلة: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ﴾ جُملة خبَرية؛ لأنها شَرْطية، والجُمْلة الشَّرْطية خبَرية، لكنها خَبَـرية بمَعنَى الإِنْشاء، أي: بمَعنَى الأَمْر والطلَـب؛ أي: أينمـا وجَدْتُموهم فخُذوهم واقتُلوهم.

وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَقْتِيلًا﴾ المَصدَر مُؤكِّد دَليل على أنهم يُقتَلون أفرادًا وجماعاتٍ.

وهـذه الآيةُ -لا شَكَّ- أن فيها وَعيدًا لهـؤلاء الذين جمَعوا هـذه الأَوْصافَ المُنافِقين والذين في قُلوبهم مرَض والمُرجِفين في المدينة، فيها وَعيد؛ والبَحْث فيها:

البَحْث الأوَّل: هل هذه الأَوْصافُ لمَوْصوف واحِد أو أنها لأُناس مُتعَدِّدين؟

هل المَعنَى أنهم مُنافِقـون وفي قُلوبهم مرَض ومُـرجِفون، فالأَوْصاف هـذه لمَوصوف واحِد، وصَحَّ العَطْـف؛ لأنه من باب عَطْـف الصِّفَة كمـا في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾، وهو واحِد لا مُتعَدِّد فالعَطْف هنا عَطْف صِفات، فهل نَقول: إن هذه عَطْف صِفات وأنها لمَوْصوف واحِد. أو نَقول: إنها عَطْف أَعيانٍ مَوْصوفين ليسَت لموصوف واحِد؟

الجَوابُ: هذا الأخيرُ هو الأصَحُّ، وهو الأعَمُّ أيضًا؛ لأن المُنافِق قد يَكون في قَلْبه مرَض يَميل إلى الفاحِشة وإلى الزِّنا، وقد لا يَكون، وقد يَكون مُرجِفًا وقد لا يَكون، وقد يُجمَع بين النِّفاق والمرَض القَلْبي والإِرْجاف، وقد يَكون الإنسان في قَلْبه مرَض وليس مُنافِقًا، وقد يَكون مُرجِفًا وليس مُنافِقًا ولا في قَلْبه مرَض، فحينئذٍ نَتبيَّن أن الأَوْلَى أن هذا العَطفَ عَطْف لمَوْصوف على مَوْصوف، وليس عَطْف على مَوْصوف واحِد، يَعنِي: ليس وَصْفًا لمَوْصوف واحِد حتى نَجعَل العَطْف من باب عَطْف الصِّفات بعضِها على بعض.

البَحْث الثانِي: هل هؤلاء انتَهَوْا أم لم يَنتَهوا؟

الجَوابُ: الواقِع أن الإِغْراء لم يَحصُل؛ ولهذا بَقِيَ المُنافِقون فلا قُتِلوا ولا أُخِذوا، فهم باقون، فهل نَقول: إنهم انتَهَوْا حينما رأَوْا هذا الوَعيدَ. أو نَقول: إنهم لم يَنتَهوا، لكنه عَزَّوَجَلَّ عفا عنهم فيما بَعدُ، وأن هذا من باب إِخْلاف الوعيد، وإِخْلاف الوعيد من الكرَم بخِلاف إِخْلاف الوَعْد، فأيُّهما أرجَحُ؟

الجَوابُ: هُما قَوْلان للعُلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: فبَعضُهم يَقول: إنهم لَمَّا رأَوْا هذا الوَعيدَ، وكانوا من أَخوَف الناس وأَرعَن الناس انتَهَوْا وترَكوا هذا الأَمرَ. وبعضهم قال: إنهم لم يَنتَهوا، لكن الله عَزَّوَجَلَّ لم يُغرِ نَبيَّه ﷺ بهم؛ لِحِكْمة اقتَضَت ذلك.

والذي يَظهَر لي -والله تعالى أَعلَمُ-: أنهم انتَهَوْا؛ لأن المَعروف من حال المُنافِقين أنهم جُبَناءُ، وأنهم يَخافون ويَحذرون؛ ولهذا يَحلِفون عند الرسول ﷺ بأنهم مُؤمِنون، ولَمَّا تَخلَّفوا عن غزوة تَبوكَ جاؤُوا يَحلِفون ويَعتَذِرون، فهُمْ جُبَناءُ، وهم يَعلَمون أن وَعْدَ الله حقٌّ، وأنهم لوِ استَمَرُّوا في أعمالهم العُدوانية هذه لأَغْرى الله تعالى بهم نَبيَّه ﷺ، وحصَل الجَلاء، ثُمَّ القَتْل.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: شِدَّة عِناية الله عَزَّوَجَلَّ بنِساء المُؤمِنين، فإن عَلاقة الآية هذه بالتي قَبْلها ظاهِرة، فإن المُنافِقين والذين في قُلوبهم مرَضٌ هم أكثَرُ الناس تَعرُّضًا لأَذِيَّة المُؤمِنات؛ ولهذا أَعقَب الآية السابِقة بهذه الآيةِ، ففيه كَمال عِناية الله تعالى بنِساء المُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الوعيد الشديد لهؤلاءِ المُتَّصِفين بهذه الصِّفاتِ الثلاث الذَّميمة: (النِّفاق، ومرَض القَلْب، والإِرْجاف).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه إذا ظهَر نِفاق المُنافِق وتَبيَّن عَدَاؤُه، فإنه يَجوز أن يُعامَل بما يَقتَضيه نِفاقه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾، ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾، وسبَقَ لنا البَحث: هل هؤلاء المُنافِقون والذين في قُلوبهم مرَض والمُرجِفون انتَهَوْا عن أعمالهم أم لا؟ وقُلنا: إن في ذلك رأيَيْن لأهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وأن الأَقرَب من هذين الرَّأْيَيْن أنهم انتَهَوْا عن ذلك؛ لأنَّا لم نَرَ أن الله عَزَّوَجَلَّ سلَّط رسوله ﷺ عليهم وأَغراه بهم، وهذا أَقرَبُ بكثير من القَوْل بأن الله تعالى لم يُغْرِهِ من باب إِخْلاف الوَعيد.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: التَّحذير من النِّفاق ومرَض القَلْب والإِرْجاف؛ لأن الله تعالى تَوعَّد هؤلاءِ إذا لم يَنتَهوا بأن يُسلِّط الله تعالى رسوله ﷺ عليهم ويُغريَه بهم، وقُبْحُ هذه الصِّفاتِ مَعلوم، أمَّا النِّفاق فظاهِر، فإنه من أَرذَل الأَخْلاق؛ لأن من الصِّفات التي يَرتَكِبها المُنافِق أنه إذا وعَدَ أَخْلَف، وإذا حدَّث كذَب، وإذا عاهَدَ غدَرَ، وإذا اؤْتُمِن خان، وهذه من أَرذَلِ الصِّفات الاجتِماعية.

وأمَّا الذين في قُلوبهم مرَض فإن مرَض القَلْب أشدُّ من مرَض البدَن، لأن مرَض البَدَن يُوجِب الألَمَ الحِسِّيَّ الذي قد يَتحمَّله الإنسان، وأمَّا مرَض القَلْب

-والعِياذُ بالله- فإنه يُوجِب القلَق النَّفسِيَّ وضَياع الحَياة كلها والموت المَعنَوي، واسمَعْ إلى قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، وما أكثَرَ الأوقاتَ التي تَضيع على مَن غفَل عن ذِكْر الله تعالى، تَضيع بلا فائِدةٍ! وأنت إذا رأَيْت من نَفْسك أن أَوْقاتَك ضائِعة بلا فائِدةٍ، فيَجِب عليك أن تُلاحِظ قَلْبك، فإن هذا لا يَكون إلَّا من غَفْلة القَلْب عن ذِكْر الله تعالى، ولو نظَرْت فيما سبَق من التاريخ كيف أَنتَجَ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ما أَنْتَجوا من المُؤلَّفات، ومن فطاحِل العُلَماء الذين تَخرَّجوا على أيديهم في أوقات قد تَكون أقَلَّ من الوقت الذي عِشْتَه أنت، وذلك بسبَب ما ملأَ الله تعالى به قلوبَهم مِن ذِكْره حتى صارت أعمارهم لا يَضيع منها لَحْظة واحِدة، فعَلَيْك أن تَنتَبِه لمَرَض القَلْب، وأن تُبادِر بمُداواته؛ لأنه إذا تَفَشَّى المَرَض في القَلْب -نَسأَل اللهَ تعالى العافِيةَ- قد يَموت ويُطبَع عليه، فلا يُحِقُّ حقًّا ولا يُبطِل باطِلًا.

وأمَّا الإِرْجاف وتَخويف الناس المُؤمِنين وإلقاء الذُّعْر في قُلوبهم، فهذا أيضًا من الأخلاق الذَّميمة؛ لأن الواجِب على المَرْء -على الأقَلِّ- أن يَكون مَوقِفُه مَوقِف المُحايِد، أمَّا أن يَذهَب ويُرجِف بالمُؤمِنين ويَقول: عَدوُّكم أكثَرُ منكم، ولا يُمكِن أن تَغلِبوه، وعَدوُّكم فعَل وفعَل وفعَل!! فإنَّ هذا من علامات النِّفاق.

فإن قال قائِل: ما حُكْم ذِكْر مُخترَعات الغَرْب والتَّخويف منها؛ كالمُتفجِّرات والقَنابِل والرُّؤُوس النَّوَوية؟

فالجَوابُ: أنه إن ذُكِر على سَبيل التَّخويف والتَّعظيم فهو حرام، فإنه إذا ذُكِر على سَبيل تَعظيم هؤلاء الكُفَّارِ وتَرفيع شأنهم هذا حَرام؛ لأن كلَّ شيء يُوجِب أن نُعظِّم الكافِرين وأن يَكون لهم في قُلُوبنا مَنزِلة فهذا حرام؛ لأننا مَأْمورون تُجاه الكُفَّار

بما أَمَر الله تعالى به نَبيَّه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣]، ومَأمورون بأن نَفعَل كل ما يَغيظهم؛ قال الله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ [التوبة:١٢٠]، فنحن مَأمورون بإغاظتهم، وإهانتهم ما استَطَعْنا؛ أمَّا أن نَذكُر ما فيه تَعلية شَأْنهم، وبَيان مَقدِرَتهم، وإِلْقاء الهَيْبة في قُلوبنا منهم؛ فإن هذا لا يَجوز كما قُلت.

وأنا حدَّثَني رجُل رَحِمَهُ ٱللَّهُ سافَر إلى لَنْدن، وبَقِيَ على لِباسه كما هو يَلبَسه في عُنيزةَ (مِشلَح، وعِقال، ونحوه) وكل شيء، يَقول: فصاروا يُكرِمونني إِكْرامًا عظيمًا حتى إني إذا جِئْت أَركَب السَّيَّارة يَتبادَرون البابَ ليَفْتَحوه لي، بينما الذي يَذهَب من عندنا يَروح يَلبَس لِباسهم ما يُعَدُّ إلَّا كحامِل الزِّبْل؛ لا يَهتَمُّون به إلَّا إن كان له صِفة رَسْمية يَهتَمُّون به من جِهة رَسْميَّته، أو كان يُمكِن أن يَنفعَهم بماله، على كلِّ حال مَنِ اتَّقَى الله تعالى جعَل الله تعالى له هَيْبة في القُلوب، اتَّقِ الله تعالى يَتَّقِكَ الناس، وخاف من الله تعالى يَخَفْك الناس.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه يَنبَغي للإنسان أن يُدخِل على المُؤمِن ما يُقوِّي عزيمته ويُنشِّطه؛ سواءٌ في الجِهاد في سَبيل الله تعالى أو في غيره من الأعمال النافِعة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن النبيَّ ﷺ مُكلَّفٌ، عبدٌ يُؤمَر ويُنهَى؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾.

إِذَنْ: إذا لم يُغرِه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بهم، فالواجِب عليه الكَفُّ والتَّوقُّف حتى يُؤذَن له فيه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: مَشروعية إجلاء مَن في بَقائه ضرَرٌ، ويُؤخَذ ذلك من قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقد ثبَت نحوُ هذا الإجلاءِ في الزاني إذا لم يَكُن مُحصَنًا، فإنه يُجلَد مئة جَلدةٍ، ويُغرَّب عن البلَد الذي زنَى فيه لمُدَّة سَنَة، وثبَت أيضًا الإِجْلاء في قُطَّاع الطريق إذا أَخافوا الناس ولم يَأْخُذوا مالًا ولم يَقتُلوا نَفْسًا، فإنهم يُنفَوْن من الأرض، ويُبعَدون، وثبَت الإِجْلاء أيضًا في التَّعزير، فإن عُمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفَى نَصرَ بنَ الحَجَّاج، وكان رجُلًا وسيمًا حتى إن النساءَ بدَأْنَ يَتَغزَّلْنَ به، يَقول قائِل:

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى خَمْرٍ فَأَشْرَبَهَا ... أَمْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى نَصْرِ بْنِ حَجَّاجِ

فأَمَره عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يَحلِق رأسَه حتى لا تَفْتَتِنَ النِّساء به، فلمَّا حَلَق رأسه صِرْنَ يَتَغزَّلن به من وجهٍ آخَرَ بعد الحَلْق، فرأى عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يُنفَى فنَفاه إلى البَصْرة[1]، وكذلك أيضًا نفَى الحُطيْئَةَ[2].

إِذَنْ: فأَصْل النفيِ والإبعاد عن الأرض ثابِتٌ في القُرآن، يَعنِي: دلَّ عليه القُرآن، وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن هذه الأَوْصافَ الثلاثةَ سبَب للَّعْن، وهي: النِّفاق، ومرَض القَلْب، والإِرْجاف؛ لقوله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ يَعنِي: إذا لم يَنتَهوا فإنهم يَتَّصِفون بهذا الوَصْفِ: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن المُنافِق إذا أَظهَرَ نِفاقه فإنه يَجوز قَتْله؛ لقَوْله تعالى: ﴿أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ هذا إذا لم يَنتَهِ عن أذيَّةِ المُؤمنين، فإنه يُؤخَذ ويُقتَّل.

---

(١) أخرجه الخرائطي في اعتلال القلوب رقم (٨٢٦)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٢٢-٣٢٣).
(٢) انظر: تاريخ دمشق (٧٢/ ٦٦).

ولا يَرِد على ذلك أن النَّبيَّ ﷺ كان يَعلَم من المُنافِقين أقوامًا بأَعْيانهم؛ لأن النبيَّ ﷺ كَفَّ عن قَتْلهم، قال: «لِئَلَّا يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»[1]، فيَكون في ذلك تَنفيرٌ عن الإسلام، والإسلام ما زال في ابتِداء الدَّعوة إليه، ثُمَّ إن المُنافِقين في عَهْد الرسول ﷺ يَتَسَتَّرُون لا يُعرَفون إلَّا في لَحْن القَوْل، أو بوَحْيٍ أَوْحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: استِعْمال المُبالَغة في الأَلْفاظ لَفْظًا ومَعنًى.

أمَّا مَعنًى فقَوْلُه تعالى: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ﴾ في أيِّ مَكان في برٍّ أو بَحْر أو جَوٍّ، قريبًا كان أو بعيدًا، أَخْذًا من عُموم الشَّرْط في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ﴾.

وأمَّا المُبالَغة في اللَّفْظ فقَوْله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾؛ لأن هذا أبلَغُ من قوله: (وقُتِلُوا قَتْلًا)، ففيه استِعْمال المُبالَغة في الأَلْفاظ والمَعاني أيضًا، فالمُبالَغة في المَعاني مَأخوذة من الشَّرْط، والمُبالَغة في الأَلْفاظ مَأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، رقم (٤٩٠٥)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج، رقم (١٠٦٣)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيـة (٦٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب:٦٢].

قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ﴾ السُّنَّة بمَعنَى: الطَّريقة، وسُنَّـة الله عَزَّوَجَلَّ نَوْعان سُنَّـة كونية وسُنَّة شَرْعية:

أمَّا السُّنَّة الشَّرْعية فإنها تَكون بحَسَب مَصالِح العِباد وتَختَلِف باختِلاف الأُمَم كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة:٤٨]، وإن كانت هذه الشَّرائِعُ كلُّها تَتَّفِق في أصول التَّوْحيد فيما يَتعلَّق بآيات الله تعالى وأَسْمائه وصِفاته، وكذلك في القَواعِد العامة في الشَّـريعة، وقد أَشار الله تعالى إليها في قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣] هذه الفَواحِش: ما ظَهَرَ منها وما بطَنَ والإِثْمَ والبَغيَ بغير الحَقِّ، وأن تُشـرِكوا بالله ما لم يُنزِّل به سُلْطانًا، وأن تَقولوا على الله تعالى ما لا تَعلَمون.

وهذه الأُصولُ الخَمْسُ ذكَرَ أهلُ العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أن جميع الشَّرائِع مُتَّفِقة عليها، لكن من الشَّـرائِع التي تَختَلِف مَصالِحها باختِـلاف الزَّمان والمَكان والأُمَم، وهذه -أيِ: السُّنَّة الشَّرْعية- لا بُدَّ أن تَختَلِف أَحكامها بحسَب ما تَقتَضيه حِكْمة الله تعالى.

أمَّا السُّنَّة الكَوْنية فهي ما يُجرِيه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قدرًا من العُقوبات وغيرها، وهذه السُّنَّة لا تَتبدَّل ولا تَتغيَّر، وإن كان الله عَزَّوَجَلَّ قد يُضاعِف العُقوبة على بعض الناس دون بعض كما سبَق لنا في نِساء النَّبيِّ ﷺ، قال تعالى: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب:٣٠]، وقد يَجْزِي الله تعالى بعض العامِلين على العمَل أكثَرَ من البَعْض الآخر، كما في هذه الأُمَّةِ، فإنها أُعطِيَت كِفْلَيْن من الأَجْر على مَن سبقَها من الأُمَم، وكما في أصحاب الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذين قال فيهم الرسول ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»(١).

لكن في العُقوبات يَقول الله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: سَنَّ اللهُ ذلك]، وأفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا التَّقديرِ أن ﴿سُنَّةَ﴾ مَنصوب على المَصدَر المَحذوف عامِلُه أي: سَنَنًّا بهم سُنَّة الله، أي: سَنَنًّا بهؤلاءِ المُنافِقين والذين في قُلوبهم مرَض والمُرجِفين في المدينة سَنَنًّا بهم سُنَّة الله تعالى فيمَن سَبَق، فإن كلَّ مَن نابَذ عِباد الله تعالى وأَوْلياءَه سلَّط الله عليهم.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ و﴿خَلَوْا۟﴾ بمَعنَى: مضَوْا، ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن الأُمَم الماضِية في مُنافِقيهم المُرجِفين المُؤمِنين] ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ مِنه ولا من غَيْره، هذا في السُّنَن الكَوْنية.

أمَّا الشَّرْعية فيَمحو الله تعالى ما يَشاء ويُثبِت، وربما تُبدَّل، لكن سُنَّة الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ رقم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الكَوْنية لن تَجِد لها تَبديلًا، لا منه ولا من غيره في إِنْزال العُقوبة بمَن يَستَحِقُّها، وإن كانت هذه العُقوبةُ قد تَختَلِف، لكن لا بُدَّ للمُخالِفين من عُقوبة، والله تعالى أَعلَمُ.

الآيــة (٦٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣].

قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: أَهْل مَكَّةَ] والصوابُ: أنه أَعَمُّ.

وفي قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ﴾ ولم يَقُل: سألَك. دليل على أن هذا السُّؤالَ ما زال مُستَمِرًّا على رسول الله ﷺ، فيَسأَله الناس عن الساعة، والسُّؤال عن الساعة يُحتَمَل أن يَكون الحامِلُ عليه التَّكذيبَ بها واستِبْعادها، وهذا يُورَد من الكُفَّار، وتارة يُسأَل عنها سُؤال استِفْهام متى تَكون؟ مع الإيقان بها، وهذا قد يَرِد من المُؤمِنين، وتارةً يُسأَل عنها؛ ليُبيِّن للناس أنه لا يُمكِن العِلْم بها، كما سأل جِبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ النَّبيَّ ﷺ عن الساعة قال: متى الساعة؟[1] وهو لم يَسأَل استِبْعادًا وإنكارًا ولا استِرْشادًا: متى يَكون وَقْتها؟ ولكن إعلامًا بأن وَقْتها لا يَعلَمه إلَّا الله تعالى.

ولكن قد يَقول قائِل: إن قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ﴾ لا يَدخُل فيه سُؤال جِبريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأن جِبريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليس من الناس، فيُجاب عنه: بأن جِبريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين سأَل كان على صُورة الناس.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ متى تكـون؟ فأَمَر الله تعالى نَبيَّـه أن يُجيب بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾: ﴿قُلْ﴾ في الجَواب، وهذا تَلقينٌ من الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله ﷺ بالجَواب أن يَقول هذا، وإنما لقَّنَه الله عَزَّوَجَلَّ؛ ليَتبيَّن للناس عامَّةً أن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ صادِر من الله تعالى، وليس من تِلْقاء نَفْسـه حتى يَقتَنِع الناس بذلك ويُوقِنوا به.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ هـذه الجُملةُ فيها حَصْـرٌ طريقُه ﴿إِنَّمَا﴾، يَعنِي: ما عِلْمها إلَّا عند الله تعالى وحدَه، وهذا كَقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤]، فلا أَحَدَ يَعلَم متى تَقوم الساعة إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، وكلُّ ما قيل عن وَقْـت قِيامها من السابِقيـن واللَّاحِقيـن فما هو إلَّا تَخرُّص كاذِب، نَعلَم ذلك عِلْم اليَقين؛ لأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، وأَعْلَمُ الرُّسُل بالله تعالى البَشَري والمَلكي مُحمَّد ﷺ وجِبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكِلاهما لا يَعلَم، فلمَّـا سأَل جِبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ النبيَّ ﷺ قال: «مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»، فإذا كُنت أنت تَجهَل أيُّها السائِل فأنا مِثْلك أَجهَلُ منك.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهذا كمـا يَشمَل الساعة العامة التي تَقوم ويُحشَر الناس فيها من قُبورهم لرَبِّ العالَمين، يَشمَل أيضًا الساعة الخاصَّة التي هي موت كلِّ إنسان، فإن مَن مات قامَت قِيامته، وقامَت ساعته؛ لأنه انتَهَى من الدنيا إلى دار الجَزاء، ويَدُلُّ لذلك قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤]، فما وَجْهُ الدَّلالة من أنه لا يَدرِي أحَدٌ متى يَموت؟

الجَوابُ: وجهُ الدَّلالة أنه إذا انتَفَى عِلْمه بأيِّ أَرْض يَموت ففي أيِّ زمَن من بابِ أَوْلى، وذلك لأن الأَرْض يَتمكَّن الإنسان أن يَذهَب إليها أو لا يَذهَب، والزمَن

ليس له فيه تَصرُّف، فإذا انتَفَى عِلْمه بها له فيه تَصرُّف، وهو الانتِقال من مَكانٍ لآخَرَ فانتِفاء عِلْمه بها لا يَتَصرَّف فيه من بابِ أَوْلى.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ قال المُفَسِّر: [يُعلِمكَ بها] أي: أنت لا تَعلَمها، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾: (ما) يُحتَمَل أن تكـون نافِيةً يَعنِي: لا يُدرِيك عنها شيء، ويُحتَمَل أن تَكون استِفْهاميَّة يَعنِي: أيُّ شيء يُعلِمك بها حتى تُسأَل عنها، وأيًّا كان، فالله تعالى يَنفِي عِلْم رَسوله ﷺ بها، ويَقول له: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ﴾ تُوجَد ﴿قَرِيبًا﴾]، ظاهِر صَنيع المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أو المُفسِّر أن قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ جُمْلة مُستأنَفة لا عَلاقةَ لها بالفِعْل الذي قَبْلها، وأنها جُمْلة مُستأْنَفة مِن الله تعالى يَعنِي: لا تَدرِي عنها أنت، ولكنها قريبة.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ و﴿لَعَلَّ﴾ هنا للتَّوقُّع أي: أنها مُتوقَّعة، وذهَب بعضُ المُعرِبين إلى أن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ مَفعول لِقوله تعالى: ﴿يُدْرِيكَ﴾ مَفعول ثانٍ وثالِث، لكنه عُلِّق بـ﴿لَعَلَّ﴾؛ لأن (لعَلَّ) من المُعلِّقات يَعنِي: وما يُدريك عن تَوقُّع قُرْبها، يَعنِي: لا تَدرِي عن قُرْبها أيضًا، ومَن لم يَدْرِ عن قُرْبها لا يَدرِي عن وُقوعها من بابِ أَوْلى، و(لعَلَّ) في القرآن تَكون للتأكيد، وقد تَكون للتعليل أيضًا، مثل ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠]، وما أَشبَهَها، لكن لا تَكون للرَّجاء، وبعضُهم قال: تَكون للرَّجاء باعتِبار المُخاطَب لا باعتِبار المُتكَلِّم.

وأيًّا كان، فالله عَزَّوَجَلَّ نفَى أن يَكـون النبيُّ ﷺ عالِمًا بها أو بقُـرْبها، وإذا انتَفَى عِلْم النبيِّ ﷺ بذلك فعِلْم غيره من بابِ أَوْلى أن يَنتَفِيَ.

ثُمَّ إن السُّؤال عن الساعة ليس بذِي قيمة كبيرة، القيمة الكبيرة ما أَشار إليه

النبيُّ ﷺ حيث قال حين سَأَله رجُل عن الساعة، قال: «انْظُرْ مَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا»[1] هذه هي القِيمةُ، أمَّا متى تَأتي أو لا تَأتِي فليس ذا قيمة كبيرة، لكن القِيمة الحَقيقية أن يَنظُر الإنسان ماذا أَعَدَّ لها.

ومِن ثَمَّ أَعقَب الله تعالى هذا بقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤] إلخ، يَعنِي: احذَرْ أن تَقوم الساعة عليك وأنت من هؤلاء، إن الله تعالى لعَن الكافِرين.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أن الناس ما زالوا يَتَساءَلون عن الساعة.

ويَتَفرَّع من تِلكَ الفائِدة فائِدة أُخرى: وهي أن شَأْن الساعة عَظيم؛ لأنه إنما يَكثُر التَّساؤُل عن الأمور العظيمة دون الأمور التافِهة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن النَّبيَّ ﷺ لا يَعلَم الغَيْب، ولو كان يَعلَم الغَيْب؛ لعَلِم متى تَكون الساعة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن عِلْم الساعة عند الله تعالى لا يَعلَمه أحَدٌ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، وهذا حصَل.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الساعة قريب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، ويَدُلُّ لقُرْبها أن النبيَّ ﷺ كان آخِرَ الأنبياء، وقد ثبَتَ عنه ﷺ أنه قال:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٣٦٨٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب المرء مع من أحب، رقم (٢٦٣٩)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالَّتِي تَلِيهَا»[1]، يَعنِي: أننا مُقترِنان، أو أنه ليس بَيْني وبين الساعة إلَّا كما بين الأُصبُع الوُسطى والسَّبَّابة في القُرْب.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله تعالى خاطَب نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، وهو دَليل على أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بشَرٌ كغيره من البَشَر يُخاطَب بما يُخاطَب به البَشَر، فخِطاب الله تعالى نَبيَّه ﷺ وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ ليس كما لو خاطَبْت إنسانًا، وقلت: ما يُدْرِيكَ عن هذه الأمورِ، أو عن هذا الأمرِ. فإن ذلك يُعَدُّ ذلك من باب التَّنقيص أو التَّنقُّص، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يُخاطِب نَبيَّه بما هو أَهْله.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، رقم (٦٥٠٤)، ومسلم: كتاب الفتنة وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، رقم (٢٩٥١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيتان (٦٤، ٦٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ اللَّعْن قال أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: مَعناهُ: الطَّرْد والإِبْعاد عن رحمة الله، وهذه جُمْلة مُؤكَّدة بـ(إنَّ)، وقوله تعالى: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الكافِرين بالله تعالى، وبما يَجِب الإيمان به.

وقوله تعالى: ﴿لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أَبعَدَهم عن الرحمة.

ثُمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ يَعنِي: ليسوا مُبعَدين عن الرحمة فقَطْ، وسالِمين من الإِثْم، بل إنهم جُمِع لهم بين الإِبْعاد عن رحمة الله وبين العُقوبة، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ أي: هيَّأ لهم ﴿سَعِيرًا﴾، يَقول: نارًا شديدة يَدخُلونها، نارًا يُسعَرون بها- والعِياذُ بالله- فهُمْ وَقودُها والحِجارة، نارًا تَطَّلِع على الأَفئِدة، تَصِل إلى قلوبهم التي في أَجوافهم -والعِيَاذ بالله- وهذه النارُ ليسوا باقين فيها يومًا أو يومين أو سَنَة أو سَنَتَيْن.

يَقول الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُقدِّرًا خُلودَهم] أَشار المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن الحال هنا حالٌ مُقدَّرة؛ لأن الخُلود ليس حال كُفْرهم، ولكن حال مُجازاتهم يوم القِيامة، والحال هذه حالٌ مُقدَّرة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

و﴿أَبَدًا﴾ هذه تُفيد استِمْرار الزمَن في المُستَقبَل استِمرار الزمَن في المُستَقبَل، وأزَلًا تُفيد استِمْراره في الماضِي؛ ولهذا نَقول: إن عِلْم الله تعالى عِلْم ثابِت لله تعالى أزَلًا وأبَدًا.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ هذه إحدى آيات ثلاث صرَّح الله تعالى فيها بأبَديَّة خُلُود أَهْل النار، والآية الثانية في سُورة النِّساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]، والآية الثالِثة في سورة الجِنِّ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

وفي بعض هذه الآياتِ -بل في واحِدة منها- ردٌّ واضِحٌ على قول مَن قال: إن النار غير مُؤبَّدة؛ ولهذا كان عَقيدة أهل السُّنَّة والجَماعة أن النار مُؤبَّدة كالجَنَّة، وليس في هذا مُنَافاة لرَحْمة الله عَزَّوَجَلَّ وحِكْمته، ولا فيها إبطال لقوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في الحديث القُدسيِّ: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[1]؛ لأن هذه العُقوبةَ قد أُنذِر بها أُولَئِك الذين فعَلوا ما يَستَحِقُّونها، وقامَت عليهم الحُجَّة بها، فليس لهم عُذْرٌ، فيَكونون قد عُومِلوا بمُقتَضى العَدْل فعُقوبتهم هذه عَدْلٌ من الله عَزَّوَجَلَّ، وليس فيها ظُلْمٌ، ومَن أُنذِر بشَيْء ففعَل السبَب المُوصِّل إليه باختِياره فهو الذي جَنَى على نَفْسه.

فائِدةٌ: قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ كيف قال تعالى: ﴿فِيهَآ﴾ و﴿سَعِيرًا﴾ مُذكَّر؟

الجَوابُ: لأن المُراد بالسَّعير هنا سَعير النار، وهي مُؤنَّثة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، رقم (٧٤٢٢)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، رقم (٢٧٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا﴾ يَحفَظُهم عنها، ﴿وَلَا نَصِيرٗا﴾ يَدفَعها عنهم] ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا﴾ يَتولَّاهم بحُصول المَطلوب، ﴿وَلَا نَصِيرٗا﴾ يَنصُرُهم بدَفْع المَكروه فهُمْ لا يَجِدون أحَدًا يوم القِيامة يَتولَّاهم، ويَحصُل لهم مَطلوبُهم بحِمايتهم من النار وإدخالهم الجَنَّة، ولا يَجِدون أحَدًا يَنصُرُهم من هذه النارِ ويَدفَعُهم عنها ويُخرِجهم منها بعد الدُّخول؛ لأن هؤلاءِ الكُفَّارَ لا تَنفَعُهُم شَفاعة الشافِعين، أمَّا العُصاة من المُؤمِنين فإنهم قد يَجِدون شُفعاءَ في ذلك اليومِ يَشفَعون فيمَنِ استَحَقَّ النار ألَّا يَدخُلها، وفيمَن دخَلها أن يُخرَج منها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الله تعالى لعَن الكافِرين وأَبعَدهم وطَرَدهم عن رَحْمته.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّحذير من الكُفْر؛ لأنه سبَبٌ للَّعْنة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات العِلَل والأسباب، ويُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فـ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وَصْفٌ عُلِّق به اللَّعن، فهو رَبْطٌ للَّعْن بالكُفْر، فيَكون في هذا إثباتُ العِلَل والأسبابِ، وهذا كثيرٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الرَّدُّ على الجَهْمية الذين يَقولون: إن الله عَزَّوَجَلَّ يَفعَل الأشياء لا لِحِكْمة، بل لمُجرَّد المَشيئة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات وُجود النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرٗا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: عِظَمُ النار؛ لأن السَّعير إنما يُقال للنار العَظيمة المُسعَّرة، وهذا أَمْرٌ ثبَتَ في عِدَّة آيات وأَحادِيثَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَأبيدُ خُلود الكافِرين في النار؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾، وفيها ردٌّ على مَن قال بفَناء النار، والذين قالوا بفَناء النار طائِفة من السلَف والخَلَف، لكن قولهم ضعيف، أمَّا أبَديَّة النار فقد أَجمَع عليها السلَف وأهل السُّنَّة، ولم يُخالِف في ذلك إلَّا طائِفة من المُعتَزِلة الذين يَمنَعون تأبيد أَفعال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ويَقولون: إن التَّسلسُل في الأبَد مُمتَنِعٌ، كما يَرَوْن أن التَّسلسُل في الأزَل أيضًا مُمتَنِع.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن هؤلاءِ المُعذَّبين في النار لن يَجِدوا أحَدًا يَتولَّاهم بدَفْع العَذاب عنهم، ولا بمَنْعه قبل أن يَنزِل بهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، فالوليُّ هو الذي يَتولَّاهم ويَحميهم ويَحفَظهم من أن يَنالَهم سُوء، والنَّصير هو الذي يَدفَع عنهم البلاء بعد نُزوله.

• • ۞ • •

الآيــة (٦٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ [الأحزاب:٦٦].

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾: ﴿ يَوْمَ ﴾ ظَرْف، والظَّرْف والجارُّ والمَجرور لا بُدَّ له من عامِل الذي يُسمَّى المُتعلِّق؛ ويُحتَمَل أن العامِل قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾، ويُحتَمَل أنها ﴿ خَٰلِدِينَ ﴾، ويُحتَمَل أنها ﴿يَجِدُونَ ﴾، فتكون تَنازَعت فيها العوامِل الثلاثة، ويُحتَمَل أن العامِل مَحذوف أي: اذْكُرْ يومَ تُقلَّب وجوهُهم، وكلُّ هذا مُحتَمَل، وكلُّ هذا هو الواقِعُ.

وقوله تعالى: ﴿تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ﴾ أي: تُصرَف من جِهة إلى جِهة كما يُقلَّب اللَّحْم على النار ليَنضَج، والعِياذ بالله.

وفي قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ ﴾ ولم يَقُل: يوم يُقلَّبُون؛ أن هـذا الأمرَ يَقَع مِنهم على سَبيل الكُرْه -والعِياذُ بالله- وأنه ليس باختِيارهم، تُقلَّب وُجوهُهم في النار.

وقوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ﴾ يُحتَمَل أنها حالٌ وهو الأقرَب من الهاء في ﴿وُجُوهُهُمْ﴾ يَعنِي: تُقلَّب وهُمْ يَتحسَّرون هذا التَّحسُّرَ ﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ﴾، ويُحتَمَل أن تكون استِئْنافية، أي: حِكاية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم عنهم ما يَقولون ﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(يا) للتَّنبيهِ] وليسَتْ للنِّداء؛ لأن ياءَ النِّداء لا تَدخُل إلَّا على مَن يَصِحُّ نِداؤُه حَقيقةً أو حُكْمًا، و(لَيْتَ) لا يَصِحُّ نِداؤُها؛ لأنها حَرْف، لأن: (لَيْتَ) للتَّمنِّي.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنها [للتَّنبيه]، وقِيل: إنها نِداء لمُنادًى مَحذوفٍ يُناسِب المَقامَ: ﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ﴾ المُنادَى المَحذوف تَقديرُه: يا ربَّنا لَيْتَنا أَطَعْنا الله تعالى وأَطَعْنا الرسول ﷺ، فعَلى الأوَّل يَكون التَّنبيهُ هنا يُراد به زيادة التَّحسُّر، كأنهم يُنبِّهون أَنْفُسهم لهذا التَّمنِّي ألَّا يَتمَنَّوْه، وعلى الثاني يَكون المُنادَى مَحذوفًا للمُبادرة بذِكْر التَّمنِّي دون ذِكْر مَن وَجَّهوا الخِطاب إليه، وأيًّا كان فإنه يَدُلُّ على شِدَّة تَحسُّرهم.

وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ هذا تَمنِّي ما يَتعذَّر حُصوله في ذلك الوقتِ، وهذا أشدُّ تَعذُّرًا من قول الشاعِر:

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا ... فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ المَشِيبُ[1]

وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾: ﴿أَطَعۡنَا﴾ هي أَصْلًا بلا أَلِف فنَقول: أَطَعْن الله وأَطَعْن الرسولَ، ولا تَقُلْ: إنه يَجِب أن أُشير إلى الأَلِف؛ لئَلَّا تَشتَبِه النون؛ وأما قوله تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ [النحل:١٥]، فليس فيها شيء، تُحذَف الألف لالْتِقاء الساكِنَيْن.

فهنا أيضًا نَحذِف الأَلِف لالتِقاء الساكِنَيْن، ولا نَقول: إن بحَذْفنا إيَّاها يَشتَبِه ضمير المُتكَلِّم بضمير النِّسوة؛ لأن السِّياق يَدُلُّ على المَعنَى؛ فالأَلِف مَوْجودة خطًّا، لكن لا يُنطَق بها لَفْظًا، وكذلك في قوله تعالى: ﴿أَطَعۡنَا ٱللَّهَ﴾ مَوْجودة خطًّا، لكن في اللَّفْظ لا تُنطَق بها، ومِثلُه: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾ [الأعراف:١٨٩]، تُحذَف الأَلِف.

---

(١) البيت لأبي العتاهية، انظر: ديوانه (ص:٤٦).

فقوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾: ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ بالألِف، والألِف هنا للإِطْلاق، وتَقدَّم في هذه السُّورةِ نَظيرُها: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب:١٠]، وسيأتي بعدها أيضًا كلِمةٌ أُخرى ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب:٦٧]، فهذه ثَلاث كلِمات فيها ألِفٌ تُسمَّى ألفَ الإطلاق، وهي ثلاث ألِفات فيها ثلاث قِراءات: قِراءةٌ بإِثْبات الألِف وَصْلًا ووَقْفًا، وقِراءةٌ بحَذْفها وَصْلًا ووَقْفًا، وقِراءةٌ بحَذْفها وَصْلًا وإبقائِها وَقْفًا.

ففي قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ﴾، يَجوز أن نَقرَأَها على الثلاث -وكلُّها سَبْعية- على النَّشْر: (يا لَيْتنا أَطَعْنا الله وأَطَعْنا الرَّسولا)، (يا لَيْتنا أَطَعْنا الله وأَطَعْنا الرَّسولا وقالوا)، هذه قِراءة، أي: أَنَّنا أَثْبَتنا الألِف وَصْلًا ووَقْفًا.

والقِراءة الثانية: (يا لَيْتنا أَطَعْنا الله وأَطَعْنا الرسولَ وقالوا)، (يا لَيْتَنا أَطَعْنا الله وأَطَعْنا الرسولْ * وقالوا)، بحَذْف الألِف وَصْلًا ووَقْفًا.

القِراءة الثالِثة: (يا لَيْتنا أَطَعْنا الله وأَطَعْنا الرسولَ * وقالوا)، (يا لَيْتنا أَطَعْنا الله وأَطَعْنا الرسولَا وقالوا)، وهذه التي تُثْبِتها وَقْفًا لا وَصْلًا.

وقوله تعالى: ﴿أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾: (الرسول) هنا اسمُ جِنْس، يَشمَل كلَّ رسولٍ أُرْسِل إلى هؤلاء؛ لأن أهل النار ليسوا مُختَصِّين بأُمَّة مُحمَّد ﷺ، بل بجَميع الأُمَم، فيَقصِدون بالرَّسول الجِنْس، وبالله تعالى واحِدًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: شِدَّة عَذاب الكافِرين -والعِياذُ بالله- في النار، حيث إنه ذكَر التَّعذيب على الوجه الذي يَكون تعذيبه أعظَمَ إهانةً من بَقيَّة البدَن، ولأن الوجهَ

يُحِسُّ بالألَمِ أكثَرَ ممَّا يُحِسُّ غيره من الأعضاء الظاهِرة، ولأن الوجهَ هو شرَف الإنسان وظاهِرته، فإذا وقَع التَّعذيب عليه صار هذا أشَدَّ في الألَمِ النَّفْسيِّ؛ لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هذا التَّقليبَ بغير اختِيار منهم؛ لقوله تعالى: ﴿تُقَلَّبُ﴾، فهُمْ يُقلَّبون فيها -والعِياذُ بالله- كما تُقلَّب اللَّحْم على النار لشَيِّها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ظُهور التَّحسُّر من أُولئِك الكافِرين حين عذابهم؛ لقوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾، ولكن هذا أَمْر فات أَوانُه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ سبَب للنَّجاة من النار؛ لأنهم لم يَتمَنَّوْا شيئًا سِوى طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ التي يَنجون بها من هذا العَذابِ.

• • ❁ • •

الآيتان (٦٧، ٦٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٧-٦٨].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ [﴿وَقَالُواْ﴾ أي: الأَتْباع منهم]، كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ﴾ يَعنِي: يا ربِّ، فحَرْف النِّداء مَحذوف.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ وفي قِراءة] يَعنِي: سَبْعية [«ساداتِنَا» جمعُ الجَمْع] فسادَةٌ جمع سَيِّد، وسادات جمع سادَةٍ، فهي جَمْع الجَمْع، ففيها قِراءتان: ﴿سَادَتَنَا﴾ و«ساداتِنا»، وإنما جُمِعَت؛ لكثرة الأَسْياد في الأُمَم.

والسَّيِّد: هو ذو الشَّرَف والقَدْر في قومه المُقدَّم فيهم، هذا السَّيِّدُ.

أمَّا قوله تعالى: ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾ فهُمُ الَّذين فوق الأَسْياد، كالأُمراء ونحوهم، فالناس لهم أَسياد مُطاعون، ولهم كُبَراءُ فوقَ هؤلاء، فيَقولون: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ الصِّنْفين جميعًا، وبطاعتهم ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ أي: فبِسَبب طاعَتنا لهم أَضلُّونا السَّبيلَ، والضَّلال هنا بمَعنَى: الضَّياع عن الصواب وعن الحقِّ، أو التِّيهان، يَعنِي: تُهْنا السبيل، والمُراد بالسَّبيل: الطريق الذي هو طَريق الله تعالى، فـ(أل) هنا للعَهْد الذِّهْني أيِ: السَّبيل المَعهود المُوصِّل إلى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السبيل: [طَريق الهُدَى ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي: مِثْلَيْ عَذابِنا...] اللهُ أَكبَرُ! كانوا في الدنيا يُجِلُّونهم ويَحتَرِمونهم ويُعظِّمونهم ويُؤثِرونهم على أَنفُسهم، وفي الآخِرة على العكس، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧]، فالمَتْبوعون يَتبَرَّؤُون، وهؤلاءِ أيضًا يَشتُمون ويَلعَنون، يَقولون: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾.

وهم بهذا الدُّعاءِ ليسوا جائِرين؛ لأنهم أَرادوا بالضِّعْفين أنَّ هؤلاءِ الكُبَراءَ ضلُّوا وأَضَلُّوا، فيَكون عليهم إِثْمانِ: إِثْم الضلال بأنفُسهم، وإِثْم الإِضْلال بغيرهم؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١)، وقال تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت:١٣]، فدُعاء هؤلاءِ الأَتْباعِ دُعاء عَدْل وليس دُعاءَ جَوْر؛ لأن هؤلاءِ المَتْبوعين مُستَحِقُّون للعَذاب مرَّتَيْن.

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْعَنْهُمْ﴾ عذِّبْهم]، ففَسَّر اللعنة بالعَذاب؛ لأنهم في النار، فهم مَطرودون عن رحمة الله، ولكن لو أنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَبْقاها على ما هي عليه لكان حَقًّا، فيَقول: الْعَنْهُم، يَعنِي: أَبْعِدْهم إبعادًا كبيرًا عن رَحْمتك؛ حتى لا تَرحَمَهم يومًا من الدَّهْر.

وقوله تعالى: ﴿ كَبِيرًا ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [«كثيرًا» عدَدُه، وفي قِراءةٍ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

بالمُوحَّدة أي: عَظيمًا] ففيها قِراءَتان: «والْعَنْهُمْ لَعْنًا كَثِيرًا» وهذا باعتِبار الكِمِّية، و﴿لَعْنًا كَبِيرًا﴾ باعتِبار الكَيْفية أي: عظيمًا.

فإن قِيل: كيف يَكون فيها قِراءَتان والقول واحِد صادِر من هؤلاء؛ فهُمْ إمَّا أن يَكونوا قالوا: كبيرًا. وإمَّا أن يَكونوا قالوا: كثيرًا. والله عَزَّوَجَلَّ يَحكِي عنهم؟

بمَعنَى: أن الله يَحكِي عن هَؤُلاء الكُفَّار أنَّهم يَقولون: ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ وعَلى القِراءة الثانية: «كَثيرًا» فكَيْف يَحكِي قَوْلين عن قائِل واحِد، يَعنِي: هم إمَّا قالوا: (كبيرًا) أو قالوا: (كثيرًا)؟

فالجَواب: على أحَد وَجْهين: إمَّا أن بعضَهم يَقول: كثيرًا. والآخَرُ يَقول: كبيرًا. وإمَّا أنهم يَقولون أحيانًا: ﴿كَبِيرًا﴾، وأَحيانًا: «كثيرًا»؛ ولا يُحتَمَل أن الواحِد منهم يَجمَع بينهما في كلِمة واحِدة بمَعنَى: أن يَقول: والْعَنْهم لَعْنًا كبيرًا كثيرًا؛ لأنه ما حكَى هذا، بل الكَلِمة واحِدة؛ إمَّا (كبيرًا) وإمَّا (كثيرًا).

ولهذا لا نَجمَع بين الكلِمتَيْن، لا في الآية هذه، ولا في قوله ﷺ حين علَّم أبا بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا»[1] وفي لفظ: «كَبِيرًا»[2]، فلا نَجمَع بينهما ونَقول: اللَّهُمَّ إني ظلَمْت نَفْسي ظُلْمًا كثيرًا كبيرًا. بل نَقول أحَدَ اللَّفْظَيْن؛ لأن السُّنَّة لم تَرِد بالجَمْع بينهما، وكذلك هنا في القُرآن لا يَجوز لأحَدٍ أن يَقول: والْعَنْهُم لعنًا كثيرًا كبيرًا، هذا حرام؛ لأنه إذا قال ذلك فقَدْ زاد في القُرآن، فنَقول إمَّا هذا وإمَّا هذا.

وقوله تعالى: ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ يُقال ضِعْف. ويُقال: ضِعْفَيْن، بمَعنًى واحِدٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥)، من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥/ ٤٨).

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: فيها دَليل على اعترافهم بأنهم مُقلِّدون ولَيْسوا مَتبوعين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن التَّقليد لا يُغنِي من العَذاب، ولو كان كلام الكُبَراء والزُّعَماء، وقد بيَّن لهم الحقَّ، فإذا خالَفوه لأَجْل مُوافَقة زُعمائهم فإن ذلك لا يُنْجِيهم من العذاب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَحريم تَقليد العالِم إذا تبيَّن النصُّ، وهذا يؤخذ من أن الله تعالى عذَّب هؤلاء على تقليد كُبَرائهم وزُعَمائهم في مُخالَفة الحقِّ، فإذا تَبيَّن لك الحقُّ فلا تَقُل: قال العالِم الفُلانيُّ. وقال الإمامُ الفُلانيُّ. فتكون مُشابِهًا لأهل النار الذين قالوا: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جَواز نِسبة الشيء إلى سببه؛ لقولهم: ﴿فَأَضَلُّونَا﴾، مع أن الذي يُضِلُّ ويَهدي حقيقةً هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكن هؤلاء الكُبَراء صاروا سببًا للإضلال، فنُسِب الإِضْلال إليهم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الرَّدُّ على القدَرِيَّة في قولهم: ﴿أَطَعْنَا﴾، وقولهم: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن مُوالاتَهم لهؤلاء الكُبَراء والسادة ستَنقَلِب يوم القيامة عَداوةً؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَحذيرُ مَن حولَ وُلاة الأُمور والولاة سَواءٌ كانوا وُزراءَ أو مُدراءَ أو أَكبَرَ من ذلك، ففيها تَحذيرُ مَن كان حولَهم أن يَتَّبِعَهم في مَعصية الله تعالى، وأنه سيَأتي اليوم الذي يَندَم فيه، ويَتبَرَّأ ويَدعو عليهم بمِثْل هذا الدُّعاءِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن السادة والكُبَراء المُضلِّين لا يَنفَعون أَتباعهم يوم القِيامة، ووجهه قوله تعالى: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾؛ ولأنهم دَعَوْا على هؤلاء: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾، ولو كانوا يَنفَعونهم ما دَعَوْا عليهم.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: التَّحذير من جُلَساء السُّوء، ووجهُه قوله تعالى: ﴿فَأَضَلُّونَا﴾، فكُلُّ إنسان تَرَى أنه سيُضِلُّك عن سَبيل الله تعالى فالواجِب عليك البُعْد عنه، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ مُخطِرًا عن هذه الحالِ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان:٢٧-٢٨]، ﴿فُلَانًا﴾ هذا ليس من الكُبَراء والسادة، بل أي فلان، ﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ [الفرقان:٢٨-٢٩]، وهذه هي النُّقْطة، فسيكون قوله هنا: ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ يَعنِي: بعد أن جاءَهُم الذِّكْر وتَبيَّن لهم الحَقُّ تابَعوا هؤلاءِ فصارت عليهم هذه العُقوبةُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن الدار الآخِرة لا يَنقَطِع فيها التكليف انقِطاعًا تامًّا، فالله تعالى أَثبَتَ أن هؤلاء يَدْعون الله تعالى، والدعاء نَوْع من العِبادة، ولا نَقول: إن الآخِرة ليس فيها دُعاءٌ، ولا فيها سُجودٌ، ولا فيها عمَل، بل فيها، لكنها ليست كالدُّنيا، وإلَّا فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول في سورة (ن): ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢]، هذا تكليف: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم:٤٣].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: بَيان شِدَّة بُغْض هؤلاء الأَتْباعِ للمَتبوعين، يَعنِي: أنهم دَعَوْا أنَّ الله تعالى يُضاعِف عليهم العَذاب ويَلعَنهم أيضًا، وليس لَعْنًا قليلًا، بل كثيرًا وكبيرًا أيضًا، لقوله تعالى: ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

الآيــة (٦٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب:٦٩].

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ ﴾ مع نَبيِّكم ﴿كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ﴾ بقَوْلهم مثَلًا: ما يَمنَعه أن يَغتَسِل معَنا إلَّا أنه آدَرُ].

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ﴾ تَقدَّم الكلام مِرارًا وتَكرارًا على قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ على كَوْنها صُدِّرت بالنداء، وعلى أن فيها وَصْفَ الإيمان.

قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ﴾: ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ الكاف هنا اسمٌ بمَعنَى: مِثْل، فهي خبَر (تكون) ﴿كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ﴾، ولكنَّهم آذَوْهُ بدون ضَرَرٍ ما أَضَرُّوا به، بل آذَوْه فقَطْ.

وهذه الآيةُ لها صِلة بما سَبَق في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ ﴾ [الأحزاب:٥٧].

وفي قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ﴾ فيها تَحذير، وفيها تَسْلية، أمَّا التَّحذير فللمُؤمِنين؛ لأنهم إذا آذَوْا نَبيَّهم استَحَقُّوا ما استَحَقَّه مَن آذَوْا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وفيها تَسلية للرسول ﷺ؛ لأنه إن أُوذِيَ فقد أُوذِيَ مَن قَبْله؛ ولهذا ثَبَت

عنه أنه ﷺ قال: «رَحِمَ اللهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَصَبَرَ»(١).

وقوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ هو مُوسى بنُ عِمرانَ ﷺ أَفضَلُ أَنبِياءِ بني إسرائيلَ؛ وبماذا آذَوْه؟

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بقَوْلهم مثلًا: ما يَمنَعه أن يَغتَسِل معَنا إلَّا أنه آدَرُ]، فهُمْ يُؤذونه بغير هذا الكَلامِ، ويُؤذونه بالفِعْل أيضًا، لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال مثلًا، فمُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على ما فيه من الشِّدَّة كان حَيِيًّا، وكان بنو إسرائيلَ يَغتَسِلون عُراةً، ولكنه يَغتَسِل وحدَه، لا يَغتَسِل معَهُم، ولا يَتعرَّى، فقال بنو إسرائيلَ: لماذا يَشِذُّ هذا الرجُلُ عنَّا؟! لولا أن فيه آفةَ بَرَصٍ أو أُدْرة ما انفرَد عنَّا، والآدَرُ كبير الخُصْيتَيْن، فيَكون هذا سبَبَ أنه كان يَغتَسِل وحْدَه، أو فيه آفَةٌ فيه بَرَص أو غيرُ ذلك، وإلَّا كان يَغتَسِل مع الناس.

فأَراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يَتَبيَّن لبني إسرائيلَ أن الرجُل مِن أحسَن خَلْق الله تعالى وأَسلَمِهم، فاغتَسَل ذات يومٍ وحدَه ووضَعَ ثوبَه على حَجَر، ولَمَّا خرَج ليَلبَسَه فرَّ الحَجَرُ بثَوْبه، فجعَل يَلحَقه يَقول: «ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ» يُكلِّم ويُخاطِب، ولكن الحجَرَ مَأمور بأَمْر الله عَزَّوَجَلَّ، فما وقَفَ حتى وصَل ملأٌ من بني إسرائيلَ، ومُوسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يَمشِي وراءَه عُريانًا، فلمَّا وصَل بني إسرائيلَ رأَوُا الرجُل، وإذا الرجُل سليم ليس فيه شيء أبدًا، بل مِن أَحسَن خَلْق الله تعالى وأَسلَمِهم من العَيْب، ووقَف الحجَر فأَخَذ ثَوْبه فلَبِسه، وجعَل يَضرِب الحجَر بعصاه حتى صار فيه أَثَرٌ من ضَرْب

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم، رقم (٣١٥٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، رقم (١٠٦٢)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

العَصا[1]، وإنما ضرَب الحجَر؛ لأنه لمَّا عمِل عَمَل العاقِل بهرَبِهِ بالثوب استَحَقَّ تأديب العاقِل، وإلَّا فالحجَرُ لا يَستَفيد.

ولهذا الآنَ صار لنا فيه نَوْعٌ من التَّأسِّي بمُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حينما يَعْثُر الصَّبيُّ بحَجَر، نَقول له: تَعالَ! تُريد أن نَضرِبه؟ فإذا ضرَبتَ الحجَرَ يَهدَأ الصبيُّ ويَقِفُ عن البُكاء، لكن شَتَّان ما بين المَسأَلتين، نَقول: فيه نَوْع من الأصل.

فالخُلاصةُ: أن موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يُبيِّن لبني إسرائيلَ أنه ليس كما قالوا: وأنه سَليم، وسيَأتي في الفَوائد ما في هذه القِصَّةِ من الحِكْمة.

وقوله تعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بأَنْ وَضَع ثَوْبه على حجَر ليَغتَسِل ففَرَّ الحَجَر به حتى وقَف بين ملأ من بني إسرائيلَ فأَدرَكه مُوسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فأَخَذ ثَوْبه، فاستَتَر به فرَأَوْه لا أُدرةَ به]، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهي نَفْخة في الخُصْية] فرَأَوْا أنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سَليم.

وقوله تعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾، أَفادَنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقَوْله: ﴿مِمَّا قَالُواْ﴾ أن الأذِيَّة التي أَشار الله تعالى إليها هي قول.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا قَالُواْ﴾: (ما) اسمٌ مَوْصول، والعائِد مَحذوف تقديره: ممَّا قالوه.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي: ذا جاهٍ] والجاهُ بمَعنَى: القَدْر وعُلوِّ المَنزِلة، فكان موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وَجيهًا عند الله تعالى، يَعني: ذا قَدْر ومَنزِلة

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، رقم (٣٤٠٤)، ومسلم: كتاب الحيض، باب جواز الاغتسال عريانًا في الخلوة، رقم (٣٣٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

رفيعة، وقد وصَفَ الله تعالى غيره من الأنبياء بالوَجَاهة، مثل عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال تعالى: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران:٤٦]، لكن إذا كان مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجيهًا عند الله تعالى وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فمُحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَعظَمُ جاهًا منه؛ لأنه أفضَلُ الرُّسُل.

ولكن لا يَلزَم من الجاه أن يَتوسَّل الإنسان بجاه النبيِّ ﷺ إلى الله تعالى؛ لأن جاه النبي ﷺ قَدْر ومَنْزِلة خاصَّة بالنبيِّ ﷺ، فلا تَنتَفِع بجاهِهِ؛ لأن مُجرَّد وَجاهة النبيِّ ﷺ عند الله تعالى لا تَنفَعُ أحَدًا من الناس؛ ولهذا القولُ الراجِحُ من أقوال أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ: «أن التَّوسُّل بجاه النبيِّ ﷺ مُحرَّمٌ».

فإن قال قائِل: هل قِراءة: «وكانَ عَبْدَ الله وَجْيهًا» شاذَّةٌ؟ وإنِ احتَجُّوا بها على نَفيِ العِنْدية، فماذا يُقال لهم؟ وكيف نَرُدُّ على نَفيِ العِنْدية والقُرْب من الله عَزَّوَجَلَّ؟

فالجَوابُ: هذه قِراءة شاذَّةٌ، ويُقال لهم: هذه شاذَّةٌ. أمَّا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾، مُتواتِرة تَلقَّاها المُسلِمون من رَسولنا ﷺ إلي يَوْمنا، وأمَّا تِلْك فشاذَّةٌ؛ وهؤلاءِ نَرُدُّ عليهم بالآيات الكثيرة وبالأَحاديث أيضًا، وهو إثبات القُرْب لله عَزَّوَجَلَّ، ولكنه لا يَلزَم من القُرْب الحُلول، يَعنِي: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦]، لا يَلزَم من ذلك أن يَكون قريبًا عِنْدك في مَكانك، لكنه قريب وإن كان عاليًا، يَعنِي: الله تعالى ليس كمِثْله شيء.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ ذا جاه، وممَّا أُوذِيَ به نَبيُّنا ﷺ أنه قَسَم قِسْمًا فقال رجُل: هذه قِسْمة ما أُريد بها وجْهُ الله] أَعوذُ بالله! وهذا من أعظَم ما يَكون من السَّبِّ، لكنْ سبُّ النبيِّ ﷺ حَقٌّ له، إذا عفا عنه وأَسقَطه فله الحَقُّ، ولا أحَدَ يَتَّهِم الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأنه ما أَراد بها وجهَ الله تعالى، وإن قاله بعض

الناس غيره، كما قاله بعض مَن قاله من الأنصار حين قسَمَ النبيُّ ﷺ غنائِمَ حُنَيْنٍ، قالوا: إن الرجُل وجَدَ قومَه، وأَراد أن يُغدِق عليهمُ المالَ، ونحن قاتَلْنا وفعَلْنا وفعَلْنا ولم يُعطِنا شيئًا؛ لكن الذي قاله شُبَّانٌ من الأنصار ليس لهم قِيمة بالنِّسبة للكِبار منهم، ومع ذلك الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خطَبَ بهم تِلكَ الخُطْبَةَ العَظيمة، التي بيَّن فيها فَضْلَهم وبيَّن الحِكْمة من إعطاء هؤلاءِ القومِ دونهم، وأنه يُعطِي هؤلاءِ ليَتَألَّفهم على الإسلام، ويَقوَى إيمانهم أو يَنكَفَّ شَرُّهم، أمَّا الأنصار فليسوا بحاجة إلى ذلك؛ لأن الناس يَذهَبون بالشاة والبَعير وهم يَذهَبون برسول الله ﷺ، وشَتَّان ما بين هذا وهذا، حتى قال لهم: «لَوْ أَنَّ النَّاسَ سَلَكُوا شِعْبًا أَوْ وَادِيًا وَسَلَكَ الْأَنْصَارُ شِعْبًا أَوْ وَادِيًا؛ لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ»، وقال ﷺ لهم: «الْأَنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ»، وقال ﷺ لهم: «لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ»[1].

وكل هذا أَقنَعَهم، حتى جعَلوا يَبكون حتى أَخضَبوا لِحاهُم بالبُكاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأن هذا يُساوِي الدُّنيا كلَّها، ففَرْق عظيم بين مَن يَذهَب بالشاة والبَعير، ومَن يَذهَب برسول الله ﷺ، فهذا فيه حِكْمة من الله عَزَّوَجَلَّ: أن الله قد يُقدِّر للإنسان ما يَكرَهه ليَكون بعد ذلك ما يُحبُّه، فمُوسى ﷺ كَرِه أن يَفِرَّ الحجَر بثَوْبه بلا شكٍّ، ولكن صار فيه حِكْمة عظيمة، وهو أن ما يَتكلَّم به بنو إسرائيلَ من الكلام والاتِّهام كلُّه ذَهَبَ.

والمُناسَبة لهذا -كما سيأتي في الفَوائِد إن شاء الله تعالى بَيان أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع كونه مُبَرَّأً ممَّا أُوذِيَ فهو ذو مَنزِلة عالية عند الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم (٤٣٣٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، رقم (١٠٦١)، من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَحريم أذيَّة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى﴾، والأصل في النَّهي التَّحريم، وقد سَبَق أن أَذِيَّة الرسول من كَبائِر الذُّنوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عِنايةُ الله تعالى برَسوله ﷺ، حيث يَضرِب له الأَمْثال بمَن سبَقَه من الرُّسُل؛ لأَجْل التَّسْلية وتَهوين الأَمْر عليه، وأن هذا أَمْر قد سَبَقَك، وهذا كثير في القرآن، نحو: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام:٣٤].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَحذير المُؤمِنين أن يُصيبهم ما أَصاب مَن سبَقَهم حين تَجرَّؤُوا على رُسُل الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: عِناية الله تعالى برُسُله؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن التَّبرِئة تَكون بالقَوْل وتَكون بالفِعْل؛ فتكون بالقول مثل قوله تعالى لرسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:٢]، فنَفَى عنه الجُنون الذي رماه به أَعداؤُه، وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور:٢٩]، هذه التَّبرِئةُ بالقول، والتَّبرِئةُ بالفِعْل كما جرَى لمُوسَى ﷺ، فإن الله تعالى ما قال لبَني إسرائيلَ: إنه ليس بآدَرَ. لكنَّه هيَّأ له هذا الأَمرَ الواقِع الذي يَكون تَبرِئةً من الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله ﷺ بالفِعْل.

وكذلك كشَف بيت المَقدِس للرسول ﷺ شَهادة بالفِعْل[1]، لأن الله تعالى ما أَنزَل قُرآنًا وقال: إن الرَّسول صادِق. لكنه رُفِع له بيتُ المَقدِس حتى شاهَده.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: قَضية مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث بَرَّأه الله تعالى ممَّا عِيب عليه، هذا من وَجْه، وحيث قال تعالى فيه: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الإشارة إلى أن العِبْرة بوَجاهة الإنسان عند الله تعالى لا عند الخَلْق، وذلك من قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾، فقدَّم ﴿عِندَ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَجِيهًا﴾ إشارة إلى أن المُهِمَّ أن تكون وَجيهًا عند الله تعالى، ويَكون وجيهًا عند الله تعالى بعِبادته، فكُلَّما كان الإنسان أعبدَ لله تعالى وأَطوَعَ له كان عند الله تعالى أَوْجهَ، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، فكلُّ مَن كان أَتقَى فهو أكرَمُ عند الله تعالى، وأَرفَعُ مَنزِلة.

فائِدةٌ: السُّنَن مَربوطة بأسبابها، ولا تَختَلِف، فإذا اختَلَف السبَب اختَلَفَتِ السُّنَّة، أمَّا إذا كان السبَب واحِدًا فلا يُمكِن أن تَختَلِف.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب حديث الإسراء، رقم (٣٨٨٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم، والمسيح الدجال، رقم (١٧٠)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيتان (٧٠، ٧١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١][1].

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ أمَر اللهُ تعالى بأمرَيْن؛ بتقوَى الله، وأنْ يقـولَ الإنسانُ قولًا سديدًا؛ أي صَوابًا. والتَّقوى: فِعلُ أوامِر اللهِ واجتِنابُ نَواهِيه.

أمَّا القَولُ السَّديد؛ فهُو القَول الصَّواب وهُو يَشملُ كلَّ قَول فِيه خَيرٌ، سواءٌ كان مِن ذِكْر اللهِ، أو مِن طَلَب العِلم، أو مِن الأَمْر بالمَعْروف والنَّهي عَنِ المُنكَر، أو مِن الكَلام الحَسَن الذِي يَستجلِب بِه الإنسان مَودَّة النَّاس ومحبَّتهم، أو غَيْر ذَلِك، ويَجمعهُ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُل خَيْـرًا أَوْ لِيَصْمُـتْ**»[2]، وضِدُّ ذَلِك: القَولُ غَيرُ السَّديد؛ وهُو القولُ الذِي ليسَ بصَوابٍ، بَل خَطأٌ إمَّا فِي مَوضُوعِه وإمَّا فِي مَحَلِّه:

---

(١) لم يوجد تسجيل صوتي لهاتين الآيتين، ولهذا نقل تفسيرهما من كتابَيْ فضيلة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: شرح رياض الصالحين، فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧).

أَمَّا فِي مَوْضُوعِه: بأنْ يَكُون كَلامًا فاحِشًا يَشتَمل علَى السَّب، والشَّتم، والغِيبة، والنَّمِيمَة، ومَا أَشْبهَ ذَلِك. أو فِي مَحَلِّه: أَي أَنْ يَكُون هَذا القَول في نَفْسه هُو خَير، لكِن كَوْنه يُقال في هَذا المَكانِ لَيْسَ بخَيْر؛ لأنَّ لِكُلِّ مَقام مقالًا، فإذا قُلتَ كلامًا هُو في نَفسِه ليسَ بشرٍّ، لكنهُ يُسبِّبُ شرًّا إذَا قُلتَهُ في هَذا المَحَلِّ فلا تَقُلْهُ؛ لأنَّ هذا ليسَ بقَولٍ سَدِيد، ففِي هَذا المَوضُوع لا يَكونُ قَولًا سَدِيدًا، بَل خطأٌ، وإنْ كانَ ليسَ حَرامًا بذَاتِه.

فمَثلًا؛ لو فُرِض أنَّ شخصًا رأَى إنسانًا على مُنكَر، ونَهاه عَن المُنكر، لكِنْ نَهاهُ في حالٍ لا يَنْبغِي أنْ يَقولَ له فِيهَا شَيئًا، أو أَغْلَظَ لَهُ فِي القَوْل، أو مَا أشبهَه، لعُدَّ هذا قولًا غيرَ سَدِيدٍ.

فإذا اتَّقى الإنسانُ ربَّه، وقالَ قولًا سَدِيدًا؛ حصَل علَى فائدَتَيْنِ: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ فبِالتَّقوَى صلاحُ الأعمالِ ومَغفرةُ الذُّنوبِ، وبالقَولِ السَّديدِ صَلاحُ الأعمالِ ومَغفرة الذُّنوب. وعُلم مِن هَذِه الآيَةِ أنَّ مَن لم يتَّقِ الله ويَقُلْ قَولًا سَديدًا؛ فإنَّه حَرِيٌّ بأنْ لا يُصلحَ اللهُ لهُ أعمالَه، ولا يَغفِر لَه ذَنبَه، ففِيه الحثُّ علَى تَقوَى اللهِ وبَيان فَوائدِهَا.

ثم قالَ تعالى جُملةً عامَّةً: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ﴾ [الأحزاب:٧١]؛ والفَوز هُو حُصول المطلُوب، والنَّجاة مِن المَرهُوب؛ ودَليلُ ذلك: قولُه تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥] فبِالزَّحْزَحة عَن النَّار يَحصل زَوال المَكْروه، وبإِدخالِ الجَنَّة يَحصُل المطلُوب، فالفَوز هُو أنْ تَنجُوَ مِنَ المَرهُوب، وتَفُوز بالمَطلُوب.

قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ وليسَ فَوزًا دَنِيئًا أو يَسِيرًا؛ بل هُو فَوز عَظيمٌ، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فقد خَسِر، وفي نَفْس السُّورة: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ

ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]، فالإِنسان العاصِي: ضالٌّ ضَلالًا مُبينًا، والإِنسانُ المُطيع: فائزٌ فَوزًا عَظيمًا، وانظُر أيَّ الطَّريقَين تُريد؟! والجوابُ: الطَّاعة، التِي بِها الفَوز العَظيم في الدُّنيا وفِي الآخِرة.

الآيــة (٧٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٧٢][1].

قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ﴾ تحدَّث اللهُ تعالى عَن نَفْسه بصِيغة الجَمع للتَّعظيم، لتَعظيم نفسِه عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه سُبحانه العظيمُ الذِي لا أَعظمَ مِنه.

وقَد شبَّه النَّصارَى على عَوَامِّ المُسلمِين فقَالُوا: إنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مُتعدِّد لأنَّه يَقول: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ [الأحزاب:٧٢]، ويقول تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [يس:١٢]، ويقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ [الحجر:٩] فيُشبِّهون! لأنَّ هذِه الضَّمائر تدلُّ علَى الجَمع، لكنَّها في اللُّغة العَربيَّة تدلُّ علَى الجَمع وعلَى التَّعظيم، وهؤلاءِ عَمُوا عَن قَولِ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٣]، وهكَذا كلُّ مَن في قلبِه زَيغ فإنَّه يتَّبعُ مَا تَشابَه مِنَ القُرآن والسُّنة فيَضربُ بَعضَه ببَعْض، ولكِنْ يُقيِّض اللهَ عَزَّوَجَلَّ لدِينِه مَن يَحْفظُه ويَدفع هذِه الشُّبهاتِ ويُبيِّن الحَقَّ فِيها.

وهؤلاءِ هُم الرَّاسِخون في العِلم؛ لقَول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني: القُرآن ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ فذكَر

---

(١) لم يوجد تسجيل صوتي لتفسير هذه الآية والتي تليها، ولهذا نقل تفسيرهما من التسجيل الصوتي في اللقاء الشَّهْري لفضيلة الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ.

قِسمين: آياتٍ محكمات، وأُخَر متشابهات؛ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: مَيل عَن الحق وضَلالٌ، ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ ويَدَعون المُحْكَم ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾، أي: فِتنة النَّاس عن دِينهم، ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: تَحريفه على ما يُريدون.

إذَن: قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾، وقولُه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [يس:١٢]، وقولُه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر:٩] وأشباهُها مِن الآيات: يُراد بها التَّعظِيم.

وقولُه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ يَعني: القِيام بما يَجب.

قولُه: ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ سُبحان الله! مخلوقاتٌ عظيمةٌ عرَض الله عليها الأمانةَ هل تَقومُ بها أمْ لا؟ فقالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾.

وقولُه: (أَبَيْنَ) أي: امتنَعْن عَن حَملِها لأنَّها مَسؤوليَّةٌ عَظيمةٌ.

ولعلَّ قائلًا يَقول: كيفَ تُعْرَض الأمانةُ علَى الجَماد؟

فالجوابُ: الجَمادُ وذُو الشُّعور أمامَ أَمْرِ الله علَى حَدٍّ سواءٍ، يُوجِّهُ اللهُ الخِطابَ إلَى الجَماد فيُجِيب الجمادُ؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ بالنِّسبة لله علَى حدٍّ سواءٍ، واسمَعْ قولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، فهذا أمَر مُوجَّه لِجمادٍ ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١] وهذا هُو الجوابُ، فأجابَتْ هذِه الجَماداتُ لله عَزَّوَجَلَّ.

ولَمَّا تَجلَّى اللهُ عَزَّوَجَلَّ للجَبل حِينَ قالَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٤٣] شوقًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، قَالَ: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾، فنظَر مُوسى إلى الجَبل بعد أن تجلَّى الله لَه فجعَله دكًّا، اندكَّ

لعَظمة الله عَزَّوَجَلَّ وخَشيتِه، فخَر مُوسى صَعِقًا، غُشي عليه؛ لِمَا رأَى مِنَ الهَول العَظِيم، فهَذَا جَبَل أمامَه! وصَخر عَظِيم اندكَّ في لحظَةٍ! ومِن المعلوم أنَّ الإنسانَ لا يتحمَّل هذا ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

ولقَد قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ﴾، هذا القرآن وهو كلام الله وصفةٌ من صفاته، ﴿لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

قولُه: ﴿وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾ خِفن مِنها، ألَّا يَقُمْنَ بواجِب الأمانةِ.

قولُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الله أكبر! حمَلها الإنسانُ، بما أعطاهُ الله مِن العَقل والتَّفكير وبما أَرسل إليه مِن الرُّسل وبَيَّن له السُّبل وهَداه.

قولُه: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الإنسان ﴿كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾؛ وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ﴾ قال بعضُ أهلِ العِلم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: الضَّمير يَعود علَى الإِنسان الكافِر، فهُو الظَّلوم الجَهُول، وليسَ عائدًا على كلِّ إنسانٍ؛ لأنَّ المسلمَ ذُو عَدْل وذُو عِلم وذُو رُشْد.

فالإنسانُ الذِي كانَ ظَلومًا جَهولًا هُو الكافِر، أمَّا المؤمنُ فلا يُمكن، إذِ المؤمنُ يَمنعه إيمانُه عَن الظُّلم، ويَمنعه إيمانِه عَن السَّفه والغَي.

الآيـة (٧٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٣].

المعنَى: أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بيَّن لنا الأمانةَ، وأنَّه عرَضها علَى السَّموات والأَرض والجِبال فأبَيْنَ أنْ يَحمِلْنَها وحَملَها الإنسانُ لِأَجْل هذِه النَّتيجة: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ هؤلاءِ ثلاثةُ أقسامٍ انقَسم إليها الخَلق:

الأوَّل: المنافِقون.

الثَّاني: المشركُون.

الثَّالث: المُؤْمِنون.

فانتَبِهْ -يا أَخِي- وانظُر سَبيل مَن تَسلُك!

فالمنافِقون: هُم الذِين يُظهرُونَ الإسلامَ ويُخفون الكُفْر، فيُظهرون الإِسلام ويَقُولون: أَشْهد أنْ لا إله إلا الله وأَشْهد أنَّ محمدًا رسولُ الله، ويَحضُرون الصَّلاة، ويَتصدَّقون، لكنْ قُلوبُهم خَرِبة خالِية مِن الإِيمان، أعاذَنِي اللهُ وإيَّاكُم مِن ذَلِك! اللهُمَّ أعِذنا مِنَ النِّفاق.

وهذا الصِّنف مِن النَّاس خرَج حِينما صارَ للمُسلمين قوَّة وعزَّة، لكن في مكَّة قبلَ الهِجرة ليسَ هناكَ مُنافق، فالنَّاس إمَّا مُؤمن صَريحٌ وإمَّا كافِر صريحٌ، لكن لـمَّا قَوِيت شَوْكة المؤمنين وخصوصًا بعد أنْ هُزم الكفار في بَدر -وقد كانَت في السَّنة الثَّانية مِن الهِجرة في رَمَضان-، فلمَّا هُزم المُشركون بدَأ النِّفاق؛ لأنَّهم -أي: المنافِقين- عرَفوا أنَّ محمدًا ﷺ سيَظهر دِينه، فصارُوا يُظهرُون الإِسلام ويُبطنون الكُفر.

وأنزَل اللهُ فِيهم سُورةً كامِلة من طِوال المُفصَّل، وهِي قولُه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فكانُوا يَحضُرون الصَّلاةَ، لكنَّهم إذا قامُوا إلى الصَّلاة قامُوا كُسالَى، ويَتصدَّقون لكنْ رياءً وسُمعةً، ويأتُون إلى الرسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويقولون: نَشهد إنَّك لرسول الله. سبحان الله! فقال الله فيهم: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١] أي: لكاذِبون في قولِهم: (نَشهَد)؛ لأنَّهم يقولون بأفواهِهم ما ليسَ في قلوبِهم.

ولذَلِك إذا احتاجُوا إلى هذه الكَلِمة عجَزوا عَنها، فإنَّ المنافق إذا دُفن في قَبره وتولَّى عنه أصحابُه أتاه مَلَكان يَسألانه: مَن ربك، ومَا دِينك، ومَن نبيك؟ فيقول: هاه هاه لا أدْرِي، سَمعت الناسَ يقولون شيئًا فقُلتُه! فيقول: لا أدري؛ لأنه ليسَ في قلبِه إيمانٌ، والآخِرة مبنيَّة على السَّرائر لا على الظَّواهر، أما الدُّنيا فمَبنية على الظَّواهر، كما قال النبي ﷺ حِين استُؤذن في قَتل المنافقين، قال: «**لَا يتحدَّث الناسُ أنَّ محمدًا يَقتُل أصْحابَه**»، وفي الآخِرة العِبرة بالسَّرائر: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات:٩-١٠]، ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٨-٩] اللهم طهِّر سرائِرنَا يا ربَّ العالمين، وأمِتنا على الإيمان والتَّوحيد.

فالمنافِقون لهُم رَوَغان عن الحقائِق، ولذَلك كان مِن صِفاتِهم أنَّهم إذا حدَّثوا كذبوا، وأَكْذب حديثٍ أنَّهم يقولُون: نَشهد أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله وهم كاذِبون في هذا فلا يُؤمِنون به، وإذا عاهَدوا غَدَروا، فلا يُوفون بالعَهد؛ لأنَّه ليسَ عندهم إيمان يَحملهم على الوفَاء بالعَهد، وإذا خاصَموا فجَروا؛ فجَحدُوا ما يَجب عليهم وادَّعوا ما ليسَ لهُم، وإذا اؤتمِنُوا خانُوا.

فهَذه علاماتُ النِّفاق، فاحذَر أنْ تتَّصفَ بواحدةٍ مِنها؛ لأنَّ نبيَّنا محمدًا ﷺ حذَّرنا مِنها؛ والآنَ لو نَظرت فِي واقِع المُسلمين اليومَ لوجَدت كثيرًا مِنهم إذَا حدَّث كذَب، وإذا وعَد أَخْلف، وإذا خاصَم فجَر، وإذا اؤتمِن خانَ.

إنَّ كثيرًا مِنَ المسلمين وليسَ أكثرُهم، فالحمدُ لله أكثرُهم مُستقيم، لكن فِيهم مَن إذا حدَّثك كذَبك، وإذا وعَدك أخلَفك، وإذا عاهدَك غدَر بك، وإذا خاصَمك فجَر بك، ومَا أكثرَ الذين يأتُون إلينا يَشكون مِن كُفلائهم! أتَى به عَلى عَقد مَعلوم فِيما بينهم ثُم لا يَفِي بالعَهد ولا يَفِي بالعقد، يُماطل بالأُجرة وربما يُنكرها، ويُؤذي العامِل ويحمِّله ما ليس واجبًا عليه.

وهناك أيضًا مَن إذا اؤتمن خان، وما أكثرهم! إذا اؤتمِنوا خانُوا، وما أكثرَ الخِيانة في كثيرٍ مِن الناس! ومِن ذلك -مثلًا- أن يَعرض الإنسانُ سِلعته فيأتِيه الزَّبون ليَشتري فيقول: كم قِيمة هذه؟ فيَقول: ألف ريالٍ، وقيمتُها في الحَقيقة خَمس مئة، لكن استغل فُرصة جهل هذا المشتري بالثَّمن وقال: بألفِ ريال، فهَذا جَمع بَين الكذِب والخِيانة والغَدر، ثلاثُ صفاتٍ من صفاتِ المنافِقين، ومَا يَدري أنَّ ما ترتَّب على هذا الكذِب مِن كَسب مادِيٍّ فهو حرام، ويُوشك من أَكل الحَرام ألَّا تُستجاب دَعوتُه؛ لأنَّه ﷺ ذكَر الرجُل يُطِيل السَّفَر أَشْعَث أَغْبر، يَمُد يَدَيْه إلى السَّماء: يا ربِّ يا ربِّ، ومَطعمه حرَام، ومَلبسُه حَرام، وغُذِي بالحَرام، فأنى يُستجاب لذلك؟!.

ومِن الخِيانة في الأمانةِ: مَا يَفعلُه كثيـرٌ مِن أَولياءِ النِّساء في التَّزويج، فتَجـده يَخطب منه الرجلُ الصالحُ المسـتقيمُ في دِينه وخُلُقه، ولكِنْ إذا عرَف أنَّه لن يُعطيه مالًا ردَّه، وقال: البِنت صَغيرة، البِنت مَخطُوبة لغَيرك، وما أَشْبه ذلك، ثم يزوجها ابن عمها الذي ليس عنده خُلق ولا دِين، أو يُزوجها مَن ليس ابنَ عمِّها ولكنْ أكثرَ الدراهمَ لأبيها، وهذه والله خِيانة، وستُطالبه البِنت يوم القيامة، وحينئذٍ يفِر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبَنيه؛ فلماذا تَحجُب المرأةَ عن خاطبها الكُفْء مِن أجْل مَصْلحتك الخاصَّة؟ أليسَ هذا مِن الخيانة؟! أليسَ هذا مِن الظلم؟! سـبحان الله! لـو أنَّك أنْت -أيُّها الأبُ- خَطَبت امـرأةً ثم مُنعت منها لاستكْبرت هـذا الشيء وعدَدْته ظلمًا وجورًا.

والعجَب: أنَّ هؤلاء يَظلمون أقربَ النَّاس إليهِم وهُنَّ بناتُهم اللاتِي هنَّ بَضعةٌ من الأبِ -قِطعة وجُزء مِنه-، ومع ذلك يَظلمها هذا الظُّلم، فيحَجُرُها لابنِ عمِّها، أو يقول: لا تتزوَّجي رَجلًا مِن غَير القَبيلة، أو ما أشبه هذا! هذا مِن المُنكر، وللقُضاة أن يتدخَّلوا في هذا الموضوع، بمَعنى: أن المرأةَ إذا خَطبها كُفءٌ لها وأبَى أبوها فلَها أن ترَفع الأَمر إلى القاضي ويقول لأبِيها: زوِّجها وإلَّا زوجتُها أنا أو مَن يليـك في الوِلاية مِن عَصَبتها.

ومِن الخِيانة -وهي مِن صِفات المنافِقين-: ما ذَكره الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين:١-٣]، إذا استوفَى لنَفسـه استوفَى كاملًا، وإذا كالَ لغَيره نَقَص، ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي: يَنقُصـون، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٤-٦].

ومِن الخِيانة في الأمانةِ: ما يَفعله بعضُ الناس في أهلِه، يُرضِيهم بما حرَّم الله عليهم، فيَجلب لهم مِن وَسائل الإعلامِ المَنظورة والمقروءة والمسمُوعة ما فِيه البَلاء والشَّقاء، وهذا خِيانة للأمانةِ، وسَوف يُحاسب عِند الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة، لقَول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦]، فجعَل وِقاية الأهل كوِقاية النَّفس، وقال النبي ﷺ: «**الرَّجُل راعٍ في أهله ومَسؤولٌ عَن رعيَّته**»، مَسؤولٌ أمامَ الله يومَ القِيامة. أسألُ اللهَ أن يُعينني وإيَّاكم على أداءِ هذِه الأمانةِ الكبرَى.

فعَليك أن تُوجِّه أهلَك مِن بنيـنَ وبناتٍ وزوجاتٍ وغيـرهِم ممَّن لك ولايةٌ عليهم، أن توجِّههم إلى الطَّريق السَّوِي، الطَّريق المُستقيم، ولا تظُنَّ أنَّك بَرِيء مِن المسؤُولية أبدًا، فقَد حمَّلك إياها الله ربُّ العالمين وحملك إيَّاها رسولُ ربِّ العالمين محمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومِن النفاق: أنَّ بعضَ الناس يُرائِي، بمعنى: أنه يَفعل العبادَة ليَقول الناس: إن فلانًا عابد. اللهُم أعِذنا مِن الرِّياء! «**ومَن راءَى راءَى اللهُ به**»، وسَوف يَفضحُه إمَّا في الدُّنيا وإمَّا في الآخِرة؛ ومِن ذلك أيضًا: أن يتصدَّق بشيءٍ أمامَ الناس ليقُولوا: فلانٌ كريمٌ، لا لِيتقرَّبَ إلى ربِّ العالمين، وهذا الرياء مبطلٌ للعمل، قال الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القُدْسي الصَّحيح: «**أنا أغنَى الشُّركاء عَن الشِّرك، مَن عمِل عملًا أشرك فيه مَعِيَ غَيري تركتُه وشِرْكه**»، ولما سُئل النبي ﷺ عَن الرجُل يُقاتل أعداء الله، يُقاتل شجاعة، ويُقاتل حَميَّة، ويُقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ قال: «**مَن قاتَل لتكون كَلمةُ الله هي العُليا فهو في سَبيل الله**».

فالمُراءاةُ في العَمل مُحبِطة له، وماذا يَنفعك الناسُ إذا راءَيتَهم؟! وماذا يضرُّونك

إذا أخلَصْتَ العمل لله وتَركْتَهم؟! إنَّهم لَن يَضرُّوك شيئًا بالإخلاص، وإنَّهم يضرُّونك بالرِّياء، وأنت الذِي أضرَرْت بنَفْسك. فاحذَرْ أخِي مِن النِّفاق، احذَر مِن النِّفاق العقَدي والعمَلي، فالعقَدي في القَلب -أجارني الله وإيَّاكم منه-، والعمَلي بالجَوارح.

وقال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾.

المشرِك: مَنِ اتخذ مع الله إلهًا يَعبُده، أوِ اتَّخذ معَ اللهِ ربًّا يَعتقِد أنَّ لَه تَدبيرًا في الكَون، والمُشرِك كافرٌ واضِحٌ وليس يُنافِق، فهُو يُظهِر شِرْكه عَلَنًا ويُقاتِل المُؤمِنين مِن أَجْلِه، مِثل مُشركِي قُرَيْشٍ، أَلَيْسُوا قاتَلُوا النبيَّ ﷺ عَمْدًا؟ أليسُوا أَخْرجُوه وأصحابَه مِن دِيارِهم؟ أليسوا يُسيئون إليه بالقَول وبالفِعل؟ فيقُولون: إنَّه ساحرٌ، إنَّه مجنونٌ، إنَّه كاذِب؛ وأساؤُوا إليه بالفِعل أيضًا، فقَد كانَ النبيُّ ﷺ ذاتَ يومٍ ساجدًا تَحتَ الكَعبة، آمَنُ مَكانٍ على الأرضِ ذلِك المكانُ، وهُو مُحترَم مُعظَّم عِندَ قُريشٍ إلَّا مَع النبيِّ ﷺ! فكانَ ساجدًا لله عَزَّوَجَلَّ فقالُوا: مَن يَذهبُ إلى جَزور بنِي فُلان ويأتِي بسَلاها -القَذِر المكروه مَنظرًا- ويَضعُه على ظَهر محمَّد؟ فانتدبَ لذَلِك أشْقاهُم والعِياذ بالله! فذهَب وأتَى بسَلى النَّاقة -الذِي يَخرج مِنها عِندَ الوِلادَة-، فألقَى السَّلى على ظَهْر النبيِّ ﷺ وهُو ساجِدٌ، وفي هَذا إهانةٌ للرَّسول، بل وإهانةٌ للمَسجِد الحَرَام، والعَجَب أنَّه لو جاءَ بَدوِيٌّ جاهِلٌ يَسجُد تَحتَ الكَعْبة لعَظَّمُوه واحترَمُوه، وهَذا النبيُّ الكَرِيم الذِي هُو أَوْلَى بالكَعْبة مِن هؤلاءِ المشركِين يُفعل به هكَذا! لأنَّ المشركِين لا يُبالون، فهُم يُعلِنون بشِرْكهم ولا يُبالون، ولَيس عِندَهم نِفاقٌ، هَذا الصِّنف الثَّاني مِن النَّاس.

الصِّنف الثَّالث: قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾

[الأحزاب:٧٣]، اللهُمَّ تُبْ عَلَينا يا ربَّ العالمِين! يتُوب اللهُ على المؤمِنين الموحِّدين الذِين ليسَ عندَهم نفاقٌ، فهُم موحِّدون ضِد المشـركِين، وهُم خالِصون ضِد المنافقِين، فيتُوب اللهُ علَيهم، حتَّى لو أنَّهم تابُوا مِن الشِّرك ومِن النِّفاق تابَ الله علَيهم؛ لقَول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

وكَم مِن مُشرِك مُنابِذ للدَّعوة الإسلاميَّة تابَ فتابَ الله عَليه، فهَذا عُمر بنُ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانَ ضِد الدَّعوة الإسلاميَّة، فأَسْلم وكانَ الخَليفةَ الثَّاني في هَذِه الأُمَّة. وخَالِدُ بنُ الولِيد، وعِكرمة بن أبي جَهْل، وغيرُهم مِن صَنادِيد قُريش وكُفَّارها أَسلمُوا فتابَ الله علَيهم.

وهذا أَبُو سُفيان زَعيم قُريش كانَ يَقول يومَ أُحُد: اعلُ هُبَل؛ لأنَّ أبا سُفيان لَمَّا انتَهـت الحَرب وصارتِ الهزيمةُ على المُسلمِيـن -لأنَّهم حصَل مِنهم ما يُوجـب الهزيمةَ-؛ افتَخر وقال: أفيكُم محمَّد؟ قال النبيُّ ﷺ: «لا تُجِيبُوهُ» إهانةً له، وحتَّى يربُو بنَفسه بعدَ ذلِك ويَفتخر؛ فانظُر إلى الحِكمة النبويَّة، وهكَذا وقَع، ثُم قال: أفيكُم ابن أبي قُحَافة؟ أفيكم عُمَر؟ قال ﷺ: «لا تُجِيبُوهُ» حينئذٍ افتَخر وانتَفخ، ورأَى أنه حصَل على كُل شيءٍ، فقال: اعلُ هُبَل. وهُبل صَنَم لقُريش في وَسط الكعبة، والمعنَى: ما أعْلاك اليوم! اليومَ أنتَ العالي!

ثُم قالَ النبيُّ ﷺ: «أجِيبوه»، فالآنَ حَمِيَ الوَطِيس فقَد وصَلَـتِ المسألةُ إلى البارِي عَزَّوَجَلَّ، فقال: «أجِيبوه»، قالوا: بماذا نُجيبه؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجَلُّ»، فقالوا: «الله أعلى وأجَلُّ»، فإذا كنتَ اليومَ تَفتخِر بصنَمك بأنَّه عالٍ فالله أعلى وأجَلُّ؛ ثم قالَ أبو سُفيان -لما رُدَّ عليه بالتَّوحيـد أتَى عن طَريق الرسالة-: يَومٌ بيومِ بَدْر

والحَرْب سِجال؛ ويومُ بدرٍ كانَ النَّصْر للمُسلمِين، وقُتِل مِن صَنادِيدِ قُريش وكُبَرائهم ما هو مَعلوم؛ فقال: يَومٌ بيومِ بَدْر، أي: اليومَ غَلبْناكُم، وأنتُم غلبتُمونا يومَ بدر، والحربُ سِجال، أي: مرَّة لكم ومرَّة عليكم!. فأجابُوه: (لا سَواءَ!)؛ أي: بَيْن اليَومَيْن، فقَتْلانا في الجَنَّة وقَتْلاكم في النَّار؛ وهل هذانِ اليومانِ على حدٍّ سواءٍ بعدَ أن كانَ قَتلَى المسلِمِين في الجنَّة وقَتلَى الكُفَّار في النَّار؟ الجواب: لَا.

والمقصودُ: مِن هذا أنَّ المشركِين يُصرِّحون بمُنابذة المؤمِنين، وأنَّ الإنسانَ إذا تابَ ولو كانَ مُشركًا مُنابِذًا تابَ الله عَليه؛ فهَذا الرجُل أبو سُفيان أَسْلم وصارَ مِن الصَّحابة، لكنَّه تأخَّر إسلامُه فتأخَّرت مَرتبتُه.

إذَن: مَن تابَ تابَ الله عَليه، حتَّى مِن الشِّرك، وحتَّى مِن النِّفاق، وحتَّى مِن الاستِهزاء باللهِ وآياتِه.

والدَّليل على أنَّ التَّائب من النِّفاق يتُوبُ الله علَيه قولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٤٥-١٤٦]، لكنْ لَاحِظْ أنَّ الله تعالى ذكَر أشياءَ مُهمَّةً:

١- ﴿ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ أي: رجَعوا مِن النِّفاق إلَى الإيمانِ الخالِص.

٢- ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: توكَّلوا عَليه واعتَصَمُوا بِه.

٣- ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾.

فهذه ثلاثةُ أوصافٍ؛ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

والمُستهزِئ باللهِ وآياتِه هَل تَصحُّ توبتُه؟

الجواب: نعَم تَصحُّ، والدَّليل: قولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة:٦٥] أي: سألْتَ المستهزِئين؛ لأنَّهم كانوا يَستهزِئون ويقُولون: ما رأَيْنا مِثلَ قُرَّائنا هؤلاء -يَعْنون: النبيَّ ﷺ وأصحابَه- أَرْغَب بُطونًا ولا أَكْذبُ ألسنًا ولا أَجْبنُ عندَ اللِّقاء. وكذَبوا واللهِ، فهذِه الأوصافُ في المنافِقين تمامًا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦]؛ فمعناه: أنَّ هؤلاءِ قَد يَعفو اللهُ عَنهم وذلِك بالتَّوبة، فمَن تابَ مَهما كان شِركُه وكُفرُه فإنَّ الله يتُوبُ عليه.

وهؤلاءِ الذِين تابُوا مِن الكُفر وقَد قَتلوا مَن قتَلوا مِن المُسلمين هَل يَلزمهم ضَمانُ المسلمِين الذِين قتَلوهُم؟ لا يَلزمهم، لقَول الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال:٣٨] ولهذا لو رأَى شخصٌ شخصًا كان كافِرًا وقد قَتل أباهُ ثُم أَسْلم فإنَّه لا يجُوز لَه أنْ يَقتُلَه؛ لأنَّ إسلامَه عصَمه وغفَر لَه بِه ما سَلَف.

ثُم قال تعالى: ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وقد تُشكِل عَليك هذِه الجُملة: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي: كانَ فِيما مضَى، ولكن الآنَ؟ فـ(كان) فِعل ماضٍ؟!

فنقُول: (كان) هنا لا يُقصد بها الزَّمان، بل يُقصد بها تَحقيق اتِّصاف اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالمَغفِرَة والرَّحمة، فهِي كَما يقول النَّحْويُّون: مَسْلُوبَة الزَّمان، والمقصودُ بِها التَّوكيد، فالله تعالى مُتَّصفٌ بالمَغْفِرةِ والرَّحمة دائمًا وأبدًا.

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة
«حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ»	٢٣
«إِنَّنِي مَا أَعْطَيْتُكَهَا لِتَلْبِسَهَا، وَإِنَّمَا لِتُعْطِيَهَا لِفَاطِمَةَ»	٢٧
«لَا تَغْلِبَنَّكُمُ الْأَعْرَابُ عَلَى تَسْمِيَتِكُمْ عَلَى صَلَاتِكُمُ العِشَاءِ»	٣٩
«أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ»	٤٧
«أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا»	٤٩
«مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ»	٥٠
«لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ»	٥١
«أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»	٥٣
«الحَجُّ عَرَفَةُ»	٥٩
«أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا فَعَلَيَّ»	٦١
«وَمِنْ نَفْسِكَ يَا عُمَرُ»	٦٢
«أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»	٧١
«الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ»	٧٣
«هؤلاء إلى النار ولا أُبالي، وهؤلاءِ إلى الجَنَّة ولا أُبالي»	٧٥
«لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ»	٧٨

«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» ٩٣
«قُمْ يَا حُذَيْفَةُ» ٩٥
«نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ» ٩٦
«أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ» ٩٦
«يَا رَسُولَ اللهِ أَنْتَ خَطَطْتَ لَنَا» ١٠٦
«رأَيْت في التَّكْبِيرةِ الأُولَى قُصورَ الرُّوم، وَفِي الثَّانِية قُصورَ كِسْرَى، وَفِي الثَّالِثَة قُصورَ صَنْعَاءِ اليَمَنِ، وَأَنَّهَا سَتُفْتَحُ» ١٠٦
«وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» ١٠٨
«نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ» ١١٣
«أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى، يَقُولُونَ: يَثْرِبُ؛ وَهِيَ الْمَدِينَةُ» ١١٥
«مَنْ قَالَ لِلْمَدِينَةِ: يَثْرِبُ. فَلْيَسْتَغْفِرِ اللهَ» ١١٥
«يَقُولُونَ: يَثْرِبُ؛ وَهِيَ الْمَدِينَةُ، تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ» .. ١١٥، ١٢٠
«حُبُّ الوَطَنِ مِنَ الإِيمَانِ» ١٢٠
«أَتَدْرِي ما الفِتْنة؟ الفِتْنة: الشِّرْك» ١٢٤
«آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: وَمِنْهَا إِذَا عَاهَدَ غَدَرَ» ١٢٦
«مَوْضِع سَوْطِ الْإِنْسَانِ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ١٣٢
«وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» ١٣٩
«اللَّهُمْ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ» ١٤٠
«مَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ، وَمَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ» ١٤٥
«اتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» ١٤٧

«إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِيَ لَهُ بِنَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ» ١٥٠
«إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» ١٥٠
«لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» ..... ١٥٤، ١٥٥
«إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ» ١٥٥
«لَا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ» ١٥٧
«أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» ١٥٩
«أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا» ١٧٠
«لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَه» ١٧٣
«وَهَا أَنَا أَموتُ عَلى فِراشِي كما يَموتُ الحِمارُ» ١٧٣
«لِيَرَيَنَّ اللهُ ما أَصنَعُ» ١٧٩
«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ أَنْجَزَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ» ١٩١
«لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ» ١٩٤
«مَنْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِهِ؟» ١٩٥
«لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ» ١٩٦
«أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي» ٢٠١
«لَا عَلَيْكَ أَلَّا تَسْتَعْجِلِي، فتَستَأْمِري أبوَيْك» ٢٠٨
«إِنَّمَا بُعِثْتُ مُيَسِّرًا لَا مُتَعَنِّتًا وَمُعَنِّتًا، وَأَيُّ امْرَأَةٍ تَسْأَلُنِي فَسَأُخْبِرُهَا» ٢٠٨
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ٢١٣

«فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ» ٢١٥
«مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ» ٢١٨
«إِنَّ مَثَلَ الجَلِيسِ الصَّالِحِ كَحَامِلِ المِسْكِ» ٢٢١
«مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ» ٢٢٣
«إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُوْرَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ» ٢٢٦
«إِذَا أَدَّيْتِ زَكَاتَهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ» ٢٣١
«هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْبَيْتِ اللَّهُمَّ فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا» ٢٣٦
«إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِآلِ مُحَمَّدٍ» ٢٣٧
«مَسْجِدِي هَذَا» (المسجد النبوي أسس على التقوى) ٢٣٧
«دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ» ٢٣٧
«المَنْزِلُ هَاهُنَا إِنْ شَاءَ اللهُ» ٢٣٨
«اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ» ٢٤٣
«لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا» ٢٥١
«أَفْضَلُ صَلَاةِ المَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا المَكْتُوبَةِ» ٢٥١
«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» ... ٢٥٦
«أَلَا وَأَنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» ٢٥٦
«التَّقْوَى هَاهُنَا» ٢٥٧
«إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى» ٢٦٢
«إِنَّهُ يُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ الرَّجُلَانِ» ٢٦٣

«كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ؛ الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ» ٢٦٣
«كُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ» ٢٦٦
«يَدَعُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي» ٢٦٨
«إِنَّ عِنْدَهُ رَجُلًا يُنكَح كما تُنكَح المَرأةُ. فكَتَب إليه أبو بَكْر أن يُحرِقه مُبالَغةً في عُقوبَتِه» . ٢٦٩
«لَا تَنْظُرِ المَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ المَرْأَةِ، وَلَا الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ» ٢٦٩
«وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ» ٢٦٩
«ما خُيِّرَ النَّبيُّ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْن إلَّا اختار أَيسَرَهُما ما لَمْ يَكُنْ إِثْمًا» ٢٧٠
«أَنَّ اللهَ يَخْلُو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ يُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» ٢٧٣
«أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» ٢٧٣
«إِذَا الْتَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ» ٢٧٤
«مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ تَعَالَى حَسَنَةً كَامِلَةً» ٢٧٥
«لَأَنَّهُ إِنَّمَا تَرَكَ ذَلِكَ مِنْ جَرَّائِي» ٢٧٥
«هَذِهِ صَفِيَّةُ» ٢٧٦
«إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا» ٢٧٦
«رَحِمَ اللهُ امْرَأً كَفَّ الْغِيبَةَ عَنْ نَفْسِهِ» ٢٧٧
«أَوْ مُسلِمٌ» ٢٧٨
«إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا» ٢٧٨

«مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ» ٢٨١
«سُبْحَانَكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» ٢٨٢
«لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ» ٢٨٨
«وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ» ٢٨٩
«يَا هَذَا اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ» ٢٨٩
«إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» ٢٩١
«أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ» ..... ٢٩٢، ٢٩٣
«يُوشِكُ أَحَدُكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي، فَيَقُولُ لَا نَدْرِي مَا وَجَدْنَا فِي الْكِتَابِ اتَّبَعْنَاهُ، أَلَا وَإِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» ٢٩٦
«أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ» ٢٩٦
«لَوْ كان مُحَمَّدٌ كاتِمًا ما أُنزِل إليه لكَتَمَ هذه الآيَةَ» ٢٩٨
«زَوَّجَكن أَهالِيكُنَّ، وزَوَّجَني الله من فوقِ سَبْع سَمَواتٍ» ٣٠٢
«لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ» ٣١١
«لَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ» ٣١٣
«إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ» ٣٢٠
«فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ» ٣٢١
إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأرعها سمعك ٣٢٤
«لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» ٣٣٤
«إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ» ٣٣٤
«لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ٣٣٤

«آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ» ٣٣٧
«كأَنَّه مُنْذِرُ جَيْش يَقول: صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ» ٣٣٩
«فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي» ٣٤٧
«أن يَذُوقَ عُسَيْلَتَهَا وتَذُوقَ عُسَيْلَتَهُ» ٣٥٧
«لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ» ٣٨٧
«لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الْغِيلَةِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا الرُّومُ يُغِيلُونَ فَلَمْ يَضُرَّهُمْ شَيْءٌ» ... ٣٨٨
«أَنَّهُ لَوَقْتُهَا لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي» ٣٨٧
«مَلَّكْتُكَها بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ» ٣٩١
«مَنْ كَانَ لَهُ امرأتان فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَة وَشِقُّهُ مَائِلٌ» ٣٩٩
«إِنَّهَا صَفِيَّةُ» ٤٠٣
«أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ» ..... ٤٠٣، ٤٠٤
«تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ» ٤١٢
«ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ» ٤١٣
«إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ» ٤١٦
«اشرَبْ أبا هرٍّ» ٤٢١
«يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ» ٤٢٤
«يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي» ٤٢٤
«إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ» ٤٢٨

«خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي» ٤٣١
«إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهَا أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ» ٤٣٢
«ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ» ٤٣٢
«إِذَا قَضَى حَاجَتَهُ فَلْيَعْجَلْ إِلَى أَهْلِهِ وَلَا يَنْتَظِرْ» ٤٣٩
«الحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ» ٤٤٠
«يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ» ..... ٤٤٤، ٤٥١
«أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ» ٤٥٢
«وَأَخْرِجُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ» ٤٥٢
«رَبِّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي» ٤٦٠
«أَتَانِي جِبْرِيلُ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ» ٤٦٢
«فَقُولُوا مِثْلَمَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ» ٤٦٣
«قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ» ٤٦٤
«السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ» ٤٦٤
«إِنَّ اللهَ طَيِّبًا لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا» ٤٦٧
«إِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمْ ذَلِكَ فَقَدْ سَلَّمْتُمْ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» ٤٦٨
«إِذَا سَلَّمْتَ فَقَدْ سَلَّمْتَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ» ٤٦٨
«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ» ٤٧٢
«يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ» ٤٧٣
«أَيُّ جِوَارٍ هَذَا؟!» ٤٧٤
«هِيَ ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» ٤٧٨

«لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» ٤٨٢
«لِتُلبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا» ..... ٤٨٦، ٤٩٠
«لِئَلَّا يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» ٥٠٢
«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» . ٥٠٤
«مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» ٥٠٧
«انْظُرْ مَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا» ٥٠٩
«بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالَّتِي تَلِيهَا» ٥١٠
«إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي» ٥١٢
«مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ٥٢١
«اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا» ٥٢١
«رَحِمَ اللهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَصَبَرَ» ٥٢٥
«ثَوْبِي حَجَرٌ، ثَوْبِي حَجَرٌ» ٥٢٥
«لَوْ أَنَّ النَّاسَ سَلَكُوا شِعْبًا أَوْ وَادِيًا وَسَلَكَ الْأَنْصَارُ شِعْبًا أَوْ وَادِيًا؛ لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ» ٥٢٨
«الْأَنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ» ٥٢٨
«لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ» ٥٢٨
«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُل خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» ٥٣١
«لَا يتحدَّث الناسُ أنَّ محمدًا يَقتُل أصْحابَه» ٥٣٨
«الرَّجُل راعٍ في أهله ومَسؤولٌ عَن رعيَّته» ٥٤١
«ومَن راءَى راءَى اللهُ به» ٥٤١

«أنا أغنَى الشُّركاء عَن الشِّرك، مَن عمِل عملًا أشرك فيه مَعِيَ غَيري تركتُه وشِرْكه» . ٥٤١
«مَن قاتَل لتكون كَلمةُ الله هي العُليا فهو في سَبيل الله» ٥٤١
«قولوا: الله أعلى وأجَلُّ» ٥٤٣

فهرس الفوائد

الفوائد **الصفحة**

لفظ الجلالة (الله) علَمٌ على ذات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٨
عِلْم الله تعالى يَتعَلَّق بالأشياء في أَحوالها الثلاثِ؛ قبل الوُجود، وحين الوُجود، وبعد العَدَم ١٥
هلِ العِلْم والحِكْمة من الصِّفات الذاتية أو الفِعْلية؟ ١٧
هل عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ يَشمَل الحاضِر والمُستَقبَل والماضي؟ وهل هو مُتعَلِّق بالواجِب أو بالمُستَحيل أو بالمُمكِن أو بالجميع؟ ١٩
اصطِلاح المُفَسِّر في القراءات السبعيَّة والشاذَّة ٢٢
الرُّبوبية نَوْعان: عامَّة وخاصَّة ٢٥
العُبودية نَوْعان: عامَّة وخاصَّة ٢٥
الذي يَدَّعي العِصْمة لغير الرُّسُل رجُل ضالٌّ ٢٦
وُجُوبُ تَقديم الوحيِ على الرأيِ ٢٧
أقسام التَّوكُّل على الله تعالى ٣٠
الجَعْل الذي يُضاف إلى الله تعالى يَنقَسِم إلى قِسْمين ٣٣
كيف يَنسب العلماء أحَدًا من الموالي إلى مَن أَعتَقَه؟ ٤٩
هل الاتِّصال بين المُخِّ والقَلْب سَريع أو بَطيء؟ ٥٤
كُلُّ شيءٍ لا يَتعمَّدُه الإنسانُ بِقَلبه فإنَّه لا إِثْم عليه فيه ٦٠
الكُتُب التي بأَيْدي الملائِكة هل تُغَيَّر وتُبَدَّل بالزِّيادة والنَّقْص والتَّغيير؟ ٧٣

مَفْعولاتُ الله عَزَّوَجَلَّ لها جِهتان ١٠٨
طلَبَةُ العِلْم قد يُوَاجِهون بعضَ المَصاعِبِ في الدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ ١١٠
مَرَض القَلْب أخطَرُ من مَرَضِ البدَن بكثيرٍ ١١٢-١١٣
الله تعالى يُقسِم عن الشيء لا في جانب الإنكار، ولكن في جانب الأهمية ١٢٨
(لن) تُفيد ثلاثَةَ أشياءَ؛ النَّفي والنَّصْب والاستِقْبال ١٣٠
ولايةُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تَنقَسِم إلى قِسْمَيْن ١٣٨
الردُّ على شُبهة الذين يَدْعُون الأصنام ثم قد يَحْصُل لهم ما دعَوْهُ أو ما دعَوْا به هذه الأصنامَ ١٤٠
مَن كان عنده خَوْف شَديد ودُعِيَ إلى القِتال فرفَض من أَجْل خَوْفه، فهل يُقال عليه: مُنافِق؟ ١٦٠
الإيمان زِيادته لها عِدَّة اعتِبارات ١٧٢
أرض الكُفَّار إذا فُتِحت عَنْوة فهي للمُسلِمين ٢٠٠
هل يَقدِر الله عَزَّوَجَلَّ أن يَجعَل الشيء مُتحَرِّكًا ساكِنًا في آنٍ واحِد؟ ٢٠٢
الفَرضيون يَقولون: زَوْجٌ. للذَّكَر، وزوجة. للأُنْثَى من أجل البيان والإيضاح ٢٠٣-٢٤٠
الطاعة بالنِّسْبة لطاعة الله وبالنسبة للرسول ﷺ ٢١٣
أنواع الإرادة: شَرْعية وكَوْنية ٢٣٣
مَنْ هُمْ: (آلُ البَيْت)؟ ٢٣٥
زَوْجات الإنسانِ مِن آل بَيْته ٢٣٦
آياتُ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تَنقَسِم إلى قِسْمين ٢٤٧
حُكم القَسَم بآيات الله تعالى ٢٤٨

أنواع الصَّبْر ٢٦١
الصبرُ هل هو واجِبٌ أو مُستَحَبٌّ؟ ٢٦٣
استِخدام لَفْظ (اللِّواط) ليس فيه إساءة إلى لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ٢٦٩
إذا استَمْنَى رجُل في رَمضانَ فهل عليه كفَّارة؟ ٢٧٠
أَنْواعُ ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ ٢٧١
تارِكُ المَعاصِي له ثلاثُ حالات ٢٧٤
هل رُخِّص في شيء من الكَذِب؟ ٢٧٩
حكم مَحبَّة الإنسان لزوجة غيره ٢٩٤
الفَرْق بين الشِّرْك والكُفْر ٣٥٠
فِعْل الأسباب من تَمام التَّوكُّل على الله تعالى ٣٥١
مَن آذَى النبيَّ ﷺ فإنه مُؤْذٍ للمُؤمِنين ٣٥٤
حُكم من تَزوَّج امرأةً ووجَد أنها قد جُومِعت مِن قَبْلُ ٣٥٦
الدَّليل على أن الأَكْل والشُّرْب حرامٌ على الكُفَّار ٣٦٩
حُكم الإشهاد على عقد النكاح ٣٧٨
للمَهْرِ ثلاث حالاتٍ ٣٧٩
مِلْك اليَمين أسبابُه مُتعَدِّدة ٣٨٢
ما الفَرْق بين المَجوسية والوَثنِيَّة في ملك اليمين؟ ٣٨٢
مصالح اتصال النبي ﷺ بعدة زوجات ٣٨٥
العِلْم ليس بالأَمْر الهَيِّن (فائدة جليلة) ٣٩٢
الحِلْم تَأخير العُقوبة وليس العَفوَ عنها ٣٩٨
هلِ العَقْل في القَلْب أو العَقْلُ في الدِّماغ؟ ٤٠٤

تَعلُّق عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ بالمَعلوم له حالان ٤٠٥
الفَرق بين الإِذْن العُرفي والإِذْن اللَّفظِي ٤١٧
إذا اقتَرَنَتِ الكاف باسْمِ الإشارة فإنه يُراعَى في اسم الإشارة المُشار إليه، وفي الكاف المُخاطَب ٤٢٣
حُكم دُخول الإنسان المَدعوِّ وإن لم يُؤذَن له إذا وَجَد الباب على هَيْئة تَدُلُّ على الإِذْن ٤٣٨
دَلالةُ القُرآن على الأشياءِ نَوْعان ٤٤١
حُكم مُكالَمَة النِّساء غيرِ زَوْجات الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٤٤٢
هل يَنبَغِي للضَّيْف أن يَسأَل عن طعام المُضَيِّف إذا قدَّمه له؟ ٤٤٥
ماذا يطلق على المَقتول في المَعرَكة؟ ٤٥٧
مِمَّا تَتَأَكَّد الصلاة على النبيِّ ﷺ فيه ٤٦٢
أكثَرُ الناس عندما يُسلِّم يَستَحضِر أنها تحية فقَطْ ٤٦٦
معنى جُمَل (التحيات لله...) إلخ ٤٦٧
حُكم كتابة: «رسول الله (ص)» أو «قال رَسول الله (صلعم)» ٤٧١
هل تَجوز الصلاة على غير الأنبياء؟ ٤٧١
أَذِيَّة المُؤمِنين بماذا تَكون؟ ٤٧٨
الكِتابيات إذا تَزوَّجْن من المُسلِمين هل يُخاطَبْن بالحِجاب؟ ٤٨٢
ما هو الجِلْباب؟ ٤٨٥
مَفهوم الحِجاب الشَّرْعيِّ ٤٩٠
فوائد ذِكْر العِلَل في الأحكام الشرعيَّة ٤٩٠

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة

تقديم ٥

سورة الأحزاب ٧

" قال الله عزّوجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ ١١

" قال الله عزّوجلّ: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ ٢١

" قال الله عزّوجلّ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾ ٢٨

" قال الله عزّوجلّ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ ٣٣

" قال الله عزّوجلّ: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾ ٤٦

" قال الله عزّوجلّ: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ ... ٦١

" قال الله عزّوجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ ٧٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ ... ٨٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ ٩٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ ١٠٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ ١٠٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ ١١٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ ١١٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ ١٢٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾ ١٢٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ ١٣٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ ١٣٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ ١٤٢

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ ١٤٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ ١٥٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ ١٦١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ ١٦٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ ١٧٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ ١٨١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ ١٨٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ ١٩٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ ١٩٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨﴾ ٢٠٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩﴾ ٢٠٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠﴾ ٢١٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ ٢١٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾ ٢١٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ ٢٢٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾ ٢٤٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾ ٢٥٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ ٢٨٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ ٢٩٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾ ٣٠٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ ٣١٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ ٣١٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ ٣٢٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ ٣٢٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ ٣٣٢

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ ٣٣٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾ ٣٤٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ ٣٤٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن

قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ٣٥٥

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ٣٦٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ٣٩٤

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ٤٠٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ ٤١٥

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ٤٤٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ٤٥٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ٤٧٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ٤٧٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ٤٨١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ٤٩٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ٥٠٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ٥٠٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ ٥١١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ ٥١٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ ٥١٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ ٥٢٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ ٥٣١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ ٥٣٤

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ ٥٣٧

فهرس الأحاديث والآثار ٥٤٧

فهرس الفوائد ٥٥٧

فهرس آيات السورة ٥٦١

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٢)

تفسير القرآن الكريم

سورة سبأ

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٢)

تفسير القرآن الكريم

سورة سبأ

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة سبأ. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
٣٣٦ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٤٢)
ردمك: ٨ ـ ٥٢ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة سبأ ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٣٤

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٣٤
ردمك: ٨ ـ ٥٢ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من :
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[1]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخ مُحَمَّد بنِ صالِح العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَرِيمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزَاء، ويُضَاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ فِي المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ
فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ
٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سورة سبأ

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

قال المُفَسِّر[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، وَهِيَ أَرْبَعٌ أَوْ خَمْسٌ وَخَمْسُونَ آيَةً].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَكِّيَّةٌ] المكِّيُّ على المشهور: هو الذي نزَل قبل الهِجرة، والمَدنيُّ ما نزَل بعد الهِجْرة، فيَعتَبِر الجمهور المَكِّيَّ والمَدنيَّ بالزمَن لا بالمَكان، فما كان بعدَ الهِجْرة فهو مَدنيٌّ، وما كان قبلَها فهو مكِّيٌّ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إِلَّا ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾]؛ لا يُقبَل استِثْناءُ شيءٍ منَ السُّور المَكِّيَّة والمَدنيَّة إلَّا بدليل؛ أي أنَّه إذا كانت السُّورة مَكِّيَّة فجميع آياتها مَكِّيَّة إلَّا بدليل، وإذا كانت مَدنيَّة فجميع آياتها مَدنيَّة إلَّا بدليل، فاستِثْناء المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآيةَ نَنظُر في مَوضِعها، إذا كان هناك دليلٌ يَدُلُّ على أنها نزَلَت في المدينة قبِلْناه وإلَّا فلا.

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾. البَسمَلة: آيةٌ مُستَقِلَّة من كِتاب الله عَزَّوَجَلَّ، يُؤتَى بها للفَصْل، أو يُؤتَى بها لبَدء السُّورة، إلَّا في (براءَة) فإنه ليس فيها بَسمَلةٌ؛ لأنها لم تَنزِلْ بَسمَلةٌ بينها وبين الأَنفال فتُرِكَت، والجارُّ والمَجرور مُتعلِّقٌ بمَحذوف؛ لأنَّ كل جارٍّ ومَجرور لا بُدَّ أنْ يَتعَلَّق بشيءٍ؛ إذ إنَّ الجارَّ والمَجرور مَعمول، وكل مَعمولٍ فلا بُدَّ له من عامِلٍ، وعليه فكلُّ جارٍّ ومَجرورٍ فإنَّه لا بُدَّ له من مُتعلَّقٍ؛ أي: مِن شيء يَتعلَّق به، وكذلك الظَّرْفُ، والمُتعَلَّق: إمَّا أن يَكون فِعلًا أو ما بمَعنَى الفِعْل، وهنا نُقدِّر المُتعَلِّق فِعْلًا؛ لأنَّه الأصل في العمَل؛ ولذلك لا يَعمَل غيرُ الفِعْل عمَل الفِعْل إلَّا بشُروط، وكلُّ شيءٍ لا يَتِمُّ عمَله إلَّا بشروط فإنَّ ذلك لأنَّ الأصل عدَمُ العَمل.

ولهذا غيرُ الأفعالِ كالأسماء والمَصادِر وشَبَهها لا تَعمَل عمَل الفِعْل إلَّا بشُروط، أمَّا الفِعْل فيَعمَل بدون شُروط ونُقدِّره -أي: الفِعْل- مُتَأَخِّرًا عن الجارِّ والمَجرور لفائِدَتَيْن:

الفائِدة الأُولى: التَّيمُّن بالابتِداء بذِكْر اسْمِ الله عَزَّوَجَلَّ.

الفائِدة الثانية: الدَّلالة على الحَصْر.

فنُقدِّر العامِل مُتأخِّرًا نظرًا لهاتين الفائِدتَيْن.

ونُقدِّره فِعْلًا خاصًّا، فنَقول مثَلًا عند ابتِداء القِراءة: التَّقديرُ: بسم الله أَقرَأُ، وعند الوضوء: التَّقديرُ: بسْمِ الله أَتوضَّأ، وعند الأكل: بِسْم الله آكُلُ، وهكذا، وإنما نُقدِّره خاصًّا لأنه أدَلُّ على المَقصود، ويَصِحُّ أن نُقدِّره عامًّا ونَقول: التَّقدير بِسْم الله أَبتَدِئُ أو بِسْم الله أَبدَأُ؛ ولكن الخاصَّ أَوْلى.

فصار عندنا ثلاثة أمور: لا بُدَّ مِنْ مُتعَلَّق مُتأَخِّر خاصٍّ، وتَقدُّم التعليل.

وقوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ مُفرَد مُضاف فيَعُمُّ، ويَكون المَعنى: بكُلِّ اسْمٍ من أسماء الله تعالى أَبتَدِئ، وناسَب ذِكْر ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دون غيرهما من الأَسْماء لأنها -أي: البَسمَلة- يُؤتَى بها للاستِعانة، وأَنسَبُ ما يَكون للاستِعانة هي الرحمة؛ فلهذا أُتبِعَ لفظُ الجلالةِ بهذَيْن الاسْمَيْن الكريمين.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ﴾ أَصلُه الإِلهُ، هذا أَصَحُّ ما قيل فيه، وحُذِفت الهَمْزة لكَثْرة الاستِعمال؛ كما حُذِفَت الهَمزة من (الناس) وأصلُها (أُناس) وحُذِفت الهَمزة من (شَر) ومن (خَيْر) وأصلُها (أَشَرٌّ) و(أَخْيَر).

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ اسْمٌ مِن أَسماء الله تعالى دالٌّ على سَعة رَحْمته عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فَعْلان يَدُلُّ على السَّعـة والامتِلاء؛ وانظُرْ ذلك في كلِـمة (غَضبان) و(نَدمان) و(سَكران) و(عَطشان) و(رَيَّان) وما أَشبَهَها؛ تَجِدْ أنَّ هذه الصِّيغةَ دالَّةٌ على السَّعة والامتِلاء.

ولهذا قال بعضُ السلَف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنَّ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ رحمةٌ عامَّة لجميع الخَلْق، وأمَّا ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فهي: دالَّة على الفِعْل أي: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَرحَم برَحْمته الواسِعة.

فـ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ دالٌّ على الفِعْل وهو إيصال الرحمة إلى المَرْحوم.

و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ دالٌّ على الصِّفة وهي اتِّصاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذه الرَّحمةِ الواسِعة.

• ● ۞ ● •

الآيـة (١)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ:١].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حَمِدَ تَعَالَى نَفْسَهُ بِذَلِكَ، وَالمُرَادُ بِهِ الثَّنَاءُ بِمَضْمُونِهِ مِنْ ثُبُوتِ الحَمْدِ؛ وَهُوَ الْوَصْفُ بِالْجَمِيلِ للهِ تَعالَى].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: (أل) يَقول العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنها للاسْتِغراق؛ أي: كلُّ حَمْدٍ، و(أل) الَّتي للاستِغراق هي التي يَحِل مَحلَّها (كلٌّ) مِثْل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:٢] أي: كلُّ إنسان لَفِي خُسْر، وقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، أي: كلُّ إنسان؛ فمَعناها: أنَّ كلَّ حَمْدٍ فهو لله تعالى، واللَّام هنا للاستِحْقاق والاختِصاص؛ للاستِحْقاق لأنَّه لا أحَدَ يَستَحِقُّ أن يُحمَد لِذاته إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، والاختِصاص لأنَّ الحَمْد المُستَغرِق لكُلِّ المَحامِد لا يَكون إلَّا لله عَزَّوَجَلَّ.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حَمِدَ تَعالى نَفْسَه بِذَلِكَ] يَعني: حَمِدَ الله تعالى نَفْسَه بهذا الوصفِ الذي هو الحَمْد [والمُراد به الثَّناء بمَضمونه من ثُبوت الحَمْد]؛ يَعني: ليس هذا تَجديدًا لحَمْد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكنه ثَناءٌ على الله تعالى بمَضمون الحَمْد [وَهُوَ الوَصْفُ بِالْجَمِيلِ للهِ تَعَالَى]، ولو قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الوَصْف بالكَمال لكان أعَمَّ، فالحَمْدُ وَصْفُ المَحمود بالكَمال، هذا الحَمدُ، فإن كُرِّر وَصْفه بالكَمال صار ثَناءً؛

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] فيُجيب الله: حمِدني عَبْدي. فإذا قال العبدُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] يُجيب الله تعالى: أَثنَى عليَّ عبدي[1]. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحمَد على ما لَه من الكَمال الذاتيِّ، والكَمال المُتعدِّي للغير، أي: على كَماله بذاته وعلى كماله بفِعْله وإحسانه عَزَّوَجَلَّ فيُحمَد على الأَمْرين جميعًا، أمَّا غيره فلا يُحمَد إلَّا على فِعْله إنْ كان فِعْله ممَّا يُحمَد عليه، أمَّا حَمْدٌ للذات نفسِها فهذا لا يَكون إلَّا لله تعالى.

فمثَلًا إذا حَمِدْنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على ما لَه من صِفات الكَمال؛ كالسَّمْع والبصَر والعِلْم والقُدْرة والعظَمة وما أَشبَهها، فهذا حَمْدٌ على الكمال الذاتيِّ، وإذا حَمِدْنا الله تعالى على ما لَه من الإحسان والإنعام فهو حَمْدٌ على الكَمال المُتعدِّي، فإذا حَمِدْناه عَزَّوَجَلَّ على إنزال الغَيْث وإنزال الكُتُب وإرسال الرُّسُل ودَفْع الضَّرَر فهذا حَمْد على الكَمال المُتعدِّي.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وخَلْقًا] ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هذا كالتَّعليل للحَمْد؛ لأنَّ هذا الوَصْفَ يَدُلُّ على العِلِّيَّة؛ أي: يَحمَد الله تعالى نَفْسَه؛ لأنَّه مالِكٌ لما في السَّمَوات وما في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يَشمَل العُقَلاء وغيرَ العُقَلاء؛ ولهذا أَتَى بـ﴿مَا﴾ لأَجْل أن يَشمَل هؤلاءِ وهؤلاءِ؛ وإنما غُلِّبَ غيرُ العُقَلاء؛ لأنَّهم أكثَرُ من حيثُ النَّوْع، أمَّا مِن حيث العَدَد فإنَّ في ذلك شَكًّا؛ لأنَّ الملائِكة عليهم الصلاة والسلام لا شَكَّ أنهم من العُقَلاء، وهم لا يُحصيهم إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ؛ «مَا مِنْ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

مَوْضِعِ أَرْبَعِ أَصَابِعَ فِي السَّمَاءِ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ»[١].

وقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جَمْع سماءٍ، وجُمِعت لأنها مُتعَدِّدة، فهي سَبْع سمَواتٍ، كلُّ واحِدةٍ فوق الأُخرى، وهي مَأخوذة من السُّمُوِّ، وهو العُلُوُّ والرِّفْعة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ أُفرِدَت، لكنَّ المُراد بها الجِنْس فتَشمَل الأرَضين السَّبْعَ؛ لأن الأرَضين سَبْع بصريح السُّنَّة، وسَبْع بظاهِر القُرآن، فهي سَبْع بصريح السُّنَّة؛ لقول النبيِّ ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[٢]، وبظاهِر القُرآن؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، فإن المِثْليَّة هنا قطعًا ليست بالصِّفة فتكون بالعَدَد.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُلْكًا وَخَلْقًا]، يَعنِي: أنه هو الذي خلَقَها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو المالِكُ لها المُدبِّر، ولو قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وتَدبيرًا) لكان أَبْينَ، وإن كانت كلِمة [مُلْكًا] تَتضَمَّن التدبير.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له ما في السَّمَوات والأرض خَلْقًا فلم يَخلُقْها إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، ومُلْكًا فلا مالِكَ لها إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، وتَدبيرًا فلا تَدبيرَ لأَحَدٍ فيها على وجه الإطلاق إلَّا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ كالدُّنْيا يَحمَده أَوْلياؤُه إذا دخَلوا الجَنَّة].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٧٣)، والترمذي: كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا**»، رقم (٢٣١٢)، من حديث أبي ذر الغفاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد ابن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ هنا خَصَّ الحَمْد في الآخِرة مع أنه محمودٌ في الدُّنيا والآخِرة؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آيةٍ ثانية: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ [القصص:٧٠]، لكنَّه ذَكَر ذلك؛ لأنَّ ظُهور حَمْده في الآخِرة أَبيَنُ وأَوْضَحُ، فإنَّ في الدُّنيا مَن يُنكِر حَمْد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويَكفُر به، ولا يَرَى إلَّا أنَّ هذه الدُّنيا طبيعة تَتَفاعَل بذاتها وليس لها مُدبِّر، ومَنِ اعتَقَد هذا الاعتِقادَ فهل يُمكِن أن يَحمَد الله عَزَّوَجَلَّ؟ أبدًا! لا يُمكِن حتى لو رَأَى الخَيْر واندِفاع الشَّرِّ فإنَّه لا يَحمَد الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه لا يُقِرُّ به، لكِن في الآخِرة لا يُمكِن لأحَدٍ إلَّا أن يَحمَد الله عَزَّوَجَلَّ، فالحَمْد في الآخِرة لله عَزَّوَجَلَّ، كما أنَّه أيضًا في الآخِرة لا أحَدَ يُحْمَد إلَّا النادِر، قال الله تعالى للنبيِّ ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]، أمَّا بقية الناس ممَّن لم يَحمَدهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنهم ليس لهم حَمْد في الآخِرة، فأنت في الدُّنيا تَحمَد من يُحسِن إليك لكن في الآخِرة لا تَحمَد صديقَكَ ولا صاحِبكَ، اللهمَّ إلَّا أن يَكون ذلك بعد دُخول الجَنَّة فرُبَّما.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ كَالدُّنْيَا]، يَعنِي: كما أنَّ له الحَمْدَ في الدنيا، وكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا التَّقديرِ يَقول: إنه حُذِف الشِّقُّ الآخَر لدَلالة السِّياقِ عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل:٨١]، يَعنِي: والبَرْدَ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَحْمَدُهُ أَوْلِيَاؤُهُ إِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ]؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ [الزمر:٧٤]، ولكِنَّ الصحيحَ أنَّه يَحمَد حتى على جزائه الكافِرين؛ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال في آخِر سُورة الزُّمَر لما ذكَر سَوْق أهل النار إلى النار وأهل الجَنَّة إلى الجَنَّة، قال تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ

لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥]، فإن الله تعالى يُحْمَد على كَمال عَدْله وكَمال فَضْله، ومُجازاته لأهل النار من بابِ العَدْل فيُحمَد عليه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ فِي فِعْلِهِ]، وهذا فيه قُصور؛ لأنَّه حَكيمٌ في شَرْعه وفِعْله أيضًا؛ الذي هو القَدَر، فليسَتِ الحِكْمة خاصَّةً بالفِعْل، بل حتى في الشَّرْع الذي يَكون بكلامه فإن الشَّرْع هو الوحيُ وهو كلامُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليس فِعْلًا له، بل هو كلامه، وكذلك فِعْله وهو حَكيم فيه، والحِكْمة مَأخوذة من الإِحْكـام وهو الإِتْقان؛ ولهذا يُقال في تَفسيرها: إنَّها وَضْع الشيءِ مَوضِعَه، وهذا هو الإِتْقان، ولكِنْ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ له مَعْنيان: الحاكِم والمُحكِم؛ لأنَّها مَأخوذةٌ مِنَ الحُكْم ومن الإِحْكام، وأنَّ حُكْم الله تعالى نَوْعان: حُكْم شَرْعيٌّ وحُكْم كَوْنيٌّ، وأنَّ الحِكْمة نوعان أيضًا: صُورية وغائِيَّة.

فالصُّورية: بمَعنى أن كون هذا الشيءِ على هذا الصُّورةِ المُعيَّنة مُوافِق للحِكْمة.

والغائِيَّة: بأن الغاية من هذا الشيءِ حِكْمةٌ يُحمَد الله تعالى عليها.

فمَثَلًا كونُ الصـلاة على هذا الوجهِ والصيـامِ على هذا الوجهِ والوضوءِ على هذا الوجهِ؛ هذه في الأُمور الشَّرْعية، وكذلك في الأُمور الكَوْنيَّة؛ كون خِلْقة الإنسان على هذا الوجهِ والشمسِ والقمَرِ وما أَشبَـه ذلك؛ هذه حِكْمة صُوريَّة، بمَعـنَى: كونُ الشَّيْءِ على هذه الصورةِ المُعيَّنة هذا لا شَكَّ أنه مُوافِقٌ للحِكْمة، ثُمَّ الغاية من ذلك الشيءِ حِكْمةٌ أُخرى.

وتكون هذه الحِكْمةُ الصُّوريةُ والغائِيَّة في الشَّرْع وفي القَدَر، وإذا ضَرَبت اثنَيْنِ في اثنَيْنِ تَكون أربعةً:

١- حِكْمة غائِيَّة في الشَّرْع. ٢- حِكْمة صُورية في الشَّرْع.

٣- حِكْمةٌ غائِيَّةٌ في القَدَر. ٤- حِكْمة صُورية في القَدَر.

وكُلُّ ذلك ثابِت لله عَزَّوَجَلَّ، وإذا آمَن الإنسان بهذا اطمَأَنَّ إلى أحكام الله تعالى الكَوْنية والشَّرْعية، ولم يَنقَدِح في ذِهْنه أيُّ اعتِراض؛ لأنَّه يَعلَم أنَّ هذا صادِرٌ عن حِكْمـة، وإذا عَلِم أنَّه صادِرٌ عن حِكْمة فإنه لا يَبـقَى في قلبه شَكٌّ من أنَّ هذا هو عيْنُ الصواب، وهو الذي تَقتَضيه الحِكْمة؛ وبهذا يَطمَئِنُّ الإنسـان إلى شريعة الله تعالى، ويَطمَئِنُّ الإنسان أيضًا إلى قدَرِ الله عَزَّوَجَلَّ، ويَعلَم أن هذا هو الصوابُ الذي لا يَجوز غيرُه.

و(حَكِيمٌ) بمعنى حاكم فهو إذا صيغة مبالغة (فعيل)، وإذا كان (حكيم) من أحكم فهو بمعنى محكم وفعيل تأتي بمعنى مفعل ومنه قول الشاعر[1]:

أَمِـنْ رَيْحانَـةَ الـدَّاعِي السَّـمِيعُ يُـؤَرِّقُنِي وَأَصْـحَابِي هُجُـوعُ

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بِخَلْقِهِ]، و(الخبير) معناها: ذو الخِبْرة وهي العِلْم ببواطِن الأُمور، ومنه سُمِّي الزارع خبيرًا؛ لأنَّه يَستُر الحَبَّ بالحَرْث، وهل يُنافي ذلك العِلْمَ بظواهِر الأُمور؟ لا، بل إنَّه يُؤيِّده لأنَّ الذي يَعلَم ببواطن الأُمور من بابِ أَوْلى أن يَعلَم بظواهِرِها، والحِكْمة دائِمًا يَقرُنها الله عَزَّوَجَلَّ بالعِزة وبالعِلْم، وهنا قُرِنت بالعِلْم الذي يَتضمَّنه الخِبْرة وإنما يَقرُنها الله عَزَّوَجَلَّ بذلك ليَتبيَّن أنَّ حِكْمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَبنيَّة على عِلْمه وأنَّه إذا تَراءَى لك أن هذا الشيءَ ليس بحِكْمة فذلك لنُقْصان عِلْمك، وإلَّا ولو كان عندك عِلْمٌ وفَهْمٌ لعَرَفت أنَّ الحِكْمة فيما شرَعَه الله عَزَّوَجَلَّ وفيما قدَّره.

---

(١) البيت لعمرو بن معدي كرب، انظر: الأصمعيات (ص:١٧٢)، الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣٦٠).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: ثُبوتُ الحمد الكامِل لله عَزَّوَجَلَّ في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى آخِرِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذا الحَمْدَ الذي ثبَت له هو أَهْل له؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾؛ لأنَّ اللَّام -كما تَقدَّم- للاستِحْقاق والاختِصاص.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ثناء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على نَفْسه لأَجْل مَصلَحة العِباد؛ لأننا نحن لا نَستَطيع أنَّ نُثنِيَ على الله أو نُحصِيَ ثَناءً عليه؛ فإذا حَمِد الله نَفْسَه فهذا من مَصلَحَتِنا؛ لأنَّه يُعلِّمنا عَزَّوَجَلَّ كيف نَحمَده، وكيف نُثنِي عليه؛ وهو أهلٌ لأن يَمدَح نَفْسَه عَزَّوَجَلَّ ويُثنِيَ عليها لَمصلَحة عِباده، وإلَّا فهو في غِنًى عن كونه يُظْهِر لنا من صِفات الكَمال ما يُظْهِر، ولكن هذا من أَجْل مَصلَحَتنا.

وهذه الفائِدةُ قد تكون مَبنِيَّة على سُؤال مُقدَّر: كيف يُثنِي الله تعالى على نَفْسه؟ وهل مَدْح الشَّخْص نَفْسَه يُعتبَر مَنقَبةً أم لا؟

فالجوابُ: أن يُقال: إنَّ الله تعالى يَمدَح نَفْسَه لا لحاجته إلى أن نُثنِيَ عليه أو أَنْ نَعرِف كماله؛ لأنَّه الكامِلُ، لكن من أَجْل مَصلَحَتِنا، إذ إننا لا نُحصِي ثَناءً عليه، ولا نَعرِف ماذا نُثنِي به عليه إلَّا عن طريق وَحْيه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: عموم مُلْك الله تعالى؛ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهنا حَمِد نَفْسَه على عُموم مُلْكه، وقد يَحمَد نَفْسَه على فِعْله مِثْل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١]، وقد يَحمَد نَفْسه على شَرْعه، مِثْل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾... ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ

عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف:١].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ السَّمواتِ جَمْعٌ؛ يَعنِي: أَكثَرُ من واحِدة؛ لقَوْله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ومِن أَدِلَّة أُخْرى قد ثَبَت أنها سَبْع، وكذلك الأَرْضُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ظهور كَمال الله عَزَّوَجَلَّ يوم القِيامة؛ أَظهَرَ ممَّا يَكون في الدُّنيا؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، فالمُلْك عامٌّ، وظهور الحَمْد جَلِيًّا واضِحًا يَكون في الآخِرة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: ثُبوت البَعْث؛ لقوله تَعالى: ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: عُموم عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ يُؤخَذ مِن قَوْله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ وما جاء مِن التَّفصيل بعدها؛ لأنَّ الخَبير هو العالِم بالبَواطِن، والعالِم بالبَواطِن عالِم بالظَّواهِر.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات هَذَيْن الاِسْمَين الكَريمين لله عَزَّوَجَلَّ، وهُما: ﴿ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثبات حُكْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكَونيِّ والشَّرْعيِّ، وإثباتُ حِكْمته المُتعَلِّقة بالكون والمُتعَلِّقة بالشَّرْع.

ويَتفَرَّع على هذه القاعِدةِ وجوبُ التَّسليمِ لقَضائه الكونيِّ والشَّرْعيِّ بحيثُ لا نُورِد أيَّ اعتِراضٍ؛ حتى وإن جاء على ما ظاهِرُه خِلافُ الحِكْمة فإنَّه يَجِب أن نَتَّهِم عُقولَنا؛ لأنَّه إذا ثبَت أنه عَزَّوَجَلَّ حكيم في الحُكْمين الكونيِّ والشَّرْعيِّ لزِمَ من ذلك التَّسليمُ للقَضاء الكونيِّ والشَّرْعيِّ؛ لأنَّه صادِرٌ عن حِكْمة، لكِنَّ هذه الحِكْمةَ قد تَخفَى علينا.

الآيـة (٢)

ثُمَّ فصَّل شيئًا من عِلْمه:

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سبأ:٢].

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ ﴾ يَدْخُلُ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كَمَاءٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كَنَبَاتٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مِنْ رِزْقٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ يَصْعَدُ ﴿فِيهَا﴾ مِنْ عَمَلٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ بِأَوْلِيَائِهِ ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لَهُمْ] هذا من باب التَّفصيل.

وقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: ﴿مَا﴾ اسم مَوصول يُفيد العُموم، و﴿يَلِجُ﴾ بمَعنى: يَدخُل، فكُلُّ ما يَدخل في الأرض فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَعلَمه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كَمَاءٍ] الماء يَدخُل إلى الأَرْض ويَخرُج منها، فإذا أَنزَل الله عَزَّوَجَلَّ الماء من السَّماء أَدخَله في الأرض يَنابيعَ، وإذا أَراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَخرُج خرَج بآلة أو بغير آلة.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَغَيْرِهِ] كالأموات وغيرهم؛ كالأَشياء التي لها جُحور في الأرض، والنَّبات أيضًا وبُذورها أيضًا، كلُّها داخِلة في الأرض.

المُهِمُّ: أن ما يَلِج في الأرض لا يُحصَى أَصنافه فضلًا عن أفراده وهو واسعٌ

جِدًّا، والله عَزَّوَجَلَّ يَعلَمه حتى الذَّرَّة التي تَدخُل في جُحْرها يَعلَمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كَنَبَاتٍ وَغَيْرِهِ] فالنَّبـاتُ واضِح؛ و[غَيْرِهِ] كالماء والمعادِن والحَيوانات التي تَنتَشِر في الأرض، ومن ذلك الإنسانُ؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥] إخْراج وإدْخال، وقـوله تعـالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:١٧-١٨].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مِنْ رِزْقٍ وَغَيْرِهِ] كيف يَنزِل من السماء الرِّزْق؟ هل تَبـقَى في البيت كلَّ يَوْم ويَأتيك التَّمْر والثِّيـاب ويَنزِل من السماء؟

الجوابُ: لا ولكن الرِّزْق يَكون بالمَطَر مثلًا، يُنزِل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المَطَر فتُنبِت الأرضُ؛ ويَخرُج منها الماء والمَرعَى، قال تعالى: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس:٣٢]، وغير ذلك أيضًا: يَنزِل أَمْرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة:٥]، وتَنزِل أيضًا الملائِكة، وتَنزِل الشُّهُب تُرمَى بها الشياطينُ، وأشياءُ كثيرةٌ من هذا، الله عَزَّوَجَلَّ يَعلَمها.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ يَصْعَـدُ ﴿فِيهَا﴾ مِنْ عَمَـلٍ وَغَيْرِهِ]؛ هنا (يَعْرُج) بمَعنى يَصعَد و(يَعرُج) تُعدىَّ بـ(إلى) كما قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥]، وهنا قال: (يَعرُجُ فيها) والنَّحويُّون اختَلَفوا في مِثْل هذا؛ فمِنهم مَن قال: إنَّ الحَرْف بمَعنًى يُناسِب الفِعْل؛ يَعنِي: أَنْ يُجعَل حرفٌ بمَعنَى حرفٍ آخَر يُناسِب الفِعْل؛ فمَثَلًا يَقول: (في) بمَعنَى (إلى)، ومِنهم مَن يَقول: بلِ الحَرْف باقٍ على

مَعناه الأصل، ويُضَمَّنُ الفِعْلُ مَعنًى يُناسِب ذلك الحَرْفَ، وهذا مَذهَب البصريين فيَقولُ: ﴿يَعْرُجُ﴾ مُضَمَّنٌ مع مَعناه الظاهِر -وهو العُروج- معنى الدُّخول؛ يَعنِي: يَعرُج فيَدخُل فيها، ليس المُرادُ ما يَعرُج فقط ولا يَدخُل، وسَبَق لنا في مُقدِّمة التفسير لشيخ الإسلام ابنِ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ هذا المَذهَبَ هو المَذهَبُ الصحيح المحقَّقُ؛ وهو أن نُضمِّن الفِعْل معنًى يُناسِب الحرف؛ لأنَّ هذا التَّضمين يَجعَل للفِعْل مَعنيَيْنِ: أحدُهما: المعنى الظاهِرُ من اللَّفْظ، والثاني: المَعنَى الذي تَضمَّنه؛ ليُناسِب الحَرْف الذي تَعلَّق به.

ويَظهَر لك ذلك جَلِيًّا في قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦]، ومَعلومٌ أننا لا نَشرَب بالعَيْن إذ ليست بآلة للشُّرْب، ويَرَى بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أن نَجعَل الباء بمَعنى (مِنْ) أي: يَشرب منها؛ ويَرَى آخَرون أننا نُضمِّن (يَشرَب) مَعنى (يَروَى) فإذا ضمَّنَّا نَستَفيد فائِدتَيْن:

الأُولى: الشُّرْب.

والثانية: والرِّيُّ.

ولكن إذا قُلْنا: إنَّ الباء بمَعنى (مِنْ) لم نَستَفِد هذه الفائِدةَ.

فالمُهِمُّ: أن المَذهَب الصحيح هو أننا نُضمِّن الفِعْل مَعنًى يُناسِبُ الحَرْف، ولا نَجْعَل الحَرْف بمَعنَى حَرْفٍ آخَرَ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ بِأَوْلِيَائِهِ ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لَهُمْ] وهذا أيضًا من التَّخصيص بلا دليلٍ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لم يَذكُر مُتعلَّقها، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول: [بِأَوْلِيَائِهِ]

فعليه يَكون أعداؤُه لا رحمةَ لهم على كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، و﴿ٱلْغَفُورُ﴾ أيضًا لأَوْليائه؛ فأَعداؤُه لا مَغفِرةَ لهم، ولكنَّ الصحيح: العُموم؛ لأنَّ هذين الاِسْمَيْن مُطلَقان فيَبقَيان على إطلاقهما؛ فهو رحيم حتى بأعدائه، فالكافِر قد أَعطاه الله تعالى صِحَّة ورِزْقًا من اللِّباس والطَّعام والشَّراب والمَسكَن والزوجة والأَهْل، وكلُّ هذا رحمةٌ، لكنها رحمةٌ عامَّةٌ، يَعنِي: أنها لا تَكون خاصَّةً كرَحْمة المُؤمِنين.

والمَغفِرة أيضًا يَستَحِقُّها مَن تاب من عَداوته لله عَزَّوَجَلَّ، وإذا تاب فهو وَلِيٌّ من أَوْلياء الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن قد يَكون في الإنسان عَداوة ووِلايةٌ، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة:١٠٢]، وهم مُستَحِقُّون لمَغفِرة الله عَزَّوَجَلَّ.

إِذَنْ: فكَلِمة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ عامَّةٌ؛ لأنَّها تَختَصُّ بالفِعْل وهو إيصال الرحمة إلى المَرحوم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن من الأساليب البلاغية: الإجمالَ ثُمَّ التَّفصيلَ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ إلى آخِره، وفائِدة هذه الطريقةِ البَلاغية هي: أن الشيءَ إذا جاء مُجمَلًا تَشوَّفَتِ النُّفوس إلى تَفصيله، فجاء التَّفصيلُ وارِدًا على نُفوسٍ تَتطَلَّع إليه، فإذا ورَد التَّفصيلُ إلى نُفوس تَتطَلَّع إليه كان أَوْقعَ في النَّفْس وأَرسَخَ في القَلْب.

فلو قُلْتُ لكَ: حدَث البارِحةَ شيءٌ عَظيم ما دَرَيْتَ؟ البارِحة الساعة الواحِدة من الليل حدَث أمر عظيم؛ ما عَلِمْت؟! فتَتَشَوَّف إلى هذا وتَتَطَلَّع إلى هذا الشيءِ العَظيم.

لكن لو قُلْتُ لكَ: حدَث البارِحة مثلًا أن رُمِيَ بنَجْم فاستَنار نورًا عظيمًا، على

كلِّ حال تَقبَل هذا الخبَرَ، لكن ليس كالأَوَّل؛ لأنك في الأَوَّل ستَقول: ما هذا الشيءُ العظيمُ؟ تَقول: شيء عظيم، ما هذا الشيءُ؟! أَخبِرْني ما هذا الشيءَ؟ حتى يَرِدَ على قَلْبك وقد تَشَوَّفْت إليه كثيرًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَمام تَصرُّف الله عَزَّوَجَلَّ في مَخلوقاته؛ هذا يَلِج، وهذا يَدخُل، وهذا يَنزِل، وهذا يَعرُج؛ قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: من فَوائِدها -وهي فائِدة بَلاغِيَّة-: البَداءةُ بما يُماسُّ الإنسانَ وإن كان غيرُه أشرَفَ منه؛ لأنه تَحدَّث عمَّا يَلِجُ في الأرض وما يَخرُج منها قبل التَّحدُّث عمَّا يَنزِل من السَّماء وما يَعرُج فيها، وهذه الفائِدةُ بِناءً على أن السَّماء أَشرَفُ من الأرض، وهل هذا مُسلَّمٌ؟

الجوابُ: هذا فيه خِلاف بين العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، وفيه جدَلٌ كثير، منهم مَن يَرَى أنَّ السماء أَشرَفُ ويَقول: إنَّ السماءَ لو لم يَكُن فيها إلَّا المَلائِكةُ المُقرَّبون، وهي جهة عُلُوٍّ والسَّماء فيها أيضًا الله عَزَّوَجَلَّ فوقَها، ومنهم مَن يَرَى أن الأرض أَشرَفُ ويَقول: لأنَّها خُلِق منها أَفضَلُ المَخلوقات وهمُ الأَنبياءُ والرُّسُل، فهي أشرَفُ.

وهذا النِّزاعُ وإن كان نِزاعًا قد يُقال: إنه مِنْ فُضول العِلْم، لكنه على كلِّ حال في أوَّلِ وَهْلة يَرَى الإنسان أن السَّماء أَشرَفُ من الأرض، ولكن ذُكِرَتِ الأرضُ هنا لأنها تُماسُّنا أكثَرَ ونَعرِف عنها أكثَرَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الرحمة والمَغفِرة لله عَزَّوَجَلَّ، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾، وهنا قدَّم (الرَّحيم) على (الغَفور)، وإن كان الأكثَرُ في القرآن تَقديمَ (الغَفور) على (الرَّحيم)؛ لِما يَكون في السماء والأرض مِنَ المَصالِح والمَنافِع، والمَصالِح

والمَنافِع من آثار الرحمة، ودفعُ المَصائِب من آثار المَغفِرة؛ لأنَّ المَغفِرة: مَحْوُ الذَّنْب الذي تَزول فيه المَكروهات، والرحمة: حُصول الخير.

والرحمة عند أهل السُّنَّة والجَماعة: صِفة من صِفات الله عَزَّوَجَلَّ، حقيقةٌ ثابِتةٌ له، وعند الأَشاعِرة يَقولون: الرحمة هي الإحسان أو إرادة الإِحْسان، فيُفسِّرونها بالشيء المَفعول لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ يَعنِي: بالنِّعَم أو بإِرادة النِّعَم؛ لأنهم يُقِرُّون بصِفة الإرادة؛ فيُفسِّرون الرحمة بإرادة الإِنْعام والإحسان، أو بالإِنْعام والإحسان نَفْسه.

ولكِنَّ القَوْل الصوابَ المَقطوع به هو أنْ تُجرَى نُصوص الكِتاب والسُّنَّة فيما يَتعَلَّق بأسماء الله تعالى وصِفاته على ظاهِرها، فلا نَحتاج أن نَقول: (اللائِق بالله) إلَّا على سبيل الإيضاح فَقَطْ؛ لأننا نَعلَم عِلْم اليَقين أنَّ ظاهِرها لائِقٌ بالله تعالى، وليس ظاهِرُها كما يَقول أهل التعطيل: التشبيهُ! لأنَّه لو كان ظاهِرُ نُصوص الكِتاب والسُّنَّة في أسماء الله تعالى وصِفاته التَّشبيهَ أو التَّمثيلَ لكان ظاهِرُ القُرآن والسُّنَّة في هذا البابِ هو الكُفْرَ؛ لأنَّ مَن شبَّهَ الله تعالى بخَلْقه فقد كفَرَ، حيث كذَّب قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ومحالٌ أن يَكون ظاهِرُ الحَقِّ باطِلًا وكُفْرًا.

ولهذا إذا قُلْنا: إنَّ نُصوص الكِتاب والسُّنَّة في أسماء الله تعالى وصفاته تُجرَى على ظاهِرها اللائِق بالله تعالى؛ فهذا مِن باب الإيضاح، وإلَّا فإننا نَعلَم عِلْم اليَقين -الذي هو عندنا أَيقَنُ من الشمس-: أنَّ ظاهِرَها هو ما يَليق بالله تعالى، فلا حاجةَ إلى التَّقييد به، لكنَّنا قد نُقيِّده على سبيل الإيضاح فَقَطْ.

و(الرَّحمة) هل هي صِفةُ كَمالٍ من حيثُ هي؟ بقَطْع النَّظَر عن مَوصُوفها أو صِفةُ نَقْص؟

الجوابُ: هي صِفة كَمالٍ في الواقِع، حتَّى الرَّحمة في المخلُوق صِفة كمالٍ له، وعجبًا مِن هؤلاءِ الذِين يُنكرونها ويَقولون: إنَّ الرَّحمة تدلُّ على رِقَّةٍ ولِينٍ ومَا أشبَه ذَلِك، ونَقول: الرِّقَّة واللِّين في مَوضعِها كمالٌ، والغِلظة والشِّدة في مَوضعِها كمالٌ، وفي ذَلِك يَقول المتنبيُّ:

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى[1]

النَّدَى: العَطاء والبَذْل، وهو حِكْمة؛ يَقول: وَضْع النَّدى في مَوضِع السَّيْف مُضِرٌّ بالعُلا والأَخْلاق؛ لأنَّ الذي يَستَحِقُّ السَّيْف أَحسَن ما نَضَع له السيفُ؛ فلو أنَّ مُجرِمًا مُفسِد في الأرض أَمسَكْناه وقَدَرْنا عليه نَقول له: (هذه الفِلَّة لكَ، وهذه السَّيَّارةُ لكَ، وهذا المُستَوْدَعُ المَملوء بالخَزائِن الذهَب والفِضَّة لكَ؛ لأنك مُجرِم)؛ هل هذه حِكْمة؟ الجوابُ: لَيْسَت حِكْمةً.

(كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى)، وإنسان صاحِب خَيْر وإحسان ومُستَحِقٌّ لأن يُكرَم، فجِيءَ به ووضَعْناه على نِطَع القَتْل؛ قلنا: سنَقتُلُك الآنَ؛ لأنَّك مُحسِن. هل هذه حِكْمة؟ الجوابُ: ليست بحِكْمة.

فهذا البَيْتُ من أَعظَمِ ما يَكون من أبيات الحِكْمة والمُتنبِّي مَعروف بأنه حَكيم الشُّعَراء.

فنَقول: إن الرَّحْمة صِفة كَمال من حيثُ هي هي، فإذا أُضيفَت إلى الله عَزَّوَجَلَّ صارت أَكمَلَ وأَكمَلَ.

• • ❁ • •

(١) الألفية (ص:٤٥).

الآيــة (٣)

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ:٣].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: بالله عَزَّوَجَلَّ وبقُدْرته وبحِكْمته، قالوا: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ هل قالوا هذا اللَّفظَ أَمْ قالوا مَعنَى هذا اللَّفظِ؟

الجوابُ: قالوا هذا اللَّفظَ؛ لأنَّ الأصل أنَّ ما نُقِل عن الغير فإنَّه مَنقول بنَصِّه وفَصْله، فهُمْ قالوا: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾، وقالوا في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس:٧٨]، وتَنوَّعَت عِباراتُهم في إِنْكار القِيامة هم قالوا: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ يَعني: لا يُمكِن أن تَأتينا الساعة مع أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج:٧]، فكذَّبوا بذلك قولَ الله تعالى مُستَنِدين إلى استِبْعاد عُقولهم أن تَرجِع هذه العِظام النَّخِرة حتى تَعود إنسانًا حَيًّا، وما علِموا أنَّ الذي بدَأَ الخَلْق قادِرٌ على إعادته؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، فشُبْهَتُهم إِذَنْ في هذا الإنكارِ هي: الاستِبْعاد فقط؛ هذه واحِدة.

ثانيًا: يَقولون إذا كنتم صادِقين في أننا سنُبعَث فأْتُوا بآبائِنا، ابعَثُوهم لنا، وهذا

تَحَدٍّ في غير مَوضِعه؛ لأنَّ الرُّسُل لم تَقُل لهم: إنكم تُبعَثون الآنَ. بل إذا انتهَت الخلائِق ومات الخَلْق كلُّهم بُعِثوا، فهذا التَّحدِّي في غير مَوضِعه، هذا التَّحدِّي في مَوضِعه لو كانَتِ الرُّسُل تَقول: إنَّ الناس سيُبعَث أوَّلُهم الآنَ معَ وجود آخِرهم صحَّ أنْ يُقال: ﴿ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الدخان:٣٦] أمَا وقد قالوا: إنهم سيُبعَثون بعد أن يَفنَى الخَلْق كلُّه ممَّن سيُبعَث، فهذا ليس فيه التَّحدِّي.

إذَنْ: شُبهَتُهم الاستِبْعاد، والتَّحدِّي في غير مَوضِعه حيث قالوا: ﴿ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾.

يَقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾: ﴿بَلَىٰ﴾ هذه يُؤتَى بها لإبْطال النَّفْي ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى﴾ أَمَر الله عَزَّوَجَلَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يَصدَع بخِلاف ما قالوا مُؤكِّدًا ذلك بالقَسَم واللَّام والنُّون، فـ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ جوابٌ: لإبْطال النَّفي و(رَبِّي): قَسَم، واللام للتَّوْكِيد، والنون أيضًا للتَّوْكيد فالجُمْلة مُؤكَّدة بثلاث مُؤكِّدات.

وقوله تعالى: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي: الساعةُ، وهذا أَحَد المَواضِع الثلاثة التي أَمَر الله به نَبيَّه أن يُقسِم عليها.

والمَوْضِع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس:٥٣].

والمَوْضِع الثالِث: قولُه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

وإنَّما أَمَر الله تعالى نَبيَّه مُحَمَّدًا ﷺ أن يُقسِم على ذلك؛ لأَهمِّيَّته وعِظَمه؛ ولأنَّه مُقتَضَى البَلاغة؛ فإنَّ مُقتَضى البَلاغة أنَّ المُنكِر يُؤتَى له بالكَلام مُؤكَّدًا بمُؤكِّدٍ واحِد

أو اثنين أو ثلاثة حسبَ ما يَقتَضيه المَقال؛ ولأَهَمِّيَّة هذا المَوْضوعِ أَمَرَ الله نَبيَّه مُحَمَّدًا ﷺ أن يُقسِم عليه.

فإن قُلتَ: ما فائِدةُ القَسَم أمام مَن يُنكِر، لأنَّ مَن أَنكَركَ بدون قَسَم أَنكَرَكَ مع القَسَم؟

فالجَوابُ: من وَجْهين:

الوجهُ الأَوَّلُ: أن هذا هو مُقتَضى اللِّسان العَرَبيِّ، أن الأَخْبار تُؤكَّد بأنواع المُؤكِّدات.

الوجهُ الثاني: أن التَّأكيد يَدُلُّ على أن المُتكلِّم جازِم بهذا المُقسَم عليه جَزْمَه بما أَقسَم به؛ فكما أننا جازِمون بالله بوُجوده وكَماله، فنحن جازِمون أيضًا بما أَقسَم عليه وهو: إتيان الساعة.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ بِالجَرِّ صِفَةٌ، وَالرَّفْعِ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ: (عَلَّامِ) بِالجَرِّ] ففيها إِذَنْ: ثلاثُ قِراءات: ﴿عَٰلِمِ﴾ مَرفوعة ومَجرورة، و(علَّام) مَجرورة فَقَطْ.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ مُناسَبةُ ذِكْر هذه الصِّفةِ لإثبات القِيامة ظاهِر؛ لأنَّ قيام الساعة مِن عِلْم الغَيْب، والذي أَخبَر به هو (علَّام الغَيْب)، فإذا صدَر هذا الخَبرُ من عالِم الغَيْب وجَبَ علينا قَبولُه؛ ولهذا الخَبَرُ عن المُستَقبَل إذا صدَر من جاهِل لا يَدرِي فإننا نَرفُضه، وإذا صدَر من عالِم فإننا نَقبَلُه.

وعِلْم الله تعالى الغَيْبَ أَمْرٌ معلوم حتى عند الكُفَّار، فإنَّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يُخبِر بأَشياءَ ثُم تَقَع ويُشاهِدونها، وهذا شيء لا يَمتَرون فيه؛ فلهذا وَصَفَ الله تعالى نَفْسَه

بهذه الصِّفةِ بعد إثبات إِتْيان الساعة؛ لأنَّه أمرٌ معلومٌ عِنْدهم، فإذا صدَر هذا الخَبَرُ من عالِمِ الغَيْب الذي يُقِرُّون بعِلْمه للغَيْب صار الخَبَرُ مُؤكَّدًا واقِعًا.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ [بالجَرِّ صِفَةٌ] لـ(رَبِّ)؛ لأن (رَبِّ) مجرور فنَقول في إعرابه: الواو حَرْفُ قَسَم وجَرٍّ، (رَبِّي) مُقسَمٌ به مجرور بكَسْرة مُقدَّرة على ما قبل ياء المُتكَلِّم منَع من ظُهورها اشتِغال المَحَلِّ بحرَكة المُناسَبة، فليسَتِ الكَسْرة هذه كَسرةَ الإِعْراب، وإنما قُلنا ذلك لأنه رُبَّما يَرِد علينا مِثْلُ قَوْلنا: (ربِّي الله) ليسَتْ مجرورةً، وهذه الكَسرةُ من أَجْلِ المُناسَبة، فالكَسْرة إِذَنْ ثابِتة قبل أن يَدخُل حرفُ الجَرِّ؛ فلذلك تكون الكَسْرة الإِعْرابية مُقدَّرة على ما قَبلَ ياء المُتكَلِّم.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ صِفة لـ(رَبِّ)؛ وصِفة المَجرور مجرور.

أمَّا بالرفع فيَكون خَبَرَ مُبتَدَأٍ؛ يَعنِي: (هو عالِمِ الغَيْب) والجُمْلة كلُّها: إمَّا حال من (رَبِّ)، وإمَّا استِئْنافية لبيان اتِّصاف الله تعالى بهذا العِلْمِ.

و(الغَيْب): ما غاب عن الإنسان وهو أمرٌ نِسْبيٌّ، لكن الغَيْب المُطْلَق لا يَكون إلَّا لله، أَقولُ: (إن الغَيْب أَمْر نِسْبيٌّ)؛ لأنَّه قد يَغيب عنك ما لا يَغيب عن غَيْرِك فصاحِب الدُّكَّان الذي عند المَسجِد الآنَ تَصرُّفه الذي يَتصَرَّفه الآنَ بالنسبة لنا غَيْب، لكن بالنِّسبة لمَن عِنده شهادة، فالغَيْب أمرٌ نِسبيٌّ؛ ولذلك الخَبَرُ عن الشيء الواقِعِ هل يُعتبَر من الغَيْب الذي يَختَصُّ به الله تعالى؟

الجوابُ: لا؛ لأنَّه يَعلَمه مَن وقَع عِنْده وحدَث عِنْده، لكن الغيب المُستَقبَل هذا هو الذي من خَصائِص عِلْم الله؛ ولهذا مَنِ ادَّعى عِلْم الغَيْب في المُستَقبَل صار مُكذِّبًا لقَوْل الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

ومَنِ ادَّعى عِلْم غَيبٍ واقِعٍ فهذا الغَيْبُ ليس غَيْبًا مُطلَقًا، ولكنه غَيْب نِسْبيٌّ؛ يَعلَمه مَن شاهَدَه، ولا يَعلَمه مَن لم يُشاهِدْه؛ فغَيْب الله تعالى في قوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ يَشمَل الأَمْرين أو يَشمَل المُستَقبَل فقط؟

الجوابُ: يَشمَل الأَمْرين؛ لأنَّ كُلَّ ما حدَث ولو في أزمانٍ بَعيدة جِدًّا فالله عالِمٌ به، وكل ما سيَحدُث فالله عالِمٌ به، فالغَيْب المُطلَق للواقِع والمُنتَظَر هذا من خصائِصِ عِلْم الله تعالى، والغَيْب المُقيَّد بالواقِع هذا ليس من خَصائِص عِلْم الله تعالى، بل هو حاصِلٌ لكل مَن شاهَدَه.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا يَعْزُبُ﴾ يَغِيبُ ﴿عَنْهُ﴾] يَعنِي عن الله [﴿مِثْقَالُ﴾ وَزْنُ ﴿ذَرَّةٍ﴾ أَصْغَرِ نَمْلَةٍ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ إلى آخِره؛ صِفة من الصِّفات السَّلْبية، و﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ من الصِّفات الثُّبوتية، فالصِّفات الثُّبوتية -كما تَقرَّر- كلُّها صِفاتُ كَمالٍ، والصِّفات السَّلْبية تَأكيد لصِفاتِ الكَمال؛ لأنها تَتضمَّن صِفة الكَمال المَنفيَّ عنها هذا العَيْبُ، فالصِّفات السَّلْبية يَعنِي النَّفي تَأكيدٌ للكَمال؛ لأنها تَتضمَّن ثُبوت الصِّفات الكَمالية الخالية من هذه الصِّفةِ التي تُعتبَر صِفةَ نَقْص.

ولهذا ما من نَفْيٍ في صِفات الله إلَّا وهو مُتضمِّن لإثبات كَمال ضِدِّه، فمَثَلًا: إذا قلنا: لا يَعزُب عن عِلْم الله شَيءٌ فذلك لكَمال عِلْمه، وإذا قُلْنا: إنه خلَقَ السَّموات والأرضَ في سِتَّة أيَّام ولم يَمَسَّه لُغُوب فذلك لكَمال قُدْرته، وعلى هذا فقِسْ.

فكُلُّ صِفات النَّفيِ المُضافة إلى الله يُراد بها إثباتُ كَمال الضِّدِّ؛ كأنه وصَفَ الله تعالى بالكَمال الخالي عن هذا النَّقْصِ.

وقوله تعالى: ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنها صِغار النَّمْل [أَصْغَرِ نَمْلَةٍ] أَفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ من النَّمْل ما هو صغير وما هو كبير، ونحن في عُرْفِنا على خِلاف ذلك، عندنا أن النَّملةَ نَوْع مُعيَّن من الذَّرِّ، وعندنا الذَّرَّة الصِّغار، وعندنا شيء يُسمُّونه نَمْلة؛ والنَّمْل مَعروف أنه الذي أَكبَرُ من الذَّرِّ قليلًا ودون القَعْرِ.

يَقولون: إن هذا القَعْرَ من أَعْنَدِ ما يَكون، يُضرَب بها المَثَلُ في العِناد؛ لأنك تُزَحْزِحها عنك، ولكنها تَرجِع، ثُمَّ إذا أَمْسَكَتْ ثَوبَك أو جِلْدك ما يُمكِن أن تَنفَكَّ، تَنقَطِع ولا تَنفَكُّ -سُبحان الله تعالى-، ومن عِنادها أنها إذا أَمسَكَتْ في الثَّوْب يَعنِي: عَضَّتْه بقَرْنيها أو الجِلْد ما تَزَحْزَح أَبَدًا حتى تَنقَطِع، وفيها أيضًا يُسمُّونها عندنا القِعْس، ولكن هذه أنواع لِجِنْس في الواقِع، وكلُّها تُسمَّى نَمْلًا، وكلُّها ذَرٌّ؛ ولهذا نَهيُ الرسول ﷺ عن قَتْل النَّمْل[1] يَشمَل هذا كلَّه.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ بَيِّنٍ، وَهُوَ اللَّوْحُ المَحْفُوظُ] هل في هذا إثبات العِلْمِ، من قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾؟

الجوابُ: نَعَمْ فيه إثبات العِلْم؛ لأنَّه لا كِتابةَ إلَّا بعد العِلْم؛ فكِتابة المَجهول لا تُتصوَّر، فيَكون فيه فائِدة زائِدة على إثبات العِلْم؛ وهو أنَّ معلومَ الله مَكتوب في اللَّوْح المَحفوظ.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: الجَنَّة وما فيها شيءٌ واقِع يَختَصُّ بعِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٣٢)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في قتل الذر، رقم (٥٢٦٧)، وابن ماجه: كتاب الصيد، باب ما ينهى، عن قتله، رقم (٣٢٢٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فنَقول له: بل نحن نَعـلَم الجَنَّة من وَجْهٍ ونَجهَلُـها من وَجْهٍ آخَرَ، فنَـعرِف الأسماء منها دون المُسمَّيات، فهذا عِلْمٌ وواقِع؛ فنَعرِف أن هناك جَنَّةً الآنَ ونارًا، وفيهِما ما ذُكِر من النعيم أو من العَذاب لكن نَجهَل الحقيقة.

فلو أَخبَرَك إنسانٌ بخَبَرٍ واقِع في بلادِك مثَلًا، بل في بيتك الآنَ الذي أنت ما أنت فيه، فستَعرِف المَعنى لكن لا تَعرِف الحقيقة كما هي إلَّا إذا شاهَدْتَها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إنكار الكافِرين للبَعْث؛ لقولهم: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ إنكار البَعْث كُفْرٌ؛ لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾.

فإن قُلتَ: ما وجهُ الدَّلالةِ؟

فالجوابُ: وَجْهُ الدَّلالة: أنه لو لا أنَّ لهذا الوَصْفِ تأثيرًا لما قاله الله تعالى بهذا الوَصْفِ، ولقال: (وقالوا لا تَأتِينا الساعةُ)، فلَمَّا قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ عُلِم أن هذا القَوْلَ لا يَصدُر إلَّا عن كافِرٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَعظيم شَأْن القِيامة؛ لأَمْر الله تعالى نَبيَّه مُحَمَّدًا ﷺ أن يُقسِم على أنها ستَقَعُ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كَمال رحمة الله بعِباده، حيثُ أَخبَرَهم بالبَعْث وأَكَّده بالمُؤكِّدات اللَّفْظية والمَعْنوية والحِسِّيَّة أيضًا؛ لأنَّ الإيمان بالبَعْث هو الذي يَحمِل الإنسانَ على القِيام بطاعة الله؛ إذ لو لم يَكُن هناك بَعْثٌ ما عمِل الإنسان للآخِرة أبَدًا.

فنَقول: إنَّ هذا دليلٌ على رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعِباد أن يُؤكِّد لهم البَعْث الذي يَكون فيه الجَزاء على العمَل مِن أَجْل أن يَعمَلوا لهذا اليَوْمِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الساعة مَوكولة إلى عِلْم الله تعالى؛ لقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾، فهي خبرٌ من أَخْبار الله عَزَّوَجَلَّ الغَيْبيَّة؛ التي لا يَطَّلِع عليها إلَّا الله، والآياتُ في هذا المَعنَى -والأَحادِيثُ أيضًا- كثيرةٌ، فمَنِ ادَّعى عِلْم الساعة فهو كافِرٌ؛ لأنه مُكذِّب للقُرْآن والسُّنَّة وإجماع المُسلِمين.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: شُمول عِلْم الله تعالى لكُلِّ شيء؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إِثْبات السَّمَواتِ، وأنها عِدَّة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وهلِ الأَرْضُ كالسَّمَواتِ في العدد؟

الجوابُ: نعَمْ، كما تَدُلُّ عليه نُصوصٌ أُخرى غير هذه الآيةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ هناك شيئًا أصغرَ من الذَّرَّة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ وهو الواقِعُ؛ فإن في مَخلوقات الله ما لا تَكاد تَراه بعَيْنِكَ، ولا تَراه إلَّا بالمِجْهَر، ومع ذلك إذا رأَيْتَ هذا الشيءَ -سبحان الله العظيم- في مِجهَر مُكبِّر يُكبِّر الشيء مِليونَ مرَّةٍ، إذا رأَيْتَ هذا الشيءَ الذي لا تَراه بعَيْنكَ تَجِدْ له جميع مَصالِحه؛ أَيْدٍ، وأَرجُلٌ، وأَعْينٌ، كل شيء؛ حتى الزَّغَب الذي على ظَهْره لِوِقايته تَجِده مَوجودًا، وهذا دليلٌ على كَمال قُدْرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنَّه لطيف خَبيرٌ سبحانه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات اللَّوْح المَحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ هذا اللَّوحَ كُتِب فيه مَقاديرُ كل شيء، الصغيرِ والكبيرِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هذا الكِتابَ مُبِين؛ أي: مُفصِّلٌ لكل شيء؛ كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، ففي هذا اللَّوحِ المَحفوظِ كلُّ ما يَكون إلى يوم القِيامة، كما جاءَت بذلك السُّنَّة مُوضِّحةً هذا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إباحة القَسَم؛ بل وُجوبه إذا دعَتِ الحاجة إليه، نَأْخُذه من أَمْر الله نَبيَّه أنَّ يُقسِم على قِيام الساعة: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾؛ ولهذا نَجِد بعض الأئِمَّة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ إذا ذكَروا حُكْم مَسأَلة من المَسائِلِ أحيانًا يُقسِمون عليها، وهذا يُوجَد في كلام الإمامِ أحمدَ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ورُبَّما في كلام غَيْره، لكن لم نَطَّلِع عليه، لأنه أحيانًا يُسأَل هل تَقول بكذا وكذا؟ فيَقول: إِيْ والله. فيُقسِم على الشيء تَثْبيتًا له وتَأْييدًا، وإيحاءً بطُمَأْنينته إليه بالنِّسْبة للمُخاطَب.

وعلى هذا فيَجوز للمُفتِي أن يَحلِف على الحُكْم إذا دعَتِ الحاجة إلى ذلك، بل قد يَكون ذلك واجِبًا حَسْبما تَقتَضيه الحالُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ هل يُستَفاد من هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ الخِطاب الخاصَّ بالرسول ﷺ يَشمَله هو والأُمَّةَ؟

الجوابُ: ليس فيها دَلالة ظاهِرة على هذا، ولكنه سبَق لنا: أن الخِطاب المُوجَّه إلى الرسول ﷺ يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسامٍ:

القِسْم الأَوَّل: فيه الدَّلالة الصريحة على أن المُراد به الأُمَّة؛ يَعنِي: مع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) انظر: المسائل التي حلف عليها أحمد بن حنبل لابن أبي يعلى.

القِسْم الثاني: الدَّلالة الصريحة على أنه خاصٌّ بالرسول ﷺ.

القِسْم الثالِث: ما ليس فيه دَلالة ولا قَرِينة، فهذا مُختَلَف فيه عند أَهْل العِلْم، هل هذا الخِطاب المُوجَّه للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَشمَل الأُمَّة بمُقتَضى الصِّيغة أَمْ يَشمَل الأُمَّة بمُقتَضى الأُسْوة.

ومِثال الذي فيه الدَّلالة على أنه خاصٌّ بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:١-٢]، فهذا بلا شَكٍّ خاصٌّ بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ومِثال ما قام به الدَّليلُ على العموم: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق:١] ففي قوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ دَلالة واضِحة على أن الخِطاب للرسول ﷺ مُرادٌ به الأُمَّة أيضًا، وما عَدا ذلك فهو كثير، فهل يَشمَل الأُمَّةَ الحُكْمُ بمُقتَضى الخِطاب، أو بمُقتَضى الأُسْوة؟

فمِنهم مَن يَقول: إنَّه يَشمَل الأُمَّة بمُقتَضى الخِطاب لكنه وُجِّه للرسول ﷺ لأنَّه إمامُها، وأنَّ نَظيرَ ذلك أن تَقول لقائِد الجَيْش: اذهَبْ إلى الجَبْهة الفُلانية، فالمُراد اذهَبْ ومَن معَكَ ممَّن يَتَّبِعُك من الجُنود.

ومِنهم مَن يَقول: إنَّه خاصٌّ بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يَشمَل الأُمَّة لكن الأُمَّة مأمورة بالتَّأسِّي به، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]، والخِلاف في هذا قريب من اللَّفْظيِّ؛ للاتِّفاق على أنَّ هذا الحُكْم يَشمَل الأُمَّة.

إِذَنْ: لو سمِعْنا شخصًا يُنكِر الساعة؛ فهل نحن مَأمورون أن نَحلِف على ثُبوتها؟ نعَمْ، نحن مَأمورون بأن نَحلِف على ثُبوتها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَأكيد الحُكْم على حسب ما تَقتَضيه الحال، أو بعِبارة أصَحَّ: تأكيد الخبَرِ على حسب ما تَقتَضِيه الحالُ.

وقد ذَكَر البلاغِيُّون أنَّ الخبَر يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام: إمَّا أن يُلقَى إلى خالِي الذِّهْن، أو إلى المُتَرَدِّد، أو إلى المُنكِر، فإن أُلقِيَ إلى خالي الذِّهْن؛ فإنه لا حاجةَ إلى تَأكيده، ولا يُمكِن أن يُؤكَّد حسب قَواعِد البلاغة إلَّا لنُكْتة، وإن أُلقِيَ إلى مُتَرَدِّد حَسُن تَوكيده ليَزول عنه هذا التَّرَدُّدُ والشَّكُّ، وإن أُلقِيَ إلى مُنكِر وجَبَ تَوْكيده، فالأوَّلُ ابتـدائِيٌّ، والثاني طلَبيٌّ، والثالِث إنكـارِيٌّ. وقد ذكَـرْنا ذلك في (شـرح البلاغة)[1].

وأمَّا قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ فالخَبَر هنا نَوعُه إنْكارِيٌّ؛ لأنَّه يُخاطَب به قومٌ مُنكِرون، فكان تَأكيدُه واجِبًا، وقد ذكَرْنا ذلك أثناء الشرح إيرادًا، وهو أنَّه إذا كان هؤلاء مُنكِرين فلا فائِدةَ من القَسَم لهم؛ لأنَّ المُنكِر للخبر سَواءٌ أَقسَمْتَ أم لم تُقسِم فلن يُصدِّقَكَ، وأَجَبْنا عن ذلك بأنَّ هذا هو مُقتَضى اللِّسان العرَبيِّ، ويَدُلُّ على أن المُتكلِّم مُستَيْقِن من وقوع هذا الشيءِ كما استَيقَن من وجود المَحلوف به.

• • ۞ • •

(١) شرح البلاغة (ص:٦٨ وما بعدها).

الآيـة (٤)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبأ:٤].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِّيَجْزِيَ﴾ فِيهَا]، الضمير يَعود على الساعة.

وقوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ﴾ اللَّام هنا للتَّعليل، وقد علِمْنا من قَواعِد اللُّغة العربية أن حُروف الجرِّ لا بُدَّ لها من مُتعلَّق، ومُتعَلَّق هذه اللَّامِ قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي: (لتَأْتِيَنَّكم ليَجزِيَ الذين) فهذه اللَّام للتعليل، وهي مُتعلِّقة بقَوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ و(يَجْزِيَ) بمَعنى: يُكافِئ أو يُثيب، والفاعِل هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِيهَا] أَشار المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقَوْله: [فِيهَا] إلى أن الجارَّ والمَجرور مُتعلِّق بـ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾؛ لأنَّ الضمير (فِيهَا) يَعود على الساعةِ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: ﴿ءَامَنُواْ﴾ بالقَلْب، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بالجَوارِح، والإيمان إذا أُطلِق: شمِل أعمال الجَوارِح الظاهِرة، وكذلك العمَل إذا أُطلِق: يَشمَل الإيمان بالقَلْب؛ لأنَّ الإيمان بالقَلْب من أعمال القُلوب، فإذا قُرِنَا جميعًا صار الإيمان في القَلْب والعمَل في الجَوارِح، فالإيمان سِرٌّ والعمَلُ عَلانية.

وقوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ﴾ الإيمان في اللُّغة: التَّصديق، وفي الشَّرْع: التَّصديق المُستَلزِم للقَبول والإِذْعان، وليس مُجَرَّدَ تصديقٍ، بل هو التَّصديق المُستَلزِم للقَبول والإِذْعان؛ القَبول في الأَخْبار، والإِذْعان في الطَّلَب، فيُقبَل -مثلًا-: ما أَخبَرَ الله تعالى به رسوله ﷺ، ويُقبَل: كونُ هذا الحُكْمِ فَرْضًا وكونُه تَطوُّعًا، وما أَشبَه ذلك، ويُذعَن لذلك؛ بمعنى: أَنَّه يُتعبَّد لله تعالى بمُقتَضى ما آمَن به، وبمُقتَضى ما شَرَعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يَعنِي: عمِلوا الأعمالَ الصالِحاتِ، فتكون ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وَصْفًا لمَوْصوفٍ محذوف، وحَذْفُ المَنعوت جائِز إذا قامَتِ القَرينة عليه، قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَمَا مِنَ المَنْعُوتِ وَالنَّعْتِ عُقِلْ ... يَجُوزُ حَذْفُهُ وَفي النَّعْتِ يَقِلّ[1]

ومِن حَذْفِ المَنعوت قولُه تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ:١١] أي: دُروعًا سابِغاتٍ، فعَلى هذا تَكون: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ صِفةً لمَوْصوف محذوف؛ أي: الأَعْمال الصالِحات.

وما هي الأعمال الصالحات؟

الجوابُ: العمَلُ الصالِح؛ هو الذي جمَع بين أَمْرَيْن: الإخلاصُ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمُتابَعةُ للرسول ﷺ، فإن فُقِد الأَوَّل لم يَكُن صالِحًا؛ وكان مَردودًا على العامِل؛ وإن فُقِد الثاني لم يَكُن صالِحًا، وكان مَردودًا على العامِل أيضًا.

والدليل في الأوَّل قال الله تعالى في الحديث القُدسيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ

(١) الألفية (ص:٤٥).

الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[١]، وفي الثاني قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[٢] أو: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[٣].

فلا يُمكِن أن يَكون العمَل صالِحًا إلَّا بهَذين الشَّرْطين: الإِخْلاص، والمُتابَعة للرسول ﷺ.

ولو أن رجُلًا أَحدَث بِدْعة من البِدَع يَتديَّن بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويَجِد مِن قَلْبه الاِطْمِئْنان إليها والخُشوع والبُكاء لكنها مُحدَثة في دِين الله تعالى هل تكون عمَلًا صالِحًا؟

الجوابُ: لا تكون، حتى وإن زُيِّن للإنسان هذا العمَلُ واطْمَأَنَّ إليه؛ فإنَّه ليس من العمَل الصالِح، فلا يَكون مَقبولًا ولا نافِعًا، بل يَأثَم به الإنسان؛ لأنه من التَّقرُّب إلى الله تعالى بما يَكرَهه والتَّقرُّب إلى الله تعالى بما يَكرَهه نوعٌ من الاستِهْزاء بالله.

أرأَيْتَ لو أنكَ أَتَيْتَ لمَلِك من المُلوك، وأَهدَيْتَ إليه قارورةً فِيها مَا يُسْتقذَر، فهل تَكون مُكرِمًا له؟

الجوابُ: لا تكون مُكرِمًا له؛ لأنه يَكرَه هذا الشيءَ، وأَهْدِ إليه طِيبًا فلا بأسَ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

أمَّا أن تُهدِيَ إليه هذا الشيءَ تَتَقرَّب إليه بذلك فهذا ضِدُّ ما تُريد وهو نَوْعٌ من الاستِهْزاء بهذا المُكرَم أو المُعظَّم.

إِذَنِ: الأَعْمالُ الصالِحاتُ؛ هي التي جَمَعت بين شَرْطين: الإخلاصُ لله تعالى، والمُتابَعة للرسول ﷺ.

ويُوجَد بعض الأَعْمال ممَّا يُكرَه في الشَّرْع لكن الإنسان يَطمَئِنُّ إليه ويَرتاح له.

فنَقول: لا تَغتَرَّ بهذه الراحةِ وهذه الطُّمَأْنينةِ؛ فإنَّ ذلك مِن تَزيين الشَّيْطان، وعُبَّاد الأصنام الذين جعَلوها شُفَعاءَ لهم عند الله تعالى يَرتاحون لهذا، ويَرَوْن أنها واسِطة بينهم وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومع ذلك فهي من الشِّرْك.

مِثالُ هذا: يُوجَد بعض الناس يُغمِض عَيْنَيْه في الصلاة؛ ويَقول: إنَّ ذلك أَدْعى للخُشوع، فهذا من تَزْيين الشَّيْطان؛ لأنَّ تَغميض العَيْن في الصلاة لغير سبَب مَكروهٌ وخِلافُ هَدْيِ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فالنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان لا يُغمِض عَيْنَيْه، ولكنه: إمَّا أن يَنظُر إلى مَوْضِع سُجوده أو إلى تِلقاءَ وَجْهه، أمَّا أنَّه يُغمِض عَيْنيه فهذا خِلاف السُّنَّة؛ ولهذا كرِهَه الفُقَهاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

نعَمْ، لو كان هناك سببٌ للتَّغميض كما لو كان أَمامَك شيء يُجهِر عَيْنيك، أو نُقوش تَشغَلُك فهنا التَّغميض لسبَبٍ، لا للتَّقرُّب به إلى الله تعالى، ولكن لدَفْع ما يُشوِّش عليك.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ هذه جُمْلة استِئْنافية لبيان جَزائهم؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مُبهَم فبيَّن هذا الجزاءَ بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾، والإشارة في قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تعود إلى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهي مُبتَدَأ، و﴿لَهُم﴾ خَبَر مُقدَّم، و﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ مُبتَدَأ مُؤخَّر ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ مَعطوفٌ عليه، والجُملة الثانية من المُبتَدَأ والخبَر: خبَرُ المُبتَدَأِ الأوَّلِ، فعِندنا الآنَ مُبتَدَآن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿مَّغْفِرَةٌ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مُبتَدَأ و﴿لَهُم﴾ جارٌّ ومجرور خبَرٌ مُقدَّم لـ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾، و﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ مُبتَدَأ مُؤخَّر، و﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ مَعطوفٌ عليه، والجُمْلة من المُبتَدَأ الثاني وخَبَره في محَلِّ رَفْع خبَر المُبتَدَأ الأوَّل، والرابِط هو الضميرُ في ﴿لَهُم﴾؛ لأنَّه يَعود على المُشار إليه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أشار إليهم بإشارة البَعيد؛ تَنبيهًا على عُلوِّ مَرْتبتهم؛ لأنَّ هذا الصِّنفَ من الناس هو أعلى طبَقات الناس: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ بها زوال المَكروه، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ به حُصول المَطلوب، (فلَهُمْ مَغفِرة) لذُنوبهم وخَطاياهم، فيَغفِر الله تعالى لهم الخَطايا والذُّنوب بأن يَتجاوَز عنهم، ويَستُرَها عليهم؛ لأنَّ المَغفِرة هي سَتْر الذَّنْب والتَّجاوُز عنه، إذ إن اشتِقاقَها من المِغْفَر، وهو الذي يُلبَس على الرَّأْس عند الحَرْب؛ وفيه فائِدتان: سَتْر الرَّأْس؛ ووِقايته من السِّهام؛ فالمَغفِرة إذَنْ فيها سَتْر الذُّنوب، والتَّجاوز عنها، وعدَمُ العُقوبة عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الرِّزْق: بمَعنَى العَطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء:٨]؛ أيْ: أعطبُوهم، والكريم بمَعنَى الحَسَن في كَيْفيته وفي كِمِّيته، وقد أشار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى أنَّ حُسْن هذا الرِّزْق لا تَبْلُغه العُقول في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]،

فثَواب هؤلاءِ المُؤمِنين العامِلين الصالِحاتِ أنْ تُغفَر سَيِّئاتُهم وأن يُجازَوْن على عمَلهم الصالِح بالرِّزْق الكريم.

قُلْت: «الكريم هو الحَسَن في كِمِّيَّته وكَيْفيَّته»، فكِمِّيَّتُه لا تُحصَى ولا يَفنَى ولا يَبيد وكَيْفِيَّته أيضًا لا يُدرِكها القَلْب، ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ إلى آخِره؛ سبَق وقُلْنا: إن القُرآن مَثاني كما وصَفه الله تعالى به؛ فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾ [الزمر:٢٣]، و(مَثاني) هذه غير (المَثاني) في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر:٨٧]؛ لأن المُراد بالسَّبْع من المَثاني الفاتِحة، كما ثبَت ذلك عن النبيِّ ﷺ[1]، فالمَثاني مَعناه: أنه تُثنَّى فيه المَعاني؛ فغالِبًا إذا ذُكِر جَزاءُ المُتَّقين ذُكِر جزاء الكافِرين، وإذا ذُكِر وَصْف الجَنَّة ذُكِر وَصْف النار، إذا ذُكِرت الأَوْصاف المَحبوبة إلى الله تعالى ذُكِرت الأَوْصاف المَكروهة إليه؛ لأنه لو ذُكِر المَطلوب فَقَطْ من أَوْصافٍ أو جَزاءٍ أَخَذَ الإنسان الرَّجاء حتى أمِن مَكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإن ذُكِر المَكروه من ذلك أَخَذه القُنوط واليَأْس، فكان الله يَذكُر هذا ثُمَّ يَذكُر إلى جانبه الشيءَ الآخَرَ؛ حتى يَكون الإنسان سائِرًا إلى ربه بين الخَوْف والرَّجاء، لأن هذا هو الاعتِدال أن تَكون خائِفًا راجِيًا في سَيْرك إلى رَبِّك؛ لأنك إن غَلَّبت الرَّجاء كُنْت من الآمِنين مِكْرَ الله تعالى؛ لأنَّ مَن غلَّب الرَّجاء صار يَعمَل الذَّنْب ويَقول: أَرجو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَغفِر لي. ويَتهاوَن بالواجِب ويَقول:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، رقم (٤٤٧٤)، من حديث أبي سعيد بن المعلى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَرجو الله تعالى أن يَغفِر لي، ومَن غَلَّب الخَوْف دخَل في القُنوط من رحمة الله.

وبَعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ خالَف في هذا، وقال: إنه يَنبَغي لك عند فِعْل الطاعة أن تُغلِّب الرَّجاء، لأنك قُمْت بما أُمِرْت فارْجُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ثَوابه؛ لأنَّ هذا من باب إحسان الظَّنِّ بالله تعالى، وإذا كُنتَ في مَقام المَعصية فغَلِّبْ جانِب الخَوْف؛ لتَردَع نفسك عمَّا تريد أن تَفعَلَه من المَعْصية.

وأن بَعضَ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ذهَب مَذهَبًا آخَرَ وقال: في حال المَرَض تُقدِّم جانِب الرَّجاء؛ لأنك الآنَ في مَقام الضَّعْف فتُغَلِّب جانب الرَّجاء وإحسان الظَّنِّ بالله، فلا تَموتَنَّ إلَّا وأنت تُحسِن الظَّنَّ برَبِّك عَزَّوَجَلَّ، وإذا كُنْت في حال الصِّحَّة فغَلِّب جانِب الخَوْف، والإمام أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: يَنبَغي أن يَكون خَوْفُه ورَجاؤُه واحِدًا فأيُّهما غَلَب هلَك صاحِبه[1].

والإنسان طبيب نفسه في الواقِع لا شكَّ أنَّك إذا رأَيْتَ نَفْسكَ تَميل إلى الباطِل فإنه يَجِب عليك أن تُخوِّفها بالله، ولا تُرَجِّها؛ لأنك إن رَجَّيْتها في هذه الحالِ تُقدِم على المَعاصي.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ أفعال الله مُعلَّلة؛ بمَعنَى: أن لها عِلَّةً، يُؤخَذ من اللَّام في قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ﴾؛ لأنَّ اللَّام للتعليل، وهذا يُؤيِّد مَذهَب أهل السُّنَّة والجَماعة، الذين يَقولون: إنَّ أفعال الله تعالى مَقرونة بالحِكْمة. ومعلومٌ أن الجَهْمية -وكذلك بعض الأشاعِرة- يُنكِرون أن تَكون أَفعال الله تعالى لِحِكْمة، ويَقولون: إن أَفعاله

(١) انظر: الاختيارات العلمية لابن تيمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] (٥/ ٣٥٩).

لُمجرَّد المَشيئة. قالوا: لأنَّ الحِكْمة غرَض من الأَغْراض التي تَحمِل على الفِعْل والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنزَّهٌ عن الأَغْراض.

ونَقول لهم: إن هذا مُصادَمة للنُّصوص؛ ولو تَأمَّلْنا القُرآن لوَجَدْنا فيه آلاف الآيات تَدُلُّ على إثباتِ الحِكْمة لله، ثُمَّ الغرَض إن كان لَمصلَحة الغير فهو مَدْحٌ وثَناءٌ، وإن كان لحاجة المُتكلِّم ليس بها نَقْص في وَجْهٍ من الوجوه.

وقد سبَقَتِ القاعِدة الخَبِيثة: الذين يَقولون: إن الله مُنَزَّهٌ عن الأَعْراض والأَغْراض والأَبْعاض، وهذا الكلام إذا سمِعْتَه تَقول: هذا كلامٌ طَيِّب!! وهم يَعنون بذلك نَفيَ أفعاله الاختِيارية؛ يَعنِي: أنه لا يَنزِل ولا يَأتي ولا يَتكَلَّم، وما إلى ذلك؛ لأنَّ هذه أعراضٌ تَحدُث وتَزول، أما عن الأبعاض فيَعنُون بذلك: نَفيَ الوجهِ واليَدين والعَيْنين وما أَشبَه ذلك؛ لأنَّ هذه أَبْعاض بالنِّسبة لنا؛ والأغراض يَعنون بذلك: نَفيَ الحِكْمة، والقُرآن يَرُدُّ قولهم هذا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضْلُ الإيمان والعمَل الصالِح، ووجهه: مِن تَرتُّب الثواب عليه في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وما تَرتَّب عليه الثواب فهو فاضِلٌ ومَحمودٌ ومَطلوبٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الفَرْق بين الإيمان والعمَل الصالِح عند الجَمْع بينهما؛ لأنه هنا ما قال: (الذين آمَنوا) فقط ولا (عَمِلوا الصالِحاتِ) فقط؛ بل جَمَع بينهما، وقد سَبَق لنا أنه إذا جُمِع بينهما صار الإيمان في القَلْب، والعمَل الصالِح في الجوارِح.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإشارة إلى أن الإيمان الذي في القَلْب فقَطْ لا يَكفِي عن العمَل الصالِح؛ لأنه رتَّب الجزاء على قِيام الوَصْفين بالفاعِل وهما الإيمان والعمَل الصالِح.

لكنِّي أَقولُ: إن الإيمان إذا كـان صادِقًا فلا بُدَّ أن يَكون العمَـل الصالِح؛ لقول النبيِّ ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ»(١).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ العمَل ليس مَقبولًا ولا مَحمودًا ولا مُثابًا عليه حتى يَكون صالِحًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ومَتَى يَكون صالِحًا؟

الجوابُ: إذا جمَعَ شَرْطَيْن: الأول: الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والثاني: المُتابَعة لرسول الله ﷺ، فإنْ فَقَد الإخلاص فليس بصالِح، وهو مَردودٌ على فاعِله، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(٢)، وإنْ فَقَد المُتابَعة؛ فهو أيضًا مَردود غيرُ مَقبول؛ لقول النبيِّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٣).

ولا تَتَحَقَّق المُتابَعة إلَّا بشروط سِتَّة: أن يَكون العمَلُ مُوافِقًا للشَّرْع في: سببه، وجِنْسه، وقَدْره، وكَيْفيَّته، وزمانه ومَكانه.

فلو أَحدَث الإنسان عِبـادة لسبَبٍ غير شَرْعِيٍّ فهي مَردودة، فلو قـال: كُلَّما سمِعْتُ نُباح الكِلاب صَلَّيْت ركعتين! فلا تُجزِئ ولا تُقبَل منه؛ لأنه علَّقها بسبَب لم يَكُن مَشروعًا ولم تَكُن مَشروعة من أَجْله فلا تُقبَل.

ولو أن أحَدًا من الناس ضَحَّى بفَرَس وهي أُنثَى الخَيْل قال: عِنْدي شاة تُساوِي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

مِئَتَيْ ريال، وعِندي فرَسٌ تُساوِي عِشرين ألفَ رِيالٍ سأُضحِّي بالفَرَس! فلا تُقبَل؛ لأنه مُخالِفٌ للشَّرْع في الجِنْس، إذ الأُضحِيَّة ما تَكون إلَّا من بَهيمة الأنعام، ولو أن أحَدًا تَعبَّد لله بعِبادة مُحدَّدة بقَدْر مُعيَّن فزاد في قَدْرها كما لو صلَّى سِتَّ صلَوات قال: إن المُدَّة بين العِشاء والفَجْر طويلة تَحتاج إلى زيادة الصلاة، والمُدَّة بين الفَجْر والظهر طويلة تَحتاج إلى زِيادة صلاة فيُصلِّي سَبْعَ مرَّات؛ فزاد القَدْر، أو لو صلَّى خَمْسًا في الرباعية أو ثلاثًا في الثُّنائية فإنها لا تُقبَل.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا سبَّحَ الرجُل دُبرَ الصلاة مِئَتَيْ مرَّةٍ فهل تَرفُضون هذا التسبيحَ كُلَّه؟ أو تَقولون: ما وافَقَ الشَّرْع فهو مَقبول وما زاد عليه فهو مَردود؟

الجوابُ: إذا كانت العِبادة التي حصَل فيها الزيادة تَتَجزَّأ؛ بمَعنَى: أنه يَصِحُّ أوَّلُها دون آخِرها فإننا لا نُبطِل أوَّلها بما طرَأ عليها، أمَّا إذا كانت لا تَتَجزَّأ فإنها إذا بطَل آخِرُها بطَلَ أوَّلُها، فلو صلَّى الظُّهْر خَمْسًا بطَلَت صلاته؛ لأنها لا يُمكِن أن يَصِحُّ أوَّلُها مع فَساد آخِرها، لكن في زيادة العَدَد لا نُبطِل العدَد الأوَّل.

لكننا نَقول لهذا الرجُلِ: إن كُنتَ تَعتَقِد أن المِئَتَيْن هي المَشروعة فأنت ضالٌّ؛ لأنك مُبتَدِع، وإن كُنتَ تُريد أن تَقول: أنا أَعتَرِف بِأن المَشروع مِئة ولكن زِدْتُ على أنه تَطوُّع. فهذا يُكتَبُ لكَ أَجْر التَّسبيح المُطلَق لا المُقيَّد.

وأمَّا في كَيْفيَّتها: فلو أن أحَدًا صلَّى وصار يَسجُد ثُمَّ يَركَع ثُمَّ يَسجُد! هذا غير مَشروع لاختِلاف الكَيْفية.

وأمَّا في الزمَن لو أن أحدَهم قال: أنا سَوْف أَحُجُّ في ذي القَعْدة، أَخرُج إلى مِنًى في ليلة التاسِع مِن ذي القَعدةِ وأَبيتُ فيها، وفي التاسِعة أَذهَبُ إلى عرَفةَ وأَقِفُ.. إلى آخِره! وكمَّل أفعال الحَجِّ في ذي القَعدةِ، ويَقول: لأن ما عِندي أحَدٌ يُضايِقُني!

فهذا غير صحيح؛ لأنها لم تُوافِق الشَّرْع في الزمَن.

يُقال: إن رجُلًا بَدوِيًّا كان يَبيع في المَواسِم الأضاحِيَ؛ يَأتي بها ويَجلِبها إلى السُّوق وهو ما أَدَّى فَريضة الحجِّ، فقِيل له: لماذا لم تُؤَدِّ الفَريضةَ؟ فقال: الفَريضةُ تَأتي في وَقْت المَوْسِم وأنا ما أُحِبُّ، ولكنني سأَذهَب إلى الشَّيْخ أَسأَله: هل يَجوز لي أن أَحُجَّ في عيد رَمضانَ؟! فذهَب إلى الشَّيْخ يَستَأذِنه؛ يَقول: أَستَأْذِنك يا شيخُ أنْ تَسمَح لي أن أَحُجَّ في عيد رمضانَ بدَلًا من عيد الأَضْحى؛ لأن عيد الأَضْحى فيه مَوْسِم لنا. فقال له الشيخُ: إن أَذِنْت لك أن تَحُجَّ فإني آذَنُ لكَ أن تُضحِّيَ وحينئذٍ يَكون المَوسِم تابِعًا للحَجِّ، ما يَتخَلَّص منه.

فأَقولُ: إن هذا الذي حَجَّ في ذي القَعدةِ حتى لو وافَق التاسِعَ والعاشِرَ والحادِي عشَرَ والثاني عشَرَ والثالِثَ عشَرَ فإنها لا تُقبَل؛ لمُخالَفتها للزمَن.

ولو أنَّ رجُلًا في العَشْر الأواخِر من رَمضانَ قال: سأَعْتَكِف في بَيْتي ولن أَذهَب للمَسجِد؛ لأني أَتعَبُ في تحصيل الطعام والشراب، ويُمكِن أن يَجِيءَ أَحَد يُلْهِيني عن ذِكْر الله تعالى، فسأَقعُد في البيت. فلا يَصِحُّ اعتِكافُه؛ لأنه مُخالِف للشَّرْع في المَكان.

فتَبيَّن الآنَ أن تَحقيق المُتابَعة لا يَكون إلَّا إذا وافَقَ العَمَل الشريعة في الأمور السِّتَّة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: عُلوُّ مَرتَبة المُؤمِنين العامِلين الصالحاتِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لأنَّ الإشارة هنا للبَعيد، وذلك لعُلُوِّ مَرتَبَتهم، مِثل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١-٢] مع أن الكِتاب بَيْنَ أيدينا، لكن أَشار إليه بالبَعيد لعُلُوِّ مَرتبته.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ في الإيمان والعمَل الصالِح حُصول المَطلوب وزوال المَكروه؛ لقَوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ هذا زوال المَكروهِ ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هذا حُصول المَطلوب.

واعلَمْ أن الله تعالى إذا غفَر لكَ فتَحَ لك أبوابَ المَعرِفة وانشَرَح صدرُك بالإيمان؛ لأنَّ الذي يُوجِب ضِيق الصَّدْر وتَشتُّت الفِكْر هو المَعاصي، قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين:١٣] ما يَعرِف قَدْر القُرآن إذا تَتْلو عليه القُرآن يَقول: أَساطيرُ الأَوَّلين. فلا يَعرِف قَدْره لماذا؟ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] لَمَّا رانَ على قَلْبه عمَله صار -والعِياذُ بالله تعالى- لا يَرَى هذا القُرآنَ العظيمَ إلَّا أَساطيرَ الأَوَّلين.

ولهذا قال بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: يَنبَغي لمَن نَزَلَت به نازِلة وطلَب حُكْمها، سَواءٌ كانت هذه النازِلةُ نازِلةً خاصَّةً به أَمْ كان مَسؤُولًا عنها يَنبَغي له أن يَستَغفِر الله تعالى؛ واستَدَلَّ لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء:١٠٥]، وبعدَه: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٠٦]، وهذا ليس ببَعيد.

إِذَن مِن فَوائِد الإيمان والعمَل الصالِح: حُصول المَطلوب والنَّجاة من المَرهوب.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ رِزْق الجَنَّة رِزْق كريم؛ أي: واسِع كثير دائِم حسَن، ويَدُلُّ لذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٢-٣٣].

الآيــة (٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴾ [سبأ:٥].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿سَعَوۡ﴾ فِي إِبْطَالِ ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الْقُرْآنِ]، فجعَل في الآية مَحذوفًا تَقديرُه: في إِبْطالها، ومَعنَى (سَعَوْا) أي: مَشَوْا بشِدَّة، هذا في الأصل، ومِنه السَّعيُ أيِ: الرَّكْض، فالمُراد أنَّ هؤلاءِ يُسابِقون ويَتَسارَعون إلى إبطال آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإِبْطالُها بالنِّسْبة لهم أن لا يَقوموا بها، وإِبْطالُها بالنِّسْبة لغيرهم أن يَصُدُّوا الناس عن دِين الله تعالى، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الحج:٢٥] فهَؤلاءِ سَعَوْا غاية السعيِ في آيات الله لإِبْطالها وإِخْفاقِها.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ لم يُبيِّن بماذا سَعَوْا؛ لأنَّ هؤلاءِ يَسعَوْن في إبطال آيات الله تعالى أَحْيانًا بالصِّراع المُسلَّح، يَعنِي: يُهاجِمون الدِّيار ويُقاتِلونهم حتى يَردُّوهم عن دِينهم، وأحيانًا بالسِّلاح الفِكْري، فيَبُثُّون فيهم الشُّبُهاتِ؛ في دِينهم، في نَبيِّهم، في ربِّهم؛ ما استَطاعوا إلى ذلك سبيلًا، وأحيانًا يَسعَوْن في ذلك بالشَّهَواتِ؛ فيَبُثُّون في الناس حُبَّ اللهو والشَّهْوة.

ومن هذا ما تَبُثُّه وسائِلُ الإعلام الخَبيثة في الدُّوَل الكافِرة ومَن تَشبَّهَت بها،

فتَجِدهم يَدْعون إلى أَسافِل الأخلاق، يَدْعون بالقَلْم وبالصورة، فيُصوِّرون النِّساء الفاتِنات وعلى صِفة مُزرِية -والعِياذُ بالله تعالى-، ويَكتُبون أيضًا بالدَّعْوة إلى ذلك، وهذا الأمرُ يَمَسُّ العقيدة في الواقِع، وليس قاصِرًا على البدَن فقط؛ لأنَّ الإنسان إذا أَصبَح بَهيميًّا ليس له إلَّا إِشْباعُ بَطْنه، وإشباعُ غَريزته؛ فإنه يَبقَى لا صِلةَ له بالله، أهمُّ شيءٍ عنده هذا الذي انغَمَس فيه من الشَّهَوات واللهوات، فتَجِده يُعرِض عن دِين الله ولا يَهتَمُّ به.

ولذلك مِن أَضَرِّ ما يَكون على البِلاد الإسلامية بعد بثِّ السُّموم الفِكْرية بثُّ السُّموم الشَّهْوانية؛ لأن الشَّهْوانية هذه يَميل إليها الإنسان بِفِطْرته التي تُمْلِيها عليه نَفْسُه الأمَّارة بالسُّوء، فيَدخُل فيها مُكرَهًا فإذا انغمَسَ -نَسأَل الله تعالى العافِيَة- فيها فإنه يَقِلُّ أن يَنتَشِل نفسه منها.

فالمُهِمُّ: أنَّ الذين كفَروا يَسْعَوْن سَعيًا حَثيثًا في إبطال آيات الله تعالى أن تُنشَر، أو أن يُعمَل بها أو أن يَتَّجِهَ الناس إليها، بكل ما يَستَطيعون من قُوَّة؛ إمَّا بالصِّراع المُسلَّح، وإمَّا ببَثِّ الأفكار المُشكِّكة المُشبِهة، وإمَّا ببَثِّ الشَّهَوات حتى يُعرِض الناس عن دِينهم.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ءَايَٰتِنَا﴾: الْقُرْآن] والصواب: أنَّ آياتِنا هنا أَعَمُّ من القُرْآن؛ لأنَّ الساعين في آيات الله تعالى لَيْسوا هم من هذه الأُمَّة فقَطْ، حتى في الأُمَم السابِقة فإنَّ فيهم مَن يَسعَى في آيات الله تعالى، فمثَلًا فِرْعون يُهدِّد قومَه يَقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]؛ ويَحُثُّهم على أن يَكفُروا بموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وغير ذلك أيضًا من الأُمَم الآخَرين كُلُّهم يَسْعَوْن في آيات الله في إِبْطالها وصدِّ الناس عنها.

وعلى هذا فنَقول: إنَّ المُرادَ بآيات الله تعالى هنا أَعَمُّ من القُرْآن، يَشمَل السَّعيَ في أيِّ آيةٍ من آيات الله تعالى.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ هُنَا وَفِي مَا يَأْتِي]، والأَصْل (مُعْجِزِينَ) (يَسْعَونَ في آياتِنا مُعْجِزِينَ)، وفي قِراءتنا هنا وفي ما يَأتي [﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أَيْ: مُقدِّرِينَ عَجْزَنا أَوْ مُسابِقِينَ لَنَا فيَفُوتونا بظَنِّهِمْ أَنْ لَا بَعْثَ وَلَا عِقَابَ].

إذَنْ: فيها قِراءَتان سَبْعِيَّتان أم إِحْداهما شاذَّة؟

الجوابُ: سَبْعيَّتان؛ لأنَّ مِن اصطِلاح المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا قال: (وفي قِراءة) فهي سَبْعيَّةٌ، أمَّا إذا قال: (وقُرِئَ) فهي شاذَّةٌ، وهذا اصطِلاحٌ خاصٌّ بالمُفَسِّر، فإذا وجَدْتَ في هـذا التَّفسيرِ (تفسير الجلالين): (وفي قِراءةٍ) فاعلَـمْ أنها قراءة سَبْعيَّة، وإذا وجَدْت: (وقُرِئَ) فهي قِراءة شاذَّة، والفَرْق بينهما أن القِراءة السَّبْعية يَجوز أن يَقرَأ بها الإنسان في صلاته ويَتعَبَّد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها، وأمَّا الشـاذَّةُ فهي على اسمِها شاذَّة، لكن هل يُحتَجُّ بها في الأَحْكام أو لا يُحتَجُّ؟ فيه خِلاف بين العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

إِذَنْ فيها قِراءتـان: (مُعْجِزِينَ) أو ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾، المُعجِز مَعـناه: الذي يُريد أن يُعجِز غيرَه بدون أن يَكون من الغَيرِ مُقابَلةٌ له، هذا المُعجِزُ، فيَكون الإِعْجازُ من طرَفٍ واحِدٍ، أي: أنهم يُريدون بهذا أن يُعجِـزوا الله في عدَم مُؤاخَذَتهم وعِقـابهم؛ لأنهم آمِنون من مَكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

و﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ تَكون من طرَفَيْن كل واحد منـهم يُريد إعجاز الآخَر فكأنَّهم لطُغْيانهم وعُدوانهم جعَـلوا أَنْفُسهم في مَقام الصِّراع مع الله؛ وإن كان الله يَريد أن يُعجِزَهم فإنهم أيضًا يُريدون أن يُعجِزوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد سبَق أنَّ القِراءَتَيْن قـد تَدُلُّ كل واحدة منهما على مَعنًى يُكمِـل القِراءة الأُخرى؛ فأيُّهما أَبلَغُ (المُعجِز) أو (المُعاجِز)؟

الجوابُ: (المُعاجِزُ) أَبلَغُ في الطُّغْيان؛ لأنَّه: أَراد أن يَجعَل نَفْسَه حَرْبًا لله عَزَّوَجَلَّ مُقابِلًا له، فما جَزاؤهم؟ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [سبأ:٥].

فقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ نَقول في إعراب هذه الجُمْلةِ كما قُلْنا في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ فهي مُبتَدَأ، وخَبَرُه الجُمْلة بعدَه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ العَـذاب بمَعنَى: العِقـاب، والرِّجْز يَقـول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سَيِّئِ العَذَابِ]، الرِّجْز هو السَّيِّئُ من كل شيء، فإذا قيل: عَذابٌ مِن رِجْز. فمَعناه: سَيِّئ العَذاب، بل إنَّه أَسوَأُ العذاب، فإنَّ أَعظَمَ عَذاب يُعذَّب به البَشَر هو عَذاب النار -نَسأَل الله العافِيةَ- فهو أَسوَأُ العذاب.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَلِيمٌ﴾ أَيْ: مُؤْلِمٌ بِالجَرِّ وَالرَّفْعِ]، يَعنِي: القِراءَتان [صِفَةٌ لِرِجْزٍ أَوْ عَذَابٍ] يَعنِي: كلِمة (أَليم) فيها قِراءَتان: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أو ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٍ﴾.

أمَّا كونُ (أَليم) صِفة لعَذاب فهي كثيرة في القُرآن، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كثيرًا ما يَصِف الله تعالى العَذاب بالأَلَم، وأمَّا (الرِّجْز) فإنها كانت صِفة لها؛ لأنها أقرَبُ من (عَذاب)، وعليه فإذا قُلْتَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ برَفْع (أَليمٌ) قُلْنا: إنها صِفة لـ(عَذاب) وإذا قُلتَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٍ﴾ بجَرِّ (أَليمٍ) قُلْنا: إنها صِفةٌ لـ﴿رِّجْزٍ﴾.

ويَجوز أن تُقرَأ بهذا وبهذا، بل يُستَحَبُّ لك أن تَقرَأ بالقِراءَتَيْن جميعًا وبالثلاث

إذا كان فيها ثلاث قِراءاتٍ؛ لأنَّ اختِلاف القِراءات كاختِلاف الصِّفات في العِبادات، وقد سبَق لنا أنَّ الأفضل في ما جاء من العِبادات على صِفاتٍ مُتعدِّدة أن تَعمَل بهذا مَرَّة وبهذا مَرَّة حتى تَحصُل على السُّنَن كلها، وهكذا القِراءات، ولكن إيَّاك أن تَقرَأ وأنت شاكٌّ في القِراءة؛ لأنَّه لا يَجوز أن نَقرَأ إلَّا ونحن مُتيَقِّنون بأن هذه هي القِراءةُ الصحيحة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَحقُّق ما وصَف الله تعالى به القُرآن من أنه مَثاني، إذا ذُكِر فيه المَعنى ذُكِر ما يُقابِله، وإذا ذُكِر فيه العامِل ذُكِر مَن يُقابِله.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الحِكْمة في الخِطاب، وأنه يَنبَغي في الخِطاب أن يَكون جامِعًا بين أسباب الخوف وأَسباب الرَّجاء؛ لأنه إذا ذُكِر الخوف فقط فقد يَستَوْلي على القَلْب القُنوطُ من رحمة الله؛ وإذا ذُكِر الرجاء فقط فقد يَستَوْلي عليه الأَمْن من مَكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الكُفَّار يَسعَوْن جادِّين لإبطال آيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾، والسعي كما نَعلَم أنه هو الجَريُ بشِدَّة، فهؤلاء يَسعَوْن جادِّين لإِبْطال آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هؤلاءِ الكُفَّارَ كأنما يُعاجِزون الله تعالى ويُغالِبونه؛ لقوله تعالى: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هؤلاء الذين سعَوْا في آيات الله تعالى مُعاجِزين يُعاقَبون بهذا العِقابِ الأليمِ: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾، وقوله تعالى: ﴿مِّن رِّجۡزٍ﴾ أي: من عَذابٍ سَيِّئٍ مُؤلِم، كما سبَق.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التَّحذير من سَعْيِ الإنسان في إبطال آيات الله تعالى، فإذا قُلْنا -على القاعِدة التي سبَقَت لنا في قواعِد التَّفسير-: «إنه إذا نُهِيَ عن شيء فهو أَمْر بضِدِّه» فتَكون هذه الآيةُ مُتضَمِّنة للحَثِّ على السَّعيِ في آيات الله لتَقريرها وتَثبيتها، وهو كذلك؛ فإننا مَأمورون بأن نَسعَى قَدْرَ استِطاعتِنا في تَثبيت آيات الله ونَشرِها بين الأُمَّة حتى تَقوم المِلَّة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات الجَزاء والحِكْمة فيه؛ لأن المُؤمِنين العامِلين الصالِحاتِ ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، وهؤلاء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

• • ۞ • •

الآيــة (٦)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ:٦].

قوله تعالى: ﴿ وَيَرَى ﴾ بمَعنَى: يَعلَم؛ لأنَّ الرُّؤْية تكون بمَعنَى الرُّؤْية بالعَيْن، وتكون الرُّؤْية بالقَلْب، والرُّؤْية بالقَلْب هي العِلْم، و(رأَى) بمَعنَى: عَلِم، وتَأتي في القُرآن كثيرًا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦-٧] (نَراه) بمَعنَى: نعَلَمه؛ لأنَّه ليس المعنى: نَراه بأَعيُننا، إذ إنه لم يَقَع، وليس المَعْنى: نَظُنُّه؛ لأنَّ الله تعالى مُنَزَّهٌ عن الظَّنِّ، وعلى هذا فيَكون (نَراه) بمَعنى: نَعلَمه، وهنا قوله تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ أي: [يَعْلَمُ]، لكنه إذا جاءَت: (يَرَى) بمَعنى: (يَعلَم) دلَّتْ على أن العِلْـم في أعلى مَقامات العِلْم؛ وأنه صار كالمُشـاهَد بالعَيْن يُرَى رُؤيا بالِغة كالذي يُشاهَد.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: أُعطُوه.

وهل المُراد بهم أهل الكِتاب أو هو عامٌّ؟ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ مُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ كَعَبْدِ الله بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ].

والصواب: أنها أَعمُّ من ذلك، وأن المُراد بالذين أُوتوا العِلْم كلُّ مَن أَعطاهمُ الله تعالى العِلْم فيَشمَل أهل الكِتاب من اليَهود والنَّصارى، فالنَّجاشِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من

النَّصارى، ورأَى أن الذي أُنزِل إلى النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حقٌّ، وعبدُ الله بْنُ سَلَامٍ من أَحبار اليَهود رأَى أن الذي أُنزِل على النبيِّ ﷺ هو الحَقُّ، وكذلك أيضًا مَن آتاه الله تعالى عِلْمًا من هذه الأُمَّةِ فإنه يَرَى أنَّ الذي أُنزِل إلى النبيِّ ﷺ هو الحَقُّ، بخِلاف مَن كان جاهِلًا فإنَّ إيمانه إيمانُ تَقليد، وهو وإن كان مُجزِئًا عنه لكنه ليس كإيمان الذي آتاه الله تعالى العِلْم.

ويَدُلُّ على أن المُراد بالذين أُوتوا العِلْم ما هو أَعَمُّ قولُه تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨] فالذين أُوتوا العِلْم هم الذين يَرَوْن أنَّ ما أُنزِل إلى النبيِّ ﷺ هو الحقُّ؛ وذلك بما آتاهمُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من العِلْم الراسِخ في قُلوبهم.

ولهذا تَجِد عِبادة العامِّيِّ يَعبُد الله عَزَّوَجَلَّ عِبادةً أَشبَهَ ما تكون بالعادة، وإن حضَر في قَلْبه الإنابةُ والخُشوعُ والاستِحْضارُ، لكنه ليس كالذي يَعبُد الله تعالى على بَصيرة وعلى عِلْم؛ لأنَّ في قَلْب هذا مِن اليَقين ما ليس في قَلْب الأَوَّل، فيَكون عامًّا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ إذا كانت (يَرَى) عِلمِيَّة فإنها تَنصِب مَفعولين: المَفعول الأَوَّل: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ الاسْمُ المَوصولُ، والمَفعول الثاني: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾، وأمَّا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأُولى فهي فاعِل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يَعنِي: الْقُرْآنَ]، فإن الله تعالى أَنزَله إلى النبيِّ ﷺ بواسِطة جِبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقول تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هنا أَضاف الرُّبوبية إلى النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنَّ الوَحيَ رُبوبية خاصَّةٌ، إذ لا أَحَدَ يُشارِك النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من هذه الأُمَّةِ في ذلك؛ فلهذا أَضاف الرُّبوبية إليه وحدَهُ؛ فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾

للعِناية بهذا المُنزَل إليه، والمُنزِل أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تَقدَّم أنَّ مَعنَى الرُّبوبية هو الخَلْق والمِلْك والتَّدبير، فالله تعالى خالِق النبيِّ ﷺ ومالِكُه ومُدبِّرُه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿هُوَ﴾ فَصْلٌ ﴿ٱلْحَقَّ﴾] هذا هو المَفعول الثاني، و(هو) ضمير فَصْلٍ، لَفْظُه لفظُ الضمير لكنَّه ليس ضَميرًا؛ ولذلك لا نَقول: إنَّه اسمٌ، وأيضًا لا نَقول: له مَحَلٌّ من الإعراب، يَعنِي: لا مَحَلَّ له من الإعراب، وليس باسْمٍ، لكنه جِيء به للفَصْل.

والدَّليل على أنه لا مَحَلَّ له من الإعراب قولُه تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء:٤٠]، ولو كان له مَحَلٌّ من الإعراب لقال: (هم الغالِبون) فلَمَّا قال: ﴿هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾؛ وصارَت ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ خبرَ (كانَ)، دلَّ ذلك على أنَّ هذا الضميرَ ليس له مَحَلٌّ من الإعراب، لكن ما فائِدتُه؟

الجوابُ: ذكَرَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أن له ثَلاثَ فَوائِدَ:

الفائِدةُ الأُولى: الفَصْل بين الصِّفة والخَبَر.

الفائِدةُ الثانِية: الحَصْر.

الفائِدةُ الثالِثة: التوكيدُ.

أمَّا وَجْه كَوْنِه فاصِلًا بين الصِّفة والخَبَر فلو قُلْت: «زَيْدٌ الفاضِلُ»؛ (الفاضِل): هنا يُحتَمَل أنها صِفةٌ لـ(زَيْدٌ)، وأنَّ الخبَر لم يَأتِ، فيَكون الإنسانُ الآنَ مُترَقِّب للخبَر، كأَنْ يَكونَ تَقديره: (زَيدٌ الفاضِلُ حاضِرٌ)، وإذا قُلتَ: «زَيْدٌ الفاضِلُ حاضِرٌ»؛ صارت (الفاضِلُ) هنا صِفةً بلا شَكٍّ و(حاضِرٌ) خَبَرًا، فإذا قُلتَ: «زيد الفاضِلُ»

فقَطْ، يُحتَمَل أنك تُريد أن تُخبِر بأنَّ (زَيدٌ فاضِلٌ) ويُحتَمَل أنك تُريد أن تَصِف زيدًا بأنه فاضِل، والخبَرُ لم يَأتِ، فإذا قُلْت: «زيدٌ هو الفاضِلُ» تَعيَّن أن تَكون الفاضِلُ خبرًا.

وأمَّا كونُه مُؤكّدًا أيضًا؛ لأنك إذا قُلتَ: زيدٌ الفاضلُ، وزيدٌ هو الفاضلُ. هَذه أَوْكَدُ بلا شَكٍّ، كذلك أيضًا مُفيدٌ للحَصْر: فإذا قُلتَ: زيدٌ هو الفاضِل؛ مَعناه: لا غَيره. فضَمير الفَصْل إِذَنْ يُفيد ثلاث فوائِدَ: الحَصْرُ، والتَّوكيد، والفَصْل بين الخَبَر والصِّفَة.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ بمَعنَى: الشيء الثابِت، فقَولُك: أُحِقُّ الشيء. أَيْ: أُثبِتُه، ومِثاله أيضًا قوله تعالى: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس:٩٦] أي: ثبَتَت ووَجَبَت، فما هو الثُّبوت في القُرآن؟

الصِّدْق في الأخبار والعَدْل في الأَحْكام، فالحقُّ إذا أُضيف إلى الحُكْم فمَعناه: العَدْل، أي: أنَّه حُكْم عادِل؛ ولهذا لو تَنازَع خَصْمان عند القاضي وحَكَم لأحدهما بما تَقتَضيه الشريعةُ قُلْنا: هذا حقٌّ؛ لأنَّه عدَلَ، ولو حَكَم للثاني بخِلافه قلنا: هذا ليس بحَقٍّ هذا باطِل؛ لأنَّه حَكَم بغير الحقِّ، فالحَقُّ في الأحكام هو العَدْل، وفي الأَخْبار هو الصِّدْق، فالذين آتاهمُ الله تعالى العِلْم يَعلَمون أنَّ هذا القُرآنَ حَقٌّ في أَحْكامه وحَقٌّ في أخباره، فأَحكامه كلها عَدْل؛ لأنها وَضَعَتِ الشيء في نِصابه وجعَلَتِ الحَقَّ لِمُستَحِقِّيه، وأخبارُه أيضًا ثابِتة حَقٌّ، يَعنِي: ثابِتة ما فيها كذِبٌ، فإذا قُلْت: هذا خبرٌ حَقٌّ. أي: صِدْقٌ، هذا حُكْمٌ حقٌّ، أي: عَدْلٌ.

ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، وقال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: صِدْقًا في الأخبار؛ وعَدْلًا في الأحكام.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾؛ ومعَ ذلك [﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ طَرِيقِ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أَيِ: الله؛ ذِي العِـزَّةِ المَحْمُودِ] يَهـدِي بمَعنَى: يَدُلُّ، فالهِـدايةُ هنا هِداية دَلالة وإرشاد، والهِداية نَوْعان: هِداية تَوْفيق؛ وهِداية دَلالة.

أمَّا هِداية التَّوفيق فلا يَملِكها إلَّا الله، قال الله تعالى لنَبيِّه مُحَمَّد ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦].

وأمَّا هِداية الدَّلالة فثابِتة لكلِّ ما يَكون به الإِرْشاد والدَّلالة، فالقُرآن يَهدِي إلى صِراط مُستَقيم، والنَّبيُّ ﷺ يَهدِي إلى صِراطٍ مُستَقيم، وهنا (يَهدِي) أي: يَدُلُّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ يَعنِي: (الله)، وهنا قال: ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ كما قال تعالى في سُورة إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١]، فأَضافَه إلى هذا الاِسْمِ العَظيم وهو الدَّالُّ على العِزَّة؛ إشارة إلى أن مَن تَمسَّك بهذا الصِّراطِ كانت له العِزَّة.

﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ أَيْضًا إشارة إلى أنَّ مَن لَزِم هذا الصِّراطَ كان في مَقامٍ مَحمود.

أمَّا ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي هو اسْمُ الله تعالى، فإن ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ مَن له العِزَّة، والله تعالى له العِزَّة جَميعًا ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس:٦٥]، العِزَّة التي وُصِفُ الله تعالى بها تَتضمَّن ثلاثة مَعانِيَ: عِزَّة القَدْر، وعِزَّة القَهْر، وعِزَّة الامْتِناع.

أمَّا عِزَّة القَدْر فمَعناها: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ذو قَدْرٍ عَظيم، وأمَّا عِزَّة القَهْر فمَعناها: أن الله ذو قَهْر عظيمٍ؛ وغلَبة لا يَغلِبه أَحَد، وأمَّا عِزَّة الامتِناع فمَعناه: أنَّ الله يَمتَنِع عليه النَّقْص بوَجْهٍ من الوُجوه، ولا يُمكِن أن يَنالَه نَقْصٌ أبَدًا، فهذه هي العِـزَّة المُضافة إلى الله.

فإن قِيل مثلًا: هذا عزيزٌ عَلَيَّ؛ أي: ذُو قَدْر شَريفٍ عِنْدي، وفي الآية: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] يَعنِي: غلَبَني، هذه عِزَّة القَهْر والغَلَبة، ويُقال: أَرْضٌ عَزَازٌ. أي: قوِيَّةٌ شديدة ما يُؤثِّر فيها وَطْء الأقدام، وهذه عِزَّة الامتِناع، فالله مَوصوف بالعِزَّة بمَعانيها الثلاثة.

وأمَّا ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ فيَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه بمَعنَى: [المَحْمُودِ] وصحيحٌ أنَّ (فَعيل) تَأتي بمَعنَى (مَفعول)، ومنه قَوْلهم: (قتيل) بمَعنَى (مَقتول)، و(جَريحٌ) بمَعنَى (مَجروح)، لكنها تَأتي بمَعنَى (الفاعِل) أيضًا؛ مِثْل (عَليم) بمَعنَى (عالِم)، (عَزيز) بمعنى (عازّ)، (حَكيم) بمَعنَى (مُحكِم)، وهكذا تَأتي بهذا المَعنَى.

فإذا كانت تَأْتي بالوَجْهين جميعًا، أي: بالفاعِل والمَفعول؛ فهل الأَوْلى أن نَجعَلها مَقصورة على المَفعول أو نَجعَلها شامِلةً؟

الجوابُ: الأَوْلى أن نَجعَلها شامِلة؛ فهو عَزَّوَجَلَّ حَميدٌ بمَعنَى: حامِد، وبمَعنَى (مَحمود)، أمَّا كَونُه حامِدًا فما أَكثَرَ ما يُثنِي الله على عِباده المُؤمِنين، إِذَنْ هذا (حَمْد) فهو (حامِد) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأمَّا كَوْنه مَحمودًا، فهذا ظاهِر أن الله تعالى له الحَمْدُ على كل حال.

والحاصِلُ: أنَّ تفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ بـ(المَحمود) فيه قُصورٌ، والصَّواب: أنه بمَعنى (مَحمود) وبمَعنَى (حامِد)، وأن له الحَمْدَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الدُّنيا والآخِرة.

وفي إضافة الصِّراط إلى اسمِ الله تعالى ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ فيه فائِدة؛ أنَّه يَدُلُّ على أنَّ مَن تَمَسَّك بهذا الصِّراط فإنه (عزيزٌ) و(مَحمودٌ) أَيْضًا؛ (محمود) على الْتِزامه بهذا الصِّراطِ.

فَإِنْ قِيلَ: في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الدُّنيا أَمْ في الآخِرة؟

فالجوابُ: أنه لَمَّا ذَكَر المَغفِرة فإن آثارَها لا تَظهَر إلَّا في الآخِرة، ولكن -كما سَبَق- أنَّ الأَحسَن العُموم.

فإن قُلتَ: إننا نَجِد من المُؤمِنين العامِلين الصالِحاتِ مَن هو فقير، فأَينَ الكرَمُ في الرِّزْق؟

فالجوابُ: أن نَقول كما قال النَّبيُّ ﷺ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[1]، فقد يَكون الإنسان عنده مالٌ كثير لكن حاله حال الفُقراءِ.

أمَّا مَن لا يَرَى أن ما أُوتِيَه النبيُّ ﷺ حَقٌّ فهذا لا يُمكِن، فكل مَن أُوتِيَ عِلْمًا فإنه يَرَى أن ما جاء به النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو الحقُّ، لكنه يَكون مُعانِدًا مُستكبِرًا، مُشكِلة هذا المُكابَرةِ، وهي أَمْرٌ ما فيها إلَّا السَّيْف إذا استَحَقَّ القَتْل، وإلَّا كُلُّ إنسانٍ يُؤتَى العِلْم لا بُدَّ أن يَشهَد بالحَقِّ لما جاء به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنَّ ما جاء به الرسول مُطابِقٌ للواقِع، فلا بُدَّ أن يَعلَم أنه حَقٌّ.

وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن آل فِرعونَ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]، فهم يَستَيْقِنون بها، ويَعلَمون أنها الحقُّ لكنهم يَجحَدون، وقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يَشمَل كُلَّ مَن آتاه الله تعالى العِلْم حتى عبدَ الله بنَ سلَام وغيرَه، ومن الجائِز أن تَنزِل الآية قبل أن يَحدُث الواقِعُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس، رقم (٦٤٤٦)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض، رقم (١٠٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فَضيلة العِلْم؛ ووجهُه: أنَّ العالِمِ يَعرِف الحَقائِقَ على ما هي عليه، فيَرَى أنَّ الذي أُنزِل على الرسول ﷺ هو الحقُّ، وهذا لا شَكَّ أنه من فضائِل العِلْم، عَكس الذي يَتَرَدَّد في كونه حَقًّا، أو يُمكِن أن يَكون حَقًّا -والعِياذُ بالله تعالى- فالَّذين مَنَّ الله تعالى عليهم بالعِلْم يَرَوْن أنه الحقُّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الإشارة إلى أنه لا يَنبَغي للإنسان أن يُعجَب بعِلْمه؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يَعنِي: ما أَدركوهُ بأَنفُسهم، ولكن الله تعالى مَنَّ عليهم به، فلا تَقُلْ: هذا من عِندي. ومِثْله المالُ أيضًا، بعض الناس يُعجَب إذا حصَّل مالًا؛ والذي أَعطاه المال هو الله، وماذا صنَعَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالذي قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]؟ خَسَف به الأرض.

فنَأخُذ مِن قوله تعالى: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أنه لا يَنبَغي للإنسان أن يُعجَب بنَفْسه ويَقول: العِلْم حصَّلْتُه أنا بفهمي وحِرْصي ومُثابَرتي.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: يَنبَغي للإنسان أن يَلجَأ إلى الله تعالى في تَحصيل العِلْم، نَأخُذها من قوله: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ فإذا كُنَّا نُؤْتَى العِلْم؛ فلْنَسأَلْ هذا العِلْم ممَّن يُؤتِينا إيَّاه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ القرآن كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فما وجهه؛ لأنه ليس كل نازِل كلامًا، فقَدْ يَذكُر الله تعالى الإِنْزال للشيء وليس بكلام؟

الجوابُ: أن ما نَزَل من الله تعالى إمَّا أن يَكون قائِمًا بذاته أو قائِمًا بغيره، والقائِم بذاته مَخلوق؛ كالمطَر ونحوه، أمَّا القُرآن فهو قائِم بغيره؛ لأنه كلامٌ فلا يُمكِن إلَّا مِن مُتكلِّم فيَكون كلام الله غيرَ مَخلوق، وإلَّا هناك أَشياءُ يُنزِلها الله تعالى ويَقول: أَنزَلناها.

وهي مخلوقة؛ كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [النحل:١٠]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ﴾ [المؤمنون:١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥]، وكل هذه الأشياءِ مخلوقة؛ لأنها أعيان قائِمة بذاتها، بخِلاف القَوْل فإن القَوْل لا يَكون إلَّا بقائِل.

فإذا قال الله تعالى: أَنزَل عليك الكِتابَ، وهو قولٌ صار هذا القَوْلُ مِن كلام الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فضيلة النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، تُؤخذ مِنْ إضافة الرُّبوبية إليه، وهذه الرُّبوبية خاصَّة -كما سبَق- لنا في (قواعِد التَّفسير).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: عِناية الله بالرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بيان فَضْل الله تعالى عليه، حيث أَنزَل عليه الحقَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن هذا القُرآنَ حَقٌّ؛ في أَخْباره وفي أَحْكامه، والحَقِّيَّةُ في الأَخْبار هي: الصِّدْق، وفي الأحكام: العَدْل، وقد جمَعَ الله تعالى ذلك في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ القُرآن مَنارٌ وهُدًى، يَهتَدِي به الناس ويَستَضيئون به؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ مَنِ ابتَغَى الهُدى من غيرِه ضَلَّ؛ لأنه إذا كان هو الذي يَهدِي إلى صِراط العَزيز الحميد فإذا ابتَغَيْت الهُدَى من غيرِه المُخالِف له فإنك

لا تُهدَى إلى صِراط العَزيز الحميد؛ ولهذا لَمَّا طلَبَ أهلُ البِدَع الوُصولَ إلى الخالِق عن طريق غير القُرآن ضلُّوا وتاهوا وبَقُوا مُتَحَيِّرين مُضْطَرِبين.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن مَن تَمَسَّك بهذا القُرآنِ نال العِزة والحَمْد؛ أي: صار عزيزًا محمودًا؛ لقول الله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ ولم يَقُلْ: إلى صراط الله. بل قال سبحانه: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾؛ إشارة إلى أنَّ مَن تَمَسَّك بالقُرآن فله العِزَّة وله الحَمْدُ يُحمَد على فِعْله وقَوْله وتَرْكِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات هَذين الاسْمَيْن لله، وهما العَزيز والحَميد، وقلنا: أنَّ العِزَّة التي اتَّصَف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها لها ثلاثة أنواعٍ: عِزَّة القَدْر، وعِزَّة القَهْر، عِزَّة الامتِناع، فالحَميد من أسماء الله تعالى، وهو مُشتَقٌّ من الحَمْد.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: إثبات العِزَّة لله تعالى، وإثبات الحمـدِ لله تعالى، ولكن هناك عِبارة عند الناس يَقولون: (الحمدُ لله الذي لا يُحمَد على مَكروهٍ سِواهُ) وهذه عِبارةٌ غيرُ مُناسِبة؛ لأنك تُعلِن إعلانًا تامًّا بأنَّك تَكرَه ما قَضَى الله تعالى، والرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا أَصابَه أَمْر يُسَرُّ به قال: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»، وإذا أَصابَه ما يَكرَه قال ﷺ: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»[1]، ولا يَذكُر شيئًا مَكروهًا، ولهذا يَنبَغي لنا أن نُنبِّه مَن تَكلَّم بهذه العِبارةِ؛ أنَّ هذا يَشهَد بأنه لم يَرضَ بقَضاء الله تعالى نَقول له: قُلْ: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

ونَعلَم أن الله تعالى ربُّ كلِّ شَيْءٍ ويَدخُل في ضِمْن ذلك الكِلابُ والخَنازيرُ والحشَراتُ وما أَشبَه ذلك، لكن هل من اللائق أن تَقول: إن الله تعالى ربُّ الكِلاب

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وربُّ الخَنازير وربُّ الحَشَرات؟ وهذا ليس من الأدَب أن تُخصِّص كما نَصَّ على ذلك شيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ[1] وغيرُه رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، فهنا فَرْق بين التَّعميم وبين التَّخصيص؛ ولهذا قال الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

• • ❁ • •

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٦٦).

الآيــة (٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴾ [سبأ:٧].

أوَّلًا: في الإعراب والمَعاني البلاغية قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ﴾ المَقصود بالاستِفْهام هنا السُّخْرية، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ نُكِّر للتَّحقير؛ يَعنِي: أنَّه رجُلٌ حَقيرٌ، كقوله تعالى عمَّن كذَّبَ الرسُلَ عُمومًا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء:٣٦]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ [الفرقان:١٤]، فإن هذا للتَّحقير.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُنَبِّئُكُمۡ﴾ تَنصُب ثلاثةَ مَفاعيلَ، المَفعولُ الأوَّل الكافُ، والمَفعول الثاني والثالِث مُعلَّق بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴾.

يَقول الله عن الكافِرين: إنَّ بعضهم يَقول لبَعضٍ على جِهة التَّعجُّب، كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بل على جِهة التَّحقير: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [أَيْ: قَالَ بَعْضُهُمْ عَلَى جِهَةِ التَّعَجُّبِ لِبَعْضٍ: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ هُوَ مُحَمَّدٌ] الاستِفهام هنا قُلت: إنه للسُّخْرية.

والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ زاد مَعنًى آخَرَ وهو التَّعجُّب، يَعنِي: ألَا تَتَعَجَّبون ممَّا سنَدُلُّكم عليه.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هُوَ مُحَمَّدٌ] لكنهم قالوه بالتَّنكير على سبيل التَّحقير لم يَذكُروه باسمه؛ لأنَّ ذِكْر الشخص باسْمِه قد يَعني تَعلية مَنزِلته، ولكنهم قالوا بهذا اللَّفظِ المُنكَر تَحقيرًا له [﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يُخْبِرُكُمْ أَنَّكُمْ ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾ وقُطِّعْتُمْ ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ بِمَعْنَى: تَمْزِيقٍ] ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذا ما يُنبَّأ به يَقول: ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: يُخبِرُكم، فالنَّبأ بمَعنَى الخَبَر، وقد يَكون النَّبأ في الأشياء الهامَّة والخبَر في ما هو أعَمُّ، فتُخبِرُ عن الشيء الهامِّ وعن الشيء الحَقير، ولكنك لا تُنْبِئُ إلَّا بشيءٍ عظيم، كقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:١-٢] وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص:٦٧-٦٨]، فالنَّبأ قد يُستَعمَل في الأشياء العَظيمة بخِلاف الخبَر فإنه يَكون أعَمَّ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [إِذَا قُطِّعْتُمْ] يَعني: تَمزيق الأرض لِلُحوم البَشَر، فإن الإنسان إذا دُفِن مَزَّقته الأرض وقطَّعته وصارَت عِظامه الصُّلْبة رميمًا: فهُمْ يَقولون: إنه ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بمَعنى تَمزيق.

وعلى هذا فكلِمةُ ﴿مُمَزَّقٍ﴾ مَصدَر، لكنه مَصدَرٌ مِيميٌّ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذا هو مَحَلُّ النَّبأ، وهو في مَحَلِّ نصبٍ سَدَّ مَسَدَّ مَفعولَيْ يُنبِّئكم الثاني والثالث.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾ كلِمةُ ﴿إِذَا﴾ ظَرْفية مُتعلِّقة بشيءٍ مَحذوفٍ يَدُلُّ عليه السِّياق؛ لأنَّ إنباء الرسول ﷺ ليس في وقت تَمزيقهم، ولكنه أنبَأَهم في الحياة الدنيا: أنها تَمزيقهم إذا دُفِنوا، يَعني أنكم إذا دُفِنْتم ومُزِّقتم تَكونون في خَلْق جَديدٍ، وهذا الخَلْقُ الجديد هو البَعْث، وهل البَعْثُ إعادة لما مَضَى، أو ابتِداء خَلْق غير الأوَّل؟

الصوابُ: أنـه إعادة ما مَـضَى كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم:٢٧]، ولكنه سُمِّي خَلْقًا جديدًا؛ لأنَّ الإنسان إذا بُعِث فإنه لا يُبعَث كحاله في الدنيا، بل يُبعَث في حالٍ أَشَدَّ وأَقوَى؛ لأنه سيُبعَث على أنه مُؤبَّد لا يَموت.

ولهذا يَتحَمَّل الناس يوم القيامة من الكَرْب والهَمِّ والغَمِّ ما لا يَتَحمَّلونه في الدُّنيا، فالناس مَثَلًا لو دَنَتِ الشمس منهم قَدْر مِيلٍ في الدنيا لأَحْرَقتهم، ولكنها في الآخِرة تَدنو مِنهم ومع ذلك لا تُحرِقهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ في أَوْصافه؛ لأنَّ الصحيح أنَّ الخَلْق هو إعادة ما مَضَى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن النَّبيَّ ﷺ دعا إلى الإيمان باليَوْم الآخِر؛ تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿يُنَبَّـُٔكُم إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان عُتُوِّ الكافِرين، واستِعْلائهم واستِكْبارهم؛ حيثُ عبَّروا بهذا التَّعبيرِ ساخِرين بما أَخبَر به النبيُّ ﷺ، ووَجْهُ عُلُوِّهم واستِكْبارهم:

الأول: السُّخْرية بهذا النَّبأ.

الثاني: تَحقير النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثالِث: وَصْفه بأنه لا تَخلُو حالُه من أَحَد أمرين: إمَّا كاذِب، وإمَّا مَجنون. هذه ثلاثة أَوْجُهٍ كلُّها تَدُلُّ على: عُلُوِّ هَؤلاءِ الكافِرين واستِكْبارهم وعِنادِهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان ما حصَل للنبيِّ ﷺ من الأَذَى، وأنه صَبَر؛ لأنَّ أَمْرًا يَصِل

إلى هذا الحَدِّ في الاستِخْفاف به والاستِهانة بخَبَره؛ لا شكَّ أنَّه يُؤثِّر على نَفْسه تأثيرًا بالِغًا، وأَعتَقِد أن صاحِب الدَّعوة إذا أُوذِيَ بمِثْل هذا الإيذاءِ كان أشدَّ عليه من أن يُضرَب ويُحبَس.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بيانُ قُدْرة الله؛ حيثُ يُعيد هذا الخَلْقَ بعد أن يَتمَزَّق كلَّ تَمزُّقٍ؛ لأنه ظاهِر من قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

• ● ۞ ● •

الآيـة (٨)

۞ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ [سبأ:٨].

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَفۡتَرَىٰ﴾ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ لِلاسْتِفْهَامِ وَاسْتُغْنِيَ بِهَا عَنْ هَمْزَةِ الْوَصْلِ] (أَفْتَرَى) أصلُها (أَأفْتَرى) لكن هَمزة الوَصْل مع همزة الاستِفْهام تَسقُط، ومِنه قوله تعالى: ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ﴾ [الصافات:١٥٣]، ﴿أَصۡطَفَى﴾ بمَعنَى: (أَاصْطَفى) فسَقَطت الهَمزة؛ لأنها وقَعَت بعد هَمزة الاستِفْهام، وأَظُنُّ سُقوطَها مَعلومًا؛ لأنَّ هَمزة الوَصْل تَسقُط في الوسَط، فإذا جاءَت هَمزة الاستِفْهام صار الكلام مُتَّصِلًا، وإذا كان مُتَّصِلًا سقَطَت همزة الوَصْل، ففي قوله تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [المؤمنون:٢٧] أين ذهَبَت هَمزةُ الوَصْل في ﴿ٱصۡنَعِ﴾؟

سَقَطَت لاتِّصال الكلام، فإذَن ﴿أَفۡتَرَىٰ﴾ سقَطَت لاتِّصال الكلام ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ في ذلك؛ يَعنِي: في قوله: (إنَّكم ستُبعَثون وتُنشَرون خَلْقًا جديدًا) هل هذا افتِراء على الله تعالى؟ سيُبيِّن الله تعالى ذلك، لكنهم يَقولون: إنَّ حالَهُ دائِرة بين أَمْرين: إمَّا رجُلٌ مُفترٍ على الله تعالى، افتَرَى على الله تعالى الكَذِب في ذلك، ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ [جُنُونٌ تَخَيَّلَ بِهِ ذَلِكَ].

إِذَنْ: هُمْ -والعِياذ بالله تعالى- قسَّموا حال النبيِّ ﷺ إلى حالين لا ثالثَ لهما،

وهُما الافتِراءُ على الله، والثاني الجُنون ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ أي: جُنون تَخيَّل له ذلك به.

فَإِنْ قِيلَ: هل هناك حالٌ ثالِثة؟

فالجوابُ: نعَمْ، هناك حالٌ ثالِثة، لكنَّهم لا يُقِرُّون بها، وهو أنه صادِق عاقِل، صادِق لم يَفتَرِ، وعاقِل ليس به جِنَّـة، وهذا هو الواقِع، لكنـهم هم -والعِياذُ بالله تعالى- أَسقَطوا هذا القِسْمَ الثالِثَ؛ لأنهم لا يُقِرُّون به.

ومِن عَجَبٍ أنَّ هؤلاءِ الذين يَقولون في الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذا الوَصْفَ: إنه إمَّا (مُفتَرٍ) أو (مَجنونٌ) أو (شاعِرٌ) أو (كاهِنٌ) أو ما أَشبَه ذلك؛ كانوا يُسمُّونه قبل النُّبوة (الأَمِين)، ويَرَوْن أنه من أَصدَق الناس وأَعظَمِهم أمانةً؛ لكن -والعِياذُ بالله تعالى- لَمَّا جاء بما لم يُوافِقْ أهواءَهُم صاروا يُلقِّبونه بهذه الأَلْقابِ.

وهذه الأَلْقابُ السَّيِّئةُ التي لَقَّب المُشرِكون بها رسول الله ﷺ مَوروثة ورِثَها أعداءُ المُؤمِنين وأَوْلياء المُجرِمين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٠]، فهذه الأَلْقابُ السَّيِّئة مَوجودة الآنَ، كلُّ أَعداء الرُّسُل يُلقِّبون أولياءَ الرُّسُل بمِثْل ما لُقِّب به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وسبَق في العَقيدة أنَّ مِن الناس مَن يُلقِّب أهل السُّنَّة والجماعة بـ(الحَشَوِيَّة) و(النوابت) و(الغُثاء) و(المُجسِّمة) وما أَشبَه ذلك؛ كل هذا تَنفيرًا للناس عن سُلوك مَذهَبِهم.

يَقول تعالى: ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ قال الله مُبطِلًا ذلك: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ [المُشْتَمِلَةِ عَلَى الْبَعْثِ وَالْعَذَابِ ﴿فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ عَنِ الحَقِّ فِي الدُّنْيَا]،

وقوله تعالى: ﴿بَلِ﴾ للإِضْراب الإبطاليِّ؛ يَعنِي أن الله أَبطَل هذين القِسْمين اللذين رَدَّد هَؤلاءِ الكُفَّارُ حال النبيِّ ﷺ بينهما؛ يَعنِي: بل هو غَيرُ مُفترٍ وليس به جِنَّة، ولكن هؤلاء الذين لا يُؤمِنون في العَذاب والضَّلال البعيد، ولا يُمكِن أن يُقِرُّوا.

والإضراب قِسْمان: إضرابٌ إِبْطاليٌّ، وانتِقاليٌّ، الإضراب الإبطاليُّ مَعناه: أن ما قَبْلَ (بَلْ) باطِل، والإِضْراب الانتِقاليُّ مَعناه أن ما قَبْلَ (بَلْ) مَرحلة انتُقِل منها إلى مَرْحلة أُخرى بدون إِبْطال لها.

ومثال الإِضْراب الانتِقاليِّ قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل:٦٦]، فإن هذا انتِقاليٌّ؛ يَعنِي إنهم أوَّلًا بَعُد عنهم الآخِرة، ثُم شَكُّوا فيها، ثُمَّ بعد ذلك عَمُوا عنها -والعِياذُ بالله تعالى-، فهذه أحوالهم الانتِقالِيَّة.

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: لا يُصدِّقون بها ويَعترِفون، أي: لا يُؤمِنون بوُجودها ولا يُؤمِنون بما يَحصُل فيها، وقد سبَقَ أن اليوم الآخِرَ يَدخُل فيه كلُّ ما أَخبَر به النبيُّ ﷺ ممَّا يَكون بعد الموت، فكلُّ ما أَخبَر به الرسول ﷺ ممَّا يَكون بعد الموت كفِتْنة القبر ونَعيمه وعَذابه فإنها داخِلة في الآخِرة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الْبَعْثِ وَالْعَذَابِ ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ فِيهَا ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ يَعنِي: الْحَقَّ فِي الدُّنْيَا] الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَيَّد الْمُطلَق في المَوضِعين، فهنا قال الله تعالى: ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ والْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [فِي الْآخِرَةِ] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي الدُّنْيَا].

والأَصَحُّ أن الآية مُطلَقة؛ فهُمْ في العذاب في الدُّنيا وفي الآخِرة، أمَّا عذاب

الآخِرة فظاهِر، وأمَّا عذاب الدُّنيا فما في قلوبهم من الحَرَج والضِّيق وما يَحصُل عليهم أيضًا من العذاب من الله، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت:٤٠]، وكذلك العذاب الذي يَجرِي على أَيْدي الرُّسُل كالعذاب الذي يَحصُل لهم بالهزائِم، فإن هذا من عذاب الدُّنيا، أمَّا الآخِرة فظاهِر.

إِذَنْ: ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ يَشمَل الدُّنيا والآخِرة، وتَقييده بالآخِرةِ فيه نظَرٌ، بل إنه يَجِب علينا ألَّا نُقيِّد شيئًا أَطلَقه الله تعالى إلَّا بدليل من كِتاب الله تعالى، أو سُنَّة رسوله ﷺ، أو الإِجْماع.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ عَنِ الحَقِّ فِي الدُّنْيَا]؛ فهُمْ في ضَلال بَعيد، يَعنِي: عن الحقِّ، وهم أيضًا في ضَلال في الآخِرة فإنهم لا يُهدون إلى الصِّراط الذي يَنجو به مَن عَبَرَه من النار، ولكنهم يُهدون إلى صِراط الجَحيم فيُضِلُّون عن الصِّراط الذي به النَّجاة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٢-٢٣]، وقال تعالى عن المُؤمِنين: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [التحريم:٨]، فدلَّ ذلك على أن الضَّلال كما يَكون في الدنيا يَكون كذلك في الآخِرة، فالأَوْلى إِذَنْ إِبْقاء النَّصِّ على عُمومه في الدُّنيا وفي الآخِرة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الكافِرين الذين كفَروا برسول الله ﷺ كانوا يُقِرُّون بالله تعالى، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان قُبْح الافْتِراء على الله تعالى، حتى إنَّ الكافِرين يَستَقْبِحونه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ أَعْداء الرُّسُل، بل أَعداء دَعوة الرُّسُل؛ يَكيلون السَّبَّ والقَدْح والعَيْبَ؛ لِما جاءَت به الرُّسُل أو للرُّسُل ولِما جاؤُوا به؛ لقوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ ومَعلوم أنَّ كلام الكاذِب وكلام المَجنون ليس بمَقبول، فهُمْ يَأتون بعِبارات التَّشويهِ والتَّقبيح؛ حتى لا يُقبَل الحقُّ.

وهذا جارٍ إلى وَقْتنا هذا؛ لأنَّ أعداء دَعْوة الرُّسُل لا يَزالون إلى يوم القِيامة، ولكن على أَتْباع الرُّسُل أن يَصبِروا، وألَّا يُثنِيَ عَزْمَهم مِثْلُ هذا الكلامِ؛ لأنهم على حَقٍّ، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل:٧٩].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيان أن الله تكفَّل ببَيان الحَقِّ وإظهاره وإِبْطال الباطِل وانْدِحاره؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الكُفْر يُوجِب عدَمَ قَبول الحقِّ والاهتِداء به، من قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ و(في) للظَّرْفية، ومَعناه: أنَّ الضَّلال مُحيطٌ بهم من كل جانِب؛ ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، فإذا لم يُؤمِن الإنسان بالحَقِّ بَقِيَ في ضَلال، والشَّواهِد على هذا كثيرةٌ؛ استَمِعْ إلى مِثْلِ هذه الآيةِ وإلى

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق:٥]، يَعني: مُضطَرِبٍ مُختَلِفٍ.

فكلُّ مَن كذَّب بالحَقِّ فإنه لا يَزداد إلَّا ضلالًا، حتى لو جاءَتْه الآياتُ البيِّنات الظاهِرات فإنه لا يَنتَفِع بذلك، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٥] مع أنها آياتٌ بيِّناتٌ واضِحاتٌ.

• • ۞ • •

الآيــة (٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [سبأ:٩].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا ﴾ يَنْظُرُوا ﴿إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم ﴾ وَمَا فَوْقَهُمْ وَمَا تَحْتَهُمْ ﴿مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾] إلخ؛ الاستِفْهام هنا للتهديد يَعنِي أنَّ الله تعالى هدَّد هؤلاء الذين كذَّبوا النبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في قوله: إنهم سيُعادُون. هدَّدهم بأَحَد أمرين: بالخَسْف أو إِسْقاط الكِسَف، أيِ: القِطَع من العَذاب من فوقهم، وإنما ذكَر الفَوْقَ والتَّحتَ؛ لأنه لا يُمكِن الفِرار منهما، أمَّا اليمين والشِّمال والخَلْف والأَمام فيُمكِن الفِرار؛ فلو جاءَك عَدُوٌّ من الخَلْف أَمكَنَك أن تَفِرَّ إلى الأَمام، ولو جاءَك من الأَمام أَمكَنَك أن تَفِرَّ إلى الخَلْف، لكن إذا جاء من أَسفَلَ إلى أين تَذهَب؟! تَقفِز ما تَستَطيع، وإذا جاءَك من فَوقُ أين تَذهَب؟! لا تَستَطيع؛ لهذا هدَّدَهم الله تعالى بأَمْرين لا يُمكِنُهم الفِرارُ منهما.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿يَرَوْا﴾ فسَّرَها بمَعنَى: [يَنْظُرُوا]، والأَوْلى أن تَكون شامِلةً للرُّؤْية البَصَريَّة التي بمَعنَى النَّظَرِ، والرُّؤية القَلْبية التي بمَعنى العِلْم والتَّفكُّر،

يَعنِي: أن الله يَحُثُّهم على أن يَتَفَكَّروا حَثًّا يُراد به التَّهديدُ، فالرُّؤيةُ هنا شامِلة لرُؤْية النَّظَر بالعَيْن ورُؤْية القَلْب بالتَّفكُّر.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ مَا فَوْقَهُمْ وَمَا تَحْتَهُمْ]، أيُّها الذي بين الأَيْدي على كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِناءً على أنه لَفٌّ ونَشْرٌ مُرتَّب؛ يَكون ما فَوقَهم هو الذي بين أَيْديهم وما خَلْفهم هو الذي تَحتَهم.

وَلَكِنْ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إنَّ هذا صَرْفٌ للكلام عن ظاهِرِه بلا دَليلٍ، بل نَقول: ما بين أَيْديهم، أي: ما أَمامَهم وما خَلْفَهم ما وراء ظُهورِهم. فيَحتَمِل أنَّ المُراد بما بين أيديهم أمامَهم من الزَّمَن، ويَحتَمِل أن يَكون المُراد ما بين أَيْديهم أيِ: المَكان، وكذلك نَقول فيما خَلْفَهم.

فقد يَكون ما بين اليَدِ هو ما أَمامَك من الزمان وما خَلْفك ما خَلَّفْتَه من الزمان، كما في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة:٢٥٥]، أي: ما بين أيديهم ما يُستَقبَل، وما خَلْفَهم ما مَضَى، وقد يَكون المُراد به المَكانُ، كما تَقول: مَرَرْتُ بين يَدَيِ المُصلِّي. أي: أَمامَه، وتَقول: المَأمومُ يَقِف خَلْف الإمام. أي: وراءَه في المَكان.

وأمَّا في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ نَقول فيها: يَحتَمِل أن يَكون المُراد فيها المَكان، ويَحتَمِل أن يَكون المُراد الزمان، والمُراد أن يَتَفَكَّروا في الأمر: هل نَجا أحدٌ من عذاب الله؟ انظُرْ ما بين يَدَيْك في المَكان، أو ما بين يَدَيْك في الزمان، وما خَلْفك من المَكان أو الزمان: هل نَجا أَحَد من عذاب الله؟

والجوابُ: لا، لم يَنْجُ، إِذَنْ: هم أيضًا لا يَنْجُون من عذاب الله تعالى.

وإعراب قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم ﴾: اختَلَف فيه عُلَماءُ النَّحْو رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ هو: أن النَّحْويِّين اختَلَفوا في إعراب الجُمْلة إذا كانت مُصدَّرةً بهَمزة الاستِفهام وبعدها حرفُ عَطْفٍ، فقيل: إنَّ الهَمْزة -يَعنِي: هَمزة الاستِفْهام- داخِلة على شيء مُقدَّر بحسب السِّياق، وقيل: إنَّ الهَمْزة داخِلةٌ على الجُمْلة المَوجودة بدون تَقدير، وأنَّ حَرْف العَطْف كان من حَقِّه أن يَتقَدَّم على الهَمزة؛ لكنها قُدِّمَتْ عليها لأنَّ لها الصَّدارةَ.

فعلى الوجهِ الأَوَّل يَكون التَّقديرُ في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم ﴾ أَغَفَلوا أو أَأَعْرَضوا وما أَشبَهَ ذلك.

وأمَّا على الثاني فلا حاجةَ إلى هذا التَّقديرِ، بل نَقول: إن (الهمزة) للاستِفْهام والفاء حَرْف عَطْف وتَأخَّرت عن الهَمْزة؛ لأنَّ لها الصَّدارة.

والثاني أَحسَنُ؛ لأنَّ كوننا نَقول: إنَّ الهمزةَ داخِلة على هذه الجُملةِ نَفْسِها أَوْلى، وذلك لأنَّ القول الأَوَّلَ قد يُعوِزك تَقديرَ المَحذوف -يَعنِي: بمَعنى أنه يَصعُب عليك أن تُقدِّر المَحذوف-، أمَّا هذا فبِناءً على أن الجُملة هذه مَعطوفة على ما سبَق، لكن لا تَحتاج إلى تَقدير فلا تَتْعَب فيه.

وقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ الجُمْلة هنا شَرْطية، وفِعل الشَّرْط فيها وجوابُه مُضارِع مَجزوم ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ﴾، وقوله: ﴿أَوْ نُسْقِطْ﴾ مَعطوفة على ﴿نَخْسِفْ﴾، أو إن نَشَأْ نُسقِطْ عليهم كِسَفًا، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِسُكُونِ السِّينِ وَفَتْحِهَا: قِطْعَةٌ] يَعنِي: أن فيها قِراءَتَيْن سَبْعيَّتَيْن: بسُكون السِّين (كِسْفًا) أو(كِسَفًا) بفَتْح السِّين، ويَجوز القِراءة بهما جميعًا.

وقد سبَقَ أن ذكَرْنا أن القِراءاتِ إذا تَعدَّدت فالأفضل أن يُقرَأ بهذا تارةً

وبهذا تارةً؛ لأنها كُلُّها حَقٌّ، وكونه يُلتَزَم قِراءة واحِدة فهذا فيه قُصور؛ إلَّا أن القِراءاتِ التي لم تَتيَقَّن أنها ثابِتة فلا يَجوز لك أن تَقرَأ بها؛ لأنه يَجِب أن تَقرَأ بما ثبَتَ عِنْدك.

وقوله تعالى: ﴿نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قِراءة: في الأَفْعال الثلاثة بالياء] والأفعال الثلاثة (يَشَأْ)، (يَخْسِفْ)، و(يُسْقِطْ)، بالياء فيُقال: (إِنْ يَشَأْ يَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ) والفاعِل في الضمائر هنا يَعود على الله، أمَّا على قراءة النُّون: (إِنْ نَشَأْ) فالأَمْر ظاهِرٌ؛ لأنَّ الضمير فيها ضمير المُتكلِّم، لكن على قِراءة الياء الضميرُ فيها ضَميرُ الغائِب، وضميرُ الغائِب لا بُدَّ فيه من مَرجِع يَرجِع إليه إمَّا سابِق وإمَّا لاحِق، فأَيْنَ مَرجِعُ الضمير ﴿إِن نَّشَأْ﴾؟

الجوابُ: يُقال: إنه مَعلوم من السِّياق، كما في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، مَن الذي خَلَقه؟ الله تعالى، فهُنا يَعلَم كلُّ أَحَدٍ أنه لا يَستَطيع أَحَدٌ من البَشَر -ولا من غير البَشَر- أن يَخسِف الأرض بالناس، أو يُسقِط عليهم قِطَعًا من العذاب، فيَكون مَرجِع الضمير مَعلومًا بالسِّياق.

قوله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المَرْئِيِّ ﴿لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ رَاجِعٍ إِلَى رَبِّهِ، تَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ الله عَلَى الْبَعْثِ وَمَا يَشَاءُ]، يَعنِي: إنَّ الآية تَدُلُّ على البَعْث، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما بين أيديهم من السماء والأَرْض، يَعنِي: يَشمَل كلَّ ما سبَقَ، وكلَّ ما مَضَى، وكلَّ ما أَمامَهم مِن مَكان، وكلَّ ما كان خَلْفَهم، ومن ذلك أننا نَرَى الآيَةَ في السَّماء يَنزِل المَطَر من السَّماء على الأَرْض الهامِدة اليابِسة فتَرجِع مُخضَرَّة حَيَّة؛ أَفَلا يَكون في ذلك دليلٌ على إمكان إعادة الخَلْق؟

الجوابُ: بلى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أيِ: المَنظور من ما بين أيدينا وما خَلْفَنا من السَّماء والأَرْض ﴿لَآيَةً﴾ أي: علامة على قُ

دْرة الله وعلى عِلْمه وحِكْمته، لكنَّ هذه الآيةَ ليسَت آيةً عامَّة لأَحَدٍ، بل: ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَبْدٍ﴾ مَأخوذ من العُبودية وهي التَّذلُّل، وقد سبَق لنا أن التَّذلُّل نَوعانِ: تَذلُّل للأَمْر الشَّرْعيِّ، وتَذلُّل للأَمْر الكَوْنيِّ، وأَيُّهما المَحمودُ المُثابُ عليه؟

الجوابُ: التَّذلُّل للأَمْر الشَّرْعيِّ، أمَّا التَّذلُّل للأَمْر الكَوْنيِّ فإنَّ هذا لا طاقةَ للإنسان به، ولا يُحمَد عليه، فكَوْن الإنسان يَذِلُّ لأَمْر الله تعالى الكونيِّ من مرَض أو فَقْر أو موت أَهْل أو ما أَشبَهَ ذلك، هل يُحمَد عليه؟

الجوابُ: لا يُحمَد عليه؛ لأنه ليس من فِعْله، لكن كونه يَذِلُّ لأَمْر الله تعالى الشَّرعيِّ فيَقوم بشَرْع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا هو الذي يُحمَد عليه، هنا المُراد بـ(العَبْد) المُتذَلِّل للأَمْر الشَّرْعيِّ، بدليل قوله تعالى: ﴿مُّنِيبٍ﴾ أي: راجِع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من مَعصيته إلى طاعته، فيَشمَل القائِم بالعِبادة ولو بِدون أن يُذنِب، ويَشمَل التائِبَ من الذَّنْب.

فإنَّ الرجُل إذا قام يُصلِّي يَتعَبَّد لله يُقال: إنه أَناب إلى الله تعالى. وإذا أَذنَبَ ثُم استَغْفَر وعاد يُقال: إنه أَناب إلى الله تعالى. أيضًا، فالإنابة هُنا تَشمَل الإنابة من ذَنْب فعَلَه فتكون بمَعنَى التوبة، وتَشمَل الإنابةُ إلى الله تعالى القِيامَ بطاعَته فتكون أَشمَلَ وأَعَمَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وجوبُ النَّظَر والاعتِبار في ما حصَل من الآيات في السَّماء والأرض؛ لقَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ هذا الاستِفهامَ للتَّوْبيخ ولا يُوبَّخوا إلَّا على تَرْك واجِب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ في السَّمواتِ والأرض آياتٍ، لكنَّها للعَبْد المُنيب إلى الله تعالى، وأمَّا مَن لا يُريد الإنابة إلى ربِّه فإنه لا يَنتَفِع بهذه الآياتِ، حتى ولو رآها ونظَرَ فيها وفكَّر فإنه لا يَنتَفِع.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات المَشيئة لله؛ لقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ ما يَحصُل من الخَسْف والزَّلازِل والنَّوازِل فإنه بإذْن الله، عُقوبةً للعِباد واعتِبارًا، خِلافًا لمَن قال: إن هذه أُمورٌ طَبيعيَّة لا تَدُلُّ على غضَب الله ولا على إنْذاره، كما هو رأيُ مَن لا يُؤمِن بالله تعالى، فالخَسْف في الأرض عُقوبةٌ، وما يَأتي من الصواعِقِ والكوارِث الأُفْقيَّة؛ فهي أيضًا عُقوبة؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُحيطٌ بالعِباد، لا يُمكِنهم الفِرار من قَضائه وقَدَره، وأنَّه تعالى مُحيطٌ بكُلِّ شيءٍ، لا مَفَرَّ للعِباد منه؛ لقوله تعالى: ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الله يَمُنُّ على العَبْد بظُهور الآيات له؛ حتى يَتبيَّن له الحَقُّ؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، وإذا مَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ على العَبْد بالنَّظَر في آياته والتَّدبُّر ازداد بذلك إيمانًا بالله، وإيمانًا بما تَقتَضيه هذه الآياتُ من صِفاته؛

فإنَّ كلَّ آيَة تَدُلُّ على صِفة مُعيَّنة من صِفات الله تعالى.

فإنْزال المَطَر مَثَلًا يَدُلُّ على القُدْرة والعِلْم والرَّحْمة، وكونه في وَقْت مُناسِب يَدُلُّ على الحِكْمة، وكل شيء مِمَّا يَقَع في السماء والأَرْض فإنه يَدُلُّ على صِفة من صِفات الله تعالى تُناسِبه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن في السَّماء والأرض آياتٍ عَظيمةً لِمَن نَظَرَ وتَدَبَّر، وهذا أَثْبَتَهُ الله تعالى في القُرآن في مَواضِعَ كَثيرةٍ، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات:٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤].

والآياتُ في هذا المَعنَى كثيرةٌ، فكُلُّ مَن تَدبَّر ما في السماء وما في الأرض وما بينهما؛ تَبيَّن له من آيات الله ما يُقوِّي إيمانه ويَزيدُه طَمَعًا في فَضْل الله تعالى وخَوْفًا من عِقابه.

الآيـة (١٠، ١١)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ:١٠-١١].

الواو حَرْف عَطْف، ويَجوز أن تكون للاستِئْناف واللَّام مُوطِئة للقَسَم، و(قد) للتَّحقيق، ومِثْلُ هذا التَّركيبِ يَأتي في القُرآن كثيرًا، ويُقال فيه: إنَّ الجُمْلة مُؤكَّدةٌ بثلاثة مُؤكِّدات: القَسَم المُقدَّر، واللَّام، و(قَدْ)، فتَقدير هذه الجُملةِ: «والله لَقَدْ آتَيْنا داود مِنَّا فَضْلًا».

وهل يَجوز أن تُحذَف اللَّام؟

الجوابُ: نَعَمْ يَجوز، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس:١-٥]، إلى أن قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩]، هذا جوابُ القَسَم، ويَجوز في (قد أَفلَحَ مَن زكَّاها) في غير القُرآن أن نَقول: لَقَدْ أَفلَحَ.

وهل يَجوز أن تُحذَف اللَّام و(قَدْ)؟

الجوابُ: نعَمْ يَجوز، كقَوْله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج:١-٤]، فـ(قُتِلَ) هذا جوابُ القَسَم

ليس فيه (قَدْ) ولا اللَّام.

فصار جوابُ القَسَم إذا كان فِعْلًا ماضِيًا جاز فيه ثلاثةُ أَوْجُهٍ: أن يَقتَرِن باللَّام و(قَدْ)، أن يَقتَرِن بـ(قد)، أن تُحذَف منه اللَّام و(قَدْ)، لكن لا تُحذَف اللَّام ولا تُحذَف (قد) في الغالِب إلَّا إذا طال القَسَم، أمَّا إذا لم يَطُلْ فإنها لا تُحذَف، فإن قُلْتَ: (والله لَقَدْ قام زَيْدٌ)، فهذا صحيح، وهذا هو الأصل، (والله قَدْ قام زَيْدٌ)، هذا أيضًا صحيح حَذَفْنا اللَّامَ، و(الله قامَ زَيْدٌ) هذا أيضًا صحيح حذَفْنا منه اللَّامَ و(قَدْ).

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بمَعنَى: أَعطَيْنا، وهي تَنصِب مَفعولين ليس أَصلُهما المُبتَدَأ والخَبَر، وكُلُّ فِعْل يَنصِب مَفعولين ليس أَصلُهما المُبتَدَأ والخَبَرَ يُسمَّى مِن (بابِ أَعطَى وكَسَا)، فهُنا: ﴿ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾، ﴿دَاوُۥدَ﴾ المَفعول الأَوَّل، و﴿فَضْلًا﴾ المَفعولُ الثاني، ولا يُمكِن أن يَكون هذا مُبتَدَأً وخَبَرًا؛ فلو قُلْتَ: (داودُ فَضْلٌ) فإنه لا يَصلُح، ويُقال: (أَتَيْنا) ولكنها يَختَلِف مَعناها عن مَعنَى ﴿ءَاتَيْنَا﴾، بل مَعنَى ﴿ءَاتَيْنَا﴾: جِئْنا، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٥٢]، وقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١] أي: جاء أَمْر الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿دَاوُۥدَ﴾ هو أَحَدُ أَنبياءِ بَني إِسرائيلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهو بعدَ مُوسى قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٦]، وفي القِصَّة أن داودَ كان مِنهم، إِذَنْ فهو بعد مُوسى، وهو نَبيٌّ من الأَنْبياء، وقد أَنكَرَتِ اليَهود -لَعْنَةُ الله عليهم- كَوْنَه نَبِيًّا، ووَصَفوه بأنه مَلِك، وقد كذَبوا في ذلك، فإنه كان نَبِيًّا من أنبياء الله تعالى الذين يَجِب علينا أن نُؤمِن بهم، ولا يَتِمُّ إيمانُنا إلَّا بالإيمان بهم؛ لأنَّ أَرْكان الإيمان كما نَعلَم:

الإيمانُ بالله تعالى، ومَلائِكَته، وكُتُبه، ورُسُله، وهو أيضًا رسولٌ؛ لأن كلَّ نَبيٍّ ذُكِر في القُرآن فهو رَسولٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾: ﴿مِنَّا﴾ بدَأَ بالجِهة قبلَ الفَضْل؛ ليَتَبَيَّن عِظَم ذلك الفَضلِ؛ لأن الشيءَ إذا نُسِب إلى جِهة عظيمة كان عَظيمًا كما في قوله في الحديث الصحيح: «وَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي»[1] قال: «مِنْ عِنْدِكَ» فأَضافَها إلى الله تعالى؛ حتى يَتبيَّن في ذلك عِظمُها.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [نُبُوَّةً وَكِتَابًا]، وهذا الذي فَسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ به مِن باب التَّمثيل، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعطاه النُّبوَّة والرِّسالة أيضًا، وأَعْطاه الكِتاب قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء:١٦٣]، وهل أَعطاه شيئًا آخَرَ غيرَ هذا؟ نَعَمْ؛ ولهذا نَكَّر كلِمة (فَضْل)، جاءَت مُنكَّرة؛ لتَشمَل كُلَّ ما أُعطِيَه من فَضْلٍ؛ سواءٌ كان ذلك دِينِيًّا أو دُنيوِيًّا.

وكان داودُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من أَحسَن الناس صوتًا وتَرنُّمًا بالذِّكْر، حتى إن الله أَمَرَ الجِبال أَمْرًا إمَّا كَوْنيًّا وإمَّا شَرْعيًّا؛ فقال تعالى لها: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ (أَوِّبَ) بمَعنَى: (رجِّع)، ومِنها (الأوَّاب) أي: (الرجَّاع) إلى الله تعالى، ومِنْه (آبَ، يَؤُوبُ، أَوْبًا) بمَعنَى: (رَجَع)، فـ(أَوِّبِي مَعَهُ) أي: رَجِّعي معه، والتَّرجيع مَعناه: أنَّ تُردِّد الصوت الذي يَقوله، فمَثَلًا: إذا قَرَأ سمِعْتَ كأنَّ الجِبال التي حولَه كلها تَقرَأ بقِراءته.

وهذا غَيرُ ما نَسمَعه نحن من الصَّدَى الذي يَحصُل لكل إنسان؛ لأنَّ هذا الصَّدَى الذي يَحصُل لكل إنسان إذا كانت قد أَحاطَتْ به الجِبال هذا أَمْر طَبيعيٌّ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥)، من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لكن هذا الذي أُوتِيَه داودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فوقَ ذلك، فكانت الجِبال تُرجِّعُ معه؛ وذلك لحُسْن صَوْتِه، ونَغَماته؛ حتى إنَّ الجبال تُرجِّع معه بأَمْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ الطَّير يَقول: [بِالنَّصْبِ؛ عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ الْجِبَالِ]، لأنَّ (يَا جِبَالُ) هذه مُنادَى مَبنِيٌّ على الضَّمِّ في مَحَلِّ نَصْب، وإنما بُنِيَ على الضَّمِّ وهو نَكِرة؛ لأنه مَقصود، والنَّكِرة المَقصودة بمَعنَى العَلَم؛ فلهذا بُنِيَت على الضَّمِّ.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ لو عُطِفَت على اللَّفْظ ﴿يَٰجِبَالُ﴾ لكانت مَرفوعةً مَبنِيَّةً على الضَّمِّ؛ لكنها عُطِفت على مَحَلِّ الجِبال وهو النَّصْب، يَعنِي: وكذلك أَمَرَ الله تعالى الطَّيْر بأن تُرجِّع معه، فكانت الطيور في جَوِّ السماء تَقِف عند سَماع قِراءة داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فتُرجِّع معه.

وأنت إذا تَصوَّرْتَ هذا الأمرَ وأنَّ رجُلًا يَقرَأ الزبورَ بتِلْك القِراءةِ والنَّغَماتِ الجَميلةِ ثُم الطُّيورُ من فوقُ تُسبِّح والجِبال؛ لا شكَّ أنه مَشهَد عَظيم ورَهيب، فكل شيء يَقرَأ بقِراءة هذا الرجُلِ بأَمْر الله!.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [فَكَانَ فِي يَدِهِ كَالْعَجِينِ] أي: جَعَلْناه لَيِّنًا بيَدِه حتى إنه كالعَجين في يَدِ أَحَدِنا، وهل المُرادُ أن الله تعالى أَلانَه له بالوسائِل التي تُلَيِّنُ الحَديدَ سُخِّرت له وهُيِّئَت له، أو أن الله تعالى أَلانَ له الحديد بغَيْر السبب المَعلوم؟

الجوابُ: يَرَى بعض الناس أنه الأَوَّل؛ وأنَّ المُراد بقَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي: يَسَّرْنا له الأسباب التي تُلين ذلك الحديدَ؛ لأنَّ تَيسير الأسباب لا شَكَّ أنَّه من نِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أرَأَيْتَ لو أنَّك تُريد أن تُعكِف سِيخًا من الحَديد وعندك نارٌ ضَعيفة فإنك تَتعَبُ في ذلك، لكن لو كان عِندك نارٌ قوِيَّة جِدًّا

كان في خِلال دقائِقَ قليلةٍ يَلين هذا الحديدُ كما تَشاءُ.

فيرَى بعضُ العُلَماءِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أنَّ المُراد من تَلْيِين الحديد لداوُدَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تيسير الأسباب التي يُسرِع بها لِينه.

ولكن بعض أهل العِلْم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول: إن الله تعالى أَلانَ له الحديدَ بغير سبَبٍ، بل بقُدْرة الله، وجعَلَ الله تعالى ذلك آيةً له؛ كما جعَلَ الله عصا مُوسى إذا نزَلَتْ في الأرض كانت حيَّةً، وإذا رَفَعها صارت عَصًا في آنٍ واحِدٍ وفي لَحْظة واحِدة، فالله تعالى على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، والذي جعَل الحديد صُلْبًا قادِرٌ على أن يَجعَله لَيِّنًا.

وعندي أن هذا أقربُ إلى المعنى، أوَّلًا: لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ﴾ فجَعَل التَّليين مُضافًا إليه؛ إشارةً إلى أن لِينَ هذا الحديدِ بمُجرَّد القُدْرة، وكونُنا نَقولُ: إن هذا بأسبابٍ عادِية لكنها يُسِّرَت له. هذا خِلاف ظاهِر الآية، ثُم لو قُلْنا بهذا القولِ هل تَكون هذه آيةً له؟

الجوابُ: لا؛ لأن كل مَن تَيسَّر له أسبابُ إلانةِ الحديد أَلانَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له الحديدَ.

فأَلانَ الله تعالى له الحديدَ حتى صار بيَدِه مِثْلَ العَجين يَقدِر على أن يُدوِّره، على أن يَجعَله دقيقًا، على أن يَجعَله غَليظًا حَسْبما يُريد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾، هذه هي الحِكْمة من كون الله تعالى أَلانَ له الحديدَ أن يَعمَل منه الدُّروع للمُجاهِدين في سبيل الله تعالى.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَقُلْنَا ﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾] أمَّا ﴿أَنِ﴾ مَصدرية عُرِف عامِلُها، والتَّقديرُ: [وَقُلْنَا] ﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾] أي: بـ(أَنِ اعْمَلْ) أَيْ: بالعمَل، ويُحتَمَل أن تَكون (أَنْ) تَفسيريةً؛ وأن نُقدِّر المحذوف بـ(أَوْحَيْنا) و(أَوْحَيْنا إليه أنِ اعْمَلْ)؛ لأنَّ (أَن)

التَّفسيرية هي التي سبقَها مَعنَى القَوْل دون حُروفه.

وهذا أقرَبُ من تَقدير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، (وأَنِ اعْمَلْ) أي: وأَوْحَيْنا إليه أنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ.

واعْمَلْ بمَعنَى: اصْنَعْ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْهُ] أيْ: مِنَ الحَديد ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ فسَّرَها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [دُرُوعًا كَوَامِلَ يَجُرُّهَا لَابِسُهَا عَلَى الْأَرْضِ]، وأَفادَنا بقَولِه: دُروعًا. أَفادَنا بأنَّ ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ صِفة لَموصوفٍ مَحذوفٍ، وهذا المَحذوفُ تَقديرُه: دُروعًا، وحَذْفُ المَوْصوفِ جائزٌ، قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَمَا مِنَ المَنْعُوتِ وَالنَّعْتِ عُقِلْ ... يَجُوزُ حَذْفُهُ وَفِي النَّعْتِ يَقِلّ

والسابغُ من كُلِّ شَيْء هو الكامِل الضافي التَّامُّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠]، أَيْ: أَتَمَّها وأَكمَلها، ومنه: إِسْباغُ الوضوء أي: إِتْمامه وإِكْماله.

فهذه الدُّروعُ السابِغاتُ؛ يَعنِي: الوافِيات الكوامِل التي تَمنَع لابِسَها مِن أن يَنالَه أَذًى، وأمَّا قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَجُرُّها لابِسُها على الأَرْض] ففي هذا نظَرٌ؛ لأنه ليس هناك حاجة إلى أن يَجُرَّها على الأرض؛ ولأَنَّها إذا بلَغَتْ إلى هذا المُستَوى فرُبَّما تُعيق من الكَرِّ والفَرِّ، والمَعروف أن الدُّروع تَصِل إلى الرُّكْبة فقَطْ، هذا غايَتُها؛ لأنها حَديد، وإذا لبِسَ الإِنْسان حَديدًا يَصِل إلى الأرض فإنه سيَكون مُكبَّلًا بالأَغْلال، فالواجِب أن نَقول: «سابِغاتٍ أَيْ: كامِلات، ليس فيها نَقْص». وكَمال كل شَيْءٍ بحَسَبه.

---

(١) الألفية (ص:٤٥).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي: [نَسْجُ الدُّرُوعِ قِيلَ لِصَانِعِهَا: (سَرَّادٌ) أَيِ: اجْعَلْهُ بِحَيْثُ تَتَنَاسَبُ حِلَقُهُ]، ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ السَّرْد مَعناه: نَسْج الدُّروع، كما يُنسَج الثَّوْب من القُطْن ومن الصُّوف: يُنسَج الدِّرع من الحَديد.

ومَعنى (تَقدير السَّرْد) أَيِ: اجْعَلْ هذا السَّرْدَ أيِ: النَّسْج مُقدَّرًا مُتَناسِبًا، من التَّقدير وهو: أن تَجعَل الحَلقاتِ مُتَناسِبةً ما تَأتي بحَلقة كبيرة وحَلقة صغيرة، ومنها ألَّا تَجعَل الحَلقاتِ ضيِّقةً؛ لأنه إذا كانت ضَيِّقةً وقَفَ الدِّرْع ولم يَكُن سَهْلَ الحرَكة، ولا تَجعَلْها واسِعة جِدًّا؛ لأنك إذا جعَلْتَها واسِعةً جِدًّا لا تَقِي، ثُم هي تَكبَر إذا جعَلْتها واسِعة جِدًّا كَبُرت وآذَتِ اللَّابِس، ولكِنِ اجْعَلْها مُقدَّرة مُتَناسِبة.

والدُّروع عِبارةٌ عن قُمُصٍ من حديد، قميصٌ تَلبَسه كما تَلبَس الثَّوْب، إلَّا أنَّه لا يَصِلُ كُمُّه إلى الكَفِّ، كُمُّه إلى العَضُد فقَطْ، وهذه الدِّرْعُ مَنسوجة مِنْ حِلَق حَديدٍ صغيرةٍ مَشبوكة بعضُها ببعض، مُداخَلة بَعضُها في بعض حتى يَتِمَّ النَّسْج، وهي مَوْجودة وتُوجَد عند مُتحَف أهل البَلَد، وأمَّا ما يُمسَك باليد حتى يُتَّقى به الرُّمْحُ فهذا يُسمَّى تُرسًا.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ مَعنَى التَّقدير في السَّرْد: أن تَكون الحَلقات مُتَناسِبة، وألَّا تكون ضَيِّقة ولا واسِعة؛ لأنها إذا لم تَتَناسَب فإنها تُؤذِي، تكون واحِدةٌ صغيرةً وواحِدةٌ كبيرةً، وإذا كانت واسِعة فإنها تُؤذِي وقد لا تَقِي السِّهام، وإذا كانت ضيِّقة فإنها لا تَتَحرَّك كما يَنبَغي ويَثقل على اللَّابِس.

وقوله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱعْمَلُوا۟﴾ أَيْ: آلَ دَاوُدَ مَعَهُ ﴿صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فَأُجَازِيَكُمْ بِهِ] لَمَّا بيَّن الله بما منَّ به على داودَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مِن تعليم صَنْعة الدُّروع

وتَلْيِين الحديد له، وتَوْجيهه كيف يَصنَع هذه الدُّروعَ قال تعالى: ﴿وَٱعۡمَلُواْ﴾ [أَيْ: آلَ دَاوُدَ مَعَهُ].

وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡمَلُواْ﴾ كيف عَدَل عن ضَمير المُفرَد: ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ﴾ إلى ضَمير الجَمْع ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾؛ لأنَّ تَقدير السَّرْدِ خاصٌّ بداوُدَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، والعمَلُ الصالِحُ عامٌّ له ولغيره، فوجَّهَ الخِطاب إلى جميع آل داوُدَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿صَٰلِحًا﴾ هو صِفة لمَوْصوف مَحذوف، والتَّقديرُ: عمَلًا صالِحًا، والعمَلُ الصالِح ما جمَع وَصْفين: الإخلاص لله تعالى، المُوافَقة لشَريعته، فلا بُدَّ فيه من هَذَيْن الشَّرْطين، فإن فُقِد الإخلاصُ فليس بصالِحٍ لوُجود الشِّرْك؛ وقد قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في الحديث القُدسيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١).

والشَّرْطُ الثاني: المُوافَقة لشريعة الله تعالى، فإن لم يُوافِقْ شَريعة الله تعالى فإنه ليس بصالِح ولا يُقبَل؛ والدليل قوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٢)، وقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى:٢١]، فلا بُدَّ لقَبول العمَل الصالِح من هَذين الشَّرْطين.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ هذه الآيَةُ فيها تَقديمٌ وتَأخيرٌ، فقوله تعالى: ﴿بَصِيرٞ﴾ هو المُؤخَّر، والمُقدَّم المَعمول، فإن قُلْتَ: من القَواعِد المُقرَّرة أنَّ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا.

تَقديم المَعمول يَدُلُّ على الحَصْر، فصار الله تعالى بَصيرًا بما يَعمَلون من دون غيرِهِ، مع أنه بَصير بكُلِّ شيءٍ، فما هو السبَبُ؟

الجوابُ: السبَب في ذلك: التقديمُ، حيث جاء بصيغة الحَصْر للرَّدْع عن المُخالَفة، كأنَّه لو لم يَكُن الله تعالى بَصيرًا بالشيء لكان بَصيرًا بأعمالكم، فلمَّا كان الإنسان قد يَقول: إن الله تعالى لا يُبصِر عمَلي، جعَل الله تعالى الصِّيغة دالَّةً بظاهِرها على الحَصْر؛ حتى لا يَدَّعيَ مُدَّعٍ أنَّ الله تعالى ليس عالِمًا بعمَله، هذا من وَجهٍ، ومن جِهة أُخرى لمُناسبة فواصِل الآيات.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيان مِنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على داوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عِناية الله تعالى ببَيان هذا الفَضْلِ، حيث أَكَّده بالقَسَم واللَّام و(قَدْ).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ هذا الفَضْلَ فَضْلٌ عظيمٌ؛ لأنَّ الله تعالى أَضافَه إليه بقوله: ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾، والمُضاف إلى العظيم يَكون عظيمًا، ونَظيرُ ذلك الدُّعاءُ الذي علَّمه النبيُّ ﷺ أبا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ»[1].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَوجيهُ الخِطاب إلى الجَماد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوله تَعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥)، من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الجماد يُحِسُّ بخِطاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ووَجْهُ ذلك: لولا أنه يُحِسُّ لكان تَوْجيهُ الخِطاب إليه عبثًا؛ والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنَزَّهٌ عن العَبَث في أَقْواله وأَفْعاله، ويَدُلُّ على أنه يُحِسُّ بذلك أنها أَوَّبَتْ معه ورجَّعت.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن من فَضائِل داوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّ الله تعالى أَمَر الجِبال أن تُسبِّح معه، بأن تُرجِّعَ معه التَّسبيح وقِراءة الزَّبور هي والطيرُ.

وهلِ الأَمْرُ في قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أَمْرٌ كونيٌّ أو أمرٌ شَرْعيٌّ؟

الجوابُ: أنه يَحتَمِل المَعنَيَيْن فإذا نظَرْت إلى أنها مَأمورةٌ بعِبادةٍ قُلْتَ: إن هذا أمرٌ شَرْعيٌّ. وإذا نظَرْت إلى أن هذه الجِبالَ لو فُرِض أنها عصَتْ هل تُعاقَبُ؟

الجوابُ: الله تعالى أَعلَمُ، ربما تُعاقَب وربما لا تُعاقَب؛ لأنّه ليس لها عَقْلٌ تُدرِك به كما يُدرِك بنو آدَمَ، قُلْت: إنه أَمْر كَوْنيٌّ، وللتَّخَلُّص من هَذَيْن الاحتِمالَيْن نَقول: إنَّ الله تعالى أَمَرَ الجِبال أن تُرجِّع معه. ولا نَقول: أَمْرًا كونيًّا ولا أَمْرًا شَرْعيًّا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: ظُهور آية الله في تَمام القُدْرة، حيث أَلانَ الحَديد لداوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ وهذه الإلانةُ ليس لها سَبَب حِسِّيٌّ معلوم، لأنه لو كانت بالأسباب المَعْروفة لم يَكُن فَرْقٌ بين داوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيره، هذا هو الصحيح، وإن كان بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقول: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ﴾ أي: هَيَّئْنا له الأسباب التي يَلين بها الحَديدُ، ولكننا هَيَّئْنا له أسبابًا عظيمة قوِيَّة لا تَحصُل لغيره.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الحديد بطَبيعته قاسٍ، وهو كذلك، ولولا أن الله تعالى يُلينه بما جعَلَ من الأَسْباب ما انتَفَع الناس به، وهل هو أَقسَى أَمِ الحِجارة؟

الجوابُ: الحِجارةُ؛ ولهذا لا تَلين الحِجارةُ بالنار، والحديدُ يَلين بالنار.

قال العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: فدَلَّ ذلك على أن الحِجارة أقسَى، ولَمَّا شَبَّه الله تعالى القُلوب القاسِيةَ قال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَنَّ على داوُدَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعلى غيره بتَعليمه هذه الصَّنْعةَ، وهي صَنْعة الدُّروع كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٨٠]، وهذا التَّعليمُ الذي علَّمه الله تعالى داوُدَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بَقِيَ إلى يَوْمنا هذا، وهذا كما عَلَّم الله تعالى نُوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صُنْع السَّفينة؛ وأَشار الله تعالى إلى مَوادِّ بِنائها في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:١٣]، أي: مَسامِيرَ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّه يَنبَغي لِمَن صَنَع شيئًا أن يُكمِّله؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾، ولا يَنقُص منه شيئًا.

ويَنبَغي لِمَن صَنَع شيئًا أن يُتقِنَه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أَيْ: إِكْمالًا وإِتْقانًا.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنه يَجِب على مَن أَنعَم الله تعالى عليه نِعمةً أن يَقوم بشُكْرها بالعمَل الصالِح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الله تعالى إذا أَنعَمَ على شَخْص من القَبيلة بنِعْمة فإنه إنعامٌ على القَبيلة كلها، ووجهُ ذلك: قوله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ فوجَّهَ الخِطاب إلى آلِ داوُدَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كلهم، مع أن الفَضْل خاصٌّ بداوُدَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ ولهذا إذا نَبَغَ نابِغة في قبيلةٍ من القبائل فإنَّه يَرفَع قَدْر هذه القَبيلةِ كلِّها، كما أن العَكْس بالعَكْس إذا سَفُل أحَدٌ من القبيلة عُيِّرتِ القَبيلة به كلُّها، وهذا أمر معلوم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: التحذير من المُخالَفة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الله تعالى بَصيرٌ بكل ما نَعمَل؛ من خيرٍ وشَرٍّ وقليلٍ وكثيرٍ وظاهِرٍ وباطِنٍ، حتى أَعْمال القلوب يَعلَمها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، انتَبِهْ لا تُضمِرْ في قلبك شيئًا يُغضِبُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنَّك إذا فعَلْتَ فإنَّ الله تعالى سَوْف يَعلَمه، ولا يَخفَى عليه شيء، قال تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

• ● ۞ ● •

الآيـة (١٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [سبأ:١٢].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿و﴾ [وَسَخَّرْنَا] ﴿لِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾، وإنما قَدَّر: [وَسَخَّرْنَا]؛ لأنَّ (الرِّيحَ) مَنصوبةٌ، فلا بُدَّ من تقدير عامِلٍ يَتِمُّ به النَّصْب، وهنا نُقدِّر ما يُناسِب وهو (سَخَّرْنا له) كما جاء ذلك في آية أُخرى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿لِسُلَيْمَٰنَ ﴾ هو ابن داوُدَ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وقد آتاهُ الله تعالى الرِّسالة والمُلْك مُلْكًا عظيمًا لا يَنبَغي لأحَدٍ من بَعْده؛ لأنَّ الله تعالى سخَّر له الإِنْس والجِنَّ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرِّيحَ﴾ هي الهَواء، سَخَّرَها الله تعالى له؛ أي: ذَلَّلَها بحيث تَجري بأَمْره يَأمُرها فتَتَّجِه إلى الشَّمال إذا كان يُريد ناحية الشَّمال، ويَأمُرها فتَتَّجِه إلى الجَنوب إذا كان يُريد ناحية الجَنوب، ويَأمُرها أن تَذهَب شَرْقًا فتَذهَب، وأن تَذهَب غَرْبًا فتَذْهَب، وأن تُسرِع فتُسرِع، وأن تُبطِئ فتُبطِئ؛ تَجري بأَمْره.

ولا يُقال: إن هذا يَدُلُّ على أنَّ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مُشارِك لله تعالى في الخَلْق؛ لأنه لا أَحَدَ يَستَطيع أن يُصرِّف الهَواء، لوِ اجتَمَع الخَلْق كلُّهم على أن يُصرِّفوا الهَواء

ما استَطاعوا إلى ذلك سبيلًا، وسُلَيمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَستَطيع ذلك، فلا يُقال: إنه شَريك لله تعالى؛ لأن الذي سخَّر الريح له هو الله تعالى.

ولهذا لا نَقول: إنَّ عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ شَريك مع الله تعالى في الخَلْق، حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ [المائدة:١١٠]؛ لأنَّ قُدرة هَؤلاء الخَلْقِ على ما يَقدِرون عليه ممَّا لا يَقدِرُ عليه غيرهم من المَخلوقين إنما كانت بأَمْر الله، فهم لم يَستَقِلُّوا بذلك، ولكن الله تعالى أَعطاهم قُدرةً، كما أن الله تعالى يَمُنُّ على بعض العِباد بقُدْرةٍ هائِلةٍ في الحِفظِ أو في الفَهمِ أو في قُوَّة السَّمْع أو البَصَر أو البَدَن أو غير ذلك، فالرِّيحُ هي الهواء سُخِّرت لسُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ٱلرِّيحَ﴾، وفي قراءة: [وَقِرَاءَةُ الرَّفْعِ بِتَقْدِيرِ: تَسْخِيرِ] تَركيب المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا لبَيان القِراءة الثانية غريب، ما كان مَعهودًا منه، وكان الأَوْلى أن يَقول: وفي قِراءةٍ بالرَّفْعِ على تَقدير تَسخير. هذا هو الأَوْلى؛ لأن قوله: وقِراءَةُ الرَّفْعِ. لم نَستَفِدْ: هل هذه القِرْاءةُ سَبْعيَّة أو شاذَّة؛ لأن المَعهود أنه يَقول في السَّبْعية: وفي قراءة. وفي الشاذِّ يَقول: قُرِئ. وهنا يَقول: وقِرَاءَةُ الرَّفْعِ. ما نَدرِي! لكن على كلِّ حال القِراءةُ سَبْعيَّة، ففيها قِراءَة: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غُدُوُّهَا شَهْرًا).

وقوله تعالى: (الرِّيحُ) إعرابُها على هذه القِراءةِ.

نَقول: إنها مُبتَدَأ مُؤخَّر، وأَصْل الكلام: تَسخيرُ الريح؛ فحُذِف المُضاف وأُقيم المُضاف إليه مَقامَه، وابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقولُ[1]:

وَمَا يَلِي المُضَافَ يَأْتِي خَلَفَا ... عَنْهُ فِي الإِعْرَابِ إِذَا مَا حُذِفَا

---

(١) الألفية (ص:٣٨).

أي: (لِسُلَيْمانَ تَسخيرُ الريح).

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: (لِسُلَيْمانَ الريحُ) أن (الريحُ) مُبتَدَأ بدون تَقدير. لم يَكُن بعيدًا، ويَكون مَعنَى كونِ الريح له أنها مُسخَّرة له، فيَكون له التَّصرُّف فيها.

وقوله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ أي: [مَسيرها من الغُدوَة، بمَعنَى: الصَّباح إلى الزوال شَهْرٌ]، و﴿وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، [سَيْرها من الزوال إلى الغُروب شَهْر]؛ أي: مَسيرة شهر.

الريح سخَّرها الله تعالى له إذا سارَت به من الصباح إلى الزوال فهي مَسيرة شهر؛ بسَيْر الإِبِل، وعلى هذا فإنها تَكون سَريعة، رواحُها شَهْر فيَستَطيع أن يَذهَب إلى مكانٍ مَسيرتُه شَهْرٌ ويَرجِع إلى بلَدِه في نفس اليوم؛ لأنَّ غُدُوَّها شَهْر ورَواحَها شَهْر، ومع ذلك فقَدْ وصَفَها الله تعالى بأنها عاصِفة، ولكنها غير مُؤثِّرة: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأنبياء:٨١]، وقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص:٣٦]، فهي سريعة لكنها غير مُزعِجة، لكن كيف يَطير في الريح؟ قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنه يَضَع بساطًا عادِيًّا ويَجلِس هو وحاشِيَته عليه، ثُمَّ يَأمُر الريح فتَطير بهم؛ بهذا البساطِ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كل شيء قديرٌ، والعادةُ أنه إذا كان الإنسان مع حاشِيَته على بساطٍ ويَرتَفِع أنه يَسقُط، هذه العادةُ، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كل شيء قديرٌ.

هل يُمكِن أن نَقول: إن قانون الطَّيَران بالطائِرات الحديثة مَبنِيٌّ على هذا؟

الجوابُ: نعَمْ قانون الطَّيَران مَبنِيٌّ على هذا، مَبنِيٌّ على الهَواء الذي تُولِّده هذه المُولِّداتُ، فهذه الطائِراتُ لا يَحمِلها إلَّا الهواءُ، وهي حديد، وثَقيلة وعليها أُناس وعليها عَفْش، ونفس المَراوِحِ هذه والاندِفاع هذا فيه هواء شديد؛ ولذلك انظُرْ

كيف تَنضَبِط إذا نزَلَتْ إلى الأرض بسبب الهَواء في مُؤخَّرها عند (الشُّكمان) فيها حديدة تَنعَكِس حتى تَرُدَّ الهواء؛ حتى لا تَندَفِع الطائِرة.

وقوله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ هل هي في سُرْعة الطائِرة؟

الجوابُ: لا هي أقَلُّ من الطائِرة؛ لأنَّ الطائِرة تَذهَب مَسيرةَ شَهْر بأَقَلَّ من الغُدُوِّ، ولكنها أَسرَعُ من السيَّارة بلا شَكٍّ، يَبقَى علينا هذا المُرور السَّريع عادةً إذا لم يَكُن هناك حِجاب يَمنَع من عَصْفِ الهَواء؛ أن الهَواء يَعصِف بالراكِب حتى يَسقُط؟ لأنها دونَ الطائِرة وفوقَ السيَّارة في سُرْعتها، وبعض السيَّارات يَعصِف الهَواء فيها بالإنسان ويُقلِقه، لكنَّ الله تعالى بيَّن في آياتٍ أُخرى أن هذه الرِّيحَ تَكون رُخاءً ما فيها إِزْعاج ولا فيها قلَقٌ.

قال الله تعالى أيضًا ممَّا مَنَّ الله تعالى به على سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: أَذَبْنا له ﴿عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: النُّحاس، هذا أيضًا قد يَكون أبلَغَ ممَّا أُوتِيَه داوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾، أمَّا هذا فأَسَالَ الله تعالى له عَيْن القِطْر؛ يَعنِي: فجَّر له عَيْنًا من النُّحاس تَسيل كما يَسيل الماء مع إنها نُحاس، وهذا دليل على كَمال قُدرةِ الله؛ لأنَّ المَعروف أن النُّحاس مَعدِنٌ جامِد فجعَلَه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لسُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَيْنًا سائِلة كأنها الماء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾.

وقوله: ﴿عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ يَدفَع ما قيل: إنَّ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يُذيب النُّحاسَ فيَسيل، كما أن الرَّصاص إذا أَذَبْناه يَصير سائِلًا، كالزِّئْبَق.

فنَقول: لا، بل إن الله تعالى يَقول: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ فجعَل هذا عَيْنًا يَندَفِع من الأسفَلِ ويَسيل، ونحن نَعلَم أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خالِقُ الأشياءِ جامِدِها

ومائِعِها، وأنَّه قادِر على أن يَجعَل الجامِد مائِعًا والمائِع جامِدًا، وهذا الماءُ المائِعُ المُتدَفِّق الجارِي لَمَّا ضرَب مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعَصاهُ البَحْر انفلَق فكان كل فِرْق كالطَّوْد العظيم، كالجَبَل العظيم، وهو ماءٌ سائِل ضرَبه مرَّة واحِدة فقَطْ فتفرَّق البَحْر وصار اثنَيْ عشَرَ طريقًا، كلُّ طريق بينَه وبين الطريق الآخَرَ مِثْلُ الجَبَل من الماء، وهذا فَوْق الأمر الطبيعيِّ؛ لأنَّ خالِق الأشياء قادِر على كل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَأُجْرِيَتْ لَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهِنَّ كَجَرْيِ المَاءِ] هذا التَّقديرُ يَحتاج إلى تَوْقيف، يَعنِي: أنَّ الله تعالى أَجْراها له ثلاثةَ أيَّام فقَطْ قد نَقول: إن الله تعالى أَسال له عَيْن القِطْر يَتصرَّف فيها كما يَشاءُ، وهذا يَقتَضِي أن تكون هذه الإِسالةُ مُستَمِرَّةً حيثُما أَرادَها وجَدَها، وهذا هو الأقرَبُ، ولا يُمكِن أن نُحدِّدها بثلاثة أيَّام إلَّا بدليل من الشَّرْع، إمَّا من الكِتاب أو من السُّنَّة، وليس في الكِتاب تَحديد، وكذلك ليس في السُّنَّة، فالأَوْلى أن نَجعَلها على ظاهِرها.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَعَمَلُ النَّاسِ إِلَى اليَوْمِ مِمَّا أُعْطِيَ سُلَيْمَانُ] يَعنِي: أن انتِفاع الناس بهذا النُّحاسِ وتَذويبه حتى يَكون كالماء هذا أثَرُه من عمَل سُلَيمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَعنِي: أن النُّحَاس إنما ذاب من وقت سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى اليَوْم، وقد قِيل: إن النُّحَاس من قَبْلُ كان لا يَذوب أَبَدًا، ولكنه في عَهْد سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذابَ وصارَ مُستَمِرَّ الذَّوَبان.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾: ﴿مِنْ﴾ للتَّبْعيض، و﴿ٱلْجِنِّ﴾ عالَم غَيْبِيٌّ مُستَتِرٌ عن الأَعْيُن؛ ولهذا جاء بلَفْظ الجِنِّ، وأَصْل هذه المادَّةِ -الجِيمُ والنُّون- الاستِتار؛ ومنه سُمِّيَت الجُنَّة التُّرْس الذي يَستَتِر به الإنسان، وسُمِّيَتِ الجَنَّة للبُستان الكثير الأشجار؛ لأنه يَجِنُّ مَن فيه، أي: يُغطِّيه، وسُمِّيَت

الجَنَّة أيضًا لهذا السبَبِ، وسُمِّيَ الجَنين؛ لأنه مُستَتِر، فهذه المادَّةُ -الجيم والنون- كلُّها تَدُلُّ على الخَفاء والاستِتار.

فالجِنُّ إِذَنْ عالَمٌ غَيْبِيٌّ ليسوا بظاهِرين، لكنهم قَد يُرَوْن، هذا العالِمِ مِنهم صالِح ومِنهم دون ذلك، ومنهم مُسلِم ومنهم كافِر، كما في سورة الجِنِّ، يَأْكُلون ويَشْرَبون ويَتَقَيَّئون ويَبُولون؛ كما جاء في الحديث عن النبيِّ ﷺ، وهؤلاءِ الجِنُّ قد يَظهَرون أمام الناس ويُشاهَدُون، إمَّا بصُورِهم التي هم عليها وإمَّا بتَصَوُّرات ثانية، وإمَّا على صورة القِطَط، أو على صورة الدَّوابِّ كما جاء في الحديث الصحيح في النَّهْيِ عن قَتْل الجِنَّانِ التي تَكون في البيوتِ[1]؛ لأنَّ بعضَها قد يَكون من الجِنِّ ورُبَّما يَتَلبَّسون بالإنسان؛ أي: يَدخُلون في جَوْفه حتى يَكون كاللِّباس لهم، فيَصرَعونه ويُؤذُونَه.

وقد أَشار الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥]، يَعني: مثل المَصروع الذي صَرَعه الشَّيْطان، وهذا الصرعُ؛ أي: صرَع الجِنِّيِّ للإِنْسيِّ لا يُنكِره إلَّا المَلاحِدة، كما قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زاد المَعاد[2]: إنهم لم يَصِلوا إلى هذا النَّوْعِ من الصرَعِ فجعَلوا يُنكِرونه ويُحيلون جميع أنواع الصَّرَع إلى صرَع الأعصاب والمُخِّ وما أَشبَهَ ذلك، وصرَعُ الجِنِّ للإِنْس مَعلوم بالمُشاهَدة أيضًا، فلا يُنكِره إلَّا مُكابِر، لأنه شُوهِد مَنْ يُصرَع ويُخاطَبُ الجِنِّيُّ الذي صرَعه مُخاطَبَةً صَريحةً واضِحة، وجرَى ذلك على يَدِ أئِمَّة الإسلام كالإمام أحمدَ وشيخِ الإسلام ابنِ تيميَّةَ رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، وغيرهم إلى يَوْمِنا هذا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم، رقم (٣٣١٣)، ومسلم: كتاب السلام، باب قتل الحيات وغيرها، رقم (٢٢٣٣)، من حديث أبي لبابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) زاد المعاد (٤/ ٦١).

جِيءَ مرَّةً بمَصروع إلى شيخِ الإسلام ابن تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فوَعَظ الجِنِّيَ الذي صرَعه ونَصَحه وقال له: اخْرُجْ. فقال: إني لا أَخرُج، إني أُحِبُّه وكانت امرأةً التي صرَعَتْه، قالت: إني أُحِبُّه. فقال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لكنه لا يُحِبُّكِ. فقالَتْ: إني أُريد أن أَحُجَّ به -بأَنْ تَحمِله إلى مَكَّةَ- فقال: إنه لا يُريد أن يَحُجَّ معَكِ. ثُمَّ وعَظَها فلَمْ تَتَّعِظْ، ثُم ضرَبَها شيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، جعَل يَضرِبها على رقَبةِ هذا المَصروع؛ يَقول: حتى تَعِبَت يَدي مِن الضَّرْب. فقالت: أنا أَخرُج كرامةً للشَّيْخ. فقال: لا تَخرُجي كرامةً لي، اخْرُجي طاعةً لله تعالى ورسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. فخَرَجت على ألَّا تَعود، فأَفاق الرجُلُ، فلمَّا أَفاق قال: ما الذي جاء بي إلى حَضْرة الشيخِ؛ يَعنِي: شيخَ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقِيلَ له: إنه قد فعَل كذا وكذا. فقال: والله ما أَحْسَسْتُ بشيء من هذا، لا أنِّي خاطَبْته ولا أنه ضرَبَني. وهذه القِصَّةُ ذكَرَها ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زاد المعاد[1] عن شيخه، وابنُ القَيِّمِ ثِقَة، وشيخ الإسلام كذلك ثِقَة، وقد ورَدَ مِثْلُ ذلك عن الإمامِ أحمدَ[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يَتَلبَّس الجِنِّيُّ الذَّكَر بالإِنْسيِّ الذَّكَر، والعكسُ، أم أنه فقَطْ يَتَلبَّس الرجُلَ امرأةٌ والعَكسُ المرأةُ يَتَلبَّس بها رجُل من الجِنِّ؟

فالجوابُ: قد يَتَلبَّس بالرجُل رجُلٌ، ويَكون مَثَلًا مُولَعًا به لسبَب من الأسباب، وكذلك العكسُ.

إِذَنِ: الجِنُّ نَقول في تَعريفهم: عالَمٌ غَيْبيٌّ مُستَتِرون عن الإنس، وربَّما يَظهَرون، ومِنْهم صالِح، ومِنْهم دون ذلك، ومِنْهم قاسِط، ومنهم مُسلِم، ويَأكُلون ويَشرَبون

(١) زاد المعاد (٤/ ٦٣).

(٢) انظر: الفروع (٢/ ٤٦٦).

ويَبولون ويَتَقَيَّئون، كل هذا ثبَت في القُرآن وفي السُّنَّة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ﴿مَن﴾ بمَعنَى: الذي، ﴿يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فهي اسْمٌ مَوْصولٌ، وما محلُّها من الإعراب؟

الجوابُ: يُحتَمَل أَنْ يَكون محَلُّها الرفعَ على أنها مُبتَدَأ مُؤخَّر، وخبَرُه ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾، ويُحتَمَل أنها في محَلِّ نَصْب؛ يَعنِي: وسَخَّرْنا له من الجِنِّ مَن يَعمَل بين يديه، وأيُّهما أَوْلى؟ سبَق وأن ذكَرْنا قاعِدة؛ أنه إذا دار الأَمْر بين التَّقدير وعدَم التَّقدير فعدَمُ التَّقدير أَوْلى؛ لأنه الأَصْل، والأَصْل أن الكلام لم يحُذَفْ منه شيءٌ، وعلى هذا فنَقول: ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ جارٌّ ومجرور خَبَرٌ مُقدَّم، و﴿مَن يَعْمَلُ﴾ مُبتَدَأ مُؤخَّر.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يَعنِي: يَدَيْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يَعنِي: أمامَه، لكن ﴿بِإِذْنِ﴾ [بِأَمْرِ] ﴿رَبِّهِۦ﴾، والإِذْنُ هنا كَوْنِيٌّ، يَعنِي: أنَّ الله تعالى سخَّر الجِنَّ ليَعمَلوا بين يدَيْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بإِذْنه، بأَمْره الكونيِّ، قد يُقال: إنه إِذْنٌ شَرْعيٌّ؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَمَن يَزِغْ﴾ [يَعْدِلُ] وقِيل: يَمِلْ، أي: يَميل، وهذا أَقرَبُ، ومنه: زاغَتِ الشمسُ، أي: مالَت عن وسَطِ السَّماء، قوله تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ يَعنِي: مَن يَمِلْ ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ [لَهُ بِطَاعَتِهِ لَهُ] أَيْ: للجِنِّ [بِطَاعَتِهِ] أي: بطاعة سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ النار في الآخِرة، ﴿نُذِقْهُ﴾ ما الذي جَزَمها؟ ﴿مَن﴾؛ لأنها جوابُ الشَّرْط، وفِعْل الشَّرْط ﴿يَزِغْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: نُعذِّبه بالنار حتى يَذوق عَذابها، وهل هذه نارُ الدُّنيا أو الآخِرة؟ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي الْآخِرَةِ، وَقِيلَ: فِي الدُّنْيَا بِأَنْ يَضْرِبَهُ مَلَكٌ بِسَوْطٍ مِنْهَا ضَرْبَةً تُحْرِقُهُ].

والله أعلم هل عذابه في الدُّنْيا بواسِطة المَلَك، أو أن سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُذِنَ له بتَعذيبهم في النار.

إذن فالذي يَزِيغ من الجِنِّ عن أَمْر الله بطاعته سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا يُعذَّب بالنار، إمَّا في الدُّنْيا وإمَّا في الآخِرة، ولكن إذا قُلْنا: إنه في الدُّنيا، فإنه لا يَتَعيَّن أن يَكون الأمر كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه مَلَك يَضرِبه بسَوْط منها حتى يُحرِقَه.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: أنَّ طاعة الجِنِّ لسُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأَمْر الله الكَوْنيِّ فهل هذه تُعتبَر لهم عِبادة لله عَزَّوَجَلَّ؟

فالجوابُ: بلى؛ ولهذا قُلْنا: فيه احتِمالُ إِذْنٍ شَرْعيٍّ، ويُؤَيِّده قوله تعالى: ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾، وهذا أَرجَحُ، لكنه لا يَمنَع الأوَّل.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يَدخُل الجِنُّ الجَنَّة؟ وماذا يَستَفيدون منها؟

فالجوابُ: أن الله تعالى يَقول في آخِر سورة الرحمنِ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٦-٤٧]؛ فالخِطاب في ﴿رَبِّكُمَا﴾ يَعود للجِنِّ والإِنْس، فإذا كان الجِنُّ لا يَستَفيد من هاتين الجَنَّتَيْنِ فما فائِدة خِطابهم في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟! ثُمَّ إنه قال في نَفْس الآيات: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٥٦]؛ وهذا أيضًا يَدُلُّ على أنهم يَدْخُلون الجَنَّة، وهذا هو الصحيح الذي عليه جُمهورُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ، أمَّا دُخول الكافِر منهم النارَ فإنه بالاتِّفاق؛ لأن الله تعالى نَصَّ عليه في القُرآن، وأمَّا دُخول المُؤمِن منهم الجَنَّة فهذا هو الصحيح الذي عليه جُمهورُ أهل العِلْم.

وأمَّا قول الله تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ

وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣١]، لا يَمنَع من دُخولهم الجَنَّة؛ لأنه لم يَقُلْ: ويُدخِلْكم الجَنَّة. وليس فيها دليلٌ على أنَّ دُخولهم الجَنَّة ممنوع؛ لأن مَن أُجير من العذاب الأليم فليس هناك في دار الآخِرة إلَّا دارانِ؛ إمَّا نار وإمَّا جَنَّة، وعندنا آياتٌ كثيرةٌ تَدُلُّ على أنَّ مَنْ آمَن وعَمِل صالِحًا فله جَنَّاتُ المَأْوى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الله تعالى قد يُسخِّر بعض الأُمور الكَوْنية لبعض عِباده آيةً له؛ لأن الريح لا أحَدَ يَستَطيع أن يُصرِّفها كما يَشاءُ، وسُلَيْمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سُخِّرَت له تَجرِي بأَمْره، فيُستَفاد من هذا أن الله تعالى قد يُسخِّر بعض الأُمور الكونية آيةً لبَعض عِباده كهذا، وهل يُمكِن أن يَأتيَ مِثْلُ ذلك لغير الرُّسُلِ؟

الجوابُ: الظاهِر أنه لا يُمكِن، وما ذُكِر عن بعض الخُلَفاء أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سخَّر له الريح يَأمُرها كما يَشاءُ وتَنقُل جُنْده فإن هذا في صِحَّتِه نظَرٌ، والظاهِر أنَّ مِثْلَ آياتِ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا تكون كَرامةً للأَوْلياء، صحيح أن بعض آيات الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تكون كرامةً لبعض لأَوْلياء، أمَّا الآياتُ الكبيرة كهذه فالظاهِرُ -والله أَعلَمُ- أنها لا تكون.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ للريح سُرْعةً عظيمةً، كما قال تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات وُجود الجِنِّ، وهذا ثابِت بالكِتاب والسُّنَّة وإِجْماع المُسلِمين؛ ولهذا مَنْ أَنكَر وُجود الجِنِّ فقَدْ كذَّب القُرآن ويُحكَم بكُفْره.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الجِنَّ يَعمَلون للإِنْس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن

يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، ولا شكَّ أن عمَلَهم بين يَدَيْه آيةٌ له دالَّةٌ على نُبوته ورِسالته، لكن هل يَعمَلون لغير الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ يَقول شَيْخُ الإسلامِ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: نعَمْ، إنهم يَعمَلون لغير الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وعمَلُهم لغَيْر الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ له سببٌ، إمَّا أن يَكون سببُه الشِّرْك؛ بمَعنَى: أنَّ الجِنَّ تَأمُره أن يُشرِك فيَعبُدهم، أو تَأمُره أن يُشرِك فيَعبُد مَن يُعظِّمونه، هذا واحِد، وقد يَكون سببُه أنهم يَعشَقون هذا الإنسانَ فيُحِبُّونه حُبًّا؛ يَعنِي: ليس لله تعالى، لكن مَثَلًا لجَمال صُورته أو ما أَشبَهَ ذلك، ومن أسباب ذلك أنهم يَعمَلون له مَحَبَّةً لله تعالى؛ لكونهم صالِحين فأَحَبُّوا هذا الرجُلَ الصالِحَ فعمِلوا له، فعمَلُهم له يَقول شيخُ الإسلامِ[2] رَحِمَهُ اللَّهُ: إن عمِلوا له أمرًا مُحرَّمًا كان ذلك حَرامًا، مثل أن يَستَخدِمهم في أَذِيَّة المُسلِمين، أو في الاعْتِداء على شخص مُعيَّن يُروِّعونه أو يُنفِّرون إبِلَه، أو ما أَشبَهَ ذلك، فهذا حرام، فإذا استَعان بهم بطريق المَعصية أو من أَجْل المَعْصية كان ذلك حرامًا بلا شَكٍّ، أمَّا إذا استَعان بهم في الأَمْر المُباح فإن هذا لا بأسَ به إذا خلا عن شِرْكٍ وعن عُدوان على الغير.

فإن قُلْتَ: إن القول بإباحة الاستِعانة بهم في غير المَعْصية يُشكِل عليه قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٢٨]، فإنَّ ظاهِر هذا أنه لا يَجوز أن يَستَمتِع الجِنُّ بالإِنْس؛ ولا الإِنْس بالجِنِّ؟

---

(١) انظر: النبوات (١/ ٥٢٧، ٢/ ١٠٠٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٠٧-٣٠٨)، والنبوات (١/ ٥٢٨).

فالجوابُ: قد ذكَرَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتاب النُّبوات[1] أو في كِتاب إيضاح الدَّلالة على عموم الرِّسالة ذكَرَ أَشْياءَ واضِحةً عن السلَف بأنهم رُبَّما يَنْتَفِعون بالجِنِّ في الإِخْبار عن الأشياءِ البَعيدة، والأَمْر الواقِع شاهِدٌ بذلك، فإننا نَسمَع قضايا عن بعض الناس أن الجِنَّ تُعينهم على ما يُريد معَ صلاحِهم وعدَم شِرْكهم وعدَم مَعصيتهم.

فَإِنْ قِيلَ: هل يُمكِن أن يَعتَدِيَ الجِنِّيُّ على الإِنْسيُّ؟

فالجوابُ: نعَمْ يُمكِن.

وهل يُمكِن أن يَعتَدِيَ الإِنْسيُّ على الجِنِّيُّ؟

فالجوابُ: نعَمْ يُمكِن.

أمَّا الأوَّلُ فظاهِرٌ كثيرًا أن الجِنَّ يَعتَدون على الإنس، أحيانًا يُروِّعونهم في الطُّرُقات، بل ورُبَّما في البُيوت، وأحيانًا يُفسِدون عليهم شُؤُونهم، وأحيانًا يَرمُونهم بالحِجارة، وأحيانًا يُؤذُونهم بالأصوات، وهذا شيء لا يَحتاج إلى طلَب الدَّليل؛ لأنه أَمْرٌ واقِع مُشاهَد.

وكذلك الإنس رُبَّما يَعتَدون على الجِنِّ؛ فلو أنَّ أحَدًا استَجْمَر بعَظْمٍ أو برَوث لكان مُعتَديًا على الجِنِّ؛ لأنَّ العَظْم طعامُ الجِنِّ، والروث طعام دَوابِّهم، فيَكون في هذا عُدوان من الإِنْس على الجِنِّ.

فَإِنْ قِيلَ: هل يُمكِن أن يَدخُل الجِنِّيُّ في بدَن الإِنْسِيِّ؟

فالجوابُ: نعَمْ، ولا يَحتاج إلى طلَب الدَّليل؛ لأن هذا أَمْر واقِع مَحسوس

(١) النبوات (٢/ ١٠٥٩-١٠٦١)، و مجموع الفتاوى (١٣/ ٨٧-٨٨).

ثبَتَتْ به الأَخبارُ وتَواتَرت، وشاهَدَهُ الناس، وقد ذكَرْنا أن الإمام أحمدَ وشيخَ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ يُؤتَى إليهم بالمَصروع فيُخاطِبونه، ويَكون الخِطاب على مَنْ صرَعه، ويَضرِبونه أيضًا ويَكون الضَّرْب على مَن صرَعه، أي: على الصارِع لا على المَصروع.

وفي القُرآن ما يُشير إلى ذلك في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥]، والمَسُّ مَعناه: الصَّرْع؛ ولهذا يُقال: (بِهِ مَسٌّ من الجِنِّ)، أي: صَرع، والذي يَتَخبَّطه الشَّيْطان من المَسِّ؛ يَعنِي: يَكون مُخبَّلًا لا يُحِسُّ ولا يَعرِف؛ قال أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنَّ هؤلاءِ يَقومون مِن قُبورهم كمِثْل المَجانين الذين أَصابَتْهمُ الشَّياطينُ.

وأمَّا إنكار بعض الناس لهذا فقد قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن هؤلاءِ الفَلاسِفةِ الذين أَنكَروا ذلك لا يَعلَمون من الشَّرْع كما يَعلَمه أهلُ الشَّرْع، فهم يُنكِرون ما غاب عنهم، ولا يُقِرُّون إلَّا بالشيء المَحسوس، وأَنكَر عليهم إنكارًا عظيمًا في (زاد المعاد)[1].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الجِنَّ قَد يُشاهَدون، مِن مَفهوم الآية مِن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فإن الظاهِر أنهم يُشاهَدون، وهم يَعمَلون بين يدَيْ سُليمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يَعنِي: أَمامَه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الجِنَّ مُكلَّفون؛ بمَعنَى أنهم إذا خالَفوا عُذِّبوا، ومن تَمام عَدْل الله تعالى أنهم إذا وافَقوا نُعِّموا، أمَّا كَوْنهم يُعذَّبون إذا خالَفوا فهذا أَمْر مُتَّفَق عليه بين العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، وأمَّا كافِرهم فيَدخُل النار، وأمَّا دُخول مُؤمِنُهم الجَنَّة؛

(١) زاد المعاد (٤/ ٦١).

ففيه خِلاف بين العُلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، والصوابُ: أنهم يَدخُلون الجَنَّة؛ لقوله تعالى في سورة الرحمن وهو يُخاطِب الجِنَّ والإِنْس: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٦-٤٧]، فيكون هؤلاء الجِنُّ إذا خافوا الله تعالى فلَهُمُ الجَنَّةُ، وقال في أثناء ذلك أيضًا: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٥٦]، وكلِمة (ولا جانٌّ) لا تَتَناسَب مع الإِنْس وإنَّما تَتَناسَب مع الجِنِّ، وهذا هو القولُ الحَقُّ المُتعيِّن.

ولا يُعارِض ذلك قولُه تعالى عن الجِنِّ الذين صرَفهم الله تعالى إلى النبيِّ ﷺ يَستَمِعون القُرآن حين ولَّوْا إلى قَوْمهم مُنذِرين؛ قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣٠-٣١]، فيُقال: إن الله تعالى إذا أَجارهم من العَذاب الأليم فلازِم ذلك أن يُدخِلهم الجَنَّة؛ لأن الآخِرة ليس فيها إلَّا دارانِ هما الجَنَّة أو النار، فمَن نَجا من النار دخَل الجَنَّة ولا بُدَّ، فالجِنُّ مُكلَّفون، لكن هل تكليفهم كتكْليف الإنس؟ بمَعنَى: أن صَلاتَهم كصلاتِنا وصِيامهم كصيامنا وحَجَّهم كحَجِّنا أو يَختَلِفون عنَّا؟

الجوابُ: في هذا احتِمالانِ:

الاحتِمال الأوَّلُ: أن يَكون ما كُلِّفوا به مُساوٍ لما كُلِّفنا به من كل وَجْهٍ، ما دام الرسول ﷺ مَبعوثًا للجِنِّ والإِنْس، ولم يَأْتِ القُرآن ولا السُّنَّة بالتَّفريق بين أحكام الإِنْس والجِنِّ، فالواجِب إجْراؤُها على ما هي عليه، وأن تَكون هذه الأحكامُ ثابِتةً في حقِّ الإِنْس والجِنِّ على حدٍّ سواءٍ.

والاحتِمال الثاني: أن تَكون الواجِباتُ بالنِّسبة للجِنِّ مُوافِقةً لما هُمْ عليه مُناسِبةً

لهم، فلا يَلزَم على هذا أن يَكونوا مُساوِين للإنس؛ لأن الله يَشرَع الأحكام مُناسِبةً لَمن شُرِعت له، فهذا المَريضُ مَثَلًا هل عليه صَوْمٌ؟ إذا كان المَريض لا يُرجَى زَوالُ مَرَضِه ففَرْضه الإطعام، والفقير ليس عليه زكاة وليس عليه حَجٌّ.

فلمَّا كان اختِلاف الشرائِع ظاهِرًا بالنِّسبة للإِنْس لاختِلاف أحوالهم فإنه يَلزَم أن تَكون الشرائِع أيضًا مُختَلِفة في الجِنِّ عن الإِنْس؛ لأنَّ الجِنَّ لا شَكَّ كما قال شيخُ الإسلام[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مُخالِفون للإِنْس في الحَدِّ والحقيقة، وحقيقتهم ليست كحقيقة البَشَر وحدُّهم وحُدودهم وطاقاتُهم ليسَتْ كحُدود وطاقات البَشَر، فإذا كانوا مُخالِفين للبَشَر في الحَدِّ والحقيقة لزِمَ أن يَكونوا مُخالِفين لهم في الأحكام الشرعية، وهذا فيما يُمكِن الاختِلاف فيه.

أمَّا ما لا يُمكِن كالتوحيد وأَصْل الرِّسالة وما أَشبَهَ ذلك فهذا أَمْرٌ نَعلَم عِلْم اليَقين أن الجِنَّ مُساوُون للإِنْس في تلكَ الأحكامِ، لكن الكلامَ على المَسائِلِ الفَرْعية التي يَختَلِف فيها المُخاطَبون لاختِلاف أحوالهم.

فالمَسألةُ فيها احتِمالان، ولكن شَيْخ الإسلام[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ جزَمَ بأن الأحكام التي كُلِّف بها الجِنُّ تُخالِف الأحكام التي كُلِّف بها الإنسُ، وأنهم مُكلَّفون بالجُمْلة بدون أن يُساوُوا الإِنْس، والعِلْم عند الله تعالى.

• • ۞ • •

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٣٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٣٣).

الآيــة (١٣)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣].

قوله تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ﴾ أي: لِسُليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا كالتفصيل لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كأنه قيل: ماذا يَعمَلون؟ ففَصَّل فقال تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ ﴾: ﴿مِن﴾ بَيانِيَّة مُبَيِّنة للإِبْهام في الاِسْم المَوْصول، وهو قوله تعالى: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ يَعني ﴿مَا﴾ اسْمٌ مَوْصول، ومَعلومٌ أن الاِسْم المَوْصول من الأَسْماء المُبهَمة.

فقوله: ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَبْنِيَةٍ مُرْتَفِعَةٍ يُصْعَدُ إِلَيْهَا بِدَرَجٍ]، فالمَحاريبُ: عِبارة عن أَبنِية مُرتَفعة ذاتِ أسوار مَنيعة قال الله تعالى في داوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾ [ص:٢١]، وأمَّا مِحراب المَسجِد فيُسمَّى طاقًا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ [جَمْعُ تِمْثَالٍ، وَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ مَثَّلْتَهُ بِشَيْءٍ أَيْ: صُوَرٌ مِنْ نُحَاسٍ وَزُجَاجٍ وَرُخَامٍ وَلَمْ يَكُنِ اتِّخَاذُ الصُّوَرِ حَرَامًا فِي شَرِيعَتِهِ]، التَّماثيلُ: جَمْع تِمْثال وهو ما صُوِّر على مِثال شيءٍ آخَر، فكُلُّ ما صُوِّر على مِثال شيءٍ آخَرَ؛ فإنه يُقال: تِمْثال له.

وعلى هذا فيُمكِن أنَّ نَقول لِمَنْ صَوَّر صُورة شَجْرةٍ ونَحَتَها من جِسْم نَقول له: إنَّ هذا تِمْثال للشَّجَرة، وكذلك نَقول لِمَن نَحَتَ خَشَبًا أو حَجَرًا على صورة حَيوان نَقول: إن هذا تِمْثالٌ.

والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جزَم بأن المُراد بالتَّماثيل ما كان تِمْثالًا لحَيَوان؛ ولهذا قال: أَوْ صُوَرًا. وكلُّ شَيْء مَثَّلْتَه بشيءٍ هذا أَصْلُ التِّمثال أو صُوَر النُّحاس وزُجاج ورُخام، والنُّحاس مَعروف، والزُّجاج أيضًا مَعروف، والرُّخام.

وأما قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَلَمْ يَكُنِ اتِّخَاذُ الصُّوَرِ حَرَامًا فِي شَرِيعَتِهِ] فهذا مَبنِيٌّ على أن المُراد بالتَّماثيل تَماثيلُ ما يَحرُم تَصويره كالحَيوان من إنسان وغيره، ولكن نَقول: إنَّ هذا لا يَلزَم أن يَكون المُراد بالتَّماثيل هي صُوَر الحَيوان، فمن الجائِز أن يَنحِتوا له مِمَّا ذُكِر من النُّحاس والزُّجاج والرُّخام، كأن يَنحِتوا له أشياءَ على صُوَر شجَر، ويُقال: إنَّ هذا تِمْثال.

ويُوجَد الآنَ مُجَسَّمات يَجعَلونها على صُورة نَخْلة، وعلى صورة سَيْف، وعلى صورة قَصْر، وما أَشبَه ذلك، نَقول: هذا تِمْثال. ويُوجَد أيضًا مُجسَّمات على صورة حَيوان؛ أَسَد أو جَمَل أو بَقَر أو ما أَشبَه ذلك هذا أيضًا تِمْثال.

فنَقول: إن كان قوله تعالى: ﴿مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ إنه عامٌّ لِتِمْثال الحَيوان والأشجار وغيرها فنَحتاج حينئذٍ أنَّ نُجيب بما أَجاب به المُفَسِّر؛ وهو أن الصُّوَر في شَريعتهم ليست حرامًا، ولكن ما دامَ الأمر غير لازِمٍ، إِذْ مِنَ المُمكِن أن تَكون التماثيلُ التي يَأمُرهم بها تَماثيلَ أَشياءَ يَجوز تَصويرها فلا حاجةَ إلى هذا الجوابِ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجِفَانٍ﴾ جَمْعُ جَفْنَة ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ جَمْعُ جَابِيَةٍ وَهِيَ

حَوْضٌ كَبِيرٌ] والجَفْنة: هي الصَّحْفة التي يُوضَع فيها الطعام، ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ جَمْع جابِية، والجابِية: هي الحَوْض الكبير، ومنه البِرْكَةُ تُسمَّى جابِية، حتى الآنَ يُسمُّون البِرَك الجوابيَ، وهل الجِفان على ما تَقتَضيه الآية الكريمة جِفانٌ كبيرة واسِعة؟ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُبيِّنًا سَعَتَها: [يَجْتَمِعُ عَلَى الْجَفْنَةِ أَلْفُ رَجُلٍ يَأْكُلُونَ مِنْهَا]، وهذا قد يَكون واقِعًا وقد يَكون الأمر أَكبَرَ من هذا، وقد يَكون دونَ هذا.

المُهِمُّ: أنَّ هذه الجِفانَ بسَعَتها وكِبَرِها مِثلُ الجوابي وهي الأحواض الكبيرة، يَعنِي: البِرَك.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ ثَابِتَاتٍ لَهَا قَوَائِمُ لَا تَتَحَرَّكُ عَنْ أَمَاكِنِهَا، تُتَّخَذُ مِنَ الْجِبَالِ بِالْيَمَنِ يُصْعَدُ إِلَيْهَا بِالسَّلَالِمِ].

قوله تعالى: ﴿وَقُدُورٍ﴾ جَمْع قِدْر، وهو ما يُطبَخ فيه الطعام.

قوله تعالى: ﴿رَّاسِيَـٰتٍ﴾ قال العُلَماء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الراسِي الثابِت، وإنما كانت راسِيةً في الأرض لكِبَرها، فهي لكِبَرها لا يَستَطيعُ أحَدٌ أن يَتناوَلها ويَقلِبَها، والعادةُ أن القُدور مَنقولةٌ مَقلّبة، لكنَّ هذه لكِبَرها وسَعَتها راسِية لا تَتحرَّك.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَهَا قَوَائِمُ] المُراد به: المَناصِب التي تُنصَب عليها يَعني: أَرجُلًا، يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُتَّخَذُ مِنَ الْجِبَالِ بِالْيَمَنِ]، وهذا ليس بلازِم أنها مُتَّخَذة من الجِبال، وإن كانت القُدور قد تُتَّخَذ من النُّحاس والحَديد، وكذلك من الأَحْجار يُمكِن أن تُنحَت وتَكونَ قِدْرًا، ومُمكِنٌ أن تُجعَل طينًا يُتَّخَذ منه الفَخَّار؛ ولكن ليس بلازِم، يَعنِي: تُتَّخَذ من الحديد والنُّحَاس ومن الأحجار ومن غير ذلك.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَقُلْنَا: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ﴾ يَا ﴿ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ بِطَاعَةِ الله ﴿شُكْرًا﴾ لَهُ

عَلَى مَا آتَاكُمْ] أَفادَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ﴿ٱعْمَلُوٓاْ﴾ جُملة في مَحَلِّ نَصْب لقولٍ مَحذوف التقديرُ: [قُلْنَا:] ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾، وأمَّا ﴿ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ فهي مَنصوبة بـ(يا) النِّداء المَحذوفة؛ أي: يا آل داودَ، وآل داودَ هنا ذُرِّيَّتُه وقَرابتُه؛ لأنَّ الله تعالى أَنعَمَ على هذه القَبيلةِ؛ قبيلة داودَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بنِعَمٍ عَظيمة، أَنعَمَ على أبيهم وعلى ابنِهِ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وقوله: ﴿شُكْرًا﴾ أَفادَنا بتَقدير الشُّكْر لله تعالى على أن ﴿شُكْرًا﴾ مَفعولٌ مِنْ أَجْله وأنَّ مَفعول ﴿ٱعْمَلُوٓاْ﴾ مَحذوف، تَقديرُه: بطاعة الله تعالى؛ يَعنِي: اعمَلوا بطاعة الله تعالى لأَجْل الشُّكْر لله تعالى، ويحتَمل أن تكون ﴿شُكْرًا﴾ مَفعولًا به لـ﴿ٱعْمَلُوٓاْ﴾؛ يَعنِي: اعمَلوا الشُّكْر، والشُّكْر هو: الطاعة، ولكن هذا الوَجْهَ نَسلَم فيه من التَّقدير، أمَّا على الوَجْه الأَوْل فإنه لا بُدَّ أن نُقدِّر مَفعول: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ﴾.

والشُّكْر عرَّفه العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ بأنه: القِيام بطاعة المُنعِم في القَلْب واللِّسان والجوارِح، أمَّا في القَلْب فأن تَعتَقِد بأن ما بِكَ من نِعمة فهي مِن الله تعالى، وأمَّا في اللِّسان بأن تُثنِيَ على الله تعالى بالنِّعمة، لا تَذكُر النِّعمة افتِخارًا بها على الناس، وأمَّا الجوارِح فأَنْ تكون بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما يَختَصُّ بتِلكَ النِّعْمةِ أو بطاعته على سبيل العُموم.

والفَرْق بين هذا وهذا؛ إذا قُلْنا: أن تَقوم بطاعة الله فيما يَختَصُّ بهذه النِّعْمةِ، فإذا أَنعَمَ الله تعالى عليكَ بمال فشُكرُهُ الزكاةُ والإنفاق، وما أَشبَهَ ذلك، فإذا عَصَيْت الله تعالى في غير ذلك لا يُقال: إنك لم تَقُمْ بشُكْر المال. أمَّا إذا قُلْنا: إن الشُّكْر هو أن تَقوم بطاعة الله تعالى فيما يَختَصُّ بهذه النِّعْمةِ وفي غيره؛ فإن الإنسان إذا أَنعَم عليه بمالٍ وقام بحَقِّه على الوَجْه الكامِل، ولكنه يَعصِي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أُمورٍ أخرى يُقال: إن هذا ليس بشاكِرٍ.

ولكن قد نَقول: إن الشُّكْر نَوْعان: شُكْر مُطلَق؛ وهو الذي يَقوم بطاعة المُنعِم فيما أَنعَم به عليه فيه وفي غيره، وشُكْر خاصٌّ مُقيَّد لهذه النِّعْمة المُعيَّنة؛ فيَكون هذا الشاكِرُ إذا قام بما يَجِب عليه في هذه النِّعْمةِ المُعيَّنة شاكِرًا، لكنه لا يُعطَى وَصْف الشَّكور، ونَظيرُ ذلك ما سبَقَ لنا في التَّوبة، أنَّ التَّوْبة تَصِحُّ من الذَّنْب مع الإصرار على غيره، لكن لا يَستَحِقُّ التائِبُ وَصْف التَّوْبة المُطلَق.

قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ العامِل بطاعَتي شُكرًا لنِعْمتي، وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ﴾ خبرٌ مُقدَّم، و﴿ٱلشَّكُورُ﴾ مُبتَدَأٌ مُؤخَّر؛ لأن المَقصود الإِخْبار عن ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ بأنه قليل، ويَكون تَقديرُ الآية: والشَّكورُ من عِبادي قليل.

وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ﴾ هو مُتعَلِّق بما بعده فلمَّا قُدِّم عليه صار في مَوضِع نَصْبٍ على الحال؛ يَعنِي: ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ حال كونه من عباده ﴿وَقَلِيلٌ﴾ وتَعليل ذلك أن أكثَرَ بَني آدَمَ غيرُ شَكور، بل هم ضالُّون، فبَنو آدَمَ يَكون منهم تِسْعُ مئة وتِسعةٌ وتِسعون في النَّار وواحِدٌ في الجَنَّة، ولا شَكَّ أن واحِدًا إذا نُسِب إلى المِئة يَكون قليلًا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّنْ عِبَادِيَ﴾ المُراد بالعُبودية هنا: العامَّة الشامِلة للكافِرين والمُؤمِنين.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: مِن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ سخَّر الجِنَّ لسُلَيْمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يَعمَلون له ما يَشاءُ، وهذا لا يَتأَتَّى لأحَدٍ من البَشَر، نعَمْ رُبَّما تَعمَل الجِنُّ لبعض البشَر أَشياءَ، لكن لا تَكون قائِمةً بما شاء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: جواز البِناء العالي؛ لقوله تعالى: ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جواز التَّماثيل، وهل يَشمَل التَّماثيل بالحيوانات والأشجار والبِحار والأنهار؟

الجوابُ: على كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَشمَل؛ لأنه قال: هذا كان قَبْلَ تَحريم الصُّوَر. وعلى الاحتِمال الثاني: لا يَشمَل؛ لأنَّ التَّماثيل تُطلَق على كلِّ ما كان مِثالًا على غيره، ولا يَلزَم أن تكون على صورةِ الحَيوان، فعلى رَأْيِ المُفَسِّر يَكونُ الحُكْم مَنسوخًا بشريعة النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فيُستَفاد منه فائِدة وهي جواز النَّسْخ في الأحكام الشَّرْعيَّة، وعلى الاحتِمال الثاني: لا يَكون دالًّا على جواز تَماثيل الحيوانات.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيان كثرة جُنود سُلَيْمان وكرَمه؛ لأن الجِفان كالجَوابي والقُدور راسِيات.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وُجوب القِيام بشُكْر الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ والأَمْرُ في الأصل للوُجوب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الشاكِر على النِّعمة قليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ والمُراد بهذه الجُمْلةِ الحثُّ على الشُّكْر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات العُبودية العامَّة الشامِلة؛ لقَوْله تعالى: ﴿مِّنْ عِبَادِىَ﴾ فإن المُراد بها العُبودية العامَّة الشامِلة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ داودَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أبٌ لفَخِذٍ كامِل من بني إسرائيلَ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ كما يُقال: بنو تَميمٍ، بنو زُهرةَ، وما أَشبَه ذلك.

• • ۞ • •

الآيــة (١٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ:١٤].

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: [عَلَى سُلَيْمَانَ] ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ [أَيْ: مَاتَ].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَضَيْنَا﴾ أي: قدَّرْنا عليه الموتَ فمات، والقَضاءُ هنا قَضاء قدَريٌّ، وقضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نوعان: قدَريٌّ وشَرْعيٌّ، فهُنا ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ﴾ القَضاءُ قدَريٌّ، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء:٤] هذا أيضًا قضاءٌ قدَريٌّ، أي: قدَّرْنا عليهم ذلك، والثاني: قضاء شَرْعيٌّ، وهذا إذا تَعلَّق بما أمَرَ الله تعالى به فإنه قَضاء شَرْعيٌّ، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، فالقَضاء هنا قَضاءٌ شَرْعيٌّ، إذ لو كان قَضاءً قدرِيًّا لوقَع ولعبَد الناسُ الله تعالى كلُّهم بدون إشراكٍ، وهنا القَضاء قدَريٌّ ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: قدَّرْناه عليه فمات.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَمَكَثَ قَائِمًا عَلَى عَصَاهُ حَوْلًا مَيْتًا، وَالْجِنُّ تَعْمَلَ تِلْكَ الْأَعْمَالَ الشَّاقَّةَ عَلَى عَادَتِهَا لَا تَشْعُرُ بِمَوْتِهِ حَتَّى أَكَلَتِ الْأَرَضَةُ عَصَاهُ فَخَرَّ مَيْتًا]

وكُلُّ هذا الذي ذكَره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ واضِحٌ من الآية لَمَّا قضَى الله تعالى عليه الموت، بَقِي مُدَّة لا تَعلَم الجِنُّ أنه مات، وهم يَعمَلون دائِبين؛ لأنه قد كلَّفَهم بذلك، فمات وبَقِيَ مُتَّكِئًا على عَصاهُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَقِيَ حَوْلًا] تَقييد هذا بالحَوْل ليس فيه دليلٌ، لكن لا شَكَّ أنه بَقِيَ مُدَّةً وهم يَعمَلون بين يدَيْه ولا يَدرون أنه مَيْت، أمَّا أن نُقيِّده بحول أو بأقلَّ أو بأكثَرَ فهذا يَحتاج إلى دليل.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إِنَّهُ مُتَّكِئٌ على عَصاهُ] فيه دليل مِن الآية؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ وهذا لا يُمكِن إلَّا وهو مُتَّكِئ.

قال تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ مَصدَر: أُرِضَتِ الخَشَبةُ، بالبِناء للمَفعول: أَكَلَتْها الأَرَضة، وكلِمة ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ هل المُراد بها الجِنْس أي: الدَّابَّة التي تَكون في الأرض، أو المُراد بها المَصدَر؟

الجوابُ: أن المُفَسِّر يَرَى أن المُراد بها المَصدر مَأخوذٌ من قوله: (أُرِضَتِ الخَشَبة)؛ يَعنِي: أَكَلَتْها الأَرَضة، يَعنِي: ما دلَّهم على مَوْته إلَّا الدابَّة التي تَأرِضُ الخَشَب، فعليه يَكون كلمة أَرْض مَصدَر: (أَرَضَ يَأرِضُ أَرْضًا) مثل (ضَرَبَ يَضرِبُ ضَرْبًا)، هذا تَقرير كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وما قرَّره بعيدٌ من مَفهوم الآية؛ لأنَّك عندما تَفهَم ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ ما تَفهَم الذي قَرَّره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بلِ الذي يَتبادَر إلى الذِّهْن أنَّ المُراد بالأَرْض الجِنْس، يَعنِي: إلا الدابَّة التي تَخرُج من الأرض.

وقوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾.

فَإِنْ قِيلَ: هل تَأكُل الأَرْض أَجْساد الصالِحين؟

فالجوابُ: إنَّنا لا نَجزِم بذلك، ولكن قد يُعثَر على بعضهم لم تَأكُلْهمُ الأَرْضُ، والجَزْم لا يَكون إلَّا في الأنبياء فقَطْ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ بِالْهَمْزِ وَتَرْكِهِ بِأَلِفٍ] يَعنِي فيها قِراءَتان: (مِنْسأَته)، القِراءة الثانية: اجعَلِ الهَمزة أَلِفًا أي: (مِنسَاتَهُ)؛ ولهذا قال: [بِالْهَمْزِ وَتَرْكِهِ]، ولكن إذا تَرَكناه يَكون أَلِفًا؛ لأنه يُنسَأ ويُطرَد ويُزجَر بها، كأن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُريد أن يُبيِّن اشتِقاق هذه الكَلِمةِ، وأنها من النَّسَأ، أي: الطَّرْد والزَّجْر، فإن الإنسان يَزجُر بعَصاه بحَزِّها على مَن يُوجِّه إليه الخِطاب ويَطرُد بها بالضَّرْب، وهذا يَدُلُّ على أن الكلِمة عرَبيَّة.

ولكن بعض المُفسِّرين يَقولون: إن الكلِمة غيرُ عرَبية، وإنها من الكلام الذي عُـرِّب، وإذا كان من الكلام المُعرَّب فإنه لا يُشتَقُّ لها من العربيـة، فكُلُّ كلِمة لها اشتِقاق في العربية فإنها تَكون عربية، وعلى كُلِّ حال: فالخُلْف في هذا سَهْل.

المُهِمُّ: أن المِنسَأَة كلِمةٌ واحِدة، وهي [العَصَا يُطْرَدُ] بها الشيء [وَيُزْجَرُ بِهَا].

وقوله: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ [مَيْتًا] ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ الجُمْلة كما تُشاهِدون جُمْلة شَرْطية، وأداة الشَّرْط فيها (لَمَّا) وقد سبَق لنا أن (لَمَّا) تَأتِي لعِدَّة مَعانٍ: تَكون شَرْطية، وتَكون للنَّفْي، وتَكون بمَعنَى (إلَّا)، والرابع أن تَكون ظَرْفًا بمعنى (حين)، وهُنا استُعمِلت شَرْطية بدليل أنه جاء بعدَها شَرْطٌ، وجوابُه: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ﴾، ونافِية كقوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص:٨]، أي: لم يَذوقوا عَذابي، وتَأتي بمَعنَى (إلَّا) كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤]، أي: إلَّا عليها حافِظ، وتَأتِي بمَعنى (حين) أي: ظَرْفًا، مثل أن تَقول: أَكرَمْتَنِي لَمَّا زُرْتُكَ. أي: حين زُرْتُكَ، إِذَنْ لها أربعةُ مَعانٍ، أو تَأتي على أربَعةِ أَوْجُهٍ.

وقوله تعالى: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾: ﴿تَبَيَّنَتِ﴾ أي: عَلِمَت وبان لها، وفسَّرها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [انْكَشَفَ لَهُمْ]، (أنْ) مُخفَّفة من الثَّقيلة؛ أي: أنَّهم (لو كانوا يَعلَمون الغيبَ)، وإذا خُفِّفت الثَّقيلة وجَب حَذْف اسْمِها، وكان خَبَرُها جملةً فهُنا الخبَرُ: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ وإعرابُها أن تَقول: (أن) مُخفَّفة من الثَّقيلة، واسمُها ضمير الشَّأْن مُستتِر، وجُملة ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ في محَلِّ رَفْع خَبَرها.

وفي قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَنَّهُمْ] إشارة إلى ما سبَق أن قُلْنا: أنَّ ضمير الشَّأْن يَنبَغي أن يَكون مُناسِبًا للمَقام، فقد يَكون مُفرَدًا، وقد يَكون جَمْعًا، وقد يَكون للغائِب، وقد يَكون للمُخاطَب، خِلافًا لما عليه أكثرُ النَّحوِيِّين حيث يُقدِّرونه مُفرَدًا للغائِب، ويَقولون: إنه أي: الحالُ ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّوْ﴾ شَرْطية، وجوابُها ﴿مَا لَبِثُواْ﴾، و﴿لَّوْ﴾ تَأتي شَرْطية، وتَأْتي مَصدَرية، وتَأتي بمَعنى: وَدَّ كذا، فتَأتي شَرْطية مثل هذه الآيةِ، ومثل أن تَقول: (لو زُرْتَني لأَكْرَمْتُكَ) وتَأتِي مَصدَرية إذا جاءت بعد (وَدَّ)، كقوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩] أي: أن تُدهِنوا، وهذا مَعناها فقَطْ، وهنا هي شَرْطية وفِعْل الشَّرْط فيها قوله تعالى: ﴿كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ وجوابُه: ﴿مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ [وَمِنْهُ مَا غَابَ عَنْهُمْ مِنْ مَوْتِ سُلَيْمَانَ ﴿مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ العَمَلِ الشَّاقِّ لَهُمْ لِظَنِّهِمْ حَيَاتَهُ خِلَافَ ظَنِّهِمْ عِلْمَ الْغَيْبِ]، وهذا واضِح؛ لأنهم لو كانوا يَعلَمون الغيبَ لعَلِموا أنَّه مات قبل أن يَخِرَّ بسبَب تَآكُل عَصاهُ، ولعلهم كانوا يَظُنُّون أو يَدَّعون أنهم كانوا يَعلَمون

الغيبَ، فأَراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُبيِّن حالَهم لهم ولغيرهم، وأنهم لا يَعلَمون الغيب، مع أن الغَيْب الذي حصَل هنا ليس غَيْبًا مُطلَقًا، ولكنه غَيْبٌ نِسْبِيٌّ، إذ إن مَن كان قريبًا جِدًّا من سُلَيْمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقد يَعرِف أنه مات، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَمِنْهُ مَا غَابَ عَنْهُمْ مِنْ مَوْتِ سُلَيْمَانَ].

وقوله تعالى: ﴿مَا لَبِثُواْ﴾ أي: ما بَقُوا، ﴿فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ الذي أَلحَق بهم المَهانة والذُّلَّ، وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الشَّاقِّ لِظَنِّهِمْ حَيَاتَهُ خِلَافَ ظَنِّهِمْ عِلْمَ الْغَيْبِ] يَعنِي: كانوا يَظُنُّون أنهم يَعلَمون الغَيْب، فلمَّا خَرَّ مَيْتًا تَبيَّن لهم أنهم لا يَعلَمون الغَيْب قال: [وَعُلِمَ كَوْنُهُ سُنَّةً بِحِسَابِ مَا أَكَلَتْهُ الْأَرَضَةُ مِنَ الْعَصَا بَعْدَ مَوْتِهِ يَوْمًا وَلَيْلَةً مَثَلًا]، هذا جوابٌ عمَّا قيل: إنه بقِيَ سَنَةً وهو مَيْت ولم يُعلَم به، يَعني: أنه لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الذي أَعلَمَكم بأنه سَنَة؟ قال: علِمْنا ذلك بالحِساب، لأننا حَسَبْنا ما أَكَلَتْه الأَرْض يومًا وليلة من العصا فقِسْنا عليه ما مضَى؛ فمَثَلًا إذا كانت تَأكُل في اليوم والليلة مثَلًا (سَنْتِيمِتر) عرَفْنا أنها تَأكُل في السَّنَة ثلاثَ مِئة وسِتِّين (سَنْتِيمِترًا) وعرَفنا هذا من طول العَصا، ولكن هذا في الحقيقة ليس مُتعَيِّنًا، إذ قد تَأكُل اليومَ أكثرَ مِمَّا تَأكُله بالأَمْس أو بالعكس، وحتى نَقول أيضًا: من الذي قال: إنها أَكَلَتْ في اليوم والليلة هذا المِقدارَ حتى عُرِف به ما مَضَى. يَحتاج إلى دليل؛ ولهذا الصوابُ أنَّ ما سبَق أن قُلْناه: بأنه لا حاجةَ لنا إلى تَقدير المُدَّة التي لَبِثها سُلَيْمانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأنَّ مِثْل هذه الأُمورِ لا يُركَن إليها ولا يُعتَمَد إلَّا إذا جاءَت عن الشارِع عن النبيِّ ﷺ، أو جاءَت في كِتاب الله تعالى، وأمَّا ما يَأتي عن بني إسرائيلَ في مثل هذه الأُمورِ فإننا نَقِف فيه لا نُصدِّق ولا نُكذِّب.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الموت غاية كُلِّ حَيٍّ وإن عَظُم مُلْكه، فإن سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان من أعظَمِ المُلوك مُلْكًا ومع ذلك لم يُنقِذْه مُلكُه من الموت.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الأمور كُلَّها إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَوْصوف بالعظَمة والجَلال والكَمال؛ لأن كلِمة: ﴿قَضَيْنَا﴾ تَدُلُّ إمَّا على التَّعدُّد أو على التَّعظيم، والتَّعدُّد هنا مُمتَنِع، فتَعيَّن أن تَكون للتعظيم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الشيءَ الحَقير قد يَفعَل شيئًا عظيمًا كبيرًا، من قوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا شيء جَرَتْ به سُنَّة الله أن الشيء قد يَكون حَقيرًا لكن يَتَرَتَّب عليه أمرٌ عظيم، فنحن الآنَ لا نَعرِف كيف نَقبُر مَوْتانا إلَّا بدَلالة الغُراب، وأيضًا جميعُ المباني الهَنْدسية الفَخْمة الجميلة عُرِفت من صَنيع النَّحْل، أيضًا كلُّ ما حدَث من الآلات التي يُحدِثها الناس الآنَ تَجِدهم يُشبِّهونها بمَخلوقات الله؛ كالطائِرات وغيرها، وبهذا نَعرِف أنَّ الأشياءَ الحَقيرةَ قد تَكون مُفيدةً للإنسان فائِدةً عَظيمةً، ويَترَتَّب عليها أُمورٌ خطيرة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ إضافة الشيء إلى سبَبه المعلوم جائِزةٌ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ فأَضاف الدَّلالة إلى دابَّة الأرض، مع أن الدابَّة هل هي أكَلَتِ العصا لأَجْل أن تَدُلَّ الجِنَّ على موت سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

الجوابُ: لا؛ لكنها سبَب، فإضافة الشيء إلى سبَبِه المَعلومِ شَرْعًا أو حِسًّا جائِزٌ، حتى وإن لم يُذكَر فيها لفظُ الجَلالة، مثلًا إذا قُلْت: لولا فُلان لهَلَكْتُ. وصحيح أن

فُلانًا هو الذي أَنقَذَكَ، فهذا جائِز إذا لم تَعتَقِد أن هذا السبَبَ هو الفاعِلُ الوحيدُ، والمَمنوع أن تُضيف الشيء إلى سبَبِه مع الله تعالى مَقرونًا بالواو، أو تُضيف الشيء إلى سبَبٍ غيرِ مَعلوم سبَبِيَّتُه لا من الشَّرْع ولا من الحِسِّ؛ لأن هذا يَكون من باب الأَوْهام والتَّخيُّلات.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التحذير من دابَّة الأَرْض ما دامَ أنها تَأكُل الأَخْشاب وتَأكُل هذه الأشياءَ فاحْذَروا منها، وكم من إنسان أَفسَدَتْ عليه دابَّةُ الأرض مَكتَبَتَه القَيِّمة التي تُساوِي شيئًا كثيرًا؛ ولهذا انتَبِهوا لا تَأكُل الأرضة عليكم كُتُبَكم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إضافة الفِعْل أو إضافة الشيءِ إلى مَن لم يَقُم به باختِياره؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ فالخُرور قد يُضاف إلى الفاعِل بالاختيار، وقد يُضاف إلى الفاعِل بغير الاختِيار، فتَقول: (خَرَّ الماءُ)، وتَقول: (خَرَّ مَيْتًا)، وقال الله: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾، ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾، يَخِرُّون للأَذْقان يَبكون، هذا بالاختيار.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الجِنَّ لا يَعلَمون الغَيْب، والدَّلالةُ على ذلك واضِحة: قولُه تعالى: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الأُمورَ الحِسِّيَّة الواقِعة أدِلَّة بُرهانِية، وهذه الفائِدة مَعناها الاستِدْلالُ بالأمور الحِسِّيَّة؛ لأنَّ الله تعالى استَدَلَّ على كونهم لا يَعلَمون الغَيْب بأنهم بَقُوا مُعذَّبين بما يَعمَلونه من الأعمال الشاقَّة، فلك أن تَستَدِلَّ على الأمور المَعقولة بالأمور المَحسوسة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن الجِنَّ ذوو عُقول؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ فقَدْ أَعطاهم الله تعالى عُقولًا يَهتَدون بها إلى مَصالِح دِينهم ودُنياهم.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: تَسمية الأعمال الشاقَّة عذابًا؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا

لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ﴾ مع أن سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يَجْعَلْهم يَعمَلون له ما يَشاء عُقوبةً لهم، ولكنه تَكليف، وبهذا نَعرِفُ أنَّ العذاب قد يُطلَق على ما ليس بعُقوبة؛ كما في قوله ﷺ: «إِنَّ السَّفَرَ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ»[1].

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب السفر قطعة من العذاب، رقم (١٨٠٤)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب السفر قطعة من العذاب، رقم (١٩٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآيـة (١٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ:١٥].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ هذه الجُملةُ مُؤكَّدةٌ بثلاثة مُؤكِّدات وهي: اللَّامُ و(قَدْ) والقَسَمُ المُقدَّر؛ لأنَّ هذا على تَقدير القَسَم أي: (والله لَقَدْ كانَ لِسَبأ) و﴿كَانَ﴾ هنا تَدُلُّ على مُجرَّد الحُدوث؛ أي: أنها مَسلوبة الدَّلالة على الزمَن، فإن هذه الآيَةَ باقِية حتى الآنَ، كلُّ مَن قرَأَ خبرَها.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ قبيلة سُمِّيت باسْمِ جَدٍّ لهم من العرَب و(سَبَأٌ) في الأصل اسْمُ رجُل يُسمَّى (سَبَأ)، وكان من (قَحطانَ)، واختَلَف المُؤرِّخون النَّسَّابون في (قَحطانَ) هل هو من العرَب العارِبة أو من العرَب المُستَعرِبة، والمَشهور أنهم من العرَب العارِبة؛ الذين قبلَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكن رَوَى البُخارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَى قَبِيلَتَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ كَانُوا يَتَرَامَوْنَ بِالنَّبْلِ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا»[1]، وهذا يَدُلُّ على أنهم عرَب مُستَعرِبة؛ لأنَّ الأنصار مَعروفٌ أنهم الأَوْس والخَزْرج كلُّهم من قبائل اليَمَن من قحطانَ، نزَلوا وتَفرَّقوا في البلاد بعد الغرَق ونزَلوا المدينة، وعلى هذا فيَكون ظاهِرُ حديث

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي، رقم (٢٨٩٩)، من حديث سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

البُخارِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ قحطانَ كلهم من بني إسماعيلَ.

والحاصِلُ: أن العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في النَّسَب يُقسِّمون العرَب إلى قِسْمين: ما كان قبل إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فهُمْ عرَب عارِبة، وما كان من بعده من ذُرِّيَّته فهم عرَب مُستَعرِبة.

المُهِمُّ: أنَّ (سَبأ) اسْمٌ لرجُلٍ كان له أولاد كثيرون جاء في الحديث أنهم عشَرَة بَقِيَ منهم سِتَّة في اليَمَن وأربعة في الشام، وانتَشَروا في الأرض وكثُروا، وفيها قِراءَتان يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالصَّرْفِ وَعَدَمِهِ] ﴿لِسَبَإٍ﴾ هذا الصَّرْفُ، عدَمُه: (لِسَبأَ).

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ فِي الْيَمَنِ]، ﴿ءَايَةٌ﴾ يَقول: [﴿فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾] أَتى بقِراءة الجَمْع، ولم أَرَهُ ذكَرَها بقِراءة الإِفْراد، وفيها قِراءَتان سَبْعيَّتان، قِراءة الإفراد: ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾، وقِراءة الجَمْع: ﴿فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾، ولا خِلاف بينهما في المَعنَى؛ لأنَّ (مَسكَن) مُفرَد، والمُفرَد المُضاف يَعُمُّ ويَشمَل كُلَّ ما يَدخُل تحت هذا المَعنَى، مِثالُه قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨]، فهنا (نِعْمَة) مُفرَد وقال فيها: ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ إِذَنْ هي كثيرة، فـ(مَسْكَن) من حيث المَعنَى بمَعنَى (مَساكِن)؛ لأنه مُفرَد مُضاف، والمُفرَد المُضاف يَعُمُّ.

إِذَنْ: هُناك قِراءَتان سَبْعِيَّتان: ﴿مَسَٰكِنِهِمْ﴾ و﴿مَسْكَنِهِمْ﴾، والمَسكَن ما يَسكُنه الإنسان فيَسكُن فيه ويَطمَئِنُّ، كالبُيوت والحدائِق والبَساتين وما إلى ذلك.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ءَايَةٌ﴾ بمَعنَى: علامة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١]، ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧]، فالآية بمَعنى العلَامة الدالَّةِ على الشيء، وهذه الآيةُ دالَّة على قُدْرةِ الله، وعلى نِعْمته وعلى حِكْمته في النِّهاية، و﴿ءَايَةٌ﴾ من حيث الإِعْراب

اسمُ (كانَ) مُؤَخَّر، و﴿لِسَبَإٍ﴾ خبرٌ مُقدَّم.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ءَايَةٌ﴾ دَالَّةٌ عَلَى قُدْرَةِ الله تَعَالَى] وعلى إِحْسانه وإِنْعامه وعلى حِكْمته في النِّهاية، لأنَّ هذه المَساكِنَ -كما سيأتي- دُمِّرَتْ بسبَب إِعْراضِهم.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدَلٌ مِن ﴿ءَايَةٌ﴾، ويَجوز أن تكون عَطْفَ بيانٍ؛ لأنها بَيَّنَتِ الآيةَ ووَضَّحَتْها، والجَنَّة هي البُستان الكثيرُ الأشجارِ، سُمِّيت بذلك لأنها تَجِنُّ مَن فيها، أي: تَستُرُه، وقد علِمنا سابِقًا أن هذه المادَّةَ؛ وهي الجيم والنون تَدور على مَعنَى الاستِتار والخَفاء.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ يَقول: [عَنْ يَمِينِ وَادِيهِمْ وَشِمَالِهِ]، وكان هذا الوادِي بين الجِبال، وكان على أَطْراف هذا الوادِي هذه الجِنانُ العَظيمة، من الأَشْجار المُتنوِّعة الكثيرة الثِّمار، وكانوا في أَحسَنِ ما يَكون من الرَّغَد والهَناء والأَمْن.

وقوله تعالى: ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ يَعنِي: إذا كانت على يَمين الوادِي وشِماله صار لها أيضًا مَنظَر بَديع جَذَّاب.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿جَنَّتَانِ﴾ ليس المُرادُ (جَنَّتانِ) يَعنِي: بُسْتانَيْنِ؛ واحدٌ يَمينًا وواحِدٌ شِمالًا، المُراد بَساتِينُ، لكن قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: لَمَّا كانت هذه البَساتينُ مُتَّصِلة صارت كأنها بُسْتان واحِد، وللمَعلوم لو كان بُستان وبُستان ما هي بآية يَعنِي أنها بَسيطة، لكنها بَساتينُ مُتَّصِلة بعضُها ببعض على يمين الوادِي وشِمال الوادِي، فلمَّا كانت مُتَّصِلة بعضُها ببَعْضٍ صارت كأنها جَنَّةٌ واحِدة عن اليمين، وجَنَّةٌ واحِدةٌ عن الشِّمال.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ [عَلَى مَا رَزَقَكُمْ

مِنَ النِّعْمَةِ فِي أَرْضِ سَبَأٍ] إلى آخِره، يَعنِي أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعَل في هذه الجَنَّتَيْنِ خيرًا كثيرًا، وجعَل تَناوُلَها مُيَسَّرًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ ممَّا يَدُلُّ على أن الأمر مُيسَّر، كما لو قدَّمتُ لكَ طعامًا وقُلْتُ: كُلْ، إِذَنْ فهذه الجَنَّاتُ تُعطِي ثِمارها بدون مَشَقَّة، بل باليُسْر والسُّهولة.

وقوله تعالى: ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ الرِّزْق بمَعنى: العَطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء:٨].

وقوله تعالى: ﴿رَبِّكُمْ﴾ الرَّبُّ مَعْناه: الخالِق المالِك المُدبِّر، والرُّبوبية هنا رُبوبية خاصَّة لعِنايته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهم بما أَعطاهم في هذه الجَنَّاتِ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ هذا هو الذي يُطالِبون به جزاءً أو إظهارًا لنِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهم، والشُّكْر: يَتعلَّق بالقَلْب واللِّسان والجوارِح؛ يَعنِي: فاعتَرِفوا بأنَّ هذه النِّعْمةَ من الله تعالى، وأَثْنُوا على الله تعالى بها، وقُوموا بجوارِحِكم بطاعته حتى تُؤدُّوا الشُّكْر على الوجه المَطلوب منكم، واشْكُروا له على ما رزَقَكم من النِّعْمة في أرض سَبَأٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ أَحيانًا تَتعدَّى (شكَرَ) بنَفْسها فيُقال: شكَرْت الله تعالى. ويُقال: شكَرْت له. فهي من الأفعال التي جاءت في اللغة العربية لازِمةً ومُتَعدِّيةً، وتكون لازِمة إذا جاء حَرْفُ الجَرِّ له، وتكون مُتعدِّية إذا لم يَأتِ حَرْف الجَرِّ، فإذا قُلْت: شكَرْتُ الله تعالى. صارَت مُتَعدِّية، وإذا قلت: شَكَرْتُ لله تعالى. صارَت لازِمةً.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ إعرابها: خبَرٌ لمبتدأ محذوف، والتَّقدير: هذه بَلْدة طَيِّبة، أو [هي بَلْدة طيِّبة، ليس فيها سِباع ولا بَعوضة ولا ذُبابة ولا برغوث

ولا عَقْرب ولا حَيَّة، ويَمُرُّ الغريب فيها وفي ثِيابه قَملٌ فيَموت؛ لطِيب هَوائِها] هكذا قال المفسِّر؛ وإنما نَقول: هي بلدةٌ طيِّبةٌ، أمَّا كون الغريب يَأتي من البَرِّ وفي ثِيابه القَمْل فيَموت القَمْل لطِيب هوائِها.

فنَقول: الله تعالى أَعلَمُ. لكن نَقول: لا شَكَّ أن وَصْف الله تعالى إيَّاها بالطَّيِّبة أنها من أحسَن البِلاد في هوائِها وفي قُرِّها وفي حَرِّها، ليس في الحَرِّ الشديد ولا القُرِّ القارِس، وليس فيها عُفونة الهَواء والماء وما أَشبَهَ ذلك، فخُذْ بما شِئْت من طِيب المَسكَن في كل ما يُسمَّى طِيبًا.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ يَعنِي: يَقول: والله ربٌّ غَفور، غَفور للذُّنوب، فمَنَّ الله تعالى عليهم بنِعْمَتَيْن: نِعمة السكَن وطِيبِهِ، ونِعمة المَغفِرة، فيَكون في نِعْمة المَغفِرة السلامةُ من الآثام وعُقوباتها في الآخِرة، وفي البَلْدة الطيِّبة السلامةُ من الآفات في الدنيا.

و(الغَفور) صِيغة مُبالَغة، واسْمُ الفاعِل منها (غافِر)، وهي مَأخوذة من (الغَفْر) بمَعنى السَّتْر مع الوِقاية، ومنه قولهم: (المِغْفَر) الذي يَلبَسه الإنسان؛ ليَتَّقِيَ به السِّهام في الحرب، ففيه تَغطية وسَتْر، وفيه أيضًا وِقاية، وهكذا (مَغفِرة الذُّنوب) فإنَّ معناه أنَّ الله تعالى يَستُر عليك الذَّنْب ويَقيك عُقوبته.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ دليلٌ على استِعمال التأكيد في الأُمور الهامَّة؛ وإن لم يَكُن المُخاطَب مُنكِرًا أو مُتَرَدِّدًا، تُؤخَذ من تأكيد هذه القِصَّة في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾؛ لأن التَّأكيد كما نَعلَم إنما يَجِب

في مُخاطَبة المُنكِر، ويَحسُن في مُخاطَبة المُتَرَدِّد، ويَكون على خِلاف البَلاغة في ما عدا ذلك، هذا هو المَعروفُ عند عُلَماء البَلاغة، ولكن بتَأمُّل ما ورَدَ في القرآن الكريم نَجِد أنَّ الأمور الهامَّة وإن خُوطِب بها مَن لا يُنكِرها أو يَتَرَدَّد فيها نَجِد أنَّ الله تعالى يُؤكِّدها، كما في هذه القِصَّةِ وغيرها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: هذه الآيةُ العَظيمة الدالَّة على قُدْرة الله تعالى وحِكْمته، وهي قِصَّتهم على سبيل العُموم أنهم مُنعَّمُون في دِيارهم وبَساتِينِهم وقُصورهم وغير ذلك فلمَّا أعرَضوا انقلَبَتِ الحال، ففيها عِبْرة وآيةٌ من وُجوهٍ كثيرة، آيةٌ دالَّة على قُدْرة الله تعالى، آيةٌ يَعنِي: عِبْرة لمَن عَصَى الله، عِبْرة لمَن أطاع الله تعالى، آيةٌ دالَّةٌ على حِكْمة الله تعالى.

فبالتَّأمُّل لهذه الآيةِ تَجِد فيها أصنافًا وأنواعًا من الآيات، فهي آية دالَّةٌ على قُدْرة الله تعالى، حيث خلَقَ لهم هذه البَساتينَ العَظيمة ثُمَّ أبدَلها بأُخرى لا تُساوِيها بشيء دالَّةٌ على حِكمته؛ حيث أعطاهم ذلك الخيرَ حين كانوا مُقبِلين على الله تعالى، وسَلَبَهم إيَّاه حين أعرَضوا واستَكْبَروا عن طاعته، آيةٌ للمُعتَبِرين من أهل المَعاصي؛ فإن فيها تَحذيرًا لهم من أن تَزول نِعْمة الله تعالى عليهم لسبب مَعاصيهم، آيةٌ للطائِعين حيث يَعتَبِرون بها بأنهم ما داموا على طاعة الله تعالى فإن نِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تُدَرُّ عليهم، هذه أَرْبعة أَوْجُهٍ من كونها آيةً.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ هذا الجَنَّاتِ تُؤتِي أُكُلَها على وَجْهٍ واسِع؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وُجوبُ الشُّكْر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ والشُّكْر واجِب عَقْلًا كما هو واجِب شَرْعًا، أمَّا وُجوبه الشَّرْعيُّ فالآيات بالأَمْر به

كثيرةٌ، وأمَّا وجـوبه العَقْليُّ فلأَنَّ العقل الصريح يَقتَضي أنَّ كلَّ مَن أَحـسَن إليك فإنك تَشـكُره على ذلك، ومَن لا يَشـكُر الناس لا يَشكُر الله تعالى، يَعنِي: كل أَحَد يَرَى أنه من الخَطَأ أن يُسدِيَ إليك إنسانٌ ما يُسدَى مِن الخَيْر ثُمَّ تَتَنكَّر له، ولا تَقوم بشُكْره، كُلُّنا يَعرِف أن هذا خطَأ، وأن الواجِب أن تَشكُر.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ بِلاد الله عَزَّوَجَلَّ تَنقَسِم إلى طَيِّب وخَبيث؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ وما نوعُ الطِّيب في هذه البَلدةِ؟ هل هو طِيب الأَرْض، أو طِيب الهَواء، أو طِيب الثِّمار؟

الجوابُ: يَعُمُّ كُلَّ ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:٥٨].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات رُبوبية الله ومَغفِرته، في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّ غَفُورٌ﴾.

• • ۞ • •

الآيـة (١٦)

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ:١٦].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ فَأَعْرَضُواْ ﴾ [عَنْ شُكْرِهِ وَكَفَرُوا] الفاء هنا عاطِفة؛ يَعنِي: أنهم مع هذه النِّعَم؛ جَنَّاتٍ وبَساتينَ عَظيمةٍ وبلَدٍ طَيِّب ومَغفِرةٍ للذُّنوب إذا قاموا بطاعة الله، قال تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُواْ ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَعْرَضُوا عَنْ شُكْرِهِ وَكَفَرُوا]، فأَعرَضوا عن الشُّكْر وقابَلوا هذه النِّعْمةَ بالكُفْر فماذا كانت عاقِبَتُهم؟

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ والفاءُ هنا عاطِفة وتُفيد السببية أيضًا؛ أي: فبِسَبب إِعْراضهم أَرْسَلْنا عليهم سَيْل العرِم، وهذه سُنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خَلْقه كما قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢]، هؤلاء أَعرَضوا فدمَّرَ الله تعالى دِيارهم.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ [جَمْعُ عَرْمَةٍ، وَهُوَ مَا يُمْسِكُ المَاءَ مِنْ إِنَاءٍ وَغَيْرِهِ إِلَى وَقْتِ حَاجَتِهِ، أَيْ: سَيْلَ وَادِيهِمُ المَمْسُوكِ بِمَا ذُكِرَ، فَأَغْرَقَ جَنَّتَيْهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ].

﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾، العَرِم بمَعنَى: السَّدِّ، يَعنِي أنَّ هذا السَّيْلَ مَنسوب إلى السدِّ، أو بمعنى: سَيْل العرِم، من باب إضافة الشيء إلى صِفَته، أيِ: السَّيْل العارِم الجارِف

الذي يُتْلِف كلَّ ما مَرَّ عليه، والمعنى: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَرسَل عليهم سَيْلًا عظيمًا، وذلك بفَساد السَّدِّ الذي جعَلوه بين هذا الجِبالِ.

وكان هذا السدُّ المَنيعُ تَجتَمِع فيه السُّيول وتَمتَصُّها الأرض وتَخرُج في العُيون، فلمَّا تَصدَّع هذا السدُّ جرَتِ المِياهُ بغير تقدير، وذلك بقُدرةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾.

ويقول: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ الجَنَّتان السابِقتان كُلُّها ثِمار طَيِّب يُؤكَل ويُنتَفَع به بالبيع والشراء وغيرِ ذلك، أمَّا البَدَل فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ﴾.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ذَوَاتَىْ﴾ [تَثْنِيَةُ ذَوَاتٍ، مُفْرَدٍ عَلَى الْأَصْلِ]، وهو في الأصل (ذات) المُفرَد، و(ذوات) للجَمْع، فثنَّى الجَمْع وصارَت ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾ ويُمكِن أن يُقال خِلافُ كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فيُقال: إن الأصل (ذات)، لكن لمَّا ثُنِّيَ عادت الواوُ فصارت (ذَواتَيْ)، ومَعنَى (ذَواتَيْ) أي: صاحِبَتَيْ؛ لأنَّ (ذات) بمَعنَى: صاحِبة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج:١]، أي: صاحِبة البُروج.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُرٌّ بَشِعٌ بِإِضَافَةِ أُكُلٍ بِمَعْنَى: مَأْكُولٍ وَتَرْكِهَا، وَيُعْطَفُ عَلَيْهِ] ﴿وَأَثْلٍ﴾؛ يَعنِي أن فيها قِراءَتَيْن: (ذَوَاتَيْ أُكُلِ خَمْطٍ) هذِي الإِضافةُ، وتَرْكُها: ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أمَّا الإضافة واضِح، (ذَواتَيْ أُكْلِ خَمْطٍ) يَعنِي أنها الأُكُل يُخمَط خَمطًا، وهو شَجَر الأراك؛ كما فسَّره بذلك ابنُ عباس[1] رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، والأَراك هي مَساوِيك لها أَوراقٌ بَسيطة جِدًّا، وليست بذات اللذيذة؛ ولهذا يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُرٌّ بَشِعٌ] بدَل الفَواكه والخُضَر

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٢٥٥).

والزروع وغيرها، ويقول: ﴿أُكُلٍ﴾ بمَعنَى: مَأكول، يَعني: ذواتَيْ مَأكولٍ يُحمَطُ خَمطًا ﴿وَأَثْلٍ﴾ بدَل الأشجار المُثمِرة البَهيجة صار بدَلها أَثْل، والأَثْل بعضهم قال: هو الطَّرْفاء، والصحيح أنه غير الطَّرْفاء؛ لأن الطَّرْفا تكون صغيرة ما تَكبُر والأَثْل معروف.

قوله تعالى: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ هنا قال: شيءٍ من سِدْر. وهُناك قال: خَمْط وأَثْل؛ لأن السِّدْر أَحسَنُ هذه الأنواعِ الثلاثة، ولم يُعطَوْا منه إلَّا الشيءَ القليلَ شيء مِن سِدْر، وأيضًا قليل مع أنَّ كلِمة: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ﴾ تَدُلُّ على القِلَّة، لكنها أُكِّدت هذه القِلَّةُ بقوله تعالى: ﴿قَلِيلٍ﴾.

الخُلاصةُ: أنَّ هؤلاء لَمَّا أَعرَضوا ولم يَقوموا بشُكْر الله أَرسَل الله عليهمُ السَّيْل، فأَغرَق أموالهم وهدَّم بِناءَهم، وأَبدَلهم بهاتَيْنِ الجَنَّتَينِ جَنَّتَينِ لا يُساوِيان ولا يُقارِبان ما سبَق، ذواتَيْ أُكُل ليس بالكثير خَمْطٍ، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إنَّه [مُرٌّ بَشِعٌ] ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ بدَل تِلكَ الجَنَّاتِ العَظيمة المُفيدة النافِعة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيان حال هَؤلاء القَوْمِ أنهم بدَّلوا نِعْمة الله تعالى كُفْرًا، وكان عليهم لَمَّا أَنعَم الله تعالى عليهم بهذه النِّعَمِ أن يَشكُروا ويَقوموا بطاعة الله تعالى، لكنهم أَعرَضوا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عُقوبة المُعرِضين بما تَقضية حِكْمةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آية أُخْرى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت:٤٠]، فالعُقوبات دائِمًا تَكون من جِنْس العمَل، فهؤلاءِ لَمَّا بَطِروا نِعْمة الله تعالى وكفَروا به؛ بسَبَب هذه الجَنَّاتِ أُبدِلوا بجَنَّات سَيِّئة بالنِّسبة لما نُعِّموا به من قَبلُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الأَسْباب، تُؤخَذ من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا ﴾ فجعَل الله تعالى سببَ الإِرْسال إِعْراضَهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ المعاصيَ سببٌ لزوال النِّعَم؛ لقَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا ﴾ بينما كانوا مُنعَّمين، لَمَّا أَعرَضوا أُرسِل عليهم هذا السَّيْلُ المُدمِّرُ.

وهذا له شواهِدُ في القرآن كثيرة، منها قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢].

ومِنها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٦-٩٩].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ المطَر الذي هو نِعْمة ورَحْمة قد يَكون نِقْمةً وعَذابًا؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾، فإن السَّيْل في الأصل الذي هو اجتِماع المطَر حتى يَتدَفَّق، الأصل أنَّه خَيْر كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۚ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة:٢٧] وهذا خَيْر، ولكنه أحيانًا يَكون عذابًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيان ضَلال أُولئك القومِ الذين إذا أَصابَتْهم مِثْلُ هذه المَصائِبِ من الفَيضانات وما أَشبَهَها لم يَتأَثَّروا لذلك، ويَقولون: هذا مُقتَضى الطبيعة. فإن هذه الفَيَضاناتِ التي تُدمِّر إنما هي عُقوبة من الله؛ ليَبْتَلِيَ بها أُولَئِك المُعذَّبين، ويَرتَدِع بها مَن كان على شاكِلَتِهم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيـان قُدْرة الله بإِرْسال هذه السُّـيولِ الجارِفة التي أَغرَقَتْ ثِمارهم وزُروعهم، ونبَت بعد هذه الثِّمارِ والزُّروع نَبَتَ خَمْطٌ وأَثْلٌ وشَيءٌ مِن سِدْر قليلٍ، وليسَ سدرًا ولكِن شيءٌ مِن سِدر، يَعني: قليلٌ، فبَدَل الجناتِ العظيمة حَلَّ هذا محَلها.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الحِكْمة في أن الله جعَل بدَل الجَنَّتَيْن جَنَّتَيْن أُخْرَيَيْن؛ لأن الطاعة نور وصَلاح وفَلاح فيُناسِبها الجزاءُ بالعطاء، والمَعصية ظُلْمة وفَساد فناسَبَها أن يَكون فيها هذا البدَلُ السَّيِّئُ بالنِّسبة لما قَبْلَه.

• • ۞ • •

الآيــة (١٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ:١٧].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ [التَّبْدِيلُ] ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾، ولو قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذلك التَّبديلُ وإرسالُ السَّيْل. لكان أعَمَّ وأَشمَلَ، أو لو قال: ذلك المَذكورُ. لكانَ أَشمَلَ، ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾.

وقوله: [﴿جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾ بِكُفْرِهِمْ] وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا أَفادَنا أنَّ (ما) مَصدَرية، وأمَّا الباء فهي للسَّبَبية أي: جَزَيْناهم هذا الجزاءَ بإغْراق أموالهم، وهَدْم بِنائِهم، وإبدال الجَنَّتَيْن بهاتَيْنِ الجَنَّتَيْنِ ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ أي: بسَبَب كُفْرِهم.

وقوله: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾: قال رحمه الله: [(وهَلْ يجازي إلَّا الكَفُورَ)، بالياء والنُّون مع كَسْر الزاي ونصب (الكَفورَ)؛ أي: ما يُناقَش إلَّا هو]، ففي قوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ﴾ قِراءَتان ﴿نُجَٰزِيٓ﴾، وعلى هذه القِراءةِ يَجِب نَصْب (الكَفور) على أنها مَفعول به، والقِراءة الثانية «يُجَازَى» وعليه تُرفَع (الكَفور) على أنها نائِب فاعِل، والاستِفهام هنا بمَعنى النَّفْي؛ لأنه عُقِّب بـ(إلَّا)، فيكون: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ أي: ما نُجازِي إلَّا الكَفورَ، والمُجازاة هنا بمَعنَى: المُناقَشة، أو بمَعنَى: المُكافَأَة على الفِعْل، والكَفور صيغة مُبالغة؛ أي: ذو الكُفْر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فيها دليل على أنَّ الله لا يُجازِي أحَدًا بعُقوبة إلَّا بفِعْله؛ لقَوْله تعالى: ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات الأَسْباب؛ لأن الباء هُنا للسَّبَبية.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الفَرْق بين (يَجزِي) و(يُجازِي)، فهنا قال: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾، لكن (نَجزِي) في الثواب، و(نُجازِي) بالعِقاب، هكذا قال بعضُ العُلَماءِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، فتَقول للكافِر: جازاكَ الله تعالى. وتَقول للمُسلِم: جزاكَ الله تعالى. ففي الخَيْر نَقول: جزى. وفي الشَّرِّ نَقول: جازَى. ووجهُ ذلك: أن الخَيْر عَطاء مَحضٌ، وأمَّا العُقوبة فهي مُجازاة ومُكافَأة؛ ولهذا نَقول: جازاهُ. يُصاغ الفِعْل على صِيغة المُفاعَلة، والمُفاعَلة تَكون في الأصل من طرَفَيْن.

الآيــة (١٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ:١٨].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ نِسْبة الفِعْل إلى (نا) الدَّالَّة على العظَمة، والضَّمير في ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ يَعود على سَبأ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْقُرَى﴾ جَمْعُ قَرْية، وهي البَلْدة سَواء كانت كبيرةً أو صغيرةً، وسُمِّيَت قريةً؛ لأنها تَجمَع، وما اشتَهَر عند الناس أن القَرْية هي المُدُن الصِّغار، هذا اصطِلاحٌ عُرْفيٌّ، وإلَّا فإن الله تعالى يَقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد:١٣]، فالقَرْية اسمٌ للبَلَد سواءٌ كان كثيرًا أو قليلًا، سُمِّيَ بذلك لأنه يَجمَع الناس.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ ما هي القُرى التي بارَك الله تعالى فيها؟ قيلَ: إنها قُرَى اليَمَن، كصَنْعاءَ ونحوِها. وقيلَ: إنها قُرَى الشام. ولكُلٍّ من القَوْلين وجهٌ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بارَك في الشام، وبارَك في اليَمَن؛ قال النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وَيَمَنِنَا»(١)؛ ولهذا اختَلَف المُفسِّرون رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: هل المُرادُ القُرى

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب ما قيل في الزلازل، برقم (١٠٣٧)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

التي بارَك الله تعالى فيها قُرَى الشامِ أو المُرادُ القُرى التي بارَك الله تعالى فيها قُرَى اليَمَن؟ أيُّهما أَعظَمُ مِنَّةً أن يَكون المُرادُ بقُرَى الشام أو قُرَى اليَمَن؟

الجوابُ: قُرى الشام؛ لبُعدها، فهم يَذهَبون إلى الشام ويَرجِعون منها فيَقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَارَكْنَا فِيهَا بِالمَاءِ وَالشَّجَرِ وَالثِّمَارِ وَهِيَ قُرَى الشَّامِ الَّتِي يَسِيرُونَ إِلَيْهَا لِلتِّجَارَةِ ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ مُتَوَاصِلَةً مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الشَّامِ]، قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ظَٰهِرَةً﴾ يَعنِي: بيِّنه يَرَى بعضها من بعض؛ لأنَّ القَرْية إذا كانت بَعيدةً عن الثانية ما صارت ظاهِرةً، وإذا خرَجَت من قَرْية إلى قَرْية، وهي بَعيدة منها هل تَكون القَرْية الثانية ظاهِرةً لك؟ لا، بل تَحتاج إلى أحَدٍ ليَدُلَّك، لكن إذا كانت مُتواصِلة مُتقارِبة صارت ظاهِرةً بادِيَة للعَيان، فهذه القُرَى مُتواصِلة بعضُها ببَعْض من اليَمَن إلى الشام.

والذين قالوا: إن المُراد قُرى اليَمَن؛ قالوا: لأنهم لا يَعلَم أن هناك قُرًى مُتَّصِلة بين اليَمَن والشام، وقالوا: إن الواقِع يَدُلُّ على خِلاف ذلك، وأن المُراد بالقُرى قُرى اليَمَن، وعلى كُلِّ حالٍ: لكُلِّ قولٍ وجهٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ يَعنِي: جَعَلْناه مُقدَّرًا بمَراحِلَ يَنزِلون من قرية إلى أُخْرى مَرحَلةً مَرحَلةً.

والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ بِحَيْثُ يَقِيلُونَ فِي وَاحِدَةٍ وَيَبِيتُونَ فِي أُخْرَى، إِلَى انْتِهَاءِ سَفَرِهِمْ، وَلَا يَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى حَمْلِ زَادٍ وَمَاءٍ] هذا مَعنَى تَقدير السَّيْر: أن يَكون مُقدَّرًا بمَراحِلَ حسبَ هذه القُرى، يَقيلون في واحِدة ويَبيتون في أُخرى، ثم يَقيلون في الثانية ويَبيتون في الأُخْرى وهكذا، ولا شكَّ أنَّ تَقدير السَّيْر على هذا الوجهِ أنه من نِعْمة الله على الناس، فإن الخُطوط الطويلة التي ليسَتْ بها

مُدُن تكون في الغالِب طُرُقًا مُهلِكة مُخيفة، لكن إذا كانت مُتواصِلة صارت أَيسَرَ للسالِكِ، وأَشَدَّ طُمأنينةً، بل وأَقرَبَ للسَّيْر؛ لأنك إذا مَشَيْت من قرية إلى أُخرى تُحِسُّ أنك قطَعْت مَرحَلة، مثل القُرآن الكريم: لَمَّا جُعِل آياتٍ وسُورًا وأَجزاءً صار أَسهَلَ للقـارِئِ، الكِتاب إذا كان مُفـصَّلًا بأبواب وفصول صار أَيسَرَ، والطريق الحِسِّيُّ أيضًا طريق الأرض إذا كان فيه قُرًى مُتوالية صار أَيسَرَ من الطريق الطويل الذي يَمَلُّ الإنسان ولا يَرَى أنه قَطَع مَرْحَلة فيه.

ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَقُلْنَا: سِيرُوا]، وعليه فتكون هذه الجُملةُ في مَوْضِعِ نَصْبٍ، مَقولًا لقولٍ مَحذوفٍ (قُلْنا: سِيروا)، وهذا القولُ شَرْعيٌّ أو قدَرِيٌّ؟

الجوابُ: قدَريٌّ؛ يَعنِي: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال لهم: سِيروا في هذه الطُّرُقِ فيها ليالِيَ، أي: في هذه القُرَى، ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ لا تَخافون لا في لَيْلٍ ولا في نَهار، وهذه من نِعَم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنهم يَسيرون ليلًا ونَهارًا آمِنين لا يَخافون من أَحَد، ولا يَخافون من تَلَف، ولا يَخافون من انقِطاع ماء، ولا مِن فَقْدِ طعام، ولكن لم يَصبِروا على هذه النِّعْمة -والعِياذُ بالله تعالى- ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ ما شَكَروا النِّعْمة، وكان عليهم أن يَشكُروا الله تعالى على هذه النِّعْمةِ، ويَغتَبِطوا بها، ولكنهم لم يَصبِروا عليها حتى سأَلوا الله تعالى أن يُباعِد بين أَسفارِهم، فتكون الأسفار طويلة ما فيها قُرًى.

وهذا نَظيرُ قَوْل أصحاب مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ له: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة:٦١]، بينما كانوا في الأَوَّل يَأكُلون رَغدًا من المَنِّ والسَّلوى بلا تَعَبٍ وطعامًا

طَيِّبًا؛ لكن قَوْم سَبَأ ما صبَروا على هذه النِّعْمة التي هي من أحسَنِ النِّعَم في الأسفار.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: في هذه الآيةِ بيان نِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على سَبَأ؛ حيثُ جعَل القُرَى مُمتَدَّة من اليَمَن إلى الشام، قريبًا بعضُها من بعض.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الطرُق إذا كانت بين قُرًى مُتَجاوِرة فهي آمَنُ وأَقرَبُ إلى السلامة؛ لقوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن السَّيْر فيها مُقدَّر مَرحَلةً مَرحَلة، بين هذه القُرى وتَقدير السَّيْر، كما قُلْنا من فائِدته. ويَتفَرَّع على ذلك: أن تَقدير السَّيْر أَنشَطُ للمُسافِر وأَسهَلُ له؛ لأنه إذا كان بين القُرَى تَبايُنٌ بعيد تَعِبَ المُسافِرُ ومَلَّ، لكن إذا صار يَقطَعها مَرحَلةً مَرحَلة صار ذلك أَنشَطَ له وأهوَنَ عليه، وذكَرْنا أنَّ من هذا تَجزِئة القُرآن ومَسائِل العِلْم والكتب المُصنَّفة حتى يَقطَعها الإنسان مَرحَلة مَرحَلة فيَكون ذلك أَسهَلَ عليه، وربما نَأخُذ منه فائِدة لمَن أَرادَ حِفْظ القُرآن أن يَتَحَفَّظه شيئًا فشَيْئًا؛ لأنَّ بعض الناس رُبَّما يُسرَد له ورَقة كامِلة ثُم يَرجِع يَحفَظها فيَصعُب عليه، لكنه إذا حفِظها آيةً آيةً كان هذا أسهَلَ في الغالِب.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الأَمْن في الأوطان من أكبَرِ النِّعَم؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾.

• • ۞ • •

الآيــة (١٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ [سبأ:١٩].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(فَقَالُوا رَبَّنَا بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا) وَفِي قِرَاءَةٍ سَبْعِيَّةٍ: ﴿بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ إِلَى الشَّامِ اجْعَلْهَا مَفَاوِزَ].

(المفاوزُ) جَمْع مَفازة، وهي الأراضِي التي يُخشَى فيها من الهَلاكُ، وسُمِّيَت مَفازة من باب التَّفاؤُل، ولكن في الحقيقة ما هي مَفازة، بل هي هَـلاك ومَهلَكة، لكن العرَب تُطلِق الشيء على ضِدِّه تَفاؤُلًا كما قالوا في الكَسـير: إنَّه جَبير. فهذا أيضًا مِثْلـها، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسـير: ﴿بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾: [اجْعَلْهَا مَفَاوِزَ؛ لِيَتَطَاوَلُوا عَلَى الْفُقَـرَاءِ بِرُكُوبِ الرَّوَاحِلِ وَحَمْـلِ الزَّادِ وَالمَاءِ فَبَطِرُوا النِّعْمَةِ] لَمَّا كانَتِ القُرى ظاهِرةً ومُتقارِبةً ولا يُحتاج فيها إلى حَمْل زاد وماء صار فيـها الفُقراءُ والأغنيـاءُ على حَدٍّ سواءٍ، كلٌّ مُنعَّم في هذه الطرُقِ، فإذا تَباعَدت صار ذلك من حَظِّ الأغنياء، فسَأَلوا الله تعالى أن يُباعِد بين أَسفارِهم من أَجْل أن يَتطاوَلوا على فُقَرائهم، فهؤلاءِ الأَغْنياءُ يَركَبون الإبِلَ، ويَحمِلون ما شاؤُوا من الزاد، وأمَّا الفُقَراء فلا يَستَطيعون ذلك، هذا هو السبَبُ في أنهم دعَوُا الله تعالى أن يُباعِد بين أسفارِهم.

يقول تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ إمَّا بالكُفْر، وإمَّا بدُعاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُباعِد بين أسفارِهم فلم يَقبَلوا نِعْمته بهذه الراحةِ [﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لِمَنْ بَعْدَهُمْ فِي ذَلِكَ ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ فَرَّقْنَاهُمْ فِي الْبِلَادِ كُلَّ التَّفْرِيقِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المَذْكُورِ ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عِبَرًا ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عَنِ المَعَاصِي ﴿شَكُورٍ﴾ عَلَى النِّعَمِ].

قوله تعالى: ﴿أَحَادِيثَ﴾ جَمْع حَديثٍ، وهو ما يَتَحدَّث الناس به، يَعنِي أنهم بَعْد أن كانوا مَوْجودِين صاروا خَبَرًا من الأخبار؛ إذ إن قصصهم كانت أحاديثَ للناس يَتَحدَّثون بها، يَقول: حصَلَ كيت وكيت؛ ولهذا مِن الأمثال المَعروفة: تَفرَّقوا أَيادِيَ سَبأَ [1]؛ يَعني: أنهم تَفرَّقوا كتَفرُّق سَبأ، قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ بعد أن كانوا أَشياءَ حَقيقيَّةً ثابِتة صاروا أَحادِيثَ، وهذا قول الشاعِر:

بَيْنَا يُرَى الْإِنْسَانُ فِيهَا مُخْبِرًا ... حَتَّى يُرَى خَبَرًا مِنَ الْأَخْبَارِ [2]

وقوله تعالى: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ يَعنِي: فَرَّقْناهم في البِلاد كلَّ مُفرَّق وشُرِّدوا وتَشتَّتوا؛ لأنهم كفَروا النِّعْمة وظلَموا أَنفُسَهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ الإشارةُ تَعود إلى كل ما سبَق، من هذه القُرَى الظاهِرة وسُهولة السفَر، ثُم سُؤالهم أن يُباعِد الله تعالى بين أَسفارِهم، ثُم تَمزِيقهم في البِلاد كل مُمزَّق.

وقوله تعالى: ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ أي: لعِبَرًا، كيف قال آياتٍ وهي قِصَّة واحِدة؟

الجوابُ: لكنها تَشتَمِل على أجزاء، كل جُزْءٍ منها يَستَحِقُّ أن يَكون آيةً.

---

(١) انظر: المستقصى في أمثال العرب للزمخشري (٢/ ٨٨).

(٢) البيت لعلي بن محمد التهامي يرثي صغيرًا له، انظر: تاريخ دمشق (٤٣/ ٢٢٢)، فوات الوفيات للكتبي (٢/ ٢٦٩).

وقوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾: ﴿صَبَّارٍ﴾ صِيغة مُبالَغة، أي: ذِي صَبْر على البَلايا، والصَّبْر في اللُّغة بمَعنَى: الحَبْس، وفي الشَّرْع: الحَبْس عمَّا يَحرُم عند المَصائِب، والناس في المَصائِب لهم أَرْبعة مَراتِبَ: مَرْتَبَة السُّخْط، ومَرْتبة الصَّبْر، ومَرتَبة الرِّضا، ومَرْتبة الشُّكْر، وهو أعلاها، التَّسخُّط حرام والصَّبْر واجِب، والرِّضا مُستَحَبٌّ - على القول الراجِح-، والشُّكْر كذلك مُستَحَبٌّ؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيَّنها أي: عن المَعاصِي، بل وعلى أَقْدار الله تعالى، بل وعلى أَوامِر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الصَّبْر ثلاثة أنواع: صَبْر على طاعة الله تعالى، وصَبْر عن مَعصيته، وصَبْر على أقدار الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿شَكُورٍ﴾ أي: قائِم بشُكْر الله تعالى بقَلْبه ولِسانه وجَوارِحه، فيَشكُر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على نِعَمه، وأمَّا كونها آيةً للصَّبَّار فظاهِر، وكونها آيةً للشَّكور كيف ذلك؟

الجوابُ: لأنَّ الإنسان إذا نظَرَ إلى حالهم وأنهم حَينما كانوا شاكِرين لله تعالى كان الله تعالى قد أَنعَم عليهم بهذه النِّعْمةِ، فيُستَدَلُّ بها على أن شُكْر الله تعالى مُوجِب لبَقاء نِعْمته على العَبْد.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فيها دليل على أن هَؤلاءِ القومَ لم يَصبِروا على هذه النِّعَم، بل طلَبوا زوالها وتَغييرها، وهل هذا القولُ باللِّسان أو بالفِعْل؟ بمَعنَى: هل قالوا فِعْلًا: (رَبَّنا باعِدْ بين أَسفارِنا) أو أنهم لَمَّا ظَلَموا أَنفُسَهم وكفَروا صار ذلك سببًا لتَباعُدِ ما بين هذه القُرى حيث اندَمَرَت وفَسَدت وخَرِبت؟

الجوابُ: الأَوَّلُ هو ظاهِر اللَّفْظ، أنهم قالوا ذلك فِعْلًا فباعدَ الله تعالى بينهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤلاءِ القَوْمَ لَمَّا بطِروا النِّعْمة وعجَزوا عن صَبْرها أَضافوا إلى ذلك ظُلْم أَنفُسِهم بالكُفْر، من قوله تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ هؤلاءِ القَوْمَ صاروا أَحاديثَ للناس من بعدِهم، وهذا نَوْع من الخِزْيِ والعارِ -والعِياذُ بالله تعالى- أن يَشتَهِر أَمْر الناس، أو أَمْر الإنسان حتى يَكون أُحدوثة لمَن بعدَه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هؤلاءِ الذين أَنعَم الله عليهم بالاجتِماع في قُراهم وقَبائِلهم مُزِّقوا كُلَّ مُمَزَّق، فشُرِّدوا في البِلاد وتَفرَّقوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن ما يَفعَله الله عَزَّوَجَلَّ بالعُصاة والظالِمين يَكون آيةً للمُعتبِرين؛ سواءٌ كان ضرَّاءَ فيَصبِرون، أو سرَّاءَ فيَشكُرون؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فضيلة الصَّبْر والشُّكْر، فالصبر على الضرَّاء والشُّكْر على الرَّخاء، والإنسان دائِمًا مُصابٌ بهاتين الآفَتَيْن، إمَّا ضرَّاء وإمَّا سرَّاء، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

والمُوفَّق مَن أَعطَى كلَّ حال ما يَجِب لها، ففي الضرَّاء يَجِب عليه الصَّبْر وانتِظار الفَرَج، وليَعلَم أن الله عَزَّوَجَلَّ إذا قدَّر عليه الضرَّاء ليَصبِر فإن ذلك نِعْمة من الله تعالى عليه؛ لأنَّ الصبر كما نَعلَم درَجةٌ عالية، ومَنزِلةُ الصابِرين من أعلى ما يَكون من المَراتِب والمَنازِل، وهذه الدرَجةُ أو المَرتَبة أو المَنزِلة إذا لم يَكُن هناك شيء يُمتَحَن به العبدُ فإنه لن يَنالَها، لا بُدَّ من أذًى ولا بُدَّ من مَصائِبَ يَصبِر عليها الإنسان حتى يَنال بذلك درَجة الصابِرين.

وكذلك أيضًا الشُّكْر درَجةٌ عالية لا يَنالـها إلَّا مَن وُفِّق، فإن الإنسان إذا أَذاقَه الله تعالى النَّعماءَ من بعد الضرَّاء فالغالِب عليه أنه يَفخَر ويَفرَح ويَبطَر، فإذا انْضافَ إلى ذلك الشُّكْر عند الرَّخاء والصَّبْر عند البَلاء، نال بهذا درَجةَ الصابِرين الشاكِرين؛ قال النبيُّ ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»[1]؛ وانتِظار الفرَج مَعونة على الصبر، فإن الإنسان إذا أَيِس ولم يَنتَظِر الفرَج ضاقَت عليه الدُّنيا، وتَضاعَفَت عليه المُصيبة، لكن إذا كان يَنتَظِر الفرَج مُؤمِنًا بذلك هان عليه الأمرُ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٠٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيـة (٢٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

(صَدَقَ) بالتَّخفيف والتَّشديد ﴿صَدَّقَ﴾ بمعنى: أَخبَر بالصِّدْق، و﴿صَدَّقَ﴾ مَنْ أَخبَر بالصِّدْق، فالإنسانُ إمَّا مُخبِرٌ وإمَّا مُخبَر، فالمُخبِرُ نَقول: صدَق. والمُخبَر نَقول: صَدَّق. يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: (صَدَقَ) و﴿صَدَّقَ﴾ والقِراءَتان هنا تَحمِلان مَعنيَيْنِ، مَعنى الصِّدْق، والتَّصديق فالفائِدة من هاتَيْن القِراءَتَيْن أنهما تَدُلَّان على مَعنيَيْن، وبَيان ذلك قال تعالى: ﴿صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾ أو (صَدَقَ عَلَيْهِمْ) [أَيِ: الْكُفَّارِ مِنْهُمْ سَبأٌ، ﴿إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أَيْ: بِإِغْوَائِهِ يَتَّبِعُونَهُ ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾، فَـ(صَدَقَ) بِالتَّخْفِيفِ فِي ظَنِّهِ أَوْ ﴿صَدَّقَ﴾ بِالتَّشْدِيدَ ﴿ظَنَّهُۥ﴾، أَيْ: وَجَدَهُ صَادِقًا]، إبليس له ظَنُّه في بني آدَمَ، فما هو ظَنُّه؟

الجوابُ: أنه يُغويهم أجمعين، قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧]، هذا ما كان يُؤَمِّلهُ ويَرجوه ويَظُنُّه إمَّا ظَنًّا راجِحًا وإمَّا ظَنًّا مُتيقَّنًا، لكن لا يُمكِن أن يَتيقَّن، وإنما يَظُنُّ ظنًّا راجِحًا،

فهنا صدَّق ظنَّه الذي كان يَقول: إنه سيُغويهم فـ(صدَّقه)؛ لأنه أَغواهم، أو (صدَق) عليهم إبليسُ ظنَّه أنَّه لَمَّا ظَنَّ نفَّذَ ما قال، فيَكون صدَق حيث أَغواهم.

والحاصِلُ: أن الظنَّ الذي ظنَّه إبليسُ هو إغواؤُهم، هذا الظنُّ إمَّا أن يَكون بإغوائه إيَّاهم قد صدَّقه حيث وقَعَ منه أوَّلًا فصدَّقه بتَطبيقه فِعْلًا، أو صدَق عليهم إبليسُ ظنَّه أنه لَمَّا ظنَّ ذلك الظنَّ طبَّقه وفعَلَه، والمعنى: أنَّ ما تَوقَّعه الشيطان وظنَّه من إغوائه الكُفَّارَ ومِنهم سَبَأ وقَعَ مُؤكَّدًا باللَّامِ و(قَدْ) والقَسَمِ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ اتَّبَعوا الشيطان، ولو نظَرْنا ما هو الجامِعُ لما يَأمُر به الشيطانُ؛ يَأمُر بالفَحْشاء ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨]؛ فهو يَأمُر بالفَحْشاء والمُنكَر وكلِّ فِعْل قبيح، فإذا اتَّبَعه الإنسان بالفَحْشاء والمُنكَر والفِعْل القبيح فقد تَبِعه وضَلَّ عنه، وإن خالَفه فقد خالَفَه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا﴾ فاتَّبَعوه، (إلَّا) بمَعنى [لَكِنَّ فَرِيقًا ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لِلْبَيَانِ].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا﴾ يَعْنِي: لَكِنْ] إشارة إلى أن الاستِثْناء هنا مُنقَطِع، لأنَّ الاستِثْناء إذا كان بمعنى (لكن) صار مُنقَطِعًا، ولكن الذي حمَل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذا؛ لأنَّ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظاهِرُه أنَّه صدَّق عليهم جميعًا، وعليه فالمُؤمِنون لم يَدخُلوا في ذلك؛ فيَكون الاستِثْناء هنا مُنقَطِعًا، لأنَّ إبليسَ لم يُصدِّق الظَّنَّ إلَّا على الكُفَّار، أمَّا لو جَعَلْنا: ﴿صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ عامًّا للقَبيلة كلِّها أو لبني آدَمَ كلِّهم ثُم قال: إلَّا فريقًا من المُؤمِنين، لكان هذا الاستِثْناءُ مُتَّصِلًا.

والحاصِلُ: إذا جعَلْنا الضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائِدًا على الكُفَّار الذين اتَّبَعوا إبليسَ فإنَّ الاستِثْناء هنا يَجِب أن يَكون مُنقَطِعًا، وإن جَعَلْناه عامًّا لبني آدَمَ أو جِنْس هذه

القَبيلةِ سَبأ صار الاستِثْناءُ مُتَّصِلًا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [لِلْبَيَانِ] يَعني: (مِنْ) بَيانية، وليسَت تَبعِيضيَّة؛ لأنها لو كانت للتَّبعيض لكان المَعنى: إلَّا فريقًا من المُؤمِنين نجا منهم، وفريقٌ آخَرُ لم يَنْجُ، وهذا المعنى فاسِد، وعلى هذا فتكون (مِنْ) للبَيان ﴿إِلَّا فَرِيقًا﴾ مَن هؤلاء الفريقِ؟ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: هُمُ المُؤْمِنُونَ لَمْ يَتَّبِعُوهُ] وهذا المَعنى دَقيقٌ، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِثالُه جَيِّد، إذا قُلْت: جاء فريقٌ من القَوْم؛ وهل جاء كلُّهم؟

الجوابُ: لا؛ لأنَّ (مِنْ) للتَّبْعيض ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا جعَلْنا (مِنْ) للتَّبعيض كما هي في قولكَ: (جاءَ فَريقٌ من القومِ) فسَد المَعنَى؛ لأنَّ المُؤمِنين كلُّهم لم يَتَّبِعوه؛ ولهذا احتاج المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنْ يَجعَل (مِنْ) بَيانية، وتَكون (المُؤْمِنينَ) بَيانًا لقوله: ﴿فَرِيقًا﴾ كأنَّه قال: فاتَّبِعوه إلَّا المُؤمِنين، هذا مَعنَى الآية.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن إبليسَ يُوصَف بالصِّدْق ويُوصَف بالكذِب، وأما الوَصْفُ اللازِم له فهو الكَذِب؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، ولكن قد يَصدُق كما قال النبيُّ ﷺ: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»[1].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الإيمان حاجِز عنِ اتِّباع الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ ولهذا كثيرًا ما يَمُرُّ بكم: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ كذا وكذا»، «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ بكذا وكذا»، أو «فَلْيَفْعَلْ كذا وكذا»

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلًا، رقم (٢٣١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

مِمَّا يَدُلُّ على أن الإيمان حاجِز عنِ اتِّباع الشيطان، ومُوجِب لاتِّباع هَدي الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الشَّيْطان إمامٌ لكلِّ ضالٍّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ فكُلُّ الضالِّين إمامُهم الشَّيْطان، وهم مُتَّبِعون له.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وإذا قُلْنا بأنَّ (مِنْ) للتَّبعيض في قوله تعالى: ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وأن المُراد بالاتِّباع؛ الاتِّباع المُطلَق أنَّ بعض المُؤمِنين قد يَتَّبِع الشيطان في بعض الأُمور، وقد يَكون الاستِثْناء مُتَّصِلًا؛ وتَكون (مِنْ) للتَّبعيض، إذ إن بعض المُؤمِنين قد يَتَّبِعون الشَّيْطان في بعض الأُمور.

مثال ذلك: «لَا يَأْكُلْ أَحَدُكُمْ بِشِمَالِهِ، وَلَا يَشْرَبُ بِشِمَالِهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ»[1]، فإذا فعَل أحَد ذلك صار مُتَّبِعًا الشيطانَ؛ ولهذا كان القولُ الراجِح تَحريمَ الأكل بالشِّمال والشُّرْب بالشِّمال، وأنه ليس مَكروهًا فقط، بل هو حرام، والإنسان يَكون عاصِيًا بذلك، إلَّا إذا كان أَفندِيًّا تَقدُّمِيًّا حَضارِيًّا؛ فإنَّه يَأكُل بالشِّمال! وهذه هي المُشكِلة التي يَزعُم فاعِلوها أنهم تَقدُّمِيُّون وحَضارِيُّون، ولكن ليس كل تَقدُّمًا مَحمودًا، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقول عن فِرعونَ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨]، إِذَنْ على هذا القولِ الأَخيرِ أنَّ (مِنْ) للتَّبْعيض يَكون الاستِثْناء مُتَّصِلًا، ويَكون لبعض المُؤمِنين شيءٌ من اتِّباع الشيطان، لا الاتِّباع الكامِل.

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب، رقم (٢٠٢٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيـة (٢١)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ:٢١].

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ ﴾ الضميرُ يَعود على إبليسَ، و﴿عَلَيْهِم﴾ أي: على القومِ الذين أَغواهُم ﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾: ﴿مِّن﴾ زائِدة لَفْظًا لا مَعنًى و﴿سُلْطَٰنٍ﴾ اسمُ (كانَ) مُؤخَّر؛ أي: ما كان له سُلطانٌ عليهم، والمُراد بالسُّلْطان هنا التَّسلُّط أو التَّسليط؛ ولهذا قال: [تَسْلِيط] فهي إِذَنِ اسمُ مَصدَر، وليس المُرادُ بها السُّلْطانَ الذي هو المَعنى القريب، فالمَعنى: ما كان للشَّيْطان عليهم تَصديق ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾.

وعلى تَقدير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن السُّلْطان بمعنى التَّصديق يَكون الاستثْناء مُتَّصلًا؛ أي: ما جعَلْنا للشيطان تَسليطًا عليهم إلَّا لنَعلَم، وإذا جعَلْنا السُّلْطان بمَعنَى التَّسلُّطِ أو القُدْرة، فإنَّ الاستِثْناء يَكون مُنقَطِعًا، أي: ما كان له عليهم سُلْطة، لكن لنَعلَم مَن يَتَّبِعه إلى آخِره.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ اللَّامُ هنا للتَّعليل أو للعاقِبة؟

الجوابُ: يَحتَمل أن تكون للتَّعليل أو للعاقِبة، وعلى كِلا التَّقديرَيْن فيها إشكالٌ، وهو أنَّ ظاهِرها تَجدُّد عِلْم الله تعالى، ومَعلومٌ أن عِلْم الله تعالى أَزَليٌّ أَبَدِيٌّ؛ أي: قديم مُستَمِرٌّ لا بُدَّ أن يَستَمِرَّ، فكيف صحَّ أن تكون اللَّام هنا للتَّعليل أو للعاقِبة؟

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفسيرها: [عِلْمَ ظُهُورٍ]، وذلك لأَنَّ تَعلُّق عِلْم الله تعالى بالشيء له حالان:

الحالُ الأُولى: قبلَ وُجوده.

الحالُ الثانية: بعد وجوده.

فتَعلُّق عِلْم الله تعالى به بعد الوُجود يُسمَّى عِلْمَ ظُهورٍ؛ أي: عَلِمه بعد أن ظَهَر وبانَ، وعِلْم الله تعالى قبلَ وُجودِه عِلْم تَقديرٍ، أي: أنه قدَّر أن يَكون وعِلْمُ التَّقديرِ ثابِت بلا شَكٍّ فإن الله تعالى لم يَزَلْ ولا يَزالُ عالِمًا بكُلِّ ما يَكون.

وإذا قُلْنا: إنَّ العِلْم عِلْمُ تَقدير وعِلْمُ ظُهور. زال الإشكالُ؛ وصار عِلْم الله تعالى للشَّيْء بعدَ وُقوعه عِلْمًا بأنه ظهَر ووَقَع، وعِلْم الله تعالى قبلَ وُقوعه عِلْمًا بأنه سيَقَع، وفَرْقٌ بين المُتعَلَّقين.

وقِيلَ: إن المُراد بالعِلْم هنا العِلْم الذي يَترَتَّب عليه الجزاءُ؛ وذلك لا يَكون إلَّا بعد الامتِحان، فإنَّ عِلْم الله تعالى بالشيء قبل أن يَقَع عِلْمٌ لا يَترَتَّب عليه ثوابٌ ولا عِقاب؛ لأن المُكلَّف لم يُؤمَر ولم يُنهَ، فإذا أُمِر ففعَل أو أُمِرَ فلَمْ يَفعَل حينئذٍ صار مُثابًا أو مُعاقَبًا، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١] ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢].

وعلى هذا الوجهِ يَكون عِلْمُ الله تعالى عِلْمَيْن:

١- عِلْم مَعناه: أنَّ الله تعالى عالِم بأن هذا الشيءَ سيَقَع، ولكن لا يَترَتَّب عليه الثوابُ والعِقابُ.

٢- عِلْم يَتَرَتَّب عليه الثواب والعِقاب، وذلك لا يَكون إلَّا بعد امتِحان المُكلَّف به. وهل يَفعَل أو لا يَفعَل؛ يَعنِي هل يَمتَثِل أو لا يَمتَثِل، فتَبيَّن أنَّ الجواب عن هذه المَسألةِ التي ظاهِرُها تَجدُّد عِلْم الله تعالى: أنَّ العِلْـم الذي يَتبيَّن به الخفِيُّ؛ لأنَّ الأَمْر لم يَزَل ولا يَزالُ أمام الله تعـالى واضِحًا ظاهِرًا، قال تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ هنا ضُمِّنت (نَعلَم) معنى (نُميِّز)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ﴾ يَعنِي: إلَّا لنُميِّز مَن يُؤمِن بالآخِرة مِمَّن هو منها في شَكٍّ.

والناس بالنِّسبة للآخِرة يَنقَسِمون إلى ثلاثة أقسام: قِسْم آمَنوا بها، وقِسْم كفَروا بها وأَنكَروا، وقِسْم فيه شَكٌّ وتَردُّد، الذين آمَنوا بها أَمْرُهم واضِح، والَّذين كفَروا بها وقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء:٩٨]، هذا لا يُمكِن، هؤلاءِ أيضًا أَمْرُهم واضِح، والَّذين تَردَّدوا وقالوا: يُمكِن أن تَكون حَقًّا ويُمكِن أن تَكون باطِلًا يُلحَقون بالكافِر؛ لأنَّ الواجِب أن يُؤمِن؛ ولهذا قال: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ فكَيْف ممَّن هو منها مُنكِرٌ وجاحِدٌ ومُكذِّبٌ.

فالله جعَل للشَّيْطان سُلْطة على بني آدمَ؛ لأجل أن يَمتَحِن هؤلاء الناسَ فيَعلَم مَن يُؤمِن بالآخِرة ممَّن هو في شَكٍّ، فالذي فيه شَكٌّ من الآخِرة يَتَّبِع الشَّيْطان قَطْعًا؛ لأنه لا يُؤمِن بأن هناك يَوْمًا آخِرًا يُثابُ الناس فيه ويُعاقَبون، فهو يَرَى أن لنَفْسه الحُرِّيةَ المُطلَقة، وهي في الحقيقة حُرِّيَّةٌ من شيءٍ، ورِقٌّ في شيء، قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُـوا لَـهُ ... وَبُلُوا بِرِقِّ الـنَّفْسِ وَالشَّـيْطَانِ[1]

والرِّقُّ الذي خُلِقْنا له هو العُبودِية لله، (وَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ) نَسأَل الله تعالى العافِيةَ، يَعنِي: صاروا عَبيدًا لأَنفُسهم وشَياطينهم، فلا يُمكِن أن يَتحَرَّر

(١) النونية (ص:٣٠٨).

الإنسان من عِبادة الله تعالى على زَعْمه إلَّا كان رقيقًا لغَيْره، للناس والشَّيْطان.

والحاصِلُ: أنَّ هؤلاءِ الذين كانوا في شَكٍّ من الآخِرة لا يُمكِن أن يَعمَلوا ولا أن يَقوموا بطاعة الله تعالى، ذلك لأنَّ الذي يَقوم بطاعة الله تعالى هو الذي يُؤمِن بأنه سوف يُحشَر ويُثاب أو يُعاقَب.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ فنُجازِي كلًّا مِنهما ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ الجُمْلة خَبَرية تُفيدُ مَعنًى، ولازِمَ ذلك المَعنَى، فهي خَبَرية تُفيد أنَّ الله تعالى على كلِّ شيء حَفيظٌ؛ أي: مُراقِب ومُطَّلِع ومُهَيْمِن على كل شيء، سَواءٌ كان ذلك ممَّا يَتعَلَّق بفِعْله أو ممَّا يَتعَلَّق بفِعْل الخَلْق، فهو جَلَّ وَعَلَا رقيبٌ على كل شيء، لا يَخفَى عليه شيء في الأَرْض ولا في السماء، هذا المَعنَى يَستَلزِم مَعنًى آخَرَ، وهو التَّحذيرُ من المُخالَفةِ؛ لأنَّ الإنسان متى عَلِم أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حفيظٌ على كل شيءٍ خاف ولم يُخالِف، أمَّا إذا كان في شكٍّ من هذا فإنه سوف يَعمَل كما يَشاء.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ في تَسليط الشيطان على بني آدمَ، وهي أَنْ يَعلَم أن مَن يُؤمِن بالآخِرة فيَعمَل لها ممَّن لا يُؤمِن، ويَكون في الشَّكِّ فلا يَعمَل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثْبات عِلْم الله تعالى، وتَعلُّقِ عِلْم الله تعالى بالمَوجودات يَنقَسِم إلى قِسْمين: تَعلُّقٌ بها قَبلَ الوُجود، وتَعلُّقٌ بها بعد الوجود، فالتَّعلُّق بها بعد الوجود يَكون عِلْمه بها عِلْمَ أَمْرٍ واقِعٍ، والأوَّل يَكون تَعلُّق العِلْم بها أنَّه عِلْمٌ بما سيَقَع، وبهذا يَزول الإشكالُ في مِثْل هذه الآيةِ حيث إنَّ ظاهِرها يُفيد تَجدُّد عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ؛

لأننا نَعلَم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُحيطٌ بكل شيءٍ عِلمًا أزَلًا وأبَدًا، ومَن ظَنَّ أن الله تعالى لا يَعلَم الشيء إلَّا بعد وجودِه فقَدْ كفَرَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الآخِرة، ووُجوب الإيمان بها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الشَّكَّ فيما يَجِب فيه اليَقين كُفْر؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾، ولم يَقُلْ: إنه مُنكِرٌ لها؛ لأنه قد تكون ظاهِر الحال أنه لَمَّا قال: يُؤمِن بالآخِرة. كأن يقول: الذي يُقابِله يَكفُر بالآخِرة. لكن قال تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾؛ لنَستَفيد منه فائِدةً وهو أنَّ ما يُطلَب فيه اليَقين يَكون الشكُّ فيه كالإنكار كفرًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: عُموم رِعاية الله تعالى ومُراقَبته لكلِّ شيء، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن رُبوبية الله تَنقَسِم إلى: خاصَّة وعامَّة، والخاصَّة إلى أخصَّ وإلى خاصَّة؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾، فهذه الرُّبوبيةُ أخصُّ من الخاصَّة، فإنَّ رُبوبية الله لخَواصِّ عِباده كالأنبياء أخصُّ من ربوبيته لعُموم المُؤمنين، ورُبوبيته للمُؤمِنين أخصُّ من رُبوبيته لعامَّة الناس، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٩١]، ولَمَّا كانت الرُّبوبية خاصَّة هنا قد تُوهِم اختِصاص رُبوبيته بهذا البَلْدةِ بعد هذا قال تعالى: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾.

الآيــة (٢٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ قُلِ ﴾ [يَا مُحَمَّدُ لِكُفَّارِ مَكَّةَ] هنا جَعَل الخِطاب خاصًّا؛ من جِهتَيْن: من جِهة المُخاطِب، ومن جِهة المَدعُوِّ، فالمُخاطِب قال تعالى: (﴿ قُلِ ﴾ يَا مُحَمَّدُ) والمَدعُوُّ كُفَّار مَكَّةَ، ولكنَّ هذا غير مُسلَّمٍ للمُفَسِّر، بل نَقول: إنَّ ﴿ قُلِ ﴾ يُمكِن أن تكون مُوَجَّهةً لكلِّ مَن يَتوَجَّه الخِطاب إليه، من الرسول ﷺ أو غيرِه ممَّن ورِثَه في أُمَّتِه، أي: (قُلْ أَيُّها الناسُ).

أمَّا بالنِّسبة للمَدعُوِّين فنَقول: الأَصَحُّ أنَّه عامٌّ لكُلِّ مَن دعا مع الله تعالى غيرَهُ من كُفَّار مَكَّةَ وغيرهم، فيَجِب أن يَكون لدينا قاعِدة وهو أنه إذا دارَ الأَمْر بين أن يَكون الخِطاب خاصًّا أو عامًّا وجَبَ أن يَكون عامًّا؛ لأن العامَّ يَدخُلُ فيه الخاصُّ ولا عكسَ، وكُلَّما كان مَعنَى القُرآن أوسَعَ كان أوجَبَ.

إذَنْ نَقول: قُلْ أَيُّها المُخاطِب ممَّن تَدعو مع الله تعالى؛ قل للَّذين يَدعون مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غيرَه ﴿ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أي: زعَمْتُموهم آلِهةً: (ادْعُوهُمْ)، وهلِ المُرادُ بالدُّعاء هنا دُعاء المَسأَلة، أو دُعاء الإِحْضار؟

(ادْعُوهم) يَعنِي: أَحضِروهم أو دُعاء المَسأَلة يَعنِي اسأَلوهُمُ اطلُبوا مِنهُمُ الحوائِجَ، هل يَستجيبون لكم أم لا؟

الجوابُ: يَحتَمِل المَعنَيَيْن: يَحتَمِل مَعنَى: أَحضِروهم؛ لنُناقِشَهم، أوِ ادْعوهم دُعاء مَسأَلة، يَعنِي: اسأَلوهم؛ كما تَقول: أدْعُو الله تعالى، أَيْ: أَسأَلُه، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: زَعَمْتُمُوهُمْ آلِهَةً] لم يُقدِّر المُفَسِّر ضَميرًا ووَصْفًا ظاهِرًا، الضميرُ [زَعَمْتموهم] (هُمْ) هذا هو الضَّميرُ، والاسْمُ الظاهِر [آلِهَةً]، فأَفادَنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنَّ (زَعَمَ) تَنصِب مَفعولَيْن، وأنَّ المَفعولَيْن مَحذوفان، وتَقديرُ الكَلام: (زَعَمْتموهُمْ آلِهَةً)، لأنَّ (زَعَمَ) من الأفعال التي تَنصِب مَفعولَيْن أصلُهما المُبتَدَأ والخَبَر؛ فهي من أخوات (ظنَّ).

وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ غَيْرِهِ لِيَنْفَعُوكُمْ بِزَعْمِكُمْ]، هذه الآلِهةُ لا يُمكِن أن تَنفَع المُشرِكين، وذلك لانتِفاء أسباب النَّفْع من عِدَّة أَوْجُهٍ:

أوَّلًا: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ استِقْلالًا.

ثانيًا: ولا يَملِكون ذلك مُشارَكة.

ثالثًا: وليس لهم مَعونة يُعينوا الله تعالى بها.

رابعًا: ليس لهم شَفاعة إلَّا بعد إِذْنِ الله تعالى.

فبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن أسباب النَّفْع في هذه الآلهةِ مُنتَفِية، فقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ الجُمْلة استِئْنافية؛ لبيان حال هَؤلاءِ الآلِهَةِ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [وَزْنَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ] ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، لا يَملِكون مِثقال ذَرَّة لا في السمَوات ولا في الأَرْض، ولا يَملِكون ما دون المِثْقال؛ لأنَّ التقدير

إذا قُصِد به المُبالَغة فلا مَفهومَ له سَواءٌ كان في الكَثْرة أو في القِلَّة، فهنا لا يَملِكون مِثْقال ذرَّة، يَعنِي: ولا دُونَها.

ومِثال الكَثْرة: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة:٨٠]، ولو أكثَرَ من سَبْعين ما يَغفِر الله تعالى لهم؛ ولهذا قال تعالى في آية المُنافِقين: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون:٦]، فإذا جاء القَيْد للمُبالَغة قِلَّةً أو كَثرةً فليس له مَفهوم، إِذَنْ لا يَملِكون مِثقال ذرَّة ولا دُونَها لا في السَّمَوات ولا في الأَرْض، ولو كانوا يَملِكون ذلك لقُلْتم: نَتَّعلَّق بهم لعلَّهم يُعطوننا ممَّا يَملِكون.

وهل لهم شِرْك في السَّمَوات أو في الأرض؟

الجوابُ: لا، ولو كان لهم شِرْك لقُلْتم: لعلهم يُعطوننا من نصيبهم؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ شَرِكة ﴿مِن﴾ هذه زائِدة لَفْظًا لا مَعنًى، وعلى هذا فـ ﴿شِرْكٍ﴾ مُبتَدَأ مُؤخَّر، وخَبَرُه الجارُّ والمَجرور المُقدَّم ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ يَعنِي: ما لهم شِرْكٌ في السَّمَوات ولا في الأرض.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا لَهُۥ﴾ تَعَالَى ﴿مِنْهُم﴾ مِنَ الْآلِهَةِ ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ مُعِينٍ] نَقول في إعراب ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ كما قُلْنا في إعراب ﴿مِن شِرْكٍ﴾ أي: أنَّ (مِنْ) زائِدة لَفْظًا لا مَعنًى، و(ظهير) مُبتَدَأ مُؤخَّر، والظهير بمَعنى: المُعين، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، إِذَنْ ليس لهم مع الله تعالى مَعونة حتى يُدِلُّوا على الله تعالى بها ويَقولون: أَعطِنا عِوَضًا عن مَعونَتنا لنَنفَع مَن يَدعوننا، ما لهم مُساعَدة مع الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: [مُعِينٍ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فيها دليلٌ على أنه يَنبَغي في المُناظَرة التَّحدِّي للمُناظِر فيما يُعلَم أنه لن يَكون؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ فيَجِب على كلِّ دُعاة الحقِّ أن يَتَحَدَّوْا هؤلاء المُبطِلين بأن يُبرِزوا لباطِلهم شيئًا من النَّفْع، وهذا كما أنه من الشِّرْك يَكون أيضًا فيما دونَه، فإنه يَنبَغي أن يَكون الداعي لله على عِلْمٍ بالأمور حتى يَستَطيع الجَدَل فيها؛ لأنَّ مَن لم يَكُن على عِلْم فيها فأنه سيَقِف حَيْرانَ ولا يَتمَكَّن من مُقابَلة الخَصْم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذه الأَصنامَ المَدعُوَّة من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا تَملِك شيئًا لنَفْسها، فلا تَملِك شيئًا لغيرها، ليس لها مُلْك، ولا شِرك في المُلْك، ولا مُعاوَنةٌ على تَصرُّف ولا شَفاعة، والأمر في هذا واضِح: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ﴾، أي: ما لله تعالى ﴿مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رَدٌّ لِقَوْلِهِمْ: إِنَّ آلِهَتَهُمْ تَشْفَعُ عِنْدَهُ ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ﴾ بِفَتْحِ الهَمْزَةِ وَضَمِّهَا، ﴿لَهُۥ﴾ فِيهَا]، إذا قالوا: نعَمْ؛ آلِهَتُنا لا تَمْلِك شيئًا في السَّمَوات ولا في الأرض، آلِهَتُنا ليس لها مُشارَكة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، آلِهَتُنا لم تُعِنِ الله تعالى، لكنَّها تَشفَع، كما قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، فقَطَع الله تعالى هذه الوَسيلةَ الأَخيرةَ ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ إِذَنْ هذه الآلهةُ ما تَستَطيعُ أن تَشفَع إلَّا بعد إِذْنِ الله تعالى.

وهل يُمكِن أن يَأذَن؟

الجوابُ: لا يُمكِن؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقول: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]، ويَقول الله: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، ومعلوم أنه الله تعالى لا يَرضَى عن الكافِرين لا أن يَشفَعوا ولا أن يُشفَعَ فيهم، فتَبيَّن أنَّ جميع ما يَتعلَّق به المُشرِكون في شِرْكهم مع الله تعالى كلُّه باطِل، وكُلُّه مُمتَنِع، فإن الأسباب التي يُمكِن أن يَنتَفِعوا بها واحِدٌ من أُمورٍ أربعة:

١- المُلْك استِقْلالًا.

٢- المُلْك مُشارَكةً.

٣- الإعانةُ.

٤- الشفاعةُ.

وكلُّ هذه الأربعةِ مُنتَفِية في عِبادة هذه المَدعوَّةُ من دون الله تعالى، فانقَطَع كلُّ سبَب يَتَشبَّث به المُشرِكون، وحينئذٍ فيَجِب أن تكون العِبادة والدُّعاء لله تعالى وحدَه؛ لأنَّه الذي له مُلْك السَّمَوات والأرض.

وأمَّا تَعريف الشَّفاعة في اللُّغة: هي جَعْل الفَرْد شَفْعًا أو جَعْلُ الوَتْر شَفْعًا، والشَّفْع والوَتْر، فضَمُّ واحِدٍ إلى واحِدٍ شَفْع، وضَمُّ واحِد إلى ثلاثة شَفْع، وهكذا.

أما تعريف الشَّفاعة في الاصطِلاح: فهو التَّوسُّط للغير بجَلْب مَنفَعة أو دَفْع مَضرَّةٍ، أن تَتَوسَّط لغيرك إمَّا بجَلْب مَنفَعة له أو دَفْع مَضرَّة، فالشَّفاعة لأهل الجَنَّة أن يَدخُلوا الجَنَّة هي في جَلْب مَنفَعة، والشفاعة فيمَن استَحَقَّ النار ألَّا يَدخُلها، وفيمَن دخَلها أن يُخرَج، فهذه شَفاعة لدَفْع الضرَر.

فلا تَخلو الشفـاعة من هذين الأمرين، إمَّا لجَلْب النَّفْع، وإمَّا لدَفْـع الضرَر، مثاله: إنسان شَفَع لشَخْص في أن تُعْلَ مَرتَبَتُه هذا لجَلْب مَنفَعة، شَفَع لشَخْص كُتِب عليه غَرامة أن تُرفَع عليه الغرامة، فهذا لدَفْع مَضرَّة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ وهل الإِذْنُ كَوْنيٌّ أم شَرْعيٌّ؟ الكونيُّ يَعنِي: إلَّا مَن رُخِّص له في أن يَشفَع، وشَرْط الإِذْن أن يَكون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ راضِيًا عن الشافِـع والمَشفوع له، فيَأذن فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كرامةً للشـافِع، وبَيانًا لفَضْله،

ورحمةً بالمَشفوع له، وإحسانًا إليه.

وقول: ﴿عِندَهُۥٓ﴾ أَيْ: عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ وهنا لا تَنفَع الشَّفاعة عنده إلَّا لِمَن أَذِنَ له؛ لكَمال سُلْطانه، فالنَّفْيُ هنا مُتضَمِّن لإثباتٍ وهو كَمال السُّلْطان؛ لأنَّ من كَمال السُّلْطان ألَّا يَتكَلَّم أحَدٌ عند المَلِك المَشفوع إليه أبَدًا إلَّا بإِذْنه.

ولهذا تَجِد الإنسان إذا كان ذا هَيْبة عند الناس وكان في مَجلِسٍ تَجِد الناس لا يَتكَلَّمون هَيْبةً له، وتَجِد السُّلْطان إذا كان ذا هَيْبة ما أحَدٌ يَقدِر أن يَتكَلَّم في مكان جُلوسه ولا مع أخيه سِرًّا؛ لأنهم يَهابونه؛ فلِكَمال سُلطان الله لا يَستَطيع أحَدٌ أن يَشفَع إلَّا بإِذْنه، حتى أَخصُّ عِباده به وهمُ الأنبياءُ وأَخَصُّهم محمدٌ ﷺ لا يُمكِن أن يَشفَع إلَّا إذا أَذِنَ الله تعالى، حتى في مَقام الرحمة يوم القِيامة فإن الله تعالى يَجعَل يوم القِيامة مِئة رحمة يَرحَم بها الخَلْق في مَقام الرحمة وعند شِدَّة الهمِّ والغمِّ المُقتَضي لرحمة الله تعالى ما يُمكِن أن يَشفَع الرسول ﷺ إلَّا بإِذْن الله تعالى أبَدًا؛ لكَمال سُلْطان الله إذا كانت الشفاعة لا تَنفَع إلَّا بإِذْن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهل هذه الأَصْنامُ المَكروهة عند الله تعالى المُنحَطَّةِ عنده قَدْرًا هل يُمكِن أن تَشفَع لعابِديها؟ أبَدًا حتى عيسى ﷺ الذي عُبِد من دون الله تعالى لا يُمكِن أن يَشفَع لعابِديه؛ ولهذا يَقول عَلَيْهِ السَّلَامُ يومَ القِيامة: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٧]، ولا يُمكِن أن يَشفَع لهم، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ وقد سبَق أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَأذَن إلَّا إذا كان الشافِع والمَشفوع له من أهل الشَّفاعة، وقال الله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]؛ ولهذا

قال العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنَّ شُروط الشَّفاعة ثلاثة: رِضا الله عن الشافِع، ورِضاه عن المَشفوع له، والثالِث إِذْنه بالشفاعة.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡ﴾ حتى هنا ابتِدائيَّة وليست غائِيَّةً؛ لأنَّ (حَتَّى) تَأتي للغاية، وتَأتي للابتِداء وتَأتي للتَّعليل، ولها مَعانٍ مُتعدِّدة مَنْ أَحَبَّ الوقوف عليها فلْيَرجِع إلى كِتاب (مُغنِي اللَّبيب) لابن هِشام[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه مُفيدٌ لطالِب العِلْم، يَقول تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ فيها قِراءتان ﴿فُزِّعَ﴾ و(فَزَّعَ) كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ].

وقوله تعالى: ﴿عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: عن قُلوب الخَلْق، أو عن قُلوب المَلائِكة، فيها قَوْلان لأَهْل العِلْم، وسيَأتي -إن شاء الله تعالى- بيانُهما.

﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كُشِفَ عَنْهَا الْفَزَعُ بِالْإِذْنِ فِيهَا]، و(فَزَّعَ) و(فُزِّعَ) بمَعنى: أَزال الفزَع، وليس (فَزَّع) بمعنَى: أَلحَق الفزَع، بل بمَعنى أَزالَه، وهو فِعْل يُراد به السَّلْب؛ لأنَّ هناك أَفعالًا يُراد بها سَلْب المَعنَى؛ يَعنِي: ضِد هذا المَعنَى، ومِنه قولهم: قرَّد البَعيرَ. أي: أَزال منه القُراد، وهو شيءٌ يَكون في جِلْد البَعير دابَّة أو حشَرة صغيرة تَعَضُّ البَعير فتَشرَب الدَّمَ منها، وهو مِثلُ القَمْل للإنسان، هو قَمْل الإبِل، يَعنِي: يَلصَق في الجِلْد، وهو إذا أَمسَك الجِلْد ما يُطلِقه أبدًا إلَّا أن تُمسِكه وتَجرُّه جرًّا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ أو (فَزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) يَعنِي: أَزال الفزَع عن قُلوبهم، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالْإِذْنِ فِيهَا] أي: بالشَّفاعة، وعلى هذا فيَكون الضميرُ هنا عائِدًا على المَشفوع له، يَعنِي إذا لحِق المَشفوع له من الهمِّ والكَرْب والغَمِّ ما

(١) مغني اللبيب (ص:١٦٦).

لَحِقه، وكذلك الخوف والفزَع فأَذِن الله تعالى له بالشَّفاعة زال الفزَع عن القُلوب؛ لأنَّه قرُب الفَرَج قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ بالإِذْن فيها.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُواْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ اسْتِبْشَارًا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡ﴾ فِيهَا أَيْ: فِي الشَّفَاعَةِ ﴿قَالُواْ﴾ الْقَوْلَ: ﴿ٱلۡحَقَّ﴾، أَيْ: قَدْ أَذِنَ فِيهَا ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ فَوْقَ خَلْقِهِ بِالْقَهْرِ ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ الْعَظِيمُ] أفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الضمير في ﴿قُلُوبِهِمۡ﴾ يَعود على المَشفوع له، فإن المَشفوع له قبلَ الشفاعة يَلحَقه الفزَعُ والخوفُ من ذُنوبه، أو من غير ذلك، فإذا أُذِنَ في الشَّفاعة زال الفزَع، وقالوا: ماذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيَقول بعضهم لبَعضٍ: ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ أي: قالوا القولَ الحقَّ؛ بمَعنى: الثـابِت المُوافِق لمَحلِّه، وقد سبَـقَ لنا أنَّ الحقَّ في الأخـبار هو الصِّدْق، والحقُّ في الأحكام هو العَدْل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام:١١٥].

وهذا ما ذهَـب إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أنَّ الضمـير في ﴿قُلُوبِهِمۡ﴾ يَعـود إلى المَشفـوع لهم، وأن التَّفزيع بمَعـنَى إزالة الفزَع، وهو الخَـوْف بالإِذْن في الشَّفاعة، والسِّياق لا يَأباه، ولكن قد ثبَت في الحديث الصحيح عن النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّ المُراد به غير ذلك، وأن المُراد به الملائِكة الذين هم عند الله تعالى، إذا تَكلَّم الله تعالى بالوَحْيِ صُعِقُوا، فإذا صُعِقُوا ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ يَعنِي: أُزيل الفزَع عنها، ثُم صاروا يَتساءَلون: ماذا قال الله تعالى؟ فيُقال: ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

وإذا جاءَتِ السُّنَّة بتَفسير القرآن كانت أَوْلى، على أننا سبَق أن قُلْنا: إنَّ القُرآن إذا دلَّ على عِدَّة مَعانٍ لا تَتَناقَض حُمِل على جميع المعاني؛ لأنه أَوْسَعُ وأَعظَمُ ممَّا يَصِل إليه فِكْر الإنسان، فقد يَصِل فِكْري إلى شيء ويَصِل فِكْر الآخَر إلى شيء آخَرَ، وفِكْر الثالث إلى شيءٍ ثالِث، والآية كلُّها تَحتَمِل هذه المعانيَ، فتُحمَل عليها، أمَّا إذا كان

لا يَحتَمِل إلَّا مَعنًى واحِدًا فإنه يَجِب أن يُحمَل على ما قام الدليلُ عليه.

وقال بعض أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: حتى إذا فُزِّع عن قُلوبِهم عند الموت، ليس يومَ القِيامة (عِنْد الشَّفاعة)، ولكن إذا فُزِّع عن قُلوبهم (عِند الموت)، ولكن هذا ضعيف وإن كان قد يَرِد فيُفزَّع عن القَلْب عند المَوْت ويَعتَرِف بالحقِّ، فإنَّ فرعونَ حين غرِق ماذا قال؟ حتى إذا أدرَكه الغرَقُ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]، وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ [غافر:٨٤]، لكن هذا المَعنى ضَعيف، فالآيةُ دائِرة بين ما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وما ثبَت به الحديث الصحيح، وهي دالَّةٌ قَطْعًا على ما جاء به الحديثُ الصحيحُ، وما ذكَرَه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهو مُحتَمِل ولا تَأباه الآيةُ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ وأمَّا إعرابُها صِفةً لمَصدَر محذوفٍ؛ أي قال: [الْقَوْلَ ﴿ٱلۡحَقَّ﴾] ولا يَصلُح أن تكون مَفعولًا لـ(قَالُوا)؛ لأنَّ القول لا يَنصِب إلَّا جُمْلة أو مَا بمَعنى الجُمْلة، كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم:٣٠] أين مَقول القولِ؟ ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ جُمْلة، أو بمَعنى الجملة؛ كقولِكَ: قُلتُ قصيدةً، أو قُلْتُ كلِمةً. هذه بمَعنَى الجُمْلة؛ لأنَّ الكلِمة والقَصيدة والشِّعْر لا يَكون إلَّا جُمْلة.

فإن قلتَ: ما تَقول في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرًا﴾ [النحل:٣٠]؟

فالجوابُ: هذه ليست مَفعولًا لـ(قالوا)، لكنَّها مَفعول لِفعْلٍ محذوف؛ والتقديرُ: (أَنزَل خَيْرًا).

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَهُوَ الْعَلِيُّ فَوْقَ خَلْقِهِ بِالْقَهْرِ]، وهذا فيه إمَّا تَقصير

وإمَّا قُصور؛ لأنَّ عُلُوَّ الله عَزَّوَجَلَّ ليس بالقَهْر، بل عُلُوُّه ثلاثةُ أقسام: عُلُوُّ القَهْر، وعُلُوُّ القَدْر، وعُلُوُّ الذات، لكنَّ المُفَسِّر -عفا الله تعالى عنَّا وعنه- كأنَّه لا يَرَى عُلُوَّ الذات، والمُنكِرون لعُلُوِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَنقَسِمون إلى قِسْمين: حُلوليَّة، ومُعطِّلة تَعطيلًا مَحْضًا.

فالحُلولية يَقولون: إنه يَجِب عليك أن تُؤمِن بأنَّ الله تعالى في كل مكانٍ بذاته، وتُنكِرَ عُلُوَّه، إن كنتَ في المَسجِد أو كنتَ في السُّوق، أو كنتَ في البَرِّ أو كنتَ في البَحْر، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذاته في ذلك المكانِ، وإن كنتَ في الحُشِّ فهو في الحُشِّ!! والحُشُّ هو: مَكان التَّخلِّي، يَعنِي -والعِياذُ بالله تعالى- ما نَزَّهوا الله تعالى عن الأَنْتان والأَقْذار -نَسأَل الله تعالى العافيةَ- ولا شَكَّ أنَّ هذا كُفْرٌ مَحْضٌ ولا يَشُكُّ أحَدٌ في كُفْر مَنِ اعتَقَد هذه العَقيدةَ.

والطائِفة الثانيـة المُنكِرة للعُلُـوِّ يَقولون: إنَّه لا يَجـوز أن نَقول: إنَّ الله تعالى فوقَ العالَم ولا تَحتَه ولا يمينَ ولا شِمالَ ولا أمامَ ولا خلْفَ، ولا مُتَّصِلٌ ولا مُنفَصِلٌ، وهذا تَعطيل مَحْضٌ، يَعنِي: لو قيل لك صِفْ لنا المَعدوم؟ ما وَجَدْتَ أَشدَّ إحاطةً بالمعدوم من هـذا الوَصْفِ، الذي ليـس فوقَ العـالَم ولا تَحتَه ولا يَمينَه ولا شِمالَه ولا خَلْف ولا أَمامَ، ولا مُتَّصِل ولا مُنفَصِل، هذا ليس بمَوجود قَطْعًا.

أمَّا الرُّسُل وأَتباعُهم فيُؤمِنون بأن الله بِذاته فوقَ كل شيء، وهذا هو الذي دلَّ عليه العَقْلُ والفِطْرة والإِجْماع والكِتاب والسُّنَّة.

ولْنَسْتَعرِض لهذا الأَمْرِ، وإن كان -الحمدُ لله- ظاهِرًا.

فظاهِر الكِتاب دلَّ على أن الله تعالى بذاته فوقَ عَرْشه؛ من وجوهٍ مُتنوِّعة: فتارَةً بذِكْر العُلُوِّ مِثْلَ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى:٤]، وتارةً بذِكْر الفَوْقيَّة مِثْلَ:

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، وتارةً بذِكْر صُعود الأشياء إليه مِثْل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، وتارةً بذِكْر نُزول الأَشْياء منه، مِثل قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة:٥]، فقَدْ تَنوَّعَتِ الأدِلَّة من كِتاب الله تعالى على عُلوِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأمَّا السُّنَّة فكذلك، دلَّتِ السُّنَّة على عُلوِّ الله تعالى بِذاته من قول الرسول ﷺ وفِعْله وإِقْراره؛ فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «رَبُّنَا الله الَّذِي فِي السَّمَاءِ»[1]، وقال ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[2]، وأمَّا فِعْله فإنَّه في يوم عرَفة وهو يَخطُب الناس عندما خطَب تلكَ الخُطْبة العظيمةَ قال ﷺ لهم: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: اللهمَّ اشْهَدْ»، يَرفَع أُصبُعه إلى السَّماء ويَنكُتها إلى الناس، «اللهمَّ اشْهَدْ»[3]، هذه سُنَّة فِعْلية؛ بإشارته ﷺ إلى السماء حين ذَكَر الله تعالى، وأمَّا الإقرارية فإنه أُتِيَ إِلَيْهِ بِجَارِيَةٍ فَسَأَلَهَا فَقَالَ: «أَيْنَ الله؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[4]، هكذا قال، ويُعتبَر هذا إقرارًا، فقد تَنوَّعَتِ السُّنَّة بالدَّلالة على عُلوِّ الله تعالى بذاته.

وأمَّا الإِجْماع فقد أَجمَع السلَف من الصحابة والتابعين وأَئِمَّة الأُمَّة على أنَّ الله تعالى في السَّماء بذاته، ولم يَقُلْ أحَدٌ مِنهم بحرفٍ واحِد أبَدًا: إن الله تعالى ليس في السماء. أو: إنَّ الله تعالى في كل مَكان بذاته.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطب، باب كيف الرقى، رقم (٣٨٩٢)، والنسائي في الكبرى (١٠٨٠٩) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب (٤٣٥١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧)، من حديث معاوية ابن الحكم السلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأمَّا العَقْلُ فاسأَلْ عَقْلَكَ: هل الكَمال في عُلوِّ الذات أو في نَفْي العُلُوِّ عنه؟

الجوابُ: الأوَّل بلا شَكٍّ، عُلوُّ الذات تَدُلُّ على الكَمال، بل هي الكَمال، فإذا كان العُلوُّ هو الكمالَ، فإنَّ من المعلوم عَقْلًا أن الربَّ مُتَّصِف بالكَمال، وحينئذٍ يَثبُت له العُلوُّ عَقْلًا.

أمَّا الفِطْرة فاسأَلْ فِطْرتَكَ عندما تَسأَل الله تعالى شيئًا -افرِض أنَّك ما درَسْتَ ولا حضَرْت في المساجد ولا شيء- إذا سأَلْت الله شيئًا أينَ يَنصَرِف قلبُكَ؟

الجوابُ: إلى الأعلى؛ ولهذا كان أبو المَعالي الجُوَيْنيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُقرِّر فيقول: كان الله تعالى ولم يَكُن شَيْءٌ قبلَه، وكان عَرشُه على الماء. وما ذكَرَ استِواء العَرْش، يُريد بذلك أن يُنكِر استِواء الله تعالى على العَرْش الذي مِن لازِمِه الإقرارُ بالعُلوِّ، فقال له أبو جعفر الهمَذاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دَعْنا مِنْ ذِكْر العَرْش، وأَخبِرْنا عن هذه الضَّرورةِ التي نَجِدها في نُفوسنا، ما قال عارِفٌ قَطُّ: يا الله. إلَّا وجَدَ من قَلْبه ضَرورة بطَلَب العُلوِّ»، فلَطَم الجُوَيْنيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على رأسه وصرَخَ وقال: حيَّرَني الهمَذانيُّ![1]. لأنَّ الدليلَ الفِطْريَّ لا يُمكِن النِّزاع فيه، ولو نازَعَك مُنازِع فيه قُلْتَ: هذا مَجنون؛ فلو أن أحَدًا أنكَر طلَب الطَّعام للجائِع فلا يُصدَّق؛ ولهذا تَحيَّر أبو المَعالي الجُوَيْنيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعجَزَ عن الإجابة؛ لأنَّ هذا دَليل فِطْريٌّ لا يُنازِع فيه أحَدٌ.

وعليه فقد تَطابَقتِ الأدِلَّة على عُلُوِّ الله تعالى بذاته، أمَّا عُلوُّه بصِفاته سواء كانت صِفاتِ قَدْر أو قَهْر، فهذا يُقِرُّ به جميع المُنتَسِبين إلى الإسلام، حتى الجَهْميَّة والأشاعِرة وغيرُهم يُقِرُّون بأنَّ الله تعالى عالٍ عُلُوًّا مَعنويًّا، وهو عُلُوُّ الصِّفاتِ.

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢/ ٦٤٢-٦٤٣)، وسير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٧٥).

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ فَوْقَ خَلْقِهِ بِالْقَهْرِ ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الْعَظِيمُ] لا شكَّ أنَّ هذا ليس تَفسيرًا مُطابِقًا، وكأنَّ المُفَسِّر أَخذها مِنْ قَرْن (العَظيم) بـ(العَليِّ) في آية الكُرْسيِّ حيثُ قال تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وهنا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ففسَّر الكبيرَ بالعَظيمِ، ولكن الصحيح أن الكبير أعَمُّ؛ لأن الكبيرَ ليس مَعناهُ العَظيمَ، بل معناه: ذو الكِبْرياء، ومَعناه أن الله تعالى لا يُماثِله شيءٌ في ذاته.

فالسَّمَوات السَّبْع والأَرَضين السَّبْع في كَفِّه تعالى كخَرْدلةٍ في كفِّ أَحدكم، يَعنِي: السمَّواتِ السَّبعَ على عِظَمِها والأَرَضين السَّبع مثلَما لو وضَع الإنسان في يَدِه خَرْدلة -وهي حَبَّة الخَرْدل التي بكِبَر حَبَّة السِّمْسِم- وهذا أيضًا تَمثيل على سبيل التَّقريب، وإلَّا فالله تعالى أَعظَمُ وأجلُّ، فكل المَخلوقات بالنسبة له تعالى ليسَتْ بشيء.

فيَنبَغي أن نَقول: إنَّ الكبير ليس هو العَظيمَ. بل يُفيد مَعنًى آخَرَ، وهو الذي له الكِبرياء، وهو الذي لا يُنسَب إليه شيءٌ من خَلْقه، فالسَّمَواتُ السَّبعُ والأَرَضينَ السَّبعُ في كَفِّه كخَرْدلة في كفِّ أَحَدِنا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات الشَّفاعة بإِذْن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، ولو كانت الشَّفاعة لا تَنفَع مُطلَقًا ما صحَّ الاستِثْناء، ولو كانت تَنفَع مُطلَقًا ما صحَّ النَّفيُ، إِذَنْ فهي تَنفَع بإِذْن الله تعالى.

فإن قلت: ما وَجهُ الدَّلالة على إثبات الشَّفاعة، مع أنه نَفَى الشفاعة؟

فالجوابُ: أنه عَزَّوَجَلَّ لم يَقُلْ: (ولا تَنفَع الشَّفاعة) فدَلَّ على إثباتها، لكن لا تَنفَع إلَّا بإذْنه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عَظَمة الله تعالى وقُوَّة سُلْطانه، تُؤخَذ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَنفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أن الشفاعة لا تكون إلَّا بإذْنه، خِلاف المَخلوقين مهما عَظُم مُلْكهم فإنه يَدخُل الشافِع على المَلِك والسُّلْطان ويَشفَع بهم، فكُلَّما عظُم السُّلْطان ازدادَتِ الهَيْبة، وصار لا يَتكَلَّم أحَدٌ إلَّا بإذْن الله تعالى، كما قال تعالى في سورة: (عَمَّ يَتَساءَلونَ): ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قَطْع كُلِّ سبَب يَتعَلَّق به المُشرِكون في آلِهَتهم؛ لأنَّه قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ فهذا آخِرُ سبَب يُمكِن أن يَتعَلَّق به المُشرِكون، ومع ذلك نَفاه الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيان كرَم الله على كُلِّ من الشافِع والمَشفوع له؛ تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَتكلَّم بكَلامٍ مَسموع؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ بناءً على القَول الراجِح في معنَى الآيةِ؛ لأنه لولا أن المَلائِكة يَسمَعون كَلامه تعالى لم يُصعَقوا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن كلام الله ليس ككلام المَخلوقين، بل هُو أَعظَمُ؛ لأنَّ السامِع له يُصعَق إلَّا أنَّ يُثبِّته الله؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ قول الله كُلُّه حَقٌّ؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات الرُّبوبية؛ لقوله تعالى: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات عُلُوِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾، وهو يَنقَسِم إلى عُلوِّ الذات وعُلوِّ الصِّفات، وكِلاهما ثابِت لله.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إِثْبات الكِبرياء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن للمَلائِكة عُقولًا وفَهْمًا وإِدْراكًا وقُلوبًا؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، ولكن هل قُلوبهم كقُلوب الآدَمِيِّين؟

الجوابُ: الله أَعلَمُ، لا نَعلَم كيفيَّتها، والمَلائِكة صُمْدٌ، لا يَأكُلون ولا يَشرَبون، وليس لـهم أَجواف ولا أَمعاءٌ، لأنَّه لا يَحتاج إلى الجَوْف والأَمْعاء إلَّا مَن يَأكُل ويَشرَب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ المَلائِكة يَتكلَّمون: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

الآيات (٢٤- ٢٦)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ:٢٤-٢٦].

قوله تعالى: ﴿مَن﴾ اسمُ استِفْهام، والمُراد به التَّحدِّي، تَحدِّي هَؤلاءِ المُشرِكين الذين يَعبُدون مع الله غيره، وهل هذه الأَصنامُ تَرزُقهم من السَّموات والأرض؟

الجوابُ: لا، ولكن الذي يَرزُق هو الله تعالى، فيَتَحدَّاهم بالسُّؤال: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: (مِنْ) لابتِداء الغاية؛ أي: أنَّ الرِّزق يَأتي من السَّمَوات، والرِّزق بمعنى: العَطاء، فما هو الرِّزق من السَّموات؟ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالمَطَر]، فإنَّ المَطَر رِزقٌ يَنزِل إلى الأرض فتَنبُت، وأمَّا الرِّزْق من الأَرْض فأَمْره ظاهِر ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، ثُم إننا نَقول بأنَّ الرِّزق من السَّمَوات أشمَلُ من المَطَر؛ فإن السَّمَوات يَنزِل منها المطَر ويَنزِل منها المَنُّ والسَّلْوى، وربما نَقول: إنَّ الطُّيور في جَوِّ السماء أنها من رِزْق السماء؛ لأنها تَأتِي من فَوقُ، فكُلُّ ما يَأتي مِن فَوقُ فإنه يَصدُق عليه أنه رِزقٌ من السَّمَوات.

والمطَر يَنزل مِن سماءٍ واحـدةٍ، مِن العُلـو؛ ويُراد بالسَّـموات أحيانًا جهةَ السمواتِ كما في قولِه تعالَى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ في السَّمواتِ، معَ أنَّه في العُلو مِن جِهة الغَرب.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخِطاب في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ﴾ للرسول ﷺ، والمُخاطَب في قوله: ﴿مَن يَرْزُقُكُم﴾ المُشرِكون الكُفَّار فبماذا يُجيبون؟ أَحيانًا يُجيبون بالصواب كما في قوله تعالى في سورة يُونُس: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١] هذا جوابٌ صحيح، وأَحيانًا لا يُجيبون يَتَلعْثَمون أو يَأبَوْن أن يَتكلَّموا عِنادًا وخوفًا من الإِلْزام؛ لأنهم إذا قالوا: الله. أُلزِموا بألَّا يَعبُدوا إلَّا الله تعالى؛ كيف تَعبُدون مَن لا يَرزُق؟!

فهُمْ أحيانًا يُجيبون بالصَّواب ويَقولون: الله. ثُم يُكابِرون ويُعانِدون ويَقولون: (إنَّما نَعبُدهم شُفعاءَ لنا عِند الله تعالى؛ ليُقرِّبونا إلى الله تعالى زُلْفَى)؛ أي: ما نَعبُدهم لِذَواتهم، وأَحيانًا يَأبَوْن الجوابَ يَتَلعْثَمون؛ لأنَّ الحقَّ ثَقيل عليهم.

فإذا لم يَقولوا شيئًا فقُلِ: الله؛ ولهذا قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ هو الذي يَرزُقكم من السَّمَوات والأرض. فإن أَبَوْا بأن قالوا: لا، هو غَيرُه. ولكن لا يَملِكون أن يَقولوا: هو غيرُه. فقُلْ: مَن؟ أَعِدْ عليهم السؤال مرَّةً ثانِيةً.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إِنْ لَمْ يَقُولُوهُ] يَعنِي: إن لم يَقولوا: الله، فأنت قُلْ هذا وأَعلِن هذا، [لا جوابَ غيره]، يَعنِي: لا يُمكِن أن يُجيب أحَد بغير هذا الجوابِ، وإن أَجاب فقُلْ له: أين ذلك؟ وكيف يَكون؟

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ فإذا كان هو الله، فما الواجِب علينا نَحنُ؟ إذا كان الذي يَرزُقنا هو الله فمِن أين نَطلُب من الرِّزْق؟ من الله تعالى، والذي أحَقُّ أن يُعبَد هو الذي يَرزُق.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾: ﴿وَإِنَّآ﴾ الضمير يَعود على النَّبيِّ ﷺ ومَن آمَن معَه، ﴿أَوْ﴾ حرف عَطْف (إيَّا) مَعطوفة على اسم (إنَّ)؛ ولهذا جاءَت بالضمير المُنفصِل المَنصوب؛ وخبَرُ المُبتَدَأ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يَعنِي: أننا لا نَخرُج عن إحدى هاتَيْن الحالَيْن: إمَّا الهُدى، وإمَّا الضَّلال؛ ولا يَخرُج أحَدُنا عن ذلك؛ فإمَّا نَحنُ على الهُدى وأنتم على الضَّلال، وإمَّا نحن على الضَّلال وأنتُم على الهُدَى، وأمَّا كلُّنا على الهُدى أو كلُّنا على الضَّلال فلا؛ لأنَّ قولَنا وقولهم مُتَناقِض؛ لأنه ليس بعد الحَقِّ إلَّا الضَّلال، والنَّقيضان لا يَجتَمِعان ولا يَرتَفِعان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وليس هُناك ثالِثٌ؛ فماذا بعد الحَقِّ إلَّا الضَّلال!.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ أي: أحَدُ الفَريقين ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ ولم يَقُل: (لَفي هُدًى أو في ضَلال) ولم يَقُلْ: (لعَلَى هُدًى) أو (ضَلال)؛ لأن الذي على هُدًى على جادَّة بيِّنة عُلْيا واضِحة؛ فلهذا قال تعالى: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾، وصاحِب الضَّلال مُنغَمِس في ضَلاله تائِه حائِر ليس له حَقٌّ من العُلوِّ، بل هو مَغمور بالجَهْل بكل جانب؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ فِي ضَلَٰلٍ﴾ و(في) للظَّرْفية، ومَعلوم أن الظَّرْف مُحيط بالمَظروف؛ فالضَّلال مُحيط بِهِم قد أعمَى بصائِرَهم.

وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ يَعنِي: أننا على هُدًى ظاهِر بيِّن عالٍ

﴿أَوْ فِي ضَلَٰلٍ﴾ مُبين مُنغَمِس في الجَهْل والضَّلال لا نَدرِي أين يَذهَب!

وتَأمَّل ما في هذه الآيةِ من الإِنْصاف، فهو إِنْصاف تامٌّ لا جِدالَ فيه؛ يَقول: أَنَا أو أنت على هُدًى أو في ضَلال مُبين؛ فهذا إِنْصاف؛ فلو قلت: أنا على هُدًى وأنت على ضَلال صار هذا جَـوْرًا، ولا يُطيـعك أحَد؛ لأن خَصْمك سيَقول: (بل على العَكْس: أنا على هُدًى وأنت في ضَلال!)؛ فإذا أَنصَفتَ وقُلتَ: أنا أو أنت على هُدًى أو في ضَلال مُبين، فإن ذلك إِنْصاف لا أحَدَ يُجادِل فيه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بَيِّن] أَفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المُبين مِن الرُّباعيِّ بمَعنى: بَيِّن، من الثُّلاثي؛ لأن (أَبان) تَأتِي مُتعَدِّية وتَأتي لازِمة؛ فتَقول: (أَبان الحقَّ) بمَعنَى: أَظهَره، وتَقول: (أَبان الصُّبْح) و(بان الصُّبْح) بمَعنَى: ظهَر.

إِذَنْ: ﴿مُّبِينٍ﴾ تَقَع في سِياق بمَعنَى: مُظهِر، وتَقَع في سِياق بمَعنَى: ظاهِر، فمثَلًا في ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بمَعنَى: ظاهِر، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الزخرف:١-٢] بمَعنَى: المُظهِر، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ فهُوَ بمَعنَى: المُظهِر. أمَّا (بانَ) بدون هَمْزة فهي بمَعنَى ظهَر لا غيرَ، ولا تَأتي بمَعنَى: مُظهِر.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في الإِبْهام تَلطُّف بهم، داعٍ إلى الإيمان إذا وُفِّقوا له]، قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في الإِبْهام] الإبهام في: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ فلم يَقُلْ: نحن على هُدًى وأنتم على ضَلال، أو نحن على ضَلال وأنتم على هُدًى، بل قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾، وهذا إبهام؛ لأنه لا يُدرَى أهؤلاءِ أَمْ هؤلاءِ؛ فيَقول: إن هذا الإبهامَ فيه تَلطُّف بهم داعٍ إلى الإيمان إذا وُفِّقوا له، هذا من جِهة مُعامَلتهم، وفيه أيضًا ما أَشَرْنا إليه قبلُ، وهو الإنصاف والعَدْل وعدَم الجَوْر، فمَعناه: أننا نَقِف

معَكم مَقام المُنصِف؛ فإمَّا نحن على الحَقِّ وأنتُمْ على الباطِل، وإمَّا أنتُمْ على الباطِل وأنتُمْ على الحَقِّ، ليس هناك سَبيل ثالِث.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّنا بَريئُون مِنْكم، ﴿قُل﴾ لهم مُخاطِبًا إيَّاهم في مُجادَلتهم ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ والجُرْم والإِجْرام بمَعنَى: الذَّنْب؛ يَعنِي: الذي وقَعْنا فيه من الإِجْرام لا تُسأَلون عنه؛ قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة:١٣٤]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦]، فالإنسان لا يُسأَل عن جُرْم غيرِه، ولا يُسأَل غيرُه عن جُرْمه، كذلك لا نُسأَل عمَّا تَعمَلون من إِجْرام أو غيرِه.

وفي هذه الجُمْلةِ في الحَقيقة غَضاضة على النَّفْس أكثَرَ من الغَضاضة على الخَصْم: فبالنِّسْبة لنا قُلْنا: لا تُسأَلون عمَّا أَجْرَمنا؛ أوَّلًا: وَصَفْنا عمَلَنا بأنه إِجْرام، وثانيًا: وصَفْناه بالفِعْل الماضي الدالِّ على الوُقوع: ﴿عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾.

وفي الخَصْم قُلْنا أوَّلًا: ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وليس عمَّا تُجرِمون؛ وكل هذا مِن باب التَّلطُّف، والله يَعلَم مَن المُجرِم مِن غيره، لكن لأَجْل أن نُقيم الحُجَّة على هؤلاءِ بأنَّنا عامَلْناهم بأكمَلِ العَدْل والإِنْصاف، بل بما ظاهِره الغَضاضة علينا؛ وثانيًا أنه قال تعالى: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولم يَقُل: عمَّا عمِلْتم. ومَعلوم أن الماضِيَ مُحقَّق الوُقوع، والمُضارِع قد يَقَع وقد لا يَقَع فـ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يَعنِي: ما عمِلْتم.

فتَأمَّلْ كيف كانت هذه المُحاجَّةُ في ظاهِرها الغَضاضة على المُسلِمين؛ ففي الأوَّل: وإنَّا أو إِيَّاكُم. هذه مَرتَبة، وهي كافِية في إقامة العَدْل والإنصاف، لكن الثانية أعظَمُ منها: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ونَظير هذا: ما وقَعَ من النَّبيِّ ﷺ مع قُرَيْشٍ في صُلْح الحُدَيْبية مِن أن مَن ذهَب من المُسلِمين إليهم لا يَرُدُّونه، ومَن جاء من المُشرِكين مُسلِمًا إلى الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنه يَرُدُّه؛ فعِندما تَنظُر إلى هذا الشَّرْطِ تَجِد أنه شرطٌ الرابِحُ فيه هُمُ المُشرِكون؛ ولهذا قال عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لمَ نعطِي الدَّنيَّة في دِيننا؟ ولماذا نَتنازَل هذا التَّنازُلَ ونحن على الحَقِّ وهُم على الباطِل؟! ولكن الرسول ﷺ أجابه بقوله: «إِنِّي رَسُولُ الله وَلَسْتُ عَاصِيَهُ وَهُوَ نَاصِرِي»، فانظُرْ إلى الثِّقَة بالله في هذا المَقامِ الضَّنْكِ الذي لم يَصبِر عليه أَجلَدُ الصحابة كعُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أجابه ﷺ بكلام هادِئ، كلام واثِق بالله، جازِم بالنَّصْر: «إِنِّي رَسُولُ الله»، والرسول يَأتَمِر بأَمْر مَن أَرسَله «وَلَسْتُ عَاصِيَهُ»، هذا بالنِّسبة للطاعة؛ ثُمَّ الثِّقَة: «وَهُوَ نَاصِرِي»، كقول مُوسَى لَمَّا قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]، فما أَعظَمَ ثِقةَ الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام بنَصْر الله عَزَّوَجَلَّ، ونَسأَل الله تعالى أن يَهَب لنا من الثِّقة به ما يَزداد به إيمانُنا وتَوكُّلُنا.

وأَقول: إن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَتَى بهذه الشُّروطِ مع أن فيها غَضاضةً على المُسلِمين في ظاهِرها، ولكن كان في هذا الاتِّفاقِ فَتْحٌ عَظيم سمَّاه الله عَزَّوَجَلَّ فَتحًا فقال: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ [الحديد:١٠]، فسَمَّاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَتْحًا؛ وقال الرسول ﷺ: «أَمَّا مَنْ جَاءَ إِلَيْنَا مِنْهُمْ فَرَدَدْنَاهُ فَسَيَجْعَلُ الله لَهُ فَرَجًا، وَأَمَّا مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَلَا نُرِيدُهُ لَا رَدَّهُ الله»، وحصَل هذا في قِصَّة أبي بَصير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حتى انتَهى الأَمْر إلى إِلْغاء الشَّرْط من قِبَل المُشرِكين.

والشاهِدُ: أن صاحِب الحَقِّ وإِنْ أَتَى بما ظاهِره الغَضاضة فإنه واثِق؛ فهنا قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

وانظُرْ إلى الثِّقة قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القِيامة]، وهذا الذي ذكَرَه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا شَكَّ أنه مُحتَمَل في الآية، ويُحتَمَل أن الجَمْع أعَمُّ من ذلك، وهو الجَمْع في القِتال والجَمْع يوم القِيامة يَجمَع بَيْننا ربُّنا في الدُّنيا في القِتال كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الفرقان:٤١]، فهؤلاء وهؤلاء جَمَع الله تعالى بينهم، فيُمكِن أن يُراد بقَوْله تعالى: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ أي: في الدنيا في القِتال وفي الآخِرة للفَصْل، ثُم بعد ذلك يَفتَح بَيْننا، يَحكُم بَيْننا بالحَقِّ، فيُدخِل المُحِقِّين الجَنَّة والمُبطِلين النار.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ يَعنِي: يَنصُر بعضَنا على بَعْض في الدُّنيا، والمُستَحِقُّ للنَّصْر منهمُ المُسلِمون بلا شَكٍّ؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد:٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠]، فيَجمَع الله تعالى بيننا، ثُم يَفتَح بيننا بالحَقِّ، والحَقُّ يَعنِي: بالعَدْل الذي لا جَورَ فيه.

وإنما قُلْنا: إن الحَقَّ هنا هو العَدْل؛ لأنه وُصِف به الحُكْم قال تعالى: ﴿يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾، وقد أَشَرْنا فيما سبَق إلى أن الحَقَّ إن أُضيف إلى الأَخْبار فهو بمَعنَى الصِّدْق، وإن أُضيف إلى الأَحْكام فهو بمَعنَى العَدْل.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ الحاكِم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يَحكُم به] ﴿ٱلْفَتَّاحُ﴾ صِيغة مُبالَغة مِثْل (الرَّزَّاق) صِيغة مُبالَغة، وإنما سَمَّى الله تعالى نَفْسه بالفَتَّاح؛ لكَثْره فُتوحاته على خَلْقه وحُكْمه بينهم.

والفَتْح يَأتِي بمَعنَى: النَّصْر والحُكْم بين الناس والفَصْل، فله مَعانٍ بحسَب السِّياق، فالله تعالى هو الفَتَّاح الذي يَفتَح على عِباده بالنَّصْر، ويَفتَح على عِباده بالعِلْم، ويَفتَح على عِبادة بالفَهْم، ويَفتَح على عِباده بحُسْن النِّيَّة والقَصْد؛ فهو مُتضَمِّن لأَشياءَ كثيرةٍ؛ ولهذا جاء بصِيغة المُبالَغة ﴿ٱلْفَتَّاحُ﴾.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ فهو ذو العِلْم الواسِع، وقد سبَقَ لنا أن عِلْم الله أَزَليٌّ أَبَديٌّ؛ أَزَليٌّ لم يُسبَق بجَهْل، أَبَديٌّ لا يَلحَقه نِسيان قال الله تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، يَعنِي: لا يَجهَل ما سيأتي ولا يَنسَى ما مضَى.

وعِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُحيط بكُلِّ شيء جملةً وتَفصيلًا؛ قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، فكل شيء فالله تعالى عالِم به جُملةً وتفصيلًا.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجوب مُناظَرة المُشرِكين ومُحاجَّتُهم، ويُؤخَذ الوُجوب من قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾؛ لأنَّ الأصل في الأَمرِ الوُجوب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه يَنبَغي أن يُستَدَلَّ بالأَوْضَح والأَبيَن، فإن الرِّزق من الله عَزَّوَجَلَّ أَمْر مَعلوم لا يَستَطيع أَحَدٌ أن يَقول: إنه يُنزِل المَطَر أو أنه يُنبِت النَّبات. وفي باب المُناظَرة يَنبَغي للإنسان أن يَستَدِلَّ بما هو أَبيَنُ وأَوْضَحُ، وهذه طريقة القُرآن كما سبَقَ لنا في (قواعِد التفسير).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جَواز إجابة السائِل عمَّا سأَل فيما هو واضِح؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، ومِثاله من الأُمور العادِيَّة، أن تُسأَل مثَلًا: مَن الذي جاءَ بكذا وكذا؟ فتَتَوقَّف أو تَتَلَعْثَم؛ إمَّا جَهْلًا أو مُكابَرةً، فأَقولُ: أَلَيْس فُلان هو الذي جاء به فأُقرِّره.

وإجابة السائِل إنما تكون في الأُمور الواضِحة، أمَّا في الأمور غَيرِ الواضِحة فقَدْ يُعارِض، ولا يَكون جوابُه مُقنِعًا، لكن في الأمور الواضِحة للسائِل أن يُجيب نَفسه إذا تَلَعْثَم الخَصْمُ ولم يُجِب، أمَّا إذا أَجاب فالأَمْرُ واضِح، وهذا الاستِفْهامُ المَوْجود في الآية الكَريمة أَجاب عنه المُشرِكون بالحَقِّ في مَوْضِعٍ آخَرَ في سورة يُونُس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جَواز مُحاجَّة الخَصْم بما يُعرَف -عند عُلماء المناظرة والجَدَل- في بابِ المُناظَرة بالسَّبْر والتَّقْسِيم، فالسَّبْر يَعنِي: تَتبُّع الشيء، والتَّقسيم يَعنِي التَّرديد بين هذا أو هذا، فمَثَلًا هُنا: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فإذا تَتبَّعنا الحالَ وَجَدْنا أن حال كلٍّ مِنَّا لا تَخرُج عن حالين: إمَّا هُدًى، وإمَّا ضَلال، وهي إمَّا لنا، وإمَّا لكم، وليس هناك شَيْءٌ ثالِث، وهذا يُعرَف بالسَّبْر والتَّقسيم.

ونَظيرُه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم:٧٧]، هَذِه دَعْواهُ: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ [مريم:٧٨]، يَعنِي: هل يَعلَم الغَيْب أنه سيُؤتَى مالًا وولَدًا: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أم أن الله تعالى أَعلَمَهُ بذلك وعَهِد به إليه، والقِسْم الثالِث الكَذِب؛

ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ [مريم:٧٩]، كلَّا: أي أنه لم يَطَّلِعِ الغَيْبَ، ولم يَتَّخِذ عند الرحمنِ تعالى ﴿عَهْدًا﴾، عهدًا: الشيءُ بين هذا وهذا حتى يَتبيَّن أنه لا بُدَّ أن يَكون أحدَ الأَمْرين.

مِثال ذلك: نحنُ أو أَنْتُم الآنَ أمامَنا طريقان هُدًى أو ضَلال؛ إمَّا نحن على الهُدَى وأَنتم على الضَّلال، أو نحن على الضَّلال وأَنتُم على الهُدَى، كذلك الآيةُ التي في سُورة مريمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ واضِحة جِدًّا ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم:٧٧-٧٨] وجهُ ذلك: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: هل هذا اطَّلَع الغَيْبَ وعَلِمَ أنه سيُؤتَى مالًا وولَدًا أم اتَّخذ عند الرحمن سبحانه عَهْدًا، أي: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَخْبَره وعَهِد له بأنه سيُؤتيه مالًا وولَدًا؛ لأن دَعْواهُ هذه إمَّا أن تَكون كذِبًا أو عنده عِلْم من الغَيْب أو عَهْد من الله تعالى، قال الله تعالى في هذا: ﴿كَلَّا﴾ يَعنِي: ولا هذا ولا هذا، إذا انتَفَى هذا وهذا ماذا يَبقَى له؟ يَبقَى الكَذِب أنها دَعوَى كاذِبة لا حقيقةَ لها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم:٧٩-٨٠].

ومنه أيضًا: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠]، والجوابُ: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، والجوابُ: أنهم قالوا على الله تعالى ما لا يَعلَمون.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التَّلطُّف مع الخَصْم والتَّنزُّل معه للوصول إلى الإقرار بالحَقِّ، من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فإنَّ هذا التَّنزُّل في غاية التَّنزُّل مع الخَصْم والتَّلطُّف معه؛ ليُقِرَّ بالحَقِّ، وانظُرْ إلى نَحوٍ من ذلك:

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]، ومعلومٌ أنَّ الله تعالى خَيرٌ، ولكن من باب التَّنزُّل معهم قِيل لهم: الله تعالى خيرٌ أم أَصنامُكم وآلِهتُكم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: المُبالَغة في التَّنزُّل مع الخَصْم، وتَحمُّل الغَضاضة للوُصول إلى الغاية المَقصودة؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ونَظيرُ هذا التَّنزُّل مع الخَصْم وتَحمُّل الغَضاضة: الشروطُ التي وقَعَتْ بين النبيِّ ﷺ وبين قُرَيْشٍ في صُلْح الحُدَيْبِية[1]؛ وكانت النَّتيجة والعاقِبة للرسول ﷺ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الإنسان لا يُسأَلُ عن عمَلِ غَيْره ولا يُسأَل غيرُه عن عمَلِه؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ونَظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر:١٨]، كلُّ إنسانٍ وعمَله، ويُستَثْنى من ذلك ما إذا كان عمَلُ الغير ناشِئًا عن عمَلِك، بأن تكون أنت الدَّالَّ عليه أو المُعينَ عليه، فإنَّ لك من وِزْره بقَدْر عمَلِكَ.

وأمَّا قول النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[2]، فهَذا لا يُخالِف الآياتِ الكريمةَ؛ لأنَّ حقيقة الأمر أنَّ وِزْر الغير مَبنِيٌّ على وِزْرك، فيَكون من فِعْلك فيَدخُل في إِجْرامِكَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم (٢٧٣١)، من حديث المسور ابن مخرمة، ومروان بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات السُّؤال عن العمَل؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿لَا تُسْـَٔلُونَ﴾ كُلٌّ مَسؤولٌ عن عمَله، ولو كان السُّؤال مُنتفيًا مُطلَقًا، ما صحَّ أن يُقال: لا تسألون عمَّا أجرَمْنا، فكُلُّ إنسان مَسؤولٌ عن عمَله ولا بُدَّ، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف:٦-٧]، وما دام الإنسان يُؤمِن بذلك، بأنه سيُسأَل عن عمَله، فسوف يَحرِص غاية الحِرْص، على أن يَكون عمَله مُوافِقًا لشَرْع الله تعالى.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ البَعْث والجَمْع، وهذا الجَمْعُ ثابِت بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩]، ويَدخُل فيه أيضًا الجَمْعُ في الدنيا في القِتال؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال:٤١].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الرَّدُّ على القَدَرية بقوله تعالى: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ ومَعلومٌ أن اجتِماعنا من فِعْلنا، فأَضافَه الله تعالى إلى نَفْسِه؛ لأنه هو المُدبِّر له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المُقدِّر له.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ حُكْم الله عَزَّوَجَلَّ كُلُّه حَقٌّ وعَدْل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعَدْل الذي ليس فيه ظُلْم ولا جَوْر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات ما قرَّره أهل السُّنَّة والجماعة من أنَّ اسم الله تعالى إذا كان مُتعدِّيًا لم يَتِمَّ الإيمان به إلَّا بالإيمان بكونه اسْمًا، وبما تَضمَّنه من صِفة وبما تَضمَّنه من أَثَر وحُكْم؛ لقوله: ﴿يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾، ثُم قال بعد ذلك: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ فدلَّ على أن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ المُتعدِّية تَتضمَّن الأحكام والآثار المُترتِّبة على ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: إثبات اسمَيْن من أَسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وهُما: (الفَتَّاح العليم)، وكما سبَقَ في الشرح: أن (الفَتَّاح) تَشمَل مَعانِيَ كثيرةً، الفَتْح بالنَّصْر وبالعِلْم وبالفَهْم وبالقَصْد الحَسَن وبغير ذلك، يَعنِي أنها اسْمٌ واحِدٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: إِثْبات العِلْم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، وأنه صِفة من صِفاته الثابِتة اللازِمة؛ لأنه مَوْصوف به أَزَلًا وأَبَدًا في كِتاب لا يَضِلُّ ربي ولا يَنسَى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: تهديد المُناظِر بالجَزاء المَجزوم به؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾؛ لأنَّ هذا يَتضمَّن التهديد؛ لأننا نَعلَم أنَّ الله إذا فَتَح بينهم فسيَكون الحقُّ مع المُسلِمين، بهذا عَرَفنا التَّرديد في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، والذين على هُدًى همُ المُسلِمون، وأن أُولئك على الضَّلال؛ لأنه لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الآية فيها تَرديدٌ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾، وما عرَفْنا مَنْ الذي على الهُدَى؟

الجوابُ: همُ الذين يَفتَح الله تعالى عليهم ويَنصُرهم على أَعدائِهم بالحقِّ.

• ● ❁ ● •

الآيــة (٢٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّاۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [سبأ:٢٧].

قوله تعالى: ﴿أَرُونِيَ﴾ يَقول المُفَسِّر: [أَعلِموني ﴿ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾] وعلى تَفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَكون هناك جُمْلة مَحذوفة: (أَروني الذين أَلْحَقْتم به شُركاءَ ماذا صنَعوا؟ هل خَلَقوا؟ هل رَزَقوا؟ هل فَتَحوا؟ هل هَدَوْا؟) كل ذلك لم يَكُن، ويُحتَمَل أن يَكون ﴿أَرُونِيَ﴾ أَبصِروني إيَّاه، من رُؤْية العَيْن، كما قال تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [فاطر:٤٠]، وأيًّا كان فالمُراد بهذا الاستِفْهامِ التَّحدِّي؛ تَحدِّي هؤلاءِ المُشرِكين الذين جعَلوا مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شُرَكاءَ قُلْ: هاتوا الشُّرَكاءَ أَروني ماذا صنَعوا.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ يَعني: جعَلْتموهم شُرَكاءَ في العِبادة، لا في الخَلْق والرِّزْق؛ لأن المُشرِكين في عهد الرسول ﷺ لم يَدَّعوا أَبَدًا أن أَصنامهم شَريكة مع الله تعالى في الخَلْق والرِّزْق والتدبير أَبَدًا، بل كانوا مُقرِّين بتَوْحيد الرُّبوبية، لكنهم يُنكِرون إفراد الله تعالى بالعِبادة فيَعبُدون مع الله تعالى غيرَه، وهذا لا يَنفَعهم؛ أي أن إِقْرارهم بالرُّبوبية لا يَنفَعهم مع إنكارهم لتَوْحيد الأُلوهية؛ نَقول: أَروني الذين أَحَقُّ من شُرَكائي في العِبادة.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ رَدْع لهم عنِ اعتِقاد شَريك، أو رَدْع لهم أو إبطال لما يُمكِن أن يَدَّعوه من اعتِقاد الشريك، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ يَعنِي: لا شَريكَ له، ففيها إبطال شِرْك هَؤلاءِ، بل إبطالٌ آخَرُ ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾ أي: هو الله، الجُملةُ هذه مُكوَّنة من مُبتَدَأ وخبَر ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾، وكِلاهما مَعرِفة، وقد قال أهل البَلاغة: إنه إذا عُرِّف المُسنَد والمُسنَد إليه في الجُملة الخبَرية كانت دالَّة على الحَصْر؛ مثال ذلك: تَقول: زَيْد قائِم. وتَقول: زيدٌ القائِمُ؛ الأُولى: زَيدٌ قائِمٌ. لا تَمنَع أن يَكون غيرُه قائِمًا، والثانية: زَيْدٌ القائِمُ. تَدُلُّ على الحَصْر، أي: أنه وحدَه القائِمُ؛ وهنا: ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾ جُملة خبَرية تُفيد الحَصْر، يَعنِي: ليس مَعبودٌ غير الله تعالى.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالِب على أَمْره الحَكيم في تَدبيره لِخَلْقه، فلا يَكون له شَريك في مُلْكه] في هذا قُصور جِدًّا.

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالِب] سبَقَ لنا أن العِزَّة لها ثلاثة مَعانٍ: عِزَّة القَدْر، وعِزَّة القَهْر، وعِزَّة الامتِناع، فهو عزيز القَدْر مثل قولِنا: فلان عَزيز عليَّ. أي: قَدْره عِندي عظيم، وعِزَّة القَهْر مثل قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ أي: غلَبَني فيه عِزَّة الامتِناع، أي: أن الله تعالى يَمتَنِع أن يَنالَه سُوء؛ لعِزَّته، ومنهم قولهم: (أَرْض عِزاز) أي: قوِيَّة صُلْبة.

أمَّا ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فتَقدَّم أن الحكيم مُشتَقٌّ من الحُكْم والإِحْكام، وأن الحُكْم كونيٌّ وشرعيٌّ، والإحكام يَكون في الكونيِّ والشرعيِّ في وَصْفه أو في صورته وغايته، وحينئذ تَكون الحَكيم دالَّة على أربعة أُمور: حُكْم كونيٌّ وحُكْم شرعيٌّ، وكل مِنهما مُحكَم في صُورته التي هو عليها وفي الغاية منه، فتكون المَجموع أربعة؛ اثنان في اثنين بأربعة.

وأمَّا قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تَدبيره إلى خَلْقه فلا يَكون له شَريك في مُلْكه] فهذا خطأ؛ لأن الشَّريك في المُلْك ما ادَّعاه المُشرِكون، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ نفسه في الأوَّل يَقول: شُرَكاءُ في العِبادة، فحِينئذ يَكون الصوابُ: فلا يَكون له شَريك في عِبادته، فما دام هو الذي له العِزَّة والغلَبة والحُكْم والحِكْمة فإنه لا يَنبَغي أن يَكون له شَريك في العِبادة، بل العِبادة له وحدَهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فيها ممَّا سبَق مِن أنه من آداب المُناظَرة سُلوك التَّحدِّي فيما يُعلَم امتِناعه من الخَصْم؛ لأنَّك إذا تَحدَّيْته في أمرٍ لا يُمكِنه وظَهَر عَجْزُه تَبيَّن بُطلان دَعواه، بخِلاف ما إذا تَحدَّيْته بأمرٍ يُمكِنه أن يَفعَله فإن هذا ضرَر عليك.

فلا تَتَحدَّى الخَصْم إلَّا بأَمْرٍ يُعجِزه ولا يَتمَكَّن منه هنا، يَقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ يَعني: أَعلِموني ماذا خَلَقوا؟ ماذا نفَعوا؟

الجوابُ: لم يَخلُقوا شيئًا، ولم يَنفَعوا شيئًا، ولم يَدفَعوا ضرَرًا كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢٠-٢١]، وقال إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وقوله تعالى: ﴿أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ يُستَفاد منها: أن الشِّرْك يَكون في العِبادة، كما يَكون في الخَلْق والتَّدبير، بمَعنَى أنَّ الشِّرْك يَكون في الأُلوهية كما يَكون في الرُّبوبية، ووجهُه: أنَّ هؤلاءِ المُشرِكين لم يَكونوا يُشرِكون في الرُّبوبية ولكنَّهم يُشرِكون في الأُلوهية والعِبادة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه لا يُمكِن أن يُرِيَ أحَدٌ من الناس أن لهذه الأَصْنام شيئًا من الخَلْق أو الرِّزْق أو التَّدبير، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ يَعنِي: لا يُمكِن أن تُرُوني شيئًا من هذه الأَصنامِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبـاتُ اسْمَـيْن من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهمـا: ﴿ٱلْعَـزِيزُ﴾ و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، وما تَضمَّناه من صِفة، وهي: العِزَّة والحِكْمة والحُكْم، يَعنِي الحَكيم ذو الحُكْم والحِكْمة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ أفعال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُمكِن أن تَقَع سَفَهًا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ وهو الذي لا يَقَع في فِعْله سَفَه، وهذا شيء مَعلوم بالضَّرورة، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص:٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُغلَب؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، وإذا آمَنْت بذلك واستَنْصَرْت به تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علِمْتَ أنك لا تُغلَب.

الآيـة (٢٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ:٢٨].

سبَقَ لنا أن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فصَّل في قوله في تفسير (العزيز) [بِغَالِبٍ]، وفي قوله: الحَكيمُ [بِتَدْبِيرِهِ لِلْخَلْقِ]، وأَخطَأ أيضًا في قوله: [فَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ]؛ لأنه ليس المَقام مَقام نَفيِ الشريك في المُلْك، إنما المَقام مَقام نَفيِ الشَّريك في العِبادة، إذ إنَّ هَؤلاءِ المُشرِكين يَعتَرِفون بأن الله تعالى لا شَريكَ له في مُلْكه.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ ﴾ حالٌ من الناس قُدِّم للاهتِمام، ﴿لِّلنَّاسِ﴾ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ ﴾، وهذا الاستِثْناءُ يُسمُّونه استِثْناءً مُفرَّغًا من أَعَمِّ الأَحْوال يَعني: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾ لأيِّ حال من الأحوال إلَّا لهذه الحالِ، يَعني: ﴿إِلَّا﴾ للناس ﴿ كَآفَّةٗ ﴾ بمَعنَى: جميعًا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾ الإِرْسال مَعناه: الأَمْر بتَبليغ الشيء؛ فأنت إذا أَرسَلْت شخصًا من الناس إلى شخص آخَرَ مَعناه أنك أَمَرْته أن يُبلِغ شيئًا ما إلى المُرسَل إليه؛ ولهذا قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في تفسير (الرسول): وهو الذي أُوحِيَ إليه بشَرْعٍ وأُمِرَ بتَبْليغه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾: ﴿لِّلنَّاسِ﴾ مَعناه: همُ البَشَر، وسُمُّوا ناسًا

من قولهم: أَنِس. إذا تَحرَّك وعمِل، وعلى هذا فيَكون الناس اسْمًا مُشتقًّا، وليس اسْمًا جامِدًا، قالوا: وأَصْله: (الأُناس)، لكنها حُذِفت الهَمْزة تَخفيفًا؛ لكَثْرة الاستِعْمال، ومثل ذلك قولُهم: شَرٌّ وخَيْر. كأَنْ تَقول: هذا خيرٌ من هذا. بمَعنَى: أَخيَرُ مِن هذا، فحُذِفتِ الهَمْزة للتخفيف؛ لكَثْرة الاستِعْمال، قالوا: ومِن ذلك (الله)، وأَصلُه الإِلَهُ؛ حُذِفتِ الهَمْزة للتَّخفيف؛ لكَثْرة الاستِعمال، على أن هذه المَسألةَ الثانِيةَ الأَخيرة فيها شيء من النَّظَر؛ لأن (الإِله) تَأتي إلى جانِب (الله)، وتَقول: هو الله الإِلَهُ العَظيمُ.. إلى آخِره.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ أَيْ: كُفَّارِ مَكَّةَ]، وهذا قُصور من المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأننا إذا قُلْنا: إنك أُرسِلْت إلى كُفَّار مَكَّةَ فغَيرُهم لم يُرسَل إليهم، وهذا قُصور عظيم جِدًّا؛ كيف تَأتي كلِمة (الناس) في مَقام الرِّسالة ونَقول: المُراد بها كُفَّارُ مَكَّةَ.

والصوابُ: المُراد بها كُفَّارُ مَكَّةَ وغَيْرهم، وكُلُّ الكُفَّار إلى يوم القِيامة، وليس في حَياته فَقَطْ، إلى يوم القيامة للناس عُمومًا.

وقوله تعالى: ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ أي: مُبشِّرًا للمُؤمنين بالجَنَّة، ونَذيرًا: مُنذِرًا للكافِرين بالعذاب، بَشيرًا: حالٌ أيضًا من الكاف في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿بَشِيرٗا﴾ (فَعيلٌ) بَمعنَى (مُفَعِّل) أو (بَشير) بمَعنى: بِبشارة، و(فَعيل) تَأتي بمُعنَى (مُفعِّل) كما أَسلَفْنا ذلك كثيرًا، وقوله تعالى: ﴿بَشِيرٗا﴾ للمُؤمِنين بالجَنَّة ﴿وَنَذِيرٗا﴾ للكافِرين بالنار، ويَنبَغي أن يُقال: بَشيرًا للمُؤمِنين بالجَنَّة -كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ- ونَذيرًا للعاصِين بالعُقوبة؛ ليَشمَل الإنذارَ عن الكُفْر والإِنْذار عن المَعاصي، بمَعنَى: أنه حتى المَعاصي رُتِّبَت عليها عُقوباتٌ، من أَجْل أن تَردَع الإنسان عن فِعْلها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فيها دليل على أن مُحَمَّدًا ﷺ عَبْد مَأْمور لا رَبٌّ آمِرٌ؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عُموم رِسالة النبيِّ ﷺ على رَأْيِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ فهو كَقَوْله ﷺ: «وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[1]، أو لقوله تعالى: ﴿لِّلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ (الناس) هُنا تُفيد العُموم؛ لأن فيها رَأْيًا آخَرَ يَقول: (كافَّة) بمَعنَى: (كَافٍّ)؛ يَعنِي: إلَّا تَكُفُّ الناس عن الشِّرْك والعِصيان، أو إلَّا كافَّة للناس، أي: جامِعًا لهم على التَّوْحيد والإِخْلاص، وعلى هذا فتكون حالًا من الكافِ في قوله تعالى: ﴿ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ والتاء فيها على هذا المَعنَى للمُبالَغة، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل:١٢٠] أي: إمامًا، وكما يُقال: هذا عَلَّامة، أي: علَّام، لكن تكون التاء للمُبالَغة، فصار عِندنا في (كافَّة) قَوْلان: أن تكون حالًا من الناس مُقدَّمة عليها، وأن تكون حالًا من الكاف في قوله تعالى: ﴿ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾، وعلى هذا الوَجْهِ تكون ﴿ كَآفَّةً ﴾ بمَعنَى: (كافّ) أي: جامِع، أو (كافّ) أي: مانِع تَكُفُّ الناس، ونَستَفيد العُموم من قوله تعالى: ﴿لِّلنَّاسِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ رسالة النبيِّ ﷺ تَتَضمَّن شَيْئَيْن: هُما البِشارة والإنذار، البِشارة للطائِع بالثواب، والإنذار للعاصِي بالعُقوبة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإشارة إلى الحِكْمة من إرسال الرُّسُل، وهي التَّبشير والتَّنذير؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»، رقم (٤٣٨)، ومسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم (٥٢١)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء:١٦٣-١٦٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ أكثَرَ الناس لا يَعلَمون الحِكْمة من إرسال الرسول ﷺ، ولا يَعلَمون أنَّه رسول، أمَّا الأوَّل فواضِح: أنَّ أكثَرَ الناس لا يَعلَمون الحِكْمة من إرسال الرُّسُل، وأمَّا الثاني ففيه نظَرٌ؛ لأنَّ الرِّسالة بلَغَتْ أكثَرَ الناس، وستَبلُغ الناس جميعًا حتى تَقوم عليهم الحُجَّة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الأكثَرية لا يَلزَم أن يَكون الصوابُ معها، لأن أكثَرَ الناس لا يَعلَمون فهُمْ في جَهْل، إذ إنَّ المُتمَسِّك بالأديان قَليلٌ، والمُتمَسِّك بالأديان هو صاحِب العِلْم، وهو صاحِب اليَقين.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ الأَسباب، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ على المَعنَى الأَخير الثاني الذي هو (كافَّة) بمَعنَى: مانِع؛ لأن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سبَب، وليس بمُوجِب، فهو سبَب للهِداية، ولكن: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات أفعال الله تعالى الاختِيارية، تُؤخَذ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾؛ لأنَّ هذا فِعْل من الأفعال المُتعَلِّقة بمَشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إقامة الحُجَّة على الخَلْق؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ فلَمْ يَبقَ لأَحد حُجَّة على الله بعد الرُّسُل، وهل يُؤخَذ

منها عُذْر مَن لم تَبلُغه الرِّسالةُ؟

الجوابُ: نعَمْ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾؛ لأنَّ مَن لم تَبلُغْه الرسالةُ لم تَتَحصَّل له بِشارة ولا نِذارة.

فَإِنْ قِيلَ: ما حُكْم مَن لم تَبلُغه الرسالة؟

فالجوابُ: حُكْمه أنه لا يَخلُو من أَمْرين: إمَّا أن يَكون مُقصِّرًا في طلَب الحَقِّ فهذا لا عُذرَ له؛ لأنه مُقصِّر، وإمَّا ألَّا يَكون مُقصِّرًا بحيثُ لم يَبلُغْه أيُّ شيء عن الرِّسالات، ولم يَطرَأ في قلبه أيُّ شيء من ذِكْر الرِّسالات فهذا نَقول: إنَّه يُحكَم له في الدنيا بما هو عليه من دِين، وأمَّا في الآخِرة فأَمْره إلى الله تعالى، ما نَشهَد عليه بشيءٍ.

الآيــة (٢٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سبأ:٢٩].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يَعنِي: المُكذِّبين للرسول ﷺ الذين تَوَعَّدوا بالعذاب والنَّكال فيَقولون مُتَحَدِّين ومُستَبعِدين ومُنكِرين: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾: ﴿مَتَىٰ﴾ اسمُ استِفْهام المُرادُ به الإِنْكار والتَّحدِّي.

وقوله: ﴿ٱلْوَعْدُ﴾ أي: بالعَذاب الذي وَعَدْتُمونا به، ويُحتَمَل أن يَكون ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بالنَّصْر لكم؛ لأنَّ المَعروفَ أنَّ الوَعْد بالخَيْر وبالشَّرِّ وَعيدٌ، ولكن قد يُقال: إن الوعيدَ لهؤلاء الكُفَّارِ هو بالنِّسبة للمُؤمِنين مَعدوم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بالعَذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيه، يَعنِي: إن كُنْتم صادِقين بما تَقولون من أنَّ العَذاب سيَحِلُّ بنا وسنُعاقَب، والصِّدْق: هو الإِخْبار بما يُوافِق الواقِع، والكَذِب: الإِخْبار بما يُخالِف الواقِع، فإذا قلتَ: (قدِم زَيْدٌ البلَد) ولم يَكُن قدِمَ فهو كذِب؛ لأنـه خِلاف للواقِع، وإذا قلـتَ: (قدِمَ زَيْد البَلَد) وقد قدِم فهو صِـدْق؛ لمُوافَقة الواقِع، فيَقولون: إن كُنْتم صادِقين فمتى يَكون هذا؟

وهذا كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الساعة: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾

[الشورى:١٧-١٨]، فالكُفَّار يَستَعجِلون العذاب تَكذيبًا للرُّسُل عليهم الصلاة والسلام.

قال الله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء:٢٠٤-٢٠٧]، يَعنِي: أي شيء يُغنِي عنهم، فمهما طال بهمُ الأَمَدُ فإن المَسألة مَحدودة مَعدودة ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ فهُمْ يَتحدَّوْن ومع ذلك أحيانًا يَتحدَّوْن كذِبًا، فإنهم قالوا حين أُخبِروا بالبَعْث، قالوا مُتَحدِّين للرُّسُل عليهم الصلاة والسلام: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الدخان:٣٦]، وهل قِيلَ لهم: إن آباءَهُم يَأتون الآنَ. حتَّى يُوجِّهوا الصورة إلى هذا؟ لا، بَلْ قِيل لهم: إن آباءَهُم سيُبعَثون يومَ القِيامة. لكنهم يُموِّهون على العامَّة بمِثْل هذه الدَّعاوَى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَمرُّد الكُفَّار في طُغيانهم حيث قالوا مُتَحدِّين للرُّسُل: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ وهذا غايةُ ما يَكون في التَّمرُّد والطُّغيان؛ لأنهم لو كان عِندهم أَدنَى شيءٍ من الإيمان لكانوا يَخافون ممَّا أُوعِدوا به؛ لكن لتَمرُّدهم وطُغيانهم -والعِياذُ بالله تعالى- قالوا هذا القولَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنهم كذَّبوا الرُّسُل فيما قالوا؛ لقولهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيانُ الأساليب التي يَقوم بها دُعاة الباطِل حيثُ يَتحدَّوْن أهل الحقِّ بمِثْل هذا التَّحدِّي مع العِلْم بأن الوعيد بالعَذاب أو نَحوه كالآيات تَمامًا،

والآياتُ عِند الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:٥٠]، وكذلك العذابُ الذي وُعِدت به الرُّسُل ليس هو بأيديهم حتى يَقولوا: أَرُونا العذابَ قال هذا العذابُ! والعَذاب عند الله تعالى!!.

ولهذا كان جوابُ الرُّسُل بأمر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ:٣٠]، فالأَمْر ليس كلَّما طلَبْتم أَعطَيْناكم، ولكن هناك شيء فوقَنا جميعًا، وهو الله عَزَّوَجَلَّ، هو الذي يُقدِّر هذه الأشياءَ، فكما أن المُشرِكين إذا طلَبوا آياتٍ يُقال لهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، فإذا طلَبوا نُزول العَذاب نقول: ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾، وليس الأَمرُ إلينا.

وهم لا يَقولون ذلك إلَّا تمويها على الناس وتَغريرًا بالعامَّة، فيَقولون: انظُرْ هؤلاءِ يَتوعَّدوننا إذا كفَرْنا بهم بالعَذاب! فأين العذابُ!.

المُهِمُّ: أننا نَأْخُذ من ذلك: بيان أساليب دُعاة الضَّلال حيثُ يُنوِّعونها بكل ما يَستَطيعون من الشِّدَّة وإضلال الخَلْق.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ:٣٠].

وهو يوم القِيامة.

وقوله تعالى: ﴿مِّيعَادُ﴾ يُحتَمَل أن يَكون ظَرْفَ مَكان أو زَمان، ويُحتَمَل أن يَكون مَصدَرًا مِيمِيًّا؛ والمَعنى: أنَّ لكم وَعْدًا يَكون في يوم لا تَستَأخِرون عنه ساعةً ولا تَستَقدِمون عليه، وذلك لأن الله عَزَّوَجَلَّ بحِكْمته البالِغة قَدَّر لكل شيءٍ أجَلًا مُعيَّنًا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨]، فكل شيء بمِقدارٍ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومُحدَّد بأَجَله، فالعَذاب لا يُقدِّمه استِعْجالهم ولا يُؤخِّره، إذا جاء لا يَتقدَّم ولا يَتأَخَّر.

وفي هذا الجوابِ من التَّهديد لهم ما هو ظاهِر، كما لو قُلتَ لإنسانٍ: إنَّ عِندي لك مَوعِدٌ لا يَتقدَّم ولا يَتأَخَّر. فالمَعنَى: احذَرْ من هذا اليومِ.

وقول المُفسِّر: [هُوَ يَوْم الْقِيَامَةِ] هذا لا شَكَّ أنه مُحتَمَل، لكن فيه احتِمالٌ آخَرُ، أنه يوم القيامة ويوم مَوْتهم أيضًا، فإن يوم مَوْتهم يُشاهِدون العَذاب، قال الله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال:٥٠-٥١].

فهذا اليومُ يَجِدون فيه العذاب قبل يوم القِيامة ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

وفي سورة الدُّخان: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان:١٠-١٦]، وهذا حَصَل في بَدْر حين قُتِل شُرَفاؤُهم وساداتُهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ أنَّ العذاب مُؤقَّت، لا يَتقدَّم باستِعْجالِ مَنِ استَعجَله ولا يَتأخَّر بطلَب مَن طلَب أن يُؤخَّر.

ونَظيرُ ذلك قولُه تعالى عن نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح:٤].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن أفعال الله عَزَّوَجَلَّ مُحررة مُنظَّمةٌ كلَّ شيءٍ بأجَل مُقدَّر، وقد أَشار الله تعالى إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ الجَزاء؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾.

الآيــة (٣١)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾ [سبأ:٣١].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ] لا يَنبَغي أن نُخصِّص ما عمَّمه الله عَزَّوَجَلَّ، فالصواب: وقال الذين كفَروا من أهل مكَّةَ وغيرِهم، قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ -والعِياذُ بالله تعالى- أَتَوْا بـ(لَن) الدَّالَّة على تَأكيد النَّفيِ، ولم يَقولوا: لا نُؤمِن. بل قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ﴾ يُؤكِّدون انتِفاء إيمانهم بالقُرآن في المُستقبَل.

وقوله تعالى: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ هذه الإشارة للقَريب تَحقيرًا له، كما في قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء:٣٦]، ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان:٤١].

وقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ على وَزْن (فُعْلان) فهل هو بمَعنَى: المَقروء، أو بمَعنَى: القارِئ، أو هو مَصدَر بمَعنَى الجَمْع؟

الجوابُ: أنَّ فيه خِلافًا عِند عُلَماء العَرَبية رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، والصوابُ: أنه مُتضَمِّن للمَعاني كُلِّها فهو قارِئ؛ أي: جامِع؛ لأنه مُهَيْمِن على الكُتُب السابِقة وجميع ما فيها

من المَصالِح مَوْجودٌ فيه وهو مَقروء؛ لأنَّ الناس يَقرَؤُونه ويَتْلونه، وهو جَمْع أيضًا؛ لأنه جامِعٌ لكل شيء والفُعْلان بمَعنَى المَصدَر وارِد ومَوْجود في اللُّغة العربية، مثل: الشُّكْران والكُفْران والنُّكْران، وما أَشبَه ذلك.

والمُراد بالقُرآن هنا الكِتاب الذي أَنزَله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على مُحَمَّد ﷺ وهو اسمٌ خاصٌّ به بهذا القُرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يَعنِي: ولا نُؤمِن بالذي [تَقَدَّمَهُ كَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ الدَّالَّيْنِ عَلَى الْبَعْثِ بِإِنْكَارِهِمْ لَهُ] يَعنِي ولا نُؤمِن أيضًا بالذي بين يَدَيْه، والمُراد على رَأْيِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما بَيْن يَدَيْه: ما سبقَه، وليس ما يَأتِي بعدَه، ويُحتَمَل أن المُراد بقَوْله: ولا بالَّذي بين يَدَيْه، أي: ما يَأتي ممَّا أَخبَر به، فإنَّ ما بين يدَيِ الشيء مُستَقِرٌّ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [طه:١١٠]، والمَعنَيان صَحيحان، وإذا كانت الآيةُ تَحتَمِل مَعنَيَيْن صَحيحين لا يَتَنافَيان وجَبَ حَمْلُها على الجميع؛ لأنَّ القُرآن شامِل وواسِع، فقوله تعالى: ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ولا بالَّذي يَأتِي بعده ممَّا أَخبَر به أو (ولا بِالَّذي بين يَدَيْه) ما تُقدِّمه من الكُتُب كالتَّوْراة والإنجيل.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يا مُحَمَّدُ ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ أي: ﴿وَلَوْ﴾ شَرْطية، وفِعْل شَرْطها ﴿تَرَىٰٓ﴾، وهي غَيرُ جازِمة وجوابُها مَحذوف؛ أي: لرَأَيْتَ أَمْرًا فظيعًا، وجوابُ الشَّرْط في مِثْل هذا التَّركيبِ أَعظَمُ من ذِكْره؛ لأن النَّفْس تَذهَب في تَقديره كل مَذهَب من الفَظاعة والبَشاعة.

و(لو) تَأتي باللُّغة العَرَبية على عِدَّة مَعانٍ؛ تَأتي بـ(ما) الشَّرْطية كما هنا، وتَأْتي

مَصدَرية كما في قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَا مُحَمَّدُ] قصَرَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الضميرَ على الرسول ﷺ، مع أنه يَحتَمِل أن يَكون المُراد به كلُّ مُخاطَب؛ يَعنِي: ولو تَرَى أيُّها المُخاطَب حالَ هَؤلاء لرَأَيت أمرًا فظيعًا.

وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: ﴿إِذِ﴾ بمَعنَى: (وَقْت) أو (حين) فهي ظَرْف زمان، و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مُبتَدَأ و﴿مَوْقُوفُونَ﴾ خبَرُه، والمُراد بالظالِمين هنا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الْكَافِرُونَ]، وإنما خصَّها بالكافِرين مع أنَّ الظُّلْم أعمُّ بقرينة السِّياق، حيث قال الله عَزَّوَجَلَّ في آخِرها: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [سبأ:٣٣]، فكان المُراد بالظالِمين هنا الكافِرين.

وهل كل ظالِم كافِر؟

الجوابُ: لا؛ ولهذا لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: نَحمَد الله تعالى أَنْ لم يَقُل: والظالِمون هم الكافِرون.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: مَحبوسون، فمَعنى (وَقَفَه) أي: حبَسَه، ومِنه سُمِّيَ الوَقْف للمال الحَبيس الذي تُحبَس عَيْنه وتُسبَّل مَنْفَعته، فمَعنى ﴿مَوْقُوفُونَ﴾ أي: مَحبوسون عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ولم يَقُلْ: عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ مِثل هذا الفِعْلِ العظيمِ الدالِّ على العظَمة يَتَناسَب مع الرُّبوبية، لكَمال رُبوبيته عَزَّوَجَلَّ وكَمال مُلْكه وسُلْطانه، تَجِد هؤلاءِ الظلَمةَ الذين عندهم من العُتُوِّ والاستِكْبار والعِناد في الدنيا في أذَلُّ شيء أمام رُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿يَرْجِعُ﴾ بمَعنَى: يَرُدُّ؛ وعلى هذا فتكون مُتعَدِّية؛ لأن رَجَع تَأتي لازِمةً وتَأتي مُتعَدِّية، فقَوْلُك: رجَعْتُ من مكَّةَ إلى المدينة. هذه لازِمة؛ لأنها لم تَنصِب المَفعول، وقوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة:٨٣]، هذه مُتعَدِّية، وهنا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ فهذه مُتعَدِّية؛ أي: يَردُّهم، و﴿ٱلْقَوْلَ﴾ هنا مُبهَم ومُجمَل، ثُمَّ فصَّله بقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾.

وفائِدة الإِبْهام المُفصَّل عظيمة؛ لأنه إذا أَجمَل أَوَّلًا وأَبهَم، فإن النَّفْس تَتطلَّع إلى بيان ذلك الشيءِ وتَفصيله، فعندما أَقرَأُ: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ ماذا يَكون ذِهْنك؟

الجوابُ: يَكون ذِهْنك مُتَطَلِّعًا إلى بيان هذا القولِ الذي يَتَراجَعونه، لكن لو قال: «ولو تَرَى إذِ الظالِمون مَوقوفون عند رَبِّهم يَقول الذين استُضْعِفوا» هكذا جاءَت لم يَكُن لها من التَّمكُّن في الذِّهْن مِثل ما كان لها حينما أُبهِمَ القَولُ، ثُم بُيِّنَ أو أُجمِل، ثُم فُصِّل.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ ماذا يَقولون؟ [﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ الْأَتْبَاعُ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ الرُّؤَسَاءِ ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ صَدَدْتُمُونَا عَنِ الْإِيمَانِ ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بِالنَّبِيِّ] (لولا) هذه شَرْطية، ويُقال فيها: حَرْف امتِناع لوجوب؛ لأنه امتَنَع جوابُها؛ لوجود شَرْطها، وتَأتي (لولا) الشَّرْطية كما هنا، وتَأتي للتَّحضيض، كما في قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور:١٣] وتَأتي للنَّفْي، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس:٩٨]، المَعنَى: فما كانت قَرية آمَنَتْ فنَفَعها إيمانُها إلَّا قوم يُونُسَ لَمَّا آمَنوا، وهنا يَقول: لولا أَنتُمْ.

وابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول:

وَبَعْدَ لَوْلَا غَالِبًا حَذْفُ الخَبَرْ حَتْمٌ.....[1]

فالمُبتَدَأ مَوجود هنا وهو (أنتُم)، والخَبَر محذوف قدَّره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقَولِه: [صَدَدْتُمُونَا] وعَرَف أنه في هذا اللَّفْظِ من قولهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ فلا نُقدِّر هنا: لولا أنتم مَوْجودون؛ لأنَّ الصدَّ أخَصُّ من مُطلَق الوجود، وإذا كان لنا طريقٌ إلى تَقدير الأخَصِّ فهو أَوْلى من تقدير الأعَمِّ.

ولهذا قُلْنا: إن القارِئَ إذا قال: (بسم الله الرحمن الرحيم) يُقدِّر المُتعَلِّق بقوله: أَقرَأُ. لا بقَوْله: أَبتَدِئ؛ لأنَّ (أَبتَدِئ) عامَّة و(أَقرَأُ) خاصَّة، وهنا يُمكِن أن نَقول: لولا أنتم مَوْجودون. لكن ما دُمْنا نَجِد فِعْلًا أخَصَّ وهو الصدُّ المَدلول عليه بقوله تعالى: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾ فإنه يَجِب أن نُقدِّر لولا أَنتُمْ صدَدْتُمونا ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ هذا هو جَواب الشَّرْط لكُنَّا مُؤمِنين؛ ولهذا اقتَرَن باللام.

وقوله: [﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بالنبيِّ] ﷺ، والأصحُّ أنَّه أَعَمُّ، أي: لكُنَّا مُؤمِنين بما تَشمَله رِسالة النبيِّ ﷺ، من الإيمان بالله تعالى، ومَلائِكته وكتُبِه ورُسُله واليوم الآخِر، وبغير ذلك ممَّا يَجِب الإيمان به.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ عُتوِّ هؤلاءِ الكافِرين، وأنهم لم يَرجُوا الإيمانَ، بل قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: مُبالغَتُهم في الطُّغْيان والعُدوان، حيث أَشاروا إلى القرآن الكريم

(١) الألفية (ص:١٨).

بما يَدُلُّ على التَّحقير في قوله: ﴿بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، فإن الإشارة هُنا بالقريب لدُنُوِّ مَرتَبَته على زَعْمهم.

وفيه أيضًا من تَماديهم في الطُّغْيان أنهم قالوا: لن نُؤمِن به، ولا بالذي بين يَدَيْه. سواءٌ قُلْنا: إن الذي بين يَدْيه: ما أَخبَر به عن المُستَقبَل، أو: ما سَبَقه من الكُتُب؛ فإن هذا يَدُلُّ على المُبالَغة في العُتُوِّ والعِناد.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ إلخ؛ بيانُ عِظَم عُقوبة هؤلاءِ المُكذِّبين؛ لأن تَقدير الجَواب يَدُلُّ على ذلك، وقد قدَّرْناه في تفسيرِنا: بأنه لرأَيْت أمرًا عظيمًا أو فظِيعًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الكُفْر ظُلْم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأنه قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ثُمَّ قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ويُؤيِّد ذلك قولُه تعالى في سورة البقَرة: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: حُسْن الإظهار في مَوْضع الإِضْمار إذا اقتَضَتِ البَلاغة ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ولم يَقُل: ولو تَرى إذ هُمْ مَوْقوفون.

وللإِظْهار في مَوْضِع الإِضْمار فوائِدُ:

منها إرادةُ العُموم، بحيث يَشمَل هؤلاءِ المَذكورين وغيرَهم.

ومنها بَيانُ وَصْف لَمن يَعود الضمير عليه لم يَكن مَوجودًا من قبلُ، بمعنى: التَّسجيل عليهم بما يَقتَضيه هذا الوَصْفُ، إذ إنه لو قيل: ولو تَرى إذ هم مَوْقوفون ما استَفَدْنا أن هؤلاءِ كانوا ظالِمين، فلما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ سجَّل عليه أنه ظُلْم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات البَعْث والجزاء؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وهو أَحَدُ أركان الإيمان السِّتَّة التي لا يَتِمُّ الإيمان إلَّا بها.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إظهارُ النَّدَم من هؤلاء حيثُ صار كلُّ واحِد منهم يَحمِل الأفعال السَّيِّئة على الآخَر؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن من الفَصاحة: ذِكْر القول مُجمَلًا، ثُم يُفصَّل، فإن هذا من البَلاغة؛ لِمَا أَشَرْنا إليه من التفسير من أنه ذَكَر مُجمَلًا تَشوَّفتِ النفسُ إلى مَعْناها والتَّفصيلِ فيه، حتى يَرِد إليها وهي مُشتاقة إليه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات الأسباب؛ تُؤخَذ من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾، وهو صحيح من وجهٍ؛ وهو أنهم سبَب في إضلالهم، لكنه لا عُذْرَ لهم فيه؛ لأن الله تعالى أَعطاهم قُدْرة واختِيارًا، وأَرسَل إليهم الرُّسُل، وبيَّن لهم الحقَّ؛ فنحن نَقول: نعَمْ، لولا هؤلاءِ الدُّعاةُ لكانوا مُؤمِنين؛ لأن الدَّعْوة تَسلَم من المُعارِض، ولكنه لا عُذْرَ لهم؛ لأنهم باستِطاعَتهم أن يُخالِفوهم ويُؤمِنوا.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ:٣٢].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ ردُّوا عليهم القولَ: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ فكان الرَّدُّ هو: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾؟ والاستِفْهام هنا بمَعنَى النفيِ، يَعنِي: لم نَصدَّكم عنِ الهُدَى بعد إذ جاءَكُم، بل أنتم الذين اختَرْتُمُ الكُفْر، وهنا صدَق قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة:١٦٦]، فهنا قال تعالى: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾ يَعنِي: نحن مُتبَرِّئون مِنكم، ولا أَجبَرْناكم على الكُفْر، بل أنتم الذين اختَرْتم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿صَدَدْنَٰكُمْ﴾ أي: صرَفْناكم.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ هذا من باب تَحقيق مَجيءِ الهُدَى ووضوحه، وهذا إقرارٌ من هؤلاءِ الرُّؤَساءِ المُستكْبِرين على أنَّ الهُدى قد جاء وبان ووضَح ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَقدِيرها: [لَا] إشارة إلى أنَّ الاستِفْهام هنا للنَّفْيِ، وكُلَّما جاءت كلِمة (لَا) بعد الاستِفْهام فإن تَرجَمَتَها أنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَرَى أن الاستِفْهام هنا للنَّفْي، ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ في أَنفُسِكم

-والعِياذُ بالله تعالى- في الدُّنيا تَجِد يَأتي إليه المُستكْبِر هذا الرئيسُ يَدعوه بلُطْف تامٍّ، وفي الآخِرة يَلعَن بعضُهم بعضًا، ويَتبَرَّأ بعضُهم من بعضٍ.

وانظُرْ إلى مَلِك غسَّانَ لَمَّا بلَغه أن النبيَّ ﷺ هجَرَ كَعْبَ بنَ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَرسَل إليه خِطابًا لطيفًا رَقيقًا وقال له: إنه بلَغَنا أن صاحِبَك قد هجَرَك، فأْتِ إلينا نُواسِكَ[1]. انظُرْ إلى التَّلطُّف!! ولكن لم يَنخَدِع كَعْبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لإيمانه، وخاف أن يَنخَدِع في المُستَقبَل فذهَبَ إلى التَّنُّور وأَوْقَد هذه الورَقةَ، وهكذا كل شيء تَخشَى على نَفْسك منه في المُستَقبَل يَجِب عليك أن تُتْلِفَه، لا تَقُلْ: إني الآنَ ما يُمكِن أن أَفعَل هذا الشيءَ أبَدًا، ولا يُمكِن أن أَضِلَّ به، صحيح أنك في بادِئ البَدْء قد لا تَنخَدِع، لكنَّ الشيطان يَعمَل عمَله؛ ولهذا يَجِب عليك أن تُتْلِفَ كُلَّ ما تَخشَى أن تكون عاقِبَتُه عليك وخيمةً.

الحاصِلُ: أنَّ هؤلاءِ في الآخِرة ما يَتوَدَّدون ولا يَتَلطَّفون ولا يَفهَمون هؤلاءِ الأَتباعَ.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ والإجرام هو الذَّنْب الذي لا يَرتَفِع.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن هؤلاءِ الرُّؤَساءَ كانوا مُستكْبِرين مُستَعْلين على المَرؤُوسين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيانُ تَبرُّؤِ المَتبوعين من الأَتْباع؛ لقولهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم (٤٤١٨)، ومسلم: كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم (٢٧٦٩)، من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمْ﴾، ويُشير إلى هذا في قوله تعالى في سُورة البقَرة: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة:١٦٦]، وقوله عَزَّوَجَلَّ عن إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين قالَ لقَوْمه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت:٢٥].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: دَليلٌ على أن الهُدى قد تَبيَّن لهؤلاءِ الكُفَّارِ؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمْ﴾، وهذا إقرار مِنهم واعتِراف بأن الهُدَى قد جاء، ولكِنَّهم استَحبُّوا العَمَى على الهُدَى؛ نَسأَل الله العافِيةَ!.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الإِجْرام لهؤلاءِ الأَتباعِ من مَتبوعيهم، حيث قالوا: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾، فأنتم الذين فعَلْتم هذا بأَنفُسكم، فلا تَلومونا ولُوموا أَنفُسكم، وهو نَظيرُ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم:٢٢].

• • ۞ • •

الآيـة (٣٣)

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إضراب على إضرابهم، فأولئك: قالوا: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ إضراب عَنْ قولهم: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ فأَضرَبوا عنهم، يَعنِي: قابَلوهم بإضرابٍ آخَرَ، قالوا: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: مَكْرٌ فيهما مِنكم بِنا، مَكْر الليل والنهار، و(مَكْر) هنا مُضاف إلى الليل، على تقدير (فِي)؛ لأنَّ الإضافة قد تَكون على تقدير (مِنْ)، وعلى تَقدير اللام، وعلى تَقدير (فِي)؛ فإن كان الأَوَّل من الثاني؛ يَعنِي بأن كان الثاني جِنْسًا للأَوَّل؛ فهو على تقدير (مِن)، وإذا كان الثاني ظَرْفًا للأوَّل فهو على تقدير (فِي)، وما عدا ذلك فعلى تقدير اللَّام.

وتَكون الإضافة على تقدير (مِن) إذا كان الثاني جِنْسًا للأَوَّل، وعلى تقدير (فِي) إذا كان الثاني ظَرْفًا للأَوَّل، وعلى تَقدير اللَّام فيما عدا ذلك، نحو: خاتَمُ حديد، على تقدير (مِنْ)، ومِثاله: ثَوْبُ خَزٍّ، على تقدير (مِن).

وعلى تقدير (فِي): مَكْرُ الليلِ، أي: مَكْرٌ في الليل.

ما هو المَكْر؟

قالوا في تَعريف المَكْر: إنَّه التَّوصُّل بالأسباب الخَفِيَّة إلى الإيقاع بالمُقابِل؛ يَعنِي: بالذي قابَلَك، أو إن شِئْت فقُلْ: بالخَصْم. و(مَكْر الليلِ) أُضيف المَكْر هُنا إلى اللَّيل؛ لأنَّه ظَرف، والنَّهار كذلك.

أمَّا من أيِّ جِهة وقَع هذا المَكْرُ فهو من المُستكبِرين؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَكر فيهما مِنكم بنا] يَعنِي: أنتم تَمكُرون بنا ليلًا ونَهارًا، تَأتون إلينا تَخدَعوننا تَقولون - مثلًا-: مُحمَّد فيه كذا، ومُحمَّد فيه كذا، ومُحمَّد لن يَنتَصِر، ومُحمَّد خالَف آباءَه، ومُحمَّد سبَّ آلِهَتَنا؛ وما أَشبَه ذلك، وهكذا عادة الرُّؤَساء بالنسبة للأَتْباع يَأتون بهم على سبيل المَكْر والخِداع؛ وزعيمهم في ذلك إبليسُ حيث قاسَمَ آدَمَ وحواءَ؛ قاسَمَهما: إني لكما من الناصِحين، يَعنِي: أَقسَم لكُلٍّ واحِد منهما، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢١-٢٢]، فهؤلاء الكُفَّارُ المُستكبِرون السادة والرُّؤَساء لا يُمكِن أن يَخدَعوا هؤلاء إلَّا بمَكْر؛ لأن الحقَّ مَقبول لدى الفِطَر، ولا يُمكِن صدُّ هذه الفِطْرةِ إلَّا بخِداع ومَكْر.

فلهذا انتَبِهوا لدعوة أهل الشَّرِّ والفَساد فإنهم لن يَأتوا إليكم ويَقولوا - مثلًا-: ازنُوا! اشرَبوا الخَمْر! ولكنهم يُخادِعون، ويَأتون بأسباب الزِّنا وطُرُق الزِّنا بسبيل التَّقدُّم والحُرِّية والمُساواة وما أَشبَه ذلك؛ فمثلًا: خلُّوا المَرأةَ تَخرُج للسُّوق مُتبَرِّجةً، وخلِّها تُشارِك الإنسان في العمَل، ودعوها تُشارِكه في الدِّراسة ودعوها تَكون إلى جَنْبه في الكُرسيِّ، فأنتم إذا جعَلْتم المرأةَ تُخالِط الرَّجُل وتَمشِي معه زالت الغَريزة الجِنْسية في نفوس كل واحد منهما، لأنه سيَكون الأمر عاديًّا بينهما، فجُلوسه لجَنْب امرأة كجُلوسه بجانب ذكَرٍ، لكن إذا حبَسْتم ذلك وقُلْتم: إن الرجال هنا

والنِّساء هنا. اشتاقَتْ نُفوس كلِّ واحِد منهم إلى الآخَر، وحينئذٍ يَزداد طلَبُ الرجُل للمرأة والمرأةِ للرجُل!!

وانظُرْ كيف هذا الخِداعُ؟! وماعلِموا أنهم إذا اختَلَطوا حصَل الزِّنا، بل لُمجَرَّد الاختِلاط تَحصُل مَفسَدة وما حصَلت الحوامِلُ سِفاحًا والعاهِراتُ والفاجِراتُ إلَّا بالاختِلاط، لكِنَّ هؤلاءِ الدُّعاةَ إلى الشَّرِّ يَمكُرون بالناس؛ لأنهم لو أَتَوْا بالبَشِع على وجهه هكذا نفَرَت منه النُّفوس، ولا قبِلَته، لكن يَأتون بصِيغة المَكْر والخِداع والمُبرِّرات الفاسِدة حتى يَقبَله ضُعفاء النفوس، ومَن ليس عندهم نظَر عَميق.

فالسَّطْحيُّون يَقبَلون مثل هذا الغُرورِ، ولكِنَّ المُتعمِّقين في النظَر يَرفُضون هذا رَفضًا باتًّا، ويَقولون: إن تَلبُّس هَؤلاءِ بالإِصْلاح ما هو إلَّا خِداع ومَكْر؛ هذا مَعنَى قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

ففي هذا من الفَوائِدِ: دليل أن الرُّؤَساء يَدْعون ليلًا ونَهارًا لا يَسأَمون لباطِلهم وصَدِّ الناس عن دِين الله عَزَّوَجَلَّ، وأَهْلُ الخير نائِمون إلَّا مَن رَحِم الله -لكن غالِب دُعاة الخير مع الأَسَف نائِمون، وليس عِندهم اليَقَظةُ أيضًا- فليس عِندهم اليَقَظة لمَكْر هؤلاء الماكِرين الخادِعين، يَأخُذون بالظاهِر، ولا يَعلَمون أن هؤلاءِ الخُبَثاءَ شَرٌّ من الذين يَتظاهَرون بالسُّوء؛ ولهذا قال الله في المُنافِقين: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤]، وأَتَى بالجُمْلة المُفيدة للحَصْر ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾، وقد تَقدَّم أنه إذا عُرِّف الرُّكْنان في الجُمْلة الخَبَرية صارَت دالَّةً على الحَصْر. نَسأَل الله تعالى لنا ولكُمُ العافِية والسلامة.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ﴾: ﴿إِذْ﴾ هذه ظَرْف بمَعنَى: وَقْت؛ يَعنِي: وقت أَمْرِكم إيَّانا تَأمُرونا، وانظُرْ إلى قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَنَآ﴾ كيف

يُفهِم بأن هؤلاء الذين استكْبروا وهُمْ الرُّؤَساء ليسوا يُشيرون عليهم إشارة، وإنما يَأمُرونهم أَمرًا؛ لأنهم يَعتَقِدون أن لهم السُّلْطةَ عليهم، وفَرْق بين الأَمْر المُقتَضِي لاستِعْلاء الآمِر ومُعاقَبة المأمور إذا خالَف وبين المَشْورة؛ لأن المُشير ليس يَأمُر أَمْرًا، ولكنه يَعرِض الشيء على سبيل التَّزيين لصاحِبه، أمَّا أَنْ يَأمُره أمرًا فلا.

وهنا قال تعالى: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ نَسأَل الله تعالى العافيةَ! هذا من أَشَدِّ المُنكَر أن يَأمُر الإنسان غيرَه بالكُفْر ﴿أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾، والكُفْر بالله تعالى يَدور على شَيْئَيْن: تكذيب بالخَبَر، واستِكْبار عن الطلَب، فالكُفْر يَدور على هذين الأمرين: إمَّا تكذيب بالخَبَر، وإمَّا استِكْبار عن الطلَب، يَعنِي: تَرْك الأَمْر، وفِعْل النَّهْي.

ومن ذلك التكذيبِ بالخبَر إنكارُ الله تعالى بالكُلِّية بأَنْ لا يُصدِّق الإنسان بوُجود الله عَزَّوَجَلَّ أَوْ لا يُصدِّق برُبوبيته أو بأُلوهِيَّته أو بأسمائه وصِفاته.

وقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أَيْ: [شُرَكاءَ] ﴿وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ الأَنْداد جَمْع نِدٍّ، والنِّدُّ هو النَّظير، وجَعْلُ الأنداد لله تعالى شِرْك؛ ولهذا فَسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأَنْداد بأنه الشُّرَكاء، وفي قوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ دليلٌ على أنهم لم يَكفُروا بالله، أَيْ: بوُجوده، لكن كفَروا بحُقوقه؛ لأن لازِمَ جَعْل الأَنْداد: أن يَكون هناك شَيْء مَوْجود له نِدٌّ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَسَرُّوا۟﴾ أَي: الفَريقان ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ على تَرْك الإيمان به] ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ فسَّرها بعض العُلَماء بـ(أَظهَروا) فمَعنَى ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾: أَظهَروا سِرَّهم في النَّدامة، وفسَّرها آخَرون بـ(أَخفَوُا) النَّدامة؛ أمَّا الذين فسَّروا أَسَّروا بـ(أَخفَوْا) فظاهِر جِدًّا؛ لأننا نَعرِف جميعًا أن الإسرار بمَعْنى الإِخْفاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [الرعد:٢٢]، وأمَّا مَن فسَّره بـ(أَظهَروا) فقالوا:

إن (أَسَرَّ) من أفعال الأَضْداد؛ لأن في اللغة العَرَبية أفعالًا تَدُلُّ على المعنى وضِدِّه، تُسمَّى الأضداد.

وقد ألَّفَ عُلَماء اللغة العربية بذلك كُتُبًا سمَّوْها (الأضداد في اللغة)، يَأتون بالكلِمة ويُبيِّنون مَعناها الذي يَتَضمَّن الشيء وضِدَّه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [الليل:١٧] قال بَعْضهم: مَعناها: (أَدبَرَ)، وقال آخَرون: مَعناه: (أَقبَل)، ومعلومٌ أن (أَدبَرَ) و(أَقبَلَ) ضِدَّانِ.

وأيُّهما أقرَبُ إلى الصواب في هذه الآيةِ: (أَسَرَّ) بمعنى: (أَخفَى) أو (أَسَرَّ) بمَعنى: (أَظهَرَ)؟

الجوابُ: بمَعنَى: (أَخفَى)، ولا يُمكِن أن نَجمَع بين القَوْلين إلَّا إذا نزَّلْناهما على اختِلاف حالين، أو على اختِلاف شَخْصين، على اختِلاف حالين: بمعنى أنهم أحيانًا يُخفُون وأحيانًا يُعلِنون، أو باختِلاف شَخْصين: بمعنى أن بعضَهم يُسِرُّ وبعضهم يُعلِن، أمَّا أن نَحمِلها على المَعنَيَيْن في آنٍ واحِد من شخص واحِد فهذا لا يُمكِن؛ للتَّضادِّ -جمع بين ضِدَّيْن- وهذا مُستَحيل؛ وللنَّظَر أيُّهما أَوْلى بالصَّواب:

قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ يَعنِي: أَخفَوْها حين رأَوُا العذاب؛ وأَخْفَوْها حين رأَوُا العذاب لأَجْل أَنْ لا يُعاب عليهم فيَظهَر للناس أنهم نادِمون على ما صنَعوا وهذا دائِمًا يَقَع حتى في أمور الدُّنيا إذا عرَف الإنسان أنه أَخطَأ في تَصرُّف ما: تَجِده يُخفِي خَطَأه ولا يُظهِر أنه نادِم، ولا أنه مُكتَرِث بهذا الشيءِ، قال الشاعر:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ[1]

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي خويلد بن خالد، انظر: ديوان الهذليين (١/ ٣)، والمفضليات للمفضل الضبي (ص:٤٢٢).

فبعضُ الناس يَتحمَّل ولا يُرِي غيرَه أنه نادِم، أو أنه ضجِر، أو ما أَشبَهَ ذلك.

ويُقال: إن رجُلًا عاد شَخْصًا مريضًا، وكان هذا المريضُ مُدنفًا أَيْ: مرَضه شديد، فقال له: كيفَ حالُكَ؟ فقال: الحمد لله طيِّب، وأنا -يَفتَخِر بنفسه كما قال الشاعِرُ:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ

فقال له الذي عادَه: ولكِن:

وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ[1]

يَعنِي: لو تَجلَّدْت وقبِلت الموت لا يَنفَع ذلك.

والشاهِد: أن الذين قالوا: (أَسَرُّوا) بمَعنَى: (أَخْفَوْا). قالوا ذلك لِئَلَّا يُعابوا على ما صنَعوا.

أمَّا الذين قالوا: (أَسَرُّوا) بمَعنَى (أَظهَروا). فقالوا: إن الآياتِ كثيرةٌ تَدُلُّ على ندَمهم، وأنهم أَظهَروا ذلك ونَدِموا على ما صنَعوا، ولكن ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص:٣].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ على تَرْك الإيمان به] الذي أَسَرَّ هُمُ الفَريقان -كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: الذين استكْبروا والذين استُضْعِفوا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾: ﴿لَمَّا﴾ بمَعنَى (حِين)، وتَقدَّم قريبًا أن ﴿لَمَّا﴾ تَأتِي في اللغة العربية على أربَعة أَوْجُهٍ.

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي من نفس قصيدته السابقة، انظر: ديوان الهذليين (١/ ٣)، والمفضليات للمفضل الضبي (ص:٤٢٢).

والرُّؤْية هنا بصَرية، أَيْ: عايَنوه بأَعيُنهم وأَسرُّوا النَّدامة، لكن والله لا يَنفَع النَّدَم حينذاك، فالنَّدَم حين يَرَى الإنسانُ العذابَ لا يَنفَعه، إنما يَنفَع قبل أن يَرَى العذاب، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: أَخفاها كلٌّ عن فَريقه مَخافةَ التَّعيير] واضِحٌ أن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّر (أَسَرُّوا) بمَعنَى: (أَخفَوْا).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ ﴿وَجَعَلْنَا﴾ بمَعنَى: (صيَّرْنا) أَيْ: صيَّرْنا الأغلالَ.

والأغلالُ جمع غُلٍّ، وهو ربط اليَدين بعضها إلى بعض، وتَعليقهما في العُنُق، نَسأَل الله العافيةَ! ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وأعناق جَمْع عُنُق وهي الرقَبة.

وقوله: ﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ هل هم الذين استكْبروا أو الذين استُضْعفوا؟

الجوابُ: كلا الفَريقين؛ لأن هـؤلاءِ كُفَّار دُعاةٌ إلى الضلال، وأُولئـك كُفَّارٌ مُقلِّدون بعد أن جاءَهُم الحقُّ؛ ولهذا قال: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ فالكُلُّ كافِر، فجعَل الله تعالى الأغلالَ في عُنُق هؤلاءِ وهؤلاءِ، فهل نفَعَتْ أحدًا منهم مُحاجَجَتُه؟ أبدًا، وإنما هو من أَجْل إظهار العَداوة بينهم، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين قالَ لقَوْمه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت:٢٥]؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨]، فهذه حالُ أهل النار يومَ القِيامة أعداءٌ، ولَعْن وسَبٌّ وشَتْم.

ولكنِ المُتَّقُون -اللهمَّ اجْعَلْنا وإيَّاكم مِنهم- على العَكْس من ذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧]

وقال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هَلْ﴾ ما]، يَعني: أنها بمَعنى: (ما)، أي: أن الاستِفهام هنا بمَعنى النَّفيِ: هل يُجزَوْن إلَّا جزاءَ ما كانوا يَعمَلون، يَعنِي: هل يُكافَؤُون إلَّا على ما عمِلوا فقَطْ، والله عَزَّوَجَلَّ لا يَظلِم أحَدًا.

فالاستِفْهام هنا بمَعنَى النفيِ، وقد تَقدَّم: أن النفيَ إذا صيغ بصيغة الاستِفْهام كان مُشرَبًا معنَى التَّحدِّي، يَعنِي: أنه لا يُمكِن أبدًا أن يُجزِيَ أحَدًا إلَّا ما عمِل.

وهنا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَضمَر محذوفًا قال: [﴿إِلَّا﴾ جزاءَ ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾]، وما في القرآن بلا شَكٍّ أبلَغُ وأشَدُّ؛ لأنه إذا قال: إلَّا جزاءَ ما كانوا يَعمَلون؛ فإنه قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إن الجزاءَ رُبَّما يَنقُص، وربَّما يَزيد، لكن إذا قال: ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ كأنهم يُجزَوْن بالعمَل نفسه؛ كان ذلك أبلغَ في امتِناع الزيادة أو النَّقْص، فما في القرآن أَوضَحُ، يَعني: أبلَغَ.

أمَّا وجهُ كون المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [﴿إِلَّا﴾ جَزاء]، فإنه يقول: إن الذي يَكون يومَ القِيامة ليس هو العمَلَ، ولكنه جزاء العمَل، ولكننا نَقول: إن كلام الله عَزَّوَجَلَّ أَفصَحُ وأبلَـغُ، يَعنِي: كأَنَّ العمَل نَفْسَه هو الذي يُجزَوْن به، فيكون ذلك أبلَـغَ في العَدْل.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ في الدُّنيا] المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: [في الدُّنْيا] أَفادَنا أن (كان) هنا للماضِي المُحقَّق، وقد تَقدَّم أن (كان) يُراد بها مُجرَّد اتِّصاف اسمها بخبَرها، مثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، ليس المَعنَى: كان فيما مضَى، بلِ المَعنَى أنه لم يَزَل ولا يَزال كذلك.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن هَؤلاءِ الرُّؤَساءَ كانوا يَدْعون -بَلْ يَأمُرون- هؤلاءِ الضُّعَفاءَ ليلًا ونَهارًا؛ لقولهم: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هَؤلاءِ المَتبوعين يَتوصَّلون إلى أَتْباعهم بالمَكْر والخِداع حيث قالوا: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فهُمْ يَمكُرون بهم، حيث يُوحِي بعضُهم إلى بعض زُخرَف القول غُرورًا، وإلَّا فهم يَعلَمون أنهم بمُخالَفتهم للرُّسُل على باطِل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الشِّرْك كُفْر؛ لقولهم: ﴿أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾، وليس كُلُّ كُفْر شِرْكًا، فكُلُّ شِرْك كُفْرٌ، وليس كُلُّ كُفْر شِركًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هؤلاءِ الرُّؤَساءَ قد فرَضوا سَيْطَرتهم وسُلطانَهم على هؤلاء الأَتْباع فَرْضًا لا مَحيدَ لهم عنه؛ لقولهم: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾، فهُمْ عندما يَدْعونهم لا يَقولون مثلًا: إن الكُفْر حسَنٌ، وإن اتِّخاذ الشُّرَكاء حَسَن. وما أَشبَه ذلك، بل يَقولون: اكْفُروا! لأن الأَمْر كما تَقدَّم هو طلَبُ الفِعْل على وجهِ الاستِعْلاء.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَحريم النِّدِّ لله عَزَّوَجَلَّ، أَيْ: تَحريم جَعْل النِّدِّ لله؛ لأن قولَهم: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ يُعتبَر ذِكْرًا لأسباب العَذاب ولا شَكَّ فيه.

ولكن الشِّرْك -كما هو مَعلوم- أنواعٌ: شِرْك أكبَرُ مُخرِج عن المِلَّة، وشِرْك أَصغَرُ لا يَخرُج، وشِرْك ظاهِر بَيِّن وشِرْك خَفِيٌّ لا يَبين، ثُم الخَفاء والظُّهور قد يَكون باعتِبار ظُهوره للناس، وقد يَكون باعتِبار ظُهور كونه شِرْكًا، يَعنِي: يَخفَى على الناس أن هذا الرجُلَ مُشرِك؛ فالرِّياء مثلًا يَخفَى على الناس؛ لأن مَحلَّه القَلْب، وهو لا يَعلَم به إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، والحلِف بغير الله ممَّنِ اعتاده هذا خَفيٌّ، لكن ليس من حيثُ ظُهوره

للناس؛ لأن الناس يَسمَعونه ولكن من حيث ظُهور حُكْمه، ولكِنْ كثير من الناس -ولا سِيَّما مَنِ اعتاد الحَلِف بغير الله- يَظُنُّون أن الحَلِف بغير الله تعالى ليس به بَأْس.

وهناك شِرْك ظاهِر أنه شِرْك، وظاهِر للناس أيضًا، كعِبادة الأصنام، فكُلُّنا يَعرِف أنها شِرْك، لكن من المُشرِكين مَن يَتعلَّل بأن هذه الأصنامَ يُريد بها أن تكون شُفَعاءَ، لا أنها هي نَفسُها تَنفَع أو تَضُرُّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن النَّدَم عند رُؤْية العَذاب لا يَنفَع؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، فلَمْ يَنتَفِعوا بإظهار النَّدامة، ولا بإِسْرارها في نُفوسهم أيضًا، أمَّا النَّدَم قبل رُؤية العذاب فهو تَوْبة، إذا أَصلَح العمَل تاب الله عليه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن من جُملة ما يُعذَّب به هؤلاءِ: أنَّ أيدِيَهم تُغَلُّ في أعناقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بَلاغة القُرآن، حيث يَدُلُّ على المَعنَى باختِصار ووضوحٍ فهنا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ولم يَقُلِ: الذين استُضْعِفوا، أو الذين استكْبَروا. بل قال الذين كفَروا؛ ليَعُمَّهم ويَعُمَّ غيرَهم أيضًا ممَّن كان كافِرًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يَظلِم أحَدًا؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن الجَزاء من جِنْس العمَل، فيُجازَى الإنسان بمِثْل عمَله تمامًا، وقد بَيَّن الله تعالى في آيات أُخَرَ أن الحسَنة بعَشْرة أمثالها إلى سَبْع مِئة ضِعْف، وأن السَّيِّئة لا يُجزَى الإنسان إلَّا مِثلها فقَطْ.

الآيـة (٣٤)

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ:٣٤].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [رُؤَساؤُها المُنعَّمون] ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ ﴾ المُراد بالقرية البلَد سواءٌ كان كبيرًا أم صغيرًا؛ لأنه مَأخوذ من الجَمْع، فالقَرْية سُمِّيَت بقَرْية؛ لأنها تَجمَع الناس، وإن كان العُرْف عندنا الآنَ أن القَرْية هي البلَدُ الصغير، لكن هذا عُرْف حادِث، والقَرْية في اللغة تَشمَل البلد الكبير أو الصغير؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴾ [محمد:١٣]، مع أن مكَّةَ أُمُّ القُرى، وسمَّاها الله تعالى قَرْية.

وقوله تعالى: ﴿مِّن نَّذِيرٍ ﴾، المُراد بالنَّذير النبيُّ، ﴿نَّذِيرٍ ﴾ نكِرة في سِياق النَّفي، وهذا من باب تَأكيد العُموم.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ ﴾، وبيَّن المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإِتْراف بمَعنَى: التَّنعيم، يَعني: إلَّا مَن نُعِّموا في الدنيا كذا وكذا، والتَّرَف سبَب للتَّلَف، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴾ [الواقعة:٤١-٤٥].

وانظُرْ إلى التَّرَف ماذا يُسبِّب؟ يُسبِّب الكِبْرياءَ، ورَدَّ الحقِّ، وعدَمَ الإيمان بالرُّسُل.

قال تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾: ﴿بِمَآ﴾ أي: بالذي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ الخِطاب في ﴿أُرْسِلْتُم﴾ للرُّسُل الذي عبَّر عنهم بقوله فيما سبَقَ: ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ عِندنا حَرْفَا جرٍّ ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾ و﴿بِهِۦ﴾، ويَتعلَّق الجارُّ الأوَّلُ ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾ بقوله تعالى: ﴿كَٰفِرُونَ﴾، وقُدِّم عليه للحَصْر، كأنهم قالوا: لا نَكفُر بشيء إلَّا بما أُرسِلْتم به، وهذا من المُبالَغة في العُدوان، نَسأَل الله تعالى العافِيَةَ!.

أمَّا الثاني ﴿بِهِۦ﴾ فمُتعلِّق بـ(أُرسِل)، وقُدِّم المُتعلِّق على المُتعلَّق في ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ لسَبَبين: مَعنوِيٍّ ولَفْظيٍّ: المَعنويُّ: إفادةُ الحَصْر، واللَّفْظيُّ مُراعاة فواصِل الآيات؛ لأننا نَرى أن الله عَزَّوَجَلَّ يَأتي بالأشياء التي فيها مُراعاة الفَواصل حتى، وإن لزِمَ أن يُقدَّم المُؤخَّر ويُؤخَّر المُقدَّم، ففي سوره طه: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠]، مع أن مُوسى أَفضَلُ من هارونَ عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، لكن أُخِّر مُراعاةً لفَواصِل الآيات.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الله عَزَّوَجَلَّ بعَث في قرية نذيرًا؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ وقد دَلَّ على ذلك آياتٌ مُتعدِّدة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن المُترَفين هم أهل البَلاء، ومِنهم يَصدُر الشَّرُّ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ إلى آخره.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التحذير من التَّرَف، حيث كان التَّرَف سببًا للشَّرِّ والبَلاء والكُفْر، وقد كان النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -فيما رَواه أبو داودَ- يَنهَى عن كثرة الإِرْفاهِ، ويَأمُرنا بالاحتِفاء أحيانًا؛ فهو لا يَنهَى عن الرفاهية مُطلَقًا، ولكن عن كَثْرتها، ويَأمُر بالاحتِفاء؛ ومَعنى الاحتِفاء: أن نَمشِيَ حُفاةً أحيانًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ قد أَعذَر إلى خَلْقه بإِرْسال الرُّسُل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ وهذا كقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وَقاحةُ هؤلاءِ المُترَفين من وجوهٍ:

أوَّلًا: أنهم قالوا بكُلِّ صراحةٍ: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

ثانيًا: أنهم أكَّدوا هذا الكُفرَ بقولهم: ﴿إِنَّا﴾، و(إِنَّ) للتَّوْكيد.

ثالثًا: أنهم قدَّموا المَفعولَ -مَفعولَ الكُفْر- وهو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾، كأنهم يَقولون للرُّسُل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: إننا لا نَكفُر بشيءٍ سِوى ما أُرسِلْتم به؛ لأن المعروف أن تقديم المَفعول يُفيد الحَصْر.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن تَكذيب هَؤلاءِ المُترَفين كان مع إقرارهم بأن هؤلاءِ رُسُلٌ، حيث قالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾.

فإن قلتَ: أفلا يُمكِن أن يَكون: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾ يَعني: على زَعْمكم؟

فالجوابُ: أن الأصل في الكلام الحقيقةُ، وأن هذا إقرارٌ منهم أنهم أُرسِلوا، ولا غَرْوَ أن يَقوم الكافِر بالكُفْر المَبنيِّ على العِناد والاستِكْبار.

الآيــة (٣٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ:٣٥].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا﴾ يَعنِي: المُترَفون ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [مِمَّن آمَن] ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، افتَخَروا على هؤلاء؛ فقالوا: نحن أكثَرُ أموالًا وأولادًا وكثرة أَمْوالنا وأولادِنا -على زَعْمهم- تَدُلُّ على رِضا الله تعالى عنا إذ لو لم يَرْضَ عنَّا ما رزَقَنا الأموالَ والأولادَ.

وهذه الدَّعْوى سيُبيِّن الله تعالى بُطلانَها، لكن هم زعَمُوا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يُنعِم عليهم بهذه الأموالِ ولا الأَوْلاد إلا لأنَّهُم على حقٍّ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ يَحتَمِل نَفيَهم للعَذاب يَحتَمِل أَمْرين:

أحدُهما: أنهم يَدَّعون أنهم إذا بُعِثوا لن يُعذَّبوا وإن كانوا يُقِرُّون بأصل العذاب.

الثاني: يَحتَمِل أن: نَفيَهم للعَذاب يُراد به نفيُ البَعْث، يَعنِي: لن نُبعَث فنُعذَّب كما زعَمْتم أيها الرُّسُل.

فهاهنا احتِمالان؛ الأوَّلُ: يَقولون: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لن يُعذِّبنا؛ لأنه أَنعَم علينا بالأموال والأولاد، والثاني: يُنكِرون البَعْث، يَعنِي: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؛

لأننا لن نُبعَث، هذا واحِد، فما نحن بمُعذَّبين لأن الله تعالى قد رضِيَ عنَّا فلا يُعذِّبنا.

والواقِع أنهم يُنكِرون البَعْث؛ لأن مَن آمَن بالبَعْث لزِم من إيمانه أن يُؤمِن بالرُّسُل ويَلتَزِم بالشريعة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن هؤلاءِ المُترَفين افتَخَروا بما أَعطاهُمُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من كثرة الأموال والأولاد.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الإنسان قد يَغتَرُّ بالنِّعْمة فيَبقَى على مَعْصيته؛ لأنهم قالوا: نحن أكثَرُ أموالًا وأولادًا فقد رَضِيَ الله عَزَّوَجَلَّ عنَّا. ولكن هذا ليس دليلًا على رِضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هؤلاء الكُفَّارَ زعَموا بدَعْواهم أن الذي أَعطاهم نَعيم الدنيا سوف يُعطيهم نعيم الآخِرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

وانظُرْ إلى قوله عَزَّوَجَلَّ في آخِر سورة (فُصِّلت) حين ذَكَر أن الله تعالى إذا أَعطَى الإنسان رحمة من الله تعالى ونِعمة يَقول: ﴿هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت:٥٠]، فهذا نَظير هذه الآيةِ؛ يَقولون: نحن أكثَرُ أموالًا وأَوْلادًا، وإن رجَعْنا إلى الله تعالى فإننا لن نُعذَّب، وهذا على أحد الاحتِمالَيْن، والاحتِمال الثاني أنَّ قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أَيْ: أننا لن نُبعَث ونُعذَّب.

الآيــة (٣٦)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ:٣٦].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آمِرًا رسولَه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يَرُدَّ عليهم: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ:[يُوسِّعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ امتِحانًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضيِّقه لِمَن يَشاء ابتِلاءً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: كُفَّار مَكَّةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك] رَدَّ على هَؤلاء الذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ يَعنِي: فنحن الذين رضِيَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنَّا، أمَّا أنتم ففُقَراءُ، وفَقْركم يَدُلُّ على أن الله تعالى لن يَرضَى عنكم.

والجوابُ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، يَبسُط يَعنِي: يُوسِّع لِمَن يَشاءُ، أي: مِن مُؤمِنٍ وكافِرٍ، فهُناك كُفَّار قد ضيَّق الله تعالى عليهم الرِّزْق، وهناك مُؤمِنون قد وسَّع الله عليهم الرِّزْق، فالرِّزْق بيَدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ تَقدَّم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا قيَّد فِعْله بمَشيئته فهو مَربوط بحِكْمته، يَعنِي: مَن يَشاءُ ممَّن تَقتَضي الحِكْمة أن يُوسَّع له، ويَقْدر: يُضيِّق ممَّن تَقتَضي الحِكْمة أن يُضيَّق عليه.

ولهذا يُروَى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال في الحديث القُدسيِّ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ

لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْفَقْرُ»[1]، فالغَنيُّ ربَّما يَطغَى بغِناه ويَستكثِر، والفقير ربما يَقنَط من رحمة الله ويَستَحسِر ويَستَبعِد الفَرَج، فيَكون الأوَّلُ فاسِدًا بطُغيانه، والثاني فاسِدًا بيأْسه وقُنوطه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ الرِّزْق بمَعنى: العَطاء.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كُفَّار مَكَّةَ]، وهذا كما سبَق من قُصوره في التَّفسير، والواجِب أن نَقول: إن المُراد بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ جميعُ الناس؛ أهلُ مكَّةَ وغيرُهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، لا يَعلَمون أن الأَمْر بيَدِ الله تعالى من حيثُ تَوسيع الرِّزْق وتَضييقه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يَقُل: كل الناس؛ لأن المُؤمِنين يَعلَمون ما لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الحِكَم في بَسْط الرِّزْق وتَقْديره.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إِثْبات المَشيئة لله تعالى، لقوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات الأَفْعال الاختِيارية؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ﴾ و﴿وَيَقْدِرُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ كَثْرة المال والولَد لا يَدُلُّ على الرِّضا، وإنما هو تابع لمَشيئة الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الحِكْمة العَظيمة البالِغة في اختِلاف الناس في سَعة الرِّزْق

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٨-٣١٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٢٣١)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وضِيقه، ولولا ذلك ما قامَت مَصالِحُ الخَلْق، فلو كان النـاس على حدٍّ سَواء في الغِنَى فلا يَخدُم بعضهم بعضًا، ولا يَقوم بعضُهم بمَصالِح بعضٍ.

وانظُرْ إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ [الزخرف:٣٢] لماذا؟ ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ ولَوْلا هذا الاختِلافِ مِن بَسْط الرِّزْق وسَعَتِه ما حصَلَتْ هذه الفائِدةُ العَظيمة وهو تَسخير الناس بعضِهم لبعضٍ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ أكثَر النـاس جُهَّالٌ بحِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ في أفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

• ● ❁ ● •

الآيــة (٣٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ:٣٧].

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قُرْبَى، أي: تَقريبًا].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ ﴾: (مَا) نافِية وهي حِجازية؛ لأن (أَموالَ) اسمُها، و﴿بِٱلَّتِى﴾ خبرُها.

إِذَنْ: فالمُبتَدَأ والخَبَر مَوْجودان، فتكون حِجازيةً، والباء في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِٱلَّتِى﴾ زائِدة لفظًا لا مَعنًى، وهي خَبَر (مَا)، أَيْ: ما أموالُكم أيُّها المُفتَخِرون بها حيثُ قُلْتم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا ﴾ وأموالُكم؛ ما أموالُكم بالتي تُقرِّبُكم عِنْدنا زُلفَى.

وما الذي يُقرِّب عند الله تعالى؟

الجوابُ: الأعمالُ الصالِحة، أمَّا الأموال فإنها قد تكون ضرَرًا على الإنسان، فلَيْسَت هي التي تُقرِّب إلى الله تعالى، فمُجرَّد المال لا يُقرِّب إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿زُلْفَىٰٓ﴾ قُربَى أَيْ: تَقريبًا]، فأَفادَنا بهذا التقريرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ مَفعـول مُطلَق لـ(تُقرِّب)؛ لأن التقريب بمَعـنَى: الزُّلْفى، فهو إِذَنْ:

مَفعول مُطلَق، ولا نَقول: إنه مَصدَر؛ لأنه مُخالِف لعامِله في الاشتِقاق فـ(تُقرِّب) مِن قرَّبَ، و(زُلْفَى) مِن ازدَلَفَ بمَعنى قرُب، فالمعنى: أن هذه الأموال والأولاد لا تُقرِّبكم تقريبًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويُحتَمَل أن المَعنى: ﴿بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ﴾ أَيْ: تُدنِيكم منَّا، والمَعنَى من حيثُ العُموم سواءٌ بالتي تُقرِّبكم عندنا زُلْفى، لكن يَختَلِف الإعرابُ، فإنه على المَعنى الثاني تكون ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ مَفعولًا به لا مَفعولًا مُطلَقًا.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا﴾ لكِن] إشارة إلى أَنَّ الاستِثْناء هنا مُنقَطِع؛ ووجهُه أن الكافَ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم﴾ تَعود على الكافِرين؛ ومَن آمَن وعمِل صالِحًا فليس من الكافِرين.

والمُستَثْنى إذا كان من غير جِنْس المُستَثْنى منه فهو مُنقَطِع، فالمُنقَطِع هنا إذا كان الضميرُ في أموالكم يَعود على الكافِرين فالاستِثْناء مُنقَطِع قطعًا؛ لأن مَن آمَن وعمِل صالِحًا ليس من الكافِرين، وإذا جعَلْنا الخِطاب في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ﴾ عائِدًا على جميع الناس المُخاطَبين صار الاستِثْناء مُتَّصِلًا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يَعنِي: فإن مَن آمَن وعَمِل صالِحًا تُقرِّبه أمواله وأولاده إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه يَعمَل فيها بطاعة الله تعالى، فيَكتَسِب المال عن طريقٍ حلالٍ، ويَصرِفه أيضًا في الطُّرُق النافِعة، وأولادُه كذلك يُربِّيهم ويُؤدِّبهم حتى يَكونوا قُرَّة عَيْنٍ له في الحياة وبعد الممات.

وقد ثبَتَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[1].

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

إِذَنْ: إذا دعا الولَد الصالِح لأبيه قرُب إلى الله عَزَّوَجَلَّ وصار هذا الدُّعاءُ مُقرِّبًا له.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الإيمان يَكون في القَلْب، وهي العَقيدة و﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يَكون في الجَوارِح، و﴿صَٰلِحًا﴾ صِفة لمَصْدَر محذوف تَقديرُه: عمَلًا صالِحًا، كما بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك في سورة الفُرقان في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان:٧٠].

والعمَل الصالِح: هو ما كان خالِصًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مُوافِقًا لشريعة الله عَزَّوَجَلَّ، فالعمَل الذي فيه رِياء ليس بصالِح؛ لأنه لم يَكُن خالِصًا، والعمَل الخالِص المُبتَدَع ليس بصالِح؛ لأنه ليس مُوافِقًا لشريعة الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾: (أُولئِك) المُشار إليه: مَن آمَن وعمِل صالِحًا، وجاء بلفظ الجَمْع (أُولَئِك) مُراعاةً للمَعْنى، أمَّا اللَّفْظ فإنه يَقول: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فاللَّفْظ مُفرَد، ولكنه عاد إلى ﴿مَنْ﴾ بِاعتِبار المعنى، وقد سبَق مِرارًا وتكرارًا أنه يَجوز في (مَن) و(مَا) وما أَشبَهَهما؛ يَجوز فيه مُراعاة المَعنى ومُراعاة اللَّفْظ، ففي مُراعاة المَعنى نَأتي بالإشارة أو بالضمير مَجموعة، وفي مُراعاة اللَّفْظ نَأتِي به مُفرَدًا.

وربما نَأتي مرَّةً بمُراعاة اللَّفْظ، ومرَّة بمُراعاة المَعنى، ومرَّة بمُراعاة اللَّفْظ في سياق واحِد؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الطلاق:١١]، الضمائر هنا رُوعِيَ فيها: في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ رُوعِيَ فيها اللفظُ، وفي قوله

تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الطلاق:١١] رُوعِيَ المَعنَى، وفي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ [الطلاق:١١] رُوعِيَ اللفظُ؛ ففي سِياق واحِد رُوعِيَ اللفظُ، ثُم المعنى، ثُم اللفظُ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ﴾ أي: الجزاء المُضاعَف: الحَسَنة بعَشَرة أمثالها إلى سَبْع مئة ضِعْف إلى أضعاف كثيرة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾: (مَا) يُحتَمَل أن تكون مَصدريةً، وأن تكون مَوْصولةً، فإن كانت مَوصولةً فعائِدُها محذوف، والتَّقْدير: بما عمِلوه، وإن كانت مَصدرِيَّة فلا حاجةَ إلى عائِد، ويَكون التقدير: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾، أي: بعمَلهم، والباء هُنا للسبَبية؛ لأن النبيَّ ﷺ قال: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»، قالوا: ولا أَنْتَ يا رسولَ الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ الله بِرَحْمَتِهِ»[1]؛ وهنا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ ولا مُنافاةَ؛ لأن الباء في قوله ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» باء المُعاوَضة التي هي كقولك: بِعْتُ هذا الثوبَ بدِينار.

وأمَّا الباء في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ فهي باء السببية أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ جعَل العمَل سببَ دُخول الجَنَّة، ولم يَجعَلِ الجَنَّة عِوَضًا عن العمَل، بل العمَل سببُها.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي: جزاء العمَل الحَسَنة بعَشْر أمثالِها] الحسَنة مثلًا بعَشْر [فأكثَرَ ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ﴾ من الجَنَّة ﴿ءَامِنُونَ﴾ من الموت وغيره، وفي قِراءة (الغُرْفةِ)] قِراءة سَبْعية؛ لأن قاعِدة المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا قال: (فِي قِراءةٍ) فهي سَبْعية، وإذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قُرِئَ) فهي شاذَّة،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والقِراءة هنا: (فِي الغُرْفة) و﴿فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾، ولكن الغُرْفة بمَعنَى: الجَمْع؛ لأن المُفرَد المُحلَّى بـ(أل) غيرِ العَهْدية يُفيد العُموم، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:٢]، أي: إن كل إنسان؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بمَعنَى: الجَمْع] أيِ: الغُرْفة بمَعنَى: الجَمْع.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ كَثْرة الأموال والأولاد لا تَستَلْزِم القُرْب إلى الله تعالى، فإنَّ مِن الناس مَن يَكون كثيرَ المال والولَد وهو من أبعَدِ الناس عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومِن الناس مَن يَكون قليلَ المال والولَد وهو من أَقرَب الناس إلى الله تعالى، فهذا النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس هو من أَكثَرِ الناس أموالًا وأولادًا، ومع ذلك فهو أَقرَبُ الناس إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا الرجُلُ الذي افتَخَرَ بماله ووَلَده وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم:٧٧]، إذا آتاه الله المال والولَد فإنه لا يَنفَعُه.

قال الله تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر:١١-٢٦]، فالأموال والأَوْلاد لا تُقرِّب إلى الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن المُؤمِن الذي يَعمَل الصالِحاتِ فإن أَمْواله وأولادَه تُقرِّبه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه يَكتَسِبها من حلال، ويَصرِفها في ما يُرضِي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيَكون مُنتَفِعًا بها، والأولاد كذلك يَقوم عليهم بالتَّرْبية والتَّعليم وغير ذلك من

مَصالِحهم، فيَنتَفِع بذلك عند الله تعالى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الجَزاء على الإيمان والعمَل الصالِح مُضاعَف؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الأَسْباب، من الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن مَنازِل الجَنَّة عالِية؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ والغُرْفة: المَنزِل العالي، أمَّا الذي في الأَرْض فيُسمَّى حُجْرة، ولا يُسمَّى غُرْفة فالمَنازِل فوق غُرَف، والمَنازِل تَحت حُجَر.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ مَن دخَل الجَنَّة فهو آمِن مِن كل مَخوف؛ آمِن من الموت ومن المَرَض ومن انقِطاع النَّعيم، ومِن فَساد الثِّمار ومِن كُلِّ شيءٍ: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

الآيــة (٣٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ [سبأ:٣٨].

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾؛ لَمَّا ذكَر جَزاء المُؤمِنين ذَكَر جزاء غيرهم؛ لأنَّ القُرآن مَثانٍ، تُثنَّى فيه المَعاني فإذا ذُكِر الثواب ذُكِر العِقاب، وإذا ذُكِر المُؤمِن ذُكِر الكافِر، وذلك لئَلَّا تَسْأَم النفس إذا بَقِيت في مَوْضوعٍ واحِد؛ ولأجل أن يَكون الإنسان عند تِلاوة القُرآن دائِرًا بين الخَوْف والرَّجاء، ومعلومٌ لنا جميعًا أن المَوْضوع إذا كان واحِدًا فإن النَّفْس تَمَلُّه وتَسْأَم منه، فإذا نُوِّع صار في ذلك تَنشيط لها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الْقُرْآنِ بِالْإِبْطَالِ] يَسعَوْن: السعيُ يُطلَق على مُجرَّد الحرَكة، ويُطلَق على الرَّكْض بشِدَّة، ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ [الجمعة:٩]، المُراد بذلك مُطلَق الحرَكة، وليس المُراد أن تَركُض، وإذا قُلت: يَسعَى في الطواف، يَسعَى بين الصَّفا والمَرْوة، يَسعَى بين العَلَمَيْن.

فالمُراد بذلك الرَّكضُ، هنا ﴿يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يُحتَمَل أن يَكون المُرادُ بذلك مُطلَقَ الحَرَكة، ويُحتَمَل أن يُراد به الحرَكة بشِدَّة، وهذا الأخيرُ أبلَغُ؛ لأنَّ هؤلاءِ

يَسعَوْن جاهِدين بآيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقول المُفَسِّر: [﴿يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: الْقُرْآنِ] ووجهُه: أنَّ الذين كفَرُوا لا يُنكِرون آيات الله تعالى الكَوْنية، وإنما يُنكِرون آياتِ الله تعالى الشرعيةَ، على أنهم أحيانًا يَطلُبون آياتٍ كَوْنيةً تَعْجيزًا للرسول ﷺ كما حَكَى الله تعالى عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٠-٩٣].

كم آيةٍ طلَبوها من الآيات الكَوْنيَّة هنا، ومع ذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ يَعنِي: تَنزيهًا له أن يَبعَث رسولًا بدون آيات يُؤمِن على مِثْلها البَشَر وما أنا إلَّا بَشَرٌ رَسولٌ؛ كما أن الآياتِ هنا خصَّها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالآيات الشَّرْعية، وقال: إن المُراد بها القُرآن.

ويُحتَمَل أن يُراد بها الآيات الكونية والآيات الشرعية جميعًا؛ لأنَّ هؤلاءِ كما يُعاجِزون في القُرآن يُعاجِزون أيضًا في الآياتِ الكَوْنية، وكأنَّ القُرآن آيةٌ من آيات الله عَزَّوَجَلَّ لاشْتِماله على ما يَعجِز عليه البَشَر، بَل إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ تَحدَّى البَشَر وغَيْرَهم ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥٠-٥١].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ لنا مُقدِّرين عَجْزنا وأنهم يُفوِّتوننا، و(المُعاجِز) هو: الطالِب لإِعْجاز غيرِه فـ(عاجَزَه) مِثل قاتَلَه.

والمَعنَى: أنهم يُعاجِزون الله تعالى، أي: يَطلُبون على زَعْمهم ما بِه العَجْز؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: مُقَدِّرِينَ عَجْزَنَا وَأَنَّهُمْ يُفَوِّتُونَنَا] هؤلاء الذين فعَلوا ذلك يُعاجِزون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويَطلُبون ما فيه عَجْزه على زَعْمهم، ويَقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، هذا تَعجيز لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكيم لا يُجيبُهم إلى ما أَرادوا، بَلْ ويَجعَل هذه الأُمورَ حَسبَ ما تَقضِيه الحِكْمة، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ سبَق أن هذه الجُملةَ هي خبَرُ الذين يَسعَوْن، فخَبَر المُبتَدَأ الآنَ جُمْلة خبَرِيَّة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: مُحضَرون في نَفْس العذاب، والعَذاب بمَعنَى العُقوبة والنِّكاية، وهذا خبَرٌ يُراد به التَّهديد، لا مُجرَّد أن نَعلَم بأن هؤلاء سيَحضُرون في العذاب ويُعذَّبون، بلِ المُراد التَّهديد، والتَّحذير من صَنيعهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن من عِباد الله تعالى مَن يَسعَى لإِبْطال آيات الله عَزَّوَجَلَّ بكُلِّ ما يَستَطيع من قُوَّةٍ، ووَجْه ذلك أن الله تعالى أَثبَتَه وأَثبَتَ عذابه، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾، وليس شيئًا مَفروضًا مُقدَّرًا، بل هو شيءٌ واقِع.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيان ما يَصِل إليه عُتُوُّ الإنسان وطُغيانه، حيث يَسعَى في آيات الله تعالى مُعاجِزًا لله عَزَّوَجَلَّ، فمَن أنت حتى تُعاجِز الله تعالى وتَطلُب تَعجيزَه وتَتَحدَّاه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هَؤلاء المُعاجِزين الذين يَسعَوْن في آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُعاجِزين سوف يَكونون يوم القِيامة في العذاب؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

وَرُبمَا يَقُولُ قَائِلٌ: إنهم في العَذاب مُحضَرون حتى في الدنيا؛ ويَكون المُرادُ بالعَذاب هنا العذاب القَلْبيُّ؛ لأنَّ الكافِر مهما نُعِّم في الدنيا إنه في أَلَمٍ وعَذاب في قَلْبه؛ لأنَّ الكافِر لا يَشبَع من الدنيا، فهو في حُزْنٍ خَوْفًا من ذَهاب المَوْجود، وفي هَمٍّ طلَبًا لوُجود المَفقود؛ لأنَّه يُريد أن تَنمُوَ له الدنيا وتَزدَهِر، ويَخشَى أيضًا من أن تَفوت بخِلاف المُؤمِن.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الجَزاء والعُقوبة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩].

﴿قُلْ﴾ الخِطاب للنبيِّ ﷺ، ويَجوز أن المُراد به كل مَن يَتأتَّى به الخِطاب، مَن يَصِحُّ تَوْجيه الخِطاب إليه، يُخاطِب هؤلاء الذين يَسعَوْن في آيات الله تعالى مُعاجِزين، ويَطلُبون عَجْز الله تعالى في ما يَدَّعُون.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: يُوسِّعه من البَسْط، وهو التَّوْسِعة؛ ولهذا يُقال: بسَطَ الكَلام، واختَصَر الكلام، وبسَط بمَعنَى: وسَّعَه وطوَّله.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ بمَعنَى العَطاء، ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ امتِحانًا، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضيِّقه له بعد البَسْط، أو لمَنَ يَشاءُ ابتِلاءً.

وقوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ سبَقَ لنا كثيرًا بأنَّ كل فِعْل علَّقه الله تعالى بالمَشيئة فهو مَقرون بالحِكْمة، مِثالُه قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]، بمَشيئته عَزَّوَجَلَّ، فهي تابِعة لحِكْمته، فهو إذا اقتَضَتْ حِكْمته أن يُوسِّع الرِّزْق لأَحَدٍ وسَّعه، وإذا اقتَضَتْ حِكْمته أن يُضيِّقه ضَيَّقه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ المُراد بالعِباد هنا العُبودية العامَّة؛ لأنَّ مَن يُشاهَد أن الكافِرين والمُؤمِنين على السَّواء، منهم مَن يَبسُط الله عَزَّوَجَلَّ له الرِّزْق،

ومِنهم مَن يُضيِّقه له، فالمُراد بالعِباد إذَنِ العُبودِية العامَّة، وقد سبَقَ أيضًا أن العُبودِيَّة تَنقَسِم إلى: عامَّة، وخاصَّة، فالعامَّة التي تَشمَل جميع الخَلْق، والمُراد بها العُبودِيَّة الكَوْنِيَّة، التي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنها: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، وأمَّا الخاصَّة فهي عُبودية الطاعة الشَّرْعية، وهي التي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [امْتِحَانًا] يَعنِي: اختِبارًا يَختَبِره هل يَشكُر أَمْ يَكفُر؛ ولهذا قال سُلَيْمانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠] حين رَأَى عَرْش بَلقيسَ حاضِرًا بين يَدَيْه في هذه المُدَّةِ الوجيزةِ، وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، يَعنِي: ابتِلاءً واختِبارًا، وكم مِن إنسان كان في حالِ الفَقْر أَصلَحَ ممَّا كان بعد الغِنى! وكم مِن إنسان بالعَكْس إذا كان فقيرًا ومُسرِفًا على نَفْسِه فلمَّا أَغْناه الله تعالى هَداه الله عَزَّوَجَلَّ!.

وقوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ حَسبَ ما تَقتَضيه الحِكْمة قال تعالى: ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾: ﴿لَهُۥ﴾ هل يَعودُ على المَبسوط له أو يَعود على مَن يَشاءُ؟

الجوابُ: أن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكَر فيه المَعنيَيْن، و(يَقدِر) أي: يُضيِّق له بعد البَسْط؛ يَعنِي أنه عَزَّوَجَلَّ يَبسُط الرِّزْق لِمَن يَشاءُ، ثُم يُضيِّق عليهم؛ ليَبلُوَهم ويُعطِيَ النِّعَم، ثُم يُزيلها امتِحانًا واختِبارًا، يَمُنُّ الله عَزَّوَجَلَّ على الإنسان بالأولاد فيَموتون، وبالمال فيَفنَى، وهذا تَضييق بعد البَسْط، أو أنَّ المَعنَى يَبسُط يَقدِر له، أي: لِمَن يَشاءُ لا لهذا الذي كان مَبسوطًا له الرِّزْق؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَبسُط الرِّزْق لقَوْم ويَقدِره لآخرين.

وهل هذانِ المَعْنَيانِ يَتنافَيان؟

الجوابُ: لا، وإذا كانا لا يَتنافَيان وقد سبَق أنَّ القاعِدة في التفسير أنَّ المَعنَيَيْن إذا كانا لا يَتنافَيان فإن الآية تُحمَل عليهما جميعًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ يُقال: إنَّ كل إنسان يَرزُق عائِلته؛ أي: من رِزْق الله تعالى.

﴿وَمَآ﴾ هذه شَرْطيَّةٌ، وفِعْل الشَّرْط ﴿أَنفَقۡتُم﴾، وجَوابه: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾، واقْتَرَن بالفاء؛ لأنها جُمْلة اسمِيَّة، ويَقتَرِن جوابُ الشَّرْط بالفاء في سَبْعة مَواضِعَ، وهي المُجموعة في قوله:

اسْـــمِيَّةٌ طَلَبِيَّـــةٌ وَبِجَامِـــدٍ ... وَبِـمَا وَقَـدْ وَبِلَـنْ وَبِـالتَّنْفِيسِ

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ يُخلِفه أي: يَأتِي بخَلْفه، واعلَمْ أن هناك فَرْقًا بين (يَخلُف) و(يُخلِف)، فـ(يَخلُف) يُراد به الشيء الذي خلَفَ غيرَه، قال الله عَزَّوَجَلَّ عن مُوسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين وجَّه الخَلف لهَرونَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ﴾ [الأعراف:١٤٢]، أي: صِرْ خَلَفًا عَنِّي في قَوْمي، وأمَّا (أَخلَف) الرُّباعيُّ فالمُراد: أَعطَى الخَلف، فالمُخلِف مُعطِي الخَلف، و(الخالِف) الذي خَلَف غيرَه، الفَرْق بين الثلاثيِّ والرُّباعيِّ، الثلاثيُّ مَعناه: خَلَف غَيرَه، والرُّباعيُّ أَعطَى الخَلف، ومنه الحديث حديثُ أبي سَلَمةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «اخْلُفْنِي فِي عَقِبِي»[1]، وحديث أُمِّ سلَمةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالَتْ نَفْسَ الشيءِ قالَت: «وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا»[2]، فاجتَمَع بالحديث الكلام جَميعًا، حديث أُمِّ سلَمةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٣١٣)، بلفظ: أخلفني في أهلي.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب: الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، رقم (٩١٨)، من حديث أم سلمة.

«مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَابُ بِمُصِيبَةٍ فَيَقُولُ: اللهمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا. إِلَّا آجَرَهُ الله فِي مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا» هنا مِن الرُّباعيِّ فهو يُخلِفه، أي: يُعطِي ما يَكون خَلفًا عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ الإِنْفاق مَعناهُ: بَذْل المال، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قيَّده بقَوْله: [وَمَا بَقِيَ فِي الْخَيْرِ]، وهذا القَيْدُ الذي قيَّدَه به المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ دلَّتْ عليه آياتٌ مُتَعدِّدة كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٩٧]، ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٢].

والآياتُ في هذا كثيرة؛ لأنَّ مَن أَنفَقَ في غير الخَيْر فالخَلف غيرُ مَضمون له، لكن مَنْ أَنفَق في الخَيْر فالخَلف مَضمون له، ويَشمَل هذا النَّفَقاتِ الواجِبةَ، كإنفاق الإنسان على زَوْجته وأُمِّه وأبيه وابنه وبِنْته وما أَشبَهَ ذلك، ويَشمَل أيضًا الإِنْفاق في الزكاة؛ لأنها هي أُمُّ الإِنْفاقات؛ لأنَّ الإِنْفاق في الزكاة أَحَدُ أركان الإسلام، ويَشمَل الإنفاق في الجِهاد في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويَشمَل الإِنْفاق في نُزول الخَيْر كالإحسان إلى الناس وغير ذلك.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ هل الإِخْلاف في الكمِّية أو في الكَيْفية؟ بمَعنى: هل الله عَزَّوَجَلَّ يُعطيك بدَلًا عنه بالكمِّية إذا أَنفَقْت عشَرة أَعطاك عشَرة، أو بالكَيْفية بمَعنى: أن الباقِيَ يُنزِل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به البَرَكة حتى يَكون مُقابِلًا لما أَنفَقْت مَضمومًا إليه؟

الظاهِر أنه يَشمَل الأَمْرين؛ أَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُخلِفه، يُعطيك خَلفًا عنه بالكمِّية، فإذا أَنفَقْت عشَرةً فتَحَ الله تعالى لك باب الرِّزْق وأَعطاك عشَرة، أو أنه يَكون خَلفًا في الكَيْفية فإن أَنفَقْت عشَرة من مِئة وبَقِي تِسعون فإن هذه التِّسعِين تَقوم مَقام مِئة

أو أكثَرَ للبركة التي يُحِلُّها الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا جاء في الحديثِ الصحيحِ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»[1]، يَعنِي أن الصدَقة لا تَنقُص المال، ولكنها تَزيده كما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ و﴿خَيْرُ﴾ أَصلُها: أَخيرُ؛ لأنها اسْمُ تَفضيل؛ لكنها حُذِفت الهَمْزة تَخفيفًا؛ لكَثْرة استِعْمالها، و﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ المُعطِين، وكيف نَقول: «خيرُ الرازِقين» مع أن الذي يَبسُط الرِّزْق ويُعْطي الرِّزْق هو الله تعالى؟

نَقول: لأن غيرَ الله تعالى يَرزُق؛ لكنه رِزْق مَحدود، يُقال: رزَقَ عائِلَته؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء:٨].

فإِذَنِ: الرِّزق يَكون من الله تعالى ويَكون مِن غيره، لكنه مِن الله تعالى شامِل عامٌّ، ومِن غَيْره ناقِص خاصٌّ، فالإنسان يَكون كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول: إنه يُقال: كل إنسان يَرزُق عائِلته. يَعنِي: يُعطيها، لكن عَطاء الإنسان عائِلتَه أو رِزْق غير عائِلته من رِزْق الله عَزَّوَجَلَّ، لولا أن الله تعالى أَعطاك ما أَعطَيْت غَيرَك، فيَعود المَعنَى إلى أن الرِّزْق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: طلَب الإعلان؛ لأنَّ الأُمور كلُّها بيَدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِن بَسْطٍ وتَضييق؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ إذ إنَّه ليس المُراد أن تَقولها في نَفْسك، بل تَقولها في نَفْسك ولغَيْرك أيضًا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الأَرْزاق بيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾، ويترتَّب على هذا فائِدة، وهي أن نَطلُب الرِّزْق من الله تعالى؛ لأنه هو الذي يَبسُط الرِّزْق ويَقدِر.

ويتفرع على ذلك: ألَّا نَطلُب رِزْق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمَعاصيه؛ لأن طلَب رِزْق الله بمَعاصيه مُنافٍ للأَدَب، كيف تَطلُب الرِّزْق مِمَّنْ بيَده الرِّزْق بمَعصيته؛ ولهذا حذَّر النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من ذلك فقال: «إِنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، فَاتَّقُوا الله وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»[1]، يَعنِي: اطلُبوا الرِّزْق طلَبًا جميلًا، وهو ما وافَق الشَّرْع، وعلى هذا فطَلَب الرِّزْق بالغِشِّ والكَذِب والظُّلْم طلَبٌ غيرُ مَشروع، بل ويُنافِي الأَدَب مع الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَمام رُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ وسُلطانه؛ لكونه يَبسُط ويَقدِر، ولا أحَدَ يُمكِن أن يَعتَرِض عليه، وحتى لو اعتَرَض عليه فلا يَنفَع هذا الاعتِراضُ؛ لأنَّ الله تعالى مُدبِّر لما يَشاءُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الحثُّ على الإِنْفاق؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ ووَجهُ ذلك: أن الإنسان إذا أَنفَقَ، فإن نَفْسه الأمَّارة بالسُّوء تَقول له: إذا أَنفَقْتَ من مالك نقَصْتَ منه، فلا تُنفِقْ. فيَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الإِنْفاق وإن قلَّ فإنه مَخلوف، تُؤخَذ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ فإنها نَكِرة في سِياق الشَّرْط مُؤكَّدة بـ(مِن) الزائِدة، هذا إذا لم تَكُن (مِنْ)

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ١٦٦ رقم ٧٦٩٤)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٦)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَيانًا لـ(مَا) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ خَيْرُ الرازِقين، بكثرة العَطاء وبدَوام العَطاء، فمَن سِوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الرازِقين لا يُعطِي الكثير، وإذا أَعطَى الكثير فإنه يَمَلُّ، فلا يَستَمِرُّ في عَطائه، أمَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه خيرُ الرازِقين في عَطائه كَثرةً واستِمْرارًا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات رازِقٍ سِوى الله تعالى، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإن هذا يَدُلُّ على وجود مُفضَّلٍ ومُفضَّلٍ عليه مُشتَرِكَيْن في أصل المُفضَّل به، وهو الرِّزق، ولكن رِزْق غير الله تعالى من رِزْق الله تعالى؛ لأن هذا الذي أَعطاني مثَلًا من أين له العَطاءُ؟ مِن الله تعالى، فيَكون إعطاؤُه إيايَ من رِزْق الله تعالى الذي أَعْطاه، وأيضًا فإن رِزْق غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رِزْق مَحدود، ليس شامِلًا لكلِّ أحَد، وليس شامِلًا لكل زمَن.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ أفعال العِباد مَخلوقة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفيها ردٌّ على القدَرِيَّة، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾، ونحن نَعلَم أن الرِّزق الذي يَأتينا يَكون كثيرًا من كَسْبنا، نَتَّجِر ونَحرُث ونَعمَل، ونَحصُل على الرِّزْق، فيَكون في هذا دَليلًا على أنَّ فِعْل العَبْد مَخلوق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفيها أيضًا رَدٌّ على الجَبْرِيَّة وهمُ الجَهْمِيَّة، أيضًا لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم﴾ حيث أَضافَ الفِعْل إلى العَبْد، والجَبْرِيَّة يَقولون: إنَّ الإنسان مَسلوب القُدْرة والاختِيار، وفِعْله لا يُنسَب إليه إلَّا على سبيل المَجاز، وإلَّا فإنه لا اختِيارَ له في فِعْله.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ:٤٠].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿و﴾ اذْكُرْ ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾] اذْكُرْ قَدَّرها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنَّ (إِذْ) ظَرْف، والظَّرْف كالجارِّ والمَجرور لا بُدَّ له من مُتعَلَّق، وهذا المُتعَلَّق يَكون مَذكورًا ويَكون مُقدَّرًا، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنعام:٩٣] العامِل مَذكور: ترى، وليس مَحذوفًا، وفي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال:٥٠]، العامِل هُنا مَذكور، وقد يُحذَف، وهو كثير في القُرآن.

وهنا عامِل ﴿يَوْمَ﴾ مَحذوف، واذْكُرْ: ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ اذْكُرْ ذلك اليَوْمَ تَحذيرًا منه وتَخويفًا؛ لأنَّ هذا اليَوْمَ يوم عظيم.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: يَجمَعهم، و﴿جَمِيعًا﴾ حال من الهاء في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، ومتى يَكون ذلك؟ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩] يَكون هذا يومَ القِيامة، يَحشُر الله تعالى الأوَّلين والآخِرين.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة:٤٩-٥٠]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: المُشرِكين ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الهَمْزة للاستِفْهام و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسم إشارة مَفعول مُقدَّم لِـ﴿يَعْبُدُونَ﴾، أو هي مُبتَدأ والمَفعولُ ﴿إِيَّاكُمْ﴾؛ لأنَّ ﴿يَعْبُدُونَ﴾ الآنَ مُفرَّغة، يَعنِي أنها لم تَأخُذ مَفعولَها، وإذا لم تَأخُذ مَفعولها صارَ ما سبَقَ هو المَفعولَ.

وهل يَجوز تَقديم مَعْمُول خبَرِ (كانَ) عليها؟

الجوابُ: نعَم يَجوز، وفي باب (كانَ) وأَخواتها، أنَّه يَجوز تَقديم خبَرِها، ويَجوز تقديم مَعمولِ خبَرِها، قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود:٨] قُدِّم عامِلُ الخَبَر على الأَداة، ﴿إِيَّاكُمْ﴾ مَفعول لـ﴿يَعْبُدُونَ﴾، يَعنِي: أَهؤلاءِ كانوا يَعبُدونكم، ولكنه فصَل الضَّمير؛ لتَقدُّمه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الْأُولَى يَاءً وَإِسْقَاطِهَا] عِندنا هَمْزتان، هَمْزة ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الثانية، وهَمْزة ﴿إِيَّاكُمْ﴾ فيها ثلاث قِراءات: القِراءة الأُولى تَحقيق الهَمْزتين: (أهؤلاءِ إِيَّاكم)، والقِراءة الثانية يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإبدال الأُولى ياءً: (أَهَؤُلايِ إِيَّاكم) بأن تَجعَل الهَمْزة ياءً، والثالِثة إِسْقاط الهَمْزة الأُولى: (أَهَؤُلا إِيَّاكم)، يَعنِي الهَمْزة الأُولى من الهَمْزتين المُتجاوِرَتَيْن، وهي هَمْزة (أُولاءِ) الثانية وهَمْزة (إِيَّاك)؛ ثلاثة قِراءات، وفي أَيِّها قَرَأْتَ أَجزَأَ.

تنبيه: قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ بتَحقيق الهَمْزتَيْن وإبدال الأُولى ياءً، ذكَر بعضُ المُحَشِّين أن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَهِمَ في هذا، وأنَّ إبدال الياء إنما هو في الثانية لا في الأُولى، يَعنِي: أنَّ الأُولى ما فيها قِراءة في إبدالِها ياءً، وإنما إبدال الياء في الثانية دون الأُولى، فيَكون هذا وَهْمًا من المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أو سَبْقة قلَمٍ.

وقوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ أي: في الدُّنيا يَقول الله تعالى ذلك تَوبيخًا وتَقريعًا لهؤلاء العابِدين الذين كانوا يَعبُدون الملائكة، والملائِكةُ تَقدَم لنا كثيرًا أنها جَمْع (ملَك)، وأَصْل (ملك: مَلْأَك)، وأَصْل (المَلْأَك) (مَأْلَك)، ففيها أُصول، لكنها بالاستِعْمال وصَلَتْ إلى هذه اللُّغة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنه يَنبَغي تَذكيرُ الناس بيَوْم المَعاد، ووجهُ الدَّلالة: أنَّ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ مُتعلِّق بمَحذوف تَقديرُه: (اذْكُرْ يومَ يُحشَرون)، وهذا يَشمَل تَذكير النَّفْس، بمَعنَى أنَّ نَفْسك إذا غفَلَت يَنبَغي أن تُذكِّرها يومَ الحَشْر ويومَ الموت؛ لأنَّ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [اذْكُرْ] المُقدَّر يَحتَمِل أنَّ المعنى اذكُرْ في نَفْسك هذا اليومَ، أو اذْكُرْ لغَيْرك هذا اليومَ.

وكِلاهما حقٌّ فيَنبَغي للإنسان أن يُذَكِّرَ نَفْسه مَآله، كُلَّما ركَنَت إلى الدنيا وأَرادَتِ الانغِماس فيها فلْيُذكِّرْها يوم النَّقْلة من هذه الدُّنيا، ويُذكِّرها قومًا انتَقَلوا من هذه الدُّنيا، وكانوا أَشَدَّ منه قوةً وأكثَرَ أموالًا وأولادًا، ثُم يُذكِّرها ما وراء ذلك من الحِساب والعِقاب، وهو اليوم المشهودُ الذي يُجمَع له الناس.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات البَعْث؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الحَشْر عامٌّ لكل أحَد حتى من أَكَلَتْه السِّباع وأَحْرَقَتْه النِّيرانُ، يُؤخَذ من قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ وهو كذلك، فالَّذي أَكَلَتْه السِّباع أو أَحرَقَتْه النيرانُ لا بُدَّ أن يُحشَر يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات القَوْل لله تعالى، من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ وهذا يَعنِي إثبات الكلام والقول لله عَزَّوَجَلَّ، وهو مَذهَب أهل السُّنَّة والجَماعة ومَذهَب الأشاعِرة ومَذهَب المُعتَزِلة، ولكنهم يَختَلِفون في تفسير هذا الكلامِ.

فالكلامُ عند أهل السُّنَّة والجَماعة كلام حَقيقيٌّ بحُروف وأصواتٍ مَسموعة، وهو غير مَخلوق.

والكلام عند المُعتَزِلة كلام بحروف وأصوات مَسموعة؛ لكنَّه ليس من صِفات الله تعالى، فهو مَخلوق عندهم يَقولون: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَخلُق كلامًا فيَنسُبه إليه على سبيل التَّشريف والتَّعظيم، كنِسبة البيت إليه ونِسبة المَساجِد إليه ونِسبة الناقة إليه ونِسبة الأرواح إليه وما أَشبَهَ ذلك.

والأشاعِرة يُثبِتون لله تعالى كلامًا، لكنهم يَقولون: إنه بغير حروف وبغير أَصوات مَسموعة؛ بل هو المَعنَى القائِم بنَفْسه، وهذا الذي يُسمَع هو الذي سمِعه مُوسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وسمِعه محمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ويَسمَعه الناس يوم القيامة هذه أَصوات يَخلُقها الله عَزَّوَجَلَّ لتُعبِّر عمَّا في نَفْسه، وليسَتْ هي كلام الله تعالى، بل هي عِبارة عنه.

أمَّا أهل السُّنَّة والجَماعة فيَقولون: إنَّ كلام الله عَزَّوَجَلَّ كلامٌ حَقيقيٌّ بحَرْف وصَوْت مَسموع، لكنَّ هذا الصوتَ لا يُشبِه أصواتَ المَخلوقين؛ لأنَّه من كلام الله تعالى وكلامه صِفة من صِفاته لا تُشبِه صِفاتِ المَخلوقين.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَقريع أُولَئك المُشرِكين وتَوْبيخهم بسُؤال مَن يَدَّعونهم آلهةً حتى يُظهِروا البَراءة منه؛ لقوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟

سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ فسُؤال المَعبودين عن عِبادة العابِدين يُراد به التَّقريع والتَّوْبيخ لأُولَئك العابِدين، وأن هؤلاءِ المَعبودين تَبَرَّؤوا منهم وقالوا: سُبحانك أنت ولِيُّنا من دُونهم، وهذا من أشَدِّ ما يَكون من التَّخجيل والتَّوبيخ والتَّنديم، لأنه يُظهِر كذِب هَؤلاء العابِدين وافتِراءَهم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات المَلائِكة وأنَّ مِن الناس مَن عبَدهم من دون الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٤١)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ:٤١].

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ ﴾ الضميرُ يَعود إلى المَلائِكة ﴿سُبْحَٰنَكَ ﴾ [تَنْزِيهًا لَكَ عَنِ الشَّرِيكِ] يَعنِي: إننا نُنَزِّهُك عن أن نَكون شُرَكاءَ لك نحن ولا غَيرُنا وتَنزيهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَكون عن شَيْئين: أحدُهما النَّقْص، والثاني: مُشابَهة المَخلوقين.

وإن كان مُشابَهة المَخلوقين من النَّقْص، لكن هذا من باب التَّفصيل في القول، يُنَزِّهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن النَّقْص؛ فمَثَلًا لا يُوصَف الله تعالى بالعَمَى والصَّمَم والعَجْز والضَّعْف وما أَشبَهَ ذلك مُشابَهة المَخلوقين فيما لهم من صِفات الكمال، فلا يُقال: عِلْمه كعِلْم المَخلوقين، أو وَجهُه كوَجْه المَخلوقين، أو يَدُه كيد المَخلوقين، وما أَشبَه ذلك، فهو مُنَزَّهٌ عن هذين الأَمْرين.

وهنا يُنزِّهُ عن أن يَكون له شريك؛ لأنَّه لو كان له شَريك لكانَ ناقِصًا؛ إِذْ إِنَّ الشريك مُعين لَمن شارَكه، أو مالِكٌ لما يَملِكه، فالله تعالى مُنَزَّهٌ عن هذا.

وتَقولُ الملائِكةُ: ﴿سُبْحَٰنَكَ ﴾ أي: تَنزيهًا لك عن الشريك، وأَفادَنا المُفَسِّر بقوله: تَنزيهًا. أن (سُبْحَانَ) مَنصوبة على أنها اسمُ مَصدَر، فتكون مَفعولًا مُطلَقًا، وهي مُلازِمة للنَّصْب على المَفعولية المُطلَقة دائِمًا، ومُلازِمة أيضًا للإِضافة، فلا تَقَع

إلَّا مُضافةً وإلَّا مَنصوبةً على المَفعولية المُطلَقة.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي: لا مُوالاةَ بَينَنا وبينَهم من جِهتنا، يَعنِي: أن هذه الجُملةَ خَبَرية ثُبوتية ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ مَعناها جُملة سَلْبية، أي: لا نَتَوَلَّاهم، بل ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾، فلا مُوالاةَ بينَنا وبينهم، وإذا انتَفَت المُولاةُ ثبَت ضِدُّها، وهي المُعاداة، يَعنِي: فهؤلاء أَعداؤُنا، وأنت ولِيُّنا من دونهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَلْ﴾ للانتِقال، ﴿كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ الشياطين، أي: يُطيعوهم في عِبادتهم إيَّانا ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ مُصدِّقون في ما يَقولون]

قوله: [﴿بَلْ﴾ للانتِقال]؛ لأنَّ (بَلْ) تَأتي للإِضْراب الانتِقالي، وللإِضْراب الإِبْطالي، فإن كان المَقصود بها إِبْطالَ ما سبَقَ وإثباتَ ما لَحِق فالإِضْراب إِبْطالي، وإذا كان المَقصودُ بها الانتِقالَ من مَعنًى إلى آخَرَ فوقَه أو دونَه يُسمَّى إضرابًا انتِقاليًّا.

وهنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يَقول: إنَّ هذا الإِضْرابَ انتِقاليٌّ؛ يَعنِي: وأنَّهم لم يُبطِلوا ما سبَق، فهم باقون على قَوْلهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾، ولا مُولاةَ بيننا وبينَهم، ولا نُوالِيهم ولا يُوالوننا، بل نَزيد على ذلك: كانوا يَعبُدون الجِنَّ، والمُراد بالجِنِّ هُنا الشياطين؛ لأنَّ الجِنَّ همُ الشَّياطينُ في الواقِع؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف:٥٠]، فهم يَعبُدون الجِنَّ.

فَإِنْ قِيلَ: إذا كانوا يَعبُدون المَلائِكة، كما هو ظاهِر السِّياق فكيف عِبادتهم للجِنِّ؟

فالجوابُ: هنا عِبادتهم للجِنِّ عِبادة طاعة، أي: أنهم يُطيعونهم في الإشراك فالجِنُّ تَأمُرهم أن يَجعَلوا المَلائِكةَ شُرَكاءَ مع الله تعالى في العِبادة فيُطيعونهم، ومَن أَطاع غيرَ الله تعالى في مَعصية الله تعالى فقَدِ اتَّخذه إلهًا، قال الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾ [التوبة:٣١]، وقد رُوِيَ أنهم كانوا إذا أَحَلُّوا ما حرَّم الله أَحَلُّوه، وإذا حرَّموا ما أَحَلَّ الله حرَّموه، فجعَلوهم إلَهَةً مع الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في التحليل والتحريم والطاعة، فيَكون مَعنَى قوله تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ﴾ أي: يُطيعونهم في عِبادة الملائِكة، ومَن أَطاع غيرَه في مَعصية الله تعالى فقَدِ اتَّخذه إلهًا.

وقوله تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ أي: مُصدِّقون فيما يَقولون لهم.

وقوله تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُم﴾ ولم يَقُلْ: كلهم. مع أن الجميع يَعبُدون الملائِكة طاعَةً للجِنِّ.

فلماذا عَبَّروا بقولهم: أكثَرهم. ولم يَقولوا: كلُّهم؟

جوابُ ذلك أن يُقال: إنَّ هؤلاءِ المُشرِكين يَنقَسِمون إلى قِسْمين: قِسْم عامَّةٌ أَتباعٌ، لا يَعرِفون شيئًا، وجَدوا آباءَهم على دِين فمَشَوْا عليه، والقِسْم الآخَر مُجتَهِدون يَعرِفون الأَمْر ولكنهم يُؤمِنون بهؤلاء الجِنِّ ويُصدِّقونهم، ويَكفُرون بالرُّسُل، وهؤلاء همُ الأَكثَرُ، ومع ذلك فإن الأَتْباع -وهم القِسْم الأوَّل- إذا تَبيَّن لهم الحقُّ وأَصَرُّوا على اتِّباع هؤلاء وقالوا كما قالَتِ الأُمَم: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢]، فإنهم مُستَحِقُّون للعذاب؛ لأنهم كفَروا على بَصيرة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ ما عِند المَلائِكة عليهم الصلاة والسلام من تَعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حيث قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تَنزيهًا عن أن يَكون لك شريك، لا مِنَّا ولا من غَيرِنا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ رُبوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمَلائِكة، حيث قالوا: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الجِنِّ؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ والجِنُّ عالَمٌ غَيْبيٌّ مَخلوق من نار وفيهم المُؤمِن والكافِر والمُطيع والعاصِي، كما في سُورة الجِنِّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وُجوب الكُفْر بعِبادة الجِنِّ؛ لقوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾، وأمَّا الإيمان بوُجودهم فهو واجِب؛ لكن الإيمان بأن لهم حقا في العبودية هذا منكر، وهو المراد بقوله: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾، ومن هنا نعرف أن ما جاء في كتاب في كتاب التوحيد -واستشكله بعضهم-؛ أنَّ المُصدِّق بالسِّحْر لا يَدخُل الجَنَّة مع أن السِّحْر حقيقة، والتَّصديق به أَمْر واقِعيٌّ، لكن المُراد التَّصديق به يَعنِي مُمارَسته والإيمان به أي: بما يَنتُج عنه بحيث يُمارِسه الإنسان بنَفْسه، وأمَّا التصديق بأن السِّحْر له آثار فهذا أَمْر لا يُمكِن إنْكارُه.

• ● ۞ ● •

الآيـة (٤٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [سبأ:٤٢].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَٱلْيَوْمَ ﴾: (أل) هنا للعَـهْد الذِّكْري، والمَذكور هو قولُـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ أي: فاليَوْم الذي نَحشُرهم فيه لا يَملُك بعضُكم لبَعْض نَفْعًا ولا ضَرًّا.

وقوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ ﴾ نُصِبَت على الظَّرْفية، والعامِل فيها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يَمْلِكُ ﴾ يَعني: فلا يَملِك اليومَ بَعضُكم لبَعْض، أي: بعض المَعبُودين للعابِدين [﴿نَّفْعًا ﴾ شفاعةً ﴿وَلَا ضَرًّا ﴾ تَعذيبًا].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ الذي انتَفَى نَفْعُه المعبودُ؛ لأنَّ العابِد يَرجو من وَراء المَعبود النَّفْعَ أو الضرَر.

فنَقول: لا يَملِك العابِد للمَعبود ضَرًّا ولا نَفْعًا، كما أنه لا يَملِك المَعبود للعابد ضَرًّا ولا نَفْعًا.

فَإنْ قِيلَ: ما الحِكْمة في أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ وجعَله مُبهَمًا ليَشمَل العابِد والمعبود والتابع والمَتبوع؛ فكلُّ أحَدٍ يوم القِيامة لا يَملِك لأَحَدٍ نَفْعًا ولا ضَرًّا، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [شَفَاعَةً] مع أن كلِمة (نَفْع) أعَمُّ من

الشفاعة، لكن كأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قيَّدها بالشفاعة؛ لقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، فادَّعَوْا أنَّ عِبادتهم إيَّاهم من أجل أَنْ تَشفَع لهم عند الله عَزَّوَجَلَّ وتُقرِّبهم إليه.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ يَعنِي: نَفْعًا في عِبادتكم إيَّاهم بالشفاعة، والأصَحُّ: وبغيرها.

﴿وَلَا ضَرًّا﴾ بعدَم عِبادتكم إيَّاهم، أي: أنهم إذا لم تَعبُدوهم فإنهم لن يَضُرُّوكم، وكما أنهم لا يَملِكون في ذلك اليومِ لا نَفْعًا ولا ضَرًّا، فكذلك لا يَملِكون في الدُّنْيا نَفْعًا ولا ضَرًّا.

فإن قلت: إنَّه قد يَعبُد الإنسان غَيرَ الله تعالى، فيَدعوه لكَشْف ضُرٍّ فيَنكَشِف ذلك الضُّرُّ، فما الجوابُ عن هذه الآيةِ وغيرِها؟

فالجوابُ: إن هذا الذي حصَل لم يَحصُل بالدعاء أو بالعِبادة ولكن حصَل عنده، فليس ذلك سببًا.

فإذا قُلْتَ: قولكَ: إنه حصَل عنده. هذه دَعوى تَحتاج إلى بُرهان، وإلَّا لكان الواجِبُ أن يُحال الأمر على الشيء أو على السبب الظاهِر، وهو دُعاء هذه الأصنامِ. فهذ الاعتِراض يَعنِي: أنك قد تَقول: إن هذا الشيءَ حصَل عند الدُّعاء لا بالدُّعاء. فيُقال لك: هذه دَعوَى مِنك، ما دامَ دعا هذا الصَّنَمَ أن يَشفِيَه فشُفِيَ، فالأصل إحالة الحُكْم على السبَب الظاهِر، وهو هذا الدعاءُ فدَعوَى أنه حصَل بغير هذا السبَبِ الظاهِر تَحتاج إلى دَليل!

فالجوابُ: أن لَدينا دليلًا على ذلك وهو قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ

مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥].

فهاتان الآيتان وما أشبهها كلُّها تَدُلُّ على أنَّ هذه الأصنامَ لا تَنفَع لا بجَلْب نَفْع ولا بدَفْع ضَرَر، فإن وُجِد شيءٌ حصَل بعد الدُّعاء فقد حصَل عنده لا به.

فإن قُلْتَ: كيف يَكون هذا الشيءُ؟ وما الحِكْمة من أن الله عَزَّوَجَلَّ يَجعَل حدوث هذا النَّفْعِ أو اندِفاع هذا الضرَرِ عند دُعاء هذه الأَصنامِ؟

نَقول: فِتْنةً وامتِحانًا، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يَمتَحِن العبد بالشيء المُحرَّم يُصِرُّ عليه، أو يَبتليه بالشيء المُحرَّم يَمتَنِع منه، والله على كل شيءٍ قديرٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ﴾ مَعطوف على قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ يَعني: واليَوْم نَقول للذين ظلَموا.

الظُّلْم في اللغة: النَّقْص هذا هو الأصل، ومنه قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣] أي: لم تَنقُص.

وأمَّا في الاصطِلاح أو في الشَّرْع: فهو نَقْص ذَوِي الحَقِّ حَقَّهم؛ إمَّا بالمُماطَلة بالواجِب، وإمَّا بانتِهاك المُحرَّم، نَقْص ذَوِي الحقِّ حَقَّه، إمَّا بالمُماطَلة في الواجِب مثل قوله ﷺ: «مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ»[1]، وإمَّا بالاعتِداء على حقِّه كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى:٤٢].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحوالات، باب الحوالة وهل يرجع في الحوالة، رقم (٢٢٨٧)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم مطل الغني وصحة الحوالة، رقم (١٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ كَفَرُوا] وهذا تَفسير بالمَعنَى لا بالمُراد؛ لأن الظُّلْم من حيث المَعنى أَعَمُّ من الكُفْر، لكنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول: إنه يُراد بالظُّلْم هنا ظُلْم الكُفْر، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢].

فالظُّلْم قد يُراد به بالكُفْر، وكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خصَّ الظُّلْم بالكُفْر هنا، بدليل السِّياق: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ هذا ممَّا يَدُلُّ على أن المُراد بالظُّلْم هنا ظُلْم الكُفْر؛ لأنَّ الذي يُكذِّب بالنار حُكْمه كافِر؛ لتكذيبه خبرَ الله تعالى ورسوله ﷺ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذُوقُوا۟﴾ فِعْل الأَمْر، لكنه يُراد به الإهانة؛ يَعنِي: يُقال لهم إهانةً: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: أنَّ النار ستُصيبكم حتى تَذوقوها كما تَذوقون الطعام.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ كانوا يُكذِّبون بالنار لأنهم يُنكِرون البَعْث، والنار إنما تكون بعد البَعْث، وهم يُكذِّبون بذلك، ومن بابِ أَوْلى أن يُكذِّبوا بما يَكون في القَبْر من العَذاب، فهم يُكذِّبون تكذيبًا كامِلًا ويَقولون: إن الرُّوح إذا خرَجَت من الجَسَد لن تَعود إليه، وهنا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، وفي سورة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة؛ قال تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة:٢٠].

فعلى هاتين الآيتين يَكون الوَصْف بالتَّكذيب، مرَّةً بالنار ومرَّة بعَذابها، فهُمْ أحيانًا يُنكِرون النار وأحيانًا يُكذِّبون التعذيب بالنار، ويَقولون: كيف نُعذَّب بالنار؟

وكيف نَبقَى أحقابًا ونحن في النار، والإنسان إذا دخل في النار احتَرَق وانتَهَى؟! فيُكذِّبون بالعَذاب، وأحيانًا يُكذِّبون بالنار نفسها.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ الجارُّ والمَجرور مُتعلِّق بـ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، ولكنه قُدِّم للفَواصِل من جِهة، وللحَصْر من جهة أخرى، ولكنَّنا إذا قُلْنا: إنه للحَصْر. يَرِد علينا إِشْكال وهو أنهم كذَّبوا بالنار وبغيرها، فيُقال: لَمَّا كان العذاب بالنار ذُكِّروا بتكذيبهم بها خاصَّة؛ لأنهم عُذِّبوا بها فكأنه قِيل لهم: عُذِّبتم بشيء أنتُمْ كُنْتم تُكذِّبون به، وإلا فلَهُم تكذيبٌ آخَرُ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٤٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سبأ:٤٣].

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا ﴾ [الْقُرْآنِ] ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ [وَاضِحَاتٍ بِلِسَانِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ] ﴿قَالُوا۟﴾ هذه الجُملةَ الشَّرْطيةَ وهي ﴿ وَإِذَا﴾، وفِعْل الشَّرْط ﴿تُتْلَىٰ﴾ جوابُه ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ ﴾.

وقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ ﴾: ﴿مَا﴾ نافِية، وهنا لم تَعمَل لانتِقاض النَّفيِ، وقد قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أَلْفيته:

إِعْمَالُ لَيْسَ أُعْمِلَتْ مَا دُونَ إِنْ ... مَعَ بَقَا النَّفْيِ وَتَرْتِيبٍ زُكِنْ[1]

فإذا انتُقِضَ النَّفيُ فلا عمَلَ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الإظهار في مَوضِع الإِضْمار له فائِدة دائِمة مُستَمِرَّة وهي التَّنبيهُ، وفائدةٌ خاصَّة في كل سِياق بحَسَبه، فهنا يُقصَد بها التَّعميم، يَعنِي: للذين ظَلَموا من هؤلاء وغيرهم، والإشارة إلى سبَب الحُكْم وهو قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا۟﴾ للذين ظلَموا ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾، والتَّعميم

(١) الألفية (ص:٢٠).

والإشارة إلى عِلَّة الحُكْم، وهو الظُّلْم للذين قالوا: نَقول لهم: ما استَفَدْنا أن سبَب قول الله تعالى لهم وتَوْبيخهم إيَّاهُم هو الظُّلْم.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾: ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ حال من آياتِنا؛ لأنه وَصْفٌ بعد مَعرِفة، والوَصْف بعد المَعرِفة إذا كان نَكِرة يَكون حالًا، وكذلك إذا كان جُمْلة، فالأَوْصاف بعد المَعارِف إذا كانَتْ نَكِرة أو جُمْلة تكون حالًا، والأوصاف بعد المَعارِف إذا كانت مَعرِفة تكون نَعْتًا، فالحال والنَّعْت كلاهما وَصْف، ولكن إن وافَق مَتبوعَه في التعريف والتَّنكير فهو نَعْت، وإلَّا فإن كان المَتبوع مَعرِفة والثاني نَكِرة أو جُملة فهو حال، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ هو جوابُ الشَّرْط.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: إذا تَقرَأ عليهم آياتِنا ولم يُبيِّن القارِئَ فيَشمَل أَنْ يكون القارِئُ النبيَّ ﷺ أو غيرَه، إذا تُتلَى عليهم آياتُ الله تعالى ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: ظاهِراتٍ فما ظُهورها هنا؟ هل ظُهورها بمَعنَى أنها واضِحة أنها كلام الله تعالى؛ لعَجْزهم عنها، أو بيِّناتٍ فيما تَدُلُّ عليه من مَعاني سامِية لا يُمكِن أن يَأتِيَ بمِثْلها البَشَر، أو الأمران؟

الجوابُ: يَشمَل هذا وهذا، فهي بيِّنة في ذاتها واضِحة أنها ليست من كلام البَشَر، وهي بيِّنة في مَوْضوعها وما تَدُلُّ عليه من أنَّها ليست من أحكام البَشَر؛ لأنها لا تَتَناقَض ولا يُكذِّب بَعضُها بعضًا، وهذا يَدُلُّ على أنها من عِند الله تعالى.

ولو كانت هذه الآياتُ خَفيَّةً لكان لهم شيء من العُذْر في رَدِّها، ولكنها آيات بيِّناتٌ، لا عُذْرَ لهم في رَدِّها.

ومع هذا يَقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفسيرها: [وَاضِحَاتٍ بِلِسَانِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ] ﴿مَا هَٰذَآ﴾

أيِ: الذي جاء بها وادَّعى أنها من عِند الله إلَّا رجُلٌ يُريد أن يَصُدَّكم، وانظُرْ كيف تَحمِل هذه الجُملةُ من الاحتِقار والإِنْكار ما هو معلوم، فقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ أَتَوْا به بصيغة الحاضِر وإن كان غائِبًا للاحتِقار، وقولهم: ﴿إِلَّا رَجُلٌ﴾ هذا للإِنْكار؛ لأنهم أَتَوْا به بصيغة النَّكِرة، كأنهم لا يَعرِفونه كأنه رَجُل أَجنبيٌّ منهم، قالوا: ما هذا إلَّا رجُلٌ، ولم يَقولوا: ما ذلك الرجُلُ إلَّا رجُل. بَلْ قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ احتِقارًا وإنكارًا.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ يَعني: لا يُريد أن يَهدِيَكم سبيل الرَّشاد، ولكن يُريد ﴿أَن يَصُدَّكُمْ﴾ أن يَصرِفكم ويَمنَعكم ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أيِ: الأَصْنام من الأشجار والأحجار وغيرها، هذا هو غَرَض هذا الرجُلِ الذي جاء بهذه الآياتِ التي تُلِيَت عليهم، وليس غرَضُه الصلاحَ ولا الإصلاحَ. هكذا ردُّوا الحقَّ بهذه الدَّعْوةِ الباطِلةِ.

وقوله تعالى: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ ولم يَقولوا: وعمَّا كُنْتم تَعبُدون؛ لإثارة الحَمِيَّة في نُفوسهم؛ لأنَّ الإنسان يَصعُب عليه أن يَدَع ما كان آباؤُه عليه، لا سيَّما مثل هؤلاء الجَهلةِ، ولو قالوا: عمَّا كُنْتم تَعبُدون. لكان يُمكِن أن يُقالَ: إنهم عَبَدوا على غير أَساس. لكن لَمَّا قال تعالى: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ كأنَّ هذه العِبادةَ لهذه الأصنامِ أَمْرٌ مُستَقِرٌّ كان عليه الآباء، ولا يَنبَغي لكم أن تَترُكوا مِلَّة آبائِكم.

ولهذا يَقولون كما حَكَى الله عنهم في آياتٍ أُخرى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢]، أو ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣] آيتان.

وقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ من الأصنام، والمُراد بالآباء هنا ما يَشمَل آباءَ الصُّلْب، وهو الأبُ الأَدْنى والآباء الأَعلَيْن، وهمُ الأَجْداد وإن عَلَوْ.

وقوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ هل أُمَّهاتهم كذلك؟

الجوابُ: نعَمْ، لكنَّ الإنسان تَأخُذه الحَميَّة لأبيه أكثَرَ ممَّا تَأخُذه لأُمِّه؛ لأنَّه مِن المعلوم أن الأبَ رَجُل والرجُل أَعقَلُ من المرأة، فإذا كانت آباؤُكم يَعبُدون هذه الأصنامَ ويُصِرُّون على عِبادتها -وهم العُقلاءُ- فإنه لا يَنبَغي لكم أن تَتَّبِعوا هذا الرجُلَ؛ الذي كان يُريد أن يَصُدَّكم عمَّا كان يَعبُد آباؤُكم.

وقالوا في القُرآن: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ كذِب ﴿مُّفْتَرًى﴾ على الله تعالى. فطَعَنوا في الرسول ﷺ بسُوء قَصْده، وأنه لا يَقصِد الإصلاحَ، وإنما يُريد أن يَصُدَّكم عمَّا كان يَعبُد آباؤُكم، وطعَنُوا في القُرآن وفي الوَحْيِ الذي جاء به هذا الرسولُ ﷺ، وقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾.

ومعلوم أنَّ هذه الصِّيغةَ صِيغةُ حَصْر، فعلى زَعْمهم ليس في القُرآن شيءٌ صِدْق، كلُّ القُرآن جملةً وتَفصيلًا ﴿إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ أي: كذِب، هو بنَفْسه كذِب، وعلى على الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه هناك كذِب مُطلَق يُكذِّبه الإنسان ولا يَنسُبه إلى أحَد، وهنا كذِب يَفتَرِيه الإنسان على غيرِه، فالقُرآن يَقولون: إنَّه كذِبٌ وإنه مُفتَرًى على الله عَزَّوَجَلَّ. ولا ريبَ أنَّ هذه دَعوَى باطِلة فالقُرآن كما وصَفَه الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، وكذلك القُرآن من عند الله عَزَّوَجَلَّ، بدليل أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ تَحدَّى هؤلاءِ أن يَأتوا بمِثْله فلم يَأتوا، فهو دليلٌ على أنَّه مِنْ عند الله وكُلُّ أَخباره صِدْقٌ وحقٌّ، خِلاف ما طعَن به هؤلاء.

وقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ فطَعَنوا في الرسول وطَعَنوا في المُرسَل به، والطَّعْن فيهما طَعْن في الله عَزَّوَجَلَّ، كيف؟

الجوابُ: لأنَّ تَمكين الله تعالى لهذا الرسولِ، وتَأييده له، وإنزال الآيات عليه

وهو كاذِبٌ سَفهٌ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُؤيِّد رسوله بما يُنزِل عليه، ويَشهَد له بأنه حقٌّ، والرسول ﷺ يَدْعو الناس علَنًا وسِرًّا، فلو كان كاذِبًا على الله عَزَّوَجَلَّ والله عَزَّوَجَلَّ يُؤيِّده ويُمكِّنه لكان تَمكينُ الله عَزَّوَجَلَّ له في غاية ما يَكون من السَّفَه، وهذا طَعْن في الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ هذه أيضًا دَعوَى ثالِثةٌ كاذِبةٌ، لكنه أَتَى بالإظهار في مَوضِع الإضمار ﴿وَقَالَ﴾ ولم يَقُل: وقالوا، بل ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ ليَشمَل هؤلاءِ وغيرَهم، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢].

فقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يَشمَل هؤلاءِ وغيرَهم، ويُفيد أنَّ هؤلاءِ الذين قالوا هذا القولَ كُفَّار؛ لأنَّه وصَفَهم بالكُفْر مُسنِدًا إليهم هذا القولَ، فيَكون ذلك سببًا لكُفْرهم.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿إِنْ﴾ في تَفسيرها [مَا] أي: أنَّ (إِنْ) نافِية، وهل يُشتَرَط لكونها نافِيةً أن تَأتيَ بعدها (إلَّا)؟

الجوابُ: لا، ولكن إذا أَتَتْ بعدها (إلَّا) فهي نافِية، كُلَّما أَتَت (إلَّا) بعدَ (إِنْ) فإنَّ (إِنْ) نافِية، ولا نَقول: إنها لا تَكون نافِيةً إلَّا إذا وقَعَتْ بعدها (إلَّا)؛ لأنها قد تَأتي نافيةً، وليس بعدها (إلَّا)، كقوله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ﴾ [يونس:٦٨]، أي: ما عِندكم من سُلطانٍ بهذا، ومع ذلك فإن الجُملة هذه ليس فيها (إلا).

والخُلاصةُ: إذا أَتَت (إلَّا) بعد (إِنْ) كانت (إِنْ) نافِية، ولا يَلزَم أن تَأتيَ بعدها (إلَّا)، بل قد تَكون نافِية بدون (إلَّا).

ولنا أن نَستَطْرِد حتى نَذكُر مَعانيَ (إِنْ)، فتَأتي نافِيةً كما هنا، وتَأتي شَرْطيةً كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٢٩]، وتَأتي زائدة كقول الشاعِر[١]:

بَنِـي غُدَانَـةَ مَـا إِنْ أَنْـتُمُ ذَهَـبٌ ... وَلا صَرِيفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الخَـزَفُ

وتَأتي مُخَفَّفة مِنَ الثَّقيلة، مثل:

.... وَإِنْ مَالِكٌ كَانَتْ كِرَامَ المَعَادِنِ[٢]

هذه مُخَفَّفة من الثَّقيلة؛ إِذًا فتُستَعمَل في اللُّغة العَربية على أربعة أَوْجُهٍ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ السِّحْر هو في اللُّغة: كل شيء خَفِيٍّ، وسُمِّي سِحْرًا؛ لُمطابَقته السَّحَر وهو آخِر الليل؛ لأنَّ آخِر الليل تَقَع فيه الأشياء خَفيَّةً؛ لكون الناس مُستَتِرين في بُيوتهم، فالسِّحْر في اللغة الشيءُ الخَفيُّ الذي يَخفَى أَمْرُه وسبَبُه؛ ولهذا أوَّل ما ظَهَرت الساعاتُ هذه قيل: إنها سِحْر!. وإذا جاءت أشياءُ غَريبةٌ على الناس خارِقة للعادة قالوا: هذا سِحْر. فهم يَقولون: إنَّ الذي جاء به مُحَمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذا سِحْر، فعَصا مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على رَأْيهم سِحْر، وإحياء عِيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الموتى بإِذْن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سِحْر، وهذا الكلامُ الذي جاء به مُحَمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سِحْر، «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»[٣]، فقالوا: هذا كَلامٌ فَصيحٌ سحَرَ عُقول الناس.

---

(١) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٦٦)، وشرح الأشموني (١/ ٢٥٤)، وهمع الهوامع (١/ ٤٤٩).

(٢) هو عجز بيت للطرماح بن حكيم الطائي. انظر: شرح الكافية لابن مالك (١/ ٥٠٩)، ديوان الطرماح (ص:٢٨٠).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٥١٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾ هذا من باب التَّمويه، يَعنِي: أنه سِحْر بيِّن لا تَنبَغي المُجادَلة فيه؛ لبَيانه وظُهوره، وهذا كما تُؤكِّد الشيء فتَقول: هذا أَمْر بَيِّن واضِح. وإن كان ليس بَيِّنًا واضِحًا، فإن هذا الذي جاءَتْ به الرُّسُل من الآيات ليس بَيِّنًا أنه سِحْر، بلِ البَيِّن أنه حَقٌّ وآياتٌ حقيقية، لكن المُكذِّبين -والعِياذُ بالله تعالى- يُجادِلون في الحقِّ.

وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾: قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بمَعنَى [بَيِّنٌ]؛ لأنَّ (أَبانَ) يَأتِي لازِمًا ومُتعَدِّيًا، فتَقول: أَبانَ الفَجْرُ. بمَعنَى: ظهَر الفَجرُ، وتَقول: بانَ الفَجرُ، فهُنا كلِمة ﴿مُّبِينٌ﴾ بمَعنَى: بيِّن، هذا هو الأقرَبُ، أمَّا ﴿مُّبِينٌ﴾ بمَعنَى: أَبانَ، أي: أَوضَحَ وأَظهَرَ، ففي مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩]؛ لأنَّ القُرآن مُبين للحَقِّ، فتكون ﴿مُّبِينٌ﴾ هناك من (أَبانَ) المُتعدِّي، و(مُبينٌ) هنا من (أَبانَ) اللَّازِم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الوَحْيَ آية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ، ووَجْهُ كونه آيةً من عِدَّة وُجوهٍ:

أوَّلًا: أنه أَعجَزَ البشَر وغير البَشَر، وهذا مَبنيٌّ على أنه من عند الله تعالى.

ثانيًا: أنَّ أَحكامَه عادِلة مُصلِحة للقُلوب، والأَبدان، والأَفراد، والجَماعات، في كل زمانٍ وفي كلِّ مَكانٍ، وهذا لا يُمكِن أن يُوجَد في قَوانينِ البَشَر مَهْما عظُمَت، فإنها تَكون صالِحة في نِطاق مَحدود، وتَجِدُها كذلك مع كونها صالِحة في نَطاق مَحدود، تَجد فيها أُمورًا ضارَّة قد تُعادِل المَصالِح التي فيها، بخِلاف آيات الله تعالى.

ثالثًا: ما يَشتَمِل عليه الوحيُ، أو القُرآنُ بالذات، من الأَخْبار الصادِقة، التي ليس فيها ما يُخالِف الواقِع بوجهٍ من الوُجوه، سواءٌ كانت تِلك الأَخبارُ ماضِيةً أو حاضِرةً أو مُستَقبَلة، هذه وجوهُ كَونِه من آيات الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ آياتِ الله عَزَّوَجَلَّ بيِّناتٌ، ليس فيها خَفاءٌ، وعلى هذا فما يُشكِل على بعض أهل العِلْم من أحكام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فليس مَصدَرُه أن الوحيَ خَفِيٌّ، ولكنَّ مَصدَرُه قُصور الناظِر في الوَحيِ، أو تَقصيره، قُصوره بحيث لا يَكون عنده عِلْم، أو لا يَكون عنده فَهْم، أو تَقصيره بحيث لا يَطلُب العِلْم، ولا يَطلُب الفَهْم، وإلَّا فإن آياتِ الله تعالى بيِّناتٌ، ولا يُمكِن أن تَحدُث حادِثة إلى يوم القِيامة إلَّا وفي كتاب الله تعالى بيانُها، ولكن ليس كل أحَدٍ يَستَطيع أن يَتبَيَّنها من القُرآن.

فتَجِد الآية الواحِدة يَتلوها جماعة، ويَتفَكَّرون فيها، يَستَنْبِط أحَدُهم منها مَسائِلَ عديدةً، والآخَرُ لا يَستَنبِطُ منها إلَّا مَسألةً أو مَسألَتين، وهذا أمرٌ ظاهِر، وكثيرًا ما تُشكِل عليه المَسألةُ، ونُراجِع كتُب العُلَماء والفُقهاء رَحِمَهُمُاللَّهُ وغيرهم ثُم عند التَّأمُّل في الكِتاب والسُّنَّة نَجِد أنها قريبة مَوْجودة؛ إمَّا داخِلة في عُموم اللَّفْظ، أو إشارة، أو إيماء، أو ما أَشبَهَ ذلك.

وبَيان الآيات إمَّا أن يَكون بذاتها هي بيِّنة واضِحة، وإمَّا أن يَكون عن طريق السُّنَّة، تُبيِّن المُجمَل، وتُفسِّر المُشكِل، وتُقيِّد المُطلَق، وتُخصِّص العامَّ، وتَنسَخ المُحكَم -وهذا مَحَلُّ خِلافٍ بين العُلَماء رَحِمَهُمُاللَّهُ، والصحيحُ أنها تَنسَخ ذلك؛ لأنَّ الكلُّ من عند الله تعالى-.

إذَنْ: عرَفْنا مَعنَى (بيِّنات)، سَواءٌ كان بذاتِه أو ببَيان السُّنَّة قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، فالرسول ﷺ بيَّن

القُرآن بلَفْظه ومَعناه، سَواء بيَّنه بقوله أو بفِعْله.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيان عُتوِّ المُكذِّبين للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حيثُ كانوا مع هذه الآياتِ البيِّنات يَدَّعون هذه الدَّعوةَ الباطِلة، وهي أنَّ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يُريد إلَّا أن يَصُدَّهم عمَّا كان يَعبُد آباؤُهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه لا شُبهةَ لهؤلاءِ المُكذِّبين للرسول ﷺ، وإنما هي اعتِداء بالدَّعاوَى الباطِلة؛ لأنَّ غاية ما عِندهم أن يَقولوا: هذا ما كان عليه آباؤُنا. وهذا ليس بحُجَّة، فإن الحقَّ ما وافَق الشَّرْع، سَواءٌ كان عليه الآباءُ أم لم يَكُن.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: غِلَظ هؤلاءِ المُكذِّبين بصَوْغ الأساليب أو العِبارات الدَّالَّة على الحَطِّ من قَدْر النبيِّ ﷺ؛ لقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ هؤلاءِ المُكذِّبين كانوا على ضَلالٍ هُمْ وآباؤُهم، حيث كانوا يَعبُدون ما لا يَنفَعُهم ولا يَضُرُّهم؛ لأنهم يَعبُدون الأَشْجار والأَحْجار، ويَدَّعون أنها تَنفَع أو تَضُرُّ إمَّا بذاتها وإمَّا بشَفاعَتها.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنهم ادَّعَوْا أن النبيَّ ﷺ كذَب على الله عَزَّوَجَلَّ في قولهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ وهذه الدَّعوَى هم بأَنْفُسهم يُكذِّبونها؛ لأنهم كانوا يُسمُّون الرسول ﷺ قبلَ أن يُوحَى إليه (الأَمينَ)، ويَرَوْن أنه أعظَمُ الناس أمانةً وصِدْقًا، فما الَّذي قلَبه عن ذلك الوَصْفِ الذي أنتُمْ تُقِرُّون به، حتى قُلْتم: إنه مُفتَرٍ على الله عَزَّوَجَلَّ؟!.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: ألَّا نَستَغْرِب مَن يُجادِل بالباطِل ويَدَّعي الأقاوِيلَ الكاذِبة، فهناك أُناسٌ الآنَ إذا رفَضوا شيئًا من الأشياء صاروا يَقولون ويَتقوَّلون على هذا

الذي قاله ما لم يَقُلْه، فيقولون: إنه كاذِبٌ، إنه مُتَناقِض، إنه فعَلَ كذا، إنه فعَلَ كذا. وهو بَرِيء من ذلك، فلهؤلاء السلَفُ من أُولئِك الكُفَّارِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنْ ما جاء به النبيُّ ﷺ من الآيات من أَفصَحُ الكلام وأَبلَغُه وأَبيَنُه؛ لقولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ فهُمْ لم يَصِفوه بالسِّحْر إلَّا لأَنَّه يَأخُذ بالقُلوب، ويَجُرُّ الناس إليه جَرًّا، كما قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»(١).

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ مَنْ نَسَب الكذِبَ إلى رسول الله ﷺ بما أَوْحى الله تعالى إليه فهو كافِر؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هؤلاءِ ادَّعَوْا أنَّ الوحيَ سِحْرٌ بعد أن وصَل إليهم وعرَفوه؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ وعرَفوا أنه حَقٌّ، حتى إنَّ زُعماءَهم كانوا يَتَسلَّلون لِواذًا في الليل إلى رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ ليَسمَعوا القُرآن؛ لأَنَّه آخِذٌ بمَجامِع قُلوبهم، وصاروا يُحِبُّون أن يَستَمِعوا إليه، لكن الحَمِيَّة -والعِياذُ بالله تعالى- والعَصبية مَنَعَتْهم أن يَهتَدوا بهذا القُرآنِ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٥١٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيــة (٤٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ:٤٤].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فمِن أينَ كَذَّبوك؟!] قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ اختلَف المُفسِّرون رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في مَعناها فقال بعضُهم: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يُناقِض ما قُلتَ، فإذا لم يَكُن عندهم عِلْم من كُتُب يَدرُسونها، ولا عِلْم من نُذُر أَتَتْهم يُخالِفُ ما أنت عليه، فكَيْف يُكذِّبونك؟! وعليه: فيَكون المُرادُ بهذه الآيةِ أنَّ تكذيبهم إيَّاكَ صادِر عن جَهْل؛ لأنَّه تعالى يَقول: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ﴾ ولم يَقُلْ: آتَيْناهُم.

وقوله تعالى: ﴿مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ تَدُلُّ على أنَّ ما قالوه في وَصْفك حَقٌّ، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يُناقِض ما جِئْت به، حتى يَقولوا: إنك كاذِب وساحِر. فيَكون المُرادَ بالآية أنَّ هؤلاء الذين كذَّبوك لم يَستَنِدوا في تكذيبك على عِلْم، لا مِن كُتُب، ولا من وَحْي؛ لأن الكُتُب يَدرُسونها، ويَفهَمون ما فيها، ويَعلَمون أن ما جِئْت بها مُناقِض لها، ولا من نَذير أَنذَرَهم وحذَّرَهم ممَّا جِئْت به، وقال: إنه سيأتي كاذِب مُفتَرٍ فلا تُطيعوه، ونحن لو جاءَنا نَبيٌّ وقال: إنه نَبيٌّ من عند الله تعالى. نُكذِّبه؟ نعم؛ لأننا قد أُنذِرْنا من هؤلاءِ كما أَخبَرَنا النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ،

لكن لَمَّا جاء النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هل هؤلاءِ المُكذِّبون له عَلِموا به وحُذِّروا منه؟ الجوابُ: لا.

وهل هناك كُتُب دَرَسها هؤلاءِ تُبيِّن أنَّ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على باطِل؟ الجوابُ: لا.

هذا وَجهٌ، وهذا هو الذي مَشَى عليه المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ؛ ولهذا قال: [فَمِنْ أَيْنَ كَذَّبُوكَ].

والقول الثاني: إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعَثَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قومٍ أُمِّيِّين، لا يَقرَؤُون، ولم يُبعَث إليهم نبيٌّ، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ [الجمعة:٢]، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة:٣]، أي: أنَّ هؤلاءِ كان الأَليقُ بهم أن يَفرَحوا برِسالتك، وأن يَقبَلوا ما جِئْتَ به؛ لأنَّه ليس عندهم كُتُبٌ يَدرُسونها كما عند اليَهود والنَّصارى، ولم يُبعَث إليهم نَبيٌّ قَبْلَك، فكانوا في أَشَدِّ الحاجة إليك، ومَن كان مُحتاجًا إلى الشيء كان به أَفرَحَ، ولِخَبَره أَشَدَّ تَصديقًا.

فيكون المُرادُ بهذه الجُملةِ تَوبيخَ هؤلاءِ على تَكذيبهم النبيَّ ﷺ، وأنه كان الأليقُ بهم أَنْ يَفرَحوا بذلك وأن يُصدِّقوا؛ لأنَّه ليس عندهم كُتُب تُدْرَس، فليس له عندهم أَثارةٌ من عِلْمٍ، ولم يُبعَث إليهم نَذير من قَبْلكَ، فكانوا في أشدِّ الحاجة إلى تَصديقك، وقَبول ما جِئْت به، فتَتَضمَّن هذه الآيةُ تَوبيخَ هَؤلاءِ على تَكذيبهم النبيَّ ﷺ.

وأيُّهما أَوْلى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾، أو ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾؟ وهل يُمكِن أن تُحمَل على المَعنيَيْن؟

فالجوابُ: نَنظُر في حال هؤلاءِ، إذا كانت تَصدُق على حال هؤلاءِ على الوَجْهين حمَلْناها، وقُلْنا: هؤلاءِ ما درَسوا كُتُبًا تَدُلُّ على كذِب مُحمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا أَنذَرَهم أحَدٌ منه، وكذلك هم لم يَكونوا عالِمين بالكُتُب السابِقة، ولم يُرسَل إليهم رَسولٌ.

إِذَنْ: حالهم قابِلة لهذين الوَجْهَيْن، يَعنِي: أن تَنزيلَها على الوجهين لا يَتَنافَى مع حال هؤلاءِ المُكذِّبين للرسول ﷺ، فالوَجْهان كِلاهُما يَصدُق عليهم، وإذا كان الوَجْهانِ كِلاهما يَصدُق عليهم، فلا مانِعَ من أن نَقول: إنَّ الآيةَ يُراد بها هذا وهذا؛ لأنَّ حال الذين كذَّبوا الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قابِلةٌ للوَجْهين جميعًا.

من فوائد الآية الكريمة:

على أن المَعنَى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يُعطِ قُرَيْشًا، بَلْ والعرَب جميعًا لم يُعطِهم كتُبًا، ولم يُرسِل إليهم رَسولًا:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ مِنَّةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العُظْمى على العرَب بما بعَث إليهم، وهو مُحمَّدٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ووَجهُ ذلك: أنهم كانوا أُمَّةً جاهِلةً، ليس عندهم كُتُبٌ تُدرَس، ولم يَأتِهم نَذيرٌ يُخبِرهم ويُعلِّمهم، فهُمْ أَشَدُّ الناسِ حاجةً إلى الرسول، وإذا اشتَدَّتِ الحاجة ثُم جاء ما يُزيل لك هذه الحاجةَ كان هذا أَعظَمَ منه، ففي الآية إِذَنْ: بَيان عظيم مِنَّة الله عَزَّوَجَلَّ على العرَب، حيث بعَث فيهم هذا الرسولَ ﷺ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن العرَب كانوا جاهِلين من أَجهَل الناس قبلَ بَعْثة الرسول ﷺ، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ

أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران:١٦٤].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه ليس في العرَب رَسولٌ إلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ، وهو كذلك، وما ذُكِر بعض المُؤرِّخين من أنه وُجِد في الجاهِلية رُسُل، منهم خالِدُ بن سِنانٍ فهذا لا أصلَ ولا صِحَّةَ له؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [المائدة:١٩]، وأَخبَرَ النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه ليس بينه وبين عِيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رَسولٌ، وعلى هذا فإنه لم يُبعَثْ فيهم -أَيْ: في العرب- رسولٌ إلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ حقيقة الرِّسالة هي الإنذارُ، وكذلك البِشارة للمُخالِفين بالعُقوبة، والبِشارة هي للمُوفَّقين بالثواب والجزاء.

وفيها أيضًا -على المَعنَى الثاني-: أن هَؤلاءِ الذين كذَّبوا الرسول ﷺ ليس لدَيْهِم مُستَنَد يَستَنِدون إليه في تَكذيبهم؛ لأنَّهم لم يَقرَؤُوا كُتُبًا تَدُلُّ على كذِبه، ولم يُبعَث إليهم رَسولٌ تَقتَضي رِسالته أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كاذِب.

الآيــة (٤٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [سبأ:٤٥].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ ﴾ أي: هَؤلاءِ ﴿مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ أي: عُشرَهُ من القُوَّة، وطول العُمر، وكَثْرة المال، وهذا فيه تَسلِيَة للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وفيه تَهديد للمُكذِّبين، ففيه مَعنَيان: التسليةُ والتَّهديدُ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ مثل عادٍ وثَمودَ وفِرعونَ وأَصحابِ الأَيْكةِ وكثير، وهَؤلاءِ المُكذِّبون السابِقون أَشَدُّ قوَّةً من هؤلاء وأكثَرُ أموالًا وأولادًا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا ﴾ [التوبة:٦٩]، فالآياتُ في هذا تَدُلُّ على أنَّ الذين كذَّبوا الرُّسُل السابِقين كانوا أَعظَمَ من الذين كذَّبوا الرسول ﷺ في قوَّة الأَجْسام، وكَثْرة الأموال، وكَثْرة البَنين.

وهل أَغنَى ذلك عنهم شيئًا؟ لا لم يُغنِ عنهم شيئًا؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى﴾ [إِلَيْهِمْ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ بِالْعُقُوبَةِ وَالْإِهْلَاكِ]، يَعنِي: أن هَؤلاءِ السَّابِقين كذَّبوا رُسُل الله تعالى فماذا حصَل؟

الجوابُ: حصَل عليهم إنكار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتَّعذيب والإِهْلاك، لم يُقِرَّهم

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على تكذيبهم، بل أنكر عليهم إنكارًا بالفِعْل، أهلكهم وأبادهم، وعلى هذا فيكون الاستِفْهام في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ للتَّعْظيم والتَّفْخيم، أي: فما أعظَمَ إِنْكارِي عليهم! لأنَّه إنكارٌ أدَّى بهم إلى الهلاكِ؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: [أَنَّهُ وَاقِعٌ مَوْقِعَهُ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: التَّحذيرُ لمُكذِّب الرسولِ ﷺ؛ وجهُه: أنَّ الله تعالى أخبَرَ أنه كذَّب السابِقون مع أنهم أَشَدُّ قوَّةً وأكثرُ أموالًا وأولادًا من هؤلاء المُكذِّبين للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ مَن كذَّب الرُّسُل فقد حَقَّت عليه كلِمةُ العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: شرَفُ الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام؛ لأنَّ الله تعالى أضاف رِسالَتهم إليه، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ ومن المعلوم أنَّ مَرتَبة الرِّسالة أعلَى مَراتِب البَشَر، فإن مَراتِب البَشَر أَرْبَعة: النُّبوَّة المُتضَمِّنة للرِّسالة، والصِّدِّيقيَّة، والشُّهَداء، والصالِحين، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩].

فأعلى المَراتِب النُّبوَّة، ثُم الصِّدِّيقيَّة، ثُم الشَّهادة، ثُم الصَّلاح.

خِلافًا للزَّنادِقة الذين يَقولون: إن الأَوْلياء أَفضَلُ من الأنبياءِ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، والأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أَفضَلُ من الرُّسُل.

ويَقول قائِلُهم:

مَقَـــامُ النُّبُـــوَّةِ فِي بَـــرْزَخٍ فُوَيْـقَ الرَّسُـولِ وَدُونَ الْـوَلِي[1]

يَزعُمون -قَبَّحهُم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أنَّ الأَوْلياء أفضَلُ من الرُّسُل -والعِياذُ بالله عَزَّوَجَلَّ- والأَنبِياءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهو كذلك عِندهم، لأن أَوْلياءَهم الطاغوتُ، والطاغوتُ يُمِلي عليهم أنه أفضَلُ من الرُّسُل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيان حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ حيث جعَل العُقوبة من جِنْس العمَل، فلمَّا كان عمَلُ هَؤلاء عظيمًا وهو تكذيب رُسُل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كان جَزاؤُهم عَظيمًا، يُتعَجَّب مِنه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: ما أَعظَمَه وما أَشَدَّهُ!.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الإِنْكار يَكون بالفِعْل كما يَكون بالقَوْل، ووجهُ ذلك: أنَّ إنكار الله تعالى عليهم ليس بالقَوْل فقَطْ، بَلْ بالفِعْل والعُقوبة، فهذا إنكارٌ بالفِعْل، وهذا مَوْجود أيضًا في أعمالنا نحن، فعندما يُخالِفُك صَبِيُّك في أَمْر من الأمور أحيانًا تُوبِّخه، تَقول: لماذا تَفعَل هذا؟! أَلَمْ آمُرْك أن تَتْرُكه؟! وأَحيانًا إذا جِئْت ووَجَدْته قد فعَلها تَضرِبه، هذا الإِنكارُ يَكون بالفِعْل، فإنكارُ الله عَزَّوَجَلَّ يَكون بالقَوْل، ويَكون بالفِعْل، فعُقوبة المُجرِمين هي إنكارٌ بالفِعْل، وفي هذه الآيةِ وغيرِها من الآيات التي تُضيف الفِعْل إلى الفاعِل رَدٌّ على مَن؟ مِثْل ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾، ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وما أَشبَهَ ذلك؟ رَدٌّ على الجَبْرِيَّة الذين يَقولون: إنَّ فِعْل العَبْد مُجبَرٌ عليه، ليس له فيه اختِيار.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: استِعْمال قياس الأَوْلى، يُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يَعني:

(١) قاله ابن عربي، انظر مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢١).

إذا أَخَذَ الله تعالى هؤلاءِ الأَقوياءَ الأَشِدَّاءَ الأكثَرَ أموالًا وأَوْلادًا إذا أَخذهم الله تعالى بجُرْمهم هؤلاء الذين دُونهم من بابِ أَوْلى.

ولا شَكَّ أنَّ القِياس دليلٌ صحيحٌ، ثبَتَ اعتِبارُه بالكِتاب والسُّنَّة والعَقْل، ولكن القِياس نوعان: صحيحٌ وفاسِدٌ، فالفاسِدُ دلَّ الكِتابُ والسُّنَّة والعَقْل على عدَم اعتِباره، والصحيحُ دلَّ الكِتاب والسُّنَّة والعَقْل على اعتِباره.

مثال الفاسِد: قولُ إبليسَ مُستَعْمِلًا قياسَ الأَوْلى لَمَّا أَمَرَه الله تعالى أن يَسجُد لآدَمَ قال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص:٧٦]، فكيف يَكون الأخيرُ عَبْدًا لمَن دُونَه؟!.

ومثال قِياس المِثْليَّة: قولُهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة:٢٧٥]، هذا قياس فاسِدٌ لأنَّه قِياسُ ما حرَّم الله تعالى على ما أَحلَّه الله عَزَّوَجَلَّ.

المُهِمُّ: أن القِياس قد ثبَتَ اعتِباره بالكِتاب والسُّنَّة والعَقْل، ومَن أَنكَرَه فقد أَنكَرَ ما يَدُلُّ عليه الكِتاب والسُّنَّة، والذي يُنكَر منه هو القِياس الفاسِدُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ تَكذيب الرُّسُل هو تكذيبٌ لله تعالى، وهو الظاهِر؛ لأنَّه قال عَزَّوَجَلَّ أوَّلًا: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ولم يَذكُر المُكذَّب، ثُم قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى﴾ فدَلَّ ذلك على أن تَكذيب الرُّسُل تَكذيبٌ لله عَزَّوَجَلَّ، وهو كذلك عند التَّأمُّل؛ لأنَّ الرسول إذا جاءَك وقال: إنه رسول الله تعالى. وأَيَّده الله تعالى بالآيات، ثُم كذَّبْتَه، فقد كذَّبْتَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ الآياتِ التي يُعطيها الله تعالى الرسولَ ما هي إلَّا براهِينُ تَدُلُّ على صِدْقه، فكأنَّ المُكذِّب يَقول: إنَّ هذه الآياتِ كَذِبٌ؛ لأنه يُكذِّب الرسول الذي أَيَّدَتْه.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٦)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦].

انظُرْ إلى إنصاف الله عَزَّوَجَلَّ في مُخاطَبةِ الخَلْق!.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا مُحَمَّدُ مُوجِّهًا الخِطاب إلى هؤلاءِ المُكذِّبين: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ الجُملةُ هذه فيها حَصْر وتَقديرُها: ما أَعِظُكم إلَّا بواحِدة، يَعنِي: ما أَدعوكم دُعاءَ واعِظٍ ناصِحٍ لكم إلَّا إلى واحدة فقط، فـ(أَعِظُكم) هنا مُضمَّنة معنى (أَنصَحُكم)، يَعنِي: أنا أَدعُوكم ناصِحًا لكم وواعِظًا إلى هذه الخِصْلةِ.

وقوله تعالى: ﴿بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هي [أَنْ تَقُومُوا لله] وعلى هذا فيَكون (أن تَقوموا) في مَوْضِع جَرٍّ عَطْفَ بيانٍ على قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِوَٰحِدَةٍ﴾ يَعنِي: أنه بيَّن هذه الواحِدةَ بقوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ إلى آخِره، و(أَن تَقوموا) هنا المُراد بها: أن تَثبُتوا على الشيء، وليس المُرادُ القِيامَ ضِدَّ القُعود، فهو كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء:١٢٧]، ليس المُراد أن تَقوموا لليَتامى؛ يَعنِي: أن تَقِف له وُقوفًا، وهكذا ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ ليس المُرادُ أن تَقِفوا قِيامًا، بل أن تَثبتوا وتَنظُروا في الأَمْر.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: [لِأَجْلِهِ] فاللَّام هنا للإِخْلاص، أي: أن تَقوموا مُخلِصين لله عَزَّوَجَلَّ، لا مُقلِّدين لآبائِكم ولا مُتعَصِّبين لآرائِكم، جَرِّدوا نِيَّاتِكم من كل شيء، إلَّا لله تعالى أن تَقوموا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَحْده؛ لا مُراعاةً لي، ولا مُراعاةً لآبائِكم، ولا لِحَمِيَّتكم، ولكن ﴿لِلَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ]، وهل المُراد حَقيقةُ التَّثنِية؟ يَعنِي: أن يَقوموا على اثنَيْن اثنَيْن، أو المُرادُ مُجرَّد الزيادة على الواحِد؟ يَعنِي: أنه مَثنَى لا يُرادُ به حقيقة الاثنَيْن؟ بل المُرادُ أن تَقوموا لله تعالى مُجتَمِعين سَواءٌ كُنْتم اثنَيْن أم ثلاثةً أم أربعةً أم خمسةً أم عشَرةً، هذا هو الظاهِر.

وقال بعضُ المُفسِّرين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: المُرادُ بالمَثنَى هنا حَقيقةُ الاثنَيْن. وعلَّلوا ذلك بأن الناس إذا كثُروا اضْطَرَبَت آراؤُهم، وكَثُر الشِّجار بينهم، وفات المَقصودُ؛ لأنك الآنَ لو وضَعْت رأيًا بين عشَرةٍ كم يَأتِيك من رَأْيٍ؟

الجوابُ: عشَرة آراءٍ، وبين اثنَيْن؟ يَأتيك رَأْيان، قالوا: فالاثنان أَقرَبُ إلى الحَصْر وأَقرَب إلى تَصوُّر المسألة ممَّا إذا كانوا أكثَرَ من اثنَيْن، ولكن قد يُقال: إن هذا حَقيقة.

لكن أحيانًا يَكون الثلاثة والأربعة أسَدَّ رأيًا من الاثنَيْن فقَطْ، فتُحمَل الآية على أنَّ المُرادَ بالمَثنَى مُطلَق الجَمْع، سواءٌ كانوا اثنَيْن أو أكثَرَ، والمَثنَى قد يُراد به مُطلَق الجَمْع، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك:٣-٤]، أي: كرَّةً بعد كرَّة، وليس المُرادُ حقيقةَ الاثنَيْن، وكقول الإنسان وهو يُلبِّي بالحجِّ أو العُمرة يَقول: لبَّيْك. يَعني: إجابةً لك بعد إجابةٍ.

وقوله: ﴿أَن تَقُومُواْ﴾ المُرادُ بالقِيام: الثَّباتُ على هذا الأَمْرِ، تَقوموا ثابِتِين،

ثُم تَتَفَكَّروا في شأن هذا الرسولِ الذي جاءَكم من عند الله تعالى، وقال: إنه رَسولُ الله تعالى.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ هذا القولُ هل هو مِنْ كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ليُبطِل قولـهم؟ أو أنه ما يَتَفَكَّرون فيه، يَعنِي -كما قال الشارِح-: [فتَعْلَموا ما بصاحِبِكم من جِنَّة] المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مَشَى على أن: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ هو مَفعـولٌ لما يَقتَضِيه التَّفـكُّر، والقولُ الثاني: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ أي: في شَأْنكم، وفي حالِكم، ثم استأْنَف فقال تعال: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾، وهذا من كلام الله تعالى، وليس مَفعولًا لما يَقتَضيه التَّفكُّر وهو العِلْم.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِصَاحِبِكُم﴾ المُرادُ به مُحَمَّدٌ رسول الله ﷺ، لكنه عبَّر عنه بالصاحِب المُضـاف إليهـم زيادةً في التَّشنـيع عليهم والتَّوبيخ، كأنَّه يَقـول: هذا صاحِبكم الذي تَعرِفونه، ليس رجُلًا مُنكَرًا عليكم، بل هو صاحِبكم الذين تَعرِفون عَقْله وصِدْقه وأَمانَته، فكيف تَقولون: إنَّه ساحِر، وإنَّه مَجنون، وإنه شاعِر، وإنه كاهِن، وما أَشبَهَ ذلك؟! ففيه إضافةٌ إليهم زيادةَ التَّشنيع عليهم، هذه واحِدة.

فيه أيضًا الإشارة إلى أنه كان يَنبَغي أن يَكونوا أوَّلَ مَن يُصدِّق به، وأَوَّلَ مَن يُناصِره؛ لأنه صاحِبهم، وصاحِب الإنسانِ مُستَحِقٌّ للنَّصْر مِنه والمُساعَدة والمُعاوَنة، فكان في الإضافة هنا فائِدتانِ:

الفائِدةُ الأُولى: زيادةُ التَّشنيع عليهم في أنهم يَصِفون صاحِبهم الذي يَعرِفونه بهذا الوصفِ.

الفائدة الثانية: أنَّه كان أَوْلى بهم وهو صاحِبهم أن يَكونوا أوَّلَ الناس تَصديقًا به، وأَشَدَّ الناس مَعونةً له.

وقوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ الجارُّ والمَجرور خبرٌ مُقدَّم، و﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ مُبتَدَأ مُؤخَّر قُرِنَت به (مِن) الزائِدةُ من حيث الإعراب المُفيدةُ لمَعنًى، فمِن حيثُ المعنى الفائِدةُ منها هي المُبالَغةُ، أو التَّأكيدُ في النَّفيِ؛ لأنَّ (مِنْ) إذا دخَلَت على المَنفِيِّ أفادَت العُموم، وصارت نَصًّا فيه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ جُنُونٍ] فالجِنَّة هنا بمَعنَى: الجُنون، ويُمكِن أن يَكون المُرادُ به الجِنَّ الذي إذا خالَط الإنسان جُنَّ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾: ﴿إِنْ﴾ سبَقَ لنا أنها تَأتِي في اللُّغة على أَربَعة أَوْجُهٍ، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿إِنْ﴾ بمَعنى [مَا] وهي نافِية، ﴿هُوَ﴾ مُحَمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، الذي هو صاحِبكم ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ﴾ أي: قَبْلَ عذابٍ شديدٍ في الآخِرة إن عَصَيْتموه، يَعنِي: ما مُحَمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلَّا رجُلٌ من أَعقَل الناس، ومن أحَنِّ الناس على قومه؛ لأنه نَذيرٌ لكم، يُنذِركم من العَذاب الشديد القَريب لهم، عندما قال تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، وبين يَدَيْ الشيءِ هو أن يَكون قريبًا منه، فالنبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذه حالُه رجُل عاقِل ناصِح لقَوْمه حانٍ عليهم؛ لأنَّ الذي يُنذِرُك من العذاب يُعتبَر مُحسِنًا إليك.

ولو أن رجُلًا جاء يَصيح: أيُّها الناسُ جاءَكمُ العَدوُّ، أيُّها الناس جاءَتْكم النارُ السعيرُ، أيُّها الناسُ جاءَكُمُ الماءُ الفَيَضانُ. نَصِفُ هذا الرجُلَ بأنه ناصِح وعاقِل، وحانٍ عليكم، يُحِبُّ لكمُ السلامة من الشُّرور.

فالنبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالنِّسْبة لنا ما هو إلَّا نذيرٌ يُنذِرنا من العذاب الشديد القريب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ والشديد بمَعنى: القَويِّ.

وهل المُراد عذابُ الآخِرة أو يَشمَل عذاب الآخِرة والدُّنيا؟

الصحيحُ: أنه يَشمل عذاب الآخِرة والدُّنيا؛ ولذلك عُذِّبَ المُكذِّبُون للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الدُّنيا قبْلَ الآخِرة.

فزُعماءُ قُرَيْشٍ وصَناديدُهم قُتِلوا في بَدْرٍ، وأُلقُوا جِيَفًا مُنتِنة في قَليبٍ من قُرَى بَدْر، ومَن بَقِيَ منهم كان آخِرُ أَمْرهم أن دُخِلَت عليهم البَلَد من أَقطارها، وأُذِلُّوا حتى كان الواحِدُ لا يَأمَن إلَّا بتَأمين؛ «مَن دخَل دارَه وأَغلَق عَلَيْه بابَه فهُوَ آمِنٌ، ومَن دَخَل المَسجِد فهو آمنٌ، ومَن دخَل دارَ أَبي سُفْيانَ فهُوَ آمِنٌ»[1]، ومَنْ لم يَكُنْ في هذا فلَيْسَ بآمِنٍ، وهذا من أَكبَرِ الذُّلِّ، أن تُستَحَلَّ بلَدُك ولا تَأمَن فيها إلَّا بتَأمين، هذا لا شَكَّ أنه ذُلٌّ وعارٌ.

وآخِرُ الأمر أن النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو الذي مَنَّ عليهم وقال ﷺ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»[2]، وهذا بلا شَكٍّ أنه عَذاب في الدُّنيا، لكن إذا أَسلَموا كان مِثْلُ هذا العَذابِ كافِيًا، ومَن أَبى وكَفَر كان له العَذابُ الشديد في الآخِرة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: دَعوةُ الإنسان المُعانِد للتَّأمُّل في الأَمْر والنَّظَر فيه، حتى لا يَتعَجَّل بالرَّدِّ؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّه يَنبَغي لِمَن طلَب الحقَّ أن يَكون مُخلِصًا لله تعالى، بَعيدًا عن الهَوَى؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه ابن راهويه في المسند (١/ ١٩٩ رقم ٢٧٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١١٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جَوازُ التَّعاوُن في طلَب الوُصول إلى الحقِّ، مِن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الإنسان قد لا يَصِل إلى الحقِّ إلَّا بمُساعَدة غيرِه؛ لقوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ فإنه إذا أَمكَن أن يَصِل إلى الحقِّ بنَفْسه فذاك، وإلَّا فاستَعان بغَيْرِه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن التَّفكير كما يَكون في الآيات الكَوْنية يَكون كذلك في الآيات الشرعية؛ لأنَّه هنا طُلِب منهم التَّفكُّر فيما جاء به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وفي الرسول نَفْسه أيضًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: انتِفاء الجُنون عن رسول الله ﷺ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيانُ عُتُوِّ قريشٍ الذين كذَّبوا الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع أنه صاحِبُهم الذي يَعرِفونه، وكان الأَوْلى بهم أن يُصدِّقوه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أننا إذا أَرَدْنا استِكْشاف حال الشَّخْص فإننا نَسأَل مُصاحِبَه الذي يُصاحِبه ويُلازِمه؛ لأنَّه أَعلَم الناس به، وقد كان بعضُ السَّلَف رَحِمَهُمُ اللَّهُ إذا أَراد أن يَسأَل عن حال شخص يَسأَل المَسؤُول ويَقولُ: هل سافَرْت معه؟ فإن قال: لا. تَرَك تَعديله له، وإن قال: نعَمْ. قَبِلَ تَعديلُه إيَّاه؛ لأن السفَر يُظهِر حقيقة الرجال، حتى قِيل: إنَّه إنما كان سفَرًا لا لأن الإنسان يُسفِر ويَبتَعِد عن البلَد، ويَخرُج إلى الفَضاء، ولكن لأنَّه يُسفِرُ عن أخلاق الرِّجال، ولا شَكَّ أن السفَر من أكبَرِ ما يَدُلُّ على خِصال الرَّجُل؛ لأنه في البلَد الناسُ كلهم له شَأْن يُغنِيه عن الآخَر، لكن في السفَر مَحَكٌّ للأَخْلاق الفاضِلة ومن عدَمها.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُنذِرٌ للناس من عذابٍ قريبٍ إذا خالَفوه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: استِعْمال الأُسلوب المُناسِب للحال، وهذا مَعروف في عِلْم البلاغة: أن يَستَعمِل الإنسان ما يُوافِق مُقتَضَى الحال، فهُنا ذَكَر الإنذار دون البِشارة؛ لأن المَقام مَقام تَخويف وإنذار؛ لأنه يُخاطِب المُكذِّبين، لكن عند وَصْف الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الوَصْف المُطلَق يَقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥]، فبَدَأ بالبِشارة قبل الإنْذار، وهذا من حيث حال النبيِّ ﷺ المُطلَقة، أمَّا في المَقامات التي تَقتَضي ذِكْر الإنذار دون غيرِه فيَستَعمِل فيها الإنذارَ دون غيرِه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات الجَزاء وعُقوبة المُخالِفين؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: استِعْمال الأَوْصاف التي تَستَلزِم المُوافَقة والمُتابَعة، من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ﴾ فأنت عندما تُخاطِب إنسانًا لا تَأتِي له بالألفاظ التي تُبعِده، بل الذي يَنبَغي أن تَأتِيَ له بالألفاظ التي تُدنِيه وتُقرِّبه؛ وتُؤَلِّف قلبه.

• • ۞ • •

الآيـة (٤٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ:٤٧].

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ [لَهُمْ] ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾: ﴿قُلْ﴾ الخِطاب معلومٌ أنه للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنه هو النَّذير لهؤلاءِ.

وقوله تعالى: ﴿مَا﴾ يُحتَمَل أن تكون شَرْطية، يَعنِي: أيُّ أَجْرٍ أسأَله منكم فهو لكم، ويُحتَمَل أن تكون اسمًا مَوْصولًا، كأَنْ يَقول: الذي سأَلْتُكم من الأجر فهو لكم. ويَكون اقتِران الفاء بالخَبَر؛ لأنَّ اسمَ الموصول يُشبِه الشَّرْط في العموم، فأُعطِيَ حُكْمه ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم﴾ على الإنذار والتَّبليغ ﴿مِّنْ﴾ بَيان لـ﴿مَا﴾، وليسَتْ زائِدةً؛ لأن ﴿مَا﴾ غيرُ نافِية.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ الأَجْر، هو ما يُعطَى في مُقابَلة عمَل أو استِيفاء نَفْع، في مُقابَلة عمَل كما لو استأْجَرْت رجُلًا ليَعمَل لي عمَلًا، واستِيفاء نَفْع كما لو استأْجَرْت منك بيتًا، فالأَجْر هو ما يُعطَى على عمَل أو استِيفاء مَنفَعة؛ لأن هذا العمَلَ الذي قُمْت به إن كُنْت سأَلْت عليه أجرًا وقُلت: تُعطوني مالًا أو أَعطوني كذا فهو لكم.

وقوله تعالى: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ هذا على فَرْض أن يَكون ذلك

مَوْجودًا، وإلَّا فإنه غير موجود، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦]، فالرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما سأَلَ من أَجْر، بل قال لهم: إن كُنْتُ سأَلْتكم أَجْرًا فهو لكم، لا تُعطُوني إيَّاه، قال: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾: (إِنْ) بمَعنَى (مَا)، ومِن علامة (إِن) النافية أن يَقَع بعدها (إِلَّا)، وذلك ليس بشَرْط.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ أي: ثَوابي على تَبليغي وعلى إِنْذاري، إلَّا على الله عَزَّوَجَلَّ وحده، ونِعْمَ المُثيبُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن أَجْري على الله تعالى؛ فإنه سيَجلِب الثَّواب العظيم؛ لأن عَطاء أَكرَم الأكرَمين سيَكون أعظَمَ العَطاء؛ ولهذا يَجزِي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحسَنَة بعَشْر أمثالها إلى سَبْعِ مِئة ضِعْف إلى أضعافٍ كثيرةٍ.

ثُم الداعِي إلى الله عَزَّوَجَلَّ يُؤجَر على دَعْوته سواءٌ قُبِلَت أم رُفِضت، ويُؤجَر أيضًا على ما يَناله عليه من أذًى، سَواءٌ كان الأذَى قَوْليًّا أو فِعْليًّا، وسَواءٌ كان يَعود الأذى إلى رَدِّ ما جاء به، أو يَعود الأذى إلى اتِّهام هذا الإنسانِ بما يَشدَخ كرامَته.

وكلُّ هذا قد وقَعَ للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أُوذِيَ على دَعْوته وأُوذِيَ في ما يَخدِش كرامته ونزاهته، فأصحابُ الإِفْك لَمَّا رمَوْا عائِشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ما رَمَوْا عائِشة لأنها عائِشةُ، رمَوْها لأنها زوجُ النبيِّ ﷺ، فالرسول ﷺ أُوذِيَ في عِرْضه وأُوذِيَ في بدَنه، وأُوذِيَ في مَهمَّته التي جاء من أَجْلها، فأَجرُه على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

واعلَمْ أنك كلَّما أُوذِيتَ في الدعوة إلى الله تعالى فإن ذلك زيادة أَجْرٍ لك من جِهة، وزيادةُ قوَّةٍ لدَعْوتك من جِهة أُخرى؛ لأن الإنسان إذا أُوذِيَ على شيء لا بُدَّ أن يَجِد مَن يَتعاطَف معه كما تَقتَضِيه سُنَّة الله عَزَّوَجَلَّ، حتى الذين يَتكلَّمون بالباطِل إذا أُوذوا على باطِلهم وجَدوا مَن يَتعاطَف معهم، فكيف مَن يَتكلَّم بالحقِّ.

ولهذا أنا أَدعو نَفْسي وإيَّاكم أن يَكون عِلْمنا مُنْسابًا إلى غيرنا، بمعنى أن نَنشُر العِلْم وأن نَدعوَ الناس إليه، صحيح أن حُضورنا إلى مَجلِس العِلْم وتَعلُّمَنا لا شَكَّ أن فيه فائِدةً عظيمةً، وأنه مَجلِس من مَجالِس الذِّكْر، لكن يَنبَغي أن نَنشُر هذا العِلْمَ، وأنَّ نَدعوَ الناس إليه بقَدْر المُستَطاع.

وأمَّا أن نَبقَى كنُسَخ من كُتُب، الفائِدة لا تَعدو صُدورَنا، فهذا لا شَكَّ أنه ضعيف، ولا يَليق بطالِب العِلْم، وعلينا أن نَعرِف ما جرَى لأئِمَّة المسلمين وعُلَماء المسلمين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ من الدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولَسْت بذلك أُريد أن تُكرِّسوا جُهودكم كُلَّها للدعوة، لأن الدعوة بلا عِلْم ضررُها أكثَرُ من نَفْعها، كما يُوجِد من بعض الإِخْوة الحَريصين على الخير تَجِدهم يُضيِّعون أوقاتَهم في الزيارات إلى فُلان وإلى فُلان، وفي الخُروج، حتى إن العِلْم عندهم ليس بشيء، بل تَجِدهم يَكرَهون العِلْم والتَّعمُّق فيه، ويُريدون أن تَكون دَعوَتُهم دعوةً سَطْحيَّة مُهلهَلة، أيُّ إنسان يَأتيهم يَقِفون!.

وأنا أُريد منكم أن تَكونوا عُلماءَ ربَّانين، دُعاةً إلى الخير مهما استَطَعْتم، ويَكون أَجْركم على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ الإنسان مَسؤُول عن عِلْمه، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما أَعطاك العِلْم إلَّا بميثاقٍ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، يَعني: مُطَّلِع عليه، ومنه حالي معَكم، فهو مُطَّلِع عليه، مُطَّلِع على أني بلَّغْتُكم وأَنذَرْتُكم، ومُطَّلِعٌ على أنَّكم كذَّبْتُموني وخالَفْتُموني، فأَجْري على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعُقوبتكم على الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾

إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢١-٢٦].

وهل الله عَزَّوَجَلَّ شهيد على ما في نَفْس الإنسان؟

الجوابُ: نعَمْ، شهيدٌ حتى على ما لا يَطَّلِع عليه أحَدٌ، فالله تعالى شهيد عليه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن النبيَّ ﷺ لم يَطلُب من أحَد أَجْرًا على تَبليغ الرِّسالة وإنذار الناس، من قوله: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّنزُّل مع الخَصْم، أي: على فَرْض أني سأَلْت فهو لكم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تحريم أَخْـذ الأَجْر على إبلاغ العِلْـم الشَّرْعيِّ؛ ووجهُه: أنه مُخالِف لهَدْيِ النَّبيِّ ﷺ من جِهة، ومن جِهة أُخرى: أن تَبليغ الشرع واجِبٌ على الإنسان، والواجِب لا يَجوز أن يَتَّخِذ الإنسان عليه أَجْرًا.

فَإِنْ قِيلَ: هل يَجوز أَخْذ الأُجْرة على تَعليم القُرآن؟

فالجوابُ: أن العُلماءَ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ اختَلَفوا في ذلك على قولين لاختِلاف ظواهِر النُّصوص؛ فمِنهـم مَن قال: إنه جائِز؛ لقول النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ الله»[1]؛ ولأنَّ هذا الرجُلَ لا يَأخُذ أَجْرًا على قِراءة القُرآن، ولو أَخَـذ أَجْرًا على قِراءة القُـرآن قُلْنا: هذا حرام. لكنه أَخَذ أَجْرًا على التعلـيم

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، رقم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والتَّعَب وتَلقين هذا الرجُلِ؛ ولذلك لو كانت المسألة واجِبةً عليه؛ بمَعنَى: لو كان يَجِب عليه أن يُعلِّم هذا الرجُلَ لكان أَخْذُ الأَجْر عليه حرامًا.

الوجه الثالث: أن النبيَّ ﷺ جعَلَه عِوَضًا في النِّكاح فقال: «زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»[1]، وعِوَض النِّكاح أَجْر؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء:٢٤]، فلمَّا جعَله النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عِوَضًا في النِّكاح دلَّ ذلك على جواز أَخْذ العِوَض على تعليمه؛ ولأنَّ النبيَّ ﷺ أَجاز أَخْذ قَطيع الغنَم في قِصَّة الجماعة الذين قرَؤُوا على سيِّد القوم الذي لُدِغ، وأَخَذوا عليه قطيعًا من الغَنَم فأَجازَهم النبيُّ ﷺ بذلك، لا لأنهم قرَؤُوا القُرآن، ولكن لأنهم عالَجوا هذا اللَّديغَ.

وهذا هو الصحيح، أي: أنَّه يَجوز أَخْذ الأُجْرة على تعليم القرآن، لكن إن كان تعليمُ القُرآن واجِبًا، كما في صَدْر الإسلام فإن أَخْذ الأُجرة عليه حرام.

وهل يَجوز -على القول بأن أَخْذ الأُجْرة حرام- أَخْذ رَزْق من بيت المال لمُعلِّم القُرآن؟

الجوابُ: نعَمْ؛ لأنَّ هذا ليس بأُجْرة؛ ولذلك جاز للمُؤذِّن والإمامِ أن يَأْخُذ من بيت المال ما يَستَعين به على أَذانه وعلى إمامته.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إخلاصُ النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في تَبليغه ودَعْوته؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه واضِحٌ أنه إنما يُريد الأَجْر من الله تعالى، وهذا هو الإخلاصُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن، رقم (٥٠٢٩)، ومسلم: كتاب النكاح، باب الصداق، رقم (١٤٢٥)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: طُموحُ الرسول ﷺ وعُلُوُّ هِمَّته، حيث اختار الأَجْر الأَوْفى على الأَجْر الأَدْنى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تهديد الخَصْم بما تَقتَضيه أسماءُ الله تعالى وصفاتُه؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فإن في ذلك تَهديدًا لهم، يَعنِي: فسيَشهَد على تكذيبكم وعلى تَبليغه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الاستِشْهاد بإقرار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الإنسانَ على صِدْق ما قال، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ويُؤيِّد ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء:١٦٦]، قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: شهادة الله تعالى لرسوله بأن ما جاءَه حَقٌّ تَشمَل الشهادة القَوْلية والشهادة الفِعْلية، وهي إقرارُه على ما دعا إليه الناسَ، وعلى استِباحة أموالهم ودِمائِهم وأهلِهم إذا لم يَستَجيبوا له.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [سبأ:٤٨].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ يُلْقِيهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ مَا غَابَ عَنْ خَلْقِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ﴾ هذه جُمْلة خبريَّة مُؤكَّدة بـ(إِنَّ) واسمِ (إِنَّ) ﴿رَبِّي﴾ وخَبَرُها جُملةُ ﴿يَقْذِفُ﴾، و﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ خبرٌ ثانٍ؛ يَعني: هو أيضًا علَّام الغُيوب.

وقوله تعالى: ﴿يَقْذِفُ﴾ القَذْف هو الرَّميُ بقُوَّة.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالقَوْل الحقِّ، وهو الوحيُ الذي أَنزَله الله تعالى على أنبيائِه، وظاهِرُ كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ القَذْف هنا لازِم لا يَتعَدَّى الأنبياءَ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وأنَّ المُراد به الوحيُ المُنزَّل على الرُّسُل، ولكنَّ قولَ المُفَسِّر فيه نظَرٌ، والصوابُ: أنَّ هذه الآية تُفسِّرها الآية الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨]، وأنَّ مَعنَى الآية ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ على الباطِل، وهو إشارة إلى أن حَقَّه سوف يَمحو باطِلَه ويُزهِقه ويُهلِكه، بدليل قوله فيما بعدُ: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩].

وقوله تعالى: ﴿عَلَّٰمُ﴾ بصيغة المُبالَغة؛ لأنَّ الغُيوب كثيرة، فناسَب أن يُضاف

إليها العِلْم على سبيل المُبالَغة، كما أن فيه مُبالغةً أيضًا من حيث الكيفية، لا من حيث الكِمِّية فقطْ، فإنَّ عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للغُيوب ليس عِلْمًا سطحِيًّا، بل هو عِلْمٌ عميق يَصِل إلى أَخفَى شيء من الغُيوب، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران:٥].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾ جمعُ غَيبٍ، وهو ما غاب عن الإنسان، سَواءٌ كان في الحاضِر أو الماضي أو المُستَقْبَل، أمَّا المُستَقبَل فظاهِر، فإنه لا أحَدَ يُمكِنه أن يَعلَم الغيب في المُستَقبَل، بل مَنِ ادَّعى عِلْم الغَيْب في المُستَقبَل فهو كافِر؛ لأن الله تعالى يَقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]. فيَكون مُدَّعِي الغيب في المُستَقبَل مُكذِّبًا للقُرآن، وتَكذيب القُرآن كُفْرٌ.

أمَّا الحاضِر والماضي فهو في الحقيقة غَيْبٌ نِسْبِيٌّ بحيث يَكون غَيْبًا عَنِّي وليس بغَيْب عمَّن شاهِده، فلو أن حادِثةً وقعَتْ في بلدٍ ما وأنا لست في هذا البَلدِ فهي بالنِّسبة إليَّ غَيْب وبالنِّسبة لَمن شاهَدها ليست بغَيْب.

فَإِذَنِ: المُستَقْبَل غيبٌ مُطلَقٌ، والحاضِر والماضي غَيْب نِسْبيٌّ؛ يَظهَر لَمن رآه ولا يَظهَر لَمن لم يَرَهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فضيلة الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وذلك بإضافة رُبوبية الله تعالى إليه، وهذه الرُّبوبيةُ خاصَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان قوة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حيث يَرمِي بالحَقِّ على الباطِل على وجه القولة؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يَرمِي به بقُوَّة وشِدَّة، على الباطِل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عُلُوُّ عِلْم الله تعالى فيما شُوهِد وما غاب؛ فما غاب لقوله تعالى: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، وأمَّا ما شُوهِد فهو من بابِ أَوْلى، يَعنِي: إذا كان يَعلَم الغَيْبَ فالمَشهود من بابِ أَوْلى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات أن ما جاء به النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حقٌّ؛ لقوله تعالى: ﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾.

الآيــة (٤٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الْإِسْلَامُ]، والإسلام لا شَكَّ أَنَّه دِين الحقِّ؛ وأنه سيَعلو على جميع الأديان، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩]، ولو أن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عمَّمَ، وقال: جاءَ الحقُّ. أي: كلُّ ما أَخبرَ به الرسول ﷺ وما جاء به مِن أحكامٍ فهو حَقٌّ.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ الْكُفْرُ ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ أَيْ: لَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ] هذه الجُملةُ: ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أو (ما يُبدِئُ فُلانٌ وما يُعيدُ) أُسلوب من أساليب العرَب، كِناية عن هَلاك هذا الشيءِ، وعدَم وُجوده؛ لأنَّ الذي لا يُبدِئ يَعني: لا يَأتي بالشيء ابتِداءً، ولا يُعيد ما صنعَه أوَّلًا هذا غيرُ مَوْجود في الواقِع، ما له حِراك، فهو مَوجودٌ كالهالِك.

والمَعنَى: ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ أي: ما يَتبيَّن ابتِداءً ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ ما يَتبيَّن إعادةً، فهو إذَنْ هالِك لا أَثَرَ له، لا ابتِداءً، ولا إعادةً، فإذا كان الحقُّ قد جاء، والباطِل ما يُبدِئ ولا يُعيد، فمَعناها أن الدَّوْلة ستكون للحَقِّ لما جاء به النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وإن كذَّبوه.

قوله تعالى: ﴿ٱلْبَـٰطِلُ﴾ إن كان في الأَخْبار فهو الكذِب، وإن كان في الأَحْكام

فهو الجَوْر والظُّلْم، وكلُّ ما خالَف حُكْم الله تعالى فهو جَوْر وظُلْم، وإن زعَم أهله أنهم عادِلون فيه فهُمْ كاذِبون.

فالقَوانينُ الوَضْعية المُخالِفة لشريعة الله تعالى نَقول: إنها باطِل. ونَقول: إنها ظُلْم وجَوْر.

وأمَّا ما وافَقَ الشَّرْع فإنه وإن سُمِّيَ قانونًا أو نِظامًا فهو شَرْع، يَعنِي: لو أن أحَدًا صنَع مَوادَّ مُعينة في الحُكْم، لكنها مَأخوذة من الكِتاب والسُّنَّة لا نَقول: إن هذه قوانينُ وَضْعيَّة أو نُظُم وَضْعيَّة. بل نَقول: هي أَحكام شَرْعية، لكنها رُتِّبت على موادَّ، كما إنَّ الفقهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ رتَّبوا الفِقْه على أبواب، فالخِلاف في كيفية العَرْض وإلَّا فهو حَقٌّ.

أمَّا أن نُقنِّن الشريعة بأن نُدخِل عليها أحكامًا تُخالِف أَحكامَها فهذا كُفْر، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، فأمَّا تَقنينها بمَعنَى: تَبويبها وجَعْلها مَوادَّ مُعينة فهذا لا بَأسَ به، بشَرْط ألَّا يَكون الحُكْم لازِمًا بهذه المَوادِّ، لأنَّ إلزامَ القُضاة مثلًا أو الحُكَّام بأن يَحكُموا بهذه المَوادِّ مَعناه أنهم يُلزَمون بأن يَحكُموا بما يَعتَقِدون أنَّ الحقَّ في خِلافه؛ لأنَّ الناس يَختَلِفون في مِثْل هذه، فقد تَرَى اللِّجَان مثلًا أنَّ الحُكْم في هذا هو كذا وكذا، ويَرَى القاضِي أن الحُكْم خلاف ذلك، فوَضْعها على أنها مُوضِّحة أو كاشِفة أو دالَّة، هذا لا بأسَ به بلا شِكٍّ، ولكن وَضْعها على أنها مُلزِمة هذا لا يَجوز لأنَّ الناس يَختَلِفون في الاجتهاد.

من فوائد الآية الكريمة:

تَهديد هؤلاءِ المُكذِّبين بأنَّ باطِلهم سوف يُقضَى عليه بطريق الإسلام الحقِّ، سيُقضِي على باطِلهم، ويُؤيِّده قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩]، والحقُّ ما بُعث بِه الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مِن شَريعة الإسلامِ، وقولُه: ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ يَعنِي: أن الباطل سَيَضْمَحِلُّ، فلا يبقى له ظهور لا ابتداء ولا إعادة؛ والباطِل: كلُّ ما خالَف الحقَّ فهو باطِل.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٥٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ [سبأ:٥٠].

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ ﴾ عَنِ الْحَقِّ ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ أَيْ: إِثْمُ ضَلَالِهِ عَلَيْهَا ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحِكْمَةِ ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لِلدُّعَاءِ ﴿قَرِيبٌ﴾].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ ﴾ هذا من باب التَّنـزُّل مع الخَصْم، وإلَّا فمِن المعلوم أنَّ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان أَهدَى الناس.

وهذا كقول الرجُل المُؤمِن من آل فِرعونَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨] مع أن المُؤمِن هذا يُؤمِن بأنه صادِق، لكن هذا من باب التَّنزُّل مع الخَصْم؛ لإلزامه بقول الحَقِّ.

يَقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾، ومَعلومٌ أن الإنسان لا يُريد أن يَتمادَى في إضلال نَفْسه، ومِثلُ النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا ضَلَّ لا يَكون ضلالُه عليه وحدَهُ، بل عَليه وعلى مَنِ اتَّبَعه؛ ولهذا كان ضَلال العالِم أو زَلَّة العالِم من أَعظَم ما يُفسِد الناس، فزَلَّة العالِم ليسَتْ بهَيِّنةٍ؛ لأنه قُدوة وتَتْبَعه أُمَّة.

وقوله تعالى: ﴿إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ وليس عليكم بذلك من شيء ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ لم يَقُل: فإن ذلك من نَفْسي، بل وكَلَه أو أَضافه إلى ما جاء به الوحيُ النازِلُ من عند الله تعالى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ والباء للسَّبَبية و﴿مَا﴾ إمَّا أن تكون مَصدَرية، وإمَّا أن تكون مَوْصولةً إن كانت مَوْصولة فإن عائِدها مَحذوف، تَقديرُه: فبما يُوحيه إليَّ ربِّي، وإن كانت مَصدَريَّة فلا تَحتاج إلى عائِدٍ.

وقوله تعالى: ﴿يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ الوَحيُ في اللُّغة: هو الإعلام بخَفاءٍ وسُرعة، سواءٌ كان ذلك إعلامًا بالهَمْس أو الإشارة بالعَيْن أو الإشارة باليَدِ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١] وما يَتكلَّم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران:٤١]، إِذَنْ أَوْحَى إليه بمَعْنى: أَشار إليه.

أمَّا في الشَّرْع: فهو إعلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَحَدًا من خَلْقه بشَرْعٍ يُؤمَر بتَبليغه أو لا يُؤمَر، فإن أُمِر بتَبليغه فهو رَسول، وإن لم يُؤمَر فهو نبيٌّ.

وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ فالإضافة هنا إضافةٌ خاصَّة ﴿رَبِّىٓ﴾؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رَبُّه وربُّ غيرِه، لكنَّ الإضافة هنا إضافةٌ خاصَّة، تُفيد العِناية واللُّطف، لأنَّ من أَكبَر نِعَم الله على العَبْد أن يُوحَى إليه بالرِّسالة حتى يَنال المَرتَبة العُليا من بني آدَمَ.

كذلك من نِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العبد أن يُلهِمه هذه الرِّسالةَ للتَّعلُّم؛ ولهذا كان العُلَماء هُمْ ورَثةَ الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فهي من أَفضَل النِّعَم؛ ولهذا قال: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ فأَضاف الرُّبوبيـة إلى نَفْسه؛ لأنَّ هذه الربوبيـةَ خاصَّة،

تَقتَضي العِناية والتَّأييد والرحمة واللُّطف.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِلدُّعَاءِ]، والصواب: أنَّ الآية هنا عامَّةٌ، فهو سميعٌ لكُلِّ شيء، وليس للدُّعاء فقَطْ، بل سميعٌ لما أَقول لكم، وسَميع لما تَقولون لي، وسَميع لدُعائي أيضًا بمَعنى: مُجيب.

وقد سَبَق لنا أنَّ السَّمْع المُضاف إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَنقَسِم إلى قِسْمين: سَمْعٌ بمَعنَى: إدراك المَسموع، وسَمْعٌ بمَعنَى: إجابةِ المَسموع، أو إجابة السائِل.

والسَّمْع الذي بمَعنَى: إجابة المَسموع تارةً يُراد به التهديدُ، وتارةً يُراد به التأييدُ، وتارةً يُراد به بيانُ الإِحاطة، أي: إحاطة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لكلِّ مَسموع، فهذه ثلاثة أَشياءَ:

تارة يُراد به التهديدُ؛ مثاله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١].

وتارةً يُراد به التَّأييدُ؛ مِثاله: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

وتارةً يُراد به بَيان الإحاطة؛ مِثال: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١].

وأمَّا السَّمْع الذي بمَعنَى الإِجابة فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، وقول المُصلِّي: سَمِعَ الله لمَنْ حَمِدَهُ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَرِيبٌ﴾ اسْمُ فاعِل أو صِفةٌ مُشبَّهة، والضميرُ المُستَتِر فيها يَعود على الله عَزَّوَجَلَّ، وكلُّ فِعْلٍ أو وَصْف يَكون عائِدًا إلى الله تعالى فالمُراد به

ذات الله تعالى، هذه القاعِدة ذكَرَها ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ -في مُختَصَر (الصواعِق)- يَقول: كلُّ فِعْلٍ أو وَصْفٍ تَحمَّل ضَميرًا يَعود إلى الله عَزَّوَجَلَّ فالمُراد به ذاتُ الله تعالى[1]. لكن يَجِب أن يَكون في ذِهْنك تَنزُّه الله عَزَّوَجَلَّ عمَّا لا يَليق به، فيَكون القُرْب هنا قُرْبَ رحمته، أو قُرْب عِلْمه، أو قُرْب سَمْعه أو بَصَره، أو قُرْب ذاته.

قوله تعالى: ﴿قَرِيبٌ﴾ هو أي: ذاتُـه؛ ولهذا صرَّح ابن القَيِّـم[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنـه قريب بذاته، لكن يَجِب أن تَعلَم أنه مع قُرْبه بذاته فهو مُستَوٍ على عَرْشه، حتى قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»[3]، يَقوله وهُمْ راكِبون على رَواحِلهم، ولكن مع هذا يَجِب أن نُنَزِّهَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عمَّا لا يَليق به، بحيث نَتوهَّم أنه معَنا في المكان، هذا لا يُمكِن، بل هو قريبٌ بذاته مع عُلوِّه.

وقد ذكر هذا شَيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (العَقيدة الواسِطية)[4] قال: «هو عَليٌّ في دُنُوِّه، قريب في عُلُوِّه»، ولا تَظُنَّ أن الجَمْع بين القُرْب والعُلُوِّ فوقَ السمَوات مُتَناقِض:

أوَّلًا: لأنَّ الله تعالى جمَع بينهما لنفسه، ودَلَّ عليهما كِتاب الله تعالى، وكتاب الله عَزَّوَجَلَّ لا يُمكِن أن يَدُلَّ على المُتَناقِض، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

---

(١) مختصر الصواعق (ص:٤٤٥).

(٢) مختصر الصواعق (ص:٤٨٢).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٤/ ٤٦)، من حديث أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) العقيدة الواسطية (ص:٨٥)، ومجموع الفتاوى (٣/ ١٤٣).

ثانيًا: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس كمِثْله شيءٌ، يَعنِي: لو فُرِض أن بَيْن القُرْب والعُلُوِّ تَناقُضًا في حقِّ المَخلوق فإن ذلك لا يَلزَم في حَقِّ الخالِق؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ليس كمِثْله شيء.

ولهذا نَقول: إنَّ الله تعالى يَنزِل إلى السماء الدُّنيا كلَّ ليلة، وهو مع ذلك مُستَوٍ على عَرْشه، لا تَقل: هذا مُحال، تَقول: هذا مُحال بالنِّسبة للمَخلوق. أمَّا بالنِّسبة للخالِق فيَجِب أن نُؤمِن بما أُخبِرنا به عن صِفاته وهو الاستِواء على العَرْش ونُزوله إلى السماء الدُّنيا، ونَقول: إنَّ هذا مُمكِن في حقِّ الخالِق.

ثالثًا: ممَّا نَجمَع فيه بين القُرْب والعُلُوِّ أنه قد يَكون الشيءُ عاليًا وهو قريب -حتى من المَخلوقات- مِثل القَمَر، فهو عالٍ لكنه قريب كأنه معَك، كأنه في المكان الذي أَنت فيه وَضوؤُه واصِلٌ إلى الأرض وهو في السماء، قال الشاعِر[1]:

دَانٍ عَلَى أَيْدِي الْعُفَاةِ وَشَاسِعٍ ... عَنْ كُلِّ نِدٍّ فِي النَّدَى وَضَرِيبِ
كَالْبَدْرِ أَفْرَطَ فِي الْعُلُوِّ وَضَوْؤُهُ ... لِلْعُصْبَةِ السَّارِينَ جِدُّ قَرِيبِ

المهمُّ: أن إذا أَضاف الشيء إلى نَفْسه سَواءٌ كان فِعْلًا أو وَصْفًا فإنه لا يَجوز لنا العُدول عن تَحويل هذا الشيءِ المُضاف إلى الله إلى شيءٍ آخَرَ؛ لأننا إذا سلَكْنا ذلك احتَجَّ علينا أهلُ التأويل من المُعتَزِلة والأشاعِرة وقالوا: كيف تُؤوِّلون هذه الآيةَ وتُنكِرون علينا التَّأويل في آياتٍ أُخرى أو في نُصوصٍ أُخرى؟! فإذا قُلتَ لهم: إنَّ هذا يَمنَعه العَقْل. قالوا: ونحن نَرَى أن ظواهِر الآيات أو الأحاديث يَمنَعها العَقْلُ!.

---

(١) البيتان للبحتري؛ ديوانه (٢/ ٢٤٨-٢٤٩).

لكن إذا أُبقِيَتِ النُّصوص على ما هي عليه على ظاهِر دَلالتها مع تَنزيه الله تعالى عمَّا لا يَليق به سَلِمتَ في دِينك، وسلِمتَ أمام الله عَزَّوَجَلَّ حين يَسأَلُك يوم القيامة: كيف تَصَرَّفت في كلامي؟ وكيف أَخرَجْته عن ظاهِره؟ وسلَمْت أيضًا من مُعارَضة أهل التَّأوِيل.

وقد سبَق لنا في (تلخيص الحَمَويَّة)[1] أنَّ الفَلاسِفة الذين يُنكِرون المَعاد، بل ويُنكِرون كلَّ شيءٍ، احتَجُّوا على المُعتَزِلة وأهل التَّعطيل، وقالوا: كيف تُجوِّزون التأويل في آيات الصِّفات وأَحاديثها ولا تُجوِّزون التَّأويلَ في نُصوص المعاد، إذا أَوَّلْتُم في هذا فأَوِّلوا في هذا، وإلَّا فقَدْ ظهَر تَناقُضُكم؛ وسبَق لنا إجابةُ المُعتَزِلة للفلاسِفة، ماذا قالوا لهم؟ قالوا: إننا قد علِمنا بالاضْطِرار أنَّ الرُّسُل جاءَت لإثبات المَعاد، وعلِمْنا أن الشُّبْهة المانِعة منه فاسِدة، ووجَب القول بثُبوته.

وهذه من أهم المَسائِل لطالِب العِلْم في عِلْم التوحيد.

وذكَرْنا أن هذه الحُجَّةَ التي دافَع بها المُعتَزِلة اعتِراضَ الفلاسِفة احتَجَّ بها أهلُ السُّنَّة على المُعتَزِلة، وقالوا: قد علِمْنا بالضرورة أن الرسول جاء بإثبات الصِّفات لله تعالى، وعلِمْنا فَساد الشُّبْهة المانِعة منه فوجَبَ القول بثُبوته، وأنَّ طَرْد القاعِدة في هذا وهذا هو الذي فيه السَّلامة، أمَّا أن نَتَناقَض ونُؤَوِّل في شيء ونُبقِي النُّصوص على ظاهِرها في شيء فإنَّ هذا وهمٌ وضَعْفٌ في الطريقة.

فالمُهِمُّ: أنَّ (القريب) هنا لا نَقول: قَريب في عِلْمه، أو قَريب في رَحْمته، أو قريب في سَمْعه، أو ما أَشبَه ذلك، فنَخُصُّصها بشيءٍ؛ لأنك إذا قُلْت: قريب في رَحْمته أو سَمْعه أو بصَره أو عِلْمه أو ما أَشبَهَ ذلك خصَّصْته، فإذا قلتَ: قريب بذاته. شمِل

(١) انظر: فتح رب البرية بتلخيص الحموية لفضيلة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص: ٨٤ وما بعدها).

كلَّ ما تَقتَضيه هذه الذاتُ من الصِّفات، فكان أعَمَّ.

وقد صرَّح شيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرح حديث النُّزول)[1] بأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قريبٌ بنَفْسه، وتلميذُه ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إنه قريب بذاته[2]. ولكن مع ذلك يَجِب علينا أنَّ نَعلَم عِلْم اليَقين بأنه قريبٌ، ولكنه في السماء على عَرْشه، وهذا لا تَناقُضَ فيه، وقد سبَق الجواب على ما يُوهِم أنَّه مُتَناقِض، وأنَّ الجواب عليه من ثلاثة أَوْجُهٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَحدٍّ لهؤلاءِ المُكذِّبين للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأنَّه لو كان ضالًّا لظَهَر أثَرُ ضَلاله على نفسه، ولأَهلَكَه الله عَزَّوَجَلَّ، ولم يُمكِّنه؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧]، فلو كان ضالًّا فما جاء به لكان ضلالُه على نَفْسه، ولتَبيَّن أَمْرُه.

ولعلَّكم بلَغَكم ما أَنزَل الله تعالى بالمُكذِّبين الذين ادَّعَوُا الرسالة فأَهلَكهم الله تعالى، مِثل مُسَيْلِمةَ الكذَّاب والأَسودِ العَنْسي وغيرهم، كلُّهم أَظهَر الله تعالى ضلالهم وكذِّبهم، وممَّا ذُكِر من آيات مُسَيْلِمةَ يُقال: إن مُسَيْلِمةَ ادَّعى أنه رَسولٌ، وأن بِئْرًا من آبار قومه غارَ ماؤُها، ولم يَبقَ إلَّا قليلٌ، فجاؤُوا إليه يَشكون هذا الأَمْرَ، فأَراد أن يَقتَدِيَ بالرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فأَخَذ منها ماءً وأَدخَلَه في فَمِه ثُم مَجَّه في الماء، فجعَل يَنتَظِر فَيضانَ الماء حتى يَصِل إلى ظاهِر القَليب، لكنَّ الماء الذي

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٥١٠).

(٢) انظر: مختصر الصواعق (ص:٤٨٢).

تَبَقَّى فيها غارَ جِدًّا[١]، فهذه آيةُ كَذِبه! وجِيء إليه بصَبِيٍّ أَصلَعَ، يَعنِي: ما عليه شَعْر إلَّا شعرًا قليلًا، فجاؤُوا إليه؛ ليَمسَح رأسَه فيَظهَر له شَعْر كثير، فلمَّا مسَح رَأْسه تَساقَط الشعر الموجود[٢]، فكأَنَّ هذا آيةٌ على كذِبه!.

فالله عَزَّوَجَلَّ بحِكْمته لا يُمكِن أبَدًا أن يُمكِّن لكاذِب مَهما كان، حتى الكاذِب بعد الرسول ﷺ لو كذَبَ فيما يَدعو الناسَ إليه، وكان يَدعو الناسَ إلى الحقِّ رِياءً وسُمْعة فلا بُدَّ أن يُظهِر الله تعالى أَمْره إلى الناس، قال الشاعِر[٣]:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ ... وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ أي: سيَتَبَيَّن أَمري وضلالي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الاعتِراف لله عَزَّوَجَلَّ بالجميل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: يَنبَغي للإنسان أن يَنسُب الخَطَأ إلى نفسه، ويَنسُب الصواب إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه بنِعْمته، ونحن إذا أَصَبْنا هل نَقول: فبما يُوحِي إلينا ربُّنا؟ أو فبِما أَوحاه ربُّنا إلى نبيِّه؟

الجوابُ: إذا أَصَبْنا فإن الواجِب أن نُضيف النِّعْمة إلى مُسْديها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو الله عَزَّوَجَلَّ لا نَفتَخِر ونَجعَلها من ذات أَنفُسِنا، أمَّا الضلال فإنَّه على أَنفُسنا؛ لأننا نحن سبَبُه.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٢٨٤-٢٨٥).

(٢) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٢٨٥).

(٣) البيت لزهير بن أبي سلمى من معلقته المشهورة، انظر: جمهرة أشعار العرب (ص:١٧٨)، وشرح المعلقات السبع للزوزني (ص:١٥١).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات أنَّ النبيَّ ﷺ رسولٌ؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا يُوحِيَ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ النَّظَر في الوحيِ القُرآنِ والسُّنَّةِ سببٌ في الهِداية؛ لأنَّ الباءَ في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا يُوحِيَ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ سببيَّة، وإذا كان ذلك سببًا للهِداية كان من العَقْل والبصيرة أن نَنظُر في وَحْيِ الله تعالى وشَرْعه، وألَّا نَطلُب الصواب من غيرِهما، لا نَطلُب الصواب ممَّا قال فُلان وقال فُلان، ولكن ممَّا قال الله تعالى ورسوله ﷺ؛ ولهذا قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نُونيته[1]:

الْعِلْمُ قَالَ الله قَالَ رَسُولُهُ ... قَالَ الصَّحَابَةُ هُمْ أُولُو الْعِرْفَانِ

مَا الْعِلْمُ نَصْبُكَ لِلْخِلَافِ سَفَاهَةً ... بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ رَأْيِ فُلَانِ

وقال في مَوضِعٍ آخَرَ[2]:

الْعِلْمُ مَعْرِفَةُ الهُدَى بِدَلِيلِهِ ... مَا ذَاكَ وَالتَّقْلِيدُ يَسْتَوِيَانِ

المُهِمُّ: أن الهِداية لها سبَب وهي النَّظَر فيما أَوْحاه الله تعالى إلى نَبيِّه ﷺ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا يُوحِيَ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ وأنها مُؤثِّرة بإذن الله تعالى، ففي ذلك الرَّدُّ على الأشاعِرة الذين يَقولون: إنَّ الأسباب لا تُؤثِّر بنفسها، حتى إنهم يَقولون: إن الورَقَ إذا احترَق بالنار فإنه لم يَحترِق بالنار، لكنه احترَق عند النارِ، لا بها! وإذا ضَرَبت الزُّجاجة بالحجَرَ فانكَسَرت قالوا: لم تَنكَسِر بالحَجَر، لكن انكَسَرت عنده!.

---

(١) النونية (ص:٢٢٦).

(٢) النونية (ص:٩٩).

وسبب قولِهم هذا أنَّهم قالوا: لأنك لو أَثبَتَّ أنَّ للسبَب أثرًا ذاتِيًّا لأَشْرَكْت بالله العظيم؛ لأنَّه لا شيءَ يُؤثِّر بنَفْسه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ فإن أَثبَتَّ أنَّ الحَصاة تَكسِر الزُّجاجة، هي نَفْسُها تَكسِر الزجاجة فهذا شِركٌ بالله تعالى، مَعناه: أنك جعَلْت هذه تُؤثِّر، ولو أن رجُلًا أُتِيَ بلَحْم فجعَل يَحُزُّ بالسِّكِّين ويَقطَع يَقول: فقَطْعه بالسِّكين عند السِّكين لا بها. انظُروا كيف أن العُقولَ تَصِل إلى هذا الحَدِّ؟! ولو أن الزُّجاجة ضع عِندها الحَصاةُ، بل ضعها فَوقَها فلا تَنكَسِر، ولو أَقبَل الحَجَر على الزُّجاج إقبالًا ولم يَمَسَّها لكنه حَفَّ من حولِه عِندَه ما يَنكَسِر، وكيف يَنقَطِع عنها فنَقول: إنَّ الأسبابَ مُؤثِّرة بنَفْسها، لكن مَن خَلَقَ فيها التأثيرَ؟!

الجوابُ: الله عَزَّوَجَلَّ، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على كل شيء قدير، لو أنك قُلْتَ لصبيٍّ: أَدخِل الورَقةَ في النـار. واحترَقَت، إنَّ النار ما أَحْرَقَتْـها، ولا تَسبَّبت في إِحْراقها، وإنما عند النارِ، لا بالنار. ما هذا الكلامُ، هذا كلامُ سَخَف.

فنَقول: إثبات الأَسباب دلَّ عليه السَّمْع والعَقْل، ولكنَّها تُؤثِّر؛ لأنَّ الله تعالى خَلَق فيها التأثير، والدَّليلُ على ذلك أنَّ النار مُحرِقة، فقال الله عَزَّوَجَلَّ لها حين أُلقِيَ فيها إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، فكانت بَرْدًا وسلامًا.

إِذَنْ: هذا السبَبُ المُؤثِّر زال تَأثيرُه بأَمْر الله تعالى: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ فكانَتْ بَرْدًا وسلامًا، فالماء جَوهَر سَيَّال، فكان بإِذْن الله تعالى كالجِبال حين ضرَبَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعَصاه البَحْر فانفَلَق، فكان كلُّ فِرْقٍ كالطَّوْد العظيم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات سَمْع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وقُرْبِه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات هَذَيْن الاسْمَيْن أيضًا: السميع والقريب.

الآيـة (٥١)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [سبأ:٥١].

﴿ وَلَوْ ﴾ هذه شَرْطية، وفِعْل الشَّرْط فيها ﴿تَرَىٰٓ﴾، وجوابُ الشَّرْط مَحذوف تَقديرُه: لرَأَيْتَ أَمْرًا عظيمًا، وحُذِفَ للتَّفخيم والتعظيم؛ لأجل أن يَذهَب الذِّهْن في تَقديره كُلَّ مَذهَب؛ أو لأنَّك مهما قَدَّرْت فالأمر أَعظَمُ ممَّا قَدَّرْت.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَا مُحَمَّدُ] هذا لا شكَّ أنَّه مُحتَمِل، أي: أن الخِطاب للنبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وفيه احتِمال أنَّ لمن يَصِح تَوجُّه الخِطاب إليه؛ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وغيره، وهذا أحسنُ؛ لأنَّه أَعَمُّ ومتى وُجِدَ الأعَمُّ والأَخَصُّ فإن الأَوْلى الأَخْذُ بالأَعَمِّ؛ لدُخول الأخَصِّ فيه، ولا عَكسَ.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ فَزِعُواْ﴾ هذا يوم القيامة إذا نُفِخ في الصُّور، قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل:٨٧]، وقوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس:٥١-٥٢]، يَعنِي: لو رأَيْت حين فَزِعوا لرَأَيْت أمرًا عظيمًا.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ فَزِعُواْ﴾ الفَرْق بين (إِذْ) و(إِذَا): أن (إِذْ) لما مَضَى، و(إِذَا) للمُستَقبَل، و(إِذْ) تَأتي أيضًا تَعليليَّةً، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ

إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٩].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَزِعُواْ﴾ فِعْل ماضٍ مُقترِن بواو الجماعةِ، وعَبَّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالماضِي عن المُستَقبَل، ومن التَّعبير بالماضِي عن المُستَقبَل قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:١]، وهذه صريحة؛ لأنه لو كان قد وقَعَ ما قال فلا تَستَعْجِلوه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ﴾ عِنْدَ الْبَعْثِ لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا﴾ هذِه (لا) نافِيةٌ للجِنْس و﴿فَوْتَ﴾ اسمُها، وخبَرُها مَحذوف، وقد قال ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أَلْفيته[1]:

وَشَاعَ فِي ذَا الْبَابِ إِسْقَاطُ الْخَبَرْ ... إِذَا الْمُرَادُ مَعْ سُقُوطِهِ ظَهَرْ

وشاع في ذا البابِ إِسْقاط الخبَرِ يَعنِي: كثُرَ إذا المُراد مع سُقوطه ظهَر.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي: فلا فَوْتَ لهم، وهذا يَعنِي أن حَذْف الخبَر في مِثْل هذا التركيبِ أبلَغ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ يَعنِي: ما في أبدًا فواتٌ، لو قُلْت: فلا فوتَ لهم. لكان أرَقَّ، أمَّا: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فهي أشَدُّ وَقْعًا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا فَوْتَ﴾ لَهُمْ مِنَّا، أَيْ: لَا يَفُوتُونَنَا] ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾: ﴿وَأُخِذُواْ﴾ مَعطوفة على ﴿فَزِعُواْ﴾ يَعنِي: أنهم يَفزَعون ويُؤخَذون من مكان قريب، يُؤخَذون بالعَذاب من مكان قريب، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هي [القُبُور] وهذا احتِمالٌ بلا شَكٍّ أنها القُبور؛ لأنهم يَخرُجون من حين ما يَخرُجون يَجِدون

(١) الألفية (ص:٢٣).

-والعِياذُ بالله تعالى- أمرًا عظيمًا؛ ولهذا يَقولون إذا خرَجوا من قُبورهم: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾، ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

فهُمْ يُؤخَذون من قَريب من حِين ما يَخرُجون من القُبور يُكشَف لهم عن أَمْر أَعظَمَ ممَّا كانوا يُشاهِدونه في القُبور، وإلَّا فإنهم يُعذَّبون في قُبورهم، على القول الراجِح، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: الْقُبُور].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إشارةٌ إلى عظيم ما سيَقَع بهؤلاء عند الموت أو يوم القِيامة، مَأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ﴾ حيث حَذَف جَوابَ الشرط؛ لأنَّ ذلك أَعظَمُ في التَّهويل والتفخيم، حتى يَذهَب الذِّهْن كلَّ مَذهَب في تَقدير ما يُمكِن أن يَكون جوابًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ المُكذِّبين لله عَزَّوَجَلَّ ولرُسُله عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ لا يَفُوتون الله تعالى، ولا يُعجِزونه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا فَوۡتَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيان ما يَقَع بهؤلاء عند مُعايَنة العَذاب من الفزَع الشديد الذي لا يَنفَعُهم، ولا يَستَفيدون منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنهم يُؤخَذون بالعذاب من مَكان قريب، لا من مكان بَعيد؛ لأنَّ مَن قَدَر على الهرَب رُبَّما لا نَصِل إليه لأَخْذه بالعُقوبة إلَّا من مكان بعيد، ولو أن لِصًّا ضَبَطْناه بجَرِيمته فهرَب، فإذا هرَب فإنه لن يُؤخَذ بالعُقوبة إلَّا من مَكان بعيد، أمَّا هؤلاء فيُؤخَذون من مَكان قريب؛ لأنهم لا فوتَ لهم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات الجَزاء على الأعمال، وهذا هو الحِكْمة من الأَمْر والنَّهْيِ، فإن الأمر والنَّهْيَ لو لم يَتَرَتَّب عليه الثواب والعِقاب لكان عَبَثًا يُنَزَّهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، لا يُؤمَر ولا يُنهَى؟ الجوابُ: لا.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٢].

قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ أي: عِنْد فزَعِهم وعند أَخْذهم من هذا المكان القريب؛ قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بما كُنَّا كافِرين به في الأَوَّل. فيَشمَل الإيمان بمُحمَّد ﷺ، والإيمانَ بمُوسى وعِيسَى وإبراهيمَ وغيرهم مِن الرُّسُل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، هذا إذا كان الكلام عامًّا في جميع الكُفَّار، فإن كان خاصًّا بكُفَّار قُرَيْشٍ فالمُرادُ ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بمُحمَّد ﷺ الذي قالوا عنه: إنه كذَّاب. وبالقُرآن الذي قالوا عنه: إنه سِحْر.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ بِوَاوٍ وَالْهَمْزَةُ بَدَلَهَا ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ و(التَّنَاؤُشُ)] والهَمْزة بدَلٌ من الواو، و﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ مَعناه: أَخْذ الشيءِ من بعيد، يُقال: تَناوَشْت الشيء؛ يَعنِي أَخَذْته بأطراف أَصابِعي على بُعْد؛ أي: أنهم لن يَتمكَّنوا من تحقيق ما أَرادُوه من الإيمان، ولا من بُعْد؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّىٰ﴾ هنا استِفْهام بمَعنَى الاستِبْعاد؛ يَعنِي أنه يَبعُد لهم التَّناوُش من المكان البعيد؛ لأن الذي يَتَناوَل الشيء إذا كان عن قُرْب يُقال: تَناوَله وأَدرَكَه. وأمَّا إذا كان عن بُعْد فيُقال: تَناوَشَه.

ومع ذلك فإنه لا يَتمكَّن منه، فهؤلاء يَبعُد عنهم كل البُعْد أن يَنالوا ما يُريدونه من هذا الإيمانِ؛ لأن هذا الإيمانَ ضَروريٌّ، يَعنِي: أنهم اضْطُرُّوا إليه، حين رَأَوُا العذابَ قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بل كانوا يَقولون: إنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لآمَنوا. ولكن الله تعالى كذَّبهم بقوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]. فهُمْ بإيمانهم هذا إنما يُريدون الخَلاص من العَذاب، ولكن العَذاب بَعْد وقوعه لا خَلاصَ منه.

وهذا له شَواهِدُ في القرآن كثيرةٌ:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر:٨٤-٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨].

وقوله تعالى: [﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ أَيْ: تَنَاوُل الْإِيمَانِ ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ عَنْ مَحَلِّهِ، إِذْ هُمْ فِي الْآخِرَةِ وَمَحَلُّهُ فِي الدُّنْيَا]، وهذا بعيد؛ لأنَّ ما مضى من الزمَن لن يَرجِع حتى الأيامُ الماضية في الدُّنيا لا يُمكِن أن تَرجِع، فيَوْم الأحَد اليومَ ليس هو يومَ الأَحَد الماضي، وإن وافَقه في الاسْمِ، لكنه غيره، فالشيءُ الماضِي بعيد، والشيء المُستَقبَل قريب، والماضي بَعيد وإنَّ قرُب، والمُستَقبَل قريب وإن بعُد؛ لأنَّ كل آتٍ قريب.

إِذَنْ نَقول: إن هؤلاءِ حكَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم أنهم يَقولون حين يَفزَعون ويُؤخَذون بالعذاب يَقولون: (آمنَّا)، ولكن هذا الإيمانَ لا يَنفَعُهم؛ لأنهم يَتناوَلونه من مَكان بعيد.

وقوله تعالى: ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ بمَعنَى: تَناوُل الشيء من بُعْد، وفي اللغة العامِّيـة يَقول: تَناوَشْت الشيءَ. يَعنِي: تَناوَلْته من بُعْد، وأيضًا ما تَمكَّنت منه التَّمكُّن التامَّ، وكذلك إذا صار بينهم ضَرْب يَقول: تَناوَش مُناوَشةً. أي: من بعيد من دون تَمكُّن.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ هـؤلاءِ المُكذِّبين إذا عايَنوا العذابَ آمَنـوا؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

ويُؤيِّد ذلك آياتٌ كثيرةٌ، مثل قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر:٨٤-٨٥].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الإيمان بعد مُعايَنة العذاب لا يُفيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾، وإنما كان غيرَ مُفيد؛ لأنَّ الإيمان بالمُشاهَد لا قِيمةَ له، فالشيء المُشاهَد لا بُدَّ أن يُؤمِن به كلُّ إنسان، لكن المِحْنة والابتِلاء إنما تكون في الإيمان بالغَيْب؛ قال الله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٣].

أمَّا إنسان تَقول له مثلًا: هذه حَقيبةٌ، وهذه كَرَّاسة، وهذا مُكبِّر صَوْتٍ، وهذا مُسجِّل. وهي أمامَه فلا يُمكِن أن يُنكِرها، فإن أنكَر فهو مُكابِر، لكن شيء غائِب تُخبِره به ربَّما يُنكِره، وهؤلاء إذا آمَنوا بعد مُشاهَدة العذاب فإن إيمانهم لا يَنفَعهم، وإن إيمانهـم حينئذٍ إيمانُ مُشاهَدة، لا إيمانٌ بالغَيْـب، والإيمان بالمُشـاهَدة ليس فيه مَدْح ولا ثَناءٌ، ولا يَستَحِقُّ صاحِبه الجزاء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بُعْد الإيمان عمَّن لم يُؤمِن إلَّا إذا شاهَد العذاب، والمُراد بـ(بُعْد الإيمان) يَعنِي: بُعْد قَبول الإيمان، يَعنِي: الله عَزَّوَجَلَّ ما نفَى أن يَنفَعَهم فقَطْ، بل قال: إنَّ هذا أَمْرٌ بعيد: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

• ● ❁ ● •

الآيــة (٥٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٣].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ يُحتَمَل أن تكون هذه الجُملةُ استِئْنافيَّةً، ويُحتَمَل أن تكون حاليَّةً من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ﴾ يَعنِي: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ والحال أنَّهم قد ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾.

وقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ [يَرمَون] ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالنَّبيِّ ﷺ أو بالقُرآن، وهم أيضًا: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: [يَرمَون] والقَذْف -كما سبق- هو الرميُ بشِدَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: يَتكلَّمون بأَمْرٍ غائِب عنهم يَدَّعونه وهم فيه كاذِبون، مثل أن يُنكِروا البَعْث ويَقولوا: كيف يُبعَث الناسُ وقد كانوا عِظامًا رَميمًا؟ قال تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ يَقولون: إنَّ محمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شاعِر، وكاهِن ومَجنون، وما أَشبَه ذلك، فهم يَتكلَّمون بكلام لا حَقيقةَ له، ليس بواقِع مَلموس مَشهود، بل هو أَمْرٌ غائِب عنهم، وهم لا يَعلَمونه، والغَيْبُ هنا شَبيهٌ بقولنا: يَتكلَّمون بالظَّنِّ، ويَقولون الظنَّ، وما أَشبَه ذلك.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أَيْ: بِمَا غَابَ عِلْمُهُ عَنْهُمْ غَيْبَةً بَعِيدَةً؛ حَيْثُ قَالُوا فِي النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: سَاحِرٌ، وَشَاعِرٌ، وَكَاهِنٌ، وَفِي الْقُرْآنِ: سِحْرٌ، وَشِعْرٌ، وَكَهَانَةٌ]، وكذلك قالوا في البَعْث: إنه مُستَحيل، مَن يُحيي العِظامَ وهي رميم؟! فحال هؤلاء إِذَنِ الكُفْر والكَلام بالغَيْب من مَكانٍ بعيدٍ، يَعني: أنهم يَتكلَّمون بأَمْرٍ غائِبٍ عنهم، والغائِب بَعيدٌ عن الإنسان، وكيف يَتكلَّمون به وهم لا يَعلَمون.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الإشارةُ إلى أن إيمانهم الحاضِر لا يَنفَعهم؛ لأنهم كفَروا من قَبلُ، فحين كان الإيمان نافِعًا كانوا كُفَّارًا، وحين كان الإيمان غيرَ نافِع كانوا مُؤمِنين؛ ولهذا إذا طلَعَتِ الشمسُ من مَغرِبها آمَنَ الناس كلُّهم، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤلاءِ الذين يَتكَلَّمون في حقِّ النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أو ما جاء به من الوَحيِ بالسَّبِّ والعَيْب إنما يَتكَلَّمون رَجْمًا بالغيب؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٣].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هؤلاءِ لم يُحاولوا القُرْب والنَّظَر فيما جاء به الرسول ﷺ، بل كانوا كالذي يَرمِي بالحِجارة من بُعدٍ، ولا يُريد أن يَقتَرِب؛ ليَتبيَّن الأَمْر، وهذا سُوء أدَبٍ منهم؛ لأنَّ العَقْل يَقتَضي أن يَدنوا من الشيء؛ ليَتعَرَّفوا إليه، حتى لا يَقذِفونه من بعيد، لكن هم كانوا يَقذِفون بالغيب من مكان بعيدٍ، وهذا يُبْعِد أن يَكون الإيمان مَقبولًا منهم.

الآيـة (٥٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ:٥٤].

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِنَ الْإِيمَانِ].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَحِيلَ﴾ فِعْل ماضٍ مَبنيٌّ للمَجهول، ونائِب الفاعِل هو الظَّرْف، ويَنوب الظَّرْف مَناب الفاعِل كما ذكَرَه ابنُ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أَلْفيَّته[1]:

وَلَا يَنُوبُ بَعْضُ هَذِي، إِنْ وُجِدْ ... فِي اللَّفْظِ مَفْعُولٌ بِهِ، وَقَدْ يَرِدْ

وهذا النائبُ هو الظَّرْف؛ لأنَّ المَفعول به لم يُوجَدْ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ فما الذي يَشتَهُونه؟ الذي يَشتَهونه هو النَّجاة من العذاب الذي حلَّ بهم، ولكن هذه النَّجاةَ إنما تكون لو قُبِل الإيمان منهم، والإيمان منهم غير مَقبولٍ في هذه الحالِ؛ فلهذا لم يَتمكَّنوا ممَّا يُريدون.

والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [﴿وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِنَ الْإِيمَانِ، أَيْ: قَبُولِهِ]، ولكن هم في الحقيقة يَشتَهون شيئًا قبل قَبول الإيمان، وهو النَّجاة من العذاب، وهذا فَرْع عن قَبول الإيمان، وقَبول الإيمان غير مُمكِن؛ لأنه فات مَحَلُّه.

---

(١) الألفية (ص:٢٦).

إِذَنْ: حِيل بينهم وبين ما يَشتَهون، ولذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ فالذي حال بينهم وما بين ما يَشتَهون هو تَأَخُّر الإيمان والتَّوْبة، ولو أن ذلك حصَل في الدُّنيا قبل أن يُعاينوا العذاب لكان مُمكِنًا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ بِأَشْبَاهِهِمْ فِي الْكُفْرِ ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: قَبْلِهِمْ].

وقوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ كما حيل بين أَشباهِهم في الكُفْر ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: من قَبْلِ هؤلاء، مثل قَوْم نُوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعادٍ، وصالِحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وغيرهم، وهذا يُؤيِّد ما ذكَره بعض المُفسِّرين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ بأنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ﴾ يَعنِي: عند الموت؛ لأنَّه قال: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾، وهذا فِعْلٌ ماضٍ يَدُلُّ على أن هذا أَمْر قد مضَى على مَن سبَق، ولو كان يوم القِيامة لم يَكُن قد مضَى من قَبْلُ.

أمَّا على رَأْيِ المُفَسِّر ومَن تابَعه من المُفسِّرين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: بأن الفزَع هذا هو فزَع يوم القيامة، ويَدُلُّ عليه الآية التي استَشْهَدْنا بها من قبلُ؛ فيقول: «كما فُعِل» أي: كما قُدِّر أن يُفعَل بأشياعِهم من قَبلُ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ إعرابُها: ظرفٌ مَبنيٌّ على الضمِّ في محَلِّ جَرٍّ، ويَقولون: مِن قبلُ، ومِن بَعدُ، وما أَشبَهَهما لها أربعُ حالاتٍ:

١- إمَّا أن تكون مُضافةً.

٢- مَقطوعةً عن الإضافة لَفْظًا ومَعنًى.

٣- مَقطوعة عن الإضافة لَفْظًا تقديرًا لا مَعنًى.

٤- مَقطوعة عن الإضافة لَفْظًا، ولكنها مَعنًى مُضافةً.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَمَا فُعِلَ﴾، و(ما) مَصْدرية يَعنِي: كالمفعول بأَشياعهم من قَبلُ، (ما) مَصدَرية، أي: كفِعْلنا، أو كالمَفعول بأَشياعهم ﴿مِّن قَبْلُ﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ﴾ الجُمْلة هذه تَعليل لما قَبلَها فصِلَتُها بما قَبلَها أنها تَعليل، أي: إنَّ هؤلاء الذين لم يَنجُوا من النار أو من العذاب كانوا في الدنيا في شكٍّ، والشكُّ هو: التَّردُّد بين الإثبات والنَّفيِ، والإيمان يَجِب أن يَكون جازِمًا لا شكَّ فيه؛ ولهذا من شَكَّ فيما يَجِب الإيمان به لم يَكُن مُؤمِنًا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: مُوقِعٍ فِي الرِّيبَةِ لَهُمْ فِيمَا آمَنُوا بِهِ الْآنَ، وَلَمْ يَعْتَدُّوا بِدَلَائِلِهِ فِي الدُّنْيَا]، يَعنِي: أنهم في الدُّنيا غفَلوا عن دَلائِل الإيمان، ولم يَتفكَّروا بها، بل أَنكَروها إمَّا مُكابَرةً، وإمَّا شَكًّا وتَردُّدًا، فلم يَنفَعْهم.

والحاصِلُ: أنَّ هذه الآياتِ كلَّها فيها إنذارُ هؤلاءِ المُكذِّبين للرسول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتَذكيرُهم بهذه الأحوالِ التي ستكون وارِدةً عليهم عند الموت وفي الآخِرة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الكُفَّار إذا عايَنوا العذاب يَشتَهون، بل يَتَمَنَّوْن أن يُرَدُّوا إلى الدنيا، يَقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧]، ولكن هذا الذي يَشتَهونه ويَتَمَنَّونه لا يَنفَعُهم، قال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، والنُّكْتة في عدَم بَيان الفاعِل -فلم يَقُل: وحال الله تعالى بينهم. ولا قال: وحال الكُفْر-.

النُّكْتة في هذا لأَجْل أن يَكون الحائِل صالِحًا لأَنْ تُقدِّره لكُلِّ ما يُناسِب

الحال، فإن شِئْت فقُلْ: حال بينهم وما بين ما يَشتَهون كُفْرهم في الدنيا. وإن شِئْت فقُلْ: حال بينهم وبين ما يَشتَهون تَقديمُ شَهَواتهم في الدُّنيا منعَهم شَهَواتهم في الآخِرة.

وهذا نَظيرُ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأحقاف:٢٠] بدَلًا عمَّا أَذْهَبْتُموه من الطَّيِّبات في الدنيا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: استِعْمال القِياس، يُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الإشارة إلى الاعتِبار بمَن مَضَى وسبَق، سواءٌ كانوا من أهل الخَيْر أو من أهل الشرِّ؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقرِن أحيانًا الحُكْم بعِلَّته؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

وقَرْن الحُكْم بعِلَّة له فَوائِدُ منها:

أ- بَيان الحِكْمة، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يَحكُم بشيء -سواءٌ كان كَوْنيًّا أو قدَريًّا- إلَّا لحِكْمة القِياس.

ب- ومنها: إذا ذُكِرت العِلَّة وأُلحِق بهذا الشيءِ ما يَجتَمِع معه في العِلَّة.

ج- ومنها: بيانُ سُمُوِّ الشريعة لاطْمِئْنان النفس إلى الحُكْم والرِّضا به.

وإن كان الواجِبُ على المُسلِم أن يَرضَى بحُكْم الله تعالى مُطلَقًا، لكن لا شَكَّ أنَّ مُشاهَدة الإنسان لحِكْمة الحُكْم أَبلَغُ في الطُّمَأنينة من عدَم ذلك؛ ولهذا قال الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هـذا الشَّكَّ الحاصِلَ لهـؤلاء أَوْقَعهم في رِيبة، والرِّيـبة يَعنِي: ليسَتْ مُجَرَّد الشَّكِّ، بل قال شيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ الرَّيْب شَكٌّ مع قلَق واضطِرابٍ، يَعنِي: أن الشاكَّ عنده تَردُّد في الأمور، لكن ما عنده تَشويشُ فِكْر، لكن المُرْتاب يَكون عنده شيء من التَّشويش الفِكْريِّ، والقلَق النَّفْسيِّ، وعدَم الاتِّجاه السليم؛ ولهذا قال: إنهم كانوا في شكٍّ مُريبٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الشكَّ مُنافٍ للإيمان فيما يَجِب الإيمانُ به، فلو أنَّ أحَدًا شكَّ في يوم القِيامة -في البَعْث- ما نفَى وجزَم بالنَّفْي، ولا أَقَرَّ وجزَم بالإقرارِ.

نَقول: إنَّ هذا في حُكْم المُنكِر تمامًا، فهو كافِر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن أيَّ قَوْم إذا رأَوُا العَذاب فإنه لا يَنـفَع إيمانُهم، وأمَّا قـوم يُونُـسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد استَثْـناهم الله عَزَّوَجَلَّ فقـال: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨]، والحِكْمة من ذلك -والله تعالى أَعلَمُ- أن نَبيَّهم ذهَب عنهم قبلَ أن يُؤمَر، فكأنَّ الدعوة لم تَتِمَّ على الوجه الأكمَلِ الذي يَنفِي عنهُمُ العُذْر.

• • ❁ • •

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة
«مَا مِنْ مَوْضِعِ أَرْبَعِ أَصَابِعَ فِي السَّمَاءِ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ»	١٤، ١٥
«مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»	١٥
«أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»	٤٠
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»	٤١
«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»	٤١
«أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ»	٤٧
«أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»	٤٧
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»	٤٧
«لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»	٦٣
«الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»	٦٦
«الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»	٦٦
«وَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي»	٨٧
«أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»	٩٢
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»	٩٢
«رَبِّ اغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ»	٩٣

نَهَى عَن قَتْل الجِنَّان في البيُوتِ ١٠٢
«إِنَّ السَّفَرَ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ» ١٢٥
«ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا» ١٢٦
«اللهمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وَيَمَنِنَا» ١٤٠
«وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» ١٤٨
«صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ» ١٥١
«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ بكذا وكذا» ١٥١
«لَا يَأْكُلْ أَحَدُكُمْ بِشِمَالِهِ، وَلَا يَشْرَبُ بِشِمَالِهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ» ١٥٢
«رَبَّنَا الله الَّذِي فِي السَّمَاءِ» ١٦٩
«أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ» ١٦٩
«أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» ١٦٩
«أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» ١٦٩
«إِنِّي رَسُولُ الله وَلَسْتُ عَاصِيَهُ وَهُوَ نَاصِرِي» ١٧٩
«أَمَّا مَنْ جَاءَ إِلَيْنَا مِنْهُمْ فَرَدَدْنَاهُ فَسَيَجْعَلُ الله لَهُ فَرَجًا، وَأَمَّا مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَلَا نُرِيدُهُ لَا رَدَّهُ الله» ١٧٩
«مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ... ١٨٤
«وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» ١٩٣
«إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْفَقْرُ» ٢٢٦

«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» ٢٣٠
«لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ» ٢٣٢
«اخْلُفْنِي فِي عَقِبِي» ٢٤١
«مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَابُ بِمُصِيبَةٍ فَيَقُولُ: اللهمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا. إِلَّا آجَرَهُ الله فِي مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا» ٢٤٢
«مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ» ٢٤٣
«إِنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، فَاتَّقُوا الله وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ» .. ٢٤٤
«مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ» ٢٥٧
«إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» ..... ٢٦٥، ٢٦٩
«مَن دخَل دارَه وأَغلَق عَلَيْه بابَه فهُوَ آمِنٌ، ومَن دَخَل المَسجِد فهو آمنٌ، ومَن دخَل دارَ أَبي سُفْيانَ فهُوَ آمِنٌ» ٢٨٢
«إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ الله» ٢٨٨
«زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ» ٢٨٩
«إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ» ٣٠٠

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة
التنزيل المَكِّيُّ والمَدنيُّ بالزمَن لا بالمَكان	٧
البَسمَلة: آيةٌ مُستَقِلَّة من كِتاب الله عَزَّوَجَلَّ	٩
الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحمَد على ما لَه من الكَمال الذاتيِّ والكَمال المُتعدِّي للغير	١٤
الأرَضون سَبْع بصريح السُّنَّة، وسَبْع بظاهِر القُرآن	١٥
الحِكْمة نوعان أيضًا: صُورية وغائِيَّة	١٧
أنواع الحِكْمة الصُّورية والغائِيَّة في الشَّرْع وفي القَدَر	١٧
كيف يُثنِي الله تعالى على نَفْسه؟ وهل مَدْح الشَّخْص نَفْسَه يُعتبَر مَنقَبةً أم لا؟	١٩
هل السَّماء أَشرَفُ من الأرض؟	٢٥
رحمة الله عند أهل السُّنَّة والجَماعة	٢٦
ما فائِدةُ القَسَم أمام مَن يُنكِر؟	٣٠
عِلْم الله تعالى الغَيْبَ أَمْرٌ معلوم حتى عند الكُفَّار	٣٠
بعض الأئِمَّة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ إذا ذكَروا حُكْم مَسأَلة من المَسائِلِ أحيانًا يُقسِمون عليها	٣٦
الخِطاب المُوجَّه إلى الرسول ﷺ يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسامٍ	٣٦
الخبَر يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام	٣٨
لا يُمكِن أن يَكون العمَل صالِحًا إلَّا بهَذين الشَّرْطين: الإِخْلاص، والمُتابَعة للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ	٤٠

مِن أَضَرِّ ما يَكون على البِلاد الإسلامية بعد بثِّ السُّموم الفِكْرية بثُّ السُّموم الشَّهْوانية ٥٢
فوائد ضمير الفصل ٥٩
تفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ بـ(المَحمود) فيه قُصورٌ ٦٢
هل من اللائق أن تَقول: إن الله تعالى ربُّ الكِلاب وربُّ الخَنازير وربُّ الحَشَرات؟ ٦٦
مِن الناس مَن يُلقِّب أهل السُّنَّة والجماعة بـ(الحَشَوِيَّة) و(النوابت) و(الغُثاء) و(المُجَسِّمة) وما أَشبَه ذلك؛ كل هذا تَنفيرًا للناس عن سُلوك مَذهَبِهم ٧٣
الإضراب في اللغة قِسْمان: إضرابٌ إِبْطاليٌّ، وانتِقاليٌّ ٧٤
القِراءات إذا تَعدَّدت فالأفضل أن يُقرَأ بهذا تارةً وبهذا تارةً؛ لأنها كُلُّها حَقٌّ ٨٠
في إلانة الله الحديد لداود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: هل المُرادُ أن الله تعالى أَلانَه له بالوسائِل التي تُلَيِّنُ الحَديدَ سُخِّرت له وهُيِّئَت له، أو أن الله تعالى أَلانَ له الحديد بغَيْر السبب المَعلوم؟ ٨٩
هل الحديد أَقسَى أَمِ الحِجارة؟ ٩٤
الجنُّ عالَمٌ غَيْبِيٌّ مُستَتِرٌ عن الأَعْيُن ١٠١
قصة مصروع جِيءَ به إلى شيخِ الإسلام ابن تيميَّةَ ١٠٣
هل يُمكِن أن يَعتَدِيَ الجِنِّيُّ على الإِنْسيُّ؟ ١٠٨
هل يُمكِن أن يَعتَدِيَ الإِنْسيُّ على الجِنِّيُّ؟ ١٠٨
هل يُمكِن أن يَدخُل الجِنِّيُّ في بدَن الإِنْسِيِّ؟ ١٠٨
هل تَكليف الجن كتَكْليف الإنس؟ بمَعنَى: أن صَلاتَهم كصلاتِنا وصِيامهم كصيامنا وحَجَّهم كحَجِّنا أو يَختَلِفون عنَّا؟ ١١٠

الشُّكْر نَوْعان ١١٦
كم بقي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد موته؟ ١٢١
لمذا سميت (سبأ) بهذا الاسم؟ ١٢٦
القرية هي البَلْدة سَواء كانت كبيرةً أو صغيرةً ١٤٠
القولُ الراجِح تَحريم الأكل بالشِّمال والشُّرْب بالشِّمال، وأنه ليس مَكروهًا فقط ... ١٥٢
تَعلُّق عِلْم الله تعالى بالشيء له حالان ١٥٤
آلِهةُ المشركين لا يُمكِن أن تَنفَع المُشرِكين، وذلك لانتِفاء أسباب النَّفْع من عِدَّة أَوْجُهٍ ١٥٩
من كَمال السُّلْطان ألَّا يَتكَلَّم أحَدٌ عند المَلِك المَشفوع إليه أبَدًا إلَّا بإِذْنه ١٦٤
الإنصافُ في المناظَرَة ١٨١
الحُكْم كونيٌّ وشرعيٌّ ١٨٨
الأكثَرية لا يَلزَم أن يَكون الصوابُ معها ١٩٤
ما حُكْم مَن لم تَبلُغه الرسالة؟ ١٩٥
تنوُّع أساليب دُعاة الضَّلال ١٩٨
للإِظْهار في مَوْضِع الإِضْمار فوائِدُ ٢٠٦
وُجوبُ الانتباهِ لأَساليبِ دعوة أهل الشَّرِّ والفَساد ٢١٢
النَّفي إذا صيغ بصيغة الاستِفْهام كان مُشرَبًا معنَى التَّحدِّي ٢١٨
يَقتَرِن جوابُ الشَّرْط بالفاء في سَبْعة مَواضِعَ ٢٤١
إذا أَتَت (إلَّا) بعد (إِنْ) كانت (إِنْ) نافِية، ولا يَلزَم أن تَأتيَ بعدها (إلَّا) ٢٦٤
وجوه كون الوَحْي آية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ ٢٦٦

كلَّما أُوذِيتَ في الدعوة إلى الله تعالى فإن ذلك زيادة أَجْرٍ لك من جِهة، وزيادةُ قوَّةٍ لدَعْوتك من جِهة أُخرى ٢٨٦
هل الله عَزَّوَجَلَّ شهيد على ما في نَفْس الإنسان؟ ٢٨٨
هل يَجوز أَخْذ الأُجْرة على تَعليم القُرآن؟ ٢٨٨
هل يَجوز -على القول بأن أَخْذ الأُجْرة حرام- أَخْذ رَزْق من بيت المال لمُعلِّم القُرآن؟ ٢٨٩
المُستَقْبَل غيبٌ مُطلَقٌ، والحاضِر والماضي غَيْب نِسْبيٌّ؛ يَظهَر لَمن رآه ولا يَظهَر لَمن لم يَرَهُ ٢٩٢
السَّمْع المُضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ يَنقَسِم إلى قِسْمين ٢٩٩
لا تَظُنَّ أن الجَمْع بين القُرْب والعُلُوِّ فوقَ السمَوات مُتَناقِض ٣٠٠
قَرْن الحُكْم بعِلَّة له فَوائِدُ ٣٢٠

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة
تقديم	٥
سورة سبأ	٧
البسملة	٩
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾	١٣
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾	٢١
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾	٢٨
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾	٣٩
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾	٥١
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾	٥٧
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ	

مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ٦٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾ ٧٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ ٧٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ ٨٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ ٩٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ ١١٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ ١١٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ ١٢٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ ١٣٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ ١٣٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ ١٤٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾ ١٤٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ١٤٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأٓخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾ ١٥٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ ١٥٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾ ١٦٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ ١٧٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ ١٨٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ١٩١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ... ١٩٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ١٩٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ٢٠١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ٢٠٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ... ٢١١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ٢٢١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ... ٢٢٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ٢٢٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .. ٢٢٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ ٢٣٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ ٢٣٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ ٢٤٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ ٢٥١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ٢٥٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ ٢٦٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ ٢٧٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ ٢٧٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ ٢٧٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ ٢٨٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾ ٢٩١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ ٢٩٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ ٢٩٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ .. ٣٠٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ .. ٣١١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ ٣١٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ ٣١٧

فهرس الأحاديث والآثار ٣٢٣

فهرس الفوائد ٣٢٧

فهرس آيات السورة ٣٣١

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٣)

تفسير القرآن الكريم

سورة فاطر

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٣)

تفسير القرآن الكريم

سورة فاطر

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة فاطر. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
٣٤١ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٤٣)
ردمك: ٤ ـ ٥٠ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة فاطر ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٣٢

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٣٢
ردمك: ٤ ـ ٥٠ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من :
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[1]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخ مُحَمَّد بنِ صالِح العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَرِيم؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضَاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ
فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ
٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سورةُ فاطِرٍ

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

قال المفسِّر[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَكِّيَّة، وآياتُها خَمْسٌ وأَرْبعونَ أو سِتٌّ وأربعون].

قَوْله: [مَكِّيَّة] أصَحُّ الأَقْوَالِ في المكِّيِّ والمَدَنِيِّ أنَّ ما نزل بعد الهِجْرَة فهو مَدَنِيٌّ وإن نزل بمَكَّة، وما نزل قبل الهِجْرة -أي: قبل وصول النَّبِيِّ ﷺ المدينةَ- فإنَّه مَكِّيٌّ ولو نزل في غَيْر مَكَّةَ؛ هذا هو أصحُّ ما قيل في تَعْريفِ المكِّيِّ والمَدَنِيِّ.

والغالبُ في الآياتِ المَكِّيَّة قُوَّةُ العِبارَةِ وشِدَّتُها وقِصَر الآياتِ، ومَوْضوعها غالبًا في أصول الدِّين وتَقْريرِ التَّوْحيدِ.

وأمَّا الآياتُ المَدَنِيَّة فإنَّها بالعَكْسِ؛ تَجِدُ عباراتِها أسهَلَ وأَطْوَلَ، وغالب مَوْضوعها في فروع الدِّينِ؛ لأنَّ النَّاسَ غالبَهُم قد قاموا بالتَّوْحيدِ، ولها ضوابِطُ معروفَةٌ في أُصولِ التَّفْسيرِ وعَلاماتٌ.

وهنا يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّها [مَكِّيَّة]، واعلمْ أنَّ السُّورَة إذا كانت مَكِّيَّة، واسْتُثْنِيَ بعضُ آياتِها -مثلًا يقول: (مَكِّيَّة إلا آيَةَ كذا وكذا)- فإنَّ هذا الاستثناءَ غَيْرُ مَقْبولٍ من قائِلِه إلا بِدَليلٍ؛ لأنَّ الأَصْلَ أنَّ السُّورَة جُزءٌ واحِدٌ؛ بمَعْنى أنَّ الرَّسُولَ ﷺ إذا

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

نزلت آيَةٌ، قال: ضعوها في موضِعِ كذا من سورَةِ كذا[1].

فالسُّورَة المَكِّيَّة مَكِّيَّةٌ ولا يُسْتَثْنَى منها شَيْءٌ، والسُّورَةُ المَدَنِيَّة مَدَنِيَّة ولا يُسْتَثْنَى منها شَيْء إلا بِدَليل، ولا يَكْفي أن يقولَ العالِـمُ: (إلا كذا، إلا كذا)، بل لا بُدَّ فيه من سنَدٍ؛ لأنَّ هذا خَبَرٌ، والأَخْبارُ لا بُدَّ من سَنَدٍ لها حتى تَصِلَ إلى غايَةِ السَّنَد.

وَقَوْل المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنَّها خَمْـسٌ وأربعونَ آيَةً، أو سِتٌّ وأربعونَ آيَةً] هذا لا يَضُـرُّ؛ فالاختـلافُ في عَدَدِ الآياتِ أَمْرٌ ليس بضارٍّ؛ ولهـذا في سورةِ (الفاتحة) اختلف العُلَمـاءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: هل البَسْمَلَة آيَةٌ من آياتِها أو مُسْتَـقِلَّة مع الاتِّفاقِ على أنَّ الفاتِحَة سَبْعُ آياتٍ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٥٧)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب من جهر بها [أي البسملة]، رقم (٧٨٦)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٨٦)، من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

البَسْمَلَةُ آيَةٌ من كِتَابِ الله مُسْتَقِلَّة، لا تكون تَبعًا لما قَبْلها ولا مُقَدِّمَة لما بعدها؛ بمَعْنى أنَّها ليست من التي قبلها ولا مِنَ التي بعدها؛ لكنْ يُؤْتى بها في ابتداءِ السُّورَة علامَةً على ابْتِدائِها إلا في سورة (براءة) فإنَّ الله تعالى لم يُنْزِلْ فيها البَسْمَلَة.

يقول بعضُ العُلَماءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: لأنَّها بعْضٌ من سورة (الأنفال).

ويقول آخرون: لأنَّها نَزَلَتْ بالسَّيْفِ والشِّدَّةِ على المُنافِقين والكُفَّارِ، وهذا لا يُناسِبُه البراءةُ بالبَسْمَلَة التي هي (بسم الله الرَّحْمَن الرَّحيم) فإنَّ البَسْمَلَة بَرَكَةٌ ورَحْمَةٌ لا تتناسَبُ مع الشِّدَّة والغِلْظة والقَتْل والقِتال، ولكن هذا ليس بصحيحٍ، بل أَقْرَبُ شَيْءٍ أنَّ الصَّحابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أُشْكِلَ عليهم: هل هي من (الأنفال) أو مُسْتَقِلَّة؟ فوضعوا فاصلًا ولم يضعوا البَسْمَلَة[1]، فلم يجزموا لا بهذا ولا بهذا، على أَنَّنا نَعْلَمُ بأنَّ الله تعالى لم يُنْزِلْها؛ لأنَّ البَسْمَلَة لو نَزَلَت بين (الأنفال) و(براءة) لكان بقاؤها حتمِيًّا؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] وعلى هذا فيكون اجتهادُ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مُوافِقًا تَمامًا لواقِعِ الحالِ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٥٧)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب من جهر بها [أي البسملة]، رقم (٧٨٦)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٨٦)، من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أما إِعْرابُها فقد تقدَّم مِـرارًا، وذكرنا أنَّ أحْسَـنَ الإِعْـراباتِ فيها أنَّ الجارَّ والمَجْرور متعلِّقٌ بمَحْذُوفٍ مُؤخَّرٍ فِعْلِيٍّ مُناسِـبٍ، فإذا أردْتَ أن تتوضَّأَ، وقلت: (بسم الله الرَّحْمن الرَّحيم)؛ فالتَّقْديرُ: (بسم الله أَتَوَضَّأُ).

• ● ۞ ● •

الآيــة (١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر:١].

اعلم أنَّ الحَمْد هو وَصْفُ المَحْمودِ بالكَمال مع المَحَبَّةِ والتَّعْظيمِ، وقد حَمِدَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَفْسَه في أوَّلِ الأُمُور وآخِرِها.

ففي أوَّلِ الأُمورِ الكَوْنِيَّة قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١].

وفي أوَّلِ الأُمورِ الشَّرْعِيَّةِ قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف:١].

كما حَمِدَ نَفْسَه على مُنْتَهى الأُمُور أيضًا، قال الله تعالى في آخِرِ سورة الزُّمَر: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥].

فحَمِدَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَفْسَه في أوَّلِ الأَمْرِ وفي مُنْتَهى الأمر؛ لأنَّ الله تعالى له الأَمْرُ أوَّلًا وآخِرًا، وكُلُّ أَمْرِه فإنَّه مَحْمودٌ عليه؛ لأنَّه مَبْنِيٌّ على الحِكْمَة والرَّحْمَة.

وهنا يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحَمْد: مُبْتَدَأ، لله: خَبَرُه، واللَّام هنا للاسْتِحْقاق والاخْتِصاص؛ لِلْمَعْنَيَيْنِ جميعًا، أمَّا كَوْنُها للاسْتِحْقاقِ؛ فلأنَّه لا أحَدَ أَحَقُّ بالحَمْدِ من الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّه مَحْمودٌ على كلِّ حالٍ؛ لأنَّ كلَّ ما يَفْعَلُه وكُلَّ ما يُشَرِّعُه فإنَّه مَحْمودٌ

عليه لكماله، وأمَّا كونُها للاختصاصِ فلأنَّ (أل) في (الحَمْد) هنا للاسْتِغْراقِ؛ أي: كلُّ حَمْدٍ فهو لله، ثابتٌ له، ومَعْلومٌ أنَّه لا أحَدَ يَخْتَصُّ بهذا الوَصْفِ العامِّ الشَّامِلِ إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ من يُحْمَد سوى اللهِ لا يُحْمَد إلا على أشياءَ جُزْئِيَّةٍ غَيْرِ شامِلَةٍ، لكنَّ الذي يُحْمَدُ على كلِّ شَيْءٍ هو الله، وبهذا عَرَفْنا أنَّ اللَّام للاسْتِحْقاقِ والاخْتِصاصِ أيضًا.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حَمِدَ الله تعالى نَفْسَه بذلك كما بيَّن في أوَّلِ سورَةِ (سبأ)].

ففي أوَّلِ (سبأ) قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [سبأ:١]، لكنْ هناك حَمِدَ نَفْسَه لعُمومِ مُلْكِه الذي له ما في السَّمَواتِ والأَرْض، وهنا حَمِدَ نَفْسَه لابتداءِ خَلْقِه.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: خالِقِهما على غَيْرِ مثالٍ سَبَقَ].

وَقَوْله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ لهم عُقُولٌ أخصُّ من عُقولِ البَشَرِ؛ لأنَّ عُقولَ البَشَرِ قد تستولي عليها الشَّهْوَةُ فيُضَيِّعُ الإنْسَانُ عَقْلَه. قَوْله تعالى: ﴿رُسُلًا﴾ جَمْع (رسولٍ) يقول: [إلى الأَنْبياءِ]، والأَصَحُّ إلى الأنبياءِ وغَيْرِهم؛ يقولُ الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١] رُسُلُ اللهِ تعالى إلى هذا المُحْتَضَر لِيَقْبِضوا رُوحَه، فهم رُسُلٌ إلى الأنبياءِ وإلى غَيْرِهم؛ فتَخْصيصُ الآيَةِ بالأَنْبياءِ يُعْتَبَرُ قُصورًا في التَّفْسيرِ.

قَوْله تعالى: ﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾: ﴿أُو۟لِىٓ﴾ بمَعْنى أَصْحاب؛ يعني أنَّ المَلائِكَة لهم أَجْنِحَة، وهو جَمْع (جَناحٍ)، هذا الجَناحُ يَطيرونَ به بِسُرْعةٍ فائِقَة أَسْرَع من الجِنِّ؛

بدليلِ أنَّ العِفْريتَ من الجِنِّ قال لسُلَيْمانَ لَمَّا قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل:٣٨-٣٩] وكان له عادة أنَّه يقوم في وقتٍ مُعَيَّنٍ فقال: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ يعني: في الوَقْتِ المُعَيَّنِ وإلَّا لكانَ الأَمْرُ مُبْهَمًا ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠].

يعني مثلًا: إن نَظَرْتَ مثلًا أَبْعَد شَيْءٍ -هم قالوا هكذا- قَبْلَ أن يرتَدَّ إليه طَرْفُه، فإنَّه يأتيه به، وفِعْلًا أتاه؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا﴾ [النمل:٤٠].

قال العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنَّ الذي عنده عِلْمٌ من الكِتابِ كان يَعْرِفُ اسْمَ الله الأَعْظَمَ، وأنَّه دعا باسْمِ اللهِ الأَعْظَمِ، فحَمَلَتْه الملائِكَةُ وأَلْقَتْه بين يَدَيْ سُلَيْمانَ، وهذا يَدُلُّ على أنَّ المَلائِكَة أَسْرَعُ من الجِنِّ، ولا شَكَّ في هذا؛ أنَّهم أَسْرَعُ وأَقْوى، فهم لَهُم أَجْنِحَةٌ يَطيرون بها بِسُرْعَة فائقة عَظيمَةٍ.

جبريل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان له سِتُّ مِئَة جَناحٍ[1]، كلُّ جناحٍ له قوَّة عظيمَةٌ في الحَمْل والطَّيَران، ماذا تكون سُرْعَتُه؟

لا شكَّ أنَّها سُرْعَةٌ فائِقَة جدًّا؛ لأنَّنا إذا رأينا الآن الطَّيَّاراتِ النَّفَّاثَةَ أَجْنَحِتُها التي تَحْمِلُها وهي المراوِحُ التي تُدْخِلُ الهواءَ ليَحْمِلَ الطَّائِرَةَ لا تَبْلُغُ هذا المَبْلَغَ ولا عُشْرَه، ومع ذلك تَنْتَقِل بهذه السُّرْعَة العَظيمَة وهذا الارتفاعِ العَظيمِ، فجبريلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ له سِتُّ مِئَة جَناحٍ قد سَدَّ الأُفُقَ، وهذا يَدُلُّكَ على أنَّ لهم سُرْعَةً فائِقَةً عَظيمَةً.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم (١٧٤)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذه الأَجْنِحَة ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ وأكْثَرُ؛ ولذا قال: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

قَوْله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ﴾ ظاهِـرُها أنَّ ذلك في العَدَدِ لا في الصِّنْفِ؛ لأنَّ هذا هو الأَصْلُ، ويُحْتَمَل أن يكون في الصِّنفِ؛ لأنَّنا نرى الطَّائِر مثلًا له جناحان، لكنْ كُلُّ ريشة مِن هذه الأَجْنِحَة لها عملٌ خاصٌّ في تَكْيِيفِ الطَّيَرانِ، منها مثلًا ما يَنْصِبُه حتى يرتَفِع، ويَخْفِضُه حتى يَنْزِل، ويَفْرِشُه حتى يَسْتَقِرَّ، هذا شَيْءٌ مُشاهَد؛ ولهذا بعض الأحيان تُنْتَفُ أَشْياءُ مُعَيَّنَةٌ من الجناح ثُمَّ لا يَطيرُ، مع أنَّ الباقِيَ في جناحه أكثَرُ مِمَّا نُتِفَ بكثيرٍ، فيُحْتَمَل أنَّ قَوْله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ﴾ يعني: باعتبار الصِّنفِ.

﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ ويُحْتَمَل أنَّه باعتبارِ العَدَدِ وأنَّ المَلائِكَةَ بَعْضُهم له جناحان، وبَعْضُهم له ثلاثة، وبَعْضُهم له أربعَةٌ، ولا ينافي ذلك أنَّ جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له سِتُّ مِئَة جناح؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ ويكون مِمَّا زاده أنْ جَعَلَ لِجِبْرِيلَ سِتَّ مِئَةِ جناحٍ.

فإذا قُلْتَ: هل نعرف كَيْفِيَّة هذه الأَجْنِحَة؟

فالجواب: لا؛ كَيْفِيَّة هذه الأَجْنِـحَة لا نعلمها، وهذا نَظيـرُه تمامًا ما جاء في صِـفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّنا نَعْلَمُ مَعْنى الصِّفَة، ولكِنَّنا نَجْهَل كَيْفِيَّـة الصِّفَة، لله عَزَّوَجَلَّ وَجْهٌ، نعلم مَعْنى الوَجْه، لكن هل نَعْلَمُ كَيْفِيَّته؟

الجوابُ: لا؛ لأنَّ ما غاب عنك لا يخاطِبُك الله به إلا بِبَيانِ معناه فقط، وأمَّا كَيْفِيَّته فلا يُمْكِنُك إدراكُها؛ لأنَّه غائِبٌ ولا نَظيرَ له، والشَّيءُ لا يُعْرَفُ إلا بِمُشاهَدَتِه أو مُشاهَدَة نَظيرِه أو الخَبَرِ الصَّادِقِ عنه.

ونُعْرِبُ: ﴿مَثْنَىٰ﴾ بدلًا أو صفةً لـ﴿أَجْنِحَةٍ﴾ وبدَلُ المَجْرورِ مَجْرورٌ، وعلامة جَرِّهِ فَتْحَةٌ مُقَدَّرَة على الأَلِف نيابَةً عن الكَسْرَة، والمانِعُ من الصَّرْف الوَصْفِيَّةُ والعَدْلُ.

وكذلك نقولُ في ﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ ولذلك قال: (ثُلَاثَ) ولَمْ يَقُلْ: (ثُلَاثٍ)، وقال: ﴿وَرُبَٰعَ﴾ ولم يَقُلْ: (وُرَباعٍ).

قَوْله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾؛ أي: يزيدُ في الخَلْقِ سواء كان في المَلائِكَة أو غَيْرِهم، يزيدُ ما يشاءُ مِمَّا تَقْتَضيه حِكْمَتُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولذلك تَجِدُ المَخْلوقاتِ لَها أَيْدٍ وأَرْجُلٌ بِحَسَب حاجَتِها إلى هذه الأَيدي والأَرْجُل، فبنو آدم لهم أَرْجُلٌ يَمْشون بها، ولهم أيدٍ يَبْطِشونَ بها ولا يَمْشون بها؛ لأنَّ هذه الأَيْديَ مَحَلُّ الأَخْـذِ والعطاء، فَأُكْرِمَ الإِنْسَانُ بأن تكونَ يداه غَيْرَ مُسْتَعْمَلةٍ في المَشْي، بخلاف الحيوانِ؛ فالحيوانُ يداه مُسْتَعْمَلةٌ في المَشْيِ؛ لأنَّه يأخُذُ بِفَمِه، ويُعْطي بفَمِه، ويَنْقل بفَمِه، حتى الهِرَّة إذا أرادَتْ أن تنقل أولادَها تَنْقِلُهم بفَمِها، لكنَّ الآدَمِيَّ مُكَرَّمٌ، فجعل الله تعالى يَدَيهِ غَيْرَ مُسْتَعْمَلَتينِ في المَشْيِ، فهو يَزيدُ في الخَلْقِ ما يشاءُ على حَسَب ما تَقْتَضيهِ الحِكْمَةُ وحاجَةُ ذلك المَخْلوقِ، وكلُّ ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ مِمَّا هو مُعَلَّقٌ بِمَشيئَتِه فقد تقدَّم أنَّه مَقْرونٌ بالحِكْمَة.

قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا تَعْليلٌ لِقَوْله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ يعني: كأنَّ سائلًا يسأل: وهل ذلك صعبٌ عليه؟

فكان الجوابُ من هذه الجُمْلَة أنَّه سَهْلٌ؛ لأنَّ الله على كُلِّ شَيْء قديرٌ، فكلُّ شَيْءٍ مَوْجودٍ قادِرٌ على إعْدامِه، وكُلُّ مَعْدومٍ قادِرٌ على إيجادِهِ.

لكنْ لو قال لك قائِلٌ: هل يَقْدِرُ على أن يَجْعَلَ الشَّيْءَ المُتَحَرِّك ساكِنًا في آنٍ واحِدٍ؟

نقولُ: كَلِمَة (مُتَحَـرِّك) نَقيضُ (ساكِن) إذا وَصَفْتَه بالمُتَحَـرِّك فيقينًا ليس بساكنٍ، وإذا وَصَفْتَه بأنَّه ساكِنٌ، فيَقينًا ليس بِمُتَحَرِّك؛ فلذلك قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ:

إنَّ المستحيلَ غَيْـرُ وارِدٍ؛ لأنَّ المُسْتَحيلَ لا يمكنُ وُجودُهُ، ليس المَعْنى أنَّه لا يُمْكِنُ باعتبارِ قُدْرَة الله، لكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا أراد أن يَجْعَلَ هذا المُتَحَرِّكَ مُتَحَرِّكًا صار مُتَحَرِّكًا لا ساكِنًا، أمَّا أن يكونَ مُتَحَرِّكًا ساكنًا في آنٍ واحدٍ، كيف ذلك والمُتَحَرِّكُ غَيْرُ ساكِنٍ؟

يقال[1]: إنَّ الشَّيطانَ كان يَفْرَحُ بِمَوْتِ العالِمِ، إذا قيل: (مات فلان العالِمُ) فرح واسْتَأْنَسَ، لكن إذا قيل: (مات عابِدٌ) يقولُ: هذا هَيِّنٌ، فقال له جنوده: لماذا تَفْرَحُ بِمَوْت العالِمِ هذا الفَرَحَ العَظيمَ، ومَوْتُ العابِد لا يُهِمُّك مع أنَّ العابِدَ مُنْقَطِعٌ عن الدُّنْيا، وزاهِدٌ في الدُّنْيا، ويُكْثِرُ الذِّكْر والصَّلاة وغيرها؟

قال: لأنَّ العالِمَ أشَدُّ عليَّ من العابِد، قالوا: كيف؟ قال: سأُثْبِتُ لكم الآن، اذهبوا إلى العابِدِ وَقولوا له: هل يَقْدِرُ الله عَزَّوَجَلَّ على أن يَجْعَلَ السَّمَواتِ والأَرْضَ في جَوْفِ بَيْضَة أو لا؟ فذهبوا إلى العابِدِ، قالوا له: هل يَقْدِرُ الله على أن يَجْعَلَ السَّمَواتِ والأَرْضَ في جَوْفِ بَيْضَة؟ قال: هذا مُسْتَحيلٌ، ولا يَقْدِرُ الله على هذا، ثم قال لهم قولوا له: هل يَقْدِرُ الله أن يَخْلُق مِثْلَه؛ أي: أنْ يَخْلُقَ مِثْلَ الله؟ فذهبوا له، وقالوا له: ما تقـولُ: هل يَقْدِرُ الله أن يَخْلُقَ مِثْلَ الله؟ قال: نَعَمْ، إنَّ الله على كلِّ شَيْءٍ قَديرٌ، يَقْدِرُ الله على أن يَخْلُقَ ربًّا مِثْلَه.

إذَن: كَفَرَ هذا العابِدُ سلبًا وإيجابًا؛ نَفْيُه القُدْرَةَ في الأَوَّلِ كُفْر، وإثباتُهُ القُدْرَةَ في الثاني كُفْر.

ثم قال لهم: اذهبوا إلى العالِمِ، واسْأَلوهُ عن هَذَيْنِ السُّؤالَيْنِ، فذهبوا إلى العالم

(١) ذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/ ١٢٩)، وابن القيم في مفتاح دار السعادة (١/ ٦٩)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قالوا له هَلْ يَقْدِرُ الله عَزَّوَجَلَّ على أن يَجْعَلَ السَّمواتِ والأَرْضَ في جَوْفِ بَيْضَة؟

قال: نعم، يقولُ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧] إمَّا أن تَصْغُرَ السَّمواتُ والأَرْض، أو تَكْبَرَ البَيْضَة، المهمُّ إذا أراد قال فكانَ، قالوا: فهل يَقْدِرُ الله أن يَخْلُقَ مِثْلَه؟

قال: هذا أمرٌ مُسْتَحيلٌ، والمِثْلِيَّةُ لا يُمْكِنُ أن تتطابَقَ أبدًا؛ لو لم يكن من الفارِقِ العَظيمِ إلا أنَّ هذا حادِثٌ وذاك واجِبُ الوجودِ، هذا مُسْتَحيلٌ.

المهمُّ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ، لكنَّ الشَّيْءَ المُسْتَحيلَ الذي لا يُتَصَوَّر لا يُتَصَوَّر، وليس المُرادُ هنا المُسْتَحيلَ عادةً؛ فالمُسْتَحيلُ عادةً يُخْلِفُه الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الله هو خالقُ العادَةِ وقادرٌ على تَغْييرِها، وهذه النَّارُ التي تَحْرِق كانت بَرْدًا وسَلامًا على إبراهيمَ، وهذا الماءُ السَّيَّال صار جامِدًا كالطَّوْدِ العَظيم، والعادَةُ يُمْكِنُ أن يُغَيِّرَها الله عَزَّوَجَلَّ بكُلِّ سُهولَةٍ، لكنَّ الكَلامَ على الأَمْرِ المُمْتَنِع المُسْتَحيلِ.

يقولُ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنَّه لا تتعلَّقُ به القُدْرَة؛ لأنَّه مُسْتَحيلٌ؛ ولهذا قال السَّفاريني في العقيدة[1]:

«..... ..... وَاقْتَدَرْ

بِقُدْرَةٍ تَعَلَّقَتْ بِمُمْكِنِ .....»

وهذا أمرٌ مُتَّفَقٌ عليه عند العُقَلاءِ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا ليسَ فيه اسْتِثْناءٌ، كتب الجلال رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وهو السيوطي- على هذه الآية في سورة (المائِدَة) قال: «وَخَصَّ العَقْلُ ذَاتَهُ فليس عليها بقادرٍ»؛ يعني: على كلِّ شَيْء قديرٌ إلَّا على ذاتِه فليس عليها بقادِرٍ.

---

(١) العقيدة السفارينية (ص٥٢).

نقول: هذا الاسْتِثْناءُ لا شَكَّ أنَّه باطِلٌ؛ لأنَّ الآيَةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقال: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وَقَوْله: «إنَّ العَقْلَ خَصَّ ذاتَه فليس عَلَيْها بقادِرٍ» نقولُ: إنَّ العَقْلَ لا يُمْكِنُه أن يُخَصِّصَ هذا الخَبَر بدون دليلٍ، ولو ذَهَبْنا نخصِّص مثل هذه العُموماتِ بالعُقولِ لَأَبْطَلْنا كثيرًا من دَلالاتِ الكِتَابِ والسُّنَّة.

وماذا تريد بِقَوْلك: «خَصَّ العَقْلُ ذاتَهُ فليس عَلَيْها بقادِرٍ؟» إن أردْتَ أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يكُنْ قادرًا على ذاتِهِ؛ بمَعْنى أنَّه لا يَقْدِر مثلًا أن يُمْرِضَ نفسه أو أن يُعْدِمَ نَفْسَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهذا أَصْلٌ لم تتعلَّقْ به القُدْرَة؛ لأنَّ هذا من الأُمورِ المُسْتَحيلَة، وإن أردتَ أنَّه ليس قادِرًا على أن يفعل، فلَعَلَّ هذا مُرَادُه -لأنَّ الأشاعِرَة ومن شابَهَهُم يُنْكِرون الأَفْعالَ الاخْتِيارِيَّةَ- فهذا كَذِبٌ؛ بل العَقْلُ يدلُّ على أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يَزَلْ ولا يزال فعَّالًا لِما يُريدُ.

وتُوجَدُ عِبارَةٌ تقع كثيرًا بين النَّاس تقول: (إنَّ الله على ما يشاءُ قَديرٌ) نقولُ: هذه عِبارَة خَطَأٌ؛ لأنَّ هذا يُوهِمُ أنَّ ما لا يَشاؤُهُ فليس قادِرًا عليه، هذا أوَّلًا.

وأمَّا قَوْله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩]، فالمشيئة هنا ليست عائِدةً على القُدْرَة بل عائِدَةٌ على الجَمْع؛ يعني: إذا شاء جَمْعَهُم فإنَّه قديرٌ عليه ردًّا على من أنكروا البَعْثَ، وقالوا: كيف يَجْمَعُ الله النَّاسَ ويَبْعَثُهم بعد أن ماتوا؟

ثانيًا: أنَّكَ إذا قُلْتَ: (إنَّه على ما يشاءُ قَديرٌ) فقد خالَفْتَ التَّعْبيرَ القُرْآنِيَّ الذي أطلق الله فيه وعَمَّمَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثالثًا: أنَّ هذا مَأْخوذٌ مِن مَذْهَبِ القَدَرِيَّةِ؛ لأنَّ القَدَرِيَّةَ يقولون: (إنَّ الله لا يَقْدِرُ على عَمَلِ العَبْدِ) فهو غَيْرُ داخِلٍ في قُدْرَة الله، وإذا لم يَقْدِر عليه فإنَّه لا يَشاؤُه، وكذلك

يقولون: إنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا كان فِعْلُ العبد في غَيْر مَشيئَتِه فإنَّه غَيْر قادرٍ عليه؛ لأنَّ اللهَ قادرٌ على ما يشاء فقط.

فلأَجْلِ هذا نقول: إنَّ هذه العِبارَة لا تَنْبَغي، وإن كان صاحِبُها يريد بها معنًى صحيحًا، فقد يُريدُ بها معنًى صحيحًا كما هو ظاهِرُ عبارَةِ كَثيرٍ من المُسْلمينَ الذين يَنْطِقونَ بهذا الشَّيْءِ، ونقول: إنَّ الأكْمَل أن تقول: «إنَّ الله على كُلِّ شَيْء قديرٌ».

فإن قلت: إنَّه ورد في قِصَّةِ آخِرِ من يُدْخِلُه اللهُ الجَنَّة فيقول اللهُ له: لَمَّا قال هذا لكَ وعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، قال الله له: «إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[1] هذا حديثٌ قدسيٌّ؟

فالجواب: أنَّ هذا في قَضِيَّة مُعَيَّنَة؛ يعني: لو وَقَعَ شَيْء يَسْتَغْرِب الإِنْسَانُ وُقوعَهُ ويَسْتَبْعِدُه، فلنا أن نقول: إنَّ الله تعالى إذا شاء شيئًا فهو قادرٌ عليه؛ بمَعْنى أنَّه فاعِلُه كقَوْله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧] بخلاف القُدْرَة المُجَرَّدَة عن الفِعْل، فإنَّ هذه لا تُقَيَّد بالمَشيئَة.

وظاهِرُ الآيَةِ الكَريمَةِ أنَّ جميعَ المَلائِكَة رسلٌ، فهل هذا الظَّاهِرُ مُرادٌ؟

الجواب: غَيْرُ مُرَادٍ بدليلِ قَوْله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:٧٥].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ كَمالِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيْثُ أَثْنى على نَفْسِه بالحَمْدِ، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا، رقم (١٨٦)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ رحيمٌ بعبادِهِ يُعَلِّمُهم كيف يَحْمَدونَه؛ لأنَّ قَوْله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ خَبَرٌ، لكن معناها الإرشادُ والتَّوجيه؛ كما قال الله تعالى في آيَة أخرى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء:١١١].

ولهذا ذَهَبَ بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ إلى أنَّه كلَّما جاءت ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فهي على تَقْدير: (قل) حتى قالوا في قَوْله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] المَعْنى: (قل: الحَمْدُ لله).

ولكنَّ الصَّوابَ خلافُ ذلك، وأنَّ هذا خَبَرٌ من الله ونَحْنُ نَتْلوه نُثْنِي به على الله، ولا حاجَةَ إلى أنْ يَأْمُرَنا الله بذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِثْباتُ اسْمِ (الله) للرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ، وهذا الاسْمُ خاصٌّ به، لا يقال لغيره، وهو أَصْلُ الأَسْماءِ؛ ولذلك تأتي الأَسْماء بعده في الغالِبِ صِفَةً له، ولا تأتي سابِقَةً عليه إلا نادِرًا كما في قَوْلِه تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [إبراهيم:١-٢] وإلا فإنَّ الغالِبَ أنَّ الأَسْماء تأتي تابِعَةً له، فهو أصل الأَسْماءِ؛ ولهذا لا يُسَمَّى به غَيْره أبدًا لا عَلَمًا ولا صِفَةً بأيِّ حالٍ مِنَ الأَحْوالِ.

وهل هو مُشْتَقٌّ أو اسمٌ جامِدٌ؟

الصَّحِيح بلا شَكٍّ: أنَّه مُشْتَقٌّ؛ لأنَّ جَميعَ أَسْماء الله تعالى مُشْتَقَّة؛ بمَعْنى أنَّها دالَّةٌ على المعاني التي أُخِذَتْ منها؛ فهو مُشْتَقٌّ من الأُلُوهِيَّةِ؛ لأنَّ الاشتقاقاتِ تكونُ من المَصْدَرِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو فاطِرُ السَّمَواتِ والأَرْضِ لم يُشارِكْه أحدٌ في ذلك لِقَوْله تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: كَمـالُ قُدْرَته وحِكْمَتِـه؛ حيث ابتدأ خَلْقَ هذه السَّمَواتِ العَظيمَةِ وهذه الأَرْضِ على هذا النِّظامِ البَديعِ من غَيْرِ أن يَسْبِقَ مثالٌ يَحْتذيهُ ويَقْتَدي به، ومعلومٌ أنَّ مُبْدِعَ الصَّنْعَة يُشْهَدُ له بالخِبْرَة والقُدْرَة؛ لأنَّه أَنْشَأَ شيئًا جديدًا وصارَ هذا الشَّيْءُ الجَديدُ مُنْتَظِمًـا على تَمامِ الانْتِظامِ وغايَةِ الإِحْكامِ فإنَّه يُشْهَد له بالكمالِ والخِبْرَة، ففي كَوْنِه فاطِرَ السَّمَواتِ والأَرْضِ دليلٌ على القُدْرَةِ وعلى الحِكْمَةِ؛ لأنَّه خَلَقَهُما على غَيْرِ مثالٍ سَبَقَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ السَّمَواتِ مُتَعَدِّدةٌ، وقد بيَّنها الله تعالى في آيَةٍ أخرى أنَّها سَبْعٌ، وقال: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون:٨٦]، وأمَّا الأَرْض فذُكِرَت مفْرَدَةً باعتبارِ الجِنْسِ، وهي سَبْعُ أَرَضِيـنَ، والدليلُ من القُرْآنِ قَوْله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، ومن السُّنَّة: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١).

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات المَلائِكَةِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ من المَلائِكَة مَنِ اصْطَفاهُم الله تعالى رُسُلًا إلى الخَلْقِ بالوَحْيِ وغَيْرِ الوَحْيِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ هـؤلاء الرُّسُلَ لهم أجْنِـحَة مُتَعَدِّدَةُ الأَصْـنافِ ومُتَعَدِّدَةُ الأَعْيان، يعني أنَّها مُتَعَدِّدَةٌ كَمِّيَّةً وكَيْفِيَّةً؛ لِقَوْله تعالى: ﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ فيها إِشَارَةً إلى سُرْعَةِ تَنَقُّلِ المَلائِكَةِ لِقُوَّةِ أجْنِحَتِهم؛ لِقَوْله

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد ابن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعالى: ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ وإنَّما قُلْتُ: (لِقُوَّةِ أَجْنِحَتِهم)؛ لأنَّه لولا أنَّ لهذه الأجنحة مَزِيَّة عظيمَةً اسْتَحَقَّتْ أن يُنَصَّ عليها لذُكِرَ غَيْرُ الأَجْنِحَة كالرُّؤوسِ مثلًا، ولكنْ ذَكَرَ الأجنِحَةَ لما فيها من القُوَّة لحَمْلِها هؤلاء المَلائِكَةَ؛ ولأنَّها تكون عند الإِرْسالِ أَسْرَعَ، وقد ذكرنا مثالًا لذلك يدُلُّ على أنَّ المَلائِكَة أَسْرَعُ من غَيْرِها في الطَّيَران في قِصَّة عَرْشِ بِلْقِيسَ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يزيدُ على الاثنين والثَّلاثة والأَرْبَعة بما شاء؛ لِقَوْله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الله تعالى فضَّلَ المخلوقاتِ بَعْضَها على بعضٍ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ والزِّيادَةُ مُقابِلُها نَقْصٌ.

إذن: فهناك مُفاضَلَةٌ بين المَخْلوقاتِ بعضِها مع بعضٍ، ولكن هل المُرادُ القُوَّةُ أو كِبَرُ الجِسْمِ أو العقل أو العِلْم أو غَيْر ذلك؟

الجوابُ: العُمومُ؛ لأنَّه قال: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾ فهذا يزيدُهُ قوةً في الجِسْم، وهذا يزيدُهُ قوَّةً في العَقْلِ، وهذا يَزيدُهُ قُوَّةً في الطُّولِ، وهذا يزيده قوةً في العِلْم... إلخ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّك إذا وَجَدْتَ من نَفْسِك نَقْصًا في خَلْقِكَ فاطْلُبْ إكمالَهُ من الله؛ لأنَّ قَوْله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾ معناه: لا تَسْأَلِ الزِّيادَةَ في خَلْقٍ ولا خُلُقٍ إلا من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه هو المانُّ بما يزيد به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: إِثْباتُ المَشيئَةِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ وقد تَقَدَّمَ أنَّ المَشيئَةَ كلَّما وَرَدَتْ وَرَدَتْ معلَّقَةً بالحِكْمَةِ، واسْتَدْلَلْنا لذلك بِقَوْله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: إِثْباتُ القُدْرَةِ العامَّةِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادِرٌ على أن يَزيدَ في الخَلْقِ ما يشاء وقادِرٌ على الإيجادِ والإِعْدامِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: الرَّدُّ على القَدَرِيَّة الذين يزعمون أنَّ أفعالَ العَبْدِ غَيْرُ مَخْلوقةٍ ولا مقدورَةٍ لله؛ لِعُمومِ قَوْلِه تعالى: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وأَفْعالُ العَبْدِ من الأَشياءِ.

• • ۞ • •

الآيــة (٢)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر:٢].

﴿ مَّا ﴾ شَرْطِيَّةٌ تَجْزِمُ بدليلِ الفِعْلِ بعدها، ولكنَّ الفِعْلَ بعدها أمامنا مكسورٌ ﴿يَفْتَحِ﴾ فنقول: إنَّ هذه الكَسْرَة عارِضَةٌ من أجل تَوَقِّي الْتِقاءِ السَّاكِنَيْنِ، وإلا فإنَّها مَجْزومةٌ، وهذا كقَوْله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البيِّنَة:١] وأَصْلُها: (لم يَكونْ).

قَوْله تعالى: ﴿يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ فَتْحُ الشَّيْءِ: إزالَةُ الحَواجِزِ دونه؛ يعني: متى فتحْتَ البَيْتَ؛ يعني: أَزَلْتَ الحاجِزَ المانِعَ مِن دُخُولِهِ وهو البابُ، والرَّحْمَة إذا فُتِحَتْ فإنَّ الإِنْسَانَ يَدْخُل إليها ويَلِجُ فيها.

وَقَوْله تعالى: ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾: ﴿مِن﴾ بيانٌ لـ﴿ مَّا ﴾، و﴿ مَّا ﴾ شَرْطِيَّةٌ مُفيدَةٌ للْعُمومِ، وعلى هذا فيكونُ في الآيَةِ عُمومٌ؛ أي: أيُّ رَحْمةٍ يَفْتَحْها الله عَزَّوَجَلَّ للنَّاسِ فلا أَحَدَ يَسْتَطيعُ إِمْساكَها.

وَقَوْله تعالى: ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كَرِزْقٍ ومَطَرٍ]، وهذا على سبيلِ التَّمْثيلِ لا الحَصْر؛ لأنَّ رَحْمَة الله أَكْثَرُ من ذلك، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١٨] فرَحْمَة الله عَزَّوَجَلَّ لا تُحْصَى في أَنْواعِها فضلًا عن أَفْرادِها.

قَوْله تعالى: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: فلا أحد يُمْسِكُها، بل سَتَصِلُ إلى مَن فَتَحَها الله تعالى له، ولا يَرُدُّها أحد، كما جاء في الحديث الصَّحيح؛ أنَّ الرَّسُول ﷺ بعد أن يَرْفَعَ من الرُّكوعِ كان يقول: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»(١) ويقَوْلُهُ كذلك بعد الصَّلاة(٢)، وقال النَّبِيُّ ﷺ لعبد الله ابن عباس: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ...»(٣).

فلا أحد يَسْتَطِيعُ أن يُمْسِكَ رَحْمَةَ الله مهما عَمِلَ، حتى لو حاول الحَسَدَ والتَّشْوِيهَ ومَنْعَ الرِّزْق لا يَسْتَطِيعُ، إذا فتح الله الرَّحْمَة للعَبْدِ فلا أحد يَسْتَطِيعُ أن يَحُولَ بينه وبينها؛ ولهذا جاءتْ: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾.

و(لا): نافيةٌ للجِنْس، وهي أنَصُّ شَيْء على العُمومِ؛ ولهذا عُمومُ لا النافِيَةِ للجِنْسِ لا تَخْصيصَ فيه أَبَدًا.

والضَّميرُ في ﴿لَهَا﴾ يعود على الرَّحْمَةِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ لعلَّكَ تتوقَّع أن يكون نَصُّ الآيَة الكريمَةِ (وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهَا)؛ لأنَّ الكَلَام الآن في الرَّحْمَة وهو في الجُمْلَة الأولى قال: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ فيَقْتَضي أن تكون الجُمْلَةُ الثانية كالأُولى؛ أي: (وَمَا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، رقم (٤٧٨)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، وأخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١٦).

يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهَا) هكذا تتوقَّعُ، ولكن ليس الأمر كذلك.

لأنَّ قَوْله تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ لم يُخَصَّصْ بالرَّحْمَة حتى نَقولَ: إنَّ المُتَوَقَّع أن يقول: (فَلَا مُرْسِلَ لَهَا) بل قال: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ وحَذَفَ المُتَعَلَّق لِيُفيدَ العُمومَ؛ أي: (وما يُمْسِكْ من رَحْمَةٍ وما يُمْسِك من شَرٍّ فلا مرسل له) حتى الضَّرَر الذي يُمْسِكُه الله عَزَّوَجَلَّ لا أحد يرسله إليك، حتى الرَّحْمَة التي أَمْسَكَها الله عنك لا يُمْكِنُ أن يُرْسِلَها أحدٌ إليك.

ولهذا يسعى الإِنْسَانُ أحيانًا إلى ما يراه من رَحْمَةِ الله مِن رِزْقٍ أو غَيْرِه، ثم يَحُول القَدَرُ بينه وبينه، يتعَرَّضُ الإِنْسَان أحيانًا لأخطارٍ ولكن يَسْلَمُ منها، قد يَحْصُل للسَّيَّارة انقلابٌ أو تصادمٌ، فيموت أناسٌ أقوى مِنْكَ أجسامًا، وأقوى منك مَنَعَةً، وتبقى أنت.

إذن: أمسك الله عنك الضَّرَر، ولولا هذا الإِمْساكُ لَهَلَكْتَ فيمن هلك.

إذن نقول: (ما يُمْسِكْ فلا مُرْسِلَ له) أي: لِمَا أَمْسَكَهُ، فعاد الضَّميرُ في ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ على لفْظِ ﴿وَمَا﴾ ولفظ ﴿وَمَا﴾ مُذَكَّرٌ، بخلافه في الأَوَّل، فعاد على ﴿رَّحْمَةٍ﴾ لأنَّها مُؤَنَّث.

الآن تبيَّنَ لنا: أنَّ السِّياقَ على أَتَمِّ ما يكون من البلاغَةِ، وأنَّ ما كنا نتوقَّعُه من أن يقال: (فلا مُرْسِلَ لها) ليس على ما نتوقَّع؛ لأنَّ قَوْله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ لا يعني الرَّحْمَةَ، إذن هو عامٌّ؛ ولهذا نقول: إنَّ قَوْلَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وما يُمْسِكْ من ذلك] فيه قُصورٌ؛ لأنَّ قَوْله: (من ذلك) يعود إلى الرَّحْمَة، ولكن نقول: (وما يُمْسِكْ من ذلك وغَيْرِه).

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: بعد إِمْساكِهِ]، وهذا لا شكَّ

أنَّه احتمال، وأنَّه يُحْتَمَل أن يكون الضَّميرُ راجعًا إلى إمساك المُسْتَفادِ من قَوْله تعالى: ﴿يُمْسِكْ﴾.

فإذا قيل: هل لهذا نظير؛ أن يعودَ الضَّميرُ على المَصْدَر المفهومِ من الفِعْل قبله؛ لأنَّ مِنَ المعلومِ أنَّ مَرْجِعَ الضَّميرِ لا بُدَّ أن يكون اسْمًا مذكورًا مطابِقًا قبل أو بعد، أو مُقَدَّرًا، المُهِمُّ أنَّ مَرْجِعَ الضَّمير اسْمٌ، والاسْمُ إمَّا أن يُذْكَر بلفظه الصَّريحِ مقدَّمًا أو مُؤَخَّرًا أو مُقَدَّرًا، وإمَّا أن يُؤخَذَ من مصدرِ فعلٍ سابقٍ، هنا على كَلَام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: من بعد إمساكٍ؟

فالجوابُ: كَلِمَة (إمساك) سَبَقَتْ؛ لأن ﴿يُمْسِكْ﴾ فعل مَأْخوذٌ من (الإمساك).

إذن: فقد تضمَّنَ الفِعْلُ ذلك اللَّفْظَ وهو الإمساكُ، ونظيره قَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٨] ﴿هُوَ﴾؛ أي: العَدْلُ المَفْهومُ من قَوْلِه تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾.

والأَصْلُ في مَرْجِع الضَّمير أن يكون اسْمًا مذكورًا متقَدِّمًا مطابِقًا، وقد يتأَخَّرُ، وقد يُقدَّرُ، وقد يكون مفهومًا من مَصْدَرِ فِعْلٍ سابِقٍ، كما هو في قَوْله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ وكما في هذه الآيَة على تَقْديرِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وهل يُمْكِن أن يُحْتَمَل عَوْدُ الضَّميرِ على غَيْرِ (الإمساكِ)؟

الجواب: نعم، فيُحْتَمَلُ أن يعود على (الله) عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه قال: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ﴾ أي: من بعد الله، وتكون كقَوْله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:٢٣]، ويكونُ الضَّميرُ في قَوْله تعالى:

﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ عائِدًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا أَقْرَبُ؛ لأنَّها أدَلُّ على كمالِ التَّصَرُّف في حقِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَوْله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: الغالِبُ على أَمْرِه ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في فِعْلِه] وهذا التَّفْسيرُ من المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قاصِرٌ؛ لأنَّ قَوْله: [﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالِبُ على أمْرِه]، هذا أحَدُ معاني (العزيزِ)؛ فإن (العزيزَ) له ثلاثَةُ معانٍ: عِزَّةُ القَدْرِ، والقَهْرِ، والامْتِناعِ.

١- القَهْرُ وهو مَعْنى قَوْله: [الغالب على أَمْرِه]، ونقول: إنَّه يَشْمَلُ الغالِبَ على أمره الذي لا يُغلَب، وهذا هو القَهْرُ.

٢- ذو القَدْرِ الرَّفيعِ العالي، وهذا مَعْنى قَوْلنا: (عِزَّةُ القَدْر).

٣- أمَّا عِزَّةُ الامتناعِ؛ يعني: أنَّه يَمْتَنِع أن ينالَه سوءٌ أو نَقْصٌ أو عَيْبٌ.

فالعِزَّةُ إذن ثلاثةُ معانٍ، وليست معنًى واحدًا.

أما ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ فقال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في فِعْلِه]، وهذا أيضًا قصورٌ؛ لأنَّ الله حكيمٌ في فعله وَقَوْله، في قَدَرِه وشَرْعِه، في الكُلِّ، بل إنَّ الحكيمَ لها مَعْنًى آخرُ؛ لأنَّها مَأْخوذةٌ من الحُكم والإِحْكامِ، فهو ذو حُكمٍ وذو إحكامٍ، والحُكْمُ كَونيٌّ وشَرْعِيٌّ، والإحكامُ في الغاية أو في الصُّورَة التي عليها الشَّيْء، فالجميعُ أربعةُ أَنْواعٍ، ويَقْرِنُ الله تعالى دائمًا بين العِزَّةِ والحِكْمَةِ؛ لما في ذلك من كمال عِزَّتِه وحِكْمَتِه.

الآيـة (٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [فاطر:٣].

تصديرُ الخِطابِ بالنِّداءِ يدلُّ على الاهتمامِ به والعِنايَةِ به؛ لأنَّ النِّداءَ يتضَمَّنُ التَّنْبيهَ؛ ولهذا إذا قلْتَ للطَّالِبِ: (يا وَلَدُ) فإنَّه يَنْتَبِهُ، فتصديرُ الحُكْمِ بالنِّداء يدلُّ على العِنايَةِ به؛ لأنَّ النِّداءَ يُفيدُ التَّنْبيهَ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أَهْل مَكَّةَ].

وهذا بلا شَكٍّ قصورٌ؛ لأنَّ النَّاسَ عامٌّ، والواجِبُ علينا في القُرْآن والسُّنَّة أن نُبْقِيَ العامَّ على عُمومِه حتى يقومَ دليلٌ على إرادَة الخُصوصِ، وإلَّا فإنَّ الواجِبَ إبقاؤُهُ على عُمُومِهِ؛ لأنَّه ليس لنا الحَقُّ في أن نَتَصَرَّفَ في مدلولاتِ الأَلْفاظِ المُخالِفَة لظاهِرِها إلا بِدَليلٍ من المُتكَلِّم أو من يَتكَلَّم مبيِّنًا كَلَامَه؛ كالرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فالنِّداءُ إذن عامٌّ لجميعِ النَّاسِ.

قَوْله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ المُرادُ بالذِّكْرِ هنا ذِكْرُ النِّعْمَة بالقَلْبِ، وذِكْرُها باللِّسانِ، وذِكْرُها بالفِعْل (بالجوارِحِ).

فذِكْرُها بالقَلْبِ بأن يتأمَّلَ الإِنْسانُ، من أين أتـت هذه النِّعْمَة؟ ومَن الذي خلقه؟ ومن الذي أمَدَّهُ بالرِّزْق وهو في بَطْنِ أمِّه لم يَخْرُجْ بَعْدُ؟ ومن الذي أعَدَّه لقَبُولِ

ما يَمُرُّ به وتَصَوُّره وتَعَقُّله وتَنْفيذه؟

الجواب: الله، فأنت إذا تذكَّرْتَ في قلبك -ونَسْأَلُ الله أن يُعيذَنا وإيَّاكُم مِنَ الغَفْلَةِ- عَرَفْتَ أنَّ ما بكَ من نِعْمَة فهو مِن اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فيتأمَّلُ الإِنْسَانُ: يقول: مَنِ الذي أَوْجَدَني؟ من الذي أَمَدَّنِي بالنِّعَم وأنا في بطن أمي، ولا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أن يُوصِلَ إليه لُقْمَة العَيْشِ أو جَرْعَةَ الماء، ثم مَن الذي أعدَّني وهيَّأَني لأن أكونَ قابِلًا لِما فيه مَنْفَعَتِي في الدُّنْيا والآخِرَة؟

الجواب: الله عَزَّوَجَلَّ.

فالنِّعَم إيجادٌ وإمْدادٌ وإعدادٌ، وكُلُّ ذلك من الله عَزَّوَجَلَّ؛ هذا ذِكْرُها بالقلب.

وأمَّا ذِكْرُها باللِّسان أن يُثْنِيَ على الله بها ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] فيتَحَدَّثُ بالنِّعَم لا على سَبيلِ الافْتِخارِ، ولكنْ على سبيل الثَّناءِ.

ذِكْرُها بالجَوارِحِ أن يُرَى أَثَرُ هذه النِّعْمَة عليه، فإن كانت النِّعْمَةُ عِلْمًا رُؤِيَ أَثَرُ هذه النِّعْمَة عليه بِحُسْنِ التَّصَرُّف، والوَقارِ، والسَّكِينَة، والأَدَب، ونَشْر العِلْمِ، والدَّعْوَةِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، هذا مثال، وإذا كان بِمالٍ يُرَى أَثَرُ النِّعْمَة عليه بالإِنْفاقِ فيما يُحِبُّه الله عَزَّوَجَلَّ من الزَّكاةِ، والنَّفَقاتِ الواجِبَة، والصَّدَقاتِ المُسْتَحَبَّة، والثِّيابِ الجَميلَةِ، وما أَشْبَه ذلك: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدِهِ نِعْمَةً أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ»[1] هذا ذكرٌ بالجوارِحِ.

ومِن ذِكْر النِّعْمَة بالجَوارِحِ أيضًا أن يقوم بالشُّكْر، والله عَزَّوَجَلَّ أَمَرَنا بذِكْرِ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٤٣٨)، من حديث عمران بن الحصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والترمذي: كتاب الأدب، باب ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، رقم (٢٨١٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

نِعْمَتِه للغايَة؛ وهي كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢] ليس المُرَادُ أيضًا أن تَذْكُرَ النِّعْمَةَ فقط، بل لا بُدَّ من قَرْنِ هذا الذِّكْرِ بالشُّكْرِ.

فصار الذِّكْرُ يَشْمَلُ ثلاثَةَ أُمورٍ: الذِّكْر بالقَلْبِ، واللِّسانِ، والجوارِحِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: (نِعْمَةَ) مفردٌ مضاف، فيَشْمَلُ جميع النِّعَمِ، وهي كثيرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بِإِسْكانِكُمُ الحَرَمَ ومَنْعِ الغاراتِ عنكم] هذا التَّفْسيرُ بناءً على أنَّ المُخاطَبَ أَهْلُ مَكَّة، ولكن نقول: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالنِّعَمِ التي لا تُحْصَى، وهي كثيرةٌ جدًّا كما أَسْلَفْنا الأَمْثِلَة عليها، فتكونُ نِعْمَةً بالإيجادِ والإِمْدادِ والإِعْدادِ، كلُّ هذه مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ.

قَوْله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يعني: إذا تَقَرَّرَ أنْ شَكَرْتُم نِعْمَةَ الله عليكم فإنَّنا نُوَجِّهُ إليكم هذا السُّؤالَ المُتَضَمِّنَ للنَّفْيِ.

قال: [﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ﴾: ﴿مِنْ﴾ زائِدَةٌ، و﴿خَٰلِقٍ﴾: مُبْتَدَأ، ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ بالرَّفْعِ والجَرِّ نعتٌ لـ﴿خَٰلِقٍ﴾ لفظًا ومَحَلًّا، وخَبَرُ المُبْتَدَأ ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾].

﴿هَلْ﴾: حرفٌ فهي أداة اسْتِفْهام.

و﴿مِنْ﴾ زائِدَةٌ زائِدَة، وكيف (زائِدَةٌ زائِدَة)؟ أي: زائِدَةٌ لَفْظًا زائِدَةٌ للمَعْنى؛ لأنَّها تُفيدُ توكيدَ النَّفْيِ والتَّنْصِيصَ على الأُمُور، و﴿خَٰلِقٍ﴾ إذن مُبْتَدَأ مرفوع بضَمَّةٍ مُقَدَّرَة على آخِرِه مَنَعَ من ظُهورِها اشْتِغالُ المَحَلِّ بحركَةِ حَرْفِ الجَرِّ الزَّائِد.

و﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ فيه قراءتان (غَيْرُ) و(غَيْرِ)، وكلاهُما صحيحٌ، أمَّا على قِراءَة الجَرِّ (غيرِ الله) فهي صِفَةٌ تابعةٌ لِلَفْظِ ﴿خَٰلِقٍ﴾ لأنَّ ﴿خَٰلِقٍ﴾ مَجْرورٌ، وأمَّا على قِراءَة الرَّفْعِ فهي صِفَةٌ تابعةٌ لِمَحَلِّ ﴿خَٰلِقٍ﴾؛ لأنَّ محلَّه الرَّفْع على الابْتِداء.

ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالرَّفْعِ والجَرِّ نعتٌ لخالِقٍ لفظًا ومحَلًّا] في كَلَام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لفٌّ ونشرٌ مُشَوَّش، ونقول: (غيْرُ مُرَتَّبٍ) إذا صار في القُرْآن أو في الحديثِ، أمَّا في كَلَامِ النَّاسِ فنقول: (مُشَوَّش).

فهو (بالرَّفْع والجَرِّ نَعْتٌ لخالِق) لو كان مُرَتَّبًا لقال: (نَعْتٌ لخالقٍ محلًّا)؛ لأنَّه بالرَّفْعِ يكون نعتًا للمَحَلِّ، وبالجَرِّ يكون نعتًا للَّفْظ.

وعلى كُلِّ حالٍ: ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ فيها قراءتان، ولكلٍّ منهما وجْهٌ في اللُّغَة العَرَبِيَّة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَوْله[﴿يَرْزُقُكُم﴾: خَبَرُ المُبْتَدَأ] هل الفِعْلُ نَفْسُه خَبَرُ المُبْتَدَأ أو الجُمْلَة؟

الجواب: الجُمْلَة، لكنَّهُم عند الإعْراب يتساهَلونَ فمثلًا يقول: (فلانٌ في المَسْجِد) يقولُ: (في المسجد): جارٌّ ومَجْرورٌ خَبَرُ المُبْتَدَأ.

قَوْله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ﴾ اسْتِفْهامٌ بمَعْنى النَّفْي، وقد ذَكَرْنا سابقًا أنَّ الاسْتِفْهامَ إذا كان بمَعْنى النَّفْي فإنَّه مُشْرَبٌ مَعْنى التَّحَدِّي؛ يعني: لو قال: (لا خَالِقَ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ) استقامَ الكَلَامُ، لكن إذا قال: (هل من خالِقٍ) صار أَبْلَغَ؛ لأنَّه يَتَضَمَّن النَّفْيَ والتَّحَدِّيَ، كأنَّه يقول: (أروني خالِقًا غَيْرَ الله يَرْزُقُكم من السَّماء والأَرْض) كما قال الله تعالى في آيَةٍ أخرى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:٤٠].

وَقَوْله تعالى: ﴿خَٰلِقٍ﴾ الخَلْقُ في اللُّغَةِ: التَّقْديرُ، ومنه قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَلأَنْـــتَ تَفْـــرِي مَـــا خَلَقْـــتَ وَبَعْضُ النَّاسِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْـرِي[1]

فَقَوْله: (تَفْرِي مَا خَلَقْتَ)؛ يعني: ما قدَّرْتَ، ولكنه يُطْلَقُ على الإيجادِ المَسْبوقِ بتَقْديرٍ، فهنا ﴿خَٰلِقٍ﴾ بمَعْنى مُوجِدٍ إيجادًا مَسْبوقًا بتَقْديرٍ، وَقَوْله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟

الجواب: لا، لا خالِقَ غَيْرُ الله يَرْزُقُنا من السَّماء والأَرْضِ، وقد سبق لنا مِرارًا على نَفْيِ الخَلْقِ عمَّا سِوى الله، وقلنا: إنَّه قد جاءت نُصُوصٌ تَدُلُّ على أنَّ غَيْرَ الله يَخْلُق.

وأَجَبْنا على ذلك بأنَّ خَلْقَ غَيْرِ الله ليس إيجادًا، ولكنه تَحْويلٌ من صُورَةٍ إلى صورَةٍ، وأيضًا ليس عامًّا، وكذلك خَلْقُ غَيْرِ اللهِ هو مِنْ خَلْقِ اللهِ في الواقِعِ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦] حتى لو أَتَنِي الذي خلَقْتُ هـذا الشَّيْءَ يعـني: أَوْجَدْتُه؛ بمَعْنى: غَيَّرْتُه من حالٍ إلى حالٍ، فإنَّ فِعْلي هذا مخلوقٌ لله عَزَّوَجَلَّ، فعليه نقول: إنَّ الخالِقَ الحَقيقِيَّ هو الله.

وَقَوْله تعالى: ﴿يَرْزُقُكُم﴾ بمَعْنى يُعْطيكُم؛ لأنَّ الرِّزْق بمَعْنى العَطاءِ؛ كما في قَوْلِه تعالى: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء:٨].

قَوْله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فسَّرَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرِّزْقَ من السَّماءِ بالمَطَرِ، وهذا لا شكَّ أنَّه داخِلٌ فيه؛ فإنَّ المَطَرَ من الرِّزْق النَّازِل من السَّماءِ، وهل هناك رِزْقٌ غَيْرُه يَنْزِلُ من السَّماء؟

نعم، الوَحْيُ وهو رِزْقٌ مَعْنَوِيٌّ.

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، انظر: ديوانه (ص٣٢).

ولماذا لا نقول: الطُّيُور مطلقًا؛ كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ [النحل:٧٩] فهي تَنْزِلُ من السَّماء وهي رِزْقٌ للعِبادِ أيضًا؟

والجوابُ: هي رِزْقٌ من الأَرْضِ ومِنَ السَّماء.

ويُمْكِن أن نقول: إنَّ الطَّلَّ مِنَ الرِّزْقِ الذي هو المَطَر (الرُّطوبَة)، وهي من السَّماء أيضًا وهي رِزْقٌ؛ لأنَّها تَنْفَعُ الأَشْجار.

قَوْله: [﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ ومِن (الْأَرْضِ)] قدَّرَ ﴿مِّنَ﴾ إِشَارَةً إلى أن (الأَرْضَ) معطوفةٌ على السَّماء.

قَوْله: [﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ المَطَرَ، ومِنَ (الْأَرْضِ) النَّباتَ]، وهذا صحيح، لكنه قاصِرٌ؛ لأنَّ الرِّزْقَ من الأَرْض أكْثَرُ من النَّباتِ، فالرِّزْق من الأَرْض يَشْمَلُ النَّباتَ والمَعادِنَ، والمياه؛ وغيْرُ ذلكَ كَثْيرٌ من الأَرْضِ.

وَقَوْله: [والاسْتِفْهامُ للتَّقْريرِ؛ أي: لا خالِقَ رازِقٌ غَيْرُه] قَوْله: [للتَّقْريرِ] ثم قال: أي: [لا خالِقَ] هذا شِبْهُ تناقُضٍ؛ لأنَّ قَوْله: [لا خالِقَ] يقتضي أن يكون معناه النَّفْيَ، وهو كذلك، فهو للنَّفْيِ المُشْرَبِ بالتَّحَدِّي، وأنَّه لا خالِقَ إلا الله، وإذا كان لا خالِقَ إلا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنَّ الواجِبَ أن نعبد الله وَحْدَه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة:١٦٣]؛ أي: (لا معبود حقٌّ إلا هو)، وكيف تعلمونَ أنَّه لا رازِقَ يَرْزُقُنا من السَّماء والأَرْض إلا اللهُ، ثم تذهبون فتَعْبدونَ غَيْره؟! هل هذا إلا نَقْصٌ في التَّصَوُّر، ونقصٌ في العَقْلِ أيضًا والتَّصَرُّفِ؟! فهو نَقْصٌ في التَّصَوُّر والعقل والتَّصَرُّف.

فإذا كان لا رازِقَ إلا اللهُ كيف تَعْبُد اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ وهُبَلَ، والأَشْجارَ

والأَحْجارَ، والشَّمْس والقَمَر، والبَقَر أيضًا، فيوجَدُ أناسٌ يَعْبدونَ البَقَرَ، وأنَّه إذا مَرَّتِ البَقَرَة على طريقِ القِطارِ الحَديدِ فإنَّه يجب أن يَقِفَ ولو تكَسَّرَ كلُّ مَن فيه، وطبعًا القطارُ يَمْشِي بِسُرْعَة إذا وقف تصادَمَتِ الأقراص، ومات مَنْ فيها، أو تكَسَّر، ومع ذلك يقول هؤلاء يجب أن تَقِفَ؛ لأنَّ هذه إله، أو أن تَدْخُل دكَّانه وتأكُلَ ما شاءت وتَدَعَ ما شاءت!

هل هذه عُقُولٌ؟! الجواب: لَيْسَت عُقُولًا، وكانوا في الجاهِلِيَّة يصنعون آلِهَة من التَّمْر، فإذا جاعوا أَكَلوها، أكلوا الإِله، فإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ هو الرَّازِقَ وَحْدَه بإقْرارِكُم واعْتِرافِكُم فيجب أن يكون هو المَعْبودَ وَحْدَه؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة:١٦٣].

وأمَّا إِعْرابُ هذه الجُمْلَةِ العَظيمَةِ التي بها يَدْخُل الإِنْسَانُ في الإِسْلام أو يَخْرُج؛ يَدْخُل إن نَطَقَ بها، ويَخْرُج إن أَنْكَرَها.

فإِعْرابُها فيه سِتَّةُ أَوْجُهٍ للنَّحْوِيِّينَ، وألَّفَ بَعْضُ العُلَماءِ رسالَةً في ذلك، ولكن أَحْسَنُ ما يُقالُ في إِعْرابها أنَّ: (لا): نافِيَةٌ للجِنْسِ، و(إلَه): اسْمُهَا، وخَبَرُها مَحْذُوفٌ تَقْديرُهُ: (حَقٌّ)؛ أي: لا إِلَه حَقٌّ و(إلا): أداة استثناء، و(الله): بدلٌ من الخَبَرِ المَحْذوفِ.

وهل النَّفْيُ هنا مُسَلَّطٌ على (الوجود) أو على الوجود بِحَقٍّ؟

الجواب: (على الوُجودِ بِحَقٍّ)؛ لأنَّ هناك آلِهَةً دون الله تُعْبَدُ، لكن لَيْسَتْ بِحَقٍّ، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الشعراء:٢١٣]، وقال: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [هود:١٠١]، فالآلِهَة موجودَةٌ، لكنَّها لا تَسْتَحِقُّ أن تكون آلهةً؛ إذ ليس لها رُبوبِيَّة.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ من أَيْنَ تُصْرَفون عن تَوْحيدِهِ مع إقرارِكُم بأنَّه الخالِقُ الرَّازِقُ؟] لو قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عن عِبادَتِه) لكان أحسَنَ؛ لأنَّ (لا إله إلا هو) تَوْحيدُ أُلُوهِيَّة، وليس تَوْحيدَ رُبوبِيَّة، وكَلِمَةُ تَوْحيدٍ تَشْمَل الرُّبوبِيَّةَ أيضًا، فلو قال: (فأَنَّى تُصْرَفون عن عبادَتِه وَحْدَه مع إقرارِكُم أنَّه الخالِقُ وَحْدَه) لكان أَحْسَنَ.

وَقَوْله تعالى: ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ قال: أي: [تُصْرَفون]، فـ(الأَفْكُ) بمَعْنى الصَّرْف، ماضيه (أَفَكَ) ومُضارِعُه: (يَأْفِكُ أَفْكًا) أمَّا الإِفْكُ بالكَسْرِ فهو الكَذِبُ.

والكَذِبُ -في الواقِع- يَتَّفِقُ مع (الأَفْكِ) من حيث المَعْنى؛ لأنَّ الكَذِب هو الإخبارُ بِخلافِ الوَاقِعِ، فهو صَرْفٌ للشَّيْء عن حَقيقَتِه، قال الله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات:٩]؛ أي: يُصْرَفُ عَنْهُ من صُرِفَ.

إِذَن: ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ أي: تُصْرَفونَ عن عِبادَتِه وَحْدَه مع إقرارِكُم بأنَّه الخالِقُ وَحْدَه.

والاسْتِفْهامُ في قَوْله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ الاسْتِفْهامُ للتَّوْبيخِ والتَّقْريعِ، يعني: كيفَ تُقِرُّونَ بأنَّه الخالِقُ وَحْدَه ثم تَعْبدونَ معه غَيْرَهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجُوب ذِكْرِ نِعْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ بالقَلْبِ واللِّسانِ والجوارِحِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَهَمِّيَّة ذِكْر النِّعْمَة؛ لأنَّها صُدِّرَت بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا يدُلُّ على الأَهَمِّيَّة؛ لأنَّ ما صُدِّرَ بالنِّداءِ معناه تَنْبيهُ المُخاطَبِ على الاسْتِماعِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بالشَّرائِعِ، وهذا مَأْخوذٌ من قَوْلِه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فكما يَجِبُ على المُسْلِم أن يَذْكُرَ نِعْمَة الله يَجِبُ على الكافِرِ أيضًا أن يَذْكُر نِعْمَةَ الله، وبناءً عليه فإنَّه يُعاقَب على عَدَمِ ذِكْر النِّعْمَةِ في الآخِرَة، وقد يُعاقَبُ عليه أيضًا في الدُّنْيا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بيانُ فَضْلِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عبادِهِ بالنِّعَم؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١] وليس نِعْمَةً فقط، ولكنَّها جنس، فيشمل جميعَ ما أَنْعَم الله علينا من نِعَمِ الدِّينِ والدُّنْيا سواءٌ عادت إلى البَدَنِ، أو العَقْل، أو العِرْض، أو المال.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه لا خالِقَ إلا اللهُ بدليل قَوْله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ ووَجْهُ ذلك أنَّ الاسْتِفْهامَ هنا بمَعْنى النَّفْي، كأنَّه قال: (لا خالِقَ إلا اللهُ).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الرِّزْقَ يأتي الإِنْسَانَ من فوق ومن تَحْت، مِنَ السَّماء والأَرْض؛ كما قال تعالى: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيَانُ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ له الإيجادُ والإعدادُ والإمدادُ؛ فالإمدادُ مَأْخوذٌ من قَوْلِه تعالى: ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ الرِّزْقَ إمدادٌ للإِنْسَانِ، والإيجادُ مَأْخوذٌ من قَوْلِه تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ وأمَّا الإعدادُ فقد أعَدَّنا الله لِقَبُولِ الحَقِّ، فإذا كان اللهُ أَعَدَّكُم لهذا القَبُول والاسْتِدْلال بالأَدِلَّة على مَدْلولاتِها، فأنَّى تُؤْفَكونَ عنها؟

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الإقرارَ بتَوْحيدِ الرُّبوبِيَّةِ يَسْتَلْزِمُ الإقْرارَ بتَوْحيدِ الأُلُوهِيَّة، وهذا مَأْخوذٌ من قَوْلِه تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ فكما أنَّه هو الخالِقُ وَحْدَه فيجب أن يكون هو المَعْبودَ وَحْدَه؛ ولهذا نقولُ: تَوْحيدُ الأُلُوهِيَّة يَتَضَمَّن تَوْحيدَ الرُّبوبِيَّةِ

والأَسْماءِ والصِّفاتِ؛ لأنَّه لا يُعْبَدُ إلا من عُلِمَ بأنَّه الرَّبُّ الخالِقُ الكامِلُ في صفاته، وتَوْحيدُ الرُّبوبِيَّة يَسْتَلْزِم تَوْحيدَ الأُلُوهِيَّة وتَوْحيدَ الأَسْماءِ والصِّفاتِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بُطلانُ أُلُوهِيَّةِ ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا مَأْخوذٌ من قَوْلِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لكنْ كيف تَجْمَعُ بين هذا النَّفْيِ وبين إثباتِ الآلِهَة لغير الله في قَوْله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ [هود:١٠١]؟

الجواب: أنَّ الأُلُوهِيَّةَ الحَقَّ ليسَتْ إلا لله، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: سَفاهَةُ أولئكَ القَوْمِ الذين يَعْبُدونَ مع الله غَيْرَه مع إِقْرارِهِم بأنَّه هو الخالِقُ الرَّازِقُ، وهذا مَأْخوذٌ من قَوْلِه تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ لأنَّ الاسْتِفْهامَ هنا بمَعْنى الإنكارِ والتَّوْبيخ.

• • ۞ • •

الآيــة (٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٤].

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا مُحَمَّدُ في مَجيئِكَ بالتَّوْحيدِ والبَعْثِ، والحِسابِ والعقابِ، ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾].

قَوْله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾: (إنْ) هنا شَرْطِيَّةٌ، وفِعْلُ الشَّرْط ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾ وجوابه ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ﴾ واقْتَرَن بالفاء؛ لأنَّه مُصَدَّرٌ بـ(قد).

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ أي: يَنْسِبوكَ إلى الكَذِب، فيقولون: إنَّكَ كاذِبٌ، لست رسولًا مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ، بل أنت ساحِـرٌ ومَجْنونٌ وكاهِنٌ وشاعِرٌ وما أشبه ذلك، وبَعْضُهم يقول: لا بَعْثَ ولا جزاءَ ولا حِسابَ ولا عِقابَ، إن كَذَّبوك فهذا أمرٌ ليس بِبِدْعٍ مِن بني آدم وليس غريبًا من صنيعِ بني آدَمَ.

﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ مَنْ كَذَّبَهُم؟ كَذَّبَهُم أَقْوامُهُم حتى قال الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ والرَّجُلان، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ**»[1] حتى إنَّ نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَبِثَ في قَوْمِه أَلْفَ سنةٍ إلا خَمْسينَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، رقم (٦٥٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢٢٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

عامًا يَدْعوهُم سرًّا وجَهْرًا، وبالتَّوْبيخِ وبالوعد، ومع ذلك ما آمَنَ معه إلا قليلٌ.

وَقَوْله تعالى: ﴿رُسُلٌ﴾ التَّنْكيرُ هنا للتَّكْثيرِ والتَّعْظيم؛ أي: رُسُلٌ كثيرةٌ ورُسُلٌ عَظيمَة أيضًا كُذِّبَت؛ كُذِّبَ نوحٌ، وكُذِّبَ إبراهيمُ، وكُذِّبَ مُوسى، وكُذِّب عيسى، وهؤلاء هم أولو العَزْمِ من الرُّسُل، وآخِرُ الرُّسُلِ كُذِّبوا، فتكْذيبُكَ إِذَن ليس بِبِدْعٍ.

ويُرادُ بهذا تَسْلِيَة النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإنَّ الإِنْسانَ إذا عَلِمَ أنَّ غَيْره أُصيبَ بِمِثْل مُصيبَتِه تسلَّى بذلك؛ لو أنَّ أَحَدًا أصيب بحادِثٍ، ثم رَأَيْنا الحوادِثَ فيها من انْكَسَرَتْ يَدُه، ومن انْكَسَرَتْ أُصْبُعُه، ومن انْكَسَرَ فَخِذُه، ومن انكسر صُلْبُه، فقام الذي انْكَسَرَتْ أُصْبُعُه يَصيحُ ويَتَضَجَّر، قلنا له: فلان انكسر صُلْبُه، فيَخِفُّ عليه الألَمُ وينساه؛ لأن تَسَلِّيَ النَّفْس بالغَيْرِ له أثرٌ عظيمٌ، قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٩]، فاشْتِراكُكُم في العذاب لن يُخَفِّفَ عنكم كما هو الشَّأْن في حال النَّاسِ في الدُّنْيا، وقالت الخَنْساءُ تَرْثي أخاها صَخْرًا[1]:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أُسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

قالتْ: (أُسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي) أقول: هذه مات أخوها، وهذه مات أخوها، وهذه مات أخوها، فأَنتِ وغيرُكِ سواءٌ.

قَوْله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ هنا الجارُّ والمَجْرورُ مُتَعَلِّق بـ﴿تُرْجَعُ﴾ وقُدِّم لإفادَةِ الحَصْرِ؛ يعني: إلى الله لا غَيْرِهِ تُرْجَع الأُمُور، وقد يقال: إنَّه قُدِّمَ أيضًا لفائِدَةٍ

(١) ديوان الخنساء، ط. دار المعرفة (ص:٧٢)، الكامل للمبرد (١/ ١٦).

لَفْظِيَّةٍ وهي مراعاةُ الفواصِلِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُرْجَعُ الأُمُورُ في الآخِرَة فيُجازِي المُكَذِّبين ويَنْصُرُ المُرْسَلينَ] وهذا أيضًا من القُصُور؛ لأنَّ الأُمُورَ تُرْجَعُ إليه في الآخِرَة وفي الدُّنْيا أيضًا، فإنَّ الله يَنْصُرُ المُرْسَلين في الدُّنْيا ويُعاقِبُ المُكَذِّبين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]

إِذَن: قَوْله تعالى: ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ هذا عامٌّ في أُمُور الدُّنْيا والآخِرَة، وأُمُورِ الشَّرْع وأُمُورِ القَدَر، فكلُّ الأُمُورِ تُرجَع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، هو الأَوَّلُ والآخِرُ، منه المُبْتَدَى وإليه المُنْتَهَى، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، قال ابْنُ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «مَنْ كَانَ لَهُ شَيءٌ فَلْيَأْتِ بِهِ؛ لأَنَّ الله يَقُولُ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾» وماذا يبقى؟ إذا كان الخلق -وهو الإيجاد- لله، والأمر في التَّصَرُّف والتَّصَرُّف لله ماذا بقي لنا؟ ما بَقِيَ شَيْءٌ.

ولهذا لم يبقَ شَيْءٌ في الدُّنْيا والآخِرَة لأَحَدٍ أبدًا، فالأُمُورُ كُلُّها لله.

والأُمُورُ هنا جَمْعُ (أَمْر) بمَعْنى الشَّأْن؛ أي: شُؤُونُ الدُّنْيا والآخِرَة والشُّؤون القَدَرِيَّة والشَّرْعِيَّة؛ كلُّها تُرْجَع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إذا كانت تُرْجَع إلى الله وقد كُذِّبَت الرُّسُلُ، فما مصيرُ الرُّسُلِ والمُكَذِّبينَ؟

الجواب: مصيرُ الرُّسُلِ النَّصْرُ في الدُّنْيا والآخِرَة، ومَصيرُ المُكَذِّبينَ الخِذْلانُ والخِزْيُ والعارُ في الدُّنْيا وفي الآخِرَة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ تَكْذيبَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس ببِدْعٍ؛ فالرُّسُلُ قد كُذِّبَتْ من قبله، وهذا واضِحٌ من اللَّفْظ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ عِنايَةِ الله عَزَّوَجَلَّ بِرَسولِه ﷺ، وهـذا مَأْخوذٌ من أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سلَّى رسولَهُ بِذِكْر من كُذِّبَ مِن قَبْلِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ سُنَنَ الله تعالى في خَلْقِه واحِدَةٌ؛ لأنَّه أَهْلَكَ من كَذَّبوا الرُّسُل وهَدَّد من كذَّبوا مُحَمَّدًا ﷺ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ مُحَمَّدًا رسولُ الله؛ لأنَّه قال: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ يعني: أنت رسولٌ وهم رُسُلٌ، ولولا ذلك لم يكن لِقَوْله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ فائِدَةٌ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ مرْجِعَ الأُمُور والشُّؤونِ كُلِّها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ ووجه اختصاصِ هذا بالله تقديمُ المعمول؛ فتَقْديمُ المَعْمولِ يُفيدُ الحَصْرَ، إذَن: إلى الله لا إلى غَيْره تُرْجَع الأُمُور.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّه يَنْبَغي للإِنْسَان إذا أصابَتْه الضَّرَّاء أن يَرْجِعَ إلى رَبِّه وأن يتعَلَّقَ به فإذا كانت الأُمُور تُرْجَعُ إلى الله فليَكُنْ طَلَبُ إزالَةِ الضَّرَر من الله.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: وجوبُ تَحْكيمِ الكِتابِ والسُّنَّة، وأنَّه لا يَجوزُ العُدولُ عمَّا دَلَّ عليه الكِتابُ والسُّنَّة؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ لأنَّ الأُمُورَ والشُّؤونَ تُرجَع إلى الله، ومنها الحُكْمُ بين النَّاس، فيجب أن يكونَ مَرْجِعُه إلى الله.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ من حَكَّمَ غَيْرَ الكِتَاب والسُّنَّة فقد اعْتَدَى على حَقِّ الله؛ لأنَّ الله قال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إليه وَحْدَه ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّه لا يجوز للإِنْسَان أن يُسْنِدَ ما رَزَقَه الله مِن رِزْق، سواءٌ كان علمًا أم مالًا أم جاهًا أم ولدًا أم زَوْجَة، إلى نَفْسِه، فيقول: إنَّما أوتِيتُه على عِلْمٍ عندي؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إِثْباتُ نِعْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ على العبادِ بِإِرْسالِ الرُّسُلِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ وإِرْسالُ الرُّسُلِ من أَكْبَرِ النِّعَمِ؛ لأَنَّنا لا نَسْتَطيعُ أن نَعْرِف كيف نَعْبُدُ اللهَ إلا عن طريق الرُّسُلِ، فالإِنْسَانُ يَعْرِف مثلًا بِفِطْرَتِه أَنَّ الله تعالى موجودٌ، وأَنَّ له ربًّا خالِقًا مدبِّرًا، لكن لا يَعْرِف كيف يَصِلُ إلى هـذا الرَّبِّ إلا من طريـق الرُّسُلِ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إِثْباتُ حِكْمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حيث جعل للرُّسُل من يُكَذِّبُهم؛ لأَنَّه لولا تَكْذيبُهُم ما حصل الامْتِحانُ، فهذه من الحِكَم العَظيمَة؛ أن يَجْعَل الله للرُّسُلِ من يُكَذِّبُهم، فلولا تَكْذيبُهُم لم يَحْصُلِ الامتحان؛ إذ لو كان النَّاسُ كُلُّهُم على الطَّاعَة ما تَمَيَّز الخَبيثُ من الطَّيِّب ولا تَبَيَّن المُؤْمِنُ من الكافِرِ، ولا قامَتِ سوقُ الجهادِ، ولا الأَمْرُ بالمعروفِ، ولا النَّهْيُ عن المُنْكَر؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [مُحَمَّد:٤].

فهذه من الحِكْمَة في وجودِ المُكَذِّبين للرُّسُلِ، وهناك حِكَمٌ كثيرة؛ منها أيضًا: أَنَّه لا يَتَبَيَّنُ الحَقُّ حتى يُعْرَفَ الباطِلُ كما قيل[1]:

..... وَبِضِـــدِّهَا تَتَبَـــيَّنُ الأَشْـــيَاءُ

فلولا الباطِلُ الذي يُنازِعُ الحَقَّ ما عَرَفوا الحَقَّ، ولكان الكُلُّ سواءً، ولا نَعْرِفُ حقًّا من باطِلٍ.

• • ۞ • •

(١) انظر: ديوان المتنبي (ص١٢٧).

الآيــة (٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [فاطر:٥].

النِّداءُ هنا مُوَجَّهٌ لعمومِ النَّاسِ؛ لكُلِّ النَّاسِ المُؤْمِنِ والكافِرِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بالبَعْثِ وغَيْرِه] وصَدَقَ، فكُلُّ ما وَعَدَ الله به فإنَّه حَقٌّ، سواءٌ البَعْثُ، أو العِقابُ، أو الثَّواب، أو النَّصْر، أو الخِذْلان، أو غَيْر ذلك مِمَّا وَعَدَ الله به، فإنَّه حقٌّ.

و﴿حَقّٞ﴾ هنا بمَعْنى صِدْق وثابِت، فهو باعتبارِ الإِخْبارِ به صِدْقٌ، وأنَّه سيكونُ، وباعْتِبارِ وُقوعِهِ ثابِتٌ، ولا بُدَّ؛ فالحَقُّ هنا بمَعْنى الصَّادِق من حيثُ الخَبَرُ به، الواقِع من حيثُ ثُبوتُه، وأنَّه أمرٌ كائِنٌ لا محالَةَ، فليس وَعْدُ الله عَزَّوَجَلَّ كوَعْدِ غَيْرِه.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ عن الإيمان بذلك] ﴿تَغُرَّنَّكُمُ﴾ والنَّهْيُ هنا مؤكَّدٌ بالنُّونِ: ﴿تَغُرَّنَّكُمُ﴾، بدون النون: (تَغُرَّكُمْ)؛ أي: تَخْدَعَنَّكم، وهذا مُفَرَّعٌ على ما قبله؛ لأنَّ الإِنْسَانَ الذي تَخْدَعُه الدُّنْيا يكون إيمانُه بِوَعْدِ الله تعالى ضعيفًا؛ إذ إنَّ الدُّنْيا تُلْهيه وتَخْدَعُه حتى يَنْجَرِف وراءها.

وَقَوْله تعالى: ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ لا شَكَّ أنَّنا في حياةٍ، وضِدُّها المَوْتُ، و(دنيا): اسْمُ تَفْضيلٍ، مذكَّرُه (أَدْنى) مثل: عُلْيا وأَعْلى، سُمِّيَتْ دُنْيا من وَجْهَيْنِ:

الأَوَّلُ: أنَّها مُتَقَدِّمَة عن الآخِرَة، فهي أَدْنى إلى النَّاسِ مِنَ الآخِرَة؛ ولهذا تُسَمَّى الحالَ الأُولى.

الثاني: وسُمِّيَتْ دنيا أيضًا من دُنُوِّ مَرْتَبَتِها.

فهي دانيةٌ بمَعْنى قَرِيبةٍ؛ لأنَّها هي الأُولى، وهي دانيةٌ بمَعْنى دُنُوِّ المَرْتَبَة؛ لأنَّ ما فيها من النَّعيمِ -إنْ قُدِّرَ- فإنَّه مُنَغَّصٌ تَنْغِيصًا مُسْتَقْبَلًا أو تَنْغِيصًا حاضِرًا؛ تَنْغيصًا حاضِرًا؛ لأنَّ نَفْسَ النَّعيمِ الذي تُنَعَّمُ به في الدُّنْيا لا بُدَّ أن يُشابَ بِكَدَرٍ؛ كما قال الشاعر:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا ... وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرْ[1]

وهذا لو تَأَمَّلْتَه لوَجَدْتَه كذلك، كلَّ يومٍ في أُسْبوعٍ ناظِرْ نَفْسَكَ؛ يومٌ تكونُ فَرِحًا مسرورًا، ويَوْمٌ تَغْتَمُّ، ويوم تأتيكَ أَشْياءُ خارِجِيَّة تُفْرِحُك، ويوم آخَرُ بالعَكْس، ثم لو قُدِّرَ أنَّ صَفْوَها خلا من ذلك؛ يعني: لم يُشَبْ بأذًى، فإنَّ المُسْتَقْبَل يُنَغِّصُ عليك هذا الصَّفاءَ؛ كما قال الشاعر:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً ... لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ المَوْتِ وَالهَرَمِ[2]

فلا بُدَّ من أَحَدِ أَمْرَيْنِ: إمَّا مَوْتٌ عاجِلٌ، وإمَّا هَرَمٌ مُذْهِبٌ.

فالإِنْسَانُ إذا قُدِّرَ أنَّ الله تعالى مَدَّ له في العُمُر فإنَّه يَرْجِعُ إلى حاله الأولى؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [النحل:٧٠] يَرْجِع إلى حاله الأولى يَسْقُط

---

(١) البيت للنمر بن تولب، انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٨٦)، وشرح الكافية الشافية لابن مالك (١/ ٣٤٦).

(٢) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٣٩)، شرح ابن عقيل (١/ ٢٧٤)، همع الهوامع (١/ ٤٢٨).

تَمْيِيزُه، ويكون أَشَدَّ من الصَّبِيِّ؛ يعني: كونه عالَةً على غَيْره أَشَدُّ من كَوْنِ الصَّبِيِّ عالَةً على غَيْرِهِ؛ لأنَّ الصَّبِيَّ ليس عنده عَقْلٌ وتَمْيِيزٌ، غايَةُ ما هنالِكَ أنَّه يصيحُ، وإن أُعْطِيَ شيئًا لَعِبَ به وسَكَتَ، لكنَّ هذا الهَرِمَ عنده شَيْءٌ من التَّمْيِيزِ.

تَجِدُه يصيحُ على أَهْلِه، ويَرْفَعُ صَوْتَه عليهم، ويقول: كيف تَنْسَوْن حاجتي، حينما كُنْتُ شابًّا كنت أَعْمَلُ وأُنْفِقُ عليكم، وأُحْضِرُ لكم الطَّعام والشَّراب، واليومَ تَنْسَوْن، فهو يُفْزِعُهُم أَكْثَرَ، ثم هو أيضًا ثَقِيلٌ، أمَّا الصَّبِيُّ فيَسْتَطِيع الواحِدُ أن يَحْمِلَه على يَدِه ويَمْشي به يمينًا ويَسارًا؛ حتى يَسْكُت، لكنَّ هذا الهَرِمَ هو الإِشْكالُ؛ لذلك إذا تذَكَّرَ الإِنْسَانُ أنَّه إمَّا أن يموتَ أو أن يَصِلَ إلى هذه الحالِ، فمهما كان عَيْشُه فسوف يَتَنَغَّصُ؛ ولهذا نقول: هذه الحياةُ دُنْيا، وهي مَأْخوذَةٌ من دُنُوِّ الزَّمَنِ ودُنُوِّ المَرْتَبَةِ والقَدْر.

قَوْله: [عن الإيمانِ بذلك]؛ أي: بِوَعْدِ الله، وما أَكْثَرَ الذين غَفَلوا عن وَعْدِ الله! وما أَكْثَرَ الذين اعْتَمَدوا على الأَسْبابِ الظَّاهِرَة فَنَسُوا الأَسْبَاب التي وراءها!

فكَثيرٌ من النَّاسِ يقول في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج:٤٠] كيفَ يَنْصُرُ الله المُسْلِمينَ وهم على هذه القِلَّة على أعدائِهِم الكُفَّارِ وهم بهذه الكَثْرَة وبهذه القُوَّة، كيف يكون هذا؟!

فيعْتَمِدُ على الحياة الدُّنْيا وعلى الأَسْبابِ المادِّيَّة دون ما وراءها، والواجِبُ علينا أن نُؤْمِنَ بِوَعْدِ الله، فالله تعالى وَعَدَ أن يَنْصُرَ من يَنْصُرُه كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور:٥٥].

يقول قائل: كيفَ يَسْتَخْلِفُنا الله في الأَرْضِ وعندنا الأُمَم القَوِيَّة الكَثيرَةِ ما الجواب على ذلك؟

الجواب: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ لا تَغُرَّكَ الدُّنْيا حتى في النَّصْر، أَسْبَابُ النَّصْرِ ليست هي المادَّة فقط، بل هناك شَيْءٌ وراءها وهي قُوَّة العزيز عَزَّوَجَلَّ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ في حِلْمِه وإِمْهالِهِ ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ الشَّيْطانُ]؛ يعني: لا يَخْدَعْكُم أيضًا مَن وَصْفُه الخِداعُ؛ ولهذا جاء وَصْفُ ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ و(غَرورٌ): فَعولٌ، صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ؛ لأنَّ غُرورَهُ كان وصفًا لازِمًا له لُزُومَ الوُجُوبِ.

و(الغَرورُ) غَيْرُ (الغُرُور) بالضَّمِّ؛ (الغُرورُ) بالضَّمِّ مَصْدَرٌ، و(الغَرورُ) صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ دالَّةٌ على المَعْنى ومن قام به المَعْنى، (فالغَرورُ) إِذَن هو الشَّيْطانُ، سواء كان إنسِيًّا أم جِنِّيًّا؛ فمن شَياطِينِ الجِنِّ من يَغُرُّ، وهو معروف، وهو الشَّيْطانُ الذي يُلْقِي في قلبِكَ ما يَخْدَعُك، ومن شياطينِ الإِنْسِ أيضًا من يَغُرُّ، وهم جُلَساءُ السُّوءِ الذين يأتون الإِنْسَانَ فيَدْخُلونَ فيه كما يَدْخُلُ الماء في المَدَر، أو النَّار في الفَحْم، يدخلون له دخولًا بحيث يكون كالنَّائِمِ أو كالمَيِّت بين يَدَيِ الغاسِل، فالله عَزَّوَجَلَّ حَذَّرَنا من هؤلاء.

وَقَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ في حِلْمِه وإمهالـه ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ الشَّيْطانُ].

[في حِلْمِه وإِمْهالِهِ]، صحيح أَنَّ الإِنْسَانَ قد يَغْتَرُّ بالله في حِلْمِه وإِمْهالِهِ فيقول لنفسه: لو كُنْتُ على خَطَأٍ لعاقَبَني الله، وما دام الله عَزَّوَجَلَّ يَرْزُقُني ويُعافِيني فهذا دليلٌ على أنِّي على حقٍّ، لكنَّ هذا من الأَمانِيِّ الباطِلَة التي حذَّرَ عنها رسولُ الله ﷺ فقال:

«الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ»[1]؛ أي: الأمانِيَّ، وهذا الحديث وإن كان فيه ما فيه من حيثُ الصِّحَّة، لكنَّ معناه صحيحٌ بلا شَكٍّ، فإنَّ الكَيِّسَ الحازِمَ هو الذي يَعْمَل لِما بعد المَوْت.

فَقَوْله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: ولا يَخْدَعَنَّكُم بالله في حِلْمِه وإمهاله، وغير ذلك مِمَّا يَتَعَلَّقُ بأفعالِهِ وأحكامِهِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: الخادِعُ وهو الشَّيْطانُ؛ قَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الشَّيْطانُ] هذا اسْمٌ للشَّيْطان (إِبْليسُ) وهو مُشْتَقٌّ من شاطَ يَشِيطُ إذا غَضِبَ، أو من شَطَنَ يَشْطِنُ إذا بَعُدَ، والوَصْفان ثابتانِ للشَّيْطانِ؛ لأن عِنْدَه طَيْشًا وسُوءَ تَصَرُّفٍ، كالذي يَشِيطُ غضبًا، وهو أيضًا شاطِنٌ؛ أي: بعيدٌ عن رَحْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لَعَنَه فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص:٧٨].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَهَمِّيَّة التَّصْديقِ بِوَعْدِ الله عَزَّوَجَلَّ، وَجْهُ ذلك أَنَّه صَدَّرَه بالنِّداء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بالفُروعِ؛ لأنَّ الخِطابَ هنا عامٌّ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ وَعْدَ الله لا بُدَّ أن يَقَعَ؛ لأنَّه خَبَرٌ من صادِقٍ قادِرٍ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: صِدْقٌ في حال الخَبَرِ عنه، واقِعٌ في حال إيقاعِهِ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٢٤)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٥٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت، رقم (٤٢٦٠)، من حديث شداد بن أوس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّه يَجِبُ على الإِنْسَان ألَّا يَرْتَبِطَ بالدُّنْيا مهما حَصَلَ له من زَهْرَتِها ونَعيمِها؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ من اغْتَرَّ بالدُّنْيا فإنَّه مَخْدوعٌ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ أي: تَخْدَعَنَّكم؛ لأنَّ العاقِلَ لا يَنْخَدِعُ بذلك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الإشارَةُ إلى وجوبِ العِنايَةِ بالآخِرَة؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فإذا نُهينا عن الحَياةِ الدُّنْيا، فمعناه أنَّنا نُلْزَمُ أو نُؤْمَرُ بالعنايَةِ بالآخِرَة؛ لأنَّها في الحَقيقَةِ هي المُنْتَهى، أمَّا هذه الدُّنْيا فإنَّ الإِنْسَانَ يَمُرُّها عابرًا فقط، حتى القُبُور التي يبقى فيها الإِنْسَانُ مِنَ السَّنَواتِ لا يَعْلَمُها إلا اللهُ هي مَحَلُّ عُبُورٍ، قال الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:١-٢] سَمِعَ أعرابِيٌّ فتًى يَقْرَأُ هذه الآيَةَ، فقال: (والله ما الزَّائِرُ بِمُقيمٍ) أو (إنَّ الزَّائِرَ لظاعِنٌ)؛ لأنَّه قال: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ﴾ والمعروف أنَّ الزَّائِرَ يَبْقى مُدَّةً ثم يَنْصَرِف.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: دُنُوُّ الدُّنْيا مَرْتَبَةً ودناءتُها؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ فهي وإن كانت حياةً لكنها دُنْيا، ويَسْتَلْزِمُ ذلك الثَّناءَ على الآخِرَة؛ لأنَّ وَصْفَ الضَّرَّة بالعَيْبِ يدلُّ على وَصْفِ ضَرَّتِها بالكَمالِ، قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦-١٧].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: جوازُ تَنَعُّمِ الإِنْسَانِ بالدُّنْيا على وجهٍ لا تَغُرُّه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ ولم يَقُلْ: (فلا تَتَنَعَّمُوا في الدُّنْيا بشَيْءٍ)، بل قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: عِظَمُ الخَطَرِ من كثرة المالِ ويُسْرِ العَيْشِ؛ لأنَّ هذا قد يَخْدَعُ المَرْءَ، قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَوَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ

تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[1].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: وُجُوبُ الحَذَرِ من الشَّيْطانِ ووَساوِسِه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ وسواءٌ كان الشَّيْطانُ إنسيًّا أم جنيًّا؛ لأنَّ الشَّيْطانَ الإنْسِيَّ يَغُرُّ الإِنْسَانَ كما يَغُرُّه شيطانُ الجِنِّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الحَذَرُ الشَّديدُ من هذا الذي يَغُرُّنا؛ من شياطينِ الإِنْسِ والجِنِّ؛ لأنَّه وَصَفَه بِقَوْله تعالى: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ والغَرورُ -كما سبق- إمَّا صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ وإمَّا صيغَةُ مُبالَغَةٍ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم (٦٤٢٥)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦١)، من حديث عمرو بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

هـذه الجُمْلَةُ مُؤَكَّـدَة بـ﴿إِنَّ﴾، وقال: ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ ولم يَقُلْ: (إنَّ الشَّـيْطان عَدُوُّكم) لثُبُوتِ هذه العداوَةِ؛ ولهذا أتى بالجُمْلَةِ الاسْمِيَّة المُكَوَّنَةِ من مُبْتَدَأ وخَبَرٍ، فـ﴿عَدُوٌّ﴾: مُبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ و﴿لَكُمْ﴾: خبرٌ مقدَّمٌ، وتقديمُ الخَبَرِ هنا يفيد الحَصْر؛ يعني: كأنَّه ليس عَدُوًّا إلا لكم، ومعلومٌ أنَّ من انْحَصَرَت عداوَتُه في شَخْصٍ فإنَّه يَجِب عليه أن يَحْتَرِز منه أكثَرَ وأكثر.

وَقَوْله تعالى: ﴿عَدُوٌّ﴾ على وَزْنِ فَعُولٍ، فهي صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ، والعَدُوُّ ضِدُّ الوَلِيِّ، فإذا كان الوَلِيُّ هو النَّاصِرَ المُتَوَلِّيَ لأَمْرِك المُعْتَنِيَ به، فالعَدُوُّ هو الخاذِلُ الذي لا يُهِمُّه أَمْرَك، فالشَّيْطانُ عَدُوٌّ، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ لَمَّا أكَّد أنَّه عدُوٌّ لنا رَتَّبَ على ذلك فقال: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ والفاءُ هنا يُسَمُّونَها فاءَ التَّفْريعِ؛ أي: فِبَسَبَب ثُبوتِ كَوْنِه عَدُوًّا اتَّخِذوه عَدُوًّا؛ يعني: اجْعَلوه عَدُوًّا لكم بحيث تَنْفِرون منه نُفُورَكُم من الأَعْداءِ.

فإذا قال قائل: كيف نَتَّخِذُه عدُوًّا؟

الجوابُ: نَتَّخِذُه عَدُوًّا بِكَرَاهَتِه وبُغْضِه، وبِعَدَمِ الانْصياعِ لِأَمْرِهِ وَوَسْوَسَتِهِ؛

لأنَّه كما قال الله عنه: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة:٢٦٨] فهو لا يأمُرُ إلا بالفَحْشاءِ والسُّوءِ ومَعْصِيَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا أَحْسَسْتَ من نَفْسِك أَنَّكَ تَهْوَى المَعْصِيَة فاعْلَمْ أنَّ هذا من إملاءِ الشَّيْطانِ، فيَجِبُ عليك أن تَنْفِرَ من هذا؛ لأنَّ هذا صادِرٌ من عَدُوٍّ لك، لا يريدُ إلا إِضْرارَكَ وخِذْلانَك؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ بطاعَةِ الله، ولا تُطيعوه] يعني: أطيعوا اللهَ ولا تُطيعوا الشَّيْطانَ، وأنتم إذا أَطَعْتُم الله فإنَّ هذا أَعْظَمُ سلاحٍ يَغيظُ هذا الشَّيْطانَ، فإذا أَطَعْتَ الله عَزَّوَجَلَّ فإنَّك بذلك تَغيظُ الشَّيْطانَ وتَدْحَرُه وتُذِلُّه كما أنَّك تُذِلُّ أولياءه أيضًا وتَغيظُهُم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الفتح:٢٩] إلى أن قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩]، فهؤلاء القَوْمُ بِصِفَتِهِمُ المذكورَةِ يَغيظونَ الكُفَّار، والكُفَّارُ أَوْلِياءُ الشَّيْطانِ، فإذا كانوا يَغيظونَ الكُفَّارَ فإنَّهم يَغيظونَ الشَّيْطانَ أيضًا، فأَعْظَمُ شَيْءٍ لإغاظَةِ الشَّيْطانِ هو أن تقومَ بطاعَةِ الله عَزَّوَجَلَّ.

يُرْوَى أنَّ الشَّيْطانَ يقول عن بني آدم: «أَهْلَكْتُهُمْ بالذُّنُوبِ، وَأَهْلَكُونِي بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ والاِسْتِغْفَارِ»(١)، فالتَّوْحيدُ وسُؤالُ المَغْفِرَة لا شكَّ أنَّه يَغيظُ الكُفَّارَ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ ﴾ أتباعَهُ في الكُفْرِ ﴿لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ النَّارِ الشَّديدَةِ].

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حَصْرٍ تفيدُ إثباتَ الحُكْمِ في المذكورِ ونَفْيَه عمَّا سواه؛ يعني: ما

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة رقم (٧)، وأبو يعلى في المسند رقم (١٣٦)، والطبراني في الدعاء رقم (١٧٨٠)، من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يدعو حِزْبَه إلا لهذا الأَمْرِ؛ لأنْ يكونوا من أصْحابِ السَّعِيرِ، واللَّامُ في قَوْله تعالى: ﴿لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ اللَّامُ هذه لِلعاقِبَة؛ يعني: يدعو حِزْبَه للشَّرِّ والفَحْشاءِ لِأَجْلِ أن يكونوا من أصحابِ السَّعيرِ.

وَقَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿حِزۡبَهُۥ﴾ أتباعَهُ في الكُفْرِ] قد يقال: إنَّ فيه قُصُورًا؛ لأنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ الحِزْبُ المُطْلَقُ لا شَكَّ أنَّهم الكُفَّارُ، لكِنْ من عصى الله عَزَّوَجَلَّ ولو لم يكن كافِرًا في مَعْصِيَةٍ من المعاصي فله من حِزْبِيَّةِ الشَّيْطانِ بِقَدْرِ ما عصى الله، لكنَّ الحِزْبَ المُطْلَقَ هم الكُفَّارُ.

قَوْله تعالى: ﴿لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يعني: من أصحابِ النَّارِ، والسَّعيرُ هو النَّار الشَّديدَةُ، وإنَّما يدعوهم لذلك؛ لأنَّه لما غَوى -والعياذ بالله- وتكَبَّرَ عن عِبادَة الله قال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦]، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحج:٣٩].

لما خُذِل -والعياذ بالله- وطُرِدَ وصار غاويًا حَرَصَ على أن يكون له أَتْباعٌ في غَيِّهِ، وهذا أمرٌ مُشاهَدٌ؛ فأَهْلُ الحَقِّ يَوَدُّون أن يكون لهم أتباعٌ في الحَقِّ، وأَهْلُ الباطِلِ يودون أن يكون لهم أتباعٌ في الباطِلِ، فالشَّيْطان -والعياذ بالله- لَمَّا كان من أصحابِ النَّار أَحَبَّ أن يكون النَّاسُ -أي: بنو آدَمَ- أن يكونَ النَّاسُ كُلُّهم من أصحابِ النَّار، هؤلاء الذُّرِّيَّة ذُرِّيَّة آدَمَ، وشقاء إبليسَ إنَّما كان لتَرْكِه السُّجُود لآدَمَ، فلا جَرَمَ أن يُغْوِيَ ذُرِّيَّتَه وأن يحارِبَ بِكُلِّ ما يَسْتَطِيع إغواءَهم حتى يكونوا من أصحابِ النَّار.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ الشَّيْطانِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثْباتُ عَدَاوَتِه المُؤَكَّدَة للإِنْسَان؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَهَمِّيَّة إيمانِنا بذلك؛ أي عِلْمنا بأنَّه عَدُوٌّ، لكنْ ما وَجْهُ ذلك؟

الجوابُ: تَقَدَّمَ في (البَلاغَة): أنَّ الخِطابَ الخَبَرِيَّ هو الخِطابُ الذي يُلْقَى إلى المُخاطَبِ بدون تَوْكيدٍ، وأنَّه لا يُؤَكَّدُ في مقامِ الخِطابِ الخَبَرِيِّ إلا لِسَبَبٍ؛ الخطابُ الخَبَرِيُّ إذا أُلْقِيَ إلى إِنْسَانٍ خالي الذِّهْنِ فإنَّه لا يُؤَكَّد؛ لأنَّه لا داعِيَ للتَّوْكيدِ، فالتَّوْكيدُ ليس فيه إلا زيادَةُ كَلِماتٍ لا فائِدَةَ منها، لكِنْ إذا كان الأَمْرُ ذا أَهَمِّيَّة فإنَّه يؤَكَّدُ ولو كان لإِنْسَانٍ خالي الذِّهْن، فإذا كان عالِمًا بالأَمْرِ صار أيضًا تَوْكيدُهُ أَبْعَدَ، ولا نَحْتاجُ إلى التَّوْكيدِ على كُلِّ حالٍ.

فالآن نقول: كَوْنُ اللهِ أَكَّدَ هذا الكَلَامَ، والإِنْسَانُ خالي الذِّهْن أو عالِمٌ به من قَبْلُ يدُلُّ على أَهَمِّيَّة الإيمانِ بهذا الأَمْرِ الذي عليه الشَّيْطانُ، وهو أنَّه هنا عَدُوٌّ.

وقد قال عُلَماءُ البلاغَةِ: إنَّ الخَبَرَ إذا أُلْقِيَ إلى عالِمٍ به مُؤَكَّدًا كان ذلك من أجل أنَّ هذا المُخاطَبَ نُزِّل مَنْزِلَةَ المُنْكِرِ؛ لِكَوْنِه لم يَقُمْ بما يَقْتَضيه هذا الخِطاب، ومثلوا لذلك بِقَوْله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون:١٥] فكُلٌّ يَعْلَمُ أنَّه سيموت، كُلُّنا نَعْلَمُ أَنَّنا مَيِّتونَ، لكِنْ لماذا أَكَّدَ لنا المَوْتَ ونحن نَعْلَمُ به ونتأَكَّدُ منه؟

الجوابُ: لأنَّ فِعْلَنا فِعْلُ المُنْكِرِ للمَوْت؛ حيث إننا لا نُصَدِّقُ ولا نَعْمَلُ لما بعد الموت.

إذن: نأخذ من هذه الآيَةِ: أَهَمِّيَّةَ إيمانِنا بأنَّ الشَّيْطانَ لنا عَدُوٌّ؛ لأنَّه أَكَّدَ الخَبَرَ مع أنَّه مُلْقًى إلى إِنْسَانٍ خالي الذِّهْنِ لا يدري بأنَّ الشَّيْطانَ عَدُوٌّ، أو إلى إِنْسَانٍ عالِمٍ به لكِنَّه نُزِّلَ مَنْزِلَةَ المُنْكِرِ؛ لِكَوْنِه لم يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ عَدُوًّا له.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وُجُوبُ البُعْدِ عمَّا يَأْمُرُ به الشَّيْطانُ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: ذِكْرُ الأَوْصافِ المَذْمومَةِ إذا كان المَقْصودُ بها نُصْحَ المُخاطَبِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ﴾ فلو رَأَيْتَ شَخْصًا مُغْتَرًّا بآخَرَ، يَحْسَبُه صَديقَه، وهذا الشَّخْصُ الذي اغْتَرَّ به صاحِبُه عَدُوٌّ له، نعلم أنَّه يريدُ أن يُوقِعَ به كلَّ سُوءٍ، فإنَّه يَجِبُ علينا أن نَنْصَحَهُ عنه، ونَذْكُر معايبَ هذا الشَّخْص حتى لا يَغْتَرَّ به، فنقول: إنَّكَ تُصاحِبُ فلانًا وهو عَدُوٌّ لك، حتى وإن كانت عَداوَتُهُ لِكَوْنِه يَهْديه إلى صِراطِ الجَحيمِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيانُ رَحْمَةِ الله تعالى بعبادِهِ؛ لأنَّ العِلْمَ بِعَداوَةِ الشَّيْطانِ غَيْرُ مُدرَكٍ لنا ولَكِنَّ الله تعالى هو الذي أَخْبَرَنا به، ثم حثَّنا بل أَمَرَنا بِمُخالَفَتِه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

مَسْأَلَة: لكِنْ هل هذه الآيَةُ فيها دليلٌ على أنَّ مِن النَّاسِ من يَدْخُلُ النَّار ولا يُخَلَّدُ فيها فلا يكون من أصحابِها؟

نقول: يُمْكِنُ؛ فإنَّ الشَّيْطانَ يُريدُ من النَّاس أن يَبْلُغوا الذِّرْوَة في المُخالَفَة، وإذا بَلَغوا الذِّرْوَة في المُخالَفَة وكَفَروا حينئذٍ يكونون من أصحابِ النَّارِ الذين يُخَلَّدون فيها، أمَّا المَعاصي التي دون ذلك فإنَّ أصحابَها وإن دخلوا النَّار -كما دَلَّتْ عليه النُّصُوص- فلا يكونون من أصحابِها.

• • ۞ • •

الآيــة (٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴾ [فاطر:٧].

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ مُبْتَدَأٌ، خَبَـرُه جُمْلَةُ ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ والعذابُ: العُقوبَةُ، وأتى بالجُمْلَة الاسْمِيَّةِ لِثُبوتِ هذا العَذابِ واسْتِمْرارِه؛ لأنَّ الكافِرينَ مُخَلَّدونَ في نار جَهَنَّم، و(الشَّديدُ) بمَعْنى القَوِيِّ، وأمَّا غَيْرُهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴾ الذين آمنوا؛ الإيمانُ مَحَلُّه القَلْبُ؛ أي: صدَّقوا بما يَجِبُ الإيمانُ به مع القَبولِ والإِذْعانِ، فالإيمانُ ليس مُجَرَّد التَّصْديقِ، بل هو تصديقٌ مَقْرُونٌ بِقَبولٍ وإذعانٍ؛ قبولٍ لِمَا آمَنَ به، وإذعانٍ يَقْتَضيه هذا الإيمانُ، أمَّا مُجَرَّدُ التَّصْديقِ فليس إيمـانًا، ولو شِئْتُم لَضَرَبْنا مثلًا بأبي طالِبٍ؛ فإنَّ أبا طالِبٍ كان مُصَدِّقًا للنَّبِيِّ ﷺ، ولكِنَّه لم يَقْبَل، ولم يُذْعِنْ، فلم يَنْفَعْه هذا التَّصْديقُ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: صدَّقوا بمـا يَجِبُ الإيمانُ به تصديقًا مُسْتَلْزِمًا للقَبُولِ والإِذْعانِ، وأمَّا قَوْله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فلا بُدَّ من العَمَلِ الصَّالِح حتى يَتِمَّ الإيمانُ ويَتحقَّق ويَتَبَيَّن.

قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: العَمَلُ الصَّالِحُ هو الذي كان خالِصًا صوابًا؛ أي: خالصًا لله، صوابًا في مُوافَقَةِ شَريعَةِ اللهِ، وهذا التَّعْريفُ يَعُمُّ هذه الأُمَّةَ وغَيْرَها، فما كان

خالِصًا لله مُوافِقًا لِشَـريعَتِهِ فهو صالِحٌ، وما لم يكن كذلك فهو فاسِدٌ، فلو فُقِدَ الإخلاصُ من العَمَلِ لم يكن صالِحًا، ولو وُجِـدَ الإخلاصُ لكن لم يكن على وَفْقِ الشَّريعَة لم يكن صالِحًا، وعلى هذا فالأَعْمالُ البِدْعِيَّةُ -وإن أَخْلَصَ فيها صاحِبُها- ليست بصالِحَةٍ، والأَعْمالُ الشَّرْعِيَّة إذا شارَكَها الرِّياءُ وإرادَةُ الخَلْقِ لم تكن صالِحَةً.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هذه تتكَرَّرُ في القُرْآنِ كثيرًا، وهي على ما قال النَّحْويُّونَ: من بابِ حَـذْفِ المَنْعوتِ ووجودِ النَّعْـتِ للدَّلالَةِ عليه؛ لأنَّ أَصْلَها: وعَمِلوا الأَعْمالَ الصَّالِحاتِ.

قَوْله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ الذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ ذَكَرَ لهم عَمَلًا وذكر لهم جَزاءَيْنِ، أمَّا الذين كفروا فذَكَرَ عملًا واحدًا وجزاءً واحدًا، فالذين كفروا لهم عَذابٌ شديدٌ؛ العَمَلُ: الكُفْرُ، والجزاءُ: العذاب الشَّديد، أمَّا الذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ فهذان عَمَلانِ والجزاءُ: لهم مَغْفِرَةٌ وأجرٌ كبيرٌ، فمَغْفِرَةٌ لِذُنوبِهِم، وأَجْرٌ كَبيرٌ على أعمالِهِمُ الصَّالِحاتِ.

والمَغْفِرَةُ هي سِتْرُ الذَّنْبِ والتَّجاوُزُ عنه؛ لأنَّها مَأْخوذَةٌ من المِغْفَرِ، وهو ما يُسْتَرُ به الرَّأْسُ للوِقايَةِ من السِّهامِ، وهذا لا يكون إلا إذا كان قَوِيًّا يمنع، وليست المَغْفِرَة مُجَرَّدَ السِّتْرِ؛ لأنَّ مُجَرَّدَ السِّتْرِ والعُقوبة ليس بِمَغْفِرَة، بل لا بُدَّ من أَمْرَيْنِ: السِّتْرِ، وعَدَمِ المُؤاخَذَة.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَأَجْرٌ﴾ الأَجْرُ: الثَّوابُ الذي يُجازَى به العامِلُ، حتى الأُجْرَة مثلًا إذا اسْتَأْجَرْتَ رجلًا يَعْمَل لك عملًا وأَعْطَيْتَهُ أُجْرَةً، فهذا أَجْرٌ، وسَمَّى الله عَزَّوَجَلَّ الثَّوابَ أَجْرًا؛ لأنَّه لا بُدَّ أن ينالَهُ العامِلُ، فهو كأُجْرَةِ الأَجيرِ، فلا بُدَّ أن ينالَها العامِلُ، وهذا كقَوْلِهِ تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥] فسمَّى

العَمَلَ لله قَرْضًا؛ لأنَّ القَرْضَ يَجِبُ إيفاؤُهُ؛ فمِثْلُ هذه الآياتِ تَدُلُّ على أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أَوْجَبَ على نفسه أن يُثيبَ العامِلَ.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ هل هو كبيرٌ في حَجْمِه أو كبيرٌ في معناه؟

الجواب: كلاهما؛ لأنَّ «أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً مَنْ يَنْظُرُ إِلَى مُلْكِهِ أَلْفَيْ عَامٍ يَرَى أَقْصَاهُ كَمَا يَرَى أَدْنَاهُ»[1]، وهذا لا شَكَّ أنَّه كبيرٌ واسِعٌ، وكذلك في المَعْنى؛ لأنَّه دائمٌ وثابِتٌ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ هذا بيانُ ما لِموافِقِي الشَّيْطانِ وما لِمُخالِفيهِ] مُوافِقُو الشَّيْطانِ هم الذين كفروا، ومخالِفُوه الذين آمنوا وعملوا الصَّالِحاتِ.

إذن: يَجِبُ علينا أن نَتَّخِذَ الشَّيْطانَ عَدُوًّا بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إِثْباتُ الثَّوابِ والعِقابِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بلاغَةُ القُرْآنِ؛ حيث يَجْمَع بين الشَّيْءِ وضِدِّه، وهو مِصْداقُ قَوْله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر:٢٣] قال: ﴿مَّثَانِيَ﴾ مثاني أنَّه تُثَنَّى فيه المعاني، وهنا لَمَّا ذَكَرَ عذابَ الكافرينَ ذكر ثوابَ المُؤْمِنينَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَلاغَةُ القُرْآنِ أيضًا من وجهٍ آخر: حيث بدأ بذِكْرِ عذابِ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٣، ٦٤)، والترمذي: كتاب صفة الجنة، رقم (٢٥٥٣)، وفي كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة القيامة، رقم (٣٣٣٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الكافرينَ بعد أن ذَكَرَ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فبدأ بما فيه التَّحْذيرُ قبل ما فيه التَّبْشيرُ من أجل المناسَبَة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الكافِرَ عذابُهُ شديدٌ؛ يعني: ليس بالعذاب السَّهْل، ووَجْهُ شِدَّتِه بالكمِّيَّة والكَيْفِيَّة؛ لأنَّه دائِمٌ؛ ولأنَّه عذابٌ لا نظيرَ له.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الأَجْرَ لا يَثْبُتُ إلا باتِّصافٍ تامٍّ بِوَصْفَينِ؛ أحدهما: الإيمانُ، والثاني: العَمَل الصَّادِقُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَقْسيمُ الأَعْمالِ إلى صالِحٍ وفاسِدٍ، وهذا مَأْخوذٌ من قَوْله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والضَّابِط في ذلك: أنَّ ما كان خالِصًا صوابًا فهو صالِح، وما كان فيه شِرْك أو بِدْعَةٌ فليس بصَالِحٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ينالونَ أَجْرَهُم من وَجْهَيْنِ؛ من زوالِ المَكْرُوهِ الثَّابِت؛ بِقَوْله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وحُصُولِ المَطْلوبِ الثَّابِتِ بِقَوْله تعالى: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بلاغَةُ القُرْآنِ؛ لأنَّه لَمَّا ذَكَرَ عملًا واحدًا في الكُفَّار ذكر جزاءً واحدًا، ولَمَّا ذكر وَصْفَيْنِ في المُؤْمِنين ذكر وَصْفَيْنِ في ثوابِهم، وهذا ظاهرٌ أيضًا في سورة (الإِنْسَان): ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ إذا تَأَمَّلْتَها وجدت الله عَزَّوَجَلَّ لم يَذْكُرْ في الكافرين وعذابِهم إلا قليلًا بالنِّسْبَة للأَبْرارِ.

والسَّبَبُ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ فقال تعالى: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ فقط، ولم يَقُلْ شيئًا عن هذه، فكان الجَزَاء مُخْتَصَرًا ﴿سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ وذكر الأبرارَ وأطال في ذكر ما لهم من نَعيمٍ؛ لأنَّه ذَكَرَ عِدَّةَ أَعْمالٍ من أَعْمالِهم:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٥-٩] الإخلاص التامُّ ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان:٩-١٠].

فذكر عِدَّةَ أوْصافٍ من أوصافِهم، فأطال في ذِكْر جزائِهم؛ لَمَّا أطال في ذكر أعمالِهم أطال في ذكر الجزاء بِخلافِ الكافرينَ، وهذا بلا شَكٍّ من بَلاغَة القُرْآن.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ الأُجُورَ تَخْتَلِفُ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ فالأُجُور تَخْتَلِفُ باختلاف العَمَلِ، وتَخْتَلِف باختلافِ العامِلِ، وإذا كانت مُتَعَدِّيَة فإنَّها تَخْتَلِفُ باخْتِلافِ من انْتَفَعَ بها.

فمثلًا: تَخْتَلِف باختلافِ العَمَل كما في حديث: «**أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا**»(١)، والواجِبُ أفضل من المُسْتَحَبِّ.

وباختلاف العاملِ كما في قَوْلِه ﷺ: «**خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى**»(٢) وقال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المواقيت، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٢٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (٨٥)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، رقم (١٤٢٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رقم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وتَخْتَلِف أيضًا باختلاف المحَلِّ إذا كانت مُتَعَدِّيَةً، فالصَّدَقَة على القَريبِ صَدَقةٌ وصِلَة، والصَّدَقَة على من هو أشَدُّ حاجَةً أَفْضَلُ من الصَّدَقَة على من دونه، وهكذا.

فاختلاف الأَعْمالِ يَسْتَلْزِمُ اختلافَ الأُجُور أيضًا، وتَخْتَلِفُ أيضًا باختلاف الإِخْلاصِ؛ فكلَّما كان الإِنْسَان في عمله أَخْلَصَ كان عَمَلُه أفضَلَ.

ويُمْكِن أن نقول أيضًا: تَخْتَلِفُ باختلافِ الاتِّباعِ، فكلَّما كانتِ العبادَةُ أَتْبَعَ لله كانت أكْمَلَ.

وعلى كُلِّ حالٍ: فهذه الاختلافات في وُجُوهِها تَخْتَلِفُ لها الأُجُور.

• • ۞ • •

الآيــة (٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر:٨].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ونزل في أبي جهلٍ[1] وغيره: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ بالتَّمْويهِ] أبو جَهْلٍ كان يُسَمَّى في الجاهِلِيَّة أبا الحكم؛ يعني: أنَّه ذو حِكْمَة وعَقْل ورَوِيَّـة، لكنَّه سُمِّيَ في الإِسْـلام أبا جَهْلٍ؛ لأنَّ أعْظَمَ الجَهْلِ أن يَبْقَى على كفـره، ولا يُؤْمِنُ بالله، نزل فيه ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾: ﴿ أَفَمَن ﴾ الهَمْزَةُ هنا للاسْتِفْهام، والفاء: حَرْفُ عطف، والمعطوف عليه مُختلَفٌ فيه؛ فمنهم من قال: إنَّه مقدَّرٌ بيـن الهَمْزَة وحَرْفِ العَطْف فيكون بحَسَـبِ السِّـياقِ، ومنهم من قال: إنَّ المعطوفَ عليه ما سَبَقَ، فعلى الأَوَّل نُقَدِّرُ المَحْذوفَ بمـا يناسِبُ المقامَ، فمثلًا قَوْله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [يوسف:١٠٩] التَّقْديرُ: أغَفَلُوا فلم يَسِيـروا في الأَرْض، وهنا نقول: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ نُقَدِّرُها بما يناسِبُ، فنقول: التَّقْديرُ: أَتُدْرِكونَ هذا الشَّيْءَ فمن زُيِّنَ له سوءُ عَمَلِه، أو نقول: أَيَسْتَوي المُؤْمِنُ والكافِرُ فمن زُيِّنَ له سوء عَمَلِه.

ولكن القَوْل الثاني في المَسْأَلَة أنَّه معطوفٌ على ما سبق أحسن؛ لأنَّ الأَصْلَ

(١) انظر: زاد المسير (٣/ ٥٠٦).

عدمُ التَّقْديرِ، ولأنَّه في بعضِ الأحيانِ يَصْعُبُ على الإِنْسَانِ أن يقدِّر المَحْذوفَ، وعلى هذا القَوْلِ يقولون: إنَّ حَرْفَ العَطْفِ (الفاء) يُقَدَّرُ سابقًا للهَمْزَة، فيكون فيه تقديمٌ وتَأْخيرٌ، والتَّقْديرُ على هذا: (فَأَمَنْ زُيِّنَ له سُوءُ عَمَلِه).

وَقَوْله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ مَن المُزَيِّنُ؟

ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ المُزَيِّنَ الشَّيْطانُ، وذكر أنَّ المُزَيِّنَ هو الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل:٤]، وقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل:٢٤]، وفي بعض الآيات يكون المُزَيِّنُ مُبْهَمًا كما في هذه الآية، وكما في قَوْله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران:١٤].

فالمُزَيِّنُ الله، والمُزَيِّن الشَّيْطان، فإذا قلْتَ: كيف تَجْمَعُ بين هذا وهذا؟

فالجواب: أنَّ المُزَيِّنَ المُباشِرَ هو الشَّيْطان، أمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فهو مُزَيِّنٌ بالتَّقْديرِ؛ يعني: هو الذي قدَّر على الشَّيْطان أن يُزَيِّنَ لهم، ومعلومٌ أنَّ الله تعالى خالِقُ الشَّيْطانِ، وما نتج من أعماله فهو مضافٌ إلى الله؛ كما نقول في الإِنْسَانِ: إنَّه مَخْلوقٌ لله، وما نتج من أعماله فهو مَخْلوقٌ لله عَزَّوَجَلَّ، فيكون تَزْيينُ الله تعالى حَسَب التَّقْديرِ؛ يعني: هو الذي قدَّر أن يُزَيِّنَ الشَّيْطانُ لهم أَعْمالَهُم.

قَوْله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾: (عمل) مفردٌ مضافٌ، فيَشْمَلُ كُلَّ الأعمال، سواء كانت شِرْكًا أو عُدْوانًا على الغَيْر، أو سوءَ السُّلوكِ وفَسادَ الأخلاقِ، أو غَيْر ذلك.

المُهِمُّ: أنَّه شامِلٌ لكُلِّ الأَعْمالِ.

وَقَوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالتَّمْوِيهِ]؛ أي: أنَّه يُمَوِّهُ على النَّاس أنَّ هذا العَمَلَ الذي يقوم به عملٌ حَسَنٌ.

قَوْله تعالى: ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ أي: رأى سُوءَ عمَلِه حَسَنًا، وهذا أشَدُّ ما يكون؛ أن يكون الإِنْسَانُ على خَطَأٍ ويرى أنَّه على صوابٍ؛ لأنَّ مِثْلَ هذا لا يكاد يظهر عن غَيِّهِ؛ حيث إنَّه يَعْتَبِرُه صوابًا، ومن ذلك مَثَلًا أصحابُ الحِيَل (المخادعون)، فالمُنافِقُ مثلًا زُيِّنَ له سُوءُ عَمَلِه؛ لأنَّه يرى أنَّه ذَكِيٌّ ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة:١٤] وهذا من سوء العَمَلِ.

وكذلك المُتَحَيِّلون على الرِّبا بأَنْواعِ الحِيَلِ هؤلاء أيضًا زُيِّنَ لهم سُوءُ أعمالهم؛ ولهذا لا تكاد تَجِدُهم مُقْلِعينَ عمَّا هم عليه؛ لأنَّه قد زُيِّنَ ذلك في نُفُوسِهم فلا يُقْلِعونَ عنه؛ المُهِمُّ أنَّ هذا له أمْثِلَة كثيرةٌ.

بقي علينا أن نقول: (من) مُبْتَدَأ فأين خَبَرُه؟ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَنْ: مُبْتَدَأ، خَبَره: كمن هداه اللهُ، لا؛ دَلَّ عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ يعني: (كَمَنْ لم يُزَيَّنْ له سُوءُ عَمَلِه ورأى سوءَ عَمَلِه سَيِّئًا)؛ لأنَّ الذي زُيِّن له سوءُ عَمَلِه سيسْتَمِرُّ عليه، والذي رآه سيئًا سوف يَتَجَنَّبُه، وهذا ما يقَوْلُه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كمن هداه الله]، ومِثْلُ هذا التَّعْبيرِ يأتي في القُرْآن كثيرًا؛ كما في قَوْلِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩] فالخَبَرُ مَحْذوفٌ؛ أي: كمن ليس كذلك.

فَقَوْله: [لا]؛ يعني: ليس هذا كهذا، قال: بينهما فَرْقٌ؛ فإنَّ من زُيِّنَ له سوء عَمَلِه فسوف يبقى على ضَلالِهِ، ومن لم يُزَيَّنْ له سُوء عَمَلِه ورآه سيئًا فَسَيَتَجَنَّبُه ولا يقع فيه.

وَقَوْله: [دلَّ عليه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾]، وعلى هذا، فالفاء هنا ليست واقِعَة في خَبَرِ المُبْتَدَأ، بل خَبَرُ المُبْتَدَأ مَحْذُوفٌ، لكنها عَطْفٌ على ذلك الخَبَر؛ أي: فإنَّ الله يُضِلُّ من يشاء عن الحَقِّ فلا يهتدي إليه، ويهدي من يشاء إلى الحَقِّ فَيَلْتَزِمُه، وهنا يقول: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ تقدَّمَ كثيرًا تعليقُ الأشياءِ بالمَشيئَة، ولكنَّنا قلنا ونقول: إنَّ هذه المَشِيئَةَ مَقْرُونَةٌ بالحِكْمَةِ؛ من اقْتَضَتْ حِكْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ أن يُضِلَّه أَضَلَّه، ومن اقتَضَتْ حِكْمَتُه أن يَهْدِيَه هداه، من الذي تَقْتَضي حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ أن يُضِلَّه؟

هو الذي أراد الضَّلال؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

فإذن: إضْلالُ الله تعالى للعَبْدِ في مَحَلِّه، وذلك بأن يكون هذا الرَّجُل لا يريد الخَيْر، وإنَّما يريد الشَّرَّ.

واعلم أنَّ الهِدايَةَ والضَّلالَ إمَّا عَدْلٌ وإمَّا فَضْلٌ، فالضَّلالُ عَدْلٌ؛ لأنَّه جُوزِيَ بحَسَب ما أراد، لَمَّا أراد الضَّلالَ -والعياذ بالله- وزاغ قَلْبُه أُزيغَ، وأمَّا الهِدايَة فإنَّها فَضْل من الله عَزَّوَجَلَّ يَتَفَضَّلُ بها على من يشاء من عباده.

ولهذا لو قال قائِلٌ: كيف يَجْعَلُ الله تعالى هذا مُهْتَدِيًا وهذا ضالًّا، أليس هذا ظُلْمًا؟

والجواب: لا؛ لأنَّ مَنْعَ الهِدايَة من هذا الضَّالِّ إنَّما هو لُمْقْتَضى عَدْلِه، أمَّا هِدايَة المهتدي فبِفَضْله.

فنقول: إنْ مَنَعَكَ ما هو لك فقد ظَلَمَك، وإن مَنَعَك فَضْلَه فَفَضْلُ الله يؤتيه من يشاءُ، ولولا أنَّك لَسْتَ أَهْلًا للهِدايَة ما منعك الله هدايته.

قَوْله تعالى: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ المُراد بالهِدايَة هِدايَةُ التَّوفيقِ، وربَّما نقول: هِدايَة التَّوفيق والدَّلالَة، ولكنَّ الأَهَمَّ هو هِدايَة التَّوْفيقِ، ولَعَلَّ هذا هو المُرادُ هنا؛ لأنَّ الذين أَضَلَّهُم الله قد هداهم الله هِدايَةَ الدَّلالَةِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس:٢٥] وهذا عامٌّ، ولكنَّ الهِدايَة أن يهدي من يشاء إلى صراطٍ مُسْتقيمٍ.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ هل هذا النَّهْيُ نَهْيٌ عما كان أو نَهْيٌ عما لم يَكُنْ؟ الظَّاهِرُ أنَّه نَهْيٌ عما كان، وأنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يتَحَسَّر على هؤلاء المُكَذِّبين الذين كانوا يُكَذِّبونَه ويَضيقُ صَدْرُه، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]، فـ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ أي: مُهْلِكٌ نَفْسَك، ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾.

فالرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تَحَسَّر لهؤلاء لعَدَمِ إيمانِهم، والنَّهْي عن الشَّيْء قد يكون نَهْيًا عما كان وقد يكون نَهْيًا عمَّا لم يكن؛ فَقَوْله للنَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٣-٢١٤] هذا نهيٌ عما لم يكن؛ لأنَّ الرَّسُول لم يَدْعُ.

قَوْله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ يعني: لا تذهب نَفْسُك من أجْلِهم، كما يقال: (بكيت عليكَ الدَّهْرَ) أي: من أجْلِكَ، فالمَعْنى: لا تَذْهَبْ نَفْسُك من أجلهم حَسَرَاتٍ.

قَوْله تعالى: ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ قيل: إنَّها حالٌ على أنَّها مَصْدَرٌ أريد به اسْمُ الفاعِلِ؛ أي: حاسِرَةً، والحَسْرَة هي الهَمُّ الشَّديدُ والغَمُّ على ما فات، وكلُّ من فاته شَيْء يُحِبُّه

ويَطْلُبه فاهْتَمَّ لذلك واغْتَمَّ يقال: (تَحَسَّر)، وقيل: إن ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ مَصْدَرٌ وأنَّه مفعولٌ من أجله، والمَعْنى: فلا تذهب نَفْسُك؛ أي: تَهْلِكْ؛ من أجل الحَسَراتِ عليهم.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ على المُزَيَّنِ لهم ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ باغْتِمامِكَ ألَّا يُؤْمنوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيُجازيهِمْ عليه] في هذه الجُمْلَةِ تَهْديدٌ وتَسْلِيَة؛ تَهْديدٌ لهؤلاء المُخالِفينَ، وتَسْلِيَة للرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ يعني: لا يُهِمَّنَّكَ أَمْرُهم؛ فإنَّك سائِرٌ مع الله وسوف يُجازيهِم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ من النَّاس من يَعْمَى قَلْبُه حتى يرى السَّيِّئَ حَسَنًا، وفي مقابِلِ ذلك يرى الحَسَنَ سَيِّئًا؛ لِقَوْله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إبهامُ الفاعِلِ لِيَشْمَلَ كلَّ ما يُمْكِن أن يقع منه هذا الفِعْل؛ لِقَوْله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ وقد سبق أنَّ المُزَيِّنُ هو الله عَزَّوَجَلَّ في الأَصْلِ، والشَّياطينُ في المُباشَرَة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: انْقِسامُ الأَعمالِ إلى سَيِّئ وصَالِح؛ لِقَوْله تعالى: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فيها الرَّدُّ على الجَبْرِيَّة؛ لِقَوْله تعالى: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فأضافَ العَمَل إليه، وهم يقولون: إنَّ الأَعْمالَ لا تُضافُ إلى الإِنْسَان؛ لأنَّه مُجْبَرٌ عليها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ مَن هذه حالُهُ لا يستوي مع من ليس كذلك، بحيث يرى السَّيِّئ سيِّئًا والحَسَنَ حَسَنًا، ونأخذها من أنَّ المَحْذُوف يكون مُقابِلًا للمَذْكور؛ لأنَّ الهَمْزَةَ هنا للتَّسْوِيَة؛ يعني: (أَيَسْتَوي هذا وهذا؟) والجواب: لا يستويانِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الهِدايَة والإِضْلالَ بِيَدِ الله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: وهي تَتَفَرَّع على هذه الفائِدَة، أنَّنا إذا عَلِمْنا ذلك فإنَّنا نسأل الهِدايَةَ من الله، ونَسْتَعيذُ من الضَّلالِ بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إِثْباتُ مَشيئَةِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ وقد تَقَدَّمَ أنَّ كلَّ فعلٍ علَّقَه الله بِمَشيئَته فإنَّه مَقْرُونٌ بالحِكْمَةِ، ودليلُ هذا قَوْله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الرَّدُّ على القَدَرِيَّة؛ لِقَوْله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

فإنَّ القَدَرِيَّة يقولون: إنَّ أفْعالَ العَبْدِ من ضَلالةٍ أو هِدايَة لا تَتَعَلَّقُ بها مَشيئةُ الله؛ لأنَّ مَذْهَبَ القَدَرِيَّة أنَّ الإِنْسانَ مُسْتَقِلٌّ بِعَمَلِه، ليس لله تعالى فيه تعلُّقٌ إطلاقًا حتى إنَّ غُلاتَهُم يزعمون أنَّ الله لا يَعْلَمُ عَمَلَ العَبْدِ حتى يقع، ويقولون: إنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ؛ أي: مُسْتَأْنَفٌ؛ أي: إنَّ عِلْمَ الله عَزَّوَجَلَّ يحدث بعد أنْ لم يَكُنْ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ رسولَ الله ﷺ وعزَّ مَن أرسلَه كان يَحْزَنُ حزنًا عظيمًا تكادُ تَذْهَبُ نَفْسُه من شِدَّتِه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ وَجْهُ ذلك أنَّ الأصل في النَّهْي أن يكون عمَّا وقع، وقد يكون عمَّا لم يقع، وهو كثيرٌ أيضًا، ويدلُّ على أنَّ هذا أمرٌ واقِع قَوْلُه تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: شَفَقَة النَّبِيِّ ﷺ على أُمَّتِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الرَّسُول ﷺ لا يَحْزَنُ لِعَدَمِ إيمانهم أو طاعَتِهم لمصلحته هو ولكِنْ لِمَصْلَحَتِهم؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَشَرٌ يتأثَّر بما يتأثَّرُ به البشر من أَسْبَاب الفَرَحِ وأَسْبَاب الحُزْن، وهذا أمرٌ واقِعٌ، وقد قالت عائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ مَسْرُورٌ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ مُجَزِّزًا الْمُدْلِجِيَّ دَخَلَ عَلَيَّ فَرَأَى أُسَامَةَ وَزَيْدًا وَعَلَيْهِمَا قَطِيفَةٌ قَدْ غَطَّيَا رُؤُوسَهُمَا وَبَدَتْ أَقْدَامُهُمَا، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ»(١).

ففَرِحَ ﷺ حتى ظهر ذلك على وَجْهِه؛ فالأَعْراضُ البَشَرِيَّة من الفَرَح والحُزْن، والغَمِّ والاسْتِبْشارِ، والنِّسيان وعَدَمِ العِلْم، وغير ذلك تطرأ على النَّبِيِّ ﷺ كغيره من البَشَر؛ لأنَّه لا يتمَيَّز عن البَشَرِ إلا بشَيْء واحد وهو الوَحْيُ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف:١١٠] وكَلِمَة ﴿بَشَرٌ﴾ تُغْنِي عن ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ لكن هذا من باب التَّأْكيدِ؛ لئلَّا يَذْهَبَ ذاهِبٌ إلى أنَّه بَشَرٌ قد خُصِّصَ بشَيْءٍ، فقال: ﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ثم ذكَرَ المَيْزَة فقال: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وفي هذا ردٌّ واضِحٌ على أولئك القَوْمِ الذين يدَّعُون أنَّ للنبي ﷺ تأْثيرًا في الخَلْقِ كتأثير رُبوبِيَّةِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه لو كان كذلك ما ذَهَبَتْ نَفْسُه عليهم حَسَراتٍ، ولهداهم وسَلِمَ من هذه الحَسَراتِ التي تكون على نَفْسِه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: إثبات عِلْمِ الله عَزَّوَجَلَّ لِكُلِّ ما نَعْمَلُ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم (٣٥٥٥)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب العمل بإلحاق القائف الولد، رقم (١٤٥٩).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: عناية الله برسوله ﷺ في مِثْلِ هذه الجُمْلَة التي تفيد تَسْلِيَتَه وتَهْوينَ الأَمْرِ عليه وأَنَّه ما من حسابِ هؤلاء عليه مِنْ شَيْء كما أَنَّه ليس من حِسابِهِ هو عليهم من شَيْءٍ.

الآيــة (٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر:٩].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ وفي قِراءَةٍ: (الريحَ)] الله -وَحْدَه- هو الذي يُرْسِلُ هذه الرِّياحَ دون غَيْره، فلن يَسْتَطيعَ أحدٌ أن يُرْسِلَ شَيْئًا من هذه الرِّياحِ، حتى الخَلْقُ كُلُّهم لو اجتمعوا على أن يُرْسِلوا الرِّيحَ ما استطاعوا، لو اجْتَمَعوا على أن يُهَوِّنوا عَصْفَها ما استطاعوا، ولكن ذلك بِيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ، فاللهُ وَحْدَه الذي يُرْسِلُ الرِّياحَ.

وتأمَّلْ قَوْله تعالى: ﴿أَرْسَلَ﴾ حيث جعلها رسولًا كأنَّها تُبَلِّغ أو كأنَّها تَفْعَلُ ما أُمِرَتْ به كما أنَّ الرَّسُولَ يُبَلِّغُ ما أُرْسِلَ به فهي مُرْسَلَةٌ؛ ولهذا ثبت عن النَّبِيِّ ﷺ النَّهْيُ عن سَبِّ الرِّيحِ[1]؛ لأنَّ سَبَّ الرِّيحِ يعود حَقيقَةً إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه هو الذي أَرْسَلَها، فهي مُدَبَّرَة مُسَخَّرَةٌ.

وَقَوْله: [﴿الرِّيَٰحَ﴾ وفي قِراءَةٍ: (الريح)] والقِراءَة هنا سَبْعِيَّة، والفَرْقُ بينهما أن (الرياح) جَمْع، و(الرِّيح) مُفْرَد، لكنَّ هذا المُفْرَد في مَعْنى الجمع؛ لأنَّه محلَّى بـ(أل)

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٢٣)، والترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في النهي عن سب الرياح، رقم (٢٢٥٢)، من حديث أبي كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وهي لِلاسْتِغْراقِ، فيَشْمَلُ كُلَّ الرِّياحِ، سواء أَتَتْ من الشَّمال، أو الجَنوب، أو الشَّرْق، أو الغَرْب، فالله تعالى هو الذي أَرْسَلَها.

واعلم أنَّ الغالِبَ أن (الرياحَ) مجموعةً تكون في الخَيْر، و(الرِّيح) مفردة تكون في ضِدِّه، ولهذا يُروَى عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في دُعَاء الريح: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحًا وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا»(١).

ولكنْ مع ذلك تأتي هذه مَحَلَّ هذه، ويكون هناك قِرينَةٌ، ففي قَوْلِه تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات:٤١]، هـذه في الشَّـرِّ، وَقَوْله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢] هـذه في الخَيْـرِ؛ لأنَّها وُصِفَـت، وَقَوْله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف:٥٧] هذه في الخَيْرِ، وهنا تكون في الخَيْر أيضًا.

قَوْله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ تُثيـرُ عَطْفُ المضارِعِ على الماضي، وكان مُقْتَضى النَّسَق أن يَعْطِفَ على الماضي ماضيًا مثله، فيقول: (والله الذي أرسل الرياح فأَثارَتْ)، لكن لماذا عَدَلَ عن الماضي إلى المضارع؟

بَيَّنَه المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: [﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ المضارِعُ لحكايةِ الحالِ الماضِيَة]؛ يعني: عبَّرَ بالمضارِعِ عن الماضي حكايةً للحال حين إرسالِها؛ لأنَّه أَبْلَغُ في التَّصَوُّر، كأنَّها الآن أمامك وهي تُثيرُ هذا السَّحابَ، وهذا أَبْلَغُ في تصوُّر الإِنْسَان؛ لأنَّه يَسْتَحْضِر الحالَ الماضِيَة كأنَّها الآن؛ إذ إنَّ المضارِعَ -كما هو معلوم- يَصْلُحُ للحال والاستقبال،

---

(١) أخرجه الشافعي في مسنده [ترتيب السندي] (١/ ١٧٥، رقم ٥٠٢)، وأبو يعلى في المسند رقم (٢٤٥٦)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٢١٣، رقم ١١٥٣٣)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولكنه قد يَقْتَرِنْ به ما يُعَيِّنُه للحال، ويقترن به ما يُعَيِّنه للاستقبال، ويقترن به ما يُعَيِّنُه للماضي، إنَّما الأصل فيه أنَّه للحاضِرِ والمُسْتَقْبَل، ولا يكون للماضي إلا بِقَرينَةٍ، فعليه نقول: عُدِلَ عن التَّعْبيرِ بالماضي هنا لحكايَةِ الحالِ الماضِيَة حتى كأنَّك تُشَاهِدُها الآن وهي تُثيرُ هذا السَّحابَ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مَعْنى ﴿فَتُثِيرُ﴾ قال: أي [تُزْعِجُه]، وهذا مَعْنى قد يُناقَشُ فيه؛ لأنَّ الإزْعاجَ أَخَصُّ من الإثارة؛ لأنَّ الإثارَةَ بمَعْنى إثْهارِ الشَّيْءِ كما يقال: (أَثَرْتُ البَعيرَ)؛ أي: أنْهَضْتُه حتى صار قائِمًا بعد أن كان بارِكًا.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ كأنَّ هذا السَّحابَ في الأصل في الأَرْضِ، ثم أَثارَتْه هذه الرِّياحُ، ومعلومٌ أنَّ السَّحاب يكون من بُخارِ البَحْرِ، ويكون أحيانًا من الجَوِّ المُتَلَبِّد بالرطوبة حسبما تَقْتَضيه حِكْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا أمرٌ يَرْجِعُ إلى مَعْرِفَة العلوم الطبيعيَّة.

قَوْله تعالى: ﴿سَحَابًا﴾ السَّحابُ هو هذا الغَيْم المعروفُ في الجَوِّ كما تشاهدونه؛ فلذلك سُمِّيَ سحابًا لانْسِحابِهِ في الجَوِّ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ فيه الْتِفاتٌ عن الغَيْبَة]؛ أي: إلى التَّكَلُّم، وفيه أيضًا التفاتٌ من المضارِعِ إلى الماضِي؛ ولذا قال: ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ﴾ عدل عن المضارِعِ إلى الماضي لاختلاف الفاعِلِ في الفِعْلَيْنِ؛ لأنَّ (تثير) الفاعِلُ فيها (الرِّياحُ)، و(سُقْناه) الفاعِلُ فيها (الله).

إذن: يَحْسُنُ أن تكون بِلَفْظِ الماضي عَطْفًا على قَوْله تعالى: ﴿أَرْسَلَ﴾ لأنَّ المُرْسِلَ هو الله، فلما اتَّحَدَ الفاعِلُ في الفِعْلَيْن (أرسل، وسُقْنا) كان الأَفْصَحُ أن يكونا جميعًا

بلَفْظِ الماضي، لكنْ فيه عدولٌ عن الغَيْبَةِ في قَوْله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ﴾ إلى التَّكَلُّم في قَوْله تعالى: ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ لماذا؟

الجواب: سبق أنَّ الالتفاتَ له فائِدَةٌ دائِمَةٌ وهي التَّنْبيهُ؛ لأنَّ سياق الكَلَامِ على نَسَقٍ واحِدٍ يقتضي أنَّ الذِّهْنَ يَنْساقُ معه ولا يَتَوَقَّف، لكن إذا اختلف السِّيَاق يَقِفُ الذِّهْنُ، ويَنْظُر ما الذي حدث؟ وحينئذٍ يكون في تغييره تنبيهٌ للمُخاطَب؛ فهذا واحِدٌ.

لكن هنا أيضًا فيه فائِدَةٌ ثانِيَةٌ: وهي بيانُ قُدْرَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ أي: نحن، فأضافَهُ إلى نَفْسِه؛ لأنَّه أدَلُّ على القُدْرَة، فإذا اجتمع ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ﴾ ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ساق هذا السَّحابَ الذي أَثارَتْه الرِّيحُ فهو أدَلُّ على القُدْرَة مِمَّا لو جاء على نَسَقٍ واحِدٍ.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ بالتَّشْديدِ والتَّخْفيفِ: لا نبات بها].

كَلِمَةُ ﴿مَّيِّتٍ﴾ فيها قراءتان، ﴿مَّيِّتٍ﴾ و(مَيْتٍ) وقد قيل: إن (المَيْتَ) لِمَنْ مات بالفِعْل، والمَيِّت لمن سَيموتُ، وجعلوا على ذلك شاهدًا في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠]؛ أي: ستموت، وَقَوْله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢] فـ﴿مَيْتًا﴾ هنا لمن قد مات، هكذا فرَّقَ بعضهم.

والظَّاهِر أنَّ اللُّغَة العَرَبِيَّة تأتي بالوَجْهَيْنِ على المَعْنَيَيْنِ، ومنه هذه الآيَةُ، فـ﴿مَّيِّتٍ﴾ هنا هل معناها: سيموتُ، أو المَعْنى: قد مات بالفِعْل؟

الجواب: قد مات، ومع هذا جاءت بالتَّشْديدِ.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا نبات بها] وهذا هو مَوْتُ البَلَدِ، والمُراد بالبَلَدِ هنا ليس المَسْكونَ من الأَرْضِ، بل ما هو أَعَمُّ، فيَشْمَلُ المَسْكونَ وغيْرَ المَسْكونِ، وتَخْصيصُ البَلَدِ بالمسكونِ تَخْصيصٌ عُرْفِيٌّ، وإلا فإنَّ كُلَّ الأَرْض بلد لانْبِلادها وتَسَطُّحها؛ ولهذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أحيينا به، سُقْناه فأَحْيَيناه، هنا الأفعال والضَّمائِرُ على نسقٍ واحد.

قَوْله: [﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ من البلد]: [من البلد]؛ يعني: أَرْضَ البَلَد هذه التي كانت مَيِّتَةً أحياها الله عَزَّوَجَلَّ؛ أحياها بالنبات؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يُبْسِها؛ أي: أَنْبَتْنا به الزَّرْعَ والكَلَأ] وهذا أمرٌ مُشاهَدٌ، تأتي الأَرْض يابِسَةً هامِدَةً عيدان تَتَكَسَّر فيُنْزِلُ الله المَطَر عليها، ثم تَهْتَزُّ خَضْراءَ فيها من كلِّ زوجٍ بَهيجٍ، فمن الذي أحياها؟

الله عَزَّوَجَلَّ، لا يَسْتَطِيعُ الخَلْقُ أن يُحْيُوها أبدًا مهما كان، حتى الكَلَأ الذي يُنْبَتُ بالمَطَرِ لا يُنْبِتُه الماء الجاري كما هو مُشاهَدٌ؛ يعني: لو تَسْقي هذه الأَرْضَ مهما سَقَيْتَها بالماءِ الجاري فإنَّ الكَلَأَ الذي يَنْبُت من المَطَر لا يُنْبَت بهذا الماء.

إذن: فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أحيا هذه الأَرْضَ بعد مَوْتِها؛ أي: بعد أن كانتْ يابِسَةً هامِدَةً ليس بها نباتٌ، أحياها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقُدْرَته.

قَوْله: [﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: البَعْثُ والإِحياءُ]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكافُ هنا اسْم بمَعْنى: (مثل)، وهي خبرٌ مُقَدَّمٌ و﴿ٱلنُّشُورُ﴾ مُبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ؛ أي: النُّشُورُ مثل ذلك، ويجوز أن تقول: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكافُ حرفُ جَرٍّ، ليست اسمًا بمَعْنى: (مثل) وتجعلها جارًّا ومَجْرورًا خبرًا مقدَّمًا، و﴿ٱلنُّشُورُ﴾: مُبْتَدَأً

مُؤَخَّرًا، والتَّقْدير: (النُّشُورُ كائنٌ كذلك)، و﴿ٱلنُّشُورُ﴾ هو نَشْرُ الأَمْواتِ على وَجْهِ الأَرْضِ وإِحْياؤُهُم بعد أن كانوا أمواتًا.

والتَّشْبيهُ هنا هل هو تشبيهٌ للسَّبَبِ والنَّتيجَةِ أو للنَّتيجَةِ فقط؛ أي: هل المَعْنى أنَّ النُّشُور الذي يكون للأَمْواتِ يكون بِواسِطَةِ ماءٍ يُنْزِلُه الله عَزَّوَجَلَّ فَتَنْبُتُ هذه الأَجْسامُ ثم تَحْيا، أو أنَّ التَّشْبيهَ للنَّتِيجَةِ فقط؛ أي إِنَّ إحياءَ الموتى كإحياءِ الأَرْضِ بِقَطْعِ النَّظَرِ عن السَّبَب؟

الجوابُ: الأَوَّلُ؛ لأَنَّه وَرَدَ عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَنَّ الله تعالى يُرْسِلُ على الأَرْض مِن تَحْتِ العَرْشِ مطرًا غَليظًا حتى يَصِلَ إلى الأَجْسامِ فتَنْبُتُ في القُبُورِ كما تَنْبُتُ الحَبَّةُ في الأَرْضِ، وإذا تكامَلَتِ الأَجْسامُ نُفِخَ في الصُّورِ، فخَرَجَتِ الأَرْواحُ إلى أَجْسامِها[1]، وعلى هذا فيكون التَّشْبيهُ هنا عائدًا إلى السَّبَب والنَّتيجَة أيضًا، هذا هو المشهور عند أَهْلِ العِلْمِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ في إِرْسالِ هذه الرِّياحِ اللَّطيفَةِ التي تَحْمِل أو تُثيرُ هذا السَّحابَ الثَّقيلَ، قال الله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد:١٢].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإثباتَ بالأَسْبابِ وأنَّ المسبَّباتِ مربوطةٌ بأَسْبابِها لِقَوْله تعالى: ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ﴾ فإنَّ الفاء هنا للسَّبَبِيَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه يَنْبَغي في الأُمُور الهامَّة أن يُصاغَ الماضي بِصيغَةِ الحاضِرِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، رقم (٤٩٣٥)، ومسلم: كتاب الفتن، باب ما بين النفختين، رقم (٢٩٥٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

استحضارًا له في الذِّهْنِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ فإنَّ تَصْويرَ الماضي بِصيغَة الحاضِرِ لا شَكَّ أنَّه يَحُثُّ الإِنْسَانَ إلى تَصَوُّرِه أكثَرَ من الشَّيْء الماضي.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هذا السَّحابَ يَجْري بأَمْرِ الله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هذا السَّحابَ له شعورٌ؛ يعني: معناه يَعْدُو ويَجْري، وهذا يُمْكِنُ أن يُؤْخَذُ من قَوْله تعالى: ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ أي: كما يُساقُ البَعيرُ، وعلى هذا جاء الحديثُ الصَّحيحُ في قِصَّةِ الرَّجُلِ الذي سَمِعَ صوتًا في سحابَةٍ: «اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ»[1]، فإنَّ تَوْجيهَ الأَمْرِ إليه يدُلُّ على أنَّه ذو شُعورٍ، ولا شَكَّ أنَّ جَميعَ الكائناتِ بالنِّسْبَةِ لأمر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّها ذاتُ شعور، قال الله تعالى في الأَرْض والسَّماء: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيان قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بإحياءِ الأَرْض بعد مَوْتِها؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: صِحَّةُ وَصْفِ الأَرْض بالحياةِ والمَوْتِ مع أنَّها لَيْسَت من الحيواناتِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الرَّدُّ على أَهْل الكَلَام الذين يقولون: إنَّه لا يُوصَفُ بالحياةِ والمَوْت شَيْءٌ من الجَماداتِ؛ لأنَّه هنا أَثْبَتَ الحياةَ والمَوْتَ للأَرْض وهي من الجماداتِ، وقال تعالى في الأَصْنَام: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢١].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب الصدقة في المساكين، رقم (٢٩٨٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بَيَانُ قُدْرَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بإحياء الأَرْض بعد موتها؛ فإنَّ هذه الأَرْضَ التي كانت يابِسَةً هامِدَةً تعود فتَهْتَزُّ خُضْرَةً وازدهارًا؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ فأضاف الإحياء إلى نَفْسِه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إِثْباتُ الأَسْبابِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ فإنَّ الباءَ هنا للسَّبَبِيَّة.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: جـواز إضافَةِ الشَّيْء إلى سَبَبِه المَعْلومِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

وإضافَةُ الشَّيْءِ إلى سَبَبِه المعلومِ أمرٌ واقِـعٌ في القُرْآن وفي السُّنَّة؛ بمَعْنى: أنَّـه لا يُشْتَرَطُ أن تَقْرِنَ معه الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا أَضَفْتَ الشَّيْءَ إلى سَبَبِه المعلوم -وإن لم تكن تَقْرِنُ الله به- فلا بأسَ، لكِنَّ المحرَّمَ أن يُضافَ إلى سببٍ غَيْرِ مَعْلومٍ لا شرعًا ولا حِسًّا، أو أن يضاف إلى سَبَبِه المعلومِ مَقْرونًا مع الله بِحَرْفٍ يقتضي التَّسْوِيَة.

فمثلًا: إضافَةُ الشِّفاءِ إلى التَّمائِمِ والحِلَقِ والخُيُوطِ، وما أشبهها، هذا لا يجوز؛ لأنَّ هذا السَّبَبَ غَيْرُ معلوم فلا يَصِحُّ، وإضافَةُ تَلْيينِ البَطْنِ إلى العَقَّارِ الذي تَناوَلْتَه حتى لَيَّنَ بَطْنَكَ صَحيحٌ؛ لأنَّه سببٌ معلومٌ بالحِسِّ، وإضافَةُ الشِّفاءِ إلى قِراءَة الفاتِحَةِ جائِزٌ؛ لأنَّه سَبَبٌ معلومٌ بالحِسِّ وبالشَّرْعِ؛ «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ»[1].

فالمَحْظُور إذن أن يُضافَ الشَّيْءُ إلى غَيْرِ سَبَبٍ شَرْعِيٍّ أو حِسِّيٍّ، أو أن يضافَ إلى سبب شَرْعِيٍّ أو حِسِّيٍّ مقرونًا مع الله بِحرْفٍ يقتضي التَّسْوِيَة؛ مثل: (لولا الله وكذا) فإن هذا لا يجوز؛ لأنَّه من الشِّرْك؛ حيث قَرَنَ الله مع غَيْره بالواوِ التي تَقْتَضي

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، رقم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

التَّسْوِيَةَ، ولكن قل: (لولا اللهُ ثم كذا).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ صِحَّةِ القياسِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ وإثباتُ القياسِ كثيرٌ في القُرْآن، فكُلُّ مَثَلٍ ضَرَبَه الله فهو دليلٌ على القياسِ؛ فكُلُّ مَثَلٍ سواء للدنيا أو للإِنْسَان أو للأوثان أو لأي شَيْء، فإنَّه دليلٌ على ثبوتِ القياسِ وصِحَّتِه؛ لأنَّ المقصودَ بالمَثَلِ قياسُ المَضْروبِ بالمَضْروب فيه، وهذا هو القياسُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: الإشارَةُ إلى أنَّ إحياءَ المَوْتى كإحياءِ الأَرْضِ بعد مَوْتِها؛ أي: كما جاء في الآثارِ أنَّ المَطَر يَنْزِل على الأَرْضِ كمَنِيِّ الرِّجالِ، يبقى أربعينَ يومًا تَنْبُت منه الأجسامُ، ثم بعد ذلك يُنْفَخُ في الصُّور، فتعودُ الأَرْواحُ إلى أجسامِهَا.

• • ۞ • •

الآيــة (١٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر:١٠].

﴿ مَن ﴾ هنا شَرْطِيَّةٌ والشَّرْطُ فيها ظاهِرٌ؛ يعني: يقول: أيُّ إِنْسَانٍ يريدُ العِزَّة فلِلَّهِ العِزَّةُ جميعًا ﴿ مَن كَانَ ﴾ لكنَّها عامَّة؛ لأنَّ أَسْماءَ الاسْتِفْهامِ وأَسْماءَ الشَّرْطِ والأَسْماءَ الموصولَةَ كُلَّها تُفيدُ العُمُومَ؛ يعني: أيُّ أَحَدٍ يريد العِزَّةَ؛ أي: يَطْلُبُها ويَحْرِص عليها، والعِزَّةُ هي الغَلَبَة والمَنَعَة وقهر الأَعْداءِ.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: فَلْيَطْلُبْها منه، فما دامت العِزَّةُ له مِلْكًا وتَصَرُّفًا فإنَّها لا تُطْلَب إلا منه؛ كما لو قُلْتَ: (من كان يريدُ المالَ فالمالُ عند زَيْدٍ) المَعْنى: فَلْيَطْلُبِ المالَ من زيدٍ، والمَعْنى هنا: من كان يريد العِزَّةَ فلْيَطْلُبِ العِزَّةَ من الله لا من غَيْرِه، هذا يُرادُ به الرَّدُّ على أولئك الذين يَعْبُدون الأَصنامَ لأجل أن يتَّخِذوا منها العِزَّة، ففي هذه الآيَة إشارَةٌ إلى أنَّه لا عِزَّة لهذه الأَصْنَام: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴾ [مريم:٨١].

الجواب: ﴿ كَلَّا ﴾ [مريم:٨٢] لن يكونوا لهم عِزًّا، بل بالعَكْس، سيُذِلُّونَهم في موقعٍ هم أَحْوَجُ ما يكونوا إلى العِزَّة ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾

[مريم:٨٢] فأين العِزَّةُ في هذه الأصْنامِ أو في هذه الآلِهَة التي اتَّخَذوها من دون الله؟

وردت العِزَّةُ في آياتٍ كثيرةٍ من القُرْآن، ورَدَتْ في آيَةٍ أخرى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المُنافِقون:٨] ولا منافاة بينها وبين هذه الآية، فإنَّ العِزَّة لله أَصْلًا، ولِرَسُولِهِ من الله، وللمُؤْمِنين من الله، وحينئذٍ فالعِزَّةُ كُلُّها لله كما قال الله تعالى في سورة (آل عمران): ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦] فكُلُّ من عنده عِزَّة فإنَّها ليست عِزَّةً ذاتِيَّةً له من ذاتِ نَفْسِه، ولكنها من الله عَزَّوَجَلَّ، وبماذا تكون العِزَّة التي يَكْتَسِبُها الإِنْسَان وهي من الله؟

تكون بما علَّق الله العِزَّة عليه وهي الإيمانُ ﴿وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المُنافِقون:٨] فمتى أراد الإِنْسَانُ العِزَّة فليكن مُؤْمِنًا، وكُلُّ ما كان أكْثَرَ إيمانًا بالله وأقوى إيمانًا بالله كان أكثر عِزَّةً وأقوى عِزَّةً.

ولهذا قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إِنَّا قَوْمٌ أَعَزَّنَا اللهُ بِالإِسْلَامِ فَلَنْ نَبْتَغِيَ العِزَّة بِغَيْرِهِ»[1] بسواه، أذَلَّنا الله، وصدق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ فالعَرَبُ لما كانوا عربًا ليس عندهم إِسْلامٌ كانوا أذِلَّةً فُقَراءَ يَذْهبونَ إلى اليَمَنِ في الشِّتاء ليأتوا بالسِّلَعِ منه، ويَذْهبونَ إلى الشَّامِ في الصَّيْف ليأتوا بالسِّلَع منه، فهم فُقَرَاءُ يَأْكُلون من غَيْرهم، لكِنْ لما آمَنُوا صاروا هم الأَغْنِياء، وصارت كُنُوزُ كِسْرى وقَيْصَرَ تأتي إلى المدينة لتُنْفَقَ عليهم من المدينة.

إذن: نحن مهما أردنا العِزَّة لن نَسْتَعِزَّ إلا بالإِسْلام، لن يكون أعداءُ الله سببًا لعِزِّنا أبدًا، بل إنَّ تَوَلِّينا إياهم وموالاتِنا لهم سببٌ للذُّلِّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٨/ ٣٢٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٢).

لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران:١١٨].

وإذا تَتَبَّعْتَ الواقِعَ وَجَدْتَه شاهدًا لِقَوْلِ الله تعالى هذا، وأنَّ أعداء المُسْلِمين لا يُمْكِن أبدًا أن يَسْعَوْا في إعزازِ المُسْلِمينَ، بل يَسْعَوْنَ بكلِّ جُهْدِهم إلى إذلالِ المُؤْمِنين وخِذْلانِهم، لكنهم يَمْكُرونَ، ويُخادِعونَ، ويَسْخرونَ، ويَسْتَهْزئون؛ لينالوا مآرِبَهم، ويضربوا النَّاسَ بَعْضَهُم ببعض.

فالحاصِلُ: أنَّه إذا كانت العِزَّة لله فمن أين نَطْلُبُها؟

الجواب: من الله، لا من غَيْره.

قَوْله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ من العِزَّة التي هي المُبْتَدَأ المؤَخَّرُ، وفي قَوْله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ فيها حَصْرُ العِزَّة لله عَزَّوَجَلَّ، ووَجْهُه: تقديمُ الخَبَر؛ لأن تقديم الخَبَرِ يُفيدُ الحَصْر.

إذن: تقديمُ الخَبَر يفيد الحَصْرَ؛ لأنَّ لدينا قاعِدَةً سبقت: وهي أن تقديم ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيد الحَصْرَ.

وَقَوْله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ يراد به عُمومُ الأَنْواعِ وعُمُومُ الأَزْمانِ وعُمُومُ الأَمْكِنَة. عموم الأَنْواعِ هي: عِزَّةُ القَدْر، والقَهْر، والامْتِناعِ.

والأَزْمان؛ أي: الدُّنْيا والآخِرَة.

والمكان: في مَشارِقِ الأَرْضِ ومَغارِبِها.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: في الدُّنْيا والآخِرَة فلا تُنالُ منه -أي: فلا تُنالُ العِزَّةُ من الله- إلا بطاعَتِه، فَلْيُطِعْه] أي: فَلْيُطِعْه

من كان يريد العِزَّةَ، أو (فَلْنُطِعْهُ) بالنون.

أفاد المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ جوابَ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ، وهو قَوْله: [فَلْيُطِعْهُ]، ولكن الصَّوابَ أنَّ التَّقْدير: (فَلْيَطْلُبْها من الله)، (من كان يريدُ العِزَّة فلِلَّهِ العِزَّة جميعًا فَلْيَطْلُبْها منه) ويَشْمَلُ الطَّلَبَ بلِسانِ الحالِ وبِلِسانِ المَقالِ.

أما على رأي المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنَّ الطَّلَبَ يَخْتَصُّ بلسانِ الحال فقط، فالصَّوابُ إذن أنَّ جوابَ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ، تَقْديره: (فَلْيَطْلُبْها منه) لِيَشْمَل ذلك طَلَبَ الحالِ وطَلَبَ المقالِ، فطَلَبُ المقالِ أن تقول: (اللَّهُمَّ أَعِزَّني)، (اللَّهُمَّ اجعل لي العِزَّةَ على عَدُوِّي) وهكذا، وطَلَبُ الحال: أن تقومَ بطاعَةِ الله بل بطاعَةِ الله مع تَحْقِيق الإيمان؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المُنافِقون:٨].

وقد ذُكِرَت العِزَّة في مواضِعَ كثيرةٍ من القُرْآن، ومنها قَوْله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المُنافِقون:٨]، وَقَوْله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤].

قَوْله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾: ﴿إِلَيْهِ﴾ جارٌّ ومَجْرورٌ مُقَدَّمٌ على عامِلِهِ وهو ﴿يَصْعَدُ﴾ والضَّميرُ في ﴿إِلَيْهِ﴾ يعود إلى الله عَزَّوَجَلَّ، لَمَّا ذكر أنَّ العِزَّةَ لله جميعًا بيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما يكون من أَسْبَابِ العِزَّة، فقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾.

قَوْله تعالى: ﴿يَصْعَدُ﴾ أي: يَرْتَفِعُ ويَعْرُج الكَلِمُ الطَّيِّب.

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَعْلَمُه] ففَسَّرَ صُعُودَ الكَلِمِ الطَّيِّبِ بِعِلْمِ الله إياه، وهذا تحريفٌ للكَلِمِ عن مواضعه، بل المُرادُ بالآيَة ظاهِرُها، أنَّ الكَلِمَ الطَّيِّبَ يصعد إلى

الله؛ يعني: يَعْرُج إلى الله عَزَّوَجَلَّ، لكن المُفَسِّر -غفر الله لنا وله- أراد أن يَبْعُدَ عن إثباتِ العُلُوِّ الذَّاتِيِّ، فقال: [يَعْلَمُه]، ولو كان المُراد العِلْمَ، لم يقل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ لأنَّ العِلْمَ لا يَلْزَمُ منه الصُّعُودُ، بل قد يكون العالِمُ بالشَّيْء أَنْزَلَ من الشَّيْءِ؛ كما لو كُنْتَ في أَسْفَلِ البِئْرِ وأنت تعلم ما فوق.

على كُلِّ حالٍ: هذه هَفْوَةٌ من المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، نسأل الله أن يَعْفُوَ عنه.

ونقول: إلى الله يَصْعَدُ؛ أي: يرتَفِعُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ في العُلُوِّ، وأدِلَّةُ العُلُوِّ قد بُيِّنَتْ في العقائِدِ، وأنَّها خَمْسَةُ أَنْواعٍ: الكِتَاب، والسُّنَّة، والإجْماع، والعَقْل، والفِطْرَة؛ كُلُّها مُتَّفِقَة على عُلُوِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذاتِهِ، وفي كِتَاب (الإقناع)[1] أنَّ شَيْخَ الإِسْلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: من زَعَمَ أنَّ الله تعالى معنا بذاتِهِ في المكانِ فهو كافرٌ.

وَقَوْله تعالى: ﴿ٱلْكَلِمُ﴾ اسْم، جَمْع (كَلِمَة)، فهو دالٌّ على الجمع، وما المُراد بالكَلِمِ الطَّيِّبِ؟

الكَلِمُ الطَّيِّب هو كلُّ كَلِمٍ يُقَرِّبُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فـ(لا إله إلا الله) من الكَلِم الطَّيِّب، وسبحان الله، والحَمْد لله، والله أكبر، كُلُّها من الكَلِم الطَّيِّب، والقُرْآنُ من الكَلِم الطَّيِّب، والأَمْرُ بالمعروف والنَّهْيُ عن المُنْكَر من الكَلِم الطَّيِّب، وقِراءَةُ العِلْم من الكَلِم الطَّيِّب، وكُلُّ قَوْلٍ يُقَرِّب إلى الله فهو من الكَلِمِ الطَّيِّب.

والكَلِمُ الطَّيِّبُ يقابله نوعان من الكَلَام: كَلِمٌ رَدِيءٌ خَبيثٌ، وكَلِمٌ لا هذا ولا هذا، لا يُوصَفُ بأنَّه طَيِّب ولا يوصف بأنَّه خبيثٌ.

أمَّا الكَلِمُ الخَبيثُ فككَلِمَةُ الكُفْرِ والسَّبِّ والشَّتْمِ واللَّعْن لمن لا يَحِلُّ سَبُّه

(١) الإقناع (٤/ ٢٩٨).

ولا شَتْمُه ولا لَعْنُه.

وأمَّا الكَلِمُ الذي لا هذا ولا هذا، فهو أكْثَرُ كَلَامِ النَّاسِ.

والصِّنْفانِ جميعًا لا يُرْفعانِ إلى الله؛ أمَّا الأَوَّل فَلِأَنَّه خَبيثٌ، و«اللهُ تعالى طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّبًا»[1]، وأمَّا الثاني فلِأَنَّه لم يُقْصَدْ به الله عَزَّوَجَلَّ حتى يُرْفَعَ إلى الله، وهذا الثاني -أعني: الذي ليس هذا ولا هذا- قد يكون طَيِّبًا لا لِذَاتِهِ ولكن لِغَيْـرِه؛ لِما يُوصِلُ إليه من المقاصِدِ الحَسَنَةِ، فإنَّ الإِنْسَانَ قد يَتَحَدَّثُ إلى شخص كَلَامًا ليس هو خَيْرًا في نفسه لكن يَقْصِد به التَّأْليفَ لهذا الرَّجُل وإدخالَ الأُنْسِ عليه والسُّرور، فيكون هذا الكَلَامُ الذي هو لَغْوٌ في نَفْسِه يكونُ مَحْمودًا لِمَا قُصِد به، كما أنَّ هذا الكَلَامَ الذي هو لَغْوٌ في نفسه إذا قُصِدَ به الإساءَةُ إلى من لا تَحِلُّ الإساءَةُ إليه صار كَلَامًا خَبيثًا لِغَيْرِه أي: لِما قُصِدَ به.

وعلى كلٍّ: فالكَلِمُ الطَّيِّبُ لِذاتِهِ أو لِغَيْرِه يَصْعَدُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قُلْتَ: كيف يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّب والكَلِمُ ليس جِرْمًا؟ بل أصواتٌ تُسْمَعُ بِحَركاتٍ مُعَيَّنَةٍ في الفم واللِّسان والشَّفَة؟

فالجوابُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قادِرٌ على أن يَجْعَلَ المَعْقولَ شَيْئًا مَحْسوسًا؛ كما ثبت في الحديثِ الصَّحيحِ أنَّه «يُؤْتَى بِالمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ...»[١].

وَقَوْله تعالى: ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ إنَّما جَمَعَهُ لِكَثْرَةِ أَنْواعِهِ، وكَثْرَةُ الأَنْواعِ تَدُلُّ على كَثْرَةِ الأَفْرادِ من بابِ أَوْلى، فالأَنْواعُ كثيرةٌ والأَفْرادُ في كلِّ نَوْعٍ كذلك كثيرَةٌ؛ فلهذا جَمَعَهُ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ يَقْبَلُه] أفادنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِقَوْله: [يَقْبَلُه] أنَّ الفاعِلَ في ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ يعودُ إلى الله، وأنَّ الهاءَ في ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ تعود إلى العَمَل الصَّالِحِ؛ يعني: والعَمَلُ الصَّالِحُ يَقْبَلُه الله، فكَوْنُ ضَميرِ الفاعِلِ يعود على (الله) وضَميرِ المَفْعولِ يَعودُ على (العَمَل) هذا لا نُناقِشُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه؛ لأنَّه مُحْتَمَلٌ، لكنَّنا نُناقِشُه في تَفْسيره الرَّفْعَ بالقَبُولِ، وكلُّ هذا فِرارًا من إثباتِ العُلُوِّ الذَّاتِيِّ، غفر الله له، بل نقول: مَعْنى ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ أي: يَرْفَعُ هذا العَمَل، من الرَّفْعِ الذي هو ضِدُّ النُّزُولِ، يَرْفَعُه إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّه فوق، وهذا التَّفْسيرُ في مَرْجِعِ الضَّمائِرِ الذي ذكره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو أَحَدُ التَّفاسِيرِ المَذْكورَةِ في هذه الآيَة.

التَّفْسير الثاني: (والعَمَلُ الصَّالِحُ يرفَعُهُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ) فجَعَلَ ضَميرَ الفاعِلِ يعودُ على ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وجعل الهاءَ تعود على ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ فيكون العَمَل الصَّالِحُ مَرْفُوعًا بالكَلِمِ الطَّيِّبِ، واحْتَجَّ هؤلاء بأنَّ العَمَلَ الصَّالِحَ لا يُقْبَلُ إلا بالإِسْلام، وهو الكَلِمُ الطَّيِّبُ الذي هو (لا إله إلا الله)، فإنَّ الإِنْسَانَ لو عَمِلَ من العَمَلِ الصَّالِحِ الشَّيْءَ الكَثيرَ لكنه غَيْرُ مُسْلِمٍ لا يَرْتَفِعُ هذا العَمَل، فلا يَرْفَعُ العَمَلَ الصَّالِحَ إلا الكَلِمُ الطَّيِّبُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٤٨)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٥٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

والقَوْل الثالثُ: بالعَكْس، يقول: (والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ) فيكونُ الفاعِلُ في ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ العَمَلُ الصَّالِحِ، والمفعولُ ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ عكس الذي قبله، ما وَجْهُ ذلك؟

يقول: العَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ؛ لأنَّ الكَلِمَ الطَّيِّب بدون عمل لا ينفع صاحبه فلا بُدَّ في الكَلِم الطَّيِّبِ من عملٍ صَالِح يرفع ذلك القَوْلَ الطَّيِّبَ.

والأَقْرَبُ -والله أعلم- أنَّ ما ذهب إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الصَّوابُ؛ أي: إنَّ الله يَرْفَعُ العَمَلَ الصَّالِحَ؛ كما أنَّ الكَلِمَ الطَّيِّب يَصْعَدُ إلى الله، فإذا صَعِدَ الكَلِمُ الطَّيِّب إلى الله امْتَنَّ الله على هذا المُتَكَلِّم بأنْ رَفَعَ العَمَلَ الصَّالِحَ الذي يَعْمَلُه، إلا أنَّنا لا نُوافِقُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفْسيرِ الرَّفْعِ بالقَبولِ، نُوافِقُه على مَرْجِعِ الضَّمائِرِ، لكنْ لا نُوافِقُه على تَفْسيرِ الرَّفْعِ بالقَبُولِ.

وحينئذٍ نقول: والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُه الله عَزَّوَجَلَّ، فيكونُ الله عَزَّوَجَلَّ -في هذه الآيَة- ذَكَرَ القَوْلَ والعَمَل، فذَكَرَ أنَّ القَوْل يَصْعَدُ وأنَّ العَمَل يُرْفَعُ؛ لأنَّ رَفْعَ العَمَلِ كالجَزاءِ على الكَلِمِ الطَّيِّبِ، فإذا تكَلَّمَ الإِنْسَانُ بالكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ فصَعِدَت إلى الله عَزَّوَجَلَّ قَبِلها، ثم رَفَعَ العَمَلَ الصَّالِحَ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾ المَكَراتِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالنَّبِيِّ في دار النَّدْوَةِ من تَقْييدِهِ أو قَتْلِهِ أو إِخْراجِهِ كما ذُكِرَ في الأنفال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ يَهْلِك].

الواو للاسْتِئْنافِ، و﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مُبْتَدَأٌ، وجُمْلَة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ خبر المُبْتَدَأ.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فيه نوعٌ من الإِشْكالِ؛ لأنَّ السَّيِّئاتِ لا تُمْكَرُ، وإنَّما يُمْكَرُ بها؛ يعني: يُمْكَرُ بِسَبَبِ السَّيِّئات، فلماذا تعدى الفِعْلُ إليها؟

أفادنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ السَّيِّئاتِ صِفَةٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، والتَّقْديرُ: (المَكَرَات السَّيِّئاتِ) فيكونُ الوَصْفُ هنا للفِعْلِ لا لِما حَصَلَ به المَكْرُ؛ لأنَّ فِعْلَهم نَفْسَه مَكْرٌ سَيِّئٌ، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣]، وسَمَّى الله عَزَّوَجَلَّ السَّيِّئاتِ مَكْرًا؛ لأنَّ الإِنْسَانَ في الواقِعِ يَخْدَعُ نَفْسَه بها، ويَخْدَع غَيْرَه بها، فيُمَنِّي نَفْسَه التَّوْبَة وأنَّه سيتوب، أو يُمَنِّي نَفْسَه سَعَةَ حِلْمِ الله ومَغْفِرَتِه وأنَّ الله واسِعُ الحِلْم والمَغْفِرَة والرَّحْمَةِ، فلن يؤاخِذَه بهذه العُقُوبَةِ، فتَمَنِّي الإِنْسَانِ في هذا الباب من وَجْهَيْنِ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أنَّه يُمَنِّي نَفْسَه التَّوْبَة، وما يُدْرِيهِ فَلَعَلَّه لا يتمكَّنُ منها، لعل سَيِّئاتِه تُحيطُ به ثم لا يَتَمَكَّن من التَّوْبَة، أو لَعَلَّه يَفْجَؤُه الموتُ، ثم لا يتمَكَّنُ من التَّوْبَة.

الوجه الثاني: أنَّه يتَمَنَّى على الله الأَمانِيَّ، فيقول: (إنَّ الله غفورٌ رحيم)، و(الله واسع الرَّحْمَة)، و(سوف يعفو عني) كما يُوجَدُ عند كثيرٍ من النَّاسِ عندما يَعْمَلُ مَعْصِيَةً؛ حيث يقول لك: اللهُ غفورٌ رحيم، بل بَعْضُهُم يحتج بالآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] ويقول: أنا لم أُشْرِكْ، وما دون الشِّرْك فإنَّ الله تعالى يَغْفِرُه.

وجوابُنا على ذلك يَسيرٌ جِدًّا، وهو أن نقول له: أَثْبِتْ أَنَّكَ مِمَّنْ شاء الله أن يَغْفِرَ له؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ما قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ وسكت، بل قيَّدَه بِقَوْله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ فأنت أَثْبِتْ أَنَّكَ مِمَّن شاء الله أن يَغْفِرَ له، وحينئذٍ يكون لكَ حُجَّةٌ، أمَّا أن تفعل المَعْصِيَةَ التي هي سبب العُقُوبَةِ ثم تتمَنَّى على الله أمرًا لم يَعِدْكَ الله به، بل قال: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ فهذا لا شَكَّ أنَّه ضلالٌ منك.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ السَّيِّئاتُ هي ما يَسوءُ الإِنْسَانَ فِعْلُه مثل شُرْبِ الخَمْر، السَّرِقَة، الزِّنا، الرِّبا، وما أشبه ذلك.

فإن قُلْتَ: هذا لا يسوء الإِنْسَانَ فِعْلُه!

فجوابُنا على هذا أن نقول: إن أَرَدْتَ أَنَّه لا يَسُوءُ الإِنْسَانَ فِعْلُه أبدًا فهذا ليس بصحيحٍ؛ لأنَّه يوم القِيامَة سوف يَنْدَمُ، وسوف يَسُوء الإِنْسَانَ فِعْلُه في ذلك اليوم.

أمَّا في الدُّنْيا فإنَّه يسوء الإِنْسَان فعله؛ لأنَّ للذُّنوبِ آثارًا على القُلُوب، فإنَّ المعاصِيَ تكون نُقْطَةً سَوْداءَ في القَلْبِ فإن تاب الإِنْسَانُ انْصَقَلَ قَلْبُه وعاد إلى بياضِهِ، وإلا تَوَسَّعَت هذه النُّقْطَةُ السَّوْداء، وأَصْبَحَ القَلْبُ مُظْلِمًا -والعياذ بالله- بل يُخْتَمُ عليه حتى لا يَصِلَ إليه الخير كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلۡ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

فللذُّنوبِ آثارٌ عظيمَةٌ على القَلْبِ تُوجِبُ أن يكون مُنْقَبِضًا، وإذا تلَذَّذَ بعضَ الشَّيْء في هذه المَعْصِيَةِ فإنَّه يَعْقُبُ ذلك حَسْرَةٌ عَظيمَةٌ في القَلْبِ وضِيقٌ، واقرأ إن شِئْتَ قَوْلَ الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢]، يتبيَّنْ لك أنَّ المَعْصِيَة تَسُوء فاعِلَها، وإن كان قد لا يَشْعُرُ بها؛ لأنَّه قد ران على قَلْبِه ما كان يَعْمَل.

إذن: السَّيِّئاتُ سَيِّئاتٌ لِكُلِّ حالٍ تَسُوء صاحِبَها في الدُّنْيا، ولكن قد لا يَظْهَر، وقد لا يَتَبَيَّن له، وفي الآخِرَة يَظْهَرُ له ويَتَبَيَّن ويتمَنَّى أن يعود إلى الدُّنْيا لِيَعْمَلَ صَالِحًا.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ﴾ المَكَرَاتِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالنَّبِيِّ في دار النَّدْوَةِ من تَقْييدِهِ، أو قَتْلِه، أو إخْراجِهِ، كما ذُكِرَ في الأنفال] هذا في الحَقيقة إذا أراد

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه المُرادُ بالآيَة دونَ غَيْره فقُصُورٌ، وإن أراد بذلك التَّمْثيلَ فصحيحٌ؛ فإنَّه لا شَكَّ أنَّ هؤلاء مَكَروا بالنَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

مَعْنى ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: يُقَيِّدوكَ ويَحْبِسوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ هذا واضح، و﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ أي: من مَكَّة، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ فهُم -الحَمْد لله- ما أَثْبَتُوه، ولا قَتَلُوه، ولا أَخْرَجُوه، كل هذه انْتَفَتْ مع حِرْصِهم الشَّديدِ على تَنْفيذِها، لكنْ ما حصل منها شَيْءٌ.

وجُمْلَة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هذه الجُمْلَةُ جُمْلَة خَبَرِيَّة، وهي في مَحَلِّ رفعٍ خَبَرُ ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾.

والعذابُ بمَعْنى العُقُوبَةِ، والشَّديدُ؛ أي: القَوِيُّ، فهو قويٌّ في إيلامِهِ، وإيجاعِهِ، وفي أَنْواعِهِ المُتَنَوِّعة، من حَرُورٍ، وبَرْد، وعَطَشٍ، وجُوع، وغير ذلك من شِدَّتِه؛ لهم -والعياذ بالله- سَرابيلُ من قَطِرانٍ كُلَّما نَضِجَت جلودهم قال الله تعالى: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦]، وقال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧]، وانظر إلى قَوْله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ﴾ [الإسراء:٩٧] يَتَبَيَّن لك أنَّ الزيادَةَ تأتي فَوْرًا.

والله عَزَّوَجَلَّ قادِرٌ على أن تبقى بزيادَتِها، لكنَّها تخبو ليكون في قُلوبِهِم شَيْءٌ من الطَّمَع في خِفَّةِ العذابِ أو الخُرُوج، ثم يعود: فيكونُ هذا أَشَدَّ؛ لأنَّ ضَرْبَ الإِنْسَانِ بِعُقوبَةٍ بعد الطَّمَعِ في زوالِهَا يكونُ أَشَدَّ عليه مِمَّا لو كان الأَمْرُ مُسْتَمِرًّا.

وَقَوْله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هذا مُفَصَّلٌ في الكِتَاب والسُّنَّة، فمن تَتَبَّعَه

-أي أَنْواع العَذابِ التي للكافرينَ في النَّار- من القُرْآن يكون جَيِّدًا.

قَوْله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾: ﴿وَمَكْرُ﴾ مُبْتَدَأ خَبَرُه جُمْلَةُ ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ و﴿هُوَ﴾ لا تَصِحُّ هنا أن تكون ضَميرَ فَصْلٍ؛ لأنَّ القاعِدَةَ أنَّ ضميرَ الفَصْلِ يكون بين اسْمَينِ لا بين اسْمٍ وفِعْلٍ، لكنها مُبْتَدَأٌ خَبَرُها جُمْلَةُ ﴿يَبُورُ﴾ والجُمْلَةُ من المُبْتَدَأِ والخَبَر خَبَرُ ﴿وَمَكْرُ﴾ وأتى بهذا التَّركيبِ من بابِ تَعْظيمِ هذا الشَّيْءِ وتَهْويلِهِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ولم يَقُلْ: (مَكْرُ هؤلاء) إمَّا اسْتِبْعادًا لهم؛ لأنَّهم ليسوا أَهْلًا لأن يُقَرَّبوا؛ أو لأنَّهم هم جَعَلُوا أَنْفُسَهُم في محل العالينَ الذين يُشارُ إليهم مِن بُعْدٍ، فبيَّنَ أنَّ هؤلاء الذين تَعَالَوْا بِمَكْرِهم -وإن كانوا في القِمَّةِ على حَسَب زَعْمِهِم- فإنَّ هذا المَكْرَ يَبورُ؛ والبوار بمَعْنى الهلاك كما قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩].

فهؤلاء مَكْرُهُم يَبورُ؛ أي: يَتَلاشى ويَضْمَحِلُّ، ولا يفيدهم شيئًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: في هذا الحَثُّ على طلب العِزَّةِ من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه ليس المَعْنى أنَّ من أرادَ العِزَّة فَلْيَطْلُبْها من الله، فليس المُرادُ العَرْض فقط؛ إذ كُلُّ أحدٍ يريد العِزَّةَ، لكن إذا أَرَدْتَ العِزَّةَ فمِمَّنْ تَطْلُبُها؟ من الله، ففيه إثباتُ أنَّ العِزَّةَ تُطْلَب من الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه لا عِزَّةَ بدون الله، وذلك بالقيامِ بطاعَةِ الله، والاسْتِعانَة به، والاعتمادِ عليه، فإذا اعْتَزَّ الإِنْسَانُ بِكَثْرَتِه فإنَّه يُهْزَم، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التَّوْبَة:٢٥]، ولو اعْتَزَّ الإِنْسَانُ بِقُوَّتِه المادِّيَّة كقُوَّةِ السِّلاحِ مثلًا فإنَّه يُهْزَم،

وإذا استعانَ بالله فإنَّه لا يُهْزَم، اللَّهُمَّ إلا لِحِكْمَةٍ تكون مُقْتَرِنَةً بتلك القَضِيَّةِ المُعَيَّنَة فقد يكون.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِثْباتُ العِزَّةِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ العِزَّة لها كلٌّ وبَعْضٌ، وهذا مَأْخوذٌ من قَوْله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ مِمَّا يَدُلُّ على أنَّ هناك كُلًّا وبَعْضًا، وذلك أنَّ العُلَماءَ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ قَسَّمُوا العِزَّة التي اتَّصَف الله بها إلى ثلاثة أقْسامٍ: عِزَّة الامْتِناعِ، وعِزَّة القَدْرِ، وعِزَّة القَهْر.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إِثْباتُ عُلُوِّ الله، وهذا مَأْخوذٌ من قَوْلِه تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ لأنَّ الصُّعُودَ هو العُلُوُّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الكَلِمَ غَيْرُ الطَّيِّبِ لا يَصْعَدُ إلى الله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ويؤيِّدُ هذا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»[1].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الإشارَةُ إلى انْقِسامِ الكَلَام؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾ فإن هذا الوَصْفَ إخراجٌ لما سِواهُ، وقد تَقَدَّم: أنَّ الذي يقابِلُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ نوعان من الكَلَام: الخَبيثُ، وما ليس بطَيِّبٍ ولا خَبيثٍ.

أمَّا الخبيثُ فمَرْدودٌ بكُلِّ حالٍ؛ لأنَّه خبيثٌ لِذَاتِهِ، وأمَّا ما ليس بطَيِّبٍ ولا خَبيثٍ، فقلنا: إن هذا القِسْمَ من الكَلَام قد يكون طيِّبًا لِغَيْره، وخبيثًا لغيره، وسالِمًا من الوَصْفين، فإذا كان طَيِّبًا لِغَيْره فإنَّه يَصْعَدُ إلى أعلى؛ لعموم قَوْله تعالى: ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يَرْفَعُ من الأعمـال إلا ما كان صَالِحًا؛ لِقَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ والعَمَل الصَّالِح ما اشْتَمَلَ على وصفين: الإِخْلاص لله، والمُتابَعَة لِشَرْعِه، فإن فُقِدَ الإِخْلاص فليس بعَمَلٍ صَالِحٍ؛ لأنَّه شِرْك، وإن فُقِدَت المُتابَعَة فليس بعملٍ صَالِح؛ لأنَّه بِدْعَة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ الأَعْمـالَ السَّيِّئَةَ مَكْرٌ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هذا إذا أَخَذْناها على سبيل العُمومِ، أمَّا إذا قلنا: إنَّ السَّيِّئاتِ عامٌّ أريدَ به الخاصُّ فالمَكْرُ الذي حصل من أَذِيَّة قُرَيْشٍ للرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإنَّه يكون خاصًّا، لكِنَّ الأَصْلَ في الكَلَام أن يكون مُرادًا به العُمُومُ وأن يكون باقيًا على عُمُومه حتى يَرِدَ دليلٌ على أنَّه أريد به الخُصُوص أو على أنَّه مُخَصَّص.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الوَعيدُ الشَّديدُ على هؤلاء الذين يَمْكُرون السَّيِّئاتِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ مَكْرَ هَؤلاءِ هالِكٌ زائِلٌ لا فائِدَة فيه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ حتى أَعْمالُهم لا تَنْفَعُهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

هذه هي الفوائِدُ الظَّاهِرَة من هذه الآيَةِ الكَريمَة، وربَّما عند التأمُّلِ يَجِدُ الإِنْسَان أَكْثَرَ؛ لأنَّ كَلَامَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُحاطُ به، ولكِنَّ النَّاسَ يَخْتَلِفونَ في الفَهْمِ.

الآيــة (١١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر:١١].

لَمَّا بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما سبق من الآياتِ الدالَّة على قُدْرَتِهِ من إِرْسالِ الرِّياحِ، وإِثارَةِ السَّحَابِ، وسَوْقِه إلى الأَرْض المَيِّتَة، وإحياءِ الأَرْضِ بعد مَوْتِها، وأنَّ الأعمالَ من أَقْوالٍ وأفعالٍ تُرْفَعُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

قال هنا: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ وهذا باعتبارِ الأَصْلِ الذي هو آدَمُ؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِخَلْقِ أبيكُم آدَمَ منه] أي: إنَّ الله تعالى خَلَقَه من ترابٍ، وهذه الآيَةُ فيها أنَّ الله خَلَقَه من تراب، وفي آيَةٍ أخرى أنَّه خَلَقَه من طينٍ، وفي آيَةٍ ثالثة أنَّه خَلَقَه من صَلْصَالٍ من فَخَّارٍ، وفي آيَةٍ رابِعَة: من حَمَأٍ مَسْنونٍ، فما هو الجوابُ عن هذا التَّغَيُّر؟

الجواب: أنَّ هذا تَغَيُّر أوصافٍ، وليس تَغَيُّرَ ذواتٍ وحينئذٍ فلا تناقُضَ؛ إذ يَجوزُ أن تَتَعَدَّدَ الأَوْصافُ على مَوْصوفٍ واحِدٍ، قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى:١-٤] مع أنَّه واحِدٌ.

الحاصِلُ: أن يقال في هذا التَّغَيُّر: إنَّ هذا تَغَيُّرُ أَوْصافٍ وليس تَغَيُّرَ ذواتٍ

وأعيانٍ، فالعَيْنُ واحِدَة، لكنَّ أَوَّلَها التراب، فإذا أُضيفَ إليها الماءُ صارت طينًا، فإذا أُطْرِي وأَخذَ مُدَّةً صارت حَمَأً مَسْنُونًا مُتغَيِّرًا؛ يعني الطِّينُ إذا أَكْثَرْتَ فيه الماءَ تَجِدُه يَسْوَدُّ وتكون له رائِحَة، والرَّابعُ من صلصالٍ كالفَخَّارِ هذا بعد أن كان حَمَأً مَسْنُونًا يَبِسَ وصار صَلْصالًا كالفَخَّار، ثم نَفَخَ الله فيه الرُّوحَ، فيكون هنا التَّغَيُّر تَغَيُّرَ أوصافٍ، والأَصْلُ فيه التُّرابُ.

قَوْله تعالى: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أتى بـ(ثم) الدالَّةِ على التَّراخي والتَّرْتيب؛ لأن (ثم) تدلُّ على التَّراخي والتَّرْتيب، و(الفاءُ) تَدُلُّ على التَّرْتيبِ بدون تراخٍ، هنا قال: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ لأنَّه لَمَّا خَلَقَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آدَمَ وخَلَقَ ذُرِّيَّته تَناسَلَتْ هذه الذُّرِّيَّة بواسِطَةِ هذا الماء الذي هو النُّطْفة، والنُّطْفة هي الماء القَليلُ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: مَنِيٍّ بِخَلْقٍ ذُرِّيَّته منها]؛ أي: من هذه النُّطْفَة، والغَريبُ أنَّ هذه النُّطْفَة القَليلَةَ يَذْكُر عُلَماءُ الطِّبِّ أنَّها تَشْتَمِل على ملايينَ من الحيواناتِ المَنَوِيَّةِ، وهذه النُّطْفَة التي يَزْعُمونَ أنَّها ملايينُ -وهم أعلم منا بذلك- لا يَصْلُح منها إلا واحِدٌ في الغالِبِ، أو اثنان، أو ثلاثة، أو أربعة، هذا أنْهى ما سَمِعْت، أنَّه يُولَدُ للمَرْأَةِ أَرْبَعَةُ أولادٍ في بطنٍ واحِدَة، واللهُ على كل شَيْءٍ قَديرٌ، قد يَزيدُ في الخَلْقِ ما يشاء.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ ذكورًا وإناثًا].

قَوْله تعالى: ﴿أَزْوَٰجًا﴾ فسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا الأَزْواجَ بالذُّكورَةِ والأُنوثَةِ بِقَرينَةِ قَوْله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ الأَزْواجُ هنا باعْتِبارِ الجِنْسَيْنِ: الذَّكَرِ والأنثى، ويؤيِّدُ تَخْصيصَ الأَزْواجِ هنا بالذُّكورَةِ والأُنوثَةِ قَوْله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ أمَّا إذا نَظَرْنا إلى لَفْظِ أَزْواجٍ فإنَّ الأَزْواجَ بِمَعْناها

الأَصْناف، والأَصْنافُ أَعَمُّ من الذُّكورَةِ والأُنوثَةِ، فإنَّه يَشْمَلُ الشَّقِيَّ والسَّعيدَ، والأَسْوَدَ والأَبْيَضَ، والطَّويلَ والقَصيرَ، وغير ذلك، لكِنَّ الذي جعل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَحْمِلُ الكَلَامَ على الذُّكورَةِ والأُنوثَةِ فقط قَوْله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾.

فاللهُ عَزَّوَجَلَّ بقُدْرَتِه وحِكْمَتِه جَعَلَ هذه الذرِّيَّة التي خرجت من هذا الرَّجُل الواحِد جعلها ذكورًا وإناثًا لبقاءِ النَّسْل؛ لأنَّه لا يُمْكِن بقاءُ النَّسْل إلا بهذا، وإن كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادرًا على أن يُبْقِيَ النَّسْل بدون هذا، فإنَّه يقال: إنَّ البَشَرِيَّة منها ما خُلِقَ بلا أمٍّ وأبٍ، ومنها ما خلق من أبٍ بلا أمٍّ، ومنها ما خُلِقَ من أمٍّ بلا أبٍ، ومنها ما خُلِقَ من أبوين؛ فالذي خُلِقَ بلا أمٍّ ولا أبٍ آدمُ، ومن أبٍ بلا أمٍّ حواءُ، ومن أمٍّ بلا أبٍ عيسى، وسائِرُ النَّاس بين أبوينِ من ذكرٍ وأنثى.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ حالٌ؛ أي: مَعْلومةً له].

(ما) هذه شَرْطِيَّة، هنا ﴿مِنْ﴾ حرف جَرٍّ زائِدٌ ﴿أُنثَىٰ﴾ فاعِلُ ﴿تَحْمِلُ﴾ مرفوعٌ بضَمَّة مُقَدَّرَة على آخره منع من ظهورها التَّعَذُّر، لكنه في الواقِع من حيث اللَّفْظُ مَجْرورٌ لفظًا.

قَوْله: [﴿أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ أي: أنثى ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ حال؛ أي: معلومةً له] أيْ أُنْثَى تَحْمِل من بني آدم، أو مِنْه ومن غَيْره؟

الجواب: منه ومن غَيْره، ما تَحْمِلُ ولا تضع إلا بعلمه، وهذا كقَوْله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام:٥٩]، فالله عَزَّوَجَلَّ يعلَمُ ما تحمل كل أنثى في ابتداء الحَمْل وتَطَوُّر الحَمْل، ومآلِ الحملِ، وكل ما يَتَعَلَّقُ به؛ ولا تَضَعُ إلا بعلمه،

فأوَّلُ ما ينشأ الحَمْل في الرَّحِم معلومٌ عند الله، وإذا وَضَعَت فهو معلومٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وَقَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حال] يعني أنَّ الجارَّ والمَجْرور في مَوْضِعِ نصبٍ على الحال، فمَعْنى ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ قال: إلا مَعْلومَةً له، ويُمْكِن أن نقول: لا حاجة إلى هذا التأويلِ، بل نقول: إنَّ الباءَ هنا للمُصاحَبَة والمقارَنَة؛ أي: لا يَحْصُل الحَمْل ولا الوَضْع إلا مقرونًا بعِلْم الله عَزَّوَجَلَّ.

ونضيف إلى ذلك أيضًا أنَّه بعلمه وإرادته، لكنْ سَنَأْخُذ -إن شاء الله- من الفوائِدِ هنا أنَّ فيها دليلًا على أنَّ من أَثْبَتَ العِلْمَ لزم أن يُثْبِتَ الإرادَة؛ ولهذا قال أَهْل السُّنَّة -الشافعي وغيره- بالنِّسْبَة للقَدَرِيَّة: «ناظِرُوهُم بالعِلْم، فإن أنكروه كَفَروا، وإن أَقَرُّوا به خُصِمُوا»[1] إن قالوا: (الله لا يَعْلَمُ عن عباده) كفروا، وإن قالوا: يعلم خُصِمُوا؛ لأنَّه إذا عَلِمَ ذلك، فإما أن يَقَعَ الشَّيْءُ على خلاف مَعْلُومِهِ أو على وِفاقِهِ، فإن كان على وِفاقِهِ فبإرادَتِه، وإن كان على خِلافِهِ فقد أنكروا العِلْمَ؛ أي: إنَّهم بهذا يُنْكِرون العِلْمَ.

قَوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: ما يُزادُ في عُمُرِ طَويلِ العُمُرِ ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي: ذلك المُعَمَّر أو مُعَمَّر آخر ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ هو اللَّوْحُ المَحْفوظُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ هَيِّنٌ].

﴿وَمَا﴾ هذه نافِيَةٌ أيضًا بدليل قَوْله تعالى: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ ودليلٌ آخر؛ قَطْعُ الفِعْل عنها، قَوْله تعالى: ﴿يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ مَعْنى التَّعْمير: الزِّيادَةُ في العُمُر؛ أي: لا يُزادُ في عُمُرِ أحدٍ ولا يُنْقَصُ من عُمُرِه إلا في كِتَاب.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٤٧).

فَقَوْله تعالى: ﴿مِن مُّعَمَّرٍ﴾: ﴿مِن﴾ هذه زائِدَةٌ داخِلَةٌ على نائب الفاعِلِ، فنقول في ﴿مُّعَمَّرٍ﴾: نائبُ فاعلٍ مرفوعٌ بضَمَّة مُقَدَّرَة على آخِرِه منع من ظهورها اشْتِغالُ المَحَلِّ بِحَرَكةِ حرف الجَرِّ الزَّائِدِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ هنا يقول: ﴿مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: ذلك المُعَمَّر أو مُعَمَّر آخر] أمَّا كَوْنُ الضَّميرِ في قَوْله تعالى: ﴿عُمُرِهِۦٓ﴾ يعود على مُعَمَّرٍ آخَرَ فهذا لا إشكال فيه؛ لأنَّه يكون مُعَمَّرًا فيكون الثاني ناقِصًا، لكنَّ الإشكال إذا قلنا: إنَّ الضَّميرَ يعود على المُعَمَّر نَفْسِه فكيف يكون معمَّرًا وهو في الوقت نَفْسِه منقوصٌ من عمره؟

الجواب: هذا مَحَلُّ إشكالٍ فيما يظهر؛ قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ لِنَفْرِض أنَّه زَيْدٌ، ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ إذا قلنا: الضَّميرُ يعود على ذلك المُعَمَّر صار يعود على (زَيْد) فيكون زيدٌ مُعَمَّرًا مَنْقُوصًا من عُمُرِه، إذا قلنا: إنَّه عائِدٌ على مُعَمَّرٍ آخر ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي: من عُمُرِ مُعَمَّرٍ آخَرَ، لا يلزم الأوَّلُ؛ صار النَّقْصُ يعود على شَخْصٍ آخر، فعِنْدنا زيدٌ مُعَمَّرٌ، وعَمْرٌو مَنْقُوصٌ من عُمُره، فهذا لا إشكال فيه.

لكنَّ الإِشْكالَ الأوَّلَ: اختلف المُفَسِّرون رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في تَوْجِيهِه؛ فقال بعضهم: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ إنَّ النَّقْص هنا في مُقابِلِ الزِّيادَة؛ لأنَّ الإِنْسَان كلَّما تقدَّم يومًا في الدُّنْيا نَقَصَ عُمُره باعتبارِ آخِرِ عُمُره؛ مثلًا الذي له عَشْرُ سَنواتٍ فإذا صار له إحْدَى عَشْرَةَ، وقُدِّرَ أنَّه سيموت في عِشرينَ سَنَة، فهذا نَقْصٌ، لأنَّه كُلَّما زاد من وَجْهٍ نَقَصَ من وجهٍ آخر.

فالمَعْنى: أنَّه يُكْتَبُ نَقْصُه كما تُكْتَبُ زيادَتُه؛ فيُكْتَب مثلًا: (فلانٌ بَلَغَ من العُمُر

عَشْرَ سنين، ونَقَصَ من عُمُرِه؛ يعني: من آخِرِ عُمُرِه عشر سنين؛ بلغ إحدى عَشْرَةَ، ونَقَصَ من عمره إحدى عَشْرَة، فبقِيَ تِسْعٌ وهكذا، وإلى هذا ذهب بعضُ التَّابعينَ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

ولكِنَّ آخرينَ من أَهْلِ العِلْم من المُفَسِّرينَ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ قالوا: إن هذا حينَ أَخْبَرَ به النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بِقَوْله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[1] وبيَّنَ أنَّ الإِنْسَان يُنْقَصُ عُمُرُه ويُزادُ بحَسَب صِلَة الرَّحِم؛ مثلما يُنْقَص من عُمُره إذا لم يَصِلْ رَحِمَه، ويُزادُ في عُمُره إذا وَصَله.

والمَعْنى على هذا التَّفْسيرِ: أنَّ زيادَةَ العُمُر أو نَقْصَه مكتوبٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ، فمن قُدِّر له أن عُمُرَه يطولُ بِصِلَة الرَّحِم فسوف يُقَدَّر له أن يَصِلَ رَحِمَه، ومن قُدِّرَ له أن يُنْقَصَ عُمُره بقطيعة الرَّحِم فسوف يكون قاطعًا لِرَحِمِه؛ لأنَّ المُسَبَّباتِ مَرْبوطةٌ بأسْبابِها، معلومةٌ عند الله.

وهذا يُزيلُ عنا الإشكالَ الذي أُشْكِل، أورده بعضُ العُلَماءِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في هذا الحديث، وحاولوا أن يُفَسِّروا زيادَةَ العُمُرِ بالبَرَكَةِ في عُمُرِ الإِنْسَان؛ بأنَّ الله إذا أنزل بَرَكةً في العُمُر وإن كان قَصيرًا صار خَيْرًا من عُمُرٍ طويلٍ بلا بَرَكَةٍ، ولكن تقدَّم لنا أنَّ هذا لا يُخْرِجُهم من الإشكال؛ لأنَّ البَرَكَة أيضًا مكتوبةٌ، وكذلك مَحْقُها مكتوبٌ، فلا يُخْرِجُهم ذلك من الإشكال، لا يَخْرُجون من الإشكالِ إلا أن نقول: إنَّ عُمُرَ الإِنْسَان المُطَوَّل بسبب صِلَةِ الرَّحِم قد كُتب، وقد كُتِب أن يَصِلَ رَحِمَه، إِذَن ما الفائِدَة من قَوْل الرَّسُولِ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ...؟».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق، رقم (٢٠٦٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم، رقم (٢٥٥٧)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الجواب: الفائِدَة من ذلك: الحَثُّ على صِلَةِ الرَّحِم، كما أَنَّنا نقول: (من أَحَبَّ أنْ يَدخُلَ الجَنَّة فَلْيَعْمَلْ عملًا صَالِحًا) فلا يقول قائل: إذا كانت الجَنَّة مَكْتوبةً فكيف يَدْخُلُها ولم يَعْمَل؟ كيف إذا عَمِلَ كُتِبَتْ له الجنَّة؟

ونقول: هي مَكْتوبَةٌ من قَبْلِ أن يَعْمَل، لكِنْ قد كُتِبَتْ له الجنَّة وكُتِبَ أن يَعْمَلَ لها عَمَلَها، وعلى هذا كُلُّ ما حصل من تَقْديراتِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّ هذا لا يَخْتَصُّ بالعُمُر، الإشكالُ وارِدٌ على الجميع، ولكنَّ الجواب عنه بسيط: وهو أن يقال: إن هذا مكتوبٌ نَتيجةً لهذا السَّبَب، وهو معلومٌ عند الله، أمَّا عندنا فليس بِمَعلومٍ.

إِذَن: يكون أَحْسَنُ ما يشار إليه في الآيَة أنَّ المُرَادَ ﴿مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أَيُّ مُعَمَّرٍ، وأنَّ الإِنْسَان قد يُزادُ في عمره لسببٍ من الأَسْبَاب، وقد يُنْقَص من عمره لسببٍ آخر.

قَوْله تعالى: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾: ﴿كِتَٰبٍ﴾ فِعالٍ بمَعْنى مفعولٍ؛ فِفِراشٍ بمَعْنى مفروشٍ، وغِراسٍ بمَعْنى مَغْروسٍ، وبناءٍ بِمَعْنى مَبْنِيٍّ، فكِتَاب بمَعْنى مكتوب، فما هو هذا الكِتَاب؟ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو اللَّوْح المَحْفوظ] وهذا في السَّماءِ، وهو محفوظٌ من عِدَّةِ أَوْجُهٍ:

محفوظ أن ينالَهُ أَحَدٌ؛ لأنَّه خاصٌّ بتَقْديرِ الله عَزَّوَجَلَّ.

محفوظٌ من أن يُغَيَّر؛ أي: يُبَدَّلَ؛ ولهذا ما كُتِبَ في اللَّوْح المَحْفوظِ فإنَّه سيكون؛ كما قال الله تعالى للقَلَمِ: «اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: كتاب القدر، رقم (٢١٥٥)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك أيضًا محفوظٌ عن الخَلَلِ بحيث لا يَحتاجُ إكْمالًا ولا ترتيبًا ولا يتخلَّفُ ما كُتِبَ فيه؛ يعني: لا يَقَعُ فيه السَّهْو، فهو تامٌّ من كلِّ وَجْهٍ.

قَوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ هَيِّنٌ].

﴿ذَٰلِكَ﴾ المُشارُ إليه: كلُّ ما سبق، الزِّيادَةُ في العُمُر، والنَّقْص، والكِتَابة، كُلُّه يسيرٌ على الله؛ أي: هَيِّنٌ عليه، وإن كان عند المَخْلوقينَ صَعْبًا وعسيرًا، لَكِنَّه عند الله سهلٌ ويسيرٌ؛ لأنَّه عَزَّوَجَلَّ إذا أرادَ شيئًا قال له: كُنْ فيكونُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ قُدْرَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بابْتِداءِ خَلْقِ بني آدَمَ؛ أنَّه خَلَقَه من تُرابٍ ثمَّ من نُطْفَةٍ... إلخ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الله بحِكْمَتِه ورَحْمَتِه جعل بني آدَمَ أزواجًا ذَكَرًا وأنثى، وذلك لبقاءِ النَّسْل، وحُصُول المُتْعَة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إحاطَةُ عِلْمِ الله بكُلِّ شَيْءٍ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إِثْباتُ القُدْرَةِ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ لأنَّ الخَلْقَ لا يكون إلا بَعْدَ عِلْمٍ وقُدْرَة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الأَعْمـارَ الطَّويلَةَ منها والقَصيرَةَ؛ كُلُّها مكتوبةٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ في كِتَابٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ مَرْتَبَتَيْنِ من مراتِبِ القدَر، وهما: العِلْم، والكِتَابة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: سُهُولَةُ هذا الشَّيْءِ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو الخَلْقُ والكِتَابَةُ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: المَرْتَبَةُ الثَّالِثَة من مراتِـبِ القَدَر وهي الخَلْق، إذن: هي ثلاثُ مراتِبَ: العِلْم، والكِتَابة، والخَلْق.

وأمَّا المَشيئَةُ فتُؤْخَذُ من قَوْله تعالى: ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهذا لا يكونُ إلا بِمَشيئَة اللهِ؛ فيكون في الآيَة إذن إثباتُ مراتِبِ القَدَرِ الأَرْبع: العِلْم، ثم الكِتَابة، ثم المَشيئَة، ثم الخَلْق، وقد جُمِعَت هذه المراتِبُ الأَرْبَعُ في بيتٍ وهو:

عِلْـمٌ كِتَابَـةُ مَوْلَانَـا مَشْـيَئُةٌ ... وَخَلْقُـهُ وَهْـوَ إِيجَـادٌ وَتَكْـوِينُ

فهذه مراتِبُ القَدَرِ الأَرْبَع.

الآيـة (١٢)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر:١٢].

﴿وَمَا﴾ نافية، و﴿يَسْتَوِي﴾ بمَعْنى يتساوى ويَتماثَلُ ﴿ٱلْبَحْرَانِ﴾ وهذا مُجمَلٌ، والبَحْرُ هو الماء الكثير، فكلُّ ماءٍ كثيرٍ يُسَمَّى بَحْرًا، البحران هنا مُجْمَل، فَسَّره عَزَّوَجَلَّ بِقَوْله تعالى: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ العَذْبُ هنا بمَعْنى الحُلْو المُسْتَساغُ شُرْبُه، وفُراتٌ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفْسيره[شديدُ العُذوبَة].

﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ أي: شُرْبُه، سائِغٌ؛ بمَعْنى: سَهْلٌ ومُيَسَّر؛ لأنَّه حُلو عَذْب، وليس فيه ما يُكَدِّره من وساخَة أو حَرارةٍ زائِدَة أو بُرودةٍ زائِدَة، المُهِمُّ أنَّه عَذْبٌ فراتٌ سائغٌ شرابُهُ.

والثاني [﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديدُ المُلوحَةِ] مِلْحٌ شديدُ المُلوحَةِ، هل يستويان؟ لا، وهل هذا يُرادُ به الحَقيقَةُ أو هو مَثَلٌ ضَرَبَه الله تعالى للمُؤْمِن والكافِرِ؟

قيل: إنَّه يُرادُ به الحَقيقَةُ بدليلِ قَوْله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وقيل: إنَّ المُرادَ به مَثَلٌ ضَرَبه الله تعالى للمُؤْمِن والكافِرِ، فالمُؤْمِنُ بِمَنْزِلَة العَذْب الفُراتِ، والكافِرُ بِمَنْزِلَة المِلْحِ الأُجاج، ولكن لدينا قاعِدَةٌ في الكَلَام أنَّه إذا دارَ

الأَمْرُ بين أن يكون حَقيقَةً أو غَيْرَ حَقيقَة وجب أن يُحْمَلَ على الحَقيقَة، فهو إذن حَقيقَةٌ، ويؤَيِّده أيضًا قَوْله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ فإن مِثْل هذا الترشيح يدُلُّ على أنَّه حَقيقَة وليس بمجازٍ، على أنَّنا نقولُ: إنَّه لا مجازَ في القُرْآن ولا في غَيْرِهِ كما سبق، ولكنْ مع هذا لا بَأْسَ أن ينتقل مِن نَفْيِ التَّساوي بين هذين البَحْرينِ ونَفْيِ التَّساوي بين كُلِّ شَيْئَيْنِ مُتغايِرَيْنِ؛ يعني: لا مانِعَ من أن ينتقل لانتفاءِ التَّساوي بين هَذَيْنِ المَخْصوصَيْنِ إلى انتفاءِ التَّساوي بين الأُمُور المعْقُولَةِ المَعْنَوِيَّة.

قَوْله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾.

﴿وَمِن كُلٍّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْله تعالى: ﴿تَأْكُلُونَ﴾ [﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السَّمَك] الطَّرِيُّ معناه الذي لم يَتَغَيَّر بِنَتَنٍ، وهذا من خصائِصِ السَّمَك؛ أنَّه وإن مات فإنَّه طَرِيٌّ كما قال الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة:٩٦] قال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «صَيْدُه ما أُخِذَ حيًّا وطعامُه ما أُخِذ ميِّتًا»(١).

ثانيًا: من فوائد هذينِ البَحْرينِ [﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ من المِلْح، وقيل: منهما ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهي اللُّؤْلؤُ والمَرْجان] كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢]، وقد اختلف النَّاسُ: هل هذا لا يخرج إلا من المالِح أو يَخْرُج من المالِحِ والعَذْب؟

أكثر المُفَسِّرين على أنَّه لا يَخْرُج إلا من المالِح، وحملوا قَوْله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢] على أنَّ المُرادَ من مَجْموعِهما لا من جَميعِهما.

فَهُما إذا قلنا: عندنا بَحْران؛ عَذْب ومالِح، يَخْرُج منهما اللُّؤْلُؤ والمرجان،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٠/ ٤١٥)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٨/ ٧٢٣، ٧٢٧)، والبيهقي (٩/ ٢٥٥).

[منهما] يعني من المَجْموع لا من الجَميعِ، ولكنَّ الصَّحِيح أنَّه يخرج من الجميعِ؛ لأنَّ هذا هو ظاهِرُ القُرْآن، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم بما خَلَقَ، فإنَّه يَخْرُج منهما، وقد ثبت الآن أنَّ اللُّؤْلؤ والمَرْجان يخرج من هذا ومن هذا؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وقيل منهما].

وَقَوْله تعالى: ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وذَكَرَ اللُّبْس؛ لأنَّه غايةُ ما يُنْتَفَعُ به من هذه الحِلْيَة، وإلا فَمِنَ المعلوم أنَّ من يَسْتَخْرِج هذه الحِلْيَة يتَّخِذها تجارَةً، وتجارةُ اللُّؤلؤ والمَرْجان فيما سبق وإلى الآن لا تزالُ تجارةً قَوِيَّة، لأنَّ الذي يشتريها من التجار يريد بها اللُّبْس، فإن أرادوا بها التَّكَسُّب يَلْبَسها كسْوَة للبَدَنِ في باطِنِه وكسوة للبدن في ظاهِرِه، كسوة البدن في باطنه أَكْلُ اللَّحم، فأكل اللَّحْم كسوة للبَدَنِ في باطِنِه؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه:١١٨] ولم يَقُلْ: (ولا تبلى) بل قال: ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾ لأنَّ الجوع عُرْيُ الباطِنِ والعُرْيُ عُرْيُ الظَّاهِر؛ فمن ثم نقول: ذكَرَ اللهُ لِباسَيْنِ: اللِّباسَ الباطِنَ بأَكْلِ اللَّحْم، واللِّباسَ الظَّاهِرَ بهذه الحِلْيَة، فمن كُلٍّ تأكلون وتَسْتَخْرِجون.

قَوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَتَرَى﴾ تُبْصِرُ ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ السُّفنَ ﴿فِيهِ﴾ في كُلٍّ منهما ﴿مَوَاخِرَ﴾].

قَوْله: [﴿وَتَرَى﴾ أي: تُبْصِرُ] الخِطابُ لِكُلِّ من يَتَوَجَّه إليه الخِطابُ، والرُّؤْيَة هنا بَصَرِيَّة، فإنَّ من يُشاهِد البَواخِرَ في البحار يراها تَمْخُرُ الماء؛ أي: تَشُقُّه.

وَقَوْله: [﴿فِيهِ﴾ في كُلٍّ منهما] أجاب المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن إشكالٍ واضح؛ لأنَّه يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ﴾ ثم قال: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ ومُقْتَضَى السِّيَاقِ أن يكون التَّعْبيرُ هكذا (وترى الفُلْكَ فيهما) ولكنَّ الضَّميرَ هنا لا يعود على البَحْرَينِ، وإنَّما

يعود على (كُلٍّ) و(كُلٌّ) لَفْظٌ مُفْرَدٌ، فعاد الضَّميرُ في هذه الآيَة على (كُلٍّ) باعتبار اللَّفْظ؛ لأنَّه مُفْرَد، ومن هنا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في كلٍّ منهما] فزال الإِشْكالُ.

وَقَوْله تعالى: ﴿مَوَاخِرَ﴾ قال: [تَمْخُر الماء؛ أي: تَشُقه بَجَرْيِها فيه مُقْبِلَةً ومُدْبِرَة بريحٍ واحِدَةٍ] وهذا من نِعْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ أنْ سَخَّرَ الفُلْكَ لنا تجري على هذا الماء، وتَمْخُر عُبابَ الماءِ، حاملةً أَنْواعَ الأَرْزاقِ، وحامِلَةً البَشَر الكثيرَ؛ ولذلك الفُلْكُ الآن تُعْتَبَرُ بلدًا كامِلًا، وإذا دَخَلْتَها رأيْتَها كالبَلَدِ، وهذا من نِعْمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فذَكَرَ هنا ثلاثَ فَوائِدَ:

الأولى: أَكْلُ اللَّحْم، والثانية: الحِلْيَة، والثالثة: البواخِر التي تَعْبُر أو تَشُقُّ الماء من ناحيةٍ إلى أخرى لتَنْقُلَ الأَرْزاقَ والآدَمِيِّينَ.

وتأمَّلْ قَوْله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾ و﴿تَأْكُلُونَ﴾ و﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ لأنَّ السَّمَكَ أَخْذُه هَيِّنٌ، لا يحتاج إلى كُلْفَة، فذكر الأَكْل مباشَرَةً، أمَّا اللُّؤْلُؤُ والمَرْجان فيَحتاجُ إلى كُلْفَةٍ وإلى تَعَبٍ؛ لأنَّه يَحتاجُ إلى غَوْصٍ وآلات وطُولِ نَفَس أو حَمْل أشياءَ تُعينُ على التَّنَفُّس؛ ولهذا قال: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ أي تَطْلبون الحِلْيَة، وأمَّا الفُلْكُ فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ لأنَّ مُشاهَدَتَها بالعَيْنِ وهي تَشُقُّ الماء يرى الإِنْسَانُ فيها من أَعْظَمِ آياتِ الله عَزَّوَجَلَّ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِتَبْتَغُوا۟﴾ تَطْلُبوا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ تعالى بالتِّجارَةِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللهَ على ذلك].

يعني: سخَّر الفُلْك وجَعَلَها مواخِرَ في هذا البحر لأَمْرَيْنِ:

أولًا: لِتَبْتَغوا من فضله؛ أي: تَطْلُبوا الرِّزْقَ بما تَحْمِلُه هذه البواخِرُ؛ ولذلك الآن ما الذي يأتي إلينا مثلًا بالأَرْزاقِ من أمريكا ومِنَ اليابانِ ومن المناطِقِ الأخرى

البَعيدَةِ إلا بواسطَةِ هذه البواخِرِ التي تَحْمِلُ الشَّيْء الكَثيرَ، هذا من فَضْلِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه قال: ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

وثانيًا: قَوْله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فإنَّ (لَعَلَّ) هنا حتى نَسْتَعْرِضَ المعاني التي تأتي لها (لعل) فـ(لعل) تأتي للتَّرَجِّي، وتأتي للتَّوَقُّع، وتأتي للإشْفاقِ، وتأتي للتَّعْليلِ، فلأيِّ المعاني كانت في هذه الآيَةِ؟

الجواب: للتَّعْليلِ؛ لأنَّها لأَجْلِ أن تذكروا الله عَزَّوَجَلَّ، إذا رَأَيْتم هذه البواخِرَ تَمْخُر الماءَ وتأتي بالأَرْزاقِ من ناحيةٍ إلى ناحِيَةٍ، فإن هذا يَسْتَوْجِبُ أن تشكروا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على هذه النِّعْمَةِ.

والشُّكْرُ قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في تَفْسيره: هو القِيامُ بطاعَةِ المُنْعِمِ؛ اعترافًا بالقَلْبِ، وتَحَدُّثًا باللِّسانِ، وطاعةً بالأَرْكانِ، فمَواضِعُه ثلاثة: القَلْب، واللِّسانُ، والجوارِحُ؛ ولهذا قال الشَّاعِرُ:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا[1]

فهذا الشُّكْرُ يكون بهذه المواضِعِ الثَّلاثَةِ، والحَمْدُ يكون باللِّسانِ، فمُتَعَلَّقُ الشُّكْر أعَمُّ وسَبَبُه أخَصُّ، ومُتَعَلَّقُ الحَمْدِ أَخَصُّ وسَبَبُه أَعَمُّ؛ لأنَّ الحَمْدَ يكون في مُقابَلَةِ النِّعْمَةِ، ويكون في مُقابَلَةِ كَمالِ المَحْمودِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الأَشْياءَ المُتَّفِقَة لا يُمْكِن أن تكون مُتَساوِيَةً؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾.

---

(١) غير منسوب، وانظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤).

يَتَفَرَّعُ من هذه الفائِدَة: أنَّه لا يُمْكِنُ التَّسْوِيَـة بين الرَّجُلِ والمَرْأَة في الحُقُوقِ ولا في غَيْرِهـا؛ لأنَّ تَكْوينَ خِلْقَةِ المَرْأَة مُخْتَلِف عن تكوينِ خِلْقَة الرَّجُلِ؛ ولـهذا جعل الله للمَرْأَةِ أعمالًا تليقُ بها وللرَّجُلِ أَعْمالًا تليقُ به.

فقد سألَتْ عائِشَةُ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: هَلْ عَلَى النِّسَاءِ مِنْ جِهَادٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالَ فِيهِ: الحَجُّ وَالعُمْرَةُ»[1].

وقال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»[2]، ونهى النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن تَزْويجِ المَرْأَةِ نفسها[3]، وفي الميراثِ جَعَلَ للمَرْأَةِ نِصْفَ الرَّجُل إذا كان من جِنْسِها كالإِخْوَة والأَوْلادِ، وهل الأعمامُ كذلك؟

الجواب: لا؛ لأنَّ العَمَّةُ لا تَرِثُ، فلو هلك هالِكٌ عن عَمِّه وعَمَّتِهِ، فإنَّ العَمَّةَ لا تَرِثُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَانُ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حَيْـثُ جعل من هـذا الماءِ هَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ المُتَباعِدَيْنِ هما بَحْرانِ من الماء؛ أَحَدُهُما: عذبٌ فراتٌ سائغٌ شَرابُه، والثاني: مِلْحٌ أُجاجٌ، فهما شَيْءٌ واحِدٌ، ومع ذلك يَخْتَلِفانِ هذا الاختلافَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الماءَ العَذْبَ يكون سائِغَ الشُّرْبِ، وعَكْسُه الماءُ المالِحُ.

ويتفَرَّعُ على ذلك: أنَّه لا يَنْبَغي للإِنْسَانِ أن يَشْرَبَ ما لا يَسْتَسيغُه؛ لأنَّ ذلك

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ١٦٥)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب الحج جهاد النساء، رقم (٢٩٠١)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، رقم (٤٤٢٥)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن ماجه: كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، رقم (١٨٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يؤثِّرُ عليه ويَضُرُّه، كما أنَّه لا مانِعَ من أن يتناولَ ما تَشْتَهيهِ نَفْسُه وإن كان في بَعْضِ الحالات ضَرَرًا عليه.

وقد ذكر ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (زادِ المعادِ)[1] أنَّ في طَلَبِ النَّفْسِ الشَّيْءَ أثرًا كبيرًا في انتفاءِ مَضَرَّتِه، وضرب لذلك مَثَلًا كما أظُنُّ (المَيْتَة خَبيثَة مُضِرَّة) فإذا اضْطُرَّ الإِنْسَانُ إليها واشْتَدَّتْ حاجَتُه وضَرُورَتُه صارَتِ النَّفْسُ تَقْبَلُها وتَسْتَسيغُها، ثم تَهْضِمُها فلا تَضُرُّها؛ لأن المَيْتَة لو كانت تَضُرُّ المُضْطَرَّ ضَرَرَ غَيْرِ المُضْطَرِّ، لكان حِلُّها له يَتَضَمَّنُ قَتْلَ نَفْسِه؛ ولذلك لو اضْطُرَّ إلى أكلٍ وليس عِنْدَه إلا سُمٌّ لم يَحِلَّ له أن يأكُلَ السُّمَّ.

وضرب مثلًا لذلك أيضًا بقِصَّةِ صُهَيْبٍ الرُّومِيِّ كان أَرْمَدَ؛ أي: تُؤْلِمُه عَيْنُه من رمدٍ كان بها، فَجِيءَ إلى النَّبِيِّ ﷺ بِتَمْرٍ، فأكَلَ منه النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وذهب صُهَيْبٌ لِيَأْكُلَ، فقال له النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّكَ أَرْمَدُ»، ومَعْروفٌ أنَّ الذي في عَيْنِهِ رَمَدٌ لا يأكلُ التَّمْرَ، فقال: يا رَسولَ اللهِ أَمْضُغُهُ من الجانِبِ الآخَرِ، فمثلًا إذا كان في عَيْنِه اليُمْنَى فيها رَمَدٌ يَمْضُغُه من الجانِبِ الأَيْسَرِ، فضَحِكَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقال له: «كُلْ»[2] لأن نَفْسَه الآن كانت تَطْلُبه طلبًا قويًّا، وهذا الطَّلَبُ يُزيلُ الضَّرَر.

فالمُهِمُّ أنَّ الشَّيْء الذي لا يُسْتَساغُ لا يَنْبَغي للإِنْسَانِ أن يَتَناوَلَه ويُكْرِه نَفْسَه عليه؛ ولهذا قيل: (كُلْ ما يَشْتَهي بَطْنُك، ولا تَأْكُلْ ما يَشْتَهي فمُك)، وهل هذا يَصِحُّ أو لا يَصِحُّ؟

الجواب: يَصِحُّ؛ لأن بعضَ النَّاسِ يَتَلَذَّذُ بنوعٍ من الطَّعامِ لكن باطِنُه لا يَقْبَلُه،

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٩٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٦١)، وابن ماجه: كتاب الطب، باب الحمية، رقم (٣٤٤٣).

تَجِدُه إذا أكَلَه يُقرقِر بَطْنُه، نقول: لا تَأْكُل هذا، ولوِ اشْتَهَيْتَ الأَكْلَ؛ لأنَّ هذا ضَرَرٌ عليك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيانُ نِعْمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عِبادِهِ بما يَسْتَفيدونَه من هذه البِحارِ من اللُّحومِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ بدون مَشَقَّة وبدون تَعَبٍ، ومع ذلك فإنَّ لُحُوم السَّمَك من أَحْسَنِ اللُّحومِ، وكذلك نِعْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ لِما نَسْتَخْرِجه من هذه البِحارِ من الحِلْيَة التي نَلْبَسُها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيانُ الفرق بين تَناوُلِ اللُّحومِ من هذه البحارِ وتناوُلِ الحُلِيِّ؛ لأنَّه قال في اللحوم: ﴿تَأْكُلُونَ﴾ ولم يَذْكُرِ العلاجَ الذي نتوصَّلُ به إلى هذا الأكل؛ لأنَّه سَهْلٌ هَيِّنٌ لا يُذْكَر، لكنْ في الحِلْيَة قال: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ لأنَّها تَحْتاجُ إلى مَشَقَّة ومُعاناة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيانُ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ بِحَمْل هذا الفُلْك الثَّقيلِ المَمْلوء بالبَضائِعِ على مَتْنِ الماء، ومع ذلك يَسْتَطيعُ أن يَدْفَعَ الماءَ ويَمْخُرُه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ وإلا فإنَّ الماءَ ثَقيلٌ، وليس بالهَيِّنِ؛ ولهذا عندما يسبح الإِنْسَانُ في الماء يَحْتاجُ إلى قُوَّةٍ حتى يَدْفَعَ الماء، لكنَّ هذه السُّفُن تَمْخُر الماء، ويَظْهَرُ أَثَرُ هذه النِّعْمَةِ إذا تذكَّرَ الإِنْسَانُ السُّفُن القديمةَ التي تجري بالرِّياحِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيانُ نِعْمَة الله علينا بِنَيْلِ ما نَطْلُبه من فَضْلِه بواسِطَةِ هذه البواخِرِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّه يَنْبَغي للإِنْسَانِ أن يَفْعَلَ الأَسبابَ التي يَتَوَصَّلُ بها إلى المَقْصودِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أمَّا أن يقول: (أَبْقى في بَيْتي ورِزْقي يَأْتِيني)، ويقول: (إنَّه مُتَوَكِّلٌ على الله)، هل نوافِقُه على قَوْله؟

الجواب: لا، نقول له: لو كُنْتَ مُتَوَكِّلًا على الله لا تكونُ مُتَواكلًا، ففَرْقٌ بين التَّواكُل والتَّوَكُّل، افْعَلِ الأَسبابَ، هذا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَيِّدُ المُتَوَكِّلينَ، ومع ذلك كان يَفْعَلُ الأَسْباب الجاذِبَة للخَيْرِ الدَّافِعَةَ للشَّرِّ.

إذن: ابتغوا فَضْلَ الله، وافْعَلوا السَّبَب؛ فإنَّ السَّماءَ لا تُمْطِرُ ذهبًا ولا فِضَّة، وإنَّما يأتي الرِّزْقُ بِطَلَبِ الإِنْسَانِ، والأَمْرُ أَظْهَرُ من أن يَحْتاج إلى أمثلة، وإلا لَمَثَّلْنا بِمِثالٍ من أَقْرَبِ ما يكون.

فإن قال قائِلٌ: إذا كان اللهُ قد قَدَّرَ لي ولدًا فَسيأْتِيني، ولم يَتَزَوَّجْ، نقول: هذا كَلَامُ رَجُلٍ مَجْنونٍ؛ إذ كيف يُمْكِنُ أن يَأْتِيَك الوَلَدُ وأنت لم تَتَزَوَّجْ؟! ما علمنا أنَّ الأولادَ تَنْبُتُ من الصلائِبِ أبدًا، ولكن تأتي بفعل أَسْبَابِها كالزَّواجِ مثلًا، وهكذا أيضًا الرِّزْقُ يَحْتاجُ إلى طَلَبِه؛ ولهذا قال: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: وُجُوبُ شُكْرِ نِعْمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فإنَّ الله جعل هذه النِّعَم وسَخَّرَها تَسْخيرًا لَنا لِنَقُومَ بِشُكْرِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد تَقَدَّم أنَّ الشُّكْرَ مَوْضِعُه اللِّسانُ والقَلْبُ والجَوارِحُ.

• • ۞ • •

الآيتان (١٣، ١٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر:١٣-١٤].

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُبَيِّنًا تَمامَ قُدْرَته ونِعْمَتِه أيضًا، قال: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر:١٣].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ يُولِجُ ﴾ يُدْخِلُ الله ﴿ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ فيزيدُ ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ﴾ يُدْخِلُه ﴿فِى ٱلَّيْلِ﴾ فيزيدُ] انتبه لكَلَام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هل يوافق الظَّاهِرَ أو لا؟ قال: [﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ فيزيدُ] ما الذي يزيدُ؟

الجواب: لا شَكَّ أنَّ اللَّيلَ إذا دخل على النَّهارِ زاد اللَّيلُ، وإن كان يعود على أَقْرَبِ مذكور وهو ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ فيزيدُ، فهذا فيه نَظَرٌ، لكن تَوْجيهُ ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ أنَّ شيئًا من اللَّيْل يكون جزءًا من النَّهار هذا تَوْجِيهُه، فإذا كان شَيْءٌ من

اللَّيْلِ جزءًا من النَّهَارِ معناه زادَ النَّهار؛ يعني: كأنَّه يقول مثلًا: (دَخَلَ اللَّيْلُ في النَّهار فصار نَهارًا) وحينئذٍ يزيدُ النَّهارُ، والعَكْسُ بالعَكْسِ، لكن الظَّاهِر من الآيَة الكَريمَةِ أنَّه يَدْخُل اللَّيْل في النَّهار فيكون جزءٌ من النَّهَارِ ليلًا، الآن لو قُلْتَ: (أَدْخَلْتُ هذه السَّاقِيَة في هذه الأَرْضِ) الجُزْءُ الذي دخل من السَّاقِيَة جَعَلَ الأَرْض ساقِيةً.

إذن: (أدخلتُ اللَّيْلَ في النَّهَارِ) جَعَلْتُ جزءًا من النَّهَارِ ليلًا، وحينئذٍ يكون اللَّيْلُ هو الذي يطول.

إيلاجُ اللَّيْلِ في النَّهَارِ وإيلاجُ النَّهَارِ في اللَّيْلِ لا شَكَّ أنَّه دالٌّ على كمال قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ الخَلْقَ لو اجْتَمَعوا كُلُّهم على أن يُولِجوا جُزءًا يسيرًا من اللَّيْل في النَّهَارِ أو بالعَكْسِ ما اسْتَطاعوا أبدًا، ثم هذا الإيلاجُ أيضًا إيلاجٌ بِنِظامٍ؛ أي: إنَّه يأتي شَيْئًا فَشَيْئًا حتى تَتَكَيَّفَ طِباعُ البَشَرِ لهذا الإيلاجِ.

ما ظَنُّكُم لو أنَّ اللَّيْلَ جاء بِنِهايَتِهِ دَفْعَةً واحِدَةً؛ يعني مثلًا: اليوم صارَ اللَّيْلُ ثمانيَ ساعاتٍ وخَمْسًا وثلاثينَ دقيقةً، في اللَّيْلَةِ القادِمَةِ صار اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ساعَةً وخَمْسَ دقائِقَ، ماذا تكون حالُ النَّاس؟

الجواب: تَضْطَرِبُ، لَكِنَّه عَزَّوَجَلَّ يُولِجُه شيئًا فشيئًا، هذا من جهة الاضْطِرابِ، ومن جهةٍ أخرى لو أَوْلَجَه هكذا دَفْعَةً، ومعلومٌ أنَّ سَبَبَ طُولِ النَّهَارِ قُرْبُ الشَّمْسِ من مُسامَكة الرُّؤوسِ، وإذا قارَبَتِ الشَّمْسُ من مُسامَكة الرُّؤوسِ فلا بُدَّ أن تكون شديدةَ الحَرارَةِ؛ مَعْنى ذلك أن يكون هذا اليَوْمُ هذا في عِزِّ الشِّتاء، واليوم الذي يَلِيهِ في عِزِّ الصَّيْفِ، وهذا ضَرَرٌ عَظيمٌ، لَكِنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُولِجُه شيئًا فشيئًا، وهذا من تَمامِ القُدْرَةِ والحِكْمَةِ والرَّحْمَة.

أيضًا إيلاجُ اللَّيْلِ في النَّهَارِ وبالعَكْسِ له تأثيرٌ عظيمٌ على الجَوِّ؛ لأن الجَوَّ يَنْقَلِبُ

من باردٍ شديدٍ على طول الزَّمَنِ إلى حارٍّ شديدٍ على طول الزَّمَنِ أيضًا، مَعْلومٌ أنَّ هذه الحَرارَةَ الشَّديدةَ تَقْتُلُ من الجراثيمِ الضَّارَّة ما لا يَعْلَمُ به إلا الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا نَضْرِبُ مثلًا بسيطًا كُلُّنا نُشاهِدُه: البَعُوضُ إذا اشْتَدَّ الحَرُّ مات لم يَبْقَ له أَثَرٌ؛ ولهذا أَكْثَرُ ما يَكْثُر في الزَّمَن الذي بين الحَرِّ والبـرودة الشِّتاء، كذلك شِدَّة البُرودَةِ تَقْتُلُ الجراثيمَ التي تعيش على الحَرارَةِ، ولا يَعْلَمُ بها إلا الله عَزَّوَجَلَّ؛ ومن ثَمَّ قال العُلَمـاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الأَرْضِ أَمْراضًا هم الذين على خَطِّ الاسْتِواء وما قارَبَه؛ إذ ليس عندهم شتاءٌ يَقْتُلُ أو صيفٌ حارٌّ يقتل أيضًا، وهذا أمرٌ مُشاهَدٌ أيضًا.

إذن: إيلاجُ اللَّيْلِ في النَّهارِ فيه عِدَّةُ حِكَمٍ؛ ولهـذا بَيَّنَهُ عَزَّوَجَلَّ فقال: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ ﴾.

قَوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ الشَّمْسُ مَعْروفَةٌ، والقَمَرُ مَعْروفٌ، سَخَرَهُما؛ أي: ذلَّلَهُما لمصَالِحِ العبادِ؛ فإنَّ في الشَّمْسِ والقَمَرِ من المصَالِحِ العَظيمَةِ للعبادِ ما يَعْرِفُه أَهْلُ العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ بهذا الشَّأْنِ، وهذه الشَّمْسُ والقَمَرُ ما بيَّنَ الله لنا ثِقَلَهُما ولا حَجْمَهُما؛ لأنَّ ذلك ليس بالعِلْمِ النَّافِعِ الكثيرِ لنا، فالجَهْلُ به لا يَضُـرُّ، والعِلْمُ به من فُضُولِ العِلْمِ، إن لم يَشْغَلْكَ عمـا هو أَهَمُّ منه فاشْتَغِلْ به، إنَّمـا بين المصَالِحِ التي تَتَرَتَّب على تَسخيرِ الشَّمْسِ والقَمَرِ، فقال: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ فبالشَّمْسِ يكونُ النَّهارُ واللَّيْلُ، ويكون أيضًا نُضْجُ الثِّمارِ، وتكون الأَنْوارُ العَظيمَةُ، ما رَأْيُكم مثلًا ماذا يتوفَّر للعالَمِ من الطَّاقَةِ بعد خُرُوجِ الشَّمْسِ؟

الجواب: كثيرٌ لا يُحْصى؛ لأنَّها تُوَفِّرُ الكَهْرُباء، وتُوَفِّرُ أيضًا تَلْيينَ الأَشْياء التي تحتاجُ إلى تَلْيينٍ وحَرارَةٍ، ثم إنَّهم في الأَزْمِنَة الأَخيـرَة صاروا يُنْتِجُون مِن حرارَةِ الشَّمْسِ طاقَةً كَبيرَةً عَظيمَةً، أمَّا القَمَرُ فَسُخِّر لنا أيضًا بما يحصل من نُورِه في اللَّيْلِ،

وبما يَحْصُل منه من العِلْم بالحِسابِ وعَدَدِ السنينَ، وما إلى ذلك.

وإن شئتم مزيدًا من هذا فراجِعوا كِتَاب (مِفتاح دارِ السَّعادَةِ)[1] لابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ حيث ذكر من فوائِدِ الشَّمْسِ والقَمَرِ أَشْياءَ عَظيمَةً كبيرةً، وذكر غَيْرُهُ أيضًا ذلك، لكنْ يَجِدُ الإِنْسَانُ الفَرْقَ بين بَحْثِ ابْنِ القَيِّم مثلًا وبَحْثِ عُلَماءِ الطَّبيعَة؛ لأن عُلَماءَ الطَّبيعَةِ يَنْظُرونَ إلى هذه الأشياء من زاوِيَة مُظْلِمَة حالِكَة مادِّيَّةٍ مَحْضَةٍ لا يتربَّى فيها الإِنْسَان تربيةً دِينيَّة ولا يَعْرِفُ بها قُدْرَةَ الله ونِعْمَتَه، لكن إذا تكَلَّمَ ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك يَعْقِل أنَّ هذا دائمًا برَحْمَةِ الله وقُدْرَتِه وحِكْمَتِه، فيجد الإِنْسَانُ مع عِلْمِه بهذا الفَنِّ والعُلُوم، يَجِدُ مع ذلك خشيةً لله عَزَّوَجَلَّ، وتَعْظيمًا له، ومَحَبَّةً له.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِى﴾ في فَلَكِه ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يومِ القيامَةِ] كلٌّ؛ أي: كُلٌّ من الشَّمْسِ والقَمَرِ يجري؛ يعني: يسير في فَلَكِه لأَجَلٍ مسمًّى، الفَلَكُ شَبَّهَه ابْنُ عَبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: بِفَلَكَةِ المِغْزَل[2]، وفَلَكَةُ المِغْزَل عِبارَة عن قُرصٍ في أعلاه، وفي أَسْفَلِه عودٌ يَنْطوي عليه الحَبْل الذي يَغْزَل، هذه تدورُ؛ لأنَّ المرأة التي تَغْزِل تَبْرمه هكذا حتى يدورَ ويَحْكُم الحبل، فالفَلَك هذا؛ للشَّمْس فلكٌ تدور به، وللقَمَرِ فَلَكٌ يدور به.

وفي إسناد الجَرَيانِ إلى كلٍّ منهما دليلٌ على أنَّهما يَسيرانِ بِذاتِهما، ويدوران على الأَرْضِ، وهذا شَيْءٌ مُشاهَد أنَّ الشَّمْسَ تدور على الأَرْض وكذلك القَمَرُ، وما ادَّعاه عُلَماءُ الهَيْئَة من أنَّ الأَرْضَ هي التي تدور، والشَّمْسُ لا تدورُ نحو الأَرْض فإنَّنا نُكَذِّبه حتى يقومَ لنا دليلٌ حِسِّيٌّ يكون لنا حُجَّةً أمام الله عَزَّوَجَلَّ في الخُروجِ عن ظاهِرِ كَلَامه.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٠٧-٢١١).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٤٤٠-٤٤١)، وانظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٥١٥).

وإلَّا فالواجب علينا نحو هذه الأُمُور ألَّا نَخْرُجَ عن ظاهِرِ كَلَام الله؛ لأنَّ الله تعالى هو الخالِقُ، والخالِقُ أَعْلَمُ بما خلق من غَيْرِهِ، وهذا مسلَّم، ولأنَّ كَلَام الله عَزَّوَجَلَّ أَوْضَحُ الكَلَامِ وأَبْيَنُه، فلا يُمْكِن أن يكون فيه شَيْءٌ من التَّعْقيدِ لا اللَّفْظِيِّ ولا المَعْنَوِيِّ، فهو واضحٌ في معناه وظاهِرٌ؛ ولأنَّ كَلَام الله عَزَّوَجَلَّ أَصْدَقُ الكَلَام، فلا يُمْكِنُ أن يُخْبِرَنا الله عَزَّوَجَلَّ بأمرٍ لم يَكُن، أو بأمرٍ يكونُ الواقِعُ على خلافه؛ ولأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أَحَبُّ أَحَدٍ يكونُ البيانُ إليه؛ يعني أنَّه يُحِبُّ البيانَ لعباده أَكْثَرَ من أي أَحَد، واقرأ قَوْله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء:١٧٦]، وما أَشْبَهَها من الآيات الدالَّةِ على أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يريدُ أن يُبَيِّنَ لعِبادِهِ ما يَهْتَدون به، فإذا كان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو أَحَبُّ من تَكَلَّم بالبيان، أو هو أَحَبُّ مَن يكون البيانُ إليه أَحَبَّ، وهو الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ الله تعالى لا يُمْكِن أن يقول في كَلَامِهِ ما ليس فيه بيانٌ لنا.

إذن: فنحن نُكَذِّبُهم ونقول: كَذَبْتُم أن يكون تعاقُبُ اللَّيْلِ والنَّهار من أجل دَوَرانِ الأَرْضِ، بل تَعَاقُب اللَّيْل والنَّهار من أجل دَوَرانِ الشَّمْسِ على الأَرْض، ولا غَرَابَةَ بذلك، هم يقولون: كيف أنَّ الكَبيرَ يَدورُ على الصَّغيرِ، نقول: ليس هناك مانِعٌ، نحن معكم أنَّ الشَّمْسَ أَكْبَرُ من الأَرْض، لكن ما المانِعُ من أن يكون الجِرْمُ الكَبيرُ هو الذي يدورُ على الصغير؟!

ونحن إذا نَظَرْنا إلى القُرْآنِ وَجَدْنا أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُضيفُ هذه الحَرَكَة إلى الشَّمْسِ نَفْسِها، وكذلك إذا نَظَرْنا إلى السُّنَّة، ففي القُرْآن يقول الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٧]، وفي القُرْآن يقول الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص:٣٢] أي: الشَّمْسُ، وفي القُرْآن يقول: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ

يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وَقَوْله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ مثل قَوْله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فهذه خمسة مواضِعَ كُلُّها تدُلُّ على أنَّ هذه الأفعال تَقَعُ من الشَّمْس.

لو كان هذا يأتي بِدَوَرانِ الأَرْضِ لقال: (وترى الشَّمْسَ إذا طَلَعوا عليها)؛ لأنَّه إذا دارَتِ الأَرْضُ، فنحن الذين نَطْلُع على الشَّمْس، وليست الشَّمْس هي التي تَطْلُع علينا.

وأمَّا قَوْلهم: إنَّ هذا خِطابٌ إلى النَّاس بما يُشاهِدونَه بِأَعْيُنِهم والأمر على خلافه، يعني: إذا طَلَعَتْ حَسَبَ رُؤْيَةِ العَيْنِ، وفي الواقِع أنَّنا نحن الذين نَطْلُع عليها فبماذا نُجيبُهُم؟

نقول: هذا خِلافُ ظاهِرِ اللَّفْظِ، ولا يُمْكِن أن نَحيدَ عن هذا الظَّاهِرِ إلا بِدَليلٍ مَحْسوسٍ يُمْكِننا أن نَحْتَجَّ به أمامَ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الله سَيُحاسِبُنا يقول: لماذا عَدَلْتُم عن كَلَامي إلى كَلَامِ غَيْري؟ والخطابُ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال تعالى: ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف:١٧] تَزاوَرُ؛ أي: تَميلُ، ولو كان ذلك بدورانِ الأَرْضِ لكانت الأَرْضُ هي التي تميلُ ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾ لو كان هذا بِدَوَرانِ الأَرْض لكانَتِ الأَرْض هي التي تَغْرُب عن الشَّمْس.

أمَّا في السُّنَّة فقد قال النَّبِيُّ ﷺ لأبي ذَرٍّ حين غَرَبَتِ الشَّمْس: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»[1]، فأَسْنَدَ الذَّهابَ إليها عندما غَرَبَتْ، ولو كانت الأَرْضُ هي التي دارت حتى اخْتَفَتِ الشَّمْسُ لكان يقول: أتدري أين تَذْهَبُ الأَرْض مثلًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣١٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٩/ ٢٥٠).

والحاصِلُ: أنَّه يَجِبُ علينا وجوبًا أن نأْخُذَ بظاهِر القُرْآن وأنَّ الشَّمْسَ هي التي تدورُ على الأَرْض وأنَّه بِدَوَرانِها يَحْصُل اختلافُ اللَّيْل والنَّهَارِ، هذا الواجِبُ، ولا يجوز أن نَحيدَ عن هذا أبدًا إلا إذا قام الدَّليلُ الحِسِّيُّ على خلاف ذلك؛ فإنَّه حينئذٍ يتَعَيَّنُ التَّأويلُ وصَرْفُ الكَلَامِ عن ظاهِره؛ لأنَّنا نَعْلَمُ عِلْمَ اليقينِ أنَّ القُرْآن لا يُخالِفُ الواقِع، أمَّا شَيْءٌ يقولونه بأوهامِهم ويُقَدِّرونَه، فإننا لا نُوافِقُهم على ذلك، ولا يَسَعُ المُؤْمِنَ أن يَحيدَ عن ظاهِرِ كَلَام الله لُمجَرَّدِ قَوْلهم أَبَدًا.

أمَّا مَسْأَلَةُ الأَرْضِ هل تدور أو لا تدور؟

فنحن نقول: لا نُصَدِّقُ ولا نُكَذِّبُ؛ فيُمْكِن أن يكون لها دَوْرَة، ومع ذلك للشَّمْس دَوْرَة، هم يقولون: إذا أَقْرَرْتُم بِدَوَرانِ الأَرْضِ لَزِمَكُم أن تقولوا: إنَّ الشَّمْسَ ثابِتَةٌ، فنقول ليس ذلك بلازِمٍ، يُمْكِن أن يكونَ للشَّمْسِ دَوْرَةٌ، وللأَرْض دَوْرَةٌ أخرى، ولا مانِعَ من ذلك، ولكن مع هذا نقول: إنَّ الكَلَام في دَوَرانِ الأَرْضِ من فُضُولِ العِلْمِ الذي لا يَنْبَغي للإِنْسَان أن يُضَيِّعَ وَقْتَه به إلا رَجُلًا يَحتاجُ إلى معرفة ذلك؛ كما يُذْكَر أنَّهم يَحْتاجون إليه في الصَّواريخِ المُوَجَّهَة وما أشبه ذلك مِمَّا هو مَعْروفٌ عندَ أَهْلِه، فحينئذٍ إذا احتاج إليه فلا حَرَجَ أن يَبْحَث فيه.

أمَّا إذا لم يَحْتَجْ إليه فنقول: هذا من ضَياعِ الوَقْتِ، وما الفائِدَةُ أن تَعْلَم أنَّها تدور؟ أو لا تدورُ، احْمَدِ الله أنْ جَعَلَها قَرارًا سواءٌ كانت تدورُ أو لا تدور.

قَوْله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يُحتَمَل أن تكون لامَ العاقِبَة؛ أي: كلٌّ يَجْري حتى يَنْتَهِيَ إلى هذا الأَجَلِ، ويُحْتَمَل أن تكون اللَّام بمَعْنى (إلى) كما جاءت به في موضعٍ آخر: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وعلى كُلِّ حالٍ: فهي تدلُّ على أنَّ لهذا الجَرَيانِ غايَتَيْنِ، وهو كذلك، هذه الغايَةُ

فَسَّرَها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِقَوْله: [يَوْمِ القِيامَة]، وَقَوْله تعالى: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: مُعَيَّنٍ عندَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو مَعْلومٌ عنده وليس معلومًا عندنا.

إِذَن: فهذه الشَّمْسُ وهذا القَمَر ليسا أَبَدِيَّينِ، لَكِنَّهما دائبانِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم:٣٣] أي: مُسْتَمِرَّيْنِ، لكن لهما أَجَلٌ.

قَوْله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ هل الإشارَةُ تَعودُ إلى ما ذُكِرَ من التَّسْخير والجَرَيان، أو تعود إلى الفاعِلِ في قَوْله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ﴾؟

الجواب: الثاني، إذن ذلكم المُسَخِّرُ اللهُ، فالمُشارُ إليه الآن مُفْرَدٌ مذكَّر، والمخاطَبُ جَماعَةُ ذُكورٍ، لكن: ماذا يُراعَى في اسْمِ الإِشَارَةِ وكاف الخطابِ؟ هل يُراعَى المخاطَبُ أو المُشارُ إليه؟

نقول: أمَّا اسْمُ الإشارَةِ فيُراعَى فيها المشارُ إليه، وأمَّا الكافُ فيراعى فيها المخاطَبُ، فإذا أَشَرْتَ إلى رَجُلَيْنِ مُخاطِبًا جماعَةَ إناثٍ فإنَّك تقول: (ذانكُنَّ)، فـ(ذان) تخاطِبُ ذَكَرَينِ، و(كُنَّ) تُخاطِبُ جماعَةَ إناثٍ، وفي القُرْآن قالَتْ: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف:٣٢] لكن هنا في الآيَة: المشارُ إليه مُفْرَدٌ مُذَكَّرٌ، وإذا خاطَبْتَ جماعَةَ ذُكورٍ مُشيرًا إلى جماعَةِ إناثٍ فإنَّك تقول: (تِلْكُم) أو (أولئكم).

وهلِ الأَفْصَحُ في المخاطَبِ أن يكون الضَّميرُ على حَسَبِ المخاطَبِ؛ يعني: جَماعَة ذُكورٍ إذا كان المُخاطَبُ جَماعَةَ ذُكُور، وجَماعَة إناثٍ إذا كان المخاطَبُ جَماعَةَ إناثٍ، مُثَنًّى إذا كان المخاطَبُ مُثَنًّى، مُفْرَدٌ مفتوح إذا كان المخاطَبُ مُذَكَّرًا، مُفْرَدٌ مَكْسورٌ إذا كان المخاطَبُ مُؤَنثًا، أو الأَفْصَحُ أن يكون بِلَفْظِ الإِفرادِ دائمًا؟

نقول: فيه ثلاثُ لُغاتٍ:

أولًا: أن يكون باعتبارِ المُخاطَبِ مُطْلَقًا.

ثانيًا: أن يكون بالفَتْحِ دائمًا.

ثالثًا: أن يكون بالفَتْحِ لمفردٍ في المذَكَّر وبالكَسْرِ لِمُفْرَدٍ في المؤَنَّثِ مُطْلَقًا.

فهذه ثلاثُ لغاتٍ:

اللُّغَة الأولى: وهي المَشْهورَة الفُصْحى؛ أن تكون الكاف بحَسَبِ المخاطَبِ مُطْلَقا، تُخاطِبُ مُفْردًا مُذَكَّرًا تقول: (ذلكَ)، مُفْرَدة مُؤَنَّثَة: (ذلكِ) مثنى (ذلكما) جماعة ذكور: (ذَلِكُم جَماعَة)، إناث: (ذلكُنَّ) هذا الأَفْصَحُ.

ثانيًا: أن تَجْعَلَه مُفْرَدًا مفتوحًا في المذَكَّر مُطْلَقًا فتقول: (ذلكَ) سواء كنْتَ تخاطِبُ مُفْردًا أو مثنًّى أو جمعًا لكنْ بِشَرْطِ أن يكون مُذَكَّرًا، وتقول في المؤنث: (ذلكِ) سواءٌ كُنْتَ تُخاطِبُ واحِدَةً أو مُثَنًّى أو جماعَةً.

ثالثًا: أن تَجْعَلَه مفتوحًا بصيغةِ المُذَكَّر دائمًا أيًّا خاطَبْتَ، فتقول: (ذلكَ) سواءٌ كُنْتَ تُخاطِبُ رجلًا، أو امْرَأَةً، جماعَةً، أو مُثَنًّى، أو مُفْردًا.

هنا يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ المشارُ إليه مُفْرَدٌ مُذَكَّرٌ، والمخاطَبُ جماعَةٌ؛ لأنَّ الله يُخاطِبُ النَّاسَ جميعًا.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الرَّبُّ يُطْلَقُ على معانٍ كثيرة في اللُّغَة العَرَبِيَّة:

منها: الخالق، المالِك، المُدَبِّر.

فالرُّبوبِيَّة معناها أنَّ الله تعالى خالقٌ مالِكٌ مُدَبِّر؛ ولهذا قال: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾

فهذه جُمْلَةٌ خَبَرِيَّة قُدِّمَ فيها الخَبَر للدَّلالَة على الحَصْرِ؛ يعني: له وَحْدَه المُلْكُ دون غَيْره، المُلْك المُطْلَقُ الشَّامِل لله وَحْدَه، مِلْك الذَّواتِ والأَعْيان، ومِلْك التَّصَرُّفِ في هذه الأَعيانِ، فهو المالِكُ لِكُلِّ مَخْلوقٍ، وهو المُتَصَرِّفُ في كلِّ مَخْلوقٍ.

فإذا قُلْتَ: كيف يَصِحُّ الحَصْرُ مع أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أَثْبَتَ المُلْكَ لِغَيْره فقال: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون:٦] وقال: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النُّور:٦١]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النُّور:٣٣]، فأَثْبَتَ المُلْك لغيره وأنت تقول: إن هذه الجُمْلَة فيها حَصْرٌ؟

فالجواب من وَجْهَيْنِ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أنَّ مِلْكَنا ليس مِلْكًا مُطْلَقًا، بل هو مِلْكٌ مُقَيَّدٌ بحَسَب الشَّريعَة، فأنا مثلًا مالِكٌ لهذه الحَقيبَة، لكِنْ لا أَمْلِكُ أن أُتْلِفَها؛ لأنَّه حرامٌ عليَّ أن أُتْلِفَها، مالِكٌ لهذا البَعيرِ مثلًا، لكِنْ هل أَمْلِكُ أن أُعَذِّبَه؟ هل أَمْلِكُ أن أَجْرَحَه؟

الجوابُ: لا، لا أَمْلِكُ هذا إلا بإذْنٍ مِنَ الشَّرْعِ؛ ولهذا لَمَّا أَذِنَ الشَّرْعُ بِوَسْمِ البَعيرِ مع أنَّه مُؤْذٍ لها ومُؤْلِم جاز، ولَمَّا أَذِنَ بإشْعارِ الإِبِلِ والبَقَرِ في الهَدْيِ جازَ.

والإشْعارُ هو أن يُشَقَّ السَّنامُ بالسِّكينِ في الهَدْيِ حتَّى يَسيلَ الدَّمُ على الشَّعْر والجِلْد، والفائِدَةُ من هذا ليُعْرَفَ أنَّ هذه هَدْيٌ؛ ولهذا نَحْنُ نُشْعِرُ الإِبِلَ والبَقَرَ، ونُقَلِّدُ الإِبِلَ والبَقَرَ والغَنَمَ، فالغَنَمُ ليس فيها إشعارٌ، بل فيها تَقْليدٌ فقط، والتَّقْليدُ أنَّنا نَضَعُ عليها قِلادَةً في العُنُق، نُعَلِّقُ فيها النِّعالَ القديمة المُتَقَطِّعَة، وآذانَ القِرَبِ (واحِدها قِرْبَة) يعني: قِطَع القِرَب لتُعَلَّقَ بها، نُعَلِّقُه على هذا البَعيرِ أو البَقَرَة أو الشَّاة ليُعْرَفَ أنَّها هَدْيٌ؛ لأنَّ النِّعالَ المُتَقَطِّعة وقِطَع القِرَبِ تَدُلُّ على الرَّثاثَةِ والفَقْر، إشارَةً إلى أنَّ هذه للفُقَراءِ، والقَصْدُ أنَّ مِلْكنا للشَّيْءِ مُقَيَّد.

ثانيًا: أنَّه مِلكٌ قاصِرٌ؛ يعني: ليس شامِلًا، فأنا مثلًا أَمْلِك هذه الحَقيبَة، لكن أنت لا تَمْلِكُها، وأنت تَمْلِك هـذا الكِـتَابَ، وأنا لا أَمْلِكُه، إذن فهو مِلْـكٌ قاصِـرٌ لا يتعدَّى، أمَّا مِلْك الله عَزَّوَجَلَّ فإنَّه مِلْكٌ مُطْلَقٌ يَتَصَرَّف في مُلْكه كمـا يشاءُ، وهو ملكٌ عامٌ شامِلٌ، والله عَزَّوَجَلَّ يُنْزِل الأَمْراضَ ويُنْزِلُ الجُروحَ في مَخْلوقاتِهِ، وقد يبتلي اللهُ الإِنْسَانَ فتَظْهَرُ فيه جُرُوحٌ تُؤْلِمُه، وتُزْعِجُه وتُظْهِر الأَلَمَ في أَعْصابِهِ وفي عِظامِهِ، لو أنَّ أَحَدًا من المَخْلوقينَ أراد أن يَفْعَلَ ذلك لكان مَمْنوعًا ولا يجوز، لكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ له أن يَفْعَلَ ما شاء ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

إذن: الله هو الـرَّبُّ، وهو الذي له المُلْك، وهذا المُلك أيضًا شامِـلٌ للأَعْيانِ والذَّواتِ، وشامِلٌ للتَّصَـرُّف فيها، ومنه التَّصَـرُّفُ في الحُكْمِ، فالأَحْكامُ الشَّـرْعِيَّةُ لا تُتَلَقَّى إلا مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ، ويَجِبُ أن نُؤْمِنَ ونُطَبِّقَ جَميعَ أحكامِ الله سواءٌ كان ذلك في العباداتِ أو في المُعامَلاتِ أو الأَحْوالِ، يَجِبُ أن نُطَبِّقَ الجميعَ.

فإن قال أَحَدٌ من النَّاس: العبادَةُ حَقُّ الله، فهي بيني وبَيْنَه ولا أَتَجاوَزُ ما شَرَعَ، والمعامَلَةُ حَقُّ الإِنْسَانِ، له أن يتجاوَزَ الشَّرْعَ فيها، فأنا لي أن أَعْدِلَ عن شَريعَةِ الله إلى حُكْمِ الطَّوَاغيتِ؟ فمثلًا العبادَةُ حَقُّ الله الخاصُّ، لا يجوز لي أن أَتَصَرَّف فيها، أمَّا البَيْعُ والشِّراءُ فَلِمَصْلَحَتي أنا، فأَيُّ نَوْعٍ من البَيْعِ والشِّراء يَتَّفِق مع المَصْلَحَة والكَسْب فلي أن أَفْعَلَه، سواء كان ربًا أو غِشًّا أو مَكْرًا... إلخ، فهل يجوز ذلك أو لا يجوزُ؟! فهو يقول: المَسْجِدُ لله، والوَطَنُ للشَّعْب أو للجَميعِ.

فالجواب: أن نقول: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ ليـس لأَحَدٍ مُلْكٌ، المُلْكُ لله عَزَّوَجَلَّ يَتَصَرَّف في هذا المُلْك كما يشاء حِلًّا وحُرْمَة وإيجابًا، ولا أَحَد يتدَخَّل في ذلك، والذي يقول هذا ويَعْمَل بالشَّرْعِ في العِباداتِ ويُنْكِرُ الشَّرْعَ في المعاملاتِ

نقول: إنَّه كافِرٌ مُرْتَدٌّ عن الإِسْلامِ.

ولا يجوز إقرارُهُ على هذا الشَّيْءِ؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

فالإيمانُ بِبَعْضِ الرُّسُلِ دون بعضٍ كالإيمانِ بِبَعْضِ الشَّريعَةِ دون بعْضٍ؛ لأنَّ الأوَّلَ تَجْزِئَة في الرُّسُلِ، وهذا تَجْزِئَة في المُرْسَل به ولا فَرْقَ؛ فالذي يُؤْمِنُ بِبَعْضِ الكِتَابِ ويَكْفُرُ بِبَعْضِه هو في الحَقيقة كافرٌ بالجميعِ؛ لأنَّنا نقول: لو سَلَّمْتَ أنَّه من الله وأنَّه شَرْعُه ما كَفَرْتَ به، فإذا كَفَرْتَ به فهو كفرٌ بالجميعِ، وشَرْعُ الله تعالى لا يَتبَعَّضُ.

ومِن هنا نأخُذ خُطورةَ الأمرِ في كثيرٍ من بلدان المُسْلِمين الذين يُحَكِّمون فيما بينهم غيرَ شريعَةِ الله، ويَرونَ أنَّ هذه القوانينَ الوَضْعِيَّة الطَّاغوتِيَّةَ أَفْضَلُ من شَرْعِ الله، وأَقْوَمُ لعبادِ الله وأَقْوَمُ لمصَالِح عباد الله مِمَّا شَرَعَه الله، نَسْأَلُ الله العافية.

وهذا بلا شَكٍّ نَقْصٌ في عُقُولِهم، وذَهَابٌ لأَدْيانِهم، كيف يكون هذا الوَضْعُ الطَّاغوتِيُّ المُحْدَثُ المَبْنِيُّ على العَقْل القاصِر أَفْضَلَ وأَنْفَعَ للعبادِ مِن شَرْعِ الله عَزَّوَجَلَّ الذي شَرَعَه لعبادِهِ وهو أَعْلَمُ بِمَصَالِحِهم وأَحْكَمُ بما يُرْشِدُهُم؟!

أيُّ إِنْسَانٍ عنده عَقْلٌ -فَضْلًا أن يكون عنده إيمانٌ- لا يُمْكِنُ أبدًا أن يدورَ في فِكْرِه أنَّ هذه الأَحْكَامَ الوَضْعِيَّة المُخالِفَة لشَرْع الله خيرٌ لعِبادِ الله مِن شَرْع الله إلا مُخَبَّلًا ومَجْنونًا، والعياذ بالله، وما ذلك بِغَريبٍ على بني آدَمَ؛ فالذين كانوا يَعْبُدون الأَحْجارَ في الجاهِلِيَّة مثل هؤلاء في السَّفَه، هؤلاء أيضًا عَبَدوا آراءَ غَيْرهم وقَدَّمُوها على شَريعَةِ الله.

والقَوْلُ بأن (الدِّين لله والوَطَن للخَلْقِ) هذا خَطَأٌ فادِحٌ، بل يقال: (الدِّينُ لله والبلادُ لله)؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف:١٢٨] وليست لك، الأَرْضُ لله، والشَّعْب لله، والدِّينُ لله، وكلُّ شَيْء فهو لله، وإذا كان لله فالواجِبُ علينا أن نَسيرَ على هَدْيِ الله.

قَوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ الواو إمَّا اسْتِئْنافِيَّة وإمَّا عاطِفَة من بابِ عَطْفِ الجُمَل بَعْضِها على بَعْضٍ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مُبْتَدَأٌ، وجُمْلَة ﴿مَا يَمْلِكُونَ﴾ خَبَرُها.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي غَيْره وهم الأَصْنَامُ].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَعْبدون] لأنَّ الدُّعاءَ عبادَةٌ، والعابِدُ لله عَزَّوَجَلَّ قد تتضَمَّن عبادَتُه الدُّعاءَ كالصَّلاة مثلًا؛ فيها دُعَاءٌ وهو عبادَةٌ، وقد تكون دُعَاءً بلسانِ الحالِ؛ لأنَّ العابِدَ يريد الفَوْزَ بالجَنَّةِ والنَّجاةَ من النَّار، فهو وإن لم يَقُل: الفَوْز بالجَنَّة والنَّجاة من النَّار فهو لا يُريد إلا ذلك؛ إذن فهذا بلسانِ الحالِ.

ولهذا نقول: إنَّ الدُّعاء عِبَادَةٌ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر:٦٠] بعد قَوْله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] فدلَّ هذا على أنَّ الدُّعَاء عِبَادَة، وهنا يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَعْبدون] إمَّا عِبَادَة بالفِعْل؛ كالرُّكوعِ للصَّنَم، والسُّجُود للصَّنْم، والذَّبْح له، والنَّذْر له، وما أشبه ذلك، أو يدعونه دُعَاءَ مَسْأَلَة لا دُعَاءَ عِبَادَة، فيَأْتونَ إلى الصَّنَم وإلى القَبْر، ويسألونه حاجاتِهم، ويَسْتَغيثونَ به، فشَمِلَ

قَوْله تعالى: ﴿تَدْعُونَ﴾ دُعَاءَ المَسْأَلَة، ودُعاءَ العِبَادَة، وقلْتُ: إنَّ دُعاءَ العِبَادَة دُعاءُ مَسْأَلَة لكن بِلِسانِ الحالِ.

كيف يَدْعون هؤلاء؟ أقول: يَدْعون هذه الأَصْنَام على وَجْهَيْنِ:

إمَّا بدُعاءِ مَسْأَلَة، وإمَّا بدُعاءِ عِبَادَة، ودُعَاءُ العِبَادَة دُعَاءٌ بلسانِ الحالِ.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي: غَيْره، وهم الأَصْنام] الأَصْنام تارةً يُعَبِّر الله عنها بِصيغَةِ المُؤَنَّث، وتارة يُعَبِّر عنها بِصيغَةِ المُذَكَّر، هنا عَبَّر عنها بصيغة المُذَكَّرِ العاقِلِ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ هذا للمُذَكَّرِ العاقِلِ، وإنَّما وَصَفَ هذه مع أنَّها جمادٌ مَيِّتَةٌ للتَّنَزُّل مع هـؤلاء العابدينَ لها وذِكْرها على أكْمَلِ حالٍ يَعْتَقدونَها فيها؛ يعني: هي مع كمالِها على زَعْمِكُم لِكَوْنِها من ذوات العَقْلِ لا تَمْلِك شيئًا.

قَوْله تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾: ﴿مِن﴾ زائِدَة؛ ولهذا نقول: ﴿قِطْمِيرٍ﴾ مفعولٌ به منصوبٌ بِفَتْحَة مُقَدَّرَة على آخره منع من ظهورها اشتغالُ المَحَلِّ بِحَرَكَة حرف الجَرِّ الزَّائِد؛ أي: ما يَمْلِكونَ قِطْميرًا.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قِطْمِيرٍ﴾: لِفافَةَ النَّواة] إنَّ في النواة ثلاثَةَ أَشْياءَ يُضْرَبُ بها المَثَلُ في الحَقَارة: قِطْمير، ونَقِير، وفَتِيل.

ويَدُلُّ على هـذا أنَّهم لا يَمْلِكون شيـئًا قَوْلُه تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾: ﴿إِن﴾ هذه شَرْطِيَّةٌ، وفعل الشَّرْطِ ﴿تَدْعُوهُمْ﴾ وهو مَجْزومٌ بِحَذْف النون، وجوابُ الشَّرْط ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ وهو مجزوم أيضًا بحَذْفِ النون؛ يعني: هذه الأَصْنَامُ إن تَدْعوهُم لا يَسْمَعوا دُعَاءَكُم، لو تَدْعُونَ هذه الأَصْنَامَ إلى يَوْمِ القِيامَةِ ما سمعوا؛ لأنَّها جَمادٌ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَـرْضًا

﴿مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ ما أجابوكم] يعني: لو سَمِعَتْ هذه الأَصْنَامُ دُعَاءكم ما استجابَتْ لكم؛ أي: ما أجابَتْكم سواءٌ إن قلتم: يا لات يا عُزَّى، يا مَنَاة، يا يَعُوق، يا يَغُوث، يا نَسْر، لو سَمِعَتْ هذا الدُّعَاءَ هل تُجيبُكم وتقول: نعم، ماذا تريدون؟

الجواب: لا، ولا تُعْطيكم المَطْلوبَ أيضًا، حتى لو سَكَتَت ما أَوْصَلَت المطلوبَ إليكم؛ ولهذا قال: ﴿مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ لِيَشْمَلَ الاسْتِجابَةَ بالقَوْلِ بأن تقولَ هذه الأَصْنَامُ: ماذا تريدون؟ والاسْتِجابَة بالفِعْل وهي إيصالُ المَطْلوبِ إلى هؤلاء الطَّالبينَ، فهي لا تَسْتجيبُ لا لهذا ولا لهذا.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ أي: أجابوكم] مثلُ قَوْلِه تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران:١٩٥]؛ أي: أجابَهُم وكقَوْله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ [البقرة:١٨٦] أي: فَلْيُجيبُوني، وأمثال هذا كثيرٌ؛ فالاستجابة هنا بمَعْنى الإِجابَة؛ أي: إِنَّ هذه الأَصْنَامَ لا تُجيبهم.

وزِدْ على ذلك أنَّهم -كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: [﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ بإشْراكِكُم إيَّاهم مع الله؛ أي: يَتَبَرَّؤونَ مِنْكم ومن عبادتكم إياهم] إِذَن انتفى عنها إجابَةُ الدُّعَاءِ، ومع ذلك لَيْتَهُم سَلِمُوا من شَرِّهِم، يَوْمَ القِيامَة في هذا المَوْقِف العظيم المَشْهور يَكْفُرون بِشِرْكِكُم ويَتَبَرَّؤون منكم، وهذا غايَةُ ما يكون من الخِذْلان؛ لأنَّ النَّاسَ في يوم القِيامَة يكونون فيه أَحْوَجَ ما يكونون إلى النَّصْرِ والعِزَّةِ، وهؤلاء الأَصْنَامُ يَوْمَ القِيامَة تُذِلُّهم كما قال الله تعالى -وهذا يقَوْله إبراهيم-: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥].

في هذه الآيَة يُبَيِّنُ الله أنَّ هذه الأَصْنَامَ لا تَمْلِكُ نَفْعًا لعابديها، هذا واحد.

ثانيًا: وتزيد عابديها ذُلًّا وخِذْلانًا في المَوْضِع الذي يكونون فيه أَحْوَجَ ما يكونون إلى العِزِّ والنَّصْر ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

قَوْله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ أي: يُخْبِرُك. قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ بِأَحْوالِ الدَّارَيْنِ ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ عالِمٍ، وهو الله تعالى]. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ هذه جُمْلَة خَبَرِيَّةٌ مَنْفِيَّة؛ يعني لا يُنَبِّئُكَ أَحَدٌ بأَخْبارِ هؤلاء سواءٌ في الدُّنْيا أو في الآخِرَة.

وَقَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بأَحْوالِ الدَّارَيْنِ] هذا واضح، فهو فَسَّرَها على ما هي عليه؛ يعني: لا يُنَبِّئُكَ بأَحْوالِ الدُّنْيا والآخِرَةِ وما يكون لهؤلاء العابدينَ من هذه الأَصْنَامِ لا يُنَبِّئُكَ أَحَدٌ مِثْل من هو خَبيرٌ بالأَحْوالِ، وسُئِلْنَا من الخَبِيرُ بالأَحْوالِ؟

الجواب: الخَبيرُ الله، وهذه الجُمْلَةُ سارَتْ مَسْرَى المَثَل عند العَرَبِ، إذا أرادوا أن يُؤَكِّدوا الشَّيْءَ قالوا: (لا يُنَبِّئُكَ مثل خبيـر)، أو أحيانًا يقولون: (على الخَبيـرِ سَقَطْتَ) يعني: وَصَلْتَ إلى العِلْم اليَقينيِّ الذي يَصْدُر عن خِبْرَة، إذا كانوا لا يُنَبِّئونَ مِثْل خبير وهو الله وقد أَنْبَأَنَا بِحالِ هذه الأَصْنَامِ مع عابديها فهل يليقُ بنا عبادتها ونحن عقلاء؟!

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ في إيلاجِ اللَّيْلِ في النَّهار والعَكْس، وذلك لأنَّ أَحَدًا من الخَلْق لا يَسْتَطِيعُ أن يَفْعَلَ ذلك مهما عَظُمَت قُوَّتُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ رَحْمَتِه بعِبادِهِ؛ لأنَّ في هذا الإيلاجِ مِنَ المَصالِحِ والمَنافِعِ ما

لا يَحْصُل مع عَدَمِه، وقد ضَرَبْنا مثلًا -فيما سبق- بالذينَ على خَطِّ الاسْتِواء الذين لا يزيد عندهم النَّهَار واللَّيْل، ماذا يكونُ عِنْدَهم من الأمراض والفُتُور في الأجسام وعَدِمِ النَّشَاطِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: نِعْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ في تَسْخيـرِه الشَّمْسَ والقَمَر لمصَالِحِ العِبادِ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيانُ هاتينِ الآيَتَيْـنِ العَظيمَتَيْنِ وهما الشَّمْسُ والقَمَرُ، واللَّيْلُ والنَّـهَارُ أيضًا، قال الله تعالـى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْـلُ وَٱلنَّهَـارُ وَٱلشَّـمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧]، وظُهُورُ الآياتِ فيهما واضِحٌ لِما فيه من تَمامِ الحِكْمَة والقُدْرَة والرَّحْمَةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الشَّمْسَ والقَمَرَ يَجْريان؛ أي: يسيران؛ ففيها ردٌّ على أربابِ الهَيْئَة الجديدَةِ الذين يدَّعون أنَّ الشَّمْسَ والقَمَر لا يَجْريانِ على الأَرْض ولا يَدورانِ عليها.

ونحن قلنا: إنَّه يَجِبُ علينا أن نتَمَسَّك بالظَّاهِرِ ما لم نَجِدْ دليلًا يَقِينِيًّا يدلُّ على أنَّ هذا الظَّاهِرَ غَيْرُ مُرادٍ، وحينئذٍ لنا مَساغٌ في مُخالَفَةِ هذا الظَّاهِرِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ كُلَّ شَيْءٍ مَضْبوطٌ ومُحْكَمٌ ومُقَدَّر في أجَلٍ مَحْدودٍ لا يزيد عليه ولا يتأَخَّر؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهذا الأَجَل الذي تَسيرُ عليه الشَّمْسُ والقَمَرُ، يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنَّه يومُ القِيامَة] ويُمْكِنُ أن نقول: يَسيرانِ إلى أجَلٍ مُسَمًّى حتى في الفَلَكِ، فمثلًا الشَّمْسُ تَنْزِلُ على مدارِ الجَدْيِ في أيَّامِ الشِّتاءِ، ثم تَتَنَقَّل شيئًا فشيئًا إلى أن تَصِلَ إلى مدار السَّرَطانِ، لا يُمْكِنُ أن تَتَجاوَزَ هذا ولا هذا؛ لأنَّها تسيرُ إلى أَجَلٍ مُعَيَّنٍ، فكُلُّ يَوْمٍ محدَّدٌ مكانُ الطُّلوعِ وزَمانُ الطُّلوعِ، وهذا لا شَكَّ أنَّه سَيرٌ إلى أجَلٍ مُسَمًّى.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ فاعِلَ هذه الأشياء هو الله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ولا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أن يَفْعَلَه إطلاقًا، ففيه إبطالٌ لِقَوْلِ أَهْلِ الطَّبيعَةِ الذين يقولون: إنَّ اخْتلافَ اللَّيْلِ والنَّهارِ والشَّمْسِ والقَمَرِ كان بمُقْتَضَى طبيعَةِ الأَفْلاكِ، فيُرَدُّ عليهم بِقَوْله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ أي: فاعِلُ هذا ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: عموم مُلْكِ الله لِكُلِّ شَيْءٍ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ و(أل) هنا للعُمُوم، وضابِطُ (أل) التي للعُمُومِ أن يَحُلَّ مَحَلَّها (كُلٌّ)، فإذا صَحَّ أن يَحُلَّ مَحَلَّها (كُلٌّ) فهي للعموم، كما في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:٢] فإذا جُعِلَتْ بَدَلَ (أل) كُلٌّ تصيرُ (إنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ لَفِي خُسْر)، وكقَوْله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨] إذا جُعِلَتْ بَدَلَها (كُلٌّ) تصير (خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ ضعيفًا)، وهنا ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ هل يَصِحُّ أن يَحُلَّ مَحَلَّها (كل)؟

الجواب: نعم، نقول: (له كُلُّ مُلْك).

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: اختصاص الله تعالى بالمُلْكِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ حيثُ قَدَّم الخبَرَ، وحَقُّه التَّأْخيرُ، وقد تقدَّم في أثناء التَّفْسيرِ الجَمْعُ بين هذه الآية وبين إثباتِ المُلْك لغير الله وبَيَّنَّا أنَّه لا تعارُضَ بينهما؛ لأنَّ المُلك الذي لله له شأنٌ والمُلْك الذي للآدَمِيِّينَ له شأنٌ آخَرُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ ما يُدْعَى من دون الله لا يَجْلِبُ خيرًا لداعيه بأيِّ وَجْهٍ من الوُجُوهِ؛ لأنَّ الله نفى عنه كلَّ طريقٍ يُمْكِنُ أن يَصِلَ به الخَيْر أو يَنْدَفِعَ به الضَّرَر، فقال: ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ هذا في انتفاء الخَيْرِ وعَدَمِ إزالَةِ الضَّرَر والشَّرِّ، زِدْ على ذلك أنَّه يومَ القِيامَة يكفرونَ بِشِرْكِ هؤلاء، وهذا ضررٌ أَعْظَمُ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: النِّداء الواضِحُ على سَفَهِ هؤلاء المُشْرِكينَ، وَجْهُه: أنَّهم يَدْعُون ما لا يسمع دُعَاءَهُم، يدعون ما لو سَمِعَ دُعَاءهم -على فَرْضِ التَّقْديرِ- لم يَسْتَجِبْ لهم، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف:٥]، فَقَوْله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ يعني: لا أَحَدَ أَضَلُّ، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠] وما هي مِلَّةُ إبراهيم؟ قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٣] هذه مِلَّة إِبْراهيمَ؛ التَّوْحيدُ وعَدَمُ الشِّرْكِ، فهؤلاء السُّفهاءُ يَدْعُون ما لا يَسْتَجيبُ ولا يَنْفَعُ بل يَضُرُّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ من تَعَلَّقَ بِغَيْر الله خابَ أَمَلُه؛ لأنَّ هذه الأَصْنَام لا تَنْفَعُهُم في الدُّنْيا ولا تَنْفَعُهُم يوم القِيامَة، إذن خاب أَمَلُهم، هم يقولون: (إنَّما نَعْبُدُهم ليقرِّبونا إلى الله زُلْفَى) ولكن ما قَرَّبوهُم، بل هذه ما زادَتْهُم إلا بُعْدًا، فأَمَلُهم قد خاب، والعياذ بالله، وخَسِروا الدُّنْيا والآخِرَة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: في قَوْلِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ نوعُ هذا الكُفْر هو التَّبَرُّؤُ، فيُسْتَفادُ منه: أنَّ هذه الأَصْنَامَ المَعْبودَة تَتَبَرَّأ من عابديها يومَ القِيامَة، بل إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَجْمَعُ الأَصْنَامَ وعابديها ويُلْقيهم في جَهَنَّم ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ [الأنبياء:٩٨-٩٩] ولَكِنَّها ليسَتْ آلِهَةً، فلا تَنْفَعُ.

فإن قلْتَ: قد يُبْتَلى داعي هذه الأَصْنَامِ فَتَسْتَجيبُ له ظَاهِرًا؛ بمَعْنى أن يَدْعُوَ الصَّنَمَ أن يَشْفِيَه من المَرَضِ الفُلانِيِّ فيُشْفَى، أو أن يَجْلِبَ له الخَيْر الفُلانِيَّ فَيَجْلِبُه، فما هو الجَوابُ؟

نقول: الدُّعَاءُ ما أفاد، لكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ جَعَلَ هذا الشَّيْء يقعُ عند دعائِهِ امتحانًا لهؤلاء العابدينَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ البَعْثِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ رُبوبِيَّةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ علم الله وإحاطَتِه بِكُلِّ شَيْءٍ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ وهل نَأْخُذ منها الرَّدَّ على الجَبْرِيَّة؟

الجواب: نَعَمْ، فهذا مَأْخوذ من قَوْله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾.

وهل نأخذ منها أنَّ هذه الأَصْنَام من العُقَلاء؟

الجواب: لا، لَكِنَّها ذُكِرَت على سبيلِ التَّنَزُّل وعلى ذكرها بأكْمَلِ أوصافِها عندهم وهو العَقْل.

الآيــة (١٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بِكُلِّ حالٍ ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن خَلْقِه ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المَحْمودُ في صُنْعِه بهم].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هذا النِّداءُ عامٌّ للمُؤْمِنِ والكافِرِ، والبَرِّ والفاجِرِ، والصَّغيرِ والكبيرِ، والذَّكَر والأُنْثى، فهو للنَّاسِ عمومًا، وصدَّر الله هذا الحُكْم بهذا الخطابِ الذي هو نِداءٌ؛ لِأَجْلِ التَّنْبيهِ وبَيانِ الاهْتِمامِ به، وفي الحَقيقَةِ أنَّه قد يقال: كُلُّ أَحَدٍ يعلم أنَّه فقيرٌ إلى الله، لكنْ هل نحن عَمِلْنا بمُقْتَضَى هذا العِلْمِ؟

الجواب: لا، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٥-٦] فقَرَّر الله تعالى هذه الحالَ الثَّابِتَة التي لا تَنْفَكُّ عن الإِنْسَان وهي الفَقْر إلى الله من أجل أن يَعْمَل بمُقْتَضَى هذه الحال، فيلجأ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يَسْأَل إلا اللهَ.

وَقَوْله تعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ هذه الجُمْلَة جُمْلَة اسْمِيَّةٌ مُفيدَةٌ للحَصْرِ؛ لأنَّ طَرَفيها مَعْرِفتانِ ﴿أَنتُمُ﴾ هذا الضَّميرُ مَعْرِفَةٌ ﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾ مُحَلًّى بـ(أل) فهو معرفة، وهل غَيْرُ النَّاسِ أَغْنياءُ عن الله؟

الجواب: لا، لكِنْ لَمَّا كان الإِنْسَان هو الذي قد يرى نَفْسَه مُسْتَغْنيًا عن الله

حَصَرَ الفَقْرَ فيه؛ كأنَّه يقول: إن لم يكن أَحَدٌ فَقيرًا إلى الله فأنتم فُقَراءُ ولا بُدَّ، وإذا كان الإِنْسَانُ العاقل المدبِّرُ نَفْسُه فقيرًا إلى الله فما بالُكَ بالبهيمة، أليست أَشَدَّ فقرًا؟

الجواب: بلى، هي أَشَدُّ فقرًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ من الإِنْسَان، لَكِنَّه خاطَبَ الإِنْسَان بذلك؛ لأنَّه هو الذي يرى أنَّه قد اسْتَغْنى عن الله وأنَّه غَنِيٌّ عن الله، بل بَعْضُ بني آدم عَكَسَ القَضِيَّةَ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١] والعياذ بالله، فعَكَسَ القَضِيَّة، والواقِعُ الذي تشهد به الفِطْرَة.

قَوْله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: ﴿إِلَى﴾ هذه للغاية؛ أي إنَّ فَقْرَكُم مُنْتَهٍ إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لا يَسُدُّ عَوَزَكُم إلا اللهُ.

قَوْله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾: ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ ضِدُّ الفَقير، والغَنِيُّ؛ أي: المُسْتَغْني عن غَيْره كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة (التغابن): ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ [التغابن:٦]، فالله عَزَّوَجَلَّ ذو الغِنَى الواسِعِ، ومع ذلك فإن غناه مَقْرُونٌ بِحَمْده؛ ولهذا قالَ: ﴿ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فهو غنيٌّ يُحْمَد على غناه؛ لأنَّه يجود به على غَيْرِه، لكن بنو آدم قد يكون الإِنْسَان منهم غَنِيًّا ولكن ليس حَميدًا، فإذا كان غنيًّا وتَسَلَّط بغناه على غَيْرِهِ وفَخَرَ به على النَّاسِ ولم يَقُم بما يَجِبُ عليه صار غنيًّا غَيْرَ حَميدٍ، لكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ غنيٌّ حميد.

وكَلِمَة (حميد) يصح أن تكون بمَعْنى اسْمِ الفاعِلِ، ويَصِحُّ أن تكون بمَعْنى اسْم المفعول؛ اسْم الفاعِلِ؛ لأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حامِدٌ يَحْمَدُ مِن عبادِهِ كُلَّ من يَسْتَحِقُّ الحَمْدَ منه؛ ولهذا يُثْنِي على رُسُلِه وأَنْبِيائِهِ وعِبادِهِ الصَّالِحِينَ، والثَّناءُ عليهم هو الحَمْدُ.

وهو أيضًا مَحْمودٌ على أَمْرَيْنِ: على ما له من كمال الصِّفاتِ، وعلى ما له من كمالِ الإِنْعامِ؛ فهو مَحْمودٌ لِكَمالِ صِفاتِهِ ومَحْمودٌ لِكَمالِ إِنْعامِهِ وهنا نقول: الحَميدُ مَحْمودٌ لِكَمالِ غِناهُ وكَمالِ جُودِهِ بهذا الغِنَى؛ لأنَّه ليس كلُّ غَنِيٍّ يكون مَحْمودًا بِبَذْلِ ما عنده من الغِنَى، لكِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ غنيٌّ حَميدٌ.

قَوْله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾: ﴿هُوَ﴾ ضميرُ فصل، وضَميرُ الفصل له ثلاثُ فوائِدَ:

١- الحَصْر، فالله هو الغَنِيُّ لا غَيْرُهُ، فكما تقول: (زَيْدٌ هو الفاضِلُ)؛ يعني: لا غَيْرُه.

٢- الفَصْلُ بين الخَبَرِ والصِّفَة؛ يعني: التَّمْييزُ بينهما.

٣- التَّوْكيد؛ فإذا قلت: (زيدٌ هو القائِمُ) فهذا أَوْكَدُ من قَوْلك: (زيدٌ قائِمٌ).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ جميعَ الخَلْقِ مُفْتَقِرونَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فمهما بَلَغُوا من الغِنَى والقُوَّة فإنَّهم مُفْتَقِرونَ إلى الله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا لفظٌ عامٌّ لا يَخْرُج منه شَيْءٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَانُ شِدَّةِ حاجَةِ النَّاس إلى الله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ حيث قال: ﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾ بالأَلِفِ واللام، ولو قال: (فقراء) لكان أَهْوَنَ، لكن ﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾ معناها أنَّنا في جميعِ أَحْوالِنا كُلِّها مُفْتَقِرونَ إلى رَبِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَانُ غِنَى اللهِ عن كُلِّ أَحَدٍ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ لله الغِنى المُطْلَقُ من جميع الوُجُوه، يُسْتَفادُ هذا من قَوْله

تعالى: ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ بـ(أل) الدالَّةِ على العموم والاسْتِيعابِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الغِنَى الكامِلَ المُطْلَقَ خاصٌّ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بدليلِ قَوْله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾.

فإن قُلْتَ: كيف تجمع بين هذا وبين ثُبوتِ الغِنَى لغَيْرِ الله في الكِتَابِ وفي السُّنَّة، قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة:٢٧٣]، وقال النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ»[1] فثبَتَ بالكِتَاب والسُّنَّة أنَّ البَشَرَ فيهم أغنياءُ؟

فالجواب: أنَّ غنى البَشَرِ غِنًى مَحْدودٌ نِسْبِيٌّ قاصِرٌ قابِلٌ للزَّوالِ كما أنَّه كان حادِثًا، أمَّا غِنَى الله فهو غِنًى مُطْلَقٌ كامِلٌ أزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ، ونظير هذا ما ثبت في المُلْك والخَلْق والتَّدبير وما أشبه ذلك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الفرق بين قَوْله تعالى: ﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾ و﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ ففيها نوعُ كمالٍ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَتَبَيَّن به نَقْصُ البَشَرِ تِجاهَ كمالِ الله، ونظيرُهُ قَوْله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦] ثم قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧] ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨] فإنَّ وَصْفَ المَخْلوقِ بالنَّقْص ثم إثْباتُ الكَمالِ لله هذا فيه دليلٌ على كمال الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ كَمالَهُ واضحٌ جدًّا؛ لأنَّكَ إذا ذَكَرْت عَيْبَ الآخَرِ تبيَّنَ لك كَمالَ مُقابِلِه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ غِنَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَقْرونٌ بالحَمْد؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ بخلافِ غنى البَشَر فإنَّه قد لا يكون مَحْمودًا؛ إمَّا بالبُخْل، وإمَّا بِكَوْنِه يأتي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

بدون اسْتِحقاقٍ؛ كالسُّرَّاق واللُّصوصِ فقد يكونون أغنياءَ لكن اكْتَسَبوهُ على غَيْر الوَجْهِ المُباحِ، أمَّا غِنَى الله فهو غِنًى كامِلٌ يُحْمَدُ عليه.

إذن: يُحْمَد من جِهَة الغِنَى، ومن جهة الكَرَمِ بما هو غَنِيٌّ به.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات اسْمَينِ من أَسْماء اللهِ، وهما (الغني) و(الحميد).

و(الغَنِيُّ) يدلُّ على صِفَةِ الغِنَى و(الحميدُ) يدلُّ على صِفَة الحَمْد، ومَجْموعُهُما يدلُّ على صِفَةٍ ثالِثَةٍ وهي كمالُ غِناه؛ لأنَّه كما ذَكَرْنا في (القواعِدِ المُثْلى) أنَّه قد يَنْشَأُ من الجَمْع بين وَصْفَينِ صفةٌ ثالِثَة تَحْصُل باقترانِهما، ومَثَّلْنا هناك بالعزيز والحَكيمِ؛ لأنَّها تَقْتَرِنُ دائمًا بها؛ لأنَّه يَحْصُل باجتماعِهما وصفٌ أكْمَلُ.

• • ۞ • •

الآيــة (١٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر:١٦].

جُمْلَة: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ هذه جُمْلَةٌ شَرْطِيَّة، هنا الشَّرْطُ ﴿يَشَأْ﴾ وجوابُ الشَّرْطِ ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ و﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ يعني: بالإهْلاكِ.

قَوْله تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: ﴿وَيَأْتِ﴾ جاءت مَكْسورَةً وهي فعل مضارعٌ لأنَّها مَجْزومة بِحَذْف حرف العِلَّة، وأصلها (يأتي) لكِنْ حُذِفَتِ الياءُ؛ لأنَّها معطوفة على مَجْزومٍ، وهو ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بَدَلَكُم] ﴿بِخَلْقٍ﴾ أي: بمَخْلوقٍ، بدليل قَوْله تعالى: ﴿وَيَأْتِ﴾ أي: بِمَخْلوقٍ جديدٍ، فهذا مصدرٌ أريد به اسْمُ المفعولِ؛ أي بِمَخْلوق كقَوْله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١)، وفي قَوْلِه تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان:١١] فـ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي: مَخْلوقُه، وقد يُرادُ بالخَلْقِ المصدر كما في قَوْله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] لكن هنا المُرادُ به اسْمُ المفعولِ، قال تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: بمَخْلوقٍ جديدٍ غَيْركم، لكن كيف يُذْهِبُنا ويأتي بخَلْقٍ جديد؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

الجواب: الله قادِرٌ على أن يأتِيَ بخلقٍ جديد مُسْتَقِلٍّ، وهذا واضِحٌ، ثم هو أيضًا يُمْكِن أن يُذْهِبَ الموجودينَ بعد أن يأتِيَ خَلَفُهُم منهم، فالنَّشْء الصِّغارُ يُعْتَبَرونَ خَلْقًا جديدًا بالنِّسْبَة للكِبارِ الذين هَلَكوا، وهذا كما قيل في بني إسرائيلَ لَمَّا امتنعوا عن دخولِ الأَرْضِ المُقَدَّسَة وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة:٢٢] ابتلاهم الله عَزَّوَجَلَّ، وقال: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة:٢٦] فضاعوا؛ ما بينَ مِصْرَ والشَّامِ مَسيرَةُ شَهْرٍ، جلسوا فيه تائهينَ أربعينَ سنَةً ما اهتدوا إلى الطَّريقِ.

قال بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ولاسيما المعاصرون منهم: «لأَجْلِ أن يَفْنى ذلك الجيلُ المُتَغَطْرِسُ الذَّليلُ ويأتي جيلٌ ناشئٌ في الصَّحَراء قَوِيٌّ يريد أن يدخل البلادَ المقَدَّسَة»؛ لأنَّه ناشِئٌ في الصَّحراء يريد المُدُن، فعنده قُوَّةٌ وإرادَة تُؤَهِّلُه إلى دخول تلك الأَرْض؛ لأنَّ الجيلَ الأَوَّل المُتَغَطْرِس المعانِدُ فَنِيَ في هذه المُدَّة، هكذا قال بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ولاسيما المعاصرون منهم.

قالوا: الحِكْمَة من أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ضَرَبَهم في هذا التِّيه لأَجْل أن يفنى الكبار ويَسْتَجِدَّ الصِّغارُ، والله أعلم.

إنَّما الله عَزَّوَجَلَّ قادر على أن يَمْحُوَ النَّاس ويُذْهِبَهم ويأتيَ بِخَلْقٍ جديد، إمَّا خَلْقٌ مُسْتَقِلٌّ، أو من ذرِّيَّة هؤلاء، أو يُفْنِي من في هذه الأَرْض ويأتي آخرون يَحْتَلُّون الأَرْضَ.

فلها ثلاثَةُ وجوه: إمَّا خَلْقٌ جديدٌ مُسْتَقِلٌّ، وإمَّا ذرِّيَّةُ القوم الذين ذهبوا، وإمَّا قومٌ آخرون يأتون من بلادٍ أخرى ويَحُلُّون مَحَلَّ هؤلاء الذين ذهبوا كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [مُحَمَّد:٣٨].

الآيــة (١٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:١٧].

قَوْله تعالى: ﴿وَمَا﴾ هنا حجازِيَّة لتمامِ شُرُوط عَمَلِها؛ لأنَّ اسمها (ذا)، وخَبَرها (عزيز)، لكن دَخَل على خَبَرِها الباءُ الزَّائِدَةُ في الإِعْراب وَقَوْله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي: إِذْهابُكم والإتيانُ بِخَلْقٍ جديدٍ.

قَوْله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ(عزيز) مُقَدَّم عليه.

وَقَوْله تعالى: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [شديدٍ] والصَّوابُ عزيزٌ؛ بمَعْنى: مُمْتَنِعٌ؛ لأن (عَزَّ) تأتي بمَعْنى (امتنع) كما سبق، وتأتي بمَعْنى (غَلَبَ) وتأتي بمَعْنى (قَهَرَ)، وغلب وقهر معناهما واحِدٌ، تأتي بمَعْنى العِزَّةِ؛ أي: القَدْر، وهنا ﴿بِعَزِيزٍ﴾ أي: بِمُمْتَنِع، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [شديدٌ]؛ لأنَّ الشَّديدَ في حَدِّ ذاته مُمْتَنِع؛ لقُوَّتِه وصلابَتِه، إذا لم يكن عزيزًا على الله فهو سَهْل.

فنقول: إن هذه الصِّفَة من الصِّفاتِ السَّلْبِيَّة التي نَصِفُ اللهَ تعالى بها مع إثباتِ كمالِ ضِدِّها، فنقول: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ لكَمالِ سُهُولَتِه عليه، فهو أمرٌ هَيِّنٌ عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ أن يُذْهِبَ هؤلاء ويأتِيَ بغيرهم، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [مُحَمَّد:٣٨].

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: كمالُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث بيَّنَ أنَّه قادِرٌ على أن يُذْهِبَنا، ثم يأتِيَ بِخَلْقٍ جديدٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثْباتُ المَشيئَةِ لله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التَّحْذيرُ من مُخالَفَتِه تعالى؛ لأنَّ المقصودَ بهذا التَّهديدُ وتَحْذيرُنا من مُخالَفَته.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الخَلْق حادِثٌ، فليس أزليًّا؛ لِقَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ هذه فيها دلالة لِقَوْله تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وفيها أيضًا دلالَة.

أمَّا الأُولى فوَجْهُ الدَّلالَة أنَّ ما كان قابِلًا للعَدَمِ فهو قابلٌ للحُدوثِ.

أمَّا الثَّانِيَة فلِقَوْله تعالى: ﴿بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هل نَسْتَفيد منها ثُبوتَ حُدُوثِ أَفْعالِ الله باعتبار المَفْعولاتِ؟

الجواب: نعم؛ لأنَّ كُلَّ مَخْلوقٍ كائنٌ للخَلْقِ، فإذا كان المَخْلوقُ جديدًا لَزِمَ أن يكون الخَلْقُ أيضًا جديدًا؛ فمثلًا: خَلْقُ الله للجَنينِ في بَطْنِ أمِّه حادِثٌ، فضرورةٌ أنَّه مَخْلوقٌ حادِثٌ، أمَّا جِنْسُ فِعْلِ الله فهو أَزَلِيٌّ؛ فإنَّ الله تعالى لم يَزَلْ فَعَّالًا، فهناك فَرْقٌ بين وصف الله تعالى بالفِعْلِ على الإطلاق وبينَ وَصْفِ الله تعالى بالفِعْلِ مقرونًا بالمَفْعولِ، فالفِعْلُ المَقْرونُ بالمَفْعولِ لا شَكَّ أنَّه حادِثٌ، والفِعْلُ المُطْلَقُ أنَّ الله لم يَزَلْ فعَّالًا لِما يريدُ هذا أزليٌّ.

وهل نستفيد من ذلك جوازُ تَهْديدِ الإِنْسَان بالأَشْياءِ المَحْسوسَة لِيَسْتَقيمَ على أَمْرِ الله؟

الجواب: نعم؛ لأنَّ هذا تهديدٌ من الله عَزَّوَجَلَّ لنَسْتقيمَ على أَمْرِه.

إذن نقول: إنَّ العُقوباتِ الحِسِّيَّةَ إن حَمَلَتْ على الاستقامَةِ فإنَّها مَحْمودةٌ؛ لأنَّها من فِعْل الله؛ ولهذا أَوْجَبَ الله علينا أن نَحُدَّ الزَّانِيَ، ونَقْطَعَ السَّارِقَ حتى يرتَدِعَ، فلا يقول قائِلٌ: إنَّك إذا فَعَلْتَ ذلك فقد حَمَلْت النَّاس على أن يتركوا الأَمْرَ لا لله؛ لأن بعضَ النَّاس يقول: كيف هذا، كيف تقع هذه الحدود؟ معناه أنَّ الإِنْسَان لا يترك الزِّنا أو السَّرِقة إلا خوفًا من العُقُوبَةِ، ومَعْنى ذلك أنَّكَ تَحْمِل النَّاسَ على أن يَدَعُوا المحارِمَ لا خوفًا من الله ولكن خَوْفًا من العقوبة.

فنقول: إن هذا فيه إِصْلاحٌ، ووسيلَةُ الإصلاحِ لا يُشْتَرَطُ فيها من نِيَّة الذي يحاوَل إصلاحه.

وهل يُسْتَفادُ منها جوازُ إعطاءِ الجائِزَة تَشْجيعًا لمن عَمِلَ صَالِحًا، من باب قياسِ العَكْسِ؟

الجواب: المُكافَأَة على العَمَل ثابِتَةٌ في السُّنَّة، وفي غَيْرِ السُّنَّة أيضًا، فالرَّسُولُ ﷺ قال: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ»[1] أي: في الجهادِ في سبيل الله، و(سَلَبُهُ)؛ أي: ما عليه من الثِّيابِ ونَحْوها، وهذه مُكافَأَة.

والعُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ قالوا: يجوز أن يَجْعَل لمن دلَّهُم على حِصْنٍ وما أشبه ذلك، من الأُمُور التي فيها مَصْلَحة للمُجاهِدينَ، يجوز أن يَجْعَلَ له جُعْلًا، وكذلك للإمامِ أن يُنَفِّلَ السَّرِيَّة في الرَّجْعة وفي البِداءَة، كلُّ هذه من باب المُكافَأَةِ على فِعْلِ الخَيْرِ، فهذا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب، رقم (٣١٤٢)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، رقم (١٧٥١)، من حديث أبي قتادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ثابِتٌ، لكن هل نأخُذُ جواز ذلك من الآيَة؟

نقول: يُمْكِن أن نَأْخُذَه من الآيَة على سبيل قياسِ العَكْسِ.

فإن قُلْتَ: أَثْبِتْ لنا قياسَ العَكْسِ؛ لأنَّنا في شَكٍّ من إثبات القياسِ أوَّلًا؟

قلنا: عندنا دليلٌ على إثباتِ العَكْسِ، قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»[1]؛ يعني أنَّ الرَّجُلَ إذا أتى أَهْلَه فذلك صَدَقَةٌ، الصَّحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قالوا: يَا رَسُولَ الله أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلَال كَانَ لَهُ أَجْرٌ».

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فيها دليلٌ على كمال القُدْرَةِ لله عَزَّ وَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: صِحَّة تَقْسيمِ أَهْلِ السُّنَّة لصِفاتِ الله إلى: ثُبُوتِيَّة، وسَلْبِيَّة، وقد شك بعض النَّاسِ في كَلِمَة (سَلْبِيَّة) وقال: يَنْبَغي أن نقول: (مَنْفِيَّة).

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٦)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (١٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر:١٨].

لما بيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما يَؤُولُ إليه أَمْرُ هؤلاء الكُفَّارِ، وهدَّدَ من خرج عن طاعَتِه بأنَّه قادِرٌ على أن يُذْهِبَهم ويأتِيَ بِخَلْقٍ جديد ذكر بَراءَةَ غَيْر الوازِرينَ من الوازِرِينَ؛ يعني أنَّ شِرْكَ هؤلاء المُشْرِكينَ لا يُؤَثِّر على أولئكَ المُؤْمِنينَ المُوَحِّدين، قال: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نَفْسٌ ﴿وَازِرَةٌ﴾ آثِمَةٌ]، أفاد المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتَقْديرِ (نَفْس) أن (وازِرَة) صِفَةٌ لِمَوْصوفٍ مَحْذُوفٍ تَقْديرُهُ: (نفس)، وَقَوْله: (وازرة؛ أي: آثِمَة) وهل المُراد أنَّها آثِمَةٌ بالفِعْل أو أنَّها من ذواتِ الوِزْرِ والإِثْم وهو المُكَلَّف؛ أي: البالِغُ العاقِلُ؛ يعني أنَّ من يكونُ أَهْلًا لِأَنْ يَأْثَمُ إذا فعل لا يَتَحَمَّلُ إِثْمَ غَيْـرِهِ، وتكونُ الفائِدَةُ مِن ذِكْرِ وازِرَة أنَّ الصَّغيرَ مثلًا لا يَتَحَمَّل إثمًا لا له ولا لغيره، بخلاف الكبيرِ الذي يتحَمَّلُ الإِثْمَ، فهل يتَحَمَّل إثم غَيْره؟

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [آثِمَةٌ؛ أي: لا تَحْمِلُ] على كَلِمَةِ ﴿تَزِرُ﴾ فسَّرها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِقَوْله: [أي: لا تَحْمِل] وهذا تَفْسيرٌ بالمُرَادِ

لا بالمَعْنى المُطابِقِ للَّفْظ؛ لأنَّ المَعْنى المطابِقَ للَّفْظِ في ﴿تَزِرُ﴾ أي: تَأْثَم؛ إذ إنَّ الوِزْر هو الإِثْم، ولكن تقدَّم كثيرًا أن تَفْسيرَ القُرْآن قد يُرادُ به التَّفْسيرُ المُطابِقُ للَّفْظِ، وقد يُرادُ به التَّفْسيرُ بالمَعْنى المُرادُ لا المُطابِق للَّفْظ؛ أي: [لا تَحْمِلُ وِزْر نَفْسٍ أخرى].

أفادنا أيضًا بِقَوْله: [﴿وِزْرَ﴾ نَفْسٍ] أنَّ ﴿وِزْرَ﴾ صِفَةٌ لِمَوْصوفٍ مَحْذُوفٍ تَقْديره: (نَفْس)؛ أي إنَّ زيدًا لا يَحْمِلُ إثْمَ عَمْرو، وهندًا لا تَحْمِلُ وِزْر فاطمة مثلًا، فكلٌّ يَحْمِل وِزْرَه، قال الله تعالى مُبَيِّنًا ذلك في جُمْلَة تُعْتَبَرُ قاعِدَة: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨] ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١].

وأمَّا من لم يَكْسِبْ شيئًا فليس عليه مِنْ إِثْمِ الآخَرِ شَيْءٌ، ولا يعارِضُ هذا قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»(١)؛ لأنَّ سَنَّه إيَّاها يُعْتَبَر وِزْرًا؛ لأنَّه هو الذي شَقَّ الطَّريقَ لها، ومَهَّدَ السُّبُل؛ فلهذا كان عليه وِزْرُها وَوِزْرُ مَن عَمِلَ بها إلى يَوْمِ القِيامَة، فالآيَةُ هنا لا تُنافي الحديث.

قال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾.

[﴿وَإِن تَدْعُ﴾ نَفْسٌ ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ بالوِزْرِ ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ منه أَحَدًا لِيَحْمِل بَعْضَه ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾].

﴿وَإِن تَدْعُ﴾ أي: تَطْلُب ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ بالأَوْزارِ ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ لِيُحْمَل عنها بَعْضُه ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ وجُمْلَةُ ﴿لَا يُحْمَلْ﴾ جوابُ الشَّرْطِ، والشَّرْطُ قَوْله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ﴾ وهو مَجْزومٌ بِحَذْفِ الواو، والضَّمَّةُ قَبْلَه دليلٌ عليه و﴿لَا يُحْمَلْ﴾ هذا هو

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

جوابُ الشَّرْط، و﴿شَيْءٌ﴾: نائِبُ الفاعلِ؛ يعني اعْلَموا كما أنَّ الغَيْرَ لا يَحْمِلُ عن الغَيْر وِزْرَه فإنَّه حتى وإن دُعِيَ واستنجد لِيَحْمِل أو يُخَفَّف عن الوازِرِ شيئًا لم يَكُنْ ذلك، في الدُّنْيا ربَّما يُؤْخَذُ الإِنْسَانُ بِجَريرَةِ غَيْره، في الدُّنْيا أيضًا إذا استغاثَ بك إِنْسَانٌ قد حَمَل شيئًا ثقيلًا خاصَّةً من كِبارِ السِّنِّ، إذا قابَلْتَ إِنْسَانًا حَمَلَ شيئًا ثقيلًا فإنَّك تُنْجِدُه، لكِنْ في الآخِرَة لو دَعَتْ نَفْسٌ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِها أن يَحْمِلَ أَحَدٌ منه شيئًا فإنَّها لا تُجابُ إلى ذلك، ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ وَقَوْله تعالى: ﴿شَيْءٌ﴾ نكرة في سياق النَّفْيِ فَتَعُمُّ القَليلَ والكَثيرَ.

وَقَوْله تعالى: ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ هي أيضًا نكِرَةٌ في سياق النَّفْي فَتَعُمُّ؛ أيُّ مُثْقَلةٍ، مهما كانت هذه المُثْقَلَة، فإنَّها إذا دَعَت أَحَدًا من النَّاس أن يَحْمِلَ عنها من أَثْقالِها لا يُحْمَل منه شَيْءٌ.

قَوْله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المَدْعُوُّ ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ قَرابَةٍ كالأبِ والابْنِ].

قَوْله: [﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المَدْعُوُّ] ألا يُمْكِن أن نقول: (ولو كان الدَّاعي)؟

الجواب: يُمْكِن؛ لأنَّهما مُتلازِمانِ؛ لأنَّ المَدْعُوَّ إذا كان قريبًا للدَّاعي كان الدَّاعي قَريبًا له، لكنْ أيُّهما أَنْسَبُ من حيث السِّيَاقُ: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ نقول: (المَدْعُوُّ) أَقْرَبُ؛ لأنَّه لو كان المُرادُ الداعي لكان -والله أعلم- الأَنْسَبُ أن يقول: (ولو كانت ذا قُربَى)؛ لأنَّه قال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ ومعلومٌ أنَّ ضَميرَ المُؤَنَّث ولو كان مجازًا يكون مُؤَنَّثًا؛ قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَإِنَّمَا تَلْزَمُ فِعْلَ مُضْمَرِ ... مُتَّصِلٍ أَوْ مُفْهِمٍ ذَاتَ حِرِ[1]

---

(١) الألفية (ص٢٥).

إذن: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ ولو كانت ذا قُربَى، هذا صحيح؛ أي: ولو كانت الدَّاعِيَة، لكن قال: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ بالمُذَكَّر، عُلم أنَّ الفاعل غَيْرُ الدَّاعِيَة كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وَقَوْله: [﴿قُرْبَىٰ﴾ أي: قَرابَةٍ] ومنه قَوْله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال:٤١]؛ أي: القرابة، وَقَوْله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣] فالقُرْبى هنا بمَعْنى القَرَابَة، لو أنَّ الأَبَ اسْتَنْجَدَ بابنه يَوْمَ القِيامَة أن يَحْمِلَ عنه من أَوْزارِهِ لم يُجِبْه، بل ﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٦] لماذا؟

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وعَدَمُ الحَمْل في الشِّقَّيـنِ حُكْمٌ من الله] أين الشِّقَّانِ؟ قَوْله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تَحْمِلُ ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ وإذا كان من الله، فإنَّه لا يُمْكِنُ لأَحَـدٍ أن يَحْمِلَ عن أَحَـدٍ شيئًا، فلو أنَّ أَحَدًا قال لشَخْصٍ: (آثامُكَ عَلَيَّ) فلا يَصِحُّ هذا؛ لأنَّ الذي لا يحمل هو الله، فالحُكْمُ من الله عَزَّوَجَلَّ، لو أنَّ أَحَدًا اسْتَنْجَد بأَحَدٍ أن يَحْمِل عنه، ووافق على نَجْدَتِه، فليس له ذلك؛ لأنَّ هذا حُكْمٌ من الله عَزَّوَجَلَّ.

هذا الفائِدَة من قَوْلِه: [وَعَدَمُ الحَمْل في الشِّقَّينِ حكمٌ من الله] أي: فليس لأَحَدٍ أن يتجاوَزَ الحُكْمَ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [العنكبوت:١٢]؛ يعني: يقولون ذلك، لَكِنَّهم ليسوا بصادقين على هذا الحَمْل وإنَّهم لكاذبون؛ ثم قال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣] لا بالتِزامِهم

ولكن لأنَّهم هم الأُسْوَةُ والقُدْوَة فكانوا يَحْمِلون أَثْقالَهُم وأثقالَ من أَضَلُّوه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ هذه جُمْلَةٌ فيها حَصْرٌ طريقُه ﴿إِنَّمَا﴾ والحَصْرُ هو إثباتُ الحكم في المذكورِ فيه ونَفْيُه عمَّا سواه.

كأنَّك تقول: (ما تُنْذِرُ إلا الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم) و﴿تُنذِرُ﴾ من الإنذارِ، وهو الإِعْلامُ المَقْرونُ بالتَّخْويفِ، وإن شِئْتَ فقل: (الإِعْلام المُراد به التَّخويفُ)؛ لأنَّه قد لا يُقْرَن، لكن يُعْرَف من هَيْئَةِ الكَلَام والصِّياحِ مثلًا أنَّه للتَّخويفِ، فمُنْذِرُ الجيش يقول: (واصَبَاحاه)، فيَعْرِف النَّاس أنَّ هذا إنذارٌ للجَيْشِ.

إذَن: الإنذارُ معناه: الإِعْلامُ المُرَادُ به التَّخْويفُ، فالنَّبِيُّ ﷺ يقول الله له: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾.

وَقَوْله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ الخَشْيَة هي الخَوْفُ النَّابعُ عن تَعْظيمِ المَخُوفِ والعِلْمِ به، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] وَقَوْلنا: إنَّه الخَوْفُ النَّابعُ عن تَعْظيمِ المَخُوفِ؛ لِيَشْمَل من كان خائِفًا ولو كان هو قويًّا؛ معناه القَوِيُّ قد يخاف من الأَقْوى منه فتكون هذه خَشْيَة، فإن خاف الضَّعيفُ مِنَ القَوِيِّ فهو خَوْفٌ؛ ولهذا نقول: إنَّ الخَشْيَة أَعْظَمُ من الخَوْفِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

وَقَوْله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ أي: يَخافونَه خَوْفًا نابعًا من تَعْظيمهم له مع عِلْمِهم بأنَّه مستحِقٌّ للتَعْظيمِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ الغَيْبُ ضد الشَّاهِدِ والمَعْلومِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: يخافونه وما رَأَوْه] أفادنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ قَوْله تعالى: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ حالٌ من المفعول به؛ أي: يَخْشَوْن ربَّهم حال كَوْنِه غائبًا عنهم لم يَرَوْه، وهذا أَحَد الوَجْهَيْنِ في الآيَةِ.

الوجه الثاني: ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾ حالَ كَوْنِهم غائبينَ عن غَيْره فيكونُ الجارُّ والمَجْرورُ حالًا من الفاعِل؛ لأنَّ من النَّاسِ من يُظْهِرُ خَشْيَة الله أمام النَّاس، لَكِنَّه إذا غاب عن النَّاسِ لم يَخْشَ الله، هل يُمْدَح هذا على خَشْيَتِه؟

الجواب: لا؛ لأنَّه مُرَاءٍ، لكنْ من يَخْشَى ربَّه بالغَيْبِ هذا هو الذي يُمْدَح.

فإن قُلْتَ: هل يُمْكِن أن تُحْمَلَ الآيَةُ على المَعْنَيينِ، ويكون هؤلاء الذين مَدَحَهُم الله يَخْشَوْن الله؛ مع أنَّهم لم يَرَوْه يَخْشَون الله في حالِ الغَيْبَة عن النَّاس؟

فالجواب: نعم، وهذا من بَلاغَةِ القُرْآن أن يُعَبِّرَ بتعبيرٍ صَالِحٍ لِمَعْنَيَيْنِ لا يتنافيانِ، فهؤلاء القوم يَخْشَوْنَ الله تعالى وهم لم يَرَوْه، ولَكِنَّهم يَخْشَوْنَه كأنَّهم يَرَوْنَه؛ لأنَّهم يَخْشَوْنه بالغيب والشَّهادَة، وقد قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(١).

وَقَوْله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ لا ينافي أنَّه مُنْذِرٌ لجميع النَّاسِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [البقرة:١١٩] وقال تعالى: ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٣] وما أشبه ذلك من الآياتِ الدَّالَّة على عموم ذلك؛ لأنَّ المُرادَ بالإِنْذارِ هنا الإنذارُ النَّافِع؛ أي: إنَّما يُؤَثِّرُ إنذارُك في الذين يَخْشَوْن ربَّهم بالغَيْبِ، أمَّا من لا يَخْشَى الله بالغَيْبِ فإنَّه وإن أُنْذِرَ فإنَّه لا يَنْتَفِعُ بالإنذار.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُشيرًا إلى ذلك بِقَوْله: [لأنَّهُمُ المُنْتَفِعون بالإنذار] [لأنَّهم]؛ أي: الذين يخْشَوْن رَبَّهم بالغَيبِ المُنْتَفِعون بالإِنْذار، فلهذا خَصَّ الإنذارَ بهم.

إذن: حَصْرُ الإنذارِ في الذين يخْشَوْنَ ربَّهم بالغَيْبِ المُرادُ به حَصْرُ الانْتِفاعِ به، أو حَصْرُ نَفْعِه إنَّما يكون للذين يخْشَوْن ربَّهم بالغيب، أمَّا من لا يخشى الله فإنَّ هذا لا يَنْفَعُه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

قَوْله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فـ﴿وَأَقَامُوا۟﴾ معطوفةٌ على ﴿يَخْشَوْنَ﴾ أي: على صِلَةِ الموصول، وهنا قال: (يخْشَوْنَ وأَقاموا الصَّلاةَ) فعَطَفَ الماضِيَ على المُضارِعِ؛ لأنَّ الخَشْيَة مُسْتَمِرَّةٌ في الأعمال كُلِّها؛ في إقامَةِ الصَّلاة وغَيْرِها.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَداموها] والحَقيقَةُ أنَّ إِقامَة الصَّلاة أَعَمُّ مِمَّا قال، ففي تَفْسيره قُصُور؛ لأنَّ إقامَةَ الصَّلاةِ تَشْمَلُ إِتْمامَها، وإِكْمالها، والمُحافَظَة عليها، والمُداوَمَة عليها، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المُؤمنون:١-٢] فالخشوع فيها من إقامَتِها، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج:٣٤] هذا أيضًا من إِقامَتِها أن يحافِظَ عليها ويَحْرِص عليها؛ على واجِباتِها، ومُكَمِّلاتِها، وأَوْقاتِها.

وقال في سورة (سأل): ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج:٢٣] وفي آخرها قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج:٣٤]، فإقامَةُ الصَّلاةِ تَشْمَلُ كل ما فيه إِكْمالُها وإِتْمامُها وإِدامَتُها؛ فهو أَعَمُّ مِمَّا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وَقَوْله تعالى: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَشْمَلُ الفَرْض والنَّفْل؛ لأن (أل) تفيدُ العُمُوم؛ أي:

أقاموا كُلَّ صلاةٍ، والصَّلاةُ مَعْروفَةٌ، وهي في اللُّغَة: الدُّعَاءُ، وفي الشَّـرْع: التَّعَبُّد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأَقْوَالٍ وأَفْعَالٍ مَعْلُومَةٍ، مُفْتَتَحَةٌ بالتَّكْبيرِ مُخْتَتَمَةٌ بالتَّسْليمِ.

قال: ﴿وَمَن تَـزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَـتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ هذه الجُمْلَة شَـرْطِيَّةٌ، وفِعْلُ الشَّرْط فيها ﴿تَـزَكَّىٰ﴾ وجوابُه: ﴿فَإِنَّمَا يَـتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن تَـزَكَّىٰ﴾ تطَهَّرَ من الشِّرْك وغيره] لأنَّ الزَّكاةَ تُفيدُ مَعْنى الطُّهْـر، والمُرَادُ بالتَّـزَكِّي هنا هو ما دَلَّ عليـه قَوْله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤] وَقَوْله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشَّمْس:٩]؛ أي: من زَكَّى نَفْسَه؛ أي: طَهَّرَها من الشِّرْك.

وَقَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وغيره] كإرادَةِ السُّوء مثلًا، والمعاصي، وإرادَة الإِسَاءَةِ إلى الخَلْق، وغير هذا مِمَّا يَجِبُ على الإِنْسَانِ أن يُطَهِّرَ نَفْسَه منه، فهي إِذَن عامَّةٌ، وهل يَدْخُل في ذلك أداءُ الزكاة؟

الجوابُ: نعم، يَدْخُل في ذلك؛ لأنَّ أدَاءَ الزَّكاةِ يُطَهِّرُ من البُخْلِ؛ ومِنَ الواجِبِ، فهي داخِلَةٌ في قَوْله تعالى: ﴿وَمَن تَـزَكَّىٰ﴾.

قَوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّمَا يَـتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ المُراد بهذا الحَثُّ على التَّزَكِّي؛ لأنَّك إذا تَزَكَّيْتَ فإنَّما تَنْفَعُ نَفْسَك، ومن لم يَتَزَكَّ فَضَرَرُه على نفسه، فأنت إذا تَزَكَّيْتَ فالذي يَنْتَفِع بِتَزَكِّيكَ أنت نَفْسُك؛ والله عَزَّوَجَلَّ لا يَنْتَفِعُ بطاعَتِكَ، أمَّا غَيْـرُ الله فقد يَنْتَفِعُ بطاعَتِكَ لا لأنَّ حَسَناتِكَ له ولكن قد يَنْتَفِعُ بطاعَتِكَ: بالقُدْوَة بك، وبما يَحْصُل من عِلْم، أو غَيْرِ ذلك مِمَّا هو داخِلٌ في التَّزْكِيَة.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَـتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: فَعَلَيْه أن يَحرِص على التَّزَكِّي.

قَوْله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ المَصيرُ؛ بمَعْنى المَرْجع كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وجُمْلَةُ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بالمَحْذُوف خَبَرٌ مُقَدَّمٌ، و﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ مُبْتَدَأٌ مؤَخَّر، وهذه الجُمْلَةُ تُفيدُ الحَصْر؛ لأنَّه قدَّمَ فيها الخَبَر وحَقُّه التَّأْخير؛ يعني: إلى الله وَحْدَه المصيرُ؛ أي: المَرْجِعُ، وهل هذا في الدُّنْيا أو في الدُّنْيا والآخِرَة؟

الجوابُ: في الدُّنْيا والآخِرَة، فإلى الله المَصيرُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ، فمَرْجِع الأُمُورِ كُلِّها إلى الله عَزَّوَجَلَّ سواءٌ كانت في الدُّنْيا أم في الآخِرَة.

فالأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ مَرْجِعُها إلى الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠]، والأَحْكَامُ الكَوْنِيَّة مَرْجِعها إلى الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج:١٤]، والأَحْكَام الجزائِيَّة التي تكون يوم القِيامَة مَرْجِعُها إلى الله، فمصيرُ كُلِّ شَيْء إلى من أبدع وأَحْدث كلَّ شَيْء، والذي أَبْدَع الأُمُورَ وأَحْدَثها هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذن: مَرْجِعُها إلى الله، فمنه المبتدأ وإليه المنتهى.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَفْريعًا على قَوْله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فيجزي بالعَمَل في الآخِرَة] وهذا إشارَةٌ من المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنَّه قَصَرَ المَصيرَ هنا بالمَرْجِع يوم القِيامَة، والصَّوَاب العُمومُ، وعلى هذا فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجازي، ويَحْكُم قَدَرًا، ويَحْكُم شَرْعًا بين عباده.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الإِنْسَانَ لا يَحْمِل آثامَ غَيْـره؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

وينبني على هذه الفائِدَة: ثُبوتُ كَمـالِ عَدْلِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث لا يَحْمِل أَحَدٌ وِزْرَ أَحَد.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه لا يَقْبَل التَّحْميلَ إلا من كان أَهْلًا له؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَازِرَةٌ﴾ لأنَّ غَيْر الوازِرَة لا تَحْمِل إثْمَ نَفْسِها فضلًا عن إثْم غَيْرها، لكنَّ الوازِرَة تَحْمِل إثْمَ نَفْسِها لا تَحْمِل إثْمَ غَيْرها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: مَنْعُ الاتِّكاليَّة على الغَيْـر؛ لأنَّ الإِنْسَان قـد يَعْمَلُ، ويقول: (سَيُهَيِّئ الله لي أَحَدًا يدعو لي، أو يَسْتَغْفِر لي)، أو ما أشبه ذلك! نقول: هذا لا نَسْتَنِدُ عليه.

فإن قال قائلٌ: ما الجـوابُ عـن قَـوْله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣]؟

فالجوابُ: لأنَّ أَثْقالَ غَيْرِهم حَقيقَةٌ ناشِئَةٌ عن أثقالِهم، فصاروا كأنَّهم الذين عَمِلُوها، قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[1].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: قياسُ العَكْس، فإذا كانت النَّفْسُ لا تَحْمِلُ إثْم غَيْرِها، فهل تُلْزَم بالواجِبِ على غَيْرها أو تقوم بأوامِرِ غَيْرها؟

الجواب: لا، فكما أنَّ الإِنْسَانَ لا يَحْمِلُ إثم غَيْره بالمَعْصِيَة لا يَحْمِل إِثْم غَيْرِهِ في تَرْكِ الواجِبِ، فإذا ترك أبوك أو ابْنُك أو خالُك أو عَمُّك واجبًا فليس عليه إِثْمُه، الإِثْمُ على الرَّجُلِ نَفْسِه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الغَيْرَ لا يَحْمِلُ وِزْرَ الغَيْرِ وإن دعاه إلى ذلك؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ بخلافه في الدُّنْيا، فإنَّه في الدُّنْيا إذا دعاك أَحَدٌ أن تُعينَه على ما حَمَلَ أو أن تَحْمِلَه عنه أَجَبْتَه، لكن في الآخِرَة لا، قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ وحتى ولو كان أَقْرَبَ النَّاسِ إليك؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ رسول الله ﷺ نذيرٌ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه لا يَنْتَفِع بإنذارِهِ إلا من يَخْشى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الخَشْيَة التي هي مَحَلُّ الثَّناءِ هي: ما كانت خشيةً في الغَيْبِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ لأنَّ الخَشْيَةَ في الظَّاهِر قد يكون الحامِلُ عليها مُراعاةُ عباد الله، لكن إذا كانَتْ بالغَيْبِ فإن هذا دليلٌ واضِحٌ على أنَّ صاحِبَها مُخْلِصٌ في خَشْيَتِه لله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فَضيلَةُ الصَّلاةِ وأنَّها -أي: الصَّلاة- سَبَبٌ للانتفاعِ بإنذارِ النَّبِيِّ ﷺ كالخَشْيَة؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ الإِنْسَان إذا تزكَّى فإنَّ نَفْعَ تَزَكِّيهِ لِنَفْسِه ولا ينالُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من ذلك شَيْئًا؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾.

ويتفَرَّع عن هذه الفائِدَة: أنَّ أوامِرَ الله عَزَّوَجَلَّ ليست من أجل مَصْلَحةٍ ينالُها بامتثالنا، ولكن من أجْلِ رَحْمَتنا ومَصْلَحَتِنا نحن، قال الله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر:٧].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الحثُّ على تَزْكِيَة النَّفْس؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ وكُلُّ إِنْسَانٍ عاقِلٍ إذا علم أنَّ مَصْلَحَة العَمَلِ تعود إليه فإنَّه سوف يَهْتَمُّ به ويقوم به، فإذا عَلِمْتَ أن تَزَكِّيك لِنَفْسك حَرَصْت عليه غايَةَ الحِرْصَ.

والتَّزَكِّي كما أشرنا إليه يَشْمَل:

تَزْكِيَة القَلْب بِتَطْهِيرِهِ من جميع الشِّرْك، والشَّكِّ، والضَّغائِن، والأَحْقاد، والبَغْضاء، وما أشبه ذلك.

وتَزْكِيَة الأَفْوَاه من كلِّ قَوْلٍ مُنْكَرٍ بألَّا يَقُول الإِنْسَانُ إلا خيرًا؛ لِقَوْل النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١).

وتَزْكِيَة الأَفْعالِ أيضًا من فِعلِ الفَواحِشِ والأَخْلاقِ السَّيِّئَة، وما إلى ذلك مِمَّا يَجِبُ على الإِنْسَانِ أن يَتَطَهَّر منه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: كمال هذا الدِّينِ الإِسْلامِيِّ؛ حيث حثَّ على تَزْكِيَة النَّفْس ظاهِرًا وباطنًا؛ ظاهِرًا بالأَقْوالِ والأَفْعالِ، وباطنًا بالقُلوبِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ مَرْجِعَ الخلائِقِ إلى الله في أَحْكَامِهِم الكَوْنِيَّة والشَّرْعِيَّة والجزائِيَّة، أمَّا الأَحْكَامُ الكَوْنِيَّةُ فظاهِرٌ أنَّ المَرْجِعَ إلى الله؛ لأنَّه لا أَحَد يَسْتَطِيع أن يَرُدَّ قضاء الله الكَوْنِيَّ، وأمَّا الشَّرْعِيَّة فكذلك؛ فإنَّ العِبادَ مَرْبوبونَ مُتَعَبِّدونَ لله عَزَّوَجَلَّ، فكان مُقْتَضَى ذلك أن يَتَمَشَّوا على أَحْكَامه الشَّرْعِيَّةِ، وأمَّا الجَزائِيَّة فالأَمْرُ ظاهِرٌ؛ فإنَّه لا يجازي العاملينَ على عَمَلِهم إلا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: مَنْعُ الرُّجوعِ إلى غَيْرِ الله فيما هو مُخْتَصٌّ بالله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلا يجوز أن نَرْجِعَ إلى النُّظُم الوَضْعِيَّة التي من وَضْع البَشَرِ وعندنا كِتَابُ الله وسُنَّةُ رسوله ﷺ.

• ● ❁ ● •

الآيــة (١٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [فاطر:١٩].

يعني: لا يَسْتَوِيانِ في إدراك المُبْصَراتِ، ليس المَعْنى نَفْيَ التَّساوي مُطْلَقًا؛ لأنَّ الأَعْمى قد يَفْضُلُ البَصيرَ في أُمُورٍ أخرى، لكن لا يَسْتويانِ في إدراك المُبْصَرات وهذا ظاهِرٌ؛ فالأعمى إذا قام يَمْشِي وأمامَهُ حُفْرَةٌ أو حَجَر وقع في الحُفْرَة وعَثَرَ في الحَجَر، والبَصيرُ بالعَكْس، فلا يستوي هذا وهذا، والأَكْمَل هو: البصير؛ وهذا مَثَلٌ حِسِّيٌّ يَجِبُ أن نَنْتَقِلَ منه إلى المثل المَعْنَوِيِّ.

وأمَّا قَوْلُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الكافِر والمُؤْمِن] ففيه نَظَرٌ، يعني: كأنَّه يريد أن يقول: إنَّ الأَعْمى هو الكافر والبَصيرَ هو المُؤْمِن، ولكِنَّنا نقول: لا، الآيَةُ يُرادُ بها نَفْيُ المُساواةِ في الأُمُور الحِسِّيَّة الظَّاهِرة التي لا يُنْكِرُها أَحَد، إذ إنَّ الكافِرَ والزِّنديقَ والمُعانِدَ والمُسْتَكْبِر لا يُمْكِن أن يَدَّعُوا تساوي الأَعْمى والبصير، لكن قد يَدَّعُون تساوِيَ المُؤْمِن والكافر.

الآيــة (٢٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ [فاطر:٢٠].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ ﴾ الكُفْر ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾ الإيمانُ] وهذا أيضًا فيه نَظَرٌ، والظَّاهِر أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أراد الظُّلُماتِ الحِسِّيَّةَ والنُّور الحِسِّيَّ؛ لأنَّ نَفْيَ الاسْتِواء بين هَذَينِ أمرٌ لا يُمْكِنُ إِنْكارُه؛ لأنَّه مُدْرَكٌ بالحِسِّ، فالظُّلُمات لا تستوي والنُّور، ولكِنْ لا شَكَّ أنَّ المُرادَ بذلك ظُلُماتُ الكُفْر ونور الإيمانِ؛ يعني أنَّها إشارَةٌ إلى هذا؛ ولذلك جمع الظُّلماتِ وأَفْرَد النُّور؛ لأنَّ سُبُلَ الكُفْرِ كَثيرَةٌ، وأمَّا الإيمان فَسبيلُهُ واحِدٌ، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وإنَّما كان الكُفْرُ ظُلُماتٍ؛ لأنَّ فيه الجَهْلَ بالله عَزَّوَجَلَّ، وبما يَجِبُ له، وفيه أيضًا أنَّ الإِنْسَانَ يسير على غَيْر هدًى، ويسيرُ في اتِّجاهاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مُنْحَرِفَة، فقَلْبُه مُتَشَعِّبٌ في كلِّ وادٍ؛ ولهذا تجد الكافرينَ أَشَدَّ النَّاس قلقًا وأَبْعَدَهم عن الثَّباتِ على خطٍّ مُسْتَقيم.

بخلافِ المُؤْمِن؛ فالمُؤْمِنُ مُؤْمِنٌ، خَطُّه مُسْتَقيم، وعارِفٌ أنَّه يريد الوُصولَ إلى الله، فتَجِدُه يُحَوِّلُ جميعَ الأَفْعالِ إلى طريقٍ واحِدٍ وهو الوصول إلى الله؛ حتى إنَّه إذا لَبِسَ ثَوْبَه يَشْعُر بأنَّه ينالُ بذلك مَرْضاةَ الله، إذا أَكَل، أو شَرِبَ، أو نام، أو سافَر،

أو تكَلَّم، أو أَحْجَم، كلُّ ذلك يرى أنَّه في الطَّريقِ إلى الله.

لكنَّ الكافِرَ مُتَشَعِّبٌ، ولذلك كان مَنْهَجُه ظُلُماتٍ؛ لأنَّه مُتَشَعِّب، ليس هناك هدَفٌ واحِدٌ يسعى إليه، أهدافُهُ كَثيرَةٌ، مغرورٌ في الدُّنْيا، مغرورٌ في رؤسائه، مغرورٌ في النَّاس، لا يَهْتَمُّ إلا برضاهم، نسأل الله السَّلامَةَ والعافية، ولا يُهِمُّه أن يَرْضَى الله عَزَّوَجَلَّ، فلهذا كان مُسْتَحَقًّا أن تُجْعَلَ طَريقُ الكافِرِ على سبيلِ الجَمْعِ لِتَشَتُّتِها وتَفَرُّقِها.

• • ۞ • •

الآيــة (٢١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ [فاطر:٢١].

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الجَنَّة والنَّار] يعني: المُراد بالظِّلِّ -عند المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ- الجَنَّة، والمُراد بالحَرورِ النَّار، ولكن كما قُلْتُ: الظَّاهِر أنَّ هذا مَثَلٌ لأمرٍ حِسِّيٍّ لا يُمْكِن إنكارُه، لكن يَنْتَقِل منه إلى أمرٍ مَعْنَوِيٍّ.

والظِّلُّ والحَرورُ لا يستويان، وأيُّهما أَحْسَنُ؟

الجواب: الظِّلُّ؛ فالظِّلُّ مَعْروفٌ، وهو الفَيْءُ الذي تَقَلَّصَت عنه الشَّمْس وإن شِئْتَ فقل: الظِّلُّ هو المكان الذي ليس فيه أشِعَّةٌ للشَّمْس، وإنَّمـا نقول ذلك؛ لأنَّ الجَنَّةَ ليـس فيها شَمْس، قال الله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقِعة:٣٠] مع أنَّه ليـس فيها شَمْس.

وأمَّا (الحرورُ) فهو على وزن (فَعُول) وهو الهواء الحارُّ، وبَعْضُهم يقول: إنَّه الهواءُ الحارُّ في النَّهارِ، والسَّمُوم: الهواءُ الحارُّ في اللَّيْلِ، وبعضهم يقول: كلاهُما بمَعْنًى واحدٍ، فالحَرورُ والسَّمومُ هما الهواء الحارُّ، وهذا مَعْروفٌ، يكون في أيَّامِ الصَّيْفِ، وإذا كان معه شَمْس ازداد شدَّةً في الحرارة.

الآن عندنا: الأَعْمى والبصيرُ، والظُّلُمات والنُّور، والظِّلُّ والحَرور، على كَلَام المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقول: هذا النَّفْيُ في المواضِعِ الثلاثة: الأَوَّل يعود إلى ذاتِ المُؤْمِنِ

والكافِرِ، والثَّاني يعود إلى عَمَل المُؤْمِن والكافِرِ، والثَّالِـثُ يعود إلى مُسَتَقَرِّ المُؤْمِنِ والكافِرِ، فالأَوَّلُ نَفْيٌ للذَّواتِ، والثاني نَفْيٌ للأَفْعال والمَنْهَج، والثَّالِثُ نَفْيٌ للمُسْتَقَرِّ والمأوى.

الآيــة (٢٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢].

قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ هـذا هو الرَّابع، قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُؤْمِنون ولا الكُفَّار] فعلى كَـلَام المُفَسِّـر يكون في الآية تَكْرارٌ؛ لأنَّه فسَّـر الأَوَّل ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ بالكافِـرِ والمُؤْمِـن، وهنا قال: ﴿ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [المُؤْمِنـون والكُفَّار] ولو أَرَدْتُ أن أَسْلُكَ مَسْلَكَه لقلت: ﴿ٱلْأَحْيَآءُ﴾ ذوو العِلْمِ و﴿ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ ذوو الجَهْل؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]؛ ولأنَّ الله تعالى جَعَلَ الوَحْيَ رُوحًا تَحْيا به القُلُوبُ والنُّفُوس، ولكنَّني لا أَسْلُك مَسْلَكَه، إنَّما لو أَرَدْتُ أن أَسْلُك مَسْلَكَه لقلت: (الأحياء والأَمواتُ: العُلَماء والجُهَّال)، لأنني إذا سَلَكْتُ هذا المَسْلَك فعندي على ذلك البُرْهان، وهو قَوْله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ إلخ [الأنعام:١٢٢] فإذا سَلَكْتُ هذا المسلك سَلِمَتِ الآيَةُ من التَّكرارِ.

ونحن نَعْلَم جميعًا أنَّ من القواعِدِ المَعْروفة في الكَلَام أنَّه إذا دار الأَمْرُ بين حَمل الكَلَامِ على التَّأْسيسِ أو على التَّوْكيدِ وَجَبَ حَمْلُه على التَّأْسيسِ؛ لأنَّه هو الأَصْل، فالأَصْلُ في الكَلَام أن يكون مُسْتَقِلًّا مُؤَسِّسًا لا مُؤَكِّدًا.

والتَّأْسيسُ معناه الأَصْل والأَساس؛ يعني: هذا مَعْنًى جديدٌ غَيْرُ المَعْنى الأَوَّل، فإذا قال قائل مثلًا: هـذه الجُمْلَةُ مُؤَكِّدَة للأولى، وقال الثاني: هـذه الجُمْلَة مُسْتَقِلَّةٌ بِنَفْسها، فإنَّه يُحْمَل على أنَّها مُسْتَقِلَّة بنفسها.

وأقول: الأحياءُ والأَمْواتُ يُراد به الحياةُ الحِسِّيَّةُ والمَوْت الحِسِّيُّ، فكلٌّ يَعْرِف الفَرْقَ بين الحَيِّ والمَيِّت، حتى الكُفَّارُ يَعْرِفونَ الفَرْقَ بين الحَيِّ والمَيِّت، والذي يماثل هذه الأشياء النَّفْسِيَّة من الأُمُور المَعْقولَةِ هو مَثَلها.

وَقَوْل المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وزيادَةُ (لا) في الثَّلاثَةِ تَأكيدٌ] هذه الجُمْلَة أفادت أنَّ لدينا زيادَةً، وأنَّ الفائِدَة من الزِّيادَة التَّوْكيدُ، فالزِّيادَة في هذه الثَّلاثِ: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ وفي قَوْله تعالى: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ وفي قَوْله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ فـ(لا) خَمْسُ مرات، لكنْ جَعَلَها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثلاثة؛ لأنَّ المُتقابِلَ فيها ثلاثة، (الظُّلُمـات والنُّور) هذه يريد أن تكون واحِدَة، و(الظِّلُّ والحرور) واحِدَةٌ، و(الأحياء والأموات) واحِدَةٌ، المُهِمُّ أنَّ الزِّيادَة التي جاءت في المواضِعِ كُلِّها سواء قلنا: ثلاثَة أو خَمْسة فهي للتوكيد؛ إذ لو قيل: (وما يستوي الأعمى والبصير، والظُّلمات والنُّور، والظِّلُّ والحَرور، والأَحْياءُ والأموات) استقام الكَلَامُ، لكِنْ يُؤتَى بـ(لا) الزَّائِدَة للتَّوْكيدِ.

وفيها أيضًا فائِدَة ثانِيَةٌ: وهي عَدَمُ السَّآمَة والمَلَل؛ لأنَّها لو حُذِفَـت لطالـت المعطوفاتُ بَعْضُها مع بعض، فكرَّر فيها عامِل النَّفْيِ ليكون أَبْعَدَ عن السَّآمَةِ.

فإن قُلْتَ: هل لذلك نظيرٌ في كِتَاب الله؟

فالجواب: نعم، لهذا نظيرٌ في مواضِعَ كثيرة، منها ما نقرؤه في كل صَلاةٍ: وهي ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧] إذ لو قال: (غَيْـرِ المَغْضـوبِ عليهم

والضَّالِّين) استقام، لكن زِيدَتْ (لا) للتَّوْكيدِ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ هِدايَته فَيُجيبُه] أي: المُسْمَعُ [بالإيمان]؛ يعني أنَّ الله تعالى يدعو إلى دار السَّلامِ؛ كما قال في آيَةٍ أخرى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس:٢٥] دُعَاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى دارِ السَّلام هل يَسْمَعُه كُلُّ أَحَدٍ؟

الجواب: أمَّا من حيث الإدراكِ الحِسِّيِّ فإنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَسْمَعُه، أمَّا من حيث الإجابَةُ فلا، فمن النَّاس من يُجيبُ، ومنهم من لا يُجيبُ؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥] فالله تعالى يُسْمِعُ من يشاء؛ بمَعْنى: من يكون أَهْلًا لاتِّباع هؤلاء الرُّسُل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾: (ما) هنا حِجازِيَّة، واسْمُها الضَّميرُ ﴿أَنتَ﴾ والباءُ في ﴿بِمُسْمِعٍ﴾ زائِدَة للتَّوْكيدِ، و(مُسْمِع): خَبَرُها مَنْصوبٌ بِفَتْحَة مُقَدَّرَة على آخِرِه منع من ظُهُورها حَرَكَةُ حَرْفِ الجرِّ الزَّائِد.

﴿مَّن﴾: مفعول لـ(مُسْمِع)؛ لأن (مُسْمِع) اسْمُ فاعل.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي: الكُفَّارَ، شَبَّهَهُم بالمَوتى؛ فيُجيبوا] قَوْله: [فيجيبوا]، في بعض النُّسَخ: (فيُجيبونَ) وهذا خطأ؛ لأنَّ النون يَجِبُ أن تُحْذَف؛ لأنَّه جوابُ النَّفْيِ في قَوْله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ وفي بعض النُّسَخ: (فلا يجيبون)، فهي مُنْفَصِلَة عما قبلها؛ أي: فهم في عَدَمِ إِسْماعِهِم لا يُجيبونَ.

على كُلِّ حالٍ: المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول في قَوْلِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ بِقَوْله: [أي: الكُفَّار] والذي يظهر لي أنَّ المُرادَ به الموتى حَقيقَةً، والرَّسُولُ

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يُسْمِعُ الموتى حَقيقَةً كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل:٨٠]، فلو أنَّ الرَّسُولَ ﷺ ذهب إلى المَقْبَرة مَقْبَرَةِ الكُفَّارِ، وقال: «يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ، واعْبُدوه»، وما أَشْبَه ذلك هل يَسْمَعونَ هذه المَوْعِظَة فينْتَفِعونَ بها؟

الجواب: لا، ما يسمعونها فيَنْتَفِعون بها، ولكنَّنا نقول: نَنْتَقِلُ من هذا إلى أنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يُسْمِعُ الكُفَّار؛ لأنَّ قُلوبَهم مَيِّتَة، ومَنْ قَلْبُه مَيِّتٌ -والعياذ بالله- فإنَّه لا يَنْتَفِعُ بما يَسْمَع من المواعظ، فكأنَّه لا يَسْمَع.

قَوْله تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ فَسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿إِنْ﴾ بـ(ما) فقال: [﴿إِنْ﴾ ما ﴿أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ مُنْذِرٌ لهم] وهذا يدلُّ على أن ﴿إِنْ﴾ نافِيَة، وقد تقدَّم أنَّ من علامات ﴿إِنْ﴾ النَّافِيَة الاسْتِثْناءُ بأن تُتْبَع بـ﴿إِلَّا﴾، والمَعْنى: ما أنت إلا نَذيرُهُم، والنَّذيرُ كما تَقَدَّم هو المُعْلِم إِعْلامًا يَتَضَمَّنُ التَّخْويفَ، فالإِعْلامُ المُتَضَمِّنُ التَّخْويفَ يُسَمَّى إنذارًا.

قَوْله تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ هل هذا الحَصْرُ حقيقيٌّ أو إضافِيٌّ؟

الجواب: إضافي؛ لأنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نذيرٌ وبَشيرٌ؛ لكن المَقامَ هنا يقتضي أن يُذْكَر الإنذارُ فقط؛ لأنَّه في مُقارَعَةِ الكُفَّار، ومُقارَعَة الكُفَّارِ تَحْتاجُ إلى الإِنْذارِ أَكْثَرَ مِمَّا تحتاج إلى التَّبْشيرِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ تكونُ مُقابلة بين هذه الجُمْلَةِ والجُمْلَةِ التي قبلها؛ كأنَّه يقول: أنت لا تستطيعُ أن تُوصِلَ الهِدايَة إلى قلوبِ الكافرينَ، ولكِنْ تَسْتَطيع أن تُنْذِرَهُم؛ لأنَّ هذا هو مَقامُك، مَقامُكَ إنذارٌ، أمَّا أن تُوصِلَ الهِدايَة إلى قُلوبِ هؤلاء الكُفَّار الذين يُشْبِهونَ الموتى فهذا ليس إليكَ.

وصدق الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما استطاعَ أن يَهْدِيَ أَقْرَبَ النَّاس إليه وأَشْفَقَ النَّاسِ إليه وهو عَمُّه أبو طالـب، وشاء الله عَزَّوَجَلَّ أن يَهْدِيَ أقوامًا من فارس والرُّوم من أَبْعَدِ النَّاس عن الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، نَسَبًا ومَكانًا؛ لأنَّ الأَمْرَ بِيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢٢].

من فوائد الآيات الكريمة (١٩-٢٢):

الْفَائِدَة الأُولَى: بَلاغَة القُرْآن؛ حيث يَنْتَقِلُ بِسامِعِه وقارِئِه من الأَمْثالِ الحِسِّيَّة إلى الأمثال المَعْنَوِيَّة؛ ذلك لأنَّ الأمثال الحِسِّيَّة لا يَمْتَري فيها أَحَدٌ، وليس لأَحَدٍ أن يُجادِلَ فيها؛ لأنَّك إذا قُلْتَ مثلًا: (هذه لَمبة، وهذا نُورُها) لا أَحَد ينازِعُك فيها؛ لأنَّه انْتَقَل من المَحْسوسِ إلى المَعْقول المَعْنَوِيِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلَةُ البَصَـرِ؛ لأنَّ نَفْيَ الاسْتِواء بين الأعمى والبصير معناه تَفْضيلُ البَصيرِ؛ ولهذا أَكْثِرْ من دُعَاءِ الله عَزَّوَجَلَّ: «اللَّهُمَّ مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا»(١).

وكذلك أيضًا نقول في: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ فإنَّ فيها من بَلاغَة القُرْآنِ ما في قَوْله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ وفيها: الانتقالُ من المَثَل الحِسِّيِّ إلى المَثَل المَعْنَوِيِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تفضيلُ النُّورِ على الظُّلمة؛ لأنَّ نَفْيَ الاسْتِواءِ فيهما معناه تَفْضيلُ النُّور على الظُّلمةِ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٠٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إذا انتَقَلْنا من المَثَلِ الحِسِّيِّ إلى المَعْنَوِيِّ فإنَّ طريق الهُدى واحِدٌ وطُرُق الضَّلال مُتَفَرِّقَة؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ وذكرنا شاهدًا من القُرْآن على هـذا وهو قَوْله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة:٢٥٧]، فهناك طاغوتٌ يَجُرُّهم إلى نَوْعٍ من الكفر والفِسْقِ؛ نسأل اللهَ العافِيَةَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه لا يستوي الظِّلُّ ولا الحرور، وهذا مَثَل حِسِّيٌّ، انتقل منه إلى المثل المَعْنَوِيِّ، وهو ظِلُّ الجَنَّة وحرُّ النَّار وأيُّهما أفضل؟

الجواب: ظِلُّ الجَنَّة؛ اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ وإيَّاكم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التَّحْذيرُ من عَمَلِ أَهْل النَّار؛ لأنَّ نَفْي الاستواء بين الظِّلِّ والحرور أمرٌ معلوم، وتَأَذِّي الإِنْسَانِ بالحَرورِ أيضًا أمرٌ معلومٌ؛ ففيه: التَّحْذيرُ من عَمَلِ أَهْلِ النَّار.

وهل يُؤْخَذُ من الآيَةِ الكريمَةِ أنَّه: لا حَرَجَ على الإِنْسَان أن يَطْلُبَ الظِّلَّ، وأن يَطْلُبَ النُّورَ؟ الجواب: نعم؛ لأنَّنا ما دمنا ذَكَرْنا أنَّ هذا النَّفْيَ معناه تَفْضيلُ النُّورِ على الظُّلُمات وتفضيل الظِّلِّ على الحرور فلا حرج على الإِنْسَانِ أن يَطْلُب الأَفْضَل، بل قد يَجِبُ أحيانًا؛ ولهذا لَمَّا رأى النَّبِيَّ ﷺ زحامًا ورَجُلًا يُظَلَّلُ عليه والزِّحامُ عليه، لم يَقُلْ: (لا تُظَلِّلوا عليه)، ولكن قال: «لَيْسَ مِنَ البِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ لمن ظُلل عليه واشتد الحر: «ليس من البر الصوم في السفر»، رقم (١٩٤٦)، ومسلم: كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر، رقم (١١١٥)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: قَوْله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ فيها أيضًا سَبَبٌ في نظائِرِها، وفيها فَضيلَةُ العِلْم، وهو كذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، والعِلْمُ جهادٌ في سبيل الله، وإن شِئْتَ فقل على الأَصَحِّ: العِلْم سلاحٌ للجِهادِ في سبيل اللهِ؛ لأنَّه قد يَحْمِلُ العِلْمَ من لا يَنْتَفِعُ به ولا يَنْفَعُ غَيْره، فهو سلاحٌ، لكن إذا نَفَعْتَ نَفْسَك وغيرك صِرْتَ مجاهدًا به، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢]، فالعِلْم سلاحٌ يَتَوَصَّلُ به الإِنْسَانُ إلى الجهاد في سبيل الله.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: قَوْله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ فيه الحَثُّ على طلب العِلْم، وأنَّه حياةُ الأُمَّة كما أنَّه حياةُ الفَرْدِ، فلا يُمْكِن أن تحيا الأُمَّة حياةً -لا أقول حياةً بَهيمِيَّة، يُمْكِن أن تحيا حياة بَهيمِيَّة بدون علم- لكن لا يُمْكِن أن تحيا حياةً طَيِّبَة إلا بالعِلْمِ، وكُلُّ النَّاس يَنْشُدونَ الحياةَ الطَّيِّبة لكن ما طَيِّبُها؟

الجواب: العِلْمُ، إذا أَثْمَرَ ثَمَرَتَه وهو الإيمانُ والعَمَلُ الصَّالِح، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ فيه أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي بِيَدِه مقاليدُ الأُمُورِ؛ حتى أنت يا مُحَمَّدُ، لا تستطيع أن تُسْمِعَ أَحَدًا، بل المُسْمِعُ هو الله.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: في قَوْلِه تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فيه إثباتُ المَشيئَة لله.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: في قَوْلِه تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فيه رَدٌّ على القَدَرِيَّة الذين يُنْكِرون أن يكون لأَفْعالِ العبادِ مَشيئَةٌ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ ولكنَّ هذه المَشيئَة المُطْلَقَة هنا وفي كل مَوْضِعٍ جاءت مُطْلَقَةً مُقَيَّدَةً بالحِكْمَة؛ لِقَوْله

تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّه يَنْبَغي للإِنْسَان، بل يَجِبُ على الإِنْسَان أن يَلجَأَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ وَحْدَه، في جَلْبِ المنافِعِ ودَفْعِ المضارِّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ فإذا كان يُسْمِعُنا الله، فلا تُسْأَلْ مِن غَيْرِه، لا تُسْأَلْ إلا مِنَ الله.

ولهذا يَنْبَغي لنا دائمًا أن نكون داعينَ لله عَزَّوَجَلَّ ونَحْنُ نَشْعُر بأنَّنا مُفْتَقِرون إلى الله، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادِرٌ على أن يحقِّق لنا ما نرجوه وما ندعوه به، لا تَعْتَمِدْ على نَفْسِك وتنسى الله، افْزَعْ إلى الله دائمًا في الدُّعَاءِ، في السُّجُود، وبين الأذانِ والإقامة، وفي كلِّ مواطِنِ الإجابة الزَّمَنِيَّة والمكانِيَّة والحالِيَّة؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

ثم اعلم أيضًا أنَّ الدُّعَاء مع كَوْنِك تَطْلُب حاجَتَكَ من الله هو نَفْسُه أيضًا عِبَادَةٌ تَتَقَرَّب بها إلى الله، فتكْسِبُ بهذا الدُّعَاء ثَمَرَتَيْنِ: الثَّمَرَة الأولى: الثَّوابُ على هذه العِبَادَة، والثَّمَرَة الثَّانِيَة: حُصولُ المَطْلوبِ أو دَفْعُ المَكْروهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ رسولَ الله ﷺ لا يَسْتَطيعُ أن يُسْمِعَ من في القبور؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ فلو أنَّ الرَّسُولَ ﷺ ذهب إلى أَهْلِ المَقْبَرَة ودعاهم وقال: (يا أَهْلَ القُبُورِ؛ آمِنُوا بالله ورَسُولِهِ، يا أَهْلَ القُبُورِ، اعْمَلُوا صَالِحًا) لا يَسْمَعونَ.

فإن قُلْتَ: ما الجوابُ عما ثَبَتَ في الحديث الصَّحيحِ منَّ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ وقف على قتلى المُشْركينَ في قَليبِ بَدْرٍ، وجَعَلَ يدعوهم بأَسْمائِهم وأَسْماءِ آبائِهم، فقال: «يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، يَا شَيْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا عُتْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا أُمَيَّةُ بْنَ خَلَفٍ: هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا؟» قَالُوا: كَيْفَ تُكَلِّمُ

قَوْمًا قَدْ جَيَّفُوا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا؟ قَالَ: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ»[١]؛ يعني: أنَّهم يَسْمَعون، فما الجواب؟ قال قتادة: «أَحْيَاهُمُ اللهُ حَتَّى أَسْمَعَهُمْ قَوْلَهُ تَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا»[٢] ومَعْنى كَلَامه أنَّه خاصٌّ بهؤلاء.

فإن قُلْتَ: ما الجواب عما ثبت في الحديث الصَّحيحِ أيضًا من أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِم»[٣]؟

فالجواب: أنَّ هذا عند الدَّفْنِ، وأيضًا لا يَلْزَمُ من سَماعِ قَرْعِ النِّعالِ أن يسمع الكَلَام والدَّعْوة.

وإن قلتَ: ما الجواب عما رواه أبو داودَ وغَيْرُه وصَحَّحَه ابنُ عَبْدِ البَرِّ[٤] ولم يخالِفْه ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٥] من أنَّه: «ما من مُسْلِمٍ يُسَلِّمُ على قَبْرٍ كان يَعْرِفُه في الدُّنْيا إلا رَدَّ الله عليه رُوحَه فَرَدَّ عليه السلام».

فالجوابُ: أن يقال: هذا في حالٍ مَخْصوصَةٍ دلَّ عليها الحديثُ، ولا يَلْزَم من هذا، إذا سَمِعَ (السَّلام عليك) وهو دُعَاءٌ له أن يَرُدَّ السَّلامَ على من سَلَّم، أن يَسْمَعَ كُلَّ من تكلَّم عنده.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم (٢٨٧٤)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه بنحوه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم (١٣٧٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، رقم (٣٩٧٦).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، رقم (١٣٣٨)، ومسلم: كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار، رقم (٢٨٧٠)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في الاستذكار (١/ ١٨٥)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) الروح (ص٥).

فإن قلت: ما الجوابُ عما قاله الفُقَهَاء من أنَّ المَيِّتَ يتأَذَّى بِقَوْلِ المُنْكَر عند قَبْرِه أو فِعْل المُنْكَر عند قَبْرِه؟

فالجوابُ: أنَّ قَوْل الواحِدِ من النَّاس غَيْرِ الرَّسُولِ ﷺ ليس بحُجَّة، وإنَّما يُحْتَجُّ له لا به، ثُمَّ على رَأْيِهم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يَحْمِلون مَعْنى قَوْله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أي: بِمُسْمِعٍ من تدعوهم إلى الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِح، فإنَّك لا تُسْمِعُهم سَماعًا يَسْتَجيبونَ له، وهذا هو الجوابُ الأخيرُ عن قَوْل من يقول: إنَّ الموتى يَسْمَعونَ ما يقال عندهم ويُخاطَبون به، فَقَوْله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أي: سَماعًا يَنْتَفِعون به ويَسْتجيبونَ له. والله أعلم.

والواجِبُ على المُؤْمِن نحو هذه الأُمُور الغَيْبيَّة أن يُؤْمِنَ بما جاء به النَّصُّ فقط، بل يَجِبُ عليه أن يقول: العِلْمُ عند الله، فلا يَجْزِم بالنَّفْيِ، ولا يجزم بالإثباتِ، نعم، له أن يَجْزِمَ بالنَّفْي ويَجْعَل ما ثبت به الحديثُ من السَّماعِ مُخَصِّصًا؛ لأنَّه قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ وفي الآيَة الأخرى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل:٨٠].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ مُحَمَّدًا رسولَ الله ﷺ ليس إلا مُبَلِّغًا ومُنْذِرًا، وليس في يَدِهِ جَلْبُ الهِدايَة لأَحَدٍ، ولا دَفْعُ الضَّرَر عنه؛ لأنَّه قال: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ يعني: ما أنت هادٍ للنَّاسِ هِدايَةَ تَوْفيقٍ وإِرْشادٍ، ولكنك مُنْذِرٌ فأنت هادٍ هِدايَةَ بيانٍ فقط.

الآيـة (٢٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر:٢٤].

قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ الإرسال بمَعْنى الأَمْـرِ بالتَّبْليغِ أو بِقَضاءِ الحاجَـةِ؛ فمثلًا تقول: (أَرْسَلْتُ غلامي يُخْبِرُ فلانًا بكذا وكذا؛ يعني أَمَرْتُه بالتَّبليغِ) أَرْسَلْتُ غلامي يشتري كذا وكذا؛ أي: أَمَرْتُه أن يَشْتَرِيَ الحاجَةَ.

قَوْله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ يُحْتَمَل أن تكون الباءُ للتَّعْـدِيَة؛ أي أَنَّنا أعطينـاكَ حَقًّا وأرسلناك به، ويُحْتَمَل أن تكون وَصْفًا للرِّسالَة؛ يعني: أرسلناك رِسالَةَ حَقٍّ، والمَعْنى يَخْتَلِفُ.

فعلى المَعْنى الثاني يكون مَعْنى الآيَة أنَّ رِسالَةَ النَّبِيِّ ﷺ حَـقٌّ، وعلى المَعْنى الأَوَّل يكون معناها: أنَّ الرَّسُول ﷺ جاء بالحَقِّ، وإن كان المعنيان متلازِمَينِ، لَكِنَّهما مُخْتَلِفانِ من حيث المَوْرِدُ؛ فعلى الأَوَّل يكون مَوْرِدُ الوَصْفِ الرِّسالَةَ نَفْسَها، وعلى الثاني يكون مَوْرِدُ الوَصْفِ المُرْسَل به.

قَوْله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: أعطينـاك حَقًّا تُبَلِّغُه للنَّاسِ ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي إنَّ رسالتنا إليك حَقٌّ، فيكون وَصْفًا للرِّسالة نَفْسِها؛ يعني: لسْتَ بكاذِبٍ بل أنت صادِقٌ، هذا على جَعْلِنا الوَصْفَ عائِدًا للرِّسالَة أمَّا إذا جعلناه عائدًا على

المَوْصوفِ به، فالمَعْنى أنَّ ما جِئْتَ به ليس بباطِلٍ، بل هو صِدْقٌ في الأَخْبار وعَدْلٌ في الأَحْكَامِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَشِيرًا﴾: من أجاب إليه ﴿وَنَذِيرًا﴾ من لم يُجِبْ إليه] فـ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ يعني أنَّك تُبَشِّر وتُنْذِر، لكن تُبَشِّر بالخَيْر من أجاب، وتُنْذِر بالعقوبة من لم يُجِبْ وعصى؛ وذلك لأنَّ الشَّرْعَ يَتَضَمَّن أوامِرَ ونواهِيَ، فمن ارْتَكَبَ النَّواهِيَ أو تَرَكَ الأَوامِرَ واجهناه بالإنذارِ، ومن فعل الأوامِرَ واجْتَنَبَ النَّواهِيَ قابلناه بالبِشارَةِ.

قَوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾: ﴿وَإِن﴾ نافية، و﴿مِّنْ﴾ حرف جَرٍّ زائدٌ زائد -ويجوز أن نقول: (زائدٌ زائِدًا) على أنَّ (زائدًا) حالٌ من الضَّمير المُسْتَتِر في (زائِد) الأُولى- المُهِمُّ أنَّه زائِدٌ لفظًا زائدٌ مَعْنًى، و﴿أُمَّةٍ﴾ مُبْتَدَأٌ، وجُمْلَة ﴿خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ خَبَرُها.

والأُمَّةُ هي الطَّائِفَة من النَّاس التي على مَنْهَجٍ واحِدٍ؛ كدين واحد، أو قَوْمِيَّة واحِدَة، أو ما أشبه ذلك، فهذه الأُمَّة، وليس كُلُّ طائِفَة نُسَمِّيها أُمَّة؛ فمثلًا: أنتم الآن لا نُسَمِّيكم أُمَّة إلَّا لأنَّكُم على طريقٍ واحِدٍ، لكن لو اجْتَمَعَتْ جماعَةٌ في مكان مُتَشَتِّين، كلُّ واحدٍ له مَنْهَجٌ لا نقول: هؤلاء أُمَّةٌ، إلا إذا كانوا من قبيلةٍ واحِدَة، أو ما أشبه ذلك.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا﴾ سلف ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ نبيٌّ يُنْذِرُها].

يعني: كُلُّ الأُمَم أَرْسَل الله إليهم نذيرًا؛ لتقوم عليهِمُ الحُجَّة؛ لأنَّه إذا لم يَكُنْ للنَّاسِ نذيرٌ فإنَّ لهم حُجَّة على رَبِّهم، يقولون: يا رَبَّنا ما أَرْسَلْتَ إلينا رُسُلًا.

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه:١٣٤].

وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، وسيأتي -إن شاء الله تعالى- الكَلَامُ على ما في قَوْله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ من الإِشْكالِ، والجوابِ عنه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ الخطابُ في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ للنَّبِيِّ ﷺ، والإِرْسالُ هو تَحْميلُ المُرْسَلِ شيئًا يُبَلِّغُه إلى المُرْسَلِ إليه؛ والجُمْلَةُ مُؤَكَّدَة بـ(إنَّ)، وتوكيدُ الجُمْلَة يدلُّ على الاهتمامِ بها؛ من أَجْلِ أن يُؤْمِنَ الإِنْسَانُ بها إيمانًا كاملًا.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الباءُ هنا إمَّا أن تكون للتَّعْدِيّة، تقول: (أرسلته بكذا) لبيانِ المُرْسَلِ به، وإمَّا أن تكون للمُصاحَبَة.

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالهدى] وكأنَّه أخذ هذا التَّفْسيرَ من قَوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التَّوْبَة:٣٣]، ولكنَّ الصَّحيحَ في الآيَة أنَّ المُرَادَ بالحَقِّ ضِدُّ الباطِلِ، فيشمل الصِّدْق في الخَبَر والعَدْل في الأَحْكَام؛ أي: بالصِّدْقِ في الأَخْبار والعَدْل في الأَحْكَام، وليس الهُدى فقط، بل الهُدى والصَّلاح، والإِصْلاح، وغير ذلك.

وأمَّا في قَوْلِه تعالى: ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التَّوْبَة:٣٣]، فنَعَم، مُمْكِنٌ أن نقول: المُرَاد بالهدى هناك العِلْمُ النَّافِع؛ لأنَّه ذَكَر الهدى وذكر الدِّين، فذَكَرَ العِلْم والعَمَل، أمَّا هنا فلا يَنْبَغي أن نَقْتَصِر على قَوْلنا: (الحَقِّ)؛ أي: الهُدَى، بل نَجْعله أعَمَّ من ذلك؛ لِيَشْمَل الهدى الذي هو العِلْم، ويشمل دِينَ الحَقِّ الذي هو الرُّشْد والصَّلاح

والإِصْلاح، فالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد تَضَمَّنَت رسالَتُه العُلوم النَّافِعَة كُلَّها والصَّلاح للخَلْق في معاشِهِم ومعادِهِم، وما جاء به فقد تَضَمَّن الصِّدْقَ في الأَخْبار والعَدْلَ في الأَحْكَام.

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾.

﴿بَشِيرًا﴾ حالٌ من الكافِ في ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ بمَعْنى: (مُبَشِّر).

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بَشِيرًا﴾ مَن أجابَ إليه ﴿وَنَذِيرًا﴾ مَن لم يُجِبْ إليه] والبِشارَةُ هي الإخبار بما يَسُرُّ، وقد تُسْتَعْمَل في الإخبار بما يَسوءُ كما في قَوْلِه تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١]، وأمَّا الإنذارُ فهو التَّخْويف؛ أي: الإِعْلامُ بما يُخَوِّفُ، والنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كانت رِسالَتُه بشارَةً وإنذارًا؛ لأنَّها إمَّا أمرٌ يُبَشَّرُ فاعِلُه بما يَقْتَضيه ذلك الأَمْرُ، وإمَّا نَهْيٌ يُخَوَّفُ صاحِبُه من ارْتِكابه، فالشَّريعَة كُلُّها بِشارَةٌ ونِذارَةٌ.

وَقَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بَشِيرًا﴾ من أجاب إليه ﴿وَنَذِيرًا﴾ من لم يُجِبْ] قد يقال: إنَّ الأَوْلى إبقاءُ الآيَة على عُمُومها؛ أي: بشيرًا لِمَن أجاب إليه ونذيرًا له في الوَقْتِ نَفْسِه؛ لأنَّ من أجاب أيضًا يَحْتاجُ إلى إنذارٍ، فتكون البِشارَةُ والإنذارُ شامِلَةً لمن أجاب ومن لم يُجِبْ، حتى من لم يَجِبْ يُبَشَّرُ إن أجاب.

قَوْله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾: ﴿وَإِن﴾ بمَعْنى (ما) فهي نافِيَة، وقد ذكرنا لـ(إن) النَّافِيَة ضابطًا، لَكِنَّه لا يُحيطُ بِجميعِ موارِدِها، وهو أنَّه: إذا أَتَتْ بعدها (إلا) فهي نافِيَة؛ مثل قَوْله تعالى: ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾، وَقَوْله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١١٠]، وَقَوْله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص:٧]، وَقَوْله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٣٧] ومنها أيضًا هذه الآيَة: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ

إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

﴿مِّنْ﴾ زائِدَةٌ زائِدَةٌ؛ زائِدَةٌ إِعْرابًا، زائِدَةٌ مَعْنًى.

فإن قُلْتَ: كيف تكون زائِدَةً زائِدَةً؟

قلنا: لأنَّ زاد يُسْتَعْمَلُ لازمًا ومُتَعَدِّيًا، فيقال: (زاد الطِّينُ بِلَّةً) هذا مُتَعَدٍّ، ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التَّوْبَة:١٢٤] هذا مُتَعَدٍّ أيضًا، وتقول: (زاد المالُ) فهذا لازم، فـ(زائِدَة) الأُولى من النَّاقِص الذي لا يتعَدَّى، و(زائِدَة) الثانية من المُتَعَدِّي.

قَوْله تعالى: ﴿أُمَّةٍ﴾: وأُمَّة مُبْتَدَأ مَرْفوعٌ بضَمَّة مُقَدَّرَة على آخرها منع من ظهورها اشْتِغالُ المَحَلِّ بحَرَكَةِ حَرْفِ الجَرِّ الزَّائِدِ.

قَوْله تعالى: ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿خَلَا﴾ بمَعْنى سلف ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ نبيٌّ يُنْذِرُها] والأُمَّةُ هنا بمَعْنى الطَّائِفَة، وتأتي في القُرْآن على أربعة أوجه:

فتكون بمَعْنَى (الطَّائِفَة) كما هنا.

وتكون بمَعْنى (الزَّمَن) مثالها: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥].

وتكون بمَعْنى (الدِّين والمِلَّة) كما في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء:٩٢].

وتكون بمَعْنى (الإمام) مثل قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل:١٢٠].

وَقَوْله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا﴾ أي: سَلَفَ ومضى ﴿نَذِيرٌ﴾ يُنْذِرُها؛ وذلك لتقومَ الحُجَّة على العباد؛ لأنَّ العُقُولَ مهما بَلَغَتْ لا يُمْكِن أن تعرف ما يَجِبُ

لله عَزَّوَجَلَّ من الحُقوق، كما لا يُمْكِن أن تَعْرِف ما يَجِبُ له من الأَسْماءِ والصِّفات على سبيل التَّفْصيل، وإن كان العَقْل يُدْرِك أنَّ الإِنْسَان لا بُدَّ أنْ يَعْبُدَ خالِقَه، ويُدْرِك أنَّ الخالِقَ لا بُدَّ أن يكون مُتَّصِفًا بصِفاتِ الكَمالِ، لكنْ على سبيل الإِجْمالِ لا على سبيل التَّفْصيلِ، فمن أجل ذلك أَرْسَل الله الرُّسُل؛ لتقوم الحُجَّةُ على العباد.

فما من أُمَّةٍ إلا خلا فيها نذيرٌ، قد يكون الأنبياءُ في وقتٍ واحِدٍ في أمكنةٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وقد يكون الأَنبياءُ في وقتٍ واحِدٍ في مكانٍ واحِدٍ، أمَّا أن يوجد مكانٌ واحِدٌ لم يكن فيه نبيٌّ فهذا لا يُمْكِن، لا بُدَّ أن تكون جميعُ الأُمَم قد بعث إليها الرُّسُلَ، ونظير هذا قَوْله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: ثُبوتُ رِسالَةِ النَّبِيِّ ﷺ على وجْهٍ مُؤَكَّدٍ لا مِرْيَةَ فيه، لِقَوْله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلَة النَّبِيِّ ﷺ لِكَوْنِه رسولَ رَبِّ العالَمِينَ، فإنَّ الرِّسالَة مقامٌ عظيمٌ لا ينالُها إلا من هو أَهْلٌ لها؛ كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام:١٢٤]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٥٣] وهم؛ أي: الرُّسُلُ مُفَضَّلون على من سواهم من الخَلْق، ففي الآيَة فَضيلَةٌ ومَنْقَبةٌ لرسول الله ﷺ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَانُ ما يَشْتَمِل عليه دينُ الرَّسُول ﷺ من الحَقِّ الذي ضِدُّه الباطِل، والباطِلُ إن كان في الأَخْبارِ فهو الكَذِب، وإن كان في الأَحْكَام فهو الجَوْرِ والظُّلمِ.

وعليه فرِسالَة النَّبِيِّ ﷺ مُتَضَمِّنَةٌ للحَقِّ في الأَخْبار والأَحْكَام؛ ففيه بيان فَضيلَةِ هذه الشَّريعَةِ الإِسْلامِيَّة التي جاء بها النَّبِيُّ ﷺ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ كل ما كان حَقًّا فإنَّ الشَّريعَة جاءت به سواء نَصَّت عليه بمعناه الخاصِّ أو بالمَعْنى العامِّ، ومن ثَمَّ أَثْبَتَ بعض الفقهاء أو بَعْضُ الأُصُولِيِّين ما يُسَمَّى بالمصَالِح المُرْسَلَة، وجعلوها دليلًا مُسْتَقِلًّا، والصَّوابُ أنَّها ليست دليلًا مُسْتَقِلًّا؛ لأنَّ هذه المصَالِحَ إن شهد الشَّرْعُ لها فهي من الشَّرْعِ ولا حاجة إلى أن نَجْعَلَها دليلًا مُسْتَقِلًّا، وإن لم يَشْهَد لها فَلَيْست بمَصْلَحَة، وصاحِبُها الذي زَعَمَها مَصْلَحَةً يُعْتَبَرُ واهمًا؛ فكوننا نُثْبِتُ دليلًا خامسًا نُسَمِّيه المصَالِحَ المُرْسَلَة هذا خطأٌ؛ لأنَّ هذه المَصْلَحَةَ إن شهد لها الشَّرْعُ فهي من الشَّرْعِ دلَّ عليها الكِتَاب والسُّنَّة، وإن لم يَشْهَد لها فلَيْسَتْ بمَصْلَحَة، فلا تُعْتَبَر.

ومن ذلك أيضًا زعْمُ بَعْضِهم استحداثَ دليلٍ سادسٍ: وهو اسْتِصحابُ الحال؛ بمَعْنى أنَّ الأَمْرَ يبقى على ما كان عليه حتى يَتَبَيَّنَ ارتفاعُه وانتفاؤُهُ، هذا أيضًا ليس بصوابٍ؛ يعني: لا يَصِحُّ أن نَجْعَلَه دليلًا مُسْتَقِلًّا؛ لأنَّه قد دلَّت عليه السُّنَّة.

فقد شُكِيَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ الرَّجُلُ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَجِدُ الشَّيْءَ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ: «لَا يَنْصَرِفْ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا»[1].

إذن: نَبْني على بقاءِ الأَصْلِ واسْتِصْحابِ الحالِ، وحينئذٍ لا نحتاج أن نجعل هذا دليلًا مُسْتَقِلًّا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن، رقم (١٣٧)، ومسلم: كتاب الحيض، باب الدليل على من تيقن الطهارة ثم شك في الحدث..، رقم (٣٦١)، من حديث عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإنَّما جَعَلَ بعضُ العُلَماء هذينِ الدَّليلَيْنِ مُسْتَقِلَّينِ؛ لأنَّ الإِنْسَانَ يَنْقَدح في ذِهْنه أنَّ هذا شَيْءٌ مُنْفَصِل عن دَلالَة الكِتَابِ والسُّنَّة، فيَذْهَب ويَجْعَلُه دليلًا مُسْتَقِلًّا، وإلا فلو تأمَّلَ لوجد أنَّ ذلك موجودٌ في الكِتَاب والسُّنَّة، وأنَّه لا حاجَةَ إلى أن نُثْبِتَه دليلًا مُسْتَقِلًّا.

ولقد تَجَرَّأ بعض المُتَأَخِّرين على الدَّليلِ الأَوَّلِ وهو المَصَالِحُ المُرْسَلَة حتى أدخل فيه ما شَهِد الشَّرْعُ بِبُطْلانِه، ومن ذلك قَوْلُهُم بِإِجازَةِ الرِّبا البَنْكِيِّ، وأنَّه يجوز بناءً على ما تَوَهَّموه من المَصَالِح المُرْسَلَة، وقالوا: إن اقْتِصادِيَّاتِ العالَمِ في العَصْرِ الحاضِرِ لا تَتِمُّ إلا باستعمال هذه الطَّرِيقَة، فالأَلْفاظُ والأَساليبُ إذا جاءت على غَيْرِ ما جاء في الكِتَابِ والسُّنَّة يحصل بها مَفْسَدَةٌ.

فهنا أدخلوا شيئًا شَهِدَ الشَّرْعُ بِبُطلانِه، وإذا شَهِدَ الشَّرْعُ ببُطْلانِه فإننا نَشْهَد أنَّه ليس فيه مَصْلَحَةٌ، وأنَّ المَصْلَحَةَ المَوْهومَة منه يَخْلُفُها مفاسِدُ كثيرةٌ؛ فلهذا نحن نرى ألَّا تُجْعَلَ دليلًا مُسْتَقِلًّا، وإلا فليسَ من الشَّرْعِ وليس فيه مَصْلَحَةٌ، والمَصَالِحُ المَوْهومَة فيه إذا كانت مُخالِفَة للشَّرْعِ فلا بُدَّ أن يَخْلُفَها مَفاسِدُ كثيرةٌ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ رِسالَةَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَتَضَمَّنُ من حيث الجزاءُ أَمْرَيْنِ؛ هما: البِشارَة والإِنْذار؛ فالبِشارَة لمن أطاع، والإِنْذار لمن خالَفَ سواءٌ كانت تلك الطَّاعَةُ عامَّة أو في بَعْضِ الأشياء، وكذلك نقول في المُخالَفَة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الإِنْسَان يَجْتَمِعُ فيه خَصْلتانِ مُتَضادَّتانِ في المَعْنى وإن كانتا مُتَّفِقَتَيْنِ في المُراد: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ لأنَّ المُبَشِّر هو الذي يَعِدُ النَّاس بالخَيْر ويَفْتَحُ لهم باب الرَّجاء، والمُنْذِر هو الذي يُخَوِّفُهم من الضَّارِّ، فبينهما من حيث المَعْنى تَقابُلٌ، وهما يَجْتمعانِ في عَيْنٍ واحِدَة.

وهل نَنْتَقِل من هذه الفائِدَة إلى: أنَّ الإِنْسَانَ قد يَجْتَمِع فيه خِصالُ الإيمانِ وخِصالُ الكُفْر؟

الجواب: إذا رَأَيْتَ جَيْشًا مُقْبلًا على البلد فأنا أُنْذِرُهم لا أُبَشِّرُهم، لكن إذا رأيت الجيشَ قد انْصَرَفَ فأنا أُبَشِّرُهُم.

وعلى كُلِّ حالٍ: المعلومُ من مذهب السُّنَّة والجماعَةِ -وهو الحَقُّ- أنَّ الإِنْسَان قد تَجْتَمِعُ فيه خِصالُ الإيمان وخِصالُ الكفر، فيكون مُؤْمِنًا من وَجْهٍ وكافِرًا من وَجْهٍ.

كقَوْله ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ؛ الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ»(١)، وقال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»(٢) مع أنَّ قتاله لا يُخْرِجُه من الإيمان؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:٩-١٠].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ مآلَ النَّاسِ إمَّا إلى جَنَّة وإمَّا إلى نارٍ، وليس ثَمَّةَ دارٌ ثالِثَة؛ لأنَّ البِشارَة بالجَنَّة والإنذارَ بالنَّار، وليس هناك دارٌ ثالثة يصل النَّاسُ إليها.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب، رقم (٦٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله، رقم (٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق»، رقم (٦٤)، من حديث عبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: التَّرْغيبُ في طاعة الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ والتَّخْويفُ من مُخالَفَتِه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: لُطْفُ الله تعالى بعباده بإرسالِ الرُّسُلِ إلى جميع الخَلْق، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وقد بيَّنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذلك في قَوْله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]؛ يعني: إلا لِنَرْحَمَ بك العالَمِينَ، وليس الرَّسُولُ نَفْسُه هو الرَّحْمَةَ، ولَكِنَّه أُرْسِلَ ليَرْحَمَ اللهُ الخَلْقَ بِرِسالَتِه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: بُطْلانُ الاحْتِجاجِ بالقَدَرِ على مَعْصِيَةِ الله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ولو كان الاحْتِجاجُ بالقَدَرِ على المعاصي والمُخالَفاتِ لو كان ثابتًا لم يَرْتَفِعْ بإرسالِ الرُّسُلِ؛ لأنَّ القَدَرَ لا يَرْتَفِع بإرسالِ الرُّسُلِ، فالرُّسُلُ أَرْسَلَهُم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إقامةً للحُجَّة على الخَلْق ورَحْمَةً بهم أيضًا، لهذا ولهذا.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: بَيَانُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ ليس ببِدْعٍ من الرُّسُلِ حتى تُنْكَرَ رِسالَتُه، ويقال: كيف جاء هذا الرَّجُلُ بِرِسالَةٍ من عند الله؟

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ويَشْهَدُ لهذا قَوْلُه تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: قُصورُ العُقُولِ عن مَعْرِفَة ما يَجِبُ لله تعالى؛ لأنَّها لو اسْتَقَلَّت بذلك ما احتاجت إلى إرسالِ الرُّسُل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: بُطْلانُ ما ذهب إليه المُتَكَلِّمونَ مِن أَهْلِ البِدَع الذين بَنَوْا عَقيدَتَهم على ما يَقْتَضيهِ العَقْل، وقالوا: ما اقتضى العَقْلُ إثباتَه لله أَثْبَتْناه سواء كان مَذْكورًا في الكِتَاب والسُّنَّة أم لم يُذْكَر، وما نفاه العَقْلُ وَجَبَ علينا نَفْيُه وإن ذُكِرَ في

الكِتَاب والسُّنَّة، وما لم يدلَّ العَقْلُ على نَفْيِه وإثباتِهِ فإننا نَتَوَقَّفُ فيه، وأَكْثَرُهُم قالوا: نَنْفيهِ؛ لأنَّه لا بُدَّ من دَلالَةِ العَقْلِ على إثباته، فإذا لم يَدُلُّ على إِثْباتِهِ وَجَبَ نَفْيُه لِعَدَمِ وُجودِ الدَّليلِ.

وهذا يؤخذ من قَوْلِه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وَوَجْهُ ذلك أنَّه لو كانت العُقُولُ هي المَرْجِعَ ما احْتِيجَ إلى إِرْسالِ الرُّسُلِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الأمر كُلَّه لله، ليس لأَحَدٍ مُشارَكَتُه فيه حتى أعظم النَّاس مَنْزِلَةً لا يشارِكُ الله تعالى فيها يَخْتَصُّ به؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ ومَعْلومٌ أنَّ مقامَ المُرْسِل أعلى من مقامِ المُرْسَل.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ [فاطر:٢٥].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ أي: أَهْلُ مَكَّة] هذا تَفْسيرٌ لـ(الواو) في قَوْله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني: فليس بِبِدْعٍ أن يُكَذِّبَك قَوْمُك؛ لأنَّ الذين من قبلهم كَذَّبوا الرُّسُل، وهذا كقَوْله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ [الأنعام:٣٤]؛ يعني: ليس الأَمْرُ مُقْتَصِرًا على التَّكْذيب فقط، بل تَكذيبُ وأَذِيَّة بالقَوْل وأَذِيَّة بالفِعْل، بل أَعْظَمُ من ذلك القَتْل؛ فإنَّ كثيرًا مِمَّن أَرْسَل الله إليهم الرُّسُلَ قَتَلوهم.

وخصَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأَهْلِ مَكَّة، والصَّحِيحُ أنَّه ليس خاصًّا بأَهْل مَكَّة، بل أَهْلُ مَكَّة وغَيْرهم، فالرَّسُول كَذَّبَه أَهْل مَكَّة وكَذَّبَه أَهْل الطَّائِف[1] وغيرهم من المُشْرِكين، فالصَّوابُ العُمُومُ.

قَوْله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، والمفعولُ مَحْذُوفٌ؛ أي: فقد كَذَّبَ الذين من قبلهم رُسُلَهم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣١)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٥)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا. وانظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤١٩-٤٢٠).

قَوْله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ ومع ذلك كفروا ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ هذه الباء للمُصاحَبَة؛ يعني: جاؤوا مُصْطَحبينَ هذه الأَشْياءَ، ويُحْتَمَل أنَّها للتَّعْدِيَة، كما تقول: (أَتَيْتُ بِدِرْهَم، أتيت بِطَعامٍ، أَتَيْتُ بِشَرابٍ)، وما أشبه ذلك؛ يعني: أَتَوْا بالبَيِّنَة التي تُبَيِّنُ صِدْقَهُم، وتَفْسيرُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ للبَيِّناتِ بالمُعْجِزاتِ، هذا هو تعبيرُ كثيرٍ من المُتَأَخِّرينِ، ولكنَّ الصَّوابَ أن يقال: (بالآيات)، وأنَّ البَيِّناتِ هذه هي صِفَةٌ لِمَوْصوفٍ مَحْذُوفٍ، تَقْديره: (بالآياتِ البَيِّناتِ)؛ أي: الظَّاهِرَة.

والآياتُ التي جاءت بها الرُّسُلُ حِسِّيَّة ومَعْنَوِيَّة، فمن الآياتِ الحِسِّيَّة: ما جاء به موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من العصا، واليد، وغير ذلك، ومن الآيات المَعْنَوِيَّة: ما جاء به من التَّوْراةِ، وكذلك عيسى وغيرهما من الرُّسُلِ، كلُّ رسول لم يأتِ إلا ببَيِّنَة.

وقد ثبت عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّه «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ**»[1]، وإنَّما كان كذلك؛ لأنَّه ليس من الحِكْمَة ولا من الحُجَّة ولا من الرَّحْمَة أن يُرسَل رسولٌ إلى الخَلْق يَسْتَبيحُ دماءَ المُخالِفينَ له وأَمْوالَهم ونِساءَهُم بدون بَيِّنَةٍ حتى لو فُرِضَ أنَّ أَحَدًا كَذَّبَه وهو لم يأتِ ببَيِّنَة لكانَ المكذِّبُ مَعْذورًا؛ لأنَّ البَيِّنَة على المُدَعِّي، فكان من حِكْمَةِ الله ورَحْمَتِه وإقامَةِ حُجَّته أن يجعل مع الرُّسُل آياتٍ تَشْهَدُ بِصِدْق ما جاؤوا به.

وقد ذكر أَهْلُ العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أنَّ الآياتِ التي جاء بها الرُّسُل -ولا سيَّما الآياتُ الحِسِّيَّةُ- تكون مناسِبةً لِأَبْرَزِ الأُمُور في عَصْرِهم، وضربوا لذلك مثلًا بأنَّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ بعثت بجوامع الكلم، رقم (٧٢٧٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

موسى ﷺ جاء بالعصا واليد؛ لأنَّه اشْتُهِرَ في عصره وبرز في عَصْرِه صِناعَةُ السِّحْرِ؛ فجاء بأمرٍ فوق ما تَجيءُ به السَّحَرَة؛ السَّحَرَةُ إنَّما يُمَوِّهونَ ويُخَيِّلونَ، وهو جاء بالحَقيقَة.

قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦] يُخَيَّل إليه، ولَكِنَّه ليس بحَقيقَةٍ، هو ألقى عصاه فصار حَقيقَةً فِعْلِيَّة تَلْقَفُ ما يَأْفِكون.

قالوا: وعيسى ﷺ أتى في وقتٍ تَرَقَّتْ فيه صناعة الطِّبِّ، فجاء بأمرٍ يَعْجِزُ عنه الأَطِبَّاء ولا يَسْتَطِيعونَه؛ جاء بإِبْراء الأَكْمَهِ، والأَبْرَصِ، وإحياءِ الموتى، وخَلْقِ صُورَةٍ من الطِّينِ يَنْفُخُ فيها فتطيرُ؛ أي: تكون طيرًا حَقِيقِيًّا.

وهذا يَعْجِزُ عنه الطِّبُّ، فلا يُمْكِن لأيِّ طَبيبٍ يكون أمامَه رَجُلٌ مَيِّتٌ، فيقول: (قم) فيقوم، أبدًا، لا يُمْكِنُ لأيِّ طبيب يأتي إلى المقابِرِ ويَقِفُ على القَبْـرِ ويقول: (اخْرُج) فيَخْرُج، وعيسى يفعل ذلك؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ [المائدة:١١٠] فهو يُخْرِجُهم من مَدافِنهم، ولا يُمْكِن لأيِّ إِنْسَانٍ من الأَطِبَّاء أو غَيْرهم أن يَخْلُقَ من الطِّينِ كَهَيئَةِ الطَّيْرِ فَيَنْفُخ فيه فيطير، أبدًا.

فالأَكْمَهُ والأَبْرَصُ لا يُمْكِن لأَحَدٍ أن يُبْرِئَه من المَرَضِ الذي أصابه بِمِثْل ما يُبْرِئُه عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ يُؤتَى إليه بِذَوِي العاهات ويَمْسَحُ بِيَدِه عليه ويَبْرَأ، يزول؛ يعني: هذا البَرَص الذي ملأ الجِلْدَ أو أَكْثَره يُمِرُّ يَدَه عليه فلا تتعدى يَدُه مكانًا إلا عاد على طَبيعَتِه، هذا لا يَسْتَطِيع أَحَدٌ من الأَطِبَّاءِ مهما بلغ في الطِّبِّ أن يصل إلى هذه الحالِ.

قالوا: ومُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أتى إلى قومٍ قد بَلَغوا في البَلاغَة ذِرْوَتَها، فجاء بكَلَامٍ لا يَسْتَطِيعونَ مُباراتَه أبدًا، وهو كَلَامُ الله، وتَحَدَّاهم الله تعالى في عِدَّة آياتٍ أن يأتوا بسورة من مِثْلِه، أو بِعَشْر سورٍ مِثْلِه، أو بِحَديثٍ منه، فلم يَسْتَطِيعوا.

المُهِمُّ: أنَّ جميعَ ما جاءت به الرُّسُل آياتٌ بَيِّناتٌ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَبِالزُّبُرِ﴾: كصُحُفِ إبراهيمَ] الزُّبُر جَمْعُ زبورٍ، وهو ما يُزْبَرُ ويُؤَثِّر؛ يعني: الكِتَاب، ولو أنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ قال: (كَزَبورِ داودَ) لكان أَنْسَبَ للآيَةِ؛ لأنَّ صُحُفَ إبراهيم ما ذكر الله عنها أنَّها زُبُرٌ، ولكن ذكر: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء:١٦٣].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَبِالْكِتَٰبِ الْمُنِيرِ﴾ هو التَّوْراةُ والإِنْجيلُ] الصَّواب أنَّ الكِتَاب المُنيرَ ليس التَّوْراة والإِنْجيل، بل كُلُّ كِتَابٍ بَعَثَ الله به الرَّسُولَ يُنيرُ الطَّريقَ لِأُمَّتِه، فيشمل التَّوْراة، والإنجيل، والزَّبُور، وصُحُف إبراهيم، وغير ذلك، ما من رسولٍ أَرْسَلَه الله إلا معه كِتَاب، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥]، وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ﴾ [البقرة:٢١٣].

فلا يُمْكِن أن نقول: إنَّ نوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُرْسِلَ بدون كِتَابٍ أبدًا، لا بُدَّ أنَّه أُرْسِلَ بكِتَاب، لكن لا يَلْزَمُ من كونه أُرْسِلَ به أن يُذْكَر لنا هذا الكِتَاب.

قَوْله: [فاصبر كما صبروا] وهل صَبَرَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

الجواب: نعم، صبر صبرًا لا يَصْبِره إلا أولو العَزْم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ تَكْذيبَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليس بِبِدْعٍ من البَشَر؛ فقد كَذَّبَتِ الأُمَمُ قبله ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عِنايَةُ الله تعالى بالرَّسُولِ ﷺ بِذِكْر ما يُسَلِّيه ويُهَوِّن عليه الأَمْرَ.

وذِكْرُ المُصيبَة المُماثِلَة تَقْتَضي تَسْلِيَة الإِنْسَانِ وتَهْوينَ الأَمْرِ عليه؛ ولهذا لو جئتَ إلى مريض وقُلْتَ: (والله أنت اليومَ طَيِّبٌ، ومَرَضُك أَهْوَنُ من مرض فلان، فلانٌ أُصيبَ بِمَرَض كذا وكذا) فإنَّه يَتَسَلَّى بلا شَكٍّ وكذلك لو أصيب بحادِثٍ، وقلت: إنَّ فلانًا أصيب بحادِثٍ أَعْظَمَ فإنَّه يتسَلَّى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إنذارُ المُكَذِّبين لرسولِ الله ﷺ؛ لأنَّ الله ذكر كَيْفَ كَانَ ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف:١٠٩] وكانت عاقِبَتُهم الدَّمارَ والهَلاكَ، وقد أشار الله إلى هذا في قَوْله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [مُحَمَّد:١٠] يعني: لا تَظُنُّوا أنَّ الدَّمارَ الذي لَحِقَ المُكَذِّبينَ السَّابقينَ؛ لا تَظُنُّوا أنَّه خاصٌّ بهم، بل إذا كَذَّبْتم أصابكم ما أصابَهُم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يَتْرُكِ الرُّسُلَ هَمَلًا، بل آتاهُم من البَيِّنات ما يُؤْمِنُ على مِثْلِه البَشَر؛ لِقَوْله تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَمامُ حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ ورَحْمَته وإقامة حُجَّته، وهذا مَأْخوذٌ من قَوْله تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ لأنَّه إنَّما أعطى هؤلاء الرُّسُلَ البَيِّناتِ لِتمامِ إقامَةِ الحُجَّة والرَّحْمَةِ والحِكْمَة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ مِن أَعْظَمِ البَيِّناتِ ما جاءت به الرُّسُلُ من الشَّرائِعِ التي

تَضَمَّنَتْها الكُتُبُ؛ وجه ذلك: التَّنْصيصُ عليها مع أنَّها من البيِّناتِ، وأيضًا هو تنصيصٌ أُعيدَ معه العامِلُ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ﴾ فكأنَّها مُسْتَقِلَّة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الكُتُبَ السَّماوِيَّة مُتَضَمِّنَةٌ للنُّور، وأنَّ كُلَّ من أخذ بها فقد أخَذَ بنورٍ يَمْشي به في الظُّلُمات؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ المُفْرَد إذا أريد به الجِنْسُ صار عامًّا؛ لأنَّ قَوْله تعالى: ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ﴾ هذا مُفْرَد، ولكن هل الكُتُب التي جاءت بها الرُّسُلُ كِتَابٌ واحد؟

الجواب: لا، بل هي كتبٌ كثيرة بحَسَب الرُّسُلِ.

الآيــة (٢٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [فاطر:٢٦].

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بِتكْذيبِهِم] الباءُ للسَّبَبِيَّة في كَلَام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن بماذا أَخَذَهُم؟

بالعقاب، فقوم نوحٍ أَغْرَقَهم، وقَوْمُ هُودٍ أَتْلَفَهُم بالرِّيح، وقوم صَالِحٍ بالرَّجْفَة والصَّيْحة، وقومُ لُوطٍ جَعَلَ عاليَ قُراهُم سافِلَها، فكُلُّ المُكَذِّبين أخذهم الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنْكاري عليهم بالعُقوبَةِ والإِهْلاك؛ أي: هو واقِعٌ مَوْقِعَه] يعني: أنَّ الاسْتِفْهامَ هنا للتَّقْرِيرِ؛ يعني: فكان نكيري؛ أي: إنكاري عليهم بالعُقوبَة كان واقِعًا مَوْقِعَه؛ ولهذا لو سُئِلْتَ: كيف كان إنكارُ الله لهم؟

الجوابُ: أن نقول: كان شديدًا، وكان واقِعًا مَوْقِعَه، فهو مُطابِـقٌ للحِكْمَة تمامًا، وهو عِقابٌ شديدٌ لم يُبْقِ منهم أَحَدًا.

الآيــة (٢٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر:٢٧].

الاسْتِفْهامُ هنا للتَّقْريرِ، وهذا هو الغالِب فيما إذا أتى حرفُ النَّفْي، أو إذا أتت أداة النَّفْيِ بعد هَمْزَةِ الاسْتِفْهامِ؛ أن يكون للتَّقْريرِ كقَوْله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، وَقَوْله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٤٠]، وَقَوْله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦]، وأمثال ذلك، فإذا أتت أداةُ النَّفْيِ بعد هَمْزَةِ الاسْتِفْهامِ فالغالِبُ أن يكون الاسْتِفْهامُ للتَّقْريرِ.

قَوْله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ حُذِفَتِ الأَلِفُ للجازِمِ؛ لأن (لم) تَجْزِم، والفِعْل المعْتَلُّ يُجْزَم بحذف حَرْف العِلَّة.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ مُبْتَدَأٌ وخَبَرٌ، والخبر فيها مُقَدَّم وهو قَوْله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ﴾.

وَقَوْله تعالى: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾: صِفَةٌ لـ﴿جُدَدٌۢ﴾، وَقَوْله تعالى: ﴿سُودٌ﴾ قيل: إنَّه على التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ أي: وَسُودٌ غَرابيبُ، وقيل: إنَّه على الأَصْل، وأنَّ ﴿سُودٌ﴾ تَقَعُ مَوْقِعَ التَّوْكيدِ لما قَبْلها؛ لأنَّ الغِرْبيبَ هو: الشَّديدُ السَّوادِ.

قَوْله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَعْلَمْ] فالرُّؤْيَة هنا عِلمِيَّة، وعُلِّقَت

عن العَمَل بـ(أنَّ) وما دَخَلَت عليه، فإن (أنَّ) وما دَخَلَتْ عليه تُعَلِّق أفعالَ القلوب عن العَمَل، ويُحْتَمَل أن تكون الرُّؤْيَة هنا بَصَرِيَّة؛ يعني: (ألم تَنْظُرْ وتُبْصِر)؛ لأنَّ ما ذُكِرَ يُرى بالعيْنِ، وما كان يُرى بالعَيْنِ فإنَّه يجوز أن يُرادَ به الرُّؤْيَة بالعَيْنِ، لكن إذا جعلناها علمِيَّةً كان ذلك أَعَمَّ؛ لأنَّ هذا الأَمْر قد لا تراه بِعَيْنِك ولكن تَسْمَعُه في بلادٍ أخرى غَيْر بلادك.

وَقَوْله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ المُرادُ بالسَّماء هنا العُلُوُّ، والمُرادُ بالماءِ المَطَرُ، وليس المُرادُ بالسَّماءِ الأَجْرامَ السَّماوِيَّة المَعْروفَة؛ لأنَّ الماء إنَّما يَنْزِل من السَّحاب، والسَّحابُ عالٍ، ولَكِنَّه بين السَّماءِ والأَرْض.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيه التفاتٌ عن الغَيْبة] لو كان الكَلَام على نَسَقٍ واحد لِقال: (فَأَخْرَج به) بضَميرِ الغَيْبَة، لَكِنَّه صار فيه التفات عن الغَيْبَة إلى التَّكَلُّم.

والالتفاتُ فيه فوائِدُ:

الأولى: فائِدَةٌ مُشْتَرِكَة في جميع موارِدِه ومواضِعِه، وهي: تَنْبيهُ المخاطَب؛ لأنَّ الكَلَام إذا كان على نَسَقٍ واحدٍ اسْتَمَرَّ الإِنْسَانُ معه ولم يكن هناك شَيْءٌ يُوجِبُ أن يَنْتَبِه ويَتَفَطَّن، فإذا اختلف السِّيَاقُ من غَيْبَة إلى تَكَلُّم، أو إلى خطاب، أو ما أشبه ذلك، فإنَّ الإِنْسَانَ يَنْتَبِه؛ يعني: كأنَّه يكون علَمًا على تغيُّر الأُسْلوبِ لِيَنْتَبِه المخاطَب.

الفائِدَة الثانيةُ هنا: قَوْله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ فإنَّ (نا) هذه تفيدُ التَّعْظيم؛ لأنَّ الإِخْراجَ أَعْظَمُ من الإنزال بالنِّسْبَة للنِّعْمَة علينا، فإنَّه لو نزل المطر ولم يَخْرُجِ النبات لم نَسْتَفِدْ من المطر كما جاء في الحديثِ الصَّحِيح الذي رواه مُسْلِم: «لَيْسَتِ

السَّنَةُ بِأَلَّا تُمْطَرُوا، وَلَكِنِ السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَتُمْطَرُوا وَلَا تُنْبِتُ الأَرْضُ شَيْئًا»[1]، فلما كان إنعامُ الله تعالى بإخراجِ النَّباتِ أَعْظَمَ صار الالتفاتُ إلى التَّكَلُّم أولى لعِظَمِ المِنَّة فيه.

قَوْله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ فهنا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ ولم يقل: (أَخْرَجْنا به نباتًا)، وقد قاله في آيَةٍ أخرى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام:٩٩] لكن هنا قال: ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ لأنَّ المَقصودَ من هذا الخارِجِ هو الثَّمرة، فبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الغايَةَ المَقْصودَةَ وهي الثَّمَراتُ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ كأَخْضَر وأَحْمَر وأَصْفَر وغيرها] وهذا يدلُّ على قُدْرَةِ الله، فهذه الثَّمَرات مُخْتَلفٌ أَلْوانُها، وكَلِمَة (أَلْوان) يُحْتَمَل أن يكون المُرادُ ما ذكره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو اللَّون المُخْتَلِف بالحُمْرَة، والصُّفْرَة، والخُضْرَة، وما أشبه ذلك، ويُحْتَمَلُ أنَّ المُراد بالأَلْوانِ الأَصْنافُ، فإنَّ الأَلْوانَ تُطْلَق على الأَصْنافِ كما قال الإمامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صلاةِ اللَّيْلِ في قيام رَمَضانَ قال: «رُوِيَ في ذلك أَلْوانٌ»[2] أي: أَنْواعٌ وأَصْنافٌ، وإذا نظرْتَ إلى الخارج من الأَرْض وَجَدْتَ أنَّه ذو أَلْوانٍ في شَكْلِه، وذو أَلْوان في أَنْواعِهِ وَأَصْنافِهِ، ما بين حُلْوٍ ومُرٍّ ومُتَوَسِّط وحامِض وغير ذلك مِمَّا هو معلومٌ.

وهذا الأَخيرُ إذا قلنا: إنَّ المُراد بالأَلْوانِ ما يَعُمُّ الأَنْواعَ؛ أَشْمَلُ مِمَّا لو قلنا: إنَّ المُرادَ بالأَلْوان اختلافُ الشَّكْل، وقد تقدَّمَت قاعِدَة: بأنَّه كلَّما كان المَعْنى أَشْمَل في باب التَّفْسيرِ كان أولى؛ لأنَّ الأَشْمَل يَعُمُّ الأَخَصَّ وغيره، بخلاف الأَخَصِّ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في سكنى المدنية وعمارتها قبل الساعة، رقم (٢٩٠٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مسائل الإمام أحمد رواية الكوسج (٢/ ٧٥٦).

قَوْله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ هذه جُمْلَة اسْتِئْنافِيَّةٌ يُبَيِّن الله عَزَّوَجَلَّ فيها كمال قُدْرَته أيضًا بالنِّسْبَةِ للأَرْض وطَبقاتِها.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ جَمْع جُدَّةٍ: طريقٌ في الجَبَل وغيره] من الجبالِ جُدَدٌ؛ يعني: شَيْءٌ يُشْبِه الطُّرُق لاختلافه عن بَقِيَّة الجبل، وهو مُخْتَلِفٌ في اللون، ومختلفٌ في الماهِيَّة أيضًا.

نحن نرى بعض الجبال الآن ولا سيَّما إذا فُتِحَ الجَبَلُ نرى في أثنائه خُطُوطًا قد تكون سوداءَ، وقد تكون حَمْراءَ، وقد تكون بُنِّيَّة، وقد تكون بيضاءَ، المُهِمُّ أنَّنا نجد فيه خطوطًا تُخالِفُ بَقِيَّة الجَبَل، هذه الجُدَد التي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ هنا، فالجبالُ تَخْتَلِفُ أَلْوانُها أيضًا، وهذا الاختلاف في اللون؛ يعني: الاختلاف في الماهِيَّة والحَقيقَة، ليسَتِ الحصاةُ السَّوداءُ كالحَصَاةِ البَيْضاءِ أو الحَمْراء أو ما أشبهها مِمَّا يخالِفُها في اللون، بل لا بُدَّ أن يكون هناك اختلافٌ في طَبيعَةِ هذه الحَصاة كما كان اخْتِلافُ الثَّمَراتِ في أَلْوانِها يدلُّ على اختلافها في طُعُومها وفي ماهِيَّتِها.

قَوْله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ ذَكَرَ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ وكان المُتَوَقَّع أن يقول: (بيضٌ وسُودٌ)؛ لأنَّ هذا هو المَعْروف في مُقابَلَةِ البَياضِ؛ أن يُقابَلَ بالسَّوادِ، لَكِنَّه قال: ﴿وَحُمْرٌ﴾ لأنَّ الحُمْر أَقْرَبُ إلى البياضِ من السُّودِ، وستُذْكَر في قَوْله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.

هذه الجُدَد بِيضٌ وحُمْرٌ، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وصُفْر] ونحن ربَّما نقول أيضًا: (وزُرْق) وغير ذلك من الأَلْوان، والله عَزَّوَجَلَّ لم يَذْكُر هَذَينِ اللَّوْنَيْنِ للحَصْر، وإنَّما هو على سبيل التَّمْثيلِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ بالشِّدَّةِ والضَّعْفِ] هنا فسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الألْوان بالماهِيَّة وليس بالأَشْكالِ؛ لأنَّه قال: [بالشِّدَّةِ والضَّعْف] ولم يقل: [باللَّون الأَحْمَر أو الأَبْيَض].

على كُلِّ حالٍ: (الألْوان) كما سبق تُطْلَقُ على الأَنْواع أحيانًا.

وهذا الاختلاف في أَلْوانِ أَحْجارِ الجبال كالاخْتِلاف في أَلْوانِ الثِّمار.

قَوْله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [عطفٌ على جُدَد؛ أي: صخورٌ شديدَةُ السَّوادِ، يقال كثيرًا: أَسْوَدُ غِربيبٌ، ويقال قليلًا: غِرْبيبٌ أَسْوَدُ]، فالغَرابيبُ جَمْع غِرْبِيبٍ، والغِربِيبُ: شديدُ السَّوادِ.

وكان مُقْتَضَى التَّرْكيبِ أن يقال: (وسُودٌ غَرابِيبُ)، ولكنَّ الله تعالى قدَّم فقال (وَغَرَابِيبُ سُودٌ) فعلى هذا زَعَمَ بَعْضُهم أنَّ في الكَلَام تقديمًا وتَأْخيرًا، وقال بعضهم: بل هو على تَرْتيبِهِ، ليس فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، ولكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيَّن الأَسْوَدَ الشَّديدَ السَّوادِ قبل بيان مُطْلَقِ السَّوادِ، هذا أيضًا مُشاهَدٌ؛ نجد في الجبال طُرُقًا يعني كالطَّريقِ أو كالخَطِّ أَسْوَد خالصًا، وإلى جانبه طريقٌ أَبْيَضُ، أو أَحْمَر، أو ما أشبه ذلك، كل هذا دليلٌ على قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ.

فنجد نحن أنَّ هذا الاخْتِلافَ في الجبال هو كالاخْتِلافِ في الثَّمَرات.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: التَّنْبيهُ على أنَّه يَنْبَغي للإِنْسَانِ أن يَتَفَكَّر في خَلْقِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ فإنَّ هذا تقريرٌ، والتَّقْريرُ لا يكون إلا بعد أن يَنْظُرَ المُقَرَّر فيما قُرِّرَ به حتى يُقِرَّ به ويَعْتَرِفَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ وحِكْمَتِه ورَحْمَتِه؛ وذلك بإنزالِ الماءِ من السَّماء، ففيه قُدْرَةٌ عَظيمَة؛ أن يَنْزِلَ هذا الماء الذي يكون بِحارًا أحيانًا يُدَمِّر ما مرَّ عليه من البناء ويَجْتَرِف الأراضِيَ مع أنَّه يَنْزِلَ من هذا السَّحابِ الرَّقيقِ الذي تَخْتَرِقُه الطَّائِرة كما نُشاهِدُ، ويَتَمَزَّق عندما يَمُرُّ بالجبالِ وبالبِناءِ وما أشبه ذلك؛ تَنْزِلُ منه هذه المياه العَظيمَة، هذا تمامُ القُدْرَة.

وتمامُ الرَّحْمَةِ: ما يَحْصُل من هذا المَطَرِ من الآثار النَّافِعَة للعبادِ.

وتَمامُ الحِكْمَة؛ لأنَّ هذا المَطَرَ يَنْزِلُ من أعلى حتى يَشْمَل المُرْتَفِعَ والمُنْخَفِض من الأَرْض، ولو كان يَمْشي مَشْيًا كالأَنْهار لكان الأَسْفَلُ من الأَرْض يَرْوَى بالماء بل يَغْرِق، أمَّا الأعلى فلا يُصيبُه شَيْءٌ، وهذا من تمام حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ؛ أنَّه يَنْزِل من فوق.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ الأَسْبابِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ فإنَّ الباءَ هنا للسَّبَبِيَّة، ففي الآيَة إثباتُ الأَسْبابِ وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد قَرَنَ الأشياء بأَسْبَابِها، وهذا من تَمامِ حِكْمَتِه؛ أن تكون الأَسْبابُ والمُسَبَّباتُ مُتلازِماتٍ، فمِنَ المَعْلومِ أنَّ الله قادِرٌ على أن يُخْرِجَ هذه الثَّمَراتِ بدون ماءٍ، ولكن قد جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ سببًا.

إذن: في الآيَة إثباتُ الأَسْبَابِ؛ ولذلك لَزِمَ علينا القَوْلُ بِوُجوبِ الفِعْلِ؛ لأنَّ السَّبَبَ يَسْتَلْزِمُ وجود المُسَبَّب، وهذا يقتضي أن نُوجِبَ على الله عَزَّوَجَلَّ وُجودَ المُسَبَّب لوجود السَّبَب.

فعُلَماءُ الكَلَام كالجَبْرِيَّة مثلًا أَنْكَروا حِكْمَةَ الله، يقولون: لأنَّنا لو قلنا بِثُبوتِ الحِكْمَةِ والسَّبَبِيَّة لزم من ذلك أن نُوجِبَ على الله تعالى أن يَفْعَل كما قال ذلك خُصُومُهم من المُعْتَزِلَة، فالمُعْتَزِلَة يقولون بِوُجوبِ الأَصْلَح، بعضهم يقول بوجوبِ

الصَّلاحِ على الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ هذا مُقْتَضَى الحِكْمَةِ، وأولئك الجَبْرِيَّةِ بالعَكْس، يقولون: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَخْلُق الشَّيْء بدون سَبَبٍ وبدون حِكْمَةٍ؛ لأنَّك لو أَثْبَتَّ السَّبَب والحِكْمَةَ لزم إيجاد المسبَّبِ أو الفِعْل الذي يكون مسبَّبًا لهذا السَّبَب، وهذا يقتضي أن نوجب على الله عَزَّوَجَلَّ فِعْل الشَّيْء، فما الجواب؟

نقول: إنَّ إثباتَ الحِكْمَةِ أو السَّبَبِ لا يَسْتَلْزِم أن نُوجِبَ على الله، ولكن مُقْتَضَى كَوْنِه حكيمًا أن يَفْعَل وأن يُوجِدَ المسبَّبَ عند وجودِ السَّبَب، ونحن لا نُوجِبُه، ولكن الذي أوجبه على نَفْسِه هو الله بمُقْتَضَى اسْمِه (الحكيم) ووَصْفِه بالحِكْمَة، وإيجابُ الله على نَفْسِه ليس بِمُمْتَنِع كما أن تَحْريمَه على نَفْسِه ليس بِمُمْتَنِع، وقد قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، وقال تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»[1].

فلِلَّهِ أن يُحَرِّمَ على نفسه وأن يوجِبَ على نفسه ما شاء، أمَّا نحن فلا، فإذا قيل مثلًا: هذا مَصْلَحَةٌ فإننا نقول: نعم، ونَلْتَزِم بهذا، ولكن هل نحن الذين أَوْجَبْناه على الله؟

الجواب: لا، بل الله هو الذي أَوْجَبَه على نفسه، وهذا لا ينافي كَمالَه، بل هو من مُقْتَضَى كَمالِهِ، إلا أنَّ المَحْذورَ هنا في هذا الباب أن نَظُنَّ أنَّ المَصْلَحَةَ في كذا، وحَقيقَةُ الأَمْرِ أنَّ المَصْلَحَة في عَدَمِه، هذا هو الذي يُخْشَى منه، وحينئذٍ نَعْتَقِدُ أنَّ هذا واجِبٌ على الله وهو لم يَجِبْ، نعتقد أنَّه واجبٌ على الله بمُقْتَضَى فَهْمِنا أنَّ هذا مَصْلَحَةٌ وخَيْر ثم نوجِبُه على الله، هذا هو المَحْذورُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أمَّا إذا تحَقَّقَت المَصْلَحَةُ فلا مانع من أن نقول: إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أوجب على نفسه أن تكون المَصْلَحَةُ؛ لأنَّ هـذا هو مُقْتَضَى اسْم الله (الحكيم)، وفي هـذه الحالِ لم يَحْصُلْ منَّا أيُّ عُدْوانٍ أو ظلم، بل قلنا بمُقْتَضَى حِكْمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيانُ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ بِإخْراجِ هذه الثَّمَراتِ المُخْتَلِفَةِ الألْوانِ مع أنَّها في أَرْضٍ واحِدَة وتُسْقَى بماءٍ واحِدٍ، ويظهر ذلك لك جليًّا إذا نظَرْتَ إلى الزُّهور كيف تَجِدُ هذا الاختلافَ العَجيبَ بَيْنها مع أنَّها تُسْقى بماءٍ واحِدٍ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الحِكْمَةُ في اختلاف هذه الثَّمَرات؛ لأنَّه لو كانَتْ هذه الثَّمَراتُ طَبيعَتُها واحِدَةٌ لَمَلَّ النَّاسُ منها ولم يَحْصُلْ لهم كَمـالُ اللَّذَة، فإذا اخْتَلَفَتْ حَصَلَ كمالُ اللَّذَة وعدم المَلَل والسَّآمة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيانُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ ورَحْمَتِه وحِكْمَتِه فيما نرى في الجبال من الجُدَدِ المُخْتَلِفَة؛ لأنَّ هذا دليلٌ على القُدْرَة؛ حيث جعل هذا بين هذا، ودليل على الحِكْمَة؛ لأنَّ الغالِبَ أنَّ ما في بطون هذه الجبالِ يكون مَعادِنَ مُفيدَةً للإنْسَان، كذلك بيانُ الرَّحْمَةِ بالخَلْقِ لإيداعِ هذه الأَشْياءِ في بطون هذه الجِبالِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيانُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيثُ إنَّه يَجْعَلُ بَعْضَ الجبالِ فيها السَّوادُ الخالِصُ، وقد يكون الجَبَلُ كُلُّه أَسْوَدَ، وأحيانًا نرى جبلًا أَسْوَدَ وإلى جانبه جبلًا أَبْيَضَ، فهذا كُلُّه من تَمامِ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: ما يَتَرَتَّب على النَّظَـر في هـذه المَخْلـوقاتِ من الاعْتِبارِ والاسْتِدْلالِ بها على ما تَتَضَمَّنُه من صفاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر:٢٨].

جُمْلَة ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ جُمْلَة خَبَرِيَّةٌ قُدِّمَ فيها الخَبَر على المُبْتَدَأ، و﴿أَلْوَٰنُهُۥ﴾: فاعِلُ ﴿مُخْتَلِفٌ﴾ لأن ﴿مُخْتَلِفٌ﴾ اسْم فاعل، واسْم الفاعل يَعْمَلُ عَمَلَ فِعْله.

وَقَوْله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ صِفَةٌ لِقَوْله تعالى: ﴿مُخْتَلِفٌ﴾ يعني: مختلفٌ كاختلافِ ما ذُكِر.

قَوْله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ هي جُمْلَةٌ أيضا مُكَوَّنَة من فعلٍ وفاعلٍ ومفعولٍ به، وفيها حَصْرٌ، وطريقُه: ﴿إِنَّمَا﴾ وجُمْلَة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ كالتَّعْليلِ لِما قبلها، كما سيأتي إن شاء الله.

قَوْله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ النَّاسُ هُمُ البَشَر، وأصلها (أُناسٌ) ولكن حُذِفَت الهَمْزَةُ تَخْفيفًا لكثرة الاسْتِعْمال كما حُذِفَتْ من (شَرٌّ) و(خَيْر)، وأصلهما: (أَشَرُّ) و(أَخْيَرُ)، وحُذِفَت أيضًا من (الله) على قَوْلِ كثيرٍ من عُلَماء اللُّغَة، وأَصْلُها: (الإله) والمُرَادُ بالنَّاس: بنو آدم، وسُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم يَأْنَسُ بعْضُهم إلى بعض.

قَوْله تعالى: ﴿وَٱلدَّوَآبِّ﴾ جمع دابَّة، وتُطْلَقُ على عِدَّة معانٍ، تُطْلَقُ على كلِّ ما دَبَّ على الأَرْض كما في قَوْله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النُّور:٤٥]، وكما في قَوْلِه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ﴾ [هود:٦] يَشْمَل كُلَّ ما دَبَّ على الأَرْض من إِنْسَان وحيوانٍ وحشرات، وغير ذلك.

وتُطْلَقُ الدَّابَّةُ على ما يَدبُّ على بطنه؛ مثل: الحيَّات، وتُطْلَقُ الدَّابَّة على ذوات الأَرْبَعِ كالحِمارِ، فما المُراد بها في هذه الآيَة؟

نقول: المُراد بها ما عدا النَّاسَ والأَنْعامَ، فتَشْمَلُ كُلَّ ما دَبَّ على الأَرْض إلا النَّاسَ والأَنْعامَ.

فإن قلت: لماذا لا تَجْعَلُها شامِلَةً وتجعل هذا من بابِ عَطْفِ العامِّ على الخاصِّ بالنِّسْبَة للنَّاسِ، ومن بابِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ بالنِّسْبَة للأنعام؟

يعني: لو قال قائِلٌ: المُراد بالدَّوابِّ: كُلُّ ما دَبَّ على الأَرْض، لَكِنَّها عُطِفَت على النَّاسِ مِن باب عَطْفِ العامِّ على الخاصِّ، وعُطِفَتِ الأَنعامُ عليها من باب عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؟

قلنا: هذا مُمْكِنٌ، لكِنَّ التَّقْسيمَ يُبعِدُه، فيكون المُرادُ بالدَّوَابِّ ما عدا النَّاسَ والأَنْعامَ، والمُرادُ بالأنعام ما يَنْتَفِعُ النَّاس به؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف:١٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٧١-٧٣].

فيكون المُرادُ بالأَنعامِ هنا ما يَنْتَفِعُ النَّاس به كالإِبِل، والغَنَم، والبَقَر، والطيور الحلال، وغير ذلك.

قَوْله تعالى: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ هل المُرَادُ باللَّوْنِ الشَّكْلُ أو الصِّنْف أيضًا؟

الجواب: يَشْمَل؛ فالنَّاسُ مثلًا تَخْتَلِفُ أَلْوانُهم؛ هذا أبيضُ، وهذا أسود، وهذا أَحْمَر، وهذا بين ذلك، واختلافُ اللَّوْنِ ظاهِرٌ، وقد تَخْتَلِف أجْناسُهُم أيضًا؛ هذا ذَكَر وهذه أنثى، هذا عالِم وهذا جاهِل، هذا أَحْمَق وهذا حَليمٌ، وعلى هذا فَقِسْ.

الدَّوابُّ كذلك تَخْتَلِفُ أَلْوانُها بالشَّكْل، وتَخْتَلِفُ أَصْنافُها وأَنْواعُها، منها المؤْذي، ومنها الضَّارُّ، ومنها النَّافِع، ومنها ما ليس بضَارٍّ ولا نافِعٍ ولا مُؤْذٍ، فهي أربعة أَصْنافٍ.

مثالُ النَّافِعِ: الأَنْعام، ومثال الضارِّ: الحيَّات والعقارِب والسِّباع وما أشبهها، ومثال المُؤْذي: الصَّراصِير، والخُنْفُساء، والجُعْلان، وما أشبه ذلك، ومثال ما ليس بِمُؤذٍ ولا ضارٍّ: النَّمْل، وغيره أيضًا من الدَّوابِّ الكثيرة التي نراها؛ نرى مثلًا طيورًا تَطيرُ في الجَوِّ ليست حلالًا مثلًا ولَكِنَّها لا تَضُرُّ.

وَقَوْله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كاخْتلافِ الثِّمارِ والجبالِ] فصار الاختلافُ في مَخْلوقاتِ الله تعالى شاملًا للحيوانِ ولِما يَنْتَفِع به الحيوانُ من الثِّمار وغيرها ولِطَبَقاتِ الأَرْضِ كالجِبالِ.

قَوْله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ لَمَّا ذَكَرَ هذه الأصنافَ وفيها ما يدلُّ على كَمالِ الله عَزَّوَجَلَّ في صِفاتِهِ التي تَتَضَمَّنها هذه الأَصْنافُ المَذْكورَة بيَّن أنَّ العالِمَ بذلك هو الذي يَخْشى الله، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ يعني: لا يخشى الله إلا العُلَماءُ.

والخَشْيَةُ هي أعلى الخَوْف، أو إن شِئْتَ فقل: هي الخَوْفُ المَبْنِيُّ على العِلْم،

وبَعْضُهم قال: هي الخَوْفُ المَبْنِي على عِظَم المَخُوفِ، ولا يَمْتَنِع أن تكون الخَشْيَةُ هي الخوف بِكُلِّ الأَنْواعِ الثَّلاثَةِ؛ يعني: هي أعلى أَنْواعِ الخَوْفِ، أو الخَوْف المَبْنِي على العِلْم، أو الخَوْفُ المَبْنِيُّ على عِظَمِ المَخُوف.

أمَّا الخَوْف المُجَرَّدُ عن الخَشْيَة فقد يكون عن جَهْل، يخاف الإِنْسَانُ من شَيْء؛ لأنَّه جاهِلٌ به وإلا فليس أَهْلًا لأن يُخافَ منه.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ بخلاف الجُهَّال ككُفَّار مَكَّة]، وصَدَقَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قَوْلِه: [بِخِلاف الجُهَّال] وأمَّا التَّمْثيل بكُفَّار مَكَّة فليس على سَبيلِ الحَصْرِ، بل هو على سبيل المِثالِ، فكل كافِرٍ فهو في الحَقيقَةِ جاهِلٌ.

وهل هذه الجَهالَةُ جَهالَةُ عِلْمٍ أو جَهالَةُ تَصَرُّفٍ؟

الجوابُ: هي جَهالَةُ تَصَرُّف في الغالِبِ، وإلا فإنَّ الكافر يكون عنده عِلْمٌ؛ لَكِنَّه -والعياذ بالله- يَسْتَمِرُّ على طغيانه ولا يُؤْمِنُ.

قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

﴿عَزِيزٌ﴾ أي: ذو عِزَّةٍ، قال العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: والعِزَّةُ ثلاثَةُ أَنْواع؛ عِزَّة القَدْرِ، وعِزَّة القَهْر، وعِزَّة الامْتِناع.

فأما عِزَّة القَدْرِ فمعناها أنَّ الله تعالى ذو قَدْرٍ عزيز، والقَدْرُ معناه المكانَة والشَّرَف والسُّؤْدُد ونحو ذلك.

عِزَّة القهر؛ أي أنَّ الله تعالى غالِبٌ غَيْرُ مَغْلوبٍ، ومنه قَوْله تعالى: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] أي: غَلَبَني.

وعِزَّة الامتناعِ؛ أي إنَّ الله تعالى يَمْتَنِع عليه النَّقْصُ في ذاته، أو في صِفاته، ومنه قَوْلهم: (أَرْضٌ عَزَازٌ)؛ أي: شديدةٌ صُلْبَة، لا يتجاوَزُها شَيْء لِصلابَتِها، ولا يُؤَثِّر فيها شَيْء، لِقُوَّتِها وشِدَّتِها.

فالعِزَّةُ إذن لها ثلاثةُ معانٍك عِزَّةُ القَدْر، وعِزَّة القَهْر، وعِزَّة الامْتِناعِ.

قَوْله تعالى: ﴿غَفُورٌ﴾ أي: ذو مَغْفِرَة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد:٦]، والمَغْفِرَةُ سِتْرُ الذَّنْب والتَّجاوُز عنه، يدلُّ لذلك اشْتِقاقُها؛ فإنَّها مُشْتَقَّةٌ من المِغْفَرِ وهو ما يُغَطَّى به الرَّأْسُ وتُتَّقى به السِّهامِ، وفي المِغْفَر سِتْرٌ ووِقايَة، وعلى هذا فنقول: (الغفور) ذو المَغْفِرَة، وهي: سِتْر الذَّنْب والتَّجاوُز عنه.

ويدل لهذا المَعْنى -زيادةً على دَلالَةِ الاشتقاق- ما ثَبَتَ في الحديث الصَّحِيح أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ»[1]؛ يعني: أَتَجاوَزُ عنها، وفي الدُّنْيا سَتَرَها الله على العَبْد.

ومُناسَبَة ذكر العِزَّة والمَغْفِرَةِ هنا بعد ذِكْرِ الخَشْيَةِ: الإشارَةُ إلى أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أَهْلٌ لأن يُخْشَى؛ لأنَّه عزيزٌ؛ وأنَّه إذا نَقَصَ شَيْءٌ من الخَشْيَة فإنَّه يُقابَل بالمَغْفِرَة، فهو عزيزٌ فلذلك كان أَهْلًا للخَشْيَة، وهو غفورٌ إذا نَقَصَ شَيْءٌ مِمَّا يَجِبُ له من خَشْيَتِه عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في مُلْكِه ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوب عبادِهِ المُؤْمِنينَ].

هذا مبنيٌّ على أنَّ العِزَّة بمَعْنى الغَلَبَة كما يُفَسِّرُها كثيرٌ من المُفَسِّرينَ بذلك، فيقول: العزيزُ؛ أي: الغالِبُ، ولكن هذا التَّفْسيرَ الذي ذكرناه ما نُطْلِقُه في مُلْكِه، تقول: (هو عزيز) ولا نُقَيِّده في المُلْك؛ لأنَّ الله تعالى عزيزٌ في مُلْكِه، وعزيزٌ في صِفاتِه كُلِّها، وعزيزٌ في شَرْعِه، فالعِزَّة عامَّةٌ، ما دمنا نقول: إنَّها عِزَّةُ الامْتِناعِ والقَدْر والقَهْر.

وأما [﴿غَفُورٌ﴾ لِذُنوبِ عِبادِهِ المُؤْمِنينَ] فَتَقْييدُها بذلك أيضًا فيه نَظَرٌ، ولو قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (غفورٌ لمن تابَ إليه) أو (لِمَنِ اسْتَغْفَرَه) لكان أَشْمَل؛ لأنَّ الله تعالى يَغْفِر حتى لِغَيْر المُؤْمِنينَ لو تابوا إلى الله، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣] فالتَّعْميمُ أَوْلَى من التَّخْصيصِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باخْتِلافِ أَلْوانِ النَّاسِ والدَّوابِّ والأنعام؛ أي: أصْنافها وأَشْكالها؛ لأنَّ اختلافَ هذه الأَلْوان -وهي نوعٌ واحِدٌ- دليلٌ على القُدْرَة، فبنو آدم مثلًا لا يُمْكِنُ أن يَشتَرِك شخصان أو أن يتماثَلَ شخصان في كلِّ شَيْء أبدًا، وإن قُدِّر تَماثُلُهما في الخِلْقَة فَسَيَخْتَلِفان في الخُلُق، والتَّساوِي في الخُلُق أمرٌ مُسْتَحيلٌ؛ لأنَّ النَّاس يَتبايَنونَ فيه تبايُنًا عظيمًا، يَتَبايَنون فيه تبايُنًا أَشَدَّ من التَّبايُن الخِلْقِيِّ وإن كان التَّبايُنُ الخِلْقِيُّ أَظْهَر؛ لأنَّه يُشاهَد ويُرى، لكنَّ التَّبايُنَ الخُلُقي أَشَدُّ؛ لأنَّه لا يُمْكِن أن يَتَّفِقَ النَّاس فيه أو أن يتساوى النَّاس فيه أبدًا؛ لأنَّ أيَّ كَلِمَة

تَحْصُل من أَحدهما دون الآخر يَحْصُل فيها التَّبايُنُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلَة خَشْيَة الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث لا يتَّصِف بها إلا العُلَماء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فَضيلَةُ العِلْم لِكَوْنِه سببًا في خَشْيَة الله عَزَّوَجَلَّ، والخَشْيَة صفةٌ لها آثارٌ حميدَةٌ؛ لأنَّ الإِنْسَان إذا خَشِيَ ربَّه فإنَّه يتجَنَّب معاصِيَه ويفعل أوامِرَه خَوْفًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولهذا لما ذَكَر الله عَزَّوَجَلَّ ثوابَ الذين آمنوا وعملوا الصَّالِحاتِ في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [البَيِّنَة:٧-٨] قال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ وهو دليلٌ على أنَّ الخَشْيَة تُوجِبُ الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالِح.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إِثْباتُ اسْمَينِ من أَسْماء الله وهما (العزيز) و(الغفور)، وإثباتُ ما تَضَمَّناه من الصِّفَة، وهي العِزَّة والمَغْفِرَة، وإثباتُ ما تَضَمَّناه من الحُكْم وهو الأَثَر؛ أمَّا الغفورُ فنَعَمْ، لها أَثَرٌ وحُكْمٌ؛ كما قال تعالى آخر سورة (البقرة): ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤].

وهل العزيز لها حُكْمٌ؟

الجواب: قلنا: إنَّ من معانيها الغَلَبَة، وإذا كانت (عَزَّ) بمَعْنى غَلَبَ صارت مُتَعَدِّيَة فيكون لها حُكْم؛ أي: (أثر).

إذن: إثباتُ ما تَضَمَّنَه الاسْمانِ من الصِّفَة والحُكْم الذي نُعَبِّر عنه أحيانًا بالأَثَر، وقد تقدَّم أنَّ أَسْماء الله عَزَّوَجَلَّ إمَّا لازِمَة وإمَّا مُتَعَدِّيَة، فاللَّازِمَة يَثْبُتُ منها الاسْمُ والصِّفَةُ، والمُتَعَدِّيَة يَثْبُتُ منها الاسْمُ والصِّفَةُ والأَثَر.

الآيــة (٢٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر:٢٩].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ ﴾ يقرؤون ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أداموها ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ زكاةً وغيرها ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ تهلك].

الإعْرابُ في هذه الآية واضِحٌ ليس فيه إشكال، إلا أنَّ قَوْله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ ﴾ تَحتاجُ إلى خَبَرٍ، فما هو الخبر؟ الخبر هو جُمْلَة ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ هذا هو الصَّحِيحُ من أَقْوَال المُعْربين؛ يعني: أَنَّ هؤلاء فعلوا ذلك يَرْجونَ تجارةً لن تبور، فجُمْلَة ﴿يَرْجُونَ ﴾ هي خبر ﴿ إِنَّ ﴾.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَقْرَؤُون] والصَّوابُ أنَّ التِّلاوَةَ أَعَمُّ من القِراءَة، فالتِّلاوَةُ نوعان: تلاوةٌ لَفْظِيَّة وهي القِراءَة، وتِلاوَةٌ عَمَلِيَّة وهي اتِّباعُ القُرْآن تَصْديقًا للخَبَر وامْتِثالًا للأَمْر؛ ولهذا يقال: (تلاه بمَعْنى تَبِعَه)؛ أي: جاء بعده، فالتِّلاوَةُ أَعَمُّ من القِراءَة، والتِّلاوَة العَمَلِيَّة تَسْتَلْزِم فَهْم المَعْنى؛ لأنَّه لا يُمْكِن أن يُعْمَل إلا بما يُفْهَم، وعلى هذا يكون فِعْلُ الصَّحابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ تطبيقًا لهذه الآية تمامًا؛ لأنَّهم لا يتجاوَزونَ عَشْرَ آياتٍ حتى يَتَعَلَّموها وما

فيها من العِلْمِ والعَمَلِ، قالوا: «فتعَلَّمْنَا القُرْآن وَالعِلْمَ وَالعَمَلَ»[١].

قَوْله تعالى: ﴿يَتْلُونَ﴾ فعلٌ مُضارِعٌ يدلُّ على الاسْتِمْرار، بخلاف ما لو قال: (إنَّ الذين تَلَوْا) بالماضي، فإنَّه لا يُفيدُ المَعْنى الذي يُفيدُه المضارِعُ ﴿يَتْلُونَ﴾.

وَقَوْله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ هل هو القُرْآنُ أو هو أَعَمُّ من ذلك؟

الجواب: هو أَعَمُّ من ذلك، كِتَاب الله: الكُتُب التي أنزلها الله تعالى على الرُّسُل، فيَشْمَلُ جَميعَ الكُتُبِ؛ لأنَّ هذا الحُكْم يَشْمَلُ المُؤْمِنينَ من هذه الأُمَّة والمُؤْمِنينَ مِمَّا سَبَقَهم، فيكون المُرَادُ هنا: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ كل كِتَابٍ أنزله الله تعالى على رسُله.

قَوْله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ معطوفةٌ على ﴿يَتْلُونَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أداموها] والصَّوابُ خلاف ما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يعني: معناه أنَّنا نختار كَلِمَةً أَشَدَّ مُطابَقَةً لِلَّفْظِ؛ فـ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أَتَوْا بها مُسْتَقيمَة؛ فيَشْمَلُ فِعْلَ الصَّلاة تامَّةً بِشُروطِها، وأَرْكانِها، وواجِباتِها، ومُسْتَحَبَّاتِها، ويَشْمَلُ الإِدامَة، أيضًا؛ لأنَّ الإِدامَة مِنَ الإِقامَة، وعلى هذا نقول: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: فَعلوها قائِمَةً؛ أي: مُسْتَقيمَة على الوَجْهِ المطلوبِ منهم.

لو أنَّ الإِنْسَان أدامَ الصَّلاةَ لكن يُخِلُّ بأرْكانِها أو واجباتِها، فهل يقال: إنَّه أقام الصَّلاة؟ الجواب: لا، فالرَّجُلُ الذي جاء يُصَلِّي ولا يَطْمَئِنُّ كان يصلي هذه الصَّلاة منذ أَسْلَم، والرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال له: «صَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»[٢] مع أنَّه يُديمُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٤١٠)، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ... فذكره.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الصَّلاة ويُصَلِّي لَكِنَّه لم يُصَلِّ؛ حيث إنَّه لم يأتِ بها قائِمَةً على الوجه المطلوب، فالصَّوابُ أنَّ الإقامَة هنا بمَعْنى أن يفعلها على الوَجْهِ المطلوب منه.

والصَّلاةُ مَعْروفة للجميع لا تحتاج إلى تَعْريفٍ؛ لأنَّها عِبَادَةٌ ذاتُ أَقْوَالٍ وأفعالٍ مَعْلومَةٍ، مُفْتَتَحَةٌ بالتَّكْبيرِ مُخْتَتَمَةٌ بالتَّسْليمِ.

قَوْله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

﴿وَأَنفَقُواْ﴾ بمَعْنى بذلوا وأَخْرَجوا، ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ مما أعطيناهم؛ لأنَّ الرِّزْق بمَعْنى العطاء.

وَقَوْله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ هل (مِنْ) لبيانِ الجِنْسِ أو هي للتَّبْعيض؟ الأَوْلى أن نجعلها لبيانِ الجِنْس؛ لتَشْمَل ما لو أنفقوا جميعَ أَمْوالِهم على الوجْه الذي يرضاه الله ورسوله، فإنَّهم يدخلون في هذا الوَصْفِ.

قَوْله تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: ﴿سِرًّا﴾ مَصْدَرٌ، ولَكِنَّها في مَوْضِعِ الحالِ؛ أي: مُسِرِّينَ ومُعْلِنينَ، فالإسرارُ أن يُخْفُوا الإنفاقَ، فلا يَعْلَمُ به إلا المُنْفَقُ عليه، والإعلان أن يُظْهِروه للنَّاس إمَّا إِظْهارًا كامِلًا شامِلًا، وإمَّا أن يكون إظهارًا نِسْبِيًّا يَعْلَمُ به مَن حوله، وكل ذلك يُمْدَحُون عليه، وسيأتي -إن شاء الله- في ذكر الفَوائِدِ أنَّ هذا يكون بحَسَبِ الحالِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ زكاةً وغيرها] غَيْر الزكاة: كالإِنْفاقِ الواجِبِ على الأَقارِبِ وكَصَدَقاتِ التَّطَوُّع، فالإنفاق هنا شامِلٌ.

قَوْله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾.

﴿يَرْجُونَ﴾ يعني: يُؤَمِّلون ويطلبون من هذه التِّجارة ﴿تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي: لن تَهْلِكَ، كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وما هذه التِّجارة؟

التجارة ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ في قَوْله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [الصف:١٠-١٢] فهنا عِوَض ومُعَوَّض، العِوَض: الإيمان بالله والجهادُ في سبيله، المعوَّضُ: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾ [الصف:١٢] هذه التِّجارة لا شَكَّ أنَّها أَرْبَح التِّجاراتِ، وأنَّها أَبْقَى التِّجاراتِ.

أَرْبَحُ التجارات؛ لأنَّ الرِّبْحَ فيها العَشْرُ مِئَة، فالحَسَنَة بِعَشْرِ أَمْثالِها إلى سَبْعِ مِئَة ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرة.

وأبقى كذلك؛ فهي أبقى التجارات بلا شَكٍّ؛ لأنَّها في جنَّاتِ عَدْنٍ؛ أي: في جنات إِقامَةٍ لا ظَعْنَ فيها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فَضْلُ تِلاوَةِ كِتَاب الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الرجاء يَنْبَغي أن يكون في مَحَلِّه، بحيث يكون الإِنْسَانُ قد عَمِلَ عملًا يرجو الثَّوابَ عليه، أمَّا الرَّجاءُ بدون عمل فهو من التَّمَنِّي الذي لا ينفع العبد، وفي الحديث: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ

نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِيَّ»[١] فلا رجاء إلا بعمل.

وفي الحديث الصَّحِيح أيضًا: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ»[٢]، وفي الحديث الصَّحِيح: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»[٣].

وكل هذه النُّصوص وما أشبهها إنَّما تكون فيمن يَعْمَل ما يُمْكِن أن يرجو به ذلك وأن يُحْسِنَ به الظَّنَّ.

فلو أنَّ أَحَدًا أساء واسْتَكْبَر عن عِبَادَة الله، وقال: (أنا أُحْسِنُ الظَّنَّ بالله) لكان هذا ظنَّ وَهْمٍ، لا بُدَّ من شَيْء يَبْنِي عليه هذا الظَّنَّ، لو قال: (أنا أرجو رَحْمَةَ الله).

قلنا: هذا وَهْمٌ حتى تَعْمَلَ؛ ولهذا قال الله تعالى في سورة (البقرة): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢١٨] هؤلاء هم الذين يرجون، وهنا أيضًا مِثْلها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الثَّواب في الآخِرَة لا يَنْقَطِع؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لَّن تَبُورَ﴾ بل ربَّما نقول: إن هذا أَعَمُّ؛ بحيث يُثاب الإِنْسَان في الدُّنْيا ثوابًا مُسْتَمِرًّا إلى الآخِرَة؛ لأنَّ الحَسَناتِ قد يرى الإِنْسَانُ ثوابَها في الدُّنْيا، وثوابُها في الدُّنْيا يَسْتَمِرُّ إلى الثَّواب في الآخِرَة؛ كما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٢٤)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٥٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت، رقم (٤٢٦٠)، من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [النحل:٣١-٣٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فضل إقامة الصَّلاةِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وهو شاملٌ لفَرْض الصَّلاة ونَفْلها، فما تقام به الفَريضَةُ تقام به النَّافِلَة، وما تقام به النافِلَة تُقامُ به الفَريضَة إلا بِدَليلٍ يدلُّ على الفَرْقِ بينهما.

وقد جَمَعْنا الفُروقَ بين فرض الصَّلاة ونَفْلها فبَلَغَتْ ثمانيةً وعِشرينَ فَرْقًا؛ منها ما هو واضِحٌ دلَّت عليه السُّنَّة، ومنها ما هو دون ذلك.

المُهِمُّ: أنَّ الأصل أنَّ إقامَةَ الفَريضَةِ إقامَةٌ للنَّافِلَة، وأن إقامة النَّافلة إقامة للفريضَة، هذا الأصل، فما ثبت في إحداهما ثبت في الثاني إلا بِدَليلٍ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فَضيلَة الإنفاقِ؛ لأنَّه أَعْقَبَ الصَّلاة به فقال: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ ﴾ وهو يدلُّ على أنَّ هذا الإنفاقَ يَشْمَل الزَّكاة وغير الزكاة؛ لأنَّ الله تعالى يَقْرِن دائمًا في الذِّكْر بين الصَّلاة والزَّكاة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ المُنْفِقَ ليس مانًّا على الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه إنَّما يُنْفِقُ مِمَّا رزقه الله، فمهما بَلَغَت بك نفْسُك من الإعجاب والكِبْرياء على إنفاقِكَ فاذْكُر قَوْله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ كُلُّ شَيْءٍ تُنْفِقُه فليس لك فيه مِنَّة على الله عَزَّوَجَلَّ، بل لله المِنَّة عليك به في إيجادِهِ وفي إنفاقِهِ؛ ففي إيجاده؛ لأنَّه لولا أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ رزقك ما حصل لك، وفي إنفاقه؛ لأنَّ كثيرًا من النَّاس يَبْخَلون بما آتاهم الله من فَضْلِه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾ [آل عمران:١٨٠] فمن نِعْمَة الله عليك أن يَمُنَّ عليك بالإنفاق بعد أنْ مَنَّ عليك بالرِّزْقِ والعطاء.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الإنفاقَ لا نقول: إنَّ الإسرارَ فيه أَفْضَل، ولا إنَّ الإعلانَ

فيه أفضل، بل هو بحَسَبِ الحال، فتارةً يكون الإنفاقُ سرًّا أَفْضَلَ، وتارة يكون الإنفاقُ عَلَنًا أَفْضَلَ؛ حَسَب ما تَقْتَضيه الحالُ، بخلاف الصَّدَقَة فالأَصْلُ فيها السِّرُّ، قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢٧١]؛ لأنَّ الصَّدَقَة فيها نَوْعُ مِنَّةٍ على المُعْطَى، فربَّما يَنْكَسِرُ أمام النَّاسِ إذا أُعْلِنَت الصَّدَقَةُ له، فصار إخفاؤها أَفْضَل، وفي الحديث الصَّحِيح في الذين يُظِلُّهُم الله في ظِلِّه: «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا»(١).

أمَّا الأشياء العامَّة والمُعْلَنَة كما لو أردنا أن نُنْفِقَ في مشروعٍ خَيْرِيٍّ عامٍّ لا يظهر فيه المِنَّة على شخصٍ معين فهنا قد يكون الإعلانُ فيه أَفْضَل، وكذلك لو أنَّ شَخْصًا جاء إلينا، وقال: (أرجو أن تَجْمَعوا لي من النَّاس) فهنا قد يكون الإعلانُ فيه أَفْضَل من أجل أن يَقْتَدِيَ بك غَيْرك، وهذا الرَّجُل الذي طَلَبَ منَّا أن نجمع له لا يُهِمُّه أن يعلم النَّاس بأنَّه يُتَصَدَّق عليه أو لا يُتَصَدَّق.

فالمُهِمُّ أن نقول: إنَّ السِّرَّ والإعلان في الإنفاق كُلُّه خَيْرٌ، لكنَّ الصَّدَقَة الأَفْضَل فيها السِّرُّ لِما في إظهارها من كَسْرِ قَلْبِ المعطَى، وأمَّا الأشياء العامَّة أو الصَّدَقَة على شَخْص مُعَيَّن هو الذي طلب منا أن نَجْمَع له مثلًا، فهذا قد يكون الإعلانُ فيه أَفْضَلَ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: التَّنْبيهُ على الإخلاص؛ لِقَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً﴾ لا يريدون تجارةً تبور وتَهْلِك؛ يعني: لا يريدون مثلًا سُمْعَة؛ لأنَّ السُّمْعَة والجاه بين النَّاس لا شَكَّ أنَّه كَسْبٌ للمَرْءِ، ويُعْتَبَر تجارة، لكن هذه تِجارَةٌ هالِكَةٌ تزول بزوال

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم (٦٢٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشَّخْص، أو تزول بزوالِ ما اشْتُهِرَ به؛ لأنَّ من حُمِدَ على شَيْء ذُمَّ على فَقْدِه، لكن الذي يرجو ثوابَ الله ويُحْسِنُ النِّيَّة والقَصْد هذا هو الذي حصل على تجارة لن تبور.

ففيه: التَّنْبيهُ على الإخلاصِ، وأنَّه يَنْبَغي على الإِنْسَانِ أن يكون مُخْلِصًا لله تعالى في عَمَلِه اللَّازِمِ أو القاصِرِ والمُتَعَدِّي؛ فالقاصر كالصَّلاة، والمتعدي كالصَّدَقَةِ.

الآيـة (٣٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر:٣٠].

قَوْله تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أي: يُعْطيهم أُجورَهم وافِيَةً كامِلَةً، وضميرُ الفاعل يعود على (الله)؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر:٢٩]، وَقَوْله تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ ﴾ هذه اللَّامُ للعاقِبَة، وقيل: للتَّعْليل.

فعلى القَوْلِ بأنَّها للعاقِبَة تكون مُتَعَلِّقَةً بـ﴿يَرْجُونَ ﴾ فـ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ عاقِبَتُهم أن يُوَفِّيَهُم الله أجورَهم.

وعلى أنَّها للتَّعْليلِ مُتَعَلِّقَةٌ بـ﴿يَتْلُونَ ﴾ و﴿وَأَقَامُواْ ﴾ و﴿وَأَنفَقُواْ ﴾ يعني: يَتْلُونَها لِيُوَفِّيَهُم أُجورَهم، أقاموا الصَّلاة لِيُوَفِّيهم أجورهم، أنفقوا مِمَّا رزقناهم لِيُوَفِّيَهم أجورهم؛ يعني: قصدوا ما رَتَّبَ الله على هذه الأعمال من الأُجُورِ.

وهذا الفِعْل ينصبُ مَفْعولينِ: أَحَدهما هنا: الهاءُ، والثاني: (أُجور)، وهو من أخوات (كسا)، و(أعطى)؛ لأنَّه نَصَبَ ما لا يَصِحُّ أن يكون مُبْتَدَأً وخبرًا، وكُلُّ فعلٍ ينصب مفعولين لا يَصِحُّ أن يكون أَحَدهما خَبَرًا عن الآخر فهو من باب (كسا).

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أي: ثَوابَ أَعْمالِهم المذكورة] وهذه التَّوْفِيَة هذه مَعْروفَةٌ لنا جميعًا، وهي أنَّ الحَسَنَة بِعَشْرِ أَمْثالِها إلى سبع مِئَة ضعف

إلى أضعافٍ كثيرة؛ فمثلًا الصَّلاة حَسَنَةٌ بِعَشْرِ أَمْثالِها إلى سبع مِئَة ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرة، ومع الجماعة تكون سبعًا وعِشرينَ حَسَنة، كُلُّ حَسَنةٍ بِعَشْرِ أَمثالِها.

قَوْله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ معطوفة على (يُوَفِّيهم)؛ يعني: يزيدهم عطاءً وأَجْرًا من فضله، وهذا مثل قَوْله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٦١].

وَقَوْله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ يَشْمَل الفَضْل في الدُّنْيا والآخِرَة؛ أمَّا في الدُّنْيا فإنَّ الإِنْسَان إذا عمل العَمَل الصَّالِح مُخْلِصًا لله به حَبَّبَ الله إليه العَمَل حتى يزيد في العَمَلِ، وهذا شَيْء مُشاهَد، كذلك إذا أعطى وأنفق زاده الله من فَضْلِه، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ [سبأ:٣٩]؛ أي: يأتي بخَلَفِه.

فالزِّيادَة إذَنْ: تشمل زيادَةَ الأُجورِ، وزيادةَ الأَعْمالِ، وزيادَةَ المالِ المنفَقِ منه؛ فزيادة الأعمال؛ لأنَّه الإِنْسَانَ كلَّما عَمِلَ صَالِحًا حَبَّب الله إليه العَمَل وزاده فيه، وزيادَة المالِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩]، وَقَوْله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ [الروم:٣٩].

وَقَوْله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: عطائِهِ الذي يَتَفَضَّلُ به عليهم.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّهُۥ غَفُورٞ﴾ لذُنُوبِهم ﴿شَكُورٞ﴾ لطاعَتِهم].

هذا تعليل لما سبق من تَوْفِيَة الأجور والزِّيادَة من الفَضْل؛ يعني أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لِكَوْنه غفورًا رحيمًا صار يُوَفِّيهم أجورَهُم ويزيدُهُم من فضله، وفي هذا: إشارَةٌ إلى مَغْفِرَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للعامِلِ وإلى شُكْرِه إياه.

الـ﴿غَفُورٌ﴾ صيغة مبالَغَة أو صفةٌ مُشَبَّهَة، مَأْخوذة من الغَفْرِ، وهو السِّتْر مع الوقاية؛ لأنَّ أَصْلَ هذه المادة المِغْفَر، والمِغْفَر يَحْصُلُ به السِّتْر والوقاية، إِذَن ما مَعْنى أنَّ الله غفور؟

معناه: أنَّ الله يَسْتُرُ الذُّنوبَ ويتجاوَزُ عن العُقُوبَة، وما أَكْثَرَ ما نُذْنِبُ فيما بيننا وبين رَبِنا ومع ذلك يَسْتُرُها الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا كان يومُ القِيامَة عفا عن عُقُوبَتها، وبذلك تتحَقَّق المَغْفِرَة.

أما الـ﴿شَكُورٌ﴾ فنقول في تَصْريفِه كما قلنا في غفور: إنَّه إمَّا صيغةُ مُبالَغَة، وإمَّا صفةٌ مُشَبَّهَة، فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ شكورٌ؛ أي: يشكر من عَمِلَ العَمَل الصَّالِح، ومِنْ شُكْرِه إياه أنَّه يُضاعِفَ له الأَجْرَ؛ فالحَسَنَة بِعَشْرِ أمثالِها إلى سَبْع مِئَة ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرة، وانظر إلى كمال الله عَزَّوَجَلَّ عليك في صِفَتِه أنَّه هو الذي يَمُنُّ عليك بالعَمَل، ثم يَشْكُرُك عليه ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠] سبحان الله العظيم! ربُّنا يُحْسِنُ إلينا ثم يقول: (ما جزاء إِحْسانِكُم إلا أنْ أُحْسِنَ إليكم) وهو الذي تَفَضَّلَ به أوَّلًا، وهذا يدلُّ على سَعَةِ كَرَمِ الله، والحَمْدُ لله، وأنَّه عَزَّوَجَلَّ واسِعُ الكرم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ طلب الإِنْسَان للثَّوابِ غايةٌ عَظيمَة؛ لأنَّ اللَّام -كما أشرنا إليه آنفًا- للتَّعْليل، هذا إذا قلنا: إنَّها للتَّعْليل، وهي صَالِحَة للتَّعْليل، فكون الإِنْسَانِ يَعْمَل من أجل الأَجْر فإن هذا لا يُعدُّ نقصًا، خلافًا للصُوفِيَّة الذين يقولون: (لا تَعْبُدِ اللهَ لثواب الله، ولكن اعْبُدِ الله لله) فنقول لهم: هذا خطأ، فالله تعالى وَصَفَ أَشْرَفَ هذه الأُمَّة وخَيْرَ هذه الأُمَّة بأنَّهم يريدون فضلًا من الله ورِضْوانًا، قال الله تعالى:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح:٢٩]، ومع ذلك لا نقول: (إنَّك لا تعبد الله لله) بل اعْبُدِ الله لله ولِثوابِ الله؛ فإنَّك لن تَصِلَ إلى الله إلا بعد وُصولِكَ إلى ثوابِ الله، فإنَّ لقاء الله -اللقاء الذي هو الرِّضا التَّامُّ- إنَّما يَحْصُل في الجَنَّة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥] هذا الفوز الكامل، وَقَوْله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الرعد:٢٢] متى يرون وجه الله؟

الجواب: إذا دخلوا الجَنَّة، رُؤْيَةُ وَجْهِ الله الرُّؤْيَة التَّامَّة بعد دخول الجَنَّة.

الحاصِلُ: أنَّ في هذه الآيَة وأمثالِها ما يدلُّ على ضَعْفِ ذلك المَسْلَك الذي سلكه أولئك الصُّوفِيَّة بألَّا تَعْبُدَ الله لثواب الله ولكن اعْبُدِ الله لله، فنقول: ما أكْثَرَ الآياتِ الدالَّةَ على أنَّ العِبَادَة تكون لِفَضْل الله وثوابه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ضمان الثَّوابِ؛ يعني أنَّ الثَّواب مَضْمونٌ للعامل الذي يتعامل مع الله عَزَّوَجَلَّ بناءً على أنَّ اللَّام للعاقِبَة؛ أي: إنَّ هذا العَمَلَ سوف يُوَفَّى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ وفيه أيضًا وجْهٌ آخر لضمان الثَّوابِ؛ أنَّ الله سماه أجرًا، والأجر لا بُدَّ أن يُدْفَعَ لمن قام بالعَمَل.

بل جاء في الحديث الصَّحِيح، قال الله تعالى في الحديث القدسي: «ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ»(١).

فإذا كان الله خصمًا لهؤلاء؛ لأنَّهم لم يُعْطُوا الأجر فإنَّه يدلُّ على أنَّ الأجر الذي ضمنه الله لعباده سوف يَحْصُل قطعًا، ولكن لا بُدَّ أن يكون العَمَل صحيحًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، إثم من باع حرًّا، رقم (٢٢٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ جزاء الحسنات أكثر مِمَّا يجب؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وزيادة الفضل شرحناها في التَّفْسير.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ الاسْمَين الكريمينِ: (الغفور) و(الشَّكور)، وما تَضَمَّناه من صفة، وهي: المَغْفِرَةَ والشُّكر، وما تضَمَّناه أيضًا من أثَرٍ وهو الحُكم، فإن (غفور) يؤخَذُ منها أنَّه يغفر، و(شكور) يؤخذ منها أنَّه يَشْكُر من يستحِقُّ الشُّكْر.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: دليلٌ على ثُبُوتِ الأَفْعالِ الاخْتِيارِيَّة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ و﴿وَيَزِيدَهُم﴾ وهذا مذهب أَهْل السُّنَّة والجماعَة أنَّهم يُثْبِتون لله تعالى الأفعال الاخْتِيارِيَّة؛ أي: التي تقع بِمَشيئَتِه، فإنَّه تعالى فعَّالٌ لما يريد خلافًا لمن زعم أنَّ الله تعالى لا يُوصَفُ بشَيْء حادثٍ أبدًا.

• • ۞ • •

الآيــة (٣١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [فاطر:٣١].

جُمْلَة: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ جاءت بالصِّيغَة الاسْمِيَّـة المحصورة، وطريقُ حَصْرِها أمران:

الأَمْر الأول: تَعْريفُ رُكْنَيْها وهما المُبْتَدَأ والخبر، فـ﴿وَٱلَّذِىٓ﴾ مُبْتَدَأ، و﴿ٱلۡحَقُّ﴾ خبر، وقد قال أَهْلُ البَلاغَة: إنَّ تَعْريفَ الرُّكْنَيْنِ من الجُمْلَة الاسْمِيَّة يفيد الحَصْر.

الأَمْر الثاني: من طُرُق الحَصْر هو ضَميرُ الفَصْل وهو قَوْله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ وضمير الفصل مِن فَوائِدِه: الحَصْـر، وله فائِدَة ثانية: التَّوْكيد، وله فائِدَة ثالِثَة: الفَصْلُ بين الخبر والصِّفَة.

قَوْله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ الوَحْيُ: إِعْلامُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنبياءَه ورُسُلَه بشريعةٍ من شرائعه، هذا هو الوَحْيُ شرعًا، أمَّا في اللُّغَة فقالوا: إنَّ الوَحْيَ هو الإِعْلام بسُرْعةٍ وخفاءٍ؛ يعني: مثل الإِشَارَة، والهَمْس، وما أشبههما، تُسَمَّى وحيًا.

أما السُّنَّة فإنَّها نوعان: منها وحيٌ، ومنها ما ليس بِوَحيٍ، أحيانًا يُسْأَل النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن شَيْء ولا يُجيبُ، فيَنْزِل عليه الوحي فيجيب بحديثٍ نَبَوِيٍّ؛ مثل

قصة يَعْلَى بن أمَيَّة الذي كان أحْرَمَ بالعُمْرة وهو مُتَضَمِّخٌ بالخلوق، فسأل النَّبِيَّ ﷺ عن ذلك، ولَكِنَّه لم يُجِبْه حتى جاءه الوحي[1]، وأحيانًا يُسْأَلُ عن الشَّيْء ثم ينزل به الوَحْيُ على أنَّه كَلَام الله (قُرْآن) فيُبَلِّغُه النَّبِيُّ ﷺ.

قَوْله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المُرَادُ به هنا القُرْآن قطعًا؛ بدليل قَوْله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لأن ﴿مِنَ﴾ بيانِيَّة، تُبَيِّنُ الإبهام في اسْم الموصول ﴿وَٱلَّذِىٓ﴾ لأنَّ اسْمَ الموصول فيه إبهامٌ، فإذا جاءت من بعد اسْم الموصول فهي تَبْيِينِيَّة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ القُرْآن] وهو كِتَاب بمَعْنى مَكْتوبٍ؛ لأنَّ صيغة (فِعَال) تأتي كثيرًا بمَعْنى مَفْعولٍ، وأمثلتها: (غِراس، بِناء، فِراش) بمَعْنى: مَغْروس، ومَبنِيٍّ، ومَفْروش، فالكِتَاب بمَعْنى مكتوبٍ، مكتوب في أي شَيْءٍ؟ مكتوب في اللَّوْحِ المَحْفوظ، مكتوبٌ في الصُّحُف التي بأيدي المَلائِكَةِ؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١١-١٦]، مَكْتوبٌ في المصاحف التي بأيدينا.

إذن: هو مَكْتوبٌ على ثلاثَةِ أَوْجُهٍ: اللَّوْح المَحْفوظ، الصُّحُف التي بأيدي المَلائِكَة، الصُّحُف التي بأيدينا.

قَوْله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾: ﴿هُوَ﴾ ضميرُ فَصْلٍ، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ خَبَرُ ﴿وَٱلَّذِىٓ﴾ فالذي أوحى الله إلى رَسُوله ﷺ هو الحَقُّ، أكَّدَ الله ذلك بِمُؤَكِّدَينِ: ضَميرِ الفَصْلِ، وتَعْريف رُكْنَيِ الجُمْلَة.

قَوْله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ﴾: يعني: الشَّيْءَ الثَّابِتَ صِدْقًا في الأَخْبار وعدلًا في

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب غسل الخلوق ثلاث مرات، رقم (١٥٣٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب ما يباح للمحرم بحج أو عمرة، رقم (١١٨٠)، من حديث يعلى بن أمية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الأَحْكَام، فأَحْكَامُ القُرْآن كُلُّها عَدْلٌ، وأَخْباره كُلُّها صِدْقٌ، ليس فيها كَذِبٌ بِوَجْهٍ من الوجوه، وليس في أَحْكَامِهِ جَوْرٌ بوجهٍ من الوجوه؛ لأَنَّك إذا تأَمَّلْتَ أَحْكَامه وَجَدْتَه قد أعطى كل ذي حَقٍّ حَقَّه؛ فلهذا كان عدلًا في الأَحْكَام، وإذا تأَمَّلْتَ أَخْباره وَجَدْتَها كُلَّها صدقًا، وهذا هو الصِّدْق في الأَخْبار، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٥].

قَوْله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَقَدَّمَه من الكُتُب]؛ يعني: مُصَدِّقًا لما تَقَدَّمَه من الكُتُب؛ لأَنَّ الكتب التي سَبَقَتْه تكون بين يديه، ألا ترى إلى الرَّجُل يكون أمامك فهو قد سَبَقَك، وتقول: (إنَّ الرَّجُل بين يديك)، وربَّما يقال لِما بين اليدين للشَّيْءِ المُسْتَقْبَل؛ لأَنَّه أمامك أيضًا كما في قَوْلِه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة:٢٥٥]؛ أي: مُسْتَقْبَلَهم وماضِيَهم.

وَقَوْله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كَيْفِيَّةُ التَّصْديقِ للكُتُب السابقة من وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: أَنَّه صدَّقها؛ أي: أَثْبَتَ أَنَّها صادقة، فالقُرْآنُ يُثْبِتُ صِحَّة التوراة والإِنْجيل والزَّبُور وغير ذلك من الكُتُب، ويُبَيِّن أَنَّها صِدْق.

الوجه الثاني: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لأَنَّ الكُتُبَ السَّابِقَة أخبرت به، فنُزُولُه يكون تَصْديقًا لها، فهو مُصَدِّقٌ لما بين يديه من وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: أَنَّه صَدَّقَ ما سبقه؛ أي: قال: إنَّها كُتُبٌ صادِقَة ثابِتَة وأوجب الإيمان بها.

والوجه الثاني: أَنَّه صَدَّقَ ما أَخْبَرَتْ به؛ أي: نَزَلَ مُطابِقًا لما أخبرت به كما قال

الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]، القُرْآن؛ زُبُرُ الأَوَّلِينَ كُتُبُهم؛ يعني أنَّه موجود في كُتُبِهم، وأنَّه سوف يَنْزِل؛ كما أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كذلك قد أُخِذَ العَهْدُ والميثاق على كُلِّ نَبِيٍّ أن يُصَدِّق به، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾ [آل عمران:٨١].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ عالمٌ بالبواطِنِ والظَّواهِرِ] هذه الجُمْلَة تَعَلُّقُها بما قبلها أنَّها تفيدُ تَحْذيرًا وإِنْذارًا وتَرْغيبًا، فهي ترغيبٌ وتَرْهيبٌ؛ لأنَّه لما أَخْبَرَ بأنَّ هذا القُرْآن هو الحَقُّ، فقد انْقَسَم النَّاس في هذا الحَقِّ إلى قسمين: قسمٌ صدَّق به، وقسمٌ كَفَرَ به.

وكلُّ هؤلاء نقول لهم: إنَّ الله تعالى بكم خبيرٌ بصيرٌ، فالذين صَدَّقوا به لن يَضيعَ تَصْدِيقُهم وعَمَلُهم بما جاء به؛ لأنَّ الله خبيرٌ به وبصيرٌ به، وسوف يجازيهم عليه، والذين كذَّبوا به أيضًا لن تَخْفى حالُهم على الله عَزَّوَجَلَّ، فسوف يُعاقِبُهم بما يقتضي تكذيبهم وإِنْكارَهُم واسْتِكْبارَهم، فالجُمْلَة إذن: هي باعتبارِ المُصَدِّقينَ لهذا القُرْآن للبِشارَة وباعْتِبارِ المُكَذِّبين للإنذارِ والتَّحْذيرِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾: ﴿لَخَبِيرٌۢ﴾ اسْمُ فاعِلٍ على صيغة مبالَغَةٍ، وإن شئت فقل: إنَّه صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ، وهو أحسن بالنِّسْبَة لما يَتَعَلَّق بالعِلْم، الأحسن في هذا أن نقول: (إنَّه من باب الصِّفَة المُشَبَّهَة)؛ لأنَّ الصِّفَة المُشَبَّهَة تدلُّ على الثبوت، لكنَّ صيغةَ المُبالَغَة قد تدُلُّ على الحُدُوثِ، وحدوث الخِبْرة في جانب الله عَزَّوَجَلَّ مُسْتحيلٌ؛ لأنَّه لم يَزَلْ ولا يزال خبيرًا.

إذن نقول: إنَّه يتعَيَّنُ أن نجعل ﴿لَخَبِيرٌۢ﴾ صِفةً مُشَبَّهَة؛ لأنَّنا لو جعلناها صيغَةَ

مُبالَغَةٍ من (خابِر) لكانت مُوهِمَةً لتَجَدُّد الخِبْرَة والعِلْم، وهذا شَيْء مُسْتَحيلٌ في جانِبِ الله عَزَّوَجَلَّ.

وَقَوْله تعالى: ﴿بَصِيرٌ﴾ كَلِمَةُ ﴿بَصِيرٌ﴾ قد يراد بها العِلْم، وقد يراد بها الإدْراكُ بالرُّؤْيَةِ، وكلا الأَمْرَيْنِ لا يناقِضُ بَعْضُهما بعضًا وقد تقدَّم في قواعد التَّفْسيرِ أنَّ الآيَة إذا احتملت مَعْنَيينِ لا يَتَناقَضانِ فإنَّها تُحمَل عليهما؛ لأنَّ ذلك أَوْسَعُ في معناها وأبلغ، فالله عَزَّوَجَلَّ بصيرٌ بعبادِهِ من حيث النَّظَرُ والرُّؤْيَة، ومن حيث العِلْم؛ في جانب المَعْمولاتِ المَفْعولاتِ الظَّاهِرةِ تكون الرُّؤْيَة والعِلْم أيضًا، وفي جانِبِ المَسْموعاتِ يكون العِلْمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إِثْباتُ أنَّ القُرْآنَ كَلَام الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ والوَحْيُ إِعْلامُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أَحَدَ أَنْبِيائِه بشريعةٍ من شرائِعِه، وهذا هو مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّة والجماعَةِ: أنَّ القُرْآن كَلَام الله تعالى تَكَلَّمَ به حَقيقَة بِحُروفِهِ وبِصَوْتٍ مَسْموعٍ، لَكِنَّه لا يُشْبِهُ أَصْواتَ المَخْلوقينَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلَة رسولِ الله ﷺ بما أوحى اللهُ إليه من هذا القُرْآنِ العظيمِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: اشتمال القُرْآنِ الكريم على الحَقِّ في أَخْباره وفي أَحْكَامِهِ؛ فأَخْباره كُلُّها صِدْقٌ وأَحْكَامه كُلُّها عَدْلٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ ما خالَفَ القُرْآنَ فهو باطِلٌ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ فحصر الحَقَّ فيه، والحَصْرُ إثباتُ الحُكْمِ في المذكورِ ونَفْيُه عمَّا سواه، فكلُّ ما خالف القُرْآنَ فهو باطِلٌ بلا شَكٍّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إنذارُ المُخالفينَ لهذا القُرْآنِ وبِشارَةُ المُوافقينَ له، تُسْتَفادُ هذه الفائِدَةُ من قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إِثْباتُ هَـذَينِ الاسْمَيـنِ لله عَزَّوَجَلَّ وما تَضَمَّناه من صفـةٍ وحُكْم: خبير وبصير.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: عُمومُ عِلْمِ الله وشُمولُه حتى لِما يقوم به العبادُ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: علم الله تعالى بما تُكِنُّه الصُّدُور، تؤخَذُ من قَوْله تعالى: ﴿لَخَبِيرٌۢ﴾ وربَّما نقول أيضًا: و﴿بَصِيرٌ﴾ لأنَّ (بصير) بمَعْنى العليم والمُبْصِر.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ جميع الخَلْقِ عابدون لله، فالخَلْقُ كُلُّهُم عِبادُ الله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ فلا حَـقَّ لأَحَدٍ من المَخْلوقيـنَ في شَيْء من خصائص الرَّبِّ، بل كُلٌّ عَبْدٌ ذليلٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الآيــة (٣٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر:٣٢].

كَلِمَة (أَوْرَثَ) هنا نَصبت مَفْعولَينِ ليس أَصْلُهما المُبْتَدَأَ والخَبَر، وعلى هذا فهي من باب (كسا وأعطى)، والمَفْعولُ الأَوَّل هو ﴿ٱلَّذِينَ﴾ والثاني هو ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ فليس الكِتَابُ وارثًا لـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ هم الذين وَرِثُوا الكِتَاب، يعني: أَوْرَثْنا الذين اصطفينا من عبادنا الكِتَابَ، ومَعْنى أورثناهم إياه؛ أي: جَعَلْناهم يَرِثُونَه؛ فالذين اصطفاهم الله أَوْرَثَهُم الله الكِتَاب؛ أي: جَعَلَهُم يَرِثونه.

وكَلِمَة ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القُرْآن] ويَنْبَغي أن نجعله أَعَمَّ؛ لأَنَّنا لو قلنا: (إنَّ الكِتَاب هو القُرْآن)، وقلنا: إنَّه مَوْروثٌ عمَّن سَبَقَنا لكان القُرْآن قد نزل على من سَبَقَنا، وليس الأَمْر كذلك؛ فالمُرَادُ بالكِتَاب هنا الجِنْس، لا خصوصُ القُرْآنِ؛ يعني أنَّ الكُتُب السَّابِقَة كُلُّ ما فيها من الخَيْرِ موجودٌ في القُرْآن، فنحن وَرِثْنا عمَّن سبقنا كلَّ ما أُوتوه من خَيْرٍ، فالأُصُولُ التي تجب على كل مُسْلِمٍ في أيِّ مكانٍ وزمان موجودَةٌ في القُرْآن، والشَّرائِعُ التي تَخْتَلِف باختلافِ الأُمَم وباخْتِلافِ الزَّمانِ والمَكانِ هذه تَخْتَلِفُ عمَّن سبق؛ قد يَجِبُ علينا ما لا يَجِبُ عليهم، وقد يُحَرَّم علينا

ما لا يُحَرَّمُ عليه؛ قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، أمَّا الأُصُولُ فقد وَرِثْناها عنهم، فالأصول التي هي أمُّ الدِّينِ قد وَرِثْناها عمَّن سَبَقَنا.

قَوْله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ أي: اخْتَرْنا، وهو مَأْخوذٌ من الصَّفْوَة، وأصله (اصْتَفَيْنا) لكن لِعِلَّةٍ تَصْرِيفِيَّةٍ قُلِبَتِ التاءُ طاءً، فقيل: (اصطفينا من عبادنا)؛ أي: اخْتَرْناهم.

وَقَوْله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ هل المُرادُ بذلك العُبُودِيَّةُ العامَّةُ أو الخاصَّة؟ يعني الذين اصْطَفَيْناهم من المُؤْمِنينَ، أو اصْطَفَيْناهُم مِنْ جَميعِ العباد؟

الذي يظهر أنَّها من العُبُودِيَّة العامَّة؛ يعني: الذين اختارهم الله تعالى من عباده الذين يَخْضَعون له كَوْنًا، والمُراد بهم هذه الأُمَّة، بدليل قَوْله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠] فالذين اصْطَفَاهم الله من عباده هم هذه الأُمَّةِ للآيَةِ التي سُقناها وهي في آل عمران، ولدليلٍ آخَرَ من هذه الآيَةِ نَفْسِها؛ لأنَّ هذه الأُمَّةَ هي آخِرُ الأُمَم، إذن فلا يُمْكِن أن يُورَثَ ما عندها من الكِتَاب، فهي وارِثَةٌ غَيْر موروثة، وإذا كانت وارِثَةً غَيْر مَوْروثة فهي التي اصْطُفِيَت.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بالتَّقْصيرِ في العَمَلِ به]؛ أي: بالكِتَابِ ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ يَعْمَلُ به أَغْلَبَ الأَوْقاتِ ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يَضُمُّ إلى العَمَل التَّعْليمَ والإِرْشادَ إلى العَمَلِ ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بإرادته].

قسَّم الله تعالى هذه الأُمَّة التي أورثها الكِتَابَ إلى ثلاثة أقسام، وبدأ بالأقل في المَرْتَبَة فالأَقَلِّ، فقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

فالظَّالِمِ لِنَفْسِه هو الذي ترك شيئًا من الواجِباتِ أو فَعَلَ شيئًا من المُحَرَّمات؛ ترك صلاةَ الجَماعَةِ مع وُجُوبِها عليه، تَرَكَ بَعْضَ الزَّكاة لم يُخْرِجْه، ترك الحَجَّ على الفَوْر مع وُجُوبه عليه على الفَوْرِ، هذا نقول: إنَّه ظالِمٌ لِنَفْسِه؛ فَعَلَ المُحَرَّماتِ، شَرِبَ الخَمْرَ، زنا، سَرَقَ، نظر نَظَرًا مُحَرَّمًا، هذا نقول: إنَّه ظالِمٌ لنفسه.

ومَعْنى الظَّالِمِ في الأَصْل هو النَّاقِصُ؛ لأنَّ الظُّلْمَ هو النَّقْص، قال الله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣]؛ يعني: لم تَنْقُص، وكلُّ من أساء فقد نقص فيما يَجِبُ عليه؛ ولهذا كل عَمَلٍ سَيِّئ يُعْتَبَرُ نقصًا فيما يَجِبُ عليك؛ لأنَّ الواجِبَ عليك لِنَفْسِك أن ترعاها حَقَّ رِعايَتِها، فأنت مَسْؤُولٌ أَوَّلَ ما تُسْأَلُ عن نَفْسِكَ، قال النَّبِيُّ ﷺ: «إنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإنَّ لأَهْلِك عليك حقًّا»[1]، فبدأ بالنَّفْس، فكما يَجِبُ عليك أن ترعى مصَالِحَ وَلَدِك، ومالِك، وأَهْلِك، يَجِبُ عليك أن ترعى مَصْلَحَة نَفْسِك، بل هو الواجِبُ الأَوَّل من حقوق المَخْلوقينَ بعد حَقِّ الله ورسوله.

إذن: مَن فَعَل مُحَرَّمًا فقد ظَلَمَ نفسه؛ لأنَّه نَقَصَها حَقَّها في الأَمانَةِ، أنت مُؤْتَمَنٌ عليها يَجِبُ أن ترعاها حَقَّ رعايتها، ومن ترك واجِبًا فقد ظلم نَفْسَه؛ لأنَّ الواجِبَ عليه أن يفعل الواجِبَ ليقوم بحَقِّ الأَمانَة فيما يَتَعَلَّق في نفسه، هذا الظَّالِمِ لِنَفْسِه.

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ المُقْتَصِدُ هو الذي لم يَقَعْ منه ظُلْمٌ لِنَفْسِهِ ولا تَقَدُّمٌ في الخَيْرِ؛ أي: قائمٌ بالواجِباتِ تارِكٌ للمُحَرَّماتِ، لَكِنَّه لا يُكْثِرُ من النَّوافِلِ، ولا يَحْرِصُ على

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، رقم (١٩٦٨)، من حديث أبي جحيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه البخاري: كتاب التهجد، رقم (١١٥٣)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صيام الدهر، رقم (١١٥٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إِكمالِ الواجِباتِ على الوَجْهِ الأَكْمَل، ولا يتَجَنَّبُ المَكْروهاتِ، فهو مُقْتَصِدٌ، لا نَقَصَ ولا زَادَ.

يُصَلِّي مع الجماعَةِ، ويُزَكِّي بدون نَقْصٍ، لكن لا يأتي بالنَّوافِل ولا بِصَدَقَةِ التَّطَوُّع، يؤَدِّي فريضة الحَجِّ لكن لا يعود، يَصومُ رَمَضانَ لكن لا يصوم نَفْلًا، وهكذا، يؤدي ما عليه من المُعامَلاتِ بين النَّاسِ على الوَجْهِ الواجِبِ فقط، لا يتسامَحُ عن فقيرٍ، ولا يُنْزِلُ من قِيمَةٍ أو ثَمَن، لَكِنَّه ماشٍ على ما يَجِبُ عليه، نقول: هذا مُقْتَصِدٌ، هذا لا له ولا عَلَيْه؛ يعني: ليس له ثَوابٌ إلا ثوابُ فِعْلِ الواجِبِ فقط.

﴿سَابِقٌۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ هذا يأتي بالواجِباتِ ويَزيدُ ما شاء الله تعالى من الخَيراتِ، ويأتي بالواجباتِ أيضًا على الوجه الأَكْمَلِ الأَتَمِّ؛ فالصَّلاة مثلًا لا يَقْتَصِرُ فيها على تَسبيحَةٍ واحِدَة بل يزيدُ، لا يَقْتَصِرُ على الفاتِحَة بل يزيد، لا يَقْتَصِرُ على أن يضع يديه مثلًا مُطْلَقَةً هكذا، بل يضعها في مَوْضِعِها في حالِ القيامِ، وفي حالِ الرُّكوعِ، وفي حالِ السُّجود، وهكذا.

نقول: هذا سابقٌ بالخَيْرات، يؤدِّي الزَّكاةَ ويتَصَدَّق، يَحُجُّ الواجِبَ ويَتَطَوَّع، يَصومُ رَمَضانَ ويَتَنَفَّل بِغَيْره من الصِّيامِ، هذا نقول: إنَّه سابِقٌ بالخَيْراتِ.

أما قَوْلُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنَّ مَعْنى [﴿سَابِقٌۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ يَضُمُّ إلى العَمَل التَّعْليمَ والإِرْشادَ إلى العَمَل] ففي هذا نَظَرٌ ظاهِر؛ لأنَّ التعليم قد يكون واجِبًا، وإذا قام بالتَّعْليمِ الواجِبِ صار من المُقْتَصِد، وإن تركه صار من الظَّالِمِ لِنَفْسِه، وكذلك نقول في الإرشادِ: الإِرْشادُ الواجِبُ إذا قام به صار مُقْتَصِدًا، وإن تركه صار ظالِمًا لِنَفْسِه، ولكن ما قلنا هو الصَّوابُ.

واختلفَ المُفَسِّرون في هذه الآيَةِ؛ فمنهم من يقول: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾

كالمانِعِ للزَّكاةِ ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ كالمُقْتَصِر عليها ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ كالزَّائِد عليها.

وآخَرُ يقول: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ مُؤَخِّرٌ للصَّلاةِ عن وَقْتِها ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ فاعِلٌ لَها في وَقْتِها، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ فاعِلُها في أوَّلِ وَقْتِها؛ أي: في الوقت الذي يُسْتَحَبُّ أن تقام فيه، فهل بين القَوْلَيْنِ خِلافٍ؟

الجواب: لا، ليس بينهما خلاف، هذا يُسَمَّى اختلافَ تَنَوُّعٍ؛ يعني أنَّ كل واحدٍ من القائِلِينَ ذَكَرَ نَوْعًا، فيكون هذا على سبيل التَّمْثيلِ، ولا يُعَدُّ هذا خلافًا في الواقِعِ، ولَكِنَّه تَمْثيلٍ، هذا مَثَّلَ بالزَّكاة، وهذا مَثَّل بالصَّلاة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بإرادَتِهِ] لكن هل المُراد الكَوْنِيَّةُ أو الشَّرْعِيَّةُ؟

الظَّاهِر أنَّنا نُغَلِّبُ هنا الكَوْنِيَّة؛ يعني أنَّ هذه الأَقْسامَ الثلاثة: الظالِم، والمُقْتَصِد، والسَّابِق، كُلُّهم يفعلون هذا بإذن الله، فالله تعالى هو الذي أَذِنَ للظَّالم نَفْسَه أن يَظْلِمَ نَفسَه، وللمُقْتَصِد أن يَقْتَصِر على ما يَجِبُ، وللسَّابق أن يزيد.

وتقييدُ هذا بإذن الله؛ لئلَّا يَفْتَخِرَ مفتخرٌ بكونه سابقًا بالخَيْراتِ، فيُضيفَ الشَّيْءَ إلى نَفْسِه، ويَمُنَّ به على رَبِّه، كما قال الله تعالى عن بعض بني آدم: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧].

فأنت إذا منَّ اللهُ عليك بِسَبْقٍ في الخَيْراتِ لا تَظُنَّ أنَّ هذا من نَفْسِك، لو وُكِلْتَ إلى نَفْسِك لكُنْتَ ظالِمًا لِنَفْسِك؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾

[الأحزاب:٧٢] هذه حَقيقَةُ الإِنْسَانِ: الظُّلم والجَهالَة، لكن مَنْ مَنَّ الله عليه وهَداه فهو مِن فَضْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَوْله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إِرْثُهُم الكِتَابَ ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾].

صدق الله، الفَضْلُ الكبيرُ الذي لا يُدانيهِ فَضْلٌ هو مِنَّةُ الله على عبده بالعِلْم بهذا الكِتَابِ، هذا هو الفَضْلُ الكَبيرُ، ليس الفَضْلُ الكبير بأن يُعطَى الإِنْسَانُ قُصُورًا أو مَراكِبَ فَخْمَةً أو زوجاتٍ حِسَانٍ أو أبناءً كثيرين، لا، الفَضْلُ الكبير أن يُورَثَ هذا الكِتَابَ، كُلُّ من وَرِثَ هذا الكِتَاب علمًا وعَمَلًا ودَعْوَةً فهو الذي حاز الفَضْلَ الكَبيرَ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

وفي قَوْله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ﴾ فيها أداةُ حَصْر، وهو ضميرُ الفَصْل، وضميرُ الفَصْلِ هو ضميرٌ يأتِي مطابقًا للسِّياقِ، يأتي بِصورَة الغائِبِ كـ(هو)، وبِصورَةِ المُخاطَب كـ(أنت)، وبصورة المُتكَلِّم كـ(أنا)، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحجر:٨٩] هذا أتى بصيغة المُتكَلِّم، وتقول لمن تخاطبه: (إنَّك أنت القائِلُ) ومنه قَوْله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] هذا في صِيغَة المخاطب، وفي صيغة الغائِب كثير، منه هذه الآيَة: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

إذن: فضميرُ الفَصْل ضميرٌ يؤتَى به مطابقًا للسِّياقِ من حيث التَّكَلُّمُ والخِطابُ والغَيْبَةُ، وهو من حيثُ الإِعْرابُ لا مَحَلَّ له.

أمَّا من حيث المَعْنى فيفيد ثلاثة أُمُور: يفيد التَّوْكيدَ، والحَصْرَ، والتَّمْييزَ بين الخَبَرِ والصِّفَة.

فتقول مثلًا: (زيدٌ الفاضِلُ) ليس فيها ضميرُ فَصْل، فهنا يُحْتَمَل أن تكون (الفاضِلُ) خبرًا، ويُحْتَمَل أن تكون صِفَةً والخبرُ لم يأتِ، ويُمْكِن أن نقول: تَقْدير الكَلَام: زيدٌ الفاضِلُ قائمٌ، فتكون الفاضِلُ صِفَةً، فإذا قلتَ: (زيدٌ هو الفاضِلُ) تعيَّنَ أن تكون الفاضِلُ هنا خبرًا، ولا يُمْكِنُ أن تكون صِفَةً، إذن فهو يُمَيِّز بين الصِّفَة والخَبَرِ، فيكون ما بعده خَبَرًا لا صِفَةً، ولولاه لكان مُحْتَمَلًا أن يكون خَبَرًا أو صِفَةً؛ هذا شَرْح قَوْلنا: (التَّمْييزُ بين الخَبَرِ والصِّفَةِ).

فيفيد الحَصْر؛ فإذا قُلْتَ: زيدٌ فاضلٌ، هل يَمْنَعُ أن يكون غَيْرُه فاضِلًا؟ لا يمنع.

فإذا قلت: زيدٌ هو فاضِلٌ، أو زيدٌ هو الفاضِلُ؛ نَعَم، تعني أن يكون (زيدٌ) وَحْدَه هو الفاضِلُ.

أما التَّوْكيدُ فلا شَكَّ أنَّ قَوْلك: (زيدٌ الفاضل) تريد المُبْتَدَأ والخبَرَ، لا شَكَّ أنَّها جُمْلَة تامَّةٌ ومعناها واضِحٌ، لكن إذا قلت: زيدٌ هو الفاضِلُ كأنَّك اتَّكَأْتَ عليه وزِدْتَها توكيدًا.

فـ﴿ٱلْفَضْلُ﴾ بمَعْنى العطاء من الله، ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ من حيث الحَجْمُ فهو كبيرٌ في كَيْفِيَّته، ونحن نَعْلَم من جهةٍ أخرى أنَّه كثيرٌ في كَمِّيَّته فيجتمع في هذا العطاء الكَمِّيَّة والكَيْفِيَّة، فهو فضلٌ كبيرٌ في ذاتِهِ وكَيْفِيَّته، وفضلٌ كثير أيضًا في عَدَدِهِ وكَمِّيَّته: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ القُرْآن كِتَابٌ؛ أي مكتوبٌ، وهو مكتوبٌ في اللَّوْحِ المَحْفوظِ، ومكتوبٌ في الصُّحُف التي بأيدي المَلائِكَةِ، ومكتوبٌ في الصُّحُف التي بأيدينا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذا القُرْآن مُصَدِّقٌ لما سَبَقَه من الكُتُب؛ لِقَوْله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

ويتفرَّع على هذه الفائِدَة: أنَّ الذي يُؤْمِنُ بهذا القُرْآن مُؤْمِنٌ بالكُتُب السَّابِقة؛ لأنَّ هذا القُرْآن مُصَدِّقٌ لها فيكون الإيمانُ به إيمانًا بما سبق من الكُتُب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الاسْتِشْهادُ بالأَمْرِ الواقِعِ حتى وإن كان مِن عند الله؛ بمَعْنى أنَّ الله تعالى يَسْتَشْهِد بالأَمْرِ الواقِعِ؛ ليزدادَ إيمانُ المُؤْمِنين؛ وَجْهُ ذلك قَوْلُه تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ على أَحَدِ المَعْنَيَيْنِ، وهما أنَّه وَقَعَ مُطابِقًا لما أَخبَرَتْ به، فإنَّه إذا أَخْبَرَتْ به ثم جاء فهذا دليلٌ على صِدْقِه، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧]، فاسْتَشْهَد الله تعالى بعِلْمِ عُلَماءِ بني إسرائيل زيادةً في التَّثْبيتِ وإقامةً للحُجَّةِ على المُنْكِرين من أَهْلِ الكِتَاب.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: رَحْمَةُ الله تعالى بعباده؛ حيث لم يَدَعْهُم هَمَلًا، بل أنزل إليهم الكُتُب التي يَسْتَنيرون بها في سَيْرِهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: سَعَةُ التَّعْبيرِ في اللُّغَة العَرَبِيَّة، وأنَّ المَقصودَ المَعْنى دونَ مُجَرَّدِ اللَّفْظِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لأنَّه قد يقول قائل: وهل للقُرْآنِ يَدٌ؟

فالجواب: أنَّ هذا من بابِ التَّوَسُّع في التَّعْبيرِ في اللُّغَة العَرَبِيَّة، وأنَّ المقصود هو المَعْنى، والأَلْفاظُ قَوالِبُ تَدُلُّ على المَعْنى؛ إذ قوالِبُ الشَّيْء يعني: أَوانيه التي يُجْعَلُ

فيها، فأنت مثلًا إذا قُدِّمَ إليك (كرتون) مُزْخَرْفٌ مُزَيَّنٌ بالذَّهَب تَسْتَدِلُّ بهذا على ما في باطِنِهِ وأنَّه شَيْءٌ غالٍ قَيِّمٌ، فالألْفاظُ في الواقِعِ قوالِبُ يُسْتَدَلُّ بها على ما تَضَمَّنَتْه من المعاني، وليس لها -أي للألفاظ- مَعْنًى ذاتِيٌّ حتى لا تتغَيَّر بأيِّ تركيبٍ كانت بل هي تتغَيَّر بحَسَب التَّرْكيباتِ والصِّيغِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: في قَوْلِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فَضْلُ الله عَزَّوَجَلَّ على هذه الأُمَّةِ؛ حيث أورثها هذا الكِتَابَ العظيم الذي وَصَفَه الله تعالى بأنَّه حَقٌّ وأنَّه مُصَدِّقٌ لما بين يديه؛ أَوْرَثَه الله تعالى هذه الأُمَّةَ؛ ففي ذلك بيانُ فَضْلِ الله علينا بهذا الإِرْث.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ هذه الأُمَّة أَفْضَلُ الأُمَم؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم هذه الأُمَّة، واسْتَدْلَلْنا لذلك أيضًا بآيَةٍ أخرى وهي ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الإشارَةُ إلى الفَتْرَة بين عيسى ومُحَمَّدٍ ﷺ؛ تؤخَذُ من (ثم) الدالَّة على التَّراخي، وهو كذلك، ولا نَعلَمُ فترةً أَطْوَلَ منها بالنِّسْبَةِ لما بين الرِّسالاتِ والكُتُبِ المُنَزَّلَة، فقد قيل: إنَّ أطولَ ما كان بين آدَمَ ونُوحٍ، وهذا أمرٌ قد يَشُكُّ فيه الإِنْسَان، لكن ما بينَ عيسى ومُحَمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حوالي سِت مِئَة سنةٍ.

وإنَّما طالَتِ الفَتْرَةُ لتَشْتَدَّ حال النَّاس إلى إرسالِ الرُّسُلِ، فتأتي الرِّسالَة المُحَمَّدِيَّة إلى قومٍ في غايةِ الضَّرورَةِ إلى الرِّسالَة والوَحْيِ، ويكون لِرسالَتِهِ مَزِيَّةٌ عَظيمَةٌ؛ حيث جاءت كالمَطَرِ يَنْزِلُ على أَرْضٍ مُجْدِبَة فتكون أَشَدَّ قابليَّةً له وأَشَدَّ تأثُّرًا به.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تقسيمُ هذه الأُمَّة إلى ثلاثَةِ أَقْسامٍ: ظالِمٍ لِنَفْسِه، ومُقْتَصِد، وسابِق بالخَيْراتِ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الرَّدُّ على الخوارِجِ والمُعْتَزِلَةِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وجَعْلُهُم من الذين اصْطَفاهُم الله تعالى مِن عباده، ولو خرجوا من الإِسْلامِ لم يكونوا من المُصْطَفَيْنَ.

وقد يقول قائل: يُمْكِن أن يعارِضَ الخوارِجُ والمُعْتَزِلَة هذا الاسْتِدْلالَ بأن يقولوا بأنَّ المُرَادَ بالإِثْمِ هنا ما دون الكبائِرِ؟

فيقال: إنَّ ما دون الكبائر يقع مَغْفورًا بفعل الطَّاعاتِ؛ كالصَّلَوات الخَمْسِ والجُمُعَة إلى الجُمُعة ورمضانَ إلى رمضانَ، وحينئذٍ ينتفي الظُّلْمُ بمُجَرَّد فِعْل هذه الطَّاعاتِ.

ثم نقول قَوْلًا آخر: بأنَّ الآيَة مُطْلَقَةٌ تَشْمَلُ الظُّلْمَ الأَصْغَرَ والظُّلْمَ الأَكْبَرَ.

ففيها ردٌّ على الخوارِجِ والمُعْتَزِلَة الذين يُكَفِّرونَ أو يُخْرِجونَ الإِنْسَان بالكَبيرَةِ من الإِسْلام، وحينئذٍ لا يكون من العبادِ الذين اصْطُفُوا.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ كُلَّ عَمَلٍ يقـوم به الإِنْسَانُ فهو بإذن الله عَزَّوَجَلَّ وإِرادَتِه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: الرَّدُّ على القَدَرِيَّة الذين يقولون: إنَّ الإِنْسَان مُسْتَقِلٌّ بِعَمَلِه؛ يقول ويَفْعَلُ ويَتْرُكُ بغير إذن الله، بل هو مُسْتَقِلٌّ بِمَشيئَتِهِ وفِعْلِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: كَبْحُ النَّفْسِ عن الاسْتِعْلاء والفَخْرِ بالطَّاعَةِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ حتى لا يقول الإِنْسَانُ: فعلْتُ ذلك من نفسي وأنا الذي فَعَلْتُ وفَعَلْتُ، وهذا خلافًا لما يَسيرُ عليه بعضُ النَّاسِ إذا فعل المَعْصِيَةَ كان جَبْرِيًّا وإذا فعل الطَّاعة كان قَدَرِيًّا؛ إذا فعل الطَّاعَةَ قال هذا منِّي وأنا الذي فَعَلْتُ وأنا الذي فَعَلْتُ، وإذا

فعل المَعْصِيَةَ قال هذا من الله وأنا مُجْبَرٌ عليه، فبعض النَّاس يَسْلُكُ هذا المَسْلَكَ، وهذا مسلكٌ بَعيدٌ من العَدْلِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: إِثْباتُ عُمُومِ مَشيئَةِ الله عَزَّوَجَلَّ حتى في أَفْعالِ العَبْدِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: تَفاضُلُ النَّاسِ في العَمَل، ويَتَفَرَّعُ عليه: تَفاضُلُهُم في الإيمـان، والدَّليلُ على تَفاضُلِهِم في العَمَل تَقْسيمُهُم إلى ثَلاثَةِ أقسامٍ، ويَلْزَمُ من تفاضلهم في العَمَل أن يَتفاضَلوا في الإيمان، فيكون في ذلك دليلٌ لِمَذْهَبِ أَهْل السُّنَّة والجماعَةِ القائِلينَ بزيادَةِ الإيمانِ ونَقْصِ الإيمان.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ أكْبَرَ فضلٍ يتفَضَّلُ الله به على عَبْدِهِ أن يُوَفِّقَه للقيامِ بِطاعَتِهِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ وقد أشار الله تعالى إلى هذا المَعْنى في قَوْله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن إِفْضالَ الله على عباده يتفاضَلُ؛ فمنه الكَبيرُ ومنه الصَّغير، وهذا أمرٌ مُشاهَد، ففَضْلُ الله على الرُّسُلِ أعلى من فَضْلِه على الأَنْبياء، وعلى الأنبياءِ أَعْلى من فَضْله على الصِّدِّيقينَ، وعلى الصِّدِّيقينَ أعلى من فَضْله على الشُّهَداء، وعلى الشُّهَداءِ أعلى من الصَّالِحينَ، وهذا لا شَكَّ فيه.

الآيــة (٣٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر:٣٣].

هذا بيانٌ لثوابِ هؤلاء الأَصْنافِ الثَّلاثَة.

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ إقامَةٍ ﴿يَدْخُلُونَهَا ﴾ أي الثَّلاثَةُ، بالبناء للفاعِل والمَفْعولِ؛ خَبَرُ ﴿ جَنَّٰتُ ﴾ المُبْتَدَأُ].

بالبناء للفاعل يَدْخُلونَها، وبالبناءِ للمَفْعولِ: (يُدْخَلُونَها)، وهم إذا أُدْخِلُوا فقد دَخَلُوا، فكأنَّ القراءتَيْنِ واحِدٌ، ولكن يُسْتَفادُ منها من كَلِمَةِ يُدْخَلونَها بيانُ أنَّهم يُعْطَوْنَها كرامةً، فتُقَدَّمُ إليهم حتى يَدْخُلوها، لكن يَدْخُلونَها بدون أن يقال يُدْخَلُونَها، فإنَّ الدَّاخِلَ قد يدخل كرامَةً وقد يدخل من ذاتِ نَفْسِه، لكن إذا أُدْخِلَها كأنَّها قُدِّمَت له على سبيلِ الكَرامَةِ حتى يَدْخُلوها.

وَقَوْله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ جناتٌ أَصْلُها جمع جَنَّةٍ، قال العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: والجَنَّة البُستانُ الكثيـرُ الأَشْجارِ، وسُمِّي بذلك لأنَّه يَسْتُرُ من كان داخِلَه، والله أعلم.

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ عَدْن بمَعْنى إقامَةٍ، يعني أنَّ هذه الجِناتِ جناتُ إقامَةٍ لا ظَعْنَ فيها، بل هم خالدون فيها أبدًا، ومع ذلك ليس أَحَدٌ منهم يتمَنَّى أن

يتحَوَّل عما هو فيه؛ كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨] بخلاف الجَنَّةِ فإنَّ الإِنْسَانَ لو كان في أَحْسَنِ ما يكون من البَساتينِ لتَمَنَّى أن يتَحَوَّل إلى ما هو أَحْسَنُ منه وأفضل منه، لكن في الآخِرَة كلُّ إِنْسَان من كل واحدٍ منهم يرى أنَّه في مكان إقامةٍ لا يريدُ أن يَتَحَوَّل عنه.

وهذا لا شَكَّ أنَّه مِنْ كمالِ النَّعيمِ؛ أنْ يسْتَقِرَّ الإِنْسَانُ وأن يرى أنَّه في أكْمَلِ ما يكون حتى لا تَتَشَوَّفَ نَفْسُه إلى نَعيمٍ أعلى فيَتَنَغَّص نعيمه؛ لأنَّه من المعلوم أنَّ الإِنْسَانَ إذا رأى أنَّه دون غَيْره وإن كان في مقامٍ أمينٍ وإن كان في مقامٍ مُنَعَّم فيه، لكن يَتَنَغَّصُ عليه ذلك لكونه يرى أن غَيْرَهُ أَفْضَلُ منه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ بالبناءِ للفاعِلِ وللمَفْعولِ، خَبَرُ، جناتٌ: المُبْتَدَأ]، وجُمْلَة يَدخلونها أو يُدْخَلُونَها خَبَرٌ.

[﴿يُحَلَّوْنَ﴾ خبرٌ ثان] ولا تَصِحُّ أن تكون حالًا من الفاعل؛ وذلك لأنَّ تَحْلِيَتَهُم بذلك بعد الدُّخول، ولو قُلنا: إنَّهم يَدْخُلونَ حالَ كَوْنِهم يُحَلَّوْنَ لَلِزَم من ذلك أن يكون التَّحْلِيَة حينَ الدُّخولِ أو قَبْلَها.

[﴿يُحَلَّوْنَ﴾ خبر ثان] وهل يَجوزُ أن يَتَعَدَّد الخَبَرُ؟

الجواب: نعم، وهذا في القُرْآن كثيرٌ، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج:١٤-١٥] الخَبَرُ الآن أربعة: الغفور والوَدود وذو العرش والمَجيدُ؛ فتعَدُّد الأَخْبارِ جائزٌ في اللُّغَة العَرَبِيَّة.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ أي في هذه الجَنَّاتِ ﴿مِنْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَعْض] فأفادنا أنَّ مِنْ هنا ليست بَيانِيَّة بل هي تَبْعِيضِيَّة، ولو قيل إنَّها بيانِيَّة لكان له وجهٌ جَيِّدٌ؛

لأنَّ التَّحْلِيَة لا تتعيَّن في الأساوِرِ؛ إذ قد يُحَلَّى الإِنْسَان بالخِرْصان[1] مثلًا أو بالقلائِدِ أو ما أشبه ذلك، فجَعْلُها بَيَانِيَّة أولى مِن جعلها تَبْعِيضِيَّة؛ لأنَّك إذا قلْتَ: يُحَلَّوْنَ بَعْضَ أساوِرَ لم تَكُنِ التَّحْلِيَة بالأساوِرِ، وإنَّما يُحَلَّوْن بِبَعْضِها، إلا إذا قلت: نعم، أقولُ إنَّها على التَّبْعيضِيَّة؛ لأنَّ الأساور المذكورة هنا نوعانِ فقط: ذهب ولؤلؤ، مع أنَّ لهم حليةٌ أخرى وهي الفِضَّة؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان:٢١]؛ فإذا جَعَلْتَها تَبْعيضِيَّة باعتبار أنَّ الأساوِرَ المذْكورَة من نَوْعَيْنِ وبَقِيَ نوعٌ ثالِثٌ لم يُذْكَرْ: فصار القَوْلُ بأنَّها للتَّبْعيضِ له وَجْهٌ.

وقد ذكرنا مرارًا كثيرةً أنَّه إذا احْتَمَلَ اللَّفْظ مَعْنَيَيْنِ لا يتنافيانِ فإنَّه يُحْمَلُ عليهما فيُمْكِنُ أن نَجْعَلَ ﴿مِنْ﴾ هنا مُشْتَرِكةً بين كونها بَيانِيَّة وبين كَوْنِها تَبْعِيضِيَّة؛ بين كونِها بيانِيَّة لأنَّ التَّحْلِيَة تكون من الأَساوِرِ وغيرِها، فتكون ﴿مِنْ﴾ هنا مبيِّنَةً ما يُحَلَّوْن به؛ وتَبْعيضِيَّة؛ لأنَّه ذُكِرَ من الأساور هنا نوعان، وبقي نوعٌ ثالثٌ لم يُذْكَر.

وَقَوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤٍ) مُرَصَّعٍ بالذَّهَب]: (من ذهبٍ ولؤلؤٍ) أمَّا ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ فهي مَجْرورةٌ لا شَكَّ فيها؛ لأنَّها دَخَلَتْ عليها مِنْ، وأمَّا ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ فهي عندي منصوبة، ولكن قَوْلُهُ: [مُرَصَّعٍ] يدلُّ على أنَّها مَجْرورةٌ، كما هي القِراءَة الثانِيَةُ؛ ولهذا يَنْبَغي أن نُصَحِّح في المُصْحَفِ المُفَسَّر ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ ونَجْعَلُها بالجَرِّ بناءً على تَفْسير الجلالِ.

وما الدَّليل على أنَّها (ولؤلؤٍ)؟

الجواب: لأنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [مُرَصَّعٍ] لو أنَّه أراد قِراءَةَ النَّصْب لقال مُرَصَّعًا.

---

(١) الحلقة الصغيرة من حُليِّ الأذن، واحدتها: خُرْصٌ، وجمعها أَخْراص وخرصان. تاج العروس (١٧/ ٥٤٦)، مادة: (خرص).

إذن: نقول: (ولؤلؤٍ) فيها قراءتان سَبْعِيَّتانِ؛ إحداهما بالنَّصْبِ ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ وعلى هذا تكون معطوفةً على محَلِّ ﴿أَسَاوِرَ﴾ يعني يُحَلَّوْن فيها أساوِرَ ولؤلؤًا؛ أساوِرَ من ذَهَبٍ، ويُحَلَّونَ لؤلؤًا أيضًا؛ وأمَّا بالجَرِّ (ولؤلؤٍ) فهي معطوفة على ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ يعني يُحَلَّوْنَ فيها أساور من نَوْعَيْنِ: من ذهبٍ ولُؤْلُؤٍ.

أَضِفْ إليها ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:٢١] تكون أساوِرُهم من ثلاثة أَنْواعٍ: من الذَّهَبِ، واللُّؤلؤ، ومِنَ الفِضَّة.

ولا نَشُكُّ أنَّ السوار من الذَّهَب مُجَمِّلٌ وفيه جمالٌ بذاته، وكذلك السِّوارُ من الفِضَّةِ، وكذلك السِّوارُ من اللُّؤْلؤ، فكلُّ واحدٍ منها على حِدَةٍ فيه جَمالٌ وتَجْميل، فإذا اجْتَمَعَتِ الثَّلاثَة وصُفَّ بَعْضُها إلى بعض تولَّد من ذلك تَجْميلٌ أَكْبَر.

ولا أَحَد يتصَوَّرُ كيفَ تُجْمَعُ هذه الثَّلاثَة؛ هل يكونُ اللُّؤلؤُ بين الذَّهَب والفِضَّة، أو الذَّهَب بين اللُّؤلؤ، أو الذَّهبُ بين اللُّؤلؤ والفِضَّة، أو اللُّؤْلُؤ بينهما؟!.

المُهِمُّ: أنَّ تَرْتيبَها هذا لا أَحَدَ يَتَصَوَّرُه الآن، لكن الذي نُؤْمِنُ به أنَّ هذه الثَّلاثَة تُجْمَعُ، أمَّا كيف تُجْمَعُ، فالله أعلم به، لكننا أيضًا نَعْلَمُ بأنَّ جَمْعَها -أي الثَّلاثَة- له زيادةٌ في التَّجْميلِ.

واعْلَمْ أنَّ الذَّهَب الذي يُذْكَر في نعيم الجَنَّة والفِضَّة واللُّؤْلُؤ ليست كالذَّهَبِ الذي نشاهده الآن أو الفِضَّة أو اللُّؤْلُؤ، بل هو ذَهَبٌ أَعْظَمُ، ذَهَبٌ يليقُ بِنَعيمِ الجَنَّة؛ كما أنَّ النَّخْل والرُّمَّان والفاكِهَة والعَسَل واللَّبَن والخَمْر، وما أشبه ذلك، ليس كالذي يُوجَدُ في الدُّنْيا؛ لأنَّ النَّعِيمَ يناسِبُ الدار، فإذا كانَتِ الدَّارُ الدُّنْيا لا تُشابِهُ الدَّارَ الآخِرَة؛ فالنَّعِيمُ الذي في الآخِرَة لا يُساويهِ النَّعِيم الذي في الدُّنْيا، هذا من حيثُ المَعْقُول.

أما من حيثُ المَنْقولُ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]، وفي الحديث القُدُسِيِّ: «أَعْدَدْتُ لِعِبادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(١).

وأنتم تُشاهِدونَ الآن أنَّه لو دعاكم رجلٌ فَقيرٌ وصنع لكم أعلى ما يُمْكِنُه من الطَّعام الذي هو أحسن شَيْء عنده، ودعاكم رجلٌ غَنِيٌّ وصنع لكم أَعْظَم ما يجد من الطعام عنده لَعَرَفْتم بالفَرْقِ؛ فالفرق العظيم بين هذا وهذا، مع أنَّ كُلَّ واحدٍ منهما أتى بِكُلِّ ما يَسْتَطِيعُ؛ كذلك الفَرْقُ بين نعيم الآخِرَة ونعيمِ الدُّنْيا.

فالذَّهَب إِذَنْ: يوافِقُ الذَّهَب في الدُّنْيا في الاسْمِ ولا يوافِقُه في الحَقيقَةِ؛ قال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس في الآخِرَة مِمَّا في الدُّنْيا إلَّا الأَسْماء فقط»(٢)، أمَّا الحقائِقُ فتَخْتَلِفُ.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [(من ذهبٍ ولؤلؤٍ) مرَصَّعٍ بالذَّهَبِ] وَقَوْله: [مُرَصَّع بالذَّهَب] قد يُعارَض المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك، إذ قد يقال: إنَّ اللُّؤْلُؤَ حِلْيَة مُسْتَقِلَّة، ويدل لذلك قِراءَةُ النَّصْب: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ يعني يُحَلَّوْن لؤلؤًا، أمَّا على قِراءَة الجَرِّ فما ذهب إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ مُحْتَمَل غَيْرُ مُتَعَيَّن؛ فهو يرى رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ اللُّؤْلُؤ ليس مُسْتَقِلًّا بل هو مُرَصَّع بالذَّهَب كما يوجد في حُلِيِّ الدُّنْيا، ولكننا لا نُسَلِّم لما قال، فالظَّاهِرُ من الآيَة الكَريمَة أنَّ اللُّؤْلُؤ سِوارٌ مُسْتَقِلٌّ، ويُبَيِّنُ هذا قِراءَةُ النَّصْب ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ يعني يُحَلَّوْن لؤلؤًا، فجَعَلَ حِلْيَةَ اللُّؤْلُؤِ حِلْيَةً مُسْتَقِلَّة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، رقم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦٦)، وأبو نعيم في صفة الجنة رقم (١٢٤).

وَقَوْله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ لما ذَكَرَ ما يُلْبَسُ في اليَدِ ذكر اللِّباسَ العامَّ على جميع البدن؛ فقال: لباسُهُم في الجَنَّة حريرٌ، وحريرُ الجَنَّة ليس كحريرِ الدُّنْيا الذي تُفْرِزُه أو تَصْنَعه دودة القَزِّ؛ فهو قابِلٌ لِكُلِّ آفَةٍ، بل حريرُ الآخِرَة حريرٌ لا يُماثِلُه شَيْءٌ من حريرِ الدُّنْيا أبدًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ جزاء أولئك القَوْمِ الذين أُورِثوا الكِتَاب على اخْتلافِ طَبَقاتِهم الثلاثِ؛ أنَّ جزاءهم جناتُ عَدْنٍ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ أو (يُدْخَلُونَها) على قِراءَتَيْنِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الإشارَةُ إلى كمال نَعيمِ الجَنَّة لِكَوْنِها جناتٍ بَهيجَةً، وكَوْنِها مَحَلَّ إقامةٍ لا ظَعْنَ منها أبدًا؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ما يُنْعِم الله على عباده في هذه الجنَّات من أَنْواعِ الفَواكِهِ والمطاعِمِ بدخوله في كَلِمَةِ ﴿ جَنَّٰتُ ﴾ وكذلك مِن الملابِسِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الجَنَّة ليست دار تَكْليفٍ؛ أي: دارًا يُمْنَعُ منها العبدُ مِمَّا يتَنَعَّم به، بل يَتَنَعَّمُ بِكُلِّ ما شاء؛ لأنَّنا نَعْلَمُ جميعًا أنَّ تَحَلِّيَ الرِّجالِ في الدُّنْيا بالذَّهَب مَمْنوعٌ وحرامٌ، لَكِنَّه في الجَنَّة مباحٌ وممنوح، وليس بممنوعٍ؛ لأنَّ الجَنَّة لهم فيها ما يشاؤونَ بل أكثر مِمَّا يشاؤون ويريدونَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: ومنها ما يَحْصُلُ من الجمال بِتَنْويعِ الحُلِيِّ؛ لكونه من ذَهَبٍ ولؤلؤ، وفي الآيَةِ الأخرى فِضَّة، وهنا لم يَذْكُرِ الله تعالى تحديدَ هذه الحِلْيَةِ، لكن

جاءت بها السُّنَّةُ؛ حيث قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الوُضُوءُ»(١).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: نُعومَةُ لباسِهِم وأنَّه أَنْعَمُ ما يكون من اللِّباسِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، حريرٌ لا يَخْلَقُ ولا يتدنَّسُ، ودائمًا على جِدَّته ونظافَتِه.

• ● ❁ ● •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم (٢٥٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٣٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤].

قالوا يعني: أَهْلَ الجَنَّة، ويقولون ذلك بعد دُخولِ الجَنَّة.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحَمْدُ له سببانِ: الأَوَّل كَمالُ المَحْمودِ، والسَّبَبُ الثاني إنعامُ المَحْمودِ بِخِلافِ الشُّكْر بل إنَّه ليس له إلا سَبَبٌ واحِدٌ، وهو إنعامُ المشكور، ولعَلَّنا نَتَطَرَّقُ إلى الفَرقِ بين الحَمْدِ والشُّكْر:

فالحَمْدُ قلنا له سببان، فهو أَعَمُّ من الشُّكْر من حيث السَّبَبُ فإنَّ سببه كمالُ المَحْمودِ وإِنْعامُ المَحْمودِ، الشُّكْرُ ليس له إلا سببٌ واحِدٌ وهو إنعامُ المَشْكورِ، فالحَمْدُ أَعَمُّ؛ لأنَّه يكون على هذا وهذا، والشُّكْرُ يكون بالقَلْبِ واللِّسانِ والجوارح؛ بالقَلْبِ أن يَعْتَرِفَ الإِنْسَانُ بِقَلْبِه بنِعْمَة المُنْعِم؛ وباللِّسانِ أن يَشْكُرَه بِلِسانِهِ ويُثْنِيَ عليه بلِسانِهِ؛ وبالجوارِحِ أن يَقومَ بِطاعَتِهِ فلا يُخالِفُه، وعليه قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي والضَّميرَ المُحَجَّبَا[1]

أمَّا الحَمْدُ فلا يكونُ إلا باللِّسانِ؛ لأنَّ الحَمْدَ وَصْفُ المَحْمودِ بالكمال فلا يكونُ إلا باللِّسانِ.

---

(١) غير منسوب، وانظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤).

إذن: فالشُّكْر أَعَمُّ مُتَعَلَّقًا؛ لأَنَّه يَتَعَلَّقُ بالقَلْبِ واللِّسانِ والجوارِحِ، والحَمْدُ لا يَتَعَلَّقُ بالقَلْبِ، وربَّما يَتَعَلَّقُ بالقَلْبِ لَكِنَّه لا يسمى حَمْدًا، يعني من أَضْمَرَ في نَفْسِهِ الثَّناءَ على الله عَزَّوَجَلَّ لا يقال حَمِدَ الله؛ إذ إنَّه لم يُظْهِرْ وربَّما يتعَدَّى، وربَّما يقول قائِلٌ: إنَّه يكون بالقَلْبِ، لَكِنَّه ليس بظاهِرٍ.

﴿ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ الكائِنَ في النُّفُوسِ وهو الغَمُّ بما مضى والخَوْفُ الهَمُّ لما يُسْتَقْبَل، فهنا هل نقول إنَّ الحَزَنَ يَشْمَل الغَمَّ مِمَّا مضى والهَمَّ مِمَّا يُسْتَقْبَل؟

نعم، فكذلك في الجَنَّة جَميعُ ما مضى عليهم من الأَحْزانِ والهُمُومِ وغيرِها يَنْسَوْنَها كما جاء في الحديث الصَّحِيحِ أنَّ الإِنْسَان يُغْمَسُ في الجَنَّةِ؛ يُصْبَغُ صَبْغَةً واحِدَةً يُغْمَسُ فيها، فيقال له: هل رَأَيْتَ شَرًّا قط فيقول: لا[1]، فكلُّ ما مضى: من الشُّرورِ والأَحْزانِ والهُمُومِ كُلِّها.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جَميعَه] يُشيرُ إلى أن (أل) هنا لاسْتِغراقِ العُمومِ، و(أل) تكون لاسْتِغراقِ العُمومِ إذا صَحَّ أن يَحُلَّ مَحَلَّها كلٌّ؛ فهي للاسْتِغْراقِ، كقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:٢]، وَقَوْله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، أمَّا قَوْله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣٤] فليسَتْ للاسْتِغْراقِ، فما كُلُّ رَجُلٍ قَوَّامٌ، فأحيانًا تكون المَرْأَةُ قَوَّامَةً على الرَّجُل!! فهذه لبيان الحَقيقَةِ فقط، الحَقيقَة فقط.

أفادنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِقَوْله: [جميعَه] أن (أل) هنا للاسْتِغْراقِ.

وَقَوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للذُّنُوبِ ﴿شَكُورٌ﴾ للطَّاعَة]؛ هذه الجُمْلَة

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صفة القيامة، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، رقم (٢٨٠٧)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

مُؤَكَّدَة بِمُؤَكِّدَيْنِ؛ بـ(إن) واللام، فهم أَكَّدُوا بالثَّناء هذا على الله أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غَفُورٌ للذُّنُوب شكورٌ للطَّاعَةِ.

فالغَفُور هنا هل هي صِيغَةُ مُبالَغَة أم صِفَةٌ مُشَبَّهَة؟

هي تشمل الأَمْرَيْنِ جميعًا، هي صيغة مُبالَغَة لِكَثْرةِ غُفْرانِ الله تعالى للذنوب وكَثْرَة من يَغْفِرُ لهم؛ فهو كثير المَغْفِرَة للذُّنوب؛ إذ إنَّ الذنوب تتكَرَّر من الإِنْسَان عِدَّةَ مَرَّاتٍ فَيَغْفِرُها الله، والذين يَغْفِرُ الله لهم كثيـرون أو قَليلون؟ كثيرونَ، ومن جهةٍ أخرى باعتبار أنَّ الله تعالى لم يَزَلْ غفورًا نقول هي صِفَةٌ مُشَبَّهَة.

وَقَوْله تعالى: ﴿شَكُورٌ﴾ نقول فيها كمـا قلنا في ﴿لَغَفُورٌ﴾ بأنَّه عَزَّوَجَلَّ لم يزل شكورًا على طاعَةِ عِبادِهِ وامْتِثالِهم أَمْرَه، ومِنْ شُكْرِهِ أنَّه يعطي العامِلَ الحَسَنَةَ بِعَشْرِ أمثالِها إلى سبعِ مِئَة ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرة.

وهو أيضًا شكورٌ باعتبارها صيغَةَ مُبالَغَة؛ لأنَّه كلَّما كَثُر العَمَل كَثُر الشُّكْر.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فَضيلَة أَهْلِ الجَنَّة بِثَنائِهم على ربِّهم؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن حَمْدَ الله تعالى يكون على إنعامِهِ وإِفْضالِهِ وعلى كمال صِفاتِهِ وهنا قالوا: ﴿ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ فحَمِدوا الله على إنعامِهِ عليهم وعلى كَوْنِهِ غفورًا شكورًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: كمال الفرح والسُّـرورِ لأَهْلِ الجَنَّةِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ فإن هذه الصِّفَة السَّلْبِيَّة تدلُّ على كمال ضِدِّها فإذا كان الحَزَنُ مَنْفِيًّا عنهم

كان ذلك دليلًا على كمالِ سُرُورِهِم وأنَّه سرورٌ لا يُشابُ بِحَزَنٍ أبدًا بخلاف سرورِ الدُّنْيا؛ فإنَّ سرور الدُّنْيا مهما عَظُمَ مَشُوبٌ بالكَدَرِ ولهذا يقول الشَّاعِرُ الحكيمُ:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً ... لَذَّاتُـهُ بادِّكَـارِ المَـوْتِ والهَـرَمِ[1]

فالإِنْسَانُ مهما كان في الدُّنْيا من النَّعِيم، فإنَّه إذا تذَكَّرَ أنَّ أمامه شَيْئَيْنِ لا بُدَّ منهما؛ لا بُدَّ من أَحَدِهِما قطعًا، فإن طالَتْ به الحياة فلا بُدَّ من الأَمْرَيْنِ جَميعًا، وهو الهَرَمُ والمَوْتُ، وحينئذٍ تَتَنَغَّصُ عليه حياتُه، وهو حينئذٍ يَعْرِفُ أنَّه كُلُّ يومٍ يَمْضي عليه فإنَّه يُبْعِدُه من الدُّنْيا ويُقَرِّبُه من الآخِرَة، وهذا تنغيصٌ آخَرَ؛ ولهذا قال الشاعر:

والمَـرْءُ يَفْـرَحُ بِالْأَيَّـامِ يَقْطَعُهَـا ... وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الْأَجَلِ[2]

على كُلِّ حالٍ: في الآخِرَة نعيمٌ لا كَدَرَ فيه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن نعيمَ الآخِرَة يُؤْسِي كلَّ ما سبقه من حَـزَنٍ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ وذَهَابُ الحَزَنِ هنا ذَهَابٌ لِما قد وُجِدَ، ولما يُتَوَقَّعُ وُجُوده فلا يُمْكِن أن يَمَسَّه فيها حَزَنٌ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إِثْباتُ اسْمَيْنِ من أَسْماء الله وهما: الغفور والشكور، فالغَفور في جانب المعاصي، والشَّكور في جانِبِ الطَّاعاتِ، أمَّا في المعاصي فإنَّه عَزَّوَجَلَّ قال في الحديث القُدُسِيِّ: «يا ابْنَ آدمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي

---

(١) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٣٩)، شرح ابن عقيل (١/ ٢٧٤)، همع الهوامع (١/ ٤٢٨).

(٢) ذكره الأصمعي في قصة له مع أعرابي، انظر: نثر الدر في المحاضرات (٦/ ٣٧)، وزهر الآداب (٢/ ٤٥٦). وقريب منه بيت أبي العتاهية:

تظلّ تفرح بالأيام تقطعها ... وكلّ يوم مضى يدني من الأجل

انظر: محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (٢/ ٣٩٦).

شَيْئًا لَغَفَرْتُ لَكَ»[1]. وأمَّا في الطَّاعاتِ فإنَّ الله يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، وقال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ فَاعِلَ الحَسَنَةِ تُكْتَبُ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ»[2].

• • ۞ • •

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٤٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، رقم (١٣١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيــة (٣٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر:٣٥].

قَوْله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ هنا يجوز أن تكون صفةً لما سبق وهو الله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا﴾ ويُحْتَمَل أن تكون استئنافًا؛ يعني أنَّها في محَلِّ رَفْعٍ على القطع؛ لأنَّ المَنْعوتَ إذا عُلم وتَعَدَّدَ النَّعْتُ له جاز في النَّعْتِ الثاني القَطْعُ والإثباتِ، كما قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَإِنْ نُعُوتٌ كَثُرَتْ وَقَدْ تَلَتْ ... مُفْتَقِرًا لِذِكْرِهِنَّ أُتْبِعَتْ[1]

وإن لم يكن مُفْتَقِرًا جاز القَطْع.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا﴾ أي أَنْزَلَنا ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

﴿ٱلْمُقَامَةِ﴾ هنا بمَعْنى الإقامَةِ فهي إذنْ ظرفُ مكانٍ، أو أنَّها مصدر ميمي دخلتْه التاء، ودار المُقامَة هي دار الجَنَّة ووُصِفَت بذلك لأنَّ ساكنيها مقيمونَ فيها أبدًا ولأنَّهم لا يريدونَ الإقامَةَ بغيرها، كلُّ واحدٍ منهم لا يبغِي حِوَلًا عما هو فيه؛ لأنَّه يرى أنَّه أَكْمَلُ أَهْل الجَنَّة؛ بل إنَّ الله أَقْنَعَهُم بما هم عليه من النَّعِيمِ حتى لا يتطلَّعوا إلى نعيمٍ أكثر فيَحْتَقِروا ما هم فيه، بخلاف أَهْلِ النَّارِ فإنَّ أَهْل النَّار كلُّ واحدٍ منهم يرى أنَّه أَشَدُّ أَهْل النَّار عذابًا؛ لأنَّه لو يرى أن غَيْرَهُ أَشَدُّ منه لَهانَ عليه العذابُ.

(١) الألفية (ص٤٥).

وَقَوْله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

﴿مِن﴾ سَبَبِيَّة هنا؛ أي: بسبب فضله؛ أي تَفَضُّله علينا؛ لأنَّه لولا فَضْلُ الله عليهم ما وصلوا إلى هذا المَقامِ العَظيمِ، فكُلُّ ما في الإِنْسَان من خَيْرٍ ونِعْمَةٍ فمن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣].

فإحلالُهُم دار المُقامَة هو من فَضْل الله تعالى، وهذا من تَمامِ شُكْرِهم لله حيث اعْتَرَفوا له بالفَضْل، بخلاف الذي إذا أصابَتْه النَّعْماء قال: هذا لي، أو: هذا من عندي، أو ما أشبه ذلك.

قَوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تَعَبٌ ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ إعياءٌ مِنَ التَّعَبِ].

لا يمسنا فيها نَصَبٌ؛ أي: تَعَبٌ، ومَعْنى يَمَسُّنا؛ أي: يُصيبُنا؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ [التَّوْبَة:٥٠] فالمَسُّ بمَعْنى الإصابة.

وَقَوْله: [﴿نَصَبٌ﴾ تعب ﴿لُغُوبٌ﴾ إعياء] لأنَّ هناكَ تعبًا مباشِرًا ينالُ الإِنْسَانَ حين الفِعْلِ، وإعياءً يكونُ أثرًا للتَّعَب، فأنت إذا مارَسْتَ عملًا شاقًّا فإنَّك حين مُمارَسَتِه تَتْعَبُ، ثم بعد انتهائه تَعْيا؛ يعني: تَضْعُفُ وتَخْلُد إلى الرَّاحَة وإلى النَّوْم، فالجَنَّةُ ليس فيها ﴿نَصَبٌ﴾ يعني: تَعَبًا بَدَنِيًّا حين مُزاوَلَةِ الأَعْمالِ ولا ﴿لُغُوبٌ﴾ أي إعياءٌ وهو النَّاتِجُ عن التَّعَب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إعياءٌ من التَّعَبِ لعدم التَّكْليفِ فيها] هذا تعليلٌ عليلٌ لأنَّ

التكليف حتى في الدُّنْيا غالِبُه ليس فيه تَعَبٌ، بل إن بعضه يكون راحةً للبَدَنِ وراحةً للقَلْب وتَنْشيطًا للبَدَنِ وصِحَّةً له، وليس هذا هو المقصودَ الأَوَّلَ في العبادات، لَكِنَّه يَحْصُلُ من مُمارَسَةِ العِبَادَة، يَحْصُل من ذلك النَّشاطُ والصِّحَّةُ كما هو موجود مثلًا في الصَّلاة، وموجود في الصِّيامِ، ومَوْجودٌ في الحَجِّ، فليس هناك تَعَبٌ في الأَعْمالِ الصَّالِحَةِ.

بل نقول ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ هذا من باب الصِّفاتِ السَّلْبِيَّة المُتَضَمِّنَةِ لِكَمالِ ضِدِّها، فلا يَمَسُّهم فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّهُم فيها لغوب؛ لكمال نَعِيمِهِم وراحَتِهِم وأُنْسِهِم وفَرَحِهِم، وما أشبه ذلك.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لعدم التَّكْليفِ فيها، وذَكَرَ الثَّانِيَ التَّابعَ للأَوَّلِ للتَّصْريحِ بِنَفْيِهِ].

ذَكَرَ الثانِيَ -وهو اللُّغُوبُ- التَّابعَ للأَوَّلِ -وهو التَّعَبُ- لأنَّ اللُّغُوبَ -كما قلنا قبل قليل- نتيجَةُ التَّعَبِ، فكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَجابَ عن سؤالٍ؛ كأنَّه قيل: إذا انتفى التَّعَبُ انْتَفَى اللُّغُوبُ الذي هو نَتِيجَتُه، فلماذا لم يُقْتَصَرْ على نَفْيِ التَّعَبِ، وقيل لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ وإذا انتفى النَّصَبُ انتفى اللُّغُوبُ؟

أجاب على ذلك: بأنَّه ذُكِرَ من أجل التَّصْريحِ بِنَفْيِهِ.

هذا ما ذهب إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولا شَكَّ أنَّه وَجْهٌ حَسَنٌ، ولكن ربَّما نقول: إنَّ الإِنْسَان أحيانًا يَجِدُ إعياءً وكَسَلًا ومَوْتَ قُوًى بدونِ عَمَلٍ وبدون تَعَبٍ، وهذا مُشاهَدٌ؛ وعليه فيكون نَفْي اللُّغُوبِ أمرًا ليس تَأْكيدًا، وإنَّما هو أَمْرٌ أَساسِيٌّ؛ أي: إنَّ الإِنْسَان قد يَجِدُ إعياءً أحيانًا وهو ما اشْتَغَلَ.

إذن نقول: إنَّ ذِكْرَه أَساسِيٌّ، وليس من باب التَّصْريحِ بِنَفْيِهِ الذي لا يُقْصَدُ منه إلا مُجَرَّدُ التَّوْكيدِ.

المُهِمُّ: أنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لِكَمالِ نَعيمِهِم لا يَمَسُّهم فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّهم فيها لُغوبٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فَضيلَة أَهْلِ الجَنَّةِ بإضافتهم النَّعِيمَ إلى المُنْعِمِ به؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فنَسَبُوا الأَمْر إلى الله وإلى فَضْلِه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وهذا غايَةُ الثَّناءِ والحَمْد.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ دار الجَنَّة دارُ إقامَةٍ، فكُلُّ إِنْسَانٍ لا يتمَنَّى أن يزول عن مكانه منها حتى مَن كانوا في الدَّرَجاتِ غَيْرِ العالِيَةِ يرون أنَّهُم في أَكْمَلِ النَّعِيم؛ لِقَوْله تعالى: ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَأْبيدُ الجَنَّةِ؛ لِإِطْلاقِ قَوْله تعالى: ﴿ٱلْمُقَامَةِ﴾ ولم تُقَيَّدْ بِزَمَنٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ بُلُوغَهُم إلى هذه الدَّارِ ليس بِحَوْلِهِم وقُوَّتِهِم، ولكنْ بِفَضْلِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إِثْباتُ الأَسْبَابِ؛ لأنَّ ﴿مِن﴾ هنا سَبَبِيَّةٌ؛ أي: بفضل الله، ففيها رَدٌّ على من ينكرون الأَسْبَابَ، ويقولون: إنَّ الأَسْبَابَ لا تَأْثيرَ لها وإنَّما يَحْصُل الشَّيْءُ عِنْدها لا بِها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الإِنْسَانَ لا يَدْخُلُ الجَنَّة بِعَمَلِهِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ ولكِنْ قد يُشْكِلُ على هذا قَوْلُهُ تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]،

وأشباهها من الآياتِ، وقد جمع العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ بينهما بأنَّ الباءَ في قَوْله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ للسَّبَبِيَّةِ، وأنَّ الباء في قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»[1] لِلْعِوَضِ؛ يعني أنَّ دُخولَ الإِنْسَانِ الجَنَّةَ ليس بعمله؛ إذ لو أنَّه أُريدَتِ المُعاوَضَةُ لَهَلَكَ الإِنْسَانُ؛ فلو أنَّ الإِنْسَان نُوقِشَ في عَمَلِهِ بالإضافَةِ إلى نِعْمَة الله عليه لكانَتْ نِعْمَةٌ واحِدَة تُقابِلُ كُلَّ العَمَل، بل لكان العَمَلُ نَفْسُهُ نِعْمَةً يَحْتاجُ إلى شُكْرٍ؛ لأنه من توفيقِ الله عَزَّوَجَلَّ للعَبْدِ؛ كما قيل:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ[2]

وهذا حَقٌّ؛ كُلُّ عملٍ صَالِحٍ تُوَفَّقُ له فهو نِعْمَةٌ من الله عليك يَحْتاجُ إلى شُكْرٍ، فإنْ شَكَرتَهُ صار الشُّكْر نِعْمَةً يَحْتاجُ إلى شُكْرٍ آخَرَ، ثم لا تستطيعُ أن تُثْنِيَ على ربِّكَ بل تَقِفُ تقول: سُبْحَانَكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: كمالُ الرَّاحَةِ في الجَنَّة؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ وَكَمالُ القُوَّةِ والنَّشاطِ؛ لأنَّ التَّعَبَ إنَّما يَلْحَقُ البَدَنَ الضَّعيفَ.

فإذا قال قائِلٌ: من أين عَرَفْنا الكَمالَ؟

فالجوابُ: مِنَ النَّفْيِ؛ لِأَنَّ نَفْيَ النَّقْصِ إثباتٌ لِكَمالِ ضِدِّهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب نهي تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البيت لمحمود بن الحسن الوراق، انظر: الفاضل للمبرد (ص٩٥)، والصناعتين لأبي هلال العسكري (ص٢٣٢).

وهل يُؤْخَذُ من هذه الآيَةِ الكَريمَةِ أنَّ الجَنَّة ليس فيها نَوْمٌ؟

الجواب: أَخْذُ نَفْيِ النَّوْمِ من هذه الآيَةِ فيه شَيْءٌ من الإِشْكالِ، لكن إذا أَرَدْنا أن نَتَوَسَّعَ في الاسْتِدْلال يُمْكِنُ أن نقول كما قُلْتَ: إنَّ النَّوْمَ إنَّما يُحْتاجُ إليه لراحةٍ مِنْ تَعَبٍ سابِقٍ وتَجْديدِ نَشاطٍ لِعَمَلٍ لاحِقٍ، وإذا كان الإِنْسَانُ في مَحَلِّ إقامَتِهِ لا يَمَسُّه النَّصَبُ ولا اللُّغُوبُ، فإنَّه لا يحتاج إلى النَّوْمُ.

يَرِدُ علينا: الأَكْلُ والشُّرْبُ؛ فالأَكْلُ والشُّرْبُ في الجَنَّة ثابِتٌ مع أنَّه يُحْتاجُ إليه في الدُّنْيا لِحاجَةِ البَدَنِ إلى النُّمُوِّ وإلى العَمَلِ، فيقال إنَّ أَكْلَهُمْ في الآخِرَة ليس للحاجَةِ، ولكن على سَبيلِ التَّلَذُّذ، ولهذا يأكلونَ ويَشْربونَ ولا يَبولونَ ولا يَتَغَوَّطونَ، إنَّما يخرج ذلك رَشْحًا -يعني عَرَقًا- أطْيَبَ مِن رِيحِ المِسْكِ[1]؛ ولهذا يأكلون دائمًا، ولكِنْ في الدُّنْيا إذا امْتَلأَ الإناءُ وَقِّفْ فلا تَأْكُلْ أَكْثَرَ.

على كُلِّ حالٍ: لا شَكَّ أنَّهم لا ينامونَ مِنْ نصوصٍ أخرى، والعُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يقولون: إنَّ النَّوْمَ أَخو الموتِ، وقد نفى الله عَنْهُمُ المَوْتَ فإذا انتفى المَوْتُ فإنَّ النَّوْمَ يَنْتَفي أيضًا، لأنَّه وفاةٌ صُغْرى.

ثم إنَّهم لو كانوا يَنامونَ لأَدَّى ذلك إلى تَعَطُّلِ نَعيمِهم وَقْتَ نَوْمِهم، والجَنَّةُ نَعيمُها دائمٌ مُسْتَمِرٌّ، فالنَّوْمُ ليس مُتْعَةً إلا لِمَنْ يَحْتاجُه فقط، أمَّا من لا يحتاجه فليس فيه فائِدَةٌ، وله أَدِلَّةٌ صَريحَةٌ من السُّنَّة؛ أنَّ الرَّسُول أخبر أنَّهم لا يَنامونَ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ أَهْل الجَنَّة لا يَتْعَبونَ في مُزاوَلَةِ الأَعْمالِ ولا يَلْحَقُهُم إعياءٌ بَعْدَ ذلكَ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ ولا يَتْعَبونَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا، رقم (٢٨٣٥)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قَطْعًا كما في الآية، لَكِنَّهم يَعْمَلونَ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٦] يَعْمَلون في نَعيمِهِم، يُفَجِّرونَ الأَنْهارَ ويَجْنونَ الثِّمارَ؛ إلا أَنَّه بدونِ كُلْفَة ولا مَشَقَّة، كما قال الله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:٢٣].

الآيـة (٣٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر:٣٦].

ثم قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ فثنَّى بِذِكْرِ عِقابِ أَهْلِ النَّارِ؛ لأنَّ القُرْآنَ مَثانٍ، كُلُّ ما ذُكِرَ فيه مَعْنًى ذُكِرَ فيه ما يُقابِلُه، ولا تكاد تَجِدُ آياتٍ في القُرْآن يُذْكَرُ فيها معنًى إلا وذُكِرَ ما يقابله لِئَلَّا تَتَمادى النَّفْس في الرَّجاء، فإذا ذُكِرَ النَّعِيم وَحْدَه فإنَّ النَّفْس تتمادى في الرَّجاءِ، وحينئذٍ تَأْمَنُ مَكْرَ الله، ولو ذُكِرَ الوعيدُ وَحْدَه لتمادَتِ النَّفْسُ في الخَوْف وقَنِطَتْ من رَحْمَة الله، ولَكِنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يذكر هذا تارة، وهذا تارَةً حتى يكونَ الإِنْسَانُ سائرًا من غَيْـر مَيْلٍ إلى الرَّجاء ومن غَيْـر مَيْلٍ إلى القُنوطِ.

وهذه المَسْأَلَة اخْتَلَفَ العُبَّاد فيها: هل الأَوْلَى أن يَسيـرَ الإِنْسَانُ إلى رَبِّه بين الخَوْفِ والرَّجاءِ فيكونَ خائِفًا راجِيًا، أو الأَوْلَى أن يُغَلِّبَ الرَّجاءَ إحسانًا في الظَّنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ، أو الأَوْلَى أن يُغَلِّبَ الخَوْفَ؟

في هذا خلافٌ بين العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ؛ فالإمام أحمدُ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ رُوِيَ عنه أَنَّه قال: يَنْبَغي أن يكونَ خَوْفُه ورَجاؤُهُ واحِدًا، فأَيُّهُمـا غَلَبَ هَلَكَ صاحِبُه؛ لأَنَّه إن غَلَبَ

(١) انظر: الاختيارات العلمية لابن تيمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] (٥/ ٣٥٩).

الرَّجاءُ أَمِنَ الإِنْسَانُ مِن مَكْرِ الله وإن غَلَبَ الخَوْف قَنِطَ من رَحْمَة الله، فيكون خَوْفُه ورجاؤه واحِدًا.

قالوا: فالخَوْفُ والرَّجاءُ كالجَناحَيْنِ للطَّائِرِ إن هَبَطَ أَحَدُهما مال الطَّائِر إليه واخْتَلَّ تَوازُنُه، وإن تساويا استقامَ الطَّائِرُ واستقام واعْتَدَل توازُنُه.

وقال بعض أَهْل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: بل هذا يَخْتَلِفُ باختلاف الأَحْوالِ؛ فإذا فعل الإِنْسَان الطَّاعَةَ فَلْيُغَلِّبِ الرَّجاءَ، وأنَّ الذي وفَّقه لها سوف يَقْبَلُها منه ويُثيبُه عليها؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] فإذا وُفِّقْتَ للدُّعَاء وُفِّقْتَ للإجابة، وإذا وُفِّقْتَ للعَمَلِ وُفِّقْتَ للقَبُولِ.

وإذا عَمِلَ المَعْصِيَة فلْيُغَلِّبْ جانِبَ الخَوْف ولْيَرْجِعْ إلى ربِّهِ؛ لأَنَّه إن غَلَّبَ جانِبَ الرَّجاءِ بعد فِعْلِ المَعْصِيَة فلا يتوبُ منها، ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] ويقول الله غفورٌ رحيمٌ وما أشبه ذلك، فيكون تَغْليبُ الرَّجاءِ في حالٍ، وتَغْليبُ الخَوْفِ في حالٍ أخرى.

وقال بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: يُغَلِّبُ الخَوْفَ في حال، والرَّجاءَ في حالس، لكن لا باعتبارِ العَمَلِ بل باعتبارِ الحال، فإذا كان مَريضًا فلْيُغَلِّبْ جانِبَ الرَّجاءِ؛ لِقَوْل النَّبيِّ ﷺ: «**لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ**»(١)، وإن كان صَحيحًا فلْيُغَلِّبْ جانِبَ الخَوْف.

والمناسَبَةُ قالوا: لأنَّ المريضَ تَضْعُفُ نَفْسُهُ وتَنْكَسِرُ وليس يَميلُ إلى الدُّنْيا ولَكِنَّه يَهتَمُّ بما أمامه فلْيُغَلِّبْ جانب الرَّجاء، ليس هناك نفسٌ تتَطَلَّعُ إلى الدُّنْيا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وتَنْغَمِسُ في التَّرَفِ بل نَفْسُه قد رَقَّتْ وآوَتْ إلى الآخِرَة، وأمَّا إذا كان صحيحًا فإنَّ النَّفْس الآن فيها شِرَّةٌ وتَطَلُّعٌ للدُّنيا وإترافِها؛ فيُغَلِّبُ جانب الخَوْفِ.

على كُلِّ حالٍ: يُمْكِن أن نقول: إذا وُجِدَتْ أَسْبَابٌ يخافُ الإِنْسَان على نفسه من تغليب جانِبِ الرَّجاءِ فليُقَدِّم الخَوْفَ، وإن وُجِدَتْ أَسْبَاب تَقْتَضي أن يخافَ الإِنْسَانُ ويَيْأَسَ من رَحْمَة الله فلْيُغَلِّبْ جانِبَ الرَّجاء؛ يعني إذا فعل أَسْبَابَ الرَّجاء فلْيُغَلِّبِ الرَّجاءَ، وإذا وُجِدَتْ أَسْبَابُ الخَوْفِ فلْيُغَلِّبْ جانِبَ الخَوْفِ.

وقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ فهنا قال: ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ فأتى أولًا بالْمُبْتَدَأِ ثُمَّ أتى بمُبْتَدَأٍ وخَبَرٍ آخر، وهذا يفيدُ التَّوْكيدَ؛ فهو أَشَدُّ توكيدًا من مِثْلِ قَوْله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الملك:٦] لما قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بَقِيَ الذِّهْنُ مُتَشَوِّفًا مُتَطَلِّعًا إلى الخَبَرِ: ما الذي يكون لهؤلاء؟ قال: ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ أعوذ بالله! يعني ليس لهم إلا ذلك: نارُ جَهَنَّم.

وهذا من بابِ إِضافَةِ المَوْصوفِ إلى صِفَتِهِ؛ لأنَّ النَّار يُعَبَّرُ عنها بالنَّار وَحْدَها أحيانًا: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]، وأحيانًا يُعَبَّر بجَهَنَّم عن النَّارِ مِثْل: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المجادلة:٨]، وَقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [البيِّنة:٦] مثل هذا مُضافَة، وأحيانًا تضاف النَّار إلى جَهَنَّمَ؛ وحينئذٍ يقع الإِنْسَانُ في إشكالٍ؛ يقول: كيف يضاف الشَّيْء إلى ذاتِهِ أو إلى نَفْسِه؛ فالنَّار هي جَهَنَّمُ وجَهَنَّمُ هي النَّار؟

ونقول: إضافَتُها هنا من باب إضافَةِ المَوْصوفِ إلى صِفَتِه؛ ولهذا لا يقال جَهَنَّمُ نار، ولكن يُقالُ: نار جَهَنَّم؛ فجَهَنَّمُ عَلَمٌ من باب اللَّقَبِ، ومَعْلومٌ أنَّ العَلَمَ اسْمٌ وكُنْيَةٌ ولَقَبٌ، فجَهَنَّم اسْمٌ عَلَمٌ، لَكِنَّه من باب اللَّقَب، والعَلَمُ اللَّقَبُ بِمَنْزِلَة الصِّفَةِ؛

يعني: بِمَنْزِلَةِ النَّعْتِ؛ لأنَّ اللَّقَبَ عندما أَشْعَرَ بِمَدْحٍ أو ذَمٍّ؛ وبناءً على ذلك يَتَبَيَّنُ أنَّ مثل هذا التَّركيب (نار جَهَنَّم) من باب إضافَةِ المَوْصوفِ إلى صِفَتِه، فالنَّار هي هذا الجَوْهَرُ الحارُّ المَعْروف، وجَهَنَّمُ أَصْلُهَا من الجَهْمَةِ وهي الظُّلْمَةُ لِبُعْدِ قَعْرِها وخُلُوِّها من النُّور.

ومن هنا نَعْرِفُ أنَّ هذا الاسْم فيه شَيْءٌ من الاشْتِقاقِ فيكون دالًّا على وَصْفٍ.

قوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالمَوْتِ ﴿فَيَمُوتُوا۟﴾ يَسْتَرِيحوا]؛ قال الله تعالى في ذلك ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣] فلا هو مَيِّتٌ فَيَسْتَرِيحَ ولا حيٌّ حياةً يتَنَعَّمُ فيها، بل هو في شقاءٍ دائم، يَتَمَنَّونَ المَوْتَ ولكن لا يَحْصُلُ لهم؛ قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧].

فهنا يقول: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ أي: لا يُقضى عليهم بالمَوْتِ فَيموتوا ويَسْتريحوا، والفاءُ في قَوْله تعالى: ﴿فَيَمُوتُوا۟﴾ فاءُ السَّبَبِيَّة، والفِعْلُ بعدها منصوب بِحَذْفِ النون والواو فاعِلٌ؛ لوقوعه بعد النَّفْيِ الكائِنِ في قَوْله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ طَرْفَةَ عَيْنٍ] فهم في عذابٍ مُسْتَمِرٍّ لا يَسْتريحونَ منه لا بِمَوْتٍ ولا بِنَوْمٍ ولا بِتَخْفيفٍ، والعياذ بالله!

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩] فانظُرِ الذُّلَّ، والعياذُ بالله ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ كأنَّهم آيِسونَ أن يَدْعوا الله؛ لأنَّ الله تعالى قد قال لهم: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]،

فيَطْلبونَ الوَسائِطَ: ادعوا ربَّكُم، ثم هذا دُعَاءُ اسْتِجْداء ضَعيف؛ فقالوا: يُخَفِّف، ولم يقولوا: يَمْنَع فطَلَبوا التَّخْفيفَ يَوْمًا ولم يقولوا دائِمًا، فهنا يَظْهَرُ أَثَرُ الضَّعْفِ عليهم والذُّلِّ والهوانِ من ثلاثة وجوه:

أولًا: أنَّهم طَلَبوا الشُّفَعاء فلا يَسْتَطِيعونَ أن يَتكَلَّموا.

ثانيًا: طَلَبوا التَّخفيفَ دونَ المَنْعِ النِّهائِيِّ.

ثالثًا: أنَّهم طلبوا ذلك يومًا من الأَيَّامِ لا دائِمًا.

وتُجيبُهُم المَلائِكَةُ بالتَّوْبيخِ، والعياذ بالله؛ قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٥٠].

فهم لا يُقْضى عليهم فيَموتوا، ولا تُجابُ دَعْوَتُهم بذلك ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابِها ولا يومًا واحدًا؛ لأنَّهم قد أُنْذِروا وقامَتْ عليهم الحُجَّة من كُلِّ وَجْهٍ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ﴾ كَما جَزَيْناهُم ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ كافِرٍ؛ بالياءِ والنون المَفْتوحَة مع كَسْرِ الزَّاي ونَصْبِ ﴿كُلَّ﴾].

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَجْمَلَ في بيان هاتَيْنِ القِراءَتَينِ إجمالًا مُخِلًّا؛ فالقراءتان ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ بالنونِ المَفْتوحَةِ والزَّاي المَكْسورَةِ ونَصْبِ ﴿كُلَّ﴾ ووَجْهُ هذه القِراءَةِ ظاهِرٌ بأنَّ ﴿نَجْزِي﴾ فِعْلٌ مضارِعٌ، وفاعِلُهُ مُسْتَتِرٌ و﴿كُلَّ﴾ مفعولٌ به.

القِراءَة الثانية: (يُجْزَى كُلُّ كَفُورٍ) وصَنيعُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يُؤَدِّي هذا المَعْنى، بل ظاهِرُهُ أنَّ (كُلَّ) منصوبة على القِراءَتَيْنِ، وأيضًا ظاهِرُهُ أنَّ الزَّايَ مَكْسورَةٌ على القِراءَتَيْنِ وأنَّ الياءَ مَفْتوحَةٌ على القِراءَتَيْنِ.

ونرجع إلى كَلِمَة: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تَرِدُ كثيرًا في القُرْآن الكريم، ويقول المُعْرِبونَ: إنَّ الكافَ مفعولٌ مُطْلَقٌ، وإنَّ تَقْديرَ الكَلَامِ: مِثْلَ ذلكَ الجَزَاءِ نَجْزي، وعامِلُ هذا المَفْعولِ المُطْلَقِ ما بعده من الفِعْلِ؛ كذلك نجزي الظَّالمينَ؛ أي: مِثْلَ ذلك الجزاءِ نَجْزِي الظَّالِمِينَ، كذلك نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ؛ أي: مِثْلَ ذلكَ الجَزَاءِ نَجْزي كُلَّ كَفورٍ.

وَقَوْله تعالى: ﴿كُلَّ كَفُورٍ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كافِرٍ] يعني أنَّ صيغَةَ المُبالَغَةِ هنا لا تُرادُ، بل مُطْلَقُ الكُفْرِ مُوجِبٌ لهذا الجزاءِ؛ لأنَّك لو اعْتَبَرْتَ صِيغَةَ المُبالَغَةِ بِظاهِرِ معناها لكان لا يُجْزى هذا الجَزاءَ إلا من تكَرَّرَ كُفْرُه ولكن لا يَمْنَعُ أن نقول: إنَّ (كفور) هنا صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ، ويكون المَعْنى كلَّ من اتَّصَفَ بالكُفْرِ، والله أعلم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ جزاءَ الكافرينَ النَّارُ، وهذا ما دلَّتْ عليه آياتٌ كثيرة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّهم لن يَدْخلوا الجَنَّة؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ فأتى بالجُمْلَة الاسْمِيَّةِ الدالَّةِ على الثُّبُوت والاسْتِمْرار.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ أَهْلَ النَّارِ يَتَأَلَّمونَ منها ومن عذابِها وعقابِها؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ لأنَّهم لو ماتوا لاسْتَراحوا، فيكون في هذا رَدٌّ على قَوْلِ من يقول -من المُعْتَزِلَة وغيرهم-: إنَّ أَهْل النَّارِ يكونون أو تكون النَّارُ فيهم طَبيعَةً فلا يَحْتَرِقونَ فيها ولا يَتَأَلَّمونَ منها، وهذا خلاف ما دل عليه القُرْآنُ، وخِلافُ ما دَلَّ عليه العَقْلُ.

أمَّا القُرْآن فالله تعالى يقول: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران:١٨١] أي: ذوقوا العذابَ الذي يُحْرِقُكم، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا

لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]، وهذا نَصٌّ صريحٌ في أنَّ الجلودَ تَحْتَرِقُ، ولكن تُبَدَّلُ لِأَجْلِ أن يذوقوا العَـذابَ، ففيها دليلٌ على أنَّها لو احْتَـرَقَتْ وبَقِيَتْ مُحْتَـرِقَةً فإنَّها لا تُحِسُّ بالعذابِ فيفرق بينها وبين ما إذا بُدِّلَتْ.

فالصَّواب بلا شَكٍّ أنَّ أَهْلَ النَّارِ يَتَأَلَّمُونَ من عذابِها، وأنَّه لا تكون النَّارُ طَبيعةً لهم فلا تهمهم بعد ذلك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: حُسْنُ بَلاغَة القُرْآن؛ إذا ذَكَرَ شيئًا ذكر ما يُقابِلُه حتى تكون النَّفْس بين هذا وهذا، فإذا ذَكَرَ ثناءً على أَهْل الخَيْرِ ذَكَرَ ثناءً على أَهْلِ الشَّرِّ، وإذا ذكر جزاءَ أَهْلِ الخَيْرِ ذكر جزاء أَهْل الشَّرِّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هؤلاء -أعني أَهْل النَّار- لا يُخَفَّفُ عنهم من عذاب النَّارِ أبدًا لا في كَيْفِيَّتِـهِ ولا في نَوْعِـهِ ولا في زَمَنِـهِ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: دليلٌ على كمالِ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث تبقى هذه النَّارُ أَبَدَ الآبدينَ -والعياذ بالله- لا تَتَغَيَّرُ، والمَعْروف في نارِ الدُّنْيا أنَّها مع طُولِ الزَّمَنِ تتغيَّر وتَنْـقُص وتُطْفَأُ حتـى لا يكون لها أثـر، أمَّا في نار جَهَنَّم فإنَّها تبقـى أبد الآبديـنَ، لا ينقص عذابُها ولا حرارَتُها.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ هذا الجزاء ثابتٌ لِكُلِّ من اتَّصَفَ بالكفر، يعني لا تَخْتَصُّ به قبيلةٌ دون أخرى، فلا يقال مثلًا إنَّه خاصٌّ بقُرَيْشٍ المُكَذِّبينَ لرسول الله ﷺ أو بالقبيلةِ الفُلانِيَّة أو القبيلة الفلانِيَّة، بل كلُّ كَفورٍ حتى وإن كان من قَرابَةِ الرَّسُولِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إِثْباتُ الأَسْبَابِ ورَبْـطِ مسبَّباتِها بها؛ لِقَوْله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ أَهْل النَّار تتفاوَتُ منازِلُهم وعذابُهُم؛ تؤخذ من قَوْله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ و﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾ ووجه الأَخْذِ: أنَّ كل مُعَلَّقٍ على وصف فإنَّه يزدادُ بزيادَةِ ذلك الوَصْفِ ويَنْقُصُ بنُقْصانِهِ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٣٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٧].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يَسْتَغيثونَ بِشِدَّة وعَويلٍ].

قَوْله تعالى: ﴿يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ هذه من الصُّراخِ، والصُّراخُ مَعْروفٌ وهو رَفْعُ الإِنْسَانِ صَوْتَه أَشَدَّ ما يُرْفَعُ، وأصلها: (يَصْتَرِخونَ) أُتِيَ بالتَّاءِ لِلْمُبالَغَةِ في الصُّراخِ، كما يقال خَطَبَ واخْتَطَبَ، واخْتَطَبَ أَبْلَغُ من خطب، صَرَخَ واصْطَرَخَ، فاصْطَرَخَ أَبْلَغُ من صَرَخَ.

وقد ذكروا قاعِدَةً أَغْلَبِيَّةً في هذا المقام، فقالوا إنَّ زيادةَ المَبْنى تَدُلُّ على زيادة المَعْنى، لكن هذه القاعِدَة أَغْلَبِيَّة؛ لأنَّها تَنْتَقِضُ بشَجَرَةٍ وشَجَرٍ وبَقَرَةٍ وبَقَرٍ؛ فإن شَجَرَة زائِدَةُ المَبْنَى على شَجَر ناقِصَة المَعْنى؛ يعني شَجَرَة تدلُّ على واحِدٍ، وشَجَر على جَمْعٍ، لكِنَّ الغالِبَ أنَّ ما زاد في المَبْنى زاد في المَعْنى، فاصْطَرَخَ لا شَكَّ أنَّها أَبْلَغُ من صَرَخَ؛ فهم -والعياذ بالله- يَصْطَرِخون هذا الصُّراخَ العَظيمَ في النَّارِ، يَصْطَرِخون فيها يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

فَقَوْله تعالى: ﴿رَبَّنَآ﴾ فالآنَ يُقِرُّون بالرُّبوبِيَّة وأنَّه لا يُغيثُهُم من الشِّدَّة إلا الله،

وكانوا في الدُّنْيا يَسْتَغيثونَ بِمَنْ؟

بِغير الله؛ بأَصْنَامِهِم وما يعبدونَ من دون الله، أمَّا الآن فقد عَرَفُوا أنَّه لا يُمْكِنُ أن يُنْجِيهُم مِمَّا هم فيه إلا اللهُ.

وَقَوْلهم: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ﴾ أَتَتْ ﴿نَعْمَلْ﴾ بالجَزْمِ؛ لأنَّها جوابٌ للطَّلَبِ في قَوْله تعالى: ﴿أَخْرِجْنَا﴾ وإذا كان جوابًا للطَّلَبِ كان كالشَّرْطِ المُقَدَّرِ: أَخْرِجْنا إنْ تُخْرِجْنا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ هكذا يقولون: رَبَّنا أَخْرِجْنا يعني من النَّارِ نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْر الذي كنا نعمل، ولكن هذا القَوْلَ ليسَ بِصَحيحٍ؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]، وهذا كَلَامُ الله عَزَّوَجَلَّ العالِمِ بما سيكون لو أَخْرَجَهُم.

فهؤلاء يقولون ذلك من باب الاعْتِذارِ وإلا فَقُلُوبُهُم خارِبَةٌ، خَرِبَتْ بالأَوَّلِ وسَتَخْرَب في الثاني، فإذا نَجَوْا من النَّار عادوا إلى ما كانوا عليه.

وقال الله تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ الأولى نَعْمَلْ: مَجْزومةٌ على أنَّها جوابُ الطَّلَبِ، والثَّانِيَة مَرْفوعَةٌ لِتَجَرُّدِها من النَّاصِبِ والجازِمِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ ما الذي كانوا يعملون؟

كانوا يعملون عملًا سيِّئًا؛ لأنَّهم يُشْرِكون بالله عَزَّوَجَلَّ ويَسْتَكْبِرون عن عبادته، ولو رُدُّوا لعادوا إلى ما كانوا عليه من قَبْلُ، ولهذا قيل لهم: [﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا﴾ أي وقْتًا ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ الرَّسُولُ، فما أَجَبْتُمْ].

يقال لهم تَوْبيخًا وتنديمًا وإقامةً للحُجَّةِ: أولَمْ نُعَمِّرْكم، فمَنِ القائل؟

إن نَظَرْنا إلى ظاهِرِ الفِعْلِ قلنا: إنَّ القائِلَ هو الله؛ لأنَّ الذي عَمَّرَهُم هو الله عَزَّوَجَلَّ، ويُحْتَمَلُ أن يكون القائِلُ هو المَلائِكَةَ، ولكِنْ لما كانت المَلائِكَةُ تقولُ بِأَمْرِ الله صار كأنَّ القائِلَ هو الله، فالمَلائِكَة تقول لأنَّهم جُنودُ الله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ وأيًّا كان فالمقصودُ بهذا إقامَةُ الحُجَّةِ عليهم وتَوبيخُهُم وتَنْديمُهُم.

وَقَوْله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ هذا السِّيَاقُ يُوجَدُ كثيرًا في القُرْآن، فتَأْتِي هَمْزَةُ الاسْتِفْهامِ وبعدها حَرْفُ العَطْفِ، وقد اختلف المُعْربونَ في مثل هذا التركيبِ.

فقيل: إنَّ الهَمْزَةَ داخلةٌ على مُقَدَّرٍ يُسْتَفادُ من الكَلَامِ، وهذا المقدَّرُ عُطِفَتْ عليه الجُمْلَةُ التي بعد حَرْفِ العَطْفِ.

وقال بعضهم: بل إنَّ الهَمْزَةَ داخلةٌ على الجُمْلَةِ المَوْجودَةِ لا على شَيْءٍ مَحْذُوف، لَكِنَّها قُدِّمَتْ على حَرْفِ العَطْفِ؛ لأنَّ لها الصَّدارَةَ فيكون التَّقْديرُ في قَوْله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾: (وَأَلَمْ نُعَمِّرْكُم) وتكون الواوُ هنا عاطِفَةً على قَوْلِهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ هذا من حيث الإِعْرابُ.

أما من حيث المَعْنى فكما أَشَرْنا أولًا إلى أنَّ المُرادَ بذلك التَّوْبيخُ والتَّنْديم وإقامة الحُجَّة؛ يعني: قد عَمَّرْناكم تَعْميرًا واسِعًا وَوَقْتًا طويلًا يتذَكَّرُ فيه من تَذَكَّر؛ لأنَّ الرُّسُلَ جاءتهم وأَمْهَلَتْهم ودَعَتْهم، ولكن أَبَوْا وأَصَرُّوا على كُفْرِهم.

وكان أَوَّلَ من أُرْسِلَ مِنَ الرُّسُلِ نُوحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فماذا يقول له قومه؟

قال تعالى: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:٧] يَجْعلون أصابِعَهم في آذانِهِم لئلَّا يَسْمَعوا واسْتَغْشَوْا ثِيابَهُم لِئلَّا يَرَوْا، وهذا يدلُّ على شِدَّةِ كَراهَتِهِم لما يقول، لا يُحِبُّون أن

يَسْمَعُوه ولا أن يَرَوْا نوحًا وهو يُلْقيه عَلَيْهم؛ ثم أَصَرُّوا؛ يعني: بَقُوا على ما هم عليه واسْتَمَرُّوا فيه واسْتَكْبَروا اسْتِكبارًا -يعني استكبارًا عَظيمًا- عن قَوْل الحَقِّ، هذا أَوَّلُ الرُّسُلِ.

وآخِرُ الرُّسُل قالوا إنَّه ساحرٌ كذَّاب، وقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥] وآذَوُا الرَّسُولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالقَوْلِ والفِعْل، بل اسْتَباحوا أن يُقاتِلوه ورَضُوا أن يَبْذُلوا رِقابَهُم للسُّيوفِ معارَضَةً لِدَعْوَتِهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فهؤلاء الذين تَبْلُغُ بهم هذه الحالُ بَعْدَ أن عُمِّروا ما يتذَكَّر فيه من تذَكَّر وجاءتهم الرُّسُل: هل يرجى منهم لو خَرَجوا من النَّارِ أن يعودوا إلى الحَقِّ؟ أبدًا؛ لأنَّ الأَمْرَ واحِدٌ.

لكن قد يقول قائِلٌ: إنَّه ليس الخَبَرُ كالمعايَنَةِ؛ فالنَّارُ التي تُوعِّدَ بها أَدْرَكُوها عن طريقِ الخَبَـرِ قبل أن يكونوا فيها، أمَّا لَمَّا كانوا فيها فقد عَرَفوها عن طريق الحِسِّ والمُشاهَدَةِ؟

فالجواب: أنَّ خَبَـرَ الرُّسُلِ المؤيَّدَةِ بالآياتِ الدالَّة على رِسالَتِهم يُفيدُ العِلْم اليَقِينِيَّ؛ لأنَّ الرُّسُلَ ما جاءت تدعو النَّاسَ وتُنْذِرُهم وتُبَشِّـرُهم إلا بآياتٍ يؤمِنُ على مِثْلِها البَشَرُ، وهؤلاء -والعياذ بالله- طَبيعَتُهُم التَّكْذيب والإنكارُ، فلن يُؤْمنوا ولو خَرَجوا.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ النَّذيرُ، يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الرَّسُول] والمُراد به الجِنْس؛ لأنَّ كُلَّ رسولٍ قد أنذر قومه وحَذَّرَهم من مَعْصِيَة الله، وبَشَّرَهم ورَغَّبَهم في طاعة الله، ولَكِنَّهم، والعياذ بالله، أَصَرُّوا واسْتَكْبَروا فقد قامت عليهم الحُجَّة.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ذوقوا: الأَمْرُ هنا للإهانَةِ، ومفعول ذوقوا مَحْذُوفٌ، التَّقْدير: ذوقوا عَذابَكُم أو ذوقوا عاقِبَة تَكْذيبِكُمْ.

وَقَوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرينَ ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ يدفع العَذاب عَنْهُم].

(ما للظالمين من نَصيرٍ) الجُمْلَةُ مُكَونة من مُبْتَدَأ وخَبَر، والخَبَر ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ والمُبْتَدَأُ ﴿نَّصِيرٍ﴾ ودخلَتْ عليهم ﴿مِن﴾ الزَّائِدَةِ لتَوْكيدِ النَّفْيِ، و(ما) هنا لا تَعْمَلُ عمل لَيْسَ؛ لِتَقَدُّم الخبر، وهي لا تعمل عمل لَيْسَ إلا مع التَّرْتيبِ، فنقول مثلًا: ما زيدٌ قائِمًا، ولو قلت: ما في الدارِ زيدٌ، فهذا صحيح، لكن لا نَجْعَلُ (في الدار) في مَحَلِّ نَصْبٍ؛ لِتَقَدُّمِ الخَبَرِ.

قال تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَدْفَعُ العَذابَ عنهم] والنصير بمَعْنى النَّاصِر، والنَّاصِرُ هو المانِعُ من الشَّرِّ، المُعينُ على الخَيْرِ، فكُلُّ من مَنَعَ الشَّرَّ عنك فهو ناصِرٌ لك، وكُلُّ من أعانك على الخَيْر فهو ناصِرٌ لك.

ويدل لهذا قَوْلُ رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أو مَظْلُومًا» قالوا: يا رسولَ الله، هذا المظلومُ -يعني: نَصْرُ المَظْلومِ بِدَفْعِ الشَّرِّ عنه- فكيف نَصْرُ الظَّالِمِ؟ قال: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ»[1].

ومَنْعُ الظَّالِمِ من الظُّلْم ليس خَيْرًا إليه، لكِن هو مَنْعُهُ من الشَّرِّ، فالنَّصْرُ إذن: إمَّا أن يكون بِجَلْبِ خَيْرٍ، وإمَّا أن يكون بِدَفْعِ شَرٍّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، رقم (٢٤٤٤)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «تأخذ فوق يديه».

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ شِـدَّةِ عذابِ أَهْلِ النَّارِ؛ وَجْهُ ذلك قَوْله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إقرارُهُم واعترافُهُم بأنَّه لا يَمْلِكُ دَفْعَ الضُّرِّ عنهم إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لتَوْجيهِهِم النِّداء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والاسْتِغاثَة به في قَوْله تعالى: ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إقرارهم بأنَّ أَعْمالَهُم في الدُّنْيا غَيْـرُ صَالِحة؛ لِقَوْلِهِم: ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وهم كمـا يُقِرُّونَ بأنَّ أَعْمالَهُم في الدُّنْيا غَيْـرُ صَالِحة يُقِرُّونَ بأنَّهم غَيْرُ عُقَلاء أيضًا؛ لِقَوْلِهِم ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠] ولكن لا يَنْفَعُهم هـذا لأنَّه بَعْدَ فوات الأوان؛ وانْظُرْ إلى جوابِهِم ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم ...﴾ إلى آخِرِه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أقامَ على الكافرينَ الحُجَّةَ من وَجْهَيْنِ:

أولًا: أنَّه عَمَّرَهُم وقتًا يُمْكِنُهُم أن يتذَكَّروا فيه.

ثانيًا: أنَّه جاءتْهُم رُسُلٌ فلا عُذْرَ لهم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: توبيـخُ أَهْلِ النَّارِ بِمِثْل هذا الكَـلَامِ؛ لأنَّ هذا الكَـلَام قد يكون أَشَدَّ عليهم من العذابِ لِمَا فيه من التَّنْديمِ وتَجْديدِ الحُزْنِ عليهم والتَّمَني الذي لا ينفعهم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الرَّدُّ على الجَبْـرِيَّة الذين يَحْتَجُّـون بالقَـدَرِ على المعاصي؛ ويقولون ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]

وَجْهُ الرَّدِّ قَوْله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ولو كان القَدَرُ حُجَّةً لم يَكْفِ ما ذُكِرَ في الاحْتِجاج عليهم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ رَحْمَة الله عَزَّوَجَلَّ وإعذارُه لخَلْقِه؛ حيث أرسل إليهم الرُّسُلَ، فإنَّ إِرْسالَ الرُّسُلِ فيه رَحْمَةٌ، وفيه أيضًا إعذارٌ وإقامَةُ حُجَّةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إهانَةُ هؤلاء الذين في النَّارِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾ فإنَّ الأَمْرَ هنا للإهانة فيُهانُونَ، والعياذ بالله، بالعذابِ والتَّوْبيخِ وغيرها من أَنْواعِ الإهاناتِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تَيْئيسُ هؤلاء من الخلاصِ من النَّار؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: بَيانُ أنَّ الكُفْرَ ظُلْمٌ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الإظْهارُ في مَوْضِعِ الإِضْمارِ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ ولَمْ يقل: فما لكم من نَصيرٍ فذوقوا؛ ولو أنَّ السِّيَاقَ جرى على ما هو عليه لقال: فما لكم، لَكِنَّه قال: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: التَّفَنُّنُ في الأُسْلوبِ أو اخْتيارِ الوَصْفِ الذي يكون أَبْلَغَ في إقامَةِ الحُجَّة؛ لأنَّه عَدَلَ عن قَوْله (فما للكافرين) إلى ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ فإمَّا أن يكون هذا من باب التَّفَنُّنِ في التَّعبير حتى لا يلحَقَ المُخاطَبَ السآمَةُ بتكْرارِ الأَلْفاظِ عليه، وإمَّا أن يكون هذا من باب العُدُولِ عن الوَصْف إلى وصفٍ أَبيَنَ منه في إقامَةِ الحُجَّة؛ والثاني أَقْوَمُ في المَعْنى؛ لأنَّه هنا ما قال: (فما للكافرين) لم يُبَيِّنْ أنَّهم ظَلَمَة بِكُفْرِهم، لكن لما قال: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ صار فيه إِشَارَةٌ إلى أنَّهم بِكُفْرِهم صاروا

ظَلَمَة غَيْر مظلومينَ ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: يُمْكِن أن نقول فيه دليلٌ على أنَّ الكُفَّارَ لا تَنْفَع فيهم الشَّفاعَةُ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ وهذا عامٌّ؛ يعني لا أَحَد يدافِعُ عنهم، ولا يَشْفَعُ لهم.

الآيــة (٣٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [فاطر:٣٨].

صِلَةُ هذه الآية بما قبلها: أنَّه لَمَّا ذَكَرَ أَحْوالَ الطَّائِعينَ ومَثُوبَتَهم وأحوالَ العاصينَ وعُقُوبَتَهم بيّن أنَّ هذا صادِرٌ عن علمٍ تامٍّ؛ فإنَّ الله تعالى عالِمُ غَيْبِ السَّمَواتِ والأَرْضِ، وعالِمُ ما في الصُّدور.

وَقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي ما غاب في السَّمَواتِ والأَرْضِ غيبًا مُطْلَقًا عن كلِّ أَحَدٍ.

وَقَوْلنا: (غيبًا مُطْلَقًا) احترازٌ من الغَيْبِ النِّسْبِيِّ؛ فإنَّ الغَيْبَ النِّسْبِيَّ لا يختصُّ عِلْمُه بالله عَزَّوَجَلَّ، بل يَعْلَمُه الله، ومَنْ عَلِمَهُ مِن عِبادِ الله.

مثال الغَيْبِ النِّسْبِيِّ: أن يكون الشَّيءُ الظَّاهِرُ بالنِّسْبَة لقَوْمٍ خَفِيًّا بالنِّسْبَة لآخَرينَ، فنحن هنا نعْلَمُ ما بين أيدينا، لكن لا نَعْلَمُ ما كان في السُّوق أو في البيوت، وهذا نُسَمِّيه غَيْبًا نَسْبِيًّا؛ لأنَّ الذين في البُيُوت أو في السوق يَعْلَمونَه.

فالغيب المُطْلَق هذا لله عَزَّوَجَلَّ وَحْدَه، يَعْلَم ما غاب عن الخَلْقِ مُطْلَقًا، حتى الأُمُورُ المُسْتَقْبَلَة يَعْلَمُها عَزَّوَجَلَّ، يَعْلَمُها متى تكون وأين تكون وكيف تكون.

وَقَوْله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إنَّه عليمٌ بذاتِ الصُّدُور؛ أي:

بصاحِبَةِ الصُّدورِ، وهي القُلُوب، والقلوب هي مَحَلُّ العَقْلِ والتَّفْكير والإرادَةِ، فهو عليمٌ بها عَزَّوَجَلَّ، وإخبارُ الله تعالى بأنَّه عالِمُ غَيْب السَّمَوات والأَرْض يُقْصَد منه التَّحْذيرُ من المُخالَفَةِ، والتَّرغيبُ في المُوافَقَةِ.

فأنت إذا وافَقْتَ الله عَزَّوَجَلَّ فلن يَضيعَ عمَلُك؛ لأنَّه معلومٌ لله، وإن خالَفْتَ فلن يَضيعَ؛ لأنَّه معلومٌ لله؛ لَكِنَّه بشارةٌ بالنِّسْبَة للطَّائعينَ، وإنذارٌ بالنِّسْبَة للمُخالِفينَ العاصينَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إِثْباتُ عُمُومِ عِلْمِ الله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثْباتُ علم الله بما في قلوب بني آدم وغيرِ بني آدم؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التَّحْذير من أن يُضْمِرَ الإِنْسَان في قَلْبِه ما لا يرضاه الله ثم تُحَدِّثُه نفسه بأنَّ هذا لا يَطَّلِعُ عليه إلا اللهُ، فيَغْتَرُّ بإمهالِ الله له؛ وَجْهُ ذلك: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: العَكْس: وهو أنَّ الإِنْسَانَ إذا أَضْمَرَ في قلبه خَيْرًا فإنَّ الله يَعْلَمُه وسوف يُثيبُه عليه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الإِشَارَة إلى أنَّ المدار على ما في القَلْبِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وذات الصُّدورِ هي القُلُوبُ؛ لأنَّها السَّاكِنَة فيها؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

الآيـة (٣٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر:٣٩].

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جَمْعُ خليفَةٍ؛ أي يَخْلُفُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا].

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ﴾ الضَّميرُ يعود على الله في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وَقَوْله تعالى: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ صيَّرَكُم خلائِفَ، وخلائِفُ جَمْعُ خليفة، والخليفةُ بمَعْنى الخالِفِ الذي يَخْلُفُ من سَبقَه، وهذه الخلافَةُ تَشْمَلُ خلافَةَ القُرونِ بَعْضِها بعضًا كالشَّبابِ مثلًا يَخْلُفُ الشُّيوخَ والكِبارَ، والأَحْياء يَخْلُفونَ الأَمْواتَ.

وتَشْمَلُ الخِلافَة خِلافَة السُّلْطَة بأن يَذْهَبَ سُلْطانُ شَخْصٍ إلى سُلْطانِ شَخْصٍ آخر، فيَنْتَقِلُ المُلْك من شخص إلى شخص بالقُوَّةِ مع بقاء الأول؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦].

فالخلافة إذن: خلافَةُ القُرونِ بَعْضِها بعضًا، وخلافَةُ الملوكِ بَعْضِهم بعضًا الذين يَخْلُفُ بَعْضُهُم بَعْضًا في السُّلْطَة والإِمْرَة على الخَلْقِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ من كفر فعليه كُفْرُه ولا يَضُرُّ غَيْرَه شيئًا ولا يَضُرُّ اللهَ شيئًا أيضًا، وهذا كقَوْله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦] فكُفْرُ الإِنْسَان على نَفْسِه وليس يَضُرُّ غَيْرَه شيئًا.

أما قَوْله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥] فإنَّ هذا من باب تَعْميمِ العُقُوبَةِ التي لا يَخلو مِنها تَقْصِير بَعْضِ أَهْل الإِحْسانِ، أمَّا لو قاموا بما يَجِبُ عليهم فإنَّ العُقُوبَةَ لا تَعُمُّهُم؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر:٦١].

ولأنَّ الواقِع شاهِدٌ بذلك؛ فنوحٌ وهودٌ وغيرُهُما من الرُّسُل أنجاهُمُ الله مع أنَّه أخذ أَقْوامَهُم بالعُقُوبَة.

يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: وبالُ كُفْرِه ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾؛ كُفْرُ الكافرين عند الله لا يزيدهم إلا مَقْتًا، لا يزيدهم عند الله مُحاباةً لهم أو رَحْمَةً بهم؛ لأنَّ الحُجَّة قامت عليهم، فكُلَّما ازدادوا كُفْرًا ازدادوا مَقْتًا.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ﴿مَقْتًا﴾: [غَضَبًا] والمَعْروف أنَّ المَقْتَ أَشَدُّ البُغْضِ؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢-٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر:١٠].

وهذا يدلُّ على أنَّ المَقْتَ هو البُغْض، لَكِنَّهم قالوا: إنَّه أَشَدُّ البُغْضِ فتَفْسيرُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ له بالغَضَبِ فيه نَظَرٌ.

قال: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ فبيَّنَ هنا أنَّ الكفر سببٌ لِشَيْئَيْنِ:

الشَّيْء الأول: نزولُ مَرْتَبَةِ الكافِرِ؛ فإنَّ كُفْرَه لا يزيده عند الله إلا بُغْضًا.

والثاني: العُقوبَةُ التي تحصل له، وذلك بالخسارة؛ إذ يَخْسَرُ نَفْسَه وأَهْله ودنياه وآخرته؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥] هو خَسِرَ نَفْسَه؛ لأنَّه لو آمن لَرَبِحَ ونال ثوابَ الآخِرَة بالجَنَّة، وهذا ربح؛ أمَّا الآن فقد أَهْلَكَ نَفْسَه ففاتت عليه، فخَسِرَ أَهْله؛ لأنَّه لو آمن واتَّبَعَه أَهْله بالإيمان صاروا في الجَنَّة في مَنْزِلَةٍ واحِدَة، وخَسِرَ دنياه لأنَّه لم يَسْتَفِدْ من وجوده في الدُّنْيا شيئًا، بل استفاد الخَسارَةَ والعَمَل السَّيِّئَ، وخسر الآخِرَة أيضًا؛ لأنَّه فاته النَّعِيمُ المُقيمُ في الآخِرَة وصار من أصحاب الجحيم.

فلا أَحَدَ أَعْظَم خَسارَةً من الكافِرِ، والعياذُ بالله، حتى وإن كان في الدُّنْيا مُنَعَّمًا نِعْمَةَ جَسَدٍ فهو في الحَقيقة مُعَذَّبٌ عَذابَ قَلْبٍ؛ لأنَّه ليس عند الكافِرِ انْشراحُ صَدْرٍ كما عند المُسْلِمِ، يقول الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر:٢٢] يعني: فمن لم يكن كذلك فهو على ظُلْمَة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تمامُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ وسُلْطانِه؛ حيث إنَّه هو الذي يُدَبِّر خَلْقَه بِجَعْلِهم خلائِفَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بِشارَةُ المُؤْمِنينَ وإِنْذارُ الكافرينَ؛ لأنَّ من جُمْلَةِ الخِلافَةِ أن يَخْلُفَ المُؤْمِنين الكافرينَ في أَرْضِهِم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب:٢٦-٢٧].

وكذا قَوْله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]، وقال لهم: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٢٩].

ففي هذا بِشارَةٌ للمُؤْمِن فلا يَيْأَس من أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَجْعَلُ له الخلافة في الأَرْضِ، وإنذارٌ للكافِرِ بأن تُجْتَاحَ أَرْضُهُ على أيدي المُؤْمِنين.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ في توارُثِ الأُمَمِ بَعْضِها بعضًا، فإنَّه لولا ذلك لضاقَتِ الأَرْضُ بأَهْلها، فلو كان كلُّ من أوجده الله بَقِيَ، فكم يكون عدد العالم؟

لا يُحْصَوْنَ، وحينئذٍ تضيق بهم الأَرْضُ ويَشُقُّ عليهم تَحْصيلُ الأَرْزاقِ وإن كان الله عَزَّوَجَلَّ قد يَجْعَلُ لهم من الرِّزْقِ ما لا يَخْطُرُ بالبالِ، لكن لا شَكَّ من أنَّ النَّاس يَخْلُفُ بَعْضُهُم بعضًا، هذا يموت وهذا يحيا، هي الحِكْمَة والرَّحْمَةُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيانُ شُؤْمِ الكُفْرِ وعاقِبَتِه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ كُفْرَ الكافر على نفسه لا على غَيْرِهِ، وهو كقَوْله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر:١٨] وأوردنا على هذه الجُمْلَة إِشْكالًا وأَجَبْنا عنه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إِثْباتُ صِفَةِ البُغْضِ لله عَزَّوَجَلَّ، بل إثباتُ صِفَةِ المَقْتِ الذي هو أَشَدُّ البُغْضِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِلَّا مَقْتًا﴾ والمَقْتُ من صفات الله الفِعْلِيَّة؛ لأنَّ كل صفةٍ تُقْرَنُ بِسَبَبٍ، فهي من الصِّفات الفِعْلِيَّة لأنَّها حينئذٍ تتعَلَّقُ بِمَشيئَة الله؛ إذ إنَّ السَّبَب واقِعٌ بِمَشيئَتِهِ، والسَّبَبُ هو الذي عُلِّقَتْ به الصِّفَة فتكون الصِّفَةُ إِذَن واقِعةً بِمَشيئَتِهِ.

والقاعِدَةُ عند أَهْلِ السُّنَّةِ أنَّ الصِّفاتِ التي تكون بِمَشيئَةِ الله تُسَمَّى صفةً فِعْلِيَّةً.

وذَكَرْنا أنَّ الصِّفاتِ ذاتِيَّةٌ وفِعْلِيَّةٌ وخَبَرِيَّة:

فالذَّاتِيَّةُ هي الصِّفاتُ التي لا يَنْفَكُّ اللهُ عنها لم يَزَلْ ولا يَزَالُ مُتَّصِفًا بها، مثل: الحياة والعِلْم والقُدْرَة والسَّمْع والبَصَر والعِزَّة والحِكْمَة، وغير ذلك كثير.

والصِّفاتُ الفِعْلِيَّة هي التي تتعَلَّقُ بِمَشيئَته إن شاء فَعَلَهَا وإن شاء لم يَفْعَلْها سواءٌ كانت صِفَةً ظاهِرة أم غَيْرَ ظاهِرَةٍ؛ مثل: المحَبَّة والكَراهَة والرِّضا والبُغْض والضَّحِك والاسْتِواء والنُّزُول، وغير ذلك.

والصِّفاتُ الخَبَرِيَّةُ هي التي نظير مُسَمَّاها أبعاضٌ لنا؛ مثل: الوَجْه واليَدَينِ والعَيْن والسَّاق والأُصْبَع وما أشبهها، وهنا لا نقول إنَّها أجزاءٌ بالنِّسْبَة لله، وهي لنا أَجْزاءٌ، ولكن نتحاشى أن نقولَ إنَّها أجزاءٌ، بل نقول: نظيرُ مُسَمَّاها أجزاءٌ لنا.

ولا يُمْكِن أن نَجْعَلَ هذه صفاتٍ مَعْنَوِيَّةً؛ إذ لو قلنا بأنَّها صِفاتٍ مَعْنَوِيَّة لساوينا أَهْلَ التَّعْطيلِ؛ لأنَّهم يجعلون هذه الصِّفاتِ صِفاتٍ مَعْنَوِيَّةً.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه كلَّما ازداد الإِنْسَان كُفْرًا ازداد عند الله مَقْتًا؛ وجه ذلك القاعِدَةُ التي ذكرناها -ونُكَرِّرُها دائمًا- وهي: أنَّ الحُكْمَ المُعَلَّق على وَصْفٍ يزدادُ بزيادَتِهِ ويَنْقُصُ بِنُقْصانِهِ، وهنا الحُكْمُ مُعَلَّقٌ على الكُفْرِ، فإذن يزداد مَقْتُ الله عَزَّوَجَلَّ على الكافِرِ بزيادَةِ كُفْرِهِ، ويَنْقُصُ بِنُقْصانِ كُفْرِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الكافر أيضًا خاسِرٌ؛ خاسرٌ في الدُّنْيا والآخِرَة، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ ولم يُقَيِّد، ولم يَقُلْ في الدُّنْيا ولا في الآخِرَة

ولا عند الله بل أَطْلَقَ، فأَخْسَرُ النَّاس هم الكُفَّارُ؛ خسروا -كما قلنا في التَّفْسير- أَنْفُسَهم وأَهْليهم ودنياهم وآخِرَتَهم، وشخصٌ خَسِرَ كُلَّ هذه الجهات ليس له رِبْحٌ، فأَعْظَمُ النَّاس خُسْرانًا هم الكافرون.

فإذا قال قائل: هل نَسْتَعْمِلُ هنا قياسَ العَكْس؛ فنقول: إذا كان الكافِرُ أَخْسَرَ النَّاسِ، فأَرْبَحُ النَّاسِ المُؤْمِنُ؟

فالجوابُ: نعم؛ نَسْتَعْمِل هنا قياس العَكْس؛ لأنَّ قياس العَكْس جاءَتْ به السُّنَّة؛ قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ» قالوا: يا رسول الله، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ، قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الحَرَامِ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟» قالوا: نَعَمْ، قال: «كَذلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»(١).

فكلُّ عَمَلٍ حَلَالٍ تَسْتَغْنِي به عن حرامٍ يكون لك فيه أَجْرٌ.

إذن: المُؤْمِنُ رابِحٌ في مُقابِلِ أنَّ الكافِرَ خاسِرٌ.

وإن شِئْتَ تَلَوْنَا آيَةً صريحةً في هذا؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر:١-٣] يعني فليسوا في خُسْرٍ بل في رِبْحٍ ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:٣]، وتجارة المُؤْمِنين تجارةٌ رابِحَةٌ ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر:٢٩] لن تَهْلِكَ ولن تَخْسَر شيئًا.

وقال النَّبِيُّ ﷺ لأَبي طَلْحَة لَمَّا قال: يا رسول الله، إنَّ الله أنزل قَوْله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢] وإنَّ أَحَبَّ مالي إِلَيَّ بَيْرُحاءُ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٦)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإنِّي أَضَعُها -يعني عند الرَّسُول ﷺ- صَدَقَةً إلى اللهِ ورَسُولِهِ، فقال الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «بخٍ بخٍ، ذاكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ»[1].

• • ❁ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم (١٤٦١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين، رقم (٩٩٨)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٤٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر:٤٠].

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تَعْبدونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غَيْره، وهم الأَصْنَامُ الذين زَعَمْتُم أَنَّهُم شُرَكاءُ لله].

قَوْله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ يعني أَخْبـروني و﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾ مَفْعولٌ أَوَّلُ، يعني (أَرَأَيْتَ) تَنْصِـبُ ثلاثَةَ مفاعيلَ، مفعولٌ أَوَّلُ صـريحٌ مَنْطوقٌ به والمَفْعولُ الثَّاني والثَّالِثُ مُعَلَّقٌ بهَمْزَة الاسْتِفْهام، فهنا ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لكـنْ هنا قال: ﴿أَرُونِى﴾ من باب التَّحَـدِّي؛ أَخْبِـروني عن شُرَكائِكُم، وَقَوْله تعالى: ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾ يعني الذين جَعَلْتُموهُم شُرَكاءَ، فالإضافَةُ هنا باعتبارِ جَعْلِهِم؛ أي: جَعْلِ العابدين لها شريكةً مع الله.

وَقَوْله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَعْبدونَ] فحَوَّلَ الدُّعَاءَ إلى مَعْنى العِبَادَة، ولا شَكَّ أنَّ الدُّعَاءَ يأتي بمَعْنى العِبَادَة؛ كقَوْله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر:٦٠] ولم يَقُلْ عن دعائي، فهذا دليلٌ على أنَّ الدُّعَاء بمَعْنى العِبَادَة.

ولكن لو قال قائِلٌ: إنَّ قَوْله تعالى: ﴿تَدْعُونَ﴾ شامِلٌ لدُعَاءِ المَسْأَلَةِ، وهو طلب الحاجَةِ ودُعَاء العِبَادَة؛ لكان أولى لأنَّ هذه الأَصْنَامَ التي يَدْعونَها، فأحيانًا يجمعون بين الأَمْرَيْنِ فيركعون لها ويسجدون ويذبحون وينذرون وأحيانًا يدعونها دُعَاءً، وأحيانًا يجمعون بين بين الأَمْرَيْنِ؛ فالأَوْلَى أن نَجْعَلَ الآيَة شامِلَةً لدُعَاء المَسْأَلَة ودُعَاءِ العِبَادَة، والله أعلم.

وَقَوْله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ والخطابُ بِقُلْ هنا خطابٌ لِمُفْرَد، وإذا جاء مِثْلُ هذا في القُرْآن فإمَّا أن يكون مِمَّا يَخْتَصُّ به الرَّسُولُ ﷺ، فالأَمْر فيه واضِحٌ؛ كقَوْله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشَّرح:١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ [المائدة:٦٧]، وما أشبهها فهذا خاصٌّ بالرَّسُول.

وإذا جاء مفردًا وليس خاصًّا بالرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -يعني لم يَقُمْ دليل على اختصاصه به- فهل نقولُ إنَّ الخطاب مُوَجَّهٌ لِكُلِّ من يتأَتَّى خطابُهُ، أو إنَّه مُوَجَّهٌ إلى الرَّسُول وأُمَّتُه تَبَعٌ له، وإنَّما وُجِّهَ إليه وَحْدَه باعتبارِهِ الإمامَ المَتْبوعَ؟

الجواب: في هذا خلاف بين أَهْلِ العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ، والخلاف هنا قريبٌ مِنَ اللَّفْظِيِّ لأنَّ الكُلَّ مُتَّفِقونَ على أنَّ الحكم يَشْمَلُ الأُمَّةَ؛ إذ لا دليلَ على اختصاص الرَّسُول ﷺ به، بخلافِ قَوْله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ فهذا خاصٌّ بالرَّسُول؛ لأنَّه ليس كُلُّ أَحَدٍ قد شرَحَ الله له صَدْرَه.

فهنا قَوْله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ الخطابُ هنا لِمُفْرَد، فهل هو للرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أو لِكُلِّ من يتأَتَّى خطابُه؟

قيل: إنَّه لِكُلِّ من يتأَتَّى خطابُه، وقيل: للرَّسولِ باعتباره الإمامَ، وغيرُه مِثْلُه،

حتى في زَمَنِنا هذا نقول للمُشْرِكينَ: أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُم الذين تدعون من دون الله أَروني ماذا خَلَقوا مِنَ الأَرْضِ.

وسَبَقَ أنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّرَ الدُّعَاء هنا بالعِبَادَة، وقلنا إنَّه تَفْسيرٌ ناقِصٌ؛ لأنَّ الدُّعَاء يكون للعِبَادَةِ ويكون للمَسْأَلَة، والمُشْرِكون أشركوا بِشُرَكائِهم بالنَّوْعَيْنِ جميعًا؛ فقد يَدْعونَ هؤلاء الشركاء وقد يَعْبُدونَهُم.

وسبق أنَّهم يقولون إنَّ الأَصْنَام شُرَكاء لله عَزَّوَجَلَّ؛ حتَّى إنَّ المُشْرِكين يقولون في تَلْبِيَتِهِمْ: لَبَّيْكَ لَا شَريكَ لَكَ إلا شريكًا هو لَكَ، تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَرُونِى﴾ أَخْبِروني ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾] قَوْله تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ من حيث الإِعْرابُ يجوز فيها وجهانِ:

الوَجْهُ الأول: أن نُعْرِبَ (ماذا) جميعًا على أنَّها اسْمُ اسْتِفْهامٍ مَفْعولٌ مُقَـدَّمٌ لـ(خلقوا).

والثاني: أن نُعْرِبَ (ما) وَحْدَها على أنَّها اسْمُ اسْتِفْهامٍ، و(ذا) بمَعْنى الذي، وعلى هذا فيكون في ﴿خَلَقُواْ﴾ ضميرٌ مَحْذُوف هو العائِدُ لاسْم الموصولِ، والتَّقْدير: ماذا خَلَقوه من الأَرْضِ.

والمَعْنى لا يَخْتَلِفُ، فهؤلاء يُتَحَدَّوْنَ ويقال أَرونا ماذا خلقوا من الأَرْضِ؟ هل خَلقوا الجبالَ؟ هل خلقوا الأشجارَ؟ هل خلقوا الرِّمالَ والأَنْهار والبحار؟

الجواب: ما خلقوا شيئًا من هذا.

وننتقل إلى أعلى، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهنا ما قال: أم خَلَقُوا شيئًا من السَّمَواتِ، بل قال: أم لَهُم شِرْكٌ؛ لأنَّ السَّمَواتِ لَيْسَتْ في مُتَناوَلِ أَيديهِم،

لكن يُحْتَمَل أن يكون لَهُم فيها مُشارَكَةٌ، فالذي لهم مُتناوَلٌ فيه قيل: ماذا خلقوا؛ لجواز أن يقول قائِلٌ: لهم شِرْكٌ في الأَرْض، فهذا مثلًا له فسحة يأتي النَّاسُ إليه وهي حريمُ قَبْرِه مثلًا؛ فنقول هل خَلَقُوا هذا؟ فإذا ادَّعَيْتُم أنَّ هذه الأَرْض مَثَلًا له وأنَّها أُوقِفَتْ على هذا القَبْرِ لِزائريهِ أو ما أشبه ذلك، فهل خلقوها؟!

لكن في السَّمَواتِ ما قال: ماذا خلقوا في السَّمَواتِ، بل قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ لا على سبيل الخَلْقِ ولا على سبيل التَّمَلُّك، أم لهم شركٌ؛ شَرِكَةٌ مع الله في خَلْقِ السَّمَوات.

وَقَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في خَلْقِ السَّمَوات] فيه نَظَرٌ، بل الصَّواب أن نقول: في السَّمَواتِ سواءٌ كان ذلك عن طريق التَّمَلُّك أو عن طريق الخَلْقِ.

والجواب: لا، لا هذا ولا هذا.

وَقَوْله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾؟

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بأنَّ لَهُم معي شَرِكَةً]، يعني: أو عندهم، إذا قُلْتُم لم يَخْلُقوا شيئًا من الأَرْض وليس لهم شَرِكَةٌ في السَّمَوات، فنقول: وهل عندهم كِتَابٌ وَهُمْ على بَيِّنَةٍ؛ حُجَّة بأنَّهم شُركاءُ مع الله؟

والجواب: لا؛ فكُلُّ هذه التَّقْسيماتِ كُلِّها مُنْتَفِيَة بالنِّسْبَةِ للأَصْنَامِ، فلم يَخْلُقوا شيئًا من الأَرْض، وليس لهم شَرِكَةٌ في السَّمَوات، وليس معهم بَيِّنَة من الله؛ كِتَابٌ بأنَّهم شُرَكاءُ مع الله، وإذا انْتَفَتْ هذه الأُمُورُ الثَّلاثَة، لا خَلْق ولا مُشارَكَة ولا وثيقَة؛ تَبَيَّنُ بُطْلانُها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَلْ إِن﴾ (ما)] يعني أنَّ (إن) نافية هنا بمَعْنى (ما).

[﴿يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الكافرونَ ﴿بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ باطِلًا لِقَوْلِهِم: الأَصْنَامُ تَشْفَعُ لَهُم] يعني: أنَّ ما يَعِد الظالمون بعضُهم بَعْضًا فهو غرور، أي تغريرٌ وخِداعٌ، وليس له حَقيقَةٌ، والوَعْدُ الذي يَعِدُ به الظالمون بَعْضُهم بعضًا أنَّهم يقولون هذه الأَصْنَامُ تَشْفَعُ لكم عند الله؛ فاعبدوا مُحَمَّدًا ﷺ! اعْبُدوا جِبْريلَ! اعبدوا الشَّجَر! اعبدوا اللَّاتَ! اعبدوا العُزَّى! فإنَّها تَشْفَعُ لكم؛ قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨] فكيف يعبدونهم ثم يقولون شُفَعاء؟

الجواب: الشَّافِعُ دَرَجَتُه دون دَرَجَة المَشْفوعِ إليه، إذ لو كان مُساوِيًا -أو أعلى- ما احتاج أن يَشْفَع؛ فإن كان أعلى أمَر أمْرًا، وإن كان مساويًا غَالَبَه فأيُّهُما غَلَبَ تكون السُّلْطة له.

وعلى كُلِّ حالٍ نقول: إنَّ الظالمين يَغُرُّ بَعْضُهم بعضًا بالباطِل حتى يَخْدعوا ويظنوا أنَّ الباطِلَ حَقٌّ وأنَّ الحَقَّ باطِل.

والتغرير: تارةً يكون بالأَقْوالِ الكاذِبَة المُلَفَّقَة التي ليس لها أَصْلٌ، وتارةً يكون بالألقاب السَّيِّئَة التي تُشوِّه السُّمْعَة، فأما الأَقْوالُ الكاذِبَة فمثل قَوْلهم -فيما حكى الله عنهم-: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:٢٨] قَوْلهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا﴾ بها هذا كذبٌ وزورٌ؛ ولهذا قال الله تعالى مُبْطلًا لهذه الدَّعوى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا من جُمْلَةِ التَّغْريرِ: أن يدَّعُوا قَوْلًا كَذِبًا وزُورًا.

أو بالأَلْقابِ السَّيِّئَة، قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٤-٥] فأَتَوْا بالأَلْقابِ

السَّيِّئَة: ساحِرٌ وكَذَّاب.

فالعامَّة إذا قيل لهم -ولا سيما إذا كان القائل زُعَماء-: هذا ساحِرٌ أو كذَّاب؛ لا يتَّبِعونه، وإذا قيل لهم -أي للعامَّة- إنكم إذا عَبَدْتُم الوَلِيَّ الفُلانِيَّ أو القبر الفلاني فإنَّ ذلك يَنْفَعُكم فإنَّ العامَّة تَنْخَدِعُ؛ لأنَّه ليس عندها علمٌ، وليس عندها عَقْل ولُبٌّ، فتَنْخَدِع.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: قُوَّةُ القُرْآنِ في أُسْلوبِ المُناظَرَة، وذلك بالتَّرديدِ والتَّقْسيمِ، وَجْهُه أنَّ الله تَحَدَّاهم بثلاثةِ أُمُور: هل خلقوا شيئًا من الأَرْض؟ هل شاركوا الله في السَّماء؟ هل عندهم كِتَابٌ من الله أنَّ هذه الأَصْنَام تَنْفَعُهم وإن لم تكن شريكةً لله في السَّمَواتِ ولم تخلق شيئًا من الأَرْضِ؟

والجواب: لا، ولو خلقت شيئًا من الأَرْض لكان لها الحَقُّ لأنَّها تَخْلُق، ولو شارَكَتِ الله في مُلْكِه في السَّماء لكان لها الحَقُّ لأنَّها شريكَةٌ لله عَزَّوَجَلَّ في مُلْكِه، ولو كان الله أنزل كِتَابًا يقول بأنَّ هذه الأَصْنَامَ لها الحَقُّ أن تُعْبَد وتُدْعَى من دون الله لكان لهم شُبْهَة أو حُجَّة، فلمَّا انْتَفَتِ الأُمُورُ الثَّلاثَةُ تَبَيَّنَ أنَّه لا حُجَّة لهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه يَنْبَغي في المُناظَرَة أن تَذْكُرَ جميعَ الأقسام التي يُمْكِنُ أن تَرِدَ في الذِّهْن ثم تُبْطِلَ؛ احترازًا مِمَّا لو ذَكَرْتَ شيئًا واحدًا ثم بَيَّنْتَ بُطْلانه فقد يُورَدُ عليك شَيْءٌ آخَرُ؛ لأنَّه كما أنَّ القَوْل الحَقَّ لا يَنْحَصِرُ إثباتُهُ بدليلٍ واحد، فكذلك الباطِلُ لا يَنْحَصِرُ إيراد الشُّبَه فيه في شُبْهَة واحِدَة، فإذا أَرَدْتَ أن تُفْحِمَ خَصْمَك لا تأتِ بِشُبْهَةٍ واحِدَة، ائتِ بجميع ما يُمْكِن ويُحْتَمَلُ أن يكون شُبْهَةً لِتُبْطِلَه حتى يكون عندك القُوَّةُ الكامِلَةُ التي لا يُمْكِن أن يُورِدَ عليك أَحَدٌ منها خللًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه لا أَحد يَخْلُقُ مع الله ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾؛ فإن قلت: يَرِدُ عليك أنَّ الله أَثْبَتَ أنَّ هناك خالقينَ في قَوْلِه تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤] وفي قَوْلِ الرَّسُول ﷺ: «**يُقَالُ لَهُمْ -أيِ الْمُصَوِّرِينَ- أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ**»(١)؟

فالجواب: أنَّهم لم يَخْلُقُوا هذا، ولكن حَوَّلُوهُ مِنْ صُورَةٍ إلى صُورَةٍ، فهنا ليس منهم إيجادٌ، بل تَحْويلٌ من صورةٍ إلى صورَةٍ، فالمُصَوِّر مثلًا الذي أخذ الطِّينَ وجعل منه صورةً على صُورَةِ إِنْسَانٍ أو صورَةِ طَيْرٍ أو صورَةِ دابَّةٍ؛ ما خلق هذا الشَّيْءَ لكن حَوَّلَه من كَوْنِه كُتْلَةً من الطِّينِ إلى كَوْنِه صورةً وليس خَلْقًا جديدًا.

وكذلك النَّجَّار مثلًا إذا أتى على الخَشَبِ ونَجَرَه على صورة مُعَيَّنة لا نقول إنَّه خَلَقَه لأنَّه لم يُوجِدْه، لَكِنَّه حوَّلَه من صورَةٍ إلى أخرى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بُطْلان أُلُوهِيَّةِ هذه الأَصْنَامِ ومن باب أولى رُبُوبِيَّتِها؛ وَجْهُ هذا: أنَّ الله تَحَدَّى أن تكون هذه الأَصْنَامُ صَالِحَةً للمُشارَكَة في كلِّ وَجْه من الوجوه: الخَلْق والمُشارَكَة والوَثيقَة؛ كلُّ هذه مُنْتَفِيَة إذن؛ فيَبْطُلُ جَعْلُها إلهًا مع الله.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الظَّالمينَ -ويَشْمَلُ الكافرينَ ومَنْ دونَهم- لا يَعِدُ بَعْضُهم بعضًا إلا غرورًا وخِداعًا، فيَشْمَل ذلك الكافرين الذين يُزَيِّنون الكُفْر، ويَشْمَل ذلك أَهْلَ الخَلاعَةِ الذين يُزَيِّنونَ الخلاعة، ويَشْمَل أَهْلَ اللَّهْو الذين يُزَيِّنون اللَّهْوَ؛ فكُلُّ باطِلٍ يُزَيِّنُه أصحابُهُ نقول فيه: لا يَعِدُ الظَّالِمون بَعْضُهُم بَعْضًا إلا غُرورًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الحذَرُ من أن يتمَنَّى الإِنْسَانُ على الله الأمانِيَّ، بل الذي يَنْبَغي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء، رقم (٢١٠٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١٠٧/ ٩٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

-أي يَجِبُ- أن يكون الإِنْسَانُ فَطِنًا كَيِّسًا حازِمًا؛ كما يُرْوَى عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الكَيِّسُ من دانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، والعاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَواهَا وتَمَنَّى على اللهِ الأَمَانِيَّ»[1] فالوعود التي يُوعَدُ بها الإِنْسَانُ من قِبَلِ الظَّالمينَ أو من قِبَل نَفْسِه إذا كانت مُخالِفَة للشَّرْع؛ فما هي إلا غرورٌ وباطِلٌ، فَلْيَحْذَرِ الإِنْسَانُ منه.

• • ۞ • •

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٤)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٥٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت، رقم (٤٢٦٠)، من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٤١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر:٤١].

ثم قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُبَيِّنًا تمامَ قُدْرَتِهِ ومِنَّتِهِ على عبادِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: يَمْنَعُهُمَا من الزَّوَالِ].

قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الإمساكُ بمَعْنى القَبْضِ على الشَّيْء والتَّمَكُّن منه، وفَسَّره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمَنْعِ وهو لازِمٌ للإِمْساكِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿أَن تَزُولَا﴾ أنْ هذه مَصْدَرِيَّة حُذِفَ منها حرف الجَرِّ؛ لأنَّه يَطَّرِدُ حَذْفُ حَرْفِ الجَرِّ مع (أنَّ) و(أنْ) إذا أُمِنَ اللَّبْسُ، وهنا اللَّبْس مأمون، وإذا كان الكَلَام على تَقْديرِ (مِن) فَحَوِّلْ (أنْ) وما دَخَلَتْ عليها إلى مَصْدَرٍ يَكُنْ سَبْكَ الكَلَام: إنَّ الله يُمْسِكُ السَّمَواتِ والأَرْضَ مِنَ الزَّوَالِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ تَرِدُ هذه العِبارَة كثيرًا في القُرْآن، وهي جَمْعُ السَّمَواتِ وإفْرَادُ الأَرْضِ، ولم تَأْتِ الأَرْضُ مَجْموعَةً في القُرْآنِ بِلَفْظِها، ولكن جاءت بِلَفْظٍ يدلُّ على التَّعَدُّدِ، وهو قَوْله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] فإنَّ المِثْلِيَّة هنا تتعَيَّن أن تكون في العَدَدِ؛ لأنَّه لا يُمْكِن أن تكون الأَرْضُ

مِثْلَ السَّمَواتِ في الحَجْمِ ولا مِثْلَها في الصِّفَة، وإذا امتنع أن تكون مُماثِلَة للسَّماء في الحجم وفي الصِّفَة تعيَّنَ أن تكون مُماثِلَة للسَّماء في العدد.

والسُّنَّة جاءتْ باللَّفْظِ الصَّريحِ مِنْ أنَّ الأَرَضينَ سَبْعٌ؛ كما في قَوْلِه ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١).

وَقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لام قسم] اللَّامُ لامُ القَسَمِ و(إن) شَرْطِيَّةٌ و﴿زَالَتَآ﴾ الفِعْلُ هنا فِعْلُ الشَّرْطِ، و﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ الجُمْلَةُ جوابُ الشَّرْطِ و﴿إِنْ﴾ هنا يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ما] أي تكونُ نافِيَةً ﴿أَمْسَكَهُمَا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يُمْسِكهُما] إِشَارَةً إلى أن ﴿أَمْسَكَهُمَا﴾ فعل ماضٍ لَكِنَّه بمَعْنى المضارِعِ؛ لأنَّه وقع جوابًا للشَّرْطِ، ومعلومٌ أنَّ جواب الشَّرْط يكونُ للمُسْتَقْبَلِ ولا يكون للماضي؛ لأنَّه لا يكون إلا بعد تحَقُّقِ الشَّرْطِ، وتحَقُّقُ الشَّرْطِ أمرٌ مُسْتَقْبَل.

وَقَوْله تعالى: ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾: (من) هذه زائِدَةٌ زائِدَة؛ زائِدَةٌ في الإِعْرابِ ولَكِنَّها تزيدُ في المَعْنى.

و(زائِدَةٌ) اسْمُ فاعِلٍ من زاد يزيدُ، ونحن نعرف أنَّ زاد يأتي مُتَعَدِّيًا ويأتي لازمًا، فإذا قلت: زاد الشَّيْءُ؛ يعني: ارْتَفَعَ وكَثُرَ، وما أشبه ذلك، فهي لازمة، وإذا قلت زِدْتُه خَيْرًا صارت مُتَعَدِّيَة؛ لهذا نقول: هي زائِدَةٌ زائِدَة؛ ولهذا يقول بعضُ النَّاسِ -إذا رأى هذا الكَلَام-: هذا تناقُضٌ كيف يكون الشَّيْءُ (زائدًا زائدًا)؟!

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، رقم (٣١٩٨)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ونقول: (مِنْ) زائِدَة إِعْرابًا زائِدَةٌ مَعْنى؛ فتزيد في المَعْنى وهو تأكيدُ النَّفْي.

وَقَوْله تعالى: ﴿أَحَدٍ﴾ فاعِلُ أَمْسَكَ مَرْفوعٌ بضَمَّة مُقَدَّرَةٍ على آخره منع من ظهورِهَا اشْتِغالُ المَحَلِّ بحَرَكَةِ حَرْفِ الجَرِّ الزَّائِدِ.

والمَعْنى: لَئِنْ قُدِّرَ أن تزولَ السَّمَواتُ والأَرْضُ فإنَّه لا أَحَد يَسْتَطِيعُ أن يُمْسِكَهُما سوى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهو كذلك؛ وهذا هو الواقِع، بل لو زال ما دون السَّمَواتِ والأَرْضِ من النجومِ والكواكبِ والشَّمْسِ والقَمَرِ ما استطاع أَحَدٌ أن يُمْسِكَه سوى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، بل لا يَسْتَطِيع أَحَدٌ أن يَصْرِفَ شيئًا من هذه الكواكِبِ أو النُّجُومِ أو الشَّمْسِ أو القَمَرِ؛ أن يصرفه عن جِهَةِ سَيْرِه إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ولا أن يَمْنَعَه مِن سَيْرِه إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

قال في الإِعْراب هنا: قلنا إن اللام في (لَئِنْ) لامُ القَسَمِ و(إن) شَرْطِيَّة و(إن أَمْسَكَهُما) جوابُ القسم؛ لأنَّ لدينا قاعِدَةً: إذا اجتمع الشَّرْطُ والقَسَمُ حُذِفَ جوابُ المُتَأَخِّرِ منهما، قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُقَرِّرًا هذه القاعِدَة:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ[1]

إذن: فالمُؤَخَّر هنا الشَّرْطُ، فيكون جوابه هو المَحْذُوفَ؛ دَلَّ عليه جوابُ القَسَمِ.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي في تأخير عقابِ الكُفَّار].

قَوْله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ هذه الجُمْلَة مناسَبَتُها لما قبلها أنَّها تعليلٌ لما قبلها، فارتباطُها به ارتباطُ العِلَّة بالمَعْلولِ؛ يعني أنَّه في إمساكِهِ للسَّموات والأَرْض كان

(١) الألفية (ص٥٩).

حليمًا غفورًا، ولولا حِلْمُه ومَغْفِرَتُه لزالت السَّمواتُ والأَرْضُ وهَلَكَ من فيهما.

و(الحليمُ) اسمٌ من أَسْماء الله، ومعناه ذو الحِلْم، والحِلمُ هو تأخير العقوبة عن مُسْتَحِقِّها، تأخيرُ عُقُوبةٍ وليس تركَ عقوبةٍ؛ لأنَّ تَركَ العُقُوبَة عَفْوٌ، ولكنَّ تأخيرَ العُقُوبَة عن المُسيءِ يُسَمَّى هذا حِلْمًا؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَهُوَ الحَلِيمُ فَلَا يُعَاجِلُ عَبْدَهُ ... بِعُقُوبَةٍ لِيَتُوبَ مِنْ عِصْيانِ[1]

فبِحِلْمِه عَزَّوَجَلَّ تتأَخَّرُ العقوبات؛ لعلَّ النَّاس يتوبون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَقَوْله تعالى: ﴿غَفُورًا﴾ هذا، يَغْفِرُ الذَّنْبَ ويمحو أَثَرَهُ بالكُلِّيَّة، وسبق لنا: أنَّ المَغْفِرَة هي سِتْرُ الذَّنْب والتَّجاوُزُ عنه؛ وذلك لأنَّها مَأْخوذَةٌ من المِغْفَر الذي يُغَطِّي الرأس ويَقيهِ السِّهامَ، وليست -كما قيل- مُجَرَّدَ السِّتْرِ؛ لأنَّ مُجَرَّدَ السِّتْرِ لا تَحْصُلُ به الوِقايَة، بل لا بُدَّ مع السِّتْر من الوِقايَةِ.

ويدل لهذا المَعْنى قَوْلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِعَبْدِه إذا خلا به وقَرَّرَهُ بِذُنوبِهِ يقول: «كُنْتُ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»[2]؛ فإنَّ هذا يدلُّ على أنَّ السِّتْرَ غَيْرُ المَغْفِرَة، وأنَّ المَغْفِرَة لا بُدَّ فيها مِنْ عَدَمِ المُؤاخِذَةِ وعَدَمِ العُقُوبَةِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ على إِمْساكِ السَّمَواتِ والأَرْضِ فهذه الأَجْرامُ العَظيمَة أَمْسَكَها الله تعالى بقُدْرَته بدون معاناةٍ وبدون تَعَبٍ وإنَّما يقولُ

---

(١) النونية (ص٢٠٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

للشَّيْء: (كن) فيكونُ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، قال الله تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلَت:١١].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ رَحْمَة الله عَزَّوَجَلَّ بعباده؛ حيث سخَّر لَهُم السَّمَوات والأَرْض -بل سَخَّرَ لهم ما في السَّمَواتِ والأَرْضِ أيضًا- وهذا من كمال رَحْمَتِه، فلولا رَحْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ بعباده لوَقَعَتِ السَّمَواتُ على الأَرْض وهَلَكَ النَّاسُ وما تَرَكَ عليها من دابَّةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ السَّمَواتِ والأَرْض مَخْلوقتانِ من جُمْلَة المَخْلوقاتِ، مُسَخَّرتانِ بأَمْرِ الله؛ ففيه ردٌّ على الفلاسِفَة الذين يقولون بقِدَمِ العالَمِ وقِدَمِ الأَفْلاكِ وأنَّ الفَلَكَ التَّاسِعَ -كما يزعمون- هو المُدَبِّرُ لما تحته!!

بل نقول: هذه الأَفْلاكُ كُلُّها مَخْلوقَةٌ لله مُسَخَّرَةٌ بِأَمْرِه، ولو شاء الله عَزَّوَجَلَّ أن تَزولَ لَزالَتْ ولم يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أن يُمْسِكَها؛ وجه الفائِدَة: أنَّها مَخْلوقَةٌ من مَخْلوقات الله فليست قديمَةً، فإنَّ إِمْساكَهَا دَليلٌ على أنَّها قائمةٌ بِأَمْرِهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّه لا أَحَد يَسْتَطِيعُ أن يُدَبِّرَ هذه المَخْلوقاتِ العَظيمَةَ الكبيرةَ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِۦٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: توجيه الخَلْقِ أنَّهم إذا رأوا في هذه الآياتِ؛ السَّمَواتِ والأَرْضِ، إذا رَأَوْا ما يُزْعِجُهم ويُقْلِقُهم ألَّا يَرْجِعوا إلى أَحَدٍ إلا إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

فالزَّلازِلُ والبَراكينُ والكسوفُ والصَّواعِقُ وغَيْرُها مِمَّا يُخَوِّفُ العالَمَ لا نرجع فيه إلا إلى الله؛ لأنَّه هو الذي يُمْسِكُ السَّمَواتِ والأَرْضَ أن تزولا، ولا أَحَد يُمْسِكُهُما إذا زالتا إلا اللهُ.

ولكن كيف نلجأ إلى الله في هذه الأُمُور؛ هل نلجأ إليه بالصِّفَة التي أَرْشَدَنا إليها النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في صلاة الكسوف؟ أو نلجأ إلى الله تعالى بالصِّفَة التي أَرْشَدَنا إليها النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في صلاة الكُسُوفِ فقط وما عداه فإننا نلجأ إلى الله تعالى بالدُّعَاء المُطْلَق؟

هذا مَحَلُّ خلافٍ بين العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ؛ فمنهم من قال إنَّه إذا وُجِدَتْ آياتٌ أُفُقِيَّة تُخيفُ العبادَ فإنَّه يُشْرَعُ للعباد أن يُصَلُّوا صلاة الكُسُوفِ حتى يَذْهَبَ ما بهم.

فالذين قالوا بالأَوَّلِ؛ أنَّه يُصَلَّى لِكُلِّ آيَةٍ تُخَوِّفُ العبادَ، اسْتَدَلُّوا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إنَّ الشَّمْسَ والقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا -يَعْنِي كَاسِفَتَيْنِ- فَصَلُّوا وادْعُوا...»[1] إلخ.

قالوا: وتخويفُ العبادِ بالصَّواعِقِ والزَّلازِلِ أَشَدُّ وَقْعًا في نُفُوسِهِم من الكُسُوفِ، فإذا شُرِعَتِ الصَّلاةُ للكُسُوفِ فَمَشْروعِيَّتُها لهذه الآياتِ من بابِ أولى.

وهذا اختيارُ شَيْخِ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ[2] رَحِمَهُ اللَّهُ، واسْتَدَلَّ بِفِعْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين صلَّى صلاةَ الكُسوفِ في زَلْزَلَةٍ[3].

ولكنْ في المذهب[4] يقولونَ: إنَّه لا تُصَلَّى صلاةُ الكُسوفِ إلا لِكُسوفٍ أو للزلزلة؛ احتجاجًا بِفِعْلِ ابْنِ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف، رقم (١٠٤٤)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، رقم (٩٠١/ ٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) الاختيارات العلمية (٥/ ٣٥٨).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٣/ ١٠١)، وابن أبي شيبة (٥/ ٤٣٢)، والبيهقي (٣/ ٣٤٣).

(٤) انظر: الهداية (ص١١٥)، والإنصاف (٢/ ٤٤٩).

ولكنَّ الصَّوابَ ما اختاره شيخُ الإِسْلام ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإنَّ هذا الذي ذهب إليه يدلُّ عليه التَّعْليلُ في الحديث: «آيتانِ مِنْ آياتِ الله يُخَوِّفُ الله بهما عِبادَهُ».

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إِثْباتُ العِلَّة والسَّبَبِ في أفعال الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

وإثبات العِلَلِ في أفعال الله أو في أَحْكَامه يدُلُّ على كماله لا على نَقْصِه خلافًا للنَّاقِصِينَ الذين زَعَمُوا أنَّ إِثْباتَ الحِكْمَةِ فِي أَفْعالِ الله تعالى وأَحْكَامه تدلُّ على النقص؛ ولهذا نَفَوُا الحِكْمَةَ عن أفعال الله وأَحْكَامِهِ؛ يقولون: لأنَّ ذلك يَقْتَضي النَّقْص وأنَّه فَعَلَ لِغَرَضٍ أو حَكَمَ لِغَرَضٍ، والفاعِلُ لِغَرَضٍ ناقصٌ بدونه، وعلى هذا فيكون نَفْيُ الحِكْمَة عن أفعال الله وأَحْكَامه مِن تَنْزِيهِ الله تعالى عَنِ النَّقْصِ!

وفي الحقيقة: أنَّ أيَّ إِنْسَانٍ يَعْتَقِدُ أن إثباتَ الحِكْمَةِ في أفعال الله تعالى وأَحْكَامِهِ نَقْصٌ فهو النَّاقِصُ، حتى إنَّ الإِنْسَان بمُجَرَّدِ ما يتأمَّل في المَسْأَلَة يَعْرِف أنَّ مَنْ فَعَلَ لِغَيْرِ حِكْمَة فقد أتى سَفَهًا، ومن فَعَلَ لِحِكْمَةٍ فقد أتى رُشْدًا؛ لأنَّ الرَّشيدَ هو الذي يَفْعَلُ الشَّيْء لِحِكْمَةٍ وحُسْنِ تَصَرُّف والسَّفيهُ بالعَكْس؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء:٥].

وعلى هذا ففي الآيَة هذه وغيرها من النُّصوص الكثيرة في الكِتَاب والسُّنَّة والعَقْل الصَّريحِ ما يدلُّ على إثباتِ الحِكْمَة لله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ الحِكْمَةَ من أَجَلِّ صفاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبيانُها في أَحْكَامِ الله وأفعاله من أَعْظَمِ الأُمُور وأَظْهَرِها.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إِثْباتُ الحِكْمَة لأنَّه عَلَّلَ إمساكَ السَّمَواتِ والأَرْضِ بكَوْنِ ذلك مُقْتَضَى حِلْمِهِ وَمَغْفِرَتِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إِثْباتُ هذين الاسْمَيْنِ لله وهما (الحليم) و(الغَفور) وإثباتُ ما تَضَمَّن ما تضمَّناه من الصِّفَة؛ لأنَّ كل اسمٍ من أَسْماء الله فهو مُتَضَمِّنٌ لصِفَةٍ؛ ليس في أَسْماءِ الله اسمٌ جامِدٌ أبدًا حتى اسْم الجلالة (الله) ليس بجامِدٍ بل هو مُشْتَقٌّ من الأُلُوهِيَّة، وكذلك بَقِيَّةُ الأَسْماءِ كُلِّها ليست جامدة بل هي مشتقةٌ من مَعانٍ تَدُلُّ عليها، والمعاني التي تدلُّ عليها أَسْماءُ الله قد تكون مُتَعَدِّدَةً في اسْمٍ واحد، كما تقدَّمَ في الدَّلالَة أنَّها تكون دَلالَةَ مُطابَقَةٍ ودَلَالَةَ تَضَمُّنٍ ودَلَالَةَ الْتِزَامٍ.

• • ❁ • •

الآيــة (٤٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [فاطر:٤٢].

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ﴾ أقسموا؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي كُفَّار مَكَّة] وهذا يَحْتَمِلُ ما قاله رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أنَّ الضَّمير يعود على كُفَّار مَكَّة، ويُحْتَمَل أنَّه أَعَمُّ وأنَّ من النَّاس من أَقْسَموا وهم من غَيْرِ كُفَّار مَكَّة.

وَقَوْله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ ﴾ أي حَلَفُوا به، وَقَوْله تعالى: ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ أي غايَةَ الأَيْمانِ؛ يعني: الأَيْمان التي بذلوا فيها الجَهْد وهي أَيْمانٌ مُغَلَّظَة بصيغتها كمِّيَّةً وكَيْفِيَّةً، فالأَيْمانُ المُغَلَّظَة بصيغتها كمِّيَّة وكَيْفِيَّة هي الأَيمان التي بَلَغَتِ الجَهْدَ؛ أيك غايَةَ الطَّاقَةِ بالنِّسْبَة للمُقْسِم.

والأَيمانُ -كما قال العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ- تُغَلَّظُ بالكمِّيَّة والكَيْفِيَّة والزَّمان والمَكانِ والهَيْئَة؛ خَمْسَةُ أشياءَ:

١- بالكمِّيَّـة؛ مثل: أن يقـول: واللهِ واللهِ الذي لا إلهَ إلا هو العظيمُ العزيـزُ الغالِبُ، وما أشبه ذلك من الأَسْماءِ التي تدلُّ على الانتقام فيما لو كان الإِنْسَانُ كاذِبًا.

٢- بالكَيْفِيَّة؛ بأن يأتي بها يعني بانفعالٍ شديدٍ يدلُّ على تَأَثُّرِه بالقَسَمِ.

٣- وأمَّا في الزَّمان؛ فأن تكون بعد صلاة العَصْرِ؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ [المائدة:١٠٦] أي: من بعد صلاة العَصْرِ.

٤- وفي المكان؛ بحيث يكون الإقسامُ في مكانٍ فاضِلٍ، وأَفْضَلُ الأَماكِنِ في البلدان المساجِدُ، قالوا: وتكون عند المِحْرابِ أو المِنْبَر في الجوامِعِ وعند الكَعْبَة؛ بَعْضُهُم قال تَحْتَ الميزابِ وفي الرَّوْضَة في المدينةِ.

٥- وفي الهَيْئَةِ؛ بأن يكون قائِمًا لأنَّه يَحْلِفُ وهو قائم، قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: لأنَّ العُقُوبَةَ أَقْرَبُ إلى القائِمِ منها إلى القاعِدِ.

فهذه خَمْسَةُ أشياء في تغليظِ اليمينِ.

لكن هل هؤلاء الكُفَّارُ أَقْسَموا جَهْدَ أَيْمانِهِم على هذه بهذه التَّغْليظاتِ الخَمْسَة؟ الله أعلم.

وعلى كُلِّ حالٍ: هم بذلوا أَقْصى ما يَسْتَطِيعون من اليَمينِ: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾.

وَقَوْله تعالى: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ هذه الجُمْلَة نقول في إِعْرابها كما قلنا في الجُمْلَة الأولى ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ اجتمع فيها شَرْطٌ وقَسَم وحُذِفَ جواب الشَّرْط، ولهذا جاءتِ اللَّام في الجواب: ﴿لَّيَكُونُنَّ﴾ ولو كان المَحْذُوفُ جوابَ القَسَمِ لم تأتِ اللَّام في الجوابِ؛ لأنَّ جواب الشَّرْط لا يَحْتاجُ إلى اللَّام وإنَّما يُرْبَطُ بالفاء في مَحَلِّه وبِحَذْفِها ولا يحتاج إلى رابِطٍ إذا لم يكن من المواضِعِ السَّبْعَة المَعْروفَةِ.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ بمَعْنى مُنْذِرٍ، وهو الرَّسُولُ ﴿لَّيَكُونُنَّ

أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ قَوْله تعالى: ﴿لَيَكُونُنَّ﴾ بِضَمِّ النُّونِ وهو مُشْكِلٌ: كيف ضُمَّتِ النون، والمَعْروف أنَّ الفِعْلَ المُضارِعَ مع نون التَّوْكيد يُبْنَى على الفَتْحِ؛ كما في قَوْلِه تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة:٤] وهنا قال: ﴿لَيَكُونُنَّ﴾؟

والجوابُ على ذلك: أنَّ نون التَّوْكيد لا يُبْنَى معها الفِعْلُ إلا إذا كانت مباشِرَةً له لَفْظًا وتَقْديرًا، والنون هنا مباشِرَةٌ للفِعْلِ لَفْظًا لَكِنَّها غَيْرُ مباشرة له تَقْديرًا؛ لأنَّ الفِعْلَ هنا للجماعَةِ وليس للمُفْرَدِ، وأصله (يكونُونَنَّ) فحُذِفَتِ النُّونُ لتَوالِي الأَمْثالِ؛ لأنَّهم يقولون إنَّ العرب يَكْرَهونَ أن تَجْتَمِعَ ثلاثُ كَلِماتٍ من نوعٍ واحِدٍ بَعْضها إلى بَعْضٍ فيحذفون أَوْلَاهَا بالحَذْفِ، وأولاها بالحَذْف على حَسَب قياسِهم نونُ الرَّفْعِ؛ لأن حذفها معتادٌ، ولأن نون التَّوْكيد جاءت لَمَعْنًى لو حُذِفَتْ لاخْتَلَّ ذلك المَعْنى؛ لأنَّها جاءت للتَّوْكيدِ فلا نَحْذِفُها، لكن نحذف نون الرَّفْع؛ لأن حَذْفَها معتادٌ؛ فحذفنا نونَ الرَّفْعِ، وهي النونُ الأولى من الثَّلاثَة؛ بَقِيَتِ الواو تَلي النونَ، والنون حرفٌ مُشَدَّدٌ في هذا التَّركيبِ والحَرْفُ المُشَدَّد أَوَّلُه ساكِنٌ فحذفنا الواو لالتقاءِ السَّاكنَيْنِ فصارَتْ ﴿لَيَكُونُنَّ﴾ حَذَفْنا الواوَ التي بين نونِ الفِعْل؛ لأنَّ النون في (يَكُونُنَّ) نون الفِعْل؛ ولهذا ما حذفناها لأنَّها أَصيلَةٌ، وحذفنا الواو لالتقاء الساكنينِ.

فإن قال قائل: عندنا الآنَ ثلاثُ نوناتٍ، فلماذا لا تحذفوا واحِدَةً منها؟

فالجواب: أولًا: أنَّ هذه النونات ليست مُتَّصِلَةً تَقْديرًا، يعني ليس بعضها متصلًا ببعضها الآخر من حيثُ التَّقْديرُ؛ لأنَّ كان قد فصل بينهما الواوُ التي حذفناها لالتقاءِ السَّاكِنَيْنِ.

ثانيًا: أنَّ النون التي بعد الواو في ﴿لَيَكُونُنَّ﴾ النون الموجودة الآن نون الفِعْل فهي من بِنْيَةِ الكَلِمَة ولا يُمْكِن أن تُحْذَفَ.

على كُلِّ حالٍ: يَجِبُ أن نَعْرِفَ الفَرْقَ بين (لَيَكُونَنْ) وبين (لَيَكُونُنَّ)؛ ففي القُرْآن (لَيَكُونَنْ) كقَوْله تعالى: ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف:٣٢].

ففرق بين لَيَكُونَنْ وبَيْنَ لَيَكُونُنَّ:

فَقَوْله: (لَيَكُونَنْ) هذه للواحِدِ؛ ولهذا بُنِيَ الفِعْل معها على الفَتْحِ لاتصاله بنون التَّوْكيدِ لفظًا وتَقْديرًا، و(ليكونُنَّ) للجماعة؛ ولهذا لم يُبْنَ الفِعْل معها؛ لأن نون التَّوْكيدِ لم تُباشِرْه تَقْديرًا.

إذن: نون التَّوْكيد لا يُبْنى معها الفِعْل إلا إذا كانت مباشِرَةً له لفظًا وتَقْديرًا، وفي هذه الجُمْلَة: ﴿لَيَكُونُنَّ﴾ لم تباشِرْه تَقْديرًا، أمَّا لفظًا فقد باشَرَتْه، وإنَّما قلنا لم تُباشِرْه تَقْديرًا؛ لأنَّه حُذِفَ منها واوُ الجماعة، فلم تباشِرْه تَقْديرًا.

وَقَوْله تعالى: ﴿أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾: ﴿أَهْدَىٰ﴾ هذه خَبَر (يكون) فهي منصوبَةٌ به بالفَتْحَة المُقَدَّرَة على الألف منعَ من ظهورها التَّعَذُّر، وهو اسْم تَفْضيلٍ.

وَقَوْله تعالى: ﴿مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ؛ أَيْ: أَيِّ وَاحِدَة مِنْهَا؛ لِمَا رَأَوْا مِنْ تَكْذِيبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا؛ إِذْ قَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ].

وَقَوْله تعالى: ﴿أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ فأَتَوْا بـ﴿إِحْدَى﴾ الدَّالَّة على الإبهام، فلم يقولوا: أَهْدَى من النَّصارى ولا أَهْدى من اليهودِ، بل قالوا: أهدى من إِحْدى الأُمَم؛ لأنَّ الأَمْر الْتَبَسَ عليهم؛ حيث إنَّ اليهود يقولون لَيْسَتِ النَّصارى على شَيْء والنَّصارى يقولون لَيْسَتِ اليَهودُ على شَيْء، وهؤلاء المُشْرِكونُ -كُفَّار مَكَّة- أُمَّةٌ جاهِلِيَّة لا يَدْرونَ مَنِ الحَقُّ معه، فلم يقولوا: أهدى من النَّصارى ولا أهدى من

اليهود، بل قالوا: أهدى من إحداهُما؛ أهدى من أيِّ واحِدَةٍ؛ لأنَّ الأَمْرَ عندهم الْتَبَس.

ولكن يبقى النَّظَر: ما هو الدَّليلُ على تَخْصيصِ كَلِمَة ﴿ٱلْأُمَمِ﴾ بالأُمَّتَيْنِ اليَهودِيَّة والنَّصْرانِيَّة، ولماذا لا يقال إنَّها أَعَمُّ من اليهود والنصارى، فهناك مَجوسٌ يدينون بعِبَادَة النِّيرانِ، ويُمْكِن أن يُوجَدَ أناسٌ آخرون يدينون بديانةٍ أخرى؟

الجواب: إمَّا أن نَلْتَزِمَ بالعموم ونقول: إنَّهم يقولون أهدى من إحدى الأُمَمِ؛ من أيِّ أُمَّةٍ كانَتْ من اليهود أو النَّصارى أو المجوس أو الوَثَنِيِّينَ الذين يعتقدون أنَّهم على دينٍ أو ما أشبه ذلك، فكأنَّهم يقولون أهدى مِنْ كُلِّ الأُمَمِ، لكن لم يُعَيِّنوا لأنَّهم لم يَدْرُوا مَن هو الذي على حَقٍّ.

وإما أن يُقالَ خُصَّ هذا الجانِبُ بأُمَّتينِ فقط لأنَّ المَعْروفَ أنَّهم على دينٍ هُمُ اليهود والنَّصارى.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ هنا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ ولم يَقُل: فلما جاءهم الرَّسُولُ؛ ليطابِقَ ما قالوه حتى يكون أَبْلَغَ في إلزامِهِم بما قالوا؛ لأنَّهم قالوا: إن جاءهم نذيرٌ ليكُونُنَّ، فلما جاءهم نذيرٌ على حَسَبِ ما فرضوه وما قَدَّروه: جاء الأَمْرُ كذلك؛ فلما جاءهم نذيرٌ كما يقولون هم، والمُرَادُ به مُحَمَّد ﷺ بلا شَكٍّ، ولكن -كما أشرت- نُكِّرَ ولم يُعرَّفْ متابعةً لكَلَامِهِم؛ حيث قالوا لئن جاءنا نذيرٌ؛ يعني: فلمَّا جاءهم نذيرٌ، وكما طلبوا تمامًا وباللَّفْظِ: ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَلَمَّا﴾ هنا شَرْطِيَّةٌ، وفِعْلُ الشَّرْطِ ﴿جَآءَهُمْ﴾ وجوابه ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

و(لَمَّا) تأتي في اللُّغَة العَرَبِيَّة على أَوْجُه:

أَحَدها -كما هنا-: شَرْطِيَّة.

والثاني: أن تأتي جازِمَةً كـ(لَمْ) إلا أنَّه بينهما فروقًا ليس هذا مَوْضِعَ ذِكْرِها؛ لأنَّنا لا نَتَكَلَّمُ عن النَّحْو؛ كقَوْله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص:٨] أي: بل لم يذوقوا عذابي، ولَكِنَّهم حَرِيُّونَ بأن يَذوقوه.

والثالث: أن تكون بمَعْنى (إلَّا) كقَوْله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤] أي: إلا عليها حافظ.

والرابع: أن تكون بمَعْنَى (حين) مُجَرَّدَةً عن الشَّرْطِ؛ مثل أن تقول: زُرْتُكَ لَمَّا طَلَعَ الصُّبْحُ؛ أي: حين طَلَعَ الصُّبْحُ.

فهذه أربعة معانٍ لـ(لَمَّا).

وَقَوْله تعالى: ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾: ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مجيئُه] يعني أنَّهم جاءَهُم نذيرٌ كما فرضوا ولَكِنَّهم ما كانوا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يَزِدْهُم إلا نفورًا عن الحَقِّ وبُعْدًا عن اتِّباعِهِ؛ قال: [تَباعدًا عن الهُدى] والعياذُ بالله.

وهذا أمرٌ مُشاهَد؛ فإنَّ قريشًا لما بُعِثَ فيهم النَّبِيُّ ﷺ نَفروا منه وآذَوْه بالقَوْلِ وبالفِعْلِ، ووَصَموه بِكُلِّ عَيْبٍ، وكانوا قبل أن يُبْعَثَ يُجِلُّونه ويَحْتَرِمونَه ويُسَمُّونَه (الأَمينَ) فلما بُعِثَ لم يكن أمينًا وكأنَّه رَجُلٌ غَيْرُ الرَّجُلِ الذي كانوا يَعْرِفونه!! كُلُّ هذا يُكَذِّبُ قَوْلَهم: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر:٤٢].

الآيــة (٤٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عن الإيمانِ مفعولٌ له] يعني أنَّ كَلِمَة ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ مفعولٌ له؛ أي مَنْصوبَة على أنَّها مفعولٌ له؛ أي ما زادهم إلا نفورًا لأَجْلِ الاسْتِكْبارِ في الأَرْض، وهذا أَحَدُ الاحْتِمالَيْنِ في الآيَة الكريمَةِ.

والاحتمال الثاني: أن ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ بَدَلٌ من كَلِمَة ﴿نُفُورًا﴾ أي: ما زادهم إلا نُفورًا، وهذا النُّفور هو الاسْتِكْبار في الأَرْضِ، وهو احتمالٌ قويٌّ جدًّا: أن تكون اسْتِكْبارًا بدلًا أو عَطْفَ بيانٍ من كَلِمَة ﴿نُفُورًا﴾؛ إذن ما زادهم هذا الكَلَامُ، هذا المجيء، إلا البُعْدَ عن الحَقِّ والاسْتِكْبارَ في الأَرْض.

قَوْله تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ مَعْطوفٌ على ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾.

﴿وَمَكْرَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [العَمَلِ ﴿ٱلسَّيِّئِ﴾ من الشِّرْكِ وغَيْرِه] فقَدَّر العَمَل قَبْل السَّيِّئ ليكون السُّوءُ مَوْصوفًا به العَمَلُ، والعَمَلُ السَّيِّئُ يكون مكرًا، هذا ما ذهب إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فجعل المَكْرَ مضافًا إلى شَيْءٍ مَحْذُوفٍ وهو العَمَل، وجَعَلَ السَّيِّئَ صفةً لذلك الشَّيْءِ المَحْذُوفِ؛ أي: مَكْرَ العَمَلِ السَّيِّئِ، بمَعْنى: أنَّهم

ما زادهم إلا نُفُورًا واسْتِكْبارًا في الأَرْض وأن يَمْكُروا مَكْرَ العَمَلِ السَّيِّئِ.

والمَكْر هو الخديعة وهو التَّوَصُّل بالأَسْبَابِ الخَفِيَّة إلى الإيقاعِ بالخَصْم والعَدُوِّ، وأمَّا التَّوَصُّلُ بالأَسْبَابِ الظَّاهِرةِ فليس بِمَكْر.

فإن قلتَ: هذا المَعْنى لا يَنْطَبِقُ على عمل هؤلاء؛ لأنَّ هؤلاء يُظْهِرون عَمَلَهُمُ السَّيِّئَ؟

فالجواب: أنَّ هؤلاء تارةً يُظْهِرونَه، وتارةً يُخْفونه كما في اجتماعِهم بدار النَّدوة ماذا يصنعون بالرَّسُولِ ﷺ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠] وإنَّما ذُكِرَ المَكْر دون الشَّيْء المُعْلَن الظَّاهِرِ؛ لأنَّه أَعْظَمُ قُبْحًا من الشَّيْءِ المُعْلَن الظَّاهِرِ فصار هؤلاء جَمَعوا إلى الكَذِبِ المَكْرَ والخِداعَ، والعياذُ بالله.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهو الماكر...] إلخ؛ يعني أنَّ هؤلاء مَكَروا السُّوء وعَمِلُوا السُّوء بِصِفَةٍ عَلَنِيَّة وصِفَةٍ خَفِيَّة، وهل الماكر بِغَيْرِه يَنْجو؟

الجوابُ: إذا كان مكرًا سَيِّئًا فإنَّه لا ينجو، بل سَيحيقُ به مَكْرُهُ ويُهْلِكُه ويُدَمِّرُه؛ كما قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف:٢٦] أمَّا إذا كان المَكْرُ بحَقٍّ فإنَّه لا يَحيقُ بأَهْلِه، بل يَحيقُ بِعَدُوِّهِ؛ ذلك لأنَّ المَكْرَ بحَقٍّ مَمْدوحٌ وليس بِمَذْمومٍ.

وقال: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وهنا لم يَقُلْ إلا بالماكِرِ بل قال إلا بأَهْلِهِ؛ إِشَارَة إلى بيانِ الاسْتِحْقاق لهذه الجَريمَةِ التي وقعت منه وأنَّه أَهْلٌ لأن يَحيقَ به مَكْرُهُ، فكُلُّ ماكِرٍ بِغَيْرِ حَقٍّ أَهْلٌ لأن يَحيقَ به مَكْره.

قال: [وَوَصْفُ المَكْرِ بالسَّيِّئِ أَصْلٌ، وإضافَتُه إليه قَبْلُ اسْتِعْمالٌ آخَرُ قُدِّرَ فيه مُضَافٌ حَذَرًا من الإِضافَةِ إلى الصِّفَة] هذا كَلَام قليلُ الفائِدَة مُعقَّدُ المَعْنى في الواقِعِ.

فَقَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَصْلٌ] يعني جارٍ على الأَصْلِ؛ لأنَّ الأَصْلِ أنَّ الوَصْفَ يَنْفَصِلُ عن المَوْصوفِ ولا يُضافُ إليه المَوْصوفُ؛ فأنت تقول: مَرَرْتُ بزيدٍ الفاضِلِ، فتجعل الصِّفَةَ مُنْفَصِلَةً عن المَوْصوفِ تابعةً له، وليس مضافًا إليها.

قال تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ مَكْر السَّيِّئِ، فهنا لم يُوصَفِ المَكْر بالسَّيِّئِ ولكنْ أُضيفَ المَكْر إلى السَّيِّئِ، وَقَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إضافَتُه إليه قَبْلُ] مَعْنى (قَبْلُ) يعني: قبلَ هذه الجُمْلَةِ، ويعني بذلك قَوْله تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾.

وَقَوْله: [استعمالٌ آخَرُ] على خلافِ الأَصْلِ؛ لأنَّ الأَصْلَ أنَّ الصِّفَةَ تَقَعُ تبعًا للمَوْصوفِ لا أنَّ المَوْصوفَ يُضافُ إلى الصِّفَة.

لكن يَجوزُ أن يُضافَ المَوْصوفُ إلى الصِّفَة؛ ولهذا يَمُرُّ بكم دائمًا قَوْلُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: «هذا من بابِ إضافَةِ المَوْصوفِ إلى صِفَتِهِ» مثل قَوْلهم: هذا مَسْجِدُ الجامِعِ؛ أصله: (هذا المَسْجِدُ الجامِعُ) لكن أضيفَ إلى صِفَتِه وهو كثيرٌ، كما أنَّ -أيضًا- الصِّفَةُ تضافُ إلى المَوْصوفِ أحيانًا؛ مثل: طاهِر القَلْبِ؛ هذه صِفَةٌ مُضافَةٌ إلى مَوْصوفِها؛ كما قال ابْنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأَلْفِيَّة:

..... كَطَاهِرِ القَلْبِ جَميلِ الظَّاهِرْ[1]

فهذا من بابِ إضافَةِ الصِّفَةِ إلى المَوْصوفِ.

إذن: نأخُذُ من هنا أنَّه يجوز إضافَةُ الصِّفَةِ إلى المَوْصوفِ، وإضافَةُ المَوْصوفِ

(١) الألفية (ص٤٢).

إلى صِفَتِه؛ والأصل من ذلك أن تقع الصِّفَةُ تَبعًا للمَوْصوفِ على أنَّها نعتٌ له وتُعْرَبُ بإِعْرابه.

وفي الآيَة الكَريمَة: إضافَةُ المَوْصوفِ إلى الصِّفَة ووَصْفُ المَوْصوفِ بالصِّفَةِ في أَوَّلِها وآخِرِها؛ فإضافَةُ المَوْصوفِ إلى الصِّفَةِ قَوْله تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ ولو كان في غَيْرِ القُرْآن وأردنا أن نُحَوِّلَه إلى أن تكون الصِّفَةُ تبعًا للمَوْصوف لقلنا: استكبارًا في الأَرْض والمَكْرَ السَّيِّئِ؛ لكن هنا صار من بابِ الإِضافَةِ.

وفيها أيضًا وَصْفُ المَوْصوفِ بالصِّفَةِ قَوْله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ أَيُّهما الأَصْلُ هنا بين المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [وَوَصْفُ المَكْرِ بالسَّيِّئِ أَصْلٌ] لو قال بَدَلَ [أصل]: جارٍ على الأَصْلِ؛ لكان أَوْضَحَ وهذا هو مُرَادُه، قال: [وإِضافَتُه إليه قَبْلُ] يعني به إضافَةَ المَوْصوفِ إلى الصِّفَةِ في قَوْلِه: مَكْرَ السَّيِّئِ؛ يقول: [استعمالٌ آخَرُ] يعني جارٍ على اسْتِعْمالٍ آخَرَ في اللُّغَة العَرَبِيَّة؛ لأنَّ اللُّغَة العَرَبِيَّة أحيانًا تُضيفُ المَوْصوفَ إلى صِفَتِهِ؛ واضِحٌ؟

قال: [قُدِّرَ فيه مُضَافٌ] حَسَب شَرْحِهِ هو وتَفْسيرِهِ؛ حيث قال: [﴿وَمَكْرَ﴾ العَمَلِ ﴿ٱلسَّيِّئِ﴾ حَذَرًا من الإِضَافَةِ إلى الصِّفَة].

وهذا الذي قاله الأخير يُنازَعُ فيه، وذلك لأنَّه لا داعِيَ إلى ذلك، فلا حاجة إلى أن نُقَدِّرَ مَحْذُوفًا لِأَجْلِ أن نَمْنَعَ إضافَةَ المَوْصوفِ إلى الصِّفَة؛ لأن إضافَةَ المَوْصوفِ إلى الصِّفَةِ في اللُّغَة العَرَبِيَّة كثيرٌ شائِعٌ ليس هذا أمرًا محذورًا في اللُّغَة العَرَبِيَّة حتى نقولَ نَحْتاجُ إلى تَقْديرِ ما يُصَحِّحُه؛ ولهذا نقول: (مَكْرَ السَّيِّئِ) جارٍ على أَصْلِهِ؛ بمَعْنى أنَّه لا حاجَةَ إلى أن يُقَدَّرَ فيه شيءٌ مَحْذُوفٌ.

ثم قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَنْتَظِرونَ] هذا تَفْسيرٌ

لِيَنْظرونَ بمَعْنى يَنْتَظِرون، وهناك ضابطٌ -وليس قاعِدَةً-: أنَّ (يَنْظُر) إن تَعَدَّتْ بـ(إلى) فهي بمَعْنى النَّظَر بالعَيْنِ؛ كقَوْله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧] وإن تَعَدَّتْ بـ(في) فهي بمَعْنى النَّظَر الفِكْرِيِّ؛ كما في قَوْله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأعراف:١٨٥] وإن تَعَدَّتْ بِنَفْسِها فهي بمَعْنى الانْتِظارِ، مثلما هنا في قَوْله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ معناها: (هل يَنْتَظِرون) من الانتظارِ وهو التَّرَقُّب، فهل يَنْظرونَ؛ يَنْتَظِرون يعني يَتَرَقَّبون.

وَقَوْله تعالى: ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ سُنَّة بمَعْنى الطَّرِيقَةِ، والإضافَةُ هنا إلى ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من باب الاخْتِصاصِ؛ يعني إلا السُّنَّة التي جرت لِلأَوَّلينَ وليس المُرادُ السُّنَّةَ التي فعلها الأولون؛ لأنَّ الأولين مفعولٌ بهم وليسوا هم الفاعلينَ، وإنَّما الفاعِلُ من الله عَزَّوَجَلَّ.

وَقَوْله تعالى: ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سُنَّةَ اللهِ فِيهِمْ مِنْ تَعْذِيبِهِمْ بِتكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ] يعني ما يَنْتظِرُ هؤلاء الذين كذَّبوا الرَّسُول ﷺ إلا سُنَّةَ الأَوَّلينَ، وهي -أي سُنَّة الأولين- تَعذيبُهُم بِتكْذيبِ الرُّسُلِ.

قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ لَنْ تَجِدَ لسُنَّة الله تبديلًا بِرَفْعها أو تبديلًا بِتَحْويلِها إلى قومٍ آخرين؛ يعني أنَّ سُنَّة الله ستَقَعُ في أعيان الذين يَسْتَحِقُّونَها، فلن تُبدَّلَ فتُرْفَعَ ولن تُحَوَّل إلى قومٍ آخرين فيَسْلَمَ منها من اسْتَحَقُّوها، بل هي واقِعةٌ على من استحَقُّوها عَيْنًا.

مثال ذلك: المُشْرِكونُ -من قريش- كَذَّبوا الرَّسُولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ التَّحْويلُ معناه أن تُحَوَّلَ عُقوبَتُهُم إلى بني تَميمٍ مثلًا، هذا لا يُمْكِن؛ لأنَّ هذا ظُلْمٌ؛ أن يؤاخَذَ قومٌ بجريمَةِ آخرينَ، هذا مَعْنى قَوْله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

ومثال آخَرُ: كذَّبَتْ قريشٌ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فبدلًا من أن يعاقِبَهم الله نَعَّمَهُم، وهذا مَعْنى قَوْله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ فالعذابُ لن يُبَدَّلَ بِنَعيمٍ، ولن يُحَوَّلَ عن مُسْتَحِقِّه إلى قومٍ آخرينَ.

فسُنَّةُ الله عَزَّوَجَلَّ لا بُدَّ أن تقع فيمن يَسْتَحِقُّها بدون تبديلٍ لها بنِعْمَةٍ وبدون تحويلٍ لها إلى غَيْرِهِم؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ كامِلُ الحِكْمَة، كامِلُ العَدْل، فهو كامِلُ الحِكْمَة فلن يُبَدِّلَ النِّقْمَة بنِعْمَةٍ على من استحَقَّها، وكامِلُ العدل لا يُمْكِنُ أن يُحَوِّلَ الانْتِقامَ إلى قومٍ آخرينَ لا يَسْتَحِقُّونه.

فهذه الصِّفَةُ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ...﴾ إلخ، هي من بابِ الصِّفاتِ السَّلْبِيَّةِ لَكِنَّها تَتَضَمَّنُ كمالَ عَدْلِ الله وكَمالَ حِكْمَتِه، ويُمْكِنُ أن نقول: وتمام سُلْطانه أيضًا بحيث لا يُكْرِهُه أَحَدٌ إلى أن يُحَوِّلَ النِّقْمَة إلى آخرين أو أن يُبَدِّلَها بنِعْمَة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ لَا يُبَدَّلُ بِالْعَذَابِ غَيْرُهُ ولَا يُحَوَّلُ العَذَابُ إِلَى غَيْرِ مُسْتَحِقِّهِ].

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الإِنْسَان إذا كان في عافية أو إذا كان قبل أن يَنزِل به الأَمْرُ قد يجد من نَفْسِه القُوَّةَ على تنفيذه فإذا نزل به الأَمْرُ تَغَيَّرَتْ حالُه؛ وَجْهُ الدَّلالَة: أنَّ هؤلاء أَقْسَموا بالله لَئِنْ جاءَهُم نذيرٌ ليكونُنَّ أهدى من إِحْدى الأُمَمِ، فلما جاءهم النَّذيرُ تَغَيَّرَتْ حالُهم، وهذا يقع كثيرًا للبَشَرِ، فما دام الإِنْسَانُ لم يَنْزِلْ به الأَمْر يَظُنُّ أنَّه قادِرٌ عليه فإذا نزل به الأَمْرُ عَجَزَ عنه؛ ولهذا يَنْبَغي للإِنْسَان أَلَّا يتعَجَّلَ فيحْكُم على نَفْسِه بالحال التي كان فيها سالِمًا من نزولِ الأَمْر به، بل يَنْتَظِرُ حتى يَنْزِلَ به الأَمْر، فكثيرٌ من النَّاس مثلًا يقول أنا أستطيعُ الصَّبْرَ على الحَجِّ مثلًا وسأَحُجُّ، ولكن عندما

يحين الأَمْرُ يَجِدُ من نفسه العَجْزَ، أو يقول: أنا أستطيع أن أقومَ ثُلُثَ اللَّيْلِ الآخِرِ كُلَّه، ولكن إذا جَدَّ الجِدُّ وجد نَفْسَه عاجزًا.

فالمُهِمُّ: أنَّه يَنْبَغي للإِنْسَانِ ألَّا يكونَ مُتَسَرِّعًا فيقيس حالَه في حالِ الرَّخاء على حاله بحالِ نُزولِ الأَمْرِ به؛ لأنَّ الإِنْسَانَ بَشَرٌ تَخْتَلِفُ حالُه بين سلامَتِهِ من الأَمْرِ وبين وقوعِ الأَمْرِ فيه

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: دليلٌ على عُتُوِّ هؤلاء المُكَذِّبينَ لرسول الله ﷺ؛ حيث كانوا قبل أن يُبْعَثَ إليهم يُقْسِمونَ أَغْلَظَ الأَيْمانِ بأنَّهم سيكونونَ أهدى من غَيْرِهم، ولكن لَمَّا جاءهم الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما زادهم مَجيئُهُ إلا نُفورًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الإِشَارَةُ إلى أنَّه لا يَنْبَغي للإِنْسَانِ النَّذْرُ -أي أن يَنْذِرَ الطَّاعَة- لأنَّه قد لا يوفَّق في القيام بها، فهؤلاء أَقْسَموا ولما وُجِدَ مُوجِبُ الطَّاعَةِ لم يقوموا بالطَّاعَةِ.

وهذا نظيرُ قَوْله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ [النُّور:٥٣] فهم أَقْسَموا بالله أنْ لو أَمَرَهم الرَّسُولُ ﷺ لَخَرجوا فنهاهم الله بل أمَرَ نَبِيَّه أن يقول لهم لا تُقْسِموا.

ونظير ذلك قَوْلُه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ [التَّوْبَة:٧٥-٧٦].

ولهذا جاء النَّهْي من النَّبِيِّ ﷺ عن النَّذْر، وبيانُ أنَّه «**لا يأتي بِخَيْرٍ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب إلقاء النذر العبد إلى القدر، رقم (٦٦٠٨)، ومسلم: كتاب النذر، باب النهي عن النذر، رقم (١٦٣٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هـؤلاء رَدُّوا الحَـقَّ استكبـارًا في الأَرْض -أي يريـدون الاسْتِكْبارَ- وهذا على وَجْهِ إعْرابها بأنَّها مفعولٌ لأَجْلِه؛ أي إنَّه ما رَدُّوا الحَقَّ إلا أن يكون لهم الكبرياءُ والعُلُوُّ في الأَرْض.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تسميَةُ أَعْمالِ الكافرينَ مَكرًا؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ وقد ذكرنا في التَّفْسيـرِ: أنَّ أَعْمالَ الكافرينَ تَنْقَسِمُ إلى قِسَمَيْنِ: قِسْم يجاهرون فيه بِكُفْرِهِم ولا يأتون به على سبيلِ المَكْرِ، وقسمٌ آخر يأتونَ به على سبيلِ المَكْرِ، والثاني أَشَدُّ؛ ولهذا ما مكر قومٌ بأنبيائِهم إلا مَكَرَ الله بهم وآخِرُهُم مُحَمَّد ﷺ؛ حيث اجتمع القومُ في دار النَّدْوَةِ يَتَشاوَرونَ ماذا يفعلون به فمَكَرَ الله بهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[1].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ من أراد السُّوءَ حاقَ به السُّوء؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ ومن قواعد العامَّةِ يقولون: (مَنْ حَفَرَ لِأَخيهِ حُفْرَةً وقع فيها) فالإِنْسَانُ إذا أراد المَكْرَ، والعياذُ بالله، فإنَّ مَكْرَهُ يَحيقُ به.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الإِشَارَةُ إلى أنَّ المَكْرَ يكون سيِّئًا ويكون حسنًا؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وَقَوْله قَبْلُ ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ وهو كذلك، فإنَّ مَكْرَ الله تعالى بأعدائه الذين يَمْكُرون به مكرٌ حَسَنٌ يُثْنَى عليه به، ومَكْرُ أولئك سَيِّئٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الفاعِـل للسَّبَبِ مُنْتَظِـرٌ للمُسَبَّـب شاء أم أبى، فالإِنْسَانُ العاصي نقول له: أنت مُنْتَظِرٌ العُقوبَةَ الآن مُتَرَقِّبٌ لها حتى وإن كان لا يطرأ على باله أنَّه سيُعاقَبُ؛ لأنَّ فاعِلَ السَّبَبِ مُنْتَظِرٌ للمُسَبَّب ولا بُدَّ.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٠)، تفسير الطبري (١١/ ١٣٤).

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: ثُبُوتُ القياسِ -أو إن شِئْتَ فقل: استعمال القياسِ- لِقَوْله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فيقيس حالَ هؤلاء بحال الأَوَّلين الذين كَذَّبوا فعُوقِبوا.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: ومِنْ فوائِدِ الآيَةِ الكَريمَةِ أنَّ سُنَّةَ الله عَزَّوَجَلَّ في عِبادِهِ واحِدَةٌ فكل من أطاع اللهَ أثابَهُ وكُلُّ من عصى الله عاقَبَه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ ولا يقالُ مثلًا إننا أُمَّةٌ شَرَّفَنا الله عَزَّوَجَلَّ وعَظَّمَنا وكَرَّمنا فلا يؤاخِذُنا كما آخَذَ مَن قَبْلَنا، بل نقول: إنَّ مُقْتَضَى التَّشْريفِ أن نكون نحن أَشَدَّ عِبَادَةً له مِمَّن سبقنا؛ لأنَّ الإِنْسَانَ إذا كُرِّم يَنْبَغي أن يقومَ بمُقْتَضَى هذا التَّكْريمِ، وليس إساءَةُ من لم تُكْرِمْه إليك كإساءَةِ من أَكْرَمْتَه بلا شَكٍّ؛ ولهذا كُلُّ من كان مُغْتَبِطًا بنِعْمَة الله عَزَّوَجَلَّ وَجَبَ عليه مِنْ شُكْرِ نِعْمَةِ الله ما لا يَجِبُ على مَن سِواه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: كمال قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ وحِكْمَتِه؛ حيث إنَّ سُنَّتَه لا تُبَدَّلُ ولا تُغَيَّر؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ وَجْهُ كَوْنِها من كمال القُدْرَة: أنَّ العاجِزَ لا يَسْتَطِيعُ أن يجعل أفعالَهُ على وتيرةٍ واحِدَةٍ، بل قد تتخَلَّف وتتغَيَّر لِعَجْزِه عن الاطِّرَادِ، وأمَّا كَوْنُه من تمام الحِكْمَةِ فلأنَّ مُعاقَبَةَ السَّابِقينَ كان لِسَبَبٍ، وهذا السَّبَبُ إذا وُجِدَ في الآخِرينَ فإنَّه يَعْمَل عمله لأنَّ مُقْتَضَى الحِكْمَةِ أنَّ الأَسْبَابَ لا تتخلَّفُ عنها مُسَبَّباتُها؛ ففي قَوْلِه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ فيها إثباتُ تمام القُدْرَةِ وتَمامِ الحِكْمَة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الشَّيْءَ الذي يَسْتَمِرُّ ويؤخَذُ به يسمَّى سُنة، يقال: هذه سُنَّة فلانٍ؛ أي طريقَتُه؛ ولهذا يُفرَّقُ بين السُّنَة وبين العارِضِ؛ فالعارِضُ لا يُمْكِن

أن يُجْعَلَ طريقَةً مُتَّبَعَةً، والشَّيْءُ المطَّرِدُ يُسمَّى سُنة، ويَدُلُّ على هذا التَّفريقِ قَوْلُه ﷺ: «صَلُّوا قَبْلَ المَغْرِبِ، صَلُّوا قَبْلَ المَغْرِبِ، صَلُّوا قَبْلَ المَغْرِبِ» ثم قال في الثَّالِثَةِ: «لِمَنْ شاءَ»[1] كراهية أن يتَّخِذَها النَّاسُ سُنَّة؛ يعني سُنَّة مطَّرِدَة يَفْعلونَها دائمًا.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الصلاة قبل المغرب، رقم (١١٨٣)، من حديث عبد الله بن مغفل المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٤٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ الهَمْزَةُ هنا للاسْتِفْهامِ، والمُرادُ به التَّوْبيخُ والتَّقْريعُ، وهذه الهَمْزَةُ الاسْتِفْهامِيَّةُ هل هي داخِلَةٌ على الجُمْلَة الموجودةِ المَذْكورَةِ، أو على جُمْلَةٍ مَحْذُوفَةٍ يُعَيِّنُها السِّيَاقُ؟

في هذا قَوْلانِ لأَهْلِ العِلْمِ في النحـو؛ فمنهم من يقول: إنَّها داخِلَةٌ على هذه الجُمْلَة المَذْكورَة، وعلى هذا القَوْلِ يقولون: إنَّ التَّقْديرَ (وَأَلَمْ يَسيروا) فيجعلون الواوَ مُقدَّمَةً على الهَمْزَةِ؛ لأنَّه لا يُمْكِن أن تُجْعَلَ الهَمْزَة مُقَدَّمَةً على الواو، والواو حَرْف عَطْف تَقْتَضي معطوفًا عليه، فيقولون: إنَّ الهَمْزَة مُتَأَخِّرَةٌ والواو حَرْفُ عطف، وهذه الجُمْلَة مَعْطوفة على ما سبق.

وهذا الوَجْهُ لا شَكَّ أنَّه أَسْهَلُ وأَيْسَـرُ؛ إذ لا يَتكَلَّفُ الإِنْسَانُ فيه العَناءَ في ذلك الشَّيْءِ المَحْذُوفِ المقَدَّرِ.

وهو القَوْلُ الثاني: أنَّ الهَمْزَة داخِلَةٌ على مَحْذُوفٍ يُعَيِّنُه السِّيَاقُ، ففي مثل هذه الآيَة، نقول: تَقْديرُ الكَلَام: أَغَفَلُوا ولم يَسيـروا في الأَرْض أو كَلِمَةً نحـوها، وهذا

التَّقْديرُ قد يكون سهلًا في بَعْضِ المواضِعِ، بمَعْنى أن بعض المواضِعِ قد يكون المَعْنى فيها ظاهِرًا ويُمْكِنك بِكُلِّ سهولَةٍ أن تُقَدِّرَ ذلك المَحْذُوفَ، لكن أحيانًا يَصْعُبُ عليك أن تُقَدِّرَ ذلك المَحْذُوفَ لاحتمالِ السِّيَاقِ لأَوْجُهٍ مُتَعَدِّدَة؛ لهذا نقول: إنَّ القَوْلَ الآخَر أَقْرَبُ وأَسْهَلُ أن نَجْعَلَ الواوَ حَرْفَ عَطْفٍ والجُمْلَة هذه معطوفة على ما سبق، والأَصْلُ تَقديمُ ذلك الحرف العاطِفِ على الجُمْلَة، والتَّقْدير: وَأَلَمْ يسيروا.

وَقَوْله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ السَّيْرُ هنا هل هو سَيْرُ القُلوبِ أو سَيْرُ الأَقدامِ أو كِلاهُما؟

نقول: الأَوْلَى أن نقول إنَّه شامِلٌ فيكون سَيْرُ القلوب هو سَيْرُ الأَقْدام، أمَّا سَيْرُ القلوب فإنَّه بالنَّظَر في تاريخ الأُمَم السَّابِقَةِ وما جرى عليهم وما جرى لأَهْلِ الخَيْرِ العاملين بالقِسْط، فيسيرُ الإِنْسَانُ بِقَلْبِه في أرجاء العالَم وهو جالسٌ على كُرْسِيِّه لا يَتَحَرَّكُ.

وأمَّا السَّيْرُ بالأقدام فهو أن يتقَدَّمَ الإِنْسَانُ إلى هذه المواضِعِ ليَعْتَبِر، ومن ذلك قَوْلُ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «زُوروا القُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ»[1] فإنَّ زيارَةَ القُبورِ سيرٌ بالأقدام، يذهب الرَّجُلُ إلى المَقْبَرة ويَقِفُ ويشاهد هذه القُبُورَ ويَعْتَبِرُ بهؤلاء القومِ الذين كانوا أَشَدَّ منه قُوَّة وكانوا أَكْثَرَ منه مالًا، ومع ذلك آلُوا إلى ما آلُوا إليه حتى يَعْرِفَ أنَّه سوف يَؤُولُ إلى ما آل إليه هؤلاء، طالَتِ المُدَّة أم قَصُرَت.

إذن: السَّيْرُ في الأَرْض يكون بالقَلْبِ وبالقَدِمِ، وأيُّهما أَنْفَعُ للمَرْءِ: السَّيرُ بالقَلْبِ أم السَّيْرُ بالقَدَمِ؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عَزَّوَجَلَّ في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٧)، من حديث بريدة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجواب: السَّيْرُ بالقَلْبِ أَشْمَلُ وأَهْوَنُ؛ لأنَّه بإمكانِ الإِنْسَانِ أن يَطوفَ الدُّنْيا كُلَّها في ساعَةٍ واحِدَةٍ، وأسهل؛ والسَّيْرُ بالقَدَمِ أَشَدُّ تأثيرًا لأنَّه يشاهِد؛ فـ(ما راءٍ كَمِنْ سَمِعَ) ولهذا أمر النَّبِيُّ ﷺ إذا دخلنا على ديار المُعَذَّبينَ، أَمَرَنا أَلَّا نَدْخُلَ إلا ونَحْنُ باكون أن يُصيبَنا ما أصابَهُم[1] حتى نَعْتَبِرَ ونُصَحِّحَ المَسيرَ.

وَقَوْله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: ﴿فِي﴾ هنا قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنَّها بمَعْنى (على) ولا تصح أن تكون للظَّرْفِيَّةِ؛ لأنَّ الظَّرْفِيَّةَ تَقْتَضي أن يكون السَّائِرُ في جوف الظَّرْفِ، ومعلومٌ أنَّ السَّائِرَ في الأَرْضِ لا يَسيرُ في جَوْفِ الأَرْضِ، هل هو يفتح نَفَقًا ليسير فيه؟ لا، بل يسير على ظَهْرِها؛ قالوا فـ(في) بمَعْنى (على) ونظيرها قَوْله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١] أي على جُذوعِ النَّخْل.

وَقَوْله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: (أل) يُحْتَمَل أن يُرادَ به الجِنْسُ، ويُحْتَمَل أن يراد بها العَهْدُ، فعلى الأَوَّل يكون المُرادُ بالسَّيْر في جِنْسِ الأَرْض التي أصيبَتْ بِغَضَبٍ والتي لم تُصَبْ، وعلى الثاني يكون المُرادُ بالأَرْض التي أصيبت بالغَضَبِ، فتكون (أل) هنا للعَهْدِ الذِّكْري؛ لأنَّ العَهْدَ الذِّكْري لا بُدَّ أن يكون هناك مذكورٌ تعود عليه (أل) أمَّا إذا لم يكن هناك مذكورٌ فهو عَهْدٌ ذِهْنِيٌّ.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فينظروا الفاء هنا قيل إنَّها عاطِفَة، وقيل إنَّها سَبَبِيَّة؛ فعلى أنَّها عاطفة يكون الفِعْلُ بعدها مَجْزومًا، وعلى أنَّها سَبَبِيَّة يكونُ الفِعْل بعدها مَنْصوبًا؛ فعلى كَوْنِها سَبَبِيَّة يكون التَّقْديرُ: أَوَلَمْ يسيروا في الأَرْض

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحِجر، رقم (٤٤١٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فِبَسَبَبِ سَيْرِهِم يَنْظُروا، وعلى أنَّها عاطِفَةٌ يكون المَعْنى: أوَلَمْ يسيروا في الأَرْض ولَمْ يَنْظُروا كيف كان عاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهم؟

والنَّظَرُ هنا هل هو نَظَرُ القَلْبِ أو نَظَرُ العَيْنِ؟

الجوابُ: إذا قلنا إنَّ السَّيْرَ سَيْرَ القَدَمِ فالنَّظَرُ نَظَرُ العَيْنِ، وإذا قلنا إنَّ السَّيْرَ سَيْرُ القَلْبِ فالنَّظَرُ نَظَرُ القَلْبِ؛ إذن: تكون شاملةً للأَمْرَيْنِ حَسَبَما نُفَسِّرُ السَّيْرَ فيما سبق.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هذه الجُمْلَة الاسْتِفْهامِيَّة عَلَّقَتْ (ينظروا) عن العَمَلِ، يعني: فينظروا كيف كان عاقِبَتُهُم؛ يعني أيَّ عاقِبَةٍ كانت لَهُم: هل نُعِّموا وأُكْرِموا أو عُذِّبوا وأُهْلِكُوا فينظروا، فإذا نظر الإِنْسَان العاقِلُ فسوف يَعْتَبِرُ ويقيس الحاضِرَ على الغائِبِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾: (عاقِبَةُ) الشَّيْءِ مآلُهُ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ عاقِبَة الذين من قَبْلِهِمُ الهلاكُ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨] فانظروا إلى آثارِهِم كانت الدَّمار فإذا كانت الدَّمار وسَبَبُه التَّكْذيب والاسْتِكْبار فإنَّ السَّبَبَ الذي كان فيما سبق مُؤَدِّيًا إلى هذا الهلاكِ فإنَّه سيكون مؤدِّيًا إليه فيما لَحِقَ ولا فَرْقَ.

قال الله تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: (كانوا) الضَّميرُ يعود على السَّابِقِينَ ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يعني: أقوى منهم قُوَّةً، ومع ذلك لم تَنْفَعْهم قُوَّتُهم ولم تَمْنَعْهُم، وأَهْلكوا، وانظر إلى قَوْل عادٍ: مَنْ أَشَدُّ منا قُوَّة؛ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، وكانت عادٌ مِن أقوى الأُمَمِ أَجْسامًا وصَلابَةً وعَزْمًا، حتى إنَّهم تَحَدَّوْا وقالوا: من أَشَدُّ منا قُوَّة؛ فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأَهْلَكَهُم بأَلْطَفِ الأَشْياءِ؛ أَهْلَكَهُم بالرِّيحِ؛ قال فرعون: ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزُّخرُف:٥١] فافتَخَرَ بِجَرَيانِ الأَنْهارِ وهي المياه من تحته، فأُهْلِكَ بالغَرَقِ بالماء الذي كان يَفْتَخِرُ به.

فالإِنْسَانُ العاقل إذا رأى حالَ هذه الأمم وقُوَّتها وأنَّ هذا لم يَنْفَعْهُم ولم يَمْنَعْهم من عقابِ الله فلا بُدَّ أن يَعْتَبِرَ.

قال: ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ الواو هنا في قَوْله تعالى: ﴿وَكَانُوا﴾ يُحْتَمَلُ أن تكون عاطِفَة ويُحْتَمَل أن تكون للحالِ والتَّقْدير: وقد كانوا أَشَدَّ منهم قُوَّةً.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فأَهْلَكَهُم الله بِتَكْذيبِهِمْ رُسُلَهُم] ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ هنا إذا تأمَّلَ الإِنْسان الآيَةَ، يقول: إنَّ الله تعالى لم يذكر عاقبة هؤلاء المُكَذِّبينَ في الآيَة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فلماذا لم يَذْكُرْها؟

الجواب: اعتمادًا على هذا السَّائِرِ الذي يسير فيَنْظُرُ، فمعناه: احْكُمْ أنت بِنَفْسِكَ على هؤلاء؛ فلا حاجة لأن أُخْبِرَك بأنَّ الله أَهْلَكَهُم؛ لأنَّه سوف تحكم على هذا بما تراه من آثارِهِم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ﴾ يَسْبِقَه ويَفُوتَهُ ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾].

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ﴾ اللَّام هنا يُسَمِّيها النَّحْويُّون لام الجُحُودِ وهو النَّفْيُ؛ لأنَّها وَقَعَتْ بعده -أي بعدَ النَّفْيِ- وضابِطُ لام الجحود أن تقع بعد كَوْنٍ مَنْفِيٍّ، وإذا أردنا أن نُقَرِّبَها إلى المبتدئ نقول: أن تقع بعد (ما كان) أو (لم يكن) قال

تعالى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٣٧] اللَّام نُسَمِّيها لامَ الجُحُود، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣] اللَّام لامُ الجُحُودِ.

فإذا وقعت اللَّامُ بعد (ما كان) أو (لم يكن) داخِلَةً على الفِعْل المضارعِ فإنَّها تَنْصِبُ الفِعْل المضارع أو ننْصِبُه بـ(أن) مُقَدَّرَةً بعد اللَّامِ على الخلاف، إنَّما نُسَمِّي هذه اللَّامَ لامَ الجُحودِ، لكنَّ الضَّابِطَ الذي قُلْتُ أولًا: وهي الواقِعة بعد كونٍ مَنْفِيٍّ أَعَمُّ من قَوْلنا هي المَسْبوقَةُ بـ(ما كان) أو (لم يكن)؛ لأنَّه يُمْكِنُ أن تأتي بعد (كائِنٍ) تقول: لَسْتُ بكائنٍ لِأُعَذِّبَكَ؛ مثلًا، أو غَيْر كائنٍ ليكون وما أشبه ذلك، فإذا قلنا بعد كونٍ منفي كانت أعَمَّ، لكن إذا كنا نخاطِبُ شَخْصًا مُبْتَدِئًا في النَّحْو فقد يصعب عليه تَصَوُّر كَلِمَة (كونٌ مَنْفِيٌّ) فنقول له: إذا وَقَعَتْ بعد ما كان أو لم يكن، فهي لام الجُحُودِ.

وتنصب الفِعْل المضارع إمَّا بِنَفْسِها كما هو مَذْهَبُ الكُوفِيِّينَ، وإمَّا بأن مُضْمَرةً بعد اللام.

قَوْله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ﴾: ﴿مِن﴾ حَرْفُ جر زائدٌ زائد؛ زائد في الإِعْرابِ، زائِدٌ في المَعْنى أي أنَّه يزيدُ في المَعْنى، وما هي زيادَةُ المَعْنى؟

توكيدُ النَّفْي، يعني أنَّ هذا النَّفْيَ مُؤَكَّدٌ.

وَقَوْله تعالى: ﴿لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ﴾ إذا قلنا ﴿مِن﴾ حرف جر زائد فنُعْرِب ﴿شَيْءٍ﴾ على أنَّها فاعِلٌ مرفوع بضَمَّة مُقَدَّرَة على آخره مَنَعَ من ظهورها اشتغالُ المَحَلِّ بحَرَكَةِ حَرْفِ الجَرِّ الزَّائِدِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَسْبقه ويَفوتهُ] وهذا تَفْسيرٌ لا بأس بِبعْضِ اللَّوازِمِ،

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت:٤] ولكِنَّ العَجْزَ في الواقِع هو عَدَمُ القُدْرَةِ على الشَّيْء، وهذا أولى من تَفْسيرِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

يقول: ما كان الله تعالى ليَحُولَ بينه وبين ما يُريدُ عَجْزٌ في قُدْرَتِهِ بل هو قادِرٌ على كلِّ شَيْءٍ من إيجادِ مَعْدومٍ أو إيجادِ مَعْدومٍ أو تَغْيِيرِ حالٍ أو غَيْرِ ذلك، فالله تعالى لا يُعْجِزُه شَيْءٌ؛ لا في السَّمَوات ولا في الأَرْض؛ لأنَّ أَمْرَه عَزَّوَجَلَّ إذا أراد شيئًا أن يقول كُنْ فيكونُ، بدون أيِّ عَمَلٍ، كَلِمَةٌ واحِدَةٌ تَجْعَلُ الشَّيْء على حَسَب مُرَادِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فلا يُعْجِزُه شَيْء لا في السَّمَوات ولا في الأَرْض، وإذا كان لا يُعْجِزُه شَيْء، لا في السَّمَوات ولا في الأَرْض فإنَّه لن يَعْجِزَ عن إهلاكِ المُكَذِّبِينَ الذين كَذَّبوا رسول الله ﷺ.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ أي بالأشياءِ كُلِّها ﴿قَدِيرًا﴾ عليها] الجُمْلَة مَوْقِعُها مِمَّا قبلها أنَّها تعليلٌ؛ فلما قال ما كان الله لِيُعْجِزَه عَلَّلَ هذا الحُكْمَ المنْفِيَّ بِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

والعِلْم إدراك الشَّيْء على ما هو عليه، والقُدْرَةُ التَّمَكُّنُ من الفِعْل بلا عجز، والقُوَّةُ التَّمَكُّن من الفِعْل بلا ضَعْفٍ، فهي أَخَصُّ من القُدْرَة من وَجْهٍ، وأعَمُّ منها من وجهٍ آخر كما سَنَذْكُره.

فما هو وَجْهُ كَوْنِه عَزَّوَجَلَّ لعِلْمِه وقُدْرَتِهِ لا يُعْجِزُه شَيْء؟

الجواب: لأنَّ العاجِزَ عن الشَّيْء إمَّا أن يكون لعَدَمِ عِلْمِه للأَسْبَاب التي يغيِّرها به، وإمَّا أن يكون لعَدَمِ قُدْرَتِهِ، فلو تأمَّلْتَ عَجْزَ أيِّ عاجِزٍ لوجدت السَّبَبَ في عَجْزِه إمَّا أنَّه لا يَعْلَمُ وإمَّا أنَّه لا يَقْدِرُ.

فلو قِيل لرجُلٍ: نُريد أن تُصلِحَ هذه السَّاعَة الخَرِبَة قال: أعطني إيَّاها، وهو لا يَعْرِف أبدًا وما دَرَسَ، وعنده آلاتٌ لإِصْلاحِها وعنده قُوَّةٌ بَدَنِيَّة، فهل يَقْدِرُ أن يُصْلِحَها؟

والجواب: لا؛ لأنَّه ليس عنده عِلْمٌ، فلا يقدر أن يُصْلِحَها بل يُمْكِن أن يُفْسِدَها أكْثَرَ.

ورجل آخر: عنده عِلمٌ وقد درس عِلْمَ تَصْليحِ السَّاعاتِ مثلًا، لكن ليس عنده قُدْرَةٌ بَدَنِيَّة وهو مشلول، فهل يُمْكِن أن يُصْلِحَها؟

الجواب: لا يُمْكِن؛ لِعَدَمِ القُدْرَة.

إذن: انتفاء عجْزِ الله عَزَّوَجَلَّ لكمالِ عِلْمِهِ وكمال قُدْرَتِهِ، وبهذا نعرف أنَّه لا يوجَدُ نَفْيٌ مَحْضٌ في صفاتِ الله، بل كُلُّ نَفْيٍ في صفاتِ الله فهو مُتَضَمِّنٌ لِثُبوتِ كمالِهِ، ولا يُمْكِن أن يوجد نفيٌ مَحْضٌ؛ ولهذا لما نفى العَجْزَ بيَّن السَّبَب؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّنا يَنْبَغي أن نَنْظُرَ إلى عاقِبَةِ السَّابِقين نَظَرَ اعْتِبارٍ بِمآلِهِم حين كَذَّبوا رُسُلَهُم وليس اعتبارًا بقُوَّتِهم وصناعَتِهم وطِرازِهِم وما أشبه ذلك، وإذا طبَّقْنا هذا على واقِعِ النَّاسِ اليوم الذين يَذْهَبون إلى ديارِ ثَمودَ؛ وجدنا أنَّهم يَذْهَبون إليها لا لِيَعْتَبِروا بما صَنَعَ الله بهم من العُقُوبَةِ لتكْذيبِهِمُ الرُّسُلَ، ولكن لِيَنْظُروا كيف كانت قُوَّتُهم وصِناعَتُهم وزخارِفُهم وما أشبهه، وهذا حرامٌ، فلا يجوز أن يذهب الإِنْسَان إلى ديار هؤلاءِ المُكَذِّبينِ لهذا الغَرَضِ؛ لِقَوْلِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لا تَدْخُلوا على

هَؤُلاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونوا بَاكِينَ، فإنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ»[1].

مَسْأَلَة: السَّيْرُ فِي الأَرْض لِلاعْتِبَارِ لَا بَأْسَ بِهِ، وإذا كانت مَصْلَحَتُه أكثر من نقصه كان مَحْمُودًا، وإن كان نَقْصُه أَكْثَرَ من مَصْلَحَتِه فإنَّه لا يَنْبَغي، فمثلًا لو ذهب ينظر في آياتِ الله تعالى في الجبالِ الشَّاهِقَة وفي الأَنْهار وفي البِحارِ وما أشبه ذلك، فهذا حسنٌ مَحْمودٌ، لكن إذا كان يُكَلَّفُ من النَّفَقَة أكثر مِمَّا يَنْتَفِعُ به الإِنْسَان فإنَّه يُنْهَى عنه؛ لأنَّ في ذلك إِضاعَةَ المالِ، أمَّا إذا كانت النَّفَقَة قَليلَةً أو كان هذا الرَّجُلُ ذا مالٍ كثيرٍ لا يَتَضَرَّر به، ولَكِنَّه يَنْتَفِع به من النَّاحِيَة الإيمانِيَّةِ فلا بأس به

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ في التاريخ عِبَرًا يَعْتَبِرُ بها العاقِلُ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: اسْتِعْمالُ قياسِ الْأَوْلَى؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فإذا كان الله تعالى أَهْلَكَهُم مع كَوْنِهم أَشَدَّ منهم قُوَّة، فإنَّ إهلاكَ هؤلاء من باب أولى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن قُوَّة البَشَرِ مهما عَظُمَتْ لا تمنع من الله شيئًا؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ولذلك لما قالت عادٌ: مَنْ أَشَدُّ منا قُوَّةً، قيل لهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ في السَّيْرِ في الأَرْض قَلْبًا أو قَدَمًا عِبْرَةً لا للمُرْسَلِ إليهم، بل وللرُّسُلِ أيضًا؛ فإنَّ إِهْلاكَ المُكَذِّبِينَ للرُّسُلِ انتصارٌ للرُّسُل، فمَعْلومٌ أنَّ الله إذا أَهْلَكَ عَدُوَّكَ فإنَّه انتصارٌ لك بلا شَكٍّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، رقم (٤٣٣)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: نَفْيُ العَجْزِ عن الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإنَّ فيها نَفْيَ العَجْزِ عنه لِكَمالِ عِلْمِه وقُدْرَتِهِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ من صفاتِ الله تعالى ما يكون سَلْبِيًّا -أي مَنْفِيًّا عن الله- والقاعِدَة العامَّة: أنَّ كلَّ صِفَةِ نَقْصٍ فهي مَنْفِيَّةٌ عن الله عَزَّوَجَلَّ، كما أنَّ كلَّ صِفَةِ كَمالٍ فهي ثابتَةٌ له، ولكنَّ التَّفْصيلَ لا بُدَّ فيه من دليلٍ؛ لأنَّ هذه قاعِدَة عامَّة؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، ولِقَوْله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠] لكِنَّ التَّفْصيلَ بأنَّ هذه الصِّفَة المُعَيَّنة ثابِتَةٌ لله أو مُنْتَفِيَةٌ عنه لا بُدَّ فيها من دليلٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا ينفي شيئًا عن نَفْسِه إلا لِثُبُوتِ كَمالِ ضِدِّه؛ لأنَّه لما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾ قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ فيُسْتَفادُ من ذلك: أنَّ كُلَّ صِفَةٍ مَنْفِيَّةٍ عن الله لا يرادُ منها مُجَرَّدُ النَّفْي؛ لأنَّ مُجَرَّدَ النَّفْيِ المَحْضِ ليس فيه فائِدَةٌ؛ إذ إنَّ النَّفْي المحض عـدمٌ مَحْضٌ، والعَدَمُ ليس بشَيْءٍ، فضلًا عن أن يكون كَمالًا؛ ولأنَّ النَّفْيَ قد يكون سَبَبُه العَجْز، كما في قَوْلِ الشَّاعِرِ:

قُبَيِّلَـــةٌ لَا يَغْـــدِرُونَ بِذِمَّـــةٍ ... وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ[1]

هذا ذَمٌّ؛ لأنَّهم لعَجْزِهِم لا يَسْتَطِيعـون، فلا يَظْلِمونَ النَّاسَ ولا يَغْـدِرونَ بالذِّمَم.

وقد يكون سَبَبُه عَدَمَ القابِلِيَّة لا لِلْكَمالِ، ولكن لأنَّه غَيْرُ قابِلٍ لهذه الصِّفَة، كما لو قلتَ: إنَّ جدارَ بَيْتِنا لا يَظْلِمُ، فهو صحيح أنَّه لا يَظْلِمُ أَحَدًا، لكن لا لأنَّه كامِلُ

---

(١) البيت ينسب للنجاشي الحارثي قيس بن عمرو، انظر: الحماسة الصغرى لأبي تمام (ص٢١٥-٢١٦)، والشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣١٩)، وخزانة الأدب للبغدادي (١/ ٢٣٢).

العَدْلِ، ولكن لأنَّه لا يَقْبَلُ كَلِمَةَ ظُلْمٍ، فنَفْيُها عنه كثُبُوتِها له، حتى لو قلتَ: جِدارُنا يَظْلِمُ، فلا أَحَد يُصَدِّقُكَ.

إذن: فصِفاتُ الله المَنْفِيَّة التي يُسَمِّيها العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ السَّلْبِيَّةَ تَتَضَمَّنُ كمال الضِّدِّ، يعني لكمال عِلْمِه وقُدْرَتِهِ، فلا يُعْجِزُه شَيْءٌ في السَّمَوات ولا في الأَرْضِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إِثْباتُ أنَّ السَّمَواتِ أَكْثَرُ من واحِـدَةٍ؛ لأنَّها جاءت بصيغة الجَمْعِ: السَّمَوات، وهي سَبْعٌ بنَصِّ القُرْآنِ والسُّنَّة؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح:١٥]، والسُّنَّةُ كذلك ظاهِرةٌ في أنَّ السَّمَواتِ سَبْعٌ، كقول النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَواتِ السَّبْعِ ومَا أَظْلَلْنَ**»[1].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إِثْباتُ اثنينِ مِنْ أَسْماءِ اللهِ؛ وهما العليم والقديرُ، وما تَضَمَّناه من صِفَةٍ أو حُكمٍ من صِفةٍ وهي العِلم والقُدْرَةُ، أو صِفَةٌ أو حُكمٌ وهو: أنَّه يَعْلم ويَقْدِرُ على كُلِّ شَيْء.

• • ۞ • •

(١) أخرجه النسائي في الكبرى رقم (٨٧٧٦)، وابن خزيمة في صحيحه رقم (٢٥٦٥)، وابن حبان في صحيحه رقم (٢٧٠٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص٤٧٢)، والحاكم (٢/ ١٠٠)، من حديث صهيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآيـة (٤٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر:٤٥].

(لو) هذه شَرْطِيَّةٌ، و(لو) تأتي شَرْطِيَّةً كما هنا، وتأتي للتَّمَنِّي مثل قَوْله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩]، وتقول مثلًا: لو كان لي مِثْلَ مالِ فلانٍ، يعني أتمنى أن يكون لي مثل مال فلان، فتأتي شَرْطِيَّة وتأتي للتَّمَنِّي، وتأتي أيضًا مَصْدَرِيَّة بمَعْنى (أنْ).

فهنا هي شَرْطِيَّة، وإذا كانت شَرْطِيَّةً، فإما أن يكون جوابُها مثبتًا وإمَّا أن يكون مَنْفِيًّا، فإن كان مُثْبَتًا فالأكْثَرُ فيه إثباتُ اللَّام، وإن كان مَنْفِيًّا فالأكْثَرُ فيه حذف اللام.

مثال ذلك في الإثبات: قَوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقِعة:٦٥] الجواب: ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾ وفيه اللامُ، وقال تعالى في نفس السُّورَة: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقِعة:٧٠] الجواب: ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ وحُذِفَتْ منها اللام.

أما إذا كان جوابُها منفيًّا بـ(ما) فإنَّ الأكثر عدم اقتران (ما) باللَّامِ فتقول مثلًا: لو جاءني ما أَهَنْتُه، وهنا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا

تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾.

وقد تقترن اللَّام بـ(ما) لَكِنَّها قليلةٌ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَلَو نُعْطَى الخِيَارَ لَما افْتَرَقْنَا[1] .....

والأَكْثَرُ (ما افْتَرَقْنا).

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾.

قَوْله تعالى: ﴿يُؤَاخِذُ ﴾ أي يعاقِبُ، والمؤاخَذَةُ بالذَّنْبِ العُقوبَةُ عليه.

وَقَوْله تعالى: ﴿ٱلنَّاسَ ﴾ عامٌّ يَشْمَلُ الكُفَّارَ ويَشْمَلُ العُصاةَ من المُؤْمِنين.

وَقَوْله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُواْ ﴾: (ما) يجوز أن تكون مَصْدَرِيَّةً؛ أي بِكَسْبِهم، ويجوز أن تكون مَوْصولةً، فإذا كانت مَوْصولَةً فلا بُدَّ من تَقْدير العائِدِ، وتَقْديره: بما كَسَبوهُ.

وَقَوْله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُواْ ﴾ أي: بما اكْتَسَبوا من المعاصي، وسَمَّى الله تعالى المعاصيَ كَسْبًا؛ لأنَّ العامِلَ ينالُ جَزاءَها، فكأنَّه كَسَبَ هذا الجزاء، مع أنَّه كَسْبٌ خاسِرٌ؛ ولهذا إذا اقْتَرَنَ مع العَمَلِ الصَّالِحِ أتى بغير هذا اللَّفْظِ؛ قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة:٢٨٦] ففرَّقَ بينهما.

أما إذا أُفْرِد أحدهما عن الآخَرِ فيصِحُّ الكَسْبُ في الخَيْراتِ وفي السَّيِّئاتِ.

---

(١) صدر بيت وعجزه: ولكن لا خيار مع الليالي. غير منسوب، وانظره في: مغني اللبيب (ص٣٥٨)، وشرح التصريح (٢/ ٤٢٤)، وهمع الهوامع (٢/ ٥٧٢)، وخزانة الأدب (١٠/ ٨٢).

وَقَوْله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ أي الأَرْضِ؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي الأَرْضِ] وأعاد الضَّميرَ على غَيْر مذكورٍ، قال بعضهم: إنَّه أعاده على مذكورٍ، وهو قَوْله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾، والكَلَام كُلُّه في سياق واحِدٍ، في سياق العاصينَ ومآلِهم وعُقُوبَتِهم، فالكَلَامُ نَسَقٌ واحِدٌ فالأَرْض إذن: مذكورة.

وقال بعضهم: هي غَيْر مذكورة، لَكِنَّها معلومَةٌ من السِّيَاقِ لأنَّ الدَّوابَّ إنَّما هم على ظَهْرِ الأَرْضِ، فمَعْلومَةٌ من السِّيَاق، وما عُلِمَ من السِّيَاقِ فإنَّه لا يَحْتاجُ إلى مَرْجِعٍ مذكورٍ؛ ألم تَرَ إلى قَوْله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص:٣٢] فَقَوْله تعالى: ﴿تَوَارَتْ﴾ أي: الشَّمْسُ، مع أنَّه لم يَسْبِقْ لها ذِكر، لَكِنَّها معلومَةٌ فإنَّها هي التي تتوارى بالحِجابِ.

وَقَوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ نَسَمَة تَدِبُّ عليها] ﴿مِن﴾ حرف جَرٍّ (زائدٍ زائد)؛ لأنَّها جاءَتْ بعدَ النَّفْي: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: ما ترك عليها دابَّةً لَكِنَّها دخلت عليها ﴿مِن﴾ لتُؤَكِّدَ العُمومَ؛ وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نَسَمَةً تَدِبُّ عليها] النَّسَمَة هي كل ذاتٍ تَتَنَفَّسُ، لأنَّها مَأْخوذة من النَّسَم وهو التَّنَفُّس وكل شَيْء فيه رُوحٌ فإنَّه يتَنَفَّس.

والمَعْنى: لَهَلَكَ كُلُّ شَيْءٍ على الأَرْض؛ أمَّا البَشَرُ العاصون فهَلاكُهُم واضِحٌ، وأمَّا غَيْرُهُم فبِشُؤْمِ الأَوْساط تَمُوتُ هذه الدَّوابُّ، إمَّا بأن يَمْنَعَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ المَطَرَ والنَّباتَ فتموتُ هذه الدَّوابُّ؛ لأنَّها لا تجد عَيْشًا أو أنَّها تموت بأَوْبِئَةٍ تَجْتاحُها بسبب أعمالِ النَّاسِ.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يَوْم القِيامَةِ].

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي: النَّاسَ، والفاعِلُ هو الله، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ أي: مُدَّةٍ ﴿مُّسَمًّى﴾ مُعَيَّنٍ، وهو يومُ القِيامَة، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورة هود: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود:١٠٣-١٠٤] أي: أَجَلٍ مُسَمًّى مُعَيَّنٍ عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولا يَعْلَمُ هذا الأَجَلَ إلا اللهُ؛ فإنَّ عِلْمَ السَّاعَةِ لا يكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وقد حجز عنه أَعْلَمَ البَشَرِ وأَعْلَم المَلائِكَة حين سأل جبريلَ النَّبِيُّ ﷺ عن السَّاعَةِ قال: «مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»(١).

والأَجَلُ المُسَمَّى لا بُدَّ أن يَجِيءَ، فكُلُّ شَيْءٍ مُسَمًّى فهو قريبٌ، لكنَّ الأَجَلَ المُبْهَم هو الذي يَنْتَظِرُه الإِنْسَانُ إلى أن يَحْصُل، أمَّا المُسَمَّى فلا بُدَّ أن يُوصَلَ إليه.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ يعني: انْتَهَتِ المُدَّة وصار يومُ القِيامَة، سواء كانَتِ القِيامَةُ الكُبْرَى أو القِيامَة الصغرى، فالقِيامَةُ الكُبْرَى العامَّةُ لجميعِ النَّاسِ، والصُّغْرى مَوْتُ كُلِّ إِنْسَانٍ.

وَقَوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ فيجازيهم على أَعْمالِهِم بإثابَةِ المُؤْمِنينَ وعِقابِ الكافرينَ].

جُمْلَة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ جوابُ شَرْطِ قَوْله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾.

فإذا قال قائِلٌ: ما وَجْهُ ارتباطِ الجوابِ بالشَّرْطِ في قَوْله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ يعني قد تَتَوَقَّعُ: فإذا جاء أجلهم عاقَبَهُم الله؟

فيقال: إنَّ قَوْله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ أَبْلَغُ من: (فإذا جاء

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أَجَلُهُم عاقَبَهُمُ اللهُ)؛ لأنَّ مِن هؤلاء مَن قد يَعْفو الله عنهم فلا يُعاقِبُهُم، ولَكِنَّه ذكَر أنَّه بصيرٌ بأعمالِهِم يُجازيهِم عَليها، وإن شاء ألَّا يعاقِبَهُم فعَل فِيمَن يَسْتَحِقُّ العَفْوَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: سَعَةُ حِلْمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَجْهُهُ: أنَّه لو يُؤَاخِذُهُم بما كسبوا ما ترك عليها من دابَّةٍ، ولكن يَحْلُم عَزَّوَجَلَّ ويُمْهِلُ؛ لَعَلَّ النَّاسَ يتوبونَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تمامُ قُدْرَةِ الله تعالى؛ حيثُ يَقْدِرُ على إهلاك العالَمِ بِلَحْظَةٍ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيانُ شُؤْمِ المعاصي وأنَّها قد تَعُمُّ العاصِيَ وغيْرَه، بل المُكَلَّف وغَيْر المُكَلَّف، وإلا فهذه الدَّوابُّ التي هي أكْثَرُ بكثير من البَشَرِ ومن الجِنِّ ما ذَنْبُها وهي غَيْرُ مُكَلَّفَة؟ لكن هذا مِنْ شُؤْمِ المعاصي وأنَّها تَشْمَلُ حتى من ليس بِمُكَلَّفٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الرَّدُّ على الجَبْرِيَّة؛ لِقَوْله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ فأَثْبَتَ لِلْعَبْدِ كسبًا، والجَبْرِيَّةُ يقولون إنَّ الإِنْسَانَ مُجْبَرٌ على العَمَلِ لا يَسْتَطِيعُ أن يَكْتَسِبَ، بل يُجْبَرُ على أن يَعْمَلَ خَيْرًا أو شَرًّا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إِثْباتُ حِكْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ في مُجازاةِ العاملينَ بِعَمَلِهِم؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ ولكن لِحِلْمِه يُؤَخِّرُهم إلى أجلٍ مُسَمًّى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّه مهما حَلَّ بالبَشَرِ من عُقُوبَةٍ مُدَمِّرَةٍ أو مُنَغِّصَةٍ، فإنَّما ذلك بما كَسَبَتْ أَيدِيهِمْ.

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة
«إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»	١٩
«مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»	٢١
«اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»	٢٥
«وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ،...»	٢٥
«إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدِهِ نِعْمَةً أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ»	٣٠
«فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ والرَّجُلان، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»	٣٩
«مَنْ كَانَ لَهُ شَيءٌ فَلْيَأْتِ بِهِ؛ لأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾»	٤١
«الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ»	٤٨
«فَوَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ»	٤٩
«أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً مَنْ يَنْظُرُ إِلَى مُلْكِهِ أَلْفَيْ عَامٍ يَرَى أَقْصَاهُ كَمَا يَرَى أَدْنَاهُ»	٥٨
«أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا»	٦٠
«خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى»	٦٠
«لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»	٦٠

«يَا عَائِشَةُ، أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ مُجَزِّزًا الْمُدْلِجِيَّ دَخَلَ عَلَيَّ فَرَأَى أُسَامَةَ وَزَيْدًا وَعَلَيْهِمَا قَطِيفَةٌ قَدْ غَطَّيَا رُؤُوسَهُمَا وَبَدَتْ أَقْدَامُهُمَا، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ» ٦٩
«اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحًا وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا» ٧٢
«اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ» ٧٧
«وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ» ٧٨
«إِنَّا قَوْمٌ أَعَزَّنَا اللهُ بِالإِسْلَامِ فَلَنْ نَبْتَغِيَ العِزَّةَ بِغَيْرِهِ» ٨١
«اللهُ تعالى طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّبًا» ٨٥
«يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ...» ٨٥
«إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا» ٩٢
«ناظِرُوهُم بالعِلْم، فإن أنكروه كَفَروا، وإن أَقَرُّوا به خُصِمُوا» ٩٧
«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» ٩٩
«اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ» ١٠٠
«صَيْدُه ما أُخِذَ حيًّا وطعامُه ما أُخِذ ميتًا» ١٠٤
«نَعَمْ عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالَ فِيهِ: الحَجُّ وَالعُمْرَةُ» ١٠٨
«لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً» ١٠٨
«إِنَّكَ أَرْمَدُ» ١٠٩
«أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟» ١١٧
«تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ» ١٣٥
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ١٣٧
«مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ» ١٤١

«وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ» ١٤٢
«أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلَال كَانَ لَهُ أَجْرٌ» ١٤٢
«مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ» ..... ١٤٤، ١٥٢
«الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» ١٤٨
«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» ١٥٤
«يا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ، واعْبُدوه» ١٦٤
«اللَّهُمَّ مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا» ١٦٥
«لَيْسَ مِنَ البِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ» ١٦٦
«يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، يَا شَيْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا عُتْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا أُمَيَّةُ بْنَ خَلَفٍ: هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا؟» ١٦٨
«مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ» ١٦٩
«أَحْيَاهُمُ اللهُ حَتَّى أَسْمَعَهُمْ قَوْلَهُ تَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا» ١٦٩
«إِنَّ العَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِم» ١٦٩
«ما من مُسْلِمٍ يُسَلِّمُ على قَبْرٍ كان يَعْرِفُه في الدُّنْيا إلا رَدَّ الله عليه رُوحَه فَرَدَّ عليه السلام» ١٦٩
«لَا يَنْصَرِفْ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا» ١٧٧
«اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ؛ الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ» ١٧٩
«سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ» ١٧٩
«مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ» ١٨٣

«لَيْسَتِ السَّنَةُ بِأَلَّا تُمْطَرُوا، وَلَكِنِ السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَتُمْطَرُوا وَلَا تُنْبِتُ الأَرْضُ شَيْئًا».. ١٩٠
«رُوِيَ فِي ذلك أَلْوَانٌ» ١٩٠
«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي» ١٩٥
«سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ» ٢٠١
«فَتَعَلَّمْنَا القُرْآن وَالعِلْمَ وَالعَمَلَ» ٢٠٥
«صَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» ٢٠٥
«الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِيَّ» ٢٠٧
«لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ» ٢٠٨
«أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي» ٢٠٨
«وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا» ٢١٠
«ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ» ٢١٥
«إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإِنَّ لأَهْلِك عليك حقًّا» ٢٢٥
«أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» ٢٣٨
«ليس في الآخِرَة مِمَّا في الدُّنْيا إِلَّا الأَسْماء فقط» ٢٣٨
«تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الوُضُوءُ» ٢٤٠
«يا ابْنَ آدمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَغَفَرْتُ لَكَ» ٢٤٤
«إِنَّ فَاعِلَ الحَسَنَةِ تُكْتَبُ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ» . ٢٤٥

«لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» ٢٥٠
«لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ» ٢٥٤
«انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أو مَظْلُومًا» ٢٦٥
«وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ» ٢٧٦
«بخٍ بخٍ، ذاكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ» ٢٧٧
«يُقَالُ لَهُمْ -أي المُصَوِّرينَ- أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ» ٢٨٤
«الكَيِّسُ من دانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، والعاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَواهَا وتَمَنَّى على اللهِ الأَمَانِيَّ» ٢٨٥
«مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ» ٢٨٧
«كُنْتُ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» ٢٨٩
«إِنَّ الشَّمْسَ والقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا -يَعْنِي كَاسِفَتَيْنِ- فَصَلُّوا وادْعُوا...» ٢٩١
«النذر لا يأتي بِخَيْرٍ» ٣٠٦
«صَلُّوا قَبْلَ المَغْرِبِ، صَلُّوا قَبْلَ المَغْرِبِ، صَلُّوا قَبْلَ المَغْرِبِ» ٣٠٩
«زُوروا القُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ» ٣١١
«لا تَدْخُلوا على هَؤُلاءِ المُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونوا بَاكِينَ، فإنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ» ..... ٣١٢، ٣١٧
«اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَواتِ السَّبْعِ ومَا أَظْلَلْنَ» ٣٢٠
«مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» ٣٢٤

فهرس الفوائد

الفائدة — الصفحة

أَصَحُّ الأَقْوَالِ في المكِّيِّ والمَدَنِيِّ..... ٧
هل نعرف كيْفِيَّة هذه الأَجْنِحَة للملائكة؟ ١٤
لو قال قائِلٌ: هل يَقْدِرُ الله على أن يَجْعَلَ الشَّيْءَ المُتَحَرِّك ساكِنًا في آنٍ واحِدٍ؟ ١٥
الردُّ على قول السُّيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَخَصَّ العَقْلُ ذَاتَهُ فليس عليها بقادرٍ» ١٧
لا أحد يَسْتَطِيعُ أن يُمْسِكَ رَحْمَةَ الله مهما عَمِلَ..... ٢٥
الأَصْلُ في مَرْجِع الضَّمير ٢٧
(العزيز) له ثلاثَةُ معانٍ..... ٢٨
الذِّكْرُ يَشْمَلُ ثلاثَةَ أُمورٍ: الذِّكْر بالقَلْبِ، واللِّسانِ، والجوارِحِ..... ٢٩
هل هناك رِزْقٌ غَيْرُ المطر يَنْزِلُ من السَّماء؟ ٣٣
أَوْجه إِعْراب قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ٣٥
أَهَمِّيَّة إيمانِنا بأنَّ الشَّيْطانَ لنا عَدُوٌّ..... ٥٤
الهِدايَة والضَّلال إمَّا عَدْلٌ وإمَّا فَضْلٌ ٦٥
الغالِب أن (الرياحَ) مجموعةً تكون في الخَيْر، و(الرِّيح) مفردة تكون في ضِدِّه ٧٢
الردُّ على تَفْسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ صُعُودَ الكَلِمِ الطَّيِّبِ بِعِلْمِ الله إيَّاه..... ٨٣
الجوابُ على إِشْكال فيما إذا قلنا: إنَّ الضَّميرَ يعود على المُعَمَّر نَفْسِه فكيف يكون معمَّرًا وهو في الوقت نَفْسِه منقوصٌ من عمره؟..... ٩٨

الشَّيْء الذي لا يُسْتَساغُ لا يَنْبَغي للإِنْسَانِ أن يَتَناوَلَه ويُكْرِه نَفْسَه عليه ١٠٩
الردُّ على مَن يقول: إذا كان اللهُ قد قَدَّرَ لي ولدًا فَسيأْتِيني، ولم يَتَزَوَّجْ..... ١١١
الأَرْضُ هل تَدُور أو لا تَدُور؟ ١١٨
الجوابُ عمَّا قد يُبْتَلى به داعي هذه الأَصْنَامِ فَتَسْتَجيبُ له ظَاهِرًا ١٣٠
إِثْباتُ قياسِ العَكْسِ..... ١٤٢
الخَشْيَة أَعْظَمُ من الخَوْفِ ١٤٧
الظِّلُّ والحَرورُ لا يستويان، وأَيُّهما أَحْسَنُ؟ ١٥٩
الدُّعَاء مع كَوْنِك تَطْلُب حاجَتَكَ من الله هو نَفْسُه أيضًا عِبَادَةٌ تَتَقَرَّب بها إلى الله .. ١٦٨
ما الجوابُ عما قاله الفُقَهَاء من أنَّ المَيِّتَ يتأَذَّى بِقَوْلِ المُنْكَر عند قَبْرِه أو فِعْل المُنْكَر عند قَبْرِه؟ ١٧٠
الإِنْسَان قد يَجْتَمِع فيه خِصالُ الإيمانِ وخِصالُ الكُفْر ١٧٩
الالتفاتُ في اللغة فيه فوائِدُ..... ١٩٠
(الأَلْوَان) تُطْلَقُ على الأَنواع أحيانًا ١٩١
إثباتُ الأَسْبَابِ..... ١٩٤
الخشية هي الخَوْفُ المَبْنِيُّ على العِلْم..... ٢٠٠
قَوْله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ هل هو القُرْآنُ أو هو أَعَمُّ من ذلك؟..... ٢٠٥
الدَّليل على ضَعْف مَسْلك أولئك الصُّوفِيَّة بأَلَّا تَعْبُدَ الله لثواب الله ولكن اعْبُدِ الله لله ٢١٥
تَعْريف الرُّكْنَيْنِ من الجُمْلَة الاسْمِيَّة يُفيد الحَصْر ٢١٧
الآيَة إذا احتَمَلت مَعْنَيينِ لا يَتَناقَضانِ فإنَّها تُحمَل عليهما ٢٢١

هل الجَنَّة ليس فيها نَوْمٌ؟ ٢٥١
هل الأَوْلَى أن يَسيرَ الإِنْسَانُ إلى رَبِّه بين الخَوْفِ والرَّجاءِ فيكونَ خائِفًا راجِيًا، أو الأَوْلَى أن يُغَلِّبَ الرَّجاءَ إحسانًا في الظَّنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ، أو الأَوْلَى أن يُغَلِّبَ الخَوْفَ؟ . ٢٥٣
الصِّفات التي تكون بِمَشيئَةِ الله تُسَمَّى صفةً فِعْلِيَّةً ٢٧٤
حروف الجر الزائدة في القرآن: زائِدَةٌ زائِدَةٌ، وتوضيح معنى ذلك .... ٣١، ١٧٥، ٢٨٧
الأَيمانُ تُغَلَّظُ بالكمِّيَّة والكَيْفِيَّة والزَّمان والمَكانِ والهَيْئَة ٢٩٤
(لـمَّا) تأتي في اللُّغَة العَرَبِيَّة على أَوْجُه ٢٩٩
الهَمْزَةُ الاسْتِفْهامِيَّةُ هل هي داخِلَةٌ على الجُمْلَة الموجودةِ المَذْكورَةِ، أو على جُمْلَةٍ مَحْذُوفَةٍ يُعَيِّنُها السِّيَاقُ؟ ٣١٠
حُكم السَّيْرُ في الأَرْض لِلاعْتِبَارِ ولِغَيْرِه ٣١٨

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة
تقديم	٥
سورة فاطر	٧
البسملة	٩
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾	١١
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾	٢٤
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾	٢٩
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾	٣٩
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾	٤٤
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾	٥١
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾	٥٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ... ٦٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾ ٧١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾ ٨٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ ٩٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ١٠٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ ١١٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾. ١٣٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾ ١٣٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾ ١٣٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ ١٤٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ ١٥٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾﴾ ١٥٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ ١٥٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ ١٦١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ .....

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ ١٧١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ ١٨٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ ١٨٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ .. ١٨٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ ١٩٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ ٢٠٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ ٢١٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾ ٢١٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ ٢٢٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ ٢٣٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ ٢٤١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ ٢٤٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ ٢٥٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ ٢٦١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾ ٢٦٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ

ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ ٢٧١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ ٢٧٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ ٢٨٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ ٢٩٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ ٣٠٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ ٣١٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ ٣٢١

فهرس الأحاديث والآثار ٣٢٧

فهرس الفوائد ٣٣٣

فهرس آيات السورة ٣٣٧

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١)

تفسير القرآن الكريم

سورة يس

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

دار الثريا للنشر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن من توفيق الله - سبحانه وتعالى - أن يسَّر لفضيلة شيخنا - تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه - تفسير سورة «يس» في دروسه العلمية التي كان يعقدها رحمه الله تعالى بالجامع الكبير في مدينة عنيزة.

وقد عهدت مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية إلى فضيلة الشيخ فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، أثابه الله، بالعمل لإعداد هذا الكتاب للنشر، وتخريج أحاديثه وآثاره، فجزاه الله خيراً.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، موافقا لمرضاته، نافعاً لعباده، وأن يجزي فضيلة شيخنا عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ويضاعف له المثوبة والأجر، ويعلي درجته في المهديين، إنه سميع قريب.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللجنة العلمية

في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

قال المؤلف[1] ـ رحمه الله تعالى ـ [سورة (يس) مكية، أو إلا قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا﴾ **الآية**، أو مدنية].

المكي ما نزل قبل الهجرة، وليس ما نزل بمكة، إذ قد ينزل بمكة بعد الهجرة ويكون مدنيًّا، فما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعدها فهو مدني، وهذا القول هو الراجح من أقوال أهل العلم، والأقوال في هذه السورة ثلاثة:

الأول: أنها مكية.

الثانية: أنها مدنية.

الثالثة: أنها مكية إلا قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا﴾.

والذي يظهر أنها مكية؛ لأن أسلوبها أسلوب المكي، والسور المكية تمتاز عن السور المدنية: بقوة الأسلوب، وجزالة

---

(١) أخي الكريم: إذا مر بك: قال المؤلف. فالمراد به جلال الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن محمد المحلي رحمه الله تعالى، المتوفى سنة ٨٦٤هـ. في تفسيره المسمى «تفسير الجلالين» وقد جعلت كلامه ـ رحمه الله ـ بين معكوفتين هكذا [ ].

اللفظ، بخلاف السور المدنية فإن أسلوبها ألين؛ لأنه يخاطب قوماً آمنوا، ويخاطب أيضاً قوماً فيهم أهل كتاب، ليس عندهم من البلاغة في اللغة العربية ما عند العرب، فالظاهر ـ والله أعلم ـ أنها مكية، وإذا جعلناها مكية فإننا لا نقول باستثناء شيء منها؛ لأن الأصل أن السورة المكية كلها مكية، وأن السورة المدنية كلها مدنية، فمن ادعى استثناء آية، أو آيتين، أو أكثر فعليه الدليل، أما مجرد أن المعنى يليق بأهل المدينة في آية مثلاً، فهذا لا يكفي في الاستثناء؛ لأن الله تعالى قد يذكر معناً يليق بأهل المدينة توطئة وتمهيداً حتى يكون الناس على بصيرة، ولهذا يذكر الله تعالى في الآيات المكية قصص موسى عليه الصلاة والسلام مع أن العناية بقصص موسى في المدينة أولى؛ لأن فيها اليهود، أما مكة فليس فيها يهود، فبعض العلماء إذا نظر إلى أن المعنى يليق بالسور المدنية، أو بالأحكام المدنية ذهب يستثني ويقول: إلا آية كذا، إلا آية كذا، وهذا غير مسلم.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ البسملة آية من كتاب الله مستقلة، يؤتى بها في ابتداء كل سورة، ما عدا سورة براءة، وليست البسملة من الفاتحة ولا من غيرها، هذا هو القول الراجح، وأما من قال: إنها من الفاتحة وليست من غيرها، فقوله ضعيف لوجهين:

الأول: للتفريق بدون دليل.

والثاني: أن حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ الثابت في الصحيح وهو قول الله تعالى: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي**

نصفين»[١] ، يدل على أن البسملة ليست من الفاتحة؛ لأنها لم تذكر في هذا الحديث؛ ولأن النبي ﷺ كان لا يجهر بالبسملة في صلاته، وهذا يدل على أنها ليست من الفاتحة، وإلا لجهر بها كما يجهر في بقية الآيات.

أما إعرابها فهي: جار ومجرور، وصفة وموصوف، وهذا الجار والمجرور متعلق بمحذوف، وهذا المحذوف يقدر فعلاً متأخراً مناسباً، وقدرناه فعلاً، لأن الأصل في العوامل الأفعال، ولذلك تعمل الأفعال فعلها بدون شرط، والأسماء التي تعمل عمل الفعل لابد فيها من شروط، وقدرناه مناسباً أو خاصًّا؛ لأنه أدل على المقصود، وقدرناه متأخراً لفائدتين:

الأولى: الترك بتقديم اسم الله عز وجل.

الثانية: إفادة الحصر، فعندما تسمي على الوضوء فالتقدير: باسم الله أتوضأ، ولو قلت: باسم الله أبتدئُ فيصح، لكن ابتدائي عام، وأتوضأ أخص، والإتيان بالأخص أدل على المقصود، ولو قلت: أبتدىء بسم الله، صح لكن فاتك التأخير، والتخصيص، والفعلية؛ لأنك قلت: أبتدىء، وإذا قلت: «أبتدىء باسم الله» فاتك التأخير والتخصيص، وإذا قلت: «أتوضأ باسم الله» فاتك التأخير فقط.

ولو قال قائل: هل يمكن أن نستدل لهذا القول بشيء من النص؟

نقول: نعم، قال النبي عليه الصلاة والسلام وهو يخطب

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ٣٨(٣٩٥).

الناس في عيد الأضحى: «**من لم يذبح فليذبح باسم الله**»[١]، أو«**فليذبح على اسم الله**»[٢]، فخص الفعل.

لفظ الجلالة: (الله) اسم لله رب العالمين، وهو أعلم الأعلام، أعلم حتى من الضمير؛ لأنه اسم يختص بالله لا يمكن أن يشاركه فيه أحد، ولهذا قالوا: أعرف المعارف على الإطلاق اسم الله؛ لأنه لا يشاركه فيه أحد، والضمير إذا قلت «قمت» فلا يشاركني أحد فيه، لكن صالح أن يستعمله غيري، أما الله فلا تصلح الشركة فيه.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾ صفتان لله، والرحمن، والرحيم معناهما ذو الرحمة، لكن الرحمن باعتبارها وصفاً لله، والرحيم باعتبارها فعلاً له، ولهذا كان الرحمن عامًّا، والرحيم خاصًّا، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا ٤٣﴾ فالرحمن لوحظ فيه الوصف، والرحيم لوحظ فيه الفعل، ولهذا لما لوحظ في الرحمن الوصف جاء على الأوزان التي تدل على الامتلاء والسعة، فصارت على وزن (فعلان).

والرحمة صفة من صفات الله سبحانه وتعالى الحقيقية الثابتة له على وجه الحقيقة لا المجاز، وقد أنكرها أهل التعطيل، ومنهم الأشاعرة، وقالوا: إنه ليس لله صفة هي الرحمة؛ لأن الرحمة رقة ولين، وهذا لا يليق بالله عز وجل، وفسروها إما

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العيدين، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد (٩٨٥) ومسلم كتاب الأضاحي، باب وقتها ١(١٩٦٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب قوله ﷺ: «فليذبح على اسم الله» (٥٥٠٠)، ومسلم، كتاب الأضاحي، باب وقتها (١٩٦٠).

بالإرادة، لأنهم يؤمنون بالإرادة، وإما بالفعل؛ لأن الفعل منفصل عن الفاعل، ـ يعني المفعول منفصل عن الفاعل ـ فهم يفسرونها: إما بالإحسان وهو مخلوق منفصل، وإما بإرادة الإحسان؛ لأنهم يقرون بالإرادة، ولا شك أن قولهم هذا باطل، وأنه إنكار صفة من أعظم صفات الله عز وجل وهي من أبرز صفاته، فقد قال الله تعالى: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»[1] والعجب كل العجب أنهم يقولون: إن الإرادة دل عليها العقل، والرحمة دل العقل على انتفائها، قالوا: لأن التخصيص دال على الإرادة، فمثلاً هذه سماء، وهذه أرض، وهذه شمس، وهذا قمر، إلى آخره، يدل على الإرادة لأنه لا مخصص إلا بإرادة، أما الرحمة فيقولون: إن العقل لا يدل عليها، بل يدل على انتفائها.

فنقول: عجباً لكم، دلالة العقل على الرحمة أبلغ وأظهر وأوضح من دلالته على الإرادة، ولهذا جعلتم دلالة العقل على الإرادة بالتخصيص، وهذا لا يفهمه إلا خواص الناس، فلو سألت طالب العلم بدون أن يعرف البحث ما استدل بالتخصيص على الإرادة وهو طالب علم، لكن الرحمة كل يعرف أن لله تعالى رحمة، ويستدل عليها بالعقل، تأتي العامي في السوق فنقول: نزل المطر، واخضرت الأرض، ورويت الزروع، وما أشبه ذلك، من أين هذا؟ فيقول لك مباشرة: من رحمة الله، فيستدل بالنعم

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ (٧٤٥٣) ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها تغلب غضبه (١٥) (٦٩٧٠).

التي هي من آثار الرحمة على الرحمة، ولكن نسأل الله لنا ولهم الهداية، من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

قال الله تعالى: ﴿يسٓ ۝١﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿يسٓ ۝١﴾ الله أعلم بمراده به]، ولا شك أن الله أعلم بمراده ومراد غيره، وأعلم بكل شيء، ولكن ما المراد بهذين الحرفين الهجائيين؟ في هذا خلاف بين العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ:

القول الأول: ما ذهب إليه المؤلف، رحمه الله: «الله أعلم بمراده به» أي: لا ندري ماذا أراد الله عز وجل.

القول الثاني: أن معنى «يس» يا إنسان فـ«يا» حرف نداء على زعمهم، و«س» كلمة يعبر بها عن الإنسان.

وبعضهم أتى بغير ذلك أيضاً مما لا طائل تحته ولا دليل عليه، لكن يبقى النظر، هل نقول كما قال المؤلف: [الله أعلم بمراده] بجميع الحروف الهجائية التي ابتدأت بها السور، أو نقول: إنه لا معنى لها بمقتضى قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾. فإن مقتضى اللسان العربي المبين أن هذه الحروف ليس لها معنى، فإذا حكمنا بهذه القضية العامة ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ على كل كلمة أو حرف في القرآن الكريم فإننا نعلم أن «يس» ليس لها معنى بمقتضى اللسان العربي المبين، فـ«يا» حرف هجاء ليس له معنى، و«س» حرف هجاء ليس له معنى أيضاً، وهذا القول ذكره ابن كثير ـ رحمه الله ـ عن مجاهد ـ رحمه الله ـ وهو قول قوي، ويشهد له الآية التي استشهدت بها، إذن نقول: لا معنى لهذه الحروف.

فيرد علينا إشكال: إذا قلنا لا معنى لها، فكيف يأتي الله عز وجل في كتابه العظيم بكلام لغو لا معنى له؟

والجواب على هذا أن يقال: إن له مغزىً عظيماً، هذا المغزى هو أنكم أيها العرب الذين عجزتم عن معارضة القرآن والإتيان بمثله عجزتم عن ذلك، لا لأن القرآن أتى بحروف جديدة، أو كلمات جديدة، بل هو من الكلمات التي تكونون منها كلامكم، حروف هجائية، ولهذا قلَّ أن تجد سورة مبدوءة بهذه الحروف الهجائية إلا وبعدها ذكر القرآن، مما يدل على أن هذا هو المراد بها، وهذا ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وقبله الزمخشري أيضاً في تفسيره، وغيرهم من العلماء، على أن هذه حروف هجائية جيء بها لأجل إظهار عجز العرب عن معارضة هذا القرآن، مع أنه لم يأت بجديد في كلامهم.

﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ الواو للقسم فلها معنى، ولها عمل، عملها الجر، ومعناها التأكيد، والقسم: تأكيد الشيء بذكر معظم على صورة مخصوصة، ولابد أن يكون المحلوف به معظماً ولو تقديراً في ذهن المقسم، كأن المقسم المعظم يقول: بقدر تعظيمي لهذا الشيء وتأكدي منه وإثباتي له أؤكد المحلوف عليه. ولهذا لابد أن يكون المحلوف به معظماً، وإلا لكان الحلف لا فائدة منه. ثم قد يكون عظيماً في ذاته حقيقة، وقد يكون معظماً باعتبار المقسم به، فالذين يحلفون باللات والعزى يحلفون بمعظم لا بعظيم؛ لأنه معظم عندهم، لكنه ليس بعظيم في نفسه، والذين يقسمون بالله وآياته، يحلفون بعظيم وبمعظم في قلوبهم،

وهو معظم في نفسه. ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾، القرآن المراد هذا القرآن الذي نقرأه كلام الله عز وجل، وهو مشتق من قرأ بمعنى تلا لأنه متلو، أو من قرى بمعنى جمع؛ لأنه مجموع وجامع، فهو مشتق من المعنيين، من القراءة بمعنى التلاوة، ومن قرى بمعنى جمع، ومنه القرية لأنها مجتمع الناس، فالقرآن جامع بين المعنيين فهو متلو، وجامع ومجموع، كلمات مجموع بعضها إلى بعض، كلام جامع لكل ما فيه الخير والصلاح.

قوله: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ صفة للقرآن وهي بمعنى محكِم، أو بمعنى مُحْكَم، أو بمعنى حاكم كلها تحتمل، فالقرآن حاكم لأنه يجب الرجوع إليه ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1] ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2] على القول بأن القرآن مُحْكِم، لأنه متقن للأشياء ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[3] وكذلك أيضاً مُحْكَم؛ لأن الله تعالى أحكمه وأتقنه، فليس فيه تناقض ولا تعارض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[4] وهو أيضاً مشتمل على الحكمة، ففيه معنى الحكمة والحكم، وإذا كان حكيماً فإننا نعلم أنه:

أولاً: حكيم في ترتيبه، فكل آية إلى جنب الأخرى حتى وإن ظننا أنه لا ارتباط بينهما، فإنما ذلك إما لقصورنا أو

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٢.

لتقصيرنا، فمثلاً لو قال قائل: قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[1] جاء في سياق آيات العدد فما هو الارتباط؟

نقول: إنه لابد أن هناك حكمة، لكن قصرت أفهامنا عنها، أو قصرنا في التدبر لطلبها ومراجعة كتب أهل العلم.

ثانياً: حكيم في أحكامه، فأحكامه كلها عدل، موافقة للفطرة وللعقل الصريح، ولهذا لا تجد شيئاً من أحكام القرآن مناقضاً للفطرة أبداً، بل هو موافق للفطرة، ولا تجد شيئاً في القرآن يكذبه العقل، أو يحيله أبداً، بل إن العقل يقرر في الجملة ما جاء به القرآن.

ثالثاً: حكيم في أسلوبه يشتد في مواضع الشدة، ويلين في مواضع اللين، ويأتي بأساليب غريبة ما كانت معروفة في أساليب العرب، فبينما الآية سياقها خبري إذا بها تنتقل إلى سياق إنشائي من استفهام، أو نهي، أو أمر، أو ما أشبه ذلك، وكل هذا من الحكمة، بينما القرآن يتحدث بصيغة الغائب إذا به ينتقل إلى صيغة الحاضر، فينتقل من أسلوب إلى آخر، وهو ما يسمى بالالتفات، وأنواع هذا كثيرة في القرآن.

فالقرآن حكيم بكل معنى الحكمة، وبكل معنى الإحكام، وبكل معنى الحكم.

قال المؤلف ـ مقتصراً على واحد منها ـ: [المُحْكَم بعجيب النظم، وبديع المعاني]، فأتى بمعنى واحد من معاني الحكيم،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

ونحن ذكرنا أشياء: ذو حكمة، ومُحْكِم، ومُحْكَم، وحاكم، فذكرنا أنه حاكم، وذو حكمة وحكم وإحكام، فيشمل أعم مما قاله المؤلف.

وإقسام الله تعالى بكتابه العظيم أو بكتابه الحكيم يدل على عظم هذا القرآن وعلى عظم ما جاء به من الأحكام والحكمة والحُكم، ثم ذكر المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّكَ﴾ أي يا محمد ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ فأقسم الله تعالى بكتابه على أن محمداً ﷺ من المرسلين، وقوله: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ لأنه سبقه الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام، وأكملهم شريعة، جاء ليتم مكارم الأخلاق، وقد شبه النبي ﷺ رسالته برجل بنى قصراً وأشاده وبقي موضع لبنة، فصار الناس يطوفون به، ويتعجبون منه إلا موضع هذه اللبنة قال: «**فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين**»[1]، والجملة ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، وإن، واللام.

قال المؤلف: [﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ﴾ متعلق بما قبله]، الذي قبله ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾، مرسل اسم مفعول صالح للعمل؛ لأن يتعلق به المعمول، فالمعنى: «إنك لمن الذين أرسلوا على صراط مستقيم» لأن جميع الرسل على صراط مستقيم بلا شك، ولكن يحتمل وجهاً آخر أحسن مما قال المؤلف، وهو أن تكون ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾ خبراً ثانياً لـ(إن)، أي: إنك على صراط

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ (٣٥٣٥) ومسلم، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (٢٢) (٢٢٨٦).

مستقيم، وهذا أنسب، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1].

فالوجه الثاني في إعراب ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ أنها خبر ثان لـ (إن)، وقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ قال المؤلف: [أي طريق الأنبياء قبلك التوحيد والهدى، والتأكيد بالقسم وغيره رد لقول الكفار له: لست مرسلاً]، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلٗاۚ﴾[2] إذن فالكلام مطابق لمقتضى الحال؛ لأنه يخاطب المنكر، وقد سبق لنا في البلاغة أن للمخاطب ثلاث مراحل: أن يكون منكراً، أو أن يكون متردداً، أو أن لا يكون في ذهنه شيء لا إنكار ولا تردد، قالوا: فإن كان منكراً وجب تأكيد الخبر له، وإن كان متردداً حسن أن يؤكد له الخبر، وإن لم يكن في قلبه وذهنه شيء، فإنك تلقي إليه الخبر غير مؤكد هذا هو الأصل. فتخاطب إنساناً ليس في ذهنه شيء عن مدلول الخبر فألق الخبر إليه غير مؤكد، تقول: زيد قائم، وإذا كنت تخاطب متردداً في صحة الخبر فأكده له استحساناً، وإذا كنت تخاطب منكراً فإنه يجب أن تؤكد له الخبر. هذا هو الأصل، وقد يحذف التوكيد في موضع التوكيد، وقد يأتي التوكيد في غير موضع التوكيد لأسباب تعرف من السياق. فهنا الكفار يقولون: لست مرسلاً. فكان تأكيد خبر الرسالة لهم واجباً يعني مما توجبه البلاغة، والوجوب هنا ليس وجوب التكليف الذي يأثم بتركه، بل

---

(١) سورة الشورى، الآيتان: ٥٢، ٥٣.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٤٣.

وجوب من حيث البلاغة.

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الصراط فعال بمعنى مفعول؛ لأن فعالاً تأتي بمعنى مفعول كثيراً، كقولهم: بناء، وغراس، وفراش، بمعنى: مبني، مغروس، مفروش، فصراط فعال بمعنى مفعول أي: مصروط، والصراط: المرور بسرعة، ومنه قولهم: «صرط اللقمة» أي ابتلعها بسرعة، وفي اللهجة العامية عندنا نقول: «زرط» وهي لغة عربية في صراط، و«سراط» بالسين و«زراط» بالزاي فكلها لغة عربية، والصراط لا يكون صراطاً إلا إذا كان طريقاً واسعاً يتحمل طوائف يعبرون عليه، قالوا: أيضاً من صفاته أن يكون مستوياً ليس فيه طلوع ولا نزول ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ صفة له مؤكدة، أي: أنه لا اعوجاج فيه، ولا شك أن ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام صراط مستقيم، لأنه طريق واسع يسع كل الأمة منذ بعث إلى أن تقوم الساعة لا يمكن أن يضيق، وهو أيضاً صراط واسع لا يمكن أبداً أن يضيق عن الأحكام الشرعية، فكل حادثة تنزل منذ بعث الرسول ﷺ إلى يوم القيامة لابد أن يوجد حل لمشكلتها ـ إن كانت مشكلة ـ فيما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، ولذلك نقول: إن هذا الشرع في القرآن والسنة كامل لا يحتاج إلى تكميل، وهو أيضاً واسع لا يمكن أن يضيق بأي جزئية تقع إلى يوم القيامة، إذن ليس هناك مشكل في الشريعة، لكن الإشكال إنما يأتي من قبل الناس: إما لقصور في الفهم، أو لتقصير في طلب العلم والهدى، أو الأشياء رانت على قلوبهم فأظلمتها حتى لا تبصر الحق، فقد يكون

الإنسان غير مقصر ولا قاصر، عنده فهم قوي، وعنده آلة قوية وعلم، لكن يكون على قلبه ذنوب تحول بينه وبين رؤية الصواب، ولهذا ينبغي للإنسان إذا أشكل عليه مسألة من المسائل بعد المراجعة والتتبع لكلام أهل العلم أن يكثر من الاستغفار؛ لأن الاستغفار يمحو الله به الخطايا فيكون القلب مستنيراً، وربما يستنبط هذا من قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾[1] ويستدل له أيضاً بقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[2]. فالذنوب منعت القلوب أن ترى أحقية هذا الكتاب حتى قال القائل: إنها ﴿أساطير الأولين﴾ فهذا الدين صراط مستقيم واسع، يسع جميع الناس إذا دخلوه، وواسع يشمل جميع أحكام الحوادث والنوازل منذ بعث الرسول ﷺ إلى أن تقوم الساعة، ولكن الإشكال الذي يكون إما من قصورنا، أو تقصيرنا، أو من أمور رانت على القلوب فلا ترى الحق.

*** في الآيات الكريمات فوائد منها:**

١ ـ بيان أن هذا القرآن الذي أعجز البشر لم يكن بدعاً من لسانهم، وإنما من الحروف التي يركبون منها كلامهم، يشير إلى هذا قوله: ﴿يسٓ ﴿١﴾﴾ ولهذا لا تأتي هذه الحروف الهجائية في أول السورة إلا وجدت بعدها ذكر القرآن في الغالب.

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٠٥، ١٠٦.

(٢) سورة المطففين، الآيتان: ١٣، ١٤.

٢ ـ ومن فوائدها: عظمة القرآن العظيم؛ لأن الله تعالى أقسم به، ولا يقسم إلا بشيء معظم. والقرآن الكريم عظيم في نفسه.

٣ ـ ومن فوائدها: الثناء على القرآن بأنه حكيم على الوجوه الثلاثة التي ذكرناها عند قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

٤ ـ من فوائدها: العناية بإثبات رسالة النبي ﷺ؛ لأن الله تعالى أقسم عليها، وأكدها زيادة على القسم بإن واللام.

٥ ـ ثبوت رسالة النبي ﷺ فمن أنكرها فهو كافر؛ لأنه مكذب لله، ورسوله، وإجماع المسلمين.

٦ ـ من فوائدها: إثبات الرسل وأن ثمة رسلاً غير محمد ﷺ لقوله هنا: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ ولهذا قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[1] يعني لست أول رسول فإنه ﷺ قد سبقه رسل من قبله.

٧ ـ من فوائدها: أن ما جاء به النبي ﷺ من الشرع فهو الصراط المستقيم، لقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾ والصراط المخالف للشرع فيه من العوج والشر بمقدار ما خالف شريعة النبي ﷺ.

* * *

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ ﴿تَنزِيلَ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو. أي: القرآن تنزيل العزيز الرحيم، وتنزيل مصدر نزل ينزل، والقرآن منزَّل يعني ينزل شيئاً فشيئاً كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٩.

﴿فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾[١] فإنه ينزل شيئاً فشيئاً، ويعبر أحياناً عن القرآن بأنه أنزل باعتبار نهايته، فإنه باعتبار النهاية يكون نزل كله، وباعتبار التدريج في تنزيله يكون منزلاً، وهكذا في القرآن نزول المطر، أحياناً يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾[٢] وأحياناً يقول: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[٣] فباعتبار أن المطر ينزل شيئاً فشيئاً يقال: «نزلنا» وباعتبار النهاية واجتماعه كله يقال: «أنزلنا» وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ قال المؤلف: [في ملكه] يعني الغالب في ملكه الذي لا يغلب فيه، وقد مر علينا في باب العقيدة أن العزيز من أسماء الله، وأن العزة لها ثلاثة معانٍ: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع.

فعزة القدر بمعنى أنه ذو قدر عظيم رفيع، وعزة القهر بمعنى أنه قاهر غالب، وعزة الامتناع أي أنه قوي لا يناله شيء، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

وهو العزيز فلن يرام جنابه
أنى يرام جناب ذي السلطان

فالله عز وجل عزيز ممتنع أن يناله السوء، ومنه (الأرض العزاز) لقوتها وشدتها فقول المؤلف: [العزيز: في ملكه] فيه قصور، قال المؤلف: [الرحيم: بخلقه] وهنا نقول: إن الرحيم عامة، لأنها لم تقيد، فالمراد به الرحمة العامة، فالله سبحانه

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.
(٢) سورة ق، الآية: ٩.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١٧.

وتعالى رحيم بخلقه كلهم، ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[١] حتى الكافر يرزقه الله تعالى العقل، والصحة، والأولاد، والمال، والأزواج، لكن هذه رحمة عامة، أما الرحمة الخاصة بالمؤمنين ففي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾[٢] وهنا أضاف تنزيل القرآن إلى هذين الاسمين، ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إشارة إلى وجوب العمل بما جاء في القرآن، وأن من لم يعمل به فإن أمامه العزيز الذي يأخذه أخذ عزيز مقتدر، والرحيم إشارة إلى أن هذا القرآن إنزاله من مقتضى رحمته ـ سبحانه وتعالى ـ بخلقه؛ لأن الله تعالى ما رحم خلقه رحمة أعظم من إنزال القرآن الكريم؛ لأن به الحياة القلبية والبدنية، والفردية والاجتماعية، ففيه تهديد للذين يخالفون هذا القرآن بأنه نزل من عند عزيز ينتقم ممن خالفه. ورحيم: إشارة إلى أن هذا القرآن من مقتضى رحمته سبحانه وتعالى، قال المؤلف رحمه الله: [خبر مبتدأ مقدر، أي: القرآن] يعني بخبر مبتدأ مقدر ﴿تنزيلُ﴾ بالرفع أي: القرآن، والتقدير: القرآن تنزيلُ العزيز الرحيم، وفي قراءة سبعية ﴿تنزيلَ العزيز الرحيم﴾ وعلى هذه القراءة يكون منصوباً على أنه مصدر عامله محذوف، يعني نزل تنزيل العزيز الرحيم.

*** الفوائد:**

١ ـ أن القرآن منزل من عند الله لقوله: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ

---

(١) سورة هود، الآية: ٦.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٣.

ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾.

٢ ـ يستفاد منها أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

٣ ـ إثبات علو الله لقوله: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ﴾ والنزول لا يكون إلا من أعلى، وعلو الله عز وجل دل عليه الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة، كل هذه الأنواع الخمسة من الأدلة دلت على علو الله عز وجل.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات العزيز والرحيم اسمين من أسماء الله، وإثبات ما تضمناه من الوصف، وما تضمنه الرحيم من الأثر وهو الحكم، والعزيز في بعض معانيه وهو الغالب.

٥ ـ ومن فوائد الآية: إنذار المخالفين لهذا القرآن وذلك بإضافة ﴿تَنزِيلَ﴾ إلى العزيز؛ لأنه إذا قيل: جاء هذا من عزيز، دل على إنذار من خالفه وتحذيره، فيكون في هذا الإنذار والتحذير من مخالفة هذا المنزل؛ لأنه نزل من عزيز.

٦ ـ أن القرآن بل أن الشرع كله من آثار رحمة الله لقوله: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾.

فإن قلت: أين الرحمة في قطع يد السارق؟ وفي رجم الزاني المحصن؟ وفي قتل القاتل؟ وما أشبه ذلك.

فالجواب: أن الرحمة في ذلك واضحة جداً، فقطع يد السارق فيها رحمة بالسارق وغيره، رحمة بالسارق لتردعه عن السرقة مرة أخرى، ولتكون كفارة لذنبه؛ لأن الحدود كفارة، يكفر بها عن فاعلها، وفيها أيضاً إصلاح المجتمع وحمايته من

الفوضى، فهذه رحمة، وكذلك نقول في بقية الحدود والقصاص إنه من رحمة الله عز وجل.

* * *

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ قال المؤلف: [﴿لِتُنذِرَ﴾ به ﴿قَوْمًا﴾ متعلق بتنزيل]. ﴿لِتُنذِرَ﴾ اللام هذه تسمى لام التعليل، والفعل بعدها منصوب باللام، وعلى مذهب البصريين منصوب بأن مضمرة بعد اللام، وعلى كل حال فهي تحتاج إلى متعلق، ومتعلقها قوله: ﴿تَنزِيلَ﴾ يعني إنما نزل لتنذر قوماً ما أُنذر آباؤهم فهم غافلون. «تنذر»: قال العلماء: الإنذار هو الإخبار المقرون بالتخويف، أو المتضمن للتخويف، فالإنسان مثلاً يأتي إلى قوم يصيح بهم: العدو، العدو. يقال: هذا منذر ونذير، فالنذير عن شيء يخوف، فهو إعلام متضمن للتخويف، هذا القرآن أنزله الله عز وجل لينذر النبي ﷺ به ﴿قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أي: لم ينذروا في زمن الفترة وعلى هذا فـ(ما) نافية، يعني: لتنذر قوماً لم ينذروا ولم يخوفوا، لكن هذا في زمن الفترة، وأما قبل فقد أنذروا بواسطة إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فإنه مرسل إلى العرب إلى قومه، وبعد ذلك لم ينذر هؤلاء، قال بعض المعربين الذين يجمعون الأقوال ـ صحت أو لم تصح أي أنهم يقولون أي احتمال ـ قالوا: ويجوز أن تكون «ما» موصولة، أي: (لتنذر قوماً الذي أنذره آباؤهم) فيجعلون ما موصولة، ويجعلون العائد محذوفاً تقديره (الذي أُنذره آباؤهم) أي: لتنذرهم الذي أُنذره آباؤهم، ولكن هذا وإن كان محتملاً من

قبل اللفظ، لكن بعيد من جهة المعنى، لأن الآيات الكثيرة المتعددة تدل على أن قريشاً الذين بعث فيهم النبي محمد ﷺ لم يُنذر آباؤهم، ومنه قوله تعالى في سورة «الم» السجدة: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾[1] وهذا صريح في أن «ما» هنا للنفي لا غير. قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [﴿فَهُمْ﴾ أي: القوم ﴿غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ عن الإيمان والرشد] غافلون لأنهم ما أتاهم نذير، ومعلوم أن النذر توجب حياة القلوب والانتباه، ولهذا تجد الإنسان نفسه إذا لم يأته واعظ يغفل وتكثر فيه الغفلة، فإذا أتاه واعظ فكأنما أيقظه من نوم، هؤلاء لما تطاول عليهم الأمد ولم يأتهم نذير، غفلوا وكأنهم ما خلقوا لعبادة الله، وجعلوا لهم أصناماً يعبدونها من دون الله، ويركعون لها، ويسجدون، وينذرون ويوفون، فهم غافلون لعدم من يوقظهم، ولكن من هؤلاء الذين في زمن الفترة من عنده علم من الرسالة لكنه عاند وبقي على ما كان عليه آباؤه، كالذين شهد لهم النبي ﷺ بالنار، فالذين شهد لهم النبي ﷺ بالنار نعلم علم اليقين أن هؤلاء قد قامت عليهم الحجة ولولا ذلك ما كانوا من أهل النار، فأهل الفترة نوعان:

نوع علمنا من شهادة النبي ﷺ أنه قد بلغتهم الرسالة لحكم الرسول ﷺ عليهم بأنهم من أهل النار.

ونوع لا ندري عنهم شيئاً، فالواجب علينا أن نتوقف في أمرهم، وأن نقول: الله أعلم بما كانوا عاملين.

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٣.

وأصح الأقوال فيهم أنهم ممتحنون يوم القيامة بتكاليف الله أعلم بها، فمن أطاع منهم دخل الجنة، ومن عصى دخل النار.

* * *

*** الفوائد:**

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن الرسول ﷺ منذر، أي معلم إعلاماً يتضمن التخويف.

فإن قيل: وهل هو مبشِّر؟

فالجواب: نعم، مبشر، ولكن لم ذكر هنا ذكر الإنذار دون البشارة؟ والجواب على ذلك أن يقال: إما لأن المقام يقتضي ذلك، لأنه يخاطب قوماً طاغين، فالأليق في حقهم الإنذار والتخويف؛ لأنهم مخالفون وطاغون.

وإما أن يقال: إن هذا من باب ذكر أحد المتقابلين استغناء بذكره عن ذكر الآخر كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾[1] يعني والبرد.

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن النبي ﷺ مرسل إلى العرب خاصة لقوله: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾، وهي نكرة مقصودة، والذين ما أنذر آباؤهم هم العرب، إذن اليهود والنصارى ما أرسل إليه لأنهم أنذر آباؤهم، ولكن نقول: إن الآيات الأخرى تدل على عموم رسالته ﷺ مثل قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[2] ومثل قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ

---

(١) سورة النحل، الآية: ٨١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾[١] وكقوله ﷺ: «**بعثت إلى الناس كافَّة**»[٢] والنصوص في هذا كثيرة متوافرة، ومن كذَّبها فقد كذب رسالته إلى العرب أيضاً؛ لأن الجنس واحد.

لكن قد يقال: لماذا خص العرب؟

فيقال: خصهم لأمرين:

الأول: أنه منهم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[٣].

والثاني: أنه باشر دعوتهم بنفسه، وهدى الله العرب على يديه قبل موته، ثم انتشرت رسالته في الآفاق، وقد ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ هنا قاعدة وهي: «أن ذكر بعض أفراد العام بحكم يوافقه لا يقتضي التخصيص» كما ذكر ذلك أهل الأصول كالشنقيطي ـ رحمه الله ـ في تفسيره وغيره، وأن هذا هو رأي الجمهور، وهو الحق، فذكر بعض أفراد العام بحكم لا يقتضي التخصيص إذا كان يطابق حكم العام، فإذا قلت: أكرم الطلبة. ثم قلت: أكرم زيداً. وهو منهم، فإنه لا يقتضي تخصيص الإكرام به؛ لأن الحكم هنا موافق للحكم العام، وذكر بعض أفراد العام بحكم يوافق العام ليس تخصيصاً له.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: سب هؤلاء الذين غفلوا عن الرسالات لقوله: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾ وأن الغفلة عن البحث عن

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» (٤٣٨) ومسلم، كتاب المساجد، باب المساجد ومواضع الصلاة ٥ (٥٢٣).

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٢.

الرسالة يعتبر ذمًّا، وكذلك نقول فيمن غفل عن البحث في جزئيات الشريعة، فمثلاً من غفل عن البحث في أحكام الصلاة فإنه يذم، ومن غفل عن البحث في أحكام الزكاة وهو يحتاج لذلك نقول: إنه يذم، ولهذا نقول: إن تعلم العلم الشرعي فرض كفاية، ومن أراد أن يقوم بعبادة من العبادات كان تعلم أحكامها فرض عين، وبناء على هذا نقول: كل طلبة العلم في كل مكان قائمون بفرض كفاية، ولهذا يحسن بهم أن يستحضروا هذا الأمر، وأننا في مجالسنا هذه نقوم بفرض كفاية نثاب عليه ثواب الفرض، وقد قال الله تعالى: «**ما تقرب إلي عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افترضته عليه**»[1] . وهذه مسألة يغفل عنها كثير من الطلبة، لا في المجالس الذكر والعلم ولا في المجالس الأخرى مجالس المراجعة، تجد الإنسان يراجع الكتاب لكنه لا يستحضر أنه الآن قائم بفرض كفاية، وهذا يفوت خيراً كثيراً، لهذا نسأل الله أن يعيننا على تذكر هذا المعنى حتى نكسب خيراً بما نقرأه أو نراجعه.

٤ ـ ومن فوائد الآية: إثبات الحكمة لله المستفاد من قوله ﴿لِتُنذِرَ﴾.

* * *

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾ اللام موطئة للقسم، أي: أنها تدل على أن هناك قسماً محذوفاً تقديره: والله لقد حق. و«قد» للتحقيق، وعليه فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المحذوف، واللام، وقد، وهذا التركيب يأتي في القرآن

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع (٦٥٠٢).

كثيراً وطريقه ما أشرنا إليه. ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ أي وجب ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ هو القول بالعذاب كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾[1]. في الآية الأخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾[2] فمن حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يمكن أن يهتدي مهما أوتي من آية، ولكن لا تحق كلمة العذاب إلا على من استحقها حتى لا يقال: إن الله تعالى قد أجبره على العمل، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[3] والله عز وجل ينظر في قلوب العباد فمن كان أهلاً للهداية هداه، ومن لم يكن أهلاً لها لم يهده، فمن حقت عليه الكلمة لما في قلبه من الزيغ ـ والعياذ بالله ـ فإنه لا يؤمن، وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ يعني على أكثر الذين بعث إليهم الرسول عليه الصلاة والسلام من العرب، وليس على كلهم، ولذا فقد كذب النبي ﷺ من قريش أمم كثيرة وماتوا على الكفر، ولاسيما الصناديد منهم والأشراف، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾ (هم) الضمير يعود على أكثر، لا على «الهاء» في ﴿فَهُمْ﴾ ﴿فهم﴾ أي: الأكثر لا يؤمنون؛ حتى وإن جئت بالآيات العظيمة البينة فهم لا يؤمنون، لأنهم حقت عليهم كلمة العذاب.

*** الفوائد:**

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: تأكيد الخبر الهام وإن لم يكن

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٣.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦.

(٣) سورة الصف، الآية: ٥.

المخاطب منكراً؛ لأن الله سبحانه هنا يخبر النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وهم لا ينكرون ذلك، لكن لأهميته أُكد.

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن من حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يؤمن، كما في قوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾[1] أي فقد ثبت أنه في النار فلا تنقذه.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن من قريش الذين كذبوا الرسول ﷺ من لم تحق عليه الكلمة فيؤمن لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: الإشارة إلى أنه ينبغي بل يجب على الإنسان اللجوء إلى الله عز وجل؛ لأنه هو الذي بيده ملكوت السمـٰوات والأرض، فلا تعتمد على ما في قلبك من رسوخ الإيمان مثلاً، وتعتقد أنه لن يتسلط عليك الشيطان، ولن يتسرب إليك هوى النفس الأمارة بالسوء، بل كن دائماً لاجئاً إلى الله تعالى سائلاً الثبات لقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ فالأمر كله بيد الله.

* * *

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ أي: صيرنا، ولهذا نصبت مفعولين، المفعول الأول: أغلالاً، والمفعول الثاني: مقدم، ﴿فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ﴾ وقوله: ﴿أَغْلَـٰلًا﴾ الغل يكون باليد، كما قال تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾[2]

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

وهنا قال: ﴿فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ فمعناه أن اليد سوف تشد إلى العنق، ولهذا قال المؤلف: [بأن تضم إليها الأيدي؛ لأن الغل يجمع اليد إلى العنق، ﴿فَهِيَ﴾ أي: الأيدي مجموعة ﴿إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾]، قوله: «مجموعة» أخذها من قوله: ﴿إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾ ويجوز أن نقدر بدل «مجموعة» منتهية أو بالغة ﴿إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾ جمع ذقن، وهو مجمع اللحيين، واللحيان هما العظمان اللذان عليهما الأسنان، ومجمعها يسمى الذقن، ﴿فَهُم مُّقۡمَحُونَ ٨﴾ يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: [رافعون رؤوسهم]، والأحسن أن يقال: مرفوعو الرؤوس، لأن اليد مغلولة إلى العنق تضيق على الذقن، ثم يرتفع الرأس قال: [رافعون رؤوسهم لا يستطيعون خفضها] لو تصورت هذه الصورة لوجدتها صورة بشعة، وأن الإنسان لا يتمكن معها من التصرف الحر، رجل مشدودة يداه بعضها إلى بعض ثم مجموعة إلى العنق من عند الذقن، إذن لابد أن يرتفع رأسه اضطراراً، وزاد بعض العلماء في القبح أنها مغمضة أجفانهم؛ لأنه إذا ارتفع رأسه باضطرار فإن من تمام الذل أن يغمض عينيه، ولكن صنيع المؤلف يدل على أنه ليس بشرط، فالمهم أنك إذا تصورت هذه الحال عرفت أن هؤلاء لا تصرف لهم في أنفسهم، وأنهم لا يستطيعون أن يتصرفوا بأخذ ولا رد بالنسبة لأيديهم، وبالنسبة لرؤوسهم لا يستطيعون تنزيلها، فهي دائماً مرفوعة، وهذا تمثيل لحال هؤلاء المكذبين كما قال المؤلف: [وهذا تمثيل، والمراد أنهم لا يذعنون للإيمان، ولا يخفضون رؤوسهم له].

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ قال المؤلف: ﴿سَدًّا﴾ [بفتح السين وضمها في الموضعين]، قراءتان سبعيتان، أي: سُداً وسَدّاً ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ أي أغشينا أبصارهم، جعلنا عليها غشاوة بحيث لا تبصر، ولهذا قال المؤلف: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [تمثيل أيضاً لسد طرق الإيمان عليهم] ليس هناك سد حقيقي كالجدار مثلاً، أو ثوب ساتر بل هذا من باب التمثيل، كأنهم لبعدهم عن الإيمان ـ والعياذ بالله ـ وانحجاب رؤيتهم إياه كأنهم جعل بينهم وبينه سد من بين أيديهم فلا يتقدمون، ومن خلفهم فلا يتأخرون، فهم ثابتون على الكفر لا يتقدمون ولا يتأخرون، ومع ذلك فإن أبصارهم عليها غشاوة لا تبصر الحق ولا تنظر إليه ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ فتأمل أيضاً حالهم الآن، أيديهم مغلولة إلى أعناقهم من تحت الأذقان وهم رافعون رؤوسهم، ومع ذلك بينهم وبين الإيمان سد من الأمام ومن الخلف، فهم لا يستطيعون أن يصلوا إلى الإيمان، ولا أن يصل إليهم الإيمان.

فنستفيد من هاتين الآيتين الكريمتين فوائد:

١ ـ أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يحجب الإيمان عن الشخص جعله كالمغلولة يده إلى عنقه لقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾.

٢ ـ أن هذا الذي جعلت يده إلى عنقه على سبيل الغل كأنه مكره أن يكون على هذه الحال، وهكذا الشيطان يوسوس للإنسان حتى يوقعه في الهلاك كأنه مكره على ذلك، ألم تروا إلى ما جرى

للأبوين حين جاء إليهما الشيطان ووسوس إليهما، ولم يكتفِ بمجرد الوسواس بل قاسمهما وصار يحلف لهما بشتى الأيمان أنه ناصح، فهكذا الشيطان يأتي الإنسان حتى يغويه.

٣ ـ ومن فوائد الآيتين الكريمتين: أن هؤلاء قد حجب عنهم الهدى، لا يتقدمون إليه ولا يتأخرون عنه.

٤ ـ ومن فوائدها أيضاً: أن أبصارهم قد أغشيت وجعل عليها الغشاوة فلا تنظر.

٥ ـ ومن فوائد الآيتين: تحذير الإنسان إذا لم ينفتح له باب الهدى أن يكون من جنس أولئك، فإذا رأيت نفسك لا تعلم الهدى ولا تعرفه وحيل بينك وبينه فاعلم أنك على خطر، وإذا رأيت من نفسك أن الهدى ينفتح لك ويتبين، وينشرح به صدرك فاعلم أنك على خير، نحن نقيس هذا بحال هؤلاء جعل السد من بين أيديهم ومن خلفهم وصاروا لا يبصرون الحق، فإذا رأيت من نفسك هذه الحال فاعلم أنك على خطر فتداركها.

٦ ـ إن من بلاغة القرآن الكريم تمثيل المعقول بالمحسوس.

* * *

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠ ﴾ ﴿ وَسَوَآءٌ ﴾ خبر مقدم بمعنى مستوٍ، و﴿ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ ﴾ مبتدأ مؤخر مسبوك بمصدر، وإن لم تكن الهمزة من الحروف المصدرية لكن في مثل هذا التركيب قال العلماء: إنها تسبك وما بعدها بمصدر، وتقدير الكلام: «وإنذارك وعدمه سواء عليهم» ﴿ وَسَوَآءٌ ﴾ هنا لم يقل

فيها: «سواءان» لأنها مصدر، والمصدر لا يثنى ولا يجمع. قال المؤلف في بيان القراءة في قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ [بتحقيق الهمزتين، وإبدال الثانية ألفاً وتسهيلها، وأدخال ألف بين المسهلة والأخرى وتركه]، إدخال ألف بين المسهلة والأخرى، يعني على قراءة التسهيل تجعل فيها ألفاً أو تحذف الألف إدخال الألف بين الهمزة المحققة والمسهلة ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ تمد الأولى وتسهل الثانية فيكون عندنا ثلاثة حروف: الهمزة الأولى محققة، والألف، والهمزة الثانية مسهلة، وتركه كما قلناه في الأول بدون ألف ستحقق الأولى وتسهل الثانية بدون ألف. هذه القراءة سبعية؛ لأن المؤلف من عادته إذا جاءت قراءة شاذة غير سبعية يقول: (وقُرِئت)، وعلى كل حال هذا لا يختلف فيه المعنى، إنما هو في كيفية الأداء أما المعنى فلا يختلف.

والمعنى أن إنذارك وعدمه لهؤلاء سواء، ثم بين وجه التسوية فقال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾ هذا معنى التسوية، يعني معناه: أنذرت أم لم تنذر فإنهم لا يؤمنون، ولهذا فالجملة هنا استئنافية بيان للجملة الأولى، يعني أنهم لا يؤمنون سواء أنذرت أم لم تنذر، وهذا أمر مشاهد أن الإنسان الذي قد قضي عليه بالضلالة ـ والعياذ بالله ـ تأتي وتنصحه مرة بعد أخرى وتبين له وتحذره ولكن لا يزداد إلا نفوراً ـ والعياذ بالله ـ حتى إن بعض الناس يسخر ويستهزىء، فعلى كل حال هذا الذي ينذر ولا يتأثر بالإنذار يخشى عليه، كما أسلفنا من أن يكون قد طبع على قلبه وأنه لا يؤمن أبداً.

*** الفوائد:**

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء المكذبين للرسول عليه الصلاة والسلام لا يبالون ولا تتغير حالهم، سواء أنذرهم أم لم ينذرهم.

٢ ـ ومن فوائدها: تسلية النبي ﷺ حيث إنه يتأثر بعدم الإيمان فسلاه سبحانه وتعالى بأن هؤلاء قد حقت عليهم كلمة العذاب، وأنهم لا يؤمنون، سواء أأنذرت أم لم تنذر. والرسول ﷺ إذا لم يهتد الناس فإنه يشق عليه ذلك ويضيق به صدره، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾[1] أي لعلك مهلكها إذ لم يؤمنوا، وهذا ليس عليه.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الرسول ﷺ كان ينذرهم مع أنه قد أيس منهم، فيستفاد منه الإنذار حتى وإن يئست، وهذا أحد القولين في المسألة، فإن من أهل العلم من يقول: إذا أيست فلا تنذر ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾[2] وإن لم تنفع فلا تذكر.

وقال بعض العلماء: بل تذكر وتنذر، سواء نفع أم لم ينفع، بل يقولون: إنه لا يخلو من النفع مهما كان؛ لأن أقل ما فيها من النفع أن يتبين للناس أن العمل الذي عليه هذا الرجل منكر، ولأنه ربما يهديه الله عز وجل، فكم من أناس كانوا أئمة في الكفر ثم هداهم الله عز وجل فكانوا أئمة في الدين.

٤ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء قد حقت عليهم كلمة

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٣.

(٢) سورة الأعلى، الآية: ٩.

العذاب، ومن حقت عليه الكلمة فلا يمكن أن يؤمن، سواء أنذر أم لم ينذر.

٥ ـ أن الأمر كله بيد الله عز وجل، فهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ولكن هذا مقرون بالحكمة، فمن اقتضت حكمة الله عز وجل أن يهتدي هداه الله، ومن اقتضت حكمته أن يضل أضله الله، وهذا مبني على قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[1] وحينئذ يكون حرمان الله الهداية للشخص، يكون الشخص هو السبب في حرمان نفسه الهداية؛ لأنه ليس أهلاً لها، فالله عز وجل ينظر في قلوب العباد من وجد في قلبه صلاحية للهدى هداه، ومن وجد في قلبه عدم الصلاحية لم يهده، فأصل بلائك من نفسك.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الضال ـ والعياذ بالله ـ الذي كتبت عليه الضلالة لا يبصر الحق وإن كان الحق بيناً واضحاً فإنه لا يبصره، يكون على بصره غشاوة، كما أنه لا يعقله أيضاً لقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[2] الذي يعتقد أن القرآن أساطير الأولين وأنه لا يفيد، وأنه بمنزلة سواليف العجائز، يرى هذه الرؤية في كتاب الله عز وجل، لأنه فاسد القلب، قلبه قد ران عليه ما كان يكسبه من الأعمال السيئة فلم ير الحق حقًّا.

ومن يكُ ذا فم مر مريض ... يجد مراً به الماء الزلالا

---

(١) سورة الصف، الآية: ٥.

(٢) سورة المطففين، الآيتان: ١٣، ١٤.

الماء الزلال الصافي الحلو العذب يجده المريض مرًّا، فإذا مرض الإنسان ذاق الماء الذي كان عذباً في مذاقه من قبل يجده الآن مرًّا، لا لأن الماء مر، ولكن لأن المحل غير قابل، فيجد هذه العذوبة مرارة.

* * *

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ قال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ هذه الجملة فيها حصر طريقه: «إنما» والتقدير: «لا تنذر إلا من اتبع الذكر» وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ المراد بذلك إنما تنذر الإنذار النافع، كأنه قال: لا ينتفع بإنذارك إلا من اتبع الذكر، ولهذا قال المؤلف: [ينفع إنذارك من اتبع الذكر: القرآن].

والمراد بالاتباع في قوله: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ المراد باتباع الذكر شيئان:

الشيء الأول: تصديق الخبر، واعتقاد مقتضاه.

والثاني: امتثال الأمر، واجتناب النهي.

هذا اتباع الذكر فمن استكبر عما فيه من الأمر، أو النهي فإنه لم يتبعه، ومن لم يصدق بأخباره فإنه لم يتبعه، فلا يتحقق اتباع الذكر إلا بهذين الأمرين: تصديق الأخبار، واتباع الأحكام: فعلاً للمأمور وتركاً للمحظور، وقوله: ﴿ٱلذِّكْرَ﴾ المراد به القرآن، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾[1] وسمي القرآن ذكراً:

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

أولاً: لما فيه من التذكير والموعظة: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[1].

ثانياً: لما فيه من ذكر الأخبار الماضية، وقصص الأنبياء الغابرة المفيدة للقلب، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2].

ثالثاً: لما فيه من ذكر أحوال الناس في الجزاء يوم القيامة، وأنهم ينقسمون إلى: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

رابعاً: لما فيه من ذكر العرب ورفع شأنهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[3] فإن القرآن لا شك رفع من شأن العرب، وجعلهم هم الأمة الذين ترجع إليهم الأمم، فإن الأمم كلها لم تهتد إلا عن طريق العرب، ففي هذا رفع لشأنهم وعز لمكانتهم، فالقرآن جاء بلغتهم، ووصل إلى الناس عن طريقهم.

خامساً: ذكر شريعة الله وأحكامه من الأوامر والنواهي، لأن هذا هو عديل أخبار الأمم السابقة، وأخبار الناس في المستقبل. فلهذا سمي القرآن ذكراً.

قال الله عز وجل: ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ «خشي»: يقول المؤلف: [خافه ولم يره]، وعليه فهذا من باب الحد اللفظي؛ لأنه فسر بمرادفه، فتفسير الشيء بمرادفه يسمى حدًّا لفظيًّا، فإذا

---

(١) سورة القمر، الآية: ١٧.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١١١.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.

قلت: القمح هو البر. فهذا حد لفظي، وتفسير الخشية بالخوف فيه نظر؛ لأن هذا الحد غير مانع؛ لأن الخشية ليست مجرد الخوف، بل الخشية هي: الخوف عن علم بالمخوف وعظمته، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[1] فالخوف قد لا يكون لعظمة المخوف، ولكن لضعف الخائف. لكن الخشية لا تكون إلا لعظمة المخوف إذا عرفها الخاشي عظم هذا المخشي فخشيه، إذن بينهما فرق، فتفسير الخشية بمطلق الخوف فيه نظر، والصواب أن يقال: الخشية هي الخوف عن علم بعظمة المخوف، فالخشية ناشئة عن تعظيم المخشي، أما الخوف فقد يكون ناشئاً عن ذلك، وقد يكون ناشئاً عن ضعف الخائف.

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ اختيار هذا الاسم هنا دون ذكر لفظ الجلالة (الله) عز وجل؛ لأن الإنسان الذي يخشى الله تعالى يخافه عن علم، فطمأن الله الخائف والخاشي بأنه إنما يخشى رحماناً يرحمه، فكلما عظمت خشيتك لله عظمت رحمة الله بك؛ لأن الله ـ عز وجل ـ إذا خافه الإنسان وخشيه، فإنه يرحمه؛ لأنه ما من إنسان يخشى الله حقيقة إلا سيقوم بأوامره، ويجتنب نواهيه، وحينئذ يكون متعرضاً للرحمة، هذه المناسة لذكر الرحمن دون ذكر لفظ الجلالة: (الله) والله أعلم.

وقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ قال المؤلف: (ولم يره) كأنه يفسر أن المراد بالغيب: أنه يخشى الله مع غيبة الله عنه، فيكون بالغيب حالاً من المخشي، يعني يخشى الله والله غائب عنه، هذا أحد

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

الوجهين في الآية.

الوجه الثاني: يخشى الله بالغيب، أي: يخشى الله في حال الغيبة عن الناس، يخشى الله في قلبه في عمل غائب لا يغفل، فيكون بالغيب حالاً من الخاشي، يعني أن هذا الإنسان الذي أنذرته وانتفع بإنذارك هو الذي اتبع الذكر وخشي الله بالغيب حال كونه غائباً عن الناس، خشي الله بالغيب أي بالعمل الغائب، وهذه هي الخشية الحقيقية؛ لأن خشية الله تعالى في العلانية قد يكون سببها مراءاة الناس ،ويكون في هذه الخشية شيء من الشرك؛ لأنه يرائي بها، ولكن إذا كان يخشى الله في مكان لا يطلع عليه إلا الله فهذا هو الخاشي حقيقة، وكم من إنسان عند الناس لا يفعل المعاصي ولكن فيما بينه وبين نفسه يتهاون بها. فهذا خشي الناس في الحقيقة ولم يخش الله عز وجل؛ لأن الذي يخشى الله لابد أن يقوم بقلبه تعظيم الله سبحانه وتعالى سواء بحضرة الناس، أو بغيبة الناس، أيضاً يخشى الله بالغيب أي بما غاب عن الأبصار نظراً، وعن الأذان سمعاً، وهو خشية القلب، وخشية القلب أعظم ملاحظة من خشية الجوارح. لأن الذي يخشى الله بقلبه يكون مراقباً لله عز وجل ولحقه أكثر، فيجب أن تراقب خشية القلب أكثر مما تراقب خشية الجوارح، إذ خشية الجوارح بإمكان كل إنسان أن يقوم بها حتى في بيته، فكل إنسان يستطيع أن يقوم يصلي ولا يتحرك، ينظر إلى موضع سجوده، يرفع يديه في موضع الرفع، يعني يستقيم استقامة تامة في ظاهر الصلاة، لكن القلب غافل. أما خشية القلب فهي الأصل، وهي التي يجب أن يراقبها الإنسان

ويحرص عليها حرصاً تامًّا، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ إذاً الراجح من القولين أن قوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ يعود على الخاشي أي يخشى الله تعالى غائباً عن الخلق، ويخشى الله تعالى بخشية غائبة لا تظهر للعيون، ولا تسمعها الآذان، وهي خشية القلب.

أما قول المؤلف: [ولم يره] واعتبر أن الغيب هنا حال من المخشي، فهذا فيه نظر؛ لأن الله عز وجل لا يُرى في الدنيا، ولكن آياته البينة الظاهرة كأن الإنسان يرى ربه، ولهذا قال النبي ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١). فآيات الله سواءً الآيات الكونية، أو الآيات الشرعية كلما تأمل فيها الإنسان ظهر له بها وجود الخالق، وظهر له كل ما تضمنته هذه الآيات من صفاته، ظهوراً بيناً كأنما يشاهد الله عز وجل، فالصواب إذاً المعنى الأول لأننا نقول: وإن لم نر الله لكن نرى من آياته ما يدلنا دلالة قطعية يقينية على وجوده وعظمته، قوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ بعد قوله: ﴿تُنذِرُ﴾ من باب المتقابلات تنذر فينتفع بالإنذار، وإذا انتفع بالإنذار حصل له الثواب فاستحق البشارة ولهذا قال: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ هو الجنة بمغفرة للذنوب، وأجر كريم على فعل الحسنات، والكريم يتضمن:

١ ـ كرم الذات العيني.

٢ ـ وكرم الصفات، كقول النبي عليه الصلاة والسلام:

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١) (٨).

«**إياك وكرائم أموالهم**»[١] . يعني الكريم بذاتها وصفاتها، الأجر الكريم بذاته إذا نظرنا إلى نعيم الجنة بذاته، وجدنا أنه كريم أكرم وأجمل وأحسن وأنفع من نعيم الدنيا، ففي الجنة فاكهة، ونخل، ورمان، وعسل، وخمر إذا نسبت هذا إلى نعيم الدنيا وجدت أنه أكرم من نعيم الدنيا بذاته، وبصفاته أيضاً، طعمه ورائحته وغير ذلك هو أيضاً أكرم.

٣ ـ كريم أيضاً من حيث المقابلة، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. والأجر في الدنيا يكون بقدر العوض، تبيع علي سيارة بعشرة آلاف ما أعطيك إلا عشرة ما أزيد، لكن في الآخرة أجر الآخرة أكرم وأعظم، لأنك تبذل واحداً وتُعطى عشرة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

فصار كرم الأجر في الآخرة من عدة وجوه في: عينه، وصفته، ومقابلته أو معاوضته، فإنه أعظم بكثير من عوض الدنيا وأجر الدنيا [وأجر كريم هو الجنة] هذا تفسير للمراد، لا للمعنى، ولا شك أن الجنة تشتمل على ما ذكرنا.

*** الفوائد:**

١ ـ من فوائد هذه الآية: أنه لا ينتفع من إنذار الرسول عليه الصلاة والسلام إلا من اتصف بهذين الوصفين ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

٢ ـ ومن فوائدها: صحة نفي الشيء إذا كان لا ينتفع به وإن

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء (١٤٩٦) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ٢٩ (١٩).

كان موجوداً، لقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ فإن إنذاره لغيرهم حاصل، لكن لما لم ينتفعوا به صار وجوده كالعدم بالنسبة لهم، أما المنذر فقد قام بما يجب عليه.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه كلما كان الإنسان أتبع للقرآن كان أشد تأثراً به، لقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ وبهذا نعرف القاعدة التي ذكرها بعض العلماء: (الطاعة تجلب الطاعة، والمعصية تجلب المعصية)؛ لأنه كلما كان الإنسان أتبع للقرآن صار أشد تأثراً به، لقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾.

٤ ـ ومن فوائد الآية: الثناء على هذا القرآن العظيم بأنه ذكر، وسبقت الأوجه في كونه ذكراً.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الخشية لله سبب عظيم للتأثر بالقرآن والانتذار به، لقوله: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

٦ ـ ومن فوائدها: بيان فوائد الخشية لله، وأنها من أسباب الانتفاع بالقرآن، فكلما كان الإنسان أخشى لربه كان أفهم لكلامه.

٧ ـ ومن فوائدها: أن الخشية إنما تكون خشية حقيقية إذا كانت بالغيب، أما من خشي الله تعالى بالعلانية فقد تكون خشيته مدخولة، قد يكون خشي الله عز وجل من أجل أن الناس يرونه، لكن إذا كان بالغيب كان أدل على الإخلاص.

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن تبشر من اتصف بهذين الوصفين: وهما اتباع الذكر، والخشية لله عز وجل بالغيب فبشره بالجنة ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾. ولكن هل تنطبق هذه

البشارة على كل واحد بعينه؟

الجواب: لا، بل هي على سبيل العموم، وكل شخص اتصف بما تثبت به الجنة على سبيل العموم فإننا لا نشهد له بعينه ولكن يرجى له ذلك؛ لأنه في الظاهر قد انطبق عليه سبب الاستحقاق، لكن الباطن لا نعلمه، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار**»[1] . لهذا نقول في كل من ينطبق عليه وصف يستحق به دخول الجنة نقول: إننا لا نشهد له بعينه؛ لأن الشهادة له بعينه تحتاج إلى دليل معين، ولكننا نرجو له هذا؛ لأن ظاهر الأمر أنه يستحق؛ لانطباق الأوصاف عليه، لكن لا نشهد لأنه يخشى أن يكون باطنه غير ظاهره. وهذه القاعدة مهمة مفيدة، مثلاً: قتل رجل ممن يجاهد مع جيش، ظاهر جميع المجاهدين أنهم يجاهدون لتكون كلمة الله هي العليا، فهل إذا قتل على أيدي الأعداء نشهد بأنه شهيد؟ لا نشهد بأنه شهيد، ولكن نقول: يرجى أن يكون شهيداً، يعني من الشهداء عند الله عز وجل، لأن ظاهر فعله ينطبق على الشهداء عند الله عز وجل، ولكن لا نشهد له بعينه، ولهذا ترجم البخاري ـ رحمه الله ـ على هذه المسألة في الصحيح قال: «باب: لا يقال فلان شهيد» ولكن كلمة (شهيد) صارت الآن رخيصة تبذل بأبخس الأثمان، فأي واحد يقتل ولو في قتلة جاهلية يقولون: هو شهيد. وهذا لا يجوز، أتدري ما

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب: لا يقال: فلان شهيد (٢٨٩٨) ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ١٧٩ (١١٢).

يستلزم على شهادتك له بأنه شهيد؟ يستلزم بأنك شهدت له بأنه من أهل الجنة، وهذه مسألة صعبة، لكن كما قلنا آنفاً في القاعدة النافعة: (إن من اتصف بأوصاف ينطبق على أهلها هذا الجزاء فإننا نرجوا له ذلك) أما أن نجزم فلا.

فهذا الذي اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب، هل نجزم له بالمغفرة والأجر الكريم؟ نقول: نعم، من فعل ذلك نشهد له على سبيل العموم، لكن على سبيل التخصيص نرجوا له ذلك.

٩ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن البشارة تكون بانتفاء ما يكره وبحصول ما يحب ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ انتفاء ما يكره ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ حصول محبوب، فيهنأ الإنسان ويبشر بزوال المكروه عنه، وبحصول المحبوب، اجتماعاً وانفراداً، يعني سواء حصل له الأمران، أو حصل له أحدهما فإنه يبشر بانتفاء الشر عنه، كما يبشر بحصول الخير له.

١٠ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن خشية الرحمن بالغيب واتباع الذكر يحصل به مغفرة الذنوب، والأجر الكريم، فإن ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ في مقابل الذنوب ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ في مقابل الثواب على الأعمال الصالحة.

* * *

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾. مناسبة هذه الآية لما قبلها، لها مناسبتان:

المناسبة الأولى: أنه لما ذكر حال من ينتفع بذكرى الرسول

ﷺ ومن لا ينتفع، بين أن كلاًّ منهم سوف يحيا بعد موته، وسوف يجازى على عمله، فالمناسبة ظاهرة ففيها بشارة للمؤمن المنتذر، وفيها إنذار وتخويف لمن خالف.

المناسبة الثانية: أن الله تعالى لما ذكر حال هؤلاء المكذبين فإن تكذيبهم بمنزلة الموت، وإذا كان الله قادر على إحياء الموتى إحياءً حسيًّا فهو قادر على إحياء هؤلاء الموتى بالكفر إحياءً معنويًّا. قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ﴿إِنَّا﴾ ضمير جمع، والله عز وجل واحد، فتحمل هذه على التعظيم قطعاً. ﴿نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ﴿نَحْنُ﴾ ضمير فصل؛ لأنها لو سقطت وقيل: «إنا نحيي الموتى» استقام الكلام، فهي ضمير فصل للتخصيص يعني: نحن لا غيرنا، ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ جمع ميت، ويشمل الموتى من بني آدم وغيرهم، لكن قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ يدل على التخصيص، وهذا له نظائر في القرآن والسنة، إذا جاء لفظ عام، ثم ذكر بعده حكم يختص ببعض أفراده، فهل هذا يخصص العموم أو لا يخصصه؟

إذا نظرنا إلى تصرف العلماء ـ رحمهم الله ـ وجدنا أنهم أحياناً يجعلونه مخصصاً للعموم، وأحياناً لا يجعلونه مخصصاً للعموم، فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾[1] هذه الآية فيها عموم، وفيها حكم يختص ببعض أفراد هذا العموم. فقوله

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ يشمل من لها رجعة، ومن ليس لها رجعة، فهذا العموم، ثم قال بعد ذلك: ﴿**وبعولتهن**﴾ أي بعولة المطلقات ﴿**أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً**﴾ هذا الحكم يختص بالرجعيات فهل نقول: إن المراد بالمطلقات في قوله: ﴿**المطلقات يتربصن**﴾ المراد بها الرجعيات أو هو عام؟ أكثر العلماء على أنه عام. ومن السنة قال جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ: «قضى النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم، فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة»[1] في هذا عموم، وفي هذا حكم تعقبه يختص ببعض أفراد هذا العموم، فهل نأخذ بالعموم، أو نأخذ بما يقتضيه الحكم المعقب؟ فقوله: «قضى النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم» يشمل كل ما لم يقسم حتى لو كان بينك وبينه سيارة تبيع نصيبك منها ففيها الشفعة، أخذاً بالعموم «بكل ما لم يقسم» قوله: «فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة» هذا يختص بالأراضي، فهل نقول: إن قوله: «في كل ما لم يقسم» يختص بالأراضي بدليل الحكم المفرع، ونقول: إذا كان شريكان في سيارة وباع أحدهما نصيبه فلا شفعة للثاني، أو نأخذ بالعموم ونجعل هذا الحكم الخاص لبعض أفراده يختص به؟ فيه أيضاً خلاف في هذه المسألة، والذي نحن فيها الآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يشمل كل ميت حتى البهائم ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ هذا خاص بالمكلفين فهل نقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: من المكلفين

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب بيع الشريك من شريكه (٢٢١٣).

بدليل قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ أو نقول: هو عام، وتعقيبه بحكم يختص ببعض أفراده لا يقتضي التخصيص؟ ينبني على الخلاف السابق، والعلماء يختلفون في مثل هذا، فنحن نقول: يمكن أن يقال: الموتى الذين يكتب لهم ما قدموا وآثارهم؛ بدليل قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾.

وقد يقول قائل: اعتبر بالعموم ﴿الْمَوْتَى﴾ كل ميت ﴿وَنَكْتُبُ﴾ ما قدم بعضهم وهم المكلفون.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ قال المؤلف: [وكل شيء نصبه بفعل يفسره: أحصيناه] ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ (كل) هذه مفعول لفعل محذوف يفسره قوله: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ وعلى هذا فيكون التقدير: «أحصينا كل شيء» ولا تجمع بين المُفسِّر والمفسَّر، ولا تقل التقدير: «أحصينا كل شيء أحصيناه» لأنه لا يجمع بين المفسِّر والمفسَّر، فإذا أردت أن تقدر فقل التقدير: وأحصينا كل شيء في إمام مبين، لكن جعلت الصيغة على هذا الوجه ليكون لذكر المسند إليه مرتين لأن ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ والضمير في ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ يعودان على شيء واحد، فيكون هنا ذكر المعمول مرتين، مرة على أنه مفعول بفعل مقدر، ومرة على أنه ضمير لذلك المذكور وهو قوله: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ وهذا التركيب يسمى عند النحويين الاشتغال، والاشتغال تجري فيه الأحكام الخمسة: الوجوب، والاستحباب، والإباحة، والكراهة، والمنع، لكن هذا وجوب نحوي وليس وجوباً شرعيًّا، يعني تارة يجب نصبه، وتارة يمتنع، وتارة يترجح نصبه، وتارة يترجح رفعه، وتارة يستوي

الأمران، وفي مثل هذا التركيب يترجح النصب؛ لأن قوله: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ فإذا جعلنا الواو حرف عطف والجملة فعلية ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ صار المعطوف جملة فعلية على جملة فعلية، ولو رفعنا ـ والرفع هنا جائز ـ وقلنا: «وكل شيء أحصيناه» صار العطف هنا عطف جملة إسمية على جملة فعلية، والأنسب أن نعطف جملة فعلية على جملة فعلية؛ لأن تناسب الجملتين أولى من تضادهما. ولهذا نقول: إن النصب هنا أرجح، مع جواز الرفع لولا أنه في كلام الله ولا يغير لكان يجوز أن أقول: وكلُّ شيء أحصيناه، ولهذا لو قلنا: زيدٌ ضربتُه، يجوز أن أقول: «زيداً ضربته» لكن الرفع أرجح؛ لأنه الأصل، ليس فيه جملة نعطف عليها، لكن لو قلت: «ضربت زيداً وعمروٌ أكرمته» يجوز في «عمرو أكرمته» النصب ويجوز الرفع، لكن النصب أرجح؛ لتناسب الجملتين، نحن ذكر هذا على سبيل الاستطراد، ولكن القاعدة: إذا جاءت جملة فيها اشتغال فإن كانت ابتدائية، أو معطوفة على جملة إسمية فالراجح الرفع، وإن كانت معطوفة على جملة فعلية فالراجح النصب.

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ هل الذي يكتب الله عز وجل، أو الملائكة بأمر الله؟

الجواب: الملائكة بأمر الله لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾[1].

(١) سورة الانفطار، الآيات: ٩ ـ ١٢.

وإسناد الكتابة إلى الآمر موجود في اللغة العربية كثيراً، يقول السيد: (كتبت كذا وكذا) والمراد كتبه عبيده، فهنا يقول الله عز وجل: ﴿وَنَكْتُبُ﴾ والمراد ملائكتنا؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ وقوله: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ أي: ما قدموه في الدنيا من أعمال صالحة؛ لأن كل إنسان يعمل عملاً صالحاً في الدنيا فإنه قد قدمه، بمنزلة السلم، والسلم في البيع أن المشتري يقدم الثمن، فأنت الآن مقدم للثمن، والمثمن يكون يوم القيامة، وقد يكون في الدنيا ويوم القيامة جميعاً، فأنت الآن إذا عملت عملاً صالحاً فقد قدمت لنفسك ثمناً تأخذ عوضه يوم القيامة، ثق بهذا وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وقوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: [نكتب في اللوح المحفوظ ما قدموا في حياتهم] هذا ما مشى عليه المؤلف أن المراد بالكتابة هنا الكتابة باللوح المحفوظ، وهذا التفسير مخالف لظاهر اللفظ؛ لأن قوله: ﴿وَنَكْتُبُ﴾ فعل مضارع، والمضارع لا يحمل على الماضي إلا بدليل: دليل لفظي كـ(لم) مثلاً: إذا دخلت على الفعل المضارع جعلته ماضياً، أو دليل حالي يدل عليه السياق، وهنا لا دليل على أن المراد ﴿وَنَكْتُبُ﴾ في اللوح المحفوظ؛ لأن الكتابة في اللوح المحفوظ انتهت. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝١٠٥﴾[1] فاللوح المحفوظ انتهت كتابته، ولا يمكن أن تصاغ ﴿وَنَكْتُبُ﴾ بشيء

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

انتهى، ولكن المراد (نكتب) في صحائف الأعمال، والذين يكتبون الملائكة بأمر الله ـ عز وجل ـ ما قدموا في حياتهم من خير وشر ليجازوا عليه، لكن ما قدموه من خير فهو مضمون، وما قدموه من شر فليس بمضمون. لأن الخير لا يمكن أن يهدر منه شيء، والشر قد يعفو الله عنه إذا لم يكن شركاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[1] وهذا من مصلحة الإنسان إذا كان غير مضمون، ﴿ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾. الآثار جمع أثر، والأثر ما أعقب الشيء، ومنه أثر القدم بعد المشي فإنه يعقبه، فما المراد بآثارهم؟ قال المؤلف: [ما استن به بعدهم] وهذا التفسير كمثال وليس حصراً؛ لأن الذي يكتب بالآثار أكثر مما استن به بعدهم؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[2]. فمثلاً الصدقة الجارية هذه من آثارهم، وإذا أوقف الإنسان مزرعة أو بستاناً على الفقراء وانتفعوا به بعد موته، صار هذا من الآثار بلا شك، وإن كان أصل التقديم في حياته لكن النفع صار بعد مماته، والعلم النافع من آثارهم فكل ما انتفع به بعد موته من علم فهو من آثاره. والولد الصالح أيضاً من آثاره؛ لأن الولد من كسب الإنسان، فإذا كان ولداً صالحاً يدعو لأبيه أو أمه فهو من الآثار، وما اقتدى به الناس من الأعمال الصالحة، والأخلاق الحميدة فهو أيضاً من الآثار، فما ذكره

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) رواه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١).

المؤلف على سبيل المثال، وهذا الذي قاله المؤلف ـ رحمه الله ـ أن المراد بالآثار ما كان بعد موت الإنسان هذا هو الصحيح.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالآثار: الآثار التي يتقدموا بها إلى الطاعة، كالمشي إلى الصلوات، فإن الله تعالى يكتب للإنسان كل خطوة فيرفع له بها درجة، ويحط عنه بها خطيئة. واستدل هؤلاء بأن النبي عليه الصلاة والسلام قال لبني سلمة: «**دياركم تكتب آثاركم**»[1]، فجعل الرسول عليه الصلاة والسلام الآثار تكتب، ولكن هذا الاستدلال فيه نظر؛ لأن قول الرسول «تكتب آثاركم» هذا مما قدموه في حياتهم، ولكن سماه أثراً لأنه أثر، وهو المشي والمسير، فالصواب أن الآية كما قال المؤلف أن المراد بما قدموا: ما سبق من أعمال صالحة في حياتهم حتى آثار مسيرهم إلى المساجد، وآثارهم ما كان بعد موتهم. قال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ قال المؤلف: [﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ ضبطناه]، والإحصاء بمعنى الضبط مأخوذ من الحصى، لأن العرب أمة أمية لا يكتبون، يضبطون الأشياء بالحصى وشبهها، ويقدرون بالرمح وما أشبهه، لا يقرءون ولا يكتبون، فكانوا إذا أرادوا ضبط الشيء أخذوا حصى، فإذا سألوا كم عدد القوم؟ أعطوه كيس الحصى، ولهذا قال الشاعر:

ولست بالأكثر منهم حصى ... وإنما العزة للكاثر

ولست بالأكثر منهم حصى، يعني أن قومك ليسوا بكثيرين، ويضرب المثل فيقال: جاء قوم كُثُر الحصى، فأحصيناه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٤٩٩٢).

ضبطناه، وسمي الضبط إحصاء؛ لأن العرب كانت تضبط الشيء بالحصى، قوله: ﴿فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [كتاب مبين]، هذا صحيح ﴿فِيٓ إِمَامٖ﴾ الإمام يطلق على عدة معانٍ يجمعها أنه مرجع، فإمام الصلاة مثلاً إمام؛ لأنه مرجع للمأمومين يقتدون به، وإمام الحكم كذلك مرجع يرجع الناس له، والكتاب إمام لأنه مرجع كما قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾[1]. إذاً ﴿فِيٓ إِمَامٖ﴾ في كتاب، وقوله: ﴿مُّبِينٖ ١٢﴾ يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ [بين]؛ لأن مبين هنا من الرباعي، من أبان يبين فهو مبين. أما بيّن فهي من الثلاثي، من بان يبين، فهو بين، وكلمة (بان) و(أبان) تأتيان بمعنى واحد فيقال: بان الصبح، وأبان الصبح. وتنفرد أبان بأنها تأتي بمعنى أظهر وأوضح، أبان الشيء يعني أظهره وأوضحه. فإذا جاءت كلمة (مبين) في القرآن الكريم فإنها تصلح بأن تكون بمعنى (بين) وتصلح بأن تكون بمعنى (مظهر وموضح) لكن ليس كل موضع جاءت فيه تصلح للوجهين جميعاً، قد تكون في موضع لا تصلح إلا بين، فمثلاً: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١٦٤﴾[2] معناها بين ظاهر، وقوله: ﴿حمٓ ١﴾[3] بمعنى الموضح المظهر، وهو إذا كان موضح فهو واضح، لكنها هنا مبين بمعنى مظهر، أبين في

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.
(٣) سورة الدخان، الآية: ١.

المعنى، فكلمة (مبين) إذا صلحت أن تكون من الرباعي الذي بمعنى أظهر، فهو أولى من تفسيرها بالثلاثي الذي بمعنى ظهر، لأن المظهر جامع بين الظهور بنفسه والإظهار لغيره، فيكون معناه أشمل. وقول المؤلف عن الإمام المبين: [هو اللوح المحفوظ] وهذا صحيح يعنى محتمل، فإن اللوح المحفوظ كتبت فيه أعمال العباد، ولكن هنا (مبين) هل الأنسب أن تكون كما فسرها المؤلف بين، أو مبين بمعنى مظهر؟ هل المعنى أنه كتاب بين، أو كتاب مبين يظهر الحقائق؟ الظاهر أن المعنى الأخير أولى؛ لأن هذا الكتاب مبين للأمور موضح لها، وكما قلنا: ما كان مبين فهو بين فهي صالحة لما يقول المؤلف: [هو اللوح المحفوظ] لأنه يقول: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ أي أنه قد انتهى، ويجوز أن تكون صحائف الأعمال لقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[1]

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: بيان قدرة الله عز وجل في إحياء الموتى، وقد برهن الله عز وجل على قدرته على إحياء الموتى بأدلة عقلية، وأدلة حسية.

فمن الأدلة العقلية مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[2] فهذا دليل عقلي على إمكان إحياء الموتى، وجهه أن الإعادة أهون من الابتداء، فالقادر على الابتداء قادر على الإعادة من باب أولى، وكما في قوله تعالى: ﴿كَمَا

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٤.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٧.

بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾[١] هذا مثله أيضاً استدل الله تعالى بالابتداء على الإعادة.

أما الأدلة الحسية فما أكثر ما يضرب الله الأمثال بإحياء الأرض بعد موتها على قدرته على إحياء الموتى، مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾[٣]. والآيات في ذلك كثيرة، فقد برهن الله عز وجل على قدرته على إحياء الموتى بالأدلة العقلية، والحسية، لتكون لذوي العقول دليلاً، ولذوي الأبصار، والأدلة الظاهرة دليلاً أيضاً، فالإنسان العقلاني كما يقولون نستدل له أو عليه بالعقل، والإنسان السطحي الذي لا يستدل إلا بما يشاهد نستدل عليه بالأدلة الحسية.

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: الإشارة إلى أن من لم يخش الله ولم يتبع الذكر فإن الله قادر على أن يحيي قلبه فيخشى الله ويتبع الذكر، ووجه الدلالة أن الله تعالى ذكر هذا بعد أن ذكر انقسام الناس إلى من يخشى الله بالغيب ويتبع الذكر، ومن لم يكن كذلك، فيه إشارة إلى أن الله قادر على أن يرد هؤلاء إلى الحق.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٣) سورة ق، الآيات: ٩ ـ ١١.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن كل شيء مكتوب للإنسان إما له وإما عليه لقوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾.

٤ ـ ومن فوائدها: أن الله تعالى يكتب كل شيء القليل والكثير؛ لقوله: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ وما اسم موصول، والاسم الموصول يشمل الصغير والكبير، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾[1] ويدل عليه أيضاً في آخر الآية: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الأعمال لا تنقطع بالموت لقوله: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ والآثار ذكرنا أنها أنواع: العلم، والصدقة الجارية، والولد الصالح يدعو له، وسنة يحييها فيتبعه الناس عليها.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: بيان حكمة الله عز وجل في ضبط الأمور وإتقانها، وأنه لا يفوته شيء لقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

٧ ومن فوائدها: أن ما يكتب على الإنسان فإنه حق بين واضح لا يمتري فيه أحد، لقوله: ﴿مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ والشيء المبين هو الذي يوضح الأشياء مع وضوحه في نفسه وهو كذلك، ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[2].

* * *

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ١٣، ١٤.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾

(اضرب) قال المؤلف: [اجعل]، وهذا لا شك أنه معنى مقرب للمعنى أي اجعل مثلاً، وقيل: إن (اضرب) بمعنى اتخذ؛ لأن الضرب يدل على صناعة وتكييف، ومنه: ضرب الذهب خاتماً، وضرب الذهب حليًّا، وضرب الذهب سكة، يعني نقوداً، بمعنى اتخذه حليًّا، اتخذه سكة وما أشبه ذلك، فشُبه ذكر المثل للاعتبار به بصناعة الشيء؛ لأن المثل يشتمل غالباً على هيئة متكاملة مركبة من أجزاء متعددة، ولهذا لا يأتي المثل في تشبيه مفرد بمفرد، إنما يأتي المثل في تشبيه صورة مشتملة على أجزاء متعددة بصورة. فلهذا سمي ضرب مثل، أي: صنع مثل، كما تصنع الأواني والخواتم وغيرها من معادنها، وقال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿لَهُم مَّثَلًا﴾ مفعول أول، ﴿أصحاب﴾ مفعول ثان]، وهذا الظاهر أنه سهو من المؤلف، والصواب العكس، لأن المضروب هو أصحاب القرية، فيكون هو المفعول الأول، و﴿مثلاً﴾ هو المفعول الثاني، ففي إعراب المؤلف انقلاب، فالصواب: أن أصحاب القرية مفعول أول، و﴿مَّثَلًا﴾ مفعول ثان، أي: اجعل أصحاب القرية لهؤلاء المكذبين لك اجعلهم مثلاً يعتبرون به، والمَثَل والمِثل كالشبه والشِّبه، أي: جعله أمراً مشابهاً حتى يتعظوا.

وكلمة ﴿وَٱضۡرِبۡ﴾ الخطاب فيها للرسول عليه الصلاة والسلام، أو لكل من يتأتى خطابه، وسبق لنا أن مثل هذا تارة يكون صريحاً؛ أنه عام، وتارة يكون صريحاً أنه خاص بالرسول

ﷺ، وتارة يحتمل الوجهين.

فمن الأشياء التي تكون صريحة بخصوصية الرسول عليه الصلاة والسلام قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾[1] فهنا الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام قطعاً.

ومن الأشياء الصريحة أنه عام مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[2] ولم يقل: «إذا طلقت» فدل على أن الخطاب الأول يراد به العموم.

وأما احتمال أن يكون خاصًّا بالرسول عليه الصلاة والسلام أو عامًّا فهو كثير في القرآن، والأرجح أن نجعله عامًّا؛ لأنه أشمل، فإذا جعلناه عامًّا شمل الرسول ﷺ وغيره، إذاً نقول لأي داعية الآن: اضرب مثلاً للمكذبين بهذه القرية ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾.

قال المؤلف: [أنطاكية] فجعل (ال) للعهد الذهني يعني كأنها قرية معروفة مفهومة، ولكن هذا القول ضعفه ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره وقال: (فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً، أو تكون أنطاكية ـ إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة ـ مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك. والله سبحانه وتعالى أعلم)[3].

---

(١) سورة الشرح، الآية: ١.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ١.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ـ رحمه الله ـ آخر تفسير الآية رقم (٢٩) من سورة (يس).

وعلى هذا فيكون المراد بالقرية هنا: قرية غير معينة، وتكون (ال) للجنس لا للعهد الذهني، يعني: اضرب مثلاً لهم في قرية غير معينة وهذا هو الصحيح، وذلك لأن الله عز وجل لو كان في بيان هذه القرية بعينها مصلحة لبينها، وليس المقصود كما مر علينا كثيراً تعين الأشخاص، أو الأماكن، أو الأزمان ليس فيه كثير فائدة في الغالب، المقصود العبرة في القصة وما وقع، ولهذا نرى بعض العلماء يتكلفون مثلاً فيما إذا جاء اسم رجل في حديث مبهم يتكلفون في طلب تعينه، وليس هذا بلازم، إلا أن يترتب على تعيينه اختلاف للحكم، أو إظهار للمعنى فهذا شيء آخر، وهنا لا يعنينا أن نعرف ما هي القرية، ومن هم أهلها، الذي يعنينا العبرة بما جرى في هذه القصة، فالصواب عدم تعينها بأنطاكية ﴿إِذْ جَآءَهَا﴾ [بدل اشتمال من أصحاب القرية]، فتكون في محل نصب؛ لأن أصحاب منصوب، والبدل يتبع في الإعراب المبدل منه، فيكون ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ في محل نصب على أنه بدل من أصحاب القرية ﴿إِذْ جَآءَهَا﴾ أي أصحاب القرية ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي رسل عيسى] وهذا القول ليس بصحيح، ولا دليل عليه، بل جاءها المرسلون الذين من جنس قوله في أول السورة ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾ جاءها المرسلون الذين هم من جنس هؤلاء، وعلى هذا فهم رسل من عند الله عز وجل، وليسوا من قبل عيسى صلى الله عليه وسلم، قال في تفصيل هذا المجيء وهذه القصة: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ وهذا من عجائب القول أن يقول بعض العلماء: أي: رسل

عيسى، مع أن الله يقول: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ﴾ ولم يقل: إذ أرسل إليهم عيسى، بل قال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ﴾ وعلى هذا فيتعين أن يكون المراد بالرسل المرسلون هنا رسلاً من عند الله، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ﴾ أي: إلى أصحاب القرية ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ من هؤلاء الثلاثة ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ التكذيب رد الخبر ونسبته إلى خلاف الواقع هذا هو التكذيب، فهؤلاء كذبوهما وقالوا: هذا أمر ليس بصحيح، ولستم برسل، فماذا كان؟ قال الله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ قال المؤلف: [بالتخفيف والتشديد]. ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ هذا التشديد (عزَزنا) التخفيف، والقراءتان سبعيتان؛ لأن المؤلف ذكرهما على حد سواء، معنى (عززنا) قال: [قوينا الاثنين بثالث] يعني لما كُذِّب الاثنان أرسل الله ثالثاً معهم لأجل التقوية، وهذا كقول موسى عليه الصلاة والسلام لما أرسله الله تعالى إلى فرعون قال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾[1] فزيادة الواحد يقوي بلا شك، ونحن نشاهد حتى في أمرنا الواقع إذا قال شخص قولاً، ثم أيده آخر ازداد قوة ونشاطاً في تقرير هذا القول وتثبيته، ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ الضمير يعود على الثلاثة ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ أتوا بالجملة المؤكدة بـ(إنا)؛ لأن الحال تقتضي ذلك، فإنهم قد كذبوا وأنكروا، فجاءت الجملة الثانية مؤكدة؛ لأن المقام مقام تكذيب.

ولكن لو قال قائل: لماذا لم تؤكد بأكثر من مؤكد؟

قلنا: هي أكدت بأكثر من مؤكد، أكدت بمؤكد واحد لفظي

---

(١) سورة طه، الآيات: ٢٩ ـ ٣٢.

وهو (إنا)، وأكدت بمؤكد معنوي وهو زيادة الرسول.

ولو قال قائل: هل المقام مقام تأكيد على سبيل الاستحسان، أو على سبيل الوجوب؟

قلنا: على سبيل الوجوب، فإذا قال: القاعدة أنه إذا كان على سبيل الوجوب فإن التأكيد يتكرر، يعني يؤتى بإن، واللام، والقسم، قلنا: هذا المؤكد مكرر، لكنه من نوعين: تأكيد باللفظ (إنا) وتأكيد بالمعنى تقويتهم بثالث: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ مرسلون من قبل الله عز وجل، وهم يعلمون ذلك أنهم ما دعوا الرسالة من شخص وإنما هي من الله، فكان جواب هؤلاء جواب غيرهم من المكذبين، والمكذبون يردون أقوال الرسول، أحياناً بنفي، وأحياناً بإثبات، ففي النفي يقولون: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ﴾ وكما قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ يعني نسلم إنا بشر مثلكم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾[1] هذا جواب بالنفي. يعني أنتم بشر لستم ملائكة حتى نقبل، وأحياناً بالإثبات ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾[2] فصاروا أحياناً يتهمون الرسل بالسحر والجنون، وأحياناً بالنفي يقولون: ما أنتم ملائكة حتى تكونوا رسلاً إلينا، ما أنتم إلا بشر مثلنا، فليس ببدع أن يقول أصحاب هذه القرية لهؤلاء الرسل: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ١٠ - ١١.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٢.

﴿مِّثْلُنَا﴾، ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ فأنكروا الرسالة من حيث جنس الرسول، وأنه بشر، وأنكروا الرسالة إنكار جحود بلا مبرر ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ من الذي يمنع فلم يذكروا حجة قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ هذه الجملة نفي و﴿مِن شَيْءٍ﴾ نكرة في سياق النفي فتعم، ثم هذه النكرة مؤكدة بـ(من) الزائدة، لأن قوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ بمعنى (شيئاً)، وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ قوله ﴿إن﴾ بمعنى (ما) ففي الجملة حصر طريقة: النفي والإثبات ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ يعني ما أنتم إلا تكذبون، وهذا الحصر ـ والعياذ بالله ـ حصر هم يرونه إضافيًّا، بمعنى ما أنتم إلا تكذبون فيما تدعون من الرسالة، ولا يلزم أنهم يدعون أنهم يكذبون في كل شيء؛ لكن فيما ذكروا من الرسالة، فصار إنكارهم مبنيًّا على أمرين:

الأول: أنهم بشر، يعني كأنهم يقولون: لو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة.

الثاني: النفي الذي لم يبن على شيء، وإنما هو مجرد إنكار ومكابرة ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

وهذا لا شك من سفههم، لأن إنزال الوحي على الرسل لهداية الخلق أمر يوجبه العقل فضلاً عن الشرع، لأن العباد لا يمكن أن يتعبدوا لله سبحانه وتعالى إلا بشيء شرعه ونصبه لهم دليل عليه وإلا فكيف يتعبدون؟! فإنزال الله عز وجل الوحي للبشر أمر يقتضي العقل وجوبه، مع أن الله قد أوجبه على نفسه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾[1] فالله أوجب على نفسه أن يبلغ

(١) سورة الليل، الآية: ١٢.

عباده سبحانه وتعالى ما يوصلهم إليه، وإلا لضلوا، إذاً هذه المكابرة وهي: دعوى أن الرحمن ما أنزل من شيء يكذبها العقل والشرع؛ لأن العقل يوجب أن ينزل الله على العباد شريعة يتعبدون بها له لتوصلهم إليه، إذ إن العقل لا يهتدي كيف يعبد الله، والشرع أوجب الله تعالى على نفسه أن يبلغ عباده شريعته، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾[1] وقال تعالى في القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾[2] حيث أوجب الله على نفسه أن يهدي عباده، وهذه هداية البلاغ لا هداية التوفيق، ولو كانت هداية التوفيق لاهتدى كل أحد.

قوله: ﴿إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾. الكذب هو: الإخبار بخلاف الواقع، إذاً أنتم أخبرتمونا إنكم رسل، والواقع إنكم لستم برسل، ماذا قالوا لهم، قال الله عز وجل: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ الآن أكدوا الرسالة بثلاثة مؤكدات:

الأول: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ لأن هذا جاري مجرى القسم.

والثاني: ﴿إِنَّا﴾.

والثالث: اللام. لشدة إنكارهم.

فإذا قلنا: إن هذه ثلاثة مؤكدات مع التأكيد الأول وهو زيادة الثالث، صار أكدت الرسالة بأربع مؤكدات. ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ﴾. قال المؤلف: [جاري مجرى القسم، وزيد التأكيد به وباللام على ما قبله لزيادة الإنكار] أربع مؤكدات، لكن المؤلف

---

(١) سورة الليل، الآيتان: ١٢، ١٣.

(٢) سورة القيامة، الآية: ١٩.

لم يعتبر تأكيد الإرسال، مع أنه بلا شك مؤكد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [التبليغ المبين[1] الظاهر، بالأدلة الواضحة]، هذا حصر حقيقي أي: ما عليهم في جانب الرسالة إلا البلاغ المبين في جانب الرسالة، فقولنا: (في جانب الرسالة) يقتضي أن يكون حصراً إضافيًّا، لأن عليهم سوى البلاغ أن يقوموا بعبادة الله الخاصة التي هي غير التبليغ، لكن هي بجانب الرسالة ما عليهم إلا البلاغ المبين، قال المؤلف: [التبليغ] كلمة بلاغ بمعنى تبليغ، فهي اسم مصدر من بلغ يبلغ، كما يقال: كلم يكلم، المصدر كلام، واسم المصدر كلام، بلغ يبلغ تبليغاً هذا مصدر، واسم المصدر بلاغ، أما تفسير المبين بالبين فهذا قد يقال: إن فيه نظراً؛ لأن الظاهر أن المبين بمعنى المظهر، يعني البلاغ المظهر لحقيقة الأمر الواقع، وهو أننا رسل من عند الله، وسبق لنا أننا فسرنا المبين بالمظهر على وجه صحيح صار متضمناً لكونه بيناً، إذ لا يكون الشيء مبيناً إلا وهو بين في نفسه، أما قوله ـ رحمه الله ـ: [التبليغ البين الظاهر بالأدلة الواضحة، وهي: إبراء الأكمه، والأبرص، والمريض، وإحياء الموتى] هذا ليس بصحيح؛ لأن هذا مبني على أنهم رسل عيسى عليه الصلاة والسلام، والأمر ليس كذلك، لكن عليهم التبليغ البين بالرسالة فيبلغون تبليغاً بيناً.

في القصة فوائد كثيرة منها:

١ ـ بيان ضرب الأمثال ليعتبر بها لقوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم

---

(١) في بعض النسخ (البين).

مَّثَلًا﴾، والخطاب كما سبق إما للرسول ﷺ أو لكل من يتأتى خطابه.

٢ ـ أن العبرة بما في القصة من ضرب الأمثال، وأنه ليس من الضروري أن يعين المثل المضروب فهنا قال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾. ولم يعين القرية، ولم يعين أولئك الأصحاب بأعيانهم؛ لأنه ليس هذا محل عبرة، بل العبرة في القصة كلها.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: بيان أن الله عز وجل لن يدع الخلق بلا رسل لقوله: ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ وقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ﴾.

٤ ـ ومن فوائدها: بيان رحمة الله عز وجل في تعزيز الرسالة بالصيغة والعدد، لأنه قال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ فهنا التعزيز بالثالث تقوية فعلية، والتأكيد بـ﴿إنا﴾ تقوية لفظية.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: جواز تعدد الرسل مع اتحاد المرسل إليه؛ لأن الله أرسل لهذه القرية اثنين ثم عززهما بثالث.

٦ ـ ومن فوائدها: أن الذين يكذبون الرسل ليس عندهم إلا المكابرة، وليس عندهم حجة عقلية أو نقلية لقولهم: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ كل هذه الجمل الثلاث ليس فيها أي حجة تسوغ تكذيب هؤلاء الرسل، لأنك إذا رأيت هذه الحجج الثلاث أو الشبه لم تجد فيها حجة:

الأولى: أنهم ردوهم لأنهم بشر مثلهم، وقد سبق في التفسير بيان الرد عليها، وأنه لا يمكن أن يرسل للبشر إلا بشر

مثلهم، حتى لو أنزل إليهم ملائكة فإن الملائكة لابد أن يكونوا على صورة البشر، وحينئذ تعود الشبهة.

الثانية: ما أنزل الرحمن من شيء، فهذا نفي مجرد بدون ذكر حجة، وليس هذا بدليل للخصم إطلاقاً؛ لأن نفي قول الخصم بدون حجة ما هو إلا مكابرة.

الثالثة: وكذلك قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

٧ ـ فوائد الآية الكريمة: بيان أن المعاندين للرسل ليس عندهم إلا المكابرة المحضة كقولهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ وقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

٨ ـ أن حكمة الله عز وجل تقتضي أن يرسل للبشر بشراً مثلهم.

٩ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: جواز التأكيد بما يشبه القسم لقولهم: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾. وهل هذا أقوى من التأكيد بالقسم، أو التوكيد بالقسم أقوى؟ الظاهر أن هذا أقوى من التوكيد بالقسم؛ لأنهم إذا قالوا ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ وإن لم يكونوا مرسلين استلزم قولهم هذا وصف الله بالجهل والعجز والقصور؛ لأنهم إذا قالوا: ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون، ولم يكونوا مرسلين، معناه: أن الله علم الحال على خلاف ما كانت عليه، إذا فرضنا أن الله يعلم أنهم مرسلون وهم غير مرسلين في الواقع، لزم من ذلك أن يكون الله جاهلاً بحالهم، وأن يكون الله تعالى عاجزاً عن الانتقام منهم وبيان كذبهم؛ لأنهم سيقولون: إنا مرسلون، ويأخذون بمقتضى هذه الرسالة، والله تعالى يعلم

أنهم غير مرسلين، وهذا يستلزم الجهل، إذاً فالتأكيد بمثل هذا أشد من التأكيد بالقسم لما يترتب عليه من اللوازم الخطيرة، ولهذا قال العلماء: لو قال قائل: الله يعلم أني ما فعلت كذا وهو فاعل قالوا: إن هذا يقتضي الكفر إذا كان يعلم معنى ما يقول، وما يلزم من قوله، ووجه ذلك ما أشرنا إليه آنفاً من كونه يستلزم أن يكون الله جاهلاً وعاجزاً.

١٠ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: جواز التأكيد بعدة مؤكدات في جانب المنكر، بل قد نقول: إن التأكيد واجب إلا لفائدة، لقوله هنا: ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ وقد سبق أن الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات.

١١ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام ليس عليهم هداية الخلق، وإنما عليهم إبلاغ الرسالة فقط، لقولهم: ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾.

١٢ ـ ومن فوائدها أيضاً: أنه يلزم الرسل أن يكون بلاغهم مبيناً مظهراً للأمر على حقيقته.

١٣ ـ ويتفرع على ذلك أنه لا إبهام في الشرائع، وأن الشرائع كلها واضحة، فإن جاء إبهام في نص، فهو مبين موضح في نص آخر، وإن بقي الإبهام قائماً فالعلة في فهم المخاطب، إما لقصوره، أو لتقصيره، أما ما جاءت به الرسل فإنه يحصل به البلاغ المبين المظهر لكل ما تحتاج إليه الرسالة، لقوله: ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾.

* * *

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٨﴾ ﴿تَطَيَّرْنَا﴾ أي تشاءمنا، وأصل التطير مأخوذ من الطير؛ لأن الناس يتشاءمون بالطيور، أو يتفاءلون بها. فيرسلون الطيور فإن اتجهت إلى اليمين، أو اليسار، أو الأمام، أو الخلف، أو عادت، أو ذهبت ولم تعد تشاءموا، أو تفاءلوا على اختلاف بينهم فيما يكون التشاؤم أو فيما يكون التفاؤل، ثم تعدى الأمر إلى أن تكون الطيرة في كل شيء وهي: «التشاؤم بمرئي، أو مسموع، أو زمان، أو مكان»، وهذا التطير قد يكون له أصل، وقد لا يكون له أصل، قد يكون له أصل وذلك فيما إذا عوقبوا بمخالفة الرسل فيجعلون تلك العقوبة من شؤم هؤلاء الرسل، كأنهم يقولون: لولا أنكم أتيتم إلينا ما حصلت لنا هذه العقوبة، وقد يكون هذا التطير لا أصل له، وإنما هو دعوى مجردة من هؤلاء المكذبين، وهم قد يتطيرون بمعنى: أنه يحد من حرياتهم فيما تهواه أنفسهم، فيكون هذا شؤماً وتضييقاً، مثل أن الرسل عليهم الصلاة والسلام ينهونهم عن عبادة الأصنام، وهم يهوون عبادة الأصنام، ومثل أن الرسل تأمرهم بعبادة الله وحده، فيقولون: ضيقت علينا العبادة، فيجعلون هذا التضييق بزعمهم شؤماً، فيتطيرون بالرسل عليهم الصلاة والسلام، والحاصل أن التطير للرسل له ثلاث حالات:

الأولى: تطير بحد الشريعة من أهوائهم وشهواتهم، فيقولون: هذا تضييق علينا، وهو شؤم في زعمهم.

الثانية: تطير بما يصيبهم من العقوبات بسبب المخالفة فيقولون: هذا شؤمكم.

والثالثة: دعوى مجردة لا أصل لها فيقولون: إنا تطيرنا بكم لمجرد التشويه لما جاءت به الرسل.

وقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: [انقطاع المطر عنَّا بسببكم] هذا أحد الوجوه الثلاثة التي أشرنا إليها آنفاً، بأنهم يتطيرون بهم بسبب العقوبة التي تحل بهم لمخالفتهم، ووجه آخر يتطيرون بهم بسبب الحد من بلوغ مآربهم في عبادتهم وشهواتهم ومعاملاتهم ومأكولاتهم ومشروباتهم، فيقولون: ضيقت علينا. الوجه الثالث: تطير المدعى الذي ليس له أصل، وقولهم: لانقطاع المطر عنا بسببكم. لتنفير الناس عن متابعتهم. يحتمل أن هذا هو السبب، ويحتمل أن ما حل بهم من العقوبات الأخرى التي من جملتها ما عاقب الله بها آل فرعون أرسل عليهم الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم والسنين، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، تسع عقوبات، ويمكن أن يكون هناك عقوبات غير هذا أيضاً.

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾ عن دعوتنا إلى اتباعكم وترك ما كنا عليه ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ الجملة هذه جواب القسم، وليست جواب الشرط، لأنها قُرنت باللام، وأكدت بنون التوكيد، وهذا يدل على أنها جواب القسم، لا جواب الشرط، ولهذا أشار ابن مالك رحمه الله في الألفية حيث قال:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم ... جواب ما أخرت فهو ملتزم

﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ الرجم هو الرمي بالحجارة، ومنه رجم الزاني

المحصن أي يرمى بالحجارة حتى يموت ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا﴾ ليصيبنكم، ومس كل شيء بحسبه: فمس الإنسان للإنسان له معنى، ومس العقوبات والمصائب له معنى، والمراد بالمس هنا الإصابة، وقوله: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ العذاب هو ما يحصل لهؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام من هؤلاء المكذبين المعتدين من الضرب وشبهه، ومنه الحبس أيضاً فإنه عذاب ﴿أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ بمعنى مؤلم فهو فعيل، بمعنى مفعل، ومنه قول الشاعر:

أم الريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

(السميع) بمعنى المسمع، لا بمعنى السامع، فأليم بمعنى مؤلم، لا بمعنى آلم، قوله: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ هل هذا على سبيل التنويع، أو على سبيل الجمع؟ يعني أنهم يرجمونهم ويعذبونهم قبل الرجم، أو أنه على سبيل التنويع، وأن الواو بمعنى «أو» أي: نرجمنكم حتى تموتوا، أو ليمسنكم منا عذاب أليم دون الرجم؟ الآية تحتمل معنيين، فإن جعلناها للجمع فإنها ليست على سبيل الترتيب، لأن الرجم هنا سابق في الذكر، لاحق في الواقع، لأن العذاب الأليم قبل الرجم، إذ إن الرجم لا عذاب بعده، فيكون فيها تقديم وتأخير، وأما إذا جعلنا الواو بمعنى «أو» للتقسيم، فيكون المعنى أنهم توعدوهم بأحد أمرين: إما الرجم، وإما العذاب المؤلم الشديد.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ ﴿قَالُوا﴾ الضمير يعود على الرسل، يخاطبون أصحاب القرية الذين كذبوهم ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي شؤمكم ملازم

لكم، وذلك بسبب كفرهم فهم الشؤم على أنفسهم، وليس الشؤم من الرسل، بل من هؤلاء ولو شاءوا لآمنوا فزال عنهم ما حل بهم من العذاب والنقص، ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [همزة استفهام دخلت على «إن» الشرطية، وفي همزتها التحقيق والتسهيل وإدخال ألف بينها بوجهيها وبين الأخرى]، سبق مثل هذا وأن فيها خمس قراءات، أو أربع قراءات: التحقيق، والتسهيل، فيقال «إن» هذا التحقيق، والتسهيل، «أإن» بدون بيان الهمزة، إدخال ألف بينهما بوجهيها يعني وعدم الإدخال، فإدخال ألف التحقيق تقول آإن ذكرتم، وبالتسهيل أإن هذا إدخال ألف بينهما، وبين الأخرى التي هي همزة إن، والقراءات كلها سبعية[1] وقوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ قال المؤلف: [وعظتم وخوفتم، وجواب الشرط محذوف، أي: تطيرتم وكفرتم]، قوله: ﴿أَئِن﴾ حرف شرط، والشرط يحتاج إلى فعل شرط، وإلى جواب الشرط، أما فعل الشرط فمذكور وهو قوله: ﴿ذُكِّرْتُم﴾ أما جواب الشرط محذوف، تقديره يقول المؤلف رحمه الله: [تطيرتم وكفرتم].

ولننظر ماذا حصل من التذكير لنعرف جواب الشرط ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ فالذي حصل منهم أنهم تطيروا، وأنهم توعدوا بالرجم والعذاب الأليم، فيكون الجواب مطابقاً للمذكور أي: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ تطيرتم، وتوعدتم بالرجم والعذاب الأليم، وكفرتم، قال

(١) يمكن الرجوع إلى الشريط المسجل وهو الشريط الثاني آخر الوجه الثاني.

المؤلف: [وهو محل الاستفهام. والمراد به التوبيخ] وهو أي: جواب الشرط المحذوف محل الاستفهام، يعني هو الذي ينصب عليه الاستفهام لا التذكير؛ لأن التذكير ثابت وليس فيه إنكار، إنما الإنكار والتوبيخ بالتطير بهم، واعتدائهم على الرسل، فهو محل الاستفهام الذي يراد به التوبيخ، يعني أن الرسل عليهم الصلاة والسلام وبخوهم وقالوا: أتتشاءمون وتتوعدون؛ لأننا ذكرناكم، فهذا هو محل الاستفهام، وإنما نص المؤلف على ذلك لأنه قد يظن الظان أن محل الاستفهام هي الجملة الموالية لأداة الاستفهام وهي قوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾، والواقع أن محل الاستفهام هو جواب الشرط، لا الشرط المذكور وهو أي الاستفهام للتوبيخ.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ هذا إضراب انتقال، يعني انتقلوا من الإنكار عليهم بكونهم يكذبون الرسل ويتوعدونهم ويتطيرون بهم إلى وصفهم الحقيقي وهو أنهم قوم مسرفون، والإضراب يكون للإبطال، ويكون للانتقال، فإذا قلت: جاء زيدٌ بل عمرو، فهذا إضراب إبطال، وإذا قلت: زيد في شك بل هو منكر، فهذا إبطال انتقال، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾[1] ومنه هذه الآية الكريمة ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ وقوله: ﴿مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي متجاوزون للحد، ووجه التجاوز:

أولاً: أنهم كذبوا الرسل بلا بينة وبلا دليل؛ لأنهم اعتمدوا على ما ليس حجة لهم، ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ وقالوا: ﴿وَمَا

(١) سورة النمل، الآية: ٦٦.

أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ وقالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ هذا إسراف جاوز الحد.

ثانياً: أنهم تطيروا بالرسل، وحقيقة الأمر أن الرسل عليهم الصلاة والسلام محل تفاؤل؛ لأن في اتباعهم الخير ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾[1] وهؤلاء تطيروا بالرسل وليسوا محل ليتطير بهم.

ثالثاً: أنهم توعدوا الرسل بالعدوان عليهم إذا لم ينتهوا عن دعوتهم إلى الله تعالى، وإبلاغهم رسالته، لقوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ فكل هذا من الإسراف.

وهو كذلك من العدوان أيضاً، ووجه ذلك:

أولاً: أنه لا يجوز للإنسان عقلاً أن يرد شيئاً بلا بينة، مع أن هؤلاء الرسل لا شك أنهم أتوا بآية تدل على صدقهم، ما بعث الله رسولاً إلا أعطاه ما على مثله يؤمن البشر.

ثانياً: تطيرهم بالرسل، والحقيقة أن التطير من أعمالهم هم؛ لأن الرسل قالوا وصدقوا فيما قالوا: «طائركم معكم» فتطيرهم بالرسل قلب للحقيقة؛ لأن حقيقة الأمر أن التطير من هؤلاء.

الوجه الثالث: أنهم توعدوا الرسل ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

الفوائد:

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ أن هؤلاء المكذبين تشاءموا بالرسل، وهذه دعوى باطلة، يدعيها كل مكذب بالرسل.

٢ ـ أن المكذبين بالرسل يدعى عليهم ما لم يكن منهم، تشويهاً وتنفيراً.

٣ ـ يستفاد منها: بيان عدوان هؤلاء المكذبين للرسل عليهم الصلاة والسلام، حيث توعدوا الرسل إن لم ينتهوا عن الدعوة إلى الله بالرجم المؤدي إلى الهلاك، أو بالعذاب الأليم إن لم يرجموهم. وهذا فيه غاية العدوان العظيم على عباد الله، فهؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾[1] فهؤلاء المكذبون للرسل الذين يتهددونهم بالقتل والرجم والعذاب الأليم من أشد الناس عدواناً؛ لأنهم اعتدوا على الحق وعلى حامل الحق.

٤ ـ ومن فوائدها: أن الإنسان شؤمه بعمله، وليس بدعوته إلى الحق، لقوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

٥ ـ ومن فوائدها: أن الذنوب والتكذيب للرسل يكون سبباً للمحق والبلاء لقوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ وهذا هو سنة الله عز وجل في جميع المكذبين للرسل، أن الله يبتليهم بالعقوبات لعلهم يرجعون.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٨.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: الإنكار على من ذكر فأعرض، لقوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾.

٧ ـ ومن فوائدها: جواز حذف ما علم بالسياق، ولا يعد هذا نقصاً في الكلام وبلاغته؛ لأن جواب الشرط محذوف لدلالته عليه، وربما يكون الحذف أبلغ.

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء القوم كانوا مسرفين على أنفسهم متجاوزين للحد لقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾. وسبق بيان وجه إسراف هؤلاء وتجاوزهم للحد.

* * *

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ قال المؤلف: [هو حبيب النجار كان قد آمن بالرسل ومنزله بأقصى البلد]. قوله عز وجل: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ أي من أبعدها إلى المكان الذي فيه الرسل والمكذبون لهم، وهو وسط المدينة، لأن الغالب أن العلم والحضارة وكثرة السكان تكون في الوسط. وهذا الرجل كان في أبعد المدينة فسمع أن هؤلاء كذبوا الرسل ـ وكان رحمه الله ـ قد آمن فجاء ينصح قومه، والله عز وجل يقول ﴿رَجُلٌ﴾ وهو نكرة غير معرف، والمؤلف يقول [حبيب النجار] وهذا الاسم والتعيين لم يصح عن النبي ﷺ ولعله متلقى عن بني إسرائيل، وموقفنا في مثل هذا ألا ننكر وألا نثبت، ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ وهنا بدء بيان مكانه قبل ذكره، وفي قصة موسى حين قتل القبطي ذكر

الرجل قبل مكانه فقال: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾[1] وهنا ذكر المكان قبل ذكر الرجل ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ وذلك لأن هذا الرجل كان مؤمناً فسهل عليه أن يأتي من المكان البعيد، فذكر مكانه لبعده ليستدل به على قوة محبة هذا الرجل للخير ودفع الشر. أما ذلك فالمقصود به العلم أن يأتي أحد بالعلم، فبدأ بالآتي وهو الرجل قبل ذكر مكانه.

وهنا قال الله عز وجل: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ وفي أول الآية قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ وهذا يدل على أن القرية تسمى مدينة، والمدينة أيضاً تسمى قرية، فمكة سماها الله تعالى قرية وهي أم القرى، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾[2] فالقرية ليست هي البلد الصغير كما يظن كثير من الناس، بل القرية تكون مدينة، ولذلك لأن أصل القرية معناه مأخوذ من القِرى، وهو التجمع فإن الناس يجتمعون فيها، فإن كانت بلدة كبيرة سميت في عرف الناس مدينة، وإن كانت دون ذلك سميت في عرف الناس قرية. فالتفريق بين القرية والمدينة ما هو إلا اصطلاح عرفي فقط.

قوله: ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي يشتد يركض لئلا تفوته الفرصة حين سمع بتكذيبهم ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ ﴿قَالَ﴾ هذا جملة مفصولة عما قبلها، أي أنها أتت بدون حرف العطف كأنها

---

(١) سورة القصص، الآية: ٢٠.

(٢) سورة محمد، الآية: ١٣.

جواب عن سؤال مقدر، تقديره فماذا قال حين جاء؟! ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾ و﴿قوم﴾ منادى منصوب بالنداء؛ لأنه مضاف، وقد حذفت منه ياء المتكلم، وأصلها (يا قومي) ولكن حذفت الياء للتخفيف، أو لالتقاء الساكنين؛ لأن اتبعوا مبدوءة بهمزة وصل، وهمزة الوصل ساكنة. قال الرجل: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾ ولم يقل يا أيها السفهاء، يا أيها الجهال، بل قال: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ توددا وتعطفاً لهم، ولم يقل: يا إخواني، لأنه لا أخوة بين المؤمن والكافر، فهو مؤمن وهم كفار، لكن ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، يصح أن يقال: يا قوم ولو كانوا كفاراً. قال الله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ﴾[1] قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾ اتبعوهم بما دعوكم إليه من الإيمان والعمل الصالح؛ لأن هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام دعوا إلى ما دعت إليه الرسل كلهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾[2] فهم دعوا إلى هذا، إلى الإيمان والعمل الصالح ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ كرر الأمر بالاتباع من باب التأكيد ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾ ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ ولو حذفت اتبعوا الثانية وقيل: اتبعوا المرسلين من لا يسألكم أجراً، لصح الكلام لكن كررت للتأكيد؛ لأنها هي المقصود الأول بالخطاب أن يتبعوا المرسلين ﴿مَن﴾ أي: الذي، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإنهم يدعون

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

الناس ولا يأخذون ولا يطلبون على دعوتهم من الناس أجراً، لكنهم يرجون من الله الأجر، أما من الناس فلا يأخذون أجراً، فهم لا يتخذون أجراً على دعوتهم وعلى دلالتهم إلى الخير فإنما يرجون الأجر والثواب من الله ﴿أَجْرًا﴾ هنا محلها من الإعراب مفعول ثان، والكاف مفعول أول، وهذان المفعولان من باب مفعولي، كسا وأخواتها ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ فبين هنا أن هؤلاء الرسل على هدى وليسوا على ضلال، وهم لا يسألون أجراً على ما دعوا إليه، وقوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ يحتمل أن تكون الواو للاستئناف، وهو الأقرب لبيان حال هؤلاء الدعاة أنهم على هدى، ويحتمل أن تكون للحال أي: لا يسألونكم أجراً مع كونهم مهتدين. ثم قال المؤلف: [فقيل له: أنت على دينهم؟ فقال: وما لي لا أعبد الذي فطرني] ما قدره المؤلف ـ رحمه الله ـ من أنه قيل للرجل: أنت على دينهم؟ لا يتعين، بل يجوز أن يكون الرجل قال: «وهم مهتدون وما لي لا أعبد الذي فطرني» على أن المراد به هؤلاء القوم كأنه قال: (ومالكم لا تعبدون الذي فطركم) لكن أضافه إلى نفسه من باب التلطف بالخطاب، هذا هو الأقرب لأمور:

أولاً: أن ما ذكره المؤلف لا دليل عليه، والسياق لا يستلزمه، وإذا كان لا دليل عليه من حيث النقل، ولا دليل عليه من حيث السياق؛ لأنه لا يستلزمه فالأصل عدمه.

ثانياً: أن ما قلناه أبلغ في التلطف بالدعوة بدلاً أن يقول: (ومالكم لا تعبدون الذي فطركم) قال: ﴿وَمَا لِيَ﴾ فأضاف الأمر

هنا إلى نفسه تلطفاً.

وقوله ﴿وَمَا لِيَ﴾ الاستفهام هنا بمعنى الإنكار، يعني أي شيء يمنعني أن أعبد الله وحده، ولهذا قال: ﴿لَآ أَعْبُدُ﴾ أي لا أتذلل للذي ﴿فَطَرَنِي﴾ قال المؤلف: [أي خلقني أي لا مانع لي من عبادته الموجود مقتضيها، وأنتم كذلك] قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ﴾ تقدم لنا أن العبادة هي التذلل لله عز وجل بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، محبة وتعظيماً، وأن العبادة تطلق على التعبد الذي ذكرناه، وعلى المتعبد به وهي الأفعال التي يتعبد بها الإنسان، أو الأقوال، وعلى هذا حدها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ بأنها هي: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة، والباطنة). وقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ ولم يقل: لأعبد الله ليقرن بين الحكم والدليل؛ لأن قوله: «أعبد الذي فطرني» مقتضى لكونه هو المعبود. إذ إنه هو الخالق، فلزم أن يكون هو المعبود وهذا كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[1] فقوله: ﴿**الذي خلقكم**﴾ كتعليل للأمر بعبادته وحده، كما أنه الخالق وحده، فيجب أن يكون المعبود وحده، ولهذا قال المؤلف [الموجود مقتضيها] وما مقتضيها أنه هو الذي فطر الخلق، وابتدأ خلقهم، فلزم أن يكون هو المستحق للعبادة وأن يعبد، وقوله: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي خلقني لأول مرة، والفطر والإبداع بمعنى الإيجاد لأول مرة، قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١.

وَٱلْأَرْضِ ﴾[١] وقال: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٢] فالذي فطر الخلق لأول مرة وعلى غير مثال سابق هو الله تعالى، فإذن يجب أن يكون هو المعبود، أما أن تعبد غير الله، وهذا الغير لا يخلق بل هو مخلوق كما قال الله عز وجل: ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾[٣] فكيف يصح أن يعبد هؤلاء، فهذا الرجل من فقهه وحكمته وحسن دعوته أنه قرن الحكم بالدليل، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ هذا مما يؤيد ما قلنا من أنه يريد قومه، لكن من باب التلطف في خطابهم قال: ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ كما تخاطب صاحبك الآن تحاوره أو تخاصمه تقول: مالي لا أفعل كذا. وكذا يعني ما المانع؟ فإذا كان لا مانع لي، فهو لا مانع لك أيضاً، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [بعد الموت فيجازيكم بكفركم] لو قال المؤلف: بعملكم، لكان أشمل؛ لأنه يجازيهم بالكفر إن استمروا عليه، ويجازيهم بالإسلام إن أسلموا، فلو عبر المؤلف بقوله: (سيجازيكم بعملكم) لكان أولى.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: بيان نصح هذا الرجل لقومه من وجهين:

الوجه الأول: أنه جاء من مكان بعيد، ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٧.

(٣) سورة النحل، الآية: ٢٠.

الوجه الثاني: أنه جاء يشتد ﴿يَسْعَىٰ﴾ فيستفاد منه أنه ينبغي للإنسان انتهاز الفرص في إنذار قومه ومناصحتهم، وأن لا يتوانى، فيقول: غداً أذهب إليهم، أو في آخر النهار، أو ما أشبه ذلك، فيبادر بالنصيحة والموعظة؛ لأن هذا الرجل جاء يسعى.

٢ ـ من فوائد الآية الكريمة: أنه يجوز للإنسان أن يبادر بالإنذار قبل أن يقدم له مقدمة إذا دعت الحاجة إلى ذلك، لقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾ أمرهم من أول الأمر، ولم يأتِ بمقدمة تهيئهم للقبول. لأن الحال تستدعي ذلك.

٣ ـ ومنها أيضاً: أنه ينبغي التلطف بالقول في دعوة الغير لقوله: ﴿يَـٰقَوْمِ﴾ فإن هذا يستوجب اتباعه، وقبول نصحه؛ لأن للإنسان حدباً وشفقة على قومه.

٤ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يسألون الناس أجراً على ما أتوا به من الدلالة والهداية لقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾.

٥ ـ ومن فوائدها: أنه ينبغي أن يقدم الوصف الموجب للقبول، قبل الوصف المفضل للقبول. فهنا قال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ والرسالة وصف يقتضي وجوب قبول المرسل. ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ هذا من باب الكمال.

٦ ـ ومن فوائدها: أنه ينبغي للداعية إلى الله عز وجل أن يترفع عن أخذ ما في أيدي الناس من الأموال حتى وإن أعطوه؛ لأنه ربما تنقص منزلته إذا قبل ما يعطى من أجل دعوته وموعظته؛ لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يسألون الناس أجراً لا بلسان

الحال، ولا بلسان المقال، وبه نعرف قبح ما يعمله بعض الناس ـ وإن كان والحمد لله قد قل ـ يقوم ويعظ الناس موعظة قد تكون بليغة، فإذا انتهى قال: إني في حاجة وصاحب عائلة وما أشبه ذلك، فصارت الموعظة للدنيا.

فهل يستفاد منه هذا أنه لا يجوز أخذ الأجر على تعليم العلم، لما فيه من المخالفة لطريق الرسل، أو يقال لا. لأن الذي لا يجوز الأخذ عنه الدعوة لله عز وجل، فهذه لا يجوز أخذ الأجر عليها لوجوب الدعوة على الإنسان، أما التعليم الذي يحتاج إلى معاناة وإلى تعب وإلى تفهيم خاص فهذا لا بأس به، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله**»[1].

هل يستفاد من الآية: أنه لا يجوز أخذ رزق من بيت المال للدعوة والإرشاد؟

الجواب: لا يستفاد، ولكن لا شك أن التنزه عن ذلك أولى، فكون الإنسان يذهب يدعو إلى الله عز وجل بدون أن يأخذ مقابلاً ولا من الحكومة، لا شك أن هذا أفضل، وأقرب إلى الخلاص وأشد وقعاً في نفوس الناس، حتى وإن لم يعلموا أنه لم يأخذ؛ لأن الله تعالى يلقي ذلك في قلوب الناس، أي يلقي القبول من هذا الناصح أو الداعي، وإن لم يعلموا أنه لا يأخذ شيئاً.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإجارة، باب: ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب (٢٢٧٦) ومسلم، كتاب السلام، باب: جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار (٦٥) (٢٢٠١).

٧ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن من طريق الدعوة أن يذكر الإنسان حال الداعية بوصفه بما يوجب قبول قوله؛ لقوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ وقد ذكر ما يوجب قبول قولهم في أول الدعوة ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وفي آخرها في قوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾.

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه يجب على من دعا إلى الله أن يكون على بصيرة وعلى علم؛ لأن هذا هو وصف الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهم يدعون إلى الله على هدى منه، وأما من يدعو على غير هدى فإنه قد يفسد أكثر مما يصلح؛ لأن الذي يدعو على غير علم ربما يجعل الشيء الحرام حلالاً، والحلال حراماً وهو لا يدري، فيحصل بذلك فساد في الدين والعقيدة.

٩ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا بأس للإنسان أن يضيف الشيء إلى نفسه على سبيل الفرض تلطفاً، لقوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ يعني على فرض أنني أتخذ من دون الله آلهة فما الذي يمنعني أن أعبد الله عز وجل وحده؟!

١٠ ـ ومن فوائدها: الإرشاد إلى وجوب الإخلاص في العبادة لقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ فإن الله تعالى منفرد بفطر الخلق فيجب أن يفرد بالعبادة، فلا يدعي أحد أن الآلهة تخلق، إذاً لا يجوز أن تعطى شيئاً من العبادة التي يختص بها من يخلق وهو الله عز وجل.

١١ ـ ومنها: أنه من كمال الدعوة والتسليم قرن الحكم بدليله، أو علته؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ فإن هذا كتعليل لقوله:

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾ ولهذا عدل عن قوله: (ما لي لا أعبد الله) إلى قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ ليكون هذا كدليل والتعليل لوجوب إفراده سبحانه بالعبادة، وهذا في القرآن الكريم والسنة كثير.

١٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي ذكر ما يكون به الحذر والخوف بعد أن يذكر ما يكون الترغيب والحث لقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾ فذكر ابتداء الخلق وانتهاءه، وأنه كله إلى الله عز وجل، وهنا نجد الفرق بين التعليل الأول ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ ولم يقل «وإليه أرجع» لأنه ـ كما قلنا ـ إنما أضاف ذلك إلى نفسه وهو يعني قومه، لكنه أضافه تلطفاً وتوبيخاً لهم، وكأنه يقول: «أنا لا أعبد إلا الذي فطرني» فلماذا تعبدون أنتم معه غيره وإليه ترجعون؟!.

* * *

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣﴾ قال المؤلف: [أأتخذ في الهمزتين منه ما تقدم في ﴿أأنذرتهم﴾ هو استفهام بمعنى النفي] فيكون معنى ﴿أأتخذ﴾ أي: لا أتخذ، وقد سبق لنا أن الاستفهام إذا أتى بمعنى النفي فإنه يفيد معنى التحدي، ولكنه هنا يفيد معنى الامتناع، غاية الامتناع، يعني أنه لا يمكن أن أتخذ من دونه ـ أي غيره ـ آلهة ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ معروف أن أتخذ تنصب مفعولين ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ المفعول الثاني ﴿ءَالِهَةً﴾ المفعول الأول، ويجوز أن نجعل ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ في موضع النصب على الحال من

﴿ءَالِهَةً﴾ ويكون الثاني محذوفاً أي: (أأتخذ أصناماً آلهة) وهذا هو الذي مشى عليه المؤلف لقوله: [أصناماً] قال: [﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ﴾ التي زعمتموها ﴿شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ صفة آلهة] يريد المؤلف في الإعراب أن قوله: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ هذه الجملة الشرطية صفة لآلهة، يعني لا أتخذ آلهة هذا شأنها، وهو أن الله لو أراده بضر لم تنفع شفاعتهم ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾، هذا معنى كلام المؤلف.

وقيل: إن الجملة استئنافية لبيان حال هذه الآلهة، أي: أأتخذ من دونه آلهة ثم قال: هذه الآلهة لا تغني شفاعتها شيئاً من دون الله، ولا تنقذ.

ولكن ما ذهب إليه المؤلف أظهر، فتكون الجملة الشرطية في موضع نصب صفة لآلهة قال: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ يعني إن يردن الله عز وجل، وذكر الرحمن؛ لأن الرحمن اسم يدل على الرحمة، ولما كان الضر قد يفهم منه من يفهم من الناس انتفاء الرحمة عن المريد، ذكر ذلك باسم الرحمن لئلا يظن ظان، أو يتوهم الواهم هذا الوهم، أن إرادة الله الضر للإنسان تنافي الرحمة، لأن إرادة الضر بالإنسان قد يكون من رحمة الإنسان. قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[1] فما يصيب الإنسان من الضر له نتائج حميدة وهي الرجوع إلى الله عز وجل، والاعتبار

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.

بما جرى، ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي لا تنفعني بشيء، والشفاعة في الأصل هي: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة. فهذه الأصنام التي تعبد من دون الله يدعي عابدوها أنهم إنما عبدوها لتقربهم إلى الله كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1] إذاً فهم يدعون أنهم يعبدونها لتشفع لهم، وهل هذا الوهم أو هذا الظن صحيح؟ الجواب: لا، لأنهم عبدوها ولم يتخذوها وسيلة، بل جعلوها غاية، ولهذا لا يخطر في قلوبهم حين التعبد لها إلا التعظيم لهذه الأصنام وينسون الخالق عز وجل، ﴿وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ أي من الهلكة، أو الضر الذي أراده الله تعالى بهم.

الفوائد:

١ ـ بيان الإنكار والتسفيه والتوبيخ للذين يتخذون مع الله آلهة، لأن المراد من الاستفهام: الإنكار والتسفيه والتوبيخ لهؤلاء.

٢ ـ ومن فوائدها: أنه ينبغي قرن الحكم بالتعليل لأنه قال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ . . .﴾ إلى آخره، فهذه الآلهة لا تنفع، ولا تضر، ولا تدفع، فهي لا تنفع من عبدها، ولا تضر من عدل عنها، ولا تدفع عن عابديها ضرر الغير، يقول عز وجل: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ فهم لا يستطيعون دفع ضرر الغير، وهم ـ أي الآلهة ـ لا ينفعون عابديهم، ولا يضرون من عدل عن عبادتهم فهي قاصرة بنفسها لا

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

تجلب نفعاً ولا ضراً، ولا تدفع الضر عن عابديها فتكون عبادتها خسران.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن كل معبود فهو آلهة لقوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ لكن إن كان يستحق العبادة فهو إله حق وهذا لا يكون إلا لله عز وجل، وإن كان لا يستحق العبادة وهو من سوى الله فعبادته باطلة وألوهيته باطلة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[1].

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الإرادة لله ـ عز وجل ـ لقوله: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ وإرادة الله عز وجل تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: إرادة كونية.

القسم الثاني: إرادة شرعية.

فالإرادة الكونية هي التي بمعنى المشيئة، ويتعين فيها وقوع المراد، ولا يلزم أن يكون محبوباً لله تعالى.

والإرادة الشرعية هي التي بمعنى المحبة، ولا يتعين فيه وقوع المراد، ويتعين أن يكون فيها محبوباً لله عز وجل.

فإذا قال قائل: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ والضر شر على الإنسان فكيف نجمع بين هذا وبين قوله ﷺ: «**الشر ليس إليك**»[2].

---

(١) سورة الحج، الآية: ٦٢.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الندب الأكيد إلى قيام ليلة القدر ٢٠١ (٧٧١).

فالجواب: أن النبي ﷺ لم يقل: «الشر ليس منك»، بل قال: «**الشر ليس إليك**» والله عز وجل قد يريد الشر، لكن إرادته الشر خير، فالشر في مفعوله، لا في فعله، فقد يريد الله وقوع الشر، لكنه لمصلحة عظيمة، هذه المصلحة نفت نسبة الشر لله، ولهذا يفرق بين الشر منك، والشر إليك، فالشر لا يضاف إلى الرب، ولكن يضاف إلى المفعولات والمخلوقات، مع أن هذه المفعولات والمخلوقات شر من وجه، وخير من وجه، ففعله سبحانه وتعالى كله لحكمة وغاية محمودة، وانظر مثلاً إلى المرض إذا أصاب الإنسان، فلا شك أنه شر بالنسبة لصحته، ولكن لا تشعر بنعمة الصحة، لكن إذا مرضت شعرت بقدر النعمة، (وبضدها تتبين الأشياء)، فأنت الآن تتنفس النفس، تتنفس وأنت تأكل، تتنفس وأنت تتكلم، تتنفس وأنت قائم، وأنت قاعد، وأنت مضطجع، لا تحس بأي شيء، لكن لو قدر الله تعالى أن يحبس نفسك، ويصبح عندك ضيق تنفس عرفت قدر النفس، فالحاصل أن هذا الشر شر نسبي في الواقع حتى بالنسبة لمن وقع عليه.

مثال آخر: الفيضانات، والزلازل، والجدب، شرور، لكن بالنسبة إلى تقدير الله لها هي خير، فهي شر بالنسبة لمن أصابتهم، لكن خير بالنسبة للآخرين يتعظون ويخافون، وقد تكون خيراً لأولئك المصابين بحيث يرجعون إلى الله عز وجل، ويعرفون أن المعصية عاقبتها وخيمة ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[1] إذاً فلا منافاة بين قوله ﷺ: «**الشر ليس إليك**» وبين مثل هذه الآية ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات صفة الرحمة لله عز وجل مؤخوذة من قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ لأن الرحمن وصف مشتق، والوصف المشتق يدل على المعنى المشتق منه، ولابد، بخلاف الأسماء الجامدة، كأسد، وحجر، وتراب، وما أشبهها هذه لا تدل على معنى، لكن الأسماء المشتقة لابد أن تدل على معنى، هذا بالنسبة إلى أسماء الله تعالى ورسوله ﷺ وكتابه، أما بالنسبة لمن تسمى بها من المخلوقين فقد تدل على المعنى وقد لا تدل، فقد نسمي شخصاً عبدالله وهو كافر بالله، وقد نسمي شخصاً محمداً وهو مذمم، وقد نسمي خالداً وهو سيموت، وقد نسمي صالحاً وهو من أفسد الناس.

٧ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن عابدي الأصنام يموهون على الناس بعبادتهم، فيدعون أنهم يعبدونها لتكون شفيعاً لهم عند الله، وهذا عندما يسمعه السامع يظن أنهم يجعلون الآلهة في مرتبة دون الله؛ لأن مرتبة الشافع دون مرتبة المشفوع إليه.

فيقولون: (إنهم شفعاء لنا إلى الله)، والحقيقة أنهم لم يجعلوهم شفعاء، بل جعلوهم شركاء لله؛ لأنهم يعبدونهم كما يعبدون الله، فيستفاد منه الحذر من التلبيس في الأسماء أو بالتسمية، وأن صاحب الباطل قد يسمي نفسه بما يقتضي أن يكون على حق، وليس كذلك. فالمعتزلة ـ مثلاً ـ يسمون أنفسهم «أهل

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.

التوحيد»، والمعطلة يسمون أنفسهم «أهل التنزيه»، يقولون: نحن ننزه الله، أما أنتم أهل السنة لا تنزهون الله جعلتموه صنماً فمثلتموه بالخلق في إثبات الصفات. وهؤلاء أيضاً المعتزلة يقولون: نحن نفينا الصفات لنوحد الله، لأن تعدد الصفات يستلزم تعدد الموصوف، فهذا تمويه، والمعتزلة ينكرون أن يكون لله تعالى تعلق بفعل العبد، فيسمون أنفسهم أهل العدل، ويقولون أنتم يا أهل السنه أهل الظلم جعلتم الله ظالماً حيث هو الذي يقدر المعاصي على العبد ثم يعاقبه عليها، أما نحن فنحن أهل العدل نقول: الإنسان هو المستقل بنفسه وعمله، فإذا جوزي على معصيته فقد استحق الجزاء، لأنه فعله. والنصارى سموا أنفسهم بالمسيحيين تلطيفاً لحالهم، ليوهموا أنهم على دين المسيح، والواقع أن المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بريء منهم وأنهم ليسوا على دينه، إذ لو كانوا على دينه وقابلين له لقبلوا بشارته بمحمد ﷺ فإن عيسى عليه الصلاة والسلام بشرهم به، وقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾[1] ولو كانوا مؤمنين بالإنجيل لآمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾[2] فهم لا آمنوا بعيسى، ولا بكتاب عيسى وهو الإنجيل، لكن مع ذلك سموا أنفسهم بالمسيحيين تلطيفاً لما هم عليه من الباطل؛ ليصبغوا

---

(١) سورة الصف، الآية: ٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

نحلتهم بصبغة القبول، فيجب الحذر من التلبيس في التسمية؛ لأن هؤلاء يقولون: نعبد الآلهة ليكونوا شفعاء لنا. وهم في الحقيقة إنما جعلوهم شركاء.

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا أحد ينقذ من أراده الله تعالى بضر لقوله: ﴿وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

فإن قلت: كيف يجتمع هذا مع أننا نشاهد الغريق عصفت به الريح حتى سقط في الماء فجاء شخص فأنقذه، فهذا أنقذه مما أراده الله عز وجل به من السوء؟

فالجواب أن نقول: أن إنقاذه بتقدير الله عز وجل، لو شاء الله سبحانه وتعالى أن يهلك هذا الرجل لم يكن عنده أحد، ولو شاء الله أن يهلك لكان عنده من لا يجيد السباحة، ولو أراد الله أن يهلك لكان عنده من لا يريد الإحسان، فإذا قيض الله له شخصاً قادراً على إنقاذه محباً للإحسان أنقذه بقدر الله عز وجل، ونحن نؤمن بالأسباب، ولكن لا نؤمن بأنها مستقلة، فنكونُ وسطاً بين الذين ينكرون تأثير الأسباب، وبين الذين يدعون أنها مؤثرة بنفسها.

فنقول: هي مؤثرة لكن بجعل الله لها تأثيراً، ولو شاء الله تعالى لسلب الأسباب تأثيرها، فالنار محرقة، وقال الله تعالى لها حين ألقي فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾[1] فصارت برداً وسلاماً ولم تكن سبباً للإحراق، والماء جوهر سيال لا يمكن حجزه إلا بحاجز، ولما ضرب موسى

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

عليه الصلاة والسلام البحر صار الماء كالجبال، بدون حواجز، وهذا خلاف الأسباب المعتادة، لكنه بقدر الله عز وجل، وبه نعرف أن الأسباب مؤثرة بجعل الله تعالى لها تأثيراً، وإلا لسقط تأثيرها؛ لأن الكل بيد الله.

وبمناسبة ذكرنا نار إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال بعض المفسرين: إن الله لما قال لها: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ صارت جميع النيران في جميع أقطار الدنيا باردة ولا تحرق، واستغرب الناس ذلك وقالوا: ما لهذه النار ما غلا القدر عليها، ولكن هذا لا شك أنه قول خاطىء بعيد من الصواب، بل هو خلاف أمر الله عز وجل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يا نار﴾ ونار نكرة مقصودة، ولهذا بنيت على الضم فهي كالعلم يراد بها شيء معين، وهي النار التي ألقي فيها، ثم قال: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ فهذا القول خلاف الآية الكريمة، وسبحان الله بعض الناس ـ رحمة الله عليهم وعفا عنهم ـ يذهبون المذاهب نقول: كيف تقع هذه من عالم، والغالب أن هذه تجدها عن بني إسرائيل فتأخذ مسلمة ولا ينتبه لمعارضتها لآي الكتاب.

* * *

﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ ﴿إِنِّىٓ إِذًا﴾ هذه الجملة مؤكدة بإن؛ لأن المقام يقتضي التوكيد وقوله: ﴿إِذًا﴾ قال المؤلف: [أي: أن عبدت غير الله] لقوله ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ ويجوز أن نقدر ﴿إذاً﴾ أي: إذا اتخذت من دونه آلهة، لقوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن

دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ و(إذا) هذا ظرف يدل على الحال، و(إذا) تدل على المستقبل و(إذ) ظرف تدل على الماضي، فهذه الثلاثة تقاسمت الزمن (إذاً) للحال و(إذا) للمستقبل و(إذ) للماضي وتأتي (إذ) لغير ذلك، كما تأتي للتعليل مثلاً.

﴿ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ اللام هنا للتوكيد، الجملة مؤكدة بمؤكدين يعني إن اتخذت معه آلهة، أو عبدت غيره ﴿ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ قال المؤلف: [بين] والضلال هو أن يتيه الإنسان عن جادة الصواب، ثم إن كان عن علم كان طريقه طريق المغضوب عليهم، وإن كان عن جهل كان طريقه طريق الضالين، وقد ذكر الله تعالى في سورة الفاتحة فقال تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ والمغضوب عليهم هم الذين جانبوا الصواب عن علم، والضالون هم الذين جانبوه عن غير علم، والمهتدون الذين أنعم الله عليهم هم الذين عملوا بالصواب وعن علم، ووجه كون اتخاذ آلهة من دون الله ضلالاً مبيناً أنه حيدة عن الواجب شرعاً وعقلاً، فالواجب شرعاً أن لا تتخذ آلهة مع الله تعالى، كما جاءت به جميع الرسل، والواجب عقلاً أن لا تتخذ آلهة مع الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان وفطره، وهو الذي بيده النفع والضر، فكيف تتخذ معه آلهة لم تخلق ولا تنفع ولا تضر ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ أعلن ـ رحمه الله ـ أنه آمن بالله عز وجل فقال: ﴿ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ وهناك قال: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ إشارة إلى أنه ليس الله ربًّا

له وحده بل هو رب الجميع. والإيمان بالله عز وجل يتضمن الإيمان بأمور أربعة:

الأول: الإيمان بوجوده.

الثاني: الإيمان بربوبيته، وهنا صرح به في قوله: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فإثبات الربوبية إثبات للوجود.

الثالث: الإيمان بألوهيته.

الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته.

أي أنه متفرد بالربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، وقوله: ﴿ءَامَنتُ﴾ الإيمان في اللغة: التصديق عند كثير من المفسرين الذين يفسرون الإيمان، وقيل: إن معناه الإقرار والاعتراف، فهو أخص من التصديق. قال: ﴿فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ الفاء هذه عاطفة على قوله: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أو على الجملة كلها، وقول: ﴿فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ أي: اسمعوا قولي، وهذا إعلان منه ـ رحمه الله ـ بإيمانه مراغمة لقولهم، وإقامة الحجة عليهم، ولهذا لما أعلن هذا الإعلان قتلوه، وقال المؤلف: [فرجموه فمات ﴿قِيلَ﴾ له عند موته ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ وقيل: دخلها حيًّا].

لما أعلن ـ رحمه الله ـ هذا الإعلان، وراغمهم ولم يأبه بهم، ولم يهمه والظاهر ـ والله أعلم ـ أنهم توعدوه، حينئذ رجموه فقتلوه، فقيل له بعد موته ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾، الأمر هنا للتكريم، والجنة هي: الدار التي أعدها الله سبحانه وتعالى لأوليائه، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وقوله: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ بعد موته لأن الإنسان يعذب في

قبره، فإن كان من أهل الخير فإنه ينعَّم، وإن كان من أهل الشر فإنه يعذب قال: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾ لما قيل له: ادخل الجنة، ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾، قال المؤلف: [حرف تنبيه] يعني (يا) حرف تنبيه وليست حرف نداء، لأنها دخلت على حرف و(يا) التي للنداء لا تدخل إلا على اسم، فإذا دخلت على ما لا يصح دخولها عليه فإنها لا تكون للنداء، وقد مر علينا في علامات الاسم أن من علاماته دخول النداء عليه، فإذا دخلت (يا) على غير اسم فهي للتنبيه، سواء دخلت على حرف مثل: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾ أو دخلت على فعل، وأكثر ما تدخله من الأفعال على فعل الأمر فإنها تكون للتنبيه، ويجوز أن تكون حرف نداء، والمنادى محذوف، ويقدر بحسب السياق، فمثل هذه الآية: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾ نقدره فنقول: يا رب ليت قومي يعلمون. فصار في إعرابها وجهان:

أحدهما: أنها للتنبيه.

والثاني: أنها للنداء، والمنادى محذوف، ويقدر بحسب السياق. وقوله: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾ ليت هنا للتمني، ولعل للترجي، والفرق بينهما أن التمني يكون فيما فيه تعذر، والترجي يكون فيما يقرب حصوله، وما كان بين ذلك فتارة تستعمل فيه ليت، وتارة تستعمل فيه لعل، وما كان من ذلك فأحياناً لعل وأحياناً ليت، بحسب قربه من التعذر أو من القرب.

قال ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾.

قال المؤلف: [بغفرانه] أي: بما حصل لي ﴿بِمَا غَفَرَ لِي

رَبِّي﴾ الباء هنا متعلقة بـ(يعلمون) والعلم هنا بمعنى المعرفة، فلا تتعدى إلا إلى مفعول واحد، و(ما) مصدرية كما حلها المفسر وأولها إلى مصدر فقال [بغفرانه]. وهنا نذكر معاني (ما)، معاني (ما) عشرة:

١ ـ استفهامية. ٢ ـ شرطية. ٣ ـ موصولة. ٤ ـ تعجبية. ٥ ـ نكرة. ٦ ـ كافة. ٧ ـ نافية. ٨ ـ زائدة. ٩ ـ للتعظيم. ١٠ ـ مصدرية.

والمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه، لأنها مأخوذة من المغفر، والمغفر فيه شيئان:

أحدهما: الستر لأنه يستر الرأس.

والثاني: الوقاية؛ لأن الإنسان يضع على رأسه المغفر في القتال ليتقي به السهام، وليس المغفرة بمعنى الستر فقط.

ثم قال: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ فأضاف الربوبية، وهي من الربوبية الخاصة، لأن الربوبية نوعان: ربوبية عامة، وربوبية خاصة، فالربوبية العامة هي الشاملة لجميع الخلق، التي مقتضاها التدبير والتصرف في الخلق كما تقتضيه حكمته، والخاصة هي التي يكون فيها عناية بهذا المربوب، كربوبية الله سبحانه وتعالى لرسله وأوليائه، وقد اجتمع النوعان في قول السحرة: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[1] الأولى: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عامة، والثانية ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ خاصة، ويقابل ذلك العبودية فإنها عامة، وخاصة، فالعامة كقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٢١، ١٢٢.

مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾[١] والخاصة كقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[٢] والخاصة فيها أخص وهي عبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام، كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾[٣].

﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ جعلني من المكرمين لدخوله الجنة؛ لأن دخول الجنة إكرام للإنسان من قبل الله تعالى، وإكرام من قبل الملائكة؛ لأن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. وإكرام من جهة الولدان المخلدون الذين هم خدم لأهل الجنة، وإكرام من جهة الزوجات اللاتي هن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، وإكرام من جهة بعضهم لبعض، فإنهم إخوان على سرر متقابلين، قد نزع الله ما في قلوبهم من غل، ومثل هذا لابد أن يكون فيه إكرام من بعضهم لبعض، فأهل الجنة مكرمون، ومنهم هذا الرجل المؤمن الناصح المخلص فإنه مكرم بدخول الجنة، قال الله عز وجل لما ذكر المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ختم هذه الصفات بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾[٤] ولهذا قال هنا: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٩٣.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٤) سورة المعارج، الآية: ٣٥.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: بيان أن من أعظم الضلال وأشده تيهاً أن يتخذ الإنسان مع الله آلهة لقوله: ﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾.

٢ ـ ومنها: أنه ينبغي التأكيد إذا كان المخاطب منكراً، أو حاله حال المنكر؛ لأنه يخاطب قومه الذين اتخذوا مع الله آلهة ويقول: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ ولهذا أكد الجملة بمؤكدين (إن، واللام).

وربما يأخذ من الآية الكريمة أن كل من ضل عن الحق، أو كل من خالف الحق أصابه من الضلال بقدر ما خالف الحق؛ لقوله: ﴿لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ فيفيد أن الضلال قد يكون خفياً، وقد يكون بيناً واضحاً.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: كمال نصح هذا الرجل لأنه قرر وحدانية الله عز وجل بعدة أمور، منها ما سبق في قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ ومنها: التحذير من الشرك به لكون المشرك في ضلال مبين، وهكذا ينبغي للداعية لله عز وجل إذا دعا إلى الحق أن يذكر ما في لزومه من الفضائل، وأن يذكر ما في مخالفته من الضلال والسوء، حتى يجمع بين الترغيب والترهيب.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن من وحد الله فهو على هدى مبين، بين واضح؛ لأنه أصاب الفطرة، وأصاب ما جاءت به الرسل.

٦ ـ يستفاد من هذه الآية ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ

فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ فضيلة هذا الرجل بإعلانه الإيمان بالله عز وجل، فكل إنسان يؤمن ويعلن إيمانه بالله فإن ذلك له ميزة وفضيلة، قال الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[1] أعلن أنه من المسلمين ولم يخف أحداً سوى الله.

٧ ـ ومنها: قوة شخصية هذا الرجل، حيث أعلن أمام هؤلاء القوم أنه آمن، وآمن بربهم الذي يستلزم أن يكونوا مخلصين له بالعبادة إذا كان رباً لهم، كأنه أقام الحجة عليهم بذلك، فإذا كان الله ربكم فواجب أن توحدوه، ولا تتخذوا معه آلهة، وهذا يدل على قوة شخصيته، زد على ذلك أنه تحداهم فقال: ﴿فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ فأنا لا أبالي بكم فاسمعوا إني آمنت بربكم الذي يجب أن توحدوه؛ لأنه ربكم.

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: بيان ربوبية الله تعالى العامة حيث قال: ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾ مع كونهم مشركين كفاراً، وهذا من الربوبية العامة.

٩ ـ يستفاد من هذه الآية الكريمة: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾. إثبات نعيم القبر لقوله: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ مع أن الساعة لم تقم بعد، ولم يدخل الناس الجنة، ويدل ذلك آيات من القرآن لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾[2] توفاهم الملائكة ﴿طيبين﴾ حال من الهاء

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٢.

و﴿يقولون﴾ حال من الملائكة، يعني حال كون الملائكة يقولون حين توفاهم ادخلوا الجنة فيستفاد من هذه الآية إثبات نعيم القبر. ومثل قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[1] فهنا قال: ﴿**فلولا إذا بلغت**﴾ حين الموت، ثم قال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ ومنها هذه الآية: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ لأن هذا قيل له: ﴿ادخل الجنة﴾ ولم تقم الساعة الآن، فهو دليل على أن الميت ينعم في قبره كأنه دخل الجنة، لأنه يلبس من الجنة، ويفرش من الجنة، ويفتح له باب من الجنة، ويأتيه من روحها ونعيمها فكأنه دخلها.

١٠ ـ من فوائدها: أن هذا الرجل ناصح في حياته وبعد مماته، في حياته دعا قومه إلى توحيد الله عز وجل، وأن يؤمنوا ويتبعوا الرسل، وبعد مماته تمنى أن قومه يعلمون بغفران الله له من أجل أن يؤمنوا ويتبعوا الرسل، وهذا دليل أن المؤمن لا تلقاه إلا ناصحاً حتى بعد موته يكون ناصحاً، وهذا الرجل تمنى أن قومه يعلمون بما غفر الله له لعلهم يرجعون فيؤمنون كما آمن.

١١ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات وجود الجنة، وقد دل على ذلك آيات، وأحاديث كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٨٩.

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١] والإعداد بمعنى التهيئة، والنصوص في هذا كثيرة، وقد عرضت الجنة والنار على النبي ﷺ وهو يصلي صلاة الكسوف.

وهل تبقى الجنة أبداً؟

الجواب: نعم، وهذا متفق عليه بين أهل السنة، والنار موجودة الآن وهو متفق عليه، بين أهل السنة، وهل تفنى؟ الصحيح المقطوع به أنها لا تفنى؛ لأن الآيات صريحة في ذلك فقد ذكر الله تعالى تأبيد الخلود فيها في ثلاث آيات من كتابه، في سورة النساء، والأحزاب، والجن، في سورة النساء قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾[٢]. في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾[٣] الثالثة في سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾[٤] فهذه ثلاث آيات صريحة في تأبيد أهل النار، ومع التصريح التأبيد ذكر عن بعض السلف أنهم كانوا يقولون بأنها تفنى، ولكن هذا القول لا شك ـ مهما قاله من قاله ـ فإن قوله مردود عليه.

١٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: منة الله عز وجل على من آمن بالمغفرة والإكرام، فيتفرع على هذه الفائدة: أن الإيمان سبب المغفرة، وسبب لإكرام الله تعالى للعبد.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٦٨، ١٦٩.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: ٦٤، ٦٥.

(٤) سورة الجن، الآية: ٢٣.

١٣ ـ ومن فوائدها: أنه لا يتم النعيم إلا بزوال المكروه، ويستفاد هذا من قوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾.

١٤ ـ ومنها: ما أشار إليه بعض الأدباء أن التخلية قبل التحلية لقوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ وهذا تخلية وإزالة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ هذا تحلية ولهذا قيل: التخلية قبل التحلية.

١٥ ـ يستفاد منها: أن المغفرة تسبق الإكرام، والرحمة؟ ويدل لهذه القاعدة التتبع، فإن الغالب أن الله عز وجل إذا قرن بين الاسمين: الغفور والرحيم، يقدم الغفور على الرحيم.

١٦ ـ ومن فوائد الآية أيضاً: إثبات الربوبية الخاصة من قوله: ﴿رَبِّي﴾ فهذا من الربوبية الخاصة.

١٧ ـ ومن فوائدها: أن إكرام الله عز وجل لا يختص بهذا الرجل، بل هناك عالم يكرمهم الله تعالى لقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ففيه حث على أن يفعل الإنسان كفعله لينال ما ناله ولم يقل (بما غفر لي ربي وأكرمني) بل قال: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ليبين أن الإكرام ليس خاصًّا به، بل الإكرام موجود لكل من قام بعمل كعمله.

* * *

﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [(ما) نافية: ﴿أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي حبيب]. بناءً على أن اسمه حبيب، وقد سبق أن اسمه لا يهمنا، المهم القصة، ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد أن هلك ومات على أيديهم، وقوله: ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي ملائكة، فإن

الملائكة جنود الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[٢] فجنده الملائكة ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ قال المؤلف [ملائكة لإهلاك أحد] وقيل: ما كنا منزلين ملائكة لإهلاك هؤلاء؛ لأنهم أقل وأحقر من أن يبعث الله ملائكة من السماء تهلكهم، وهذا هو الأقرب، فيكون النفي هنا خاصًّا بهؤلاء القوم؛ لأن الله أنزل ملائكة في بدر، وأنزل ملائكة في غزوة حنين، وكذلك في غزوة الأحزاب فأرسل عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ولكن ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أي جنوداً لهؤلاء احتقاراً لهم، وهذا الذي مشى عليه المؤلف من أن المراد بالجند الملائكة هو الصحيح، خلافاً لقول بعض العلماء: ﴿۞ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي من وحي ورسل؛ لأن الوحي تنزل به الملائكة، لكن ما مشى عليه المؤلف أصح بدليل ما يأتي فيما بعد، قال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ﴿إِن﴾ قال المؤلف: [أي: (إن) بمعنى (ما)] وعلى هذا فهي نافية، وينبغي أن نستحضر معاني (إن):

١ ـ تأتي نافية.

٢ ـ وشرطية كما لو قلت (إن قام زيد قام عمر).

٣ ـ وتأتي مخففة من الثقيلة مثل: وإن مالك كانت كرام المعادن.

٤ ـ تأتي زائدة كقوله:

بني غدانة ما إن أنتم ذهب ... ولا صريف ولكن أنتم الخزف

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٣١.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٧٣.

فتأتي على أربعة أوجه: نافية، وشرطية، ومخففة من الثقيلة، وزائدة، وإذا أتت بعدها (إلا) فهي نافية، وقد تكون نافية بدون (إلا)، كقوله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾[1] أي: ما عندكم. لكن القاعدة: أنه إذا أتت بعدها إلا فهي نافية، قال الله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ﴾ قال المؤلف: [عقوبتهم]، يعني ما كانت عقوبتهم التي عاقبهم الله بها لكفرهم ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ قال المؤلف: [صاح بهم جبريل] ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ يعني ما احتاجوا إلى عناء ولا جند، ما هي إلا صيحة، ولم يبين الله سبحانه وتعالى الصائح، والمؤلف قال: إنه جبريل. ولا ينبغي أن نجزم بهذا إلا بدليل؛ لأن الواجب علينا أن نبهم ما أبهمه الله، إلا أن يرد تعيينه بدليل صحيح، ولم يرد تعيين الصائح بدليل صحيح، وعلى هذا فنقول: صيح بهم، ولا نجزم من هذا الصائح، المهم أنها صيحة واحدة، صيح بهم فهلكوا عن آخرهم، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (إذا) هنا فجائية تدل على تعاقب ما بعدها وما قبلها، أي أن ما بعدها وقع عقب ما كان قبلها مباشرة، ولهذا سميت فجائية؛ لأنها تفاجىء وتأتي فوراً فحين صيح بهم ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ وبهذا نعرف أن هؤلاء ماتوا عن آخرهم لأن ﴿هُمْ﴾ ضمير يفيد الجمع والشمول.

الفوائد:

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ أن الله عز وجل قد ينزل الملائكة لإهلاك المكذبين،

---

(١) سورة يونس، الآية: ٦٨.

ووجهه أن نفي إنزال الملائكة على هؤلاء القوم يدل على إمكانه في غيرهم، وإلا لما صح النفي.

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الملائكة جند لله عز وجل لقوله: ﴿مِن جُندٍ﴾.

٣ ـ ومن فوائدها: أن الملائكة محلهم السماوات لقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. وهذا هو الأصل، لكنهم قد ينزلون إلى الأرض كما في قوله تعالى في ليلة القدر: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾[1] وكالملائكة الذين يحفظون بني آدم، والذين يكتبون أعمالهم، والذين يكتبون المتقدمين إلى الجمعة على أبواب المساجد وما أشبه ذلك.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: بيان حقارة هؤلاء القوم المكذبين لهؤلاء الرسل الثلاثة لقوله: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: بيان عظمة الله عز وجل وذلك لذكره بصيغة الجمع ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ ولا يقال إن هذا يفيد التعدد كما استدلت بذلك النصارى، وقالوا: إن الآلهة متعددة؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ وما أشبه ذلك من الآيات، ويقال لهم: إن هذا التعدد للتعظيم، وكيف تستدلون بهذه الآيات المتشابهة وتعمون عن مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾[2] وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[3] وقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ

---

(١) سورة القدر، الآية: ٤.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٧١.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[١] لكن النصارى كغيرهم من أهل الزيغ يتبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله، ومن رأى اتباع المتشابهات من النصارى وغيرهم في نصوص الكتاب والسنة تبين له العجب العجاب، وأنه يجب علينا وجوباً مؤكداً طلب العلم لدفع شبهات هؤلاء؛ لأن هؤلاء انتشروا بيننا الآن وكثروا في هذه البلاد التي قال عنها رسول الله ﷺ: «**أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب**»[٢] هؤلاء يبثون في الناس سمومهم، وهم الآن كما سمعنا يوصلون نشرات تدعوا إلى النصرانية، ويرسلون أشرطة تدعوا إلى النصرانية؛ لأنهم بدأوا يعرفون المحلات، ويعرفون العناوين ثم يرسلون إليها، وعندنا من هذا عدد، يؤتى إلينا بنشرات وأشرطة مسجلة تدعوا إلى النصرانية، هذه إذا وقعت في أيدي أناس لا يعرفون جهلاء، على الأقل تركن نفوسهم، وإن كنت أستبعد جداً أن يتنصر أحد من المسلمين، لأن دين النصارى الذي هم عليه الآن كله ضلال، لكن لا شك أنه يوقع الشبهة والخلود والاطمئنان إلى هؤلاء، لذلك أنا أرى أنه يجب على شباب المسلمين اليوم أن يتسلحوا بسلاح العلم المبني على الأثر والنظر؛ لأن أولئك القوم يشبهون بما يدعون أنه عقل، ولا يكفي الآن أن نتعلم الأثر فقط، بل لابد من أثر ونظر، فالأثر إنما يكفي للمؤمن الذي قال الله عنه:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه بلفظ «**لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً**» كتاب الجهاد، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب (١٧٦٧).

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[١] لكن المكذب لا يكفيه الأثر؛ لأنه لا يؤمن أصلاً بالأثر ويحتاج إلى نظر وعقل تدحض به حجته، والمهم أن مثل هذه الآية الكريمة ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ يشبه بها النصارى على أن الله سبحانه وتعالى متعدد أكثر من واحد، وقد ذكرنا أنهم غفلوا بل عموا عن الآيات الواضحة الصريحة أن الله إله واحد، وأن الله كفَّر من زعم أن الله متعدد ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[٢].

٦ ـ في هذه الآية دليل على أن الله أهلك هؤلاء القوم بصيحة واحدة لم تكرر مرة أخرى، صيحة واحدة هلكوا بها، لكن لو قال قائل: ما نوع هذه الصيحة؟ هل قيل أهلكوا؟ نقول: الله أعلم بهذه الصيحة، هذه الصيحة أبهمها الله، يحتمل أنها صرخة، ويحتمل أنهم أمروا بالهلاك، المهم أنها صيحة واحدة فهلكوا عن آخرهم.

٧ ـ بيان قدرة الله عز وجل، وأن من عارض الله أو ضاد الله مهما عظم فإن إهلاكه يسير على الله عز وجل، كل شيء يكون بكلمة واحدة ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾[٣] وعند هذا الأمر الواحد ﴿كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ لا يتباطأ ولا يتأخر، فلمح البصر أسرع ما يكون، فإذا أراد الله شيئاً قال له: كن. فيكون كلمح البصر، وهذا يدل على عظمة الله وقدرته.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٣.

(٣) سورة القمر، الآية: ٥٠.

٨ ـ بيان قدرة الله تعالى وأنه قادر على إهلاك الخلق بصيحة واحدة فقط بدون أي فعل، بل صوت مزعج يقطع القلوب، لقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾.

٩ ـ ومنها بيان ذل كل شيء لعظمته بحيث لا يكرر ولا يعيد ما أراده لقوله: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ لهذا أكدها بـ﴿وَاحِدَةً﴾ لبيان أنهم لم يحتاجوا إلى إعادة الصيحة مرة ثانية، وهكذا جميع ما أمر الله تعالى به كوناً فإنه لا يحتاج إلى إعادة؛ لقوله تعالى في سورة القمر: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾.

١٠ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذه الصيحة أهلكتهم جميعاً لم ينجُ منهم أحد لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ وعلى هذا ترتيب فائدة أخرى وهي:

١١ ـ أن قبض ملك الموت لأرواح بني آدم أكبر مما نتصور، فإنه قد يقول قائل: كيف يقبض هذه الأرواح وهي تموت في آن واحد؟

فنقول: إن كيف في الأمور الغيبية لا ترد؛ لأن هذه أمور لا ندركها بحواسنا، فكل أمر غيبي لا تقل فيه: كيف؟ ولهذا لما قيل للإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ: كيف استوى؟ قال: «الكيف غير معقول» أي: لا يمكن أن ندركه بالعقل حتى نسأل عنه.

١٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء القوم الذين كذبوا الرسل الثلاثة هلكوا جميعاً لقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ وهذا يدل على أن من زعم أن هذه القرية التي أرسل إليها الثلاثة هي أنطاكية فإن زعمه باطل؛ لأن رسل عيسى عليه الصلاة والسلام

الذين أرسلوا إلى أنطاكية، كانوا بعد موسى عليه الصلاة والسلام ولم يهلك الله تعالى أمة على سبيل العموم بعد أن نزلت التوراة، هكذا قال كثير من العلماء، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾[1] قالوا: هذه الآية تدل على أن الله لم يهلك أمة على سبيل العموم بعد نزول التوراة، وهذه الآية ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ تدل على أنهم هلكوا.

* * *

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [هؤلاء ونحوهم ممن كذبوا الرسل فأهلكوا، وهي ـ أي الحسرة ـ شدة التألم، ونداؤها مجاز، أي: هذا أوانُكِ فاحضري]، قوله: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ الحسرة هي: شدة الندم والتألم والحزن على ما مضى، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ﴾[2] ـ أي ندمات وعناء ـ وقوله: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ قيل: إن القائل هم المكذبون، وأنهم تحسروا على أنفسهم، وقالوا: يا حسرة على العباد، ثم بينوا السبب كما سيأتي.

وقيل: إن الحسرة من اتباع الرسل، يعني من هذا الرجل ونحوه يتحسر على هؤلاء العباد.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٤٣.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١٦٦، ١٦٧.

وقيل: إن التحسر من الله عز وجل، لكن ليس معناه أنه يتصف به، بل المعنى أنه يبين حسرة العباد على أنفسهم، يقول: يا حسرة واقعة على العباد، فتكون ﴿عَلَى﴾ قريبة من معنى ﴿مِّن﴾ يعني أن الله تعالى يبين أن هؤلاء العباد المكذبين سوف يتحسرون على تكذيبهم وهذا أقرب إلى السياق، لقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ فالكلام كلام الله عز وجل، لكن لما كان التحسر ندماً وألماً صار الله تعالى منزهاً عنه، فوجب أن يكون المراد: يا حسرة واقعة عليهم، أي: ما أشد تحسر العباد على ما فعلوا من التكذيب للرسل كما نبينه آخر الآية، وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾ المراد بالعباد هنا العبودية العامة، وليست الخاصة، لأن العبودية الخاصة لا تحسر على أهلها، وقد تقدم أن العبودية تنقسم إلى قسمين: عبودية عامة وخاصة، فإن قيل: العبودية العامة يدخل فيها غير مكذبين؟

فالجواب أن نقول: العبودية هنا عامة، لكنه عام أريد به الخصوص وهم المكذبون للرسل، قال المؤلف: [ونداؤها مجاز] يعني ليس حقيقة؛ لأن النداء حقيقة إنما يوجه إلى من يعقل، وما لا يعقل فليس نداؤه على سبيل الحقيقة، ولهذا قالوا في قول الشاعر:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي
بصبح وما الإصباح منك بأمثل

أن هذا يراد به التمني، وليس نداء بمعنى طلب الحضور، لأن الليل لا يعقل، فالنداء حقيقة إنما يوجه لمن يعقل، وإذا وجه

لمن لا يعقل صار له معنى آخر على سبيل التجوز، والمعنى أنه جعل غير العاقل كالعاقل، كأن الحسرة شيء يأتي ويذهب يقول: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (ما) نافية و(من) زائدة لوقوعها في سياق النفي، وهي زائدة، زائدة، زائدة لفظاً، وتزيد في المعنى، وهذا معنى قولنا: (زائدة، زائدة) وليس في القرآن حرف واحد لا يفيد معنى أبداً، فكل ما في القرآن فإنه يشتمل على المعاني، ولكن قد يكون زائداً من حيث الإعراب فقط، ولهذا فإعراب (رسول) في هذه الآية فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحرف الزائدة، وفائدتها التنصيص على العموم؛ لأن (رسول) نكرة في سياق النفي فيعم، فإذا جاءت (من) صارت أنص وأدل على العموم مما لو حذفت، ولهذا قالوا: إن فائدتها في مثل هذا السياق التنصيص على العموم، وقوله: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ الرسول عند عامة أهل العلم هو بشر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، ويطلق الرسول على الرسول الملكي، فإن الله سمى جبريل عليه الصلاة والسلام رسولاً كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾[1] وقوله: ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: إلا كانوا يستهزءون به ولكن قدم المعمول وهو (به) لإفادة الحصر، ولمناسبة رؤوس الآيات فقدم لفائدتين: فائدة لفظية، وهي مراعاة الفواصل، وفائدة معنوية، وهي: الحصر، كأنه قال: (إذا أتاهم الرسول فكأنهم لا يستهزءون بأحد سوى هذا

(١) سورة التكوير، الآيتان: ١٩، ٢٠.

الرسول)، وهم يستهزءون بغيره، ولكن لما كان هؤلاء قد أمعنوا في الاستهزاء بالرسل صاروا كأنهم لا يستهزؤن إلا بالرسل والاستهزاء هو السخرية والهزء.

الفوائد:

١ ـ في هذه الآية دليل على شدة تحسر العباد المكذبين للرسل لقوله: ﴿يَٰحَسۡرَةً﴾، ولهذا جاء النداء على سبيل التنكير، ليدل على أنها حسرة عظيمة؛ لأن التنكير يفيد أحياناً التعظيم والشدة.

٢ ـ ومن فوائدها: أن هؤلاء المكذبين للرسل سيجدون أعمالهم حسرات عليهم، لقوله تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات عدل الله عز وجل وهو أنه لا يؤخذ أحداً إلا بذنبه لقوله: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾ فلن يعاقب الله أحداً إلا بذنب، بل إنه عز وجل قد يعفو عن الذنب إذا كان دون الشرك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[1].

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الرسالة لقوله: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ وأن الرسالة عامة في كل أمة؛ لأنه قال: ﴿عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ ثم قال: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ فكل العباد قد قامت عليهم الحجة ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ٢٤﴾[2].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٤.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الاستهزاء بالرسل كفر موجب للعقوبة؛ لأن السياق في قوم كذبوا الرسول فأهلكوا جميعاً ثم قيل: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾ فدل هذا على أن الاستهزاء بالأنبياء أو بالرسل كفر، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾[1] فالاستهزاء بالكتب كفر، لقوله: ﴿وآياته﴾ والاستهزاء بشرع من الشريعة ولو بشعيرة واحدة كفر؛ لأن الاستهزاء بالشعيرة الواحدة استهزاء بكل الشريعة، كما أن الكفر بالشعيرة الواحدة كفر بجميع الشريعة، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾[2] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾[3]، فمن آمن بالرسالة ولكن كفر بشعيرة واحدة منها، فقد كفر كفراً تامًّا بالجميع، ومن استهزأ بشيء من شرائع الرسل ولو بشيء ليس بواجب، حتى بالشيء المندوب لو استهزأ فقد كفر؛ لأنه لا يمكن الإيمان ببعض دون بعض، بل من كره ما أنزل الله فقد كفر، والدليل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩﴾[4] ولا تحبط الأعمال إلا بالكفر،

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٦٥، ٦٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٥.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٥٠، ١٥١.

(٤) سورة محمد، الآية: ٩.

لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾[1] . فالمسألة مسألة عظيمة ليست بالهينة، ولهذا يجب على المرء الرضى بكل ما شرع الله تعالى، فيرضى مثلاً بوجوب الصلاة، وتحريم الخمر، ووجوب الزكاة، وتحريم الربا، وعلى هذا فقس، فكل شيء يجب أن ترضى به وتقبله، ثم إن عملت به أثبت، وإن لم تعمل به عوقبت واستحققت العذاب إذا كان واجباً، إلا إذا كان هذا الواجب تركه كفر فإنه إذا تركته كفرت، فمثلاً يجب على الإنسان أن يؤمن بتحريم الربا، فإن أنكر تحريمه كفر، أو لم يقبل تحريمه كفر، وإذا آمن بتحريمه وقبله ورضي بالتحريم ولكن فعل الربا فلا يكفر، وحكمه حكم العصاة.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ما من رسول أرسل إلا وجد من يستهزىء به ومن يؤمن به، ولكن منهم من لا يجد من يؤمن به لقوله عليه الصلاة والسلام في حديث السبعين ألفاً: «**والنبي وليس معه أحد**»[2] . فالاستهزاء حاصل لكل رسول.

مسألة:

واختلف العلماء فيمن سب الله تعالى أو رسوله ﷺ هل

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (٦٥٤١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ٣٧٤ (٢٢٠).

تقبل توبته؟ على قولين:

القول الأول: إنه لا تقبل توبته، بل يقتل قتل المرتد فلا يغسل، ولا يكفن، ولا يصلى عليه، ولا يدفن مع المسلمين، وفي الآخرة أمره إلى الله تعالى، إن كان الله تعالى علم منه صدق التوبة فإنه لا يعذبه، وإن كان الله تعالى علم منه كذبها فإنه يعذب في الآخرة، وهذا هو المشهور من مذهب الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ.

والقول الثاني: تصح توبة من استهزأ بالله تعالى أو رسوله ﷺ، ولكن بالنسبة لمن استهزأ بالرسول ﷺ يقتل، وأما من سب الله تعالى أو استهزأ به فإنه لا يقتل، وهذا هو الصحيح أن الإنسان إذا سب الله تعالى أو رسوله ﷺ أو استهزأ بهما فإنه يكفر، فإن تاب قبلت توبته، لكنه يقتل إذا كان السب أو الاستهزاء بالرسول عليه الصلاة والسلام، ولا يقتل إذا كان السب أو الاستهزاء بالله تعالى، والفرق بينهما: أن الاستهزاء بالرسول ﷺ وسبه حق شخصي، وأما الاستهزاء بالله تعالى وسبه فهو حق لله عز وجل، وقد أخبرنا الله عز وجل أنه يقبل التوبة من جميع الذنوب، وإذا قبل الله توبته ارتفع عنه مقتضاها وهو القتل، أما الساب للرسول عليه الصلاة والسلام فإننا لا نعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام عفى عن حقه، لذا وجب علينا أن نأخذ به.

* * *

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي: أهل مكة القائلون

للنبي ﷺ لست مرسلاً، والاستفهام للتقرير أي: علموا]، الرؤية هنا فسرها المؤلف برؤية العلم؛ وذلك لأنهم لم يشاهدوا هذا بأعينهم، وإنما علموه بما بلغهم من الخبر، وقوله: [أي أهل مكة] الصحيح أن هذا ليس خاصاً بأهل مكة، بل هو عام لكل من كذب الرسول ﷺ، وكأن المؤلف ـ رحمه الله ـ جعله خاصًّا بأهل مكة لأن الآية مكية، ولكنه يقال: حتى وإن كانت الآية مكية، فإن المكذبين للرسل عليهم الصلاة والسلام من أهل مكة وغيرهم، فأهل الطائف كذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام، وكذلك غيرهم كثير؛ لأن الناس لم يدخلوا في دين الله أفواجاً إلا بعد فتح مكة ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ﴾ يقول المؤلف: [(كم) خبرية بمعنى: كثيراً، معمولة لما بعدها، مُعَلقَةٌ لما قبلها عن عمل] ﴿يَرَوْا۟﴾ بمعنى العلم، وإذا كانت الرؤية بمعنى العلم فإنها تنصب مفعولين، وقوله علقتها عن العمل، يعني أنها أبطلت عملها لفظاً؛ لأن التعليق يبطل العمل لفظاً فقط لا محلاً، والإلغاء يبطله لفظاً ومحلاً، والأفعال القلبية إما أن تعمل في اللفظ والمحل، وإما أن تعمل في المحل دون اللفظ، وأما أن لا تعمل لا في اللفظ ولا في المحل، الثالث: يسمى إلغاءً، والثاني: يسمى تعليقاً، والأول: يسمى إعمالاً، فكم هنا علقت ﴿يَرَوْا۟﴾ عن العمل في اللفظ، أما المحل فالجملة في محل نصب سدت مفعولي ﴿يَرَوْا۟﴾ ثم هي لها إعراب باعتبار ما بعدها، فباعتبار ما بعدها مفعول لما بعدها، وعليه فتقدر كما قال المؤلف [بمعنى: كثيراً]، ثم قال: [والمعنى إن ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ كثيراً ﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الأمم]. وقوله سبحانه

وتعالى: ﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ ﴿مِّنَ﴾ هذه لبيان الإبهام الواقع في كم و﴿ٱلْقُرُونِ﴾ جمع قرن، وهم الأمة المشتركة في عصر من العصور، والعصر مئة سنة، وعلى هذا يكون القرن مئة سنة، ولكن قد يكونُ دون ذلك، فقد تكون أمة تبقى أقل من القرن، يهلكها الله عز وجل قبل أن يتم لها هذا العدد من السنين، لكن الضابط أن نقول: القرن هم الأمة التي اشتركت في عصر ﴿أَنَّهُمْ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي المهلكين ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى المكذبين] وفي نسخة [﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى المكيين]، لأن الخطاب لأهل مكة، فالمكذبون هم المكيون، والقول بأن ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي المكذبين أعم، فهؤلاء الأمم التي أهلكت هل رجعت إلى الأمم التي بعدها؟ لا، بل ذهبت وزالت وكأنها لم توجد ولم يبق إلا عملها.

﴿لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ قال المؤلف: [أفلا يعتبرون بهم، وأنهم... ـ إلى آخره ـ بدل مما قبله برعاية المعنى المذكور] الذي قبله قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ كأنه قال: «ألم يروا أنهم لا يرجعون»، فهي بدل مما قبلها من حيث المعنى، أي: لا من حيث الإعراب؛ لأنها جملة مستقلة، وليست تابعة لها في الإعراب، ولكنها تابعة لها في المعنى.

والخلاصة: أن الله بين في هذه الآية بياناً يقرر به هؤلاء المكذبين بأنه أهلك كثيراً من الأمم السابقة، وأن هؤلاء المهلكين لا يرجعون إلى هؤلاء المكذبين، لأنهم انتهوا من الدنيا ولم يبق لهم الرجوع إليها حتى يستعتبوا، فالواجب على هؤلاء المكذبين أن يعتبروا بهم.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: تقرير المكذبين بما يقرون به، أنه أهلك من سبقهم لقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾.

٢ ـ ومن فوائد الآية: أنه يجب على الإنسان أن ينظر ويعتبر بحيث إذا نظر في عواقب الناس اتخذ من ذلك عبرة؛ لأن الاستفهام هنا مع كونه للتقرير مفيد للتوبيخ، لأن الواجب على من نظر في عاقبة المكذبين أن يرتدع عن الكذب.

٣ ـ من فوائد الآية أيضاً: أنه لا بعث ولا رجوع قبل يوم القيامة لقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ فلا أحد يبعث قبل يوم القيامة، اللهم إلا على سبيل الآية كما ثبت في القرآن أن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام يحيي الموتى بإذن الله تعالى، وكما في قصة الرجل الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه، وكما في قصة بني إسرائيل الذين أخذتهم الصاعقة ثم بعثهم الله بعد موتهم، وكما في قصة الرجل الشاب الذي يقتله الدجال ثم يكلمه ويخاطبه فيقوم حيًّا، وإلا فإن الأصل أن من مات لا يرجع أبداً، لقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

* * *

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ قال المؤلف: [إن نافية، أو مخففة]، قوله نافية أي: بمعنى (ما)، ومخففة بمعنى (إن) لكنها خففت و(أو) في كلام المؤلف ليست للتخيير بل هي

للتنويع، لأنها على حسب القراءة الآتية في ﴿لَّمَّا﴾. ﴿كُلٌّ﴾ أي: كل الخلائق، وهي مبتدأ على التقديرين، أي على أنها نافية وعلى أنها مخففة؛ لأن المخففة تعمل في الجملة، واسمها ضمير الشأن محذوف فـ﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ على كلا الوجهين أي على أن (إن) نافية، أو مخففة ﴿لَّمَّا﴾ قال المؤلف: [بالتشديد بمعنى إلا، أو بالتخفيف فاللام فارقة و(ما) مزيدة] ﴿لمَّا﴾ بالتشديد بمعنى إلا، وعلى هذا تكون إن نافية، والتقدير: «وما كل إلا جميع لدينا محضرون»، وبالتخفيف فاللام فارقة بين «إن» النافية و«إن» المخففة و(ما) مزيدة، والتقدير على هذا «وإن كلٌّ لجميعٌ لدينا محضرون» لأن (ما) زائدة، فإذا أردنا أن نعرب هذه الآية نقول: (إن): نافية على قراءة التشديد، و(لما) بمعنى إلا.

الإعراب الثاني: (إن) مخففة على قراءة التخفيف، واللام فارقة وهي للتوكيد، و(ما) زائدة، والتقدير على هذا «وإن كلٌّ لجميع لدينا» ﴿جَمِيعٌ﴾ قال المؤلف: [خبر المبتدأ أي: مجموعون] المبتدأ ﴿كُلٌّ﴾.

فإن قال قائل: كيف يكون خبر لـ(كل) و(كل) تدل على الشمول؟

فالجواب: أن (كلاًّ) تدل على الشمول، لكن لا يلزم من دلالتها على الشمول الاجتماع، فتقول: أكرم كل القوم، وقد يكون القوم متشتتين كل واحد بجانب، لكن ﴿جَمِيعٌ﴾ تدل على الاجتماع ففيها زيادة على الشمول وهي جمع الناس، فكل الناس يحضرون إلى الله عز وجل، ولكن هل حضورهم متفرق أو مجتمع؟

الجواب: حضورهم مجتمع؛ ودليله الآية ﴿جَمِيعٌ﴾ إذاً فلا يقول قائل: إن المبتدأ هو نفس الخبر؛ لأن كلمة ﴿كُلٌّ﴾ تدل على الشمول و﴿جَمِيعٌ﴾ تدل على الشمول، نقول: لا، لأن الفرق بينهما أن (كل) تدل على الشمول، وإن كانوا متفرقين و(جميع) تدل على الشمول مع الاجتماع.

قال المؤلف: [مجموعون ﴿لدينا﴾ عندنا في الموقف بعد بعثهم ﴿محضرون﴾ للحساب خبر ثان] أي: خبر ثان لـ(كل) فصار ﴿كُلٌّ﴾ لها الآن خبران الأول: ﴿جَمِيعٌ﴾ والثاني: ﴿مُحْضَرُونَ﴾، ومعنى هذه الآية: ما كل واحد من هؤلاء إلا محضر لدى الله عز وجل يوم القيامة، والناس جميع.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: إثبات البعث لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

٢ ـ ومن فوائدها: كمال قدرة الله عز وجل حيث يجمع هذه الخلائق جميعاً في مكان واحد؛ لقوله: ﴿لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا﴾.

٣ ـ ومن فوائد الآية: وجوب الاستعداد لهذا اليوم؛ لأن الله تعالى لم يخبرنا به لمجرد الاطلاع، ولكنه أخبرنا به من أجل أن نستعد له حتى نكون على أهبة لما سنحاسب عليه.

* * *

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ على

البعث خبر مقدم ﴿ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ بالتخفيف والتشديد ﴿ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ بالماء، مبتدأ] الآية في اللغة: العلامة والدليل القاطع على الشيء، وقول المؤلف: [خبر مقدم]، المبتدأ الأرض، وقوله: ﴿ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ بالتخفيف والتشديد يعني أن فيها قراءتين (الميّتة) و(الميتة)، وهذا دليل على أن الميتة كما يطلق على الميت الذي قد فارقت روحه جسده، يطلق أيضاً على الذي سيموت خلاف لمن قال: (إن الميّت لمن سيموت) و(المَيْتَ لمن مات بالفعل)، فإن الأرض الميتة قد ماتت، ومع ذلك فيه هنا قراءتان: الميّتة، والميتَة ﴿ ٱلْأَرْضُ ﴾ مبتدأ و﴿ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ صفة و﴿ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ صفة للأرض، ولهذا قال المؤلف: (مبتدأ) جعله بعد قوله (أحييناها) ليبين أن الميتة وأحييناها كلاهما صفة للأرض، ولكن الصحيح أن ﴿ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ جملة استئنافية لبيان وجه الآية في هذه الأرض، لأن محط الفائدة ليس هو موت الأرض، ولكن الله تعالى أحياها بعد موتها، أما على رأي المؤلف فإذا جعل ﴿ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ صفة، فإنه يشكل علينا أن هذا مخالف للقاعدة المعروفة: «أن الجمل بعد المعارف أحوال». والجواب على ذلك أن يقال: إن الأرض هنا المراد بها الجنس فهي بمعنى النكرة ونظيرها قول الشاعر:

ولقد أمر على اللئيم يسبني
فمضيت ثمت قلت لا يعنيني

قال: (اللئيم يسبني): وتقدير: (على لئيم يسبني)، ومنه أيضاً على قول بعض المعربين ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ

أَسْفَارًا﴾[١] على أن جملة ﴿يحمل﴾ صفة الحمار؛ لأن المراد به الجنس، فهو بمعنى كمثل حمارٍ يحمل أسفاراً، أما على القول الذي اخترناه فنقول: إن جملة ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ استئنافية لبيان وجه الآية في هذه الأرض الميتة، ووجه كونها آية أن هذه الأرض الميتة أشجارها يابسة، وليس فيها ثمر، فينزل الله عليها المطر فتحيا بعد الموت، فالذي أحيائها وقدر على إحيائها قادر على إحياء الموتى، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[٢] وعليه فنقول: وجه الاية أن نقيس الشاهد بالغائب، فالشاهد المنظور هو هذه الأرض ميتة، أشجارها يابسة ينزل عليها المطر فتخضر، فالذي أحياها قادر على إحياء الموتى.

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ معطوف على ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ يعني الأرض ميتة أحييناها بالزرع، فقام الزرع أخضر يهتز، ولكن مجرد كونه زرعاً لا يفيد الآدمي، وإنما يفيد البهائم، ويفيد الآدمي عند الضرورة لكن الفائدة العظمى منه ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ ﴿مِنْهَا﴾ أي: من الأرض ﴿حَبًّا﴾ كالحنطة ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ﴿فَمِنْهُ﴾ أي: من هذا الحب يأكلون، وفائدة قوله: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ دليل على سهولة تناول هذا الحب وعظم فائدته، وأنه حب نافع سهل التناول، لأنه لو كان صعباً لكانوا لا يستطيعون الأكل منه إلا بمشقة عظيمة، ولهذا قال: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ قدم المعمول

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٥.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

لإفادة الحصر، لكنه حصر إضافي لسهولته كأنه لا أكل لهم إلا من هذا السهل المتيسر ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ﴾ أي بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ هذا غير الحب؛ لأن الخارج من الأرض يكون حبًّا، ويكون ثمراً، الحب من الزروع، والثمر من الأشجار ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ﴾ ﴿جعلنا﴾ بمعنى صيرنا، فهو ناصب لمفعولين، المفعول الأول ﴿جَنَّٰتٍ﴾ والثاني: ﴿فِيهَا﴾ و﴿جنات﴾ جمع جنة وهي البستان الكثير الأشجار، سميت بذلك لأنه يجن من دخله وكان فيه لاستتارته به، وأصل هذه المادة ـ الجيم والنون ـ تدور على هذا المعنى، أي: على الاستتار والخفاء، ومنه سمي القلب: جناناً؛ لاستتاره، ومنه سمي: الجن؛ لاستتارهم وخفائهم، ومنه سمي الجُنة: الوقاية؛ لأن الإنسان يستتر بها، فكل هذه المادة تدل على الخفاء والاستتار، فالبستان الكثير الأشجار المتشابكة إذا كان فيه أحد لا يرى؛ لأن هذه الأشجار تستره ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ النخيل والأعناب معروفة، ونص الله عليها لأنها طعام وقوت لا يحتاج إلى مؤنة، ولهذا يقتات رطباً ويابساً، فيقتات رطباً كالرطب في التمر، وكالعنب في العنب، ويابساً كالتمر الذي يؤول إليه الرطب، وكالزبيب الذي يؤول إليه العنب، فجمع الله بينهما؛ لأنهما قوت حلو لا يحتاج إلى مؤنة طبخ، وينتفع به رطباً ويابساً، ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ قال المؤلف [بعضها]. ويجوز أن تكون ﴿من﴾ لبيان الجنس ويكون هذا عامًّا، وهو الأقرب أي: فجرنا فيها من العيون عيوناً كثيرة، وأصنافاً متنوعة، فمنها العيون الجارية

الغزيرة، ومنها العيون الراكدة التي لا تجري لكنها تنبع على جهة الأرض، ومنها العيون التي تكون بواسطة كالأنابيب المعروفة الآن تركز في الأرض فيخرج الماء، ومنها العيون التي تكون بلا واسطة كالذي يتفجر من رؤوس الجبال وغير ذلك، كل هذا دليل على قدرة الله عز وجل وعلى رحمته بعباده، يقول: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿لِيَأْكُلُوا۟﴾ الضمير يعود على الناس، واللام للتعليل، والفعل بعدها منصوب إما بها على مذهب الكوفيين، وإما بأن مضمرة على مذهب البصريين، وقوله: ﴿مِن ثَمَرِهِۦ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [بفتحتين وبضمتين] أي: ثَمَره، وثُمُرِه. وثمره هنا مفرد، ولم يقل (من ثمرهما) لأن الله عز وجل ذكر نخيلاً وأعناباً فهما صنفان، ولم يقل (من ثمرهما) بل قال: ﴿مِن ثَمَرِهِۦ﴾ أي ثمر المذكور، فالضمير هنا يعود على المذكور من النخيل والأعناب. قال المؤلف: [﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي لم تعمل الثمر ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ نعمة الله تعالى عليهم] قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ في ﴿مَا﴾ قولان للمفسرين:

القول الأول: أنها نافية، وهو الذي مشى عليه المؤلف، يعني أن هذا الثمر الخارج من النخيل والأعناب لم تعمله أيدي الناس.

القول الثاني: أنها بمعنى الذي أي: (من الذي عملته أيديهم)؛ لأن الناس قد يعملون شيئاً يصلحونه، مثل عصير العنب، وكذلك دبس التمر، وكذلك الخبز الذي يخبزونه من الزروع، وغير ذلك مما يصنعه الناس بأيديهم ويتمتعون

ويتفكهون به، فهناك أنواع الحلوى تصنع باليد، فيكون الله تعالى امتن على العباد بأمرين: امتن بما يخرجه هو عز وجل من هذه الثمار والزروع، وامتن عليهم بما علمهم إياهم مما يعملونه بأيديهم، والمأكولات التي نأكلها نوعان: نوع لا نحدث فيه شيئاً نأكله كما يقولون طازجاً، ونوع آخر نعمل فيه، ونركبه مثلاً من عدة ثمرات وما أشبهها، فيكون الله عز وجل امتن على العباد بالأمرين جميعاً، والمعنى الثاني أعم فيكون أولى، على أن القاعدة: «أن الآية إذا كانت صالحة للاحتمالين فلا مانع من أن تحمل عليهما» فنقول: إن الله أراد هذا وهذا، أراد أن أيدينا لم تعمل هذه الثمرات التي تخرج من النخيل والأعناب، ولا هذه الحبوب التي تخرج من الزروع، وأراد أيضاً ما نعمله نحن بأيدينا على حسب ما نريد، فكل هذا نعمة، وقوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ، والجملة معطوفة على مقدر يعلم من السياق، يعني: أغفلوا عن ذلك فلا يشكرون، أو أكفروا به فلا يشكرون، لأن انتفاء الشكر يكون إما بالغفلة، أو بالكفر المتعمد، فكثير من الناس بالنسبة للنعم إما غافل ويرى هذا أمراً معتاداً وكأنها شيء جار على العادة بدون أن يكون لله فيه منة، وهذا يحصل من المؤمن الذي لم يصب بضد تلك النعم، لأن الإنسان لا يعرف قدر النعمة إلا حيث يصاب بضدها، فلا يعرف قدر الشبع إلا من جاع، ولا قدر الري إلا من قد ظمأ، ولا قدر العافية إلا من مرض، ولا قدر الأنس إلا من فقد الأنيس، وهكذا وهذه غفلة.

وإما أن تكون كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾[1] كفراً بالنعمة وبطراً يقول: «إنما أوتيته على علم عندي» وما أشبه ذلك وقوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ الشكر هو: (القيام بطاعة المنعم، وصرف نعمه فيما جعلها الله له)، فمن صرف نعم الله على غير ما جعلها الله له فليس بشاكر، فلو جعل النعم عوناً له على المعصية فصار يستعين بنعم الله على معصيته لم يكن شاكراً؛ لأنه صرفها في غير ما جعلت له، وإنما أنعم الله علينا هذه النعم لنقوم بعبادته والتقوي عليها، والشكر متعلقه ثلاثة أشياء: القلب واللسان والجوارح، وعلى هذا قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة
يدي ولساني والضمير المحجب

فشكر القلب: أن يعترف الإنسان بقلبه أن هذه النعمة من الله سبحانه وتعالى هو الذي منّ بها، إن كانت نعمة إيجادية، أو كانت دفع نقمة فإنها من الله وهو المانّ بها، فلا يجعل ذلك من أسباب عمله وذكائه، بل يجعل ذلك من فضل الله سبحانه وتعالى وإحسانه.

وشكر اللسان: أن يثني الإنسان بها على الله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ لكن لا على سبيل الفخر والعلو على الآخرين، فإنه إذا تحدث بها على سبيل الفخر والعلو على الآخرين صار هذا كفراً لا شكراً.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٨٣.

وشكر الجوارح: أن يقوم بطاعة المنعم عز وجل، ومن شكر الجوارح: أن يظهر أثر النعمة عليه، فإن كان غنيًّا ظهر ذلك عليه في مركوبه وملبوسه وكل مظهره؛ لأن الله تعالى إذا أنعم على أحد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمته عليه.

فإذا قال قائل: هل بين الحمد والشكر فرق أو هما متفقان؟

فالجواب: أن بينهما فرقاً:

أولاً: أن الحمد متعلقه اللسان فقط؛ لأنه وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، فلا يتعدى إلى الجوارح.

ثانياً: أن الحمد يكون لإحسان المحمود ولكمال المحمود، والشكر للإحسان فقط، فالشكر يكون على النعم فقط، والحمد يكون على النعم وعلى أوصاف الكمال، فبين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه، فالحمد أعم من حيث السبب، وأخص من حيث المتعلق، والشكر أخص من حيث السبب، وأعم من حيث المتعلق، والله يحمد على نعمه، وعلى كماله فهذا سبب الحمد، والحمد إنما يكون باللسان فقط، والشكر إنما يكون على النعم فقط، فلا تقول: اشكر الله على كمال صفاته، بل على نعمه، فسبب الشكر أخص، لكنه يتعلق بالقلب واللسان والجوارح فهو أعم من حيث المتعلق.

الفوائد:

في الآيات الكريمات فوائد منها:

١ ـ بيان قدرة الله عز وجل على إحياء الأرض بعد موتها، لقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾.

٢ ـ ومنها: الاستدلال بالشاهد على الغائب، فإن إحياء الأرض بعد الموت مشاهد، ويستدل بها على إحياء الله الموتى عند بعثهم يوم القيامة، وقد أشار الله تعالى إلى هذا الدليل بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾[2] والآيات في هذا كثيرة.

٣ ـ ومن فوائد الآيات الكريمة: جواز وصف الجماد بالموت والحياة، فإنه ليس خاص بذي الروح المتحرك، لقوله: ﴿الأرض الميتة أحييناها﴾ فوصفها بالموت، ووصفها بالحياة.

٤ ـ ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان عظمة الله سبحانه وتعالى، لقوله: ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا﴾ بضمير العظمة.

٥ ـ ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان نعمة الله عز وجل بما أخرج للناس من الأرض من الحبوب والثمار، الحبوب قوله: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ والثمار قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾.

٦ ـ ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان حاجة العبد لربه، لقوله: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾، وكأن هذا الحصر فيه إشارة إلى تحدي الإنسان أنه لا يمكن أن يأكل إلا من هذا الذي أخرجه الله

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٢) سورة ق، الآيات: ٩ ـ ١١.

له، وهذا من فوائد الحصر، كأنه يقول: إن كنت قادراً فأخرج لنفسك ما تأكله، إنك لن تأكل إلا مما أخرجناه لك.

٧ ـ ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان ما أنعم الله به على العباد من هذه الأشجار العظيمة الكثيرة المظلة لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ فما أعظم نعم الله على العبد من هذه النخيل والأعناب.

٨ ـ ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان فضل النخيل والأعناب؛ لأنها ثمر يؤكل بلا تعب، وثمر يقتات رطباً ويابساً.

٩ ـ ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان قدرة الله عز وجل في تفجير الأرض عيوناً، هذه الأرض اليابسة جامدة يخرج منها هذا الرطب السائل وهو الماء، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ﴾[1] وهذا من عظيم قدرة الله، وكان موسى عليه الصلاة والسلام يضرب الحجر اليابس، إما حجراً معيناً ـ كما قيل ـ يحمله معه، وإما أي حجر كان يضربه فيتفجر اثنتي عشرة عيناً، على قدر قبائل بني إسرائيل، وهذه من تمام قدرة الله سبحانه وتعالى.

١٠ ـ ومنها: بيان احتياج النخيل والأعناب إلى الماء، وأن ثمره يكثر بحسب الماء؛ لأنه قال: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ فدل هذا على أن الماء له أثر في كثرة الثمار وطيبها، وهذا هو الواقع.

١١ ـ ومنها: الرد على الجبرية بإثبات العلة والحكمة في

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

قوله: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ والنصوص الدالة على إثبات حكمة الله عز وجل كثيرة جداً منها ما صرح الله تعالى به مثل قوله: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥﴾[1] ومنها ما صرح الله به على وجه السلب والنفي ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۝٢٧﴾[2]. ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝٣٨﴾[3]. ولا أدل على الصفة من إثباتها ونفي ضدها، فإن إثباتها يدل على الثبوت، ونفي ضدها يدل على كمالها، وأنها غير مشوبة بهذا النقص الذي يحصل بفقدها، أو بفقد كمالها، ولا شك أننا إذا نفينا الحكمة عن فعل الله عز وجل، أو عن شرع الله، لزم من ذلك النقص العظيم، وأن يكون الله عز وجل يفعل الشيء سفهاً وعبثاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

١٢ ـ ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان ما أنعم الله به على العباد من هذا الثمر الذي يؤكل، أرأيت لو أن هذا الثمر صار مرًّا هل ينتفع به؟! ولهذا قال الله عز وجل في الماء: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾[4] فلم تستطيعوا شربه، هذا الثمر جعله الله شهيًّا للنفوس، تأكل منه، وتتغذى به الأبدان، ولهذا قال: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ فلو شاء الله عز وجل لجعل هذا الثمر فاسداً، فقد يكون

---

(١) سورة القمر، الآية: ٥.
(٢) سورة ص، الآية: ٢٧.
(٣) سورة الدخان، الآية: ٣٨.
(٤) سورة الواقعة، الآيات: ٦٨ ـ ٧٠.

حلواً لذيذاً شهيًّا لكن يجعل الله فيه آفة تفسده، وهذا موجود بكثرة، ولكن من نعمة الله أنه يبقى ويؤكل من ثمره.

١٣ ـ ومن فوائدها: أننا لا نملك لأنفسنا أن نوجد هذا الثمر، وأن ذلك مجرد فضل من الله لقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ فإن هذا ليس من صنعنا، فلو اجتمع الناس كلهم على أن يخرجوا رطبة واحدة أو حبة عنب ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ومع هذا يخلق الله عز وجل هذه العناقيد التي لا تحصى كثرة، وهذه الأعذاق التي لا تحصى كثرة، ونحن لم نعمل ذلك بأيدينا، غاية ما هنالك أننا نوجه هذا الثمر حسب ما علمنا الله عز وجل، فنأخذ من طلع الفحل ما نجعله في طلع النخلة حتى يطيب الثمر، أما أننا خلقناه وأوجدناه فلا. وهذا على جعل (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ نافية.

١٤ ـ ومن فوائدها: بيان نعمة الله عز وجل بما علمنا مما نصنعه من هذه الثمار، وعلى وجه يخالف ما خلقت عليه، حتى يتكون من هذا طيب على طيب لقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ فإن الله تعالى علمنا كيف نصنع هذه الثمار على وجه نتلذذ بها، وننتفع بها أكثر مما هي عليه في الخلقة، وهذا على جعل (ما) موصولة.

١٥ ـ ومن فوائد الآيات الكريمة: وجوب شكر نعمة الله عز وجل؛ لأن الله وبخ من لا يشكر، والشكر مع كونه طاعة الله يثاب الإنسان عليه، ويعرف به قدر نعمة الله عليه، فهو سبب للمزيد من هذه النعم لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ

لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾[١] .

فإن قال قائل: نحن نرى كثيراً من الناس قد أغدق الله عليهم النعم مع كفرهم بها؟ فبماذا نجيب عن هذه الآية؟

الجواب: على هذا أن نقول:

أولاً: إن الله تعالى قد عاقبهم عقوبة عظيمة؛ لأن العقوبة لا تنحصر في فقدان النعمة، بل العقوبة تكون بفقدان النعمة، وتكون بقسوة القلب ومرض القلب، وإن كان أكثر الناس يظنون أن العقوبات إنما هي بزوال النعم، والواقع أن عقوبات القلوب بالمرض والقسوة والإعراض عن الله وعن ذكره هذه أكبر عقوبة، ثم هؤلاء المنعمون في أبدانهم لا تظنون أنهم منعمون في قلوبهم أبداً، ففي قلوبهم من الضيق والحرج، وعدم الصبر على القضاء والقدر ما يجعلهم دائماً في نار، ولا تجد أطيب حياة من حياة المؤمن وإن كان أفقر الناس ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[٢] فهؤلاء قد عوقبوا عقوبة أعظم من إتلاف الأموال والثمار وغيرها وهو قسوة القلب ومرضه وإعراضه، فإن هذا يوجب للإنسان ضيق الصدر، والتعب من الحياة؛ لأنه لا يرضى بالله ربًّا، ولا بشرعه ديناً.

ثانياً: أن نقول هذه النعم عجلت لهم عقوبة لهم واستدراجاً، ولهذا لما جاء عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى النبي عليه

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٧.

الصلاة والسلام وهو على سرير مخيط من الليف فإذا هو قد أثر في جنبه، فبكى وقال له عليه الصلاة والسلام: «**ما يبكيك؟**» قال: يا رسول الله، فارس والروم ينعمون بما نعموا من الدنيا وأنت على هذه الحال؟ فقال: «**يا عمر، إن هؤلاء قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا**»[١] فهؤلاء يعاقبون بهذه النعمة التي تدر عليهم؛ لأنه استدراج، ولأنهم إذا ماتوا وصاروا في العذاب صار هذا أشد عليهم، لأنهم فارقوا دنيا تعلقت بها قلوبهم، ونعموا به ثم أعقبها هذا العذاب ـ والعياذ بالله ـ فصاروا أشد حسرة. ويذكر عن ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ وهو قاضي القضاة في مصر أنه مر ذات يوم بيهودي زيات يبيع الزيت، قد تعب من الزيت، وثيابه وسخة، وقاضي القضاة بمصر يمشي على عربة تجره الخيول، والناس حوله يميناً وشمالاً، فأوقف اليهودي الموكب وقال: يا قاضي القضاة كيف تكون أنت في هذا الحال وأنا في هذا الحال ورسولكم يقول: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»[٢] فقال له ابن حجر ـ رحمه الله ـ: ما أنا فيه من النعيم في الدنيا هو سجن بالنسبة لنعيم المؤمن في الآخرة، وما أنت فيه من التعب والبلاء هو بالنسبة لعذاب الآخرة جنة، فأنت الآن في جنة؛ لأنك سوف تنتقل إلى عذاب لا تتصوره. فلما قال ذلك قال اليهودي: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله) فأسلم، فهؤلاء المنعمون نعيمهم في الحقيقة شقاء وعذاب، وإن نعمت أجسادهم، لكن

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب الغرفة... (٢٤٦٨).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الزهد، باب الدنيا سجن للمؤمن وجنة الكافر ١ (٢٩٥٦).

أكثر الناس في غفلة عن هذا، ومع الأسف أن هذا الداء دب إلى المسلمين، فصار أكثر المسلمين اليوم لا ينشدون إلا هذا النعيم أعني نعيم الدنيا، وفي غفلة عن نعيم الآخرة، ولهذا تجدهم يتحدثون دائماً عن الترف واللهو وما أشبه ذلك، كأنهم ما خلقوا إلا لهذا، وهذا من أكبر ما يصد الإنسان عن دينه أن يكون قلبه معلقاً بالدنيا، ولا ينظر إلا إلى التنعم بها، ونحن لا ننكر أن ينال الإنسان من الدنيا ما يستفيد منه في الآخرة، بل إن الدنيا إذا جعلت وسيلة للآخرة صارت من الآخرة في الحقيقة، لكن ننكر أن تكون الدنيا أكبر هم الإنسان، كأنما خلق لها فقط، وهذا من نقص دينه، ونقص عقله، فكيف تجعل نفسك وحياتك الثمينة كيف تجعلها مهمة غاية الاهتمام بأمر ليس بمضمون، وليس بمخلد؟! قال الله تعالى منكراً على قوم هود على لسان هود عليه الصلاة والسلام: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[1] فأنت لست بخالد، فكيف تجعل هذا الممر الذي أنت تعيش فيه تجعله أكبر همك، مع أنك لا تدري متى تفارقه؟! كل من هؤلاء المترفين لا يدري متى يموت، لكنه يدري أنه سوف يبقى في الآخرة ـ إن كان مؤمناً بها ـ ومع هذا يعمل للدنيا التي لم يخلق لها، ويدع الآخرة التي خلق لها.

* * *

ثم قال عز وجل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [الأصناف ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ من الحبوب

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٢٩.

وغيرها ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من الذكور والإناث ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ من المخلوقات العجيبة الغريبة]، ﴿سُبْحَانَ﴾ تأتي دائماً منصوبة على أنها مفعول مطلق حذف منها العامل وجوباً، وأصلها تسبيحاً لله، وتسبيحاً مصدر سبح، فالعامل محذوف وهو (سبح)، والمصدر محول إلى اسم مصدر، وهو التسبيح حول إلى سبحان وهو مأخوذ من سبح، أي: أبعد في الماء، فمعنى التسبيح في سبحان الله تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، والذي لا يليق بالله عز وجل أمران:

أحدهما: النقص في صفاته.

الثاني: مماثلة المخلوقين فيها، على أنه يمكن أن نرد الثاني إلى الأول، ونقول: إن مماثلة المخلوقين نقص؛ لأن مماثلة الكامل بالناقص يجعله ناقصاً، قوله: ﴿خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ هذه الآية كقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[1] فكل المخلوقات لا تقوم إلا بتركيب مادتين فأكثر، وليس فيها شيء يقوم من شيء واحد أبداً، فكل شيء سواء مما تنبت الأرض، أو من بني آدم، أو من البهائم، أو مما لا نعلم، وهذه عامة من أعم ما يكون فإنه مكون من شيئين ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ تنزيه الله عز وجل عما لا يليق به، ولهذا جاءت الآية هنا ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ فالمخلوق لابد فيه من تعدد، والخالق منزه عن التعدد، وهذه هي الحكمة ـ والله أعلم ـ في أنه قال: ﴿سُبْحَانَ

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٩.

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ ولم يقل (الحمد لله الذي خلق الأزواج) بل قال: ﴿سبحان﴾ لأن كون كل شيء يحتاج إلى ازدواجية يدل على كمال الواحد المتفرد، الذي لا يماثله شيء من مخلوقاته، فبنو آدم لابد من ازدواجية ذكر وأنثى، وحتى المعاني التي فيه والأوصاف فيه تجد أنها مزدوجة، فيه غضب ورضى، وكراهة ومحبة، وقوة وضعف، إلى غير ذلك، لكن الخالق عز وجل واحد منفرد، لا يماثله شيء من مخلوقاته لا في ذاته ولا في صفاته.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: تنزيه الله تعالى نفسه عن كل نقص وعيب، لقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾.

٢ ـ ومن فوائدها: التنبيه على وحدانيته عز وجل، ومخالفته للمخلوقات لقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ فلم يقل: (سبحان الله) بل قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ والجمع بين ما يثبت للعباد وما ينزه الله عنه قد ورد في غير موضع من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[1] فلما ذكر حال الخلائق ذكر حال الخالق؛ لأنه عز وجل يبقى مع فناء غيره، كذلك هنا المخلوق كله مزدوج لابد فيه من زوجين ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾[2] أما الرب عز وجل فإنه واحد، ولهذا قال:

---

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٤٩.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ما من شيء مخلوق إلا وفيه زوجان، لقوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ وهذا لفظ من أعم ما يكون من الكلمات.

٤ ـ ومن فوائد الآية أيضاً: أن بني آدم على أصناف متنوعة كما كان ذلك أيضاً فيما تنبته الأرض، بل وفي الأرض نفسها قال الله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾[1] فإثبات التجاور لها يقتضي أن كل واحد منها يخالف الآخر، لأن الجار غير جاره وكذلك هنا ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ يدل على أن في الأرض أصنافاً منوعة من النباتات، كذلك ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فيما خلق الله عز وجل من بني آدم أصنافاً: ذكر وأنثى، أسود وأبيض، طويل وقصير، شقي وسعيد، ذكي وبليد، عاقل وسفيه، وهكذا ليعتبر الإنسان قدرة الله عز وجل على خلق هذه الأشياء المتضادة.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الجهل للإنسان وأنه لا يحيط بكل شيء، لقوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ وهذا إذا أضفتها إلى قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[2] تبين لك مدى جهل الإنسان في الأمور.

* * *

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ نقول: في إعرابها ما قلنا في آية ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ فيكون الليل مبتدأ، وآية

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

خبر مقدم، ونقول في ﴿نَسْلَخُ﴾ كما قلنا في قوله: ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ أي أنه يجوز أن تكون صفة الليل على حد قول الشاعر:

ولقد أمر على اللئيم يسبني . . . إلخ.

ويجوز أن تكون الجملة استئنافية لبيان هذه الآية، كيف كان الليل آية قال: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ «نسلخ» يقول المؤلف [نفصل]، وسمى الله هذا الفصل سلخاً؛ لأنه يشبه سلخ الجلد من البهيمة ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾، لأن النهار أمر وجودي يوجد بوجود الشمس، فهو وارد على الليل، فإذا غابت الشمس تبعها هذا الضوء كالجلد يسلخ من البهيمة، وأنت عندما تسلخ الجلد من البهيمة تجده يتراجع شيئاً فشيئاً، هكذا ضوء النهار بالنسبة لليل يسلخ الله سبحانه وتعالى النهار من الليل، كما يسلخ الجلد من البهيمة قال: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي داخلون في الظلام ﴿فَإِذَا﴾ فجائية تدل على أنه بمجرد هذا الانسلاخ يظلم الجو، وكما نشاهد أن الانسلاخ يأتي شيئاً فشيئاً، لكن إذا تكامل الانسلاخ وجدت الظلمة كاملة، وهذه من حكمة الله عز وجل؛ لأنه لو ورد الظلام الدامس على الضوء الساطع لأخذ هذا بالأبصار، وبالأشجار، وبكثير من الأشياء، لكن كونه يأتي شيئاً فشيئاً، يتنزل الأمر من أعلى ما يكون من الإضاءة إلى الظلمة شيئاً فشيئاً.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: هذه الآية العظيمة في الليل، حيث يسلخ الله تعالى منه النهار سلخاً، كما يسلخ الجلد من

الشاة، وهذا يدل على أنه يأتي شيئاً فشيئاً.

٢ ـ من فوائد الآية الكريمة أيضاً: أن الأصل هو الظلام لقوله: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾، فهذا يدل على أن الأصل هو الظلام، وأن النهار طارىء عليه، ولهذا يسلخ منه وهو كذلك، فإن أصل الضوء من الشمس، والشمس حادثة وواردة على الليل، فيكون الأصل الظلام ويأتي النور بعده.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: تذكير الخلق بهذه النعمة لقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ وأنه لولا نعمة الله علينا بهذا النهار الذي يسلخ من الليل لكنا دائماً في ظلمة، وهذا بلا شك متعب للناس وضار بهم، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾[1].

* * *

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ الواو حرف عطف و(الشمس) أيضاً معطوفة على الليل، يعني: وآية لهم الشمس أيضاً ﴿تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ ويجوز أن تكون الواو استئنافية، الشمس مبتدأ، لكن المعنى الأول أقوى قال المؤلف: [والشمس تجري إلى آخره من جملة الآية لهم، أو آية أخرى، والقمر كذلك] أي سواء قلنا الجملة استئنافية وأن هذه الآية الأخرى جديدة، أو قلنا إن الواو حرف عطف فإنه لا شك أن الشمس على الوصف الذي ذكر الله تعالى آية من آيات الله. فالشمس آية من آيات الله في ذاتها، فهذا الجرم

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧١.

الكبير العظيم الذي تصل حرارته إلى الأرض مع بعد المسافة بينها وبين الأرض، لا شك أن هذه من آيات الله، من يستطيع أن يوجد مثل هذه الكتلة النارية الملتهبة المضيئة التي يصل ضوؤها وشعاعها وحرارتها إلى الأرض مع هذه المسافة العظيمة؟! الجواب: لا أحد يستطيع، إذاً فهي آية من آيات الله، ثم ما يحصل فيها من المنافع من إنضاج الثمر، وتدفئة الأرض، والنور العظيم، كم طاقة يستفيدها الإنسان بنور هذه الشمس من الكهرباء، طاقة عظيمة سواء كان هذا فيما يحصل من الحرارة في أيام الشتاء التي يستغني بالشمس عند تدفئة المنازل، أو فيما يحصل بالإضاءة فإذا هذا أمر لا يقدر له ثمن، أما إنضاج الثمر، وإيباس الرطب وما أشبه ذلك مما فيه مصلحة الخلق فحدث ولا حرج، فهي آية عظيمة من آيات الله عز وجل.

وهي آية في مسيرها قال: ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ يعني تسير جرياً، والجري هو المشي بشدة، وهكذا الشمس تسير بسرعة عظيمة جداً لا يعلم قدرها إلا الله عز وجل، أو قد يعلم بالوسائل الحديثة مدى سرعتها، لكن تأمل الطائرة تسير في سرعة عظيمة وهي قريبة منا، ومع ذلك نراها تمشي ببطء؛ لبعدها عنا فما بالك بالشمس؟! نحن نراها تسير لا شك في هذا، حتى إنك نظرت إلى الظل عند انفصاله من الشعاع تجده يتحرك كأنه يرتعد، وهذا يدل على أنها تمشي مشياً عظيماً، ومع هذا وهي بعيدة جداً ونشاهدها تسير هذا السير إذن فسريانها سريع جداً، وقد علم تقديره عند الفلكيين الآن وقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قال المؤلف:

[إليه لا تتجاوزه]، والمستقر موضع القرار، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾[1] وقال ﴿جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾[2]. فالمستقر موضع القرار، وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾[3] فما هذا القرار الذي تجري الشمس إليه؟ هل هو قرار زمني؟ أو قرار مكاني؟ أو هما جميعاً؟

ثبت في الحديث الصحيح عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ أنه كان مع النبي ﷺ في المسجد حين غربت الشمس فقال النبي ﷺ: «**أتدري أين تذهب؟**» فقال أبو ذر: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنها تذهب وتسجد تحت العرش، وتستأذن فذلك مستقرها**»[4]، ثم قرأ: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ وهذا الحديث يدل على أن مستقرها مكاني؛ لأنها تسجد تحت العرش، وهذا السجود لا نعلم كيفيته؛ لأن الشمس ليست كالبشر حتى يقاس سجودها بسجود البشر، بل هي مخلوق أعظم، ولا ندري كيف تسجد؟ فإذاً لا يرد علينا السؤال: هل هي تسجد وهي سائرة أو تقف؟ وكيف يصح أن نقول: إنها تسجد وتستأذن وهي لا تزال مستمرة في الأفق؟ كل هذه الأسئلة إيرادات نجيب عليها عند ذكر الفوائد.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٦.
(٢) سورة النمل، الآية: ٦١.
(٣) سورة هود، الآية: ٦.
(٤) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر (٣١٩٩).

وقيل: إن المستقر مستقر زمني، وذلك عند تكويرها يوم القيامة، أي: عند منتهى سيرها في يوم القيامة، أي: تجري إلى يوم القيامة الذي هو موضع قرارها الزمني.

وقيل: إن المراد بالمستقر منتهى تنقلها في البروج الشمالية واليمانية، فلها حد تنتهي إليها من الشمال لا تتجاوزه، ولها حد تنتهي إليه من الجنوب لا تتجاوزه، وبناء على هذا يكون المستقر زمانيًّا ومكانيًّا، لأن غاية سيرها في الشمال يكون به ابتداء فصل الصيف، وغاية سيرها في الجنوب ابتداء فصل الشتاء، فهذا مستقر زمني مكاني، فهذه الشمس العظيمة التي لا يعلم قدرها إلا الذي خلقها سبحانه وتعالى لما فيها من المصالح العظيمة ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ كل شيء له غاية، وكل شيء له منتهى إلى الله عز وجل. قال المؤلف: [﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: جريها ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ بخلقه] ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: جريانها لمستقرها ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ وأضاف التقدير هنا إلى هذا الاسم الكريم ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ لأن هذه الشمس العظيمة تحتاج إلى قوة وسلطان قاهر؛ فلهذا أتى باسم ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾؛ لأن العزيز يشمل ثلاثة معانٍ:

أولاً: العزيز في قدره.

ثانياً: العزيز في قهره.

ثالثاً: العزيز في امتناعه.

أما في قدره فمعناها: أن الله ذو شأن عظيم لا يماثله أحد، وأما في قهره فمعناه أن الله له الغلبة والسلطان المطلق، يقول

الشاعر الجاهلي:

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

وأما في امتناعه فالمعنى: أنه ممتنع عن كل نقص وعيب.

أما ﴿ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨﴾ فمعناه ذو العلم الكامل الشامل، فإن علم الله تعالى علم كامل لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان، وشامل لكل صغير وكبير، قال تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾[1] وما كتب في كتاب مبين إلا بعد أن كان معلوماً عند الله عز وجل، إذ المجهول لا يكتب، فهذا يدل على سعة علم الله عز وجل، وأنه محيط بكل شيء جملة وتفصيلاً.

فذكر الله هذين الاسمين ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨﴾ لمناسبة المقام؛ لأن الشمس ليست بالشيء الهين الذي يسهل قياده، بل هي شيء عظيم يحتاج إلى عزة وعلم.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن الشمس تجري أي تسير، وهذا هو الواقع، وظاهر القرآن الكريم أن سيرها ذاتي، وليس المراد أنها تجري برأي العين، وأن الذي يدور هو الأرض، والواجب إجراء القرآن الكريم على ظاهره حتى يقوم دليل صريح يكون لنا حجة أمام الله عز وجل إذا خرجنا عن ظاهر القرآن؛ لأن الذي تكلم بالقرآن هو الله الخالق عز وجل وهو العليم بخلقه، فإذا

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

قال: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى﴾ وجب أن نقول: إن الشمس تجري، ولا يجوز أن نقول: إننا نحن الذين نجري، ولكن هي التي تجري بتقدير العزيز العليم.

٢ ـ ومن فوائدها: أن هذه الشمس التي هي دائماً ودائبة لابد لها من منتهى لقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ ويتفرع على هذا:

٣ ـ أن جميع الخلائق لها منتهى، فكل ما في الدنيا من خلائق له منتهى، وسوف يزول ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾[1].

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذه الشمس مقدرة تقديراً بالغاً منظماً لقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ ويشهد لهذا الواقع، فإن هذه الشمس منذ خلقها الله إلى أن تزول وهي في فلكها لا تتقدم ولا تتأخر عن السنة التي أمرها عز وجل أن تكون عليها، ولا ترتفع ولا تنخفض، حتى قيل: إنها لو تنخفض مقدار شعرة لأحرقت الأرض، ولو ارتفعت مقدار شعرة لجمدت الأرض، ولكن الله عز وجل جعلها على هذا التقدير البديع المحكم الذي لا يتغير ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات اسمين من أسماء الله وهما العزيز العليم، ويؤخذ منهما: إثبات صفتين تتضمنهما وهما العزة والعلم، ويؤخذ منهما أيضاً: إثبات الأثر، أو الحكم وهو أنه غالب لكل أحد، وعليم بكل شيء.

* * *

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

قال الله عز وجل: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: [القمر بالرفع، والنصب]، ففيه وجهان في الإعراب: القمرُ بالرفع على أنه مبتدأ، وخبره ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾. والقمرَ بالنصب على أنه مفعول به لفعل محذوف يفسره المذكور، فيكون من باب الاشتغال، وهنا يتساوى الرفع والنصب في الرجحان؛ لأن الجملة التي قبله ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى﴾ جملة اسمية، خبرها فعل، فلهذا جاز في القمر الوجهان، والمعروف أنه يترجح الرفع إذا عطف المشغول عنه على جملة اسمية، ويترجح النصب إذا عطف على جملة فعلية. قال المؤلف [وهو منصوب بفعل يفسره ما بعده] يعني يفسره المذكور والتقدير على هذا: (وقدرنا القمر منازل) ولا حاجة أن نقول كما يقول بعض الناس: التقدير وقدرنا القمر قدرناه؛ لأنه لا يجمع بين المفسِّر والمفسَّر، فإذا أردت أن تقدر فقل: التقدير (وقدرنا القمر منازل).

فإذا قلت: لماذا لم يقل عز وجل (وقدرنا القمر منازل).

قلنا: لأنه إذا أتى بالجملة الاسمية التي خبرها فعل صار كأنه أسند هذا إليه مرتين، أي: أسند الفعل الذي هو التقدير إلى القمر مرتين مرة بذكره اسماً ظاهراً، ومرة بذكره اسماً مضمراً ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾ وتقدير الله عز وجل للقمر منازل؛ لأنه بهذا التقدير يمكن أن يأتي على هذا الوجه الذي نشاهده، يتغير كل ليلة عن الأخرى، ولولا هذا التقدير ما تغير، لكنه مقدر منازل ثمانية وعشرين منزلاً، على حسب النجوم

المعروفة عند العرب، فكل ليلة ينزل منزلة، ويبقى ليلة واحدة إن كان تسعاً وعشرين ليلة، أو ليلتان إن كان ثلاثين، وتسمى هاتان الليلتان ليالي الاستسرار ـ يعني الاختفاء ـ يختفي فيها القمر، إما في أول الشهر التالي أو في آخر الشهر السابق، ومن أراد التفصيل العلمي فليقرأ ما كتبه أهل العلم في ذلك، ولا سيما في عصرنا هذا، فإنهم اطلعوا على أشياء عجيبة في هذا التقدير، والقمر قدره الله منازل كل يوم منزلة فهو يختلف كل ليلة عن الأخرى، ولهذا يبدو صغيراً، ثم يكبر، ثم يعود ويصغر، بحسب قربه من الشمس، كلما قرب من الشمس ضعف نوره؛ لأن نور القمر مستمد من نور الشمس، هو نفسه ليس به إضاءة، جرم مظلم كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[1] فهو جرم مظلم لا يستفيد نوراً إلا بغيره، فإذا قابل الشمس حصل فيه النور، وكلما أبعد عنها كثرت المقابلة؛ لأن السير كروي، فكلما قرب ضعفت المقابلة، فإذا ارتفع زادت المقابلة، ولهذا يمتلىء نوراً فيما إذا كان في المشرق، والشمس في المغرب لتمام المقابلة حينئذ؛ فيمتلىء نوراً، والجزء المنير من القمر هو الذي يلي الشمس، ولهذا تجده في أيام الشتاء إذا كانت الشمس خلفه تكون فتحة قوسه نحو المشرق، وفي أيام الصيف تكون فتحة قوسه نحو الجنوب؛ لأن الشمس تكون عنه شمالاً، ويكون عنها جنوباً فنجد فتحته نحو الجنوب، ولهذا يغلط بعض الناس الذي يظن أن اتجاه فتحة القمر ـ أي فتحة

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٢.

قوسه ـ دائماً إلى المشرق، أو الجنوب، هذا ليس بصواب، وإذا أردت أن تعرف هذا فتدبره ﴿قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: عاد القمر بعد تقدير هذه المنازل كالعرجون القديم، والعرجون هو: أصل الشماريخ الذي في طلع النخل، وهو إذا يبس يتقوس ويصفر، فشبه الله عز وجل القمر في رؤية العين بهذا العرجون القديم، أي: أنه يبدو دقيقاً أصفراً متقوساً.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن هذا القمر آية من آيات الله عز وجل، حيث هو موضوع في فلكه، ومع ذلك له منازل ينزلها كل ليلة، فليس مطلقاً ولكنه مقدر بمنازل ينزلها كل ليلة، والحكمة من هذه المنازل هي أن يعرف الناس عدد السنين والحساب كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾[1] حتى إن العالمين بمنازل القمر يعرفون الليلة من الشهر وإن كانوا لم يحسبوا من أول الأمر، بناء على معرفة المنازل؛ لأن هذه المنازل لا تتغير، وحلول القمر فيها أيضاً لا يتغير، فهي منظمة من عند الله عز وجل.

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات القياس لقوله: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ وكل تشبيه، أو مثل في القرآن الكريم فإنه يدل على القياس؛ لأن التشبيه، أو المثل إلحاق شيء بشيء لعلة، وهي التي تسمى في البلاغة وجه الشبه.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إطلاق القديم على غير الله خلافاً للمتفلسفة، أو الفلاسفة الذين يقولون: إن أخص وصف الله هو القدم. وهذا خطأ، فلو كان هذا أخص وصف الله لم يوصف به سوى الله، والقدم لا يدل على الأزلية، فهذا العرجون وصفه الله بأنه قديم ومع ذلك فإنه ليس أزليًّا، إذ إنه حادث بعد أن لم يكن، وبه يتبين بطلان قول هؤلاء الذين يقولون: إن أخص وصف الله عز وجل هو القدم. ولو قالوا: أخص وصف هو الأولية، لكنا نوافقهم على ما قالوا؛ لأن الله هو الأول الذي ليس قبله شيء، أما أن نقول: إن القدم أخص وصف الله مع أنه يوصف به الحادث فهذا لا يكون، ولا يصح.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: فيها دليل على قدرة الله من حيث نور القمر، حيث يبتدىء ضعيفاً، ثم يزداد في القوة، ثم يرجع إلى الضعف، فإن هذا من قدرة الله عز وجل، إذ لو شاء لجعله ممتلئاً دائماً، أو ناقصاً دائماً.

٥ ـ وفيها أيضاً من الفوائد: الإشارة إلى حال الإنسان، فإن الإنسان إذا تدبر القمر وجد أنه مطابق لحال الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾[1] فحال الإنسان مساوية تماماً لحال القمر، فالقمر يبدو ضعيفاً، ثم يزداد في القوة حتى إذا تكامل في القوة أخذ في النقص، وهكذا الإنسان بالنسبة لحياته.

* * *

(١) سورة الروم، الآية: ٥٤.

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ لما ذكر الله عز وجل أن الشمس تجري لمستقر لها، وأن هذا أمر مقدر من قبل العزيز العليم، وأن الله تعالى قدر القمر منازل ينزلها منزلة منزلة حتى يعود بعد امتلائه نوراً فيصير كالعرجون القديم، بين أن هذا النظام لا يمكن أن يتصادم أبداً؛ لأنه مقدر من عند الله عز وجل العزيز العليم. منازل لا يتجاوزها ولا يتعداها، قال: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾ يقول المؤلف: [يسهل ويصح]، لكن الأولى أن نقول: بمعنى يمكن، أي: لا يمكن للشمس أن تدرك القمر. وقد مر علينا أنه إذا جاءت كلمة (لا ينبغي) في القرآن فالمعنى الممتنع غاية الامتناع. كقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾[1] يعني أن ذلك مستحيل، وقال النبي عليه أفضل الصلاة والسلام: «**إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام**»[2]، أي أن ذلك مستحيل. ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى ﴾ أصلها: (الشمس لا ينبغي لها)، ولكن قدم النفي ليكون المنفي الجملة الاسمية كلها، فقال: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾ يعني: لا يمكن أن تدرك القمر فتجتمع معه في الليل، فإذا غابت لا يمكن أن تخرج في زمن الليل فإذا قدرنا أنها تغيب في الساعة الثانية عشرة، وتخرج الساعة الثانية عشرة، فبين غروبها وطلوعها اثنتا عشرة ساعة، لا يمكن أن تطلع في الساعة

---

(١) سورة مريم، الآية: ٩٢.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله: «إن الله لا ينام» (١٧٩).

الثامنة، فيكون بين غروبها وطلوعها ثمان ساعات، لأن هذا خلاف التقدير الذي قدره الله عز وجل لها، والذي جعلها تسير عليه لتمام قدرة الله تعالى، ونظام هذا الكون، وأنه لا يمكن أن يختلف أو يضطرب، لكن إذا جاء يوم القيامة فإنه يُجمع الشمس والقمر ويختل نظام الفلك، بل كل النظام يختلف ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾[1] .

﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ أي: الليل لا يسبق النهار، بل لا يأتي إلا بعده، وهنا قال: ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ كان اليل هو الذي يمكن أن يسبق النهار، فنفى الله عز وجل أن يسبق الليل النهار، قيل: المراد أن الليل لا يأتي قبل انتهاء النهار، فيكون الله عز وجل ذكر الشروق في قوله: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾ يعني لا يمكن للشمس أن تطلع في الليل ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ أي لا يمكن لليل أن يأتي في زمن النهار، فإذا قدرنا أن الشمس تغرب الساعة الثانية عشرة، فلا يمكن أن تغرب الساعة التاسعة مثلاً؛ لأنها لو غربت الساعة التاسعة لسبق الليل النهار ولو في بعض أجزائه.

وقيل: المعنى ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ أي: لا الليل يحل محل النهار فيتوالى ليلتان سواءً.

والمعنى صحيح على كلا القولين، فلا يمكن لليل أن يأتي وقد بقي شيء من النهار، ولا يمكن أن يأتي الليل كله في مكان النهار؛ لأن هذا ينافي تقدير الله عز وجل الذي سمى نفسه بأنه

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

العزيز العليم. قال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (كل) قال المؤلف: [تنويه عوض عن المضاف إليه من الشمس والقمر والنجوم، ﴿فِي فَلَكٍ﴾ مستدير ﴿يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ يسيرون، نزلوا منزلة العقلاء]، ذكر المؤلف النجوم، والنجوم في الآية غير مذكورة، فالصواب من الشمس والقمر، والمعنى: كل من الشمس والقمر، والليل والنهار يسبح في فلكه، والفلك هو الشيء المستدير، ومنه (فلكة المغزل) للشيء المستدير في أعلاه، والذي تغزل به النساء الصوف، له شيء شبه الطار في أعلاه مستدير هذا فلكة المغزل. فالفلك المستدير تدور فيه الشمس والقمر، والليل والنهار، وقوله: ﴿يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ قال المؤلف: [يسيرون] ولكن المعنى أدق مما قال المؤلف ـ رحمه الله ـ لأن السبح هو العوم في الماء، فكأن هذه عائمة في الفلك الواسع، تدور وليست تسير على أرض مسطحة، أو على ماء، بل هي تعوم في هذا الأفق. وقول المؤلف: [يسيرون نزلوا منزلة العقلاء] أي: الشمس والقمر والليل والنهار نزلوا (منزلة العقلاء) وذلك بأن أُتي بالواو التي هي للعقلاء، فالواو ضمير جمع لا تأتي إلا للعقلاء، وغير العقلاء إذا أردنا أن نضيف إليهم شيئاً على سبيل الجمع نأتي بنون النسوة، والعقلاء نأتي بالواو، أو الميم، فنقول مثلاً: الإبل ركبهن أربابهن، ولا تقول: الإبل ركبهم أربابهم. لأن الميم للعاقل، وتقول: الإبل شربن ولا تقول شربوا؛ لأن الواو للعاقل، وهنا ﴿يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أتى بالواو التي للعاقل يقول المؤلف: (إنها نزلت منزلة العقلاء) بإضافة السبح

والجريان إليها، والجريان والسبح إنما يكون من ذي الإرادة والعقل.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: في الآية دليل على أن سنة الله عز وجل لا تتغير هذا هو الأصل كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾[1] ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾[2] فسنة الله سبحانه وتعالى لا تتغير في الكون، ولكن هل هي سنة لازمة بحيث يمتنع على الله أن يغيرها؟ الجواب: لا، ولكن الله تعالى أخبرنا بأن هذه السنة لا تتغير، لكنها تتغير بتغيره **ولهذا حبست الشمس ليوشع بن نون كما جاء في الأحاديث الصحيحة**[3]، ولهذا أيضاً إذا كان قرب الساعة فإنها تخرج من مغربها، **ولهذا انشق القمر في عهد النبي ﷺ وصار فرقتين**[4]، فهذه السنن الكونية لا تتبدل ولا تتغير، ولكن الله قادر على أن يبدلها، أو يغيرها ويكون هذا لسبب.

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الشمس لا يمكن أن تخرج ليلاً بحسب السنة الإلهية، أما بحسب قدرة الله تعالى فإنه يمكن أن تخرج ليلاً؛ لأن الله يقول: (كن) فيكون.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الليل لا يسبق النهار فلا

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٢.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد، باب تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة (١٧٤٧).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين... فأراهم انشقاق القمر (٣٦٣٦) ومسلم، كتاب صفات المنافقين، باب انشقاق القمر (٢٨٠٠).

يدخل عليه، ولا يتقدمه بحيث تتوالى ليلتان جميعاً ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ هذا ما يظهر لنا من الآية الكريمة، وقد يكون لها معنى غير ما نفهمه من ظاهرها، ولهذا ربما يكون الذين يدرسون في علم الفلك يتبين لهم من هذا التعبير أكثر مما تبين لنا.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الشمس والقمر والليل والنهار في فلك، يعني في شيء مستدير كفلكة المغزل، وأنها تدور لقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾.

٥ ـ ومن فوائدها: ضعف قول من يقول: (إن الشمس في السماء الرابعة، والقمر في السماء الدنيا)، فيجعلون الكواكب والشمس والقمر، كواكب معينة في كل سماء كوكب على هذا الترتيب من الأعلى للأدنى: زحل، المشتري، المريخ، الشمس، الزهرة، عطارد، القمر، هذه سبعة يقولون كل واحد في سماء (زحل) هو أعلاها في السماء السابعة ـ على كلام السابقين من علماء الفلك ـ (المشتري) في السماء السادسة، (المريخ) في السماء الخامسة. (الشمس) في السماء الرابعة، (الزهرة) في السماء الثالثة. (عطارد) في السماء الثانية. (القمر) في السماء الدنيا كما قيل:

زحل شرى مريخه من شمسه فتزاهرت بعطارد الأقمار

فهذا البيت فيه ترتيب هذه الكواكب، وهذا الترتيب لا نعلمه من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، ونحن نعرف إن هذه الكواكب بعضها فوق بعض بالكسوف، فإذا كان القمر يكسف الشمس عرفنا أنه تحتها، كما نعرف أن الغيم

تحت الشمس؛ لأنه يحجبها، فإذا كسف القمر شيئاً من النجوم عرفنا أن القمر تحتها، ولهذا القمر يكسف كل النجوم، والشمس، ولا شيء يكسفه منهما إلا الأرض، لأن الأرض تحته فتحجب نور الشمس عنه، فحينئذ ينكسف القمر، وقد شاهدت أناوغيري أن القمر يكسف بعض النجوم تجري يسير حولها، ثم يغطيها، وهذا يدل على أن القمر نازل عن علو هذه الكواكب.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: الرد على قول من يقول: (إن الشمس ثابتة وأنها لا تدور)، والعجب أنهم يقولون: إنها ثابتة، وأن القمر يدور على الأرض. وهذا غلط؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل الحكم واحداً، قال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ فإذا فسرنا السبح بالدوران، وأثبتنا ذلك للقمر فلنثبته أيضاً للشمس.

* * *

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ على قدرتنا ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وفي قراءة ﴿ذرياتهم﴾ أي آباءهم الأصول في ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ أي سفينة نوح عليه السلام ﴿ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ المملوء].

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: للناس جميعاً، يقول المؤلف: آية على قدرتنا، ونحن نسلم بذلك، لكن فيه أيضاً آية على شيء آخر، وهو رحمة الله عز وجل بالخلق ونعمته علينا، فالآية لنا دالة على قدرة الله ورحمته وفضله علينا بهذا الفلك، الذي سخره الله عز وجل يجري في البحر يحمل الأرزاق من جهة إلى جهة، ويحمل الناس، ويحمل المواشي، ويحمل كل ما فيه

مصلحتنا، فهو من الآيات الدالة على قدرة الله عز وجل، وعلى رحمته، وقوله: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هذه الجملة في تأويل مصدر هي المبتدأ يعني (وآية لهم حملنا ذريتهم) قال المؤلف: ﴿ذريتهم﴾ [أي: آباءهم الأصول]، فجعل المراد بالذرية هنا الأصول، يعني الآباء، مع أن المعروف في اللغة العربية، أن الذرية هم الفروع وليسوا الآباء، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾[1] والمؤلف ـ رحمه الله ـ ومن ذهب مذهبه في تفسير الآية يقول: إن الذرية لفظ مشترك بين الأصول والفروع؛ لأنها مأخوذة من ذرا، والذر كائن للأصول والفروع، ثم يقولون أيضاً: إن سياق الآية يدل على ذلك ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ لأن ذريتهم الصغار الموجودون معهم إذا حملوا هم، فسيحملون معهم في الفلك، وإن كان المراد بالذرية من يأتي فيما بعد، فكيف يكون ذلك آية وهي غير مشهودة لهم؟ إذن يتعين أن يكون المراد بالذرية الأصول، لأن الصغار المشهودون حملهم حمل لآبائهم؛ لأن الغالب أنهم لا يحملون إلا مع آبائهم، والصغار غير المشهودين، الذين يأتون فيما بعد، لا يكونون آية لمن لم يشاهدها، فتعين أن يكون المراد بالذرية الآباء.

وهذا الذي ذهب إليه المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ يوافق ظاهر الآية، لكنه يخالف ما كان معهوداً في اللغة العربية من أن الذرية هم الفروع، ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أن المراد

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٦.

بالضمير هنا الجنس لا العين، والمعنى ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: ذرية جنسهم، كنوح عليه الصلاة والسلام، من جنسنا آدمي بشر، فحمل الله ذريته في الفلك المشحون، قالوا: وهذا لا يمتنع في اللغة العربية، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾[1] ﴿جعلناه﴾ أي: جنس الإنسان وليس عينه؛ لأن الذي جعل نطفة ليس آدم الذي خلق من سلالة من طين، ولا يمكن أن يكون نطفة في قرار مكين، بل غيره بلا شك، فالضمير عاد إلى آدم باعتبار الجنس، فليعد الضمير في قوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إلى الموجودين باعتبار الجنس، فمن هو الجنس؟ قالوا: هو نوح؛ لأنه بشر وآدمي، وذريته هي المحمولة، فيكون المعنى: أن خلقنا ذريتهم، أي: ذرية جنسهم، وهو نوح عليه الصلاة والسلام حملت ذريته في الفلك المشحون، وخلق لهم من مثله ما يركبون، وهذا قريب جداً ولا يخالف ظاهر الآية، ويشير إلى أن هذه السفينة جعلت آية لمن بعد نوح عليه الصلاة والسلام يعتبرون بها ويصنعون مثلها قوله تعالى في سورة القمر: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾[2]. فالمراد بالذرية هنا ذرية نوح عليه الصلاة والسلام، وأضيفت إلى هؤلاء باعتبار الجنس يعني (حملنا الذرية من جنسهم في الفلك المشحون). وهذا القول هو الذي تطمئن إليه النفس ولا يأباه السياق.

﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ أي: سفينة نوح فـ(ال) هنا للعهد

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٢، ١٣.

(٢) سورة القمر، الآية: ١٥.

الذهني؛ لأنه لم يسبق لها ذكر، وليست للاستغراق؛ لأن المراد بها الفلك واحد، فتكون (ال) هنا للعهد الذهني، يعني: في الفلك المعهود في أذهانكم، وهو الذي قال الله تعالى لنوح: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾[1] والفلك يطلق على الجمع، ويطلق على المفرد، فمن إطلاقه على المفرد هذه الآية، وعلى الجمع مثل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾[2] أي: الفلك، وهذا الضمير ضمير جمع، ولا يعود للمفرد، ولهذا قال بعض الفقهاء ـ رحمهم الله ـ (إن الأحدب الذي حدبته كالركوع ينوي الركوع، وهذا كفلك في العربية) لا يدري هل هو جمع، أو مفرد إلا بالنية، فالأحدب المقوس الظهر يركع بالنية ينوي الركوع، لأنه مازال راكعاً أحدب، ﴿ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١﴾ أي: المملوء بأناس من البشر الذي آمنوا مع نوح وما آمن معه إلا قليل، مملوء ببقية الحيوانات؛ لأن الله قال فيه: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾[3].

الفوائد:

في الآية الكريمة من الفوائد:

١ ـ بيان ما في إنقاذ البشرية من الغرق في زمن نوح عليه الصلاة والسلام، فإنه لولا أن الله أبقى هؤلاء لزالت البشرية من الأرض، لكن الله تعالى أبقى نوحاً عليه الصلاة والسلام ومن

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٢.

(٣) سورة هود، الآية: ٤٠.

معه، ومع هذا لم يبق من نسل الذين معه أحد، وإنما الذين بقوا هم نسل نوح عليه الصلاة والسلام فقط، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾[1] أما غيرهم فلم يبق منهم أحد، ولهذا يسمى نوحاً أبا البشر الثاني.

٢ ـ من فوائد الآية الكريمة: بيان نعمة الله عز وجل بما أنعم على هؤلاء بتعليم السفن التي يركبونها في البحر، لولا هذه السفن ما استطاع أحد أن يعبر من يابسة إلى أخرى بينهما ماء، ولكن الله تعالى أعلمهم بصناعة هذه حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن السفينة التي كان فيها نوح عليه الصلاة والسلام كانت مملوءة من البشر وغيرهم لقوله: ﴿ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾.

* * *

وقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي: مثل فلك نوح، وهو ما عملوه على شكله من السفن الصغار والكبار بتعليم الله تعالى ﴿مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فيه] يذكرهم الله عز وجل:

أولاً: بحمل آبائهم السابقين الذين هم ذرية نوح عليه الصلاة والسلام.

وثانياً: بأن الله تعالى خلق لهم من مثل هذه الفلك ما يركبون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾[2]

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٧٧.

(٢) سورة القمر، الآية: ١٥.

فالناس تعلموا كيف يصنعون السفن، وصاروا يصنعون مثل هذه السفن، ولعل قوله تعالى في سورة القمر: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾[1] فيها الإشارة إلى مواد هذه السفينة، أو الفلك لأجل أن يتعلم الناس؛ لأنه لم يقل (حملناه على فلك) بل قال: ﴿**على ذات ألواح ودسر**﴾ كأنه يقول: إن هذه الفلك مصنوعة من الألواح والمسامير، حتى يتعلم الناس مواد هذه الفلك. ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ المراد بمثله هنا الجنس، وليس المراد المماثلة من كل وجه، وذلك لأن المماثلة من كل وجه قد تكون متعذرة، لكن يكفي الجنس، أما النوع فيختلف باختلاف الأعصار، فلكل عصر نوع سفنه، ومازالت ترتقي السفن في البحار إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه في عهدنا الحاضر، قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: [بتعليم الله تعالى] إشارة إلى سؤال مقدر كأنه قال: كيف قال الله ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾؟ وهذه السفن مصنوعة بأيدي البشر وليست بخلق الله كخلق البعير التي نركب والفرس وما شابهها؟ فأجاب المؤلف: بأن الله تعالى أضاف خلقها إليه لأنها كانت بتعليمه سبحانه وتعالى.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن المماثلة قد لا تقتضي المساواة من كل وجه، لقوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ وليست السفن الموجودة والتي كانت في عهد نزول القرآن ليست كمثل سفينة نوح من كل وجه، ويدل على أن المماثلة قد لا تقتضي المساواة

---

(١) سورة القمر، الآية: ١٣.

من كل وجه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[١] فإن المراد هنا المماثلة في العدد فقط، وإلا فإن بين السماء والأرض من الفروق العظيمة ما هو ظاهر.

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: الإشارة إلى الراحة الحاصلة بهذه السفن، وأنها محل ركوب واستقرار لقوله: ﴿مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

٣ ـ وفيها أيضاً: بيان نعمة الله سبحانه وتعالى باستقرار الراكبين على هذه السفن.

* * *

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ في الآية جملة شرطية فعل الشرط فيها ﴿نَّشَأْ﴾ وجوابه ﴿نُغْرِقْهُمْ﴾ وفيها أيضاً استثناء مفرغ من أعم الأحوال وهو قوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ وهي مفعول من أجله أي: إلا لأجل الرحمة التي من الله عز وجل، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ يعني إذا ركبوا السفن، والأمر كذلك قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾[٢].

فحذر الله عز وجل من أمرين في هذه السفن: إما إسكان الريح فتبقى راكدة على ظهرها، وإما أن يغرقها وهنا يقول: ﴿وَإِن نَّشَأْ

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

(٢) سورة الشورى، الآيات: ٣٢، ٣٤.

نُغْرِقْهُمْ﴾ وهم في سفنهم ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ الصريخ بمعنى المغيث، وسمي المغيث صريخاً؛ لأن عادة الإنسان إذا هاجمه أحد صرخ يستغيث، **ومنه حديث غزوة بدر أن أبا سفيان بعث صارخاً إلى أهل مكة يستغيثهم** ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: لا أحد يغيثهم، ولا أحد ينقذهم إذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يغرقهم ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي لا ينجيهم أحد إلا رحمة الله عز وجل، والاستثناء هنا قيل: إنه منقطع؛ لأن قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ بمعنى: لكن رحمة منا ينجون وينقذون، وقوله: ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي أنهم يمتعون إلى حين أجلهم؛ لأن الله تعالى جعل لكل شيء قدراً، أي لا ينجيهم إلا رحمتنا لهم، وتمتيعنا إياهم بلذاتهم إلى انقضاء آجالهم.

الفوائد:

في الآيتين الكريمتين فوائد:

١ ـ منها: إثبات مشيئة الله عز وجل لقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾.

٢ ـ ومنها: أن الله إذا أراد بقوم سوءاً فلا مرد له، لقوله: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

٣ ـ ومنها: بيان نعمة الله سبحانه وتعالى بإنجائهم من الغرق، وأن نجاتهم من الغرق ليست بكسبهم وعملهم، ولكنها من رحمة الله عز وجل.

٤ ـ ومنها: إثبات رحمة الله عز وجل لقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾.

٥ ـ ومنها: أن الله تعالى قد ينقذ الإنسان من الهلاك إلى أن يأتي أجله، لقوله تعالى: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

٦ ـ ومنها: أن الخلود في هذه الدنيا متعذر، ومستحيل لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ وما كان له غاية فلابد أن ينقضي.

٧ ـ ومنها: أنه يجب على الإنسان أن ينظر إلى نعم الله تعالى بالإنقاذ من الشدائد، أو بحصول المحبوب أن ينظر إلى النعم على أنها فضل من الله عز وجل وليست بكسبه، ولكنها من الله لقوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾.

* * *

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ قال المؤلف: [من عذاب هم الدنيا كغيرهم ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أعرضوا]، قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ هذه الجملة شرطية، فعل الشرط فيها ﴿قِيلَ﴾ وجوابه محذوف، قدره المؤلف بقوله: (أعرضوا) وهذا التقدير لا شك أنه التماس من المؤلف ـ رحمه الله ـ وإلا فقد يكون الأمر أوسع مما قال المؤلف، وحذف مثل هذا فيه من البلاغة أن الذهن يقدر كل ما يمكن أن يقدره مما يترتب على هذا القول، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن الناس إذا قيل لهم: ﴿ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ تختلف إجاباتهم منهم من يعرض ويسكت، ومنهم من يستكبر ويسب، ومنهم من يقاتل: إلى غير ذلك من الأمور التي لا تخفى، فكان في حذف هذا من البلاغة ما هو ظاهر ليذهب الذهن كل مذهب في تقدير هذا المحذوف،

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ القائل هنا مبهم، لأن الفعل مبني للمجهول، ليشمل أي واحد يقول، سواء كان من قول الله عز وجل في كتابه، أو كان من قول الرسول ﷺ في سنته، أو كان من قول الدعاة بعد ذلك ﴿لَهُمُ ٱتَّقُواْ﴾ أي: الكفار. ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ قال المؤلف: [من عذاب همّ الدنيا] ولكن الهم ليس هو العذاب فقط، فإن الله سبحانه وتعالى قد يعذب الكافر في الدنيا كما عذب الأمم السابقة، وكما عذب هذه الأمة أيضاً لكن عذاب هذه الأمة يكون بابتلاء بعضهم ببعض ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾[1] ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾[2] كانت هذه في غزوة بدر حين قتل صناديد قريش، فسماها الله سبحانه وتعالى البطشة الكبرى، أما الأمم السابقة فعقوباتهم معروفة، فهنا ﴿ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من عذاب الدنيا العذاب المتنوع، سواء كان بأيدي المؤمنين، أو كان من فعل الله عز وجل، كالقحط والزلازل والغرق وغير ذلك ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من أمر الآخرة، وعذاب الآخرة أشق، وأشد، وأبقى.

قد يقول قائل: لو كان الأمر في التفسير بالعكس لكان أقرب إلى الصواب، ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: من عذاب الآخرة؛ لأنه مستقبل ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي: من عذاب الدنيا؛ لأن الدنيا هي التي يخلفها الإنسان وراءه.

ولكن يجاب عن هذا: بأن الذي بين أيديهم حقيقة هي

---

(١) سورة محمد، الآية: ٤.

(٢) سورة الدخان، الآية: ١٦.

الدنيا، وأما خلفهم فإن الخلف هو الوراء قد يطلق بمعنى الأمام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾[1] قال العلماء: معناه: أمامهم. وكقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾[2] أي: من أمامه.

وقيل: المراد بـ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ المعاصي التي في مستقبلهم ويخشى أن يفعلوها ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ المعاصي الماضية فيجعلون المراد بما بين أيديهم وما خلفهم من الأعمال لا من عذاب الله، وقد سبق أن قلنا: إن الآية إذا كانت تحتمل المعاني المقولة فيها بدون تعارض فإنها تحمل على الجميع. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ لعل هنا للتعليل، أي: لأجل أن يرحمهم الله عز وجل إذا قيل لهم هذا الشيء، فجمع لهم بين الترغيب والترهيب، الترغيب بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ والترهيب في قوله: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ فهؤلاء جمع لهم بين الترغيب والترهيب ومع ذلك لا يستجيبون، بل يعرضون ويستكبرون ويسخرون، ويقولون: هذا أساطير الأولين، وما أشبه ذلك مما هو معروف عن هؤلاء إذا دعوا إلى الله تعالى.

الفوائد:

في هذه الآية الكريمة من الفوائد:

١ ـ أن هؤلاء الكفار قد أقيمت عليهم الحجة وبلغتهم الدعوة ووعظوا، ولكن لم ينفعهم ذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٧٩.

(٢) سورة إبراهيم، الاية: ١٧.

لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾.

٢ ـ ومن فوائدها: أن الإنسان إذا أعرض عن دين الله واستكبر كان عرضة للعذاب إما في الدنيا، أو في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾.

٣ ـ ومن فوائدها: أن الإقبال إلى الله عز وجل، واجتناب معصيته سبب للرحمة لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

٤ ـ ومن فوائدها أيضاً: إثبات العلل والأسباب لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ فإن لعل هذا للتعليل، ولا أحد ينكر أن للأسباب تأثيراً إلا من صرف عن مقتضى الفطرة، والناس اختلفوا في الأسباب والعلل على ثلاثة أقوال:

فمنهم من قال: إن الأسباب والعلل مؤثرة بذاتها، وأنه لابد لكل سبب من تأثيره في مسببه، ولابد في كل علة من تأثيرها في معلولها.

ومنهم من قال: إنه لا تأثير للعلل والأسباب، وإنما هي علامات وإمارات فقط، فإذا وجد المسبب أو المعلول لم يقولوا: إن ذلك من أجل السبب أو العلة، ولكن يقولون: إن ذلك حصل عنده لا به. ولا ريب أن هؤلاء يخالفون المنقول والمعقول. ولا أحد يوافقهم على ما ذهبوا إليه.

القول الثالث الوسط يقولون: إن الأسباب والعلل تأثر في معلولاتها ومسبباتها، ولكن بجعل الله ذلك فيها، فهي ليست مؤثرة بنفسها بل بما أودعه الله تعالى فيها من الأمر الموجب للسبب، أو للمعلول. وهذا القول هو المتعين، وهو الصواب؛

بدليل أن الله تعالى قد يسلب هذه العلة، أو هذا السبب التأثير فلا يبقى له تأثير إطلاقاً، وما قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بغريبة حيث ألقي في نار تتأجج فقال الله عز وجل لهذه النار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾[1] فكانت برداً وسلاماً، مع أنها هي سبب للإحراق، ولكنها صارت برداً وسلاماً على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهذا يدل على أن الأسباب والعلل إنما تؤثر بإرادة الله عز وجل وجعل هذه العلة أو السبب مؤثراً.

٥ ـ ومن فوائد هذه الآية: إثبات رحمة الله عز وجل، وهي من الصفات الذاتية الفعلية، فهي من الصفات الذاتية لأن الله لم يزل رحيماً بعباده ولايزال، ومن الصفات الفعلية باعتبار تعلقها بالمرحوم، فإنها تتجدد باعتبار المرحوم، لا باعتبار أنها صفة من صفات الله، فهذا الذي رحمه الله من البشر حادث بعد أن لم يكن فتعلقت به الرحمة، ولا يخفى ما ذهب إليه الأشاعرة من إنكارهم الرحمة على وجه الحقيقة، وادعائهم أنه يراد بها الإحسان، أو إرادة الإحسان. ففسروها بالإرادة؛ لأنهم يثبتون أن لله تعالى الإرادة، وبالإحسان؛ لأنه مخلوق منفصل ليس من صفات الله، وهذا بلا شك قول باطل، وقد مر علينا بيان تعليلهم لإنكاره والرد عليهم. قالوا: إن الرحمة تقتضي رقة وليناً وضعفاً، وهذا لا يليق بالله عز وجل، وأيضاً الرحمة لا يدل عليها العقل، ونحن لا نثبت من الصفات إلا ما دل عليه العقل، وقد بينا أن هذا القول ليس بالصواب:

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

أولاً: أن الرحمة قد تقع من إنسان قوي، وذي سلطان ويوصف بالرحمة.

ثانياً: ادعاؤهم أن العقل لا يدل عليها باطل، فإن العقل يدل عليها أكثر دلالة وأوضح دلالة من دلالة التخصيص على الإرادة، وقد مر علينا هذا كثيراً.

* * *

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم ﴾ الضمير يعود هنا على المكذبين للرسل، و﴿ مِّنْ ﴾ هنا زائدة لفظاً، وزائدة في المعنى، أي: تعطيه معنى جديداً، والمعنى الجديد تأكيد النفي والتنصيص على عمومه، أي: أي آية تأتيهم فإنهم لا يقبلونها، بل يعرضون عنها ويستكبرون، والآيات التي تأتي من الله عز وجل تنقسم إلى قسمين:

الأول: آيات كونية.

الثاني: آيات شرعية.

فالآيات الشرعية ما جاءت به الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام، والإعراض عنها يكون بالتكذيب بالأخبار، والاستكبار عن الأحكام.

وأما الآيات الكونية فالإعراض عنها أنه لا يهتم بها، وأن لا تحرك منه ساكناً، وأن لا يوجل منها قلبه، وأن يقول كالذين رأوا العذاب ينزل من السماء ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾[1] أو كالذين يقولون: إن الكسوف ليس أمراً مخيفاً؛

(١) سورة الطور، الاية: ٤٤.

لأنه شيئاً طبيعيًا، ولا ينبغي أن يخيف ـ نسأل الله العافية ـ، أو كالذين يرون الزلازل، والغرق، والدمار من الرياح العاتية وغيرها، ثم يقولون: هذا أمر طبيعي، ولا يحرك له ساكناً، ولا ريب أن هذا يدل على قسوة القلوب وموتها، وإلا فإن الواجب على الإنسان أن يتعظ بهذه الآيات، فالإعراض عن الآيات الكونية معناه عدم المبالاة بها، وعدم الاكتراث بها، وأن لا تحرك من الإنسان ساكناً، ولا تهز له عاطفة ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: إلا قابلوها بالإعراض، ولا يتأملونها، ولا يفكرون فيها، فإذا جاءت الآيات الشرعية في خبر كذبوها، وقالوا: هذا كذب، هذا سحر، هذا شعر، وإذا جاءت الأحكام الشرعية استكبروا عنها، ولم يذعنوا لها ولم ينقادوا لها بدون أن يتأملوا فيها وما فيها من المصالح، وكذلك في الآيات الكونية لا يكترثون بها ولا يهتمون بها.

الفوائد:

١ ـ في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يذكر، أو يبين لعباده من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، ووجه ذلك أنه لولا هذا لم يكن في الآيات فائدة.

٢ ـ من فوائدها: أن بني آدم قد يعتون عن الآيات فيعرضون عنها بدون نظر، والواجب على الإنسان أن ينظر أولاً، ثم يحكم ثانياً، ولهذا يقال: (الحكم على الشيء فرع عن تصوره)، فانظر أولاً في الآيات هل هي آيات مقنعة، موجبة للصلاح، فلتكن صالحاً بها، هل هي لا تنفع، فحينئذ تعذر بالإعراض عنها.

٣ ـ من فوائد هذه الآية الكريمة: بيان قسوة قلوب هؤلاء، فإنهم لم يقبلوا آية من الآيات ودليله ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الربوبية العامة لقوله: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾. فأثبت الله تعالى أنه رب هؤلاء، وهو سبحانه وتعالى رب كل شيء ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾[1] فكل شيء فالله ربه، حتى الكفار، وقد تكون الربوبية خاصة، أي: أنه يراد بها ربوبية خاصة، فيها مزيد عناية واعتناء، مثل قوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[2] فإن هذه الربوبية غير الربوبية العامة.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: تقبيح حال هؤلاء والتحذير من فعلهم لقوله: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ مع أنها جاءت من ربهم الذي هو مالكهم، وخالقهم، وأمرهم إليه، ومع ذلك يعرضون.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ قال المؤلف: [أي قال فقراء الصحابة: أنفقوا علينا مما رزقكم الله من الأموال]، هكذا سار المؤلف في

(١) سورة النمل، الآية: ٩١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢٢.

تفسير الآية فجعل القائل هم الفقراء، وعلى هذا فتكون الآية في سؤال الفقراء من الأغنياء أن ينفقوا، أي: إذا جاء الفقراء يسألون الأغنياء أن ينفقوا تهكموا بهم، وقالوا: كيف نطعمكم، والله تعالى لم يشأ أن نطعمكم، ولو شاء أن نطعمكم لأعطيناكم بدون سؤال، هذا توجيه الآية على ما مشى عليه المؤلف ـ رحمه الله ـ.

لكن الذي ينبغي أن نجعل الآية عامة؛ لأنه أبهم فيها الفاعل، وإبهام الفاعل يراد به في بعض الأحيان التعميم، فـ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي: إذا قال لهم أحد من الناس، سواء كان الفقراء يسألونهم الإنفاق، أو كانوا الأغنياء يحثونهم على الإنفاق، لأن الأغنياء من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ مثلاً ينفقون فيحثون الأغنياء من الكفار على أن ينفقوا أيضاً، فالصواب أن نبقي الآية على إبهامها ليكون أعم، وقوله: ﴿ أَنفِقُوا ﴾ الإنفاق بمعنى البذل والإعطاء وقوله: ﴿ مِمَّا رَزَقَكُمُ ﴾ أي مما أعطاكم الله، وفي قوله: ﴿ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ دون قول: (أنفقوا من أموالكم) فيه تنبيه على أن هذا الذي بين أيديكم ليس من كسبكم في الواقع، ولكنه من رزق الله تعالى، فكان عليكم أن تنفقوا من هذا الذي رزقكم الله، لأن الله يأمركم به، فالذي أمركم بالإنفاق هو الذي أعطاكم هذا المال، فكيف تنكرون فضله وتستكبرون عن أمره فلا تنفقون؟!

هذه هي الفائدة من قوله: ﴿ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ فما كان الجواب: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ قوله: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا . . . اللام هذا الأصح أن المراد بها الصلة، يعني قالوا قولاً يصل للذين آمنوا، والذين آمنوا هم

الذين قالوا لهم أنفقوا مما رزقكم الله ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ قال المؤلف [استهزاء بهم] يحتمل ما ذكره المؤلف أنه استهزاء، ويحتمل أنه من باب الاحتجاج بالقدر عناداً وتبجحاً يقولون: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ و﴿مَن﴾ هنا بمعنى الذي، ويجوز أن تكون نكرة موصوفة، أي: نطعم أحداً لو يشاء الله أطعمه من دوننا، أو أنطعم الذي لو يشاء الله أطعمهم، و﴿لَّوْ﴾ هنا حرف امتناع الامتناع، وشرطها قوله: ﴿يَشَآءُ﴾ وجوابها: ﴿أَطْعَمَهُۥٓ﴾ وقد أتت على خلاف الأكثر حيث حذفت اللام من الجواب، والأصل (من لو يشاء الله لأطعمه) فإن جواب (لو) إذا كان مثبتاً فالأكثر فيه إثبات اللام، وقد تحذف اللام، وقد اجتمع الأمران في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ثم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾[1] فأتت اللام في جواب (لو) في الآية السابقة، وحذفت من الآية الثانية، وهذه الآية من سورة يس من باب محذوف اللام ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ قال المؤلف: إنهم يقولون ذلك [استهزاء بهم] يعني: أنطعم قوماً لو شاء الله أطعمهم، فإطعامهم إلى الله، هذا الوجه الأول.

الوجه الثاني: يحتمل أنه من باب الاحتجاج بالقدر فراراً من اللوم، يعني: أنطعم قوماً أن لو يشاء الله أطعمهم فأطعمناهم، ولكن الله تعالى لم يشاء أن نطعمهم فلا نطعمهم.

---

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٦٨ ـ ٧٠.

الوجه الثالث: يحتمل أنهم قالوا هذا اعتراضاً على القدر، كما يقوله الاشتراكيون والشيوعيون، أي: لماذا يجعل الله هذا فقيراً، ولا يعطه، فكأنهم في جوابهم هذا يعترضون على الله، ويقولون: الذي يطعمهم، والمسؤول عنهم هو الله، وكان على الله أن يطعمهم، لكن لم يشأ ذلك، فيكون في هذا نوع من الاعتراض على القدر.

فهذه ثلاثة أوجه:

الأول: الاستهزاء.

الثاني: الاحتجاج بالقدر.

الثالث: الاعتراض على القدر.

ثم قالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ قال المؤلف: [أي: في قولكم لنا ذلك مع معتقدكم هذا ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ بين] يعني هؤلاء الكفار الذين أمروا أن ينفقوا على الفقراء، يقولون للذي أمرهم: أنت تعتقد أن الله لو شاء أطعمهم فيقول: نعم أعتقد ذلك، فيقولون: إذن كيف تأمرنا أن نطعمهم، والأمر بمشيئة الله ما أنت إلا في ضلال مبين وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ ﴿إِنْ﴾ هنا نافية، لوجود (إلا) بعدها، وإذا جاءت (إلا) بعد (إن) فهي دليل على (إن) نافية و(إن) ترد في اللغة العربية على أربعة أوجه هي:

الأول: تأتي زائدة، ومثاله قول الشاعر:

بني غدانة ما إن أنتم ذهب
ولا صريف ولكن أنتم الخزف

الثاني: تأتي شرطية، مثاله: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ

أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾[١] .

الثالث: تأتي نافية، مثاله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ .

الرابع: مخففة من الثقيلة، مثاله قول الشاعر:

وإن مالك كانت كرام المعادن.

وقال المؤلف: [مبين أي: بيّن] فهي من أبان القاصر، وأبان تأتي متعدية، ولازمة، فيقال: أبان الشيء، أي: أظهره، ويقال: أبان الصبح، أي: ظهر، إذن ﴿مبين﴾ من الرباعي من أبان، يبين، فهو مبين ويحتمل أن تكون بمعنى (بين) على أنها من القاصر.

ويحتمل في غير هذا السياق أن تكون بمعنى (أبان) مثل ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾[٢] ليس المعنى: وقرآن بين، بل وقرآن مبين للحق.

قال المؤلف: [وللتصريح بكفرهم موقع عظيم] أي في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولم يقل: (قالوا) بل قال: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فله موقع عظيم لأنه:

أولاً: التصريح بكفر هؤلاء، لو قال (قالوا) لقلنا لعلهم قالوا ذلك ليس بسبب الكفر، ولكن بسبب البخل، هذه فائدة، أن الإظهار في موضع الإضمار في هذه الآية للتصريح بكفرهم.

الفائدة الثانية: أن مثل هذه المقالة لا تصدر إلا من كافر،

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٥.

(٢) سورة الحجر، الآية: ١.

فيكون الكفر عامًّا لكل من قال هذه المقالة.

وقد مر علينا فيما سبق أن الإظهار في موضع الإضمار له ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: التصريح بالحكم على هؤلاء الذين يرجع إليهم الضمير.

الفائدة الثانية: أن من قال بمثل هذا فهو كافر، أو ظالم حسب السياق.

الفائدة الثالثة: العلة، وأن هذا القول سببه كذا وكذا حسب ما يوصف.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ اللام بمعنى (عن) يعني: قال الذين كفروا عن الذين آمنوا: يعني قالوا في حق الذين أمروا بالإنفاق عليهم وهم المؤمنون ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾.

الفوائد:

١ ـ يستفاد من هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الذين كفروا يوعظون وينبهون ولكنهم يستكبرون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فالحجة قائمة عليهم.

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان إذا أنفق بأمر الله تعالى فلا منة له على الله عز وجل؛ لأن الله تعالى هو الذي أعطاه لقوله: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي للمتكلم الواعظ أن يبين الأسباب التي تحث على فعل ما وعظ به لقوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة أن هؤلاء الذين قالوا هذا الكلام: أنطعم من لو يشاء الله أطعمه أنهم كفار لقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾.

٥ ـ ومن فوائدها: أن البخل من صفات الكافرين، لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وإذا كان من صفات الكافرين فإنه لا ينبغي للمؤمن أن يتصف به، فكل ما كان من صفات الكافرين من اليهود والنصارى وغيرهم، فإن اللائق بالمسلم أن لا يفعله، لأنه إذا فعله صار متشبهاً بالكافرين في هذه الخصلة.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان قد يقول كلمة الحق يريد بها الباطل ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ فنحن نؤمن بأنه لو شاء الله لأطعم هؤلاء، لكن حكمته عز وجل اقتضت أن يجعل هؤلاء فقراء، وهؤلاء أغنياء.

٧ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن المشركين يقرون بمشيئة الله وأنها نافذة في كل شيء، لقولهم: ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ والمشركون أو الكافرون لا ينكرون ربوبية الله عز وجل، بل يقرون بها حتى الذين تظاهروا بإنكارها إنما ينكرونها بألسنتهم لقوله تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[1] ولقول موسى عليه الصلاة والسلام، لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[2] لكن ينكرون الربوبية استكباراً ومكابرة، وإلا فإن قرارة نفوسهم تشهد بها.

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٢.

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: الأساليب الدعائية التي يستعملها المشركون من قديم الزمان، حيث قالوا لهؤلاء المؤمنين، أو لهؤلاء القائلين: أنفقوا مما رزقكم الله. قالوا لهم: «إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾» وهذا الوصف المشين للمؤمنين من الكافرين هذا لم يزل ولا يزال موجوداً إلى يومنا هذا، فهم يصفون أهل الخير بالأوصاف العديدة المنفرة منهم، أو التي يقصدون بها استعداء الحكام على هؤلاء المؤمنين، يقولون: هؤلاء رجعيون، وهؤلاء متخلفون، هؤلاء متشددون، هؤلاء متزمتون، وما أشبه ذلك من الكلمات التي يصفون بها أولياء الله عز وجل، ونحن لا ننكر أنه يوجد من أهل الخير وأهل الدين من يغلو ويبالغ في عمله، أو في وصفه لغيره من التكفير والتفسيق، حتى يكفر من لم يكفره الله، ويفسق من لم يفسقه الله، نحن لا ننكر أن هذا موجود، ولكن يبدو لي ـ والله أعلم ـ أن وجود مثل هؤلاء المتشددين إنما جاء نتيجة لتطرف الآخرين في المعاصي والفسوق، فيريدون أن يحدثوا ردة فعل بالنسبة لهؤلاء، ولو استقام الناس كلهم على الدين ما حصل هذا التطرف، لكن إذا رأوا جانباً متطرفاً في الفسوق والعصيان، وأنه مستمر على ذلك ومقر على ذلك من بعض ولاة الأمور، حصل رد فعل مقابل لهؤلاء، فتشدد هؤلاء في مقابل تراخي هؤلاء، ولكن التوسط هو الخير، ومع هذا فإن المتوسطين المعتدلين لا يسلمون من ألسنة المتطرفين الضالين، ولا من ألسنة المتطرفين الغالين، فالغالون مثلاً يقولون لهؤلاء المتوسطين: أنتم مفرطون، أنتم مداهنون، أنتم تقرون أهل

الشر، وأهل الشر يقولون: هؤلاء متشددون، هؤلاء يريدون من الناس أن يكونوا على شاكلتهم، وإلا فهم كافرون وما أشبه ذلك، والمهم أن ألقاب السوء التي يلقب بها أعداء الله أولياء الله لم تزل موجودة ولاتزال موجودة إلى يومنا هذا، حتى أهل البدع يلقبون أهل السنة بألقاب السوء يقولون: هؤلاء مشبهة. إذا أثبتوا الصفات على الحقيقة، وهؤلاء حشوية، هؤلاء نوابت وما أشبه ذلك من الكلمات التي تستوجب النفور منهم، والنيل من قدرهم، ولكن هذا لا يضر أهل الخير، ولكن يؤذيهم، والأذية غير الضرر، فقد يتأذى الإنسان بالشيء ولكن لا يتضرر به، فها هو الإنسان يتأذى من رائحة البصل والكراث، والشيء المستقذر، ومع ذلك لا يتضرر به، وقد أثبت الله لنفسه أنه يؤذى من المنافقين وغيرهم، ونفى عن نفسه التضرر، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾[1] وقال في الحديث القدسي: «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر**»[2]، وقال في الحديث القدسي: «**يا عباد إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني**»[3]، المهم أن مثل هذه الألقاب لا شك أنها تؤذي المؤمنين، ويتأذون منهم، وتضيق بها صدورهم، لكنها لا تضرهم، بل هي نافعة لهم؛ لأنهم إذا صبروا عليها أجروا على الصبر، وإذا تأذوا بدون صبر صارت كفارة لهم؛ لأنه لا يصيب المؤمن من هم ولا أذى ولا غم إلا كفر

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الجاثية (٤٨٢٦) ومسلم، كتاب الأدب، باب النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب البر، باب تحريم الظلم ٥٥ (٢٥٧٧).

الله به عنه حتى الشوكة يشاكها، لاسيما وأنه يؤذى هنا في ذات الله عز وجل، فيكون هذا منقبة لهم، ويكون هذا الإنسان الذي أوذي في الله قد ناله ما نال أولياء الله من الأنبياء والصديقين والشهداء، **وقد أخبر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام أنه يبتلى الصالحون الأمثل فالأمثل**[1]، فإذا كان فيه قوة في دينه فإنه يؤذى أكثر؛ ليكون أبلغ في الامتحان، وإذا كان دينه أقل، فإن الله قد يرحمه فلا يحصل له من الأذية ما يحصل للآخر، وقد يبتليه الله عز وجل، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾[2] نسأل الله السلامة.

٩ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: المبالغة من أعداء الله بما يسمون به أولياء الله لقولهم: «إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾» كأنهم حصروا حالهم من كل وجه في الضلال المبين، كأنه لا هداية فيهم إطلاقاً (ما أنتم إلا في ضلال) وهذا غاية ما يكون من العدوان من هؤلاء.

١٠ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات مشيئة الله، وهي كثيرة في القرآن، ولكن كل ما ذكر الله تعالى من المشيئة فهي مقرونة أو مقيدة بالحكمة، إذ ليست مشيئة الله مجرد مشيئة بل هي مقرونة بالحكمة.

* * *

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٨) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) سورة الحج، الآية: ١١.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أي يقول الكفار المكذبون بوعد الله ـ عز وجل ـ ومنه القيامة ﴿مَتَىٰ﴾ هنا استفهام استبعاد وتحدي، أي: يقولون مستبعدين هذا الأمر متحدين من يقوله ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾، و﴿مَتَىٰ﴾ خبر مقدم و﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ مؤخر؛ وذلك لأن ﴿مَتَىٰ﴾ واقعة موقع النكرة و﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ معرفة، والمعهود أن المعرفة هي المبتدأ، والخبر يكون نكرة، وقد يكون معرفة، لكن إذا وجد نكرة ومعرفة، وأمكن أن تكون المعرفة للمبتدأ فهي المبتدأ؛ لأن المبتدأ محكوم عليه فلابد أن يكون معرفة، والمعرفة تعين المدلول وتخصصه، فلابد أن يكون المحكوم عليه معلوماً، ولهذا قال العلماء في هذه القاعدة: (إذا وجدت كلمتان إحداهما معرفة والأخرى نكرة، وأمكن أن تكون المعرفة هي المبتدأ فلتكن هي المبتدأ)، وتعليل ذلك أن المبتدأ محكوم عليه، فلابد أن يكون معلوماً متعيناً يقول: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ بأننا نبعث فمتى يكون، ولا شك أن هذه الشبهة داحضة؛ لأن الذين قالوا بالبعث لم يعينوه بيوم معين، وانظر إلى حجتهم في آية أخرى تكن أبين ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾[1] وهل الذين قالوا: إنهم يبعثون قالوا يبعثون في الدنيا حتى يقولوا: ائتوا بآبائنا، وإنما قالوا ستبعثون يوم القيامة، وقولهم: (ائتوا بآبائنا) أي: ابعثوهم لنا، هذا التحدي في غير محله، لأنه ما قيل لهم: إنكم ستبعثون في الدنيا،

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٥.

بل في يوم القيامة، وهنا يقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾. الجواب: ذكر الله تعالى هذا في القرآن: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[1] فالوعد لم يحن وقته بعد، انتظروا وسوف يأتي هذا الوعد.

الفوائد: من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ يستفاد منها: أن بني آدم يصل إلى حد التحدي لرب العالمين، ولمن بلغ رسالته لقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾.

٢ ـ ومن فوائدها: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام بلغوا البلاغ المبين، وبينوا للناس أنهم سيبعثون ويجازون، وأنهم وعدوا بذلك لقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾.

٣ ـ ومن فوائدها: أن هؤلاء الذين قالوا هذا القول تحدياً واستبعاداً لم يصدقوا الرسل، بل كذبوهم، وليتهم نظروا في الأمر وفكروا لقوله هنا: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ قال المؤلف: [﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وهي نفخة إسرافيل الأولى] (نظر) تستعمل متعدية بنفسها، بمعنى الانتظار مثل: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2] ولها أمثلة كثيرة، وأن تعدت بـ(في) صار المراد بها نظر الفكر تقول: (نظر في كذا) أي: فكر فيه

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٦.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

وتأمله، وإذا تعدت بـ(إلى) فهي النظر بالعين تقول: (نظرت إليه)، ومنه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[1] ﴿صَيْحَةً﴾ يعني يصاح بهم، وذلك بالنفخة الأولى في الصور؛ لأن هذه النفخة يكون لها صوت عظيم مزعج يفزع الخلائق، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾[2] فكل الخلائق تفزع إلا ما شاء الله عز وجل، فيفزعون فزعاً شديداً يؤدي إلى صعق إلى الموت وحينئذ تكون نفخة واحدة فيها فزع، وفيها صعقة ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ أي: تأخذهم كما يأخذ العدو عدوه بحيث لا تمهلهم ولا تنظرهم ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [بالتشديد، أصله يختصمون نقلت حركة التاء إلى الخاء، وأدغمت في الصاد، أي: وهم غفلة عنها بتخاصم وتبايع، وأكل وشرب وغير ذلك، وفي قراءة (يَخْصِمون) كيضربون أي: يخصم بعضهم بعضاً].

القراءات التي ذكر المؤلف قراءتان فقط، يقول: بالتشديد أصله يختصمون، نقلت حركة التاء إلى الخاء، وحركة التاء هي الفتحة، وأدغمت التاء بالصاد فصارت على هذه القراءة (يَخْصِمُونَ)، والقراءة التي في المصحف ﴿يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾، بكسر الخاء، والقراءة الثالثة (يَخْصِمُونَ)، كيضربون، والقراءة الرابعة التي أشار إليها المحشي[3] هو أن تجعل الخاء لا مفتوحة

---

(١) سورة القيامة، الآية: ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) سورة النمل، الآية: ٨٧.

(٣) المحشي هو: الشيخ سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل المتوفى سنة ١٢٠٤هـ رحمه الله تعالى وحاشيته هي: (الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين=

خالصة، ولا مكسورة خالصة وإنما تختلس الفتحة، فتكون بين الفتحة والكسرة، هذه القراءة الرابعة، والثالثة التي في المصحف لم يشر إليها المفسر، ووجه المحشي القراءة الموجودة في المصحف ﴿يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ بأن الحركة أزيلت من التاء، فصارت ساكنة، فلما صارت ساكنة حركت الخاء بالكسر لالتقاء الساكنين على الأصل، فالمهم يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ أي: وهم في غفلة عنها بتخاصم وتبايع وأكل وشرب وغير ذلك.

فالصيحة إذن أخذتهم على غرة، وهم غافلون عنها، لاهون بأمورهم ودنياهم، يتخاصم بعضهم مع بعض، وهذا يدل على عدم ائتلاف قلوبهم في تلك الساعة، وأنهم من جنس البهائم، ولهذا لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، ولم يذكر الله عز وجل سوى التخاصم كأن أكثر ما هم عليه في ذلك الوقت هو التخاصم والتباغض والتدابر، لأنهم ليس عندهم إيمان، فهم شرار الخلق في معاملة الله، وشرار الخلق في التعامل فيما بينهم، وفي قراءة (يَخْصِمُونَ) كيضربون، أي يخصم بعضهاً بعضاً، فيكون الظهور للغالب في الخصومة لا للحق، لأنهم في هرج ومرج، وليس عندهم إيمان، ولا مروة، ولا خلق، هم شرار الخلق، فكانت هذه ـ والعياذ بالله ـ حالهم عند قيام الساعة.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: إثبات علم الله عز وجل وسمعه؛ لأن قوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ جواب قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا

= للدقائق الخفية).

ٱلْوَعْدُ﴾.

٢ ـ ومن فوائدها: تهديد هؤلاء المكذبين بهذه الصيحة التي تأخذهم.

٣ ـ ومن فوائد هذه الآية: قدرة الله عز وجل حيث يأخذ هؤلاء كلهم بصيحة واحدة لقوله: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وهنا أكد الصيحة بـ(واحدة) ليبين أنه لا يعيدها مرة ثانية، بل بأول مرة يؤخذون.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذه الصيحة تأتيهم بغتة لقوله: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ غافلون عنها.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: بيان حال هؤلاء الذين تقوم عليهم القيامة، وتأخذهم الصيحة، وهي الخصومة والتنازع، مما يدل على سوء أحوالهم، وسوء أخلاقهم، وأنه لا هم لهم إلا هذه المخاصمة والمنازعة، شحًّا وطمعاً في الدنيا، وغفلة عن الآخرة، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق**»[1]. وهؤلاء من المعلوم أنهم يأكلون ويشربون لكن لم يذكر الله إلا هذا التخاصم لبيان سوء حالهم في ذلك الزمن.

* * *

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: إذا أخذتهم لم يتجاوزوا مكانهم، بل لا يستطيعون الكلام لشدة ما هم

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين» ١٧٦ (١٩٢٤).

فيه من الفزع. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: لا يستطيعون أن يوصوا إلى أهليهم، وإلى صغارهم، وإلى سفهائهم؛ لأن الأمر عظيم لا يتكلمون فيه ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠﴾ لأنهم لا يتجاوزون مكانهم، فلا هم الذين وصلوا إلى أهليهم وشاهدوهم، ولا هم الذين استطاعوا أن يوصوا فيهم أحداً، وهذا يدل على أن الأمر الذي أخذهم أمر عظيم، وهو كذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧﴾[1] ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾ قال المؤلف عن الصور: [وهو القرن، النفخة الثانية للبعث، وبين النفختين أربعون سنة] ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ النفخ في الصور يذكره الله عز وجل دائماً بالبناء المجهول (نُفِخَ)؛ لأن الإبهام أبلغ في التهويل والتعظيم مما إذا ذكر الفاعل، ولهذا تجد قول الله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨﴾[2] أبلغ مما لو بين هذا الذي غشيهم، فالإبهام أحياناً يفيد التهويل والتعظيم، وهنا أبهم النافخ وفي كل الآيات النافخ مبهم البيان عظم هذا الأمر، **وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أن الذي وكل بالنفخ في الصور هو إسرافيل عليه الصلاة والسلام أحد حملة العرش**[3]، وقد ذكر الله تعالى النفخ في الصور في هذه الآية، وفي سورة الزمر، وفي سورة النمل، وفي سورة الأنعام وغيرها،

---

(١) سورة النمل، الآية: ٨٧.

(٢) سورة طه، الآية: ٧٨.

(٣) انظر ابن جرير الطبري في تفسيره جـ٢٠ ص ١٩، سورة النمل الآية (٨٧).

وقد اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ في النفخات هل هن ثلاث أو هما اثنتان؟

فمنهم من قال: أنهن ثلاث.

النفخة الأولى: فزع، والنفخة الثانية: صعق وموت، والنفخة الثالثة: بعث.

وفي سورة الزمر قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾[1] فذكر اثنتين، وفي سورة النمل ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾[2]. ثم ذكر يوم القيامة وطوى ذكر الثانية، فيكون هذا الفزع قبل الموت، ثم الموت ثم البعث،

ومنهم من قال: إنهما اثنتان.

والظاهر أنهما اثنتان فقط، لكن الأولى منهما فيها فزع وصعق، والثانية فيها بعث، وهذا ظاهر ما ذهب إليه المؤلف حيث قال: [النفخة الثانية للبعث].

﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ الصور قرن عظيم واسع، ورد في الحديث: **أن سعته كما بين السماء والأرض**[3]، ينفخ فيه للبعث فتخرج الأرواح منه، وتأوي كل روح إلى جسدها الذي تعمره في الدنيا لا تخطؤه على كثرة الأرواح الخارجة من هذا الصور، حتى لو قدر

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) سورة النمل، الآية: ٨٧.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٣٣٠٢). وعزاه ابن حجر في فتح الباري (٣٦٨١١) إلى أبي يعلى في الكبير.

أن عشرات الناس دفنوا في مكان واحد فإن روح كل واحد لا تأوي إلا إلى جسده تقدير العزيز العليم عز وجل.

﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ ﴿ فَإِذَا هُم ﴾ الفاء عاطفة و(إذا) حرف دال على المفاجأة و﴿ هُم ﴾ مبتدأ وجملة ﴿ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ خبره و﴿ مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ متعلقة بـ ﴿ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ ﴿ فَإِذَا هُم ﴾ أي: بمجرد ما يحصل النفخ لا يحصل وقت بين النفخ في الصور والخروج من القبور ﴿ مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ أي: من القبور يخرجون إلى الله تعالى مسرعين، وقوله: ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ الضمير في ﴿هم﴾ قال المؤلف: [أي المقبورون] وعلمنا أن المراد المقبورين؛ لقوله: ﴿ مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾؛ لأن الأجداث هي القبور، وقوله: ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ هذا بناء على الأغلب الكثير؛ لأن من الناس من لا يكون في جدث بل يلقى في اليم، أو يلقى في الأرض على ظاهرها، أو تأكله السباع، أو يحترق وتذروه الرياح، لكن الغالب والأكثر أنهم في القبور، وقوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ فيها تقديم المعمول لإفادة الحصر، يعني لا ينسلون إلى دنيا، أو إلى قريب، أو إلى صديق، وإنما ينسلون إلى الله عز وجل، والنسلان معناه: السير بسرعة، كما قال تعالى: ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[1] أي: يخرجون بسرعة.

الفوائد:

من فوائد الآيتين الكريمتين:

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٦.

١ ـ أن النفخ في الصور إذا وقع لم يستطع أحد أن يتكلم ولا أن يتزحزح من مكانه؛ تؤخذ من قوله تعالى: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ هذا الكلام ﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ لا يتزحزحون من مكانهم.

٢ ـ ومن فوائدها: قوة هذه الصدمة التي تصيبهم من هذه الصيحة؛ لأن الإنسان إذا قويت الصدمة أعجم على لسانه فصار لا يقدر على التكلم، وكذلك رجلاه تضعف حتى لا يستطيع الوقوف كما قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في قصة وفاة رسول الله ﷺ لما سمع قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1] قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها[2].

٣ ـ وكذلك يدل على عظم هذه الصيحة أنهم لا يستطيعون الرجوع إلى أهليهم مع شدة تشوقهم إليهم، لكن لا يستطيعون؛ لأن الأمر أعظم من أن يتمكنوا من ذلك.

٤ ـ ومن فوائد الآية الثانية: إثبات النفخ في الصور، وهو من الأمور الغيبية التي يجب علينا أن نؤمن بها دون التعرض لكيفيتها. فلو قال قائل: كيف يكون النفخ في الصور؟ قلنا: هذا أمر لا نعلمه إلى الله عز وجل؛ لأنه غيبي ولم يخبر بكيفيته.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: تمام قدرة الله عز وجل حيث كان مجرد النفخ يوجب أن يخرج الناس جميعاً من قبورهم

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٠.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٥٤).

مسرعين.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات البعث وأنه حياة حقيقية؛ لقوله: ﴿يَنسِلُونَ ۝٥١﴾ لأن الإسراع لا يكون إلا بحياة حقيقية.

٧ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الناس يسرعون إلى مكان معين ينزل الله تعالى فيه للفصل بين عباده؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾.

٨ ـ ومن فوائدها: الإشارة إلى الأجداث التي جعلها الله تعالى منازل للأموات، امتن الله بها على عباده، كما امتن عليهم بالقصور في الدنيا، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ۝٢٦﴾[1]. فكما أن الله عز وجل منَّ علينا بهذه القصور نستتر بها ونقضي بها حوائجنا ونكون مع أهلنا فكذلك منَّ علينا سبحانه وتعالى بالقبور التي يستتر بها الإنسان عن الرؤية، ويحتمي بها عن الوحوش إلى غير ذلك مما تتضمنه هذه النعمة.

٩ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الربوبية العامة، لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فهذه عامة لكل من يخرج من الأجداث، وقد مرَّ علينا أن الربوبية تنقسم إلى قسمين عامة وخاصة.

* * *

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾ قال المؤلف رحمه الله: [يا للتنبيه ﴿ويلنا﴾ هلاكنا، وهو مصدر لا فعل له من لفظه ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾

(١) سورة المرسلات، الآيتان: ٢٥، ٢٦.

لأنهم كانوا بين النفختين نائمين لم يعذبوا].

قوله ـ رحمه الله ـ يا للتنبيه. بناءً على أن الويل ليس له عقل وإرادة، وإذا وجه النداء إلى من ليس له عقل ولا إرادة كان للتنبيه.

ولكن لو قيل: إن (ياء) للنداء بدليل أنها عملت فيما بعدها؛ لأن ﴿ويلنا﴾ منصوب بياء النداء، كأنه قال: يا ويلنا أحضر، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[1] ونظير قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾.

والويل هو الهلاك، وهو مصدر ليس له فعل من لفظه، كما تكون بعض أسماء الأجناس ليس لها مفرد من لفظها، كإبل ليس لها مفرد من لفظها، وتكون بعض الأفعال ليس له مصدر مثل (يذروا) فإن أكثر النحويين يقولون: إنه ليس لها مصدر. وبعضهم يقول: لها مصدر وهو الوذر. ﴿مَنۢ﴾ للاستفهام التعجبي أي ما الذي أخرجنا ﴿مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ والمرقد مكان الرقادة، والمراد بها القبور، أي: من بعثنا من هذه الأمكنة التي كنا راقدين فيها. واختلف العلماء في هذا: هل إنهم يرقدون ثم يستيقظون عند النفخة الثانية، أو أن وجودهم في القبور بالنسبة إلى ما يشاهدونه في القيامة كأنه رقود، لأن الشيء إذا نسب إلى ما هو أعظم منه صار هيناً؟

القول الأخير هو الأصح، وهو الذي مشى عليه ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره؛ لأنه ليس هناك دليل على أنهم ينامون

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٦.

بين النفختين كما ذكره المؤلف بقوله: [لأنهم كانوا بين النفختين نائمين لم يعذبوا] وهذا يحتاج إلى نقل صحيح؛ لأنه من أمور الغيب، والمرقد قد يكون للإنسان وإن كان يتألم بعض التألم، فها هو الإنسان ينام ويرى في منامه أحلاماً مزعجة مروعة حتى إنه من شدتها في بعض الأحيان يستيقظ، ومع ذلك فإنه إذا قام يقال: قام من مرقده.

فالصواب أن المرقد هنا مكان الرقاد، وأن عذابهم في قبورهم بالنسبة لعذاب الآخرة كالرقاد كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾[1].

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قال المؤلف: [﴿هذا﴾ أي: البعث ﴿ما﴾ أي: الذي ﴿وعد﴾ به ﴿الرحمن وصدق﴾ فيه ﴿المرسلون﴾ أقروا حين لا ينفعهم الإقرار وقيل: يقال لهم ذلك].

هذه الآية فيها سكتة ينبغي الوقوف إن لم يجب على قوله: ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾ عند بعض القراء، لأجل أن يستأنف، فيقال: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وهذا الجملة قيل: إنها تقال جواباً لهم حين قالوا: من بعثنا من مرقدنا؟

وقيل: إنها منهم يقرون إذا شاهدوا أقروا فقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾. والآية محتملة: يحتمل أنهم يقولون ذلك، ويحتمل أنه يقال لهم، وفي سورة الصافات قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٧.

تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾[1] فظاهر هذه الآية أن القائل هم هؤلاء وأن بعضهم يقول لبعض: هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون. فآية الصافات أظهر من هذه الآية من سورة يس، ولو قال قائل: هل يمكن أن يكون القول صادراً منهم وإليهم؟ فالجواب: أن هذا ليس ببعيد، وإن كان الإنسان لا يكاد يجزم به. ﴿هذا﴾ المشار إليه البعث ﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾ ما اسم موصول والصلة قوله: ﴿وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ وقدر المؤلف العائد بقوله: [به] والمعروف أن العائد المجرور لا يحذف إلا إذا كان عامل الموصول موافقاً لعامل المحذوف لفظاً ومعنى، هذا هو المعروف عند النحويين، ولكن الراجح أنه يجوز حذف العائد، سواء كان عامله من جنس عامل الموصول، أو من غير جنسه، وأن القاعدة التي ذكرها ابن مالك بقوله: (وحذف ما يعلم جائز) عامة لكل شيء ليست خاصة بالمبتدأ والخبر بل لكل شيء، وقوله: ﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾ ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل المختصة به، التي لا تطلق على غيره فلا يسمى أحد ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ أما رحيم فيوصف به الخلق، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[2] لكن رحمن لا يجوز أن يوصف بها أحد، والفرق بين الرحمن والرحيم: أن الرحيم باعتبار الفعل، والرحمن باعتبار الوصف، فإذا قال «الرحمن»

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ٢٠، ٢١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

يعني ذو الرحمة الواسعة، والرحيم الذي تصل رحمته إلى من يشاء من عباده، وهنا ذكر ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ولم يقل: (ما وعد الله)؛ لأن رحمة الله يوم القيامة تتجلى تجلياً أكثر منها في الدنيا، فإن لله تعالى مائة رحمة جعل منها رحمة في الأرض، فإذا كان يوم القيامة صار له مائة رحمة، التسعة والتسعون الباقية، والرحمة الأولى، وهذا يدل على تجلي رحمة الله تعالى في ذلك اليوم، ولهذا قال هنا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ والرحمن مشتق يدل على صفة الرحمة، ويجب علينا في أسماء الله تعالى أن نؤمن بالاسم، وما دل عليه من الصفة، والأثر المترتب على ذلك، ويجوز أن نقول والحكم، فهنا ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ اسمه، والرحمة صفته، ويرحم من يشاء فعله سبحانه وتعالى، وهو أثر الرحمة قال: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ وعد الرحمن بأنه سيكون يوم يبعث فيه الناس، فيجزي فيه المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ومجازاة المحسن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ﴿وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ أخبر بالصدق (وصدق القائل) بمعنى التصديق من المخاطب، فالصدق من المتكلم، يقال: صدق، ويقال: صدق بمعنى أخبر بالصدق. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ﴾[1] وصدق القائل، أي: أقر بقوله واعترف به، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾[2] فهو صادق وصدق والله أعلم.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٣.

الفوائد:

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ في هذه الآية دليل على شدة حسرة المكذبين الذين يكذبون بالبعث إذا بعثوا يقولون ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ ودليل ذلك قولهم: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ وهذه الكلمة دعاء بالثبور والحسرة على من نطق بها.

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن عذاب البرزخ بالنسبة إلى عذاب الآخرة هين، حتى إنه مثل النوم عند النائم.

٣ ـ ومن فوائدها: أن البقاء في القبور ما هو إلا كنوم النائم، ثم يستيقظ ويغادر المكان لقوله: ﴿مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: توبيخ هؤلاء المكذبين حين يقال لهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله تعالى صادق الوعد لا يخلفه، وذلك لأن إخلاف الموعد يكون لأحد أمرين: إما الكذب، وإما العجز، وكلاهما منتفيان عن الله عز وجل فلا كذب في وعده، ولا عجز عن تنفيذه، ولهذا فهو عز وجل لا يخلف الميعاد لكمال صدقه وقدرته.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما يخبرون به عن الله سبحانه وتعالى وعن غيره، لقوله: ﴿وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٥٢﴾.

٧ ـ ومن فوائد الآية: أن المشركين يقرون إذا شاهدوا الحق، بأن ما وعد الله تعالى به فسيقع بناءً على أن قوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ من كلامهم، والإقرار بالحق بعد مشاهدته لا ينفع؛ لأن الإقرار بالحق إذا لم يكن غيباً لم يكن الإنسان مؤمناً بالغيب، بل يكون مؤمناً بالشهادة.

فإن قلت: قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾[1] فهنا أنكروا الشرك مع أنهم كانوا مشركين، بل أنهم يقرون بشركهم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾[2] فكيف الجمع؟

الجمع بينهما أنه يقال: إن يوم القيامة ليس لحظة ولا ساعة قليلة بل هو خمسون ألف سنة، فهم يتقلبون أحياناً يقرون بكل ما عملوا، وأحياناً ينكرون، إذا رأوا نجاة المؤمن قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ لعلهم ينجون كما نجا غيرهم، ولكن يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم، وحينئذ يقرون ولا يكتمون الله حديثاً والله أعلم.

* * *

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٢.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[١] .

الفوائد:

١ ـ في هذه الآية دليل على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى وأنه يصاح بأصحاب القبور صيحة واحدة، فيخرجون جميعاً لا يتخلف منهم أحد، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

٢ ـ ومن فوائدها أيضاً: أن الله سبحانه وتعالى إذا أمر بشيء لا يعيد الأمر مرة ثانية، بل يكون الشيء بأول أمر، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾[٢] والذي يعيد الأمر والكلام هو العاجز، وأما القادر فلا يعيده.

٣ ـ ومن فوائدها أيضاً: الإشارة إلى أن الله تعالى ينزل للقضاء بين عباده، تؤخذ من قوله: ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: عندنا والعند يدل على القرب، وقد ثبت بالنصوص أن الله عز وجل ينزل للقضاء بين عباده فيقضي بينهم.

* * *

قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

(اليوم) أي: يوم القيامة حين يحضر الناس للفصل والقضاء، فـ (أل) هنا للعهد الحضوري، أي: ففي حضرتهم ذلك اليوم حينما يحضرون ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: لا تنقص،

---

(١) لم أجد تفسير هذه الآية فيما بين يدي من أشرطة مسجلة.

(٢) سورة القمر، الآية: ٥٠.

والنقص يكون بأحد أمرين: إما بزيادة السيئات، وإما بنقص الحسنات، وكلا الأمرين منتف كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾[1] أي: لا يخاف هضماً من حقه من الحسنات، ولا ظلماً بزيادة السيئات، يقول: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ ونفس نكرة في سياق النفي، فتشمل كل نفس، حتى الكافر يكون عذابه على حسب عمله؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: لا تكافئون على أعمالكم إلا ما كنتم تعملون، قال المؤلف رحمه الله: [لا تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون] إنما قدر ـ رحمه الله ـ (جزاء) لئلا يتسلط الفعل على نفس العمل، والعمل قد مضى وانقضى، والذي يوجد في يوم القيامة هو الجزاء، ولهذا قال: [إلا جزاء ما كنتم تعملون] لا نفس العمل؛ لأن العمل إنما كان في الدنيا وليس في يوم القيامة، والذي في يوم القيامة هو الجزاء فلهذا قدر المؤلف [إلا جزاء ما كنتم تعملون].

فإن قال قائل: كلام المؤلف هنا: أفلا يكون منتقداً؛ لأنه كالاستدراك على كلام الله عز وجل؟

فالجواب على هذا: أن يقال ليس بمنتقد، وليس مقتضاه الاستدراك على كلام الله، لأن المؤلف أراد أن يفسر المعنى المراد، ولم يرد أن في الكلام نقصاً، وقد علم في البلاغة أن الإيجاز نوعان: إيجاز حذف، وإيجاز قصر، وإيجاز الحذف معناه أن تكون الجملة فيها شيء محذوف يعلم من السياق،

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٢.

وإيجاز القصر أن تكون الجملة ذات كلمات يسيرة، ولها معاني كثيرة، فعلى كلام المؤلف يكون في الكلام إيجاز حذف.

فإذا قال قائل: إن هذا التركيب الذي ذكره المؤلف فيه شيء من الركاكة [لا تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون].

فالجواب: نعم القرآن أفصح بلا شك، وأبين، وأسد، لأن التعبير عن الجزاء بالعمل أبلغ في التأثير على النفس، فإذا علم الإنسان أنه لا يجزى يوم القيامة إلا عمله فإنه سوف يزدجر عن المحرمات، وسوف يقوى على فعل المأمورات؛ لأنه يعلم أن عمله هذا نفسه هو الذي سيجزاه يوم القيامة، فالذي يظهر لي أن الكلام لا يحتاج إلى هذا التقدير الذي ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ، لأن جعل العمل هو الذي يجزى به الإنسان أبلغ في إثارة النفس كما قررناه، وقوله: ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: هذا في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ خبر كاف، وتحتاج الجملة إلى عائد يعود على الموصوف (ما)؛ لأنه قد تقدر في علم النحو: أن كل اسم موصول يحتاج إلى عائد يربطه بصلته، كما أن كل خبر للمبتدأ يكون جملة يحتاج إلى رابط، يربط بين الجملة الخبرية وبين المبتدأ التي هي خبر عنه، هنا نقول: إن العائد محذوف أي: ما كنتم تعملونه، والعمل يطلق بلا شك على فعل الجوارح، ويطلق على القول، ويطلق على عمل القلب، وهو الركون إلى الشيء، والاطمئنان به، فإذا أطلق العمل شمل هذه الثلاثة: عمل القلب وهو ركونه إلى الشيء ورضاه وطمأنينته به، قول بمعنى عمل اللسان، فعل عمل الجوارح، هذا إذا أطلق العمل، أما إذا

قيل: عمل وقول، أو قيل: اعتقاد وعمل، فإن العمل يفسر هنا بعمل الجوارح، وهذا يكون كثيراً في اللغة العربية وفي القرآن الكريم، وهو أن الشيء إذا أفرد يكون شاملاً، وإذا قرن بغيره صار خاصًّا؛ لأنه إذا قرن بغيره صار الكلام على جهة التقسيم، والتقسيم لابد فيه من مقسم، والمقسم يكون كل قسيم منه ضد القسيم الآخر، والخلاصة الآن أن المراد بالعمل هنا عمل القلب، والجوارح، واللسان الذي هو القول، لأن هذا كله يجازى عليه الإنسان يوم القيامة.

فإذا قال قائل: هل يشمل العمل الكف، أي: إذا ترك الإنسان المعصية، هل يقال: إن هذا عمل يجزى عليه؟

الجواب: نعم، يقال إنه عمل يجزى عليه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**من هم بالسيئة فلم يعملها كتبها الله حسنة كاملة**»[1]. لأن تركها لله فما وجه كون الترك عملاً؟ لأن الترك كف النفس عن جماحها وإقدامها فهو عمل وحينئذ نقول كلمة: ﴿يعملون﴾ تشمل أربعة أشياء هي: عمل القلب، واللسان، والجوارح، والترك. ويجزى عليها الإنسان.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: انتفاء الظلم مطلقاً في يوم القيامة؛ لأنه يوم العدل، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة (٦٤٩١) ومسلم، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت ٢٠٧ (١٣١).

لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[١] .

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان لا يظلم لا بقليل ولا بكثير لأن ﴿شيئاً﴾ نكرة في سياق النفي فتكون للعموم.

فإذا قال قائل: في غير هذا اليوم هل يظلم أحد؟

فالجواب: لا يظلم، لكن ذكر هذا اليوم لبيان الواقع؛ لأن هذا اليوم هو يوم الجزاء، فكأنه قال: هذا اليوم الذي هو الجزاء ليس فيه ظلم، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾[٢] .

٣ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن الجزاء من جنس العمل لقوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ فيستفاد منه:

٥ ـ كمال عدل الله عز وجل. وهذه فائدة متفرعة على الفائدة التي قبلها.

فإن قال قائل: أليس الإنسان العامل الحسنة يجزى بعشر حسنات؟

فالجواب: بلى، ولكن هذا من الجزاء الذي وعد الله به، فلا يكون منافياً لظاهر الآية؛ لأن الله تعالى وعد من جاء بالحسنة أن يجعل له عشر أمثالها، فتكون داخلة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: جواز التعبير بالسبب عن المسبب؛ لأن العمل سبب للجزاء، فيكون فيه التعبير بالسبب عن المسبب.

* * *

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٢) سورة غافر، الآية: ١٧.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ لما ذكر الله عز وجل أن ذلك اليوم يجازى فيه العامل بعمله، ذكر أصناف العاملين، وهم صنفان: الصنف الأول: أصحاب الجنة، والصنف الثاني: المجرمون.

وأصحاب الجنة لم يذكر الله تعالى في هذه الآية عملهم، لكنه ذكر في آيات كثيرة عملهم الذي يكون سبباً لدخولهم الجنة، قال: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ﴿أصحاب﴾ جمع صحب، وصحب اسم جمع صاحب، والصاحب هو: الملازم لمصحوبه، ولا يسمى الشيء صاحباً للشيء إلا بعد الملازمة حسب ما يقتضيه العرف، إلا شيئاً واحداً استثناه العلماء وهو صحابة رسول الله ﷺ، فإن صحبته تثبت بمجرد اللقاء ولو للحظة، فكل من اجتمع بالنبي عليه الصلاة والسلام ولو للحظة مؤمناً به ومات على ذلك فهو صحابي له، ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ تقدم أنها في اللغة العربية اسم للبستان الكثير الأشجار، وسمي بذلك لأنه لكثرة أشجاره، يجن من فيه وما فيه، ويجن بمعنى يستر، لأن هذه المادة (الجيم والنون) كلها تدور على هذا المعنى وهو الاستتار، ومنه سمي الجنين؛ لاستتاره في بطن أمه، وسمي الجن؛ لاستتارهم عن الأعين، وسميت الجُنة؛ لأن المقاتل يستتر بها عن السهام، فالجنة في اللغة كل بستان كثير الأشجار، وسمي بذلك؛ لأنه يجن من فيه من الساكن، وما فيه من الأشجار الصغيرة التي تكون تحت الأشجار الكبيرة، هذا هو أصل معنى

هذه الكلمة في اللغة، ومعناها شرعاً هي: الدار التي أعدها الله سبحانه وتعالى للمتقين: فيها لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[1]

ولا يصح أن تقول: إن الجنة في الآخرة هي البستان كثير الأشجار، ولو قلت هكذا لنزلت من قيمتها في نفوس الناس، لكن إذا قلت: هي الدار التي أعدها الله للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، صار ذلك حافزاً للعمل لها، وقوله: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ يعني يوم القيامة و(أل) هنا للعهد الذكري؛ لأن سبق ذكره و(أل) تكون للعهد الذكري إذا سبق ذكر مدخولها، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴿١٦﴾ ﴾[2] فإذا كان مدخول (أل) سبق ذكره فهي للعهد الذكري. ﴿ فِي شُغُلٖ ﴾ الجار والمجرور وهو خبر ﴿إن﴾ ﴿ فِي شُغُلٖ ﴾ يقول المؤلف: [بسكون العين وضمها] شغْل وشغُل، والقراءتان سبعيتان، لأن المؤلف ـ رحمه الله ـ من طريقه أنه إذا قال: في قراءة، وفي قراءة، فهما متساويتان، أي كلتاهما قراءة سبعية، أما إذا قال: وقرىء. فإن هذه القراءة تكون شاذة، فليعلم اصطلاحه حتى لا يشتبه. فيجوز لنا أن نقول: ﴿ إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ ﴾ و﴿شغْل﴾.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٢) سورة المزمل، الآيتان: ١٥، ١٦.

وهل الأفضل أن نقتصر على قراءة واحدة، أو أنه نقرأ تارة بهذه وتارة بهذه؟

الصحيح أن الأفضل أن نقرأ بهذه تارة وبهذه تارة، لأن الكل ثبت عن النبي ﷺ ونحن إذا بقيناعلى قراءة واحدة هجرنا بقية القراءات على أنها شرعية ثابتة عن الرسول ﷺ، فالأولى أن نقرأ مرة بهذه ومرة بهذه إلا أمام العامة فلا تفعل ذلك، لأنك إذا قرأت بقراءة مخالفة لما بين أيديهم من المصاحف فسوف يكون في ذلك فتنة، ويكون في ذلك زعزعة للثقة في كتاب الله عز وجل، لكن إذا كنت تقرأ لنفسك، أو تقرأ بين طلبة العلم فالأفضل أن تقرأ بهذا أحياناً وبهذا أحياناً، قال المؤلف رحمه الله: [في «شغل» بسكون الغين، وضمها، عما فيه أهل النار مما يتلذذون به] إذا هم منشغلون عما فيه أهل النار، ولو أن المؤلف جعلها مطلقة على إطلاقها لكان أولى، فهم في شغل عن كل شيء بما يتلذذون به، يعني كأنهم لا يفكرون في أي شيء آخر، لأن هذا الذي هم فيه من النعيم قد شغلهم، وانشغلوا به عن غيرهم هذا كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾[1] أي: لا يبغون تحولاً أو نزولاً عما هم فيه، بل ولا صعوداً حتى النازل منهم يرى أنه أكمل الناس نعيماً، فالأولى أن نطلق ونقول: ﴿فِي شُغُلٍ﴾ أي: أنهم مشتغلون بما هم فيه من النعيم عن كل شيء، لا ينتظر أحدهم نعيماً أرقى مما هو فيه بحيث يرى أن نعيمه ناقص ولا يلتفت إلى شيء أبداً ﴿فِي شُغُلٍ﴾ قال المؤلف: [كافتضاض

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٨.

الأبكار] والكاف للتشبيه، وليس للحصر، أي: من جملة ما ينشغلون به التلذذ بافتضاض الأبكار، من نساء الدنيا وكذلك الحور العين، وإنما مثل المؤلف بذلك لقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ قال [كافتضاض الأبكار لا شغل يتعبون فيه، لأن الجنة لا نصب فيها]، أي لا تعب، فهذا الشغل ليس شغلاً يتعبون فيه، ولكنه شغل يستريحون فيه، لأنه شغل فيما يسر وفيما يحصل به التنعم، قال: ﴿فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾: قال المؤلف: [ناعمون خبر ثان، لـ(إن) والأول ﴿فِي شُغُلٍ﴾] أي قوله: ﴿فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ خبر ثان لـ(إن) والأول ﴿فِي شُغُلٍ﴾ الجار والمجرور، فتكون (إن) لها خبران، والخبر يجوز أن يتعدد، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾[1] فهذه خمسة أخبار، فالخبر يجوز أن يتعدد، لكن تعدد الخبر قد يكون لكل كلمة منه معنى مستقل، وقد تكون الكلمتان في معنى كلمة واحدة، فمثلاً إذا قلت هذا البرتقال حلو حامض، فهاتان كلمتان، لكنهما بمعنى كلمة واحدة: (مُز) أي: جامع بين الحلاوة والحموضة، لكن لو قلت: فلان قائم مسرور، فالخبران كل واحد منهما بمعنى مستقل، بدليل أن أحدهما ينفرد عن الآخر بمعنى مستقل، والخلاصة: أننا فهمنا من كلام المؤلف أن الخبر يجوز أن يتعدد سواء كان منسوخاً كما في الآية، أم غير منسوخ.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن الناس ينقسمون في ذلك

---

(١) سورة البروج، الآيات: ١٤ ـ ١٦.

اليوم إلى قسمين: قسم هم أصحاب الجنة، وقسم هم أصحاب النار، أصحاب الجنة هذا جزاؤهم ﴿في شغل فاكهون﴾.

٢ ـ ويستفاد من قوله: ﴿فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾ كمال النعيم؛ لأنه كل ما كمل النعيم كمل التفكه بهذه النعمة التي يتنعم بها الإنسان.

* * *

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾ ﴿هم﴾ أي: أصحاب الجنة ﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ جمع زوج، وتطلق على الذكر والأنثى، فيقال: هذا زوج فلانة، ويقال: هذه زوج فلان، لكن أهل العلم قالوا: يجب التفريق ـ وإن كان لغة ضعيفة ـ في باب الفرائض فيقال: زوجة للأنثى، ويقال: زوج للرجل، لئلا يشبه على المتعلم كون المسألة المتوفى فيه زوج ذكر أو زوج أنثى، وإلا فاللغة العربية الفصحى حذف التاء من زوج، سواء كان للأنثى أو الذكر ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ جمع ظلة، خبر للمبتدأ هم، أو جمع ظل، والمعنى لا يختلف كثيراً، فهم في ظلال ليس عندهم شمس تصهرهم، أو تسخن الجو، وإنما هو أنوار، قال بعض أهل العلم: كالنور الذي يكون بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، فهو نور ساطع ولكنه لطيف، لأن ألطف ما يكون هو مثل ذلك الوقت فهو ظل ظليل ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ قال المؤلف: [جمع أريكة، وهو السرير في الحَجَلَة، أو الفرش فيها] ﴿الأرائك﴾ جمع الأريكة هي السرير في الحجلة، أو الفراش فيها، ولكن الأكثر أنها السرير، والحجلة عبارة عن بيت صغير في وسط البيت الكبير، أي أنها بمنزلة الحجرة الخاصة بالمنام فيما نعرفه بيننا، فالدار مثلاً

تشمل حجراً كثيرة متعددة، والحجرة الخاصة بالنوم هي مثل الحجلة، خيمة صغيرة تكون خاصة بالرجل وأهله، أو بالرجل وحده، أو بالمرأة وحدها ﴿مُتَّكِـُٔونَ ٥٦﴾ قال المؤلف: [خبر ثانٍ متعلق على] أي: على الأرائك متعلقة بمتكئون، وعلى كلام المؤلف يكون المبتدأ (هم) وفي (ظلال) خبر و(متكئون) خبر ثان، فالجملة على كلامه واحدة لكنها متعددة الخبر: (هم في ظلال متكئون) و﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ متعلقة بمتكئون، ومناسبة تقديمها على عاملها: مراعاة فواصل الآيات، والقرآن الكريم يكون فيه مراعاة الفواصل حتى وإن أدى إلى تقديم المفضول على الفاضل في سورة (طه) في قوله: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾[1] فقدم هارون على موسى، مع أن موسى أفضل، مراعاة للفواصل، لأن الفواصل إذا كانت متفقة كان لها تأثير في الاستماع والإصغاء والقرآن أبلغ الكلام، هذا ما ذهب إليه المؤلف، ولنا رأي ثان في الإعراب أن تكون ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ خبر مقدم و﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ مبتدأ مؤخر، وعلى هذا فتكون لدينا جملتان، جملة ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ﴾ والثانية: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ وما ذكرناه أعم؛ لأن ما ذكرناه يشمل أن يكون متكئين على الأرائك مع الزوجات، أو بدون زوجاتهم، و على كلام المؤلف ـ رحمه الله ـ يقتضي أن يكونوا متكئين على الأرائك مع الزوجات.

---

(١) سورة طه، الآية: ٧٠.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن لأهل الجنة زوجات لقوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ وقد وصف الله هؤلاء الزوجات بصفات كثيرة، فقال عز وجل في سورة الرحمن: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾[1] وقال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾[2] فقاصرات الطرف يعني أنها تقصر طرفها على زوجها لا تنظر إلى غيره؛ لأنها ترى أن زوجها أكمل الأزواج فلا يمتد نظرها إلى غيره، وهي أيضاً قاصرات لطرف زوجها عليها، فزوجها لا يمتد بصره إلى غيرها، فكل منهما راضٍ بصاحبه، وهن أيضاً ﴿**خيرات حسان**﴾ خيرات الطباع، حسان الوجوه والأجسام، وصفاتهن كثيرة في القرآن الكريم.

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الجنة ليس فيها شمس لقوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾.

٣ ـ ومن فوائدها: كمال راحة أهل الجنة لقوله: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾، فإن المتكىء عادة يكون مستريحاً مطمئناً، وكلما اطمأن الإنسان ازدادت راحته، والاتكاء على الأرائك لا شك أنه دليل على راحة البال وعدم الانشغال.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن لأهل الجنة فيها الفاكهة وهي كل ما يتفكه به، وقد ذكرنا أن جميع طعامهم فاكهة يتفكهون بها.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن لأهل الجنة كل ما

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٥٦.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٧٠.

يتمنونه، بل يعطون أكثر مما يتمنون، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذا القرآن الكريم مثاني، تثنى فيه المعاني، فيذكر الشيء ويذكر ضده، لأنه لو ذكر ما يكون به الرجاء دون ما يكون فيه الخوف، لغلب جانب الرجاء على جانب الخوف ووقع الإنسان في الأمن من مكر الله، ولو ذكر فيه جانب الخوف دون جانب الرجاء، لوقع الإنسان في القنوط من رحمة الله، فكان الله عز وجل إذا ذكر النعيم ذكر ضده، وإذا ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار، وهكذا، وهذا أحد معاني قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾[1] يعني أنه تثنى فيه المعاني حتى يكون اليسر لله تعالى على الوجه المطلوب.

* * *

ثم قال الله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٥٧﴾ أي لأصحاب الجنة ﴿فِيهَا﴾ أي: الجنة ﴿فَٰكِهَةٞ﴾ أي: ما يتفكهون به، وكل أكل أهل الجنة فاكهة، لأنهم يأكلونه على سبيل التفكه لا على سبيل الحاجة والضرورة، ففي الدنيا قد نأكل أحياناً تفكهاً، وأحياناً للحاجة، وأحياناً للضرورة، أما في الجنة فكل ما نأكله للتفكه؛ لأنه ليس هناك ضرورة أو حاجة، ولهذا يأكل الإنسان الأكل ويخرج هذا الأكل رشحاً مثل العرق، أطيب من ريح المسك، وليس فيها بول أو غائط.

فإذا قال قائل: إذا جعلت الفاكهة اسماً لكل ما يأكلون؛

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

لأنهم يأكلونه على سبيل التفكه، فكيف تجيب عن قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[١] والأصل في العطف أن يكون للمغايرة، والنخل والرمان يؤكل.

فالجواب: يعلم مما ذكرنا آنفاً وهو أن الشيء إذا أفرد صار له معنى عاماً، وإذا قرن بغيره صار له معنى خاصًّا مقابلاً لما قرن معه، لأن التقسيم يقتضي أن يكون المقسم إليه من طرف، غير المقسم إليه من الطرف الآخر، فنقول: النخل والرمان نص عليهما بخصوصهما لخاصية فيهما، وإلا فهما من الفاكهة، فيكون هذا من جنس عطف الخاص على العام، وعطف الخاص على العام في اللغة العربية كثير، مثل: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾[٢] والروح هو جبريل عليه السلام وهو من الملائكة، ثم قال المؤلف: [﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ يتمنون] كل ما يتمنونه فإنه حاصل، بل إن الله يعطيهم أكثر مما يتمنون؛ لأن أمنية الإنسان محدودة، قد يرى أن هذا أكبر شيء، وفيه شيء آخر أكبر منه ولكنه لا يدركه. فالإنسان في الآخرة يعطى كل ما يتمنى، بل يزاد على ما يتمنى.

فإذا قال قائل: هل إذا اشتهى الإنسان الشيء في الجنة يحصل بمجرد هذه الشهوة، أو لابد من الطلب؟

فالجواب: أن هذا الأمر محتمل، يحتمل أن الإنسان إذا اشتهى شيئاً حصل له، ويحتمل أنه لابد أن يدعيه، والدعوى

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٦٨.

(٢) سورة القدر، الآية: ٤.

بمعنى الطلب، وفائدة الطلب إظهار صدق الإرادة، كما أن الفعل يدل على صدق الإرادة، فلو أن أحداً من الناس قال: أريد أن أزور فلاناً، فإن هذه الإرادة لا تظهر إلا إذا زاره بالفعل، وإلا فمادام لم يقم بالفعل فإن الإرادة قد تكون غير صادقة، وعلى كل حال يكفينا أن الله عز وجل يقول: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[1] فإن ظاهر الآية أن كل ما تشتهيه وإن لم تطلبه يحصل لك.

* * *

﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿سَلَٰمٌ﴾ مبتدأ ﴿قَوْلًا﴾ أي: بالقول. خبره] على أنه منصوب بنزع الخافض، لأنه قال: أي بالقول. والنصب بنزع الخافض في غير (أنا) و(أن) ليس بمطرد، بل هو سماعي، إن سمع عن العرب النصب عمل به، وإن لم يسمع لم يعمل به، وقاعدة ذلك: أنه قد يحذف حرف الجر، فإذا حذف حرف الجر صار مدخوله منصوباً، ويقال فيه: منصوب بنزع الخافض، ولكنه كما قال ابن مالك ـ رحمه الله ـ:

في أن وأنا يطر ومع أمن ... لبس كعجبت أن يدم

فالمؤلف مشى على أن ﴿قولاً﴾ منصوب بنزع الخافض أي سلام بالقول من رب رحيم، وهذا أحد الوجوه في الآية الكريمة، ويجوز أن يكون ﴿سَلَٰمٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي سلام يعني الجنة، سلام كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ

(١) سورة الزخرف، الآية: ٧١.

ٱلسَّلَٰمِ﴾[١] ويجوز أيضاً أن يكون الخبر قوله: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أي سلام بالقول واقع من الله عز وجل، وهذه الوجوه لا ينافي بعضها بعضاً من حيث المعنى، فإن المعنى كله واحد وهو أن الله تعالى يسلم عليهم بالقول، ويقول لأهل الجنة: سلام عليكم، وقوله: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ الرب في اللغة العربية يطلق على عدة معانٍ:

فيطلق على رب العالمين عز وجل، وهو بهذا المعنى يشمل الخلق، والملك، والتدبير، فالرب هو الخالق المالك المدبر.

ويطلق الرب على الصاحب، مثل قولهم: رب البيت، أي صاحب البيت، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام في ضالة الإبل: «**معها سقاؤها وحذاؤها، ترد الماء وتأكل الشجر، حتى يجدها ربها**»[٢]، أي: صاحبها.

وقوله: ﴿مِّن رَّبٍّ﴾ المراد به المعنى الأول يعني الله تعالى، فالله تعالى هو الرب، أي: الخالق، المالك، المدبر و﴿رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ من الرحمة وهي صفة ذاتية، لم يزل الله سبحانه وتعالى ولايزال متصفاً بها، لكن أفرادها تجدد باعتبار المرحوم، فالله عز وجل يرحم من يشاء، ومعلوم أن المرحوم يتجدد، فرحمة الله تعالى لهذا المرحوم تتجدد، أما أصل المعنى فإن الله تعالى لم يزل ولايزال رحيماً، وأهل السنة والجماعة وهم السلف يفسرون «الرحمة» بمعنى يليق بالله عز وجل. وأهل التحريف يفسرون

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٥.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب اللقطة، باب ضالة الغنم (٢٤٢٨) ومسلم، كتاب القطة، باب معرفة العفاص (١٧٢٢).

«الرحمة» إما بالإحسان، وإما بإرادة الإحسان فيقولون: معنى رحيم، أي: محسن، أو مريد للإحسان، قالوا: لأن الله لا يمكن أن يتصف بالرحمة، فإن الرحمة تدل على الضعف، وعلى الرقة واللين، وهذا لا يليق بالله سبحانه وتعالى. وفسروها بالإرادة، لأنهم يثبتون الإرادة، أو بالإحسان؛ لأن الإحسان منفصل عن الله عز وجل وهو مخلوق، ولا شك أن هذا تحريف، والرحمة إن كان يلزم منها الرقة واللين فهذا باعتبار رحمة المخلوق، أما باعتبار رحمة الخالق فلا يلزم منه هذا المعنى، على أننا نمنع أن يكون من لازمها الرقة واللين؛ لأنا نجد الملك القوي الشجاع يكون فيه رحمة، ولا ينقص ذلك من قوته وسلطانه شيئاً، لكن لو سلمنا جدلاً أنها تستلزم الرقة واللين فإنما ذلك باعتبار رحمة المخلوق.

الفوائد:

١ ـ في هذه الآية الكريمة: دليل على ما يتمتع به أهل الجنة من السلامة من كل الآفات، ومن الأمراض، ومن الموت، ومن غيره، لأن الله تعالى يقول لهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ وهذا اللفظ الصادر من الله عز وجل ليس دعاء ولكنه خبر من الله، وإنما يكون مثل هذا دعاء إذا وقع من المخلوق، أما إذا كان من الخالق فهو خبر، أي: أن الله تعالى يخبرهم بأنه سيسلمهم من كل آفة.

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات أن الله يقول ويتكلم وهذا حق، وقد اختلف أهل القبلة في كلام الله عز وجل:

فمنهم من قال: يتكلم بحرف وصوت على وجه يليق به،

ولا يشبه صوته أصوات المخلوقين.

ومنهم من قال: إنه لا يتكلم، ولكن يخلق كلاماً ينسبه إليه تشريفاً وتكريماً.

ومنهم من قال: إنه يتكلم، لكن كلامه ما يقدره في نفسه، وأما ما يسمع فهو مخلوق.

فالأول مذهب أهل السنة والجماعة، والثاني مذهب المعتزلة ومن وافقهم، والثالث مذهب الأشاعرة، وحقيقة الأمر أن مذهب الأشاعرة هو مذهب المعتزلة، لأن الكل منهم متفقون على أن ما بين أيدينا من المصحف مخلوق، لكن الجهمية والمعتزلة قالوا: هو كلام الله، وأولئك قالوا: عبارة عن كلام الله، فهم أسوأ منهم في هذه الناحية، لأن المعتزلة والجهمية يقولون: إن القرآن كلام الله، كما قال الله عنه كلام الله ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[1] لكن هم يقولون ﴿**حتى يسمع كلام الله**﴾ أي: الكلام الذي هو عبارة عن كلام الله.

والجهمية والمعتزلة أقرب إلى الحقيقة من الأشاعرة، ولكن كل منهم في ضلال مبين.

والصواب أنه كلام الله تكلم به بنفسه، وسمعه منه جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ وألقاه إلى محمد ﷺ.

٣ ـ ومن فوائدها: إثبات الربوبية، وهي هنا فيما يظهر ـ والله أعلم ـ من الربوبية الخاصة؛ لأن الذي يخاطب به من القوم المخلصين، والربوبية كما تقدم، تنقسم إلى قسمين: خاصة،

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

وعامة، فالعامة هي الشاملة لجميع الخلق، فإن جميع الخلق مربوبون لله عز وجل، هو خالقهم ومالكهم، ومدبرهم، ومنها قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ أما الربوبية الخاصة فهي مختصة بعباد الله المخلصين من عباده المؤمنين من الرسل وأتباعهم، وهي أخص من الأولى؛ لأنها تقتضي عناية خاصة بالمربوب، وتوفيقاً له، وإصلاحاً لحاله، ومنها قوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢﴾[1] فإن موسى وهارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ من عباد الله المخلصين، فكانت الربوبية في حقهما خاصة، ومنه دعاء المؤمنين لله عز وجل بهذا الاسم مثل ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾[2] فالمراد به الربوبية الخاصة؛ لأن التوسل بالأخص، أخص بالدعاء من التوسل بالأعم، وقد اجتمع القسمان في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢﴾[3]. فالأولى عامة، والثانية خاصة.

والرب من أسماء الله دل على ذلك قوله ﷺ: «**أما الركوع فعظموا فيه الرب**»[4]، وقوله ﷺ في السواك: «**مطهرة للفم مرضاة للرب**»[5].

٤ ـ في هذه الآية الكريمة: إثبات الرحمة لله عز وجل

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ١٢١، ١٢٢.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود ٤٧٩ (٢٠٧).

(٥) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣).

لقوله: ﴿ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾. وكون (الرحيم) من أسماء الله لا يخفى.

٥ ـ وفي هذه الآية: إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه المنزلة برحمة الله لقوله: ﴿ مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**» أو قال: «**لن يدخل أحد الجنة بعمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**»[1]. اللهم تغمدنا برحمتك، فالرسول عليه الصلاة والسلام أخبر أن لا أحد يدخل الجنة إلا أن يتغمده الله برحمته، أي يسبغ عليه الرحمة، فحينئذ يدخل.

* * *

قوله تعالى: ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [ويقول: ﴿امتازوا﴾] يعني أن القائل الله عز وجل، وفي الجزم بذلك نظر، فقد يكون الله عز وجل هو الذي يقول للمجرمين: امتازوا، وقد يكون القائل ملك من الملائكة، ولهذا لو قال المؤلف: (ويقال) لكان أولى؛ لأن الجزم بأن القائل هو الله يحتاج إلى توقيف، أي: إلى النص من الشارع، ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ﴿ ٱلْيَوْمَ ﴾ المراد باليوم يوم القيامة، فأل هنا فيه للعهد الذكري ﴿ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ قال المؤلف: [أي: انفردوا عن المؤمنين عند اختلاطهم بهم]، يعني يقال يوم القيامة: امتازوا أيها المجرمون، وتميزوا عن المؤمنين، وانفردوا عنهم؛ لأن طريق المجرمين غيرُ طريق الأبرار، فالأبرار طريقهم إلى الجنة،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٣). ومسلم، كتاب صفات المنافقين ٧٥ (٢٨١٦).

وهؤلاء طريقهم إلى النار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾[1] فيمتاز هؤلاء عن هؤلاء، يقال لهم: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟﴾ على سبيل التوبيخ والإهانة، لأنك إذا رأيت مجتمعاً فقلت مثلاً: أيها الطائفة الفلانية امتازوا وابتعدوا، صار في هذا من إذلالهم وإهانتهم ما هو ظاهر، وقوله: ﴿أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ المجرم فاعل الإجرام، والإجرام هو: الذنب والإثم، أي: أيها الآثمون المذنبون امتازوا عن المؤمنين المطيعين.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن المجرمين يهانون يوم القيامة، بحيث يميزون من المؤمنين بلفظ الطرد ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: انفردوا وأبعدوا.

٢ ـ ومن فوائدها: أن الله تعالى يميز بين المجرمين والأبرار يوم القيامة، كما ميز بينهم في الدنيا، فإن طريق هؤلاء غير طريق هؤلاء.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي لمن قام بعمل أن يذكر الوصف المناسب لهذا العمل، فهنا لما أمروا بالانصراف وطردوا ناسب أن يذكر سبب ذلك، حيث قال: ﴿أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ كأنه قال: (امتازوا لإجرامكم)، ولا شك أن ذكر سبب الحكم يزيل الشبهة واللبس والاعتراض، وينبني على هذه الفائدة:

---

(١) سورة مريم، الآيتان: ٨٥، ٨٦.

٤ ـ أن تعليق الحكم بوصف يدل على أن هذا الوصف هو علة ذلك الحكم، فإذا قلت مثلاً: أكرم المجتهد من الطلبة، فهنا علق الإكرام بالاجتهاد، وهذا يفيد أن علة الإكرام هو الاجتهاد، فهذه القاعدة مفيدة لطالب العلم، وهي أن تعليق الحكم بوصف يدل على عليته، أي: أنه علة ذلك الحكم.

٥ ـ حذفت ياء النداء من قوله: ﴿أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩﴾ فلماذا؟ يمكن أن يقول علماء البلاغة: إنها حذفت من باب الإهانة لهم حتى لا يطيل الكلام؛ لأن طول الكلام مع المخاطب من باب التبسط إليه والانشراح لمخاطبته، فإذا اختصر فهو نوع من الإهانة، وليس هذا على إطلاقه، بل هذا على حسب السياق، قد يكون من الإكرام أن تختصر الكلام، وقد يكون من الإكرام أن تبسط الكلام، لكن المقام في هذا لا يقتضي ذلك، بل يقتضي أن اختصار الكلام وعدم تطويله من باب الإهانة لهم.

* * *

﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [آمركم ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ على لسان رسلي ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ لا تطيعوه ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠﴾ بين العداوة ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ وحِّدوني وأطيعوني ﴿هَـٰذَا صِرَٰطٌ﴾ طريق ﴿مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾].

﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ الاستفهام هنا للتقرير، والغالب أنه إذا وقع بعد الاستفهام ما يدل على النفي فالاستفهام

للتقرير مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾[١] فهذا للتقرير ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ للتقرير ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[٢] للتقرير ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[٣] للتقرير ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[٤] للتقرير، وهكذا كلما جاء ما يدل على النفي بعد أداة الاستفهام فإن الاستفهام يكون فيه غالباً للتقرير، هنا يقرر الله عز وجل أنه عهد إليهم، ولهذا يصح أن تحول ـ في غير القرآن ـ إلى فعل ماض، فيقال: قد عهدت إليكم.

فإذا قال قائل: ما المراد بهذا التقرير؟

فالجواب: المراد به التوبيخ، يعني يقرر الله هذا الأمر توبيخاً لهم، وإقامة للحجة عليهم، إن الله عهد إليهم أن لا يعبدوا الشيطان، والعهد إلى الشيء فسره المؤلف أنه الأمر، فقال: [آمركم] ولكنه في الحقيقة أبلغ من الأمر، لأن العهد إليه كأنه متضمن للعهد والميثاق، وهو كذلك فإن الله أخذ علينا الميثاق أن لا نعبد إلا إياه، وأن لا نعبد الشيطان؛ لأنه عدو، وقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ تشمل الذكر والأنثى، وإن كان الابن يقال في الأصل للذكر، والبنون تقال في الأصل للذكور، لكن إذا كان يراد به القبيلة، أو الجنس فإنه يشمل الذكر والأنثى، حتى إن الفقهاء ـ رحمهم الله ـ قالوا: إذا وقف على بني تميم، شمل ذكورهم

---

(١) سورة الشرح، الآية: ١.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٧١.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٣٦.
(٤) سورة التين، الآية: ٨.

وإناثهم، لكن إذا وقف على بني فلان. أي: واحد من الناس ليس قبيلة، فإنه يختص بالذكور فقط، فبنوا آدم هنا قبيلة بل شامل لكل القبائل فيشمل الذكور والإناث، وقوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ فسر المؤلف العبادة هنا بالطاعة؛ لأن طاعة الغير في محارم الله تعالى نوع من العبادة، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾[1] قال عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم ـ يعني لسنا نصلي، أو نركع، أو نسجد لهم ـ، قال: «**أوليس يحلون ما حرم الله فتحلونه ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟**» قال نعم، قال: «**فتلك عبادتهم**»[2]. وهذا الحديث وإن كان ضعيفاً ولكن الواقع أن طاعة غير الله في مخالفة أمر الله نوع من العبادة؛ لأن العبادة في الأصل هي التذلل والخضوع، وطاعة الأمر تذلل وخضوع، وقوله: ﴿الشَّيْطَانَ﴾ هل المراد بذلك الجنس، أو المراد الشيطان المعين؟ الظاهر أن المراد به الجنس، فيشمل شياطين الإنس، وشياطين الجن، فكما أن للجن شياطين فللإنس شياطين، يوجد من الإنس شياطين يأمرون الناس بالإثم والعدوان وينهونهم عن البر والإحسان، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ ﴿إنه﴾ أي: الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ فكل أحد يأمرك بمخالفة أمر الله سبحانه وتعالى فإنه عدو لك شعر بذلك أم لم يشعر، وعلى

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣١.

(٢) أخرجه الترمذي، تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة (٣٠٩٥).

رأسهم الشيطان الأول الذي يقود كل شيطان ﴿عَدُوٌّ﴾ العدو ضد الولي، والولي من يتولاك ويحوطك ويعتني بك، فالعدو ضده وهو الذي لا يريد لك الخير، وإنما يريد لك الشر، وقوله: ﴿مُّبِينٌ ۝٦٠﴾ قال المؤلف: [بين العداوة] وفسر ﴿مبين﴾ ببين؛ لأنها من (أبان) و(أبان) تأتي بمعنى أظهر، وتأتي بمعنى ظهر، فإن كانت بمعنى أظهر فهي متعدية، وإن كانت بمعنى ظهر فهي لازمة، ولا يمكن أن نقول: إنها من المتعدي، أو اللازم، إلا بقرينة من السياق، فهنا نقول: ﴿مبين﴾ إذا فسرناها بما فسرها المؤلف [بين العداوة] صارت من اللازم، مع أنه يمكن أن نجعلها من المتعدي، ونقول ﴿مبين﴾ مظهر للعداوة؛ لأنه يأمرك بالشر، لكن هذا ضعيف، إذ لو أبان عداوته ما تبعه أحد، وإنما يغر الناس كما قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾[1] إذن فجعل ﴿مبين﴾ هنا من باب اللازم من أبان بمعنى ظهر ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾ ﴿لا تعبدوا الشيطان﴾ ﴿وأن اعبدوني﴾ هذا نفي وإثبات، وهو حقيقة التوحيد ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ﴾ (أن) هنا مصدرية، ويصح أن تكون مفسرة، لأن أعهد متضمنة معنى القول، وإذا سبق (أن) ما يتضمن معنى القول دون حروفه صارت تفسيرية، مثل قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾[2] قوله: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ﴾ أن الله عهد إلينا أن نعبده وحده، أي: تذللوا لي بالطاعة، والمؤلف قال: [وحدوني وأطيعوني] وهذا المعنى

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٢٧.

صحيح، فالعبادة توحيد الله عز وجل بالطاعة، والتذلل له بامتثال أمره، واجتناب نهيه ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ المشار إليه ترك عبادة الشيطان وإفراد الله بالعبادة ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ الصراط فسره المؤلف بالطريق، ولكن الصحيح أنه ليس مطلق الطريق صراطاً، بل الصراط هو الطريق الواسع المتساوي؛ لأنه مأخوذ من الصّرط أو من الزرط، والزرط كما نعلم هو ابتلاع الشيء بسرعة، ولا يكون الطريق طريقاً ذا سرعة إلا إذا كان واسعاً وكان سهلاً، وأما قوله: ﴿مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ فهذا وصف له، والاستقامة تشمل اعتدال السير، وتشمل أيضاً انبساط الأرض، فإذا قدر أن الطريق يذهب يميناً وشمالاً، لم يصح أن نقول: إنه مستقيم، وإذا كان فيه مرتفعات ومنخفضات فليس بمستقيم، لأن بعضه مرتفع وبعضه نازل، فالاستقامة معناها أنه خال من الانحراف يميناً وشمالاً، وخالٍ من الاختلاف في ارتفاعه وانخفاضه وقوله: ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ أي: إلى الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى أضاف الصراط إلى نفسه، وأضاف الصراط إلى خلقه فقال سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فأضاف الصراط إلى الذين أنعم الله عليهم، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1].

فإن قال قائل: كيف نجمع بين الإضافتين؟

فالجواب: نقول: أضاف الله الصراط إلى الذين أنعم الله

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٢ ـ ٥٣.

عليهم؛ لأنهم السالكون له، وأضافه إلى نفسه؛ لأنه هو الذي وضعه لعباده، وهو موصل إليه، كما تقول: هذا طريق مكة، أي: الموصل إلى مكة، وتقول: هذا طريق فلان ـ إذا كان هو الذي وضعه للناس وشقه لهم ـ، أو هو الذي سلكه ومشى عليه.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى يحب الأعذار من نفسه، أي: يحب أن يقيم العذر لنفسه؛ لتقوم الحجة على خلقه لقوله: ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ فإن من عهد إلينا أن لا نعبد الشيطان وأن نعبده وحده، قد أقام علينا الحجة، وأقام العذر لنفسه وهذا كقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[1].

٢ ـ من فوائدها: إثبات رحمة الله عز وجل بالخلق، حيث لم يجعل إخلاصهم له موكولاً إلى عقولهم، بل عهد بذلك إليهم على ألسنة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لأن الله لو جعل الإخلاص موكولاً إلى العقول لاختلفت العقول في ذلك اختلافاً كثيراً؛ لأن الأهواء لا تنضبط، فجعل الله عز وجل ذلك مما تكفل به هو نفسه لعباده، ففيه إثبات رحمة الله عز وجل بهذا العهد الذي عهد به إلى عباده.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي التصفية قبل التحلية؛ أو يقال التخلية قبل التحلية لأنه قال: ﴿لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ هذا تخلية ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ تحلية، يعني نفي وإثبات،

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

وهذا هو التوحيد، فالتوحيد مبني على نفي وإثبات؛ لأن النفي المجرد تعطيل محض وعدم، والإثبات المجرد لا يمنع المشاركة، فلا يتم التوحيد إلا بنفي وإثبات، ولهذا لو قلت: (لا قائم في البيت) فهذا نفي مجرد معناه العدم، وإذا قلت: (زيد قائم في البيت) فهذا إثبات مجرد لا يمنع المشاركة، أي: قد يكون رجل آخر في البيت قائم، فإذا قلت: (لا قائم في البيت إلا زيد) فحينئذ تحقق الانفراد وتحقق التوحيد، وصار لا يوجد قائم في هذا البيت إلا زيد، إذاً التوحيد لابد فيه من هذين الأمرين: النفي، والإثبات، ولكن بماذا يبدأ؟ يبدأ أولاً بالنفي ليرد الإثبات على مكان خال من الشوائب، خالص صالح لاستقرار الإثبات فيه، ولهذا يبدأ بالنفي ثم بالإثبات وهذا في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾[1] فتبرأ أولاً من كل معبود، ثم أثبت العبادة لله وحده الذي فطره.

٤ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن طاعة الشيطان في معصية الله ـ ولا تكون طاعة الشيطان إلا في معصية الله ـ نوع من العبادة لقوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ لأن الطاعة فيها نوع من التذلل، والعبادة هي التذلل، فمن أطاع الشيطان في معصية الله فقد عبده.

٥ ـ ومن فوائدها: أن العبادة لا تختص بالركوع والسجود والذبح والنذر وما أشبه ذلك، بل هي عامة شاملة لكل طاعة يكون فيها كمال التذلل.

---

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب الحذر من طاعة الشيطان، حيث سمى الله تعالى طاعته عبادة، وكل إنسان يحذر من أن يعبد مع الله غيره، ففيه التحذير من طاعة الشيطان في معصية الله عز وجل.

٧ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِىۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ وجوب عبادة الله وحده لقوله: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِىۚ﴾ والعبادة تطلق على معنيين:

أحدهما: التعبد.

الثاني: المتعبد به.

التعبد يعني التذلل لله عز وجل، وهي بهذا المعنى فعل العبد يعني صلاته وزكاته، وقيامه، وحجه، وما أشبه ذلك، وتطلق العبادة على المتعبد به وهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة، القلبية والجوارحية.

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الصراط المستقيم هو التوحيد لقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ ﴿هَٰذَا﴾ أي ترك عبادة الشيطان والالتزام بعبادة الله ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ أي طريق مستقيم لا عوج فيه، وإنما كان كذلك؛ لأنه موصل إلى رضا الله تعالى وجنته، فهو صراط مستقيم.

٩ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الصراط قد يكون مستقيماً وقد يكون معوجاً، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾[1] فكل واحد من

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

البشر له طريق، فإن كان على شرع الله فهو مستقيم، وإن كان على خلافه فهو معوج.

* * *

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ﴿وَلَقَدْ﴾ هذه جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات هي: القسم المقدر؛ لأن اللام موطأة للقسم، واللام، وقد، والتقدير: والله لقد أضل.

فإذا قال قائل: كيف يقسم الله عز وجل وهو الصادق بالقول بلا قسم؟

نقول في الجواب على ذلك وجوه:

الوجه الأول: الإشارة إلى أن هذا أمر هام يحتاج إلى القسم عليه، لأنه لولا أهميته ما أقسم عليه.

الوجه الثاني: أن القرآن نزل باللغة العربية، ومن أساليب اللغة العربية أن الشيء إذا أريد إثباته وتحقيقه فإنه يقسم عليه.

الوجه الثالث: أن المقسم به إذا كان مصرحاً به، فإن الإقسام به يدل على عظمته فإن الله لا يقسم بشيء إلا لعظمة ذلك الشيء، مثل قوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾﴾[1]. وما أشبه ذلك مما أقسم الله به فإنه يدل على عظمة المقسم. ﴿أَضَلَّ مِنكُمْ﴾ بمعنى أضاع وصرف عن الطريق المستقيم، يعني قادكم إلى ضلال ليس فيه هدى ﴿جِبِلًّا﴾، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ:

---

(١) سورة الشمس، الآيتان: ١، ٢.

[جبلاً: خلقاً جمع جبيل كقديم، وفي قراءة جُبُلاً بضم الباء] والقراءة هذه سبعية؛ لأن اصطلاح المؤلف: أنه إذا قال: وفي قراءة، أو قال: مثلاً بضم الباء، فهي سبعية. وإذا قال: وقرىء فهي شاذة، إذاً فيها قراءتان سبعيتان: جُبْلاً، وجُبُلاً، وفيها قراءة ثالثة ما ذكرها المؤلف (جِبِلاً) وفيها قراءة رابعة (جِبِلاً) بدون تشديد اللام، ولكن المؤلف ـ رحمه الله ـ ليس تفسيره جمعاً للقراءات، إنما يذكر ما رأى أن المصلحة تقتضي ذكره، ولكن لا شك أنه لو ذكرها لكان أحسن؛ لأنه أحياناً يذكر قراءات متعددة في صفة الحرف كما ذكر القراءات المتعددة التي تبلغ إلى ست قراءات في مثل ﴿أأنذرتهم﴾ من التسهيل، والتحقيق، والحذف وما أشبه ذلك، ولكن الإنسان بشر، أحياناً يغفل ويهمل ما ينبغي أن يذكر، أو يذكر ما لا يحتاج أن يذكر، ﴿جِبِلًّا﴾ أي: خلقاً كثيراً، ولا يعني ذلك أن الأكثر لم يضل من قبل الشيطان، بل هو أضل أكثر الخلق. لأنه ثبت في **الحديث الصحيح أن الله يوم القيامة يقول: «يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: أخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، فيقول: يا ربي وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين»**، هؤلاء كلهم في النار من بني آدم وواحد في الجنة، فشق ذلك على الصحابة وعظم ذلك وقالوا: أينا ذلك الواحد يا رسول الله؟ قال: «**أبشروا فإنكم في أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج**»[1] وهو كذلك فإن من شاهد الخلق الآن ونحن في جزء يسير من العصور وجد أن

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وترى الناس سكارى﴾ (٤٧٤١).

تسعمائة وتسعة وتسعين كلهم على ضلال، حتى المنتسبون منهم للدين الإسلامي عند طوائف منهم ضلال عظيم يبلغ بهم الكفر، وإن كانوا منتسبين إلى الإسلام: إذاً المراد بالكثير هنا الأكثر، قال: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ الهمزة هنا للاستفهام، والمراد بالاستفهام التوبيخ، يوبخهم على عدم العقل، والفاء هنا عاطفة، والمعطوف عليه: إما ما سبق، وإما جملة مقدرة مناسبة للمقام، رأيان لأهل العلم.

فمنهم من يقول: إن حرف العطف يعطف ما بعده على ما قبله، ولكن في الكلمة تقديم وتأخير بين حرف العطف والهمزة، ولو جعل كل واحد مكانه لكان اللفظ (فألم تكونوا تعقلون).

ومنهم من قال: إن الهمزة في محلها، وأن الفاء عاطفة على مقدر يفهم من المقام، أو من السياق، وهذا قد يكون أقرب إلى القواعد لكنه أصعب، إذ إنك في بعض المواضع لا تستطيع أن تقدر شيئاً، ولا تعلم أي شيء يناسب، وحينئذ يكون الثاني هو الأيسر، والقاعدة عندي فيما إذا اختلف النحويون في مسألة: أن الراجح هو الأيسر، ما لم يلزم منه اختلاف المعنى، بحيث يكون المعنى التابع للأيسر غير صحيح فحينئذ لا نتبع الأيسر؛ لأنه يخل بالمعنى ويؤدي إلى معنى غير صحيح. لكن مادام المعنى مستقيماً على الوجهين، فالأيسر هو الراجح (يسروا ولا تعسروا) ﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ يعني أنه وبخهم على عدم عقلهم، والعقل نوعان: عقل بمعنى الإدراك، وهو الذي يترتب عليه التكليف. وعقل بمعنى التصرف، وهو الذي يترتب عليه المدح، أو الذم،

فالأول هو مناط التكليف وهو الذي يقول فيه الفقهاء من شروط العبادة (العقل) والمراد بالعقل في الآية العقل الثاني قطعاً؛ لأنه لو انتفى عنهم عقل الإدراك لم يكونوا مكلفين ولا يتوجه إليهم باللوم، لكنهم انتفى عنهم عقل التصرف، فلم يحسنوا التصرف، فصاروا عقلاء غير عقلاء، عقلاء باعتبار الإدراك المترتب عليه التكليف، وغير عقلاء باعتبار التصرف المترتب عليه المدح أو الذم، فهم أعطوا ذكاء ولم يعطوا عقلاً، وما أحسن عبارة شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في المتكلمين حيث قال في وصفهم: (إنهم أوتوا ذكاء، وما أوتوا زكاءً، وأوتوا فهوماً، ولم يؤتوا علوماً، وأوتوا سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم، ولا أبصارهم، ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله، وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون)، أوتوا ذكاء وما أوتوا زكاءً ـ نسأل الله العافية ـ فكان ذكاؤهم حجة عليهم، وأوتوا فهوماً عندهم فهم لكنهم ما عندهم علم، والإنسان إذا تكلم بفهمه لا بعلمه ضل وضاع، فلابد من علم تبني عليه عقيدتك وعبادتك. فهؤلاء أوتوا عقولاً تقوم عليهم بها الحجة، ولكنهم حرموا من العقول التي يترتب عليها المدح والذم التي هي الرشد وحسن التصرف، فلم يستعملوا عقولهم التي أنعم بها الله عليهم فيما ينفعهم، والمؤلف ـ رحمه الله ـ يقول [﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ عداوته وإضلاله، أو ما حل بهم من العذاب فتؤمنون] يعني لو أنكم عقلتم عداوته وإضلاله، أو عقلتم ما حل بالمتبعين له من العذاب والنكال لكنتم تخالفونه ولا تعبدونه، ولأمنتم بالله وحده،

ولكن الهوى غطى الهدى كما قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾[1].

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: بيان عداوة الشيطان لبني آدم، حيث أضل منهم جبلاً كثيراً، أي: خلقاً كثيراً عظيماً.

٢ ـ ومنها: التحذير من الشيطان وإغوائه؛ لأنه لا يمكن أن يسعى لهداية بني آدم، ولكنه يسعى لإضلالهم.

٣ ـ ومنها: أن من اتبع الشيطان في إغوائه وإضلاله فهو غير عاقل لقوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

٤ ـ ومنها: أن من ساء تصرفه صح أن ينفى عنه العقل، وإن كان عاقلاً عقلاً ظاهراً، لقوله هنا: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾. وقد مر علينا أن العقل عقلان: عقل هو مناط التكليف وهو عقل الإدراك، وعقل هو مناط المدح والذم، وهو عقل التصرف الذي يكون به الرشد.

٥ ـ ومنها: توبيخ ولوم من تبع الشيطان في إضلاله لكونه غير عاقل، لقوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

* * *

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ قال المؤلف في تقدير الكلام: [ويقال لهم في الآخرة ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾] ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الإشارة هنا إلى قريب؛ لأن إشارة البعيد (تلك) وهنا يقول: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ إشارة إلى قربها منهم، لأنه

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١٧.

يؤتى بها يوم القيامة تقاد بسبعين ألف زمام، كل زمام يقوده سبعون ألف ملك، تقاد ويؤتى بها ويشاهدها الناس ويلحقهم من الرعب العظيم ما لا يقدر الواصفون على وصفه، ويقال لهؤلاء المجرمين: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ وفي آية أخرى قال الله فيها: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[1] كانوا قبل أن يدعوا إليها يقال لهم: ﴿ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ فإذا دعوا إليها، والدع يدل على أنهم يتراجعون على أعقابهم خوفاً منها، ولكنهم يدفعون دفعاً بقوة ـ والعياذ بالله ـ إليها ويقال: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾. والتكذيب عنف في رد الحق، والدع عنف، فصار الجزاء من جنس العمل، أما حين عرضت عليهم وقربت منهم قيل لهم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾. أي: توعدون بها ولكنهم يكذبون كما قال الله تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ فهم توعدوا بها لكنهم كذبوا ـ والعياذ بالله ـ ويوم القيامة يوبخون على هذا التكذيب ويقال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ و﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وهنا إشكال وهو: أنه قيل: إن الوعد في الخير والإيعاد في الشر، وعليه قول الشاعر:

---

(١) سورة الطور، الآيات: ١٣ ـ ١٦.

وإنـــي وإن أوعـــدتـــه أو وعـــدتـــه
لمخلـــف إيعـــادي ومنجـــز مـــوعـــدي

وهنا قال: ﴿تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾؟

فنقول: الأمر ـ كما قال المفسر ـ على حذف معلوم وهو قوله: (بها) أي توعدون بها، لا توعدونها. لو قال: (توعدونها) لصار للإشكال محل؛ لأن الجنة قال الله فيها: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾[1] ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾[2] لكن هؤلاء وعدوا بها، يعني أنه قيل لهم: إنكم سوف تلاقونها، وهذا هو الواقع.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: إثبات نار جهنم، وأنها تشاهد عيناً يوم القيامة، لقوله: ﴿هَٰذِهِۦ﴾ والإشارة تكون إلى مشار إليه محسوس.

٢ ـ ومنها: بيان صفة النار وأنها - والعياذ بالله - كلها ظلمة، وكلها سواد لقوله ﴿جهنم﴾ لأنها من الجهمة، أي: الظلمة والسواد.

٣ ـ ومنها أيضاً: تقريع هؤلاء، وإظهار خطأهم في تكذيبهم لقوله: ﴿ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

٤ ـ ومن فوائد الآية: صدق وعد الله سبحانه وتعالى حيث صدق وعده بما وعد به هؤلاء المكذبين حتى شاهدوا ما وعدوا به عياناً.

* * *

(١) سورة مريم، الآية: ٦١.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

﴿ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

هذا الأمر كوني ـ إن كان من الله ـ وإن كان ممن أمرهم الله أن يقولوا ذلك من الملائكة فهو أيضاً أمر كوني، والمراد به الإهانة والإذلال، وإذ من المعلوم أنهم لن يستطيعوا أن يصلوها، لكن يقال ذلك على سبيل الإهانة والإذلال ﴿ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ أل هنا للعهد الذكري، وقد يكون بالنسبة لمخاطبة هؤلاء الكفار للعهد الحضوري، يعني: هذا اليوم للحاضر اصلوا النار فيه.

ويتردد علينا كثيراً العهد الحضوري، والذكري، والذهني فما هو الفرق بينها؟

العهد الحضوري ما كان معهوداً لحضوره، والذكري ما كان معهوداً لذكره، والذهني ما كان معهوداً في الأذهان.

مثال العهد الذهني: إذا قلنا: اذهب إلى القاضي، وأنت مثلاً في بلد، فتذهب إلى قاضي البلد نفسه؛ لأن هذا معروف في الذهن.

مثال العهد الحضوري إذا قلت: اليوم نكرمك، كقوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾[1].

ومثال العهد الذكري قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴿١٦﴾ ﴾[2] يعني الرسول المذكور وليس رسولاً آخر.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة المزمل، الآيتان: ١٥، ١٦.

﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (ما) مصدرية، أي: بكونكم تكفرون، والباء للسببية، أي: بسبب، وقوله: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ أي تكفرون به بالدنيا، فقد كفروا بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين، وبكل ما أخبر الله به، ولهذا لم يقوموا بطاعته؛ لأنه ليس عندهم إيمان، وإنما يقال لهم ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ لإقامة الحجة عليهم، وبيان أنهم لم يظلموا، ولهذا ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ ﴾[1].

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: بيان أن هؤلاء المكذبين يأمرون أمر إهانة وإذلال ليصلوا النار لقوله: ﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ ﴾.

٢ ـ ومن فوائدها: إثبات الأسباب لقوله: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ وإثبات الأسباب أمر معلوم بالشرع والعقل والحس، ولا ينكر إثبات الأسباب إلا جاهل بحقيقة الواقع، فإنه لا أحد ينكر أنك إذا رميت الزجاجة بحجر انكسرت به، وإذا ألقيت الخرق في النار احترق بها، ولا ينكر هذا إلا شخص مكابر في الواقع، ومع هذا فالأسباب لا تفعل بذاتها، ولا تؤثر بذاتها بل بخلق الله سبحانه وتعالى التأثير فيها، وحينئذ لا يكون في إثبات الأسباب شيء من الشرك، خلافاً لمن زعم أن إثبات تأثير الأسباب نوع من الشرك؛ لأننا نقول: إن هذه الأسباب إنما تؤثر

---

(١) سورة الملك، الآيتان: ٨، ٩.

بخلق الله عز وجل التأثير فيها، ولهذا إذا شاء الله أن لا تؤثر لم تؤثر، فإن النار طبيعتها الإحراق ومع ذلك لم تحرق إبراهيم عليه الصلاة والسلام بل كانت برداً وسلاماً عليه، لأن الله قال: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾[1].

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: كمال عدل الله سبحانه وتعالى لقوله: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: فلم تظلموا، بل أنتم الذين فعلتم ذلك بأنفسكم.

* * *

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني يوم القيامة قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: الكفار لقولهم: والله ربنا ما كنا مشركين ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ وغيرها ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ فكل عضو ينطق بما صدر منه] ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الختم على الشيء بمعنى إغلاقه وعدم الوصول إليه، ومنه ختمت الكيس إذا أحكمت شده، وختمت عليه بالشمع ونحوه كما يقولون، ومعنى ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي نسدها فلا تتكلم، وذلك أن المشركين يوم القيامة إذا رأوا الموحدين قد نجوا، تكلموا وتبرؤا من الشرك، وقالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، أي: أقررنا بأننا غير مشركين لعلنا ننجوا كما نجا أهل التوحيد، وحينئذ يختم على أفواههم؛ لأن أفواههم صارت تتكلم بالكذب فيختم على أفواههم، وتنطق الجوارح بما عملت،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

والجلود بما مست، فإن الجلد يمس المحرمات كمس المرأة لشهوة مثلاً فتشهد عليهم الجوارح؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ نفس اليد تتكلم تقول: عملت كذا، عملت كذا، ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ نفس الأرجل تقول: أشهد أنه عمل كذا وكذا، وتأمل الفرق بين اليد والرجل، في اليد قال الله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ والأرجل قال: ﴿وَتَشْهَدُ﴾ قال بعض العلماء: لأن اليد تخبر عما فعلت، والرجل تخبر عما فعل غيرها؛ لأن الأصل في المباشرة اليد، ولهذا دائماً يعلق الكسب باليد فيقال: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[1] أو ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[2] فلهذا كانت الأيدي مباشرة، والأرجل شاهدة؛ لأن الشاهد هو الذي يخبر عما فعل غيره، والفاعل هو الذي يخبر عما فعله هو بنفسه ـ هكذا قال بعض أهل العلم ـ وهو فرق لا بأس به، مع أن الإنسان قد يشهد على نفسه كقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾[3] فإقرار الإنسان على نفسه شهادة عليه، لكن الفرق الذي أشار إليه بعض العلماء وذكرناه آنفاً فرق لا بأس به، قول المؤلف: [وتشهد أرجلهم وغيرها] قوله: (وغيرها) لا يعني ذلك أنه يستدرك على القرآن، لكنه ينبه على موضع آخر من القرآن، ففي آية أخرى بين الله تعالى أنه تشهد عليهم الجلود ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الروم، الآية: ٤١.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٣٥.

وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾[1] فالسمع والبصر والجلود لم تذكر هنا في آية سورة يس، وإنما ذكرت الأيدي والأرجل، ولهذا قال المؤلف (وغيرها) إشارة إلى أن هناك أعضاء تشهد غير الأيدي والأرجل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ فالسمع بما سمع، والبصر بما رأى، والجلد بما مس ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ﴾ ولم يقل: (وقالوا لأبصارهم، وسمعهم: لم شهدتم) لأن عذاب الجلد عام يشمل الجسد كله، لكن عذاب السمع والبصر خاص بالسمع والبصر، ولهذا قالوا لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ﴾ لأن العذاب سيكون على الجلود، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ﴾[2] والحاصل أنه يشهد غير الأيدي والأرجل فيكون الشهداء ستة: الأيدي، والأرجل، والسمع، والبصر، والجلود، والألسن، فقد ذكر الله تعالى في سورة النور أن الألسن تشهد ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[3] فاللسان أيضاً يشهد عليهم، لأن اللسان هو أعظم الجوارح خطراً؛ **لقول النبي ﷺ لمعاذ: «ألا أدلك على ملاك ذلك كله؟»** قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه، وقال: «كف

---

(١) سورة فصلت، الآيات: ٢٠ ـ ٢٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٦.

(٣) سورة النور، الآية: ٢٤.

عليك هذا»، قلت: يا رسول الله، إنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم**» أو قال: «**على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»[1]، وكل صباح تكفر الجوارح اللسان يعني أنها تجعل الأمر مناطاً به، ولهذا قال في سورة النور: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ ونص على الألسن في سورة النور لأنه ذكر فيها ما يتعلق بذلك من الأمور العظيمة كالقذف مثلاً، وأعظمه قذف عائشة ـ رضي الله عنها ـ ولهذا ذكرت في سورة النور الألسن؛ لأن القذف قول، فقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ تنازعه عاملان الأول: (وتكلم) والثاني: (تشهد) والتنازع أن يتوارد عاملان على معمول واحد، مثل أن تقول: أكرمت ورأيت زيداً، فإن أكرمت ورأيت عاملان على معمول واحد وهو: زيد، أما أيهما يعمل هل هو الأول أو الثاني؟ فالعلماء اختلفوا في ذلك: يقول ابن مالك:

والثاني أولى عند أهل البصرة ... واختار عكساً غيرهم ذا أصبح

فالعامل الثاني هو الذي يعمل عند البصريين، وعند الكوفيين الذي يعمل هو الأول.

﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ولم يقل: (بما كانوا يعملون)، لأن العمل قد لا يكون من كسب الإنسان، فقد يكون العمل خطأ فلا يؤاخذ به الإنسان، فلا يكون من كسبه، بل الذي يكون من

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦) وقال: «حديث حسن صحيح».

كسبه هو العمل الذي يترتب عليه الثواب أو العقاب، ولهذا قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[1] ولم يقل: (لها ما عملت، وعليها ما عملت) فالكسب أخص من العمل؛ لأنه لا يلزم من كل عمل أن يكون كسباً، فقد يكون وقع عن سهو، أو جهل فلا يؤاخذ به الإنسان، وقد يكون عن غير قصد فلا يؤاخذ به الإنسان، لكن مع ذلك أحياناً يطلق العمل ويراد به العمل الذي هو كسب مثل قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾[2] يقول المؤلف: [﴿بما كانوا يكسبون﴾ فكل عضو ينطق بما صدر منه] فاليد تنطق بما بطشت، والرجل بما مشت، والعين بما رأت، والأذن بما سمعت، والجلد بما مس، كما تقدم.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى يختم على أفواه المكذبين يوم القيامة فلا يتكلمون، وقد سبق لنا الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى عنهم: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾[3] وهو أن للقيامة أحوالاً: حال يكذبون، وحال يقرون، لكن بعد أن تشهد عليهم أيديهم وألسنتهم وأرجلهم.

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

لقوله: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ فإنه خلاف العادة أن تكلم الأيدي والأرجل، ولكن الله على كل شيء قدير، ولهذا لما ذكر الله عنهم أنهم قالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان يمكن أن يشهد بعضه على بعض؛ لأن هذا الرجل الواحد تشهد عليه أعضاؤه بما عمل، فهل يتفرع على هذا: أن الإنسان في الدنيا يمكن أن يشهد على نفسه؟ نعم يمكن، وشهادته على نفسه هو إقراره على نفسه.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن العبرة في العمل بما كان فيه من كسب، لا مجرد العمل لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ وذكرنا في التفسير الفرق بين قوله: ﴿**بما كانوا يعملون**﴾[1] وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ لأن مجرد العمل قد لا يكون كسباً كما لو صدر من جاهل، أو صدر من ساهٍ، أو نائم، أو ما أشبه ذلك.

* * *

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ لأعميناهم طمساً ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟﴾ ابتدروا ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ الطريق ذاهبين كعادتهم ﴿فَأَنَّىٰ﴾ فكيف ﴿يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ حينئذ أي: لا يبصرون].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ (لو) حرف امتناع لامتناع،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.

والذي امتنع الطمس لامتناع المشيئة، فإذاً هي حرف امتناع لامتناع. لو جاء زيد لأكرمتك، امتنع المجيء والإكرام، و(لولا) حرف امتناع لوجود و(لما) حرف وجود لوجود، فهذه الأدوات الثلاث تنازعت الوجود والعدم (لو جاء زيد لأكرمتك) امتناع الامتناع، (لولا زيد لأكرمتك) امتناع لوجود فإن شئت قلت (لولا مجيء زيد لأكرمتك) لكي ينطبق المثلان هنا ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ ﴾ (نشاء) الضمير ضمير جمع، يعني لو نشاء نحن، وهذا من المشتبه؛ لأن النصراني ادعى تعدد الآلهة لمثل هذا الضمير، قال: فالله عز وجل يعبر عن نفسه بنحن و(نشاء) (نريد) وما أشبه ذلك إذاً فهو متعدد، ولكننا نرد عليه بأن الجمع هنا للتعظيم وليس للتعدد، لأنه عميت عينه وعميت بصيرته عن الآيات الصريحة المحكمة الدالة على أن الله إله واحد ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[1] ولكن كما قال الله عز وجل: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾[2] إذاً الضمير (نشاء) وهو ضمير جمع للتعظيم وليس للجمع قطعاً؛ لأن الله واحد ﴿ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ الطمس أبلغ من الإعماء؛ لأن الطمس إزالة العين مرة واحدة ليس لها أثر، والعمى يكون مع بقاء العين، لكن قد تكون قائمة في صورتها وقد تختلف، المهم أن الطمس إزالة العين ومعالمها نهائياً، لو شاء الله تعالى لفعل ذلك بعد وجود العين، لأن الله قال: ﴿ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ والله عز وجل على كل شيء قدير،

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.

فكما كان قادراً على شق العين فهو قادر على طمس ذلك الشق، وإذا كان البشر ربما يخيط الشق حتى يتلاءم فما بالك بالخالق عز وجل، الذي يقول للشيء: (كن) فيكون ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ يعني طمس على أعينهم فصاروا يتسابقون لعلهم يدركون الطريق الذي يوصلهم إلى مقصودهم، وكأنك تتصورهم الآن يتنافرون تنافر الحمر لعلهم يهتدون إلى الطريق، وهل يمكن للأعمى أن يدل الطريق من حيث الدلالة البصرية؟! لا يمكن، ولهذا قال: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ يعني كيف يبصرون الطريق وقد طمس الله أعينهم؟! والمقصود بهذه الآية أن الله سبحانه وتعالى طمس قلوب هؤلاء، ولو شاء لطمس أعينهم، فصار الطمس حسيًّا معلوماً، وكما أن المطموسة عينه لا يبصر، فكذلك المطموسة بصيرته لا يبصر الحق، كيف يمكن لإنسان طمس الله بصيرته أن يبصر الحق ويهتدي؟ هذا شيء متعذر كما أن من طمس الله بصره لا يمكن أن يهتدي إلى الطريق.

الفوائد:

١ ـ في هذه الآية الكريمة إثبات مشيئة الله عز وجل لقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ ولكن كل شيء معلق بمشيئة الله فإنه مقرون بالحكمة؛ لأن الله عز وجل لا يشاء مشيئة مجردة بل مشيئته تابعة لحكمته، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾[1]. فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ يدل على أن مشيئته مقرونة بالعلم والحكمة.

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة أيضاً: بين تمام قدرة الله، لقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ فهذه الأعين مبصرة لو شاء الله لطمسها وصارت كأن لم تكن.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: ضرب المثل عن الأشياء المعقولة بالأشياء المحسوسة، فإن هؤلاء لو طمست أعينهم ما استطاعوا أن يهتدوا إلى السبيل، فكذلك إذا طمس الله بصيرة القلب ـ والعياذ بالله ـ لم يستطع الوصول إلى الحق، ولم يعرف الحق.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: كمال بلاغة القرآن؛ لأن الله لو شاء لقال: (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فما استطاعوا أن يذهبوا ولا يرجعوا)، لكن أتى به على هذا السياق الذي فيه توسع؛ لأنه أبلغ في التأثير، ولأنه يكون له نسق جيد تهفو إليه الأسماع وتلتذ بسماعه.

* * *

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ في الآية السابقة ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ انتفاء الدلالة، وفي الآية انتفاء السير. ﴿لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ قيل: المراد بالمسخ ـ كما قال المؤلف ـ [قردة وخنازير، أو حجارة].

وقيل: المراد بالمسخ الإبقاء على ما هم عليه، يعني يمسخون على مكانتهم فلا يستطيعون التحرك وهو آدمي، لكنه ممسوخ لا يستطيع الحراك، وأيًّا كان فالله على كل شيء قدير، فقد قلب الله تعالى بني إسرائيل قردة وخنازير، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ

ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾[١] ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ﴾[٢] والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، والنبي عليه الصلاة والسلام قال: «**أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار، أو يجعل صورته صورة حمار**»[٣]، والأمر هين على الله سبحانه وتعالى يقول: (كن) فيكون، فيقول: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَـٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: حولنا صورهم إلى صور أخرى من القردة والخنازير، أو جعلناهم حجارة، أو أننا أبقيناهم ماكثين كالجماد. المهم أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لمسخهم وأبقاهم في مكانهم لا يتحركون، ولهذا قال: ﴿فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي فما استطاعوا أن يمضوا؛ لأنهم مسخوا على مكانتهم وبقوا ثابتين، ولا يستطيعون أن يرجعوا، والذي لا يستطيع أن يمضي ولا يرجع ثابت، كالعمود لا يتقدم أماماً ولا يتأخر خلفاً، لو شاء الله عز وجل لمسخهم على هذا حتى ظهر أمرهم محسوساً، أما بالنسبة للخير والتقدم إليه فهم لم يتقدموا للخير، ولكن تأخروا عنه إلى الشر، ولهذا كان سيرهم الذي يسيرون عليه في العمل عكس الاتجاه الصحيح، بل مضاد له تماماً.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب إثم من رفع رأسه قبل الإمام (٦٩١) ومسلم، كتاب الصلاة، باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما ١١٤ (٤٢٧).

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: إثبات مشيئة الله عز وجل لقوله: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ ﴾ وقد سبق الكلام عن المشيئة وأنها مقرونة بالحكمة في فوائد الآية السابقة.

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: كمال قدرة الله عز وجل.

٣ ـ ومن فوائدها أيضاً: أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لأثبتهم في مكانهم بحيث لا يستطيعون الذهاب ولا الرجوع ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

* * *

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

هذه الجملة شرطية، فعل الشرط قوله ﴿ نُّعَمِّرْهُ ﴾ وجوابه: ﴿ نُنَكِّسْهُ ﴾ يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ ﴾ أي: نجعل عمره طويلاً، ولهذا قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [بإطالة أجله (نُنَكِّسْهُ) وفي قراءة بالتشديد من التنكيس]، القراءة التي جعلها المؤلف أصلاً (نُنْكِسْهُ) من الإنكاس، والقراءة التي في المصحف ﴿ نُنَكِّسْهُ ﴾ من التنكيس، والإنكاس والتنكيس بمعنى الرد من حال كاملة إلى حال ناقصة، وقوله: ﴿ نُنَكِّسْهُ ﴾ أو ﴿ نُنْكِسْهُ ﴾ ﴿ فِى ٱلْخَلْقِ ﴾ يقول المؤلف في تفسيرها: [أي: خلقه، فيكون بعد قوته وشبابه ضعيفاً وهرماً]. فكلما طال العمر بالإنسان فإنه يرجع للوراء، ليس في القوة البدنية فحسب، بل في القوة العقلية، والقوة البدنية، والقوة الفكرية، فيضعف ويعود إلى أرذل العمر، كما قال الله عز وجل، ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ

شَيْـًٔا ﴾[١] ، وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾[٢] والغرض من هذا التنبيه ـ وإن كان أمراً واقعاً وكل يعرفه ـ الغرض منه أن يبادر الإنسان عمره مادام في قوته وشبابه، لأنه سيأتيه اليوم الذي لا يكون عنده تلك القدرة البدنية، ولا القدرة الفكرية، ويكون تفكيره محدوداً كتفكير الصبي لا يفكر إلا بما يحيط به جدران بيته، ويكون عقله كذلك محدوداً لا يستطيع أن ينظر ويعقل، ويفكر في الأمور، ويوازن بينها ويحكم عليها، كذلك أيضاً يكون حفظه للأشياء محدوداً، فيمر به الشيء في الصباح ولا يستطيع التعبير عنه في المساء، وكل هذا أمر واقع وظاهر، بل من الناس من يسلب عقله نهائياً، وربما يصل إلى حد يشبه الجنون فيؤذي أهله بالصراخ والعويل والأناشيد وما أشبه ذلك حسب ما كان عليه حين الصغر، حتى قيل: إن الإنسان إذا كان جمالاً مثلاً، وكان ينشد الأشعار تجده إذا كبر وهرم يبدأ ينشد هذه الأشعار فكل هذا أمر لابد منه، ولهذا قال الشاعر:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة لذاته بادكار الموت والهرم

فكل إنسان عاقل إذا تذكر أن مآله إما موت عاجل، وإما هرم، فإنه لا يطيب له العيش، ولكن العاقل ليس معنى أنه لا يطيب له العيش أنه يبقى في ندم وفي حزن، بل يسعى ويستعد لهذه الحال التي لابد منها، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾. قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [إن القادر على ذلك المعلوم عندهم قادر على البعث فيؤمنون به،

---

(١) سورة النحل، الآية: ٧٠.

(٢) سورة الروم، الآية: ٥٤.

وفي قراءة بالتاء] أي: (أفلا تعقلون)، وهي سبعية كما تقدم من اصطلاح المؤلف. هكذا قال المؤلف رحمه الله: إن المراد الاستدلال بتغيير حال الإنسان إلى هذه الحالة الدانية على أن الله تعالى قادر على أن يبعثهم، وهذا الذي قاله ممكن، لكن أحسن منه أن يقال: إن معنى قوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أفلا يكون لكم عقل فتبادروا أعماركم قبل أن تصلوا إلى هذه الحال؟ تبادروها بالإيمان والعمل الصالح ما استطعتم، حتى إذا وصلتم إلى هذه الحالة، وإذا أنتم على أتم استعداد لها، وغالباً أن الإنسان الذي يمضي وقته بطاعة الله سبحانه وتعالى إذا هرم تجده لا يهتم إلا بالطاعات، كثير من المسلمين إذا هرموا تجده يقول: أين الماء؟ أريد أن أتوضأ، أو تجده يصلي دائماً، أو تجده يقرأ القرآن دائماً، أو يذكر الله تعالى دائماً، وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى أن الإنسان يهرم على الحال التي يكون عليها، وعكس ذلك سيكون بالعكس من كان في حال قوته وشبابه على غير هذا العمل الصالح سوف يكون هذيانه إذا كبر بهذا العمل السيء، نسأل الله العافية والسلامة.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: بيان حال الإنسان وأنه ينتقل من طور إلى طور، وقد بين الله عز وجل ذلك في قوله: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾[1]. لكن هذه

(١) سورة الروم، الآية: ٥٤.

الآية فيها دليل على أن الإنسان إذا تقادم في السن فإنه يرجع إلى الوراء لقوله: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾.

٢ ـ يتفرع على الفائدة السابقة: أنه ينبغي للإنسان أن يغتنم فرص العمر وقوته وشبابه قبل أن ينكس في الخلق.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: التنديد بهؤلاء المكذبين؛ لقوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: الحث على التعقل والتفكر وحسن التصرف حتى يكون الإنسان من العقلاء.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن العقل غير الذكاء؛ لأن الإنسان قد يكون ذكيًّا ولكنه ليس بعاقل؛ لقوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ومن المعلوم أن هؤلاء عندهم من عقل الإدراك والذكاء الشيء الكثير.

* * *

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ في تفسيره: [﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي: النبي ﴿الشِّعْرَ﴾ رد لقولهم: إنما أتى به من القرآن شعراً ﴿وَمَا يَنبَغِي﴾ يسهل ﴿له﴾ الشعر ﴿إِنْ هُوَ﴾ ليس الذي أتى به ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة ﴿وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ مظهر للأحكام وغيرها] قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ﴾ ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ (نا) تعود إلى الله سبحانه وتعالى، وأما الضمير (الهاء) فيعود إلى النبي ﷺ.

فإذا قال قائل: أين مرجع الضمير لأن كل الآيات السابقة ليس فيها ذكر للنبي ﷺ؟

قلنا: إن الضمير يعلم مرجعه من السياق السابق، أو السياق اللاحق، وهذا يشبه العهد الذكري في (أل)، أو من الفهم بحيث يكون الأمر مفهوماً عند المخاطب، وهذا كالعهد الذهني، وهنا يعلم مرجع الضمير في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ ومعلوم أن الذي جاء بهذا الذكر والقرآن المبين هو محمد ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: ما علمنا النبي ﷺ الشعر؛ لأن الشعر لو علمه الله تعالى النبي ﷺ لكان في ذلك حجة للمبطلين المكذبين، ولقالوا: إنما هذا القرآن من جملة الشعر الذي علم إياه، ولهذا لم يعلم الشعر، ولم يعلم الكتابة كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾[1] فالنبي ﷺ لم يقل شعراً أبداً، وإذا قدر أن جرى على لسانه كلام موزون وزن الشعر فإنه ليس عن قصد وإرادة، وإنما جاء عفواً، والذي يأتي عفواً ليس مقصوداً فلا يكون معلوماً مثل قوله ﷺ:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب»[2]

فإن هذا رجز، ولكنه ليس عن قصد، فلا يكون ذلك شعراً، أما الشعر فإنه الكلام الموزون المقفى الذي يأخذ باللب، وسمي شعراً لأنه يأخذ بالشعور، ولهذا تجد أن النظم يأخذ باللب أكثر من أن يأخذ النثر، فربما تسمع خطبة بليغة جيدة جداً، وتجد ما

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب من قاد دابة غيره (٢٨٦٤). ومسلم، كتاب الجهاد، باب غزوة حنين (١٧٧٦).

يماثلها في المعاني بالنظم ولكنك ترى أن تأثير النظم أشد، وأقرب للشعور أكثر، ولهذا سمي شعراً، وبه نعرف أن ما يسمى الآن بالشعر المنثور ليس بشعر؛ لأنه لا يأخذ بالمشاعر، فهو ليس بشعر وليس بنثر، وإنما هو كالمنافق لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، لا يطرب إليه من يطربون إلى النثر والخطب، ولا يطرب إليه من يطربون إلى الشعر والقصائد، فهو في الحقيقة ليس بشيء، ولكن لكل امرىء من دهره ما تعود، والذين أحدثوه يطربون له، ويرون أنه أشد شاعرية من شعر امرىء القيس. ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ قال المؤلف: [ردّ لقولهم: (إن ما أتى به من القرآن شعر] والمكذبون والذين يقومون ضد ـ أي إنسان ـ لا بد أن يصفوا قوله بالمعائب لأجل أن ينفر الناس عنه، ولكن كما قال الله عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾[1] وقال الله سبحانه وتعالى في سورة الذاريات: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾[2] كل الرسل وصفوا بهذين الوصفين من أعدائهم: السحر، والجنون، ومحمد عليه أفضل الصلاة والسلام أيضاً وصف بذلك، وصفوه بأنه ساحر، وشاعر، ومجنون، وكاهن، وكذاب، كل ذلك من أجل أن ينفروا الناس عنه، ولكن هل حصل الأمر وهل نفر الناس؟ أبداً، لأن الحق ـ والحمد لله ـ سيعلو مهما قوبل به من صدمات فإن العاقبة له.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٢.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٢.

فإذا قال قائل: هذا الوصف للرسول عليه الصلاة والسلام هل يتعدى إلى أتباعه؟

فالجواب: نعم. كل ما وصفت به الرسل يوصف بمثله أتباعهم، ألم تعلموا أن المجرمين إذا رأوا المؤمنين يقولون: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢﴾[1] يصفونهم بالضلال، وفي عصرنا يصفونهم بالرجعية والتأخر وما أشبه ذلك من الكلمات التي ينفرون الناس بها عن الحق، وأهل البدع يصفون أهل السنة والجماعة بألقاب السوء يقولون: إنهم نوابت، غثاء، حشوية، مجسمة، مشبهة، وما أشبه ذلك، كل هذا من أجل التنفير عمّا هم عليه، ولكن الحمد لله أن الأمر يكون ثواباً لهؤلاء الذين يوصفون بهذه العيوب، وامتحاناً لهم بالصبر على ما هم عليه من الحق، ثم العاقبة تكون لهم، ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ الشعر قال المؤلف: [أي: ما يسهل له الشعر]. بل هو صعب عليه إنشاءً، وصعب عليه إنشاداً، فهو عليه الصلاة والسلام إذا أنشد شعر غيره ينشده أحياناً على غير الوزن المعروف، لأنه ليس له عناية بالشعر أو تحفظ له، أما بنفسه فلا ينشد.

ولكن الأولى أن نفسر ﴿وَمَا يَنۢبَغِي﴾ أي: ما يمكن ولا يصلح له، ولا يليق به، لأنه كل ما جاءت في القرآن ﴿وَمَا يَنۢبَغِي﴾ فالمراد بها الممتنع غاية الامتناع، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾[2] أي: مستحيل غاية الاستحال، ومثل قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ يعني هذا شيء

---

(١) سورة المطففين، الآية: ٣٢.

(٢) سورة مريم، الآية: ٩٢.

مستحيل أن تدرك القمر هذا حسب العادة فيما يتعلق بالشمس ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ أي ما يمكن ولا يليق به عليه الصلاة والسلام أن يكون شاعراً. فلا يصح ولا يمكن أن يُعلم أو يتعلم الشعر؛ لأن تعلمه الشعر يوجب احتجاجاً من المبطلين كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾[1] فلو تعلم النبي ﷺ الشعر لقالوا: إن هذا القرآن شعر مما تعلمه.

سؤال[2]: لماذا وصف العرب الجاهليون القرآن بالشعر مع أن الفرق بين الشعر والنثر واضح لدى عامتهم فضلاً عن خواصهم؟

الجواب: المبطل يموه بكل شيء، وإذا كثرت الدعايات والكلام والقول فقد ينقلب الأمر، فهم يعرفون أن هذا ليس بشعر، لكن قد يقولون: هذا شعر على وجه جديد وما أشبه ذلك، يروجون لدعايتهم حتى يشتبه الأمر.

سؤال: يقول من يروج للشعر الحديث: إن الشعر كان عند العرب بهذا الشكل بدليل أنهم نعتوا القرآن بالشعر وليس موزوناً ولا مقفى؟

الجواب: هذا من باب الترويج، ولهذا لا تستطيع أن تأتي بقصيدة واحدة أبداً على مثل شعرهم هذا.

كما أنه لو كان يكتب لقالوا إن هذا شيء مما كتبه. ﴿إِنْ هُوَ

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

(٢) هذا السؤال والذي يليه طرحا على فضيلة الشيخ ـ رحمه الله ـ أثناء الدرس فأثبتهما مع جوابهما، والله الموفق.

﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ قال المؤلف: [ليس الذي أتى به إلا ذكر] فأفادنا بأن (إن) هنا نافية، أي: ما هو إلا ذكر، و(إِنْ) تأتي لعدة معانٍ: تأتي زائدة، وشرطية، ونافية، ومخففة من الثقيلة. والذي يعين المعاني المتعددة في الكلمة الواحدة هو السياق، وهذه قاعدة في كل كلمة ذات معاني متعددة أنه يعينها السياق، وقرينة الحال، وهي هنا نافية، قال ﴿هو﴾ الضمير يعود على المصدر المفهوم من ﴿علمناه﴾، وكون مرجع الضمير مصدراً معلوماً من الفعل السابق أمر لا يستغرب، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1] ﴿هو﴾ أي: العدل المفهوم من كلمة: (اعدلوا) وهنا ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ أي: ما الذي علمناه إلا ذكر وقرآن مبين. قوله: ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ قال المؤلف: [عظة] يعني موعظة يتذكر بها من تذكر، والذي يتذكر بهذا القرآن بينه الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[2] وهذا باعتبار الاستعداد والقبول، وجاء في ايات أخرى ما يدل على أن كل المتقين يتعظون بهذا القرآن، فيكون فيه بيان للذين يتعظون به من حيث السلوك، ففي سورة «ق» بيان الذين يتعظون به من حيث القبول والاستعداد بالتذكر، وفي الآيات الأخرى التي تربط التذكر بالقرآن بالإيمان والتقوى وما أشبه ذلك دليل على من يتعظ به من حيث السلوك والعمل،

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨.

(٢) سورة ق، الآية: ٣٧.

وكلما ازداد الإنسان عملاً بالقرآن ازداد تذكراً به، وهذا الذي ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ في معنى الذكر هو أحد المعاني؛ لأن الذكر الذي وصف به القرآن يتضمن عدة معان:

المعنى الأول: ما ذكره المؤلف وهو العظة والتذكر به.

المعنى الثاني: إنه ذكر يذكر به الله، وهو أشرف أنواع الذكر، لأن القرآن كلام الله عز وجل، فبمجرد ما تتلوه وأنت تشعر أنه كلام الله سوف تذكر عظمته عز وجل؛ ولأن القرآن يشتمل على أخبار هي أصدق الأخبار وأنفعها للقلوب؛ ولأنه يشتمل على قصص هي أحسن القصص وأجملها وأتمها؛ ولأنه يشتمل على أحكام من لدن حكيم خبير، هي أعدل الأحكام وأقومها لمصالح العباد؛ ولأنه يشتمل على أوصاف الله تعالى وأسمائه التي هي أفضل الأسماء وأشرف الأوصاف، وكل هذا ذكر، فالقرآن نفسه ذكر لله عز وجل؛ لأنه يشتمل على كل هذه المعاني التي بينها الله تعالى في كتابه.

المعنى الثالث: أنه رفعة وشرف لمن يقوم به ويعمل به لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾[1] والذكر بمعنى الرفعة والشرف موجود في القرآن كما في الآية السابقة، وكما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤﴾[2] أي: ذكرك بالشرف والتبجيل والتعظيم. ولا شك أن من تمسك بالقرآن فإن له الشرف والسيادة على جميع الخلق، ولهذا فإني أحثكم على أن تمسكوا

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الشرح، الآية: ٤.

بهذا القرآن العظيم، وإذا تمسكتم به عقيدة، وعملاً، وهدياً فستكون العاقبة لكم، ولا تظنوا أنكم قليلون ـ لو كنتم قليلين ـ فإن الاهتداء بالقرآن يستلزم أن ينجذب الناس للمهتدي به حتى يكثروا شيئاً فشيئاً، كالحجر تلقيه في اليم ثم تتسع الدائرة حتى يشمل اليم كله، فالحاصل أن الإنسان إذا تمسك بهذا القرآن الكريم فسوف يكون له الشرف والسيادة والظهور على جميع الخلق، قال: ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ قرآن يحتمل أن يكون معنى مفعول، وأن يكون بمعنى فاعل؛ لأن قرآن مصدر مثل: الشكران، والغفران، والنكران، وما أشبهه، والمصدر يأتي بمعنى اسم الفاعل، ويأتي بمعنى اسم المفعول، وعلى هذا فهو قارىء ومقروء، أما كونه قارئاً فلأنه من القر يعني الجمع فهو جامع للأحكام، والأخلاق، والآداب الموجودة في الكتب السابقة قبله، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[1] وجامع أيضاً لكل ما تقوم به أمور الدنيا وأمور الآخرة، وهو أيضاً مقروء أي: متلو؛ لأنه يتلى، والقراءة بمعنى التلاوة. ﴿مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [مظهر للأحكام وغيرها] فـ ﴿مبين﴾ هنا من (أبان) بمعنى أظهر، وقد سبق لنا مراراً أن (أبان) يكون لازماً، ويكون متعدياً، يكون لازماً بمعنى ظهر، وهو كثير في القرآن مثل: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[2] أي: بين ظاهر،

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

وتأتي مبين من (أبان) بمعنى أظهر، أي: المتعدي كما في الآية: ﴿مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ أي مظهر، مظهر للأحكام وغير الأحكام، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[1] فما من شيء يحتاج الناس إليه إلا وجد في القرآن، لكن وجوده في القرآن: إما أن يكون على وجه صريح، أو على وجه ظاهر، أو على وجه الإيماء والإشارة، أو على وجه الشمول والعموم، أو على وجه اللزوم، فالمهم أن القرآن مبين لكل شيء، تارة يذكر الدليل على المسألة، وتارة يذكر التوجيه إلى الدليل فمثلاً: هناك مسائل لا توجد في القرآن وهي من أهم أحكام الإسلام كعدد الركعات في الصلوات، وتقدير أنصبة الزكاة، وما يجب فيها، وما أشبهها لكن في القرآن ما يشير إليه مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[2] فهذه الآية إذا وجهتها إلى السنة شملت جميع السنة، وشرعنا كله لا يعدو الكتاب والسنة، إذاً فالقرآن مبين لكل شيء، وهو أيضاً مبين لكل ما سبقنا من الحوادث التي يكون في بيانها مصلحة كقصص الأنبياء، وقصص الأولياء، وقصص المكذبين للرسل وغير ذلك، فكل ما سبق مما فيه مصلحة لنا فهو مذكور، أما ما ليس فيه مصلحة فإنه لا حاجة إلى ذكره، وقد يكون هذا الشيء الذي لم يذكر موكولاً إلى عقول الناس وتجاربهم، كما في كثير من طبائع الأشياء الأمور الطبيعية سواء الفلكية، أو الجولوجية، أو غير ذلك نجد أن القرآن لم

---

(١) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٧.

يفصلها ولم يبينها؛ لأنه ليس فيها فائدة، فائدتها تكمن في أن الناس يطلبونها وينظرون في آيات الله، ويتحركون حتى يدركوها، ولهذا تجد بعض المسائل التي يتنازع فيها الناس كمسألة دوران الأرض ليست موجودة في القرآن على وجه صريح، ولو كان هذا مما يتعين علينا اعتقاده إثباتاً أو نفياً لكان الله عز وجل يبينه بياناً واضحاً كما بين الأمور التي لابد لنا من الاعتقاد فيها على وجه صريح، إذاً هذه موكولة للناس، واستخراج ما في الأرض من المعادن وغيرها من المصالح العظيمة التي لم يطلع عليها إلا أخيراً هذه أيضاً لم تذكر في القرآن، وإن كان في القرآن إشارة إليها، لكنه لم تذكر على وجه التفصيل بل قال الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾[1] وقطع من صيغ جموع التكثير لو تقول: «إنها ملايين القطع» لم يخرج عن دلالتها، هذه القطع لولا أنها تختلف في منافعها وذواتها وكل ما يتعلق بها ما قال الله ﴿**قطع متجاورات**﴾ إذاً هي متباينة. في هذه الآية تستطيع أن تقول: إن الله أرشدنا إلى استخراج المعادن من الأرض، لأن الله بين أنها قطع، وليست القطع التي فوق التراب فقط، ففيه أشياء كثيرة ما تعلم وربما تعلم في المستقبل، وربما بعضها علم الآن، فالقرآن مبين لكل شيء، وإذا تدبرت القرآن مرة بعد أخرى لا تعيد التدبر مرة ثانية إلا ظهر لك معنى جديداً غير الأول، ولا يمكن لأحد أن يحيط بمعاني القرآن، لكن كلما تدبره الإنسان طالباً للحق، مريداً للصواب فإنه يهتدي إلى معاني كثيرة، سئل علي بن أبي طالب

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٤.

ـ رضي الله عنه ـ هل عهدإليكم رسول الله ﷺ بشيء ـ لأنه كان يروج في ذلك الوقت ـ من وقت علي والشيعة يروجون بأن النبي ﷺ عهد بالخلافة لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فسئل هل عهد إليكم رسول الله ﷺ بشيء؟ يعني من الخلافة، أو من العلوم التي كتمها عن الناس؟ فقال: لا والذي برأ النسمة، وفلق الحبة إلا فهما يؤتيه الله تعالى من شاء في كتابه، وما في هذه الصحيفة، والذي في هذه الصحيفة العقل، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر[1] . الشاهد قوله: «إلا فهماً يؤتيه الله تعالى من شاء من كتابه» وهذا الفهم يختلف فيه الناس اختلافاً كثيراً جداً جداً، ترى بعض العلماء يتكلم عن آية يستخرج منها فوائد محدودة معدودة، وترى آخر يتكلم عليها ويستخرج منها أضعافاً مضاعفة بالنسبة لما استخرجه الأول، وكل هذا بحسب استعداد الإنسان وفهمه وبصيرته، وكلما ازداد الإنسان إيماناً وتقوى ازداد هدى بالقرآن ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾[2] .

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: في هذه الآية رد وتكذيب للمشركين الذين قالوا: إن محمداً ﷺ شاعر، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ﴾ .

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا يصلح ولا يليق برسول الله ﷺ أن يكون شاعراً؛ لأن مقام النبوة أسمى وأعلى من أن ينحط

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب كتاب العلم (١١١).

(٢) سورة محمد، الآية: ١٧.

الإنسان إلى رتبة الشعراء.

وقد يقال: إن فيها ملاحظة البعد عن الشبه، بمعنى أنه ينبغي للإنسان أن يبتعد عن كل ما يوجب الشبهة حوله، فمقام النبوة الذي ادعي فيه أنه شعر ينبغي أن يبتعد الإنسان عمّا يوجب هذه الشبهة، ويؤيد هذا أن النبي ﷺ لما كان يمشي مع صفية ـ رضي الله عنها ـ فمر به رجلان فأسرعا فقال: «**على رسلكما فإنها صفية بنت حيي**»[1] وهذه فائدة عظيمة؛ لأن بعض الناس يقول: مادمت نزيهاً فلا يهمني أن يسيء الناس الظن بي. وهذا ليس بصحيح، وليس من حسن الرعاية لنفسه أن ينزل بها إلى هذا الحد، بل الإنسان مأمور أن يدفع عن نفسه الشبهات واللوم والظن.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم الذي علمه رسول الله ﷺ ذكر، وقد تقدم في التفسير أنه ذكر من ثلاثة أوجه.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه كلما تمسك المسلمون بهذا الكتاب العزيز فإنهم يزدادون عزة وشرفاً؛ لأن المعلق على وصف يقوى بقوة ذلك الوصف، ويضعف بضعف ذلك الوصف.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذا القرآن مبين لكل شيء، فكل شيء يحتاج الناس إليه فهو مبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾.

* * *

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه (٢٠٣٨) ومسلم، كتاب السلام، باب بيان أن يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة وكانت زوجة... أن يقول: هذه فلانة (٢١٧٥)..

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

قال المؤلف: [بالياء والتاء] ﴿لِّيُنذِرَ﴾ بالياء الضمير يعود على القرآن ﴿لتنذر﴾ الضمير يعود على رسول الله ﷺ، لكن على قراءة التاء قدر المؤلف: [لتنذر به] فكلمة [به] تعود على القراءة الثانية وهي: ﴿لتنذر﴾، أما القراءة الأولى ﴿لينذر﴾ فلا تحتاج إلى هذا التقدير، ولا شك أن القرآن نفسه منذر، وأن النبي ﷺ منذر به، فالقرآن فيه وعيد، وفيه أوصاف لمن يستحق هذا الوعيد، وهذا هو الإنذار، كما أن فيه بشارة، وأوصافاً للمبشرين، وهذا هو التبشير، فالقرآن فيه بشارة وفيه إنذار، والنبي ﷺ جاء بالقرآن، وأنذر به، وخوف به، ورغب به ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ قال المؤلف: [يعقل ما يخاطب به وهم المؤمنون] ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ هل المراد هنا بالحياة الحياة المعنوية التي هي حياة القلب، أو الحياة الحسية التي هي حياة الجسم؟

الظاهر أنه يشمل الأمرين، ولهذا قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: من كان حيًّا على وجه الأرض. يعني من كان حيًّا حياة جسمية؛ لأن رسالة الرسول ﷺ رسالة عامة لجميع الخلق، فهو ينذر من كان حيًّا، أي: ينذر كل حي، أو من كان حيًّا حياة معنوية يعني حياة القلب؛ لأن حي يراد به من يعقل ويتبصر ويؤمن، وعكسه الميت، ميت الجسم، وميت القلب، أما ميت الجسم فلا يمكن إنذاره بالقرآن، لأنه انتقل إلى دار الجزاء، ولا يمكن أن يفهم ولا يعلم، وأما ميت القلب فلأنه طبع على قلبه ـ والعياذ بالله ـ فلا يصل إليه النور ولا يصل إليه الحق ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ قال

المؤلف: [بالعذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾ وهم كالميتين لا يعقلون ما يخاطبون به]، ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾ كان المتوقع أن يقال: ويحق القول على من كان ميتاً، أو على الأموات؛ لأن هذا مقتضى المقابلة، لكن عُدل عن هذا إلى ذكر الكافرين فقال: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾ وفائدة العدول عن ذكر المقابل بلفظه أمران:

الأمر الأول: أن المراد بالميت الكافر، وأن الكافر لا يمكن أن ينتفع بالقرآن.

الثاني: التسجيل[1] على أن من لم ينتفع بالقرآن فهو كافر، ومن انتفع به في شيء دون آخر ففيه خصلة من خصال الكفر، ولهذا كل معصية فهي من خصال الكفر، لكنها قد تكون قليلة، وقد تكون كثيرة، فلهذا عدل الله عز وجل ـ والله أعلم ـ عن هذا إلى قوله ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾ دون قوله: «ويحق القول على الميتين» بل قال ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾، ومن الأمثلة على هذا: ـ وهو كثير بالقرآن ـ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ﴾[2] لم يقل: (يقضون بالباطل) بل قال: ﴿**لا يقضون بشيء**﴾ ليشمل الباطل وغير الباطل، يعني ليس لهم قضاء إطلاقاً؛ لأنهم مربوبون مملوكون فلا يقضون بشيء.

---

(١) هكذا هي في الشريط المسجل

(٢) سورة غافر، الآية: ٢٠.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن القرآن الكريم لا ينتفع به وينتذر إلا من كان حيًّا، أي حي القلب.

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إن من كان ميت القلب ـ والعياذ بالله ـ فإنه لا ينتفع بالقرآن.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن القرآن الكريم حجة على الكافرين لقوله تعالى: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ لأنه لن يحق عليهم القول إلا بعد أن تقوم عليهم الحجة، ويكون كفرهم عن عناد ولهذا قال: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الكافر لا ينتفع بالقرآن وإنما يكون حجة عليه، وهكذا كل من كان فيه خصلة من خصال الكفر فإنه يضعف انتفاعه بالقرآن وانتذاره به.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات العلة، وإن شئت فقل: الحكمة، لقوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ اللام وكلما رأيت التعليل في كتاب الله عز وجل فهو مثبت للحكمة في أفعاله تعالى ومشروعاته.

* * *

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ الاستفهام هنا للتقرير؛ لأنه كلما دخل الاستفهام على نفي فهو للتقرير، سواء كانت أداة النفي حرفاً مثل: (لم)، أو فعلاً مثل: (ليس) فالاستفهام هنا للتقرير، والواو حرف عطف، والمعطوف عليه ما سبق، أو أن المعطوف عليه مقدر بين الهمزة والواو بحسب ما يقتضيه السياق، قال المؤلف:

[﴿ يَرَوْاْ ﴾ يعلموا]. ففسر الرؤية هنا برؤية العلم، ويمكن أن يراد بها رؤية البصر، ورؤية البصر أشد وأقوى في التقرير من رؤية العلم، لأن رؤية العلم قد ينكر الإنسان، فيقول: أنا لا أعلم هذا، لكن رؤية البصر إذا كان الشيء أمامه لا يمكنه أن ينكر، والحقيقة أنها محتملة لهذا وهذا، فباعتبار أن الله خلق هذه الأشياء، لا شك أنها رؤية علم؛ لأننا لم نشهد خلق هذه الأشياء كما قال تعالى: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾[1] وباعتبار المخلوق رؤية بصر؛ لأنه يشاهد ويعلم ولا يمكن إنكاره، قال المؤلف: [والاستفهام للتقرير، والواو الداخلة عليها للعطف] هل الواو داخلة أو مدخولة؟ المؤلف يقول: الواو على الهمزة» لكن نقول: دخلت الهمزة على الواو، فإذا قلت (سوف يقوم) فإن سوف دخلت على يقوم، فالداخل هو الأول، والمؤلف يقول: الواو الداخلة عليها، يشير إلى القول الثاني في مثل هذا التركيب وهو أن التقدير: (وألم يروا أنا خلقنا لهم) وهذا أحد القولين، فهنا المؤلف ـ رحمه الله ـ جعل الواو داخلة على الهمزة، والواقع أن الهمزة حسب الترتيب داخلة على الواو، ولكنه ـ رحمه الله ـ يرى أن في المسألة تقديماً وتأخيراً، وأن الواو داخلة على الهمزة في الأصل فأصله (وألم يروا) ﴿ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم ﴾ قال: [في جملة الناس ﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ عملناه بلا شريك ولا معين] ﴿ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم ﴾ أي أوجدنا لهم من العدم أنعاماً، والله سبحانه وتعالى مختص بالخلق، فلا خالق إلا الله سبحانه وتعالى، وإضافة الخلق

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥١.

إلى المخلوق ليس على سبيل الإضافة بالنسبة إلى الله تعالى؛ لأن خلق الله تعالى للأشياء خلق إيجاد من عدم، وخلق المخلوق للأشياء ليس خلق إيجاد، ولكنه خلق تغيير من حال إلى حال، أو من وصف إلى وصف، فإذا نجرت الخشبة باباً فقد خلقتها باباً، لكن هل أنت أوجدت هذه الخشبة؟ الجواب: لا، لكن صيرتها إلى هيئة معينة، وهذا نوع من الخلق، ولهذا يقال: للمصورين يوم القيامة أحيوا ما خلقتم، مع أنهم لم يوجدوا الصورة من عدم، لكن غيروا ونقلوا من حال إلى حال، فالخلق الخاص بالله هو خلق الإيجاد، أما الخلق الذي يكون من المخلوق فما هو إلا تغيير وتحويل فقط ﴿لَهُم﴾ اللام في ﴿لَهُم﴾ للاستحقاق، ويصلح أن تكون للملك كما سيأتي في الآية نفسها ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ أي مما عملنا وليس المعنى أن الله سبحانه وتعالى خلق هذه الأنعام بيده، لو كان أراد ذلك سبحانه وتعالى وكان الواقع كذلك لقال: (مما عملنا بأيدينا) كما قال تعالى في آدم يخاطب إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[1] فهنا أضاف الخلق إلى نفسه وجعل المخلوق به اليد، أما هنا فأضاف العمل إلى اليد ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[2] وما أشبهها مما يضاف فيه الفعل إلى اليد، والمراد الإنسان، كذلك هنا أضاف الله تعالى العمل إلى يديه والمراد نفسه، أي: مما عملنا، ولو قلنا: بأنه خلقها بيديه لكانت الأنعام أشرف من

---

(١) سورة ص، الآية: ٧٥.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهنا قال: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ بالجمع فهل الله عز وجل له أكثر من يدين؟ الجواب: لا، ليس لله أكثر من يدين، ليس له إلا يدان اثنتان، وجمع هنا من أجل المناسبة؛ لأن الأفصح في المثنى إذا أضيف إلى جمع الجمع، ألم تر إلى قول الله تعالى ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[1] مع أنه ليس للإنسان إلا قلب واحد، فهنا لما أضافه إلى الضمير المفيد للجمع ـ وهنا للتعظيم بلا شك ـ ناسب الجمع، وأيضاً فإن الجمع أبلغ في التعظيم فلهذا جمعت، وأيضاً فإن هذه الأنعام لا يحصيها إلا الله عز وجل فهي جموع كثيرة، كل واحد منها تحتاج إلى فعل خاص؛ لأن لكل واحدة خلق خاص، فجمع أيضاً باعتبار المعمول الذي هو هذه الأنعام، وعلى كل حال فهذه الآية لا شك أنها تفيد إثبات اليد لله عز وجل، ولكنها لا تفيد أنه له أكثر من يدين لما تقدم من وجوه الجمع.

فإذا قال قائل: ما هو الدليل على أنه ليس لله إلا يدان اثنتان؟

قلنا: الدليل أن الله تعالى تمدح بهما في مقام المدح والعطاء والرزق، ولو كان له أكثر من ذلك لذكرها لاقتضاء المقام إياه، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[2] ولو كان له أكثر من واحدة لقال: (بل أيديه) لأنه بلا شك كلما كثرت الأيدي كثر العطاء وهذا باعتبار المخلوق، أما الخالق عز وجل فعطاؤه لا ينفد، ولا يعد،

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

وليس له إلا يدان اثنتان، هذا ما عليه أهل السنة والجماعة.

﴿أَنْعَـٰمًا﴾ قال المؤلف: [هي الإبل والبقر والغنم] كأن المؤلف رحمه الله تعالى خصها بالإبل والبقر والغنم لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[1]. ولو قيل: بأن الآية أعم من ذلك؛ لأنه قد يكون هناك حيوانات يحصل بها من المنافع ما يحصل بهذه الأشياء الثلاثة: الإبل والبقر والغنم، ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ الفاء مفرعة على قوله: ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أي: فعلى كونها خلقت لهم ولمصالحهم هم لها مالكون، وأتى بالجملة الإسمية للدلالة على الثبوت والاستمرار، أي: أن هذا الملك مستمر، وهذا الملك الذي ذكره الله عز وجل يقول فيه المؤلف: [ضابطون] فهو من ملك التصرف، وليس من الملك الشرعي الذي يحصل بالبيع والشراء والهبة وما أشبهها. أي: أنهم يملكونها ويضبطونها ويتصرفون فيها كما شاءوا.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: تقرير نعمة الله عز وجل على عباده، بهذه الأنعام؛ لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾.

٢ ـ ومن فوائدها أيضاً: أن هذه الأنعام ملك لنا ننتفع بها بجميع وجوه الانتفاعات لقوله: ﴿خَلَقْنَا لَهُم﴾ فكل وجوه الانتفاعات فإنه يجوز لنا أن ننتفع بها لأنها مادامت لنا فنحن فيها أحرار إلا ما قام الدليل على منعه. ويتفرع على هذه الفائدة:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١.

أنه يجوز أن نركب ما لم تجر العادة بركوبه، مثل أن نركب البقر، ولهذا قال الفقهاء: يجوز الانتفاع بهذه الحيوانات في غير ما خلقت له.

فإن قلت: ما الجواب عن الحديث الصحيح: «**بينما رجل راكب بقرة يسوقها، إذ التفتت إليه فقالت له: إنا لم نخلق لهذا، قال النبي ﷺ: «فأنا أؤمن بذلك وأبو بكر وعمر»**[1].

فالجواب على هذا أن نقول: إن هذا الرجل ركبها ركوباً يشق عليها، وهي ما خلقت لتعذب، وهو كذلك حتى لو أن الإنسان ركب الإبل على وجه يعذبها قلنا له: إنها لم تخلق لهذا.

٣ ـ من فوائد الآية الكريمة: صحة نسبة العمل إلى الله؛ لقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ لكن لا يسمى الله بالعامل، كما لا يسمى بالصانع أخذاً من قوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[2] وذلك لأن باب الخبر أوسع من باب الإنشاء والتسمية، فيجوز أن نشتق من كل اسم صفة، ولا يجوز أن نشتق من كل صفة اسماً. ولهذا نقول: (الصفات أوسع من الأسماء)، أي باب صفات الله أوسع من باب الأسماء، لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة تتضمن اسماً.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات اليد لله عز وجل؛ لقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ وهذه اليد التي أضافها إلى نفسه يد حقيقية ثابتة، ولكن بدون أن تكون مماثلة لأيدي المخلوقين؛

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحرث والمزارعة، باب استعمال بقر للحراثة (٢٣٢٤ ومسلم بمعناه، كتاب فضائل الصحابة (٢٣٨٨).

(٢) سورة النمل، الآية: ٨٨.

لأن مماثلة الخالق للمخلوق ممتنعة غاية الامتناع عقلاً وسمعاً، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[١] وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾[٢] وأما العقل: فإن كل عاقل يدرك الفرق بين الخالق والمخلوق في الذات والصفات، فالواجب علينا أن نؤمن بكل ما وصف الله به نفسه من غير تمثيل.

ثم اعلم أن ما وصف الله به نفسه ينقسم إلى: صفات لازمة، وصفات غير لازمة، وإلى ما نظيره أجزاء وأبعاض لنا، فمثلاً: السمع، والعلم، والقدرة، والحياة هذه صفات لازمة، ويسميها أهل العلم الصفات الذاتية، ومثل: الاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والخلق وما أشبه ذلك، صفات غير لازمة، ويسميها أهل العلم: الصفات الفعلية. فالله لم يزل ولايزال خالقاً، لكن المخلوق يتجدد، فكل خلق يتعلق بهذا المخلوق فإنه يكون حادثاً بعد أن لم يكن، ولكن هذا حدوث نوع، وليس حدوث جنس، لأن الله لم يزل ولايزال خالقاً. والاستواء على العرش هذا لا شك أنه حادث؛ لأنه قبل العرش ليس مستو عليه، والذي نظيره أبعاض وأجزاء مثل: اليد، والوجه، والقدم، والعين، هذا نظيره بالنسبة لنا جزء من الذات، أو بعض منها، ولا يصح أن نقول: إنه جزء من الله، أو بعض من الله؛ لأن الله عز وجل لا يتجزأ ولا يتبعض، إذ إن الجزء ما جاز

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٤.

وجود أصله بعدمه، فبالنسبة لله لا يمكن أن يكون هكذا، يعني لا يمكن أن تنفصل اليد مثلاً ـ وحاشا لله عز وجل ـ أو الوجه، أو ما أشبه ذلك، بالنسبة للمخلوق يمكن أن تنفصل، ولهذا يجب أن نقول: ما نظيره أجزاء وأبعاض لنا، ولا نقول ما هو أجزاء وأبعاض لله؛ لأن هذا منكر غاية الإنكار.

واليد نقول: إنها حقيقية، ثابتة لله على الوجه اللائق به، ولكن لا تماثل أيدي المخلوقين، وهذا مذهب السلف، وعليه جرى أئمة المسلمين، لكن ابتلي قوم بتحريف اليد وقالوا: إنها النعمة، أو القوة، بناءً على أن عقولهم تحيل أن يتصف الله عز وجل باليد الحقيقية، ولا شك أن هذا ضلال وجناية على النصوص. أما كونه ضلالاً؛ فلأنهم حكموا على الخالق بعقولهم القاصرة، وهذا لا شك أنه ضلال، إذ كيف تحكم على الخالق بعقلك؟ والخالق عز وجل يقول عن نفسه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[1] ويقول: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[2] ويقول: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ وأنت تقول ليس له يد. سبحان الله؟ ولولا تأويلهم لها، وقولهم: نحن نثبت اليد ولكن المراد كذا. لكان هذا تكذيباً للنصوص، ونحن نعلم أن المكذب للنصوص كافر.

وكان جناية على النصوص من وجهين؛ لأنهم يقولون: إن الله لم يرد كذا، وأراد كذا، فنفوا ما أراد الله، وأثبتوا ما لم يرده، فكان جناية على النصوص من الوجهين: السلبي والإيجابي.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٢) سورة ص، الآية: ٧٥.

السلبي حيث نفوا ما أثبت الله، والإيجابي أثبتوا ما لم يرده الله. إذ قال الله عز وجل: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[١] قالوا: أراد باليدين النعمة أو القوة. نقول ـ سبحان الله ـ من الذي أعلمك؟ الله يقول: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وأنت تقول: ليس له يد، بل هي نعمة، من الذي قال لك هذا؟ فنفيك قول على الله بلا علم، وإثباتك لما أثبت قول على الله بلا علم، فكان جناية على النصوص من وجهين، والحقيقة أن الإنسان يعجب غاية العجب أن يسلك هذا المسلك أئمة مشهود لهم بالخير والصلاح ونفع الأمة، ولكنه يعرف بذلك تمام حكمة الله ـ عز وجل ـ وأن الإنسان مهما كان فهو ضعيف وقاصر، وإلا فالله سبحانه وتعالى يتحدث عن نفسه بحديث هو أصدق الحديث، وأحسن الحديث، وصادر من أعلم بما يقول. ثم نقول: الله ما أراد هكذا، فيجب أن نؤمن بأن الله له يد حقيقية لائقة به، لا تماثل أيدي المخلوقين بأي حال من الأحوال.

وهكذا يجب علينا أن نجري جميع آيات الصفات وأحاديثها.

فإن قيل: ما تقولون في تفسير بعض العلماء قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾[٢] أي: بقوة.

فالجواب: أن نقول هذا صحيح (أيد) هنا بمعنى قوة، لأن أيدٍ مصدر أد، يئيد، أيداً، كباع يبيع بيعاً، وكال يكيل كيلاً، ولا يجوز أن نقول هي كقوله: ﴿أَيْدِينَآ﴾ لأن الله لم ينسبها إلى نفسه،

---

(١) سورة ص، الآية: ٧٥.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

فلم يقل: «والسماء بنيناها بأيدينا» وإذا لم ينسب الله ذلك إلى نفسه حرم علينا أن ننسبه إلى الله، فكان يتعين أن نفسر قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ أي بقوة. وإذا لم يضف الله شيئاً إلى نفسه حرم أن نضيفه إليه. لأنا لو أضفناه إليه وهو لم يضف إليه لكنا نقول على الله بلا علم. ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾[1] اختلف السلف في قوله: ﴿عن ساق﴾ هل المراد عن شدة، أو المراد عن ساقه عز وجل، ونحن إذا أخذنا القاعدة التي قررناها الآن بأن ما لم يضفه الله إلى نفسه يحرم علينا أن نضيفه إليه، قلنا: إن المراد بالساق هنا الشدة ولابد، ولا يمكن أن نفسره بساق الله، لأن الله لم يضفه إلى نفسه فلم يقل: (يوم نكشف عن ساقنا) بل قال ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ ولكن إذا تأملت سياق الآية الكريمة وما جاء في الصحيحين في حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ وجدت أن ذلك يقتضي أن يكون المراد به ساق الله فإنه في حديث أبي سعيد الطويل المشهور، أن الله يكشف عن ساقه فيسجد له كل من كان يسجد لله تعالى في الدنيا، ويعجز عن السجود من لم يسجد لله في الدنيا[2]، فهنا ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ نجد أن سياق الآية يوافق سياق الحديث، وحينئذ نقول: إن كلام الله

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤٢.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب يوم يكشف عن ساق (٤٩١٩) ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣).

تعالى يفسر بكلام الله تعالى، ويفسر بكلام رسوله ﷺ، فإذا دل سياق حديث أبي سعيد على ما دل عليه سياق الآية فإن الآية تفسر به، وحينئذ يكون القول الراجح أن المراد بالساق الذي جاء على وجه النكرة المراد به ساق الله عز وجل، ولكنه نُكر للتعظيم؛ لأن التنكير قد يراد به التعظيم.

فإذا قال قائل: الآية التي معنا في سورة «يس» ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ فهل تصفون الله بأن له أيدٍ كثيرة أم ماذا؟

نقول: الذي عليه أهل السنة أنه ليس لله إلا يدان اثنتان، وحينئذ نحتاج إلى الجمع بين هذا القول الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[1] وقوله: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ﴾[2] وبين هذه الآية، ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ وإلى الجمع بينه وبين الإفراد الذي جاء في قوله تعالى: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾[3] وما أشبه ذلك.

قال أهل العلم: الجمع بينهما متيسر ـ ولله الحمد ـ لأنه ليس في خلق الرحمن من تفاوت. ولا في كلامه من تفاوت أيضاً، فلا يتفاوت كلامه ولا يتناقض، كما لا يتناقض خلقه أيضاً، فالخلق منسجم بعضه مع بعض، وكذلك الشرع منسجم بعضه مع بعض. قالوا: إن المفرد المضاف يشمل؛ لأنه للعموم، ألم تر إلى

---

(١) سورة ص، الآية: ٧٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٣) سورة الملك، الآية: ١

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[١] نعم لا تحصى مع أنه قال: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ واحدة، لكن المفرد المضاف يكون للعموم فيشمل كل ما يثبت لهذا المفرد المضاف وإن كثر، إذاً ﴿**بيده الملك**﴾ لو فرض بأن هناك أيادي كثيرة، فيدخل واليدان فإنه تدخل، إذاً لا منافاة بين المفرد وبين العدد جمعاً كان أو مثنى، فقوله: ﴿**بيده الملك**﴾ اليد مفرد مضاف. والضمير مضاف إليه، والمفرد المضاف يفيد العموم. أي: مفرد مضاف فهو مفيد للعموم. ومثال لذلك: لو قال رجل لامرأته: طالق، وله أربع نسوة يطلق كل النسوة إلا إذا نوى أنها واحدة، ولو قال: عبدي حر، وله أكثر من عبد عتق الجميع، ما لم يُرد واحداً.

ولو قال: بيتي وقف، وله بيوت صارت بيوته كلها وقفاً ما لم يرد واحداً. فالمفرد المضاف يعم.

بقي لنا الجمع بين اليدين الثنتين، والجمع الذي هو «أيدينا» كيف نجمع بينهما؟

والجواب على هذا من وجهين:

الوجه الأول: أن كثيراً من علماء اللغة العربية يقولون: إن أقل الجمع اثنان، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[٢] فهنا جمع مع أن المراد اثنان.

وبقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾[٣] (إخوة)

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ١١.

جمع. مع أن الأم تحجب من الثلث إلى السدس باثنين. وبقول النبي ﷺ: «**الاثنان وما فوقهما جماعة**»[١] أي: في الصلاة.

ولكن أكثر علماء اللغة ـ وهو المشهور ـ يقولون: إن أقل الجمع ثلاثة، وحينئذ يمكن الجمع.

الوجه الثاني: وهو أن نقول: إن المراد بالجمع في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ المراد به التعظيم، لأن الجمع يدل على التعظيم، ولهذا يأتي ضمير الجمع «نا» في مقام التعظيم. فكل ضمير أضافه الله إلى نفسه وهو (نا) فليس المراد به الجمع، بل المراد به التعظيم. فهنا الجمع للتعظيم، وللمناسبة أيضاً لأنه أضيف إلى ما يفيد الجمع فكان الأنسب أن يكون مجموعاً، فهذه المناسبة لفظية، وإرادة التعظيم مناسبة، معنوية. وبهذا يزول الإشكال.

فإذا قال قائل: لماذا لا تقولون: إن لله أيادي كثيرة؟

فالجواب: إن هذا يمنعه المعنى، لأن الله تعالى لما مدح وأثنى على نفسه بالعطاء لم يذكر إلا يدين اثنتين، ولو كان له أكثر لكان يذكر الأكثر؛ لأنه أبلغ في المدح. فلما قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[٢] عُلم أنه ليس له إلا يدان اثنتان، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[٣] فأثبت القبضة بيد،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٥٤٥) وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب الاثنان جماعة (٩٧٢).

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

والسماوات مطويات بيمينه باليد الأخرى، والنصوص في هذا كثيرة، ولهذا نعتقد نحن أن الله سبحانه وتعالى ليس له إلا يدان اثنتان فقط.

ومثل ذلك نقول: في صفة العين، العين وردت مجموعة، ووردت مفردة ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾[1] ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[2] فنقول: عين مفرد مضاف فيعم **﴿تجري بأعيننا﴾** إما أن نقول للتعظيم، أو بأن أقل الجمع اثنان، وليس لله أكثر من عينين اثنتين، ودليل ذلك حديث الدجال حينما تحدث النبي ﷺ عنه، وبيّن تمويهاته قال: «**إنه أعور العين اليمنى، وإن ربكم ليس بأعور**»[3]، فبين العلامة الحسية الظاهرة وهي عور عين الدجال، ومن العجب أن بعض الناس قال: إن المراد بالعور هنا العيب، يريد أن يثبت أن لله تعالى أعيناً كثيرة، بناءً على الجمع في قوله: **﴿تجري بأعيننا﴾** ولكن هذا عور من هذا القائل؛ لأن الحديث صريح في أن المراد عور العين، حيث قال: «**أعور العين اليمنى**» ولم يقل: (أعور) فقط، فلو قال: (أعور) فقط، وربما يحتمل ما قاله، مع أن ما قاله ضعيف بعيد؛ لأن اللغة العربية لا تعبر بالعور عن العيب، فالرسول ﷺ قال: «**أربع لا تجوز في الأضاحي: المريضة، والعجفاء، والعوراء، والعرجاء**»[4] فجعل العور غير

---

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.

(٢) سورة القمر، الآية: ١٤.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال (٧٣١). ومسلم، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال (١٠١) (٢٩٣٣).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٤).

العيب، فكل الثلاثة الأخرى عيوب، لكن جعل العور في العين، فنحن نقول لهم: أصل العور في العين ثم إذا جاء الحديث «**أعور العين اليمنى**» صار قاطعاً للاحتمال قطعاً نهائياً لا يمكن أن يراد به العيب.

فإذا قال قائل: ما وجهه؟

قلنا: وجهه: لو كان لله أكثر من عين لكان الرسول ﷺ يذكره؛ لأنه أدل على تعظيم الله، وأبين في التميز من أن يقال: أن الفرق هو أن هذا أعور، والرب عز وجل ليس بأعور، وبهذا يتبين أن دلالة حديث الدجال ـ وهو صحيح ـ دلالة واضحة ظاهرة، على أنه روي في حديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام ذكره ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مختصر الصواعق المرسلة «**إذا قام أحدكم يصلي فإنه بين عيني الرحمن**» وهذا الحديث فيه ضعف لكننا في الحقيقة لسنا بحاجة إليه، لأن الحديث الثابت في الصحيحين في قصص الدجال واضح والحمد لله.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أننا نملك هذه الأنعام ملكاً شرعياً، وملكاً حسيًّا قدريًّا.

أما الشرعي: فإننا نملك أعيانها، ومنافعها بالبيع والشراء والتأجير وغير ذلك، أما الكوني الحسي فلأننا نملك زمامها وضبطها، وهي مسخرة لنا نقيمها وننيخها، ونذهب بها ونرجع بها، وهذا من تمام نعمة الله سبحانه وتعالى علينا بهذا الملك.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه أتى بقوله: ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ بالجملة الإسمية التي تفيد الثبوت والاستمرار، أي: ملك مستقر تام.

* * *

﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَذَلَّلْنَٰهَا﴾ أي: سخرناها وجعلناها ذليلة تنقاد لهم، وينتفعون بها كما يشاؤون، ولهذا نجد الصبي الصغير يقود هذا الجمل الكبير، وقد ذلل له ويقوده حيث شاء، بل إن الإنسان يقود البعير الكبير الجسم إلى مكان نحره وينقاد معه، ثم قسم الله عز وجل وجوه الانتفاع فقال: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ الركوب فعول، بمعنى: مركوب، أي: فمنها ما يركبونه، مثل الإبل.

﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ مثل الغنم، ومنها ما يجمع بين الأكل والركوب مثل الإبل، فهذه الأنعام منها: ما يركب ويؤكل، ومنها ما يؤكل ولا يركب. وإذا قلنا: إن الآية أعم مما قال المؤلف، فإننا نقول: منها ما يركب ولا يؤكل، مثل: البغال والحمير والفيلة وغيرها.

فالله عز وجل جعل لهذه الأنعام فوائد متعددة: من الأكل والركوب، وفي سورة النحل ذكر أيضاً من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين. فالمنافع كثيرة في هذه الأنعام التي خلقها الله عز وجل لنا. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ ﴿من﴾ في الموضعين هل هي للتبعيض، أو للابتداء، أو للجنس؟

مقتضى التقسيم أن تكون للتبعيض، أي: بعضها يركب وبعضها يؤكل.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: بيان نعمة الله سبحانه وتعالى علينا بتذليل هذه الأنعام، ولو استعصت علينا ما تمكنا من الانتفاع بها، ولهذا لما ند بعير من الإبل في عهد الرسول ﷺ أدركه رجل بسهم فقال النبي ﷺ: «**إن لهذه الإبل أوابد كأوابد الوحش، فما ندّ منها فاصنعوا به هكذا**»[1]، فهذه البعير تمردت على أهلها ولم يدركوها إلا بالسهم.

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: بيان أن أفعال المخلوقات مخلوقة لله، لقوله: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ لكنها مفعولة للفاعل مباشرة. فهي تنسب لله عز وجل تقديراً وخلقاً، وتنسب إلى الفاعل كسباً وعملاً، فهذه الإبل المذللة الذي ذللها هو الله، إذاً أفعالها صادرة بخلق الله عز وجل. وهذا هو المذهب الصحيح في هذه المسألة، أي مسألة أفعال العباد هل هي مخلوقة لله، أو هي للعباد استقلالاً؟ والمسألة فيها ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: مذهب الجبرية، الذين يقولون: إن خلق الله عز وجل شامل لكل حركة في السماوات والأرض، وإن الإنسان مجبور على عمله ليس له فيه اختيار، بل الحركة الإرادية الاختيارية، كالحركة الإجبارية التي ليس له فيها إرادة.

ويقولون: إن أفعال الإنسان كحركة السعفة بالريح ليس

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب ما ند من البهائم فهو بمنزلة الوحش، (٥٥٠٩).

باختياره، فيقال لهم: إن هذا يلزم منه الفوضى بحيث يفعل كل إنسان ما شاء ويقول: هذا بغير اختياري، وأنا مجبور عليه، ويلزم منه أيضاً: أن الله إذا عذب الإنسان على معصية كان ظالماً له، ويلزم عليه أن مدح الطائعين لغو لا فائدة منه؛ لأنه لا يمدح الإنسان على أمر يجبر عليه بدون اختياره، ويترتب عليه أيضاً: أن ذم العاصين ظلم؛ لأنه ذم لمن لا يختار هذا الفعل. وكما أنه يترتب عليه هذه اللوازم الباطلة فهو أيضاً مخالف للواقع، فإن الإنسان يجد الفرق بين فعله الاختياري، وبين فعله الاضطراري، يجد الفرق بين أن ينزل من السلم درجة درجة وبطمأنينة واختيار، وبين أن يأتي شخص ويدفعه دفعاً، حتى لا يتمكن من الوقوف، فالأمر واضح من الناحية الواقعية العقلية، أن هذا القول باطل من أبطل الأقوال. لكن الذي غرّ أصحابه أن الله عز وجل ذكر أنه خلق كل شيء، وأنه قدر كل شيء، وأنه لا يكون في ملكه ما لا يريد إلى غير ذلك من الأشياء التي يتعللون بها، لكنهم في الحقيقة نظروا إليها وغفلوا عن النصوص الأخرى الدالة على أن الإنسان فاعل باختياره، ولهذا قابلهم:

أصحاب المذهب الثاني: الذين نظروا إلى النصوص الدالة على أن الإنسان فاعل باختياره وإلى الواقع، فأنكروا أن يكون لله عز وجل إرادة، أو خلق في أفعال العباد، وقالوا: إن العبد مستقل بعمله يفعل ما يشاء، ويترك ما يشاء، وليس لله سبحانه وتعالى تعلق بفعل العبد.

وهؤلاء أقرب إلى المعقول من أولئك القوم؛ لأن الإنسان

لا شك يجد أنه فاعل بالاختيار، فهو يدخل بيته، ويخرج من بيته، ويأتي للمسجد، ويخرج من المسجد، ويختار هذا الفعل على وجه اختياري لا يشعر أبداً بأن أحداً يجبره على ذلك، ولكن ظل هؤلاء بسلبهم إرادة الله عز وجل وخلقه عن أفعال الخلق واعتقادهم أن الإنسان مستقل بما يحدثه، ولهذا سموا مجوس هذه الأمة؛ لمشابهتهم للمجوس في إثبات فاعلين للحوادث، وهم يقولون بإثبات فاعلين للحوادث. الذي من فعل الله، هذا من فعل الله، والذي من فعل الإنسان، وهذا من فعل الإنسان مستقلاً بها، فلهذا سموا مجوس هذه الأمة. وهؤلاء لا شك أنهم ضالون؛ لأنهم أخرجوا شيئاً في ملك الله عن ملك الله.

المذهب الثالث: أهل السنة والجماعة توسطوا بين القولين وأخذوا بالدليلين، وقالوا: إن الإنسان لا شك يفعل باختياره، ويدع باختياره، وإن له إرادة تامة وقدرة، والذي خلق هذه الإرادة والقدرة هو الله عز وجل، فلو شاء الله سبحانه وتعالى لسلبه الإرادة، ولو شاء لسلبه القدرة، ولذلك إذا سلب الله العبد الإرادة لم يترتب على فعله حكم، فالمجنون ـ مثلاً ـ لا يؤاخذ بأفعاله؛ لأنه لم يفعلها باختياره والعاجز لا يكلف ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[1] إذاً فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإرادة والقدرة في الإنسان، قالوا: والإرادة والقدرة هما السبب في وجود الفعل، فلولا الإرادة ما فعلت، ولولا القدرة ما فعلت، فالإرادة والقدرة هما سبب وجود الفعل، وإذا كانا مخلوقين لله

(١) سورة التغابن، الآية: ١٦.

فإن خالق السبب خالق للمسبب، فيضاف فعل العبد إلى الله من هذه الناحية، أي أن الله هو الذي أوجد فيه سبب الفعل، فصار بذلك فاعلاً. كما أن الإحراق مثلاً بالنار ينسب إلى النار، والذي أودع فيها هذه القوة هو الله عز وجل، فلذلك صار إحراق النار بفعل النار مباشرة، لكنه بتقدير الله سبحانه وتعالى خلقاً، وهذا الذي ذهب إليه أهل السنة والجماعة، هو المطابق للمنقول والمعقول والواقع؛ لأنه يجمع بين الأدلة الشرعية، ويصدق الأدلة الحسية. فالأدلة الشرعية إذا جمعتها من أطرافها وجدت أنها تنصب في طريق واحد، وهو الذي ذهب إليه أهل السنة والجماعة، ولولا هذا الاعتقاد لشُلت الحركة ولصار الإنسان اتكاليًا لا يقول ولا يفعل، ولولا هذا الاعتقاد لم يلجأ الإنسان إلى ربه عز وجل في مهماته وملماته، فهو باعتبار أنه مريد فاعل، يتحرك ويعمل، وباعتبار أنه مخلوق مدبر، يرجع إلى الله عز وجل، فلا يكون اتكاليًا، ولا يكون أنانيًا. يعني أنه لن يستغني بنفسه عن ربه، ولن يكون اتكاليًا يقول: إن قدر لي شيء صار، بل هو يعمل مستعيناً بالله معتمداً عليه.

٣ ـ من فوائد هذه الآية الكريمة: أن لنا أن ننتفع بهذه الأنعام بالركوب، ولكن بشرط أن لا يكون في ذلك مشقة عليها، فإن كان في ذلك مشقة كان حراماً؛ لأن المشقة تعذيب لها في غير محله.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: جاز الارتداف على الدابة لعموم قوله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ ولكنه مقيد بما أشرنا إليه أن لا يكون

في ذلك مشقة.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: حل هذه الأنعام، أو حل بعضها إذا جعلنا «من» للتبعيض وجعلنا «الأنعام» أعم من «بهيمة الأنعام» والحل في الأنعام كلها هو الأصل، ولهذا لو تنازع شخصان في أن هذا الحيوان حلال أو حرام، لكان القول قول من يقول بالحل حتى يقوم دليل على التحريم وذلك:

أولاً: لعموم قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[1].

ثانياً: لعموم قوله: ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ فالأصل هو الحل حتى يقوم دليل على المنع، لكن هذا الحل مقيد بشروط الذكاة المعروفة؛ لأنها إذا لم تذك البهيمة الحلال ذكاة شرعية صارت حراماً لا تحل، فهذا الإطلاق ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ مقيد بشروط وهو أن يكون مذكاً بذكاة شرعية، ومع هذا إذا اضطر الإنسان إليه حل له ولو لم يذك لقول الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[2].

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه يجوز تعذيب الحيوان إذا لم تتم المصلحة إلا به، لأن الأكل مصلحة، ولكن لا أكل إلا بعد الذبح، والذبح من أعظم ما يكون من الإيذاء، ولأن الشرع جاء بإباحة وسم البهائم بالنار من أجل حفظ ماليتها، ولأن الشرع جاء بمشروعية إشعار الإبل والبقر في الهدي ليعلم أنها هدي،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٣.

وإشعارها هو شق صفحة سنامها حتى يسيل منها الدم، وعلى هذا إذا احتجنا إلى تعذيب الحيوان من أجل حفظ ماليته أو غير ذلك فإنه لا بأس به، مثل ما يفعله بعض الناس الآن في الحمام إذا أراد أن تربي عنده فإنه ينتف مقدم الأجنحة لئلا تطير، حتى تألف المكان وتربى فيه، يقولون: لو أننا قصصناها قصًّا ما نبت لها ريش بسرعة. فلهذا يختارون أن ينتفوها نتفاً من أجل أن ينبت الريش بسرعة وتستعد للطيران.

* * *

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ كأصوافها وأوبارها وأشعارها ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من لبنها، جمع مَشْرَب بمعنى شرب، أو موضعه ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ المنعم عليهم بها فيؤمنون. أي ما فعلوا ذلك].

المنافع أعم مما قاله المؤلف: [كأصوافها وأوبارها وأشعارها] فالكاف للتشبيه، والأصواف للضأن، والوبر للإبل، والشعر للبقر والغنم، وكذلك ما ينتفع بها من الحرث والزراعة عليها ودك الأرض وغير ذلك من المنافع التي لا تحصى، ولهذا أتى بصيغة منتهى الجموع ﴿مَنَٰفِعُ﴾. ﴿وَمَشَارِبُ﴾ إما موضع الشرب كما قال المؤلف، أو الشرب، ولكن الأولى أن نقول: إن لهم فيها مشارب أي: شرباً، وهذه المشارب تكون من الإبل والبقر والغنم فكلها يشرب الناس من ألبانها، وينتفعون بها شرباً وبيعاً، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ والهمزة

للاستفهام، والمراد به التوبيخ، أي أنهم لم يشكروا الله عز وجل فهم موبخون على عدم شكرهم.

وقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي ما فعلوا ذلك] لأنه يرى أن الاستفهام للنفي، وما ذكرناه من أنه للتوبيخ أحسن؛ لأن التوبيخ يدل على انتفاء ذلك، وأنهم موبخون على عدم الفعل.

وقد تقدم الكلام على معنى الشكر ومتعلقه والفرق بينه وبين الحمد عند قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

الفوائد:

١ ـ يستفاد من هذه الآية الكريمة: أن الله عز وجل خلق هذه الأشياء لمنافعنا، فأي منفعة يمكن أن نحصل عليها من هذه البهائم فإنها مباحة لنا، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ لكن بشرط كما أسلفنا أن لا يكون في ذلك مشقة فإن كان فيها مشقة فإنها ممنوعة.

٢ ـ ومن فوائدها: حل ألبان هذه البهائم؛ لقوله: ﴿وَمَشَارِبُ﴾.

٣ ـ يستفاد من قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ وجوب شكر الله تعالى على هذه النعم، ووجهه أنه وبخ من لم يشكر، ولا توبيخ إلا على فعل محرم، أو ترك واجب. وشكر المنعم كما دل عليه الشرع فقد دل عليه العقل، فإن كل إنسان مدين لمن أنعم عليه أن يشكره بحسب ما تقتضيه الحال، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم كافأتموه**»[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦٨٢) وأبو داود، كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله عز وجل (١٦٧٢).

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من غيره، ولا يمنع أن يكونوا اتخذوا آلهة مع الله، فهم اتخذوا من دون الله أي اتخذوا غير الله آلهة، وإنما قلنا ذلك لأن ظاهر قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنهم لم يتخذوا الله إلهاً، بل اتخذوا هذه الآلهة من دون الله وتركوا ألوهية الله تعالى، مع أن هؤلاء يتألهون إلى الله تعالى وإلى غيره، ولكن قد يقال: إن الفائدة من التعبير بقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مع أنهم يألهون الله تعالى ويألهون الأصنام أن الإنسان إذا اتخذ شريكاً مع الله فإن الله تعالى يتركه وشركه وكأنه لم يأله الله تعالى، كما جاء في الحديث القدسي الصحيح أن الله تعالى قال: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[1].

﴿ءَالِهَةً﴾ جمع إله، والإله بمعنى مألوه. أي: معبود، وفعال تأتي في اللغة العربية بمعنى مفعول في مواطن عديدة، منها: غراس بمعنى مغروس، وبناء بمعنى مبني، وفراش بمعنى مفروش. فهؤلاء ـ والعياذ بالله ـ يتألهون لهذه الأصنام كما يتألهون لله عز وجل يركعون لها ويسجدون وينذرون ويعكفون عليها.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد، باب تحريم الرياء ٤٦ (٢٩٨٥).

﴿ لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ قال المؤلف رحمه الله تعالى: [يمنعون من عذاب الله بشفاعة آلهتهم بزعمهم].

النصر بمعنى المنع من تسلط الأعداء، ولكنه في الحقيقة ليس المنعة فقط، ولكنه في الغالب يطلق على غلبة الأعداء، أي: لعلهم يغلبون. والواقع أن متخذي الأصنام يتخذونها للأمرين: لتشفع لهم عند الله تعالى فينجو من عذاب الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾[1].

وهم أيضاً ينتصرون بها عند الحرب والقتال، كما قال أبو سفيان في غزوة أحد: أعل هبل. فانتصر بإلهه واعتز به.

فهم اتخذوا هذه الآلهة للأمرين جميعاً: لدفع ما يكره، وحصول ما يحب. وهذا هو المناسب لقوله: ﴿ لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ لأن إطلاق النصر على مجرد دفع المكروه ـ هذا وإن كان وارداً ـ لكن إطلاق النصر على حصول المطلوب والعزة والرفعة أكثر في اللغة العربية. ولكن هل هؤلاء ينصرون بهذه الأصنام؟

الجواب: قال الله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾. أي: هذه الآلهة التي اتخذوها للنصر لا تستطيع أن تنصرهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، ودليل ذلك أنهم يضعون الأحجار بأيديهم ثم يعبدونها من دون الله تعالى، ويذهبون إلى

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

الشجرة ويعبدونها، وهم إذا احتاجوا إلى الحطب قطعوها وأوقدوا بها، فكيف وهي لا تنصر نفسها تنصر غيرها؟ وهذا شيء مستحيل أن تنصرهم، ولهذا إذا كان يوم القيامة فإنهم كلهم يحصبون في النار كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾[1] لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها، فهي لا يمكن أن تنصرهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾[2] فهم في الدنيا غافلون عنهم، لأنها جمادات، وفي الآخرة يكونون لهم أعداء ويكفرون بعبادتهم.

فإذا قال قائل: إنه يوجد من يدعو الصنم بحصول مطلوب، أو دفع مكروه، ثم يحصل له المطلوب، أو يندفع عنه المكروه فما الجواب؟

قلنا: **الجواب**: أن هذا فتنة من الله عز وجل يفتن من شاء من عباده، والذي حصل لم يحصل بدعاء الصنم وإنما حصل عند دعاء الصنم، أي حصل عنده لا به، فالله عز وجل جعل هذا يحصل عند دعاء هذا الصنم ابتلاء وامتحاناً، والله عز وجل بحكمته قد ييسر أسباب المعصية ليبلو الإسنان هل يكون امتناعه عن المعصية خشية لله عز وجل، أو لعدم القدرة عليها، ألم تر إلى

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

(٢) سورة الأحقاف، الآيتان: ٥، ٦.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ ﴾(١) فابتلى الله الصحابة وهم محرمون بالصيد ينالونه بأيديهم فيما يعدو، وبرماحهم فيما يطير، ليعلم الله من يخافه بالغيب فلا يأخذ من هذا الصيد، فلم يأخذوا رضي الله عنهم من هذا الصيد وتركوه خشية لله لا عجزاً عن الوصول إليه، كما ابتلى الله تعالى بني إسرائيل الذين حرم عليهم الصيد يوم السبت بأن تأتي الحيتان يوم السبت شرعاً طافية على وجه الماء، وفي غير يوم السبت لا تأتيهم، وهذا امتحان من الله عز وجل، لكنهم لم يصبروا على هذه المحنة، بل ذهبوا يعاملون الله عز وجل معاملة الغر الجاهل يخادعون الله فأتوا بحيلة ومكر ونصبوا الشباك يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان يوم السبت دخلت في الشباك، فإذا كان يوم الأحد أخذوها، فاحتالوا فقلبهم الله تعالى قردة ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾(٢) فهؤلاء الذين يدعون الأصنام لجلب نفع أو دفع ضرر يمتحنون ويختبرون فيدفع عنهم الضرر ويحصل لهم النفع، لكن عند هذا الدعاء وليس بهذا الدعاء، نجزم بذلك يقيناً؛ لأن هذه الأصنام لا تأتي بخير، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ﴾.

قال المؤلف: [﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ﴾ أي: آلهتهم. نزلوا منزلة العقلاء ﴿وَهُمۡ﴾ أي: آلهتهم من الأصنام ﴿لَهُمۡ جُندٞ﴾

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

بزعمهم نصرهم ﴿مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ في النار معهم]. قوله: نزلوا منزلة العقلاء، لأن واو الجماعة خاصة بالعقلاء، والذي يأتي لغير العقلاء ما يدل على التأنيث سواءً كان بالإفراد أو بالجمع، فلو مشى التعبير على الغالب لقال: (لا تستطيع نصرهم) أو (لا يستطعن نصرهم) لكن قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ تنزيلاً لهذه الأصنام منزلة العاقل؛ لأن هؤلاء يدعونها دعاء العاقل يرون أنها عاقلة تجلب النفع وتدفع الضرر فخوطبوا بما يعتقدون.

﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ مشى على أن ﴿وَهُمْ﴾ الضمير يعود على الأصنام، أي والأصنام لعابديها جند ينصرونهم حسب زعمهم ﴿مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: معهم في النار، فهذه الأصنام جند لهؤلاء العابدين، لكن الجميع محضرون في نار جهنم يعذبون. وهذا قول فيه بعد عن ظاهر الآية وعن المعنى.

والصواب: أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ﴾ يعود على العابدين ﴿لَهُمْ﴾ يعود على الأصنام ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: حاضرون. فالمعنى أن هذه الأصنام لا تستطيع نصرهم، ولكن هؤلاء العابدين ينتصرون للأصنام ويكونون جنداً لها كما قال قوم إبراهيم: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾[1] فهؤلاء العابدون يعبدون ما لا ينفعهم ولكنهم هم ينتصرون لهذه الأصنام ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ ليدافعوا عن هذه الأصنام، فيكون في هذا التصرف نقص من وجهين:

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٨.

الوجه الأول: أنهم هم ينصرون هذه الأصنام وينتصرون لها ويدافعون عنها.

الوجه الثاني: أنهم انتصروا لشيء لا ينفعهم، والغالب أن الإنسان العاقل إنما ينتصر لمن ينفعه، وينتصر له، وأما من لا ينتصر له ولا ينفعه بشيء لا يمكن أن ينتصر له.

فالمعنى الذي ذكرناه هو المتعين في الآية وهو المناسب، وهو الذي ينادي عليهم بالسفة والضلال.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾: صحة إطلاق الإله على غير الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ ولكن هل هذه الآلهة حق؟

الجواب: لا، هي آلهة باطلة لقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[1] فهي وإن سموها آلهة وعبدوها كما يعبدون الرب عز وجل فإنها لن تكون آلهة، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[2].

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء الذين اتخذوا هذه الآلهة توهموا فيها أنها تنصرهم، ولكن أبطل الله هذا الوهم بقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان المبطل لابد أن

---

(١) سورة الحج، الآية: ٦٢.

(٢) سورة النجم، الآية: ٢٣.

يتعلق بشيء يبرر به باطله، وهو هنا رجاء النصر ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾، وكل إنسان مبطل لابد أن يعلل ما ذهب إليه من الباطل كما مر كثيراً في أقوال أهل البدع.

٤ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أن هذه الآلهة لا يمكن أن تنصر عابديها لقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

فإن قلت: أليسوا يستغيثون بالآلهة فيغاثون أحياناً؟

فالجواب: نعم، يمكن، وهو امتحان وفتنة، ولكن هذا الغوث حصل عندها لا بها، وفرق بين أن يكون الشيء حصل بالشيء، أو حصل عنده، والسبب غير، فسبب هذا الغوث الفتنة، وليس دعوة هذه الأصنام لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾﴾[1].

٥ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء العابدين جند محضرون لأصنامهم، يدافعون عن الأصنام وينتصرون لها، لقوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ وفي هذا من المناداة بسفههم ما هو ظاهر، حيث يستنصرون بمن لا يستطيعون نصرهم، وهم ينصرونها، وهذا من السفه كيف تنصر شيئاً لا يستطيع نصرك ولا تستفيد منه، ولهذا يعتبر قوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ كالدليل على سفه هؤلاء. أي: أنهم ينتصرون لهذه الآلهة وينصرونها مع أنها لا تنصرهم، وهذا الذي قررته بناء على ما

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٥.

اخترناه من أن معنى الآية (وهؤلاء العابدون للمعبودين جند محضرون) أما على رأي المؤلف فهو يرى خلاف ذلك، يرى أن هذه الأصنام جند لهؤلاء، لكنهم محضرون في النار جميعاً، وسبق بيان ضعف هذا القول.

* * *

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

الخطاب في هذه الآية للرسول ﷺ ومعنى ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ أي لا يوقعك في الحزن، والحزن هو الندم والهم والتأسف لما مضى، والخوف هو الهم والترقب لما يستقبل. ولا شك أن هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ يقولون في الله عز وجل، ويقولون في رسول الله ﷺ قولاً عظيماً، والنبي ﷺ يحزن لهذا؛ لأنه أنصح الخلق للخلق، فيحزنه أن يتكلم هؤلاء بما عاقبته سيئة عليهم، وإن كان هذا لا يضره، ولكن يحزن، فقال الله عز وجل: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[1] أي: لعلك مهلك نفسك لعدم إيمانهم، وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[2] والآيات في تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام وتقويته على التحمل والصبر على تكذيب هؤلاء كثيرة، وقد قالوا أشياء كثيرة: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[3] وهذا طعن في الألوهية.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٧.

(٣) سورة ص، الآية: ٥.

وقالوا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾[1] وهذا طعن في الرسالة، وقالوا: إن محمداً ﷺ مجنون، وشاعر، وكاهن، وساحر، وهذا أيضاً عيب في شخصية الرسول ﷺ، ومن المعلوم أن الإنسان بشر سوف يتأثر إذا صودمت دعوته في لبها وأصلها وقيل: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ والإنسان إذا صودم قوله الفقهي مثلاً يحس بنفسه بضغط، لكن إذا كان سيهدم أصله يكون أشد وأعظم، وإذا عيب عيباً ذاتياً يكون أشد وأشد.

ولهذا يُسلي الله نبيه محمداً ﷺ في مثل هذه التوجيهات ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾.

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٦﴾. هنا يجب الوقوف على قوله: ﴿قَوْلُهُمْ﴾ لأنك لو وصلت لأوهم أن تكون جملة ﴿إِنَّا نَعْلَمُ﴾ من قولهم، وليست كذلك بل هي جملة استئنافية لبيان حال هؤلاء الذين يقولون ما يقولون في رسول الله ﷺ وما جاء به، وحالهم أنهم مهددون بعلم الله عز وجل لما يسرون وما يعلنون، ما يسرونه فيما بينهم، وما يعلنونه للناس، ما يسرونه في أنفسهم، وما يبدونه لغيرهم، فعندنا إسراران:

الإسرار الأول: إسرار الإنسان ما في نفسه بحيث لا يعلم به أحد.

الإسرار الثاني: إسرار الأمر بينهم فلا يخرج لغيرهم، ونضرب لهذا مثلاً:

هؤلاء قوم عددهم عشرة يتحدثون فيما بينهم بأمر من

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٤٣.

الأمور، لكن لا يخرج لغيرهم فهذا إسرار، وأحد هؤلاء العشرة أضمر في نفسه شيئاً لم يخبر به زملاءه فهذا أيضاً إسرار.

فقوله: ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ يشمل هذا وهذا، أي: ما أسره كل إنسان في نفسه، وما أسروه فيما بينهم دون أن يعلنوه لغيرهم، وفي هذا من التهديد ما هو ظاهر، فالله تعالى يعلم ما يسرونه وما يعلنونه، وسوف يجازيهم على ذلك يوم القيامة.

* * *

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يرى بمعنى يعلم، والمعنى: أولم يعلم، والاستفهام هنا للتقرير، والمراد به التوبيخ، (والواو) حرف عطف، والمعطوف عليه: إما مقدر بعد الهمزة، وإما ما سبق، وعلى الثاني تكون الهمزة منقولة عن مكانها، وأصله على القول الثاني (وألم ير) وقوله: ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ قال المؤلف: [وهو العاصي بن وائل] وعلى رأي المؤلف تكون (ال) هنا للعهد الذهني، ولكن الصحيح أن (ال) للجنس، أي: جنس الإنسان، ومنه العاصي بن وائل؛ لأن الأصل في (ال) أنها لبيان الجنس، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ يعني: جنس الإنسان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[1] ووجه كون ذلك هو الأصل. أن العهد يحصرها في شيء معين، والأصل بقاء اللفظ على عمومه، فإذا قال قائل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إنه فلان بن فلان، فنقول الله

---

(١) سورة العصر، الآيات: ١ ـ ٣.

عز وجل، قال: ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وهو شامل، إذاً فالصحيح أنه عام، لكن نجعل العاصي بن وائل مثالاً لمن قال هذا القول، أو لمن رأى هذا الرأي ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ قال المؤلف: [مني إلى أن صيرناه شديداً قويًّا ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ شديد الخصومة لنا ﴿مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ بينها في نفي البعث] فالإنسان خلق من نطفة، وهو هذا المني، المهين كما وصفه الله عز وجل، هذا الماء المهين الذي خلق منه الإنسان، إذا رجع الإنسان إلى أصله وجد أنه كالنخامة ليس بشيء، ثم بعد هذا ينشئه الله عز وجل حتى يعطيه الفصاحة والبلاغة وقوة الحجة، وبعد أن يتربى بنعم الله في بطن أمه، ثم من صدر أمه بالثديين، ثم بما أنعم الله عليه من أنواع الطعام والشراب يقوى ويشتد عقله، وفكره، وذهنه فيكون خصيماً، ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ أي شديد الخصومة؛ لأن فعيل بمعنى فاعل، لكن تدل على المبالغة.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ أي: بيّن، والذي يظهر أنها ﴿مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ بمعنى مُظهر، يعني مظهر لخصومته؛ لكونه شديد الخصومة قويها، وسيأتي إن شاءالله بيان نوع من جدل الإنسان وخصومته، فـ﴿مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ أي: مظهر للخصومة، خلافاً لقول المؤلف: بينها.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: بيان أن الإنسان خلق من ضعف؛ لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهو كذلك.

٢ ـ ومن فوائدها أيضاً: أن هذا الإنسان الذي خلق من هذه المادة الضعيفة يترقى حتى يكون ذا خصومة مبينة؛ لقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: النداء على الإنسان بالظلم، وجه ذلك: كيف يكون هذا الذي خلق من هذه النطفة يبلغ به الحد إلى أن يكون خصيماً لله عز وجل بيّن الخصومة؟! لأن الإنسان يجب عليه إذا نظر إلى أصله أن يعرف قدر نفسه، لا أن يكون مخاصماً لربه عز وجل.

٤ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن الخصومة بالباطل مذمومة، ووجه ذلك أن الآية سيقت مساق الذم لا مساق المدح.

أما الخصومة لإثبات الحق وإبطال الباطل، فإنها ممدوحة لقول الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1].

ولولا الجدال مع أهل الباطل ما تبين الحق، ولا اندحض الباطل، فلابد للإنسان من الجدال في إثبات الحق، وإبطال الباطل، أما إذا كان الأمر بالعكس فإنه مذموم.

ومن هنا يمكن أن نقسم الجدال إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: جدال محمود، مأمور به: إما وجوباً، أو استحباباً.

القسم الثاني: جدال مذموم، منهي عنه.

القسم الثالث: وجدال بين بين.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

أما الجدال الممدوح فهو الذي يقصد به إثبات الحق، وإبطال الباطل، وهذا مأمور به، وهو كالجهاد في سبيل الله، فكما أن المجاهد مأمور بأن يحمل السلاح ضد عدوه ويقاتله، فطالب العلم مأمور بأن يحمل سلاح العلم، وهو المجادلة بالحق ليدحض به الباطل.

والقسم الثاني: بالعكس وهذا مذموم منهي عنه قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[1].

والقسم الثالث: بين بين، يعني لا يأمر به، ولا ينهى عنه، لكن لا شك أن تركه أولى، وهو الجدال في أمور لا تمس إلى الحق أو الباطل بصلة، كما يحصل في كثير من المجالس من المجادلات، فهذا لا شك أنه لا خير فيه، وأنه من المراء الذي ينبغي للإنسان تجنبه.

ثم إن أفضى إلى مفسدة كان منهيًّا عنه، وذلك إذا كان مع الجدال والمراء والمحاورة عداوة بين المتجادلين، أو تعصب لأحدهما من الحاضرين، ويحصل في ذلك تحزُّب.

وإن أفضى إلى مصلحة كان مأموراً به، مثل: أن يكون المجادل مغروراً بنفسه، ويرى أنه لا يغلبه أحد، فتجادله من أجل أن تكسر حدة هذا الغرور، وإن كان لا يترتب على هذا فائدة في حد ذاته، لكن فيه فائدة لغيره وهي كسر غرور هذا الشخص، حتى لا يبقى زاهياً في نفسه، مترفعاً على غيره.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١٦.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ يعني هذا الإنسان الذي كان خصيماً مبيناً ضرب مثلاً لله عز وجل، يريد التعجيز والإنكار، وتقرير نفيه، وهذا المثل يبينه بقوله: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ ولهذا جاءت الجملة مفصولة عما سبق؛ لأنها وقعت بياناً لمبهم في قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾.

﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ﴾ يعني ابتداء خلقه، أنه خلق من ماء مهين، فكان هذا الإنسان الخصيم المبين، والجملة في قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ﴾ جملة يحتمل أن تكون جملة خبرية، ويحتمل أن تكون جملة حالية، أي: وقد نسي خلقه، يعني أنه في ضرب المثل قد نسي أصله، وهو أنه من مني ثم كان إنساناً سويًّا خصيماً مبيناً.

المثل بيّنه بقوله: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ يقول المؤلف رحمه الله: [ونسي خلقه من المني وهو أغرب من مثله]. لأن مثله الذي ضربه إعادة شيء كائن، وخلقه من المني ابتداء خلق، وأيهما أشد امتناعاً لو كان فيه امتناع على الله تعالى؟ الابتداء، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾[1] فإذا كان كذلك فإن الإنسان الخصيم المبين يكون ضالاً من وجهين:

الوجه الأول: استغرابه قدرة الله عز وجل على الإعادة.

الوجه الثاني: نسيانه أول الخلق، حيث نسي أنه خلق من

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٧.

ماء مهين، حتى صار إنساناً قويًّا خصيماً مبيناً.

﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨﴾ أي: بالية و﴿مَن﴾ استفهامية، والمراد به النفي، أو الإنكار، يعني لا أحد يحيي العظام وهي رميم. فالإنسان إذا مات ورم، أي: ذهب لحمه، وعصبه، وصارت عظامه تتفتت لقدمها، فهي إذاً رميم، هذه العظام الرميم هي أبعد شيء عن الحياة؛ لأنها تشبه التراب فهي أبعد شيء عن الحياة فكيف تحيا هذه العظام؟ هذا وجه استغراب هذا الرجل المنكر ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨﴾ قال المؤلف: [أي بالية، ولم يقل رميمة بالتاء لأنه اسم لا صفة] الرميم تارة يراد به الصفة، يعني اسم المفعول، أو اسم الفاعل مرمومة، أو رامة.

وتارة يراد بها الاسم: يعني أن العظم إذا بلى يسمى رميماً، فلما قصد به الاسم لم يحتج إلى التاء فقيل: (رميم) لأنه مثل أسد، وحجر، وشجر وما أشبه ذلك، لكن لو أريد الصفة لكان يؤنث فيقال: (رميمة) لأن العظام جمع، وكل جمع قابل للتأنيث لاسيما وأنه قال: ﴿وَهِيَ﴾ وهذه ضمير مؤنث.

قال المؤلف: [روي أنه أخذ عظماً رميماً ففتته وقال للنبي ﷺ: أترى يحيي الله هذا بعدما بلي ورم؟ فقال النبي ﷺ: «**نعم ويدخلك النار**»[1]]، المؤلف ساق هذا الأثر بالتضعيف؛ (روي) وهو جدير بذلك، لأن هذا الرجل المنكر سواء أنكر أمام النبي ﷺ أو خلف ظهره فإنه منكر بكل حال، وليس من عادة الرسول عليه

---

(١) ابن جرير الطبري في تفسيره ج ٢٢ ص ٣١.

الصلاة والسلام أن يعامل الناس بمثل هذا الأسلوب بقوله: «**نعم ويدخلك النار**» فالأثر هذا يحتاج إلى نظر في سنده، وفي صحته.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن المجادل بالباطل يأتي بالشبهات التي ينصر بها باطلة؛ لقوله: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ فإن هذه شبهة تلبس على العامة؛ لأنه لم يقل: (من يحيي العظام) فقط، بل قال: ﴿وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ فكيف تحيا بعد أن رمّت؟ فأهل الباطل يأتون بالشبهات ليلبسوا على الناس.

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذا الإنسان استهان بربه حيث ضرب له الأمثال للتعجيز، لقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ يعني قال: أنا أضرب لكم مثلاً بهذا الشيء الذي يعجز: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن المعارض للحق قد يصرح بالإنكار بدون مراوغة لقوله: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ﴾ وأحياناً «يراوغ». فأيهما أهون؟

الذي يصرح ويبين أهون؛ لأن هذا يمكن أن يتقى شره، أما المراوغ فإنه في الواقع خطر، ولهذا كان خطر المنافقين على الإسلام أشد من خطر الكافرين الذين يصرحون بالعداوة؛ لأن المنافقين يغرون الناس ولا يمكن التحرز منهم.

* * *

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

يقول الله تعالى مبيناً قدرته على إحياء العظام وهي رميم: ﴿قُلْ﴾

الخطاب للرسول ﷺ ﴿قُلْ﴾ لهذا الذي أنكر أن يحيي الله العظام وهي رميم ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ واعلم أن الله عز وجل إذا قال للرسول عليه الصلاة والسلام «قل» فهو أمر له بالإبلاغ.

ومن المعلوم أن النبي ﷺ مأمور بإبلاغ القرآن عموماً لقوله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[1]. فإذا خص شيئاً من الأحكام، أو من الأخبار بـ(قل) كان في ذلك عناية خاصة بهذا الذي أمر أن يقوله؛ لأنه أمر أن يبلغه على وجه الخصوصية، ومعلوم أن ما كان على وجه الخصوصية فهو أوكد مما دخل في العموم، وخلاصة هذه القاعدة: أن الله إذا أمر نبيه ﷺ بقوله: (قل) فهذا أمر خاص بتبليغ هذه المسألة، سواء كانت خبراً، أو كانت حكماً. ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لم يقل: (يحيها الله) ليكون الجواب متضمناً للدليل، لأنه لو قال: (يحيها الله) فهم الإنسان أن الله هو الذي يحييها، لكن إذا قال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كان هذا الجواب متضمناً للدليل ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والذي أنشأها أول مرة هو الله عز وجل، ولم يخلق أحد من الخلق هذه العظام ولم ينشأها أول مرة، فإذا كان الله عز وجل أنشأها أول مرة، فهو قادر على إعادتها، لأن الإعادة أهون من الابتداء. وهذا هو الدليل الأول على إمكان إحياء هذه العظام وهي رميم، ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ووجه الاستدلال بهذا: أن القادر على الابتداء قادر على الإعادة من باب أولى.

ثانياً: قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ قال المؤلف:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

[﴿خَلْقٍ﴾ بمعنى مخلوق] فجعل المصدر بمعنى اسم المفعول، والذي يظهر أن المراد بالمصدر نفس المصدر، ومن المعلوم أنه لا مخلوق إلا بخلق، لكن إذا قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ صار في هذا نص على علمه بالخلق أي: كيف يخلق، وكيف ينشأ الخلق، فيكون أدل على قدرته على إحياء الموتى مما إذا قلنا وهو بكل مخلوق، لأنك إذا قلت بكل مخلوق صار علمه بالمخلوق بعد خلقه، لكن إذا كانت الآية على ظاهرها ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ يعني: أنه يعلم كيف يخلق، والعالم بكيفية الخلق إذا أراده لم يستعصِ عليه، لأنه إذا كان عالماً لم يبق إلا الإرادة، وإذا أراده وهو بكل خلق عليم، صنع ما علم عز وجل، فكونه بكل خلق عليم دليل على أنه قادر على أن يعيده، لأن الذي يعجز إما أن يكون لعجزه، وإما يكون لجهله، هنا لما قال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هذه القدرة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ هذا انتفاء الجهل، فإذا انتفى العجز المستفاد من قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وانتفى الجهل المستفاد من قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ صار الخلق ممكناً.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: بيان قوة الإقناع في إقامة الحجة من كلام الله عز وجل: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فأقوى ما يسوق الحجج ويبينها هو كلام الله، لأن كلام الله عز وجل أبلغ الكلام وأحسنه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ

حَدِيثًا ﴾[١] ، فحديث الله عز وجل لا شك أنه أصدق الحديث وأتمه، وأحسنه في الإقناع، وإقامة الحجة.

٢ ـ من فوائد الآية الكريمة: الاستدلال بالأشد على إمكان الأخف؛ لقوله: ﴿ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فقد استدل بالأشد على إمكان الأخف، فالأشد إحياؤها أول مرة، والأخف الإعادة.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي للمستدل المناظر أن يأتي بالشيء الذي يقر به خصمه، من أجل أن تقوم عليه الحجة؛ لأنه قال: ﴿ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ والخصم هنا لا ينكر أن الله تعالى أنشأها أول مرة.

فينبغي أن تأتي بالشيء الذي يُقر به خصمك لتقيم الحجة عليه بإقراره، وهذا أدب من أدب المناظرة، لأنه أقرب إلى الإقناع، وله نظائر منها:

ـ أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما ناظر الذي حاجه في ربه فقال إبراهيم: ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾[٢] . فعدل إبراهيم عن ذلك، وقال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ ﴾[٣] وهذا يقر به الخصم، ﴿ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾، وهذا لا يمكن للخصم أن يقوم به.

فالحاصل أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم طرق المناظرة

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

والمحاجة، وأن يأتي خصمه من الوجهة التي يقر بها حتى يقيم عليه الحجة؛ لأن المناظرة والمحاجة وسيلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: تمام قدرة الله سبحانه وتعالى بإنشاء هذه العظام لأول مرة؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يخلق هذه العظام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ﴾[1] مع أن الذباب ليس فيه العظام القوية الصلبة، فإذا كانوا لا يقدرون على ذلك فهم على ما هو أعظم أعجز.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: علم الله سبحانه وتعالى بكل خلق، وسبق لنا في التفسير هل الخلق هنا بمعنى المخلوق، أو بمعنى الفعل؟ وذكرنا أنه يحتمل الأمرين، لكن احتمال الفعل أكثر، يعني كل خلق فالله عليم به، ومن المعلوم أن العالم بالخلق عالم بالمخلوق كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2] إذاً يستفاد من ذلك عموم علم الله سبحانه وتعالى بكل خلق، أي: بكل صنع يصنعه مما نتصور، ومما لا نتصور، وبكل مخلوق؛ لأن العالم بالخلق عالم بالمخلوق.

* * *

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ

(١) سورة الحج، الآية: ٧٣.
(٢) سورة الملك، الآية: ١٤.

تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ قال المؤلف: [أي: في جملة الناس ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ المرخ والعفار، أو كل شجر إلا العناب ﴿نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾].

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ ﴿جعل﴾ بمعنى صيَّر، والذي جعل لنا من الشجر الأخضر ناراً هو الله عز وجل، وأراد المؤلف بقوله: [في جملة الناس] أن هذا الجعل ليس خاصًّا بالمخاطبين، أي: برسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، بل هو عام لكل أحد، فهو جعل لهم في جملة الناس من الشجر الأخضر، المؤلف يقول: [المرخ والعفار]. وبناءً على كلامه تكون (ال) للعهد الذهني، ويكون عامًّا أريد به الخاص، ولكن سبق لنا أن هذا خلاف الظاهر، وأن (ال) الأصل فيها أنها تفيد الجنس، أي: العموم.

فالصواب أن المراد ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ﴾ أي: من كل شجرة كما قال، وقوله: [إلا العناب] لا نعرف عن هذا شيئاً هل إنه مستثنى، وأن العناب لا يمكن أن تأتي منه النار ـ الله أعلم ـ على كل حال نحن نقول عندنا الأصل: ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ عامة، والشجر الأخضر فيه الرطوبة، والرطوبة يلزم منها البرودة، والنار التي تخرج من هذا الشجر الرطب البارد، يابسة وحارة، فهذا اليابس الحار متولد من رطب بارد، ولا يخفى ما بين الرطوبة والبرودة وبين الحرارة واليبوسة من التنافر العظيم.

فإذا كان الله عز وجل يولد هذا الشيء الذي بينه وبين المولد منه من التنافر ما هو ظاهر، فهو قادر على إحياء العظام وهي

رميم؛ لأن كونه يخلق الضد من الضد، أبلغ في القدرة من كونه يخلق الشيء من لا ضد، وهذا أمر ظاهر.

إذاً هذا الدليل الثالث على إمكان إحياء العظام وهي رميم.

وقوله: ﴿ فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ «الفاء» هنا عاطفة و«إذا» فجائية يعني: أنه بمجرد ما أن تضرب عوداً بعود من هذا الشجر تقدح النار، فتوقد منه، فلا يحتاج إلى كبير عناء، بل إن الإيقاد أمر سهل، مفاجأ للعملية، والمفاجأة استفدناها من كلمة ﴿ فَإِذَآ ﴾ وفي قولنا ﴿ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ دليل على استمرارية هذا العمل؛ لأن الجملة الإسمية تفيد الثبوت والاستمرار، وهذا أمر لا أحد ينكره، فلا أحد ينكر أنه يتولد من الشجر الأخضر ناراً يوقد الناس منها.

﴿ فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ قال المؤلف رحمه الله: [تقدحون وهذا دال على القدرة على البعث، فإنه جمع فيه بين الماء والنار والخشب، فلا الماء يطفىء النار، ولا النار تحرق الخشب].

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: بيان قدرة الله عز وجل حيث يتولد من هذا الشيء الرطب البارد، شيء حار يابس. فتولد الشيء من ضده دليل على كمال القدرة؛ لأن العادة أن الضدين متنافران، لا يلتقيان أبداً، وهنا صار أحدهما يتولد من الآخر.

٢ ـ ومن فوائدها أيضاً: الاستدلال بالأشد على الأخف؛ لأن التنافر بين الرطب واليابس، والحار والبارد، أعظم من أن

يعاد الخلق، أو تعاد العظام بعد رميمها، فالقادر على هذا الشيء قادر على إحياء الموتى.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: بيان نعمة الله علينا بجعله من الشجر الأخضر ناراً، ووجه الدلالة أنه قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم﴾ وإلا لكان يكتفي فيقال: (الذي جعل من الشجر الأخضر ناراً) لكن ذلك لمصلحتنا، ففيه نعمة من الله عز وجل على عباده بهذه النار. وقد قرر الله هذه النعمة بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾[1] ولا أحد ينكر ما في الطاقة الحرارية من المنافع العظيمة للخلق، فأنواعها بل أجناسها لا تحصى، فضلاً عن أفرادها.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: تقرير الشيء بالواقع فبدلاً أن نلقيه تصوراً في الذهن نذكر واقعه بالفعل، تؤخذ من قوله: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ فهو سبحانه وتعالى بين أنه جعل لنا من الشجر الأخضر ناراً، وهذا يعطينا تصوراً بأن الله سبحانه وتعالى جعل لنا من الشجر الأخضر ناراً، نستفيد منها، ثم حقق ذلك بذكر الأمر الواقع ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: تحسونه بواقعكم، وتلمسونه بأيديكم.

* * *

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾. أجاب الله تعالى نفسه بنفسه، وخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، كما قال الله تعالى:

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٧١، ٧٢.

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[١] وهذا أمر معلوم بالحس والمشاهدة، فالبشر كلهم لا يساوون كوكباً من الكواكب، فما بالك بهذه الكواكب والنجوم التي لا يحصيها إلا الله عز وجل، والسماوات العظيمة التي قال الله تعالى فيها: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[٢] ؟ والذي خلق السموات والأرض أفلا يكون قادراً على خلق الناس؟ الجواب: بلى والله، فالذي خلق هذه الأجرام العظيمة بما أودعها من المصالح العظيمة، قادر على أن يخلق مثلهم بالأولى والأحرى، وهذا هو الدليل الرابع.

قال: ﴿ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ قال المؤلف: [الخلاق: الكثير الخلق] فجعل فعّالاً من صيغة المبالغة، ولا شك أن الله عز وجل كثير الخلق، لكن ينبغي أن نقول أيضاً: إن فعّالاً هنا نسبة، أي: أنه موصوف بالخلق، ووصفه بالخلق أبلغ من وصفه بإيجاد الخلق، أو بفعل الخلق، يعني أننا لو قلنا: فلان نجار. ماذا يفيد قولنا: (إنه نجار) إذا جعلناه من باب النسبة، وماذا يفيد إذا جعلناه من باب المبالغة؟ إذا جعلناه من باب المبالغة: فالمعنى أنه كثير النجارة، فنجار يعني كثير النجارة، ولكن هل هو مجيدها؟ وهل هو مستحق لأن يوصف بهذه المهنة فيقال نجار؟ وهل النجارة وصفه، بمعنى أنه حاذق متقن لها؟ لا يلزم قد يكون وقد لا يكون.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٥٧.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

أما إذا قلت: (نجار) على أنها نسبة، أي: صاحب صنعة، فهو أبلغ في الوصف، والنجار، أي: ذو الصنعة المتقن لها سواء نجر كثيراً أو قليلاً فهو نجار متقن. فهنا يمكن أن نقول: ﴿وهو الخلاق﴾ نحملها على النسبة المفيدة لوصف الله عز وجل بهذه الصفة العظيمة، أي: ذو الخلق المتقن على أكمل وجه، ومع هذا فإن الله سبحانه وتعالى اجتمع في حقه الوصف والفعل يعني كثرة الخلق، فلا شك أن خلق الله عز وجل لا يحصى أجناساً، فضلاً عن الأنواع، فضلاً عن الأفراد، من ذا الذي يحصي أجناس الخلق؟ من ذا الذي يحصي أنواع هذه الأجناس؟ ومن الذي يحصي أفراد هذه الأنواع؟ لا يستطيع أحد أن يحصي ذلك.

إذن فقد اجتمع في حق الله سبحانه وتعالى الأمران: النسبة الوصفية كمال الوصف، والثاني: الكثرة التي تفيدها صيغة المبالغة، فإذا كان الله سبحانه وتعالى خلاقاً، أي: من وصفه الخلق اللازم له، وكذلك كثير الخلق، هل يعجز عن أن يحيي العظام وهي رميم؟ لا.

﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ العلم دليل على القدرة على الإعادة؛ لأننا قلنا: إن عدم الإعادة إما أن يكون للعجز، وإما أن يكون للجهل، فكلما وصف الله نفسه بالعليم فإن ذلك يعني أنه قادر؛ لأنه لا يجهل كيف يخلق، وكيف ينشأ.

الفوائد:

١ ـ من فوائد هذه الآية الكريمة: الاستدلال بالأشد على الأخف؛ لأن الله تعالى استدل بقدرته على خلق السموات

والأرض على قدرته على إحياء العظام وهي رميم.

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى وعظمته حيث خلق هذه السماوات والأرض، بما فيهما من المصالح والمنافع، والأجرام الثابتة وغير الثابتة، وهذا دليل على كمال قدرته سبحانه وتعالى. وقد خلق الله تعالى السماوات والأرض في ستة أيام، ومع عظمتها وسعتها وكبرها قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾[1] أي: من تعب وإعياء.

٣ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الرد على الفلاسفة الذين يقولون: بقدم الأفلاك وجه ذلك: أنه قال: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أي: أوجدها من العدم، ومعلوم أن الموجد ليس بقديم، والقديم عندهم هو الأزلي الذي لا بداية له، فالسماوات والأرض كانت معدومة، ثم أوجدت بقدرة الله سبحانه وتعالى، وأما من قال: بقدم الأفلاك، وأنه لم تزل ولاتزال هذه الطبيعة، فإنه ظالم لا يعلم عن هذا شيئاً؛ لأنه بنى الأمر على غير دليل عقلي ولا نقلي، بل إن الدليل العقلي والنقلي يدل على إمكان حدوث هذه الأفلاك، وأنها حادثة.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: جواز إجابة السائل نفسه في الأمر المحقق المتقرر لقوله: ﴿ بَلَىٰ ﴾.

إذ قد يقول قائل: إن إجابة المتكلم نفسه لا معنى لها؛ لأن أجابته دعوى، أو تقرير لدعوى ادعاها.

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٨.

فيقال في الجواب: إذا كان الأمر ثابتاً واقعاً فإن إجابته نفسه لا تأتي بشيء جديد سوى أنه يقرر ما كان واقعاً معلوماً للمخاطب؛ ولهذا قال ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾.

٥ ـ في هذه الآية فائدة نحوية وهي: أن جواب الاستفهام المقرون بالنفي، إذا أريد إثباته يقال فيه: ﴿بَلَىٰ﴾ ولا يقال: نعم؛ لأنك لو أجبت بنعم، لكان ذلك تقريراً لنفي المنفي، مثاله:

لو قلت: أليس زيد بقائم؟ فقلت: نعم، يعني قررت النفي ليس بقائم، فإن قلت: بلى، فقد أثبت القيام.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الخلق وصف الله عز وجل الذي هو متصف به أزلاً وأبداً لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ فهو موصوف بالخلق من قبل أن يخلق؛ لأن صفة الخلق أزلية والمخلوق حادث، فهو عز وجل متصف بالخلق، ولهذا قلنا: إن النسبة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ أظهر من كونها للمبالغة.

٧ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: وصف الله تعالى بالعلم الأزلي؛ لقوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ ولا شك أن الله تعالى موصوف بالعلم أزلاً وأبداً، فإنه لم يزل ولايزال عالماً، لم يسبق علمه جهل، ولا يلحقه نسيان، كما قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾[1].

* * *

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

قال المؤلف: [﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾ شأنه] يعني شأنه وحاله إذا

(١) سورة طه، الآية: ٥٢.

أراد شيئاً أن يقول له: ﴿كن﴾ فيكون، فلا يحتاج إلى إحضار آلات بناء مثلاً، أو إلى جنود يساعدونه، ولا إلى أن يعمل بيده عز وجل، بل يقول: ﴿كُن﴾ فيكون. وقوله ـ رحمه الله ـ: [شأنه] قد ينازع فيها، ويقال: إن المراد بالأمر أمر التكوين، يعني أمره أن يقول: ﴿كُن﴾ بدون أن يكرر كما في قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾[1] فجعل الأمر واحد الأوامر. والمؤلف يريد أن يجعل الأمر واحد الأمور.

ويمكن أن نقول بالأمرين جميعاً نقول: شأنه عز وجل في تمام قدرته أن يقول للشيء: (كن) فيكون، وأمره إذا أراد الشيء أن يقول: (كن) بدون تكرار، ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾[2]. ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ قال المؤلف رحمه الله: [أي خلق شيء ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ أي: فهو يكون]. والأولى أن لا نقيد ﴿شيئاً﴾ بالخلق، بل نقول: إذا أراد شيئاً خلقاً، أو إعداماً، فالأولى إبقاء الآية على إطلاقها ﴿شيئاً﴾ سواء كان خلقاً، أو إيجاداً، أو إعداماً وإتلافاً. ولكن الذي حمل المؤلف ـ رحمه الله ـ على أن يقول: [خلق شيء] لأن السياق للاستدلال على الخلق، وهو الإيجاد، فلهذا خصها به، ولكننا إذا قلنا: إنها على إطلاقها فإنها لا تمنع الخلق كما لا تمنع الإعدام. فالأولى أن يقال: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ أي أيجاد شيء وخلقه، أو إعدامه.

---

(١) سورة القمر، الآية: ٥٠.

(٢) سورة النازعات، الآية: ١٣.

وقد يعتذر عن المؤلف فيقال: إن الإعدام فيه نوع خلق؛ لأن إتلاف الشيء القائم خلق، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾[1] مع أن الموت عدم وفناء، والأمر في هذا سهل، قال: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ ﴿كُن﴾ هنا الظاهر أنها تامة، وإذا جعلناها ناقصة صار المعنى: كن كذا. أي: تحول إلى كذا، لكن إذا جعلناها تامة صار المعنى أشمل، لتشمل ما أراد الله تعالى تحويله من شيء إلى شيء، وما أراد الله إيجاده أصلاً. يعني ﴿كُن﴾ أي: أن يوجد ويتكون، أو (كن كذا) أي بأن يكون الطويل قصيراً، والقصير طويلاً وما أشبه ذلك، فإذا جعلناها تامة صار هذا أشمل ﴿فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ قال المؤلف: يقول: [فهو يكون، وفي قراءة بالنصب عطفاً على ﴿يقول﴾] قراءتان سبعيتان لأنه قال: [في قراءة] واصطلاح المؤلف ـ رحمه الله ـ إذا كانت القراءتان سبعيتين أن يقول: (وفي قراءة) وإذا كانت إحداهما شاذة قال عن الشاذة (قُرِىءَ). في قوله: ﴿فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ على قراءة الرفع بالفاء هنا للاستئناف، وجملة (يكون) خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير فهو يكون، أما على قراءة النصب فهي معطوفة على ﴿أن يقول﴾ للشيء: كن فيكون، والفاء على كلا الوجهين دالة على الترتيب والتعقيب، يعني أن الشيء يكون فوراً بدون تأخير، وقد بين الله تعالى سرعة هذه الفورية في قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾[2] ولمح البصر ليس شيء أسرع

(١) سورة الملك، الآية: ٢.

(٢) سورة القمر، الآية: ٥٠.

منه، وأمر الله عز وجل واحد كلمح البصر، وإذا كان هذا أمر الله وشأن الله فهل إذا قال للعظام الرميمة: كوني إنساناً سويًّا هل يمتنع عليه ذلك؟ لا، ولهذا قال الله تعالى في سورة النازعات: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾[1] وقال في هذه السورة: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

الفوائد:

١ ـ من فوائد هذه الآية الكريمة: الاستدلال بعموم قدرته عز وجل وتمامها على قدرته على إحياء الموتى.

٢ ـ ومن فوائدها أيضاً: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى التامة التي لا يضاهيها، ولا يقاربها قدرة، لأنه إذا أراد شيئاً لم يتكلف لإحضار المواد، أو غيرها مما يتكون به هذا الشيء، وإنما يقول: ﴿كُن﴾ فيكون.

٣ ـ ومن فوائدها: إثبات الإرادة لله لقوله: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ وإرادة الله سبحانه وتعالى كما قال أهل العلم تنقسم إلى قسمين: شرعية، وكونية.

فالشرعية: هي التي بمعنى المحبة.

والكونية: هي التي بمعنى المشيئة.

والفرق بينهما من حيث الأثر:

(١) أن الإرادة الكونية لابد فيها من وقوع المراد.

(٢) أن المراد فيها قد يكون محبوباً لله، وقد يكون غير محبوب لله.

---

(١) سورة النازعات، الآيتان: ١٣ - ١٤.

أما الإرادة الشرعية: فقد يقع فيها المراد، وقد لا يقع، ولا يكون المراد فيها إلا محبوباً لله.

فإذا قال لك قائل: هل الله يريد الكفر؟

فقل له: أما شرعاً، فلا، وأما كوناً، فنعم.

ولو قال لك قائل: هل الله يريد الإيمان؟

فقل: نعم يريده شرعاً، وقدراً إن وقع، لأنه إذا وقع فقد أراده قدراً، وإذا لم يقع فلا نعلم هل أراده قدراً أو لا؟ بل نقول: إنه الآن لم يرده قدراً.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات القول لله؛ لقوله: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

٥ ـ ومن فوائدها: أن كلام الله عز وجل يكون بحرف؛ لقوله: ﴿كُن﴾ فإن «كن» كلمة مكونة من حرفين، وإثبات أنه بصوت لقوله: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ فهذا الخطاب موجه لما أراده الله، وهو يقتضي أن يكون هذا المراد سامعاً لهذا القول، ولا سماع إلا بصوت.

فيكون في الآية رد على قول الأشاعرة في كلام الله عز وجل حيث يقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وأن ما يسمع من الأصوات والحروف وهو عبارة عن كلام الله، ويرون أن هذا المسموع مخلوق، ولهذا قال بعض المحققين منهم، أو المنصفين منهم: إنه في الحقيقة لا فرق بيننا وبين المعتزلة في كلام الله؛ لأننا متفقون على أن ما بين دفتي المصحف فهو مخلوق. فإذا كانوا متفقين على هذا، فإن قول المعتزلة قد يكون

خيراً من قولهم؛ لأن المعتزلة يقولون: إن ما بين دفتي المصحف كلام الله. فكلهم يقولون: إنه مخلوق، لكن المعتزلة يقولون: إنه كلام الله، والأشاعرة يقولون: إنه عبارة عن كلام الله، فإضافته إلى الله على رأي الأشعرية مجاز لا حقيقة، وعلى كل حال في الآية رد على الأشعرية في تفسيرهم لكلام الله عز وجل، وحقيقة الأمر أنهم لا يثبتون الكلام؛ لأنهم إذا جعلوا الكلام هو المعنى القائم بالنفس فكأنما جعلوا الكلام هو العلم؛ لأن العلم هو المعنى القائم بالنفس، أما الكلام والقول فهو أمر زائد على ذلك.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن أمر الله عز وجل إذا وجه لشيء فإن هذا الشيء يكون كما أمر؛ لقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ أي فيكون على ما أمر الله به، في العين، والوصف، فإذا أراد الله إيجاد شيء قال: ﴿كُن﴾ فكان على حسب ما أراده الله عز وجل.

* * *

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

(سبحان) بمعنى تنزيهاً، وهي اسم مصدر، والمصدر: تسبيح، وهي ملازمة للنصب على المفعولية المطلقة دائماً، وملازمة أيضاً للإضافة حتى لو قطعت عن الإضافة لفظاً فهي مضافة تقديراً.

و(سبحان) معناها: التنزيه أي أن الله منزه عن النقص في صفاته، وعن مماثلة المخلوقين، فمثلاً ينزه أن يكون وجهه كوجه المخلوق، وينزه أن يعتري صفاته نقص بأي وجه، فمثلاً: العلم، علم البشر ناقص ابتداءً، وانتهاءً، وشمولاً، ابتداءً؛ لأنه مسبوق

بالجهل، وانتهاء؛ لأنه ملحوق بالنسيان، وشمولاً ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[١] لكن علم الله عز وجل كامل من هذه الوجوه كلها ابتداء، وانتهاء، وشمولاً، فهو سبحانه وتعالى عالم بعلمه الذي هو موصوف به أزلاً وأبداً، وهو لا ينسى كما قال موسى عليه الصلاة والسلام، ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾[٢] وعلمه شامل لكل شيء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾[٣] ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾[٤].

فالله تعالى منزه عن النقص في صفاته الثابتة له، ومنزه عن مماثلة المخلوقين، وقلنا: مماثلة، ولم نقل مشابهة والفرق واضح:

أولاً: أن المماثلة هي التي جاء نفيها في القرآن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[٥] ولم يقل: «ليس كشبهه شيء» وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾[٦].

ثانياً: أنه ما من شيئين موجودين إلا وبينهما نوع من التشابه، ولولا ذلك ما فهمنا من صفات الله شيئاً.

فمثلاً: الوجود للمخلوق وللخالق، بينهما تشابه من حيث

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(٢) سورة طه، الآية: ٥٢.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥.
(٤) سورة الطلاق، الآية: ١٢.
(٥) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٦) سورة النحل، الآية: ٧٤.

أصل المعنى، وإن كان هذا يختلف.

العلم: علم الخالق وعلم المخلوق، بينهما تشابه من حيث أصل المعنى لكنهما يختلفان.

فإذا نفيت المشابهة مطلقاً فهذا نفي للوجود في الواقع.

ثالثاً: أن المشابهة صار نفيها عند كثير من الناس نفياً للصفات؛ لأن كثيراً من أهل التعطيل يصفون من يثبت الصفات بالمشبهة، فإذا قلت: من غير تشبيه يعني من غير إثبات؛ لأن كل مثبت عندهم مشبه.

فلهذا كان التعبير بنفي التمثيل أولى من التعبير بنفي التشبه من ثلاثة أوجه.

فتنزيه الله عن كل نقص دليل على قدرته على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن عجزه عن إحياء العظام وهي رميم نقص ينافي التنزيه، فإذا ثبت أن الله عز وجل منزه عن كل نقص، لزم من ذلك تنزيهه عن العجز عن إعادة هذه العظام.

﴿بِيَدِهِۦ﴾ أي: بتصرفه مع إثبات اليد، فنحن نقول في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[1] وما أشبهها ليس المعنى أن الملك في يد الله عز وجل، لكن في تصرفه مع ثبوت اليد، كما قلنا في قوله تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾[2] بمرأى منا، مع ثبوت العين؛ لأن السفينة ليست في وسط عين الله عز وجل حاشا وكلا، فالمنكر أن تقول: بيده أي أمره بدون أن تثبت اليد، أما إذا قلت

---

(١) سورة الملك، الآية: ١.

(٢) سورة القمر، الآية: ١٤.

بيده بتصرفه وتدبيره مع ثبوت اليد فهذا هو المراد.

﴿مَلَكُوتُ﴾ كما قال المؤلف في أصل ﴿مَلَكُوتُ﴾ [ملك لكن زيدت الواو والتاء للمبالغة] أي: زيدت للمبالغة في ملك الله لكل شيء، لأن ملك الله لكل شيء ملك تام لم يسبق بعدم، ولا يلحق بزوال، بينما ملك غيره ملك ناقص بالأصل لم يملك هذا الشيء ثم ملكه بعد، ومع ملكه إياه فإن هذا الملك قابل للزوال، ثم إن ملكه إياه ليس ملكاً مطلقاً يفعل فيه ما يشاء بل هو ملك مقيد، أما ملك الله فهو تام. ولهذا جاءت الواو والتاء للمبالغة ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي ملك كل شيء.

وقوله: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ دليل على قدرته على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن الذي يملك كل شيء ملكاً مطلقاً ـ مبالغاً فيه بالواو والتاء ـ قادر على أن يحول هذا المملوك إلى ما شاء، ولهذا فسر المؤلف ـ رحمه الله ـ الملكية هنا بالقدرة، فقال: [أي: القدرة على كل شيء]، ولكن هذا الكلام فيه نظر، بل نقول: مالك لكل شيء، وإذا ملكه ملكاً مطلقاً فهو قادر على أن يتصرف فيه كما شاء.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ قال المؤلف: [تردون في الآخرة] أي: إليه لا إلى غيره ليجازيكم، ووجه الدلالة من هذه الجملة على القدرة على إحياء العظام وهي رميم أنه لا رجوع إلى الله في الآخرة إلا بعد إحياء هذه العظام الرميم، ولو قلنا: بعدم القدرة لانتفى الرجوع إلى الله عز وجل، وإذا انتفى الرجوع إلى الله تعالى صار وجود الدنيا كلها عبثاً ولعباً، وهذا لا شك أنه منافٍ لكمال الله عز

وجل، فمجرد رجوعنا إلى الله تعالى يلزم منه القدرة على الإحياء. ولا يمكن أن نقول بعدم الرجوع؛ لأنا إذا قلنا بعدم الرجوع لكان إيجاد الخلق عبثاً، وهذا ممتنع غاية الامتناع.

فهذه عشرة أدلة في هذه الآيات على قدرة الله عز وجل على إحياء العظام وهي رميم، والله على كل شيء قدير، ولو لم يكن عندنا إلا هذه الجملة العامة ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾[1] لكان كافياً في بيان قدرته سبحانه وتعالى على إحياء العظام وهي رميم.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: تنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل نقص وعيب، ويؤخذ من قوله: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ﴾ ومر علينا في التفسير أن الذي ينزه الله عنه أمران:

الأول: النقص في صفاته.

الثاني: مماثلة المخلوقين.

فعلمه عز وجل لا يناله نقص، لا من حيث الشمول، ولا من حيث السبق، ولا من حيث اللحوق، ولا يماثل علم المخلوقين، وهكذا بقية الصفات.

٢ ـ ومن فوائدها: أن ملكوت السماوات والأرض وكل شيء فهو بيد الله عز وجل؛ لقوله: ﴿ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فهو مالك لكل شيء، ولا أحد يشركه في ملكه، كما قال عز وجل: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٧.

ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[١] .

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن مرجع الخلائق إلى الله لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ وهذا الرجوع يشمل الرجوع إلى الله يوم القيامة، والرجوع إلى الله تعالى في أحكام الخلق الكونية، والشرعية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾[٣] .

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: بيان حكمة الله سبحانه وتعالى وذلك بكون الرجوع إليه، وأنه لابد من الرجوع إلى الله؛ لأنه لولا هذا الرجوع لكان خلق الخلق عبثاً لا فائدة منه، إذ إنه لولا هذا الرجوع والمجازاة على هذا العمل في هذا الرجوع لكانت الخليقة خلقت ليفسد في الأرض من يفسد، ويحصل الفتن والشرور والنهاية لا شيء.

٥ ـ في هذه الآيات كلها: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

إثبات قدرة الله سبحانه وتعالى على إحياء العظام وهي رميم وذلك من عشرة أوجه:

الأول: قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإنه فيه استدلالاً بالأشد على الأخف.

---

(١) سورة سبأ، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.

الثاني: قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ وعلمه بكل خلق يقتضي أنه سبحانه وتعالى قادر على إحياء العظام وهي رميم.

الثالث: قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ فإن من جعل من هذا الأخضر البارد الرطب ناراً وهي يابسة محرقة قادر على أن يعيد الخلق؛ لأن جعل النار من الشجر الأخضر أبلغ في القدرة.

الرابع: قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فقدرته على خلق السموات والأرض دليل على قدرته على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن خلق السموات والأرض أعظم ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾.

الخامس والسادس: قوله: ﴿ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ والخلاق صفة لازمة له، وكونه خلاقاً يشمل أن يخلق كل شيء، وكونه عليماً يدل على أنه لا يخفى عليه شيء من الخلق حتى يعجز عنه.

السابع: أنه لا يستعصي عليه شيء، بل إذا أمر بشيء كان في الحال؛ لقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

الثامن: تنزيه الله عز وجل عن كل نقص، ومن المعلوم أن العاجز عن إعادة الخلق ناقص، فإذا كان الله تعالى منزهاً عن كل نقص، كان ما وعد به من إحياء العظام وهي رميم واقعاً.

التاسع: قوله: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ومن بيده ملكوت كل شيء فإنه مالك لكل شيء، والمالك لكل شيء قادر على أن يوجد المعدوم، ويعدم الموجود.

العاشر: قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ فإن هذا هو نتيجة الخلق أن يبعث الخلق ويرجعون إلى الله ليجازيهم بما عملوا.

وإلى هنا انتهى تفسير هذه السورة العظيمة، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

المقدمة ..... أ
هل سورة يس مكية أو مدنية ٣
تفسير قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ٤
تفسير قوله تعالى: ﴿يسٓ﴾ ٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ٩
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ١٢
تفسير قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ١٤
تفسير قوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ١٦
تفسير قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ ٢٠
تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٢٤
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ ٢٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ٢٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ ٣٣
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ ٤١

تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ٥٣
تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ ٥٦
تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ ٥٨
تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ ٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ ٦٠
تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٦٤
تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ . ٦٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ٧١
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ٧٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ٧٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ ٨٠
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ٨٨
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ ٨٩
تفسير قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾ ٩٠

تفسير قوله تعالى: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ ٩٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ ٩٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ ٩٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ١٠٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ١١١
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ١١٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ ١١٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾ ١١٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ١٢٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ١٣٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ .. ١٣٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ ١٣٥

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ ١٤١
تفسير قوله تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ١٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ ١٥٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ ١٥٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ ١٥٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ١٥٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ ١٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ١٦٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ١٧٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ ... ١٧٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ١٧٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ ١٨٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ ١٨٤
فوائد قوله تعالى: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ١٩١

تفسير قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ١٩١
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ ١٩٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ ٢٠٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ ٢٠٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ ٢٠٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ٢١٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ٢١٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ ٢٢٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ٢٢٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ٢٢٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ ٢٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ ٢٣٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ٢٣٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ٢٣٩

تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ ٢٤٢
تفسير قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ٢٥٤
تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ ٢٥٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ ٢٧١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ٢٧٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ ٢٧٩
تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ ٢٨٣
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ... ٢٨٦
تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ٢٨٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ ٢٩٢
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ٢٩٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ ٢٩٨
تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ٣٠١
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ .. ٣٠٥
تفسير قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .. ٣١٠
الفهرس ٣١٩

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١)

تفسير القرآن الكريم

سورة الصافات

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

طبع بنفقات مؤسسة
الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

دار الثريا للنشر

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
إلا من أراد طبعه لتوزيعه مجاناً بعد مراجعة
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

المملكة العربية السعودية - عنيزة
ص . ب ١٩٢٩ هاتف ٠٦٣٦٤٢١٠٧ - ٠٦٣٦٤٢٠٠٩
www.ibnothaimeen.com

دار الثريا للنشر والتوزيع
فاكس ٤٠٢٢٦١٥ ص.ب ٩٤٣٨ الرياض ١١٤١٣
بريد الكتروني darthurayya@hotmail.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن من توفيق الله - سبحانه وتعالى - أن يسَّر لفضيلة شيخنا - تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه - تفسير سورة «**الصافات**» في دروسه العلمية التي كان يعقدها رحمه الله تعالى بالجامع الكبير في مدينة عنيزة.

وقد عهدت مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية إلى فضيلة الشيخ فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، أثابه الله، بالعمل لإعداد هذا الكتاب للنشر، فجزاه الله خيراً.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، موافقا لمرضاته، نافعاً لعباده، وأن يجزي فضيلة شيخنا عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ويضاعف له المثوبة والأجر، ويعلي درجته في المهديين، إنه سميع قريب.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللجنة العلمية

في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الصافات

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ[1] :

[سورة الصافات مكية، وآياتها ١٨٢].

المكية هي التي نزلت قبل الهجرة، فكل ما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وإن نزل في غير مكة.

وكل ما نزل بعد الهجرة فهو مدني وإن نزل في مكة.

وعليه، فإن قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ﴾ [المائدة: ٥]. التي نزلت على النبي ﷺ وهو واقف في عرفة، من المدني، هذا أصح الأقوال في المكي والمدني. أن ما نزل بعد الهجرة مدني، وما نزل قبلها مكي.

أما البسملة ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فإنها آية من كتاب الله مستقلة، ولهذا لا تحسب من آيات السورة التي بعدها، حتى في الفاتحة على القول الراجح: إنها ليست من السورة. وعلى هذا فالترقيم الموجود في المصاحف على خلاف القول الراجح، فإن الترقيم الموجود في المصاحف في الفاتحة عدت فيه البسملة آية من آياتها، والصحيح أنها كغيرها من السور

---

(١) أخي الكريم إذا مر بك: قال المؤلف. فالمراد به جلال الدين أبو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد بن محمد المحلي ـ رحمه الله تعالى ـ المتوفى سنة ٨٦٤هـ في تفسيره المسمى (تفسير الجلالين) حيث كان فضيلة الشيخ ـ رحمه الله ـ يعلق على ما تيسر منه وقد جعلت كلامه ـ رحمه الله ـ بين معكوفتين هكذا: [ ].

أن البسملة فيها آية مستقلة لا تحسب من آياتها. وهي مذكورة قبل كل سورة إلا سورة براءة، فإن سورة براءة لم يتقدمها بسملة، قيل: لأنها نزلت بالسيف، والبسملة رحمة فلا يناسب أن يذكر قبلها بسملة.

ولكن هذا ليس بصحيح، بل الصحيح أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لما كتبوا المصحف أشكل عليهم: هل براءة من الأنفال أو ليست من الأنفال، فتركوا البسملة ووضعوا خطًّا فاصلاً بينها وبين سورة الأنفال دون أن يضعوا البسملة.

ونحن نعلم أن البسملة لو نزلت قبل سورة براءة لثبتت؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]. فيكون اجتهاد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في ذلك مطابقاً للواقع، أي مطابقاً لكونها لم تنزل في أول هذه السورة.

أما من حيث معناها فإن قول القائل: بسم الله. يعني بكل اسم من أسماء الله، وإنما قلنا: بكل اسم من أسماء الله؛ لأن اسم مفرد مضاف فيكون للعموم، فليس قول القائل: بسم الله. يعني اسماً واحداً من أسماء الله، بل يعني جميع أسماء الله، وهذا يدلك على عظمة هذه البسملة، أنك تبتدىء متبركاً ومستعيناً بكل اسم من أسماء الله عز وجل.

والباء فيها للمصاحبة والاستعانة، للمصاحبة من أجل حصول بركتها: فإن البسملة فيها بركة، ولذلك إذا ذُكِرت على الذبيحة صارت الذبيحة حلالاً طاهرة، وإذا لم تُذكر صارت حراماً نجسة. إذا ذُكرت قبل الوضوء صار الوضوء صحيحاً. وإذا لم

تُذكر صار الوضوء فاسداً، على قول من يرى أن البسملة من شروط الوضوء، أو من واجبات الوضوء، ولكن القول الراجح في البسملة في الوضوء أنها سنة، لقول الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: لا يثبت في هذا الباب ـ أي في باب التسمية في الوضوء ـ شيء.

إذا ذكرت على الطعام طردت الشيطان عنه، وإن لم تذكر فإن الشيطان يشارك الآكل والشارب.

فالمهم أنها بركة، ولهذا نقول: الباء للمصاحبة أي: أن المبسمل يصطحب في بسملته البركة.

والاستعانة، لأنها تعين الإنسان على مهماته.

وأما (الله) فهو العلم الخاص بالله سبحانه وتعالى، لا يسمى به غير الله ومعناها: ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين. أي أن إله بمعنى مألوه، أي معبود.

فإذا قال قائل: أين الهمزة في الله؟

فالجواب: أنها حذفت للتخفيف؛ لكثرة الاستعمال. كما حذفت من ناس، وأصلها أُناس. وحذفت من شر وخير، وأصلها أشر وأخير.

أما (الرحمن) فهو اسم من أسماء الله، و(الرحيم) كذلك اسم من أسمائه. والفرق بينهما أن الرحمن باعتبار الوصف، والرحيم باعتبار الفعل، ولهذا جاءت الرحمن بهذه الصيغة الدالة على السعة، فرحمة الله واسعة شاملة لكل شيء، وأما (الرحيم) فهو الموصول رحمته إلى خلقه.

وتقسم الرحمة باعتبار اسم (الرحيم) إلى قسمين:

عامة وخاصة.

أما (الرحمن) باعتبار الوصف فهو عام؛ لأنه ذو رحمة واسعة، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾. [الأنعام: ١٤٧] هذه البسملة مشتملة على جار ومجرور، والجار والمجرور معمول لابد له من عامل، وهو المسمى بالمتعلق، فيقال مثلاً: الجار والمجرور متعلق بكذا، فأين متعلَّق البسملة؟ قال أهل العلم: متعلق البسملة فعل مقدر، متأخر، موافق للمبدوء به في مادته.

فإذا كنت تريد أن تتوضأ كان تقدير هذا المحذوف: باسم الله أتوضأ، وإذا كنت تريد أن تقرأ كان تقديره: باسم الله أقرأ، وعلى هذا فقس، قال النبي ﷺ: «**ومن لم يذبح فليذبح باسم الله**»[1] فقدر الفعل يعني ليقول: ذبحت باسم الله.

لماذا قدر فعلاً؟ لأنه الأصل في العمل. ولهذا كانت الأفعال تعمل بدون شرط. والأسماء لا تعمل إلا بشروط، كاسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة وغير ذلك.

وقدر متأخراً لوجهين:

الوجه الأول: تيمناً بالبداءة باسم الله.

والوجه الثاني: من أجل الاختصاص، لأن تأخير العامل عن المعمول يفيد الاختصاص والحصر.

وقدر موافقاً للمبدوء به في مادته، لأنه أخص وأدل على

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسياً في الأيمان (رقم ٦٦٧٤)، ومسلم في كتاب الأضاحي، باب وقتها (رقم ١٩٦٠) (١ ـ ٣).

المقصود، فأنت إذا أردت أن تتوضأ وقلت: باسم الله أتوضأ، كان أخص مما لو قدرت باسم الله أبتدىء.

قال الله عز وجل: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢﴾ الواو هنا للقسم، والقسم تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة.

فقولنا: «تأكيد الشيء» هذه هي فائدة القسم، أنه يفيد التوكيد بذكر معظم، كأن المقسم يقول: إنني أؤكد هذا، كما أؤكد عظمة المحلوف به، ولا يمكن أن أحلف بهذا العظيم عندي إلا على أمر مؤكد.

وقولنا: «بصيغة مخصوصة» هي صيغة القسم، وحروف القسم ثلاثة: الواو، والباء، والتاء.

فالواو: أكثرها استعمالاً. والباء أكثرها صيغة، يعني أن الباء يُحلَف بها مع وجود الفعل وحذفه، وتدخل على الظاهر وعلى المضمر. والتاء أخص من الواو.

فإذاً أعم حروف القسم بالنسبة للاستعمال الباء؛ لأنها تستعمل مع وجود الفعل فتقول: أحلف بالله لتفعلنَّ كذا. ومع حذفه فتقول: بالله لتفعلنَّ كذا.

وتستعمل أيضاً مع الاسم الظاهر مثل: أحلف بالله.

ومع الاسم المضمر مثل: إن الله ـ وبه أحلف ـ لعلى كل شيء قدير، فهنا دخلت الباء على الضمير.

أما الواو فهي أكثرها استعمالاً، لكنها لا تدخل إلا على الظاهر، ولا يذكر معها فعل القسم.

التاء هي أقلها استعمالاً وتختص بالظاهر، وتختص أيضاً بأسماء معينة، وهي: الله ورب، قال ابن مالك: والتاء لله ورب. فتقول: تالله لأفعلنَّ كذا، وتقول: ترب الكعبة لأفعلنَّ كذا، أو تالرب لأفعلنَّ كذا، ولا يذكر معها فعل القسم، فهي أضيقها استعمالاً.

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١﴾ الصافات اسم مجرور بواو القسم؛ لأن حروف القسم تجر. والصافات لها معنى ولها مراد، فما دل عليه اللفظ باعتبار اللغة فهو معنى، وما كان مراداً للمتكلم فهو المراد.

والمعنى في الصافات يعني الأشياء القائمات على خط واحد مستقيم، فكل شيء متعدد يقوم على خط واحد مستقيم يسمى صافًّا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ [الصف: ٤] يعني على خط مستقيم. هذا المعنى للصافات.

لكن ما المراد به؟ قال المؤلف: [الملائكة]، وأُنِّثت باعتبارها جماعات. وجماعات مؤنث.

وقد أخذ الزائغون بهذا الاشتباه أي تأنيث الملائكة، وقالوا: إن الملائكة بنات الله، ولهذا تذكر بصيغة التأنيث، ولكن لا شك أن هذا من باب التلبيس والتشبيه. فإن الله تعالى ذكر الملائكة بصيغة المذكر ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٥] ولم يقل: يسبحن بحمد ربهن، وعلى كل حال أنثت الملائكة باعتبارها جماعات؛ لأن الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ جماعات مختلفة، كل جماعة لها وظيفة معينة، فمنها من وظيفتهم العبادة الخاصة لله من التسبيح والركوع

والسجود وغير ذلك. ومنهم ملائكة موكلون بحفظ بني آدم، وملائكة موكلون بحفظ أعمالهم وكتابتها، وملائكة موكلون بأشياء أخرى، منها ما نعلم ومنها ما لا نعلم.

فإذا قال قائل: من الملائكة؟

فالجواب: أنهم عالم غيبي خلقوا من نور، واستعبدهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ في طاعته، فقاموا بها على أتم وجه، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فإن قال قائل: هذا التعريف يرد عليه أن الملائكة قد تُرى، فإن النبي ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلق عليها، وله ستمائة جناح قد سد الأفق[1]، وأحياناً يأتي جبريل بصورة بشر؟

فالجواب: أن هذا على سبيل الندرة، وما كان نادراً فإنه لا يخرم القاعدة، أو لا يبطل التعريف. والنادر كما يقول العلماء: ليس له حكم.

ما وجه كون الملائكة توصف بالصافات؟

قال المؤلف:

١ ـ [تصف نفوسها في العبادة، أو أجنحتها في الهواء، تنتظر ما تؤمر به]. هذا الصافات، وصفت بها الملائكة؛ لأنها تصف أنفسها للعبادة، يعني تهيئها لها.

٢ ـ أو يصفون عند الله ـ عز وجل ـ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات: ١٦٥ـ١٦٦].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين (٣٢٣٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى (١٧٤).

٣ ـ أو تصف أجنحتها في الهواء تنتظر ما تؤمر به، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾. [الملك: ١٩]

فالطير إذا كان في الهواء وقد وضع أجنحته هكذا، لا تتحرك. يقال: إنه صاف.

فإذا قال قائل: (أو) في قول المؤلف هنا للتنويع أو للشك أو ماذا؟

يحتمل أن هذه للتنويع، يعني أنها تصف هكذاوهكذا. أو أنها للشك للتردد بين قولين قال بهما المفسرون.

ولكن المعنى الأول أحسن؛ لأن هذا وصف للملائكة، فهي تصف أنفسها للعبادة، وكذلك تصف أجنحتها في الهواء تنتظر ما تؤمر به.

﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [الملائكة تزجر السحاب، أي تسوقه].

إذاً فالموصوف شيء واحد، فالصافات هُنَّ الزاجرات، وقوله: [تزجر السحاب (أي تسوقه) لعل هذا على سبيل المثال من زجر الملائكة؛ لأن الملائكة تزجر السحاب أي تسوقه، وكذلك تزجر الميت الكافر عند موته، تزجر نفسه لتخرج، تقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة. وكذلك لعلها تزجر أشياء أخرى لا نعلمها.

المهم أن المراد بالزاجرات الملائكة. وكيف كانت زاجرة؟ نقول: لهذا عدة أوجه منها: زجر السحاب، وزجر النفوس الكافرة عند الموت، وغير ذلك مما يأمرها الله به أن تزجره.

﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٣﴾ ﴾ [أي قُرَّاء القرآن يتلونه ﴿ ذِكۡرًا ﴿٣﴾ ﴾ مصدر من معنى التاليات]، قوله: ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٣﴾ ﴾ عدل المؤلف بهذا الوصف عن الموصوف الأول فقال: [قراء القرآن يتلونه] أي النفوس التاليات، ولو قيل: إن المراد بها الملائكة أيضاً، لأن الملائكة تتلوا القرآن، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾ ﴾. [عبس: ١١-١٦] فالملائكة تتلوا القرآن، فيمكن أن نجعل هذه الأوصاف الثلاثة كلها للملائكة.

والمؤلف ـ رحمه الله ـ أعرب ﴿ ذِكۡرًا ﴿٣﴾ ﴾ على أنها مصدر من معنى التاليات. فاستفدنا من هذا فائدة نحوية، وهي أن المصدر قد يكون من اللفظ، وقد يكون من المعنى، فإن كان من اللفظ، فهو مصدر لفظي، وإذا كان من المعنى فهو مصدر معنوي، فإذا قلت: قعدت جلوساً، فجلوساً مصدر معنوي. قعدت قعوداً مصدر لفظي، يقول المؤلف: [ذكراً مصدر من معنى التاليات]، يعني الذاكرات ذكراً، فالتاليات عنده بمعنى الذاكرات، وذكراً مصدر لها من معناها، ولكن الذي يظهر خلاف كلام المؤلف ـ رحمه الله ـ وأن ﴿ ذِكۡرًا ﴿٣﴾ ﴾ مفعول للتاليات؛ لأن التاليات اسم فاعل قد استوفى شروط العمل لكونه محلى بأل، وذكراً مفعول به، أي فاللاتي يتلين الذكر، والمراد بالذكر: القرآن وسمي ذكراً:

١ ـ لأنه ذكر لله ـ عز وجل ـ فإنه من أفضل الذكر.

٢ ـ ولأنه يذكر الإنسان بربه.

٣ ـ ولأنه يذكر الإنسان بأحكام ربه.

٤ ـ ولأنه يذكر الإنسان بنعم ربه.

٥ ـ ولأنه ذكر لمن عمل به أي شرف ورفعة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾. [الزخرف: ٤٤]

٦ ـ ولأنه يعظ صاحبه ويذكره، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾. [ص: ٢٩]

فالقرآن ذكر من هذه الوجوه

الفوائد:

١ ـ في الآيات الثلاث يقسم الله ـ عز وجل ـ بالملائكة باعتبار صفاتها: صافات، وزاجرات، وتاليات؛ لأن كل صفة منها تدل على عظمة الخالق عز وجل.

٢ ـ ومنها: فضيلة الملائكة في أحوالهم الثلاث: الصف، والزجر، والتلو؛ لأنه لا يحلف إلا بما كان أهلاً لأن يحلف به.

فإذا قال قائل: كيف حلف الله ـ عز وجل ـ بالمخلوق؟ لأن الملائكة مخلوقات مع أن الحلف بالمخلوق شرك.

فالجواب على ذلك: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ له أن يحلف بما شاء من خلقه، لأنه المالك كما أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يأمر بما شاء، أرأيت أمر الله تعالى الملائكة أن تسجد لآدم والسجود لغير الله شرك، لكن الله يأمر بما شاء، أرأيت أمره إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يذبح ابنه وذبح ابنه من أعظم الكبائر وصار بأمر الله طاعة لله ـ عز وجل ـ كذلك الحلف بغير الله شرك،

ولكن مع هذا لله أن يحلف بما شاء من خلقه. ولكن يجب أن نعلم أن الله لا يحلف بشيء من خلقه إلا كان هذا الشيء من أعظم آياته، فيكون الحلف بهذا المخلوق متضمناً للحلف بآيات الله ـ عز وجل ـ التي هي فعله، لأن عظم المخلوق يدل على عظم الخالق.

٣ ـ ومن فوائدها: أن من صفات الملائكة الصف، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الصافات ١٦٥] وقال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها**»[1].

٣ ـ ومن فوائدها: أن الملائكة موكلة بالتصرف: بالزجر كزجر السحاب وزجر الكفار عند احتضارهم لقوله: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾﴾.

٤ ـ ومن فوائدها: أن الملائكة تتلوا الذكر أي تتلوا القرآن، وهذا يدل على قيام الملائكة بعبادة الله، وعلى فضيلة القرآن حيث تتلوه الملائكة، لقوله تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾﴾.

* * *

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾﴾ الجملة هذه جواب القسم، ولذلك كسرت إنَّ هنا لوقوعها في جواب القسم؛ ولأنه اقترن خبرها باللام.

وإذا وقعت إنَّ جواباً للقسم وجب كسرها، وإذا اقترن خبرها باللام، أو اسمها المؤخر، أو معمول أحدهما باللام وجب كسرها.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ﴾ الخطاب يقول المؤلف: [يا أهل مكة]،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة باليد... (٤٣٠).

ولكن الصحيح أنه عام يشمل كل من خوطب، ولكن الذي أوجب المؤلف أن يجعله خاصًّا بأهل مكة؛ لأن هذه الآية مكية والمشركون هم أهل مكة.

ولكن لا ينبغي أن يقيد المعنى العام بمكان نزوله، وإذا كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المكان.

فالصواب ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ﴾ يعني أيها الناس ﴿لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾ يعني لا شريك له، والواحد والأحد وما أشبههما تدل على الانفراد، أي أنه ـ عز وجل ـ لا شريك له، ﴿إِلَٰهَكُمْ﴾ فِعال بمعنى مفعول، أي مألوهكم، والمألوه هو الذي يعبد محبة وتعظيماً، فبمحبته يقوم الإنسان بفعل الأوامر، وبتعظيمه ينتهي عن النواهي، إذاً إن معبودكم أيها الناس لواحد لا شريك له، فالله ـ عز وجل ـ لا شريك له في ربوبيته، ولا شريك له في ألوهيته، ولا شريك له في أسمائه وصفاته، دليل الربوبية قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦ـ٨٧] وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الرعد: ١٦] ودليل الألوهية قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. [محمد: ١٩].

ودليل الأسماء والصفات قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١]. فالله تعالى واحد في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، سبحانه وتعالى.

ويرد على هذا أن للمشركين آلهة متعددة؟

والجواب: أن نقول: نعم لهم آلهة لكنها آلهة باطلة،

والدليل على أنها باطلة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ٣٠] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾. [النجم: ٢٣].

ثم قال: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (رب) إما أن تكون عطف بيان، أو خبر مبتدأ محذوف، والتقدير هو رب السماوات والأرض.

ورب بمعنى خالق، ومالك، ومدبر، فهو الذي خلق السماوات والأرض، وهو الذي يملك السماوات والأرض، وهو المدبر للسماوات والأرض.

قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وهذا انفراده بالخلق والتدبير، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٢٧] وهذا انفراده بالملك.

والسماوات جمع سماء وهي معروفة، وعددها سبع سماوات بنص القرآن. قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾. [المؤمنون: ٨٦] وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾. [الطلاق: ١٢]

الأرض كذلك سبع لظاهر القرآن وصريح السنة:

أما ظاهر القرآن ففي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، [الطلاق: ١٢] فالمثلية هنا بالعدد؛ لأنه لا يمكن أن تكون الأرض مثل السماء في ذاتها ولا في سعتها وعظمتها، فالسماء أوسع وأعظم، ومادتها غير مادة الأرض؛ ولهذا يصف الله تعالى السماء بالقوة: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾. [النبأ: ١٢] ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ

سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾. [الأنبياء: ٣٢] ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] ولم يرد ذلك في الأرض. إذاً يتعين أن تكون مماثلة في العدد.

أما السنة فصريحة مثل قوله ﷺ: «**من اقتطع شبراً من الأرض طوقه الله يوم القيامة من سبع أرضين**»[1].

﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يعني ورب ما بينهما، ولا شك أن الذي بينهما مخلوقات عظيمة بدليل أنها جعلت قسيمة وعديلة للسماوات والأرض. فلابد أن تكون شيئاً عظيماً، ليس هي مجرد ما نرى من السحاب المسخر بين السماء والأرض، بل هناك أشياء عظيمة بين السماء والأرض من آيات الله ـ عز وجل ـ. نعرف منها السحاب فإنه بين السماء والأرض، والنجوم بين السماء والأرض، والشمس بين السماء والأرض، والقمر بين السماء والأرض، لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ٣٣] وما اشتهر عن علماء الفلك سابقاً من أن الشمس في السماء الرابعة، والقمر في السماء الدنيا، وعطارد وزحل والمشتري في السماوات الأخرى، وهي على هذا الترتيب.

زحل شرى مريخه من شمسه فتزاهرت بعطارد الأقمار

أعلاها زحل في السماء السابعة، (شرى) المشتري في السادسة، (مريخه) المريخ في السماء الخامسة، (من شمسه) الشمس في الرابعة، (فتزاهرت) الزهرة في الثالثة، بعطارد في

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض (رقم ٢٤٥٢، ٢٤٥٣)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها (رقم ١٦١٠) (١٣٧) واللفظ لمسلم.

الثانية، الأقمار في السماء الدنيا.

هذا هو المشهور عند علماء الفلك سابقاً، ولكن هذا خلاف الصواب؛ لأن ظاهر النصوص أن الشمس والقمر والنجوم كلها دون السماء، ليست ملصقة في السماوات، بل هي في فلك يدور بين السماء والأرض، والقمر هو أقربها إلى الأرض بدليل أنه يكسف ما فوقه كما شاهدناه وشاهده غيرنا، أحياناً تجده يمر من تحت النجمة فتغيب به، وهذا يدل على أنه تحت النجوم، على كل حال نقول: ما بين السماوات السبع السحاب والشمس والقمر والنجوم والكواكب وغيرها من أمور لا نعلمها، قد لا نعلم هذه الأمور، ويمكن أن العلم فيما بعد يطلعنا على شيء كثير منها.

﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي والمغارب للشمس، لها كل يوم مشرق ومغرب]، فكأنه من باب الاكتفاء بذكر المقابل عن مقابله، نظير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] يعني والبرد، فإن السرابيل التي هي القمص وشبهها تقي الحر والبرد.

والمشارق جمع مشرق، فما المراد بالمشارق؟ هل المراد كما قال المؤلف: مشارق الشمس لأنها كل يوم لها مشرق؟ أو نقول: إن المشارق أعم فتشمل مشارق الشمس، ومشارق القمر، ومشارق النجوم، ومشارق كل ما شرق. أيهما أعم؟ الثاني أعم. فنقول: رب المشارق يعني مشارق الشمس، ومشارق القمر، ومشارق النجوم، ومشارق كل ما يشرق. وذكر الله المشارق دون المغارب، لأن المشارق أدل على القدرة من المغارب، إذ إن

الشروق ابتداء والغروب انتهاء.

وفي الشروق ـ أيضاً ـ ولا سيما في شروق الشمس إضاءة ونور يظهر فيه تماماً كمال النعمة، وقوله ﴿المشارق﴾ هنا بالجمع، وفي بعض الآيات جاءت بالتثنية، مثل قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمن: ١٧] وفي بعض الآيات جاءت بالإفراد كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩] فهل هذا تناقض أم ماذا؟

الجواب: لا، وليس في القرآن شيء من التناقض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾. [النساء: ٨٢] فالقرآن لا يمكن أن يتناقض بنفسه، ولا أن يتناقض مع صحيح السنة. وانتبه نقول: مع صحيح السنة، لأنه قد تأتي سنة ضعيفة تناقض القرآن، ومناقضتها للقرآن يدل على ضعفها، لكن مع صحيح السنة لا يمكن، فإن وجد شيء ظاهره التعارض فإنه لابد أن يكون هناك وجه لتصحيح التعارض: إما بإمكان الجمع وهو المرتبة الأولى للعمل بالنصوص التي ظاهرها التعارض. وإما بالنسخ إن علم التاريخ وكان النص مما يدخله النسخ. وإما الترجيح يكون أحدهما أرجح من الآخر، ولابد من هذه المراتب الثلاث. لكن أحياناً قد لا يتسنى للناظر وجه من هذه الوجوه، قد يعجز عن الجمع، وقد لا يعرف النسخ، وقد لا يمكنه الترجيح، فموقفه حينئذ التوقف، وأن يقول: الله أعلم، ولا يجوز أن يعتقد بأي حال من الأحوال أن في القرآن أو صحيح السنة تناقضاً أبداً، لكن هل له أن يحاول معرفة هذه المراتب، أو إذا أشكل عليه أول

مرة وقف؟ يجب أن يحاول النظر مرة بعد أخرى حتى يتبين، لئلا يقع في نفسه شك فيزيغ والعياذ بالله، فهذه الفائدة جاءت عرضاً، وهي أنه ليس في القرآن تناقض لا في نفسه ولا مع صحيح السنة، فإن وجد شيء ظاهره التناقض والتعارض وجب أن نستعمل المراتب الثلاث.

أولاً: الجمع، فإن لم يمكن فالنسخ، فإن لم يمكن فالترجيح، فإن لم نصل إلى ذلك فالتوقف لكن مع محاولة الوصول إلى مرتبة من هذا المراتب.

فبناءً على هذه القاعدة يمكن أن ننزل الاختلاف الوارد في المشرق والمغرب فنقول: المشرق باعتبار الجهة يعني جهة الشرق، ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [المزمل: ٩] يعني جهة الشرق والمغرب جهة الغرب، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]. أي جهة الله على أحد التفسيرين، وأما المشرقين والمغربين فالمراد مشرقا الصيف والشتاء، ومغربا الصيف والشتاء، فالشمس مثلاً لها منتهى في مشرقها صيفاً، وهو مدار السرطان، ولها منتهى في مدارها شتاء وهو مدار الجدي.

فالفرق بين المشرقين فرق كبير، لا يستطيع أحد من المخلوقين أن يحول الشمس من مدار السرطان إلى مدار الجدي ولا شعرة واحدة.

وكذلك نقول بالنسبة للقمر؛ لأنه يدور على هذه المعالم: المشرقين والمغربين.

المشارق والمغارب الجمع فيها واضح، إما باعتبار مشارق، كل ما يشرق ومغارب كل ما يغرب من الشمس والقمر والنجوم والكواكب، وإما أنها المشارق اليومية للشمس، لأن كل يوم لها مشرق، وهذه المرتبة مرتبة الجمع، فالجمع بينها أن نقول: المشارق باعتبار مشارق كل ما يشرق، أو باعتبار المشارق مشارق الشمس كل يوم، والمشرقين باعتبار مشرقي الصيف والشتاء، ومغربيهما المشرق والمغرب الجهة.

الفوائد:

١ ـ من فوائد هذه الآيات: وحدانية الله ـ عز ـ وجل في ألوهيته لقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾.

٢ ـ ومن فوائدها: بطلان ألوهية ما سوى الله لقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾ فإذا كان واحداً فما سواه فهو باطل.

٣ ـ ومن فوائدها: أهمية التوحيد؛ لأن الله تعالى أقسم بالملائكة على ثبوت هذا التوحيد؛ ولأن الله تعالى أكده بثلاثة مؤكدات: القسم، إن، اللام. ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾.

٤ ـ ومن فوائدها: التناسب بين المقسم به وعليه، فالمقسم به الملائكة في حال تلك الأوصاف: الصف والزجر والتلو. والمقسم عليه وحدانية الله، والتناسب بينهما: أن الملائكة إنما تفعل ذلك توحيداً لله ـ سبحانه وتعالى ـ وتعظيماً له.

٥ ـ ومن فوائدها: إثبات الربوبية لله ـ سبحانه وتعالى ـ لقوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

٦ ـ ومن فوائدها: عموم ربوبيته في قوله ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾.

٧ ـ ومن فوائدها: التلازم بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، فإن قوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾ كالدليل على توحده بالألوهية، وذلك أنه إذا كان متوحداً بالربوبية لزم أن يكون متوحداً في الألوهية. كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] فكيف تعبدون غيره ممن لم يخلقكم ولا خلق أحداً؟

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ﴾. [الحج ٧٣]

ولهذا قال أهل العلم: من أقر بتوحيد الربوبية لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية وإلا كان متناقضاً؛ لأنه يقال له: كيف تقر بأن الله وحده هو الرب الخالق ثم تعبد معه من لا يخلق؟ وهل هذا إلا تناقض؟

وهذه الآية وما شابهها من آيات الكتاب العزيز تدل على التلازم بين توحيد الألوهية والربوبية، ووجه ذلك أنه يلزمه أن يقر بتوحيد الألوهية ولكن كيف تلزمه؟ لأنه إذا قال: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ واحد في الخلق فيجب ألا يعبد غيره.

٨ ـ ومن فوائدها: إثبات أن للسماوات عدداً لقوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وقد بين في مواضع بأنها سبع، وكذلك الأرض.

٩ ـ ومن فوائدها: الإشارة إلى عظم السماوات والأرض وما بينهما؛ لأن الله أضاف الربوبية إليها في مقام إقامة الحجة،

وهذا يدل على عظمتها، وأنها لعظمتها صارت كالدليل الملزم لتوحيد الألوهية.

١٠ ـ ومن فوائدها: أن بين السماوات والأرض من المخلوقات العظيمة ما اقتضى أن يكون ما بين السماء والأرض قسيماً للسماوات والأرض.

١١ ـ ومن فوائدها: تمام قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بتصريف المشارق والمغارب لقوله: ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ ولا أحد يستطيع أن يتصرف في هذه المشارق والمغارب لا بتقديم ولا بتأخير ولا بتغيير مكان، لو أن الخلق كلهم اجتمعوا على أن يقدموا طلوع الشمس بدقيقة واحدة، أو يؤخروها، أو يزحزحوها عن مكانها ما استطاعوا. وإنما ذلك إلى الله ـ عز وجل ـ هو الذي يتصرف فيها. وقد أمرها أن تسير كما أمرها بحكمته فسارت إلى أجل مسمى. فإذا أراد الله تعالى أن يغيرها غيَّرها وردها من حيث جاءت فشرقت من حيث غربت.

* * *

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ (إنا) الضمير يعود على الله ـ عز وجل ـ، واستعمال ضمير الجمع عائداً إلى الله من باب التعظيم، وليس من باب التعدد؛ لأن الآية تقول: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾ لكن هذا من باب التعظيم، وقوله: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ﴾ أي جعلنا عليها ما يزينها وهي الكواكب، ولهذا قال: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ وفي قراءة ﴿بزينةِ الكواكبِ﴾ وكلاهما صحيح. (بزينةِ الكواكبِ) أي بالكواكب المزينة للسماء كما قال

تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك ٥] و(الكواكب) على القراءة التي ساقها المؤلف مضاف إليه، وزينةِ مضاف غير منون (بزينةِ الكواكب)؛ لأن الكواكب نفسها زينة تزين بها السماء الدنيا.

فإذا قال قائل: السماء الدنيا. لماذا سميت دنيا؟

فالجواب: لأنها أدنى إلى الأرض مما فوقها، فهي دنيا، وربما نقول: إنها أدنى مما فوقها في السعة والقوة، لأنه كلما علوت اتسع المكان، لأن السماوات على الأرض دائرة كالكرة، ومعلوم أنك كلما صعدت فسوف يتسع وكلما اتسع فسيكون أقوى، لأنه لو كان المتسع بقوة ما تحته ضعف، إذ كلما اتسع البناء لابد أن يكون أقوى، ونضرب لك مثلاً: لو أنك أتيت بمسلح خمسة أمتار يحتاج مثلاً إلى ١٠سم لكن إذا جعلته ٢٠ يحتاج إلى أكثر، يعني يحتاج أن يكون سميكاً أكثر؛ لأنه لو كان بسمك الأول مع سعته لكان يهضم، وكلما اتسع فلابد أن يكون أشد بناء وأحكم.

وقوله: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ يعني أن الكواكب تزين السماء.

وسنورد على هذا إيراداً، وهو أننا ذكرنا قبل آنفاً أن النجوم والكواكب في فلك بين السماء والأرض، وظاهر الآية أن تزين السماء الدنيا بشيء لاصق به.

والجواب على ذلك أن يقال: إن الشيء قد يزين بالشيء، ولو كان منفصلاً عنه. أرأيت لو وضعت ثريات خارج القصر فإذا نظرت إلى القصر والثريات بينك وبينه فإن هذه الثريات ستكون

زينة للقصر مع أنها في الواقع ليست لاصقة به، فكل شيء يحول يكون بينك وبين شيء آخر فإنه سيتصف به الشيء الثاني، وسيكون في نظرك ملاصقاً له.

قال تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ يقول المؤلف: [حفظاً منصوب بفعل مقدر: أي حفظناها بالشهب] أي حفظنا السماء الدنيا حفظاً. بالشُّهُب كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] وقال هنا: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ (من كل) قال المؤلف: [متعلق بالمقدر ـ وهو حفظناها ـ (شيطان مارد) عاتٍ خارج عن الطاعة]، شيطان نكرة يشمل كل شيطان، بل هو نكرة مضافة إليه (كل) فيكون فيه نوعان من أسباب العموم وهو التنكير وإضافة (كل) إليه.

وشيطان قيل إنه مأخوذ من شاط يشيط، وعلى هذا فالنون زائدة. وقيل: إنه من شطن بمعنى بَعُدَ، فالنون أصلية، وهذا هو الظاهر أن النون أصلية وهو مأخوذ من شطن إذا بعد؛ لأن الشيطان قد بَعُدَ من رحمة الله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣٥﴾ [الحجر: ٣٥].

وقوله: (مارد)، المارد هو العاتي القوي العتو، والعياذ بالله.

وقوله: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي الشياطين مستأنف وسماعهم هو في المعنى المحفوظ عنه]، ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ الجملة ـ كما قال المؤلف ـ استئنافية، يعني أن الشياطين المردة لا يسمعون إلى الملأ الأعلى. هذه الجملة المستأنفة هي في المعنى المحفوظ عنه في قوله ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ

شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾ عن سماعهم إلى الملأ الأعلى، يعني أن السماء حفظت من الشياطين ألا يسمعوا إلى الملأ الأعلى ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ **الملائكة في السماء**، وعُدِّي قال المؤلف: [السماع بإلى لتضمنه معنى الإصغاء].

الملأ في الأصل الجماعة، ويطلق في الغالب على الأشراف، كما يمر كثيراً في المكذبين للرسل أن الله يقول: ﴿قال الملأ﴾، فالغالب أن الملأ هم الجماعة الأشراف والأعيان في قومهم.

ولا ريب أن الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أشراف؛ لأنهم عباد مسخرون لعبادة الله لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، منهم من أقوم عباد الله في طاعة الله وسيأتينا إن شاءالله في الفوائد هل هم أفضل من البشر، أو البشر أفضل منهم. وهنا يقول: ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾، أي الأعلى مكاناً، فإن السماء أعلى من الأرض، ويمكن أن يراد به الأعلى وصفاً فيجمع بين الأمرين، كما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا وصف بالأعلى فهو الأعلى مكاناً والأعلى وصفاً.

قال: [وعُدّي السماع بإلى لتضمنه معنى الإصغاء]، هذا جواب عن سؤال مقدر، وهو أن ﴿سَمِعَ﴾ في اللغة العربية تتعدى بنفسها، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾ [المجادلة: ١] وهنا قال: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾ ولم يقل: لا يسمعون الملأ، أجاب المؤلف عنه بأن الفعل ضمن معنى الإصغاء، والتضمين معناه أن يكون الفعل متضمناً لمعنى يناسب المعمول، سواء كان

مفعولاً به أو مجروراً، وهل التجوز إذا جاء مثل هذا التعبير هل يكون التجوز بالفعل أي أنه ضمن معنىً يناسب المعمول الذي تعدى إليه الفعل، أو أن التجوز في الحرف. ذكر أهل النحو في ذلك قولين:

القول الأول: وهو للكوفيين أن التجوز في الحرف.

والقول الثاني: أن الفعل متضمن معنى يناسب الحرف المتعدي إليه.

وأبين مثال لذلك قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾. [الإنسان: ٦] لو أننا أخذنا بظاهر اللفظ لكان المعنى أن هذه العين يُشرب بها، ومعلوم أن العين لا يمكن أن يشرب بها، لأنه لا يشرب إلا بالإناء من العين، فالعين لا يُشرب بها وإنما يشرب منها، فهل نقول: إن الباء هنا بمعنى (من) فيكون تجوز بالحرف، أو نقول: أن يشرب متضمن معنى يروى ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي يروى بها عباد الله بعد شربهم منها، ذكرنا في هذا قولين لأهل العلم، ولا ريب أن جعل التضمين في الفعل أولى من جعله في المعمول؛ لأنك إذا جعلت التضمين في الفعل استفدت فائدتين:

الفائدة الأولى: ما دل عليه لفظ الفعل.

الفائدة الثانية: ما دل عليه معنى الفعل المتضمن إياه.

أما إذا جعلت التجوز في الحرف فإنك لا تستفيد إلا معنى واحداً، وهو نزع الحرف وإحلال حرف آخر مكانه، ولم نستفد شيئاً ويبقى الفعل على ما هو عليه بمقتضى دلالة اللفظ، فالحاصل أن القول بأن الفعل يتضمن معنى يناسب الحرف، أو

يناسب المعمول أولى من القول بأن المعمول هو الذي فيه التجوز.

هنا ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾ نقول: الفعل يتضمن معنى الإصغاء. يعني لا يصغون إليهم مستمعين.

وفي قراءة بتشديد الميم والسين ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ وأصله يتسمعون، أدغمت التاء في السين فصارت يسَّمَّعون، والقراءة هذه سبعية؛ لأن في اصطلاح المؤلف أنه إذا قال: في قراءة، فهي سبعية وإذا قال: قُرِىءَ، فهي شاذة ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [أي الشياطين بالشهب من كل جانب من آفاق السماء، ﴿دُحُورًا﴾ مصدر دحره، أي طرده وأبعده وهو مفعول له]، ﴿وَيُقْذَفُونَ، الضمير يعود على الشياطين فإذا قال قائل: إنه لم يتقدم ذكر الشياطين، فالجواب: بلى، تقدم في قوله ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾، لأن كل شيطان عام، فيكون دالاً على الجمع، إذن يقذفون أي الشياطين المعلوم جمعهم من قوله ﴿كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾، ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾، الذي يقذفهم الله ـ عز وجل ـ بأمره، يأمر هذه الشهب فتقذفهم، فالقذف هو الرمي بشدة. ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾ أي من الجوانب التي تصيبهم من آفاق السماء. كما قال المؤلف. ﴿دُحُورًا﴾ يعني طرداً وإبعاداً. وهي كما قال المؤلف مفعول له، أي لأجل الدحور، والمفاعيل خمسة: المطلق، والمفعول به، والمفعول فيه، والمفعول له، والمفعول معه، وأمثلتها:

ضربت ضرباً أبا عمرو غداة أتى
وسرت والنيل خوفاً من عقابك لي

ضربت ضرباً مفعول مطلق، أبا عمرو مفعول به، غداة أتى المفعول فيه، وسرت والنيل المفعول معه، خوفاً من عقابك لي المفعول له.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ أي دائم فهم يعذبون في هذه الدنيا بهذه الشهب، ويعذبون في الآخرة بالعذاب الدائم؛ لأن الشياطين من أصحاب النار.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [مصدر أي المرة، والاستثناء من ضمير (يسمعون) أي لا يسمع إلا الشيطان الذي سمع الكلمة من الملائكة فأخذها بسرعة ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ﴾ كوكب مضيء ﴿ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ يثقبه أو يحرقه أو يخبله]، لما قال ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾ وكان هذا النفي عامًّا: يعني لا يسمع أي واحد من هؤلاء الشياطين إلى الملأ الأعلى، استثنى الشياطين المردة الذين يخطفون الخطفة، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ يعني أخذ الشيء بسرعة، وخطفة مصدر يدل على الوحدة، يعني إلا شيطاناً يخطف الخطفة فهذا يسمع، ولكن هل إذا خطف الخطفة ينجو؟ قال الله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ فهنا استثنى من نفي سماعهم إلى السماء، استثنى الذي يخطف الخطفة فهو يسمع، ولكن هل ينجو حتى يصل إلى الأرض؟ قال: ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ أي تبعه شهاب ثاقب يعني كوكب مضيء ثاقب أي نافذ ينفذ فيه فيخرقه أو يحرقه أو يخبله. وربما ينجو من هذا الشهاب إذا أراد الله ـ عز وجل ـ، ويصل إلى الكاهن ويوحي إليه بما سمع، ثم الكاهن يكذب مع ما سمع كذبات كثيرة مئة كذبة أو أكثر

أو أقل، ثم يحدث الكاهن الناس بما سيكون، فإذا وقع قال: إنه يعلم الغيب، واتخذ من هذا دعاية لنفسه، ولهذا كان الكهان في العرب في الجاهلية كانوا معظمين يتحاكم الناس إليهم، لأنهم إذا أخبروا من هذه الأمور من علم الغيب وقع ما أخبروا به وصار لهم شأن كبير عند الناس، فصار الشياطين ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قسم لا يمكنه السماع إطلاقاً.

القسم الثاني: قسم آخر يمكن أن يسمع على سبيل الخطف ويحرقه الشهاب.

والقسم الثالث: قسم يسمع على سبيل الخطف، وينجو، وكل هذا بإذن الله ـ عز وجل ـ وإرادته تبعاً لحكمته.

وكل هذه الآيات في بيان عظمة السماء، وأن السماء محفوظة محروسة لا يمكن أن يصل إليها أحد.

في هذه الآيات من الفوائد:

١ ـ بيان أن الله تعالى زين السماء بهذه الكواكب، فإنك إذا رأيت السماء في ليلة صافية ليس فيها قمر ولا حولك إضاءة وجدت لها من الحسن ما لا تتصوره من حسن هذه النجوم، فيها اللامع والخفي والقريب بعضه من بعض والمتباعد بعضه من بعض، والمختلف الأشكال مما يدل على عظمة الخالق عز جل، وأنه سبحانه وتعالى جعل هذه النجوم زينة للسماء.

وفيها أيضاً فائدة غير الزينة أشار إليها بقوله: ﴿وَحِفْظًا﴾.

وفيها فائدة ثالثة غير الحفظ والزينة: الاهتداء ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦] فهذه النجوم فيها هذه الفوائد الثلاث.

٢ ـ ومن فوائدها: أن السماوات متطابقة بعضها أدنى من بعض، لقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ مما يدل على أن هناك سماوات فوقها، وهو كذلك.

٣ ـ ومن فوائدها: عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ بخلقه حيث زين لهم السقف الذي فوق رؤوسهم؛ لأنه لو كان مظلماً حالكاً لا يرون فيه شيئاً منيراً لكان في ذلك شيء من الإيحاش، ولكن الله تعالى اعتنى بهذا فزينه لهم.

٤ ـ و منها عناية الله من وجه آخر حيث حفظ السماء الدنيا بهذه الكواكب، فإذا قال قائل: ما فائدة هذا الحفظ؟ قلنا: الفائدة لئلا تعبث الشياطين بما ينزل من السماء من الوحي، أو تعبث الشياطين بتغرير الخلق بالكهان وأنهم يعلمون الغيب.

٥ ـ ومن فوائدها: أن الشياطين مردة لقوله: ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ بناء على أن كلمة مارد صفة كاشفة، فإن جعلت صفة مقيدة ففيها دليل على أن الشياطين منهم مردة، ومنهم دون ذلك، والآية محتملة لأن تكون مارد صفة لكل شيطان، ومحتملة لأن تكون صفة لبعض الشياطين، وأن يكون بعضهم غير مارد.

٦ ـ ومن فوائدها: أن هؤلاء الشياطين لا يسمعون إلى الملأ الأعلى السماع الكامل بحيث ينالون مرادهم، بسبب هذه الشهب التي تحرقهم فلا يستطيع الواحد منهم أن يسمع سماعاً كاملاً يصغي إلى الملأ الأعلى كما يصغي الإنسان إلى شيخه وإلى محدثه، بل تجدهم يأتون إلى السماء خطفاً فيخطفون ما يسمعون دون أن يكون هناك مهلة وتأنٍّ؛ لأنها تخشى من الشهب.

٧ ـ ومن فوائدها: أن الشياطين أجسام لقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ لأنه لا يخرق ولا يحرق إلا ما كان جسماً وهو كذلك، فإن الشياطين أجسام، لكنهم أجسام لطيفة تخترق الأجسام الكثيفة أجسام البشر، ولهذا قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»[1].

كما أن الروح تجري من الجسد مجرى الدم، والروح جسم لطيف فكذلك الشياطين أجسام لطيفة تخترق الأجسام الكثيفة.

٩ ـ ومن فوائدها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد يعطي هذه الأجسام اللطيفة قدرة يصلون بها إلى السماء؛ لقوله: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾، ولا شك أنهم قد يصلون إلى السماء، وأن لديهم من القوة ما هو أشد من قوة البشر ذوي الأجسام الكثيفة، أرأيتم لما قال سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٨ـ٣٩] وكان له وقت معين يقوم فيه من مقامه، فقال: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك. يعني قبل أن يأتي الوقت الذي تقوم فيه، وكان سليمان عليه الصلاة والسلام في الشام، وعرش ملكة سبأ في اليمن، ويقول: آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده علم من الكتاب

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه (رقم ٢٠٣٨)، ومسلم في كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة كانت زوجته أو محرماً أن يقول: هذه فلانة ليدفع ظن السوء به (رقم ٢١٧٤) (٢٣).

والذي دعا الله ـ عز وجل ـ بما دعاه به: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك. يعني قبل أن ترسل طرفك ثم ترده، لأن الذي تأتي به الملائكة، والملائكة أقوى من الشياطين، فلهذا رآه في الحال. فلما رآه مستقرًّا عنده قال: ﴿**هذا من فضل ربي**..﴾ إلى آخر الآيات. المهم أن الشياطين لهم قوة وقدرة توصلهم إلى السماء، والذي أعطاهم هذه القوة والقدرة هو الله عز وجل..

١٠ ـ ومن فوائدها: فضيلة الملائكة، حيث وصفوا بأنهم الملأ الأعلى لعلو مكانهم ومكانتهم، ففيهم العلو الحسي والعلو المعنوي.

١١ ـ ومن فوائدها: أن الشهب التي تقذف بها الشياطين تأتيهم من كل جانب، فإلى أي جهة حاولوا الفرار يجدون الشهب، ولا يلزم أن تجتمع هذه الشهب عليهم، قد يكون شهاب واحد يأتيهم من جهة، لكن لو حاولوا الفرار أتاهم شهاب ثانٍ، وهكذا أي جهة يحاولون الفرار منها سيجدون الشهاب، قال: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾.

١٢ ـ ومن فوائدها: أن الشياطين ليست أهلاً لأن تحل السماء أو تقعد فيها أو تقرب منها، ولهذا يقذفون لإبعادهم دحوراً.

١٣ ـ ومن فوائدها: أن الشياطين مكلفون، يقع عليهم العقاب الدائم لقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ يعني دائم.

١٤ ـ ومن فوائدها: أن الشياطين قد تأتي بخبر السماء لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ ولكن قد يقول قائل: إن الله قال

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ ثم قال: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ وحينئذ لا يصل إلى مراده.

فالجواب: أنه قد دلت النصوص الأخرى على أنه قد يصل إلى مراده، فيصل إلى الكاهن قبل أن يدركه الشهاب.

* * *

ثم قال الله عز وجل: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾: قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [استخبر كفار مكة تقريراً أو توبيخاً ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ من الملائكة والسموات والأراضين وما فيهما، وفي الإتيان بمن تغليب للعقلاء].

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ يعني اطلب منهم الفتوى، والفتوى في الأصل هي الإخبار بالشيء، ولكنها في اصطلاح الفقهاء: هي الإخبار عن حكم شرعي.

وهنا ليس المراد بذلك الفتوى الشرعية، وإنما المراد بها الفتوى اللغوية، يعني: استخبرهم واسألهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا؟ فسيقولون من خلق الله أشد. كل يعرف أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وكذلك الذين يؤمنون بالغيب يقرون بأن ما غاب عنا من مخلوقات الله أعظم مما نشاهد. اللهم إلا أحداً يريد أن يكابر، ويقول: أنا أشد خلقاً، كما قال الشيطان لله عز وجل: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢﴾ [الأعراف: ١٢] وكما قال فرعون لقومه: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ [الزخرف: ٥٢] وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ النازعات: ٢٤] وإلا فكل يعلم أن المخلوقات العظيمة كالسموات والأرض

والشمس والقمر أعظم من خلق الإنسان.

قال المؤلف: [وفي الإتيان بمن تغليب العقلاء]، أي في قوله ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ ولم يقل: أما خلقنا. تغليباً للعقلاء، وذلك أن ما خلقهم الله ـ عز وجل ـ فيهم العقلاء وفيهم غير العقلاء، يعني فيهم من يعقل وفيهم من لا يعقل. فالملائكة والجن يعقلون، والبهائم والجمادات لا تعقل، وإن كانت البهائم أقرب إلى العقل من الجمادات، ومع هذا كل هذه الأشياء لها عقل تدرك به خالقها ـ عز وجل ـ، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وأخبر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن جبل أحد يحب النبي ﷺ والنبي ﷺ يحبه[1]. وغلب العقلاء مع أنهم الأقل لأنهم أفضل وأشرف.

قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي أصلهم آدم ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ لازب يلصق باليد، المعنى أن خلقهم ضعيف فلا يتكبرون بإنكار النبي والقرآن المؤدي إلى هلاكهم اليسير]. لما قال: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ بين أصل خلقهم ليبين هل هم أشد أم من خلق الله؟

والحقيقة أن الجملة ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ تحتاج إلى وقفة بالنسبة للإعراب. الهمزة للاستفهام و(هم): مبتدأ و(أشد): خبر، (خلقاً): تمييز. لأن أفعل إذا جاء الاسم بعدها منصوباً فهو

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب خرص التمر (١٤٨٢). ومسلم، كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه(١٣٩٢، ١٣٩٣).

تمييز. وأما (من خلقنا) فهذا هو المعادل، ولهذا فالهمزة هنا للتسوية يعني أيستوي هم ومن خلقنا؟ والجواب: لا. لا يستوون. بل من خلق الله أعظم. والله أعلم.

الفوائد:

١ ـ في هذه الآية الكريمة: ما يدل على أن الرسول ﷺ مكلف بالإبلاغ والمحاجة؛ لقوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ وهو كذلك، فإن الله أمره أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وأمره أن يجادل قومه ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وأخبر بأنه يحاجهم لقوله: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾. [آل عمران: ٢٠]

٢ ـ ويتفرع على هذه الفائدة: أن وظيفة أهل العلم الذين ورثوا علمه كوظيفته في هذا الباب فيلزمهم محاجّة أهل الباطل ومقارعتهم.

٣ ـ ويتفرع على ذلك: أن العلم نوع من الجهاد في سبيل الله؛ لأن طالب العلم يحاجُّ أعداء الشريعة بالحق ليدحض به باطلهم، وأحياناً يكون الغزو الفكري أعظم فتكاً من الغزو المسلح كما هو مشاهد، فإن الغزو الفكري يدخل كل بيت باختيار صاحب البيت بدون أن يجد معارضة أو مقاومة، لكن الغزو العسكري لا يدخل البيت، بل ولا يدخل البلد إلا بعد قتال مرير ومدافعة شديدة، فأعداء المسلمين يتسلطون عليهم ـ أحياناً ـ بالغزو المسلح بالقتال وهذا يمكن التحرز منه، وأحياناً بالغزو الفكري وهو أشد وأنكى من الغزو المسلح؛ لأنه يصيب المسلمين في قعر

بيوتهم ولا يعلمون به، ربما يخرجون من الإسلام ويمسح الإسلام من أفئدتهم مسحاً كاملاً، وهم لا يشعرون، لأنهم يغرون المسلمين بالشهوات، والقلب إذا انغمس بالشهوات: نسي ما خلق له، نسي عبادة الله، ولم يكن في قلبه تعلق بالله ـ عز وجل ـ. فتجد الإنسان في حال قيامه وقعوده وذهابه ومجيئه لا يفكر إلا بهذه الشهوات، ولا يسعى إلا لهذه الشهوات، وكأنه لم يخلق لغيرها.

كذلك يغذون في نفوس الضعفاء تعظيم هؤلاء الكفار، وأنهم أكثر تقدماً وأشد حضارة وأقوم طريقاً وماشابه ذلك. فينصهر المسلم في حرائق هؤلاء القوم، وهذا لا شك أنه موجود، وأن كثيراً من البلاد الإسلامية زالت معنوياتها وهلكت شخصيتها بسبب هذا الغزو الفكري. إنهم لو غزوا البلاد الإسلامية غزواً عسكريًّا لحلوا بأبدانهم البلاد، ولكن قلوب الناس نافرة منهم مبغضة لهم، لكن المشكل أن يغزو الناس بصفاتهم وأخلاقهم وعقائدهم وهم جالسون في بيوتهم قد فتحوا لهم القلوب هذا هو المشكل، وهذا هو الدمار، ولهذا كان الغزو بالسلاح العلمي المستمد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ مساوياً إن لم يكن أنفع وأبلغ من الغزو العسكري، فأنا أحثكم ـ بارك الله فيكم ـ وأحث نفسي على أن نعد العدة لمكافحة أعدائنا الذين يريدون أن يغزونا في بيوتنا بأفكارهم الخبيثة وأخلاقهم الملوثة، وبأفكارهم المنحرفة حتى نحمي المسلمين من شر هؤلاء؛ لأن سلاحهم أعظم فتكاً وأشد من سلاح الحديد والنار، كما هو ظاهر، وربما

من خرج منكم إلى البلاد الأخرى، عرف أكثر مما أعرف مما أدى إلى الانحراف في العقيدة، والانجراف وراء الشهوات التي أصبحت بعض البلاد الإسلامية كأنها بلاد كافرة، وهم الآن يحاولون أن يغزو هذه البلاد بكل ما استطاعوا، حتى إننا نجد ـ أحياناً ـ في الصحف ينشر الدعوة إلى اضمحلال أخلاق المسلمين وعاداتهم، ينشر أحياناً دعاية للأزياء الأوربية والإفرنجية، وبهذا اللفظ يفتح معرض للأزياء الغربية أو الأزياء الأوربية أو الموضات الأوربية أو ما أشبهه، كل هذا لأجل أن يفسدوا أخلاقنا، وإذا فسد الخلق فسدت العقيدة، وإذا فسدت العقيدة زال تعلق المسلمين بربهم، وحينئذ صاروا أضعف الأمم، نسأل الله الحماية والسلامة.

٤ ـ ومن فوائدها: أمر الله ـ تعالى ـ النبي ﷺ أن يتحدى هؤلاء المكذبين بالاستفتاء: أهم أشد خلقاً أم من خلقنا؟

٥ ـ ومن فوائدها أيضاً: أنه ينبغي في المجادلة أن يؤتى بما يقر به الخصم ليكون حجة عليهم؛ لأنهم سيقرون بأن من خلق الله أشد خلقاً منهم، فإذا أقروا بذلك قامت عليهم الحجة.

٦ ـ ومن فوائدها: عظمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعظمة خلقه؛ لأن عظم المخلوق يدل على عظم الخالق، ولهذا إذا شاهدنا قصراً جيداً في بنائه وهندسته، عرفنا أن الذي بناه كان جيداً ماهراً، والعكس بالعكس.

٧ ـ ومن فوائدها: الإشارة إلى خلق بني آدم أو إلى أصل خلقهم بأنهم خلقوا من طين لازب، يلصق باليد مهين لقوله:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ .

٨ ـ ومن فوائدها: بيان قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث خلق هذا الإنسان الخصيم المبين من هذا الطين ﴿ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ .

٩ ـ ومن فوائدها: الإشارة إلى إمكان البعث، وأن الله قادر عليه، وأنه القادر على هذه المخلوقات التي هي أشد خلقاً منهم وعلى خلقهم من الطين قادر على إعادتهم، ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ .

١٠ ـ ومن فوائدها: إثبات الخلق لله في قوله: ﴿ أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ وفي قوله: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم ﴾ .

١١ ـ ومن فوائدها أيضاً: تفاوت الخلق في العظم، لقوله: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ فتكون المخلوقات متفاوتة في عظمها ودلالتها على قدرة الله؛ لأن ما كان أعظم كان أدل على القدرة.

١٢ ـ ويتفرع على هذه الفائدة: أنه كما تتفاضل الآيات الكونية كذلك تتفاضل الآيات الشرعية، ولهذا كان أعظم السور في كتاب الله سورة (الفاتحة)[١] وأعظم آية (آية الكرسي)[٢] و (قل هو الله أحد) تعدل ثلث القرآن[٣] ، فالآيات الكونية تتفاضل

---

(١) عن أبي سعيد بن المعلى قال له رسول الله ﷺ : «**لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن**» قال: «**الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته**».
أخرجه البخاري كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب (٤٤٧٤).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسى (٨١٠)

(٣) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل ﴿قل هو الله أحد﴾ (٥٠١٥). =

بعضها أدل على القدرة من بعض، وكلها دليل على القدرة حتى الذباب أهون شيء يدل على قدرة الله ـ عز وجل ـ، وكذلك الآيات الشرعية.

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ في هذه الآية قراءتان بفتح التاء، فيعود الضمير على رسول الله ﷺ، وبالضم على الله سبحانه وتعالى، هذا هو القول الصحيح، وإذا كان عائداً إلى الله ـ عز وجل ـ فهل هو عجب حقيقي أو مجازي؟ الصحيح أنه حقيقي وأنه كسائر الصفات، فإذا قال قائل: إن العجب هو حالة تطرأ على الإنسان لفعل ما لا يخطر له على بال، أو لحصول ما لا يخطر له على بال، فكيف يمكن أن يوصف الله به؟

فالجواب أن نقول: إن أنواع العجب ثلاثة أقسام: عجب استحسان، وعجب إنكار، وعجب استفهام، والعجب الذي بمعنى الاستفهام لا يكون في حق الله؛ لأنه يكون لخفاء الأسباب على هذا المستغرب للشيء المتعجب منه بحيث يأتيه بغتة بدون توقع، وهذا مستحيل على الله تعالى؛ لأن الله تعالى بكل شيء عليم. مثال: للعجب الذي يحمل عليه الاستحسان «يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة»[1]، مثال عجب الإنكار من الله ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ هذا عجب إنكار.

قوله: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ المراد بالآية أي آية؛ لأنها نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم،

= ومسلم، كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة قل هو الله أحد (٨١١).

(١) أخرجه الإمام أحمد(٤/ ١٥١) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٦٥٨).

وأما قول المؤلف كانشقاق القمر فهذا للتمثيل فقط.

قال: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ ولم يقل: يسخرون، أي سخرية مع تكبر وتعالٍ، ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ (إن) نافية بمعنى ما، وخبرها ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ صفة لسحر، وهذا النوع من الاستثناء يسميه النحويون استثناء مفرغاً، لأن ما بعد (إلا) يتطلبه العامل الذي قبلها، فإذا كان ما بعد (إلا) يتطلبه العامل الذي قبلها سمي استثناء مفرغاً. تقول: ما قام إلا زيد، وما أكرمت إلا المجتهد، وما مررت إلا بعلي، فإذا كان الذي قبل (إلا) يتطلب ما بعدها سمي استثناء مفرغاً. فـ ﴿مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ بمعنى بيِّن ظاهر، وأبان تأتي لازمة ومتعدية، فإذا كانت لازمة فهي بمعنى «بان»، تقول: أبان الصبح، (أي بان وظهر)، وإذا استعمل متعدياً بمعنى أظهر. تقول: أبان الحق، (أي أظهر).

الفوائد:

في هذه الآيات من الفوائد:

١ ـ إثبات العجب لله ـ عز وجل ـ على قراءة ضم التاء، وهو من صفات الله الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته، وكل شيء يتعلق بمشيئته فهو من الصفات الفعلية عند أهل العلم.

فإذا قال قائل: ما الذي يُعلمنا أنه يتعلق بمشيئته؟

فالجواب: أن كل صفة علقت على سبب فهي من الصفات الفعلية؛ لأن الأسباب حادثة، وما يترتب على الحادث فإنه حادث، وعلى هذا فنقول: الرضا من الصفات الفعلية لأن له سبباً، والغضب والكراهة والسخط وما أشبهه. وطريق أهل السنة

والجماعة في مثل هذه الصفة، إثباتها لله على الوجه اللائق به لا على وجه القصور والنقص.

٢ ـ ومن فوائدها أيضاً: علو منزلة الرسول ﷺ على قراءة الفتح، حيث اعتبر الله عز وجل تعجبه تعجباً ينوه عنه في قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ ومعلوم أن الذي ينوه عن أحواله عظيم عند من نوّه عنه، بخلاف من لا يؤبه له ولا يهتم به، ولهذا في أوساط الناس إذا غضب الملك ليس كغضب سائر الناس، تجده مثلاً يقال: تحدث الملك فغضب، لكن لو يأتي واحد من عامة الناس لو تفجر من الغضب ما تحدث الناس عنه، فتحدث الله ـ عز وجل ـ عن عجب الرسول ﷺ يدل على علو منزلته عند الله وعلى عظم شأنه ﷺ.

٣ ـ ومن فوائدها: أن هؤلاء القوم الذين أنكروا الحق زادوا في طغيانهم حتى صاروا يسخرون من الحق وأهل الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ يعني مع تعجبك من أحوالهم هم يسخرون مما جئت به، ويسخرون بك، وهذه عادة أعداء الرسل يسخرون من الرسل ومما جاءوا به، ومما يفعلونه أيضاً.

قال الله تعالى عن نوح: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

[هود: ٣٨ـ٣٩]

٤ ـ من هذه الفائدة نأخذ فائدة أخرى: وهو أنه يجب على الدعاة إلى الحق أن يصبروا على ما ينالهم من الناس من السخرية؛

لأن أعداء الرسل أكثر من أولياء الرسل. فالدعاة إلى الحق يجب عليهم الصبر إذا سمعوا من يسخر بهم، سواء كان هؤلاء الساخرون من الكفار، أو من أولياء الكفار؛ لأنه يوجد من المسلمين من هو من أولياء الكافرين، فالواجب على الدعاة أن يصبروا؛ لأن الرسل الذين هم أهل الحق وقادة الحق وأئمة الحق قد سخر الناس منهم، فكيف بك أنت، فالواجب عليك أن تصبر، والواجب على كل داعية أن يصبر على ما يحصل له من السخرية، وليعلم أن العاقبة للمتقين.

٥ ـ ومن فوائدها: عتو هؤلاء المكذبين لرسول الله ﷺ لكونهم ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾ ولا يتعظون، وذلك لقسوة قلوبهم وعتوهم ـ نسأل الله العافية ـ عكس المؤمنين الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًّا وعمياناً.

٦ ـ ومن فوائدها أيضاً: أن هؤلاء المكذبين إذا رأوا الآية الدالة على صدق الرسل ازدادوا سخرية وترفعاً ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ وهذا فوق السخرية السابقة الذي قال: ﴿وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾، وكان المفروض أنهم إذا رأوا الآيات أن يستسلموا، ولكنهم على العكس من ذلك إذا رأوا الآية يستسخرون والعجب من قوم النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذين كذبوه أنهم قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ﴾. [الأنفال: ٣٢] فانظر إلى العتو ـ والعياذ بالله ـ كان الذي ينبغي أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ووفقنا له، أما أن يقولوا هكذا فهذا

أكبر دليل على أنهم ـ والعياذ بالله ـ طاغون معتدون.

٧ ـ ومن فوائد الآيات: أن المعادين للرسل يصفون ما جاءوا به بالصفات القبيحة تنفيراً للناس منهم، يؤخذ من قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ وهم في ذلك كاذبون يعلمون أنه ليس بسحر، لكن قالوا هذا تنفيراً للناس عن طريق الرسل.

وهل ورثت هذه المقالة؟ الجواب: نعم، ورثت هذه المقالة، من أول من جاء من الرسل إلى عصرنا هذا وإلى يوم القيامة، قال ـ الله تعالى ـ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢] كل أعداء الرسل يقولون: هذا ساحر أو مجنون.

هذه الكلمة وأريد جنس هذه الكلمة لا نوعها ورثت، فصار أهل الباطل الآن يلقبون أهل الحق بألقاب السوء، انظر مثلاً إلى أهل التعطيل يلقبون أهل الإثبات بقولهم: حشوية مجسمة مشبهة وما أشبه ذلك، فهم يقولون مثل هذا الكلام من أجل أن ينفروا الناس عن طريق الحق، كذلك ـ أيضاً ـ أعداء أهل الحق يقولون هؤلاء رجعيون، هؤلاء متحجرون، هؤلاء متشددون، هؤلاء متزمتون، هؤلاء متنطعون إلى غير ذلك من الألقاب، لكن أهل الحق الذين هم أهله لا يزدادون بهذه الألقاب إلا قوة وثباتاً على ما هم عليه، لأنهم يعلمون أنهم منصورون بنصر الله ـ عز وجل ـ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ٧] وأنا كررت كثيراً بأن انتصار الإنسان ليس انتصار شخصه فقط، قد ينصر الإنسان في حياته ويتبين له النصر، وقد ينصر بعد مماته،

بنصر ما قاله من الحق، ويكون كل من عمل بالحق الذي جاء به أو الذي بينه يكون له مثل أجره، وهذا انتصار. كل إنسان يحب أن ينتصر الحق الذي بيَّنه للناس في حياته أو بعد مماته.

* * *

قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾﴾ المراد بهذا الاستفهام الاستبعاد والإنكار، يعني أننا ننكر ونستبعد أننا نبعث إذا كنا تراباً وعظاماً، وفي قوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ عدة قراءات.

أولاً: تحقيق الهمزتين تقول: أإذا.

ثانياً: تسهيل الثانية.

ثالثاً: إدخال الألف في التحقيق.

رابعاً: إدخال الألف في التسهيل.

قوله: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ فيها قراءتان أيضاً:

١ ـ تسهيل الواو.

٢ ـ فتحها.

الفوائد:

١ ـ في هاتين الآيتين دليل على قوة إنكار هؤلاء المكذبين للبعث وذلك لأنهم أتوا به بصيغة الاستفهام المؤكد بإن، وهذا كقول أخوة يوسف له: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠] يعني أتؤكد أنك يوسف. فهؤلاء قالوا: أيؤكد لنا أننا مبعوثون، وإذا دخلت همزة الاستفهام على هذا دل على أنهم يؤكدون إنكارهم بالبعث.

٢ ـ ومن فوائدها: أن هؤلاء المكذبين يأتون بالشبه لأنهم

يقولون: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ يعني أويبعث أيضاً آباؤنا الأولون، وهذا لقوة إنكارهم؛ لأنهم كما قال الله عنهم في سورة الجاثية: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية: ٢٥] وهل الذين قالوا إنكم تبعثون قالوا إن البعث يكون في الدنيا حتى تقولوا ائتوا بآبائنا؟ نعم لو قالت الرسل: إنكم يبعثون في الدنيا، أو إن آباءكم يبعثون في الدنيا صح أن يقولوا: ائتوا بآبائنا، لكن الرسل يقولون: إن البعث لهم ولآبائهم يكون يوم القيامة، فهذه الشبهة التي أوردوها لا تزيدهم إلا سفهاً إلى سفههم، حجتهم التي ادعوها قالوا: إنكم تقولون إن آباءنا يبعثون هاتوهم ابعثوهم، وهذه ليست حجة؛ لأن الرسل ما قالوا إن آباءكم يبعثون الآن في الدنيا حتى تتحدوا بقولكم ائتوا بآبائنا، إنما قالوا يبعثون يوم القيامة.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠] فهم يقولون: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ ليتوصلوا إلى الحجة الداحضة، فيقول الناس: إن هؤلاء يقولون: إن الناس يبعثون نحن وآباؤنا دعوهم يأتوا بآبائنا، والجواب على هذه الشبهة واضح جداً، وهو أن الرسل لم يقولوا: إن آباءهم يبعثون الآن، وإنما يكون البعث يوم القيامة، وحينئذ تبطل حجتهم وينادون على أنفسهم بالسفه والعدوان، فإنهم ألزموا الرسل ما لم يلتزموه وما لم يقولوه.

٣ ـ من فوائدها: أن الجَدَّ يسمى أباً لأنهم قالوا: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ وآباؤهم الأولون أجداد سابقون، فالجد يسمى أباً،

ويتفرع على ذلك مسألة فرضية، وهي: أن الجد يسقط الأخوة أشقاء كانوا أم لأب أم لأم، وإسقاط الجد للإخوة من الأم بالإجماع، أما الأخوة الأشقاء أو لأب ففي إرثهم معه خلاف، والصحيح بلا شك أنهم لا يرثون مع الجد، وأنه لو هلك هالك عن أبي أبي أبي أبي أبي أب، أي الجد السادس وعن أخ شقيق فلا شيء للأخ الشقيق لأن الجد أب، والأب يحجب الأخوة، ولأن هذا الابن النازل بعض من الجد السابق، بخلاف الأخ فليس بعضاً منه، ومعلوم أن الأصل الذي هذا فرعه أولى بالميراث من شخص ليس أصلاً له ولا فرعاً له، وهذه المسألة تحقق إن شاءالله في الفرائض.

* * *

﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ أمر الله نبيه أن يجيب عن الاستفهام السابق بقوله: ﴿ قُلْ نَعَمْ ﴾، يعني تبعثون، ونعم حرف جواب يجاب به الإثبات للتصديق، ويجاب به النفي كذلك للتصديق، فهو حرف جواب للتصديق: سواء كان الكلام نفياً أو إثباتاً.

والخلاصة:

أن (نعم) يجاب بها للتصديق سواء كان نفياً أو إثباتاً.

فإذا قلت: أقام زيد؟ وأجبت: بنعم، فهذا لتصديق القيام، يعني أنه قد قام.

وإذا قلت: ألم يقم زيد؟ فأجبت: نعم يعني لم يقم. فصدقت النفي.

و (بلى) لا يجاب بها في الإثبات، وإنما يجاب بها في

النفي لتكذيبه، فإذا قلت: ألم يقم زيد؟ فالجواب: بلى، يعني قد قام، خلافاً لما نفيت.

وأما (لا) فلا يجاب بها إلا في الإثبات لتكذيبه، أي لم يقم، أقام زيد، فقلت: لا، يعني لم يقم.

فهذه أحرف الجواب الثلاثة وأعمها (نعم) لأنها تكون في الإثبات وتكون في النفي، وأما (بلى) و(لا) فكل واحدة مختصة بشيء (بلى) في النفي و(لا) في الإثبات.

﴿ قُلْ نَعَمْ ﴾ هذه للتصديق يعني نعم تبعثون. ولهذا قدر المؤلف ذلك في قوله تبعثون، يعني أنكم ستبعثون يوم القيامة بعد أن كنتم تراباً وعظاماً ولكنكم لا تبعثون كما أنتم عليه في الدنيا في عزة وترف، بل ﴿ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ صاغرون، والجملة هنا حال من نائب الفاعل في الفعل المقدر بعد الجواب، نعم تبعثون وأنتم داخرون.

والدخور بمعنى الصغار والذل، يعني أنهم يبعثون يوم القيامة على وجه الصغار لا على ما كانوا عليه في الدنيا كما قال الله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورى: ٤٥] بعد أن كان الواحد منهم في الدنيا يقلب مقلتيه كما شاء، فهم في الآخرة ينظرون من طرف خفي، مملوء بالخجل والخزي والعار ـ والعياذ بالله ـ

الفوائد:

١ ـ في هذه الآية الكريمة دليل على أهمية جواب هؤلاء الذين يتساءلون إذا ماتوا وكانوا تراباً وعظاماً أيبعثون أو لا؟ وجه

ذلك أن الله أمر نبيه أمراً خاصًّا بجوابه، وإذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ بأمر خاص فإنه دليل على أهمية ذلك الأمر؛ لأن الأصل أن جميع القرآن قد أمر أن يبلغه ـ عليه الصلاة والسلام ـ. ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧] فإذا جاءت آية يقول الله فيها «قل» فهذا أمر خاص بتبليغهم، فيدل على العناية بهذا الشيء وأنه ذو أهمية.

٢ ـ ومن فوائدها: أنه يجب الرد على شبهات أهل الباطل؛ لأن الله لم يقل: اتركهم، بل قال: ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

٣ ـ ومن فوائدها: أن المكذبين بالبعث يحشرون يوم القيامة صاغرين لقوله: ﴿ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾، وقد ذكرنا في أثناء التفسير عدة آيات تدل على أنهم يحشرون يوم القيامة أذلاء، كما قال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾. [الشورى: ٤٥].

٤ ـ ومن فوائد الآية: أن المؤمنين بذلك يحشرون يوم القيامة أعزة. ووجهه أنه إذا كان جزاء هؤلاء المكذبين أنهم يحشرون على وجه الصغار والذل، فإن العكس يكون بالعكس. والجزاء من جنس العمل، فيحشر المؤمنون يوم القيامة أعزاء.

* * *

﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ يعني إذا كان الأمر كذلك أنهم يبعثون فهل يحتاج الأمر إلى علاج وإلى مدة؟ الجواب لا، فإنما هي أي زجرتهم للبعث زجرة واحدة، هذا هو الأصح في مرجع الضمير، ولهذا قال المؤلف [ضمير مبهم يفسره زجرة]

فيكون الضمير مرجعه مستفاد من الخبر، أي فإنما الزجرة لبعثهم زجرة واحدة، وهذا الذي قدره المؤلف لمرجع الضمير هو الصواب فيكون مرجع الضمير هو الخبر، وقال بعضهم: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أي البعثة التي يبعثونها، أي ما بعثتهم إلا زجرة واحدة أي بزجرة واحدة، ولكن ما قدره المؤلف أولى. ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، قال المؤلف: [أي صيحة] يزجرون بها، فيقال: اخرجوا يعني من القبور. إذا قيل اخرجوا من القبور. خرجوا خروج رجل واحد لا يتخلف منهم أحد، ولا يخرجون ببطء لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥] فالمسألة لا تحتاج إلى تكرار طلب للخروج ولا إلى مهلة في زمان، بل بمجرد ما يقال: اخرجوا. فإذا هم قيام ينظرون. وهذا من تمام قدرة الرب ـ عز وجل ـ.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾. (الفاء) حرف عطف و(إذا) فجائية أي ففي الحال مفاجئة، هم ينظرون. و(إذا) الفجائية اختلف النحويون فيها: هل هي حرف لا محل لها من الإعراب أو هي ظرف؟ ونحن لا يهمنا أن نقدرها حرفاً أو ظرفاً، المهم أن نعرف المعنى، وهي أنها تدل على المفاجئة يعني يأتي بسرعة.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ يدل على أنهم بمجرد ما يخرجون يكونون أحياء يشعرون، وليس كالطفل الذي يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، فالناس في الدنيا يخرجون من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ولكن بعدئذ يجعل الله لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة. سمعاً يسمعون به ويعرفون، وإلا فالسمع موجود

به منذ خلق. وبصراً كذلك يبصرون به ويعرفون، ولهذا تجد الصبي أول ما يولد لا يلتفت إلى شيء، تمر من عنده بالمصباح من أسطع ما يكون ولا يدري ما هو؟ ثم شيئاً فشيئاً يبدأ يعرف الألوان إذا اختلفت عليه ويتابع النظر، ولكن الذين يبعثون من القبور لا ينتظر بهم هكذا، أي لا تنمو أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم شيئاً فشيئاً، ولكن بمجرد ما يخرجون فإذا هم ينظرون.

قال المؤلف: [فإذا هم أي الخلائق أحياء ينظرون ما يفعل بهم] فإذا قال قائل: إن المؤلف قال [الخلائق] مع أن سياق الآية يقتضي أن المراد هؤلاء المنكرون ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ فإذا أخذنا بالسياق قلنا: إن الضمير يرجع إلى هؤلاء وآبائهم، وإذا نظرنا إلى الواقع قلنا: إن الضمير يرجع إلى جميع الخلائق. والواقع أن جميع الخلائق تخرج بهذه الصيحة فإذا هم ينظرون، وأفادنا المؤلف بقوله ما يفعل بهم، أفادنا أن النظر هنا نظر العين، وليس بمعنى الانتظار، مع أن الآية تحتمل أن يكون المعنى النظر بالعين وأن يكون المعنى الانتظار.

والنظر يأتي بمعنى الانتظار، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ [الزخرف: ٦٦] ﴿يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ بمعنى ينتظرون.

﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ قالوا أتى بالفعل الماضي مع أن القول مستقبل، لتحقق وقوعه، وهذا كثير في اللغة العربية، والقرآن الكريم يعبر عن المستقبل بالماضي لتحقق وقوعه، ومثاله قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] فإن أمر الله لم يأت بدليل

قوله ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾. [النحل: ١] لكن أتى هنا بمعنى يأتي، وعبَّر عن المستقبل بالماضي لتحقق وقوعه.

فقوله عز وجل هنا: ﴿وَقَالُوا﴾ أي ويقولون، لكن عبَّر عنه بالماضي لتحقق وقوعه.

وقول المؤلف ـ رحمه الله ـ [قالوا أي الكفار] صحيح، ولو أنه قال: وقالوا أي المنكرون للبعث الذين قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ لكان أدق في التفسير؛ لأن الكافر أعم من المنكر للبعث، قد يكفر بغير إنكار للبعث، لكن المسألة فيها شيء من التسامح في التعبير.

وقوله: ﴿يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ قال المؤلف: [ياء للتنبيه ويل مصدر لا فعل له من لفظه]، ولكن يحتمل أن تكون ياء حرف نداء، وأنهم نادوا الويل، كأنهم قالوا: يا ويلنا احضر، فهذا أوانك، والويل معناه هنا شدة التحسر والعذاب، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [المرسلات: ٣٤] أي حسرة وعذاب، فهنا يا ويلنا أي يا حسرتنا ويا عذابنا احضر فهذا أوانك. ويحتمل كما قال المؤلف: إن (ياء) للتنبيه، ولكن إذا قال قائل: هل تأتي ياء للتنبيه؟ الجواب: نعم، فإذا طلب منا مثال لا يحتمل إلا التنبيه، قلنا كقوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يس: ٢٦] فإن ياء هنا للتنبيه؛ لأن ياء لا تدخل على الحروف، وإنما تدخل على الأسماء، ولكن جيء بها للتنبيه، وقوله ـ رحمه الله ـ: [ويلنا هلاكنا]، ولكن الويل كما قلت أخص من مجرد الهلاك، بل هو التحسر والعذاب، والويل مصدر لا فعل له من لفظه، ولكن من معناه.

﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ٢٠﴾، قال المؤلف: [وتقول لهم الملائكة هذا يوم الدين] فجعل المفسر ـ رحمه الله ـ (هذا يوم الدين) من كلام الملائكة.

ولكن الصحيح أنه من كلام المنكرين يعني أنهم في ذلك اليوم يقرون بيوم الدين، ولكن لا ينفعهم الإقرار حينئذ، فهم يقرون بهذا اليوم إذا شاهدوه، ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ٢٠﴾ المشار إليه الوقت الذي هم فيه ذلك اليوم الحاضر، والدين يعني الجزاء، واعلم أن الدين يطلق على الجزاء، ويطلق أحياناً على العمل، فقوله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ [الكافرون: ٦] المراد به العمل، وقوله تعالى: ﴿مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [الانفطار: ١٨ـ١٩] المراد بالدين الجزاء.

وهنا ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢١﴾ المراد به الجزاء، أي هذا يوم الجزاء، قال ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢١﴾.

الجملة هذه يحتمل أن تكون من كلامهم، ويحتمل أن تكون من كلام الملائكة، فإن كانت من كلامهم فالمعنى أن بعضهم يقول لبعض: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢١﴾ توبيخاً وتقريعاً وتنديماً.

وإذا كان من كلام الملائكة فلا إشكال فيه، لأنهم يخاطبون قوماً يكذبون به، وقوله: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ بعد ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ٢٠﴾ لأنه إذا أدين الناس وحوسبوا وجوزوا انفصلوا، انفصل بعضهم عن بعض: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

قد يفصل بين المرء وأبيه، وبين المرء وأمه، وبين المرء وأقاربه: هؤلاء في الجنة وهؤلاء إلى النار. فإذاً سُمي يوم الفصل؛ لأنه يفصل فيه بين الخلائق، فيصرف قوم إلى النار، ويصرف قوم إلى الجنة. وسُمِّي يوم الفصل (أيضاً) لأنه يفصل بين الخلائق بالحكم بينهم بالعدل، بأخذ حق المظلوم من الظالم، كما يفصل القاضي في الدنيا بين المتخاصمين، فيعطي المظلوم حقه من الظالم.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ كنتم أي فيما مضى، أما الآن فيصدقون به؛ لأنهم قالوا: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ لكن فيما مضى يكذبون بهذا اليوم، ويقولون: كيف يمكن أن تبعث الخلائق بعد أن كانوا عظاماً وتراباً؟!

فإذا قال قائل: ما الفائدة من قوله: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾؟

قلنا: الفائدة من أجل زيادة التحسر على هؤلاء؛ لأنهم إذا قيل لهم: الذي كنتم به تكذبون فسوف يتحسرون ويقولون: يا ليتنا لم نكذب، فيكون في هذا زيادة ألم في نفوسهم، ومن جهة أخرى: التوبيخ لهؤلاء ولومهم على تكذيبهم حيث كذبوا بالحق، ففي ذلك فائدتان:

الفائدة الأولى: زيادة التحسر فيه.

والفائدة الثانية: التوبيخ واللوم على تكذيبهم بالحق.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [ويقال للملائكة: ﴿۞ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالشرك ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ قرناءهم من الشياطين

﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي غيره من الأوثان ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ دلوهم وسوقوهم إلى ﴿صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ طريق النار]. أعوذ بالله.

﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، الخطاب من الله ـ والعلم عنده ـ إلى الملائكة، ومعنى احشروا أي اجمعوا كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] وسُمِّي يوم الجمع وسُمِّي يوم الحشر؛ لأن الناس يحشرون فيه ويجتمعون، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾. قال المؤلف: [ظلموا أنفسهم بالشرك] ولكن ينبغي أن يقال: ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حذف المفعول به، وحذف المفعول به يؤذن بالعموم، فهم في الحقيقة ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم، ولاسيما الرؤساء منهم الذين أضلوا أتباعهم فإنهم ظلموهم بتلبيس الحق بالباطل وإضلالهم.

﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾، قال المؤلف: [قرناءهم من الشياطين] كل زوج قرين، ومنه الزوج وزوجته فإنهما قرينان، وقيل المراد بالأزواج: الأصناف والأشكال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٥٨] أي أصناف، والمعنى متقارب؛ لأن الغالب أن القرين من جنس المقارن، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[1].

﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي والذي كانوا يعبدون في الدنيا،

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس (رقم ٤٨٣٣) والترمذي في كتاب الزهد، باب ٤٥ (رقم ٢٣٧٨) وقال: حسن غريب.

ولهذا أتى بالفعل الماضي ﴿كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي في الدنيا، وجملة (كانوا يعبدون) صلة الموصول، والعائد محذوف، وتقديره: وما كانوا يعبدونه من دون الله.

وقول المؤلف: من الأوثان، إذا قال قائل: كيف تحشر الأوثان وهي جماد؟ وليس عليها حساب ولا عقاب؟

فالجواب: أنها تحشر إلى النار وتلقى في النار إهانة لعابديها، أما هي فلا شعور لها، لا تشعر بإهانة ولا كرامة، ولكن عابديها هم الذين يشعرون بالإهانة إذا كانت معبوداتهم تلقى في النار، فتلقى هذه المعبودات في النار إهانة لعابديها وبياناً لكونها لا تنفعهم في أحوج ما يكونون إلى نفعها. وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هذه الآية عامة، وخصت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١] لأننا لو أخذناها على عمومها لكان في الناس من يعبد الأنبياء، وكان في الناس من يعبد الملائكة، فهل يحشر هؤلاء المعبودون مع هؤلاء العابدين؟ فالجواب: لا، ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨] ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١] وعلى هذا فالعموم هنا مخصص بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾. [الأنبياء: ١٠١].

وقيل: إن العموم باق على ما هو عليه، لكنه عام أريد به الخاص، أريد به هؤلاء الذين أنكروا البعث، والذين أنكروا البعث لم يعبدوا الملائكة ولا الرسل إنما كانوا يعبدون هبل

واللات والعزى ومناة. وهبل واللات والعزى ومناة كلها في النار.

وعلى كل حال سواء قلنا: إن هذا عام أريد به الخاص، أي الذين يخاطبون الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وينكرون البعث. أو قلنا: إنه عام مخصوص، فإنه لا شك أن الذين يُعبدون من دون الله وهم من أولياء الله لن يحشروا إلى النار ولن يدخلوها.

﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ أي دلوهم، وهذه هداية الدلالة وهذا لا ينافي قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ٨٥ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ٨٦﴾ [مريم: ٨٥ـ٨٦] فإن الذي يساق يهدى أيضاً، أرأيت الرجل يسوق بعيره ويهديها، هؤلاء يساقون وفي نفس الوقت يقال اذهبوا من هنا، اذهبوا من هنا حتى يصلوا إلى النار، وقد ذكر الله أن هؤلاء يساقون إلى النار في حال يحتاجون معها إلى الماء، بل يضطرون إلى الماء، ﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ٨٦﴾ [مريم: ٨٦] عطاشاً فإذا جاءوا لم يجدوا إلا النار المحرقة ـ والعياذ بالله ـ وهذا يكون كالصفعة على وجوههم حيث جاءوا وهم يرجون أن يشربوا، ولكنهم يفاجئون بما يزيدهم لهباً وعطشاً.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ صراط بمعنى طريق، والصراط نوعان: صراط حسي وهو ما تمشي عليه الأقدام، وصراط معنوي وهو ما تمشي عليه القلوب، فمن استقام في الصراط المعنوي على دين الله استقام في الصراط الحسي يوم القيامة حتى يصل إلى

الجنة، ومن كان غير مستقيم في الدنيا على شريعة الله لم يكن مستقيماً في الآخرة على طريق الجنة ولكن على طريق النار.

والصراط هنا حسي ﴿ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ النار، فالجحيم إذاً من أسماء النار، وأسماء النار في القرآن كثيرة متعددة.

الفوائد:

١ ـ بيان قدرة الله ـ عز وجل ـ حيث تخرج الخلائق كلها بزجرة واحدة. وتخرج الخلائق كلها فوراً بدون تأخير، ففيه دليل على القدرة من وجهين:

الوجه الأول: عدم تكرار الأمر.

والوجه الثاني: سرعة الائتمار والامتثال لأمر الله ـ عز وجل ـ.

٢ ـ ومن فوائدها: أن الناس يخرجون يوم القيامة فينظرون، إما من نظر العين أو من الانتظار، وأياً كان فإنه يدل على أنهم يخرجون إلى أمر غريب لم يألفوه؛ لأنهم كانوا في الأول في قبورهم ثم حشروا إلى شيء غريب لم يكونوا يعرفونه من قبل، لقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

٣ ـ ومن فوائدها: أن هؤلاء المكذبين يدعون يوم القيامة بالويل والثبور والهلاك، لقولهم: ﴿يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾. كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾. [الفرقان: ١٤]

٤ ـ ومن فوائدها: تحقق هذا القول وأنه أمر واقع كالحاضر، لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا﴾ فعبر عن المستقبل بالماضي لتحقق وقوعه.

٥ ـ ومن فوائدها: أن الناس يحشرون يوم القيامة فيجازون على أعمالهم، يؤخذ من قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ وتكون هذه النتيجة للخلائق أن يحشروا يوم القيامة وأن يجازوا على أعمالهم وأن يكون هذا الجزاء نهائياً ليس وراءه عمل ولا دونه أجل. لقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾.

٦ ـ ومن فوائدها: أن يوم القيامة يوم فصل أي حكم بين الناس وتميز بعضهم عن بعض لقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾.

٧ ـ ومن فوائدها: تقرير هؤلاء المكذبين لقوله: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ ووجه التقرير أن الإنسان إذا شاهد ما كذب به سوف يقول لمن حمله على هذا التكذيب أو وافقه عليه: هذا الذي كنت به تكذب، فيكون في ذلك زيادة في التحسر والندم على عدم التصديق بهذا اليوم.

٨ ـ ومن فوائدها: أن الناس يوم القيامة يميز بعضهم من بعض، ويجمع بعض الأصناف والأشكال والنظراء إلى بعض، لقوله: ﴿۞ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ وهذا من الفصل الذي ذكره الله في كتابه لقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾.

٩ ـ ومن فوائدها: أن هؤلاء المكذبين لا ينفعهم اجتماعهم وحشر بعضهم إلى بعض، لقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ في آية أخرى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف: ٣٩] في الدنيا إذا شاركك أحد في العذاب نفعك، إما بأن يتحمل عنك جزءًا من هذا العذاب، وإما أن تتسلى به، لأن وقوع المصائب على غيرك تسليك وتساعدك على تحمل

هذه المصيبة والصبر عليها، كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

وما يبكون مثل أخي ولكن
أسلِّي النفس عنه بالتأسي

١٠ ـ ومن فوائدها: إهانة هؤلاء المشركين بحشر أصنامهم إلى النار، وجه ذلك أن إهانة المعبود إهانة للعابد، وأنا أضرب لكم مثلاً لو أن سيداً تحته أرقاء أو رجلاً تحته عائلة، أهين هذا الرجل الذي تحته العائلة، أو الرجل الذي تحته الأرقاء فإن ذلك إهانة للعائلة وللأرقاء؛ لأنهم يقولون: هذا كبيرنا وعظيمنا الذي نعظمه، فإذا أهين فهو إهانة لنا، وإن لم يكن إهانة حسية، لكنها إهانة نفسية معنوية، فتهان هذه الأصنام إهانة لعابديها.

١١ ـ ومن فوائدها: جواز ذكر العموم وإن دخل فيه من ليس فيه إذا بين في موضع آخر، ويتفرع على هذا أنه لا يشترط في البيان مقارنته للمبين، لأن الذي يمتنع في البيان هو تأخيره عن وقت الحاجة، فإذا بين في وقت الحاجة زال هذا المحظور، وهذا قد بين في آيات كثيرة في القرآن بأن المؤمنين لا يدخلون النار ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١] وكل الآيات التي في وعد المؤمنين والمتقين تمنع من دخول هؤلاء في النار وإن كانوا يُعبدون من دون الله.

١٢ ـ ومن فوائدها: أن هؤلاء المكذبين المشركين يحشرون إلى طريق جهنم، كما أنهم في الدنيا اختاروا طريق أهل النار، فإنهم في الآخرة يجازون بمثل ذلك، فيدلون إلى طريق الجحيم، ويصدون عن طريق أهل النعيم.

ثم قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ قفوهم يعني أوقفوهم، من وقف يقف، والأمر: قف. ووقف تستعمل لازمة ومتعدية، فإذا قلت: مشى فلان، فوقف، هذا لازم، وإذا قلت: وقفت القول، أو وقفت زيداً عند المكان الفلاني فهذا متعد.

قفوهم لا شك أنه متعد، ووجهه أنه نصب المفعول به الهاء، والواو في ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ فاعل.

وهنا فائدة: أن حرف المضارعة لا تحسب من بنية الفعل، ولهذا يقال: إذا أردت أن تصوغ فعل الأمر: فأتِ بفعله مضارعاً مجزوماً، ثم احذف حرف المضارعة، وهذه تفيد طالب العلم. فمثلاً: إذا أردت أن تأتي بفعل الأمر من: خاف. فتقول: خف. لأن المضارع المجزوم: يخف. احذف حرف المضارعة: خف.

مثال آخر: نامَ الأمر: نَم، نجريها على القاعدة لم يَنَمْ. احذف ياء المضارعة. نَمْ.

الأمر من: مَال؟ مِلْ. على القاعدة. لم يَمِل. احذف ياء المضارعة (مِلْ). لأن الأمر مقتطع من المضارع. ووجه ذلك أنك تأتي بالمضارع مجزوماً ثم تحذف حرف المضارعة. الأمر من «خَشِيَ»: اخْشَ، هات المضارع مجزوماً: لم يَخْشَ إذا لابد أن نقول: اخشَ. لماذا؟ لأنه لا يمكن أن تبدأ بالسكون، لأنه لو حذفنا ياء المضارعة لبقي خاء ساكنة، والشين مفتوحة، والخاء الساكنة لا يمكن أن تنطق بها. إذا وجدت كلمة أولها ساكن، تأتي بهمزة الوصل، فتقول: «اخْشَ»، وفعل الأمر من رمى: «ارْمِ» لأن المضارع (لم يَرْمِ) أوله ساكن لابد أن يؤتى بالهمزة والله أعلم.

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [احبسوهم عند الصراط]، الأمر من الله ـ عز وجل ـ والخطاب للملائكة فيما يظهر؛ لأن الملائكة هي التي تدبر الخلائق بأمر الله، فيقال للملائكة: قفوا هؤلاء المكذبين المشركين بالله ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ يعني وقفوهم أي احبسوهم ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [عن جميع أقوالهم وأفعالهم] وكلمة ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ إما أن تكون كما قال المؤلف عامة يعني إنهم مسؤولون عن أقوالهم وأفعالهم وشركهم وانحرافهم وعن كل أحوالهم أو إنها مبينة بقوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ فيكون المسئول عنه شيئاً واحداً وهي أنهم يوقفون ويسألون هذا السؤال ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ يقال لهم ذلك توبيخاً وتقريعاً كما قال المؤلف: [ويقال لهم توبيخاً: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ لا ينصر بعضكم بعضاً]، فالآية في الحقيقة محتملة المعنيين:

المعنى الأول: أنكم مسؤولون عن كل الأحوال والأعمال.

المعنى الثاني: أنكم مسؤولون هذا السؤال وهو: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ وأياً كان ففي الآية توبيخ وتهكم بهم حيث يقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ كنتم في الدنيا تتناصرون والذي ينصر هم العابدون ينصرون هذه الأصنام كما مر علينا في آخر سورة يس، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٥] فالعابدون ينتصرون للآلهة، كما قال أبو سفيان قبل أن يسلم في غزوة أحد قال: اعلُ هبل، يفتخر به وينتصر له، فيقال لهم يوم القيامة: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ يعني أي شيء لكم يمنعكم من

التناصر؟ والجواب واضح يفيده قوله: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ منقادون أذلاء، وهذه الجملة المصدرة بـ«بل» تفيد الانتقال من أسلوب إلى آخر، يعني أنهم لا يتناصرون لأنهم اليوم مستسلمون هم وأصنامهم أذلاء صاغرون.

الاستفهام في قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ المراد به التوبيخ والتهكم يعني أين نصر بعضكم بعضاً الذي كان في الدنيا أفلا تتناصرون اليوم؟ والجواب: لا يمكن أن يتناصروا لأنهم أذلاء مستسلمون ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي منقادون لحكم الله فيهم جزاءً ولحكم الله فيهم قدراً.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ يعني أقبل بعضهم أي اتجه بعضهم إلى بعض، وجملة يتساءلون حال من الفاعل والمجرور، والفاعل في (بعضهم) والمجرور في(على بعض). أقبلوا يتساءلون يسأل بعضهم بعضاً تلاوماً وتخاصماً، فصاروا بعد أن كانوا في الدنيا على وفاق وأخلاء صاروا في الآخرة أعداء ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧] يتساءلون يسأل بعضهم بعضاً على وجه التوبيخ والإنكار، ﴿قالوا﴾ أي الأتباع منهم للمتبوعين، ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [عن الجهة التي كنا نأمنكم منها، لحلفكم أنكم على الحق فصدقناكم واتبعناكم، المعنى أنكم أضللتمونا]، أي صار بعضهم يسأل بعضاً، الأتباع يسألون المتبوعين، والمتبوعون يسألون الأتباع، وكل يسأل بعضهم بعضاً لأنهم وقعوا في حيرة.

يقول بعضهم لبعض وهم الأتباع يقولون: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ﴾ ﴿إِنَّكُمْ﴾ الخطاب للمتبوعين ﴿كُنتُمْ﴾ يعني في الدنيا ﴿تَأْتُونَنَا﴾ يعني في خطابكم لنا ودعوتكم إيانا ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾، عن للمجاوزة يعني تأتوننا إتياناً صادراً عن اليمين، فما المراد باليمين؟

قيل: إن المراد باليمين الحلف، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ البقرة: ٢٢٤] جمع يمين، فمعنى عن اليمين عن الحلف أي أن المتبوعين يحلفون للأتباع أنهم على حق، وهذا كقول الله تعالى عن الشيطان ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾. [الأعراف: ٢١].

وقيل: إن المراد باليمين هو التفاؤل، يعني أنكم تعدوننا خيراً، وتقولون: اتبعونا فإنكم إن اتبعتمونا نلتم العزة والغلبة فتعدوننا بالخير وأنتم كاذبون علينا.

وقيل: المراد باليمين القوة كما في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: ٩٣] أي بالقوة، وقيل: باليد اليمنى على كل حال.

إذاً باليمين فيها ثلاثة أقوال:

١ ـ الحلف. ٢ ـ الخير. ٣ ـ القوة.

والحقيقة أن كل هذه الوجوه واقعة من المتبوعين، فهم يقسمون للأتباع أنهم على حق، وهم يتكلمون معهم عن طريق القوة، لأنهم متبوعون، وهم كذلك يعدونهم بالخير، يقولون: اتبعونا تكن لكم العزة والغلبة وما أشبه ذلك، فالآية شاملة لهذه

الوجوه الثلاثة. يقول الأتباع للمتبوعين: إنكم كنتم تأتوننا عن هذه الجهة الحلف أو القوة أو الخير.

والمؤلف ـ رحمه الله ـ يقول في تفسيرها [عن الجهة التي كنا نأمنكم بها]، وكلامه هذا صالح للوجوه الثلاثة؛ لأن الناس يؤمنون إذا حلفوا، ويؤمنون إذا وعدوا بالخير، ويؤمنون إذا كانوا أقوياء، لأن الغالب أن الضعيف يرى أن القوي على حق، وأنه بلغ هذه المرتبة لكونه محقًّا.

﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي المتَّبَعون] لو عبر ـ رحمه الله ـ بقوله المتبوعون لكان أوضح؛ لأن المتَّبَعون قد يقرأها الإنسان المتَّبِعون يعني الأتباع، والواقع أن الذي قال هم المتبوعون. ﴿قَالُوا۟﴾ أي المتبوعون للأتباع: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ﴿بَل﴾ هنا في إبطال ما ادّعوه في قولهم: إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين، يعني بل لم نأتكم عن اليمين ولكنكم لم تكونوا مؤمنين، ولو كنتم مؤمنين لصدق قولكم إنا أضللناكم، أما أنكم غير مؤمنين من الأصل فالجناية منكم على أنفسكم.

ولهذا يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وإنما يصدق الإضلال منا أن لو كنتم مؤمنين فرجعتم عن الإيمان إلينا]، تبرأ المتبعون الآن من الأتباع وجعلوا اللوم على الأتباع أنفسهم، قالوا كما يقول الشيطان: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟﴾.

[إبراهيم: ٢٢] هؤلاء المتبعون يقولون كما قال الشيطان، يقولون للأتباع: أنتم الذين أضللتم أنفسكم، أما نحن فلم نضلكم؛ لأننا لم نخاطب قوماً مؤمنين، فأضللناهم بعد إيمانهم، إنما نخاطب قوماً انقادوا إلى الكفر باختيارهم، فاللوم عليهم لأنفسهم أما نحن فلا، وهذا مبين لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾. [البقرة: ١٦٦].

الفوائد:

في الآيات المتقدمة فوائد:

١ ـ منها: أن هؤلاء المكذبين إذا ساقتهم الملائكة إلى النار فإنهم يهينونهم عدة إهانات، فيقفونهم على الصراط يعني عنده، ومن المعلوم أن الإيقاف فيه إهانة للإنسان، بحيث يكون في يد غيره كالآلة.

٢ ـ ومن فوائدها أيضاً: أنهم يهانون إهانة أخرى معنوية، فيقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ يعني أي شيء يمنعكم اليوم من التناصر بعد أن كنتم في الدنيا تتناصرون، وفي هذا من الإهانة والتوبيخ والتنديم ما هو ظاهر.

٣ ـ ومن فوائدها أيضاً: أن هؤلاء في ذلك الموقف أذلاء مستسلمون كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ وكانوا في الدنيا مستكبرين لا يقبلون الحق، بل يجادلون ويقدمون رقابهم للقتل ضد الحق والعياذ بالله، لكنهم في الآخرة مستسلمون.

٤ ـ ومن فوائدها: أن هؤلاء المكذبين يلوم بعضهم بعضاً ويسب بعضهم بعضاً، قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ

ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ [العنكبوت: ٢٥] لقوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾.

٥ ـ ومن فوائدها: بيان الأساليب التي يستعملها المضللون، وأنها أساليب متنوعة تارة بالقوة، وتارة بالتغرير والتلطف والإيعاد بالخير، وتارة بالتغرير بالتوكيد على أن ما هم عليه حق. وإذا رأيت إلى واقع النصارى اليوم وغيرهم من أهل الضلال المضلين عرفت كيف تنطبق هذه الآية على هؤلاء الدعاة إلى الشر، فالنصارى ـ مثلاً ـ المضللون الذين يسمون أنفسهم بالمبشرين، لكننا نقول إنهم مبشرون بالعذاب الأليم، يعدون الناس الخير ويفتحون المدارس ويغدقون الأموال على الناس من أجل تضليلهم وإخراجهم ويستغلون فرصة الفقر والجهل في مثل هذه الأمور.

٦ ـ ومن فوائدها: أن هؤلاء المتبوعين يعيدون التوبيخ على التابعين، حيث يقولون لهم: بل لم تكونوا مؤمنين، فالبلاء من عند أنفسكم لا من عندنا.

٧ ـ ومن فوائدها: أن من لم يكن إيمانه راسخاً فإن الدعاية الباطلة تؤثر عليه؛ لأن المؤمن إيماناً راسخاً لا تضلله الدعاية ولا يمكن أن يتحول عن إيمانه الذي كان عليه لقوله: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ولو كنتم مؤمنين حقاً إيماناً ثابتاً ما أثَّر عليكم إضلالنا.

والمؤمن يرضى أن يموت ولو بأن يلقى من شاهق ولا يكفر

بالله ـ عز وجل ـ، لكن الذي إيمانه غير راسخ ولا ثابت هو الذي تضلله هذه الدعايات.

* * *

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (ما) نافية و(كان) فعل ماض يرفع المتبدأ وينصب الخبر، و(من سلطان) اسمها المؤخر مجرور بحرف من الزائد إعراباً، و(لنا) خبر مقدم. خلافاً لمن قال: إن (ما) حجازية و(كان) زائدة، لأنك لو قلت: (وما لنا عليكم من سلطان) لصح الكلام، لأن (كان) هنا مراد وجودها لأنها تدل على زمن مضى، بخلاف ما لو سقطت فإنها لا تدل على الزمن الماضي، فإن الجملة لا تدل على الزمن الماضي، فيتعين هنا أن تكون (ما) نافية و(كان) فعل ماض غير زائد.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي من قوة وقدرة تقهركم على متابعتنا]، واعلم أن السلطان بمعنى السلطة، وهو في كل موضع بحسبه فتارة يراد بالسلطان العلم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ﴾ [النجم: ٢٣] أي من دليل وبرهان، وتارة يراد به القدرة والقوة والغلبة كما في هذه الآية، يعني ليس لنا عليكم من سلطان نقهركم حتى تتبعونا، بل أنتم اتبعتمونا باختياركم وإرادتكم فكأنهم يقولون: لا تلومونا ولوموا أنفسكم، كما قال الشيطان لما قضي الأمر ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ

﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢] فهؤلاء المتبوعون يجعلون اللوم كله على الأتباع، ونحن إذا نظرنا إلى الواقع وجدنا أن اللوم يكون على الأتباع وعلى المتبوعين، أما المتبوعون فإنهم زينوا لهم أعمالهم ودعوهم واستضعفوهم حتى أمالوهم إلى الباطل، وأما الأتباع فإنهم لم يجبروا على ذلك ولم يسخروا عليه، بل هم الذين تبعوا هذا باختيارهم، فكان على كل واحد من اللوم ما يتناسب وفعله، ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾، ﴿بَلْ﴾ هذه للإضراب الانتقالي لا لإبطال ما سبق، بل للانتقال من شيء إلى آخر فكرروا عليهم، قالوا في الأول: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وقالوا الآن: ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾ والطاغي هو الذي تجاوز حده، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: ١١] يعني لما تجاوز حده، فهم يصفونهم بأنهم طاغون أي متجاوزون لحدهم الذي ينبغي أن يكونوا عليه وهو أتباع الرسل لا أتباع هؤلاء المضلين. وقول المؤلف [ضالين] فيه نظر، لأن الطغيان أمر زائد على الضلال. فالصواب أن ﴿طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾ بمعنى المتجاوزون للحد الذي ينبغي أن يكونوا عليه من أتباع الرسل.

﴿فَحَقَّ﴾ وجب ﴿عَلَيْنَا﴾ جيمعاً ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ حق علينا أي ثبت ووجب وصار حقًّا ليس فيه ظلم ولا باطل، ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ يعني أن كل من خرج عن طاعة الله وكذب بآياته فهو في النار.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [و﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ بالعذاب أي قوله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾]. [السجدة: ١٣]

هذا على ما قال المؤلف هو المراد بقولهم: ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾

وكأنه يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٩] ولكن الظاهر أن المراد بقول الله المشار إليه هو قوله لإبليس ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾. [الأعراف: ١٨] لأن الآية التي أشار إليها المؤلف فيها بيان أن الله سبحانه وتعالى قدر بحكمته أن يملأ النار من الكافرين، لكن ليس فيه الخطاب الموجه للشيطان وأتباعه، ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ فإن هذا هو الذي فيه الوعيد المباشر لمن اتبع الشيطان، فتفسير قولنا بالآية الثانية أولى من تفسيرها بما قال المؤلف، ثم قال: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿إنا﴾ جميعاً ﴿لذائقون﴾ العذاب بذلك القول، ونشأ عنه قولهم ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ المعلل بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾ ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ علينا الضمير يعود على الأتباع والمتبوعين، ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ أيضاً يعود الضمير على الأتباع والمتبوعين. كأنهم يقولون إنا لم نخلص أنفسنا فكيف نخلصكم، ثم قال: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ يعني جعلناكم من أهل الغي بصدكم عن طريق الرشد، ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾ هذا تعليل لقولهم: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ لقولهم أي بقول هؤلاء الذي نقله الله عنهم.

الفوائد:

في هذه الآيات عدة من الفوائد:

١ ـ تبرأ كل من التابع والمتبوع يوم القيامة من هؤلاء الضلال، فالمتبعون أو الأتباع يجعلون اللوم على المتبوعين والمتبوعون يجعلون اللوم على الأتباع.

٢ ـ ومن فوائدها: أن المتبوعين ليس لهم سلطان يكرهون به الأتباع، بل الأتباع هم الذين اختاروا لأنفسهم الضلالة.

٣ ـ ومن فوائدها: فيها دليل على أن هؤلاء المشركين والكافرين أعلم بالواقع من الجبرية وأشباههم الذين يقولون: إن الإنسان يجبر على عمله. فإن هؤلاء يقرون بأن الإنسان يفعل باختياره لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾،

٤ ـ ومن فوائدها: أن الأتباع يوم القيامة لا ينتفعون باتباع المتبوعين، بل إن المتبوعين يوبخونهم على طغيانهم فيقولون: أنتم الذين تجاوزتم الحد بترككم اتباع الرسل ثم اتباعنا.

٥ ـ ومن فوائدها: إثبات قول الله ـ عز وجل ـ وأنه يقول: لقوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ والقول هو الكلام الذي يستفاد منه فائدة، فيتفرع على ذلك أن كلام الله بحرف وصوت، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافاً للأشعرية الذين يقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس، وأن ما يسمع من هذه الحروف والصوت فإنما هو مخلوق خلقه الله تعالى تعبيراً عما في نفسه.

٦ ـ ومن فوائدها: إقرار المكذبين للرسل بالربوبية لقولهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ ويتفرع على ذلك الرد على عامة المتكلمين الذين يفسرون التوحيد بتوحيد الربوبية فقط، فيقولون: إن التوحيد هو أن تؤمن بأن الله تعالى واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في أفعاله لا شريك له، وواحد في صفاته لا شبيه له.

ففي هذه الجمل الثلاث لم يذكروا توحيد الألوهية، يعني

لم يقولوا: واحد في ألوهيته لا شريك له. وإنما جعلوا التوحيد ما يتضمن توحيد الربوبية وتوحيد الصفات فقط، على ما في هذا الكلام من إجمال يحتاج إلى تفصيل، لكن فيه حذف توحيد الألوهية، وهذا التوحيد الذي زعم عامة المتكلمين أنه هو التوحيد الذي جاءت به الرسل. لا شك أن المشركين كانوا يقرون به ولا ينكرونه، ومع هذا حكم عليهم النبي ﷺ بالشرك واستباح دماءهم وأموالهم ونساءهم وأراضيهم.

٧ ـ ومن فوائدها: أن هؤلاء المكذبين من أتباع ومتبوعين كلهم ينالهم العذاب لقوله: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي ذائقون عذاب ربنا الذي حق علينا.

٨ ـ ومن فوائدها: التحذير من مصاحبة أهل الغواية لقوله: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾، وقد حذر النبي ﷺ من مصاحبة الصاحب السوء فقال: «**مثل الجليس الصالح كحامل المسك وإما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ومثل الجليس السوء كنافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة**»[1].

٩ ـ ومن فوائدها: إطلاق الشيء على مسببه لقوله: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ لأنهم ليسوا هم الذين أغووهم، وإنما هم سبب إغوائهم، فإن الهداية والإضلال بيد الله ـ عز وجل ـ، لكن هؤلاء كانوا سبباً في غواية هؤلاء فأضافوا الفعل إليهم في قولهم:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الذبائح والصيد، باب المسك (رقم ٥٥٣٤) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء (رقم ٢٦٢٨) (١٤٦).

﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

* * *

قال الله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ هذا من قول الله تبارك تعالى وإن واسمها في إنهم، ومشتركون خبرها، وفي العذاب متعلق بـ(مشتركون)، ويومئذ يجوز أن تكون متعلقة بـ(مشتركون)، ويجوز أن تكون متعلقة بحال من الضمير في إنهم.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ تقوم القيامة فالتنوين عوضاً عن جملة محذوفة، وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ الضمير يعود على الأتباع والمتبوعين يشتركون يوم القيامة في العذاب أي في أصله، وإن كان بعضهم أشد عذاباً من بعض، لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾. الأنعام: ١٣٢).

واشتراكهم في العذاب لا يخفف عنهم؟ لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف: ٣٩] بينما الناس في الدنيا إذا اشتركوا في العذاب أو المصائب فإن بعضهم يسلي بعضاً ويقويه ربما يتحمل جزءاً من العذاب. لكن في الآخرة لا ينفع هذا، كل منهم يرى أنه أشد الناس عذاباً ـ والعياذ بالله ـ ولا ينفعه مشاركة غيره له.

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي لاشتراكهم في الغواية].

تفسير المؤلف تعليل لاشتراكهم في العذاب لأنهم اشتركوا في الغواية.

والمعنى أن هؤلاء مشتركون في العذاب كل يعذب بقدر

ذنبه فلا يظلم ربك أحداً، ولا يمكن أن يسلم الأتباع من التبعة، وأن يسلم المتبوعون من التبعة، وأن هؤلاء انقادوا للضلال باختيارهم، وهؤلاء خدعوهم وغروهم، فكان على كل واحد من العذاب ما يستحقه وإن اشتركوا في أصله.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ [إنا كذلك كما نفعل بهؤلاء نفعل بالمجرمين]، هكذا قدر المؤلف كما نفعل بهؤلاء نفعل بالمجرمين.

ويحتمل أن يكون المعنى إنا كهذا الفعل نفعل بالمجرمين وهم مجرمون. إعراب هذه الجملة ﴿إنا﴾ إن واسمها وجملة ﴿نفعل﴾ خبرها ﴿كذلك﴾ الكاف اسم بمعنى (مثل) منصوبة على المفعولية المطلقة، يعني إنا نفعل مثل ذلك الفعل بالمجرمين، وهذا التركيب يرد كثيراً في القرآن، وإعرابه أن تجعل الكاف اسم بمعنى (مثل) وأن تجعلها منصوبة على أنها مفعول مطلق للفعل الذي يليها.

وقوله: ﴿نَفْعَلُ﴾ وصف الله نفسه بالفعل على سبيل التعظيم، حيث عاد الضمير إليه بصيغة الجمع، ومعلوم أنه سبحانه واحد، ولكنه وصف نفسه بهذا من باب التعظيم.

وقوله: ﴿بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ المجرم هو الذي اكتسب الجرم وهو الإثم، فكل مجرم فإن الله تعالى يفعل به هكذا، ولكن الجرم نوعان: جرم لا عمل صالح معه فهذا يفعل به هكذا قطعاً وليس أهلاً للعفو. وجرم معه عمل صالح فهذا تحت المشيئة إن شاءالله عذبه وإن شاء غفر له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ﴾. [النساء: ٤٨].

قال المؤلف: [﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كما نفعل بهؤلاء ﴿نَفْعَلُ

بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ غير هؤلاء أي نعذبهم، التابع منهم والمتبوع]، وهذا يدل على أن هؤلاء كانوا مجرمين، لأنهم استحقوا من العذاب ما استحقه غيرهم.

[﴿إنهم﴾ أي هؤلاء بقرينة ما بعدهم ﴿كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾] ﴿إذا قيل لهم لا إله إلا الله﴾، القائل الرسل بدليل قوله: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ وربما نختار العموم يعني إذا قالت لهم الرسل أو غيرهم حتى غير الرسل ربما ينصحونهم ويقولون لهم: قولوا لا إله إلا الله، ولكنهم يجيبون بهذا الجواب الباطل.

وقوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هذه الجملة هي كلمة التوحيد، التي دعت إليها جميع الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾. [الأنبياء: ٢٥].

وإعرابها أن نقول: لا نافية للجنس، وإله اسمها، وخبرها محذوف تقديره حق، وإلا أداة استثناء، ولفظ الجلالة (الله) بدل من الخبر المحذوف.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: إله بمعنى مألوه، والمألوه هو المعبود حبًّا وتعظيماً، الذي تألهه القلوب وتنيب إليه وتخشع له، وإله أعني هذه الصفة فعال بمعنى مفعول تأتي كثيراً في اللغة العربية مثل: البناء الفراش، بمعنى المبني، المفروش.

فمعنى لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله.

ولو أورد علينا مورد، بأن هناك آلهة دون الله تعالى

فالجواب: أن ألوهيتهم ليست حقًّا، والدليل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢] وقد فسر عامة المتكلمين (لا إله إلا الله) بقولهم: لا قادر على الاختراع إلا الله. هذا تفسيرهم لها، كما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في التدمرية يقولون: (لا إله إلا الله) أي: لا قادر على الاختراع إلا الله، ففسروها بما يقتضي توحيد الربوبية، وهذا التفسير غير حق. فإذا فسرنا معنى (لا إله إلا الله) أي: لا قادر على الاختراع إلا الله يعني على الخلق إلا الله، وهذا التفسير غير صحيح وباطل من أصله.

والدليل: أن المشركين لا يستكبرون عن أن يقولوا: إنه لا خالق إلا الله، بل يقرون بذلك، إذاً من فسره بهذا التفسير فقد أخطأ.

والمشركون الذين قاتلهم الرسول ﷺ ما فسروه بهذا؛ لأنه لو فسروا بهذا ما استكبروا عنه.

إذاً فهذا التفسير يعتبر تفسيراً باطلاً، ليس فيه قصور ولا نقص، بل فيه البطلان من الأصل.

سؤال: مالفرق بين قولنا: لا معبود بحق إلا الله. وقولنا: لا معبود حق إلا الله؟

الجواب: إذا قلنا: لا معبود بحق إلا الله لم يأتِ الخبر، وصار (بحق) تعلق بمعبود، يعني لا أحد يعبد بحق إلا الله، ويكون الخبر على هذا هو (الله)، وهذا مشكل على قواعد النحو؛ لن (لا) النافية للجنس لا تعمل إلا في النكرات.

وإذا قلنا: لا معبود حق. صارت (حق) خبر (لا) ولا تكون

متعلقة بالمعبود. ولهذا قال بعضهم في تقديرها: لا معبود موجود إلا الله، وهذا غير صحيح، لأن هناك موجوداً يعبد سوى الله. ولكن الصحيح أن نقول: لا معبود حق. كما لو قلت: لا أحد قائم إلا زيد. تكون قائم هي الخبر. لا معبود حق إلا الله.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الله علم على الذات المقدسة لا يسمى به غيره، وهو أصل الأسماء، ولهذا تأتي أسماء الله تعالى غالباً تبعاً له، ولا يأتي هو تبعاً لغيره إلا نادراً، فالأكثر أن الأسماء تأتي كلها صفة لله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٢-٤] بسم الله الرحمن الرحيم. وربما تبعاً لها في مثل قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [إبراهيم: ١-٢] فهنا أتت هذه الكلمة العظيمة (الله) تبعاً لما قبلها. أين جواب ﴿إِذَا﴾ في قوله﴿ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؟ جواب (إذا)﴿يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥﴾، ولكن قد يقول قائل: لماذا لم تجزم؟ كيف جعلتموها جواباً لـ أن (إذا) ولم تجزموها مع أنها فعل مضارع، الجواب أن (إذا) حرف شرط غير جازم.

وقوله: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥﴾ أي: يتعالون كبراً وفخراً، فيرون أنهم أكبر من أن يقال لهم: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ويأنفون من ذلك أي من قول هذه الكلمة، لأنهم يرون في أنفسهم أنهم أعظم وأكبر، ولهذا قال: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥﴾ أي: يستكبرون عن قولها فلا يقولونها ويستكبرون عمن قالها فلا يستجيبون له، فكبرياؤهم ـ والعياذ بالله ـ من الناحيتين.

الناحية الأولى: الاستكبار عن قول هذه الكلمة.

والثانية: الاستكبار عن الاستجابة لمن دعاهم إليها، ويقولون مع استكبارهم النفسي يقولون بألسنتهم: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾ في همزتيه أربع قراءات على حسب ما قال المؤلف:

١ ـ أن تحقق الهمزتين.

٢ ـ أن تسهل الثانية.

٣ ـ أن تدخل ألفاً بينهما في حال التحقيق.

٤ ـ أن تدخل ألفاً بينهما في حال التسهيل.

﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ الاستفهام هنا للنفي، وأكدوا هذا النفي بقوله: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ﴾ أكدوه بإنا واللام، يعني هل يمكن أن نترك آلهتنا لهذا القائل الذي وصفوه بهذين الأمرين: شاعر ومجنون، أي لأجل قول محمد ﷺ يعني لا يمكن أن نترك آلهتنا من أجل قول هذا الشاعر المجنون، والشاعر هو من يقول الشعر، والمجنون ضد العاقل، ومن المعلوم أن قولهم هذا كذب، ومع كونه كذباً فهو متناقض. وجه التناقض أن المجنون كيف يكون شاعراً؟ المجنون لا يمكن أن يأتي بكلام نثر منتظم، فكيف يأتي بكلام نظم يهز المشاعر، ويقال: إنه صدر من شاعر؟! لكن ـ والعياذ بالله ـ العمى إذا حل في القلب صار الإنسان لا يدري ما يقول، ربما يقول قولاً يتناقض وهو لا يدري.

ومن المعلوم أن الله تعالى كذبهم في هذا القول، فقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾. [يس: ٦٩]] وقال تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [القلم: ١ـ٢] بل أنت أعقل العقلاء،

فكذبهم الله ـ عز وجل ـ في قولهم هذا، وهم بلا شك كاذبون، فالنبي ﷺ أعقل الناس، والنبي ﷺ أتى بقول ليس بشعر، بل أتى بكلام الله ـ عز وجل ـ، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ (بل) هذه للإضراب الإبطالي، أي بل كذبتم فيما قلتم، وإنما جاء رسول الله ﷺ بالحق، والباء هنا للمصاحبة يعني جاء مصحوباً بالحق، فقوله حق وما جاء به أيضاً حق، فكون النبي ﷺ يقول: هذا من عند الله. نقول: هذا حق هو صادق، وما يشتمل عليه القرآن فهو حق وضده الباطل، فالحق هنا وصف لقول النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنه رسول الله، ووصف لما جاء به، فيكون وصفاً للخبر والمخبر به، فخبر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأن هذا القرآن من عند الله نقول: حق، وما جاء به أيضاً فهو حق، وذلك لأن القرآن مشتمل على كمال العدل وكمال الصدق، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] فتكون الأحقية هنا من جهتين: من جهة الخبر، ومن جهة المخبر به، الخبر أن قول النبي ﷺ: هذا من عند الله حق ليس فيه كذب، المخبر به: أن ما جاء به الرسول ﷺ فكله حق متضمن للحق، ليس فيه باطل، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾. [الأنعام: ١١٥] فالصدق وصف للأخبار، والعدل وصف للأحكام، والقرآن كله إما خبر وإما حكم، فخبره صدق وحكمه عدل.

﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [الجائين به وهو أن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ صدّق أي النبي ﷺ المرسلين الذين أرسلوا من قبله] وكيف صدقهم؟ نقول لتصديقه المرسلين

وجهان:

الوجه الأول: أن مجيئه وقع مطابقاً لما أخبروا به، فيكون ذلك تصديقاً، كما لو قلت: سيقدم زيد غداً، فإذا قدم صار مصدقاً لقولك وصار مجيئه مصدقاً لقولك.

الوجه الثاني: صدق المرسلين أي قال: إن الرسل صادقون. وكلنا يعلم أن من دين رسول الله ﷺ أن يقول الإنسان: آمنا بالله وبرسل الله ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، [البقرة: ٢٨٥] فتصديق رسول الله ﷺ لمن سبقه يكون على هذين الوجهين:

أولاً: أن مجيئه تصديق لما أخبروا به من أن سيبعث، وآخرهم عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، قال لقومه: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾. [الصف: ٦].

والثاني: أنه وصف ما جاءت به الرسل السابقون بأنه صدق.

﴿جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ قال [الجائين به، وهو أن لا إله إلا الله] في تفسير المؤلف ـ رحمه الله ـ شيء من القصور؛ لأنه صدّق المرسلين في هذا وفي غيره، وكأن المؤلف ـ رحمه الله ـ خصها بقول (لا إله إلا الله) بناء على السياق، حيث كان السياق في التحدث عن (لا إله إلا الله) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي صدَّقهم بأن لا إله إلا الله، ولكن الأولى الأخذ بالعموم فصدقهم في هذا وفي غيره.

الفوائد:

١ ـ أن الأتباع والمتبوعين كل منهم مشترك في العذاب، لقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾. والفائدة من ذلك أنه لن ينجو الأتباع ولا المتبوعين.

فإن قال قائل: هل الاشتراك يقتضي المساواة؟

فالجواب: **لا**. بل لكلٍّ درجاتٌ مما عملوا.

٢ ـ ومن فوائدها: إذلال هؤلاء المتبوعين الذين كانوا في الدنيا يعتلون على الخلق؛ لأنه جمع بينهم وبين من يستعبدونهم في الدنيا، ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ لأن الآخرة دار عدل.

٣ ـ ومنها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يظلمهم بهذا العذاب، لقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ فهم لم يعذبوا إلا لجرمهم.

٤ ـ ومن فوائدها: أن الناس عند الله سواء، فكل من استحق عقاباً أو ثواباً فهو له؛ لقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ يعني لم نفعل بهؤلاء وحدهم، بل حكمنا هذا شامل لكل مجرم.

وكذلك يقال في الثواب: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يثيب كل عامل بعمله بمقتضى الأوصاف التي يستحق بها هذا الثواب.

٥ ـ ومنها: إثبات الفعل لله ـ عز وجل ـ لقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ﴾ والله ـ سبحانه وتعالى ـ فعَّال لما يريد، والفعل يقتضي التجدد بحسب المفعول، فخلق الله للسماوات والأرض لم يكن أزليًّا، وإنما كان حين خلق السماوات والأرض، وخلق الله

للجنين في بطن أمه لم يكن أزليًا، بل هو حادث حين حدوث هذا الجنين.

٦ ـ وننتقل من هذه الفائدة إلى فائدة تتفرع عنها، وهي إثبات أفعال الله الاختيارية خلافاً لمن أنكر ذلك، وقال: إن الله لا يقوم به فعل اختياري. وعللوا ذلك بعلة باطلة، قالوا: لأن الفعل الاختياري يقتضي الحدوث، والحادث لا يقوم إلا بحادث، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أزلي أبدي، ولا شك أن هذا القول قول باطل. فإن الحادث قد يقوم بغير الحادث كما في أفعال الله. أليس الله تعالى خلق السماوات والأرض ثم استوى على العرش، فحدث الاستواء بعد خلق السماوات والأرض؟ أوليس الله ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الأخير؟ بلى، فحصل النزول بعد مضي ثلثي الليل، ومع ذلك فإن الله لم يزل ولايزال موجوداً. ثم إن الإنسان بنفسه يجد أن أفعالاً منه تتجدد مع سبقه عليها. فالإنسان مثلاً فعله اليوم ليس فعله بالأمس وهو سابق على أفعاله فتقوم به الأفعال الحدوثية مع سبقه عليها، فإذا جاز هذا في المخلوق، فهو في الخالق من باب أولى؛ لأنه كمال.

٧ ـ ومن الفوائد: تمام سلطان الله ـ عز وجل ـ وقوته، وجه ذلك أن هؤلاء المجرمين معروفون بالعتو والكبرياء والغطرسة، كما في فرعون وغيره من الملأ، ومع ذلك فإن الله قاهرهم، يعذبهم ويفعل بهم ما يشاء مما تقتضيه حكمته.

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أن هؤلاء المجرمين في غاية ما يكون من

العتو، فإنهم إذا قيل لهم هذه الكلمة العظيمة التي لو وزنت بها السماوات والأرض لرجحت بهن، يستكبرون عنها، ويرون أنهم أكبر قدراً من أن يقولوها، أو أن يصدقوا من قال بها، لأنه قد سبق أن قلنا في التفسير يستكبرون عن الخبر والمخبر به.

٩ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب الخضوع لما تقتضيه هذه الكلمة؛ لأن الله ساقها في القوم المستكبرين عنها مساق الذم، وعلى هذا فمن قبلها وخضع لها فقد نفى عن نفسه الذم وقام بما يجب عليه.

١٠ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن من قال: (لا إله إلا الله) بإخلاص فلابد أن يخضع لأوامر الله ولا يستكبر، ومن ثم جاءت نصوص كثيرة تعلق دخول الجنة على قول (لا إله إلا الله)، ومن المعلوم أن دخول الجنة لا يترتب على مجرد قولها، إذ إن المنافقين يقولونها ومع ذلك لا يدخلون الجنة، لكن المراد بمن قالها خاضعاً لما تقتضيه هذه الكلمة العظيمة من اتباع أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه.

١١ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا يجوز صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله، لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فلا يجوز أن يصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله لا صلاة ولا نذر ولا سجود ولا ركوع ولاحج، كله يجب أن يصرف لله ـ عز وجل ـ، لأنه هو المعبود حقًّا.

١٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ أن هؤلاء كذبوا بما تقتضيه شهادة أن لا إله إلا

الله وأن محمداً رسول الله. فالأول ﴿كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥﴾ والثاني إذا قيل: آمنوا بمحمد قالوا: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ٣٦﴾. فلم يقوموا بـ (لا إله إلا الله)، ولم يقوموا بمحمد رسول الله، والله ـ عز وجل ـ يقرن دائماً بين هاتين الكلمتين في آيات كثيرة، انظر إلى قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٦٩﴾، [المؤمنون: ٦٨ـ٦٩] ففي الأول الإشارة شهادة أن لا إله إلا الله، وفي الثاني ﴿لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ﴾ شهادة أن محمداً رسول الله. ولهذا أيضاً جعل النبي ﷺ هاتين الشهادتين ركناً واحداً من أركان الإسلام، فقال: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة..**»[1] لتلازم هاتين الشهادتين، ولأن مبنى العبادة كلها على الإيمان بهاتين الشهادتين إذ إن مبنى العبادة على الإخلاص والمتابعة، اللذين يتحقق بهما شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

١٣ ـ ومن الفوائد: أن هؤلاء المستكبرين لم يكفهم الاستكبار عن الحق حتى قدحوا فيمن جاء بالحق. يؤخذ من قوله: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ٣٦﴾ فلم يكفهم أن تركوا الحق حتى هاجموا وقدحوا فيمن جاء به، وقد ورثت هذه الطريقة ـ أي القدح بمن جاء بالحق ـ فأهل البدع يسمون أهل السنة بكل

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب ﴿دعاؤكم﴾ إيمانكم لقوله عز وجل: ﴿قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم﴾ (٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام (١٦).

عيب ووصف قبيح، سموهم المشبهة والمجسمة والحشوية والغثاء والنوابت والعامة، وما أشبه ذلك من الكلمات التي تفيد القدح، ولكن جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ لكل نبي عدوًّا من المجرمين، ولكل متبع نبي عدوًّا من المجرمين، فورث هؤلاء الأصفياء صفوة الخلق وهم الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وورث هؤلاء الأشقياء أشقى الخلق الذين يقدحون في الرسل.

١٤ ـ ومن الفوائد: شدة انتصار هؤلاء المشركين لآلهتهم، انظر كيف قالوا: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾ وهذا يدل على شدة انتصارهم لها وحميتهم الجاهلية، وقد سبق في سورة«يس» ﴿يسٓ ۝١﴾ أن الله تعالى قال عن هذه الآلهة: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ۝٧٥﴾. [يس: ٧٥] فالأصنام والآلهة لا تنصرهم، وهؤلاء جند محضرون لنصر هذه الآلهة.

١٥ ـ ومنها: وقوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٧﴾:

أن رسول الله ﷺ جاء بالحق، فكل دينه مشتمل على الحق فيما يتعلق بمعاملة الله تعالى أو فيما يتعلق بمعاملة عبادالله.

وقد قال الله تعالى في وصف القرآن الذي جاء به الرسول ﷺ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] هذه الكلمة لو صنفت عليها مجلدات ما استوعبت مدلولها ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ في كل شيء، في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات إيجاداً أو تركاً، ولو أنك تتبعت الشريعة بقدر ما تستطيع لوجدت أن هذا الوصف منطبق على جميع خصال

الشريعة، كل خصال الشريعة أقوم من كل شيء، وهنا يقول: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ ضد الحق هو الباطل، والباطل إما كذب في الأخبار، وإما جور في الأحكام، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] وذكرنا لقوله ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ معنى آخر غير كون ما جاء به حقًّا، وهو أنه ﷺ صادق فيما جاء به فما جاء به حق، وهو صادق في قوله: إنه من عند الله، وليس بكاذب.

١٦ ـ ومن فوائدها: الثناء على ما جاء به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقوله: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ بل والثناء على الرسول ﷺ حيث وصفه بأنه جاء بالحق ولا شك أن من وصف من عند الله بأنه جاء بالحق لا شك أن هذا من أعظم المناقب والأوصاف الحميدة.

١٧ ـ ومن فوائدها: الإشارة إلى أن النبي ﷺ آخر الرسل لقوله: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ فإن «ال» للعموم فتقتضي كل رسول، وهذا يشير وليس بصريح إلى خاتم النبيين، كما قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾. [الأحزاب: ٤٠].

الآية لها مدلول عظيم، قال: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وكان مقتضى السياق أن يقول، «ولكن رسول الله وخاتم الرسل»، أو يقول: «ولكن نبي الله وخاتم النبيين»، لكن قال رسول الله؛ لأن وصف الرسالة أعلى من وصف النبوة، وخاتم النبيين يعني لن يأتي بعده لا رسول ولا نبي وهو كذلك، فهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ أفضل الرسل، ولن يأتي بعده لا نبي ولا رسول.

١٨ ـ ومن فوائدها: أنه يجب علينا أن نصدق من سبق من الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ؛ لأن نبينا ﷺ صدق المرسلين، فيجب علينا نحن أن نصدق؛ لأنه يجب على المأموم متابعة الإمام، فإمامنا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فيجب علينا أن نتبعه.

١٩ ـ ومن فوائدها: الإشارة إلى أن الرسل السابقين أخبروا به لقوله: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ولا شك أن الرسل السابقين أُعلموا به، وأن آخرهم عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بشر به، أما الأول فدليله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١] فإن المراد بذلك محمد ﷺ.

فإنه جاء مصدقاً لما معهم، فكان عليهم أن يؤمنوا به بمقتضى هذا العهد، وانظر إلى ليلة المعراج حيث صلى الرسل، بل الأنبياء صلوا جماعة، وكان إمامهم محمداً ﷺ مما يدل على أنه أفضلهم، فإن الإمامة في الصلاة تقتضي الإمامة التي فوق الصلاة.

٢٠ ـ ومن فوائدها: تناقض هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ حيث وصفوه بأنه شاعر مجنون؛ لأن المجنون لا يمكن أن يكون شاعراً فهم يتخبطون خبط عشواء، إلا أن يدعي مدع بأن الكلام مقسم أي: أن بعضهم يقول: شاعر، وبعضهم يقول: مجنون.

وينسب القول للجميع، وإن كانوا لم يقولوا به لأنهم راضون به، إن ادعى مدع ذلك فله وجه، لكن إن كان القائل يجمع بين الوصفين فقد تناقض.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ هذه الجملة مؤكدة بمؤكدين: أحدهما (إن) والثاني: اللام، وقوله: ﴿لَذَآئِقُواْ﴾ هي الخبر وحذفت النون منها من أجل الإضافة؛ لأن المضاف تحذف منه النون إذا كان مثنى أو جمعاً، ويحذف منه التنوين إن كان مفرداً.

وقوله: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ الأليم هنا بمعنى المؤلم، وفعيل تأتي بمعنى مفعل، ومنه قول الشاعر:

أمن ريحانة الداعي السميع تؤرقني وأصحابي هجوع

السميع بمعنى المسمع.

وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾: فيه التفات، وذلك أن مقتضى السياق أن يقول: «إنهم لذائقوا العذاب» لأن الحديث كله جاء عن الغائب. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ فكان مقتضى السياق أن يقول: إنهم لذائقوا العذاب الأليم، ولكن كان في السياق التفات من الغيبة إلى الخطاب فما فائدة هذا الالتفات؟

ذكرنا فيما سبق أن كل التفات فإن له فائدة مشتركة، وهي تنبيه المخاطب؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد سها

المخاطب أو القارىء، ولكن إذا تغير الأسلوب فإنه ينتبه، لماذا تغير؟ وما وجه التغير؟ فتشترك جميع الالتفاتات في كل موضع بأن الغرض من ذلك التنبيه، ثم ينفرد كل موضع بما يختص به، فهنا التفات من الغيبة إلى الخطاب، لأن الخطاب أبلغ في الزجر، ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ أبلغ من إنهم لذائقوا العذاب الأليم. ولهذا إذا تأملنا قصة الخضر مع موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أول ما عتب عليه قال له: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾ [الكهف: ٧٢] وفي الثانية: ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الكهف: ٧٥] فالخطاب لا شك أن فيه قرعاً للذهن مباشراً، فيكون أشد وقعاً من ضمير الغيبة.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ هذا فيه حق اليقين؛ لأن هؤلاء تُوُعِّدوا بهذا العذاب، وتوعدهم بالعذاب هو علم يقين، ثم رأوا النار كما قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ٥٣] وهذا عين اليقين ثم قيل لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ وهذا حق اليقين، فاجتمع في وعيد هؤلاء المراتب الثلاث: العلم، والعين، والحق.

﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ المراد به عذاب جهنم ـ والعياذ بالله ـ لأنه مؤلم، وقد أخبر الله ـ عز وجل ـ عن إيلام هذا العذاب بأنواع عظيمة، ذكرها الله في كتابه، وذكر منها النبي ﷺ شيئاً كثيراً في السنة، قال: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: ما تجزون من هذا العذاب إلا شيئاً قدمتموه أنتم لأنفسكم، وهنا قال المؤلف

في تقدير الآية: [إلا جزاء ما كنتم تعملون]. وهذا أمر معلوم؛ لأن الذي عملوه كان وبان، إذ إن العمل كان في الدنيا ومضى، والجزاء في الآخرة، فهم لم يجزوا العمل نفسه، وإنما جوزوا جزاء العمل، ومن ثمَّ قال المؤلف: إلا جزاء ما كنتم تعملون.

وإذا قال قائل: ما الفائدة من أن يُعبَّرَ عن الجزاء بالعمل؟

قلنا: الفائدة في ذلك أمران:

الأمر الأول: أن يعلم بأن الجزاء من جنس العمل، فكما تدين تدان، فإذا عبر عن الجزاء بالعمل فإن هذا معناه أو مقتضاه أن هذا الجزاء بقدر العمل.

الفائدة الثانية: قوة التوبيخ لهؤلاء؛ لأن الجزاء من فعل غيرهم، فإذا عبر عنه بالجزاء فإنه يكون أهون بعض الشيء، لكن إذا عبر بالعمل عن الجزاء صار أشد في التوبيخ، كأنه يقال لهم: هذا فعلكم أنتم بأنفسكم، ولهذا عبر عن الجزاء بالعمل.

وقوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ من حيث الإعراب: نقول: إن (الواو) نائب فاعل في (تجزون)، و(ما): اسم موصول في محل نصب مفعول آخر؛ لأن جزاء تنصب مفعولين، ولكن هل هي من باب ظن التي مفعولاها أصلهما المبتدأ والخبر، أو من باب (كسا) التي مفعولاها ليس أصلهما المبتدأ والخبر؟

الجواب الثاني: لأنه لو قدرت أن الواو مبتدأ، و(ما) خبر ما صح الكلام.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي

المؤمنين استثناء منقطع]، قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ هذا استثناء منقطع، والاستثناء المنقطع هو الذي يحل محله، (لكن).

فإن قيل: لماذا لم يعبر بـ(لكن بدل إلا؟ مادام أن المعنى على الاستدراك؛ لأن الاستثناء منقطع فلماذا لم يؤت بحرف الاستدراك الأصلي الذي هو لكن؟

قلنا في الجواب على ذلك: إنه أتى ليفيد قوة اتصال الثاني بما بعده؛ لأن الأصل في الاستثناء الاتصال، والأصل في (لكن) الانقطاع. فإذا جاءت (لكن) فصلت بين ما قبلها وما بعدها، لكن إذا جاءت (إلا) صار في ذلك إشارة إلى قوة اتصال ما بعدها بما قبلها وهو كذلك، فإنه لما ذكر جزاء المجرمين ذكر جزاء المخلصين، وهذا من كون القرآن العظيم مثاني تثنى فيه المعاني المتقابلة إذا ذكر الوعيد ذكر الوعد، وإذا ذكر المؤمن ذكر الكافر، وإذا ذكرت الجنة ذكر النار، وهكذا، فهو مثاني، لأنه لو جاء الكلام على نسق واحد في ذكر الخوف والنار لغلب على القارىء جانب الخوف وأدى ذلك إلى القنوط من رحمة الله. ولو جاء الكلام على نسق واحد في الوعد والترغيب لأدى ذلك إلى الرجاء فيقع الإنسان في الأمن من مكر الله ـ عز وجل ـ. فكان القرآن يأتي بهذا وبهذا، جنباً إلى جنب، من أجل أن يكون الإنسان دائماً بين الخوف والرجاء.

وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ المراد بالعبودية هنا عبودية الشرع، لأن العبودية نوعان:

عبودية القدر، وعبودية الشرع.

فعبودية القدر شاملة لكل أحد. يعني للمؤمن والكافر، والبر والفاجر، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣] فالكل خاضعون لقدر الله ـ عز وجل ـ، لا يمكنهم الفرار منه ولا مصادمته ولا الاستكبار عنه.

أما عبودية الشرع فهي خاصة بمن أطاع الله عز وجل وتعبد لله بشرعه، فيخرج منها الكافرون؛ لأن الكافر لا يتعبد لله بشرعه، بل هو مستكبر عن شرعه، هذه الآية: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ من عبودية الشرع يعني إلا الذين تعبدوا لله بشرعه وأخلصهم الله تعالى لطاعته، فهؤلاء ليسوا كمن سبق.

قال: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ قال المؤلف: ـ رحمه الله ـ[أي المؤمنين] ولكن المخلَص فيه نوع اصطفاء أخلصهم الله لنفسه، فكانوا عباداً لله لا لغيره؛ لأن التزام طاعة الله هو تحقيق عبادة الله تعالى، والإنسان العاصي لله تعالى عنده من الخروج عن عبادة الله بقدر ما حصل منه من المعصية؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الجاثية: ٢٣]. فهذا يدل على أن كل إنسان عصى الله فهو إنما يعصيه لهوى في نفسه، فإنه قد نقص من عبودية الله بقدر ما فعل من المعصية.

إذاً فالمخلص فيه نوع من الاصطفاء. أخلصهم الله لنفسه فكانوا عباداً لله تعالى حقًّا، ولهذا قال ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾. وعباد الله المخلصون هم الذين أخلصهم الله لنفسه، فلم يجعل للشيطان عليهم سلطاناً، كما قال تعالى في حق الشيطان: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ـ٨٣] فالمخلص

محفوف برعاية الله سبحانه وتعالى وحمايته عن الشيطان، والمخلص أشد وقعاً من المؤمن.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ٤١﴾ أولئك الضمير يعود على عباد الله المخلصين، وأتى بأولئك الدال على البعد مع قرب ذكرهم ولم يقل: (هؤلاء)، بل قال: ﴿أولئك﴾ تعظيماً لشأنهم وبياناً لعلو مرتبتهم. والإشارة بالبعيد تأتي لتعلية الشأن وتعظيمه، كما قال الفرزدق يخاطب جريراً:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم
إذا جمعتنا يا جرير المجامع

قال: أولئك آبائي أشار إليهم بإشارة البعيد، تعظيماً لشأنهم وتعلية لهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ٤١﴾ (أي عطاء)، قال المؤلف: ـ رحمه الله ـ[في الجنة]، والأولى أن تطلق كما أطلق الله ـ عز وجل ـ.

وقد يقال: يجازون أيضاً في الدنيا، لكن ظاهر سياق الآية: ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ٤٢ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٤٣﴾ يدل على أنه المراد الرزق الحاصل لهم في الجنة.

وقوله: ﴿رزق﴾ بمعنى عطاء ﴿معلوم﴾، يقول المؤلف: [بكرة وعشيًّا]، فكأنه يشير إلى أن المراد بالمعلوم معلوم الوقت. ولو قيل: إنه أعم فهو معلوم الوقت ومعلوم النوع ومعلوم في الدنيا ومعلوم عند ملاقاته لكان أشمل، فإن هذا الرزق معلوم في الدنيا لأن الله تعالى أعلمنا به وهو أيضاً معلوم الوقت لقوله:

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾، [مريم: ٦٢] وهو معلوم العين والنوع إذا لاقوه. كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] فهو معلوم لديهم في الدنيا وكذلك في الآخرة، ﴿فَوَٰكِهُ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [بدل أو بيان للرزق وهو ما يؤكل تلذذاً لا لحفظ الصحة]، ﴿فَوَٰكِهُ﴾ بالرفع بدل، أو بيان للرزق؛ لأن كلمة رزق أعم من الفواكه، فيكون ﴿فَوَٰكِهُ﴾ بدل بعض من كل، لأن الرزق أعم.

﴿فَوَٰكِهُ﴾ هنا لم تنون؛ لأنها ممنوعة من الصرف صيغة منتهى الجموع. ﴿فَوَٰكِهُ﴾ على وزن فواعل.

وقال المؤلف ـ رحمه الله ـ في الفاكهة [هي ما يؤكل تلذذاً لا لحفظ صحة] يعني أن الفاكهة ما يأكله الإنسان للتلذذ لا للتقوت به، فهو عبارة عن أكل كمالي، وهكذا أهل الجنة يأكلون ما يأكلون فيها من باب التفكه لا لحفظ الصحة؛ لأن صحتهم مضمونة، فإن لهم أن يصحوا فلا يسقموا أبداً، وأن يعيشوا فلا يموتوا أبداً، فيكون كل ما يأكلونه في الجنة من قسم الفاكهة؛ لأن أهل الجنة؛ كما يقول المؤلف ـ: [مستغنون عن حفظها ـ أي حفظ الصحة ـ بخلق أجسامهم للأبد]. ولهذا جاء في الحديث: «**أنهم لا يبولون ولا يتغوطون، وإنما يخرج ما يأكلونه رشحاً ـ يعني عرقاً ـ كَريح المسك**»[1] فيتنعمون بهذا الأكل عند أكله وعند خروجه؛ لأنه يخرج رشحاً كرائحة المسك، كما لو طُلِي

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها. وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا (٢٨٣٥/ ٢٠).

الإنسان بالمسك، فإنه يجد لذة ورائحة طيبة.

﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ بثواب الله في جنات النعيم. وجملة ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ جملة اسمية تفيد الثبوت والاستمرار، يعني هم مكرمون في هذه الجنة من كل وجه من قبل الله ـ عز وجل ـ، يكرمهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ فينظرون إليه، ويعدهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، ومكرمون من قبل الملائكة، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

مكرمون من جهة الخدم ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ مكرمون من كل وجه لا يجدون يوماً من الأيام لحظة من اللحظات شيئاً من الإهانة، بل هم في غاية الإكرام من كل وجه، لو لم يكن إلا أن الله ـ عز وجل ـ أكرمهم وأباح لهم النظر إلى وجهه، ويتحدث إليهم عز وجل، وهذا غاية ما يكون من السرور، لا شيء أسر ولا أنعم ولا أفضل من مناجاة الله ـ عز وجل ـ، وهم ينظرون إلى وجهه.

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾ الجنات جمع جنة، والجنة في اللغة العربية البستان الكثير الأشجار، وسمي بذلك؛ لأنه يجن من فيه، أي يستره ويغطيه، وأصل هذه المادة الجيم والنون أصلها من الستر، ولذلك تجد كل معانيها تعود إلى هذا، فالجنان القلب وهو مستتر، والجنة ما يجتن به المقاتل ويستتر به عن السهام، والجن عالم غيبي مستتر، والجنة بستان مستور بالأشجار، ولكن لا نفسر جنَّة النعيم بهذا، بل نقول: هي «الدار التي أعدها الله لأوليائه، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على

قلب بشر»؛ لأنك لو قلت: إنها البستان الكثير الأشجار فإن الشوق إليها والنظر إليها يضعف، إذ إن المخاطب يتصور أن هذه الجنة كبساتين الدنيا، فيجول في بساتين الناس أي بستان أعظم؟ بستان فلان بن فلان فلا يتجاوز قلبه أو يتصوره هذا البستان، مع أن الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾. [السجدة: ١٧] وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[1]. فالأحسن أن نفسر جنة الخلد بأنها الدار التي أعدها الله تعالى لأوليائه، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ ﴾ هذا من باب إضافة الشيء إلى نوعه، أي جنات نعيم لا بؤس فيها ولا شقاء، نعيم للقلب وهو السرور، نعيم للبدن لأنهم يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير. فهم منعمون في أبدانهم، ومنعمون في قلوبهم، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾. [الإنسان: ١٢] وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾ الإنسان: ١١] فالنضرة في الوجه وهو الحسن، والسرور في القلب، فكان الحسن فيهم ظاهراً وباطناً، ولهذا سميت جنة النعيم لتنعم الإنسان فيها ظاهراً

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب يريدون أن يبدلوا كلام الله (رقم ٧٤٩٨) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (رقم ٢٨٢٤) (٢، ٣، ٤).

وباطناً، فقلبه منعَّم بالسرور، وبدنه منعَّم بالنضرة ولباس الحرير.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير وهي الكراسي التي يجلس عليها، ولكن ليست كسرر الدنيا، بل ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾[الواقعة: ١٥] مخروزة من الذهب، ولا يمكن أن تتصور حسن هذه السرر؛ لأن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وما لم يخطر على قلب بشر لا يمكن أن يتصوره الإنسان؛ لأنه فوق ما يتصور، فكل شيء تقدره من النعيم والحسن فالجنة أعلى وأعظم، وقوله: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ حال من الضمير المستتر في قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ يعني: حال كونهم متقابلين، وهذا يدل على كمال أدبهم وسعة مجالسهم. على كمال الأدب؛ لأنهم متقابلون لا يولي أحدهم قفاه للآخر، كذلك أيضاً يدل على سعة المجالس؛ لأنهم إذا كانوا كثيرين وصاروا متقابلين لابد أن تكون الدائرة واسعة، إذاً فالمجالس واسعة مهما جاء من الناس، فإنها تسعهم ويتقابلون فيها، والظاهر أن جلوس الإنسان مع أهله وخاصته على هذا الوجه متقابلين لكمال أدبهم.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ يطاف: فعل مضارع مبني للمجهول، ولم يذكر من يطوف عليهم، لكن ذكر في آية أخرى أنه ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾. [الإنسان: ١٩] نسأل الله من فضله. ولدان يعني: غلمان صغار كأنهم لؤلؤ مكنون، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً من جمالهم وصفائهم وحسنهم. منثوراً لتفرقهم في خدمة أسيادهم. واللؤلؤ إذا نثر تبعثر في الأرض فهم متبعثرون في خدمة أسيادهم كل له عمل، وهذا يَسرُّ الإنسان أن

يجد هؤلاء الغلمان كل في عمله، ليس فيهم متعطل، وليس فيهم منتظر للآخر. ليسوا كغلمان الدنيا يتزاحمون كل واحد ينتظر الأجر، بل كلٌّ في خدمة معينة، وهذا ألذ ما يكون للسيد إذا رأى هؤلاء الغلمان قائمين بخدمته على هذا الوجه، ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإنسان: ١٩].

وقوله: ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ قال المؤلف: ـ رحمه الله ـ[هو الإناء بشرابه]، الكأس معروف وهو الإناء بشرابه، وقد بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن هذا الكأس دهاق ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ [النبأ: ٣٤] أي مملوءة. ومع ذلك مملوءة بقدر معلوم ليست كبيرة، فإذا شربها الإنسان تعب، وإن أبقى منها فضلة صارت غير شهية، وليست صغيرة بحيث لا ترويه، وهم لا يعطشون، ولكن تلذذاً، بل قال الله تعالى: ﴿مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإنسان: ١٦] يعني: جُعِلَتْ بقدر ما يتلذذ به الشارب لا كبيرة ولا صغيرة.

وقوله: ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [من خمر يجري على وجه الأرض كأنهار الماء]، المعين في الأصل الماء الجاري، والمراد هنا بكأس من معين أي من خمر ﴿معين﴾ كعين الماء يجري. وقد بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ في سورة القتال أنهار الجنة ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾. [محمد: ١٥] أنهار تجري. والذي خلق من هذا الطائر الذي يشبه الذباب هذه الكميات الكثيرة من العسل قادر على أن يخلق أنهاراً من العسل في الجنة وليس هذا بغريب، وليست هذه

الأنهار تأتي من نحل، لكن تأتي بقول الله: كن فيكون، عسل مصفى لا شمع فيه ولا شوائب من أحسن ما يكون رؤية وطعماً ورائحة. وقد قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في النونية بناء على حديث ورد في ذلك:

أنهارها في غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان

يعني: ليست كأنهار الدنيا تحتاج إلى أخدود تمنعها من الذهاب يميناً وشمالاً، أو حفرة تحفر للنهر؛ لئلا تجري على سطح الأرض، بل على حسب ما يريده أهلها من غير عمال يوجهونها حفراً أو إقامة أخدود، بل تجري على ما تريد من غير تعب.

قال: سبحان ممسكها عن الفيضان. والذي أمسك البحر أن يغرق أهل الأرض ـ وهو ليس بشيء بالنسبة للجنة ـ قادر على أن يمسك هذه الأنهار لا تزيغ يميناً ولا شمالاً.

الفوائد:

في هذه الآيات فوائد كثيرة منها:

١ ـ أن هؤلاء المكذبين أو المستكبرين عن قول (لا إله إلا الله) سيذوقون العذاب لقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ﴾ وهذه الجملة مؤكدة بمؤكدين وهما: إن، واللام.

٢ ومن فوائدها: أن عذاب هؤلاء عذاب مباشر، كما يباشر الإنسان الأكل لقوله: ﴿لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ﴾، والأصل في الذوق أن يكون في الطعام الذي يؤكل، ثم أُطْلِقَ على كل شيء محقق وقوعه.

٣ ـ ومن فوائدها: أن عذاب هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ أليم أي: مؤلم، وهو ألم لا يمكن للأبدان في الدنيا أن تتحمل جزءاً منه؛ لأنهم ـ والعياذ بالله ـ يعذبون بنار أشد من نار الدنيا بتسعة وستين جزءاً، وكلما نضجت جلودهم بُدِّلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب. فهو عذاب أليم ألماً لا نظير له في الدنيا، ولا يمكن أن يتخيله الإنسان لشدته، نسأل الله أن يجيرنا منه.

٤ ـ ومن فوائدها: كمال عدل الله ـ عز وجل ـ حيث جعل الجزاء من جنس العمل، لقوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ بخلاف الملوك في الدنيا أو أولياء الأمور في الدنيا فإن جزاءهم على العمل قد يكون أكثر مما يستحق، قد يغضب الإنسان فيجازي من له سلطة عليه بأكثر مما يستحق، أما الله ـ عز وجل ـ فإنه لا يجازي الإنسان إلا بعمله.

٥ ـ ومن فوائدها: إثبات الجزاء، ولازمه إثبات البعث؛ لأن الجزاء الكامل على العمل إنما يكون يوم القيامة فيكون في الآية دليل على إثبات البعث وإثبات الجزاء.

٦ ـ ومن فوائدها: الرد على الجبرية الذين يقولون: إن عمل الإنسان لا ينسب إليه؛ لأنه مجبر عليه فتحرك الإنسان بالقول أو بالفعل كتحركه الاضطراري، بل كتحرك الريشة بالهواء، ولكن هذا القول ترده النصوص والعقول.

٧ ـ ومن فوائدها: أن القرآن مثاني، تثنى فيه المعاني، حتى يكون الإنسان بين الخوف والرجاء فيما إذا ثني الترغيب والترهيب كما في هذه الآيات ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

٨ ـ ومن فوائدها: شرف القائمين بأمر الله تعالى حيث أضافهم الله إلى عبوديته في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾، ولا شك أن فخراً للإنسان أن ينسب إلى عبادة الله، ولهذا يذكر الله سبحانه وتعالى وصف نبيه محمد ﷺ في أشرف مقاماته بالعبودية عند ذكر إنزال القرآن عليه ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١] ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] ووصفه بالعبودية في مقام الإسراء والمعراج ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١] وقال في المعراج: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ١٠] ووصفه بالعبودية في مقام الدفاع عنه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] هذا تحدي للمكذبين للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يأتوا بمثل ما جاء به.

٩ ـ ومن فوائدها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يمنّ على من يشاء فيخلصهم لنفسه حتى لا يكونوا عبيداً لغيره في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾، وهذا أبلغ من المخلصين، وإن كان لكل منهما مزية، ولكن المخلص الذي أخلصه الله ـ عز وجل ـ لنفسه فلم يكن له إرادة سوى ربه هذا أبلغ.

١٠ ـ ومن فوائدها: أن عباد الله ـ عز وجل ـ ينقسمون إلى قسمين:

عباد مخلصون، وعباد غير مخلصين.

فالعباد بمعنى: عبودية القدر هؤلاء غير مخلصين، بل هم

كالأنعام، بل هم أضل، وأما العباد لله تَعبُّد شَرْع فإن هؤلاء هم المخلصون.

١١ ـ من فوائدها: أن هؤلاء المخلصين لهم عطاء عند الله ـ عز وجل ـ معلوم عنده وعندهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ فإن الله تعالى أخبر عباده بما ينالونه يوم القيامة من أنواع الثواب.

فإن قال قائل: هل هو معلوم بالحقيقة أو بالمعنى؟

فالجواب: أنه معلوم بالمعنى، أما الحقيقة فليس بمعلوم يعني: أننا لا نعلم كنه هذا النعيم، أو هذا الرزق، لقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾. السجدة: ١٧]

ولقوله تعالى في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[١].

إذاً لا نعلم من نعيم الآخرة إلا الأسماء فقط، أما الحقائق فإنها ليست معلومة، كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «**ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء**»[٢]، لكن الحقائق تختلف اختلافاً عظيماً.

فهو معلوم المعنى لا معلوم الحقيقة والكنه؛ لأن ذلك لا يدرك إلا بحق اليقين.

---

(١) تقدم ص ٩٩.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (للآية ٢٥ من سورة البقرة)، وابن أبي حاتم في تفسيره للآية المذكورة، وأبو نعيم في (صفة الجنة) ١٢٤.

١٢ ـ ومن فوائدها: أن أهل الجنة يأكلون هذا الرزق تفكهاً وتنعماً لا اقتياتاً يحتاجون إليه، لقوله: ﴿فَوَٰكِهُ﴾ وفي الدنيا يأكل الإنسان الطعام أحياناً اقتياتاً للحاجة إليه، وأحياناً تفكهاً وتلذذاً. أما في الآخرة فكل طعامها تلذذ.

١٣ ـ ومن فوائد الآيات: أن أهل الجنة مكرمون من وجوه ثلاثة:

١ ـ من قبل الله عز وجل.

٢ ـ من قبل الملائكة عليهم الصلاة والسلام.

٣ ـ من قبل الخدم، الغلمان.

فهم مكرمون من كل وجه.

١٤ ـ ومن فوائدها: أن جزاء الله تعالى للمحسن أكثر من عمله بكثير؛ لأن إحساننا نحن للعمل لو نسب إلى ثواب الله ـ عز وجل ـ لم يكن شيئاً. قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[1]. ثم إحساننا مهما بلغ فهو منتهي بالموت، لكن ثواب الله لا انتهاء له. ثواب الآخرة لا منتهى له. إذاً يتبين من ذلك أن فضل الله عز وجل وجزاءه أكثر بكثير من عمل العامل، فيكون هذا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾. [البقرة: ٢٦١]

١٥ ـ ومن فوائدها: أن الجنة أصناف وأنواع تؤخذ من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله (رقم ٢٨٩٢).

قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ ولكنها تشترك كلها في أنها جنات نعيم.

١٦ ـ ومن فوائدها أيضاً: أن الجنة كلها نعيم، نعيم للبدن، ونعيم للقلب، فنعيم القلب بالسرور والانبساط والفرح الدائم الذي لا يعتريه هم ولا غم ولا حزن، والبدن ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾[الإنسان: ١١] ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [الغاشية: ٨ـ٩] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنعم نفس البدن، وما يلبسه أيضاً من الزينة والحلي كذلك منعم فيه.

١٧ ـ ومن فوائدها: سعة محلات أهل الجنة لكونهم متقابلين على السرر؛ لأن التقابل يؤدي إلى سعة المكان لاسيما مع كثرتهم.

١٨ ـ ومن فوائدها: كمال أدب أهل الجنة حيث كانوا يتقابلون بحيث لا يقفو أحدهم الآخر، بل كلهم يكونون مستقبلي بعضهم بعضاً. وهذا لا شك أنه من كمال الأدب. والأدب كما أنه حسن في أهل الجنة فهو حسن في أهل الدنيا أيضاً، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤] ولا شك أن الإنسان إذا كان مؤدباً كان محبوباً عند الناس، فالجفاء وعدم المبالاة بالناس خلق ذميم، ومن ثم ننظر في مسائل نعملها:

الأولى: مسألة السلام نجد كثيراً من الناس مع أنهم حريصون على العبادة لكنهم لا يبالون بالسلام لا ابتداء ولا ردًّا، وهذا خلاف حال المؤمن مع أخيه، فمن حق المسلم على أخيه إذا لقيه أن يسلم عليه، ويسلم عليه سلاماً حقيقيًّا مقروناً بالبشاشة، أما أن يسلم عليه برأس أنفه لولا حرف الصفير ما علمت أنه يسلم، فهذا

ليس بسلام، وأقبح من ذلك أن يسلم الإنسان على أخيه بصوت بين واضح المخارج مسموع، ثم يرد ذلك عليه بصوت لا يسمع، بل يرد عليه بأنفه أو بيده.. فإن هذا لا شك أنه حرام عليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦] فلابد أن يكون إما مثل وهو أدنى الواجب، أو أحسن وهو الأكمل.

الثانية: نجد بعض الناس يستدبر إخوانه ولا يهتم بهم، وهذا خطأ، ولا ينبغي، وأنا أراه بعض الأحيان إذا سلمت من الصلاة يأتي واحد من الناس يتقدم ما يشعر أن وراءه بشر مثله لماذا تتقدم عليه؟ هذا مما يوجب اختلاف القلوب، ولهذا قال الرسول ـ عليه الصلاة السلام ـ في القوم عند صف الصلاة قال: «**لا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»[1] فجعل الاختلاف في التقدم والتأخر سبباً لاختلاف القلوب، أنا لو كنت بجنب هذا الرجل شعرت بأن هذا الرجل أهانني، حيث تقدم عليَّ وولاني ظهره.

ويتعلل بعض الناس بأنه فيه ضيق وأنه يحب أن يريح رجليه، فيتقدم ليتربع.

فنقول: إذا كنت هكذا: إما أن تتقدم كثيراً ثم تكون بعيداً وإما أن تتأخر. يقول: لا أقدر أتأخر؛ لأن ورائي صفًّا يقضون الصلاة، نقول: إذن قم وتقدم بعيداً حتى لا تستدبر الناس، أما أن تستدبر عباد الله بعد أن فرغوا من الصلاة وتجعلهم وراء ظهرك

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها... (رقم ٤٣٢) (١٢٢).

فهذا لا شك أنه سوء أدب وأن الذي إلى جانبك سوف يشعر بأنك أهنته.

الثالثة: يوجد عند بعضنا، أن الصغير لا يقدر الكبير، يتقابل اثنان عند باب المسجد أو عند باب الدار ثم يتقدم الصغير بعجلة ليدخل قبل الكبير وهذا ليس فيه توقير الكبير. فتوقير واحترام الكبير من الخصال الطيبة ومن صفات المؤمن. فكون الإنسان لا يبالي ولا يهتم بغيره لا شك أنه خلاف الأدب.

فأهل الجنة ـ اللهم اجعلنا منهم ـ يكونون على السرر متقابلين، يجعلونها دائرة حتى يقابل بعضهم بعضاً.

١٩ ـ ومن فوائدها: راحة أهل الجنة حيث كانوا متفرغين على السرر، يتحدث بعضهم إلى بعض، ويأنس بعضهم إلى بعض على وجه التقابل.

٢٠ ـ ومن فوائدها: أنه في حال جلوسهم على السرر فالخدم تطوف عليهم بأنواع الملذات والمشروبات. ومنها أنها تطوف عليهم بكأس من معين، كأس الخمر الصافي الخالي من الشوائب، وهذا الكأس يكون مقدراً على حسب ما يحتاجه الشارب، ليس كبيراً فيتعبه، ولا صغيراً فينقص من لذته، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾. [الإنسان: ١٥ـ١٦]

***

﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾. ﴿بَيْضَآءَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أشد بياضاً من اللبن] هكذا قال المؤلف: إنها أشد بياضاً

من اللبن. والواقع أن الآية لا تدل على أنها أشد بياضاً، وإنما جاء أشد بياضاً من اللبن في وصف حوض النبي ﷺ الذي يكون في عرصات القيامة، فقد جاء في وصفه أنه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وأطيب من رائحة المسك[1]، أما الخمر في الجنة فوصفه الله تعالى بالبياض فقط، قال: ﴿بَيْضَآءَ﴾ و﴿لذة﴾ لذيذة وهنا عبّر بلذة المصدر عن اسم الفاعل أو اسم المفعول؛ لأن لذيذ يصلح لاسم الفاعل واسم المفعول، لأن الوصف بالمصدر أبلغ من الوصف بالمشتق من المصدر، فأنت إذا قلت: فلان عدل. أبلغ من إذا قلت: فلان عادل. كأنك جعلته هو العدل بنفسه، فهنا وصف هذا الخمر أو هذه الكأس بأنها لذة يعني كأنها هي اللذة لا الشيء المتصف باللذة، فالتعبير بالوصف عن الموصوف أبلغ من التعبير بالموصوف؛ لأنه تعبير بالأصل عما تفرع منه، فالمشتق متفرع من المصدر، ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ هذا من باب التوكيد يعني أنهم في حال شربهم إياها يتلذذون بها. قال المؤلف: [بخلاف خمر الدنيا، فإنها كريهة عند الشرب]، أما خمر الآخرة فهي لذة للشاربين. وهي سالمة من الآثار السيئة كما قال تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [بفتح الزاي وكسرها من نزف الشارب وأنزف أي: يسكرون بخلاف خمر الدنيا].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب في الحوض (٦٥٧٩)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٢٩٩٢).

قال الله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ يعني ليس في هذه الكأس، والمراد الخمر الذي فيها غول، ورفعت غول مع أن (لا) نافية؛ لأنه يشترط لعملها عمل (إنّ) الترتيب، يعني أن يتقدم الاسم على الخبر، فإن تأخر وجب الرفع، وقوله ﴿غول﴾ أي: [ما يغتال عقولهم]، ففسر المؤلف الغول بأنه ما يؤثر على العقل. أي يسكرون، والسكر هو اغتيال العقل، فالقول الراجح في هذه الآية أن المراد بالغول ما يغتال أبدانهم من صداع في الرأس ووجع في البطن فخمر الآخرة لا غول فيها بخلاف خمر الدنيا، فإنه يكون فيها صداع، ويكون فيها وجع للبطن، كما ذكر ذلك ابن كثير وغيره، أما النزف فقال: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ يقول المؤلف: [من نزف الشارب وأنزف إذا سكر بخلاف خمر الدنيا]، فإن الإنسان يسكر فيها ويزول عقله. أما في الآخرة فهي خالية من هذا، إذاً يصدق عليها ما وصفها الله ـ عز وجل ـ في قوله: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ [الإنسان: ٢١] أي: مطهراً من كل ما يحصل من خمر الدنيا.

قال: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾ (عندهم) أي: عند أصحاب الجنة الذين هم عباد الله المخلصون، لأن الله قال: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ ثم ذكر ما لهم من الثواب فيكون الضمير عائداً على عباد الله المخلصين، ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ قال المؤلف ـ رحمه ـ الله: [حابسات الأعين على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم لحسنهم عندهن].

قوله: ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ قاصرات اسم فاعل مضاف إلى

فاعله، أي التي قصرت أطرافهن على أزواجهن، يعني أنهن لا ينظرن إلى غير أزواجهن، وهذا لا شك أنه من نعمة الله على الزوج، ومن كمال السعادة ألا تنظر المرأة إلى غير زوجها؛ لأنها إذا نظرت إلى غير زوجها فسوف يلقي الشيطان في قلبها مودة هذا المنظور وكراهة الزوج، فإذا كانت قد قصرت طرفها على زوجها فإن هذا من كمال السعادة الزوجية.

ومن وجه آخر أنهن ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ أي قاصرات أطراف أزواجهن أي أن الزوج لا ينظر إلى سواها، فهو قد قصر طرفه عليها، وذلك لكمالها وحسنها في نظره، وحينئذ يكون لقاصرات الطرف معنيان:

المعنى الأول: أنهن قد قصرن أطرافهن على أزواجهن.

المعنى الثاني: أن أزواجهن قد قصروا أطرافهم عليهن وكلا المعنيين صحيح.

﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء، والمعنى أنهن حسنات العيون، وحسن العين يكون بأمرين:

١ ـ سعة الأعين.

٢ ـ حسن الأعين، يعني: أن العين واسعة ومع سعتها فإنها جميلة حسنة. ولا شك أن حسن العين يوجب حسن الوجه ويزيده حسناً إلى حسن، كالقلادة مثلاً تزيد المرأة حسناً إلى حسنها، وقال: ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ قال المؤلف: ـ رحمه الله ـ[أي في اللون بيض للنعام ﴿مَّكۡنُونٌ ٤٩﴾ مستور بريشه لا يصل إليه غبار، ولونه وهو البياض فيه صفرة أحسن ألوان النساء]. لما وصف هؤلاء النساء

بأنهن عين وصف بقية أجسامهن فقال: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ وكأنَّ هذه للتشبيه، والبيض في الآية الكريمة مُنَكَّر، ولكن المؤلف حمله على بيض معين، وهو بيض النعام، وببيض النعام أبيض في صفرة، قالوا: وهذا أحسن ألوان النساء. والذي خصصه ببيض النعام؛ لأن هذا هو المعروف عند العرب.

وقيل: إن البيض مطلق، والمعنى أنهن يشبهن في البياض والرقة البيض، وليس المراد البيض القشور، بل البيض الذي هو بياض البيضة لرقته وبيانه وحسنه، وهو ﴿مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ بما على البيضة من القشرة. وهذا الأخير هو الأقرب لظاهر اللفظ؛ لأن الله ـ عز وجل ـ أطلق قال: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ﴾ ولو كان المراد ما قاله المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ بيضاً معيناً لقال: كأنهن البيض المكنون، لتكون «ال» دالة على معهود ذهني، فالصواب أنه عام، وأنهن لرقتهن وبياضهن ونعومة الملمس كأنها البيض أي البياض الذي في البيض وهو مكنون بقشره، أما على رأي المؤلف فهو المكنون بالريش الذي تضعه النعامة على بيضها حتى لا يأتيه الغبار.

الفوائد: يستفاد من هذه الآية:

١ ـ صفة هذا الخمر أو الكأس من المعين وأنه أبيض، لقوله: ﴿بَيْضَآءَ﴾.

٢ ـ ومن فوائدها: أن خمر الآخرة في غاية ما يكون من اللذة، ووجه ذلك أنه عبَّر باللذة عنه، والتعبير بالمعنى عن المتصف به أقوى من التعبير بالمشتق من ذلك المعنى، فإذا قلنا:

فلان عدل فهو أقوى من قولنا فلان عادل. ولهذا يرون أن النعت بالمصدر أوكد من النعت باسم الفاعل.

٣ ـ ومن فوائدها: أنها لذيذة حين الشرب خلافاً لخمر الدنيا فإنها كريهة حين الشرب، ولهذا قال: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ فتفيد أنهم في هذه الحال يتلذذون بها غاية اللذة. أما خمر الدنيا فإنها كريهة، ولكن الإنسان يتلذذ بها بما ينتج عنها من السكر نسأل الله العافية.

٤ ـ ومن فوائدها: أن خمر الآخرة ليس فيها ضرر عقلي ولا بدني. قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

٥ ـ ومن فوائدها: أن هؤلاء كما يتلذذون بالشراب، يتلذذون أيضاً بالنساء والزوجات لقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾.

٦ ـ ويستفاد أيضاً: أن هؤلاء النساء حاضرات لا يغبن عن أزواجهن لقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أما في الدنيا فإن الزوجات قد يكن عند الإنسان، وقد يغبن باختياره، وقد يغبن بغير اختياره. أما في الجنة فإنهن حاضرات لا يغبن عن أزواجهن لقوله: ﴿وَعِندَهُمْ﴾.

٧ ـ ربما نأخذ من هذا أيضاً فائدة: أنهن لا يذهبن إلى غير أزواجهن، وذلك بتقديم الخبر ﴿وَعِندَهُمْ﴾ والمعروف في قواعد البلاغة أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

٨ ـ ومن فوائدها: كمال أدب هؤلاء النساء لكونهن قاصرات الطرف على أزواجهن.

٩ ـ ومن فوائدها: أن المرأة إذا نظرت إلى غير زوجها فإن ذلك فتنة؛ لأن الله امتدح نساء الجنة بكونهن قاصرات الطرف على أزواجهن.

ويتفرع على ذلك أنه يجب على الإنسان أن يراعي زوجته في هذا الباب بحيث يمنعها من التطلع إلى غيره، سواء كان هذا التطلع إلى الرجل مباشرة، أو بواسطة الوسائل الإعلامية. فيمنعها من مشاهدة مجلات الأزياء الخبيثة التي يحصل بها الشر والفساد.

ويتفرع على هذه الفائدة أيضاً: أن يمنعها من الخروج إلى الأسواق إلا لحاجة؛ لأن المرأة إذا خرجت إلى الأسواق ورأت الناس فربما تعجب بأحدهم ويتعلق قلبها به فتعزف عن زوجها. وينقلب حبها لزوجها ضعيفاً، أو ربما يفقد، لكن نساء أهل الجنة لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

١٠ ـ ومن فوائدها بناء على المعنى الثاني في ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾: أن نساء أهل الجنة في غاية الكمال والجمال بحيث لا ينظر الرجل إلى سواها؛ لأنها تقصر طرفه عن غيرها. وهنا ذكر الله ـ عز وجل ـ صفتهن الحسية، ولهن صفة معنوية ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٌ ٧٠﴾ [الرحمن: ٧٠] خيرات الأخلاق، حسان الأجسام، فتكون نساء أهل الجنة جامعات بين الحسن الظاهر والحسن الباطن.

١١ ـ ومن فوائدها: حسن أعين هؤلاء النساء لقوله: ﴿عِينٌ ٤٨﴾ وحسن العين يكون بجمال الشكل والسعة

والاستدارة، وشدة السواد في شدة البياض، وغير ذلك مما يكون جمالاً في العين.

١٢ ـ ومن فوائدها: استعمال التشبيه التحسيني لقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ وهذا تشبيه تحسيني وعكس ذلك التشبيه التقبيحي قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ فقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ يراد به تحسين هؤلاء النساء.

١٣ ـ ومن فوائدها: الاستدلال بالقياس بالتشبيه، فالتشبيه يؤخذ منه استعمال القياس؛ لأن القياس إلحاق فرع بأصل أي تشبيه في الحكم وإعطاؤه حكمه.

***

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

سبق أن أهل الجنة على سرر متقابلين، لكن الإقبال هنا فسر بقوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ يعني: صار بعضهم يسأل بعضاً مع اتجاه بعضهم إلى بعض، كما هو الأدب في المخاطبة أنك إذا خاطبت شخصاً فلا تخاطبه إلا وأنت مقبل عليه، بجملتك، فهم كذلك ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [عمَّا مر بهم في الدنيا] وإن شئت فقل: يتساءلون عن كل أحوالهم في الدنيا وفي الآخرة؛ لأن الآية مطلقة، وما أطلقه الله فإنه لا ينبغي أن يقيد، ويكون ما ذكر من القصة مثلاً من الأمثال التي يتحدثون بها.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾

يعني من جملة ما يتحدثون به ما يجري لبعضهم من محاولة صده عن سبيل الله تعالى وكفره بالله عز وجل.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي من أهل الجنة ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ في الدنيا، لأن (كان) فعل ماضٍ ﴿لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ قال المؤلف: ـ رحمه الله ـ[صاحب ينكر البعث] هذا القرين هل هو قرين جني أو إنسي؟.

قيل: إنه جني، لقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾. [الزخرف: ٣٦].

وقيل: إنه إنسي يعني يقارنه ويوسوس له، والآية تحتمل معنيين، والقاعدة عندنا في التفسير: أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين لا ينافي أحدهما الآخر، ولا مرجح لأحدهما فإن الواجب حملها عليهما، ولا شك أن للإنس شياطين كما أن للجن شياطين، وأن شياطين الإنس يوسوسون كما يوسوس شياطين الجن، إذاً فالآية عامة، قرين إما من الإنس، أو من الجن، أو منهما جميعاً، وقول المؤلف: [قرين صاحب] مشكل إذ كيف يكون المؤمن مصاحباً لمشرك، لأن الواجب أن يكون بين المؤمنين والكافرين التباعد وعدم المصاحبة، لقول الله تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١] ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾. [الممتحنة: ١]

لكن قيل: إن المراد بالقرين هنا هو الشريك في المال، أو سفر أو ما أشبه ذلك، وليس المراد بذلك الصحبة التي تستوجب

الموالاة أو المحبة. يقول هذا القرين: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

قال المؤلف: [تبكيتاً] يعني يبكته ويلومه ويوبخه كيف تصدق بذلك؟

وقيل: بل يقول هذا نفياً، وإنكاراً والآية تحتمل هذا وهذا، تحتمل أن هذا الفريق إذا عرض عليه المؤمن أن يؤمن بالبعث قال له هذا الكلام استبعاداً وإنكاراً له. ويحتمل أنه يبكته ويلومه ويوبخه على أن يصدق، يقول: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾. ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ مرَّ علينا أن مثل هذا الاستفهام المقرون بإن أو غيرها من أدوات التوكيد أنه استفهام يؤكد فيه المستفهم الإنكار، يقول: كيف تثبت وتصدق وتؤكد كذا وكذا مع أنه ليس بصحيح؟ ومنه قول أخوة يوسف: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ [يوسف: ٩٠] هذا ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ يعني كيف تصدق تصديقاً مؤكداً بأن واللام في هذا الأمر البعيد المنكر؟ وقوله: [بالبعث] إنما قيّد المؤلف ذلك بالبعث لقوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ فيكون الذي خصص التصديق بالبعث قرينة السياق.

﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [في الهمزتين في الثلاثة مواضع ما تقدم] أي أربع قراءات:

١ ـ تحقيق الهمزتين.

٢ ـ تسهيل الثانية.

٣ ـ إدخال ألف في التحقيق.

٤ ـ إدخال ألف في التسهيل.

يقول ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾، أنكر ذلك أيضاً فانظر إلى هذا القرين المشؤوم ـ والعياذ بالله ـ الذي يبكّت ويوبخ وينكر هذا الأمر المؤكد الذي دل عليه الكتاب والسنة والعقل، فيقول كيف نبعث ونجازى بعد أن كنا تراباً وعظاماً؟ ومناسبة الابتداء بالتراب قبل العظام؛ لأنه أبلغ في الحيلولة، أي بدأ بالأبعد فالأبعد فكونهم تراب أبعد من أن يخلقوا من كونهم عظاماً.

﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ يقول هذا الرجل لأصحابه الذين معه في الجنة: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾. والاستفهام هنا للعرض يعني يعرض عليهم أن يطلعوا معه إلى هذا القرين، وإنما عرض عليهم ذلك من أجل أن يتبين قدر نعمة الله تعالى عليهم، لأن الإنسان إذا رأى هذا القرين الذي كان معه في الدنيا. يقول له ما ذكر، إذا رأه في النار وهو في أكمل النعيم لا شك أنه يزداد شكراً لله ـ عز وجل ـ على نعمته إذ لو شاء لجعله مثله، لاسيما وأن هذا الرجل يحاول بكل ما يستطيع أن يصد هذا عن سبيل الله عز وجل، فيكون للاطلاع فائدة عظيمة، وهي معرفة قدر نعمة الله عليهم بهذا النعيم، وليس المراد بهذا الاطلاع الشماتة بهذا الرجل، لأنه لو كان المراد الشماتة لكان في هذا نوع فخر على هذا الرجل واستطالة، ولكن المراد أن يعرفوا قدر نعمة الله عليهم، لأن الأشياء تتبين بضدها. ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾. قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [فيقولون: لا]. أتى بهذا من قوله: ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ ولم يقل: فاطلعوا.

ولكن الجزم بأنهم قالوا: لا. فيه نظر، لاحتمال أنهم سكتوا، ولما علم أنه لا رغبة لهم في الاطلاع ذهب واطلع. ويحتمل أنهم مشوا معه ووقفوا ولكن لم يطلعوا، فلهذا لا ينبغي أن نجزم بأنهم قالوا: لا. لاسيما وأن المعروف من أدب أهل الجنة بعضهم مع بعض أنهم فوق هذا المستوى الذي يطلب منهم ويعرض عليهم عرضاً أن يطلعوا إلى هذا الرجل الذي كان يبكته وينكر البعث، لينظر ماذا فعل الله به؟ وما فعل الله بهذا المصدق حتى يتبين بذلك قدر نعمة الله عليه، وكمال حكمته بتعذيب هذا الرجل المنكر، يبعد أن يقولوا: لا، فإما أن يقال: إنهم قاموا واطلعوا، ولكنه لما كان هو المعني بهذا الأمر نسب الأمر إليه، فقال: ﴿فَٱطَّلَعَ﴾، ويحتمل أنهم قاموا معه ولم يطلعوا، بل وقفوا عند المكان الذي وقف عليه، ويحتمل أنهم سكتوا وعرف أنهم لا يريدون ذلك، ثم تقدم. المهم أن لا نجزم بهذا القول الذي قاله المؤلف ـ رحمه الله ـ.

﴿فَٱطَّلَعَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [ذلك القائل من بعض كوى الجنة]، كُوّة يعني أن هذا الرجل اطلع على هذا ﴿فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ رأى قرينه رؤية عين ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ أي وسط النار يعذب، ولهذا قال له: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

قال المؤلف: [قال له تشميتاً]، هذا ما ذهب إليه ـ رحمه الله ـ إنه قال ذلك يشمت به، ويحتمل أنه قال: تحدثاً بنعمة الله ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ ولكن الله منَّ عليَّ فلم تستطع أن

ترديني، وهذا هو الأقرب، قوله: ﴿تَٱللَّهِ﴾ هذا قسم بحرف التاء. والقسم هو: تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة، وكان القسم تأكيداً، لأن المقسم كأنه يقول بلسان حاله: إن منزله هذا عندي وقدره عندي أؤكد به ما أخبرت به إذا كان خبراً، أو ما سأفعله إن كان إنشاء.

﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ﴾ يقول المؤلف: [إن مخففة من الثقيلة] أي فأصلها إنَّ، وهي تفيد التوكيد، وإنما قال مخففة من الثقيلة؛ لأن (إن) تأتي على أوجه متعددة[1]:

و﴿كِدتَّ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [قاربت]، لأن كاد تدل على المقاربة، فهي من أفعال المقاربة، وقد اشتهر عند النحويين أن نفيها إثبات، وإثباتها نفي.

فإذا قلت: كاد يفعل، فهذا إثبات لكنه يدل على أنه لم يفعل.

وإذا قلت: لم يكد يفعل كذا، فهذا نفي لكنه يدل على أنه فعل، لقوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾. [البقرة: ٧١]

لكن هذا الذي اشتهر ليس بصحيح، فهي كغيرها من الأفعال: إثباتها إثبات، ونفيها نفي. فإذا قلت: كاد يفعل كذا، فإنها إذا كانت بمعنى قارب تدل بمادتها على أنه لم يفعل، لأن من قارب الشيء لم يدخل فيه.

وعلى هذا فإثباتها إثبات.

فهي أثبتت المقاربة. والمقاربة تدل على عدم الفعل.

---

(١) سبق بيان هذه الأوجه في تفسير سورة يس ص (٩٩).

وأما لم يكد يفعل كذا، فهذه تدل أيضاً على انتفاء الفعل، وأنه ما قارب أن يفعل هذا الشيء، لكن إن وجد قرينة تدل على الفعل مثل: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ فالإثبات جاء من كلمة ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ لا من كلمة ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠] فهل نقول إنه يراها؟ لا، بل نقول لا يقارب أن يراها يعني هذه الظلمات العظيمة لو تضع يدك إلى جنب عينك ما رأيتها. فهذا القول المشهور ليس بصحيح، بل نقول: إن (كاد) كغيرها من الأفعال إثباتها إثبات، ونفيها نفي، لكن معناها معنى قرب. قال: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ (اللام) هذه للتوكيد، لكن يعبر عنها بعض النحويين بقولهم: اللام فارقة، أو اللام لام الفرق، يعنون بذلك أنها تفرق بين «إن» النافية وبين «إن» المخففة من الثقيلة؛ لأنها إذا جاءت بعد «إن» فإنها تدل على أنها مخففة من الثقيلة وليست بنافية؛ لأن النفي لا يؤكد باللام.

وهل تجب هذه اللام الفارقة في خبر «إن»؟

نقول في هذا تفصيل: إن كان المعنى واضحاً فإنها لا تجب، وإن كان المعنى خفيًّا فإنها تجب أي إن احتمل السياق أن تكون «إن» للنفي وجب الإتيان بها باللام الفارقة، وإن لم يكن يحتمل لم يجب.

فقول الشاعر:

وإن مالك كانت كرام المعادن

هذه لم تأتِ بها اللام، لأن السياق يراد به مدح هؤلاء الجماعة أو هؤلاء القبيلة، والمدح لا يناسبه النفي، وإنما يناسبه الإثبات، لكن إذا قلت إنْ زيد قائم؛ وجب عليك الإتيان باللام فتقول: إنْ زيد لقائم لأنك لو لم تأتِ باللام لاحتمل أن يكون معنى قولك: إنْ زيد قائم. ما زيد قائم، ولهذا سماها بعض النحويين (لام الفرق) أو (اللام الفارقة).

ولهذا قال ابن مالك:

وخففت إن فقل العمل ... وتلزم اللام إذا ما تهمل
وربما استغنى عنها إن بدا ... ما ناطق أراده معتمدا

فبيّن ـ رحمه الله ـ أن اللام تلزم إذا أهملت، أما إذا أعملت فالأمر واضح.

وخلاصة هذه المسألة النحوية أن نقول: «إن» المخففة من الثقيلة تعمل ولكن عملها قليل، فإذا أهملت وجبت اللام في خبرها إلا إذا كان المعنى واضحاً. فإذا قلت: إن زيداً قائماً، لم تجب اللام، لأن إن النافية لا تنصب المبتدأ فالمعنى واضح أنها مخففة. وإذا قلت: إن زيد قائم، وجب الإتيان باللام لأنك لو حذفتها احتمل أن يكون للنفي وأن يكون للإثبات.

وإذا كان الرجل يمتدح شخصاً ويقول: إنْ زيد كريم، فلا يحتاج إلى اللام لأن المدح يقتضي أن تكون «إن» مخففة من الثقيلة لا نافية والله أعلم.

الفوائد:

١ ـ كمال سرور أهل الجنة، وأنهم يتحادثون

ويتساءلون عما جرى في الدنيا، والتحدث عما جرى على الإنسان فيما سبق فيه لذة وراحة للنفس. أرأيت إذا تحدثت عن صباك ماذا تفعل وأنت صبي تجد في ذلك لذة وراحة ويذهب عنك الوقت وأنت لا تشعر به، فهم يتساءلون: ماذا حصل لنا في الدنيا؟ وكيف وصلنا إلى هذه النعمة؟ إلى غير ذلك من الأحاديث الممتعة الشيقة، ولهذا قال: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

٢ ـ ومن فوائدها: كمال أدب أهل الجنة في أنهم عند المحادثة يقبل بعضهم على بعض لقوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ وهذا من كمال الأدب أن تقبل إلى محدثك خلافاً لمن عندهم سوء أدب تجده عند المحادثة: وهو على يمينك تصد عن اليسار، وأنت تسأل عن حاله، حتى مهما كان الأمر فإنه من سوء الأدب، ولو فرض أنك تنظر إلى اليسار لاشتغالك بأمر مهم كأنك تنظر إلي طفل صغير تخشى عليه أن يقع في بئر، أو ما أشبه ذلك فإننا نقول: لا تحدثه وأنت صادّ عنه، إذا فرغت من هذا النظر فأقبل عليه.

وهل يؤخذ من ذلك أن من سوء الأدب أن تسلم على الإنسان من ورائه؟ فأحياناً يكون الإنسان واقفاً حوله جماعة يسلمون عليه كلهم أمامه، ولكن يأتي واحد من ورائه يسلم عليه، فهذا المسلم عليه بين أمرين: إما أن يقبل عليه فيستدبر الآخرين، وإما أن يبقى مستقبل الآخرين، ويسلم عليه مستدبراً له. فنقول: ليس له حق أن يُسلم من ورائه. والناس يسلمون من أمامه، وأقول: إذا أردت أن تسلم فاذهب مع الناس، وربما أنه يريد أن

يتجاوز الآخرين حتى يسلم ويمشي، وأعتقد أنه من سوء الأدب مادام الناس كلهم مقبلين على الإنسان كيف تسلم عليه من وراء، فأنت تريد أن تقطع حديثه مع هؤلاء لأجل أن يقبل عليك. وإذا كان انتظار الدور معروفاً في مصالح الناس فليكن حتى في السلام.

وعلى كل حال كون أهل الجنة يقبل بعضهم على بعض يدل على أن الإنسان إذا أراد أن يحادث غيره فليكن مقبلاً عليه، أما أن يحادثه من وراء فهذا ليس من الأدب.

٣ ـ ومن فوائدها: جواز التحدث بنعمة الله، بل نقول جواز في الأصل وإلا فإن التحدث من الأمور المطلوبة، ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ [الضحى: ١١] لأن هذا الرجل تحدث عما أنعم الله به عليه من الهداية مع أنه كان له قرين يريد أن يغويه.

٤ ـ ومن فوائدها: جواز غيبة الشخص الداعي إلى الضلالة، من قوله: ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ولا شك أن هذا القرين يدعو إلى الكفر، فتجوز غيبة الداعي إلى الضلال أو الكفر في الدنيا، للمصلحة العظيمة وهي تحذير الناس منه، حتى لا يقعوا في شركه.

٥ ـ فيها أيضاً من الفوائد: أن دعاة الضلال يأتون بالشبه التي توجب ضلال الناس، لأن هذا الداعية إلى الضلال يقول: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ فيلبس عليه ويقول: كيف يبعث من كان تراباً وعظاماً من أجل أن يجازى؟! ولا شك أن مثل هذه الشبهة تنطلي على عامة الناس.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنه يجب الحذر من تشبيه أهل الضلال، وأن لا تدخل شبههم إلى قلب الإنسان، وقد ذكر ابن القيم عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمهما الله ـ أنه قال: اجعل قلبك بمنزلة الزجاجة الصافية، أو القارورة الصافية، ولا تجعله كالإسفنج يتشرب كل ما ورد عليه.

لأن الزجاجة الصافية يرى الشيء من ورائها صافياً، ولكن ما يدخل إليها شيء، لو تضعها وسط الماء ما دخل إليها شيء، لكن الإسفنج يتشرب ويقبل كل ما يرد عليه ولو نقطة واحدة انتفخ منها، فالإنسان يجب عليه أن لا يتشرب الشبهات، وأن يكون قلبه صافياً خالصاً لا يدخل إليه شيء من هذه الأشياء.

فإن قال قائل: قد لا أملك هذا الأمر فما موقفي إذا أورد عليَّ شخص شبهة من الشبه؟

الجواب على ذلك أن نقول: إن إيراد شيطان الإنس للشبه كإيراد شيطان الجن، وقد أمر النبي ﷺ إذا وردت على قلب الإنسان شبهات أن ينتهي عنها، وأن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم[1]، وعلى هذا فالدواء أن أقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأقوم عن المكان ولا أبقى في جدال وصراع، وليس عندي علم أدفع به شبهاته، بل أقوم عن المجلس، أما أن أبقى وأنا ليس عندي علم أدفع به الشبهات فإنه ربما يؤثر عليّ، والقيام من هذا المكان الذي تلقى فيه الشبهات هو الإعراض، أو الانتهاء

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده(رقم ٣٢٧٦) ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها (رقم ١٣٤) (٢١٤)

الذي أمر به النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ورد على قلبه شيء من الشبهات.

٦ ـ ومن فوائد الآيات: أنه قد يكون أعدى عدو للإنسان من كان مقارناً له، لقوله: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة:

٧ ـ الاحتراس من القرناء، وألا نلقي إليهم بالمودة والإسرار إلا بعد أن نخبر حالهم؛ لأن كثيراً من الناس يتلطف إليك ويمشي معك لا من أجل أن يستفيد منك ولا من أجل أن تستفيد منه، بل من أجل أن يرى ما عندك فيقومك إما في نفسه وإما عند غيره.

فليس كل قرين للإنسان يكون ناصحاً له. بدليل هذا ﴿لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ فاحذر القرناء لا تركن إليهم إلا بعد أن تعرف صدق نصحهم ومودتهم، وحينئذ فالإنسان مدني بالطبع، لابد للإنسان من قرين وصاحب يشكو إليه أموره، ويفضي إليه بأسراره، ويستشيره في أموره، لابد من هذا، لكن احذر، لا تركن إلى شخص إلا وقد عرفت صدقه.

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الجزاء، لقوله: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي مجزيون ومحاسبون كما مر.

٩ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أن هذا الذي أنعم الله عليه بالنجاة يطلب من إخوانه في الجنة ويعرض عليهم الاطلاع من أجل معرفة قدر نعمة الله عليهم، فإن الشيء لا يتبين إلا بضده.

هذه فائدة نقول في خلاصتها: إنه يندب للإنسان أن ينظر في ضلال من ضل ليتبين في ذلك قدر نعمة الله عليه في الهداية. فإن الأشياء إنما تتبين بضدها.

١٠ ـ ومن فوائدها: أن أحوال يوم القيامة لا تقاس بأحوال الدنيا، فإن هذا ينظر من أعلى عليين إلى أسفل السافلين، فيرى صاحبه في سواء الجحيم.

فيتفرع على هذه الفائدة: أن كل ما ورد من أحوال يوم القيامة مما تستبعده النفوس لعدم مشاهدة نظيره في الدنيا لا ينبغي أن يكون محل استبعاد، فمثلاً ثبت في الصحيح أن الشمس تدنو من الخلائق يوم القيامة بمقدار ميل[١] . ولو أن الشمس دنت إلى الخلائق في هذه الدنيا من ذلك لأحرقتهم، لا يقول قائل: كيف يمكن أن يبقوا والشمس تدنو منهم إلى هذا الحد؟! كذلك أيضاً ورد أن الناس يختلفون يوم القيامة بالنسبة للعرق. فمنهم يبلغ كعبيه، ومنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ حقويه، ومنهم من يلجمه[٢] ، وهم في مكان واحد ربما يستبعد الإنسان وجود هذا، لأنه لا يشاهد نظيره في الدنيا، فنقول: لا تستبعد؛ لأن أحوال الآخرة ليست كأحوال الدنيا. ففي يوم القيامة المؤمنون نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم. والكافرون في ظلمة، والمكان واحد فلا يستفيد هؤلاء من نور هؤلاء، مع أنه في الدنيا لو كان

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة. (رقم ٣٣٤٠) ومسلم، كتاب الجنة، باب في صفة يوم القيامة . . . (رقم ٢٨٦٤)

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجنة، باب في صفة يوم القيامة . . . رقم (٢٨٦٤)

أحدنا معه نور في يده ليضيء طريقه لانتفع به من كان حوله، فلا تستبعد في الآخرة أن يكون مثل هذا الأمر. لأن أحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا، فهذا الرجل ينظر من أعلى عليين إلى أسفل السافلين، فيرى صاحبه، ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥﴾.

١١ ـ ومن فوائدها أيضاً: أن هذا المطلع يخاطب صاحبه في أسفل السافلين، ويكلمه، فكل واحد منهم يخاطب الآخر، وهذا أيضاً لا يجوز أن يستبعد؛ لأن أحوال الآخرة غير أحوال الدنيا، ولأننا ربما شاهدنا في هذه الدنيا ما يشابه هذه الحال بواسطة الاتصالات الحديثة، فالإنسان قد يخاطب صاحبه وهو في مشرق الأرض والآخر في مغربها ويخاطبه وينظر إليه.

١٢ ـ ومن فوائدها: بيان توبيخ هؤلاء المفسدين في يوم القيامة، لأنه وبخهم بقوله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦﴾ وقد جاء في آية أخرى بأنه يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً، قال الله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

١٣ ـ ومن فوائدها: أن هذا القرين السيىء كان يحاول بكل جهده أن يهلك صاحبه، ولهذا من شدة دعايته كاد أن يهلك هذا ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦﴾.

١٤ ـ ومن فوائدها: أن الهلاك الحقيقي هو هلاك الدين؛ لأنه وصف ذلك بالردى ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦﴾ وهذا هو الحق، فإن الهلاك الحقيقي هو هلاك الدين، أما الدنيا فإنها إنما خلقت للفناء، وما خُلق الناس للبقاء في الدنيا ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾.

[الرحمن: ٢٦] ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾. [الأنبياء: ٢٤] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾. [العنكبوت: ٥٧] فالهلاك الحقيقي هو هلاك الدين: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾. [الزمر: ١٥]

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾

لولا: حرف امتناع لوجود. إذا قلت: لولا زيد لقمت. امتنع القيام لوجود زيد. لأنها حرف امتناع لوجود.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ قلنا: إن لولا حرف امتناع لوجود. فالموجود النعمة، والممتنع: كونه من المحضرين.

قال أهل النحو: ولولا: خبر المبتدأ بعدها يحذف وجوباً في الغالب. قال ابن مالك: وبعد لولا غالباً حذف الخبر حتم.

إذاً (نعمة) مبتدأ والخبر محذوف، وتقديره: ولولا نعمة ربي عليّ، أو كائنة أو ما أشبه ذلك.

﴿نِعْمَةُ رَبِّي﴾. النعمة: هي ما يكون بالإنعام، أي أثر إنعام الله عز وجل على العبد، وتنقسم إلى قسمين: نعمة عامة، ونعمة خاصة:

أما النعمة العامة فهي الشاملة لكل أحد من المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فكل الناس يعيشون بنعمة الله عز وجل، وأما النعمة الخاصة فهي التي أنعم الله بها على المؤمنين، ومنها قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] ثم هذه

النعمة الخاصة أيضاً فيها ما هو أخص، وهي نعمة الله على الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، ومنها قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢﴾ [القلم: ٢] فإن هذه النعمة أخص النعم.

والنعمة في هذه الآية ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي﴾ من الخاصة؛ لأن نعمة الله العامة كائنة حتى على هذا القرين الرديء، ولكن هذه نعمة خاصة.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي﴾ عليَّ بالإيمان لكنت من المحضرين معك في النار]. اللام واقعة في جواب لولا، لأن (لكنت) هي جواب لولا، ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٥٧﴾ معك في النار. وإن شئت فقل: لكنت من المحضرين معك في العذاب، ليكون أشد، فإن العذاب أعم وأشد من عذاب النار، وإن كان من في النار فهو معذب ـ والعياذ بالله ـ.

قوله: ﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾ الهمزة في ﴿أفما﴾ للاستفهام، والفاء: عاطفة و(ما): نافية حجازية ترفع الاسم وتنصب الخبر، وهي هنا عاملة لتمام الشروط.

﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ٥٨﴾ هذا الاستفهام يقول المؤلف: ـ رحمه الله ـ [هو استفهام تلذذ وتحدث بنعمة الله تعالى من تأبيد الحياة وعدم التعذيب]. أي: أنهم يتلذذون بانتفاء الموت عنهم، ولا شك أن انتفاء الموت والخلود والتأبيد من أكبر ما يسر به الإنسان. ولهذا جاء في الحديث: «أنه إذا كان يوم القيامة جيء بالموت على صورة كبش فيوقف بين الجنة والنار، وينادى هؤلاء وهؤلاء فيقال لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا

الموت، فيذبح، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت، فيزداد أهل النار غمًّا إلى غمهم، ويزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم»[١] لأنهم أمنوا من الموت، فهنا يتحدثون بهذه النعمة، وهي انتفاء الموت عنهم ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ هذا الاستثناء كقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ [الدخان: ٥٦] وعلى هذا فالاستثناء منقطع، يعني لكن موتتنا الأولى حصلت وتمت في الدنيا.

وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ معطوفة على: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: وكذلك ما نحن بمعذبين، فانتفى عنهم الموت المستلزم للتأبيد، والعذاب المستلزم للتنعيم.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المشار إليه ما ذكر من النعيم لأهل الجنة، ومنه انتفاء الموت والتعذيب ﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾. اللام: مؤكدة وإن: مؤكدة وهو: ضمير فصل. وعلى هذه فتكون هذه الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات «إن»، و«اللام» و«ضمير الفصل» ثم إن المبتدأ والخبر كلاهما معرفة، فيدل على أن هذا الفوز فوز خاص بأهل الجنة. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ﴾ الخاص على هذا الوجه هو الفوز

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (رقم ٦٥٤٨)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (رقم ٢٨٥٠) (٤٣).

العظيم، فإذا قيل: ما هو الفوز؟ قلنا: إن الفوز هو حصول المطلوب وزوال المرهوب.

وقوله: ﴿ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠﴾ مأخوذ من العظمة، لأنه لا فوز أعظم من ذلك، قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾. [آل عمران: ١٨٥]

وبهذه المناسبة أنبه إلى أن ضمير الفصل له ثلاث فوائد:

١ ـ التوكيد.

٢ ـ الحصر.

٣ ـ التمييز بين الخبر والصفة، لأنك إذا قلت مثلاً: (زيد فاضل) فإن الفاضل يحتمل أن تكون صفة وتكون خبراً، فإذا قلت: (زيد هو الفاضل) تعين أن تكون خبراً، وحصل بذلك التمييز بين الخبر والصفة، ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾ لمثل هذا المشار إليه ما ذكر من النعيم، وقوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ قال بعضهم: إن (مثل) هنا زائدة أي: لهذا فليعمل.

وقيل: بل هي غير زائدة أصلية، وأن (مثل) يؤتى بها للتعظيم والمبالغة، فإذا كان الإنسان يطلب منه أن يعمل العمل لمثل هذا، فما بالك بنفس هذا.

يقولون: إن المثل ملحق بمثيله إلحاقاً، كالمشبه ملحق بالمشبه به. فمرتبة المشبه به أعلى من مرتبة المشبه.

المثيل الذي قيل هذا مثل هذا أعلى من مماثله، لأنك إذا قلت هذا مثل هذا، فقد ألحقت الأول بالثاني. فإذا قيل لمثل هذا وصار الإنسان مطلوباً منه أن يعمل لمثل هذا الشيء، فطلبه أن

يعمل لهذا الشيء نفسه من باب أولى. فيقولون: إن هذا من باب التوكيد، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾. [الشورى: ١١]

فإن مثل ليست بزائدة، ولكنه جيء بها للمبالغة إذا كان مثله سبحانه وتعالى ـ لو فرض له مثل ـ لا يماثله شيء، فما بالك به هو نفسه؟ فيكون هذا من باب التوكيد.

إذاً: (لمثل هذا) نقول هذا من باب التوكيد والمبالغة أي: أن الإنسان مطلوب منه أن يعمل لمثل هذا، فكيف بنفس هذا الشيء، فتكون مثل على هذا ليست بزائدة، بل هي أصلية، وفائدتها، التوكيد والمبالغة. ولهذا يقال للشخص: مثلك لا يبخل، ويريدون هو لا يبخل، لكن أتوا بمثل من باب المبالغة يعني إذا كان المتشبه بك لا يبخل فأنت من باب أولى وأحرى، فمثل هذا التركيب في اللغة العربية يقصد به المبالغة، وليس هناك زيادة.

إذاً لمثل هذا الفوز العظيم والنعيم العظيم ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ و(الفاء) عاطفة و(اللام) لام الأمر.

وقوله: ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: بشرع الله فإن هذا لو تذهب فيه النفوس والأنفاس والنفائس لكان ذلك رخيصاً في جانب هذا الفوز العظيم. فالواحد منا يسعى جهده ليحصل الدرهم والدينار فيشبع به بطنه، ويكسو به عورته، وينعم به بدنه ذلك النعيم الزائف الزائل، وتجده يسهر في الليل ويتعب في النهار من أجل الوصول إلى هذا الغرض، لكن ثواب الآخرة أعظم

وأعظم، ومع ذلك فعملنا قليل، وقد وبخنا الله ـ عز وجل ـ بقوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦-١٧] فالذي ينبغي له العمل حقيقة بل الذي يجب على العاقل أن يعمل له هو ثواب الآخرة.

وهذه الآية ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ كقوله تعالى ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦] هذا هو محل التنافس، وهذا هو محل العمل، وهو الجدير بذلك.

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [قيل: يقال لهم ذلك، وقيل هم يقولونه] وعلى كل حال فسواء هم الذين يقولونه، أو يقال لهم فإنه يفيد أن هذا الجزاء وهذا النعيم، وهذا الفوز هو الذي ينبغي أن تفنى فيه النفوس والأنفاس والنفائس.

الفوائد:

١ ـ أن التحدث بنعمة الله ـ عز وجل ـ مشروع ومأمور به بشرط أن يكون المقصود به الثناء على الله تعالى لا الافتخار على عباد الله.

٢ ـ ومن فوائدها: أن نجاة الإنسان من عذاب الله من أكبر النعم، ولهذا قال: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى﴾ ويدل لذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا﴾ [المائدة: ٣] حيث جعل إكمال الدين من إتمام النعمة، وبالدين تكون النجاة من النار والفوز بدار القرار، فمن أكبر النعم بلا شك بل هي أكبر النعم أن يمن الله على الإنسان بالنجاة من النار ودخول الجنة.

٣ ـ ومن فوائدها: أن هذا المؤمن قال: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ فأضاف الربوبية إلى الله، وهذه الربوبية من الربوبيات الخاصة، وقد مرَّ علينا أن الربوبية عامة وخاصة، وقد اجتمع في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء: ٤٧ـ٤٨] الأولى عامة، والثانية خاصة، والربوبية الخاصة تقتضي تربية أخص من الربوبية العامة؛ لأن الله تعالى يربي هذا العبد تربية خاصة أكثر من الربوبية العامة.

٤ ـ ومن فوائدها: جواز إضافة الشيء إلى سببه، لقوله: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ ولم يقل: ولولا ربي.

لكن قد يقول قائل: إن نعمة الله عز وجل إذا كان المراد بها فعل الله فهي من صفات الله فإضافة الشيء إليها كإضافته إلى الله، لقول النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إلا أن يتغمدني الله برحمته**»[1]. لكن إضافة الشيء إلى سببه على أقسام:

القسم الأول: أن يكون السبب معلوماً حقيقة حساً أو شرعاً فنقول مثلاً: لولا فلان أنقذني من الغرق لهلكت. ولا بأس بذلك، لكن بشرط أن تشعر في قلبك أن فلاناً قد سخره الله لك ولم يستقل بفعله، ومن ذلك أي: من إضافة الشيء إلى سببه المعلوم قول النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في عمه أبي طالب: «**لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»[2] فقال: «لو لا أنا»

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (رقم ٦٤٦٣) ومسلم، كتاب صفات المنافقين، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (رقم ٢٨١٦) (٧١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب (رقم ٣٨٨٣)، ومسلم=

فأضاف الشيء إلى السبب المعلوم.

القسم الثاني: أن نضيف الشيء إلى الله تعالى وإلى سببه المعلوم فهذا جائز، ولكن بشرط أن يكون معطوفاً بحرف لا يقتضي التسوية، فلا يقول: لولا الله وفلان؛ لأن هذا شرك، لقول النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ للرجل الذي قال له ما شاء الله وشئت: «**أجعلتني لله ندًّا؟**»[1] لأن الواو تقتضي التسوية، فلا يجوز أن يسوى غير الله بالله، بل هو شرك، لكنه شرك أصغر إن كان شركاً لفظياً، وأكبر إن اعتقد أن هذا السبب مساوٍ لله ـ سبحانه وتعالى ـ في حصول المسبب؛ لأنه إذا جعل شيئاً غير الله مساوياً له فهو شرك أكبر.

أما إذا أضيف بحرف لا يقتضي التسوية بل يقتضي الترتيب، فهذا نوعان: نوع جائز لا إشكال فيه، ونوع فيه بعض الشبهة، فإذا عطف بثم مثل: لولا الله ثم فلان فهذا جائز لا إشكال فيه؛ لأنك جعلت فلاناً تابعاً تبعية متأخرة، حيث عطفته بثم الدالة على التراخي.

أما إذا عطفته بفاء التي تقتضي الترتيب والتعقيب مثل: لولا الله ففلان. فهذا محل نظر، لكن الأقرب أنه جائز؛ لأنك أتيت بالفاء الدالة على الترتيب.

القسم الثالث: أن تضيفه إلى الله ـ عز وجل ـ وحده،

= في كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه (رقم ٢٠٩) (٣٥٧).

(١) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (رقم ٩٨٨)، وأحمد في المسند (١/ ٢١٤، ٢٨٣، ٣٤٧).

وتغفل السبب بالكلية، فتقول: لولا الله لهلكت فهذا جائز.

القسم الرابع: أن تضيفه إلى الله بذكر السبب وتبين أن السبب مجرد سبب، مثل أن تقول: لولا أن الله أنقذني بفلان لهلكت، فهذا جائز.

القسم الخامس: أن يضيفه إلى سبب غير معلوم لا شرعاً ولا حسًّا فهذا شرك، لكن قد يكون أكبر وقد يكون أصغر.

فإذا قال: لولا فلان، يعني صاحب القبر أنقذني لهلكت فهذا شرك أكبر؛ لأن فلاناً لا يستطيع أن ينقذ.

وإن أضافه إلى سبب غير معلوم شرعاً ولا عرفاً ولا حسًّا لكنه ليس كالأول مثل: التمائم المعلقة على المريض من غير القرآن، فهذا شرك لكنه أصغر وليس بأكبر.

وهذا ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ إذا كان المراد بذلك فعل الله فهو من باب إضافة الشيء إلى فعل الله، وهو كإضافته إلى الله ـ عز وجل ـ.

وإن كان المقصود بذلك المنعم به فهو إضافة إلى شيء مخلوق، لكنه سبب صحيح، وإضافة الشيء إلى سببه الصحيح جائز.

٥ ـ ومن فوائد الآيات: أن أهل الجنة لا يموتون فيها، لقوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ وهذا غاية ما يكون من النعيم، نعيم لا يشوبه تنغيص؛ لأن نعيم الدنيا مهما بلغ يشوبه التنغيص: إذا ذكر الإنسان أن هذا النعيم سوف يزول، أو يزول هو عنه، لا شك أنه يتكدر عليه صفوه، ولهذا قال الشاعر:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة لذاته
بادّكار الموت والهرم

مادام الإنسان يتذكر إما موت وإما هرم فإن العيش لن يطيب له، لكن من نعمة الله أن الإنسان يغفل عن هذا الشيء ولا يتذكر إلا الحالة التي هو عليها. لكن العاقل يكون حازماً فيعمل لمستقبله.

فإذا قال قائل: هل لهذه الآية نظير في القرآن؟

فالجواب: نعم، قوله عز وجل: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾. [الدخان: ٥٦] والاستثناء في هذه الآية كالاستثناء في الأولى، أي أنه منقطع. يعني لكن الموتة الأولى قد ذاقوها.

وقد يقول قائل: إن الاستثناء فيها متصل. وإذا قيل ما وجهه؟ قلنا: إن قوله: ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ استثناء من حال هؤلاء الذين قال الله عنهم: إنهم لا يذوقون الموت، لأن نعيم أهل الجنة متصل آخره بأوله، فإن أهل الجنة منعمون حتى في الدنيا. لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ النحل: ٩٧] فلا تظن أن الحياة الطيبة للمؤمنين في الآخرة فقط، بل هي في الآخرة وفي الدنيا أيضاً. لكن المشهور أن الاستثناء منقطع.

٦ ـ من فوائدها: انتفاء التعذيب عن أهل الجنة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ ومن المعلوم أن هذه صفة سلبية، والصفة السلبية

في مقام المدح لابد أن تتضمن ثبوتاً؛ لأن الصفة السلبية في غير مقام المدح ليست مدحاً، فإنه قد يقال: الجدار لا يُعذب. وليس في هذا مدح للجدار. فلابد أن تكون هذه الصفة متضمنة لثبوت كمال، فما هو كمال النعيم؟ لما ذكروا انتفاء الموت فزال عنهم التنغيص به ذكروا أيضاً انتفاء التعذيب؛ لأن الإنسان قد يبقى في حياته معذباً، فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ لكمال حياتهم وكمال نعيمهم، أنهم لا يلحقهم مع البقاء تعذيب.

٧ ـ من فوائد قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ أن الفوز حقيقة هو الوصول إلى دار كرامة الله ـ عز وجل ـ فيترتب على هذه الفائدة: أن الإنسان مهما فاز في الدنيا فإن فوزه ليس بشيء بالنسبة إلى فوز الآخرة، لأنه قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

ولهذا نظير في القرآن مثل قوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] هذا الفوز ليس بحصول المال ولا الجاه ولا الرئاسة ولا بحصول الأولاد ولا الزوجات، الفوز حقيقة هو الوصول إلى دار النعيم المقيم. أسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم ممن وصلها.

٨ ـ ومن الفوائد: أن الذي ينبغي أن يعمل له العامل، ويكدح له الكادح، ويتعب فيه التاعب هو هذا النعيم، لقوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ فغيره لا تعمل ولا تتعب نفسك في أمر لا ينفعك في الآخرة، وليس معنى هذا أن نقول: لا تعمل

للدنيا، بل اعمل للدنيا لكن اجعل عملك في الدنيا من أعمال الآخرة.

فكيف يمكن هذا؟ يمكن تطلب المال من أجل أن تتعفف به عن الناس، من أجل الإنفاق على أهلك، تطلبه من أجل الصدقة به، تطلبه من أجل الاستعانة به في طلب العلم، تطلبه من أجل الجهاد في سبيل الله، فيكون طلب الدنيا طلب الآخرة ويكون هذا العمل عملاً للوصول إلى الجنة.

٩ ـ ومن فوائدها: وصف غير الله تعالى بالعظم فيقال العظيم للشيء العظيم، أيًّا كان، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل: ٢٣] ويدل عليه أيضاً أن الله وصف العرش بأنه عظيم ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢٦] وعلى هذا فالصفات التي يشترك فيها الخالق والمخلوق لا بأس أن يوصف بها المخلوق، ولكن يجب أن يعلم بأن بين وصف المخلوق بها ووصف الخالق بها كما بين ذات الخالق وذات المخلوق، وأنه لا يلزم من الاشتراك في الاسم الاتفاق في المسمى.

١٠ ـ ومن الفوائد: سفه أولئك القوم الذين يعملون للدنيا دون الآخرة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ فالذين يعملون للدنيا وهم في غفلة عن الآخرة لا شك أنهم سفهاء، وأنهم أمضوا أعمارهم فيما ليس فيه فائدة، بل فيما فيه خسارة، وقد قال الله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن

دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ . [المؤمنون: ٦٣] يحكي الله تعالى عن الكفار بأن قلوبهم في غمرة، يعني مغمورة، وأتي بفي الدالة على الظرفية، للدلالة على أن الغمرة ـ والعياذ بالله ـ قد أحاطت بهذه القلوب، في غمرة من هذا، لكن أعمال الدنيا ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ . لا يعملون لغيرها وهي من دون ذلك، وأتى بمن الدالة على البعد في الدون عما خلق له الإنسان، هؤلاء قلوبهم في غمرة مما وعد الله به أهل الجنة، وتوعد به أهل النار، لكن أعمال الدنيا التي هي دون ذلك بمراحل كثيرة هم لها عاملون، وهذا كقوله تعالى في توبيخ من يعذب يوم القيامة: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٢٢] في الدنيا في غفلة عن اليوم الآخر، ولا كأن هذا اليوم سيأتي، أما اليوم فقد كشف عنك الغطاء، فبصرك حديد قوي، تبصر الأشياء على حقيقتها في الآخرة، فهنا أمر الله أن نعمل لهذا، ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ وأما ما دون هذا فلا ينبغي للإنسان العاقل أن يفني عمره ويتعب جسده وفكره في العمل له.

فإذا قال قائل: هل معنى ذلك أن أترك العمل للدنيا؟ فالجواب، لا. ولو قلنا بهذا لكان قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥] وكان قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠] وكان قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٨] كل هذا كلام عبث ولغو، بل نقول: اعمل للدنيا، لكن الموفق يستطيع أن

يجعل عمل الدنيا عملاً للآخرة. والغافل بالعكس يجعل عمل الآخرة عملاً للدنيا.

١١ ـ ومنها أن أهل الجنة لا ينامون؛ لأن النوم يحتاج إليه الإنسان من أجل أن يستعد لنشاط المستقبل، وأن يستريح من تعب الماضي، وأما أهل الجنة فلا ينامون لكمال حياتهم، فليس عندهم تعب، ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: ٤٨] فهم لا ينامون لأنهم لا يحتاجون إليه، ولأن النوم يصد عن النعيم والتنعم بما أعد الله لهم.

١٢ ـ ما أشرنا إليه آنفاً في قوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾:

أنه ينبغي للعاقل أن يذهب أنفاسه ونفيسه ونفسه في العمل لهذه الغاية الحميدة، ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

١٣ ـ ومن فوائدها: الإشارة إلى أن العمل لغير هذا ليس من الحكمة وليس من العقل، بل العقل والحكمة يقتضي أن يكون عمله للغاية العظيمة: للوصول إلى الجنة.

١٤ ـ في الآية رد على الجبرية حيث وجه الأمر إليهم ونسب العمل إليهم؛ لأن الأمر بالشيء لمن لا يستطيعه لا شك أنه ظلم وتكليف بما لا يطاق، وإثبات العمل أيضاً لمن لا إرادة له يعتبر مدحاً لغواً، لأن هؤلاء إذا كانوا مجبرين فلا ينبغي أن يُمدحوا على محبوب ولا أن يذموا على مكروه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [المذكور لهم ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ وهو ما يعد للنازل من ضيف وغيره ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾].

(أم) هنا متصلة و(أم) المتصلة هي التي تذكر بين متعادلين، ويحل محلها «أو».

والمنقطعة التي تذكر بين شيئين متجانبين، ويحل محلها «بل» مثل ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾. قوله ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾ بمعنى بل، أي: لا تأمرهم أحلامهم بهذا، ولكن هم قوم طاغون.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾.

الجواب: ذلك بلا شك، ولكنه ذكر إما على سبيل التهكم بمن تنعموا في الدنيا ونسوا نعيم الآخرة، وإلا فلا أحد يشكل عليه أن ذلك خير من شجرة الزقوم، وهو كقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النمل: ٥٩] فإنه من المعلوم لكل أحد أن الله خير، لكن هذا ذكر على سبيل التهكم بهؤلاء، وأن معبوداتهم ليس فيها خير إطلاقاً. ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿نُّزُلًا﴾ تميز؛ لأنها جاءت بعد اسم التفضيل، فإن خير اسم تفضيل، حذفت منها الهمزة لكثرة الاستعمال، وأصل خير «أخير»، مثل شر أصلها «أشر»، ﴿نُّزُلًا﴾. النزل: هو ما يعد للضيف من التكرمة: كالأكل والشرب والفراش والمسكن وما أشبه ذلك، ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [المعدّة لأهل النار، وهي من أخبث الشجر المرّ بتهامة، ينبتها الله في الجحيم

كما سيأتي]. شجرة الزقوم: شجرة خبيثة المنظر، كريهة الرائحة، مرة الطعم، إن نظر إليها إنسان لم يسر بها، وإن تذوقها فهي مرة، وإن شمها فهي كريهة، فهي إذاً بشعة المذاق، كريهة الرائحة، مشوهة المنظر، ومع ذلك إذا وصلت إلى بطونهم فإنها لا تفيدهم شيئاً فهي لا تسمن ولا تغني من جوع، ومع ذلك فإنها تزيدهم التهاباً وعطشاً ـ والعياذ بالله ـ كما ذكر الله تعالى في آية أخرى.

وسميت شجرة الزقوم قال العلماء: لأنهم يتزقمونها تزقماً، أي: يتجرعونها تجرعاً؛ لأنها كريهة، لكن يحملهم عليها الجوع ـ والعياذ بالله ـ فيظنون أن هذه تسمن أو تغني من الجوع، وهي لا تسمن ولا تغني من جوع، فيتزقمونها تزقماً. والعياذ بالله.

الفوائد:

١ ـ من فوائدها: التهكم بعقول هؤلاء الذين يفضلون عمل الدنيا على عمل الآخرة. حيث قال: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ ولا شك أن الجواب عند كل إنسان أن يقول: ذلك خير.

٢ ـ ومن فوائدها: إقامة الدليل على ضلال الإنسان بالغاية التي يؤول إليها أمره، فهؤلاء الذين فضلوا طريق أصحاب الجحيم اختاروا أن يكون نزلهم يوم القيامة شجرة الزقوم، ولا شك أن هذا ضلال بيّن، وسفه بعيد.

٣ ـ ومن فوائدها: إثبات الجزاء يوم القيامة؛ لأن شجرة الزقوم تكون في يوم القيامة.

٤ ـ ومن فوائدها: القدح والثناء بالسوء على هذه الشجرة، لأنه وصفها بأنها شجرة زقوم يتزقمها الإنسان تزقماً يعني يبتلعها ابتلاعاً مكروهاً؛ لأنها ـ أي هذه الشجرة ـ كريهة المنظر، مرة الطعم، قبيحة الرائحة، ولهذا يتكرهونها لكن لضرورتهم إليها وشدة جوعهم يأكلونها.

* * *

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي للكافرين من أهل مكة، إذ قالوا: النار تحرق الشجر فكيف تنبته].

شجرة الزقوم جعلها الله فتنة للظالمين أي اختباراً يُختبرون بها، وفتنة أي سبباً للضلال؛ لأن الفتنة تطلق على الاختبار وتطلق على ما كان سبباً للضلال، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: ١٠] أي كانوا سبباً في إضلالهم، ويقول الله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الدخان: ١٧] أي اختبرناهم. أو إن شئت قل أضللناهم؛ لأن الله اختبر آل فرعون ولكنهم ضلوا ـ والعياذ بالله ـ فأضلهم الله.

﴿فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: اختباراً لهم وسبباً لضلالهم، اختباراً لهم لأنهم لو آمنوا لصدقوا ولم يعترضوا، وسبباً لضلالهم لأنها جعلتهم يتخذون من هذا طعناً فيما أخبر به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، يقولون: هذا محمد يزعم أن الأشجار تنبت في النار، والعادة أن النار تحرق الأشجار فكيف تنبت في النار؟! ومعلوم أن الجواب على هذا يسير بالنسبة لنا، نقول: إن الله على

كل شيء قدير، وهي شجرة نارية توافق طبيعتها النار ولا تناقضها، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ المراد بالظالمين هنا الكفار، ولا شك أن الكفر ظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣] ومعلوم أيضاً أن الظلم يختلف، فهو درجات متفاوتة عظيمة، منها ما يصل إلى الكفر، ومنها ما يصل إلى الفسق، ومنها ما هو دون ذلك.

سؤال: يقول بعض الناس: كيف يعذب الله إبليس وهو مخلوق من النار في النار؟.

الجواب أنّ يقال: إنّ مادته لم تجعله ناراً. كما أن مادة الطين لم تجعل الآدمي طيناً.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: بيان الحكمة في مخلوقات الله ـ عز وجل ـ، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ قد يفتن العبد بما يظهره من آياته.

٢ ـ ومن فوائدها: أن المكذب بما أخبر الله به يعتبر من المفتونين الذين فتنهم الله ـ عز وجل ـ وأضلهم.

٣ ـ ومن فوائدها أيضاً: أن ذلك من الظلم، ولكن هذا الظلم هل هو ظلم لله ورسله أو ظلم لأنفسهم؟.

الجواب: أنه ظلم لأنفسهم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة: ٥٧] فكل من حاد عن الصراط المستقيم فإنه ظالم لنفسه، لأن الواجب عليه أن يحسن رعاية هذه النفس،

فيقودها إلى ما فيه الخير والصلاح، ويذودها عما فيه الشر والفساد، وإذا كان الإنسان يجب عليه أن يرعى من ولاَّه الله عليهم من بني آدم ومن البهائم، فوجوب رعاية نفسه من باب أولى، ولهذا بدأ بالنفس في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾. [التحريم: ٦].

٤ ـ ومن فوائد الآية: إطلاق الظلم على الكفر، مع أن الظلم أعم من الكفر، ولكن المراد به هنا الظلم المطلق الذي أشار الله إليه في قوله: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة: ٢٥٤] فالظلم المطلق هو ظلم الكافر، والظلم المقيد هو ظلم الفاسق، فالمعاصي ظلم لكنها ظلم مقيد، فمثلاً يقال: هذا ظالم نفسه بأكل الربا، هذا ظالم نفسه بفعل الزنا، هذا ظالم نفسه بالاعتداء على الخلق، وهكذا، أما الظلم المطلق فهو ظلم الكافر؛ لأن الكافر ـ والعياذ بالله ـ لم يأتِ بعدل إطلاقاً حتى يقال: إن ظلمه ظلم مقيد.

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ٦٤﴾ هذه الجمل عن شجرة الزقوم بينها انقطاع بلاغي؛ لأن الاتصال هو العطف بالواو، وهنا كل جملة مستقلة، والحكمة من ذلك من أجل أن يعلم الإنسان عن هذه الشجرة من كل آية بصفة مستقلة، كأن كل صفة مستقلة تغني عن بقية الصفات. فكونها فتنة للظالمين هذا من أعظم ما يكون من الأوصاف التي يخاف منها عند إنكار هذه الشجرة، ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ٦٤﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [أي: قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها]،

وهل هذه الشجرة واحدة للشخص، أو هي واحدة بالنوع والجنس؟

في ذلك احتمالان:

الأول: يحتمل أنها شجرة كبيرة تملأ النار كلها، ويتفرع منها أغصان في دركاتها كما هو ظاهر كلام المؤلف.

الثاني: يحتمل أنها شجرة متعددة، لكن أفردت باعتبار نوعها، كما تقول ـ مثلاً ـ إذا شاهدت شجرة: هذه مذاقها مر، مذاقها حلو، مذاقها كذا، لا تريد هذه الشجرة الواحدة، بل تريد هذا الجنس وهذا النوع، فشجرة الزقوم يحتمل أنها شجرة واحدة قد ملأت النار بأغصانها والله على كل شيء قدير، وإلا فإن النار بعيدة القعر، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ فسمعنا وجبة فقال: «**أتدرون ما هذا؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هذا حجر رمي به في النار حتى وصل إلى قعرها منذ سبعين خريفاً**»[1] يعني سبعين سنة وهو يهوي في النار ما وصل إلى قعرها، هذه الشجرة إذا قلنا: إنها واحدة وأن أغصانها ملأت دركات النار فالله على كل شيء قدير، وإن قلنا: إنها واحدة بالجنس والنوع فليس في ذلك إشكال.

يقول جل وعلا: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ وما ظنك بهذه الشجرة النارية التي تخرج في أصل الجحيم، فيكون لمنبتها أثر فيها؛ لأن المنبت يؤثر على النابت، حتى إن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين (رقم ٢٨٤٤) (٣١).

النوع الواحد إذا غرس في هذه الأرض اختلف عما إذا غرس في أرض أخرى وهو نوع واحد، هذه الشجرة التي تخرج في أصل الجحيم سوف يكون لمنبتها أثر فيها، ولهذا قال الله ـ عز وجل ـ ﴿فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ٦٤﴾ ولم يقل: في الجحيم، ليبين أنها عميقة الجذور ـ والعياذ بالله ـ في النار.

الفوائد:

١ ـ أن شجرة الزقوم خبيثة المنبت، لقوله تعال: ﴿تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ٦٤﴾ والخبيث المنبت يكون هو خبيثاً أيضاً؛ لأن العادة أن النبات يكون على حسب أرضه، كما يكون على حسب مائه أيضاً.

٢ ـ ومن فوائدها: بيان قدرة الله ـ عز وجل ـ حيث خلق هذه الشجرة في وسط النار، مع أن المعروف أن النار تحرق الأشجار، ولكن الله على كل شيء قدير، فها هي نار إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ تحرق الأجسام بلا شك، ولكن لما قال الله لها ﴿كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء: ٦٩] لم تحرقه، بل كانت برداً وسلاماً عليه.

٣ ـ ومن فوائدها: أن هذه الشجرة تنتشر إما أغصانها ـ كما قال المؤلف ـ أو أنواعها في النار كلها؛ لأن الله أخبر أن أهل النار يأكلون منها، ومعلوم أن النار دركات بعضها أسفل من بعض، فيلزم من ذلك أن تكون هذه الشجرة إما ذاتها ومنتشرة أغصانها، وإما نوعها موجوداً في جميع النار.

* * *

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ قال المؤلف - رحمه الله - :

[المشبه بطلع النخل كأنه رؤوس الشياطين أي: الحيات القبيحة المنظر]، ﴿ طَلْعُهَا ﴾ يعني الثمر الذي يشبه طلع النخل كأنه رؤوس الشياطين، والشياطين جمع شيطان، وهل المراد الشيطان الحقيقي، أو المراد نوع من الحيات كما قال المؤلف؟ إذا نظرنا إلى ظاهر اللفظ قلنا: إن المراد الشيطان الحقيقي، واحتمال أن يكون المراد نوع من الحيات قبيحة المنظر وارد؛ لأن السيىء من الحيوان قد يسمى شيطاناً، كما قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**الكلب الأسود شيطان**»[1] ولكن الواجب علينا إجراء القرآن على ظاهره، وأن نقول المراد بالشياطين: الشيطان المعروف، وإنما شبهت برؤوس الشياطين مع عدم رؤية الناس لها، لأن كل أحد يعرف أن ما ينسب إلى الشيطان فهو قبيح منفر، لا يركن إليه أحد، فالتشبيه هنا تشبيه بما يتخيل فكراً، لا بما يعلم حسًّا، وعلى هذا فهو من أبلغ ما يكون من التشبيه في القبح ولا حاجة إلى أن نقول: إنها حيات، حتى لو قلنا بأنها حيات فهل هذه الحيات معلومة لكل أحد؟ إن حيات لا يعرفها إلا النادر من الناس لا ينفر الناس منها، بل إن المؤلف لما قال: إنها حيات، هبطت قيمة هذا القبح في نفس الإنسان، لكن كأنها رؤوس الشياطين، يقشعر جسم الإنسان ويقف شعره عندما يسمع هذا التشبيه القبيح، وعلى هذا فالصحيح أن المراد بذلك رؤوس الشياطين الحقيقية، ولكنها شبهت بها للعلم بأنها قبيحة عند جميع الناس وأنها منفرة.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب قدر ما يستر المصلي (رقم ٥١٠) (٢٦٥).

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: بيان أن هذه الشجرة لها طلع، ولكن طلعها أقبح ما يكون من الطلع؛ لأنه يشبه رؤوس الشياطين.

٢ ـ ومنها: أن من أغراض التشبيه ما يسمى عند البلاغيين بالتقبيح، فيشبه الشيء بما يستقبح نفسيًّا، وإن لم يكن معلوماً حسيًّا لقوله: ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾.

٣ ـ ومن فوائدها: أن رؤوس الشياطين مستكرهة مستقبحة؛ لأنه شبه بها القبح، والتشبيه إلحاق الشيء بما هو أعلى منه في الصفة التي ألحق فيها، لأن المشبه دون المشبه به.

٤ ـ ومن فوائدها: إثبات أن للشياطين رؤوساً.

٥ ـ ومن فوائدها: الرد على من يقول: إن الشياطين والجن هي قوى الشر، والملائكة قوى الخير، وليس هناك أجسام تحس، ووجه الدلالة أنه أثبت للشياطين رؤوساً، ولا يمكن أن يكون في الأمور المعنوية التي لها قوى.

٦ ـ ومن فوائدها: ضلال من يعتمد على العقل في إثبات الأشياء أو نفيها؛ لأن الاعتماد على العقل يؤدي إلى أن يرد الإنسان ما ثبت في الكتاب والسنة من أجل ما يدعي أنه عقل.

* * *

﴿فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ﴿فإنهم﴾ أي: الكفار ﴿لَأَكِلُونَ مِنْهَا﴾ مع قبحها لشدة جوعهم، الجملة هنا اسمية

مؤكدة بـ (إنّ) و (اللام) لإفادة أن أكلهم مستمر، لأن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار، وأكدت بـ(إنّ) و(اللام) للدلالة على أنهم يأكلون منها أكلاً مؤكداً مع أنها قبيحة المنظر، كريهة الطعم والرائحة، لكن ـ والعياذ بالله ـ الجوع الشديد يضطرهم إلى أن يأكلوا منها قصراً من غير شهوة ومن غير لذة، لكن لملء بطونهم فقط، وأكد أكلهم منها لئلا يقول قائل: إنها مادامت على هذا الوصف فلن يأكل منها أحد، ومع ذلك فإن الإنسان لو كان في الدنيا ربما يفضل الموت على الأكل من هذا. لكن في النار يعذبون بالأكل فيها، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ يعني: أنهم لا يشبعون ولا يقتصرون على الضرورة، وأنت عندما يعرض لك في الدنيا وأنت جائع جوعاً شديداً لحم منتن لا تملأ منه البطن وإنما تأكل بقدر الضرورة فقط، لو حاولت أن تملأ بطنك أبت عليك نفسك، ولو أنك ملأته لأوشك أن تتقيأه، لكن في النار يعذبون بذلك فلا يأكلون بقدر الحاجة بل يملؤون بطونهم، يأكل ويقول: هات هات، كما أنهم يجبرون على شرب الحميم ويشربونه شرب الهيم، شرب الإبل الهائمة العطشى، وهذا من شدة عذابهم ـ والعياذ بالله ـ أن تصل بهم الحال إلى الجوع الشديد الذي يضطرهم إلى أكل هذه الشجرة الخبيثة يملؤون بطونهم منها، وإلى العطش الشديد الذي يضطرهم إلى شرب الحميم، وهو الماء الحار الذي لا يستفيدون منه، بل قد قال الله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

[محمد: ١٥]

وقال ـ عز وجل ـ في اغتسالهم ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ [الحج: ١٩ـ٢٠] تصل حرارته إلى ما في البطون مع حيلولة بقية الجسم دونها لكن تصل الحرارة إلى ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾﴾ [الهمزة: ٦ـ٧] تصل إلى القلوب، نسأل الله السلامة، اللهم نجنا من النار.

يقول تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ قوله: ﴿ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ «ال» هنا للعهد الذهني، ولا يمكن أن نقول: إن «ال» العهد الذكري لأنه؛ سبق ما يدل على البطن لأن العهد الذكري لابد أن يتقدم نفس اللفظ، وهنا لم يتقدم اللفظ، لكن تقدم ما يدل عليه في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ﴾ لأنه لا يأكل إلا من له بطن.

الفوائد:

١ ـ من فوائدها: إثبات أكلهم منها على سبيل التأكيد لقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا﴾.

٢ ـ ومن فوائدها: أنه ينبغي تأكيد الشيء المستبعد أمام المخاطب من أجل اطمئنان نفسه وإقراره به، ولهذا قال علماء البلاغة: إن المخاطب له ثلاث حالات:

١ ـ ابتداء. ٢ ـ وشك. ٣ ـ وإنكار.

١ ـ ففي الابتداء لا يحسن أن تؤكد له الخبر، بل تلقيه إليه غير مؤكد؛ لأنك إذا أكدته بدون سبب للتأكيد فقد يشك، ويقول: لولا أن هذا الرجل كاذب ما ذهب يؤكد الخبر بدون سبب،

فالفصاحة أن تلقيه إليه مجرداً من التأكيد.

فمثلاً: إذا أردت أن تخبر بقدوم زيد، تقول: قدم زيد، إذا كنت تخاطب رجلاً خطاب ابتداء، ليس عنده شك في قدومه ولا إنكار.

٢ ـ أن يكون عند المخاطب شك في الأمر فهنا يحسن أن يؤكد، ولكن لا يجب، فهذا الرجل الذي تخشى أن يكون شاكًّا بقدوم زيد لاستبعاده إياه، يحسن عندما تخبره أنه قادم أن تؤكد له، فتقول: قد قدم زيد، أو إن زيداً قادم.

٣ ـ أن يكون منكراً ففي هذه الحال يجب أن يؤكد له الخبر من أجل أن يزول عنه الإنكار ويطمئن إلى مدلول الخبر، كما لو كنت تخاطب شخصاً ينكر أن يكون فلان قدم البلد فتقول له: لقد قدم، وإن رأيت أنه يحتاج إلى زيادة. قلت: والله لقد قدم.

هذا باعتبار حال المخاطب أي: أنه يحسن توكيد الخبر، أو تجريده من التأكيد، أو وجوب تأكيده باعتبار حال المخاطب، وقد يكون التأكيد وعدمه باعتبار حال مدلول الخبر فإذا كان المدلول أمراً هامًّا فإنه يؤكد حتى وإن كنت تخاطب من لا ينكر، مثل قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة: ١ـ٢] وأشباه ذلك مما أقسم الله به على البعث وهو يخاطب المؤمنين، فهنا نقول: تأكيد هذا الخبر مع إقرار المخاطب به يقصد بذلك بيان أهميته، وأنه أمر يجب أن يتأكد في قلب الإنسان، وأن يثبت فيه ويرسخ. قال أهل العلم: وقد ينزل المقر منزلة المنكر لفعله فعل المنكر مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ

﴿ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١٥] وهل الموت متردد فيه أو منكر؟ أبداً، لا يتردد فيه ولا ينكره أي أحد من الناس، إذاً فلماذا يؤكد؟ لأن المخاطب قد تكون حاله حال المنكر لعدم استعداده للموت، فيؤكد له الخبر.

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ هنا أكد الله ـ عز وجل ـ أنهم سيأكلون؛ لأن المقام مقام استبعاد للأكل، فقد يستبعد الإنسان أن يأكل هؤلاء من هذه الشجرة التي تخرج في أصل الجحيم وطلعها كأنه رؤوس الشياطين. فأكد الله ذلك بـ(إن) و(اللام) وأتى أيضاً بالجملة الاسمية الدالة على استمرار أكله.

٣ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن الله يعذب أهل النار بالأكل من هذه الشجرة بكونهم لا يشبعون، لقوله: ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ فلا يأكلون منها بقدر الضرورة كما يأكل المضطر من الميتة بقدر الضرورة، ولكن يأكلون أكلاً يملأ بطونهم، كلما فرغ البطن قليلاً أكلوا.

* * *

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ (ثم): حرف عطف يدل على الترتيب والتراخي، مما يدل على أنهم إذا أكلوا عطشوا، وإذا عطشوا لا يأتيهم الماء في الحال، بل يأتيهم بعد مهلة بيّنها الله ـ عز وجل ـ بقوله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩] فهم ليسوا إذا أكلوها وعطشوا بها أعطوا الماء بسرعة، بل يستغيثون ويدعون أن يأتيهم ماء يبرد عليهم لهيب العطش، ولكن إذا أعطوا هذا الماء يعطونه شوباً من حميم،

يعني: ماءً حارًّا حرارة عظيمة، والشوب: وهج النار. وهذا الوهج يبينه الله في الآية التي سقتها إذا قرب الماء من وجوههم ليشربوه شوى وجوههم ـ والعياذ بالله ـ شواها حتى إن لحومها لتتساقط من شدة حرارته، فإذا شربوه فإن أمعاءهم تستقبله لكنها تتقطع به ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥] كل هذا سيكون، ليس خبر الأولين، ولهذا يجب علينا إذا قرأنا مثل هذه الآيات أن نشعر بأن هذا هو علم اليقين، وأنه سيكون حق اليقين، هذا الأمر بعد أن يعطشوا ويستغيثوا لا يغاثون بماء بارد ولا بماء عذب، بل بشوب من حميم أي: ماءً حاراً، فيشربونه فيختلط بالمأكول منها فيصير شوباً له، فسر المؤلف ـ رحمه الله ـ الشوب هنا بالخلط، ومنه شبت الماء باللبن أي خلطه، وهو يصلح بهذا وهذا، فهو خلط، وهو أيضاً وهج حرارة هذا الحميم كل ذلك يكون، فالوهج يكون قبل الشرب، والشوب بعد الشرب.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ يعني ثم بعد ذلك مرجعهم إلى الجحيم، والجملة جملة اسمية لم يقل ثم يرجعون، بل قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ مؤكدة بمؤكدين وهما: (إنّ) و(اللام)، وهذا الترتيب فيه إشكال، فهل هو ترتيب ذكري أو هو معنوي؟ المؤلف يرى أنه ترتيب معنوي، أي: أنهم يخرجون من النار لشرب الحميم، ويحتمل أن يكون ترتيباً ذكريًّا يعني بعد أن ذكر الله ـ عز وجل ـ ما لهم من هذا العذاب بين أن مرجعهم في يوم القيامة إلى هذا الجحيم لا يرجعون إلى سواه. أما المؤلف ـ رحمه الله ـ فيقول: [يفيد أنهم يخرجون منها لشرب الحميم وأنه

خارجها]، وهذه الفائدة فائدة ضعيفة بالواقع، وكوننا نستفيد هذه الفائدة من هذه الجملة ليس بمتعين، والله عز وجل يقول: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر:٤٨] فكيف يقال: إنهم يخرجون ويشربون الحميم ثم يردون، هذا بعيد جداً، لكن إما أن نجعل الترتيب هنا للترتيب الذكري، أي: أن الله بعد أن ذكر أنواعاً من العقوبات لهم بين أن مآلهم إلى الجحيم الذي فيه هذه العقوبات.

والترتيب الذكري موجود في اللغة العربية، ومنه قول الشاعر:

إن من ساد ثم ساد أبوه ... ثم ساد من بعد ذلك جده

وسيادة الأب سابقة على سيادته، وسيادة الجد سابقة على سيادة الأب.

أو يقال: إنهم كما قال الله عنهم: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠] وأنهم يقربون من أبوابها ويسقون هذا الحميم فيقربون لتتطلع نفوسهم إلى الخروج، فيكون عندهم بعض الأمل، فإذا أمّلوا هذا الأمل ثم ردوا إلى أصل الجحيم صار هذا أشد عذاباً عليهم، لأن حصول اليأس بعد الأمل أشد من بقاء اليأس؛ لأن الأمل يرفع اليأس، وإذا أعيد إلى العذاب عاد اليأس، فكان أشد وقعاً.

أرأيت لو أن رجلاً مغلولاً بين يديك، وصرت تحاول فك عنقه، فإنه يفرح، لكن إذا عدت ثم شددته ربطاً وأتيت بغلٍّ آخر ازداد يأساً وغمًّا إلى غمه، بعد أن رأى بصيص الأمل يعاد فيهان هؤلاء - والعياذ بالله - كلما أرادوا أن يخرجوا منها وحصل لهم

بعض الأمل أعيدوا فيها، فيكون ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ أي: إلى أصل الجحيم الذي كانوا قد أملوا أن يخرجوا منه حين قربوا من أبوابها.

الفوائد:

من فوائد الآية الكريمة: أن هذه الشجرة إذا أكلوها ـ والعياذ بالله ـ عطشوا وطلبوا الماء طلب المضطر إليه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩] فهم يعطشون كثيراً ويسألون سؤال المضطر، يستغيثون بالله ـ عز وجل ـ فإذا أغيثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ـ والعياذ بالله ـ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ يعني مع هذا الأكل القبيح المستكره المبتلى بمحبته يشربون عليه من الحميم الذي يخالطه، وقد سبق أن هذا الحميم يقطع أمعاءهم.

٢ ـ ومن فوائد قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ أن هؤلاء الذين في النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها، وهذا فيه زيادة تعذيبهم، لأن الإنسان إذا انفتح له باب الأمل والرجاء، ثم عاد إلى الخيبة صار ذلك أشق وأشد عليه مما لو استمر في خيبته، فيكون في هذا زيادة تعذيب له: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾.

٣ ـ ومن فوائدها أيضاً: أن هؤلاء لن يذوقوا نعيماً أبداً؛ لأن مرجعهم ومآلهم إلى الجحيم، فلا يمكن أن يخرجوا منها، نسأل الله لنا ولكم السلامة.

* * *

٤ ـ ومن فوائدها: أن ظاهرها يفيد تأبيد النار، لأنها المرجع النهائي، وهذا يقتضي أنه ليس هناك سواه، وهذا القول أعني أن النار مؤبدة هو القول المتعين الذي لا يجوز اعتقاد سواه، وذلك لأن الله تعالى ذكر التأبيد في ثلاثة مواضع: في سورة النساء، وفي سورة الأحزاب، وفي سورة الجن.

ففي سورة النساء يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾. [النساء: ١٦٨ـ١٦٩]

وفي سورة الأحزاب يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾. [الأحزاب: ٦٤ـ٦٥]

وفي سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾. [الجن: ٢٣]

وبعد هذه الآيات الثلاث من عالم الغيب والشهادة لا يجوز العدول عن القول بمدلولها، فإذا كان الساكن خالداً خلوداً مؤبداً لزم أن يكون المسكون كذلك، أي مؤبداً لا يمكن فناؤه، والقول بجواز فناء النار أو بوجوب فناء النار، قول ضعيف جداً، وقد علق شيخنا الشيخ عبدالرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ على ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه «شفاء العليل» حيث ذكر الخلاف عن بعض السلف بأنه قول ضعيف جداً، واستغرب أن يقع هذا من ابن القيم ـ رحمه الله ـ لأنه قول منافٍ للقرآن، ولكن لكل جواد كبوة.

* * *

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿إنهم﴾ أي: هؤلاء الظالمين الذين يعذبون بهذا العذاب ﴿ألفوا﴾ أي: وجدوا آباءهم ضالين تائهين عن الحق، وألفى بمعنى وجد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥] ﴿ألفيا﴾ وجدا سيدها.

﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ هم وجدوا آباءهم ضالين بعد أن قامت عليهم الحجة بضلال آبائهم، ولكن لم يتبعوا الحجة. قال: ﴿فَهُمْ﴾ يعني بعد أن وجدوا آباءهم ضالين ـ والعياذ بالله ـ هم ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي: يساقون ويزعجون، وهرع بمعنى عجّل وأسرع في الشيء، فهم على آثار آبائهم وعلى ما كانوا عليه من الشرك والظلم ﴿يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي: يساقون بشدة ويسرعون إلى اقتفاء آثارهم، وقد جاءتهم الرسل بالحجة، ولكن قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣] وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٢] فهم علموا أن آباءهم ضالين، ومع ذلك بقوا على ما هم عليه، بل صاروا يسابقون ويتمسكون أشد بما كان عليه آباؤهم.

الفوائد:

١ ـ أن هؤلاء المكذبين اتبعوا آباءهم على الضلال، لقوله: ﴿أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾﴾ فضلوا مثلهم.

٢ ـ ومن فوائدها: الإشارة إلى ذم التقليد المخالف للحق؛ لأن الله تعالى ذكر هذا تنديداً بهم وتوبيخاً لهم أن يجدوا آباءهم ضالين ثم يتبعوهم ويدعوا طريق الحق.

فإذا كان التقليد للضرورة بحيث إن الإنسان لا يتمكن من الوصول إلى الحكم عن طريق الاستدلال، فهنا يجوز التقليد للضرورة؛ لقول الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣] ولم يقل: فاستنبطوا من القرآن والسنة إن كنتم لا تعلمون؛ لأن من لا علم عنده لا يمكن أن يستنبط بنفسه، ولو حاول استنباط الأحكام من الأدلة وهو ليس عنده علم فسوف يضل ويتخبط خبط عشواء، فالإنسان الذي ليس عنده علم فرضه التقليد، والذي عنده علم فرضه الاجتهاد، وهذا القول وسط بين من يشددون في الإنكار على التقليد، وبين من يشددون في الإنكار على المجتهدين، فيكون التقليد للضرورة.

٣ ـ ومن فوائدها: إطلاق الآباء على الأجداد؛ لأن الظاهر أن قوله: ﴿ءَابَآءَهُمْ﴾ يشمل الأب الأدنى والأب الأعلى. وإطلاق الأب على الجد ولو كان بعيداً معروف في الكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] فسمى الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ أباً مع أنه جد بعيد، ويتفرع على هذه القاعدة: ترجيح القول بأن الجد من قبل الأب يسقط الإخوة مطلقاً أي سواء كانوا أشقاء، أو لأب، أو لأم في باب الميراث، وهو القول الراجح لأنه أب، وهذا القول هو قول أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ، وروي عن ثلاثة عشر صحابيًّا، وهو مذهب أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وهو القول الراجح المتعين، ووجه ذلك أن القائلين بالتوريث أتوا بتفصيلات لو كانت هي الشرع لوجب أن تبين في كتاب الله تعالى وسنة

رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

٤ ـ ومن فوائدها: قبح عمل هؤلاء المقلدين، حيث كانوا يهرعون على آثار آبائهم في الضلال، أما في الحق فإنهم ينكصون على أعقابهم. فيتفرع على هذا حظر هؤلاء الناس الذين إذا جاء الحق موافقاً لأهوائهم أسرعوا إليه، وإذا كان غير موافق نكصوا عنه، وصاروا يتباطؤون فيه، وهؤلاء فيهم شبه ممن قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [النور: ٤٩] فإذا كان الحق لهم أتوا إليه مذعنين، وإذا كان الحق عليهم نكصوا، وحاولوا أن يلووا أعناق النصوص لتوافق أهواءهم.

* * *

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام، وقد، والقسم المقدر، ففي هذه الآية الكريمة تأكيد ضلال من خالف الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وفيها تسلية النبي ﷺ؛ لأن كل ما سبق فيه التحدث عن أخبار قريش، فأراد الله ـ عز وجل ـ أن يسلي رسوله ﷺ بأن قومك ليسوا أول من ضل، بل قد ضل قبلهم أكثر الأولين.

وفيها تأكيد لخبر هؤلاء الأمم الماضية التي قد يشك في خبرها من يشك.

كما أن فيها أيضاً زيادة تهديد لهؤلاء المكذبين؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ وأكد أيضاً هذه الجملة بالوجوه الثلاثة التي قد أشرنا إليها في قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾.

وقوله: ﴿ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ يعني لا كلهم، فإن من الأولين من اهتدى، ولكن أكثرهم ضل حتى قال رسول الله ﷺ حين عرضت عليه الأمم: «**رأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد**»(١) وقوله: ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ أي: السابقين، فكل من سبق هذه الأمة فإنه يعتبر من الأولين.

الفوائد:

١ ـ في الآية الكريمة دليل على أن الأمم السابقة قد ضل أكثرهم، وهو كذلك، وقد تقدم أن الرسول ﷺ رأى النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد.

٢ ـ ومن فوائدها: تسلية النبي ﷺ بذكر المماثل للذين كذبوه؛ لأن الإنسان يتسلى ويتأسى بغيره.

٣ ـ ومن فوائدها: عناية الله ـ عز وجل ـ برسوله ﷺ حيث كان، يضرب له من الأمثلة ما يسليه بها؛ لأن سلو الإنسان بغيره يهون عليه الأمر ويزيده قوة واندفاعاً فيما يدعو إليه.

٤ ـ ومن فوائدها: تهديد هؤلاء المكذبين لرسول الله ﷺ أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم السابقة.

* * *

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ هذه الجملة مؤكدة بما سبق بالقسم، واللام، وقد.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (رقم ٢٢٠) (٣٧٤).

وقوله: ﴿أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ يعني رسلاً منذرين، كما قال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥] لكنه هنا لم يذكر البشارة؛ لأن المقام مقام تهديد، فكان طي البشارة أنسب والاقتصار على الإنذار أنسب، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ والرسول قال أهل العلم: الذي أوحي إليه بالشرع وأُمِرَ بتبليغه، فإن قلت: ماذا نصنع في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾؟ [الحج: ٥٢] حيث قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢] فهو يقتضي أيضاً أن النبي وهو الذي أوحي إليه بالشرع ولم يؤمر بالتبليغ قد أرسل.

فالجواب: أن تقدير الآية: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبأنا من نبي. فهو على حد قول الشاعر:

(علفتها تبناً وماءً بارداً)

فالماء البارد لا يعلف ولكنه يسقى، وهو على تقدير: وسقيتها ماء بارداً.

ومن المعلوم أن حذف ما يعلم جائز، كما قال ابن مالك ـ رحمه الله ـ في ألفيته:

وحذف ما يعلم جائز كما تقول: زيد بعدما من عندكما.

﴿مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ اسم فاعل من أنذر ينذر، والمنذر المخوف، أي مخوفين من خالف بالعقوبة وحرمان الثواب،

فالرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كلهم ينذرون من خالفهم بالعقوبة، وحرمان الثواب، لأن العاصي يحرم من ثواب الطاعة، إذ لو شاء لأحل محل المعصية طاعة، وكذلك يعاقب بما تقتضيه هذه المعصية.

الفوائد:

١ ـ في الآية الكريمة دليل على أن الله تعالى أقام الحجة على كل أمة لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم﴾ أي في الأولين ﴿مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤] فكل الأمم قامت عليهم الحجة.

٢ ـ ويستفاد من الآية: أن من لم تبلغه الرسالة فلا حجة عليه؛ لأنه لم يبلغه الإنذار، وهو كذلك، ولكن ما حكمه في الدنيا والآخرة؟

فنقول: أما في الدنيا فيحكم بما يتعبد به ويتدين به، فإن كان يتدين باليهودية فهو يهودي، وإن كان بالنصرانية فهو نصراني، أو بالمجوسية فهو مجوسي، أو بالشيوعية فهو شيوعي، أي أننا لا نجري عليه أحكام المسلمين في هذه الحال؛ لأنه يدين بغير الإسلام، وليس لنا إلا الظاهر.

أما في الآخرة فحكمه إلى الله ـ عز وجل ـ وأصح الأقوال في هذا: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يمتحنهم بما يشاء، فمن أطاع منهم دخل الجنة ومن عصى دخل النار.

فإذا قال قائل: وهل في الآخرة تكليف؟ أليس التكليف ينقطع بالموت؟

فالجواب: نعم، في الآخرة تكليف، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [القلم: ٤٢] ودعوتهم إلى السجود تكليف.

٣ ـ ومن فوائدها: أنه ينبغي في الخطاب أن يذكر ما يناسب المقام، وأن يحذف ما تكون الفصاحة في حذفه، وجهه أنه اقتصر هنا على ذكر الإنذار بالنسبة للرسل مع أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ حالهم الإنذار والتبشير، قال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾. [النساء: ١٦٥]

٤ ـ ومن فوائد الآية: رحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالخلق، حيث لم يكلهم إلى عقولهم في تعبدهم لربهم عز وجل، وجهه أنه أرسل إليهم الرسل، وأرسل إليهم الرسل أيضاً ليس مجرد أن يقولوا: اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير، بل قرن دعوتهم بالإنذار والتبشير، ليكون ذلك حافزاً لهم على فعل الأوامر واجتناب النواهي.

* * *

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ الخطاب هنا موجه لواحد مذكر فمن هو؟ أهو الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أم من يصح أن يوجه إليه الخطاب؟ الجواب: الثاني أعم. أي: فانظر أيها المخاطب، أو أيها السامع كيف كان عاقبة المنذرين، وهنا قال: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ ولم يقل: (ماذا

كان) أي: انظر إلى الكيفية وإلى الغاية.

لأن من نظر إلى الكيفية نظر إلى الغاية، لو قال: ماذا كان عقابهم؟ لكان الجواب: الهلاك. لكن كيف عقابهم؟ انظر إليه: إلى الكيفية. ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠] فانظر إلى كيفية العاقبة لتستفيد بهذا النظر شدة العقوبة وملاءمتها للذنب؛ لأن الله قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠] أي: إن عقوبته ملائمة لذنبه، وأنت إذا تأملت هذا وجدت الأمر كما قال الله ـ عز وجل ـ، فمثلاً كانت عاد تفتخر بقوتها وتقول: من أشد منا قوة؟ فأهلكوا بألطف الأشياء وهي الريح، أرسل الله عليهم ريحاً فدمرتهم، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وكان فرعون يفتخر بالأنهار التي تجري من تحته، فأهلك بما كان يفتخر به وهو الماء، وهكذا كلما تأملت هلاك القوم المكذبين للرسل وجدت أن عقوبتهم مناسبة تماماً لذنوبهم.

إذاً (انظر كيف) أبلغ من (انظر ماذا كان عاقبتهم)، وجه ذلك أنها تدل على شدة الأخذ وعلى مناسبته للذنب، ثم إنك إذا نظرت إلى الكيفية ستنظر إلى العاقبة لكن إذا قيل: انظر إلى عاقبتهم، لم تأمر إلا بالنظر إلى عاقبتهم فقط.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ الجملة هنا استفهامية ولكنها في محل نصب مفعول، (انظر)، وهذا النظر بالقلب، والغالب أن النظر بالعين يعدى بـ(إلى) فيقال: نظر إليه، وأن نظر القلب يكون متعدياً بنفسه. ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] يعني بالقلوب، أما بالأعين فلا يفيد إذا لم يتأثر بذلك القلب.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ٧٣﴾ المنذرين هنا اسم مفعول، الذين أنذروا وخوفوا، ولكن لم يخافوا ولم يؤثر فيهم الإنذار، فكيف كان عاقبتهم، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي عاقبتهم العذاب]. يعني: أن العاقبة كانت وخيمة ـ والعياذ بالله ـ، عوقبوا بالعذاب المدمر المهلك.

الفوائد:

١ ـ في الآية الكريمة: تنبيه العاقل إلى النظر في عواقب المكذبين، وكذلك النظر في عواقب المجيبين، فإن الإنسان مأمور بالنظر في حال هؤلاء وهؤلاء، فإذا نظر في عواقب المجيبين وأنها عواقب حميدة صار منهم، وإذا نظر إلى عواقب المكذبين حذر منهم وابتعد عنهم، لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ٧٣﴾.

٢ ـ ومن فوائدها: أن الله لا يعاقب على الذنب إلا بعد قيام الحجة، لقوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، فهم أنذروا فكانت العاقبة.

٣ ـ ومن فوائدها: الإشارة إلى أنه ينبغي للناظر أن ينظر إلى كيفية العقوبة، لتكون أعظم في تصوره من وجه، وليعرف حكمة الله ـ عز وجل ـ في مناسبة العقوبة للذنب من وجه آخر.

فينظر إلى هذين الأمرين لبيان هذه العقوبة وشدتها ولبيان مناسبتها للذنب، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ٧٣﴾.

* * *

ثم قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ فسرها المؤلف: باسم الفاعل أي المؤمنين، إشارة إلى أن المخلص هنا اسم فاعل؛ لأن المفسِّر يطابق المفسَّر فيقول: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ الاستثناء هنا منقطع؛ لأن ما بعده من غير جنس ما قبله. وإذا كان ما بعد إلا من غير جنس ما قبلها فهو استثناء منقطع، والاستثناء المنقطع يكون علامته أن يحل محل لكن، ولكن لماذا يؤتى بـ(إلا) بدل لكن؟ إشارة إلى قوة اتصال ما بعدها بما قبلها، فهي تفيد الاستدراك مع ارتباط ما قبلها بما بعدها، من حيث المعنى وإن كان هذا يختلف عن ذلك.

وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ المراد بالعبودية هنا الخاصة. بدليل قوله تعالى: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

وسبق لنا قريباً بيان أن العبودية تنقسم إلى عامة وخاصة. أي: المؤمنين، فإنهم نجوا من العذاب لإخلاصهم في العبادة. وهذا على قراءة كسر اللام، أو لأن الله أخلصهم له على قراءة فتح اللام، فأفاد المؤلف ـ رحمه الله ـ أن في الآية قراءتين:

المخلِصين والمخلَصين، لكن لم يصرح بهما، وإنما أتى بمضمونهما. ففي الآية قراءتان ﴿مخلِصين﴾ لإخلاصهم لله، لأنهم أخلصوا القصد لله ـ عز وجل ـ رب العباد، إليه الوجه والعمل، فلم يلتفتوا إلى ما سوى الله، والإنسان المخلص لله الذي أخلص قلبه له يوفق وتكون عاداته عبادات؛ لأنه دائماً مع الله ودائماً يتفكر في آيات الله، ودائماً يحب القرب من الله، فيسعى إلى أن يكون قوله وفعله وتركه كله لله ـ عز وجل ـ، وهذا في

الحقيقة هو الرابح الذي ربح الوقت وربح العمر لم تضع عليه لحظة من اللحظات إلا وهو كاسب فيها، ولكن أكثر الناس في غفلة عن هذا الشيء، لم يخلصوا أنفسهم لله ـ عز وجل ـ، بل إن من الناس من قد تكون العبادات في حقه عادات يقوم ويتوضأ ويصلي لأن هذه عادته كأن هذه العبادات عمل يومي يقوم به، ولهذا لا نجدها تؤثر في القلب للغفلة الشديدة عن الإخلاص لله ـ عز وجل ـ، فهم مخلصون لله بالعبادة، وكذلك مخلصون أخلصهم الله، قال المؤلف: ـ رحمه الله ـ [لها] أي: العبادة ولو قيل معنى أسمى من هذا لكان أولى، أخلصهم الله لنفسه واختصهم من بين سائر العباد. ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ [ص: ٤٧] الذين اصطفاهم الله وجعلهم صفوة عباده لنفسه، وهذا أبلغ في الثناء مما قال المؤلف ـ رحمه الله ـ من أن الله أخلصهم للعبادة، بل نقول: أخلصهم له من بين سائر العباد.

الفوائد:

١ ـ في الآية الكريمة: إشارة إلى أن المخلِص أو المخلَص ـ وهما متلازمان إخلاصهم هم وإخلاص الله لهم ـ إلى أن عاقبتهم النجاة، وجهه الاستثناء، ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ فإن هؤلاء عاقبتهم النجاة وعاقبتهم حميدة.

٢ ـ ومن فوائدها: حث الإنسان على أن يكون من هؤلاء العباد لينجو.

٣ ـ ومن فوائدها: فضيلة الإخلاص لقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ والإخلاص هو الذي أمرنا به ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا

لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤] ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾. [الزمر: ٢]

٤ ـ ومن فوائدها: تشريف هؤلاء المخلصين بإضافة عبوديتهم إلى الله تعالى، فإنه لا شك أنه من يضاف إلى الله ـ عز وجل ـ ينال الشرف، ولهذا شرف الله تعالى بيته بإضافته إليه فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ [الحج: ٢٦] وشرف الله المساجد بإضافتها إليه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٤] وسماها النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بيوت الله «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله**»(١) وهذا لا شك تشريف للمضاف.

٥ ـ ومن فوائدها: بيان نعمة الله على هؤلاء العباد، حيث أخلصهم لنفسه فلم يكن لهم مقصود إلا الله ـ عز وجل ـ.

فإن قال قائل: أليس هؤلاء العباد لهم مقصود؟ فهم يأكلون قصداً ويشربون قصداً ويتمتعون بالمساكن وبالنساء قصداً، فقد دخل في قصدهم قصد ما سوى الله، فما الجواب؟

الجواب: أنهم يتقربون إلى الله بهذا القصد. فمثلاً في الأكل: يأكل الإنسان تشهياً بلا شك شهوة ودفعاً للضرورة، لكن يمكن أن يكون هذا الأكل عبادة من وجوه:

أولاً: إذا قصد به امتثال أمر الله؛ لأن الله أمر بالأكل والشرب.

ثانياً: إذا قصد به حفظ صحته وقيام بنيته؛ لأن الإنسان مأمور بمراعاة نفسه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾. [النساء: ٢٩]

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على القرآن وعلى الذكر (رقم ٢٦٩٩) (٣٨).

وقال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إن لنفسك عليك حقًّا**»[١] .

ثالثاً: إذا قصد بذلك الاستعانة بهذا الأكل والشرب على طاعة الله، ولاسيما إذا كان معيناً إعانة مباشرة، كما في قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**تسحروا فإن في السحور بركة**»[٢] .

رابعاً: إذا قصد بذلك التبسط بنعم الله تعالى، فإن الله تعالى يحب من عبده أن يتبسط بنعمته، لأن الكريم يحب أن يتبسط الناس بكرمه، ومن أشرف وقت عند الكريم أن يطرق بابه الضيوف ليكرمهم. لكن البخيل بالعكس فإذا قصد الإنسان التنعم بنعمة الله والتبسط بها لا شك أن هذا قربة لله ـ عز وجل ـ؛ لأن الله يحب إذا أنعم على أحد نعمة أن يرى أثر نعمته عليه.

فمن العلماء من يقول إذا قامت الحجة سواء فهم المدعو أو لم يفهم فلا عذر له، ومنهم من يقول: لابد أن تقام عليه الحجة ويفهمها، أما إذا قيل لهم بعث رسول يدعو إلى الهدى ولكنه ما فهم هذا الشيء فإنها لا تقوم عليه الحجة، لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ [إبراهيم: ٤] بعد أن بين أنه ينقسم الناس بهؤلاء الرسل إلى ضال ومهتدٍ، والمسألة تحتاج إلى تأمل في

---

(١) أخرجه البخاري في أبواب التهجد، باب ٢٠(رقم ١١٥٣)، ومسلم في كتاب الصيام، باب النهي عن صيام الدهر لمن تضرر به أو فوّت حقاً أو لم يفطر العيدين والتشريق. . . (رقم ١١٥٩) (٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب بركة السحور من غير إيجاب. (رقم ١٩٢٣)، ومسلم في كتاب الصيام، باب فضل السحور وتأكيد استحبابه واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر رقم (١٠٩٥) رقم (٤٥)

الواقع: هل يكتفى بمجرد قيام الحجة؟ وعليه أن يبحث عن المعنى، فيقال: أنت فرطت، لماذا لم تأتِ تستفهم؟ فأنت مقصر. أو يقال: إن الرجل إذا قامت عليه الحجة وبلغته لكن على وجه مهوش فهذا معذور لاسيما إذا مات في زمن لم يتمكن فيه من البحث والاستفسار، على كل حال هي مسألة لها غور عظيم، وتحتاج إلى مراجعة كلام أهل العلم في هذه المسألة مراجعة تامة، لأنها في وقتنا الحاضر تدعو الحاجة إلى فهمها، إذ إن فيه كثيراً من المسلمين على هذا الوجه، يعني: بُين لهم الحق أو عرض لهم الحق عرضاً مهوشاً كما يوجد بين أهل البدع الآن، مثلاً فيه ناس عندها بدعة الرافضة أو بدعة الخوارج أو بدعة الأشعرية أو بدعة المعتزلة. بدع كثيرة مهوش على الناس فيها، ولبس فيها الحق بالباطل، فكثير من الناس يقولون: إن الحق معهم، وهم على بدعة وضلالة. فالمسألة في الحقيقة تحتاج إلى بحث تام في هذا الموضوع ومراجعة كلام أهل العلم، لاسيما العلماء المتحررون في أفكارهم مثل شيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ محمد بن عبدالوهاب ومن أشبههم. ـ رحمهم الله ـ.

* * *

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ هذه الجملة كالتفصيل لقوله: ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ فهنا شرع الله ـ عز وجل ـ يبين كيف كان هذا الضلال؟ ومتى كان؟ كان من أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، وهو نوح ـ عليه الصلاة

والسلام ـ، ونوح أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض بدليل الكتاب والسنة.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣] إذاً ليس هناك نبي مرسل قبل نوح ـ عليه السلام ـ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ﴾. [الحديد: ٢٦].

فإذا كانت النبوة والكتاب في ذريتهم، فليس قبل نوح أحد أوتي النبوة والكتاب، والمراد بالنبوة نبوة الرسالة، أم نبوة الوحي والعبادة فقد سبقت لآدم، فإن آدم نبي مكلم لكنه ليس نبيًّا مرسلاً.

وأما من السنة فقد صح عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة: «**أن الناس يأتون إلى نوح ويقولون: أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض**»[1].

فنوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو أول الرسل ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم ليلاً ونهاراً.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦﴾ [نوح: ٥ـ٦] يدعوهم سرًّا وعلناً ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩﴾ [نوح: ٩] ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ لا يزيدهم ذلك إلا نفوراً واستكباراً مع قوة الرسالة والآيات العظيمة نكصوا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله ؛ عز وجل ـ ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾، (رقم ٣٣٤٠) ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (رقم ١٩٣) (٣٢٢).

واستكبروا، وما آمن معه إلا قليل، ولما رأى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما حصل من قومه وأيس منهم دعا عليهم:

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾. [نوح: ٢٦ـ٢٧].

وقال: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾ [القمر: ١٠] فأجاب الله تعالى دعاءه، ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ فانتصر الله له وأجاب دعاءه، قال الله تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القمر: ١١ـ١٢] ماء ينزل من السماء، وماء ينبع ويفور من الأرض فوراناً عظيماً، يشمل كل الأرض حتى التنور الذي هو موضع إيقاد النار صار يتفجر ماء، والسماء تهطل بماء منهمر عظيم، فالتقى الماء حتى بلغ قمم الجبال، ولم ينجُ منه أحد إلا من كان مؤمناً فإنه مع نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ في السفينة. ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

فنوح هو أول الرسل وآخرهم محمد ﷺ. قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ولم يقل: وخاتم المرسلين، مع قوله: ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] إشارة أنه لا يمكن أن يأتي بعده لا نبي ولا رسول.

الجملة: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ ﴾ مؤكدة بثلاثة مؤكدات كما سبق: القسم، واللام، وقد، ونقول في توجيه التوكيد ما قلناه فيما سبق.

وقوله: ﴿ فَلَنِعْمَ ﴾ الفاء: حرف عطف تفيد الترتيب والتعقيب، واللام: موطئة للقسم، وتقدير الكلام: فوالله لنعم المجيبون.

والمجيبون: فاعل نعم، ونعم وبئس وشبههما. تحتاجان إلى فاعل وإلى مبتدأ لتكون جملتهما خبراً عنه. هذا المبتدأ يسمى المخصوص. بالمدح أو بالذم.

فأين المخصوص في هذه الآية؟ يقول المؤلف: ـ رحمه الله ـ (نحن) أي: فلنعم المجيبون نحن، وصدق ربنا ـ عز وجل ـ نعم المجيب: الله ـ سبحانه وتعالى ـ فإن إجابته ليست كإجابة غيره إجابة محققة، لكن بشرط أن تتم شروط الإجابة وأن تنتفي الموانع. فإن لم تتم شروط الإجابة فإنه لا يجيب ـ عز وجل ـ؛ لأن إجابته كسائر أفعاله مبنية على الحكمة، والحكمة وضع الشيء في موضعه، فإذا تمت شروط الاستجابة صار للاستجابة محل فحلت الإجابة. وإذا لم تتم لم يكن للإجابة محل، فلم تتحقق الإجابة.

ولابد من انتفاء الموانع وسيأتي ـ إن شاءالله تعالى ـ ذكر هذه الشروط والموانع عند ذكر الفوائد، فالله تعالى أثنى على نفسه بأنه نعم المجيب وصدق الله العظيم، فإنه تعالى نعم المجيب: يجيب عباده إذا اقتضت الحكمة ذلك بوجود الشروط وانتفاء الموانع.

﴿ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [له نحن أي دعانا على قومه فأهلكناهم بالغرق]. دعا الله على قومه

فأهلكهم بالغرق، فغرقوا عن آخرهم. وذكر أن النبي ﷺ قال: «**لو كان الله تعالى منجياً أحداً من الغرق لأنجى أم الصبي**»(١).

وأم الصبي امرأة كان معها صبي فلما رأت الماء يتزايد خافت على نفسها من الغرق، فلجأت إلى جبل فارتفع الماء حتى وصل إليها، ثم ارتفعت حتى وصلها الماء، ثم ارتفعت حتى وصلها الماء حتى بلغت قمة الجبل فوصلها الماء، فلما رأت الماء قد وصلها وألجمها رفعت الصبي فوق يدها لتغرق قبله، قال النبي ﷺ فيما يذكر عنه: «**لو رحم الله أحداً لرحم أم الصبي**» لأن هذا من أبلغ ما يكون في الرحمة، أن تجعل موتها قبل موته، ترفعه على يديها حتى يدركها الغرق قبله. فهؤلاء وغيرهم من الأمم لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا البأس، وانظر إلى فرعون لما أدركه الغرق قال الله تعالى: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: ٩٠] لكن ما نفعه ذلك، قيل له: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾. [يونس: ٩١] لم يكن أحد من الأمم نفعهم إيمانهم لما رأوا البأس ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾﴾. [يونس: ٩٨] قال أهل العلم: والحكمة من ذلك: أن نبيهم خرج منهم مغاضباً قبل أن يؤذن له، فلم تحق عليهم الكلمة لعدم تمام الإنذار في حقهم، فلهذا لما آمنوا كشف الله عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعهم إلى حين،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك(٢/ ٣٤٢، ٥٤٧) وقال في الموضعيين: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي بقوله: إسناده مظلم، وموسى ليس بذاك. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٠٣): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه موسى بن يعقوب الزمعي ثقه ابن معين وغيره، وضعفه ابن المديني، وبقية رجاله ثقات.

وسيجدون ما يستحقونه من العقوبة أو المثوبة.

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾. الأهل هنا هل نقول: المراد المؤمنون؟ أو نقول: إن الأهل هم خاصة الرجل، لأن هناك فرقاً بين آل وأهل، آل: أتباع، وأهل: هم الخواص، خاصة الرجل كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣] أهل البيت الخاصة لا يشمل الأمة كلها. فهل نقول: المراد أهله الذين هم خاصته؟ هذا هو الأقرب من الآية، لكن في آيات أخرى تدل على أن الذي نجا هو ومن آمن معهم.

يستثنى من أهل نوح، ابنه الذي كفر به فإنه أدركه الغرق، ولما سأل نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ربه قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾، [هود: ٤٥ـ٤٦] ويستثنى من ذلك امرأته كما قال الله تعالى في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] أي: بالكفر لا بالفاحشة والزنى، لأنه من المستحيل أن يجعل الله امرأة نبي تزني، لأن الزنى خبث، وقد قال الله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ [النور: ٢٦] فخيانة امرأة نوح وامرأة لوط كانت بالكفر، والكفر قد يكون في امرأة النبي وهو لا يعلم، ولهذا قال: ﴿**فخانتاهما**﴾ يعني أخفت الكفر عن نوح وعن لوط ـ عليهما الصلاة والسلام ـ.

فـ(أهل) هنا ليس على عمومه، وإنما هو عام مخصوص، لأن العام الذي أريد به الخاص لابد أن يكون معلوماً للمخاطب أنه لم يرد به إلا الخاص من أول الأمر، فأما الشيء الذي لم يعلم إلا بنص آخر فإن هذا يسمى عاماً مخصوصاً.

﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾.

الكرب: ضد السعة، والإنسان المكروب هو الذي أصابه ما يكرب به، ولا شيء أعظم من كرب الموت.

وهذا الكرب الذي أصاب قومه كرب عظيم؛ لأنه غرق يموت الإنسان وهو ينظر، وموت الإنسان بمرض يعلم أنه لا قدرة له على إزالته، لكن بالغرق يموت وهو يؤمل أن ينجو، ولهذا تجده بكل قواه يحاول النجاة ولكن لا تحصل، فكأنه يموت ويقطعه الموت وهو ينظر إليه، فلهذا صار كرباً عظيماً؛ لأنه بالغرق، ومثله الموت بالحرق بالنار فإن الإنسان يموت بأمر يشعر بنفسه أنه يستطيع التخلص منه، ولكن يعجز فيكون وقع الموت عليه أشد، ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ في الآية إشكال إعرابي، وهو أن الباقين منصوبة مع أنها بعد ﴿هم﴾ وهم يكون مبتدأ، والمبتدأ خبره مرفوع، وجاءت منصوبة هنا لأن (هم) ضمير فصل، وضمير الفصل ليس له محل من الإعراب، وعلى هذا فتكون الباقين المفعول الثاني لجعلنا؛ لأن جعلنا من أفعال التصيير، فهي بمعنى صيرنا وتنصب مفعولين: المفعول الأول ذريته، والمفعول الثاني الباقين.

وقوله: ﴿هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ (هم): ضمير فصل، وضمير الفصل ليس له محل من الإعراب، لكن له محل من المعنى، فهو يميز بين الخبر والصفة، ويفيد التوكيد، ويفيد الحصر.

﴿ذريته﴾ أي: نسله فقد جعل نسل نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ هم الباقين، ولهذا يقال: إن نوحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الأب الثاني للبشرية، والأب الأول آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ويقال: إن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أبو الأنبياء ولا يقال: أبو البشرية؛ لأن البشر لم ينحصروا في ذرية إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكنه أبو الأنبياء؛ لأن الأنبياء من بعده كلهم من ذريته كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦] فما قبل إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الأنبياء فهم من ذرية نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ وما بعد إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ذرية إبراهيم ونوح ـ عليهما الصلاة والسلام ـ؛ لأن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ذرية نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ قال المؤلف: ـ رحمه الله ـ[فالناس كلهم من نسله ـ عليه السلام ـ وكان له ثلاثة أولاد: سام، وهو أبو العرب والفرس والروم، وحام: وهو أبو السودان، ويافث: وهو أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك]. ما ذكره ـ رحمه الله ـ هو المشهور عند المؤرخين أن أولاد نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ كانوا ثلاثة: سام، وحام، ويافث، لكن لم يأتِ هذا بسنة صحيحة عن النبي ﷺ ولا في

القرآن ما يدل على ذلك، فالأولى أن نقول: إن الناس بعد نوح من ذريته، وأما هذا التقسيم فيحتاج إلى دليل، وليس هناك دليل من كتاب الله تعالى ولا سنة رسوله ﷺ على ذلك، والله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر أن الأمم السابقة لا يعلمهم إلا الله، فقال جل وعلا: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [ابراهيم: ٩] فإذا نفى الله علم أحد بهم إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ وجب أن يتلقى علمهم من الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا من غيره، فنرجع إلى الوحي، وعلى هذا ما في كتب المؤرخين من أحوال الأمم الماضية إذا لم يكن عليه دليل من الكتاب والسنة فإنه مما يتوقف فيه، ولا يلزم به، كحديث بني إسرائيل، فهؤلاء الثلاثة الأبناء لنوح ممن يتوقف فيهم، ونحن لا يهمنا الباقون من أولاده ثلاثة أو ثلاثون، المهم أن نؤمن بما دل عليه كتاب الله وهو أن ذرية نوح هم الذين بقوا، وأما من آمن معه فإما أنه ليس له ذرية أو قد يكون لهم ذرية ولكن لم تبق، فالله أعلم، ومن الجائز أن يكون له ابن ثم ينقطع نسله، فلا نعلم لكن الذي بقي نسله هو نوح.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ يعني أبقينا له ثناء حسناً، ولم يقل: تركنا له بل قال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ إشارة إلى أن تركنا مضمنة معنى يناسب حرف الجر المذكور، فلابد أن يضمن تركنا معنى مناسب لعلى، والمعنى المناسب لعلى هو الثناء، يعني: أثنينا عليه ثناءً متروكاً في الآخرين، وهو كذلك. فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أثنى عليه ثناء من أفضل الثناء، قال ـ عز

وجل ـ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ٣] هذا ثناء أعظم ما يكون من الثناء، وأشرف ما يكون من الفخر أن الله يصف واحداً من بني آدم فيقول: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ يعني: قائماً بالعبودية، وقائماً بالشكر، ـ عليه الصلاة والسلام ـ. فالله أبقى عليه ثناء حسناً في الآخرين إلى آخر الأمم بل إلى يوم القيامة؛ لأن هذا الكتاب سيبقى إلى أن يرفعه الله عند قرب قيام الساعة.

﴿فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة]، والظاهر من الآيات الكريمة أن جميع الأنبياء الذين جاءوا من بعد نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يذكر فيهم نوح بالثناء الحسن، فتكون الأنبياء كلهم والأمم يطرون نوحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما أثنى الله به عليه، لأنه مذكور في كل الكتب ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (سلام) مبتدأ، ونُكِّر من أجل التعظيم أي: سلام عظيم، لأنه سلام من الله ـ عز وجل ـ، وهذا السلام معناه: أن الله سلَّمه من القوادح التي تقدح فيه، وحل محل هذه القوادح من البشر الثناء من الله ـ سبحانه وتعالى ـ، فجمع الله له بين أمرين:

الثناء، وبين تسليمه مما يقدح فيه، ولهذا نقول: ﴿سلام﴾ بمعنى تسليم، أي: أن الله سلمه من كل ما يضره من القوادح التي تقدح فيه من بني آدم.

﴿فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾. المراد بالعالمين هنا: مَن بعد نوح لا مَن قبله فيما يظهر، وعلى هذا فيكون عامًّا يراد به الخاص.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ المراد بالجمع ﴿إنا﴾

التعظيم، فإن الله واحد ـ سبحانه ـ وتعالى، ولكنه إذا ذكر اسمه بما يدل على الجمع فالمراد به التعظيم.

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: مثل هذا الجزاء نجزي ﴿ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ فكل من أحسن فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يجزيه كما جزى نوحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقد جزى الله نوحاً بأمرين: بما ترك عليه في الآخرين، وبما سلمه في العالمين. فكذلك من كان مؤمناً بالله ـ عز وجل ـ، محسناً في عبادته، وإلى عباده فإن الله تعالى يجزيه كما جزى نوحاً، ولذلك تجد أن الله تعالى وضع في قلوب الناس وألسنتهم الثناء على أئمة المسلمين على الرغم من أن من الناس من يقدح فيهم، لأن كل واحد من أهل الخير لابد أن يقدح فيه واحد من أهل الشر ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان: ٣١] وكذلك كل من تمسك بهدي نبي فإن له عدداً من المجرمين بلا شك. لكن يقيض الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهذا المؤمن من يبدل هذا القدح بالثناء، ومن يدفع هذا القدح. ولهذا قال ـ عز وجل ـ: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ الذين أحسنوا، والإحسان ينقسم ـ كما تقدم ـ إلى قسمين:

١ ـ إحسان في عبادة الله تعالى.

٢ ـ إحسان إلى عباد الله تعالى.

فالإحسان في عبادة الله لا نفسره بأحسن من تفسير رسول الله ﷺ حيث قال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام=

والعبادة في قوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه**» عبادة طلب كأنك تراه، ومعلوم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ تشتاق إليه النفوس، فإذا كان يعبد الله كأنه يراه فسوف يلح في العبادة ليصل إلى محبوبه وهو الله ـ عز وجل ـ، «**فإن لم تكن تراه**» يعني إن لم تصل إلى هذه الدرجة وهي عبادة الرغبة والطلب، «فإنه يراك» فاعبده عبادة هرب وخوف منه، وهذا ليس كالأول؛ لأن هذا يعبد الله خوفاً منه، والأول يعبده طمعاً، فالمرتبة الأولى أكمل من المرتبة الثانية، ولهذا جعلها النبي ﷺ في الدرجة الثانية، إن لم تكن تراه وتعبده كأنك تراه فإنه يراك. فإياك أن تخالفه أو تقع في معصيته. أما الإحسان إلى عباد الله فهو بذل المعروف إليهم بالمال والبدن والجاه، وبعضهم قال: هو بذل الندى، وكف الأذى، وطلاقة الوجه.

بذل الندى: يعني العطاء، وكف الأذى: ألا تؤذي أحداً لا بقولك ولا فعلك، وطلاقة الوجه: ألا تقابل الناس بوجه عابس مكفهر، لأن الإنسان مهما كان إذا لقي الناس بوجه عابس مكفهر فليس محسناً إليهم، بل إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عاتب النبي ﷺ وهو أفضل الخلق حين حصل له ما حصل مع عبدالله بن أم مكتوم، ـ رضي الله عنه ـ مع أن الرسول ﷺ حصل له ما حصل اجتهاداً منه، فقال الله تعالى في ذلك ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ

= والإحسان وعلم الساعة (رقم ٥٠) ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه (رقم ٩) (٥).

ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [عبس: ١-١٠] كلمات عظيمة لكنها مع ذلك خففها الله ـ عز وجل ـ بأن بدأها بضمير الغيبة فقال: ﴿عبس﴾ كأنما يتحدث عن شخص آخر لا عن الرسول ﷺ، ولم يقل: عبست وتوليت، لأنه كما مر علينا كثيراً بأن المخاطب بصيغة الخطاب أعظم وأشد من التحدث بضمير الغيبة.

أما قولهم: الإحسان إلى عباد الله هو: بذل المعروف إليهم بالمال والبدن والجاه.

أما بالمال فظاهر، وبالبدن أن تخدمهم، ومع هذا إذا خدمت الإنسان وأعنته فأنت مأجور، كما قال الرسول ﷺ: «**وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة**»[1]. ومن البذل البدني: طلاقة الوجه؛ لأنها تتعلق بالبدن. أما الجاه بأن تنفع الناس بالتوسط والشفاعة فيما فيه الخير لهم ولك.

الفوائد:

١ ـ في هذه الآية من الفوائد: بيان تأكيد الشيء بالقسم إذا دعت الحاجة إليه، وأن هذا من فصيح الكلام؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أكد هذا بالقسم واللام وقد.

٢ ـ ومن الفوائد: حث النبي ﷺ وغيره على دعاء الله

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل أنواع من المعروف (رقم ١٠٠٩) (٥٦)

ـ سبحانه ـ وتعالى، وأن الله إذا ناداه عبده بالدعاء أجابه.

٣ ـ ومن فوائدها: إثبات سمع الله لقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ولا إجابة إلا بعد السمع.

٤ ـ ومن فوائدها: الثناء على نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وذلك بلجوئه إلى ربه عند حلول المضايق.

٥ ـ ومن فوائدها: الثناء على الله ـ سبحانه وتعالى ـ بكمال الإجابة؛ لأن الثناء على المجيب يستلزم الثناء على الإجابة.

فإجابة الله ـ عز وجل ـ ليست كإجابة غيره، بل هي إجابة فضل وإحسان، قد يعطي الإنسان أكثر مما سأل.

٦ ـ ومن فوائدها: بيان رحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في إجابة دعوة الداعي.

ولكن لإجابة الدعاء شروط لابد أن تتحقق، وهي:

الشرط الأول: الإخلاص لله. ـ عز وجل ـ بأن يخلص الإنسان في دعائه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقلب حاضر صادق في اللجوء إليه، عالم بأنه ـ عز وجل ـ قادر على إجابة الدعوة، مؤهل الإجابة في الله. ـ سبحانه وتعالى ـ.

الشرط الثاني: أن يشعر الإنسان حال دعائه بأنه في أمس الحاجة، بل في أمس الضرورة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأن الله ـ تعالى ـ وحده هو الذي يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.

الشرط الثالث: أن يكون متجنباً لأكل الحرام، فإن أكل الحرام حائل بين الإنسان والإجابة.

فهذه الشروط لإجابة الدعاء، إذ لم تتوفر فإن الإجابة تبدو

بعيدة، فإذا توافرت ولم يستجب الله للداعي، فإنما ذلك لحكمة يعلمها الله ـ عز وجل ـ ولا يعلمها هذا الداعي، فعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، وإذا تمت هذه الشروط ولم يستجب الله ـ عز وجل ـ فإنه إما أن يدفع عنه من السوء ما هو أعظم، وإما أن يدخرها له يوم القيامة فيوفيه الأجر أكثر وأكثر، لأن هذا الداعي الذي دعا بتوفر الشروط ولم يصرف عنه السوء ما هو أعظم، يكون قد فعل الأسباب ومنع الجواب لحكمة، فيعطي الأجر مرتين مرة على دعائه ومرة على مصيبته بعدم الإجابة فيدخر له عند الله ـ عز وجل ـ ما هو أعظم وأكمل.

٧ ـ ومن فوائدها: بيان قدرته ـ عز وجل ـ على إجابة الدعوة؛ لأن الإجابة تستلزم القدرة عليها؛ لأن العاجز لا يمكن أن يجيب.

٨ ـ ومن فوائدها: بيان عظمة الله، وذلك بالإتيان بالواو في صفته بقوله: ﴿ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ فإن هذه قطعاً ليست للجمع؛ لأن الله واحد ولكنها للتعظيم.

ومن فوائد قوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾:

١ ـ بيان أن قومه أصيبوا بكرب عظيم وهو الهلاك بالغرق، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ نجَّى نوحاً وأهله.

٢ ـ ومن فوائدها أيضاً: بيان قدرة الله ـ سبحانه ـ وتعالى حيث حل العذاب بهذه الأمة، فنجى قوماً وغرق قوماً.

٣ ـ ومن الفوائد: كمال عدله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث جازى كل واحد بما يستحق، فمن استحق النجاة نجَّاه، ومن

استحق الهلاك أهلكه.

٤ ـ جواز إطلاق العام وإن كان مخصوصاً؛ لأن قوله: ﴿وأهله﴾ يشمل المؤمن والكافر منهم، وقد دلت آية أخرى على أن من أهله ممن لم ينجُ.

* ومن فوائد قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾: أن نوحاً هو الذي بقي نسله من بني آدم فكل من بقي من بعد نوح فهو من نسله، ولهذا يسمى الأب الثاني للبشرية.

وهنا سؤال وهو أن يقال: إن النبي ﷺ ذكر أن الله خصه أنه بعثه إلى الناس كافة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وظاهر هذه الآية الكريمة أن نوحاً بعث إلى البشر جميعاً لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ وذريته كانوا مباشرين له لم يكونوا في مكان آخر؟

والجواب على ذلك: أن هذه الآية لا تستلزم ما ذكر، فقد يكون هناك أمم في أماكن بعيدة لكنها فنيت ولم يبق إلا ذرية نوح، وتكون الأمم البعيدة التي لم تشملها دعوة نوح لها رسل ثم فنيت هذه الأمم والرسل الذين بعثوا إليها ولم يبق إلا ذرية نوح.

* ومن فوائد قوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ بيان فضل الله ـ سبحانه ـ وتعالى على العبد بثناء الآخرين عليه؛ لأن الإنسان إذا مات انقسم الناس فيه إلى قسمين: قسم يثني ثناءً حسناً، وقسم يثني ثناء سيئاً، وكل من تتفق الأمة عليه بالثناء وأعني بالأمة أمة الإجابة، فأمة الإجابة كثيراً ما يتفقون على الثناء على شخص معين، لكن أمة الدعوة التي فيهم الكافر والمؤمن والفاسق

والعاصي لا يتفقون على الثناء على شخص؛ لأن كل من قوي إيمانه ودعوته إلى الله فسيجد مضاداً من أعداء الله ـ سبحانه وتعالى ـ، لكن أهل الخير والإيمان يحبون الداعية إلى الله ويثنون عليه ما يستحق.

* وفي قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩﴾ من الفوائد:

١ ـ أن نوحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد برأه الله في الآخرين، حيث يقولون القول الذي فيه سلامته من القدح، فيكون الله قد جمع له بين الثناء الحسن ودفع الثناء السيىء لقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩﴾.

٢ ـ ومن فوائد الآية: إطلاق العام وإرادة الخاص؛ لأن قوله: ﴿فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩﴾ لا يتناول مَنْ قبل نوح، فإن الظاهر أنه لم يسبق له ذكر فيما سبق.

* ومن فوائد قصة نوح ـ عليه السلام ـ ككل:

ـ إدخال البشارة على رسول الله ﷺ وأصحابه، حيث يكون لهم أسوة في نوح ومن نجا معه، وتهديد المكذبين له، حيث يكون لهم إنذار لما جرى للمكذبين لنوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

* ومن فوائد قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠﴾:

١ ـ أن المحسن يجازى بمثل ما جوزي به نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وذلك بإنجائه من الهلاك وسلامة عرضه من الذكر السيىء، وكلما كان الإنسان أكثر إحساناً كان أكثر ثواباً وأسلم.

٢ ـ ومن فوائد الآية: إثبات القياس لقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ يعني مثل هذا الجزاء نجزي كل محسن.

٣ ـ ومن فوائدها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يرتب الجزاء والعقوبة والثناء والقدح على الأوصاف لا على الأشخاص؛ لأنه هنا علّق الجزاء على الإحسان، ولهذا لم يأتِ شيء من أحكام الله سبحانه وتعالى مقيداً بشخص لشخصه أبداً حتى خصائص الرسل ليست من باب خصائص الأشخاص، لكن من باب خصائص الأوصاف؛ لأن فيهم وصفاً زائداً على غيرهم، وهو وصف النبوة والرسالة فخصوا ببعض الأحكام المناسبة لمقامهم، أما أن يخص شخص بعينه لأنه فلان ابن فلان مثلاً فهذا لا يوجد في الشريعة؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يرتب الأحكام ويعلقها على الأوصاف لا على الأشخاص.

* ومن فوائد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ الإشارة إلى كمال هذين الوصفين وهما العبودية والإيمان، وأنهما أشرف وصف يتصف به الإنسان أن يكون عبداً لله مؤمناً به؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ يعني نوحاً، ونوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أولي العزم من الرسل، فإذا كان من مناقبه وفضائله أن يكون من عبادالله المؤمنين دَلَّ ذلك على فضيلة العبودية والإيمان.

* ومن فوائد قوله: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾:

١ ـ بيان حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث أغرق هؤلاء المكذبين لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، بل المكذبين لرسله؛

لأن الله قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾. [الشعراء: ١٠٥]

وتكذيب قوم نوح ليس من أجل نوح، ولكن من أجل ما جاء به، ولهذا كان تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الرسل؛ لأنه تكذيب لجنس الرسالة وليس لشخص المرسل.

٢ ـ ومن فوائدها: إقامة العدل بإغراق هؤلاء المكذبين؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يغرقهم ظلماً، بل هم الذين ظلموا أنفسهم.

* * *

﴿۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ هذه الجملة مكونة من (إنَّ) واسمها وخبرها، واسمها متأخر: إبراهيم والخبر مقدم «من شيعته»، واللام هنا لام التوكيد، أي: أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من شيعة نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والشيعة تطلق في اللغة على كل من شايع الإنسان وتابعه وأعانه وناصره فهو شيعته. وإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من شيعة نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ أي: من أتباعه وأشكاله وناصري ما جاء به من الشرع، فإن من نصر الشرع في أي زمان ومكان فإنه ناصر لجميع الشرائع؛ لأن تأييد الشرع الذي جاء من الله في أي زمان ومكان تأييد لشرع الله كله، ولهذا نحن نفرح بانتصار الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأتباعهم ولو كانوا في زمن بعيد، ولو كانوا ليسوا من الذين أرسلوا إلينا خاصة، فإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من شيعة نوح أي: من مؤيديه وأتباعه فيما جاء به، وليس في نفس الشريعة، ولكن في الجنس أي أنه يؤيد وينصر

الوحي الذي هو من جنس الوحي الذي جاء به نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولهذا قال المؤلف: ـ رحمه الله ـ[أي: ممن تابعه في أصل الدين] وهو قبول وحي الله ـ عز وجل ـ والعمل به والدعوة إليه، إذ جميع الرسل بعضهم لبعض شيعة، لأنهم كلهم يتناصرون ويؤمنون بالوحي كله. وقوله ـ رحمه الله ـ: [وإن طال الزمان بينهما وهو ألفان وستمائة وأربعون سنة وكان بينهما هود وصالح]. وقوله: [وإن طال الزمان بينهما] هذا صحيح ولا شك أن بين نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإبراهيم زماناً طويلاً، لكن تقييدها بما ذكره المؤلف يحتاج إلى دليل صحيح، إما من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ، ولا نعلم لهذا أصلاً في القرآن ولا في السنة، فإن قيل: فإنما هو مما نقل عن بني إسرائيل فإننا لا نصدق به ولا نكذب به. وقوله: [وكان بينهما هود وصالح]، دليل ذلك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقرن قصة هود دائماً بقصة نوح، ومن بعدها قصة صالح، وهذا مما يدل على أن هؤلاء الثلاثة قبل إبراهيم.

أما نبي الله إدريس فقد ذكر بعض المؤرخين أنه كان قبل نوح، ولكنه قول ضعيف جداً، لأنه سبق لنا أن نوحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، والقول بأن إدريس قبله قول ضعيف، بل هو باطل في الواقع، فنوح أول الرسل، وإدريس يظهر والله أعلم أنه من أنبياء بني إسرائيل.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ[أي:

تابعه وقت مجيئه] يحتمل ما قال المؤلف، وأن ﴿إذ﴾ متعلقة بقول ﴿شيعته﴾ أي: وممن شايعه حين جاء ربه بقلب سليم إبراهيم.

ويحتمل أن ﴿إذ﴾ استئنافية، وأن تقدير الكلام: اذكر إذ جاء ربه بقلب سليم، وهذا هو الأصح، فالصحيح أنها ليست متعلقة بذلك، وأنه من شيعته وقت المجيء، بل هو من شيعته وقت المجيء وغيره، لكن أراد الله تعالى أن ينوه بهذا الوصف العظيم لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ ومتى مجيئه لربه هل المراد جاء ربه حين لاقاه بعد الموت، أو جاء ربه حين آذاه قومه وهددوه بالإحراق، أم نطلق كما أطلق الله؟

الأولى أن نطلق كما أطلق الله ونقول: جاء ربه في الوقت الذي يعلم الله مجيئه فيه بقلب سليم. قال المؤلف: [سليم من الشك وغيره]، والصحيح أن السلامة أعم مما قال المؤلف، فهو سليم من الشبهات، ليس فيه شك بأي وجه من الوجوه، بل هو على علم ويقين بما آمن به. وسليم من الشهوات ليس في قلبه هوى يخالف ما جاء به الوحي، وهذه هي سلامة القلب أن يكون سالماً من الشبهات التي تعرض له، والشكوك فيكون مؤمناً حقًّا، ويكون سالماً من الشهوات، والشهوات هي: الإرادات المخالفة لما جاء به الوحي، وليس كل قلب يهوى ما جاء به الوحي. فالقلوب جوَّالة يميناً وشمالاً، أحياناً قلب الإنسان نفسه يتجول، في بعض الأحيان يكون مقبلاً غاية الإقبال على الوحي محبًّا له

مطبقاً له، وأحياناً يجد فتوراً عن الإقبال على الوحي وفتوراً عن تطبيق ما جاء به الوحي، ولهذا ينبغي للإنسان دائماً أن يسأل الله تعالى الثبات على الأمر وثبات القلب؛ لأن القلب بين أصبعين من أصابع الله يقلبهما كيف يشاء. فعلى الإنسان ألا يغتر بنفسه ولا يعجب بعقيدته، بل عليه أن يسأل الله دائماً الثبات؛ لأن القلب يعتريه شبهات ويعتريه شهوات، فأحياناً يكون الإنسان مؤمناً حقًّا ثم يلقي الشيطان في قلبه شبهة فيعمى ـ والعياذ بالله ـ، ويضل، وأحياناً يكون الإنسان صالحاً مستقيماً على أمر الله فيلقي الشيطان في قلبه شهوة فيضل، ويتبع الشهوات، فالقلب السليم: هو السالم من الشبهات والشهوات، فيكون إذا سلم من ذلك مستقيماً على طاعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ﴿إذ﴾ نقول فيه كما قلنا في قوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ أنه جملة استئنافية لبيان حال إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فكان قلبه سليماً صالحاً في نفسه، ومع ذلك يحاول إصلاح غيره قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [موبخاً لهم]، فالاستفهام هنا بمعنى التوبيخ، والتوبيخ يستلزم الإنكار عليهم وزيادة، لأنك قد تنكر على الإنسان بدون توبيخ، ولكن إذا وبخته فإن توبيخك مستلزم للإنكار عليهم، قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ سمى الله هذا الأب في سورة الأنعام فقال: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ [الأنعام: ٧٤] وكان أبوه مشركاً ووعده ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يستغفر له، ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤٧] فاستغفر له، ولكنه لما تبين له أنه

عدو لله تبرأ منه، ومحاورته بينه وبين أبيه في سورة مريم واضحة كيف كان يخاطبه بالرفق واللين، ولكن ذلك يخاطبه بالشدة والعنف، ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى﴾ [مريم: ٤٦] أي: دعني واتركني ﴿مليًّا﴾ أي زمناً طويلاً.

﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾ هذه الجملة استفهامية، ولكن هل (ذا) ملغاة، أو اسم موصول؟ يجوز الوجهان، فإن جعلناها اسماً موصولاً أعربنا «ما»: مبتدأ، و«ذا» خبره، وجعلنا العائد محذوفاً، والتقدير: ما الذي تعبدونه.

وإن جعلناها ملغاة فإننا نعرب «ماذا» جميعاً، ونقول: «ماذا» اسم استفهام، مفعول مقدم لتعبدون، أو نقول «ما» اسم استفهام مقدم لتعبدوه و(ذا) لا محل لها من الإعراب، حرف أو بمنزلة الحرف، ليس لها محل من الإعراب، والمعنى أنه أنكر عليهم وقال: ما الذي تعبدون؟ هل تعبدون إلهاً حقًّا أو تعبدون إلهاً باطلاً ﴿أَئِفْكًا﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [في همزتيه ما تقدم] وهو التحقيق، وتسهيل الثانية، وإدخال الفاء بينهما في التحقيق والتسهيل، فتكون القراءات أربعاً.

يقول: قال المؤلف: [إفكا مفعول له، وآلهة مفعول به لتريدون. والإفك أسوأ الكذب أي تعبدون غير الله].

المؤلف ـ رحمه الله ـ أعرب لنا هذه الجملة فقال: إن «إفكاً» مفعول له أي مفعول لأجله، وأن قوله «آلهة» مفعول لتريدون، و«دون الله» صفة لآلهة والاستفهام في قوله: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً﴾ كالذي قبله، يعني أتريدون آلهة غير الله من أجل الإفك

والكذب، ويحملكم على هذا الإفك، وهو أسوأ الكذب.

والمعنى: أتريدون آلهة دون الله تعبدونها، فالإرادة هنا بمعنى القصد، والآلهة بمعنى المألوهة أي: المعبودة تريدون ذلك للإفك الذي أفكتموه وهو أسوأ الكذب، ولا شك أن أسوأ الكذب وأظلم الكذب من جعل مع الله إلهاً آخر فإنه أكذب الكاذبين، وأظلم الكاذبين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣] وهنا قال: ﴿دون الله﴾ أي سواه وغيره، وربما تشعر بدون المنزلة أنها لا تساوي الله عز وجل فكيف تريدونها آلهة وتقصدونها.

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ الاستفهام هنا استفهام تهديد على كلام المؤلف، يعني ماذا تظنون أن الله فاعل بكم إذا عبدتم غيره، أتظنون أن يترككم؟ والجواب: لا.

ويحتمل أن المعنى إذا اتخذتم مع الله غيره إلهاً فما ظنكم به؟ أتظنون أنه يقبل هذه الشركة، فالله ـ عز وجل ـ لن يقبل، قال الله تعالى: في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[1].

أو ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾؟ فما ظنكم بعظمته وجلاله، لو كنتم عظمتموه حق تعظيمه ما أشركتم به غيره.

فالاستفهام في قوله: ﴿فَمَا ظَنُّكُم﴾ تشمل كل هذه المعاني:

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله (رقم ٢٩٨٥) (٤٦).

١ ـ ما ظنكم به أن يترككم هملاً بدون عقاب.

٢ ـ ما ظنكم به إذا اتخذتم معه غيره أنكم تنقصتموه.

٣ ـ ما ظنكم به أنه يرضى أن تعبدوا معه غيره، كل هذا أمر إن كانوا يظنونه فقد أساءوا الظن بالله، ولم يقدروا الله حق قدره، ولكن هذه الظنون تلزمهم إذا اتخذوا مع الله غيره ولا يمكن أن يفروا عنها. وقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ سبق لنا أن المراد بالعالم هنا ما سوى الله ـ عز وجل ـ فكل ما سوى الله فهو عالم، وسُمّوا عالماً؛ لأنهم علم على الله، فيستدل بمخلوقاته ـ سبحانه وتعالى ـ عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾. [فصلت: ٣٧].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾. [الروم: ٢٠] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم: ٢٢] إلى آخر ما استدل الله به على نفسه من آياته.

فقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ الربوبية هنا عامة، ولم يقل: ما ظنكم بالله إشارة إلى أن هذه الآلهة المعبودة مربوبة لله ـ عز وجل ـ، فكيف تكون معبودة من دونه؟

وقد ضرب الله ـ سبحانه وتعالى ـ مثلاً في الإنسان المملوك هل يرضى سيده أن يشاركه أحد فيما يختص به؟ ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم: ٢٨] الجواب: لا، فليس لنا مما ملكت أيماننا من شركاء فيما رزقنا الله.

وتأمل قوله (**فيما رزقكم الله**) يتبين لك أن هذا رزق الله ومع ذلك يحتكره الأسياد عن العبيد ﴿**فأنتم فيه سواء**﴾ وهذا هو محط الاستفهام، والجواب: لا.

وإنما قلنا: هذا محط الاستفهام؛ لأنهم شركاء فيما رزقهم الله، لكن بقدر القوت والضرورة، فالعبد يشارك سيده، يأكل ويشرب ويلبس كما يفعل السيد، وهذا كله مشاركة في رزق الله لكن هل هم مساوون لأسيادهم في ذلك؟ لا، إذا كان هكذا فلماذا تساوون غير الله مع الله في عبادته؟ فالمهم أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أراد إقامة البرهان على أن هذه الآلهة لا تصح أن تكون آلهة؛ لأنها مربوبة لله ـ عز وجل ـ والمربوب عبد لا يصح أن يكون ربًّا.

قال المؤلف: ـ رحمه الله ـ [وكانوا نجامين فخرجوا إلى عيد لهم وتركوا طعامهم عند أصنامهم، زعموا التبرك عليه فإذا رجعوا أكلوه، وقالوا للسيد إبراهيم: اخرج معنا ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾. إيهاماً لهم أنه يعتمد عليها ليعتمدوه].

قوله ـ رحمه الله ـ [قالوا للسيد إبراهيم]. تسمية إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالسيد فيه نظر، ولو أنه قال: إبراهيم الخليل أوالرسول، أما السيد في هذا المقام فمما لم يرد، ولا شك أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ سيد من سادات الخلق، لكن أن نعبر عنه بهذا الوصف عند ذكره ـ عليه الصلاة والسلام ـ وندع وصفه بالرسالة أو بالعبودية فهذا فيه نظر.

وهذا الكلام المتقدم الذي ذكر المؤلف أنه محذوف من

باب الإيجاز بالحذف يحتاج إلى دليل يثبت أن هؤلاء القوم صنعوا طعاماً ووضعوه عند هذه الأصنام للتبرك عليه، وأنهم أرادوا أن يأكلوه بعد رجوعهم وطلبوا خروج إبراهيم معهم، كل هذا يحتاج إلى دليل، وذكرنا فيما سبق أن قصص الأنبياء السابقين لا يعلمها إلا الله ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [ابراهيم: ٩] فإذا كان الأمر كذلك فإننا لا نتلقى أخبار هؤلاء إلا من الوحي، إما بالكتاب وإما بالسنة، وما جاء من أخبارهم من غير هذا الطريق ـ أي طريق الوحي ـ فإننا نتوقف فيه ما لم نعلم مناقضته للشرائع، فإن علمنا مناقضته للشرائع وجب علينا رده، فإذاً نقتصر في القصة على ما ذكره الله ـ عز وجل ـ، وأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ في يوم من الأيام نظر نظرة في النجوم من أجل محاجة قومه وإظهار عجزهم، فهو كما ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ في سورة الأنعام عن محاجة إبراهيم لقومه لما جنّ عليه الليل رأى كوكباً فقال: هذا ربي، فلما أفل ـ أي غاب ـ قال: لا أحب الآفلين؛ لأن الرب لا يمكن أن يغيب عن مربوبه، فلما غاب هذا النجم علم أنه ليس برب، لأن الرب لابد أن يكون له كمال الرعاية لمن كان ربًّا له، فلما رأى القمر بازغاً، قال: هذا ربي والقمر أظهر وأبين من الكوكب، فلما أفل قال: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾. [الأنعام: ٧٧]

وهذا تعريض لقومه بالضلال. فانظر التدرج كيف يكون؟ قال: لا أحب الآفلين، يعني هو تبرأ من ذلك، ثم عرَّض بأن قومه

ضالون ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ . [الأنعام: ٧٧].

﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ﴾ [الأنعام: ٧٨] وهو صحيح، فالشمس أعظم من القمر، فلما أفلت قال: يا قوم إني بريء مما تشركون، فأعلن بشركهم وبالبراءة منهم، وهذا من كمال محاجته.

فلا يبعد أن تكون هذه الآية ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ ﴾ من جنس المحاجة المذكورة في سورة الأنعام.

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ ﴾ أي: إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ نظر نظرة في النجوم، أي: نظر إليها، وإنما فعل ذلك؛ لأن قومه كانوا يعبدون النجوم، ويضعون لها الهياكل في الأرض، وأصل العبادة للنجوم، فنظر في هذه النجوم فلما نظر قال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ وإنما نظر فيها وهو لا يعتقد ـ عليه الصلاة والسلام ـ من باب التورية، وهذا تورية بالفعل، فكما تكون التورية بالقول تكون التورية بالفعل. فالتورية بالقول كثيرة معروفة، التورية بالفعل: أن يري الإنسان غيره أنه يرى شيئاً وهو لا يريده، أو أنه معرضاً عن شيء وهو قد وضع باله عليه.

فهذا من التورية بالفعل، لأنك أظهرت لغيرك خلاف ما يراه، والتورية بالقول أظهرت لغيرك خلاف ما يسمعه، فإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ورّى بالنظر بالنجوم ثم قال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾.

وفسّر المؤلف ـ رحمه الله ـ (سقيم) بمعنى سأسقم وهذه

تورية قولية، لأن ظاهر اللفظ (إني سقيم) يعني الآن، ولا أستطيع الخروج معكم، ولكنه يريد سأسقم، لأن اسم الفاعل صالح للزمان الحاضر والزمان المستقبل، فيصح أن تقول: إني حاضر الآن، وإني حاضر غداً، فلما كان صالحاً للأمرين، ونظر نظرة في النجوم وقال: إني سقيم، تولوا عنه وتركوه وهو يريد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بفعله هذا أمراً سيتبين فيما بعد ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ أي: مال في خفية إلى آلهتهم وهي الأصنام التي يعبدونها قال المؤلف: [وعندها الطعام]. فأخذ المؤلف من قوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾ أن الطعام عندها، لأن عرض الأكل عليهم يدل على أن الأكل كان موجوداً. ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ أي: مال بخفية وانطلق بخفية، والروغان كما هو معروف هو: سرعة الإنسان لكن على وجه لا أحد يحس به، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾؟ و«ألا» هنا للعرض، وهذا القول ليس على سبيل الإلزام، ولا يمكن أن يلزمها بأن تأكل لأنه يعلم أنها لن تأكل، ولكنه قاله على سبيل الاستهزاء والسخرية، وإلزام هؤلاء العابدين بأن هذه الأصنام لا تستحق العبادة، لا لأنها مستغنية عن الطعام ولكن لأنها لا تعقل ولا تعلم، والذي لا يعقل ولا يعلم لا يمكن أن يكون معبوداً، ثم إن صح وضع الطعام عندها من قبلهم فإن هذا دليل على أنها ليست صالحة للألوهية؛ لأن الإله مستغن عن غيره، ولهذا أقام الله تعالى الدليل على أن عيسى ابن مريم وأمه ليس بإلهين بكونهما يأكلان الطعام، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ وحده الإله الحق بكونه يُطْعِم ولا يُطْعَم، فاحتياج ما يعبد إلى

الطعام دليل على نقص وأنه لا يصح أن يكون إلهاً. لكن هم من سخافتهم يجعلون هذا الطعام عندها كأنها تحتاجه وتأكله وتتصرف فيه. ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ الاستفهام هنا للتحقير، أي أنه يحقرها لكونها لا تنطق، وخاطب هذه الأصنام مخاطبة العقلاء في قوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾ ولم يقل: مالكن. تنزلاً مع أصحابها الذين يجعلونها من ذوات العلم وذوات القبول والدفع عنهم. ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ يعني أي شيء يمنعكم من النطق إن كنتم آلهة؟

فإذا قال قائل: هذا الخطاب لهذه الأصنام هل كان في غيبة عابديها؟ إن قلت: نعم، فما فائدة هذا الخطاب؟ وإن قلت: لا، فكيف الجواب عن قوله: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾؟

والجواب: أن نقول: إن عابديها لم ينصرفوا كلهم عنها، بل كان عندها من الحراس ما يقتضي أن يتكلم إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ على هذه الأصنام بمثل هذا الكلام، وإلا لو لم يكن عندها أحد لكان كلامه هذا لغواً لا فائدة منه، لكن عندها من الحراس من يستطيع أن يعلم عنها ما علمه إبراهيم، بسبب أنه عرض عليهم الأكل، وإن هذه لم تنطق، وإذا كانت لم تنطق وليس لها إرادة ولا شعور لم تكن صالحة للعبادة. ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ في أول الآيات يقول: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ أي: مال بخفية و(إلى) للغاية أما هنا فقال ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا﴾ وإنما قال: «عليهم» دون «إليهم» لوقوع ذلك الضرب على هذه الأصنام ليكسرها ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هذه الآلهة، وكما أشرت أولاً أنه خاطبها مخاطبة العاقل فأتى بميم

الجمع. ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾، قوله: «ضرباً» مصدر في موضع الحال، أي: فراغ عليهم ضارباً باليمين، ويجوز أن تكون مصدراً لفعل محذوف، والتقدير: فراغ عليهم يضرب ضرباً.

وقول المؤلف: ـ رحمه الله ـ ﴿باليمين﴾ [بالقوة] لا يتعين، بل يجوز أن يكون باليمين أي باليد اليمنى، وضرب بها لأن اليد اليمين هي آلة العمل غالباً، ولأن اليد اليمنى أقوى من اليد اليسرى في الغالب، ولهذا تجد من النادر أن يكون بعض الناس أعسر يعمل بيده اليسرى عمله بيده اليمنى، ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ لما بلغ قومه ما صنع أقبلوا ﴿إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: يسرعون على وجه الجماعات بدليل قوله: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ﴾ بالواو فهم أقبلوا إليه مسرعين للإنكار عليه، لماذا كسرها؟ وقد ذكر الله تعالى في سورة الأنبياء عنهم: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنبياء: ٥٩] فجعلوا ذلك ظلماً وعدواناً، فجاءوا يزفون لينتصروا لآلهتهم، وهكذا العابدون للأصنام ينتصرون للأصنام، والأصنام لا يستطيعون نصرهم، لكن هم جند محضرون لها. فهؤلاء أقبلوا يزفون إلى إبراهيم لينتصروا لآلهتهم، ولكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان قويًّا في ذات الله، ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ والاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار، والاستهزاء بهم: كيف تعبدون شيئاً أنتم تنحتونه بأيديكم؟ وهل يليق عقلاً أن يكون المعبود مصنوعاً لعابده؟ هذا لا يليق، ولا يفعل هذا إلا أسفه السفهاء. شيء تصنعه أنت بيدك ثم تعبده وتتضرع إليه وتنيب وتتعلق به وترجو منه النفع والضرر، هذا من

السفه، ولكن ـ والعياذ بالله ـ الإنسان إذا أعمى الله بصيرته لا يغنيه بصر العين، وكانوا في الجاهلية يفعلون شبه هذا الفعل، كانوا إذا نزلوا أرضاً في سفر جمعوا أربعة أحجار، ثلاثة منها للقدر، وواحداً للعبادة، فصار هذا الحجر المعبود مساوياً لمناصب القدور، وبعضهم كانوا يعجنون إلهاً من العجوة يعني من التمر، يعبدونه من دون الله، فإذا جاعوا أكلوه، ولم يقولوا: أطعمنا، أو هيىء لنا طعاماً. هو نفسه يؤكل، هذا من السفه، كذلك قوم إبراهيم ـ عليه السلام ـ صنعوا أصناماً بأيديهم ثم صاروا يعبدونها.

وقول المؤلف: ـ رحمه الله ـ[أصناماً] إشارة إلى أن ﴿تنحتون﴾ تنصب مفعولين: أحدهما: العائد للموصول الذي تقديره: ما تنحتونه، والثاني: هذا المحذوف الذي قدره المؤلف: أتعبدون ما تنحتون أصناماً.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [من نحتكم ومنحوتكم فأعبدوه وحده، وما مصدرية، وقيل: موصولة، وقيل: موصوفة].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ إذا كان الله هو الخالق فهو أحق بالعبادة، هل الأحق بالعبادة من خلقكم أو من خلقتموه؟ من خلقكم، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ قول المؤلف: [من نحتكم ومنحوتكم].

أتى ـ رحمه الله ـ بالمصدر وأتى باسم المفعول من نحتكم إشارة إلى أن (ما) يجوز أن تكون مصدرية، ويجوز أن تكون

موصولة، فإذا جعلناها مصدرية صار التقدير: من نحتكم، وإذا جعلناها موصولة صارت: من منحوتكم.

وإذا جعلنا التقدير: والله خلقكم وعملكم، صارت (ما) مصدرية. وإذا جعلنا التقدير: والله خلقكم ومعمولكم، صارت (ما) موصولة. وإذا جعلنا (ما) موصولة فلابد من عائد يعود على (ما) وهو في الآية محذوف؛ أي: وما تعملونه، واللازم واحد على الاحتمالين، فإذا قلنا: إن المعنى «والله خلقكم وعملكم» فإن خالق العمل خالق للمعمول. وإذا جعلنا المعنى «والله خلقكم ومعمولكم»، فإنه إذا كان الله قد خلق المعمول وهم الذين باشروا عمله دل ذلك على خلق العمل وخلق العامل أيضاً.

وعلى كل تقدير ففي الآية إقامة الحجة على أن هذه الأصنام لا تصلح أن تكون معبودة؛ لأنها معمولة، وقوله: [وقيل: موصوفة]. الموصوفة هي التي يعبر عنها بالنكرة بالموصوف. يعني خلقكم وصنماً تعملونه، أو وأصناماً تعملونها، ولا نقول: والذي تعملون بل نقول: وأصناماً تعملونها، وأفادنا المؤلف الآن أن لـ(ما) ثلاثة معانٍ: أن تكون مصدرية، وموصولة، وموصوفة، وهذه ثلاثة من عشرة لأن (ما) لها عشرة معاني.

محامل ما عشر إذا رمت عدها
فحافظ على بيت سليم من الشعر
ستفهم شرط الوصل فاعجب لنكرها
بكف ونفي زيد تعظيم مصدر

(ستفهم) الاستفهامية مثل: ما هذا؟

(شرط) الشرطية ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾. [البقره: ١٩٧] (الوصل): موصولة.

(فاعجب): التعجبية مثل: ما أحسن هذا!!

(لنكرها): النكرة الموصوفة. أو النكرة الواصفة.

تقول: مررت بما معجب لك، أي بشيء معجب لك.

وتقول: عرفته نوعاً ما، يعني نوعاً قليلاً، فهي نكرة واصفة.

(بكف) كافة مثل: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١] فهنا كفت (ما) عن العمل.

(ونفي): نافية: ما حضر زيد.

(زيد): زائدة ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ الشورى: ٣٧]

ويا طالباً خذ فائدة: ما بعد إذاً زائدة.

(تعظيم) يعني أنها تأتي للتعظيم، وهذه غير التعجب مثل أن تقول: مررت بما مذهل، أي بعظيم مذهل.

وربما نقول: إن ما التعجبية فيها نوع من التعظيم فإنها تدل على التعظيم والتعجب.

(مصدر): المصدرية ومنه هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾. [الصافات: ٩٦].

فهذه محامل (ما) عشرة وينبغي لطالب النحو أن يحفظ مثل هذه الأبيات، لأنه تحصل له المعاني.

الفوائد:

١ ـ ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ من فوائد هذه الآية

وما بعدها: أن أصل دين الأنبياء واحد، فكلهم شيعة للآخر مقوٍّ لدعوته، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾. [الإنبياء: ٢٥].

أي: رسول كان إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون.

٢ ـ أن الأنبياء وإن طال الزمن بينهم، فإنهم إنما يأتون بالوحي من الله، لأنه إذا طال الزمن تناسى الناس العهد واضمحل وانتهى، ولكن إذا كان بوحي من الله فإنه يتجدد بحسب تجدد هذا الوحي لأن بين إبراهيم ونوح أزماناً طويلة.

٣ ـ ومن فوائدها: الثناء على إبراهيم، ـ عليه السلام ـ ووجهه أنه كان شيعة لمن كان يدعو إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ، وكل من كان شيعة لمن يدعو إلى الله فإنه بلا شك محل ثناء.

٤ ـ ومن فوائد قوله: ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ٨٤﴾ الثناء على إبراهيم أيضاً بكونه جاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقلب سليم، وهذه الصفة وإن كانت سلبية لكنها تتضمن كمالاً، لأن القلب إذا سلم من الشبهات والشهوات صار خالصاً لله تعالى: قصداً وإرادة وعملاً، ففيها الثناء على إبراهيم بسلامة القلب.

٥ ـ ومن فوائدها: عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ بإبراهيم، ـ عليه السلام ـ وذلك بإضافة الربوبية إليه ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ وهذه ربوبية خاصة، والربوبية الخاصة تقتضي عناية أكثر من الربوبية العامة، لأن المربوبين بالربوبية العامة شملتهم الرحمة العامة، لكن الربوبية الخاصة يكون لهم الرحمة الخاصة.

٦ ـ ومن فوائد قوله: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ٨٥﴾

بيان قوة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأنه لم تأخذه في الله لومة لائم، لأن رجلاً يخاطب أباه وقومه بهذه العبارة قوي في ذات الله ـ عز وجل ـ، إذ إن العادة أن الإنسان يحابي أباه وقومه، لكن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يحابهم، بل أنكر عليهم، وقال: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

٧ ـ ومن فوائدها: أن قرب النسب من أهل الخير لا يفيد الإنسان شيئاً، فإبراهيم بالنسبة لأبيه أقرب شيء لأنه بضعة منه، ومع ذلك لم ينتفع به أبوه، بل كان مشركاً، يحاج ولده على ذلك، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: ١٤ـ١٥] فهذا يدل على تباين ما بين الابن والأبوين، حتى إنهما ليجاهدانه على الإشراك بالله، ومع ذلك قال الله تعالى: ﴿عِلْمٌ فَلَا﴾.

٨ ـ ومن فوائدها: صحة نسبة القوم إلى الرسول وإن كذبوه، لقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ والانتساب بالنسب لا يعني التبرؤ من الدين فيصح أن ينتسب الإنسان إلى أبيه الكافر، ولا يقال: إن هذا من باب الموالاة، بل هذا من باب الحقيقة، والنسب لا يزول باختلاف الدين أبداً، وانظر إلى قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦] فأضافهم إليه مع نسبة تكذيبه إليهم، وهذا يدل على أن الإنسان قد يكون من قوم كافرين وينسب إليهم، وأن ذلك لا يخدش في دينه.

٩ ـ ومن فوائدها: سفه هؤلاء القوم حيث كانوا يعبدون مع

الله غيره، ولهذا أنكر عليهم من كان من أعقل الخلق إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾؟ وقد أرشد الله إلى هذا في قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] وملة إبراهيم هي الحنيفية المبنية على الإخلاص، فكل من خالف ذلك فقد سفه نفسه، أي: أوقعها في السفه، الذي هو ضد الرشد والعقل.

١٠ ـ ومن فوائد قوله: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أن كل من زعم أن مع الله إلهاً يعبده فهو آفك كاذب، لقوله: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

١١ ـ ومن فوائدها: أن دعوى كون هذه آلهة لا يعطيها سمة الألوهية؛ لأن الكذب لا يقلب الحقائق عن أصلها، فلو قلت مثلاً: قدم زيد، وهو لم يقدم لم يكن قادماً، فهذه الآلهة وإن جعلوها آلهة لن تكون آلهة، كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾. [النجم: ٢٣].

١٢ ـ ومن فوائدها: أن عابدي الآلهة من دون الله يقصدونها قصداً حقيقيًّا بقلوبهم، كما يتجهون إليها بجوارحهم ولهذا قال: ﴿دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

فليسوا يعبدونها مجرد عادة، ولكنهم يعبدونها قصداً وعبادة، حتى إنهم نسوا الله ـ عز وجل ـ.

١٣ ـ ومن فوائد قوله: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾؟ الإنكار الشديد من إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ على قومه،

حيث سألهم موبخاً لهم: ما الذي تظنونه برب العالمين إذا عبدتم غيره؟ هل تظنونه ناقصاً لا يستحق أن يعبد وحده؟ هل تظنونه غافلاً عن عملكم فيدعكم بدون عقوبة؟ هل تظنونه يرضى بأن يُعبد معه غيره؟ كل هذا لم يكن، فظنكم ظنٌّ خاطىء.

١٤ ـ ومن فوائدها: عموم ربوبية الله ـ سبحانه وتعالى ـ لقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

١٥ ـ ومن فوائدها: إقامة الحجة على الخصم بما لا ينكره لقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ لأن العالم تشمل حتى آلهتهم التي يعبدونها، فإذا كانت آلهتهم مربوبة فكيف يمكن أن تكون معبودة؟ هذا تناقض، وقد مرّ علينا أن من أقر بانفراد الله بالربوبية لزمه أن يقر بانفراده بالألوهية وإلا صار متناقضاً. إذ لا يستحق العبادة إلا الرب الخالق المالك المدبر، ومن لم يكن كذلك فإنه لا يستحق أن يُعبد.

١٦ ـ ومن فوائدها: أن الخلق علم وآية ودليل على خالقهم، والخلق باعتبار كونه آية على وجود الله وقدرته وكمال سلطانه وتدبيره أمر معلوم، لكن قد يكون آية على معنى خاص، فمثلاً نزول المطر آية على الرحمة، والنكبات والخوف والنقص في الأموال والأنفس آية على عقوبته وغيرته وانتقامه ممن عصاه، فهناك معنىً عاماً تشترك فيه جميع الآيات، وهو كونها دالة على وجود الخالق ـ عز وجل ـ وكمال ربوبيته وسلطانه، وأنه لا يعارضه شيء من هذه المخلوقات.

وهناك معنىً خاصاً للآية وما تدل عليه بعينها، كدلالة

الغيث على الرحمة، ودلالة الجدب على الانتقام ممن عصاه.

١٧ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ جواز التورية، وهي أن يظهر للمخاطب ما لا يريده، ويفهم منه المخاطب معنىً غير المراد، والتورية قد تكون واجبة، وقد تكون مستحبة، وقد تكون جائزة، وقد تكون مكروهة، وقد تكون محرمة، فتجري فيها الأحكام الخمسة. فإذا توقف على التورية إنقاذ معصوم من هلكة صارت واجبة، مثل أن يأتي شخص ظالم يسأل عن إنسان يريد أن يقتله وأنت تعرف مكان هذا الإنسان فهنا يجب عليك أن توري، لأن في ذلك إنقاذاً للمعصوم من الهلاك، وقد تكون مستحبة كما لو سألك سائل عن عمل صالح عملته تخشى أن تقع في الرياء إن أخبرته به فهنا التورية مستحبة.

وقد تكون مباحة، كما لو ورّيت على شخص يريد منك شيئاً لا تريد أن تعطيه، مثل أن يقول: يا أخي أقرضني مثلاً مئة ألف ريال. وأنت تعرف أن هذا الرجل مماطل لا يفي بالواجب، فهنا تكون التورية مباحة.

وقد تكون مكروهة كما إذا كانت لغير سبب، فالصحيح أنها مكروهة لما يخشى فيه من نسبة الإنسان إلى الكذب؛ لأن الإنسان إذا ورّى ثم ظهر الأمر على خلاف ما فهمه السامع نسبه إلى الكذب، فهذه مكروهة لا يبيحها إلا السبب.

وقد تكون محرمة كما لو تخاصم رجلان إلى القاضي فادّعى أحدهما على الآخر بدعوى، فالمدعي عليه البينة، والمنكر عليه اليمين، فعجز المدعي عن البينة فحلف المدعى

عليه عند القاضي وقال: والله ما له عندي شيء. فالقاضي في مثل هذا التعبير يفهم براءة هذا المدعى عليه. والمدعى عليه أراد بما أن تكون اسم موصول. يعني: «والله الذي له عندي شيء». هذه التورية نقول: إنها حرام، لأنها تتضمن جحد الحق الواجب عليه أداؤه.

فإذا قال قائل: ما الأصل فيها الإباحة أو الكراهة؟

فالأقرب أن الأصل فيها الكراهة، ولكن قد تكون مباحة، وقد تكون مستحبة، وقد تكون واجبة، وقد تكون حراماً.

١٨ ـ ومن فوائدها: جواز إسناد الوصف إلى الإنسان باعتبار المستقبل، تؤخذ من قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ فإنه الآن ليس بسقيم، لكن كل إنسان عرضة لأن يسقم، على أنه يمكن أن يريد بقوله إني سقيم أي ضعيف باعتبار قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾. [النساء: ٢٨] فيكون الوصف هنا حاليًّا.

١٩ ـ ومن الفوائد في قوله: ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ أن هؤلاء القوم لما قال لهم هذا القول، وبعد أن نظر نظرة في النجوم اقتنعوا، فيتفرع على ذلك أن الإنسان المبطل قد يقتنع بالشيء ولو كان باطلاً في حقيقته وهو كذلك، فالإنسان المبطل إذا ورّى له في باطله ظن أنه حق فأخذ به واعتبره.

٢٠ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾ إلى آخر الآيات بيان قوة إبراهيم ـ كما سبق ـ حيث ذهب بسرعة وخفاء إلى هذه الآلهة ليكسرها، ولكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يكسرها إلا بعد أن أقام البينة على من كان عندها بأن

هذه الآلهة لا تصلح أن تكون آلهة. لأنها لا تعقل، لا تنطق، ولا تعرف ما ينفعها ولا تجلب لنفسها نفعاً، فلغيرها من باب أولى، ولهذا قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

٢١ ـ ومن فوائدها: جواز التورية كما سبق؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعلم أن هذه الأصنام لا تأكل ولا تنطق، لكن أراد بهذا السؤال إقامة الحجة على من كانوا عندها يحرسونها وينتصرون لها: بأن هذه الأصنام غير صالحة للعبادة؛ لأنها لا تعرف ما ينفعها ولا يضرها، ولا تجلب لنفسها نفعاً ولا تدفع عن نفسها ضرراً.

٢٢ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ بيان قوة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

٢٣ ـ ومن فوائدها أيضاً: أنه ينبغي للإنسان إذا عمل عملاً أن يكون فيه جادًّا وحازماً، فيفعله بقوة لا بتوان وكسل، خلاف لما يقوم به بعض الناس من الأعمال، حيث تجده يواجه عمله بضعف وتوانٍ وكسل.

والإنسان في الحقيقة مع نفسه على ما اعتاد، إذا اعتاد الحزم والقوة وألا يدع عملاً لوقت مستقبل صار حازماً في أعماله مدركاً لآماله، أما إذا كان كسولاً متهاوناً يقول: أدع هذا الشيء إلى غدٍ. فإن الأعمال سوف تتراكم عليه، وسوف يجد في النهاية أنه عاجز عنها، لأنه إذا أخر عمل يوم إلى غد اجتمع عليه غداً عملان: عمل الماضي وعمل الحاضر، فإن أخَّره مرة أخرى اجتمع عليه ثلاثة أعمال، وهكذا حتى يعجز ويكل، ولهذا منع

الإنسان الذي عليه قضاء رمضان أن يؤخره إلى ما بعد رمضان الثاني؛ لأنه إذا أخره إلى الثاني تراكمت عليه الديون ثم عجز بالتالي عن قضاء هذه الديون.

٢٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ بيان شدة انتصار هؤلاء لآلهتهم لأن قوله: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ﴾ يدل على الترتيب والتعقيب والسببية أيضاً، أي: بسبب ما عمل بهذه الآلهة أقبلوا إليه ﴿يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾.

والفاء تدل على الترتيب والتعقيب، ففيها دليل على شدة انتصار هؤلاء لآلهتهم مع بطلان هذه الآلهة.

٢٥ ـ ومن فوائدها: أن الاجتماع له أثر حتى في الباطل لقوله: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ يعني جميعاً، والناس إذا اجتمعوا صار بعضهم لبعض ظهيراً. ومعلوم أن الإنسان ينتصر ويقوى بغيره.

٢٦ ـ ويتفرع على هذه الفائدة أن الإنسان إذا أراد عملاً مهمًّا وخشي أن يعجز عنه بنفسه فالأفضل أن يستعين بغيره ولا يقول: إن هذا استعانة بغير الله تعالى؛ لأن الله قال لنبيه محمد ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٢ـ٦٣] ولا يعد هذا نقصاً في التوكل على الله ـ عز وجل ـ؛ لأن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ سيد المتوكلين، ومع ذلك فإن الله تعالى قال له: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾. [الأنفال: ٦٢] وقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾. [آل عمران: ١٥٩].

وهذه مسألة يغفل عنها بعض الناس، تجده يهم بالأمر

العظيم ولكن لا يتخذ له مناصراً، هذا التصرف فيه نظر ولكن يجب أن تراعى الحكمة في هؤلاء المناصرين، هل الحكمة أن يذهبوا جميعاً، أو أن يتفقوا على رأي وإن تفرقوا في الذهاب؟ أقول: إنه يجب أن تستعمل الحكمة هنا؛ لأنه قد يكون من الحكمة أن يذهبوا جميعاً، وقد يكون من الحكمة أن يذهبوا متفرقين لكن يتفقون على رأي واحد، وهذه ترجع في الواقع إلى العمل الذي يريدون الاتفاق عليه، وإلى المواجه التي يريدون أن يواجهوه.

فإن بعض الناس قد يتأثر بالجماعة الكثيرة، ويخضع لهم، وبعض الناس قد تأخذه العزة بالإثم، ويظن أن هذا من باب التظاهر عليه، فلا يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً.

والمهم أن الاجتماع على الشيء سبب للعزة والانتصار، ولكن كيف يعالج الشيء الذي اجتمعنا عليه؟ هل يعالج على سبيل الاجتماع أو الانفراد؟ هذا يرجع إلى ما تقتضيه الحال، والإنسان ينبغي أن يستعمل الحكمة في ذلك.

٢٧ ـ من فوائدها: أن أهل الباطل يسرعون إلى نيل غرضهم لقوله: ﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ وإذا كان أهل الباطل يسرعون إلى نيل غرضهم فينبغي أن يكون أهل الحق أسرع منهم؛ لأن أهل الحق منصورون وأهل الباطل مخذولون.

٢٨ ـ ومن فوائدها: أن هؤلاء القوم ينتصرون لأصنامهم ومعبوداتهم مع أنها باطلة، فينبغي أن يكون أهل الحق الذين ينتصرون لله ـ عز وجل ـ أشد منهم انتصاراً في دين الله ـ سبحانه

وتعالى ـ، وإذا نظرت إلى واقع المسلمين اليوم وجدت أنهم متفرقون، فكل عالم لا يأوي إلى عالم ولا يشاوره ولا يأخذ برأيه، بل إنه مع الأسف ربما يضاده في رأيه مع علمه بأنه على حق، لكن يكون فيه شبه من اليهود الذين حسدوا العرب على ما أعطاهم الله ـ عز وجل ـ من النبوة العظيمة التي جعلها فيهم، فإن اليهود كانوا يستفتحون على الذين كفروا ويؤملون النصر عليهم باتباع محمد ﷺ فلما جاء محمد كفروا بمحمد؛ لأنهم يظنون أنه يأتي من بني إسرائيل وأتى من العرب، وهم يظنون هذا تمنياً وإلا فهم يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم.

٢٩ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ الإنكار على أهل الباطل بباطلهم عن طريق العقل، والاحتجاج على أهل الباطل بباطلهم عن طريق العقل، أي كيف تنحتونه أنتم وتصنعونه أنتم، ثم بعد ذلك تعبدونه أليس الأولى من الناحية العقلية أن يكون هذا المنحوت هو الذي يعبدكم، لأنكم أنتم الذين نحتموه وأوجدتموه، ولكن عقولهم منتكسة فصار الأمر بالعكس يعبدون ما ينحتون.

٣٠ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ إقامة الدليل على أن الله وحده هو الذي يستحق أن يعبد لقوله: ﴿خلقكم﴾ الخالق هو الذي يجب أن يُعبد.

كيف تعبد من لم يخلقك وتدع من خلقك؟ أو تعبد من لم يخلقك مشركاً له مع من خلقك؟ ولهذا أقام الله البرهان على أنه لا يصح أن يعبد سواه في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] ولم يقل: اعبدوا الله، إقامة للدليل عليهم بالربوبية.

٣١ ـ ومن فوائدها: أن أعمال العباد مخلوقة لله لقوله: ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ سواء جعلنا (ما) مصدرية، أم موصولة، إن جعلناها مصدرية فالأمر واضح: خلقكم وخلق عملكم، وإن جعلناها موصولة فلأن خلق المعمول فرع عن خلق العمل، فإذا كان معمولك الذي باشرت أنت عمله مخلوق لله فكيف بعملك الذي كان من عند الله، وفي هذه الآية رد على القدرية الذين أنكروا أن يكون لله ـ سبحانه وتعالى ـ شأن في أعمال بني آدم، وقالوا: إن الإنسان مستقل بعمله، وليس لله فيه إرادة ولا خلق.

٣٢ ـ وفي الآية رد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله، لقوله: ﴿تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ حيث أضاف العمل إليهم، وإضافة العمل إلى الإنسان تقتضي أنه هو العامل وهو الفاعل حقيقة وهو كذلك.

فالإنسان حقيقة هو الذي يعمل ويفعل ويريد ويختار، ففي الآية الكريمة رد على الطائفتين المنحرفتين، وأهل السنة والجماعة قالوا: إن الإنسان له قدرة واختيار وإيجاد لعمله، ولكن الذي خلقه وخلق هذه القدرة والإرادة هو الله، ففعله يضاف إلى الله خلقاً وتقديراً، ويضاف إليه إيجاداً ومباشرة، فهو مضاف إلى العبد باعتبار، ومضاف إلى الله باعتبار آخر.

٣٣ ـ ومن فوائدها: ما سبقت الإشارة إليه وهو إقامة الحجة على أهل الباطل بباطلهم عن طريق العقل، فإذا كان الله خلقهم

وخلق ما يعملون فكيف يعبدون هذا المخلوق لله ويجعلونه شريكاً مع الله في العبادة؟!

* * *

﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا ﴾. الأمر هنا إن كان من الرؤساء فهو أمر حقيقي، وإن كان من غير الرؤساء أو من الرؤساء بعضهم لبعض فهو أمر مشورة والتزام، وليس أمر إلزام، وذلك لأن أمر الإلزام إنما يكون من الأعلى إلى من دونه. وقالوا: ﴿ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ ﴾ اللام هنا ليست للملك، ولكنها للتعليل أي ابنوا لأجله بنياناً، هذا البنيان بنوه من أجل أن يملؤوه حطباً ثم يوقدوه على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فبنوا بنياناً وأضرموا النار في الحطب، كما أشار بعضهم على بعض، ﴿ فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾ يقول المؤلف: [ابنوا له بنياناً فاملؤوه حطباً وأضرموه بالنار، فإذا التهب فألقوه في الجحيم في النار الشديدة]، قوله: ﴿ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾ هذه الآية فيها إيجاز حذف قدره المفسر، التقدير: [فاملؤوه حطباً وأضرموه بالنار، فإذا التهب فألقوه في الجحيم]، وفي الإتيان بالفاء عقب قوله: ابنوا له بنياناً، وحذف ما توسط بينهما إشارة إلى أنهم أرادوا الإسراع العظيم في هذا الأمر، كأنهم قالوا: ابنوا بنياناً وألقوه مباشرة، وليس يلقى بالبنيان فقط ليتمتع فيه، ولكن بعد إيقاد النار فيه، وإنما أرادوا بهذا الإسراع والمبادرة كأنهم طووا ذكر ما بين البناء والإلقاء لعدم وجوده من سرعة المبادرة.

ويدل بذلك أيضاً قوله: ﴿ فَأَلْقُوهُ ﴾ والفاء تدل على الترتيب

والتعقيب، قال: ﴿فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ أي النار الشديدة. ففعلوا ذلك وألقوه في النار، ولكن خالق النار قال للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾، [الأنبياء: ٦٩] فكانت برداً وسلاماً عليه، لم تكن برداً شديدة البرودة حتى يهلك، ولم تكن حارة، بل كانت على عكس ما يريد به الأعداء أرادوا بالنار أن تكون حارة مهلكة، والله عز وجل أراد أن تكون باردة مسلّمة، ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾. [الأنبياء: ٦٩] فكانت برداً وسلاماً عليه، وهنا نقف لنبين أن بعض المفسرين قالوا: إنه في تلك اللحظة صارت جميع النيران في جميع أقطار الدنيا باردة، ولكن هذا قول ضعيف جداً، مخالف للقرآن، لأن الله تعالى قال: ﴿يا نار﴾ وهذا النداء يكون موجه للمقصود بالنداء، ولهذا يسميها أهل النحو: نكرة مقصودة، فالمراد تلك النار التي خوطبت فقط، فصارت تلك النار التي خوطبت برداً وسلاماً، وأما الزعم أن جميع النيران في جميع أقطار الدنيا صارت برداً مخالف لظاهر القرآن، وليس له أي فائدة.

﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

الكيد في الأصل: «التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يدري» والكيد والمكر والخداع بمعنى واحد، أو بمعنى متقارب، لكنها كلها تدل على أن الإنسان يوقع خصمه من حيث لا يشعر، هذا في الأصل، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥-١٦] ولكنهم هم أرادوا بذلك إهلاكاً لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ويحتمل أنهم لما بنوا هذا البناء والنار في وسطه لا تشاهد فيظن الإنسان إذا رآه أنه قصر فيقدم على أن يستسلم للإلقاء، لأنه لو علم ما في جوفه لكان يهرب أو يدافع، فيكون هذا معنى الكيد أي أنهم لم يشقوا الأرض كما فعل أصحاب الأخدود ويضعوا فيها الحطب ويوقدوه، ولكن بنوا بنياناً من رآه من الخارج ظن أنه منزل سكن، ولكنه في الواقع حسب صنعهم نار تتأجج. فيمكن أن يقال: إن هذا هو المراد من قولهم: ﴿كَيْدًا﴾ لأن الكيد كما أسلفنا هو التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر، ولكن الله تعالى جعلهم ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ وذلك بعدم نيل مرادهم بخروج إبراهيم سالماً، فكان العلو له من وجهين:

الوجه الأول: أنه سلم مما أرادوا من إهلاكه.

الوجه الثاني: أن الله عز وجل أكرمه بأمر لم يكن معهوداً عند البشر، وهو سلامته من النار التي ظنوا أنها ستحرقه، فصاروا أسفلين من هذين الوجهين أنه سلم، وأن الله تعالى أكرمه بأمر لم يكن معهوداً، وهذا بلا شك يوجب أن يكون عالياً عليهم، بل عالياً علوًّا بالغاً؛ لأنه قال: ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ والأسفلين هذه اسم تفضيل أي البالغ في السفل غايته.

الفوائد:

١ ـ شدة كيد هؤلاء المكذبين لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، حيث أروا الناس أنهم يبنون له بنياناً دون أن يروه أنهم يريدون أن يحرقوه، لقوله: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾.

٢ ـ من فوائدها: أن النار التي أضرموها في هذا البنيان

كانت عظيمة، لقوله: ﴿فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ والجحيم هي النار العظيمة.

٣ ـ ومن فوائدها: عتوهم لأنهم قالوا: ألقوه، والإلقاء يدل على العنف وعدم الرحمة، وهم كذلك إذ لو كانوا يريدون رحمته ما هموا بإحراقه.

٤ ـ ومن فوائدها أيضاً: أن نيتهم هذه نية عدوان، لأنه قالوا ﴿ٱبْنُواْ لَهُۥ﴾ واللام ذكرنا أنها للتعليل، يعني ما بنوا هذا البنيان إلا بهذه النية السيئة.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

١ ـ بيان ما يكنه أعداء الإسلام للمسلمين وللإسلام من إرادة الكيد بالإسلام وأهله، وهذا كما أنه في الأمم السابقة فيكون في الأمم اللاحقة، لقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. [الفرقان: ٣١].

٢ ـ ومن فوائدها: الرد على الجبرية لقوله: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾، والجبرية ينفون أن يكون للإنسان إرادة في فعله، لأنهم يرون أن الإنسان مجبر على الفعل، وأن فعله الواقع بإرادته كفعله الواقع بغير إرادته، والكل عندهم سواء.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء الذين كادوا كاد الله بهم، فجعلهم هم الأسفلين.

٤ ـ ومن فوائدها: أن من يتعالى على الحق فإن الله تعالى يجازيه بنقيض قصده؛ لأن هؤلاء أرادوا العلو والفساد في

الأرض، فعاملهم الله تعالى بنقيض قصدهم فجعلهم الأسفلين.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الحكم لله ـ عز وجل ـ، وأن بني آدم مهما بلغوا من الطغيان فإنهم تحت حكم الله تعالى وسلطانه، لقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

٦ ـ أن الجزاء من جنس العمل، لأن هؤلاء لما طغوا واعتدوا وتعالوا عاقبهم الله تعالى بالسفل المناقض لما أرادوا، فكانت العقوبة مناسبة للفعل.

* * *

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ أي قال إبراهيم معلناً هجرته من بلدهم إلى بلد الشام، وإنما قال ذلك لأنهم بلغوا إلى حد يكون به اليأس من هدايتهم، فإن قوماً أضرموا النار ليحرقوا بها داعيهم إلى الله قوم لا يرجى فيهم خير، ولهذا قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾.

فإن قلت: هل أُمر بذلك أو أُذن له بذلك؟

فالجواب: نعم، أُذن له بذلك، والدليل أن الله سبحانه وتعالى أقره فلم ينكر عليه، لكن يونس عليه الصلاة والسلام لما ذهب من غير أن يُؤذن له بين الله سبحانه وتعالى أن ذهابه عن غير إذن، فقال: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾. الأنبياء: ٨٧].

ولما ذكر هجرة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يذكر ما فيه انتقاد عليه، ولهذا قال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ قال

المؤلف: [مهاجر إليه من دار الكفر ﴿سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ إلى حيث أمرني ربي بالمصير إليه وهو الشام، فلما وصل إلى الأرض المقدسة قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾]

﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ ولم يقل: إلى الله، لأن المقام يختص بالربوبية أكثر، إذ إن الربوبية مقتضاها التدبير، وهو الآن يحتاج إلى مدبر يدبره إلى ما فيه مصلحته، فقال: ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ والإضافة هنا إضافة تعطف وتحنن، وهي من الربوبية الخاصة، يعني إلى الرب الذي أرجو منه أن يهديني ويدلني لما فيه الخير.

وقوله: ﴿سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ السين هذه للتنفيس وتفيد أمرين:

تحقق الوقوع وقربه.

والمراد بالهداية هنا هداية الدلالة، أي سيهدين إلى ما فيه الخير والصلاح لهذه الدعوة، وربما يقال: إنها تشمل هداية الدلالة وهداية التوفيق.

الفوائد:

١ ـ : الثناء على إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بإعلانه الهجرة من بلده الذي يتضمن تحدي قومه وعدم مبالاته بهم، لأنهم لم يمسكوه ولم يمنعوه عن الهجرة، وهذا من حكمة الله عز وجل أن يظهر التحدي في مثل هذا ولا يقع.

٢ ـ ومنها: ثقة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بربه حيث قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾.

٣ ـ ومنها: الإشارة إلى الإخلاص في العمل لقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ وهذا فيه إخلاص القصد لله عز وجل، وهذه هي

النية الصالحة أن يكون قاصداً بعمله الوصول إلى رضوان الله عز وجل.

٤ ـ ومن فوائدها: تحنن الإنسان إلى ربه بالدعاء بأن يأتي بالعبارات الدالة على التحنن والتعطف والافتقار إلى الرب. لقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ فأضاف الربوبية إلى نفسه من باب التلطف والتحنن إلى الله ـ عز وجل ـ.

٥ ـ ومنها: أنه ينبغي بل يجب على الإنسان أن لا يعتمد على نفسه، بل يعتمد على ربه عز وجل لقوله هنا: ﴿سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾.

***

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [هب لي ولداً من الصالحين]، أشار المؤلف بقوله [ولداً] إلى أن المفعول الثاني لهب محذوف تقديره: ولداً.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾، الصالح: هو الذي صلح ظاهره وباطنه، ولزم من صلاحه أن يكون قائماً بحقوق الله وحقوق عباده، وهو ضد الفاسد، وفساد كل شيء بحسبه، وصلاح كل شيء بحسبه، فصلاح الإنسان أن يكون مستعداً لما أمر به قائماً بأمر الله في حقوقه وحقوق عباده.

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ الفاء في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ﴾ تدل على الترتيب والتعقيب. وربما أيضاً تدل على السببية أي بسبب دعائه لله، أجاب الله دعوته وبشره ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ ﴾ البشارة هي الإخبار بما يسر، هذا هو الأصل إذا أخبر الإنسان بما يسر قيل: بُشر، وإذا أخبر بما يخوف قيل له: أُنذر، ولهذا يذكر الله عز وجل دائماً التقابل بين البشارة والإنذار ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾. [البقرة: ١١٩] ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [النساء: ١٦٥] فالبشارة في الأصل هي الإخبار بما يسر، وقد تطلق على الإخبار بما يسوء كقوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الانشقاق: ٢٤] إما من باب التهكم بهم كما تقول مثلاً للشخص: أبشر بالعقوبة. تتهكم به، وإما من باب الجامع بينهما، وهو أن كلاً منهما يؤثر على البشرة تأثيراً يظهر، فالبشارة تؤثر سروراً وفرحاً واستنارة وجه وراحة قلب، والإنذار بالعكس يظلم الوجه ويصفر، ويحصل فيه الغم.

﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ ﴾ أي بشرنا إبراهيم ﴿ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ [أي ذي حلم كثير]. وأشار بذلك إلى أن ﴿حليم﴾ صيغة مبالغة ولكن يحتمل أن تكون صفة مشبهة، أي بغلام صفته الدائمة المستمرة الحلم.

والحلم: هو التأني وعدم التسرع في مقابلة الأمور، بل يتلقاها الإنسان بطمأنينة واتزان وتصرف رشيد.

وضد الحليم سريع الغضب سريع الانفعال الذي لا يتأنى في الأمور ولا يتروى فيها فتجده يرد الشيء مبادرة. أو يقبله مبادرة، فالحلم في الحقيقة هو غاية ما يكون من الرشد. ووصف الله هذا الغلام هنا بالحلم، وفي آيتين من كتاب الله وصف الغلام الذي لإبراهيم بالعلم، وذلك لأن الغلامين اثنان: أحدهما وصف

بالعلم، والثاني: وصف بالحلم. والذي وصف بالحلم سيأتينا إن شاءالله بيان منه، وأما الذي وصف بالعلم فهو إسحاق عليه الصلاة والسلام، كما تفيد الآيات التي جاء في سياقها.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ الضمير في ﴿بَلَغَ﴾ يعود على الغلام والضمير في ﴿مَعَهُ﴾ يعود على إبراهيم. والسعي إما أن يراد به الكسب، وإما أن يراد به المشي، وكلاهما صحيح، ولكن الأقرب عندي أن المراد به المشي، فإن السعي يطلق على المشي كثيراً، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] وكذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٠٥] فالمراد بالسعي: يعني المشي، ولكن كلمة مع: تفيد المصاحبة، يعني صار تابعاً لأبيه يسير معه؛ لأن ليس صغيراً، قد مكث في مكانه، وليس كبيراً انفرد بنفسه، فالصغير الذي في المهد لا يبلغ السعي مع أبيه، والكبير الذي انفرد يبلغ السعي لا مع أبيه لأنه منفرد، أما هذا فقد بلغ مع أبيه السعي، وكان ملازماً له، وهذا أشد ما يكون الأب تعلقاً بابنه إذا كان في مثل هذا السن؛ لأن الصغير الذي في المهد لا تتعلق به النفس تماماً، والكبير الذي انفرد كذلك لا تتعلق به النفس تماماً، وإنما تتعلق بمن كان في مثل هذا السن، وهذه من حكمة الله عز وجل أن ابتلي إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه بهذا البلاء المبين.

قال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [أي أن يسعى معه ويعينه، قيل: بلغ سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة

سنة] ويحتمل أن يكون ما بين السبع إلى ثلاث عشرة سنة، لأنه إذا زاد على ذلك فقد يستقل بنفسه، وما دون السبع يحتاج إلى من يعوله، ولا تتعلق به النفس كثيراً لاسيما نفس الأب، أما الأم فقد يكون تعلق نفسها بالصغير أكثر من تعلقها بالكبير، ولكن الأب تتعلق نفسه بمن في مثل هذا السن.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ امتحن الله إبراهيم بمحنة عظيمة لا يصبر عليها إلا من كان في مثل حاله، واعلم أن هذا الولد هو بكر إبراهيم، يعني أنه أول مولود وُلد له.

وولد له كما قيل على كبر السن، يعني أنه كان كبيراً، ولد له هذا المولود البكر الذي ليس له ولد سواه فامتحنه الله، فأراه الله سبحانه وتعالى في المنام أنه يذبح هذا الولد، وهذا خبر بمعنى الأمر، لأن الذبح هنا مجرد فعل، رأى في المنام أنه يذبح ولده، فهو كما لو أُخْبِرَ بأنه يذبح ولده.

والإراءة إخبار بالفعل، ولهذا قيل: الخبر ما ترى لا ما تسمع.

فالله عز وجل أراه أنه يذبحه، وهذا خبر بمعنى الأمر، كما سيأتي إن شاءالله في قوله: ﴿ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أراه الله ذلك فلم ينزعج إبراهيم ولم يتأثر واطمأن إلى هذا، ثم عرض الأمر على هذا الابن لا للاستشارة ولكن للاختبار، وإذ لا يمكن أن يستشير إبراهيم ابنه فيما أمره الله به. وإنما عرض عليه الأمر ليختبره بهذا وينظر مدى قوة تحمله لهذا الأمر العظيم.

فلما بلغ معه السعي وأُري ما رأى، ﴿ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ ﴾

أي: رأيت في المنام ﴿أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ انظر هذا التلطف ﴿يَٰبُنَيَّ﴾، ليبعد عن ابنه أنه ذكر ذلك عن جفاء؛ لأن الإنسان إذا كان يبغض ابنه فإنه لا يهمه أن يعذبه أو أن يذبحه ولا يتأثر بذلك، لكنه قال: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ من باب التلطف به، وبيان أن الحنان قد بلغ في قلبه كل مبلغ وصغّره فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾، ولم يقل: «يا ابني» زيادة في التلطف، قال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ قال المفسر: [أي رأيت] ولكنه عبر بالمضارع عن الماضي ليدل على استمرار حكم هذه الرؤية. وأنه مستمر على تنفيذ حكم هذه الرؤية، أو أنه نَزَّل الماضي منزلة الحال، كأنه الآن يرى أنه يذبحه، وعلى كل حال فإن أرى هنا أبلغ من رأيت، لأن (رأيت) شيء مضى، أما (أرى) فهو شيء حاضر يدل على الاستمرار، وأنه سينفذ حكم ما رأى.

قال المؤلف: [ورؤيا الأنبياء حق، وأفعالهم بأمر الله تعالى]. هاتان كلمتان تعبران عن سؤال مقدر، أولاً: قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ قد يقول قائل: رؤيا المنام أضغاث أحلام، فأجاب عن ذلك بقوله: رؤيا الأنبياء حق، أنا لو رأيت في منامي أني أعتقت عبدي أو أوقفت دوري فلا يكون ذلك نافذاً؟ ولا أومر بذلك من أجل هذه الرؤيا، لكن رؤيا الأنبياء حق يعني أنها وحي. والثاني: [وأفعالهم بأمر الله] وهو أيضاً جواب عن سؤال مقدر، وإذا كانت هذه الرؤيا حقًّا فهل يثبت بها حكم شرعي؟

فأجاب المؤلف بما يقتضي: نعم. لأن أفعال الأنبياء بأمر الله لاسيما مثل هذا الفعل العظيم. هذا الفعل العظيم هو من أكبر الكبائر، لأنه قتل نفس بغير حق، وليست نفساً بعيدة، بل قتل نفس قريبة، فهو جامع بين قتل النفس وبين قطيعة الرحم، لأن من قتل أجنبيًّا ليس كمن قتل قريباً، لكن هذا القتل، هذا الذنب العظيم إذا كان بأمر الرب الذي له ملكوت السموات والأرض صار طاعة كما أن السجود لغير الله شرك، ولما كان بأمر الله تعالى كان تركه كفراً، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾. [البقرة: ٣٤].

والمهم أن المؤلف أجاب عن هذه الرؤيا بأنها فعل من نبي، وأفعال الأنبياء تقع بأمر الله ـ عز وجل ـ لأنهم معصومون.

قال: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ من الرأي، يعني فكر في أمرك وانظر ماذا ترى؟ فكان جوابه جواباً عجيباً عظيماً، ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ وهذا شبيه بما وقع من عائشة ـ رضي الله عنها ـ حين خيّرها النبي ﷺ بين أن تبقى معه وأن تفارقه للدنيا، وقال لها: «**استأمري أبويك**»، يعني استشيريهم فقالت ـ رضي الله عنها ـ: أفي هذا أستأمر أبوي، إني أختار الله ورسوله والدار الآخرة[1].

﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾، وهذا من باب الاختبار في حال هذا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ ...(٤٧٨٥)، ومسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخييره امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية(٢٢) (١٤٧٥).

الابن وتهيئته لتنفيذ ما أمر الله به أباه، قال المؤلف: [من الرأي، شاوره ليأنس بالذبح وينقاد للأمر به]. أي لو أنه حين قام من النوم جَرَّ ابنه وذبحه بدون أن يخبره لفات في ذلك فائدتان عظيمتان:

الفائدة الأولى: عدم ظهور تقبل هذا الابن لأمر الله عز وجل.

الفائدة الثانية: أنه إذا أتاه بغتة صار أشد وقعاً في نفسه وأشد ألماً مما لو أخبر به؛ لأن الإنسان إذا أخبر بالشيء قبل أن يقع واستعدت نفسه له وتهيأت، صار الوارد العظيم يرد على النفس وهي متهيأة فيسهل عليها، بخلاف ما إذا ورد على غرة فإنه يكون أشد وقعاً، وأشد ألماً، ولهذا قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [ليأنس بالذبح وينقاد للأمر به]. قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ التاء عوضاً عن ياء الإضافة، وأصلها يا أبي، ولكن العرب قد يبدلون الياء تاءً فيقولون: يا أبتي، وعلى هذا فالتاء بدلاً عن الياء فهي ياء المتكلم. ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ سبحان الله! لم يقل: يا أبت لا مانع عندي، بل قال: «افعل» فحثه على أن يفعل ولم يقل: افعل ما رأيت، بل قال: ﴿تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ حثًّا لإبراهيم على أن يفعل؛ لأنه إذا ذكره أن هذا أمر الله فإنه يزيده قوة في تنفيذ هذا الأمر، لأن إسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ خاف أن تدرك إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ رحمة الولد فيراجع الله عز وجل في ذلك، فأشار عليه أن يبادر بفعل ما أُمر به (افعل)، ولم يقل: ما رأيت، ليكون هذا أشد حثًّا لإبراهيم على الإقدام، ولهذا ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾، السين كما قلنا فيما سبق قريباً للتنفيس، وتفيد شيئين: التوكيد، وقرب الوقوع.

والتأكيد يعني تحقق هذا الشيء، ولكنه لما كان أمراً مستقبلاً والإنسان لا يثق أن يقوم بالأمر المستقبل، قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾. وأتى بالاستثناء قبل ذكر المفعول الثاني للمبادرة به ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ ولم يقل: ستجدني من الصابرين إن شاءالله فبدأ بالاستثناء الدال على الاستدراك يعني إن لم يشأ الله لم تجدني كذلك، ولكن ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ جملة معترضة بين مفعولي تجد، لأن المفعول الأول الياء، والثاني من الصابرين. أي من الصابرين على بلاء الله، وعلى هذا الأمر العظيم، لأن هذا من البلاء العظيم أن يصبر الإنسان على أن يقتل امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى، وهنا لم يقل ستجدني إن شاءالله صابراً، بل قال: ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام سيكون له تأسٍ بمن سبق حتى يكون من جملة المتصفين بهذا الوصف وهو الصبر، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ يعني استسلما لأمر الله وانقادا لأمره، عن رضا ورغبة من الأب الذي عزم على أن ينفذ أمر الله ـ عز وجل ـ، والابن الذي تقبل هذا الأمر بانشراح صدر، وحث لأبيه على أن يفعل ما أمره الله به تعالى، وهذا غاية ما يكون من الاستسلام، وهذا استسلام القلب ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ هذا استسلام الجوارح يعني أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام تل ابنه للجبين، يعني صرعه على الأرض على جبينه ليذبحه، وإنما صرعه على جبينه من أجل أن لا يرى وجهه حين يذبحه، ولئلا يرى الابن السكين فيفزع، ومعلوم أن رؤية المذبوح السكين

تريعه، ويروى عن النبي ﷺ أنه رأى رجلاً يحد الشفرة ليذبح شاة فقال: «**أتريد أن تميتها ميتتان**»[١] وإبراهيم عليه الصلاة والسلام تل ابنه للجبين بسرعة وقوة في تنفيذ أمر الله عز وجل. قال المؤلف رحمه الله: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ [صرعه عليه، ولكل إنسان جبينان بينهما الجبهة، وكان ذلك بمنى، وأمر السكين على حلقه فلم تعمل شيئاً بمانع من القدرة الإلهية] ونحن نقول وقلنا سابقاً: إن قصص الأنبياء السابقين إنما تؤخذ من الكتاب والسنة الصحيحة، لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩] ونحن في قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لا ينبغي لنا أن نتجاوز القرآن ولا أن نقدر شيئاً لا يقتضيه السياق فهنا نقول: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ صرعه على جبينه، والجبين هو طرف الجبهة يعني القرنين، وتقدم ذكر الحكمة في تله هكذا، وأما قول المؤلف: [وذلك بمنى]، فهذا يحتاج إلى دليل، وهو لا شك أنه بمكة، لأن إسماعيل نشأ بمكة من صغره، ولكن كونه في منى هذا يحتاج إلى دليل من الكتاب أو السنة، وإلا وجب التوقف فيه، وقوله: [وأمر السكين على حلقه فلم تعمل شيئاً بمانع من القدرة الإلهية] هذا أيضاً يحتاج إلى دليل، وليس في القرآن الكريم أنه

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٢٣١ و٢٣٣ وقال: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي. وقال في الموضع الآخر: على شرط الشيخين.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٣٣: رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٩٣) والسلسلة الصحيحة (رقم ٢٤).

أمرَّ السكين على حلقه، فالواجب علينا أن نتوقف في هذا، لا نصدق ولا نكذب؛ لأن القرآن لم يصدق ذلك ولم يكذبه، لكن عندي ـ والله أعلم ـ أن هذا لو وقع لكان من الحكمة أن يذكر، لأن فيه دلالة على آية من آيات الله ـ عز وجل ـ، وهي عدم تأثير السكين في حلقه، ولو وقع مثل هذا لذكره الله عز وجل لما فيه من الدلالة على آية عظيمة من آيات الله، والذي نجزم به أنه تله للجبين ليذبحه فقط، وكفى بذلك فخراً أنه لم يبق إلا أن يمر السكين على حلقه فماذا كان؟

قال الله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾، قوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ لما شرطية تحتاج إلى شرط وجوابه، فشرطها قوله: ﴿أَسْلَمَا﴾ ﴿وَتَلَّهُۥ﴾ معطوف عليه ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ لا يستقيم أن نجعله معطوفاً على ﴿أَسْلَمَا﴾ ولكن اختلف العلماء في الواو هنا فقيل: إنها زائدة وتقدير الكلام: فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا.

وقال آخرون: ليست بزائدة؛ لأن زيادة الحروف المعنوية التي تقتضي المغايرة لا يمكن أن يقع في القرآن الكريم، بل هي معطوفة على شيء مقدر والتقدير: فلما أسلما وتله للجبين، تحقق تنفيذ أمر الله، أو ما أشبه ذلك من الكلام المناسب، ثم عطف على الجواب المحذوف قوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ﴾.

الفوائد:

١ ـ أن كل أحد وإن علا قدره من البشر مفتقر إلى الله عز وجل، ومفتقر إلى من يعينه، لقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾.

والمؤلف ـ رحمه الله ـ قدر أن في الآية محذوفاً تقديره ولداً، وكأنه خص هذا الطلب بالولد لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ١٠١﴾ على أن الآية تحتمل أن المحذوف ليس كلمة ولد، وأنه حذف المعمول لإفادة العموم أي هب لي من الصالحين من يكون عوناً لي من الأولاد وغيرهم؛ لأن القوم الذين كان فيهم غير صالحين، فسأل الله أن يهب له من الصالحين من يعينه ويساعده، فكانت الإجابة من الله أن بشره بمن يعينه من صلبه في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ١٠١﴾ فيكون هذا الوجه الذي ذكرنا أعم من الوجه الذي قاله المؤلف ـ رحمه الله ـ.

٢ ـ ومن فوائد الآية: الحث على الاستعانة بالصالحين، لقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ وأنه ينبغي للإنسان أن يكون قرناؤه من الصالحين؛ لأن القرين الصالح يعينك على الخير، ويحذرك من الشر، وكما مثَّل الرسول عليه الصلاة والسلام الجليس الصالح بحامل المسك، إما أن يحذيك، وإما أن يبيعك وإما أن تجد منه رائحة طيبة[1].

من فوائد الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ١٠١﴾.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك (٢١٠١) ومسلم كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين (٢٦٢٨) (١٤٦).

١ ـ إجابة الله سبحانه وتعالى للدعاء لقوله: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ ﴾ والفاء تفيد التعقيب والترتيب والسببية، أي فبسبب دعائه ببشارته.

ويلزم من هذه الفائدة وهي إجابة الله عز وجل لمن دعاه صدق وعده تعالى لقوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] وقدرته على تحقيق ما وعد به؛ لأنه لو كان عاجزاً لم يعطِ ما دُعي به، ولكنه عز وجل على كل شيء قدير.

٢ ـ ومن فوائد هذه الآية: الثناء على إسماعيل ـ عليه السلام ـ لوصفه بالحلم.

٣ ـ ومن فوائدها: تبشير المرء بما ولد له من ولد، ولاسيما إذا كان ذكراً؛ لأن الله عبر عن إخباره إبراهيم بأنه سيولد له بالبشارة فأخذ العلماء من هذا أنه تشرع بشارة من ولد له ولد ولاسيما إذا كان ذكراً.

وهل يستفاد من الآية الكريمة إثبات كلام الله؟ لو كانت البشارة من الله لكان يستفاد من ذلك إثبات الكلام، لكن قد يكون بشرناه على لسان الملائكة يعني الملائكة هي التي بشرته فالله أعلم.

ومن فوائد الآية في قوله: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

١ ـ أن الله ـ عز وجل ـ قد يبتلي عبده المؤمن ببلوى عظيمة شديدة على النفوس، وذلك بما أرى الله نبيه إبراهيم عليه الصلاة

والسلام من ذبح ولده، ونحن نعلم أن الله لو قدر على ولدك أن يموت لكان هذا مصيبة عظيمة، لكن إذا أمرك الله سبحانه وتعالى أن تذبحه أنت بنفسك صار هذا أعظم وأشد، وصار الصبر على هذا الأمر أشد وأفضل من الصبر على موته بقدر من الله عز وجل.

٢ ـ ومن فوائدها: أن هذا الوقت الذي أمر إبراهيم فيه بذبح ابنه فيه كان وقتاً يكون فيه تنفيذ الأمر شديداً لأنه بلغ معه السعي، فتنفيذ الأمر في هذا الحال يدل على كمال عبودية المأمور حيث نفذها في أشد ما يكون تعلقاً بابنه.

٣ ـ ومن فوائدها: أنه ينبغي لمن أراد أن ينفذ شيئاً مكروهاً لشخص أن يأتي بأسلوب يدل على أنه لا يريد الإضرار به، وإنما هو أمر لابد منه لقوله: ﴿يا بني﴾ فإن إتيانه على صيغة التلطف من أجل أن يبعد عنه تهمة أنه لا يحبه.

٤ ـ ومن فوائدها: أنه يجوز امتحان الشخص بما لا يؤخذ رأيه فيه، ولكن للاستعلام لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لا يريد أن ينظر إلى ابنه إن قال: لا تذبحني، ترك الذبح، بل يريد أن يعرف مدى قبوله واستعداده، فيكون في هذا تورية، والتورية لا شك أنها جائزة للاستعلام والاستخبار، ولاسيما عند الحكم في القضاء، وفي قصة سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ في المرأتين اللتين تخاصمتا في ولد بينهما، حيث تخاصمتا عند داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فحكم به للكبرى، ثم تخاصمتا عند سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ فدعا بالسكين ليشقه نصفين بينهما،

وسليمان لن يفعل أبداً، لكن هذا من باب التورية واستطلاع الحقيقة، فلما دعا بالسكين وأراهما أنه يريد أن يشقه نصفين، قالت الصغرى: هو ولدها يا نبي الله، فعرف أنه لها، لأنها أدركها حب الولد فتنازلت عن حقها منه ودعواها، والكبيرة رضيت لأنه لا يهمها أن يقتل ابن هذه المرأة، كما أكل الذئب ولدها.[1]

إذاً نأخذ من هذا أنه يجوز للإنسان أن يورّي للشيء لاستطلاع الأمر واستظهاره؛ لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما قال لابنه: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ فإن ظاهر ذلك أنه يريد أن يستشيره ويأخذ رأيه إن وافق وإلا لم ينفذ، وليس الأمر كذلك، بل أراد أن يختبره لينظر مدى قبوله لهذا الأمر واستعداده لتنفيذه.

٥ ـ ومن فوائدها: أن رؤيا الأنبياء حق، وذلك أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ اعتمدها ولو لم تكن حقًّا لم يعتمدها، ولكن لو رأى أحدنا مثل هذه الرؤيا أنه يذبح ابنه فهل هذا حق؟ الجواب: لا، ليس بحق قطعاً لأننا لا نؤمر أبداً عن طريق المنام ولا عن طريق اليقظة بذبح أبنائنا، لكن إما أن تكون رؤيا ويكون فيها إشارة إلى شيء مشابه، وإما أن تكون من الشيطان ليحزنك، أما أن تكون أمراً يجب تنفيذه فهذا لا يمكن.

٦ ـ ومن فوائدها: حسن أدب إسماعيل، ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حيث قال في جواب أبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ ولم يقل: يا هذا، أو يسكت، بل قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ (٣٤٢٧) ومسلم كتاب الأقضية، باب اختلاف المجتهدين (١٧٢٠) (٢٠).

٧ ـ ومن فوائدها: أن الخبر قد يكون بمعنى الأمر، لأن هذه الرؤيا كما مر علينا بمنزلة الخبر، حيث لم يقل له في الرؤيا: اذبح ولدك، بل رأى نفسه يذبح الولد، ولكن الخبر قد يكون بمعنى الأمر، وهل يحتاج إلى قرينة في هذا أم لا؟ الجواب: نعم، يحتاج إلى قرينة؛ لأن الأصل في الخبر أنه لا يدل على الطلب، ولكن إذا وجد قرينة تقتضي ذلك كان أمراً.

٨ ـ جواز حث المفضول للفاضل على فعل الأوامر لقوله: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ ويتفرع على هذه الفائدة أنه لا ينبغي للإنسان أن يحقر نفسه في الأمر بالخير، فيقول: هذا أجل مني، هذا أعلم مني، هذا أكبر مني، فلن آمره بشيء، بل نقول: مر بالخير سواء كنت أصغر سنًّا أو شأناً من المأمور، أو مثله، أو أكبر منه.

٩ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يعلق كل أمر مستقبل على مشيئة الله ـ عز وجل ـ لقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ فإن هذا أمر مستقبل، وينبغي أن يعلق الإنسان كل أمر مستقبل بمشيئة الله سبحانه وتعالى.

فإن قال قائل: كيف نفهم هذا الحكم من قول إسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ؟

فالجواب: أن الله سبحانه وتعالى قصه علينا لنعتبر به، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. [يوسف: ١١١] ويؤيد هذا أيضاً شرعنا، فإن الله قال لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. [الكهف: ٢٣ـ٢٤]

١٠ ـ ومن فوائدها: أن الصبر يكون على امتثال الأوامر وعلى المصائب، فإن قوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي الصابرين على تنفيذ هذا الأمر، وعلى ما يقتضيه من الآلام لأنه ذبح.

والصبر ثلاثة أقسام دلت الآية على قسمين منها، والثالث: الصبر عن معصية الله.

١١ ـ ومن فوائد هذه الآيات في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ فضيلة إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ حيث استسلما لأمر الله في هذا الأمر العظيم، الذي لا يُقدم عليه إلا أمثالهما، ولا شك أن هذا من مناقبهما.

١٢ ـ ومن فوائدها: أنه ينبغي للإنسان أن يحول بين نفسه وبين كل شيء قد يعيقه عن تنفيذ أمر الله، لقوله: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ فإن هذا يهون عليهما الأمر فيهون عليهما التنفيذ.

وربما يتفرع على هذه الفائدة العمل بسد الذرائع ومنعها، أي الذرائع التي تحول بين المرء وبين تنفيذ أمر الله، أو توجب أن يقع فيما نهى الله عنه.

* * *

ثم قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ ضمير الفاعل يعود على الله ـ عز وجل ـ.

والنداء يكون بالصوت العالي للمنادى، بخلاف المناجاة، فتكون بالصوت المنخفض، ولا شك أن الصوت العالي يقال لمن

كان بعيداً، والصوت المنخفض يقال لمن كان قريباً.

وقوله: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤﴾ أن هذه تفسيرية، لأن التفسيرية هي التي تأتي بعد فعل، أو بعد عامل يتضمن معنى القول دون حروفه، فهي بمعنى: أي ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ صدقتها أي فعلت ما يقتضي تصديق هذه الرؤيا، وقد رأى أنه يذبح ابنه وعزم على ذلك، وقام ببعض العمل الذي يكون بين يدي الذبح، فجعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك تصديقاً.

والرؤيا: ما يراه الإنسان في منامه.

وما يراه الإنسان في منامه وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: رؤيا.

القسم الثاني: حلم.

القسم الثالث: يكون عن حديث النفس، لقول النبي ﷺ: «**الرؤيا ثلاث: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تخويف من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه**»[1].

أما الأول فإنه من الله، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة[2].

وأما الثاني فهو من الشيطان، وغالباً ما يكون هذا فيما يمتنع شرعاً، أو حسًّا، أو عقلاً، أي أن الشيطان يصور للشخص شيئاً ممتنعاً في الشرع، أو ممتنعاً في العقل، أو ممتنعاً بالحس.

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً، كتاب التعبير، باب القيد في المنام (٧٠١٧) ومسلم، كتاب الرؤيا(٢٢٦٣)

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التعبير، باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة (٦٩٨٩)، ومسلم، كتاب الرؤيا (٢٢٦٣).

أو من أجل إحزان الرائي وإخلال عقله، وقد حدَّث رجل النبي ﷺ أنه رأى في منامه أنه قد ذبح وأن رأسه تدحرج وأنه يشتد وراء رأسه، فقال النبي ﷺ: «**لا تحدث الناس بما يتلاعب بك الشيطان في منامك**»[١] لأن هذا الشيء غير معقول، إنسان قطع رأسه وهرب الرأس وذهب يشتد وراءه ليأخذه ويضعه على رقبته، هذا شيء ينافي العقل.

وأحياناً يضرب لك الشيطان مثلاً بما يمتنع شرعاً كما يذكر عن عبدالقادر الجيلاني ـ رحمه الله ـ أنه رأى نوراً عظيماً وسمع من هذا النور قولاً يقول: إني أنا ربك. وحدثه، فقال: إنه قد وضع عنه الصلاة فقال له: كذبت ولكنك الشيطان وعرف أنه كاذب، لأنه حدثه بما يمتنع شرعاً، فإن وضع الصلاة لا يمكن أن يكون أبداً وهي أهم أركان الإسلام، والوحي قد انقطع، فإذا رأى إنسان في منامه ما يمتنع شرعاً فإنه من الشيطان.

الثالث ما يريه الشيطان للإنسان في منامه، لأجل أن يحزن، وهذا كثير جدًّا، ودواء هذا ما أخبرنا به رسول الله ﷺ أن الإنسان إذا رأى في منامه ما يكره، فليقم وليتفل عن يساره ثلاثاً، وليقل: أعوذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت، ثم ينقلب إلى الجنب الآخر، ولا يحدث الناس بما رأى، وبعد ذلك لا يضره هذا الحلم[٢].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الرؤيا، باب لا يخبر بتلعب الشيطان به في المنام (رقم ٢٢٦٨) (١٤ ـ ١٦).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الرؤيا، باب في كون الرؤيا من الله (٢٢٦١) (٤ ـ ٥).

القسم الثالث: ما يحدث به الإنسان نفسه في اليقظة، فإنه لشدة تعلق نفسه به قد يراه في منامه وهذا كثير.

﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَآ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [بما أتيت به بما أمكنك من أمر الذبح، أي يكفيك ذلك، فجملة (ناديناه) جواب (لما) بزيادة الواو] هذا سبق البحث فيه، وبينا أن الصحيح فيه أن الواو ليست زائدة، ولكنها عاطفة على مقدر مناسب للمقام، لأن الواو من حروف المعاني وتفيد فائدة لا نستفيدها إذا قلنا بزيادتها، وما كان كذلك فإنه لا يمكن أن يكون زائداً.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل جزائنا إياك ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ وذلك بإزالة الشدة عنهم إذا فعلوا ما أمروا به، وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا﴾. [الطلاق: ٢ـ٣] ﴿يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾. [الطلاق: ٤].

فهاتان آيتان تدلان أن الإنسان كلما اتقى الله زالت عنه الهموم وفرجت عنه.

وقوله: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ يشمل الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله. وقد تقدم ذلك.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾، هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات أولها: إن، والثاني: اللام، والثالث: ضمير الفصل.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ ولا شك أن الأمر كما قال ربنا ـ عز وجل ـ: إنه بلاء مبين، اختبار عظيم ظاهر أن أمر بذبح ابنه الذي فيه هلاكه وموته على يديه، والواحد منا قد لا يطيق الصبر على موت ابنه الذي جرى بفعل الله ـ عز وجل ـ فكيف يصبر على

أن يذبح ابنه بيده؟! ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ وفسر المؤلف المبين هنا بالبين، ولكن يحتمل أن يكون المراد به المبين: المظهر يعني الذي أظهر حقيقة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأنه يقدم محبة الله على ما يحب، قال أهل العلم: ولهذا جعله الله تعالى خليلاً له، والخلة هي أعلى أنواع المحبة، حيث قدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما يحبه الله على ما تحبه نفسه.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [أي: المأمور بذبحه وهو إسماعيل أو إسحاق قولان (بذبح) بكبش عظيم من الجنة، وهو الذي قربه هابيل جاء به جبريل عليه السلام فذبحه السيد إبراهيم مكبراً]. تسمية إبراهيم عليه السلام بالسيد فيه نظر، ولا شك أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ سيد من سادات الخلق، لكن كونه يعبر عنه بهذا الوصف عند ذكره وندع وصفه بالرسالة أو بالعبودية وما أشبه ذلك فيه نظر.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾، أي فدينا الذبيح، والذبيح الذي أمر بذبحه، أي جعل الله له فداء، فنقل الأمر من ذبح هذا الولد إلى ذبح الكبش؛ لأن الشيء الذي يقع فداء للشيء يكون بدلاً عنه ونائباً منابه. فانتقل الأمر من ذبح هذا المولود إلى ذبح الكبش فصار فداءً له، وقول المؤلف: [بكبش عظيم] الكبش: هو الكبير من الضأن، أي: الكبير الجسم، وزيد في ذلك قوله (عظيم) يعني أنه من عظيم الكباش، ويقول المؤلف: [إنه الذي قرَّبه هابيل]، وهابيل هو أخو قابيل وكان هابيل قد قرب قرباناً فتُقبِّل منه، وقرب

قابيل قرباناً فلم يتقبل منه، فحسده قابيل وقال له لأقتلنك، فقال له هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾، [المائدة: ٢٧] يعني فلو اتقيت الله لقبل منك، والقصة معروفة في ابني آدم عليه الصلاة والسلام، ولكن ما قاله المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ دعوى تحتاج إلى دليل، وليس هناك دليل من الكتاب والسنة، بل إن الدليل على خلافه، لأن القربان الذي تقرب به هابيل لا يتعين أن يكون كبشاً، ثم على فرض أنه كبش فإنه قد ذُبح وأُكل ولن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم. لكن هذا مما يأخذه بعض المفسرين ـ رحمهم الله ـ عن الإسرائيليات، ولا يجوز أن يؤخذ عن الإسرائيليات مثل هذا الكلام؛ لأن هذا كلام يقطع بكذبه، وأخبار بني إسرائيل إذا كان يقطع بكذبها لا يجوز نقلها، إلا على سبيل التكذيب لها.

وقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: [إن الكبش من الجنة] ليس هناك دليل على أنه من الجنة. ولا على أن في الجنة كباشاً، فالصواب أنه ذبح من بهيمة الأنعام الموجودة في وقته أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يذبحه، وظاهر الآية الكريمة أنه ذبحه فداء عن إسماعيل، ويجوز أيضاً أن يكون مع الفداء شكراً لله ـ سبحانه وتعالى ـ على نعمته بزوال هذا البلاء المبين.

وأما قول المؤلف رحمه الله: [وهو إسماعيل أو إسحاق قولان] فالأمر كما ذكر اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ من هو الذي أُمر بذبحه هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ والصحيح أنه إسماعيل بل إنه هو المتعين لعدة أوجه:

١ ـ منها ما سيأتي في كلام المؤلف في قوله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾. حيث قال المؤلف: [استدل بذلك على أن الذبيح غيره].

٢ ـ ومنها أن الله تعالى قال في إسحاق: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات: ٢٨] وفي الذبيح قال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾. [الصافات: ١٠١] وهذا غير هذا لأن الذي وصف بالحلم هو الذي صبر على الذبح، وتنفيذ أمر الله ـ عز وجل ـ.

٣ ـ ومنها أن الله وصف إسماعيل بأنه صادق الوعد ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] وهذا الوصف إنما يقال في أمر عظيم صدق به الإنسان، والوعد الذي وعد هو قوله لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ وقد وفَّى بذلك.

٤ ـ ومنها أن الله تعالى وصف إسماعيل بأنه من الصابرين، ولم يصف بذلك إسحاق، فقال تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾. [الأنبياء: ٨٥] ولم يذكر إسحاق ولم يصفه بالصبر، ومعلوم أن الصبر الذي صبره إسماعيل هو الصبر الذي يستحق أن يثنى به عليه؛ لأنه صبر عظيم.

٥ ـ ومنها أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بشر بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فقال: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١] ولو كان إسحاق الذي أمر بذبحه لكان هناك تناقض؛ لأنه كيف يؤمر بذبحه وقد بشر بابن له أي: لإسحاق؛ لأن يعقوب بن إسحاق، فإذا كان قد بشر بأن له ولداً اسمه يعقوب، فلا يليق أن يؤمر بذبحه.

وقد يقول قائل: إنه بشر بيعقوب باعتبار المآل؛ لأنه إذا نسخ وجوب الذبح بقي هذا الولد ورزق ولداً.

فيقال: نعم هذا يمكن أن يرد به لكن تفوت البشارة عندما يؤمر بالذبح، ومعلوم أن الإنسان المبشر بالشيء لا يمكن أن يزعج بضده، فإذا أزعج بضده انقلبت البشارة سوءاً.

٦ ـ قوله تعالى هنا: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ بعد أن ذكر قصة الذبح كاملة، ولا يمكن أن يكون في القرآن تكرار.

٧ ـ أن الله تعالى ذكر البشارة بإسحاق للأم ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ ولم يذكر ذلك في إسماعيل.

٨ ـ أن الله تعالى قال في إسحاق: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ وإذا كان قد بُشر بأنه نبي، فإنه لا يليق ولا يسوغ أن يؤمر بذبحه بعد أن بشر بنبوته.

٩ ـ أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**أنا ابن الذبيحين**»[1] يعني إسماعيل وأباه عبدالله بن عبدالمطلب.

فإن صح هذا الحديث فهو أيضاً دليل واضح على أن الذبيح إسماعيل؛ لأن النبي ﷺ كان من ذرية إسماعيل ولم يكن من ذرية إسحاق.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ تركنا: قال المؤلف: [أبقينا عليه في الآخرين ثناء حسناً ﴿سَلَٰمٌ﴾ منا ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾].

---

(١) ذكره الحاكم في المستدرك (ج ٢/ ٦٠٩) ح(٤٠٤٨) وعلق الذهبي بقوله: إسناد واهٍ وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (١/ ٣٣٦ رقم ٣٣١): (٤/ ١٧٢ رقم ١٦٧٧) لا أصل له بهذا اللفظ.

أفاد المؤلف ـ رحمه الله ـ أن الترك هنا بمعنى الإبقاء، وأن مفعوله محذوف تقديره ثناءً حسناً، وهذا أحد القولين في المسألة.

والقول الثاني: إن المفعول لتركنا هو قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩﴾ يعني أن الله ترك عليه في الآخرين السلام، أي أن يسلم من الثناء القبيح، ورجح هذا ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه: «جلاء الأفهام» وقال: إن مفعول تركنا هو الجملة في قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩﴾ ولهذا يثنى عليه إلى يوم القيامة، ويقال: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد». كما يقرأ في القرآن الكريم صفاته التي يثنى بها عليه.

وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩﴾ السلام يعني السلامة من النقائص والعيوب التي تعتري البشر، ومن الثناء القبيح الواقع عليه من غيرهم، ولهذا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان الناس كلهم يفخرون بالانتساب إليه حتى اليهود قالوا نحن على ملة إبراهيم، والنصارى قالوا نحن على ملة إبراهيم.

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾. [آل عمران: ٦٧]

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠﴾ تقدم الكلام عليها.

﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١١﴾ الجملة هذه استئنافية يقصد بها الثناء على إبراهيم بغاية ما يثنى به وهو الإيمان والعبودية. فالعبودية في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا﴾، والعبودية هنا العبودية

الخاصة بل خاصة الخاصة؛ لأن العبودية تنقسم إلى قسمين: عامة مثل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾. [غافر: ٤٤]

وخاصة: مثل: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾. [الفرقان: ٦٣]

ومنها ما هو أخص وهي عبودية الرسالة في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾. [الفرقان: ١]

وكلما كان أخص فهو أكمل، والأخص ينافي الأعم؛ لأن العبودية الخاصة في ضمن العبودية العامة، فكل من كان عبداً لله بالمعنى الخاص فهو عبد له بالمعنى العام، ولا عكس يعني ليس كل من كان عبداً لله في المعنى العام يكون عبداً لله في المعنى الخاص.

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ بشرنا إبراهيم بإسحاق يعني أعلمناه به على وجه يسر به بعد البشارة الأولى بإسماعيل، ولهذا كان إسماعيل أكبر من إسحاق عليهما الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [نبياً: حال مقدرة أي يوجد مقدراً نبوته]. أي بولادته ووجوده نبيًّا حال من إسحاق، وأفادنا المؤلف بأنها حال مقدرة، لكن لما كانت أمراً واقعاً لا محالة وصف بها حال البشارة وإلا فإنه حال البشارة ليس بنبي إذ إنه صغير، ولكن سيكون نبيًّا، ولما كان هذا الأمر محققاً جعل كأنه حال واقعة وأمر واقع.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ أي: القائمين بحق الله تعالى وحق عباده.

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على إبراهيم قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [بتكثير ذريته ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ ولده بجعلنا أكثر الأنبياء من نسله].

أي: بارك الله على إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث جعل في ذريته النبوة والكتاب، فكل الأنبياء بعد إبراهيم من نسله وعلى إسحاق ـ عليه الصلاة والسلام ـ أيضاً؛ لأن أنبياء بني إسرائيل كلهم من نسل إسحاق، وليس من ولد إسماعيل نبي إلا محمد ﷺ.

قال: [﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ مؤمن ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ كافر ﴿مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾، بين الكفر].

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ أي: ذرية إبراهيم وإسحاق. ﴿مُحْسِنٌ﴾ أي: قائم بحق الله ـ عز وجل ـ وحق عباده، ومنهم ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بارتكاب المعاصي والعدوان على الحق وعلى الخلق.

﴿مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ أي: بيّن الظلم كما قال المؤلف. وعلى هذا فهي من أبان اللازم، ويجوز أن تكون من أبان المتعدي، ويكون المعنى: مظهر لظلمه، والواقع أن ذرية إسماعيل وإسحاق يتصفون بهذا الوصف: ظالم ومحسن. ولهذا لما قال إبراهيم حين قال له الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾. [البقرة: ١٢٤] فكان في قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤] إشارة أنه سيكون من ذرية إبراهيم من هو ظالم لا يستحق أن يكون إماماً في دين الله ـ عز وجل ـ.

الفوائد:

من فوائد هذه الآية وما بعدها:

١ ـ إثبات الكلام لله ـ عز وجل ـ لقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ أي: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، وأنه بصوت لقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ وبحرف لقوله: ﴿أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ إلى آخره.

٢ ـ ومن فوائدها: أن الآية شهدت لما دل عليه الحديث الصحيح من قول النبي ﷺ: «**واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب**»[1] فإن أشد كرب وقع لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالنسبة لهذه القضية ما حصل منه حين تل ابنه على جبينه ليذبحه، فما تصورون لهذه الحال، إنه لكرب عظيم، وفي هذا الكرب العظيم جاء الفرج من الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

فالفرج يكون مع الكرب، وكلما اشتد الكرب والتجأ الإنسان إلى ربه كان الفرج إليه أسرع.

٣ ـ ومن فوائدها: أن فيها شاهداً للحديث الصحيح أن الإنسان إذا قصد العمل وسعى به كتب له أجره لقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ﴾ مع أنه لم يذبح، لكنه فعل ما أمر به، ولم يبق إلا أن ينفذه.

والحديث الذي تشهد له هذه الآية.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ٣٠٧، وصححه محققو المسند (٥/ ١٨ ـ ١٩ رقم ٢٨٠٣) طبعة مؤسسة الرسالة.

أولاً: ما ثبت في الصحيح في قصة الرجل الذي قال: «**ليت لي مثل مال فلان فأعمل فيه مثل ما عمل فلان، وكان ينفق ماله في الخير**»[١].

وكذلك في قصة الرجين يقتتلان كلاهما يدخل النار، فقيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟! قال: «**لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه**»[٢] فإذا كان من فعل السيئة ولم يتمها يؤزر عليها فمن فعل الحسنة ولم يتمها من باب أولى أن يؤجر عليها.

٤ ـ ومن فوائدها: أن العبادة ما أمر الله به وإن كانت في غير هذا الموضع معصية، فإن قتل الابن من أكبر الكبائر، فإذا أمر الله به صار طاعة، ومن أفضل الطاعات؛ لأن تنفيذه من أشق ما يكون على النفس، فإذا نفذه الإنسان مع قوة الداعي لمنعه كان ذلك أكمل وأفضل. ولهذا نظير، فالسجود لغير الله شرك، ولما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم صار السجود لآدم طاعة، فالحاصل أن العبادة ما أمر الله به، وإن كان جنسها قد يكون معصية في موضع آخر.

٥ ـ ومن فوائدها: العمل بالرؤيا إذا كانت صالحة، ولكن هل هذا في كل رؤيا؟

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد . ، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر (٢٣٢٥) وابن ماجه، كتاب الزهد، باب النية (٤٢٢٨) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ (٣١)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيها (٢٨٨٨) (١٤).

والجواب: أما رؤيا الأنبياء فيعمل بها؛ لأن رؤياهم وحي، وأما رؤيا غيرهم فإن شهدت النصوص الشرعية باعتبارها، أو وجدت قرائن حسية تشهد لها عُمل بها وإلا فلا.

مثال الأول: ما ذكره ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أنه رأى النبي ﷺ في المنام فسأله عن مسائل أشكلت عليه، ومنها أنه يقدم إليه جنائز لا يدري أمسلمون هم أم كافرون، فقال له النبي ﷺ: «**عليك بالشرط يا أحمد**». أي: أرشده إلى أن يشترط فيقول مثلاً: اللهم إن كان مؤمناً فاغفر له وارحمه.

فهذه الرؤيا شهد الشرع باعتبارها، وهو جواز الدعاء المعلق على شرط مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾ [النور ٥ ـ ٩]. فهنا دعاء معلق بشرط.

مثال الثاني: ما ذكر عن ثابت بن قيس ـ رضي الله عنه ـ الذي استشهد في اليمامة وأتاه رجل من الجيش فأخذ درعه ووضعه في رحله تحت قدر، فرأى أحد أصحاب ثابت بن قيس ثابتاً في المنام وأخبره بأنه مر به رجل وأخذ درعه ووضعه تحت قدر من الفخار وعنده فرس تستن، وذكر أشياء أوصى بها فلما بلغ ذلك أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ أنفذ وصيته، لأن الرجل الذي رأى

هذه الرؤيا ذهب إلى المكان الذي ذكره ثابت، فوجد الأمر كما قال[١] .

فهنا وجدت قرينة حسية تدل على صدق الرؤيا .

من فوائد قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ .

١ ـ أن كل محسن فإن الله تعالى يجعل له من كل هم فرجاً، ويكتب له أجر العبادة وإن لم يفعلها إذا سعى في أسبابها، وهذا له أمثلة كثيرة، نذكر منها ما جرى لرسول الله ﷺ في حجة الوداع، فإن النبي ﷺ حج قارناً بلا شك وساق الهدي، ومع ذلك قال : «**لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لجعلتها عمرة**»[٢] . فهنا تمنى ﷺ أن يكون قد تمتع ولكنه قرن، فيكتب له أجر التمتع، الذي قال عنه : «**لو استدبرت من أمري ما استقبلت لجعلتها عمرة**» .

فالإنسان الحريص على الخير قد يكتب الله له من الأجور ما هم أن يفعله وإن لم يفعله، وأن الله يفرج له كل كرب، وشاهد هذا قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢ـ٣] ولكن لابد في هذه الحال من قيد، وهو أن ينتظر الإنسان فرج الله ـ عز وجل ـ فلا يبعد بنفسه عن الله وييأس بل ينتظر الفرج، فإذا انتظر الفرج مع تقواه وإحسانه

---

(١) ذكره الحاكم في المستدرك (ج٣/ص ٢٦١) (٥٠٣٥) وقال: صحيح على شرط مسلم، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (ج٢/ص ٦٥) ح (١٣٠٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الشركة، باب الاشتراك في الهدي والبدن (٢٥٠٤، ٢٥٠٦). ومسلم في كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ (رقم ١٢١٨) (١٤٧). واللفظ له.

فما أقرب الفرج إليه لقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

٢ ـ ومن فوائدها: بيان عظمة الرب ـ عز وجل ـ، حيث أسند الفعل إليه بضمير العظمة: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

ولا شك أن الله تعالى أثنى على نفسه بالعظمة والإحسان والفضل.

٣ ـ ومن فوائدها: أن الجزاء من جنس العمل ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ فكما أحسن في عبادة الله أحسن الله إليه، وقد قال الله ـ عز وجل ـ في سورة الرحمن: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠] يعني ما جزاء الإحسان إلا الإحسان. وبهذا يتبين لك كمال فضل الله ـ عز وجل ـ، فإن الله ـ عز وجل ـ هو الذي أحسن إليك، أولاً بتوفيقك للطاعات والإحسان، ثم أحسن إليك ثانياً بالجزاء عليه.

فاعرف ـ أيها المؤمن ـ قدر نعمة الله عليك بالإحسانين: إحسان سابق للهداية، هداك الله ووفقك، وإحسان لاحق وهو الثواب العظيم، ونحن في الحقيقة في غفلة عن هذا، كثيراً ما يعتمد الإنسان على نفسه بفعل الخير ولا يرى نعمة الله عليه به، مع أن الواجب أن ترى نعمة الله عليك به، إذا أتيت مثلاً إلى المسجد فاعرف قدر نعمة الله عليك، حيث سهل عليك المجيء إلى المسجد للصلاة، أو لقراءة العلم؛ لأن الله حرم أمماً كثيرة مما منّ الله به عليك، فما أكثر الذين لا يحضرون إلى المساجد، وما أكثر الذين يحضرون بأبدانهم لا بقلوبهم، وما أكثر الذين يحضرون عادة لا عبادة، وما أكثر الذين حرموا التردد إلى

المساجد لطلب العلم أو قراءة القرآن، فكل هذه يجب أن يتفطن لها الإنسان وأن يعرف قدر نعمة الله عليه بها، ثم يرجو ثواب الله عز وجل عليها، ويحسن الظن بالله ـ سبحانه وتعالى ـ، وقد قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: «**أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني**»[1].

*فوائد قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾.

١ ـ ومن فوائدها: بيان أن الله ـ عز وجل ـ قد يختبر عبده المؤمن بمصائب يفعلها هو بنفسه، أو بمصائب يقدرها الله عليه لا اختيار له فيها، والأول أكمل من الثاني يعني أن يبتلي الله الإنسان بمصائب يفعلها هو بنفسه هذا أكمل من الثاني؛ لأن الثاني الذي يجري عليه بغير اختيار كما قال بعض السلف: «إما أن يصبر صبر الكرام، وإما أن يسلو سلو البهائم». لكن الشيء الذي يفعله بنفسه أعظم وأكمل، وما جرى لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الاختبار من النوع الأول الذي قدر عليه المصيبة يفعلها هو بنفسه، وهو ذبح ابنه، فإنه سيفقده، وفقد الابن في هذا السن ـ وهو أيضاً وحيده الذي ليس له ولد سواه ـ، لا شك مصيبة عظيمة، ولهذا وصفه الله بأنه بلاء مبين.

٢ ـ ومن فوائدها: بيان حكمة الله ـ عز وجل ـ فيما يقدره على عبده المؤمن من مكروه، فلا يقول الإنسان: لماذا ابتلاني الله

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ رقم (٧٤٠٥)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى (رقم ٢٦٧٥) (٢).

تعالى بهذا دون غيري؟ بل يقول: لله في ذلك حكم عظيمة، والله عز وجل يبتلي المؤمن بالمصائب، فإذا صبر نال بذلك درجة الصابرين، وإذا احتسب الأجر بهذا الصبر نال بذلك ثواب الصابرين، والصبر مرتبة عالية يُوفّى فيها العامل أجره بلا حساب، ولا يمكن صبر بلا مصبور عليه، بل لابد من ابتلاء وامتحان يعلم به قدر صبر الإنسان حتى يثاب على قدر ما حصل منه من الصبر.

٣ ـ ومن فوائدها: فضيلة إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، وقد سبق، لكن من هذه الآية يتبين فضيلتهما بأنهما صبرا على هذا الابتلاء، صبرا صبر الكرام، وأسلما ولم يبق إلا التنفيذ حتى جاء الفرج من الله سبحانه وتعالى.

* ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾:

١ ـ بيان أن رفع الذبح عن الابن جعل له مقابلاً لتكميل التنفيذ والامتثال، وذلك بأن أمر إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأن يذبح فداء عن ابنه، ويكون هذا الذبح أي المذبوح عظيماً، فلهذا قال: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ يعني أمرناه أن يذبح ذبحاً عظيماً فداء له.

٢ ـ ومن فوائدها ـ على ما استنبطه بعض العلماء ـ: أن الإنسان إذا نذر ذبح ابنه وجب عليه أن يذبح فدية عنه كبشاً، قال: لأن هذا هو الذي أمر الله به إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليكون فداء عن ابنه، ومعلوم أن الإنسان إذا نذر أن يذبح ابنه فإنه لا يحل له أن يوفي به؛ لأنه نذر معصية، وقد قال النبي ﷺ: «من نذر أن

يعصي الله فلا يعصه»[١] . وهذا الاستنباط جيد لولا مخالفته لظاهر السنة، وهو أن من نذر معصية فإنه يحرم عليه فعلها، ولكن يكفر كفارة يمين، فإذا قال شخص: لله عليَّ نذر أن أذبح أول ولد يأتيني، ثم أتاه ولد فإنه لا يحل له أن يذبحه ولكن نقول: عليك على القول الراجح أن تكفر كفارة يمين.

* ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾:

أن الله تعالى أبقى لإبراهيم ـ عليه الصلاة السلام ـ ثناءً حسناً وسلاماً في الآخرين. ثناء حسناً يثني عليه بما حصل منه من الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ والصبر على البلاء الذي حصل له بغير اختياره، والصبر على البلاء الذي حصل له باختياره.

فمن البلاء الذي حصل له بغير اختياره الإحراق حين قال قومه: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾، [الأنبياء: ٦٨] ومن المعلوم ما يحصل للإنسان عندما يعزم على تحريقه لقاء الدعوة إلى الله؛ لأنه سيتألم لذلك ألماً بدنيًّا وألماً قلبيًّا. إن من الدعاة من إذا رأى عدم قبول الناس لدعوته تألم بمجرد أنهم لم يقبلوها فكيف إذا ردوها وأحرقوه من أجلها فهذا أشد ألماً على القلب، ولا شك أن هذا بلاء ومع ذلك صبر وأُلقي في النار، ولكن الله ـ عز وجل ـ أمرها أن تكون برداً وسلاماً عليه.

البلاء الثاني الذي حصل باختياره هو الأمر بذبح ابنه وعزمه على أن ينفذ ذلك. هذا من الثناء الحسن على إبراهيم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة (رقم ٦٦٩٦).

كذلك أيضاً إبراهيم اتفقت الأمم على الثناء عليه وعلى ألا يعاب، ولهذا قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩﴾. فإن قلت: إننا ـ نحن هذه الأمة ـ نسلم على إبراهيم وغيره فإننا نقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، قال النبي ﷺ: «**إنكم إذا فعلتم ذلك فقد سلمتم على كل عبد صالح في السماء والأرض**»[1].

فالجواب: نعم إننا نسلم على كل عبد صالح في السماء والأرض، ولكن سلامنا على إبراهيم وأمثاله من أولي العزم من الرسل أشد وأبلغ من سلامنا على عامة الصالحين.

*ومن فوائد الآية في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠﴾ أن الله تعالى كرر هذه الجملة المفيدة لهذا الحكم ترغيباً للناس في الإحسان فيستفاد منها: أنه ينبغي لمن تكلم في أمر يرغب فيه أن يكرر؛ لأن النفوس كلما تكرر لها الحكم ازدادت طمأنينة فيه ورغبة فيه، وفي مقام الترهيب كذلك يكرر، ألم تروا إلى قوله تعالى في سورة المرسلات: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾ [المرسلات: ١٥] حيث كررت عدة مرات تحذيراً وإنذاراً، فلكل مقام مقال. والتكرار قد يكون من الركاكة ومن البعد عن البلاغة، لكن إذا كان في موضع يحسن فيه كان ذلك من البلاغة، وهنا كرر الله هذه الجملة ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠﴾ في عدة آيات.

*ومن الفوائد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١١﴾:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العمل في الصلاة، باب من سمى قوماً أو سلم في الصلاة (رقم ١٢٠٢)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة (رقم ٤٠٢) (٥٥).

١ ـ الثناء على إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهذين الوصفين، وهما العبودية والإيمان، ويتفرع على ذلك:

أن من اتصف بالعبودية والإيمان ناله من الثناء بقدر ما اتصف به منهما، فكلما كان الإنسان لله أعبد وبه آمن كان الثناء عليه أكثر وأعظم، ولا تغتر بما تلاقيه في الدنيا من مجابهات، فإن هذا قد يرد ولكن يكون امتحاناً وابتلاءً واختباراً، ويكون الثناء ولو بعد موت الإنسان، كم من أئمة من هذه الأمة أوذوا في حياتهم، ولكن بعد مماتهم صار جزاء هذه الأذية أن الله تعالى رفع لهم الذكر. وصارت العاقبة لهم، والثناء الحسن بعد مماتهم، والشواهد على ذلك كثيرة.

٢ ـ ومن فوائدها: فضيلة العبودية لله ـ عز وجل ـ، والإيمان به لأنه لا شك أن المراد بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ الثناء عليه، وإذا علق الحكم على وصف فإنه يقوى بقوته ويضعف بضعفه. فإذا كان الثناء معلقاً بالعبودية والإيمان فكلما كان الإنسان أشد عبادة وأقوى عبادة كان أحق بالثناء، وكلما كان الإنسان أقوى إيماناً كان أحق بالثناء، والعكس بالعكس.

* ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾:

١ ـ مشروعية البشارة بالولد ـ وقد سبقت ـ وذلك لأن الولد يسر به الإنسان بلا شك، لاسيما إذا بشر بأنه نبي كما في هذه الآية ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾. أو بأنه غلام حليم كما في

الآية التي في إسماعيل عليه الصلاة والسلام.

٢ ـ ومن فوائدها: الدليل الظاهر على أن الذي أُمر إبراهيم بذبحه إسماعيل وليس إسحاق، وقد بينا فيما تقدم تسعة أوجه تدل على أن الذي أُمر بذبحه هو إسماعيل عليه السلام.

٣ ـ ومن فوائدها: إثبات نبوة إسحاق لقوله: ﴿بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا﴾.

٤ ـ أنه ينبغي عند البشارة أن يذكر ما يرجى من مستقبل ما بشر به، سواء كان ولداً، أم مالاً، أم زوجة، أم بيتاً، أم غير ذلك، فالإنسان إذا توقع خيراً في المستقبل فيما بشر به، فإنه ينبغي أن يقرن ذلك بالبشارة؛ لأن الله قرن نبوته بالبشارة به.

٥ ـ ومن فوائدها: الثناء على إسحاق ـ عليه الصلاة والسلام ـ بكونه ﴿نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ جمعوا بين الصلاح بأنفسهم والإصلاح لأممهم، فهم صالحون مصلحون.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن النبوة وصف كمال؛ لأن الله تعالى قرنها بالبشارة، فلولا أنها وصف كمال يستبشر به الإنسان لكان ذكرها لغواً لا فائدة منه.

* ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾:

١ ـ أن الله سبحانه وتعالى بارك على إبراهيم وعلى إسحاق فمن بركات إبراهيم أن جميع الأنبياء من بعده كانوا من ذريته، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ

وَٱلْكِتَٰبَ﴾. [الحديد: ٢٦]فمن سبق إبراهيم فهو من ذرية نوح، وأما من بعده فهو من ذرية إسحاق وإبراهيم، والذي ليس من ذرية إسحاق من ذرية إبراهيم، والذي من ذرية إسحاق من ذرية إبراهيم وإسحاق.

مثال: من لم يكن من ذرية إسحاق: إسماعيل ومحمد ـ صلى الله عليهما وسلم ـ. فإنهما من ذرية إبراهيم وليس من ذرية إسحاق.

أما أنبياء بني إسرائيل فكلهم من ذرية إسحاق.

٢ ـ ومن فوائدها: أن ذرية إبراهيم وإسحاق انقسموا إلى قسمين: محسن وظالم، وهذا يشمل: الإحسان المطلق، ومطلق الإحسان، والظلم المطلق، ومطلق الظلم.

فمطلق الإحسان يشترك معه مطلق الظلم؛ لأن من جمع حسنات وسيئات ففيه مطلق الإحسان ومطلق الظلم. أي ليس فيه الإحسان الكامل، لأن عنده ظلماً، وليس فيه الظلم المطلق، لأن عنده إحساناً.

فيكون الإحسان المطلق والظلم المطلق متقابلان. الإحسان المطلق هو الذي إذا فعل معصية ذكر الله فاستغفر فرفع عنه أثر المعصية، والظلم المطلق هو الكافر الذي ظلم بالكفر، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤] فذرية إبراهيم وإسحاق ينقسمون إلى ثلاثة أقسام عند التفصيل:

أ ـ المحسن المطلق هو المؤمن الذي إذا فعل فاحشة أو ظلم نفسه ذكر الله فاستغفر لذنبه ومن يغفر الذنوب إلا الله.

ب ـ الظالم المطلق وهذا الكافر.

ج ـ من عنده مطلق الإحسان وهو المسلم الذي عنده معاصي، ومطلق الظلم وهو كذلك المسلم الذي عنده معاصي، فإن كثرت معاصيه على طاعاته صار إلى الظلم أقرب، وإن كثرت طاعاته على معاصيه صار إلى الإحسان أقرب.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ أن الظلم يكون بيّناً أو مظهراً لصاحبه، على حسب القول في ﴿مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ هل هي بمعنى بيِّن أي: ظاهر، أو بمعنى مظهر لظلم صاحبه، لأن الظلم: قد يكون ظلماً بيِّناً واضحاً كالعدوان على الناس على أموالهم، ودمائهم، وأعراضهم، فهذا يكون الرجل فيه مظهراً لظلمه، وقد يكون خفيًّا يستتر به الإنسان، فهذا ظلم بيِّن بالنسبة له، ولكنه ليس مظهراً له؛ لأنه قد أخفاه عن الناس والله أعلم.

* * *

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾ موسى وهارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ من ذرية إسحاق، وأكد الله تعالى منته عليهما باللام، وقد، والقسم المقدر.

والمنة هي: العطاء بلا ثمن، وأعظم عطاء يعطيه الله تعالى الإنسان هو النبوة، ولهذا قال المؤلف: [بالنبوة]. ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ ذكر الله منته على موسى وهارون بالنبوة ثم بنجاتهما وقومهما من الكرب العظيم. والكرب يحتمل أنه الهلاك كما سبق في نظيرها، ويحتمل أنه ما لحقهما من الشدة

من فرعون، فإن فرعون استعبد بني إسرائيل، وصار يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، يذبح أبناءهم فأحياناً يذبحهم ذبحاً كالغنم، وأحياناً يقتلهم قتلاً، إما بأحجار، أو بغيرها، وكان يؤذيهم أشد الإيذاء، يسومهم سوء العذاب، ولا شك أن هذا سيكون فيه كرب عظيم على هؤلاء القوم، فنجاهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ من ذلك. فذكر الله منته عليهم به.

﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ ﴾ الضمير يعود على موسى وهارون وقومهما أي: نصرناهم على عدوهم، وأعظم انتصار ما حصل في النهاية حيث أمر موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يخرج من مصر فاتجه إلى البحر الأحمر، ولما بلغه أمر بضربه فضربه فانفلق، فخرج موسى وقومه سالمين، ودخل فرعون وقومه فهلكوا حتى أراهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ جثة فرعون فوق الماء؛ ليطمئنوا بموته ويتيقنوا ذلك، فلهذا كان ذلك نصراً لهم.

وقوله: ﴿ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ الغالبين في النهاية، وإلا فإن أول الأمر كان فرعون قد سامهم سوء العذاب، لكن العبرة بالنهاية، والنهاية أنهم غلبوا؛ لأن الله ـ عز وجل ـ يقول في آل فرعون: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الدخان: ٢٥ـ٢٧] يعني الأمر، كذلك مؤكد، ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾. [الدخان: ٢٨] وهؤلاء القوم هم بنو إسرائيل كما في آية الشعراء، فهذا من النصر العظيم أن الله تعالى يورث هؤلاء القوم الذين استضعفوا في الأرض، أرض هؤلاء العتاة الطغاة الفراعنة بكل سهولة.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾ أي: أعطيناهما الكتاب المستبين، وهو التوراة وسماه كتاباً؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كتبه بيده كما جاء ذلك في بعض الآثار[1]، فالله سبحانه وتعالى كتب التوراة بيده، قال الله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الإعراف: ١٤٥] فهي إذاً كتاب بمعنى مكتوب، ووصفه بأنه مستبين لأنه فيه تبيان كل شيء يحتاج إليه بنو إسرائيل، والمستبين أبلغ من المبين أو البيِّن؛ لأنه كلما كثرت الحروف كثرت المعاني في الغالب، ولهذا يقال: زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، لكن هذا ليس دائماً، بل في الغالب، فمثلاً كلمة (شجرة) حروفها أكثر من شجر ومع ذلك شجر أكثر من شجرة، وكذلك بقر ونمل وما أشبهه.

يقول الله تعالى: ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [البليغ البيان] أتى المؤلف بكلمة: البليغ: البيان من قوله: ﴿ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾ لأن زيادة حروفها تدل على زيادة معناها [فيما أتى به من الحدود والأحكام وغيرها]، ولهذا يقال: إن أشمل كتاب بعد القرآن هو التوراة، وقد جعلها الله تعالى عمدة لبني إسرائيل ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾. [المائدة: ٤٤]

﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ ﴾ الصراط: الطريق لكن

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٦٥٢) (١٣).

قال العلماء: إنه ليس كل طريق صراطاً، بل هو الطريق الواسع المستقيم المعتدل، الذي ليس فيه اعوجاج، وذلك لأنه مأخوذ من سرط أو زرط بمعنى التقمته بسرعة، فالطريق الواسع المستقيم العدل يسمى صراطاً، ولا شك أن صراط الله ـ عز وجل ـ الذي وضعه لعباده طريق واسع يسع كل من تمسك به.

وقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ ولم يقل إلى الصراط؛ لأن المراد بذلك هداية التوفيق وهداية الدلالة، وإذا كان المراد بالهداية الهدايتان فإنه يتعدى بنفسه، فيقال: اهدنا الصراط. وانظر إلى قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] وقال في حق النبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾. [الشورى: ٥٢] فإذا كانت الهداية بمعنى الدلالة تعدت بإلى، وإذا كانت بمعنى الدلالة والتوفيق تعدت بنفسها. ثم إنها إذا تعدت بنفسها تفيد الهداية إلى الصراط والهداية في الصراط، فتفيد المعنيين جميعاً: إلى الصراط بحيث يصل الإنسان إليه، وفيه بحيث لا يتجاوزه ولا يخرج عنه.

فحذف الجار فيه هذه الفائدة أن يكون أعم مما لو تعين الجار، فيكون شاملاً لهدايته إليه وللهداية فيه.

وقوله: ﴿المستقيم﴾ إذا جعلنا الصراط هو الطريق الواسع المعتدل صارت المستقيم بياناً للواقع وصفة كاشفة؛ لأن لو حذفت وقيل: الصراط. لاستغني عنها إذا فسرنا الصراط بما ذكرنا.

أما إن فسر الصراط بمطلق الطريق فلابد من ذكرها.

وقوله: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ يعني الذي استقام فليس فيه اعوجاج ولا انحراف، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾. [الأنعام: ١٥٣]

فالصراط المستقيم معتدل قائم، والسبل تخرج يميناً وشمالاً، ولذلك من خرج عن الصراط المستقيم ضاع وتاه، قال الله تعالى: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾. الأنعام: ٧١]

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أبقينا عليهما في الآخرين ثناءً حسناً ﴿سَلَٰمٌ﴾ منا ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾] يقال في هاتين الآيتين ما سبق، قال: [﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كما جزيناهما ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾] أيضاً نقول فيها كما سبق.

الفوائد:

١ ـ عظيم منة الله ـ عز وجل ـ على موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام بالرسالة؛ لأن الرسالة من أعلى مقامات البشر، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ﴾. [النساء: ٦٩]

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: تأكيد رسالتهما لقوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

٣ ـ ومن فوائدها: أن من منّ الله عليه بإرث الأنبياء بالعلم، فإن ذلك من أعظم المنن، ولهذا قال أهل العلم: إن العلم أفضل من المال، فلو اجتمع عالم وغني، فالعالم أفضل من الغني حتى

وإن بذل الغني ماله في سبيل الله، فالعالم المنتفع بعلمه والمعلم لغيره أفضل من صاحب المال.

٤ ـ ومن فوائدها: جواز تعدد الرسل في آنٍ واحد، وهذا قبل بعثة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أما بعد بعثته فهو خاتم النبيين ولا نبي بعده.

٥ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ بيان منة الله على موسى وهارون وقومهما بالنجاة من الهلاك، سواء كان على أيدي الفراعنة، أو بعذاب من عند الله ـ عز وجل ـ، فإن الله نجاهما، وقد ذكَّر الله قوم موسى بهذه النعمة ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [الإعراف: ١٤١] وفي آية أخرى: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾، [إبراهيم: ٦] لأنهم تارة يقتلونهم، وتارة يذبحونهم، كما تذبح الشاة ـ والعياذ بالله ـ إرهاباً وإزعاجاً، فأنجاهم الله منهم.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة في قوله: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ أن بني إسرائيل أصابهم كرب عظيم بسبب ما حصل لهم من استعباد فرعون لهم؛ لأنه كان استذلهم استذلالاً عظيماً، فمن العلماء من قال: إنه فعل ذلك لأنه قيل له: إنه سيولد منهم ولد يكون ذهاب ملكك على يده.

ومنهم من قال: بل فعل ذلك لمجرد إذلالهم خشية من أن يكثروا، ويكون لهم عزة وشوكة ومنعة، وكونه فعل ذلك من أجل الخوف من هذا الذي قيل عنه ما ـ قيل ـ يحتاج إلى دليل.

٧ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾ بيان منة الله ـ عز وجل ـ على الإنسان بالنصر، فإن النصر من أعظم النعم، لأن الإنسان يكون له عزة وغلبة، ويكون عدوه خائفاً منه، ذليلاً أمامه.

٨ ـ ومن فوائدها: أن الغلبة صارت في النهاية لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقومه، ويتفرع على هذه الفائدة:

أخذ العبرة من ذلك بأن النصر بيد الله ـ عز وجل ـ قد ينصر من هو ضعيف، وقد يذل من هو قوي، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾. [آل عمران: ٢٦].

٩ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن هلاك عدوك يعتبر غلبة لك، سواء كان هلاكه على يدك أو بعذاب من عند الله، فإنه بلا شك لم يكن هلاك فرعون وقومه على يد موسى وقومه، بل كان بفعل الله، ومع ذلك جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنجاء موسى وقومه من فرعون غلبة. والتخلص من العدو يسمى نصراً وفتحاً وغلبة، كما قال النبي ﷺ في غزوة مؤتة حين كانت الراية مع زيد بن حارثة، ثم كانت مع جعفر بن أبي طالب، ثم كانت مع عبدالله بن رواحة، وكلهم قتلوا ـ رضي الله عنهم ـ قال: «**ثم أخذها خالد ففتح الله على يديه**»[1]، وخالد ـ رضي الله عنه ـ لم ينتصر على الروم ولم يغلبهم، ولكن نجا منهم، فسمى النبي ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة (٤٢٦٢).

هذه النجاة فتحاً، كما سمى الله تعالى هنا نجاة موسى وهارون وقومه من فرعون أنها نصر وغلبة.

١٠ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾ بيان عظيم منة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بإيتاء الكتاب لموسى وهارون وهو من عطف الخاص على العام في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾ لأن إيتاء الكتاب أعظم منه، ويتفرع على هذا:

أن من آتاه الله علم كتابه وسنة رسوله ﷺ فله نصيب من هذه المنة.

١١ ـ ومن فوائد الآية: الثناء على التوراة في قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾ أي: البالغ البيان، ولا شك أن التوراة هي أعظم كتاب أنزله الله تعالى على بني إسرائيل.

١٢ ـ ومن فوائدها: أن الله ـ عز وجل ـ ينزل الكتب تبياناً للناس، فيؤخذ من ذلك أن العقول لا تستقل بمعرفة ما يجب لله من الحقوق، ولا بمعرفة ما يجب له من الصفات، ولا بمعرفة ما يجوز عليه ولا ما يمتنع. فيكون في ذلك رد على من حكموا العقول في باب أسماء الله وصفاته.

١٣ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ أن كل إنسان مفتقر إلى الله تعالى في الهداية مهما بلغت مرتبته، فهذا موسى وهارون منَّ الله عليهما بهدايتهما الصراط المستقيم، فلا يقول قائل: أنا عالم، أنا عابد. فيعتمد على نفسه ويعجب بها، بل يجب عليه أن يرى قدر نعمة الله عليه

بالهداية، فكم من أناس أضلهم الله وهم أقوى منه ذكاء.

١٤ ـ ومن فوائدها: أن صراط الله ـ عز وجل ـ صراط مستقيم، لا اعوجاج فيه ولا ارتفاع ولا انخفاض، فهو سهل لسالكه، ومن المعلوم أن الصراط إذا كان معوجًّا أو فيه انخفاض أو ارتفاع فإنه يعيق سالكه، لكن صراط الله على العكس من ذلك مستقيم.

١٥ ـ ومن فوائدها: أن الإنسان محتاج في الهداية إلى الصراط المستقيم إلى هدايتين: هداية دلالة وهي التي تتعدى بإلى، وهداية توفيق وهي التي تتعدى بنفسها، ولهذا قال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ ولم يقل: إلى الصراط.

١٦ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر موسى وهارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ في الآخرين وأثنى عليهما بما يستحقانه.

١٧ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ دافع عن موسى وهارون، حيث سلمهما من الثناء القبيح في الآخرين، هذا على القول بأن سلام على موسى وهارون متعلق بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا﴾ يعني أنه ترك عليهما السلام في الآخرين، أما إذا قلنا بأنه ترك عليهما ثناءً حسناً وجعلنا السلام من الله، فهو جملة مستأنفة لا تتعلق بما قبلها.

١٨ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾ بيان فضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده الذين أحسنوا، حيث يجزيهم بالحسنى، كما قال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. [يونس: ٢٦]

١٩ ـ ومنها أيضاً بيان فضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ على العباد من وجه آخر، وهو أنه هو الذي منّ عليهم بالإحسان أي جعلهم يحسنون، ثم منّ عليهم مرة ثانية بمجازاتهم على هذا الإحسان، وعلى هذا فكل إحسان تفعله فإن لله عليك فيه منتين.

المنة الأولى: توفيقك لهذا الإحسان.

والمنة الثانية: ثوابك على هذا الإحسان.

٢٠ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله ـ عز وجل ـ لا يجزي العامل لشخصه، وإنما يجزيه لعمله؛ ولهذا بين أن هذا الجزاء لا يختص بموسى وهارون، بل هو لكل إنسان محسن.

٢١ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ الثناء على المؤمن الذي حقق عبودية الله، لقوله: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

٢٢ ـ ومن فوائدها: أن البشر مهما علت منزلتهم ومرتبتهم فهم داخلون ضمن العبودية؛ لأن موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام من أكابر الأنبياء، ومع ذلك فإن الله تعالى وصفهما بالعبودية له سبحانه وتعالى.

ومن المعلوم أن وصف الإنسان بالعبودية لله شرف له وعز؛ لأنه ما من إنسان إلا وهو عبد، إما أن يكون عبداً لهواه، وإما أن يكون عبداً لمولاه، وكل إنسان له إرادة، وكل إنسان متحرك

ولكن ما هي الإرادة؟ وإلى أين التحرك؟ إن كانت الإرادة إرادة لله ـ عز وجل ـ والتحرك لدينه فهذه هي الحرية، وإذا كانت الإرادة لغيره والتحرك لغير شرعه فهذه رق. ولهذا نرى أن هؤلاء الفوضويين الذين يريدون أن يكون الناس فوضى مدعين أن هذه هي الحرية ـ نرى أن هؤلاء هم الذين ابتلوا بالرق؛ لأن الشيطان استرقهم وجعلهم عبيداً له، ولو عبدوا الله سبحانه وتعالى لسلموا من هذا الرق، فهم تركوا الرق الذي خلقوا له وبلوا برق النفس والشيطان، كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في النونية:

هربوا من الرق الذي خلقوا له
وبلوا برق النفس والشيطان

الرق الذي خلقوا له هو العبودية لله، لكنهم بلوا برق النفس والشيطان، فما من إنسان يهرب من عبادة الله إلا وقع في عبادة الشيطان ولابد. فالعبودية وصف كمال للإنسان إذا كانت لله، وإذا كانت للشيطان فهي وصف نقص.

٢٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة فضيلة الإيمان، لقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

٢٤ ـ ومن فوائدها: أن كل جزاء وكل وصف علق بالإيمان فإن للأنبياء منه الحظ الأوفر والأكمل.

***

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ الجملة هذه مؤكدة بـ (إن) و(اللام). ويؤكد الله مثل هذه الأشياء التي يكفي فيها خبره

ـ سبحانه وتعالى ـ عن كل توكيد جرياً على عادة العرب في توكيدهم الأمور الهامة، أو الأمور التي يكون المخاطب فيها شاكًّا، أو يكون المخاطب فيها منكراً، فهم يؤكدون الخبر لأسباب منها هذه الأسباب الثلاثة: أن يكون المخبر به أمراً هامًّا، أو أن يكون المخبر شاكًّا في الخبر، أو أن يكون منكراً له، فيؤكدونه زيادة في طمأنينة المخاطب، وإلا فإن مجرد خبر الله تعالى في الشيء يغني عن كل توكيد، وقوله: ﴿إِلْيَاسَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [بالهمز أوله وتركه] يعني أن فيه قراءتين إلياس بهمزة قطع، وترك الهمزة ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ الذي يظهر أنه من أنبياء بني إسرائيل، قال المؤلف: ـ رحمه الله ـ [قيل: هو ابن أخي هارون أخي موسى، وقيل: غيره، أرسل إلى قوم ببعلبك ونواحيها] ليس هناك دليل على أنه ابن أخي هارون أخي موسى لا من القرآن ولا من السنة، وذكر قصته بعد قصتهما لا يفيد ذلك فالله تعالى يذكر قصة هود بعد نوح ومع ذلك بينهما زمن طويل، ونحن لا يهمنا صلة هذا النبي بالنبي الآخر من حيث النسب، لكن الذي يهمنا صلة دعوتهما ببعض، كما قال تعالى في قصة إبراهيم: ﴿۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ [الصافات: ٨٣] فإن الأنبياء دعواهم واحدة، كلهم يدعون إلى توحيد الله، أما النسب فليس بهام.

فإلياس رسول أرسله الله تعالى إلى بعلبك ـ كما هو كلام المؤلف ـ

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [إذ منصوب

باذكر مقدراً] أي اذكر إذ قال لقومه، وإذا قلنا: إنه منصوب باذكر مقدراً فهل الخطاب للرسول ﷺ؟ يعني اذكر إلياس لقومك، أو الخطاب لكل واحد يصح خطابه، ويكون المراد بقوله: اذكر المقدر أي: تذكر، يحتمل هذا وهذا، وعلى كل حال فإن الله أمر نبيه أن يذكر للناس هذه القصة، وأمر كل واحد أن يتذكر هذه القصة، لأن في ذلك عبرة.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ ﴿أَلَا﴾ هنا: أداة تحضيض وليست أداة عرض؛ لأنه لا يقصد عرض التقوى عليهم، ولكن يحضهم على هذا، قال المؤلف: [ألا تتقون الله) فقدر المفعول المحذوف باسم الجلالة، ولكن الأولى أن يقال: إنه أعم من ذلك، ألا تتقون الله، ألا تتقون النار، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [آل عمران: ١٣١] ألا تتقون يوم الحساب كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] فحذف المفعول أعم، ولا ينبغي إذا دلت الآية على معنى أعم أن نقيدها بمعنى أخص؛ لأن هذا يعتبر نقصاً في تفسير الآية، بل إذا جاءت الآية عامة فلتبقى على عمومها، مطلقة فلتبقى على إطلاقها.

والتقوى: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار والتسفيه، وتدعون بمعنى تعبدون، فإن الدعاء يسمى عبادة. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠] ولم يقل: عن دعائي، وهذا يدل على أن

الدعاء يراد به العبادة وهو كذلك، ويحتمل أن يكون المراد بدعوتهم لهذا الصنم دعوة المسألة، وأنهم يستغيثون بهذا الصنم، وإن لم يركعوا له ويسجدوا له، كما يوجد الآن في كثير من المسلمين مع الأسف من يدعو الأولياء في قبورهم وإن كانوا لا يركعون لهم، ولا يسجدون، فكوننا نجعل الدعاء بمعنى العبادة أعم من أن نجعله بمعنى السؤال؛ لأن السؤال نفسه عبادة كل إنسان يسأل الله ولو حاجة دنيوية، فإنه يعتبر عابداً لله ـ عز وجل ـ مثنياً عليه، لأنه جعله المرجع ـ سبحانه وتعالى ـ وجعله ملاذه.

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [اسم صنم لهم من ذهب، وبه سمي البلد أيضاً مضافاً إلى (بك) أي أتعبدونه و﴿وَتَذَرُونَ﴾ أي: تتركون أحسن الخالقين.

وهنا قال: ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ ولم يقل: تذرون الله، بل قال: أحسن الخالقين، فلابد أن يكون هناك نكتة، فالعدول عن اسم الله الذي يختص به وهو الله لابد أن يكون هناك نكتة، النكتة هنا هي: إقامة الحجة عليهم بعدم صلاحية معبودهم للعبادة، لأنه لا يستطيع الخلق، والله وحده هو الذي يقدر على الخلق وعلى أحسن الخلق، فالله تعالى أحسن الخالقين، وكل من خلق شيئاً فالله تعالى أحسن منه خلقاً حتى الذين يضاهئون بخلق الله لا يمكن أن يخلقوا مثل خلق الله، بل هم يقلدون على خلق الله، ولا يمكن أن يأتوا بمثله ولا أحسن منه، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو أحسن الخالقين.

وفي قوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ﴾ إشكال، وهو أنه قد

يفهم فاهم من هذه الآية أنهم لو دعوا البعل ولم يذروا الله فلا إنكار عليهم، فما الجواب؟

الجواب أن يقال: يحتمل أن هؤلاء القوم يدعون البعل، ولا يدعون الله ولا يعبدون الله، كما يوجد الآن في طوائف الكفر من لا يرون أحداً يطاع ويتقى إلا زعماؤهم ورؤساؤهم، فالدول الشيوعية مثلاً كانوا لا يعرفون إلا ستالين ومن سن لهم هذه القوانين، ويرون أنه هو الرب الذي يجب أن يطاع وأن يخشى، ولا يعرفون الله، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ على ظاهره، أي أنهم يدعون هذا البعل، ولا يدعون الله.

ويحتمل أنهم يدعون البعل، ويدعون الله، ولكن من دعا غير الله ودعا الله فإن الله غني عنه، فيكون كالتارك لدعاء الله، كما صح الحديث عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه أنه قال: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيره تركته وشركه**»[1] وعلى هذا فيكون إلياس جعلهم تاركين لله لأنهم أشركوا به، ومن أشرك بالله معه غيره فالله غني عنه كأنه لم يعبد الله.

وعلى هذا فإما أن يكونوا قد تركوا الله على سبيل الحقيقة إذا كانوا يعبدون البعل ولا يعبدون الله، أو يكونوا تركواالله على سبيل الحكم إذا كانوا يعبدون البعل ويعبدون الله، فإن هؤلاء حقيقة تركوا عبادة الله؛ لأن الله تعالى غني عنهم.

---

(١) تقدم.

﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

قال المؤلف: [برفع الثلاثة على إضمار هو، ونصبها على البدل من أحسن].

الثلاثة: الله، ربكم، ورب آبائكم.

يقول فيها قراءتان: الأولى: الرفع، على أنها خبر مبتدأ محذوف يعني هو رب، وتكون هذه الجملة منقطعة عما قبلها، استئنافية لبيان من هو أحسن الخالقين.

والقراءة الثانية بالنصب ﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ على أنها بدل من أحسن. أي وتذرون ﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

ومعنى الآية: فـ ﴿ ٱللَّهَ ﴾ بمعنى المألوه، وأصلها الإله، لكنها حذفت الهمزة للتخفيف لكثرة الاستعمال، ﴿ رَبَّكُمْ ﴾ أي: خالقكم ومالككم، والمدبر لأموركم، لأن الرب كما تقدم هو الخالق، المالك، المدبر، ﴿ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾، يعني السابقين وهم: الأجداد، وإنما قال: ﴿ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ إشارة إلى:

أولاً: أن الله ـ عز وجل ـ هو الذي بيده خلق الحياة والموت، فإن هؤلاء الآباء الأولين قد أماتهم الله، فيذكر هؤلاء بأنهم سوف يموتون كما مات آباؤهم الأولون، ومن المعلوم أن الإنسان إذا كان له قلب وذكر بالموت وأنه سوف ينتقل من هذه الحياة التي هي حياة العمل إلى حياة أخرى وهي حياة الجزاء فلابد أن يلين قلبه، وأن يعمل للدار المستقبلة التي لابد أن يصير إليها،

فكونه يذكر الآباء الأولين إشارة إلى تذكيرهم بأنهم سيموتون كما مات هؤلاء فليستعدوا.

ثانياً: أن الله تعالى هو الخالق لموتهم وحياتهم، فإذا كان هو الخالق لذلك فإن الواجب أن يعبد وحده دون غيره، وهذا الصنم لايخلق الموت ولا الحياة.

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي: كذبوا ما جاء به خبراً وطلباً. كذبوه أنه رسول، وقالوا كما قال غيرهم ـ والعلم عند الله ـ ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [الشعراء: ١٨٦] بل كل الذين سبقوه من الرسل قيل لهم ذلك، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٩ـ١٠] فكل من سبق يكذبون رسلهم يقولون: أنتم بشر، يعني ولو شاء الله أن يرسل رسولاً لجعله ملكاً، ولكن الله رد على هؤلاء قال: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾ [الأنعام: ٩] أي في صورة الرجل؛ لأنه لا يتلاءم أن ينزل مَلَكٌ لبشر ليدلهم ويقودهم، وكيف يتبع الناس هذا الملك وهو على صورته الأصلية؟ لا يمكن لأنه لابد من التلاؤم، فلو أرسل الله ملكاً إلى البشر لجعله رجلاً مثلهم، وإذا جعله رجلاً عاد الأمر كما كان قالوا: نريد ملكاً، ولهذا قال: ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾. [الأنعام: ٩] ﴿ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (الفاء): هنا للسببية، أي: فبسبب تكذيبهم

أنهم لمحضرون، أي محضرون إلينا يوم القيامة وسيجازون على ذلك.

وأما قول المؤلف: [لمحضرون في النار] ففيه نظر؛ لأنه لم يسبق للنار ذكر، اللهم إلا أن يقال: إن الاستثناء ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ قد يدل على ذلك، لكن المعنى الذي أشرت إليه أولى: أي لمحضرون عندنا، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾. [يس: ٣٢] والمهم أن الله تعالى أخبر عن هؤلاء بأنهم سوف يحضرون إلى الله، وسوف يجازيهم على أعمالهم.

﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ وهذه الجملة مؤكدة بمؤكدين: إنّ، واللام ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ أي: الذين أخلصهم الله لنفسه، فأخلصهم من الشرك ومن تكذيب الرسل، والعبودية هنا عبودية خاصة.

والاستثناء هنا متصل على كلام المؤلف ـ رحمه الله ـ، وعلى ما أشرت إليه يكون منقطعاً، وجه ذلك أنه إذا قلنا: إنهم محضرون إلى الله فإنه لا يستثني أحد، كل سيحضر، وعلى هذا فيكون الاستثناء منقطعاً، يعني لكن عباد الله المخلصين سوف ينجون من هذا الحضور، أي من العذاب الذي يترتب على هذا الحضور والمجازاة.

أما على قول المؤلف ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ في النار، فإن الاستثناء متصل، يعني أن قومه يحضرون في النار إلا المؤمن منهم ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [ثناءً

حسناً ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ هو إلياس المتقدم ذكره، وقيل: هو ومن آمن معه، فجمعوا معه تغليباً، كقولهم للمهلب وقومه: المهلبون، وعلى قراءة (آل ياسين) بالمد، أي أهله المراد به إلياس أيضاً].

أفادنا المؤلف أن في الآية قراءتين: الأولى إلياسين، والقراءة الثانية: آل ياسين، أما على القراءة الأولى إلياسين فهل إلياسين، هو إلياس؟ أو من قومه؟

فيه قولان للعلماء: فمن العلماء من قال إن إلياسين هو إلياس، فيكون كقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ وهنا لم يذكر إلياس قال: سلام على إلياس، لكن اختلف اللفظ؛ لأن الاسم أعجمي، والعرب إذا عربت الاسم الأعجمي صار فيه شيء من التصرف، مثل جهنم يقال أصلها جهنام، وأصلها الفارسي كهنام، وعلى هذا لا نحتاج إلى التعب، فنقول: من أين اشتقت جهنم؟

وعلى كل حال: إذا جعلنا إلياسين هو إلياس نفسه صار جاء مرة بإلياس ومرة بإلياسين بناء على أن العرب يتصرفون في الأسماء الأعجمية المعربة، وفيه معنى آخر على القراءة الأولى إلياسين على أن المراد قومه، وأن الياء والنون زيدت كما تزاد في مسلم فيقال: مسلمين، فتكون إلياسين جمع لإلياس كما قال المؤلف: (المهلبون)، وأصلها يقال: المهلبيون، نسبة إلى المهلب، فآل ياسين أصلها إلياس ثم زيدت الياء والنون، وصار المراد بذلك قومه. هذا على قراءة إلياسين. فيكون فيها معنيان.

المعنى الأول: أنه إلياس نفسه، وهذا التصرف في اللفظ بناء على أنه اسم أعجمي، والعرب تتصرف بالأسماء الأعجمية عند تعريبها.

المعنى الثاني: أن المراد قومه وأنهم جمعوا باعتبار قومه.

أما على القراءة الثانية (آل ياسين) فهي أيضاً في كلمة ياسين تصرف تعريبي، لأن ياسين هو إلياس، وعلى هذا فيكون المراد بآل ياسين: إلياس وقومه، فآل الشخص يدخل فيهم، الشخص إلا إن ذكر معهم لم يدخل فيهم، كما تقول: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، أما إذا لم يذكر معهم فإنه يدخل فيهم كما في قوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦] ومنهم فرعون بل هو أولهم: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود: ٩٨] يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود.

الفوائد:

١ ـ من فوائد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ إثبات رسالة إلياس، وسبق لنا أن إلياس فيما يظهر من أنبياء بني إسرائيل.

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله ـ عز وجل ـ يثني على عباده بما يستحقون من الأوصاف في الآخرين ليبقى ذكرهم مخلداً.

فإنه لولا أن الله ذكر هؤلاء الأنبياء لطويت صحائفهم وما علم عنهم شيء.

٣ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾: دليل على أن التقوى تطلق على فعل الأوامر وترك النواهي، قال: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾؟ يعني بعبادة الله، ويدل لهذا قوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

٤ ـ ومن فوائدها: بيان تلطف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوة قومهم؛ لأنه قال: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ وهذا للعرض والحث، ولم يقل لهم: اتقوا الله، مع أن الرسل قد يقولون: اتقوا الله، لكن ينزل كل مخاطب منزلته بما يليق به.

٥ ـ ومن فوائد هذه الآية ـ وهي في الحقيقة فائدة في كل ما سبق من الآيات ـ اختصاص رسالة الرسول فيما سبق بقومه، لقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

فإن قال قائل: إذا أخذتم من إضافة القوم إلى الرسول اختصاص الرسالة بقومه، فإن الله تعالى وصف النبي ﷺ بمثل ذلك فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] فهل تقولون: إن النبي ﷺ مرسل إلى العرب فقط؟

فالجواب: لا، لكننا نأخذ عموم رسالته من أدلة أخرى كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الإعراف: ١٥٨] وكقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾. [الفرقان: ١] وكقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التيمم، باب (١) (رقم ٣٣٥) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (رقم ٥٢١) (٣).

٦ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾: بيان سفه هؤلاء القوم، لأنهم يعبدون البعل وهو صنم ربما صنعوه بأيديهم فكان مخلوقاً، ويذرون الخالق عز وجل الذي هو أحسن الخالقين، وهذا لا شك أنه غاية السفه، فإن أحق من يعبد هو الله ـ عز وجل ـ.

٧ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله ـ عز وجل ـ أحسن الخالقين خلقاً، في كل ما يعود إلى صفة الخلق من كمال الخلقة وجمالها ومناسبتها لطبيعتها وغير ذلك، ومن أراد أن يتوسع في هذا المجال فليقرأ كتاب مفتاح دار السعادة لابن القيم ـ رحمه الله ـ فإنه ذكر من ذلك العجب العجاب، في خلق الله عز وجل.

٨ ـ ومن فوائد الآية: أن غير الله تعالى يوصف بأنه خالق لقوله: ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾، ووجه ذلك أن في هذه الآية مفضلاً ومفضلاً عليه والمفضل الله ـ عز وجل ـ، والمفضل عليه ما سواه. ونقول: هذا هو الواقع أن هناك خالقين غير الله، لكن هذا الخلق ليس كخلق الله عز وجل، لأن خلق الله خلق إيجاد وأما خلق غيره فخلق تغيير وتحويل فقط. مثال ذلك: الذي خلق الخشب الله عز وجل، ثم يخلقه الآدمي فيحوله إلى أبواب وسرر وما أشبه ذلك، ويقال: خالق. والذي خلق الحديد الله عز وجل ويحوله الآدمي إلى أواني ومعدات ومراكب وما أشبه ذلك، فهذا ليس خلق إيجاد حتى نقول: إنه مشاركة مع الله، ولكنه خلق تغيير وتحويل، يحول الشيء من شيء إلى شيء، ولهذا قال الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في المصورين يقال لهم: «**أحيوا ما**

خلقتم»[١] وهم في الحقيقة ما خلقوا حتى وإن صوروا وأبدعوا في الصورة فإنهم لم يخلقوا كخلق الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ﴾ [الحج: ٧٣] حتى وإن أبدع المصور في تصويره الذي جعله على مثال الآدمي أو مثال الحيوان، فإنه لن يكون كخلق الله.

٩ - ومن فوائد قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ أنه ينبغي للداعية أن يذكر الإنسان بما يكون سبباً لاتعاظه لقوله: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ فيذكرهم بأن آباءهم قد فنوا وذهبوا، وإنكم أنتم سوف تذهبون كما ذهب الآباء.

١٠ - ومن فوائد قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ دليل على أن الإنسان مهما بلغ في عرض الدعوة إلى الله وبيانها والبلاغة في العظة فإنه لا يستلزم أن يؤثر فيمن وجه الخطاب إليه؛ لأن إلياس عرض الدعوة عليهم عرضاً رقيقاً، وبيَّن لهم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة ومع ذلك كذبوه. ويتفرع على هذه الفائدة:

أنه ينبغي للداعية إذا رُدّ قوله ألا يعتبر نفسه مقصراً أو فاشلاً، لأنه أدى ما عليه وهو البلاغ، والهداية على الله عز وجل: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾[البقرة:

---

(١) أخرجه البخاري كتاب اللباس، باب من كره القعود على الصور(٥٩٥٧) ومسلم، كتاب اللباس، باب تحريم تصوير صورة الحيوان (٢١٠٨) (٩٧).

٢٧٢] فلو أراد الله بهؤلاء خيراً لانقادوا للهدى، أما أنت فقد أراد الله بك خيراً لأنك بلغت ما عليك.

١١ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: ترتب الجزاء على العمل، وتؤخذ من الفاء الدالة على السببية ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ فالجزاء مترتب على العمل، وقد ذكر الله في آية أخرى أن الجزاء يكون من جنس العمل، فقال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠] قدراً وكيفية ثم فصل الله هذا الأخذ.

١٢ ـ ومن فوائدها: إثبات الجزاء المتسبب على العمل في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

١٣ ـ ومن فوائدها: إهانة هؤلاء وأمثالهم، حيث قال: ﴿لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ ولم يقل: نحضرهم، ولكنه في آية أخرى قد يضيف العقوبة إلى نفسه ـ عز وجل ـ، مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾. [مريم: ٦٨].

١٤ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ بيان أن العباد المخلصين لا ينالهم عذاب هؤلاء في الآخرة قطعاً، وفي الدنيا فإنه يوشك أن يعم الله تعالى الصالح والفاسد بالعذاب، ولاسيما إذا قصر الصالح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده.

١٥ ـ ومن فوائدها: الثناء على هؤلاء الذين اتبعوا الرسل، لكونهم عباداً لله ومخلصين.

١٦ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ

عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ بيان أن الله تعالى يجازي المحسن بالإحسان حتى بعد موته، لقوله: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾، والواقع شاهد بذلك، فإن أئمة الإسلام أبقى الله عليهم ثناء حسناً في الآخرين، وصدّ كل لسان يقدح فيهم فجعل فيهم الثناء وسلمهم من القدح.

١٧ ـ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ يستفاد منها ما سبق في قصة موسى وهارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ.

* * *

﴿وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ سبق نظيرها في آيات أخرى وأن فيها توكيداً من وجهين إن واللام. وأن التوكيد يؤتى به عند إنكار المخاطب أو شكه، أو أهمية المخبر به وإن لم يكن هناك شك أو إنكار. وقوله: ﴿وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ أي: لمن الذين أرسلهم الله تعالى، أرسل الله تعالى لوطا عليه الصلاة والسلام إلى قومه وكانوا ـ والعياذ بالله ـ يأتون الفاحشة وهي اللواط: يأتي الذكرُ الذكرَ، وهذه من أسفل الأخلاق ـ نسأل الله العافية ـ، ولهذا قال الله تعالى عن الزنا: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢] وقال عن اللواط على لسان لوط: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠]. يعني التي استقر فحشها في فطر الناس و(ال) تفيد التقبيح والتعظيم، ولا شك أن فاحشة اللواط أعظم من فاحشة الزنا؛ لأنها قلب للفطرة التي فطر الله تعالى الخلق عليها، ولأن فيها عزوفاً عما أحل الله ـ عز وجل ـ، وهكذا

الإنسان المبتلى بالمحرم يبتلى ـ والعياذ بالله ـ بالعزوف عن الحلال، فتجده مستغنياً بما حرم الله عما أحل الله، بخلاف الذي استغنى بالحلال عن الحرام، فإن الله تعالى يعينه ويجمل الحلال في عينه، ففي هذه الفاحشة عزوف الناس عن النساء، وبذلك يقل النسل وتقل الأمة وتضعف، وفي هذه الفاحشة أيضاً أسباب لأمراض كثيرة، فإن الإنسان ـ والعياذ بالله ـ إذا استعمل هذه الفاحشة فقد أتى الدبر الذي هو محل النجاسة والأذى، وإذا كان الله تعالى قال في المحيض ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فإن أذى العذرة أخبث من أذى الدم، فكان في هذا أذى وسبب لأمراض لا يعلم مداها إلا الله ـ عز وجل ـ، وفيها أيضاً قتل لمعنويات الرجال، فإن هذا المفعول به لن يبقى على حاله التي هو عليها، فسوف يكبر ويكون رجلاً فما مدى شعوره إذا قابل من كان يفعل به فعل الرجل بالمرأة؟! إنه ذل وخزي وعار ـ والعياذ بالله ـ، لهذا كانت هذه الفاحشة جديرة بأن يرسل الله تعالى رسولاً من أجل القضاء عليها، فإن لوطاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ أرسله الله تعالى بالتوحيد وبالقضاء على هذه الفاحشة العظيمة، ومع ذلك لم يؤمن معه إلا قليل، حتى أهله الذين هم أهله لم يتمحض إيمانهم، بل كان فيهم من ليس بمؤمن وهي امرأته، وبهذا نعرف مدى ما يناله الدعاة إلى الحق من الأذى والرد، ولا ينبغي للإنسان أن يستحسر إذا لم يجد قبولاً من الناس، فإن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وهم أكرم الخلق على الله لا يجدون قبولاً من كل أحد، قال النبي ﷺ:

«**عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد**»[١] . بل إن من الأنبياء من يقتل، فجدير بنا ونحن نسمع هذه القصص أن لا نضجر إذا لم نجد قبولاً، وأن لا نضجر إن رأينا أذى، وأن لا نضجر إن رأيناعدواناً، فلنصبر ولنحتسب، والوعد بالثواب أو بالعقاب يكون غداً.

فلوط أرسله الله تعالى إلى قومه، ولكنهم لم يقبلوا قوله حتى إن الرسل الذين جاءوا إلى لوط جاءوا قومه يهرعون إليه، يسرعون يريدون هؤلاء الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى على صورة شبان فتنة لهؤلاء، فراودوه عن ضيفه، فقال: هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين. أي خذوا النساء تزوجوهن، قالوا: لقد علمت ما لنا في بناتك من حق، وإنك لتعلم ما نريد. ولكن قال الله عز وجل: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧] فهؤلاء الرجال الذين جاءوا قيل: إن جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه. وقيل: إن الله تعالى طمس على أعينهم والله أعلم بكيفية ذلك، وهذا القول أحسن إلا أن يصح عن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أن جبريل ضربهم، فهؤلاء رجعوا عمياً، طمس الله أعينهم حتى صاروا لا يبصرون، والحاصل أنه لم يستجب له أحد من قومه، ولهذا قال: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ﴾ (إذ) ظرف لفعل محذوف تقديره: «اذكر» ولا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً (٦٥٤١) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول . . . (٣٧٤) (٢٢٠)

يصح أن تتعلق بالمرسلين، لأنه كان مرسلاً قبل أن ينجى ﴿وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ أي أهل بيته ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ مستثنى من أهل، فإنها لم تنج، وذلك لأنها كانت كافرة على دين قومها، ولهذا وصفها الله تعالى في سورة التحريم بالخيانة، والمراد بالخيانة الخيانة في الدين لا في العرض ﴿عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي الباقين في العذاب] وذلك أن لوطاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمر أن يخرج من القرية هو وأهله إلا امرأته، فبقيت المرأة فأصابها ما أصاب قومها من العذاب، ولهذا قال: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ أي: من جملة الغابرين الذين هلكوا ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ كلمة دمرنا تفيد معنى عظيماً وهو أن هذا الإهلاك كان إهلاك تدمير لم يبق لهم قائمة بعده، وهي أشد وقعاً في النفوس من (أهلكنا) فهي كقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦] وأمر الله مترفيها أمر قدري وليس شرعي كما قاله بعض الناس، وليس المعنى كما قال بعضهم: أمرناهم بالشرع ففسقوا، لأن هذا يقتضي أن الله تعالى أمر بالشرع من أجل الفسق، والله تعالى أمر بالشرع من أجل الطاعة، ولكن الأمر هنا أمر كوني لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢] ﴿ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي كفار قومه، وذلك أن الله سبحانه وتعالى أرسل عليهم حجارة من سجيل تضرب بيوتهم وتهدمها حتى جعل عاليها سافلها، لأن البناء إذا تهدم صار أعلاه أسفله، فدمروا حتى هلكوا عن آخرهم، وهذا الجزاء موافق ومناسب للعمل، لأن هؤلاء كما

قلبوا فطرتهم التي خلقهم الله تعالى عليها قلبت منازلهم فجعل عاليها سافلها.

وقال بعض أهل العلم: إن جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ حمل قراهم وهي سبع قرى حتى بلغ بها جو السماء ثم قلبها ثم أرسلت عليهم الحجارة[1]. ولكن في هذا نظر؛ لأن إرسال الحجارة عليهم بعد أن يقلبوا من السماء لا فائدة منه، إذ سيهلكون بدون هذه الحجارة، فالظاهر ما ذهب إليه بعض العلماء من أن هذه الحجارة ضربت بيوتهم حتى هدمتها فصار أعلاها أسفلها. وقولهم: إن القرى سبع. ظاهر القرآن أنها قرية واحدة قال الله تعالى عن الملائكة الذين أرسلوا ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ﴾، [العنكبوت: ٣١] وفي قوله: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ دليل على أن التدمير كان بعد أن نُجِّيَ لوط عليه الصلاة والسلام، وهو كذلك، فإن لوطاً لما فارق هذه القرى وأهله نزل بهم العذاب، ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [على آثارهم ومنازلهم في أسفاركم] ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ الخطاب في هذه الآية الكريمة قال المؤلف إنه لأهل مكة، ويمكن أن يقال: إنه عام لكل من يمر بقراهم إلى يوم القيامة؛ لأن هذا القرآن للأمة إلى يوم القيامة ﴿لَتَمُرُّونَ﴾ أكد المرور بمؤكدين: (إن) و(اللام).

فإن قال قائل: لماذا أكده بمؤكدين مع أنهم لا ينكرون أنهم يمرون؟

قيل: الجواب على ذلك: أن استمرارهم في تكذيب

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ـ رحمه الله ـ الآية (٨٢) من سورة هود.

الرسول ﷺ مع أنهم يمرون على ديار الذين أهلكوا يشبه المنكر والمكذب، فنزلوا منزلة المنكر المكذب؛ لأنهم لم يعتبروا، ولم ينتفعوا بهذا المرور، فهو كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١٥]. فالموت لا ينكر، فكل يقر بالموت لكن العاصي فعله فعل المنكر؛ لأنه لم يرتدع ولم يقم بما يجب عليه.

﴿مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ حال. وأول المؤلف ـ رحمه الله ـ الإصباح هنا إلى النهار، فيكون من باب التعبير بالبعض عن الكل، ولكن قد ينازع في ذلك، ويقال: إن الناس يمرون عليهم مصبحين، لأن أكثر سير الناس في السفر يكون في الليل وفي أول النهار، ولهذا قال النبي ﷺ: «**استعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا**»[1] والغدوة أول النهار، والروحة آخر النهار، فوسط النهار يكون المسافر نازلاً للراحة «وشيء من الدلجة» يعني أول الليل وفي آخر الليل يكون مستريحاً «**والقصد القصد تبلغوا**» يعني لا ترهقوا أنفسكم فتعجزوا «**إن المنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى**».

فالأولى إبقاء الآية على ظاهرها وأنهم يمرون عليهم في الصباح أول النهار حين يكون السير أطيب ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ قال النحويون: إن الباء هنا بمعنى (في) فتكون للظرفية، و(في) تأتي بمعنى الباء فتكون للسببية مثل قوله ﷺ: «**دخلت النار امرأة في**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر(٣٩) وكتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل(٦٤٦٣) واللفظ مركب من الموضعين.

هرة»[١] ففي هنا بمعنى الباء، أي بسبب هرة.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٣٨﴾ أي أفلا يكون لكم عقول، والمراد بالعقول هنا عقول الرشد لا عقول الإدراك، لأن عقل الإدراك موجود عند هؤلاء، وهم في الإدراك عقلاء أذكياء، ولكن عقول الرشد غير موجودة عندهم، لأن كل شخص يكفر بالله أو يعصي الله فإنه لا عقل عنده، لكن إن كان كافراً فقد انتفى عنه العقل بالكلية، وإن كان عاصياً فقد انتفى عنه من العقل بقدر معصيته. والاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٣٨﴾ للتوبيخ، لأن شخصاً يمر على ديار المكذبين ويرى آثارهم ولا يتعظ يستحق أن يوبخ، و(الفاء) هنا حرف عطف، والمعطوف عليه قيل: على ما سبق أي على ﴿لَتَمُرُّونَ﴾ وعلى هذا الوجه تكون الهمزة في غير محلها، أي أن الفاء تقدر قبل الهمزة فيكون التقدير: «إنكم لتمرون عليهم أفلا تعقلون».

وقيل: إن الهمزة مدخولها محذوف والتقدير: أسفهتم أو جهلتم أو ما أشبه ذلك مما يقتضيه المعنى، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف. وقد سبق لنا أن القول بأنها معطوفة على ما سبق أسهل؛ لأنه أحياناً يصعب عليك أو يتعذر أن تدرك المعنى المناسب الذي يمكن أن يكون معطوفاً عليه، فلهذا نقول: إن القول بأنها معطوفة على ما سبق على تقدير تأخير الهمزة الأولى.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم(٣٣١٨) ومسلم، كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة (٢٢٤٢).

س[1] : **قوله تعالى:** ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ ألا يدل أنهم قلبوا ثم أتبعوا بالحجارة؟

ج: لو كان العطف بـ (ثمَّ) لكان يدل على ذلك، لما أمطروا بالحجارة تهدمت بيوتهم فصار عاليها سافلها.

س: أين مكان قرى لوط؟

ج: يقال: إن البحر الميت هو محل قرية قوم لوط.

س: إذا كانت قرية قوم لوط البحر الميت فكيف تمر عليهم قريش؟

ج: يقولون: إنهم في ذهابهم إلى الشام يمرون عليهم.

س: كيف يمرون على البحر هل هم في سفينة؟

ج: يمرون عليهم أي من عندهم في البر لا في السفينة.

*** الفوائد:**

١ ـ أن لوطاً عليه الصلاة والسلام كان من الرسل، وقد مر علينا في التفسير أنه أرسل إلى قوم يأتون الفاحشة، وهي إتيان الذكران من العالمين، ويتركون ما خلق الله ـ عز وجل ـ لهم من الأزواج.

٢ ـ ومن الفوائد: عناية الرب عز وجل بالقضاء على سفاسف الأخلاق؛ لأن فاحشتهم هذه أوجبت أن يرسل الله إليهم رسولاً لدحضها والقضاء عليها.

٣ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ أن

---

(١) من أسئلة الطلبة.

الله سبحانه وتعالى ينجي الذين اتقوا بمفازتهم، وأن الله نجا لوطاً وأهله إلا امرأته، ويتفرع على ذلك:

أنه ينبغي للإنسان المؤمن أن يغلب جانب الرجاء إذا كان قد قام بحق الله تعالى، وذلك حيث نجَّا الله سبحانه وتعالى المؤمنين المخلصين من عباده من عقوبة المكذبين المستكبرين.

٤ ـ ومن الفوائد: أنه قد تكون المرأة الكافرة تحت الرجل المؤمن من غير أن يعلم بها لقوله: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ وقد بيَّن الله سبب ذلك، أي سبب وقوع العذاب عليها بأنها كانت قد خانت زوجها بالكفر من غير أن يعلم، ويتفرع على هذه الفائدة:

أنه ينبغي للإنسان أن يتفقد أهله، وأن يتحرى، وأن يسبر أمورهم.

٥ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ التحذير من أن يفعل الإنسان كفعل هؤلاء فيدمر، وتدمير قوم لوط حسي، ولكن ربما يدمر من شابههم تدميراً معنويًّا، وقد يدمر تدميراً حسيًّا، فيرسل الله مثلاً عليهم الصواعق والبرد وغير ذلك مما يدمرهم، لكن التدمير المعنوي محقق، وذلك بانقلاب الذكور إناثاً؛ لأن هؤلاء المفعول بهم ـ والعياذ بالله ـ يكونون كالمرأة تماماً هو نفسه يطلب الرجال ويتتبعهم، لعلهم يفعلون به ـ والعياذ بالله ـ لأنه انقلب وصار كالمرأة تماماً، ولا شك أن هذا تدمير للرجولة وقلب للمجتمع.

٦ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ الإشارة إلى أن الإنسان إذا رأى الشيء بعينه كان

ذلك أقوى يقيناً، مما إذا أخبر به لقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ وتشاهدون آثارهم، وهذا يسمى حق اليقين، والخبر به يسمى علم اليقين.

٧ ـ قد يقال إن قوله: ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ إشارة على أن السير في الصباح أحسن منه في آخر النهار، لقوله: ﴿مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ﴾ هذا إن قلنا: إن المراد بالإصباح الوقت الخاص وهو أول النهار، أما إذا قلنا: إن المراد بالإصباح كل النهار وأنه عبر بالبعض عن الكل، كما أشار إليه المؤلف فليس في ذلك دليل.

٨ ـ ومن فوائد هذه الآية: جواز المسير بالليل. ووجه ذلك أن الله أقرهم فقال: ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ ولكن هذه الفائدة فيها نظر؛ لأن الله يتحدث عن فعل هؤلاء المكذبين، فقد يقال: إن المراد بيان إقامة الحجة لا إقرارهم، ولكن السنة قد دلت على جواز المشي بالليل.

٩ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: النداء على من لم يتعظ بالسفة وعدم العقل لقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

١٠ ـ ومن فوائدها: أن العقل حقيقة هو ما أرشد صاحبه إلى فعل الخير وترك الشر، وليس العقل هو الذكاء، فالعقل شيء، والذكاء شيء آخر، وكل من كان مكذباً للرسل مستكبراً عما جاءوا به فإنه ليس بعاقل، حتى وإن كان من أدهى الناس، فالإنسان المكذب للرسل المستكبر عما جاءوا به ليس بعاقل وإن كان ذكيًّا حتى وإن كان ذا شرف وجاه، فإنه ليس بعاقل لقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ وقد قال الله مثل هذا في بني إسرائيل الذين

يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب فقال: ﴿**أفلا تعقلون**﴾ والله الموفق.

* * *

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ هذه الجملة مؤكدة بمؤكدين: الأول: إن، والثاني: اللام، وسبب التأكيد أن إثبات الرسالة أمر ينكره كثير من الناس، والشيء الذي ينكر يجب أن يؤكد بما يدل على ثبوته، سواء كان ذلك عن طريق التأكيد اللفظي بأدوات مؤكدات، أو عن طريق التأكيد المعنوي بذكر الآيات والشواهد الدالة على ثبوته، والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قد ثبتت رسالتهم: أي بالتوكيد اللفظي والتوكيد المعنوي، فأيدهم الله تعالى بالآيات الكونية والشرعية، وأيد الله رسالتهم بالمؤكدات اللفظية، كما في هذه الآية.

﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ يعني لمن القوم الذين أرسلهم الله تعالى إلى عباده، ولم يبين إلى من أرسلوا، لكن قد ذكر في آيات أخرى أنه أرسل إلى قومه، وكذلك صح عن رسول الله ﷺ أن كل نبي يبعث إلى قومه خاصة إلا النبي ﷺ فإنه بعث إلى الناس عامة[1]، ويونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو أحد أنبياء بني إسرائيل، أرسله الله تعالى إلى قومه، وسيأتي ـ إن شاءالله تعالى ـ بيان قصته هنا.

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ:

---

(١) تقدم تخريجه.

[هرب ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾: السفينة المملوءة حين غاضب قومه] ﴿إذ أبق﴾ يحتمل أن تكون ﴿إذ﴾ متعلقة بالمرسلين، أي لمن المرسلين في هذه الحال، أي أن إيباقه لم يسلبه الرسالة، ويحتمل أنها متعلقة بمحذوف تقديره: اذكر إذ أبق إلى الفلك المشحون. وهذا أحسن أن تكون متعلقة بمحذوف؛ لأنه لما أثبت رسالته بين حالاً من حالاته وهو إيباقه عليه الصلاة والسلام، وعلى هذا فنقول ﴿إذ أبق﴾ ليست متعلقة بالمرسلين، لأن رسالته كانت قبل أن يأبق، لكنها متعلقة بمحذوف، التقدير: اذكر إذ أبق، والإيباق هو الهرب، وكأنه عليه الصلاة والسلام خرج مسرعاً، لأنه خرج مغاضباً لقومه حين لم يؤمنوا ولم ينزل بهم العذاب. قال: ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ يعني السفينة وهي مراكب الماء، وقد أنعم الله على العباد بالفلك تجري في البحر بأمره، تحمل الأرزاق من جهة إلى جهة، وامتن الله بها على العباد وعظمت منته في عصرنا الحاضر، فإن الفلك في عصرنا الحاضر ليس كالفلك فيما سبق، فالفلك كان على الشراع والهواء، وكان له معوقات وفيه مخاطر عظيمة. أما الفلك الآن فعلى العكس من ذلك، ومنَّ الله أيضاً بالفلك على عباده في عصرنا الحاضر بأن تنوعت هذه الفلك فصارت فلكاً مائياً، وفلكاً بريًّا، وفلكاً هوائيًّا، فالهوائي الطائرات، والبري السيارات، والمائي السفن، وكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾. [الزخرف: ١٢-١٣].

﴿ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ يعني المملوء من الركاب، فركب البحر مغاضباً لقومه لما لم ينزل بهم العذاب الذي وعدهم به، فركب السفينة فوقفت في لجة البحر، فقال الملاحون: هنا عبد أبق من سيده تظهره القرعة، هكذا قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: إن السفينة وقفت في لجة البحر، وأن وقوفها كان بسبب إيباق يونس. فقال الملاحون وهم قواد السفينة: هنا عبد أبق من سيده تظهره القرعة، ولكن ما ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ ليس عليه دليل، وهو من الإسرائيليات البعيدة، بل إن هذه السفينة المشحونة لما كانت في عرض البحر وهي مملوءة وصارت في لجة البحر ثقل الحمل، وإذا ثقل الحمل فلابد من أحد أمرين: إما أن يخفف الحمل، وإما أن يغرق الجميع، ولا شك أن تخفيف الحمل أولى من غرق الجميع؛ لأنه إذا خفف الحمل نجا من بقي، وإذا بقي الحمل على ما هو عليه غرق الجميع، وبقاء البعض أولى من هلاك الكل، وهذا أمر عقلي، فاقترعوا إذ ليس إلقاء بعضهم في البحر أولى من إلقاء الآخر، فلا سبيل حينئذ إلى التخلص من هذه المشكلة إلا بالقرعة، فاقترعوا ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ اقترعوا أيهم الذي يلقى. ومن المعلوم أننا إذا علمنا من يلقى علمنا من يبقى، ولهذا قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [ساهم أي قارع أهل السفينة ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ المغلوبين بالقرعة فألقوه في البحر].

وظاهر صنيع المؤلف ـ رحمه الله ـ أنه لم يلق أحد سوى يونس، ولكن الآية تدل على خلاف ما يدل عليه كلام المؤلف،

لأنه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ (من) هنا للتبعيض أي: بعضاً منهم، وهذا يدل على أن القرعة أصابته وأصابت غيره أيضاً، فالمسألة الآن واضحة فالفلك كان مملوءاً، ولابد أن يغرق إلا أن يلقى بعض ركابه، وإلقاء بعض الركاب أولى من هلاك الجميع. ولا سبيل إلى إلقاء البعض على التعيين، لأننا لو عينا أحداً دون أحد كان في ذلك ظلم، وامتنع من عيناه، وصار في هذا خصومة، وربما غرقت السفينة في أثناء هذه الخصومة، إذاً فالطريق إلى تعيين من يلقى هو القرعة، فاقترعوا فأصابت القرعة قوماً ونجا منها قوم، وكان يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ من جملة الذين أصابتهم القرعة، فكان من المدحضين فألقي في البحر، قال الله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ ابتلعه ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي آت بما يلام عليه من ذهابه إلى البحر وركوبه السفينة بلا إذن من ربه].

التقمه الحوت التقاماً ولم يمضغه؛ لأنه لو مضغه لتكسر وهلك، لكن الله تعالى سخر له هذا الحوت فالتقمه التقاماً وابتلعه حتى وصل إلى مقر بطنه دون أن يصيبه أذى.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ الجملة هنا في موضع نصب على الحال من الهاء في قوله: ﴿التقمه﴾ لا من الفاعل في التقمه، لأن الفاعل الحوت، والحوت ليس بمليم، بل المليم الملتقَم ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ أي: يونس ومعنى (مليم): آت بما يلام عليه، كما يقال: (منجد) لمن دخل نجداً مثلاً، فمفعل قد تأتي بمعنى التلبس بالشيء، فالمليم هو الذي فعل ما يلام عليه،

والذي يلام عليه أنه خرج من قومه مغاضباً لهم قبل أن يأذن الله له، وكان الواجب أن يصبر، ولهذا قال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾. [القلم: ٤٨-٥٠]

فيونس - عليه الصلاة والسلام - التقمه الحوت في حال يلام عليها، ووجه ذلك أنه خرج مغاضباً من عند قومه بدون إذن من ربه عز وجل. ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

(لولا) ترد كثيراً في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية، وفي كلام الناس وهي ثلاث أدوات: (لو) و(لما) و(لولا):

* لو حرف امتناع لامتناع: لو جاء زيد لأكرمته، فالممتنع الإكرام لامتناع وجوده.

* ولما حرف وجود لوجود، لما جاء زيد أكرمته، فالذي وجد الإكرام لوجود المجيء.

* ولولا حرف امتناع لوجود تقول: لولا مجيء زيد لأكرمت فلاناً. فالذي امتنع إكرام فلان لوجود مجيء زيد.

وهنا ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ﴾ الذي امتنع اللبث لوجود التسبيح، لولا أنه أي: يونس ﴿كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [الذاكرين بقوله كثيراً في بطن الحوت ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾. [الأنبياء: ٨٧]

يعني لولا أنه كان من المسبحين بهذا اللفظ أو بغيره، وهذا أولى أن نقول بهذا اللفظ أو بغيره، أي: كان ممن يسبح الله ـ عز وجل ـ. إما قبل أن يلتقمه الحوت، أو في أثناء وجوده في بطن الحوت لولا هذا ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ﴾ أي: في بطن الحوت ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ لصار بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة. ولكن لوجود التسبيح السابق أنجاه الله سبحانه وتعالى، ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ﴾ النبذ بمعنى الطرح والإلقاء، وهنا قال، ﴿فنبذناه﴾ بصيغة الجمع مع أن النابذ واحد، ولكن أتى بصيغة الجمع من باب التعظيم، وذلك لكمال صفاته وكثرة صفاته عظم نفسه، ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي ألقيناه من بطن الحوت بالعراء بوجه الأرض أي بالساحل من يومه، أو بعد ثلاثة، أو سبعة أيام، أو عشرين، أو أربعين يوماً].

(العراء) وجه الأرض، والمراد به وجه الأرض الذي ليس فيه ما يظل من شجر ولا بناء، وسمي عراء لعروه عما يكسوه من الأشجار والبناء، فبقي ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الساحل ليس عنده بناء ولا أشجار تظله بل عراء، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لطف به، لأن رحمة الله سبقت غضبه. ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] وأما قول المؤلف: [إنه من يومه، أو بعد ثلاثة، أو سبعة، أو عشرين، أو أربعين يوماً] فهذه أقاويل وكلها ليس عليها دليل، لكن لا شك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أبقاه في بطن الحوت ما شاءالله أن يبقى، وأما تعيين ذلك فلابد فيه

من دليل عمن قوله حجة وهو الرسول ﷺ، وما عدا ذلك في مثل هذه الأمور فإنها لا تقبل.

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [عليل كالفرخ الممعط]، قوله: عليل تفسير للسقيم، والسقم بمعنى: المرض والعلة، وأما كونه كالفرخ الممعط، يعني: المنتوف شعره، فهذا ليس في الآية ما يدل عليه، لكن لا شك أن المريض يكون ضعيف البدن وليس عنده قدرة على مقاومة الشمس والهواء، وقوله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ يدل بظاهره على أن يونس بقي في بطن الحوت مدة أدت إلى سقمه.

﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ﴾ ولم يقل: (أنبتنا له)؛ لأنه بحاجة إلى ظل، فأنبت الله عليه ظلاً، ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾، (من) لبيان الجنس، كما يقال: خاتم من حديد، واليقطين هو: القرع، والقرع أنواع منها قرع يسمى عندنا (قرع نجد) هذا له شجر، وأشجاره لينة كالإِبْرَيْسَم ويقال: إنه لا يقع عليه الذباب.

النوع الثاني: من القرع فهو قرع ورقه خشن، حتى إن الإنسان إذا لمسه بيده يحس بالخشونة، والظاهر أن الذي أنبت الله عليه من النوع الأول اللين الذي يكون كالإبريسم، وهو أيضاً بارد الظل، فأنبت الله عليه هذه الشجرة، وأما قول المؤلف: [تظله بساقٍ على خلاف العادة] فهذا يحتاج إلى دليل، لكن لا شك أن الله أنبت عليه شجرة تظله، ولابد أن يكون لها نوع من الارتفاع، قال ـ رحمه الله ـ: [وكانت تأتيه وعلة صباحاً ومساء يشرب من لبنها حتى قوي]. الوعلة: الأنثى من الظباء يعني أنثى الأوعال،

فكانت تأتيه ويشرب من لبنها حتى قوي. وهذا الخبر يحتاج إلى دليل عن المعصوم، وليس فيه دليل عن رسول الله ﷺ، فهو خبر إسرائيلي نتوقف فيه لا نصدق ولا نكذب، إن كان الله تعالى قيض له ذلك، فالله على كل شيء قدير، وهذا سبب حسي؛ لأن الإنسان يحتاج إلى غذاء، وإن كان الله تعالى قد قواه على تحمل الجوع والعطش، فهذا أيضاً ليس ببعيد، وحينئذ نجعل الآية فيه: أن الله قواه على خلاف العادة. أما إذا جعلناها وعلة فهنا يكون بقاؤه وتغذيته على حسب العادة من وجه، ومعجزة من وجه آخر، حسب العادة، حيث تغذى باللبن كغيره من البشر، وعلى خلاف العادة حيث قيض الله له هذه الوعلة التي ليست من جنسه، تأتي حتى يشرب من لبنها، لكن إذا قلنا: إن الله قوّاه على تحمل الجوع والعطش صار هذا آية محضة، وليس هذا ببعيد، فإن النبي ﷺ لما نهى عن الوصال قالوا: يا رسول الله إنك تواصل، والوصال يعني أن يقرن الصائم بين يومين لا يفطر بينهما، قال: «**إني ليست كهيئتكم إني يطعمني ربي ويسقيني**»[1] يعني بلا أكل ولا شرب، ومع ذلك يكتفي بما أودع الله في قلبه من محبة الله وذكره عن الغذاء الجسدي، أي يكتفي بالغذاء الروحي عن الغذاء الجسدي، فالله على كل شيء قدير، ونظير هذا من بعض الوجوه أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب الوصال ومن قال: ليس في الليل صيام (١٩٦٣) ومسلم في كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم (١١٠٢) (٥٥).

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ٤٠] فهنا لم يذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ كيف نصره على قريش وهو في الغار، فعلى أي شيء يحمل؟ وردت أحاديث ضعيفة بأنه عششت عليه العنكبوت، وأنه صار على فم الغار حمامة، وأن الله أنبت شجرة تحجز رؤية المشركين للرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ[1] فهذه الثلاث أمور حسية تمنع من رؤية النبي ﷺ وصاحبه في الغار، ولكن وجودها في هذا الوقت آية، فالله ـ عز وجل ـ أنبت هذه الشجرة، وسخر هذه الحمامة لتقف على باب الغار، وسخر العنكبوت لتنسج على بابه، وهذه آية لا شك، ولكن هناك آية أعظم من هذا، وهي آية محضة وهي أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أعمى أبصارهم عن رؤية النبي ﷺ وصاحبه لأنهم وقفوا على الغار على أقدامهم حتى قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: «لو نظر أحدهم إلى قدمه لأبصرنا»[2] كما صح ذلك عند البخاري ومسلم وغيرهما، وهذا مما يدل على ضعف قصة العنكبوت والحمامة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ٣٤٨) وليس فيه ذكر للحمامة. وانظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٤٤) وقد مال محققا السيرة إلى تحسين حديث نسيج العنكبوت والحمامتين على باب الغار، استئناساً بتحسين الحافظين ابن حجر وابن كثير، انظر هامش السيرة. وانظر الفصول في سيرة الرسول ﷺ (ص/ ٥٢) طبعة دار الصفا، ومال محققه إلى تضعيف الخبر.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ (٤٦٦٣) ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه. (٢٣٨١)

والشجرة، لأن هذا الثاني أبلغ آية من الأول، وكلام أبي بكر رضي الله عنه يدل على أنه ليس هناك حاجز حسي يمنع من الرؤيا لا شجرة ولا عش عنكبوت، وليس هناك ما يبعد أن يوجد في الغار أحد من وقوع الحمامة على بابه، والحمامة قد تقع على باب الحجرة ولو كان فيها أحد ـ كما هو مشاهد كثير.

فالحاصل أن بعض الناس يأتون بمثل هذه الآيات ولا يفكرون بأنها تضعف جانب الآية، لأن كون الآية أن الله أعمى أبصار قريش عن رؤية الرسول ﷺ مع أنهم واقفون على الغار أبلغ بكثير من نسيج العنكبوت، أو الشجرة، أو الحمامة، وأحسن هذه الروايات من حيث السند نسج العنكبوت ومع ذلك فهو ضعيف، وإذا كان ضعيف السند وشاذ المتن لمخالفته ما جاء في الصحيحين فإنه لا يكون مقبولاً.

﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ أي أرسله الله تعالى بعد ذلك إلى قومه، وأتم رسالته إلى مئة ألف، وقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ اختلف العلماء هنا:

فقيل: إن (أو) بمعنى بل، كما قاله المؤلف: [بل يزيدون عشرين، أو ثلاثين، أو سبعين] وتعيين الزيادة بعشرين أو ثلاثين أو سبعين ألفاً لا دليل عليه، ولا يمكن أن تكون الزيادة سبعين ألفاً. لأنه لو كانت الزيادة سبعين ألفاً ما صح أن يقال: مئة ألف أو يزيدون، بل يقال إلى مئة وسبعين ألفاً، لأن الفارق بين العدد الأول والثاني كثير، فعلى كلام المؤلف يكون الله تعالى أرسله إلى أكثر من مئة ألف وتكون (أو) هنا بمعنى (بل)، والمراد ببل التي

كانت (أو) بمعناها الإضراب الانتقالي، وليس الإضراب الإبطالي.

وذهب بعض العلماء إلى أن (أو) هنا للتحقيق، وليست للإضراب، أي إن لم يزيدوا على مئة ألف، لم ينقصوا، فكأن ما بعد (أو) لتأكيد ما قبلها، وليس للزيادة عليه، كما لو سألك سائل عن قوم: كم عددهم؟ فقلت: مئة ألف أو أكثر. يعني أنهم إن لم يزيدوا لم ينقصوا، وليس المراد إثبات الأكثرية أو الزيادة على هذا العدد، بل المراد تأكيد هذا العدد.

وعلى هذا تكون (أو) هنا إما بمعنى (بل) وإما للتحقيق، أي: تحقيق العدد السابق.

فعلى القول الأول يكون المرسل إليهم زائدين على مئة ألف، وعلى الثاني يكون المرسل إليهم مئة ألف، لكن أكد ذلك بقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١٤٨﴾﴾ أي: أبقيناهم إلى حين، وهذا الحين هو وقت آجالهم التي قدرها الله لهم، يعني أنهم لم يهلكوا بهذا العذاب الذي أصابهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾﴾. [يونس: ٩٨].

في هذه الآيات فوائد:

١ ـ إثبات رسالة يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويتفرع على هذه الفائدة:

وجوب الإيمان به رسولاً من عند الله.

٢ ـ ومن فوائدها: الثناء على يونس لقوله: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ لأنه لا شك أن مقام الرسالة أعلى مقامات البشر، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾. [النساء: ٦٩] وهذا الذي عليه أمة الإسلام، أن مقام الرسالة أفضل من كل مقام، وأنها أعلى مقامات البشر، خلافاً لمن زعم أن أعلى مقامات البشر الولاية ثم النبوة ثم الرسالة، وقال في ذلك بعض الصوفية قولاً منكراً، فقال: «مقام النبوة في برزخ، فويق الرسول ودون الولي»، فالولي أعلى شيء، ولقد كذبوا في ذلك، فمقام الرسالة أعلى المقامات، وكل رسول فهو ولي، ولا عكس، ثم النبوة ثم الولاية.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا يجوز القدح في يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أجل ما حصل منه من عدم الصبر، فإن الله قال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾. [القلم: ٤٨] لكنه لا يجوز أن نقدح فيه لذلك، لأنه أحد الرسل، والقدح بالرسل كفر، بل إن النبي ﷺ قال: «**لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى**»[1]؛ لئلا يؤدي تفضيل الرسول ﷺ إلى احتقار يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات جماعة الرسل لقوله: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ ويقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾﴾ (٣٣٩٥) ومسلم في كتاب الفضائل، وفي باب في ذكر يونس عليه السلام (رقم ٢٣٧٦) (١٦٦).

فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ . [فاطر: ٢٤] أي ما من أمة من الأمم إلا جاءها رسول تقوم به عليها الحجة، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ . [النساء: ١٦٥].

٥ ـ ومن فوائد الآيات: أن مقام النبوة لا يمنع من فعل بعض ما لا يكون محبوباً إلى الله، أي أن الرسول قد يفعل بعض المعاصي، أو يقوم بشيء لم يؤمر به، دليل ذلك قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ والإيباق هرب العبد من سيده، والعبد إذا أبق من سيده فقد هرب منه تمرداً عليه، ولكن لا شك أن هذا الوصف إنما ينطبق على العبد المملوك للبشر لا على يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لكن الله عبر عن خروجه بالإيباق؛ لأنه خروجٌ لم يؤمر به، وهذه المسألة أعني مسألة عصمة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ محل خلاف طويل عريض بين العلماء ـ وقد سبق لنا في غير هذه الموضع بيان ذلك على وجه التفصيل ـ فذكرنا أنهم معصومون من كل ما يخدش الرسالة وينافي الرسالة مثل: الكذب والخيانة والشرك وما أشبه هذا، فهذا معصومون منه قطعاً؛ لأنهم إنما جاءوا لهدم الشرك، ولا يمكن أن يصدر منهم الكذب والخيانة، لأن هذا يؤدي إلى الشك فيما جاءوا به.

وثانياً: هم معصومون أيضاً من كل ما يخل بالشرف، كالسرقة وشبهها مما يعد دناءة وخسة، وذلك لأن النبوة أعلى مقامات البشر، فلا ينبغي أن يتخلق من اتصفوا بها بأرذل أخلاق البشر.

ثالثاً: أنهم معصومون من الاستمرار في المعصية، ولا

يمكن أن يقروا عليها، بل لابد أن ينبهوا عليها ويحصل منهم التوبة بخلاف غيرهم من الناس فإنهم قد يفعلون المعصية، ويقرون عليها ولا يوفقون للتوبة منها.

وأما القول بأنه لا ذنوب لهم مطلقاً، فهذا قول يخالف الكتاب والسنة، فإن الله تعالى قال في كتابه لأشرف الرسل ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] وقال له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح: ١ـ٢] وكان النبي ﷺ يقول: «**اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، علانيته وسره، وأوله وآخره**»(١)، «**اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت**»(٢) وكل هذا صريح في أن الرسول ﷺ قد يقع منه الذنب، ولكن الشأن كل الشأن أنه لا يقر عليه.

٦ ـ ومن فوائدها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد ييسر للعبد ما لا يكون له في الحسبان، وذلك من قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠﴾ حيث قدر له أن يركب هذا الفلك المملوء من أجل الغاية التي أرادها الله، وهي أن يلتقمه الحوت ويغيبه ويضيق عليه حتى يتبين له أنه لا مفر من قدر الله، كما قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ الأنبياء: ٨٧]

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود(٤٨٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت» (رقم ٦٣٩٨)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء... باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (رقم ٢٧١٩) (٧٠).

٧ ـ ومن فوائدها: جواز المساهمة يعني: القرعة لقوله: ﴿فساهم﴾ فإن قال قائل: هذا من شرع من قبلنا، فالجواب: أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، فكيف وقد ورد شرعنا بوفاقه، فإن النبي ﷺ كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيهما خرج سهمها خرج بها[1]، إذاً: يستفاد منه جواز المساهمة يعني: القرعة.

فإن قال قائل: المساهمة فيها خطر فهي ميسر، لأن الإنسان قد يكون غانماً وقد يكون غارماً.

فالجواب على ذلك من أحد وجهين:

الأول: المنع بأن نقول إن الإنسان لا يمكن في القرعة أن يكون غانماً أو غارماً، بل هو إما غانم وإما سالم، إما أن يغرم شيئاً فلا.

الثاني: التسليم بأنها فيها غرر، لكن الضرورة دعت إليها، إذ لا يمكن التوصل إلى التمييز بين المشتركين في حق من الحقوق إلا بالقرعة، ولذلك إذا أمكن التمييز بينهما بغير القرعة فإنه يجب التمييز بينهما بدون القرعة. فمثلاً أقرع النبي ﷺ بين زوجاته إذا أراد السفر لأنه لا يمكن أن يذهب بهن جميعاً، لأنه لو أمكن لذهب بهن جميعاً، إذاً لابد أن نميز من الذي يستحق أن يخرج، فهنَّ متساويات في الحقوق، ولا سبيل إلى التعيين إلا بالقرعة، فإذا خرجت القرعة لواحدة فالباقيات لم يغرمن شيئاً، غاية ما

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب حمل الرجل امرأته في الغزو دون بعض نسائه (٢٨٧٩) ومسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٢٧٧٠).

هنالك أنه فإتهنَّ ما يرغبن فقط، ولهذا إذا خرجت القرعة عن هذا إلى الميسر صارت حراماً. مثال ذلك: أراد اثنان مشتركان في قمح أن يقتسما القمح بينهما وهما شريكان بقدر النصف كل واحد له نصف، فقسم القمح أثلاثاً، أي: جعل ثلثان في جهة وثلث في جهة أخرى، وأرادوا القرعة أيهما يأخذ الثلثين فالقرعة هنا حرام؛ لأن أحدهما إما غانم وإما غارم، إما أن يأتيه أكثر من حقه، وإما أن ينقص حقه، فهذه تكون حراماً؛ لأنها صارت ميسراً، وإذا قسمنا القمح نصفين، وأردنا أن نميز كل واحد في حقه فما هو الطريق إذا لم يتنازل أحدهما للآخر ويخيره؟ فلا طريق لنا إلى التمييز بينهما إلا بالقرعة.

وهل ذكرت القرعة في القرآن في غير هذا الموضع؟ نعم في سورة آل عمران، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾. [آل عمران: ٤٤].

٨ ـ من فوائد الآية الكريمة: أنه ليس للمساهمة طريق معين فيسلك فيها ما يحصل به التميز: إما بكتب رقاع، أو بأحجار، أو بلفائف خرق أو بأي طريق، لأن المساهمة وردت في النصوص، ولم تعين طريقاً خاصًّا لها، فأي طريق توصلنا به إليها جاز.

٩ ـ من فوائدها: ارتكاب أدنى الضررين؛ لدفع أعلاهما، ووجه ذلك: أن هذه القرعة سيكون فيها هلاك بعض الركاب وهو أهون من هلاك الجميع، إذاً فالواجب إذا كان لابد من الضررين ارتكاب الأدنى، لأن ارتكاب الأدنى يسقط عنا ارتكاب المفسدة الزائدة، واجتناب المفسدة الزائدة واجب، ولهذا نقول: يجب

ارتكاب أدنى الضررين لدفع أعلاهما.

١٠ ـ وفي هذه الآيات: دليل على العمل بمثل هذه القضية يعني لو كان الناس في مركب، وكان المركب مشحوناً وكان لابد من إلقاء بعض الركاب أو هلاك الجميع، فإنه يجوز أن يلقى بعض الركاب لكن عن طريق القرعة، ليبقى البقية.

فإن قال قائل: كيف نلقي هذا الرجل في البحر في الهلاك؟ وهل هذا إلا قتل نفس، فما الجواب؟

فالجواب: نعم هو قتل نفس لكن لإبقاء نفوس، وأيما أولى أن يقتل الجميع، أو أن ينجو البعض، الثاني بلا شك أولى، وهذا أمر لابد منه؛ لأننا لو أبقينا الجميع لكنا تسببنا لهلاك الجميع، وكوننا نتسبب لهلاك البعض أهون من كوننا نتسبب لهلاك الجميع، لكن هذا بشرط ألا يكون هناك احتمال ولو ضعيفاً بالنجاة، فإذا كان هناك احتمال فإنه لا يجوز ارتكاب مثل هذا، وإذا كانت الفلك مشحونة بأمتعة وأطعمة وأغنام وآدميين، فنبدأ بإلقاء بالأمتعة الشيء الذي ليس فيه روح، فإن أمنا، وإلا ألقينا الأطعمة، فإن أمنا وإلا ألقينا الحيوان، فإن أمنا وإلا أقرعنا بين البشر.

١١ ـ من فوائدها: حصول آية من آيات الله ـ عز وجل ـ وذلك بتسخير هذا الحوت ليونس حتى التقمه بدون مضغ، ولا شك أن هذا من آيات الله، لأن مثل هذا بعيد في العادة، لأن العادة أنه يمضغ، لكن هذا التقمه جميعاً، لم يُكسر له عظم ولم يُهشم له شيء من أضلاعه أو غيرها.

١٢ ـ ومن فوائدها: حب الإعذار من الله ـ عز وجل ـ، وأنه يحب الإعذار من خلقه، أي إقامة العذر لما فعله ـ عز وجل ـ حتى لا ينسب فعله للظلم وللسفه، وتؤخذ من قوله: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ يعني ليس في حال لا يلام عليها، حتى يقال: إن في هذا ظلماً له أو سفهاً في حقه، بل التقمه الحوت في حال هو مستحق فيها لذلك، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

١٣ ـ ومن فوائدها: أن الأنبياء قد يأتون ما يلامون عليه، ولكن ييسر لهم الخروج من ذلك لقوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

١٤ ـ ومن فوائدها: أن الطاعات السابقة تكون سبباً للنجاة من المهلكات اللاحقة، لقوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ فيكون في هذا شاهد لقول النبي ﷺ: «**تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»[1].

وهذا كما أنه مقتضى النصوص القولية فهو مقتضى النصوص الحالية، فإن أصحاب الغار الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار نفعهم الله تعالى بما سبق من أعمالهم الصالحة[2]، فأنت إذا عملت عملاً صالحاً، فإن هذا العمل قد يكون سبباً لنجاتك من مكاره عظيمة، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وهنا قال ـ عز وجل ـ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ٣٠٧، وصححه محققو المسند (٥/ ١٨ ـ ١٩) رقم (٢٨٠٣) طبعة مؤسسة الرسالة.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار(٣٤٦٥) ومسلم، كتاب الذكر والدعاء... باب قصة أصحاب الغار الثلاثة... (٢٧٤٣).

١٥ ـ ومن فوائدها: أنه لو بقي في بطنه لكان فيه آية من آيات الله، أن يبقى هذا الحوت من ذلك الوقت إلى يوم القيامة، لأن هذا ظاهر اللفظ أنه يبقى في بطنه إلى البعث.

١٦ ـ ومن فوائدها: أن أفعال المخلوقات تنسب إلى الله ـ عز وجل ـ تقديراً وقضاء، وتنسب إلى العامل مباشرة وكسباً. وتؤخذ من قوله: ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ لأنه من المعلوم أن الذي لفظه هو الحوت، ومع ذلك لا نجزم بهذا، لأنه ربما أن الحوت لفظه، ويسر الله له من الريح ما يحمله إلى أن يصل إلى الأرض اليابسة، ويحتمل أن الحوت لفظه في الأرض اليابسة والله أعلم، المهم أن الله يسر له من أسباب الوصول إلى الأرض اليابسة ما أوصله إليها.

١٧ ـ ومن فوائدها: أن الإنسان لا ينبغي له أن ييأس من الشفاء ولو بلغ به من المرض ما بلغ، لقوله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ فهذا الرجل السقيم الذي بقي في بطن الحوت ـ ما شاءالله ـ وخرج سقيماً عافاه الله وشفاه فلا تيأس من رحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما يصيبك من المرض، فإن الله قد ييسر لك ما يكون سبباً لشفائك.

١٨ ـ ومن فوائدها: إثبات تأثير الأسباب، لقوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ لأن هذه الشجرة تظله وتبرد عليه وهي ـ كما أسلفنا ـ لينة الملمس، ويقال: إن الذباب لا يقع عليها، والله قادر على أن يظله بغمامة، وقادر على أن يبقيه في الشمس في العراء، ولا يتأثر، لكن الله ـ عز وجل ـ يبين لعباده أن

الأشياء تكون بأسبابها، ومرّ علينا في أصول الفقه بيان أن الأسباب مؤثرة، لكن لا بنفسها ولكن بما أودعه الله بها من أسباب التأثير.

١٩ ـ ومن فوائدها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يرسل الرسل السابقين إلى قوم مخصوصين لقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

٢٠ ـ استدل بعض المتأخرين بقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ على إثبات الإحصاء السكاني لأنه قال: ﴿إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ فأحصاهم عدداً، مع أنه لو قال: فأرسلناه إلى قومه. كفى لكن عدهم عدًّا، ولا نعلم لهذا فائدة إلا الإحصاء، ولا شك أن الإحصاء إذا كان فيه فائدة فإنه داخل في عمومات النصوص الدالة على وجود ما فيه الفائدة، أما إذا لم يكن فيه فائدة وإنما يكون تطويلاً للمدة وإضاعة للوقت، وإتلافاً للمال بما ينفق عليه، فإنه كغيره مما لا فائدة منه لا يكون مطلوباً.

٢١ ـ ومن فوائدها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنجى قوم يونس بعد أن عاينوا العذاب لقوله: ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

فإذا قال قائل: ما الحكمة أن يخص قوم يونس بأنه تقبل منهم التوبة بعد نزول العذاب؟

فالجواب: أن الحكمة من هذا أن نبيهم لم يصبر حتى تتم إقامة الحجة عليهم، بل خرج منهم مغاضباً قبل أن يؤذن له فلم تتم إقامة الحجة، فكان لهم شبه عذر في تأخير العذاب عنهم.

٢٢ ـ ومن فوائدها: أن الإنسان وإن نجا من الأسباب المهلكة فلن ينجو من الموت، بل لابد أن يموت طال الزمن أم قصر، لقوله: ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

٢٣ ـ ومن فوائدها: أن الإيمان سبب لطول الحياة لقوله: ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ ولا شك أن الإيمان سبب لطول الحياة، لأن نوحاً قال لقومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. [نوح: ٤] فبين لهم أنه إذا حصل منهم الإيمان والتوبة غفر الله لهم وأخرهم إلى أجل مسمى. وإن لم يفعلوا أهلكهم الله.

٢٤ ـ ومن فوائد الآيات كلها: إثبات عظمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لكونه يضيف الأفعال إلى نفسه بضمير الجمع، ومن المعلوم أن الله واحد، وقد اشتبه هذا على النصارى ـ عليهم لعنة الله ـ فقالوا بتعدد الآلهة لجمع الضمير الذي يضاف إلى الله ـ عز وجل ـ، وهذا من اتباع المتشابه فإنهم اتبعوا هذا المتشابه وأعرضوا عن الصريح في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾. [البقرة: ١٦٣]

* * *

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾. الأمر في قوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ يعود إلى رسول الله ﷺ والهاء في قوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ تعود إلى المشركين الذين جعلوا لله البنات ولهم البنون.

وقوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ أي اطلب منهم أن يفتوك. والفتوى في الأصل: بيان الحكم الشرعي. وتوجيه الاستفتاء إليهم من

باب التهكم بهم، كأنهم نصبوا أنفسهم حكماً يحكمون بما يشاؤون، وهذا كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٩] على أحد القولين في تفسيرها، وإلا فإن هؤلاء ليسوا أهلاً للاستفتاء فضلاً على أن يستفتوا عن هذا الأمر العظيم، لكن هذا من باب التهكم ثم بين المستفتي عنه فقال: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ والاستفهام هنا للتوبيخ، يعني يوبخهم على هذا الحكم المعلوم من قبل، لأنهم جعلوا لله البنات، وجعلوا لهم البنين، ولهذا قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ استخبر كفار مكة توبيخاً لهم] هذا يعود على الاستفهام، وأما التهكم فتوجيه الاستفتاء إليهم قال: [﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ بزعمهم أن الملائكة بنات الله، ﴿وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ فيختصون بالأسنى] أي بالأشرف، يعني هل هذا حكم صحيح عادل، أو حكم باطل جائز؟ والجواب: معلوم لكل أحد أن هذا حكم باطل جائر، ولهذا قال الله تعالى في سورة النجم: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾. [النجم: ٢١-٢٢] أي جائرة.

وقوله: ﴿وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ ليست الجملة حالية، بل هي معطوفة على الجملة التي قبلها، فهي داخلة في ضمن الاستفهام، يعني كيف يكون لله البنات ولهم البنون، فإن هذا حكم جائر، ولهذا قال: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ (أم) هنا منقطعة، و(أم) المنقطعة هي التي تكون للإضراب، ولهذا تقدر بـ(بل) والهمزة، فمثلاً: أم خلقنا الملائكة، تقدير الكلام:

بل أخلقنا الملائكة إناثاً، و(أم) تكون متصلة وتكون منقطعة، فإذا حل محلها بل وهمزة الاستفهام فهي منقطعة، وإذا كانت بمعنى (أو) فهي متصلة، تقول: أعندك زيد أم عمرو؟ يعني أو عمراً ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] يعني أو لم تستغفر لهم، والمتصلة تأتي بعد همزة التسوية غالباً.

﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا﴾ أي: جعلناهم إناثاً، وعلى هذا فتكون إناثاً مفعولاً ثانياً لخلقنا، ويجوز أن نجعل خلقنا على بابها، وتكون إناثاً منصوبة على الحال، يعني أم خلقنا الملائكة حال كونها إناثاً والجواب: لا ما خلق الله الملائكة إناثاً، بل ولا ذكوراً، ولهذا لا نصف الملائكة بالأنوثة ولا بالذكورة، لأن الملائكة لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون، لكن هم قالوا: إن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة إناثاً.

﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ في موضع نصب على الحال، يعني هل خلقنا الملائكة إناثاً حال كون هؤلاء شاهدين على خلقنا إياهم إناثاً؟ والجواب: لا، فما خلق الله الملائكة إناثاً ولا شهدوا خلقهم، وهذا كقوله في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: ١٩] والحاصل أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بين لهؤلاء حالين:

الحال الأولى: الحكم الجائر الذي حكموا به بينهم وبين الله، حيث جعلوا لله الملائكة وجعلوا لأنفسهم البنين، وهذا جور، كما تدل عليه آية النجم.

الحال الثانية: جعلهم الملائكة إناثاً، سواء جعلوا لأنفسهم البنين أم لم يجعلوا، وهذا أيضاً كذب وافتراء؛ لأنهم لم يشهدوا خلقهم حتى يحكموا عليهم بأنهم إناثاً، ولهذا قال: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

والملائكة: عالم غيبي خلقهم الله من نور، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. فهم عالم غيبي لا نشاهدهم إلا أن يرينا الله إياهم على سبيل الكرامة، أو على سبيل الآية، لأنه ما من إنسان إلا لديه ملكان عن اليمين وعن الشمال قعيد، وملائكة يحفظونه من بين يديه، يحفظونه من أمر الله، ومن خلفه، ونحن لا نشاهدهم، وملائكة يحضرون مجالس الذكر ولا نشاهدهم لأنهم عالم غيبي، والملائكة خلقوا من نور، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ[1]، وخلقوا صمداً يعني لا يأكلون ولا يشربون، لأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، والملائكة منهم من علمنا بأعيانهم ومنهم من لم نعلم، فمن علمنا بأعيانهم جبريل وميكائيل وإسرافيل الذي كان النبي ﷺ يسميهم في افتتاح صلاة الليل، فيقول: «**اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي إلى صراط مستقيم**»[2] فجبريل ـ عليه السلام ـ موكل بما في حياة

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد، باب في أحاديث متفرقة (٢٩٩٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (رقم ٧٧٠) (٢٠٠).

القلوب وهو الوحي. وميكائيل موكل بما فيه حياة الأرض وهو المطر والنبات، وإسرافيل بما فيه حياة الأجساد عند نفخ الصور، فإنه قد التقم الصور ينتظر متى يؤمر، فيجب علينا أن نؤمن بالملائكة إجمالاً فيما لم نعلم اسمه، وتعييناً فيمن علمنا اسمه، ونؤمن أيضاً بما نعلم من أوصافهم كجبرائيل له ست مئة جناح قد سد الأفق، وبما نعلم من أحوالهم وعباداتهم، لأن هذا من أصول الإيمان التي بينها الرسول ﷺ لجبريل ـ عليه السلام ـ حين سأله عن الإيمان قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته**»[1] وعلينا أيضاً أن نحب هؤلاء الملائكة وأن نجلهم ونعظمهم لأنهم عباد الله، عباد مكرمون منقادون لأمر الله، فنحبهم لله ـ عز وجل ـ، وعلينا أن نكرمهم فنبغض من عاداهم كاليهود مثلاً الذين عادوا جبريل، ونبغض أيضاً كل من سبهم أو تعرض لأذاهم، لأنهم من أشرف عبادالله.

وقد اختلف العلماء: هل الملائكة أفضل أم صالح البشر أفضل؟ والخلاف في هذا معروف مشهور، وأكثره خلاف جدلي، لأن المقام والمرتبة عند الله ـ عز وجل ـ تدل على أن البشر أفضل، لأن البشر يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾. [الرعد: ٢٣ـ٢٤].

ولهذا قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: البشر أفضل باعتبار

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان... (٥٠) ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.... (٩).

النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية، لأن البشر خلقوا من طين والملائكة من نور، والنور أشرف من الطين.

ثم قال الله تعالى مبيناً حكمهم الباطل الذي قد علم مسبقاً قبل أن يستفتوا قال: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: ألا، وإن، واللام.

أما (ألا) فإنها تأتي بلا شك للتوكيد، كما تأتي كذلك للتنبيه والاستفتاح، ولهذا يقال: ألا أداة استفتاح يراد بها التنبيه، والتوكيد، والتحقيق أي تحقق ما بعدها.

﴿أَلَآ إِنَّهُم﴾ أي هؤلاء الذين جعلوا الملائكة إناثاً، وهؤلاء الذين جعلوا لله البنات ولهم ما يشتهون ﴿إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أي من كذبهم ليقولون ولد الله، وهنا قدِم السبب على المسبب. السبب هو: الإفك، والمسبب القول، وقدم الإفك على القول لأهميته، ومن أجل أن يتبين للإنسان بطلانه من قبل أن يؤتى به، وإلا فمقتضي السياق أن يقال: «ألا إنهم ليقولون ولد الله»؛ لأن (ليقولون) خبر إن، وكان مقتضى السياق أن تباشر الاسم، لكن أخرت لبيان أن هذا القول باطل، حتى يرد على الذهن، وقد علم بطلانه، و(من) هنا للسببية، أي: ألا إنهم بسبب إفكهم.

ويجوز أن تكون للتبعيض، يعني: ألا إنهم ليقولون هذا القول المأفوك من جملة إفكهم؛ لأن إفكهم كثير، فهم جعلوا لله ولداً، وجعلوا لله شريكاً، وجعلوا لله زوجة، وكل هذا من الإفك.

فالحاصل أن ﴿من﴾: يجوز أن تكون للتبعيض، ويجوز أن

تكون سببية، وقوله: ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أي كذبهم، لأن الإفك هو الكذب، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١] أي بالكذب. ﴿لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾﴾ الجملة خبر إن، ومقول القول ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ وعلى هذا فنقول: إن ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ في محل نصب مقول القول.

وكيف قالوا: ولد الله؟ وبأي صيغة؟ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [بقولهم الملائكة بنات الله]، ومعلوم أن البنت من الولد فإن الولد في اللغة العربية يطلق على البنت والابن، قال الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾. [النساء: ١١].

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾. هذه الجملة مؤكدة بمؤكدين: إن واللام، والمراد بها إبطال هذا القول، فيكون الله أبطل هذا القول قبل التحدث عن مقوله، وبعده، فأبطله قبل التحدث عن مقوله في قوله: ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ وبعده بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ ونحن نشهد أنهم كذابون في هذا، فإن الله تعالى واحد أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. وقد برهن الله ـ عز وجل ـ على بطلان هذا في سورة الأنعام. فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾. [الأنعام: ١٠٠ـ١٠١]

فقال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾. [الأنعام: ١٠١] كيف يكون له ولد وليس له صاحبة، يعني زوجة؟ هذا مستحيل.

والثانية: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ والخالق لكل شيء لا يمكن أن يكون له ولد؛ لأن الولد جزء من الوالد، وإذا كان جزءاً منه لم يكن شيئاً مخلوقاً، لأن جزء الخالق يكون خالقاً مثله، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾. [الزخرف: ١٥]

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾. [الأنعام: ١٠١] وقد أعلمنا أنه ليس له ولد فكيف يكون خبره غير مطابق للواقع. فبرهن الله على امتناع وجود الولد من وجوه ثلاثة:

امتناع الصاحبة، وأنه خلق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، وعلمه بكل شيء وقد أخبرنا بأنه لم يلد يقتضي أنه لم يلد كذلك حقًّا، لأن هذا الخبر لابد أن يكون مطابقاً لعلمه.

﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ اصطفى أصلها اصتفى، وهي مأخوذة من الصفوة، وصفوة الشيء خياره، وعلى هذا فيكون معنى اصطفى اختار. وهنا قال: ﴿أصطفى﴾، والمعروف أن همزة اصطفى همزة ووصل لا همزة قطع، فلماذا كانت هنا همزة قطع؟ قال ـ رحمه الله ـ: [بفتح الهمزة للاستفهام]. فالهمزة هنا ليست همزة الوصل التي يؤتى بها للتوصل إلى النطق بالساكن، ولهذا لا يكون ما بعدها إلا ساكن، فالهمزة هنا ليست همزة وصل، ولكنها همزة استفهام، فاستغني بها عن همزة الوصل؛ لأنها أي: ـ همزة الاستفهام ـ مفتوحة فيسهل النطق بالساكن بعدها، وأصل همزة الوصل جيء بها من أجل التوصل إلى النطق بالساكن، وإذا كان لدينا همزة قطع فإننا نستغني بها عن

همزة الوصل، مع أنه يجوز وجه آخر في غير هذه الآية أصطفى البنات، فتقلب همزة الوصل إلى مد، ومنه قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النمل: ٥٩] ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾، [يونس: ٥٩] قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿أصطفى﴾ أي: أختار] أي هل يختار الله عز وجل البنات على البنين؟ يعني لو فرض فرضاً ممتنعاً غاية الامتناع أن الله يتخذ ولداً فهل يصطفي البنات على البنين؟ لا، لأن البنين أشرف من البنات، ولا يمكن أن يختار الله البنات على البنين، لو فرض الفرض الممتنع المقطوع بامتناعه أن الله يختار ولداً ما اختار البنات على البنين، كما أنكم أنتم لم تختاروا البنات على البنين، جعلتم البنين لكم ولله البنات، ولهذا قال: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ الجواب لا، لا يمكن.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ (ما) استفهامية وليست نافية وهي مبتدأ، والجار والمجرور (لكم) خبر.

والمعنى: أي شيء لكم حتى تحكموا هذا الحكم فتقولوا: إن لله البنات وهم الملائكة، وهذا الاستفهام للتوبيخ والإنكار، ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ أي هذا الحكم الفاسد، وهذا الحكم الجائر ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢٢] فهو حكم فاسد جائر.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ الاستفهام هنا أيضاً للتوبيخ وكل الاستفهامات هنا تفيد التوبيخ والتقريع مع فائدة أخرى إذا دل المقام عليها.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [بإدغام التاء

في الذال] أصلها (تتذكرون)، فأدغمت التاء في الذال فصارت: تذكرون.

وفي قراءة ﴿تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ قراءة سبعية، وهي الموجودة عندنا في المصحف، ومر علينا أنه إذا جاءت قراءتان في آية فإن الأفضل أن تقرأ بهذه مرة وبهذه مرة، لنحافظ على ما جاء في القرآن الكريم، لأن الكل من عند الله، إلا أننا قلنا: إن هذا لا ينبغي عند العامة، لأنه يحصل به فتنة العامي لأنه لا يفهم، وربما يكون عامياً عاطفياً غيوراً، فيرى أنك تحرّف القرآن فطالب العلم الذي يعلم أن هذه قراءة سبعية ينبغي له أن يقرأ بها مرة، وبما في المصحف مرة أخرى، حتى يأتي بالقرآن على الوجوه التي نزل بها.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ التذكر يعني الاتعاظ، أي أفلا تتعظون، فتدركوا أن ما حكمتم به حكم جائر غير مقبول منكم، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [أنه سبحانه منزه عن الولد]. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ منزه عن الولد بدليل العقل ودليل النقل.

أما دليل النقل فما أكثر الآيات التي يكثر الله فيها أنه لم يتخذ ولداً، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾. [الإخلاص: ١ـ٤].

أما الدليل العقلي فنقول:

أولاً: لو كان لله ولد لكان جزءاً منه، وكان مستحقًّا للعبادة، كما استحق ذلك والده.

ثانياً: لو اتخذ الله ولداً لكان هذا الولد حادثاً، والحدوث يمتنع أن يكون جزءاً من الله، لأن الله لم يزل ولايزال موجوداً بذاته ـ سبحانه وتعالى ـ، فإذا قدر أنه اتخذ ولداً صار هذا الولد حادثاً، فكيف يكون حادثاً وهو جزء من الله، لأن الولد جزء من الوالد، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥] وكما قال النبي ﷺ: «**إن فاطمة بضعة مني**»[(١)].

ثالثاً: يمتنع أيضاً أن يتخذ الله ولداً، لأن الولد لابد أن يكون مشبهاً لأبيه، والله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس له شبيه ولا يماثله أحد.

رابعاً: الولد إنما يتخذه من يحتاج إليه لبقاء النوع، والله ـ سبحانه وتعالى ـ غير محتاج لأحد، ولهذا إذا كان الإنسان عقيماً انقطع أثره من الدنيا، لكن إذا كان ولوداً وتولد له ولد بعد ولد بقي أثره في الدنيا، ولهذا كان التوالد بين البشر هو السبب الوحيد لبقاء النوع الإنساني، فهذه وجوه أربعة عقلية تدل على امتناع الولد على الله سبحانه وتعالى.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ هذا إضراب انتقالي، بل ألكم. والإضراب الانتقالي انتقل الله ـ عز وجل ـ من توبيخهم على ما

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فرض الخمس، باب ما ذكر من درع النبي ﷺ (٣١١٠)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي عليها السلام (٢٤٤٩) (٩٣).

حكموا به من الولد لله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى طلب الحجة، أي: بل ألكم سلطان مبين، والمراد بالسلطان هنا ما تكون به السلطة، والسلطان في كل موضع بحسبه.

ففي باب الولايات تكون السلطة بالإمارة، فالأمير: سلطان، وفي باب الأعمال تكون السلطة بالقوة، القوي القادر له سلطة على العمل. وفي باب المحاجة وطلب الدليل تكون السلطة بالدليل، فهنا ﴿سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ أي دليل، يعني هل لكم دليل، لأن الدليل تكون به السلطة للمحاج يعني إذا حاجك إنسان وصار معه دليل صار له سلطان عليك أي سلطة، ولهذا قال: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ وكلمة ﴿مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ هنا يحتمل أن تكون من أبان اللازم ومن أبان المتعدي. لأن أبان الرباعي يكون لازماً ويكون متعدياً، فإذا قلت: أبان الصبح. فهو لازم، وإذا قلت: أبان فلان الحق. هذا متعدٍّ. فكلمة ﴿مبين﴾ هنا هل هي لازم أي إن المعنى ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ﴾ بين، أم متعدٍّ أي: ألكم سلطان يبين ما تقولون أو يبين الحجة لكم؟ المتعدي هنا أحسن؛ لأن المتعدي متضمن للازم، لأن ما أبان غيره فهو بين في نفسه ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [حجة واضحة أن لله ولداً]. وصنيع المؤلف في قوله «واضحة» يدل على أنه جعل مبين من اللازم أي بين، ولكن الأرجح أنه من أبان المتعدي أي مبين، وذلك لأننا إذا جعلناه من المتعدي لزم منه وجود اللازم بخلاف العكس.

﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ هذا مفرع على قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ

مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ يعني إن كان لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم الذي به السلطان، والأمر هنا للتحدي والإعجاز مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] فقوله: ﴿بِكِتَابِكُمْ﴾ أي بكتابكم الذي به الحجة والسلطان، وقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: [التوراة] هذا لا شك أنه وهم؛ لأن هذه الآية ليست تخاصم اليهود حتى نقول إن المراد بذلك التوراة، إنما تخاصم المشركين الذين جعلوا الملائكة بنات الله، ولهذا في بعض نسخ المؤلف كلمة (التوراة) ساقطة، والنسخة التي سقطت منها أصح من النسخة التي ثبتت فيها، قال: [فأروني ذلك فيه] يعني أروني إن لله البنات في ذلك الكتاب الذي تأتون به، ثم أظهر إعجازهم بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ في قولكم ذلك، وهذا يدل على أنه لا يمكن أن يأتوا بكتاب فيه أن الله جعل الملائكة بنات له، فهذا شيء مستحيل.

و (إن) في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ شرطية، وتحتاج إلى فعل الشرط وجوابه، ففعل الشرط موجود: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ وجوابه قيل: إن جوابه محذوف دل عليه ما قبله، وهو: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ والتقدير: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ فيكون محذوفاً دل عليه ما قبله، ولا ينبغي ذكره أيضاً، لأن ذكره تطويل مستغنى عنه.

وقيل: إنَّ (إنْ) الشرطية في مثل هذا التركيب لا تحتاج إلى جواب أصلاً فتكون مسلوبة الجواب، وعلى هذا القول لا يكون في مثل هذا الترتيب تقدير، ويكون هذا المحذوف لما كان معلوماً

كان لا يحتاج إلى ذكره، وإذا لم نحتج إلى ذكره لم نحتج إلى تقديره.

﴿وَجَعَلُوا﴾ الضمير يعود على المشركين الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله.

فإن قال قائل: كيف يرجع الضمير إلى غير مذكور.

قلنا: إنه مذكور بالسياق فالسياق يعين مرجع الضمير، ولا يلزم في مرجع الضمير أن يكون اسماً ظاهراً بيناً، فإذا دل السياق على أن المراد به كذا عمل به. قال الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢﴾، [ص: ٣٢] فالفاعل في قوله: ﴿توارت﴾ يعود على الشمس مع أنه لم يسبق لها ذكر لأنه معروف.

وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦﴾ [الرحمن: ٢٦] (عليها) أي على الأرض مع أنه لم يسبق لها ذكر قريب، ولكن السياق يدل عليها، إذاً مرجع الضمير قد يكون متعيناً بالسياق.

﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ﴾ أي بين الله ﴿وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾ يقال: والجِنَّة والجَنَّة والجُنَّة، وكلها تدور حول الاستتار والخفاء، لأن هذه المادة الجيم والنون تدور على هذا المعنى: الاستتار والخفاء، ومنه الجنان: القلب، ومنه الجنين: الحمل، ومنه الجِنة: الجن، ومنه الجَنة: البستان ذو الأشجار الكثيرة، ومنه الجُنَّة: ما يستتر به المقاتل عن السهام كالترس.

فما المراد بالجنة هنا؟ يقول المؤلف: [الجنة أي الملائكة لاجتنانهم عن الأبصار] فهم عالم غيبي كالجن الذين هم ذرية

الشيطان، هذا ما ذهب إليه المؤلف ـ رحمه الله ـ ولكن هذا القول ضعيف جداً، لأن الجنة اسم للجن لا للملائكة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ [الناس: ٥ـ٦] يعني الجن، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٧٠] أي جن أصابه بمس، ولا يمكن أن يعبر بالجن الذين خلقوا من نار عن الملائكة الذين خلقوا من نور، وهم من أشرف خلق الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٦ـ٢٨] فالمراد بالجنة هنا الجن الذين هم: خلق غيبي خلقوا من نار، ولكن كيف جعلوا نسباً؟ المراد بالنسب مجرد الصلة وليس النسب الذي هو القرابة، بل النسب الذي هو الصلة، وذلك أن المشركين لما قالوا: إن الملائكة بنات الله. قيل لهم: لا بنات إلا بزوجة، قالوا: نعم إن الله ـ جل وعلا وسبحانه عما يصفون ـ تزوج من الجن جنية فولدت الملائكة ـ قاتلهم الله ـ هذا هو النسب الذي جعلوا بين الله وبين الجنة، فالمراد أن النسب هنا مطلق الصلة، لا صلة القرابة فقط، هذا هو المعنى الذي يدل عليه استعمال الجنة في كلام الله، وأن المراد بالجنة الجن، يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ موجهاً ما ذهب إليه من أن المراد بالجنة الملائكة قال: [لاجتنانهم عن الإبصار] وهذا لا يبرر أن نسمي الملائكة جنًّا.

يقول: [نسباً بقولهم: إنها بنات الله] فجعل النسب هنا بمعنى القرابة، ولكن هذا القول ليس بصحيح.

﴿وَلَقَدْ﴾ هذا الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات:

اللام، وقد، وهما ظاهران، والقسم المقدر، والتقدير: والله لقد علمت الجنة إنهم لمحضرون، والتأكيد هنا لا شك أنه في غاية ما يكون من البلاغة، يعني أن هؤلاء الجن الذين جعلوا بينهم وبين الله نسباً تعلم في حكم الله ما لا يعلمه هؤلاء، فإنهم يعلمون أن هؤلاء الذين كذبوا على الله ـ عز وجل ـ سوف يحضرون يوم القيامة، ويبعثون ويعذبون بما يقتضيه جرمهم ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ [أي قائلي ذلك ﴿لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ للنار يعذبون فيها].

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ اسم مصدر سبح، ومعنى قولنا: اسم مصدر سبح، يعني أنه اسم مصدر فعله سبح، والمصدر من سبح تسبيحاً، لكن سبحان بمعنى تسبيح فهي اسم مصدر؛ لأن كل كلمة تضمنت معنى المصدر دون حروفه فهي اسم مصدر، وأمثلته كثيرة منها: كلام بمعنى تكليم، وسلام بمعنى تسليم.

وسبحان الله يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ [تنزيهاً له]. والذي ينزه الله عنه:

الأول: النقص فيما أثبت لنفسه من الكمال.

الثاني: مماثلة المخلوقين.

قال الله تعالى عن الأول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [ق: ٣٨] وهذا يدل على كمال القدرة والقوة، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨] نفي لنقص القوة، يعني مع عظم هذه المخلوقات العظيمة وقصر المدة في خلقها لم يمس

الله ـ سبحانه وتعالى ـ شيء من اللغوب يعني من التعب والإعياء وهذا تنزيه عن النقص، وقال تعالى عن الثاني: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] تنزيه عن مماثلة المخلوقين.

﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ يعني عن النقص عما يصفون من النقص والمماثلة، بأن قالوا: إن لله ولداً، وهذا وصف لا يليق بالله ـ سبحانه وتعالى ـ، لأن ثبوت الولد يتضمن المماثلة ويتضمن النقص أيضاً، فهم بدعواهم الولد لله وصفوا الله بالنقص ووصفوه بمماثلة المخلوقين.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ العبودية مأخوذة من الذل، فالعابد بمعنى الذليل، والتعبد بمعنى التذلل، والعبودية نوعان:

عبودية للقدر، وعبودية للشرع. يعني تذلل للقدر، وتذلل للشرع.

أما عبودية القدر فإنها عامة لكل أحد، فما من إنسان إلا وهو متذلل لقدر الله تعالى لا يمكن أن يتخلص منه إطلاقاً، ودليل هذه قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾. [مريم: ٩٣]

كل من في السماوات والأرض فهو عابد لله ذليل له، ولا يمكن أن يخرج عن ذلة القدر، حتى أعتى الناس وأطغى الناس عبد لله بهذا المعنى، ففرعون عبدلله في هذا المعنى، ولهذا أدركه الغرق.

الثاني: عبودية الشرع يعني التعبد بشرع الله، وهذا خاص بالمؤمنين؛ لأن الكافرين لم يتعبدوا لله بشرعه، بل هم

مستكبرون، ومن أمثلة ذلك وأدلته قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] فالمراد بالعبودية هنا عبودية الشرع. يعني الذين تعبدوا بشرع الله، وهذه خاصة بالمسلمين المنقادين لأمر الله، وهذه تنقسم إلى قسمين: قسم أخص من الآخر، فعبودية الرسالة والنبوة أخص من عموم عبودية الإسلام، فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] هذه عبودية رسالة فهي أخص من قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ الفرقان: ٦٣] وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان ١] هذه أيضاً عبودية خاصة الخاصة، أخص من قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾. [الفرقان: ٦٣]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢] إن جعلنا الاستثناء منقطعاً فالعبودية عبودية الشرع خاصة، وإن جعلنا الاستثناء متصلاً فهي عبودية القدر، ولذلك اختلف العلماء فيها هل الاستثناء منقطع أو متصل؟ هذه الآية أيضاً نظيرها ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ أي المؤمنين الذين أخلصهم الله تعالى لنفسه.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [استثناء منقطع] والاستثناء المنقطع علامته: أن يكون ما بعد (إلا) من غير جنس ما قبلها، وأن تكون (إلا) بمعنى (لكن)، ولهذا نسميه استثناء منقطعاً، كأن ما بعدها انقطع عما قبلها، وعليه إذا كان الاستثناء منقطعاً كما قال المؤلف نقول: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ معناها لكن عباد الله

المخلصين لم يصفوه بهذا الوصف. ولهذا قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [فإنهم ينزهون الله تعالى عما يصفه هؤلاء].

وذهب بعض العلماء إلى أن الاستثناء هنا متصل، فهو مستثنى من الواو في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ ويكون المعنى سبحان الله عما يصفه الناس كلهم ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ يعني إلا ما يصفه به عباد الله المخلصون، فإنه متصف به، وهذا احتمال، لكن ظاهر السياق ما ذهب إليه المؤلف، وأن قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ عائد إلى المشركين الذين وصفوه بأن له بنات، وهؤلاء لا يدخل فيهم المؤمنون، فالمؤمنون ليسوا من جنس المستثنى منه، وحينئذ يكون الاستثناء منقطعاً، ويكون فائدة هذا الاستثناء المنقطع الثناء على عباد الله المخلصين، حيث لم يصفوه بما وصفه به هؤلاء.

الفوائد:

١ ـ في قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾: تحدي أهل الكفر والشرك ببيان الدليل على ما يقولون من الكذب والافتراء.

٢ ـ ومن فوائدها: التهكم بهؤلاء المشركين، حيث جعلهم بمنزلة العلماء الذين يستفتون، وهم أجهل الناس بلا شك.

٣ ـ ومن فوائدها: بيان جور هؤلاء المشركين، حيث جعلوا لله البنات وهم يكرهون البنات، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل: ٥٨] مع أن البنين والبنات كلها ممتنعة عن الله؛ لأن الله لم يلد ولم يولد.

٤ ـ ومن فوائد الآيات: الإنكار على هؤلاء الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله، لقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

٥ ـ ومن فوائدها أيضاً: تحدي هؤلاء الذين ادعوا أن الله ـ سبحانه ـ وتعالى جعل الملائكة بنات له، لأنه يقال لهم هل شهدتم خلق الله للملائكة حتى تعلموا أنها بنات الله؟ والجواب: ما شهدوا، ولهذا قال: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

٦ ـ ومن فوائدها: إثبات الملائكة عليهم الصلاة والسلام، والإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الستة كما هو معروف.

٧ ـ ومن فوائدها: أن كل من ادعى دعوى فإنه يطالب بالبينة عليها لقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾. فهل هم شاهدون حتى يدعوا ذلك؟

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: تأكيد إفك هؤلاء الكاذبين، الذين ادعوا أن لله ولداً، لقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

٩ ـ ومن فوائدها: أن هؤلاء لهم إفك متعدد، بناء على أن (من) للتبعيض ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾.

١٠ ـ ومن فوائد الآيات: أن الله تعالى منزه عن الولد، لأن الله جعل هذه الدعوة إفكاً وكذباً، وأكد الله ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

١١ ـ ومن فوائد الآيات أيضاً: الاستدلال على هؤلاء بدلالة

العقل، وهو أن يقال: كيف يصطفي الله البنات على البنين؟

هذا ليس بعقل وليس بمعقول، ولكن هم يجعلون هذا الشيء أمراً معقولاً، وواجباً أيضاً أن يكون لله البنات ولهم البنون.

١٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء الذين حكموا بهذا الحكم أشبه ما يكونون بالمجانين، ولهذا خوطبوا بمخاطبة المجنون حيث قيل لهم ﴿ما لكم﴾؟ ما هذا العمل؟ هل هذا عمل عاقل؟

١٣ ـ ومن فوائدها: الإنكار على كل حكم باطل لقوله: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ فإن هذا إنكار عليهم بهذا الحكم الذي يعلم بطلانه بضرورة العقل والنقل.

١٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: الإعلان بسفه هؤلاء، وإنهم لا ينتفعون بالآيات لقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

١٥ ـ ومن فوائدها أيضاً: توبيخ من لم يتذكر، لأن المراد بالاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ هنا التوبيخ، فكل من لم يتذكر بآيات الله فلا شك أنه مستحق للوم والتوبيخ.

١٦ ـ ومن فوائدها: إظهار عدل الله ـ عز وجل ـ في مجادلة العدو والخصم لقوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ فلم يقتصر الله ـ عز وجل ـ على أن كذبهم، بل طلب منهم الحجة إن كانوا صادقين في دعواهم، ومن المعلوم أنهم لن يقيموا الحجة، ولهذا قال: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

١٧ ـ ومن فوائدها أيضاً: جواز تحدي الخصم بما يعجز عنه، وأن ذلك طريق من طرق إفحامه، وذلك أن الخصم عند

المناظرة يمكن إبطال حجته بعدة أساليب منها: التحدي ولكن يجب أن يكون التحدي بما لا يمكن أن يقيم عليه البرهان والدليل؛ لأنك لو تحديته بشيء يمكنه أن يقيم عليه الدليل والبرهان، فأقام عليه الدليل والبرهان لخصمك ولضعف جانبك، فإياك أن تتحدى عند المناظرة إلا بشيء تعلم أنه لا يمكن أن يكون، ولهذا ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ في محاجة إبراهيم مع الرجل، حين قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾. [البقرة ٢٥٨] فإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ تحداه أولاً بأن الله يحيي ويميت، وأنت أيها المحاج لا تحيي ولا تميت، فلما ادعى كذباً أنه يحيي ويميت، وكان في ذلك تلبيس على العامة، لأنه قال: أنا أحيي وأميت، آتي بالرجل المستحق للقتل فلا أقتله، فهذا على زعمه إحياء، والحقيقة أن هذا ليس إحياءً ولكنه رفع سبب يكون به الموت، وقد يبقى هذا الذي رفعنا عنه سبب الموت وقد لا يبقى.

وقال: إني أوتى بالرجل البريء فأقتله، فهذا إماتة على زعمه، وهذا ليس بإماتة، ولكنه فعل سبب يكون به الموت، وقد لا يكون به الموت، فالحاصل أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أراد قصر الطريق واختصاره، قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فانقطعت الحجة ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾، وهذا من آداب المناظرة وهو إفحام الخصم بما لا يمكن أن يقيم عليه الحجة والبرهان.

ولكن كما قلت: يجب أن تلاحظ أنك إذا أفحمته أو تحديته بشيء يمكنه أن يقوم به فقام به، فهذا إضعاف لجانبك، وسيكون هذا أحد طرق هزيمتك ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾.

١٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الحجة سلطان لصاحبها، لأنه يكون بها السلطة على خصمه الذي يحاجه.

١٩ ـ من فوائدها: أن من تحدى غيره فله طلب البينة على ما قال ذلك الغير لقوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾.

٢٠ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن حجة القرآن حجة دامغة ملزمة، لا يمكن التخلص منها، ولهذا تأتي دائماً بصورة التحدي إظهاراً لعجز المعارض، وعدم قدرته على المعارضة.

٢١ ـ ومن فوائده: أن هؤلاء كاذبون فيما ادعوه عاجزون عن إقامة البرهان عليهم لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

٢٢ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾: بيان عتو هؤلاء وطغيانهم، حيث وصفوا الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما لا يليق به، فجعلوا بينه وبين الجن نسباً.

٢٣ ـ ومن فوائدها: أن هؤلاء الذين جعلوا بينها وبين الله نسباً يعلمون أن هؤلاء معذبون على ما قالوا، محضرون في النار، لقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

٢٤ ـ ومن فوائدها: أن هذه الجنة متبرئة مما يدعيه هؤلاء بجانبها، لأنها إذا علمت أنها محضرون في العذاب فإنها لن تقرهم على ما ادعوه لله ـ سبحانه وتعالى ـ من الولد.

٢٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾: تنزيه الله عما وصفه الظالمون المعتدون لقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

٢٦ ـ ومن فوائدها: أن صفات الله تكون سلبية ـ أي دالة على النفي ـ وتكون ثبوتية ـ أي دالة على الإيجاب ـ.

فقوله: ﴿سبحان الله﴾ هذا من صفات النفي، لأنه تنزيه، وصفات النفي التي وصف الله بها نفسه لا تدل على النفي المجرد، لأن النفي المجرد ليس بشيء فضلاً عن أن يكون مدحاً، وإنما تدل على ثبوت كماله المنزه عن هذا العيب، فتنزيه الله عما لا يليق به يتضمن كماله فيما يختص به سبحانه وتعالى، وهذه قاعدة في جميع الصفات المنفية: أنه لا يراد بها النفي المجرد، لأن النفي المجرد ليس بشيء؛ لأنه نفي، فضلاً عن أن يكون مدحاً إنما يراد بها إثبات كماله سبحانه وتعالى في صفاته حتى انتفى عنه كل صفة نقص.

٢٧ ـ ومن فوائد الآيات الكريمة: أن من عباد الله ـ سبحانه وتعالى ـ مَنْ منَّ عليهم فأخلصهم وأخلصوا له الحق، لقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ الذين أخلصهم الله مما أصيب به غيرهم، والذين أخلصوا لله فيما يصفونه به.

٢٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذا القرآن الكريم مثاني تثنى فيه الأشياء، فإذا ذكر فيه صفة قوم مذمومة ذكر بعدها صفة الأقوام المحمودة، فلما ذكر ما وصفه به هؤلاء الظالمون

المعتدون بين أن هناك أناساً ليسوا على هذه الحال، وهم عباد الله الذين أخلصهم الله تعالى لنفسه، وأخلصوا له ما يجب له.

* * *

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ ﴿فإنكم﴾ الخطاب هنا للكافرين، وفيه التفات من الغيبة إلى الحضور، لأن الكاف للمخاطب، والمخاطب حاضر، وما سبق الضمير فيه عائد على غائب: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ فكلها بضمير الغيبة.

والالتفات من الغيبة أوالعكس له فائدة، وهي تنبيه المخاطب، ووجه ذلك أن الخطاب إذا كان على وتيرة واحدة لم يكن فيه ما يدعو إلى الانتباه، فإذا تغير الأسلوب انتبه الإنسان، وهذه الفائدة مطردة في كل موضع فيه التفات.

وهناك فائدة أخرى تكون بحسب السياق، وليست مطردة في كل موضع، والفائدة هنا: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾ هي أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما تحدث عنهم بصيغة الغيبة، وكان الذي بعد ضمائر الغيبة أمراً يظن صاحبه أنه قادر عليه خاطبه مخاطبة الحاضر إفادة إلى ذله وعدم قدرته على ما يقصد، فالكفار يحاولون فتن الناس عن دينهم بكل وسيلة، تارة بالدعاية لمعبوداتهم، وتارة بالقدح في عبادة الله، وتارة بالقدح في المسلمين وغير ذلك، فيظنون أنهم على شيء فخاطبهم الله تعالى

بخطاب صريح إذلالاً لهم فقال: ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾ من الأصنام وعبر بـ(ما) التي تستعمل غالباً في غير العاقل؛ لأن أكثر معبود المشركين من غير العاقل، ويحتمل أن تكون (ما) مصدرية، أي: فإنكم وعبادتكم ما أنتم فاتنين عليه أحداً.

والمعنى على الوجهين واحد. يعني: أنتم وأصنامكم لا تفتنون الناس ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾.

أو أنتم وعبادتكم لا تفتنون الناس عليها ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ والكفار يعبدون الأصنام فينذرون لها ويركعون ويسجدون ويستغيثون بها ويجعلونها كالإله سواءً، ومع هذا فإن عقولهم قد لعبت بهم بل شياطينهم قد لعبت بهم حيث يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾. [الزمر: ٣]

والحقيقة أن عبادتهم إياها تبعدهم من الله ولا تقربهم منه، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ أي: على معبودكم، و(عليه) متعلق بقوله: ﴿بفاتنين﴾ أي أحداً] و(إن) تحتاج إلى اسم وخبر، اسمها الكاف في: ﴿إنكم﴾ ﴿وما تعبدون﴾ معطوف عليه وجملة ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ هي الخبر. يعني أنتم ومعبوداتكم لا تفتنون أحداً عن دين الله ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾.

وقوله ـ رحمه الله ـ [أي على معبودكم] ولم يقل: ما أنتم عليها أي معبوداتكم من أجل أن يشمل كل واحد على حدة، يعني أي واحد من هذه المعبودات لا يمكن أن تفتنوا عليه أحداً من

الناس، وقوله: ﴿بِفَٰتِنِينَ ١٦٢﴾ أي بصادين؛ لأن الفتنة تأتي بمعنى الصد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: ١٠]أي صدوهم كما تأتي بمعنى الاختبار مثل: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] ولها معانٍ أخرى، لكن المراد بها هنا الصادّين، وقول المؤلف: [عليه متعلق بفاتنين] فيكون التقدير: ما أنتم بفاتنين عليه، وفاتن اسم فاعل من فتن، وهو فعل متعدٍّ ومفعوله محذوف قدَّره المؤلف بقوله: [أي أحداً]. ومعنى الآية على سبيل العموم أن الله خاطب هؤلاء المشركين بأنهم ومعبوداتهم مهما عملوا من الحيل والدعاية لن يفتنوا أحداً حتى يعبدوا هذه الأصنام ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ١٦٣﴾ يعني إلا الذي هو صال الجحيم، وصال اسم فاعل، وحذفت الياء التي في آخر الفعل لالتقاء الساكنين. وهما: الياء وهمزة الوصل ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ١٦٣﴾.

وعلى كلام المؤلف تكون (من) في محل نصب بدلاً من المفعول المحذوف (أحداً) ما أنتم بفاتنين أحداً إلا من هو.

وذهب بعض المعربين إلى أن (من) مفعول لفاتنين، على أنه استثناء مفرّغاً، والاستثناء المفرغ هو الذي يكون ما بعد إلا معمولاً لما قبلها. سواء كان فاعلاً أو مفعولاً أو مجروراً. فإذا قلت: ما قام إلا زيد. فهذا استثناء مفرغ. فتقول: (ما قام) ما نافية وقام فعل ماض و(إلا) أداة حصر وليست أداة استثناء، وزيد فاعل. وتقول: ما رأيت إلا عمراً رأيت فعل وفاعل و(إلا) أداة حصر، وعمراً مفعول. وتقول: ما مررت إلا بزيد. (إلا) أداة

حصر، بزيد جار ومجرور متعلق بمررت.

فعلى هذا تكون الآية ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ١٦٢ إِلَّا مَنۡ هُوَ﴾ كالمثال الذي مثلّنا وهو ما رأيت إلا زيداً.

وهذا الذي ذهب إليه بعض المعربين أصح مما ذهب إليه المؤلف، أي أن الاستثناء مفرغ، وعليه فلا نحتاج إلى تقدير المفعول به، فيكون (أحداً) الذي قدره المؤلف مستغنى عنه، لأن الاستثناء مفرغ فكما أنك لو قلت ما رأيت إلا زيداً لا تحتاج إلى تقدير ما رأيت أحداً إلا زيداً، فكذلك ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ١٦٢ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ١٦٣﴾.

وخلاصة المقام أن نقول: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ١٦٢﴾ (ما) نافية و(أن) اسمها (بفاتنين) خبرها. وفاتن اسم فاعل يحتاج إلى مفعول، والمفعول (من) في قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ١٦٣﴾.

وقوله: ﴿صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ١٦٣﴾ قال المؤلف: [في علم الله تعالى]، وإنما احتاج إلى تقدير في علم الله، لأن صال اسم فاعل وهم لم يصلوها حتى الآن، لأنهم ما ماتوا، فالمفتون حي فكيف يقال: صال الجحيم، وهو لم يمت بعد. لذا قال المؤلف: المراد صال الجحيم في علم الله، أي من علم الله أنه سيصلى الجحيم فهو الذي تفتنونه، وأما من علم الله أنه مؤمن فلن تفتنونه، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾. [الأعراف: ١٧٨].

الفوائد:

١ ـ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ١٦١ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ١٦٢

إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ بيان أن هؤلاء المجرمين الذين يصفون الله بما لا يليق به، ويصدون عن سبيل الله لن يستطيعوا أن يضلوا من هداهم الله، وإنما يضلون من هو صال الجحيم، أي من هو تابع لهم على إضلالهم حتى يصلى الجحيم.

٢ ـ ومن الفوائد: الإشارة إلى أن من تابع أهل السوء في سوئهم فإنه يخشى أن يكون ممن كتب عليه أنه من أصحاب الجحيم. لقوله: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾.

٣ ـ ومن فوائدها: أن أهل البصيرة لا يمكن أن يكونوا من أصحاب النار، وذلك لأنهم يعرفون الحق ويعرفون الباطل، فيأخذون بالحق ويتجنبون الباطل، ووجه ذلك أن الله أخبر بأن هؤلاء المجرمين الضالين المضلين، لن يستطيعوا أن يفتنوا أحداً عن دينه إلا من هو صال الجحيم، فليحذر الإنسان من فتنة أهل الشر والفساد؛ لئلا يكون من هو صال الجحيم.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات العذاب في الآخرة، لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ والمراد جحيم الآخرة ونارها، وليس جحيم الدنيا.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: انقسام الناس إلى قسمين: صال للجحيم، وناج منها، لأن الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ يدل على أن هناك شيئاً مستثنى منه وهو القسم الثاني الذي قدر الله له النجاة.

* * *

﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ ﴾ لما ذكر الله ـ عز وجل ـ أن هؤلاء المجرمين الظالمين قالوا: إن الملائكة بنات الله، بيّن ـ سبحانه وتعالى ـ على لسان الملائكة ما حال الملائكة وما مقامهم وما عملهم تجاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ، فقال: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [قال جبريل للنبي ﷺ: وما منا معشر الملائكة أحد] معشر يعني: جماعة، وأحد قدرها المؤلف لدلالة السياق عليها، وهي مبتدأ خبره (منا) السابق وقوله: ﴿ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ ﴾ هذا الاستثناء مستثنى من أحد وهي جملة يمكن أن نجعلها دالة على الحال: حال هؤلاء الملائكة. وقوله: ﴿ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ ﴾ أي: موضع قيام، لأن المقام مفعل يصح أن يكون اسم زمان واسم مكان، وهنا الظاهر اسم أنه مكان يعني إلا مكان قيام يقوم فيه يتعبد فيه لله عز وجل.

ويجوز أن نجعله اسم زمان أيضاً أي: وقتاً يقوم فيه لله، ومكاناً يقوم فيه لله، فتكون عبادة الملائكة مؤقتة بزمن، ومقيدة بمكان، ولا منافاة بين القولين، والقاعدة في التفسير: أنه إذا كانت الآية صالحة لمعنيين لا ينافي أحدهما الآخر حملت عليهما جميعاً، ولأن حملها عليهما جميعاً أوسع في المعنى من تخصيصها بأحدهما، فإن كان أحدهما ينافي الآخر طلب الترجيح، فما رجحه المرجح أخذ به وترك الآخر.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ (وإنا) الضمير يعود على الملائكة، ﴿ لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ يعني الذين يصفون عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ، كما جاء عن رسول الله ﷺ قال: «**ألا تصفون كما تصف**

الملائكة عند ربها» قالوا: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال: «**يتمون الأول فالأول ويتراصون**»[١] هذا شأن الملائكة عند الله في مقام تعبدهم يصفون لله تعظيماً له يكملون الأول فالأول، أقدمهم وأسبقهم أقربهم إلى الله ـ عز وجل ـ، وهكذا صفوف الصلاة، كلما كان أقدم وأقرب إلى الإمام فهو أفضل.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ قال المؤلف: ـ رحمه الله ـ [أقدامنا في الصلاة] وكلمة [أقدامنا في الصلاة] تحتاج إلى دليل، لأن ظاهر الوصف ﴿لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ أنه يعود على الملك نفسه لا على القدم، ثم إنا إذا قلنا أقدامنا نحتاج إلى إثبات أن للملائكة أقداماً، والله ـ سبحانه وتعالى ـ قد وصف الملائكة أنهم أولو أجنحة، فيحتاج هذا إلى دليل.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ فيها مؤكدان: المؤكد الأول: إنا، والثاني: اللام في قوله: ﴿لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات: ١٦٦] الجملة مؤكدة بمثل ما أكدت الأولى. يعني وإنا معشر الملائكة لنحن المسبحون، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [المنزهون الله عما لا يليق به] لأن التسبيح بمعنى التنزيه.

وتنزيه الله معناه تنزيهه عما لا يليق به ومداره على أمرين:

أحدهما: أن ينزه عن مماثلة المخلوقين، ودليله قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة (رقم ٤٣٠) (١١٩).

الثاني: أن ينزه عن نقص في كماله، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ق: ٣٨] فلما ذكر خلقه لهذه السماوات العظيمة والأرض في هذه المدة الوجيزة بين أنه لم يلحقه في ذلك تعب ولا إعياء، وهذا تنزيه لله عن النقص في كماله.

قال: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ الجملتان اسميتان، قال أهل العلم: والجملة الإسمية تدل على الثبوت والاستمرار، يعني أن هذا دأبهم، ويدل لذلك قوله تعالى في وصفهم: ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠] ﴾ فالملائكة دائماً في عبادة ليسوا كالبشر عندهم غفلة ولهو وسهو، بل هم دائماً في عبادة الله، فهنا ثلاثة أقسام من الخلق.

١ ـ شياطين، فهؤلاء دائماً في معصية.

٢ ـ وملائكة، وهؤلاء دائماً في طاعة.

٣ ـ وبشر، وهؤلاء أحياناً في طاعة، وأحياناً في معصية، وأحياناً في غفلة.

الفوائد:

١ ـ من فوائدها: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ ﴾ بيان أن الملائكة عليهم الصلاة والسلام منزهون عما يدعيه هؤلاء من كونهم بنات الله، ووجه ذلك أنهم مكلفون بالعبادة على حد معلوم، ومن كان مكلفاً بالعبادة لا يمكن أن يكون ابناً أو ولداً للمعبود.

٢ ـ ومن فوائدها: كمال انتظام الملائكة عليهم الصلاة والسلام بكونهم يلتزمون بالمقامات المعلومة التي عينها الله لهم ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾.

٣ ـ ومنها: الإشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يكون وقته منظماً، وأن يجعل لكل شيء عملاً معلوماً حتى لا يضيع عليه الوقت؛ لأن الإنسان الذي يعمل بالوقت جزافاً لا ينتفع به، ولكن لا يعني قولنا هذا أن الإنسان يستمر على حال واحدة، لأنه قد يعرض للمفضول ما يجعله أفضل من الفاضل، بمعنى أنك لو رتبت نفسك ثم طرأ ما يوجب مخالفة هذا النظام فلا حرج عليك أن تخرم هذا النظام، لأن الرسول ﷺ كان يصوم حتى يقال: لا يفطر، وكان يقوم حتى يقال لا ينام[1]، أو بالعكس حسب ما تقتضيه المصلحة.

٤ ـ ومن فوائد الآيات الكريمة عموماً: أن الملائكة عليهم الصلاة والسلام من أكمل الناس عبادة، حيث يجتمعون على عبادة الله، فيصفون له تعظيماً له لقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾.

٥ ـ ومن فوائدها: أنه ينبغي تأكيد الخطاب إذا كان المخاطب منكراً، أو متردداً، أو كان المعنى ذا أهمية يحتاج إلى التوكيد لقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ من أجل تقرير هؤلاء المنكرين الذين يدعون أن الملائكة بنات الله فيقولون: نحن نصف لله تعبداً له وتعظيماً.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب صوم شعبان (١٩٦٩) ومسلم، كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان... (١١٥٦) (١٧٥).

٦ ـ ومن الفوائد: كمال تنزيه الملائكة لله في قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

٧ ـ ومن فوائدها: أن دأبهم أيضاً التسبيح، كما قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٠] ونستدل بهذه الآية؛ لأن الجملة جاءت اسمية، والجملة الإسمية تفيد الثبوت والاستمرار.

٨ ـ ومن فوائدها: تنزيه الله ـ سبحانه ـ وتعالى على ألسنة الملائكة عن كل ما لا يليق به، وهو سبحانه وتعالى منزه عن كل ما لا يليق به، ولهذا جاءت الآيات الكثيرة في نفي المماثلة عن الله، ونفي النقص وإثبات الحكمة ونفي اللعب والباطل في حقه تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. [ص: ٢٧]. ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدخان: ٣٨]. ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦] أيحسب الإنسان أن يترك سدى إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على كماله ـ عز وجل ـ وانتفاء اللعب والبطلان عن أفعاله.

***

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾﴾، إن هنا: مخففة من الثقيلة. فأصلها: وإنّهم كانوا، لكن خففت فقيل: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾﴾.

واسمها يكون محذوفاً، ويسمى ضمير الشأن، وضمير الشأن قالوا: إنه يكون مفرداً مذكراً، لأن كلمة الشأن مفرد مذكر والتقدير: وإن كانوا، وإنه أي شأنهم ليقولون.

وقيل: إن ضمير الشأن يقدر بحسب السياق إن كان مفرداً مذكراً فهو مفرد مذكر، وإن كان جمعاً فهو جمع، وبناء على هذا يكون تقدير الآية هنا: وإنهم كانوا ليقولون. (كانوا) فعل ناقص، الواو هي الاسم، واللام في قوله ليقولون لام التوكيد، وجملة يقولون: خبر كان، وكان واسمها وخبرها خبر إن المخففة من الثقيلة.

﴿كانوا﴾ أي كفار مكة ﴿لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ يعني لو نزل علينا الكتاب ككتب الأولين لكنا عباد الله المنقادين لشرعه المخلصين له.

ولكن هذه الحجة مردودة بقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ﴾ [الأنعام: ١٥٥- ١٥٧] إذاً هذه الدعوة منهم مكابرة؛ لأنه أنزل عليهم كتاب أهدى الكتب وأقوم الكتب، ومع ذلك كفروا به ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ أي ما يذكرنا، والذي يذكر هو الكتاب، قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ﴾ [الأنبياء: ٥٠] فالمراد بالذكر هنا ما يتذكر به الإنسان وهو الكتاب، وقوله: ﴿مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ قال المؤلف: [من كتب الأمم الماضية] فيكون على تقدير مضاف من الأولين أي من كتبهم، وليس منهم أنفسهم، بل من الكتب التي نزلت إليهم، لو أن عندنا من هذا شيئاً ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ اللام واقعة في

جواب (لو)، و(لو) هنا شرطية، أو مصدرية شرطية، والشرطية لا يليها إلا فعل، وهنا وليتها أن في قوله تعالى: ﴿أن عندنا ذكراً﴾. فقالوا: وليتها أن، ولكنها على تقدير فعل، يعني لو ثبت أن عندنا ذكراً ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟﴾ [الحجرات: ٥] يعني لو ثبت أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم.

﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي: بالعبودية الشرعية؛ لأنهم بالعبودية القدرية كائنون فهم عبيد الله قدراً، ولا يمكن أن يحيدوا عن قضاء الله وقدره، لكن لو كنا عباد الله شرعاً.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [المخلصين العبادة له]، المخلصين بكسر اللام هكذا فسر المؤلف، ولهذا قال العبادة له.

﴿ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ بالفتح الذين أخلصهم الله واصطفاهم.

فصار في المخلصين قراءتان: فتح اللام وكسرها، فعلى قراءة الفتح يكون المعنى: الذين أخلصهم الله تعالى لنفسه واصطفاهم، وعلى قراءة الكسر يكون معناه: الذين أخلصوا له العبادة، والمعنيان متلازمان، لأن كل من أخلص لله العبادة قد أخلصه الله لنفسه. قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [بالكتاب الذي جاءهم، وهو القرآن الذي أشرف من تلك الكتب ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ عاقبة كفرهم].

تقدير الآية: فقد جاءهم كتاب وجاءهم الذكر، ولكن لم يقبلوا هذا الذكر وكفروا به تكذيباً في الخبر، واستكباراً عن الأمر، فهم كذبوا الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما قال: إنكم

ستبعثون فقالوا: لا بعث، وقال: إنه حق. فقالوا: كاذب. وقال: اعبدوا الله وحده لا شريك له. فعبدوا الأصنام، فهم ما صدقوا بما أخبر الله به في كتابه، ولا امتثلوا الأمر وانقادوا له، بل جمعوا بين كفر الجحود والاستكبار، ـ والعياذ بالله ـ مع أن القرآن أشرف من الكتب التي ادعوا أنه لو أتاهم من جنسها لكانوا عباد الله المخلصين، ومع هذا كفروا بهذا الكتاب، وهذا يدل على أن دعواهم هذه من أكذب الدعاوى. فقيل لهم: هذا ذكر، جاءكم ذكر أشرف الأذكار وأعظم الكتب السابقة، ومع ذلك كفرتم به.

قال الله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا﴾ للترتيب، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ للترتيب والسببية، أي فبسبب كفرهم سوف يعلمون عاقبة أمرهم، وذلك بالذل في الدنيا والعذاب في الآخرة، وهذا الأمر حصل ـ ولله الحمد ـ فإن الله أذلهم في أعظم موقعة كانوا يفتخرون بها ويظنون فيها العزة والنصر في غزوة بدر، فإنهم خرجوا بصناديدهم وأشرافهم وكبرائهم، حتى قال أبو جهل لما أشير عليه بالرجوع قال: (والله لا نرجع حتى نقدم بدراً فننحر فيها الجزور، ونشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلايزالون يهابوننا أبداً). فانظر إلى البطر والكبر. حصل أن قتل هو والزعماء والأشراف الذين معه، وسمعت بهم العرب، وتحدثت العرب. بأخبارهم بما فيه العار والخزي إلى يوم القيامة، فهذا من العواقب الوخيمة، وفي بلدهم مكة خرج النبي ﷺ منها خائفاً مستتراً، ودخلها ظافراً منصوراً مؤزراً، رفعت

الراية عند مدخل مكة عند الحجون ودخل البيت وكسّر الأصنام، ووقف على الباب وقريش تحته ينتظرون ماذا يفعل. فقال: «**ما ترون أني فاعل بكم معشر قريش**» قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم[1]، فعفى عنهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسموا الطلقاء، أي من القتل والأسر، فانظر كيف كانت هذه العاقبة، فالنبي ﷺ حماه الله منهم. تآمروا أن يقتلوه أو يثبتوه أو يخرجوه، ولكن صارت المؤامرة عليهم، هم الذينَ منَّ عليهم الرسول ﷺ فأطلقهم على أن ما في الآخرة أشد وأعظم، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾. [الطور: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١] فعذاب الآخرة أشق ـ والعياذ بالله ـ، والغرض من قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾، تهديد هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ.

الفوائد:

١ ـ من فوائد هذه الآيات الكريمات: أن هؤلاء المكذبين للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدعون أنه لم يأتهم ذكر يتذكرون به، ولهذا يعترضون هذا الاعتراض يقولون: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾.

٢ ـ ومن فوائدها: أن حجج الكفار حجج مكابرة ليست مبنية على حق، فمثلاً قولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ ماذا

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب طلوع الشمس من مغربها (رقم ٤٠٨١) والإمام أحمد في المسند (١/ ٣٧٥) والحاكم ٤/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩، ٥٤٥ ـ ٥٤٦.

نقول: باطل، بل عندكم ذكر من أفضل الأذكار على الإطلاق.

٣ ـ ومن فوائد الآيات الكريمة: أن الناس لا يمكن أن يكون لهم استقامة إلا بكتب نازلة من السماء حتى المشركون الكفار يقرون بهذا، لقوله﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ وهذه الفائدة يشهد لها الواقع، فإن الأمم الذين لم تنزل عليهم الكتب، تجدهم في فوضى مطردة، لا يستقيم لهم حال، ولا يمشون على خط مستقيم، بخلاف الأمم التي تنزل عليها الكتب، فإنها تكون مستقيمة بقدر تمسكها بهذه الكتب.

٤ ـ ومن فوائدها: أن الكتب المنزلة ذكر لمن نزلت إليهم ومعنى كونها ﴿ ذِكْرًا﴾ على ثلاثة أوجه: فهي ذكر أي: شرف لمن نزلت إليهم، وهي ذكر يتذكرون بها ويتعظون بها، وهي ذكر يتقربون إلى الله تعالى بها؛ لأنها أفضل أنواع الذكر.

٥ ـ ومن فوائد هذه الآيات: أن هؤلاء الذين ادعوا لو أن عندهم ذكراً من الأولين ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ كانوا كذبة بدليل أن عندهم ذكر من الأولين، ولكن كفروا به، وسبق لنا أن كفرهم به، يشمل النوعين من الكفر، وهما: الجحد والاستكبار.

٦ ـ ومن فوائد الآيات: تهديد الكافرين لقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾، وتهديد الكافرين لا شك أنه مطابق للحكمة؛ لأن الحجة قد قامت عليهم، وقد قال الله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾. [النساء: ١٦٥]

***

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ أي: تقدمت في الأزل، وكلمة الله بينها هنا بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾، هذه هي الكلمة السابقة التي قضى بها الله ـ عز وجل ـ في الأزل.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾ الجملة هنا فيها عدة مؤكدات وهي: اللام، وقد، والقسم المقدر. والتقدير: وتالله لقد سبقت، أو ووالله لقد سبقت، وكل جملة تأتي على هذا الوجه، ففيها هذه المؤكدات: القسم، واللام، وقد.

وقوله: ﴿كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ المراد بالعباد هنا: العبودية الخاصة، بل أخص الخاصة وهي عبودية الرسالة.

وعبودية الخلق لله ـ عز وجل ـ عبودية كونية، وهذه عامة شاملة لجميع الخلق فما من مخلوق إلا وهو ذال لله قدراً، وعبودية شرعية، وهي خاصة بمن يطيع الله، وأخص هذا النوع عبودية الرسالة؛ لأن الرسل مكلفون بما لم يكلف به غيرهم، فهم مكلفون بتحمل الرسالة وإبلاغها إلى الخلق ودعوة الناس إليها، ولهذا لا يرسل الله رسولاً إلا وهو يعلم أنه أهل للرسالة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٤] وقال الله لنبيه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٣ـ٢٤] فلما ذكر أنه نزل عليه القرآن لم يقل: فاشكر الله على هذه النعمة، بل قال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٤] إشارة إلى أن تنزيل القرآن عليه أمرٌ يحتاج إلى صبر؛ لأنه يحتاج إلى معاناة ومجابهة الناس، ومن تأمل ما حصل للرسول ﷺ من منباذة قومه

له، وإيذائهم إياه تبين له الحكمة في أنه قال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾. [الإنسان: ٢٤].

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [ولقد سبقت كلمتنا بالنصر لعبادنا المرسلين وهي: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١] أو هي قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾] فـ(أو): هنا للتردد يعني هل الكلمة هي قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١] أو أن الكلمة هي قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ والاحتمال الثاني أولى؛ لأن الاحتمال الثاني يجعل تفسير الكلام في ضمن الكلام، والأول يجعل تفسير الكلام منفصلاً عنه، وإذا كان تفسيره متصلاً كان أولى، وعلى هذا فتكون الكلمة: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ وهي جزء من قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ﴾. [المجادلة: ٢١]

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: الأول: إن، والثاني: اللام في (لهم)، والثالث: هم، لأن (هم) ضمير فصل، ثم هي أيضاً من حيث بنيتها. جملة توكيدية[1]، لأنها جملة اسمية، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار.

فـ(إن) للتوكيد، واللام للتوكيد، وهم ضمير الفصل للتوكيد، وضمير الفصل من حيث الإعراب ليس له محل من الإعراب، ومن حيث المعنى يفيد ثلاثة أشياء: التوكيد، والحصر، والفصل بين الخبر والصفة، ولهذا سمي ضمير فصل،

---

(١) قولنا جملة توكيدية أحسن من قولنا: تأكيدية.

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ الهاء اسم إنّ، واللام للتوكيد، وهم ضمير فصل لا محل له من الإعراب. والمنصورون خبر إن.

يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ﴾ يعني لا غيرهم ﴿المنصورون﴾ أي: الذين ينصرهم الله ـ عز وجل ـ بما يقدره من الآيات، أو بما يرسله من الجنود، ففي بدر أرسل الله الملائكة فقاتلت مع النبي ﷺ، وفي الأحزاب أرسل الله تعالى الريح الشديدة ومعها جنود، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾. [الأحزاب: ٩] فجمع الله في الأحزاب بين الملائكة تدخل الرعب في قلوب هؤلاء الأعداء، وبين الريح التي تزلزلهم حتى لم يقر لهم قرار فهربوا، فهم منصورون من قبل الله بما يرسل من الآيات، أو من الملائكة.

وقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾ الجند هم المدافعون عمَّن هم جند له، الذين ينصرونه ويدافعون عنه، ومنه جنود الأمير والسلطان وما أشبه ذلك، وهنا يقول: ﴿وإن جندنا﴾ أي: جند الله، وهؤلاء الجند ليسوا جنداً لله لحاجة الله إليهم. ولكن لأنهم يدافعون عن شرعه فصاروا جنداً له، وهؤلاء الجند هم الغالبون لكونهم جند الله، والله ـ سبحانه وتعالى ـ له الغلبة: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١] فجند الله الذين يذبون عن شريعته لابد أن تكون لهم الغلبة. ولهذا قال: ﴿لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ والجملة كالأولى مؤكدة بثلاثة مؤكدات: إن، واللام، وضمير الفصل.

والغالبون اسم فاعل من غلب، وغلب فعل متعد، والفعل المتعدي لابد فيه من فاعل ومفعول. فالفاعل الجند ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ

ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ لكن الغالبون بأمر الله لا شك، والمفعول محذوف والتقدير: كما قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [الغالبون الكفار بالحجة والنصرة عليهم في الدنيا، وإن لم ينتصر بعض منهم في الدنيا ففي الآخرة]. أشار المؤلف إلى إشكال كنا نريد أن نؤخره إلى الفوائد، لكن الآن لابد من الكلام عليه.

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ فبين الله بياناً مؤكداً بثلاثة مؤكدات أن جنده المؤمنين الذين يدافعون عن دينه هم الغالبون، وأكد فيما قبل أن الرسل هم المنصورون، فإذا قال قائل: هل هذا الكلام المؤكد من الرب ـ عز وجل ـ مطابق للواقع، أو أن في الواقع ما يخالفه؟

فإذا قلت: مطابق للواقع ورد عليه في أُحد كانت الغلبة للمشركين، وفي الأنبياء من قتل ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢] وفي أهل الخير من قتل ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، [آل عمران: ٢١] فما هو الجواب عن هذا؟

الجواب عن هذا من وجوه:

الوجه الأول: إما أن يكون النصر الذي وعد الله به الرسل، بناء على الأكثر، فإن الأغلب الأكثر بلا شك انتصار الرسل على أعدائهم واقرأ الآيات في الرسل تجد أن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾، [الشعراء: ٦٥ـ٦٦] وهذا انتصار بلا شك.

الوجه الثاني: أن يقال: إن المراد بالنصر نصر من أمروا

بالجهاد، فمن أمر بالجهاد فإن الله قد تكفل لهم بالنصر، وأما من لم يؤمروا به فليس هناك مغالبة بينهم وبين أعدائهم حتى يقال: إنهم انتصروا، ويكون قتلهم غير منافٍ للآية.

الوجه الثالث: أن يقال: إن المراد بالنصر المطلق هو نصر الآخرة، أما نصر الدنيا فليس بمضمون.

الوجه الرابع: أن المراد بالنصر انتصارهم بالحجة لا بالشخص، يعني انتصار ما جاءوا به، وظهوره دون الغلبة الحسية، فإن ذلك ليس بذي أهمية بالنسبة لغلبة ما جاءوا به من الشريعة.

فهذه أربعة أوجه في الجواب عن الواقع، الذي قد يخالف ظاهر الآية، ويجب أن نعلم أنه لا يمكن أن يوجد في القرآن شيء صريح يخالف الواقع ولا في السنة شيء صحيح صريح يخالف الواقع.

وتأمل القيد في قولنا بالنسبة للسنة: «صحيح»، لأنه قد يأتي في السنة أحاديث غير صحيحة، فلهذا احتجنا أن نقول صحيح، أما في القرآن فلا يحتاج نقول صحيح، لأنه منقول بالتواتر فكله صحيح.

إذاً لا يمكن أن يوجد في القرآن شيء صريح يخالف الواقع ولا في السنة شيء صحيح صريح يخالف الواقع، فإن وجد ما ظاهره مخالفة الواقع فاعلم أنه إما أن يكون مخالفة ولكن المخالفة من وهمك، بمعنى أن يكون الواقع غير مخالف لظاهر القرآن، أو يكون ما ظننته صريحاً من القرآن غير صريح، فمثلاً

كثير من العلماء ـ وليس أكثر العلماء ـ يقولون: إن الأرض ليست كروية، لأن الله يقول ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾. [الغاشية: ١٧ـ٢٠]

والسطحية تنافي الكروية فإذاً من قال: إن الأرض كروية فقد خالف صريح القرآن، لأن الله يقول: ﴿سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ فأنكروا أن تكون الأرض كروية بناء على فهمهم أن القرآن صريح في ذلك.

ومن العلماء من قال: إنها كروية، والواقع يشهد لقول هؤلاء؛ لأنه لا يمكن أن نقول الآن: إنها غير كروية، إذ لو أنك لو قمت من مطار جدة متجهاً إلى الغرب في طائرة فيكون منتهاك إلى جدة فترجع إلى جدة، إذاً هي كروية، فالشاهد الواقع المحسوس يشهد لهذا، فنقول: إذاً لابد أن يكون القرآن الذي زعموا أنه صريح بأنها ليست كروية لابد أن يكون على خلاف ما فهموا ولا يمكن أن يقول قائل: إن الواقع المحسوس كذب ولو قال: إن الواقع المحسوس كذب؛ لرماه الناس بالحجارة فضلاً عن حجارة الأفواه، وحينئذ يتعين علينا أن نقول: إن القرآن ليس صريحاً في هذا، فتحمل السطحية فيه على ما يحتاج الإنسان إليه من الأرض، فكل ما تحتاجه إليه من الأرض فهو سطح، يعني ما جعلت الأرض مسطحة مثل ظهر الجبل، أو مثل سفح الجبل، في صعوداً أبداً، فكل ما تحتاج إليه فهو مسطح، ثم نقول في القرآن ما يدل على أنها كروية، مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا

وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾ [الانشقاق: ١ـ٤] فيفهم من قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾﴾ [الانشقاق: ٣] أنها غير ممدودة، ولهذا جاء في الحديث «**إنه إذا كان يوم القيامة فإن الله يمد الأرض مد الأديم**»(١) مد الأديم يعني الجلد تمد هكذا تكون سطحاً واحداً. وأيضاً دليل آخر مثل قوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥] والتكوير: التدوير، ومعلوم أن الليل والنهار يدور على الأرض، فإذا كان هذا يدور فالذي يدور عليه يكون مستديراً ولا بد، المهم القاعدة عندنا أنه لا يمكن أبداً أن يوجد في الواقع المحسوس ما يخالف صريح المنقول أبداً، كما أنه لا يوجد في صريح المعقول ما يخالف صحيح المنقول، فالأولى نخاطب بها أهل المادة، والثانية نخاطب بها أهل العقول الذين يدعون أنهم أصحاب العقول كالمتكلمين وغيرهم، نقول: ليس في صريح القرآن ولا في صريح صحيح السنة ما يخالف المعقول. ونخاطب بهذا أهل الكلام وغيرهم ممن يتكلمون في العقائد في المعقولات.

وليس في صريح القرآن ولا في صريح صحيح السنة ما يخالف المحسوس، ونخاطب به أصحاب المادة الذين ليس عندهم إلا ما يشاهدونه بأعينهم، أو يسمعونه بآذانهم، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ محمول على أحد المحامل الأربعة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه كتاب الفتن، باب طلوع الشمس من مغربها (رقم ٤٠٨١) والإمام أحمد في المسند (١/ ٣٧٥) والحاكم ٤/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩، ٥٤٥ ـ ٥٤٦.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [الصافات: ١٧٤] الخطاب للرسول ﷺ و﴿ عَنْهُمْ ﴾ الضمير يعود على أهل مكة، والمراد بالتولي ما فسره المؤلف ـ رحمه الله ـ بقوله: [أي أعرض عن كفار مكة].

﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ يعني إلى حين غير مبين، لكن علمه عند الله ـ عز وجل ـ، ولهذا قال المؤلف: [﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ تؤمر فيه بقتالهم] وعلى هذا فتكون الآية منسوخة بآيات السيف، فإن الرسول ﷺ لم يؤمر بالقتال إلا حين كان له قوة، وكان له شوكة، وذلك بعد هجرته إلى المدينة، أما في مكة فلم يؤمر بالقتال، لأن الحكمة لا تقتضيه وعلى هذا فيكون الحين الذي أُجل إليه التولي هو الأمر بقتالهم.

﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ يعني انظر إليهم إذا نزل بهم العذاب، وعلى هذا فيكون الإبصار البصر بالرؤية، يعني أنك ستبصرهم إذا نزل بهم العذاب، فيكون أمراً للنبي ﷺ بالإبصار حينما ينزل بهم العذاب، والمراد بقوله: ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ تسلية الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتطمينه بأن هؤلاء سوف يرون جزاءهم.

وقيل: إن المراد بالإبصار هنا الإنظار، ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ يعني أنظرهم أي: أمهلهم، كما في قوله: ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾. [الطارق ١٧] وكما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [السجدة: ٢٩] وغاية القولين واحدة، يعني سواء قلنا: أبصرهم بعينك حين ينزل بهم العذاب، أو أنظرهم حتى يأتيهم العذاب.

وقوله: ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ هذه الجملة يراد بها: تهديد

هؤلاء بأنهم سوف يبصرون عاقبة أمرهم، وذلك بالذل والخزي والعار في الدنيا، وكذلك في الآخرة بالعذاب.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [فقالوا استهزاء: متى نزول هذا العذاب؟ قال الله تعالى تهديداً لهم: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ الهمزة في قوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ للاستفهام، والفاء عاطفة، وقد ذكر أهل العلم أن همزة الاستفهام إذا دخلت على حرف العطف، فإنه يجوز في إعرابها وجهان:

الوجه الأول: أن يكون المعطوف عليه مقدراً بين الهمزة وحرف العطف، ويقدر بما يناسب.

الوجه الثاني: أن تكون الجملة معطوفة على ما سبق بدون تقدير، ويكون محل الهمزة بعد حرف العطف، وعلى هذا يكون التقدير: فـ (أبعذابنا) يستعجلون.

وعلى الأول تقدر ما يناسب المقام فتقول: أسخروا فبعذابنا يستعجلون.

واستعجالهم العذاب على وجهين:

الوجه الأول: أن يكون بالقول، فيقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الملك: ٢٥] أين العذاب الذي تعدوننا به؟!

الوجه الثاني: أن يكون بالفعل وذلك بتماديهم بالمعصية، لأن المتمادي بالمعصية هو مستعجل للعذاب في حقيقة الأمر؛ لأن المعاصي سبب للعذاب، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾. [الأعراف: ٩٦]

فاستمرار هؤلاء بتكذيب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقتضي أن يتعجل لهم العذاب، وهذا استعجال بالفعل، فهؤلاء جمعوا بين الوجهين: الاستعجال بالفعل وبالقول.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ (نا) هنا للتعظيم وليست للجمع؛ لأن الله تعالى واحد، وكل ضمير أضافه الله إلى نفسه بصيغة الجمع فالمراد به التعظيم.

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ ﴿فإذا نزل﴾ الفاء تعود على العذاب، أي: إذا نزل العذاب بساحتهم، والساحة ساحة القوم أي: فناءهم، وهو ما قرب من بيوتهم وأرضهم، وهذا يعبر عنه بالتهديد والوعيد، فيقال: نزل العدو بساحتهم، كما في الحديث الصحيح في قصة خيبر أن النبي ﷺ لما أقبل عليهم جعلوا يركضون إلى مخابئهم يقولون: جاء محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: «**إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**»[1]. فهنا يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: حل العذاب بهم، وبساحتهم أي بفنائهم، وهذه الكلمة يقولها العرب للتهديد، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ [قال الفراء: العرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم]، (الفراء أحد علماء اللغة العربية وهو حجة فيما يقول).

فكأنه يقول: تقدير الآية: فإذا نزل بهم، ولكن لا حاجة إلى أن نقول هذا القول؛ لأنه من المعروف أن العدو إذا نزل في القوم

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب ما يحقن بالأذان من الدماء (٦١٠) ومسلم، في كتاب الجهاد والسير، باب غزوة خيبر (١٣٦٥) (١٢٠).

ليس ينزل في دورهم من أول وهلة، ولكنه ينزل بساحتهم ومنازلهم، ثم يهجم عليهم ويغير عليهم، وفي هذا استعارة ـ كما يقول البلاغيون ـ حيث شبه العذاب بعدو ينزل بهم يعني بساحتهم، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو النزول بالساحة، ومثل هذه الاستعارة يسمونها استعارة مكنية؛ لأنه حذف فيها المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه.

﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: في (فساء) [بئس صباحاً، ﴿صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾] وذلك لأن ساء من أفعال الذم، وأفعال الذم تحتاج إلى شيئين:

فاعل، وتمييز، فقدر المؤلف التمييز بقوله [صباحاً]، وأما الفاعل فهو في الآية، وهو قوله: ﴿صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ أي: بئس صباح المنذرين صباحاً، أو ساء صباح المنذرين صباحاً، فالمؤلف قدّر التمييز، ولكن هل هذا التقدير لازم؟ الصحيح أنه ليس بلازم، وأن الفاعل يسد مسده، كما في هذه الآية وفي كثير من الآيات أيضاً مثل: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾. [ص: ١١] ولم يقل: نعم العبد عبداً.

﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾: المنذرين اسم مفعول أي ساء صباح القوم الذين لا حجة لهم، لأنهم أُنذروا وقامت عليهم الحجة فليس لهم عذر. قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [فيه إقامة الظاهر مقام المضمر]. لأن مقتضى السياق أن يقول: فإذا نزل بساحتهم فساء صباحهم، لكنه قال: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ فأقام الظاهر مقام المضمر.

وإقامة الظاهر مقام المضمر لابد لها من فائدة: إما لفظية، وإما معنوية، وإما لفظية معنوية، وهنا إقامة الظاهر مقام المضمر له فائدة لفظية ومعنوية، فاللفظية هي: مراعاة فواصل الآيات. لأن الله تعالى يعبر بالكلمة والظاهر خلاف التعبير بها من أجل مراعاة الفواصل. ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾، [طه ٧٠] ومن المعلوم أن موسى أفضل من هارون، وهو يقدم عليه في كتاب الله، لكن في هذه الآية قدم هارون على موسى مراعاة للفواصل؛ لأن سورة طه فواصلها غالبها بالألف. وهنا نقول: (فساء صباحهم) لم تنسجم الفاصلة مع التي قبلها والتي بعدها، فقال: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ وهذه فائدة لفظية.

أما المعنوية فهي التعميم وانطباق الوصف عليهم وإقامة الحجة على هؤلاء الذين نزل العذاب بساحتهم، وهي أنهم قد أنذروا ولم يكن لهم عذر، واستحقوا العذاب بعدل الله ـ عز وجل ـ ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾.

والإنذار يقول العلماء: هو: الإعلام المقرون بالتخويف. والبشارة هي: الإعلام المقرون بما يفرح ويسر. فالبشارة بالسار، والإنذار بخلافه.

إذاً ﴿المنذرين﴾ الذين أنذروا بإقامة الحجة عليهم أي: أعلموا بما يخوفهم إذا خالفوا أمر الله.

قال: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ كرر تأكيداً لتهديدهم، وتسلية لرسول الله ﷺ، والآية التي قبلها يقول: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ وهنا قال ﴿وَتَوَلَّ

عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ فلم تختلف عنها إلا بحرف العطف الأول (فتول) والثاني و(تول)، والأولى قال: ﴿أبصرهم﴾ والثانية (وأبصر)، فأطلق وإلا فهي هي، والفائدة من التكرار هو تكرار إنذارهم وذلك بتهديدهم، وتسلية الرسول ﷺ لأنه كلما كرر الكلام ازداد توكيداً.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ سبحان: اسم مصدر سبح. وهي منصوبة على أنها مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً، ولهذا لا يجمع بين سبحان وسبح، ما يقال: سبح سبحان، و﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ أي تنزيهاً له، وقد تقدم ماذا ينزه الله عنه، وقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ أضاف الربوبية إلى الرسول ﷺ فيكون المراد بها ربوبية خاصة؛ لأن الربوبية تنقسم إلى قسمين: عامة لجميع الخلق وهذه ربوبية السلطة والتدبير، وخاصة وهي ربوبية التربية والعناية، وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى عن سحرة فرعون قالوا ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء: ٤٧-٤٨] فالأولى عامة ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾، والثانية خاصة ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾، ولهذا صار من مقتضى هذه الربوبية أن الله تعالى قال لهما: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾. [طه: ٤٦] قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ والخطاب للرسول ﷺ أي تنزيهاً لربك الذي شملك برعايته وعنايته ثم قال: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أي الغلبة، ورب هنا بمعنى صاحب، وليست بمعنى خالق، وهي في القرآن تأتي بمعنى خالق ومالك ومدبر إلا في هذا الموضع فالمراد بها صاحب فقط، ولا يمكن أن تكون بمعنى خالق؛ لأن العزة صفة من صفات الله

ـ عز وجل ـ، وصفات الله ـ عز وجل ـ غير مخلوقة فيتعين أن يكون المراد بالرب في قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ صاحب العزة، وليس خالق، لأن صفات الرب غير مخلوقة وقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ أضاف الرب هنا إلى العزة دون غيرهما من صفاته؛ لأن المقام يقتضي ذلك، فإن المقام الآن في ذكر مآل النبي ﷺ ومآل المكذبين له، وأن مآله أن ينصره الله وأن تكون الغلبة له، وأن يكون الذل والخذلان لأعدائه، فالمقام هنا يقتضي الصفة التي تكون بها الغلبة وهي العزة، قال الله ـ عز وجل ـ في سورة المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] وهذه حقيقة يخرج الأعز الأذل، لكن من الأعز ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وأما المنافقون فلا عزة لهم، وعلى هذا فنقول: إن الله ذكر هنا صفة العزة دون غيرها؛ لأن المقام يقتضي ذلك، حيث إنه في سياق الغلبة للرسول ﷺ والذل لأعدائه، ومن أسماء الله تعالى: العزيز، وما أكثر وروده في الكتاب العزيز، قال العلماء وللعزة ثلاثة معانٍ:

الأول: عزة الغلبة.

الثاني: عزة القدر.

الثالث: عزة الامتناع.

فعزة الغلبة معناها: أن الله تعالى غالب لكل شيء. وعزة القدر أن الله تعالى فوق كل شيء قدراً. وعزة الامتناع أن الله تعالى ممتنع أن يناله أحد بسوء. ومن الثالث قولهم: أرض عزاز يعني صلبة قوية ما تؤثر فيها المعاول.

﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ يجوز في (ما) أن تكون مصدرية ويكون تقدير الكلام: سبحان ربك رب العزة عن وصفهم.

ويجوز أن تكون (ما) موصولة، ويكون العائد محذوفاً، والتقدير: عما يصفونه به. وقول المؤلف: [بأن له ولداً] هذا كالمثال لما يصفون الله به مما ينزه عنه، وإلا فهم يقولون: إن له ولداً، وله زوجة، وله شريكاً، وله معيناً وهكذا، فكل وصف لا يليق بالله فإن الله ـ عز وجل ـ منزه عنه، وإن وصفه به هؤلاء الأفاكون الكذابون.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ ﴿وَسَلَٰمٌ﴾ مبتدأ، و﴿عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ خبره، والسلام هنا بمعنى التسليم، فهو اسم مصدر سلم مثل: كلام بمعنى التكليم ومعنى السلام عليهم: أن ما قالوه في ذات الله وفي صفات الله سالم من كل نقص. فيكون الله تعالى قد سبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول، ثم سلم على الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لسلامة ما قالوه من نقص وعيب، فليس فيه كذب، وليس فيه سوء، ولهذا قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ المبلغين عن الله التوحيد والشرائع].

ولما ذكر التنزيه فيما وصف به نفسه وفيما وصفته به رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ذكر بعد ذلك الحمد الذي هو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، فيكون في الآيات جمع بين التنزيه عن صفات النقص وبين إثبات صفات الكمال، وأتى بإثبات صفات الكمال بعد التنزيه؛ لتكون التحلية بعد التخلية،

يعني التزين بعد إزالة الأذى.

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ الحمد: وصف المحمود بالكمال المحبة والتعظيم، وكمال الله ـ سبحانه وتعالى ـ يدور على أمرين: كمال ذاتي، وكمال فعلي:

أما الكمال الذاتي فهو ـ سبحانه وتعالى ـ كامل في ذاته المتصفة بكل صفة كمال.

والكمال الفعلي أن الله تعالى كامل في أفعاله، فله الفضل على عباده بجلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم، ولهذا شرع للإنسان إذا انتهى من الأكل والشرب أن يحمد الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ما رزقه من الطعام والشراب، وإن شئت فقل: إنك تحمد الله الذي لا يحتاج إلى ما تحتاج إليه من الأكل والشرب.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ أي: خالقهم ومالكهم ومدبر أمورهم.

والعالم كل من سوى الله، وسموا عالماً؛ لأنهم علم على خالقهم ـ عز وجل ـ، ففي كل شيء من مخلوقات الله آية تدل على وحدانيته وكماله.

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [على نصرهم ـ أي نصر الرسل ـ وهلاك الكافرين] ولو أن المؤلف جعلها مطلقة ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ على كل شيء حتى على ما يقدره أحياناً من غلبة أعدائه على أوليائه فإنه يحمد على ذلك، لما يترتب عليه من المصالح العظيمة كما في غزوة أحد التي ذكر الله تعالى فيها من الحكم أشياء كثيرة، ذكر منها جزءاً كبيراً ابن القيم ـ رحمه الله ـ في زاد المعاد.

والفائدة من قوله: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ بعد قوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ أن يثبت لنفسه صفات الكمال بعد أن نفى عن نفسه صفات النقص، ليجمع فيما وصفه به نفسه بين النفي والإثبات.

الفوائد:

١ ـ من الفوائد أن الله ـ عز وجل ـ كتب لعباده المرسلين النصر لقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾، وكلمة الله ـ عز وجل ـ الكونية لا تتبدل.

٢ ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمة: تسلية الرسول ﷺ وتثبيته على ما كان عليه من الرسالة.

٣ ـ ومن فوائدها: تهديد أعداء الرسل وأنهم مخذولون، لأنه إذا كتب النصر للرسول فسيكون الخذلان لأعدائهم.

٤ ـ ومنها: أن نصر الرسل يكون من الله وبما يسره ـ عز وجل ـ من مخلوقاته وآياته، ولهذا قال: ﴿لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ ولم يبين من الناصر ليكون هذا أشمل، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾. [الأنفال: ٦٢]

٥ ـ ومنها: أن الغلبة لجنود الله الذين قاموا بنصر شريعته والذود عنها، لقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

٦ ـ ومن فوائدها: تثبيت من دعا إلى الله ـ عز وجل ـ من أتباع الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بأن لهم الغلبة، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. [المنافقون: ٨].

فإن قال قائل: كيف تجمع بين هذه الآية وبين ما حصل

لبعض الرسل وبعض أتباعهم مما ينافي ظاهر الآية؟ سبق لنا الجواب عليه من عدة أوجه فلتكن معلومة.

٧ ـ في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ﴾ تهديد هؤلاء المكذبين للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأن طغيانهم لن يدوم لقوله: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾ فسينتهي هذا الطغيان، إما على يد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين يؤمر بالقتال، وإما بالموت بتقدير الله ـ عز وجل ـ، فهم لابد أن ينتهي أمرهم، ولا يمكن أن يستمر طغيانهم.

٨ ـ ومن فوائدها: تسلية الرسول ﷺ حيث أخبر أن أذاهم سينتهي أمره بعد حين.

٩ ـ ومنها: تهديد هؤلاء الأعداء الذين بلغوا من الطغيان والعدوان على رسول الله ﷺ ما بلغوا.

١٠ ـ ومن فوائد هذه الآيات: تحقيق هلاكهم وزوالهم، لقوله: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ يعني إذا نزل بهم العذاب فسوف تبصر وتشاهد بعينك.

١١ ـ ومنها: إعادة التهديد مرة ثانية بأسلوب آخر بقوله: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

١٢ ـ ومن فوائدها: تأكيد المعنى بالعبارات المختلفة، ليكون ذلك أبلغ، وليترقب هؤلاء المهددون العذاب من كل وجه، لقوله: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾.

١٣ ـ ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان سفه هؤلاء المكذبين وطغيانهم، حيث كانوا يستعجلون العذاب.

ووجه هذا أنهم لو كانوا عقلاء لكانوا يخشون العذاب ولا يستعجلونه، وأنهم لو كان عندهم نوع من الاعتدال ما صاروا يتحدون الرسل فيقولون: هاتوا العذاب إن كنتم صادقين. فهم عندهم سفه، وعندهم مبالغة بالطغيان والعدوان، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٢] وهذا يدل على سفه قريش، وأنهم من أبلغ ما يكون في السفه، وأنهم لو كانوا علماء راشدين لقالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليك. فهذا هو الصواب، أما فأمطر علينا حجارة من السماء. فهذا من أسفه ما يقوله البشر.

١٤ ـ ومنها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يتحدث عن نفسه في مقام الوعيد بصيغة العظمة، إرهاباً وإزعاجاً لهؤلاء المتوعدين، لقوله: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ ولم يقل: (أفبالعذاب)، ولهذا لما جاء العذاب على سبيل الخبر قال:

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحجر: ٤٩ـ٥٠] ولم يقل: وأن عذابنا.

١٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة أنه إذا نزل العذاب بقوم فلن يفلتهم، لقوله: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

١٦ ـ ومن فوائدها: أنهم لو آمنوا في هذا الوقت فلن ينفعهم، لأنه لو نفعهم الإيمان لم تصدق عليهم هذه الجملة صدقاً كاملاً وهي قوله: ﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ لأنه لو نفعهم الإيمان لزال عنهم هذا السوء، ولكن الإيمان لن ينفعهم، وهذه سنة الله

ـ عز وجل ـ في عباده إذا نزل بهم العذاب، فآمنوا، أن لا ينفعهم إيمانهم، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)﴾. [غافر: ٨٤ـ٨٥] وقال فرعون لما أدركه الغرق: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠)﴾ [يونس: ٩٠] فقيل له: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس: ٩١] يعني لن ينفعك، وقال الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾. [النساء: ٨١] وكل هذا يوجب للإنسان العاقل أن يبادر بالتوبة وألا يتأخر وألا يهمل؛ لأنه لا يدري متى يفاجئه الموت، وإذا نزل به الموت فإنه لن تنفعه التوبة، فلابد أن تكون التوبة في وقت تقبل فيه، ويستثنى من هذا قرية واحدة آمنت بعد نزول العذاب فيها ونفعها إيمانها وهم قوم يونس ـ عليه السلام ـ، والدليل على أنه نفعها إيمانها: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)﴾ [يونس: ٩٨] والحكمة أن هؤلاء نفعهم إيمانهم بعد نزول العذاب بهم؛ لأن نبيهم ـ عليه السلام ـ خرج مغاضباً قبل أن يؤذن له بالخروج فكان هذا عذراً لهم.

١٧ ـ ومن فوائد هذه الآيات: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لن يهلك قوماً حتى يقيم عليهم الحجة بالإنذار ﴿فساء صباح المنذرين﴾، وهذا موجود في القرآن، قال تعالى: ﴿أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا

مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾. التوبة: ١١٥] والصحيح أن هذا عام، في التوحيد وما دونه، فهو شامل لفروع الإسلام كالصلاة والزكاة والطهارة وما إلى ذلك، فإن الإنسان لا يلزمه شيء منها إلا بعد قيام الحجة وبلوغ الرسالة، ولهذا كان القول الراجح أن من عاش في بادية بعيداً عن الناس، ولم يصم، ولم يصل، ولم يزك، وهو جاهل، فإنه لا قضاء عليه، ولو بقي سنوات، والدليل على هذا نصوص كثيرة من السنة تدل على أن من كان جاهلاً نشأ في بادية بعيدة لا يدري عن الشرع فإنه لا قضاء عليه، فمثلاً الرجل الذي كان لا يطمئن في صلاته، بقي على هذا مدة الله أعلم بها، لا يحسن إلا هذا: إلا صلاة لا يطمئن فيها، ولم يأمره النبي ﷺ بإعادة ما مضى من صلاته، إنما أمره بإعادة صلاة الوقت الحاضر[1] لأن مطالبته بها في هذا الوقت قائمة، فلهذا أمره أن يعيد حتى تكون صلاته صحيحة، أما ما قبل فلم يأمره بالإعادة، ولم يأمر المرأة التي قالت: إنها تحيض حيضة كبيرة شديدة تمنع من الصلاة، لم يأمرها أن تعيد الصلاة مع أنها مستحاضة[2]، والمستحاضة تصلي، والأمثلة على هذا كثيرة. ولا فرق بين التوحيد وما دونه، فلو فرضنا: أن رجلاً مسلماً كان

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم(٧٥٧) ومسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة... (٣٩٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب غسل الدم (٢٢٨) ومسلم، كتاب الحيض، باب المستحاضة وغسلها وصلاتها(٣٣٣).

نشأ في بلد بعيد يعبد هذا القبر، ولا يدري أنه كفر، فإنه لا يرمى بالكفر؛ لأنه مسلم ارتكب هذا خطأ ولم يتعمد بقلبه، فليس عليه شيء، كما أن من ارتكب محظوراً: شركاً فما دونه متأولاً، ولم يجد من يفتح عليه، فإنه لا يكون كافراً؛ لأنه لابد من القصد، ومما ورد الرجل الذي ضاعت ناقته في فلاة من الأرض، وطلبها ولم يجدها، وأيس منها، واضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو كذلك إذا بخطام ناقته متعلقاً بالشجرة، فأخذ بخطامها وقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك[1]، فجعل نفسه ربًّا، وجعل رب العالمين عبداً، وهذه كلمة كفر، ولا شك في هذا، لكن هذا الرجل أخطأ من شدة الفرح، ولم يقصد الكلام، فلم يكن كافراً لعدم قصده الكفر، وكذلك الرجل الذي كان مسرفاً على نفسه وقال لأهله: إذا مت فأحرقوني وذروني في اليم، ظنًّا منه أنه إذا فعل ذلك نجا من عذاب الله، ولكن الله قال له كن: فكان، فاجتمع فسأله ـ عز وجل ـ: لم فعلت هذا؟ قال: خوفاً من عذابك يا رب. قال له: خوفك من عذابي أنجاك من عذابي[2]، فأنجاه الله من العذاب، مع أن هذا كان شاكًّا في قدرة الله، لكن ليس عن قصد بل متأولاً، فلم يكن كافراً، ومثل هذه المسائل لا يجوز الإنسان أن يتسرع فيها. ـ أعني مسألة التكفير والتفسيق أيضاً ـ، لأن بعض الأخوة يسارع في التكفير، ويلاحظ المقالة دون القائل، ويلاحظ الفعل دون الفاعل. فإذا كان هذا القول كفراً، قال: من قال به فهو

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها(٢٧٤٧).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل(٣٤٥٢).

كافر مطلقاً، وإذا كان هذا الفعل كفراً، قال: من فعله فهو كافر مطلقاً، ولم ينظر إلى الموانع، لأن هذا القول مثلاً: إذا كان مكفراً كان سبباً للكفر، لا شك، وهذا الفعل إذا كان مكفراً كان سبباً للكفر، لكن هل الأسباب يعتريها موانع أو لا؟ قد يكون هناك مانع في هذا الشخص المعين يمنع من الحكم بكفره، فمنه الجهل والإكراه والنسيان والغلبة على النفس بحيث لا يتمكن، ولهذا لو أن أحداً سها وقال كلمة الكفر فلا نقول: إنه يكفر، والنسيان والجهل صنوان في كتاب الله ـ عز وجل ـ وفي سنة رسوله ﷺ.

إذاً يجب على طالب العلم أن يفرق بين القول والقائل، والفعل والفاعل، فقد يكون القول كفراً لكن القائل ليس بكافر، وقد يكون الفعل كفراً، لكن الفاعل ليس بكافر، أرأيت لو أكره رجل أن يسجد لصنم، وقيل: إما أن تسجد وإما تضرب بالسيف. فسجد دفعاً للإكراه لا تقرباً للصنم، أيكفر؟ فلا يكفر؛ لأن الله يقول: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ [النحل: ١٠٦] يعني اختاره منشرحاً به صدره، فهذا الذي يقطع بكفره، وأما من ليس كذلك، فلا. لهذا يجب علينا أن لا نسارع في التكفير والتفسيق. وبعض الناس لغيرته يسارع في التكفير والتفسيق،، فاتق الله، واعلم أنك إذا كفرت شخصاً ليس بكافر عاد الكفر عليك، كما ثبت ذلك في الحديث عن رسول الله ﷺ[1]، أتريد أن تكون

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال(٦١٠٣)، ٦١٠٤) ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه=

كافراً؟ فلا تكفر إلا من قامت الحجة على كفره.

ولا تقوم الحجة على كفره إلا بأمرين:

١ ـ ثبوت أن هذا الشيء كفر.

٢ ـ تحقق شروط الكفر بحق هذا الفاعل أو هذا القائل.

وهذه المسألة أكررها لأهميتها، لأنه يبلغني أن قوماً من الناس لمجرد ما يقال إن فلاناً فعل كذا، يقول: أعوذ بالله، هذا كافر، ونبرأ إلى الله منه، وهذا غلط، فقتل النفس من كبائر الذنوب، ولما قتل أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ الرجل الذي قال: لا إله إلا الله متأولاً، ما قتله الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وغاية ما هنالك: أنه قال: «أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله»؟ فقال أسامة: «يا رسول الله إنما قالها تعوذاً»[1] والقصة: أن رجلاً من الكفار قالها فهرب، فلما أدركه أسامة قال: لا إله إلا الله، فقتله أسامة، ظنًّا منه أنه قالها تعوذاً، يعني خوفاً من القتل. والقرينة قوية جدًّا، ولكن الرسول ﷺ لا يريد منا أن نحكم بما نظن، بل يريد أن نحكم بالظاهر، إنما أقضي بنحو مما أسمع. قال: أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟ قال: يا رسول الله، إنما قالها تعوذاً من القتل، قال: «أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟» قال: إنما قالها تعوذاً، قال: «أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟» يقول: فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت بعد. فالحاصل أنه

= المسلم: يا كافر (٦٠)

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله (٩٦).

يجب علينا أن نرفق بأنفسنا وبالناس، وأن لا نكفر أحداً حتى يتبين لنا أن هذا الشيء كفر، وأن هذا الذي قاله أو فعله ينطبق عليه شروط التكفير حتى لا نبؤ نحن بالكفر أو الفسق، والحمد لله الحكم إلى الله، فإذا كان الله لم يكفر هذا الشخص فلماذا نكفره؟ وإذا كفرنا من لم يكفره الله، فكأنما حرمنا ما أباحه الله، أو أبحنا ما حرمه الله، فعلينا أن نتق الله، والأصل في المسلم الإسلام، فمادام يدين بالإسلام، لكن يفعل خصلة من الكفر، أو يقول قولاً هو كفر وهو جاهل، لم ينشأ في بلد استتب فيه الإسلام، فكيف نقول إن هذا كافر؟ رجل بدوي ناشىء في أرض بعيدة عن العلوم الشرعية، لكن مسكين، كل صباح ينصب حجراً ويسجد له وهو لا يدري فهل نقول هذا كافر؟ وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولهذا نص العلماء ـ رحمهم الله ـ على أنه لو أن رجلاً جحد وجوب الصلاة، لكان كافراً، لكن قالوا لو جحد وجوب الصلاة وهو ناشىء في بلد بعيد عن العلم الشرعي أو كان حديث عهد بالإسلام لم يكن كافراً، لأنه جاهل.

إذاً قوله: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ يدل على أنه لا يمكن أن يعذب أحد إلا بعد إبلاغه. وهل يكفي بلوغ الحجة أو لابد من فهم الحجة.

لابد من فهم الحجة. ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الشعراء: ١٩٨ـ١٩٩] لأنهم لا يفهمونه، وإذا لم يؤمنوا به لعدم فهمهم فهم معذورون.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] أي: بلغتهم ﴿ليبين لهم﴾، فلابد من بيان الحجة. فلو قلت لإنسان أعجمي: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟ وهو لا يدري معناها. فلا تقوم عليه الحجة، ولو قلت له: يا فلان أطلقت امرأتك؟ فقال: نعم. قلت: ثلاثاً قال: نعم، وأربعاً وخمساً؟ وفهم أن أطلقت امرأتك جعلتها طليقة تروح وتجي لأنه أعجمي، لأنه لا يفهم معناها فلا تطلق. فهذه المسائل مهمة ينبغي للإنسان أن يعتني بها، وألا يوقع نفسه في هلكة، ويوقع غيره في هلكة على غير وجه شرعي، ويوالي ويعادي على وجه غير شرعي، فهذا شرع فمن حكم الله بكفره كفّرناه، ومن حكم بفسقه فسّقناه، ومن لم يحكم بكفره لم نكفره، ومن لم يحكم بفسقه لم نفسقه[1]. والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

(١) * انظر الفتوى رقم ٢٢٤ ص/ ١٣٠ ج/ ٢ من مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ رحمه الله تعالى.

فهرس سورة الصافات

الموضوع	الصفحة
تفسير البسملة	٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١﴾	٩
تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢﴾	١٢
تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣﴾	١٣
الفوائد في الآيات الثلاث السابقة	١٤
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤﴾	١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾	١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ٥﴾	١٩
الفوائد في الآيتين السابقتين	٢٢
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦﴾	٢٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧﴾	٢٦
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ﴾	٢٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ٨﴾	٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ٩﴾	٣٠
تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾	٣٠
الفوائد	٣١
تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾	٣٥
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ١١﴾	٣٦
الفوائد	٣١
تفسير قوله تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ١٢﴾	٤١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ١٤﴾	٤١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ١٥﴾	٤٢

الفوائد ٤٢
تفسير قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ ٦٤
الفوائد ٦٤
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ ٤٨
الخلاصة ٤٨
الفوائد ٤٩
تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ٥٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ ٥٢
تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ ٥٤
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ ٥٦
تفسير قوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ ٥٨
الفوائد ٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ٦٢
تفسير قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ٦٤
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾ ٦٤
تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ٦٦
الفوائد ٦٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ ٦٩
تفسير قوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾ ٧٠
تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾﴾ ٧١
الفوائد ٧١
تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ٧٤
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ ٧٥
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ٧٦
تفسير قوله تعالى: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ ٧٩

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ٨٠
الفوائد ٨٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ ٨٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ٩١
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ٩١
تفسير قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ ﴾ ٩٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ٩٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ ﴾ ٩٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ٩٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ ٩٨
الفوائد ١٠٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ١٠٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ١٠٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ ١٠٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ ١١٠
الفوائد ١١١
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ١١٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾ ١١٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ١١٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ١١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ١١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾ ١١٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ ١١٨
الفوائد ١٢١
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ١٢٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ ..... إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ ١٢٩

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ ١٣٠
تفسير قوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ ١٣١
الفوائد ١٣٣
تفسير قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ ١٤٢
الفوائد ١٤٣
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ ١٤٤
الفوائد ١٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ ١٤٦
الفوائد ١٤٨
تفسير قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ ١٤٩
الفوائد ١٥٠
تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ١٥٠
الفوائد ١٥٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ ١٥٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ ١٥٥
الفوائد ١٥٧
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾﴾ ١٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ١٥٩
الفوائد ١٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ ١٦١
الفوائد ١٦٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ ١٦٢
الفوائد ١٦٤
تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ ١٦٥
الفوائد ١٦٧
تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ ١٦٨

الفوائد ١٦٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ١٧٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾ ١٧٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ١٧٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ١٨٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ١٨١
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ١٨١
الفوائد ١٨٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ ١٨٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ١٨٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ١٩٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ ١٩١
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ١٩٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَئِفْكًا ﴾ ١٩٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ١٩٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ ﴾ ١٩٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ ١٩٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ٢٠٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾ ٢٠١
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ ٢٠٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ ٢٠٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ٢٠٣
الفوائد ٢٠٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾ ٢١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ ٢١٨
الفوائد ٢١٩

تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ ٢٢١
تفسير قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ ٢٢٣
تفسير قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ ٢٢٣
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ ٢٢٥
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ ٢٣٠
الفوائد ٢٣٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ ٢٣٨
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ ٢٣١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ ٢٤٢
تفسير قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ ٢٤٦
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ ٢٤٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ ٢٤٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ ٢٤٨
الفوائد ٢٤٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾﴾ ٢٦١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ ٢٦١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾ ٢٦٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾ ٢٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ ٢٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ ٢٦٥
الفوائد ٢٦٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ ٢٧١
تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ ٢٧٢
تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ ٢٧٣
تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ ٢٧٦
تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ ٢٧٨

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ ٢٧٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ ٢٧٩
الفوائد ٢٨٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ ٢٨٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ ٢٨٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ ٢٨٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ ٢٩٠
الفوائد ٢٩٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ ٢٩٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ ﴾ ٢٩٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ ٢٩٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ ٢٩٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ ٢٩٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾ ٣٠٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾ ٣٠١
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ ٣٠٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ ٣٠٤
الفوائد ٣٠٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ ٣١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ ٣١٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ ﴾ ٣٢٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ ٣٢٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ ٣٢٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ ٣٢٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾ ٣٢٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ ٣٢٧

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ ٣٣٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ ٣٣١
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ ٣٣١
الفوائد ٣٣٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾ ٣٣٩
الفوائد ٣٤٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ ﴾ ٣٤٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ ٣٤٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ ٣٤٥
الفوائد ٣٤٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ ٣٤٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ ٣٤٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ ٣٥٠
الفوائد ٣٥٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ ٣٥٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ ٣٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ ٣٥٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ ٣٦١
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ ٣٦١
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ ٣٦٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ ٣٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ ٣٦٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾ ٣٦٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ ٣٦٩
الفوائد ٣٧٠
الفهرس ٣٨٠

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١)

تفسير القرآن الكريم

سورة ص

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

دار الثريا للنشر

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١)

تفسير القرآن الكريم

سورة ص

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

دار الثريا للنشر

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
إلا لمن أراد طبعه لتوزيعه مجاناً بعد مراجعة
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
عنيزة – ص. ب ١٩٢٩
هاتف: ٠٦/٢٦٤٢١٠٧ – ٠٦/٢٦٤٢٠٠٩
www.binothaimeen.com
info@binothaimeen.com

دار الثريا للنشر والتوزيع
فاكس ٤٠٢٢٦١٥ ص.ب ٩٤٣٨ الرياض ١١٤١٣
بريد الكتروني darthurayya@hotmail.com

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١)

تفسير القرآن الكريم

سورة ص

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

دار الثريا للنشر

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن من توفيق الله سبحانه وتعالى أن يسَّر لفضيلة شيخنا ـ تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه ـ تفسير سورة «صٓ» في دروسه العلمية التي كان يعقدها رحمه الله تعالى بالجامع الكبير في مدينة عنيزة.

وقد عهدت مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية إلى فضيلة الشيخ فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، أثابه الله، بالعمل لإعداد هذا الكتاب للنشر، وتخريج أحاديثه وآثاره، فجزاه الله خيراً.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، موافقاً لمرضاته، نافعاً لعباده، وأن يجزي فضيلة شيخنا عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ويضاعف له المثوبة والأجر، ويعلي درجته في المهديين، إنه سميع قريب.

وصلّى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللجنة العلمية

في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

قال الله تعالى: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ قال المؤلف[1] ـ رحمه الله تعالى ـ: [سورة (صٓ) مكية] والقرآن الكريم مكي ومدني، وأصح الأقوال في تمييز المكي من المدني: أن ما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعدها فهو مدني وإن نزل في غير المدينة، فالحد الفاصل زمني وليس مكاني، فما بعد الهجرة مدني وما قبلها مكي.

قال: [ستٌّ أو ثمانٌ وثمانون آية] والآيات هي عبارة عن الفواصل التي تكون بين جملة أو جملتين فأكثر، وسُمِّيت آية لأنها

---

(١) أخي الكريم: إذا مر بك: قال المؤلف، فالمراد به جلال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد المحلي رحمه الله تعالى، المتوفى سنة ٨٦٤هـ. في تفسيره المسمى «تفسير الجلالين»، وقد جعلت كلامه ـ رحمه الله ـ بين معكوفتين هكذا [ ].

معجزة، فإن القرآن ـ كما سبق ـ قد تحدى اللهُ فيه الناسَ أن يأتوا بحديث مثله وإن قَلَّ.

قال: [بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ] هذه البسملة آية من كتاب الله يؤتى بها في ابتداء كل سورة إلا سورة براءة فإنه لا يؤتى بها، وذلك أن الصحابة رضي الله عنهم لما كتبوا المصحف أشكل عليهم هل براءة بقية الأنفال، أو هي سورة مستقلة؟ فوضعوا فاصلاً دون بسملة؛ لأنه لو جزموا بأنها من الأنفال لم يضعوا فاصلاً، ولو جزموا بأنها مستقلة لوضعوا البسملة، ولكن هذا الاجتهاد منهم نعلم أنه هو المطابق للواقع، وأنهم مصيبون فيه قطعاً، وذلك لأن البسملة لو نزلت بين الأنفال وبراءة لبقيت، لأن الله يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] فلما لم تبق باجتهادٍ من الصحابة عُلِم أنهم كانوا مصيبين للواقع.

والبسملة جار ومجرور، ومضاف إليه، وصفة، أي: نعت. والقاعدة النحوية: أن كل جار ومجرور لا بد له من متعلَّق، أي: من شيء يتعلق به، والشيء الذي يتعلق به الجار والمجرور هو العامل، والجار والمجرور معمول، ولهذا قال ناظم الجمل:

لا بد للجار والمجرور من التعلّق
بفعل أو معناه نحو مرتقي
واستثنى كل زائد له عمل
كالباء ومن والكاف أيضاً ولعل

فكل حرف أصلي غير زائد فلا بد له من متعلق بفعل، أو بما كان بمعنى الفعل، كاسم الفاعل واسم المفعول. إذاً البسملة لا بد لها من متعلَّق، فما هو هذا المتعلَّق؟ أصح ما قيل في متعلَّق البسملة أنه فعل متأخر مناسب للمقام، فإذا كنت تريد أن تقرأ كان التقدير بسم الله أقرأ، وإذا أردت أن تأكل كان التقدير بسم الله آكل، وإذا أردت أن تذبح ذبيحة كان التقدير بسم الله أذبح. ولهذا قال الرسول ﷺ وهو يخطب في الناس يوم النحر: «**من لم يذبح فليذبح باسم الله**»[1] وإنما يُقدّر فعلاً لأن الأصل في العمل هو الفعل، ولذلك يعمل في معموله بدون شرط، وأما اسم الفاعل واسم المفعول واسم التفضيل والمصدر فلا يعمل إلا بشرط.

ونقدِّره متأخراً فنقول: بسم الله أقرأ لسببين:

السبب الأول: التبرك بالبداءة باسم الله.

والسبب الثاني: إفادة الحصر، لأن تأخير العامل يفيد الحصر، فإن من طرق الحصر: تقديم ما حقه التأخير، وقدرناه مناسباً للمقام؛ لأنه أدلّ على المقصود مما لو قدرناه فعلاً عامّاً كما لو قيل: إن التقدير باسم الله أبتدئ، أو بسم الله أبدأ؛ لأن بسم الله أبدأ أو أبتدئ لم تعين الفعل الذي ابتدأت به، فالحاصل أننا نقدر المتعلَّق في البسملة أنه فعل متأخر مناسب للمقام.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العيدين، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد (٩٨٥)، ومسلم، كتاب الأضاحي، باب وقتها (١٩٦٠).

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية**: أنه ينبغي الابتداء بها في الأمور الهامة، ولهذا يبتدئ الله بها كل سورة إلا براءة، ومن المعلوم أن السورة من الأمور الهامة، وجاء في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «**كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر**»[1] والحديث حسن.

٢ ـ **ومن فوائدها**: إثبات الألوهية لله في قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها**: إثبات أسماء الله لقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ وهذا مفرد مضاف فيعم كل اسم لله عز وجل، ولهذا يفسرها بعض المفسرين بقولهم: أي: بكل اسم من أسماء الله أبتدئ.

٤ ـ **ومن فوائدها**: التبرك بذكر اسم الله عز وجل، فتكون أسماء الله مما يدعى الله به لقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] ومما يتبرك به ويستعان به؛ لأنها تقدم بين يدي الأمور الهامة.

وإذا أردت أن تعرف مدى بركة هذه التسمية فانظر إلى الذبيحة يُسمّى عليها فتكون طيبة حلالاً، ولا يسمّى عليها فتكون خبيثة حراماً مع أن الذابح واحد، والآلة المذبوح بها واحدة، ومكان الذبح واحد، وإنهار الدم واحد، كل شيء واحد، لكن لما فقدت التسمية صارت خبيثة ميتة لا يحل أكلها، فإذا سُمِّي عليها صارت طيبة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» ١٤/ ٣٢٩ (٨٧١٢)، وأبو داود (٤٨٤٠).

وإذا أتى الرجل أهله فقال: «بسم الله اللهم جَنِّبْنا الشيطانَ، وجَنِّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه، إنْ يقدر بينهما ولد في ذلك لم يَضُرَّه الشيطانُ أبداً»(١) وإنْ لم يُسمِّ بهذه التسمية كان عُرْضَة لأن يصاب ولده بالشيطان ويضر به.

٥ ـ **من فوائد الآية الكريمة**: إثبات الرحمة لله في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وأنها رحمة واسعة لقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لأن الرحمة صفة تدل على السعة والامتلاء.

٦ ـ **ومنها**: إثبات الأسماء الثلاثة لله، وهي: الله والرحمٰن والرحيم.

* * *

قال الله عز وجل: ﴿صٓۚ﴾ قال المؤلف: [الله أعلم بمراده به] وذلك لأن كلمة (ص) حرف هجائي لا يدل على معنى في اللغة العربية، فذهب جماعة من العلماء إلى أن هذه الحروف الهجائية التي ابتُدِئتْ بها بعضُ السور رموز إلى معاني، وعيَّنها كل إنسان بما يرى أنه مناسب. وذهب آخرون إلى أنها أسماء من أسماء الله، أو من أسماء الرسول ﷺ، وذهب آخرون إلى ما ذهب إليه المؤلف، بأنها مجهولة المعنى، لا ندري ما معناها، ولكن القول الراجح ما ذهب إليه إمام المفسرين في عهده مجاهد ـ رحمه الله ـ أن نقول: ليس لها معنى، وذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥] واللسانُ العربي لا

(١) أخرجه مسلم، كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع (١٤٣٤).

يُثبِت معنىً لهذه الحروف الهجائية، وعلى هذا فتكون هذه الحروف الهجائية مثل نٓ، قٓ، صٓ، الٓمٓ وما أشبهها ليس لها معنى في اللغة العربية، إذاً ليس لها معنى في القرآن، لأن القرآن باللغة العربية. ولكن يشكل على هذا القول مع رجحانه أنه يقتضي أن يكون في القرآن كلمات لغو ليس منها فائدة!

والجواب عن هذا أن نقول: هي ليست لغواً في سياقها، فإنها جاءت لمغزىً عظيم، وهذا المغزى أن هذا القرآن العظيم الذي أعجز فصحاء اللغة وأمراء البيان لم يكن بحروف غير مألوفة عندهم حتى يقولوا: لا نعرف هذه الحروف، بل كان بالحروف التي يتكون منها كلامهم.

قال الذين ذهبوا هذا المذهب: ودليل ذلك أنك لا تكاد ترى سورة مبدوءة بحرف هجائي إلا وجدتَ بعد هذا الحرف ذكر القرآن ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢]، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ١-٣]، ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١-٢]، ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، فكل سورة مبدوءة بهذه الحروف الهجائية يأتي بعد الحروف الهجائية ذكرُ القرآن، ما عدا قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ١-٣]، و﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ

أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٢]، ويمكن أن يُجاب عن ذلك بأن يُقال:

أما قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ فلأنه ذكر صفة عظيمة من صفات مَن تمسك بالقرآن وهي الصبر على الأذى في ذات الله.

وأما الثانية: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ فقد ذكر شيئاً من خصائص الوحي، وهو علم الغيب، فإن كون الروم غُلِبت الآن وستَغلِب في بضع سنين، من الأمر الذي لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ، وهو من خصائص الوحي، وسواء كان هذا الجواب سديداً مقبولاً أم لم يكن، فإن النادر لا حكم له.

قال الله تعالى: ﴿صٓۚ﴾ نقول فيها: «صٓ» حرف هجائي ليس له معنى، لكن جيء به للإشارة إلى أن هذا القرآن الكريم الذي أعجز العرب كان من هذه الحروف التي يتركب منها كلامهم.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ الواو هنا: حرف قسم ولهذا جَرَّت الكلمة التي بعدها «القرآن». والواو حرف قسم لا تدخل إلا على الاسم الظاهر، ولا يُذكر معها فعل القسم، بخلاف باء القسم، فإنها تدخل على الاسم الظاهر، وعلى الضمير، ويُذكر معها فعل القسم، ويحذف، وتدخل على كل اسم. قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩] فذكر معها فعلُ القسم. وتقول: ربي به لأفعلنَّ، أو أقسم به لأفعلن، فهنا دخلت على الضمير. أما التاء فهي أخص أدوات القسم، لا تدخل إلا على لفظ الجلالة «الله»،

ولا يُذكر معها فعلُ القسم. وقيل: تدخل على لفظ الجلالة «الله» وعلى «ربّ» قال ابن مالك: والتاءُ لله وربِّ، وأكثر ما يُقسم اللهُ به الواو، وذلك لأنها الأكثر على الألسن، فجاءت الأكثر في القرآن. ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ ذي بمعنى صاحب، وهي مجرورة، لكنها مجرورة بالحرف نيابة عن الكسرة، وقوله: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ قال المؤلف: [أي: البيان أو الشرف] يعني أن القرآن ذو ذكر، أي: ذو بيان للناس، يُذكِّرهم ويتذكَّرون به، أو ذو شرف لشرفه وشرف من يعمل به. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] فهو ذكر: يُذْكَرُ به ما ينفع الناس في معاشهم ومعادهم. وذكر: يتذكَّر به الناس ويتعظون به، وهو أعظم موعظة. وذكر: أي شرف لمن تمسك به.

قال المؤلف: [وجواب هذا القسم محذوف] إنما قال المؤلف: وجواب هذا القسم؛ لأنه ما من قسم إلا وله جواب. إذ إن القسم أركانه أربعة: مُقْسِم، ومُقْسَم به، ومُقْسَم عليه، وصيغة. فكل قَسَم لا بد فيه من هذه الأركان، والمقسم عليه هو جواب القسم إذن لا بد لكل قسم من جواب، والجواب إن كان مذكوراً فهو معلوم، وإن كان محذوفاً فيعيّنه السياق. قال تعالى: ﴿۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ﴾ [النور: ٥٣] الجواب هنا مذكور ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧] مذكور، جواب القسم ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾.

وفي هذه الآية قد وجد المُقْسَم به والصيغة ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ والمُقْسِم هو الله عز وجل. بقي المُقْسَم عليه، وهو جواب القسم.

يقول المؤلف: [إنه محذوف، وتقديره ما الأمر كما قال كفار مكة من تعدّد الآلهة] وحسب هذا التقدير يكون جواب القسم جملة منفية: ما الأمر كما قال كفار مكة من تعدّد الآلهة، لكن الأمر أن الإله واحد، وهو الله، وهذا التقدير الذي ذكره المؤلف لا يتعيَّن، يعني لو قال قائل: التقدير والقرآن ذي الذكر إن إلـٰهكم لواحد. لو قال قائل هكذا، حصل به ما حصل من قول المؤلف: ما الأمر كما قال كفار مكة من تعدد الآلهة.

وذهب بعض العلماء إلى أن مثل هذا القسم لا يحتاج إلى جواب؛ لأن جوابه معلوم منه كقوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ١-٣]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٍ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾[الفجر: ١-٥] جواب القسم محذوف، فيكون المُقْسَم به متضمناً للجواب، كيف يكون متضمناً للجواب في هذه الجملة القسمية ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾؟ يعني أنكم قد ذُكِّرتم بهذا القرآن الذي من جملة ما ذَكَّر به أن الله واحد، ولهذا ذهب ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه «التبيان في أقسام القرآن» إلى أن القسم أحياناً لا يحتاج إلى ذكر الجواب، بل ولا يحتاج إلى تقديره؛ لأنه يعلم من السياق المُقْسَم عليه.

قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢﴾ بَلِ: هنا للإضراب، والإضراب نوعان: إبطالي وانتقالي، فالإبطالي إبطال لما قد سبق كأنه مسحه وأتى ببدله، والانتقالي إقرار لما سبق لكن انتقل من شيء إلى آخر، وما قبل هذا الإضراب يبقى كما هو لا يبطل.

قال المؤلف: [﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مكة] وتقييد المؤلف للذين كفروا بأهل مكة فيه نظر، والأولى الأخذ بالعموم، وسلوك هذه الطريق، أعني أن يُخَصَّ القرآن ببعض أفراد العام ليس بسديد ولا جيد، وذلك لأنه نقص في التفسير، إلا أن يقوم دليل على ذلك، فإذا قام دليل على ذلك وجب الأخذ بالدليل، أما إذا لم يقم دليل على ذلك فالواجب الأخذ بالعموم، لأنه أعمّ وأكثر معنىً، فالذين كفروا من أهل مكة وغيرهم إلى يوم القيامة ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ ولكنها ليست عزة غلبة كالعزة التي في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وإنما هي عزة أنفه وكبرياء وعناد، ولهذا قال المؤلف: [﴿فِي عِزَّةٍ﴾ حميةٍ وتكبُّرٍ عن الإيمان] وهذه العزة مذمومة؛ لأنها عزة تمنع صاحبها من قبول الحق. وأما العزة التي هي عزة النصر فهي تأييد لصاحبها. وبينهما فرق كبير.

قوله: ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ يعني مشاقة، فالشقاق مصدر شاقّ، كقتال مصدر قاتل، والمعنى مشاقة لله ولرسوله. قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الحشر: ٤] وهنا قال المؤلف: [خلاف وعداوة للنبي ﷺ] وهذا أيضاً فيه نظر. لأنه خصّ الشقاق بالنبي ﷺ مع أن الكافرين يشاقون الله ورسوله، فهم في أنفة وكبرياء وحمية ومشاقة لله ورسوله. يعني أنهم يُجانبون ما أمر الله به ورسولُه، كأنما يكونون في شِقّ، وما جاء به الوحي في شِقٍّ آخر، وربما يقول قائل: إنهم أيضاً في شقاق فيما بينهم، ولا سيما اليهود، فإن الله تعالى قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

الفوائد:

١ ـ **من فوائدها**: أن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى بحرف، تكلم به بالحروف العربية التي يتكلم الناس بها ويتركب منها كلامهم؛ لقوله: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها**: فضيلة القرآن وشرفه، حيث أقسم الله به، ولا يقسم الله إلا بالشيء العظيم.

٣ ـ **ومن فوائدها**: جواز الإقسام بالقرآن، من أين يُؤخذ؟ هل يؤخذ من القرآن؟ هذا خطأ ليس في القرآن دليل على جواز الإقسام بالقرآن؛ لأن الله تعالى يقسم بما لا يجوز أن يقسم به المخلوق كقوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] فإذا أقسم الله بشيء فإنه لا يلزم أن يجوز لنا الإقسام به؛ لأن الله يقسم بما شاء، لكننا نقسم بالقرآن بدليل آخر لا بهذه الآية، وهو أن القرآن كلام الله، فهو صفة من صفاته، والإقسام بصفات الله جائز.

٤ ـ **ومن فوائدها**: أن القرآن ذِكْر على الوجوه التي ذكرناها في معنى الذِّكْر، فهو موعظة يُتذكَّر به، وهو ذِكر يتذكَّر به الإنسان ويتعلم، وهو ذِكر يُنال به الشرف، وهو ذِكر لله يُتعبَّد لله تعالى بتلاوته كما يُتعبَّد بغيره من الأذكار، مثل: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله.

٥ ـ **ومن فوائدها**: بيان ما في نفوس الكفار من الحمية والأنفة الباطلة؛ لقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾.

٦ ـ ومن **فوائدها**: أن الكفار لا يسكتون على كفرهم ويستمرون في طغيانهم وأنفتهم، بل يحاولون أن يصدوا عباد الله عن دين الله، لأنهم في شقاق دائم، يشاقون الله ورسوله.

٧ ـ ومن **فوائدها**: أن لنا أن نقول: إنهم في عزة وشقاق مع الحق دائماً، سواء مع الله، أو مع الرسول، أو مع ورثة الرسول وهم العلماء، أو مع أتباع الرسول عموماً وهم المؤمنون، فهم في شقاق دائم مع الحق.

* * *

قال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ قال المؤلف: [﴿كَمْ﴾ أي: كثيراً ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: أمّة من الأمم الماضية] قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ قدره المؤلف بقوله: كثيراً، وعلى هذا تكون كم تكثيرية، وهي في محل نصب على أنها مفعول مقدم لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾ و﴿مِن قَبْلِهِم﴾ متعلق بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تمييز لـ﴿كَمْ﴾، لأن كم اسم مبهم تحتاج إلى تمييز، أي: إلى شيء يبينها ويميزها، فلو قيل: كم أهلكنا من قبلهم، لم يتبين الكلام، ماذا أهلك؟ فإذا قال: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾، تبين الكلام، ولهذا نقول: إن ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تمييز لـ﴿كَمْ﴾ مجرور بـ﴿مِّن﴾.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ أي: من قبل الكفار الذين كانوا في عهد النبي ﷺ وقوله: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أمة. والمعنى أن الله أهلك كثيراً من الأمم قبل هؤلاء، ومَن أهلك كثيراً من الأمم قبل هؤلاء فإنه حَرِيّ أن يُهلك هؤلاء، لكن إهلاك الأمم السابقة كان بعذاب من الله، وإهلاك المكذبين لرسول الله ﷺ كان بأيدي المؤمنين،

فالحروب والقتال الذي وقع بينهم وبين الرسول ﷺ كان عذاباً لهؤلاء المكذبين، وكان على يدي النبي ﷺ وأصحابه، كما قال الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤-١٥] ولا شك أن عذاب الأعداء على يد النبي ﷺ وأصحابه أشفى لصدورهم مما لو كان العذاب من الله سبحانه وتعالى. وهذا شيء مشاهد. إذا كانت غلبة عدوك على يدك، كان ذلك أشفى لصدرك، وأحيا لنفسك وأقوى وأعز، مما لو أهلكه الله بعذاب من عنده. فلهذا كان هلاك المكذبين لرسول الله ﷺ على يد الرسول ﷺ وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ﴾، الضمائر تعود على الألفاظ باعتبار لفظها، ويجوز أن تعود على الألفاظ باعتبار معناها. ألم تروا إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٩] قال: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ ولم يقل: اقتتلا، لو قال: اقتتلا لكان الضمير عائداً على اللفظ ﴿طَآئِفَتَانِ﴾، ولما قال: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ صار عائداً على المعنى، لأن الطائفة جماعة. إذاً قوله: ﴿فَنَادَواْ﴾ أي: القرن، فأعاد الضمير عليها باعتبار المعنى.

وقوله: ﴿فَنَادَواْ﴾ يقول المؤلف: [حين نزول العذاب بهم] ولكن نادوا مَنْ؟ هل المعنى نادى بعضهم بعضاً؟ يستغيث بعضهم ببعض، أو المعنى أنهم نادوا الله، أي: دعوه أن يغيثهم، أو المعنى أنه حصل منهم الأمران؟

القاعدة عندنا في التفسير متى كان اللفظ صالحاً لمعنيين فأكثر فإنه يحمل عليهما جميعاً. وعلى هذا يكون (نادوا) محذوف المفعول من أجل العموم، أي: أن بعضهم ينادي بعضاً: يا فلان أغثني أغثني، وكذلك ينادون الله، لأن الله يقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤].

ولكن قال الله تعالى: ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ لات: (لا) النافية زيدت عليها تاء التأنيث لتأنيث اللفظ، كما زيدت تاء التأنيث في «رُبَّتَ» وفي «ثُمَّتَ» لتأنيث اللفظ. تقول: رُبّ رجل لقيته، وتقول: رُبَّتَ رجل لقيته، وتقول: قام زيد ثُمَّ قام عمرو، وتقول: قام زيد ثُمَّتَ قام عمرو. فإذاً هي (لا) النافية زيدت عليها تاء التأنيث، لتأنيث اللفظ فتصبح «لات»، و(لا) النافية تعمل عمل ليس، واسمها محذوف في هذه الآية، وخبرها: ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ والتقدير: [أي: ليس الحينُ حينَ فرار] فسره المؤلف بالمعنى، فعليه تكون «لا» بمعنى «ليس» واسمها محذوف تقديره الحينُ، وخبرها موجود، وهو قوله: ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ والغالب أن خبر «لا» يكون زماناً نحو: لات حين، ولات أوان، قال الشاعر:

نَدِمَ البغاةُ ولاتَ ساعةَ مَنْدَمِ ... والبغيُ مَرْتَعُ مبتغيه وَخيمُ

يعني وليست الساعةُ ساعةَ مَنْدَم.

وقوله: ﴿مَنَاصٍ﴾ المناص: الفرار والنجاة. يعني ليس الحينُ حينَ فرار ونجاة، لأنه بعد نزول العذاب لا ينفع نفس إيمانها. قال

المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: [أي: ليس الحينُ حينَ فرار، والتاء زائدة لتأنيث اللفظ، والجملة حال من فاعل «نادوا»] وعلى هذا تكون في محل نصب؛ لأن الجملة الحالية دائماً في محل نصب. يعني نادوا في حال لا مناص لهم مما نزل بهم، ولهذا قدّر المؤلف: [أي: استغاثوا والحالُ أن لا مهربَ ولا منجى]. هذا ما قدّره المؤلف في جملة ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: أنها حالية، فتكون مقيدة بحال مناداتهم، ولكن يجوز أن تكون استئنافية، فنادوا، ثم يخبر الله عز وجل أن هذا الوقت ليس وقت مفر، والفرق بين قولنا استئنافية أو حالية: أنه إذا كانت حالية صارت قيداً للمناداة. يعني نادوا في حال لا ينفعهم فيه النداء، وإذا كانت استئنافية تكون منفصلة من حيث القيدية عما قبلها، فيكون الله قد أخبر بأنهم نادوا، ثم أخبر بأنهم في حال ليسوا متمكنين من الفرار.

قال المؤلف: [وما اعتبر بهم كفار مكة] وهذه الثمرة من ذكر أن الله أهلك قروناً كثيرة فيما سبق، ومع هذا لم يعتبر بذلك أهل مكة، بل كذبوا الرسول ﷺ وآذوه وقالوا: إنه مجنون، وإنه ساحر، وإنه كذاب، وإنه شاعر، وإنه كاهن، وكل وصف ينفّر الناسَ عنه وصفوه به ﷺ، ولم يعتبروا بمن سبق، بل زادوا على هذا.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية**: تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام في أن الله تعالى أهلك المكذبين قبلهم فحَرِيّ أن يهلك هؤلاء. وقد بينا أثناء التفسير أن الله تعالى أهلك هؤلاء لكن على يد الرسول ﷺ

وأصحابه في الغزوات التي انتصر فيها، وقلنا: إن هذا النصر والتأييد أبلغ من النصر الذي يأتي به الله من عنده؛ لأن الله يعذب هؤلاء بأيدي عباده المؤمنين وحزبه.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تحذير هؤلاء المكذبين، وأنهم لن يعجزوا الله في شيء كما لم يعجزه من سبقهم ممن كان قبلهم من الأمم التي أُهلكت ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن التكذيب للرسل كان كثيراً، لأن إهلاك القرون إنما كان بسبب تكذيبهم، فإذا كثرت القرون فلازم ذلك أن يكثر التكذيب، أي: إذا كثرت القرون المهلكة، كان لازم ذلك أن يكثر التكذيب.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان قوة الله وعظمته، حيث أهلك أمماً كثيرة وقروناً عظيمة، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [فصلت: ١٥-١٦] فبين الله عزّ وجلّ أن الذي خلقهم أشدّ منهم قوة، وأنه عذبهم بما هو من ألطف الأشياء، وهي الريح.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أن الأمم المهلَكة إذا نزل بهم العذاب لم يستفيدوا من الاستغاثة بالله ولا بأنفسهم؛ لقوله: ﴿فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ يعني ليس هناك فرار من هذا العذاب الذي نزل بهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ العجب يكون له سببان: السبب الأول: الإنكار، والسبب الثاني: الاستحسان، يعني يقال: عجب من كذا، أي: استحسنه، وعجب من كذا، أي: أنكره، فهو شبيه بأفعال الأضداد، لأن في اللغة العربية كلماتٍ تدل على المعنى وضده، تسمى عند علماء العربية: الأضداد في اللغة.

فالعجب تارة يكون استحساناً، وتارة يكون استنكاراً، فقول عائشة رضي الله عنها: **كان النبيّ ﷺ يعجبه التيامن في تنعله وترجله**[1]. المراد بالإعجاب هنا الاستحسان، وفي قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ﴾ هذا عجب استنكار وردٍّ، وليس عجب رضاً واستحسان، وهذا نظير قوله تعالى في سورة قٓ: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ [قٓ: ٢].

قوله: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ أنْ مصدرية على تقدير مِنْ، أي عجبوا مِنْ أن جاءهم، وقلنا: إنها مصدرية؛ لأن ما بعدها يُحوَّل إلى مصدر، أي عجبوا من مجيء المنذر منهم، وقوله: ﴿مُّنذِرٞ﴾ المنذر: هو المخبر بالخبر للتخويف، ولهذا نقول: إن الإنذار خبر مقرون بتخويف، والنبي ﷺ كان منذراً، وكان مبشراً، ولكن الكفار يليق بحالهم الإنذار، قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الكهف: ٢] والتبشير يكون للمؤمنين. وهنا قال: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ لأن هذا هو اللائق

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب التيمن في الوضوء والغسل (١٦٨)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب التيمن في الطهور وغيره (٢٦٨).

بحالهم، وقوله: ﴿مِّنْهُمْ﴾ نسباً وجنساً، فهو منهم جنساً؛ لأنه بشر، ولم يُنزِل الله رسولاً على البشر من الملائكة. ونسباً؛ لأنه من قريش فهو منهم جنساً ونسباً، ومع ذلك عجبوا.

قال المؤلف: [رسولٌ من أنفسهم ينذرهم ويُخوِّفهم النارَ بعد البعث] أي: بعد أن يبعثوا [وهو النبي ﷺ] عجبوا عجب استنكار ورفض ورَدٍّ مع أنهم كانوا يصفون الرسول ﷺ بالصادق الأمين، ولما جاءهم بالرسالة صار كاذباً خائناً ـ والعياذ بالله ـ إذاً معاداتهم له ليس لشخصه، ولكن لِمَا جاء به.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فيه وَضْعُ الظاهر موضع المضمر، ويكون الكلام لو أُتيَ بالمضمر، وعجبوا أن جاءهم منذر منهم، وقالوا: هذا ساحر كذاب، لكن قال: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ والفائدة من الإظهار في موضع الإضمار:

أولاً: تنبيه المخاطب، لأن الكلام إذا تغير نسقُه أوجب للسامع أن ينتبه بخلاف ما إذا كان على نسق واحد، فقد يأتيه النوم، لكن إذا اختلف انتبه.

ثانياً: التسجيل على هؤلاء بالكفر لأنه لو قال: وقالوا هذا ساحر كذاب، لم نعرف حكمهم، أما إذا قال: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عرفنا أنهم كافرون.

ثالثاً: أن الحامل لهم على هذا هو الكفر، فلا يبعد أن يأتي مِن غيرهم مثل ما أتى منهم، لأن العلة واحدة، فمتى وجدت هذه العلة

حصل المعلول من أي شخص كان، فهذه فوائد الإظهار في مواضع الإضمار.

﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ يشيرون إلى المنذر منهم، وهو الرسول ﷺ ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ جمعوا بين وصفين ذميمين: ساحر؛ لأنه يسبي عقول الناس، وكذاب؛ لأن ما جاء به كذب غير مطابق للواقع، فصار الرسول عليه الصلاة والسلام الذي هو أصدق الخلق، صار عندهم كذاباً، ولم يقولوا: كاذباً؛ لأن كذاباً تكون صفة للمتصف بصفة الكذب، كما تقول: نجار وحداد وما أشبه ذلك مما يكون صفة لازمة، فهم قالوا: إنه ساحر لقوة تأثيره على سامعه، فإن الرسول ﷺ كان إذا سمع الناسُ قراءتَه تأثروا بها تأثراً عظيماً، وكانت النساء والصبيان يجتمعون إلى بيت الرسول ﷺ ليسمعوا قراءته، وكانوا يتأثرون بهذه القراءة، فكان كفار قريش يقولون: إن محمداً سحر أبناءنا ونساءنا، وأنه ساحر؛ لقوة تأثيره فيهم، وكذاب، يعني أن ما جاء به فهو كذب لا حقيقة له. والكاذب هو المخبر بخلاف الواقع. فكل من أخبرك بخلاف الواقع فقد كذبك.

الفوائد:

١ ـ في هذا دليل على سفه قريش الذين كذبوا الرسول ﷺ، واستنكروا ما جاء به. ووجه ذلك أنه لم يأتهم أحد غريب عليهم لا في جنسه، ولا في نسبه، فالذي جاءهم جنسه بشر مثلهم، ونسبه منهم من قريش، ومع ذلك يعجبون استنكاراً مما جاءهم.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: إقامة الحجة للرسول ﷺ على هؤلاء؛ لقوله: ﴿مُّنذِرٌ﴾ يعني لقد أقام عليهم الحجة بالإنذار، وقد قامت الحجة للرسول ﷺ بأنه لم يفرط في رسالته، بل أنذر، وقام بما قام به من البلاغ.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هؤلاء الذين عجبوا استنكاراً كفارٌ؛ لقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها**: أن كل من قال مثل قولهم، وعجب مثل عجبهم فإنه كافر، من أيّ جنس كان من البشر.

٥ ـ **ومن فوائدها**: بيان قوة تأثير كلام الرسول ﷺ في نفوس القوم، لقولهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ﴾ والساحر يؤثر في المسحور.

٦ ـ **ومن فوائدها**: كذبهم في وصف الرسول عليه الصلاة والسلام حيث قالوا: إنه ساحر كذاب، والحقيقة أنهم هم الكذابون بما وصفوا به الرسول ﷺ.

٧ ـ **ومن فوائدها**: أن أعداء الرسل لا يعادونهم عداء شخصياً، ولكنهم يعادونهم عداء معنوياً، لما جاؤوا به من الرسالة. ويتفرع على هذه الفائدة أن الكافرين سيكونون أعداء لكل من يتبع الرسول. كل مَن اتبع الرسول سيجد له أعداء من الكافرين والمنافقين. ويتفرع على ذلك تسلية من وجد عداء من أعداء الله لتمسكه بكتاب الله وسنة رسوله، فإنه يقال: هذا العداء الذي حصل لك قد حصل لمن هو خير منك فلا تعجب.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أن أعداء الرسل بل أعداء الرسالة يطلقون ألقاب السوء على من تمسك بالشرع، يضعون ألقاب السوء لكل من تمسك بالشريعة؛ لقولهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤﴾ وقد حصل هذا، فإن أهل التعطيل مثلاً يصفون أهل الإثبات من السلف بأنهم حشوية مجسمة ممثلة رعاع غوغاء وما أشبه ذلك من ألقاب السوء من أجل أن ينفروا الناس، والعجب أن هؤلاء الذين يضعون ألقاب السوء لو تأملنا لوجدنا هذا اللقب الذي وضعوه للمتمسكين بشريعة الله، يصدق عليهم هم، ألم يبلغكم قول المنافقين في الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه، **قالوا: ما رأينا مثل قُرّائنا هؤلاء أرغبَ بطوناً، ولا أكذبَ ألسناً ولا أجبنَ عند اللقاء من هؤلاء القراء**[1]. وهذه الأوصاف الثلاثة تنطبق عليهم هم، فهم أكذب الناس ألسناً، وأجبن الناس عند اللقاء، وأرغب الناس بطوناً، وليس لهم هَمٌّ إلا بطونهم.

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآيات**: أن هؤلاء المكذبين للرسول عليه الصلاة والسلام لم يقيموا عليه حجة في ما كذبوه فيه، وليس عندهم إلا السبّ والعيب، وهذا يدل على ضعف حجة من ناوأك، فإذا وجدت الذي ناوَأك ليس عنده إلا الصراخ والعويل، ولطم الخد، ونتف الشعر وما أشبه ذلك، فاعلم أنه ليس له حجة إنما يريد أن يشوش عليك، لعلك تنهزم، وإلا فصاحب الحجة يدلي بحجته

---

(١) أورده الطبري في «تفسيره» ٦/ ٤٠٩ (١٦٩٢٧ و١٦٩٢٨ و١٦٩٣٠)، وابن كثير في «تفسيره» ٤/ ١٧١، سورة التوبة، الآية: ٦٥.

بهدوء وبدون إثارة، أما أن يسب ويشتم ويثور فإن هذا دليل على أنه مهزوم ومخذول، وأنه يريد أن يتخذ من هذا السلاح مهرباً ومخلصاً مما هو عليه من الضيق، الذي عجز أن يدفع به حجة خصمه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ هذا مصب الإنكار. هذا الاستفهام يحمل معنيين:

المعنى الأول: التعجب الاستنكاري.

والثاني: الإنكار البليغ على رسول الله ﷺ، حيث جعل الآلهة إلهاً واحداً. هنا قال: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ جعل نصبت مفعولين: الأول: الآلهة، والثاني: إلهاً واحداً. يعني أصيّر محمد الآلهة إلهاً واحداً! وهم يعبدون آلهة متعددة: اللات والعُزَّى ومناة وهبل وغيرها من الأصنام. كيف يأتي محمد ويقول: ليس هناك آلهة إلا الله. هذا عندهم من أكبر الكذب، حيث قال لهم: «قولوا: لا إله إلا الله» أي: كيف يسع الخلق كلّهم إلهٌ واحد؟ وهذا من جهلهم وغباوتهم أن ينكروا كون الآلهة إلهاً واحداً، فنقول لهم: من الخالق؟ وكم؟ يقولون: الخالق هو الله؟ وإنه واحد. فإذا كان الخالق هو الله، وهو واحد كما تؤمنون به، فإنه لا غرابة أن يكون الإله هو الله وهو واحد، ومن وسع الخَلْقَ خَلْقاً وسعهم تعبُّداً، فإذا كانت الآلهة لم تخلق شيئاً بإقراركم، فكيف تستحق أن تكون آلهة، وإذا كان يمكن انحصار الخلق في واحد، فإنه يمكن أن تنحصر العبادة في

واحد، ولهذا قال: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ إن هذا: المشار إليه جَعْله الآلهة إلهاً واحداً ﴿لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي: عجيب، لكن كلمة عجاب أبلغ من كلمة عجيب؛ لأنها تدل على المبالغة، أي: لا شيء يتعجب منه الإنسان عجباً عظيماً كثيراً، ولهذا عدلوا عن عجيب إلى عجاب ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ لم يذكر مكان الانطلاق؛ ليعم كلّ مكان يجتمعون فيه ويذكرون مثل هذا الشيء، فكلما اجتمعوا في مكان وتذاكروا فيما بينهم ما جاء به الرسول ﷺ من التوحيد، انطلقوا من هذا المكان وهم يتواصون بالباطل والصبر عليه، ولهذا قال: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ والملأ هم الأشراف والكبراء والوجهاء، وهم الذين كانوا يقابلون الرسل بالردّ والرفض خوفاً على مكانتهم من أن تزول باتباع الرسل.

ولو تأملتم القرآن لوجدتم أن الذين يقومون في وجوه الرسل هم الملأ والأشراف. أما الضعفاء من النساء والأولاد والفقراء فهم الذين يكونون أول من ينقاد للرسل.

وأما قول المؤلف: [﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ من مجلس اجتماعهم عند أبي طالب وسماعهم فيه من النبي ﷺ: «قولوا: لا إله إلا الله»(١)] فهذا تقييد لمطلق، وقد ذكرنا أن تفسير القرآن بما هو أخص تفسير قاصر؛ لأنه يقصر المعنى المطلق على هذا المعنى المقيد، أو

---

(١) انظر حديث ابن عباس في «مسند الإمام أحمد» ٣/ ٤٥٨ (٢٠٠٨) و٥/ ٣٩٣ (٣٤١٩)، و«تفسير ابن كثير» ٧/ ٥٣-٥٤، سورة صٓ، الآيات: ٤-٨.

المعنى العامّ على المعنى الخاصّ، وهذا نقص بلا شكّ، إلا إذا قام الدليل على ذلك فليتبع الدليل.

فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] هذا عامّ، ولكن إذا طبقنا هذا الكلام على الواقع وجدنا أن المرادَ بالناس الخاصَّ. ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ القائل واحد ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ أيضاً ليس كل الناس قد جمعوا لرسول الله ﷺ، الذين لم تبلغهم الدعوة لم يجمعوا له، فيكون تفسيرنا الناس بخاصٍّ في هذه الآية، تفسيراً دلّ عليه الواقع، أما إذا لم يكن دليل فإن الواجب إبقاء القرآن على عمومه إنْ كان من العامّ، وعلى إطلاقه إنْ كان من المطلق.

هنا نقول: إن المؤلف ـ رحمه الله ـ جعل الانطلاق من مجلس خاصٍّ، وهو المجلس الذي اجتمعوا فيه مع رسول الله ﷺ عند أبي طالب حين قال: «قولوا: لا إله إلا الله» ولكن الأولى أن نجعله عامّاً يشمل هذا المجلس وغيره.

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ أن امشوا واصبروا هل المراد هنا المشي بالقدم؟ أو المراد المشي على الطريقة؟ بمعنى سيروا على طريقتكم واصبروا على آلهتكم، من نظر إلى الانطلاق، ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ قال: إن المراد بذلك المشي بالقدم، بمعنى أنهم إذا انطلقوا حثَّ بعضهم بعضاً على المشي والسير؛ لئلا يعودوا فيعرِّجوا على ما انطلقوا منه، كأنهم إنما ينطلقون فراراً، فيوصي بعضهم بعضاً بالمشي. وإذا نظرنا إلى المعنى أو إلى عموم أحوالهم قلنا: إن

المراد بذلك المشي على الطريقة، يعني سيروا على طريقتكم ولا يهمنكم أحد.

قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾ يعني: احبسوا أنفسكم عليها لا تحيدوا عنها. وهذا من باب التواصي بالباطل، يقول بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على آلهتكم واثبتوا على عبادتها. إن هذا المذكور من التوحيد لشيء يراد ﴿وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾ يعني اثبتوا عليها في عبادتها، والدفاع عنها، وعدم قبول كل شيء يبطلها. اصبروا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾ هذا المشار إليه، ما جاء به النبي ﷺ من التوحيد.

﴿لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾ أي: يريده مَن جاء به، وهذا يدل على صدق الرسول ﷺ. معناه أن هذا الرجل قال قولاً يريده، فهو جادّ في قوله، والشيء الذي يراد لا بد أن يسعى مريدُه ليحققه، بخلاف الإنسان الذي يقول القول باللسان لا بالقلب، ولهذا تجد الذي يقول القول بلسانه وقلبه، يصمم ويعزم على أن ينفذ ما قال، لكن الذي لا يريد يكون قوله بلسانه سطحياً، فقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾ أي يريده قائله وهو النبي عليه الصلاة والسلام، وإذا صدر القول عن إرادة فهذا يعني أن صاحبه مصمم عليه، وعلى غلبته، وأن يكون هذا القول هو القول السائد الذي يمشي عليه الناس، بخلاف مَن قال قولاً لا يريده، مثل أن يقول القول مجاملة، أو من أجل إمضاء الوقت أو ما شابه ذلك. فإنه لا يكون عنده العزم الصادق على تنفيذ ما قاله.

الفوائد:

١ ـ **من فوائدها**: أن النبي ﷺ كان يدعو هؤلاء إلى توحيد الله عزّ وجلّ في ألوهيَّته وهو مع هؤلاء يجادلهم في ألوهيته تعالى، ويدعوهم إلى توحيد الألوهية، لأن توحيد الربوبية عندهم ثابت مقرّون به، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧] لا ينكرون توحيد الربوبية لكنهم ينكرون توحيد الألوهية، ولذلك قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ فكان الصراع بين الرسول ﷺ وبين كفار قريش على توحيد الألوهية، أما توحيد الربوبية فقد أقرّوا به.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: وجوب تقديم الأهم فالأهم في الدعوة إلى الله؛ لأن الرسول ﷺ أول ما دعا هؤلاء إلى التوحيد لم يقل: صلّوا ولا زكّوا ولا صوموا ولا حجّوا، بل دعاهم إلى التوحيد، وهذا هو شأن القرآن، وهذا هو شأن سنة الرسول عليه الصلاة والسلام العملية، فإنه لما بعث معاذاً إلى اليمن أمره أن يدعوهم أول ما يدعوهم إليه إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: مكابرة هؤلاء الذين أنكروا توحيد الألوهية حيث ادعوا أن الدعوة إليه من الأمور العجيبة جداً لقولهم: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾ وكما قلت آنفاً: إن مَن وصف

الحقّ بأوصاف الباطل فإن حقيقته أن تعود هذه الأوصاف إليه، فأيهما أشد عجباً رجل يدعو إلى توحيد الله، وآخر يدعو إلى الإشراك به ونفي التوحيد؟ أيهما أعجب؟ ولهذا نقول: والله إن الشيء العجاب أن تنكروا توحيد الله، وأن تَدّعوا أن لله شريكاً. هذا هو الشيء العجاب. أما رجل يدعو إلى توحيد الله الذي دلت عليه الفطرة، ودلت عليه الآيات الكونية والشرعية، فإن هذا ليس بعجاب، بل العجاب فعلكم أنتم.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: استعمال المؤكدات في الكلام، وأنه من الأساليب اللغوية، لقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ﴾ فهم أكدوا هذه الجملة بمؤكدين بـ«إن» واللام ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾.

١ ـ في هذه الآية دليل على تخوّف هؤلاء من تأثير دعوة الرسول ﷺ فيهم، ولهذا كانوا يتواصون بالصبر على آلهتهم، وكانوا يتواصون بالبقاء والثبات على طريقتهم، وكانوا يتواصون بالهروب من الأماكن التي يدعى فيها إلى التوحيد. كل هذا يؤخذ من قوله: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ﴾.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن أهل الباطل يَحِنّون على باطلهم، ويحافظون عليه ويخافون من تزعزعه، لقوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ﴾ وهكذا أهل الباطل تجدهم دائماً يحوطون

باطلهم بالسياج الذي يمنع من الوصول إليه على وجه يمزق هذا الباطل.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن للاجتماع على الشيء تأثير في بقائه وثباته. تؤخذ من التواصي بالثبات على ما هم عليه، والصبر على آلهتهم. ولا شك أن العمل الجماعي أكثر تأثيراً من العمل الفردي مهما كان الفرد في القوة، ولهذا أمر النبي عليه الصلاة والسلام بأن نتزوج الودود الولود من أجل كثرة الأمة[1]، فإن الكثرة لها تأثير عظيم، ولهذا امتن الله بها في كتابه على بني إسرائيل حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦]، وذكَّر شعيب قومه بها حيث قال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]، والعامة يقولون: الكثرة تغلب الشجاعة.

٤ ـ **ومن فوائدها**: أن النبي ﷺ كان يقول قولاً يعني به ما يقول؛ لقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها أيضاً**: أن الإنسان إذا عنى ما يقول فإن تأثيره في المخاطَب أكثر؛ لأن الخطاب يكون باللسان، واللسان وسيلة للتعبير عن ما في القلب، ثم إن كان اللسان يعبر عن ما في القلب حقيقة، فإن الوسيلة التي تتلقى هذا القول وهي الأذن، توصل ما تسمع إلى القلب، ولهذا يقول العامة: إذا خرج الكلام من اللسان فلن يتجاوز الآذان، وما خرج من القلب نفذ إلى القلب، وهذا

---

(١) انظر حديث أنس بن مالك في «مسند الإمام أحمد» ٢٠/ ٦٣ (١٢٦١٣)، وحديث معقل بن يسار عند أبي داود (٢٠٥٠)، والنسائي ٦/ ٦٥-٦٦ (٣٢٢٧).

صحيح أن القول الخارج من القلب يؤثر أكثر بكثير من القول الخارج من اللسان، وأضرب لذلك مثلاً: لو قام رجلان يعظان الناس، أحدهما يعظ من قلب، وتشعر أنه يتكلم من أعماق قلبه، ويظهر أثر قوله على صفحات وجهه، والآخر أبلغ منه وأشدّ ترصيعاً للكلام وتنميقاً له، لكن قوله يخرج من لسانه فقط، وقلبه على خلاف ذلك، أو على الأقل لا يؤمن بما يقول، فالأول أشدّ تأثيراً.

ولو قام عاميّ يتكلم بكلام عاميّ لكن من أعماق قلبه تأثر الناس به أكثر مما لو تكلم رجل فصيح اللسان قوي البيان، لكن قلبه خالٍ مما يقول، وهذا الشيء مشاهد، ولهذا قال الكافرون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ يعني يقال ويراد حقيقة، فهم لقوة إرادة النبي ﷺ لما يقول، كانوا يخافون من هذه الإرادة ويقولون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ والله أعلم.

* * *

قال الله تبارك وتعالى حاكياً عن قريش ما كانوا يتواصون به من الصبر على آلهتهم، والثبات عليها، نقل عنهم من جملة كلامهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ ما سمعنا بهذا، والمشار إليه التوحيد، أي: أنه لا إله إلا الله ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ الملة: هي الدين الذي يكون عليه الإنسان، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، وتطلق الملة على الحقّ وعلى الباطل، فالكفار على ملةٍ والمسلمين على ملة، وفي كلام أهل الفقه في الفرائض:

لا يتوارث أهل مِلَّتين، وجاء في ذلك حديث عن رسول الله ﷺ[(١)]، فالملة هي الدين الذي يكون عليه المَرْء من عقائد وعبادات وأخلاق.

وقوله: ﴿فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ قال المؤلف: [أي: ملة عيسى عليه السلام] لأن عيسى هو آخر الرسل قبل محمد ﷺ، لم يكن بينه وبين محمد ﷺ نبي، وما قيل عن نبوة بعض العرب مثل خالد بن سنان أو غيره فإنه لا صحة له، وذلك لأن العرب ليس فيهم رسول إلا إسماعيل عليه الصلاة والسلام ومحمد ﷺ، وما سوى ذلك فكل ما يُدَّعَى من أن في العرب رسولاً أو نبياً فهو كذب.

يقول: ﴿فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: ملة عيسى عليه الصلاة والسلام، وذلك أن الذي سمعوه في ملة عيسى هو أن الله ثالث ثلاثة، وهذا ليس بتوحيد. والعجب من ضلال النصارى حيث يقولون: إننا نوحّد الله، وهم يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، فأين التوحيد في ثلاثة، لا يمكن أن تجعل الثلاثة واحداً؟! ولهذا يعتبر هذا من أضل ما ضل فيه النصارى، وهم كما هو معلوم ضالون، ولكن هذا من أشد ما يكون من الضلال. كيف تقول: إنك موحد وأنت تقول: إن الله ثالث ثلاثة: مريم وابنها والله، فالعرب الذين في عهد الرسول ﷺ ما سمعوا في ملة عيسى توحيداً، وإنما سمعوا فيها تثليثاً، فكأنهم يقولون: أنت يا محمد أتيت بملة لم تكن لمن قبلك، فالذين من قبلك آخرهم الملة النصرانية، وهم لا يقولون بالتوحيد.

---

(١) حديث حسن أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» ١١/ ٢٤٥ (٦٦٦٤)، وأبو داود (٢٩١١).

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ إنْ يقول المؤلف: [ما] وعلى هذا فهي نافية، وعلامة «إن» النافية أن يأتي بعدها الإثبات بـ«إلاَّ» أو نحوها، وهنا أتى بعدها الإثبات بـ«إلاَّ» ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي: ما هذا إلا اختلاق، و«إن» تأتي في اللغة العربية على أوجه: نافية، وزائدة، وشرطية، ومخففة من الثقيلة، فهنا «إنْ» نافية وفي قولك: إن أكرمتني أكرمتك؛ شرطية، وفي قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢] نافية: إذا أثبت «إلاَّ» فهي نافية. وفي قول الشاعر:

أنا ابنُ أُباةِ الضيمِ من آلِ مالكٍ وإنْ مالكٌ كانت كرامَ المعادنِ

إنْ مالكٌ مخففة من الثقيلة، وفي قول الشاعر:

بني غُدانة ما إنْ أنتُمُ ذهباً ولا صريفاً ولكن أنتُمُ الخزفُ

قال المؤلف هنا: [﴿إِنْ﴾: ما ﴿هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾: كذب] هذا المشار إليه ما جاء به الرسول ﷺ من التوحيد، وقوله: ﴿إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي إلاّ كذب، يقال: اختلق الكلام، أي: افتراه وكذبه، وهذا بناء مبني على قوله فيما سبق ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾، والكذاب لا يأتي إلا بالكذب والاختلاق، ولما أنكروا التوحيد أنكروا الرسالة أيضاً فقالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ هذا الاستفهام للنفي لكنه أتى بصيغة الاستفهام مبالغة في نفيه، كأنهم يتعجبون كيف ينزل عليه الذكر من بيننا ولم ينزل على أحد غيره؟! وهذا كقوله تعالى حكاية لقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] القريتين: هما مكة والطائف.

يقولون: لولا نزل هذا القرآن على رجل من الأكابر والأشراف، لا على هذا الغلام الذي يعتبر من أصغر القوم، فكيف ينزل عليه الذكر من بيننا.

وقوله: ﴿ أَءُنزِلَ ﴾ ذكر المؤلف فيها قراءات قال: [بتحقيق الهمزتين]: أي: همزة الاستفهام وهمزة الفعل، والتحقيق أن تقرأه هكذا ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ [وتسهيل الثانية] تسهيل الثانية بأن تمر عليها مراً فلا يظهر أنك حذفتها ولا أنك بيَّنتها، [وإدخال ألف بينهما على الوجهين] أي: وجهي التحقيق والتسهيل. ألف بينهما، أي: بين الهمزتين فتقول على قراءة التحقيق ﴿ءَأنزلَ﴾ وعلى قراءة التسهيل ﴿ءَانزلَ﴾ فالقراءات إذن أربع: تحقيق الهمزتين بلا ألف، وتحقيق الهمزتين بألف، وتسهيل الثانية بدون ألف، وتسهيلها مع ألف.

﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ عليه: على محمد ﷺ الذي جاء بهذا القرآن الذي يذكّرهم به. ﴿ ٱلذِّكْرُ ﴾: القرآن. وهذا إقرار منهم بأن القرآن ذكر، وإن كان يحتمل أن يكونوا قالوه على سبيل الاستهزاء والتهكم، وأنهم لا يؤمنون بأنه ذكر، وأيّاً كان فالمقصود بذلك نفي أن يكون محمد ﷺ هو الرسول.

يقول المؤلف: [﴿ مِنۢ بَيْنِنَآ ﴾ وليس بأكبرنا ولا أشرفنا] ويريدون أن يكون نزول القرآن على أكبرهم وأشرفهم، ولكن الذي نتيقن أنه لو نزل على أشرفهم وأكبرهم لكذبوا أيضاً، لكذبوا كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٨-٩]

فهم معاندون لا يريدون الحق، ونعلم أنه لو نزل على غير محمد ﷺ لطلبوا أن يكون نزل على غيره؛ لأنهم لم ينفوا الرسالة حقيقة من أجل شخصية محمد ﷺ، فإن شخصيته عندهم من أفضل الشخصيات، وأقواها أمانة، وأحسنها خلقاً، ولكن يقولون هذا على سبيل العناد والمكابرة، فهو كقولهم لما حدثوا بالبعث: ﴿قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥] وهذا مكابرة منهم، لأنهم لم يُحَدَّثوا بالبعث الآن، وإنما حُدِّثوا بالبعث يوم القيامة، فلم يأتِ الموعد الذي حُدِّد للبعث حتى يتحدوا بهذا التحدي فيقال لهم: إن الله يميتكم ثم يحييكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة، والرسل ما قالت لهم: إنكم تبعثون الآن حتى تقولوا: هاتوا آبائنا، وإنما يقولون: ستبعثون يوم القيامة، وسيأتي الله بآبائهم ومن سبقهم.

وقول المؤلف رحمه الله: [ليس بأكبرنا ولا أشرفنا]، أما قولهم: ليس بأكبرنا، إن كانوا قالوه فهم صادقون، فالرسول ليس بأكبرهم سناً، فيهم من يكبره سِنّاً، وأما قولهم: ولا أشرفنا، فهم كاذبون، فإن محمداً ﷺ أشرف الخلق. قال النبي ﷺ: «إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كِنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[1]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فلم يجعل رسالته إلا في أحق الناس بها، وأجدرهم بها، وأولاهم بها.

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ (٢٢٧٦).

يقول المؤلف: [أي: لم يُنزل عليه] هذا تفسير للاستفهام في قولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ أي: أن الاستفهام للنفي، لكنه جاء على سبيل الاستفهام؛ للتعجب والاستبعاد من أن يُنزل عليه الذكرُ من بينهم.

قال الله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ﴾ بل: إغراء لإبطال ما ادعوه من كونهم يريدون أن ينزل القرآن على أشرفهم. يقول: هم في شك من ذكري، فكيف يقولون: لو نزل على أشرفنا، لو نزل على غير محمد، والشَّاكُّ في الأصل لا يطلب الفرع أصلاً، فإذا كانوا في شك من نزول هذا الذكر، بقطع النظر عن كونه من محمد ﷺ فكيف يقولون: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ وعلى هذا فقولهم ليس مبني على أصل. يعني أنهم لم يؤمنوا بهذا الذكر أصلاً فضلاً عن أن يكون أنزل على محمد أو غيره.

﴿مِّن ذِكۡرِيۖ﴾ قال المؤلف: [وَحْيِيْ، أي: القرآن، حيث كذبوا الجائي به]، فإن من كذب من جاء بالشيء فإنه منكر للشيء؛ لأنه لو قال لك قائل: قَدِم فلان اليوم، فقلت: أنت كاذب، هل تكون مؤمناً بقدومه؟ لا، لا تكون مؤمناً بقدومه، وكيف تكون مؤمناً بقدومه وهو لم يأتك إلا من هذا الطريق الذي زعمت أن صاحبها كذاب، ولهذا إذا كان هذا الذكر لم يأتِ إلا عن طريق محمد ﷺ، وقالوا: إنه كاذب، وإنه ليس برسول، وليس له حق في الرسالة؛ لأنه يوجد مَن هو أحق منه، فكيف تقولون بأنه ذِكْر. إذاً هم في شك من هذا الذكر، وهل هذا الشك حقيقة أو على سبيل العناد؟

الظاهر ـ والله أعلم ـ أنه على سبيل العناد، لكن منهم من يشك لقوة الدعاية المضادة، ولا سيما إذا جاءت من أكابر، فسوف يلحق العامة شك من هذا القول.

وقوله: ﴿مِّن ذِكۡرِيۖ﴾ أي: من الذكر الذي أنزلتُ، وهو القرآن، والشك هو التردد وعدم الجزم.

وقد قيل: إن الإدراك ينقسم إلى خمسة أقسام: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكاً جازماً، وإدراك الشيء على خلاف ما هو عليه، وإدراك الشيء برجحان، وإدراك الشيء بمرجوحية، وإدراك الشيء على السواء، فهذه خمسة أقسام.

فإدراك الشيء على ما هو عليه إدراكاً جازماً يسمى علماً، كإدراكنا أن الواحد نصف الاثنين، هذا علم. وإدراك الشيء على خلاف ما هو عليه جهل مركب، مثل: أن تدرك أن غزوة بدر مثلاً في السنة الثالثة للهجرة، هذا نسميه جهلاً مركباً، وعدم إدراكه بالكلية هذا جهل بسيط، وإدراك الشيء مع رجحان ظن، وإدراكه مع المرجوحية وهم، وإدراكه مع التساوي شك، فهذه ستة أقسام. إدراكه على ما هو عليه، وعلى خلاف ما هو عليه، وعدم الإدراك بالكلية، والإدراك برجحان، والإدراك بمرجوحية، والإدراك بالتساوي.

والشك أحياناً يراد به التساوي، وأحياناً يطلق على الراجح والمرجوح والمساوي، وهذا ما يكون في كلام الفقهاء عندما يتحدثون عن الشك في الحدث أو الشك في نجاسة الطاهر، فإنهم يريدون الشك الراجح والمرجوح والمساوي، أي: بمعنى أنه إذا شككت في

نجاسة الماء الطاهر ولو غلب على ظنك أنه نجس فهو طاهر، وإذا شككت هل أحدثتَ، ولو غلب على ظنك أنك أحدثت فأنت طاهر، وعللوا ذلك بأن الرسول ﷺ قال: «**لا ينصرف حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً**»(١) يعني حتى يتيقن ولا عبرة بالظن.

يقول الله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨﴾ بل: للإضراب الانتقالي لا الإبطالي ﴿لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ قال المؤلف: أي: [لم] وهذا تفسير ببعض المعنى؛ لأن «لما» و«لم» تشتركان في النفي لكنهما تختلفان فيما عداه، لأن «لم» لنفي غير المتوقع، و«لما» لنفي المتوقع القريب، فإذا قلت: لم يقم زيد، فهذا نفي لقيامه على وجه لا يتوقع منه القيام، وإذا قلت: لما يقم زيد، فهو نفي لقيامه على وجه يتوقع منه القيام عن قرب، وعلى هذا فقوله: ﴿لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أي: لم يذوقوه ولكن سيذوقونه قريباً.

قالوا: و«لما» تأتي على أوجه: تأتي نافية فتجزم الفعل المضارع كما تجزمه «لم»، وتأتي بمعنى حين، وتأتي شرطية، وتأتي استثنائية. هذه أربعة أوجه. تأتي نافية كنفي «لم» لكنها تختلف عنها بأن منفي «لم» لا يتوقع، ومنفيها يتوقع قريباً، مثل هذه الآية، وتأتي شرطية كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢]، وتأتي استثنائية كقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ، وتأتي بمعنى «حين» فتقول: قدمت البلد

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن (١٣٧)، ومسلم، كتاب الحيض، باب الدليل على أن من تيقن الطهارة ثم شك (٣٦١).

لما طلعت الشمس، أي: حين طلعت الشمس. قال: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨﴾ يذوقوا أصلها يذوقون لكن حذفت النون للجزم؛ لأن «لما» من حروف الجزم.

وقوله: ﴿عَذَابِ﴾ قد يشكل على طالب العلم، وهو أن الفعل واقع عليه، وهو مع ذلك لم يُنصَب، أي لم يقل: بل لما يذوقوا عذاباً، فكيف توجيه ذلك؟ كيف لم ينصب ﴿عَذَابِ﴾ مع أن الفعل واقع عليها؟ والجواب عن ذلك أن نقول: إن ﴿عَذَابِ﴾ أصلها: عذابي بالياء، والمضاف إلى ياء المتكلم تقدر عليه الحركات، ولذلك لا بد أنه يكسر من أجل مناسبة الياء، فتكون الحركات مقدرة عليه، وعلى هذا فنقول: عذاب مفعول يذوق، منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة تخفيفاً، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، والياء هنا حذفت للتخفيف، وهذا كثير في القرآن واللغة العربية أن تحذف ياء المتكلم للتخفيف، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١] والتقدير: المتعالي، ومن والي.

وقوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨﴾ العذاب ليس مطعوماً يذاق، ولكن الإصابة به ذوق، وذوق كل شيء بحسبه، فإذا أعطيتك قطعة لحم ومضغتها فهذا ذوق، وإذا ضربتك وأحسست بالضرب فهذا ذوق، فذوق كل شيء بحسبه، وليس ذوق العذاب كذوق الطعام والشراب، بل هو ذوق مناسب له ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾. قال المؤلف: [ولو ذاقوه لصدَّقوا النبيَّ ﷺ فيما جاء به] ولكن هذا

التصديق لا ينفعهم، لأنه إذا صدّق الجاحد بعد نزول العذاب به فإن ذلك لا ينفعه، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد** قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾: أن المكذبين للرسول ﷺ فيما جاء به من التوحيد ليس عندهم دليل إلا ما كان عليه آباؤهم؛ لقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها**: أن هؤلاء مكابرون معاندون فمع كونهم لا دليل عندهم قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أن كل إنسان ليس عنده علم شرعي فإنه يلجأ إلى ما كان الناس عليه في العادة، وهذا كما هو في من سبق فهو في من حضر، كثير من الناس تنهاه عن المنكر فيقول: هذا الذي مشى عليه الناس، وهذا ليس بحجة، وهذا كما أنه سابق فهو أيضاً لاحق، فمن الناس مَن إذا أنكرت عليه المنكر قال: هذا ما زال الناس عليه، أو يقول: ما سمعنا بهذا، ومنه قول بعض العامة إذا نُبِّهوا على شيء لم يكونوا يعرفونه، قالوا: هذا دين جديد، ما سمعنا بهذا، وهذا ليس بحجة. وإنما الحجة الدليل القائم من كتاب الله، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

٤ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾: أن هؤلاء يريدون أن يكون الشرع تابعاً لأهوائهم، يأتي الوحي من يشاؤون، ويمتنع عن من يشاؤون؛ لقوله: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ ﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها:** أن صاحب الباطل لا يعرف أن حجَّتَه حجَّةٌ عليه، لأن قولهم: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ ﴾ هي حجة فيما لو نزل الذكر على من يشاؤون، لأنه لو نزل على مَن عيّنوه وأرادوه، لقال غيرهم: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ ﴾ ويتفرع على هذه الفائدة كل مُبْطِل يحتج بحق، لكن استدلاله به باطل، فإنه لا حجة له، ومن ذلك ما يحتج به أهل التحريف في باب الصفات أو غيرها من الأدلة الصحيحة التي ليس لهم فيها استدلال، فمثلاً أهل التعطيل يستدلون لتعطيلهم بقول الله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴾ [الشورى: ١١] ومن المعلوم أنه عند التأمل يكون هذا الدليل حجة عليهم، لأن نفي المماثلة يدل على ثبوت أصل المعنى، ولو لم يكن أصل المعنى ثابتاً لم يكن لنفي المماثلة فائدة. وهكذا كل مبطل يحتج لباطله بحجة صحيحة، لكن استدلاله بها غير صحيح، نجد أن هذه الحجة حجة عليه. وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه «درء تعارض العقل والنقل» المعروف بالعقل والنقل أنه ملتزم بأنه ما من صاحب باطل يحتج بآية أو حديث صحيح إلا كان دليله حجة عليه وليس له.

٦ ـ **ومن فوائدها أيضاً**: أن هؤلاء الذين اقترحوا هذا الاقتراح وأنكروا أن ينزل الوحي على النبي محمد ﷺ هم في شك مما يدَّعون، فإذا كانوا في شك فكيف يقترحون؟ ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها**: أن المكذبين للرسل يوشك أن ينزل بهم العذاب، لقوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾.

٨ ـ **ومن فوائدها**: أن العذاب إذا نزل فإنه يكون ماساً للإنسان مؤثراً فيه، لأنه عبر عن ذلك بقوله: ﴿يَذُوقُوا عَذَابِ﴾.

٩ ـ **ومن فوائدها**: أن الكلمات تفسر بحسب السياق، فالذوق في الأصل إنما هو للطعام والشراب، ولكن قد يراد به ما أصاب الإنسان إصابة مباشرة فإنه يسمى مذوقاً.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾، هذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] قال بعدها: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢] حتى يقولوا نجعل النبوة في فلان دون فلان وهنا لما قالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ قال بعدها: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾ يعني هل هم الذين يقسمون هذه الخزائن فيجعلون الرسالة في فلان دون فلان. و«أم» هنا بمعنى «بل»، والاستفهام يراد به النفي، وعلى هذا فتقدير الكلام: بل أعندهم خزائن رحمة

ربك، أي: ليست خزائن رحمة الله عندهم حتى يقولوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَآ﴾ ولماذا لم ينزل على فلان أو فلان؟

قوله: ﴿خَزَآئِنُ﴾ جمع خزينة، والخزينة: مستودع الشيء يسمى خزينة، والرحمة: رحمة ربك، أي: ما يكون برحمته من الأرزاق الحسية والمعنوية؛ والجواب: لا ليس عندهم خزائن رحمة ربك.

وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ قال المؤلف: [الغالب] ﴿ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾ أي: الكثير الهبات، وهي العطايا. قال: ﴿رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ فأضاف الرحمة إلى رب، ثم أضاف الربوبية إلى النبي ﷺ ﴿رَبِّكَ﴾ اعتناءً به وبياناً أن ما حصل له من الرسالة فهو بمقتضى ربوبية الله الخاصة له، ولهذا نقول: أخص أنواع الربوبية ما كان للرسل، كما أن أخص العبودية عبودية الرسل، ولهذا أضاف الربوبية إليه، لأن أخصّ الربوبية ربوبية الله سبحانه وتعالى لرسله وعلى رأسهم محمد ﷺ، فكأنه يشير إلى أن رسالة الله للرسول ﷺ من رحمته به. وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾ فيه مناسبة عظيمة. العزيز لمقابلة هؤلاء الذين كانوا في عزة وشقاق، ليبين أن عزة الله فوق عزتهم وأنفتهم وحميتهم، وأنه غالب لهم وقاهر لهم. والوهاب بالنسبة للرسول ﷺ، يعني أنه وهبه النبوة.

العزيز: يقول المؤلف: إنه الغالب، وهذا أحد معانيه، ولكن اللفظ يشتمل على معانٍ أكثر، فالعزيز يدل على ثلاثة أنواع من العزة: عزة القدر، وعزة الامتناع، وعزة القهر، فعزة الامتناع: تعني امتناع الله سبحانه وتعالى عن كل نقص وعيب، فهو عزيز يمتنع عليه كل نقص وعيب. وعزة القدر: تعني عزة الشرف

والسيادة، فالسيادة المطلقة لله عز وجل، والعزة المطلقة لله عز وجل، يقول تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] والثالث عزة القهر: وهي عزة الغلبة، أي: أنه غالب لكل أحد، فعزة القهر تعني عزة الغلبة وأنه غالب لكل أحد، ومن أشعار الجاهلية:

أيــن المفــر والإلــه الطــالــب والأشرم المغلوب ليس الغالب

فإذاً يكون تفسير المؤلف رحمه الله للعزيز بالغالب تفسير للفظ ببعض المعاني، وهو تفسير قاصر؛ لأننا ذكرنا فيما سبق أن كل من فسر القرآن ببعض ما يدل عليه فإن تفسيره قاصر، لكن أحياناً يفسر القرآن ببعض ما دلّ عليه تمثيلاً لا حصراً، كتفسير بعضهم قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢] فسر الظالم لنفسه بأنه الذي يؤخّر الصلاة عن وقتها، والمقتصد الذي يصليها في آخر الوقت، والسابق بالخيرات الذي يصليها في أول الوقت، وبعضهم فسّر الظالم لنفسه بالذي لا يزكي، والمقتصد بالذي يزكي ولا يتصدق، والسابق بالخيرات بالذي يزكي ويتصدق. فهذا التفسير نقول: لا شك أنه قاصر، لكن لم يرد المفسر أن المعنى منحصر في هذا، وإنما أراد بذلك التمثيل، يعني مثل الظالم لنفسه مثل الذي لا يزكي، والمقتصد مثل الذي يزكي ولا يتصدق، والسابق بالخيرات مثل الذي يزكي ويتصدق.

قال المؤلف: [﴿ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾ من النبوة وغيرها، فيعطونها من شاؤوا؟] هذا مفرع على النفي، يعني هل عندهم خزائن الله من

النبوة وغيرها فيعطونها من شاؤوا ويمنعونها من شاؤوا؟ الجواب: لا.

ثم قال الله عز وجل: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أم هنا للإضراب فهي بمعنى بل والهمزة، يعني بل ألهم ملك السماوات والأرض؟ وهذا الاستفهام للنفي، يعني ليس لهم ملك السماوات والأرض، وقوله: ﴿مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السموات: جمع سماء، وهو في اللغة العربية كل ما علا، فكل ما علاك فهو سماء، ولكن المراد به هنا السماوات المعروفة المحفوظة، والمعروف أنها سبع سماوات كما صرح الله به في عدة آيات، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ هي هذه الأرض المعروفة، وهي سبع أراضين كما هو ظاهر القرآن في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] فإن المثلية هنا في العدد لا في الحجم ولا في الكيفية، وكما جاءت السنة بذلك صريحاً في قول النبي ﷺ: «**من اقتطع شبراً من الأرض بغير حقّه، طوقه يوم القيامة من سبع أراضين**»(١).

وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ما بين السماء والأرض من المخلوقات العظيمة كالشمس والقمر والنجوم والكواكب وغيرها مما لا يعلمه إلا الله، وجعل ما بين السماوات والأرض قسيماً لهما يدل على أن ما بينهما مخلوقات عظيمة تقابل السماوات والأرض.

قال المؤلف: [إن زعموا ذلك] أي: أن لهم ملك السماوات والأرض فهل يملكون ذلك؟ لا، لا يمكن.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» ١٥/٣٥٦ (٩٥٨٢)، وهو حديث صحيح.

قال المؤلف رحمه الله: [إن زعموا ذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾﴾] كأن المؤلف رحمه الله جعل قوله: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ جواباً لشرط مقدر، يعني إن زعموا أن لهم ملك السماوات والأرض، ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ [الموصلة إلى السماء، فيأتوا بالوحي، فيخصوا به من شاؤوا].

قوله: ﴿فَلْيَرْتَقُوا﴾ الفاء واقعة في جواب شرط مقدر، أي: فإن زعموا ذلك فليرتقوا، واللام: لام الأمر، وسكنت لوقوعها بعد فاء العطف، لأن لام الأمر تسكن إذا وقعت بعد الفاء وثم والواو، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩] هذه بعد ثم، ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩] هذه بعد الواو، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [الحج: ١٥] هذه بعد الفاء، بخلاف لام التعليل فإن لام التعليل تكون مكسورة ولو وقعت بعد هذه الحروف، كما قال تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾[العنكبوت: ٦٦] ولم يقل: ولْيتمتعوا، لأن اللام للتعليل، فلام التعليل تكون مكسورة دائماً، ولام الأمر تكون مكسورة إلاّ إذا وقعت بعد الواو والفاء وثم، ولهذا قال: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [الحج: ١٥] فاللام هنا للأمر، والظاهر أن المراد بالأمر هنا التحدي. يعني إن كانوا صادقين فليرتقوا في الأسباب، والأسباب: جمع سبب وهو كل ما يوصل إلى المقصود، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [الحج: ١٥] أي: بشيء يوصله إلى السماء كالحبل ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥] فهنا قال:

﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أي: فليجعلوا أسباباً يرتقون بها، ويصلون إلى السماء. ومعلوم أن هذا التحدي لا يمكن لهم أن يحققوه.

ثم قال المؤلف: [الموصلة إلى السماء، فيأتوا بالوحي، فيخصوا به من شاؤوا] بناء على قولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ يعني إذاً فارتقوا إلى السماء، وأنزلوا الوحي، وخصوا به من شئتم.

ثم قال المؤلف: [و«أم» في الموضعين بمعنى همزة الإنكار]، الإنكار الذي بمعنى النفي. ثم قال: ليس عندهم خزائن الله وليس لهم ملك السماوات والأرض بل هم خالون من هذا كله.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هاتين الآيتين**: إبطال حجة هؤلاء الذين قالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وذلك لأن إنزال الوحي على شخص ما هو من فضل الله عليه، ومن خزائن رحمته، وهذا لا يملكه هؤلاء المقترحون؛ لأن الأمر والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

٢ ـ **ومن الفوائد**: إثبات هذين الاسمين من أسماء الله: العزيز والوهاب، وإثبات ما تضمناه من صفة، فالعزيز تضمن صفة هي العزة، وأقسامها ثلاثة كما مر علينا في التفسير، والوهّاب تضمن صفة هي الهبة الكثيرة، وما أكثر هبات الله عزّ وجلّ، وتضمن القدرة؛ لأنه لا يهب إلا القادر، وتضمن الغنى؛ لأن مَن لا شيء عنده لا يمكن أن يهب، وتضمن الكرم، لأن البخيل لا يهب. ودلالة الوهاب على الهبة من باب دلالة التضمن، وعلى الهبة

والوهاب من باب دلالة المطابقة، وعلى القدرة والغنى والكرم من باب دلالة الالتزام.

فإذاً في هذا الاسم أنواع الدلالة الثلاثة، وهي الالتزام والمطابقة والتضمن، والفرق بين هذه الثلاثة أن دلالة اللفظ على جميع معناه دلالة مطابقة، وعلى جزء معناه دلالة تضمن، وعلى اللازم الخارج الذي لا يدل عليه بلفظه لكن من لوازمه دلالة التزام. وأضرب لها مثلاً في أمر حسي ليتبين به الأمر المعنوي. هذا بيت يشتمل على غرف ومجالس وبراحات، أي: أحواش. دلالة هذا البيت على جميع ما فيه من الغرف والمجالس والأحواش دلالة مطابقة، ودلالته على كل حجرةٍ وحدها، ولكل مجلس وحده، ولكل حوش وحده، دلالة تضمن، ودلالته على أن له بانياً دلالة التزام، لأن البيت لا بد له من بانٍ، فنقول: هذا قد بناه بانٍ، ما هو الدليل؟ لأن البيت لا بد له من بانٍ. فالوهاب مثلاً دلالته على الاسم والصفة التي هي الهبة دلالة مطابقة، وعلى الاسم وحده أو الهبة وحدها دلالة تضمن، وعلى القدرة والغنى والكرم دلالة التزام.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: مراعاة فواصل الآيات لسياق الآية، لأن العزيز الوهاب يناسب قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ ومناسبة فواصل الآيات لمضمون الآية دليل على البلاغة، ولا يشذ عن هذا شيء، ولهذا لما قرأ رجل عند أعرابي: (والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم) استغرب الأعرابي كيف يقول: نكالاً من الله، ثم يقول: والله غفور

رحيم؟ المغفرة والرحمة لا تتناسب مع النكال، فقال الأعرابي للقارىء: أعد، قال: (والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم) قال: أعد ما هكذا الآية، قال: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨] قال: الآن عزّ وحكم فقطع، ولو غفر ورحم ما قطع سبحانه وتعالى، ولهذا قال الله تعالى في سورة المائدة في الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣-٣٤] فأخذ العلماء من هذه الآية أنهم إذا تابوا قبل القدرة عليهم سقط عنهم الحد، لأن الله قال: ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فإذا غفر لهم ورحمهم، فإنهم لا يقام عليهم الحد.

وفي هذه الآية ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ ﴾ مناسبة ظاهرة، لأن الله ذو رحمة، وذو عزة وغلبة، وذو هبة وعطاء، فيعطي من شاء بما تقتضيه عزته من خزائن رحمته.

لكن بعض الآيات تكون فواصلها مخالفة لمضمونها فيما يظهر، مثل قول عيسى عليه السلام: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ

ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٧-١١٨] فهنا جاء قوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ جواباً لقوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وكان المتوقع أن تكون الآية: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، فاستشكل بعض العلماء هذا، قالوا: كيف يقول: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ولم يقل: فإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم؟ وأجيب عن ذلك بأن عيسى عليه السلام لم يقتصر على ذكر المغفرة، بل ذكر المغفرة والتعذيب، قال: إن تعذبهم، وإن تغفر لهم، فكان الحكم الآن متردداً بين المغفرة والرحمة، إن نظرنا إلى قوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، وبين العزة والحكمة والحكم إذا نظرنا إلى قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾، فصار ختم القول بقوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أنسب لأن المغفرة إن حصلت فهي من عزة وحكمة.

٤ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ أن الخلق لا يملكون خزائن رحمة الله، ولا يملكون السموات والأرض وما بينهما؛ لأن ذلك لله عز وجل. ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «**اللهم لا مانع لما أعطيتَ، ولا معطي لما منعتَ**»[1] فخزائن رحمة الله لا يملكها أحد، الذي يملكها هو الله عز وجل، وفي حديث ابن عباس «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد**

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة (٨٤٤)، ومسلم، كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، وبيان صفته (٥٩٣) (١٣٧).

كتبه الله عليك»[١]. ويتفرع على هذه الفائدة أنه لا ينبغي للإنسان أن يعلق رجاءه إلا بالله عز وجل، ولا يعلق رجاءه بمخلوق إلا في الحدود الضعيفة المرسومة. يجعل الرجاء كله والتعلق كله بالله عز وجل، وإذا جعل هذا في الله، سخر الله له المخلوقات، حتى البشر يسخرهم له، لكن إذا تعلق بغير الله وُكِلَ إلى من تعلق به وضاع.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات ملكية الله للسماوات والأرض وما بينهما، لأن نفي ملك هؤلاء لها دليل على ثبوت الملكية لغيرهم ولا مالك لهذه إلا الله.

٦ ـ **ومن فوائدها**: عظم ما بين السماء والأرض، ووجهه أن الله جعل ما بينهما قسيماً لهما، والقسيم لا بد أن يكون معادلاً أو مقارباً لقسيمه، لا يمكن أن تأتي بشيء عظيم تقارن بينه وبين شيء بعيد منه في العِظَم.

٧ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: تحديه هؤلاء المكذبين أن يأتوا بما يدل على أن لهم شيئاً من ملك السموات والأرض، لقوله: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾﴾.

٨ ـ **ومن فوائدها**: أنه لا ينبغي التحدي إلا بما لا يستطيعه المُتحدَّى، لماذا؟ لأنك لو تحديته بشيء يستطيعه ثم قام به بطلت حجتك نهائياً، وهذا يفيدك في باب المناظرة، وفي باب النظر، لأن الناس ناظر ومناظر، فالناظر هو الذي يتأمل الأدلة من ذات نفسه

---

(١) أخرجه الترمذي، صفة القيامة (٢٥١٦).

ويحكم عليها، والمناظر هو الذي يناقشها مع غيره، فمن فوائد النظر والمناظرة أن الإنسان لا يفرض شيئاً على وجه التحدي إلا إذا علم أنه غير ممكن للمُتحدَّى، لأنه لو فرض شيئاً يتحدّى به، ثم أتى به المُتحدَّى، بطلت حجته وانهارت، وانهارت قوة المدافعة والمهاجمة، كما هو معلوم، من أن يرتقوا إلى السماء والله أعلم.

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أن بعض العلماء أخذ منها أنه لا يمكن الوصول إلى القمر، لأن الله قال: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ ثم قال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ﴾ ومعلوم أن القمر في السماء، فإذا كان هؤلاء الذين يحاولون أن يرتقوا في الأسباب إلى السماء، جنداً حقيرين مهزومين، فإنه لا يمكن أن يصلوا إلى القمر، فهل يمكن أن يؤخذ هذا من هذه الآية؟ ظاهر الآية أنه ممكن أن نأخذ من هذه الآية دليلاً على أن الناس يصلون إلى القمر، إذا كان هذا ظاهر الآية فمعناه أن الآية دلت على إمكان الوصول إلى القمر، وهذا عكس ما استدل به بعض الناس، والحقيقة أنه لا يمكن أن يكون فيها دليل على الامتناع من الوصول إلى القمر، لأن القمر في السماء، التي بمعنى العلو، وليس في السماء التي جعلت سقفاً محفوظاً، وهذا أمر مؤكد لا يختلف فيه اثنان، وإذا كان السحاب في السماء، ويطلق عليه سماء، كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧] والناس الآن يصعدون فوق السماء الذي هو السحاب. كثير منكم ركب الطائرة وهي فوق السحاب، والسحاب تحتها، فكذلك القمر في السماء، قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ

بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١] فلا شك أن القمر في السماء، ولكن هل هو في السماء التي هي السقف المحفوظ الذي لا يدخل إليه أشرف الملائكة وأشرف البشر إلا باستئذان؟ لا، قطعاً، بل هو تحته بكثير، إذن نقول: إنه ليس في الآية دليل على استحالة الوصول إلى القمر، كما إنه ليس فيها دليل على إمكان الوصول إلى القمر، ويترك هذا الأمر للواقع، فإذا صح أنهم وصلوا إلى القمر فإن الشرع لم يقل باستحالة ذلك، وإذا لم يصح فإن الشرع لا يثبته. فإذا قالوا: وصلنا إلى القمر وثبت ذلك، قلنا: الحمد لله، هذا لا يعارض شرعنا، لا يعارض كتاب الله ولا سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ومعلوم أن القمر تحت النجوم، والنجوم قال الله فيها: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥] لكن القمر تحتها، وأنا وغيري شاهدنا أن القمر حجب النجوم، وأنا شاهدت ذلك بعيني، كان القمر يساير النجمة التي تسمى نجمة الصباح، ومعروف أن القمر يتأخر فإذا بها تختفي، لم نعد نشاهدها، فصار كما لو جاءت سحابة فحالت بيننا وبين القمر. وحدثني من أثق به، قال: إن هذا قد يقع أحياناً ونشاهده. إذاً القمر ليس في السماء التي هي السقف المحفوظ، فإذا ثبت أنهم وصلوا إليه فلا غرابة في ذلك. إذاً ليس في الآية دليل على انتفاء الوصول إلى القمر.

١٠ـ ومن **فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان قدرة الله عزّ وجلّ، وأن الجنود مهما عظموا، حقيرون بالنسبة إلى قوة الله عزّ وجلّ وعزته، مهزومون أمام قوته، ولهذا قال: ﴿مَّهْزُومٌ﴾.

١١ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه يجب على هؤلاء المكذبين للرسول عليه الصلاة والسلام أن يعتبروا بمن سبقهم، لقوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾ أي: هم جند حقيرون مهزومون كما هُزم غيرهم من الأحزاب. قالت عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] فقال الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

* * *

ثم قال تعالى: [﴿جُندٌ مَّا﴾ أي: هم جند حقير ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في تكذيبهم لك ﴿مَهْزُومٌ﴾ صفة جند ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾ صفة جند أيضاً] ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ جند: خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هم جند، وما: نكرة واصفة، لأن «ما» لها عشر معانٍ جمعت في قول الشاعر:

محامل ما عشر إذا رُمْتَ عَدَّها
فحافظْ على بيتٍ سليم من الشِّعرِ
ستفهم شرط الوصل فاعجب لنكرها
بكفٍّ ونفيٍ زِيدَ تعظيمِ مصدرِ

نوضح ذلك: ستفهم: استفهامية، شرط: شرطية، الوصل: موصولة، فاعجب: تعجبية، لنكرها: نكرة سواء واصفة أو موصوفة، بكف: كافة، ونفي: نافية، زيد: زائدة، تعظيم: للتعظيم، مصدر: مصدرية.

﴿جُندٌ مَّا﴾ قال المؤلف: [هم جند حقير] فعلى هذا تكون «ما» هنا واصفة، يعني موصوف بها، لكن المراد بهذا التحقير، والدليل على ذلك التحقير قوله: ﴿مَهْزُومٌ﴾ والمهزوم حقير.

وقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ هنا إشارة للمكان، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، هنالك، أي: في ذلك المكان، المؤلف يقول: [أي: في تكذيبهم لك] فجعل الظرفية المكانية هنا التكذيب، ولكن يبدو أن الأمر على خلاف ما قال المؤلف رحمه الله، وأن المشار إليه المكان الحسي، لا المكان المعنوي، أي: أنهم إن ارتقوا في الأسباب، فسوف يهزمون، فيكون هنالك، أي: في المكان الذي يرتقون إليه، فإذا قدر أنهم ارتقوا إلى السماء فهل ستكون لهم الغلبة؟ أبداً بالعكس، حتى لو ظنوا أنهم لو وصلوا إلى السماء، وصعدوا إلى السماء أنهم انتصروا، وصارت لهم العزة فالأمر بالعكس. هذا هو الذي يظهر من الآية الكريمة. أما جعل الظرف هو التكذيب فهذا بعيد، بل التكذيب سبب للخذلان.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ﴾ (مهزوم) يقول المؤلف: [صفة جند] صفة ثانية والأولى «ما» و﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ صفة جند أيضاً، يعني جند من الأحزاب مهزوم.

واعلم أنه إذا تكررت الصفة للنكرة فإن ما بعد الصفة الأولى يجوز أن يكون حالاً، فإذا قلت: مررت برجل عظيم كريم شجاع، جاز لك أن تقول: مررت برجل عظيم كريماً شجاعاً، ولكن الأولى أن تكون صفة، أي: نعتاً؛ لتناسق الكلام، وكونه على وتيرة واحدة،

فهنا عندنا ثلاث صفات لجند: «ما» و«مهزوم»، و«من الأحزاب»، ما الذي يجوز أن يكون منصوباً على الحال؟ مهزومٌ، لكن لا يمكن هنا لأن حركة الإعراب ظهرت على أنه مرفوع، صفة، وكذلك من الأحزاب مثلـه يعني يجوز أن يكون صفة وهو الأصل، ويجوز أن نجعله في موضع نصب على الحال.

قال المؤلف رحمه الله: [أي: كالأجناد من جنس الأحزاب المتحزبين على الأنبياء قبلك، وأولئك قد قهروا وأهلكوا فكذلك نهلك هؤلاء] يعني أن هؤلاء جند من الأجناد الأخرى، والأجناد الأخرى الأحزاب الذين كذبوا الرسل كان مآلهم الهلاك والدمار، وقد مر علينا في أول السورة: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾.

ثم بدأ الله عز وجل الإشارة إلى قصة أولئك الأجناد أو أولئك الأحزاب فقال عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل الذين كذبوك من قريش ومن اليهود وغيرهم ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ ونوح هو أول رسول أرسله الله عز وجل بدلالة القرآن والسنة، قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦] ولو كان أحد قبل نوح لخرج من ذريتهما، وبه نعرف أن ما يوجد من شجرة الأنبياء التي كتب فيها أن إدريس قبل نوح خطأ، فإن إدريس بعد نوح بلا شك، أما السنة فصريحة في ذلك فإنه ثبت في حديث الشفاعة الطويل «**أن الناس يأتون إلى نوحٍ فيقولون له: أنت**

أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض»[1] وهذا صريح، وبه أيضاً نعرف أن ما يذكر في كتب التاريخ من أن إدريس جد لنوح فهو خطأ بلا شك، فإدريس فيما يظهر ـ والعلم عند الله ـ من أنبياء بني إسرائيل.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ نوح عليه الصلاة والسلام بعث إلى البشر حين اختلف الناس، وكان الناس في الأول على ملة واحدة، فاختلفوا، ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣] أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهو يدعوهم إلى الله، ويأتيهم بالآيات، ويتحداهم، ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ كلما دعاهم ازدادوا عتواً ونفوراً، قال تعالى: ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٧] ولما أذن الله تعالى بهلاكهم دعا نوح ربه ﴿ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠] فانتصر الله له ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١١-١٤] وأمره الله أن يحمل معه مَنْ آمن من قومه، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠].

فتصوروا أيها الدعاة كيف لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وهو رسول، والناس لم يكثروا بعد، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل، حتى أحد نسله قد كفر به وهو ابنه الذي كان من المغرقين.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [هود: ٢٥] (٣٣٤٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٤) (٣٢٧).

﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ ﴾ قال المؤلف رحمه الله: [تأنيث «قوم» باعتبار المعنى] هل قوم مؤنث؟ أو الفعل الذي كان القوم يفعلونه هو الذي أُنِّثَ؟ نقول: الفعل هو الذي أُنِّث ﴿ كَذَّبَتۡ ﴾، أما قوم فليس فيها تاء التأنيث، لكن من المعلوم أن الفعل إذا أُنِّثَ فالفاعل مؤنث، فإذا وقع الفاعل لفعل مؤنث فهو مؤنث، لكن هذا اللفظ هل هو مؤنث لفظاً أو باعتبار المعنى؟ قال المؤلف: باعتبار المعنى، وهنا نسأل كيف يكون مؤنث باعتبار المعنى؟ لأن القوم جماعة، وكل جمع يجوز تأنيثه، قال ابن مالك رحمه الله:

والتاءُ مع جَمْعٍ سوى السالِمِ مِنْ مذكَّر كالتاءِ مع إحدى اللَّبِنْ

إحدى اللَّبِنْ: هي لَبِنة، فلبنة يجوز فيها التذكير والتأنيث، لكن التأنيث أرجح، كذلك جميع الجموع ما عدا جمع المذكر السالم يجوز فيه وجود التاء في الفعل.

﴿ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ١٢ ﴾ عاد قوم هود، كانوا بالأحقاف، وكانوا ذوي شدة وقوة، من أشد الناس قوة، فأُعجبوا بقوتهم واستكبروا وعصوا رسولهم عليه الصلاة والسلام، وافتخروا بما أعطاهم الله من القوة، كما قال الله عنهم: ﴿ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ ﴾ [فصلت: ١٥] فتأمل قوله: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ ﴾ لأن فيها إشارة إلى أنهم ضعفاء أمام خالقهم، ولم يقل: أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات، قال: خلقهم، فهم مخلوقون، والخالق أعلى من المخلوق، وأشد منه قوة ﴿ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ

بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥] فأهلكهم الله. أهلكهم الله وعلى حين طمع في رحمته، أرسل الله عليهم ريحاً عظيمة، ولما رأوا ما تحمله الريح من الرمال العظيمة ظنوا أن ذلك سحاب. لما رأوا هذا قالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ فقال الله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥] فعصفت بهم الريح العقيم حتى كانت تحمل الواحد منهم إلى جو السماء ثم تقلبه على رأسه، فصاروا ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٧]، أعجاز النخل يعني أصولها وجذوعها؛ خاوية منتكسة، ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ومع ذلك ما آمن معه إلا نفر قليل.

﴿وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٢﴾ قال المؤلف: [كان يَتِدُ لكل مَن يغضب عليه أربعة أوتاد يشد إليها يديه ورجليه ويعذبه] فرعون الذي أُرسل إليه موسى، وكان ملكاً قاهراً لمصر جباراً عنيداً، استعبد أهل مصر وقال لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وسخر بموسى وقال لهم: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] وفخر بما أعطاه الله تعالى من الأنهار، قال لهم: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١] وكذب موسى وحاربه، لكن ليس بالسلاح بل بما جمع له من السحرة، لأنه أوْهَمَ الناسَ أن موسى كان ساحراً، قال: هذا ساحر يرمي العصا في الأرض فتكون حية، ويدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، هذا ساحر.

وجمع السحرة، وألقوا ما عندهم من السحر العظيم الذي أرهب الناس، حتى موسى عليه السلام رهب وخاف، فقال الله تعالى: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ﴾ [طه: ٦٨-٦٩] فأيّده الله، وألقى ما في يمينه وهي العصا، فصارت حية عظيمة التهمت الحبال والعصي التي ملؤوا بها الأرض، وصار يُخيل للناس أنها حيات وثعابين تسعى، فالتهمتها كلها، وسبحان الله كيف هذه الحية التي كانت عصا تلتهم كل هذا؟! هذا من آيات الله.

فلما رأى السحرة هذا الأمر دهشوا، وعلموا أن هذا ليس بساحر، لأن الساحر لا يمكن أن يأتي بمثل هذا الأمر، بل هو حقيقة، وهو آية أيَّدَ الله بها موسى، فآمنوا كلهم، وسجدوا لله ذُلاً وعبادة، وقالوا معلنين: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٢] فماذا يكون تأثير هؤلاء القوم الذين انتصر بهم فرعون بين الناس؟ سيكون تأثيرهم بين الناس كبيراً وعظيماً. أرأيتم لو أنّ أحداً من الملوك جمع أكبر ما عنده من المهندسين في حشد عظيم، ثم أقرّوا وأذعنوا لخصوم هذا الملك، ماذا يكون شعور الناس؟ سيكون شعورهم أن الملك مهزوم.

ولهذا لما حصل إيمان السحرة لجأ فرعون إلى القوة والقهر، وهددهم بأنه سيقطِّع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم على جذوع النخل حتى يذوقوا العذاب، ولكنهم بإيمانهم قالوا: ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ

﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٢-٧٣] فصمدوا أمام هذا الطاغية العنيد. لقد كانوا في أول النهار من السحرة الكفرة، وصاروا في آخر النهار من المؤمنين البررة، وبقي فرعون مستمراً على طغيانه ـ والعياذ بالله ـ حتى أهلكه الله بالغرق بجنس ما كان يفتخر به على قومه وعلى موسى حين قال: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١] فأهلك بالماء الذي كان يفتخر به.

وقول المؤلف في قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ قال: [كان يَتِدُ...] إلى آخره. الذي يظهر أن هذا ليس سبب الوصف بذي الأوتاد، وإنما السبب الحقيقي أن يراد بالأوتاد القوة التي ثَبَّتَ بها ملكه، كأوتاد الخيمة تثبت بها الخيمة، ولا يبعد أن يكون من جبروته أن يضع أوتاداً أربعة يصلب عليها الإنسان ويعذبه، لكن هذا لا يمكن أن يمتدح به فرعون على أنه ذو قوة، بل الصحيح المراد بالأوتاد هنا ما كان عليه من القوة التي ثبَّت بها ملكه، كأوتاد الخيمة تثبت بها الخيمة.

قال الله تعالى: ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾

قوله: ﴿وَثَمُودُ﴾ معطوفة على ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ يعني: وكذبت قبلهم ثمود أصحاب صالح، وهم في مكان يقال له: الحِجْر، وتسمى الآن بمدائن صالح. أرسله الله سبحانه وتعالى إليهم ولكنهم كفروا به، ولم يؤمن معه إلا قليل، وآتاهم الله تعالى آية عظيمة، وهي ناقة يحلبونها يوماً وتشرب الماء يوماً آخر. وقيل: إن الواحد منهم يأتي

إليها فيسقيها ويأخذ من لبنها بقدر ما أسقاها، والله أعلم. والمهم أن هؤلاء القوم عندهم قوة مكَّنتهم من أن يتخذوا من الجبال بيوتاً. ولا تزال آثارهم باقية إلى اليوم. وقد مر النبي ﷺ بها وهو ذاهب إلى تبوك، فقنَّع رأسه ﷺ ـ يعني غطاه ـ وأسرع في السير، وقال: **«لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا وأنتم باكون، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم ما أصابهم»**(١).

قال: ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ لوط: ابن أخي إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أرسله الله إلى قومه، وكانوا قد ارتكبوا الفاحشة ـ والعياذ بالله ـ فكانوا يأتون الرجال ويَدَعُون النساء. فوبَّخهم لوطٌ على ذلك وقال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦] فأنتم الآن تركتم الحلال إلى الحرام، وتركتم النزيه إلى الخسيس. ولكنهم أبوا واستكبروا حتى إن زوجته كانت منهم، فأمره الله أن يسري بأهله، وأرسل على قومه حجارة من سجيل، حتى جعل عاليها سافلها، وهذا من المناسبة بوضوح، فإن هؤلاء لما انقلبوا عن الحقيقة، ونزلوا إلى أسفل الأخلاق، جعل الله أعالي قريتهم سافلها. واختلف العلماء في معنى هذا، فقال بعضهم: إن الأرض حُمِلت ثم نُكِّست فصار عاليها سافلها، وقال بعضهم: بل إنها تهدمت من الحجارة التي أُرسلت عليهم حتى صار أعاليها سافلها(٢).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحِجْر (٤٤١٩)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم (٢٩٨٠).

(٢) انظر تفسير سورة الصافات لفضيلة الشيخ رحمه الله.

قال: ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِۚ﴾ والأيكة فيها قراءتان[1]، قال المؤلف: [﴿لْـَٔيْكَةِۚ﴾ أي: الغَيْضة وهم قوم شعيب عليه السلام] والغيضة: هي الأشجار الملتف بعضها إلى بعض، وكانوا في نعيم ولكنهم عصوا شعيباً وسخروا منه ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١] ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] يسخرون منه، وقال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ [الشعراء: ١٨٩] قال أهل العلم: إنهم أصيبوا بحَرّ شديد جداً، فأرسل الله غمامة لها ظل، فتنادوا إليها يستظلون بظلها، فكان ظلها أكثر إحراقاً من الشمس ـ والعياذ بالله ـ فأُتوا من حيث أمنوا.

هؤلاء يقول الله عز وجل فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ يعني أولئك الأحزاب العظماء الذين طغوا واستكبروا وكذبوا الرسل، فالإشارة هنا بصيغة البعد إما لدنو منزلتهم وبعدها عن الصواب، وإما لعلوها باعتبار حالهم التي كانوا عليها من الطغيان والعتو، وذلك لأن «أولئك» لا يشار بها إلا إلى الشيء البعيد علوّاً، أو نزولاً أو مساحة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ جمع حزب، والحزب هو الطائفة، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢] أي: كلّ طائفة.

---

(١) الأولى: (لَيْكَةَ) بلام مفتوحة من غير همز قبلها ولا بعدها، ونصب التاء، على أنه اسم غير منصرف للعلمية والتأنيث كطلحة، والثانية. (الأَيكة) بإسكان اللام وهمزة وصل قبلها، وهمزة قطع مفتوحة بعدها، وجر التاء على أنها مضاف إليه. «الكشف عن وجوه القراءات» لمكي ٢/ ٣٢.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴾ يحتمل أن تكون مبتدأ وخبر، يعني أولئك هم الأحزاب الذين كذبوا الرسل فأهلكناهم، ويحتمل أن تكون الأحزاب صفة لأولئك.

وقوله: ﴿ إِن كُلٌّ ﴾ الجملة خبر المبتدأ، قال المؤلف: [﴿ إِن ﴾ ما ﴿ كُلٌّ ﴾] أي: أن «إنْ» نافية، وقد سبق لنا أن قلنا: إن «إنْ» تستعمل في اللغة العربية على وجوه: النفي، والشرط، والمخففة من الثقيلة، والزائدة. قال المؤلف: [﴿ إِن كُلٌّ ﴾ ما كل من الأحزاب ﴿ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾] كلٌّ مِنْ هؤلاء الأحزاب كذب الرسل، والرسل: جمع رسول، ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ أي: كل حزب كذَّب رسولَه، وعلى هذا فالجمع موزَّع على الجمع الذي قبله توزيع أفراد، أو هو توزيع جملة؟ أي: كل حزب كذَّب جميعَ الرسل؟ المؤلف مشى على الثاني، قال: [لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم، فقد كذبوا جميعهم، لأن دعوتهم واحدة، وهي دعوة التوحيد] فمشى ـ رحمه الله ـ على أن الجمع موزع على الأفراد توزيع جمع، يعني كل حزب كذب جميع الرسل، ويؤيد ما ذهب إليه ـ رحمه الله ـ قولُه تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥] فإن الله ذكر أن قوم نوح كذبوا المرسلين، ومن المعلوم أنه لم يُبعث رسولٌ قبل نوح حتى نقول: إنهم كذبوا من سبق، وعلى هذا فيكون ما ذهب إليه المؤلف أرجح مما يحتمله اللفظ احتمالاً مرجوحاً، وهو أن يكون الجمع موزعاً على ما قبله توزيع أفراد.

وقوله: ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ يعني سبحانه وتعالى باعتبار الجملة؛ لأن بعض القوم آمنوا لكنهم كانوا قلة، والقلة مع الكثرة تنغمر فيها، فلهذا قال: إن كل من الأحزاب إلا كذب الرسل، ويحتمل أن يقال: إنه لا حاجة إلى هذا التقدير، أي: لا حاجة إلى أن نقول: إن هذا باعتبار الكثير من هؤلاء الأقوام، لأنه قال: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ فيكون قوله: ﴿ إِن كُلٌّ﴾ أي: من المكذبين إلا كذب الرسل، وعلى هذا فلا حاجة إلى استثناء الذين آمنوا، وإلى القول بأن الآية جاءت على الأغلب.

قال الله تعالى: ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ الرسل الذين أرسلوا إليهم، وهنا نحتاج إلى الفرق بين الرسل والنبيين فنقول: أولاً: كل من ذكر في القرآن من النبيين فهو رسول، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨] وعلى هذا فيكون كل من ذكر في القرآن من الرسل، لأنهم قُصّوا علينا، وكل من قُصَّ علينا فهو رسول، أما على سبيل العموم فإن العلماء يقولون على المشهور عندهم: إن الرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه والدعوة إليه، لأنه رسول، والرسول ليس عليه إلا البلاغ ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وأما النبي فهو الذي أوحي إليه بوحي لكن لم يأمر بالتبليغ، فيكون كالمجدد من هذه الأمة، فالمجدد من هذه الأمة صالح في نفسه لكنه يدعو بحسب استطاعته، فالنبي لم يكلف بالرسالة، وإنما أوحي إليه بما يُصلِحه ويَصْلَحُ به غيره لا على سبيل الإلزام بالرسالة.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الفرق: أن النبي هو من جدد شرع مَن قبله ولم يستقلّ بوحي، فهو يأتي بالشريعة السابقة، وأما الرسول فهو الذي يُجدَّد له الوحي، ويأتي بشريعة مستقلة، وهذا القول قد نقول: إنه جيد كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤] ولكنه ينتقض بآدم عليه الصلاة والسلام، فإن آدم نبي ولم يكن تابعاً لشريعة سابقة، والقول إذا انتقض فهو ضعيف غير معتمد عليه.

قال الله تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ حق، أي: وجب وثبت، وقوله: ﴿عِقَابِ﴾ فاعل «حق» مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، أي: يكسر ما قبل ياء المتكلم ليناسب الياء، فالكسرة التي يؤتى بها لمناسبة الياء تسمى حركة المناسبة أو كسرة المناسبة، وهي تمنع من ظهور ضمة الإعراب وفتحته على آخر الكلمة.

والعقاب: هو المؤاخذة على الذنب، ولهذا سمي عقاباً؛ لأنه يأتي عقب الجريمة، فكل عذاب على جريمة فإنه يسمى عقاباً. وهذا العقاب الذي أنزله الله بهم هو عقاب مبني على العدل؛ لأن الله سبحانه وتعالى أضافه إلى نفسه فقال: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾، ونحن نعلم أن الرب عز وجل لا يظلم أحداً أبداً، لا يزيد في سيئاته، ولا ينقص من حسناته، لكن لو كان العقاب من غير الله لكان يمكن أن يزداد على الجريمة، أما العقاب الذي أضافه الله لنفسه فهو عقاب عدل.

الفوائد:

١ ـ في هذه الآية تسلية وتهديد، تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام، وتهديد للمكذبين له أن يصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم.

٢ ـ **ومن فوائدها:** إثبات الرسالة لنوح عليه الصلاة والسلام لقوله: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ وهو كذلك، فإن نوح هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض.

٣ ـ **ومن فوائدها أيضاً:** إثبات الرسالة لهود لقوله: ﴿وَعَادٌ﴾ وعاد هم قوم هود، فإنهم كذبوا هوداً.

٤ ـ **وفي الآية:** إثبات رسالة موسى لقوله: ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ ومعلوم أن الذي أُرسل لفرعون هو موسى، ففي الآية إثبات لرسالة موسى.

٥ ـ **ومن فوائدها:** أنه مهما عظم سلطان المكذبين للرسل فإنهم أذلاء بالنسبة لسلطان الله عز وجل لقوله: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾.

٦ ـ **من فوائد الآية:** إثبات رسالة صالح لقوله: ﴿وَثَمُودُ﴾ والمرسل إلى ثمود أخوهم صالح.

٧ ـ **ومن فوائدها:** إثبات رسالة لوط لقوله: ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾.

٨ ـ **ومن فوائدها:** إثبات رسالة شعيب لقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام.

٩ ـ **ومن فوائدها:** أن جميع هؤلاء الأحزاب كذبوا الرسل لقوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾.

١٠ـ **ومن فوائدها**: الاعتبار بالأغلب، وأن الكل قد يطلق على الأغلب، لأن قوم نوح لم يكذبوا كلهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] وكذلك عاد، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٥٨] وكذلك لوط آمن معه مَنْ آمن مِنْ أهله، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥] كذلك فرعون لم يؤمن إلا حينما أدركه الغرق إيماناً لا ينفعه، وكذلك صالح آمن معه من آمن، وعلى هذا فالله عز وجل قال: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ إن كل، أي: من هؤلاء إلا كذب الرسل.

١١ـ **ومن فوائد الآية**: أنه مَن كَذَّب رسولاً من الرسل فهو مكذب باعتبار الأغلب لجميع الرسل لقوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ وقد ذكرنا في تفسيرها أنها محتملة أن تكون عائدة لكل فرد باعتبار الجمع أو باعتبار الأفراد، أي: هل هو من توزيع الجمل أو من توزيع الأفراد، وذكرنا أنه من الراجح أنها من توزيع الجمل على الأفراد، وذكرنا الدليل على ذلك.

١٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن تكذيب الرسل سبب للعقوبة لقوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ والفاء هنا سببية وهي عاطفة تدل على الترتيب والتعقيب، ففيها سببية وتعقيب، وأن العقاب حل بهم، وهم ما زالوا على تكذيبهم.

١٣ـ **وقوله**: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ يؤخذ منه فائدة وهي شدة هذه العقوبة لأن الله أضافها إلى نفسه، وقد قال سبحانه وتعالى عن

نفسه: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٩٨] و﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [المائدة: ٩٨].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴿١٥﴾ ﴾ ينظر إذا تعدت بـ«إلى» فهي نظر العين، وإن جاءت متعدية بنفسها صارت بمعنى الانتظار، وإن جاءت مطلقة فهي على حسب السياق، يعني إذا جاءت غير مقيدة بحرف جر، ولا مقيدة بمفعول، فهي على حسب السياق، مثال التي قيدت بـ«إلى» قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] فإن ناظرة هنا بمعنى باصرة بالعين؛ لأنها تعدت بـ «إلى» وأضيفت إلى الوجوه أيضاً التي هي مكان العيون، وإذا جاءت متعدية بنفسها فإنها تكون بمعنى الانتظار، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ ﴾ [محمد: ١٨] وقد تأتي متعدية ويكون المراد بها نظر العبرة والتفكر كما في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١] وإن جاءت مطلقة غير متعدية بنفسها ولا بـ«إلى» فهي بحسب السياق، مثل قوله تعالى: ﴿ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين: ٢٣] منهم من قال: ينظرون بمعنى ينتظرون النعيم الذي يُؤتى به إليهم، ومنهم من قال: ينظرون، أي: ينظرون إلى ما أنعم الله به عليهم، ومنه النظر إلى وجه الله.

﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً ﴾ متعدية بنفسها، فهي بمعنى ينتظر، أي: ما ينتظر هؤلاء، أي كفار أهل مكة، كما قال المؤلف: [أي: كفار مكة] ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ يصاح بهم، واحدة لا تعاد مرة أخرى، كما قال الله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٦]، وقال أيضاً: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ ﴾ [القمر: ٤٩-٥٠]، وقال: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٥٣] فالصيحة هي التي تكون يوم القيامة، كما قال المؤلف: [هي نفخة القيامة تحل بهم العذاب] وهي الساعة، هذه الصيحة الواحدة ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [بفتح الفاء وضمها، أي: رجوع].

﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ ﴾ ما: نافية، وليست هنا حجازية لاتفاق التميميين والحجازيين على عدم عملها، لأن الحجازيين يعملونها بشرط الترتيب، أي: تقدم الاسم على الخبر، وهنا لم يتقدم الاسم على الخبر، بل تأخر، فهي إذاً نافية، ولها: جار ومجرور خبر مقدم. و﴿ مِن فَوَاقٍ ﴾ من: حرف جر زائد للتأكيد، و﴿ فَوَاقٍ ﴾ مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. أما من حيث التصريف قال المؤلف: [إنها بفتح الفاء وضمها] فَواق وفُواق، ومعناه الرجوع وقيل: معناه الإمهال، يعني إنها لا تمهلهم، بل تأخذهم بسرعة، وقيل: إنها إن كانت فَواق فهي بمعنى الرجوع لأنها من أفاق يفيق إذا رجع إلى عقله، وإذا كانت فُواق فهي بمعنى الإمهال مأخوذ من قولهم: فُواق الناقة، وفُواق

الناقة: هو ما بين الحَلْبتيْنِ أو ما بين الرَّضْعَتيْنِ. ما بين الحلبتين إذا كانت تُحلب، وهي مدة وجيزة، مثاله: يعصر الإنسان الثدي ثم يتوقف ثم يعود ويعصره، فالمدة بين الحلبتين قليلة، وكذلك بين الرضعتين. الطفل الرضيع إذا كان يرضع ثدي الأم، يمص ثم يمص. وهم يطلقون هذا على سرعة الشيء وعدم إمهاله، ويمكن أن نقول: إن القراءتين تجمعان المعنيين، فيكون معنى ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥﴾ أي: ما لها من رجوع ولا إمهال.

الفوائد:

١ ـ في هذا أشد التهديد للمكذبين لرسول الله ﷺ، ولازم ذلك إثبات رسالته ﷺ، ووجه أن الله توعد المكذبين له، ولولا أن رسالته حق لكان الوعيد عليه هو كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧] الله أكبر، انظر إلى هذا الأسلوب الشديد للآيات الموجهة للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ بالقوة، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ حتى لا يبقى به حياة. والوتين هو عرق يتصل بالقلب إذا قطع مات الإنسان فوراً ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ هذا وهو الرسول ﷺ، لو تقول على الله كلمة واحدة لأخذه الله باليمين، فكيف بالذين يتقولون على الله كلمات، ولا يبالون أن يقولوا: قال الله، وهو لم يقل.

ولهذا كان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ من ورعه لا يمكن أن يقول: هذا حرام إلا إن كان قد نص على تحريمه، وإلا تجده يقول:

أكره هذا، أو لا يعجبني، أو لا يفعل، أو تركه أحب إليّ أو ما أشبه ذلك، ولكن كان إماماً، وصار الناس يتداولون هذه الكلمات ويحللونها، هل إذا قال: لا تعجبني، يعني التحريم أو الكراهة، ثم بدأ الناس يتلقون كلامه ويحللونه، لأنه ـ رحمه الله ـ خاف الله واتقاه فجعل الله لكلماته نوراً، بخلاف الذين يقولون الآن: الإسلام يحرم كذا وكذا، وإذا رأيت الإسلام يحلله، ويمكن أن يوجبه في بعض الأحيان، وهذا يقول: يحرمه الإسلام، يتكلم واحد معرض للخطأ باسم الإسلام. وأنت لو قلت: أرى أن هذا حرام، قلنا: هذا رأيك، ويمكن أن تخطىء وتصيب. أما أن تقول: حرّم الإسلام، وقال الإسلام، وفعل الإسلام، فهذه الأقوال خطيرة، لأن أعداء المسلمين إذا أخذوا مثل هذه الأقوال، وقالوا: هذا الإسلام وكانت تخالف الإسلام، أخذوا من هذا سبباً للقدح في الإسلام. والإسلام بريء منه، لكن بعض الناس يجعل لنفسه منصباً عالياً فوق مستواه.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، لأنه إذا قيل له: سنهلك أعداءك، سوف يتسلى.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أن العذاب إذا أخذهم فإنه لن يرجع ولن يتأخر، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

* * *

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ لما توعدهم الرسول عليه الصلاة والسلام بيوم القيامة، وأن لهم العذاب فيه، تحدوا الرسول عليه الصلاة والسلام، بل تحدوا الله ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ بمعنى نصيبنا، يقولون ذلك تحدياً واستكباراً وعناداً ـ والعياذ بالله ـ وهذا كقولهم: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] هذا قول معاند مستكبر، وكان الواجب عليهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ووفقنا له. هذا الواجب، أما أن يقولوا: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فهذا لا شك أنه في غاية الاستكبار ـ والعياذ بالله ـ.

قال المؤلف: [وقالوا لما نزلت ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة: ١٩] ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: كتاب أعمالنا ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ قالوا ذلك استهزاءً] ما ذهب إليه المؤلف يحتمله اللفظ، لكن لا دليل عليه فيه، والصحيح أن المراد بقطنا، أي: نصيبنا من العذاب الذي توعدتنا به، وقلت إنه سيأتيكم عذاب كما أتى الأحزاب من قبلكم، فكأنهم يقولون: إذا كان الأحزاب قد أوتوا العذاب من قبلنا فليأتنا نصيبنا. وهذا لا شك أنه في غاية ما يكون من التحدي والسخرية والاستكبار ـ والعياذ بالله ـ وأنت تعجب أن تصل الحال بالبشر، إلى هذا التحدي ـ والعياذ بالله ـ ولكن الشيطان عدو للإنسان، فإذا أطاعه حمله على شيء، يكاد الإنسان أن يقول: إن هذا الشيء لا يمكن أن يقع.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ في هذه الآية من الفوائد:

١ ـ اعتراف المشركين بالربوبية لقولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا﴾ وهم مقرّون بالربوبية، ومقرّون بانفراد الله تعالى بها، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

٢ ـ **ومن فوائدها**: أن الإقرار بالربوبية لا يخرج الإنسان من الكفر إذا كان لم يقرّ بتوحيد الألوهية؛ لأن هؤلاء مقرون بالربوبية، وأن الله هو الخالق الرازق والمنفرد بالخلق والرزق، لكنهم يشركون به في العبادة، يعبدون معه غيره، فلم يدخلهم ذلك في الإسلام.

٣ ـ **ومن فوائدها**: بطلان ما ذهب إليه كثير من المتكلمين في تفسير التوحيد، حيث قالوا في تفسير التوحيد: (أن تؤمن بأن الله واحد في ذاته لا قسيم له، واحد في أفعاله لا شريك له، واحد في صفاته لا شبيه له)، فإن هذا لم يتعرضوا فيه لذكر الألوهية إطلاقاً، قالوا: إن الله واحد في ذاته لا قسيم له... إلخ هذا هو التوحيد عند عامة المتكلمين، ولا شك أن هذا التوحيد لم يدخل فيه توحيد الألوهية الذي جاءت الرسل بتحقيقه وإثباته والقتال عليه، لم يقولوا واحد في ألوهيته لا يُعبد غيره، أسقطوا هذا نهائياً، ولا شك أن هذا قول باطل في أن هذا هو التوحيد الذي دعت إليه الرسل، بل هذا من التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وليس هو التوحيد كله، بل فيه

أيضاً إجمال في قولهم: واحد في صفاته لا شبيه له، ولكن هذا ليس موضوعنا، لأننا نتكلم عن التفسير.

فالمشركون الذين قاتلهم الرسول ﷺ، واستباح دماءهم وأموالهم ونساءهم وذريتهم، كانوا يقرون بما يدعي المتكلمون أنه هو التوحيد.

٤ ـ **ومن فوائدها**: استكبار هؤلاء المكذبين للرسول عليه الصلاة والسلام حيث تحدوه هذا التحدي وقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: نصيبنا من العذاب، وهذا غاية ما يكون من الاستكبار والعناد.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: إيمانهم بيوم الحساب. يؤخذ من قوله: ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ ممكن أن نقول هكذا ويمكن أن نقول: إنهم قالوا ذلك على سبيل التهكم، فيكون هذا أشد في العناد والاستكبار، أي: قبل يوم الحساب الذي يزعمه محمد، فيكون المراد بهذا، التهكم برسول الله ﷺ، وبما أخبر به من يوم الحساب، وهذا هو الظاهر، أي: كأنهم يقولون: عجل لنا نصيبنا من العذاب قبل هذا اليوم الذي يقوله هذا الرجل.

* * *

فقال الله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ هم بقولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ يريدون بذلك مضايقة الرسول عليه الصلاة والسلام حتى يضجر ويتعب نفسياً وفكرياً وربما جسمياً، ولا شك أن هذا يؤذي الداعية.

وأنت لو دعوتَ إلى الله وقام واحد وقال: أهذا ما تتوعدنا به! ائتنا به، عجل لنا به، لا شك أنك تضيق، فالرسول ﷺ بشر، لكن الربّ عزّ وجلّ يُصَبِّره شرعاً، ويعينه على ذلك قدراً، يصبره شرعاً بالأمر اصبر اصبر ويعينه على ذلك قدراً، فقد صبر النبيُّ صبراً لا يصبره أحد، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

والعجيب أن من صبره أنه صبر حين المقدرة عليهم، صبر على العذاب الذي يكون بيده، وعلى العذاب الذي يكون من عند الله، صبر على العذاب الذي يكون بيده حين فتح مكة ووقف على باب الكعبة وقريش تحته وقال: «**يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟**» قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخٍ كريم، قال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[1] في هذا الحال يستطيع أن يبطش بهم فكلهم أذلة بين يديه، لكن قال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**» بل قال قبل ذلك: «**من دخل داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن**»[2] كل هذا من باب التسامح والعفو مع المقدرة.

أما عفوه وتسامحه مع المقدرة بأمر يوقعه الله سبحانه تعالى فيهم، فإنه لما رجع من الطائف بعد أن فعل به أهل الطائف ما فعلوا أرسل الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، وقال: إن الله يقرئك

(١) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٤/ ٤٣ فتح مكة.
(٢) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٤/ ٣٦ فتح مكة.

السلام وهذا ملك الجبال يفعل ما تأمر به، فقال له ملك الجبال: إن شئت أن أطبق عليهمَ الأخشبين لفعلت، ولكن الرسول ﷺ قال: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً**»(١) اللهم صلِّ وسلم عليه.

انظر إلى العفو وإلى النظر البعيد، فأخرج الله ـ ولله الحمد ـ من أصلاب هؤلاء مَن عبد الله ولم يشرك به، وكانوا أئمة يهدون بأمر الله، فالنبي عليه الصلاة والسلام يجد المضايقات العظيمة من قريش لكنه يصبر على كل أذى، ولهذا قال الله له: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [صٓ: ١٧] اصبر على ما يقولون من أقوال الاستهزاء والسخرية والكذب، قالوا: إنه ساحر مجنون كذاب كاهن، ولكنه يصبر، صبر على ما يقولون، وصبر على ما يفعلون أيضاً، أعظم شيء علمت به أنه كان ذات يوم ساجداً عند الكعبة في آمن مكان، وأعظمه حرمة، وأقرب ما يكون من ربه، ساجداً لله، وكان حوله ملأ من قريش، فقالوا: من ينتدب لنا يأتي بسلا جزور بني فلان يضعه على محمد وهو ساجد، فانتدب أشقاهم، وذهب وأتى بسلا الجزور ووضعه على ظهره، دم وروث وقذر ونجاسة على ظهره وهو ساجد، ولكنه لم يقم من السجود حتى جاءت ابنته فاطمة وهي صغيرة فأزاحته عنه، فقام ﷺ، ثم لما فرغ من الصلاة دعا الله عليهم، فأجاب الله دعوته، فعذبهم بيده، وسُحِبوا في قليب بدر في غزوة بدر جثثاً منتنة خبيثة،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء (٣٢٣١)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين (١٧٩٥).

وطرحوا في أحد الآبار هنالك[١]. اللهم انصر الحق أينما كان يا رب العالمين.

قال تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ الخطاب في قوله تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ لرسول الله ﷺ، أمره الله أن يصبر على ما يقوله له أعداؤه مما يتعلق بجانب الرب عز وجل من إنكار توحيده، ومما يتعلق بالرسول ﷺ من وصفه بأنه كذاب وساحر ومجنون، ومما يتعلق بأصحابه، وكل ما يقولون مما يسوءُ الرسولَ عليه الصلاة والسلام. أمره الله تعالى أن يصبر عليه، وكذلك أيضاً أن يصبر على ما يفعلون، لأن أذية المشركين له كانت بالقول وبالفعل جمعاً وإفراداً.

والصبر هو حبس النفس عما لا يجوز في مقابلة البلية والمصيبة. وقد قسم العلماء رحمهم الله الصبر إلى ثلاثة أقسام فقالوا: صبر على أقدار الله المؤلمة، وصبر عن محارم الله، وصبر على طاعة الله، وهذا الأخير هو أعلى أنواع الصبر، لأن الصبر الأول هو صبر قهري. فالصبر على المصائب صبر قهري، لأن المصائب لم تقع باختيارك، وإنما هي بغير إرادتك فأنت أمامها إما أن تصبر صبر الكرام، وإما أن تسلوا سلوَّ البهائم، ثم الصبر عن محارم الله دون الصبر على أوامره، وذلك أن الصبر على محارم الله ليس فيه إلا كف النفس فقط، والكف أسهل من الفعل، وأما الصبر على الطاعة فهو أعلاها؛ لأن فيه صبراً على

(١) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذراً أو جيفة (٢٤٠)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين (١٧٩٤).

كفّ النفس وعلى فعلها، على كف النفس عن ترك هذا المأمور به، وعلى الفعل يرغمها على أن تفعل؛ ولهذا قال أهل العلم: إن الصبر على أوامر الله أفضل من الصبر عن نواهيه، والصبر عن نواهي الله أفضل من الصبر على أقدار الله المؤلمة.

ومن ثم لو سألنا سائلٌ: أيما أعلى مقاماً وأفضل، صبر يوسف عليه الصلاة والسلام على الحبس، أو صبره عن فعل الفاحشة بامرأة العزيز؟ قلنا: صبره عن الفاحشة أعظم وأعلى مرتبة.

قال تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: في الله أولاً، لأن السورة من أولها في إنكار توحيد ألوهية الله، وفي الرسول، وفيما جاء به، وفي أصحابه. ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ اذكر يحتمل أن يكون من الذكر، أي: الإخبار عن حاله، أي: اذكر للناس قصة داود، ويحتمل أن اذكر بمعنى تذكر داود، وإذا كان اللفظ يحمل معنيين لا يتنافيان، فالقاعدة التفسيرية أن يحمل عليهما جميعاً، لأنه كلما كانت دلالة الآية أشمل وأعمّ كان أولى. ﴿عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ وصف الله داود عليه الصلاة والسلام بالعبودية، وهذه أخص أنواع العبودية، لأن العبودية إما عامة، وإما خاصة، وإما خاصة الخاصة، فوصف الرسل بالعبودية خاصة الخاصة، ووصف المؤمنين بالعبودية خاصة، ووصف عموم الناس بالعبودية عامة، وعليه فالعبودية في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣] عامة، وفي قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: ٦٣] خاصة، وفي قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ خاصة الخاصة، وداود من

أنبياء بني إسرائيل وهو بعد موسى، والدليل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ [البقرة:٢٤٦] وفي أثناء القصة قال: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١] إذاً فهو من بني إسرائيل من بعد موسى عليه الصلاة والسلام.

قال: ﴿دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ قال المؤلف رحمه الله: [﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي: القوة في العبادة] إذاً فالأيد ليست جمع يد، بل هي مفرد مصدر آد يئيدُ أيْداً، ونظيره في التصريف باع يبيع بيعاً، وكال يكيل كيلاً، إذاً الأيد: القوة، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] أي: بقوة، وقول المؤلف رحمه الله: [القوة في العبادة]، ينبغي أن يقال: القوة مطلقاً في العبادة وغير العبادة حتى في الملك؛ لأن الله قال في هذه الآيات: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ [صٓ: ٢٠] فهو ذو أيد في كل ما تكون القوة فيه صفة مدح، إذاً الأيد الأَوْلى أن نجعلها عامة في كل ما تكون القوة فيه، وهذه صفة مدح؛ لأن المقام مقام مدح لداود عليه الصلاة والسلام، ولهذا أمر الله نبيه ﷺ أن يذكره.

قال المؤلف: [﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي: القوة في العبادة، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ويقوم نصف الليل، وينام ثلثه، ويقوم سدسه] هذا عكس ما جاء في الحديث: «**كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه**»[1] فالعبارة فيها انقلاب على المؤلف، كان عليه الصلاة

(١) أخرجه البخاري، كتاب التهجد، باب من نام عند السحر (١١٣١)، ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر (١١٥٩) (١٨٩).

والسلام ينام نصف الليل؛ ليعطي نفسه حظها من الراحة، وليجدد نشاطه، لأن في النوم فائدتين للجسم: الأولى: قطع التعب السابق والاستراحة منه، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٩] أي: قطعاً لما حصل من المشقة والتعب، واستعداد الجسم للقوة في المستقبل، ولهذا إذا نام الإنسان وهو مشته للنوم، ثم قام وجد نفسه نشيطاً، فكان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، لأجل أن يعطي نفسه راحتها من تعب قيام الليل، وهكذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يفعل، فكان لا تُلْفِيهِ السحرَ إلا نائماً، أي: غالب أحيانه ينام عليه الصلاة والسلام في آخر الليل.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ الجملة استئنافية لبيان حال داود: أنه قوي، وأنه رجَّاع إلى الله سبحانه وتعالى، كلما حدثته نفسه بالكسل عاد فنشط، وكلما حصل منه زلة عاد فتاب إلى الله. والأواب صيغة مبالغة من آب يؤوب، واسم الفاعل «آئِب»، وصيغة المبالغة أوّاب. قال المؤلف: [رجاع إلى مرضاة الله].

الفوائد:

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

١ ـ أن الرسول ﷺ يتأثر بتكذيبهم، ولهذا أمره الله بالصبر لأجل أن يعينه على صبره عليهم، وهذا أمر لا شك فيه، أي: أن الرسول عليه الصلاة والسلام يتأثر من تكذيبهم ويتألم، لأنه عليه الصلاة والسلام جاء رسولاً من عند الله، فإذا كذَّبه هؤلاء، فإنهم

يكونون قد كذَّبوا الله عزَّ وجلّ، فيتألم النبيُّ ﷺ لذلك، كما أنه بشر يتألم بمقتضى الطبيعة البشرية أيضاً، فإن البشر لا بد أن يتألم إذا رُد قوله وكُذِّب وعُورض وقُدح فيه من أجله، لا بد أن يتأثر مهما كانت حاله.

٢ ـ **ومن الفوائد**: وجوب الصبر على أذى الكفار، لقوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

٣ ـ **ومن الفوائد**: أن النبي ﷺ عبد مأمور، يُؤمر ويُنهى، وليس رباً آمراً ناهياً، ولولا أن الله أمرنا بطاعته لكان كغيره من البشر، لا تجب طاعته، لكنه رسول الله، أمرنا الله بطاعته ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

٤ ـ **ومن الفوائد**: أن هذا الأمر الصادر صادر منهم جميعاً، أو من أكثرهم، أو من أشرافهم ووجهائهم، لقوله: ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فأضاف القول إلى الجميع، فإما أن يكون الجميع كلهم يقولون هذا، وإما أن يكون الأكثر يقول بذلك، فنسب إلى الجميع اعتباراً بالأكثر، وإما أن يكون القائل هم الأشراف والوجهاء، فيكون قول هؤلاء قولاً للجميع، لأن الأتباع سوف يقلدونهم.

٥ ـ **ومن الفوائد**: ذكر ما يتسلى به العبد، وتذكيره بذلك لقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾.

٦ ـ **ومن فوائدها**: فضيلة داود عليه الصلاة والسلام، وأنه عبد.

٧ ـ **ومن فوائدها**: أن داود قويٌ في عبادته لقوله: ﴿عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِۖ﴾ ذا الأيد أي: القوة في الوصف الذي وصفناه به وهو العبودية.

٨ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: الثناء على القوي في العبادة لقوله: ﴿عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِۖ﴾ أي: ذا القوة في العبادة، وعليه يتنزل قول الرسول ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف**»[1] فإن المراد بالقوة هنا القوة في الإيمان، يعني القوي في إيمانه، لأن القوي وصف يعود على المؤمن، فيكون المراد القوي في هذا الوصف، وليس قوي البدن، لأن قوة البدن قد تنفع وقد تضر، بخلاف قوة الإيمان فإنها نافعة لا مضرة فيها.

٩ ـ **ومن الفوائد**: فضيلة داود أيضاً من جهة أخرى وهو أنه مع قوته في العبادة رجّاع إلى الله من ذنبه في قوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: رجّاع إلى ربه لو أذنب فإنه يرجع إليه كما تدل عليه القصة التي ستأتي.

١٠ـ **ومن فوائد الآية الكريمة أيضاً**: إثبات العلل والأسباب، لأن الجملة في قوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ تعليلية لكون داود عليه الصلاة والسلام موصوفاً بالقوة والعبودية، لأنه رجّاع إلى الله عزّ وجلّ، وكل من كان رجاعاً إلى الله فسوف يكون قوياً في عبوديته.

* * *

(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز (٢٦٦٤).

ثم ذكر الله تعالى ما مَنَّ به عليه فقال: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ أي: ذللناها له، والله سبحانه وتعالى يذل له كل شيء، فسخر الله الجبال، أي: ذللها حتى تسبح بتسبيح داود، وهي، أي: الجبال تسبح تسبيحاً مطلقاً، وهذا هو التسبيح العام، وتسبح تسبيحاً خاصاً، كما أمرت أن تسبح مع داود عليه الصلاة والسلام، وإلا فهي تسبح تسبيحاً عامّاً مطلقاً، كما قال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] أي: ما من شيء إلا يسبح بحمده ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

أما التسبيح الذي سخر الله الجبال عليه مع داود فهو تسبيح خاصّ ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ والجبال جمع جبل وهو معروف، ﴿مَعَهُۥ﴾، أي: مع داود قال المؤلف رحمه الله: [يسبحن بتسبيحه ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾: وقت صلاة العشاء ﴿وَٱلْإِشْرَاقِ﴾: وقت الضحى]. قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ﴾ الباء هنا ظرفية بمعنى «في» لكن يظهر ـ والله أعلم ـ أنه إذا أريد بالظرفية استيعاب الوقت أُتي بدل «في» بالباء، لأن الباء تدل على الاستيعاب والإحاطة كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٩] وكما قال: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾ [البقرة: ١٥٨] ولهذا لا بد من استيعاب البيت بالطواف، واستيعاب ما بين الصفا والمروة في السعي. إذاً الباء هنا للظرفية لكنها جاءت مكان «في» للدلالة على الاستيعاب، يعني كل العشي.

وقول المؤلف: [﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾: وقت صلاة العشاء] هذا فيه نظر، والصحيح أن المراد بالعشي آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢]. فالمراد بالعشي آخر النهار، وفي حديث أبي هريرة المشهور بحديث ذي اليدين، قال: صلَّى بنا الرسول ﷺ إحدى صلاتي العشي[(١)]. يعني الظهر أو العصر.

قال المؤلف: [﴿وَٱلْإِشْرَاقِ﴾: وقت صلاة الضحى، وهو أن تشرق الشمس ويتناهى ضوؤها] هناك إشراق، وهناك شروق، وبينهما فرق، فالشروق ظهور الشمس، يقال: شرقت الشمس، يعني ظهرت، والإشراق: ارتفاع الشمس حتى يصحو ضوؤها وتكون بيضاء، فالإشراق معناه دخول الشمس في الإضاءة الكاملة البيضاء، والشروق ظهور الشمس، فإذا طلع حاجب الشمس من المشرق، يقال له: شروق، وإذا ارتفعت حتى زادت حمرتها أو صفرتها، يقال: إشراق. ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أي: بعد أن ترتفع الشمس ويحسن ضوؤها.

﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ قال المؤلف رحمه الله: [وسخرنا الطير] أفادنا المؤلف أن الطير معطوفة على الجبال. أي: سخرنا الجبال وسخرنا الطير، وليست معطوفة على الضمير المستتر في قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ على أنها مفعول معه، وقد يقول القائل: يسبحن والطيرَ، كقوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠] فالمؤلف ـ رحمه الله ـ أفادنا بتقدير:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد (٤٨٢)، ومسلم، كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له (٥٧٣) (٩٧).

سخرنا، أن الطيرَ معطوفة على الجبال، وقوله: ﴿مَحۡشُورَةٗۖ﴾ منصوبة على الحال، يعني والطير حال كونها محشورة.

فإذا قال قائل: لماذا لا تجعلونها صفة للطير؟ قلنا: الذي يمنع من أن تكون صفة أنها لم توافق الموصوف في التعريف، والصفة تتبع الموصوف في التنكير والتعريف، و(محشورة) نكرة، بينما (الطير) معرفة.

﴿مَحۡشُورَةٗۖ﴾ يقول المؤلف: [مجموعة إليه تُسبِّح معه] لو قال قائل: أليست الحال صفة؟ فلماذا لا نقول: محشورة صفة للطير؟ نقول: هي صفة في المعنى، والخبر خبر مبتدأ صفة للمعنى، وما يعرف بالنعت عند النحويين صفة، لكن لا يلزم من الصفة في المعنى أن تكون صفة له في اللفظ.

قال المؤلف: [﴿كُلّٞ﴾ من الجبال والطير ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩﴾ رجَّاع إلى طاعته بالتسبيح]. ﴿كُلّٞ﴾ منونة تنويناً يُسمّى تنوين العوض. كلّ وبعض تنوينهما تنوين عوض، وذلك لأنه لا بد من إضافة، ولكن قد يحذف المضاف إليه ويعوض عنه التنوين. كمثل كلّ والتقدير بدون قطع الإضافة: كلهن، أي: الجبال والطير، لأنها لا تعقل، كلهن له أواب، فحذف المضاف إليه وعوض عنه التنوين. قال المؤلف: [من الجبال والطير] هذه بيان للمضاف إليه، يعني أنها على تقدير كلهن، أي: الجبال والطير، ﴿لَّهُۥٓ﴾ أي: لداود ﴿أَوَّابٞ﴾ أي: رجّاع إلى طاعته بالتسبيح، ويحتمل أن يكون رجّاع بمعنى أن هذه الطيور تذهب وتتعيش ثم ترجع لأجل أن تُؤَوِّب معه، والسياق

والمعنى لا يمنعه، فكلٌّ من الجبال والطير أواب إلى داود بمعنى مطيع له، وبمعنى آخر بالنسبة للطير أنها ترجع إليه بعد أن تذهب لتقوم بقوتها ثم تعود إليه.

الفوائد:

١ ـ بيان أن الأمور كلها بيد الله لقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ﴾ أي: ذللناها، والجبال خلق عظيم لا يستطيع أحد أن يؤثر فيه، ولكن الله تعالى بقدرته يسخرها ويذللها.

٢ ـ **ومن الفوائد أيضاً**: أن للجماد إرادة، يدل عليه قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ لأن التسبيح لا بد أن يكون بإرادة، ويدل على ذلك قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ ويترتب على هذه الفائدة ردُّ قول من يقول: إن قوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] فيه مجاز حيث قالوا: إنه لا إرادة للجدار، ونحن نقول: بل له إرادة، لأن الله تعالى أثبت له الإرادة.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن كل شيء خاضع لأمر الله، الطير التي تسبح في الهواء خاضعة لأمر الله، وهذا هو ما أكده الله في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ﴾ [الملك: ١٩].

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الجبال والطير تسبح مع داود عليه السلام وترجّع معه؛ لقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ أي: كل

لداود رجّاع، أي: مُرجّع معه، إذا سبّح سبّحت الجبال، إذا سبح سبحت الطيور المجموعة إليه، وقيل: إن الأواب: الرجّاع وليس المرجّع الذي يرجع إلى داود، والمعنيان متلازمان؛ لأنه إذا كان رجّاع يرجع إلى داود ليسبح معه فهو مرجّع معه، على أن في الآية قولاً آخر في مرجِع الضمير في قوله: ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٩﴾ فإن من أهل العلم من قال: إن الضمير في قوله: «له» يعود إلى الله، وأنه من باب الالتفات بدلاً من أن يقول: كل لنا أواب، قال: كل له أواب، ولكن هذا المعنى لا يتعين، بل المعنى الأول أظهر كما مشى عليه المؤلف رحمه الله.

* * *

ثم قال الله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي: قَوَّينا مُلْكَه، لأن الشد يأتي بمعنى التقوية، قال الله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢] أي: قوية بدليل قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] أي: بقوة، فالشد هنا بمعنى القوة، أي: قَوَّينا مُلْكَه، وتقوية الملك فسرها المؤلف بقوله: [قَوَّيناه بالحرس والجنود] وهذا لا شك نوع من التقوية أن يكون لدى الملك حراس وجنود، الحراس هم الموالون له، والجنود هم التابعون له وإن لم يوالوه، لكنهم جنود له، متى أمرهم ائتمروا، وأما الحراس فهم المباشرون للملك، فالله شدَّ مُلْكَه بالحراس والجنود، هذا وجه من شدِّ المُلك، وشدَّ ملكه بقوة السلطان؛ لأن السلطان إذا كان ضعيفاً مهما كان عنده من الحرس والجنود فإنه ضعيف، لكن إذا أعطاه الله القوة والعزيمة وعدم المبالاة

بأعدائه فهذا شدُّ ملك. يوجد ملك عنده آلاف الجنود والحراس ولكنه ضعيف، يخاف من ظله، ولا يحمي حدوده، هذا لا شك أنه وإن كان عنده حراس كثيرون وجنود، فإن ملكه ضعيف، لأن غاية ما ينفعه الجنود به أن يكونوا مدافعين فقط، لكن إذا قَوَّى الله ملكه بما عنده من قوة العزيمة والجلد والصبر والتحمل وعدم المبالاة بالأعداء، صار حينئذ عنده قوة مهاجمة ومدافعة، الأمرين جميعاً. أمّا من عنده جنود فالغالب أنه يُحرَس لضعفه، ولا أحد يشك بأن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه من أقوى الناس ملكاً لكن خلافة، ومع ذلك ليس عنده جنود يحرسونه، بل هو بنفسه كان يجمع الحصباء في المسجد، ويضع رداءه عليها وينام عليه، ليس عنده أحد ومع ذلك فقد حماه الله عز وجل.

إذاً شدُّ المُلكِ ليس مقتصراً على كثرة الحرس والجنود، بل قد يكون في الحرس والجنود ما يؤدي إلى الضعف، إذا كان الإنسان لا يقوَى ولا يتحرك إلا بالحرس والجنود، فهذا قد يكون دليلاً على ضعفه وخوفه وعدم أمنه، لذلك فإن اقتصار المؤلف ـ رحمه الله ـ على كثرة الحرس والجنود في شد الملك، لا شك أنه ضعيف جداً، وأهم شيء أن يقوى ملكه بما لديه من الشخصية وقوة العزيمة وعدم المبالاة بأعدائه.

قال رحمه الله: [﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ قويناه بالحرس والجنود، وكان يحرس محرابه في كلّ ليلة ثلاثون ألف رجل] هذه إسرائيلية بلا شك، لم ترد عن معصوم، وبناء على ذلك، فإن كانت قريبة من التصور فإننا لا نصدقها ولا نكذبها، وإن كانت بعيدة من التصور فإننا

نكذبها. والبعيد من الواقع الذي لم يرد عن معصوم يُكَذَّب، لأنه ليس فيه خبر ثابت، فإذا لم يكن هناك خبر ثابت رجعنا إلى تحكيم العقل. فهل يعقل مثلاً أن يكون عند داود كلّ ليلة ثلاثون ألفاً يحرسون محرابه! على كل حال هذا خبر إسرائيلي، وأقرب ما يكون عندي أنه كذب، وأنه إن صح أن عنده حرساً فليكونوا خمسة أو عشرة وما أشبه ذلك، ثم إنه سيأتينا في قصة الخصوم أنهم تسوروا المحراب، فهل يتسورون المحراب وحوله ثلاثون ألفاً؟

فالحاصل أن مثل هذه القصص الإسرائيلية تكون عندنا على ثلاثة أوجه:

الأول: ما شهد شرعنا ببطلانه فهو باطل.

الثاني: ما شهد شرعنا بصدقه فهو حق بشهادة شرعنا.

الثالث: ما لم يشهد شرعنا بخلافه فإننا نرجع إلى العقل إن كان قريباً فإننا لا نصدق ولا نكذب، وإن كان بعيداً فإننا نكذب، لأن هذا لما انتفى فيه الدليل الشرعي، نرجع فيه إلى الدليل العقلي، فإذا كان العقل يستبعده أبعدناه.

يقول تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾ آتيناه: أعطيناه، وهناك فرق بين آتيناه وأتيناه، آتيناه بمعنى أعطيناه، وتنصب مفعولين، من باب كسى، وأتيناه بمعنى جئناه، وتنصب مفعولاً واحداً ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] أي: جئنا طائعين، ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٦٤] أي: جئناك بالحق، أما آتى بالمد بمعنى أعطى، فتنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ

﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ هنا نصبت مفعولين: الأول: الهاء، والثاني: الحكمة. وما هي الحكمة؟ قال المؤلف: [النبوة والإصابة في الأمور]، لأن النبوة حكمة بلا شك. كل نبي فإنه مؤتىً للحكمة، قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩] والإصابة في الأمور أيضاً حكمة، كون الإنسان يوفق للإصابة في الأمور مثل أن يكون ذا رأي سديد، فإن هذا لا شك أنه حكمة، ولهذا يقال: فلان حكيم زمانه، أي: لإصابته في الأمور.

وقوله: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ قال المؤلف: [البيان الشافي في كل قصد] فصل الخطاب، هل المعنى أنه يفصل الخطاب الصادر من غيره بمعنى أنه يفصل بين الخصوم، ما تخاطبوا فيه، كما يدل عليه قوله: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ لأن المتخاصمين كل منهما يأتي بحجة، يتكلم ويقول، ولهذا قال ﷺ: «**إنكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضَكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بنحو ما أسمع**»(١). إذاً فصل الخطاب يعني فصل الخطاب الحاصل من غيره، أي: يفصل في خطاب الناس، أو فصل الخطاب يعني خطابه هو، يعني أن خطابه كان فصلاً، أي: ذا بيان وفصاحة، نقول: المعنيان محتملان، فالآية تحتمل هذا وهذا، وهما لا يتنافيان، فيجب أن تكون الآية محمولة عليهما، حتى إن بعضهم قال: إن فصل الخطاب هو قوله: أما بعد، لأن «أما بعد» تفصل ما قبلها عن ما بعدها، ولكن هذا ليس

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب إثم من خاصم في باطل (٢٤٥٨)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة (١٧١٣).

بصحيح. أما بعد لا شك أنها تعطي الكلام رونقاً وجمالاً وتفصيلاً، لكن كوننا نجعلها هي فصل الخطاب فيه نظر، والله أعلم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية**: أن الله سبحانه وتعالى قَوَّى ملك داود بما ذكرنا من التقوية المعنوية والحسية.

٢ ـ **ومن فوائدها**: أن تقوية المُلْك من أكبر أوصاف المَلِك التي يتمتع بها؛ لأن الله تعالى مَنَّ بها على داود عليه السلام في قوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها**: الثناء على داود عليه السلام بأن الله تعالى مع تقوية ملكه آتاه الحكمة في تصرفه، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها**: أن الله تعالى مَنَّ على داود عليه السلام بفصل الخطاب، أي: الخطاب الفصل البين الذي يفصل به بين الناس، ويفصل به بين الحق والباطل، وبين الضار والنافع.

* * *

قال الله عز وجل: ﴿۞وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ الواو عاطفة والجملة معطوفة على ما سبق لأن الكلام كله في شأن داود، والاستفهام هنا يقول المؤلف: [للتعجب والتشويق إلى استماع ما بعده] يعني أن هذه القصة عجيبة، وأنها لكونها عجيبة مما يشوق إليه، والاستفهام كما نعلم جميعاً تختلف معانيه بحسب السياق، وإلا فإن الأصل فيه أنه الاستخبار عن

الشيء، أي: طلب الإفهام عنه، يقال: استفهم عن كذا، أي: طلب الإفهام عنه. هذا الأصل، لكن سياق الكلام يغير المعاني الأصلية إلى ما يقتضيه السياق، فالمراد به هنا التشويق، وله نظير، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الصف: ١٠] المراد به هنا التشويق، وقد يكون المراد بالاستفهام التهويل مثل: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١] يقول: [﴿هَلۡ﴾ استفهام هنا للتعجب والتشويق إلى استماع ما بعده ﴿أَتَىٰكَ﴾ يا محمد] جعل المؤلف الخطاب هنا للرسول عليه الصلاة والسلام، ولكن يجوز أن يكون الأمر كما ذهب إليه المؤلف، ويجوز أن تكون الكاف لكل مَن يصح خطابه، أي: وهل أتاك أيها المخاطب، وإذا قلنا بهذا القول صارت دلالة الآية أعمّ.

والقاعدة عندنا في التفسير أنه كلما كان أعم فإنه أولى، وعليه فيكون المراد بالكاف هنا المخاطبة لكل من يصح خطابه، واعلم أن كل خطاب في القرآن الكريم موجه إلى مخاطب فإنه على ثلاثة أقسام:

الأول: أن يدل الدليل على أنه عامّ فيؤخذ بعمومه.

الثاني: أن يدل الدليل على أنه خاصّ فيؤخذ بخصوصه.

الثالث: أن لا يكون هناك دليل لهذا ولا لهذا فيؤخذ بعمومه.

مثال الأول: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ [الطلاق: ١]

فـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ خطاب موجّه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، لكن حكمه عامّ؛ لقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ فجعل الحكم عاماً لجميع الأمة.

وما دل الدليل على خصوصه فمثل قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يسٓ: ١-٣] هذا خطاب خاصّ بالرسول عليه الصلاة والسلام لا يَشْرَكُهُ غيره.

وما كان محتملاً لهذا وهذا، فهو كثير ومنه هذه الآية ﴿۞وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ﴾.

﴿۞وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾ مر علينا قريباً الفرق بين أتاك وآتاك، ﴿نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ﴾ نبأ بمعنى خبر، ولكنه لا يقال غالباً إلا في الخبر الهام ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١-٢]. فهنا نبأ بمعنى خبر، لكنه في أمر هام، وقوله: ﴿ٱلْخَصْمِ﴾ أي: المتخاصمين بدليل قوله: ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ فالخصم لفظه مفرد لكن معناه الجمع، وسمّي المتخاصمون خصماً؛ لأن كل واحد منهما يريد أن يَخْصِمَ صاحبه، أي: أن يغلبه في الحجة، ويقطع حجته ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ قوله: إذ متعلقة ولا يصح أن تتعلق بـ﴿أَتَىٰكَ﴾؛ لأن تسورهم للمحراب سابق ولا بـ (النبأ)؛ لأن تسورهم للمحراب أيضاً سابق، ولكنها تتعلق بشيء مقدر يدل عليه السياق، يعني اذكر إذ تسوروا المحراب.

قال المؤلف: [محراب داود، أي: مسجده، حيث مُنعوا الدخول عليه من الباب لِشَغَلِهِ بالعبادة] ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ بمعنى دخلوا مع سوره لأن المكان مسور، لأنه بيت يتعبد فيه، فهو مسور وله أبواب، فجاؤوا ذات يوم ـ أي الخصم ـ فوجدوا الباب مغلقاً، والخصوم كما

تعرفون كل ذي حاجة فهو أعمى، قالوا: هذا الذي أغلق باب بيته أو محرابه نتسلق أو نتسور عليه، نأتيه من فوق، فتسوروا المحراب، يقول المؤلف: [حيث مُنعوا الدخول عليه من الباب لِشَغَلِهِ بالعبادة، أي: خبرُهم وقصتُهم] فهو عليه الصلاة والسلام أغلق الباب، لأنه أراد أن يتعبد لله، وهذا لا شك أنه يمنع من وصول الخصوم إليه، لكن الله سبحانه وتعالى سلط هؤلاء حيث جاؤوا فوجدوا الباب مغلقاً، أو مُنعوا من الدخول، فتسوروا المحراب من السور.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ «إذ» بدل من «إذْ» الأولى، ويحتمل أن تكون متعلقة بتسوروا، وأنا أقول هكذا، لأن إذ: ظرف، والظرف والجار والمجرور لا بد لهم من متعلق، ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ أي: خاف، وذلك لأنهم جماعة وتسوروا المحراب، ومثل هؤلاء يخيفون. أرأيت لو أن أحداً تسوّر عليك البيت وهم جماعة، لا شك أنك ستخاف، والخوف هنا طبيعي تقضيه الطبيعة والجبلة، ففزع منهم، فلما رأوه قد فزع ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ يعني أننا ما جئنا لقتل ولا نهب ولا تخريب ﴿خَصْمَانِ﴾ أي: نحن خصمان، [قيل: فريقان ليطابق ما قبله من ضمير الجمع، وقيل: اثنان، والضمير بمعناهما]، يعني خصمان، أي: طائفتان مختصمتان، والذين قالوا: إن المراد هنا بالخصمين الطائفتان استدلوا بدليل الجمع السابق، وهو قوله: ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ و﴿دَخَلُواْ﴾ وقيل: إنهم خصمان، أي: رجلان اثنان اختصموا، [والضمير بمعناهما]، أي: ضمير الجمع السابق بمعنى هما، أي: بمعنى الاثنين، ولكن الذي يظهر الأول، خصمان، أي:

فريقان مختصمان، لأن ذلك هو المطابق لضمير الجمع، ولأن ذلك هو الذي يحصل منه الفزع، لأنهم إذا كانوا جماعـة صار الفزع منهم أكثر.

وقول المؤلف: [والخصم يطلق على الواحد وأكثر] صحيح فيقال لمدّعٍ خصم ومدعَى عليه خصم، ولو كان واحداً، ويقال لجماعة معٍ جماعة: هم أيضاً خصم.

يقول المؤلف رحمه الله: [وهما مَلَكان جاءا في صورة خصمين، وقع لهما ما ذُكر على سبيل الفرض لتنبيه داود على ما وقع منه، وكان له تسع وتسعون امرأة، وطلب امرأة شخص ليس له غيرها، وتزوجها ودخل بها] يقول المؤلف: إن هذين الخصمين مَلَكان أرسلهما الله سبحانه وتعالى إلى داود من أجل أن ينبهه على قضية معينة. هذه القضية كما تقول الإسرائيليات: إنه عشق امرأة رجل، فأمر زوجها أن يخرج للجهاد لعله يُقتل، فإذا قُتل تزوجها، فأرسل الله تعالى إليه الملكين من أجل أن ينبهاه على بشاعة هذه القضية، لأنها بشعة من أدنى الناس فكيف تكون من نبي؟! وكأن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن ينبهه بالوحي فيقول: يا داود لِمَ تفعل كذا؟ كما نبَّه الله آدم حينما أكل من الشجرة بدون ضرب مثل، وكذلك نبَّه الله محمداً عليه الصلاة والسلام حين عفى عن قوم من المنافقين بدون أن يتبين أمرهم بدون ضرب مثل، ونبّهه على تحريمه ما أحل الله له لابتغاء مرضاة أزواجه بدون ضرب مثل، إلى غير ذلك من الشواهد الكثيرة التي تدل على أن الله سبحانه وتعالى ينبه على ما يحصل من

الرسل بدون أن يضرب لهم أمثالاً، لكن هذه القصة الإسرائيلية أبت إلا أن يضرب مثلاً لفعل داود المدّعى المزعوم.

والحقيقة أن هذه القصة باطلة، لا يحل لأحد أن يعتقدها في داود عليه الصلاة والسلام، أنه عشق امرأة رجل وأراد أن يتزوجها، وأنه كان عنده تسع وتسعون امرأة، فأراد أن يكمل بها المئة. هذا غير لائق بأدنى واحد من الناس فضلاً عن نبي من أنبياء الله، لكن اليهود ـ لعنة الله عليهم ـ لا يبالون أن يلطخوا الأنبياء كما لطخوا مَنْ أرسلَ الأنبياءَ فقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١] وقالوا: إن الله يتعب، فليس غريب أن يلطخوا الأنبياء بالعشق والحيل والمكر، فلهذا لطخوا داود عليه السلام بهذه الكذبة.

والصحيح الذي لا شك فيه أنهم خصمان من البشر وليسوا ملائكة، خصمان من البشر تنازعا في قضية بينهما ستأتي في القرآن الكريم، وكل ما سوى ذلك فإنه كذب، لأن القرآن يكذبه فإن القرآن إذا أتى بالقصة فلا بد أن يأتي بها على وجه الكمال؛ لتكون عبرة، وعلى وجه الصراحة؛ لئلا يكون فيها التباس أو اشتباه، فالقصة كما هي في القرآن تماماً، لا يوجد ملائكة ولا يوجد رجل له زوجة حسناء أرادها داود أبداً، ولا يجوز للمسلم أن يعتقد هذا في أحد من أنبياء الله.

والقصة هي: أنهم دخلوا عليه فقالوا: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ خصمان بغى بعضهما على

بعض، أي: اعتدى عليه؛ لأن البغي هو العدوان، وطلبوا منه: أن يحكم بينهم لكنهم أضافوا كلمة ليست بجيدة قالوا: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ ومثل هذا لا ينبغي أن يقال لنبي من الأنبياء، بل ولا ينبغي أن يقال لأي حَكَم يُتحاكم إليه، لأنك إذا تحاكمت إلى رجل مع خصمك فإنكما تعتقدان أن ما يقوله هو الحق. ليس الحَكَم في مقام تهمة حتى يقال: احكم بيننا بالحق، ولهذا انتقد الصحابة رضي الله عنهم في قصة العسيف[1] الذي زنى بامرأة من استأجره لما حضر أبو الولد الزاني وزوج المرأة، قال أحدهما: للرسول ﷺ: أَنْشُدُكَ اللهَ إلا قضيتَ بيننا بكتاب الله، فناشد الرسولَ ﷺ أن يقضي بينهم بكتاب الله، قالوا: وقال الآخر، وكان أفقه منه: نعم فاقض بيننا بكتاب الله، ولم يناشد الرسول ﷺ، لأن طلبَ المناشدة في هذا المقام خطأ. فأنت ما جئت إليه إلا وأنت تعلم أنه يحكم بكتاب الله، فلا حاجة لأن تناشده.

هؤلاء قالوا: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ وهو لن يحكم إلا به حتى بإقرارهم، لأنهما جعلاه حكماً ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ الشطط يعني النقص أو الجور، ولهذا قال المؤلف في تفسيره: [لا تجر] أي: لا تجر بالحكم فتميل مع أحدنا [﴿وَٱهۡدِنَآ﴾ أرشدنا ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ وسط الطريق الصواب] يعني إذا حكمت فاحكم بالحق، بالعدل، بدون جور ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: دلنا إلى الصراط السواء، يعني إلى

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب هل يأمر الإمام رجلاً فيضرب الحد غائباً عنه (٦٨٥٩، ٦٨٦٠)، ومسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف بالزنى (١٦٩٧، ١٦٩٨).

وسط الصراط، أو إلى الصراط المستقيم، وعليه فتكون ﴿سَوَآءِ﴾ من باب إضافة الصفة إلى موصوفها. يعني اهدنا إلى الطريق السوي العدل، والهداية هنا هداية دلالة وإرشاد لأنه لا يستطيع أن يجبرهم على ما يحكم به، لكن هي دلالة، فلو قال المؤلف في ﴿وَٱهۡدِنَآ﴾ لو قال: دلنا لكان أحسن.

والقضية هي: أن أحد الخصمين قال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ﴾ سبحان الله، هذان الخصمان غريبان، يتخاصمان ثم يقول أحدهما للآخر: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي﴾ والخصومة عادة، أن الخصم يسبّ خصمَه فيقول: هذا المعتدي الظالم الفاجر، أما هذا فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي﴾ وهو يدل على أن الخصومة ليست تحمل وراءها شيئاً من العداوة والبغضاء.

قال المؤلف: [﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي﴾ أي: على ديني] وقال المؤلف هذا؛ ليفيد أن الأخوة هنا ليست أخوة نسب، بل هي أخوة الدين، ﴿لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ﴾ أي: مئة إلا واحدة.

و﴿نَعۡجَةٗ﴾ منصوبة على أنها تمييز، وكلّ عدد له تمييز، لأن العدد إذا لم يذكر المعدود كان مبهماً، وإذا ذكر المعدود كان هذا تمييزه، ثم هذا التمييز قد يكون مجروراً وقد يكون منصوباً ففي قولنا: عشرة رجال، التمييز مجرور، وفي قولنا: عشرون رجلاً، التمييز منصوب، هنا ﴿نَعۡجَةٗ﴾ التمييز منصوب؛ لأن كل ألفاظ العقود من عشرين إلى تسعين كلها يكون تمييزها منصوباً.

قال المؤلف في تفسير ﴿نَعۡجَةً﴾: [يعبر بها عن المرأة] يفيد بأن هذا ليس هو الأصل في النعجة، وهو كذلك، فالأصل أن النعجة أنثى الغنم، أنثى الشياه وليست هي المرأة، فإذا كان هذا هو الأصل فمن ادعى أن المراد بالنعجة هنا المرأة فعليه الدليل، لأن كل من ادعى خلاف الأصل فعليه الدليل، فالنعجة ليست هي المرأة، في هذه الآية، بل هي واحدة الضأن.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ أي: مئة إلا واحدة ﴿وَلِيَ نَعۡجَةٞ﴾ وأكّدها بقوله: ﴿وَٰحِدَةٞ﴾ من أجل تقليلها، وإلا فإن الواحدة مفهومة من قوله: ﴿وَلِيَ نَعۡجَةٞ﴾ لكنه قال: ﴿وَٰحِدَةٞ﴾ تأكيداً للقلة، أي: ليس لي إلا واحدة ثم قال: ﴿أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أي: اجعلني كافلها، وذلك بأن تضمها إلى نعاجي؛ لأنه إذا ضمها إلى نعاجه صارت في ملكه، وهو الكافل لها، ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣﴾ غلبني في الخطاب، قال المؤلف: [أي: الجدال] يعني أنه صار يجادلني حتى غلبني فأقررت له [وأقره الآخر على ذلك] الآخر يعني المدّعَى عليه، وليس في الآية ما يدلّ على أن المدّعَى عليه أقرّ أو أنه أنكر. المدَّعَى عليه مسكوت عنه، فدعوى أنه أقرّه يحتاج إلى دليل، ولو كان هذا هو الواقع لذكره الله عز وجل، لما في حذفه من الإيهام الذي يجعل حكم داود حكماً فيه شيء من الجور. لأن حذفه يؤدي إلى سوء الظن بداود عليه الصلاة والسلام، حيث لم يستكمل مجريات القضية.

فالظاهر ـ والله أعلم ـ أن داود عليه الصلاة والسلام لما سمع هذا العدوان من هذا الشخص الذي أنعم الله عليه بنعم كثيرة، ثم

ذهب يحاول أن يستلب حقّ هذا الفقير الذي ليس عنده إلا نعجة واحدة، كأنه عليه الصلاة والسلام غضب وحكم للمدَّعي فقال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ الجملة هنا مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم المقدر واللام وقد، لأن تقدير الكلام: والله لقد ظلمك.

وقوله: ﴿ظَلَمَكَ﴾ أصل الظلم في اللغة: النقص، ومنه قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] ويطلق في الشرع على النقص والعدوان، يعني على نقص الحقّ والعدوان في طلب ما ليس للإنسان، فهو في الحقيقة العدوان سواء كان بنقص ما يجب أو بادعاء ما لا يستحق، فمن ضرب شخصاً أو أخذ ماله، قيل: إنه ظلمه، ومن جحد ما هو له وأنكر، قيل: إنه ظلمه. والظلم في قوله ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ من العدوان، ولهذا قال المؤلف: [﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ ليضمها ﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾] قدر المؤلف: ليضمها، من أجل أن يصح التعبير بـ«إلى» لأن السؤال لا يتعدى بـ«إلى» لكنه مضمن معنى الضم، أي: بسؤاله أن يضم نعجتك إلى نعاجه.

وجه الظلم في هذا ظاهر، لأن صاحب التسعة والتسعين قد أنعم الله عليه نعمة كبيرة، وصاحب الواحدة معدم فقير، وأيضاً فإن هذه الواحدة ملك له، فكيف يعتدي هذا ويقول: أعطنيها، ويلح عليه حتى يغلبه في الحجاج والمخاصمة.

ثم قال داود: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ الشركاء ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ عندنا كثير وقليل، كثير يبغي بعضهم على بعض، وقليل لا يبغي بعضهم على بعض، فالقليل

الذي لا يبغي بعضهم على بعض هم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فالمؤمن العامل للصالحات لا يحدث منه البغي لما معه مِن الإيمان والعمل الصالح، ومَن فاته شيء مِن هذا الوصف حصل منه مِن البغي بمقدار ما فاته مِن الوصف، فمن نقص إيمانه حصل منه البغي، ومَن قلَّت أعماله الصالحة حصل منه البغي، لأن الأعمال الصالحة يجرّ بعضها بعضاً، فإذا عمل الإنسان عملاً صالحاً أتبعه بعمل آخر، لأن للطاعة لذة وسروراً في القلب، إذا قام الإنسان بها ازداد رغبة فيها، وإذا أعرض قلَّت أهمية الطاعات عنده وضعف قصده للطاعات وتجرّأ على المعاصي.

قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ يعني الشركاء ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ اللام في قوله: ﴿لَيَبْغِي﴾ للتوكيد، ويبغي: من البغي، وهو العدوان، وهذا هو الواقع: أن كثيراً من الشركاء يبغي بعضهم على بعض، إما بأخذ بعض من مال الشركة، أو بكتمان الربح لو ربحت، أو التغرير بالمال بحيث يتصرف فيه على وجه ليس فيه حظ للشركة، أو بادعاء أن المشترك ملك خاص له. وأنواع العدوان بين الشركاء كثيرة، ولكن كثيراً من الشركاء يبغي بعضهم على بعض، ولهذا إذا أصلح الشركاء النية، ونصح بعضهم بعضاً أفلحوا، وفي الحديث: «**إن الله تعالى يقول: أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدُهما صاحبه فإذا خانه خرجت من بينهما**»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب البيوع، باب في الشركة (٣٣٨٣)، والحاكم في «المستدرك» ٢/ ٦٠ (٢٣٢٢) وصححه ووافقه الذهبي، وانظر «نيل الأوطار» ٣/ ٦٩٦ (٢٣٣٥) كتاب الشركة والمضاربة، و«تهذيب الكمال» ١٠/ ٤٠٠-٤٠١.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلا: أداة استثناء وما بعدها في محل نصب، لأن الجملة السابقة كلام تام موجب، وإذا سبق الاستثناء كلام تام موجب وجب النصب. قال ابن مالك:

ما اسْتَثْنَتْ إلاّ مع تمامٍ يَنْتَصِبْ ... وبَعْدَ نَفْيٍ أو كَنَفْيٍ انْتُخِبْ
إتباعُ ما اتَّصَلَ وانْصِبْ ما انْقَطَعْ ... وعَنْ تميمٍ فيه إبدالٌ وَقَعْ

ولتمام الفائدة: إذا جاءت «إلا» بعد كلام تام موجب وجب نصب ما بعدها على الاستثناء، وإذا جاءت بعد كلام تام منفي، أي: مستكمل المفاعلة لكنه منفي، جاز فيما بعدها وجهان: الأول: النصب على الاستثناء، وإتباع ما بعدها لما قبلها في الإعراب، إلا إذا كان الاستثناء منقطعاً، أي: أن ما بعد «إلا» ليس من جنس ما قبلها فيجب النصب، وإذا وقعت «إلا» بعد كلام منفي ناقص كانت بحسب العوامل التي قبلها، إن كان العامل يقتضي رفعاً رُفع، وإن كان يقتضي نصباً نُصب، وإن كان يقتضي جرّاً جُر.

ونضرب لذلك أمثلة: (قام القومُ إلا زيداً)، بالنصب، لأن الكلام تام موجب. قام القومُ تم الكلام، موجب ليس به نفي، فتقول: إلا زيداً، وإذا قلت: (ما قام القوم إلا زيداً، أو إلا زيدٌ) جاز الوجهان الرفع على البدل، والنصب على الاستثناء، فيجوز أن تقول: (ما قام القوم إلا زيدٌ) بتنوين ضم، أو (ما قام القوم إلا زيداً) بتنوين الفتح.

أما قولنا: (ما قام القوم إلا بعيراً)، هنا يتعين النصب، لأن البعير ليس من جنس القوم، فالاستثناء منقطع، فيجب النصب هنا لتعذر البدلية، وعلى هذا إذا قال قائل: ما قام القوم إلا بعيرٌ قلنا: هذا خطأ، لأن الاستثناء منقطع فيجب النصب، وإذا قلت: (ما قام إلا زيدٌ) بالرفع؛ لأن ما قبلها ناقص منفي، فيجب أن تقول: (ما قام إلا زيدٌ)، وفي قولنا: (ما رأيت أحداً إلا زيداً) هذا تام منفي، وهذا منصوب على كل حال، ويجوز الوجهان، لكنه منصوب لأنك إن قلت: ما رأيت أحداً إلا زيداً، هو مستثنى فهو منصوب، وإن أعربته بدلاً فهو منصوب، إذاً يجوز الوجهان إعراباً أما شكلاً فلا يجوز إلا وجهاً واحداً وهو النصب، لأنك حتى وإن جعلته بدلاً سيكون منصوباً.

وفي الآية هنا ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تام موجب، فالذين إذاً في محل نصب. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم.

والعمل يطلق على القول والفعل، بخلاف الفعل فإنه يطلق على فعل الجوارح والقول على قول اللسان. ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هذه صفة لموصوف محذوف، أي: عملوا الأعمال الصالحاتِ، وجمعها باعتبار أنواع الصالحات: صلاة، وصدقة، وصيام، وحج، وبر، وصلة، وأنواع كثيرة فلهذا جمعت. وأحياناً يقول: عَمِلَ صالحاً فيفرد باعتبار جنس العمل على سبيل العموم.

والأعمال الصالحات قال أهل العلم: هي ما جمعت شرطين، وهما: الإخلاص لله، والمتابعة لرسوله ﷺ، فلا صلاح مع شرك،

ولا صلاح مع بدعة، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] وعلى هذا لو أن رجلاً صلّى رياء فعمله غير صالح لفقد الإخلاص. ولو أن رجلاً تعبد لله بما لم يشرعه الله، ولكنه مخلص يريد التقرب إليه، لا يريد شيئاً من الدنيا، فعمله غير صالح لعدم المتابعة.

وقد دل على بطلان ما فيه الشرك آيات من القرآن متعددة، وأحاديث من السنة متعددة، مثل قوله ﷺ عن الله تعالى في الحديث القدسي: «**قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِرْكَه**»(١).

ودل أيضاً على اشتراط المتابعة آيات وأحاديث منها قوله ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»(٢) أي: مردود عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ الواو: حالية، وقليل: خبر مقدم، وهم: مبتدأ مؤخر، يعني وهم قليل، و«ما» في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ زائدة لفظاً وزائدة معنى، والمقصود بها تأكيد القلة، أي: قلة قليلة من العباد الصالحين من المؤمنين العاملين للصالحات.

وإذا تدبرنا الواقع وجدنا الآية منطبقة تماماً عليه، فإن الله يقول يوم القيامة: «**يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: أخرج بعث جهنم من ذريتك فيقول: يا ربِّ كم أُخرج؟ فيقول: أخرجْ من كل**

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور (١٧١٨) (١٨).

مئةٍ تسعةً وتسعين»[١] هؤلاء كلهم في النار وواحد في الجنة، إذاً القلة قليلة، واحد من مئة قليل جداً. قال ابن القيم في النونية:

يا سلعةَ الرحمٰن ليس ينالُها ... في الألفِ إلاّ واحدٌ لا اثنانِ

إذن نقول: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات من بني آدم قليلون جداً، ويؤكد القلة قوله: ﴿مَّا﴾ في ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿مَّا﴾ لتأكيد القلة، فقال الملكان صاعدين في صورتيهما إلى السماء: قضى الرجلُ على نفسه، فتنبَّه داود] الرجل يعني داود، لأنه حسب القصة الإسرائيلية المزعومة أن له تسعاً وتسعين امرأة، فطلب من رجل ليس عنده إلا امرأة واحدة أن يطلق امرأته ليتزوجها داود. وفي وجه آخر للقصة أنه أمره أن يخرج في الجيش من أجل أن يُقْتل حتى يتزوج امرأته. وقد بينا أن هذا لا دليل عليه، وأنه لا يليق بمقام العقلاء فضلاً عن الأنبياء، وأن هذه قصة مزعومة من اليهود، فهم الذين ركبوها على داود عليه السلام، لأن اليهود لا يعتقدون داود نبياً، وإنما هو على زعمهم مَلِك.

قال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ قال المؤلف: [أي: أيقن أنما أوقعناه في فتنة، أي: بلّية بمحبته تلك المرأة] ظن، أي: أيقن، وإنما نفسره باليقين لأن الأمر أمر واقع من داود حسب القصة، والشيء الواقع لا يقال: إنه ظن، بل يقال: إنه علم، فإن قال قائل: هل لديك شاهد على أن الظن يأتي بمعنى العلم؟ قلت: نعم، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر (٦٥٢٩).

لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦] فإن يظنون هنا بمعنى يتيقنون، لأن الظن الذي هو الراجح لا يكون إيماناً بملاقاة الله عز وجل، بل يجب على الإنسان أن يؤمن إيماناً يقينياً بأنه ملاقٍ ربه، والظن لا يكفي فيه، وإذا كان الظن لا يكفي فلا يمكن أن يكون مدحاً.

[﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ أيقن ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ قال: أوقعناه في فتنة، أي: بلّية]. هذا ما ذهب إليه المؤلف رحمه الله بناء على صحة القصة، ولكن الصحيح أن المراد بالفتنة الاختبار، فتناه، أي: اختبرناه، لأن الفتنة من معانيها الاختبار، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] أي: اختباراً وابتلاءً، كما قال تعالى عن سليمان: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠] إذاً ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي: اختبرناه، وعلى رأي المؤلف، أي: ابتليناه بمحبة تلك المرأة، ولكن هذا ليس بصحيح. ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ الصحيح أنما اختبرناه، ولكن بأي شيء اختبرناه، لننظر:

أولاً: داود عليه السلام مأمور بأن يحكم بين الناس، فإنما وظيفته عامة، واختصاصه في الوقت بدخوله المحراب، وإغلاق الباب عليه، هذا يخالف مقتضى وظيفته. إذ مقتضى وظيفته أن يتفرغ للناس حتى يقابل الخصوم ويحكم بينهم، هذه واحدة، ولهذا سيأتينا ـ إن شاء الله ـ في الفوائد، أنه لا يجوز للحاكم بين الناس، ولمن كان في وظيفة عامة أن يشتغل بشيء خاص لنفسه.

ثانياً: أن داود عليه السلام سمع كلام الخصم الأول ولم يستمع إلى كلام الخصم الآخر، لأن القرآن ليس فيه أنه سمع إلى كلام الخصم الآخر.

ثالثاً: أنه حكم وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ والحكم قبل سماع جواب الخصم الآخر فيه شيء من التسرع ما دام الخصم حاضراً.

لهذا علم داود عليه الصلاة والسلام أن الله تعالى ابتلاه بهذه الخصومة التي جاءت وهو يتعبد في محرابه وتسوروا عليه المحراب، فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب.

قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ أي: طلب المغفرة، والمغفرة لغة: مأخوذة من المِغْفَر، وهو ما يستر به الرأس ليتقى به السهام. أما شرعاً: فالمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه، أي: إن الله يستر على العبد ذنبه فيما بينه وبين الخَلْق، ويتجاوز عنه فيما بينه وبين العبد، وهنا تتحقق الوقاية مع الإخفاء، لأنه إذا سُتِر عن الخَلْق، ثم عفي عنه من جانب الخالق عزّ وجلّ، حصلت الوقاية بالعفو من الخالق، والثاني الستر بعدم إظهار الخلق عليها.

فداود عليه الصلاة والسلام طلب من ربه أن يغفر له ما جرى منه ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ خَرّ بمعنى نزل من أعلى إلى أسفل، ومنه خرير الماء من الميزاب أو من الشلال. وقوله: ﴿رَاكِعًا﴾ حال من فاعل خرّ، ولكن المؤلف ـ رحمه الله ـ فسر الركوع بالسجود، فقال: [أي: ساجداً] وذلك لأن الركوع الذي هو الانحناء لا يمكن أن يكون فيه خرور، لأن الراكع

يبقى ثابتاً، ولا يُتَصوَّر الخرور إلا بالسجود، ولكن التعبير بالركوع عن السجود من باب التعبير بالمعنى العام عن المعنى الخاص، لأن أصل الركوع في اللغة العربية هو الذل، كما قال الشاعر:

لا تُهيـــنَ الفقيرَ عَلَّـــكَ أن تركع يوماً والدهرُ قد رفعَهْ[1]

يعني أن تذل، والدهر قد رفعه: أي قد رفع هذا الفقير. إذاً فالذي عين أن يكون الركوع هنا بمعنى السجود هو قوله: ﴿وَخَرَّ﴾ ولكنه عبر بالركوع عن السجود لإظهار أن هذا الركوع ركوع ذلّ لله عزّ وجلّ، ثم قال: ﴿وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: رجع إلى الله، والإنابة: الرجوع مع الخشية فهو رجع إلى الله مع خشية الله سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي: سترنا وتجاوزنا، له أي: لداود، واللام في ﴿لَهُۥ﴾ يحتمل أن تكون للتعدية، أو أن تكون للتعليل، لكنها للتعدية أولى، وفي كونها للتعليل تأمل، أي: أننا غفرنا لداود ذلك الذي وقع منه، وهي الفتنة التي افتتن بها، ولم يتخذ الإجراء اللازم في الحكم.

قال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ مع المغفرة. أضاف الله له هذه المنقبة ﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾ أي: لداود عندنا ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ قال المؤلف رحمه الله تعالى: [أي: زيادة خير في الدنيا]، ويحتمل أن المرادَ بالزلفى زيادةُ القرب، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [قٓ: ٣١] أي: قُرِّبت، فالزلفى تفسيرها بزيادة الخير فيه شيء من النظر، والصواب أن المراد بالزلفى القربى، أما حسن المآب، فهو زيادة الخير، قال المؤلف

(١) هو للأضبط بن قُريع السعدي، انظر «خزانة الأدب» للبغدادي ١١/ ٤٥٠-٤٥٦.

رحمه الله تعالى: [﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ مرجع في الآخرة]. هذا هو زيادة الخير، فصارت النتيجة بعد أن وقع من داود ما وقع ثم رجع إلى الله واستغفره، أن الله سبحانه وتعالى رفع عنه آثار هذا الذنب، فغفر له، وزاده على ذلك زيادتين عظيمتين مهمتين إحداهما: القرب من الله، والثانية: حسن المآب.

الفوائد:

١ ـ أن هذه القصة عجيبة، وأنها مثار للعجب ولهذا شَوَّق الله إليها بقوله: ﴿۞وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها**: بلاغة القرآن حيث يأتي بمثل هذه الصيغة في الأشياء التي ينبغي للإنسان أن يتشوق إليها، ويهتم بها.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أن الخصم يطلق على الواحد والمتعدد اعتباراً بالمعنى، فإن الجماعة إذا كانت دعواهم واحدة صاروا كأنهم رجل واحد.

٤ ـ **ومن فوائدها**: أن من أتى البيوت من غير أبوابها فإن فعله هذا سبب للخوف والفزع، لقوله: ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها**: أن داود عليه الصلاة والسلام في هذه الحال كان قد أغلق الباب، أو جعل عليه حاجباً يمنع الناس من الدخول عليه.

٦ ـ **ومن فوائدها**: أن الحكم بين الناس أفضل من العبادات الخاصّة، لأن نفعه متعدٍّ، والعبادات الخاصّة نفعُها قاصر.

٧ ـ **ومن فوائدها**: أن الأنبياء يلحقهم من الطبائع البشرية ما يلحق غيرهم؛ لقوله: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ حيث لحقه الفزع كما يلحق سائر الناس.

٨ ـ **ومن فوائدها**: أنه ينبغي إن لم نقل يجب، أن يطمئن المُفْزِع مَن فزع منه بنفي سبب الفزع قبل كل شيء، حيث قالوا: ﴿لَا تَخَفْ﴾ ثم ذكروا القصة ولم يبدؤوا بالقصة مباشرة.

٩ ـ **ومن فوائد القصة**: بيان أن هذين الخصمين قد اعتدىٰ بعضهم على بعض، أي أن المسألة ليست مسألة كلامية، أو ليس فيها عدوان، بل فيها عدوان اعتدىٰ بعضهم على بعض بما ذكروا من السبب.

١٠ـ **ومن الفوائد**: أن هذين الخصمين أساءا الأدب من بعض الوجوه، حيث قالا: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ ووجه الإساءة أنهم ما جاءا إلى الحَكَم إلا وهما يعتقدان أنه سيحكم بينهم بالحق، فإذا قالا: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فإن هذا قد يولد تهمة من أنه لن يحكم بالحق.

١١ـ **ومن الفوائد**: أن الحُكَم يحتاج إلى إلزام لقولهم: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ فإن هذا أمر زائد على الحُكَم، لأن الحُكَم أن يفصل بينهم، والهداية أن يدلهم على ذلك من أجل إلزامهم به.

١٢ـ **ومن فوائدها**: أن كل البشر يطلب الصراط السوي الذي ليس فيه ميل ولا إجحاف، لقولهم: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾.

١٣ـ ومن فوائد هذه القصة: لباقة هذين الخصمين حيث لم تثر الخصومة ضغينتيهما، ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ مع أنه قال في الأول: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لكن هذا البغي لم تُفقد به الأخوة؛ لقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾.

١٤ـ ومن الفوائد لهذه القصة: أن هذه الخصومة غريبة، فإن أحدهما كان له تسع وتسعون نعجة، والآخر له نعجة واحدة، ومع هذا طمع الأول في الثاني، وكان الذي يتبادر في الذهن أن يضيف الأول صاحب النعاج الكثيرة إلى الثاني ما تيسر.

١٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن بعض الخصوم قد يكون أقوى في المخاصمة من الآخر حتى يغلبه لقوله: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنكم تختصمون إليّ، ولعلّ بعضَكم أن يكون ألحن بحُجّته مِن بعض، فأقضي له بنحو مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً، فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار**»(١).

١٦ـ ومن الفوائد: أنه ينبغي أن يكون الإنسان قوي الحجة، قوي البيان حتى يحصل له الغلبة على صاحبه، هذا إذا كان بحق، أما إذا كان بغير حق فإن الواجب على الإنسان أن يصمت لينطق غيره بالحق.

١٧ـ ومن الفوائد في القصة: أن داود عليه الصلاة والسلام حكم بينهم دون أن يسمع دفاع الخصم الآخر لقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة (١٧١٣).

بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾ ولعل داود عليه الصلاة والسلام أراد السرعة في إنهاء القضية؛ ليتفرغ لما احتجب له عن الناس من عبادة الله، وخاف أن يدلي هذا بشيء وهذا بشيء فيطول النزاع والخصام فبادر بالحكم.

١٨ـ **ومن فوائد القصة**: أن أكثر الشركاء يحصل من أحدهم بغي على الآخر لقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ وهذا من الغريب أن يكون الإنسان كلما قرب إلى الشخص تُوقِّعَ منه البغي أكثر مما لو كان بعيداً، لأن البعيد ليس بينه وبينه صلة، لكن الذي بينه وبينه صلة وهو الشريك، هو الذي ربما يجحده أو ينكره، أو يفعل شيئاً لم يأذن به أو ما شابه ذلك.

١٩ـ **ومن الفوائد في القصة**: أنه ليس جميع الخلطاء يحصل منهم البغي، لقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾.

٢٠ـ **ومن فوائد القصة**: أنه كلما كان الإنسان أقوى إيماناً وأكثر عملاً من الصالحات كان أبعد عن الظلم والبغي.

٢١ـ **ومن فوائدها**: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يحصل منهم البغي، والذي يمنعهم من ذلك هو إيمانهم بالله وبالحساب، وعملهم الصالح الذي يكون درعاً بينهم وبين العدوان والبغي، ووجهه أن استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، إنما كان من أجل إيمانهم وعملهم للصالحات، والحكم إذا علق بوصف ازداد قوة بقوة ذلك الوصف. وهذه قاعدة.

٢٢ـ **ومن الفوائد**: أن العمل لا ينفع إلا إذا بُني على الإيمان وكان صالحاً، فعمل بلا إيمان لا يُقبل، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٥٤] وكذلك لو كان هناك إيمان، لكن لم يكن العمل صالحاً لِفَقْد الإخلاص أو الاتباع فيه فإنه لا ينفع.

٢٣ـ **ومن فوائد هذه القصة**: أن الجمع بين هذين الوصفين: الإيمان والعمل الصالح قليل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾.

٢٤ـ **ومن فوائدها**: أن الحاكم لا يحكم حتى يستوعب حجج الخصمين لقوله: ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ ﴾.

٢٥ـ **ومن فوائدها**: أن الحاكم الذي نصب نفسه ليكون حكماً بين العباد لا يحل له أن يختفي عنهم في الوقت الذي يكون وقتاً للتحاكم.

٢٦ـ **ومن فوائدها**: أن الاشتغال بما فيه مصلحة عامة أفضل من الاشتغال بما فيه مصلحة خاصة.

٢٧ـ **ومن الفوائد**: أن الأنبياء قد يفتنون ويختبرون لقوله تعالى: ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ ﴾ ولكن الفتنة التي يفتن بها الأنبياء لا يمكن أن تعود إلى إبطال مقومات الرسالة والنبوة، كالفتنة التي تعود إلى الكذب أو الشرك أو الأخلاق الرديئة وما أشبهها، هذا لا يمكن أن يقع من الأنبياء.

٢٨ـ **ومن فوائد القصة**: أن كل شخص محتاج إلى الله عز وجل مفتقر إليه؛ لقوله: ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ ﴾.

٢٩ـ **ومن فوائد هذه القصة**: أن الاستغفار سبب لمحو ما حصل من الذنوب؛ لأن الفاء في قوله: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ﴾ مبنية على قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾.

٣٠ـ **ومن فوائد القصة**: أن السجود خضوعاً لله من سنن الأنبياء؛ لقوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ٢٤﴾، وهل يشرع لمن أذنب أن يفعل كما فعل داود، أو أن يصلي ركعتين تامتين؟

الجواب: المشروع إذا أذنب الإنسان أن يتوضأ ويسبغ الوضوء، ويصلي ركعتين لا يُحدِّث فيهما نفسه، فمن فعل ذلك فإنه يغفر له ما تقدم من ذنبه.

٣١ـ **ومن فوائد هذه القصة**: إجابة الله سبحانه دعاء مَنْ دعاه؛ لقوله: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾ وهذا يستلزم عدة صفات، منها العلم والسمع والبصر، يؤخذ ذلك من قوله: ﴿ذَٰلِكَۖ﴾ لأن الذي حصل من داود قول يسمع، وفعل يرى، فالقول الذي يسمع قوله: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ﴾ والفعل الذي يرى قوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗا﴾ فلما قال: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾، عُلم أن الله قد سمع ما قال ورأى ما فعل، وتستلزم هذه الصفة ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾ من الصفات ـ إضافة إلى العلم والسمع والبصر ـ القدرة، لأن المغفرة لا تقع إلا من قادر على الغفران، وتستلزم كذلك كرم الله عز وجل ولطفه بعباده، حيث يغفر لكل من استغفر مهما عظم ذنبه، كما قال تعالى: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

٣٢ـ ومن فوائد هذه القصة: أن الله تعالى غفر لداود عليه السلام، وبيَّن ما لديه من الثواب لداود في قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾.

٣٣ـ ومن الفوائد لهذه الآية: إثبات العندية لله، وهي عندية قرب وعندية علم، ففي قوله تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] هذه عندية علم، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩] هذه عندية قرب، ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾.

٣٤ـ ومن فوائدها أيضاً: الثناء على داود عليه الصلاة والسلام بحسن مآبه، أي: مرجعه إلى الله، لقوله: ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾.

* * *

ثم قال الله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ يخاطب الله تعالى داود عليه الصلاة والسلام بالنداء، والمخاطبة بالنداء يراد بها التنبيه، لأن هناك فرقاً بين أن تقول: محمد قام وبين أن تقول: يا علي محمد قام، ففي القول الثاني تنبيه، وإذا كان الكلام يحتاج إلى تنبيه فإنه دليل على أهميته. إذ إن الكلام الذي يهتم به يقدم بين يديه ما يكون به التنبيه، فالله عزّ وجلّ ينادي داود عليه الصلاة والسلام تنبيهاً لما سيلقي عليه فيقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: صيرناك، لأن جعل تارة يكون للتصيير، وتارة يكون للإيجاد كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ

وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] أي: أوجدهما، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] أي: صيرناه، والفرق بينهما أنه إن تعدى إلى مفعول واحد، صار بمعنى الإيجاد، وإن تعدى إلى مفعولين صار بمعنى التصيير، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تعدى إلى مفعولين، الكاف وخليفه، فتكون بمعنى التصيير، ﴿خَلِيفَةً﴾ أي: خالفاً لنا في تبليغ شرعنا، وليس المراد أنه خالفاً لله أنه يأتي بعده، لأن الله تعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن، لكن خليفة لله في تبليغ شرعه وحكمه بين الناس.

وقوله: ﴿فَٱحْكُم﴾ الفاء هذه للتفريع، أي: فبناء على كونك خليفة في الأرض احكم. قال المؤلف رحمه الله: [﴿خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تدبر أمر الناس] كما يدبر الخلفاء أمر مَن جعلهم الله راعين له، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، لأن الحق إن كان في مقابلة الخبر فهو بمعنى الصدق، وإن كان في مقابلة الحكم فهو بمعنى العدل، فإذا قيل: أخبرني محمد بكذا وهو حق يعني صدق، وإذا قلت: حكم فلان بكذا وهو حق يعني عدلاً. هنا يقول: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، لأن الحق هنا وصف به الحكم فصار بمعنى العدل، وهذا يتضمن الحكم، وطريق الحكم، ولوازمه، فالحكم بأن تحكم بالشرع، وطريق الحق أن تعدل بين الخصمين في كل شيء، حتى إن العلماء يقولون: يجب على القاضي أن يعدل بين الخصمين في لفظه ولحظه وكلامه، وجلوسهما ودخولهما عليه، يعدل في كل شيء، ففي لفظه لا يغلظ القول لأحد الخصمين ويلين القول للآخر، وفي لحظه لا ينظر إلى

أحد الخصمين نظرة غضب وإلى الثاني نظرة رضا، وفي مجلسه لا يجلس أحد الخصمين إلى جانبه والآخر بعيد عنه، وفي دخولهما عليه لا يقول لأحدهما: ادخل، قبل الآخر حتى ولو كان كافراً، فإنه لا يقدّم المسلم عليه في الدخول، وإن كان بعض العلماء قد قال: إذا كان أحدهما كافراً فإنه يقدّم المسلم عليه في الدخول، ولكن المقام مقام حكم فالواجب فيه العدل، وهذا كفره عليه، وهذا إسلامه له، هذا إذا كان الدخول يحتاج إلى تقديم وتأخير. أما إذا كان الباب مفتوحاً فإنه لا يلزمه أن يجعل عند الباب رجلاً يقول: ادخلا جميعاً. يجعل الأمر موكولاً إلى الخصوم. مَن جاء فليدخل، قبل الآخر أو بعده، لكن إذا كان هناك ترتيب الدخول فلا يقدم أحدهما على الآخر، هذا طريق الحكم.

أما الحكم فإذا علم أن الحق مع أحدهما وجب عليه أن يحكم له به مهما كان، سواء كان عدواً أم صديقاً.

﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ ﴾ الناس: أصلها الأناس، لكن حذفت الهمزة تخفيفاً كما حذفت من شر وخير، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ﴾ [المائدة: ٦٠] أي: بما هو أشر من ذلك، ثم قال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ ﴾ أي: هوى النفس، وإنما نهاه عن اتباع الهوى تعظيماً لهذا الأمر، ولا يلزم من نهيه عنه أن يكون ممكناً في حقه، كما قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] ولا يلزم من هذا أن يكون الإشراك في حقه ممكناً. وقد يقال: إن الله

نهاه عن اتباع الهوى لقوة الهوى في البشر، فإن الهوى في البشر أمر مفطور عليه، لأنه يندر أن شخصاً يتقدم إليه أبوه مع شخص آخر عدوٌّ له، يندر ألا يكون له هوى، أو يتقدم إليه شخص من أصدقائه الحميمين مع آخر من أعدائه الألداء ثم لا يميل مع الأول، يندر هذا، فلقوة الداعي وهو الهوى نهى الله عنه، وإن كان لا يمكن في حقه.

وقوله تعالى: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ فيضلك الفعل هنا مضارع ولكنه منصوب لأنه وقع بعد النهي، والمضارع إذا اقترنت به الفاء ـ وهذه الفاء تدعى فاء السببية ـ بعد النهي صار منصوباً بأن مضمرة وجوباً.

وقوله: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: يجعلك تضل وتحيد يميناً وشمالاً، وقوله ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي: عن الدلائل الدالة على توحيده] وهذا التفسير ضعيف جداً، بل المراد بسبيل الله طريقه الموصل إليه، لأن السبيل في الأصل هو الطريق، وأضيف إلى الله لأن الله هو الذي وضعه، وهو الذي شرعه، ولأن هذا السبيل يؤدي إلى الله، فأضيف إلى الله باعتبار وضعه، وباعتبار نهايته، وإذا قلنا: إن المراد بسبيل الله، أي: طريقه وشرعه، صار أعمّ مما قال المؤلف، وألصق باللفظ، لأن السبيل في اللغة الطريق، وليست الدلائل الدالة على التوحيد، لكن الدلائل الدالة على التوحيد لا شك أن النظر فيها من شريعة الله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ لم يقل الله: إنك إن تتبع الهوى أو إن تضل عن سبيل

الله فلك عذاب شديد، بل أتى بالجملة الاستئنافية الاستقلالية، أولاً: تفادياً لمخاطبة داود عليه السلام بذلك، وثانياً: ليكون أعم. إذن فيه فائدتان، ولهذا قال الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ [عبس: ١-٣] فعبر بالفعل الماضي الدال على الغائب، ولم يقل: عبست وتوليت أن جاءك الأعمى وما يدريك لعله يزكى، بل قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ تفادياً لمخاطبة الرسول ﷺ بمثل هذا الوصف.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢٦﴾ قال المؤلف: [﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن الإيمان بالله] وهذا أيضاً فيه نظر، والصحيح أن سبيل الله هنا هو سبيل الله الأول، والمراد به شريعته، لأنها هي الطريق الموصل إليه. ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾ الجملة خبر إنَّ، واسمها (الذين) و﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾ خبرها، فالجملة هنا خبر لـ«إن»، وكل جملة تقع خبراً فلا بد فيها من رابط يربط بين هذه الجملة وبين المبتدأ، والرابط هنا الضمير في قوله: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾ وقوله: ﴿شَدِيدُۢ﴾ أي: قوي وعظيم، ويدلك على قوته وعظمته ما وصفه الله به في القرآن العظيم من صفات تنزعج لها القلوب، وتتفطر لها الأكباد.

﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢٦﴾ أي: بسبب نسيانهم يوم الحساب، فالباء هنا للسببية، وما: مصدرية، ولهذا قال المؤلف: [بنسيانهم ﴿يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ المرتب عليه تركهم الإيمان، ولو أيقنوا بيوم الحساب لآمنوا في الدنيا] وقوله: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢٦﴾ المراد بيوم الحساب

يوم القيامة، وأضيف إلى الحساب؛ لأن الناس يحاسبون فيه على أعمالهم، وأوّل ما يحاسب عليه الإنسان فيما يتعلق بحقّ الله هو الصلاة، وأول ما يحاسب عليه فيما يتعلق بحق العالمين هو الدماء، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**أول ما يقضى بين الناس بالدماء**»(١).

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية**: إثبات كلام الله، وأنه بحرف وصوت، وذلك من قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ﴾ فإن هذه الجملة مركبة من حروف، ولا بد أن تكون بصوت، لأنه يُخَاطَبُ بها داود، ولا بد أن يكون المخاطب سامعاً ولا سماع إلا بصوت، فيؤخذ منه الرد على الأشاعرة وغيرهم ممن قالوا: إن الله سبحانه وتعالى يتكلم، وأن كلامه هو المعنى القائم بذاته، الملازم له أزلاً وأبداً.

٢ ـ **ومن الفوائد**: أن الأمر أمر الله، هو الذي ينصب من شاء ويعزل من شاء.

٣ ـ **ومنها**: أنه لا مانع من أن يقول القائل للسلطان صاحب السلطة العليا في الأرض، أن يقول له: إنه خليفة الله، ولا يعني ذلك أن الله محتاج إلى أن يستخلف أحداً ليقوم عنه بتدبير الخلق، ولكنه خلَّفه، أي: جعله حاكماً بين الناس بما شرع الله سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة (٦٥٣٣)، ومسلم، كتاب القسامة، باب المجازاة بالدماء في الآخرة (١٦٧٨).

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب الحكم بين الناس بالحق لقوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾.

٥ ـ **ويتفرع عن هذه الفائدة**: أن منصب القضاء فرض كفاية، كما قال ذلك أهل العلم، وإذا لم يوجد إلا الشخص المعين المؤهل فإنه يكون في حقه فرض عين.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه لا ينبغي للشخص إذا وكل إليه تولي القضاء أن يفر منه ما دام يعرف من نفسه الكفاءة، وذلك لأنه إذا فرّ منه، وفرّ الثاني والثالث والرابع تعطل هذا المنصب العظيم الذي هو منصب الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولكن إذا أتى الإنسان هذا الشيء بدون سؤال فليستعن بالله والله يعينه عليه.

٧ ـ **ومن الفوائد**: أنه يجب أن يحكم بين الناس بالحق، سواء كان ذلك في طريق الحكم، أو في نفس الحكم، أما طريق الحكم فهو معاملة الخصمين بحيث تكون المعاملة بينهما على وجه العدل، وأما في الحكم فأن يحكم بما تقتضيه الشريعة.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أنه لا يجوز للقاضي الحاكم بين الناس أن يحابي أحداً لقرابة، أو صداقة، أو غنى، أو فقر، أو جاه، أو غير ذلك لقوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ ويؤيد هذا قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾.

٩ ـ **ويستفاد من هذه الآية**: أنه في المقام المهم ينبغي أن يذكر الإثبات المطلوب ويذكر ضده، كأن يقال: احكم بالحق حكماً لا يدخله الهوى، لأن من الكمال إثبات الكمال ونفي ضده، فمثلاً:

احكم بين الناس بالحق، هذا إثبات كمال، ولا تتبع الهوى نفي ضده، وإنما يؤتى بنفي الضد من أجل أن يتبين أن المطلوب ينبغي أن يكون مجرداً عن كل ما ينافيه.

١٠ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن اتباع الهوى سبب للإضلال عن سبيل الله لقوله: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ ولكن هل الإضلال في نفس المخالفة؟ أم أن المخالفة نفسها ضلال، وتكون سبباً لإضلال آخر؟ الجواب هو الثاني، فإن الهوى يجلب للإنسان الضلال كما أنه هو نفسه ضلال، فإذا اتبعت الهوى في قضية ما، فانتظر اتباع الهوى في القضية التي تليها، لأن المعصية قبل أن يقع فيها الإنسان يجد نفسه تستوحش منها وتنفر، فإذا فعلها مرة هانت عليه، وانكسر الحجاب، فإذا هانت عليه أول مرة هانت عليه الثانية ثم الثالثة، حتى تصبح وكأنها لا شيء، ولهذا يضرب العامة مثلاً له فائدة، يقولون: بكثرة الإمساس يقل الإحساس، يعني إذا أكثر الإنسان مماسة الشيء قلّ إحساسه به.

والحاصل أن اتباع الهوى ضلال بنفسه، وسبب للضلال، ووجه ذلك أن المعصية تنفر منها النفس، فإذا فعلتها مرة هانت عليها، ثم الثانية تكون أهون، ثم الثالثة أهون، والرابعة أهون، حتى تصبح المعصية وكأنها ليست بمعصية، ولهذا قال: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾. فتجد القاضي مثلاً لا يمكن أن يحكم بالحيف والجور، وتجده نافراً من ذلك، فإذا حكم مرة هان عليه، ثم الثانية هان عليه، ثم الثالثة والرابعة وهكذا، لذلك قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾.

ويمكن أن يقال: إن هذا لا يختص بالحكم بين الناس، أي: أن اتباع الهوى سبب للإضلال عن سبيل الله في كل شيء، حتى في غير الحكم، حتى في المعاصي الخاصة التي في نفسك إذا اتبعت هواك فيها فاعلم أن هذا سبب في الإضلال عن سبيل الله، فعليك أن تتوقى المعاصي فإنها شر كلها.

١١ـ **ومن الفوائد**: أن دين الله تعالى واحد لا يتشعب لقوله: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ فأفردها، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فسبيل الله واحدة، وما خالفها فهو المتشتت. فهذا سببه الهوى، وهذا سببه خشية الناس، وهذا سببه كذا، وهذا سببه كذا، فتفرق السبل.

١٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: الثناء العظيم على شريعة الله، وذلك بإضافتها إلى الله، لأن كل ما أضيف إلى الله فإنه إذا كانت الإضافة خاصة فإن الإضافة تدل على شرفه.

١٣ـ **ومن الفوائد**: أن الضالين عن سبيل الله متوعدون بهذا الوعيد ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾ أي: قوي، ويتفرع من هذه الفائدة الحذر من الضلال عن سبيل الله.

١٤ـ **ومن الفوائد**: أن من أسباب الضلال عن سبيل الله نسيان يوم الحساب، والغفلة عنه، والانغماس في الدنيا حتى تنسي الإنسان ما خُلِق له، وما هو مقبل عليه، ولهذا قال: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ أي: غفلوا عنه. وليس المراد بالنسيان الذهول الذي يعفى عنه، بل المراد بالنسيان الترك الذي هو الغفلة وعدم المبالاة به.

١٥ـ **ومن فوائد الآية**: الحذر من الانغماس في الدنيا الذي يوجب نسيان يوم الحساب. ومن ثم حرم الشرع كل لهو يلهو به الإنسان ـ إلا ما استثنى ـ يعني باطلاً ليس فيه خير، ثم قد يكون محرماً، وقد يكون ضياعاً للوقت بدون تحريم، لكن كل لهو يصد عن سبيل الله ينسي يوم الحساب، ولذلك تجد أقل الناس إيماناً بيوم الحساب أكثرهم ممارسة للملاهي. ولا يمكن أن يقع في قلبه تذكر ليوم الحساب إلا نادراً. إنْ وفق لسماع موعظة أو ما أشبه ذلك وإلا فهو غافل لاه.

١٦ـ **ويتفرع على هذا**: أن يعرف الإنسان عداوة أعداء الله الذين أغرقونا بالملاهي وأنواعها حتى صرفوا الشباب عن ما ينبغي أن يؤهل نفسه له، فأغرقوه بالملاهي بأنواعها حتى صار الإنسان كأنما خلق لهذا اللهو، وصار رأس ماله وعقب ماله كله هو هذا اللهو، لا يتكلم إلا به، ومن فاز به، ومن لم يفز، فضاع الشباب بسبب هذا اللهو الذي انغمسوا فيه، ونسوا يوم الحساب إلا من شاء الله.

١٧ـ **ومن فوائد هذه الآية**: إثبات الأسباب. تؤخذ من قوله تعالى: ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ لأن الباء هذه للسببية.

ويتفرع عن هذه الفائدة إثبات حكمة الله عز وجل، وأنه تعالى لا يفعل شيئاً إلا لسبب يقتضيه، حتى إن بعض أهل العلم قال: إن كون الله عز وجل خلق السماوات والأرض في ستة أيام دون أن يخلقها بلحظة من أجل ترتب هذا الخلق بعضه على بعض، حتى تكون الأسباب فاعلة فعلها فتنتج الشيء شيئاً فشيئاً حتى يتم، وهذا

ليس ببعيد ما دمنا نؤمن أن الله عزّ وجلّ حكيم، وأن كل شيء يكون بسبب، فلا يستبعد أن يكون بقاء خلق السماوات والأرض ممتداً إلى ستة أيام هو من أجل هذا، من أجل أن يترتب الخلق بعضه على بعض، وينبني بعضه على بعض، حتى يكون مطابقاً للحكمة، وإلا فنحن نعلم علم اليقين أنه لو شاء الله تعالى لقال: كن فيكون بلحظة، لكن الله تعالى حكيم.

١٩ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الحساب في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ الحساب يختلف، حساب المؤمن أن يخلو الله به من غير أن يَطَّلع عليه أحد فيقرره بذنوبه، فيقول: فعلت كذا، وفعلت كذا، حتى إذا رأى أنه هلك، قال الله له: «**إني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»[1]، هذا حساب المؤمن، وهذا حساب يسير، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-٨] وما أيسر أن يخلو بك الله عز وجل وحدك، وليس عندكما أحد، ويكلمك وليس بينكما ترجمان، ويقول: إني قد سترتها لك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، الحمد لله على هذه النعمة.

أما الكافر فليس كذلك، الكافر ينادى عليه على رؤوس الخلائق ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] يخزون ويفضحون ﴿كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهم يخزون بأعمالهم ويفضحون بها.

* * *

(١) انظر ما ورد في «صحيح البخاري» الحديث (٢٤٤١)، وعند مسلم (٢٧٦٨).

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ قال المؤلف: [أي: عبثاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: خلق ما ذُكر لا لشيء ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكة ﴿فَوَيْلٌ﴾ وادٍ ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾].

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ خلقنا أي: أوجدنا، فالخلق بمعنى الإيجاد، لكنه إيجاد عن تقدير، لأن الإيجاد قد لا يكون عن تقدير ولا عن ترتيب، ولكن الخلق لا بد أن يكون عن ترتيب وتقدير، يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ﴾ السماء المراد بها الجنس، ويشمل جميع السمٰوات، وكذلك الأرض، وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ معطوف على السماء، أي: ما خلقنا ما بينهما باطلاً، والذي بين السماء والأرض من المخلوقات مخلوقات عظيمة، بعضها معلوم لنا، وبعضها مجهول لنا لم نعلمه حتى الآن، لكن يغلب على الظن أنها مخلوقات عظيمة، لأن الله تعالى جعلها قسيمة لخلق السماء والأرض، وقسيم الشيء لا بد أن يكون مقارباً له، أو مساوياً له.

وقوله: ﴿بَٰطِلًا﴾ هذا محط النفي، ولهذا نقول: لا يجوز الوقف على قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لأنك لو وقفت لأدى ذلك إلى أن يكون المعنى معنىً باطلاً، بل لا بد أن تصل فتقول: ﴿... وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾، لأن ذلك هو محط النفي، يعني ما خلقناهم باطلاً، أي: لأجل الباطل، وهذا كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨] فالباطل هنا بمعنى اللهو الذي لا فائدة فيه، فالله لم يخلق السماء والأرض باطلاً، ولو كان

خلقها باطلاً لكان ذلك في غاية السفه أن تخلق هذه المخلوقات العظيمة بما فيها لا لشيء بل للعب واللهو.

﴿بَٰطِلٗاۚ﴾ قال المؤلف: [أي: عبثاً] ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: اعتقاد أن خلق السماء والأرض باطلاً ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ يعني هذا ظن الكافرين الذين يظنون أن خلق السمٰوات والأرض لمجرد اللعب واللهو، ولا يترتب على ذلك شيء، ومن هذا قولهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: ٢٤] ومن ذلك ما يظنه بعض الناس أن المقصود من خلق السماء والأرض وجود هذه الخليقة ثم فناؤها إلى غير رجعة، فنقول: مَن ظن ذلك أي أن الله خلقها عبثاً ولعباً فهو كافر، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ هم الذين يظنون: أن خلق السماء والأرض كان باطلاً، وقول المؤلف: [﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ من أهل مكة] فيه نظر، لأنه قصر للدليل على بعض أفراده، والصواب أنه عامّ لأهل مكة وغيرهم، فالذين كفروا لا يظنون بالله إلا ظن السوء، فيظنون أن أفعاله عبث وباطل وليست لحكمة.

قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧﴾ وقال المؤلف: [﴿فَوَيۡلٞ﴾ وادٍ] في جهنم، ولكن هذا ليس صحيحاً بالنسبة للآية هذه، بل كلمة «ويل» كلمة وعيد بأمر شديد، لأنه قيل: ويل له من النار فهو يتوعد بها، كما تقول: ويل لك من فلان. وليس معنى ويل لك من فلان يعني وادٍ في فلان، بل هي كلمة وعيد على أمر شديد فقوله: ﴿فَوَيۡلٞ﴾ أي: وعيد شديد للذين كفروا من النار، يعني ما أعظم ويلهم من نار جهنم ـ والعياذ بالله ـ وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ

كَفَرُواْ﴾ خبر ويل، وقوله: ﴿مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧﴾ بيان لويل، أي: أن هذا الشيء العظيم يكون للذين كفروا من النار.

ثم قال تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨﴾ أم: هنا منقطعة، لأنه لم يذكر لها معادل، فهي بمعنى (بل) والهمزة، يعني بل أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهذا الاستفهام المقصود به النفي والاستنكار، يعني لا يمكن أبداً أن نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، والمراد بالاستفهام النفي والإنكار، والإضراب هنا انتقالي ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ﴾ أي: نصيّر، فهي تنصب مفعولين: الأول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والثاني: ﴿كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: لا يمكن أن نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: صدقوا بما يجب التصديق به على وجه القبول والإذعان، أي: تصديقاً مستلزماً للقبول والإذعان، وقوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: عملوا الأعمال الصالحات، والأعمال الصالحات هي التي اجتمع فيها شيئان: الأول: الإخلاص لله عز وجل، والثاني: المتابعة لشريعة الله، فمن عمل عملاً موافقاً للشريعة في ظاهره لكنه يرائي فيه، فعمله ليس بصالح، لاختلال الإخلاص لله، والذي عمل عملاً مخلصاً فيه لله يريد به وجه الله، لكنه على غير الشريعة، ليس بصالح لأنه غير موافق لشريعة الله. فلا بد من أن يكون العمل خالصاً لله، وموافقاً لشريعة الله.

وقوله: ﴿ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، المفسد مقابل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فيكون المراد بالمفسدين في الأرض: الكفّار الذين يعملون السيئات.

فكلُّ كافر فهو مفسد في الأرض، في مقابل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾. وكلُّ عاصٍ، فهو مفسد في الأرض، في مقابل: ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، فالشيء يُعرَف بمقابله.

ولهذا فسَّر أهل العلم قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ [الأعراف: ٥٦] فسّروا ذلك بالمعاصي، قالوا: لا تفسدوا في الأرض بالمعاصي وهذا التفسير صحيح، يشهد له قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

فإن قيل: هل هدم البيوت فساد في الأرض؟ فالجواب أنها لا تُنْفي ولا تُثْبت، إنْ هدمَها الإنسان ظلماً وعدواناً، فهو فساد في الأرض، لأنه معصية لا يجوز للإنسان أن يعتدي على بيت أخيه، فيهدمه، وإنْ هدمَها لإصلاحها، فهذا ليس فساداً في الأرض.

وقال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ أم هنا أيضاً بمعنى بل، وهمزة الاستفهام الذي يراد بها الإنكار والنفي.

قال المؤلف ـ رحمه الله: [﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ . . . ﴾ ـ لمّا قال كفار مكة للمؤمنين: إنّا نُعطى في الآخرة مثل ما تُعطون] هذا قد يكون صحيحاً، وقد لا يكون صحيحاً،

لكن إن كان صحيحاً فهو كقول اليهود: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، فكل أحد يدعي أنه على حق، وكل أحد يدعي أن الثواب له وأن الآخرة له، ولكن الشأن كل الشأن بمَن شهد الله له بذلك.

يقول: [﴿أَمْ﴾ بمعنى همزة الإنكار] أم، يعني قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ لكن يقدَّر قبلها، بل لأن أم هذه تفيد الإضراب.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: نصيِّر المتقين كالفجار، أي: لا يمكن أن نجعل المتّقي كالفاجر.

والمتقي مَن اتخذ وقاية من عذاب الله، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، وهذا أجمعُ ما قيل في تعريف المتقي. والفجّار خلاف المتقين، يعني الذين فجروا وخرجوا عن طاعة الله إلى معصيته.

وهنا قابل المتقي بالفاجر، وفي سورة المطففين قابل الفاجر بالبَرِّ، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، ثم قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]. ومنه نأخذ أنّ التقوى والبِرَّ إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، يعني أن البِرَّ كلمة إن ذُكرت وحدها، فهي شاملة للتقوى، والتقوى إن ذُكرت وحدها، فهي شاملة للبِرِّ، وإن جُمعتا جميعاً، البِرّ والتقوى، صار البِرّ فِعل الطاعة، والتقوى اجتناب المعصية، كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] يعني على فعل الطاعات، وترك المعاصي.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إثبات خلق السماء والأرض، وأنها حادثة بعد العدم، وليس في الكون شيء يكون أزلياً أبدياً أبداً. فالسمٰوات ليست أزلية، بل هي مُبتدَعَة، وسوف تفنى، وكذلك كلّ شيء سوف يفنى إلا ما استثنى الله عز وجل وخلقه للبقاء، مثل الأرواح، فإنها خُلقت للبقاء، ومثل ذلك ما في الجنة من النعيم والوِلْدان والحور، وما أشبهها، فما دل الكتاب والسنة على بقائه وأبديته، فهو باقٍ أبدي، ولكن كل شيء لا يمكن أن يكون أزلياً أي: ليس له أول إلا الله عز وجل.

٢ ـ **ومن فوائدها**: أن الذي خلقها هو الله، لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ﴾ [الطور: ٣٦] يتحداهم: هل هم الذين خلقوا السمٰوات والأرض؟

٣ ـ **ومن فوائدها**: أن الله تعالى خلقها لحكمة عظيمة، ليس فيها سفه، لقوله: ﴿بَٰطِلًاۚ﴾ فإن نفي خلقها باطلاً يستلزم أنها خُلقت لحكمة عظيمة بالغة، وهو كذلك، وهذا فرد من أفراد مخلوقات الله عز وجل، فإن الله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً، ولم يَشْرَع شيئاً عبثاً، بل كل ما خلقه وشَرَعَه الله ودبّره، فهو لحكمة عظيمة، أحياناً نعرفها، وأحياناً لا نعرفها.

٤ ـ **ومن فوائدها**: إثبات الحكمة في أفعال الله، لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾ إذ لو انتفت الحكمة لأمكن أن تُخلق السماء والأرض باطلاً.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنّ لا أحد يظنّ أن ذلك باطلاً إلا الكافر، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾.

٦ ـ **ومن فوائدها**: أنّ من ظن ذلك، فهو كافر.

والفرق بين الفائدتين: أن الفائدة الأولى يكون الكفر سابقاً، على هذا الظن، فيكون الكفر سبباً لهذا الظن.

أما الفائدة الثانية: أنّ هذا الظن سابقٌ على الكفر، فيكون هذا الظن سبباً للكفر.

إذاً، لا يظن أحد أن الله خلق السماء والأرض باطلاً إلا الكفار، وإذا ظنّ أحد أن الله خلق ذلك باطلاً، صار كافراً.

٧ ـ **ومن فوائدها**: إثبات الوعيد للكفار في قوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧﴾ وأنهم سيدخلون النار، وهم أيضاً مخلدون فيها أبداً، كما ذكر الله تعالى ذلك في ثلاث آيات من كتاب الله في سورة النساء، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩]، وفي سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥]، وفي سورة الجن: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

وبعد هذه الآيات الثلاث، لا ينبغي أن يلحقنا شك في أبدية النار، وإن قال ذلك من قاله من الناس، لأن هذا كلام الله، وهو خبر، والخبر في كتاب الله لا يمكن أن يَكْذِب، ولا يمكن أن يلحقه

النسخ، فلا عبرة بقول مَن قال: إن النار لا تؤبد، بل قوله مرفوض، باطل، مردود عليه، بدلالة القرآن الصريحة.

٨ ـ **من فوائد الآيات كلها**: أنّ من جملة الحِكمة، التي هي من صفات الله عز وجل أنّه لا يمكن أن يجعل المؤمن العامل للصالحات كالمفسد في الأرض، لأن ذلك ينافي الحكمة منافاةً بالغةً، لا يمكن أن يستوي المؤمنون والكافرون، كما لا يستوي الأعمى والبصير، قال الله تعالى: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ﴾ [هود: ٢٤].

٩ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أنّ الإيمان والعمل الصالح سبب لصلاح الأرض، وهذا يؤيِّده آيات كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

١٠ـ **ومن فوائدها**: أنّ المعاصي سبب للفساد في الأرض، لأنّه قابل هذا بالإيمان والعمل الصالح، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، فكل فساد يحدث في الأرض من جدَب وفقر ومرض وفسادِ ثمارٍ، وغير ذلك، فإنه بسبب المعاصي، بما كسبت أيدي الناس.

١١ـ **ومن فوائدها**: أنّ الله لا يمكن أن يجعل المتّقين كالفجّار في مآلهم، فالمتقي في جنات النعيم، والفاجر في عذاب الجحيم ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾.

قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾.

﴿كِتَٰبٌ﴾ قال المؤلف: [خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا] والمشار إليه القرآن الكريم.

وكتاب بمعنى: مكتوب. ووُصِف القرآن بأنه كتاب لعدة أوجه:

الأول: أنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١-٢٢].

الثاني: أنه مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١-١٦].

الثالث: أنّه يُكتب في المصاحف، كما هو معروف، وربما يدّعي مدّعٍ أنه بمعنى مفروض على الأمة الإيمان به، والعمل به. فيكون هذا معنى رابعاً لكلمة (مكتوب).

وقوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ أنزله الله إلى محمد ﷺ، وإنزاله إلى محمد ﷺ من الله يدلُّ على أنه كلام الله. ووجه ذلك: أنّ هذا الكتاب كلام، والكلام لا بد له من متكلِّم، فإذا كان الله هو الذي أنزله، لزم أن يكون هو المتكلم به، فيكون في هذا إثبات أن القرآن كلام الله.

وأحياناً يأتي التعبير بـ: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ [النحل: ٦٤، طه: ٢] والجمع بينهما: أنّ «إلى» تفيد الغاية، أي: أنّ غاية هذا الإنزال إلى محمد ﷺ، و«على» تفيد الاستعلاء.

وذلك لأن هذا القرآن جاء من (عَلٍ)، أي: من فوق، من الله عز وجل، ثم إن في «على» إفادة التحمل للشيء.

أنزله عليك: يعني لتتحمله، وتقوم به.

فالفرق إذاً من وجهين:

الوجه الأول: أن (إلى) تفيد الغاية، أي: أن غاية الإنزال إلى محمد ﷺ، لا يتعداه إلى غيره، ولا نبي بعده، وأما (على) فتفيد الاستعلاء، أي: أنه نزل إلى الرسول ﷺ من فوق، وتفيد أيضاً التحمل لأنه نزل عليه كأنه فوقه، والشيء الذي فوقك لا بد أن تتحمله، ويؤيِّد هذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٣-٢٤] مما يدل على ثقله، وهو كذلك.

قال: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ مبارك: صفة لكتاب. و﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أيضاً صفة لكتاب، هذا بناء على إعراب المؤلف: أنّ ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون ﴿كِتَٰبٌ﴾: مبتدأ، و﴿مُبَٰرَكٌ﴾: خبره، وجملة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ صفة لكتاب، وسوّغ الابتداء به وهو نكرة، وَصْفُهُ بجملة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾.

وبركة القرآن من عدة أوجه:

١ ـ الوجه الأول في الثواب الحاصل بتلاوته، فإنّ من قرأ حرفاً واحداً منه، فله بكل حرف عشر حسنات، وهذه بركة عظيمة.

٢ ـ مباركٌ: من حيث الأثر المترتِّب على تلاوته، سواء كان عامّاً أم خاصّاً. فالخاصّ ما يحصل للإنسان بتلاوة القرآن من انشراح الصدر، ونور القلب وطمأنينته، كما هو مجرّب لمن قرأ القرآن بتدبر. وأمّا العام، فإن الله تعالى فتح بهذا القرآن مشارق الأرض ومغاربها، فإن المسلمين لما كانوا متمسكين بهذا الكتاب، سادوا العالم كله، ولا شك أن هذا من البركة بهذا القرآن.

٣ ـ ما يحصل بهذا القرآن من اجتماع الكلمة، وحفظ اللغة الأصيلة للقوم الذين نزل بلغتهم، فمن المعلوم أن الناس إذا كانوا على لغة واحدة، صاروا إلى الاجتماع أقرب، وإذا تفرَّقت لغاتُهم، صاروا إلى التفرُّق أقرب، لأنه إذا اتفقت لغاتهم، استطاعوا أن يتفاهموا فيما بينهم، وأن يعرف بعضهم ما عند بعض، وإذا اختلفت اللغات لم تحصل هذه الفائدة، فهذا من بركة القرآن الكريم.

وله أوجه أخرى ربما لا نستطيع أن نستوعبَها في هذا المكان، لكنها ظاهرة لمن تأملها.

وقوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هذه متعلقة بأنزلناه، يعني أنزلناه ليدبروا آياته، ليدبروا: اللام: لام التعليل، ويدبروا: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والواو: فاعل والجار والمجرور متعلقان بـ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ يعني: أنزلناه ليتدبَّروا آياته. والتدبُّر معناه التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، وتكرار اللفظ على القلب، مرَّةً بعد مرَّةٍ، حتى يتَّضح المعنى، أي معناه: التأمل في معاني القرآن، وترديد هذا التأمل، حتى يتضح ما فيه المعنى. وأصل هذه

الكلمة: ليتدبَّروا، فأدغمت التاء في الدال، وإذا أدغمنا التاء في الدال جعلنا التاء دالاً، فصارت ليدَّبَّروا آياته، وقوله: ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ جمع آية، والآية هي ما تنتهي بفاصلة.

ومن حفظ الله لهذا القرآن أن آياته محفوظة مرقمة، أو محجوزة بعضها عن بعض، إلى يومنا هذا.

والآيات هي: العلامات، وهي علامات على أنّ هذا القرآن من عند الله عز وجل بما تحويه من اللفظ والمعنى.

ولهذا كانت الآية الواحدة مُعجزة للبشر، بل معجزة للخَلْق كلهم، لأنها آية من آيات الله.

قال المؤلف: [﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: ينظروا في معانيها، فيؤمنوا]. هذه حكمة من حِكم إنزال القرآن أن يتدبر الإنسان في الآيات، الثانية: قال: [﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾: يتّعظ ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ أصحاب العقول] هذه فائدة ثانية، جعل التذكر بعد التدبر، لأنه لا يمكن أن يتّعظ الإنسانُ بالشيء إلا إذا عرف المعنى الذي يتضمنّه، فيتدبَّر أولاً، ثم يتذكَّر ثانياً.

ففي المرحلة الأولى يقرأ الإنسانُ القرآن، وفي المرحلة الثانية يتدبَّره لفهم معانيه، ثم المرحلة الثالثة: يتّعظ به، والاتِّعاظ بالقرآن هو التأثُّر به في القلب والجوارح.

والتأثر بالقلب: إخلاص العبد لله، وإنابته إليه، وتوكله عليه، وما أشبه ذلك من أعمال القلوب.

وتأثر الجوارح: القيام بطاعة الله بالجوارح الظاهرة مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم، وغير ذلك.

فالفائدة من إنزال هذا القرآن المبارك تتركز على شيئين، هما: التدبُّر والتذكُّر.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ أولو: بمعنى أصحاب، وهي ملحقة بجمع المذكر السالم، لأنه ليس لها مفرد من لفظها، بل لها مفرد من معناها. إذا قلنا: إنها بمعنى أصحاب، صار مفردها من المعنى صاحب، فأولو: جمع صاحب باعتبار المعنى.

وقوله: ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قال المؤلف: [أصحاب العقول] لأن صاحب العقل هو الذي يتعظ أما مَن لا عقل له، فإنه لا ينتفع بذلك.

والعقول هنا، هي عقول الرشد، لأن العقل عقلان: عقل إدراك، وعقل رشد. فعقل الإدراك هو ما يتعلق به التكليف. وعقل الرشد ما يكون بحُسْن التصرُّف. فالكفار مثلاً لهم عقول إدراك، لأن هذا هو الذي يتعلق به التكليف وليس لهم عقول رشد، لأنهم لم يُحسنوا التصرف. وكل مَن لا يَحْسُن التصرف، فإنه يصح أن ينفى عنه العقل، قال تعالى: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] ونحن فيما بيننا إذا وجدنا شخصاً يسيء التصرف، قلنا: إنه غير عاقل، وإن كان عاقلاً من حيث الإدراك، لكنّه غير عاقل من حيث التصرف.

والعقل الذي يُمدح، هو عقل الرشد. أما عقل الإدراك، فهذا يحصل لكل أحد، حتى الكفار والفجّار.

وقوله: ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ألباب: جمع لب، ولب كل شيء المقصود منه. فالحبة مثلاً لبها ما كان بداخلها، المخ الذي بداخلها هو اللبّ، وما فوقه قشور، والبيضة الذي بداخلها هو اللب وما فوقه قشور.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية**: أنّ هذا القرآن كلام الله، لأن الله أضافه لنفسه في قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ والقرآن كلامٌ، وإذا أضيف الكلام إلى أحد، لزم أن يكون صفة له، لأن الكلام معنى لا يقوم إلا بغيره.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: إثبات علوّ الله عز وجل لقوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾. والإنزال لا يكون إلا من العُلو. وقد قرّرنا هذا كثيراً في عدة مجالس، قرّرنا علوَّ الله بذاته فوق خلقه، وبينا أنّه ثابتٌ بجميع أنواع الأدلة السمعية: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أن القرآن كتاب، أي: مكتوب. وقد بيَّنا أنه مكتوب في ثلاثة مواضع:

أ ـ اللوح المحفوظ.

ب ـ والكتب التي بأيدي الملائكة.

جـ ـ والكتب التي بأيدي الإنسان.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: إثبات رسالة النبي ﷺ بقوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها**: فضيلة رسول الله ﷺ حيث كان أهلاً لأن ينزَّل عليه القرآن. والقرآن لا ينزل إلا على مَن هو أهلٌ لإنزاله عليه لجمعه صفات الكمال البشرية.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أنّ القرآن الكريم مبارك، حسب الوجوه التي ذكرناها.

٧ ـ **ومن فوائدها**: الحثُّ على العناية به والتزامه، لأنه إذا كان مباركاً، فإن كل أحد من البشر يريد أن ينال بركة هذا الشيء المبارك.

٨ ـ **ومن الفوائد**: أن القرآن يُستشفى به، كما دلّت على ذلك آياتٌ كثيرة أخرى، يُستشفى به من أمراض القلوب، ومن أمراض الأبدان، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

إذاً فمن بركة القرآن؛ أنّه يُستشفى به من أمراض القلوب، ومن أمراض الأبدان.

والاستشفاء به من أمراض الأبدان يقع على وجوه متنوعة:

أ ـ منها: أن يُقرأ على المريض به، كقراءة الفاتحة على المريض، فإنها مفيدة جداً.

ب ـ ومنها: أن يُكْتَب في إناء ويُصَبّ عليه الماءُ، ويدار عليه الماءُ حتى يتغير بهذه الكتابة، ثم يُشرب، وهذا مجرّب.

جـ ـ ومنها ـ على رأي بعض العلماء من السلف والخلف ـ: أن يعلَّق بصفة تميمة، أي: يُكتب في جلد أو ما شابهه، ثم يعلَّق على المريض، فإنّ هذا قد اختلف فيه السلف، فرخَّص فيه بعضُهم، ومنعه بعضهم. ومن رخَّص فيه، استدلَّ بعموم الأدلة الدالة على أنّ القرآن فيه الشفاء[1].

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أنّ مِن أعظم الحِكَم في إنزال القرآن؛ تدبر القرآن، لقوله تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

١٠ـ **ومن فوائدها**: حثّ الإنسان على تدبُّر الآيات. وأن لا يُقرأ القرآن قراءةً لفظيةً فقط، فإنّ الله تعالى قد ذمَّ هذا الجنس من الناس، أعني الذين يقرؤونه قراءةً لفظيةً، فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]. ﴿أَمَانِيَّ﴾: يعني قراءة لفظية فقط، فوصفهم الله بأنّهم أميون لأنهم لم ينتفعوا بالقرآن، إذ لا يمكن أن يُنتفع بالقرآن إلا بفهم معانيه. فإذا لم تُفهم معانيه، صار العربي والعجمي على حدٍّ سواء.

١١ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنّ تدبُّر القرآن فرض، لأن العملَ بالقرآن فرضٌ، ولا يتمّ العملُ إلا بالتدبُّر، وما لا يتمُّ الفرضُ إلا به، فهو فرض.

ولكن هل التدبر فرض عين، أم فرض كفاية؟ حسب الحال. قد يكون فرضَ عين، وقد يكون فرضَ كفاية، فما لا يتمّ دينُ العبدِ

---

(١) انظر شرح فضيلة الشيخ رحمه الله تعالى لكتاب التوحيد، باب ما جاء في الرقى والتمائم. لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى.

إلا به، فهو فرضُ عين، وما زاد على ذلك، فهو فرضُ كفاية. ولا بد أن يكون في الأمة الإسلامية مَن يفهم القرآن.

١٢ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنّ القرآن كله آيات دالة على المتكلم به سبحانه وتعالى، ولهذا قال: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ولم يقل: آيات منه، أو عشر آيات، بل كل الآيات.

١٣ـ ومن الفوائد أيضاً: أنّ من أعظم ما نزل القرآن لأجله: التذكر، لقوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾.

١٤ـ ومن فوائدها: أن القرآن الكريم نزل موعظة للناس، كما قال الله تعالى في آيات أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [يونس: ٥٧] وقال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ﴾ [النساء: ٥٨]، فالقرآن نزل ليؤثر، ولم ينزل ليتبرك الإنسان بقراءته، أو ينال الأجر بقراءته فقط، هذا سهل، ولكن لا بد أن يؤثر تذكراً وموعظة.

١٥ـ ومن فوائد الآية: أنه لا يتذكر بالقرآن إلا أصحاب العقول، لقوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾.

١٦ـ من فوائدها: أن مَن تذكَّر بالقرآن، فهو صاحب عقل، ومَن لم يتذكَّر، فليس له عقل رشد، وجه ذلك أن الله جعل التذكر لمن اتصفوا بالعقول.

١٧ـ ومن فوائدها: أنّ لب الإنسان وروحه هو العقل؛ عقل الرشد لأن الله تعالى سمى هذه العقول ألباب، جمع لب، كأسباب: جمع سبب.

قال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ وهبنا: أعطينا. ووصف الله ذلك بأنه هبة، لأنه محض فضل منه لا يحتاج منا إلى شيء. قال الله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠] إذاً وهبنا لداود: أعطيناه هبة فضلاً منا.

وقوله: ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ لم ينوّن، لأنّه ممنوع من الصرف للعلمية، ولزيادة الألف والنون.

وداود: ممنوع من الصرف للعجمية والعلمية. قال المؤلف: [﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ ابنه]، من أين عرف المؤلف أنه ابنه؟ ألا يجوز أن يكون المراد وهبنا لداود سليمان يعني خادمه؟ الجواب: لا؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى سمّى الأولاد هبةً في قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ يعني: يصنّفهم ذكراناً وإناثاً ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾[الشورى: ٥٠].

قال: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أي: سليمان، ونعم: فعل ماض جامد لإنشاء المدح، والجملة أُتي بها للمدح والثناء، وعلى نقيضها (بئس) فإنّها كلمة لإنشاء الذمّ.

وقوله: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ المعروف أنّ (نعم أو بئس) تحتاج إلى فاعل، ومخصوص بالمدح في (نعم)، والذم في (بئس)، ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ العبد: هو الفاعل، نعم في الماضي والعبد فاعل والمخصوص بالمدح: إمّا أن نقدره اسماً ظاهراً، أو ضميراً.

﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ هذا سبب ثناء الله عز وجل على سليمان ﴿ إِنَّهُۥٓ ﴾ أي: سليمان.

﴿ أَوَّابٌ ﴾ أي: رجّاع إلى الله عز وجل، سواء كان ذلك بترجيع الصوت بالذِّكر، أو بالرجوع إلى طاعة الله عز وجل.

والظاهر أن الآية شاملة للمعنيين: ﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ رجّاع إلى طاعة الله، و﴿ أَوَّابٌ ﴾ رجّاع بالتسبيح، أي: يرجّع الصوت به ويردِّده.

يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: [رجّاع بالتسبيح والذِّكر في جميع الأوقات] ولكن الصحيح أنه أعم مما قال المؤلف؛ أنّه رجّاع بالتسبيح والذِّكر، وكذلك رجّاع إلى الله بالتوبة والطاعة.

وقوله: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ عُرِضَ ﴾ العارض، أبهمه للتفخيم، لأن الفعل هنا مبني للمجهول. يعني كأنه يوحي بأنّ له جنوداً كثيرة يعرضون عليه ما يعرِضون.

وقولـه: ﴿ بِٱلْعَشِيِّ ﴾ هو ما بعد الزوال إلى غروب الشمس، وقوله: ﴿ بِٱلْعَشِيِّ ﴾ الباء هنا للظرفية؛ أي: فيه، ولكن الغالب أنّ الباء إذا جاءت في مكان «في» أنها تكون مستوعبة لجميع الوقت، كأنّ العشي صار كله مُستَوعباً؛ لهذا العرض، لكثرة الخيول التي تُعرَض عليه.

﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ﴾ الصافنات مرفوعة وهي نائب فاعل ﴿ عُرِضَ ﴾. فإذا قال قائل: ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ﴾ جمع، والفعل مذكر ﴿ عُرِضَ ﴾ وهذا جمع ذات حِرٍ، يعني جمع مؤنث حقيقي، وابن مالك يقول في تاء التأنيث:

وتـاءُ تـأنيـثٍ تلي المـاضي إذا كان لأنثى كأبَتْ هندُ الأذى
وإنّمـا تَلـزمُ فعـلَ مُضْمَـرِ مُتَّصِـلٍ أو مُفْهِـمٍ ذاتَ حِـرِ

نقول: إنّما لم يجب التأنيث لوجود الفاصل، وهو قوله: ﴿عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ﴾.

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ قال المؤلف: [الخيل، جمع صافنة، وهي القائمة على ثلاث، وإقامة الأخرى على طرف الحافِر، وهو من صَفَنَ يَصْفِنُ صُفوناً].

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ هي: الخيل تقوم على ثلاث أرجل، وترفع الرابعة قليلاً، بحيث يكون طرف الحافر على الأرض، وهذا يدل على قوتها. وهو أيضاً من ناحية الجمال أجمل عند رؤيتها. ولو تصوَّرت الخيلَ مصفوفةً صافنةً، لكان لها أُبّهة، وتشعرُ بشيءٍ من العَظَمة من هذا المشهد الذي تشاهده.

قوله تعالى: ﴿ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾ قال المؤلف: [جمع جواد، وهو السابق، المعنى: أنها إذا استُوقِفَت سكنت، وإن ركضت سبقت] يعني: أنّ هذه الخيل التي عُرضت عليه موصوفة بهذين الوصفين: أنها من الصوافن، وأنها من الجياد؛ فهي إذا استُوقِفت وقفت على أحسن هيئة، وهو الصّفون، وإذا ركضتْ؛ ركضتْ على أكمل هيئة، وهي الجود. جيدة في السّبق، وتتحمل المشاق، ولو طال السير، وهذا غاية ما يكون من جمال الخيل؛ أن تكون هيئتها حين الوقوف ممّا يسر النفس، وأن يكون فعلها وأداؤها حين السير مما ينفع، لكونها من ذوات الجود.

وقول المؤلف: [كانت ألف فرس، عُرضت عليه، بعد أن صلَّى الظهر، لإرادته جهاد العدوِّ عليها، فعند بلوغ العرض منها تسع مئة، غربت الشمس، ولم يكن صلى العصر، فاغتم].

تقديره هذه الخيل بألف فرس يحتاج إلى دليل عن معصوم، عن النبي ﷺ، وليس هناك دليل عن رسول الله ﷺ بأنها ألف أو ألفان أو أقلّ أو أكثر. وحينئذ تكون مسؤوليتنا أن نقفَ حيث يقف القرآن، فلا نحددها بألف ولا بأكثر ولا بأقل، إنما هو عُرضت عليه في آخر النهار هذه الخيول الصافنات الجياد، فلما عرضت عليه نسي أن يصليِّ لقوة ما في قلبه من التعلُّق بهذه الخيول التي أعدّها للجهاد في سبيل الله، أو أعدها للزينة والتمتع؛ لأن سليمان كان من الأنبياء الملوك، قال تعالى: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [صٓ: ٣٥] والملوك من عادتهم أن يُسرّوا ويبتهجوا بالنظر إلى الخيول، وسواء كان أعدّها للجهاد إن كان قد أُمر به، أو أعدّها للتمتع بها بصفته أنه ملك ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾. أحببت، أي: أردت، حب الخير. يعني محبة الخير، والخير يطلق على المال عموماً، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٦-٨] أي: لحب المال، والدليل على أن الخير هو المال قولُه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠].

فقوله: ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: حب المال، وتفسير المؤلف ـ رحمه الله ـ لهذا الخير بالخيل أخص من دلالة اللفظ، وقد مرَّ علينا أنه لا

يجوز أن يفسر اللفظ الأعم بالمعنى الأخص، لأن هذا قصور في التفسير، لكن قد يكون عذر المؤلف أن السياق في الخيل، فيكون حمله لهذا العامّ على الخاصّ بقرينة السياق.

وهنا إشكال، وهو قوله: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ هل الحب يُحب، أي: لو قال قائل: لماذا لم تكن الآية: إني أحببت الخير، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]؟

لقد أوَّل المؤلف ـ رحمه الله ـ المحبّة التي جاءت بلفظ الفعل بالإرادة فقال: [﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ﴾ أي: أردت ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾] لكنه ـ رحمه الله ـ وإن تخلص من تضارب اللفظ لم يتخلص من فساد المعنى؛ لأنه إذا قال: أردت ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ فالمراد قد يحصل، وقد لا يحصل مع أن حبه حاصل.

والجواب أن نقول: إن ﴿أَحْبَبْتُ﴾ الأولى على بابها و﴿حُبَّ﴾ الثانية على بابها من باب التوكيد، كأنه أَحَبَ حُبَ الخير فضلاً عن الخيل، ومن أحب حب الشيء لزم أن يكون محباً للشيء، كما لو قلت: أنا أحب أن أحب فلاناً، أو أنا أحب أن أحب قراءة الكتاب الفلاني، فيكون هذا من باب التوكيد، كأنه كرّر المحبة مرتين، وبهذا نتخلص من الإيراد الذي يَرِدُ على تفسير المؤلف ـ رحمه الله ـ.

وقوله تعالى: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾، قال المؤلف: [أي: صلاة العصر]، وهذا أيضاً فيه تفسير للعامّ بما هو أخصّ، وهو قصور في التفسير، وذلك لأن الذِّكر أعمّ من الصلاة، فكل صلاة ذكر، وليس كل ذكر صلاة، إذاً إذا فسَّرنا الذِّكر بالصلاة فقد فسَّرنا الأعمّ

بالأخصّ، وهذا قصور، لكن ربما يُعتذر عن المؤلف بسياق الآية، ولكن هذا العذر لا يقبل؛ من الذي يقول: إن سليمان أراد بذكر ربه صلاة العصر؟ إذ قد يكون أنه أراد ذكر الله في المساء، لأن المساء له أذكار معينة، وتكون صلاة العصر داخلة في هذا الذكر، وهذا هو الصحيح، أن المراد بالذكر في قوله: ﴿ذِكْرِ رَبِّي﴾ عموم الذكر، الذي يدخل فيه صلاة العصر.

وقوله: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ يشمل التذكر الذي هو ذكر القلب، ويشمل القول الذي هو ذكر اللسان، ويشمل الفعل الذي هو أفعال الجوارح إذا أدخلنا صلاة العصر في هذا؛ لأن صلاة العصر تشتمل على أنواع الذكر الثلاثة، فيها ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وذكر بالجوارح.

وقوله: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ في إضافة الربوبية إلى الله، استعطاف من سليمان لله عزّ وجلّ حيث أذعن له في الربوبية التي تقتضي أن يكون مشغولاً بذكره سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ استشكل بعض العلماء تعدي الفعل بـ«عن».

قيل: إن «عن» تعني البدلية هنا، أي: بدل ذكر ربي، وقال بعض العلماء: إن ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ ضُمّن معنى آثرت، أي: آثرت حب الخير عن ذكر ربي. ومرّ علينا فيما سبق أنه إذا جِيء بمُتعلِّق لا يناسب المتعلَّق ظاهراً فإن لعلماء النحو في ذلك قولين:

الأول: تضمين المتعلَّق معنى يناسب المتعلِّق.

والثاني: أن يضمَّن الحرف الذي لا يناسب المتعلَّق حرفاً يناسب المتعلَّق. وذكرنا أن الأولى أن يكون التجوز بالفعل.

قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ﴾ قال المؤلف: [أي: الشمس ﴿بِٱلۡحِجَابِ ٣٢﴾ أي: استترت بما يحجبها عن الأبصار].

إذا قال قائل: ﴿تَوَارَتۡ﴾ الفاعل ضمير مستتر، والشمس لم يسبق لها ذكر، فلماذا لا يقال: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ﴾ أي: الخيل ﴿بِٱلۡحِجَابِ﴾ يعني أنها أبعدت حتى استترت عنه، وكأنه شغل بالنظر إليها، وهي تتطارد وتتسابق حتى وصلت إلى مسافة بعيدة بحيث غابت عنه؟

نقول: لا شك أنه معنى محتمل في الآية: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢﴾ أي: هذه الخيول أبعدت واستترت. ولكن وردت أحاديث تؤيد ما ذهب إليه المؤلف من أن التي توارت هي الشمس. ﴿بِٱلۡحِجَابِ﴾ أي: بما يحجبها عن الأبصار.

فما هو هذا الحجاب؟ الحجاب هو الأرض، كما قال الله تعالى عن ذي القرنين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦] أي: في البحر، إذاً، الذي يسترها إذا غابت هي الأرض، لأن الأرض كروية الشكل؛ إذا دارت الشمس عليها ووصلت الجانب المنحني؛ لا بد أن تغيب، وهكذا تغيب عن كل قومٍ شيئاً فشيئاً، حتى تطلع على مَن غابت عنهم أولاً.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿رُدُّوهَا﴾ الضمير راجعٌ إلى الخيل التي عُرضت عليه. أمر أن تُردَّ عليه، وترجع عليه مرة ثانية، من أجل أن يقضي عليها غضباً لله عز وجل، وتنكيلاً لنفسه التي تعلّقت بهذه الخيول، وأعرضت بها عن ذكر الله. ﴿فَطَفِقَ﴾، طفق: فعل ماض من أفعال الشروع، ويكون خبرها فعلاً. وبناءً على ذلك فإن قوله: ﴿مَسْحًا﴾ ليست خبراً لها، بل مصدراً (مفعولاً مطلقاً) للفعل المحذوف الذي هو الخبر، والتقدير: فطفق يمسح مسحاً، والجملة: خبر طفق.

قوله: ﴿مَسْحًا بِالسُّوقِ﴾ يعني يضربها مع سوقها جمع ساق و﴿وَالْأَعْنَاقِ﴾ مع العنق، لأنّ الخيل تتعلق بها النفس، باعتبار المشي، وباعتبار الصفون عند الوقوف، وباعتبار الرقبة وطولها، وما عليها من الشعر وحسن العنق وهو دال على فراهتها، ولهذا ضرب عليه الصلاة والسلام مواقع الحسن في الخيل، وهي سوقها وأعناقها.

يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: [ذبحها وقطع أرجلها تقرباً إلى الله حيث اشتغل بها عن الصلاة، وتصدق بلحمها فعوضه الله خيراً منها وأسرع وهي الريح تجري بأمره كيف شاء] يُحتمل ما قاله المؤلف، ويُحتمل أنه لم يتصدق بها، لأنه ذبحها تقرباً إلى الله تعالى بإتلافها، وما كان كذلك فإنه لا يؤكل. وعلى كل حال يحتمل أن سليمان تصدق بها كما قال المؤلف، أو أكلها، أو تركها، والله أعلم.

الفوائد:

١ ـ أن الأولاد هبة من الله عز وجل للعبد، ويتفرع على ذلك أنّه يجب على العبد شكر الله على هذه النعمة.

٢ ـ الثناء على سليمان في قوله: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ والعبودية هنا: العبودية الخاصة.

٣ ـ إثبات العِلل والأسباب لقوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، فإن هذا هو سبب الثناء عليه.

٤ ـ فضيلة الأوبة إلى الله عز وجل، والرجوع إليه بالقلب والعمل، لأن الله أثنى على سليمان بسبب ذلك.

٥ ـ **من فوائد هذه الآية:** ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾ بيان عظمة ملك سليمان عليه السلام، حيث كان الناس يَعرِضُون عليه هذه الخيول للتمتُّع بها، ومن أجل الاطِّلاع عليها وتفقدها، ووجه ذلك أنه قال: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾.

وهذا يدل على أنّ هناك أناساً يَعرِضون عليه هذه الخيول.

٦ ـ أنّ هذه العادة، وهي عرض الخيول والتمتُّع بجريها في آخر النهار، عادة قديمة ما زال الناس عليها إلى اليوم. يعني لا تكاد تجد أحداً يُجري مسابقة على الخيل في أول النهار؛ إنما يكون في آخر النهار، وهذا من العادات القديمة في الناس إلى اليوم.

٧ ـ أنه ينبغي اختيار الخيل الجيدة الجميلة، التي تَسُرُّ النفس في رؤيتها، وفي جريها لقوله: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾.

٨ ـ ينبغي اقتناء الخيل؛ حيث كان هذا من دأب الرسل عليهم الصلاة والسلام. وقد قال الرسول ﷺ: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**»(١). فمتى كانت الخيل أداة حرب، فالخير في نواصيها إلى يوم القيامة.

٩ ـ ذكر أنموذج من وصف سليمان عليه السلام بالأوّاب، حيث قال: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾.

١٠ـ أن المال خير، وهو كذلك، لأن الإنسان إذا رُزق المال تمكّن من أن يتمتع تمتعاً كاملاً فيما يختص بالمال، بخلاف إذا ما ضُيِّقَ عليه المالُ، فإنه لا يستطيع أن يتمتع.

١١ـ أنّ الإعراض عن ذكر الله بأمور الدنيا أمرٌ مذمومٌ، لأن سليمان عليه الصلاة والسلام وبّخ نفسه في كونه أحب الخير وقدّمه على ذكر الله.

١٢ـ إثبات أن الشمس تجري دائماً، وليست تغيب بمعنى أنها تحتجب عن الأنظار في السماء، لقوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ۝٣٢﴾.

١٣ـ إثبات أنّ الشمس هي التي تدور على الأرض في طلوعها وغروبها، لأنه أضاف الفعل إليها فقال: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ۝٣٢﴾ ولو كان الأمر كما يقول أهل الجغرافيا اليوم: إنّ الأرض هي التي تدور وتحتجب الشمس بسبب دورانها لقال: حتى توارينا بحجاب،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب الخيل معقود في نواصيها الخير (٢٨٥٠)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير (١٨٧٣).

أو حتى توارى بالحجاب، لأنه إذا كنت أنت الذي تدور، ومقابلك ثابت؛ فالذي يتوارى هو الدائر.

فإذا كان الله تعالى أثبت أن التواري للشمس، دل هذا على أنها هي التي تدور، وهذا كقوله: ﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٧] وهذه أربعة أفعال أضيفت كلها إلى الشمس.

وفي الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه أنه كان مع النبي ﷺ حين غربت الشمس، قال له: «**أتدري أين تذهب؟**»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنها تسجدُ تحت العرش، فتستأذن، فإن أُذن لها وإلا قيل: فارجعي من حيث جئت، فتخرجُ من مغربها**»(١). هذا هو ظاهر القرآن. والواجب على المؤمن أن يتّبع ظاهرَ القرآن، لأن هذا هو الطريق في كل شيء، كما في أسماء الله وصفاته نتبع ظاهر القرآن، وكما في الأحكام الشرعية نتبع ظاهر القرآن. إذاً في الأمور الكونية نتبع ظاهر القرآن، لأن ظاهر القرآن صدر من الخالق العليم، فهو أعلم مِن خَلْقِه بخَلْقِه، قال الله تعالى: ﴿۞مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١] فإذا كان هذا صادراً من رب العالمين، يجب علينا أن نصدِّقه.

فالواجب علينا إذاً إجراء ظواهر الكتاب والسنة على ما هي عليه حتى يقوم لنا دليل حسي واضح يبيّن أن اللفظ ليس على

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان (٣١٩٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٩) (٢٥٠).

ظاهره، فلو فُرض أنه تبيّن تبيناً واضحاً مثل الشمس، أن الأرض هي التي تدور، فإننا نقول: عبّر بهذه الأفعال التي ظاهرها أن الشمس هي التي تدور باعتبار ما نشاهد، فتكون غربت باعتبار مشاهدتنا، لأن المشاهَدَ المحسوسَ حسب الأمر الظاهر لعامة الناس أن الأرض ثابتةٌ والشمسُ تدور عليها، فيكون التعبير بحسب ما يشاهد الناس في الظاهر ولكن لا نحتاج إلى تأويل الآيات إلا إذا ثبت ثبوتاً حسّياً قطعياً لا إشكال فيه، لأن الظاهرَ دلالتُه ظنيّة، ولا يمكن زحزحة هذه الدلالة إلا بدليل قطعي يكون أقوى منها.

١٤ـ ومن فوائد الآية: أن الأرض كروية لأنه لما أثبت أنها تتوارى بالحجاب، دلّ هذا على أن الأرض هي التي تحجبها، وهي كما نشاهد تنزل شيئاً فشيئاً حتى تكون في الأرض فيدل ذلك على أن الأرض كروية، وهذا أيضاً أمر مقطوع به ولا إشكال فيه، فهو ظاهر من القرآن، وظاهر في الواقع، ففي القرآن يقول الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١-٤]. ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢﴾ وذلك يكون يوم القيامة، فقوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣﴾ يدل على أنها قبل هذا ليست ممدودة، بل هي كروية، وهذا لا يعارض قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]، لأن سطحها باعتبار المشاهدة، فأنت الآن إذا وقفت على الأرض تجدها مستوية إلى مد البصر.

١٥ـ ومن فوائد الآية في قوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾: جواز التعزير بإتلاف المال، وهذه مسألة اختلف فيها الفقهاء، هل يجوز أن نعزر الإنسان بإتلاف ماله؟ أو لا يجوز؟ فمن العلماء من قال: إنه لا يجوز؛ لأن إتلاف المال إفساد له، ويمكن أن نعزره بأخذ المال دون إتلافه. نأخذه منه وننفقه في جهة نافعة.

ومنهم من قال: بل إن ذلك جائز، واستدلوا لذلك بأن الغالّ من الغنيمة الذي يكتم ما غنم يحرَّق رحله، وهذا إتلاف له، مع أن الجيش قد يكون فيه حاجة إلى ماله، ومع هذا أُتلف، وهذا هو القول الراجح: أنه يجوز التعزير بإتلاف المال؛ أولاً: لدلالة السنة على ذلك. ثانياً: لأن إتلافه أنكى وأعظم أثراً؛ لأنه لو أُخذ وجعل في مصالح صار التنكيل خفياً، ثم قد يكون فتح باباً للولاة الظلمة إذا أرادوا المال أقاموا دعوى على شخص ما ثم قالوا: نعزره بأخذ ماله، ثم يأخذون ماله على أن يكون في بيت المال، ولكنه سيكون في جيوب هؤلاء الظلمة، فإذا قلنا: بأنه يُحرق ويُتلف أمام الناس، زال هذا المحظور، وبناء على ذلك إذا وجدنا مع الإنسان آلة لهو تصلح أن تستخدم في غير اللهو، وعزرناه بتكسيرها. كان ذلك سائغاً ولا نقول: حوِّلها إلى آلة غير آلة اللهو، لأن إتلافها أمام الناس أنكى وأشد مما لو أتلفت بإنفاقها في جهة ما.

١٦ـ ومن فوائد الآية: أن الإنسان لا بأس أن يعزر نفسه بإتلاف ماله بنفسه لفعل سليمان عليه الصلاة والسلام. فلو فرضنا أن الإنسان اشتغل بشيء معه عن ذكر الله تعالى وأراد أن يكسره،

لكان ذلك سائغاً جائزاً؛ لأن هذا يؤدي إلى أن لا يعود مرّة أخرى إلى التشاغل عن ذكر الله عزّ وجلّ بشيء من المال.

١٧ـ **ومن فوائد هذه الآية**: قوة سلطان سليمان عليه الصلاة والسلام في أمره ونهيه لقوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ فإن هذا يدلّ على أن له جنوداً كثيرة تأتمر بأمره، إذ لم يقل: رُدَّها، لو قال: ردَّها، لكان الخادم واحداً، لكن لما قال: ﴿رُدُّوهَا﴾ دل على أن له جنوداً وخدماً كثيرون يخدموه.

١٨ـ **ومن فوائدها**: سرعة مبادرة سليمان عليه السلام في تنفيذ ما أراد من إتلاف هذا المال لقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

قد يقول قائل: أليس في هذا تعذيب للحيوان إذا جعل يضرب سوقه بالسيف، فيقال: بلى، ولكن الظاهر أنه يعقرها أولاً، ثم يقطع عنقها ثانياً، وهذا لا بأس به، لأن الألم لا يدوم. وإنما خصّ السوق بالضرب، لأنها صافنات، والصافنة إذا رفعت حافرها بعض الشيء، صار لسوقها منظر جميل، فهو متعلَّق الرغبة، ولهذا جعل يضرب السوق، وأما الأعناق فظاهر من أجل إتلافها نهائياً.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ هذه الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات وهي القسم المقدر، واللام المؤكدة للقسم، والثالث قد في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾. ﴿فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾، أي:

اختبرناه، والضمير في ﴿فَتَنَّا﴾ يعود على الرب عز وجل، وجاء بضمير الجمع تعظيماً، لا تعديداً، لأن الله سبحانه وتعالى واحد، ولكنه تارةً يعبِّر عن نفسه بلفظ الإفراد، وتارةً يعبِّر عن نفسه بلفظ الجمع، ولم يبين الله سبحانه وتعالى هذه الفتنة، لا عينها ولا نوعها، ولهذا ينبغي لنا أن نبهمَ ما أبهمه الله، ونُجمل ما أجمله، ونعلم أنّه إذا كان هنالك فائدة لنا في تعيين ما أبهمه لذكره، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] فكل شيء فيه مصلحة لا بد أن يبيِّنه الله عز وجل لنا، ولهذا نقول: إنّ هذه الفتنة إذا سألنا سائل: ما نوعُها، وما عيُنها؟ نقول: الله أعلم، لأن الله تعالى لم يبيِّنها لنا، ولم تَرد في خبر عن معصوم، فوجب علينا أن نسكت.

وأما ما ذُكر في هذا الموضع من الإسرائيليات؛ فإنها إسرائيليات كاذبة لا تليق بمقام النبوة، ولكن الإسرائيليون أتوا بها لأنهم لا يعتقدون أنّ داود وسليمان رسولان، بل يعتقدون أنهما مَلِكان، والمِلك يجوز عليه كل شيء.

يقول المؤلف: [﴿فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾: ابتليناه بسلب ملكه] ثم بدأ المؤلف بذكر القصة الإسرائيلية بسلب مُلكه، وذلك لتزوجه بامرأة هواها، وكانت تعبدُ الأصنام ـ نسألُ الله العافية ـ، هم جعلوا داود وسليمان كليهما عشيقين، ليس لهما همّ إلا النساء. وداود، ـ كما قالوا ـ أراد أن يتزوّج امرأة شخص، وكان عنده تسع وتسعون امرأة، فأراد أن يكمل المئة.

أما سليمان فيقول حسب القصة الكاذبة: إنه هَوِي امرأةً وعشقها، وكانت تعبدُ الأصنام في داره من غير علمه إذن صارت الدار دار كفر وشرك، وهذا نقطع بأنّه كذب، لأنه لو كان كذلك لبيَّنه الله عز وجل كما بّينه في قصة امرأتي نوح ولوط.

وقال: [وكان مُلكه في خاتمه، فنزعه عند إرادة الخلاء، ووضعه عند امرأته المسمّاة بالأمينة على عادته، فجاءها جنيٌّ في صورة سليمان، فأخذه منها]. ومما يدل على كذب هذه القصة قولهم: (فإذا أراد دخول الخلاء، نزعه) لماذا ينزعه؟ واسم سليمان ليس فيه لفظ الجلالة حتى يقول قائل: إنه تحرّز من الدخول بشيء فيه ذكر الله، وأيضاً يضعه عند امرأته المسماة بالأمينة على عادته. وهذا أيضاً يدلُّ على كذب القصة.

ثانياً: كيف يكون المُلك في الخاتم فقط؟

ثالثاً: إذا كان مُلكه في خاتمه فهل يمكن أن يفرِّط فيه هذا التفريط، يلقيه عند امرأة. وقد يقول قائل: إنها أمينة. ولكن نقول: ما هو الدليل على هذا؟ [فجاءها جنيّ في صورة سليمان، فأخذه منها] فلما أخذ الخاتم، صار سليمان بلا مُلك، لأنّ المُلك يتبع هذا الخاتم.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾، قال المؤلف: [هو ذلك الجني، وهو صخر أو غيره، جلس على كرسي سليمان، وعكفت عليه الطير وغيرها، فخرج سليمان في غير هيئته، فرآه على كرسيه، وقال للناس: أنا سليمان، فأنكروه]. لما جاء وجد هذا الجني المسمى بصخر أو غيره على الكرسي، فجعل يقول للناس: أنا

سليمان، ويقولون له: لست سليمان، لأن سليمان جالسٌ على كرسي المُلك، فأما أنت، فلستَ سليمان. فكيف ستكون حسرته؟ لا بد أن تكون حسرة شديدة وهذا هو القول الأول.

وقال بعض العلماء: إن الله سلط شيطاناً دون أخذ الخاتم وبقطع النظر عن كون المُلك في الخاتم، وأنه أعطاه امرأته، وأنّ الجِنِّي جاءها، وأخذه منها، يقول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ يعني في غيبة سليمان، لأنّ سليمان ليس دائماً على الكرسي، ولكنّ الله تعالى سلّط عليه شيطاناً، جلس على الكرسي، جعل يدبِّر شؤون الدولة، وسليمان لما جاء إلى مكان جلوسه وجده مشغولاً بهذا العفريت، وعَجَزَ عن إنزاله عن الكرسي، وعن تولِّي تدبير شؤون الدولة، فعرف أنه مفتون، وأن الله تعالى سلّط عليه هذا الشيطان ليختبره. هذا قول بعض العلماء.

وقد رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه شيطان، ولكن ابن عباس ـ كما هو معلوم ـ كان قد أخذ عن بني إسرائيل كثيراً، وربما يكون هذا مما أخذه.

والقول الثالث: أنّ الجسد هو شقّ الولد، الذي اختبر الله تعالى به سليمان عليه السلام، حيث قال: «لأطوفنّ الليلة على تسعين امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله». حلف أن يطوف ـ يعني يجامع تسعين امرأة ـ وأنّ كل امرأة تلد غلاماً يُقاتل في سبيل الله، فقال له المَلَك: قل: إن شاء الله، فلم يقل اعتماداً على ما في نفسه من العزم على تنفيذ ما أراد، فنفَّذ ما أراد، وجامع تسعين

امرأة، ولكن ما أراده لم يتمكن منه، وهو أن تلد كل امرأة غلاماً يقاتل في سبيل الله، لأن إرادة الله هي النافذة، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة، فولدت شق إنسان[١]، لأجل أن يعرف سليمان وغيره أنّ الأمر بيد الله، وأنه لا يجوز أن يتألّى أحد على ربه سبحانه وتعالى.

يقول بعض المفسرين: إن هذا الولد هو الجسد، لأن هذا الولد ليس كامل التدبير، نصف إنسان كيف يدبِّر؟ هذا هو الذي أُلقي على الكرسي ففتن به سليمان عليه السلام.

القول الرابع: أن قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ يعني بها سليمان نفسه، أي: ألقيناه هو نفسه على الكرسي جسداً، والجسد هو الذي لا يدبِّر، وليس عنده تفكير، أي: أن الله سلب من سليمان تفكيره الذي يدبِّر به شؤون مملكته فصار لا يحسن التدبير، ومَن لا يحسن التدبير كالجسد بلا روح، فيكون المراد بالجسد سليمان نفسه، ويكون تقدير الكلام: وألقيناه جسداً على كرسيه لا يحسن التدبير، وهذا أيضاً قريب، أن الله تعالى يسلب عن الإنسان عقله وتفكيره حتى يكون جسداً بلا روح، ومن المعلوم أن مملكة عظيمة كمملكة سليمان إذا فُقد منها المدبِّر سوف تتخلخل وتتزعزع.

فهذه أربعة أقوال في معنى قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾.

---

(١) انظر «صحيح البخاري»، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ (٣٤٢٤)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب الاستثناء (١٦٥٤) (٢٥).

أما ما ذكره المؤلف فهو باطل بلا شك، وأما ما ذكر من أنه الولد الشق فالظاهر أنه ضعيف. بقي عندنا قولان:

الأول: أنه شيطان سلط على كرسي سليمان فبقي فيه، وصار يدبِّر شؤون مملكته.

والثاني: أنه سليمان نفسه سلب الله منه التفكير وتدبير شؤون المملكة فصار لا يحسن التدبير. هذان القولان محتملان، أقربهما إلى اللفظ الأول، أي: أنه شيطان ألقي على الكرسي، لأن جسداً نكرة تقتضي أن يكون الملقى غير الملقى على كرسيه، ولكن الثاني أقرب من حيث المعنى، أي: أن الله تعالى إذا سلب من الإنسان عقله وتفكيره وسلطته فهو بمنزلة الجسد.

وعلى كل حال هذه الفتنة التي حصلت لسليمان عليه السلام بإلقاء الجسد على كرسيه، سواء أكان هو نفسه أم شيطان جلس على الكرسي، لا شك أنها فتنة عظيمة، ولا يتصوّرها أحد لم تمسَّه هذه الفتنة، لأن ما نسمع من المصائب والفتن وغيرها نسمعها على أنها تمر علينا مروراً ذهنياً، وليس هذا كالذي يباشر المصيبة والقضية نفسها.

وعلى كل حال سليمان عليه السلام لما وصل به الأمر إلى هذه الحال أناب إلى الله، لأن من طبيعة الإنسان إذا أصيب بمصيبة أن يحاسب نفسه. أما قبل أن يصاب فقد يغفل، لكن إذا أصيب صار يحاسب نفسه، ورجع إلى الله، حتى المشركون إذا ركبوا في الفلك، وأصابتهم الأمواج التي يضرب بعضها بعضاً، يلجؤون إلى الله سبحانه وتعالى، يدعونه مخلصين له الدين أن ينجيهم. فمن طبيعة

الإنسان أن يعود إلى القوة التي يمكنها أن تدفع عنه المصيبة التي نزلت به، إلا مَن خرج عن هذه الطبيعة، وقد يخرج عن هذه الطبيعة ناس كثيرون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦] فقد يخرج بعض الناس عن هذه الطبيعة الفطرية فتصيبه المصائب والنكبات والعذاب، ولكن قلبه يكون قاسياً لا يتأثر. نسأل الله العافية.

قال المؤلف: [﴿ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: رجع سليمان إلى ملكه بعد أيام، بأن وصل إلى الخاتم فلبسه، وجلس على كرسيه] هذا من أبعد ما يكون في التحريف لكلام الله عز وجل، والمتعيَّن أن المعنى: أناب إلى الله، أي: أنه عرف أن هذا الذي نزل به لأمر صدر منه، فرجع إلى الله وأناب إليه، وأحسن التوبة، وأصلح العمل.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ بدأ بطلب المغفرة قبل طلب المُلك العظيم، الذي لا ينبغي لأحد من بعده، وذلك لأن زوال أثر الذنوب هو الذي يحصل به المقصود، فالذنوب في الحقيقة تتراكم على القلب، وتمنعه من كثير من المصالح، فيسأل الإنسانُ التخلُّص من آثار هذه الذنوب، قبل أن يسأل ما يريد.

والمغفرة مأخوذة من المِغْفَر، وهو الذي يوضَع على الرأس، لاتِّقاء السهام في حال القتال، وهو شيء من حديد يُلبس تحت البيضة، أي: الخوذة، فهو يقي الرأس، وفي نفس الوقت يستره.

ولهذا نقول: إن مغفرة الذنوب سترها عن الخلق، مع التجاوز عن عقوبتها، أي: أن المغفرة جامعة لمعنيين هما: الستر والتجاوز عن الذنب، أي: أنّ الله تعالى لا يُعاقب عليه.

﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾ يعني أعطني ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، أي: لا يصلح أن يكون لأحد من بعدي. يعني مُلكاً عظيماً، لا يفكِّر فيه أحدٌ من بعدي، فغفر الله له واستجاب له.

قال المؤلف: [﴿مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ أي: سواي نحو: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ [الجاثية: ٢٣] أي: سوى الله]، وليس المراد من بعدي زمناً، بل لا ينبغي لأحد في زمني أو زمن بعد زمني، ولكن المراد بـ﴿مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾: سواي، واستشهد لذلك بقوله: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ [الجاثية: ٢٣] ومعلوم أنه لا أحد بعد الله، فالله هو الآخر الذي ليس بعده شيء، ولكن ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: من سوى الله.

والقول الثاني: أنّ المراد ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ أي: ملكاً لا يغلبه عليه أحد، ويؤيد القول الأول قوله عليه الصلاة والسلام حين تفلَّت عليه عفريت وهو يصلِّي، وأراد أن يمسكه وأن يربطه بسارية المسجد ليلعب به صبيان أهل المدينة، وقال: «**لولا أنِّي ذكرتُ قول أخي سليمان: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ لفعلت**»[1]، وهذا يدلُّ على المراد ﴿مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ زمناً.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب الأسير أو الغريم يربط في سارية المسجد (٤٦١)، ومسلم، كتاب المساجد، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة (٥٤١).

والمرجَّح أنّ سليمان عليه الصلاة والسلام سأل مُلكاً عظيماً لا يكون لأحد من بعده، وبناءً عليه، فإنّه يحصل الإشكال: لماذا تحجَّر هذا المُلك؟ قد نقول: إنّ القول الثاني أصح، وإنّ النبي ﷺ ترك ذلك تورُّعاً، لأنّه خاف أن يكون مراد سليمان زمناً، فترك هذا من باب التورُّع، ولكن هذا الجواب فيه أيضاً بعض الشيء، لأنّ النبي ﷺ إذا فسر الآية بشيء أو أتى بشيء يقتضي تفسيرها على وجه ما، فإنَّه لا شكّ أولى من الاحتمال الآخر، وأن يكون المراد ﴿مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ أي: مِن سواي، والله أعلم.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾: هذه جملة تعلقها بما قبلها، أنها من باب التوسل. لما سأل الله مُلكاً توسَّل إلى الله بالاسم الذي يناسب ما دعا به: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ (أنت): يسمِّيها العلماء ضمير الفصل، وتفيد ثلاثة أشياء: التوكيد، والحصر، والتمييز أو الفصل بين الصفة والخبر.

وقوله: ﴿ٱلۡوَهَّابُ﴾: صيغة مبالغة، وذلك لكثرة هِبات الله، وكثرة مَن يهبه الله، كل ما في الخلق من نعمة فهو من هبات الله، وما أكثر النِّعم على الإنسان، وما أكثر من أنعم الله عليه، ولهذا جاءت صورة المبالغة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾.

قال تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦﴾.

الفاء: للسببية من وجه، وللتعقيب من وجه آخر، أي: بسبب دعائه، وفور دعائه ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ يعني ذللناها له، والريح: الهواء.

يقول الله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾: تجري أي: تسير، ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: على وفق أمره. ﴿رُخَآءً﴾ أي: لينة في سيرها وهبوبها، لينة في طاعتها، لا تستعصي، مثلاً: إذا كانت الريح جنوباً وهو يريد أن يذهب إلى الجنوب يأمرها أن تهب شمالاً، فتهب شمالاً، فتحمله حيث أراد.

قد يقول قائل: كيف يتم الجمع بين قوله: ﴿رُخَآءً﴾ وبين قوله في آيات أخرى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١]؟

والجواب: أنّ الجمع بينهما سهل، فهي رخاء، أي: ليس فيها زعزعة، وهي عاصفة، أي: سريعة، لأن غُدوُّها شهر ورواحها شهر، يعني تمشي في الصباح، ولا يأتي زوال الشمس إلا وقد قطعت مسافة شهر. وبعد الزوال تمشي ولا يأتي الغروب، إلا وقد قطعت مسافة شهر، قال أهل العلم: إنّه يضع على الأرض شيئاً كالبساط، ويجلس هو وحاشيته على البساط ثم يأمر الريح فتحمله فيطير بين السماء والأرض، ومع ذلك هي رخاء، وكان المتبادر إلى الذهن أن مثل هذا الطيران يزعج الراكبين، على هذا البساط، ولكن الله تعالى جعلها رخاءً لينة، حتى كأنهم لا يطيرون، وليس فيها إزعاج، وهذا من آيات الله.

﴿حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: حيث أراد، أي: الجهة التي يريد، وهذا لم يحصل لرسول غيره فيما نعلم، ولا لملك من الملوك يأمر الريح فتسير به حيث أراد.

ثم قال: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ٣٧﴾ يعني سخَّرنا له الشياطين، والشياطين جمع شيطان، وهم عفاريت الجن. سخّر له ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾، يبني الأبنية العجيبة، ﴿وَغَوَّاصٍ ٣٧﴾ في البحر يستخرج اللؤلؤ.

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ٣٨﴾ أي: مشدودين في الأصفاد، وهي القيود، بجمع أيديهم إلى أعناقهم، سخَّر الله له الشياطين، أي: ذلّلهم له، يطيعونه، وينفذون أوامره، وقد صنفهم ورتبهم حسب قدراتهم واختصاصاتهم، منهم من يبني له البناء الشامخ العجيب، و﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣].

والقسم الآخر: ﴿وَغَوَّاصٍ ٣٧﴾ يغوصون في البحار، يأتون له بأنواع اللؤلؤ والمرجان والدُّرر وغيرها، يأتون بكل ما يريد.

وفيهم قوم مردة من الشياطين يؤذون الناس، وربما يتمردون عليه ويعصونه، هؤلاء يقرنهم في الأصفاد، ويشدّ أيديهم إلى أعناقهم، ويحبسهم في الأصفاد.

وقد يقول قائل: هل هذا من التسخير؟ نقول: نعم، هذا من التسخير. أنّ الله تعالى جعل له سلطة عليهم، فالله تعالى جعلهم يعصونه ويتمردون عليه، ويؤذون من في مملكته من أجل أن يُنزل بهم هذا العذاب؛ حتى يتبيَّن بذلك كمال سلطانه على هؤلاء الشياطين، لأنه لا يُعرف تمام السلطان إلا بإنزال العقوبات على المتمردين.

أما إذا كان السلطان يداهن المتمرِّدين، فإن هذا يدلُّ على ضعف السلطان، وأنّه ليس عنده قدرة على تدبير مملكته. وجعل الله تعالى

هؤلاء يتمرّدون على سليمان، أو يؤذون من في مملكته؛ لأجل أن ينزل بهم بطشه، ويُعرف أنّه قوي، وذو سلطة، وسيطرة على هؤلاء الجن.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾، ﴿هَٰذَا﴾ المشار إليه ما سخَّره الله له من الريح والسلطة على الشياطين.

﴿عَطَآؤُنَا﴾ يعني الذي أعطيناك إياه؛ لأنه قال: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ [صٓ: ٣٥] فأعطاه الله هذا العطاء، والذي فهمنا مما أعطاه تسخير الريح، وتسخير الشياطين.

قال المؤلف: [﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ﴾ أعط منه من شئت، ﴿أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ عن العطاء ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾ أي: لا حساب عليك في ذلك].

أعطاه الله تعالى هذا المُلك، وقال له: أنت بالخيار، امنن على مَن شئت، وأمسك المنّة عمّن شئت، لا حساب عليك في ذلك. وهذا من التخيير المطلق في التصرف.

وقال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٠﴾، لما ذكر الله ما مَنَّ على سليمان عليه السلام في الدنيا؛ ذكر ما منَّ عليه في الآخرة، وهو أن له عند الله مرتبة عالية في الآخرة، ﴿لَزُلۡفَىٰ﴾ قريبة من الله عز وجل، ﴿وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٠﴾ أي: حسن مرجع، لأن مرجعه إلى الجنة، التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾ ذكرنا فيما سبق أن العندية المضافة إلى الله تنقسم إلى قسمين: عندية علم (عندية الصفة)، وعندية قرب، كما

في هذه الآية. أما عندية العلم (عندية الصفة) كما في قوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] فإن هذه عندية علم (عندية صفة).

أما عندية القرب فتكون منفصلة عن الله، يكون الشيء عند الله، أي: قريب منه، وقوله: ﴿لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾ الزلفى، أي: القربى، لأن أعلى مراتب الخلق هي مراتب الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

فوائد الآيات:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤﴾.

١ ـ **من فوائد هذه الآية**: أن الله قد يختبر عباده المصطفين عنده بما يشاء من اختبار، وينبغي أن نُبْهِم ما أبهمه الله تعالى، وأن لا نبحث عنه، ونتكلف ذلك كما يفعل بعض الناس.

٢ ـ **ومن فوائدها**: أنّ لسليمان عليه السلام كرسياً يجلس عليه كما يجلس الملوك؛ لأنّ الله جمع له بين النبوة والملك.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أنّ الإنسان قد يُسلَب بعض النِّعم؛ إمّا جزاء على عملٍ عمله، واستحق عليه أن يُسلَب بعض النِّعم، وإما من أجل أن يترقَّى إلى درجة الصابرين، لأنّ الصبر درجة عالية لا تنال إلا بأسبابها.

والصبر ثلاثة أقسام:

١ ـ صبر على طاعة الله.

٢ ـ وصبر عن معصيته.

٣ ـ وصبر على أقداره.

أما الصبر على طاعة الله، وعن المعصية فهو باختيار الإنسان، وأما الصبر على أقدار الله، فالأقدار بغير اختياره، فقد يَبتلي الله العبد بأقدار تحتاج إلى صبر ومصابرة من أجل أن يستكمل مراتب الصبر. ومنه إلقاء الجسد على كرسي سليمان عليه الصلاة والسلام.

٤ ـ **ومن فوائدها**: أنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا بد أن يرجعوا إلى الله، وينتبهوا، وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ بخلاف غيرهم، فإنهم قد يُبتلون بالذنوب، ولا يرجعون عنها، وهذا هو الفرق بين الأنبياء وغيرهم: أنّ الأنبياء معصومون عن الاستمرار في المعاصي، أما غيرهم، فلا.

٥ ـ **ومن فوائدها**: أنّ مسلوب التصرف والسُّلطة كأنه جسدٌ بلا روح، لقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾، وهذا على أحد الأقوال الأربعة التي ذكرناها.

وقال تعالى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

١ ـ **من فوائد هذه الآية**: أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معنيون أكثر بأمور الآخرة، ولهذا طلب من الله المغفرة قبل أن يطلب المُلك.

٢ ـ **ومن فوائدها**: أنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام محتاجون إلى مغفرة الله، لقوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أنّهم مربوبون، وليسوا أرباباً لقوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها**: جواز الذنوب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذا مستفاد من قوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾، وذلك أنه لو لم يكن ذنب لما استغفر.

٥ ـ **ومن فوائدها**: جواز طلب الإنسان المُلك، لقوله: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا﴾، ولكن يشترط في ذلك أن يكون لدى الإنسان استعداد للقيام بما سأل، أما أن يقول: رب هب لي ملكاً، وبِنِيَّتِه أن يضيِّعه؛ فإن هذا لا يجوز.

وقد اختلف أهل العلم في جواز سؤال الإمارة، هل يجوز للإنسان أن يسأل الإمارة أو القضاء أو ما أشبهها من الولايات؟! منهم مَن قال: إنّ ذلك جائز، ومنهم مَن قال: إنه محرَّم، ومنهم من فصَّل.

أمّا مَن قال: إنه جائز، فاستدلوا بقصة يوسف، حيث قال لملك مصر: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] فسأل الولاية، وشرعُ مَن قبلنا شرعٌ لنا، ما لم يرد في شرعنا ما يخالفه.

كما استدلوا بحديث عثمان بن أبي العاص حين قال للنبي ﷺ: اجعلني إمام قومي. قال: «**أنت إمامُهم**»(١).

أمّا مَن منع ذلك، فاستدل بحديث عبد الرحمٰن بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ النبي ﷺ قال له: «**لا تسأل الإمارة، فإنّك إن أعطيتَها عن مسألة وُكلت إليها، وإن أُعطيتها من غير مسألة، أُعِنت عليها**»(٢).

فنهاه النبي ﷺ أن يسأل الإمارة، وبين له السبب؛ أنّ مَن أُعطيها عن مسألة، وُكِلَ إليها، ولم يعنه الله، ومَن أتته من دون مسألة، أعانه الله عليها.

واستدلوا أيضاً بأن رجلاً طلب من الرسول ﷺ أن يكون عاملاً، فقال: «**إنا لا نولِّي هذا الأمر أحداً سأله**»(٣). وهذا يدلُّ على أنّه لا يسأل، وأنّ مَن سأل، فليس أهلاً لأن يولَّى.

وفصَّل آخرون، فقالوا: إنْ سألها لإصلاح ما فسد منها، فإن ذلك جائز، إذا علم مِن نفسه القدرة، وإلا فلا يجوز، لأن السلامة للإنسان أسلم.

وهذا القول التفصيلي هو الصحيح، لأن به تجتمع الأدلة، فإن الإنسان، مثلاً، إذا رأى ولايةً قام عليها شخص ليس أهلاً لها، إمّا

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب أخذ الأجرة على التأذين (٥٣١)، والنسائي، كتاب الأذان، باب اتخاذ المؤذن الذي لا يأخذ على أذانه أجراً ٢/٢٣ (٦٧١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب قول الله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ (٦٦٢٢)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يميناً (١٦٥٢).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب ما يكره من الحرص على الإمارة (٧١٤٩).

في دينه، أو أمانته، وتصرفه، وهو يعلمُ من نفسه القدرة على القيام بها على أحسن حال، أو على الأقل بوجه أحسن مما كانت عليه، فلا بأس أن يسألها، لأنّ غرضَه بذلك غرضٌ عملي وإصلاحي وليس غرضه شخصياً.

أمّا إذا لم يكن هنالك سبب، أو يعرف الإنسان من نفسه أنّه ضعيف لا يستطيع القيام به، فلا يسأل، ولا يجوز أن يسأل.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: الثناء على الله تعالى بأنه وهّاب يُعطي العطاء الكثير لقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها**: التوسُّل إلى الله تعالى بالاسم المناسب لما يدعو به لأن قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ يناسب قوله: ﴿وَهَبْ لِي﴾ وهذا هو أحد معاني قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فإن أحد معانيها أن تجعلها وسيلةً لما تدعو به، فإن أردتَ أن تسأل المغفرة تقول: يا غفور، أو الرحمة فتقول: يا رحيم... وهكذا.

ثم قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾.

١ ـ **من فوائد هذه الآية**: بيان قدرة الله عز وجل، وكمال سلطانه، حيث سخّر الريح وذلّلها.

٢ ـ **ومن فوائدها**: عموم سلطان الله عز وجل على الجماد والحي وغير ذلك؛ لأنه أمر الريح، وهي جماد، فامتثلت.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أنّ الله تعالى قد يسخِّر شيئاً من الكون لعبدٍ من عباده، كما سخَّر الريح لسليمان عليه السلام، فإنّه من الجائز أن يسخِّرها لغيره، إذا دُعي.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أن الرياح لها شعور واختيار، لقوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ﴾ لأنه إذا كان يأمرها وتشعر بالأمر، ثم تمتثل، فهو دليلٌ أن لها شعوراً ولها إرادة.

وهكذا كل شيء في الكون له شعور، وله إرادة، بحسب ما يليق به؛ لقول الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] ولا تسبيح إلا بإرادة، ولا تسبيح إلا بشعور بعظمة المسبَّح. ومن هنا نردُّ على مَن قالوا: إنّ المراد بقوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] أنّه مجاز، لأنّنا نقول لهم: ما الذي يمنع من إرادة الجدار؟ هو له إرادة، ولكن ليست كإرادة البشر، أو إرادة الحيوان المتحرك الذي يتحرك بإرادة، لكن الجدار له إرادة وهو ساكن لا يتحرك.

٥ ـ **ومن فوائدها**: أنّ هذه الريح المسخَّرة تجري بسهولة ولين، وليس بعصفٍ مقلق، كما هي عادة الرياح، إنما هي رُخاء ولينة سهلة، كأنّهم على سطح.

٦ ـ **ومن فوائدها**: أن مَن ترك شيئاً لله، عوَّضه الله شيئاً خيراً منه؛ لأنّ كثيراً من المفسرين جعلوا تسخير الريح لسليمان عليه الصلاة والسلام، تنقله حيث يشاء، عوضاً عن الخيل التي أتلفها غضباً لله عز وجل، حينما ألهته عن ذكر الله.

وهذا قد يكون حقيقة، أنّ هذا الذي أعطاه الله تعالى من تسخير الريح، كان جزاء له على فعله بالخيل. ولا شكّ أن مَن ترك شيئاً

لله، عوّضه الله خيراً منه، وهذا يقع كثيراً في مسائل عديدة. وإن أردتَ أن تطبّق هذا على نفسك، فجرِّب.

٧ ـ **ومن فوائدها**: أنّ هذه الريح تتجه حيث أراد سليمان عليه الصلاة والسلام، ولو كانت في الأصل على وجهٍ آخر. بمعنى أنه إذا كانت الريح جنوبية، وأراد أن يذهب بها إلى الجنوب، فإنه يأمرها أن تكون شمالية، لتحمله إلى الجنوب.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾.

١ ـ **من فوائد هذه الآية**: بيان ما بسط الله لسليمان عليه الصلاة والسلام من السلطان، حيث كانت الشياطين المؤذية لبني آدم مسخَّرة له على هذا الوجه العظيم، وعلى هذا التقسيم.

٢ ـ **ومن فوائدها**: حُسن تدبير سليمان عليه الصلاة والسلام؛ حيث وزَّع هذا الجند من الشياطين حسب ما يليق بهم؛ فمنهم البنَّاء، ومنهم الغوَّاص.

٣ ـ **ومن فوائدها**: جواز تفخيم الأبنية وتكثيرها، والبناء الذي تبنيه الشياطين لا بد أن يكون فخماً مُحكماً، ولكن هل يقال: إنّ هذا كان في شريعة سليمان؟ لأنه مَلِك يحتاج إلى أبهّة وعَظَمة، وإظهار قوة، وإظهار غنى، وإظهار سلطة، أم أنها عامة؟

أما أنها عامة للناس فلا. ولهذا جاءت شريعتنا بذمِّ مَن يجعل ماله في البناء. وربما يُقال: إنّه يفرَّق بين المَلِك السلطان وبين غيره، لأنّ إظهار المَلِك السلطان نفسه بمظهر العظمة أمام أعدائه؛ لا شك أن ذلك أمرٌ مطلوب.

ويُذكر أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وكان أميراً على الشام، في إمارة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان معاوية إذا أتى الإنسان إليه يجد حُجاباً وحرّاساً وشيئاً من الأبهة، وإذا جاء إلى الخليفة الذي فوقه، يجد أمراً بخلاف ذلك، يجد رداءً مرقعاً، وشخصاً ينام في المسجد، يكوِّم كتلةً من الرمل والحصباء ويتوسَّدها وليس بين يديه حاجب، ولا حوله جنود، فيتعجب كيف أمير هذا الرجل بهذه الأبَّهة؟ وهذا الخليفة الذي فوقه بهذا التواضع؟!

أجاب العلماء عن ذلك بأنّ معاوية رضي الله عنه كان في بلاد الشام، وكانوا لا يخضعون لأمرائهم وسلاطينهم إلا إذا كانوا أمامهم على وجهٍ فيه أبَّهة وعَظَمة، فرأى معاوية أنّه من المناسب للحال أن يكوِّن نفسَه هذا التكوين، وليس قصده أن يتعاظم[1]، والدليل على هذا أنّه لما أتاه كتاب عمر رضي الله عنه، وأَظنُّه في كِسْرة عظم، في قصة اليهودي الذي أدخل معاوية بيته في بيت المال، بعد أن أُعطي عنه عِوَضاً كثيراً؛ فرأى أنّ ذلك ظلم، فركب إلى عمر في المدينة يشكو معاوية، يقول: إنّ معاوية غصبني، وأخذ بيتي، وأدخله في بيت المال، فكتب عمر إلى معاوية يأمره بأن يرد عليه بيته، فلما جاءه الكتاب، أخذه معاوية ووضعه على رأسه تعظيماً للكتاب، وقال لليهودي: الآن افعل ما تشاء، تُريد أن نعيد إليك بيتك ونبنيه بأحسن ما تريد، أو تأخذ القيمة؟ فلما رأى هذا الأمر انبهر؛ كيف أن معاوية يفعل في كتاب عمر هذا الفعل، فشهد أن لا إله إلا الله

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» ٣/ ١٣٣.

وأنّ محمداً رسول الله، وقال: بيتي لبيت مال المسلمين، لما رأى العدل، انبهر وأسلم.

ونقول: قد يكون سليمان عليه السلام أراد بهذا العمل أن يُظهر قوة سلطانه وعظمته أمام أعدائه، وأن يفصِّل بين ما يكون فيه غرضٌ مقصود وبين ما ليس فيه غرض، والإنسان بشكل عامٍّ لا يشرع له أن يُذهب ماله ببناء القصور وتفخيمها. أما ذو السلطة الذي يريد أن يُظهر سلطته ليكون مهيباً أمام الناس حتى يتم له الأمر؛ لا حرج عليه في هذا.

قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾.

١ ـ **من فوائد هذه الآيات**: كمال ملك سليمان عليه السلام وسلطانه وتنظيمه لعمله وعمّاله، حيث جعل لكل طائفة ما يختص بها من العمل، فمنهم البنّاء، ومنهم الغوّاص. ومن تمام سلطانه؛ أن العاصي منهم والمتمرد قد صفده وقرنه مما يدل على عقوبة هؤلاء المخالفين.

٢ ـ **ومن فوائدها**: جواز التعزير بمثل هذا العمل، أي: بالشد والغلّ، وذلك لأن التعزير لا يختصُّ بعقوبةٍ معينة، لأنّ المقصود به الإصلاح، فأي عقوبة كان بها الإصلاح، فهي الواجبة.

وقد يكون التعزير بالضرب وبالحبس وبالحرمان من بعض الحقوق، وبالتغريم المالي، وبالتوبيخ أمام الناس، والتعزير يُقْصَد به الإصلاح، فأي طريق يُقْصَد به الإصلاح كان به التعزير.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أن الله تعالى أباح لسليمان العطاء والإمساك كما يشاء، بدون أن يحاسبه على اختياره، ولكنّا نعلم أنّ سليمان لن يتجرأ على الإعطاء في معصية الله، ولا الإمساك عما أوجب الله، لأنه نبيٌّ من الأنبياء لا يُقر على خطأ، وتكون الإباحة له هنا في الأشياء التي يُباح له فعلها أو تركها، ويكون هذا من باب التوسعة الصريحة له أن يُمسك أو يعطي.

٤ ـ **ومن فوائدها**: أن الله لما ذكر بأنّه أنعم عليه في هذه الدنيا، وكان الواهم قد يتوهّم أن ذلك ينقص من ثوابه يوم القيامة؛ بيَّن أنّ ثوابه في الآخرة لا ينقص بهذا العطاء الذي أعطاه له في الدنيا، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أنّ الناس يختلفون في القرب من الله تعالى لقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾. وأقربهم من الله جواراً يوم القيامة أقربهم من عبادته في الدنيا، فكلما كان الإنسان في الدنيا أقوم بطاعة الله، وأقرب إلى الله؛ كان في الآخـرة كذلك، لأنّ الجزاء من جنس العمل.

٦ ـ **ومن فوائدها**: أنه ينبغي للإنسان أن ينظر إلى مآبه ومآله، هل هو حسن أو سيىء، حتى إذا كان سيئاً سعى في إصلاحه، وإن كان حسناً حمد الله وازداد من فضله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١﴾. الخطاب لرسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون موجهاً لكل من يتأتى خطابه من البشر، وقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ﴾ أعاد الفعل ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ مع أنّه في قصة سليمان لم يعده بل قال: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ [صٓ: ٣٠] ولم يقل: (اذكر). قال بعض العلماء: لأن سليمان بن داود فقصتهما متقاربة، وكأنما هي قصة نبي واحد، أما أيوب فهو منفصل عنهما، ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ والمراد بالعبد هنا المتذلل لطاعة الله، وهذه العبودية من عبودية أخص الخاصة، لأنها عبودية الرسالة.

وقوله: ﴿أَيُّوبَ﴾: عطف بيان أو بدل من ﴿عَبۡدَنَآ﴾.

﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾: إذ: متعلقة بـ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ ويجوز أن تتعلق بمحذوف حالاً من عبد، يعني في حال نداء ربه، ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: دعاه بصوت مرتفع، لأن النداء يكون بالصوت المرتفع، والمناجاة تكون بالصوت المنخفض، قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [أي: بأني ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾] قدَّر المؤلف الباء هنا لأن همزة (أن) مفتوحة، والقاعدة: أن همزة (أن) تكون مكسورة إذا جاءت بعد القول، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] ولكنها هنا مفتوحة، فقدر المؤلف الباء، لأنه إذا قدرنا الباء صارت تُسْبَك هي وما بعدها بمصدر، وإذا سبكت (أن) وما بعدها بمصدر، صارت مفتوحة الهمزة، كما قال ابن مالك:

وهَمْزَ إنَّ افْتَحْ لِسَدِّ مصدَرِ ... مَسَدَّها وفي سِوى ذاكَ اكْسِرِ

و﴿ مَسَّنِيَ ﴾ يعني أصابني، و﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ هو شيطان الجن.

وكان الشيطان قد آذاه. ولكن هل هو إيذاء نفسي بأن ألقى في قلبه الوساوس التي أنهكت بدنه، أو أنه إيذاء حسّي كما قال بعضهم: إنّ الشيطان نَفَث في جسده، حتى أصبح جسده كله جدري يعني حبوباً ضارة، فالله أعلم؛ يُحتمل هذا وهذا.

قوله: ﴿ مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ النصب يعني الضرر، والعذاب يعني الألم.

يقول المؤلف: [ونسبَ ذلك إلى الشيطان، وإن كانت الأشياء كلها من الله تعالى، تأدباً معه تعالى] نسب ذلك إلى الشيطان، لأنه السبب، وإلا فالأمر كله بقدر الله، والله تعالى بحكمته سلّط عليه الشيطان، ولكن تسلطه كان بقضاء الله وقدره. وأقول: نسبه إلى الشيطان، لأنه هو المباشر للعلة، وهو سبب لا شك، ولكنه سبب مباشر. وفي الحقيقة أنّ الشيطان إنّما سُلِّط عليه بقضاء الله وقدره. والمؤلف يرى أنّه نَسبَ إلى الشيطان تأدُّباً، وإلا فالأصل نسبته إلى الله، فهو كقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴾ [الجن: ١٠] فالجن قالوا: ﴿ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾، ومعلوم أنّ مُريد الشر هو الله عز وجل لحكمة، ﴿ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴾، فهم حذفوا الفاعل تأدباً مع الله عز وجل؛ لأنّ الشر ليس إليه.

على كلّ حالٍ الشيطان هو الذي مسَّ أيوب، ومسَّه إما أن يكون مساً نفسياً أو حسياً.

ولما نادى ربه عز وجل، وتضرع إليه، وعلم أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وبعد أن تفرغ قلبه من كل شيء سوى الله، جاءه الفرج فقيل له: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ . . .﴾ أي: اضرب برجلك الأرض، فضرب الأرض بها فنبع منها الماء بإذن الله، ولم يحتج إلى حفار ولا إلى أحد يساعده. بل ضرب الأرض برجله ضربة واحدة فنبع الماء، والله على كل شيء قدير، وهذه إحدى الضربات التي نبع بها الماء على أنه آية من آيات الله.

والثانية: موسى ضرب الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً.

والثالثة: جبريل ضرب بجناحيه مكان زمزم، فنبع الماء، والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [فنبعت عين ماء فقيل له: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ﴾ أي: ماء تغتسل به ﴿بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ أي: تشرب منه، فاغتسل وشرب فذهب عنه كل داء كان بباطنه وظاهره] أي: أبيح له أن يغتسل ويشرب من الماء الذي نبع من الأرض، والغالب أن الماء النابع من الأرض يكون ساخناً، ولكن هذا بارد، فشرب منه واغتسل به، فذهب عنه كل داء كان في باطنه وظاهره بقدرة الله عز وجل وإرادته.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾.

قال المؤلف: [أحيا الله له مَن مات من أولاده، ورزقه مثلهم]. فجعل المؤلف الهبة بمعنى الإحياء، ولكن هذا فيه نظر، لأنّ الإحياء يحتاج إلى ثبوت الإماتة من قبله، وليس في الآية ما يدلّ على هذا، بل

إن الله تعالى وهب له أهله حيث أووا إليه بعد أن شردوا منه، لأن الرجل بسبب مرضه الحسي البدني أو النفسي، شرد منه أهلُه، وعجزوا عن أن يعيشوا معه، ولما عافاه الله، أوى إليه أهله، فتكون هذه الهبة إعادة ما سبق، كما سمّى عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه إعادة قيام رمضان جماعة سماها بدعة، وهي ليست بدعة في الواقع، وهذه هبة مع أنها ليست هبة، ولكنها إعادة موهوب شرد.

وأما القول بإحيائهم بعد إماتتهم فهذا يحتاج إلى ثبوت الإماتة من قبل، ولكن الصحيح أنه لم تثبت الإماتة ولا الإحياء، وإنما هذه الهبة إعادة موهوب سابق، لأنهم نفروا منه، وشردوا عنه.

وقوله: ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ نقول: إن الله رزقه أولاداً جدداً؛ لأنّ زوجته رجعت، وصلحت حاله، وصار ينجب، فبارك الله له في ولده.

ثم قال تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾. ﴿رَحْمَةً﴾ قال المؤلف: [نعمة، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ موعظة]، قوله: ﴿رَحْمَةً﴾ إن كان عائداً على الأهل ومَن وُهب له من جديد؛ فهي رحمة مخلوقة. والرحمة قد تطلق على المخلوق، كما قال الله تبارك وتعالى: «**أنت رحمتي أرحم بك مَن أشاء**»[1] ولذلك فإن تفسير المؤلف للرحمة بالنعمة تفسير صحيح؛ إذا جعلنا الرحمة هنا عائدة على الأهل والأولاد ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فإنّ تفسيره صحيح؛ لأن الرحمة مخلوقة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [قٓ: ٣٠] (٤٨٥٠)، ومسلم، كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون (٢٨٤٦).

وإن أريد بالرحمة صفة الله عز وجل؛ يعني: أن هذا من رحمتنا؛ أي: ناشىء عن رحمة الله، فالرحمة هنا غير مخلوقة؛ لأنّ صفات الله سبحانه وتعالى غير مخلوقة.

إذاً كلام المؤلف لا يمكن أن يُخطَّأ على الإطلاق؛ حيث فسر الرحمة بالنعمة، ومعلوم أنّ الأشاعرة يفسرون رحمة الله بالنعمة والإحسان، ولا يرون أن لله رحمة هي صفته، فكلام المؤلف لا ينتقد من كل وجه لاحتمال أن يكون المراد بالرحمة ما وهب الله له من الأهل ومثلهم معهم، يعني أراد بها الموهوب، والموهوب لا شك أنه مخلوق، أما إذا أردنا أن نفسر قوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ برحمة من عندنا، أي: الرحمة التي هي صفة الله عز وجل، أي: أن هذا ناشىء من رحمتنا، الرحمة التي نحن متصفون بها، فإن تفسير المؤلف هنا ليس صحيحاً؛ لأن الرحمة هنا تكون صفة من صفات الله، وليست بمعنى نعمة يعني خلقاً بائناً عن الله عز وجل.

قوله: ﴿رَحْمَةً﴾ تُعرب مفعول لأجله، وهذه علة سابقة، والعلل قسمان: علل غائية منتظرة، وعلل سابقة موجبة، فمثلاً إذا غضب الإنسان وضرب ولده، الضرب هنا من الغضب، لأن العلة سابقة موجبة. أما إذا سافر الإنسان ليتَّجر، فهنا العلة غائية لاحقة.

﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾، ﴿مِّنَّا﴾ يعني نفسه تبارك وتعالى، وأتى بصيغة الجمع، تعظيماً لله عز وجل. والغريب أن الجمع من الألفاظ المتشابهة التي استدل بها النصراني على تعدُّد الآلهة، لأن النصراني

يقول: إنّ الله ثالثُ ثلاثة، ليس إلهاً واحداً، ويقول عندي دليل: خلقنا، أنزلنا، من لدنا، منا، عندنا، كل هذه تدل على الجمع، فنقول له: إنّ في قلبك لزيغاً، لأنك اتبعت المتشابه، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، ما الذي أعمى بصيرتك عن قول الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]؟ هذا محكم، والإتيان بصيغة الجمع للتعظيم أمرٌ وارد في اللغة العربية، حتى الناس أنفسهم وهم بشر ـ لا يستحقون من العظمة ما يستحقه الخالق ـ يعبرون عن أنفسهم بصيغة الجمع تعظيماً لأنفسهم.

﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: من عند الله، ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ أي: عظة لأصحاب العقول، ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ هذه خاصة بأيوب وأهله، ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ عامة، يتذكر بها أصحاب العقول، يتذكرون بأنّ المصائب تكون على الرسل وعلى غيرهم، وبأنّ الشيطان يمكن أن يسلّط على الرسول، ويتذكرون بها أن الإنسان إذا لجأ إلى ربه، ودعا ربه، فإن الله يجيبه، ويتذكرون بها أنّه كلما اشتد الكرب، قرُب الفرج، وقال رسول الله ﷺ: «**اعلموا أنّ النصر مع الصبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يسراً**»(١). وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، يعني قريب من هذه الحال التي

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» ٥/١٨-١٩ (٢٨٠٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٧٤).

وصلت بالرسل إلى أن يقولوا: متى نصر الله؟ يعني يطلبونه شوقاً، لا استبعاداً، كأنهم يقولون: يا ربّ عجّل لنا بالنصر، فقال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾.

إذاً ذكرى لأولي الألباب فيما يلي:

أولاً: أنّ البلاء يشمل الأنبياء.

ثانياً: أنّ الشيطان قد يسلّط على الأنبياء.

ثالثاً: أنّ الله تعالى يجيب دعوة المضطرين إليه، إذا صدق الإنسان في دعوته.

رابعاً: أنه كلما اشتدت الأمور؛ فانتظر الفرج، فهذا أيوب لما اشتد به الأمر، ولجأ إلى الله، أجاب الله تعالى دعاءَه.

خامساً: زوال كرب النبي أيوب عليه السلام كان على يده، لأن الله تعالى لم يُنزل شفاءً دون سبب ظاهر، بل بسبب هو الذي يباشره. قيل له: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ فضرب برجله فخرج الدواء، وقيل له: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾ فاغتسل فعالج نفسه إذاً هو الذي استخرج الدواء، وباشر العلاج، وكان علاجه على يده باستخراج الدواء واستعماله.

قال تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ﴾، قال المؤلف: [﴿ضِغۡثٗا﴾ هو حزمة من حشيش أو قضبان ﴿فَٱضۡرِب بِّهِۦ﴾ زوجتك، وكان قد حلف ليضربنَّها مئة ضربة لإبطائها عليه يوماً ﴿وَلَا تَحۡنَثۡۗ﴾ بترك ضربها، فأخذ مئة عود من الإذخر أو غيره، فضرب بها ضربةً واحدة].

وهذه الفتوى من الله عز وجل لأيوب، أفتاه بها تسهيلاً عليه وعلى أهله. وقد أشرنا قبل قليل أنه لما أصيب بهذه المصيبة مِن قِبل الشيطان، مصيبة نفسية ومصيبة بدنية ظاهرة شرد أهله، ومن ضمنهم زوجته التي كان ينبغي أن تبقى معه على السراء والضراء، فحلف أن يضربها مئة ضربة؛ لأنها أغضبته وتركته. فلما شفاه الله عز وجل من المرض وجب عليه أن يفي بيمينه فيضرب زوجته مئة ضربة. والمئة ضربة قد يكون فيها شيء من الاشمئزاز بالنسبة لزوجته، ومن الإحراج بالنسبة له؛ فأفتاه الله تعالى هذه الفتوى ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ فيه مئة شمراخ، واضربها به مرة واحدة، تكفي عن مئة ضربة، فأخذ بيده ضغثاً وضربها به ضربةً واحدةً، فصار ذلك براً بيمينه، ولهذا قال: ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ﴾، ومفعول ﴿فَٱضْرِب﴾ محذوف وحذف ـ والعلم عند الله ـ للستر، لأنه ليس في القرآن أمر بضرب الزوجة، ولكنه جاء في القصص المعروفة عن بني إسرائيل. وليس المقصود أن نعرف عين المضروب، ولكن المقصود أنّ الضرب الذي كان قد حلف عليه؛ يحصل بأخذ هذا الضغث والضرب به.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْۗ﴾ أصل الحنث: الإثم، كما قال تعالى: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٦] يعني على الإثم العظيم. والمراد به هنا أن لا يبر بيمينه، وعدم البر باليمين أن يترك ما حلف على فعله، أو يفعل ما حلف على تركه، وهذا هو الحنث.

على سبيل المثال: حلف ليشترينَّ كتاباً قال: والله لأشترين كتاباً ولم يشترِ، حنث بترك ما حلف على فعله. أو حلف أن لا يبيع

الكتاب قال: والله لا أبيع الكتاب وباعه، حنث بفعل ما حلف على تركه، أو حلف ليشترينَّ هذا الكتاب، فاشتراه، فهذا برّ بيمينه، أو حلف ألا يبيع هذا الكتاب، فلم يبعه؛ برّ بيمينه، إذاً موافقة اليمين برّ، ومخالفتها حنث.

قال أهل العلم: يُؤخذ من هذا أنّ عدم إبرار اليمين مكروه إلى الله تعالى، لأنه يسمى حنثاً، ولكن من نعم الله أنه رخّص لعباده بفعله، ولكن إذا فعلوه كفّروا بكفارة عن الحنث، لأنه لو كانت الكفارة عن اليمين لكان كل من يحلف يكفّر، لكنها عن الحنث، لأنّ الأصل الإثم في مخالفة اليمين. ولكن من رحمة الله عز وجل أن رخّص لنا الحنث وأن نكفّر عنه، ولهذا قال: ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ﴾ أي: وجدنا أيوب عليه الصلاة والسلام، يعني ألفيناه صابراً، و(وجدَ) فعل ينصب مفعولين: الأول: (الهاء) في قوله: ﴿وَجَدْنَٰهُ﴾، والثاني: ﴿صَابِرًاۚ﴾.

وصبر أيوب عليه الصلاة والسلام كان صبراً على قدر الله، وهذا ظاهر، لأنه صبر على ما مسه من الشيطان، وكان صبراً عن معصية الله، لأنه لم يجزع ولم يسخط، وكان صبراً على طاعة الله، لأنه لجأ إلى الله، ودعا الله عز وجل فأجابه. وأحياناً يكون الدواء بالدعاء أنجع بكثير من الدواء الحسي المادي، وفيما سبق إذا تعسرت الولادة، يؤتى إلى شخص، ويطلب منه أن يقرأ للحامل عند تعسُّر الولادة،

فيقرأ في ماء، ويذهبون به ويمسحون به ما حول المنطقة، وتشرب منه الحامل، فتضع بدون ألم، وهذا شيء مجرّب ومشاهَد، وهذا أهون بكثير من المعالجة بالأدوية الحسية المادية، فهو عليه الصلاة والسلام لجأ إلى الله، وطلب الشفاء منه، وهذا صبرٌ على طاعة الله، فحصل له أنواع الصبر كلها.

ثم قال تعالى: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾. صبر أيوب عليه السلام هذا الصبر العظيم على المرض وفقد الأولاد وفقد الأهل، ومع ذلك لم ينس الله عز وجل، لجأ إليه عند الشدائد.

وقوله: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ نعم: فعل ماضٍ جامد لإنشاء المدح، والعبد: فاعل. وهذا الفعل وشبهه، يحتاج إلى شيئين: إلى فاعل ومخصوص بالمدح، فإن تقدَّم ما يدل على المخصوص، أُستغني بما تقدَّم، وإلا فإنه يقدّر، وإن كان ظاهراً، فظاهر، فمثلاً هنا ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ السياق يدلُّ على المخصوص، وحينئذٍ لا حاجة إلى تقديره، لأنّه من المعروف أنّ العبد هو أيوب، فلا حاجة إلى التقدير. ولكن بعض النحويين يقدر ولو عُلِم، لأنه يرى أنّه لا بد من ذكر الفاعل والمخصوص. فيقول المؤلف: [﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أيوب] أيوب هو المخصوص، والعبد فاعل.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ هذه جملة استئنافية تعليلية، تعليلاً للثناء على أيوب أنّه نعم العبد، لأنه كان ﴿أَوَّابٌ﴾ أي: رجّاع إلى الله عز وجل.

فوائد الآيات:

١ ـ في هذه الآيات الثناء على أيوب عليه الصلاة والسلام بما ذُكر من أوصاف، وفيها الإشادة بمناقبه، حيث أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يذكرَ عبده أيوب.

٢ ـ **ومن فوائدها**: بيان أنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً لقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

٣ ـ بيان صدق لجوء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى الله تعالى في كونهم يفزعون إليه عند الشدائد لقوله: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها**: جواز إضافة الأشياء إلى أسبابها، لأن أيوب عليه السلام أضاف هذا الضر إلى الشيطان لأنه سببه.

٥ ـ **ومن فوائدها**: جواز التوسُّل إلى الله تعالى بحال العبد، لأنّ أيوب عليه الصلاة والسلام توسّل إلى الله تعالى بحاله؛ وهو أنه مسّه الشيطان بنُصب وعذاب. ونظير هذا قول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] فتوسّل إلى الله تعالى بذكر حاله وأنّه فقير إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا أحد أنواع التوسُّل الجائز.

ويحسن هنا ذكر أنواع التوسل وهي:

أولاً: التوسُّل إلى الله تعالى بأسمائه.

ثانياً: التوسُّل إلى الله تعالى بصفاته.

ثالثاً: التوسُّل إلى الله تعالى بأفعاله.

رابعاً: التوسُّل إلى الله تعالى بذكر حال الداعي.

خامساً: التوسُّل إلى الله تعالى بدعاء مَن ترجى إجابته.

سادساً: التوسُّل إلى الله تعالى بالإيمان.

سابعاً: التوسُّل إلى الله تعالى بالعمل الصالح.

كل هذه الأنواع من التوسُّل جائزة.

فالتوسُّل إلى الله بأسمائـه مثل أن تقول: اللهم يا غفور اغفر لي.

والتوسُّل إلى الله بصفاته مثل قولك: اللهم برحمتك أستغيث، اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق، أحيني إذا علمت الحياة خيراً لي.

والتوسُّل إلى الله بأفعاله مثل: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

والتوسُّل إلى الله بذكر حال الداعي: كما في هذه الآية: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾.

والتوسُّل إلى الله تعالى بدعاء مَن تُرجَى إجابته: كتوسل الصحابة بدعاء النبي ﷺ.

والتوسُّل إلى الله تعالى بالإيمان مثل قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

والتوسُّل إلى الله بالعمل الصالح: كقصة الثلاثة الذين لجؤوا إلى الغار، فانطبقت عليهم الصخرة، فتوسَّل كل منهم بعمله الصالح[١].

أما التوسُّل الممنوع: فهو التوسُّل إلى الله تعالى بما لم يجعله وسيلة، لا شرعاً ولا قدراً، وهذا التوسل محرّم. وهو نوع من الاستهزاء بالله عز وجل، كأنَّ الإنسان يتقدَّم بشيء يجعله وسيلة، وهو ليس بوسيلة، فكأنّه يستجهل الله عز وجل.

٦ ـ **ومن الفوائد**: بيان إجابة الله عز وجل للدعاء، وهو دليل على منته على عباده لقوله تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾.

٧ ـ بيان قدرة الله عز وجل حيث أنبع الماء من ضرب الرِّجل.

٨ ـ إثبات الأسباب لقوله تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ ولو شاء الله تعالى لأنبع له الماء بدون الركض بالرِّجل، ولكنّ الله تعالى جعل ذلك سبباً.

٩ ـ أنّ الله تعالى قد يجعل السبب الضعيف الذي لا يقوم بالمسبَّب سبباً مؤثِّراً، كما أنّه قادر على أن يمنع السبب المؤثِّر فلا يؤثِّر؛ فالركض بالرجل ليس من العادة أن يُنبع الماء، والإلقاء في النار من العادة أن يحرق، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام أُلقي في النار ولم يحترق، وأيوب عليه الصلاة والسلام ركض برجله الأرض

---

(١) انظر «مسند الإمام أحمد» ١٩/ ٤٣٨ (١٢٤٥٤) حديث أنس: أن ثلاثة نفر...

فنبع الماء. ففيه دليل على أنّ الله تعالى قد يجعل السبب الضعيف قوياً مؤثِّراً، ويجعل السبب القوي المؤثِّر غير مؤثِّر.

١٠ـ بيان القدرة الإلهية بكون هذا الماء النابع من جوف الأرض بارداً وصالحاً للشرب.

١١ـ الإشارة إلى المطهر للباطن، وهو ما يعرف عند الناس الآن بالهلول، أي يتخذون أشياء ملينة للبطن، تنظِّفه، لقوله: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾.

١٢ـ أنّ الله تعالى يمُنُّ على العبد بأكثر مما فقد إذا صبر واحتسب، لأنّ أيوب عليه الصلاة والسلام وهب الله له أهلَه ومثلهم معهم، فأنت اصبر، تظفر.

١٣ـ أنّ ما حصل للإنسان مِن نعمة فإنه بمقتضى رحمة الله تعالى، لقوله: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾.

١٤ـ أنّ في هذه القصة العظيمة ذكرى لأولي الألباب، وقد بينا وجوه هذه الذكرى.

١٥ـ جواز استعمال الحِيل المباحة لقوله تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ﴾، وهذا الحكم ثابت حتى في الشريعة الإسلامية، فلو حلف رجلٌ على أن يضربَ شخصاً مئة مرة، وكان هذا الشخص لا يتحمل الضرب مئة مرة، قال أهل العلم: فله أن يأخذ ضغثاً به مئة شمراخ؛ ويضرب به ضربة واحدة، وبنوا على هذا ما لو زنى رجلٌ مريض مرضاً لا يُرجى زواله، ولا يتحمل الضرب مئة على

انفراد، قالوا: فإنّه يُجمع له ضغث به مئة عود، ويُضرب به ضربةً واحدةً، أخذاً بما أفتى الله عز وجل به أيوب عليه الصلاة والسلام.

١٦ـ أنّ الحنثَ في اليمين في الأصل حرام؛ لقوله: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾، ولكنَّ الله تعالى يسّر لعباده، وأجاز لهم الحنث مع الكفّارة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩]، إلى قوله: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، قال العلماء: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أي: لا تُكثروا اليمين، وقال بعضهم: أي: احفظوها من الحنث، فلا تحنثوا فيها، والوجهان كلاهما لا يتنافيان.

والإنسان ينبغي له أن يحفظ يمينه فلا يحنث، ولكن مع ذلك أحياناً يكون الحنث خيراً.

وقد قسّم العلماء الحنث في اليمين إلى الأحكام الخمسة: قالوا: قد يجب الحنث، وقد يَحرُم، وقد يُكرَه، وقد يُستحَب، وقد يباح.

فإذا حلف أن لا يصلّيَ مع الجماعة؛ فالحنث واجب؛ لأنه يجب أن يصلِّي ويُكفِّر. ولو حلف أن يشرب الخمر، فالحنث واجب، يجب أن يدعه وأن يكفّر. ولو حلف على أن لا يشرب الخمر، كان الحنث محرّم، لأنه لو شربها لفعل محرّماً، ووقع في المحرّم. ولو حلف أن لا يصلِّي راتبةَ الظهر، فالحنث هنا مستحب. ولو حلف أن يأكلَ بصلاً أو ثوماً، وهو ممن يحضر المسجد؛ كان الحنث مستحباً. ولو حلف على أن لا يأكل البصل، يكون الحنث مكروهاً. المهم أن

المكروه والمستحب متضادان، والواجب والمحرَّم متضادان، أمّا المباح فهو إذا تساوت المصلحة والمفسدة، فهو مباح.

١٧ـ الثناء على أيوب عليه الصلاة والسلام بالصبر، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ وهذا يتعدى إلى غيره أيضاً، فإنّ من كان صابراً فهو محل للثناء.

١٨ـ الثناء على أيوب عليه السلام بهذا الوصف: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ والعبودية لله عز وجل لا شك أنّها تمام الحرية، وكلُّ مَن كان لله أعبد، فهو أشد تحرراً ممن كان على العكس.

وقد قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ بيتاً في النونية مفيداً، قال:

هربوا من الرِّقِّ الذي خُلقوا له ... وبُلُوا برِقِّ النفسِ والشيطانِ

هؤلاء هربوا من عبادة الله سبحانه وتعالى وصاروا عبيداً لنفوسهم وشياطينهم، فأشرف أوصاف الإنسان أن يكون عبداً لله عز وجل، أسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم من عباده الصالحين.

١٩ـ الثناء على أيوب عليه السلام بكونه رجّاعاً إلى الله بفعل الطاعات وترك المعاصي لقوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾. وعلى هذا يكون هذا الوصف لكل مَن اتّصف به، وكل مَن كان رجَّاعاً إلى الله فإنه يُثنى عليه.

٢٠ـ إثبات الأسباب، وجواز نسبة الشيء إلى سببه المعلوم حِساً، أو شرعاً بدون أن يُنسب إلى الله. فلو قلت مثلاً: سقطت في البحر، ولولا فلان لغرقتُ، لكان هذا صحيحاً، لأنّه أضافه إلى

سببٍ معلوم، فلان هو الذي انتشله من الماء. ومن ذلك قول الرسول ﷺ في عمِّه أبي طالب: «**لولا أنا لكان في الدَّركِ الأسفلِ من النار**»(١) فأضاف الشيء إلى سببه المعلوم.

أمّا إذا أضافه إلى سبب غير معلوم، فهذا نوعٌ من الشِّرك، ثم قد يكون شركاً أكبر، وقد يكون شركاً أصغر، بحسب الحال. فإذا قال: سقطت في البحر ولولا فلان ـ الولي الميت ـ لهلكت، لكان هذا شركاً، وهو شرك أكبر في هذه الحالة.

* * *

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥﴾.

اذكر يا محمد، وتذكر أيها المخاطَب هؤلاء السادة الأبرار، ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ إبراهيم بدل من عبادنا، بدل بعض من كل، وما عطف عليه يكمل الكل. والعبادة هنا أخصّ الخاصة، لأنّها عبودية الرسالة والنبوة، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام إمام الحنفاء، الذي أُمرنا باتباع ملته: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وإسحاق ابنه، ويعقوب حفيده ابن ابنه.

قوله تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي﴾ قال المؤلف: [أصحاب القوى في العبادة، ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥﴾ البصائر في الدين] يعني اذكرهم مشيراً إلى قوتهم في الدين، لأن الأيدي جمع يد والمراد باليد هنا القوة، وكذلك

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب (٣٨٨٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب (٢٠٩) (٣٥٧).

الأبصار أي: البصائر في دين الله، لأنهم رسل، وأبصر الناس في عبادة الله هم الرسل.

﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ ﴾ قال المؤلف: [وفي قراءة ﴿عَبْدَنا﴾، وإبراهيم بيان له، وما بعده عطف على عبدنا]، أي: أنها تقرأ بالجمع وبالإفراد، والقراءة هنا سبعية؛ لأن القاعدة أن المؤلف إذا قال: [وفي قراءة] فهي سبعية، وإذا قال: [قرىء] فهي شاذة.

ثم قال: ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ﴾ أي: نقيناهم وصفيناهم، لأن إخلاص الشيء أن تزيل شوائبه حتى يبقى خالصاً، ومنه إخلاص الدين لله وهو أن تزيل عنه شوائب الشرك.

وقوله: ﴿بِخَالِصَةٖ﴾ بيَّنها المؤلف بقوله: [هي ذكرى الدار] أفاد المؤلف أن ﴿ذِكۡرَى﴾ هي خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي ذكرى، ويجوز أن تكون (ذكرى) بدلاً من (خالصة) أو عطف بيان لها. والمراد بالدار هنا الآخرة، أي: ذكرى الدار الآخرة. ذكرها والعمل لها. وفي قراءة بالإضافة، أي: ﴿بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦﴾ وهي للبيان، أي الإضافة هنا بيانية على تقدير مِنْ، لأن الإضافة البيانية تكون على تقدير مِنْ، كما تقول: خاتم فضة، أي: من فضة، أو تقول: ثوب خز، أي: من خز. باب خشب، أي: من خشب، وهكذا قال: ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ أي: الدار الآخرة، أي: تذكرها والعمل لها.

﴿ وَإِنَّهُمۡ ﴾ الضمير يعود على الثلاثة: إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿عِندَنَا﴾ عند الله. والعندية هنا عندية المرتبة لا عندية المكان، لأن مرتبتهم عند الله أنهم من هؤلاء ﴿ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ﴾.

المصطفى اسم مفعول بمعنى المختار، وهنا ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ جمع مذكر سالم، ولكن فيه إشكال، وهو أن المعروف أن جمع المذكر السالم يكسر ما قبل الياء، نقول: المسلمِين والمؤمنِين والقانتِين والصابرِين والصادقِين، وهنا ما قبل الياء مفتوح، والمعروف أن الذي يفتح فيه ما قبل الياء هو المثنى، كما تقول: الرجلَيْن والمسلمَيْن والمؤمنَيْن وهكذا، فلماذا فتح ما قبل الياء في ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾؟ قال النحويون: لأن أصله المصطفى بالألف فحذفت الألف لأنها ساكنة، ولأن الياء بعدها ساكنة فتحذف، كما قال ابن مالك:

إن ساكنين التقيا اكسر ما سبق وإن يكن ليناً فحذفه استحق

فالآن التقى ألف وياء فتحذف الأولى منهما وهي هنا الألف وتبقى الفتحة دليل عليها، ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ يعني في العبادة والعلم والرسالة ﴿ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [جمع خيِّر بالتشديد]، والخيِّر على وزن فيعل، وهو كثير الخير، ولا شك أن هؤلاء الرسل الثلاثة فيهم خير كثير، وجاء من نسلهم رسل كرام، وأمم من أفضل الأمم. جاء من نسل إبراهيم أمة محمد ﷺ، وهي أفضل الأمم وأكرمها عند الله.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآيات**: الثناء على إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام بأنهم أصحاب قوة في عبادة الله، وبصيرة في دين الله تعالى.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآيات**: أنه ينبغي ذكر أهل الخير بالثناء، لأن في ذلك فائدتين:

الفائدة الأولى: إحياء ذكر هؤلاء ليتبين فضلهم ويُدعى لهم.

والفائدة الثانية: الاقتداء بهم واتباعهم فيما هم عليه مما استحقوا به الثناء.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآيات**: أن الله تعالى أخلص هؤلاء بخالصة، وهي تذكُّر الدار الآخرة، بحيث لا ينغمسون في ترف الدنيا.

٤ ـ **ويتفرع عن هذه الفائدة**: أن مَن أنعم الله عليه بهذه الصفة وهي تذكُّر الدار الآخرة فإن هذا من الأمر الذي يستحق الثناء عليه هو، ويستحق الربّ عز وجل عليه الشكر، حيث لم يجعل هذا ممن ينطوي في سلك أهل الدنيا.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآيات**: أن لله تعالى عباداً مصطفين لقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ لأن «من» هنا إما للجنس أو للتبعيض، فتدل دلالة واحدة.

٦ ـ **ومن فوائدها**: أنه إذا كان العامل له مراتب فإن العمل كذلك له مراتب، لأن العامل إنما ينال المراتب بحسب عمله. ويتفرع عن هذه الفائدة ما فيه دليل لمذهب أهل السنة والجماعة: مِن أن الإيمان يزيد وينقص.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآيات**: أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام من هؤلاء المصطفين.

٨ ـ **ومن فوائدها أيضاً**: أن مَن اصطفاهم الله فإنهم أصحاب خير وفضل لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ فرتب الخيرين على الاصطفاء.

﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ ﴾ إسماعيل ابن إبراهيم أفرده بالذكر، لأن سلالته تختلف عن سلالة إسحاق ويعقوب، فإسحاق ويعقوب سلالتهما بنو إسرائيل، وهؤلاء سلالتهم العرب، ولهذا أفرده. ﴿ وَٱلۡيَسَعَ ﴾ وهو نبي، واللام زائدة، فإذا كانت اللام زائدة فإن الأصل هو يسع، وهو نبي ولكنه نبي رسول؛ لأن كل نبي ذكر في القرآن فهو رسول. ﴿ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ ﴾ مختلف في نبوته، فقيل: إنه نبي، والكفل يعني العمل والنصيب، يعني صاحب العمل الكثير والنصيب. هذا على القول بأنه رسول، أما على القول بأنه غير رسول فقد قال المؤلف: [قيل: إنه كفل مئة نبي فروا إليه من القتل]، وكلمة قيل: تدل على أنه ضعيف، فالظاهر أن معنى ذا الكفل صاحب العمل الكثير، والجد والنشاط.

﴿ وَكُلّٞ ﴾ أي: كلهم، وعلى هذا فإن التنوين عوض عن اسم كلهم ﴿ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [جمع خيِّر بالتثقيل]. وقول المؤلف: [جمع خيِّر بالتثقيل] مثل قوله السابق: [جمع خيِّر بالتشديد].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية**: الثناء على إسماعيل واليسع وذا الكفل عليهم الصلاة والسلام، لأن الله أمر بذكرهم للثناء عليهم، وبيان فضيلة هؤلاء الرسل الثلاثة: إسماعيل واليسع وذا الكفل عليهم الصلاة والسلام.

٢ ـ **ومن فوائدها**: أن لله عباداً أخياراً منهم هؤلاء الثلاثة، لقوله: ﴿ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أن لله تعالى فضلاً على بعض العباد، يُحرمه البعض الآخر. حيث يجعل هؤلاء من المصطفين الأخيار، والآخرين على العكس من ذلك.

* * *

﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾ قال المؤلف: [لهم بالثناء الجميل هنا ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ الشاملين لهم ﴿لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٩﴾ مرجع في الآخرة].

قوله: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾ يحتمل ما قال المؤلف، أي: أن هذا ذكر لهؤلاء السادة بالثناء الجميل، ويحتمل أن المراد هذا ذكر للناس، أي: تذكير لهم، كما قال الله تعالى في أول السورة: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ وهذا الأخير أرجح، يعني هذا المذكور في آخر السورة ذكر لجميع الناس، ثم الناس ينقسمون إلى متَّقٍ وغير متَّقٍ ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ ومنهم الرسل بل سادة المتقين وعلى رؤوسهم، ﴿لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٩﴾ أي: مرجع، وهنا قال: ﴿لَحُسۡنَ﴾ وفيه إشكال حيث إنه منصوب مع دخول اللام عليه، وهي لام الابتداء، وتسمى باللام المزحلقة دخلت على «حسن» اسم «إن» مؤخر، و﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾: خبر مقدم.

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾: بدل أو عطف بيان ﴿لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٩﴾ ولهذا نصبت ﴿جَنَّٰتِ﴾ لكن نصبت بالكسرة نيابة عن الفتحة، والجنة في الأصل البستان الكثير الأشجار، سمّي به لأن يَجُنُّ مَن كان فيه أي: يستره، والمراد بها دار النعيم التي أعدها الله للمتقين في الآخرة، وعدن بمعنى إقامة، أي: الجنات التي يقيم فيها ساكنها ولا يتحول

عنها، ولا يبغي عنها حولاً، ولا يرى أن لغيره فضلاً عليه، كلّ واحد من أهل الجنة يرى أنه لا فضل لأحد عليه، وهذا هو تمام النعيم، لأن الإنسان إذا رأى أن غيره أفضل منه احتقر ما أعطاه الله، ولهذا قال النبي ﷺ: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم**»(١).

قال: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝٥٠﴾ مفتحة ولم يقل: مفتوحة، وذلك لكثرة الفاتحين أو لكثرة الأبواب أو لهما جميعاً. فعلى الأول كثرة الفاتحين، يكون المعنى أن لهم خدماً كثيرين يفتحون لهم الأبواب، وعلى الثاني يدل على أن أبوابها كثيرة لكثرة من يدخلها. ومن المعلوم أن أبواب الجنة الأصلية الكبيرة ثمانية، ولكن هناك غرف في وسط الجنة تجري من تحتها الأنهار لها أبواب فتفتح لهم الأبواب.

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي: في هذه الجنات، والاتكاء يدل على الهدوء والطمأنينة وعدم القلق، وأيضاً يدل على أن الإنسان ذو سلطان يُخدمَ ولا يَخدِم. وقوله: ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنات. وبيَّن المؤلف على أي شيء يتكئون فقال: [على الأرائك]، كما جاء ذلك في آيات أخرى.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ يدعون، أي: يطلبون يعني يقولون: هاتوا فاكهة ﴿كَثِيرَةٍ﴾ كثيرة النوع وكثيرة العين، أي:

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، حديث رقم (٢٩٦٣) (٩).

أنواع كثيرة، وكذلك أعيان كثيرة. لو تطلب أيّما تطلب حصل لك.

﴿وَشَرَابٍ ۝٥١﴾ هذا الشراب بيَّن الله أنواعه وأجناسه بأنه أربعة ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] هذه أربعة أنواع من شراب الجنة، ولكن هذه الأصناف تختلف عما في الدنيا اختلافاً عظيماً، أي: فلا تظن أن الماء كالماء الذي في الدنيا، أو أن العسل كالعسل الذي في الدنيا، أو أن اللبن كاللبن الذي في الدنيا، أو أن الخمر كالخمر الذي في الدنيا، بل تختلف اختلافاً عظيماً لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] ولو كان لا يختلف لكنا نعلم هذا، وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[(١)] اللهم اجعلنا من أهلها.

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قال المؤلف: [حابسات العين على أزواجهن] قاصرات الطرف، أي: حابسات، والطرف: النظر، أي: أنهن يقصرن النظر على أزواجهن. هذا معنى من المعاني. والمعنى الثاني: قاصرات طرف أزواجهن فلا ينظر أزواجهن إلى غيرهن، والفرق بينهما ظاهر، ولكن اللفظ صالح للأمرين، فهن قاصرات طرفهن لا ينظرن إلى غير أزواجهن، وهن قاصرات طرف أزواجهن، فلا ينظر أزواجهن إلى غيرهن.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة (٣٢٤٤)، ومسلم، كتاب الجنة (٢٨٢٤).

أما نساء الدنيا فإن بعض النساء إذا خرجت إلى السوق أخذت تنظر إلى الرجال، وتقارن بين هذا الرجل وبين زوجها، وكذلك الرجل إذا خرج إلى السوق فبعض الرجال يتطلع إلى النساء ويقارن بين مَن يرى من النساء وبين زوجته، وتجده إذا وجد من النساء من هي أجمل من امرأته انشغل قلبه بها، وأعرض عن امرأته، وزهد فيها، ولهذا كان من الحكمة العظيمة وجوب ستر الوجه لأن الرجل إذا لم ير وجه المرأة لم يتغير نظره بالنسبة إلى امرأته، لكن إذا رأى امرأة كالشمس، وزوجته على خلاف ذلك، تعلق قلبه بهذه المرأة التي كالشمس، وزهد في امرأته.

﴿أَتْرَابٌ ۝٥٢﴾ يعني أنهن على سن واحدة شابات بنات ثلاث وثلاثين سنة. كذلك أهل الجنة يدخلون الجنة وهم أبناء ثلاث وثلاثين سنة، ولا يتغير أحد منهم، يبقى على ما هو عليه، وكونهن أتراب يقال: إنهن أتراب في السن، وأتراب في الجمال، وفي كل شيء، لئلا يميل الإنسان إلى من فاقت غيرها، ويكون نظره إليهن على حد سواء.

قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ قال المؤلف: في القراءات في ﴿تُوعَدُونَ﴾ [بالغيبة والخطاب التفاتاً] الخطاب (ما توعدون)، والغيبة (ما يوعدون)، والقراءتان سبعيتان قال المؤلف: [التفاتاً] أيهم الذي فيه التفات الغيبة أم الخطاب؟ قال تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ۝٤٩ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ۝٥٠﴾ لهم غيبة ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝٥١﴾ يدعون غيبة ﴿۞ وَعِندَهُمْ﴾ غيبة إذاً

الالتفات في أي شيء؟ الالتفات في الخطاب ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ يعني يقال لهم: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ على ضمير الخطاب وعلى ضمير الغيبة يكون هذا خبر من الله عز وجل بأن المذكور هو الذي يوعدون به يوم القيامة.

﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٥٣﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي: لأجله] هذا ما مشى عليه المؤلف، أي: أن اللام في قوله: ﴿لِيَوْمِ﴾ للتعليل، ولكن الصحيح أن اللام للتوقيت فهي كقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] فاللام هنا بمعنى «في» لأنها للتوقيت، أي: هذا ما توعدون في ذلك اليوم ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٥٣﴾ وهو يوم القيامة، وسمي يوم الحساب، لأن الناس يحاسبون فيه على أعمالهم.

قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾ إنّ هذا يعني المشار إليه ما ذكر من نعيم الجنة ﴿لَرِزْقُنَا﴾ لعطاؤنا، واللام في قوله: ﴿لَرِزْقُنَا﴾ للتوكيد، ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾ من: حرف جر زائد لفظاً ومعنىً، نفاد: اسم مجرور لفظاً بـ«من» في محل رفع مبتدأ مؤخر. ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾ أي: انقطاع، و«ما» هنا يتفق فيها التميميون والحجازيون لتقدم الخبر، ولا تكون ما حجازية إلا مع الترتيب، لقول ابن مالك:

إعمالَ ليس أُعمِلَتْ ما دونَ إنْ ... مع بقا النفي وترتيبٍ زُكِنْ

قال المؤلف: [﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ أي: انقطاع، والجملة حال من (رزقنا) أو خبر ثانٍ لـ«إن» أي: دائماً أو دائم]. اختصار شديد من المؤلف رحمه الله. والجملة حال من (رزقنا) وعلى هذا يكون المعنى

﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ أي: انقطاع، دائماً، أو نقول: خبر ثانٍ لـ«إن» هذا لرزقنا، إن هذا ما له من نفاد، ويكون التقدير دائم إذاً في الكلام لف ونشر مرتب.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآيات:** أن القرآن الكريم ذِكْرٌ يُذْكَر به الله بتلاوته، وذكر يتذكر به الإنسان معاده ومعاشه. وذكر يُذكِّر به غيره. وقد ذكرنا هذا في أول السورة.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآيات:** بشارة المتقين بأن لهم حسن المآب، أي: المرجع، وعلى العكس من ذلك غير المتقين لهم سوء المآب، لأن الله إذا حكم للشيء بصفة من الصفات، فإنه يُحكَم له بضده إذا انتفت هذه الصفة. لو قال قائل: لماذا لا تقولون: إنه إذا انتفت هذه الصفة ولم تثبت الصفة المتضادة، فلا يستحق الثناء المثبت بالصفة، ولا القدح الذي يكون بضدها؟ فالجواب على ذلك أن نقول: لا شك أن الأمورَ طرفان ووسط، الطرفان متضادان، والوسط بينهما، لكن قد دل الكتاب والسنة على أن التقوى وضدها ليست طرفاً ووسطاً بل هما طرفان متقابلان، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢] فإذا ثبت للمتقين حسن المآب فلغيرهم سوء المآب، ولا نجعل هنا شيئاً وسطاً، لأنه لا وساطة بين الإيمان والكفر، والتقوى والفسوق.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** الحث على التقوى وذلك بذكر ثوابها. لأن الحث على الشيء يكون بالأمر به كما هو ظاهر، ويكون

بالوعيد على تركه والثناء على فعله. وطرق الحث على الشيء متنوعة ومنها ذكر حسن المآب.

٤ ـ **من فوائد قوله تعالى:** ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝٥٠﴾: إثبات الجنات لهؤلاء، وأنها هي حسن المآب لقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ ولا شك أن أحسن مآب يؤوب إليه البشر هو الجنات، فإن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وكل إنسان مؤمن إنما يسعى إلى الوصول إلى هذه الغاية العظيمة.

٥ ـ **ومن فوائدها:** أن الجنات دار إقامة لقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ فالناس مقيمون فيها لا يرحلون عنها، ولا يبغون عنها حولاً ففيها إقامتان: إقامة لا ارتحال عنها. والإقامة الثانية لا يبغي المقيم عنها حولاً. يرى أنها محل إقامة وأنها أشرف مكان، وذلك لأنه لو رأى أن غيره أشرف منه لم يتم نعيمه، لأنه يرى أنه قاصر، وهذا بخلاف أهل النار فكل واحد يرى أنه لا أحد أشد منه عذاباً؛ لأنه لو رأى أن أحداً أشد منه عذاباً لتسلى به، لكنه بالعكس يرى أنه أشد الناس عذاباً.

وأهل الجنة لا يرى أحدهم أن أحداً آخر أكمل منه نعيماً، على وجه يفوقه، بل يرى أنه هو في أكمل ما يكون من النعيم حتى لا يتنغص عليه نعيمه.

٦ ـ **ومن فوائد الآية:** أن للجنة أبواباً لقوله: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝٥٠﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها**: كثرة الخدم المستفاد من قوله: ﴿مُّفَتَّحَةً﴾ ولم يقل: مفتوحة، بل هي تفتح ويستقبلون بها، كلما دنوا من غرفة فتحت لهم الأبواب.

٨ ـ **من فوائد قوله تعالى**: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾: أن أهل الجنة يطلبون كل ما يشتهون من الفواكه لقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ وفي سورة الدخان: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الدخان: ٥٥].

٩ ـ **ومن فوائدها**: أن لأهل الجنة شراباً، يدعون فيها بكل شراب، وقد مر علينا في التفسير أن أنواع الشراب أربعة.

١٠ـ **من فوائد قوله تعالى**: ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ ما في الجنة من الأزواج المطهرة العفيفات البالغات في الحُسْن غايته لقوله: ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾.

١١ـ **ومن فوائدها**: أن هؤلاء قاصرات الطرف، خيرات الأخلاق، طيبات ليس فيهن نشوز إطلاقاً لقوله: ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ في الدنيا الزوجة تارة تكون عندك، وتارة تغضب وتذهب إلى أهلها. لكن في الجنة زوجاتهم دائماً عندهم، ليس هناك نشوز ولا غضب، بل أخلاق طيبة على ما ينبغي.

١٢ـ **ومن فوائدها**: كمال عفة هؤلاء النساء لكونهن قاصرات الطرف على أزواجهن، لا ينظرن إلى غير أزواجهن، وفيها كمال جمال هؤلاء النساء، لأنهن يقصرن أطراف أزواجهن عليهن، فالزوج لا ينظر إلى غيرها؛ لأنها قد ملأت عينه، وسرت قلبه.

١٣ـ **ومن فوائدها**: أن هؤلاء النساء أو هؤلاء الأزواج أتراب متساويات في السن والخلق، بحيث لا تغار واحدة من الأخرى لكونها أجمل منها، أو أسن منها، أو ما أشبه ذلك لقوله: ﴿أَتْرَابٌ﴾.

١٤ـ **ومن فوائد قوله تعالى**: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٥٣﴾: أنهم يخاطبون بما يسرهم، ويدخل السرور في قلوبهم لقوله: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٥٣﴾ عكس أهل النار فإنهم يوبخون ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٥٠] وما أشبه ذلك، أما هؤلاء فيدخل في قلوبهم السرور فيقال لهم: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ به أخذتموه، ووصلتم إليه، وجنيتموه.

١٥ـ **ومن فوائد هذه الآية**: إثبات يوم القيامة، وأنه يوم الحساب لقوله: ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٥٣﴾.

١٦ـ **ومن فوائدها**: حث الناس على العمل، لأنه كلما تذكر الإنسان أنه سوف يحاسب عن عمله، فإنه سوف يحرص ويجتهد في العمل حتى لا يحاسب على شيء يكون عليه.

١٧ـ **من فوائد قوله تعالى**: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾ أن هذه الجنات التي وعد بها هؤلاء المتقون فضل من الله ومِنَّة لقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا﴾.

١٨ـ **ومن فوائدها**: أن هذا الرزق لا ينفد أبداً، ولا ينقطع أبداً. فالفاكهة في كل وقت، ولحم الطير في كل وقت، والشراب في كل وقت، والزوجات في كل وقت، وليس في الجنة فصل صيف

ليس فيه فاكهة شتاء، ولا فيها فصل شتاء ليس فيه فاكهة صيف. بل كل شيء ليس له نفاد.

* * *

قال: ﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ ﴾ هذا: مبتدأ، لا بد له من خبر، وخبره محذوف قدَّره المؤلف بقوله: [للمؤمنين]، ولكن الصحيح أن نقدر: للمتقين، لأن الله قال: ﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ ﴾ فالأولى أن نقول: هذا للمتقين، فما لغيرهم؟ قال: ﴿ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ ﴾ كلام مستأنف ﴿ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ ﴾ الطاغين: جمع طاغية، والطاغي مَن تجاوز الحدَّ، وحد الإنسان أن يكون عبداً لله ممتثلاً لأمره مجتنباً لنهيه، فمن لم يمتثل للأمر فهو طاغ، ومن ارتكب النهي فهو طاغ. قال تعالى: ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه: ٤٣].

فإن قال قائل: ما الشاهد على أن الطغيان تجاوز الحد؟ قلنا: قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١١]. أي: لما تجاوز الماء حدّه.

﴿ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴾ أي: شرّ مرجع، وشر منصوبة على أنها اسم إن مؤخر. ما هو شر المآب؟ قال: ﴿ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ ﴾ هذا عطف بيان ﴿ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ ﴾ وهي نار جهنم، سميت بهذا الاسم لأنها تتضمن الجهمة لسوادها، لأنه ليس فيها نور، ولبعد قعرها ـ والعياذ بالله ـ فقد سمع النبي ﷺ ذات يوم وهو وأصحابه رضي الله عنهم في المدينة وجبة، يعني وقعة شيء، فقال: «**أتدرون ما هذا**»؟

قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوي في النار حتى انتهى إلى قعرها**»(١) سبعين سنة، هو حجر كبير له صوت عظيم يهوي في النار، لأنها بعيدة القعر جداً، ولهذا صارت مدلهمة ـ والعياذ بالله ـ سوداء.

وقيل: إن لفظ جهنم ليس عربياً وأن أصله في الفارسية كهنام، ولكنه عرب فصار جهنم. وعلى هذا فلا يرد علينا أنه من الجهمة، وهو السواد والبعد، فيقال: جهنم اسم للنار علم غير مشتق، وأيّاً كان فهو اسم من أسماء النار نعوذ بالله منها.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال، لأن جهنم معرفة، والمعرفة تكون الجملة بعدها حالاً. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ قال المؤلف: [أي: يدخلونها]، لكن هذا لا يكفي، بل يصلونها، يعذبون بصلاها، وهو شدة الحرارة ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾: الفراش، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦] وفي آية أخرى ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢] ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ أي: هي، لأنه ـ والعياذ بالله ـ افتراشها شديد، ولحافها شديد، قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] نعوذ بالله.

﴿هَٰذَا﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي: العذاب المفهوم مما بعده ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾] اللام في قوله: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ للأمر، والدليل على أنها لام الأمر وليست لام التعليل، أنها سكنت بعد الفاء، ولام

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها (٢٨٤٤).

الأمر تسكن بعد الفاء والواو وثم. ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ أي: فليكتووا بحره، والاكتواء بحره هو ذوق، وذوق كل شيء بحسبه، فالطعام والشراب يذوقه الإنسان بمذاق الفم، والنار يذوقها بحرارتها في أي موضع من مواضع الجسم، والبرد كذلك يذوقه بلسعه في أي موضع من الجسم ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ﴾ قال المؤلف: [أي: ماء حار محرق، ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ بالتخفيف والتشديد ما يسيل من صديد أهل النار] نعوذ بالله.

﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، و﴿حَمِيمٌ﴾: خبر، ﴿وَغَسَّاقٌ﴾: معطوف عليه، وتكون جملة ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ معترضة بين المبتدأ والخبر للمبادرة بإهانتهم، فإن قوله: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ لا شك أنه إهانة، فمن أجل المبادرة قدّم هذا على الخبر، أي: قدّم قوله: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ وأصل الكلام على الترتيب: هذا حميم وغساق فليذوقوه.

انظر للشراب ﴿حَمِيمٌ﴾: ماء حار، وليست حرارته سهلة أو يسيرة، قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩] أولاً لا يأتيهم هذا الشراب بسهولة، إنما يأتيهم بعد أن يعطشوا عطشاً شديداً ثم يسألوا الله أن يغيثهم من هذا العطش، وإذا أغيثوا يغاثوا بهذا الماء كالمهل يشوي الوجوه، إذا دنى من وجوه مَن يشربوه شواها، قال العلماء: تتساقط لحوم الوجه، ثم إذا شربوا في البطون قطع أمعاءهم، قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] فيقطع ظاهرهم وباطنهم والعياذ بالله، قارن بين هذا الشراب وبين شراب أهل الجنة: ﴿أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ

يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] ومع ذلك يشربون ما يشاؤون، وهذه الأنهار لا تجري في أخاديد، ولا ضمن جدران تمنع سيلان الماء، إنما تجري على وجه الأرض، قال ابن القيم في النونية:

أنهارُها في غيرِ أخدودٍ جَرَتْ سبحانَ مُمْسِكِها عن الفيضان

والغساق أيضاً ـ والعياذ بالله ـ بمجرد ما تسمع معناه تشمئز، صديد أهل النار، الصديد الذي يجري من أجسامهم من احتراقها هذا أيضاً نوع من شرابهم، فصار شرابهم إما ماء حار يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء، وإما صديد أهل النار ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧].

قال الله عز وجل: ﴿وَءَاخَرُ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [بالجمع والإفراد] ﴿وَءَاخَرُ﴾ مفرد و﴿أُخَرُ﴾ جمع، ففيها قراءتان سبعيتان، ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ أي: من جنسه، [أي: مثل المذكور من الحميم والغساق ﴿أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي: أصناف، أي عذابهم من أنواع مختلفة]. ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ من جنسه، ﴿أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ أصناف من العذاب يعذبون بها كما أراد الله عز وجل، ويهانون غاية الإهانة، يقرعون ويوبخون، ثم يُمَنَّونَ بالخروج، ترتفع بهم النار حتى يقتربوا من أبوابها ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] وهذا من شدة العذاب. لو أن شخصاً محبوساً، وكان يقرب من الباب، يظن أنه سيخرج فإذا به يرد، فهذا أشد عذاباً عليه مما لو

بقي في مكانه، فهم يُنَوَّع عليهم العذاب أنواعاً عظيمة لا تخطر بالبال، ولا تدور في الخيال.

قال المؤلف: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾: أصناف، أي: عذابهم من أنواع مختلفة. ويقال لهم عند دخولهم النار بأتباعهم ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ جمع ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ داخل ﴿مَّعَكُمْ﴾ النار بشدة، فيقول المتبوعون: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ أي: لا سَعة عليهم ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾﴾ ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الأتباع: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ﴾ أي: الكفر ﴿لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾ لنا ولكم النار] أعوذ بالله ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] انظر كيف العداوة بين أهل النار ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الزخرف: ٦٧] وهكذا المجرمون في الدنيا الذين يوالي بعضهم بعضاً سوف يكونون يوم القيامة أعداء. فلا ولاية لأحد في الآخرة إلا من كان متقياً، هؤلاء هم الذين تبقى ولايتهم، وأما غير المتقين فهم وإن كانوا أولياء في الدنيا فإن ولايتهم في الآخرة تزول نهائياً.

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ الفوج: الطائفة، والغالب أنها تكون للطائفة الكبيرة ﴿مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ أي: داخل بمشقة، لأن الاقتحام لا بد أن يكون هناك ازدحام شديد ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١] أي: صعدها بشدة، هؤلاء أيضاً يدخلون النار بزحام شديد، فهو فوج مقتحم معكم، أي: يقال لهم، إذا دخلوا النار، وهذا من قيل أهل النار بعضهم لبعض، أو من قيل خزنة جهنم للقادة: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾: يعنون الأتباع، داخل معكم النار. فيقول القادة والرؤساء

المتبوعون: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْۚ﴾ أي: لا نريدهم، نتبرأ منهم، ولا تتسع صدورنا ولا أمكنتنا لهم، والمرحب مأخوذ من الرحبة، وهي السعة فيقولون: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْۚ﴾ أي: لا نرحب بهم ولا نريدهم، بل نحن ننابذهم غاية المنابذة ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ۝٥٩﴾ إنهم، أي: هؤلاء الذين اقتحموا معنا ﴿صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ۝٥٩﴾ كما صليناها، فيجيب أتباع هؤلاء الرؤساء المتبوعين، ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْۖ﴾ بل إضراب إبطال، يعني أبطلوا قولهم: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَاۖ﴾ يعني: قدَّمتم لنا الكفر، وسهلتم لنا سلوك سبله، وزينتموه في نفوسنا حتى تبعناكم ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٦٠﴾ لنا ولكم النار. أعوذ بالله كل منهم الآن يتبرأ من الآخر.

يقول الله عز وجل: ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الأتباع: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ۝٦١﴾ [أي: مثل عذابه على كفره في النار]. ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ أي: مَن قدم لنا الكفر، وهم المتبوعون ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ۝٦١﴾ ضعفاً يعني زائداً على عذاب الأصل، يعني عذبهم لكونهم كفروا، وعذبهم لكونهم قدموا لنا هذا الكفر، ولكن هذا ليس إليهم فلكل امرىء منهم ما عمل، وهؤلاء المتبوعون هل أجبروا الأتباع على اتباعهم؟ أبداً لم يجبروهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۝٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨] حكم بينهم بعدله فجازى كل واحد منهم ما يستحق.

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ يقول المؤلف: [﴿وَقَالُواْ﴾ أي: كفار مكة وهم في النار] والصواب: أن المراد بهم كل الكفار. الكفار يرون أن المؤمنين كلَّهم ضالون. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين: ٢٩-٣٢] وليس هذا خاص بكفار مكة، كلُّ الكفار إلى اليوم يرون أن المؤمنين أشرار ضالون. ويصفونهم بأنهم طغاة مفسدون في الأرض، والحقيقة أن الأمر بالعكس. الطغاة المفسدون في الأرض الضالون الظالمون المعتدون هم الكافرون، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] فلا أحد أشد فساداً وعدواناً وظلماً وطغياناً من الكافر، لأنه يتمتع بنعم الله ويبارز الله بالكفر به.

ثم يقول الكفار: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ كنا، أي: في الدنيا ﴿نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ نعدهم يعني باعتقادنا ﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [أي: في الدنيا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾ فلم نرهم؟] يقول بعضهم لبعض: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ ما لنا لا نرى فلاناً وفلاناً الذين كنا نعدهم من الأشرار؟ هل نحن اتخذناهم في الدنيا سخرياً، نسخر بهم ونقول: أنتم الشر، وأنتم الطغاة وما أشبه ذلك، وهم ليسوا كذلك؟ أم أنهم كما تصورناهم في الدنيا وعددناهم من الأشرار وأنهم الآن في النار، لكن أبصارنا زاغت عنهم.

فانظر كيف الاهتمام، يقولون: هل نحن اتخذناهم سخرياً في الدنيا وقلنا: إنهم من الأشرار وهم ليسوا منهم؟ هذا أولاً، وإذا كانوا ليسوا منهم فلن يدخلوا النار، أم أنهم كانوا أشراراً حقيقة، وإن قولنا: إنهم كانوا أشراراً كلامُ جَدٍّ، وهم الآن في النار، ولكن زاغت عنهم أبصارنا؟ والجواب الأول هو الحقيقي.

ولهذا قال الله عز وجل عنهم: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، سقطت لأجلها همزة الوصل، استغناء عنها، واتخذناهم: فعل ماض، وفاعل، ومفعول به أول، وسخرياً: مفعول به ثانٍ، بضم السين «سُخرياً» وكسرها «سِخرياً» أي: كنا نسخر بهم في الدنيا، والياء للنسب فالسخري أقوى من السخر، كما قيل في الخصوص: خصوصية، للدلالة على قوة ذلك، فافهمه، فإنه جيد.

﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [أي: أمفقودون هم ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ مالت ﴿عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾ فلم نرهم؟] والجواب أن يقال: إنكم اتخذتموهم سخرياً وسخرتم بهم، واستهزأتم بهم، ووصفتموهم بالعيب والشر، وهم برآء منه.

قال المؤلف: ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾: مالت ﴿عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فلم نرهم؟ وهم فقراء المسلمين، كعمار وبلال وصهيب وسلمان] هذا بناء على أن القائلين كفار مكة، أما إذا قلنا بالعموم، فكل زمان له أهل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: المشار إليه من كل ما ذكر من تخاصم أهل النار ﴿لَحَقٌّ﴾، أي: أمر ثابت واقع، وهذا تأكيد لخبر الله عز وجل، مع أن خبر الله كلَّه حقّ

وصدقٌ وثابتٌ. والمراد بالحقّ هنا الصدق؛ لأنه إخبار عن أمر سيقع.

وقوله: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ تخاصم: بدل أو عطف بيان لقوله: «حق» والمؤلف ـ رحمه الله ـ قدّره خبراً لمبتدأ محذوف فقال: [وهو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ كما تقدم] يتخاصم الأتباع مع المتبوعين.

الفوائد:

١ ـ **ومن فوائد الآيات**: كمال القرآن في التعليم والتبليغ، وأنه مثاني إذا ذكر المتقون وثوابهم ذكر المجرمون وعقابهم، ولهذا قال: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ الطاغين ضد المتقين لهم شر مآب.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآيات**: أنه ينبغي للداعية إلى الله أن تكون دعوته تارة بالترغيب، وتارة بالترهيب، بل الأفضل أن يجعل دعوته مشتملة على الترغيب والترهيب، وذلك لأنها أي: الدعوة إذا كانت مقتصرة على الترغيب صارت سبباً للأمن من مكر الله، وأن يتمادى الإنسان في معصية الله، ويرجو الله، وإذا كانت مشتملة على الترهيب صارت سبباً للقنوط من رحمة الله، واستبعاد الرحمة، وهذا ضرر، بل ينبغي أن يكون الداعية جامعاً بين هذا وهذا؛ ليحمل الناس على الرجاء وعلى الخوف. ولهذا قال الإمام أحمد: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً، فأيهم غلب هلك صاحبه. وقال بعض أهل العلم: الرجاء والخوف كالجناحين للطائر إن انخفض أحدهما سقط الطائر، وإن تساويا صار طيرانه متزناً.

وقال بعض أهل العلم: ينبغي للإنسان عند فعل الطاعة أن يُغلِّب جانب الرجاء، وعند الهم بالمعصية أن يُغلِّب جانب الخوف، لأنه إذا فعل الطاعة فقد فعل سبب الرجاء، وإذا فعل المعصية فقد فعل ما يكون سبباً للخوف.

وقال بعض العلماء: ينبغي في حال الصحة أن يغلب جانب الخوف، وفي حال المرض أن يغلب جانب الرجاء حتى يموت وهو يحسن الظن بالله عز وجل.

ولعل القول الوسط هو أن الإنسان إذا فعل المعصية أو هَمّ بها غلَّب جانب الخوف، وإذا فعل الطاعة أو هَمَّ بها غلَّب جانب الرجاء. وهذا قول طيب، ولكن ليس قولنا: أن يغلب جانب الرجاء أو الخوف ألا يكون لديه شيء من الطرف الآخر، بل يجمع بين هذا وهذا، لكن الكلام على التغليب.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآيات**: أن الطاغين مآبهم شرّ مآب، بخلاف المتقين فإن مآلهم أحسن مآب. الطاغون مآلهم شر مآب، لأن مآلهم إلى جهنم ـ والعياذ بالله ـ وقد ذكر الله تعالى من أنواع العقوبات في هذه الدار ما يكفي ردعاً للمؤمن عن المعصية.

٤ ـ **من فوائد قوله تعالى**: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ أن من أسماء النار جهنم.

٥ ـ **ومن فوائدها**: أن هؤلاء يصلونها، أي: يقعون في صلاها، أي: حرها الذي لا يمكن أن يبرد أبداً، لكن مع ذلك ورد أنهم يطاف بهم أحياناً في زمهرير شديد البرودة وأحياناً في نار شديدة الحرارة.

٦ ـ **ومن فوائدها**: الثناء بالقدح على هذه الدار، أي: ذمّ هذه الدار، أما الجنة فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠] فمدح دار المتقين، أما هذه فقال هنا: ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٥٦﴾ فأثنى عليها بالقدح والقبح والسوء.

٧ ـ **من فوائد قوله تعالى**: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾ أن أهل النار ـ والعياذ بالله ـ يذوقونه، أي: العذاب، بين حميم وغساق، أي: يسقون ماءً حاراً وصديد أهل النار الغساق ـ والعياذ بالله ـ، والإنسان منهم ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧].

٨ ـ **ومن فوائدها**: تنويع العذاب للطغاة لقوله: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾ أي: أصناف متنوعة من العذاب، وهذه الأصناف مذكورة في الكتاب والسنة فمن أحب أن يراجعها فليراجعها في الكتب المؤلفة في ذلك.

٩ ـ **ومن فوائد الآيات**: أن أهل النار يتنازعون فيما بينهم ويتخاصمون ويتلاعنون، كلما دخل فوج لعن الثاني ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] وهنا يقول الله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ۝٥٩﴾.

١٠ـ **ومن فوائدها**: أن الأتباع والمتبوعين من أهل النار كلهم يكونون في النار، فلا يعذر هؤلاء بتبعيتهم للسادة والكبراء، ولكن هذا ليس على إطلاقه، فإنه قد دلت النصوص على أنه لا يعذب أحد حتى تقوم عليه الحجة، وعلى هذا فيحمل الأتباع هنا على الأتباع

الذين بَلَغَتهم الحجة وبَلَّغتَهم الرسل، ولكن قالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة، ولهذا قال تعالى في الأحزاب: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨] فدل هذا على أن هؤلاء الأتباع قد قامت عليهم الحجة، ولهذا يقولون: ﴿ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾.

١١ـ ومن فوائد هذه الآيات: أن أهل النار يكلم بعضهم بعضاً، وينظر بعضهم إلى بعض، وهم ليسوا أحياء ولا أمواتاً، ليسوا أحياءً منعمين، ولا أمواتاً مستريحين، بل هم أحياء معذبون.

١٢ـ ومن فوائد هذه الآيات: تبرؤ التابع من المتبوع، وبالعكس كما دلت على ذلك آيات سورة البقرة ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

١٣ـ ومن فوائد الآيات: أن أهل النار يتذكرون ما جرى لهم في الدنيا لقوله: ﴿ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ ﴾ وكذلك أهل الجنة يتذكرون ما كان لهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ يقول لصحبه الذين معه في الجنة ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾ رأى قرينه ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ وهو يسمع هذا في أعلى عليين وهذا في أسفل السافلين

يسمع ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥١-٥٧] أي: من المحضرين في العذاب كما أنت محضر في العذاب.

١٤ـ **ومن فوائد هذه الآية**: قصور عقل أهل النار حيث قالوا: ﴿كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ٦٢﴾ لأنهم إذا لم يروهم الآن فهم إما إنهم ليسوا في النار، وإما إن هؤلاء قد زاغت أبصارهم، وقد صرحوا بذلك في قولهم: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٦٣﴾ فيقال: إن الواقع أنكم الآن مقصرون إما في الدنيا وإما في الآخرة، إن كنتم اتخذتموهم سخرياً فهذا تقصير في الدنيا، وإن كانت أبصاركم زاغت عنهم فهذا قصور في الآخرة.

١٥ـ **ومن فوائد هذه الآيات**: أن هذا الخصام الذي يقع بين أهل النار حق لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ﴾ ويتفرع عن هذه الفائدة: أنه يجب على كل أحد أن لا يغتر بالسادة والمتبوعين، بل يكون همه نفسه.

* * *

ثم أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يقول لكفار مكة: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞ﴾ ﴿قُلۡ﴾ لا شك أن الخطاب للرسول ﷺ، وأنه من الخطاب الخاصّ به، لأن الإنذار الذي هو إنذار الرسالة خاص بالرسول ﷺ، وقول المؤلف: [﴿قُلۡ﴾ يا محمد لكفار مكة] وجه التخصيص أن هذه السورة مكية قبل أن يهاجر النبي ﷺ، فيكون الخطاب الموجه إليه بالإعلام بأنه منذر خاصّ بأهل مكة، ولكنه يقال: إن الأولى أن

يجعلها عامة، وأن يقال: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والمكان.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ مخوف بالنار الكفار، فالإنذار بالنار للكفار، والبشارة بالجنة للمؤمنين، لكن المقام هنا يقتضي الإنذار.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾ هذا حصر من أعظم أنواع الحصر؛ لأنه مبني على النفي والإثبات، النفي المؤكد بـ«مِنْ» ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لأن «مِنْ» حرف جر زائد، والزائد يفيد زيادة المعنى في القرآن الكريم، وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي: ما من معبود حقّ إلا الله، وإلا فهناك آلهة تعبد لكن ليست بآلهة حقاً، بل هي أسماء سماها أصحابها ما أنزل الله بها من سلطان، ولهذا لا يعبدونها العبادة الحقة. إذا أصابهم الضر يدعون الله وحده، وهم بلسان حالهم يشهدون بأن هذه الأصنام التي يعبدونها ليست آلهة.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾ أي: ما من إله حق إلا الله خالق السماوات والأرض عز وجل، الواحد الذي لا شريك له، القهار الذي لا غالب له، بل هو قاهر لخلقه. والقهار هنا يجوز أن يكون التضعيف فيها للنسبة، ويجوز أن يكون التضعيف فيها للتكثير فتكون صيغة مبالغة، ويمكن أن نقول: إنها للأمرين جميعاً، فالله تعالى من صفاته اللازمة له أنه قهار، ولكثرة مَنْ يقهرهم مِن الجبابرة يكثر قهره، فتكون هذه للنسبة وللتكثير الذي يسمى المبالغة.

وقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ رب: هذه بدل من ﴿ٱللَّهُ﴾ ويجوز أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف تقديره: هو رب.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ سبق الكلام عليهما كثيراً.

وقوله: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ أي: من المخلوقات العظيمة التي نعلمها والتي لا نعلمها. وقد سبق لنا أن بيّنا أن كون الله تعالى يجعل ما بين السماوات والأرض قسيماً للسماوات والأرض يدل على عظم ما بينهما من المخلوقات التي لم نصل إلى الآن إلى غايتها.

وقوله: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ قال المؤلف: [الغالب على أمره] وهذا أحد معاني العزيز، لأن العزيز له ثلاثة معانٍ: العزيز بمعنى ذي القدر والشرف، والعزيز بمعنى القهر والغلبة، والعزيز بمعنى الذي يمتنع أن يناله السوء، مأخوذ من أرض عزاز، أي: صلبة لا تؤثر فيها الفؤوس. إذاً العزة لها ثلاثة معانٍ: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع، أي: يمتنع أن يناله السوء سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ ٦٦﴾ أي: الكثير المغفرة، ولنا أن نجعلها نسبة، أي: أنه موصوف بالمغفرة دائماً فما أكثر مَنْ يغفر الله لهم، وما أكثر الذنوب التي يغفرها الله عز وجل، وهنا قرن العزة بالمغفرة فاكسب معنى ثالثاً غير العزة والمغفرة، وهو أنه مع عزته وغلبته وقهره هو مع ذلك غفار بخلاف من يتصف بالعزة من المخلوقين فإنه في الغالب تكون عزته تغلب مغفرته، أو من اتصف بالمغفرة فتجد عنده ضعفاً وليس عنده عزة، فإذا اجتمعت العزة والمغفرة حصل من ذلك معنى مركب من اجتماعها، وهو أكمل مما لو انفرد أحدهما، ولا شك أن غلبة المغفرة على العزة فيها نقص، وغلبة العزة على

المغفرة فيها نقص، فإذا اجتمعا جميعاً صار هذا أكمل، أي: أن عزته وغلبته وقهره لا تخلو من المغفرة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية**: أمر النبي ﷺ بإعلان رسالته لقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها**: أنه ينبغي في الكلام مراعاة الحال حيث إن المقام هنا مقام تهديد، فلهذا اقتصر على الإنذار فقط مع أن الله تعالى قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩].

٣ ـ **ومن فوائدها**: توحيد الله تعالى بالألوهية ونفيها عما سواه لقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها**: أن الأسماء لا تغير المسميات، فإن هناك من يسمى إلهاً ولكنه حقاً ليس بإله، ويتفرع عن هذه الفائدة أننا لو سمينا الشيء المحرم باسم حلال فإنه لا يتغير الحكم فيه، ولهذا جاء في الحديث «**أنه يشرب الخمر أناس يسمونها بغير اسمها**»[1] وهذا يدل على أن الأسماء لا تغير المسميات والحقائق.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات الوحدانية لله في قوله: ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾.

٦ ـ **ومن فوائدها**: الرد على النصارى القائلين بأن الله تعالى ثالث ثلاثة، ويتفرع عن هذه الفائدة أيضاً أن دينهم كذب، وأعني

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» ٢٩/ ٦١٥ (١٨٠٧٣)، والنسائي في «المجتبى» ٨/ ٣١٢ (٥٦٧٤).

دينهم الذي يدينون به الآن، لأن عيسى عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يأتي بآلهة متعددة، ولهذا يقول له الله عز وجل: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات القهر التام لله عز وجل لقوله: ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ وهذا يستلزم للمؤمن به أن يخاف من الله عز وجل من قهره، ويستلزم أيضاً تقوية المؤمن الواثق بالله في قهر أعدائه، لأنك إذا وثقت بأن الله هو القهار، وأن الله معك لكونك أتيت بالأوصاف التي تستوجب معية الله لك، فإن هذا يقوِّيك على عدوِّك، وتعلم أن هذا العدو لا بد أن يكون مقهوراً بقهر الله عز وجل.

٨ ـ **وفي قوله عز وجل**: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ إثبات عموم ربوبية الله عز وجل لقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ لأن السماوات والأرض وما بينهما هي كل الكون الذي نعلم به، ولعل العرش والكرسي داخل في السماوات من حيث العلو.

٩ ـ **ومن فوائدها**: إثبات اسمين من أسماء الله وهما: العزيز والغفار، وإثبات ما تضمناه من الصفة مجتمعين ومنفردين، وهما أي: العزة والمغفرة مجتمعين أقوى وأشد وأعظم في كمال العزة والمغفرة.

ثم يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ هو، أي: النبأ الذي أنبأتكم به والذي جئت به منذراً؛ نبأ عظيم، والنبأ بمعنى الخبر، لكنه لا يكون إلا في الأمر الهام. قال الله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١-٢] ووصف الله هذا النبأ بأنه عظيم، وهو القرآن، وقد وصف الله القرآن بأنه عظيم وكريم ومجيد؛ لأنه يتصف بهذه الصفات، ومن أخذ به نال من هذه الأوصاف بقدر ما أخذ به.

﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ جملة استئنافية يراد بها لفت الانتباه إلى فداحة ما يرتكبونه من جريرة الإعراض عن ذلك النبأ، وهو القرآن، وشدة الشناعة على هؤلاء المكذبين لرسول الله ﷺ فهم مع هذا النبأ العظيم لم يقبلوا عليه، بل أعرضوا عنه، ولم يلتفتوا إليه، ولم يقيموا له وزناً.

﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ يعني هذا النبأ العظيم لا يمكن أن آتي به من عند نفسي، لأنه ليس لي علم بالملأ الأعلى، يعني: الملائكة فهم ملأ لكنهم فوق، إذ إن الأصل في مساكنهم السماوات، ولكن ينزلون إلى الأرض لأداء الوظائف التي كُلِّفوا بها ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ قال المؤلف: [أي: الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ في شأن آدم حين قال الله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ﴾ [البقرة: ٣٠]] والصحيح أن معنى الآية أعم مما قاله المؤلف، لأن ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ

﴿بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ في شأن آدم، وفي الدرجات العُلى وغيرها مما يختصم فيه الملائكة، ويرجعون فيه إلى الله.

قال المؤلف: [﴿إِن﴾: ما ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠﴾ أي: أني ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ بين الإنذار]. نقول: إنما أفادنا المؤلف أن «إنْ» هنا نافية، وهو أحد معانيها، دل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَنَّمَآ﴾ أي: أني ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ قوله؛ [أي: أني] تفسير لـ﴿أَنَّمَآ أَنَا۠﴾ لأن أصله أني، لكن دخلت ما الكافة على «أن» فأبطلت عملها. ثم لما دخلت عليها لزم أن ينفصل الضمير المتصل، دخلت (ما) على (أن) ففصلت بين (أن) والضمير، والضمير المتصل إذا وجد ما يفصله عما اتصل به صار منفصلاً، فهنا تكون ﴿أَنَا۠﴾ هي الياء في قول المؤلف: [أني].

قوله: ﴿إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠﴾ هذه الصيغة تكون أشد تأكيداً للحصر، لأن الحصر استنفدناه من قوله: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠﴾ واستثناه أيضاً من قوله: ﴿أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ فحُصِرَ حال النبي عليه الصلاة والسلام بأنه نذير مبين، وهذا الحصر حصر إضافي، أي: إنما أنا في هذه المسألة خاصّة، وهو الوحي، نذير مبين، وإلا فإنه بشر ينسى ويأكل ويشرب ويبشر، فالحصر إذاً إضافي بحسب السياق. وقوله ﴿مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ قال المؤلف: [بيّن الإنذار] والصواب: مُظهِر، وليست من أبان اللازم، بل هي من أبان المتعدي؛ لأن كلمة أبان تكون لازمة، كما تقول: أبان الصبح، أي: ظهر، وتكون متعدية، كما لو قلت: هذا مبين لهذا، أي: مظهر له، فالصواب: أن مبين هنا بمعنى مُظهِر.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآيات**: عظم ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام من الوحي، وأنه نبأ عظيم، وهذا كقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ [النبأ: ١-٣].

٢ ـ **ومن فوائدها**: أنه متى عَظُمَ هذا النبأ العظيم، عَظُمَ مَن يأخذ بهذا النبأ لأنه أساس ومنهاج وطريق، فإذا عظم، عظم الآخذ به، ولهذا كانت الأمة الإسلامية عظيمة مرموقة مهيبة حين كانت آخذة به.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: القدح في من أعرض عن هذا النبأ العظيم لقوله: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾ يعني كيف يليق بكم أن تعرضوا عنه مع أنه نبأ عظيم؟!

٤ ـ **ومن فوائد قول الله عز وجل**: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩﴾ نفي علم الرسول ﷺ بالغيب سواء كان مستقبلاً أم حاضراً ولكنه غائب عنه لقوله: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ نفي علم بملأ موجود لكنه غائب عنه، فإذا كان لا يعلم الغائب الموجود، فالغائب عنه المنتظر من باب أولى.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الملأ الأعلى وهم الملائكة عليهم السلام.

٦ ـ **ومن فوائدها**: بيان علو مرتبة الملائكة، كما أن مكانهم كذلك عال، لأنهم في السماوات، كما قال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦] وعلو المرتبة فيهم اختلف العلماء هل هي أعلى من البشر الصالحين أم صالحوا البشر أعلى من الملائكة وأفضل؟ فمنهم من قال: إن الملائكة أفضل، ومنهم من قال: إن صالحي البشر أفضل، والنزاع هنا قليل الفائدة، لأننا نعلم أن الملائكة لهم خصائص لا يلحقهم فيها البشر، وللبشر خصائص لا يلحقهم فيها الملائكة، فالتفضيل على الإطلاق لا يصح، لأن هؤلاء لهم ميزة وهؤلاء لهم ميزة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن الملائكة أفضل باعتبار كمال البداية؛ لأنهم خلقوا من نور، والنور أكمل وأفضل من الطين والتراب، وإن البشر أفضل باعتبار النهاية، لأن البشر يكونون في رحمة الله، والملائكة أنفسهم يدخلون عليهم من كل باب يهنئونهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٤].

ولكن الذي أرى أنه ينبغي أن يقال: إن التفضيل ليس باعتبار البداية والنهاية بل باعتبار بعض الخصائص التي تكون لهؤلاء دون هؤلاء.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات أن الملائكة عليهم السلام ذوو عقول لقوله: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

٨ ـ **ومن فوائدها**: إثبات المناظرة والمخاصمة بين الملائكة، كما هي أيضاً تكون بين الرسل وأقوامهم، وبين أتباع الرسل بعضهم مع بعض.

٩ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٧٠﴾ إثبات الرسالة للرسول ﷺ لقوله: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ والوحي يكون للرسول إذا كان أوحي إليه أن ينذر الناس ويبشر الناس، ولكن الوحي يكون أحياناً بالإلهام كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا﴾ [النحل: ٦٨] فهذا وحي إلهام، وكما في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ [القصص: ٧] هذا أيضاً وحي إلهام وليس وحي نبوة وإرسال.

١٠ـ **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات أن الرسول ﷺ نذير.

١١ـ **ومن فوائدها:** أن الرسول ﷺ مبين لكل ما أنذر به؛ لأن معنى مبين مظهر للحق والوحي الذي جاء به.

١٢ـ **ومن فوائدها:** أنه لا يمكن أن يكون في شريعة النبي عليه الصلاة والسلام شيء مجهول أبداً، بل كل ما جاء به فهو بيِّن، لكن الجهل أمر نسبي قد يكون المجهول شيئاً معيناً لبعض الناس، وهو بيِّن معلوم لأناس آخرين.

* * *

﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١﴾ قال المؤلف: [اذكر ﴿إِذۡ قَالَ﴾] فأفادنا رحمه الله أن ﴿إِذۡ قَالَ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: اذكر ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١﴾ هو آدم، وقوله: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا﴾ بشراً: مفعول به لخالق لاستكمال شروط العمل [﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ﴾: أتممته ﴿وَنَفَخۡتُ﴾: أجريت ﴿فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ فصار

حيّاً. . .] إلى آخره. قال المؤلف: [﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أجريت] وكأنه ـ رحمه الله ـ أَوَّلَ النفخَ بالإجراء، ولكن هذا خلاف ظاهر الآية، فظاهر الآية أن الله تعالى نفخ فيه من روحه، وهذا النفخ نثبته على ظاهره، لكن بدون أن يكون مماثلاً لنفخ المخلوقين. وتفسيره بالإجراء تفسير باللازم؛ لأنه إذا نفخ فيه الروح لزم أن تجري في البدن وتسري فيه.

وقوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾ قال المؤلف: [إضافة الروح إليه تشريف لآدم] يعني من روحي، ليس المراد من جزء مني، ولكن المراد من روحي، أي: من الأرواح التي خلقتها، وأضافها الله إلى نفسه تشريفاً وتعظيماً، كما أضاف البيت إليه في قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦] وكما أضاف المساجد إليه في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٤] وكما أضاف الناقة إليه في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣] فالمضاف إلى الله إذا كان مخلوقاً فإن إضافته إليه تكون من باب التشريف والتعظيم، إذا كان هذا خاصّاً، أما إذا كان عامّاً فهو من باب الشمول والعموم، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

ثم قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ قال المؤلف: [والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه] لو قال المؤلف: يحيا به الكائن الحي لكان أعم، لأن الإنسان له روح، والبهائم لها روح، وقول المؤلف: [جسم لطيف] أما كونه جسماً فلأنه ثبت في القرآن الكريم أنها تقبض وتتوفى، وثبت في السنة أنها تكفن، تلف في الكفن

إما من الجنة أو النار[١]، وهذا يدل على أنها جسم، لكنه جسم لطيف لا يرى بالعين، إذا حلَّ في الجسد حَيِيَ، وإذا فقد من الجسد صار الجسد جماداً.

ونحن نشاهد مما يصنعه الآدمي ما يكون مثل هذا، إذا كان عندك سالب وموجب في الكهرباء واتصل بعضهما ببعض يسري التيار الكهربائي في المصباح الكهربائي فيضيء، والتيار الكهربائي شيء لا يرى بالعين، وإذا فقد أو قطع التيار أظلم المصباح. هذا وهو من صنع البشر، فكيف بالأمور الخارقة التي لا يعلمها إلا الله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]. وهذا الذي فسر المؤلفُ الروحَ به هو أحسن ما قيل في تفسير الروح.

يقول الله تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ قعوا: فعل أمر، والوقوع معناه: خروا على الأرض ساجدين، قال المؤلف: [سجود تحية بالانحناء] أما قوله: سجود تحية، فلا شك أن هذا هو المراد، يعني لا سجود عبادة، وأما قوله: بالانحناء ففيه نظر؛ لأن السجود هو الوقوع على الأرض، وهو ظاهر الآية، ولكن يقال: إن هذا السجود تحية كان جائزاً، ولكنه نسخ بعد ذلك ﴿سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ محلها من الأعراب حال من الفاعل في قعوا.

قال الله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [فيه تأكيدان] وهما: كل وأجمعون ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ قال المؤلف: [هو أبو

---

(١) انظر حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، أخرجه الإمام أحمد في «المسند» ٣٠/ ٤٩٩-٥٠٣ (١٨٥٣٤).

الجن كان بين الملائكة] قوله: هو أبو الجن دليله قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠] والدليل على أنه من الجن قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] إذن فالجن ذرية الشيطان، والإنس ذرية آدم. نعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

قال المؤلف: [﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ كان بين الملائكة] ولم يقل المؤلف: كان من الملائكة، لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] إذن هو كان بينهم، ومن كان بين الناس فهو من الناس، قال النبي ﷺ: «**إن مولى القوم من أنفسهم**»(١) فهذا إبليس كان مع الملائكة يتعبد بعبادتهم فصح أن يشمله الخطاب الموجه إلى الملائكة، ولهذا لامه اللهُ على عدم السجود، فدلَّ على أن الخطاب كان شاملاً له.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [في علم الله]، قول المؤلف: [في علم الله] بناء على أن «كان» تدل على المضي، ولكنه قد مرَّ علينا أن «كان» قد تكون مسلوبة الدلالة على الزمان، ويكون المراد بها الاتصاف بخبرها، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] المعنى اتصف بالرحمة. إذاً نقول في هذه الآية ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: واتصف بالكفر، ولا حاجة أن نقول: كان

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» ٣٩/ ٣٠٠ (٢٣٨٧٢)، وأبو داود، كتاب الزكاة، باب الصدقة على بني هاشم (١٦٥٠)، والترمذي، باب ما جاء في كراهية الصدقة للنبي ﷺ وأهل بيته ومواليه (٦٥٧).

في علم الله، لأننا نقول: إن «كان» هنا مسلوبة الدلالة على الزمن فالمراد بها مجرد الاتصاف.

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾ الفاعل في قال هو الله، لأنه قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢﴾ قال: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ يعني: أي شيء منعك؟ وهذا الاستفهام للتوبيخ والتعجب. يعني كيف تمتنع لمن خلقته بيدي، فالله تعالى خلق آدم بيديه، وهذا شرف له، وأمر الملائكة، وكان بينهم إبليس، بالسجود له تشريفاً له، فما الذي منعك أن تسجد؟

قال المؤلف في تفسير قوله: ﴿بِيَدَيَّۖ﴾ [أي: توليتُ خَلْقَه، وهذا تشريف لآدم، فإنَّ كلَّ مخلوق تولّى الله خَلْقَه] عفا الله عنك أيها المؤلف يقول: [توليتُ خَلْقَه] فراراً من إثبات اليد لله، ولا شك أن هذا تحريف، وأجاب عن الإضافة في قوله: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ بأن هذا تشريف لآدم، وإلا فكل مخلوق فإن الله قد تولى خَلْقَه.

وبناء على كلام المؤلف لا يبقى لآدم عليه السلام فضل على سائر المخلوقات ما دمنا نفسر ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ أي: توليتُ خَلْقَه فإن الله تولى خلق بني آدم، وخلق الإبل والبقر والغنم وغير ذلك، فلم يبق لآدم فضل على أي أحد، بل لم يبقَ لآدم فضل على الشيطان الذي أبى أن يسجد، لأن الشيطان تولَّى خلقه اللهُ عزّ وجلّ، ولهذا نقول إن المؤلف: أخطأ في هذا، وأن معنى الآية: أن الله تعالى خلقَ آدمَ بيده، وخلق غيرَ آدم من الشياطين والملائكة بكلمته، أي: بقول

كن، أما آدم فبيده، وهذا هو وجه الميزة والخصيصة لآدم عليه السلام أن الله خلقه بيده.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ [الآن عن السجود؟ استفهام للتوبيخ ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥﴾ المتكبرين، فتكبرت عن السجود] مع الذين منزلتهم فوق، لأن الذي يأبى إما أن يكون في مكان أرفع فيكون مستحقاً للإباء، أو يكون مستكبراً وموضعه دُونٌ، فيجعل نفسه في محل عالٍ، والله يقول له: هل أنت مستكبر أو أنك عالٍ في مرتبة أعلى من آدم، بل أعلى ممن أمرك ما الجواب؟

قال المؤلف: [﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥﴾ المتكبرين، فتكبرت عن السجود لكونك منهم] أي: من العالين، وأما قول المؤلف: إن العالين هم المتكبرون فإنه يؤدي إلى أن لا يكون فرق بين المتقابلين، لأنه قال: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥﴾ ولم يقل: من المتكبرين، ولذلك يعتبر تفسير المتعالين بالمتكبرين خطأ بل ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥﴾ أي: الذين علت منزلتهم بحيث لا يوجه إليهم الأمر بالسجود لمن هو دونهم، فإباء الشيطان عن السجود لآدم إما أن يكون لوصف يستحقه، وهذا يدل عليه ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥﴾ أو لوصف لا يستحقه ولكنه استكبر، ورأى نفسه كبيراً، وهذا في قوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾.

قال الشيطان جواباً على سؤال الله تعالى: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾، ﴿خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ من آدم، وهذه دعوى، وكل

إنسان يضيف الشيء إلى نفسه فإنه مدع، وهذه قاعدة في الفقه، والمدعي عليه البينة. أتى إبليس ببينته فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ ولهذا نقول الجملة هنا استئنافية لبيان وجه الخيرية ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾، سبحان الله، الذي يُخلَق من النار خير من الذي يُخلَق من الطين، مع أن النار التي خُلِق منها الشيطان ليست هي ناراً مضيئة إنما هي ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥] أي: النار التي تكون في أعلى اللهب بين الدخان وبين النار المضيئة، حمراء معتمة، إنه اللهب المختلط بسواد النار، هذا المخلوق من هذه النار أيكون خيراً من المخلوق من الطين البارد النافع؟ سبحان الله، هذا قلب للحقائق، ولهذا نقول: هذه دعوى مستندة إلى بينة زائفة باطلة. الدعوى ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ والبينة ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ وهذه ليست بينة، هذه حجة عليه وليست حجة له، وقد ذكر أهل العلم في هذا المقام بيان أن ما خُلق منه آدم خير مما خُلق منه إبليس.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ قيل: من الجنة، وقيل: من السماوات. والملائكة كلهم في الجنة في السماوات ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من السماوات هو أقرب للفظ. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ رجيم، أي: مرجوم فهي فعيل بمعنى مفعول، ومعنى مرجوم، أي: مطرود مُبعَد، كما يبعد الإنسان إذا رجم، ومن المعلوم أن الرجل إذا أردنا أن نبعده كثيراً صحنا به أولاً، فإذا هرب أتبعناه الحجارة فكان هذا أشد إبعاداً.

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ حاقة عليك لعنة الله، أي: طرده وإبعاده ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ يوم الجزاء، وبعد يوم الدين لا تزول اللعنة لكنها إذا امتدت إلى يوم الدين فمعناه أنه قانط من رحمة الله، لا يمكن أن يُرحم. والذي تبقى معه اللعنة إلى يوم الدين لا يمكن أن تناله الرحمة.

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ أي: الناس ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾ طلب من الله أن يُنظِرَه إلى يوم بعث الناس، فهل أجابه الله إلى طلبه؟ أجابه الله إلى يوم الوقت المعلوم، قال المؤلف: [وقت النفخة الأولى] أي: قبل البعث، لأن الناس لا يبعثون إلا في النفخة الثانية، لكنهم يصعقون في النفخة الأولى، وهو أي: الشيطان إنما يريد أن يبقى حتى لا يبقى من بني آدم أحد، لأنه صار في نفسه غِلّ وحِقْد عظيم على آدم وذريته، كيف أُمر أن يسجد له؟ وكيف حكم بكفره لما أبى؟ صار في نفسه غِلّ وحِقْد، فسأل الله أن يبقيه إلى يوم البعث، فأجابه الله أن يبقى إلى يوم الوقت المعلوم، وإجابة الله إياه لحِكَم عظيمة نذكرها إن شاء الله مع الفوائد.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ يحتمل أن تكون الباء للقسم، ويحتمل أن تكون للاستعانة، فإن قلنا: إنها للقسم فقد أقسم بعزة الله، واختياره الإقسام بالعزة؛ لأن العزة فيها الغلبة، فأقسم بوصف لله يكون به

الغلبة، وإن قلنا: إنها للاستعانة فظاهر أن الاستعانة بعزة الله التي إذا أعان الله بها العبد غلب. ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ اللام الواقعة في جواب القسم في قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ تؤيد أن الباء هنا للقسم؛ لأن هذا هو جواب القسم، وأغوينهم، أي: أسلك بهم طريق الغي، وهو خلاف طريق الرشد ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ﴾ أي: من بني آدم ﴿الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ الذين أخلصتهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ ﴿قَالَ فَالْحَقُّ﴾ الحق: مبتدأ لأنه متضمن معنى القسم بدليل أنه أُخبر عنه بجواب القسم وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ وقد أعربه المؤلف فقال: [بنصبهما ورفع الأول ونصب الثاني] ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ فَنَصْبُهُ بالفعل بعده، أي: أن ﴿وَالْحَقَّ﴾ مفعول مقدَّم لأقول، أي: لا أقول إلا الحقّ، وتقديم المفعول أفاد الحصر، [ونصب الأول، قيل: بالفعل المذكور، وقيل: على المصدر، أي: أُحِقُّ الحقَّ، وقيل: على نزع حرف القسم، ورفعه على أنه مبتدأ محذوف الخبر، أي: فالحقُّ مني، وقيل: فالحقُّ قسمي، وجواب القسم ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾].

إعرابات متعددة بنصبهما، نقول الثاني نصبه بالفعل بعده وهو واضح ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ لأن الفعل بعده لم يستكمل مفعوله، ولم نجد مفعولاً له إلا الحق الذي سبق، إذاً الحق الثانية منصوبة بأقول

على كل حال، والخلاف في الأولى، الأولى إما منصوبة وإما مرفوعة، نصبها فيه أوجه: قيل: بالفعل المذكور، أي: فالحقَّ أقول والحقَّ أقول، فيكون الحق الأولى والثانية منصوبة بأقول، كما لو قلت: زيداً وعَمْرَاً ضربتُ، فزيداً وعمراً منصوبان بضربت، إذن الحق، والحق منصوبان كلاهما بأقول، وقيل على المصدر أي: فأُحقُّ الحقَّ، وعلى هذا فيكون مصدراً عامله محذوف تقديره: فأحق الحق، وقيل: على نزع حرف القسم، يعني فبالحق أقسم؛ لأنه إذا نزع الخافض نصب المخفوض، ولهذا يرد كثيراً قولهم: منصوب بنزع الخافض، هذه ثلاثة أوجه، ورفع (الحقُّ) الأولى على أنه مبتدأ محذوف الخبر، أي: فالحقُّ مني، وهذا ضعيف، وقيل: فالحق قسمي، وهذا أقل ضعفاً من الأول، والذي يظهر لي أنه لا حاجة إلى هذا، والأحسنُ أن نقول: الحقّ: مبتدأ ضُمّن معنى القسم، وأجيب بقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ وصار في جواب القسم كفاية عن خبر المبتدأ، واستغني بجواب القسم عن خبر المبتدأ كما يستغني بجواب القسم عن جواب الشرط فيما إذا اجتمع شرط وقسم.

قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ المراد الجنس ولهذا قال المؤلف: [بذريتك ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي: الناس] الذين أقسمت أن تغويهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾. ولهذا كانت النار داراً لصنفين من المخلوقات فقط، وهما الجن والإنس، فالملائكة ليسوا من أهلها، والوحوش والحشرات وغيرها ليسوا من أهلها، لا يدخل النار إلا صنفين من المخلوقات، وهما الناس والجن.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآيات:** إثبات الكلام لله عز وجل لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ﴾ وإثبات أن كلامه بصوت مسموع تسمعه الملائكة في هذه القصة، وإثبات أنه بحرف، أي: بحروف متتابعة يتبع بعضها بعضاً لقوله: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١﴾ وكل هذا تأكيد لمذهب أهل السنة والجماعة، وفي هذا إثبات أن الكلام يتعلق بمشيئته.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآيات:** إثبات الخلق لله تعالى وأنه متعلق بمشيئته لقوله: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ أي: سأخلقه.

٣ ـ **ومن الفوائد:** إثبات أن أصل بني آدم هو الطين، ولهذا جاءت طبائع بني آدم وألوانهم مختلفة كاختلاف الأرض، أو كاختلاف تربة الأرض فيها السهل واللين، والأحمر والأبيض والأسود، والحزن والصعب، لأنهم خلقوا من هذه التربه فصار اختلافهم كاختلاف الأصل الذي خلقوا منه.

وقلنا هنا: إن في هذه الآية إثبات أن بني آدم خلقوا من الطين، وفي آيات أخرى أنهم خلقوا من التراب، وفي آية ثالثة من صلصال كالفخار، ولا منافة بين هذه الآيات، لأن التراب أصله طين، والطين أصل الصلصال الذي كالفخار، فالتراب يصير طيناً وحين يمكث مدة يتحجر فيكون صلصالاً.

٤ ـ **ومن فوائد الآيات:** إثبات الأفعال لله تعالى لقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ وأن أفعاله تتعلق بمشيئته، لأن (إذا) شرطية تفيد المستقبل.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أن الله تعالى أتم خلق آدم فسواه كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

٦ ـ **ومن فوائدها**: تشريف الروح التي نفخت في آدم عليه السلام لقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ وهذا تشريف من وجهين:

الأول: أن الله هو الذي نفخها ولم يأمر أحداً من الملائكة بنفخها.

والثاني: أن الله أضاف هذه الروح إلى نفسه المقدسة.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: أن العبادة طاعة الله على أي وجه كانت، حتى وإن كانت محرمة في وقت من الأوقات لقوله: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ فالسجود لغير الله علامة شرك، لكن لما أمر الله به صار طاعة، والاستكبار عنه كفر.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: جواز تعليق الأمر بالشرط لقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي: إذا جاز تعليق الأمر بالشرط فإن المأمور به يمكن أن ينفذ فيه الشرط، ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام لضُباعة بنت الزبير وقد اشتكت إليه عند إرادة الحج قال: «**حُجِّي واشترطي أن مَحِلّي حيث حبستني**»[1] «**فإن لكِ على ربِّكِ ما استثنيتِ**»[2].

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أن الملائكة عليهم السلام ذوو عقول يصح توجيه الخطاب إليهم وائتمارهم لقوله: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين (٥٠٨٩)، ومسلم، كتاب الحج، باب جواز اشتراط المحرم (١٢٠٧).

(٢) أخرجه النسائي في «المجتبى»، كتاب مناسك الحج، كيف يقول إذا اشترط ٥/١٦٨ (٢٧٦٥).

١٠ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أن الملائكة كلهم سجدوا؛ لأن الآية عامة مؤكد عمومها بمؤكدين وهما: كل وأجمعون في قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

١١ـ **ومن فوائد الآية:** جواز توجه الأمر (الخطاب) إلى العموم، وإن كان فيهم من غير جنسهم، لقوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ فإن إبليس بلا شك أنه من غير الملائكة أصلاً ونهاية، لكنه كان فيهم، فصح أن يتوجه الخطاب إليه، وهذا ظاهر. لو أنك أمرت جماعة بالسجود، وفيهم من ليس منهم، ولكنه على صفتهم، ويعمل بعملهم، فتخلف لا بد أن تلومه، لأن الخطاب موجه للجميع.

١٢ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن الاسم قد يحمل معنى المسمى، لأن إبليس يبدو أنه اسم عربي من الإبلاس، وهو اليأس لأنه أيس من رحمة الله عز وجل، وردّ بأنه لو كان عربياً لانصرف.

١٣ـ **ومن فوائد هذه الآية:** ذم الاستكبار عن أمر الله لقوله: ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾؛ لأن الاستفهام في قوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ للتوبيخ وذم الاستكبار.

١٤ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن الاستكبار عن أمر الله كفر لقوله: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ جزاء لاستكباره كان من الكافرين. وفرع بعض العلماء على هذا أن تارك الصلاة يكون كافراً، لأن إبليس كفر، لأنه ترك سجدة، فما بالك بالذي يترك سجدات وركوعات وقياماً وقعوداً، وهذا ليس بعيد، أي: أن الاستدلال بهذه الآية على كفر تارك الصلاة ليس ببعيد.

١٥ـ **ومن فوائد هذه الآية**: توبيخ إبليس لترك السجود لمن شرفه الله عز وجل وأمره بالسجود له لقوله: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾.

١٦ـ **ومن فوائدها**: أن كلام الله تعالى يتعلق بمشيئته حيث صدر هذا القول بعد استكبار إبليس وتركه السجود.

١٧ـ **ومن الفوائد**: إثبات اليدين لله تعالى لقوله: ﴿بِيَدَيَّۖ﴾ وهذه صيغة تثنية تفيد أن لله يدين اثنتين تليق بجلاله.

١٨ـ **ومن فوائدها**: شرف آدم عليه السلام من حيث إن الله خلقه بيديه وفضله على غيره بهذا، إلا أنّ أهل العلم يقولون: إن الله غرس جنة عدن بيده وكتب التوراة بيده.

١٩ـ **ومن فوائد هذه الآية**: الرد على أهل التعطيل الذين قالوا: إن المراد باليد النعمة أو القوة، وذلك أن النعمة أو القوة لا تأتي بصيغة التثنية، لأن صيغة التثنية تدل على الحصر، وقوة الله غير محصورة، ونعمه أيضاً غير محصورة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل: ١٨].

٢٠ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أن يد الله لا تماثل أيدي المخلوقين، لأن الله أضافها إلى نفسه، والمضاف يكون حسب المضاف إليه، فكما أن ذات الله مقدسة لا تماثل ذوات المخلوقين، كذلك صفاته.

٢١ـ **ومن فوائد هذه الآية**: استعمال الحصر، أو كما يقولون: السبر والتقسيم في المناظرة والمجادلة لقوله تعالى: ﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ

مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ وقد سبق تفسيرها. بأن المعنى: هل أنت استكبرت في نفسك، وأنت لست أهلاً للعلو، أو كنت عالياً في أصلك حتى تمتنع عن السجود، أم أنت أكبر وفي مرتبة عالية أعلى من آدم حتى تمتنع عن السجود؟

٢٢ـ **ومن فوائدها**: تنزيل الأشياء منازلها كقوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ لأن العالي إذا كان عالياً على غيره فإنه لا يمكن أن يُنزَّل حتى يكون أنزل مِن غيره، بل كل أحد يُنزَّل في منزلته.

٢٣ـ **ومن فوائدها**: بيان الدعوة الكاذبة التي ادعاها إبليس في قوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾.

٢٤ـ **ومن فوائدها**: أن الإنسان قد يعمَى عن الحق فيستدل بما هو حجة عليه، يظن أنه حجة له لقوله: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾.

٢٥ـ **ومن الفوائد**: أن من قدَّم العقل على السمع فإنما هو متبع لخطوات الشيطان، لأن الشيطان قدَّم ما يدعي أنه عقل على السمع فأخطأ في ذلك، فهكذا كل من قدم العقل على السمع سواء في العلميات وهي علم العقائد، أو في العمليات فإنه مشابه لإبليس، متبع لخطواته، واعلم أن كلَّ بليه تقع من تحريف الكلم عن مواضعه، والاستكبار عن عبادة الله وغير ذلك فأصله من إبليس.

٢٦ـ **ومن الفوائد**: إقرار إبليس بأن الله هو الخالق لقوله: ﴿خَلَقْتَنِى﴾ ﴿وَخَلَقْتَهُۥ﴾.

٢٧ـ **ومن الفوائد في هذه الآية**: أن إبليس كان قد أقر بانحطاط منزلته عن الربوبية لقوله: ﴿خَلَقْتَنِي﴾ والمخلوق لا يمكن أن يكون رباً.

٢٨ـ **ومن الفوائد في الآيات**: أن إبليس أعلم بحقائق صفات الله تعالى من كثير من أهل التعطيل، فالذين فسروا اليد بالقوة هنا لو كان تفسيرهم صحيحاً لقال إبليس: يا رب وأنا خلقتني بيديك، لأن الله خلق إبليس بقوته كما خلق آدم، لكن إبليس فهم أن المراد باليد غير القوة، ولهذا لم ينقض فضيلة آدم بأنه هو خُلِق بيد الله.

٢٩ـ **ومن فوائدها**: أن إبليس في استكباره وإبائه صار مستحقاً للطرد والإبعاد ولهذا قيل له: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

٣٠ـ **ومن فوائدها**: أن إبليس لما أُخرج أُبلغ بأنه مرجوم، والرجم زيادة على الطرد.

٣١ـ **ومن الفوائد**: أن إبليس ملعون لقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ وفي آية أخرى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر: ٣٥] فهل نقول: إن اللعنة المطلقة في قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ هي المقيدة في قوله هنا: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ أو نقول: إن اللعنة هناك أعم فعلى إبليس لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، يحتمل هذا وهذا، يحتمل أن نأخذ بالمطلق؛ لأنه أعمّ، ويحتمل أن نحمل المطلق هناك على المقيد هنا.

٣٢ـ **ومن الفوائد في الآية**: أننا لا ندعو على إبليس باللعنة، لأنه قد استحق هذه اللعنة بأمر الله أو بخبر الله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ فلا

حاجة إلى أن تقول: إبليس لعنه الله، لأنه ملعون. وقد قال ابن القيم رحمه الله على قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**إن الشيطان يتعاظم في نفسه إذا قيل: تعس الشيطان**»(١) قال: إن مثل ذلك إذا دعي عليه باللعنة والتقبيح وما أشبه ذلك، فإنه يتعاظم في نفسه، أي: كأنه لم يُقدَّر عليه ذلك، فإذا كان قد قُدِّرَ عليه فلا حاجة أن أدعو الله عليه، ولكن أستعمل ما أمرني الله به في قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]. فإن قيل: أليس النبي ﷺ قال لإبليس لما جاءه في الصلاة بشهاب من نار ليجعله في وجهه، قال: «**أعوذ بالله منك**» ثلاث مرات، ثم قال: «**ألعنك بلعنة الله**»(٢).

فالجواب: بلى، لكن الرسول قيدها فقال: «**ألعنك بلعنة الله**».

٣٣ـ ومن الفوائد في هذه الآية: إثبات الجزاء لقوله: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨﴾ والدين هنا بمعنى الجزاء.

٣٤ـ ومن الفوائد في هذه الآيات: أن الله أجاب طلب إبليس ودعاءَه لكن لا ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩﴾ بل ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١﴾ ويوم الوقت المعلوم، هو يوم موت الناس أجمعين حين ينفخ في الصور فيصعقون جميعاً.

٣٥ـ ومن الفوائد في هذه الآيات: أن الله قد يقدر أسباب الشر لحكمة، وذلك بإجابة دعاء إبليس أن ينظره إلى يوم الوقت المعلوم،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» ٣٤/ ١٩٨ (٢٠٥٩١).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب المساجد، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة (٥٤٢) (٤٠).

وإبليس لا شك أنه مبدأ كل شر، ولكن الله تعالى أبقاه لحكمة عظيمة، ولولا بقاء إبليس ما وجد عاص في الأرض، وإذا انتفى العصيان صار الناس أمة واحدة، ولم يكن الإيمان مزية، ولم يكن جهاد ولا أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر، ولو كان الناس أمة واحدة لتعطل كثير من شعائر الإسلام، فكان من الحكمة بقاء إبليس، وبقاء ما يدعو إليه إبليس.

٣٦ـ ومن فوائد هذه الآيات: معرفة إبليس بالله حيث أقسم بعزة الله أن يغوي بني آدم لقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾.

٣٧ـ ومن فوائدها: أن من أسباب الإعانة أن يستعين الإنسان بما يناسب المقام من أسماء الله وصفاته، لأنه لم يقل: فبمغفرتك لأغوينهم، لو قال: فبمغفرتك لم يناسب المقام، لأنه يريد أن يتسلط والسلطة يناسبها من الصفات العزة دون المغفرة.

٣٨ـ ومن فوائد هذه الآيات: أن إبليس وعد متوسلاً بعزة الله أن يغوي جميع بني آدم. ويتفرع عن هذه الفائدة أنه يجب الحذر من إبليس ووساوسه، فإذا قال قائل: ما الذي يُعلمني بوساوس الشيطان؟

الجواب سهل: كل شيء يأمرك بمنكر فهو من إبليس، وكل ما يثبِّطك عن الخير فهو من إبليس، فاحذر. فإذا وجدت في نفسك تأخراً في الخير فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وإذا وجدت في نفسك إقداماً على الشرِّ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

٣٩ـ ومن فوائد هذه الآيات: مزية عباد الله تعالى المخلصين حيث سَلِمُوا من إغواء إبليس.

٤٠ـ ومن فوائدها: أنه كل من كان لله تعالى أعبد كان أشد عصمة من الشيطان ووساوسه، لأنه استثنى من إغواء بني آدم عباده المخلصين، والمعلَّق بوصف يقوى بقوة ذلك الوصف.

٤١ـ ومن فوائد الآيات: أن الله تعالى يمن على من يشاء من عباده فيخلصهم له لقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

٤٢ـ ومن فوائد هذه الآيات: أن قول الله تعالى كلَّه حقٌّ لقوله: ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ قدم المعمول لإفادة الحصر.

٤٣ـ ومن فوائدها: أن كل ما قدره الله تعالى فهو حق، سواء كان ملائماً للبشر أو غير ملائم. وجه ذلك أن كل شيء قدّره الله كائن بقوله: كن، وكن قول، فإذا كان كل ما قاله الله حقاً لزم أن يكون كل ما قضاه حقاً، وهو كذلك، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**الخير كلُّه بيديك، والشر ليس إليك**»[1].

٤٤ـ ومن فوائد هذه الآيات: أن الشيطان في جهنم لقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾.

٤٥ـ ومن فوائدها: أن الله تعالى وعد جهنم بملئها، ويتفرع عن هذه الفائدة الحذر الشديد من أن يكون الإنسان من أهل جهنم، نعوذ بالله منها، وقد ثبت في الصحيحين: «**أن جهنم لا تزال يُلقى**

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧١) (٢٠١).

فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع ربُّ العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط»[(١)].

٤٦ـ ومن فوائد هذه الآيات: أن للشيطان أتباعاً لقوله: ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ فإذا قيل: مَنْ أتباعه؟ قيل: المستكبرون عن عبادة الله، لأن أعظم ميزة يتميز بها الشيطان أنه مستكبر عن طاعة الله، فكل مَن استكبر عن طاعة الله فإنه مِن أتباع الشيطان.

* * *

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما جئت به وعلى تبليغه ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ من: زائدة، وأجر: مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنها مفعول به ثان لقوله: ﴿أَسْـَٔلُكُمْ﴾.

واعلم أن سأل إن تعدت بـ«عن» فهي بمعنى الاستفهام، وإن تعدت بنفسها نصبت مفعولين، فهي بمعنى طلب العطاء، فإنَّ قولك: سألته عن كذا، يعني: الاستفهام، وإذا قلت: سألته كذا، فهو طلب العطاء، وهنا سأل طلب عطاء وعلى هذا فإن ﴿أَجْرٍ﴾ محلها النصب، وقول المؤلف: [جُعْل] تفسير لأجر، يعني لست أطلب منكم أن تعطوني دراهم، أو تعطوني أرزاقاً، أو تزوجوني بناتكم، أو تسكنوني قصوركم على تبليغ الرسالة، ولكنه ﷺ إنما يسأل الأجر مِن الله عز وجل.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [قٓ: ٣٠] (٤٨٤٨)، ومسلم، كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون (٢٨٤٨) (٣٨).

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾ أي: المتقولين القرآن من تلقاء نفسي، أي: وما أنا من المتقولين، ولكن عدل عن المتقولين إلى المتكلفين؛ لأن القرآن لا يمكن أن يأتي بمثله البشر حتى لو تكلف الإنسان وبذل الجهد، فإنه لا يمكن أن يأتي بمثله، ولما كان هذا القرآن لا يأتي بمثله البشر صار مَن أتى به متكلفاً لو كان جاء به من عنده، فهو يقول: أنا لا أتقول القرآن لا عن يسر ولا عن كلفة.

﴿إِنۡ هُوَ﴾ [أي: ما القرآن]. ﴿إِنۡ﴾ فسرها المؤلف بـ«ما»، وقد ذكرنا علامة «إن» التي بمعنى «ما» أن يأتي بعدها «إلا». [﴿إِنۡ هُوَ﴾ أي: ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ عظة ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ ٨٧﴾ للإنس والجن العقلاء دون الملائكة] وقول المؤلف: [دون الملائكة]، إنْ أراد بإخراج الملائكة أنهم لا يكلفون بالعمل به فقد يكون مُسلّماً، وإن أراد أنهم لا يتذكرون به ولا يتقربون به فهذا غير مسلَّم، لأن الله تعالى يقول: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١١-١٦] والمراد بهم الملائكة.

وقوله: ﴿ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٨٧﴾ تقدم معنى الذكر في أول السورة، وتقدم قريباً ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾ [صٓ: ٤٩] وهذه الثالثة، والمعنى أنه ذكر بنفسه وشرفه وذكر بالوعظ به.

﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾ يا كفار مكة ﴿نَبَأَهُۥ﴾ خبر صِدْقِه ﴿بَعۡدَ حِينِۭ﴾ أي: يوم القيامة] قوله: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾ جعل المؤلف الضمير في تعلمن عائداً إلى كفار مكة

بناء على أن الخطاب المذكور في هذه السورة لأهل مكة، لأنها مكية، ولكن قد ذكرنا أن العبرة بالعموم لا بخصوص المكان أو السبب، والخطاب لجميع الناس ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ فإن هذا النبأ الذي أنبأ الله به بواسطة هذا القرآن الكريم سيعلمه الناس كلهم، وذلك ما أخبر به عما يكون يوم القيامة، فإن هذا القرآن أخبر عن ما يكون يوم القيامة، وهذا سيعلمه الناس كلهم بعد حين.

وهناك أشياء أخبر عنها القرآن مضت وانقضت، فهذه عَلِمَها بعد حين مَن سبق هذه الحوادث وأدركها، وهناك حوادث ستأتي يعلمها بعد حين مَنْ يدركها، وأما الذي يدركه جميع الناس فهو ما يكون يوم القيامة قال: ﴿بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [أي: يوم القيامة، وعَلِمَ بمعنى عرف]، قال: علم بمعنى عرف، لأنه تعدى إلى واحد ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ وعلم إذا تعدت إلى واحد فهي بمعنى عرف، كما تقول: علمت المسألة يعني عرفتها، قال: [واللام قبلها: لام قسم مقدر، أي: والله] لتعلمن نبأه.

الفوائد:

١ ـ **في هذه الآية من الفوائد**: أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يعلن بأنه لا يسأل على الرسالة أجراً، أي: أجراً دنيوياً، وأما أجر الآخرة فلا شك أن النبي ﷺ يرجوه، لأنه هو الدال على الخير، الآمر به، ولهذا مُنع ورثة الرسل مِن أن يرثوا شيئاً من أموالهم خوفاً من أن يقال إنما اكتسبه الرسل من أجل الرسالة. قال النبي عليه الصلاة

والسلام: «**لا نُورَثُ، ما تركنا صدقةٌ**»(١) بتنوين الضم، أما قول الرافضة: صدقةً، بتنوين النصب «**لا نُورَث ما تركنا صدقةً**» فهذا تحريف لفظي ومعنوي، وذلك لأن ما ترك صدقة لا يورث من الأنبياء ولا من غيرهم. لو أوصى الإنسان بشيء يجعل صدقة بعد موته نُفِذ ولم يُوْرَث لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۚ﴾ [النساء: ١٢] إلا أن ما زاد على الثلث يكون راجعاً إلى اختيار الورثة.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمة**: أن النبي ﷺ لا يسأل الناس أجراً على دعوة الخلق إلى الحق، وهل هذا خاص به أو عامّ له وللأمة، أي: أنه يحرم على الإنسان أن يأخذ شيئاً على تبليغ الشريعة؟ الجواب: أنه متى وجب الإبلاغ حَرُم أخذ الأجر عليه، لأنه لا يجوز للإنسان أن يأخذ أجراً على قيامه بالواجب، أما إذا كان ليس بواجب فلا بأس أن يأخذ أجراً، لأنه يكون تطوعاً إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل. فإذا قال: أنا لا أحبس نفسي إلا بأجر، قلنا له: لا حرج ما دام الإبلاغ ليس بواجب، ويدل لهذا قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله**»(٢) لكن متى وجب تعليم القرآن على شخص فإن أخذه أجرة على هذا التعليم يكون حراماً.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن النبي ﷺ صادق فيما أخبر به من الوحي لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب فرض الخمس (٣٠٩٣)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: لا نورث (١٧٥٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب الرُّقى بفاتحة الكتاب (٥٧٣٧).

٤ ـ **ومن فوائدها**: الإشارة إلى أن من الناس مَن يتقوَّل على الله، فيدعي أنه رسول، وهو ليس كذلك، وحينئذٍ نقول: من ادعى الرسالة فإن جاء بآية تدل على صدقه فهو رسول، وإلا فليس برسول، هذا قبل النبي محمد ﷺ أما ما بعد النبي عليه الصلاة والسلام فمن ادعى الرسالة فهو كاذب، لأن الله تعالى يقول: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] فمن ادعى الرسالة، وأن الله تعالى أرسله بعد محمد عليه الصلاة والسلام فهو كاذب مرتد عن الإسلام ويجب قتله، ولا يرد على هذا أن عيسى عليه السلام ينزل آخر الزمان بصفته رسولاً؛ لأنه كان رسولاً قبل محمد ﷺ، ثم هو أيضاً لا يأتي بشيء جديد، بل يأتي بشيء أقرَّه النبي ﷺ وأخبر به من قبل، وهو أنه يقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام[1] يعني أن أخذ الجزية من غير المسلمين لإقرارهم على دينهم له أمد في الشريعة الإسلامية.

٥ ـ **ومن فوائد قوله تعالى**: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أن هذا القرآن الكريم ذكر للعالمين عموماً يتذكرون به، لكن لا ينتفع به إلا المؤمنون، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾[يونس: ٥٧] وهذا عام ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] وهذا خاص إذا جعلنا الهدى بمعنى التوفيق، وإذا قلنا الهداية هداية الإرشاد صار عاماً.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب قتل الخنزير (٢٢٢٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ (١٥٥) (٢٤٢).

٦ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ أن آيات النبي ﷺ تأتي متتابعة منها ما علم في عهده، ومنها ما علم بعد ذلك، ومنها ما لا يعلم إلا يوم القيامة، والذي يعلم يوم القيامة يكون معلوماً لكل أحد، والذي يعلم في وقته يكون معلوماً لمن أدركه ولمن أتى من بعده، وكذلك نقول في الذي يأتي بعد الرسول ﷺ.

٧ ـ **ومن الفوائد:** أن الله تعالى تكفل بأن يعلم الناس صدق نبأ الرسول ﷺ لقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ فإن هذه الجملة خبرية مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام والقسم المقدر ونون التوكيد ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

وإلى هنا انتهت هذه السورة الكريمة ونسأل الله تعالى أن يعيدنا عوداً حميداً مستزيدين من الإيمان والعمل الصالح والعلم، إنه جواد كريم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

[تم تفسير سورة صٓ والحمد لله رب العالمين]

فهرس المحتويات

الموضوع | الصفحة

١) الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ ١١
٢) الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ ١٥
٣) الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ ١٨
٤) الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ٢٣
٥) الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ .. ٢٨
٦) الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ ٢٩
٧) الآية السابعة: قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ ٣٥
٨) الآية الثامنة: قوله تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ ٣٧
٩) الآية التاسعة: قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ .. ٤٦
١٠) الآية العاشرة: قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ ٤٩
١١) الآية الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ ٥٨

الموضوع | الصفحة

١٢) الآية الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ ٦٠
١٣) الآية الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ ٦٢
١٤) الآية الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ ٦٩
١٥) الآية الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ ٧٣
١٦) الآية السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ٧٧
١٧) الآية السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ٧٩
١٨) الآية الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ ٨٨
١٩) الآية التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ ٨٩
٢٠) الآية العشرون: قوله تعالى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ ٩٢
٢١) الآية الحادية والعشرون: قوله تعالى: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُاْ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ الْمِحْرَابَ﴾ ٩٦

الموضوع	الصفحة

٢٢) الآية الثانية والعشرون: قوله تعالى: ﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ ٩٩

٢٣) الآية الثالثة والعشرون: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾ ١٠٣

٢٤) الآية الرابعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ ١٠٥

٢٥) الآية الخامسة والعشرون: قوله تعالى: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ ١١٣

٢٦) الآية السادسة والعشرون: قوله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ ١٢٠

٢٧) الآية السابعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ ١٣١

٢٨) الآية الثامنة والعشرون: قوله تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ ١٣٣

٢٩) الآية التاسعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ١٣٩

الموضوع | الصفحة

٣٠) الآية الثلاثون: قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ١٤٨

٣١) الآية الحادية والثلاثون: قوله تعالى: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ ١٤٩

٣٢) الآية الثانية والثلاثون: قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ ١٥١

٣٣) الآية الثالثة والثلاثون: قوله تعالى: ﴿ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ ١٥٥

٣٤) الآية الرابعة والثلاثون: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ ١٦١

٣٥) الآية الخامسة والثلاثون: قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ ١٦٧

٣٦) الآية السادسة والثلاثون: قوله تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ ١٦٩

٣٧) الآية السابعة والثلاثون: قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ .. ١٧١

٣٨) الآية الثامنة والثلاثون: قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ .. ١٨١

٣٩) الآية التاسعة والثلاثون: قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ١٨١

٤٠) الآية الأربعون: قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ ١٨٢

الموضوع | الصفحة

٤١) الآية الحادية والأربعون: قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ١٨٣

٤٢) الآية الثانية والأربعون: قوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ١٨٥

٤٣) الآية الثالثة والأربعون: قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ١٨٥

٤٤) الآية الرابعة والأربعون: قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ١٨٩

٤٥) الآية الخامسة والأربعون: قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ ١٩٩

٤٦) الآية السادسة والأربعون: قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ ٢٠٠

٤٧) الآية السابعة والأربعون: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ ٢٠٠

٤٨) الآية الثامنة والأربعون: قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ ٢٠٣

٤٩) الآية التاسعة والأربعون: قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ ٢٠٤

٥٠) الآية الخمسون: قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ ٢٠٤

الموضوع | الصفحة

٥١) الآية الحادية والخمسون: قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ ٢٠٥
٥٢) الآية الثانية والخمسون: قوله تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ ٢٠٦
٥٣) الآية الثالثة والخمسون: قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ ٢٠٧
٥٤) الآية الرابعة والخمسون: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ .. ٢٠٨
٥٥) الآية الخامسة والخمسون: قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ ٢١٣
٥٦) الآية السادسة والخمسون: قوله تعالى: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ ٢١٣
٥٧) الآية السابعة والخمسون: قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ ٢١٤
٥٨) الآية الثامنة والخمسون: قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ .. ٢١٦
٥٩) الآية التاسعة والخمسون: قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ ٢١٧
٦٠) الآية الستون: قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ ٢١٨
٦١) الآية الحادية والستون: قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ ٢١٨
٦٢) الآية الثانية والستون: قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ ٢١٩
٦٣) الآية الثالثة والستون: قوله تعالى: ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ ٢٢٠

الموضوع | الصفحة

٦٤) الآية الرابعة والستون: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ ٢٢٠
٦٥) الآية الخامسة والستون: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ ٢٢٥
٦٦) الآية السادسة والستون: قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ ٢٢٦
٦٧) الآية السابعة والستون: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ ٢٣٠
٦٨) الآية الثامنة والستون: قوله تعالى: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ ٢٣٠
٦٩) الآية التاسعة والستون: قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ٢٣٠
٧٠) الآية السبعون: قوله تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ٢٣١
٧١) الآية الحادية والسبعون: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ ٢٣٤
٧٢) الآية الثانية والسبعون: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ ٢٣٤
٧٣) الآية الثالثة والسبعون: قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ٢٣٦
٧٤) الآية الرابعة والسبعون: قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ٢٣٧
٧٥) الآية الخامسة والسبعون: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ٱسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ ٢٣٨

الموضوع | الصفحة

٧٦) الآية السادسة والسبعون: قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ ٢٣٩
٧٧) الآية السابعة والسبعون: قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ ٢٤٠
٧٨) الآية الثامنة والسبعون: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ٢٤١
٧٩) الآية التاسعة والسبعون: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ٢٤١
٨٠) الآية الثمانون: قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ ٢٤١
٨١) الآية الحادية والثمانون: قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ ٢٤١
٨٢) الآية الثانية والثمانون: قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٢٤١
٨٣) الآية الثالثة والثمانون: قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ ٢٤٢
٨٤) الآية الرابعة والثمانون: قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ ٢٤٢
٨٥) الآية الخامسة والثمانون: قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٢٤٣
٨٦) الآية السادسة والثمانون: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ ٢٥٣
٨٧) الآية السابعة والثمانون: قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ٢٥٤
٨٨) الآية الثامنة والثمانون: قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ ٢٥٥

فهرس المحتويات ٢٥٩

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٤)

تفسير القرآن الكريم

سورة الزمر

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٤)

تفسير القرآن الكريم

سورة الزمر

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة الزمر. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
٥٤٢ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٤٤)
ردمك: ٨ ـ ٤٩ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة الزمر ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٣١

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٣١
ردمك: ٨ ـ ٤٩ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من :
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[1]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخ مُحَمَّد بنِ صالِح العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَريمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزَاء، ويُضَاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سورة الزمر

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

هذه السُّورة تُسمَّى: سورة الزُّمَر؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيها: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزُّمَر:٧٣]. وقوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزُّمَر:٧١].

وتَسْمِيَة السُّور تكون لِأَدْنى ملابَسَة وأدنى مُناسَبَة؛ ولهذا سُمِّيَت: سورة البقرة دون أن تُسمَّى: سورة الدَّيْنِ مثلًا، أو سورة العِدَدِ، مع أنَّ ذِكر الدَّيْن وما يتعلَّق به قد يكون كآيات البَقَرَة.

قال المفسر[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَكِّيَّة] يعني: أنَّها من السُّور المَكِّيَّة، وأصحُّ ما يُقال في السُّور المَكِّيَّة: أنَّها ما نزل قبل الهِجْرَة؛ فما نزل قبل الهِجْرة فهو مَكِّيٌّ، وما نزل بعدها فهو مَدَنِيٌّ، حتى لو نزل في مكَّة وهو بعد الهجرة فإنه يُسمَّى: مَدَنِيًّا؛ ولهذا نقول: إنَّ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة:٣] نقول: إنَّها مدنِيَّة، مع أنَّها نزلت في عَرَفَة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إلَّا ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إلخ] هذا الاستثناءُ يحتاجُ إلى دليلٍ.

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

والقاعدة: أنَّ كلَّ مَن استثنى آياتٍ من سور مَكِّيَّة وقال: إنَّها مَدَنِيَّة فعليه الدَّليل، والعكس بالعكس، فمن استثنى آياتٍ من سورَةٍ مَدَنِيَّةٍ، وقال: إنَّها مَكِّيَّة فعليه الدَّليلُ؛ لأنَّ الأصلَ أنَّ السُّورةَ إذا كانت مَكِّيَّةً فهي مَكِّيَّة بجميع آياتِها، هذا هو الأصل حتى يقوم دليل على الاستثناء، ولا أعلم لهذا الاستثناء الذي ذكره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ دليلًا.

بل إنَّ ظاهِرَه من حيث المعنى يقتضي أن يكون من المَكِّيَّات ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزُّمَر:٥٣] إلخ؛ إذْ كُلُّه يتعلَّق بالتَّوْحيدِ والتَّوْبة.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهي خمسٌ وسبعون آية] مُقسَّمة إلى هذا التَّقسيم تقسيمًا توقيفيًّا؛ يعني: أنَّ الذي يُحدِّد الآياتِ هو الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهو يُحدِّد الآياتِ ويُحدِّد مكانَها وتَرْتيبها.

ولهذا نقول: إنَّ ترتيبَ الآيات توقيفِيٌّ، وترتيب السُّوَر؛ منه توقيفيٌّ، ومنه اجتهادِي من الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ:

فمثلًا: (الجمُعة)، و(المنافقون)، ترتيبها توقيفيٌّ؛ لأنَّ الرَّسول ﷺ كان يقرأ في صلاة الجُمُعة بالجُمُعَة والمنافقون[1]. و(سبِّح)، و(الغاشية) كذلك، و(البقرة، وآل عمران) كذلك ترتيبها توقيفيٌّ.

ومنه شيءٌ اجتهاديٌّ ثبَت باجتهادِ الصَّحابة، قد تختلف فيه مصاحِفُ الصَّحابة؛ لأنَّه عن اجتهادٍ.

أمَّا ترتيب الآياتِ فحيث قلنا: إنَّه توقيفي لا يجوز الإخلالُ به، فلا يجوز أن تُقدِّم آيةً على آيةٍ في التِّلاوَة؛ لأنَّ الذي وضع الآيات في مكانِها هو الرَّسولُ ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة، رقم (٨٧٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك ترتيب الكَلِمات أيضًا توقيفيٌّ، فلا يجوز أن تُقدِّم كلمةً مكان كلمة، وترتيب الحروف توقيفيٌّ، لا يجوز أن تُقدِّمَ حرفًا في كلمة على حرف.

فها هنا الآن ترتيبات:

١- تَرْتيب الحُروف.

٢- تَرْتيب الكَلِمات.

٣- تَرْتيب الآياتِ.

وكلُّه توقيفيٌّ لا يجوز الإخلالُ به.

وأمَّا ترتيب السُّوَر؛ فمنه توقيفيٌّ، ومنه اجتهاديٌّ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بسم الله الرَّحمن الرَّحيم] البَسْمَلَة آيةٌ مُستقِلَّة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ليست من الفاتِحَة، ولا من غير الفاتِحَة؛ على القول الرَّاجح، فهي آيةٌ مُستَقِلَّة يُؤْتى بها للبَداءَةِ بالسُّورة؛ لأنَّنا لو قلنا: للفَصْلِ بين السُّورتيـن أُورِدَ علينا سورةُ الفاتِحَة؛ لأنَّها ليس قبلها سورَةٌ، إِذَنْ للبدء بالسورة، وسَقَطَت بين الأنفالِ والتَّوْبة؛ لأنَّها لم تَرِدْ عن النَّبيِّ ﷺ، ولو ثبتت ما أَهْمَلَها الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

والبسملة كما نشاهد ونقرأ شِبه جُمْلة، وليسـت بِجُملة؛ لأنَّها جارٌّ ومجرور، والجارُّ والمجرور والظَّرف يُسمَّى: شبه جملة، ولا يسمى: جُملة؛ لأنَّه لم توجـد فيه أركان الجُملة، ولكن الجملة مُقَدَّرةٌ فيه، فلا بدَّ من تقديرٍ تَتِمُّ به الجملة.

فـ[بسـم الله الرَّحْمن الرحيم] جـارٌّ ومجرور ومضافٌ إليه وصِـفَة، متعلِّقـة بمحذوف ولا بُدَّ؛ ولهذا قال في نظم الجُمَل:

لَا بُـدَّ لِلْجَـارِّ مِـنَ التَّعَلُّـقِ بِفِعْـلٍ اوْ مَعْنَـاهُ نَحْـوُ مُرْتَـقِ
وَاسْـتَثْنِ كُـلَّ زائِـدٍ لَـهُ عَمَـلْ كَالْبَاءِ وَمِنْ وَالْكَافِ أَيْضًا وَلَعَلّ

فلا بدَّ للجارِّ من التَّعلُّق: (بفعلٍ أو معناه نحو مُرْتَق)، (مُرْتَقٍ) بمعنى الفِعْل؛ لأنَّه اسم فاعل.

و(استثـن كلَّ زائدٍ له عمل، كالباء ومِن والكاف أيضًا ولَعَل)؛ وذلك لأنَّ الذي فيه حروف جر زائِدَة يُقدَّر كأنه لا حَرْفَ فيه، فلو قلـتَ: ليس زيدٌ بقائِمٍ، فإنك تقول: قائِم: خبـر ليس، ولا تقول: مجرور بالباءِ، والجارُّ والمجرور متعلِّـق بالمحذوف، ويقال: إنَّه خبر ليس.

على كلِّ حال: البَسْمَلَة متعلِّقة بمحذوفٍ، أحسن ما يُقدَّر به هذا المحذوفُ أن يُقدَّر فعلًا متأخرًا مناسِبًا للمبدوءِ به، فمثلًا: إذا كنْتَ تريد أن تَقْرَأَ فتقول: التَّقديرُ (بسـم الله أَقْرَأُ)، وإذا أَرَدْتَ أن تَتَوَضَّأ فالتَّقْديرُ (بسـم الله أتوضَّأ)، وإذا أردْتَ أن تدخل: (بسم الله أَدْخُلُ)، وهكذا.

وقد قدَّرْناه فعلًا؛ لأنَّ الأَصْل في العمل الأفعال؛ واسمُ الفاعل واسم المفعول والمصْدَرُ العاملُ مُلحَقٌ بالفعل؛ ولذلك اخْتَرْنا أن نُقدِّرَهُ (فِعلًا) لا اسْمًا.

كما اخترنا أن يكون (متأخِّرًا) لوجهينِ:

الوجه الأول: التَّبَرُّكُ بالابتداءِ باسم الله، فنجعل أوَّلَ الجملة (بسم الله) تبرُّكًا.

والثاني: إفادة الحَصْر؛ لأنَّ تأخيرَ العامِلِ يفيد الحَصْر.

كما اخْتَرْنا أن يكون (مناسِبًا) لما ابتدئ به؛ لأنَّه أدَلُّ على المقصودِ؛ حيث يُعيِّن أنَّ البَسْـمَلَةَ لِهذا الشَّيْء؛ فلو قلنا: بسـم الله أبتدئ، لفاتنا أنَّه غيرُ مناسِـبٍ للمقام

أو للموضوع؛ ولو قدَّرنا: أَقْرَأُ بسم الله فاتَ التَّأخيرُ، لكنْ فائِدَةُ التَّأخيرِ هي الحَصْر والتَّبَرُّك بالبداءة باسم الله؛ ولو قلنا: بسم الله قِراءَتي فات أن يكون فِعْلًا.

[بسم الله الرَّحمن الرَّحيم] اسم: مفرد مضافٌ، والمفرد المضاف للعُمُوم، وعلى هذا فيكون المعنى: بكلِّ اسْمٍ من أَسْماء الله؛ لأنَّ المُفْرَدَ المُضافَ يكون للعُمُومِ.

والدَّليلُ على أنَّ المُفْرَدَ المضافَ يكون للعموم قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨]؛ فـ(نِعْمَة) مُفرد، ومع ذلك قال: تَعُدُّوا، لا تُحْصوا، فدلَّ هذا على أنها عامَّة في كلِّ نِعْمَة.

و(الباء) في قوله: [بسم الله] للاستعانَةِ والمصاحَبَة والمُلابَسَة يعني مُسْتَعينًا مُصْطَحِبًا مُتَلَبِّسًا باسم الله.

و(الله) عَلَمٌ على ذاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، خاصٌّ به، لا يسمَّى به غيْرُه، واختلف العلماء هل هو مُشْتَقٌّ أو جامِدٌ؟

والصَّحيح: أنَّه مُشْتَقٌّ؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨] ولو جعلناه اسمًا جامِدًا لكان غيرَ دالٍّ على الوصف، بل كان عَلَمًا مَحْضًا، وحينئذ لا يكون دالًّا على الأَحْسَنِ، بل لا يكون دالًّا على الحُسْن فضلًا عن الأَحْسَن.

فالصَّحيح الذي لا شَكَّ فيه: أنَّه مُشْتَقٌّ من الأُلوهِيَّة، وهي: التَّقَرُّب والتَّعَبُّد للمَأْلوهِ على وجه المَحَبَّة والتَّعظيم.

وأما قوله: [الرَّحْمن] فهو أيضًا عَلَمٌ على الله عَزَّوَجَلَّ لا يُسَمَّى به أحدٌ غيره، فهو من أسماء الله الخاصَّة به، ولا يوصف به غيرُه، وهو مُشْتَق من الرَّحمة، وكان بصيغة: فعلان لدلالة هذه الصِّيغة على السَّعَة والامتلاء، فهو دالٌّ على سَعَةِ رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وشمولها لكلِّ شيء.

وأما: [الرَّحيم] فهو اسم من أسماء الله، لكن يوصَفُ به غيرُه؛ قال الله تعالى عن النَّبيِّ ﷺ: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّوْبة:١٢٨] وهو مُشْتَقٌّ من الرحمة، لكنه إذا قُرِنَ بـ(الرَّحْمن) أي: إذا ذُكِرَا جميعًا كانت الرَّحْمنُ دالَّة على الوَصْف، والرحيم دالةً على الفعل؛ أي إنه يَرْحَم برحمته عَزَّوَجَلَّ مَن يشاء.

• ● ❁ ● •

الآيــة (١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر:١].

قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الكتابُ: هو القرآن، وسُمِّيَ كتابًا؛ لأنَّه مكتوبٌ في اللَّوْح المحفوظ، ومكتوب بالصُّحُف التي بأيدينا، ومكتوب في الصُّحُف التي بأيدي الملائكة؛ قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس١١-١٦] وعلى هذا فـ(فِعَال) بمعنى مفعول، وهذه الصيغة -أعني فِعَالًا- تأتي بمعنى مفعولٍ في اللُّغَة العَربيَّة كثيرًا؛ ومنه: غِراسٌ بمعنى مغروس، بِناء بمعنى مبنيٍّ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: القُرآنِ، مبتدأٌ] المبتدأ: تنزيلُ، قال: [﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خَبَرُه].

إِذَنْ: معنى الآية: أنَّ الله يُخْبِر عَزَّوَجَلَّ بأن تنزيلَ الكتاب مِنْ عنده؛ مِن الله؛ أي إنه نازلٌ من عند الله لا من جبريل ولا من مُحَمَّد ولا من أيِّ مَصْدرٍ كان، بل هو نازل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تكلَّم به، وألقاه إلى جبريل.

ثم إنَّ جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نزل به على قلْبِ النبيِّ ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤] ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وتأمَّل قوله: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ لتَعْلَمَ أنَّ الرَّسول ﷺ وعَى القرآن وَعْيًا تامًّا؛ لأنَّ ما نزل

على القَلْب لا بُدَّ أن يَعِيَه القَلْب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في مُلكه، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في صُنْعِه] ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ لها معانٍ:

الأوَّل: عزيز بمعنى: غالِب.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨] قاله الله تعالى جوابًا على قول المنافقين: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨] فسَلَّم الله ذلك: أنَّ الأَعَزَّ يُخْرِجُ الأَذَلَّ، لكن قال: العِزَّةُ لله ولرسوله وللمؤمنين، أما المنافقون فلا عزَّة لهم حتى يستطيعوا أن يُخرجوا المؤمنين منها.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

الثاني: عزيز بمعنى: قَوِيٌّ، شديد القوة؛ ومنه قولهم: أرض عَزَازٌ؛ يعني: صُلْبة قويَّة؛ ومن المعلوم: أنَّ الله تعالى في صفاته كُلِّها شديدٌ قويٌّ، فكل الصفات كامِلَة ليس فيها نَقْصٌ ولا وهَنٌ ولا ضَعْفٌ.

الثالث من معنى العِزَّة: الامتناع. فالامْتِناعُ يعني: أنَّه مُمْتَنِعٌ عن أن ينالَه سوءٌ.

فهذه ثلاثة معانٍ للعزيز: غالب، قوي، ممتنِع عن كل نَقْص.

وأما قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في مُلْكِه] فإنه قاصر في الحقيقة جدًّا؛ لأنَّه إذا قُيِّدَتِ العِزَّة في الملك فإنَّها لا تتناول إلا العزيز بمعنى: الغالب أو القوي.

وأما: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في صُنْعِه] أي فيما صَنَع، وهل يُوصَف الله تعالى بأنه صانِعٌ وأنَّ له صُنعًا؟

الجواب: نعم، يُوصف الله بأنه صانع، وأنَّ له صنعًا، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿صُنْعَ

ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل:٨٨]؛ لكن يجب أن نعلم أننا إذا وصَفْنا الله بالصُّنْع فليس كصِفَتِنا للمخلوق بالصُّنع؛ فالمخلوق إذا كان صانعًا يحتاج إلى أدواتٍ؛ فإن كان نجَّارًا يحتاج إلى منشار، قدوم، مخراق، وما أشبه ذلك، لكن الله عَزَّوَجَلَّ لا يحتاج، فلما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ ﴾ [الذاريات:٤٧]، فليس بناءُ الله عَزَّوَجَلَّ كبناء المَخْلوق يحتاج إلى زِمبيل وإلى لَبِن وإلى طينٍ، فالبناء غيرُ البناء والصُّنع غير الصُّنع، وقد يتوهَّم الإنسانُ أنه إذا وصف الله بالصُّنع، وأنه صانِعٌ قد يتوهَّمُ أنه يحتاج إلى آلاتٍ يَصْنَع بها، ولكن هذا خطأ؛ لأنَّ صُنْعَ الله ليس كصنع البَشَر.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في صنعه] تقييدها بالصُّنْع فيه قصور؛ والصواب: أنَّه (حكيمٌ في صُنْعِه وفي شَرْعِهِ)؛ ولهذا يَخْتِم الله أحيانًا آيات التشريع بالحِكْمَة، كما في قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٠].

فهو حكيم في صُنعه حكيم في شَرْعِه؛ (في صُنْعِه) يعني: جميع مصنوعاته كلِّها مُحْكَمةٌ؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ قلِّب، فكِّر: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ يعني: كَرَّةً بعد أخرى، وفي النِّهايةِ: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك:٤] وهذا من الإحكام في الصُّنع.

أما في الشَّرْع فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢] وتناقضًا؛ فالقرآن لا يمكن أنْ يتناقَض أبدًا؛ وإذا رَأَيْتَ آيةً ظاهِرُها يُناقِض الآيةَ الأخرى فاعلم أن ذلك: إمَّا من سوء فَهْمِك، أو من قُصُور عِلْمِك.

(إمَّا من قصور علمك) بأن تكون الآيَةُ هذه ناسِـخَةً للآيَةِ، وأنت لا تَعْلَم، أو (من سـوء فَهْمِك) بأن تكون كلتا الآيتينِ مُحْكَمَة، ولكن لم تَفْهَمِ الجَمْع بينهما، وإلا فلا يمكن أبدًا أن يكون في كلام الله تناقُضٌ، ولا فيما صَحَّ عن رسول الله ﷺ تناقض أبدًا؛ فهذا لا يُمْكِن؛ لأنَّه شَرْع الله، والله تعالى قد أحكم شَرْعَه.

إِذَنْ: فالله تعالى حكيم في صُـنْعه وفي شَـرْعِه؛ وبناءً على هذا: تكون حكيمٌ بمعنى: مُحْكِم، وعلى هذا التفسيـر؛ أن معنى الحكيم المُحْكِم لشَرْعه وصنعه، فهنا نسأل هل تأتي فَعيلٌ في اللُّغَة العَربيَّة بمعنى مُفْعِل؟

والجواب: نعم، تأتي فعيلٌ بمعنى مُفْعِل؛ ومنه قول الشاعر:

أَمِـنْ رَيْحانَـةَ الـدَّاعِي السَّـمِيعُ يُـؤَرِّقُنِي وَأَصْـحَابِي هُجُـوعُ

(أمِنْ ريحانة الدَّاعي السَّميع) السَّميع بمعنى المُسْـمِع، فحينئذٍ تكون حكيم بمعنى مُحْكِم.

وهل يمكن أن تكون بمعنى حاكِمٍ؟

الجواب: نعم، يُمْكِنُ أن تكون بمعنى حاكم، وعلى هذا فتكون حكيمٌ بمعنى: أنَّ له الحُكْمَ.

والحُكْمُ المضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ يَشْمَلُ: الحكم الكونِيَّ، والحكم الشَّرْعِيَّ:

الحكم الكوني: هو إيجادُهُ للأشـياء وخَلْقُه الأَشْـياءَ، والحُكْم عليها بالفناء والبقاء والتَّحَوُّل والتَّغَيُّر، وما أشبه ذلك، كلُّ هذا (حُكم).

الحكم الشَّرْعِيُّ: هو ما جاءت به الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلامُ من أحكام الله

التي يُلْزَم بها المُكَلَّف؛ فقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الإسراء:٧٨] هذا شَرْعِيٌّ؛ وقوله تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً﴾ [البقرة:٦٥] هذا كوني؛ وقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة:٥٠] شرعي؛ وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٠] شَرْعِي؛ وقوله: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف:٨٠] كوني.

فقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ سبق أنَّه من الإِحْكام ومن الحُكْم، فالإحْكامُ يعني الإتقان، والإتقانُ هو الحِكْمَة، وهي وَضْع الشَّيْء في مَوْضِعِه.

قال العلماء: والحِكْمَة تكون في صُورَةِ الشَّيءِ وهيئَةِ الشَّيء وذاتِ الشَّيء وتكون في غايَتِه؛ فالحِكْمَة في نفس الشَّيْء: يعني أنَّ الشَّيءَ نَفْسَه مشتَمِلٌ على الحكمة، فإذا تأمَّلْتَ الشَّرائِعَ وجَدْتَ أنها مُشْتَمِلة على الحِكْمة، وإذا تأمَّلْتَ الغاية منها وجدْتَها أيضًا في غاية الحِكْمة، كذلك أيضًا إذا تأمَّلْت الصنائع التي صنعها الله عَزَّوَجَلَّ وهي الحكمة التي تكون في الكون وجَدْت أنها مُشْتَمِلَة على الحكمة، وإذا تأملت الغاية منها وجَدْتَها أنها حِكْمَة أيضًا.

فالعبادات المقصودُ بها: إصلاحُ الخَلْق، وهي مَوْضوعَة على وَفْق الحِكْمة؛ الصلوات كونُها على هذه الهيئة هو الحِكْمة، الزَّكاة والحَجُّ وبقيَّة العبادات، الكون، السَّماء، الأرض، الشَّمس، القمر، كونُها على هذا النظام البديع فهذا حِكْمة، والغاية منها أيضًا حِكْمَة؛ قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: في هذه الآيَةِ يُخبِرُ الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ تنزيل الكتاب مِن عنده، وعلى هذا فتفيد الآيَةُ الكريمة أنَّ القُرآنَ مُنزَّلٌ غير مخلوقٍ، أمَّا إفادتها لكونه منزَّلًا فظاهر: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، لكن كيف تفيد أنه غير مَخْلوقٍ؛ فإن هذه الفائِدَة قد يعارِضُ فيها معارِضٌ، ويقول: ليس كلُّ مُنزَّلٍ غيرَ مَخْلوقٍ بل في المُنزَّل ما هو مخلوق؛ قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق:٩] والماء مَخْلوقٌ؛ وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزُّمَر:٦]؛ وهذه الأنعام مخلوقَةٌ، فلا يلزم من الإنزال أو التَّنْزيل أن يكون المُنزَّل غير مخلوق، فما هو الجواب عن هذا الإيراد؛ لأن هذا إيرادٌ قوِيٌّ يُورده الجَهْمِيَّة الذين قالوا: إنَّ كلامَ الله مخلوقٌ؟

الجواب على هذا الإيراد سَهْل؛ بأن يقال: إنَّ الإنزالَ إذا أُضيفَ إلى عَيْنٍ قائمةٍ بنفسها فهذه العَيْن مخلوقة، وإذا أُضيف إلى وَصْف كان هذا الوصف حَسَب الموصوف، والكلامُ وَصْف، فإذا كان الله أنزل القرآن وهو كلام وأضافه إلى نفسه فهو عَزَّوَجَلَّ هو بصفاته أزليٌّ أبديٌّ ليس بمخلوق، واجبُ الوجود.

إِذَنْ: فيتِمُّ الاستدلال؛ أن نقول: في قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر:١] دليلٌ على أنَّ القرآن مُنزَّل غير مخلوق.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فيه دليل على عُلُوِّ الله؛ وَجْهُه أنه قال: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ ومِنْ للابتداء، فإذا كان ابتداء الكتاب من عند الله وهو مُنزَّل، دلَّ على علوِّ مَن كان مِن عنده، وهو الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تعظيم القرآن؛ وَجْهُه: أنَّه نازِلٌ من عند الله، وأنه كلام الله، فيكون عظيمًا كعِظَمِ المُتكلِّم به.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ ثلاثَةِ أسماءٍ من أسماء الله، وهي: (الله، العزيز، الحكيم).

ويتفرَّع على هذه الفائِدَةِ: إثباتُ أَرْبَعِ صفات من صفات الله: (الأُلوهِيَّة، العِزَّة، الحِكْمة، الحُكْم).

فإذا قيل: كيف استَفَدْنا أرْبَعَ صِفات؟

فنقول: لأنَّ لدَينا قاعدةً، وهي: أنَّ الأَسْماءَ الحسنى كلُّ اسمٍ منها مُتَضَمِّنٌ لصِفةٍ.

الآيــة (٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:٢].

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ لَمَّا بيَّن أنَّ تنزيل الكتاب من الله بيَّنَ إلى مَن أنزل؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يا محمدُ، ﴿أَنزَلۡنَآ﴾ ضميرُ جَمْع، لكنه إذا كان عائدًا إلى الله فليس للجَمْع قطعًا بل هو للتَّعْظيم، وقد اشتبه على النصرانِيِّ مثلُ هذا الجمع، وقال: إنَّ الله ثالـثُ ثلاثةٍ؛ لأنَّ الله تعالى يذكر الضَّميرَ عائدًا إليه بصيغة الجمع، وأقل الجمع ثلاثة!

فنقول في الرَّدِّ عليه: إنَّ هذا من زَيْغِ النَّصارى؛ ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف:٥] فاتبعوا المتشابِهَ من القرآن، ولو أنهم ردوا هذا المتشابِهَ إلى المُحْكَم لعلموا أنهم مُخْطِئون غايَةَ الخطأ، وذلك أنَّ الله صرَّح في آياتٍ كثيرة بأنه إلهٌ واحِدٌ، فقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣].

وهذا نصٌّ صريح مُحْكَم، وأما (نا) التي هي ضمير جَمْع فإنها في اللُّغَة العَربيَّة التي نزل بها القرآن صالِحةٌ للجمع وللمُعَظِّم نَفْسَه.

إِذَنْ: هي من المتشابِهِ؛ لأنَّ اللَّفْظ إذا احتمل مَعْنَيَيـنِ فإنه يقال فيه متشابِهٌ، والمتشابه يجب أن يُرَدَّ إلى المُحْكَمِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: ﴿إِلَيْكَ﴾ هذا الغاية، والخطاب للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: المكتوبَ، وهو القرآن، وسبق وَجْهُ كَوْنِه كتابًا.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّق بـ(أَنْزَل)، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء هنا للمُلابَسَة وللتَّعْدِيَة، يعني أنَّ الكتاب نفسه نزل حقًّا من عند الله لا مِن عند غيره، أنزلناه بالحَقِّ يعني: بالتَّأكيد أنَّنا أنزلناه إليك من عندنا.

وقلنا أيضًا: (للتَّعْدِية) بمعنى: أنَّ الكتابَ نزَلَ بالحَقِّ، أي: إنَّ ما اشتملَ عليه القرآنُ فهو حَقٌّ.

فعلى الوجه الأول يكونُ المرادُ بقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ تأكيدًا أنه نزل من الله؛ وعلى الوَجْه الثاني: يكون المعنى: أنَّ كُلَّ ما اشتمل عليه القرآن من أخبارٍ وأوامِرَ ونواهٍ وغيرِها، فهو حَقٌّ.

إذن: قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ له معنيان:

المعنى الأول: أنَّ القرآنَ نزَلَ مِن عند اللهِ حقًّا لا باطلًا.

المعنى الثاني: أنَّ ما اشْتَمَل عليه القرآنُ فهو حَقٌّ؛ أوامر، نواهٍ، أخبار، قَصص؛ كلُّها حَقٌّ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بأنزل]، ولم يقل: مُتَعَلِّق بأَنْزَلنا؛ لأنَّ المُتَعَلِّق إنما يتعلَّق بالفعل، أما (نا) فهي ضمير، خارجة عن الفعل.

قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ الفاءُ للتَّفْريع، وعلامة فاء التَّفْريع أنَّ

ما بعدها يكون مُرَتَّبًا على ما قَبْلها، فالمعنى: فلِإِنْزَالِنا إليك الكتابَ اعْبُدِ الله مُخْلِصًا له الدين؛ (اعْبُد) الخطاب للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله تعالى: ﴿مُخْلِصًا﴾ حالٌ من فاعل (اعبُد) وإخلاص الشَّيْء تَنْقِيَتُه من الشَّوائِب، وإزالة ما يخالِطُه، فإذا كان: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ فالمعنى: أنْ تُنَقِّيَ دينَكَ مِن كُلِّ شِرك؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشرك؛ أي: موحِّدًا له] أي: لله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿لَّهُ ٱلدِّينَ﴾: ﴿ٱلدِّينَ﴾ يعني: العَمَل، والمراد به هنا: العمل المخصوصُ، وهو: العبادة؛ لقوله: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ ولم يَقُل: مخلصًا له العبادَةَ؛ لأنَّ الدِّين هو العمل الذي يريد العامِلُ عليه مكافأةً؛ هذا الدين، ومنه قولهم: كما تدين تُدانُ، واعلم أنَّ الدِّينَ يُطْلَق على العمل الذي يُرادُ به المكافأةُ، ويُطلَق على نفس المكافَأَة، وهي الثَّواب على العمل.

فمِن الأَوَّل مِثْلُ هذه الآية ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]، وقوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]؛ أي: عملًا تتعبَّدون به.

ومثال الثاني قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] يعني: يوم الجزاء على العَمَل، ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧-١٩]؛ أي: يوم الجزاء على العمل.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فضيلَةُ رسولِ الله ﷺ وعُلُوُّ مَرْتَبَتِه، وذلك بإنزال كتاب الله إليه؛ لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾. وهل إنزالُ القرآنِ إلى الرَّسول إنزالٌ إلينا؟

الجواب: نعم، إنزالٌ إلينا؛ لأنَّه رسولُنا، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء:١٧٤] فالنَّازِلُ إلى رسول الله نازلٌ إلينا، ولكنه هو المباشِر لهذا الإنزال ويُبَلِّغُه لنا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ما سبق من أنَّ القرآن نازلٌ من عند الله فيكون كلامَه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عُلُوُّ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ النُّزول إنما يكون من أعلى، دلَّ عليه (الكتاب والسُّنَّة والإجماع والعقل والفِطْرَة) خَمْسَةُ أنواع من الأدلَّة، كلُّها تُثْبِت علوَّ الله عَزَّوَجَلَّ على خَلْقِه.

وقد خالف في هذا طائفتان:

الطائفة الأولى: طائِفةُ الحُلُولِيَّة الذين قالوا: إنَّ الله بذاتِهِ في كلِّ مكانٍ. يقولون: إنَّ الله بذاتِهِ نَفْسِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في كلِّ مكانٍ؛ في المسجد، في السوق، في البيت، في السَّطْح، في الحجرة، في أقبح مكان -والعياذ بالله- وهؤلاء أقول: إنَّهم كفَّار، لكن من كان متأوِّلًا وجب إعلامُه وبيان الحقيقة له، فإن أصَرَّ فهو كافِرٌ.

الطائفة الثانية المخالِفَة: المُعَطِّلَة الجاحِدَة، الذين يقولون: إنَّ الله تعالى ليس فوقَ ولا تحتَ، ولا يَمين ولا شمالَ، ولا متَّصل ولا مُنْفَصل؛ فهؤلاء وصَفوا الله بالعَدَمِ، كما قال محمود بن سُبُكْتِكِينَ رَحِمَهُٱللَّهُ لابن فَوْرك لـمَّا قال: إنَّ الله لا موجود ولا معدوم.. إلخ، قال له محمود بن سُبُكْتِكِينَ: إنَّكَ وصفْتَ الله تعالى بالعَدَم[1].

وصدق؛ لو أردنا أن نصف معدومًا ما وجدنا أشدَّ إحاطَةً من هذا الوَصْفِ بالمعدوم.

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٢٥٣).

هدى الله الذين آمنوا لِمَا اخْتَلَفوا فيه من الحَقِّ بإذنه، وقالوا: إنَّ الله تعالى نَفْسَه فوقَ كلِّ شيء؛ كما دل على ذلك الكتابُ والسُّنَّة والإجماع والعقْل والفطرة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الكتاب حقٌّ مِن عند الله، لم يتقوَّلْه النَّبيُّ ﷺ على ربِّه، بل هو من عند الله؛ لقوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: أنَّه حَقٌّ مِن عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٥]؛ فقال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ بعد أن قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ [الحاقة:٤٠-٤٤] لئلَّا يتوهَّم واهِمٌ أنه لما قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ صار القرآن من عند الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأنه هو الذي قاله؛ فقال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٥-٤٧].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن جميع ما في القرآن حَقٌّ؛ على الوجه الثاني؛ أخبارُه وقَصَصه وأوامره ونواهيه؛ إِذَنْ: أخبارُهُ ليس فيها كَذِب لوَجْهٍ من الوجوه، وقَصَصُه ليس المراد منها: إمضاءَ الوقتِ وإتلاف الوقت، بل هي قَصَص نافعة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ القرآن حجَّةٌ على النَّاس، يُلْزِمهم بعبادة الله؛ لقوله: ﴿فَٱعْبُدِ﴾ والفاء هذه للتَّفْريع؛ أي: لأجل إنزال الكتاب إليك: اعْبُدِ الله.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن من لم يَبْلُغْه القرآنُ لم تَلْزَمْه العبادة؛ ويدلُّ لهذا آياتٌ أخرى؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥] ومثل قوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] ومثل قوله

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص:٥٩].

ومثل قول النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(١) فقال: «لا يَسْمَعُ بي».

والنُّصوص في هذا المعنى كثيرة؛ أن من لم تبلُغْه دَعْوَةُ الرُّسُل لا تلزمه العبادة.

والدَّليل التَّطبيقيُّ لهذه المسألة عِدَّةُ شواهِدَ:

منها: حديثُ عمَّار بن ياسر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بعثه النبيُّ ﷺ في سَرِيَّة فأجنب فلم يَجِدِ الماء فتَمَرَّغَ في الصَّعيد كما تتمَرَّغُ الدَّابَّة ظنًّا منه أن هذا لازِمٌ له، وصلى وأخبر النَّبي ﷺ بهذا، فبيَّن له النَّبيُّ ﷺ أنَّه يكفيه عن الغُسْل أن يَضْرِبَ الأَرْضَ بيدَيْهِ ثم يَمْسَح وجهه وكَفَّيه(٢)، ولم يأْمُرْه بإعادة الصلاة.

وكذلك الرَّجُل الذي جاء فصلَّى ولا يطْمَئِنُّ في صلاته، فقال له النَّبي ﷺ: «إنك لم تُصَلِّ»، فقال: والذي بعثَكَ بالحَقِّ لا أُحْسِنُ غيرَ هذا؛ فعلَّمَه النَّبي ﷺ(٣) ولم يأمُرْه بإعادة ما مضى من صلاته؛ مع أنه كان يصلي صلاةً لا تُجْزِئُه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم أخرج بعث النار، رقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب التيمم بضربة، رقم (٣٤٧)، ومسلم: كتاب الحيض، باب التيمم، رقم (٣٦٨)، من حديث عمار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك المرأة التي كانت تُسْتَحاضُ فتظُنُّ أن هذا حَيْضٌ فلا تُصْلي[١]، فلم يأمُرْها النَّبي ﷺ بالإعادة، وأمثالُ هذا كثير.

وعليه فلو أنَّ رجلًا أسلمَ في بلاد الكُفْر أو في بلادٍ نائِيَة لا يَصِلُها أحكامُ الشَّرْع وترَك الصَّلاةَ مُدَّة، ثم علم بعد ذلك بوجوبِ الصَّلاة؛ فإننا لا نأمره بإعادَةِ ما ترك، وإنما نأمُرُه بصلاةِ ما حَضَرَ وَقْتُه فقط.

وكذلك لو كانت امرأةٌ في محلٍّ ناءٍ، بلغَتْ بالحَيْضِ وهي صغيرة ولم تَصُم رمضان، ولكنها في محلٍّ ليس حولَها علماءُ تَسْألُهُم قد غلب عليها الجَهْل -كالبادِيَة مثلًا- فإننا لا نأمرها بقضاءِ ما تركت من الصَّوْم للجَهْل.

وهذا هو اللَّائِقُ بالشَّريعة الإسلاميَّة المبْنِيَّة على اليُسْر والسُّهولة، وعلى أنَّ الله تعالى لا يكلِّف نفسًا إلى وُسْعَها، ولا يكلِّفُ نَفْسًا إلَّا ما آتاها، ويمكن أن يكون في الآية إشارةٌ إلى ذلك، فلما ذكر ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ ﴿فَٱعْبُدِ﴾ فبعد الإنزال أَمَرَ بالعبادة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وجوبُ الإخلاصِ للهِ في العِبادة؛ لقوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ والإخلاص تَنْقِيَةُ الشَّيْء ممَّا يَشُوبُه؛ ولهذا جاء في الحديث الصَّحيح أنَّ الله تعالى قال: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[٢].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٤٣٩)، وأبو داود: كتاب الطهارة، باب من قال إذا أقبلت الحيضة تدع الصلاة، رقم (٢٨٧)، والترمذي: كتاب الطهارة، باب في المستحاضة أنها تجمع بين الصلاتين بغسل واحد، رقم (١٢٨)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب ما جاء في البكر إذا ابتدئت مستحاضة، رقم (٦٢٧)، من حديث حمنة بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فلو تصدَّق الإنسان بمالٍ لكنَّه مُرَاءٍ بذلك من أجل أن يُمدَح فإنه لم يَعْبُدِ الله، وهو آثِمٌ وليس بمأجورٍ، ولو صلَّى ليُمْدَحَ فإنه لم يَعْبُدِ الله، وهو آثِمٌ وليس بمأجور؛ لأنَّ الله أمر بعبادة خاصَّة، وهي الإخلاصُ ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزُّمَر:٢].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ العبادة دينٌ يدين به الإنسانُ، ومعنى كَوْنِه دينًا أنه يعْمَلُ ليُثابَ.

ويتفرَّع على هذه الفائِدَة: أنَّه ينبغي للإنسانِ حين العبادَةِ أن يلاحِظَ هذا المعنى، وهو أنه يَعْمَل ليُثابَ؛ لأنه إذا شعر بهذا الشعور فسوف يُتْقِنُ العَمَل؛ إذ إنَّ العقل يهدي الإنسان إلى أنَّ الثَّواب على قَدْرِ العمل، إن أحْسَنْتَ العمل حَسُنَ الثَّواب، وإن قصَّرْتَ فالثَّواب يَنْقُصُ، وهذه المسألة -أعني شعور كَوْن الإنسان يعمل من أجل الثَّوابِ- أعتقد أنَّها تَفُوتُ كثيرًا من النَّاس لا يَنْتَبِهون لها.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الإشارة إلى نِيَّة المعمولِ، فحينما تَعْمَل تريد التَّقَرُّبَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ بامتثال أمره، فمثلًا: عندما تريد أن تتوضَّأ تنوي بأنك تتوضَّأ امتثالًا لأمر الله حينما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة:٦] من أجل أن تَشْعُرَ بالعبادة ولذَّة العبادة، لا لأجل أن تُبْرِئَ ذِمَّتك بِفِعْلِ ما هو فَرْضٌ عليك من الطَّهارة للصَّلاة، هذا لا شكَّ نيَّة طيِّبة، لكِنْ أَطْيَبُ منها أن تستَشْعِرَ بأنَّكَ تَمْتَثِل أمرَ الله لتَشْعُرَ بلذَّة العبادَةِ، وأنَّك حقيقَةً عبدٌ لربِّك عَزَّوَجَلَّ.

هذه مسائل ينبغي للإنسان أن يَنْتَبِه لها في عبادَتِه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

الآيـة (٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣].

قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ قوله: ﴿أَلَا﴾ أداة اسْتِفْتاح، وهي حرفٌ يراد به التَّنْبيهُ؛ لأنَّ المُتكَلِّمَ إذا قال: (ألا) انتبَه المخاطَبُ.

وقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ الجارُّ والمجرور خبَرٌ مقدَّم، و﴿ٱلدِّينُ﴾ مبتدأ مؤخَّرٌ، ويفيد تقديمُ الخَبَر الحَصْرَ؛ أي لله وحده.

وقوله: ﴿ٱلدِّينُ﴾ يعني: العَمَل الذي يُراد الثَّوابُ عليه.

وقوله: ﴿ٱلْخَالِصُ﴾، يعني: النَّقِي من الشوائب والشِّرْك؛ أي: إنَّه يجب على العاقل أن يجعل الدِّينَ الخالِصَ لله وحده؛ إذ كيف يليق بالعاقل أن يتعبَّد بالحَقِّ لله من أجل التَّقَرُّب إلى غيره؟! هذا خلاف العَقْل، فإذا قام الإنسان يصلي من أجل أن يراه النَّاس فهو سفيهٌ في عَقْله، ضالٌّ في دينه.

ولكن: كيف تجعل الحَقَّ الخالص لله تَجْعَلُه للنَّاسِ؟

الجواب: نعم، العمل الذي للنَّاس للنَّاس، لكن العمل الذي لله يجب أن يكون لله؛ ولهذا قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ﴾ وَحْدَهُ ﴿ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ فلا يجوز أن نجعله لغيره.

ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ يقولون ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ﴾ إلخ، الواو هنا للاستئناف، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأٌ و﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ صلة الموصول، وخبر المبتدأ محذوف تقديره: (يقولون ما نعبدهم) أو: (قالوا: ما نعبدهم).

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾: اتَّخذوا بمعنى صيَّروا، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء:١٢٥] يعني: صيَّره؛ وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣]؛ أي: صيَّر إلهَه هواه.

فإذا كانت ﴿ٱتَّخَذَ﴾ بمعنى صيَّر فإنَّها تحتاج إلى مفعولين: (مُصَيَّر ومُصَيَّر إليه) فالمفعول الأول؛ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الأَصْنام ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾]؛ وعليه فيكون المفعول الأولُ محذوفًا، والثاني: ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾، وحَذْفُ المفعول إذا دلَّ عليه الدَّليل جائزٌ.

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في باب المبتدأ والخبر:

وَحَـذْفُ مَـا يُعْلَـمُ جَـائِزٌ كَـمَا ... تَقُولُ زَيْـدٌ بَعْـدَ مَـنْ عِنْـدَكُمَا[1]

(حَذْفُ ما يُعْلَم جائِزٌ) الواقع أن هذا البيت في المبتدأ والخبر، لكن هو عامٌّ، فحَذْف ما يُعلَم جائِزٌ، وقد يكون من الفصاحَة والبلاغَة أن يُحْذَف، إنما الأصل أن ما يُعْلَم يجوز حَذْفُه، وما لا يُعْلَم لا يجوز حذفه؛ لأنَّ الكلام لا بد أن يكون مُبَيِّنًا لمراد المُتكَلِّم، وهذا لا يكون مع حَذْفِ ما لا يُعْلَم.

إذَنِ: المفعولُ الأول محذوف، والتقدير: الأصنام، والثاني موجود، وهو قوله: ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾.

﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ جَمْع وليٍّ؛ أي: يتولَّونَها ولاية عبادَةٍ يتضرَّعون إليها، يسجدون

(١) الألفية (ص١٨).

لها، يَنْذِرون لها، يتصدَّقون لها، لكن لا يعتقدون أنَّ هذه الأصنام تَنْفَعُهم أو تضرُّهُم بذاتها ولا أنها تَخْلُق ولا أنها ترزق، لكن يَدَّعُون أنَّهم اتَّخذوها وسيلة.

ولهذا يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوْلِيَآءَ﴾ وهم كفَّارُ مكَّة] وتخصيص هذا بكُفَّار مكة فيه قصور، ولا ينبغي أن نفسِّر العامَّ بما هو أخَصُّ إلا على سبيل التَّمْثيل، أما على سبيل تَحْديدِ المعنى بحيث يأتي اللَّفْظ في القرآن عامًّا ثم نُفَسِّره بمعنًى أخصَّ، فإن هذا قصورٌ في الحقيقة، لكن: نَعَم، إن أراد الإنسانُ بهذا التَّفسيرِ التمثيلَ؛ يعني مِثْل كفَّار مكَّة فهذا لا بأس به، لكِنَّ القارِئَ الذي يقرأ مثل هذه العبارة من كلام المُفَسِّر لا يشُكُّ أنَّ المُفَسِّر أراد بهذا التَّخصيصَ، وفي هذا نظرٌ ظاهِرٌ، فالواجب إبقاءُ دَلالة عموم الآيات وكذلك الأحاديث على ما هي عليه، حتى يقومَ دليلٌ عقليٌّ أو قرينة لفظيَّة على أنَّ المراد الخاصُّ.

فائِدَة: قوله: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ الأَحْسَنُ الوقوف عليها في القراءَةِ.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهم كفَّار مكَّة قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾]، [قالوا] هـذه الجملة محذوفة لأنَّها معلومةٌ من السِّياق، ويصِحُّ أن نُقَدِّرَ: يقولون: ما نعبدهم، ولعلَّها أنسَبُ من قول المُفَسِّر: [قالوا]: يعني حكايةً للحالِ التي هم عليها، وعلى كلٍّ فالجُمْلَة المحذوفة هي خبر المبتدأ، وهي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ ولا يجوز أن نجعل جملة: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ هي الخبر لفساد المعنى قال: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ هذا حصر لمرادهم من عبادة هذه الأصنام؛ يعني ما نَعْبُدُهم إلا لهذا الغَرَضِ ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ وهذا إقرارٌ منهم واعترافٌ بأنَّهم يعبدون الأصنام؛ لقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ وأن هذه العبادَةَ هي وسيلَةٌ لغايَةٍ أشْرَفَ منها، وهي: القُرْبَى لله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا من جهلهم؛ لأنَّهم الآن إذا عبَدوهم جعلوها غايةً؛ لأنَّ المقصود هو

الوصول إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والوصولُ إلى الله لا يكون إلا بعبادَتِه، فهم إذا عبدوهم جَعَلوهم هُمُ الغايَةَ، ولهذا سنُبيِّنُ إن شاء الله أنَّ هذا من سَفَهِهِم.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ قُرْبَى، مَصْدَرٌ بمعنى تقريبًا] ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّها [مصدر] لكنها مصدرٌ مَعْنَوِيٌّ لموافَقَتِه العامِلَ في المعنى دون اللَّفْظ، فالمصدَرُ قد يكون لفظيًّا وقد يكون معنويًّا؛ فإن وافق عامِلَه في اللَّفْظ فإنَّه لَفْظيٌّ؛ مثل: قمْتُ قيامًا، وإن خالفه في اللَّفْظِ دون المعنى صار معنويًّا؛ كقولك: قُمْتُ وقوفًا، وأمَّا قولُك: قَعَدْتُ قُعودًا؛ فلَفْظيٌّ، وقولك: (قعَدْتُ جُلوسًا) معنوي.

يقول: تقرَّبوا إلى الله زُلْفى، يقول: إنَّه بمعنى قُرْبى، وقُرْبَى أيضًا يراد بها التَّقْريب، وإنَّما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّه يُرادُ بها التَّقْريبُ؛ من أجل أن يُطابِقَ الفِعْلَ، فالفعل (قَرَّبَ) مضارِعُه (يُقَرِّب) المصدر المطابِق: (تقريبًا) لا قُرْبًا، ولكن من المعلوم أنه قد يوافِقُ المصدَرُ عامِلَه في اللَّفْظ، ولكنه لا يطابقه في الحروف، ومثل هذا يُسَمَّى عندهم اسمَ مَصْدر؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧]، فلو كان مصدرًا لقال: إنباتًا، فلما قال: ﴿نَبَاتًا﴾ ونَقَصَت حروفُه عن حروف فِعْلِه سُمِّيَ اسْمَ مَصْدَرٍ.

المُهِمُّ أنَّهم يقولون: نحن لا نعبد هذه الأصنام إلا من أجل أن تُقَرِّبَنا إلى الله تعالى قُرْبَى.

وحالُ بَعْضِ النَّاس عند القبور كحالِ هؤلاء؛ فهناك ناسٌ يطوفون بالقبور يَنْذِرون لها، يَسْجُدون لها، يقولون: هؤلاء أولياءُ يُقَرِّبوننا إلى الله! وهؤلاء الآن لهم وجود في العالَمِ الإسلامي.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ الجملة اسْتِئْنافِيَّة لبيانِ مآلِ هؤلاء الذين اتَّخذوا الأصنامَ أولياءَ؛ يعني: فماذا تكون نهايَتُهم؟ يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وبين المسلمين] فأشار إلى أنَّ الطَّرَف الآخَرَ من البَيْنونة، أو من البَيْنِيَّة على الأَصَحِّ محذوف؛ وبين المسلمين، وهذا التَّقدير ليس في السِّياق ما يدلُّ عليه، لو قال: بينكم، لكان صحيحًا، أنَّ المراد بينكم وبينهم، لكن هو قال: ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾؛ أي: بين هؤلاء الكُفَّار ﴿فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ وكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ظنَّ أنه لا اختلاف بين الكُفَّار، وليس كذلك، بل الخلاف بينهم حاصِلٌ في الدنيا وفي الآخرة، قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾ [الأعراف:٣٨] إلى آخر الآيات؛ محاوَرَة، منازَعَة، مخاصَمَة؛ فيحكم الله بينهم، وقد ذكر الله ذلك في عِدَّةِ آيات.

فالصَّواب: أنَّ الضميرَ بينهم؛ أي: يعود على الكُفَّار، وأنَّ الخِلافَ أو الاختلاف حاصلٌ بينهم أنْفُسِهم، فالنَّصارى واليهود بينهم خلاف: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ [البقرة:١١٣].

وهذا الخلاف ثابتٌ بين الأُمَم الكافِرَة؛ فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما هم فيه يختلفون من أمر الدِّينِ، فيُدْخِل المؤمنين الجنَّة والكافرين النَّارَ، هذا بناءً على ما ذهب إليه المُفَسِّر، ولكِنْ على القول الذي هو ظاهِرُ الآيَةِ الكريمَةِ: ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ فيجعل كلَّ إنسان في منزلته، وقد بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ ذلك في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣]

لما ذكر المحاورة بين المُسْتَضْعَفينَ والمُسْتَكْبرينَ.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ هـذه الجملة مُؤَكَّدَة بـ(إنَّ).

وقوله: ﴿لَا يَهْدِى﴾ المراد بذلك: هدايةُ التَّوْفيـق، وأما هدايَةُ الدلالة فإنها حُجَّةُ الله على خَلْقِه، لا بدَّ أن تنالَ كلَّ أحد؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]؛ (هديناهم) هداية دَلالة.

إذن: إنَّ الله لا يَهدي هدايةَ توفيقٍ، لا هداية دَلالة؛ بل هداية الدلالة ثابِتَـةٌ لكُلِّ أحَدٍ.

قوله تعالى: ﴿لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾: ﴿مَنْ هُوَ﴾ أي الذي هو ﴿كَـٰذِبٌ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في نِسْبَةِ الوَلَدِ إليه]، والذين نسبوا الولد إليه هم اليهود والنصارى والمُشْرِكون؛ ثلاثة: أما اليهود فقالـت: عُزَيرٌ ابْنُ الله، وأما النصارى فقالوا: المسيحُ ابنُ الله، وأما المشركون فقالوا: الملائِكَةُ بناتُ الله والآية كما يُشاهَد: ﴿مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ﴾ عامَّة، لكن كأنَّ المُفَسِّر خصَّصها بنِسْبَة الولد إلى الله؛ لقوله فيما بعد: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزُّمَر:٤]؛ وإلا فلو نظرنا إلى الآية: ﴿كَـٰذِبٌ﴾ لكانت مُطْلَقَة لم تقيَّد بنِسْبَة الوَلَدِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، لكن المُفَسِّر قيَّدَها باعتبار أو بِقَرينَة السِّياق: ﴿كَفَّارٌ﴾، ﴿كَفَّارٌ﴾ هذه يُحتَمَل أن تكون صيغة مبالغَة، ويحتمل أن تكون للنِّسْبة فإن كانت للنِّسبة صارت صفةً لازِمَة؛ كما نقول: نجَّار وحدَّاد وخشَّاب وبنَّاء، وما أشبه ذلك، وإن كانت صيغة مبالغة لم تكن صفةً لازِمَة لكنها تدل على الكَثْرة.

وعلى كلِّ حال: فسواء كانت للمبالَغَة أو للنِّسْبَة فالمراد بها: الكَفُور بالله عَزَّوَجَلَّ.

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بعبادَتِه غَيْرَ الله] ولا شكَّ أن هذا كُفْر؛ عبادَةُ غَيْرِ الله، وتخصيصُ الكفر هنا بعبادة غير الله يؤيِّدُه السِّياق، وهو قوله فيما سبق: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الله لا يقبل إلا دينًا خالصًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ أما ما سواه فليس لله حتى وإن أَشْرَكْتَ به مع الله؛ لأنَّ الدين لله هو الخالِصُ النَّقِيُّ من شوائب الشِّرْك.

فإن قال قائل: إذا كان العمَلُ خالصًا في أوَّلِه مُشْرَكًا فيه في آخره، فهل يَبْطُل العَمَلُ كلُّه، أو يَبْطُل ما فيه الشِّرْكُ؟

فالجواب: في هذا تفصيلٌ؛ إذا كانت العبادة التي وقع الشِّرْك في أثنائها ينبني بعضُها على بعض فإنَّها تَبْطُل؛ مثل الصَّلاة؛ فرَجُلٌ أَحْرَم بالصلاة مُخْلِصًا لله وفي أثنائها سَمِعَ حوله أحدًا فراءى في ذلك في صلاتِهِ في أثناء العبادَةِ، فنقول: الصلاة تَبْطُلُ كُلُّها؛ لأنَّ أَوَّلَها وآخِرَها مبنيٌّ بَعْضُه على بعضٍ.

أما إذا كانت لا ينبني بَعْضُها على بعضٍ فإنَّ ما كان خالصًا يَصِحُّ، وما كان مَشُوبًا لا يَصِحُّ؛ فمثل رجل كان يتصدَّقُ، عنده ألف ريال، فكلما جاء فقيرٌ أعطاه منها؛ أنفق خَمْسَ مئة ريال خالصة لله، وفي أثناء الإنفاق حضَرَ أناسٌ فراءاهم، فهل تَبْطُلُ الصَّدَقة الأولى التي بها الإخلاصُ؟

الجواب: لا، لأنَّ بَعْضَها لا ينبني على بعضٍ، فكُلُّ ريال مُنْفَصِل عن الذي قبله؛ وهذه مسألة مُهِمَّة.

أما المسألة الثانية: فأحيانًا يهاجِمُ الرِّياءُ القَلْبَ، ويدافعه الإنسانُ، فهل يؤثِّر هذا على إخلاصِهِ؟

الجواب: لا، لا يؤثِّرُ ما دام يدافِعُه ويُعْرِضُ عنه؛ لأنَّه الآن في جهادٍ لعَدُوِّه، والشيطان دائمًا يأتي الإنسانَ من كل وَجْه، قال الله تعالى عنه في سورة الأعراف: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦] يعني: في كل مكانٍ، فيأتي الإنسانَ يُثَبِّطُه عن العبادة، يُثَبِّطُه عن طلب العلم، يثبِّطه عن صلة الرَّحِم، عن بِرِّ الوالدَينِ، وما أشبه ذلك مما أوجب الله عليه، فإذا رأى منه تَصْميمًا على القيام بالعبادة أتاه من جهةٍ أخرى، وهو: الغُلُوُّ في العبادة، والزيادَةُ فيها، والتَّنَطُّع والتكَلُّف، فإذا عَجَز عنه من هذه الناحية أتاه من جهة النِّيَّة؛ أنك مُراءٍ، ولكنَّ الإنسان يجب عليه أن يدافِعَ الشيطان بقدر ما يستطيع مُسْتَعينًا بالله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: غِنى الله عَزَّوَجَلَّ غنى الله الغنى التَّام.

ووجه ذلك: أنَّه إذا كان الله لا يَقْبَلُ إلا ما كان خالصًا دلَّ على غناه عن عمل العباد لأنَّه -وحاشاه من ذلك- لو كان فقيرًا مُحتاجًا لذلك لاكتفى بما يأتيه منهم ولو على سبيل المشارَكَة، كالإنسان المُحتاجِ يقبل منك ما كان خاصًّا له وما كان مُشْتَرَكًا، فلما كان الله لا يقبل إلا ما كان خالِصًا عُلِمَ بهذا غناه عن العباد، وإلى هذا يشير قوله تعالى في الحديث القدسي: «**أَنا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن عابدي الأصنامِ قد تولَّوُا الأَصنامَ واتَّخذوها أولياءَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن عباد الأَصْنام يُمَوِّهون على النَّاس، يقولون: نحن ما نعبُدُهم إلا لغايةٍ، وهي أن يُقَرِّبونا إلى الله زُلْفى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه يمكن أن نُعَدِّي هـذا الحُكْم إلى جميع أهل الباطِلِ، فهم يدَّعُونَ أنهم يُحْسِنون صُنعًا وهم كَذَبَة.

ولْنَضْرِبْ لهذا مثلًا بأهْلِ التَّعْطيلِ:

أهلُ التَّعْطيلِ يدَّعون أنهم بتَعْطيلِهم هذا مُنَزِّهون لله، وأنَّ قَصْدَهم تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن النَّقص وعن مشابَهَة المخلوقيـن، وهم كاذبون في هذا؛ لأنَّهُم إذا عطَّلوه عن كمالِ صِفاتِهِ فهو ضِدُّ التَّنْزيل، وهؤلاء يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ والحقيقة: أنَّ هذه العبادةَ تُبْعِدُهُم من الله مسافاتٍ كثيرةً.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إقرارُ المشركين بأنَّهُم يَعْبُدون أصنامهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ فإنَّهم يصرِّحون بأنَّهُم يَعْبُدونهم، لكن لا يقولون: نعبدهم لنتَقَرَّب إليهم، بل: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ المشركيـنَ في عَهْدِ الرَّسول ﷺ يُقِرُّون بوجود الله، وأنه أعْظَمُ من كل عظيم؛ لقولهم: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فهم مُعْتَرِفون بالله عَزَّوَجَلَّ وأنه أعظم من أصنامهم؛ ولهذا جعلوها وسيلةً له أو للتَّقَرُّب إليه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنه سيكون بين هؤلاء المشركينَ وبين أوليائِهم، سيكون نزاعٌ وخُصُومَة يوم القيامة؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ الحُكْم لله عَزَّوَجَلَّ وحده في ذلك اليوم -أعني يوم القيامة- وأنَّ المَرْجِعَ إليه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ من كان كاذبًا كفَّارًا فإنَّ الله لا يوافِقُه؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: التَّحْذيرُ من الكَذِبِ وخصال الكُفْر، وأنَّ الكَذِب سببٌ لِمَنْع الهداية وذلك -وهذه القاعدة التي يمكن أن نُطَبِّق عليها هذه الفائِدَة- لأنَّ الحكم إذا عُلِّق بوصف وُجد بوجوده وانتفى بانتفائِهِ، ويدلُّ لهذا أنَّ النَّبي ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ»[1].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الصِّدْق سببٌ للهِدايَة؛ وجهه: أنَّه إذا كان الكَذِب سببًا للغِوَاية فضِدُّه سببٌ لضِدِّه، يكون الصِّدْق سببًا للهداية.

ويتفرَّع على هذه الفائِدَة: التَّرغيب في الصِّدْق، ولكن الصِّدْق مع الله، ومع رسول الله، ومع عباد الله؛ فالصِّدْقُ مع الله بالإخلاص له، ومع الرَّسول باتِّباعه، ومع عباد الله بحُسْن المعاملة، فعليك بالصِّدْقِ: «فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، والْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا»، جَعَلَنَا اللهُ وإيَّاكم منهم.

يقول بعض السُّفَهاء: الكَذِب منجاةٌ؛ ويقول بعض الباعَة: الكَذِبُ مسامِيرُ السِّلَع؛ ونقول: الكذب مَهْلَكَة، والصِّدْق منجاة.

وبالنسبة للسِّلَع فالذين يبيعون ويشترون ويقولون: اكْذِبْ لأجل تُحْكِم السِّلْعة مثلَ المسامِيرِ للأبوابِ؛ ماذا نقول لهم؟ نقول: بلِ اصْدُقُوا؛ فإن هذا هو المسامِيرُ، في

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، رقم (٦٠٩٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الحقيقة؛ لأنَّ هذا هو الذي يُثْبِت البَرَكة، لكن الكَذِب مَنْفَقَةٌ للسِّلعة مَمْحَقَةٌ للكَسْب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الكفر سببٌ للغواية؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾، ويؤيِّد هذا قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: التَّحْذير من خِصالِ الكُفْر؛ لأنَّ الحُكْمَ إذا عُلِّق بِوَصْف ثبت بوجوده وانتفى بانتفائِهِ، خصالُ الكُفْر التي لا تؤدي إلى الكُفْر المُطْلَق قد تكون سببًا والعياذ بالله للغِواية، مثل: الطَّعْن في النَّسَب، النياحة على الميِّت، قتل المعصوم المُسْلِم؛ لقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**سِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»(١).

• • ❁ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم (٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»، رقم (٦٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر:٤].

قال الله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما قالوا: اتَّخَذ الرَّحْمن ولدًا ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

﴿لَّوْ﴾ هذه شَرْطِيَّة؛ الشَّرْط الذي فيها: ﴿أَرَادَ﴾ وجوابُهُ: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ واعلم أنَّ (لو) الشَّرْطِيَّة إذا كان جواب الشَّرْط فيها مُثْبتًا فالأكثر اقترانه باللام (لَوْ أراد الله لَاصْطَفَى)، وقد يأتي غيرَ مُقْتَرِنٍ باللام كقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة:٧٠]؛ أما إذا كان منفيًّا -وهو كثير الأمثلة في هذا- فإنه قد يَقْتَرِن باللام كقول الشاعر:

وَلَـوْ نُعْطَـى الخِيَـارَ لَمَـا افْتَرَقْنَـا ... وَلَكِـنْ لَا خِيَـارَ مَـعَ اللَّيَـالِي[1]

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾: أراد إرادةً كَوْنِيَّة، فتكون بمعنى المشيئَة يعني: لو شاء الله أن يتَّخِذَ ولدًا، يعني أن يجعل لنفسه ولدًا [كما قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا﴾].

---

(١) غير منسوب، وانظره في: مغني اللبيب (ص٣٥٨)، وشرح التصريح (٢/ ٤٢٤)، وهمع الهوامع (٢/ ٥٧٢)، وخزانة الأدب (١٠/ ٨٢).

﴿لَّٱصۡطَفَىٰ﴾: اصطفى من الصَّفْوَة، وهو خيار الشّيء، فيكون معنى اصطفى اختار.

﴿مِمَّا يَخۡلُقُ﴾: أي: من الذي يَخْلُق ما يشاء، و(ما) هنا مفعولُ اصطفى أي: لاصطفى ما يشاء ممَّا يَخْلُقُه؛ وقوله: ﴿مِمَّا﴾ هذه اسْمٌ مَوْصُول، والعائِدُ مَحْذوف، والتَّقْدير: مما يَخْلُقُه، وعبَّرَ بـ(ما) دون (مَن) مع أنَّهُم قالوا: الملائِكَة بناتُ الله، وعزيرٌ ابْنُ الله، المسيحُ ابنُ الله، فعبَّرَ بـ(ما)؛ لأنَّها أعَمُّ مِن (مَن)؛ هذا من وَجْه.

من وجهٍ آخر: أنَّه إذا أُريدَ ملاحَظَة الصِّفَة، فإنه يعبَّر بـ(ما) عن (مَن) وهنا يراد ملاحَظَة الصِّفَة وهي: العبادة وانظروا إلى مثالٍ يتَّضِحُ به ما قلنا؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣] ولم يَقُلْ: (مَن)؛ لأنَّه ليس المقصود عَيْنَ المرأة إنما المقصود الوصف؛ ولهذا يعبَّر بـ(ما) عن (مَن).

﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ﴾ أي: من مخلوقاته ذاتِ الإرادَةِ والشُّعور كعُزَيْرٍ والمسيحِ والملائِكَةِ وغيرهم كالجمادات من الأصنام المنْحُوتة وغيرها؛ ما شاء، واتَّخذه ولدًا قوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ نقول: في ﴿مَا يَشَآءُ﴾ كما قلنا: في ﴿مِمَّا يَخۡلُقُ﴾ واتَّخذه ولدًا [غيْرَ من قالوا مِن الملائِكَة بنات الله، وعُزَيْر ابن الله، والمسيحُ ابن الله] يعني: الله عَزَّوَجَلَّ لو أراد أن يتَّخِذَ ولدًا ما منعه أحَدٌ؛ ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ مما قالوه أو غيره، فهو عَزَّوَجَلَّ له المُلْك الكامل، ولكنه لا يتَّخِذُ ولدًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٢]؛ يعني: مستحيلٌ غايَةَ الاسْتِحالَة أن يتَّخِذَ ولدًا.

ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا: [﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهًا له عن اتخاذِ الولد، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ لخَلْقِه] ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ أي تَنْزيهًا له، و﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ هذه اسمُ مَصْدَر، مِن سبَّح، والمصدَرُ تَسْبيح، واعلم أن (سبحان) ملازِمَةٌ للإضافة دائمًا،

ولكن ربما تأتي نادرًا أو شذوذًا بغير إضافَةٍ، وربما تَقْتَرِن بـ(أل) فيقال: السُّبْحان، ولكن الأَصْل: أنَّها ملازِمَةٌ للإضافة، وأنها منصوبة على المفعولية المُطْلَقة، وعاملها يكون محذوفًا دائمًا، والمراد: تَنْزيهًا له.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عن اتِّخاذ الولد] إنما خصَّه باتخاذ الولد؛ لأنَّ السِّياق في ذلك، وإلا فإنه مُنَزَّه عن اتِّخاذ الولد وعن كل عَيْبٍ ونَقْص.

فإذا قال قائل: هل في اتِّخاذ الوَلَدِ من عَيْبٍ؟

فالجواب: نعم، فيه عَيْبٌ؛ لأمور:

أولًا: لأنَّه يدلُّ على احتياجِ الوالِدِ للوَلَدِ، ولهذا تَجِدُ الإنسان إذا لم يَأْتِهِ الولد يرى أنه ناقِصٌ، ويتمنَّى كلَّ الأمنية أن يأتيه وَلَد يساعده على شُؤُون الحياة ويُبْقي ذِكْرَه بعد موته؛ فاتخاذُ الوَلَدِ نَقْص؛ ولهذا نزَّه الله نفسَه عنه.

ثانيًا: الولد إنما يأتي من أجل بقاءِ النَّوْع الذي تَوَلَّدَ منه، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غير محتاجٍ لذلك؛ لأنَّه هو الواحِدُ الباقي عَزَّوَجَلَّ.

ثالثًا: أنَّ الوَلَدَ يكون مماثلًا لأبيه ولا نَسْمَعُ وما سمعنا أنَّ بَشَرًا جاءه تَيْسٌ، أليس كذلك؟ وإنما يأتيه ولدٌ مِثْلُه، فلو فُرِضَ أنَّ الله اتَّخَذ ولدًا لكان الولد مثلَ الله عَزَّوَجَلَّ، والله تعالى مُنَزَّهٌ عن أن يُماثِلَه أَحَدٌ.

إذن: ففي هذه الوجوه الثلاثة يتبيَّن أنَّ الولد مُمْتَنِع عن الله غايَةَ الامتناعِ.

ثم إنَّ الله ذكَر مانعًا رابعًا: وهو أنه ليس له زَوْجَة فقال تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٠١] فبيَّن أنه ليس له زوجة، فكيف يأتي الوَلَدُ؟! وإنما جاء الولد من آدم مثلًا؛ لأنَّه آيةٌ مُعْجِزَة.

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ ولو كان له ولَـدٌ لشاركـه في الأُلوهِيَّة، والأُلوهِيَّة ليست إلا له الواحِد؛ ولو كان له ولد لكان اثنين؛ لأنَّه لا بدَّ أن يكون الوَلَدُ مماثِلًا لوالِدِه، والله واحِدٌ لا ثانِيَ له عَزَّوَجَلَّ.

﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ القهَّار صيغَةُ مبالَغَة، وصيغة نِسْبَة؛ أي: إنَّه ذو القَهْر الدَّائم المتكَرِّر، فكم من ذي جبروتٍ قَهَرَهُ الله عَزَّوَجَلَّ، ما أكثر الرجالَ والأُممَ ذوات الجبروت التي قهرها الله عَزَّوَجَلَّ!

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيان كمـال سُلطانِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأنَّه لو أراد شيئًا لم يَمْتَنع عليه؛ لقوله: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

ومن وجه آخر: أنَّ فيه ردًّا لاقتـراحهم أو دعـواهم بأنَّ الملائِكَـة بنـات الله أو المسـيحَ أو عُزَيْرًا، فيقول: لو أراد الله أن يتَّخِذَ ولدًا لاصطفى ما يشاء دون أن يتَّخِذ ما ادَّعَوْه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات إرادة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ وإرادة الله في فِعْله متَّفَقٌ عليها، لا نظُنُّ أنَّ أحدًا يخالف في أنَّ الله تعالى يريد فِعْله، ولكن هل تتعدَّى إلى فعل المخلوقِ أو لا؟

في هذا خلافٌ بين أهل السُّنَّة وأهل البِدْعة، فمنهم من قال: إنَّها تتعدَّى إلى فعل المخلوق وغالى في ذلك، وقال: إنَّ المخلوقَ ليس له إرادةٌ، وهذا قول الجَهْمِيَّة الجَبْرِيَّة.

ومنهم مَن قال: إنَّها تتعدَّى إلى فِعل المخلوق، لكنْ لا على سبيل الجَبْر، وهذا

مذهبُ أهل السُّنَّة والجماعَة.

ومنهم مَن قال: إنَّها لا تتعدَّى إلى فعل المخلوق وأنَّ المخلوق مستقِلٌّ بفعله ولا إرادة لله تعالى فيه. وهذا مذهب القَدَرِيَّة مَجوسِ هذه الأُمَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ الأفعال الاختياريَّة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، والأفعال الاختياريَّة لله ثابتة بالسَّمْع والعَقْل؛ أما السَّمْع فما أكثرَ الأفعالَ التي يُضيفُها الله إلى نفسه! وأما العَقْل فلأنَّ الفاعِلَ بالاختيار أكْمَل ممن لا يفعل.

وذهبت الأشاعِرَة وغيرهم من المُعَطِّلَة إلى أنَّ الأفعال الاختياريَّة لا تقوم بالله عَزَّوَجَلَّ بحُجَّة أنَّ الفعل الحادِثَ يستلزِمُ حدوث الفاعل؛ ولا شك أن هذا قولٌ باطلٌ يستلزم لوازِمَ باطِلَة؛ منها: أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ غيرُ قادر على الفعل، وهذا تنقُّص لله عَزَّوَجَلَّ وتكذيبٌ لأخباره الكثيرة التي لا تُحصَر في إثبات الفعل له.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات المشيئة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، والمشيئة نقول فيها كما قلنا في الإرادة، من حيث تعلُّقُها فهي تتعلَّق بأفعال الله، وهل تتعلق بأفعالِ المخلوقِ؟ على الخلاف السابق الذي شرحناه في الإرادة.

لكن هنا أمرٌ يَجِبُ التنبُّه له، وهو: أنَّ الإرادَةَ تَنْقَسِم إلى قسمين: إرادة شَرْعِيَّة، وإرادة كَوْنِيَّة؛ أما المشيئة فهي قِسْم واحد فقط.

فالإرادة الكَوْنِيَّة: تُرادِفُ المشيئة فهي بمعناها، فإذا قلتَ: (ما أرادَ الله كان) فهو بمعنى: ما شاء الله كان.

أما الإرادة الشَّرْعيَّة: فإنها تُرادِفُ المَحَبَّة؛ أي إنها تتعلَّق بما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ، فتقول: (إن الله يريد منا أن نَشْكُره).

والفَرْقُ بين الإرادة الشَّرْعيَّة والكَوْنِيَّة من وجهين:

الوجه الأول: أنَّ الإرادَة الكَوْنِيَّة شامِلَة لما يحبُّه الله وما لا يحبُّه؛ فهو يريد الإيمان ويريد الكُفر، ويريد الطَّاعة ويريد الفِسْق، بالإرادة الكَوْنِيَّة؛ أما الإرادة الشَّرْعيَّة فإنها لا تتعلَّق إلا بما يحبه فقط، فلا يمكن أن تقول: إنَّ الله يُريدُ الفِسْقَ؛ أي: يحبُّه، هذا مستحيلٌ.

الوجه الثاني: الإرادة الكَوْنِيَّة لا بد فيها من وقوع المرادِ، يعني إذا أراد شيئًا كونًا لا بُدَّ أن يقع، والإرادة الشَّرْعيَّة قد يقع وقد لا يقع، فيريد منَّا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الإيمانَ والطَّاعة، فقد تُوجَد وقد لا تُوجَد.

وهذا هو الفرق بينهما، وبهذا تَنْحَلُّ إشكالاتٌ أوردها القَدَرِيَّة على أهل السُّنَّة، فقالوا لهم: إذا أثبَتُّم تعلُّقَ إرادة الله بكل شيء حتى في المعاصي لزمكم أنَّ الله يريد الشَّرَّ، فيكون الله -على تقدير قولهم-: شِرِّيرًا! نسأل الله العافِيَة!

ونقول: أما الإرادة الشَّرْعيَّة فإن الله لا يمكن أن يريد الشَّرَّ أبدًا، وأما الإرادة الكَوْنِيَّة فإنه يريد ما شاء، لكنَّ إرادته كونًا للشَّرِّ لها حكمة بالغةٌ كثيرة معروفة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تنزيهُ الله عَزَّوَجَلَّ عن كلِّ ما وصفه به الكافرون الجاحدون؛ لقوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات ثلاثة أسماء من أسماء الله: (الله، والواحد، والقهَّار)، وكل اسمٍ يُثْبِتُه الله لنفسه فإنه يتضمَّن الصِّفَة التي اشْتُقَّ منها؛ فـ﴿الله﴾ مُشْتَق من الأُلوهِيَّة ففيه إثباتُ الأُلوهِيَّة صفةً من صفاتِهِ، ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾: من الوحدانِيَّة، ففيه إثبات الوحدانِيَّة لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾: من القهر، ففيه إثباتُ القهر لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه القهَّار الغلَّاب الغالِب لكلِّ شيءٍ.

الآيــة (٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر:٥].

ثم قال المُفَسِّر: [﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ﴿خَلَقَ﴾]، هذه الآية جاءت عَقِبَ ردِّ قول من يقول: إنَّ لله وَلَدًا ليبيِّن أنَّ الخالق للسموات والأرض غنيٌّ عن الولد ولا يحتاج إليه؛ لأنَّ الكلَّ ملكه، ولا يحتاج للولد إلا من كان غيرَ مالكٍ تمامَ المِلك.

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السموات جمع: سَماء، والسَّماء تطلَق على معنيين:

المعنى الأول: العُلُوُّ وإن كان دون السَّموات.

والمعنى الثاني: السَّموات المعروفة، السقف، التي بناها الله عَزَّوَجَلَّ.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني من السَّحاب، والسماء ليست لاصقة في السماء السقف، ولكنه في العُلُوِّ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج:١٥]؛ أي: إلى العلو.

وأما الثاني الذي هو البِناءُ، فهو كثير؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ

دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت:١١-١٢].

ومنه هذه الآية: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وجمعها لأنَّها جمع سبْع سَماوات كما في القرآن الكريمِ، وكما في السُّنَّة النبويَّة، والأرض هي الأرض التي وضعها الله عَزَّوَجَلَّ للخَلْق يعيشون عليها كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرَّحْمن:١٠].

ولم يأتِ في القرآن ذكر عددها صريحًا؛ يعني ليس في القرآن أنَّ الأَرَضين سبع، لكن جاء ذِكْرها بهذا العدد لا على سبيل التَّصريح؛ كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] مِثْلَهُنَّ في العدد، وليس مثلهنَّ في الصِّفَة لتبايُنِ ما بين السَّموات والأرضِ في الصِّفَة، فالمماثلة في الصِّفَة مستحيلَةٌ؛ السَّموات كبيرة ورفيعة ومحيطة بالأرض، ولا يمكن أن تكونَ السَّمواتُ مثلَها في الصِّفَة؛ إذن: تعيَّن أن تكون مثلها في العَدَد لأنَّه قال: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: عددًا لا صِفَةً.

أما السُّنَّة فصريحةٌ في أنَّ الأَرَضينَ سَبْعٌ؛ قال النَّبي ﷺ: «**مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»(١).

والظاهر من النُّصوص: أنَّ هذه الأَرَضين متطابِقَة؛ يعني: بعضها تحت بعض كالسَّمواتِ؛ لأنَّ قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**» لولا أنها متطابِقَة لم يُعذَّب بما تحت الأرض العليا، فهي متطابِقَة، ولكن ذكر العلماء -الذين يتكلمون على خَلْق الأَرَضينَ-: هل هذه الأَرَضُونَ مُتباينَة منفصلٌ بعضها عن بعض، أو هي كتلة واحدة؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئا من الأرض، رقم (٢٤٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، رقم (١٦١٢/ ١٤٢) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

نقول في الجواب عليه: الله أعلم، لا ندري، لكنه يجب أن نؤمِنَ بأن هناك سَبْعَ أَرَضينَ كما جاء ذلك في النُّصوص.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ﴿خَلَقَ﴾] يعني أن خلْقَه إياها بالحَقِّ؛ الحق أي: إنَّه خلقها حقًّا لا خالِقَ لها غيره. هذه واحدة.

والثاني: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي من أجل الحَقِّ لا باطلًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص:٢٧]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان:٣٩].

وصدق الله عَزَّوَجَلَّ، فإن في خلق السَّمواتِ والأَرْضِ من الحق ما هو ظاهِرٌ، فبهما يُعْرَف الله عَزَّوَجَلَّ وتظهر آياته: آياتُه الكَوْنِيَّة وآياتُه الشَّرْعيَّة، وبهما يعيش الخَلْقُ، ولا يمكننا في هذا المجلس أن نَحْصُر ما في خلق السَّموات والأرض من الحَقِّ.

ثم قال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُكَوِّرُ﴾: يُدْخِلُ]، ولا شك أنَّ الله يُولِج اللَّيلَ في النَّهار ويُولِج النَّهار في اللَّيل كما في الآيات الأخرى، ولكن هل معنى التَّكوير هنا: الإيلاج؛ أنه يُدْخِل النَّهارَ على اللَّيل فيطولُ، ويُدْخِل النَّهارَ على اللَّيل فيطولُ؟

الجواب: ظاهِرُ اللَّفْظِ يأبى ذلك؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿يُكَوِّرُ﴾ التكويرُ هو التَّدوير، ومنه: كَوْرُ العِمامَةِ؛ أي: لَيُّها، ليَّاتُها تُسمَّى: أَكْوارًا، فيُكَوِّر يعني يُديرُ اللَّيل على النَّهار، وهذا يُشْبِهُ قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف:٥٤] وإذا كان هذا ظاهِرَ اللَّفْظ فإنَّ الواجِبَ أن نُجْرِي اللَّفْظَ على ظاهره؛ لأنَّه -أي الظاهر- هو الذي يتبادَرُ إلى ذهن السَّامِع.

فإذا قال قائل: لماذا لا تجعلون الأمر -كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ- من أجل أن

نُفَسِّر القرآنَ بالقُرآنِ، فنجعل يُكَوِّر يعني يولِج؟

قلنا: هذا لا يَصِحُّ لوجهين:

الوجه الأول: أنَّه خلافُ ظاهِرِ اللَّفْظ؛ فإنَّ ظاهِرَ اللَّفْظ يُكَوِّر: يُدوِّر ويَطْوِي.

الوجه الثاني: أنَّه يَفوتُ به المعنى المستفاد من كلمة: ﴿يُكَوِّرُ﴾، أما المعنى المستفادُ من الانتقالِ فهذا يُعْرَف من الآية الثَّانية؛ فحينئذٍ نستفيدُ فائِدَة جديدة غير فائِدَةِ الإدخالِ.

أما كَوْنُ الله تعالى يُدْخِلُ اللَّيل في النَّهار، ويُدْخِل النَّهار في اللَّيل؛ فهذا شيء معروف، ودلَّت عليه آيات أخرى.

وقوله: ﴿وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيزيدُ].

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾: ذلَّلَهما؛ والتَّسخيرُ بمعنى التَّذليل، يعني ذلَّلَهما لمصالح العباد، بدليل قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [النحل:١٢]؛ إذن: التَّذليل هنا لمصلحة العباد.

و﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ معروفانِ لا يحتاجان إلى تَعْريفٍ، ولو أنَّنا أردنا أن نُعَرِّفَهما بما يُعَرِّفُه أهْلُ الفَلَك لزدناهما غُمُوضًا، لو قلنا: إنَّ الشَّمْس كتلةٌ ناريَّة مُلْتَهِبَة... إلى آخر ما قالوا؛ لكان النَّاسُ يبحثونَ عن الشَّمْس! وأين الكُتْلة، والقَمَر أيضًا كُتْلَة صخريَّة جامِدَة بارِدَة مُظْلِمَة... إلى آخر ما قالوا؛ فيذهب الذِّهْن أيضًا كلَّ مَذْهَب، لكن إذا قلنا: الشَّمْس آية النَّهار، والقَمَر آية اللَّيل؛ فالكُلُّ يَعْرِفُها؛ وهذا أَوْضَحُ من كلِّ شيء.

﴿وَسَخَّرَ﴾ ذلَّلَهما في جريانِهما، وفي اختلاف هذا الجري، فكونُهما يدوران على

الأرض ويَخْتَلِفان طولًا وقِصَرًا، هذا لا شك أنه لمصالِحِ العباد.

﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: ﴿كُلٌّ﴾ من الشَّمْس والقمر.

﴿يَجْرِي﴾ أي: يسيرُ [في فَلَكِه]؛ الفَلَكُ الشَّيْء المُستدير، وهما يدوران باستدارةٍ واضِحَة، لكنَّها تختلفُ باختلاف اللَّيل والنَّهار.

وقوله: ﴿لِأَجَلٍ﴾ بمعنى: إلى أجل؛ أي: لغايةٍ، ﴿مُّسَمًّى﴾ معيَّنٍ من قِبَل الله عَزَّوَجَلَّ. وهذا الأجل المُسَمَّى قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَوْم القيامَة]؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ إلى أن قال: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١٤] ويكون يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران:٣٠].

فهذان يجريانِ إلى يَوْمِ القيامة، فإذا كان يومُ القيامة ذهبت حاجَةُ النَّاس إليهما وذهبا.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾: ﴿أَلَا﴾ أداة اسْتِفْتاح وتأتي للتَّنْبيه.

وقوله: ﴿هُوَ﴾ يعود على الله عَزَّوَجَلَّ.

و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الغالِبُ على أَمْرِه، المُنْتَقِم من أعدائِهِ] وهذا أحد معاني العِزَّة التي أثبتها الله لنَفْسِه، وسبق أن لها معنًى ثانيًا وثالثًا: عِزَّةُ القَدْر، وعِزَّةُ الامْتِناع، بالإضافة إلى عِزَّة القَهْر، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ متَّصِفٌ بالعزَّة كاملًا؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٩] فجميع أنواع العِزَّة ثابتةٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾: الغفَّار صيغَةُ مبالَغَةٍ من الغَفْر، أو نِسْبَة، والغَفْر أو الغُفْران سِتْر الذَّنْب والتَّجاوز عنه، ولا يكفي أنْ نقول: إنَّ المَغْفِرة أو الغُفْران هو التَّجاوز

عن الذَّنْب؛ لأنَّ المعنى المُشْتَقَّ منه يأبى ذلك، فالمَغْفِرَة مُشْتَقَّة من المِغْفَر، والمِغْفَر شيء يُوضَعُ على الرأس يقيه من سهامِ الأعداء؛ ففي هذا المِغْفَر سترٌ ووقاية؛ ولهذا نقول في معنى ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ هو غافِرُ الذَّنْب؛ أي: الذي يستر الذَّنْب ويتجاوَزُ عنه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ خَلْقِ السَّموات والأَرْض.

وهذه الفائِدَةُ يترتَّبُ عليها: الرَّدُّ على الطبائعِيِّينَ والفلاسِفَة الذين يقولون بقِدَمِ العالَم، وأنَّ العالَم أزلي، وأن هذه السَّمواتِ ليس لها أوَّل، بل هي موجودة في الأَزَل، فإنَّ هذه الآية تردُّ عليهم؛ لأنَّه تعالى يقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي أَوْجَدَها بعد العَدَمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ السَّمواتِ عَدَدٌ؛ وجهه: الجَمْع؛ لأنَّ الجمع يدلُّ على العَدَد، وقد بيَّنَتِ النُّصوصُ الأخرى أنها سبْعٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ خَلْق السَّموات والأرض بالحَقِّ، وضِدُّه الباطل، فلم تُخْلَق باطلًا وسُدًى ولَعِبًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الخالِقَ للسَّموات والأرض هو الله؛ لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ على أَحَد المعنيين اللذينِ أَشَرْنا إليهما.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات كُرَوِيَّة الأَرْضِ؛ لقوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ ومعلومٌ أنَّ اللَّيلَ والنَّهار يتعاقبانِ على الأرض، فإذا كان سَيْرُهما تكويرًا دلَّ على أنَّ الأرض كُرَوِيَّة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ قدرة الله عَزَّوَجَلَّ بتكويرِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وقد أشار الله

إلى ذلك في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧١-٧٢].

ولوِ اجْتَمَع الخَلْقُ كلُّهم على أن يأتوا باللَّيل في مَوْضِع النَّهار أو بالنَّهار في موضع اللَّيل، ما استطاعوا؛ ففي هذا بيان كمالِ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث يكوِّر اللَّيل على النَّهار، ويكور النَّهار على اللَّيل.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بيان نِعْمَة الله علينا بتسخير الشَّمْسِ والقمر؛ لقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الشَّمْس والقمر يجريان في فَلَكِهما، ففيه الرَّدُّ على من زعم أنَّ تعاقُبَ اللَّيل والنَّهار يكون بدوران الأرض، فإنَّ الآية صريحةٌ في أنَّ الشَّمْس تجري والقمر يجري، وعلى الأقل نقول: هي ظاهِرَة في ذلك، وإذا كان لدينا ظاهِرٌ من الكتاب والسُّنَّة فإنه لا يجوز لنا أن نَعْدُوَ هذا الظَّاهر إلا بدليلٍ بيِّن يُسَوِّغُ لنا أن نخالِفَ هذا الظاهر؛ لأنَّ الله خاطبنا بكلامه باللِّسان العربي؛ فوجب علينا أن نأخذ بمقتضى هذا اللِّسان العربي ما لم يوجد دليلٌ على خلافه.

هُمْ يقولون الآن: إنَّ الشَّمْس والقمر لا يجريان، وأنَّ القمر يدور على الشَّمْس، وأنَّ الأَرْض أيضًا تدور حول الشَّمْس، وأنَّ تعاقُب اللَّيل والنَّهار يكون بدوران الأرض، وكلُّ هذا خلاف ظاهِرِ القرآن فلا عِبْرَة به؛ إلا إذا علمنا شيئًا نُقابِلُ به الله عَزَّوَجَلَّ بإخراج كلامه عن ظاهره، وإلا فالواجِبُ إبقاؤه على الظاهِرِ؛ حتى لو فرضنا أننا أَقْرَرْنا بأنَّ الأَرْض تدور فإنه لا يلزم من ذلك ألَّا تكون الشَّمْس تدور عليها؛

لأنَّ بعضَ النَّاس يقولون: إذا أقررتم أنَّ الأرض تدور فإنه يَلْزَمُكُم أن يكون اختلافُ اللَّيل والنَّهار بسبب دوران الأرض؟

ونقول: لا يلزم؛ لأنَّه إذا اختلفت دورة الأَرْض مع دورة الشَّمْسِ حصل التعاقب؛ تعاقبُ اللَّيل والنَّهار، ولا مانع.

على كلِّ حال: المُهِمُّ أنه يجب علينا أن نأخذ بظاهر كلام الله؛ لأنَّ الله هو الخالق، وخبَرُه هو الصَّادق، وقد خاطبنا بما نَفْهَمُه من لغتنا لغَةِ العرب، فلا يجوز لنا العُدُول عن الظَّاهِرِ إلا بدليلٍ حِسِّيٍّ نخاطب به الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة إذا سألنا: لم اعتقَدْتُم أنَّ الأرض هي التي تدور وأنَّ اللَّيل والنَّهار يكون بسبب دورانها؟ فيكون لنا حُجَّة، فنقول: لأنَّنا لَمَسْنا هذا، فإذا قُدِّر -وهو بعيد فيما يظهر- أنه ثبت أنَّ اللَّيل والنَّهار يكون بدوران الأَرْض لا بدوران الشَّمْسِ، فكيف نُجيبُ عن الظواهر؟

نقول: تجري بحسب مرأى الإنسانِ؛ لأنَّ الشَّيْء إذا كان قارًّا وهو يدور، فالذي فوقه ساكنٌ يظنُّ أنه هو الذي يتحرَّك ويدور، فإذا ثبت هذا قلنا: إنها تجري بحسب نظر الإنسانِ، وإن كانت هي الثَّابِتَة والأرض هي التي تدور.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بيان أهمية معرفة أسماء الله وصفاته في قوله: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ لأنَّ ﴿أَلَا﴾ هنا للتَّنْبيه، ولا يحتاج إلى التنبيه إلا في أمرٍ هامٍّ ينبغي التنبُّه له.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثبات هذين الاسْمَينِ وما دلَّا عليه من صفة وحُكْم، وهما: (العزيز والغفار).

والقاعدة في باب الأصول أصولِ العَقيدَةِ: أنَّ كلَّ اسمٍ من أسماء الله فهو متضمِّنٌ لصِفَةٍ، وقد يتضمَّنُ مع الصِّفَة حُكْمًا، وهو ما يُسَمَّى بالأَثَر إذا كان متعدِّيًا،

وإن لم يكن متعدِّيًا ففيه الاسْمُ والصِّفَة؛ فمثلًا: الحيُّ من أسماء الله متضمِّنٌ لصفة وهي الحياة، لكنه لا يتعدَّى للغَيْرِ؛ لأنَّ الحيَّ وصفٌ لازِمٌ؛ يعني لا يتعدى الموصوفَ؛ كذلك: ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ اسم من أسماء الله متضمِّنٌ لصِفَة، وهي: المغفرة، متعدٍّ للغَيْرِ، وهو أنه يغْفِرُ الذنوب، فهذه القاعدة في أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: (أنَّ كلَّ اسمٍ منها متضمِّن لصِفَةٍ)، وقد يكون متضمِّنًا للحُكْم النَّابع من هذه الصِّفَة إذا كان متعدِّيًا، أما إذا كان لازمًا لا يتعدَّى الموصوفَ؛ فإنه ليس له الحُكْم، يعني ليس له حكمٌ متعدٍّ للغير.

إذن: ففي الآية إثباتُ العزيز والغفار من أسماء الله، وإثباتُ ما دلَّا عليه من صفة، وإثبات المغفرة -وهي الحُكم- من قوله: ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾.

• ● ❁ ● •

الآيــة (٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر:٦].

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ الخطاب هنا لبني آدم ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني يا بني آدم. ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهي آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وصِفَةُ خَلْقِ آدم: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خَلَقَه من ترابٍ، التُّرابُ هذا صار طينًا بإذن الله وبقي حتى صار كالفَخَّار له صَلْصَلَة وصَوْت عند دقِّه، ثم بعد ذلك خَلَقَ اللهُ منه آدمَ، وبعد أن خَلَقَ جُثَّة آدم نفخ فيه الرُّوحَ فصار حيًّا سويًّا بشرًا، هذا هو أوَّل خِلْقَة الإنسان كما دلَّ على ذلك كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا القُرُود الذين زعموا أنَّ أَصْلَ الآدَمِيِّ قِرْد، فنحن نُسَلِّم لهم ذلك بالنسبة لهم، أما بالنِّسْبَة لنا فنحن ولله الحمد من بني آدَمَ بَشَرٌ خلق الله تعالى أبانا بِيَدِهِ وعَلَّمَه أسماءَ كُلِّ شيء، وأَسْجَدَ له ملائِكَتَه، وأمَّا هم فلهم ما أحَبُّوا أن يَرُدُّوا أنْفُسَهُم إليه!

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: ﴿ثُمَّ﴾ للتَّرتيب بمهلة؛ لأنَّ خَلْق هذه الزَّوْج متأخِّرٌ عن خلق آدم، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أبقاه مدةً حتى عرف أنه مُحتاجٌ إلى زوجة ليسكن إليها فخلق الله له زَوْجَة، وجعل هذه الزوجة من نَفْس آدم؛ لقول النَّبِي ﷺ في النساء:

«إِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ»[1] يقتضي أن حواء خلقت من ضِلَع آدم، والله على كلِّ شيء قديرٌ؛ أن يخلق بشرًا من غير زوجة، بل ومن غير زوج، فإن حوَّاء خُلِقَت بلا أمٍّ ولا أبٍ.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ لا ينافي ما ذكر الله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ لأنَّ الواو لمُطْلَق الجمع لا تستلزم التَّرتيب، فإذا جاءت آية أخرى فيها التَّصْريحُ بالتَّرتيبِ حُمِلَت الآيةُ التي فيها الواو الدَّالَّة على مُطلَق الجمع على الترتيب، على أنَّ تقديمَ الشَّيْء على الشَّيْء في الذِّكْر وإن كان بالواو يقتضي أن يُقَدَّم، هذا هو الأصل، ولهذا لما دنا النَّبي ﷺ من الصَّفا حين أتى إلى السَّعْيِ قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨] «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ»[2] فبدأ بالصفا.

وهذا يدل على أن ما قُدِّم في الذكر فهو متقدِّمٌ على ما بعده رُتْبَة، أو زمنًا، أو مكانًا حسب ما يقتضي الحال، لكن ليس هذا بلازِم، قد يتقدم ما بعد الواو على ما قبلها ولا يُعَدُّ ذلك تناقضًا، لكن في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ لا يمكن أن نقول إنَّ الجَعْل هنا قبل خلق آدَمَ.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا﴾ هذا ابتداءُ خَلْقِ الإنسان؛ و(مِن) هذه للابتداء، وهل (منها) عَينًا أو (منها) وَصْفًا؟

الجواب: الظاهِرُ الأَمْران؛ لأنَّها من آدم خُلِقَت، وهي مثل آدم أيضًا فهي من نوْعِهِ، وهي أيضًا منه عَينًا، فهي جزءٌ منه وبَضْعَةٌ منه، ولهذا خَطَبَ النَّبي ﷺ النَّاس

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء، رقم (٥١٨٦)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم (١٤٦٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخبر أن فاطمة بَضْعَةٌ منه[1].

يقول: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ والزوج يُطْلق على معانٍ منها: الصِّنف؛ كقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص:٥٨] أي: أصناف، وكقوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢] أي: أصنافهم؛ ويُطْلَق الزوج على ما سوى الفَرْدِ؛ أي الشَّفْع، فيقال: فَرْد وزَوْج.

وكلمة زوج هنا تشمل المعنيينِ؛ فهي صنفٌ من البَشَر، وهي أيضًا زوج تشفع آدَمَ بعد أن كان فريدًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الإبل والبَقَر والغَنَم والضَّأن والماعز ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾].

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: الإنزال هنا بمعنى: الخَلْق؛ لأنَّها أُضيفَتْ إلى أعيان وهي الأَنعامُ، والأنعام جمع: نَعَمٍ؛ كأسبابٍ جَمْع: سَبَب.

وقوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي: ثمانية أصنافٍ، وقد بيَّن الله هذه الأزواج في سورة الأنعام فقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٣] ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٤]، فالجميع ثمانيةٌ؛ ذَكَرٌ وأنثى من كل صِنْف من الأصناف الأَرْبعَة، وإذا ضربْتَ اثنين في أربعة صارَتْ ثمانية؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ كُلِّ زَوْجَانِ؛ ذَكَرٌ وَأُنْثَى كَمَا بَيَّنَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَام].

ثم قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ، رقم (٣٧١٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، رقم (٢٤٤٩)، من حديث المسور بن مخرمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لما ذكر الله ابتداءَ الخَلْق الأَوَّل وهو آدم ذكر ابتداءَ الخلق الثاني وهو النَّوْع الإنساني، النوعُ الإنسانيُّ كيف خُلقَ؟ فقال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾: ﴿فِي﴾ للظَّرْفِيَّة، والبطون جمع بَطْن، والأصل: أنَّ هذه المادَّةَ (الباء والطاء والنون) خلافُ الظُّهورِ؛ فالبطون خَفِيَّة، والظُّهور ظاهِرَة.

ومن أسماء الله: (الظَّاهِر والباطِنُ) الظاهر: العالِم، والباطِنُ: الذي لا يَحُول دونه شيءٌ، فهنا البطون إذن جمع بَطْنٍ، وهو مُشْتَقٌّ من البطون، بَطَنَ الشَّيْءُ بُطُونًا؛ أي: خَفِيَ.

وقوله: ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ جمع: أمٍّ أو أمَّهَة، ويقال: أُمَّاتٌ لغير العاقل، ويقال في العاقل: أمَّهَاتٌ.

وقوله: ﴿خَلْقًا﴾ مصدر يَخْلُق ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي: خَلْقًا متطوِّرًا ينتَقِلُ من خَلْقٍ إلى آخر؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: نُطَفًا، ثم عَلَقًا، ثم مُضَغًا]، وقد أشار الله تعالى إلى هذه الأصول في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج:٥].

من تراب باعتبارِ آدَمَ، من نطفة باعتبارِ النَّوْعِ الإنسانيِّ، ثم من عَلَقَةٍ، ثم من مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغير مُخَلَّقة؛ والمضغة: هي قِطْعَةُ اللَّحْم بِقَدْرِ ما يُمْضَغ.

وقد بيَّن النَّبي ﷺ مُدَّةَ هذا التَّطوُّر في حديث ابنِ مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٣).

فقوله: «**أربعين يومًا نُطْفَةً**» يعني: ماءً وهو المَنِيُّ، لكنه في هذه المدة يتطوَّر تطورًا خفيًّا إلى أن يصِلَ إلى الغاية في تمام أربعينَ يومًا حتى يكون عَلَقَةً؛ أي: دمًا أحمر، والظَّاهِرُ: أنَّه ليس المراد أنه يبقى نُطْفَةً إلى تمام الأربعين ثم ينقلب في لحظة إلى دَمٍ، بل هو يتطوَّر وينقَلِبُ شيئًا فشيئًا إلى أن يَتِمَّ كونُه دمًا في أربعين يومًا، ثم يكون، ثم يبقى هكذا عَلَقَةً، لكنه أيضًا يتجمَّدُ شيئًا فشيئًا وينمو حتى ثمانينَ يومًا، ثم بعد ذلك يكون مُضْغَةً؛ قِطْعَةً لَحْمٍ.

وقوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ يحتمل -والله أعلم- أن مُخَلَّقَة عند انتهاء الطَّوْر الثالث، غير مُخَلَّقَة في ابتداء الطور؛ يعني: فتكون في هذا الطَّوْر في الابتداء غير مُخَلَّقَةٍ، وفي النهاية مُخَلَّقَة، ويحتمل أن تَخْتَلِفَ الأجِنَّة في ذلك فيكون بَعْضُها مُخَلَّقًا من حين أن تَنْتَقِل إلى العَلَقَة إلى المُضْغَة، وبعضها يتأخَّر، فالله أعلم، ويُرْجَع في هذا إلى العلماء في هذه المسألة.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظُلُمات لا يصل إليها الضوء، ﴿ثَلَٰثٍ﴾ فَسَّرَها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [هِيَ ظُلْمَة الْبَطْنِ، وَظُلْمَة الرَّحِم، وَظُلْمَة الْمَشِيمَة]؛ هذه ثلاثُ ظُلُمات جعلها الله عَزَّوَجَلَّ وقايةً لهذا الجنين؛ لأنَّ أشِعَّة الضَّوْء لو وصلت إليه لأَفْسَدَتْه، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ جعله في هذه الظلمات الثَّلاث، ثم إنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل ظَهْرَه إلى بَطْنِ أمِّه، ووَجْهَه إلى ظَهْر الأم، وهذا من أجل ألَّا يتضرر وَجْهُه بالصَّدَمات التي تكون على بطْنِ الأُمِّ ليكون الظَّهْر وقايةً للوَجْه، وخلف الجنين الذي هو الذي يلي البطن قوِيٌّ؛ لأنَّ فيه الظَّهْر والأَضْلاع، فهو قويٌّ؛ يعني: مُتَحَمِّل للصَّدَمات.

فإذا أراد الله عَزَّوَجَلَّ إخراجَه انقلب هذا الجَنينُ؛ تَحرَّك واضْطَرَب بإذن الله عَزَّوَجَلَّ

ثم انْقَلَبَ حتى يكون رأسُه هو الأسفل، ويخرج الرأس أولًا من أجل أن يكون خُرُوجه سهْلًا، إذ لو خرج من عند قَدَمَيْه لكان في ذلك ضَرَرٌ وخَطَرٌ، وأيضًا قد تُعَلَّق مثلًا إحدى اليدين في أَحَدِ الجوانِبِ فيحصل في هذا ضَرَر، وربما يَحْصُل تلف على الجنين، ولله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خَلْقِه شؤون.

المهم: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اعتَنَى بنا عنايَةً تامَّةً، ونحن في بطون أمَّهاتنا وعند خروجِنا منها؛ ولهذا قال: ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ونِعْمَ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ!

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المشار إليه: رَبٌّ، والمخاطب: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ البَشَر؛ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وإنما أتى باسم الإشارة المفيد للبُعْد ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ ولم يقل: (هذا) إشارةً إلى عُلُوِّ مَرْتَبَة الله، إلى عُلُوِّ منزلته عَزَّوَجَلَّ وأنَّ له العُلُوَّ؛ عُلُوَّ الذَّاتِ وعُلُوَّ القَدْرِ، وعُلُوَّ القَهْرِ.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ رَبُّ إما أن تكون صِفَةً أو بدلًا، وفيه إشارة؛ يعني ذكر الرُّبوبِيَّة بعد الأُلوهِيَّة إلى التَّرْبِيَة الخاصَّةِ في حال الحَمْل والعناية التامَّة؛ لأنَّ الحمل في بطن أمه لا يمكن لأحَدٍ أن يَصِلَ إليه لا بِجَلْب مَنْفَعَة ولا بدفع مَضرَّة، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يتولَّى العناية به.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ الجملة هذه جملة خَبَرِيَّة قُدِّم فيها الخبر على المبتدأ لإفادَةِ الحَصْر، ﴿لَهُ﴾ أي: وَحْدَه لا يشارِكُه أحد.

﴿ٱلْمُلْكُ﴾ يعني المُلْك المُطْلَق، مُلْك الأعيان ومُلْك الأوصاف؛ فهو مالِكُ الأعيان كلها، ومالِكُ أَوْصافِها وتَصْريفها وتَدْبيرِها.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا توحيدُ الأُلوهِيَّة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ والجملة هذه مكونة من نفي وإثباتٍ، نَفْيٌ من أبلغ أنواع النَّفْيِ؛ لأنَّه مُصدَّرٌ بـ(لا) النافية للجنس،

ولا النافِيَة للجنس يقول علماء النحو والبلاغة: إنَّها نَصٌّ في العُمُوم؛ يعني لَيْسَتْ ظاهرةً في العموم، بل هي أبلغ من الظَّاهِرَة: نصٌّ في العموم.

ولهذا يقال فيها: نافيةٌ للجِنْس لا للوَحْدَةِ، بل للجنس كلِّه، إذن لا يوجد إله إلا اللهُ، ولكن يجب أن نعلم أنَّ المنفِيَّ هنا (الإلهُ الحَقُّ) يعني لا إله حَقٌّ إلا اللهُ، أما الآلِهَة الباطِلَةُ فإنها موجودة؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود:١٠١] فسماها: آلهة؛ وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الشعراء:٢١٣] إلهًا آخر، فسمَّاه: ﴿إِلَٰهًا﴾ لكنه إله باطِلٌ، كما قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

فإذا سألنا سائل: هل مع الله إلهٌ؟

فالجواب: يكون بالتَّفْصيل، وهو:

إن أردْتَ إلهًا حقًّا فلا، وإن أردت إلهًا باطِلًا يُسمَّى: إلهًا وليس بإله، فهذا موجودٌ.

وفي قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذا قال قائل: أين خبرُ (لا) هل هو: (هو) أم ماذا؟

فنقول: لا يمكن أن يكون خبر (لا): (هو)؛ لأنَّ (لا) النافية للجنس لا تعمل إلا في النَّكِرَات؛ قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَمَلَ إِنَّ اجْعَلْ لِلَا فِي نَكِرَهْ .....[1]

فلا تعمل إلا في النَّكِرات، وهنا (هو) مَعْرِفَة، فنقول: الخبر محذوف، تقديره: لا إله حقٌّ إلا اللهُ، هكذا يجب أن يقال، وأخْطَأَ من قال: لا إلَهَ موجودٌ إلا اللهُ؛ لأنَّ

(١) الألفية (ص٢٢).

هذا يتضمَّن أَمْرًا إِمْرًا؛ إذ إنَّك إذا قلت: لا إله موجودٌ إلا الله، جَعَلْتَ الآلِهَة الموجودَةَ جَعَلْتَها الله، وهذا خطأ عظيم! بل الواجب أن نقول: لا إله حقٌّ إلا الله، نَعَم، إلا الله؛ أما في الآية فـ(إلا هو).

إذن: فما محل: (هو) من الإعراب؟

الجوابُ: بدلٌ من الخَبَرِ المحذوف. يقول: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾: (أَنَّى) اسْمُ استفهامٍ، والمراد به: التَّوْبيخُ والتَّعَجُّب يعني: كيف تُصْرَفُون عن عبادة الله عَزَّوَجَلَّ وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا هو، هذا خطأ، سَفَهٌ في العقل، وضلالٌ في الدِّين.

وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عن عبادته إلى عبادة غَيْرِه].

إذا كان هذا الاستفهام للتَّوبيخ والتَّعجُّب فإنه يقتضي أن يكون هذا الانصراف حرامًا؛ لأنَّه لا يوبَّخُ إلا على شيء مُحَرَّم -والله أعلم- لأنَّ أهواءهم هي التي غَلَبَتْهُم، وكلمة ﴿تُصْرَفُونَ﴾ تدل على الانْصِراف؛ لأنَّهُم صُرِفوا، لكنَّهم صَرَفَتْهم أهواؤُهُم والشياطينُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ أَصْلَ البَشَرِيَّة من آدم، وليس كما يقول القرود: إنَّ أصلها قِرْد ثم تطوَّر؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وقد بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كيف خلق هذه النَّفْس في مواضع من القرآن.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ البشرية حادِثَة وليست أَزَلِيَّة؛ لقوله: ﴿خَلَقَكُم﴾ والخلق يقتضي الحدوث.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الله جعل أزواجَ بني آدم من جِنْسه؛ لقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا

زَوْجَهَا﴾ ولو كانت الزَّوْجَة من غير الجنس لم تَحْصُلِ الأُلْفة والمودَّة، ولكن الله جعلها من الجنس لهذا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ما مَنَّ الله به علينا مِن إنزال الأنعام؛ الأصناف الثَّمانِيَة، ومنها أن إنعام الله بهذه الأَصْنافِ الثَّمانية أكثر مِن إنعامه بغيرها؛ كالظِّباء والأرانب وما أشبهها؛ لأنَّ الله امتَنَّ بهذه الأصنافِ الثَّمانِيَة دون غيرها؛ لأنَّها أَشَدُّ نِعْمَة الله أظْهَر وأبْيَن، ولأنَّها أنعامٌ مألوفَةٌ وأليفة خلافَ الأنعام الأخرى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الإشارة إلى أنَّ تَكْوينَ هذه الخَليقة مِن زَوْجَينِ، كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩] فكلُّ شيءٍ مِن الخَليقَة فلا بُدَّ لتَركيبه مِن زوجينِ؛ حتى المياه، وحتى الهواء، وحتى كل شيءٍ، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩] وهنا يقول: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزُّمَر:٦].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيان حِكمة الله عَزَّوَجَلَّ في تطوير الخَلْقِ في قوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزُّمَر:٦]، ولو شاء لخَلَقنا طَوْرًا واحدًا، ولكنَّ حِكْمَتَه تَأبى ذلك، بل يتطوَّرُ الإنسان مِن طوْرٍ إلى آخر؛ للتدرُّج في الخَلق، كما أنَّ التدرج أيضًا في التشريع والحكمة، فالشَّرْع لم يَنْزِل جُملةً واحدة، يُكَلَّفُ النَّاسُ به مِن أوَّله إلى آخِره، ولكِنْ نَزَل بالتَّدْريجِ، وما نحن فيه من الحَمْل، لو أنَّ هذا الحَمْل نَشأ في بَطْن الأم دفعةً واحدَةً، لَكان في ذلك ضررٌ عليها، لكنه يتطوَّرُ وينمو شيئًا فشيئًا، حتى يتَّسِعَ البطن شيئًا فشيئًا بدون مَشَقَّة على الأم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: مِنَّةُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على البَشَرِ في أنه يُطوِّرَهم في هذا الخَلْق في مكانٍ لا يمكن أن يَصِلَ إليه أحد؛ لقوله: ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ كما قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات:٢١-٢٢].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: حماية اللهِ الجنينَ لكونه في هذه الظُّلُمات الثَّلاثِ؛ لأنَّ أشِعَّة الضَّوء ربما تَضُرُّه، فجعله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الظُّلُمات الثَّلاث.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ القادر على هذا هو المُسْتَحِقُّ للأُلوهِيَّة والعِبادَةِ؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: انفرادُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالملك؛ لقوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ فلا مالِكَ إلا اللهُ، وهل المُلك مُلك التَّصرُّف الكونيِّ أو الكوني والشَّرْعي؟

الجواب: الكَوْني والشَّرْعي، فلا مالِكَ إلا الله كونًا، ولا مالِكَ إلا اللهُ شَرعًا، ولهذا له الحُكم الكونيُّ والشَّرعيُّ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: النداء الصارخ في تَسْفيهِ هؤلاء القوم الذين اتَّخَذوا مِن دونه أولياءَ، بعد ظهور هذه الآيات العظيمة؛ لقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؛ يعني: كيف تُصْرَفون عن الحَقِّ مع وضوحه وبيانه؟!

• • ۞ • •

الآيــة (٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الزمر:٧].

ثم قال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ﴾ أي: إنْ تكفروا بالله وبما يَجِبُ الإيمان به، فإنَّكُم لن تضروا الله؛ لأنَّ الله غَنيٌّ عنكم، ولم يَأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العبادَ بعبادَتِه والإخلاص له لحاجَتِه إليهم، ولكن لَمَنْفَعَتِهم هم؛ لأنَّهُم يُثابون على هذا أعظَمَ الثَّواب، ويَنْجُون به من العِقابِ، أما الله عَزَّوَجَلَّ فإنه لا يَضُرُّه إذا كَفَرَ كُلُّ الخَلْق، ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ ﴾ ولو كل الخَلْق، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ﴾.

وقد جاء في الحديث القُدُسِيِّ: «**يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم ما نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**»(١)، لو كان النَّاس كُلُّهُم، بل البَشَر وغيرُ البشر لو كانوا على أَفْجَرِ قلبِ رَجُل لم يَنْقُص ذلك مِن مُلْك الله شيئًا، ولن يَضُرَّ اللهَ شيئًا.

ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾، ولا يرضى لهم أن يَكْفُروا بالله، وتَأَمَّل قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ﴾؛ يعني أنَّ الكُفْر أَمْرٌ لا يَليقُ بالعباد،

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فلا يَرضى لهم أن يَقوموا به؛ وذلك لأنَّ الله خَلَقهم، فكيف يَرضى للإنسان العاقِلِ أن يَصْرِف العبادة لغير الخالِق؟! ولهذا قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ﴾ ولم يقل: مِن عباده، أو عن عباده؛ لأنَّ اللام أَبْلغ في كَوْن هذا الشَّيْء لا يليقُ بهم.

وقوله: ﴿لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ العبودية تنقسم إلى قِسْمَيْنِ: عامَّة وخاصَّة، فمِن الأول -أي مِن العامِّ- قولُه تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] ﴿إِن كُلُّ﴾ [مريم:٩٣] (إن) هنا بمعنى (ما)، وعلامةُ (إن) التي بمعنى (ما): أنْ يأتي بعدها (إلَّا)، قال تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٣]؛ يعني: ما أنت إلا نذيرٌ؛ فقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] هذه مِن العبودية العامَّة، حتى الشياطينُ والكُفَّار كُلُّهم عِبادُ الله بالمعنى العام، أما القِسْم الخاصُّ بالعبادة عبادَةِ المؤمنين: وهي العبادَةُ الشَّرْعيَّة؛ أي التعبُّد لله تعالى شَرْعًا، فهذه خاصَّةٌ بمَن أطاعه، ومِن ذلك قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، وقوله: في الرُّسُل إنهم عباد الله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص:٤٥] هذه عبودية خاصَّةٌ، فقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ﴾ هنا من العامة؛ يعني لا يَرْضى الكُفْر لأي واحِدٍ من عباد الله.

وقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وإن أراده من بَعْضِهِم] هذا كلام جيِّدٌ؛ يعني هو لا يرضاه، لكن يريده مِن بَعْضِهِم، يريده بالإرادة الكَوْنِيَّةِ لا الإرادة الشَّرْعيَّة، وهذا ردٌّ على قولٍ مُبْتَدَعٍ، يقولون: إنَّ الله لا يُريد إلَّا ما يَرضَى، وأمَّا ما لا يرضاه فلا يُريده؛ وعلى هذا القول الباطِلِ تكون المعاصي واقعةً بغيرِ إرادة الله، ولا شَكَّ أن هذا قولٌ يُبْطِله نصوصٌ كثيرةٌ.

مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن

يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]، فالله عَزَّوَجَلَّ مُرِيدٌ لهذا وهذا، لكن بالإرادة الكَوْنِيَّة؛ لأنَّ الكلَّ ملكه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ ولهذا قال: [وإن أراده مِن بَعْضِهم] يعني فإرادته مِن بعضهم لا تقتضي أن يكون راضيًا به؛ إذ قد يُريد ما لا يرضاه.

فإن قال قائل: كيف يريد ما لا يرضاه؟ وهل أحدٌ يُكْرِهه؟

قلنا: لا يُكرِهُه أحَدٌ، لكن يُريد ما لا يرضى لِحِكْمَة بالغة؛ فلو كان الله تعالى لا يريد إلا ما يرضاه، لأصبح النَّاس كلُّهم مؤمنين، ولم يكن هناك مَيْزَة للمُؤْمِن عن الكافِرِ، ولم يُقَم عَلَم الجهادِ، ولا الأَمْرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عن المُنْكَر، ولا مُلِئَتِ النَّار، كما وعد الله عَزَّوَجَلَّ، إلى غير ذلك مِن المصالِح العظيمة التي تَنْتُج عن وجود الكفر في عباد الله.

قال: [﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ﴾ اللهَ فَتُؤْمِنُوا] ﴿يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾، إِنْ تَشْكُرُوا، مقابل إنْ تَكْفُرُوا؛ لأنَّ الإنسانَ في نِعَمِ الله بين كافرٍ وشاكِرٍ، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وتأمل كيف قال في الكُفْر: إنَّ الله غَنِيٌّ ولا يرضى، وهنا قال: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ فبدأ في جواب الشَّرْط في ﴿إِن تَكۡفُرُواْ﴾ ببيان غناه عن الخَلق عَزَّوَجَلَّ، أما الشُّكر فإنه هو الذي يُثيبُ عليه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ فإذا رَضِيَه فسوف يثيبه، قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [البينة:٧-٨] ولهذا أثابهم الجنَّاتِ، أسأل الله أن يَجْعَلَني وإيَّاكُم منهم.

قال: ﴿يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ في هذا الفعل إشكال من النَّاحِيَة النحوية، فإنه جوابُ الشَّرْط، فـ(إن تشكروا) هذا فِعْل الشَّرْط، (يَرْضَه) جوابُ الشَّرْط، ومع ذلك فهو

مَفتوحٌ، لأنَّه مَجْزومٌ بحذف الأَلِف، وأصلها (يَرْضَى)، ولكن حُذفت الأَلِفُ للجزم، قال: [(يَرْضَهْ) بِسُكُونِ الْهَاء] تَسْكينها خفيفٌ جدًّا؛ يعني تقرأه بخِفَّة؛ ويقول: [وضَمُّها ﴿يَرْضَهُ﴾ في حال الضم مَعَ إِشْبَاعٍ وَدُونه] إشباع: ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ تُشْبِعُها حتى يخرج منها واو، ودونه تحذف الواوَ، إذن نقْرَؤُها: (**وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهْ لَكُمْ**) بسكون الهاء ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ بإشباع وبدونه؛ وكل هذا جائِزٌ، وهي قراءة سَبْعِيَّة متواتِرَة.

وكما تقدَّم ونُعيده: أنَّه ينبغي للإنسان أنْ يقرأَ القرآنَ بِجَميعِ القِراءات؛ لأنَّ الكُلَّ حقٌّ، فلا ينبغي أن يَهْجُر حقًّا من الحقوق، ولكن بشرط أن يكون مُتيَقِّنًا القراءةَ، فلا يكفي غَلَبَة الظَّنِّ، لا بُدَّ أن يتيقَّنَ، وإلا قرأ بالمتيقَّنِ عنده؛ وشرطٌ آخَرُ: ألَّا يكون عند العامَّة؛ لأنَّ العامَّة إذا قَرَأْتَ عندهم قراءةً تُخالف مُصْحَفَهم، صار في ذلك تشويشٌ عليهم بالنِّسْبة للقرآن، وسوءُ ظنٍّ بالنسبة إليك، ورحم الله امرأً كفَّ الغِيبَةَ عن نَفْسِه.

أما في مقام التَّعليمِ، أو في القراءة بينك وبين نفسك، فإنه ينبغي إذا كنت عالِمًا بالقراءة أن تقرأ بها أحيانًا؛ بهذا أحيانًا وبهذا أحيانًا، فمِثْل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٣-٤] فيها قراءة: (**مَلِك**) وقراءة: (**مَالِك**) فاقرأ بها، مرةً بهذه، ومرةً بهذه.

مسألة: إذا قرأ الإنسان في الصَّلاة في الركعة الأولى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وفي الركعة الثانية قرأ: (**مَلِك يوم الدين**) هل هذا صحيح؟

الجواب: لا بأس، ولا مانع، ولا حَرَج.

يقول: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾: ﴿يَرْضَهُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيِ الشُّكْرَ]

فما هو الشُّكْر؟ الشُّكْر حدَّه بعْضُهم بحدٍّ جامعٍ مانعٍ، فقال: الشُّكْر هو القيامُ بطاعة المُنْعِم اعترافًا له بالجَميل، ويكون بالقَلْب واللِّسان والجوارِح.

وعلى هذا قول الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا[1]

إذن: الشُّكْر القيامُ بطاعة المُنعِم اعترافًا له بالجميل، ومَحَلُّه في القلب واللسان والجوارح:

الأول: بالقَلْب؛ أن يُؤْمِن الإنسان بِقَلْبه بأنَّ هذه النِّعَم مِن الله عَزَّوَجَلَّ تَفضُّلًا منه، ولا يقول: هذا لي، أُوتِيتُه على عِلْمٍ عندي، بل يقول: هذا مِن فَضْل ربي.

الثاني: باللِّسانِ؛ أن يتعبَّد لله تعالى بكلِّ قولٍ شَرَعه، ومِن ذلك أن يتحدَّث بنِعْمَة الله، فإنَّ هذا مِن الشُّكْر؛ لأنَّه قولٌ مَشْروع، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] مثل أن يقول: كنت فقيرًا فأغناني الله، الحَمْد لله، أنا عندي وَلَد، عندي زوجة، عندي بيت، عندي سيارة، الحمد لله أنا أَطْلُب العلم، أنا حَصَّلتُ كثيرًا من العلم، وهكذا؛ فهذا من الشكر بشرط ألا يكونَ الحامِلُ على ذلك الفَخْرَ أو الرِّياءَ؛ لأنَّ بعضَ النَّاس يتحدث بالنِّعَم من باب الثَّناء على الله؛ أنَّ الله أعطاه ومَنَّ عليه وتَفضَّل عليه.

وأما الجوارح فظاهِرٌ؛ أن تُظهِرَ نِعْمَة الله عليك بالجوارح؛ فمثلًا إذا أعطاك الله قوةً وشجاعَةً تُظهِر ذلك بالقُوَّة في ذاتِ الله مِن جهادِ الكفَّار والمنافقين وغيرهم.

المهم: أنْ يَظْهَر عليك أثَرُ النِّعْمَة في أفعالك، فتقوم بعبادة المُنْعِم عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) غير منسوب، وانظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِن تَشْكُرُواْ﴾ اللهَ فَتُؤْمِنُوا]؛ يعني: فتؤمنوا الإيمانَ المُستَلْزِم للعَمَل الصَّالِح، لا مجرد الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ الإيمانُ بالله لا يكون إيمانًا حقيقيًّا حتى يستلزم القَبولَ والإذعان؛ وكثيرٌ مِن العامَّة يظنون أنَّ الإيمان بالله: أنْ تؤمِنَ بوجود الله فقط، وهذا خطأٌ، بل الإيمان بالله هو: الإيمان المُسْتَلْزِمُ للقَبُول والإذعان؛ القَبُول لِما أمر به، وانشراح الصَّدْر به، والإذعان والانقياد التَّام، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

فعلى رأي مَن يقول: إنَّ الإيمانَ هو: الإيمانُ بوجود الله، يظنُّون اليهودَ والنصارى مؤمنين، وقد يُصرِّحونَ بهذا، يقول: النَّصراني مُؤْمِنٌ يؤمن بالله، وإذا مات له شَخْص قال: رحمه الله، واليهود كذلك!

ونقول: إنَّ هذا ليس هو الإيمانَ بالله، الإيمانُ بالله لا يَصِحُّ -وليس يتمُّ فقط- إلَّا بالقَبول والإذعان؛ فالقَبولُ لِمَا جاء به الوَحْيُ، والإذعانُ والانقياد التَّام.

وقوله تعالى: ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفسير: [﴿وَلَا تَزِرُ﴾ نَفْسٌ ﴿وَازِرَةٌ وِزْرَ﴾ نَفْسٍ ﴿أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمله] ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾: (لا) نافية، و﴿وَازِرَةٌ﴾ فاعِلٌ، وهو نكرة في سياق النفي، فيَعُمُّ كلَّ وازِرٍ.

والوازرة: التي تتحَمَّل الإثم وتقوم به؛ وعلى هذا فمَن دونَ البُلُوغ ليس نَفْسًا وازِرَة؛ لأنَّها لا تتحمَّل الإثْمَ، ومَن كان بالغًا، ولم يَفْعَل الإثم فليس بوازِرٍ.

إذن: فالوازِرَة؛ يعني القابِلَة للوِزْر، وهي: النَّفْس المُكَلَّفَة، وإذا أردنا أن نقول: وازِرَة بالفِعْل، نقول: هي الفاعِلَة للإثم، فـ﴿وَازِرَةٌ﴾ هنا تشمل الوازِرَة حُكمًا، وقد تشمل الوازِرَة فعلًا أيضًا.

فالوازرة حكمًا هي: القابِلَة للإثم؛ يعني التي يمكن أن تتحمَّل الإثْمَ، وإن لم تَعْمَلِ الوِزْر، والوازِرَة حقيقةً هي: التي فَعَلَتِ الإثْمَ.

مثال ذلك: رجلٌ بالغٌ عاقلٌ، لكنه صالِحٌ نقول: هذا وازرٌ حُكْمًا، ورَجُلٌ آخر زنى أو سرق، نقول: هذا وازرٌ فِعلًا، إذا كان بالغًا عاقلًا، وهذا هو السِّر في أنَّ الله قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾، ولم يقل: (ولا تزر نفسٌ وِزْرَ أخرى)، بل قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾؛ لأنَّ مَن ليست وازِرَة، لا تَزِرُ شيئًا لا عن نفسها ولا عن غيرها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ أي إثْمَ نفسٍ أخرى، ومعنى (لا تَزِرُ)؛ أي لا يَلْحَقُها وِزْرُه؛ أي الإثْمُ؛ ولهذا فسَّره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [أي لا تَحْمِله] لا تَحْمِل وازرةٌ وِزْرَ أخرى.

فإن قال قائل: الغلامُ إذا بلغ عشرة سنين فإنه يُكلَّف بالصَّلاة، هل يكون وازِرَة؟

فالجواب: لا، لا يُكلَّفُ؛ ولكنْ يُضرَبُ عليها لعشرٍ من باب التَّأديب على التَّمَرُّن على الطَّاعَة، وإلا لو تركها فإنه لا يأثَمُ.

وإن قيل: كيف نجمع بين هذه الآية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ وبين ما ورد أنَّ المَيِّتَ يُعَذَّبُ ببكاء أهله عليه[1]؟

فالجواب: هذا ينبغي أن يُورَد على الآية، وهو أنَّ النَّبِي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ثبت عنه: أنَّ المَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكاءِ أَهْلِهِ عليه، وعائِشَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: إنَّ المرادَ بذلك

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «**يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه**». إذا كان النوح من سنته، رقم (١٢٨٦). ومسلم: كتاب الكسوف، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه، رقم (٩٢٧)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الكافِرُ[1]، ولا شكَّ أنَّها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بَشَرٌ تُخْطِئُ وتُصيبُ؛ وذلك لأنَّ الكافر يُعَذَّب، سواء بكى عليه أَهْلُه أم لا، لكن هي أرادَت أن تقول: إنَّ معنى الحديث: أنَّ الكافِرَ لَيُعَذَّبُ وأهله يَبْكون عَلَيْه، جعلت هذا معنى الحديث، واستَدَلَّتْ بالآية، ولكَّننا نقول: لا يستقيم هذا التَّأْويلُ بل معنى الآية: أنَّ المراد بالعذابِ: التألُّم النفسي، وليس التألُّمَ البَدَنِيَّ.

ونظير هذا قولُ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ**»[2] مع أنَّ المسافِرَ لا يتعذَّب تعذُّبًا بدنيًّا، قد يكون من آنسِ ما يكون إذا كانت الأَرْضُ مُخْصِبَة، والإِبِلُ طيِّبة، والرِّفاق أصحابًا، فيكون السفر نُزْهَة، ومع ذلك فهو قِطْعَة من العذاب القَلْبِيِّ، نحن في الطَّائِرَة مستريحون، ففيها دِفءٌ في الشتاء، وبرودة في الصيف، ونَشْرَب القهوة والعصير، ونأكل التَّمْر، وكلُّ ما طَلَبْنا يأتي، ومع ذلك القَلْب متألِّم، ليس مثل إنسان مُسْتَقِرٍّ في بيته، فالعذاب الذي في القَبْر هو هذا النَّوْع من العَذابِ.

وقال بعض العلماء: يعذَّب عذابًا بدنيًّا؛ أي: يعاقَبُ عقوبة بدنية، ولكن هذا فيمن أوصى أَهْلَه أن يَنوحُوا عليه، وإن كان هذا لم يُذْكَرْ بالحديث، لكن يُحْمَل الحديث على ما تَقْتَضيه النُّصوصُ الأخرى.

وقال بعضهم: هذا في الرَّجُل الذي يَعْلَمُ في أهله أن ينوحوا عليه ولم يَنْهَهُم والفَرْقُ بين القَوْل هذا والذي قبله؛ فالذي قبله أوصاهم، وهذا ما أوصاهم لكن يَعْلَم أنَّهُم يفعلون فلم يَنْهَهُم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «**يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه**»، رقم (١٢٨٨)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه، رقم (٩٢٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب السفر قطعة من العذاب، رقم (١٨٠٤)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب السفر قطعة من العذاب، رقم (١٩٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهذه أربعةُ أقوالٍ في الحديث، وأصَحُّها أنَّ المراد بالعذاب: العذابُ النَّفْسِيُّ، وليس العذابَ البَدَنِيَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر:١٨].

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾: ﴿ثُمَّ﴾ يعني بعد الشُّكْر من الشاكر، والكفر من الكافر، يكون إلى الله وحده المَرْجِع.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ في هذه الجملة حَصْر، طريقُهُ: تقديم ما حقُّه التَّأخير؛ لأنَّ قوله: إلى ربِّكم؛ خبرٌ مُقَدَّم، ومَرْجِعُكُم؛ مبتدأ مؤخَّر.

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ ولم يَقُلْ: إلى الله؛ لأنَّ المقام هنا مقام رُبُوبِيَّة؛ لأنَّ الرَّبَّ هو المالِكُ المُتَصَرِّف الخالق، فكان المناسِبُ أن يقول: إلى ربِّكم، ولو قال: إلى الله مَرْجِعُكم لصَحَّ؛ لأنَّ الله تعالى أيضًا هو المستحِقُّ للعبادة، ولا يستحِقُّ العبادَةَ إلا مَن كان ربًّا.

وقوله: ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة، ولكن اعْلَمْ أنَّ كل مَن مات فقد قامت قيامته؛ لأنَّه انتقل من دار العَمَل إلى دار الجزاء.

قال شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (العقيدة الواسِطِيَّة): «ومن الإيمان باليَوْمِ الآخِرِ: الإيمانُ بكلِّ ما أخبر به النَّبِي ﷺ مما يكون بعد الموت»[1]، مع أنَّ الذي يكون بعد المَوْت قبل قيامِ السَّاعة، لكن مَن مات فقد قامت قيامَتُه.

قال تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يُنَبِّئُكم: يُخْبِرُكم، لكن قد قيل: إنَّ النَّبَأَ لا يكون إلا في الأَمْرِ الهامِّ، بخلاف الخبر، فيكون حتى في الأمور التَّوافِهِ؛ وقال بعض العلماء: هما بمعنًى واحِدٍ.

---

(١) العقيدة الواسطية (ص٩٥).

وقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: ﴿بِمَا﴾ ما اسم موصول بمعنى الذي، وعائدها محذوف وهو المفعول به في قوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ أي: بما كنتم تَعْمَلونه. و(ما) الموصولة، بل وجميع الأسماء الموصولة، تفيد العموم، والدليل على أنَّ الأسماء الموصولة تفيد العموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزُّمَر:٣٣] فأعاد الإشارة إليه جمعًا مع أنه مفرد، وهذا يدلُّ على أنه يفيد العموم.

إذن: كل ما نَعْمَلُ من خير وشَرٍّ وصغير وكبير وسابقٍ ولاحِقٍ، فإن الله تعالى يُنَبِّئُنا به؛ أي: يُخْبِرُنا به.

وتأمَّلِ اللُّطْف والإحسان؛ حيث قال تعالى: ﴿يُنَبِّئُكُم﴾ [الأنعام:٦٠] ولم يقل: (يُؤاخِذُكم) لأنَّه ثبت في الصَّحيح: «**أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يخلو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ، فيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، ويقول: عَمِلْتَ كَذَا في يَوْمِ كَذَا، وعَمِلْتَ كَذَا في يَوْمِ كذا حتى يَعْتَرِفَ، ثم يقول الله له: قَدْ سَتَرْتُها عَلَيْكَ في الدُّنْيَا، وأنا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**»(١).

فهذا إنباءٌ بدون مؤاخَذَةٍ؛ ولهذا قال هنا ﴿يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٦٠] ثم المؤاخَذَة إليه، فالإنباءُ وعدٌ عليه، والمؤاخَذَة إليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]؛ ولهذا كان الكُفَّار لا يُنَبَّؤُون بعملهم كما يُنَبَّأُ المؤمن؛ يعني أنَّ الله يخلو به، ويستر عليه، ويُقَرِّره بذنوبه معه وَحْدَه، أما الكُفَّار -والعياذ بالله- فيُنادَى على رؤوس الأشهاد ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨] والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: الله عَزَّوَجَلَّ عليمٌ بذاتِ الصُّدُور، وهي القُلُوب، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦] فالمراد بذات الصدور؛ أي صاحِبَة الصُّدور؛ القلوب، وإنما ذكر الله هذه الجُمْلَة بعد قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للإشارة إلى أنَّ الحساب يكون على ما في القلب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٨-٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات:٩-١٠].

فالمدار يوم القيامَةِ على ما في القَلْب، أما في الدنيا فالمَدارُ على الأعمال الظَّاهِرَة، ولهذا كان النَّبِي ﷺ يعامل المنافقين معامَلَةَ المسلمين؛ لأنَّهُم كانوا يتظاهَرُون بالإسلام، ونحن نحاسِبُ النَّاس في الدنيا على ما يَظْهَرُ من أَعمالِهم، ونَكِلُ سرائِرَهم إلى الله، أما في الآخرة فإن الحسابَ على ما في القلب.

ولهذا يجب على الإنسان أن يعتَنِيَ بصلاح قلبه قبل صَلاحِ جِسْمِه؛ لأنَّ صلاح الجسم واجهةٌ أمامَ الخَلْق، لكن صلاحُ القَلْـبِ هو الذي يكون بين الإنسان وبين ربه عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيان أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ إنَّما أَمَرَ العباد بعبادَتِه؛ لحاجتهم لذلك، ومَنْفَعَتِهم به، وليس لحاجته إلى ذلك؛ لقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات اسم الغَنِيِّ لله عَزَّوَجَلَّ، وإثبات ما دلَّ عليه مِن صِفَة؛ لأنَّ كلَّ اسمٍ من أسماء الله مُتَضَمِّن لصِفَة، وليست كلُّ صفةٍ مُتَضَمِّنَةً لاسم؛ ولهذا نقول: إنَّ صفاتِ الله أَوْسَعُ من أسماء الله؛ بمعنى أنها أَكْثَرُ، ووجه ذلك ظاهر، إذا قلنا:

كل اسْمٍ مُتَضَمِّن لصفة، تساوت الأَسْماء والصفات، على أنَّ الاسم الواحِدَ يمكن أن يتضَمَّن عدَّة صفات، لكن لِنَقُلْ -على أدنى تقدير-: إنَّه لم يتضمَّنْ إلا صفةً واحدة، فإذا قلنا: كلُّ اسمٍ مُتَضَمِّن لصفة تساوت الأسماء والصفات، وهناك صفاتٌ لا يمكن أن يُشْتَقَّ منها أسماء، وهي كثيرة جدًّا، وبهذا تبيَّنَ أنَّ الصِّفاتِ أَوْسَعُ وأَكْثَرُ من الأسماء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يرضى الكُفْرَ للعباد؛ لأنَّه غيرُ لائقٍ بهم؛ إذ هم عباد الله، فاللَّائِقُ بهم أن يقوموا بطاعته وعبادته، ولا يليقُ بهم أن يكفروا به.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الرِّضا لله؛ لقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ﴾ وقوله فيما بعدها: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

والرِّضا صفةٌ مِن صفاتِ الله الفِعْليَّة؛ لأنَّه مُتَعَلِّق بِمَشِيئَتِه، وكل وصفٍ يتعلَّق بمشيئة الله فإنَّه يُسَمَّى عند أهل السُّنَّة صفةً فِعْلِيَّة، وكل وَصفٍ معلَّقٌ بسبب فإنه من الصفات الفِعْلِيَّة؛ لأنَّه يُوجد عند وجود السَّبب، والحقُّ أنَّ الرِّضا صفةٌ حقيقية لله عَزَّوَجَلَّ كالفَرَح والعَجَب والضَحِك، وما أشبه ذلك.

وزعم أهل التَّعْطيل أنَّ المراد بالرِّضا الثَّواب، ففسروه بشيءٍ بائنٍ عن الله مُنْفَصِلٍ عنه؛ مخافة أن تتعلَّق به الأفعالُ الاختياريَّةُ، وهذا من جَهْلِهم؛ وذلك لأنَّنا إذا فسَّرْناه بالثَّواب، فالثَّوابُ لا يقع إلا بإرادَةٍ، والإرادة لا تكون إلا حينَ يُوجَدُ سبب الرضا، وحينئذٍ تكون الإرادَةُ حادِثَةً، فهم فَرُّوا من شيء ووقعوا في مِثْلِه، مع تحريفهم للنُّصوص بِصَرْفِها عن ظاهرها، وتَعْطيلهم للصِّفَة التي دلَّ عليها النَّصُّ؛ فهذه ثلاثَةُ محاذيرَ.

فالذين يُحرِّفون الكَلِم عن مواضِعِه يقعون في ثلاثَةِ محاذيرَ:

المحذور الأوَّل: أنَّهُم وقَعوا في مِثل ما فرُّوا منه، فإن كان ما فرُّوا منه محذورًا، فما وقعوا فيه محذور.

الثاني: أنَّهُم حرَّفوا النَّصَّ عن ظاهره، صرفوه إلى معنًى آخر.

الثالث: أنَّهُم عطَّلوا الله عن الصِّفَة التي دلَّ عليها النَّصُّ الذي حرَّفوه، فهم -مثلًا- عطَّلوا الله عن صفة الرِّضا، وحرَّفوا النَّصَّ عن ظاهره، ووقعوا فيما فرُّوا منه، وهكذا في جميع الصِّفات التي حرَّفوها عن ظاهرها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه لا تَلازُم بين الرِّضا والإرادة، وجهه أنه قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ مع أنه أَخبر في آيات كثيرة: أنَّ الكفر واقعٌ بإرادته، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ [الأنعام:١٢٥] فإذا جمعنا بين هذا وهذا، عَرفنا بأنه لا تَلازُم بين الرِّضا والإرادة، فقد يُريد ما لا يَرضاه، وقد يَرضى ما لا يُريده، فهو -مثلًا- يرضى من كل واحدٍ من النَّاس أن يَشْكُر لله، وهل أراد ذلك؟ لا.

فالله يرضى من الكافر أن يُسْلِمَ ولكنه لم يُرِدْ أن يُسْلِمَ؛ فلا تلازم، فإنه قد يوجد الرضا بلا إرادة وتوجد الإرادة بلا رضًا ويوجد رضًا وإرادة؛ فالكافر يرضى الله منه أن يسلم، ولا يرضى الكفر، ويرضى الشكر؛ فيرضى من هذا الكافر أن يشكر ويؤمن، لكن هل أراد الله أن يشكر المؤمن؟ لو أراد الله لوقع.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الإشارةُ إلى أنَّ الكُفْر غيرُ مَرْضِيٍّ لله، في قوله: ﴿لِعِبَادِهِ﴾ والعبد يجب أن يكون مؤمنًا بِسَيِّده، مطيعًا له، فكيف يكون عبدًا ثم يكفر به؟!

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: فضيلة الشُكْر، وأنَّ الشاكر يَنالُ رضا ربه؛ لقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، وقد جاء في الحديث: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ**

فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»[١]، «يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»؛ وقوله: (الأَكْلَة) هل المراد الوَجْبة من الطَّعام أو المراد كُلُّ لُقْمة؟

الجواب: هناك مَن يَرى أنَّ المراد الوَجْبة، وهناك مَن يَرى أنَّ المراد اللُّقمة، وكان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يأكل، وكلما أكل لقمة حَمِدَ الله، فقيل له في ذلك، فقال: «أَكْلٌ وحَمْدٌ خيرٌ من أكلٍ وصَمْتٍ»[٢]؛ لأنَّ لفظ الحديث: «يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ» مُحتملٌ لأنْ يكون المراد به اللُّقمة أو الوجبة من الطعام، وكذلك يقال في الشرب، والإنسان ينبغي له في الشرب أن يشرب بثلاثة أنفاسٍ، في كل نَفَس يَحمَد الله عليه، إذا قلنا: المراد بالشَّرْبة النَّفَس.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الله يرضى الشُكْر لعباده، وإذا رَضِيَ الله عن العبد، كان ذلك سببًا في إرضاء العَبْد، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩] فيرضى الله عليهم بعبادتهم إيَّاه، ويرضون عنه بما أثابهم، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يَجْعَلني وإيَّاكم منهم؛ أنَّ الإنسان يَرضى عن ربِّه، ويرضى الله عنه، قال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنه لا تَحْمِل نَفْسٌ إثْمَ نفسٍ أخرى، حتى وإن ضَمِنَت النفس الأخرى ذلك الذَّنب؛ فمثلًا: لو قال شخص لآخر: افعل كذا من الذُّنوب والإثْمُ عليَّ، فيقول: أنا ضامِنٌ، فهل يصح؟ لا؛ أرأيتم لو ضَمِن دَينًا على شَخْص، فهل يصح؟ يَصِحُّ، وهو يُحمِّلُ نفسه بهذا الضَّمان، يُحمِّل نفسه دينًا؛ فإذا كان كذلك، لماذا لا يَصِح أن يَضْمَنَ إثْمَ مَن فَعل الإثْم؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، رقم (٢٧٣٤)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: مناقب الإمام أحمد (ص٣٤٠)، والفروع (٨/ ٣٦٤).

الجواب: لقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت:١٢] نحن نتحمَّل العذاب عنكمْ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [العنكبوت:١٢]، بل إنه يوم القيامة يكون الأمر أشدَّ، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة:١٦٦] يتبرَّؤون منهم، ويَتَحاجَّون في النَّار، كلُّ طائفة تتبرَّأ من الأخرى، فلا يمكن لأحدٍ أن يَحْمِل إثم أحدٍ أبدًا.

فإذا قال قائلٌ: كيف يُجمَع بين هذه الآية الكريمة وبين قول الرَّسول ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»(١)، وإخباره: أنَّه «**مَا قُتِلَتْ نَفْسٌ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ -الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ- كِفْلٌ مِنْ ذَلِكَ**»(٢).

فالجواب: أنَّ مَن سَنَّ السُّنَّة السَّيِّئة، فإن آثام مَنِ استَنَّ به عليه؛ لأنْ هذا مِن فِعْله، فهو في الحقيقة لم يَحْمِل إثْمَ غيره إلا لأنْه هو السَّبَب الذي جرَّ النَّاس إلى هذا الإثم؛ فقد يكون ناسٌ مُسْتَوْحِشينَ من هذا الإثم، يَخْشَوْن منه ويهابونه، فإذا فعله شخص هان عليهم الأَمْر، واقْتَدَوْا به، لا سيما إذا كان الشخص ذا كَلِمَةٍ مُطاعة؛ كالأمير والعالم، وما أشبه ذلك.

إذن: لا تعارُضَ بين الآية والحديث، وجهه: أنَّ مَن سَنَّ السُّنَّة السَّيِّئة فإنَّه عمل العمل الذي به الإثْمُ، والسَّبب اقتداءُ النَّاس به.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، رقم (٣٣٣٥)، ومسلم: كتاب القسامة، باب بيان إثم من سن القتل، رقم (١٦٧٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الإشارة إلى أنَّ الإثْمَ إنما يتحمَّلُه من كان قابلًا له؛ لقوله: ﴿وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ والوازِرَة هي التي تكون أهلًا لتَحَمُّل الوِزْر، والذي يكون أهلًا لتَحَمُّل الوِزْر من جَمْعِ وَصْفَيْنِ: البلوغ والعقل؛ لقوله في الحديث الصَّحيح: «**رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَبْلُغَ**»(١) صحَّحه كثير من أهل العلم.

فإن قال قائل: أليس الأبُ الراعي على أولاده إذا أهملوا شيئًا كان عليه إثمٌ من إهمالهم؟

فالجواب: بلى، ولكِنَّ إهمالَه إيَّاهم وزرٌ وإثْمٌ؛ لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ [التحريم:٦]؛ ولأنَّ النَّبِي ﷺ قال: «**الرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»(٢).

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم﴾ إلخ: أنَّ المَرْجِعَ إلى الله يوم القيامة.

ويتفرَّع على هذه الفائِدَة: وجوبُ الاستعداد لهذا اللِّقاء وهذا المَرْجِع، والاستعدادُ له يكون بِتَرْكِ المعاصي وفِعْل الطَّاعات، فما دام المَرْجِعُ إلى الله فلا يمكن أن تَرْجِعَ إلى غيره؛ ومهما كان فإنَّ مرجعكم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فهو منه المبتدأ وإليه المُنْتهى.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ١١٦)، وأبو داود: كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق، رقم (٤٤٠٢)، والترمذي: كتاب الحدود، باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد، رقم (١٤٢٣)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب من لا يقع طلاقه، رقم (٣٤٣٢)، وابن ماجه: كتاب الطلاق، باب طلاق المعتوه، رقم (٢٠٤٢)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب المرأة راعية في بيت زوجها، رقم (٥٢٠٠)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، رقم (١٨٢٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: بيان شُمولِ عِلْمِ الله؛ لقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالذي كنتم تعملون كله صغيره وكبيره، والخطابُ لجميع النَّاس، وهذا يدلُّ على شمول عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ، وهو كذلك؛ فعِلْم الله تعالى واسِعٌ محيطٌ بكلِّ شيءٍ، وقد نبَّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على بيان كيف كان واسعًا؛ فقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ يعني: إذا كان الله هو الخالِقَ، وهذا شيءٌ مُقَرٌّ به، لزم أن يكون عالِمًا بما خَلق؛ إذ كيف يُمْكِنُ أن يَخْلُقَ ما لا يعلمه! هذا مستحيلٌ.

أما قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ فـ﴿مَنْ﴾ هل هي فاعل أو مفعولٌ؟ يجوز فيها الوجهان: أنْ تكون فاعِلًا، بمعنى: ألَا يعلم مَنْ خلق مَنْ خَلَقَهُ، ويجوز أن تكون مفعولًا به؛ أي: ألَا يعلمُ اللهُ من خَلَقَه، ومعلومٌ أنَّ الخالق والمخلوق بينهما تناسُبٌ؛ فلا خالق إلا بِخَلْق ومَخْلوق، ولا مَخْلوق إلا بخالِقٍ؛ نعم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالِمٌ بأسرار العبد؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦] بل لَيَعْلَمُ ما يُسْتقبَل للمَرْء، والإنسانُ يعلم ما تُوَسْوِسُ به نفسه، لكن لا يعلم ماذا يَكْسِبُ غدًا، والله عَزَّوَجَلَّ يعلم ماذا يَكْسِبُه العبد غدًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الإشارة إلى أنَّ الحسابَ يوم القيامة يكون على ما في الصُّدور؛ لأنَّه لَمَّا ذكر الإنباء قال: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يعني فالمَرْجِعُ في الحساب إلى ما في القلب، فصحِّحْ ما في قلبك؛ لأنَّ المدارَ عليه، ولهذا شواهِدُ من الآيات ذكرناها أثناء التَّفسير.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: الإشارَةُ إلى أنَّ القلبَ هو الذي عليه مدار الصَّلاح؛ لأنَّه إذا كان الحساب على ما في القَلْبِ فهو عليه مدار الصَّلاح؛ ويؤَيِّده قولُ النَّبِي ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»(١).

• ● ❁ ● •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيــة (٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿❁ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر:٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ﴾ أي: أصاب، و﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المراد به [الكافر] المراد به الكافر، وإنَّما جعل هذا العام خاصًّا لظاهر سياقِ الآية كما يتبيَّن، وإلا فالأصل أنَّ الإنسانَ من ألفاظ العُمُوم، فـ(أل) فيه لاستغراق الجِنْس.

وعلامة (أل) التي لاسْتِغْراق الجِنْس أن يَحُلَّ مَحَلَّها (كُلٌّ) أي: كُلُّ إنسان، لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعله عامًّا أريد به الخاصُّ لقرينة السِّياق، فإنَّ السِّياق يدلُّ على أنَّ المراد به الكافِرُ؛ لأنَّه لا يمكن أن يتأتَّى ما يدل عليه السِّياقُ من مؤمن.

قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ ضُرٌّ: نكِرَةٌ في سياق الشَّرْط فتكون عامَّةً، أيَّ ضُرٍّ يكونُ؛ في بدنه، في أهله، في ماله، عام، خاص؛ أي ضرٍ يكون يدخل في قوله: ﴿ضُرٌّ﴾.

قوله: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾ ولم يقل: دعا الله، ففي هـذه الحال -أي في إصابة الضـر- عرف ربَّه وأنه لا مَلْجَأَ منه إلا إليه، فيدعو ربَّه معتقدًا أنه ربُّه يَمْلِك ما شاء ويتصَرَّفُ فيما شاء.

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَضَرَّع] يعني: فَسَّرَ دعا بمعنى تضَرَّع؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ [الأعراف:٥٥] والتَّضَرُّع هو الاستكانة والذُّلُّ أمام الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: ﴿مُنِيبًا﴾ راجعًا إليه، فإذا دعا ربه مُنيبًا إليه كَشَفَ الله ضُرَّه؛ لأنَّه عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٦٢].

وإجابة الله للمُضْطَرِّ تَشْمَلُ الكافر والمُسْلم؛ حتى الكافر الذي يعلم الله أنه سَيَكْفُرُ بعد زوال اضْطِرارِهِ يُجيبُ دعوته، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥].

فهو يعلم عَزَّوَجَلَّ أنَّهم سيُشْرِكون بعد النَّجاة، ومع ذلك يجيبهم؛ لأنَّ رَحْمَتَه سبقت غَضَبَه، ففي حال الضَّرورة يَصْدُق لجوءُ الإنسانِ إلى ربِّه؛ لأنَّه يعلم أنه لا يَكْشِفُ الضُّرَّ إلا اللهُ؛ فإذا لجأ إلى ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنَّ رحمته سبقت غضبه، فيجيبه رحمةً به.

فهنا يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ إلى آخره؛ يعني كأنَّ هذا -والله أعلم- إشارة إلى أنَّه بعد أن تَغْمُرَه النِّعْمَة ويَسْتَمِر فيها وقتًا يُنَعَّم بها، بعد ذلك يَكْفُر.

وقوله: ﴿إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إذا أَعْطاه] تفسير: لـ﴿خَوَّلَهُۥ﴾، [إنعامًا] تفسير لـ﴿نِعْمَةً﴾ أمَّا تفسير خوَّله بـ(أعطاه) فواضِحٌ، وأما تَفْسيرُ نِعْمَةٍ بإنعامٍ فلا وَجْهَ له؛ لأنَّ المُعْطَى ليس الإنعامَ وإنما المُعْطَى النِّعْمَة، وعلى هذا فإبقاءُ الآية على ظاهرها أَوْلى مِمَّا ذهب إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

إذن: فأعطيناه إنعامًا لا يستقيم به الكلامُ؛ لأنَّ الإنعامَ فِعْل الله، والمُعْطى هو النِّعْمَةُ، وليس فِعْل الله، فإبقاءُ الآية على ظاهرها لا شَكَّ أنَّه هو الموافق للواقِعِ.

وقوله: ﴿إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ﴾: (مِن) هنا للابتداء أي: نِعْمَةً صادرةً من الله عَزَّوَجَلَّ يتبيَّن بها أنها فضلٌ مَحْضٌ من الله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿نَسِيَ﴾ تَرَكَ ﴿مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ﴾ يتضَرَّعُ ﴿إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ﴾ وهو الله].

فانظر -يا أخي- كان يتضَرَّعُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ في أن يَكْشِفَ عنه الضُّرَّ، فلما كشَفَ الله عنه الضُّرَّ وأعطاه نِعْمَةً زائدة على كَشْفِ الضُّرِّ ماذا تكون حالُه؟ قال تعالى: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ﴾.

قوله: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ﴾ النِّسيانُ هنا بمعنى الغَفْلَة وليس المراد به: ذُهُولَ القَلْبِ وإنما المرادُ: الغَفْلَة المتَضَمِّنَة للتَّرْك، ومن ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٤-٥] أي: غافلون عن صلاتِهم.

وقوله: ﴿إِلَيۡهِ﴾ الضَّميرُ يعود على الله عَزَّوَجَلَّ، و﴿مَا﴾ تعود على الله؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فـ(ما) في موضع (مَن)].

(ما) في قوله: ﴿مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ﴾ في مَوْضِعِ (من)؛ يعني: مرادُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ (ما) بمعنى (من) أي: نَسِيَ من كان يدعو إليه من قبل، يعني مَن يُوجِّهُ الدُّعاء إليه، أو كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يتضَرَّعُ إليه] وهو الله عَزَّوَجَلَّ، فغَفَلَ، وكأنَّ الله ما أنعم عليه بِكَشْفِ الضُّرِّ وتَخْويلِهِ النِّعْمَةَ.

قوله: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ الأندادُ لم يَغْفُلْ عنهم،

و(الواحِدُ القهَّار) غَفَلَ عنه ذلك الشَّخْصُ، والعياذ بالله! مع أنَّ الأنداد لم تَنْفَعْه ولم يتضرَّع إليها حين أصابه الضُّرُّ، ومع ذلك يُقْبِلُ عليها ويَدَعُ من أَنْعَمَ عليه.

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ شركاءَ، والأندادُ جَمْع: نِدٍّ، والنِّدُّ هو المُسَامِي لِنِدِّه؛ المُماثِلِ له فيجعل لله أندادًا في العبادة، فيعبد هذه الأصنام كما يعبُدُ الله عَزَّوَجَلَّ، يَنْذِرُ لها كما يَنْذِر لله، يذبَحُ لها كما يذبح لله، وهكذا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِّيُضِلَّ﴾: بفتح الياء وضَمِّها ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ دين الإسلام].

قال تعالى: ﴿أَندَادًا لِّيُضِلَّ﴾ اللَّامُ هـذه إمَّا أن تكون للتَّعليـل، وإما أن تكون للعاقِبَة، فإن كانت على قراءة الفَتْح (لِيَضِلَّ) فاللَّامُ للعاقِبَة؛ يعني: جعل لله أندادًا أدَّتْ به إلى الضلال، وإن كانت بِضَمِّ الياء (لِيُضِلَّ) فاللام للتَّعليل؛ يعني: جعل لله أندادًا ليَقْتَدِيَ به النَّاسُ فيَضِلُّوا.

والآية فيها قراءتان: (لِيَضِلَّ) و﴿لِّيُضِلَّ﴾ فيَضِل تعود إلى نفسه، ويُضِل تعود إلى غيره، وهاتان القراءتان كلتاهما صحيحة، وكل واحدة تفيد معنًى يُكمِل معنى الأخرى، فهو يَضِلُّ بِنَفْسه، ويُضِلُّ غَيْرَه أيضًا.

فإن قال قائل: هل يمكن نقول: إنَّ قِراءة ﴿لِّيُضِلَّ﴾ أقربُ مِن قراءة (لِيَضِلَّ)؟

فالجواب: لا، لكن يمكن أن نقول: لا شكَّ أن يُضِلَّ متعدٍّ ضلالُه للغير، لكن إذا قلنا: إنَّه ضَلَّ أوَّلًا ثم أضَلَّ ثانيًا يكون مجموع القراءتين فيهما فائِدَةٌ لا تحصل بانفراد إحداهما.

ولام العاقبة تأتي في اللُّغَة العَربيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] فهل آلُ فرعون التقطوا موسى من أجل أن

يكون لهم عدوًّا وحزنًا؟ أبدًا؛ يقول: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، لكن في العاقبة صار ﴿عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

وتأتي اللام أيضًا زائدةً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ﴾ [الأحزاب:٣٣]؛ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ﴾ أي: أنْ يُذْهِبَ، وكما في قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ [النساء:٢٦]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ﴾ أي: أنْ يُبيِّن، وإنما قالوا: إنَّها زائدة لأنَّ كلمة (أراد) تتعدى بِنَفْسِها لا باللَّام، ولا تصلح أن تكون للتَّعليل؛ لأنَّ التعليل مستفادٌ من الإِرادَة، وعلى هذا فيعربونها على أنها زائِدَة.

فتبين أنَّ اللام التي تدخل على المضارع تكون زائدة، وتكون تعليلية -وهي الأكثر- وتكون للعاقِبَة.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾: ﴿سَبِيلِهِۦ﴾ أي: طريق الله المُوصِل إليه، هذه سبيل الله.

والسَّبيلُ يضاف إلى الله تارةً كما في هذه الآية، وكما في آياتٍ أخرى كثيرة، ويضاف إلى المَخْلوق؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:١٠٨] فما هو الجمع بينهما؟ الجمع بينهما: أنَّه يُضاف إلى اللهِ باعتبار أنَّه هو الذي وَضَعَه وأنه مُوصِلٌ إليه، ويضاف إلى غير الله للمخلوق باعتبار أنه هو السَّالِكُ له، إذن فسبيلُ الله؛ يعني: هو الذي شرع هذا السبيل، ووَضَعَه للعباد، وهو يوصل إلى الله، سبيلُ الرَّسول ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:١٠٨]؛ أي: طريقي الذي أَسْلُكُه.

ومثل ذلك يقال في الصراط: صراط الله؛ قال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٧] فصراط الله باعتبار أنه هو الذي وَضَعَه وأنه مُوصِل إليه و﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ باعتبارِ أنَّهُم هم الذين يَسْلُكونه.

وقوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [دينِ الإِسْلامِ]، وهذا تفسيرٌ للكلمة بمرادها؛ لأنَّ التفسير للقرآن أحيانًا يكون تَفْسيرًا لفظيًّا، وأحيانًا يكون تفسيرًا معنويًّا:

التفسير اللَّفْظي: أنْ تُفَسِّرَ اللَّفْظة بمعناها.

والتفسير المعنوي: أنْ تُفَسِّرَ اللَّفْظَةَ بالمرادِ بها.

فمثلًا: دين الإسلام لا يُطابِقُ في المعنى اللَّفْظي السبيلَ؛ لأنَّ السَّبيلَ في اللغة الطَّريق؛ فلو قيل: فَسِّر (سَبيل)؛ تقول: يعني: طريق، لكن السَّبيل المراد به: دين الإسلام؛ لأنَّ دين الإسلام -وهو شرائع الإسلام- يُوصِل إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والذي وضعه هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذن: المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّر السبيل هنا بالمعنى المرادِ؛ أي: إنَّ المرادَ بذلك كذا وكذا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [دين الإسلام] واضِحٌ أنَّه هو سبيل الله؛ لأنَّ الله هو الذي شَرَعَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولأنَّ من سلكه أوصله إلى الله.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بقيَّةَ أَجَلِكَ] ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أعوذ بالله!.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ الخطابُ للرسول ﷺ، ويُحْتَمَل أن يكون الخِطابُ لكلِّ من يَصِحُّ خطابه؛ أي: قل أيُّها الإنسانُ لهذا الكافر أو لهذا الإنسانِ الموصوفِ بهذه الصفات: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾.

وقوله: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ هذا أمْرٌ، لكنه ليس على ظاهِرِه، بل المراد بالأمر

هنا: التَّهديدُ؛ كقوله تعالى ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] ومعلومٌ أنَّ الإنسان ليس بالخيارِ بين الإيمان والكفر، لكن هذا من باب التَّهديدِ، فهنا ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ ليس معناه أننا نُبيحُ له أن يتمتَّع بالكُفْر، أو نأمره أن يتمَتَّع بالكفر، بل نهدِّدُه؛ فالأَمْرُ هنا للتَّهْديد.

فإن قال قائل: ما الذي أخرجه عن المعنى الأصلي؟

فالجواب: أنَّه أخرجَه عن المعنى الأصلي: قرينَةُ السِّياقِ.

فقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي: اكْفُرْ وتَمَتَّع بالكفـر؛ لأنَّ الكافـر يتمتَّع بكفره تَمَتُّعَ البهائِمِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢].

فالكافر -والعياذ بالله- لا يُقَيِّد نَفْسَه بعبادة؛ لا بصلاة، ولا زكاة، ولا صوم، ولا حج، ولا غير ذلك من العبادات، بل هو قد اتَّبَعَ هواه وتَمَتَّع كما يتمتَّعُ الحمارُ؛ وفي النهاية قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢].

وما أسْرَعَ وصولَه إلى النار؛ لأنَّ الدنيا قليلٌ؛ أي: زمنٌ قليلٌ؛ مهما طال بك العُمُر، فإنه إذا وافاك الأَجَل كأنْ لم تَلْبَثْ إلا ساعَةً من نهارٍ، وإذا شِئْتَ تصديقَ هذا فاعْتَبِرْ ما مضى من عُمُرك بما بقي، اعتبر ما مضى، الآن كلنا يختلف سِنُّه عن الآخر، لكنْ كلُّنا كأننا ولادَة هذه السَّاعَة؛ يعني: كلُّ الذي مضى كأنه لم يَكُنْ، هكذا يكون بَقِيَّةُ العُمُر، مهما طال بالإنسان العُمُر؛ ولهذا قال: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ وإن طال بك العُمُر.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَقِيَّة أَجَلِك ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾] الجملة هذه مؤكَّدة بـ(إنَّ) يعني: ومهما تَمَتَّعْتَ فمآلُكَ إلى النار ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ وأصحاب النار إنما تُطْلَقُ على الذين يُخَلَّدون فيها، فالمؤمِنُ العاصي وإن كان يَسْتَحِقُّ العذابَ بالنار، فإنه لا يُسَمَّى من أصحابِ النار؛ لأنَّ الأصل في الصُّحْبَة: طولُ المُلازَمَة، هذا الأصْلُ في الصحبة؛ طولُ المُلازَمَة، إلا في مسألة واحدة هي الصَّحابة مع الرَّسول ﷺ، فلو اجْتَمَع بالرَّسول ﷺ مُؤْمنًا به ولو لَحْظَةً صار من أصحابه.

يقول تعالى: ﴿ٱلنَّارِ﴾ هي الدار التي أعدها الله عَزَّوَجَلَّ للكافرينَ، وقد بيَّن الله تعالى في الكتاب، وبيَّن رسولُه ﷺ في السُّنَّة ما فيها من أنواع العذاب؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٣-٤٨].

أعوذ بالله! يُصَبُّ فوق رأسه من عذاب الحَميمِ؛ الماءِ الحارِّ الشَّديدِ الحَرارَةِ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] وهذا من باب التَّهكُّم به؛ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾. يعني: وأين عِزَّتُكَ وأين كَرَمُك في الدنيا؟! يرى نَفْسَه سيِّدًا شريفًا، ولكنه في الآخرة يُهانُ إلى هذه الإهانَةِ.

المهم: أنَّ أَنْواعَ العذابِ في النار شيء -والعياذ بالله- إذا تصوَّرَهُ الإنسان فإنه يتبيَّنُ له شِدَّةُ ما يلاقي هؤلاء من العُقُوبة الشَّديدَة؛ نعوذ بالله من النار.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الكافِرَ لا يعرف ربَّه إلا عند الضَّـرورة؛ لقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن عبادة الضَّرورة لا تنفع غالبًا أي إنَّ الإنسان إذا عَرَفَ ربَّه عند الضَّرورة فقط، فالغالب أنه لا ينتفع بهذه العِبادَة؛ لأنَّها ليست عبادةً عن رَغْبَة ولكنها عبادة من أجل إنجاءِ الإنسانِ من الهَلَكَة، وإن كان أحيانًا يَنْتَفِعُ ربما يكون هذا سببًا لفَتْحِ الله عليه، كما يوجَدُ الآن من النَّاس مثلًا من يصاب بمرض شديدٍ ويخاف منه الهلاك، فيُنيبُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ ويدعو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ثم يَمُنُّ الله عليه بالاستمرار، لكنَّ الغالِبَ أنَّ التعبُّد ضرورةً لا يُفيدُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الكافِرَ يُؤْمِنُ بالله، وأن إيمـانه بالله لا يُخْرِجُه من الكفـر؛ لقوله: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾ فالإيمانُ بالله وبربوبيته لا يكفي ولا يُخْرِجُ الإنسانَ من الكفر. ودليل ذلك: أنَّ المشركينَ الذين بُعِثَ فيهم رسولُ الله ﷺ كانوا يُقِرُّون بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩].

يعني: يُقِرُّون بأنَّ الذي خَلَقَهُم هو الله ويَصِفُونَه بالصِّفات الكامِلَة، ومع ذلك فهم كفَّار استباحَ النَّبِيُّ ﷺ دماءهم ونساءهم وأموالَهُم وذُرِّيَّتَهم.

وبه نعرف أن من قال عن النصارى: إنَّهُم مؤمنون، فهو جاهل، بل إن كان عالِمًا بما يدلُّ عليه الشَّرْعُ مِنْ كُفْرِهِم فهو مُرْتَدٌّ؛ لأنَّ من حكم بالإيمانِ لِمَن كَفَّرَهُ الله، فإنَّه مُرْتَدٌّ مُكَذِّبٌ لله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك من قال عن اليهود: إنَّهم مؤمنون بالله؛ فإن

هذا الكلام صادِرٌ إما عن جهل وإما عن رِدَّةٍ، والعياذ بالله.

فإذا قال: إنَّهم يؤمنون بالله يقولون: الله عَزَّوَجَلَّ هو الكاشِفُ للضُّـرِّ، وهو المدبِّر للأمور!.

قلنا: هذا لا يَنْفَعُهُم، ولهذا تجد عند العامَّة لَمَّا التبس عليهم هذا الأمْرُ تجدهم إذا قيل لهم: إنَّ تارِكَ الصَّلَاةِ كافِرٌ، قالوا: كيف يكون كافِرًا وهو يشهد أنْ لا إله إلا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، فأين الكُفْرُ؟

فيقال: ليس كلُّ من شَهِدَ بهذا يكون مُؤْمنًا، فالمنافقون يأتون إلى رسولِ الله ﷺ يقولون: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ ويؤكِّدونَ هـذا، فيؤكِّدُ الله عَزَّوَجَلَّ كَـذِبَهُم، فيقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١]؛ فهم وإن شهدوا بألسنتهم فهم كاذبون بقلوبِهم.

وعلى كلِّ حال: هذه الآيَةُ تدلُّ على أنَّ مُجَرَّد اعتراف الإنسان بالرَّبِّ لا يُخْرِجُه عن الكفر.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يجيب دعـوة المُضْطَرِّ، ولو كان كافرًا؛ لقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾.

فإن قال قائِلٌ: كيف يجيب الله دَعْوَتَهُ وهو كافر؟

قلنا: هذا من آثار سَبْقِ رَحْمَتِه لِغَضَبِه؛ فإنَّ رَحْمَتَه سبقت غضبه، فالكفر موجِبٌ للغضب، والضَّرورة موجبةٌ للرَّحْمة، فتَسْبِقُ الرَّحمةُ الغضبَ، فيجيبه الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا كإجابَةِ المظلومِ ولو كان كافرًا، المظلومُ تُجابُ دَعْوَتُه ولو كان كافرًا إقامةً للعَدْلِ، وانتصارًا للحق؛ قال النَّبِيُّ ﷺ لمعاذِ بْنِ جَبَلٍ: «**اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا**

وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[١].

إذن: فهذان شَخْصانِ تُجابُ دَعْوَتُهما مع الكفر؛ هما: المظلوم، ومَن وَقَعَ في ضرورة، إذا دَعَوَا الله، فأما إجابةُ المظلوم فمن أجل العدل والانتصارِ للحَقِّ، وأما إجابة المضطر فلِأَنَّ المُضْطَرَّ اجتمع في حَقِّهِ سببانِ:

سببٌ موجبٌ للرَّحْمة وهو الضَّرورة، وسببٌ موجِبٌ للغَضَبِ والانتقامِ وهو الكفر، ورَحْمَة الله تعالى قد سَبَقَتْ غَضَبَه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ النِّعْمَةَ مَحْضُ فضلٍ من الله؛ لقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ﴾ لأنَّها لا يمكن أن تكون مكافأةً عن عمل، فإنَّ الإنسان لو حُوسِبَ على عمله محاسبةً دقيقةً لكان عَمَلُه لا يقابِلُ واحدًا من ملايينَ مِن نِعَمِ الله عَزَّوَجَلَّ، فيَخْرُج مغلوبًا، بل إنَّ بعض العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يقولون: إنَّ العَمَلَ الصَّالِحَ من نِعْمَةِ الله؛ فنَفْسُ العَمَلِ من النِّعْمَة، فإذا شكر العَمَل صار الشُّكْرُ نِعْمَةً، وإن شَكر فالشُّكْرُ صار نِعْمَةً أخرى، وعلى هذا قول الشاعر:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ في مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ العُمْرُ[٢]

لأنَّك إذا أَنْعَم الله عليك نِعْمَةً ثم شَكَرْتَه فشُكْرُك إياه نِعْمَة، ثم إنْ شَكَرْتَه على الشُّكْر فهو نِعْمَة أخرى وهُلَمَّ جَرًّا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) البيت لمحمود بن الحسن الوراق، انظر: الفاضل للمبرد (ص٩٥)، والصناعتين لأبي هلال العسكري (ص٢٣٢).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الكافِرَ -وإن شئت فقُلِ الإنسان- ينسى النِّعْمَة؛ فإذا أنعم الله عليه نِعْمَةً بعد ضَرُورَةٍ نسي، ثم عاد إلى غَيِّهِ، وهذا خطير جدًّا على الإنسان، وهذا واقِعُ الإنسان: أنَّ الله إذا أنعم عليه نِعْمَة بإنجائِهِ من ضَرورَةٍ نَسِيَ ذلك ثم عاد إلى غَيِّه، وهذا يقع؛ فنَجِدُ الأحداث الآن تَمُرُّ بالنَّاس، فيمكن في حالِ حُلولِ هذه الأحداث أن يكون لهم رَجْعَةٌ بعضَ الشَّيْء، ولكن إذا زالت الضَّرورة عادوا إلى ما كانوا عليه من قَبْلُ، بل ربما يَحْمِلُهم الأَشَرُ والبَطَرُ على أن يزيدوا في غَيِّهم.

وهذا له خُطُورَتُه؛ فإن الله تعالى ذكر في القرآن: أنَّ الإنسانَ إذا عاد إلى غَيِّه بعد إنقاذه من الهلاك، فإن الله يُصيبُه بعذابٍ أَشَدَّ من الأَوَّل.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الكافر يعود إلى كُفْرِه ولا يذكر ما دعا اللهَ إليه من قبل، وهو: إنقاذه من الضَّرورة؛ لقوله تعالى: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا نِدَّ له؛ لأنَّ الله أنكر على من جعلوا له أندادًا، فيكون في هذا ردٌّ على أهْلِ التَّمْثيل الذين أثبتوا لله الصِّفاتِ مع التَّمْثيل، فقالوا: إنَّ الله تعالى له وَجْهٌ كوجوهنا، ويدٌ كأيدينا، وعينٌ كأعْيُنِنا، وساقٌ كسُوقِنا، وهكذا!

ونقول: كلامُكُم هذا كذِبٌ، وأنتم وأهلُ التَّعْطيلِ سواءٌ؛ لأنَّكم أنتم عطَّلْتُم النَّصَّ عن مدلوله الصَّحيحِ؛ إذ إنَّ مدلولَ النُّصوص في صفات الله: صفاتٌ لائِقَةٌ لله عَزَّوَجَلَّ، فإذا جعلتموها للتَّمثيل حرَّفْتُموها، ونقول: هذا الفعل منكم تعطيل في الحقيقَةِ لمدلول النَّصِّ الصَّحيحِ؛ لأنَّ مدلول النَّصِّ فيما يتعلق بالصفات صفاتٌ لائِقةٌ بالله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن هـؤلاء الكفَّار يَحْرِصـون على أن يَضِلَّ النَّاسُ بِفِعْلِهِم؛ لقوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ على قراءَةِ الضَّمِّ في قوله: ﴿لِّيَضِلَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنه كمـا يكون الاقتداءُ بالقَوْل يكون الاقتداءُ بالفِعْل؛ لأنَّ هذا الكافر جعل لله أندادًا، وكان جَعْلُه للأنداد سببًا لضَلالِ غَيْره.

ويتفرَّع على هذا فائِدَة: وهي: تَحْذيرُ الإنسان -ولا سيما القُدْوَة- من المخالفة؛ لأنَّ النَّاس سوف يَقْتَدون به ويَحْتَجُّون بِفِعْلِه؛ فمثلًا طالِبُ العِلْم: إذا قام إلى الصَّلاة يُكْثِر الحَرَكَة، فمرةً يَحُكُّ رَأْسَه، ومرةً يَحُكُّ ظَهْرَه، ومرةً يَحُكُّ بَطْنَه، ومرةً يَعْرُكُ عَيْنَه، ومرةً ينْظُر ساعَتَه، ومرةً يكتب ما تذَكَّرَ في صلاتِهِ؛ إذا كان هذا طالِبَ العلم ويفعل هذا الشَّيْء؛ فإن النَّاس سوف يقتدون به، ولو أُنْكِرَ على واحِدٍ من النَّاس كَثْرَةُ الحَرَكَة لقال: فلان يَفْعل.

ولهذا أحيانًا نُنْكِرُ على بعضِ النَّاس المعامَـلاتِ الرِّبَوِيَّةَ التَّحَيُّلِيَّةَ، فيقولون: فلان يفعل كذا، ممن هو من طَلَبَة العلم؛ فالنَّاس يَحْتَجُّون، وهذه الآية تدل على أنَّ الاقتـداءَ يكون بالفعل؛ لقوله: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ولم يقل: ودعا النَّاس ليُضِلُّوا عن سبيـل الله، بل جعل فِعْلَه سببًا لضلال النَّاس، وهذا يدلُّ على الاقتداء بالفِعْل كالقَوْل.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: وأما على قراءة الفَتْحِ: (لِيَضِلَّ) فيؤخذ منه فائِدَة، وهي: أنَّ جَعْلَ الأندادِ لله ضلالٌ؛ لقوله: (لِيَضِلَّ عَنْ سَبيلِهِ).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: تهديد هؤلاء الكفَّار الذين اتَّخذوا من دون الله الأنداد؛ تؤخَذُ من قوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾، وقد بيَّنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صِفَةَ هذا التَّمَتُّع فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ [محمد:١٢] البهائِمُ ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الدنيا مهما طالَتْ فهي قليلة ولا تُنْسَب للآخرة؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤]؛ ويقول للعموم: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى:١٧]؛ وقال النَّبِي ﷺ: «**لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[1] (السَّوْطُ): عصًا قَصيرة؛ (خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وما فيها) من الدنيا؛ أي: الدنيا كلُّها منذ النشأة إلى قيامِ الساعة بما فيها من الزخارف واللَّهْوِ والزِّينَة؛ ولهذا قال: تمتَّعْ قليلًا؛ فهذه المتعة للكافِرِ، وإن كان ينال شَهْوَتَه هي قليلةٌ زمنًا، وقليلةٌ كَمِّيَّةً، وقليلةٌ كَيْفِيَّةً.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الكُفَّار ملازمون للنار لا يخرجون منها؛ لقوله: ﴿أَصْحَابِ النَّارِ﴾ لأنَّ الصاحِبَ هو المُلازِمُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: مُخاطَبَة الإنسان بما يليق بحالِهِ، فهذا الكافر المعانِدُ الذي بدَّلَ نِعْمَةَ الله كُفْرًا يخاطَبُ بهذا الخطاب القاسي، وهو: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ بينما لو كانت المسألَةُ مسألةَ دَعْوَةٍ ما قابلناه هذه المقابَلَة، فلا نقول لمن ندعوه للإسلام: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ لكنْ نَقُولُهُ لمن عانَدَ وكابَرَ وبدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ النار؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، ويجب علينا في إثبات النار شيئان:

الأول: إثباتُ وُجُودِها الآن، وأنها موجودة، فإن النَّبِي ﷺ عُرِضَتْ عليه الجنة

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعُرِضَتْ عليه النَّار في صلاة الكُسُوفِ[1] وشاهدها، ورأى من يُعَذَّب فيها، رأى فيها امرأةً تُعَذَّب بِهِرَّةٍ حَبَسَتْها حتى ماتَتْ، ورأى فيها صاحِبَ المِحْجَنِ، والمِحْجَن عندنا في اللُّغَة العامِّيَّة (مِحْجان) عَصًا مَحْنِيَّة الرأس، هذا الرجل يَمُرُّ بالحُجَّاج فيَشْبِك متاعَ الحَاجِّ برأْسِ المِحْجَنِ، فإن تفطَّنَ له صاحب المتاع؛ قال: والله، هذا المِحْجَنُ أَمْسَكَ به، وإن لم يَتَفَطَّنْ له أخذه، فرآه النَّبِي ﷺ يُعَذَّبُ في النار بِمِحْجَنِه، وهو يصلي صلاةَ الكُسُوف، ثم تأَخَّرَ النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، تأخر مخافَةَ أن يُصيبَه من لَفْحِ النار، إذن: فرُؤْيَتُه إيَّاها حِسِّيَّة؛ هذا واحد.

الشَّيْء الثاني: يجب أن نُؤْمِنَ بأنَّ النار مُؤَبَّدَةٌ أَبَدَ الآبدينَ يُعَذَّبُ فيها أهلُها، ما هم عنها بمُخْرَجِينَ، وهي مؤبدة دائمًا؛ لأنَّ الله تعالى ذكر تأبيدها في ثلاثَةِ مواضِعَ من القرآن:

الموضِعُ الأول: في سورة النساء؛ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:١٦٩].

والموضع الثاني: في سورة الأحزابِ، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

والموضع الثالث: في سورة الجِنِّ؛ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، رقم (٩٠٤)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وبعد هذا لا يمكن أن نَقْبَلَ قولًا من أي عالِمٍ كان بأنَّ النَّار غير مُؤَبَّدَة، ولا نقابل هذا النَّصَّ الصَّريحَ بقياساتٍ؛ لأنَّ قوله تعالى: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[1] هذا صحيحٌ نَصٌّ مُحْكَمٌ وخَبَرٌ صادِقٌ، لكن الخَبَر يجوز تخصيصُه، فنقول: أَهْلُ النار ليسوا أهلًا للرَّحْمة، وعقوبة الله إيَّاهم على التَّأبيد هي من كمال العَدْلِ والحِكْمَة، فكما أَمْضَوْا أعمارَهُم بالكُفْر، كل الدنيا أَفْنَوْها بالكُفْر، فالآخِرَة أيضًا تَذْهَبُ عليهم بالجزاء والعُقُوبة، هذا هو العَدْل، وهذه الحِكْمَة.

ونقول: عمرك في الدنيا كُلُّه مضى في الكُفْر.

إذن: فحياتُكَ في الآخِرَة تمضي بالجزاء والعُقُوبَة، لا حياةَ لك في الآخِرَة، كما أنه لم يَكُنْ لك حياةٌ في الدنيا؛ طاعَةُ الله.

مسألة: ما قيل عن شَيْخِ الإسلام أنه قال بفناءِ النَّارِ ليس بصحيحٍ؛ ولْنَفْرِضْ أنَّ الذي قال بِفَنَاءِ النار -وحاشاه من ذلك- أبو بَكْرٍ، وهو أَفْضَلُ من شيخ الإسلام أَلْفَ مَرَّةٍ؛ هل نقبله مع وجود الآيات؟

لا نقبله؛ فإذا وَجَدْنا قولًا مُخالِفًا للكتاب والسُّنَّة من أي قائلٍ به، فإنَّ مَوْقِفَنا أن نَعْتَذِرَ عنه، لا أن نَجْعَلَ قَوْلَه حُجَّة على كلام الله ورسوله، مهما كان؛ فليس هناك أحدٌ مَعْصومًا من الخطأ أبدًا إلا من عَصَمَه الله عَزَّوَجَلَّ كالرُّسُل.

• • ❁ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، رقم (٧٤٥٣)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، رقم (٢٧٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر:٩].

وقوله: ﴿ أَمَّنْ هُوَ ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(أَمَنْ) بتخفيف الميم] أمَنْ، وعلى هذا فتكون الكلمة مركَّبَة من همزة الاستفهام ومِنْ (مَنْ) الموصولة؛ أي ٱلَّذي هو قانت... إلى آخره.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هُوَ قَٰنِتٌ﴾ قائمٌ بوظائِفِ الطَّاعاتِ] القنوت يُطْلَقُ على معانٍ متعَدِّدة:

١- منها الخشوع؛ كقوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة:٢٣٨].

٢- ومنها الدُّعاء: الدُّعاء في الوِتْر أو الفرائض عند النوازل.

٣- ومنها: دوامُ الطَّاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [التحريم:١٢].

والمثال الأول: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة:٢٣٨] أي: خاشعين؛ ولهذا لما نزلت هذه الآية أُمِرَ الصَّحابَةُ بالسُّكُوتِ ونُهُوا عن الكلام؛ فهنا ﴿قَٰنِتٌ﴾ من معنى: دوام الطَّاعة ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قائمٌ بوظائِفِ الطَّاعاتِ] يعني: مديمٌ لها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ ساعاتِهِ]؛ وقوله: [﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ في الصَّلَاة] نَعَم؛ ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ نصَّ على السجود وعلى القيام دون الرُّكوع والقعود؛ لأنَّ السُّجودَ شريفٌ بِهَيْئَتِه، والقيامُ شريفٌ بذِكْرِهِ؛ فالسُّجُود شريفٌ بهيئَتِه؛ لأنَّ أَفْضَلَ هَيْئَةٍ للمُصَلِّي أن يكون ساجدًا، ولهذا قال ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ لِرَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»[1]، والقيامُ شريفٌ بذِكْرِهِ، فالقرآنُ كلام الله، وكلام الله تعالى أَشْرَفُ الكلام؛ فلهذا نَصَّ على هذين الرُّكْنَيْنِ من أركان الصلاة: القيام، والسجود.

وكان الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا سجد يُسْمَعُ لصَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ المِرْجَلِ[2]؛ أي القِدْرِ الذي يَغْلي.

وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا قام لا يَمُرُّ بآية رحمةٍ إلا سأَلَ، ولا بآية وَعيدٍ إلا تَعَوَّذ، ولا بآية تسبيحٍ إلَّا سَبَّح[3].

وهذا يدلُّ على أنَّ القائِمَ في اللَّيل ينبغي له أن يلاحِظَ هذا، يلاحظ قوة الخُشُوع في حال السُّجود والبكاء، ويلاحِظُ أيضًا حُضُور القلب أثناء القراءة ليتابع إذا مَرَّ بآية رحمةٍ سأَلَ، وبآية وعيدٍ تعوَّذ، وبآية تسبيح سبَّح قائمًا وقاعدًا ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي: يخافُ عذابَها، ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ﴾ جَنَّةَ ﴿رَبِّهِۦ﴾] فهنا قوله: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ هذه حال؛ أي: حالَ كونه يحذر الآخِرَة، وحالُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٥)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب البكاء في الصلاة، رقم (٩٠٤)، والنسائي: كتاب السهو، باب البكاء في الصلاة، رقم (١٢١٤)، من حديث عبد الله بن الشخير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. ولم يرد تخصيص السجود إلا في رواية النسائي في السنن الكبرى رقم (٥٥٠).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢)، من حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

مقارِنَةٌ لقوله: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ يعني: حالَ كَوْنِه في سجـوده وقيامه يَحْذَرُ الآخرة؛ أي: يخافها، وليس: يخاف وقوعها؛ لأنَّ وقوعَها لا بدَّ، لكن يخاف عذابَها؛ أي: يخاف أن يُعَذَّب.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جَنَّةَ ﴿رَبِّهِۦ﴾] ولا شكَّ أنَّ الرحمة يُراد بها الجَنَّة، كما قال الله تعالى للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1]؛ ولكن يُرادُ بالرَّحْمَة معنًى آخرُ، وهو: فِعْلُ الله بالعبد؛ أي رحمته للعبد، والأَوْلَى في هذه الآية أن نقول: يرجو أن يَرْحَمَه الله، ويكون المراد بالرحمة هنا: رَحْمة الله التي هي فِعْلُه، يعني يرجو أن يَرْحَمَه الله بالأمرين: بالنَّجاة من النار وبِدُخُول الجنَّة، وهذا المعنى أَحْسَنُ؛ لأنَّ المتبادِرَ في الغالـب لمعنى الرَّحْمة أن تكون فِعْلَ الله، يعني أنَّ الله يَرْحَمُكَ، وأيضًا إذا قلنا: رَحْمَة الله صار يرجو أن يَنْجُوَ من النَّار أو من عذاب الآخرة، وأن يفوز بالجنَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كَمَنْ هُوْ عاصٍ بالْكُفْرِ أو غَيْرِهِ] أفادنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا التقدير أنَّ الآيَةَ يُبَيِّنُ الله فيها أنه لا يستوي هذا وهذا، هل يستوي من هو قانتٌ آناءَ اللَّيل ساجدًا وقائمًا كَمَنْ هو عاصٍ بالكُفْرِ وغيره؟

الجواب: لا، وهذا من بلاغَةِ القرآن؛ فالقرآنُ فيه أشياءُ كثيرةٌ تُحذَفُ لدَلالَةِ المذكور على المحذوفِ، وهذا من البلاغة؛ لأنَّه إذا حُذِفَ الشَّيْءُ استفاد المخاطَـبُ فائدتينِ:

الفائِدَة الأولى: اختصارُ الكلام، وهذا واضِحٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الفائِدَة الثانية: قوَّةُ الانتباه؛ لأنَّ الآية إذا كان فيها شيءٌ مَحْذوف، فإن الذِّهْنَ يتطَلَّعُ إلى هذا الشَّيْء المحْذوفِ، فتَجِدُ الإنسانَ يَتَوَقَّف ليُفَكِّرَ ويتأمَّل: ما الذي حُذِفَ وما تقديره؟

لكن لو جاء الكلام مُرْسَلًا هكذا لم يحصل له هذا التَّوَقُّف وهذا التَّفكير، فأنت الآن لو قَرَأْتَ الآية الكريمة: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ ﴾ [الزُّمَر:٩] لوَجَدْتَ نفسك متشَوِّفًا إلى شيء آخر، فالكلام ما تَمَّ، ولا بدَّ أنَّ هناك شيئًا آخَرَ، وحينئذٍ يشتَدُّ انتباهُكَ، وتزدادُ تأمُّلًا في المعنى؛ ولأنَّ هذا المحذوفَ لا بدَّ منه، فالإنسانُ يتطلَّع: ما هذا المحذوفُ؟ فالكلامُ الآن ناقص.

بمعنى أنَّ الكلام يحتاجُ إلى شيء، فيتطَلَّع الإنسان إلى مَعْرِفَة هذا الشَّيْء، وحينئذٍ يزدادُ في التَّدَبُّر، فهذا من بلاغة القرآن؛ أعني: يَحْذِفُ الله عَزَّوَجَلَّ أحيانًا أشياءَ يَحْتاجُ المخاطَبُ إليها؛ من أجل هاتين الفائدتين.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قراءة: أَمْ مَنْ] من اصطلاح المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا قال: [في قراءَةٍ] أو قال: [بِفَتْحِ كذا وضَمِّ كذا] أو قال: [بالتاء والياء]، فإن القراءة سَبْعِيَّة، وأحيانًا يُعَبِّر فيقول: [وقُرِئَ] فالقراءة شاذَّة غيرُ سَبْعِيَّة.

فإذا أتى بقراءتينِ مُتَساويَتَيْنِ مثلًا يقول: [في قراءةٍ] أو: بالضم والفتح أو بالياء والتاء، وما أشبه ذلك من القراءات، فالقراءة سبعية، أما إذا قال: [وقُرِئ] بصيغة المبني للمَجْهول فالقراءة شاذَّة.

بناءً على هذه القاعدة: تكون القراءة (أَمْ مَنْ) سبعية؛ لأنَّه قال: [وفي قراءةٍ:

(أَمْ مَنْ) فأمْ بمعنى بل والهمزة] قوله: [بمعنى بل والهمزة] أي بَلْ أَمَنْ هو قانتٌ آناء اللَّيل، فتكون للإضراب، والإضرابُ هنا انتقالي.

والفرق بين الإضراب الانتقالي والإضرابِ الإبطاليِّ: أنَّه في الإضرابِ الإبطالي يكون الأوَّل مُلْغًى، والعمدة على الثاني.

وأمَّا في الانتقالي: فالأوَّل باقٍ على ما هو عليه، والثاني استئنافيٌّ، لا علاقة له بالأول. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد، أو قل يا من يَصِحُّ منه الخطاب: هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؛ استفهامٌ بمعنى النفي ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الجواب: لا، لا يستوي الذين يَعْلَمونَ والذين لا يَعْلَمون، وهذا عامٌّ في كُلِّ عِلْم؛ فلا يستوي العالِمِ والجاهِلُ، حتى في علم النِّجَارة والحِدَادة والكيمياء وغيرها، لا يستوي الذي يعلم والذي لا يعلم، لكن هذا لا يقتضي أن يكون العالِمُ مَمْدُوحًا؛ لأنَّ من العُلُوم ما جَهْلُهُ خَيْرٌ مِنْ عِلْمِهِ، فإذا كان العلم مذمومًا وقلنا: لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون. صار غيرُ العالِمِ أَفْضَلَ، وإذا كان العِلْمُ ممدوحًا وقلنا: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ صار العالِمُ أفضَلَ.

وإذا جاءت هذه الجُمْلة في علم الشَّريعَةِ فالعالِمِ أفضل، وفي علم النَّحْو العالِمِ أفضل؛ أما في علم الكلام فالجاهِلُ أفضل!

كما قال بعض السلف: «الجَهْلُ بالكَلَامِ عِلْمٌ» لأنَّ عِلْمَ الكلام أدى بأصحابه إلى مهالِكَ؛ حتى إن فطاحِلَ عُلَمائِهم يتمَنَّون وهم في سياقِ الموت أنَّهُم ماتوا على دينِ العجائِزِ، ودِينُ العجائِزِ أَسْلَمُ، وإن كان جَهْلًا ولكنه أسلم من علمٍ يؤدِّي بهم -والله أعلم- إلى الشَّكِّ والحَيْرة.

فقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه من الآيات القليلة اللَّفْظِ الكثيرةِ المعنى؛ لأنَّه يمكن أن تُطَبِّقَها على كلِّ عِلْم، لكن هل هذا العلم مَحْمودٌ أو مذموم؛ فعلى حَسَبِ الحال؛ أي لا يستويانِ كما لا يستوي العالم والجاهل.

وفي حاشية الجمل: «قوله: بتخفيف الميم؛ أي: فالهمزة للاستفهام الإنكاري، كما سيشير له بقوله: أي لا يستويان، وما: اسم موصول بمعنى الذي؛ مبتدأٌ في محلِّ رفعٍ، خبره محذوف قدَّرَهُ بقوله: كمن هو عاصٍ، وقوله: ﴿هُوَ قَٰنِتٌ﴾ جُمْلَة اسْمِيَّة صلة الموصول، وقوله: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ حالان من قانت، وقوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ حالٌ أخرى متداخِلَة أو مترادِفَة، أو جملة استئنافِيَّة معترضة.

وقوله: [بمعنى بل]؛ أي: التي للإضراب الانتقاليِّ، والهمزة؛ أي: التي للاستفهام الإنكاريِّ، وعلى هذه القراءة تُرْسَمُ الميم في النون كرَسْمِها على قراءة التخفيف، وهذا اتِّباعًا لخطِّ مُصْحَفِ الإمام كما يؤخذ من الجَزَرِيَّة[1] وشَرْحِها لشيخ الإسلام، وهذا بالنَّظَرِ لرَسْمِ المصحف، وأما في غيره فتُرْسَمُ ميمًا مفصولةً من ميم (مَنْ) كما في عبارة الشَّارِحِ، و(من) على هذه القراءة مُبتدأٌ أيضًا، والخبر مُقَدَّرٌ كما تقدَّمَ في الإعراب بِعَيْنِه على القراءتين لم يختلف، وقوله: لا يستويان. أي: القانِتُ والعاصي، فهذا تفسيرٌ للنَّفْي المستفاد من همزة الإنكارِ في قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ سواء مُصَرَّح بها على القراءة بها والتي في ضِمْنِ أم على الثانية، وقوله: كما لا يستوي العالم والجاهل تفسيرٌ لقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ إلى آخره، فالاستفهام فيه أيضًا إنكاري». انتهى.

---

(١) المقدمة الجزرية (ص١٩).

وعبارة السَّمينِ: «قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ قرأ الحَرميَّان: نافعٌ وابنُ كثير بتخفيفِ الميم، والباقون بتشديدها.

فأمَّا الأُولى ففيها وجهان:

أحدهما: أنَّها همزةُ الاستفهامِ دَخَلَتْ على (مَنْ) بمعنى الذي، والاستفهامُ للتقريرِ، ومقابِلُه محذوفٌ، تقديرُه: أمَنْ هو قانتٌ كمَنْ جعل لله أندادًا، أو أَمَنْ هو قانِتٌ كغيرِه، أو التقدير: أهذا القانِتُ خيرٌ أم الكافرُ المخاطَبُ بقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ ويَدُلُّ عليه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فحَذَفَ خَبَرَ المبتدأِ أو ما يعادل المُسْتَفْهَم عنه، والتقدير أنَّ الأَوَّلانِ أَوْلَى لِقِلَّةِ الحَذْفِ.

والثاني: أنْ تكونَ الهَمْزَةُ للنِّداء، و(منْ) منادى، ويكون المنادى هو النَّبِيَّ ﷺ، وهو المأمور بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كأنه قيل: يا مَنْ هو قانتٌ، قل كَيْتَ وكَيْتَ.

وأمَّا القراءة الثانية فهي (أم) داخلةً على (مَنْ) الموصولة أيضًا فأُدْغِمَتِ الميمُ في الميم، وفي (أم) حينئذٍ قولان:

أحدهما: أنَّها متصلةٌ، ومعادِلُها محذوفٌ، تقديرُه: آلكافِرُ خيرٌ أمِ الذي هو قانِتٌ.

والثاني: أنَّها منقطعةٌ فتُقدَّرُ بـ بل والهمزةِ؛ أي: بل أَمَنْ هو قانِتٌ كغيرِه أو كالكافِرِ المقولِ له: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾». انتهى[1].

فتبَيَّن لنا أن قوله: (لا يستويان) أي: القانت والكافر كما لا يستوي العالِم

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (٩/ ٤١٤-٤١٦).

والجاهل، فيكون قوله: (لا يستويان) ليس عائدًا على قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بل عائدٌ على ما سبقه، وهو ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ كمن هو عاصٍ لا يستويان، كما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

قوله تعالى: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ يعني ساعاتِ اللَّيلِ لأنَّه أحيانًا يُطْلَبُ من الإنسان أن يقومَ كُلَّ اللَّيل كما في عَشْرِ رمضان الأخيرة، فإن السُّنَّة أن يُحْيِيَ اللَّيل كلَّه، فلو قال: (في) لتَعَيَّنَ أن يكون هناك متَّسَعٌ، فإذا قال: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ شَمِلَ هذا وهذا.

فإن قال قائل: أما نقول: إنَّه من باب الاستعدادِ للعبادَةِ، كما لو نام بِنِيَّةِ قيامِ اللَّيل، يكون داخلًا فيه؟

فالجواب: ربما يكون، لكنْ في بعض الأحيان قد يعمل أعمالًا لا يَسْتَعِدُّ بها للعبادة، ولهذا ليس من المَشْروعِ أن يقوم الإنسانُ اللَّيلَ كلَّه في كلِّ أحيانه، لكن أحيانًا.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ إنما: أداة حصرٍ، والحَصْر هو إثبات الحُكْمِ في المَحْصور فيه ونَفْيُه عما سواه، فإذا قيل: إنَّما القائِمٌ زيدٌ، فهو كقولنا: لا قائِمَ إلا زيدٌ.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يتَّعِظُ].

قوله: ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أصحابُ العقول، أصحاب تفسير لـ﴿أُوْلُواْ﴾، والعقول تفسير للألباب؛ جمع لُبٍّ: وهو العقل؛ لأنَّ الإنسانَ بلا عقلٍ قُشُورٌ، ولا يكون إنسانًا حقيقةً إلا بالعَقْل، وعلى هذا فالكُفَّار بجميع أنواعهم قُشُورٌ لا خير فيهم؛ لأنَّهم ليسوا بعُقَلَاء، كما قال الله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

والعقل الذي يُحْمَدُ فاعله هو عَقْلُ الرُّشْد -أي الذي يَحْجِزُك عما يضُرُّك-، أما عَقْل الإدراك فإنه يستوي فيه المَحْمُود والمَذْموم، عقل الإدراك الذي يترتب عليه التَّكليف، وهو الذي يأتي في كلام الفقهاء؛ يقولون: (مِنْ شروط العبادة: العَقْل) يعني عَقْل الإدراك، أما عَقْلُ الرُّشْد الذي يَحْجِز صاحبه عما يضُرُّه، فهذا لا علاقة بالتَّكليف به، بل إنما يقال: مَنْ حَجَزَهُ عَقْلُهُ عَمَّا يَضُرُّه فهو العاقِلُ حقًّا، ومَنْ لا فَلَا.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: لا يتذَكَّرُ إلا هؤلاء.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ القرآنَ الكريمَ يَفْتَحُ للإنسان الاستدلالَ العقليَّ؛ يعني أنه يعرض الأشياء عَرْضًا عقليًّا، وذلك بطلب التَّدَبُّر والتَّفهُّم؛ فمثلًا: من هو قانت ومن هو عاصٍ، بكل بساطَةٍ إذا عُرِضَت حال هذا وحال هذا على العقل سيقول: لا يَسْتويان؛ من هو قانِتٌ آناء اللَّيل ليس كَمَنْ هو عاصٍ.

وهذه من الطُّرُق التي ينبغي لطالب العلم -عند المناظرة- أن يتَّخِذَها سبيلًا إلى إفحام الخَصْم؛ لأنَّ كثيرًا من الخُصُوم قد لا يقْتَنِعون بمجَرَّد الدليل الأَثَرِيِّ فنسوق إليهم الدَّليلَ النَّظرِيَّ، ولا سيما في الوقت الحاضِرِ؛ حيث اتَّخَذ كثيرٌ من النَّاس -إن لم أقل: أكثرهم- طريق إبليسَ سبيلًا، وهو معارضة السمع بما يَظُنُّه عقلًا؛ يعني معارضة النُّصوص بما يظنُّون أنه عقل.

ونحن نعلم علم اليقين: أنَّه ليس في النُّصوصِ ما يخالِفُ العَقْل الصَّريحَ أبدًا، بل في النُّصوص ما يؤَيِّده العقل الصَّريح، ويكون هذا شاهِدًا؛ لهذا كلٌّ منهما يقوِّى بالآخَرِ.

وقد ذكر ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النُّونِيَّـة[1]: أنَّ لدَيْنا أربعَـةَ أدِلَّة، كلُّها يشهـد بعضها لبعض، هي: الكتابُ والسُّنَّة والعَقْل والفِطْرة. وهذه الأدلة الأربعة لا يمكن أن تتناقَض أو تتنافَرَ، بل بعضها يؤيِّد بَعْضَها ويشهد له، والله أعلم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيان الفَرْق بين النَّاس في عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه لا سواء بَيْنَ من هو قانتٌ آناء اللَّيل ساجدًا وقائمًا...إلخ، وبين من هو عاصٍ بعيدٌ عن الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن ظاهِرَها دوامُ الطاعة آناء اللَّيل في السُّجود والقيام؛ أي في الصلاة، ولكن السُّنَّة بَيَّنَتْ ذلك، وأنَّ الأَفْضَل في قيام اللَّيلِ أن ينامَ نِصْفَه، ويقوم ثلثه، وينام سُدُسَه. وهذا من تقييد القرآنِ بالسُّنَّة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فضيلة صلاة اللَّيل؛ لقوله: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾، وقد دلَّت على ذلك السُّنَّةُ، فقال النَّبي ﷺ: «**أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ المَكْتُوبَةِ صَلَاةُ اللَّيلِ**»[2].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فضيلة القيام والسُّجود من بين أركان الصَّلاة، وقد بيَّنَّا وجه ذلك أثناءَ التَّفْسير؛ أنَّ القيام شريفٌ بذِكْرِه، والسجود شريفٌ بِهَيْئَتِه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنه ينبغي للإنسان أن يكون في سَيْره إلى الله جامعًا بين الخَوْف والرَّجاء؛ لقوله: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ﴾، ولكن هل يكونان سواءً، أو يُغلَّب جانب الرَّجاء، أو يُغَلَّب جانبُ الخوف؟

في هذا أقوالٌ لأربابِ السُّلوك؛ فمنهم من قال: ينبغي أن يكون رجاؤُه وخَوْفُه واحدًا كجَناحَيِ الطَّيْرِ، إذا مال أحدهما اختَلَّ طيرانه.

---

(١) النونية (ص٦٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب فضل صوم المحرم، رقم (١١٦٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: ينبغي أن يكون خَوْفُه ورجاؤه واحدًا، فأيُّهما غلب هَلَكَ صاحِبُه؛ لأنَّه إن غَلَّب جانِبَ الخَوْفِ أدخله في اليأس والقُنُوت، وإن غَلَّبَ جانِبَ الرَّجاء أدخله في الأَمْن من مَكْر الله.

وقال بعض أرباب السلوك: ينبغي أن يُغَلِّب جانِبَ الرَّجاء؛ لقول الله تعالى في الحديث القُدُسي: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَإِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ بِي شَرًّا فَلَهُ**»[٢]. وعلى هذا فيُغَلِّبُ جانِبَ الرَّجاء.

وقال بعض العلماء: يُغَلِّب عند فعل الطَّاعات جانِبَ الرَّجاء، فإذا فعل طاعة فلْيُغَلِّب جانب القَبول دون جانب الرَّدِّ، أما في فعل المعصية؛ فإن الأَوْلَى أن يُغَلِّبَ جانب الخَوْف؛ لئلَّا يقع في المعصية.

وقال بعضهم: في حال المَرَضِ يُغَلِّبُ جانب الرَّجاء، وفي حال الصِّحَّة يغلب جانب الخوف؛ لأنَّ النَّبِي ﷺ قال: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ**»[٣] والمريض قد وُجِدَ فيه سَبَبُ الموت، وهو المرض، فيغَلِّب جانب الرجاء ليموت وهو يُحْسِن الظَّنَّ بالله.

ولو قال قائل: إنَّه يرجع في ذلك إلى نَفْسِ الإنسان، والإنسانُ هو طبيب نفسه؛ إن رأى من نفسه جُنوحًا إلى انتهاك المعاصي والمُحَرَّمات فَلْيَتَوَعَّدْها بالعذابِ حتى

---

(١) انظر: الاختيارات العلمية لابن تيمية (٥/ ٣٥٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يرتَدِعَ، وإن رأى من نفسه قوةً على طاعَةِ الله ومثابرةً عليها وقيامًا بها فلْيُغَلِّبْ جانب الرَّجاء حتى يُحْسِن الظَّنَّ بالله، وهذا يرجع إلى الإنسان نفسه، والإنسانُ في بعض الأحيان يُغَلِّب هذا، وبعض الأحيان يُغَلِّب هذا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات عذابِ الآخرة؛ لقوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾ ولا يُحْذَر الشَّيْءُ إلا بثُبُوته، أمَّا ما ليس بثابِتٍ فلا يُحْذَر.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنه في باب الجزاء والأَحْكامِ يُغَلَّبُ جانب الرُّبُوبِيَّة؛ لقوله: ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ لأنَّ الرُّبوبِيَّة هي التي بها التَّصَرُّف والسُّلطان.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؛ لقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن هذا النَّفْيَ أمرٌ مُعْتَرَفٌ به؛ لأنَّه جاء بصيغة الاسْتِفْهام، ونحن ذكرنا أنه إذا جاء الاسْتِفْهام مرادًا به النَّفْيُ صار مُشْرَبًا معنى التَّحدي.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: فضيلة العِلْم، ولكن يجب أن نَعْلَم أنَّ العِلْم يَشْرُف بِشَرَف مَوْضُوعِه، وعلى هذا فأفضل العلوم العِلْم بأسماء الله وصِفاتِهِ؛ لأنَّ هذا أشرفُ موضوعات العِلْم، ثم العِلْم بأحكامِهِ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[1].

ثم تتلو العُلُوم حسب مراتِبِها، وأخَسُّ العلوم ما يَصُدُّ عن سبيل الله، وعن طريق السَّلَفِ الصَّالِح؛ مثل: علم الفلسفة، علم الكلام، وما أشبههما، إلا إذا تعَلَّمه الإنسان من أجل أن يَرُدَّ به على أهله، فهنا قد يكون تَعَلُّمه واجبًا؛ لأنَّ ما لا يَتِمُّ الواجِبُ إلا به فهو واجِبٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا، رقم (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧)، من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولهذا أمر النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ زيدَ بْنَ ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن يتعَلَّم لغة اليهود[1]، مع أن تعلُّم اللغاتِ الأَجْنَبِيَّة ليس محمودًا ولا مأمورًا به، لكن لَمَّا كان وسيلةً إلى مَعْرِفَة ما يأتي من الكتاباتِ من اليهـود والرَّدِّ عليهم بِلُغَتِهِم أمره النَّبي ﷺ أن يتعَلَّم لغة اليهود، وتَعَلَّمَ لُغَةَ اليهودِ في خلال سِتَّةَ عَشَرَ يومًا؛ لأنَّ زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الأَذْكياء فتعَلَّمَها، ثم إنَّ اللغة العِبْرِيَّة قريبة من اللُّغَة العَربيَّة فسَهُل تَعْليمُها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن أصحاب العُقُـول هم أهل الاتِّعاظِ؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أن من لا يتذكَّر فهو ناقِصُ العقل؛ لأنَّه إذا كان لا يتذَكَّر إلا أصحابُ العقـولِ، فمن لا يتذكَّر يكون ناقِصَ العقل ولا شكَّ، ونقصان عقله بحسب نَقْصِه من التَّذَكُّر.

ووجه ذلك من النَّاحِيَة العَقْلِيَّة النَّظَرِيَّة: أنَّ الإنسان العاقل لا يمكن أن يختارَ لنفسه إلا ما فيه النَّجاةُ، ولا نجاة من عذاب الله إلا بالتَّذكُّـر والاتِّعاظ؛ فلهذا كان العقل السليم يَسْتَلْزِم أن يتذكَّر الإنسان ويتَّعِظَ من أجل طلب ما هو أحظُّ للنفس وأَنْفَع ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الثَّناء على ذوي العقول؛ حيث جعلهم هم المتذَكِّرينَ المُتَّعِظينَ المُنْتَفِعينَ بما يسمعون.

• • ❁ • •

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٨٦)، وأبو داود: كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، رقم (٣٦٤٥)، والترمذي: كتاب الاستئذان، باب ما جاء في تعليم السريانية، رقم (٢٧١٥)، من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (١٠)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾ قوله: ﴿ قُلْ ﴾ الخطابُ للرَّسول ﷺ، أو لِكُلِّ من يصِحُّ توجيه الخطاب إليه؛ فعلى الأول يكون التَّقدير: قل يا محمَّدُ، وعلى الثاني يكون التقدير: قل أيها الإنسانُ.

وقوله: ﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾: (عبادِ) هنا فيها شيء محذوفٌ، وهو الياء التي دلت عليها الكَسْرة في قوله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ وحُذِفَتِ الياء تخفيفًا.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ عَطْف بيان أو وَصْف.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الإيمان في اللغة: التَّصديق أو الإقرار؛ بل نقول: الإقرارُ؛ لأنَّه هو المطابق للإيمان في التَّعدِّي والعمل، يقال: أقَرَّ بكذا وآمَنَ بكذا، والتَّصْديق لا يطابِقُه تمامًا، وعلى هذا فنقول: الإيمانُ هو الإقرار، لكنه ليس مجرَّد الإقرار كما قاله بعض طوائف المُبْتَدِعَة -مُرْجِئَة الجَهْمِيَّة- بل نقول: هو الإقرار المُسْتَلْزِم للقَبُول والإذعان، هذا الإيمانُ، إذا لم يستلزم للقَبُول والإذعان فإنه ليس بإيمانٍ.

قوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي عذابَه]، وفي هذا نَظَرٌ، بل المراد: تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يضيف التقوى أحيانًا إلى نفسه، وأحيانًا إلى النَّار،

وأحيانًا إلى يوم الجزاء؛ فقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١] بعد أن قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [آل عمران:١٣٠-١٣١]؛ فلو فَسَّرْتَ تقوى الله بتقوى عذابه لكان في الآية تكرار.

فالصواب: أنَّ الله يُضيف التقوى أحيانًا إلى نفسه، وأحيانًا إلى النَّار، وأحيانًا إلى يوم الجزاء، كما في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١].

والصَّحيح: أنَّها تُفَسَّرُ بما تُضاف إليه؛ فقوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اتَّقوا الله نَفْسَه لِعَظَمَةِ وكمالِ سُلْطانِهِ عَزَّوَجَلَّ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: عذابه، بأن تطيعوه]، نقول: الصَّحيحُ: أي الله نفسه. وقوله: [بأن تطيعوه] هذا تفسيرٌ للتقوى، وعلى هذا نقول: التقوى: طاعة الله بفِعْل أوامِرِه واجتنابِ نَواهيه؛ لأنَّ أَصْلَ التقوى مأخوذٌ مِنَ الوِقَايَة، ولهذا يقولون: إنَّ أصلها (وَقْوَى) من الوِقايَة.

والوقاية هي اتخاذُ ما يَقي الإنسانَ، ولا يقي الإنسانَ من عذابِ الله إلا طاعَةُ الله، ولهذا نقول: إنَّ أَجْمَعَ ما قيل في التقوى أنَّها طاعةُ الله؛ كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ أو اتخاذُ وقاية من عذابه بفِعْل أوامره واجتنابِ نَواهيه.

ثم قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾: ﴿لِلَّذِينَ﴾ خبر مُقَدَّم و﴿حَسَنَةٞ﴾ مبتدأ مؤخَّر ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾ الإحسانُ يكون في عبادة الله، ويكون إلى عبادِ الله، أما الإحسانُ في عبادة الله فلا أَجْمَع ولا أصدق من تفسيرِ النَّبي ﷺ له حين سأله جبريلُ عن الإيمان؛ فقال: «**أنْ تُؤْمِنَ بالله**»؛ وقال ﷺ حين

سأله عن الإحسان، فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1] فإذا عبد الإنسانُ ربَّه كأنه يراه فسوف يعبُدُه حقَّ العبادة؛ لأنَّه يَعبُد اللهَ كأنَّه يرى الله، وهذا تكون عبادَتُه مبنِيَّةً على كمال اليَقينِ، وإذا كانت كذلك فلا بدَّ أن تكون موافِقَةً للأمر، ولا بد أن تكون خالِصَة.

إذن: الإحسانُ تمام الإخلاص، وتمام المُتابَعَة؛ فتمامُ الإخلاصِ وتمام المُتابَعَة؛ لقوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» وعبادة الله على هذا الوَجْه هي مَبْنيَّة على تمام اليقين، وهذه المرتبة أعلى من المرتبة الثانية: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» يعني: فإن لم تَعْبُدْه على هذا الوجه فاعْلَمْ أنه يراك.

ويقال: إنَّ الأوَّلَ إحسانُ الطَّلب، والثاني إحسانٌ في الهَرَب؛ (إحسانٌ في الهَرَب) يعني: العابد طلبًا أكْمَل حالًا من العابِدِ هربًا؛ وهذا يلزم منه أن تكون العبادة خالصةً لله متابَعًا فيها شريعَةُ الله.

أما الإحسان إلى عباد الله فيكون بالمالِ والبَدَنِ وهو كثير؛ فقد تُحْسِن إلى عباد الله بالمالِ؛ كالصِّدْقات والهدايا والهِباتِ، وقد تُحْسِن إلى عباد الله بالبَدَنِ كالمساعدة وما أشبه ذلك، وتُعينُ الرَّجُلَ في دابَّتِه فتحْمِلُه عليها أو تَرْفَعُ عليها متاعه، وتعين عباد الله بالجاهِ والشَّفاعَة عند الحاجة إلى ذلك.

المهم: أنَّ الإحسانَ إلى عباد الله مُتَنَوِّعٌ كثيرٌ، وقد فسَّره بعضهم بأنه كَفُّ الأذى وبَذْلُ النَّدى وطلاقة الوجه؛ فكفُّ الأذى عن النَّاس؛ لأنَّ مَن لم يَكُفَّ أذاه فإنه لم يُحْسِنْ، والثاني: بَذْل الندى. أي: المَعْروف، والثالث: طلاقَة الوجه، بأن تَلقى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النَّاس بوجهٍ مُنْطَلِقٍ مُنْشَرِحٍ لا بوجهٍ مُقَطَّب مُعَبَّس.

فالإحسان إذن: إحسانٌ في عبادة الله، وإحسانٌ إلى عبادِ الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أي: في عبادة الله، وإلى عباد الله.

وقوله: ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ هل نجعل ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ مُتَعَلِّقًا بـ(أَحْسن)؛ أو نقول: هو خبرٌ مُقَدَّم و﴿حَسَنَةٌ﴾ مبتدأ مؤخَّرٌ، والجملة من المبتدأ والخبر خَبَرٌ ﴿لِلَّذِينَ﴾؟

الجواب: ننظر: إذا قلنا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ في هذه الدنيا متعلِّقة بـ(أحسن)، و﴿حَسَنَةٌ﴾ مبتدأٌ خَبَرُه ﴿لِلَّذِينَ﴾ هذا وجه.

الوجه الثاني: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ وينتهي الكلام، ثم: ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ مبتدأٌ وخَبَرٌ.

والأول أَحْسَنُ؛ فإنَّ إحسانَهُم في الدنيا وجزاؤهم حَسَنَةٌ، هذا ما مشى عليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ يقول: [﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ بالطَّاعَةِ].

إذن: ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ مُتَعَلِّقَة بـ﴿أَحْسَنُوا﴾ وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالطَّاعَة] فيه قصور؛ وجهه: أنَّنا قُلْنا إنَّ الإحسانَ يَشْمَلُ الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله، وعلى كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في العبادة فقط، ولكنَّ الصَّحيح ما ذكرنا.

قوله: ﴿حَسَنَةٌ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هي الجَنَّة]، ولعله اعتمد في هذه التفسير على قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] فإن الحُسنى هي الجَنَّة، والزيادة: النَّظَرُ إلى وجه الله، ولكن: هل ﴿حَسَنَةٌ﴾ هنا تُطابِقُ ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ هناك؟

لا، فالحُسنى اسم تفضيل، وهنا ﴿حَسَنَةٌ﴾ نكِرَة لا تدل على التَّفْضيل، فعندي

أن في تَفْسيرِ هذه الآية بما تُفسَّرَ به تلك الآيةُ نظرًا، بل نقول: لهم حَسَنَةٌ، وهذا مُطْلَقٌ، فيُحْتَمَل أنَّ المعنى: للذين أحسنوا في هذه الدنيا حَسَنةٌ أي: جزاءٌ على إحسانِهم؛ أي: لكلِّ إحسانٍ يُحْسِنونه حسَنَةً؛ لأنَّ الله تعالى لم يُعَرِّف الكلمة الحَسَنَة حتى نقول: إنَّها دَخَلَت عليها (أل) التي للعَهْد، وأيضًا الجَنَّة وصفها الله باسم التفضيل ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ التي ليس شيء أحْسَن منها بخلاف ﴿حَسَنَةٌ﴾ وهذه تشبه قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة:٢٠١] لأنَّها مطابقة لها.

قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ ما المناسبة بين قوله: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ وبين قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾؟ المناسبة: أنَّ مِن جُمْلة الإحسانِ في الدنيا الهِجْرَة لا شكَّ؛ لأنَّ الهجرة من أكبر ما يدُلُّ على صِدْق العامل؛ إذ إن المهاجِرَ يَدَعُ أَهْلَه ووطنه وعَشيرَتَه وماله لله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَهَاجِرُوا إِلَيْهَا مِنْ بَيْن الْكُفَّار وَمُشَاهَدَة الْمُنْكَرَات] وصدق الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فإذا ضاقت بك الأَرْضُ يومًا فثَمَّ السَّعَةُ اخرج تَسْلَمْ في دِينك وعِرْضِك، ولا تَشَحَّ بِمَالِكَ ودارِكَ وأَهْلِكَ وعَشيرتِكَ؛ فإن الدِّينَ أغلى من ذلك كُلِّه.

وقوله: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ والدَّارُ التي كانوا فيها ضَيِقة، نعم، هي ضيِّقَة لكنَّ ضِيقَها ضيقٌ معنويٌّ؛ لأنَّ السَّعةَ والضيق في الحقيقَةِ إنما يكون في القَلْب، فكم من إنسان في بيتٍ ضَيِّق، حُجَرُه بِقَدْر فِراشِه، وتجده مسرورًا مُنْشَرِح الصَّدْر، وكم من إنسان في قُصُورٍ مُشَيَّدة ولكنه في ضيق وغَمٍّ؛ فسعة الأرض في الحقيقة بالنِّسْبة للمهاجر واضِحَة جدًّا؛ لأنَّ بقاءه يشاهِدُ المُنْكَرات ويشاهِدُ ما يؤذيه وما يُؤْلِمُه لا شكَّ أن هذا ضيقٌ.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى﴾ أي: يُعطَى، و﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، والمعنى: ما يُوَفَّى الصَّابرون أجْرَهُم إلا بغير حساب؛ أي: أجرًا كثيرًا أكثرَ من الأَعْمال.

ولماذا قال: ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ ولم يقل: الصَّابرين؛ والمعروف أنَّ المفعول به يكون منصوبًا فيقال: الصابرين؟

الجواب: لأنَّها نائِبُ فاعل، ونائب الفاعل مفعولٌ به في المعنى، فاعلٌ في اللَّفْظ، يعني أنه يُعْرَبُ إعرابَ الفاعل، ولكنه في المعنى مفعولٌ به؛ قال ابن مالك:

يَنُوبُ مَفْعُولٌ بِهِ عَنْ فَاعِلِ ... فِيمَا لَهُ كَنِيلَ خَيْرُ نَائِلِ[1]

وقوله: ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَلَى الطَّاعَة وَمَا يُبْتَلَوْنَ بِهِ]، فذكر نوعين من أنواع الصَّبر وأضاف عليه واحدًا، وهو: الصَّبْر عن معصية الله، إلَّا أنْ يُقال: إنَّ الطاعة بالمعنى الأَعَمِّ تَشْمَل امتثال الأمر واجتنابَ النهي، فيكون قد وفَّى المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنواعَ الصَّبْر.

أنواع الصَّبْر ثلاثة:

١- صبرٌ على طاعة الله.

٢- وصبرٌ عن مَعْصِيَة الله.

٣- وصَبْرٌ على أقدارِ الله المُؤْلِمَة.

فأعلاها: الصَّبْرُ على طاعة الله، ثم الصَّبْرُ عن معصية الله، ثم الصَّبْر على أقدار الله، هذا من حيث نوعُ الصَّبْر نفسه، أما من حيث الصَّابر، فإنَّ الإنسان أحيانًا

---

(١) الألفية (ص٢٦).

يعاني من الصَّبْر عن المعصية أكْثَرَ مما يعاني على الصَّبْر على الطاعة، وكذلك الصَّبْر على البلاءِ قد يعاني منه أكْثَرَ مما يعاني من الصَّبْر على المَعْصِيَة وعلى الطَّاعَة.

لكن نقول من حيث نوعُ الصَّبْر بقطع النظر عن الصَّابِر؛ أفضله: الصَّبْرُ على الطاعة، ثم على المعصية، ثم على الأقدار؛ لأنَّ الصَّبْر على الطَّاعة يحتاج إلى جُهْدٍ نَفْسِيٍّ وجهدٍ بدني، بفعل الطاعة نفْسِها، فمُعالَجَة النَّفْس عندما يؤَذِّن الفَجْر وأنت في الفِراش تبدأ تتمطى وتَسْهو، وتقول: ما زِلْنا مُبَكِّرين، حتى تَفُوتَ الصلاة؛ فهذا يحتاج إلى جُهد، عالِجْ نفسك وقُمْ، أما الصَّبْر على المعصية فيحتاج إلى جُهْدٍ نَفْسِيٍّ فقط؛ لأنَّه كَفٌّ، فتَرْكُ المَعْصِيَة ليس عليك أي تَعَبٍ، لكنَّ النَّفْسَ تَتْعَبُ، إذا كانت المَعْصِيَة مما تدعو إليه النَّفْس وكَفَفْتَ عنها تَعِبَتِ النَّفْسُ لا شك.

وأما الصَّبْر على أقدار الله المؤلِمَة فهو أدناها؛ لأنَّ الأَمْرَ ليس إليك، فالأَمْرُ تَمَّ، فهو كما قال بعضُ السَّلَف: إما أن تَصْبِرَ صَبْرَ الكِرَامِ، وإمَّا أن تَسْلُوَ سُلُوَّ البهائمِ. فهو ليس منك، فأيُّ عمل لا بد أن يُصيبَكَ أصابَكَ؛ ويقولون: إنَّ يُوسُفَ ﷺ؛ إنه ابْتُلِي بأنواع الصَّبْرِ الثلاثة:

أليس هو قد دعا إلى الله وهو في السِّجْن؛ فقال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩] هذا -لا شك- صبْرٌ؛ إنسانٌ مَسْجونٌ ويدعو النَّاس إلى التَّوحيد!

والصَّبْرُ عن المعصية امتناعُهُ عن موافقة امرأةِ العَزيزِ حين راوَدَتْه عن نفسها.

والصَّبْر على أقدار الله المُؤْلِمَة؛ ما حصل من إِخْوَتِه.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: ﴿أَجْرَهُم﴾ أي: ثوابَهم، والله عَزَّوَجَلَّ

بِكَرَمِه سَمَّى الثَّواب: أجرًا من باب اطمئنان العامِلِ إلى استيفائِهِ؛ لأنَّ الأَجْرَ مقابِلَ عملٍ لا بد أن يُسَلَّمَ، كأنَّ العمل والجزاء معاوَضَة وعَقْد بين الله وبين العابِدِ؛ أنَّ الله يعطيه الثَّمَن؛ الأَجْر مع أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المُتَفَضِّل أولًا وآخرًا؛ أولًا بالتَّوفيق للعَمَل، ولولا أنَّ الله أعانك وسَدَّدَك ما قَدَرْتَ، ثم المُتَفَضِّل ثانيًا بالأَجْر.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِغَيْرِ مكيالٍ ولا مِيزانٍ] يعني: الأَجْرُ الذي يعطيه الله عَزَّوَجَلَّ عن العَمَل ليس على سبيل التَّدْقيق والمعاوَضَة التي تكون بين العباد؛ فالمعاوَضَة بين العباد عَدْل، يعني: ما يعطيكَ أَكْثَرَ مما تستحِقُّ، وأما ثوابُ الله عَزَّوَجَلَّ على الصَّبْر فهو أَكْثَرُ، بدون حساب، فالحَسَنَة بعَشْرِ أمثالِها إلى سَبْعِ مئَةِ ضِعْفٍ إلى أضعاف كثيرة، والصَّبْرُ لا حساب له.

إذن: يتوقَّع الصابر بأن له جزاءً لا يدركه عَقْلُه من كَثْرَتِه؛ لأنَّ الله قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: ١٠].

كما أنَّ الصَّبْر فيه فائِدَةٌ عظيمة للإنسان نفْسِه، وهو: ترويضُ النَّفْس على التَّحَمُّل، كثيرٌ من النَّاس يريد أن تكونَ الأُمُورُ بِسُرْعة، يدعو الله عَزَّوَجَلَّ بكَشْفِ ضُرٍّ وتتأَخَّر الإجابة، فيقول: لماذا؟ وييأَس، نقول: اصْبِر، وقد يَحْصُل للناس مصائِبُ عامَّة فتجده يريد السُّرْعة في انجلائها، فنقول: اصْبِر، وطِّنْ نَفْسَك على الصَّبْر، هذه تَرْبِيَة؛ أن تُوَطِّنَ نفسَك على الصَّبْر.

والصَّبْرُ مع انْتِظارِ الفَرَجِ يُعْتَبَرُ من أعظم العبادات؛ لأنَّك إذا كنت تَنْتَظِرُ الفرج فأنت تَنْتَظِرُ الفرج من الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه عبادة، وقد قال النَّبِي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ**»؛ فكلما اكْتَرَبَتِ الأمورُ فإن

الفرج أَقْرَبُ إليك، «وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»[١].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: في هذه الآية أُمِرَ النَّبِي ﷺ بأن يقولَ للنَّاس: ﴿يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه لا بد مع الإيمان من التقوى؛ لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، وهذه الصِّيغة ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ لن يقولَها الرَّسول ﷺ بهذا اللَّفْظِ، لكن سيقول: يا عبادَ اللهِ، أو كلمةً نحوَها، لكنَّ الله أضاف ذلك إلى نفسه؛ ليُبيِّن الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ في هذه العبادة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الرَّبَّ وهو الخالق المالِك المُدَبِّر؛ هو أهل التقوى دون غيره، كما قال تعالى في سورة المدثر: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ للمُحْسنين في هذه الدنيا حَسَنَةٌ؛ لقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الله تعالى بِفَضْله وكَرَمِه يُعَجِّل الثَّواب لمن يَسْتَحِقُّ الثَّواب في الدنيا قبل الآخرة؛ لأنَّ حَسَنَةَ الدنيا دون حَسَنَة الآخرة بكثيرٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وجوب المهاجَرَة إلى الله ورسوله إذا كان الإنسانُ في بلد كُفْرٍ لا يَقْدِرُ على إظهار دِينِهِ؛ لقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن من الدَّعوة إلى الله ومِن حُسْنِ الدعوة إقامَةَ الحُجَّة؛ لقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ فإنه لا عُذْرَ لأحد أن يقول: لا أَجِدُ مَلْجَأً، أو لا أَجِدُ مُهَاجَرًا.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٠٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الأرض لله؛ لقوله: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ وهذا كما قال موسى لقومه: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فضيلة الصَّبْر وأنَّ صاحبه يُوَفَّى أَجْرَه بغير حسابٍ؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: كَرَمُ الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث جعل الثَّوابَ بِمَنْزِلة الأَجْرِ كأنه معاوَضَة يعاوِضَ به المعامَل؛ لقوله: ﴿أَجْرَهُم﴾.

• • ۞ • •

الآيــة (١١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:١١].

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ قوله: ﴿قُلْ﴾ يعني: يا محمد.

قوله: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ أي: أمرني ربِّي، وهذه الصيغة تأتي بالبناء للمَجْهول؛ لأنَّ الفاعل معلومٌ، وهذا يُشْبِهُ حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ الرَّسول ﷺ قال: «**أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ**»(١)؛ (أُمِرْتُ) لأنَّ الآمِرَ معلومٌ، وهو الله.

فقوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، وجاءت بكلمة ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ للإشارة إلى مقامِ النَّبي ﷺ، وأنه عَبْدٌ يُؤْمَر ويُنْهَى، وليس له من حَقِّ الربوبِيَّة شَيءٌ.

وقوله: ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ أي: أتذَلَّل له، والعبادة تطلق على مَعْنيينِ:

المعنى الأول: التَّذَلُّل لله الذي هو فِعْل العابِدِ.

والمعنى الثاني: المُتَعَبَّد به، وهي العبادات على جميع أنواعها، وعلى هذا المعنى يكون تعريفُ شيخِ الإسلام ابن تَيْمِيَةَ العبادةَ في قوله: «العبادةُ اسْمٌ جامِعٌ لكلِّ ما

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب لا يكف ثوبه في الصلاة، رقم (٨١٦)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب أعضاء السجود والنهي عن كف الشعر والثوب، رقم (٤٩٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يُحِبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطِنَة والظَّاهِرَة»[١] وقوله: ﴿مُخْلِصًا﴾ حالٌ من فاعل ﴿أَعْبُدَ﴾ أي حالَ كَوْني مُخْلِصًا لله من الشِّرْك؛ لأنَّ الإخلاص يعني التَّنْقِيَة من الشِّـرك؛ لأنَّ العمل إذا شابه الشِّـرْك أفسده وأبطله؛ قال الله تعالى في الحديث القُدُسِيِّ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[٢].

وقوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنَ الشِّرْك]، والمراد بـ﴿ٱلدِّينَ﴾ هنا: العمل الذي يفعله الإنسان لِيُدَان به، وأما عَمَلٌ لا يُؤمِّل أن يُدانَ به فهذا لا يُسَمَّى: (دِينًا) وإن كان عَمَلًا، لا بد أن يكون عامِلًا من أجل أن يُدانَ بهذا العمل.

يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، وتقدَّم كثيرًا أنَّ الدِّينَ يُطْلَق على العمل ويطلق على الجَـزَاء، ففي قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]: أي الجـزاء؛ وفي قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]؛ أي: العمل.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الإنسانَ مأمورٌ بأن يُعْلِنَ ما أمر الله به من عبادَتِهِ؛ لقوله تعالى: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ ولهذا فائدتان:

الفائِدَة الأولى: الحَثُّ على اتِّباعِه في هذا.

والفائِدَة الثَّانية: بيانُ اسْتِحْقاق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لذلك، وأنه هو المُسْتَحِـقُّ أن يُعْبَد وحده ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا﴾.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه يَجِبُ في العبادة الإخلاصُ؛ لأنَّه أُمِرَ أن يعبد الله على هذا الوَصْفِ: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ من لم يُخْلِصْ لم يَكُنْ قد أتى بالأَمْر.

ويتفرَّع على هذه القاعدة: أنَّ عَمَلَه يكون مردودًا عليه، فإذا أشرك يكون قد عَمِلَ عملًا ليس عليه أَمْرُ الله ورسولِهِ، وقد قال النَّبِي ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[1].

• • ❁ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الآيــة (١٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر:١٢].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: بِأَنْ]، فجعل اللام بمعنى الباء؛ وذلك لأنَّ أَمَرَ إنما تتعدَّى بالباء ولا تتعدى باللام، فلهذا فسَّرَها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالباء، وهذا أحد المَسْلَكَيْنِ للنُّحاة فيما إذا تلا الفِعْلَ حرفٌ لا يتعدَّى به غالبًا فإنهم يجعلون هذا الحَرْف بمعنى الحَرْف الذي يتعدى به العامِلُ؛ أي: الفعل أو غير الفعل غالبًا؛ فمثلًا هنا: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾ يجعلون اللام بمعنى الباء؛ وفي قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [المطففين:٢٨] يجعلون الباء بمعنى مِنْ؛ أي: يَشْرَبُ مِنْها.

والمسلك الثاني للنحاة: أنَّهُم يُحَوِّلون الفِعْل إلى فعلٍ مناسِبٍ للمُتَعَلِّق، ويُسَمُّون هذا: تَضْمِينًا؛ أي: إنَّ الفعل المذكورَ ضُمِّنَ معنى فِعْلٍ يتعدَّى بالحَرْف المذكور؛ فمثلًا: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ يقولون: المعنى: يَرْوَى بها، فضُمِّنَ الشُّرْبُ معنى الرِّيِّ.

ولا شك أن هذا يُعْطِي النَّصَّ معنًى أكْثَرَ؛ لأنَّه يُبْقِي الحرف على ما هو عليه، ويُعْطي الفعْلَ المذكور معنًى زائدًا على ما يَدُلُّ عليه لفظه، فيكون هذا المَسْلَك أولى، لكن أحيانًا يَصْعُب على طالب العلم -ولا سيما المبتدئ- أن يُقَدِّرَ الفِعْل المناسب الذي يكون مُضَمَّنًا للفِعْل المذكور، حينئذٍ يلجأ إلى الأسهل، وهو تحويل الحَرْف إلى حرف يناسب الفِعْل المذكور.

فهنا في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾ لا شكَّ أنه من السَّهْل أن أقول: إنَّ اللَّام بمعنى الباء، يعني أُمِرْتُ بأنْ أكونَ.

لكن لو أردنا أن نُضَمِّنَ أُمِرْتُ معنًى يناسِبُ اللَّامَ؛ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ؛ فهذا يحتاج إلى تأمُّلٍ وتَفْكيرٍ في المعنى؛ لماذا قال: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾؟

فيمكن أن نُقَدِّرَ: أُمِرْتُ أن أَعْبُدَ الله لِأَنْ أكونَ أَوَّلَ المسلمين، فتكون اللام تعليلًا للفِعْلِ المَحْذوفِ، وهو أن أَعْبُدَ الله لأنْ أكون أوَّلَ المسلمين؛ يعني: وُجِّهَ الأَمْرُ إليَّ أولًا لأنْ أكونَ أَوَّلَ المسلمين؛ أي: المنقادينَ لِأَمْر الله، وحينئذٍ نستفيد من هذا معنيين: معنى الأمْرِ، ومعنى العبادة التي حُذِفَت ليَصِحَّ تَعْليقُ الحَرْفِ بها.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأُمَّة] وكلمة: ﴿أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الإسلام يُطْلَق على الانقياد؛ لأنَّه مأخوذٌ من: أَسْلَمَ أَمْرَه إلى غيره، ومنه الاستسلامُ في الحرب؛ لأنَّ المُسْتَسْلِم ينقادُ للغالب الذي غَلَبَه، فالإسلام هو الانقيادُ ظاهرًا.

وبناءً على هذا: يكون المنافقون مُسْلِمينَ ظاهرًا، ولهذا يُطْلَق الإسلامُ على ضعيف الإيمان، كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤] وأحيانًا يُطْلَق الإسلام على الشَّريعَةِ كُلِّها فيشمل الاسْتِسْلام ظاهرًا وباطنًا، وهو: الإيمان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]؛ فليس المراد الاستسلامَ الظَّاهِرَ، وإنما المراد: الشَّرائِعُ كُلُّها؛ شرائِعُ الإِسْلام كلُّها، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ﴾ أي: شرائِعَ الإسلامِ كلَّها دينًا.

يقول أهل العلم: الإسلامُ إذا قُرِنَ بالإيمان فُسِّرَ الإسلامُ بالأَعْمال الظاهرة، والإيمانُ بالأَعْمال الباطِنَة، قالوا: ومن ذلك: حديثُ جِبْرِيلَ لما سأَلَ النَّبِي ﷺ عن الإسلام؛ قال: «**أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتُحَجَّ الْبَيْتَ**»، ولما سأله عن الإيمانِ، قال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ؛ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١).

أمَّا إذا أُفْرِدَ أَحَدُهُما فإنه يَشْمَل الآخَر؛ فالإسلام إذا ذُكِرَ وحده شَمِلَ جَميعَ الشَّرائع، ومنه: الإيمانُ، والإيمان إذا ذُكِرَ وَحْدَه شَمِلَ جَميعَ الشرائِع، ومنه: الإسلامُ.

ويقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا: [﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمَّة]؛ وقيَّد الآيةَ مع أنَّها مطلقة؛ لأنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَهِمَ أنَّ الأَوَّلِيَّة هنا أَوَّلِيَّة الزَّمَن، وإذا كانت أَوَّلِيَّة الزَّمَن فإنه لا يَصِحُّ أن يكون النَّبِي ﷺ أَوَّلَ المسلمين؛ لأنَّ قَبْله أُمَمًا مُسْلِمَةً كثيرة، فكان لا بدَّ أن نُقَيِّد هذا بأَوَّلِ المسلمينَ من هذه الأُمَّة؛ ومنه قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٣]؛ فعلى ما مشى عليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الفَهْم نقول: وأنا أَوَّلُ المسلمين من هذه الأُمَّة.

وهناك احتمالٌ آخرُ: أنَّ الأَوَّلِيَّة هنا أَوَّلِيَّة الصِّفَة؛ يعني أنني أَسْبَقُ المسلمينَ من حيثُ التَّقَدُّم إلى الإسلام، كما تقول مثلًا لمن يُخاطِبُك: إنْ كان هذا الذي قُلْتَه حقًّا فأنا أَوَّلُ من يساهم؛ مثلًا: لو قال إنه فَتَحَ مَشْروعًا في البلد خَيْرِيًّا، فقلتَ: إذا كان حقًّا فأنا أَوَّلُ من يساهم؛ يعني أول من حيث الانقياد والصِّفَة؛ هذا احْتِمالٌ، وإذا كان هذا المعنى في الآيَةِ الكريمة فإنَّنا لا نحتاج إلى القَيْدِ الذي قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لأَنَّنا نَعْلَمُ أنَّ رسول الله ﷺ هو أَوَّلُ من ينقاد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه أَعْظَمُ النَّاس انقيادًا وأَشَدُّهُم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنه يَجِبُ المبادَرَة بالإسلام من غير توقُّف؛ لأنَّ الله أمَر بذلك، وهذا بناءً على أنَّ المراد بالأَوَّلِيَّة هنا أَوَّلِيَّة الصِّفَة يعني السَّبْق.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الرَّسول ﷺ عبدٌ مأمورٌ.

ويتفرَّع على هذا: أنَّه ليس له مِن الأمْرِ شيءٌ، وقد صرَّحَ الله بذلك في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨].

ويتفرَّعُ على ذلك أيضًا: ضلالُ أولئك القَوْم الذين يَدْعُون رسول الله ﷺ أن يُغِيثَهُم، أو أن يَجْلِبَ لهم الخَيْرَ ويدفع عنهم الشَّرَّ.

الآيــة (١٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر:١٣].

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قوله: ﴿عَذَابَ﴾ مفعولُ ﴿أَخَافُ﴾.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ الخَوْفُ لا يمكن أن نُعرِّفه بأَبْيَنَ مِن لَفْظِه، فكُلُّنا يَعْرِفُ الخَوْف؛ ولهذا نقول: إنَّ الانفعالاتِ النَّفْسِيَّة لا يمكن لأحدٍ أن يُعَرِّفَها؛ لأنَّه ليس هناك شيءٌ أَبْيَنُ مِن لَفْظِها أبدًا؛ لو قال إنسانٌ: عَرِّفْ لِيَ الكَراهَة فماذا تقول؟

تقول: (الكراهَةُ مَعْرُوفة)؛ فالكراهَةُ هي الكراهَةُ، وكذلك لو قال: عَرِّفْ لي المحبة؟ لا تَقْدِرْ أن تقول: المَحَبَّة هي المَحَبَّة.

ولو قال قائل: المَحَبَّة هي المَيْل؛ **فالجواب**: المَيْل آثارُ المَحَبَّة، فبعدما يُحِبُّ يَميل؛ ولهذا يقول ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: لا يمكن أن نَحُدَّ المَحَبَّة بأَبْيَنَ مِن لَفْظِها أبدًا؛ فكُلُّ الذين عرَّفوها -فيها أكثر من عشرين تعريفًا- كُلُّهم إنما يُفَسِّرونَها بِلَوازِمِها ونتائجها. وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالانفعالات النَّفْسِيَّة لا يستطيع الإنسان أن يُعَرِّفَها بأَكْثَرَ مِن لَفْظِها.

---

(١) انظر: طريق الهجرتين (ص٣١٠)، ومدارج السالكين (٣/ ١١).

قوله: ﴿عَصَيْتُ﴾ المعصية: المُخالَفَة، وتكون بأمْرَيْنِ: إمَّا بِتَرْكِ مَأْمورٍ وإمَّا بفِعْلِ مَحْظورٍ، هذا إذا أُفْرِدَتْ عن الطاعة، فإن قرنت بالطَّاعة صارت الطَّاعةُ فِعْلَ المأمور والمَعْصِيةُ ارتكابَ المَحْظورِ؛ وهنا: ﴿عَصَيْتُ﴾ مُفْرَدَة عن الطاعة، فتشمل المعْنَيَيْنِ: مُخالَفَته بفعل المنْهِيِّ عنه أو بِتَرْك المأمور به.

وفي قوله: ﴿رَبِّي﴾ إشارةٌ إلى أنه عَزَّوَجَلَّ هو الذي له الأمْرُ والنَّهْيُ؛ لأنَّه ربٌّ، والرَّبُّ خالقٌ مالكٌ مدبِّر.

وقوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يومُ القيامة، ووصَفَهُ الله تعالى في القرآن الكريم بعِدَّة أوصاف؛ منها: العظيم؛ وذلك لشِدَّتِه وشِدَّة أهواله وشِدَّة ما يكون فيه، وإذا رأيت الأوصافَ، أو إذا سَمِعْتَ الأوصافَ التي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ لهذا اليوم العظيم، فإنه -لا شَكَّ- يَعْتريكَ من الخوف بِقَدْرِ ما أنت مُؤْمِنٌ به؛ فكُلَّما كان الإنسان أقوى إيمانًا باليوْمِ الآخر فهو منه أشَدُّ خوفًا، وكُلَّما ضَعُفَ إيمانه باليوم الآخِرِ ضَعُفَ خَوْفُه منه.

ولهذا لدينا عبارة مأثورة: كُلُّ من كان بالله أَعْرَفَ كان منه أَخْوَفَ، وكُلُّ من كان أيضًا باليَوْمِ الآخِرِ أَعْرَفَ وأقوى إيمانًا كان أقوى إخافَةً.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّه ينبغي -بل يجب- على الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يُعْلِنَ هذا الإعلانَ للمَلَأِ: أنَّه يَخافُ عذابَ يومٍ عظيمٍ إنْ عصَى الله؛ وفائدته: ما ذكَرْنا قبلَ قليلٍ مِن أجْل التأَسِّي به في ذلك، ومِن أجْلِ بيان عَظَمَةِ الله وأنه مُسْتَحِقٌّ أن يخاف منه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات اليوم الآخر؛ لقوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهل يمكن أن يُسْتَفاد منها أنَّ النَّبِي ﷺ تَجوزُ عليه المَعْصِيَة؛ لقوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ﴾؟

ولكن قد يقول قائل: في هذا نظَرٌ؛ لأنَّ الشَّرْط قد يتحَقَّقُ وقد لا يتحقَّق، وقد يكون تَحَقُّقُه مُمْتَنِعًا، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]، وقوله تعالى لرسوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزُّمَر:٦٥].

إِذَنْ: فهذه الفائِدَة فيها نظر؛ لأنَّ قوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ﴾ لا يدلُّ على أنَّ المَعْصِيَة تقع منه، لكن على فَرْضِ أن تقع فإنِّي أخاف.

وقد يقول قائل: إنَّ كَوْنَه يخاف أمرٌ مُحَقَّقٌ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ وإذا كان أمرًا محققًا فإن المُعَلَّق عليه وهو المعصية يكون كذلك؛ أي: يمكن أن يكون، يعني معناه: أنَّني إن عَصَيْتُ فإنِّي أخاف.

وعلى كلِّ حال: فإن الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثبت عنه أنه كان يدعو الله أن يَغْفِرَ الله له ذَنْبَه أوَّلَه وآخِرَه[1]، وثبت أنه ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ**»[2].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تعظيم يوم القيامة وأنَّه يومٌ عظيم.

ويتفرَّع على هذا: أنَّه ينبغي للعاقِلِ أن يَحْذَر منه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب ما يقول بعد التكبير، رقم (٧٤٤)، ومسلم: كتاب المساجد، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة، رقم (٥٩٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جواز وَصْفِ غير الله بالعِظَم؛ لقوله: ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وقد قال الله تعالى عن ملكة سبأ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، ووصف الإِفْك بأنه عظيم، إلى غير ذلك، فوَصْفُ غَيْرِ الله بالعِظَم لا بأس به، لكنَّ العِظَم المُطْلَق إنَّما يكون لله عَزَّوَجَلَّ.

• • ۞ • •

الآيتان (١٤، ١٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٤-١٥].

يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ في الآية الأُولى قال: ﴿أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ في الأَوَّل يفعل هو يَعْبُد الله مخلصًا له الدِّين، وفي الثاني أُمِرَ أن يُعْلِنَ للمَلأِ أنه مُخْلِصٌ، وإعلانه أنه مُخْلِصٌ؛ يعني أنه متبَرِّئٌ من شِرْكِهم.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ إعرابُ اسم الجلالة: مفعولٌ به لـ﴿أَعْبُدُ﴾ قُدِّم المفعول به للحَصْر؛ يعني لا أعبد غَيْرَه، ونظيره من حيث التَّرْكيبُ قولُه تعالى: في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] ثم أكد هذا أيضًا بقوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ يعني: لا أعبد غَيْرَ الله، وفي عبادتي له أيضًا أكونُ مُخْلِصًا له لا يَشوبُ عبادتي إياه شَيءٌ من الشِّرْك.

وقوله: ﴿دِينِى﴾ يعني: عَمَلي، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من الشِّرْك].

وإذا جَمَعْت بين الآيتين: الآية الأولى: وهي قوله: ﴿إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ والثانية هنا؛ عَرَفْتَ شِدَّة امتثال الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لرَبِّه، وأنه عَبَدَ الله مُخْلِصًا له الدِّين، وأَعْلَنَ ذلك للمَلأِ غيرَ مُبالٍ بمخالَفَتِهم.

قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾: ﴿فَٱعْبُدُوا۟﴾ هذا يُحْتَمل أن يكون تهديدًا،

ويُحْتَمَل أن يكون تَحَدِّيًا، فالمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [فيه تَهْديدٌ]، ويمكن أن يكون تَحَدِّيًا، أما كوْنُه تهديدًا فظاهِرٌ ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ لأنَّه قال بعده: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ إلخ، وأما كونه تَحَدِّيًا فلأنَّه لَمَّا ذكر أنه يعبد الله وحده مُخْلِصًا تحدَّاهم، قال: أنا لا أُبالي، أنتُم اعبُدوا ما شِئتُم وأنا لا أُبالي بكم، فسوفُ لا أُشْرِك بالله، وسوف أَعْبُد اللهَ وَحْدَه مُخْلصًا.

والقاعدة عندنا في التَّفْسير: أنَّه إذا كانت الآيةُ تَحْمِلُ مَعْنيينِ لا يتنافيان تُحْمَلُ عليهما جميعًا.

وقوله: ﴿مَا شِئْتُم﴾ يعني الذي شئتم.

وقوله: ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: مِن سواه، اعبدوا ما تشاؤون مِن سواه، مَلِك، وَلِي، شَجَر، حجر، شمس، قمر؛ أي أَحَد تعبدونه، فلا يُهِمُّني، وأنا سوف أبقى مُخْلِصًا لله، وأنتم اعبدوا ما شئتم.

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ غَيْره] أي: غير سواه [فيه تهديدٌ لهم، وإيذانٌ بأنَّهُم لا يعبدون الله تعالى]: [إيذان] يعني إعلان؛ أي: إنَّ هذه الجملةَ فيها تهديدٌ، وفيها أنَّهُم لا يعبدون الله وإنما يَعْبُدون غيره.

وقوله: ﴿قُلْ﴾ يعني: قل لهم مع تهديدك إيَّاهم: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ والجملة فيها تأكيدٌ وفيها حَصْر؛ فالتَّأكيد: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، والحصر أنَّ طَرَفَي الجملة مَعْرِفتانِ: ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾، فكأنه قال: إنَّ الخاسرينَ هم الذين خسِروا أنْفُسَهم وأهليهم يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الخاسِرُ بيَّنَه الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [العصر:٣] يعني: الخُسران ضِدُّ الربح، وذلك أنَّ المُعامِل إما أن

يأخُذَ رأس ماله، وإمَّا أن يَخْسَر فيأتيه أقَلُّ من رَأْسِ ماله، وإما أن يَرْبَحَ فيأتيه أكثر، والخُسْـران الحقيقي هو ما ذكره الله هنا ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، فهؤلاء هم الذين خَسِروا، وليس الخاسِرُ من فقد ملايينَ الدَّراهم، وليس الخاسِرُ من فقد أهله في الدنيا، وليس الخاسر من فقد نَفْسَه في الدنيا، بل الخاسِرُ من خسر نفسه وأهله يوم القيامة.

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِتَخْلِيدِ الْأَنْفُس فِي النَّار وَبِعَدَمِ وُصُولِهِمْ إِلَى الْحُور الْمُعَدَّة لَهُمْ فِي الْجَنَّة لَوْ آمَنُوا] قوله: بتخليد الأنفس في النار؛ هذا بيانٌ لخسرانِهم أنْفُسَهم؛ لأنَّه خَسِرَ نفسه في الحقيقة؛ ووجه الخسران: أنَّ حياته في الدُّنيا لم يَسْتَفِدْ منها في الآخرة إطلاقًا، فخسر نفسه، خَسِرَ عُمُرَه كله راح هباءً منثورًا؛ فلو أنه مؤمن مُخْلِص لاستفاد، لكان كلُّ حياته الدنيا رِبْحًا؛ لأنَّه سوف يُخَلَّد في الجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سَمِعَت ولا خطر على قلب بشر؛ أمَّا الآن فسَيُخَلَّد في النار؛ هذه خسارة النفس.

وأما خسارَةُ الأَهْل فقد فسَّرها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بأنه يَفوته الحُورُ العِينُ في الجنة لو آمن، وهذا وإن كان له وَجْهٌ لكنه بعيدٌ من الصَّواب؛ وذلك لأنَّ الحور في الجنة لم تكن أهلًا له حتى يقال: خَسِـرَهم، وإنما المراد: خَسِـرُوا أَهْليهم؛ لأنَّ أهليهم إن كانوا مؤمنين فهم في الجَنَّة ولم يَجْتَمِعوا بهم، وإن كانوا كفَّارًا فهم في النار ولم يجتمعوا بهم أيضًا، ولو كانوا مؤمنين وذُرِّيَّتهم مؤمنة لكانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطور:٢١] يعني لن يَجْتَمِع أحـدٌ مع أهله في الآخِرَة إلا إذا كان هو وهم مُؤْمِنينَ، فسيجتمعون اجتماعًا لا فِرَاقَ بعده، أما من لم يكن كذلك فلا اجتماعَ.

وعلى كلِّ حال: الصَّحيحُ أنَّ المراد بـ(أهليهم) يعني أهليهم الذين في الدنيا؛

حيث خسروا الاجتماع بهم في الآخِرَة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ إِيْ والله، ﴿أَلَا ذَٰلِكَ﴾ وهذا التَّأكيد البالغ؛ فقوله: ﴿أَلَا﴾ أداة اسْتِفْتاح، والفائِدَة منها: التَّوْكيد والتَّنْبيه ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة للبُعْد؛ لأنَّه خُسْرانٌ سحيقٌ -والعياذ بالله- يعني لم يقل: ألا هذا، مع أن ذِكره قريبٌ لكنه خسرانٌ سحيقٌ، فأشير إليه بإشارَةِ البعد، ثم حَصَر، قال: ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ﴾ يعني: لا غَيْره، ثم أكَّدَ بفداحَتِه فقال: ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ أي: [البيِّن] الذي لا يَخْفَى على أحد، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الرَّابِحينَ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّه ينبغي للإنسانِ أن يُعْلِنَ بالحَقِّ الذي هو عليه، ولا يبالِي بمن خالَفَه؛ لقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ يعني: فلا أبالي بكم، أنا سأعبد الله وأسيرُ على الطَّريقَة السَّليمَة، وأنتم سيروا على ما شِئْتُم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ مِن أشَدِّ النَّاس امتثالًا لأَمْرِ الله؛ لأنَّه قال فيما سبق: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ مُحْتاجٌ إلى العمل الذي يُنْجِيه من عذاب الله؛ لقوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ بالياء بالإضافَةِ، وهو كذلك، ولمَّا حَدَّث أصحابه بأنه: «**لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ**»، قالوا: ولا أَنْتَ يا رسول الله؟ قال: «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تحريم عبادَةِ غَيْـرِ الله؛ تؤخَذُ من قوله: ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ لأنَّنا ذَكَرْنا أنَّ الأَمْرَ هنا للتَّهْديد، ولا تهديدَ إلا على شيء مخالِفٍ ومَعْصِيَةٍ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ إلخ؛ بيان أنَّ الخَسارة الفادِحَة التي ليس معها رِبْحٌ هي خسارة هؤلاء الذين خَسِروا أنْفُسَهم وأهليهم يومَ القِيامَة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الإشارَةُ إلى أنَّ الشِّرْكَ هو سبب هذه الخَسَارَة؛ لأنه تلا قوله: ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ أَهْلَ الشِّرْك يَوْمَ القيامة لا يَجْتَمِعون بأَهْليهم؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ عُمُـرَ الإنسان حقيقةً هـو ما أمضاه في طاعَةِ الله؛ ولـهذا وصَف الله هؤلاء بأنَّهُم قد خَسِرُوا أَنْفُسَهم؛ لأنَّهُم لم يعملوا خيرًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ هذه الخَسارَةَ أعْظَمُ خَسارةٍ تكون؛ لقوله: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

فضمير الفصل حـرفٌ ليس اسمًـا على القَوْلِ الرَّاجِـحِ، فليس له مَحَلٌّ من الإعراب، لكنه يُؤْتَى به لفوائِدَ ثلاثٍ:

الأولى: حتى لا يَشْتَبِهَ الخَبَرُ بالصِّفَة؛ يعني: يَفْصِل بين الخَبَر والصِّفَة، ويظهر هذا بالمثال؛ فلو قُلْتَ: زيدٌ الفَاضِلُ فهنا يُحْتَمَل أن يكون الفاضِلُ صِفَةً، وأنَّ الخبر محذوفٌ؛ أي: زيدٌ الفاضِلُ في البيت مثلًا، فإذا قلت: زيدٌ هو الفاضِلُ. تعَيَّن أن تكون الفاضِلُ خبرًا.

الثانية: الحَصْر؛ فإنك إذا قُلْتَ: زيدٌ هو الفاضِلُ؛ يعني: لا غيره، بخلاف لو قلت: زيدٌ الفاضِلُ، فهو فاضل وقد يكون غَيْرُه فاضلًا أيضًا.

الثالثة: التَّوْكيد؛ لأنَّ قَوْلَ القائِلِ: زيدٌ هو الفاضل، أَوْكَدُ من قوله: زيدٌ الفاضل.

أما هو فليس له محلٌّ من الإعراب؛ ودليل ذلك في القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء:٤٠] ولو كان له محلٌّ من الإعراب لكانَ مُبْتَدَأً ولَرُفِعَ الذي بعده، ولكانت الآيَةُ: لَعَلَّنَا نَتَّبعُ السَّحَرَةَ إن كانوا هُمُ الغالِبونَ.

الآيــة (١٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر:١٦].

ثم قال الله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ قوله: ﴿لَهُم﴾ الضَّميرُ يعود على الخاسِرينَ الذين خَسِرُوا أَنْفُسَهم وأَهْليهم يَوْمَ القيامة وهم الكُفَّار.

قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ من فوق رُؤُوسِهِم، وكلمة: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ تدلُّ على أن هذه الظُّلَل مُحِيطةٌ بهم.

وقوله: ﴿ظُلَلٌ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [طِباقٌ ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾] وهذه الطِّباقُ من النار لا نعلم كَيْفِيَّتَها، فلا نعلم هل هي حديدٌ مُحَمَّاة، أو حجارة، أو غير ذلك؟ لكن إذا تأمَّلْنا قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤] فقد نقول: إنَّها من الحِجَارة، وليست أيضًا كحِجَارَتِنا، بل هي حجارةٌ لا تُعْلَم كَيْفِيَّتُها.

وقوله: ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أي: [من النار] كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:٤١]. أي: شَيْءٌ يَغْشاهم؛ أي: يُغَطِّيهم.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المشارُ إليه مِنْ ذِكْرِ هذه الظُّلَل.

قوله: ﴿بِهِۦ﴾ الضمير يعود على العذاب المَذْكورِ، والباء للسَّبَبِيَّة؛ أي: يخوف بِسَبَبِه، ويجوز أن تقول: للتَّعْدِيَة؛ أي: يُخَوِّف به نَفْسِه.

وقوله: ﴿عِبَادَهُۥ﴾ قال: [أَيِ المُؤْمِنِينَ لِيَتَّقُوهُ يَدُلُّ عليه: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾] المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ سلك في تفسير الآية أنَّ المرادَ بالعباد هنا: شيءٌ خاصٌّ وهم المؤمنون، مع أنَّ ظاهِرَ الآيَةِ العُمُومُ، وأنَّ المراد بالعباد هنا من يتعَبَّدون لله بالمعنى العامِّ، وهي العبودية الكَوْنِيَّة؛ لأنَّ العبادة نوعان: عبادةٌ يَتَعَبَّد الإنسانُ لله بالشَّرْع، وهذه خاصَّةٌ بالمؤمنين؛ وعبادَةٌ يتَعَبَّد الإنسان لله بالكَوْن؛ أي: يكون عبْدًا لله كَوْنًا وقَدَرًا، يفعل الله فيه ما شاء.

فقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] هل المراد بالآية هنا: العبادة العامَّة، وأنَّ الله يوجِّهُ الخطاب إلى جَميعِ العِبادِ؛ جميع النَّاس أن يتَّقُوه، أو هي خاصَّةٌ؟ يرى المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها خاصَّة، ولكن لا دليل على ذلك، وإذا لم يكن هنالك دليلٌ فالأَوْلى إبقاءُ النَّصِّ على عمومه، فكما أنَّ المؤْمِنَ يُخَوَّف بهذا الوَعيدِ فكذلك الكافر، فالكافِرُ أيضًا يُخَوَّفُ، بل إنَّ تَخْويفَ الكافر أَوْكَدُ من تخويف المُؤْمِن؛ لأنَّ مع المؤمن ما يُنْجيه من الخُلْدِ في النار، لكنَّ الكافِرَ ليس معه ما يُنْجيه من الخُلُودِ في النار.

إذن: الأَرْجَحُ العموم؛ وَجْهُه: أنَّ هذا هو ظاهِرُ النَّصِّ، وأنَّ الكافِرَ أَوْلَى أن يُخَوَّف بالنَّارِ من المُؤْمِن؛ لأنَّ مع المؤمن ما ينجو به من الخلود في النَّار، وليس مع الكافر شيءٌ ينجو به، فكيف نَصْرِفُ التَّخويف عمن هو أحَقُّ بالتَّخويفِ؟!

إذن: فالصَّحيح أنَّ المراد بالعباد العُمُوم؛ يعني: يُخَوِّف اللهُ بهذا العذابِ جَميعَ النَّاسِ. ثم وجَّه اللهُ الخطابَ إلى النَّاس عُمُومًا، فقال: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾: ﴿يَٰعِبَادِ﴾

يعني: جميع العباد؛ كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ ﴾ [لقمان:٣٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء:١]، والآيات كثيرةٌ في تَوْجيهِ الأَمْر بالتَّقْوى إلى جميع النَّاس، والكافر محتاجٌ للتَّقْوى؛ كما أنَّ المؤْمِنَ كذلك؛ فقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَدُلُّ عليه] فيه نظر، ففي حكم المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ نَظَرٌ، وفي الاستدلال لهذا الحُكْم نَظَرٌ. وقوله: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ غريبٌ أن تأتي النونُ مع فِعْلِ الأمر، والمعروف أنَّ فِعْل الأمر المقرون بواو الجماعَةِ أو ألفِ الاثْنَيْنِ أو ياء المخاطبة تُحْذَفُ منه النون؛ وهذه النونُ هي للوِقايَة؛ وأَصْلها: فاتَّقُونِي؛ والدليل: كَسْرُ النون؛ لأنَّها لو كانت نونَ الرَّفْعِ لكانت بِفَتْحِ النون، فإنَّ نون الرفع تكون مَفْتوحَةً.

ومن مثال ذلك أيضًا: قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورة الأنبياء: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء:٣٧] بعض الطَّلَبَة يُشْكِل عليه كيف قال: (لا تَسْتَعْجِلونِ) لا الناهية، وتأتي النون مع النَّاهِيَة؟ نقول: النون هنا للوِقَايَة بدليلِ أنَّها مَكْسُورة، ولو أنَّكَ واصلتَ فقلت: فلا تَسْتَعْجلونِي وَجَبَ الكَسْرُ، وكذلك في سورة الذَّارياتِ قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات:٥٩]؛ فالنون هنا للوِقايَة وليست نونَ الرَّفْع.

أمَّا قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ فقد سبق معنى التَّقْوى مرارًا، فلا حاجة لإعادتها؛ ومن جملة التقوى تَرْكُ الكُفْر؛ لأنَّ التقوى اتخاذ الوِقايَة من عذاب الله؛ ومن جُمْلَتِها الإيمانُ؛ ولهذا جاءت الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ ﴾ [لقمان:٣٣] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي: عمومًا؛ وجاءت آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ

عَظِيمٌ﴾ [الحج:١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:١].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ عُقوبَةُ الخاسرينَ الذي خسروا أَنْفُسَهُم وأهليهم يوم القيامة؛ قال تعالى في بيان عُقُوبَتِهم: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: شِدَّةُ العذاب على أَهْلِ النَّار؛ لأنَّ العذاب يغشاهُم من فَوْقِهم ومن تحت أَرْجُلِهم، وإذا كان الإنسانُ لا يَتَحَمَّل النَّار إذا أَتَتْه من وجهٍ ولو بعيدًا، فكيف إذا أتته من الوَجْهَينِ الفَوق والتَّحت!

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه يجب على الإنسان أن يخاف مما خَوَّفه الله حتى يُحَقِّقَ العبوديَّة؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّه يَنبغي للإنسان أن يسيرَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ على جانبٍ من الخَوْف من العذابِ، وقد ذكَرنا كثيرًا: هل يُغَلِّبُ السَّائِرُ إلى الله جانب الخَوْف أو جانب الرجاء على ما سبق.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ رَبُّ كُلِّ شيء، وأنَّ كُلَّ شيءٍ فهو عابدٌ لله؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وجوب التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

الآيتان (١٧، ١٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر:١٧-١٨].

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ﴾ أي: ابْتَعَدُوا عن الطَّاغُوت؛ لأنَّه مأخوذٌ من الجَنْب وهو الشَّيْء المُنْفَصِل عن الشَّيْء؛ يعني تقول: إلى جانبي فلان؛ أي: إنَّه مُنْفَصِل غيرُ مُتَّصِل.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أي: ابْتَعَدوا عنه. والطاغوت اسمٌ من الطُّغْيانِ والتاءُ فيه للمبالَغَة، فما هو الطَّاغوتُ الذي اشْتُقَّ من الطُّغْيانِ؛ يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الطَّاغُوتُ كُلُّ ما تجاوَزَ به العَبْدُ حَدَّهُ من معبودٍ أو مَتْبُوعٍ أو مُطَاعٍ»[1].

فكل ما تجاوز به الإنسان حَدَّه، وإنما قال: ما تجاوز به حَدَّه من أجل أن يَصْدُق عليه أنه طُغْيانٌ من مَعْبودٍ أو مَتْبوعٍ أو مُطاعٍ؛ فمثلًا: الأصنامُ التي يَعْبُدها الكُفَّار تسمَّى: طواغيت، المَتْبوعينَ من العلماء طَوَاغِيت، المَتْبوعينَ المطاعِينَ من الأمراء كذلك أيضًا طَوَاغيتُ.

لكن كلام ابن القيم ليس على ظاهره، مرادُهُ بالمعبود الذي لا إرادَة له كالأصنام

(١) إعلام الموقعين (١/ ٤٠).

من الجماداتِ، أو المعبود الذي رَضِيَ بِعِبادَتِهم، وأما المعبود الذي عُبد وهو لا يَرْضى بالعبادة فلا يُسَمَّى طاغُوتًا؛ ولهذا لا يُمْكِنُ أن نُسَمِّيَ عيسى بْنَ مريم: (طاغوتًا)؛ وكذلك أيضًا: (المَتْبوعُ)؛ فالعلماء الذين لا يرضون أن يَعْبُدَهم النَّاس ليسوا طواغيتَ، و(المُطاعُ) أيضًا، الأمراء الذين لا يَرْضَوْنَ أن يَعْبُدَهم النَّاس لا يُسَمَّوْن طواغيتَ.

فكلام ابن القيم إذن ليسَ على إطلاقه، ويمكن أن نقول: إنَّ قَوْلَ ابنِ القَيِّم: «ما تجاوز به العَبْدُ حَدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ». أنه عائِدٌ على العمل؛ يعني: أنَّ الطاغوتَ عَمَلُ الإنسان في معبوداته أو من يُطيعُهُم أو من يَتْبَعُهُم؛ يعني معصية الله في طاعَةِ هؤلاء، فيكون الوَصْف الطغيانُ عائِدًا على الفِعْل لا على المفعول، وحينئذٍ نَسْلَمُ من الإشكال الذي قلنا: إنَّه لا بدَّ أن يُقَيَّد المَعْبودُ والمتبوعُ والمطاعُ بأنه راضٍ.

وعلى كلِّ حالٍ: فإن الطاغوت مأخوذ من الطُّغْيان وهو مجاوَزَةُ الحَدِّ، والصيغة فيه صيغَةُ مبالَغَة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الأَوْثان] ففسَّر الطَّاغوت بالمعبودات وهي الأَوْثان؛ ولهذا قال: ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾: (أن) هذه مَصْدَرِيَّة، وتأويلُ المَصْدَر بعدها منصوبٌ على أنه بدلٌ من الطاغوت، بدل اشْتِمال، فنقول: ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ في مَحَلِّ نصبٍ بدلٌ من ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

وقوله: ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ هم يعبدون الأَصْنامَ بِدُعائِها، ولكن يَدَّعُونَ أنَّهُم لا يعبدونها إلا لِتُقَرِّبَهُم إلى الله. وقوله: [﴿وَأَنَابُوٓاْ﴾ أَقْبَلُوا إلى الله] والإنابة تكون بمعنى الإِقْبال؛ كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتكون بمعنى الرُّجوع؛ أي رَجَعوا إلى الله، والرُّجوع إلى الله يَسْتَلْزِم الإقبال عليه؛ لأنَّ الإنسانَ يَفِرُّ بالمَعْصِيَة بعيدًا عن الله، فإذا تاب وأناب ورجع إلى الله فهو مُقْبِلٌ.

وقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ الجملة هذه خَبَرِيَّة قُدِّم فيها الخَبَر ﴿لَهُمُ﴾ لإفادَةِ الحَصْر؛ لأنَّ ما كان حَقُّه التَّأخيرَ إذا قُدِّمَ أفاد الحَصْر. وقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ الجملة هذه خَبَر ﴿ٱلَّذِينَ﴾، فالذين اجتنبوا الطاغوت لهم البشرى؛ فتكون هذه الجملة في مَوْضِعِ رَفْعٍ على الخَبَر. والبشرى: ما تَحْصُل به البِشَارة، والبشارة هي في الأصل: الخَبَرُ السَّارُّ، وسُمِّيَ الخبر السارُّ بِشارَةً؛ لأنَّه يظهر أثَرُه على البَشَرَة التي هي الجِلْد، فإنَّ الإنسان إذا أُخْبِر بما يَسُرُّه استنار وَجْهُه وتغيَّر فسُمِّيَتْ بُشْرَى.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الجَنَّة] هذا لا شك أنه مما يَدْخُل في البشرى، لكنه أعَمُّ مِمَّا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس:٦٤] فمن البُشْرَى الرُّؤْيا الصَّالِحَة يراها الإنسانُ لِنَفْسِه أو يراها له مُؤْمِن، فإن هذه مِنَ البُشْرى.

وكما قال النَّبِي ﷺ: «**تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى المُؤْمِنِ**»(١)، وقال: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا أَوْ تُرَى لَهُ**»(٢)؛ مثل: أنْ يرَى مَن يُبَشَّرُ بالجنة؛ أنْ يرى أنَّه في نعيم، وما أشبهَ ذلك، هذا من البُشْرَى.

ومِنَ البُشْرَى أيضًا: أنْ يُوَفَّقَ للعَمَلِ الصَّالِح، فإذا رأيتَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفَّقَكَ للعَمَلِ الصَّالِح المبنِيِّ على الإخلاص والمتابَعة لرَسولِ الله ﷺ فإنَّ هذا من البُشْرى.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضره، رقم (٢٦٤٢)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، رقم (٤٧٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ومن البشرى أيضًا: أنْ يُوفِّقك اللهُ عَزَّوَجَلَّ لمصاحَبَةِ الأَخْيارِ، فكما جاء في الحديث: «إِنَّ المَرْءَ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»(١)، فإذا وجَدْتَ أنَّ الله وفَّقَك لمصاحَبَةِ الأخيار، فإن هذا عنوانٌ على السَّعادَة.

ومن البشرى أيضًا: أنْ يُحِبَ الإنسانُ من يُحِبُّه اللهُ، فإنَّ النَّبي ﷺ سُئِلَ عن الرَّجُلِ يُحِبُّ القَوْم ولَمَّا يَلْحَقْ بهم، فقال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُمْ»(٢)؛ قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا فَرِحْنَا بعد الإسلام بِشَيْءٍ أَحَبَّ إلينا من هذا الحديث»؛ ثم قال: «فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وأُحِبُّ أبا بَكْرٍ وعُمَرَ»(٣)؛ فهذه من البُشْرَى.

المهم: أنَّ البُشرى كلُّ خبرٍ سارٍّ، فيشمل ما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الجَنَّة] وهي الغاية لكلِّ إنسانٍ، ويشمل ما كان علامةً على ذلك. قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ أمر اللهُ النَّبي ﷺ بأن يُبَشِّرَ عباد الله بالجَنَّة، وبكل ما يَسُرُّهم حتى في الدنيا، فالمؤْمِنُ مسرورٌ دائمًا وإن أصيب ببلاءٍ فإنه مسرورٌ؛ لأنَّه إذا أصيب بالبلاءِ فَصَبَرَ كان خيرًا له.

قوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ الدال مكسورة مع أنها مفعولٌ به؛ لأنَّ أَصْلَها (عبادِي) فحُذِفَتِ الياءُ للتَّخْفيفِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١]. أي: مِنْ (والِي)، وإن كان الياء في (والِي) غير الياء في (عبادي)؛ لأنَّ الياء في (والِ)

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٠٣)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم (٤٨٣٣)، والترمذي: كتاب الزهد، باب (٤٥)، رقم (٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب علامة حب الله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٦١٦٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، رقم (٢٦٤٠)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «المرء مع من أحب».

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب علامة حب الله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٣٦٨٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، رقم (٢٦٣٩/ ١٦٣)، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله ﷺ: «أنت مع من أحببت».

من أَصْلِ الكَلِمَة، وأما هنا فهي كلمةٌ أخرى: الياء.

والمراد بالعباد هنا: خُصوصيَّة العبودِيَّة؛ أي: عباد الله الصَّالحين لا كُل عَبْد.

ثم بيَّن تعالى من صِفاتِهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ هذا من علاماتِ عبادِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ أنَّهُم لا يُضَيِّعونَ الفُرَص.

قوله: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: يُصْغونَ إليه، ولم يَقُلْ يَسْمَعونَ؛ لأنَّ الاستماع هو متابعة المُتكَلِّم والإنصاتُ إليه، بخلاف السَّماعِ، ونَضْرِبُ مثلًا لرَجُلٍ مَرَّ بقارئ يقرأ فسَمِعَه يقرأ، ورجل آخر مَرَّ بقارئ يقرأ فجَلَسَ إليه يُنْصِتُ؛ فالأول سامِعٌ، والثاني: مُسْتَمِعٌ؛ ولهذا قال العلماء بناء على هذا الفَرْق: إذا قرأ القارئ آية فيها سَجْدَة وسَجَدَ، فإن السَّامِعَ لا يَسْجُد والمُسْتَمِع يَسْجُد؛ لأنَّ المُسْتَمِع متابِعٌ، والسَّامِع ليس بمتابِعٍ.

إذن: هؤلاء الذين يَسْتَمِعون القول لا يضيعون فُرْصَة، والمراد بـ﴿ٱلْقَوْلَ﴾: القول (أل) هنا للعَهْد، وتشبه أن تكون للعهد الذِّكْري؛ لقوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ أي: أنَّهُم يَسْتَمِعون القَوْل الحَسَن، ليس كلَّ قَوْل

إذن: المرادُ بالقول هنا: القَوْل الحَسَن، أما اللَّغْوُ أو السَّيِّئ، فإن الله يقول: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [القصص:٥٥]، فإذا كانوا يُعْرِضون عن اللَّغْو لأنَّه لا فائِدَة فيه، فالمُحَرَّم من باب أَوْلى.

إذن: هؤلاء قومٌ عندهم حَزْم، عندهم شُحٌّ في الوقت، لا يستمعون إلا إلى القَوْل الحسن؛ فإذا استمعوا إلى القَوْل الحَسَن، فنحن نعلم أنَّ الحَسَن فيه ما هو

أحسن وما حَسُن، فهم يتَّبِعون: ﴿أَحْسَنَهُۥٓ﴾، فمثلًا: إذا سَمِعوا التَّرغيبَ في صلاة اللَّيل، وأنَّ أَكْثَرَها مثلًا إحدى عَشْرَة ركْعَةً، وأدناها ركعة واحدة، فالذي يتبعونه: الإِحْدى عشرة؛ لأنَّها أَحْسَن، وإذا سمعوا الإنفاقَ في طلب العلم، والإنفاق على فقيرٍ ليس في ضرورةٍ يتبعون: على طَلَبِ العِلْم؛ لأنَّهُم يتبعون الأَحْسَن.

إذن: لم يفرطوا في الوَقْت، ولم يفرطوا في الأَفْضَل، بل كانوا يَسْتَمِعون كلَّ قولٍ حَسَن، ويتبعون الأَحْسَن منه، فإن تبعوا الحَسَن وتركوا الأَحْسَن، فإنَّهم لا يُلامون على ذلك، لكنهم ليسوا في قِمَّة الكمال؛ إذ الذي في قمة الكَمالِ هو الذي يتَّبِعُ الأَحْسَن؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ وهو ما فيه صَلَاحُهُم] لكنَّ الأَصْلَح يَتَّبِعون الأَصْلَح فالأَصْلَح.

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الإشارَةُ للبعيدِ، وإنما أشار إليهم إشارَةَ البَعيدِ مع قُرْبِ ذِكْرِهم للدَّلالة على عُلُوِّ مَنْزِلَتِهم، وهذا يقع كثيرًا في القرآنِ، يُشيرُ الله إلى الشَّيْءِ القَريبِ بِصيغَةِ البَعيدِ لعُلُوِّ مَرْتَبَتِه؛ كما قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١-٢]؛ لأنَّه يقول: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ الكتابُ قريبٌ، لكن إشارة لعُلُوِّ مَرْتَبَتِه؛ وأحيانًا يشير بالقريب لقُرْبِهِ من مريدِهِ، كما في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥].

يعني ليس بعيدًا عليهم؛ قريبٌ، قريبٌ لهم، ﴿مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾، وهنا يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أشار إليهم إشارَةَ البعيد إشارةً إلى عُلُوِّ مَرْتَبَتِهم.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ هذه الجُمْلَة خَبَرِيَّة طرفاها مَعْرِفَة، وقد

قال العلماء: إنَّ الجُمْلة الخَبَرِية إذا كان طرفاها مَعْرِفَة فإنها تفيد الحَصْر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني: لا غَيْر.

وقوله: ﴿هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ يشمل هدايةَ الدَّلالة وهداية التَّوْفيق؛ يعني بَيَّن لهم الحقَّ وعَلِمُوه ثم اهْتَدَوْا به، والنَّاس في هذا المقام ثلاثَةُ أَقْسامٍ:

١- قِسْمٌ ضلُّوا عن الهدى عِلْمًا وعَمَلًا.

٢- قِسْمٌ هُدُوا إلى الحَقِّ عِلْمًا وعَمَلًا.

٣- قِسْمٌ هُدُوا إلى الحَقِّ عِلْمًا ولم يَهْتَدوا إليه عَمَلًا.

فهل يمكن أن نقول: وقِسْمٌ اهتدوا إلى الحَقِّ عملًا، ولم يهتدوا إليه عِلْمًا؟

الجواب: لا يمكن؛ لأنَّه لا عَمَلَ بالحَقِّ إلا بعِلْمٍ بالحَقِّ، فالقِسْمَة رُباعية، لكن الطرف الرابع منها مُمْتَنِع.

إذن: في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ هداية دلالة وتَوْفيقٍ، وإن شِئْتَ فقل: هداية علم وعمل، فالدلالة العِلْم، والتَّوْفيق العَمَل.

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ كرَّرَ اسْمَ الإشارة تنويهًا بعُلُوِّ مَرْتَبَتِهم.

وقوله: ﴿هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أصحابُ العُقُولِ؛ لأنَّ الإنسانَ كُلَّما كان للحَقِّ أَتْبَعَ كان أكْمَل عقلًا، وكلما نَقَصَ اتِّباعُ الحَقِّ في عقله كان أدَلَّ على قِلَّةِ عَقْلِه، فأَعْقَلُ النَّاس أَتْبَعُهُم لدين الله لا شكَّ؛ لأنَّهم هم الذين عندهم الحَزْم وانتهاز الفُرَصِ وحِفْظُ الوقت؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أصحاب العقول].

فإن قال قائل: أليس الكُفارُ ذَوي عَقْلٍ؟

فالجوابُ: بلى، لكنهم ذوو عَقْلٍ إدراكيٍّ، لا عَقْلٍ رُشْدِيٍّ؛ ولهذا كانوا مُكَلَّفينَ ومُلْزَمينَ؛ لأنَّ عِنْدَهم عقل إدراك، لكنهم غير مُوَفَّقينَ؛ لأنَّهُم فقدوا عقل الرُّشْد.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الثَّناءُ على مُجْتَنِبِ الطَّاغوت؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن لهم هذا الثَّوابَ العظيمَ، وهو قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ التَّوْحيدَ لا يتِمُّ إلا باجتناب الطاغوت والإخلاصِ لله تعالى؛ لقوله: ﴿ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الذين اتَّصَفُوا بهذه الصِّفَة؛ اجتنابِ الطَّاغوتِ والإنابَةِ إلى الله، هم أهل البُشْرى؛ لقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ ولم يُبَيِّنِ الله وقت البشرى؛ فهو شاملٌ للبشرى في الدنيا وفي الآخِرَة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: حرمان من أَشْرَك بالله من هذه البشرى؛ لأنَّه جعَل البُشرى للذين: ﴿ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات العبوديَّة الخاصَّة؛ لقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾، والعبوديَّة الخاصَّة تكون منقَسِمَة إلى خاصَّةٍ أَخَصَّ، وإلى خاصَّةٍ ليست بأَخَصَّ، فالمؤمنون جميعًا كلُّهُم عباد الله، والرُّسُل عبوديَّتُهم أَخَصُّ؛ فقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]. هذه من الأَخَصِّ، وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [ص:٤٥] هذه من العبادة الأَخَصِّ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن عباد الله حريصونَ على استماع ما فيه المَصْلَحة والمَنْفَعَة؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن هؤلاء السَّادَة لا يُضِيعونَ وقتًا؛ حتى إنهم يَسْتَمِعون إلى عملِ غَيْرِهم وهو قول غَيْرِهم، فكيف بِعَمَلِهم أَنْفُسِهم؟! فلا بد أن يكونوا قائمين به.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن عباد الله عَزَّوَجَلَّ الذين ذكرهم الله بما ذكر يأخُذونَ من القَوْل بأَحْسَنِه؛ لقوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن هؤلاء القَوْمَ هم الذين هداهم الله؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾.

ويتفرَّع على هذه القاعِدَة: أنَّك إذا رأيت من نَفْسِك الحِرْص على استماع قَوْلِ الخَيْر واتِّباعِ أَحْسَنِه فاعلم أن هذا مِن هِدايَة الله لك؛ لأنَّه قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾، وإذا رأيت من نَفْسِك كَراهَةَ الاسْتِماعِ إلى القول الحَسَنِ فاتَّهِمْ نَفْسَكَ؛ لأنَّ اللهَ جعَلَ الهدايةَ في هؤلاءِ القوم، فإذا لم يَحْصُلْ لك هذا فاتَّهِمْ نَفْسَك، وصَحِّحِ الخطأ، وأَقْبِلْ إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

ونِعمة الهداية أبلغُ مِن الإنعامِ بالأَكلِ والشُّرب، لأنَّه كلٌّ يأكل ويشرب حتى البهائم، لكنِ الهدايةُ ليس كلُّ أحدٍ يهتدي، فإنعام اللهُ علَى الإنسانِ بالهِدَايةِ العِلميَّة والعَمَليَّة أعظمُ مِن إنعامِه عليه بالأكلِ والشُّرب.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن أفعال العباد واقعةٌ بتقديرِ الله، وأنَّهم لا يَسْتَقِلُّون بها، تؤخذ من قوله: ﴿هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ ولهذا ذهب أهل السُّنَّة والجماعة: إلى أن أفعالَ العبادِ مخلوقةٌ لله مرادَةٌ له، خلافًا لمن قال: إنَّ أفعال العبادِ ليست مُرادَةً لله ولا مخلوقةً له، وهم القَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هذه الأُمَّةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: بيان مِنَّةِ الله عَزَّوَجَلَّ على هؤلاء الذين وُفِّقُوا لاستماع القَوْل واتِّباعِ أَحْسَنِه؛ يعني: إظهار مِنَّة الله عليهم في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنه يجب عقلًا أن تَحْمَدَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا هداك إلى مِثْل هذا؛ لأنَّك إذا عَلِمْتَ أنَّ الهداية من الله فالعَقْل يقتضي أن تَحْمَدَه وتشكره، وهذه النِّعْمَة أبْلَغُ من الإنعام بالأَكْل والشرب؛ لأنَّ الأَكْل والشُّرْب، كلٌّ يأكل ويشرب حتى البَهائِم، لكِنَّ الهدايَةَ ليس كُلُّ أحدٍ يَهْتَدي، فإنعامُ الله على الإنسان بالهداية العِلْمِيَّة والعملية أعْظَمُ من إنعامِهِ عليه بالأَكْل والشُّرْب.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن المُتمسِّكين بدِين الله تعالى المُتَّبِعين لأحسَنِ القول هُمْ أصحاب العُقول، فمِنَ المُتعارَف عند الناس الآنَ أنهم إذا رأَوْا إنسانًا ذكيًّا مُتأنِّيًا في الأمور يَقولون: هذا عاقِل ما شاء الله. ولو كان من أَفجَرِ الناس، والحقيقة أننا نَقول: العاقِل مَن وفَّقه الله تعالى للعِلْم والعمَل ولو كان من أبلَدِ الناس، لو كان من أبلَدِ الناس باعتِبار الذَّكاء.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أنه لا تَلازُمَ بين الذَّكاء والعَقْل، فالذَّكاء شيء والعَقْل شيءٌ آخَرُ، حتى في عَقْل الإدْراك لا تَلازُمَ بين الذَّكاء وعَقْل الإدراك؛ لأن من الناس مَن تَجِده ذكيًّا شديد المُلاحَظة يَفهَم الشيء بسرعة ويُعطِي الجَواب بسرعة، لكنه في التَّصرُّف أحمَقُ ليس عنده عَقْل، ومِن الناس مَن يَكون بالعَكْس؛ عنده شيء من البَلادة ولكنه في التَّصرُّف عاقِل مُتأنٍّ، ولكنَّ أعقَلَ الناس أَطوعُهم لله تعالى، فلا شَكَّ أن أَعقَلَ الناس أطوعُهم له تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: الإشارة إلى انقِسام الناس إلى قِسْمين: مُوفَّق ومُخفِق؛ لأن قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يَدُلُّ على أن

هناك قِسْمًا آخَرَ، وهم الذين لم يُوفَّقوا، ولم يَهدِهمُ الله تعالى، والآية أَشارَت إليه، والواقِعُ يَشهَد له.

فإن قال قائِل: لماذا لم يَجعَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الناس على دِينٍ واحِد أُمَّةً واحِدة؟

قلنا: لأن هذا يُنافِي الحِكْمة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، ولو لم يُوجَد هذا الانقِسامُ ما مُلِئت النار، ولا دخَلها أحَد، وما عرَف الإنسان قَدْر نِعْمة الله تعالى عليه بالإيمان والعمَل الصالِح، وما مدَحَ مَن آمَن وعَمِل صالِحًا؛ لأن الرجُلَ لا يَستَطيع أن يَخرُج عمَّا عليه الناس، ولو لم يُوجَد هذا لم يَكُن هناك سُوقٌ للجِهاد؛ لأنك لا يُمكِن أن تُجاهِد مَن هو مِثْلك في الإيمان والعمَل الصالِح، ولم يَقُمْ سُوق الأَمْر بالمَعروف والنَّهيِ عن المُنكَر، ولا سُوق الدَّعوة إلى الله تعالى، إلى غير ذلك من المَصالِح الكثيرة التي تَفوت بفَوات هذا الانقِسامِ.

أمَّا مِن حيثُ القُدْرة الإلهية فإن الله تعالى قادِر على أن يَجعَل الناس أُمَّةً واحِدة على الدِّين، على الدِّين الحقِّ، ولكن الحِكْمة الإلهية تَأبَى ذلك، وقد علِمْتم شَيئًا من كثيرٍ من حِكْمةِ تَفرُّق الناس إلى مُؤمِن وكافِر.

الآيــة (١٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [الزمر:١٩].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ ما هي كلِمة العَذاب؟ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هي قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩].

وقيل: كلِمة العَذاب هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧]، وهذا القولُ أقرَبُ للصواب؛ لأن هذا القَوْلَ أخَصُّ ممَّا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] لا تَدُلُّ على شخصٍ بعَيْنه، بل تَدُلُّ على أن كلِمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اقتَضَت أن تُمْلَأ النَّار، لكن ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هـؤلاء قـوْم بعَيْنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

فالصحيـح أن المُراد بـ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ هي ما ذكَـرَه الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس:٩٦] أنهم من أهل النار هؤلاءِ لا يُمكِن أن يُؤمِنوا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾ كلِمة: ﴿أَفَمَنْ﴾ فيها ثلاث كلِمات: (الهَمْزة والفاء

ومَنْ) فالهَمْزة للاستِفْهام، والفاء عاطِفة، و(مَن) يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنها: إنها [شَرْطية]. ويَقول آخَرون: إنها مَوْصولة، ويَكون مَعناها حينئذٍ: (أَفالَّذي حَقَّ عليه كلِمة العذاب).

فإن قيل: إن حديث: «خَيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ»[1] قد يُخالِف هذه الآيةَ في المَعنَى؟

قُلنا: لا، لأن مَعنَى قوله ﷺ: «خَيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ» أن العرَب كانوا قبائِلَ، وبعض القبائِل أشرَفُ من بعضٍ، فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من كان له حسَبٌ وشَرَف في الجاهِلية، فهذا حسَبُه وشرَفُه له إذا فَقِه في دِين الله تعالى.

والرجُل الذَّكيُّ لا يَنطَبِق عليه هذا الحديثُ؛ لأن كونَه ذكيًّا، ثُم يَكون عاقِلًا قد يُحمَد وقد لا يُحمَد، ولاحِظْ أنه أحيانًا قد يَكون الذَّكاء المُفرِط سببًا للضلال -والعِياذُ بالله-؛ لأن الرجُل الذَّكيَّ يُورِد على نفسه أشياءَ، ويَفتَح على نفسه أشياءَ مثل: لو كان كذا لكان كذا، ولو كان غافِلًا عن هذا لكان أحسَنَ له؛ ولهذا ما ضَرَّ أصحابَ الكلام والمَنطِق والفلاسِفة إلَّا حِدَّةُ ذَكائِهم، لكن السليم هو الذي يَستَمِرُّ، وقد تَمَنَّى بعض أهل الكَلام أن يَموت على دِين عجائِزِ نَيْسابورَ.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ الهمزة هنا كما بيَّنَّا للاستِفهام، ويُحتَمَل أن يَكون المُرادُ به الاستِفْهامَ الحقيقيَّ، أو أن المُراد به الإنكار، ويَتبيَّن ذلك من تفسيرها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ الآية، رقم (٣٣٧٤)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، رقم (٢٣٧٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ﴾ أي: وجَبَ عليه، وذُكِر الفِعْل مع أن لَفْظة ﴿كَلِمَةُ﴾ مُؤنَّث؛ لوَجْهين:

الوجه الأوَّل: أن تأنيث لفظة ﴿كَلِمَةُ﴾ تأنيث مَجازِيٌّ.

والوجه الآخَر: أنه مُنفَصِل عن عامِله، ولا يَجِب تأنيث الفِعْل إلَّا إذا كان الفاعِل مُؤنَّثًا حقيقيًّا مُتَّصِلًا، كما قال ابنُ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَإِنَّمَا تَلْزَمُ فِعْلَ مُضْمَرِ ... مُتَّصِلٍ أَوْ مُفْهِمٍ ذَاتِ حِرِ[1]

يَقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾، أي: وجَب عليه كلِمة العَذاب وهي أنهم لا يُؤمِنون ولو جاءتهم كلُّ آية، أو كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] والأوَّلُ أَظهَرُ.

وقوله تعالى: ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ يَعنِي: الكلمة التي يَستَحِقُّون بها العَذاب، وهي أن كلَّ مَن خالَف أَمْر الله تعالى فإنه مُستَحِقٌّ للعَذاب.

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾؛ فقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ﴾ الخِطاب للرسول ﷺ، يَعنِي: هل تُنقِذه إذا حقَّتْ عليه كلِمة العَذاب؟

الجواب: (لا)، وإذا كان الجَوابُ: (لا)، فهو عَلامة على أن الاستِفْهام للنَّفي، وهنا نَسأَل الهَمْزة في ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾، والهَمْزة في ﴿أَفَأَنتَ﴾ هل لكل واحِدة مَعنًى مُستَقِلٌّ، أو أن الثانية تَوْكيد للأُولى؟

الجواب: إن كانت الجُمْلتان جُمْلةً واحِدة فالثانية تَوْكيد للأُولى، وإن كانت كلُّ جُملة مُستَقِلَّة عن الأخرى فالثانية أَصلِيَّة، يَعنِي: تَأسيسية لا تَوْكيدية، ومَهما يَكُن من

---

(١) الألفية (ص:٢٥).

أَمْر فإن مثل هذا التَّركيبِ أَعنِي: إذا أَتت همزة الاستِفْهام وبعدها حَرْف عَطْف -قد سبَقَ لنا مِرارًا- أن لعُلماء النَّحْو في ذلك قَوْلين في الإعراب:

القول الأوَّلُ: منهم مَن يَرَى أن الهَمْزة داخِلة على جُملة مُقدَّر تُناسِب المَقام، وحَرْف العَطْف على تِلكَ الجُمْلةِ المَحذوفة.

القولُ الآخَرُ: ومِنهم مَن يَرَى أن الهَمْـزة داخِلة على الجُمْلة التي بعد حَـرْف العَطْف، فيَكون حرف العَطْف على ما سبَقَ، وقُدِّمَت الهَمْزة للصدارة.

والقول الثاني أيسَرُ؛ لأن القول الأوَّلُ صعوبتُه أنه قد يَتعَذَّر على الإنسان مَعرِفة المُناسِب للسِّياق، أو ربَّما يُقدِّر ما يَظُنُّه مُناسِبًا، وليس بمُناسِب.

وقوله تعالى: ﴿تُنقِذُ﴾ فسَّرَها المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمَعنَى: [تُخرِج]، لكنه تَفسيـر قاصِر؛ لأن كلِمة (تُخرِج) لا تَدُلُّ على أنه مُنقِذٌ من هلَكة، بل تَدُلُّ على معنًى أَخصَّ، ولا يَنبَغي أن نُفسِّـر الأخصَّ بالأَعَمِّ؛ لأنك إذا فسَّـرْت الأخصَّ بالأعَمِّ نقَصْتَ التَّفسير، فالإخراج يَكون إنقاذًا ويَكون غير إنقاذ، لكن الإنقاذ يَكون عن هلَكة، ولهذا لو فسَّر ﴿تُنقِذُ﴾ بـ(تُنجِي) لكان أَوْضَحَ؛ لأن الإِنْجاء أيضًا يَكون من هلَكة، ويَكون قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ أي: تُنجِي مَن في النار، أي: مِن عَذابها.

قوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾: ﴿مَن﴾ بمَعنَى (الذي)، ومَوْقعها الإعرابي مَفعولٌ به للفِعْل ﴿تُنقِذُ﴾، وجُملة ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ جارٌّ ومَجرور مُتعَلِّق بالفِعْل ﴿تُنقِذُ﴾، والتَّقدير: مَن دخَل في النار، أو يُقدَّر بما يُناسِب السِّياق، فإن قُدِّر بكَلِمة (داخِل) مثَلًا قُلْنا: لا يَصلُح في صِلة المَوْصول؛ لأنك إذا قَدَّرْت (داخِل) تَحتاج إلى تَقدير مُبتَدَأ لتكون جُملة، لكن إذا قدَّرْت فِعْلًا ما احتَجْنا إلى تقدير شيءٍ آخَرَ، فنَقول: إنه في جميع صِلات

المَوْصول لا يُقدَّر فيها إلَّا فِعْل؛ لأنك لو قَدَّرتَ اسمًا احتَجْت إلى تَقدير مُبتَدَأ؛ لتَتِمَّ الجُملة، فيَكون التقدير مرَّتَيْن، أمَّا إذا قدَّرْت فِعْلًا صار التَّقدير مرَّة واحِدة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (مَنْ) شَرْطية، وهذا أَحَدُ الوَجهين في (مَن).

والوجهُ الآخَرُ: قال بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إن (مَن) اسمُ مَوْصول، والمَعنَى: أَفالَّذي حَقَّ عليه كلِمة العَذاب تُنقِذه أنت، ودائِمًا اسمُ الشَّرْط والمَوصول يَتعاوَران، أي: يُستَعار بعضُهما مَكانَ الآخَر.

قوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جواب الشَّرْط: وأُقيم فيه الظاهِر مَقام المُضمَر ومَعنى كلامه أنه أُقيم فيه الظاهِر الذي هو (مَن) مَقام المُضمَر، ويَكون المَعنى على هذا الوَجْهِ: أفمَنْ حَقَّ عليه كلِمة العَذاب أفأَنْت تُنقِذه وكلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا يُوحِي بأن الجُملتَيْن مُرتَبِطتان، وليس كلٌّ واحِدة مُستَقِلَّة عن الأخرى.

ولكِنْ هناك احتِمالٌ آخَرُ خِلافُ ما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو أن الثانية مُنفَصِلة عن الأُولى، وأن تَقدير الجُملة الأُولى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ تَدفَع عنه أو كلِمة نحوها، يَعنِي: أَفتَدْفَع عمَّن حَقَّ عليه كلِمة العَذاب، ثُمَّ استَأنَف فقال: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، ولها مَعنَيان؛ الأوَّلُ: أن تَجعَله مُؤمِنًا بحيث لا يَستَحِقُّ النار، والثاني: تُنقِذه مِن النار إذا دخَل فيها.

والحاصِلُ: أن مُؤدَّى الجُمْلتيـن واحِـد: أن مَن حَقَّ عليه كلِمة العَذاب فإنه لا يُمكِن لا للرسول ﷺ ولا لغيره أن يُنقِذه من النار.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وأُقيم فيه الظاهِر مَقام المُضمَر يُفيد مَعانِيَ، منها: أن مَن حَقَّ عليه كلِمة العذاب فهو في النار، لأنه لو قال: أَفأَنْتَ تُنقِذه. لكان الإنسان يَقول: من أيِّ شَيءٍ أُنقِذه، فإذا قال: أَفأَنْتَ تُنقِذ مَن في النار. علِمْنا أن هذا الذي حَقَّ عليه كلِمة العَذاب في النار.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والهمزة للإنكار يَعنِي الهَمزة المَوْجودة في: ﴿أَفَمَنْ﴾ وفي: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ وهُما هَمْزة واحِدة على القول بأن الجُمْلتين واحِدة، فتكون الثانية تَوْكيدًا للأُولى.

والحاصِلُ: أن الله تعالى يَقول للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: هل مَن حقَّتْ عليه كلِمة العذاب يُمكِن أن تَمنَعه مِنِ استِحْقاقها، وتُنقِذه.

والجَوابُ: أنه لا يُمكِن لا هذا ولا هذا؛ لأن النبيَّ ﷺ لا يَملِك أن يَهدِيَ أحدًا حتى لا تَحِقُّ عليه كلِمة العَذاب، ولا يُمكِن أن يُنقِذ أحَدًا من النار؛ ويَدُلُّ عليه قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين نزَل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] جمَعَ أَقارِبَه وصار يُخصِّصُهم: يا فُلان ابنَ فلان لا أُغنِي عنك من الله شَيئًا. إلى أن قال ﷺ: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»[1]، فهي ابنتُه يَقول لها: المال أَستَطيع أن أَنفَعَكِ به، ولكن لا أُغنِي عنكِ من الله شيئًا، فإذا كان لا يُغنِي عن ابنَتِه شيئًا فمَن سِواها من بابِ أَوْلى.

فإن قال قائِل: كيف نَجمَع بين هذا وبين شفاعة النبيِّ ﷺ لعَمِّه أبي طالب

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب، رقم (٢٧٥٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (٢٠٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

حتى كان في ضَحضاحٍ من نار وعليه نَعْلان من نارٍ يَغلِي منهما دِماغُه[١]؛ فكيف هنا أَغنَى شَفْع ونَفَعَتْه الشفاعة؟

فيُقال: أوَّلًا: الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يَتمَكَّن من إخراجه من النار، وإذا لم يَتمَكَّن من إخراجه من النار لم يَكُن مُعارِضًا للآية، لأن الله تعالى قال: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، والنبيُّ ﷺ ما أَنقَذَه.

ثانيًا: أن التَّخفيف عن أبي طالِب ليس من أجل أنه عمُّ الرسول ﷺ، فهذا أبو لَهَبٍ عَمُّه ولكن لم يُغْنِ عنه شيئًا، لكن لِما قام به أبو طالب من الدِّفاع العظيم عن الإسلام وعن رسول الإسلام ﷺ، فإنه دافَع عنه مُدافَعةً عظيمة، بل إنه كان يَمدَح الرسول ﷺ في المَحافِل وشَهِد له بالرِّسالة، فقال:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ[٢]

هذا بَيْتٌ من لامِيَّته المشهورة التي قال عنها ابنُ كثيرٍ[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «هذه يَنبَغي أن تكون من المُعلَّقات، بل هي أَبلَغُ من المُعلَّقات، والمُعلَّقات هي قصائِدُ اختارَها العرَب وسَمَّوها: المُعلَّقاتِ السَّبعَ، وأَضافوا إليها ثلاثًا سمَّوْها: المُعلَّقاتِ العَشرَ، وهذه القصائِدُ علَّقوها في جوف الكعبة حِفاظًا عليها وتَنويهًا بها، لكن لامِيَّة أبي طالب أَشَدُّ وأَشَدُّ، يَعنِي: أحسَنُ وأعذَبُ، فشهِد للرسول ﷺ بأنه غير مُكذَّب، وأنه لا يُعنَى بقول الأَباطِل: السحَرة، بل إنه ﷺ أصدَقُ الناس وأنزَهُ الناس.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢١٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠)، وديوان أبي طالب (ص٨٤). وقال ابن هشام بعد أن ذكرها: هذا ما صح لي من هذه القصيدة، وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها.

(٣) البداية والنهاية (٤/ ١٤٢-١٤٣).

ثُمَّ يَقول في قصيدةٍ أُخرى:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا

لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارِ مَسَبَّةٍ ... لَرَأَيْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا[1]

مثل هذا الكَلامِ لو سمِعه الناس آمَنوا، فهو في الحقيقة داعِية للإسلام لكنه غير مُسلِمٍ، نَسأَل اللهَ تعالى العافِيةَ!.

إِذَنِ: التَّخفيفُ عنه لا من أَجْل أنه عمُّ الرسول ﷺ، لكن لأَجْل أنه دافَع عن الإسلام وحمَى النبيَّ ﷺ حِمايةً تامَّة، وأَعاله أيضًا فإنه بَعْد موت جدِّه عبد المُطَّلِب كان عند عَمِّه أبي طالِب، وهذا معروف، فمِن عدْل الله عَزَّوَجَلَّ أن الله شكَرَ هذا العَمَلَ وخفَّف عنه بشفاعة النبيِّ ﷺ حتى صار «فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ وَعَلَيْهِ نَعْلَانِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»، أَعاذَني الله تعالى وإيَّاكم من النار.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمعنى: لا تَقدِر على هِدايته فتُنقِذه من النار وصدَق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالإنسان لا يُمكِن أن يُنقِذ أحَدًا من النار أَبَدًا، فإذا كان نبيُّ الله ﷺ لا يَقدِر على ذلك فمَن دُونَه من بابِ أَوْلى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن مَن حَقَّت عليه كلِمة العَذاب فلا هادِيَ له، ويَشهَد لهذا قوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف:١٨٦].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات كلام الله تعالى؛ لأن الذي يَقضِي بالعَذاب هو الله عَزَّوَجَلَّ لا غيره، فكلِمة (العَذاب) صادِرة من الله تعالى، وفي هذا إثبات الكلام لله عَزَّوَجَلَّ،

(١) انظر: تهذيب اللغة (١٠/ ١١١)، وخزانة الأدب (٢/ ٧٦)، وديوان أبي طالب (ص٨٧، ١٨٩).

والقُرآن كلُّه فيه إثبات كلام الله تعالى؛ لأنه كلام الله تعالى، فكُلُّ حَرْفٍ منه فهو كلام الله تعالى إذ إن كلام الله تعالى حَرْف وصَوْت.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن النبيَّ ﷺ لا يَستَطيع أن يُنقِذ مَن في النار، وإذا كان هذا للرسول ﷺ فغيرُهُ من بابِ أَوْلى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن مَن حقَّت عليه كلِمة العَذاب فإنه في النار؛ لأننا قُلْنا: إن الظاهِر هنا نائِب مَناب المُضمَر، وأن التَّقدير أَفَأَنْت تُنقِذه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَلاغة القُرآن، وشِدَّة زواجِره حيث يَأتي بمِثْل هذا الأُسلوبِ الشديد الذي يَصرِم القلب الواعيَ الحيَّ: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾، فهذا أُسلوب شديد جِدًّا، ولا شَكَّ أن الأُسلوب الشديد في مَوْضِعه يُعتبَر من البلاغة، لأن البَلاغة هي أن يَأتيَ الكلام مُطابِقًا لمُقتَضى الحال؛ أي: لِما تَقتَضيه الحال من لينٍ وشِدَّة وتطويلٍ وإيجاز.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات النار، والنار هي الدار الثانية التي يَستَقِرُّ فيها الإنسُ والجِنُّ، وهي دار مَنِ اعتَدَى وكفَر، وهي مَوْجودة الآنَ، وستَبْقَى أَبَدًا.

الآيــة (٢٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الزمر:٢٠].

قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ هذا الاستِدراكُ من أحسَن ما يَكون؛ فلمَّا قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي﴾ استدرَك هذه الحالَ، أَعنِي: حالَ مَن لا يَدخُل النار، فقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ...﴾ إلخ.

لكن هنا لا تَعمَل؛ لأنها مُخفَّفة، وإذا خُفِّفَت تكون لمُجرَّد العَطْف فقَطْ، ومَعناها: الاستِدْراك، وعليه يَكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مُبتَدَأ، وخبَرُه جُملة ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ﴾.

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ بأن أَطاعوه فأَفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن التَّقوى هي الطاعة، وأَجمَع ما قِيل في التَّقوى: أنها طاعة الله عَزَّوَجَلَّ بامتِثال أَمْره، واجتِناب نَهيِه؛ لأنه أَمَر ونهَى لا للهَوى؛ ولهذا مَن أَطاع الله تعالى لمُجرَّد الهوى لا يَكون كمَن أَطاع الله تعالى؛ لأن الله تعالى أمَر أو نَهَى، هناك كثيرٌ من الناس يُطيع الله تعالى؛ لأن نَفْسه تَهْوى ذلك، لكن الطاعة الحقيقية هي التي يَكون الباعِث عليها امتِثال أمر الله تعالى تَرْكًا للمَنهيَّات وفِعْلًا للمَأمورات.

وقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾: ﴿ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ إشارة إلى أن تَقواهم مَبنِيَّة

على أَساس؛ لأنه ربهم، والرُّبوبية هنا تَشمَل الربوبية القدَرية والرُّبوبية الشَّرْعية؛ لأن الله تعالى ربٌّ مالِكٌ للكون قدَرًا، ومالِكٌ للحُكْم شَرْعًا، فهُمْ يَتَّقون ربهم؛ لأنه الذي خلَقَهم، ورَزَقهم، وأَعَدَّهم، وأَمَدَّهم، يَعبُدون ربهم؛ لأنه الحاكِم فيهم، وهو الذي يَأمُرهم ويَنهاهُم، فيَقومون بأَمْره ويَدَعون نَهيَه.

مَسأَلة: هناك بعض الناس عندما يُؤدِّي عِبادة من العِبادات يَتَّخِذها عادةً ليس كأَمْر من الله تعالى، فهل يُؤجَر على فِعْل هذا؟

الجَوابُ: أنه على كل حال تَبرَأ الذِّمَّة بذلك، لكنه لم يَصِل إلى درَجة الكَمال؛ ولهذا نحن نَقول دائِمًا: يَنبَغي للإنسان عند فِعْل العِبادة أن تَكون له ثلاثُ نوايا: نِيَّة العمَل، ونِيَّة المَعمول له، ونِيَّة المُتابَعة.

فنِيَّة العمَل هي أن الرجُل يَنوِي عند الظُّهر صلاة الظُّهر، ونِيَّة المَعمول له أنه يُريد بذلك التَّقرُّب لله عَزَّوَجَلَّ، وهذا كثيرًا ما يَغفُل الإنسان عنه، ويَصُدُّه الشيطان عن ذلك.

ونِيَّة المُتابَعة للرسول ﷺ، فكُلُّ هذه المَعاني -نَسأَل الله تعالى أن يَعفـوَ عنَّا- تَغيب عنَّا كثيرًا؛ لأنك إذا نوَيْت أو إذا شعَرْت بهذه النِّيةِ أَحبَبْت الله عَزَّوَجَلَّ، وأَحبَبْت الرسول ﷺ، وشعَرْت بأنك عبد لله مُتَّبِع للرسول ﷺ، وتَجِد للعِبادة طَعمًا لا تَجِده إذا أَتَيْت بها على سَبيل العادة.

ولهذا نَقول: عادات المُوظَّف عِبادات، وعِبادات الغافِل عادات.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ غُرَف جمع غُرْفة، والغُرْفة هي البِناء العالي؛ لأن البِناء العاليَ إذا كان في الأسفَل يُسمَّى: حُجْرة، وإذا كان فوقُ

يُسمَّى: غُرْفة، وهذه الغُرَفُ مَبنيَّة يَقول عنها: ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ يَعني: طبَقات قُصور عالية شامِخة، مَبنيَّة من لِبنات من الذهَب والفِضَّة، فلهم جَنَّتان من ذهَب آنيَتُها وما فيها، وجَنَّتان من فِضَّة آنيَتُها وما فيها، وهذه الغُرَفُ المَبنيَّةُ من الذهَب والفِضَّة أيضًا ليست على ما نُشاهِد في الدنيا من اللَّمَعان والحُسْن الجَذَّاب، بل هي أَشَدُّ وأعظَمُ، فلا يُمكِن أن نَتَصوَّر حُسْن هذه الغُرَفِ، ولا مَوادَّ بِنائِها أبدًا، لأن الله تعالى يَقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، ويَقول في الحديث القُدسيِّ: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(١). وهي ليس فيها شيء ممَّا في الدُّنيا إلَّا الأَسْماء فقط، لكن الحقائِق تَختَلِف اختِلافًا عظيمًا، فهي فيها عِنَب، نَخْل، ورُمَّان، لكن ليس كالمَوجود عِندنا في الدُّنيا، بل هي شيء لا يُمكِن أن يَتصَوَّره الإنسان، فهذه الجَنَّةُ مُعدَّة للمُتَّقين الذين اتَّقَوْا ربهم كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣].

فالعمَل يَسير والعِوَض كثير، فالعمَل يَسير على مَن يَسَّره الله تعالى عليه، والله تعالى يُيَسِّره على مَن صدَق النِّيَّة في التَّوجُّه إلى الله تعالى، ولم يَركَن إلى الدنيا، لأن الرُّكون إلى الدُّنيا ولا سيَّما ممَّن أَعطاه الله تعالى العِلْم ذُلٌّ وانحِطاط؛ قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، والمَثَل أَخَسُّ الأمثال؛ قال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، رقم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ ...﴾ إلخ [الأعراف:١٧٤-١٧٦].

فهذه الغُرَفُ التي أَعدَّها الله تعالى للمُتَّقين الذين أَخلَصوا النِّيَّة لله تعالى رجاءَ الوُصول إلى ثوابه، ولا يَفعَلون طاعة إلَّا وهُمْ يُؤمِنون بأنَّ لها ثوابًا في هذه الجَنَّةِ؛ لأن هذه العَقيدةِ يَحمِلك على إحسان العِبادة، فإذا علِمْت أنه ما من عِبادة تَقوم بها إلَّا من أَجْل الحُصول على هذا الثوابِ سَوْف تَحرِص على العمَل، وتُتقِن العمَل.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تَحْت هذه الغُرَفِ العُليا وما تَحتَها.

و﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جمع نَهْر أو نهَر؛ لأن نهر أو نهر من الكلمات الثلاثية التي ثانيها حرفُ حَلْق؛ ومثلها بحر، فيَجوز فيها تَسكين الحَرْف الثاني وفَتْحُه، تَقول:

و﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جمع نَهْر أو نهَر؛ لأن الكلِماتِ الثلاثيةَ التي ثانيها حَرْف حَلْق مثل كلمة نَهْر وبَحْر يَجوز فيها تَسكين الحَرْف الثاني وفَتْحُه، تَقول: نَهَر ونَهْر وبَحْر وبَحَر، فهنا نَقول: أنهار جَمْع: نَهْر، وهي أربعة أنواع بيَّنها الله تعالى في سورة القِتال، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥]؛ فهذه أربعةُ أنواعٍ.

فمِن نِعَم الله تعالى ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾، يَعني: غير قابلٍ لأَنْ يَكون آسِنًا، والآسِ هو المُتغيِّر، وأنتم تَعلَمون أن الماء إذا بَقِيَ في الإناء مُدَّة أو في مَقرِّه في البِئْر مُدَّة يَتغيَّر.

ومِن نِعَم الله تعالى أنها أنهار لا تُحلَب من الضُّروع، ولا تَأتِي من نَحْل؛ أنهار

تَمشِي على الأرض تَجرِي، وقد جاء في الأثَر: «أنَّها تَجرِي بلا أُخدودٍ»[١] أي: بلا مَجارٍ على وجهِ الأَرْض، ولا تَحتاج إلى حَفْر سَواقٍ، ولا إلى جُدران تَمنَع من سَيَلان الماء، بل تَجرِي بدون شيء، وورَد أيضًا: «أنها تَجرِي باختِيار الإنسان حيث يُوجِّه النهرَ حيث شاء، ويُمسِكه حيث شاء»[٢]؛ لأن الله تعالى يَقول: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف:٧١]، نَسأَل الله تعالى أن يَجعَلنا وإيَّاكم مِنهم.

ومِن نِعَم الله تعالى علينا في الأرض أن: نَهْر النِّيل وسَيْحونَ وجَيْحونَ من الجَنَّة، وقد ورَد فيه الحديث أنها «مِنْ أَنْهَارِ الجَنَّةِ»[٣]، لكن المَعنى أنها تُشبِه أنهار الجَنَّة بالصَّفاء، وليس مَعناه: أنها نزَلَت من السَّماء، فهو من باب التَّشبيه البَليغ.

وقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾: ﴿وَعْدَ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَنصوب بفِعْله المُقدَّر]، أي: وعَدوا وَعْدَ الله، أو على رأيٍ آخَرَ مُحتَمَل: التَّقدير أَنجَزوا وعدَ الله، يَعنِي: أَنجَز الله لهم وَعْده، وعلى هذا يَكون مَنصوبًا بفِعْلٍ مُقدَّر من غير فِعْله، أمَّا على رأيِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهو مَصدَرٌ مَحذوف العامِل.

قوله تعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَعْدَهُ فأَفادَنا بأنَّ (أل) هُنا نائِبة مَناب الضمير، وأن المِيعاد بمَعنَى: الوَعْد؛ فقوله تعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي: أنه لا يُخلِف ما وعَدَه بشيء آخَرَ؛ لأن لفظة (أَخلَفَ) تَدُلُّ على

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٢٧٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٨٤٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٨/ ٤٠٧)، عن مسروق من كلامه.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١/ ٢٤٠).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب ما في الدنيا من أنهار الجنة، رقم (٢٨٣٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

إبدال شيء بشيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ:٣٩]، بخِلاف (خلَف) فإنها تَدُلُّ على خُلفِ شيءٍ لشيءٍ، فيُقال: خلَفَه. أي: أتى بعدَه، أَخلَفَه بمَعنَى: جعَل له بَديلًا؛ ولهذا يَقول المُصاب: «**اللَّهُمَّ آجِرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا**»(١)، يَعنِي: أَعطِني بدَلًا عنها.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ إنما كان كذلك لكمال صِدْقه، وكمال قُدْرته، لأن إخلاف الميعاد إمَّا أن يَكون لكذِب الواعِد، وإمَّا أن يَكون لعَجْزه، والله عَزَّوَجَلَّ مُنزَّهٌ عن هذا وهذا، فهو كامِل الصِّدْق كامِل القُدْرة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيان عُلوِّ مَنزِلة المُتَّقين؛ لأن الاستِدْراك هنا كأنه انتِشالٌ لهم ممَّا سبَق ذِكْره من الوعيد الشديد لهؤلاء الذين حَقَّت عليهم كلِمة العَذاب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن التَّقوى سبَبٌ لدُخول الجَنَّة؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ...﴾ إلخ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن تَقواهم لله تعالى له سبَب سابِق ولاحِق، فالربوبية الخاصَّة في قوله تعالى: ﴿رَبَّهُمْ﴾ اقتَضَت أن يَتَّقوه، وهم يَتَّقون ربهم الذي سيُثيبُهم، فالتَّقوى لها سبَب سابِق، وهو: عِناية الله عَزَّوَجَلَّ بهِمْ، ولها سبَبٌ لاحِق وهو: ما يَرجونه من ثواب الله عَزَّوَجَلَّ، وكل هذا يُحمَل على التَّقوَى، فهو ربُّهم حيث وفَّقَهم للتَّقوى، وربُّهم حيث أَثابهم عليها.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب: الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، رقم (٩١٨)، من حديث أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن مَنازِل الجَنَّة غُرَف مَبنيَّة بعضُها فوقَ بعض؛ لقول الله تعالى: ﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾، وهذه الغُرَفُ تَختَلِف بحسَب العامِل، وقد بيَّن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن جَنَّتَيْن من جَنَّات الخُلْد من ذهَب آنِيَتُهما وما فيهما، وأن جَنَّتَيْن من فِضَّة آنِيَتُهما وما فيهما[1].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَمام النعيم حيث كانت هذه الغُرَفُ تَجرِي من تحتها الأنهار، وفيها الأشجار، وفيها من كُلِّ ما يَتمَنَّاه الإنسان، بل فوقَ ذلك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن هذا النَّعيمَ ثابِتٌ بوَعْد الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات أن الله تعالى لا يُخلِف المِيعاد؛ لكَمال صِدْقه وكمال قُدْرته، ففيها: إثبات كَمال الصِّدْق، وكمال القُدْرة.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، رقم (٤٨٧٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، رقم (١٨٠)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٢١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٢١].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً...﴾ الهَمـزة هنا للاستِفهام، والغالِب أن هَمْزة الاستِفهام إذا دخَلَت على نفيٍ تكون للتَّقرير، فمَعنَى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: قد رأَيت، ونَظير هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، أي: قد شَرَحْنا لك صَدْرك، فيَكون الاستِفْهام هنا للتَّقرير، أمَّا (لم) فهِيَ حرف جَزْم ونفيٍ وقَلْب.

وتَفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تَرى بـ[تَعلَم] فيها احتِمال: أن الرُّؤية هنا رُؤية العِلْم، واحتِمال: أن الرُّؤية رُؤية البصَر، فإن كان شيء مُشاهَدًا للإنسان حيث يَكون حولَه، فهي رُؤية بصَر تَتْبَعها رُؤية العِلْم، وإن كان بعيدًا يَسمَع عنه سماعًا فهي رُؤْية عِلْم.

والخِطاب في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، إمَّا للنبيِّ ﷺ، وإمَّا لكل مَن يَصِحُّ خِطابه.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من العُلوِّ، وليس المُرادُ بذلك السَّماءَ السَّقْف المَحفوظ، لأنه من المعلوم أن المطَر يَنزِل من السَّحاب، والسَّحاب مُسخَّرٌ بين السماء والأرض، وعلى هذا يَكون المُرادُ بالسماء العُلوَّ.

وقوله تعالى: ﴿مَآءً﴾ هو المَطَر.

وقوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، سلَكه بمَعنَى: أَدخَله، ومنه سَلْك الخَرَز، يُدخَل فيها حتى يَنظِمها، واليَنابيع جَمْع يَنبوع، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَدخَله في أَمكِنةٍ في الأرض]، يَعنِي: يَنبُع متى أَراده الإنسان، وذلك من تَمام الحِكْمة وتَمام الرَّحْمة؛ لأن هذا الماءَ لو بَقِيَ على ظَهْر الأرض لأَنْتَن وفسَد ولأَفسَد غيره أيضًا، فكان من رحمة الله أن يُدخِله في الأرض يُخزِّنه كما قال تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون:١٨]، ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر:٢٢].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ﴾: ﴿ثُمَّ﴾ تَدُلُّ على التَّرتيب بمُهْلة؛ لأن هذا الذي يَنزِل يَخرُج بالمطَر لا يَخرُج فورًا، لكنه يَخرُج بالتَّدريج، ومن سُنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن تَكون الأشياء بالتَّدريج؛ لئَلَّا يَحصُل التَّصادُم في الكون.

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾: ﴿بِهِۦ﴾ الباء للسَّبَبية، أي: بسَبَبه، وليس المطَرُ هو الذي يَخلُق هذا النَّباتَ، لكنه سبَبٌ له.

وقوله تعالى: ﴿زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ هذه صِفة للزَّرْع، لكن هل المُختَلِف الزَّرع أو لَونُه؟

الجَوابُ: أن المُختَلِفَ ألوانُه لأن الصِّفة هنا عادت إلى غير المَوْصوف مَعنًى، ويُسمِّي عُلَماء النحو رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ هذا النَّعتَ نعتًا سبَبيًّا؛ لأن مَعناه يَعود إلى غير المَنعوت، فهو تابع للمَنعوت في الإعراب، ولكن مَعناه لغيره، كما قُلْت: رأيت رجُلًا كريمًا أبوه. فالكريم أَبوه، وإجراء الصِّفة على الأبِ لا على الرجُل؛ لهذا تَقول: (كريمًا) نَعْت لـ(رَجُلًا) أو صِفة لـ(رجُلًا)، مع أن حقيقة الوَصْف في غيره، فيُسمَّى هذا: نعتًا سببيًّا.

قوله تعالى: ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ هل المُراد بالألوان: الأَشْكال أو الأَلْوان التَّلوينُ أو يَشمَلهما؟

الظاهِر أنه يَشمَل هذا وهذا، فأَلوانه يَعنِي أصنافه، ويَعنِي أيضًا اللون، فهذا الزَّرعُ الذي يَخرُج من الأرض بالمطَر تُشاهِدونه يَختَلِف في ألوانه، ويَختَلِف في أَشكاله، واخرُجوا إن شِئْتم إلى أدنى شارِع ستَجِدون الاختِلاف العجيب، تَجِدون شجَرتين إلى جَنْب، ومع ذلك تَجِد هذه أوراقها مُختَلِفة عن هذه، وتَجِد لونها مُختلفًا عن هذه، وتَجِد الزهرات التي فيها أيضًا تَختَلِف، وتَجِد الثمَر الذي يَخرُج منها يَختَلِف مع أن الماء واحد والأرض واحِدة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يَعنِي: [يَيْبَس] ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: أن هذا النباتَ الذي خرَج يَسُرُّ الناظِرين، مُختَلِف الألوان أَصابه رِيح أو حَرٌّ شديد أو مع طول الزمَن يَيْبَس ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد أن كان أَخضَرَ ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فُتاتًا مُتحطِّمًا؛ لأنه إذا يَبِس تَكسَّر، ثُم تَحطَّم.

وقوله: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ تَذكيرًا] ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يَعنِي: العُقول الذي [يَتَذكَّرون به لدَلالته على وَحْدانية الله تعالى وقُدْرته].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المُشار إليه كل ما سبَق من إنزال المَطَر من السماء، وإدخاله يَنابيعَ في الأرض، وإخراج الزَّرع به، وعود الزرع إلى الاصفِرار والتَّحطُّم، فهذه عِدَّة أشياءَ تُذكِّر الإنسان: إنزاله من السماء وإدخاله في الأرض، وإخراج الزَّرْع به واختِلاف الألوان، وهذا كلُّه آية وذِكرى يَتذكَّر به أُولو الأَلباب على قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى رحمته، وعلى حِكْمته.

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا...﴾ إلخ، أي: يَتذكَّر به أُولو الأَلْباب

على أن كل ما كمَل من الدُّنيا عاد ناقِصًا، ويَدُلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس:٢٤]، فالذِّكْرى هنا ليسَت مُجرَّد الدَّلالة على وَحْدانية الله تعالى وقُدرته، بل هي أَشمَلُ.

ومن أهمِّها: الدَّلالة على أن ما كمَل في الدنيا فمَآله إلى النَّقْص، فالصِّحَّة مَآلها إلى المرَض، والحياة مَآلها إلى الموت، وهكذا قِسْ كل ما في الدنيا على هذا المِثالِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيان قدرة الله عَزَّوَجَلَّ في إنزال هذا المطَرِ من السماء، لأنه لا يُمكِن لأَحَد أن يَستَطيع إنزاله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان:٣٤].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حِكْمة الله ورحمته، حيث جعَل هذا الماءَ يَنزِل من السَّماء؛ لأنه لو كان يَنبُع من الأرض لم تَستَفِدْ به عامة الأرض من وجهٍ ولم يَصعَد إلى قِمَم الجِبال إلَّا إذا أَغرَق الناس الذين يَعيشون تحت الجِبال، فكان من الحِكْمة أنه يَنزِل من السَّماء ليَعُمَّ المُرتَفِع والمُنخَفِض، وليَشمَل الأرض كلَّها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ في كيفية نُزول هذا الماءِ على قَطَرات، ولو نزَل صَبًّا كما تُصَبُّ أَفواه القِرَب لأَهلَكَ الناس، وهدَم البِناء، ولكن من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أنه يَنزِل قَطَراتٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن السماء يُطلَق على العُلوِّ.

ويَترتَّب على هـذه الفائِدة: أن قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] يُمكِن أن يُراد به مَن في العُلوِّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيان قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته بالعِباد حيـث سلَكَ هذا الماءَ يَنابِيعَ في الأرض، ولم يَبقَ راكِدًا على ظَهْرها؛ لِمَا في ذلك من الحِكْمة والرَّحْمة، فنَراه مَخزونًا في الأرض، متى احتاجه الناس استَخْرَجوه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيان قُـدْرة الله تعالى حيـث أَخرَج بهذا الماءِ ذلك الزرعَ المُختَلِفَ الألوان.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات الأسباب كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن السبَـب لا يَستَقِلُّ بالتَّأثير في المُسبَّـب؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ﴾ فأَضاف الإخراج إلى الله تعالى، وهذا هو الذي عليه سلَف الأُمَّة وأئِمَّتها، فالأسباب لها تَأثيرٌ في المُسبَّبات، ولكن تَأثيرها بفِعْل الله تعالى.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بَيان قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ حيث أَخرَج هذا الزَّرعَ المُختَلِفَ الألوان مع أنه يَتَغذَّى بماء واحِد ومن طينةٍ واحِدة؛ لقوله تعالى: ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن كمال الدُّنيا مُؤْذِنٌ بنَقْصها؛ لأن الله تعالى ضرَب ذلك مثَلًا للدُّنيا كما في الآيات التي سُقْناها.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن الذين يَتَذكَّـرون بآيات الله تعالى الكونيـة هم أُولو العُقول، وأمَّا مَن لا يَتَذكَّر بها ويَقول: هذه الطبيعةُ تَتفاعَل وتَتَجارَى! فإنه لا عَقلَ له.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنه يَنبَغي للإنسان أن يَستَعمِل عَقْله في مَخْلوقات الله عَزَّوَجَلَّ ليَتَذكَّر به فيما في هذه المَخلوقاتِ من عظَمة الخالق؛ لأنه عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

الآيــة (٢٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢].

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كمَن طبَع اللهُ على قَلْبه ﴿أَفَمَن﴾ الهَمْزة للاستِفهام والفاء عاطِفة، واختَلَفوا في المَعطوف عليه على قولين: إمَّا شيء مُقدَّر، أو على ظاهِر ما سبَقَ.

وقوله تعالى: ﴿شَرَحَ﴾ أي: وسَّع، ومنه قولنا: فُلان شـرَح الكِتاب، يَعنِي: وَسَّعه، ومنه: شرَحَ صَدْره للإسلام.

ويُحتَمَل أن يُراد ما في الصَّدْر، ويَكون المَعنَى أن الله تعالى يُوسِّع القَلْب فيَجعَله مُنفَتِحًا للإسلام لا يَضيـق به ذَرْعًا، ويُحتَمَل أنه الصَّدْر نَفْسه؛ لأن الإنسان يُحِـسُّ بالشيء إذا أَغمَّه أن صَدْره ضاق، وإذا جاءَه ما يُفرِحه نَفْس الصَّدْر يَنشرِح -وإن كان الأصل القَلْـب، لكن مكان القَلْـب يَكون فيه اتِّساع وضِيق- وهذا شيءٌ مُشاهَد، فإبقاء الآية على ظاهِرها، وهو أن المُراد بالصَّدْر حقيقته، أي: أن حقيقة الصَّدْر أَوْلى، فيَنشَرِح الصدر للإسلام، ويَتقبَّل جميع شرائعه؛ إن أُمِر بالشيء انشَرَح لقَبوله والعمَل به، وإن نُهِيَ عن شيء انشَـرَح لقَبوله واجتِنابه، وإن أُخبِر عن شيء انشَـرَح لقَبوله وتصديقه وهكذا، وقِسْ هذا برجُل فاسِق إذا أمَرْته بالصلاة تَجِده يَضيق صَدْره

وربما يَقول: أنا لا أُصلِّي لك! دَعْني! وبعض الناس إذا أَمَرْته وذكَّرْته فرِحَ وانشَرَح صَدْره، وقد بيَّن الله تعالى في سورة الأنعام صورةً مُقرَّبة لهذا المَعنَى فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ يَعنِي: شديد الضيق ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥] يَعنِي: كأنه إذا عُرِض عليه الإسلام يَصعَّد في السماء، أي: يَتكَلَّف الصعود.

وقدِ اختَلَف العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في مَعنَى ﴿يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ هل مَعناه: ما اشتُهِر الآنَ من أن الإنسان كُلَّما ارتَفَع في الجَوِّ كثُر عليه الضَّغْط، أو أن المَعنى: يَصعَد جَبَلًا عاليًا شامِخًا يَتعَب في رُقيِّه، فالمُفسِّرون السابِقون لا شَكَّ أنهم لا يَعرِفون عن مَسأَلة الضَّغْط، والمُتأخِّرون يَعرِفونه، والله عَزَّوَجَلَّ يَعلَم هذا وهذا، والآية صالِحةٌ للأَمْرين؛ لأنك لو تَصوَّرت جبَلًا صَعْبَ الرُّقيِّ، وعاليًا يَعنِي: في السماء، مَعناه: عالٍ، وصَعِده الإنسان يَتكلَّف لا سيَّما إن كان عنده ضَغْط يَتعَب جِدًّا، وإذا قُلْنا: إن المُراد بذلك أن الإنسان يَصعَد في السماء فوق الغِلاف الجَويِّ فهو ظاهِر أيضًا.

قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ من عَلامة شَرْح الصَّدْر: قَبول الخبَر، وتَصديقه، وقَبول الأمر وامتِثاله، وقَبول النهي واجتِنابه، أي: لا يَكون عنده تَردُّد فهذا لا شَكَّ أنه كما قال تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فاهتَدى فهو على نور فأَفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن في الآية حَذْفًا، تَقديره: فاهتَدَى، ويُؤيِّده: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ﴾، لكن الواقِع: أنه لا حاجةَ لهذا التَّقديرِ؛ لأن قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أَيْ: بمُجرَّد أن يَشرَح الله تعالى صَدْره للإسلام يَصير على نور، وهو إذا شرَحَ الله تعالى صَدْره للإسلام فهو سيَهتَدي قَطْعًا.

وقوله: ﴿نُورٍ﴾ يُحتَمَل أن يَكون نورًا حِسِّيًّا، أو مَعنَويًّا، فالمَعنوِيُّ، أَيْ: على نورٍ، والحِسِّيُّ أي: ولو كان في حُجْرةٍ مُظلِمة فهو على نور، يَعنِي: يَجِد نَفْسه أنه يَمشِي على نور.

وهو يَشمَل نور الدنيا ونور الآخِرة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد:١٢].

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾، الربوبية هنا مُضافة إلى هذا الذي شـرَحَ الله تعالى صَدْره للإسلام، وهي رُبوبية خاصَّة؛ لأنها أُضيفَت إلى مَن هَداه الله تعالى.

وفي الآية شيء مَحذوف دلَّتْ عليه الهَمزة، وقَدَّره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [كمَن طُبِع على قَلْبه]، ولو أن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (كمَن ضاقَ صَدْره بالإسلامِ)، لكان هذا أنسَبَ في المُقابِلة؛ لأنه يَنبَغي أن تَجعَل مُقابِل الشيء مُضادًّا له، ولا تَأتي بشَيْء آخَرَ.

فمثَلًا: لو قال الله تعالى: (أَفَمَن وسَّع الله قَلْبه) لكان المُناسِب أن يَكون المُقدَّر كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾ يَكون التَّقدير المُناسِب كمَن ضَيَّق الله تعالى صَدْره بالإسلام فضاق به ذَرْعًا.

وجوابُ هذا الاستِفْهامِ المَذكور في الآية: (لا)، فيَكون الاستِفهام مع المُقدَّر للنَّفيِ، أي: مَن لم يَشـرَح الله تعالى صَدْره للإسلام فإن قَلْبه مُظلَم -والعِياذُ بالله تعالى- ليس فيه نور، لا نور عِلْم ولا نور إيمان.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَوَيْلٌ﴾ أي: كلِمة عَذاب ﴿لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾]، ﴿وَيْلٌ﴾ مُبتَـدَأ و﴿لِّلْقَٰسِيَةِ﴾ خبَـرُه و﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ مُتعَلِّق بالقاسِـية ﴿وَيْلٌ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنها كلِمة عَذاب وما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أصَحُّ ممَّا قيل: إنها وادٍ في

جَهنَّمَ؛ لأن الإنسان يُقال له: ويلٌ لك من كذا في غير النار؛ قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩]، فهي كلِمة عَذاب ووعيد.

وقوله تعالى: ﴿لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ القاسِية اسمُ فاعِل، و﴿قُلُوبُهُم﴾ فاعِلٌ به، والقاسِي ضِدُّ اللَّيِّن، واللَّيِّن قَلْب المُؤمِن، والقاسِي قَلْب الكافِر.

وقوله تعالى: ﴿مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: عن قَبول القُرآن، فأَفادَنا المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: أن ﴿مِّن﴾ بمَعنَى (عَنْ)، وأن المُراد بـ﴿ذِكْرِ اللَّهِ﴾: القُرآن، والمَعنَى: فوَيْلٌ للذين تَقسُو قلوبُهم عن القرآن، لكن الأَوْلى إبقاء الآية على ظاهِرها.

ويُحتَمَل أن يَكون قوله تعالى: ﴿مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: بسبَب ذِكْر الله تعالى: فتكون (مِن) للسَّببية أي: تَقسو قلوبُهم بسبَب ذِكْر الله تعالى، ويُحتَمَل أن المُراد بذِكْر الله تعالى ما هو أعمُّ من القرآن، ويَكون المَعنَى: أن هؤلاءِ كلَّما ذُكِر الله تعالى قسَتْ قُلوبهم.

ووجهُ ذلك: أنهم لا يُريدون ذِكْـر الله تعالى، فإذا كرِهوا ذِكْـر الله تعالى قَسا القَلْب عُقوبةً لهم، ويَدُلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٥].

فتَجِد هَؤلاءِ القومَ أَعنِي: المُؤمِنين تَزيدهم السُّورة إيمانًا، والذين في قُلوبهم مرَض تَزيدهم رِجْسًا إلى رِجْسهم.

إِذَنْ نَقول: القاسِـية قُلوبهم من ذِكْر الله تعالى يَعنِي الذين إذا ذُكِـر الله تعالى قسَـتْ قُلوبهم، فلا يَقبَلونه، وإذا لم يَقبَلـوه ازدادت قُلوبُهم قَسـوةً وقوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المُشار إليهم همُ القاسِية قلوبُهم.

وقوله تعالى: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بمعنَى بيِّن، والأحسَن أن تكون للظَّرْفية، وما أَحسَنَها في هذا المَوضِعِ إشارةً إلى أن الضَّلال قد أَحاط بهم من كل جانِب كما تُحيط الحُجْرة بساكِنها، وإذا كان الضَّلال قد أَحاط بهم من كل جانِب، فإنه لا يُرجَى لهم خَيْر -والعِياذُ بالله تعالى-؛ لأنهم في ضَلالٍ مُبين.

وعندما تُقابِل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ بقوله تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يَتبيَّن لك أن النور في الآية: نور العِلْم ونور الإيمان وضِدُّ العِلْم الضَّلال.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: نَفيُ التَّساوِي بين الفَريقين، بين مَن شَرَح الله تعالى صدره للإسلام ومَن لم يَشرَح؛ لأن الاستِفهام هنا بمَعنَى النَّفيِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الهِداية بيَدِ الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾.

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: أنه متى عَلِم الإنسان أن الهِداية بيَدِ الله تعالى، فإنه لا يَلتَفِت في طلَب الهِداية إلَّا إلى الله تعالى، وإذا عَلِم أن الهِداية بيَدِ الله تعالى فلا يُعجَب بنَفْسه إذا اهتَدى، بل يَقول لنَفْسه: لولا أن الله تعالى هَداه لكان ضالًّا. فلا يَقول: إنما أُوتيتُه على عِلْمٍ عندي. أو يَقول: هذا لي. بل يَعتَرِف بفَضْل الله تعالى عليه، وأنه لولا هِداية الله تعالى ما انتَفَع إلى يوم الدِّين.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن قوله تعالى: ﴿لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: لقَبوله والتِزامه، والإسلام له مَعنَيان: الأوَّل: عامٌّ، والثاني: خاصٌّ؛ فالعامُّ يَشمَل كلَّ مَنِ استَسلَم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بطاعته حين كان الشَّرْع قائِمًا، وعلى هذا فاليَهود في زمَن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مُسلِمون،

وفي زمَن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كافِـرون، والنَّصارى في زمَن عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُسلِمـون، وفي زمَن محمَّدٍ ﷺ كافِـرون؛ لذلك نَجِد أن الله عَزَّوَجَلَّ يَصِف بالإسلام قومَ نوحٍ ومَن بَعدَهم.

أمَّا المَعنَى الخاصُّ للإسلام فهو ما كان خاصًّا بشَرْع محمدٍ ﷺ، فالناس بعد بعثة مُحمدٍ ﷺ إمَّا مُسلِمون وإمَّا كافِرون، فالمُسلِمون مَنِ اتَّبَعوا الرسول ﷺ دون غيره، وهذا يُسمَّى: الإسلامَ الخاصَّ، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ يَعنِي به الإسلام الذي بُعِث به مُحمَّد ﷺ، ولا يُمكِن لأَحَدٍ أن يَدَّعيَ أنه مُسلِم بعد بعثة النَّبيِّ ﷺ إلَّا إذا كان مُتَّبِعًا له؛ لأن الإسلام بعد بعثتـه صار خاصًّا بمَنِ اتَّبَع شَريعته.

فهنا قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ نُفسِّره بالمَعنَى العامِّ، فيَشمَل مَن شرَح الله تعالى صَـدْره للإسلام في عهد الأنبياء السابِقين، ومَن شرَح الله تعالى صَـدْره للإسلام في عهـد الرسول ﷺ، قال موسى ﷺ: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ [طه:٢٥-٢٦]، لكن إذا كان الخِطاب مُوجَّهًا إلى ما بعدَ بعثة الرسول ﷺ فإنه يَتَعيَّن أن يَكون المُرادُ به الخاصَّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن مَن شَرَح الله صدره للإسلام -وأَسأَل الله تعالى أن يَجعَلَني وإيَّاكم منهم- يَجِد نَفْسه قابِلًا لشرائِع الإسلام مَسرورًا بها، ويَفرَح إذا أدَّى طاعةً من طاعاتِ الله تعالى، ويَحزَن إذا فعَل مَعصيةً من مَعاصي الله تعالى، حتى إن الذين بلَغوا الغاية في هذا يَغتَمُّون لما حصَل منهم من خَلَل وإن لم يَكُن عن قَصْد، يَعنِي: إذا فاتَتْه عِبادة يَجِد نفسه في غمٍّ وحُزْن وهو لا يَشعُر بذلك.

وأَضرِب لهذا مَثَلًا بالنبيِّ صلوات الله وسلامه عليه لَمَّا سلَّم من ركعتين من

صلاة الظُّهر انفتَل من صلاته كأنه مَغموم، فقام على غير عادته إلى خشَبةٍ في قِبْلة المسجِد، واتَّكَأ عليها، ووضَع يديه كأنه مُغضَب[1]؛ لأن صلاته لم تَتِمَّ، فانقبَضت نفسُه من حيث لا يَشعُر، لكن هذا لكمالِ درجاتِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يَجعَل في نَفْس الإنسان انقِباضًا وإن كان لا يَشعُر؛ لأنه لم يُتِمَّ العِبادة المَطلوبة منه، اتَّكَأ عليها وشبَّك بين أصابعه كجِلسة المَهموم حتى ذُكِّر.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن القَسوة هي الشِّدة بحيث إذا لَمَسْتَ الشيء لم يَنضغِط بضَغْطك عليه مثل: الحجَر، وقد ضَرَب الله عَزَّوَجَلَّ قَسْوة القَلْب بالحِجارة فقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤]، ولم يَقُل: فهي كالحديد مع أن الحَديد يَكسِر الحِجارة، والحِجارة لا تَكسِر الحَديد؛ وذلك لأن الحَديد يَلين بإحْمائه على النار، والحِجارة لا تَلين، فلهذا شُبِّهَت قَسوةُ القُلوب بالحِجارة. فالقاسِيةُ قلوبُهم بمَعنى: التي قَسَت فلم تَلِن للحقِّ، نَسأَل اللهَ تعالى العافِيةَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أنه أَشار إليهم بإشارة البَعيد للتَّنويه بسُفولهم وانحِطاط مَرتَبَتهم؛ لأن الإشارة بالبَعيد تارةً تَكون إشارةً إلى عُلوِّ المَرتَبة، وتارةً تَكون إشارةً إلى انحِطاط المَرْتبة، ففي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:٢] لعُلوِّ المَرتَبة، وفي قوله هنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ لانحِطاط المَرتَبة.

فإن قال قائِل: هذه المعاني التي تَختَلِف واللَّفْظ واحِد ما الذي يُعيِّن أحَدَ المَعنيَين؟

قُلنا: يُعيِّنه السِّياق، وحالُ المُتحدَّث عنه؛ لأن السِّياق والقَرائِن كلٌّ منهما يُعيِّن المُراد.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم (٤٨٢)، ومسلم: كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ هنا تَحتَمِل أن تكون من (أَبان) اللازِم ومن (أَبان) المُتعَدِّي؛ فالفِعْل (بان) اللازِم تَقول: بانَ الأَمْر، بان الصُّبْح، بان المَعنَى؛ وبالهَمْز (أَبان): تَصِحُّ أن تكون مُتعَدِّية وأن تكون لازِمة حَسَب السِّياق، تَقول مثلًا: أَبان الفَجْر؛ بمَعنى: بان، أي: ظهَر، وتَقول: أَبان الرجُلُ الحَقَّ؛ بمَعنَى: أَظهَره، فهنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ الظاهِر أنها من اللازِم أي في ضَلالٍ بيِّنٍ ظاهِر. وقول الشارِح: إن «مِن بمَعنَى عَنْ»[1] مَبنيٌّ على مَسألة خِلافية بين النَّحْويِّين الكُوفيِّين والبَصريِّين، وهي أنه إذا جاء الحَرْف في غير مَوْضعه فهل هو نائِبٌ عن حَرْفٍ يَكون مُناسِبًا للسياق؟ أو إن المُتعَلِّق به يُقدَّر بمَعنًى يُناسِب الحرف؟ ولتَوْضيح ذلك نَأخُذ مِثالًا بقوله الله تعالى: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦]، فالعَيْن لا يُشرَب بها، بل يُشرَب مِنها، فهُنا اختَلَف النَّحويُّون: هل الباء بمَعنَى: (مِن) فيَكون حَرفٌ نابَ عن حَرْف؟ أو (يَشرَب) بمَعنَى (يَروَى)؛ أي: يَروَى بها عِباد الله تعالى، فيَكون الشُّرْب مُضمَّنًا مَعنَى الرِّيِّ، والرِّيُّ يَتضمَّن الشُّرْب وزيادة؟

الجَوابُ: في هذا خِلاف بَيْن النَّحويِّين الكوفيِّين والبَصريِّين، وشيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُرجِّح القولَ الثانيَ: أن الفِعْل يُضمَّن مَعنًى يَتناسَب مع الحَرْف؛ لأننا إذا قُلنا بالتضمين استَفَدْنا فائِدتَيْن: الأُولى: مَدلول المَذكور، والثانية: مَدلول المُضمَّن؛ لأنك إذا قُلت: (يَروَى بها) استَفَدْنا أنهم يَشرَبون ويَرْوَوْن، لكن إذا قُلنا: (يَشرَبون) لم نَستَفِد إلَّا مَعنًى واحِدًا، فالتَّضمين فيه زيادة مَعنًى، لكن جَعْل حَرْفٍ بدَلَ حَرْف لا نَستَفيد به مَعنَى زائِدًا، فصار القول الراجِح في هذه المَسألَةِ ما ذهَبَ إليه شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الفِعْل يُضمَّن مَعنًى يُناسِب الحَرْف.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين (٣/ ٧١٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٢).

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيان تَفاضُل الناس في قَبول الحَقِّ، وأن منهم مَن يَقبَل الحقَّ بانشِراح ومنهم مَن ليس كذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن مَن شرَح الله تعالى صَدْره للإسلام فقَبِل الحقَّ فإنه على نورٍ من الله تعالى.

ويَتفرَّع عليها: زِيادة عِلْمه؛ لأن العِلْم نور كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء:١٧٤].

ويَتفرَّع عليها: قوة الفِراسة بمَعنَى أن الله تعالى يُعطِي الإنسان فِراسة بحيث يَعلَم ما في قُلوب الناس من لَمحات وُجوههم، بل أكثَر من ذلك يَستَدِلُّ بالحاضِر على الغائِب ويُعطيه الله تعالى استِنْتاجاتٍ لا تَكون لغَيْره، وقد ذكَر ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتاب (مَدارِج السالِكين)[1] عن شيخ الإسلام ابنِ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامًا عَجيبًا في فِراسته رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإن كان ذَكَر أشياءَ قد لا تَكون مَقبولة، ولكنه ذكَر شيئًا كثيرًا ويَستَدِلُّ لذلك بقوله تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن مَن شَرَح الله تعالى صَدْره للإسلام فإن له رُبوبية خاصَّة وعِنايةً خاصَّة منه، وذلك مَأخوذ من قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾، فإن هذه الرُّبوبية خاصَّة غير الرُّبوبية العامَّة.

فإن رُبوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِخَلْقه نوعان عامَّة وخاصَّة؛ فالعامة كقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، والخاصَّة كقول الله عَزَّوَجَلَّ عن أُولي الأَلْباب: الذين يَتفكَّرون في خَلْق السَّموات والأرض يَقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا ...﴾ إلخ [آل عمران:١٩١].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٥٨).

وقدِ اجتَمَع النَّوْعان في قوله تعالى عن سحَرة آل فِرعونَ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢]، فالأوَّل عامٌّ، والثاني خاصٌّ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: ذِكْر الوعيد الشديد لِمَنْ قَسا قلبُه عن ذِكْر الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنك إذا رأَيْت من قَلبك عدَم لينٍ لِذِكْر الله فعالِجْ نَفْسك لتَسلَم من هذا الوَعيدِ، وهذا نَشكو منه كثيرًا، فأَحيانًا يَقْسو القَلْب ولا يَلين، ويَقرَأ الآياتِ العظيمةَ الرادِعة ولا يَتأثَّر، وأَحيانًا يَقرَأ نَفْس الآيات، ثُم يَتأثَّر، فإذا عَرَفت من نَفْسك قَسوة القَلْب فالجَأْ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، واسْأَله أن يُلين قَلبك لِذِكْره، وتَأهَّب للوعيد إذا لم يَتَدارَكْكَ الله تعالى بلُطْفه ومَغفِرته.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن القُلوب قِسْمين: قلوبٌ تَلين من ذِكْر الله تعالى وأُخرى تَقْسو منه.

فإن قال قائِل: كيف يَكون الشيء الواحِد مُؤثِّرًا لنَتيجتَيْن مُتباينَتَيْن؛ أَيْ: شيء واحِد يُؤثِّر نَتيجتين مُتَقابِلتين؟

فالجَوابُ: أن هذا مُمكِن، وذلك لاختِلاف المَحلِّ الوارِد عليه هذا الشيءُ، وليس هذا بغريبٍ، لا في المَعنويات ولا في الحِسِّيَّات، أمَّا في المَعْنويَّات فكما تَقدَّم في كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وكما أن الإنسان يُلقِي الدرس على جماعة بعضُهم يَلتَهِمه التِهامًا، ويَفهَمه فَهْمًا تامًّا ويَجِده لذيذًا، والبعض الآخَرُ يُغلَق عليه ولا يَفهَمه، ثُم إذا أُغلِقت عليه كلِمةٌ واحِدة انغلَق عليه جميع الدرس، وعَجَز أن يَفهَم مع أن المُعلِّم واحِد والمَوْضوع واحِد.

مثال ذلك أيضًا أنك تَجِد التَّمْر يَأكُله رَجُلان: أحدُهما يَكون داءً عليه، والثاني يَكون له غِـذاءً، فمُصاب السُّكَّر إذا أكَل التَّمْر صار داءً عليه، والرجُل الصحيـح لا يَكون داءً عليه.

وذلك مثل الأرض تَمامًا، فإننا نَجِد الماء يَجرِي عليها، فأَرْضٌ تَقبَله وتَشرَبه وتُنبِـت، وأُخرى لا تَقبَله ولا تَنتَفِع به، فهذا ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ يَرِد على القَلْب الليِّـن فيَنتَفِع به، ويَرِد على القَلْب القاسي فيَزداد قَسوة والعِياذ بالله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أن القاسِيةَ قلوبُهم من ذِكْر الله تعالى على عَكْس مَن شرَح الله تعالى صَدْره للإسلام، فإن مَن شرَحَ الله تعالى صَدْره للإسلام يَكون على نور، ومَن قَسا قلبه من ذِكْر الله تعالى فهو في ضَلالٍ مُبين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن هؤلاءِ الذين قسَـتْ قُلوبهم من ذِكْـر الله تعالى قد انغَمَسوا انغِمـاسًا تامًّا في الضَّلال، ويُؤخَـذ هذا من حَرْف الجـرِّ (في)؛ لأن (في) للظرفية، والظَّرْف مُحيطٌ بالمَظروف، ومَعلوم أن المَظروف دون الظَّرْف؛ لذا يَكون في جوفه، فكأن هؤلاء انغَمَروا في الضَّلال، وأَحاط بهم إِحاطةَ الظَّرْف بمَظروفه، فصَدَق الله تعالى في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ نَسأَل الله تعالى لنا ولكمُ الهِداية والنور.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ﴾ جُملة خبَرية اسمِيَّة الصَّدْر، فِعْلية العَجُز ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾، و﴿نَزَّلَ﴾ من الفِعْل المُضعَّف ويَأتي التَّعبير أحيانًا بـ(أَنزَل) من الرُّباعيِّ المَزيد بالهَمْزة، واختَلَف العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: هل هُما بمَعنًى واحِد أو لا؟ والصحيحُ: أن مَعناهما واحِد إلَّا مع وجود قرينة، فمعَ وجود القرينة يَكون التَّنزيل لما يَنزِل شيئًا فشيئًا، والإِنْزال لِما يَنزِل جُملةً واحِدة، لكن هذا لا يَكون إلَّا مع القرينة، أمَّا مع عدَم القَرينة فأَنزَل ونَزَّل المُضعَّف بمَعنًى واحِدٍ؛ ولهذا يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨]، ويَقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق:٩]، وهُما بمَعنًى واحِد.

وكذلك في القُرآن؛ فمرَّة يَقول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾، وأُخرى يَقول: ﴿وَنَزَّلْنَا﴾ وهُما بمَعنًى واحِد، لكن مع وجود القَرينة يَكون التَّنزيل شيئًا فشيئًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦].

فهُنا (نَزَّلنا) تَختَلِف عن (أَنزَلنا) فهي بمَعنَى: التَّنزيل شيئًا فشيئًا، بدليل قوله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾، أمَّا ﴿أَحْسَنَ﴾ فهي اسمُ تَفضيل من الحُسْن، والحُسْن يَتضمَّن حُسْن الأُسلوب وحُسْن المَوْضوع، ويَشمَلهما قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ﴾ يَعنِي: أحسَن في أُسلوبه، وأَحسَن في مَوْضوعه:

أمَّا الأُسلوب فأَنْ يَكون مُطابِقًا للبلاغة في غايتها؛ إيجازٌ في مَوْضِع الإيجاز، وإطنابٌ في مَوْضِع الإطناب، وتَوْكيدٌ في مَوضِع التَّوْكيد، وتَخليةٌ من التَّوكيد في مَوْضِعٍ يَقتَضي ذلك، وهُلمَّ جرًّا.

وأمَّا ﴿أَحْسَنَ﴾ في المَوْضوع، فلأَنَّ مَوْضوعه أخبارٌ وأحكام، فالأَخْبار أَحسَنها أَصدَقها، وأَنفَعها في العِبْرة، والأَحكام أَحسَنها أَعدَلُها، وأَقومُها بمَصالِح العِباد، والقُرآن الكريم مُتضمِّنٌ للأَحْسَنَيْن الأُسلوب والمَوْضوع.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كِتَٰبًا﴾ بدَل من ﴿أَحْسَنَ﴾] أو عَطْف بَيان، فتكون عَطْف بَيان إذا جعَلْنا ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ شَيئًا واحِدًا، وتكون بدَلًا إذا جعَلْنا ﴿كِتَٰبًا﴾ مُستَقِلًّا عن ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾.

فيَصِحُّ أن نَقول: بدَلًا أو عَطْف بَيان بشَرْط أن يُوصَل بما بعدَه ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾؛ وذلك لأن عَطْف البَيان يَكون مُبيِّنًا للمَعطوف عليه؛ ولهذا سُمِّيَ: عَطفَ بَيانٍ، ولا يَكون مُبيِّنًا إلَّا إذا جعَلْنا كلِمة (مُتَشابِهًا) صِفةً لازِمة.

و﴿كِتَٰبًا﴾ أي: مَكتوبًا؛ لأن صيغة فِعال تَأتي بمَعنَى مَفعولٍ كثيرًا، ومنه: الغِراس، والبِناء، والكِساء، والفِراش، والوِطاء، وأَمثِلةُ هذا كَثيرة في اللغة العربية.

و﴿كِتَٰبًا﴾ بمَعنَى: مَكتوبٍ، والقُرآن مَكتوب في ثلاثة أشياءَ: في اللَّوْح

المَحفوظ، وفي الصُّحُف التي بأَيْدي المَلائِكة، وفي الصُّحُف التي بأَيْدينا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ أي: قُرآنًا] هذا مَعنوِيٌّ، والفَرْق بين التَّفسير اللَّفْظيِّ والمَعنَوِيِّ أننا إذا أَرَدْنا أن نُفسِّر تفسيرًا لفظيًّا أَتَيْنا باللفظ نَفْسه، وإذا أَرَدْناه مَعنويًّا أَتَيْنا بالمعنى.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ قال: أي: يُشبِه بعضُه بعضًا في النَّظْم وغيره] أي: يُشبِه بعضُه بعضًا في النَّظْم، واعلَمْ أنه لا يُراد بالنَّظْم هنا ما يُقابِل النَّثْر، فإن القُرآن ليس شِعرًا، لكن في النَّظْم، أي: نَظْم الكلام وتَنظيمه حتى يَكون مُشبِهًا بعضُه لبعض.

فقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ يَعنِي: كِتابة يُشبِه بعضُها بعضًا في الكَمال والجَوْدة وحُسْن المَوْضوع، فلا تَجِده مُتَناقِضًا أبدًا، ولا تَجِده مُختلِفًا أبدًا، لكن بحسَب المَقام تارةً يَكون المَقام يَقتَضي الاختِصار، وتارةً يَكون المَقام يَقتَضي البَسْط، فإذا نظَرْنا إلى سورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والسورة التي قَبلَها وجَدْنا بينهما تَشابُهًا في الحُسْن، حيث إن كل سورة كانت مُناسِبةً للحديث أو للمُتحدَّث عنه، فسُورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَتحدَّث عن الربِّ عَزَّوَجَلَّ وأسمائه وصِفاته فجاءَت بالأُسلوب المُناسِب، وسورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ تَتحدَّث عن رجُلٍ كافِر، فجاءَت بالأُسلوب المُناسِب؛ فالتَّشابُه مَعناه أنه كلام جاء على الوَجهِ المُناسِب لمَوْضوعه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَّثَانِيَ﴾ ثُنِّيَ فيه بالوَعْد والوَعيد وغيرهما]، أي: يُؤتَى بالوَعْد، ثُمَّ يَعقُبه الوعيد، فيُؤتَى بذِكْر النار، ثُم يَعقُبه ذِكْر الجَنَّة، ويُؤتَى بصِفات المُؤمِنين، ثُمَّ يُؤتَى بصِفات غيرهم، وكلمة ﴿مَّثَانِيَ﴾ عامَّة فتَحتَمِل أن يَكون ذِكْر الوَعيد وذِكْر التَّوْحيد وذِكْر قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ... إلخ.

ففي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة:٢٧٥] جاء بضِدِّهم، أَعني: الَّذين كفَروا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦]، وانظُرْ إلى قوله تعالى في سورة الكهف لَمَّا ذكَر ما للمُؤمِنين من الثواب في الجَنَّة ذكَر ما للكُفَّار من العِقاب في النار، والأمثال في هذا كثيرة جِدًّا.

فقوله تعالى: ﴿مَّثَانِيَ﴾ الـ﴿مَّثَانِيَ﴾ مَأخوذ من التَّثنية؛ لأن القُرآن مَثانٍ، يَعنِي: من اثنَيْن اثنَيْن؛ والمَثاني أنه يَقرُن المَعنَى وما يُقابِله، فتَأمَّلِ الآياتِ الكريمةَ تَجِد أنه إذا ذُكِرت النار ذُكِرت بعدها الجَنَّة، وإذا ذُكِر أهلُ النار ذُكِر بعدهم أهلُ الجَنَّة، وهكذا، وذلك من أجل أن لا يَملَّ السامِع من موضوعٍ واحِد، ومن أَجْل أن يَتَنقِل من تَخويف إلى تَرغيب فيَنشَط لفِعْل الواجباتِ، ويَحذَر من فِعْل المُحرَّمات، وهذا من أَساليب البَلاغة الكامِلة.

قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَقشَعِرُّ: تَرتَعِد عند ذِكْر وَعيده ﴿جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ يَخافون ربَّهم]، قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ﴾ أي: عند الوَعيد أو ذِكْر النار أو ما يُوجِب الخوف والفَزَع كذِكْر ما حَلَّ بقوم نوحٍ وقوم لوطٍ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ وغيرِهم.

ثُمَّ يَقول:[﴿يَخْشَوْنَ﴾ يَخافون]، وهذا التَّفسيرُ ضعيف؛ لأنه فُسِّر المعنى بما دونَه، إذ قُلْنا: إن الخَشية هي الخوف مع العِلْم، واستَدْلَلْنا لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

فلو أن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: يَخشَوْن ربهم خوفًا مَبنيًّا على العِلْم بعظَمته لكان التفسيرُ صوابًا، لكن الآنَ نَعتَبِر التفسير قاصِرًا.

فقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: أن الجُلود عندما تَسمَع آياتِ الوعيد والتَّخويف تَرتَعِد وتَخاف وتَضطَرِب، وقد كان بعض السلَف يَمرَض أيَّامًا حتى يُعاد إذا سمِع بعض الآيات، كما جرى ذلك لأميرِ المُؤمِنين عمرَ بنِ الخَطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين تَلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور:٨-٩]، فمَرِض أيامًا حتى عادَه الناس[1].

وقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ الذين يَخشَوْنه، أي: يَخافونه مع العِلْم بعظَمته وجَلاله؛ لأن الخَشْية لا تَكون إلَّا بعِلْم كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

وقد فرَّق العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ بين الخَشْية والخوف بوُجوهٍ:

أوَّلًا: أن الخَشْية تَكون مَقرونةً بعِلْم.

وثانيًا: أن الخَشْية تَكون من عظَمة المَخشيِّ وإن كان الخاشِي عظيمًا.

أمَّا الخوف فيَكون من ضَعْف الخائِف، وإن كان المَخوف منه غيرَ عَظيم.

فهذان فَرْقان بين الخَشية وبين الخَوْف؛ فالخَشْية تَكون بعِلْم، والخَوْف قد يَكون بوَهْم: فإنه قد يَرى الإنسان شبَحًا من بُعْدٍ ويَخافه وليس بشيء.

وقوله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ هذه الرُّبوبيةُ من الرُّبوبية الخاصَّة التي مَنَّ الله تعالى عليهم بها بالخَشْية التي أَلقاها في قُلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ تَلين أي: تَطمَئِنُّ وتَهدَأ بعد القَشعريرة، فتَلين أي: تَطمَئِنُّ وتَهدَأ ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي:

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٧/ ٤٠٠)، نقلًا عن ابن أبي الدنيا.

مُنقادةً إلى ذِكْره، فتكون هذه اللُّيونةُ غايتها ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ. ولكن لا شَكَّ أن ذِكْر اللِّين أبلَغُ من ذِكْر الطُّمأنينة؛ لأن القَشعريرة تَقتَضي نُشوز الجِلد وارتِفاعه وتَصلُّبه، والذي يُقابِل ذلك اللِّينُ والهُدوءُ والطُّمأنينةُ، فتَفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا اللينَ بالطُّمأنينة تَفسيرٌ باللازِم في الواقِع، وإلَّا فإن اللِّين غير الطُّمأنينة؛ لأن الجِلْد إذا اقشَعَرَّ يَتصَلَّب؛ ولهذا تَجِد أطراف الإنسان تَبرُد لانحِسار الدَّمِ عنها بعضَ الشيء، فإذا هدَأ الرَّوْع فإنه يَلين ويَزول ذلك التَّصلُّبُ.

ولين القَلْب ضِدُّ قَسْوته يَعنِي عندما يَسمَعون الوعيد تَقشَعِرُّ الجُلود وتَنفِر القُلوب، ثُم بعد ذلك تَلين الجُلود والقُلوب ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: عند ذِكْر وَعْده] ولكن الصواب: أنها عند ذِكْر الله تعالى مُطلَقًا حتى الوعيد إذا تَأمَّل الإنسان وهدَأَت نَفْسُه بعد أن ورَدَ عليها ما يُخوِّفه فإنه يَلين حتى للوعيد فتَخصيص المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك بذِكْر الوَعْد في النَّفْس منه شيء، ومع ذلك فله وَجهٌ إذا كان القُرآن مَثانيَ وجاء ذِكرُ النار ثُم جاء بعده ذِكْر الجَنَّة لانَتِ القلوبُ، أو ذِكْر أهل النار وجاء بعده ذِكْر أهل الجَنَّة لانَتِ القُلوب أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لم يَقُل: لذِكْر الله. بل قال: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وكأَنَّ هذا اللِّينَ صار له غاية وهو ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ هل هو من باب إضافة المَصدَر إلى الفاعِل يَعنِي: إلى ما ذكَرهم الله به، أو من باب إضافة المَصدَر إلى المَفعول به أي: إلى ذِكْرهمُ اللهَ؟

الجَوابُ: هذا وهذا، فالكلِمة صالِحةٌ لهذا وهذا، أي: إلى ذِكْرهِم لله، أو إلى ما ذكَرَهم الله به، وهو القُرآن الذي جعَله الله تعالى به مَثانيَ.

ثُم إنَّه لا مانِعَ أن أَقول: صلَح قَلْبي وعمَلي؛ وهذا لأن الله تعالى وصَف الجُلود نَفسَها فقال: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ﴾ واقشِعْرار الجُلود مَبنيٌّ على خوف القَلْب، فذَكَر اللهُ تعالى أن هذه القَشعريرةَ تَزول، وأنها تَتَحوَّل إلى لين، وكذلك القَلبُ الذي هو أصلُها.

وقد ذكَر شيخُ الإسلام[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هناك أُناسًا يُصعَقون عند سَماع بعض الآيات وذمَّهم، وذكَر أن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لم يَكونوا كذلك -كما في الآية-، وذلك لأن هُناك فَرقًا بين قَشعريرة الجِلْد وبين الذي يُصعَق، فالذي يُصعَق يُغشَى عليه، والخَشية المَطلوبة أن يَكون عند الإنسان عِلْم بالله تعالى وعظَمته وخوف منه، أمَّا أن يَعجِز عن تَحمُّل ما ورَد على قلبه حتى يُصعَق ويَموت، أو يَفعَل فِعْل المَجانين كالذي تَجِده يَقول: الله! الله! الله! الله! فهذا خِلاف ما كان عليه السلَف.

ولذلك عند الصُّوفية تَسبيحة يُسمُّونها: الغبيـرة، وهي أنهم يَأتون بأسواط معهم، ثُمَّ يَجلِسون حِلَقًا، ثُم يَتكَلَّم الذي يَذكُر الله تعالى، فإذا زعَق (لا إلهَ إلَّا اللهُ)، وسُبحان الله. خبَّطوا بالأَسْواط على الأرض، والجَيِّد منهم الذي يُثيـر غُبارًا على الأرض أكثرَ؛ لأنه يَكون عنده انفِعال بقُوَّة وشِدَّة، فيُسمُّون هذه: الغبيرة. وأَظُنُّ بعضهم يَقول لبعض: هل غبرت اليومَ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ﴾ لِين القُلوب ليس فيه مَجاز، بل على الحقيقة الحِسِّيَّة، لأن لين القَلْب الذي هو لِين المَلمَس ليس بوارِد هنا، فالظاهِر أنه لا يَكون كالجِلْد يَقِف ويَتصَلَّب، فإن كان يَقِف ويَتصلَّب فيَسأَل عن هذا عُلماء التَّشريح إذا قالوا: إنه عند الخَوْف يَتصلَّب فصار اللين حِسِّيًّا.

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٧).

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يُحتَمَل أن يَكون المُشار إليه باسْمِ الإشارة (ذلك) ما حصَل لهم من الخَشْية، وعلى هذا فيَكون المُراد بالهِداية هِداية التَّوفيق؛ لأن الخَشْية عمَل، ويُحتَمَل أن يَكون المُشار إليه بـ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الكِتاب الذي هو أحسَنُ الحديث، فتكون الهِدايةُ هنا هِدايةَ دَلالة؛ لأن الكِتاب يَهدِي بمَعنَى: يَدُلُّ، والتَّوفيق بيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الكِتاب] أَفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإشارة في قوله ذلك تَعود إلى الكِتاب، وعلى هذا فيَكون المُراد بالهِداية هنا هِداية الدَّلالة، فإن القُرآن هُدًى بمَعنَى أنه دالٌّ على كل خَير، بل على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل:٨٩].

فقوله تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِۦ﴾ هنا الهِداية هِدايةُ الدَّلالة والتَّوفيق؛ لأنها أُضيفت إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيَدِه الهِدايتان، والباء في قوله تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِۦ﴾ لم يُبيِّن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مَعناها، ولكن مَعناها: السَّبَبية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ هذه جُمْلة شَرْطية بيَّن الله تعالى فيها أن مَن كتَبه ضالًّا فما أَحَدٌ يَهديه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ أَصلُها (هادِي) بالياء، لكن حُذِفت الياء لالتِقاء الساكِنين وهُما التَّنوين في الدال والياء الساكِنة المَحذوفة، ويَجوز إبقاؤُها فيُقال: هادِي، لكنها تُحذف كثيرًا للتَّخفيف والتِقاء الساكِنين.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات أن القُرآن نزَل من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات عُلوِّ الله تعالى، ووجهُه: أنه إذا كان القُرآن كلامه ووصَف القُرآن بأنه مُنزَّل دلَّ على أن المُتكلِّم به عالٍ، وعُلوُّ الله عَزَّوَجَلَّ يَنقَسِم إلى قِسْمين: عُلوِّ ذات، وعُلوِّ الصِّفة.

فأمَّا عُلوُّ الصِّفة فمُتَّفَقٌ عليه بين أهل السُّنَّة وأهل البِدْعة.

وأمَّا عُلوُّ الذات فمُختَلِفٌ فيه:

فأَهلُ السُّنَّة يُؤمِنون بأن الله تعالى عالٍ فوق خَلْقه بذاته.

وأَهْل التَّعطيل يُنكِرون ذلك، ثُم انقَسَموا إلى قِسْمين:

القِسْم الأوَّل: قالوا: إنه بذاته في كلِّ مَكان، وليس فوقَ السَّمَوات، بل هو فوق السَّمَوات، وفي السَّمَوات وفي الأرض وفي البُيوت وفي المَساجِد وفي الأسواق وفي كل شيء حتى تَوصَّلت الحال في بَعضِهم إلى أن قالوا: إنه حالٌ حتى في الأجسام حتى في البشَر حتى في الكِلاب حتى في الحَمير! والعِياذُ بالله تعالى! وهَؤلاءِ هم حُلولية الجَهْميَّة الذين فتَحوا البابَ لحُلول الاتِّحاد.

القِسْم الثاني: قالوا: إن الله تعالى لا يُوصَف بعُلُوٍّ ولا نُزول، فهو ليس فوقَ العالَم ولا تَحتَه ولا مُتَّصِلًا بالعالم، ولا مُنفَصِلًا عن العالم، ولا داخِلَ العالَم، ولا خارِج العالَم، وهذا تَعطيلٌ مَحضٌ؛ ولهذا قال بعضُ العُلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: لو قيل صِفوا لنا العدَم؟ ما وجَدْنا أدَقَّ من هذا الوَصفِ: أن العدَم كلُّ مَن ليس في داخِل العالَم، ولا خارِجه، ولا فوقَ العالَم، ولا تَحتَه، ولا مُتَّصِلًا، ولا مُنفَصِلًا؛ ولهذا قال مُحمود بنُ سبكتكين رَحِمَهُ ٱللَّهُ لابنِ فَوْرك ما مَعناه: بيِّنَ لنا ربَّك إذا كنتَ تَصِفه بهذا الوَصْفِ؟! فأينُ الرَّبُّ الذي تَعبُده؟! وصدَق.

إِذَنِ: المُنكِرون لعُلوِّ الله تعالى انقَسَموا إلى حُلولية ومُعطِّلة تَعطيلًا مَحضًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هذا القُرآنَ أحسَنُ الحديث؛ لقوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ وهكذا حديث الله عَزَّوَجَلَّ هو أحسَنُ الحديث، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن القُرآن مَكتوب؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا﴾، وسَبَق أنه يُكتَب في ثلاث مَواضِعَ: اللَّوْح المَحفوظ، الصُّحُف التي بأَيْدي المَلائِكة، الصُّحُف التي بأَيْدينا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن القُرآن مُتشابِهٌ؛ لقوله تعالى: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾، وحينئذٍ يُطلَب الجَمْع بين هذه الآيةِ، وبين قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧]، ففي هذه الآيةِ جعَل الله تعالى القُرآن نَوْعَيْن: مُحكَمًا ومُتَشابِهًا، وفي الآية التي في الزُّمَر جعَله نوعًا واحِدًا مُتَشابِهًا؟

والجَمْع بينهما أن يُقال: إن التَّشابُه المَذكور في الزُّمَر غير المُتَشابِه المذكور في آل عِمرانَ، فالتَّشابُه المَذكور في الزُّمَر أنه يُشبِه بعضُه بعضًا في الكمال والجَوْدة، والتَّشابُه المذكور في آل عِمرانَ هو اشتِباه المَعنَى وخَفاؤُه، فالقُرآن بهذا الوجهِ يَنقَسِم إلى قِسْمين:

الأوَّلُ: مُحكَم، أي: واضِح المَعنى، والثاني: مُتَشابِه أي: خَفيُّ المَعنَى.

فالتَّشابُه في الزُّمَر بمَعنَى أن بعضَه يُشبِه بعضًا، كل القُرآن مُتَشابِه، وأمَّا في آل عِمرانَ هو الخَفاء، فـ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ أي: خَفيَّات المَعنَى، فالقُرآن بعضُه مُحكَمٌ بيِّن، وبعضُه مُتَشابِه، لا يَعرِفه إلَّا الراسِخون في العِلْم.

وفي بعض الآيات وَصَف القُرآن بأنه حَكيم بدون أن يَذكُر التَّشابُه، مثل قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس:١]، وهذا بمَعنَى المُحكَم المُتقَن الذي لا يَتَناقَض، فهو عكس المُتشابِه؛ لأن المُحكَم هو الذي لا يَتَناقَض.

فالقُرآن إِذَنْ وُصِف بأنه مُحكَم كلُّه، وأنه مُتشابِه كُلُّه، وأن بعضَه مُحكَم، وبعضُه مُتَشابِه، فوَصْفه أنه كلُّه مُحكَمٌ مُتقَن لا يَتَناقَض في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:٨٢]، ووَصْفه بأنه كلُّه مُتَشابِه، أي: يُشبِه بعضُه بعضًا في الكَمال والجَوْدة وصفُه بأن بعضَه مُحكَمٌ وبعضُه مُتشابِه، أي: أن بعضَه واضِح المَعنَى وبعضَه خَفيُّ المَعنَى.

ومِثال الواضِح المعنى: السماء والأرض والنُّجوم الشمس والقمر والإنسان وما أَشبَهها، فهذا واضِح.

ومِثال المُتشابِه: أن تُوجَد آيتان ظاهِرُهما التَّعارُض مثل قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء:٤٢]، وفي آية أُخرى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، فكيف تَجمَع المَعنَيَيْن هنا، ففي هذه الآيةِ يُنكِرون، وفي الآية التي ذكَرْناها قبلُ لا يَكتُمون الله تعالى حديثًا، إذ قد يَأتي إنسان فيَقول: أنا لا أَعرِف وجهَ الجَمْع!!

ولكن الراسِخون في العِلْم يَعلَمون كيف يَجمَعون بين هذه وهذه، فالجَمْع بينهما أن يومَ القِيامة للناس فيه أحوال؛ لأنه يَومٌ مِقدارُه خَمسون ألفَ سَنَةً، فمَرَّةً يَكتُمون ومرَّةً يُقِرُّون ولا يَكتُمون الله تعالى حديثًا.

ومن ذلك أيضًا ذكَر الله أنه ﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾ [طه:١٠٢]، وقال تعالى:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦] فكيف نَجمَع، فإنه مرَّةً يَقول: تَسوَدُّ، ومرَّةً يَقول: زُرْقًا؟

الجَواب: أن يُقال: إن بعضهم هكذا وبعضهم هكذا، أو إنهم في وقتٍ يَكونون زُرقًا، وفي وقتٍ يَكونون سُودًا، أو أن الأزرق الداكِن يَكون مائِلًا إلى السَّواد فيُطلَق عليه أنه أسودُ، أو أن الزُّرقة في عُيونهم والسَّواد في بقية الجِسْم، وما أَشبَه ذلك.

فالمُهِمُّ: أن الراسِخين في العِلْم يَعرِفون كيف يَجمَعون، لكن غيرهم يَكون خَفيًّا عليهم؛ ولهذا يَقول العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إن القُرآن وُصِف بالتَّشابُه على سبيل العُموم وبالإِحْكام على سبيل العُموم، ووُصِف بأن بعضَه مُحكَم وبعضه مُتشابِه، والجَمْع للراسِخين في العِلْم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن القرآن قد بلَغ الغايةَ في البَلاغة؛ لكونه يَأتي مَثانيَ.

ويَتفرَّع على هـذه الفائِدةِ: أنه يَنبَغي لَمن تَكلَّم في مَوْعِظـة الناس أن لا يَأتِيَ بالتَّرغيب المُطلَق ولا بالتَّرهيب المُطلَق، وذلك أنه إذا أَتَى بالتَّرغيب المُطلَق حَمَلهم على الرَّجاء فتَهاونوا، وإذا أَتَى بالتَّرهيب المُطلَق حَمَلهم على اليَأْس فقنَطوا من رحمة الله تعالى، فالذي يَنبَغي للإنسان الذي يَتكلَّم مع الناس في المَواعِظ: أن يَكون يَتكلَّم أحيانًا بهذا وأحيانًا بهذا حتى لا يَحمِل الناسَ على القُنوط أو على الرَّجاء الذي يُوجِب الأَمْن من مَكْر الله تعالى.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن المُؤمِن يَتأثَّر بالقُرآن، ويَقشَعِرُّ منه جِلْده، ويَخاف، ثُمَّ بعد ذلك تَرجِع إليه الطُّمأنينة ويَلين قَلْبه.

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: أنك إذا رأَيْت نَفْسك على غير هذه الحالِ فاعلَمْ أن

إيمانك ضعيف؛ لأن هذا الخبَرَ خبرٌ من الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يُمكِن أن يَتخَلَّف مُخبِره فكل مُؤمِن يَقشَعِرُّ جِلْده ممَّا يَسمَع من القُرآن الكريم في الوعيد، وإذا لم تَكُن كذلك فإن إيمانَك ضعيف.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ سببٌ للِين القُلوب وطُمأْنِينتها؛ لقوله تعالى: ﴿تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، ويَشهَد لهذا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: امتِنان الله عَزَّوَجَلَّ على هَؤلاء بالـهِداية؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾ الباء للسببية كما تَقدَّم في التفسير، وإثبات الأَسباب هو المُوافِق للمَنقول والمَعقول:

أمَّا المَنقول فما أكثَرَ الآياتِ التي فيها إثبات الأَسباب مِثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج:٦٣]، وقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق:٩]، والآياتُ في هذا كثيرةٌ.

والمَعقول كذلك يَدُلُّ على إثبات الأَسباب، وأن لها تَأثيرًا في مُسبَّباتها، فكُلُّنا يَعرِف أن ضَرْب الزُّجاج بالحجَر يَكسِره، وأن الزُّجاج انكَسَر بضَرْب الحجَر؛ وهذا خِلافًا لمَن أنكَر الأسباب، وقال: إنه لا أثَرَ للأسباب في مُسبَّباتها، فإن قوله هذا خِلاف الشَّرْع وخِلاف العَقْل؛ حتى إنه قيل لهم: أَلَيْسَتِ الوَرَق تَحتَرِق بالنار؟ فقالوا: لا، تَحتَرِق عند النار لا بالنار! وقيل لهم: أَلَيْس الزُّجاج يَنكَسِر بالحجَر يُرمَى به؟ فقالوا: لا، يَنكَسِر عند الحجَر لا بالحجَر. قالوا: لأننا لو أَثبَتْنا تَأثير الأسباب

في أسبابها لأَشْرَكْنا بالله تعالى، وجعَلْنا معه فاعِلًا مُؤثِّرًا! ولا أحَدَ يَرضَى أن يُشرِك بالله تعالى شيئًا!.

وجَوابُنا على هذه الشُّبْهةِ أن نَقول: إن الأسباب لم تُؤثِّر بذاتها، وإنما أَثَّرت بما أَودَع الله تعالى فيها من القُوة؛ والدليلُ على هذا أن الله تعالى قال لنار إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء:٦٩]، فكانت بَرْدًا وسلامًا ولم تُحرِق، فإذا قُلنا: إن هذه الآثارَ المُترتِّبة على الأسباب إنما هي بما أَوْدَع الله تعالى في هذه الأسبابِ من القُوَّة المُؤثِّرة، فإننا بذلك لم نُشرِك بالله تعالى.

وتَطرَّف آخَرون من وجهٍ آخَرَ فقالوا: إن للأسباب تَأثيرًا بذاتها، وإننا نَعلَم أن الحجَر إذا أُرسِل على الزُّجاج كسَره بنَفْسه. ولكن هؤلاءِ همُ الذين جعَلوا مع الله تعالى شُرَكاءَ فإننا نَقول: هذا الحجَرُ لو شاء الله تعالى أن لا يَكسِر الزُّجاجة لم يَكسِرها كما أن الله تعالى لَمَّا شاء أن لا تُحرِق النارُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لم تُحرِقه.

فأهلُ السُّنَّة والجماعة وسَطٌ بين هاتين الطائِفتَيْن المُتطرِّفتين؛ الغالية في الأسباب، والغالية في مَشيئة الله تعالى، فنَقول: الأسبابُ مُؤثِّرة، لكن بمَشيئة الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات أن الهِداية بمَشيئة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، وهذه الآيةُ فَرْدٌ من أفراد أدلَّةٍ كثيرة تَدُلُّ على أن فِعْل العَبْد واقِعٌ بمَشيئة الله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

وهذا المَوطِنُ حصَل فيه مُعتَرَكٌ عظيمٌ جِدًّا بين ثلاثة طوائِفَ: طائِفتان مُتطرِّفتان وطائِفةٌ مُعتَدِلة:

الطائِفتان المُتطَرِّفتان: إحداهما قالت: إن الإنسان يَشاء عمَله، ولا عَلاقةَ لله تعالى به، فالإنسان حُرٌّ يَتصرَّف كما يَشاء، وليس لله تعالى فيه تَدخُّل إطلاقًا هو يَهدِي نفسه، وهو يُضِلُّ نَفْسه. قالوا: ولولا ذلك لكان تَعذيب الله تعالى للعاصي ظُلمًا وثوابه للطائِع عبثًا؛ لأنك إذا قُلت: إن الإنسان ليس بحُرٍّ، فهو مُدبَّر، والمُدبَّر لا يُحمَد على فَضْل، ولا يُذَمُّ على سوء.

ومن المَعلوم: أن الله تعالى رتَّب الذَّمَّ على العاصي والمَدْح على المُطيع، فهذا يَدُلُّ على أن فِعْل العَبْد فِعْلٌ مُستَقِلٌّ.

أمَّا المُتطرِّفون الآخَرون فقالوا: إن الإنسان لا مَشيئةَ له، ولا قُدرةَ له، ولا اختِيارَ له في فِعْله، بل هو مُجبَرٌ عليه عاجِزٌ عن المُخالَفة يُجبَر جبرًا؛ فيَأكُل جَبْرًا، ويَشرَب جبرًا ويَتقدَّم جبرًا، ويَتأخَّر جبرًا، وليس له اختِيار على أيِّ حال، وتعذيب الله تعالى للظالِم ليس ظُلْمًا، وإن كان الظالِم يَفعَل بغير اختِياره؛ لأن تَعذيب الله تعالى له تَصرُّفٌ في مِلْكه، والله عَزَّوَجَلَّ يَفعَل ما يَشاء، لا مُعقِّب لحُكْمه، فحينئذٍ لا يَرِد علينا ما استَدَلَّ به الطرَف الأوَّل الذي قال: لو كان الإنسان غير مُطلَق الحُرِّية لكان تَعذيب العاصي ظُلمًا، وإثابة الطائِع لَغوًا.

ونحن نَقول: إن تعذيب الظالِم ليس بظُلْم، وإن كان مُجبَرًا؛ لأن الله تعالى مالِكه يَفعَل فيه ما يَشاء كما أنت تَفعَل في مِلْكك ما تَشاء؛ فتَهدِم البيت، وتَبني البيت، وتَبيع السَّيَّارة، وتَشتَري بدَلها، وما أشبَه ذلك.

فالطرَف الثاني يُسمَّوْن: الجَبْرية، والطرَف الأوَّل يُسمَّوْن: القدَريَّة، وسُمِّيَ الطرَف الأوَّل: القَدَرية؛ لأنهم يُنكِرون قَدَر الله عَزَّوَجَلَّ فيما يَتعلَّق بفِعْل العَبْد، وسُمِّيَ هؤلاء: جَبْرية؛ لأنهم يَرَوْن أن العَبْد مُجبَر على عمَله.

ويَتساوَى عند هؤلاء مَن نزَل من السُّلَّم بتُؤدة وطُمأنينة دَرجةً دَرجةً ومَن دُفِع من أعلى السُّلَّم حتى انزخَّ[1] على وَجْهه، يَقولون: كلٌّ سواءٌ، كلٌّ مُجبَر.

أمَّا أَهْل السُّنَّة والجماعة فإنهم تَوسَّطوا في هذا، وقالوا: إننا نُثبِت الأدِلَّة الدالَّة على أن كل شيء واقِع بمَشيئة الله تعالى، ونُثبِت الأدِلَّة الدالَّة على أن للإنسان اختِيارًا وإرادةً، وبذلك نَجمَع بين الأدِلَّة، فنَقول: فِعْل العبد واقِعٌ بمَشيئته، لكن مَشيئته تَحت مَشيئة الله تعالى، فإذا شِئْت أنا شيئًا فإنني أَعلَم أن الله تعالى شاءَه، ولا يُمكِن أن أَعلَم بأن الله تعالى شاء شيئًا إلَّا بعد أن يَقَع؛ لأن قضاء الله تعالى سِرٌّ مَكتوم لا نَعلَم عنه، لكن إذا وقَعَ علِمنا بأن الله تعالى شاءَه، فأَنا لا أَشاءُ إلَّا ما شاء الله تعالى، ولكني في نَفْس الوقت لي حُرِّية أن أَشاء ما شِئْت إلَّا أنني أُومِن بأن مَشيئتي هذه كانت بمَشيئة الله تعالى.

ويَدُلُّ لهذا: أن الإنسان أحيانًا يَعزِم على فِعْل شيء، وبين ما هو مُتَّجِهٌ له إذ انتَقَضَت عَزيمته إلى اتِّجاهٍ آخَرَ أو إلى إلغاء العمَل؛ إذَنْ فهناك سُلْطة فوقَ سُلْطته، لكِنَّ هذه السُّلطةَ غير مَعلومة، ولا تُعلَم إلَّا بآثارها؛ وقد قيل لأَعرابيٍّ: بمَ عرَفْت ربَّك؟ قال: بنَقْض العَزائم، وصَرْف الهِمَم. فهذا أَعرابي بدَويٌّ أَجاب بهذا الجوابِ العَجيب: عرَفْت ربِّي بنَقْض العزائِم، يَعنِي: أَعزِم على الشيء ثُم تَنتَقِض عَزيمتي بدون سبَب، وصَرْف الهِمَم، أي: أَهِمُّ بشيء إلى اليَمين، ثُم أَجِدني مُنصرِفًا إلى اليسار بدون سبَب إلَّا من الله عَزَّوَجَلَّ.

فأَهْل السُّنَّة والجَماعة يَقولون: الإنسان يَشاء ويَختار، وليس مُجبَرًا، لكن أي شيء يَشاؤُه فهو بعد مَشيئة الله تعالى نَعلَم أن ذلك بمَشيئة الله تعالى، وهذا هو الذي

(١) انزخ: أي دُفع ورُمي إلى مكان منخفض. تاج العروس (زخخ).

تَطمَئِنُّ إليه النَّفْس، وتَجتَمِع به الأدِلَّة.

فإن قال قائِل: إذَن يَكـون قول المُشـرِكين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]؛ لأننا لَمَّا عبَدْنا غيرَ الله تعالى: علِمنا أنَّ الله تعالى شاء ذلك، وليس لنا القُدرة في مُخالَفة المَشيئة، فهل هذا صحيح؟

فالجَوابُ: أَقولُ: لا، بل هذا حُجَّة داحِضة أَبطَلها الله عَزَّوَجَلَّ ويُبطِلها العَقْل، فأَبطلَها الله تعالى بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥].

فلمَّا أَبطَلها الله تعالى شَرْعًا، نَنظُر هل هي باطِلة عَقْلًا أو لا؟

نَقول أيضًا: هي باطِلة عَقْلًا؟ لأنك لم تَعلَم أن الله تعالى ما قضَى عليك بعِبادة الأصنام إلَّا بعد العِبادة، فلماذا لم تَعدِل عن عِبادة الأصنام وتُقدِّر أن الله تعالى قضَى عليك بتَرْك عِبادة الأَصْنام؟! فإقدامُك على عِبادة الأصنام وأنت لم تَعلَم أن الله تعالى كتَب ذلك هو منك وأنت الذي أرَدْتَه، ولو أنك قدَّرْت الأفضَل والأحسَن، وأن الله تعالى قدَّر أن تَكون مُوحِّدًا مُجتَنِبًا لعِبادة الأصنام لحصَل لك ذلك.

ثُمَّ إننا نَقول: هناك أيضًا دَليل حِسِّيٌّ؛ فلو خُيِّـر الإنسان بين شَيْئين أحدُهما أفضَلُ من الآخَر سيَختار الأفضَل، وهل يُمكِن لشَخْص أن يَختار الأَردَأَ ويَقول: هذا الذي قُدِّر لي؟! أَبَدًا.

ولو قيل له: لِمَكَّةَ طُرُق، طريقٌ آمِن وطريق مَخُوف. فقال: نَذهَب مع الطريق المَخوف؛ لأن الله تعالى كتَب علينا هذا!! فهل هذا يُمكِن أو لا يُمكِن؟

الجَوابُ: لا يُمكِن أبدًا، بل سيَسلُك الطريق الآمِن بلا شَكٍّ.

ولو عُرِض عليه عمَلانِ في وظيفة مثَلًا أحَدُ العمَلَيْن شاقٌّ وأُجرَتُه قليلة، والثاني خَفيف وأُجْرته كثيرة، فسيَختار الثانيَ بلا شَكٍّ.

فهذه أدِلَّة محسوسة تَدُلُّ على أن الاحتِجاج بالقَدَر على المَعاصي أو على تَرْك الواجِبات احتِجاجٌ باطِل لا يَستَقيم، لا شَرْعًا ولا عَقلًا ولا حِسًّا، فهذا هو مَذهَب أهلِ السُّنَّة والجَماعة؛ يَقولون: نحن نَفعَل باختِيارنا، ولكن اختِيارنا نَعلَم أن الله تعالى قدِ اختاره لنا قبل أن نَختاره نحن إلَّا أنه لا حُجَّةَ لنا في أن نَقول: هذا مُختار الله تعالى لنا، فلا نَستَطيع أن نَتخَلَّص منه لأننا حين الفِعْل لم نَعلَم ما قدَّر، ولا يُمكِن لأيِّ إنسان يَدرِي أن الله تعالى قدَّر شيئًا إلَّا بعد الوقوع؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، فجعَلهم السبب في ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنه يَنبَغي للإنسان -وهذه فائِدة مَسلَكية- أن يَلجَأ إلى الله تعالى وحدَه في طلَب الهِداية؛ لقوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، فأنت لا تَعتَمِد على نَفْسك فتَهلِك، بلِ اعتَمِد على ربِّك، واتَّجِه إليه دائمًا في سُؤال الهِداية حتى يَهديَك الله تعالى، وكان النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -وهو الهادِي المَهديُّ- يَستَفتِح ويَقول: «**عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[1] فهذا وهو النبيُّ ﷺ! فكَيْف بنا نحن! فعليك أن تَلجَأ إلى ربِّك في طلَب الهِداية، وألَّا تَعتَمِد على نفْسِك، بلِ اعتَمِدْ على الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الله تعالى مَرجِعك.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أن مَن يُضِلُّه الله تعالى فلا هاديَ له؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، وفي آية أُخرى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر:٣٧].

فإن قال قائِل: أفلا يُوجِب لنا هذا الحُكْمُ أن نَتوقَّف عن دَعوة الناس إلى الحَقِّ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؟

فالجَوابُ: لا يُوجِب، لكن الفائِدة من ذلك أننا إذا دعَوْنا أحَدًا للحَقِّ ولم يَقبَل فإننا لا نُهلِك أَنفُسنا من أَجْله، بل نَقول: هذا قد قَضَى الله تعالى عليه بالضَّلال، وليس لنا في أَمْره من شَأْن؛ ولهذا نَجِد الله عَزَّوَجَلَّ يَقول لنبيِّه مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]، أي مُهلِك نَفْسك ألَّا يَكونوا مُؤمِنين، فلا تُهلِك نَفْسك، وأَنزَل الله تعالى عليه تَسليةً حين دعا عمَّه أبا طالِبٍ ولم يَهتَدِ، فقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

وحينئذٍ لا يَمنَعنا مثل هذا الحُكم أن نَدعوَ إلى الله تعالى، ولكن إذا دعَوْنا إلى الله تعالى ولم نَجِد الناس اهتَدَوْا فإننا لا نُكلِّف أَنفُسنا، ولا نُهلِكها بالهَمِّ والغَمِّ؛ لأن الإنسان إذا نظَر هذه النَّظرةَ سوف تَتكدَّر عليه دُنياه، بل سَوْف يَضيع عمَله الصالِح؛ لأن الناس ليسوا بمُهتَدين على ما يُريد، فإذا أَتعَب نَفْسه وراءَ الناس، وصار يَلهَث وراءَهم تَعِبَ، فالواجِب عليه أن يَبذُل ما يَجِب عليه، والباقي على الله عَزَّوَجَلَّ.

وبالنِّسبة لَمن يَدعو الناس والناس لم يَهتَدوا، فعليهم أن يَستَمِرُّوا؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قد يُؤخِّر هِدايتهم إلى أَجَلٍ مُسمًّى.

وبخُصوص مَن لم يَصِلهم الإسلام فهؤلاءِ كفَّار، لكن لعُذْرهم بعدَم وُصول الرِّسالة إليهم يُكلِّفهم الله تعالى يومَ القيامة بما شاء من أنواع التَّكليف، ثُم إنِ اهتَدَوْا

في ذلك الوقتِ فهم من أهل الجَنَّة، وإن ضلُّوا فهُمْ من أهل النار، هذا أصَحُّ ما قيل في الجَـواب عن هؤلاء، أَعنِي: أَهل الفَتْـرة والذين بعد الرِّسالة، ولكن لم تَبلُغهم؛ فالصحيح: أنهم يُمتَحَنون يوم القِيامة بما شاء الله تعالى من التكاليف التي لا نَعلَمها، ثُمَّ إنِ اهتَدَوْا فنَجَوْا وإلَّا عُوقبوا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن اسمَ الهادِي يُطلَق على غيـر الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، وكمـا قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:٧]، فالهادِي تُطلَق على الله تعالى وعلى غيره، لكن الذي يَمتَنِع إطلاقه على غيره هو هِداية التَّوْفيق، فإن هِداية التَّوْفيق لا تكون إلَّا لله تعالى وحدَه، أمَّا هِداية الدَّلالة فإنها تكون لله تعالى ولغيره.

• • ❁ • •

الآيات (٢٤-٢٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر:٢٤-٢٧].

قوله تعالى: ﴿يَتَّقِي﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَلْقَى]، لكِنَّ المُتَّقِيَ للعَذاب هو من يُحاوِل النَّجاة منه، لكِنَّ المُلاقيَ للشيء قد يُلاقيه ببُشرى وفرَحٍ وسُرور، فتَفسير ﴿يَتَّقِي﴾ بـ(يَلقَى) لا شَكَّ أنه قاصِر، ولكنه بعض الأحيان يُفسِّر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ القُرآن بما يُقارِبه كما فسَّر قوله تعالى قال: ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ بـ[أَشَدَّه]، ففسَّر كلِمة سُوء بأَسوَأَ، وأَسوَأُ لا شَكَّ أنه اسم تَفضيل، وسوء ليس كذلك، وعلى هذا فيَكون المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّر الكِتاب بما هو أعلى مِنه، والواجِب: أن يَكون المُفسِّر مُطابِقًا للمُفسَّر، ولو قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العَذاب السيِّئ لكان أَبلَغ مُطابَقة للقُرآن.

والعَذاب هو الشيء الذي يُصيب الإنسان إصابةً مُباشِرة يُقال: ذاقه، لكن ليس باللسان، إنما لَمَّا أَصابه مُباشَرة صار كالمَطعوم الذي يُدخِله الإنسان في جَوْفه، وعلى كل حال فإحساسُ الوَجْه بالعَذاب أَشَدُّ من إحساس بقية الجَسَد، ويَكون الوَصْف للعَذاب نفسِه إذا كان أَسوَأَ العذاب، ويَكون في الوجه صار أَشَدَّ على

الإنسان ممَّا لو كان في طرَف آخَرَ، لكن الذي يَظهَر لنا: أن سوء العَذاب ليس على اسمِ تَفضيل، ولكنه من باب إضافة الصِّفة إلى مَوْصوفها، يَعنِي: العَذاب السيِّئ.

ومن هذا البابِ أيضا كلِمتا (خَيْر) و(شَر) تُطلَقان على باب اسم التَّفضيل إذا قلت: هذا خيرٌ من هذا وهذا شَرٌّ من هذا. وقد تُطلَقان ويُراد بها الوَصْف بالشَّرِّ فقط، كما تَقول: (هذا شرٌّ)، (هذا خَيْر).

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بأن يُلقَى في النار مَغلولةً يَدُه إلى عُنُقه] كأنه أُخِذ من كونه يَتَّقي العَذاب بوَجهه؛ لأنه لو كانت يَدُه مُطلَقة لاتَّقَى العَذاب بيده، ولكنِّي أَقول: لا يَلزَم منِ اتِّقاء العَذاب بوَجْهه أن تُغَلَّ يدُه؛ لأن يدَه قد تَكون مُرسَلة غير مُقيَّدة، ولكن لا يَستَطيع أو يَظُنُّ أن مُدافعته بوجهِه أشَدُّ، فيُدافِع بوجهه.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جواب الشَّرْط في ذِكْر المُعادِل: [كمَن أمِن منه في دُخول الجَنَّة؟].

والجَوابُ: لا، وحينئذٍ يَكون الاستِفْهام للنَّفيِ، يَعنِي: لا يَستَوي مَن يَتَّقِي بوَجْهه سُوء العذاب مع من أمِن العَذاب ولم يَتَّقِه ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: كُفَّار مَكَّةَ ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: جزاءَهُم]؛ وقوله: [﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: كُفَّار مكَّةَ] كأنه أَخذه من قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وإلَّا فإن الظالِمِين هنا عامٌّ، لفظ عامٌّ يَشمَل كفَّار مكَّةَ وغيرهم، وهذا هو الأَوْلى.

فإن قيل: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يَدُلُّ على أن هذا في المُتأخِّرين؟

قُلنا: نعَمْ، هو يَدُلُّ على أنه في المُتأخِّرين، لكن كل رَسول قد سبَقه رسول، فهنا نَقول: كذَّبَت قبلَهم قومُ نوحٍ وثَمودُ، كذَّبت قبلهم قوم عاد، وهَلُمَّ جرًّا، فيَكون

(الظالِمون) عامًّا لكُفَّار مكَّةَ ولغيرهم، لكن أوَّل مَن يَدخُل فيهم بلا شَكٍّ كفَّار مكَّةَ؛ لأن القُرآن نزَل توبيخًا لهم وإنذارًا ودَعوةً.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من جِهةٍ لا تَخطُر ببالهم] وهذا في التَّفسيرُ أشَدُّ وأبلَغُ من أن يَكون من أن يَأتيَهُمُ العَذاب وهم على أُهْبة الاستِعْداد له.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾ من الذُّلِّ والهَوان من المَسخِ والقَتْل وغيره] ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ فأَذاقَهمُ الله تعالى، أي: مسَّهُم به حتى كأنهم طعِموه وذاقوه بمَذاقاتهم.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من المَسْخ والقَتْل وغيره] المَسْخ مثل اليَهود الذي قال الله لهم: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥]، والقَتْل مثل قَتْل بني إسرائيلَ أنفسَهم حينما أُمِروا بالتوبة وقيل لهم: إن كُنْتم صادِقين في التَّوْبة فاقتُلوا أَنفُسكم.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وغيره] وذلك مثل الإِهْلاك بالصاعِقة والرَّجْفة وما أَشبَهَها، فالمُهِمُّ أن المُكذِّبين للرُّسُل كلُّهم أَهلَكهم الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائل: أليس مِن الرُّسُل مَن قُتِل؟

فالجَوابُ: بلى، ولكن هؤلاء الذين قُتِلوا إمَّا أن يَكونوا لم يُؤمَروا بالقِتال فاعتَدَى عليهم مَنِ اعتَدى بدون قِتال، وإمَّا أنهم أُتوا على غِرَّة دون أن يُجاهَروا بالقَتْل، ثُمَّ إذا قُتِلوا هل مَعنَى ذلك أن ما دُعوا إليه يَموت بمَوْتهم؟ لا، قد يَبقَى فيَكون هذا نَصْرًا لهم ولو بعدَ وفاتهم، فأَذاقهم الله تعالى الذُّلَّ والهَوان من المَسْخِ والقَتْل وغيره في الحَياة الدُّنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كانوا أي: المُكذِّبون يَعلَمون عذابَها ما كذَّبوا، فقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ما كذَّبوا) هو جَواب (لو) المَحذوفة.

ثُمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبْنَا﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جعَلنا]، ولعلَّ الضَّرْب أخَصُّ من الجَعْل، وهذا التَّفسيرُ تفسيرٌ بما هو أعَمُّ؛ لأن ضَرْب المثَل ليس مُجرَّدَ جَعْلٍ له، بل ضَرْب المثَل للاعتِبار به، فضرَبْته مثَلًا أي: جعَلْته شبَهًا حتى يَعتَبِر به؛ فقوله: ﴿ضَرَبْنَا﴾ أي: بيَّنَّا ﴿لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، والجُملة هنا مُؤكَّدة بمُؤكِّداتٍ ثلاثة: وهي اللَّام، و(قد)، والقسَم المُقدَّر؛ لأن تَأكيد الكلام في مثل هذا التركيبِ: (واللهِ لقَدْ) فيَكون مُؤكَّدًا بمُؤكِّداتٍ ثلاثة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ **إذا قال قائِل**: كيف يُؤكَّد هذا وهو أَمْرٌ مَعلوم، والغالِب أن التأكيد إنما يُصار إليه للحاجة إليه؟

فالجَوابُ: أن التَّأكيد قد يَكون للحاجة إليه عندما يَكون المُخاطَب شاكًّا أو مُنكِرًا، وقد يَكون التَّأكيد لأهمية المُؤكَّد وإن لم يَكُن ثَمَّة إنكار أو تَردُّد، ومنه هذه الآيةُ فإن ضَرْب الله تعالى الأَمْثال للناس في القُرآن أَمْرٌ محسوس مُدرَك، ولكن لأَهَمِّيته أكَّده الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل شَبَه، فيَضرِب الله تعالى الأشباه والنظائِر ليَحذَر مَن كان على مِثْل هذا النَّظيرِ وهذا الشبيهِ حتى لا يَقوم بمِثْل ما فعَل.

وقوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يَشمَل كل الناس المُؤمِن والكافِر؛ لأَجْل أن يَتذكَّر هؤلاء وهؤلاء.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يَتَّعِظون] و(لعَلَّ) هنا للتَّعليل وهو أحَد معانيها، ومن مَعانيها التَّرجِّي مثل: لعَلَّ الحبيبَ قادِمٌ، ومن مَعانيها الإِشْفاق مثل: لعلَّ الحبيبَ هالِكٌ، ففي الأوَّل: لعَلَّ الحَبيب قادِم، رجاءٌ، وفي الثاني إِشْفاق يَعنِي: أَخشَى أن يَكون هالِكًا، وتَأتي للتَّعليل كما في هذه الآيةِ، وكما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]، وقوله تعالى: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ قد تكون هذه للتَّوقُّع، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣] للتَّوقُّع أيضًا، وهي في القرآن كثير، وقوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ [غافر:٣٦] للتَّرجِّي، ويُحتَمَل أن تكون للتَّعليل، وإنَّما هو كثير في القُرآن.

وإنما بيَّنته لئَلَّا يَظُنَّ بعض الناس أنها للتَّرجِّي في كل مَكان فيقول: كيف يَترجَّى الله عَزَّوَجَلَّ الشيءَ وهو قادِر على كل شيء؟ نَقول: (لعَلَّ) إذا جاءَت في كلام الله تعالى فهي للتَّعليل.

وقوله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ يَعنِي: [يَتَّعِظون]؛ لأن هذا هو الغرَض من ضَرْب الأمثال.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن كلَّ مثَل في القرآن فإن فيه دَليلًا على إثبات القِياس.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه ليس كلُّ حقٍّ يَترُكه الإنسان ثِقةً بالله تعالى يوم القِيامة يَصير عنده؛ لأنه إن كان تَركه للاختِصام عند الله تعالى فهذا لم يَترُكْه، لكن إن ترَكَه للثواب عند الله تعالى فقد ترَكَه، وهذا إن ترَكَه للاختِصام عند الله تعالى يوم القيامة وعفا عنه في هذه الحالِ؛ لأنه إذا طالَب به في الدنيا وأخَذ حقَّه سلِمَت حَسَناته من هذا

الذي ظلَمه يوم القِيامة، فكان عذاب الدُّنيا أَهوَنَ من عذاب الآخِرة، ويَكون بذلك مُحسِنًا إليه، أو يَترُك للأَحسَن وهو العَفوُ وانتِظار الأَجْر من الله عَزَّوَجَلَّ؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].

فالأحوالُ ثلاثة: إمَّا أن يَأخُذ بحَقِّه في الدُّنيا، أو يُؤجِّل حقَّه للآخِرة، أو يَعفو؛ والمَراتِب من الأَشَدِّ إلى الأَخَفِّ؛ نَقول: إن أَشَدَّها أن يُؤخِّر ذلك للآخِرة، ثُم أن يَأخُذ به في الدنيا، ثُم أن يَعفوَ مع أن العَفْو لا بُدَّ فيه من قَيْدٍ؛ أن يَكون في العفو إصلاح، فإن كان في العَفو إفسادٌ بحيث إذا عفَوْنا عن هذا الرجُلِ زاد في شَرِّه وطُغيانه، فهنا الأَخْذ بالحَقِّ أَوْلى من العَفْو، أمَّا إذا علِمنا أن هذا الرجُلَ سيَنظُر إلى العَفو نَظْرة إكبار ويَحسُن خُلُقه بعد ذلك فلا شَكَّ أن العفو أفضَلُ، وهذا الرجُلُ لو عفَوْنا عنه ولم يُصلِح فأَجِّل حقَّك في الآخِرة؛ لأن الله تعالى قيَّد العَفو بالإصلاح، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ لكن أَخبِرْه وقُلْ له: (أنت الآنَ ظلَمْتني في كذا وكذا وكذا، وأنا سأُؤَجِّل أَخْذي ليَوْم القِيامة)؛ ولا أَظُنُّ أنك عفَوْت بهذا.

واعلَمْ أن العَفو يَكون مع القُدرة ومع عدَم القُدرة، لكن العَفْو المَحمود هو العَفو مع القُدرة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أَنزَل هذا القُرآنَ تِبيانًا لكل شيءٍ، ومنه -أي: من التِّبيان-: ضَرْب الأمثال؛ لأنها تُقرِّب المَعنَى وتَضَع المَعقول في سورة المَحسوس، ومِن ذلك قولُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: رحمةُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالعِباد حيث بيَّن لهم هذا البَيانَ التامَّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه يَنبَغي للمُعلِّم غيرَه أن يُكثِر له من ضَرْب الأمثال التي تُعينه على فَهْم المَعنى؛ لأن هذا هو أُسلوب القُرآن.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات العِلل والحِكَم في أفعال الله تعالى وشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الردُّ على الجَهْمية وأشباهِهم ممَّن أَنكَروا حِكْمة الله تعالى وقالوا: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَفعَل الشيء لا لعِلَّةٍ وحِكْمة، ولكن لُمجرَّد المَشيئة، ووجهُ ذلك: أن (لعَلَّ) هنا للتَّعليل، والتعليلُ يَعنِي: إثبات الحِكْمة.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر:٢٨].

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ حـال] يَعنِي: أن (قُـرآنًا) هذه حـال، و(عربيًّا) حالٌ أُخرى، يَعنِي: هذا القُرآنُ الذي فيه من كل مثَل هو قُرآن، والقُرآن تَأتي بمَعنَى المَصـدَر، وتَأتي بمَعنَى اسمِ الفاعِـل أو المَفعـول، فمِن إتْيانها مَصدَرًا: الغُفران والشُّكْران، وأنا أَقصِد بهذا وَزْن: فُعْلان تأتي مَصدَرًا مثل: الغُفران والشُّكران والقُرآن، وهذا المَصـدَرُ في لفظ القُرآن يُحتَمَل أنه بمَعنَى اسمِ المَفعـول، فـ(قُرآن) بمَعنَى: مَقروء، وعلى هذا فيَكون بمَعنَى: مَتلُوٍّ، ويُحتَمَل أن يَكون اسمَ فاعِل بمَعنَى: قارِئ، وهو من: قَرَأَ الماء إذا جمَعَه في الحَوْض، والقُرآن إذا تَأمَّلت وجَدْت أن الوَصْفين يَنطَبِقان عليه، فهو مَتلُوٌّ وجامِع.

ولهذا قال العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في عِلْم أُصول التَّفسير: إنه يَصِحُّ أن يَكون بمَعنى اسمِ الفاعِل، ويَصِحُّ أن يَكون بمَعنَى اسم المَفعول.

وقوله تعالى: ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي: باللُّغة العرَبية التي هي لِسـان مُحَمَّدٍ ﷺ ولسـان القَوْم الذين بُعِـث فيهم، والعربية هي أفضَلُ الألسُـن وأَعرَبُها وأَفصَحُها وأَبيَنُها؛ ولهذا اختارها الله عَزَّوَجَلَّ لِرسالة مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإن قيل: أَليسَ في القُرآن من الكلِمات ما أصلُه أَعجميٌّ في القُرآن؟

قُلْنا: بلى فيه، ولكِنَّ هذه الأَلفاظَ التي أَصلُها غيـر عرَبيٍّ لَمَّا نطَق بها العرَب عرَّبوها وصارت عربية؛ ولهذا لا تَخلو هذه الكلِماتُ المُعرَّبة من تَغييرٍ بعض الشيء، فلا بُدَّ أن يَكون فيها شيء من التَّغيير في الغالِب، فإذا نطَق بها العرَب واستَخدَموها وسادت في أَلسِنَتهم صارت مُستَعرَبة. إذا فهي كلِمات مُستَعرَبة من قومٍ مُستَعرِبين أيضًا؛ لأن أصل العرَب مُستَعرِبين؛ لأنهم ليسوا عربًا في الأصل، فإسماعيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو ابنُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وليس لُغتُه العَربيةَ، لكن لَمَّا جاء عرَب جُرْهم إلى أُمِّ إسماعيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ونزَلوا عندها صار عربيًّا، واستَمَرَّتِ العُروبة إلى يومنا هذا. ودليل هذا أيهما أَفضَلُ، رسالةُ مُحَمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأُمَّته أو الرِّسالات الأُخرى وأُمَّتهم؟

الجَوابُ: رِسالة النبيِّ ﷺ؛ إِذَن: ليس هناك شَكٌّ؛ ولهذا ورَدَ في حديث، لكِنْ فيه نظَر: أن اللغة العربية لُغة أهل الجَنَّة.

وكون الله تعالى اختـار هذه الرِّسالةَ العظيمـة في اللغة العربية يَكفِـي؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، فصار هذا المكانُ صالِحًا لهذه الرِّسالةِ العَظيمة؛ لأنه عظيم؛ ومَعلوم أن البيان لو جاء بغير اللغة العربية ما أَبانَ، لكن كونه اختار أن يَكون في هؤلاءِ العرَبِ، وبِلُغتهم فهذا دليل على فَضْلهم.

فإذا قال قائِل: إن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خاصٌّ بالعرَب؟

قُلْنا: نعَمْ، هو بُعِث في الأُمِّيِّـين، لكن لجميع الناس كما لو أن أَحَدًا صار في الشرق أو في الغرب وهو أميرٌ على جميع المَنطِقة على جميع القارَّة التي هو فيها، فهذا مُحَمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بُعِث في هؤلاء القومِ، لكن إلى جميع الناس، ومَعلوم أنه لا بُدَّ أن يُبعَث في قوم، فافرِضْ أنه بُعِث في العجَم وهو رسول إلى الناس فهو نفس الشيء.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ هذا الوَصفُ سَلبي وليس ثُبوتيًّا، واعلَمْ أنه لا يُوجَد في أوصاف القُرآن ما هو سَلْبيٌّ مَحض؛ لأن السَّلبيَّ المَحْض ليس فيه مَدْح، بل كل شيءٍ وُصِف به القرآن على وجه النَّفيِ فإن ذلك لكمال ضِدِّه؛ ولا بُدَّ أن يَتضَمَّن الكَمال أيضًا في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣] لم يَلِد ولم يُولَد؛ لكَمال وحدانِيَّته.

فإذا قال تعالى: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أي: لكَمال استِقامته، بَلْ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ فالقُرآن الكريم يَهدي للتي هي أَقومُ في أمور الدِّين وفي أمور الدُّنيا على وجهٍ ليس في اعوِجاج بوَجهٍ من الوُجوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: لأَجْل أن يَتَّقوا، فبيَّن الله تعالى لنا بهذا القُرآنِ، وجعَله غيرَ ذي عِوَج من أَجْل تَقواه عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن القُرآن عرَبيٌّ؛ أي: نازِلٌ بلُغة العرَب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه لا يُوجَد في القُرآن لفظٌ أَعجميٌّ؛ لأن الله تعالى وصَف القُرآن كلَّه بأنه عرَبيٌّ، وهذا يَقتَضي أن ليس فيه شيءٌ من لُغة العجَم، ولا شَكَّ أن هذا هو الواقِع، فليس في القُرآن لفظٌ أعجَميٌّ.

لكن اختَلَف العُلَماء المُفسِّرون رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وغيرهم: هل في القُرآن كلِمةٌ أَصلُها أَعجَميٌّ ثُم عُرِّبت؟

فمِنهم مَن يَقول: نعَمْ. ومنهم مَن يَقول: لا. فالذين قالوا: نعَمْ. قالوا: هناك كلِمات في القُرآن الكريم لا تَنطَبِق عليها قواعِدُ اللغة العرَبية، ويَعنِي هذا أنها

أَعجَمية، وهذا لا يُنافِي أن يَكون القُرآن عرَبيًّا؛ لأن العرَب لَمَّا عرَّبَتْها صارت عربيةً بالاستِعْراب، كما أن العرَب أصلُهم مُستَعرِبون، وإلَّا فلُغَة أبيهم إسماعيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ليسَتْ عرَبيَّة؛ ومنهم مَن قال: هذه الكلِمـاتُ التي هي كلِمات أَعجَميَّة إنما جاءت بلِسان العرب من باب تَوارُد اللُّغَتين، ولا مانِعَ أن تَتَوارَد اللُّغَتان على كلِمةٍ واحِدة.

والخِلاف في هذا قريبٌ من اللَّفْظي، وذلك لأنهم مُتَّفِقون على أنه لا يُوجَد في القُرآن لفظٌ أَعجَميٌّ هو أَعجَميٌّ حتى نُزول القرآن أبَدًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان حِكْمـة الله عَزَّوَجَلَّ في إنزال القُـرآن باللِّسـان العرَبيِّ؛ لأن الرسول ﷺ بُعِث في قومٍ عرَبٍ، فكانت الحِكْمة أن يَكون لِسانه عرَبيًّا كما هو الشأن في جميع الرُّسُل، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم:٤].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن فَهْم المَعنَى مُعينٌ على التَّقوَى؛ لقوله تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وهذا أَمْرٌ واقِع، ففَهْم المَعنَى من أسباب التَّقوى؛ لأنه لو تكلَّم لك إنسان بما لا تَفهَم مَعناه لم يُؤثِّر فيك شيئًا، إنما يُؤثِّر فيك ما تَفهَم مَعناه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

ونَستَفيد من هذه الجُملةِ: ما استَفَدْنا من الجُملة السـابِقة وهي قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

الآيــة (٢٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩].

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ لما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الزمر:٢٧]، فبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ هـذا المَثَلَ العَظيـم، فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي: مُتَنازِعون مُختَلِفون كل واحِدٍ منهم يَقول: أنا صاحِبه، أنا الذي أُريد أن أَستَخْدِمه. وما أَشبَه ذلك، فهُم دائِمًا في نِزاع وفي خُصومة؛ لأن كل واحدٍ منهم يُريد أن يَنفَرِد به عن الآخَر.

والرجُل الثاني: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾: ﴿سَلَمًا﴾ أي: سالِمًا لهذا الرجُلِ لا يَشرَكه فيه أحَدٌ.

فإن قال قائِل: بِمَ عرَفْتم أن ﴿سَلَمًا﴾ بمَعنَى: سالِمًا من الشُّرَكاء؟

قُلنا: عرَفْنا ذلك بذِكْر المُقابِل، وهو قوله تعالى: ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾؛ لأن الكلِمة تُعرَف بالسِّياق وبذِكْـر المُقابِل، ومن أَبـرَز مِثالٍ على ذلك قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١].

فلو قال لك قائِل: ما مَعنَى: ثُبَاتٍ؟ لفَهِمْـت مَعناها ممَّا بعدَها: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾، فيَكون الثَّبات ضِدَّ المُجتَمِعيـن، أي: فُرادى: فانفِـروا فُرادى أو انفِروا جميعًا.

وهذه من قواعِد التَّفسير أن يُعرَف تَفسير الكلِمة بذِكْر ما يُقابِلها.

إِذَنْ: يَجِب أن نَعرِف الفَرْق بين المملوك الذي فيه الشُّرَكاء المُتَشاكِسون والمملوك الذي ليس فيه شُرَكاءُ، ثُمَّ نَقيس عليه المُخلِص لله تعالى الذي يَعبُد الله تعالى وحدَه، والذي يَعبُد مع الله تعالى غيرَه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود:٢٤]، أي: هل يَستَوي رجُلان: أحدُهما فيه شُرَكاءُ مُتَشاكِسون والآخَر سَلَمٌ لرجُل؟ هل يَستَوِي هذان؟

الجَوابُ: لا، فالاستِفْهام حينئذٍ بمَعنَى النَّفيِ، يَعنِي: لا يَستَوِيان، والاستِفهام يَأتي لمَعانٍ كثيرة كما هو مَعروف في عِلْم البَلاغة، ولكنه إذا أَتَى في مَوضِع النفيِ فإنه يَكون مُشْربًا معنَى التَّحدِّي؛ لأنه لو قيل: لا يَستَوِيان لفَهِمنا انتِفاء استِوائِهما.

لكن إذا قيل: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ فهِمنا أَمْرين:

الأمر الأوَّل: انتِفاء الاستِواء.

والأمر الثاني: التَّحدِّي.

ونَقول: هل عِندك شيء يُثبِت أنهما يَستَوِيان، فيَكون تَحويل النَّفيِ إلى استِفْهام أبلَغَ في النفي وبين ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؟ الجَواب: لا.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حَمِد نَفْسه عَزَّوَجَلَّ لكَمال صِفاته وكَمال إنعامه، ومن إنعامه أنه يَضرِب الأَمْثال للناس في القُرآن لعلهم يَتَذكَّرون مع أنه عَزَّوَجَلَّ غَنيٌّ عنهم؛

ومَن كفَر فإن الله تعالى غَنيٌّ عن العالَمِين كلِّهم، لكن رحمته تَأبَى إلَّا أن يُبيِّن لعِباده ما يَحتاجون إليه في أمور دِينهم ودُنياهم، ولهذا قال بعد هذا البَيانِ التامِّ في المثَل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وحرف ﴿بَلْ﴾ هنا للإِضْراب الانتِقالي، والإضراب له مَعنَيان:

المَعنَى الأوَّل: إضراب انتِقالي يَعنِي: يَنتَقِل من شيء إلى آخَرَ.

والمَعنَى الثاني: إضراب إِبْطالي، يَعنِي: يُبطِل الأوَّل ويُثبِت الثانيَ.

فإذا قلت: ما قام زَيْدٌ بل عَمرٌو؟ فهذا إضراب إبطال، أي: أَبطَلت الأوَّل وأَثبَتَّ الثانيَ؛ وفي قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل:٦٦]، هذا انتِقال من مَعنًى إلى مَعنًى أشَدَّ منه.

وفي هذه الآيةِ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إضراب انتِقال؛ لأنه لم يَسبِق شيءٌ أَبطَلته.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والمُراد بـ(أَكثَرُهُمْ) هنا: أكثَرُ الناس، كما جاء ذلك في آياتٍ أُخرى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ وانتِفاء العِلْم هنا لانتِفاء لازِمه: العمَل والامتِثال، فأَكثَرُ الناس في جَهْل، وأَكثَرُ الناس في غَيٍّ؛ في جَهْلٍ لا يَعرِفون الحقَّ، وفي غَيٍّ لا يَقبَلون الحقَّ، ولا يَعمَلون به، وكلُّهم يَصِحُّ أن نَنفيَ عنه العِلْم، أمَّا من كان في جَهْلٍ فنَفْي العِلْم عنه واضِحٌ، وأمَّا مَن كان في غَيٍّ مع العِلْم فنَفيُ العِلْم عنه لأنه لم يَنتَفِع به ولم يَعمَل به.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ للمُشرِك والمُوحِّد مثَلًا]، وتَقييد

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمُشرِك والمُوحِّد واضِح؛ لأن المَثَل المَضروب وهو العَبْد المملوك بين شُرَكاءَ والعَبْد الخالِص يَنطَبِق تمامًا على المُشرِك والمُوحِّد.

وقوله تعالى: [﴿رَّجُلًا﴾ بدَل من ﴿مَثَلًا﴾] والبدَل يَقول فيه ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

التَّـابِعُ المَقْصُـودُ بِـالحُكْمِ بِـلَا وَاسِطَةٍ.....[1]

فقوله: (التَّابِعُ المَقْصُودُ بِالحُكْمِ) خرَج به بقيَّة التَّوابع؛ وقوله: (بِلَا وَاسِطَةٍ) خرَج به المَعطوف بـ(بَلْ)، فإن المعطوف بـ(بَلْ) إذا كان للإِضْـراب الإبطاليِّ فإنه يَكون هو المَقصودَ بالحُكْم، لكنه بواسِطة فلا يُسمَّى: بدَلًا، فهنا قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾، فلو حـذَف (مثَلًا)، وقال: ضـرَب الله رجُلًا. يَصِحُّ الكلام؛ لأن المَقصود هو كلِمة رجُل، وأنت لو قُلت: رأيت مُحمدًا عليًّا. عليًّا بدَل؛ لأن المَقصود هو عليٌّ إذا خاطَبني مُخاطِب وقال: رأَيْت عليًّا مُحَمَّدًا عرَفْت أنه أَراد محمَّدًا ولم يُرِد عليًّا؛ لأن محمدًا بدَل من عليٍّ.

والبدَل هو المَقصـود بالحُكْم، لكن قد يَكون سببُـه الغلَطَ، وقد يَكون سببُه النِّسيان، أو غير ذلك من الأسباب.

المُهِمُّ: أن البَدَل هو ما حدَّهُ ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله:

التَّـابِعُ المَقْصُـودُ بِـالحُكْمِ بِـلَا وَاسِـطَةٍ هُـوَ المُسَـمَّى بَـدَلَا

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ﴾ مُتَنازِعون سَيِّئةٌ أَخلاقُهم] أُخِذ سُوءُ الخُلُق من قوله تعالى: ﴿مُتَشَـٰكِسُونَ﴾؛ لأن المُشاكَسة تُنبِئ عن سُوء الخُلُق إذ إن حُسْن الخُلُق يَتَنازَل عن حقِّه، ولو كان في ذلك أَذِيَّة له أو ضرَر عليه؛ لأن حُسْن

(١) الألفية (ص٤٩).

أخلاقه تَتَغلَّب على أَخْذه بحَقِّه.

وهكذا يَنبَغي للإنسان أن يَكون حسَن الأخلاق وأن يَتَغاضى عن بعض حَقِّه، ولو كان في ذلك أذيَّةٌ لنَفْسه، وأنه إن قالت له نَفْسه: إن تَواضُعَك وعَفوَك عن حقِّك ذُلٌّ لك. لِيَعلَمْ أن هذا من وَساوِس الشَّيْطان؛ لأن النبيَّ ﷺ قال: «**مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ اللهُ**»(١)، فلا تَغلِبك نَفْسك وتَأخُذك العِزَّة بالإِثْم فتَقول: لا يُمكِن أن أَسكُت عن هذا الرجُلِ -وأنا مَن أنا!- حتى يَعتَدِيَ عليَّ أنا فلانُ ابنُ فلان. فلْيَعلَم أن هذا من الشَّيْطان، ويَتذَكَّر قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠]، وقوله تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: ما يُوفَّق لها ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(ورَجُلًا سالِمًا لرجُل)] قوله: (سالِمًا) هي قِراءة، والمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّر عليها، والسالِم يَعنِي: الخالِص كما فسَّرَها خالِصًا لرجُل ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ يَقول: (مثَلًا) تَمييز.

والتَّمييز هو من مَيَّز إذا بَيَّن، وقد حدَّه ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الألفية فقال:

اسْمٌ بِمَعْنَى (مِنْ) مُبِينٌ نَكِرَهْ ... يُنْصَبُ تَمْيِيزًا بِمَا قَدْ فَسَّرَهْ(٢)

ومِثاله: قولهم: تَصبَّب زيدٌ عرَقًا. فعرَقًا هذه تَمييز، بتَطبيقها على التَّعريف نَجِد أنها اسمٌ بمَعنى (مِن)؛ لأنك تَقول: تَصبَّب من العرَق. و(مُبينٌ) أي: مُفسِّر لكلِمة

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الألفية (ص٣٤).

(تَصبَّب)؛ لأن (تَصبَّب) لا نَدرِي تَصبَّب دمًا أم تَصبَّب ماءً، أم تَصبَّب عرَقًا، فبيَّن المُتصَبِّب وهو نَكِرة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ومَعنَى الآية أنه لا يَستَوِي العبد لجَماعةٍ والعَبْد لواحِد، فإن الأوَّل إذا طلَب منه كُلٌّ من مالِكيه خِدْمته في وقتٍ واحِد تَحيَّر فيمَن يَخدُمه منهم]؛ فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا يَستَوي] بيَّنَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الاستِفْهام في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ للنَّفيِ حيث فسَّره بنَفيٍ أيضًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا يَستَوِي العَبْد لجَماعة والعَبْد لواحِد] صحيح، لأنه لا يَستَوِي العَبْد لواحِد يَتصَرَّف فيه متى شاء، فمتى شاء قال: اخدُمْني. ومتى شاء قال: استَرِحْ. ومتى شاء باعَهُ، ومتى شاء أَجَّره، لا يَستَوِي العبد لجَماعة مُتَشاكِسين أخلاقُهم سَيِّئة، تَنازُعُهم دائِمٌ، فلو قال أحَدهم: تعالِ اخْدُمْني. وقال الثاني: اخدُمْني أنا. وقال الثالِث: اخدُمْني أنا. وقال الرابعُ: اخدُمْني أنا!! صار أحَدُهم أخَذ باليَد اليُمنى والثاني باليَد اليُسرى والثالِث بالرِّجْل اليُمنى والرابع بالرِّجْل اليُسرى، ثُم مزَّعوا العبد؛ لأن كلَّ واحِد يُريد أن يَكون عنده هو الذي يَخدُمه.

كذلك أيضًا في البيع لو أَراد أحدُهم: قال أنا أُريد بَيعَه. وقال الثاني: لا أُريدُه. والثالِثُ قال: أنا أُريد تَأجيرَه. والرابعُ قال: أُريد إعارَتَه؛ فدائِمًا في نِزاع وشِقاق، فالعَبْد نَفسُه في قلَق وفي حَيْرة وفي بلاء، والشرَكاء أيضًا كذلك مُتَشاكِسون دائِمًا، لا يُمكِن أن يَستَوِيَ هذا مع رجُل، وهذا لا شَكَّ أنه مثَل تَقريبي، وإلَّا فالفَرْق عظيم بين عِبادة الله عَزَّوَجَلَّ وعِبادة غيرِه معَه، فالله تعالى أَعظَمُ، ولكنه يُقرِّب هذا للعِباد كما قرَّب المَعاد بالماء يَنزِل من السَّماء ثُم تَنبُت به الأرض، إذ يَبقَى نبات الأرض بعد نُزول المطَر مُدَّة حسَب الأرض وحسَب كَثْرة المطَر وحسَب الجَوِّ المُناسِب وحسَب

الفَصْل، لكن يَبقَى البَعْث؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤].

فالأَمثال قد لا تَكون مُطابِقة تَمامًا، فقد يَكون مَورِد المَثَل أَسرَعَ من المَثَل لكن يُذكَر على سَبيل التَّقريب، ولا شَكَّ أن عِبادة الله عَزَّوَجَلَّ وحدَه وعِبادة غيره معه بينهما فرقٌ أعظَمُ من الفَرْق بين الرجُل السالِم للرَّجُل والرجُل المُشتَرَك بين شُركاءَ مُتَشاكِسين.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هذا مثَل للمُشرِك والثاني مثَل للمُوحِّد] والمُراد بالثاني (رجُلًا سالِمًا لرجُل) هذا للمُوحِّد والأوَّل للمُشرِك؛ والمَقصود من ضَرْب هذا المَثَلِ هنا: التَّحذير من الشِّرْك بالله عَزَّوَجَلَّ.

ثُم اعلَمْ أن الشُّرَكاء في العَبْد مُتَشاكِسون، لكن مع الله عَزَّوَجَلَّ يَقول الله تعالى في الحَديث القُدسيِّ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١)؛ لأن الشُّرَكاء المُتَشاكِسين لا يُمكِن أن يَتَنازَل أحَدُهم عن نَصيبه، لكن الشِّرْك بالله تعالى يَدَع اللهُ تعالى المُشرِكَ وشِرْكَه: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**».

ولهذا قال: [﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وحدَهُ]، وإذا كان الحَمْد له وحدَه وجَبَ أن تَكون العِبادة له وحدَهُ؛ لأنه أَهْل الحَمْد وأهل العِبادة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو وحدَه المُستَحِقُّ لأن يُعبَد.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أهل مَكَّةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يَصيرون

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

إليه من العَذاب فيُشرِكون]؛ فقوله تعالى: [﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أهل مَكَّةَ] هذه عادة المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيثُ نَجِده دائِمًا ولا سيَّما في الآيات والسُّور المَكِّيَّة يَجعَل مِثل هذا الخِطابِ مُنصَبًّا على أهل مَكَّةَ، ولكن الذي يَنبَغي فِعْله أن نَجعَل دَلالة القرآن عامَّةً دائِمًا إلَّا عند الضرورة؛ لأن القُرآن نزَل لجَميع الخَلْق إلى يوم القيامة، فتَخصيصه بأهل مكَّةَ يَعنِي أنه لا يَتناوَل غيرَهم إلَّا بالقِياس، لكن إذا أَخَذْنا بدَلالة اللَّفْظ العامة شمِل أهل مكَّةَ وغيرَهم بالنَّصِّ، وهناك فَرْق بين شُمول الحُكْم بالنَّصِّ وشُموله بالقِياس.

فالصحيحُ: أن الضمير في ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ يَعود على أكثَر الخَلْق، وأنهم لا يَعلَمون؛ ولهذا ثبَت في الحديث الصحيح: أن الله تعالى يَقول: «**يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ أَوْ بَعْثَ النَّارِ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُ مِئَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ**»[1]، وهؤلاءِ همُ الأَكثَرُ، فأكثَرُ الخَلْق لا يَعلَمون إمَّا لجَهْلهم أو لغَيِّهم، فإن كانوا لجَهْلهم فكما قلت قبلُ: فهُم قد انتَفَى عنهم العِلْم، وإن كان لِغَيِّهم فإن العِلْم انتَفَى عنهم؛ لانتِفاء فائِدته حيث لم يَستَرْشِدوا به.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن هذه الآيةَ تَطبيقٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ فإن هذا مثَل.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾، رقم (٤٧٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: «**يقول الله لآدم: أخرج بعث النار**»، رقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن مثَل مَن يَعبُد مع الله تعالى غيره كمثَل عبْدٍ فيه شُرَكاءُ مُتَشاكِسون مُتَنازِعون مُتَخاصِمون؛ وجهُ ذلك: أن هذا العابِدَ مع الله تعالى غيرَه لم يَكُن قَلْبه خالِصًا لله تعالى فتَنازَعه الشُّرَكاء من يَمينٍ وشِمال حتى ضاع بينهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله تعالى يَأتِي بالخبَر أو غيره؛ ثُمَّ يُقرِّر ذلك للمُخاطَب بأحسَن وَجْه، وذلك في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾، فإن هذا الاستِفْهام الذي يُراد به النَّفيُ: الغرَض منه تقرير ما ذُكِر وإلزامُ المُخاطَب به.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله تعالى مُستَحِقٌّ للحَمْد؛ لكَمال تَوحيده؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الحَمْد المُطلَق إنما يَكون لله عَزَّوَجَلَّ، أمَّا غيره فهو وإن حُمِد فليس حَمْده على الإطلاق، بل يُحمَد على شيء مُعيَّن وجُزء مُعيَّن ممَّا يُحمَد عليه، أمَّا الحَمْد على الإطلاق فهو لله ربِّ العالَمين عَزَّوَجَلَّ، فهو المَحمود على كل حال، وكان النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا أَتاه ما يُسَرُّ به قال: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ**»، وإذا أَتاه ما يَسوؤُه قال: «**الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**»[1].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن أكثر بني آدَمَ لا يَعلَمون الحقائِق على ما هي عليه، وإن علِموها لم يَنتَفِعوا بها؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

• • ۞ • •

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

الآيتان (٣٠، ٣١)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣٠-٣١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ﴾ الخِطاب لرسول الله ﷺ، و﴿مَيِّتٌ﴾ وَصْفٌ له في المُستَقبَل، ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ كذلك وأَكَّد الموتَ مع العِلْم به يَقينًا من أَجْل أن عمَل هؤلاء الذين كذَّبوا النبيَّ ﷺ عمَلُ مَن لم يُوقِن بالموت؛ لأن مَن أَيقَن بالموت حقيقةً فلا بُدَّ أن يَعمَل له، لكنهم هُمْ لا يَعمَلون له فكان عدَم عمَلهم له كالمُنكِر أو بمَنزِلة المُنكِر؛ فلهذا أُكِّد.

وقوله تعالى: ﴿مَيِّتٌ﴾ بتَشديد الياء يُقال لَمن سيَموت وهو حَيٌّ، وأمَّا (مَيْت) فيُقال لَمن وقَع به الموت، أي: بعد فِراق حَياته يُقال: مَيْت، وربما يُقال: مَيِّت، لكن الأكثر مَيْت، فعلى هذا يُفرَّق بين أن يُوصَف الحيُّ بالموت فيُقال فيه: مَيِّت. وبين أن يُوصَف المَيْت بالموت فيُقال: مَيْت.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ﴾ الخِطاب للنَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ومَن عانَده وكفَر به.

وقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ عند ربِّكم الذي خلَقكم أوَّلَ مرَّة وأَعادَكم ثانيَ مرَّة.

وقوله تعالى: ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ عِنده أيُّكم على الحقِّ، ونحن نَعلَم الآنَ نَتيجةَ هذه الخُصومةِ مَن سيَغلِب؟

الجَوابُ: المُؤمِنون لا شَكَّ؛ قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١]؛ فالكافِر لا سبيلَ له على المُؤمِن، فالنتيجةُ -والحمد لله تعالى- مَعلومة أن المُؤمِنين همُ الغالِبون يوم القِيامة وهُمُ الخاصِمون لأَعدائِهم.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّكَ﴾ الخِطاب للنَّبيِّ ﷺ].

وقوله تعالى: ﴿مَيِّتٌ﴾ أي: [ستَموت]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ستَموت ويَموتون]، وكما يَقول العامَّة عِندنا: الوَعْد قُدَّام. قُدَّام يَعنِي: يوم القِيامة؛ لأن الله تعالى يوم القيامة يَفصِل بين العِباد سَوْف يَتَنازَع الناس في أعمالهم ودِياناتهم ويَتَنازَعون في حُقوقهم الخاصَّة، فيَفصِل الله تعالى بينهم يوم القِيامة؛ يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فلا شَماتةَ بالمَوْت] يَعنِي: أنك إذا مِتَّ فلا شَماتةَ عليك؛ لأنهم سيَموتون مِثْلك.

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نزَلَت لَمَّا استَبْطَؤوا مَوْته ﷺ] يَعنِي: أن سبَب نُزولها أن قُرَيْشًا استَبْطؤوا موت النبيِّ ﷺ، فنزَلت هذه الآيةُ تُخبِره أنه سيَموت، وإذا مات فهم أيضًا سيَموتون ويَختَصمون يوم القِيامة.

ولكن هذه الدَّعوى تَحتاج إلى دَليل؛ لأننا إن نظَرْنا في سبَب النُّزول لا نَجِد هذا، فإذا كان كذلك فلا يَنبَغي أن نَتخَيَّل سببًا للنُّزول في مَعنَى آية من كِتاب الله تعالى؛ لأنَّ سبَب النُّزول خبَر مَحضٌ، والخبَر المَحضُ لا دَخلَ للعَقْل فيه، ولكننا

نَقول: ذكَرَ الله تعالى هذه الجُملةَ إشارةً إلى أنه لن يَضيع عمَلُك ولا عمَلُهم، فلن يَضيع عمَلُك بدَعْوتك إلى التوحيد، ولن يَضيع عمَلهم بالإِشْراك، فإن لكم مَوْعِدًا ستَجتَمِعون فيه وتَختَصِمون فيه عند الله عَزَّوَجَلَّ، فيَكون في هذا تَسلية للرسول ﷺ، وفيه تَحذيرٌ للمُشرِكين.

فهو من وَجهٍ: تسلية وتَطمينٌ للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهو من وجهٍ آخَرَ: تَحذيرٌ للمُشرِكين بأنهم سيَموتون وسيَكون أيضًا مَوتُهم عن قُرْب، وسيَكون مُؤكَّدًا لا إشكالَ فيه.

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ أيُّها الناس فيما بينكم من المَظالِم] وهذا عجَبٌ من المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث صرَف الخِطاب ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ إلى عُموم الناس، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيُّها الناسُ] والسِّياق يَأبى هذا التَّفسيرَ، بل الخِطاب للنبيِّ ﷺ ومَن كفَر به؛ هذا هو المُتعَيِّن.

وقوله تعالى: ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ أي: في المَظالِم التي بينكم من الحقِّ والباطِل، فأنت تَدعو إلى التَّوْحيد وهم يُنكِرون ذلك، ولكم مَوعدٌ تَختَصِمون فيه.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ أي: الرسول ﷺ ومَن كذَّبه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ إشارة إلى أن هذا الاختِصامَ من مُقتَضى رُبوبيته عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه حكَمٌ عَدْل، ومِن عَدْله: أنه يَفصِل بين المُتَنازِعين فيه يوم القيامة كما يَفصِل بين المُتَنازِعين في الحُقوق الخاصة.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن نبيَّنا ﷺ لن يُخلَّد أبَدَ الآبِدين، بل هو مَيِّت، كما أن خُصومه أموات، وهذا كقَوْله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَسلية النَّبيِّ ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إنذار هؤلاء المُكذِّبين بأنَّ لهم مَوعِدًا مع الرسول ﷺ وهو الاختِصام يوم القيامة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن أهل الشِّرْك والكُفْر خُصومٌ لأهل التَّوْحيد والإيمان في الآخِرة، كما أنهم خُصومٌ في الدنيا، ففي الدنيا لا شَكَّ في خُصومتهم وعَداوة بعضِهم لبعض، وفي الآخِرة أشَدُّ وأعظَمُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الخَلْق يَختَصِمون عند الله يوم القِيامة، ومن المَعلوم أن الخاصِم إذا كانت الخُصومة بين المُؤمِن والكافِر، فالمُنتَصِر هو المُؤمِن، قال الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات البَعْث والحِساب؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

الآيــة (٣٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿❁ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر:٣٢].

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ﴾: (مَنْ) هذه استِفْهامية، وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾: (إِذْ) ظَرْفٌ بمَعنى: حين؛ والاستِفهام في قوله: ﴿أَلَيْسَ﴾ للتَّقرير.

يَقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هذا الاستِفْهام هنا بمَعنَى النفيِ، أي: لا أحَدَ أَظلَمُ ممَّن كذَب على الله تعالى.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَنْ﴾ أي لا أَحَدَ] وتَحويل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الاستِفهامَ إلى نفيٍ يُفيد أن مَعنَى الاستِفْهام النفيُ، والمَعنَى: لا أحَدَ أَظلَمُ فلا أحَدَ ممَّن كذَب على الله تعالى، أي: قال عليه الكذِب.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بنِسْبة الشَّريك والولَد إليه] وهذا على سَبيل التَّمثيل لا الحَصْر، فمَن قال: إن لله ولَدًا فقَد كذَب على الله تعالى، ومَن قال: إن لله تعالى شَريكًا. فقد كذَب على الله تعالى؛ لأن الله تعالى لا يُوصَف بهذه الصِّفاتِ التي وصَفوه بها، ومَن فعَل ذلك فقد كذَب على الله تعالى، ومَن قال: إن الله مُماثِلٌ لخَلْقه. فقد كذَب على الله تعالى، ومَن قال: إن الله حَرَّم السائِبة والوَصيلة والحامِ. فقد كذَب على الله تعالى.

المُهِمُّ: أن ذِكْر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذين الأَمْرين فقَطِ المرادُ به التَّمثيلُ لا الحصرُ، فالكذِب على الله تعالى كثير، وبعضُها أشَدُّ من بعض.

وقوله تعالى: ﴿كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: افترى عليه الكذِب، إمَّا بنِسْبة الشريك إليه، أو بأنه حرَّم شيئًا ولم يُحرِّمه، أو أحَلَّ شيئًا ولم يُحِلَّه، أو أَوجَب شيئًا ولم يُوجِبه، أو عطَّل صِفةً من صِفاته أو أَثبَت له ما لم يَصِفْ به نَفْسه، أو غير ذلك ممَّا يَكون فيه الكذِب على الله تعالى، فلا أحَدَ أَظلَمُ ممَّن كذَب على الله تعالى، والكذِب على الله تعالى ليس كالكذِب على البَشَر، والكذِب على الرسول ﷺ ليس كالكذِب على غيره من البشَر، قال النبيُّ ﷺ: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(١).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ بالقُرآن ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾]، ولا شَكَّ أن القرآن صِدْق، بل إنه صِدْقٌ وعَدْل كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، فهو باعتِبار الأخبار صِدْق، وباعتِبار الأحكام عَدْل، لكن المَسأَلة أعَمُّ ممَّا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فقوله تعالى: ﴿بِٱلصِّدْقِ﴾ أي: بما كان صادِقًا سواءٌ في القرآن أو في السُّنَّة، فإنه داخِلٌ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ فجَمَع بين الأَمْرين (كذَّب بالصِّدْق) أي: نسَب الصِّدقَ إلى الكَذِب فقال: هذا كذِبٌ. ومن ذلك: تكذيب قُريشٍ للرسول ﷺ حيث قالوا: إنه ساحِرٌ كذَّاب.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت، رقم (١٢٩١)، ومسلم في مقدمة صحيحه، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، رقم (٤)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهُۥ﴾ يَعنِي: إذ أَتاه، وليس شيئًا مَنقولًا له، بل هو قد أَتاه مُباشَرةً وأُخبِر به على لِسان الصادِق، فيُكذِّب به، فلو أن أحَدًا حدَّثَنا عن شيخه، وشيخُه عن شيخِه، وشيخُه عن شيخِه، حتى وصَل إلى الرسول ﷺ فهل يُمكِن أن نُكذِّب هذا إذا كان في أحَد الرواة من هو مُتَّهَم بالكذِب؟

الجَوابُ: نعَمْ يُمكِن، لكن إذا جاءَنا الخبَر من الرسول مُباشَرة فإن تَكذيبه كُفْر؛ ولهذا لو أن أحَدًا من الناس كذَّب حديثًا في أحدِ كُتُب الحديث وقُلْنا له: لِمَ كذَّبْت؟ هل عندك شَكٌّ في أن الرسول ﷺ قاله؟ قال: لا شَكَّ عِندي أنه قاله، لكنه كذِب؛ فنَقول: هذا كافِرٌ؛ لأن الصِّدْق جاء بإِقْراره على نَفْسه، أمَّا لو قال: هذا كذِب لأن أحَدَ الرُّواة كاذِب أو كذَّاب فأنا أُنكِره لهذا. فلا يَكفُر؛ بل قد يَكون هذا هو الواجِبَ عليه إذا كان هذا مُؤدَّى اجتِهاده، ففائِدة قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهُۥ﴾ أنه لا واسِطةَ بينَه وبين مَن جاء بالصِّدْق حتى يُقال: لعلَّ له عُذرًا وأنت تَلوم؛ فليس هناك واسِطة.

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ هذا الاستِفهامُ للتَّقرير، والغالِب: أن هَمزة الاستِفهام إذا دخَلت على ما يُفيد النفيَ الغالِبُ أن تَكون للتَّقرير، وجوابُها يَكون بالإثبات بلَفْظة (بلَى) مِثْل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، فالاستِفْهام هنا للتَّقرير، ومَعناه: قد شرَحْنا لك صَدْرك، ومثله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ [التغابن:٥]، والمَعنَى: قد أَتاكُم، وأَمثِلة ذلك في القُرآن كثيرةٌ.

وكلِمة الكافِرين في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ إظهار في مَقام الإِضْمار، وكان مُقتَضى السِّياق أن يَقول: أَلَيْسَ في جَهنَّمَ مَثوًى له، والإظهار

في مَقام الإِضْمار له فَوائِدُ ذكَرْناها سابِقًا منها:

١- العُموم، وهذا يَعنِي: أن مَثوًى له ولغَيْره من الكافِرين.

٢- تَسجيل الوَصْف على هَؤلاء بأنهم كُفَّار، يَعنِي: إثبات أن هؤلاءِ كفَّار.

٣- إفادة التَّعليل؛ لأنه لو قال: أَلَيْس في جَهنَّمَ مَثوًى له. لم نَستَفِد ما هي العِلَّةُ في أن مَثواه جهنَّمَ، لكن إذا قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ عرَفْنا أن العِلَّة كُفْرهم؛ ففيه بَيان العِلَّة.

فصار الإظهار في مَوضِع الإضمار له ثلاث فوائِدَ هنا.

وكلِمة: ﴿جَهَنَّمَ﴾ قيل: إنها من الأسماء المُعرَّبة، وأَصلُها في اللغة الفارِسية (كَهنام). وقيل: إنها اسْمٌ عرَبيٌّ، وأنها مَأخوذة من الجهمة، يَعنِي: الظُّلْمة والنار؛ لبُعْد قَعْرها -أَعاذَني الله تعالى وإيَّاكم منها-، سَوداءُ مُظلِمة، فالله تعالى أعلَمُ، سواءٌ هذا أو هذا.

المُهِمُّ: أنها تُستَعمَل في لغة العرَب للنار العَظيمة المُسوَدَّة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾: بَلى] وهذا هو جوابُ ﴿أَلَيْسَ﴾ وأَشباهِها، وحاصِلُه: أنه إذا دخَلَت همزة الاستِفْهام على ما يُفيد النفيَ فجوابُ التَّقرير (بلَى)، ولو قُلْت: (نَعَمْ) لكان نَفيًا، فإذا قلت: أَلَمْ يَقُمْ زَيدٌ؟ فقال المُخاطَب: (نعَمْ)؛ يَعنِي: لم يَقُم، وإذا قُلت: أَلَمْ يَقُم زَيدٌ؟ فقال المُخاطَب: (بلى) أي: قد قامَ؛ ولهذا يُروَى عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢]، قال: «لو قالوا: (نعَمْ) لكَفَروا»؛ لأنهم إذا قالوا: (نعَمْ) يَعنِي: لسْتَ ربَّنا، هذا هو المَشهور في اللُّغة العربية، لكن ربما يَأتي الجوابُ بـ(نَعَمْ)

مُرادًا به الإثباتُ، ومنه قول الشاعِر:

أَلَـيْسَ اللَّيْـلُ يَجْمَـعُ أُمَّ عَمْـرٍو وَإِيَّانَـا فَـذَاكَ لَنَـا تَـدَانِي

نَعَـمْ وَتَـرَى الهِـلَالَ كَـمَا أَرَاهُ وَيَعْلُوهَـا النَّهَـارُ كَـمَا عَـلَانِي[1]

لو قال قائِل: لعَلَّ هذه ضرورةٌ؟

قُلنا: لا، لأنه لو أَتَى بـ(بلى) بدَلَ (نعَمِ) استَقام البيتُ، فإن الشاعِر لو قال: بلَى وَتَرَى الهِلال كما أَراه. استَقام البيتُ.

وعلى كل حال: المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَجاب بـ(بَلى) أي: لإِثْبات ما ذكَر أن في جَهَنَّم مَثوًى للكافِرين.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنه لا أَحَـدَ أَظلَمُ ممَّن كذَب على الله تعالى وكـذَّب بالصِّدْق؛ لجَمْعه بين سَيِّئَتَيْن:

السَّيِّئة الأُولى: الكذِب على الغير.

والسَّيِّئة الثانية: تَكذيب الغَيرِ الصادِق.

فإنِ انفَرَد أحدُهما فهل يَستَحِقُّ هذا الوَصفَ أن يَكون أَظلَمَ الناس لو كذَب على الله تعالى وصدَّق بالصِّدْق؟ هل يَستَحِقُّ هذا الوَصْفَ؟

الجَوابُ: لا، لأن الوَصْـف أو الحُكْم المُرتَّـب على مَجمـوع صِفات لا يَثبُـت إلَّا بثُبوتها، ولكن مع ذلك إذا تَفرَّقـتِ الأَوْصاف فله نصيـبٌ من هذا الوَصفِ،

(١) البيتان من شعر جحدر العُكْلي، انظر: الأمالي للقالي (١/ ٢٨٢)، وخزانة الأدب (١١/ ٢٠٩).

فقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون:٤-٧]، فمَن تَحقَّق فيه أحَدُ هذه الأَوْصافِ له نَصيبٌ من الوَيْل، لكِنَّ الويلَ كلَّه لا يَكون إلَّا باجتِماع الأَوْصاف.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر:٤٢-٤٦]، فهذه أربعة أَوْصاف هي سبَب دُخولهم النارَ، وإذا انفرَد واحِدٌ منها لم يَكُن دُخولُهم النارَ مُستَحَقًّا، لكن له نَصيبٌ من هذا الوَعيدِ.

وهنا في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ وَصْفان هُما: كذَب على الله تعالى، وكذَّب بالصِّدْق؛ فلوِ افتَرَى بدون أن يُكذِّب بالصِّدْق لم يَنطَبِق عليه وَصْف الأَظلَميَّة، لكنه ظالِم، ولو كذَّب بالصِّدْق ولم يَكذِب على الله تعالى كذلك.

فإن قال قائِل: هذه الآيةُ تَدُلُّ على أن مَنِ اتَّصَف بهذَيْن الوَصْفين هو أَظلَمُ الناس. فكيف نَجمَع بينها وبين نُصوصٍ أُخرى تَدُلُّ على مثل هذه الدَّلالةِ، مثل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ [البقرة:١١٤]، وفي الحديث: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»(١)، ونُصوص مُتعَدِّدة؟

فالجَوابُ أن نَقول: إن هذه كلَّها تَشتَرِك في وَصْف الأَظْلمية، ولا مانِعَ من أن تَشتَرِك فتَقول مثلًا: فُلان أصدَقُ الناس. والثاني أيضًا: فُلان أصدَقُ الناس.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، رقم (٧٥٥٩)، ومسلم: كتاب اللباس، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والثالِث: فُلان أَصدَقُ الناس؛ يَعنِي: اشتَـرَكوا في هذه المَرتَبةِ العالية التي أَعلى كل شيء؛ لأن اسمَ التَّفضيل يَدُلُّ على الكَمال في هذه الصِّفةِ.

أو نَقول: إن الأَظْلمية باعتِبار جِنْس هذا الذَّنبِ. فمثَلًا: مِن أَشَدِّ الناس ظُلمًا في الكَذِب على الغير: مَن كذَب على الله تعالى، ومِن أَشَدِّ الناس ظُلمًا في تكذيب الغَيْر: مَن كذَّب بالصِّدْق، وهذا الوجهُ أَقرَبُ، وذلك لأن الاشتِراك في الأَظلمية قد يَمنَع اسم التَّفضيل في الجِنْس الآخَر، يَعنِي: أنه ليس الإنسان يَتَصوَّر تَصوُّرًا تامًّا بأن اشتِراك هذه الأَعمالِ في الأَظْلمية يَقتَضي أن لا يَكون بعضُها أظلَمَ من بعض.

فإذا قُلنا: إن الأَظْلمية هنا باعتِبار جِنْس المُفضَّل عليه، يَعنِي: فمَن أَظلَمُ ممَّن كذَب على الله تعالى في الكاذِبين على الغيرِ الكاذِب على الله تعالى أَشَدُّ ظلمًا من الكاذِب على زَيْد وعَمرٍو، والمُكذِّب بما يَحتَمِل الصِّدْق والكذِب ليس كالمُكذِّب بما يَعلَم أنه صِدْق كذَّب بالصِّدْق، إذ جاء؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أي: مَن منَع مَساجِد الله تعالى فهو أَظلَمُ ممَّن منَع الغَيْر حقَّه، فلو منَعْت رجُلًا أن يَدخُل بيته لكان مَنْعي لهذا الرجُلِ أن يَدخُل مَسجِد الله تعالى ويُذكَر فيها اسمُه أَظلَمَ.

ومثله قوله تعالى: «**مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي**» فلو أن أحَدًا ذهَب يَخلُق كخَلقِ فُلانٍ أو فلان ممَّن يَحرُم عليه مُزاحَمته في صَنْعته لكان الذي ذهَب يَخلُق كخَلْق الله تعالى أَظلمَ، وهَلُمَّ جرًّا، وهذا الجَوابُ جَوابٌ -كما يُرى- سَديد ولا يَرِد عليه إِشْكال.

والاستِفْهام هنا مَعناه النفيُ، والفائِدة من إتيان النفيِ بصيغة الاستِفهام: التوبيخُ والتقريرُ، وهو مُتضَمِّن مَعنَى التَّحدِّي؛ لأن قوله تعالى: «**لَا أَحَدَ أَظْلَمُ**»

دون قوله تعالى: «فَمَنْ أَظْلَمُ»؛ لأن هذا يَكون مُشرَبًا مَعنَى التَّحدِّي فيَكون نَفيًا وزيادة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الكـذِب على الله تعالى أظلَمُ أنواع الكَـذِب؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وإذا كان النَّبيُّ ﷺ يَقول: «**إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدِكُمْ**»[1]، فما بالُكم بالكذِب على اللهِ تعالى الذي أَرسلَهُ؟! أي: إذا كان هذا الكذِب على الرسول ﷺ بهذه المَثابةِ فما بالُكَ بمَن كذَبَ على الله تعالى؟!.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وجوب التَّحرِّي في تفسير القُرآن؛ لأن المُفسِّر للقرآن شاهِدٌ على الله تعالى بأنه أَراد كذا وكذا، وقد يَكون الأَمْر على خِلاف ذلك فيَكون كاذِبًا على الله؛ ولهذا كان الصحابة الأَجِلَّاء يَتحرَّزون من التَّفسير من تَفسير القُرآن، وهو نزَل بلُغَتهم وفي عصـرِهم ومُشاهَدتهم، ومع ذلك يَتحرَّزون، سُـئِل أبو بَكْر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٣١] قال: «أيُّ أَرْضٍ تُقِلُّني، وأيُّ سَماءٍ تُظِلُّني إن قُلتُ في كلام اللهِ ما لا أَعلَمُ»[2] يَعنِي: أنه لا يَعلَم، وهذا مَشهور عند المُفسِّرين وعند غيرِهم، وقد نقَله شيخُ الإسلام في المُقدِّمة[3].

وعِندنا الآنَ أُناس يُفسِّرون الآية وكأنه ابنُ عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو من أَجهَل عِباد الله تعالى! ولا يُبالي أنه يُفسِّر كلام الله تعالى، ولو فسَّر كلام زَيدٍ وعَمرٍو ما هَمَّه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت، رقم (١٢٩١)، ومسلم في مقدمة صحيحه، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، رقم (٤)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه كتاب التفسير رقم (٣٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٥/ ٤٩٩-٥٠٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٧١-٣٧٢).

وما همَّنا به، لكن الذي يُهِمُّنا أنه إذا فسَّر كلام الله تعالى وشهِد على الله تعالى أنه أَراد كذا وكذا؛ ولذلك نَجِد أن من أَخطَر ما يَكون أن يُؤَوَّل كلام الله تعالى عن ظاهِره إلى مَعنًى يُخالِف الظاهِر بلا دليلٍ بيِّنٍ.

وبه نَعرِف ضلال أهل التَّعطيل الذين قالوا: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] يَعنِي: استَوْلى عليه -كأنك تَشهَد على الله تعالى أنه أَراد هذا-؛ وقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ أي: بقُوَّتي، أو بنِعْمتي، أو ما أَشبَه ذلك!! فهذا كذِب على الله تعالى؛ لأن الله تعالى خاطَبَنا في القُرآن باللِّسان العرَبيِّ، فيَجِب أن نَحمِل هذا القُرآنَ عليه بدون أن نُحرِّف.

وقد يَقول قائِل: هل هذا عامٌّ أو خاصٌّ بالآيات المُشكِلة؛ لأنه -أَحيانًا- تَمُرُّ آية يَسأَل عنها الإنسان ويَكون مَعناها واضِحًا جِدًّا مع العِلْم أنه لم يَسبِق أن قرَأ التَّفسير فيها، فهل في هذه يَقول: مَعناهُ الظاهِرُ هكذا، أو يَقول: أنا واللهِ لا أَدرِي؛ لأَنِّي لم أَقرَأ تَفسيرًا عن هذه الآيةِ؟

أَقول: إن الشيء الواضِح تَفسيره بمُقتَضى اللُّغة لا بأسَ به، فلو قال قائِل: ما مَعنَى قوله تعالى: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؟ وجاء عامِّيٌّ فقال: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَعنِي قُلِ: اللهُ أَكبَرُ، اللهُ أَكبَرُ... قد قامَتِ الصلاة... إلى آخِره؛ فهذا حرامٌ، لكن لو سُئِل عنها طالِب عِلْم يَعرِف مَعنَى الإقامة -إقامة الشيء يَعنِي: فِعْله على وَجه مُستَقيم-، فقال: مَعنَى: أَقيموا يَعنِي: ائْتُوا بها كامِلة؛ فليس هناك مانِع في هذا. أمَّا في مَسأَلة تَأبير النخل[1]، فلو قال قائِل: إن النبيَّ ﷺ إذا تَكلَّم في أُمور الدُّنيا كالطِّبِّ وغيره لنا أن

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا، رقم (٢٣٦٣)، من حديث عائشة وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

نَأخُذ بذلك أو نَرُدَّه على حسَب ما يُوافِق التَّجرِبة؛ فهل هذا يَكون من رَدِّ حُكْم النبيِّ ﷺ أو لا؟

أَقول: إذا قال النبيُّ ﷺ قولًا ولم يَثبُت في حياته أنه رجَعَ عنه فقوله باقٍ ولا يَجوز أن نُخالِفه، ولو كان في مَسأَلة طِبٍّ؛ ولهذا لَمَّا قال ﷺ: «إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ، ثُمَّ لْيَنْزِعْهُ، فَإِنَّ فِي أَحَدِ جَنَاحَيْهِ دَاءً، وَفِي الْآخَرِ دَوَاءً» أو قال: «شِفَاءً»[1]، فلا يَجوز أن نَقول: واللهِ هذا يُخالِف الطِّبَّ. بل يَجِب علينا أن نَقول: هذا حَقٌّ، ثُمَّ نَعلَم أن الطِّبَّ لم يَصِل إلى هذا العِلْم، أمَّا إذا كان في حَياته ثُمَّ هو نفسه تَراجَع عنه فهذا لا بأسَ.

فمثَلًا الآنَ: النَّجَّارون أَعلَمُ مِنَّا بالنِّجارة، فالنَّجَّار يَعرِف كيف يَنجُر ونحن لا نَعرِف، والمُهَندِسون الذين يَصنَعون السيَّاراتِ، والذين يَصنَعون الراديو، والذين يَصنَعون الساعاتِ أَعلَمُ منَّا بها، فقوله ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ»، يَعنِي: ما تَصنَعونه وتُباشِرونه على وجهٍ مَحسوس فأنتُم أَعلَمُ بها، أمَّا أَحكام دُنْيانا فهي إلى الله تعالى ورسولِه ﷺ هما أَعلَمُ بذلك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: اختِلاف مَراتِب الذُّنوب؛ فإن الذُّنوب مَراتِبُ تَتَفاضَل كما أن الحَسَناتِ مَراتِب تَتَفاضَل.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه يَنبَني على هذه الفائِدةِ زيادة الإيمان ونَقْصه؛ لأنه كلَّما كان الذنب أَعظَمَ كان نَقْص الإيمان به أكبَرَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وجوب تَصديق مَن قامَتِ البَيِّنة على صِدْقه؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه، رقم (٣٣٢٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ فدَلَّ هذا على أن مَن كذَّب بالصِّدْق فهو داخِل في هذا الوَصفِ الذي هو أظلَمُ مَن قام بهذا العمَلِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الثَّناء على الصادِقين، ووجهُ ذلك: أن مَن كذَّبهم فهو داخِلٌ في هذا الجُرمِ الذي هو أَظلَمُ ما يَكون.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن مَن كذَّب بالشيء المُباشِر له فهو أَعظَمُ مِمَّن كذَّب بما سَمِع؛ لأن الواسِطة بينه وبين الواقِع قد تُضعِف مَقام الصِّدْق عنده؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تَقرير كون النار مَثوًى للكافِرين.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: بَيان أن ما يُطلِقه كثيرٌ من الناس اليومَ إذا مات الإنسان قالوا: (ذَهَبَ إِلَى مَثْواهُ الأَخيرِ)، فإن هذه الكلِمةَ لو أَخَذْناها بظاهِرها لكانت تَتَضمَّن إنكار البَعْث، فإذا جُعِل القَبْر هو المَثوَى الأخيرَ فلا بَعْثَ، والمَثوَى الأخير هي إمَّا الجَنَّة وإمَّا النار، وعلى هذا فيَجِب التَّنبُّه لهذه العِبارة، وأن يُقال: إن هذه عِبارة مُتَلَقَّاة ممَّن يُنكِرون البَعْث، ولكن كَثيرًا من العامَّة يَأخُذون الكلِماتِ لا يُفكِّرون في مَعناها!.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنه لا يُخلَّد المُؤمِن في النار؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، والمُؤمِن ليست النار مَثوًى له، بل إنْ عُذِّب في النار على قَدْر ذَنْبه فمَآله إلى الجَنَّة.

الآيـة (٣٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر:٣٣].

قوله تعالى: (الذي) مُبتَدأ، وخبَرُه جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ فتَضمَّنَت هذه الجُملةُ جُمْلتين جملةً كُبرى وجملةً صُغرى؛ فالجُملة الكُبرى هي المُتضَمِّنة للمُبتَدَأ والخبَر، والصُّغرى هي الخبَر المُكوَّن من مُبتَدَأ وخبَر، فالجُمْلة الصُّغرى هي ما وقَعَت خبَرًا، وتُسمَّى: جملةً صُغرى؛ لأنها في مَقام المُفرَد والجُملة الكبرى هي المُكوَّنة من مُبتَدَأ وخبَر أو فِعْلٍ ومَعموله.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ فيه شيء من الإشكال يَتبادَر إلى الذِّهْن وهو أَخبَر عن الذي، وهو اسمٌ مُفرَد بكلِمة دالَّة على الجَمْع وهي قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ ولم يَقُل: أُولئك هو المُتَّقي؟ ووجهُ ذلك: أن (الذي) اسمٌ مَوْصولٌ والاسمُ المَوْصول يُفيد العُموم حتى وإن كان مُفرَدًا فإنه يُفيد العُموم؛ ولهذا صحَّ الإخبار عنه بالجَمْع مع كونه مُفرَدًا.

يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾: (الذي جاءَ بالصِّدْق) عامٌّ يَشمَل: كل مَن جاء بالصِّدْق، من الرسُل عليهم الصلاة والسلام والأنبياء والصادِقين من غيرهم.

ومن ذلك مثلًا: كَعبُ بنُ مالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد جاء بالصِّدْق حين تَخلَّف عن غزوة تَبوكَ، وأَخبَر بالصِّدْق[1] وأمَرَنا الله عَزَّ وَجَلَّ أن نكون معهم لَمَّا ذكَر قِصَّتهم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

وقوله: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ أي: صدَّق بالصِّدق الذي قامَتِ البَيِّنة على صِدْقه، والصِّدْق هو مُطابَقة الواقِع للخبَر، والكذِب مُخالَفته، يَعنِي: مَن أَخبَر بما يُطابِق الواقِع فهو صادِق، ومَن أَخبَر بما يُخالِف الواقِع فهو كاذِب.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ أي بما قامَتِ البَيِّنة على صِدْقه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ يَعنِي: الذين اتَّقَوُا الله عَزَّ وَجَلَّ فلم يَقولوا كذِبًا واتَّقوا الله عَزَّ وَجَلَّ ولم يَردُّوا صِدْقًا.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ وهو النبيُّ ﷺ]، وهذا تَخصيصٌ للعُموم بما لا دَليلَ عليه، والذي يَنبَغي إذا جاء القُرآن عامًّا إبقاؤُه على عُمومه، بل هو الواجِب أن يَبقَى على عُمومه إلَّا بدَليل، وهنا ليس هناك دَليل يَجعَل هذا خاصًّا بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالواجِبُ: أن نَجعَله عامًّا؛ لأن حَمْله على الخاصِّ بلا دَليلٍ قُصورٌ في مَدلول القُرآن.

إِذَنْ: يَشمَل النبيَّ ﷺ وغيرَه.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وهُمُ المُؤمِنون] هذا أيضًا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم (٤٤١٨)، ومسلم: كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم (٢٧٦٩)، من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خطأً؛ لأننا لو فسَّرْنا الآية بما فسَّرها به المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لزِم من ذلك تَشتيت في الضمائِر، وعدَم انسِجام الكلام؛ فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ هذه مَعطوفة على الجُملة التي هي صِلة المَوْصول، وإذا كانت مَعطوفةً على الجُمْلة التي هي صِلة المَوْصول لزِم أن يَكون المُتَّصِف بها المَوْصول ما دامَت مَعطوفة على الصِّلة فهي من جُملة الصِّلة، والصِّلة وَصْفٌ للمَوْصول.

والمُفَسِّر رحمه الله وعفا عنه شتَّتَ الضمائِر، فجعَل الضمير الأوَّل للرسول ﷺ، والضميرَ الثانيَ للمُؤمِنين، والحَقُّ أنهما يَرجِعان إلى شيء واحِد وهو المَوْصول؛ لأن صِلة المَوْصول صِفةٌ له، والمعطوف على الصِّلة صِفةٌ له أيضًا.

إذَنْ: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ يَشمَل كلَّ أحَد، حتى النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ صدَّق بأنه رسول الله ﷺ، فكان يَقول أحيانًا: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ**»[1]، فقد صدَّق بأنه رسول الله ﷺ، وأن ما أُنزِل إليه من ربِّه هو الحقُّ، وأوَّلُ مَن يَدخُل في هذه الآيةِ بعد الرسول ﷺ أبو بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فإن أبا بَكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ جاء بالصِّدْق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصَدَّق به حتى إنه في أَضيقِ حالٍ للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليلةَ الإسراء حينما أَشاعَت قريشٌ بأن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كذَب وصار يُخرِّف ويَقول ما لا يُمكِن، فلمَّا بلَغه الخبَرُ قال: «إن كان قد قال ذلك فهو صادِقٌ»، فمِن ذلك اليومِ سُمِّيَ بـ(الصِّدِّيق)[2] رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فهُمُ المُؤمِنون، فالذي بمَعنَى الذين]، يَعنِي: أنها اسمٌ مُفرَد، لكن بمَعنَى الجَمْع؛ لكونها دالَّة على العُموم.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة، رقم (٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٩٩).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الشِّرْكَ] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أتى باسْمِ الإشارة للبَعيد لعُلوِّ مَرتَبتهم ولم يَقُل: هؤلاءِ. بل قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يُشار بها للبَعيد، وإنما أُشير لها إشارة البَعيد مع دُنوِّ التَّحدُّث عنهم؛ لعُلوِّ مَرتَبتهم.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الشِّرْكَ] من أغرَب ما يَكون؛ لأن الحديث الآنَ عن الصِّدْق والتَّصديق بالصِّدْق، فأين الشِّرْك؟ فإنه لم يَتقدَّم له ذِكْر، ولو أَرَدْنا أن نُخصِّص لقُلْنا: أُولئِك هُمُ المُتَّقون الكذِبَ والتَّكذيبَ بالحقِّ، مع أن الذي يَدُلُّ عليه الدليلُ: أن المَعنَى: أُولئك هُمُ المُتَّقون اللهَ تعالى، وذلك لأن التَّقوى إذا أُطلِقَت فإنما يُراد بها تَقوى الله تعالى، أمَّا إذا قُيِّدت فهي حَسبما قُيِّدت به، فقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١] هذا لليومِ، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١] هذا للنَّار.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهِ﴾ هذا لله تعالى؛ وعند الإطْلاق لله تعالى؛ لأن الله تعالى أحقُّ أن يُتَّقى عَزَّوَجَلَّ؛ فهنا نَقول: (﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الله)؛ ولهذا جاؤُوا بالصِّدْق وصدَّقوا به تَقوَى لله عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الثَّناء على مَن قال بالصِّدْق، والصِّدْق واجِب، والكذِب مُحرَّم، **وقد يَقول قائِل**: إنه من كَبائِر الذُّنوب؛ لأن النبيَّ ﷺ جعَله من آيات النِّفاق[1]، والمُنافِق ليس من المُؤمِنين؛ **فلو قال قائِل**: إن الكذِب من كبائِر الذُّنوب لم يَكُن قوله بعيدًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الثَّناء على مَن صدَّق بمَن قامَتِ البيِّنة على صِدْقه فصدَّق بالصِّدْق، وأمَّا مَن لم يُصدِّق بما يَشُكُّ فيه فلا حرَجَ عليه، والأخبار التي تَرِد على المرء تَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام:

الأوَّل: ما دلَّ الدليل على صِدْقه فيُصدَّق.

الثاني: ما دلَّ الدليل على كذِبه إمَّا لكون ناقِله معروفًا بالكذِب، وإمَّا لكونه مُستَحيل الوقوع، أو ما أشبَه ذلك، فهذا يُكذَّب، ولا حرَجَ على مَن كذَّبه.

الثالِث: ما يَحتَمِل الصِّدْق ويَحتَمِل الكذِب، فهذا يُتوقَّف فيه، ولا يُرَدُّ؛ لعدَم القيام على رَدِّه ولا يُقبَل لعدَم قيام الدَّليل على قَبوله.

ودليلُ هذا القِسمِ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦].

ولهذا في الآيات التي قبلَ هذه قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ وهنا قال: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ فذَمَّ الأوَّلَيْن وأثنَى على الآخَرَيْن.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الصِّدْق من التَّقوَى، وتَصديق مَن قامت البيِّنة على صِدْقه هو أيضًا من التَّقوى؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ومن فوائِدها الأُصولية: أن المَوْصول من صِيَغ العُموم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾.

• • ❁ • •

الآيــة (٣٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الزمر:٣٤].

قوله تعالى: ﴿لَهُم﴾ أي: لهـؤلاء المُتَّقين ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ أي: الذي يَشاؤُونه ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأَضاف الربوبية إليهم على وجه الخُصوص؛ لأن الرُّبوبية إلى المُتَّقين رُبوبيةٌ خاصَّة ليسـت كالربوبية العامة التي تَشمَل الكافِر والمُؤمِن والبَرَّ والفاجِر، وإنما هي رُبوبية خاصَّة.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: كون جزائِهم ما يَشاؤون.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: المُحسِنين الذين أَحسَـنوا في عِبادة الله تعالى وأَحسَنوا إلى عِباد الله تعالى، فالإحسان في عِبادة الله تعالى يُفسَّر بمـا فسَّره به النبيُّ ﷺ بأن تَعبُد الله كأنَّك تَراه، فإن لم تَكُن تَراه فإنه يَراك، والإحسان في مُعامَلة الخَلْق أن تَأتِيَ إليهم ما تُحِبُّ أن يُؤتَى إليك، وتُحِبَّ لهم ما تُحِبُّ لنَفْسك.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن هؤلاءِ المُتَّقيـن لهم ما يَشاؤُون عند الله تعالى في الآخِرة في الجَنَّة، وقد بيَّن الله تعالى في آيةٍ أُخرى أن لهم زِيادةً على ذلك؛ فقال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق:٣٥]، وقد فُسِّرت الزيادة: بأنها النظَر إلى وَجْه الله عَزَّوَجَلَّ

والذي يَظهَر أن النَّظَر من ذلك، وإلَّا فالزيادة أَشمَلُ من هذا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عِناية الله تعالى بهؤلاء القَوْمِ، وذلك بإضافة الرُّبوبية إليهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن التَّقوى من الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يَقُل للمُتَّقين، والمُراد بهمُ المُتَّقون، لكن المُتَّقيَ مُحسِن؛ لأن المُتَّقيَ عند الإطلاق هو مَن قام بمَأمور وترَك المَحظور، وهذا هو الإحسان.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الحَثُّ على الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والحثُّ على الإحسان والأمر به كثيرٌ في الكِتاب والسُّنَّة، والإحسان يَتَضمَّن الإحسان في عِبادة الله تعالى والإحسان إلى عباد الله تعالى، والإحسان إلى عِباد الله تعالى يَكون بالقَوْل وبالفِعْل وبالجاه، وغير ذلك من أنواع الإحسان، فلا تَدَّخِرْ وُسعًا في بَذْل الإحسان إلى إخوانك، فإن ذلك ممَّا يَكون سببًا لدُخول الجَنَّة، ويَكون أيضًا سببًا في عَوْن الله تعالى لك، فإن الله تعالى في عَوْن العَبْد ما كان العَبْد في عَوْن أخيه.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر:٣٥].

قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾ اللَّام هنا للعاقِبة فيما يَظهَر؛ لأن لام التَّعليل تَأتِي أحيانًا للتَّعليل وأحيانًا لبَيان العاقِبة؛ فإن كان ما قَبلَها سببًا لما بَعدَها فهي للعاقِبة، وإن كان ما بعدَها عاقِبةً لما قَبْلها ولا يُراد به وليس مُرادًا فهي للعاقِبة، هذا هو الفَرْق بينهم.

فإذا قلت: جِئْت لأَقرَأ فاللَّام هنا للتعليل، وإذا قال قائِل: سافَرْت ليَحصُل لي الحادِث. فاللَّام هنا للعاقِبة؛ وفي قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ للعاقِبة، فالفَرْق بينهما:

١- إن كان ما قَبْلها سببًا لما بعدَها فهي للتَّعليل.

٢- إذا كان ما بعدَها عاقِبةً لما قبلها غير مَقصود فهي للعاقِبة.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ يَعنِي: عاقِبة التَّقوى أن يُكفِّر الله تعالى عنهم أَسوَأَ الذي عمِلوا، ويُحتَمَل أن تَكون للتَّعليل بمَعنَى: أنهم اتَّقَوا الله من أَجْل التكفير.

وقال تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ وذلك بأن يُنعِم عليهم بالعَفْو عنه، والغالِب أن التَّكفير يَأتِي مُكفِّرًا بأعمال مُقابِلة؛ فالسَّيِّئات تُكفَّر بالحسَنات، وانظُرْ إلى الظِّهار، فإذا ظاهَر الإنسان كفَّر بما ذكَر الله عَزَّوَجَلَّ، يَعنِي: أَتَى بحسَنات تُغطِّي ما فعَل من الذُّنوب، واليَمين إذا حنِثَ كفَّر، فالغالِب أن التَّكفير يَكون في مُقابَلة حسَناتٍ تُغطِّي السَّيِّئاتِ، ويَجوز أن يَكون التَّكفير مُجرَّد فَضْلٍ من الله عَزَّوَجَلَّ يَستُر الله تعالى على عبده الذَّنْب تَفضُّلًا منه.

وقوله تعالى: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾: ﴿أَسْوَأَ﴾ اسمُ تَفضيل، وهو على بابه، فإذا كان الله تعالى يُكفِّر عنهم أسوَأَ ما عمِلوا فما دونه من بابِ أَوْلى، ويَكون التعبير بالأَسوَأ من باب البِشارة لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي: ثوابهم على ما عمِلوا من الحسَنات ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بأَحسَن الجَزاء.

فقوله تعالى: ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بأَحسَن جَزاء الذي كانوا يَعمَلون، وذلك أن الحسَنَة بعَشْر أَمثالها إلى سَبعِ مِئة ضِعْف إلى أضعافٍ كثيرة، و(أَحسَن) هنا على بابها؛ أي: أنها اسم تَفضيل، فلا يُجازيهم الحَسَنة بحَسَنة، بل بأَحسَن منها، فالحسَنة بعشَرة أمثالها إلى سَبْعِ مئة ضِعْف إلى أضعافٍ كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ لا يَخفَى أن قوله: ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ صِلةٌ للمَوْصول ﴿ٱلَّذِى﴾، وصِلة المَوْصول تَحتاج إلى عائِد يَعود على المَوْصول؛ ليَربِط الصِّلة به، والعائِد هنا مَحذوف، والتَّقدير: يَعمَلونه.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(أَسوَأ) و(أَحسَن) بمَعنَى السَّيِّئ والحَسَن]، لكنه قولٌ غير صَحيح؛ لأنه يُعتبَر تحريفًا للقُرآن؛ لأن كلَّ واحِدٍ يَعرِف أن (أَسوَأَ) اسمُ تَفضيل،

وسَيِّئ وَصْفٌ ليس فيه تَفضيل، وكذلك (أَحسَنُ) اسمُ تَفضيل وحَسَن وَصْفٌ ليس فيه تفضيل، فما بالُنا نَنزِل مَرتَبة من التَّفضيل إلى ما هو أَدْنى؟! فهذا يُعتبَر خطأً وتَحريفًا.

فالصوابُ ما قُلناه أوَّلًا: أن اسم التَّفضيل هنا على بابه، وأن الله تعالى بشَّرَهم بأنه يُكفِّر الأَسْوَأ، ومَن كفَّر الأسوَأ كفَّر ما دونَه، وبشَّرهم بأنه يَجزيهم أَحسَن ما كانوا يَعمَلون، لا أنه يَجزيهم الحسَنة بمِثْلها، بل أَحسَنَ، وهذا فرقٌ عظيم بين الحسَن والأحسَن والسَّيِّئ والأَسوَأ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنهم بتَقواهم يُكفِّر الله تعالى عنهم أَسوَأ أعمالهم لقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الله تعالى يَجزيهم بأحسَنِ الجزاء، وقد بيَّن ذلك في الكِتاب والسُّنَّة بأن مَن جاء بالحَسَنة فله عَشْر أَمثالها إلى سَبْع مِئة ضِعْف إلى أضعافٍ كثيرة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الخطَراتِ التي تَخطُر على القُلوب لا حُكمَ لها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾؛ ولقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وقد جاء الحديث مُؤيِّدًا لذلك، فقال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ**»(١).

ولكن يَجِب على مَن كان له خطَراتٌ سيِّئة أن يُدافِعها بما يَستَطيع، ومِن

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان، رقم (٦٦٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

مُدافعتها: أن يَستَعيذ بالله تعالى من الشيطان الرَّجيم، ويَنتَهي يَعنِي: يُعرِض عن هذه التَّقديراتِ، فإن ذلك يَزول، أمَّا إن خضَع لها واستكان لها واستَمَرَّ فإنها تُهلِكه؛ لأن الشَّيْطان يَقيس قَلْب المرء، فإذا رآه لَيِّنًا هشًّا تَسلَّط عليه حتى يُخرِجه من دِينه ودُنياه -والعِياذُ بالله تعالى- وإذا كان صُلْبًا لا يَقدِر الشيطان أن يَنفُذ فيه، فإنه حينئذٍ يَكون قويًّا تَتكسَّر عليه عِظام الشيطان.

وقد أَوْصى شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تلميذَه ابنَ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما كان يَعرِض عليه بعضَ الشُّبُهات فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تَجعَل قَلْبك كالإِسْفنجة؛ تَتشَرَّب الماء، ثُم لا يَخرُج منها إلَّا بعَصْرٍ، اجعَلْ قلبك كالزُّجاجة صافية يُرَى مِن ورائِها، ولا يَنفُذ إليها شيء يَرَى ما فيها» يَعنِي: ولا يَنفُذ إليها شيء من هذه الشُّبُهاتِ تَكون صافِيةً نقيَّةً خالية من الشُّبُهات، ولا يَنفُذ إليها شيء، وهكذا يَنبَغي للإنسان أن لا يَخضَع للشيطان في هذه الوَساوِس التي تَرِدُ عليه.

فإذا قال قائِل: هل الإرادة عمَل أو لا؟

أَقول: الإرادة عمَل لكنَّها عمَل قَلْب بخِلاف التَّحديث؛ لأن تَحديث النَّفْس لا يَعنِي الخُضوع للشيء، وإقرار الشيء، لكن الإرادة لا تَكون إلَّا بعد تقرير هذا الشيءِ؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الرَّجُلين المُسلِمَيْن يَلتَقيان بسَيْفَيْهما فيَقتُل أحدُهما الآخَرَ قال: «**إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ**» قالوا: يا رسول الله، هذا القاتِلُ فما بالُ المَقتول؟ قال: «**لِأَنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، رقم (٣١)، ومسلم: كتاب الفتن، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، رقم (٢٨٨٨)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ولَمَّا ذكَر الرِّجال الأربعة، ومنهم رجُلٌ أَعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المال فهو يُنفِقه في غير مَرضاة الله تعالى، فقال الرجُل الفقير: ليتَ لي مال فُلان فأَعمَل فيه كعمَل فُلان. قال: «فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ»(١)، مع أنه لم يَعمَل، لكن تَمنَّى وأَراد. والله تعالى أَعلَمُ.

وإذا أَخبَر مُخبِر بخبَر وهو يَظُنُّ أنه يُطابِق الواقِع وكان يُخالِف الواقِع هل يُسمَّى: كذِبًا؟ نعَمْ، يُسمَّى كاذِبًا، لكن ليس عليه إِثْم الكاذِب.

وإذا قال الرجُل: أَعبُد الله تعالى ليَرضَى الله. فهذا صحيح، وأمَّا قول الصُّوفية: أَعبُد الله لله. فهذا خطأ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ [المائدة:٢]، فبَدَأ بالفِضْل، وهذا في وَصْف الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأصحابه: حيث قال: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح:٢٩].

ومثله في طلَب العِلْم؛ فنَقول: نحن نُخلِص لأَخْذ العِلْم، فإنه لا شَكَّ أن الإخلاص لله تعالى مَعونة، وسبَب لتَحصيل العِلْم وبرَكة العِلْم الإِخْلاص سبَبٌ لحُصول المَفقود والبَرَكة في المَوجود.

• • ۞ • •

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، رقم (٢٣٢٥)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب النية، رقم (٤٢٢٨)، من حديث أبي كبشة الأنماري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيـة (٣٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٣٦].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ الاستِفْهام هنا للتقرير بِناءً على القاعِدة التي ذكَرْناها من قبلُ، وهي: أن هَمزة الاستِفْهام إذا دخَلَت على ما يُفيد النفيَ أَفادَتِ التقرير مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، يَعنِي: قد شَرَحْنا لك صدرَك، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون:١٠٥]، يَعنِي: قد كانَت وهكذا قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ يَعنِي: قد كفَى اللهُ تعالى عبدَه.

وقوله تعالى: ﴿بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ الذي نَصَب (عبدَه) قوله تعالى: (كافٍ)؛ لأن (كافٍ) اسم فاعِل وفاعِله مُستَتِر، و(عبد) مَفعولٌ به.

و(عَبْد) مُفرَد مُضاف فيَكون عامًّا لجَميع مَنِ اتَّصَف بهذا الوَصْفِ، فكُل مَن كان عبدًا لله تعالى حقًّا فإن الله تعالى كافيه، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، ومثلـه قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧]، فالعَبْد هنا وَصْفٌ شامِل لا يَختَصُّ بأحَد دون الآخَرِ، فكُلُّ مَن انطَبَقت عليه العُبودية حَقًّا فالله تعالى كافيه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾، والجَوابُ على هذه الجُملةِ أن يقال: بَلَى.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هنا الخِطاب [للنبيِّ] ﷺ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ وعَطَف (يُخوِّفونك) الخاصَّ بالرسول ﷺ لا يَقتَضي تَخصيص اللَّفْظ العامِّ قبلَه، وقد تَقدَّم مثلُ هذا كثيرًا؛ يُذكَر لفظٌ عامٌّ، ثُمَّ يُذكَر حُكْمٌ يَختَصُّ ببعض أفراده.

قُلنا: إن هذا لا يَقتَضي التخصيص، ومن ذلك حديث: «قضَى النبيُّ ﷺ بالشُّفْعةِ في كُلِّ ما لَمْ يُقسَمْ»[1]، فكونه قَضَى في كُلِّ ما لم يُقسَم، في كل الذي لم يُقسَم عامٌّ، (فإذا وقَعَتِ الحُدودُ وصُرِفت الطُّرُق فلا شُفعةَ)، هذا حُكْم يَختَصُّ ببعض أحكام العامِّ بالأراضي، فهنا نَقول: إن الأوَّل عامٌّ، وذِكْر بعض أفراد العامِّ وذِكْر حُكمٍ يَختَصُّ ببعض أفراد العامِّ لا يَقتَضي التخصيص.

ومثله أيضًا في القُرآن: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ فالمُطلَّقات عامٌّ، وبُعولتُهن حُكْمٌ يَختَصُّ ببعض أفراد هذا العامِّ، أمَّا الفَرْد الذي يَختَصُّ به فإنه (الرَّجعية)؛ ونَقول: إن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ هذا عامٌّ، فالمَعروف عند أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أنه عامٌّ، المُطلَّقات اللاتي طُلِّقن بطلاقٍ بائِن أو بطلاقٍ رَجْعيٍّ.

وهنا هذا المِثالُ في القُرآن هل يَنطَبِق عليه أو لا؛ أي: قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؟

الجَوابُ: يَنطَبِق عليه، فقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ عامٌّ، ولم يَقُلْ: أَلَيْس اللهُ بكافِيكَ ويُخوِّفونك.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب بيع الشريك من شريكه، رقم (٢٢١٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب الشفعة، رقم (١٦٠٨)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ هذا خاصٌّ بالنبيِّ ﷺ؛ على أن لواحِدٍ أن يَقول: لماذا لا يَصِحُّ أن يَكون الخِطاب مُوجَّهًا لكل مَن يَصِحُّ خِطابه، أي: يُخوِّفونك أيُّها المُخاطَب، كما جرَت به العادة في كثيرٍ من النُّصوص؟

فالجَوابُ على هذا أن نَقول: إنه لا يَصِحُّ أن يَكون مُوجَّهًا لكل مُخاطَب؛ لأن كل مُخاطَب لا يَتَأَتَّى عليه هذا الوصفُ، فليس كلُّ مُخاطَب خُوِّف بالذين من دون الله تعالى، وإنما الذي خوف من دون الله تعالى هو النبيُّ ﷺ الذي خُوِّف بالذي من دون الله تعالى؛ لأنهم كانوا يَتوعَّدونه بآلهتهم.

فهذا المِثالُ يَنطَبِق على ما ذكَرْناه من القاعِدة أنه إذا ورَد لفظٌ عامٌّ ثُم أُتِيَ بعده بحُكْمٍ يَختَصُّ ببعض أفراده فإن ذلك لا يَقتَضي التَّخصيص، بل يَبقَى العامُّ على عُمومه، ويَثبُت الحُكْم لهذا الفَردِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ الخِطاب له] أي: للنبيِّ ﷺ [﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: الأصنام، أي: تَقتُله أو تُخبِله] وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

فهم يُخوِّفون النبيَّ ﷺ بالذين مِن دون الله تعالى، وتَخصيص هذا بالأَصنام كما خصَّصه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه نظَر، بل يُخوِّفونه بالذين من دونه من الأصنام وغير الأصنام حتى من ذَوِي السُّلْطان، فيَقولون مثَلًا: يَفعَل بك فُلان، أو تَفعَل بك الجِنُّ، أو يُفعَل بك كذا أو كذا، فيَنبَغي أن نَحمِل ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ على العُموم لا على خُصوص الأصنام؛ لأن التَّخويف أعَمُّ من ذلك.

والآن مثَلًا في وَقْتنا هذا لو قال قائِل لشَخْص: أنت إن نَهَيْت عن هذا المُنكَرِ سأَرفَع بك إلى فُلان. ممَّن يُخشَى شَرُّه، هل هذا مُخوَّف بالذين من دون الله تعالى؟

الجَوابُ: نعَمْ هذا مُخوَّف بالذين من دون الله تعالى، فالآية عامَّة ولا يَنبَغي أن نُخصِّصها، كما ذهَب إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾: (مَن) شَـرْطية فتُفيد العُموم؛ فمَن يُضلِل اللهُ تعالى فما له مِن هادٍ يَهديهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ الجُمْلة هذه اسمِيَّة مُكوَّنة من مُبتَدَأ وخبَر؛ **فإن قال قائِل**: عجَبًا أن نَقول: إنها مُكوَّنة من مُبتَدَأ وخبَر، ونحن لا نَجِد فيها لا مُبتَدَأ ولا خبَـرًا، أين الاسمُ المرفوعُ والمَعروف أن المُبتَدَأ والخبَـر يَكونان مَرفوعَيْن، وهنا ليس هناك شيءٌ مَرفوع؟

فالجَوابُ: أن نَقول: (ما) نافية، و﴿لَهُۥ﴾ جارٌّ ومَجرور خبَر مُقدَّم و﴿مِنۡ هَادٍ﴾ مُبتَـدَأ مُؤخَّر، ونُعرِب ﴿مِنۡ هَادٍ﴾ فنَقول: ﴿مِنۡ﴾ حرف جَرٍّ زائِدٌ، و﴿هَادٍ﴾ اسمٌ مَجرور بـ﴿مِنۡ﴾ لَفظًا، وهو مُبتَدَأ مَرفوع بضَمَّة مُقدَّرة على الياء المحذوفة منَعَ من ظُهورها التِقاء الساكِنين، وهُما سكون الياء المَحذوفة، ونون التَّنوين؛ لأنه ليس هناك حرَكة على الياء هنا، بل على الياء المحذوفة؛ لالتقاء الساكِنَيْن، والتي قُدِّرت عليها الكَسْـرة لُمناسَبة حَرْف الجـرِّ الزائِد؛ وإلَّا يَكفي أن نَقول: ﴿مِنۡ﴾ حَرْف جَرٍّ زائِدٌ، و﴿هَادٍ﴾ مُبتَـدَأ مَرفوع بضَمَّة مُقدَّرة على الياء المَحذوفة لالتِقاء الساكِنَيْن، ونَنْتَهي لأن حَرْف الجَرِّ الزائِدَ في مثل هذه الكلِمةِ لا يَظهَر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ يَعنِي: مَن يُقدِّر الله تعالى ضلالَه فإنه لا أحَدَ يَهديه مَهما اجتَمَعَتْ عليه الأُمَّة، وها هو أَعظَمُ الخَلْق في الهِداية والدَّلالة مُحَمَّدٌ ﷺ حرَص غاية الحِرْص لِهداية عمِّه أبي طالِب إلى آخِر أَنْفاسه، ولكن لم يَهتدِ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ كتَبَ عليه الضَّلالة فكان آخِرُ ما قال أَنْ شهِد شهادة الكُفْر، فقال:

هو على مِلَّة عبد المُطلِّب[١]. ولكن النبيَّ ﷺ لحُسْن أخلاقه؛ ولأن عمَّه قام قِيامًا نصَر به الإسلام شفَع له عند الله تعالى، فكان في ضَحضاحٍ من نارٍ، وعليه نَعْلان من نارٍ يَغلِي منهما دِماغه[٢] أعلى ما فيه، والنِّعال في أسفَل ما فيه والدِّماغ يَغلِي؛ فما بالُك بما دونَه من الجِسْم فإنه أشَدُّ غليانًا، وإنه لأَهوَن أهل النار عذابًا، ويُرَى أنه أَشَدُّهم عَذابًا[٣]، ولماذا يُريه الله تعالى أنه أشَدُّهم عذابًا؟ لِئلَّا يَتسلَّى بغيره؛ لأن صاحِب النار لو عَلِم أن غيرَه أشَدُّ منه أو مثلُه لتَسلَّى وهانَ عليه الأمرُ، وقد أَشار الله تعالى إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف:٣٩]، مع أنكم لوِ اشترَكْتم في العذاب في الدنيا لهان عليكم.

فإن قال قائِل: إن أبا طالِب يَرَى نَفْسه أنه أشَدُّ الناس عذابًا؛ لأنه لو رأَى أنه أَقلُّهم يَعنِي: يَتَسلَّى به، فهل هذا يَعنِي أنه ما عَلِم بشَفاعة النبيِّ ﷺ له أنه في هذا الضَّحضاح أم علِم، ولكنه يَرَى أنه أشَدُّ الناس.

قُلْنا: الظاهِر سواء أن علِم أو ما علِم هو يَرَى أنه أَشَدُّ الناس، وكونه اللهُ تعالى أَعلَمه أنه كان يَستَحِقُّ الدَّرْك الأَسْفل من النار، ولكن له شَفاعة الرسول ﷺ قد يَكون اللهُ تعالى أَعلَمه بهذا؛ ليُعلِمه أن الله تعالى قد جازاه وكافَأَه على ما صنَع بالرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقد لا يَكون، والله تعالى أَعلَمُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾، رقم (٤٧٧٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، رقم (٢٤)، من حديث المسيب بن حزن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢١٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذابا، رقم (٢١٣)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وانظُرْ إلى كعبِ بنِ مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا قيل: إنه تَخلَّف عن غَزوة تَبوكَ فُلان وفُلان[1] هان عليه الأمر، وهذا شيءٌ مُسلَّم، والخَنْساء تَرثِي أخاها صَخرًا وتَقول:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أُسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي[2]

إِذَنْ نَقول: مَن قدَّر الله تعالى ضلالَه فلن يَهديَه أحَدٌ مهما أُوتِيَ من الآيات، فإنها لا تُغنِي الآياتُ والنُّذُرُ عن قومٍ لا يُؤمِنون.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: كِفاية الله تعالى لعَبْده.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الحَثُّ على تَحقيق العُبودية لله تعالى؛ لأنك إذا حقَّقْتَ العبودية تَحقَّقَت لك الكِفاية، إذ إن الحُكْم المُعلَّق على وَصْف يَقوَى بقوَّة ذلك الوصفِ، ويَضعُف بضَعْف ذلك الوَصْفِ، فإذا كانتِ الكِفاية مُرتَّبةً على العُبودية حَصَل للعابِد من هذه الكِفايةِ بقَدْر عُبوديته على القاعِدة أن الحُكْم المُعلَّق بوَصْف يَقوَى بقوَّته ويَضعُف بضَعْفه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: دِفاع الله عَزَّوَجَلَّ عن المُؤمِنين؛ لأنه إذا كان كافيَه فسوف يُدافِع عنه، ويُحقِّق ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحج:٣٨].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم (٤٤١٨)، ومسلم: كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم (٢٧٦٩)، من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ديوان الخنساء، ط. دار المعرفة (ص٧٢)، والكامل لابن المبرد (١/ ١٦).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن عِباد الله تعالى يُخوَّفون بما دون الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الشيطان وهو زَعيم أعداء الله تعالى يُخوِّف المُؤمِن العابِد لله تعالى بما دون الله تعالى، فتَجِده يَأتي للشخص الذي يُريد أن يَأمُر بالمعروف ويَنهَى عن المُنكَر يَقول: لا تَفعَل إن الناس سيُبغِضونك، وإن الناس سيَرمونك بالتَّشدُّد، وإن السُّلْطان ربما يُؤدِّبك. وما أَشبَه ذلك، ولكن المُؤمِن لا يَخاف من هذا أَبَدًا؛ لأنه مُعتَصِمٌ بالله عَزَّوَجَلَّ هو عبد الله، واثِقٌ بأن الله تعالى سيَنصُره، فلا يُهِمُّه هؤلاء، ولكن هل يَعنِي ذلك أن الإنسان يَتَجشَّم الأمور بالعاطِفة العاصِفة أو يَستَعمِل الحِكْمة ويَمضِي في الحقِّ؟

الجَوابُ: الثاني؛ ولذلك نحن نَنقِم على بعض الناس الذين عِندهم غَيْرة في دِين الله تعالى، ولكنهم لا يَأتون البُيوت من أبوابها، بل يُريدون أن يَأتوا الأمور بالعُنْف والقوَّة مع أنه ليس لهم قوَّة؛ فنحن نَقول: امضِ فيما أَمَرك الله تعالى به لكن مُستَعمِلًا في ذلك الحِكمةَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن كل ما سِوى الله تعالى فهو دون الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ فليس هنا إلَّا الله تعالى أو من دون الله تعالى.

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: أن كل مَن سِوى الله تعالى فهو مَغلوب، وإذا كان الله تعالى كافيًا عبدَه وكلُّ مَن سِوى الله تعالى فهو مَغلوب فهذا يَعنِي أن الإنسان سيُغلَب إذا حقَّق العُبودية.

ولكن قد يُورِد علينا مُورِد أن الله تعالى ذكَرَ أن من الناس مَن قَتَل الأنبياء، فكيف يُجمَع بين هذه الآيةِ وبين ما ثبَتَ من قَتْل بعض الأنبياءِ؟

والجَوابُ عنه: أن قَتْل الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا يَعنِي قَتْل ما جاؤوا به من الحَقِّ، والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إنما تكلَّموا من أَجْل إثبات الحَقِّ، لا من أَجْل إثبات شَخْصيتهم، بل أجل إِثبات الحَقِّ، ثُم إنه إذا فاتهم الانتِصار في الدنيا -أيِ: الانتصار الذي يُشاهِدونه- لم يَفُتْهم ذلك في الآخِرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١] والله تعالى أَعلَمُ.

فإن قال قائِل: الخِطاب في قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ هل يُجعَل لكلِّ خَوْف من دون الله تعالى؟

قُلْنا: نعَمْ، يُمكِن أن نَجعَله لكلِّ مَن خوَّف، لكن الظاهِر أنه خاصٌّ بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لكن هل هُناك فَرْق بين قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنَبيِّه ﷺ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ وقول عاد لنَبيِّ الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود:٥٤]؛ لأن المُشرِكين خوَّفوا النبيَّ ﷺ بأنه سيعتَريه سُوءٌ من الآلهة؟

أَقول: لا، فأُولئك قالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ يَعنِي: خبَلوك وجعَلوك مَجنونًا، أمَّا هؤلاءِ فقالوا: إن آلِهَتنا ستَخبِلك؛ فتَوعَّدوه في المُستَقبَل.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن مَن كتَب الله تعالى ضَلاله فلا أحَدَ يَستَطيع هِدايته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الإنسان لا يَطلُب الهِداية إلَّا من الله تعالى؛ لأنه وحدَه هو الذي يُضِلُّ ويَهدِي، فتَطلُب الهِداية منه؛ لأنه ليس المُرادُ بهذه الآيةِ التَّيْئيس من هِداية الخَلْق، ولكن المُراد الرُّجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ في هِداية الخَلْق.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الرَّدُّ على المُعتَزِلة الذين يَقولون: إن الإنسان مُستَقِلٌّ بعمَله يَهدِي نفسه ويُضِلُّ نَفْسه ولا عَلاقةَ لَمشيئة الله تعالى في فِعْله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثبات الهِداية لغير الله تعالى التي هي هِداية الدَّلالة، وأمَّا التَّوْفيق فإلى الله عَزَّوَجَلَّ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٣٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزمر:٣٧].

قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ أي: مَن يُقدِّر اللهُ تعالى هِدايته فما له من مُضِلٍّ، ولا أحَدَ يَستَطيع أن يُضِلَّه مهما كثُرَتِ الشُّبُهاتُ وكثُرَتِ الشَّهَواتُ، فإذا قدَّر الله تعالى على العَبْد الهِداية فلن يُضِلَّه لا شهوةٌ ولا شُبهةٌ؛ لأنه عند الشَّهوة يُغلِّب العَقل فيَمتَنِع منها، وعند الشُّبهة يُغلِّب العِلْم فيَهتَدِي به منها، فمَن يَهدِه الله تعالى فما له من مُضِلٍّ.

وفي هذه الجُملةِ من تَشجيع الإنسان على الاستِمرار في الهِداية ما هو ظاهِر؛ لأن الله تعالى هو الذي هَداه ولا أحدَ يَستَطيع أن يُضِلَّه؛ وفيها اللُّجوء لله عَزَّوَجَلَّ في طلَب الهِداية منه والاستِمرار عليها.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ الجَـوابُ: بلَـى، وقوله تعالى: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ هذه خبَر (ليس) دخَلَت عليها الباء الزائِدةُ لَفْظًا الزائِدةُ مَعنًى؛ لأنها تُفيد تَوكيد العُمـوم في النَّفي إذ إن النفيَ يُفيد العُمـوم إذا أَتَى بعده اسمٌ نَكِرة، لكن إذا دخَلَتِ الباء فإن حُروف الزيادة من أَحرُف التَّوْكيد، كما ذكَر ذلك عُلماء البلاغة.

وقوله تعالى: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ قال المُفسِّرون لأَسماء الله تعالى الحُسنى: (العَزيز) له ثلاثة مَعانٍ:

المَعنَى الأوَّل: عِزَّة القَدْر.

والمَعنَى الثاني: عِزَّة القَهْر.

والمَعنَى الثالِث: عِزَّة الامتِناع.

أمَّا عِزَّة القَدْر فمَعناها: أن الله ذو قَدْرٍ عظيم وشرَفٍ كبير، لا أحَدَ يُماثِله، ولا أحَدَ يُساوِيه أو يُقارِبه.

وأمَّا عِزَّة القَهْر فمَعناها: أن الله تعالى قاهِرٌ لكل شيء، غالِبٌ لكل شيء.

وأمَّا عِزَّة الامتِناع فمَعناها: أن الله تعالى يَمتَنِع عليه كلُّ عَيْبٍ ونَقْص.

وهذا معروفٌ في اللُّغة العربية، فالمَعنَى الثاني الذي هو الغلَبة قال فيه الشاعِر:

أَيْنَ المَفَرُّ وَالْإِلَهُ الطَّالِبُ ... وَالْأَشْرَمُ المَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبُ[1]

وأمَّا الأوَّل الذي هو عِزَّة القَدْر فيُقال: هذا عزيزٌ أي: نادِر لا يُوجَد؛ لشرَفه وكرَمه.

وأمَّا الثالِث فقولهم: أرضٌ عَزاز. أي: قوِيةٌ صُلْبة يَمتَنِع، أو تَمتَنِع أن تَحفُرها المَعاوِل.

فالله عَزَّوَجَلَّ عزيزٌ بهذه المَعاني الثلاثة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾: ﴿ذِى﴾ بمَعنَى: صاحِب، وانتِقام

(١) نسبه ابن هشام في السيرة (١/ ٥٣) لنفيل بن حبيب.

نكِرة، والنَّكِرة في سِياق الإثبات لا تُفيد العُموم، ولكنها هنا في سِياق ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي: صاحِب انتِقام، فكلَّما كانت الحِكْمة في الانتِقام انتَقَمَ.

وتَأمَّل قوله تعالى: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ولم يَقُل: مُنتَقِم؛ لأنه ليس من أَسماء الله تعالى المُنتَقِم ولم تَأتِ المُنتَقِم في أسماء الله تعالى في حديثٍ صحيح، وإنما جاءَت باسْمِ الفاعِل مُقيَّدًا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢]، ولم يَقُل: إنا مُنتَقِمون. وقال: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي: صاحِب انتِقام في مَوضِعه، فالمُنتَقِم ليس من أسماء الله تعالى حتى وإن قُرِنت بالعَفوِ خِلافًا لما ذهَب إليه بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ من أنه إذا قُرِنت بالعَفو فلا بأسَ، بل نَقول: المُنتَقِم ليس من أسماء الله تعالى لا مَقرونًا بالعَفوِ ولا مُنفرِدًا عنه، لكنه يُوصَف بالانتِقام مُقيَّدًا ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾، ويُوصَف بأن الانتِقام يَصدُر مِنه لا أنه مُنتَقِم؛ لقوله تعالى: ﴿بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

فإن قال قائِل: هل يَجوز أن يَكون المُنتَقِم من أسماء الله تعالى المُقيَّدة؟

قُلنا: لا، لأن الله تعالى قيَّد الانتِقام لَمَّا وصَف نفسَه باسمِ الفاعِل قيَّده، وهنا نَقول:

أوَّلًا: إن أسماء الله تعالى كلُّها مُتَضمِّنة لِصفات، فكلُّ اسمٍ فهو مُتضَمِّن لِصفة، أو أكثَرَ من صِفة، وليس كلُّ صِفة تَتَضمَّن اسمًا.

إذَنِ: الصِّفات صارت أَوسَعَ من الأسماء.

ثانيًا: الصِّفاتُ منها ما وصَفَ الله تعالى بها نَفْسه فهذا لا شَكَّ في أنه جائِز، ولكننا نَصِفُ الله تعالى به على حسَب ما وصَفَ به نَفْسه؛ فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم:٤٧] هنا لا نَقول: إن الله تعالى مُنتَقِم، بل نَقول: ذو انتِقامٍ

أَيْ: لَه انتِقامٌ، وفَرْقٌ بين أن أُسمِّيَ الرجُل بالنَّجَّار؛ لأن مِهْنته النِّجارة، أو أَقول: له نِجَارةٌ. يَعنِي: يَنجُر إن دعَتِ الحاجة إلى ذلك؛ فيُوصَف الله تعالى بما وصَفَ الله تعالى به نَفْسه من الصِّفات؛ على حسَب ما يَصِف به نَفْسه، وما لم يَصِف به نفسه إن كان دالًّا على مَعنًى يَليق بالله جاز أن يُخبَر به عن الله تعالى، وإن كان دالًّا على مَعنًى لا يَليق بالله تعالى حرُم أن يُوصَف به الله تعالى لا خبَرًا ولا وَصْفًا لازِمًا.

وهذه مَسأَلة مُهِمَّة، يَعنِي: ما لا يَليـق بالله تعالى لا يَجوز أن نَصِفه به لا على سَبيل الفِعْل ولا على سَبيل الوَصْف اللازِم، وما كان لا يُخالِف ما يَليق بالله تعالى جاز أن نُخبِـر به عنه، وقد ذكَرَ شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا التَّقسيمَ في كِتاب (الفتاوى) في قِسْم التَّوْحيد.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ﴾ غالِب على أَمْره].

وتَفسيره العَزيزَ بالغالِب على الأَمْر يُعتبَر قاصِرًا؛ لأن العِزَّة لها ثَلاثة مَعانٍ كما شـرَحْنا، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ من أَعدائـه؟ بلَى] والانتِـقام أَخْذ المُجـرِم بجَريمته، وقوله تعالى: (بَلَى) هذا جَواب الاستِفْهام في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات عِزَّة الله عَزَّوَجَلَّ بجَميع مَعانيها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَهديد هؤلاء المُكذِّبين لرسول الله ﷺ تَهديدهم بهذين الوَصْفين؛ وَصْف العِزَّة المُستَفاد من (عَزيز)، والانتِقام المُستَفاد من قوله تعالى: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ فكأَنَّ الله تعالى يُهدِّدهم بعِزَّته وانتِقامه من تكذيب الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الآيـة (٣٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر:٣٨].

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾ الخِطاب إمَّا للرسول ﷺ، أو لكل مَن يَتَوجَّه إليه الخِطاب، واللَّام في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن ﴾ مُوطِّئةٌ للقسَم، و(إنْ) شَرْطية، والجَواب في قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ جواب القسَم؛ لأنه قُرِن باللَّام، والذي يُجاب باللَّام هو القسَم وليس الشَّرط، والقاعِدة: أنه إذا اجتَمَع شَرْط وقسَم فالجَواب للسابِق منهما؛ قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الألْفية:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ[1]

والمُؤخَّر هنا الشرط فيُحذَف جوابه ويَكون جوابه مَعلومًا من جواب القسَم.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾ سُؤال استِفْهام ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ يَعنِي: مَن أَوْجَدهما على هذه الصَّنْعة البَديعة، والسموات مَأخوذة من السُّموِّ وهو العُلو؛ لعُلوِّها وارتِفاعها؛ وجمَعَها لأنها سَبْع سمَواتٍ وطباقًا،

(١) الألفية (ص٥٩).

أي: مُتَطابِقة، فكل واحِدة فَوْق الأخرى، وعلى هذا فتكون الثانية أَوْسَعَ من الأُولى، والثالثة أَوسَعَ من الثانية، والرابعة أَوسَعَ من الثالِثة... وهلُمَّ جَـرًّا، وإذا كان بينهما مَسيرة خمسِ مِئة عام عرَفت سَعة كل سماءٍ بالنسبة لما تَحتَها، وأن سَعَتها عظيمة، ومع هذا فهذه السَّمواتُ التي بهذه السَّعة العظيمة هي بالنِّسبة للكُرسيِّ كحلَقةٍ أُلقِيَت في فَلاةٍ من الأرض كحَلقة المِغفَر صغيرة أُلقِيَت في فَلاةٍ من الأرض، وفَضْل العَرْش على الكُرسيِّ كفَضْل الفَلاة على هذه الحَلقةِ، والرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ لا يَقدُر قَدْره إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ.

إِذَنِ: السمـواتُ سبـع مُتَطابِقة، والأرض واحِـدة؛ لأنه قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾، ولم يَقُل: والأَرَضين؛ نَقول: المُراد بالأرض هنا الجِنْس، فلا يُنافِي أن تَكون سبعًا، وقد أَشار الله تعالى في القُرآن إلى أنها سَبْـع في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، وجاءَت السُّنَّة صريحةً في ذلك في مثل قول النبيِّ ﷺ: «**مَن اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْض ظُلْمًـا طَوَّقَهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»(١).

وقوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ هذا جَواب سُؤال؛ فيَقولون: الله تعالى هو الذي خلَق السَّمواتِ والأرضَ، ولم يدَّعِ المُشـرِكون أن السَّمواتِ والأرضَ كانت قَديمةً غير مُحدَثة، ولم يَدَّعوا أن أحدًا خلَقها سِوى الله تعالى، بل أَقَرُّوا بأن الخالِق هو الله تعالى وحدَه، كما أنهم إذا سُئِلوا: مَن خلَقهم ليَقُولُنَّ: الله. فكلَّمـا سُئِلوا عن شيء يَتعلَّق بالربوبية نسَبوه إلى الله عَزَّوَجَلَّ من غيـر شَريك، فَهُمْ مُقِرُّون بتَوحيـد الرُّبوبية غاية الإقرار، يَعلَمون أن الله تعالى هو الخالِق.

وقوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ في ضَمِّ هذا الفِعلِ مع اتِّصال نون التَّوْكيد به

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٢، ٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إشكال، والمَعروف أن المُضارِع يُبنَى في مَوْضِعين: إذا اتَّصلت به نون التَّوْكيد يُبنَى على الفَتْح، أو نون النِّسوة يُبنَى على السُّكون فلماذا هنا صار مَضمومًا؟ لأن نون التَّوْكيد هنا غير مُباشِرة للفِعْل، وعلى هذا التَّقديرِ يَكون بينها وبين الفِعْل واوُ الجماعة ونون الرَّفْع، فهي غير مُباشِرة حقيقةً مُباشِرة لفظًا، والفِعْل يُبنَى مع نون التوكيد المُباشِرة لفظًا وتَقديرًا، أمَّا هذه فهي في التَّقدير غير مُباشِرة؛ ولهذا بقِيَ الفِعْل مُعرَبًا، فيُقال: إنه مَرفوعٌ بالنون المَحذوفة لتَوالي الأَمثال، والواو المَحذوفة لالتِقاء الساكنين فاعِل.

وقوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾: ﴿ٱللَّهُ﴾ بالرفع خبَر مُبتَدأ مَحذوف، أي: هو الله، ويَجوز أن تَكون فاعِلًا لِفِعْلٍ محذوف أي: خلَقهما الله، ويَجوز أن تَكون مُبتَدأ، والخبَرُ مَحذوف، والتقدير: الله خالِقُهما، والأمر في هذا واسِع، بابُ الإعراب له وُجوهٌ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ يَعنِي: اسأَلْهم سُؤالًا آخَرَ إذا أَقرُّوا بأن الخالِق هو الله تعالى فقُلْ لهم: أَخبِروني ما تَدعون من دون الله تعالى.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَدْعُونَ﴾ تَعبُدون]، ويُحتَمَل أن يَكون المُرادُ به دُعاءَ المسألة؛ لأن الدعاء يُطلَق على مَعنَيَيْن: الأوَّل: دُعاء المَسأَلة، والثاني: دُعاء العِبادة.

فمِن الأوَّل قوله تعالى: «هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ»[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، رقم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

[البقرة:١٨٦] هذا دُعاءُ مَسأَلة.

ومن الثاني -وهو دُعاء العِبادة- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

فهؤلاء القومُ يَدْعون من دون اللهِ تعالى دُعاءَ مَسأَلة ودُعاء عِبادة؛ لأن اللَّفْظ عامٌّ، والمَعنَى: أَخبِرونا عن هذه الأَصنامِ التي تَدعونها من دون الله تعالى هل يَنفَعْنَ مَن دعاهُنَّ؟ هل يَجلِبن النفع أو يَدفَعْن الضُّرَّ: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾؟

الجَوابُ: لا، لا يَدفَعْن الضَّرَر.

وإذا: ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾؟

والجَوابُ: لا، إِذَنْ كيف تُعبَد من دون الله تعالى؟! وكيف تُدعَى من دون الله تعالى؟! والله عَزَّوَجَلَّ إذا أَراد بي شيئًا ضَرًّا لم يَملِكن دَفْعه، وإذا أَرادني برحمة لم يَملِكْن إمساكَ هذه الرحمةِ.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا] ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يَعني: لا يُهِمُّني أن تُهدِّدوني بهذه الأصنامِ، فإن حَسْبي اللهُ، أي: كافِيني عمَّن سِواه، والجملة في ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ يَجوز أن يَكون فيها تَقديمٌ وتأخير، فنُعرب ﴿حَسْبِىَ﴾ خبرًا مُقدَّمًا، و﴿ٱللَّهُ﴾ مُبتَدأ مُؤخَّرًا، ويَجوز أن نَقول: ﴿حَسْبِىَ﴾ مُبتَدأ و﴿ٱللَّهُ﴾ خبر، ويَختَلِف هذا الإعرابُ باختِلاف المَعنَى، فإن أَرَدْت أن تُخبِر عن الحَسْب بأنه اللهُ فاجعَلِ الحَسْب مُبتَدأ، وإن أَرَدْت أن تُخبِر عن الله بأنه الحَسْب فاجعَلْ ﴿حَسْبِىَ﴾ خبرًا مُقدَّمًا.

والآية من حيثُ المَعنَى صالِحةٌ لهذا وهذا، فالله تعالى هو الحَسْب، والحَسْب

هو الله تعالى، وليس لنا حَسْبٌ سِوى الله تعالى، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حَسْبنا وكافينا.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ التَّوكُّل هو الاعتِماد على الله عَزَّوَجَلَّ اعتِمـادًا حَقيقيًّا صادِقًا في جَلْب المَنافِع ودَفْع المَضارِّ مع الثِّقة به، هذا هو التَّوكُّل، وهو من العِبادة الخاصَّة بالله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٢٢]، أي: على الله تعالى وحدَه.

وأمَّا تَوكُّل غير العِبادة فإنه يَجوز للإنسان أن يَتوكَّل على غيرِه فيما وكَّله فيه، كما لو قُلْت لفُلان: وكَّلْتُك أن تَشتَريَ لي كذا وكذا. فاعتَمَدْت عليه في الشراء، وهذا ليس تَوكُّلَ عِبادة؛ لأن المُتوكِّل في هذه الصورةِ لا يَشعُر بأنه أَدنى مَرتَبةً من الوكيل، بل قد يَشعُر بأنه أَعلى مَرتَبة؛ لأنه جعَل ذلك خادِمًا له مُنفِّذًا لما يَقول، أمَّا التَّوكُّل على الله تعالى فإنك تَتوكَّل على الله تعالى مُعتَقِـدًا في نَفْسك أنك مُضْطَـرٌّ إليه، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي بيده تَصريف أُمورك فتَتَوكَّل عليه رغبةً ورَهبةً وتَقرُّبًا إليه.

ولهذا نَقول: هل يَجوز أن أَقول: تَوكَّلت على فُلان؟

الجَوابُ: إن كان ذلك على وجه العِبادة فهذا حَرام وشِرْك، وإن كان على وجه الإنابة أي: أَنَبْته مَنابي فيمـا أَوْكَلته فيه فهذا لا بأسَ به ولا حرَجَ، وكان النبيُّ ﷺ يُوكِّل أصحابه في قَبْض الزَّكَوات وتَصريفها وغير ذلك[1].

يَقـول المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ لام قَسَـم ﴿سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ﴾] يَعنِي: إذا أَقـرُّوا بهذا الإقـرارِ [﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ﴾ تَعبُدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أيِ: الأصنام] يَعنِي: أَخبِرونا عنها [﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ

(١) من ذلك ما أخرجه البخاري: كتاب الهبة، باب من لم يقبل الهدية لعلة، رقم (٢٥٩٧)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال، رقم (١٨٣٢)، من حديث أبي حميد الساعدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾؟] الجَـوابُ: يَقول: [لا] ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾؟ لا، وفي قِراءة: بالإضافة فيهما]، أي: في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿مُمْسِكَٰتُ﴾ فنَقـرَأ على هـذه القِـراءةِ: (هَلْ هُـنَّ كاشِفاتٌ ضُرَّه هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتٌ رَحْمَتَهُ)، والقِراءتان سَبْعيتان.

ومِن قاعِدة المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الكِتابِ: أنه إذا قال: (وقُرِئَ) فهي شاذَّة، وإذا قال: وفي قِراءة. فهي سَبْعية.

ثُمَّ قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يَثِـق الواثِقون].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إقرار هَـؤلاء المُشرِكين بالرُّبوبية لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: شَأْن الإقرار بالرُّبوبية لا يَنفَع العبد، ولا يُدخِله في الإسلام، ودليلُ ذلك: أن النبيَّ ﷺ قاتَل هؤلاءِ المُقِرِّين بالرُّبوبية، واستَباح دِماءَهم ونِساءَهم وأَموالهم، ولو كان إقـرارُه بالربوبيـة نافِعًا لكانـت دِماؤُهم مَعصـومةً، وأَموالهم مَعصومةً، وأَهلوهم مَعصومين.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الإبطال لَمَّا عرَّف المُتكَلِّمون به التوحيد؛ لأن عامة المُتكَلِّميـن إذا فسَّروا التوحيد قالوا: إنه ثلاثة أنواع: التَّوْحيد في ذاته، وفي صِفاته، وفي أفعاله؛ هكذا يَقولون، ويَقولون: هو واحِدٌ في ذاته، لا قَسيمَ له، ويَعنُون بذلك أنه ليس له وجهٌ، وليس له يَدٌ، وليس له عَيْـن، وما أَشبَـهَ ذلك، يَقولون لو قُلْنا: إن له هذه

الصِّفاتِ لزِمَ أن يَكون ذا أعضاءٍ، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَتَقسَّم، فهو واحِدٌ في ذاته، لا قَسيمَ له، واحِدٌ في أفعاله، لا شريكَ له، ثُمَّ يَجعَلون هذا النوعَ من التَّوْحيد هو توحيدَ الأُلوهية، فيَقولون: مَعنَى قول القائِل: (لا إلهَ إلَّا الله) أي: لا قادِرَ على الخَلْق والاختِراع إلَّا الله تعالى.

وأمَّا قولهم: (واحِدٌ في صِفاته لا شبيهَ له) كلام ظاهِره فيه الرَّحْمة وباطِنه من قِبَله العَذاب، فماذا يَعنون بقولهم: (لا شَبيهَ له)؟

الجَوابُ: أي: لا صفاتِ له؛ لأنهم يَعتَقدون أن كل مَن أَثبَت لله صِفة فهو مُشبِّه، فهو واحِدٌ في صِفاته لا شبيهَ له، هذا التنويعُ لو قرَأْتَه على عامِّيٍّ سيَقول: ما أَحسَنَه! ما أَجمَلَه! واحِدٌ في ذاته لا قَسيمَ له! سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ! ويُسبِّح ويُهلِّل، واحِدٌ في أَفعاله لا شريكَ له كذلك! واحِدٌ في صِفاته لا شبيهَ له كذلك! لكن لا يَدرِي أن وراءَ الأَكَمة ما وراءَها!!.

بل هم يُريدون بقولهم: (واحِدٌ في ذاته لا قسيمَ له) أي: ليس له صِفاتٌ هي بالنسبة إلينا أعضاء مثل: اليَدِ والوَجْه والعَيْن والقدَم والساق، وبقولهم: (واحِدٌ في أفعاله لا شريكَ له) يُريدون بذلك أن هذا هو مَعنى: (لا إلهَ إلَّا الله)، ولو كان هذا هو مَعنَى (لا إلهَ إلَّا الله) لكان المُشرِكون الذين قاتَلهم الرسول ﷺ مُؤمِنين مُوحِّدين، وهم كانوا إذا قيل لهم: لا إلهَ إلَّا الله. يَستَكْبِرون، ولا يَقبَلون هذا، ويَقولون: أَجعَلَ الآلِهة إلهًا واحِدًا. فتَأمَّل كيف كان المُشرِكون في الجاهلية يَفهَمون من التَّوحيد ما لا يَفهَمه هؤلاءِ المُتكَلِّمون.

وقد ذكَر شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره هذا المَعنَى، وقالوا: المُشرِكون

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٩٨).

خيرٌ في فَهْم التَّوْحيد من هَؤلاء المُتكَلِّمين؛ لأن هؤلاءِ المُتكلِّمِين جعَلوا التوحيد هو تَوحيدَ الربوبية فقَطْ، وهذا لا يُنكِره المُشرِكون يُقِرُّون به، ويُنكِرون توحيدَ الأُلوهية؛ لأنهم يَعرِفون أن معنى: (لا إلهَ إلَّا الله) لا مَعبـودَ حقٌّ إلَّا اللهُ، يعرفون هذا، أمَّا أُولئك المُتكلِّمون فإنهم لا يُقيمون للأُلوهية وزنًا، يَجعَلونها خارِجًا لا يُدخِلونها في أنواع التوحيد، فيَعنُون بقولهم: (واحِدٌ في صِفاته لا شـريكَ له لا شبيهَ له) تَعطيل الصِّفاتِ؛ لأنهم يَدَّعون أن كل مَن أَثبَت لله تعالى صِفة فهو مُشبِّه.

فهذه الآيةُ تُبيِّن الردَّ على أولئك المُتكَلِّمين الذين يَجعَلون توحيـد الأُلوهية هو توحيدَ الربوبية، ويَأتي -إن شاء الله تعالى- بقِيَّة الكلام عليه.

فائِدةٌ: مُقاتَلة المُسلِم ليسَتْ كمُقاتَلة الكافِر، فمُقاتَلة المُسلِم تُقاتِله لأنه أخَلَّ بشَعيرةٍ من شَعائر الإسلام، ولا تَستَبيح نِساءه وذُرِّيَّته وأَرضَه، لكن مُقاتَلة الكافِر تُقاتِله لأنه ترَك الإسلام كلَّه؛ ولهذا تَستَبيح نِساءه وذُرِّيَّته وأرضَه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وجوب إفراد الله تعالى بالتَّوكُّل على الله تعالى؛ في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ للحَصْر، بطريق تَقديم المَعمول عليه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن ما يُعبَـد من دون الله تعالى لا يَنفَع عابـده بجَلْـب نَفْع ولا بدَفْع ضَرَر؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبـات الإرادة لله تعالى؛ لقـوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ﴾، ﴿أَوْ أَرَادَنِى﴾، وإرادة الله عَزَّوَجَلَّ تَنقَسِم إلى قِسْمين:

أ- إرادةٌ شَرْعية.

ب- وإرادةٌ كَوْنيةٌ قدَرية.

فالكونية هي التي بمَعنَى المَشيئة، والشرعية هي التي بمَعنَى المَحبَّة؛ فإذا كانت (يُريد) بمَعنَى (يَشاء) فهي إرادة كونية، وإذا كانت (يُريد) بمَعنَى (يُحِبُّ) فهي إرادة شرعية.

إِذَنِ: الفَرْق بينهما:

أوَّلًا: أن الإرادة الكونية يَلزَم منها وقوع المُراد؛ لأنها كونية، ولا أحَدَ يُعقِب حُكْم الله تعالى، والإرادة الشرعية لا يَلزَم منها وقوع المُراد.

ثانيًا: أن الإرادة الشرعية لا تَكون إلَّا فيما يُحِبُّه الله تعالى، والإرادة الكونية شامِلة لما يُحِبُّه الله تعالى وما لا يُحِبُّه الله تعالى، ومثال ذلك: لو قال لك قائِل: هل الله تعالى يُريد المَعاصيَ؟ فإن قُلتَ: (نعَمْ) أَخطَأْت، وإن قُلتَ: (لا) أَخطَأْت؛ والصواب أن نَقول: (بالإرادة الكونية: نَعَمْ يُريدها، ولم تَقَعِ المَعاصي إلَّا بإرادته)، و(بالإرادة الشَّرْعية: لا)؛ لأن الله تعالى يَكرَه المَعاصيَ، وبهذا التَّفصيلِ تَزول إشكالاتٌ كثيرة في المعاصِي: هل هي مُرادة لله تعالى أو غير مُرادة؟ نَقول: هي مُرادةٌ بالإرادة الكونية، غيرُ مُرادة بالإرادة الشرعية.

فإن قال قائِل: كيف يُريدها الله تعالى وهو لا يُحِبُّها؟

قلنا: نعَمْ هي مُرادة لغيرها، بمَعنَى: مَحبوبة لغيرها، أي: لِما تُؤدِّي إليه من المَصالِح العظيمة.

إذن: ليسَتْ مُرادةً بالإرادة الشرعية، وإنما هي مُرادة بالإرادة الكَوْنية؛ فإذا أَورَدَ علينا مُورِد: كيف يُريدها الله عَزَّوَجَلَّ وهو يَكرَهها؟

فالجَوابُ: أن نَقول: يُريدها وهو يَكرَهها؛ لكونها مُرادة لغَيْرها، فالله عَزَّوَجَلَّ

يُوقِع المعاصِيَ يُريد المعاصِيَ من أجل خيرٍ كثيرٍ لفاعِلها إذا تاب إلى الله تعالى؛ لأن العاصيَ إذا تاب إلى الله تعالى كان خيـرًا منه قبل ا لمَعصِية، والدليل على هذا أن آدَمَ عصا ربَّه وغوَى، وتاب إلى الله تعالى، وبعد تَوْبته اجتَباه وهَداه، ولولا هذه المَعصيةُ لم يَحصُل له الاجتِباءُ والهِداية التي حصَلَتْ بعد المَعصية، فكانت المَعصية الآنَ خَيْرًا لآدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

ثُمَّ إن فيها خيرًا آخَرَ؛ فالإنسان العاصِي إذا عصا الله تعالى عرَف قَدْر نَفْسه، وخَجِل من ربِّه، واستَصغَر كل عمَل خيرٍ يَفعَله؛ لأنه يَذكُر مَعصيته دائِمًا بين عَيْنيه، لكن إذا لم يَعصِ ربَّما يشمخر[1] ويَعلو بأَنْفه، ويُعجَب بنَفْسه، ويَقول: أنا ما عصَيْت الله تعالى أبَدًا! وما أَشبَه ذلك، ثُمَّ يَحبَط عمَله من حيث لا يَشعُر.

فهاتانِ اثنَتانِ مَصلَحتهما للعاصِي، وهناك مَصلحةٌ ثالِثة لعامة الناس، فلولا العِصيان ما قام الأَمْر بالمَعروف والنهيُ عن المُنكَر؛ لأن الناس لو كان كلهم على البِرِّ والمَعروف فبأيِّ شيءٍ نَأمُر؟! وعن أيِّ شيء نَنهَى؟! فلا يَقوم الأَمْر بالمَعروف والنهيُ عن المُنكَر إلَّا بوجود أسبابه وهي المَعاصِي.

ثالثًا: لولا المَعاصِي ما عرَف الإنسان قَدْر الإيمان الذي أَنعَم الله به عليه ولذَّتَه؛ لأن الناس لو كانوا على حَدٍّ سواءٍ ما عرَف الإنسان قَدْر نِعْمة الله عليه؛ ولهذا لا يَعرِف قَدْر العافِية إلَّا مَنِ ابتُلِيَ بالمرَض، وكذلك أيضًا المَعصية؛ لا يَعرِف العبد قَدْر نِعْمة الله تعالى عليه بالطاعة إلَّا إذا عرَف آثار المَعاصِي على فاعِلها.

رابِعًا: لولا المَعاصِي التي أَعظَمُها الكُفر ما قام سُوق الجِهاد؛ لأننا لو كُنَّا كلنا

---

(١) أي: تكبَّر. تاج العروس (شمخر).

مُسلِمين فمَن نُجاهِد؟ لا أحَدَ، لكن إذا كان هناك كافِر ومُؤمِن قام سُوق الجِهاد، ولا يَخفاكُم ما في الجِهاد من الخير والفَضْل العظيم.

خامِسًا: لولا المَعاصي لفاتَتِ الحِكْمة من خَلْق الخَلْق كلهم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يَعنِي: على الهُدى ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩].

سابِعًا: لولا المَعاصِي لم يَكُن لخَلْق الجَنَّة والنار حِكْمة؛ لأن الجَنَّة لَمن عصَى واستَغفَر الله تعالى، ولو لم يَكُن عُصاةٌ لكان خَلْق النار عبَثًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

فتَبيَّن الآنَ أن ما يُقدِّره الله عَزَّوَجَلَّ ممَّا يَكرَهه له فوائِدُ كبيرة عَظيمة، وحينئذٍ يَكون مُرادًا لله تعالى مُرادًا لغيره، وهو من هذه الناحيةِ مَحبوبٌ إلى الله تعالى، فتَبيَّن بهذا سُقوط الإيراد الذي أَوْرَدناه أوَّلًا، وهو كيف يُريد الله تعالى المَعاصيَ وهو يَكرَهها؟ ومثل هذه الفوائِدِ قد لا تَجِدونها في كِتابٍ؛ ولذلك أَحُثُّكم على الاحتِفاظ بها وتَقييدها.

ونَظير ذلك في الأمور المَحسوسة أن الأبَ أو الأُمَّ يَأتي إلى ابنه المَريض فيَكويه بالنار وتُؤلِمه وتُحرِق جِلْده، لكن لطلَب الشِّفاء؛ فكَيُّه مَكروه غير مَحبوب له، لكنه مَحبوبٌ لغيره، أي: لما يَنتُج عنه من المَصالِح، وبهذا تَبيَّن أنه لا مانِعَ من أن يَكون الشيء مَكروهًا من وجهٍ ومَحبوبًا من وجهٍ.

ونَرجِع إلى الفَرْق بين الإرادتين: (الشرعية والكونية)، فما هي التي يَلزَم فيها وُقوع المُرادُ؟

أَقولُ: الكونية هي التي يَلزَم منها وقوع المُراد، وعلى هذا فالكافِر مُرادٌ منه أن يُؤمِن ولم يُؤمِن، ومُرادٌ منه أن يَكفُر وقد كفَرَ، فمُرادٌ منه أن يُؤمِن بالشَّرْعية- ومُرادٌ منه أن يَكفُر- بالإرادة الكونية- فكفَر.

والمُؤمِن الذي آمَن؛ مُرادٌ منه أن يُؤمِن -بالإرادة الشرعية- ومُرادٌ منه أن يُؤمِن -بالإرادة الكَوْنية- لأنه آمَن.

وعلى هذا فالمُؤمِن اجتَمَع في حَقِّه الإرادتان: الكَوْنية والشَّرْعية، والكافِر في حَقِّه الإرادة الكونية دون الشرعية.

فهنا قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ بِضُرٍّ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ أَراد بهما الإرادة الكونية.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ يَبتَلي الإنسان بالضُّـرِّ وبالرحمة، وهو كذلك، فيَبتليه بالضُّـرِّ ويَبتليه بالرحمة؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:٣٣]، فالله عَزَّوَجَلَّ يَبتَلي بالضُّرِّ ويَبتلي بالرحمة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الفَرْق بين الضُّرِّ وبين الرحمة، أن الرحمة قال تعالى فيها: ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ والضـرُّ قال تعالى فيه: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾؛ لأن الرحمة تَحتاج إلى بَقاء فإذا أَبقَى الله تعالى الرحمة، فهل هذه الأَصنامُ هي التي تُمسِك الرحمة أو الله تعالى؟ بل الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يُمسِك الرحمةَ، وليست هذه الأَصنامُ.

ويُحتَمَل في الآية وجهٌ آخَرُ، وهو أن قوله تعالى: ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ مَعناه: أن تَصِل إلى المَرحوم، فيَكون ﴿مُمْسِكَٰتُ﴾ بمَعنى: مانِعات للرحمة؛ ليَكون ذلك في مُقابِل ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: وجوب اعتِماد الإنسان على الله تعالى؛ لقوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: قُلْها باللِّسان مُعتَقِدًا إيَّاها بقَلْبك.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن أحقَّ مَن يُتوَكَّل عليه هو الله تعالى؛ لقوله: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

فإن قال قائِل: هل تَحقيق التَّوكُّل يُنافي فِعْل الأسباب؟

فالجَوابُ: لا، إلَّا إذا تَعذَّرتِ الأسباب ولم يَبْقَ إلَّا التَّوكُّل، فحينئذٍ يَكون هو سبب الأسباب، فالإنسان مَأمور بفِعْل السبَب، فإذا فعَله ولم يُفِد أو لم يَكُن السبَب مَوجودًا مَقدورًا عليه لم يَبقَ إلَّا التَّوكُّل.

وإن قال: ما هو الدليلُ على أن فِعْل الأسباب لا يُنافِي التَّوكُّل؟

قُلنا: وقوع ذلك من سيِّد المُتوكِّلين محمدٍ ﷺ، فإنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان يَأخُذ بالأسباب؛ فيَأكُل ليَندَفِع عنه الجوع، ويَشرَب ليَندَفِع عنه العطَش، ويَتدَرَّع بالدُّروع في الحرب ليَتَّقيَ بذلك السهامَ، بل إنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في أُحُد ظاهَرَ بين دِرْعين[1]؛ لأن ذلك أَقوى في الصِّيانة والحِماية، وشَقَّ الخَندَق على المدينة في غَزوة الأحزاب[2] مَنعًا للعَدوِّ من دُخول المدينة، والشواهِدُ على هذا كثيرة.

ولكن نُقيِّد الأسباب بأن يَثبُت كونها سببًا شرعًا أو حِسًّا، فلا بُدَّ أن يَثبُت

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٤٩)، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب في لبس الدروع، رقم (٢٥٩٠)، وابن ماجه: كتاب الجهاد، باب السلاح، رقم (٢٨٠٦)، من حديث السائب بن يزيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وعند أبي داود عن السائب عن رجل قد سماه مرفوعا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب حفر الخندق، رقم (٢٨٣٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٨٠٣)، من حديث البراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

كونها سببًا إمَّا عن طريق الشَّرْع، وإمَّا عن طريق الحِسِّ والتَّجارِب، فأمَّا مُجرَّد تَوهُّم كون هذا سببًا فإن ذلك من الشِّرْك، وانتَبِهوا لهذه المَسأَلةِ، فمِن دَلالة كون الشيء سببًا شرعًا أن القرآن شِفاءٌ لما في الصدور، وهو مرَض الشُّبُهات والشَّهَوات، وشِفاءٌ لما في الأبدان؛ لقول النبيِّ ﷺ للذي قرَأَ بالفاتِحة على اللَّديغ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ»[1]، فمِن أين علِمنا أن القُرآن شِفاء من الشَّرِّ؟ وقد يَكون بالتَّجارِب مثل أن نَعرِف أن السَّنَا مُسْهِل، ومن أين عرَفنا: هل في القرآن والسُّنَّة أن السَّنَا مُسهِل؟

الجَوابُ: لا، لكن بالتَّجارِب، والسَّنَا يُسمَّى بلُغَتنا في القَصيم (السَّنَاوَيْن) مُثنًّى، وهو سَنًا واحِد! لكنه نوع من أَوْراق الشجَر المعروف يُشبِه السِّدْر، فإذا دُقَّ ونُقِع في الماء لُمُدَّة عِشرين ساعةً أو نحوها، وشرِبه الإنسان فإنه يَسْلُت ما في بَطْنه من الأذى ويُسهِله، وله رائِحة كريهة، لكن الناس يَجعَلون معه بصَلًا؛ ليُعمِّيَ رائِحته، وإن كان البصَل خَبيثًا، لكنه أهوَنُ؛ لأنه أخَفُّ الضرَرين.

وعلى كل حال: عرَفنا أن السَّنَا مُسهِل من التَّجارِب، وغالِب الأدوِية الموجودة الآنَ من هذا النَّوعِ من التَّجارِب، أمَّا شيء مَوْهوم فهذا لا يَجوز اعتِماده، بل هو نوعٌ من الشِّرْك، وقد ثبَت أن التِّوَلة شِرْك؛ لأنه لم يَثبُت كونها سببًا لمَحبَّة الرجُل لزوجته أو الزوجة لزوجها لا شرعًا ولا قَدَرًا، يَعنِي: ولا حِسًّا، فيَكون إثبات كونها سببًا شِرْكًا؛ لأنك أَثبَتَّ ما لم يُثبِتِ الله تعالى، فكأنك جعَلْت نَفْسك مثل الله تعالى في إثبات الأسباب ومَفعولاتها.

إِذَنْ: قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لا يُنافِي فِعْل الأسباب، بل

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، رقم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأسباب من التَّوكُّل في الواقِع؛ ولهذا قال عُمرُ بن الخَطَّاب لأبي عُبيدةَ بنِ الجرَّاح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَمَّا قال: «أَفِرارًا من قَدَر الله؟ قال: نَفِرُّ من قَدَر الله إلى قدَر الله»[1]، والله تعالى أَعلَمُ.

مَسأَلة: هل العاصِي التائِب إلى الله أَفضَلُ أم الذي لم يَعصِ الله عَزَّوَجَلَّ؟

الجَوابُ: أَقول: الذي لم يَعصِ الله تعالى أحسَنُ؛ لأن العاصيَ ربما لا يُوفَّق للتوبة، لكن الإنسان يَشعُر من نفسه أنه إذا عصَى ثُمَّ تاب أنه خجِل من الله تعالى ورجَع إليه واستَحْيا منه، لكن إذا كان سائِرًا على الطاعة مُستَمِرًّا لا يَجِد لذَّة التَّوْبة، وهذا شيء مُجرَّب ومُشاهَد.

مَسأَلة أُخرى: هل الأدويةُ الموجودةُ الآنَ هل هي ثابِتة بالتَّجارِب؟

الجوابُ: نعَم، ولا شكَّ، والمريض يَعلَم أنها ثابِتة أيضًا؛ لأنه واثِق بأهل الطِّبِّ، فهو يَدرِي أنها مُفيدة، فأهل الطِّبِّ الآنَ لا يُمكِن أن يُنزِلوا للسُّوق أدوية إلَّا بعد أَخْذ تَجارِبَ عليها كثيرًا، فيُجرِّبونها على الفِئْران، وعلى الأرانِب، وعلى الكِلاب، ويُجرُونها خُصوصًا في الأمراض المُستَعْصية، فلا تَظُنَّ أن الواحِد منهم يَعجِن هذه الحُبوبَ ويُعطيك إيَّاها مُباشَرةً!

فإن قيل: لكن أَحيانًا لا يَجِد الإنسان نَتيجة من بعض الأدوية فماذا يَفعَل؟

فالجَوابُ: في الأصل أن الدواء لا بُدَّ أن يُصيب مَحلًّا قابِلًا، فإذا لم يُصِب مَحلًّا قابِلًا ما نفَع، وهذا مَوْجود، حتى القِراءة على المريض التي ثابِتٌ أنها سبَبٌ ولا شكَّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون (٥٧٢٩)، ومسلم: كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة، رقم (٢٢١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فيها، فكثيرًا ما تَقرَأ على المريض ولا يَستَفيد؛ لأن المَحلَّ غير قابِل، فتَقرَأ عليه وتَجِده يَقول: ما هذا القارِئُ؟ ليس عنده عِلْم!.

وهل يَحرُم استِعْمال الدواء غير المُجدِي؟

أَقولُ: لَا يَحْرُمُ الاستِعمالُ، لكن إذا كان يُؤدِّي إلى ضرَر مثل بعض المُضادَّات الحَيَوية التي تَضُرُّ الإنسان أكثَرَ ممَّا تَنفَعه، فإنه إذا لم يَجِد نفعًا فهنا يَجِب عليه أن يُمسِك حتى لو قال له الطَّبيب: استَمِرَّ، وهو لم يَجِد نفعًا، وهي من الأدوية التي يُسمُّونها: المُضادَّاتِ الحيويةَ، فهي خطَر على الإنسان.

• • ۞ • •

الآيتان (٣٩، ٤٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [الزمر:٣٩-٤٠].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ الخِطاب هنا للنبيِّ ﷺ، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ﴾ المُراد بهم مَن كذَّبوه وعانَدوه.

وقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ هذه مُنادى، وأَصلُها: يا قَوْمي، ولكنها حُذِفت الياء للتخفيف، وبَقِيَت الكَسْرة دَليلًا عليها، وعليه فنَقول في إعرابها: (قَومِ) مُنادى مَنصوب بفَتْحة مُقدَّرة على ما قَبْل ياء المُتكلِّم المحذوفة للتَّخفيف.

وقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ يَعنِي: على ما أنتم عليه من الكُفْر والعَداوة والإيذاء، فإن ذلك لا يُهِمُّني، ولن يَمنَعَني من أن أَستَمِرَّ في عمَلي؛ ولهذا أَكَّد قوله تعالى: ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ يَعنِي: عامِلٌ على ما أنا عليه، فأنتمُ اعمَلوا ونحن سنَعمَل، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالتكم]، فالمَكانة بمَعنَى الحالِ، وكما ذكَرْنا في التفسير: المكانة أي: ما كُنْتم عليه، وهي بمَعنى الحال في كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إني عامِلٌ على حالَتي]، وفَهِم أن التَّقدير (على حالَتي)؛ لأنها مُقابِلٌ إلى قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ يَعنِي: إني عامِلٌ على مَكانتي،

يَعنِي: (على حالَتي)، والتَّقدير على مَكانَتي.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذه جُملة مُحقَّقة؛ لدُخول ﴿سَوْفَ﴾ عليها، فإن ﴿سَوْفَ﴾ تُحقِّق الجُملة كما تُحقِّقها السِّين، لكن الفَرْق: أن السِّين تُفيد ذلك عن قُرْب، و﴿سَوْفَ﴾ تُفيده عن مُهْلة؛ ولهذا يُقال: السِّين للتَّنْفيس، و﴿سَوْفَ﴾ للتَّسويف، أيِ: التأخير والتَّنفيس القُرْب.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ﴾: ﴿مَن﴾ هذه مَفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾، والعِلْم هنا بمَعنى المَعرِفة؛ ولهذا لا تَنصِب إلَّا مفعولًا واحدًا كما قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لِعِلْمِ عِرْفَانٍ وَظَنٍّ تُهْمَهْ ... تَعْدِيَةٌ لِوَاحِدٍ مُلْتَزَمَهْ[1]

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أي: تَعرِفون ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: ستَعلَمون الذي يَأتيه عذابٌ يُخزيه، والعَذاب هو العُقوبة، والخِزيُ مَعناه: الذُّلُّ والعار، وقوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: يَنزِل عليه عذابٌ مُقيم لا يُفارِقه، والمَعنَى العامُّ: (سوف تَعلَمون هذا: هل هُو لَنا نَحن أم لكُم؟) ولكِنَّهم سوف يَعلَمون ذلك في وقتٍ لا يَتمكَّنون فيه من الخَلاص، وإنما يُنادون بالوَيْل والثُّبور -والعِياذُ بالله تعالى-.

فقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَن﴾ مَوصولة مَفعول للعِلْم] فلو قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَفعول

---

(١) الألفية (ص٢٤).

﴿تَعْلَمُونَ﴾ لكان أَوضَحَ؛ لأن الذي في الآية ليس المَصدَر، ولكنه الفِعْل، وكان عليه أن يَقول: مَفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾، لكن الكِتاب[1] في الحَقيقة مُؤلَّف لطلَبة عِلْم؛ ولهذا نحن لا نَنْصَح بقِراءة هذا الكِتابِ للمُبتَدِئ؛ لأن هذا الكِتاب وإن كان صغيرًا أكبَرُ من فَهْم المُبتَدِئ.

إِذَنْ: ﴿مَن﴾ مَوْصولة مَفعول للعِلْم، وجُملة: ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ إذا كانت ﴿مَن﴾ مَوصولة فجُملةُ ﴿يَأْتِيهِ﴾ لا مَحَلَّ لها من الإعراب صِلةُ المَوْصول، وقوله: ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ العَذاب عُقوبة وجُملة: ﴿يُخْزِيهِ﴾ صِفة لـ﴿عَذَابٌ﴾، وليست جوابًا لـ﴿مَن﴾؛ لأن ﴿مَن﴾ اسمٌ مَوْصول لا تَحتاج إلى جواب.

ثُمَّ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَيَحِلُّ﴾ [يَنزِل ﴿عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائِم، وهو عذاب النار وقد أَخزاهم الله ببَدْرٍ]، يَعنِي أن أكبَرَ ذُلٍّ حصَل لقُرَيْش ما حصَل في بَدْر؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جمَع زُعَماءهم وكُبَراءهم وأَشرافهم حتى خرَجوا في ذلك اليومِ، وقُتِل هؤلاءِ الأشرافُ والكُبَراءُ، وسُحِبوا وأُلقوا في قَليبٍ من قُلُب بَدْر، وهي قَليبٍ خَبيثة مُنتِنة، فكان جَزاؤُهم -والعِياذُ بالله تعالى- هذا الجزاءَ، وهذا من أعظَمِ الخِزْي، حتى وقَف النبيُّ ﷺ عليهم يُوبِّخهم ويُندِّمهم؛ يَقول: «يا فُلانُ بنَ فُلانٍ». بأَسمائهم وأَسماء آبائهم، «يا فُلانُ بنَ فُلانٍ، هل وجَدْتُم ما وعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا، فإنِّي وَجَدْتُ ما وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا». فقالوا: يا رسول الله: تُكلِّم أُناسًا قد جَيَّفوا! كيف تُكلِّم جِيفًا؟ فقال ﷺ: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ»، ولكنهم لا يَستَطيعون الجوابَ[2].

---

(١) أي: تفسير الجلالين.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم (٢٨٧٤)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه بنحوه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم (١٣٧٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وصَدَق الرسول ﷺ، فهُمْ يَسمَعون كلام الرسول ﷺ ولا يَزيدهم هذا الكلامُ إلَّا حَسْرةً ونَدامة؛ ولهذا قال أبو جَهْل حينما جاء إليه عبد الله بنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه رمَقٌ من حياة قال له: مَن أنتَ؟ قال: ابنُ مَسعودٍ. قال: لقَدْ ارتَقَيْتَ مُرتَقًى صعبًا يا رُوَيْعيَّ الغَنَم! يَعنِي: كيف تَطَأ على رأس شَريف من أشراف قُريشٍ، ثُمَّ قال: لِمن الدائِرةُ اليومَ؟ قال: لله ورسولِه[1].

المُهِمُّ: أن الرسول ﷺ وبَّخَهم على هذا الذي حصَل.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنه يَنبَغي لِمَن معَه الحقُّ أن يَكون قوِيًّا مُتحَدِّيًا لخَصْمه، فلا يَقِف مَوقِف الضَّعْف، يُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ يَعنِي: ولا تُهِمُّوننِي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَسلية النبيِّ ﷺ، فإن الله تعالى أمَرَه بذلك تَبشيرًا له وتَسلية بأنه ستكون العاقِبة له.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه لا بأسَ بإقرار الكُفَّار على كُفْرهم تهديدًا، وهذا أسلوبٌ مُتَّبَع حتى في تأديب الوالِد ابنَه فتَراهُ يَقول: استَمِرَّ على مَعصيتي! استَمِرَّ في اللَّعِب! لا تَحضُر للضيوف! مثلًا يَقصِد التهديد.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُريد من نبيِّه ﷺ أن يَكون عاليًا على قومه يَتكلَّم معهم من عَلٍ، وذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾، وهذا يُشبِه التَّحدِّيَ لهم أني لا يُهِمُّني أن تَعمَلوا ما عمِلْتم فإني سوف أَعمَل ما يُضادُّ ذلك.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٦٣٦).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تهديد أُولئك المُكذِّبين لرسول الله ﷺ، وأنهم سوف يَعلَمون مَن هو أحقُّ بالعذاب ومَن يَأتيه العَذاب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن عذاب الكُفْر عذابٌ مُخزٍ، عارٌ في الآخرة وذُلٌّ في الدنيا، بل ذُلٌّ في الدنيا والآخِرة -والعِياذُ بالله تعالى- لقوله تعالى: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن عذاب أهل النار مُقيم لا يَنفَكُّ عنهم.

ويَتفَرَّع على ذلك: أن فيها ما دلَّ عليه القُرآن والسُّنَّة من أن أهل النار مُخلَّدون فيها أبدًا، وأنها لا تَفنَى، وأن القول بفَنائها قولٌ ضعيف، بل باطِل لمُخالَفَته للكِتاب والسُّنَّة.

• • ۞ • •

الآيــة (٤١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر:٤١].

ثُمَّ قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ تأمَّل ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾، وفي بعض الآيات: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ فهَلِ الحَرْفان بمَعنًى واحِد أو هُما يَختَلِفان؟

الجَوابُ: الأصل فيما اختَلَف لَفظُه أن يَختَلِف مَعناه هذا الأصلُ؛ لأن اللَّفْظ للمَعاني بمَنزِلة الثَّوْب للأجسام، فإذا وجَدْنا لَفْظين تَعدِيَتُهما واحِدة، لكنَّهما مُختَلِفان لفظًا، فالأصل اختِلافهما معنًى، فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ يُفيد أن غاية الإنزال إلى رسول الله ﷺ لا يَتَجاوَزه إلى غيره.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ﴾ تُفيد أن الإنزال على النبيِّ ﷺ حتى تَشَرَّبه كأنه نزَل في نَفْس الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ ألم تَقرَأ قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤]، ولم يَقُل: إلى قَلْبك هذا هو الفَرْق.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الكتاب هنا هو القُرآن الكريم، وسُمِّي كِتابًا؛ لأنه مَكتوب في اللَّوْح المَحفوظ، وفي الصُّحُف التي بأَيْدي الملائِكة، وفي الصُّحُف التي بأَيْدينا، وعلى هذا فيَكون فِعَال بمَعنَى: مَفعول، وهذا الوزنُ أَعنِي: فِعالًا بمَعنى: مَفعول يَأتي كثيرًا في اللغة العربية، ومنه فِراش بمَعنى مَفروش، وكِساء

بمَعنَى: مَكْسِيٌّ، وبِناء بمَعنَى: مَبنيٌّ، وغِراس بمَعنَى: مَغروس، وله أمثِلة كثيرة.

يَقول تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ اللَّام هنا للاختِصاص أو للتَّعدِية؟ جائِز هذا وهذا، والمَعنَى: أن الله تعالى أَنزَل الكِتاب على مُحَمَّدٍ ﷺ ليَهتَدِيَ به الناس ويَنتَفِعوا به، والأمر كذلك، فإن الناس انتَفَعوا بهذا القُرآنِ انتِفاعًا لا يُماثِله انتِفاع، فالأُمَّة القُرَشية كانت لا تُساوِي شيئًا عند الأُمَم، وكانوا أذِلَّة وكانوا فُقَراءَ، لهم رِحلة إلى الشام في الصَّيْف وإلى اليَمَن في الشِّتاء؛ لأنه ليس عندهم حرَكة ولا تِجارة ولا أموال، وببعثة النبيِّ ﷺ وبهذا القرآنِ صاروا سادةَ الأُمَم كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾، وقوله: (آوَى) يَعنِي: آواكَ، وأَوَى بك فكُنْت أبًا للناس بعد أن لم تَكُن، وبعد أن كنتَ يَتيمًا لا أبَ لك؛ ولهذا نَقول: (آوَى) حُذِف المَفعول به من أجل العُموم، يَعنِي: آواك وآوَى بك، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾: ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي: هداك وهَدَى بك، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ يَعنِي: أَغناك وأَغنَى بك؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ للأنصار: «**وَكُنْتُمْ عَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللهُ بِي**»[1] فالنَّبيُّ ﷺ جاء بالبَرَكة لأُمَّته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لها مَعنَيان:

الأوَّل: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يَعنِي: أن ما جاء به هذا القُرآنُ هو الحقُّ، والحقُّ هو الصِّدْق في الأَخبار، والعَدْل في الأَحْكام، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] يَعنِي أن هذا القُرآنَ نزَل بالحَقِّ أي: أَتَى بالحَقِّ وهو صِدْق الأَخْبار وعَدْل الأحكام.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم (٤٣٣٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، رقم (١٠٦١)، من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمَعنَى الثاني: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يَعنِي أنه مَصحوبٌ بالحَقِّ، أي: أنه نزولٌ حقٌّ، ليس فيه باطِل كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء:٢١٠-٢١٢]، فهذا يَعنِي أن نُزوله حقٌّ، ليس بباطِل، فإنه لا يَعتَريه الباطِل، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت:٤٢].

وهذا بخِلاف أَخْبار الكُهَّان فكلُّها من الشياطين، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء:٢١٠-٢١٢].

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ الفاء هذه مُفرَّعة على ما سبَق، يَعنِي: بعد نزول هذا القُرآنِ انقَسَم الناس فيه إلى قِسْمين: قِسْمٌ اهتَدَى به فانتَفَع، وقِسْمٌ ضلَّ عنه فهلَكَ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾: (مَنْ) هذه شَرْطية، وفِعْل الشرط فيها: ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾، وجَوابه: جُملة: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ لأن الجُملة هنا اسمِيَّة؛ ولهذا اقتَرَنَت بالفاء كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: هِدايةً عِلْمية وهِدايةً عمَلية، فهِداية عِلْمية بأن حرَص على هذا القُرآنِ فحفِظه وتَدبَّره وتَأمَّله، وهِداية عمَلية بأن طبَّق هذا القُرآنَ وعمِل به عَقيدةً وقولًا وفِعْلًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ اهتِداؤه] أي: فلنَفْسه اهتِداؤه، أو فهو لنَفْسه.

المُهِمُّ: أن المحذوف المُبتَدَأ ولا بُدَّ؛ لأن المَذكور جارٌّ ومجرور، والجارُّ والمجرور لا يُمكِن أبَدًا أن يَكون مُبتَدَأ، فإن شِئْت قدَّرْت: (فلنَفْسه اهتِداؤه)، وإن شِئْت قدَّرْت (فهو لنَفْسه).

واقتَرَنت جُملة الجَواب بالفاء؛ لأنها جُمْلة اسمِيَّة، والقاعِدة أنه إذا وقَعَت جملة الجَواب اسمِيَّة وجَب اقتِرانها بالفاء، وربما تُحذَف الفاء، لكن قليلًا، ومنه قول الشاعِر:

مَنْ يَفْعَلِ الحَسَنَاتِ اللهُ يَشْكُرُهَا .....[1]

ولم يقل: فالله يَشكُرها. لكن هذا قليل.

ولنَتعَرَّضِ الآنَ لما يَجِب قَرْنه بالفاء من الجُمَل إذا وقَع جوابًا، وهي مَذكورة في قول الشاعِر:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدٍ وَبِـ(مَا) وَ(قَدْ) وَبِـ(لَنْ) وَبِالتَّنْفِيسِ

وقوله تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: ومَن ضَلَّ فلم يَهتدِ لا عِلْمًا ولا عمَلًا ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: على نَفْسه ولا يَضُرُّ الله تعالى شيئًا، ولا يَضُرُّ غيرَه شيئًا أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾: (ما) هذه حِجازية، أي: لا يَنطِق بها إلَّا أهل الحِجاز؛ وهي لا تَعمَل عمَل (ليس) إلَّا عند أهل الحِجاز، فلذلك سُمِّيَت حِجازية فهي عند أهل الحِجاز تَعمَل عمَل (ليس)، أي: تَرفَع المُبتَدَأ وتَنصِب الخبَر،

---

(١) اختلف في قائله، فنسبه سيبويه في الكتاب (٣/ ٦٤-٦٥) لحسان بن ثابت، ونسبه ابن هشام في مغني اللبيب (ص٨٠) لعبد الرحمن بن حسان، ونسبه جماعة لكعب بن مالك كما في خزانة الأدب (٩/ ٥١).

ومن ذلك قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف:٣١]، وعند بني تَميمٍ لا تَعمَل عمَل (ليس)، بل هي مُهمَلة، فيَقولون في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ يَعنِي: في غير القرآن: (ما هذا بشَرٌ)، فمِن لغة تَميم: (ما زيدٌ قائِمٌ)، ومِن الحِجازية (ما زيدٌ قائمًا)، فتَحصَّل لنا الآنَ أن لُغة قُريشٍ وهم أهل الحِجاز يَقولون: (ما هذا بشَرًا)، وبنو تَميم يَقولون: (ما هذا بشَرٌ)، وكانوا يَقرَؤُون القُرآن: (ما هذا بشَرٌ) قبل أن يُوحَّد على لغة قُريش؛ لأن القرآن أُنزِل على سبعة أَحرُف.

وفي ذلك بيت طريف قال فيه الشاعِر:

وَمُهَفْهَفِ الْأَعْطَافِ قُلْتُ لَهُ انْتَسِبْ ... فَأَجَابَ مَا قَتْلُ الْمُحِبِّ حَرَامُ[1]

يَعنِي: قلت له: من أين أنتَ؟ فما قال: أنا من فُلان من آل فُلان؟ فأَجاب: (ما قَتْل المُحِبِّ حَرامُ) فتكون هذه المرأةُ تَميميةً؛ لأنها قالت: (ما قَتْلُ المُحِبِّ حَرَامُ)، أمَّا في وقتنا الآنَ فلا نَعرِف التَّميميَّ من القُرَشيِّ؛ لأنه قدِ اندَمَج الآنَ، فكلُّ تَميميٍّ وكلُّ قُرَشيٍّ تَجِده يَقول: (ما هذا بَشَرٌ)، وهذا يَقول: (ما هذا بَشَرًا) فكلُّهم قدِ اختَلَطوا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ إِذَنْ: نُعرِب الآنَ (ما) على لُغة قُرَيْش مع أن اللَّفْظ لا يَختَلِف في هذا التَّرْكيبِ؛ لأن بني تميم يَقولون: ما أنت عليهم بوَكيل. وكذلك قُرَيْش.

لكن لعِلْمنا أن القُرآن على لُغَة قُريش نَقول: إن (ما) هنا حِجازية، و(أن) اسمُها، والتاء للخِطاب، والباء حَرْف جرٍّ زائِدٌ، و(وكيل) خبَرُها مَنصوب بفَتْحة

(١) غير منسوب، وانظر: نفح الطيب للمَقَّرِي التِّلمساني (٥/ ٢٢٧).

مُقدَّرة على آخِره منَع من ظُهورها اشتِغال المَحلِّ بحرَكة حَرْف الجرِّ الزائِد.

فإن قال قائل: قُلْتم: (إن الباء حَرْفُ جرٍّ زائِدٌ) ونحن نَعلَم أن القُرآن الكريم ليس فيه لَغْو، والزيادة لَغْو؟

فالجَواب على هذا أن نَقول: الزيادة لَغْوٌ إذا لم تُفِدْ مَعنًى، فإن أَفادَت مَعنًى فليسَت لَغْوًا، والمَعنى الذي تُفيده هنا تَوكيد النفيِ، وعلى هذا فليسَت لَغْوًا، بل هي زائِدةٌ لكنا نَقول: (زائِدة لَفْظًا زائِدة مَعنًى)، يَعنِي: تَزيد في المعنَى.

لكن قد يَقول قائِل: كيف (زائِدة زائِدة)؟

نَقول: (زائِدة) الأُولى من (زاد) اللازِم، و(زائِدة) الثانية من (زاد) المُتعَدِّي؛ لأن (زاد) مثل (نقَص) تُستعمَل لازِمة لا تَتعدَّى للمَفعول، وتُستعمَل مُتعدِّية للمَفعول؛ فالمُتعَدِّية كما قال الله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ [آل عمران:١٧٣]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة:٤]، واللازِمة كما تَقول: زاد إيمان الرجُل، وتَقول: نقَص الماء.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر:٤١]، يَعنِي: لستَ عليهم بمُراقِب تُراقِبهم وتُحافِظ عليهم، وإنما ذلك إلى الله تعالى فأنت عليك البلاغُ، والحِسابُ على ربِّ العِباد عَزَّوَجَلَّ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ مُتعلِّق بـ(أَنزَل)]، ولم يَقُل: بـ(أَنزَلْنا)؛ لأن العامِل هو الفِعْل، و(نا) اسمٌ بتَقدير الانفِصال عن الفِعْل، وهذا تعليمٌ من المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإذا أَرَدْتم أن تَقولوا: هذا مُتعلِّق فلا تَذكُروا إلَّا العامِل فقط، لا تَذكُروا الفاعِل معه ولا المَفعول إن كان المَفعول

مُتَّصِلًا به، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مُتعلِّق بـ(أَنزَل)، ونحن في الحقيقة في إعرابنا للقُرآن نَتَجاوَز، ونَقول: في مثل هذا مُتعَلِّق بـ(أَنزَلنا)، وهذا غير مُحرَّر، والصواب: أن تَقول: «مُتعلِّق بـ(أَنزَل)» الذي هو العامِل فقَطْ، دون ما اتَّصَل به من فاعِل أو مَفعول.

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ اهتِداؤه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ فتُجبِرهم على الهُدى]، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق:٤٥]، فالرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس بجابِرٍ لهم على الاهتِداء، وليس بمُوكَّلٍ بهم يُحافِظهم ويُحافِظ عليهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيان أن القُرآن كلام الله تعالى؛ لأن الله تعالى أَنزَله وهو كلام ليس ذاتًا مُعيَّنة كالحديد الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥]، وكالمَواشِي التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦]، فالقرآن كلام، فإذا كان كلامًا فإنه لا يَكون مَخلوقًا؛ لأن الكلام صِفة المُتكلِّم، والمُتكلِّم به وهو الله هو الأوَّل والآخِر والظاهِر والباطِن.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات عُلوِّ الله تعالى؛ مَأخوذ من الإنزال، والإنزال لا يَكون إلَّا من عُلوٍّ.

وعُلوُّ الله عَزَّوَجَلَّ دلَّ عليه الكِتاب والسُّنَّة والإِجْماع والعَقْل والفِطْرة:

أمَّا الكِتاب فدَلالته على عُلوِّ الله تعالى مُتنوِّعة بأنواع كثيرة.

والسُّنَّة كذلك فقَدِ اتَّفَقَتِ السُّنَّة القولية والفِعْلية والإِقْرارية على أن الله عَزَّوَجَلَّ عالٍ فوقَ عَرْشه فوقَ خَلْقه.

والإجماع كذلك، فقد أَجمَع السلَف على ذلك، وما منهم من أَحَد قال بخِلافه أَبَدًا؛ والقاعِـدة في هذا: أنه إذا دَلَّ الكِتاب والسُّنَّة على شيء ولم يُعلَم أن أَحَـدًا من السلَف الصحابة والتابعين قال بخِلافه فإنهم لا يَقولون بسِواه، وهذه فائِدة مُهِمَّة؛ يَعنِي: **قد يَقول قائِل**: أين الدليلُ على أن الصحابة يَـرَوْن أن الله تعالى اسْتَـوى على العَرْش أي: علا عليه؟ هل أَحَدٌ فسَّره بذلك؟

فنَقول: ما دام قد ثبَـتَ في القُرآن والسُّنَّة ولم يَرِد عنهم خِلافه فهم قد قالوا به؛ لأنهم يَأخُذون بدَلالة القُرآن التي أُمِروا أن يَأخُذوا بها.

إِذَنْ: نَأخُذ من هذا إجماعَ الصحابة على عُلوِّ الله تعالى، وكذلك التابِعون لهم بإحسان، والأئِمَّة من بعدهم، لم يَأتِ حرفٌ واحِـد عن أحدٍ منهم أنه قال بخِلاف ذلك.

والأدِلَّة العَقْلية على عُلوِّ الله عَزَّوَجَلَّ أن يُقال: العُلوُّ إمَّا صِفة نَقْص أو كَمـال، ولا أَحَدَ يَشُكُّ أنه صِفة كَمال فوجَب ثُبوته لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الربَّ عَزَّوَجَلَّ قد وجَبَت له صِفاتُ الكَمال عَقْلًا.

وأمَّا الفِطرة فإن الناس مَفطورون على أنهم إذا سأَلوا الله تعالى شيئًا إنما تَرتَفِع قلوبهم نحو السماء، وهذا أمرٌ لا يُنكِره أَحَد.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فضيلة رسـول الله ﷺ حيـث كان إنزال هذا القُرآنِ العَظيم عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن القُرآن نزَلَ لَمصلَحة الخَلْق؛ لقوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾، فالقُرآن لم يَنزِل ضِدَّ مَصالِح الخَلْق، بل نزَل لَمصالِح الخَلْق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: عُمـوم رسالة النبيِّ ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ ولم يَقُلْ: (لقَوْمك) مثلًا للناس عمومًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن القُرآن نزَل بالحَقِّ -على وَجهَي التَّفسير اللَّذَيْن سبقَا- وهو أنه هو حقٌّ وآتٍ بالحَقِّ؛ حقٌّ فيما جاء به حيث كانت أَحكامه عَدْلًا، وأَخباره صِدْقًا، وهو نفسه حَقٌّ، ليس بباطِل.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن القُرآن حُجَّة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الناس يَنقَسِمون نحو هذا القُرآنِ إلى مُهتدٍ وضالٍّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الرَّدُّ على الجَبْرية الذين يَقولون: إن الإنسان مُجبَر على عمَله، ووجهُ ذلك: أنه أَضاف الاهتِداء والضَّلال إلى العبد، فدَلَّ هذا على أنه فِعْله الذي اختار.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: شُؤْم المَعاصي، وأنها تَكون على العَبْد لا له.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: برَكة الاهتِداء، وأنه كَسْب للعبد؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: تَسلية النبيِّ ﷺ إذا ضَلَّ مَن ضَلَّ من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ فالله تعالى وحدَه هو الوكيلُ عليهم، أمَّا أنت فأنت مُبلِّغ، فإذا قُمْت بواجِب البَلاغ فالحِساب على الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: الردُّ على مَن تَعلَّقوا بالنبيِّ ﷺ خَوْفًا ورَجاءً ورَغبةً ورَهبةً

حتى صاروا يَدْعونه من دون الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن الداعِيَ المُبلِّغ لشـريعة الله تعالى إذا بلَّغ على الوجه الذي أُمِر به فقد بَرِئَت ذِمَّته ولا يَلزَمه شيءٌ وراءَ ذلك، ووجهُ الدَّلالة منها: أنه إذا كان إمام الداعين المُبلِّغين مُحمَّد ﷺ ليس وَكيلًا على الناس ولا حَفيظًا عليهم فمَن دونَه من بابِ أَوْلى.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٤٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر:٤٢].

قولـه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾: ﴿ ٱللَّهُ ﴾ مُبتَـدَأ، وجُمـلة ﴿يَتَوَفَّى﴾ خبرُه.

والتَّوفِّي بمَعنى القَبْض كما يُقال: تَوفَّى الرجُل حقَّه من قَرينه. أي: قبَضَه منه.

و﴿ٱلْأَنفُسَ﴾ جَمْع نَفْـس، وهي الأَرْواح: الأَرْواح التـي بها تَحيا الأجسـاد، والنَّفْس تُطلَق في القُرآن على مَعانٍ مُتَعـدِّدة؛ منها هذا: أنها الرُّوح التي بها حيـاة الإنسان، فهو يَقبِض الأرواح حين موتها، أي: حيـن الموت، وهي مُفارَقة الروح للحياة مُفارَقة الروح للبدَن المُفارَقة التي تَزول بها الحياة.

وقـوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾: ﴿وَٱلَّتِى﴾ الواو حـرف عَطْـف و(التي) مَعطوفة على ﴿ٱلْأَنفُسَ﴾ يَعنِي: ويَتوفَّى التي لم تَمُتْ، ولك الخِيار في مثل هذا التَّركيبِ أن تَقول: الواو حَرْف عَطْف، و(الَّتِي) صِفة لمَعطوفٍ على ما سبَق، وتَقديرُه: والأنفس التي لم تَمُتْ، ولك أن تَعطِف الصفة رأسًا على ما سبَق فتَقول: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ عطفٌ على الأَنفس حين موتها والتي لم تَمُتْ يَتوفَّاها في مَنامها،

أي: يَقبِضها، لكنه ليس قَبْضًا تامًّا، بل قَبضٌ مُقيَّد.

ولهذا تَجِد النائِمَ له إحساسٌ من وجهٍ، وليس له إحساس من وجهٍ آخَرَ، فباعتِبار القُوَّة الظاهِرة لا إحساسَ له، لا يَرَى ولا يَسمَع، وباعتِبار القوَّة الباطِنة، وأنه لو نُبِّه وانتبَه يَكون حيًّا، فصِلَة الرُّوح بالنائِم غير صِلَتها بالحَيِّ باليَقظان، وغير صِلَتها بالميت، فهي وسَط بين الحيِّ اليَقْظان وبين الميت.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾، وقد سمَّى الله تعالى النـومَ وَفاةً، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام:٦٠].

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، ويَتـوَفَّى ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾] فهو هنا قَدَّر الفِعْل بعد حَرْف العَطْف إشارةً إلى أنه مَعطـوف على ما كان هذا عامِله؛ والذي هذا عامِله هو: ﴿ٱلْأَنفُسَ﴾، ويَتوَفَّى الأَنفُس التي لم تَمُتْ في مَنامها، أي: يَتوفَّاها وقتَ النوم، فيَتبيَّن بهذا أن النومَ وَفاة.

وقوله تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يُمسِك التي قَضَى عليها الموت فلا تَرجِع إلى جسَدها يُمسِكها إلى أن يَأتِيَ البَعْث.

وقوله تعالى: ﴿قَضَىٰ﴾ أي: حـكَم كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، أي: حَكَم ألَّا تَعبُدوا إلَّا إيَّاه؛ والقضاء هنا قَضاءٌ كَوْنيٌّ، وأَقول: قَضاءٌ كونيٌّ؛ لأن قَضاء الله تعالى يَنقَسِم إلى قِسْمَيْن: شَرْعي وكَوْني.

فالشَّرْعيُّ ما أَمَر به مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، ومثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ [غافر:٢٠]، أي: يَحكُم به.

والقَضاء الكَـونيُّ مثـل قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:٤]، فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يَقضِي بالفَساد في الأرض قضاءً شـرعيًّا، إنمـا هو قَضاءٌ كونيٌّ، وهنا يَقول تعالى: ﴿قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾، أي: قضاءً كونِيًّا.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ وهي التي تَوفَّاها في مَنامها يُرسِلها إلى أجلٍ مُسمًّى، أي: إلى أجَلٍ مُعيَّن وهو الموت، يَعنِي: يُرسِلها تَذهَب إلى جسَدها وتَبقَى فيه إلى أجَلٍ مُسمًّى، أي: مُعيَّنٍ مُحدَّد.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وقت مَوْتها] هذا الأجَلُ المُسمَّى، [والمُرسَلة: نفس التَّمييز تَبقَى بدونها نَفْس الحياة، بخِلاف العَكْس]، كأن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إن الأنفس نَوْعان: نَفْس تَمييز، ونَفْس حَياة؛ فنَفْس التَّمييز هي المُرسَلة: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وتَبقَى بدونها الحَياة، فالنائِم في حياةٍ لا شَكَّ، فنَفْس التَّمييز تَبقَى بعدَها الحياة، والعَكْس لا؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بخِلافِ العَكْس]، فإن نَفْس الحياة إذا قُبِضت لا تَبقَى بعدها نَفْس التَّمييـز، فأفادَنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الأَنفـسَ في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أَنفُسُ الحياة ويَتبَعها أنفُس تَمييز، قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أي: أَنفُس التَّمييز.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ يَعنِي: الوفاة للنَّفْسين، والإِرْسال لإحداهما وإِمْساك الأخرى فيه آيات، والآيات التي معَنا واضِحـة جِدًّا، وهي أربعة: وَفاة المـوت، ووفاة النَّوْم، وإمساك المَيْتـة، وإرسال النائِمـة؛ وكلها من آيات الله عَزَّوَجَلَّ، وإنك لتَأتي إلى القوم جماعةً نائِميـن

فتَقول: سُبحان الله ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قوم كأنهم جُثَث لا يَسمَعون، اللهُمَّ إلَّا مَن كان خفيفَ النَّوْم، لكن الأَصْل أنهم في النَّوْم جُثَث فتَقول: سُبحان الذي أَماتَهم، ثُم أَحياهم بعد أن كانوا شِبهَ أموات، فهي آيات، وهي آيةٌ أيضًا على البَعْث، فإن النوم وفاةٌ صُغرى يَبعَث الله تعالى فيه النائِم حتى يَحيا يَستَيْقِظ تمامًا، كذلك الإحياء بعد الموت يَقيه الله عَزَّوَجَلَّ وهو قادِرٌ عليه، والعاقِل يَقيس الغائِب على الشاهِد والمُستَقبَل على الحاضِر ويَتبيَّن له الأَمْر.

وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ التَّفكُّر إِعْمال الفِكْر بحيث يَدور كارًّا وراجِعًا، يمينًا وشِمالًا حتى يَتبيَّن له ما يَتبيَّن بتفكُّر، وضِدُّ التَّفكُّر الغَفْلة، وأن يَكون القَلْب حجَرًا أَملَسَ لا يَقَرُّ عليه شيء، فلو قَرَّ عليه حَبَّةٌ من تُراب أَطارَتْها الرياح وجرَت بها المياهُ، فالإنسان المُتفكِّر هو الذي ليس بغافِل، بل يُدير فِكْره يَمينًا وشِمالًا، ذاهِبًا وراجِعًا حتى يَتبيَّن له الأمر.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المَذكور ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ دَلالات ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيَعلَمون أن القادِر على ذلك قادِرٌ على البَعْث، وقُرَيْشٌ لم يَتفكَّروا في ذلك] نعَمْ، في هذا المَذكورِ آيات، ونحن ذكَرْنا أربَعًا ظاهِرةً، ولو تَأمَّلنا لوجَدْنا أكثَرَ من ذلك بكثير، ولكنها تَحتاج إلى تَفكير وتَدبُّر وتَأمُّل فتَتَّضِح.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيان قوَّة سُلطان الله عَزَّوَجَلَّ وعُمومه؛ تُؤخَذ من كونه يَتصَرَّف هذا التَّصرُّفَ حتى في الأَنفس يَتوَفَّاها جميعًا فيُرسِل هذه ويُمسِك هذه، وهذا دليلٌ على كَمال المِلْك والسُّلْطان.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن المُتوفِّيَ للأنفُس حين موتها هو الله عَزَّوَجَلَّ؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾، وهذا هو الواقِع، وهذا هو ما تَدُلُّ عليه الآية، ولكِنَّ هـذه الدَّلالةَ ربمـا يُعارِضها بعض الآيات في قـوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة:١١]، فنَجِد أنه في آية الزُّمَر أَضاف الوفاة إلى نَفْسه عَزَّوَجَلَّ، وفي آية السَّجْدة إلى مَلَك المَوْت، وفي سورة الأنعام إلى الرسول ﷺ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾؛ فكيف نَجمَع بين هذه الآياتِ؟

فالجَوابُ على ذلك أن نَقول: يَجِب أن نَعلَم قاعِدة مُهِمَّة جِدًّا هو أنه لا يُمكِن أن يَتعارَض دَليلانِ قَطعِيَّان أبدًا، لا من القُرآن ولا من السُّنَّة ولا من العَقْل أبَدًا؛ لأنهما لو تَعارَضا لكان أحدُهما ثابِتًا والآخَرُ مُنتَفيًا، وإذا قُلنا: الآخَرُ مُنتَفٍ زال عنه اسمُ القَطْعيِّ.

وهذه القاعِدةُ تُفيدك في مَسائِلَ كثيرةٍ؛ فمثَلًا لو قال لك قائِل: القرآن يَدُلُّ على كذا، ثُم ثبَـتَ حِسًّا أن الأمر الواقِعَ على خِلاف هذا المَدلولِ، فالأمر الحِسِّيُّ تكذيبه غير مُمكِن، لكن نَقول: إن فَهْمك للقرآن هذا خطأ، فمثَلًا لو قال: ليسَـتِ الأرض كُروية؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:٢٠]، واعتِقاد أنها كُروية يُكذِّب هذه، ودَلالة القُرآن قَطعيَّةُ الثُّبوت، وقَطعيُّ الثُّبوت يَعنِي: ثابِت قَطْعًا لا إشكالَ فيه، والله تعالى يَقول: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، وكُروية الأرض حِسًّا ثابِتة قَطْعًا لا شَكَّ فيه وحِسًّا، فمثَلًا الآنَ لو تَقوم طائِرة من مطار جُدَّةَ مُتَّجِهة نحو الغَـرْب على خَطٍّ مُستَقيم رجَعَـت إلى مَطارها لا يَرُدُّها شيء إذَنْ هي كُرويَّـة لا إشكالَ فيها.

ونَقول الآيـة لَفْظها قَطعيٌّ ثابِـت، لكن دَلالتها على أنها سَطحٌ واحِد ليـس بصحيح وليسـت بصَريحة، وإذا لم تَكُن الدَّلالة صريحة فهي غيـر قَطعية، وحَينئـذٍ نَقول: التَّعارُض الآنَ بين مَدلولٍ ظَنِّيٍّ ومَحسوسٍ قَطعيٍّ، فالمَدلول الظَّنِّيُّ أن الآية تَدُلُّ على أن الأرض سَطحٌ واحِد، والمَحسوس القَطعيُّ أن الأرض كُروية، نَقول: الحَمْد لله تعالى التَّعارُض الآنَ بين ظَنِّيٍّ وقَطْعيٍّ، وإذا تَعارَض ظَنِّيٌّ وقَطْعيٌّ يُقدَّم القَطعيُّ، ونَقول: سَـطْح الأرض باعتِبار القِطعة المُواجِهة أو الجانِـب المُواجِه من الأرض سَطْح، لكن على البُعْد يَكون فيه انحِناءٌ.

والدَّليل على ذلك: أنه لو كانـت سَفينة تَسير في البحر ولها أَعمِدة طويلة إذا أَبعَدَتْ عنك كلَّمـا أَبعَدَتِ اختفَت غابَـت أكثر؛ لأن الأرض مُستَديرة فتَغيـب، ولو كانـت سَطْحًا لكُنتَ تَراها، فتَـراها من بُعْد كمـا تَراها من قُرب على السَّطْح، والأمر ظاهِر ليس فيه إشكال.

والخُلاصةُ الآنَ: أنه لا يُمكِن أن يَتعارَض دَليلانِ قَطْعيَّان في الثُّبوت والدَّلالة، ولا يُمكِن أن يَتعارَض قَطعيٌّ وظَنِّيٌّ؛ ومِثال ذلك: كم يَبقَى الناس في بُطون أُمَّهاتهم؟ الإجابة ستكون: تِسعة أَشهُر؛ فإذا قُلْت: أَعطوني تِسعَ دقائِقَ. فهل يُمكِن؟ لا يُمكِن؛ لأن الظَّنِّيَّ لا يُقاوِم القَطعيَّ، وإذا لم يُقاوِمه سقَط، فلا مُعارَضةَ، فيَبقَى الآنَ التَّعارُض بين الظَّنِّيَّيْن فقط، وإذا وُجِد تَعارُض بين ظَنِّيَّيْن حينئذٍ أَطلُب الترجيح، أو إذا كان النَّسْخ يُمكِن فأَعمَلُ بالنَّسْخ.

وهذه القاعِدةُ ذكَرها شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتابه العظيمِ (درء تَعارُض العقل والنقل)[1]، وهذا الكِتاب أَثنَى عليه ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النُّونية، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٧٤).

وَلَهُ كِتَابُ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ الَّذِي مَا فِي الْوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانِي[1]

يَعنِي: مِمَّا يَرُدُّ به على الفلاسِفة هذا الكتابُ، وقد ذكَر فيه هذه القاعِدةَ المُفيدةَ، وهي أن التَّعارُض بين قَطعيَّيْن مُحال؛ لأنه لو حصَل التَّعارُض لكان أحدُهما غيرَ قطعيٍّ، وهذا لا يُمكِن؛ أمَّا التَّعارُض بين القَطعيِّ والظَّنيِّ فوارِد، لكن بلا مُقاوَمةٍ، يَعنِي: أن نُسقِط التَّعارُض، ونَقول: الحُكْم للقَطْعيِّ، أمَّا التَّعارُض بين الظَّنِّيَّيْن فواقِع، ويَجِب النظَر إليه والعمَل بالترجيح، أو العمَل بالنَّسْخ إذا كان مِمَّا يُمكِن نَسْخه.

وبعد فهذه خُلاصة: الجَمْع بين الوفاة المُضافة إلى الله تعالى والوفاة المُضافة إلى الرُّسُل والمُضافة إلى مَلَك الموت، وكما قُلنا: لا تَعارُضَ، فالدَّلالة تَختَلِف، ففي هذه الآياتُ في سورة الزُّمَر أَضاف الله تعالى الوفاة إليه؛ لأنها بأَمْره، وقد يُضاف الشيء إلى آخَرَ؛ لوقوعه بأَمْره، كما تَقول: بنَى المَلِك قَصرًا. فهلِ المَلِك رأَيْته يَعمَل بأَيديه الأسمنت والرَّمْل ويَقول: (يا ولدُ هاتِ (الزِّنبيلَ)[2]، وهات كذا، وهات كذا)؟ الجَوابُ: لا، ولكنه أَمَرَ، ومنه المَثَل المَشهور في البلاغة: (بنَى عمرُو بن العاصِ مَدينة الفِسطاط) وهي تَقَع في مِصرَ، فهل عمرُو بنُ العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بناها بيَده؟ **الجَوابُ**: لا، بل أمَرَ، إِذَنْ فإضافة الوفاة إلى الله تعالى؛ لأنها بأَمْره إضافة.

وبَقِيَ عندنا الآنَ: إضافتها إلى ملَكِ الموت وإلى الرُّسُل فكيف الجَمْع؟

والجَمْع أن نَقول:

١ - إمَّا أن الرُّسُل يُراد بها الجِنْس ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام:٦١] يَعنِي: ملَك الموت؛

---

(١) النونية (ص٢٣٠).

(٢) وهو ما يُعمل من الخوص وغيره يحمل فيه التمر وغيره.

لأن ملَك الموت رَسولٌ، ومنه الحديث: «يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ»(١).

٢- أو نَقول: إن وفاة ملَك الموت غير وفاة الرُّسُل، وذلك لما جاء في الحديث من أن ملَك الموت يَجلِس إلى المُحتَضَر ويَأمُر رُوحه أن تَخرُج، فيَأخُذها بيَدِه، ثُم يُسلِمها فورًا إلى المَلائِكة الذين نزَلوا من السماء معَهم الحَنوط والكفَن المُناسِب لها إن كانت مُؤمِنة -وأَسأَل الله تعالى أن يَجعَل رُوحي وأَرْواحَكم مُؤمِنة-، فإنها تُجعَل في الكفَن الذي من الجَنَّة والحَنوط الذي من الجَنَّة، وإن كانتِ الأُخرى فكَفَنٌ من نار وحَنوطٌ من نار(٢)، نَعوذ بالله تعالى من ذلك؛ فهذا الكفَنُ والصعود بها إلى السماء تَتولَّاه الملائِكة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦١-٦٢]، تَحمِلها إلى الله عَزَّوَجَلَّ إن كانت مُؤمِنة تَجاوَز بها السمواتِ إلى الله تعالى؛ لأن الله تعالى غاية نَفْس المُؤمِن في الحياة وبعد الممات، والمُؤمِن -قَلْبه ونَفْسه- مُعلَّقٌ بالله عَزَّوَجَلَّ، دائِمًا يَنظُر إلى الله عَزَّوَجَلَّ بعَيْن البَصيرة، إن قام فبالله ولله وفي الله، وإن قعَد فبالله ولله وفي الله، وكذلك إن ذهَب وجاء فهو لله وبالله وفي الله.

والتَّفريق بين هذه الكلِماتِ الثلاثة (فهو لله وبالله وفي الله) سَهْل وهو أن لله أي: لأَجْل الله عَزَّوَجَلَّ، وهو الإخلاص، وبالله يَعني: بعَوْن الله، وهي الاستِعانة، وفي الله أي: في سبيل الله، أي: في شَرْعه وحُكْمه كذا، وانظُرْ إلى الفاتِحة تَضمَّنَتِ الثلاثَ بالتَّسلسُل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فهذا لله إخلاص، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بالله، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ في الله، ففي الشَّرْع أن نَكون في الصِّراط المُستَقيم.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٤٠٨)، من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٧)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن النَّوْم يُسمَّى وفاةً؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ ويَشهَد لذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الوقت يَذهَب سريعًا بالنسبة للأموات ولو طالتِ الأيام والدُّهور؛ لأننا إذا قِسْنا الوفاة الصُّغرى أو إذا نظَرْنا الوفاة الصغرى وسُرْعة ذَهاب الوقت فيها فالوَفاة الكبرى من بابِ أَوْلى، ولكن لا شَكَّ أن مَن كان يُعذَّب في قَبْره فسوف يَستَطيل الوقت، ومَن كان يُنعَّم فسوف يَكون الوقت في حقِّه قَصيرًا، ومع ذلك فإن المُنعَّم يَقول: ربِّ أَقِمِ الساعة، ربِّ أَقِمِ الساعة حتى أَرجِع إلى أهلي ومالي. والمُعذَّب يَقول: ربِّ لا تُقِمِ الساعةَ، وذلك لأنه يَرَى عذاب القبر أَهونَ من عذاب يوم القيامة، نَسأَل الله تعالى العافيةَ!.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن النائِم لا يُؤاخَذ بعمله، لا له ولا عليه؛ لأن الله تعالى سمَّى النَّوْم وفاةً، وقد قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ»(١). وعلى هذا فلو رأَى النائِمُ أنه يُصلِّي فهل يُكتَب له أجر الصلاة؟ لا، ولو رأَى أنه يَقتُل لم يُكتَب عليه إِثْم القَتْل؛ لأنه غير مُكلَّف.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات وصف الله تعالى بالإمساك والإرسال فهو يُمسِك ويُرسِل.

وقد بيَّنَّا فيما سبَق أن صِفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ تَنقَسِم أقسامًا:

أحدُها: ما عُلِم من أسمائه كالمَغفِرة من الغَفور، والرَّحمة من الرَّحيم.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والثَّاني: ما نصَّ عليه بذاتِه وليسَ مِن الأسماءِ مِثل الاستِواء على العَرْش، فهذا نصَّ عليه، لكنه ليس من أسمائه، بل صِفَة، إذْ إنه ليس من أسمـائه ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، ومِثْله الصُّنْع كما في قوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]، ومثله الفِعْل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] وما أَشبَهها.

الثالِث: ما يُخبَر به عنه، وإن لم يُذكَر في الكِتاب والسُّنَّة، لكن يُخبَر به عنه، فهذا أيضًا يَقول العلماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: يَنقَسِم إلى قِسْمين:

قِسْمٌ لا يَليق بالله تعالى فهذا لا يَجوز الخبَر به عنه.

وقِسْمٌ لا يُنافي كماله، فهذا لا بأسَ به؛ لأن باب الخبَر أَوْسَع من باب الإِنْشاء.

فمثَلًا: **لو قال قائِل**: إن الله تعالى مُريد.

قُلْنا: نعَمْ لك أن تَصِف الله تعالى به:

أوَّلًا: لأن الله تعالى وصَف نَفْسه بالإرادة في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ [يس:٨٢].

وثانيًا: أن الإرادة وَصْف لا يُنافي كمالُه كمالَ الله عَزَّوَجَلَّ.

فائِدة: العَجيب أن أكثَرَ ما يَستَنصِر به بعض الناس كلِمة (الله مَوْجود)، فإذا اعتَدى عليه أحَدٌ قال: الله مَوجود. ومثلها قولهم: (يا ساتِرُ)، و(الله مَوْجود)، فهذا ممَّا لا يُنصَر، لكن قولنا: (اللهُ حكَم عَدْل) هذا هو الذي يُنصَر، وإلَّا مثلًا لو قلتَ: السُّلْطان موجود. فهل يَنصُرُك؟

الجَوابُ: أنه قد يَنصُرك وقد لا يَنصُرك، فكلِمة مَوْجود لا تَعنِي النَّصر؛ ولذلك نحن نَقول لبعض الناس: انتَبِهْ لهذه الكلِمةِ لا تَقُلِ: (الله مَوْجود) قلِ: (الله حكَمٌ

عَدْل)، (الله غير غافِلٍ عمَّا تَعمَل)، (اللهُ يَنتَقِم من الظالِم)، وما أَشبَه ذلك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: كمال أَفعال الله تعالى حيث إنها تَكون مُنتَظِمة مُحدَّدة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنه لا يُمكِن أن يُخلَّد أحَدٌ في الدنيا، وهذه تُؤخَـذ من قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مُحدَّد لا إلى شيء لا غايةَ له.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن هذا الحاصِلَ من الوفاتين فيه آياتٌ تَدُلُّ على كَمال الله تعالى كمال وَحْدانِيَّته، وكمال سُلطانه، وكَمال تَدبيره؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الحَـثُّ على التَّفكُّر، وأنه مِفتاح العِلْم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ﴾ لمَن؟ الجَوابُ: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

والتَّفكُّر إنما يَكون في آياتِ الله تعالى ومَعاني أسمـائه وصِفاته، أمَّا في حقيقة الصِّفات أو في حقيقة الذات فلا تَتفكَّر؛ ولهذا يُروَى: «**تَفَكَّروا في آلاءِ اللهِ**» أي: نِعَمِه «**وَلَا تَتفكَّروا في ذاتِهِ**»[1]، وذلك لأن التَّفكُّر في ذات الله تعالى يُؤدِّي إلى غَياهِبَ من الظُّلْم، ويُؤدِّي أحيانًا إلى التَّشكيك، وأحيانًا إلى التَّعطيل، وهذا هو الذي ضَرَّ أهل التَّعطيل -أَعنِي: التَّفكُّر في الذات-؛ لأن الذات لا يُمكِن الإحاطة بها، وما لا يُمكِن الإحاطة به فالتَّفكير فيه مَضيَعة للوقت، وهو في جانِب الربوبية خَطير على عقيدة الإنسان، فأنت تُفكِّر في آيات الله تعالى، وفي أسمائه، وفي صِفاته من حيث المَعنَى،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٧/ ٢٢١٩)، وأبو الشيخ في العظمة رقم (١)، والطبراني في الأوسط رقم (٦٣١٩)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة رقم (٩٢٧)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (١١٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أمَّا في نَفْس الذات العَليَّة فلا تَستَطيع أن تُفكِّر ولا ماذا تَتَصوَّر؛ ولهذا يَجِب الإعراض عن هذه المَسأَلةِ.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الزمر:٤٣].

ثُمَّ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾: ﴿ أَمِ ﴾ هنا مُنقَطِعة؛ ولهذا تُقدَّر بـ(بل) والهَمْزة أي: أنها بمَعنَى: (بل) والهَمْزة.

وقولنا: (مُنقَطِعة) يُفيد أن هناك مُقابِلًا لهذا المَعنَى وهو كذلك، والمُقابِل لهذا المَعنَى أن تكون مُتَّصِلة، وحينئذٍ نَحتاج إلى الفَرْق بين المُنقَطِعة والمُتَّصِلة، والفرق بينهما من وجهين:

الفَرْق الأوَّل: أن (أَم) المُنقَطِعة لا مُعادِلَ فيها، بمعنَى أنه لا يُذكَر فيها مُعادِل، بخِلاف (أَم) المُتَّصِلة فإنها تَحتاج إلى مُعادِل، فقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة:٦]، هذه مُتَّصِلة لِذِكْر المُعادِل ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾، وأمَّا قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الطور:٣٣]، فهذه مُنقَطِعة؛ لأنها بمَعنَى: بل أيقولون؛ لأنه لم يُذكَر فيها المُعادِل فتكون مُنقَطِعة.

الفَرْق الثاني بينهما: أن (أَم) المُتَّصِلة بمَعنى (أَوْ)، و(أَم) المُنقَطِعة بمَعنَى (بل) والهَمزة ففي قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ لو جعَل بعدَها (أَوْ)

لكان المَعنَى: أَنذَرْتهم أو لم تُنذِرْهم، فالمُنقَطِعة أي: بمَعنَى (بل) والهَمزة، وليسَتْ بمعنى (أو).

ونُطبِّق هذا الفَرْقَ على ما معَنا ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ تكون مُنقَطِعة؛ أوَّلًا: لأنه لم يُذكَر المُعادِل. وثانيًا: لأنها تُقدَّر بـ(بل) والهمزة، فقوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: سِواه، (دون) بمَعنَى (سِوى)؛ لا بمَعنَى دون الرُّتبة، بل (مِن دون الله) أي: (مِن سِوى الله).

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ هنا تَنصِب مَفعولين: الأوَّل: ﴿شُفَعَآءَ﴾، والثاني: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يَعنِي: اتَّخَذوا من دون الله تعالى آلهةً شُفَعاءَ، ويَجوز أن نَقول: إن المَفعول الأوَّلَ مَحذوف تَقديرُه: آلهة، والثاني: ﴿شُفَعَآءَ﴾، يَعنِي: أنهم اتَّخَذوا مَعبوداتٍ يَعبُدونها يَدَّعون أنها شُفعاءُ لهم عند الله تعالى، قال الله تعالى عنهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، فصرَّحوا بأنهم يَعبُدون هذه الآلهةَ، ولكنهم يُريدون أن تَكون مُقرِّبةً لهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وسُبحان الله! كيفَ تَتَّخِذ بمَن عصَيْت اللهَ فيهم وَسيلةً ليُقرِّبوك إلى الله! وهذا من سَفَههم؛ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: الأصنام آلِهة ﴿شُفَعَآءَ﴾ عند الله بزَعْمهم]، والشُّفَعاء جَمْع شَفيع، والشَّفيع مَن يَتوسَّط لغيره بجَلْب مَنفَعة أو دَفْع مَضرَّة، فالشَّفاعة لأهل المَوقِف إذا أَصابَهم الهمُّ والغَمُّ أن يَقضِيَ الله تعالى بينهم من باب دَفْع المَضرَّة، والشفاعة لأهل الجَنَّة أن يَدخُلوها من باب جَلْب المَنفَعة.

فالشفاعة هي أن تَتَوسَّط لغيرك بجَلْب مَنفعة أو دَفْع مَضرَّة، وهي لا شَكَّ أنها خيـر، قال تَعالى: ﴿ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنۡهَا﴾ [النساء:٨٥] إلَّا في بعض المَواطِن كالشفاعة في الحَدِّ بعد أن يَصِل إلى السُّلْطان، فإن مَن حالت شفاعته

دون حَدٍّ من حُدود الله فقد ضادَّ الله تعالى في أَمْره، وإذا بلَغتِ الحُدود السُّلْطان فلَعَن الله تعالى الشافِعَ والمُشفوع له، هؤلاء الجماعة الذين يَعبُدون الأصنام يَقولون: إنها شُفَعاءُ.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يَعنِي: أَتَتَّخِذونهم شُفَعاءَ، وهم لا يَملِكون شيئًا لا شفاعةً ولا غير شفاعة، وهنا قال تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ و(شيئًا) نَكِرة في سِياق النفيِ، فتكون للعُموم، وكان مُقتَضى السِّياق أن يَقول: أَوَلَوْ كانوا لا يَملِكون الشفاعة، ولكنه أَتَى بالعُموم ليَدُلَّ على أن هذه الأصنامَ لا تُفيد شيئًا أبَدًا لا تَشفَع ولا تَدفَع، وهي قد سُلِبت الشفاعة لدُخولها في العُموم، يَعنِي: لا يَملِكون الشفاعة ولا غيرها.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟﴾ فيها حَرْف عطفٍ بعد الهَمزة وقد ذكَرْنا مِرارًا ما يَقوله عُلماءُ النَّحو رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في مثل هذا التركيبِ وهو أنه إذا جاء حرف العَطْف بعد همزة الاستِفْهام يَقول علماءُ النَّحو رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: في إعرابه وَجْهان:

الوَجْه الأوَّلُ: أن تكون الجُمْلة مَعطوفة، يَعنِي: الواو عاطِفة على الجُملة وتكون مُقدَّرة.

الوجه الثاني: أو تكون الهَمْزة في مَكانها، وحَرف العَطْف على شيء مُقدَّر يُناسِب المَقام.

وذكَرْنا أن الثانيَ رَأْي البَصْريِّين، والأوَّل رأيُ الكوفيين، وذكَرْنا أن القول بأن حَرْف العَطْف عاطِفٌ على ما سبَق أَوْلى؛ لأنه يَكفيك التَّقديرَ؛ ولأنه أحيانًا لا يَستَطيع الإنسان أن يُقدِّر الشيء المُناسِب، فإذا قال: الهَمزة حَرْف عَطْف، الهَمْزة للاستِفهام، والواو حَرْف عَطْف وما بعدها مَعطوفٌ على ما سبَق استَراح.

فقوله هنا: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ على رأيِ مَن يَرَى أن حرف العَطْف على مُقدَّر يقول: أيَتَّخِذونهم شُفَعاءَ ولو كانوا لا يَملكون؛ وعلى الرأيِ الثاني يَقول: الواو حَرْف عَطْف والمعطوف عليه ما سبَق من الجُملة ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يَعنِي: لا يَعقِلون أنكم تَعبُدونها، فالأصنام أَحجار لا تَدرِي، ولا يَعقِلون أيضًا شيئًا من الشفاعة يَدخُلون منه، فهُمْ جهَلة في حالِكم، وجهَلة فيما تَستَحِقُّون.

فقوله الله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ أَمِ﴾ بل] لكنَّنا لا نَقرَؤُها: (أَتَّخَذُوا) بهَمْزة القَطْع؛ لأن القرآن ليستِ الهَمزة فيه هَمْزة قَطْع، لكن لو كان التَّرْكيب في غيرِ القُرآن لقُلْنا: (بلِ اتَّخَذوا من دونه)، وإذا قُلنا: (أَتَّخَذوا) سيَسأَل سائِل: أين ذهَبَت هَمْزة الوَصْل في (اتَّخَذوا)؟ فنَقول: لأنه لَمَّا دخَلَت هَمْزة القَطْع على الفِعْل استَغْنَيْنا بها عن هَمْزة الوَصْل؛ لأن هَمزة الوَصْل إنما يُؤتَى بها لسُهولة البَدْء بالساكِن، فإذا لم نَبدَأ به وبدَأْنا بهَمْزة قَطْع استَغْنَيْنا عنها وحذَفناها، قال تعالى: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ [الصافات:١٥٣]، فكلِمة: ﴿ أَصْطَفَى﴾ هذه أَصلُها: (اصطَفَى) دخَلت عليها الهَمزة، فلمَّا دخَلَت عليها الهَمزة صِرْنا في غِنًى عن همزة الوَصْل؛ لأن همزة الوَصْل يُؤتَى بها للضَّرورة؛ ولهذا سُمِّيَت: همزة وَصْل يُؤتَى بها للضرورة؛ لئلا نَبتَدِئ بالساكن، فإذا زالَتْ هذه الضرورةُ سقَطَتْ.

ثُم قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: الأصنامَ آلِهةً ﴿شُفَعَآءَ﴾ عند الله بزَعْمهم] يَعنِي: هم صَيَّروا هذه الأصنامَ آلِهة تَشفَع لهم عند الله تعالى.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بزَعْمهم] يَعنِي: لا بحسَب الواقِع؛ لأن هذه الأصنامَ لا تَشفَع لهم، بل إنه في يوم القِيامة يَكفُر مَنِ اتَّخَذ إلهًا مع الله تعالى بعِبادة مَن عبَده،

وهذا كلام صحيح نَأْخُذه من قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦]، وكذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، بل حتى الذين اتَّخذوا غير الرُّسُل اتَّخذوهم مَتبوعين من أهل الضَّلال يَتبرَّؤُون منهم ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة:١٦٦].

فانظُرْ في القُرآن كُفْر مَن جعَلوا شُرَكاءَ في الرِّسالة، وكُفْر مَن جعَلوا شُرَكاء في العِبادة، لأن كلًّا منهم لم يُحقِّق شهادة أن لا إلهَ إلَّا الله، وأن محمدًا رسول الله، فالذين اتَّخذوا شُرَكاءَ في العبادة قال الله عنهم: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٦]، والذين اتَّخذوا شُرَكاءَ في الرسالة قال الله تعالى عنهم: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾؛ لأن المُتابَعة لغير الرُّسُل والمُعارَضة لأقوال الرُّسُل شِرْك مع الرُّسُل في الرسالة؛ لأن الذي يَجِب اتِّباعه من البَشَر هُمُ الرُّسُل، فإذا جعَل هذا الرجُلُ مَتبوعه بمَنزِلة الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيأخُذ بقوله فِعْلًا وتَرْكًا وتَصديقًا، فقد جعَله رَسولًا.

ولهذا بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يَقول: إن التوحيد نوعان: تَوْحيد عِبادة، وتَوْحيد رِسالة؛ فتَوْحيد عِبادة فيما يَتعلَّق بحقِّ الله تعالى، وتَوْحيد رِسالة فيما يَتعلَّق بحقِّ الرسول ﷺ، والله تعالى يَقرُن بين هذا وهذا في القُرآن، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٨-٦٩].

فالحاصِلُ: أن هؤلاء الذين اتَّخذوا شُفعاءَ قد ضَلُّوا ضلالًا مُبينًا؛ لأنها لا تَنفَعهم، قال الله تعالى لنبيِّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا

وَلَا يَعْقِلُونَ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيَشْفَعون ولو كانوا] المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشَى في هذا التَّفسيرِ على أحَد الرَّأْيَيْن المَشهورَيْن فيما إذا دخَلَت همزة الاستِفهام على حَرْف العَطْف، وهُما وَجْهان:

الوجهُ الأوَّل: أن يَكون العَطْف على ما سبَقَ، وعلى هذا يَكون تَقديرُ الهمزة بعد حَرْف العَطْف.

والوجه الثاني: أن العَطْف على جُمْلة مُقدَّرة يَكون تَقديرُها حسَب السِّياق.

والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشَى على الثاني؛ لأنه قَدَّر المعطوف عليه بين الهَمْزة وحَرْف العَطْف [أَيَشْفَعون ولو كانوا لا يَملِكون شيئًا ولا يَعقِلون] فلا يَملِكون شيئًا من الشَّفاعة وغيرها، ولا يَعقِلون أنكم تَعبُدونهم ولا غير ذلك؟

والجَوابُ: لا، فهذه لا تَشفَع؛ لأنها لا تَعقِل، ولا تَملِك فهي لا تَعقِل عِبادة مَن عبَدها، ولا تَملِك له شيئًا لا شَفاعةَ ولا غيرَها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الإنكار على مَن عبَد الأصنام واتَّخَذها شُفَعاءَ، ونَأْخُذ الإنكار من الهَمْزة التي تَضمَّنَتها، أم لأن (أَمْ) بمَعنَى (بَلْ) والهَمزة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الخَطأ الفَظيع في هؤلاءِ المُشرِكين حيث عبَدوا الأصنام وظَنُّوها شُفَعاءَ مع أنها لا تَزيدهم من الله تعالى إلَّا بُعدًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إقامة الحُجَّة العَقْلية في مُجادَلة الخَصْم وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾، فإذا كانوا لا يَملِكون شيئًا فكيف تَتَّخِذونهم شُفَعاءَ وتَعبُدونهم من دون الله تعالى.

واعلَمْ أن الأدِلَّة العَقْلية نَحتاج إليها حاجةً ماسَّةً إذا ضعُف الإيمـان، فكلَّما ضعُف الإيمان احتَجْنا إلى الأدِلَّة العَقْلية، وذلك لأن المُؤمِن يَكفيه النَّقْل، أي: يَكفيه السَّمْع، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]، واحتَجَّتْ عائِشةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا على التي سألَتْها: ما بالُ الحائِض تَقضِي الصـوم ولا تَقضِي الصلاة؟ فقالـت: كان يُصيبنا ذلك فنُـؤمَر بقَضاء الصَّوْم، ولا نُؤمَر بقَضاء الصلاة[1].

فإذا قوِيَ الإيمان كفَى الاستِدْلالُ بالسُّنَّة والقِرآن، وإذا ضعُف الإيمان فلا بُدَّ من استِعْمال الدليل العَقْليِّ المُقنِع؛ ولهذا نَجِد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الكِتاب العَزيز يَحتَجُّ كثيرًا بالأمـور العَقْلية الحِسِّيَّة على المعاني التي يُريد عَزَّوَجَلَّ تَقريرها وإثباتها، كإحياء المَوْتى، وما أَشبَه ذلك، ونحن الآنَ في زمَنٍ الإيمانُ فيه ضعيف، والجَدَل فيه كثيـر، فنَحتاج إلى فَهْم الأدِلَّة العَقلية حتى نَتَمكَّن من إقناع خُصومنا.

ومَعلومٌ الآنَ: أن كثيرًا من الناس لو أُتِيَ بكل آية ما تَبِعها، فإذا أُتي بدليلٍ عَقليٍّ اقتَنَع به! هذا واحِد؛ وتَعلَمون أيضًا: أن أعداء الإسلام والمُسلِمين يَتَحيَّنون الفُرَص في إدحاض حُجَج المُسلِمين، فتَجِدهم في كل مَجلِس يَتكلَّمون في أشياءَ يُشبِّهون بها على الشَّباب المُسلِم، فإذا لم يَكُن لدى الإنسان حُجَّة عَقْلية تَدحَض حُجَّته، فإنه ربما يَنقطِع ويَظهَر ذلك الخَصمُ الألَدُّ عليه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة:٢٠٤].

فأنا أَحُثُّكم على أن تَتَّخِذوا من الأدِلَّة العَقْلية ما يُنجيكم من خَصْمِ أُولئك

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥).

الألِدَّاء حتى تَخصِموهم وتُحاجُّوهم وتَغلِبوهم بالحُجَّة.

وهذا هو إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حاجَّ قَوْمه بالعَقْل، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ فأَفَل الكوكب وغابَ ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ أي: لا أُحِبُّ إلهًا يَغيب عنِّي، ولا يَعلَم بحالي ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أَقام الحُجَّة على ضَلال من عبَد الكواكِب ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٧٦-٧٨]، وكذلك احتَجَّ على الذي: ﴿حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨] إلى آخِر الآية، إلى غير ذلك.

فنحن في حاجة اليومَ إلى إعمال عُقولنا في الأدِلَّة العَقلية حتى نَحتَجَّ بها على مَن ضعُف إيمانه بالأدِلَّة السَّمْعية، أو على مَن فَقَد إيمانه بالأدِلَّة السَّمْعية.

مَسأَلة: بعض الناس يَعتَمِد على العَقْل في قَبول النُّصوص، يَعني: ما وافَق العَقْل قبِلوه وما لا فلا، نحن لا نُريد هذا؛ لأن كل عقلٍ يُخالِف النصَّ فليس بعَقْل، والذي دمَّر هؤلاء وقوَّض عُقولهم أنهم صاروا يَعتَمِدون على العَقْل قبل أن يَنظُروا في النُّصوص، ولو أنهم نظَروا في النُّصوص أوَّلًا، ثُم أَجرَوْها على العَقْل لعلِموا عِلْم اليَقين أن النَّقْل مُوافِقٌ للعَقْل.

فإن العَقْل في أمر الغَيبيَّات يَنبَغي ألَّا يُرجَع إليه؛ ولذلك نحن نَقول لهؤلاء الذين يَرجِعون إلى العَقْل في الأمور الغَيبيَّة نَقول: أنتُمُ الآنَ جانَبْتمُ العَقْل، إذِ العَقْل لا يُمكِن أن يَتحَدَّث عن شيء غائبٍ عنه أبدًا، فلو قال لك إنسان: تَحدَّث عمَّا وراء

الجِدار. فهل يُمكِن عقلًا أن تَتَحدَّث عنه؟! ولو تَحدَّثت عنه لكنتَ مُخرِّفًا، فهؤلاء الذين رجَعوا للعَقْل هم رجَعوا إلى الهوى في الحقيقة، فهو هوًى وليس بعَقْل، لكن صحيحٌ أنه عَقْلٌ؛ لأنه عَقَلَهُم عن إصابةِ الصواب وإلَّا فليس بعَقْلٍ.

ونحن حينما نَقول: احرِصوا على الأدِلَّة العَقليَّة. لا نقول: عَقْل هؤلاء؛ لأن كل حُجَّةٍ يُورِدها هؤلاء فليست بحُجَّة، ولكنها شُبْهة، والذي يُزيلها هو العَقْل الصريح مع النَّقْل الصحيح.

ثُمَّ إن بعض الأدِلَّة العَقْلية لا شكَّ أنها قد تَخفَى على بعض الناس، ولكن الإنسان إذا تَأمَّل في دَلالة القرآن وجَدَ فيها كثيرًا من الأدِلَّة العَقلية، مثل مُحاجَّة إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه، ومثل مُحاجَّة الله عَزَّوَجَلَّ عن الرسول ﷺ في آخِر سورة الطور، هذه كلُّها أدِلَّة عَقلية، وكذلك النظَر والتَّأمُّل في الكون والمخلوقات يَدلُّك على هذا، وكذلك في الطُّرُق الحِسابية تَهتَدي بها كثيرًا بالعقل، كأَنْ نَعرِف نِصْف الاثنَيْن واحِد، وضِعْف الواحِد اثنان، فيُمكِن أن تَهتَديَ بمِثْل هذه الطرُقِ إلى الأدِلَّة العَقلية.

وعلى كل حال: الأدِلَّة العَقلية في الحَقيقة هي أوَّلًا غَريزة من الله عَزَّوَجَلَّ يَجعَلها في قَلْب المَرْء، ثُمَّ اكتِساب ثانيًا بالتَّمرُّن على مُطالَعة الكُتُب، تَبحَث في هذا ككُتُب شيخ الإسلام ابنِ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فتَستَفيد فائِدة كبيرة.

ولا يَخفَى أن الأدِلَّة العَقْلية يَعنِي: الأدِلَّة الحِسِّيَّة؛ لأن الأدِلَّة الحِسِّية طريقٌ إلى الأدِلَّة العَقلية، والأدِلَّة العَقلية قِسمان: أدِلَّة نَظرية، وأدِلَّة حِسِّية، وهي أقوى من الأدِلَّة النَّظرية.

فالأدِلَّة الحِسِّية مثَلًا: حُدوث العالَم؛ بماذا نَعرِف أنه حادِث؟ بتَغيُّره من حالٍ إلى حالٍ، ومن شَخْصٍ إلى آخَرَ، فهذا يَموت، وهذا يَحيا، وما أَشبَه ذلك، ونَستَدِلُّ

أيضًا في حُدوث العالَم بأنه ما من شيء مَوْجود إلَّا وهو إمَّا حادِثٌ بنَفْسه، أو مُحدِثه غيره، أو حادِث صُدْفةً هكذا، وكل هذه الثلاثةِ مُمتَنِعة إلَّا واحِد، وهو: أنه أَحدَثه غيره.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الأصنام لا تَمْلِك شيئًا لعابديها لا جَلبَ نَفْع ولا دفعَ ضَرَر.

فإن قال قائل: إن من الناس مَن يَدعو الصنَم فيُستَجاب له كما نَسمَع عن ذلك كثيرًا؟

فالجَوابُ: أن كلام الله تعالى حقٌّ وصِدق مُطابِقٌ للواقِع تمامًا، وقد بيَّن الله تعالى في آية أُخرى أنه لا أحَدَ أضَلُّ عَقلًا ولا أَسفَهُ طريقًا ﴿وَمَنْ يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥ ٨]. لكن ما حصَل من مثل هذه الأُمورِ من كون الرجُل دعا وَليًّا أو صاحِب قَبْر أو ما أَشبَه ذلك فزال عنه ضُرُّه فإنما هو امتِحانٌ من الله عَزَّوَجَلَّ حصَل عند الشيء لا بالشيء، فمثَلًا: لو أن رجُلًا دعا قَبْرًا وكشَف عنه الضُّرَّ هل نَقول: إن صاحِب القَبْر هو الذي كشَفه؟ لا أبدًا، بل نَجزِم -مثل الشمس- أن صاحِب القبر لم يَنفَعْه، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ ابتَلى عابدَ هذا القبرِ بأَنْ حصَل الشيء عنده لا به، وفَرْق بين الشيء الذي يَحصُل بالشيء والشيء الذي يَحصُل عند الشيء.

والله عَزَّوَجَلَّ قد يَبتَلي الإنسان بمِثْل هذا فيُيسِّر الله تعالى له أسباب المَعْصية والشِّرْك ابتِلاءً وامتِحانًا، أرأَيْتم أصحاب الرسول ﷺ حين حَرَّم الله تعالى عليهمُ الصيد في حال الإحرام، فابتَلاهمُ الله تعالى بصيدٍ تَناله أيديهم ورِماحهم، الطائر يَناله الرُّمْح، والساعي العادي تَناله الأَيْدي، يَعني: الظِّباء والأرانب وما أَشبَهَها يُمسِكونه

بأيديهم، والطيور برِماحهم لا بسِهامهم فكانوا لا يَحتاجون إلى سِهام، فابتَلاهمُ الله بذلك؛ ليَعلَم مَن يَخافُه بالغَيْب، وعلى هذا فقد يَبتَلي الله تعالى العبد بتَيْسير أسباب المَعصية له حتى يَعلَم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هل يَصبِر أو يُقدِم؛ لأن بعض الناس قد يُخفِّف عليه تَرْكُ المعصية صعوبتها عليه، فبعض الناس يَترُك المَعصية لأنها صَعْبة عليه تَحتاج إلى عمَل، أو تَحتاج إلى مال، لكن إذا سهُلت ثُمَّ ترَكها علِمَ أن الرجُل صادِق في إيمانه.

إِذَنْ: فهِمْنا الجوابَ على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أن ما وقَعَ ممَّا يُظَنُّ أنه بسبَب هذه الآلهةِ فقد حصَل عندها لا بها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: انتِفاء العَقْل عن هذه المَعبوداتِ، وهذا فيمَن يَعبُد مَن لا عَقلَ له كالأصنام والأشجار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

وعليه إذا قيَّدْنا المسألة بمَن يَعبُد الأصنام والأشجار وما أَشبَهَها لا يَرِد علينا أن قومًا عبَدوا المسيحَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والمَسيح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من أَكمَل الناس عَقْلًا لأنه أحَدُ أُولي العَزْم من الرُّسُل، بأن نَقول: يُريد الله تعالى بهذا الأصنامِ الجَماد التي لا تَعقِل.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر:٤٤].

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾: ﴿قُل﴾ الخِطاب للرسول ﷺ، أو لكل مَن يَتأتَّى خِطابه ويَصِحُّ، وهذا الأخيرُ أعَمُّ من الأوَّل؛ لأنه يَشمَل النبيَّ ﷺ وغيره؛ فقوله تعالى: ﴿قُل﴾ أيها المُخاطَبُ -الأهل للخِطاب-: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾، ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ جُملة خبَرية تُفيد الحَصْر، وطريقه أن الخبَر تَقدَّم وحقُّه التأخيرُ، وكل تَقديمٍ لما حَقُّه التأخير يُفيد الحَصْر، والمَعنَى: لله الشَّفاعة لا لغيرِه فهو الذي يَملِكها، واللَّام في قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ﴾ للمِلْك يَعنِي: هو الذي يَملِك الشفاعة، أي: يَملِك أن يَأذَن فيها.

وقد بيَّنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن للشَّفاعة ثلاثةَ شُروط:

الشَّرْط الأوَّل: إِذْنه؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

الشَّرْط الثاني: رِضاه عن الشافِع؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨].

الشَّرْط الثالِث: رِضاه عن المَشفوع له؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]،

وهذه تكون أيضًا دليلًا على أنه يُشترَط رِضا الله تعالى عن الشافِع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

والآنَ لو أَقول: يا رسولَ الله، اشفَعْ لي عند الله. هل يَجوز؟

والجَوابُ: لا يَجوز؛ لأنه لا يَملِك ذلك، فهو لا يَشفَع لا لك ولا لغَيْرك إلَّا بإِذْن الله تعالى، ومن ذلك ما يَفعَله بعض الإخوان المُجاهِدين يَقول الواحِد منهم للثاني: اشفَعْ لي عند الله؛ لأن المُجاهِد له شفاعة إذا قُتِل شهيدًا، فتَجِد بعض أقاربه أو بعض أصحابه يَقول: اشفَعْ لي عِند الله! وهذا لا يَجوز؛ لأنه سأَله ما لا يَملِكه، فإنه إذا قال: اشفَعْ لي! نَقول: الشفاعة لمَن؟ الجَوابُ: لله تعالى، إِذَنْ قُلْ له: اللهُمَّ شفِّعْه فيَّ. ولا بأسَ في ذلك، فيَنبَغي عليك أن تَحرِص على الشفاعة ممَّن يَملِك الشفاعة، أمَّا ممَّن لا يَملِك لا تَصِحَّ، فهذا سُؤالٌ في غير محَلِّه، فالشَّفاعة إذَنْ: لله، وإذا كانت لله فلا تَسأَل إلَّا الله.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ كلمة ﴿جَمِيعًا﴾ إعرابها حال من الشَّفاعة، لكن ما مَعنَى الجَمْع هنا؟ وهل الشَّفاعة مُتعدِّدة؟

الجَوابُ: نعَم، الشفاعة مُتعدِّدة؛ شفاعة في الدنيا، وشفاعة في الآخِرة، وشفاعة في جَلْب نَفْع، وشفاعة في دَفْع ضرَر، فلا شَفاعةَ إلَّا لله عَزَّوَجَلَّ، فوَكْل الشفاعات تَكون لله تعالى، وهناك شَفاعة في الدنيا كأَنْ يَدعوَ الإنسان لشَخْص إذا دعا الإنسان لشَخْص فهذه شَفاعة قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ**»[1]، فدُعاء الإنسان

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه، رقم (٩٤٨)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

لأَخيه شفاعةٌ له عند الله تعالى، وهذه هي الشفاعة في الدُّنيا، والشفاعة في الآخِرة مَعروفة وهي الشَّفاعة العُظمى، وهذه لرسول الله ﷺ ولا تَكون لأَحَدٍ سِواهُ.

فما هي الشَّفاعة العُظمى؟

الجَوابُ: هي أن الناس في ذلك المَحشَرِ؛ كما جاء في النُّصوص: حُفاة عُراة غُرل شاخِصةٌ أبصارهم أَفئِدتُهم هواءٌ، الشمس تَدنو منهم قَدْر مِيل، والعرَق يُلجِم بعضهم، لا يَلوِي أحَدٌ على أحَد، ولا يَستَغيث أحَدٌ بأَحَد، قال الله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، فيَلحَقهم من الهَمِّ والكَرْب ما لا يُطيقون، فيَقول بعضُهم لبعض: انظُروا مَن يَشفَع لنا عند الله تعالى لنَستَريح من هذا المَوقِفِ راحة، فيَذهَبون إلى آدَمَ، ثُمَّ إلى نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثُم إلى إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثُمَّ إلى مُوسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثُمَّ إلى عِيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ولا يَحصُلون على شيء، ثُمَّ يَأتون إلى مُحَمَّدٍ ﷺ يَطلُبون منه الشفاعة فلا يَشفَع، فيَستَأذِن من الله تعالى أوَّلًا؛ لأن الملك عظيم والسُّلطان تامٌّ، فيَسأَل الله تعالى أن يَأذَن له بالشَّفاعة، فيَأذَن له، ثُمَّ يَسجُد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تحت العَرْش سُجودًا طويلًا طويلًا طويلًا؛ يَفتَح الله تعالى عليه فيه من المَحامِد ما لم يَكُن يَعرِفه من قبلُ، ثُمَّ يَشفَع إلى الله تعالى أن يَقضِيَ بين الخَلْق ويُريحَهم من هذا المَوْقفِ، فيَقبَل الله تعالى شَفاعته[1].

وهذه الشَّفاعةُ تُسمَّى الشفاعة العُظمي؛ لعُمومها وشِدَّة الحاجة إليها، ولا تَكون إلَّا للرسول ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]، وسُمِّيَت كذلك؛ لأن هذا المَقامَ يَحمَده فيه الأوَّلون والآخِرون الذين

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾، رقم (٤٧١٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

من أُمَّته والذين من غير أُمَّته، وفي هذا اليومِ شَفاعة فيمَن دخَل النار أن يَخرُج منها، وفيمَن استَحَقَّها أن لا يَدخُلها.

وهذه الشفاعةُ نَوعان: شَفاعة فيمَن دخَلها أن يَخرُج منها، وفيمَنِ استَحَقَّها أن لا يَدخُلها، وهذه عامَّة للرُّسُل، والصِّدِّيقين، والشُّهَداء، والصالِحين، والمَلائِكة، والبشَر عامة، لكن يُنكِرها طائِفتان من طوائف الضَّلال من هذه الأُمَّةِ وهُما المُعتَزِلة والخَوارِج؛ لأنهم يَقولون: إن فاعِل الكبيرة مُخَلَّدٌ في النار، محكومٌ عليه بذلك قَضاءً وقدَرًا، وإذا كان كذلك فلن يَتَخلَّف هذا القضاءُ، ولا يُمكِن أن يَخرُجوا من النار.

والشفاعة الرابِعة في دُخول الجَنَّة، إذا عبَر الناس الصِّراط -أَسأَل الله تعالى أن يَجعَلنا وإيَّاكم ممَّن يَعبُره سَليمًا- إذا عبَروا الصِّراط لا يَدخُلون الجَنَّة مُباشَرة، بل يُوقَفون عند قَنْطرة وهي طرَف الجِسْر الذي على النار أو غيرها -الله تعالى أَعلَمُ- فيُقتَصُّ لبعضهم من بعض، وهذا قِصاص تَنْقية، والقِصاص السابِق في عَرَصات القِيامة قِصاص تَخْلية، يَعنِي: في عرَصات القِيامة يُقتَصُّ للمَظلوم من الظالِم، أمَّا هذا فهو قِصاص تَنْقية، يُنقَّوْن حتى يَزول ما في قلوبهم من غِلٍّ وحِقْد؛ لأنه ليس القضاء للشَّخْص بحَقِّه مُزيلًا للحِقد والبَغْضاء.

نعَمْ، ربَّما قد أَقول: أنا اعتُدِيَ عليَّ وأَخَذْت حَقِّي الآنَ منه، لكن بقِيَ أثَرُ هذا العُدوانِ في قَلْبي، هذا مَوْجود ولا أحَدَ يُنكِره، لكن المُوفَّق يَسعَى في زواله، وإنما لا بُدَّ أن يَبقَى أثَرُ الجُرْح حتى ولو بَرِئ، وهل إذا بَرِئ الجُرْح يَعود الشيء كما كان؟ بل يَصير فيه بُقَع، فلا بُدَّ أن يُؤثِّر العُدوان، ولوِ اقتَصَّ الإنسان لنَفْسه من قلب الإنسان، فهُمْ إذا اقتُصَّ لبعضهم من بعض في يوم القيامة في عرَصات القيامة وعبَروا الصِّراط يَحتاجون إلى تَنْقية تُنقَّى وتُصفَّى قلوبهم حتى يَدخُلوا الجَنَّة -وما في قُلوبهم

من غِلٍّ- على أكمَل وَجْه.

فإذا اقتُصَّ لبعضهم من بعض أيضًا لا يَدخُلون الجَنَّة مُباشَرة، بل يَجِدون الجَنَّة مُغلَّقة الأبـواب، فيَطلُبـون مَن يَشفَع لهم، فيُشفَّـع النبيُّ ﷺ خاصَّة، وهذه خاصَّة بالرسول ﷺ لكن ليسَـتْ عُظمى؛ لأنها لأهل الجَنَّة خاصَّة فيَشفَع أن تَفتَح أبواب الجَنَّة، فيُؤذَن له فتُفتَح أبواب الجَنَّة.

وأوَّل مَن يَدخُلها هو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[1]، وأوَّلُ مَن يَدخُلها من الأُمَم أُمَّته بعد الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مُباشَرةً، فالنَّبيُّون أوَّلًا، ثُمَّ الأُمَم، يَبدَأ بقائِد النَّبيِّـين محمد ﷺ، ثُم قائِد الأُمَمِ هـذه الأُمَّةُ؛ لأن هذه الأُمَّةَ -ولله تعالى الحمد- مُتأخِّرة في الزمـن في الدنيا، لكنها سابِقة في كل المَواقِف في الآخِرة، فقد قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2].

ففي كل العرَصات -ولله تعالى الحمد- نحن السابِقون في العُبور على الصِّراط في القَضاء بين الناس في عرَصات القِيامة قبل دُخول الجَنَّة همُ السابِقون يوم القيامة في كل شيء، فيَدخُلـون الجَنَّة، وتَأمَّل هذا في كِتاب الله عَزَّوَجَلَّ قال الله تعالى في أهل النار: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧١]، وهم كارِهـون لها من حيـن أن يَصِلوا إليها تُفتَّح الأبواب؛ أمَّا أهل الجَنَّة فلا، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧٣].

فأفاد قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتۡ﴾ أن هناك شَيْئًا بيـن مَجيئهم وبين الفَتْح، ولقد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٤٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، رقم (٨٧٦)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، رقم (٨٥٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَخطَأَ من قال من أَهْل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إن الواو هنا زائِدة، وإن التَّقدير: حتى إذا جاؤُوا فُتِّحت أبوابها. نَقول: سُبحانَ الله! أنتُمْ أَعلَمُ بكلام الله تعالى من الله تعالى! الله عَزَّوَجَلَّ يُفرِّق في النار يَقول: ﴿إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ﴾، وفي الجَنَّة يَقول تعالى: ﴿إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ﴾، وأنتم تَقولون: هذه الواوُ زائِدة، وهذا خَطير.

وكذلك أَخطَأَ مَن قال: الواو واوُ الثَّمانية، وادَّعى أن في اللغة واوًا تُسمَّى واوَ الثمانية، وهذه الدَّعوى باطِلة، ويَقول المُدَّعي: عندي دَليل، وهو قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم:٥]، قال: فالواو قبل كلِمة (أَبكارًا) هي واوُ الثَّمانية؛ لأن هذه ثَمانية أشياءَ مَعطوفات.

ونَقول ردًّا على مَن قال هذا: إِذَنْ فقُل: جاء زيدٌ وبَكرٌ. الواو واوُ الاثنَيْن، وخالِد واو الثلاثة... وامشِ على هذا، والصواب أن الواو هنا عاطِفة، وأن المَعطوف عليه مَحذوف بَيَّنَت السُّنَّة هذا المعطوفَ عليه.

الخُلاصةُ: على هذا فتكون الشفاعة الخاصَّة بالرسول ﷺ ثلاثة أنواع: الشفاعة العُظمى والشَّفاعة في دُخول الجَنَّة وشَفاعته في عمِّه أبي طالِب الذي مات على الكُفْر والشِّرْك -والعِياذُ بالله- وهو في النار، لكن الله تعالى أَذِنَ لنَبيِّه أن يَشفَع فيه، فكان في ضَحضاحٍ من نار وعليه نَعلان يَغْلي منهما دِماغه، وهو أَهوَنُ أهل النار عَذابًا؛ ودَليلنا على أن الشفاعة بعَمِّه خاصَّةً به قول الرسول ﷺ: «لَوْلَا أَنَا كَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»[1]، لكن الدليلَ على أنه خاصٌّ به: أن هذا مَخصوص بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، رقم (٢٠٩)، من حديث العباس عم الرسول ﷺ ورضي الله عنه.

إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، والله تعالى لا يَرتَضي أن يُشفَع للكافِر، فيُستَثْنى هذا، وقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]، وهذا مُستَثنًى إِذَنْ فهو خاصٌّ به.

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: هو الذي يُعطيها مَن يَشاء ويَمنَعها ممَّن يَشاء وقد بيَّنَ أن الشروط الإِذْن ورِضاه عن الشافِع ورِضاه عن المَشفوع له.

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذه الجُملةُ فيها حَصْر، وهو تَقديم ما حقُّه التَّأخير، فهنا قدَّم الخبَر ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يَعنِي: لا لغيره.

وقوله تعالى: ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَشمَل مُلْك الذوات، أي: مُلْك ذات السمَوات والأرض، ومُلْك التَّصرُّف فيهما يَتصرَّف فيهما كما يَشاء فهو الذي أَوْجَدهما، وهو الذي يُمسِكهما أن تَزولا، وهو الذي يُدبِّر ما فيهما، وهو الذي يُتلِفهما ويُفنيهما عند قيام الساعة، فللهِ مُلْك السموات والأرض خَلْقًا وتَدبيرًا وتَصرُّفًا، وكل شيء يَؤول إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذه الآلِهةُ لا تَملِك شيئًا من ذلك، إِذَنْ ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: مُلك الذوات والتَّصرُّف كما يَشاء.

ثُمَّ نُفصِّل فنَقول: خلَقهما أوَّلًا وأَمسَكهما أن تَزولا، ويَطوِي السمواتِ كطَيِّ السِّجِلِّ للكُتُب، ويَقبِض الأرَضين يوم القِيامة، فكل هذه من جُملة تَصرُّفاته في هذه المَملوكاتِ، وإذا كان له مُلك السموات والأرض فلا أحَدَ يَشفَع إلَّا بإِذْنه ولا أَحَدَ يَستَحِقُّ العِبادة إلَّا هو.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يَعنِي: يوم القِيامة نَرجِع إلى الله عَزَّوَجَلَّ فيُحاسِبنا على حسَب أعمالنا، والله تعالى قد بيَّن لنا ووضَّح وأَقام الحُجَّة، وبيَّن أن الحسَنة بعَشْر أمثالها إلى سبعِ مِئة ضِعْف إلى أضعافٍ كثيرة، وأن السيِّئة بمِثْلها وبين

الأشياء التي تُعتبَر حَسَناتٍ حتى نَعمَلها، وتُعتبَر سَيِّئاتٍ حتى نَتَجنَّبها، وحينئذٍ يَكون رُجوعنا إليه عَزَّوَجَلَّ رُجوعًا عن بَصيرة لا حُجَّةَ لنا في مُخالَفته.

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: هو مُختَصٌّ بها] أخَذَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [هو مُختَصٌّ بها] من الحَصْر وهو تَقديم الخبَر [وهو مُختَصٌّ بها فلا يَشفَع أحَدٌ إلَّا بإذْنه]، وهذا أحَدُ شَرْطَي الشفاعة. والثاني: رِضا الله تعالى عن الشافِع ورِضاه عن المَشفوع، قال تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وقد ذكَر عُموم مِلْكه وانفِراده بالمِلْك بعد ذِكْر الشفاعة؛ لأن الشَّفاعة من المِلْك في الواقِع، فهي داخِلة في عُموم مِلْك الله تعالى للسمَوات والأرض ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ولم يُفسِّرها لوُضوحها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات الشفاعة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾، ووجهُ إثباتها: أنه لولا وُجودها ما صَحَّ أن يَقول تعالى: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الردُّ على المُعتَزِلة والخوارِج؛ لأن المُعتَزِلة والخوارِج يُنكِرون الشفاعة في أهل الكَبائِر -سواءٌ دخَلوا النار أم لم يَدخُلوها-، وذلك لأن أهل الكَبائر عند المُعتَزِلة والخوارِج مُخلَّدون في النار، لكنهم عند الخَوارِج كُفَّار، وعِند المُعتَزِلة لا مُؤمِنون ولا كافِرون، بل في مَنزِلةٍ بين مَنزِلتين.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات شَفاعات مُتعدِّدة؛ لقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾؛ لأن (جَميعًا) تَقتَضي أن يَكون هناك شيء مَجموع.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه لا أحَدَ يَشفَع إلَّا بإذْن الله تعالى، ووجهُه: أنه إذا كانت الشَّفاعة خاصَّةً بالله فإنها لا تَكون إلَّا منه وإليه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات مُلْك الله تعالى للسَّموات والأرض، وانفِراده بالمُلْك؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات البَعْث والرجوع إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الإنذار والبِشارة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فإن المُؤمِن يُسَرُّ بلِقاء الله تعالى بلا شَكٍّ، ويُحِبُّ لِقاء الله تعالى، والكافِر بالعكس، وقد قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»[1]، فإذا علِمنا أننا نَرجِع إلى الله تعالى فإننا نُحِبُّ لِقاء الله تعالى، والكافِر يَكرَه لِقاء الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَذكُر الشيء مُنذِرًا بلازِمه؛ لأن مُجَرَّد الرجوع ليس فيه شيء يُذكَر، لكن المُراد الرجوع الذي يَحصُل به الحِساب والجَزاء.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم (٦٥٠٧)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم (٢٦٨٣)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٤٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر:٤٥].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ﴾ أي: دون آلِهَتهم ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾ نفرت] والمَعنى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾: (إذا ذُكِر الله) يَعني: أُثْنِيَ عليه بالذِّكْر والإِخْلاص، وأنه هو الربُّ المَعبود، وأن غيره لا يَستَحِقُّ العِبادة، وإذا ذُكِر على هذا الوجهِ ﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ يَعني: نفرَت من هذا وكرِهته؛ لأنها لا تُريد هذا، تُريد أن تكون آلِهتها مُساوِيةً لله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾ نفرَت وانقبَضت] فتَنفِر ولا تَقبَل الحقَّ، وتَنقَبِض ولا تَنشَرِح للحَقِّ ﴿قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ أي: لا يُقِرُّون بها، ولا يَعتَرِفون بها؛ لأنهم قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤]، وهم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ ولو أنهم آمَنوا بالآخِرة لعمِلوا لها، ولو كانوا إذا ذُكِر الله تعالى وحدَه استَبْشَروا وفرِحوا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ الأصنام] يَعني: إذا ذُكِر الذين

من دونه وهي الأصنام، وأُثنِيَ عليها ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾: ﴿إِذَا﴾ هذه فُجائِيَّة أُجِيب بها الشرط؛ لأن الشَّرْط يُقرَن أحيانًا بالفاء، وأحيانًا بـ(إذا)، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم:٣٦]، أي: فهُمْ، فجواب الشَّرْط هنا قُرِن بـ(إذا) الفُجائية؛ لأنه جُملةٌ اسمِيَّة.

وتأمَّل قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ حيث جاءَت بالجُمْلة الاسمِيَّة إشارةً إلى دوام استِبْشارِهم وثُبوته ورُسوخه في أنفُسهم. وجواب ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾، هو قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾.

وجَواب قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ هو قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وبَيْن الجُمْلتين رابِط؛ لأن القاعِدة هي إذا كانت جُملة الجَواب اسمِيَّة لا بُدَّ فيها من رابِط، والرابِط هنا قوله: (إذا)، وهي الفُجائِيَّة.

ولهذا يُروَى عن النبيِّ ﷺ أنه قرأ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم:٢٠] تِلك الغَرانيقُ العُلا، وإنَّ شَفاعَتَهُنَّ لتُرْتَجَى. أَلْقاها الشَّيْطان في قِراءة النبيِّ ﷺ، ولم يَتلُها الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكن الشيطان أَسمَعَ قُرَيْشًا هذا القولَ، يَقولون: إنهم سجَدوا مع النبيِّ ﷺ لما أَنهَى السورة وسجَد؛ لأنهم قالوا: الآنَ رجَع إلينا، أو على الأقَلِّ داهَنَنا؛ لأنه أَثنَى على أصنامنا فسجَدوا معه، وهذه القِصَّةُ مَشهورة[1].

---

(١) أخرجها الطبري في تفسيره (١٦/ ٦٠٤-٦٠٨) من عدة طرق، وقال ابن كثير في تفسيره (٥/ ٣٨٧): طرقها كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح. وقال الشنقيطي في أضواء البيان (٥/ ٢٨٦): اعلم أن مسألة الغرانيق مع استحالتها شرعًا، ودلالة القرآن على بطلانها لم تثبت من طريق صالح للاحتجاج، وصرح بعدم ثبوتها خلق كثير من علماء الحديث كما هو الصواب.

واختَلَف المُفسِّرون فيها فمِنهم مَن أَنكَرها إنكارًا عظيمًا، ومِنهم مَن حسَّنها وقال: إنها لا تُنافِي العِصْمة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ يَعنِي: إذا قرأ ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج:٥٢] أَلقَى الشَّيْطان بالقراءة، ليس هو الذي يُلقِي، بل الشيطان هو الذي يُلقِي كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يَنسَخه يَعنِي: بين بُطلانه، وأنه لا حقيقةَ له، ثُمَّ قال مُعلِّلًا ذلك: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٤].

فعلى كل حال: إن صحَّتِ القِصَّة فإنها لا تُنافِي العِصْمة؛ لأن الذي أَثنَى على هـذه الأصنامِ الشَّيْطان، لكن ظنَّ هـؤلاء الذين سمِعوه أنها قِراءة النبيِّ ﷺ، وإذا لم تَصِحَّ فلا إِشكالَ.

لكن إذا قال قائِل: إذا لم تَصِحَّ فكيف سجَد المُشرِكون مع النبيِّ ﷺ حين قال: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾؟

والجَوابُ عن ذلك أن نَقول: إن آخِرَ آيات هذه السورةِ تَأخُذ باللُّبِّ والفُؤاد حتى إن الإنسان لَيَنفَعِل من غير أن يَشعُر فهؤلاءِ المُشرِكون انفَعَلوا من شِدَّة ما سمِعوا حتى لم يَشعُروا بأَنفُسهم إلَّا وهُمْ ساجِدون، هذا هو الجَواب إذا لم تَصِحَّ القِصَّة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: شِدَّة كراهة هـؤلاء لذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ وتوحيـدِه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الإنسان متى وجَـد اشمِئْزازًا من شَـريعة الله تعالى فإن فيه شَبَهًا من هؤلاء، وإن كان لا يُشابِههم من كل وَجْه فإنه يَكون فيه شَبَهٌ منهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: شِدَّة تَعلُّق هؤلاء بأصنامهم حيـث يَكرَهون ما يُضادُّها من التَّوْحيد، وإذا ذُكِرت هذه الأَصنامُ استَبْشَروا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الإنسان قد يَستَبشِر بالسوء، وبَّما يُخالِف الفِطْرة، وذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٤٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر:٤٦].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ هذه مُنادى، حُذِفَت منها (يا) النِّداء، وعُوِّضت عنها الميمُ؛ لأنها دالَّةٌ على الجَمْع، كأن الإنسان جمَعَ قَلْبه على ربِّه عَزَّوَجَلَّ، وأُخِّرَت تيمُّنًا بالبَداءة بِسْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعلى هذا فنَقول: (الله) مُنادى مَبنيٌّ على الضمِّ في محلِّ نَصْب.

يَقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بمَعنى: يا اللهُ]، فالميمُ عِوَض عن (يا) النِّداء [﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُبدِعَهما ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما غاب وما شُوهِد].

وقوله تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فاطِرَ الشيء أي: مُبدِعَه على غير مثال سَبَق، يَعنِي: مُبدِعَه مُنشِئَه أوَّل مرَّة يُسمَّى هذا فَطرًا، ومنه: فطَر البِئْر إذا حفَره لأوَّل مرَّة.

وقوله تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والسَّموات والأرض هذه تَقدَّمت كثيرًا، وذكَرنا ما يَتعلَّق بالجمع بالنِّسبة للسمَوات والإفراد بالنِّسبة للأرض.

وقوله تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: ﴿فَاطِرَ﴾

و﴿عَٰلِمَ﴾ كلها صِفة للمُنادى في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾، ولكنها نُصِبَت؛ لأنها مُضافة.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الغيب: ما غاب، والشهادة: ما شُوهِد وحُضِر، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالم الغَيْب كلِّه، وعالم الشهادة كلِّها؛ فإن الله تعالى لا يَخفَى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

واعلَمْ أن الغَيبوبة تكون كلِّيةً، وتكون نِسبيَّة، فالله تعالى عالِم الغَيْب كلِّيةً ونِسبيةً أيضًا، بخِلاف البشَر، فالبشَر لا يَعلَم الغيب، أي: ما غاب عنه سواءٌ كلِّيًّا أم نِسبيًّا؛ ولذلك لا تَعلَم ما وراء الجِدار، ولا تَعلَم ما في ضمير غيرك، ولا تَعلَم المُستَقبَل، بل وتَنسَى ما مضى، أمَّا الربُّ عَزَّوَجَلَّ فإنه لا يَعتَريه شيء من هذا النُّقصانِ.

وقوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: ﴿تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ أي: تَفصِل بينهم في الحُكْم، وذلك يوم القِيامة حين يَتَحاجُّ الناس عند ربهم يَختَصِمون، وقد بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَتيجةَ هذه الخُصومةِ بأن الخاصِم همُ المُؤمِنون حيث قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

إِذَنْ: فالخاصِم الغالِب همُ المُؤمِنون، إذ لم يَكُن سبيلٌ للمُشرِكين الكافِرين عليهم فهمُ الخاصِمون بلا شَكٍّ.

وقوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يَشمَل الحُكْم في الدنيا والحُكْم في الآخِرة، أمَّا الحُكْم في الدنيا فإن المَرجِع إلى كِتاب الله تعالى وسُنَّة رسول ﷺ، وأمَّا في الآخِرة فالمَرجِع إلى الله عَزَّوَجَلَّ يَحكُم بينهم حُكْمًا جزائيًّا كلٌّ بما يَستَحِقُّ.

وقوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ المُراد بالعُبودية هنا العامة، فيَشمَل العبد المُؤمِن والعَبْد الكافِر، وقد قسَّم العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ العُبودية إلى قِسْمين: عامَّة وخاصَّة.

فالعُبودية العامة هي التَّعبُّد بالقدَر أي: أنها تَتعلَّق بالأَمْر القدَريِّ، يَعني: التَّذلُّل لقَدَره، فكلُّ مَن في السموات والأرض عبدٌ لله بهذا المَعنَى، ولا يُمكِن أن يَتخلَّف عمَّا قَضَى الله تعالى عليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، فهذه عُبودية تَتعلَّق كما قُلْت بالقَدَر والقَضاء، فهي كونية في الحقيقة.

والعُبودية الخاصَّة هي التَّعبُّد لله تعالى بشَرْعه، وهذه خاصَّة بالمُؤمِنين الذين يَتعبَّدون لله تعالى بشَرْعه.

وهذه الخاصَّةُ أيضًا فيها عِبادةٌ أخصُّ وهي عِبادة النُّبوَّة والرِّسالة، مثل قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص:٤٥]، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]، ومثل قول الرسول ﷺ: «أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا»(١)، والأمثلة كثيرة.

فمَحطُّ المَدْح من هذه الأنواع والأقسام: العُبودية الخاصَّة، أمَّا العُبودية العامة فلا يُمدَح الإنسان فيها؛ لأنها بغير اختياره، بل هو ذليل لله تعالى مُتعبِّد لله تعالى شاء أم أبى.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب قيام النبي ﷺ الليل، رقم (١١٣٠)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم (٢٨١٩)، من حديث المغيرة ابن شعبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: في الذي يَختَلِفون فيه، وقد جاءت الآية هكذا: ﴿فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠]، فيَشمَل ما يَختَلِفون فيه من أمور الدِّين وأُمور الدنيا أيضًا، فكل ذلك سَوْف يَحكُم الله تعالى فيه بحُكْمه العَدْل الذي ليس فيه حَيْفٌ على أحَد.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أَمْر الدِّين اهدِني لما اختُلِف فيه من الحَقِّ]، ولكنَّ هذا التَّقديرَ فيه نظَر؛ لأن المُراد بالآية: تَفويض الأمر إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وشِكاية هؤلاء إليه: الذين إذا ذُكِر الله تعالى اشمَأزَّت قلوبُهم، وإذا ذُكِر الذين من دونه إذا هُمْ يَستَبشِرون. وليس المَقام مَقامَ دُعاء، وإنما كان النبيُّ ﷺ يَقول هذا الدعاءَ في استِفْتاح صلاة الليل(١).

فائِدةٌ: المُضاف إلى الله تعالى قد يُضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ إضافةَ خَلْق وتَكوين وقد تَكون إضافة تَشريف، فهنا قال تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ فالعِبادُ عامٌّ، فإذا كان عامًّا صار المُرادُ الخَلْقَ والتَّكوين وإذا كان خاصًّا يَعنِي: أُضيفتِ العُبودية لشخص مُعيَّن أو لجماعة مَوْصوفين بصِفة فهذا للتَّشريف.

وفي قوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ عِندي في نُسخَتي (فِي) مَفصولة عن (ما)، وتُرسَم أيضا مُتَّصِلة على القاعِدة، فالقاعِدة أخيرًا: أنها مَفصولة، لكن لعلَّ القاعِدة التي عليها المُفسِّر هي في المُصحَف الأوَّل، يَعنِي: في القاعِدة الأُولى، وقد اختَلَف العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: هل تَجوز مُخالَفة القاعِدة العُثْمانية؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

على أقوالٍ ثلاثةٍ: (الجواز، والمَنْع، والتَّفصيل)، التَّفصيل بين أن يُكتَب للصَّبيِّ وأن يُكتَب للبالِغ، فالصبيُّ يُكتَب له على حسَب ما يَعرِفه من القواعِد؛ لأنه لو كُتِب له على القاعِدة العُثمانية لحرَّف، لو كُتِبَتِ الصلاة بالواو والزكاة بالواو، وما كان مَمدودًا، أي: بأَلِف حُذِفت الأَلِف منه، مثل: الرحمن، وما أَشبَهَه لو كُتِبَ له ذلك لحرَّف، لقال: إن الصلَوات، إن الزكوات، وما أَشبَهَه، أمَّا إذا كان لبالِغ عارِف فيُكتَب بالرَّسْم العُثمانيِّ.

والصحيح: أنه لا يَجِب التَّقيُّد بالرَّسْم، وذلك لأن القُرآن لم يَنزِل على هذا الرسمِ، لو نزَلَ بهذا الرسمِ كما كُتِبَت التَّوْراة ونزَلَتْ مَكتوبةً لقلنا: لا يَجوز مُخالَفته، لكنه نزَلَ قولًا وصادَفَ أن القاعِدة في ذلك الوقتِ حين كِتابته كانت على هذا الوجهِ، ولو كانَتِ الكِتابة على غير هذا الوَجهِ لكُتِب بها مُخالفًا لهذا الوَجهِ.

فالمَسأَلة اصطِلاحية، يَعنِي: أن القُرآن لم يَنزِل على هذا، صحيحٌ أننا قد نَقول: يَنبَغي تَأدُّبًا أن يُكتَب القُرآن بالقاعِدة العثمانية احترامًا وتَعظيمًا لما كتبَه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. أمَّا أن نَقول: هذا على سبيل الوجوب والإلزام. ونَقول: إنه لا يَجوز أن تَكتُب على السُّبورة آيةً من كِتاب الله تعالى على القاعِدة المعروفة المألوفة، فهذا فيه نظَر.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: التَّوسُّل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأَفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقد تَقدَّم فيما سبَق أن التَّوسُّل الجائِز سبعة أنواع:

الأوَّل: التَّوسُّل إلى الله تعالى بأَسمائه.

والثاني: التَّوسُّل إلى الله تعالى بصِفاته.

والثالِث: التَّوسُّل إلى الله تعالى بأَفْعاله.

والرابع: التَّوسُّل إلى الله تعالى بحال الداعِي.

والخامِس: التَّوسُّل إلى الله تعالى بدُعاء مَن تُرجَى إجابته.

والسادِس: التَّوسُّل إلى الله تعالى بالعمَل الصالِح.

والسابع: التَّوسُّل إلى الله تعالى بالإيمان.

فهذه كلُّها تَوسُّلات جائِزة.

وهنا قال تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهي من باب التَّوسُّل إلى الله تعالى بأَفعاله، أمَّا التَّوسُّل المَمنوع فهو التَّوسُّل إلى الله تعالى بما لم يَجعَلْه الله تعالى وَسيلةً كالتَّوسُّل بجاهِ النبيِّ ﷺ، والتَّوسُّل بالصالِحين على وجهٍ غير مَشروع، فالضابِط للتَّوسُّل المَمنوع: أن يُتوسَّل إلى الله تعالى بما ليس بوَسيلة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن السَّمواتِ والأرضَ ليسَتا قديمة أزِلية، بل هي حادِثة بعد أن لم تَكُن، بخِلاف الفلاسِفة الذين قالوا بقِدَم العالَم أو الأَفلاك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل إثبات إحاطة عِلْم الله تعالى بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَحذير المرء من المُخالِفة؛ لأنه إذا آمَن بأنه عالِم الغَيْب والشَّهادة، فسوف يَحذَر؛ لأنه مهما عمِل فالله تعالى عالِمٌ به.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الحُكْم لله تعالى وحدَه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ

عِبَادِكَ﴾، ووجهُ الحَصْر في قوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ أنه وَصَف الحُكْم الصادِر منه بأنه بين العِباد، والعبدُ لا يُشارِك سيِّده في الحُكْم وإلَّا فإنه ليس بين أيدينا طريقةٌ من طرُق الحَصْر المَعروفة، ولكنه حَصْر استفَدْناه من المَعنى، إذْ إن العَبْد لا يُمكِن أن يَكون عابِدًا على سيِّده، بل السيِّد هو الحاكِم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تسلية المُؤمِنين؛ لكون الله تعالى يَحكُم بينهم فيما يَختَلِفون فيه مع الكُفَّار.

وهنا نَسأَل: مَن الذي يَكون مَحكومًا له ومَحكومًا عليه؟

أَقولُ: يُحكَم للمُؤمِنين؛ لقول الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

الآيــة (٤٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر:٤٧].

(لو) هذه شَرْطية، وقد يَقول قائِل: أين فِعْل الشَّرْط؟

والجَوابُ أن نَقول: هو مُقدَّر، أي: (ولو حصَلَ أن) أو: (ولو ثبَتَ أن الذين ظلَموا)، وأمَّا الجواب فقوله تعالى: ﴿لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

و(لو) تَأتي شَرْطية وتَأتي مَصْدريَّة مثل قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩]، أي: ودُّوا إِدْهانك فيُدهِنون، مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾.

إذن: (أنَّ) وما دخَلَت عليه في تَأويل المَصدَر، فاعِل لِفِعْل الشَّرْط المحذوف، أي: ولو ثبَتَ أن للذين ظلَموا.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: ﴿ظَلَمُواْ﴾ المُراد بالظُّلْم هنا الكُفْر، والظُّلْم في الأصل هو النَّقْص؛ لقوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣]، أي: لم تَنقُص منه شيئًا.

والظُّلْم يَنقَسِم إلى قِسْمَيْن:

١- ظُلمٌ أكبَرُ، وهو ظُلْم الكُفْر المذكور في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

٢- ظُلمٌ أصغَرُ، وهو ما دون ذلك كظُلْم الإنسان لغيره في ماله وأَهْله، وما أَشبَه ذلك.

والمُراد بالظُّلْم هنا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الظلمُ الأَكبَرُ.

مَسأَلَةٌ: إن قال قائِل: إن الظُّلْم هو النَّقْص، ومَعروف أن الظُّلْم هو مُجاوَزة الحقِّ، فكيف نَجمَع بينهما؟

فالجَوابُ: مُجاوَزة الحقِّ نَقْص؛ لأنها نقصٌ في حقِّ الآخَر، إذ إن الواجِب ألَّا أَتعَدَّى عليه، فإذا تَعَدَّيْت عليه صِرْت ناقِصًا في حَقِّه.

وقوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: ﴿مَا﴾ اسمٌ مَوْصول، أي: الذي، مَحلُّه اسم (إن) مُؤخَّر، وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ صِلة المَوْصول، والمَعروف: أن صِلة الموصول لا تَكون إلَّا جُملة، فكَيْف نَجعَل هذا صِلةً للمَوصول، وليس بجُملة؟

الجَوابُ أن نَقول: هذا شِبْه جُمْلة، وهو مُتعَلِّق بفِعْلٍ مَحذوف، تَقديره: ما استَقَرَّ في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ جميعًا حالٌ من ﴿مَا﴾ يَعنِي: حال كونه جميعًا مَجموعًا لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ أي: مِثل ما في الأرض جميعًا من أوَّلها إلى آخِرها؛ أي: ما في الأرض ومثله معه مُضافًا إليه. ونُشير إلى أن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لم يُفسِّرها

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولم يُبَيِّنها، ولكن بيَّنَّا نحن في التَّفسير أنها تَحتَمِل الظُّلْم الأكبَر وهو الشِّرْك، والأَصغَر وهو ما دونَه، ولكن يَظهَر -والله تعالى أَعلَمُ- أن المُراد بها الأكبَرُ.

وقوله تعالى: ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: دفَعوه فِداءً يَفْدون به أَنفُسهم من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، ويَكون هذا يوم القِيامة، وفيه يَتمَنَّى هؤلاء أن يَكون لهم ما في الأرض جميعًا ومِثله معه؛ ليَدفَعوا عنهم العذاب، ولكن لا يَحصُل، وقد طُلِب منهم في الدنيا ما هو أَهوَنُ من ذلك، طُلِب منهم أن يَعبُدوا الله تعالى وحدَه لا شريكَ له، وأن يَقوموا بشريعته، وهو سَهْل، لكنهم -والعِياذُ بالله- استكْبَروا، فقوله تعالى: ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: من العَذاب السيِّئ الذي ليس له نَظيرٌ في الدنيا، ولا يُمكِن أن يَضبِطه الذِّهْن بتَخيُّل؛ لأنهم كما أن في الجَنَّة ما لا عَيْنٌ رأَتْ ولا أُذُنٌ سمِعَت ولا خطَر بقَلْب بشَر من النعيم، فكذلك ما في النار من العَذاب.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هو اليوم الذي يُبعَث فيه الناس، وسُمِّيَ: يومَ القيامة لأُمورٍ ثلاثة:

أَوَّلًا: لأن الناس يَقومون فيه لربِّ العالمِين كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين:٦].

والثاني: أنه يُقام فيه العَدْل كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء:١٤٧].

والثالِث: لأنه يَقوم فيه الأَشْهاد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: ظهَر لهم من عند الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: ما لم يَكُن في حُسبانهم ولا خطَر على بالهم أنهم يَجِدون هذا العذابَ، فظَنُّوا أن الأمر هيِّن، وظنُّوا أن الأصنام تَشفَع لهم، وظنُّوا ظُنونًا كثيرة، ولكن لم تَنفَعْهم هذه الظُّنونُ، وظهَر لهم شيء لم يَحتَسِبوه أبدًا ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

فقوله: (بدا لهم) أي: ظهَر لهم، و﴿سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أي: سُوء ما كسَبوا من الأعمال، وهم لم يَكسِبوا إلَّا الشَّرَّ، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَافْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَبَدَا لَهُم﴾ ظهَر ﴿لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ يَظُنُّون]، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الشيءُ الواضِح لا يُفسِّره، ويُقال: بدَا. ويُقال: بدَأَ، وبينهما فَرْق، فبَدَا بمَعنَى: ظهَر، وبدَأَ بمَعنَى: ابتَدَأ، ويُقال في الأوَّل في المَصدَر: بُدُوًّا. وفي الثاني: بَدْءًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الظالِمين لو بذَلوا كلَّ ما في الأرض؛ ليَفتَدوا به لم يَنفَعْهم، وهذا يُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن جميع ما في الدنيا يَرخَص عند العذاب حين يُشاهِده الظالِم؛ لقوله تعالى: ﴿لَافْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التَّحذير من الظُّلْم؛ لأن ذِكْر هذا يَعني: التحذير منه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات القِيامة والبَعْث؛ لقوله تعالى: ﴿لَافْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن العَذاب الذي يَقَع بهؤلاء الظالِمِين لا يَخطُر لهم على بالٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٤٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزمر:٤٨].

يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ﴾ نزل ﴿بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: العَذاب]، يَعني: حاق بهم العَذاب، أي نزَل بهم وبـدَتْ لهم سَيِّئاتهم وعرَفوها، وكانوا يَقولون: يا لَيْتَنا نُرَدُّ ولا نُكذِّب بآيات ربِّنا ونكون من المُؤمنيـن. قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ نـزَل بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾] أي: ما كانوا يَستَهـزِئون به في الدُّنيا، أمَّا في الآخِـرة فإنهم يَقولون: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣]، إلَّا أنه في ذلك الوقتِ لا يَنفَعهم، فقَدْ كانوا في الدنيا يَستَهْزِئون ويَسخَرون من الرُّسُل، ويَسخَرون من الذين آمَنوا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٢].

سُبحانَ الله! هذه الآياتُ تَنطَبِق تمامًا على وَقْتنا كما انطَبَقَت على ما قبلُ، وهي قوله تعالى: ﴿كَانُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾، وهذا هو الواقِع، فتَجِد هؤلاء الفَسَقَة

والمُجرِمين إذا مرَّ بهم المُؤمِن التَّقيُّ جعَلوا يَضحَكون ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ﴾ أي: إذا مرَّ المُؤمِنون بالمُجرِمين أو المُجرِمون بالمُؤمِنين كِلاهما ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ يَغمِز بعضُهم بعضًا، فانظُرْ إلى هذا المِسكينِ، وانظُرْ إلى ثِيابهم مثلًا! ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ يَعنِي: يَرجِعون إلى أهلهم فَكهين، أي: مَرِحين مُتفكِّهين بما قالوا في هؤلاء المُؤمِنين.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ والفاعِل في الفِعْل ﴿رَأَوْهُمْ﴾ المُجرِمون، والمَعنَى: إذا رأَى الذين أَجرَموا هؤلاء المُؤمِنين ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ تائِهون، وهذا هو الواقِعُ حتى في الوقت الحاضِر إذا رأَوُا المُتديِّن قال: هذا مُتخلِّف، هذا رَجْعيٌّ، أو هذا أُصوليٌّ، يَعنِي: مُتشدِّدًا، وما أَشبَه ذلك.

ثُمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٣٤] في يوم القِيامة تَحصُل الضِّحْكة من المُؤمِنين على الكافِرين، وهذه الضِّحكةُ ليس بعدَها بكاءٌ، أمَّا ضِحكة أُولئِك فبعدَها البُكاء والألَمُ والحَسْرة.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٣٥] يَنظُرون ما أَنعَم الله تعالى به عليهم، ويَنظُرون ما عذَّب الله تعالى به هؤلاء.

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين:٣٦]، فهؤلاءِ المُجرِمون يَبدو لهم يوم القِيامة ما كانوا يَستَهزِئون به من شريعة الله تعالى، وجزاء الله تعالى، وما أَشبَه ذلك، وقد كانوا يَسخَرون بالرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وبما وَعَد به من النعيم، وبما وعَدَ به من العذاب، ويَقولون: يا مُحمَّدُ، إن كُنتَ صادِقًا أننا سنَلقَى هذا فلْيَكُن لك أنتَ، ففجِّرِ الأرض يَنابيعَ، واجعَلِ الرِّياض مَزارِعَ نَخيلٍ، وما أَشبَه ذلك.

وهل يَرَى المُؤمِنون هؤلاءِ يَوْم القِيامة يُعذَّبون؟

الجَوابُ: نعَمْ، يَرَوْنهم ويَتَخاصَمون معَهم ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ

﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ اذهَبوا فانظُروا: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ﴾ أي: قَرينُه ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ في عُقْرها في وسَطِها، فقال له: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [الصافات:٥١-٥٦] إلخ.

فهم يَرَوْنهم ويَتحدَّثون معهم؛ لأن في هذا أَكبَرَ إغاظةٍ لهم، وهذا ألَمٌ قَلْبيٌّ أشَدُّ من الألَم البدَني، نَسأَل الله تعالى العافيةَ.

وهل يَشفَعون لهم؟

أَقول: لا؛ لأن الكُفَّار لا يُشفَع لهم؛ لأنه لا شَفاعةَ إلَّا بإِذْن الله تعالى ولا أَذِنَ الله تعالى ولا يَرضَى، أمَّا غير الكُفَّار فيَشفَعون لهم بإِذْن الله تعالى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الجَزاء من جِنْس العمَل؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات الكَسْب للعَبْد، فيَكون فيه رَدٌّ على الجَبْرية الذين يَقولون: إن الإنسان مُجبَرٌ على عمَله، فنَقول لهم: بل الإنسان غير مُجبَر، وعمَلُه مِن كَسْبه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَوبيخ هؤلاء المُعذَّبين حيث نزَل بهم ما كانوا به يَستَهزِئون، وقد قال الله تعالى: إنه يُقال لهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور:١٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: لأنهم كانوا في الدنيا يَسخَرون بمَن جاء بهذا النَّبأ، ويَقولون: إنه سِحْر. فيُوبَّخون يوم القيامة، ويُقال لهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الاستِهْزاء بالله تعالى وآياتِه سببٌ للعَذاب، وهو كُفْر مُخرِجٌ

عن المِلَّة؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥].

وعلى هذا يَنبَغي أن يَلحَق هذا بالنِّكاح والطلاق والرجعة والعِتق؛ لأن هَزْله جِدٌّ، وهو أَمْرٌ لا خِلافَ فيه بين العُلماءِ أن مَن قال قولًا يَستَهزِئ به في دِين الله تعالى فإنه يَكفُر.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٤٩].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: أَصابه، والمُراد بالإنسان هنا: الجِنْس، وقيل: المُراد به: الكافِر، فأمَّا مَن قال: المُراد به: الجِنْس، وإنه شامِل للمُؤمِن والكافِر قال: إن هذه هي طَبيعة الإنسان، وإن المُؤمِن الذي يَعتَرِف لله تعالى بالنِّعَم ويَشكُرها، وهذا خارِجٌ عن طبيعة الإنسان، يَعنِي: أن الله تعالى مَنَّ عليه، فخرَج عن مُقتَضى طبيعة البَشَر.

وأمَّا مَن قال: إن المُراد به أيِ: الإنسان الكافِر، فيَكون من باب العامِّ الذي أُريد به الخاص، قال: لأن هذا الوَصفَ المَذكور لا يَكون إلَّا من الكافِر، هو الذي إذا مسَّه الضُّرُّ ابتَغى، يَعنِي: رجَع إلى الله تعالى، وإذا أَعطاه النِّعْمة بطِر بها وقال: ليس لأحَد عليَّ فيها فَضْل، وإنما ذلك على عِلْم، وهذا الأخيرُ أقرَبُ؛ لأن المُؤمِن إذا خوَّله الله تعالى نِعْمة شكَر ولم يَقُل: أُوتيتُه على عِلْم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الجِنْس] يَعنِي: المُراد بالإنسان الجِنْس، فيَشمَل المُؤمِن والكافِر، ولكن تَبيَّن ممَّا تَكلَّمنا فيه أن الظاهِر أن المُراد به: الكافِر فيَكون عامًّا أُريد به الخاصُّ، والعامُّ الذي يُراد به الخاصُّ مَوْجود في اللغة العربية

بكَثْـرة، مثـل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣]، فنَحْن نَعلَم أنه ليـس كل الناس جاؤُوا يَقولون بل القائِل واحِـد، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ أيضًا نَعلَم أنه ليس جميع الناس جمَعوا، وإنما المُراد واحِد أو أُناس مُعيَّنون، أمَّا كل بنو آدَمَ فلا، فالمُراد بالإنسان هنا: [الجِنْس] على قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعلى القول الذي اختَرْناه (الكافِر).

فإذا قال قائِل: يَقول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كيـف يَكون المُراد بالإنسان الجِنْس والكُفَّار كلهم لا يَعلَمون؟

فالجَوابُ: هناك بعض الكُفَّار يَعلَم حَقَّ ما هو عليه، لكنه مُعانِد.

وإذا قِيل: في الآية: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَقول في الحاشِية: فيه دَلالة على أن المُراد بالإنسان الجِنْس، فكيف استَدَلَّ بهذا؟

الجَوابُ: لَمَّا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإن هناك مَن يَعلَم وهُمُ المُؤمِنون، فيَكون المرادُ بـ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ الجِنْس؛ لأن غيـر المُؤمِن كلهم لا يَعلَمون، والراجِح أنه الكافِر.

والجوابُ عن هذا: أن نَقول: مِن الكُفَّار مَن يَعلَم، لكنه مُستكبِر.

فإذا قال قائِل: هناك بعض المُؤمِنين ناقِصو الإيمان إذا أُوتي النِّعْمةَ قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أَلَا يُؤيِّد أن الإنسان المَقصود به الجِنْس؟

فالجَوابُ: نعَمْ، لكن هو كافِر بهذه المَقالةِ، ليس كافِرًا كُفرًا مُخرِجًا عن المِلَّة، إنما هو بهذه المَقالةِ كافِر.

وقد يَكون كافِرًا كُفْرًا مُخرِجًا عن المِلَّة، إذا اعتَقَد أن الله تعالى ليس له سبَب في

حُصول هذه النِّعمةِ، وأنه هو الذي حصَلت به، لا أنه سبَب فهو كُفْر؛ لأن إضافة النِّعَم إلى أسبابها بالإعراض عن المُسبِّب وهو الله تعالى، واعتِقادُ أن هذه النِّعمةَ ليس لله تعالى فيها عَلاقة فهذا كُفْر بالرُّبوبية.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ﴾ أَعطَيْناه ﴿نِعْمَةً﴾ إنعامًا ﴿مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً﴾ أي: إنعامًا] في هذا نظَر؛ لأن الإنعام فِعْل المُنعِم، والنِّعمة عَطاء المُنعِم، يَعنِي: الشيء المُعطَى، فهل الأَليقُ أن نُفسِّر النِّعْمة بالإنعام، أو أن نُفسِّر النِّعمة بما أُعطيَه الإنسان؟

الجَوابُ: الثاني هو الظاهِر وهو والواقِع أيضًا؛ لأن التَّخويل، يَعنِي: أن هناك شيئًا مُخوَّلًا وهو النِّعْمة من أولاد ورِزق وزَوْجات ومَساكِنَ وغير هذا.

فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أي: سأَلنا أن نَكشِف ضُرَّه ثُمَّ إذا كشَفْنا الضُّرَّ وخوَّلناه نِعمةً منَّا بزَوال الضَّرَر الذي حصَل له قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يَعنِي: أُوتِيت هذا الشيءَ على عِلْم، وما المُراد بالعِلْم هنا: هلِ المَعنَى أُوتِيته على عِلْمٍ من الله تعالى أني له أَهْل فأنا جَديرٌ به ومُستَحِقٌّ له أو المَعنى: على عِلْم مِنِّي بوجود المَكاسِب.

فهو يَشمَل الأَمْرين فهو يَقول: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ بأني أَهْل له وأُوتِيته أيضًا من كَسْبي، فيَكون بذلك مانًّا على الله عَزَّوَجَلَّ، ويَكون مُستَبِدًّا بنَفْسه يَجمَع بين الأمرين:

الأوَّل: المِنَّة ويَقول: ليس لله تعالى فَضْل عليَّ، بل هو أَعطاني ذلك لأنه يَعلَم أنني أهلٌ لذلك.

والثاني: الاعتِداد بالنَّفْس وعدَم إرجاع الحَقِّ لله عَزَّوَجَلَّ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ مِن الله بأَنِّي له أَهْل] وهذا أَحَدُ القَوْلين في الآية، والقول الثاني: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ أي: على حِذق ومَهارة فيما فعَلـت، والضمير يَرجِع إلى ما خُوِّل، أي: أُوتيت الذي خوَّلته، فالهاء في ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ يَعود على المُخوَّل.

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾: ﴿بَلۡ هِيَ﴾ هل يَقصِد المَقالة أو الحال؟

الجَوابُ: يُحتَمَل هذا وهذا، ويُحتَمَل أن الله عَزَّوَجَلَّ إذا أَعطاهم هذه النِّعَم أَعطاه إيَّاها فِتنةً له، ويُحتَمَل أن هذه المَقالةَ فِتنةٌ له؛ ولكن المَعنَى الأوَّل أَقرَبُ: أن الله تعالى يَفتِن العبد بإزالة الضَّرَر عنه وحصول الخير والنِّعْمة، وكم من إنسان افتُتِن بنِعَم الله عَزَّوَجَلَّ، فكان مُستَقيمًا وبالنِّعْمة يَنحَرِف، وفي الحديث أن الله تعالى قال: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْفَقْرُ»[1]، فالله عَزَّوَجَلَّ على كل شيء قَدير، وقد يَختار لعَبْده ما هو أَنفَعُ من حيث لا يَشعُر.

فالظاهِر أن المُراد: بقوله تعالى: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: بل هذه الحالُ فِتْنة، وهي تَحويل النِّعَم، وقد قال سُلَيْمانُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَلۡ هِيَ﴾ أي: القَولة ﴿فِتۡنَةٞ﴾ بليَّة يُبتَلى بها العَبْد] هذا ما جرَى عليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المُراد بالفِتْنة: القولةُ التي قالها.

ولكن الصحيح: أن الفِتنة هي النِّعْمة التي أَعطاها الله تعالى إيَّاه، أو الحال التي كان عليها حينما كان قد مَسَّه الضُّرُّ، ثُمَّ رفَع الضُّرُّ عنه وأُبدِل بنِعْمة فهذه فِتنة يَفتِن

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٨ - ٣١٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٢٣١)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الله تعالى بها العِباد، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الاستِدْراك هنا يَعنِي أن هؤلاء الذين غُمِروا بنِعْمة الله تعالى غفَلوا عن المُنعِم بها وعن مُسْديها ومُوليها، فكانوا لا يَعلَمون شُكْر هذا المُنعِم، وكانوا لا يَعلَمون أيضًا أنها فِتْنة، بل يَأخُذ الإنسان النِّعَم على أنها أمرٌ طَبيعيٌّ ويَغفُل عن أن الله تعالى يَمتَحِنه بها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن التَّخويل استِدْراجٌ وامتِحان] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: أكثَر الناس، وإنما عاد الضمير وهو غائِب على مَرجِعٍ غير مَذكور للقَرينة والسِّياق، ويُحتَمَل أن المُراد ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: أكثَر بني الإنسان فيَكون الضمير هنا عاد على الإنسان باعتِبار المَعنَى لا باعتِبار اللَّفْظ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أن التَّخويل استِدْراجٌ وامتِحان] إذا قال قائِل: بماذا نَعلَم أن التَّخويل استِدراجٌ وامتِحان؟

فالجَوابُ: نَعلَم ذلك لكون الإنسان مُصِرًّا على المَعصية ونِعَم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَتْرَى عليه، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]، فهذه هي العَلامة.

فإذا رأَيْت الله تعالى يُنعِم عليك وأنت مُقيمٌ على مَعصيته فاعلَمْ أن ذلك استِدراج، أمَّا إذا رأَيْت الله تعالى يُنعِم عليك وأنت قائِمٌ بطاعته فاعلَمْ أن هذا من زيادة فَضْله ونِعَمه، قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الإنسان يَلجَأ إلى الله تعالى عند الشدائِد، وهذه طبيعة فِطْرية لا يَتخَلَّف عنها إلَّا مَن نُكِس قَلبُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن المُشرِكين في زماننا الذين يَدْعون مع الله تعالى غَيْره أَشَدُّ شِرْكًا من السابِقين؛ لأن السابِقين إنما يُشرِكون في الرَّخاء، وإذا مسَّهمُ الضُّرُّ لجَؤُوا إلى الله تعالى، أمَّا اللاحِقين فإنهم يُشرِكون في حال الشِّدة كما يُشرِكون في حال الرَّخاء إذا أَصابهم الضُّرُّ نادوا يا فُلانُ! يا فُلانُ! يا فُلانُ! فهذا أَشَدُّ شِرْكًا من الأوَّلين، وهذا أيضًا مُخالِف للفِطْرة التي فِطْر الناس عليها، لأن الإنسان لا يَلجَأ عند الشدائد إلَّا بمَن يُؤمِن أنه يَكشِف هذه الشدائِدَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الإنسان إذا أُصيب بالنِّعْمة نَسِيَ نِعْمة الله تعالى وأَضافها إلى غيره.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ضرَر الإعجاب بالنَّفْس حيث يَقول تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله تعالى يَبتَلي بالنِّعَم كما يَبتَلي بالنِّقَم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾، وقد قال سُلَيمانُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن أكثَرَ الناس غافِلون عن هذه المَسألةِ، أي: عن كون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَبتَليهم بالنِّعَم فيَظُنُّون أن النِّعَم دليلٌ على الرِّضا فيَستَمِرُّون في مَعاصيهم ويَقولون: لو كان الله تعالى غاضِبًا علينا ما أَعطانا، ولكن من العامة مَن يَقول العِبارةَ

المَشهورة: (عَطاه لا يَدُلُّ على رِضاه) فعَطاء الله تعالى لا يَدُلُّ على رِضاه، قد يَكون هذا من باب الاستِدْراج بالنِّعَم حتى يَهلِك الإنسان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران:١٧٨]، وصحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»(١).

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ مِن الناس مَنْ منَّ الله عليهم بالعِلْم والفِراسة والتَّدبُّر والتَّأمُّل فعرَفوا الأمور على حَقائقها، يُؤخَذ هذا من قوله تعالى: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ فإن الأكثَر ضِدُّ الأقلِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: فَضيلة العِلْم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لأن الذين يَعلَمون يَعرِفون هذه الأمورَ، وأنها ابتِلاء وامتِحان فيَتَّعِظون بها.

فإذا قال قائِل: إذا امتَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العَبْد بنِعْمة متى يَعرِف العبد أن هذا امتِنان أو امتِحان؟

فالجَوابُ: إذا كان مُستَقيمًا مُقيمًا على طاعته فهو امتِنان، وإذا كان على العكس فهو امتِحان.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾، رقم (٤٦٨٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣)، من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٥٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر:٥٠].

قوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ الضمير يَعود على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ لكن قد قالها الذين من قَبْلهم مثل قارونَ كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ ثُمَّ قال الله تعالى بعدها: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾: (ما) هذه نافِية و﴿أَغْنَىٰ﴾ بمَعنَى: دفَع، أي: ما دفَع عنهم ما كانوا يَكسِبون، أي: لم يُغنِ عنهم ما كسَبوا شيئًا من عَذاب الله، وهكذا النِّعَم لا تُغنِي مَن افتَخَر بها وغفَل بها عن طاعة الله شيئًا، ألم تَرْوا إلى عاد استكْبَروا في الأرض ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]؛ لأن الله تعالى أَعطاهم قوَّة عظيمة، فقال الله تعالى ردًّا على طُغيانهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ وتَأمَّلوا كيف عُذِّب هؤلاء! بالرِّيح وهي أَلطَف شيء فعُذِّبوا بها انتِقامًا منهم حين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ يَعني: لم يَهلِكوا بالصواعِق ولا بالحاصِب من السماء، وإنما أُهلِكوا بهذه الريحِ اللَّطيفة حتى إنهم لَمَّا رأَوْا ما جاءت

به هذه الريحُ من الرِّمال ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَا﴾ فقال الله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف:٢٤].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من الأُمَم كقارونَ وقومه الراضِين بها] أي: بهذه المَقالةِ، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: قالوا بعد أن أَعطاهم الله تعالى النِّعَم: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾.

وهذا قد صرَّح الله تعالى به عن قارونَ في سورة القَصص حين خرَج على قومه في زِينته فنَصَحوه، وقالوا له: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨]، فالمَقالة هي المَقالة، وقد سبَقَ أن الإنسان يُعجَب بعمَله فيَظُنُّ أن ما حصَل له من النِّعَم بسبَب عمَله مع أنه من فَضْل الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾: (ما) هذه نافية وقد سبَقَ شَرْحها.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أي: جَزاؤها] أي: السَّيِّئات، ولكنه عبَّر بالسيِّئات نفسِها؛ لأن الجزاء من جِنْس العمَل وهو مُقابِلٌ لها لا يَزيد.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الشَّرَّ يَتْبَع بعضُه بعضًا؛ لقوله: ﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَسلية الرسول ﷺ فإن هؤلاء الذين قالوا هذا في عَصْره قد قاله مَن سبَقَهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن لأهل الشَّرِّ قُدوةً يَقتَدون بها كما أن لأهل الخَير قُدوةً يَقتَدون

بها؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبيِّ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن كل ما كسَبه الإنسان من مال أو جاهٍ فإنه لا يُغنيه من الله تعالى شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ حتى لو كسَب أقوى صَنْعة في الأرض فإنها لا تُغنِي عنه من الله تعالى شيئًا، وإذا أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُتلِف هذه القُوَّةَ أتلَفَها بكلِمةٍ واحِدةٍ منه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه يَجِب على الإنسان اللُّجوء إلى الله تعالى، حيث إن جميع ما كسَبه من مال، أو جاهٍ، أو ولد، أو زوجة، أو غيره لا تُغنِي عنه من الله تعالى شيئًا، فلا يَرجِع إلَّا إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الردُّ على الجَبْرية؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ فإن عمَلَ الإنسان كَسْبٌ له، أمَّا الجَبْرية فيَقولون: إن عمَل الإنسان ليس كَسْبًا له؛ لأنه مُرغَمٌ عليه ومُجبَرٌ عليه فلا يَكون كَسْبًا له، ولا يُضاف إليه.

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٥١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر:٥١].

قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ يَعنِي: أَصابهم جزاءُ السيِّئات، لكنه سمَّى الجزاء سَيِّئاتٍ؛ لأن السَّيِّئاتِ سببُه، وليَتبيَّن بذلك أن الجزاء على قَدْر العمَل لا يَختَلِف، فكأنه هو نَفْس العمَل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ استِئْنافية، و(الذين) مُبتَدَأ، وجُملة: ﴿سَيُصِيبُهُمْ﴾ خبَر ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ كما أَصاب مَن قَبْلهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾: (ما) نافِية، وهل هي حِجازيةٌ أو تَميميةٌ؟

الواقِع أنه ليس في اللَّفْظ ما يَدُلُّ على هذا ولا على هذا، ولكن القرآن بلُغة قُرَيْشٍ بدليل قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١]، وعلى هذا فتُحمَل (ما) كُلَّما جاءَت على أنها حِجازية، ولكن كيف نُعرِبها في مثل هذا التَّركيبِ: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾؟

نَقول: (هُمْ) اسمُها، والباء حرف جَرٍّ زائِدٌ، و(مُعجِزين) خبَرُها مَنصوبٌ بياء مُقدَّرة مَحَلَّ الياء المَوجودة؛ لأن الياء الموجودة علامة الجَرِّ وليسَتْ علامة النَّصْب،

بل هي علامة الجَرِّ بحرف الجَرِّ الزائِد الباء، فجعَلنا العمَل للظاهِر وهو الباء، أمَّا المَحلُّ فقدَّرْناه تقديرًا، وعلى هذا فيَكون مَنصوبًا بياء مُقدَّرة بدَل الياء التي عمِل فيها حرفُ الجَرِّ الزائِد.

وقوله تعالى: ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ اسمُ فاعِل من الفِعْل (أَعجَز)، يَعنِي: لن يُعجِز الله عَزَّوَجَلَّ فلا يَستَطيع أن يُعاقِبهم، بل عُقوبتهم أَمْرٌ هيِّن على الله عَزَّوَجَلَّ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: قُرَيْش ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائِتِين عذابَنا، فقُحِطوا سبع سِنينَ، ثم وُسِّع عليهم]؛ فقُحِطوا سبع سِنينَ بدَعْوة النبيِّ ﷺ حين قال: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ**»(١)، فقُحِطوا سبع سِنينَ قَحْطًا شديدًا حتى إن الإنسان منهم يَتَراءَى السماء فيَحول بينه وبينها غبَشٌ كأنه دُخَان من شِدَّة الجوع والتَّعَب.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن العُقوبة تَكون على قدر العمَل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ﴾ مع أنه الذي أَصابهم ليست سَيِّئاتٍ ولكِنْ جزاؤُها، إلَّا أنه لَمَّا كان الجزاء من جِنْس العمَل صحَّ أن يُعبَّر بالعمَل عنه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تهديد هؤلاء الذين كانوا في عهد النبيِّ ﷺ أن يُصيبهم ما أَصاب الأَوَّلين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: شُؤْم الظُّلْم؛ لأنه يُوقِع صاحِبه بالهَلاك.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب دعاء النبي ﷺ: «اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»، رقم (١٠٠٧)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب الدخان، رقم (٢٧٩٨)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن مَن عصَى الله تعالى فهو ظالِمٌ لنفسه، وكذلك لغيره إن تَعدَّت مَعصيته إلى الغير، فلو جنَى على أحَدٍ مُحتَرَم من مُسلِم أو يَهودِيٍّ ذِمِّيٍّ أو نَصرانيٍّ ذِمِّيٍّ أو غيرهم من أهل ا لكُفْر الذِّمِّيِّين فإنه يَكون ظالِمًا لنفسه وظالِمًا لغيره.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه لا أحَدَ يَفوت الله تعالى ويُعجِزه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾، وقد قال الشاعِر الجاهِليُّ:

أَيْـــنَ المَفَـــرُّ وَالْإِلَـــهُ الطَّالِـــبُ وَالْأَشْرَمُ المَغْلُـوبُ لَـيْسَ الْغَالِـبُ[1]

فلا أحَدَ يُعجِز الله عَزَّوَجَلَّ، أو يَفوت الله تعالى لا في السماءِ ولا في الأرض.

• • ۞ • •

(١) نسبه ابن هشام في السيرة (١/ ٥٣) لنفيل بن حبيب.

الآيــة (٥٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر:٥٢].

ارتباط هذه الآيةِ بما قبلها ظاهِر؛ لأنه تكلَّم عن الإنسان إذا أَصابه الضُّرُّ، وإذا أَصابته النِّعْمة، ثُم عقَّب ذلك بأن هذا الأمرَ كلَّه بيَدِ الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ﴾ الهمزة هنا للاستِفْهام، والواو حرف عَطْف، والمعطوف عليه إمَّا أن يَكون مَحذوفًا ويُقدَّر بما يُناسِب المَقام، وإمَّا أن يَكون على ما سبَق، فإذا قُلْنا: إنه ما سبَق كانت الهَمزةُ في تَقدير التأخير عن حَرْف العَطْف، والتَّقدير: وألَمْ يَعلَموا، وإذا قُلنا بالأوَّل صارَتِ الهَمزةُ داخِلةً على مَحذوف تَقديرُه: أجِهلوا ولم يَعلَموا.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾: ﴿يَبْسُطُ﴾ يَعنِي: يُوسِّع و﴿ٱلرِّزْقَ﴾ العِطاء.

وقوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ لِمَن يَشاء أن يُوسِّعه له امتِحانًا لهذا الشخصِ الذي بَسَط له.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يَعنِي: يُضيِّق امتِحانًا أيضًا؛ لأن الضِّيق فيه امتِحان، والسَّعة فيها امتِحان، لكن الغالِب عند الناس في العُرْف: أن الضِّيق يُسمَّى ابتِلاءً،

أي: بلاء، وأمَّا التَّوْسِعة فهي امتِحان مع أن الابتِلاء بمَعنَى الامتِحان، فإن الإنسان يُبتَلى فيما يُبتَلى به ليَمتَحِنه الله عَزَّوَجَلَّ هل يَصبِر أو يَتضَجَّر، وأمَّا ما ابتَلَى الله تعالى به من النِّعَم فهو هل يَشكُر أو يَكفُر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المُشار إليه البَسْط والتَّضييق، و﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: علامات على أن الله تعالى وحدَه هو المُتصَرِّف؛ ولهذا نَجِد بعض الناس يَكون عنده حِذقٌ في البَيع والشِّراء وتَحصيل المال، وعنده قُدرة، وعنده قُوَّة، ولكن يُضيَّق عليه، ونَجِد بعض الناس دون هذا، يَعنِي: أنه لا يَهتَمُّ بالأمور، وليس عنده ذاك الحِذقُ فيُوسِّع الله تعالى عليه، وهذا يَدُلُّ على أن الله عَزَّوَجَلَّ هو المُتصرِّف في عِباده يُوسِّع على هذا ويَقدِر على هذا، ولكن لا يَعنِي هذا أننا لا نَفعَل الأسباب، كما سنَذكُر -إن شاء الله تعالى- في الفوائِد.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يُوسِّعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ امتِحانًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضيِّقه لَمن يَشاء ابتِلاءً].

والحقيقة أن التَّوسيع والتَّضييق كِلاهما امتِحان، وكِلاهما ابتِلاء، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥]، لكن مشَى المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذا من باب اختِلاف التَّعبير والمَعنَى واحِد.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به] أي: بهذا البَسطِ والتَّضييق، فمَن آمَن بذلك -أي: بالله عَزَّوَجَلَّ وببَسْطه وتَضييقه- عرَف بذلك حِكْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَقرير هـؤلاء بأن كل شيء من عِنـد الله تعالى؛ بَسْـط الرِّزْق، وتَضييقُه من عند الله تعالى، وهم يَعلَمون ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ فإن مثل هذا التَّركيبَ يُفيد التَّقرير.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات المَشيئة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ وليُعلَم أن كل شيء علَّقه الله تعالى بالمَشيئة فإنه مَقرونٌ بالحِكْمة. أي أنه ليسَتْ مَشيئة الله تعالى مَشيئةً مُجرَّدة هكذا، تَأتي عفوًا، بل هي مَشيئة مَقرونة بالحِكْمة، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]، فلمَّا بيَّن أن مَشيئتهم بمَشيئة الله تعالى بيَّن أن ذلك مَبنيٌّ على عِلْمٍ وحِكْمة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الرِّزْق لا يَحصُل بالحِذْق، وإنما هو من عند الله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، فإذا قُلْنا بهذه الفائِدةِ أَشكَل علينا: هل مَعنَى ذلك أن نُبطِل الأسباب؟

والجوابُ: لا، بل نَفعَل أسباب بَسْط الرِّزْق لنتَحاشَى تَضييقه، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك:١٥]، فأمَر أن نَمشِيَ في مَناكِبها وأن نَأكُل من رِزْقه؛ لأننا إذا مَشَيْنا في المَناكِب وسَعَيْنا في أسباب الرِّزق حصَلَ فأَكَلْنا من الرِّزْق.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَمام مُلْك الله تعالى وسُلطانه؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ﴾ ﴿وَيَقْدِرُ﴾ وهذا يَدُلُّ على تَمام المُلْك والسُّلْطان، وأنه لا مُعارِضَ له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الإيمـان وَسِيلة للاهتِداء ومَعرِفة الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وإذا كان هذا الحُكمُ مُعلَّقًا على هذا الوصـفِ، فإن القاعِدة: أن ما عُلِّق على وَصْفٍ فإنه يَقوَى بقُوَّته ويَضعُف بضَعْفه.

إذن: كلَّما قوِيَ الإيمان ظهَر للإنسان من آيات الله تعالى ما لم يَظهَر له مع ضَعْف الإيمان، وكلَّما ضَعُف الإيمان ضَعُفت مَعرِفة الإنسان وإدراكُه للآيات التي يُنزِلها الله عَزَّوَجَلَّ من الوَحْيِ والتي يُقدِّرها من القضاء.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ الخِطاب للنبيِّ ﷺ؛ لأنه هو الذي أُوحِيَ إليه هذا القرآنُ، واعلَمْ أن القُرآن كلَّه قد قيل للنَّبيِّ ﷺ فيه: ﴿قُلْ﴾، لكن بعضه يُصرَّح فيه بـ﴿قُلْ﴾، وبعضه لا يُصرَّح؛ لأن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، يَعُمُّ القُرآن كلَّه، فيَجِب عليه أن يَقول للناس القُرآن كلَّه، لكن بعض الآيات أو بعض الأحكام تُصدَّر بـ﴿قُلْ﴾ للعِناية بذلك، أي: بذلك الحُكمِ المُصدَّر بـ﴿قُلْ﴾، فهنا يَقول الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: قُلْ يا مُحَمَّدُ ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: قُلْ لهم مُبلِّغًا عن الله تعالى أن الله تعالى قال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يَعنِي: أَبلِغ عِبادي بذلك، أَبلِغْهم بأني أَقول: يا عِبادي، ولا يَصِحُّ أن نَقول: قل أنت يا مُحَمَّدُ: يا عِبادي. فتُضيف المَعنَى إلى نَفْسك، بل المَعنَى: أَبلِغْ عِبادي أني أَقول: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وقُلْنا بهذا التَّفسيرِ؛ لأن

النبيَّ ﷺ لو قال للناس: (يا عِبادي الذين أَسرَفوا على أَنفُسِهم) فإنه لا يَستَقيم الكلام، ولكن المَعنَى: قل للناس. أي: أَبلِغْهم بأني أَقول: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾، وفي قِراءة أُخرى: (لَا تُقْنِطوا).

فإن قال قائِل: كيف يُبلِغ النبيُّ ﷺ قولَه تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؟

فالجَوابُ: المَعنَى هنا: قل مُبلِغًا عَنِّي: يا عبادي. فيَقول الرسول ﷺ مثلًا: قال ربُّكم: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ﴾، فهذا كيفية إبلاغ هذه الآيةِ.

وقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ يَشمَل العِباد بالمَعنَى الخاصِّ، والعِباد بالمَعنَى العامِّ، يَعنِي: حتى الكُفَّار، يُقال لهم مثلُ هذا القولِ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: جاوَزوا الحَدَّ في الرِّعاية على الأنفُس، والواجِب على الإنسان في رِعاية نَفْسه أن يَرعاها حَقَّ رِعايتها بحيث يَقوم بما يُصلِحها ويَتجَنَّب ما يُفسِدها، فإذا لم يَفعَل فقد أَسرَف على نَفْسه.

فالمُراد بالإِسْراف أنهم جاوَزوا الحَدَّ في رِعايتها، وذلك بأن أَوْقَعوها في المَعاصِي أو جنَّبوها الطاعاتِ؛ مثال ذلك: رجُل سرَق، والسرِقة إسراف على النَّفْس؛ لأن الواجِب: حِماية النَّفْس من السرِقة، وكذلك رجُل شرِب الخَمْر، هذا إسراف على النَّفْس، وأيضا رجُل سجَد لصَنَم، فهذا إسراف على النَّفْس؛ لأنه مُجاوَزة للحَدِّ.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ القُنوط واليَأس مَعناهُما مُتَقارِب، لكنهم فرَّقوا بينهما بأن القُنوط أَشَدُّ اليأسِ، وأمَّا اليَأْس فمَعروف أنه عدَم الرجاء وعدَم الأمَل في حُصول الشيء؛ فقوله تعالى: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: من رحمة الله لكم؛ فـ(رَحْمة) هنا مُضافة إلى الفاعِل، أي: من رحمة الله تعالى إيَّاكم.

وتكون الرحمة بأن يَهدِيَ الله عَزَّوَجَلَّ الرجُل إلى التَّوْبة والاستِغْفار ويَتوب عليه، فأنت لا تَقنَط من رحمة الله تعالى لا بنَفْسك ولا بغَيْرك، ولكنِ افعَلِ السبَب؛ فلو قال قائِلٌ مُسرِفٌ على نَفْسه: أنا لا أَقنَطُ من رحمة الله. ولكنه يَفعَل المَعصية مُستَمِرٌّ عليها، نَقول: هذا غلَط؛ لأنك إذا استَمْرَرْت على المَعصية فأنت آمِنٌ من مَكْر الله تعالى.

وكلا الطَّرَفين ذَميم: القُنـوط من رحمة الله تعالى، والأَمْن من مَكْر الله تعالى، لكن نَقول: افعَلِ السبَب ولا تَقنَط من رحمة الله تعالى.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(لَا تقْنِطُوا) بكَسْر النون وفتحها، وقُرِئَ بضَمِّها] ففيها ثلاث قِراءات: قِراءتان سَبْعيَّتان وقِراءة شاذَّة ليست سَبْعية؛ لأن مُصطَلَح مُؤلِّف الجَلالَيْن رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا قال: (فِي قِراءة) فهي سَبْعية، وإذا قال: (قُرِئ) فهي شاذَّة، وإذا قال: بفَتْح وضَمٍّ فهمـا سَبْعيتان، فهنا الآنَ قوله تعالى: ﴿نَقْنَطُواْ﴾ في النون ثلاث حرَكات: (تقنِطوا) ﴿نَقْنَطُواْ﴾ وهاتان سَبعيتان، و(تقنُطوا) وهذه شاذَّة، والقِراءة الشاذَّة لا يُقرَأ بها في الصلاة، لكن يُستَدَلُّ بها في الأحكام إذا صحَّـتْ؛ وقال شيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بل إذا صحَّتْ، فإنه يُقرَأ بها في الصلاة كما يُستَدَلُّ بها في الأحكام.

والفَرْق بيـن الشاذَّة والسَّبْعية أن العُلَمـاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ اصطَلَحوا أن ما جاء عن طريق القُرَّاء السَّبْعة المَشهورين فهي سَبْعية، وما جاء عن طريقٍ آخَرَ، ولو صحَّ فهو عندهم شاذٌّ.

فالشاذُّ إذَنْ: ما خرَج عن القِراءات السَّبْع، ولكنه يُحتَجُّ به في الأحكام، ولا يُقرَأ به في الصلاة إلَّا في رأْيِ شيخ الإسلام ابنِ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه يَقول: متى صحَّتِ

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٩٢-٣٩٣).

القِراءة عن النبيِّ ﷺ فإنها تُقرَأ في الصلاة وإن لم تكُن من القِراءات السَّبْع.

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير (تَقْنِطُوا): [تَيْأَسوا] والصحيح: أن هذا التَّفسيرَ تقريب؛ لأن القُنوط أشَدُّ اليَأْس، فهو أعلى درَجات اليَأْس فمَعنَى (تَقْنِطُوا) أي: يَبلُغ بكم اليَأْس أَشدَّه.

وقوله تعالى: ﴿مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ يَعنِي: من أن يَرحَمكم الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الإنسان إذا قنَط من رحمة الله تعالى وأَيِس لم يَتعرَّض للرحمة؛ لأنه آيِسٌ؛ ولهذا يُقال: اليَأْس مِفتاح التَّرْك. وأَضرِب لكم مثَلًا: حاوِلْ أن تَحُلَّ عُقدةً من خَيْط، فإذا أَعْيَتْك فإنك تَترُكها، وإذا أَيِسْت منها تَرَكْتها، لكن بالنسبة لرحمة الله تعالى لا تَيْأَس مهما عمِلت من الذُّنوب والمَعاصِي فلا تَيْأَس.

وهنا نهيٌ وتَعليل: النهيُ في قوله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، والتَّعليل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لِمَن تابَ من الشِّرْك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾]، قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ﴾ مَأخوذٌ من المَغفِرة، وهي: سَتْر الذَّنب والتَّجاوُز عنه، وليسَتْ مُجرَّد السَّتْر؛ لأنها مَأخوذة من المِغفَر، وهو ما يُوضَع على الرأس عند الجِهاد للوِقاية، فهو جامِعٌ لأَمْرين: السَّتْر والوِقاية؛ فمثَلًا: الغُتْرة هذه لا نُسمِّيها مِغْفَرًا، وأيضًا الطاقية؛ لأنها مع أنها ساتِرة، لكنها ليسَتْ واقِيةً، لكن بَيْضة الحديد التي تُوضَع على الرأس عند القِتال نُسمِّيها: مِغفَرًا؛ لأنها ساتِرةٌ واقِية، فمَغفِرة الذُّنوب سَتْرها والتَّجاوُز عنها، فأنت إذا قلتَ: (اللهُمَّ اغفِرْ لي) تَسأَل الله تعالى شَيْئين: أن يَستُر ذُنوبك عن غيرك، والثانية أن يَتَجاوَز الله تعالى عنها.

وقوله تعالى: ﴿ٱلذُّنُوبَ﴾ هذه صيغة عُموم، وأكَّد هذا العُمومَ بقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾.

وهذه المَغفِرةُ التي أَثبَتَها الله عَزَّوَجَلَّ شامِلةٌ لكل ذَنْب فيمَن تاب، فكُلُّ مَن تاب تابَ الله تعالى عليه، أَلَا تَـرَى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠]، فهؤلاء جمَعوا بين الشِّرْك وقَتْل النَّفْس، وهو اعتِداءٌ على النُّفوس، والزِّنا وهو اعتِداءٌ على الأعراض والأَخْلاق، ومع ذلك إذا تابوا تابَ الله تعالى عليهم.

وهذه الآيةُ أَجمَعَ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ على أنها في التائِبين؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولم يُقيِّد فهي في التائِبين؛ أمَّا غير التائِبين فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، فغَيْر التائِبين نَجزِم بأن الله تعالى لا يَغفِر الشِّرْك في حَقِّهم، وما دون الشِّرْك تحت المَشيئة إن شاء عَذَّب وإن شاء غفَرَ.

فلِلإِنْسان حالان:

الحالُ الأُولى: التَّوْبة، فحُكْم ذَنْبه حينئذٍ الغُفران مهما عظُم الذَّنْب.

الحالُ الثانية: عدَم التَّوْبة، يَعنِي: بدون التَّوْبة نَقول: الشِّرْك لا يُغفَر قَطْعًا، وما دون الشِّرْك تحت المَشيئة.

ويُستَدَلُّ بالآية التي ذكَرْناها استِشْهادًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ

مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ يَستَدِلُّ بها المُسرِفون على أنفسهم بالمَعاصِي، فإذا نَهَيْتهم عن مَعصية قالوا لك: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

ونقول له -بكُلِّ بَساطة-: وهل تَجزِم أنت أنك ممَّن شاء الله تعالى أن يُغفَر له؟

الجَوابُ: لا، إذَنْ أنت على خطَر، وأنت الآنَ فَعَلْت سبب العُقوبة، وكونُكَ يُغفَر لكَ فهذا أَمْرٌ راجع إلى مَشيئة الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الجُملة تَعليلٌ للحُكْم الذي قبلها وهو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ والجُملة هنا مُؤكَّدة بمُؤكِّدين، هما: (إن) و(هو) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أمَّا كون (إنَّ) مُؤكِّدة فظاهِر؛ لأن (إنَّ) من أَدَوات التَّوْكيد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ كلِمة ﴿هُوَ﴾ لو حُذِفت لاستَقام الكلام بدونها، ويُسمِّيها النَّحويُّون: ضميرَ فَصْل، وبعضُهم يُسمِّيها: عِمادًا، وليس ضَميرَ الشَّأْن، وضمير الشأن هو الضمير الذي يَدُلُّ على القِصَّة، وليس مَوْجودًا، وإنما يَكون في الغالِب مَحذوفًا.

يَقولون: إن في ضمير الفِصْل ثلاثَ فوائِدَ:

الفائِدةُ الأُولى: التَّوْكيد.

الفائِدةُ الثانيةُ: الحَصْر.

الفائِدةُ الثالِثةُ: التَّمييز بين الخَبَر والصِّفة.

مثالُه: إذا قُلتَ: زيدٌ هو الفاضِل؛ فالضَّمير في (هو) ضمير فَصْل، ولو قُلتَ: زيدٌ الفاضِلُ. وحذَفْت الضميرَ لاستَقام الكلامُ، ولكن يُحتَمَل أن يَكون (الفاضِلُ) صِفةً، والخَبَر مُنتَظَرًا، ويُحتَمَل أن يَكون (الفاضِلُ) هو الخبَر، فإذا قلتَ: زيدٌ هو

الفاضِل. ارتَفَع الاحتِمال الأوَّلُ، وهو أن يَكون الفاضِل صِفَةً، وتَعيَّن الاحتِمالُ الثاني وهي: أن تَكون خبَرًا.

فاستَفَدْنا إذَنْ من هذا التَّركيبِ: (زَيْدٌ هو الفاضِل) فوائِدَ منها:

أوَّلًا: تَوْكيد الفَضْل في زَيْد.

ثانِيًا: حَصْر الفَضْل في زَيْد.

ثالِثًا: التَّمييز بين الصِّفة والخبَر.

فالآنَ ليس عندنا احتِمال أن تَكون صِفة، هذا من حيثُ المَعنَى في ضمير الفَصْل.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فيها فائِدتان:

الفائِدةُ الأُولى: التَّوْكيد.

الفائِدة الثانِية: الحَصْر.

أمَّا التَّمييز بين المُبتَدَأ والخبَر فهنا لا حاجةَ له؛ لأن الضميرَ يَقولون: إنه لا يُنعَت ولا يُنعَت به؛ وعليه: فتكون الفائِدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الحَصْرَ والتَّوْكيد.

أمَّا من حيثُ الإعْراب فالصحيح: أنه حَرْفٌ لا مَحَلَّ له من الإعراب، حرفٌ جاء في صورة الاسم، وليس له مَحَلٌّ من الإعراب.

والدليل على أنه لا مَحَلَّ له من الإعراب: كثير في القُرآن وغير القُرآن، قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء:٤٠]؛ لأنه إذا كان له مَحَلٌّ من

الإعراب صار مَحَلُّه الرفعَ وما بعده خبَر، ولكنه ليس له مَحَلٌّ من الإعراب، بل جاء عِمادًا أو جاء فَصْلًا.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ سبَقَ أن مَعنَى (المَغفِرة) سَتْـر الذَّنْب والتَّجاوُز عنه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: ذو الرحمة التي يَحصُل بها المَطلوب، فالرَّحْمة يَحصُل بها المَطلوب، والمَغفِرة يَزول بها المَرهوب، فالجَمْع بين الاسمَيْن الكريمين يُفيد السَّعادة الكامِلة، فالنَّجاة من المَرهـوب في قوله تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾؛ لأن هذا مَغفِرة للذَّنْب، وحُصول المَطلوب في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لأن الرحمة يَحصُل بها المَطلوب والخَيْرات والنِّعَم، وبزَوال المَرهوب وحُصـول المَطلوب يَتِمُّ الفَوْز، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥] فقوله تعالى: ﴿زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ فيه النَّجاة من المَرهوب؛ وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ﴾ فيه حُصول المَطلوب ﴿فَقَدْ فَازَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ مَعناه: الذي يَستُـر الذَّنْـب ويَتَجاوَز عنه، وهو مُشتَقٌّ من المِغفَر وهو الذي يَستُر الرَّأْس ويَقيه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لِمَن تاب مِن الشِّرْك]، وكذلك مَن تاب مِن غيره ممَّا دونَه، لكن ذَكَر المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الشِّرْك؛ لأنه أَعظَمُ الذُّنوب؛ ولأنه لا يُغفَر إلَّا بتَوْبة، وإذا تاب الإنسان من الشِّرْك وبَقِيَ على شيء من المَعاصي كان يَقوم بها في حال كُفْره، فهل تُغفَر هذه المَعاصِي أو لا بُدَّ لها من تَوْبة؟

الصحيحُ: أنه لا بُدَّ لها من تَوْبة كما لو كان يَشرَب الخَمْر وهو كافِر، ثُم أَسلَم وبَقِي على شُرْب الخَمْر، فإن إسلامه لا يُوجِب أن يَسقُط عنه إِثْم شُرْب الخَمْر؛ لأنه

لم يَتُبْ منها، لكن إذا تاب من الشِّرْك ولم يُصِرَّ على المَعاصي الأُخرى، ولم تَطرَأ له على بالٍ فإن جميعَ ذُنوبه تُغفَر.

فالتائِبُ من الشِّرْك في الحقيقة له ثلاث حالات:

١- إمَّا أن يَستَحضِر أنه تاب من الشِّرْك ومن جميع المَعاصي التي كان يَعلَمها، فهذا لا شكَّ في أن تَوبَتَه تَعُمُّ كلَّ ذَنْب.

٢- وإمَّا أن يَتوب من الشِّرْك مع الإصرار على بعض المَعاصي التي كان يَفعَلها في حال الشِّرْك، فهنا لا تُغفَر له هذه المَعاصي التي أَصَرَّ عليها؛ لأنه استَمَرَّ فيها مثل أن يَكون مُعتادًا لشُرْب الخَمْر في حال كُفْره فيُسلِم وهو مُصِرٌّ على شرب الخَمْر، فإنه لا يُغفَر له ما قد سلَفَ من الذُّنوب؛ قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨].

٣- وإمَّا أن يَتوب من الشِّرْك ولم يَطرَأ على باله بَقية المَعاصي، لكنه لم يَفعَلها بعد إسلامه، يُغفَر له جميع الذُّنوب؛ لأنها تَندَمِج الصِّغار بالكِبار فيُغفَر له جميع الذُّنوب.

فإن قال قائِل: هل يَجزِم الإنسان إذا تاب من الذَّنْب أن الله عَزَّوَجَلَّ تاب عليه؟

فالجَوابُ: نعَمْ، إذا تُبتَ توبةً نَصوحًا، فإن الله تعالى يَقبَلها، لكن مَن الذي يَقول: إن تَوبته نَصوحًا، فالمُشكِل الذي يَكون من فِعْل العَبْد لا من فِعْل الربِّ، فالربُّ إذا وقَع فِعْل العَبْد على ما يَرْضاه حصَل مَوعودُه؛ لأن الله تعالى لا يُخلِف المِيعاد، لكن الذي يَكون مَحَلَّ إشكال هو فِعْل العَبْد، هل هذه التَّوْبةُ توبة نَصوح على حسَب ما رُسِم في الشَّرْع؟ فنحن نَجزِم، لكن قد يَكون في قلب الإنسان بِلاء، فقد يَكون عنده شيءٌ من الرِّياء، أو يَكون عنده شيءٌ من المَنِّ على الله عَزَّوَجَلَّ، وغير ذلك من الأسباب، فحينئذ تَكون التَّوْبة غيرَ نَصوح.

مثل أن يَتوب الإنسان مثلًا من نظَر المَرأة الأجنبية، لكنه لا يَتوب من غَمْز المَرأة الأجنبية، فالتَّوْبة الأُولى لا تُقبَل؛ لأنه لم يَتُبْ من الذَّنْب الذي هو من جِنْس ذَنْبه، وكذلك إذا تاب الإنسان مثلًا من رِبا النَّسيئة، ولكنه رابَى رِبَا الفَضْل، فهذه توبة غيرُ نَصوحٍ.

ولهذا نَقول: مَن تاب إلى الله تَوْبةً نَصوحًا فإنه مَقبول التوبة، ومَنِ اختَلَّ فيه النُّصْح فليس مَقبولَ التوبة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ هذه الجُملةُ مَوْقعها ممَّا قَبْلَها أنها تعليلٌ للنَّهي عن القُنوط، يَعني: لا تَقنَطوا فإن الله تعالى يَغفِر الذنوب جميعًا إذا استَغفَرْتُموه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليلٌ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ تعليل لقوله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ فهو تَعليلٌ لتَعليلٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجوب إبلاغ الرسول ﷺ عن الله تعالى هذا القولَ، ويُؤخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾؛ لأن الأصل في الأَمْر: الوجوب، لا سيَّما وأن هذا إبلاغٌ للرِّسالة، وإبلاغ الرسالة واجِبٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عِناية الله عَزَّوَجَلَّ بهذا الأَمرِ، أي: بإبلاغ عِباده أنه يَغفِر الذُّنوب جميعًا، حيث أمَرَ نَبيَّه أمرًا خاصًّا بأن يُبلِغ الناس بالإسلام، بأن يُبلِغ الناس هذه القَضيةَ، فالقُرآن كلُّه أُمِرَ النبيُّ ﷺ أن يُبلِغه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، لكن هناك أشياءُ خاصَّة يَنُصُّ الله تعالى عليها أن يُبلِغها،

وهـذا يَقتَضِي العِناية بها، مثل قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور:٣٠-٣١]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا﴾ [الزمر:٥٣]، فهـذه تَوْصيـة خاصَّـة بأن يُبلِغها الرسول ﷺ إلى الأُمَّة، فيَقتَضِي ذلك العِناية بهم.

ولْيُنتَبَهْ لهذه النُّقْطةِ: فإذا صدَّر الله تعالى الحُكْم بـ﴿قُلْ﴾ فهو دليل على العِناية به؛ لأن هذا أَمْر بإبلاغه على وجه الخُصـوص، أمَّا القرآن فأُمِر أن يُبلِغه على سبيل العُموم؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الخَلْق كلَّهم عِباد الله تعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾؛ لأن العِباد هنا المُراد بها: العِبادة العامة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن مَن تاب إلى الله تعالى تاب الله تعالى عليه من الشِّرْك فما دونَه، وهذا أمرٌ مُجمَعٌ عليه، لكن اختَلَف العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فيمَن قتَل نَفْسًا عمدًا هل له من تَوْبة؟

فرُوِيَ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه لا تَوبةَ لقاتِل[1]، فأَخَذ بها بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ وقالوا: إن القاتِل لا تَوبةَ له ولو تاب، ولكن هذا ليس بصحيح؛ لأنه مُخالِف للآيات والأحاديث الدالَّة على قَبول توبة التائِب من الشِّرْك فما دونَه.

ويَدُلُّ على بُطلان هذا القولِ قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾، رقم (٤٧٦٤)، ومسلم: كتاب التفسير، باب، رقم (٣٠٢٣).

عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

فهُنا ذكَر الله تعالى القَتْل، وذكَر الشِّرْك، وذكَر الزِّنا، وأَخبَر أن مَن تاب وآمَن وعمِل عمَلًا صالِحًا فيُعطَى زِيادةً على تَوْبته بأن يُبدِّل الله تعالى سيِّئاتِه حَسَناتٍ.

ومن السُّنَّة: ما قصَّه علينا رسول الله ﷺ عن رجُلٍ أَسرَف على نَفْسه فقتَل تِسعًا وتِسْعين نَفْسًا، ثُم سأَل عابِدًا من العُبَّاد: هل له من تَوْبة وقد قتَل تِسْعًا وتِسْعين نفسًا؟ فاستَعظَم العابِد هذا الذَّنبَ، وقال: ليس لك تَوْبة، تَقْتُل تِسعًا وتِسْعين نَفْسًا، ثُمَّ تَأتِي لتَقول: لي تَوْبة؟! ليس لك تَوْبة! فأَكمَل به المئة فقتَلَه، فأَتَمَّ به المئة؛ ثُمَّ دُلَّ على عالِمٍ، فسَأَله قال: إنه قتَل مئة نَفْس فهل له من تَوْبة؟ قال: نعَمْ، ومَن يَحول بينَك وبين التَّوْبة؟!

وهذا يَدُلُّكم على فَضْل العِلْم، وعلى قُبْح الجَهْل، فالجاهِل جنَى على نَفْسه، وأَيَّس هذا الآخَرَ من رحمة الله تعالى، فكان جَزاؤُه أن قُتِل.

فقال له العالِم: نعَمْ، ومَن يَحول بينك وبين التَّوْبة، ولكن أنت في قَرْيةٍ أهلُها ظالِمون اذهَبْ إلى القَرية الفُلانية -يَعنِي: فإنها مَرتَعٌ خَصْب لك- فذهَب، وفي أثناء الطريق جاءَه المَوْت، فأَرسَل الله تعالى إليه مَلائِكة الرحمة ومَلائِكة العَذاب فتَنازَعوا، فمَلائِكة الرحمة تَقول: أنا أَقبِض رُوحه؛ لأن الرجُل جاء تائِبًا مُهاجِرًا، ومَلائِكة العَذاب قالت: أنا أَقبِض رُوحه؛ لأن الرجُل مُسرِف ولم يَصِل إلى بلده الذي هاجَر إليها.

فأَرسَل الله تعالى إليهم حَكَمًا يَحكُم بينهم، وقال: قيسوا ما بين القَرْيتين فإلى أَيَّتِهما كان أقرَبَ فهو من أهلها، فقاسوا فوجَدوه أقرَبَ إلى القَرية الصالِحة بقليل

-بنحو شِبْر-، وقد قيل: إنه كان إلى غير الصالِحة أقرَبَ، لكنه في سِياق الموت من شِدَّة رَغْبته في الأرض الصالِحِ أهلُها كان يُزَحزِح نَفْسه، فقَبَضَتْه مَلائِكة الرحمة[1].

قالوا: فإذا كان هذا في الأُمَم السابِقة فهذه الأمةُ أَكرَمها الله تعالى من الأُمَم السابِقة، فكيف لا يَكون لها تَوْبة للقاتِل تَوْبة؟!

إذَنِ القول الراجِحُ: أن الآية هذه عامَّة حتى للقاتِل له تَوْبة، وقد حمَل ابنُ القيِّم[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما رُوِيَ عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا محمَلًا حسَنًا، فقال: إن قَتْل العَمْد تَتعلَّق به ثلاثة حُقوق: حقُّ الله تعالى، وحقُّ الميت، وحقُّ أَوْليائه: أمَّا حقُّ الله تعالى فإنه يَسقُط بالتَّوْبة بلا إشكالٍ، ولا يَخفَى مثل هذا عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ وأمَّا حقُّ الميت فلا يُمكِن إسقاطه الآنَ في الدنيا؛ لأنه انتَقَل عن الدُّنيا وسيُطالِب بحقِّه يومَ القيامة؛ وأمَّا حقُّ أَوْلياء المَقتول بأن يُسلِّم نَفْسه لهم، فإذا سلَّم نَفْسه لهم، فهذا دليل على صِدْق تَوْبته وتَبرأ ذِمَّته؛ هذا ما وجَّه ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامَ ابنِ عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا إليه.

وعِندي أنه إذا تاب: تاب الله عليه حتى عن حقِّ الميت المَقتـول، والله عَزَّوَجَلَّ يَتحمَّل حقَّ المَقتول يوم القِيامة ويُرضِيه.

وذلك لعُموم الأدِلَّة الدالَّة على أن مَن تاب من الذَّنْب وإن عظُم فإن الله تعالى يَتوب عليه، فإذا جاء هذا الرجُل تائِبًا وسلَّم نَفْسه لأَوْلياء المَقتول وقال: أنا الآنَ بين أيديكم إن شِئْتم القِصاص أو الدِّيَة أو العَفْو، فهذا أعلى ما يَقدِر عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٧٠)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٦)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الجواب الكافي (ص١٤٦-١٤٧).

فالقولُ الصحيحُ عندي: أنه يُعفَى عنه حتى حق المَقتول، وذلك بأن يَتحمَّله الله تعالى يومَ القِيامة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن المُذنِب مُسرِفٌ على نَفْسه ظالِمٌ لها؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، ويَدُلُّ لهذا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١].

والعَجيب: أن الظالِم لنَفْسه بالمَعصية إذا قِيل له: لماذا؟ قال: هذا القَضاءُ والقدَر! عسَى الله تعالى أن يَهدِيَني! وإذا ظلَمه أحَد بالضَّرْب فقال: لِمَ تَضرِبُني؟ قال: والله يا أخي، هذا قَضاء وقدَر؛ فلا يَرضَى بهذه الحُجَّة، وهو بظُلْمه لنَفْسه يَرضَى، وهذا تَناقُض عَجيب؛ يَعنِي: إذا ظلَمْت نَفْسك أَبَحْت أن تَحتَجَّ بالقَدَر، وإذا ظلَمك غيرُك لم تُبِحْ له أن يَحتَجَّ بالقدَر، وهذا جَوْر في الحُكْم وتَناقُض، فكيف تَرضَى أن تَظلِم نَفْسك ولا تَرضَى أن يَظلِمك غيرُك ويَحتَجَّ بالقدَر؟!.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَحريم القُنوط من رحمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، وجهُ الدَّلالة: أن الأصل في النَّهيِ التحريمُ، وقد دلَّتِ السُّنَّة على أن القُنوط من رحمة الله من كبائر الذُّنوب؛ لأنه ظنٌّ ما لا يَليق بالله جَلَّ وَعَلَا، فإن اللائِق بالله عَزَّ وَجَلَّ أن مَن لَجَأ إليه فإنه أَكرَم الأَكْرَمين لا يُخيبه، فإذا قنَطْتَ من رحمته فقد استَهَنْتَ بحَقِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولهذا كان القُنوط من رحمة الله من كبائِر الذُّنوب.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات الرحمة لله تعالى؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، والرحمة نوعان: مَخلوقة، وغيرُ مَخلوقة، فما كان من الإنعام والإحسان فهو مَخلوق، وما كان صِفةً للربِّ فهو غير مَخلوق؛ ولهذا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الجَنَّة:

«أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءَ»[1]، مع أن الجَنَّة مَخلوقة، لكنها من آثار الرحمة.

وإذا وُلِد لشَخْص ولَدٌ، أو عاد إليه ضالٌّ من ماله، أو ضائِع من ماله، قال: والله هذا رحمة الله. فهذه الرحمةُ مَخلوقة؛ لأنها إحسان وإنعام، فإذا أُطلِقَتِ الرحمة على الإحسان والإنعام فهي مَخلوقة، وإذا أُطلِقَت على صِفة الله تعالى فهي غير مَخلوقة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن رَحمة الله تعالى سبَقَتْ غَضَبه، وذلك بكونه يَغفِر الذُّنوب جميعًا بالتوبة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الذُّنوب مهما عظُمت فإن الله يَغفِرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ كلَّ الذُّنوب؛ لأن الله تعالى ذكَرها بـ﴿ٱلذُّنُوبَ﴾، وأكَّد هـذا العُمومَ بقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾، لكن هذا في حقِّ التائِبين.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن ظاهِرها مَغفِرة الذُّنوب للتائِبين وإن كان الذَّنْب للمَخلوق، يَعنِي: لو اعتَدَيْت على شخص ثُم تُبتَ إلى الله تعالى فإن الله تعالى يَتوب عليك، ولو كان الذَّنْب للمَخلوق، لكننا اشتَرَطْنا أن تَتوب، ومن تَمام التَّوْبة: أن تُوفِّيَ للمَخلوق حقَّه إن قدَرْت عليه، فإن لم تَقدِر عليه فأَوْفِه ولو بظَهْر الغَيْب.

ونحن نَضرِب لهذا مثَلًا: فإذا أَخَذت من شخصٍ مالًا بغير حَقٍّ فهذا ذَنْبٌ فإذا تُبْت إلى الله تعالى يَغفِر الله تعالى لك الذَّنْب لا شَكَّ، لكن من تَمام التوبة أن تُوصِّل المال إلى صاحِبه، فإن مات فإلى ورَثَته، وإذا أدَّيْت إلى ورَثَته بَرِئَت ذِمَّتك منه.

لكن بَقِي ظُلْمك للمَيِّت الذي حُلْت بينه وبين ماله، هل تُحاسَب عليه أو لا تُحاسَب؟ إن قُلْت: لا تُحاسَب فسيَقول لك قائِل: كيف يَتَخلَّص الإنسان من ظُلْم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الميت الذي حال بينه وبين ماله؟ وهذا صحيح؛ فأنت وإن بَرِئَت ذِمَّتك بأداء المال إلى مُستَحِقِّه بعد موت صاحِبه، لكن المُشكِل أن صاحبه حِيل بينه وبينه في حال حَياته، لو كان عنده لاشتَرى بيتًا، أوِ اشتَرى سَيَّارة، أو تَزوَّج، فحُلْت بينه وبينه، فهل يَسقُط عنك حقُّه بتَوْبتك أم لا؟

نَقول: ظاهِر الآيات الكريمة: أنه يَسقُط حقُّه عنك أنت، لكن الله تعالى يُوفِّيه من عنده؛ لأنك الآنَ لا تَستَطيع أن تَتَوصَّل إلى هذا الميتِ لتُعطِيَه حقَّه، والذي تَستَطيعه أن تُؤدِّيَه إلى ورَثته وقد فعَلْت.

مثالٌ آخَرُ: أخَذْت مالًا من شَخْص، ثُمَّ نَسِيت الشخص، ثُم تُبْت، فما هو الطريق إلى التوبة، أو الخُروج من حَقِّ الرجُل؟

الجَواب: أَتَصدَّق به عنه، وإذا تَصدَّقت به عنه استَفاد من هذا المالِ في الآخِرة.

لكن قد يَقول قائِل: لكنك حُلْت بينه وبينه في الدنيا، وقد يَكون له غرَضٌ في المال في الدنيا.

فأَقول: نعَمْ، أنا حُلْت بينه وبينه في الدنيا، لكِنْ عَجْزًا مِنِّي أن أَصِل إليه، والذي قَدَرْته من التَّوْبة فعَلْته، وهو الصَّدَقة به عنه؛ فهل يَبرَأ بَراءةً تامَّة بحيث لا يُطالِبه صاحِب المال في الآخِرة؟ الجَوابُ: نَقول ظاهِر النُّصوص: نعَمْ، يَبرَأ.

مثالٌ آخَرُ: قتَلْت نَفْسًا، ثُم تُبْتَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ من قَتْل النفس، فمِن تَمام توبتك أن تُسلِّم نَفْسك لوَرَثة المَقتول، تَقول: أنا الذي قتَلْت صاحِبَكم، وأنا الآنَ بين أيديكم. فإذا سلَّمْت نَفْسَك له بَرِئَت ذِمَّتك، لكن يَبقَى عندنا حقُّ المَقتول الذي حُلْت بينه وبين بَقائه في الدُّنيا، فهل تَبرَأ منه بالتَّوْبة؟

الجَوابُ: نعَمْ تَبرَأ منه بالتَّوْبة؛ لعُمـوم الآية، لكن لا يَضيع حقُّ المَقتـول، بل يَتحمَّله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنك له، وهذا من فَضْل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يَعفوَ عن حقِّه ويَتحمَّل عنك حقَّ الآخَرين.

فإذا قال قائِل: ما هو الدليل على ما قُلْتم، وكيف يَسقُط عنه حقُّ الآدَميِّ؟

قُلنا: الدليل على هـذا قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨] هنا فيها حقٌّ لله تعالى، وحقٌّ للمَخلوق بالدَّم، وحقٌّ للمَخلوق بالعَرْض إن كان قد زنَى مُكرَهًا بالمَزنيِّ بها، وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠]، حتى في القاتِل يُبدِّل الله تعالى سيِّئاتِه حسَناتٍ.

فإذا قيل: كيف يَضيع حَقُّ المَقتول؟

فالجَوابُ: لا يَضيع؛ لأن الله تعالى يَتحمَّله عنه، وهذا من فَضْله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

إذن نَقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ظاهِر الآية: العُموم، يَغفِر الذُّنوب جميعًا سواءٌ ممَّا يَتعلَّق بحقِّ الله تعالى، أو بحَقِّ العِباد، لكن ما يَتعلَّق بحقِّ العِباد إذا تَعذَّر إيصاله إليهم في الدُّنيا فإن الله تعالى يَتحمَّله في الآخِرة.

مَسأَلةٌ: إذا اغتَبْت شَخْصًا فهل لا بُدَّ أن تَذهَب إليه؟

الجَوابُ: يَعنِي مع القُـدْرة، وهذا الصحيحُ، لكن قال بعضهم: إذا اغتَبْـت شخصًا لا بُدَّ أن تَذهَب إليه وتَستَحِلَّه مُطلَقًا. وبعضُهم فصَّل فقال: إن كان قد عَلِم

فلا بُدَّ أن تَستَحِلَّه لأنه حمَل عليك في نَفْسه، وإن لم يَكُن علِم فأَثْنِ عليه في المَواطِن التي كنت تَغتابه فيها ويَكفِي. وهذا التَّفصيلُ جيِّد؛ لأنك لو ذهَبْت إليه وقلت: إني اغتَبْتُك. وهو لم يَعلَم أَنشَأْت في نفسه عليك ما تُنشِئُه، لكن إذا استَغْفَرت له وأَثنَيْت عليه في المكان الذي أنت اغتَبْتَه فيه حصَل المَطلوب.

مَسأَلَةٌ: إذا سرَق مُسلِم من كافِر ولم يَعلَم به فماذا يَفعَل؟

الجَوابُ: إن كان الكافِر حَرْبيًّا فالمال له، وإن كان له عَهْد فإنه يُسلِّمه إلى بيت المال؛ لأن بيت المال يَتقبَّل الأموال التي لا يُعرَف مالِكُها، فإن لم يَكُن هناك بيت مال فلْيَتخَلَّص منه بالصدَقة، لكن الكافِر لا يُثاب على هذه الصَّدَقةِ إلَّا إن أَسلَمَ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات اسمَيْن من أسماء الله تعالى عَظيمين يَقتَرِنان كثيرًا في القُرآن، هما: (الغَفور) و(الرَّحيم).

ووجهُ اقتِرانهما: أن بالأوَّل زوال المَكروه، وبالثاني: حُصول المَطلوب، فيَتكوَّن من اجتِماعهما وَصْفٌ زائِد على الوَصْف عند انفِرادهما؛ لأنه إذا انفرَد (الغَفور) استَفَدْنا المَغفِرة منه وإن انفرَد (الرحيم) استَفَدْنا الرحمة، لكن إذا اجتَمَعا استَفَدْنا فائِدة جديدة، وهي: أن مَغفِرة الله عَزَّوَجَلَّ مَقرونة برَحْمته، فهو جامِع بين المَغفِرة والرحمة.

وهذان الاسمان من الأسماء المُتعَدِّية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ وأيضًا ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١]، والأسماءُ المُتعَدِّية قال العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: لا يَتِمُّ الإيمان بها إلَّا بثلاثة أمور: الإيمان بالاسْمِ، والإيمان بما تَضمَّنه من صِفة، والإيمان بالحُكْم المُترَتِّب على تِلكَ الصِّفةِ، الذي يُطلَق عليه بعضهم: الأَثَر.

فالإيمان بالاسم هنا (الغَفور) فنُؤمِن بأن الغَفور من أسماء الله تعالى؛ ونُؤمِن بأن لله تعالى مَغفِرة دَلَّ عليها اسمُ الغَفور، ونُؤمِن أيضًا بما تَضمَّنه ذلك؛ فإنه يَدُلُّ

على المَغفِرة ويَدُلُّ على العِلْم؛ لأنه لا يَغفِر ما لا يَعلَمه، ودَلالته على العِلْم من باب دَلالة الالتِزام؛ لأن المادَّة (غ.ف.ر) ليس فيها (ع.ل.م)، فيَكون هذا من باب الالتِزام.

إذَنِ: (الغَفور) اسمًا، و(المَغفِرة) وَصْفًا، و(يَغفِر الذُّنوب) حُكْمًا، وكذلك نُؤمِن بـ(الرحيم) اسمًا، وبـ(الرحمة) صِفة، وبأنه (يَرْحَم) حُكْمًا. غفَرَ الله تعالى لنا ولكُمْ ورَحِمنا وإيَّاكم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن أحكام الله تعالى من مُقتَضى أسمائه وصِفاته أحكامٌ جَزائية؛ فلِكَوْنه غَفورًا رحيمًا كان ذا مَغفِرة فغفَر لِمَنْ تاب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: الإشارة إلى أن الإنسان بعد التَّوْبة قد يَكون خَيْرًا منه قبلَها وقبل فِعْل الذَّنْب؛ لقوله تعالى: ﴿الرَّحِيمُ﴾؛ لأن الرحمة تَقتَضي عَطاءً جديدًا، وهذا هو المُشاهَد، فإن الله عَزَّوَجَلَّ ذكَر عن آدَمَ أنه لَمَّا عصَى ربَّه وغوَى وتاب قال: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢]، وهذه المَنقَبة -وهي الاجتِباء والهِداية- لم تُذكَر له قبلُ.

والإنسان إذا أَذنَب ونَدِم يُحِسُّ من نَفْسه رجوعًا إلى الله تعالى وشِدَّة افتِقاره إليه، بخِلاف ما إذا كان مُستَقيمًا على طاعة الله تعالى فإنه لا يُحِسُّ بالرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ والإنابة إليه، وربما يُصاب بالغُرور بأنه لم يُذنِب؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مُسلِم: «**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ ثُمَّ جَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، رقم (٢٧٤٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إذن نَقول: إن الإنسان إذا تاب إلى الله تعالى فقَدْ يَكون بعد التَّوْبة خَيرًا منه قَبْلها، وقد يَكون بالعَكْس، لكن هذا أمرٌ حصَل قَدَرًا في آدَمَ، وكذلك شَرْعًا، كما تَدُلُّ عليه هذه الآيةُ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

الآيــة (٥٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر:٥٤].

قوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ الإنابة بمَعنَى: الرجوع التامِّ إلى الله تعالى، وتكون بالإقلاع عن المَعصية والانضِمام في سِلْك الطائِعين. يَعنِي: أن الإنابة لا يَصْدُق الاتِّصاف بها إلَّا بالرُّجـوع إلى الله تعالى من المَعصية إلى الطاعة ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ هنا الرُّبوبية يُحتَمَل أن تَكون عامَّة، ويُحتَمَل أن تَكون خاصَّةً، فهي بعد الإنابة من الرُّبوبية الخاصَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ أي: انقادُوا له، فالإنابة تَكون بالقَلْب بالرجوع إلى الله تعالى، يُنيـب الإنسان أي: يَرجِع إلى الله تعالى، ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ أيِ: انقادُوا له؛ لأن الإسلام والاستِسْلام، وهذه المادَّةُ كلُّها تَدُلُّ على الانقياد.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ اللَّام في: ﴿لَهُۥ﴾ للاختِصاص، وسيَأتي أنها تُفيد وُجوب الإخلاص.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ ارجِعوا ﴿وَأَسْلِمُواْ﴾ أَخلِصوا العمَل ﴿لَهُۥ﴾] يَعنِي: ارجِعوا إلى ربِّكم من مَعاصيه إلى طاعته، ومن البُعْد عنه إلى القُرْب،

وهذه الإنابةُ هي عمَل القَلْب، وهو رُجوع القَلْب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي تَفسيره الإسلام بالإخلاص نظَر، فالإسلام هو الانقِياد وهو الاستِسْلام لله تعالى ظاهِرًا وباطِنًا؛ فقوله تعالى: ﴿وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: استَسْلِموا له واخضَعوا لشَرْعه، وهذا عمَل الظاهِر، وهو عمَل الجَوارِح، فالإنابة بالقَلْب والإسلام بالجَوارِح؛ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَسْلِمُوا۟﴾ أَخلِصوا العمَل ﴿لَهُۥ﴾]، وأَخذ المُفَسِّر الإخلاص من قوله تعالى: ﴿لَهُۥ﴾ أي: لله تعالى كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران:٢٠]، فهذه الآيةُ فيها الأَمْر بالإنابة وهي في بالقَلْب، والأَمْر بالاستِسْلام له، وهي بالجَوارِح، والإخلاص مُستَفاد من اللَّام المَذكورة في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ مُتعلِّقة بـ﴿وَأَنِيبُوٓا۟﴾ و﴿وَأَسْلِمُوا۟﴾ فقد تَنازَعها العامِلان.

وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يَعنِي: من الله تعالى ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ يَعنِي: لا تُمنَعون من عَذاب الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في الدُّنيا، قبل أن تَتوقَّعوا ذلك، ثُمَّ إذا أَتاكم ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: لا تُمنَعون من هذا العَذابِ؛ لأنَّ الله تعالى إذا أَراد بقومٍ سُوءًا ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١] أي: من مُتولٍّ يَنصُرهم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ بمَنْعه إن لم تَتوبوا] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إن لم تَتوبوا] راجِعٌ إلى قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ لأننا إذا تُبْنا رفَعَ الله عَزَّوَجَلَّ العَذاب عنَّا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إن لم تَتوبوا] لا حاجةَ إليها؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ﴾ ﴿وَأَسۡلِمُواْ﴾ مِن قَبْل هذا الشيءِ، وإذا أَناب وأَسلَم قبل هذا الشيءِ فقد تاب وحينئذٍ لا يَنزِل به العذاب.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجوب الإنابة إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ والأصل في الأَمْر الوجوبُ إلَّا بدليل.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وجوبُ الإِخْلاص له؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾، وكذلك ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه لا بُدَّ من الإسلام لله تعالى ظاهِرًا وباطِنًا، فمَن أَسلَم قَلْبه لله تعالى لزِم أن يُسلِم جَوارِحه لله تعالى؛ لقول النبيِّ ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»[1]. ومَن أَسلَم ظاهِرًا لا باطِنًا فإن إسلامه لا يَنفَعه كإسلام المُنافِقين، فالإسلام يَكون في الباطِن ويَتبَعه الإسلام في الظاهِر، ويَكون في الظاهِر دون الباطِن، ولا يَكون في الباطِن دون الظاهِر؛ لأنه إذا أَسلَم قَلبُه لله تعالى أَسلَمَتْ جوارِحُه: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»، وأمَّا المُكرَه فإنه لا حُكمَ لِفعْله؛ لأنه سقَط عنه التَّكليف.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الحذَر من نُزول العَذاب عند المُخالَفة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ فلا أَحَدَ يَأمَن عَذاب الله تعالى، فأَنت إذا لم تَتُبْ إلى الله

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

تعالى مُبادَرةً فإن العَذاب ربما يَنزِل بكَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه إذا نزَل العذاب من عند الله تعالى فلا أحَدَ يَمنَعُه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، وتَأمَّلْ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أتى بـ﴿ثُمَّ﴾ الدالَّةِ على المُهْلة، يَعنِي: مهما طلَبْتم من ناصِر وطالَتْ مُدَّة طلَبكم للناصِر فإنكم لن تَجِدوا مَن يَنصُرُكم من عذاب الله تعالى.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٥٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الزمر:٥٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ﴾ أي: الزَمُوا العمَل بأَحسَن ما أُنزِل إليكم من ربِّكم، والعملُ يَقتَضي العمَلَ القَلْبيَّ والعمَل اللِّسانيَّ والعمَل الجَوارِحيَّ؛ يَعنِي: اتَّبِعوهُ عَقيدةً وقولًا وعمَلًا.

وقوله تعالى: ﴿أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ الأحسن هنا الظاهِر أنه وَصْفٌ للنازِل: ﴿أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾، ونحن إذا تَأمَّلْنا لم نَجِد أحسَنَ من القُرآن، كما هو ظاهر في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ [المائدة:٤٨]، أي: مُسيطِرًا، وذا سُلْطان، فعلى هذا تَكون الأَحسنِيَّةُ هنا راجِعةً إلى الكتاب المَتبوع، وحينئذٍ لا إشكالَ فيها.

وإذا قُلْنا: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ أي: (افعَلوا أحسَنَ ما شُرِع لكم) يَبقَى فيه إشكال، وهو أننا مَأمورون بأَحسَن ما شُرِع لنا، فهل يَعنِي ذلك أننا لو فعَلْنا الحسَنَ دون الأحسَنِ نكون مُقصِّرين؟

نَقول: هذا ظاهِر الآية إذا فسَّرْناها بما ذكَرْنا، ولكن دلَّتِ النُّصوص على أن مَن اقتَصَر على الواجِب فقد قام بالواجِب، وإن لم يَأتِ بالأحسَنِ، بل إن الرسول

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال للرجُل الأَعْرابيِّ الذي ذكَر له شَرائِعَ الإسلام قال ﷺ: «إِنْ صَدَقَ هَذَا دَخَلَ الجَنَّةَ»(١).

وعليه -أي: على هذا الاحتِمالِ في الآية الكريمةِ- نَقول: إن النُّصوص دلَّتْ على أن اتِّباع الحسَن مُبرِئ للذِّمَّة، لكن الأكمَل اتِّباع الأحسَن.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ﴾ أي: كونوا تَبَعًا، وقوله تعالى: ﴿أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾: ﴿أَحۡسَنَ﴾ اسمُ تَفْضيل من الحُسْن، ويَشمَل الأَحسَن في ذاته، والأحسَنَ في العمَل.

فالإنسان مَأمور أن يَتَّبع أحسَنَ ما أُنزِل إلينا في ذاتِه، ولو فَتَّشْت الكتُبَ السَّماوِيَّة التي نزَلَتْ لوَجَدْتَ أحسَن ما نَزَل هو القُرآن؛ ولهذا فسَّرَه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [وهو القُرآن]، وكذلك أَحسَنُ ما أُنزِل إلينا إذا كانت عِبادة قام بها الإنسان على وجهٍ ناقِصٍ وعبادة قام بها على وجهٍ كامِلٍ، فالتي على وجهٍ كامِلٍ هي الأحسَنُ، فإذا وُجِد أعمالٌ تَتَفاضَل فالإنسان مَأمورٌ بأن يَتَّبع الأحسَن منها: ﴿أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾.

فقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُم﴾ فيها إشارة إلى وُجوب اتِّباع الأحسَن؛ لأن هذا الأحسَنَ نازِل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومن الربِّ، والربُّ هو الذي له التَّصرُّف في العِباد تَدبيرًا وتَشريعًا وحُكْمًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ وهو القُرآن]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام، رقم (٤٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات، رقم (١١)، من حديث طلحة بن عبيد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «**أفلح إن صدق**».

ولم يَذكُر الاحتِمال الذي ذكَرْنا، بل جعَل المُراد بالأحسَن هنا أَحسَنَ ما نزَل لا أحسَنَ ما شُرِع.

وقوله تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً﴾. قوله: ﴿بَغۡتَةً﴾ هنا بمَعنَى: مُفاجِئًا، ويُحتَمَل أن تكون مَصدَرًا مُبيِّنًا للنوع، أي: أن يَأتِيَكم الإتيان بَغْتةً، ويُحتَمَل أن تكون مَصدَرًا بمَعنَى: في مَوضِع الحال. أي: مُباغِتًا، والمُراد: المُفاجأة، يَأتيكم العَذاب مُفاجَأةً.

في الآية الأولى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أمَّا هنا فقال تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً﴾ أي: مُفاجأة، ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ أنه يَأتيكم العَذاب، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتًا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحًى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٨]، فالنائِم لا يَشعُر بالعَذاب إلَّا بَغْتة، والذي يَلعَب كذلك لا يَشعُر بالعَذاب إلى بَغتة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ أي: لا تَحتَسِبون أن يَقَع بكمُ العذاب؛ لأنكم غافِلون، وليس عِندكم شُعور، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتًا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحًى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩]، والغالِب أن مَنِ انهمَك بالمَعاصي نَسِيَ الخالِق ونَسِيَ العَذاب، فيَأتيه العذابُ وهو في أشَدِّ ما يَكون انغِماسًا في المَعاصي والتَّرَف.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وجوب اتِّباع القُرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَحريم اتِّباع غيـر القُرآن؛ لأنه إذا وجَـب اتِّباع القُرآن فضِدُّه حرام.

ولكن إذا قال قائِل: هل تَقولون: إن شَرْع مَن قَبْلَنا شَرْعٌ لنا؟

فالجَوابُ: أن في ذلك خِلافًا بين أهل العِلْم من أهل الأصول، والصحيح: أنه شَرْعٌ لنا ما لم يَأتِ شَرْعُنا بخِلافه، ونحن نَتَّبع شَرْعَ مَن قَبْلَنا، لا لأنه شَرْعُ مَن قَبْلنا، ولكن لأن شَرْعَنا دلَّنا على العمَل به.

وأدِلَّة ذلك مَعروفة في أصول الفِقْه: منها قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٩٠]، ومنها قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]، ومنها قوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤].

المُهِمُّ: أن القول الراجِح: أن شَريعة مَن قَبْلَنا شَرعٌ لنا بشَرْعنا ما لم يَرِد شَرْعُنا بخِلافه، فإن ورَدَ شَرْعُنا بخِلافه فهو مُطَّرَح.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الثَّناء على القرآن الكريم؛ لأنه أحسَنُ ما أُنزِل إلى العِباد، وعرَفنا أنه أحسَنُ في ذاتِه، وفي أَخْباره، وفي أَحْكامه، وفي آثاره؛ فلم تَنَلْ أُمَّةٌ العِزة والكَرامة كما نالَتْه هذه الأُمَّةُ بما آتاها الله تعالى من القُرآن.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن القرآن كلام الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾.

فإن قال قائِل: هذا لا نُسلِّمه لكم؛ لأن ممَّا أَنزَل الله تعالى ما لا يَكون كلامًا له كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ﴾

[الزمر:٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥]، وأمثالها؛ فلا نُسلِّم لكم أن القُرآن كلام الله تعالى، بل نَقول: هو كغيرِه من المَخلوقات التي أَنزَلها الله تعالى، فإن الحديد مَخلوق، والمَطَر مَخلوق، والأنعام مَخلوقة؟

فالجَوابُ عن هذا أن نَقول: ما أَنزَله الله تعالى يَنقَسِم إلى قِسْمين:

الأَوَّلُ: أن يَكون عَيْنًا قائِمةً بنَفْسه فهذا مَخلوق.

الثاني: أن يَكون وَصْفًا لا يَقوم إلَّا بغيره فهذا غيرُ مَخلوق.

فلْنَنظُرْ للقرآن: هل هو عينٌ قائِمةٌ بنَفْسها أو وَصْفٌ لا يَقوم إلَّا بغيره؟

الجواب: هو وَصْف لا يَقوم إلَّا بغيره، إِذَنْ هو غير مَخلوق كلام الله تعالى غير مَخلوق.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات عُلوِّ الله تعالى؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، وجهُ ذلك: أن النُّزول لا يَكون إلَّا مِن أَعْلى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فضيلة هذه الأُمَّةِ حيث كانت الغاية في إنزال القرآن، ويُؤخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿إِلَيْكُم﴾، فإن الإنزال غايته إلينا، إِذَنْ فهذا شرَفٌ لنا أن نكونَ غايةَ إنزالِ القُرآن.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ الرُّبوبية لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُم﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن إنزال القُرآن إلينا من كَمال رُبوبيته، حيث أَضاف إنزاله إلى نَفْسه بوَصْف الرُّبوبية، فمِن كَمال رُبوبيته لخَلْقه وتَربيته لهم أن نزَّل عليهم هذا القُرآنَ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: وجوبُ العمَل بما في القُرآن؛ لأنه نزَل من الرَّبِّ، والرَّبُّ له السُّلْطان الكامِل على خَلْقه، أرَأَيْتم لو أن ملِكًا من الملوك أَصدَر مَرسومًا مَلَكيًّا أفلا يَكون مُقتَضى سُلطانه أن نَعمَل بهذا المَرسومِ؟

الجَوابُ: بلى، إذن مُقتَضى رُبوبية الله تعالى لنا: أن نَعمَل بما أَنزَل إلينا؛ لأن هذا القُرآن بمَنزِلة المَراسيم المَلَكية التي لا بُدَّ من تَنفيذها، بل هو أَعظَمُ كما هو معروف، ولا إشكالَ فيه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الحذَر من أن يَأتيَ عَذاب الله تعالى بَغتةً؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً﴾، والعذاب المُباغِت أشَدُّ من العذاب الذي لم يُباغِت؛ لأن العذاب الذي لم يُباغِت يَكون الإنسان قد تَهيَّأ له، لكن الذي يَأتِي بَغتةً يَأتي الإنسانَ وهو في غاية ما يَكون من الغَفْلة وغاية ما يَكون من السُّرور، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٨].

فتَأمَّلِ الآنَ: غَفلةٌ وهُدوءٌ واطمِئْنانٌ، فأَتاهم العذاب في هذا الوقتِ، فيَكون أَشَدَّ وَقْعًا -والعِياذُ بالله- ممَّا لو أَتَى والإنسانُ مُتهَيِّئ.

واضْرِبْ مثَلًا حِسِّيًّا واضِحًا: لو كنت تَنزِل على الدرَج فغَفَلت، ثُمَّ زلَّتْ رِجلُك على إحدى الدرَجات، هل يَكون مِثلَما لو كنتَ تَنزِل وأنت تَرى كلَّ درَجة وتَضَع قدَمك عليها؟

الجَوابُ: لا، إذَنِ المُباغِت أشَدُّ ممَّا يَأتي والإنسان مُتَهيِّئ له.

إِذَنْ مَن خالَف ذلك ولم يَتَّبِعِ القرآن فإنه ربما يَأتيه العَذاب بَغتةً وهو لا يَشعُر،

وهنا نَسأَل: هل العَذاب هو العَذاب الحِسِّيُّ الذي به فَساد البَلاد، أو يَشمَل العَذاب الحِسِّيَّ والعذاب المَعنَويَّ؟

الجَوابُ: العَذاب هنا يَشمَل الأمرين لا شَكَّ، والإنسان قد يُعذَّب عذابًا مَعنويًّا بحيث تُفسَد عليه أمورُه؛ أمور الدِّين وأمور الدنيا، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣]، وهذه عُقوبة، فمِن العُقوبات التي هي من أشدِّ عُقوبات الدنيا أن يُصَدَّ الإنسان عن ذِكْر الله تعالى، وعن الصلاة، فإن هذا أَشَدُّ مَن أن يَفقِد الإنسان مالَه وولدَه، وقد كان بعض السلَف إذا نام عن صلاة الليل قال: إنني ما حُرِمت صلاة الليل إلَّا بذَنْب؛ فجعَل عدَم القِيام في الليل عُقوبة على ذَنْبٍ عمِلَه، وكلَّما كثُرَتِ المَعاصِي -والعِياذُ بالله- كثُر الإعراضُ عن ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن المُباغِت يَأتي بغير شُعورٍ من العَبْد؛ لأنه غافِل وليس يُفكِّر في أن يَأتِيَه العَذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، والجُملة هذه يُسمِّيها علماءُ النَّحوِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: جُملةً حاليَّةً، يَعنِي: والحال أنكم لا تَشعُرون.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر:٥٦].

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ﴾ يَقول المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ قبل إِتْيانه بوَقْته]، يَعنِي: لا تَشعُـرون بوقته قبل إتيانه، بل قد ضـرَبْتمُ الأمَل الطويـل والتَّفاؤُل الذي ليس في مَحلِّه حتى أَتاكُمُ العَذاب؛ [فبادِروا قبلَ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾] قدَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الذي ذكَر لدَلالة السِّياق عليه.

وهذا الذي قام به المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُسمَّى عند البَلاغيين: إيجازَ الحَـذْف؛ لأن الإيجاز عِندهم نوعان: إيجازُ قَصْـر، وإيجازُ حَذْف؛ فإيجازُ القَصْر أن تَكون العِبارة القَصيرة تَتَضمَّن مَعانيَ كثيرةً، وإيجاز الحَذْف أن تَكون العِبارة المَوْجودة قد حُذِف منها ما هو مَعلوم.

مثل قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص:٢٤-٢٥]، وهـذه الآيةُ حُذِف منها شيءٌ كثير؛ لأن تَقديرها أن المَرْأتَيْن ذهَبَتا إلى أبيهما وأَخبَرَتاه بالخبَر، ثُمَّ أَرسَل إحداهما إلى مُوسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فجاءَتْ إحداهما تَمشِي على استِحْياء.

فصار عِندنا الإيجازُ نوعيـن: إيجاز قَصْر بأن تَكون العِبارة قَصيـرة تَتَضمَّن

مَعانيَ كثيرةً، وإيجاز حَذْف بأن يُحـذَف من الكلام ما يَدُلُّ عليه السِّياقُ، وكلاهما فصيحٌ عربيٌّ.

فقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة:١٧٩] هذا إيجازُ قَصْـر، وقوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣] هذا إيجازُ قَصْر؛ لأنك لو أَرَدْت أن تَبسُط هذه الجُملةَ ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ وتَذكُر أنواع السُّوء وتَذكُر أنواع المُجازاة؛ لكان الكلام طويلًا، لكنه اقتَصَر على هاتين الكلِمَتَيْن: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، وهُما تَشمَلان كلَّ ما يُمكِن أن يَدخُل في هذه الجُملةِ من التَّفاصيل.

إِذَنْ: على كلام المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فبادِروا قَبْلَ ﴿أَن تَقُولَ﴾]، نَقول: هذا من باب إيجاز الحَذْف؛ لأنه حُذِف من الكلام ما يَدُلُّ عليه السِّياق، ويُمكِن أن نُقدِّر ما هو دون ذلك بأن نَقول: خَشية أن تَقول نَفْسٌ، يَعنِي: اتَّبِعوا ما أُنزِل إليكم من ربِّكم خَشيةَ أن تَقول نَفْسٌ يا حَسْـرتا على ما فرَّطْـتُ في جَنْب الله؛ أو: (قَبْلَ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾)؛ لأنه أقلُّ تقديرًا، وكلَّما كان أقلَّ تَقديرًا فهو أَوْلى.

وهذا الذي ذكَرْناه أقصَرُ من كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ﴾: ﴿نَفْسٌ﴾ هنا نَكِرة في سِياق الإثبات، والنكِرة في سِياق الإثبات لا تَدُلُّ على العُموم، وإنما تَدُلُّ على العُموم إذا كانت في سِياق النفيِ أو الشَّـرْط أو الاستِفْهام الإنكارِيِّ أو ما أَشبَه ذلك ممَّا ذكَرَه العُلَمـاءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، لكنهم قالوا: إن ﴿نَفْسٌ﴾ هنا نَكِرة يُراد بها العُمـوم، يَعنِي: أن تَقـول كلُّ نَفْس فرَّطَتْ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ أَصلُه: يا حَسـرَتِي، أي: نَدامَتـي، فالحَسْـرة هي النَّدامة]، قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ الألِف هذه مُنقَلِبة عن ياء؛ لأنها للنُّدْبة، وأصلُها

ياءُ المُتكلِّم: يا حَسْرتِي، لكن في اللغة العربية يَجوز أن تُقلَب الياء ألِفًا، فيُقال: (يا حَسْرَتا) بدَل (يا حَسْرَتي).

ومنه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود:٧٢]، والتَّقدير: (يا وَيْلَتِي).

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ التَّفريط مَعناه: الإهمال والإضاعة، وعكسُه: الإفراط، وهو التَّجاوُز، والتَّفريط القُصور عن الشيء، فالمُفَرِّط هو المُهمِل المُقصِّر، والمُفْرِط هو المُتجاوِز للحَدِّ، وكِلاهما مَذموم، والخِيار هو الوسَط.

وقال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: طاعَته] ففسَّر الجَنْب هنا بالطاعة، وذلك لأنه لا يُمكِن أن يُراد به جَنْب الله تعالى الذي هو جَنْب ذاته؛ لأن الإنسان يَشعُر بأنه لن يُفرِّط في نَفْس الجَنْب الذي هو جَنْب ذاته.

لكن بعض العُلماءِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يَقول: الجَنْب بمَعنَى: الجانب لُغَةً، وإذا كان بمَعنَى: الجانِب لُغَةً فلا حاجةَ إلى التأويل، ويَكون المَعنَى ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في جانِب الله تعالى؛ وجانب الله تعالى يَعنِي: حَقَّه.

وهذا التَّفسيرُ الذي ذكَرْناه هو مُؤدَّاه، كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ -يَعنِي: طاعته- لكن إذا فسَّرْنا الجَنْب بالطاعة خرَجْنا به عن المعنى المُطابِق للَّفْظ، أمَّا إذا قُلْنا: الجَنْب لُغَةً بمَعنَى الجانِب. فإننا فسَّرْناه بما دلَّتْ عليه الكلِمة لُغَةً، والجانِب من المعلوم أن جانِب الله عَزَّوَجَلَّ هو حَقُّه وشَرْعه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾: (إِنْ) مُخفَّفة من الثَّقيلة أي: وإنِّي] (إن) في اللغة العربية تَأتِي لمَعانٍ: الأوَّل: شَرْطية. والثاني: نافِية. والثالِث: مُؤكَّدة.

والرابع: زائِدة. فهـذه أربعة مَعانٍ، وبعضهم زاد مَعنًى خامِسًا: أن تَكون بمَعنَى: نعَمْ، لكنه قليل.

مثال (إِنِ) الشَّرْطية: قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦]. هذه (إِنْ) شَرْطية.

ومثال النافِية: قول الكافِرين: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة:١١٠]، و(إن) النافية هي التي يَعقُبها دائِمًا (إلَّا).

ومِثال المُؤكِّدة -وهي المُخفَّفة من الثَّقيلة كما هنا-، وعلامتها أن يَحِلَّ مَحلَّها (إنَّ) مثل: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر:٥٦]، فهذه مُخفَّفة من الثَّقيلة، وتُفيد التَّوكيد؛ لأن الثَّقيلة: (إنَّ) مَعروفة أنها للتَّوْكيد فإذا كانت هذه مُخفَّفة منها فهي للتَّوْكيد.

مثال الزائدة قول الشاعِر:

بَنُـو غُدَانَـةَ مَـا إِنْ أَنْـتُمُ ذَهَـبُ ... وَلَا صَرِيفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الخَزَفُ[1]

الشاهِد قوله: (مَا إِنْ أَنْتُمُ ذَهَبُ)؛ لأن مَعنَى الكلام: ما أَنتُم ذهَب. فهي إذَنْ زائِدة، والذهَب مَعروف، والصـريف: الفِضَّة، وسُمِّيَت: صَـريفًا؛ لأنها يُسمَع لها صَريفٌ عند العدَد أو الوَزْن.

(وَلَكِنْ أَنْتُمُ الخَزَفُ) والخزَفُ هو الطِّين المَشوِيُّ. يَعنِي: أنكم أَصلُكم رَديء، وعلامة (إِنِ) الزائِدة أن يَصِحَّ الكلام مع حَذْفها، فإذا صحَّ الكلام مع حَذْفها فهي زائِدة.

---

(١) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٦٦)، وشرح الأشموني (١/ ٢٥٤)، وهمع الهوامع (١/ ٤٤٩).

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه: [وإني كُنْتُ لِمَنَ الساخِرينَ]، فقدَّرَ اسمَ (إنَّ) ضَميرًا مُطابِقًا للسِّياق، فقال: [إنِّي كُنتُ] وهذا الذي ذهَب إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الصحيح، أمَّا عند جُمهور النَّحويِّين فإنهم يَقولون: إن اسم (إنَّ) مَحذوف ضميرُ الشَّأْن، فيُقدِّرون: إن كُنتُ وإنِّه. أي: الشأن، لكن الصحيح: أننا نُقدِّر ضميرًا مُطابِقًا للسِّياق، ولا حرَجَ أن نَقول: إنه مَحذوف ولو لم يَكُن ضميرَ الشَّأْن، فعليه نَقول: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ التَّقدير يَكون: وإني كنتُ لِمَنَ الساخِرين.

واللام في قوله: ﴿لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ هذه للتَّوْكيد، وهي أيضًا دليلٌ على أنَّ (إنْ) مُخفَّفة من الثَّقيلة، ولا تَلزَم لامُ التوكيد مع (إنِ) المُخفَّفة من الثَّقيلة، إلَّا إذا كان يُخشَى من الالتِباس بالنافِية، فإن كان يُخشَى الالتِباس بالنافية فإنه يَجِب أن تُذكَر اللَّامُ.

والحاصِلُ: أن اللَّام تَأتي كثيرًا في خبَر (إنِ) المُخفَّفة من الثَّقيلة وقد تُحذَف؛ إلَّا إذا خيف الالتِباس، فإنه يَجِب أن تُذكَر اللَّام إذا خِيف الالتِباس بـ(إنِ) النافِية؛ لأنه إذا أتَتِ اللَّامُ تَعيَّن أن تكون (إنْ) مُخفَّفة من الثَّقيلة، ومَحلُّ هذا البحثِ في النَّحْو.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ الساخِر بمَعنَى: المُستَهزِئ، أي: ساخِرين بمَن يَدعو إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [ص:٦٣]، ساخِرين بدِين الله تعالى، ساخِرين بكُتُب الله تعالى، ساخِرين برُسُل الله تعالى، ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة:٦٥].

ولهذا حُذِف المَفعول في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلسَّٰخِرِينَ﴾؛ لإفادة العُموم؛ أي: الساخِرين بالله تعالى وآياته ورسُلِه وأَوْليائِه، فهو عامٌّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ مَآل المُفرِّط وهو التَّحسُّر وهو التَّندُّم مع الغَمِّ، التَّحسُّر: التَّندُّم مع الغَمِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن المُفرِّط سيَتحسَّر على تَفريطه.

ويَنبَني على هذه الفائِدةِ: أنه يَنبَغي أن يَكون الإنسان حازِمًا ذا نَشاط وقوَّة حتى لا تَفوته الأُمور، ثُم بعد ذلك يَندَم.

ويَتفرَّع على ذلك الفائِدةُ الثالِثةُ: أنه يَنبَغي انتِهاز الفُرَص فمتى واتَتْك الفُرْصة فلا تُضيِّعْهَا.

ويَترتَّب على هذا أيضًا فائدةٌ رابعةٌ: أنه إذا صار أمامَك حاجَتانِ فابدَأْ بها أنت تُريده أوَّلًا وبادِرْ إليها، واجعَلِ الثانية ماثِلةً.

وهذا يَظهَر في سُنَّة الرسول ﷺ في أمثِلةٍ مُتعَدِّدة منها: أن عِتبانَ بنَ مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا ضعُف بَصرُه وصار لا يَتمكَّن من الوُصول إلى مَسجِد قومه دعا النبيَّ ﷺ إلى بيته ليَتَّخِذ له مَكانًا يَتَّخِذه مُصلًّى، فخَرَج النبيُّ ﷺ إليه ومعه جماعة من أصحابه، فلمَّا وصَل البيت، وإذا الرجُل قد هيَّأ لهم طعامًا، ولكن الرسول ﷺ لم يَشأْ أن يَبدَأ بالطعام، بل بدَأَ بما أَتَى إليه، أي: بالقَصْد الأوَّل، فقال له: «أَيْنَ تُرِيدُ أَنْ أُصَلِّيَ؟» فأَراه المَكان، فصلَّى بهم[1].

وبِناءً على ذلك: يَنبَغي لكم أنتُم -طلَبة العِلْم- إذا أَرَدْتُم أن تُراجِعوا فَتاوى

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، رقم (٤٢٥)، ومسلم: كتاب المساجد، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر، رقم (٣٣).

شيخِ الإسلام ابنِ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مَسأَلة مُعيَّنة فستَسْتَعرِض الفهرس، ثُمَّ يَمُرُّ بك مَسألة تَشوقك إلى أن تُراجِعها، فتَذهَب وتُراجِعها، ثُم تَترُك الذي كنت تُراجِع من أَجْله، وهذا لا شكَّ أنه يَضُرُّ طالِب العِلْم، يُشتِّتُ عليه الفِكْر، ويُشتِّتُ عليه الوقتَ؛ لأن فِكْره أوَّلَ ما طالَع الكِتاب مُنصَبٌّ على المَسألة التي يَطلُبها، فإذا عرَضَت له هذه العارِضةُ واتَّجه إليها وانشَغَل بها وهي ليسَت مَقصودةً له بالذاتِ تَشتَّتَ فِكْره، ثُمَّ يَتشتَّت وقتُه أيضًا، فربما يَكون وقت مُراجَعته في خِلال ربُع ساعة، فتَذهَب ربُع الساعة هذه وهو لم يُراجِع المسألة التي كان من أَجْلها يُفتِّش، وهذا جرَّبْناه، فنُراجِعُ لَمسألةٍ مَا، ثُمَّ يَمُرُّ بنا عُنوان شَيِّق ونَأخُذ به فيَضيع علينا الوقتُ، فالإنسان يَنبَغي أن يَكون حازِمًا، وأن يَبدَأ بالأهَمِّ قبل المُهِمِّ.

ومن ذلك: أن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان يُبادِر بإزالة المُؤذِياتِ ولا يَتأَخَّر؛ لأن التأخير له آفَةٌ، بل آفاتٌ، فلمَّا بال الأعرابيُّ في المسجد أمَرَ في الحال أن يُصَبَّ عليه ماءٌ ليُطهِّره[1]، ولَمَّا بال الصبيُّ في حَجْره دعا في الحال بماءٍ فأَتبَعَه إيَّاه[2]، وكان من المُمكِن أن يَترُك المكان في المَسجِد حتى يَأتيَ وقت الصلاة ويَحتاج الناس إلى الصلاة في هذا المكانِ، لكنه بادَر، وكذلك من المُمكِن أن يَدَع ثَوْبه حتى يَحضُر وقت الصلاة، ثُم يُطهِّره، لكنه بادَرَ.

فالمُهِمُّ: أن مثل هذه الوَقائِع يَنبَغي على الإنسان أن يَتَّخِذ منها تربية لنَفْسه، لا تَمُرُّ به على أنها مَسأَلة فِقْهية عَرَفها فقَطْ، بل لا بُدَّ أن يَظهَر عِلمه في عَمَله.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب يهريق الماء على البول، رقم (٢٢١)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول، رقم (٢٨٥)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب بول الصبيان، رقم (٢٢٢)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله، رقم (٢٨٦)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الجِهة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، وقُلنا: إن (جَنْب) بمَعنَى: جانِب، لكن الذين لا يُثبِتون الجِهة يَفِرُّون من هذا، ويُفسِّرونه بأَمرٍ آخَرَ كما فسَّرَه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [في طاعة الله] مع أن هذا التَّفسيرَ قد يُقال: إنه تفسيرٌ صحيح، وإن جانِب الله تعالى هو طاعته وحَقُّه وما أَشبَه ذلك، لكن نحن نَعلَم أن كثيرًا من الناس يُنكِرون أن يَكون الله تعالى في جِهة، ويَقولون: لا يَجوز أن تَقول: إن الله تعالى في جِهة، لا فوقُ ولا تَحتُ.

وعَكسُهم قومٌ آخَرون فقالوا: إن الله تعالى في كل جِهة بذاته. وبين الطائِفتَيْن كما بين السماء والأرض!.

وتَوسَّطَ آخَرون فقالوا: إن الله تعالى في كل جِهةٍ، لكنه فوقَ كل شيء، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥]، فإنِ اتَّجَهْتم شرقًا أو غربًا أو شَمالًا أو جَنوبًا فثَمَّ وجهُ الله تعالى، لكن ليس الله تعالى نفسُه في تِلك الجِهةِ، ولكنه فوقُ، وفَوقِيَّتُه لا تُناقِض أن يَكون في كل جِهةٍ استَقْبَلتَها.

فلو قال قائِل: كيف يَجتَمِع أن يَكون في جِهة المَشرِق مثلًا، أو المَغرِب، أو الشَّمال، أو الجَنوب وهو فوقَ كل شيء؟

الجَوابُ: نَقول: (كيف) اجعَلْها فيما يُمكِن تَكييفه، فصِفات الله تعالى لا يُمكِن تَكييفها، وعليك أن تُسلِّم، ثُم نَقول: إن هذا مُمكِن لو كانت الشمسُ عند الشُّروق أو عند الغُروب واستَقْبَلتها كانت في جِهة المَشرِق أو في جِهة المَغرِب، وهي في السَّماء، هذا في المَخلوق؛ فما بالُك في الخالِق المُحيط بكل شيء؟!

فالصَّوابُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في جِهة وهي جِهة العُلوِّ، لكنه عَزَّوَجَلَّ مَنِ اتَّجه

إليه في أيِّ مَكان فالله تعالى قِبلَ وَجْهه، قال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، أمَّا ذاته عَزَّوَجَلَّ فإنه فوقَ كل شيء.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إقرار المُكذِّبين على أنفسهم بما هم عليه من التَّكذيب، لكن في وقتٍ لا يَنفَعهم؛ ويُؤخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾، فهو تأكيد وإثبات أنه كان في الدنيا من الساخِرين بشَرْع الله تعالى المُستَهْزِئين به.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَحريم السُّخْرية بالله عَزَّوَجَلَّ، ويُؤخَذ ذلك من كون هذا الساخِرِ نَدِمَ وتَحسَّر على ذلك، ولولا أنه أُصيب بعَذابٍ عليه لم يَندَم.

فإن قال قائِل: ما حُكْم السُّخْرية بالله تعالى؟

قُلنا: حُكْمها الكُفْرُ، فمَن سخِر بالله تعالى، أو آياته، أو رَسوله ﷺ؛ فإنه كافِر.

فإن قيل: هل تُكفِّرونه ولو كان يَمزَح؟

فالجَوابُ: نعَمْ، نُكفِّره ولو كان يَمزَح؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ يَعني: ما قصَدْنا ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

وهنا مَسألة مُهِمَّة جِدًّا، وهي الاستِهْزاء بالشخص الذي يَفعَل طاعةً، أو يَتجنَّب مَعصية، فتارةً يَغلِب عليه الجانب الشَّخصيُّ فهذا لا يَكفُر، وتارةً يَغلِب عليه الجانِبُ الحُكميُّ، بمَعنَى أنه يَسخَر بالحُكْم من أيِّ مَصدَر جاء، فهذا كُفْر؛ ونُوضِّح هذا بمِثال:

الأوَّلُ: مثل بعض الناس لو رأَى مثَلًا عالِمًا من العُلماء المُعتبَرين المَحبوبين عند الناس المَوْثوقين رأَى ثوبَه إلى نِصْف الساق لا يَسخَر به أبَدًا، ولا يُمكِن أن يَسخَر،

لكن لو رأى شابًّا فربما يَسخَر به، إذَنْ هنا السُّخْرية مُنصَبَّة على الشخص، مُغلَّبٌ فيها جانِبُ الشَّخصية فهذا لا يَكفُر؛ لأنه لم يَكرَه الحُكْم، لكن كرِهَ هذا الذي قام بالحُكْم.

والثاني: أن يَكرَه الحُكْم الشرعيَّ، ويَسخَر بالحُكْم الشرعيِّ فهذا كافِر؛ ولهذا قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة:٦٥]، ولم يَقُل: والمُؤمِنين. فالرسولُ ﷺ مَعلومٌ، أيُّ إنسانٍ يَسخَر به فهو كافِر، حتى وإن كان قد غلَّب الجانِبَ الشخصيَّ؛ لأن الرسول مُشرِّع عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فكلُّ شيء صدَر منه فهو تَشريع، لكن الذي يَصدُر من غير الرسول ﷺ، إن كان مَحَلَّ ثِقةٍ عند الناس اعتبَروه حُكْمًا شَرْعيًّا ولم يَسخَروا به، وإن كان غيرَ ثِقَة سخِروا به مُغلِّبين جانب الشخصية؛ لأنهم مثَلًا لا يَثِقون به الثِّقَة التامَّة، أو يَرَوْن أنه مُتزَمِّت، أو مُتَنطِّع، أو ما أَشبَه ذلك.

وهذه المَسأَلةُ يَجِب على الإنسان أن يُدرِك الفَرْق بين الأمرين؛ لأن هذه المَسائِلَ دقيقة جِدًّا.

ولهذا ذكَر شيخ الإسلام[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإمام أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُكفِّر الجَهْمية، لكن لا يُكفِّر أعيانهم؛ لأنَّ هناك فرقًا بين التَّكفير باعتبار الحُكْم والتَّكفير باعتِبار الشخص.

ومِن ثَمَّ نُحذِّر طلَبة العِلْم من التَّسرُّع في التكفير الشخصيِّ العَيْنيِّ؛ لأنَّ المسألة ليست هَيِّنةً، فلو كفَّرْت شخصًا والله عَزَّوَجَلَّ لم يَحكُم بكُفْره عاد التَّكفير إليك، وصار يُخشَى عليك من الضلال، ولو في المُستَقبَل إذا لم تَتُبْ.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٨).

فإن قيل: ما الدواء لمَنِ ابتُلِيَ بهذا؟ أي: سخِرَ بالله تعالى، أو آياته، أو رسوله ﷺ؟

قُلنا: الدواء في هذه السُّورةِ، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، والدواء هو أن يَتوب إلى الله تعالى، فإذا تاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ وقلَع من قَلْبه هذه السُّخريةَ والاستِهزاءَ، وأَثبَت مكانها التَّعظيمَ والمَحبَّةَ فحينئذٍ يَرتَفِع عنه حُكْم الكُفْر.

الآيــة (٥٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر:٥٧].

يَعنِي: أو تَقول نَفْس، وهذه مَعطوفة على قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ أي: النفسُ [﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ بالطاعة فاهتَدَيْت ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾] ﴿لَوْ﴾ هذه شَرْطية، فِعْل الشرط فيها مَحذوف، وجوابُ الشَّرْط فيها قوله تعالى: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وتَقديره -أي: تَقدير المَحذوف وهو فِعْل الشَّرْط- لو ثبَت أن الله هَداني لكُنتُ من المُتَّقين.

وهذا احتِجاجٌ بالقدَر، يَعنِي: لو أن الله تعالى هَداني ووفَّقَني فاهتَدَيْت لكُنتُ من المُتَّقين، فهي تَنْدَم وتَحْتَجُّ، يَعنِي: جمَعت بين الندَم على عدَم التَّقوى والهِداية، وبين الاحتِجاج كقول القائِل: لو أَعطَيْتَني أُجرةً لعمِلْت لكَ، ولو أَطْعَمْتَني لشَبِعت. يَعنِي: فلم تُطعِمْني ولم تُعطِني أُجرة. فهُمْ يَقولون: لو أن الله تعالى هَداني لاهتَدَيْت وكُنتُ من المُتَّقين.

وعلى هذا فالمُرادُ بالهِداية هنا هِدايةُ التَّوْفيق، ويَكون هذا احتِجاجًا من النَّفْس بقَدَر الله تعالى على الضلال -والعِياذُ بالله-.

وقوله تعالى: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَذابَه] وهذا

مَفعول ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ولكن الصواب: أن نُقدِّر: (لكُنتُ من المُتَّقين الله)؛ لأن الأصل هو تَقوَى الله عَزَّوَجَلَّ، وتَقوى عذاب الله من تَقوَى الله تعالى، فينبَغي أن نُقدِّر الأَصْل، أي: لكُنتُ من المُتَّقين اللهَ تعالى.

وأَصْل التَّقوى مَأخوذة من الوِقاية، فأَصلُها (وَقْوَى) بالواو، لكن قُلِبت الواو تاءً لعِلَّةٍ تَصريفية، فإذا كانت من الوِقاية فسَّرْناها بأنها اتِّخاذُ ما يَقِي من عَذاب الله تعالى، ولا يَقِي من عَذاب الله تعالى إلَّا فِعْل أوامِره واجتِناب نواهِيه.

ولهذا نَقول: إنَّ أَجمَعَ ما قيل في التَّقوى أنها فِعْل الأوامِر واجتِناب النواهِي.

وقيل: إن التَّقوى أن تَعمَل بطاعة الله تعالى على نورٍ من الله تعالى تَرجو ثوابَ الله تعالى، وأن تَترُك ما نهى الله تعالى على نورٍ من الله تعالى تَخشَى عِقاب الله تعالى؛ وهذا المَعنَى أَطوَلُ ممَّا قُلْنا، لكن ما قُلْنا مُشتَمِلٌ عليه.

وقيل في التَّقوى:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا ... وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى

وَاعْمَلْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى

لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً ... إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الحَصَى[1]

وهذا أيضًا تَعريفٌ شيِّق؛ لأنه مَنظوم، فقوله:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا ... وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى

والذُّنوب إمَّا فِعْل مُحرَّم، أو تَرْك واجِب.

---

(١) الأبيات لابن المعتز، انظر: ديوانه (ص:٢٩).

وقوله:

وَاعْمَلْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى

فالذي يَمشِي على أرض الشَّوْك يَمشِي ببُطْءٍ.

وقوله:

لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الحَصَى

الجِبال العَظيمة الضَّخمة حَصًى مُتجَمِّع، إمَّا كُتَل أو صِغار أو كِبار.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: احتِجاج هذه النَّفْسِ التي فرَّطَت في جَنْب الله تعالى بقضاء الله تعالى وقدَره؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وهذا الاحتِجاجُ باطِل، أَبطَله الله تعالى بقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى ...﴾ إلخ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات أن هؤلاءِ المُكذِّبين يُقِرُّون بالله عَزَّوَجَلَّ، وبأن الأَمْر بيَدِه؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن التَّقوَى سببٌ للنَّجاة من العَذاب.

الآيــة (٥٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر:٥٨].

قوله: ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ هذه مَعطوفة على ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ يَعنِي: أو تَقول النَّفْس حين تَرى العَذاب بعَيْنه فيَكون المَوعود مَشهودًا تَراه بالعَيْن.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ والرُّؤية بالعين تُعتبَر عينَ اليَقين، والوعد بالعَذاب عِلْم اليَقين، ومسُّ العذاب حَقُّ اليَقين؛ ولهذا قالوا: اليَقين ثلاثة: عِلْم، وعَيْن، وحَقٌّ؛ وكلُّها في القرآن:

قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٥-٧]، أي: مُشاهَدًا.

وقال تعالى في آخِر سورة الواقِعة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة:٩٥]، فالذي يَكون عند الاحتِضار (حقُّ اليَقين).

وأَعلاها حقُّ اليَقين؛ لأن عين اليَقين قد تُشاهِد الشيء على خِلاف ما هو عليه كما تَرى، ولا سيَّما إن كان نظَرُك ضعيفًا تَرى الشيء الساكِن مُتحرِّكًا، أو المُتحَرِّك ساكِنًا، فعلى كل حال حَقُّ اليَقين أعلاها.

وهنا قال تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾ والمُراد عَينُ اليَقين.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: ﴿لَوْ﴾ هنا ليست شَرْطيةً، ولكنها للتَّمنِّي، يَعنِي: ليت لي كَرَّةً.

ونَستَطرِد فنَقول: (لَوْ) تَأتِي شَرْطية، وتَأتِي للتَّمنِّي، وتَأتِي مَصدريةً؛ ثلاثة مَعانٍ:

فتَأتِي شَرْطية فيما إذا قُلت: لو زُرْتَني لأَكرَمْتكَ. وعلامتها: أن يَحِلَّ محلَّها (إِنِ) الشَّرْطية: لو زُرْتَني لأَكرَمْتك. اجعَلْ بدَلَها (إِنْ): إن زُرْتَني أَكرَمْتك.

والثانية المَصدَرية وهي التي تَأتِي غالِبًا بعد (وَدَّ) كقوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩]، وعلامتها: أن يَحِلَّ محلَّها (أَنِ) المَصدَرية ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ﴾، ولو وضِعَت بدلها (أَنْ): ودُّوا أَنْ تُدهِن؛ لا يَصِحُّ الكلام، ولا يَصِحُّ أن تَضَع بدَلَها (أَنْ) في القُرآن، ويَصِحُّ تَقديرًا ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾، فلو جُعِلَتْ بدَلَها (أَنِ) استَقام الكلام، لكن لا يَجوز في القرآن أن تُجعَل بدلَها (أَنْ).

ولو قُلت: وَدِدْتُ لو زُرْتَني. لكان صحيحًا، لكن هنا إذا حوَّلتها إلى (أَنْ) فحَوِّلِ الفِعْل إلى مُضارِع: وَدِدْت أن تَزورَني.

بقِيَ عندنا التَّمَنِّيَّة التي للتَّمنِّي، وتكون بمعنى: أَتمَنَّى، يَعنِي: يُعيِّن مَعناها السِّياق، فهنا ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ﴾ لو وُضِعَتْ بدلَها: أَتمَنَّى؛ كان المَعنَى: أَتمَنَّى أن يَكون لي كرَّةٌ فأَكون من المُؤمِنين؛ ويَدُلُّك لهذا قولُه تعالى في سورة الأنعام: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام:٢٧].

فصار مَعانِي (لو) ثلاثةً: شَرْطية، ومَصدَرية، وللتَّمنِّي.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [رَجعةً إلى الدُّنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾]، يَعنِي: يَتمنَّى أن يَكون له رَجعة ليَكون من المُحسِنين.

وقوله تعالى: ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ولم يَقُل: من المُتَّقين؛ لأن الإحسان درَجةٌ فوقَ التَّقوى، فكُلُّ مُحسِنٍ مُتَّقٍ، وليس كُل مُتَّقٍ مُحسِنًا، فالإحسان درجةٌ عاليةٌ قال فيه النبيُّ ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1]. ولكن ليسَتْ هذه النَّفسُ صادِقةً في أنها تَتمنَّى لتكون من المُحسِنين، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]، لكن عند العَذاب ليس لها إلَّا أن تَقول هكذا: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن هؤلاءِ يَتمَنَّون الرجوع إلى الدُّنيا إذا رأَوُا العذاب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنهم يَتمنَّوْن الرجوع؛ ليَكونوا من المُحسِنين، لا للتَّلذُّذ بالدنيا والتَّمتُّع بها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وهذا يُشبِه قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠].

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٥٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر:٥٩].

قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ ﴾ هذه حَرْف جَواب، يُجاب بها النفيُ لإِثْباته.

فإذا قال قائِل: أينَ النفيُ في هذه الآيةِ؟

قُلْنا: قول هذه المُكذِّبة: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ يَتَضمَّن أن الله تعالى لم يَهدِها، فقال الله تعالى: ﴿ بَلَىٰ ﴾ يَعنِي: بلى قد جاءَك ما فيه الهِداية، وهو بَعْث الرُّسُل؛ لأن فيها ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى ﴾ يَتَضمَّن الهِداية العِلْمية؛ هِداية الرُّشْد الذي هو التَّوفيق.

والخُلاصةُ: أن قولها: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى ﴾ يَتضمَّن نفيَ هِداية الله تعالى لها، لو أن الله تعالى هَداني لكُنْت، ولكنه لم يَهدِنِي، فلم أَكُن من المُتَّقين.

إِذَنْ: هذا الكلامُ يَتَضمَّن نفيَ الهِداية، فقال الله تعالى مُبطِلًا هذا النفيَ: ﴿ بَلَىٰ ﴾ يَعنِي: بلى قد هَداكِ الله تعالى، هَداها بما جاءَت به، وهذه هِدايةُ الدَّلالة ﴿ بَلَىٰ ﴾ أي: بلى قد هَداكِ الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القُرآن وهو سبَب الهِداية] ما سبَق ليس خاصًّا بأُمَّة مُحمَّد ﷺ حتى يُقال: إن الآياتِ هي القُرآنُ، ولكنه

عامٌّ لجَميع الأُمَم الذين يَرَوْن العَذاب يوم القِيامة، فإذا كان من هذه الأُمَّةِ فالآياتُ التي جاءَت هي القُرآن، وإذا كان من قوم مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فالآياتُ هي التَّوراةُ، وإذا كان من قوم عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فالآياتُ الإنجيلُ، وهلُمَّ جَرًّا.

والآياتُ جَمْع: آيةٍ، وهي في اللغة: العَلامة المُبيِّنة لمَدلولها، وقد سمَّى الله عَزَّوَجَلَّ ما جاءَت به الرُّسُل آياتٍ؛ لأنه علامة على الربِّ عَزَّوَجَلَّ، ممَّا يَتَضمَّنه من الصِّدْق في الأَخْبار، والعَـدْل في الأَحْكام، وأنه لو اجتَمَع الخَلْق على أن يَأْتوا بمِثل ما جاء به الرُّسُل من الشرائِع ما استَطاعوا ذلك، وهذا آيةٌ؛ لأن ما يُقْدَر عليه لا يُعتبَر آيةً.

وقدِ استَمَـرَّ المُتأخِّرون على تَسمية الآيات: مُعجِـزاتٍ؛ وهذا فيه نظَـر، فإن المُعجِزاتِ أعمُّ من الآيات، إذ إن المُعجِـزة قد تَكون من الساحِـر، وقد تَكون من الكاهِن، وقد تَكون من المُشعوِذ، لكن الآية التي تُبيِّن الشيء وتُوضِّحه لا تَكون من هؤلاء؛ ولهذا يَنبَغي أن نَقول: (آياتُ الأنبياء) بدَلَ (مُعجِزاتُ الأنبياء)؛ لأن هذه:

أوَّلًا: هي المُوافَقة لما جاء في القرآن، فإن الله لم يُسمِّ آياتِ الأنبياءِ مُعجِزاتٍ.

ثانيًا: لِئَلَّا يَدخُل ما جاء مُعجِزًا من غير الأنبياءِ.

فقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى ﴾ أي: العَلامـاتُ التي تَدُلُّ على أن الله تعالى حقٌّ، أي: القُرآن، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهو سبَب الهِداية].

قوله: [هو] أي: ما جاءت به الرُّسُل من الآيات [سبَب الهِداية]، ولكن لَمن: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧].

أمَّا مَن حقَّتْ عليه كلِمة العَذاب وعلِمَ الله تعالى أنه ليس أهلًا لها، فيَقول الله تعالى فيـه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ باعتِبار الأخبار، ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ باعتِبار الأحكام الأوامِر والنَّواهِي، ففي جانب الخبَر مُكذِّب، وفي جانب الأمر والنَّهيِ مُستكبِر.

ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ تكبَّرت عن الإيمان بها] ولو قيل: عن العمَل بها؛ ليَكون التَّكذيب للأخبار، والاستِكبار عن الأَحْكام، ولكن ما ذكَرَه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا بأسَ به عن الإيمان بها.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: ﴿وَكُنتَ﴾ أي: بسَبَب التَّكذيب والاستِكبار ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين يَستَحِقُّون دُخول النار؛ لِقيام الحُجَّة عليهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تكذيب هؤلاء الذين قالوا: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إبطال الاحتِجاج بالقدَر على معصية الله عَزَّوَجَلَّ، ووجهُه: أن الله تعالى جعَل إرسال الرُّسُل حُجَّة، ولو كان القـدَر حُجَّةً لصاحِبه لم يَبطُل بإرسال الرُّسُل.

وعلى هذا فنَقول: الاحتِجاج بالقدَر باطِلٌ من جهة الشَّرْع، ومن جهة النَّظَر؛ أي: من جِهة العَقْل.

أمَّا من جهة الشَّرْع فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أبطَله في عِدَّة آياتٍ منها هذه الآيةُ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ لَمَّا قالت: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾

[الأنعام:١٤٨]، ولو كان الاحتِجاج بالقدَر نافِعًا لهم ما ذاقوا بأسَ الله تعالى إذ لا يَذوق بأسَ اللهِ تعالى إلَّا مَن لا حُجَّةَ له.

أمَّا من حيثُ النظَر: فإننا نَقول لهـذا المُحتَجِّ بالقدَر: ما الذي أَعلَمك أن الله تعالى كتَبَ عليك أن تَعصيَه؟ فلا يُمكِن أن يَعلَم بذلك قبل أن تَقَعَ المعصية، إذْ إن القَدَر سِرٌّ مَكتوم لا يُعلَم به إلَّا بعد وُقوع المَقدور كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان:٣٤]، فإذا كنتَ لا تَعلَم به إلَّا بعد وُقوع المَقدور، فتَجعَل لِفِعْلكَ حُجَّةً لم تَعلَم بها إلَّا بعد وقوع الفِعْل؛ لأنَّ الحُجَّة للفِعْل لا بُدَّ أن تكون سابِقةً عليه، أمَّا بعد أن يَقَع فإنه لا حُجَّةَ لك في القدَر.

ونَقول: إنك ظلَمْت نَفْسك باختيار المَعصِية، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [هود:١٠١]، فأنت الآنَ ظلَمْت نَفْسَك واحتَجَجْت على ذلك بالقَدَر، فما ظنُّك لو أن أحَدًا من الناس ظلَمَك في مالِك أو عِرْضك، وقال: إن هذا قدَرُ الله تعالى. هل تَقبَل حُجَّته؟!

الجَوابُ: لا، فمَعلوم أنه لو أن أحَدًا ضرَبه أو أخَذَ ماله أو أَساء إلى أهله، وقال: هذا قدَرُ الله تعالى، لا أَستَطيع. فإنه لن يَقبَل منه هذه الحُجَّةَ، فإذا كان لا يَقبَل حُجَّة مَن ظلَمه فلماذا يَقبَل حُجَّته على نَفْسه في ظُلْمه إيَّاها؟! فهذا مُنافٍ للعَقْل.

ويُذكَر أن أميـر المُؤمِنين عمرَ بنَ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رُفِـع إليه سارِق، فأمَـر بقَطْع يَدِه، فقال: يا أميرَ المُؤمِنين، والله ما سرَقْـتُ إلَّا بقدَر الله. يُريد أن يَرفَع عنه حَدَّ السرِقة، فقال أميرُ المُؤمِنين عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ونحن لا نَقطَعُك إلَّا بقدَر الله. لأنه إذا كان هو سرَق بقدَر الله تعالى فنحن أيضًا نَقطَعه بقدَر الله تعالى، بل نحن نَقطَعه بقدَر الله تعالى وشَرْع الله تعالى، فهو سرَقَ بقدَر الله تعالى دون شَرْع الله تعالى، فكُنَّا أَقوى

منه حُجَّةً، ولكن أمير المُؤمِنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عدَل عن ذِكْر الشَّرْع اقتِصارًا على ما احتَجَّ به هذا السارِقُ.

ونَقول لهذا الرجُلِ: لو خُيِّرت بين بلَدين أحدُهما بلَدٌ آمِن مُطمَئِنٌّ يَأتيه رِزْقه رغَدًا من كل مَكان، والثاني بلَدٌ خائِف وجوع ومرَض فهل تَذهَب إلى الثاني، وتَحتَجُّ بقدَر الله تعالى؟ أو إلى الأوَّل، وتَقول: إن الله تعالى أَعطاني عَقْلًا ففضَّلْتَ الأوَّل؟ سيَقول: إن الله تعالى أَعطاني عَقْلًا ففَضَّلْتُ البلَد الآمِن، ولا يُمكِن أن يَذهَب إلى البلَد الخائِف ويَقول: هذا بقَضاء الله تعالى وقدَره. لو ذهَب إلى البلَد الخائِف باختياره وقال: هذا بقضاء الله تعالى وقدَره. لقال الناس: إن هذا الرجُلَ مَجنون، إذ إنه لا يُمكِن أن يَختار مثل هذا البلَدِ على البلد الأوَّلِ.

وبهذا تَبيَّن بُطلان مَن احتجَّ بالقضاء على مَعاصِي الله تعالى، حتى مَن احتَجَّ بالقضاء على تَرْك الأفضل هو أيضًا مُخطِئ، ويُؤيِّد ذلك الوجهُ الأخيرُ؛ حيث اختار البلَد الآمِن الذي يَأتيه رِزْقه رغَدًا من كل مَكان.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هؤلاء الذين أُصيبوا بالعَذاب أُصيبوا بالجزاء العَدْل؛ وذلك لأنهم كذَّبوا بالآيات واستكْبَروا عنها، وهذا جزاؤُهم؛ لأن هذا الجزاءَ الذي أُصيبوا به ليس خافِيًا عليهم ولا مَكتومًا عنهم، فإن الرُّسُل جاءَتْهم بالأحكام والأخبار، والترغيب والترهيب، وقد دخَلوا على بصيرة، فيَكون جَزاؤُهم عَدْلًا لا جَوْرًا؛ لأنهم علِموا ماذا يُلاقون إذا كذَّبوا واستكْبَروا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن التَّكذيب بآيات الله تعالى كُفْر، والاستِكْبار عن أحكام الله تعالى كُفْر؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ولا شَكَّ أن المُكذِّب للخبَر كافِر سواءٌ كذَّب الخبَر المُتواتِر المَقطوع به، أو كذَّب خبَر الآحاد، فإنه يَكون كافِرًا، لكن تكذيب خبَر الآحاد يُشترَط لتكفيره أن يَقول: نعَمْ، قال الرسولُ كذا، ولكنه غيرُ صحيح، أمَّا لو قال: لم يَقُلِ الرسول كذا، وهو خبَرُ آحاد. فهذا لا نَحكُم بكُفْره؛ لأنه يُمكِن أن يَكون أَنكَره؛ لعدَم ثُبوته عِنده، لكن لو قال: أنا أَقول: إن النبيَّ ﷺ قال: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا وُضُوءَ لَهُ»[1]، ولكني أَقول: هذا ليس بصحيح، فحُكْم هذا الكُفرُ ولا شَكَّ؛ لأن هذا تَكذيبٌ صريح للنبيِّ ﷺ بعد أن عَلِم أن الرسولَ ﷺ قاله، بل بعد أن أَقَرَّ هو بنَفْسه أن الرسول ﷺ قاله.

وعلى هذا فإذا قال لك قائِل: هل يَكفُر من كذَّب أخبار الآحاد؟ فيَجِب أن تُفصِّل، وتَقول: إن قال: نعَمْ قال النبيُّ ﷺ كذا، ولكن لا قَبولَ وليس بصِدْق. فهذا كافِر بلا شَكٍّ.

أمَّا إذا كذَّب دون أن يَقول مثل ذلك فإننا لا نُكذِّبه؛ لاحتِمال أن يَكون تَكذيبه لعدَم ثُبوت الخبَر عنده وهي شُبهةٌ تَرفَع عنه الحُكْم بالكُفْر؛ لأن الحُكْم بالكُفْر ليس بالأمر الهيِّن وهو إخراج الإنسان من نِطاق الإسلام إلى نِطاق الكُفْر.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٤١٨)، وأبو داود: كتاب الطهارة، باب في التسمية على الوضوء، رقم (١٠١)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب ما جاء في التسمية في الوضوء، رقم (٣٩٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٦٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر:٦٠].

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾: (يوم) هـذه ظَرْف تَحتاج إلى مُتعلِّق؛ لأن كل ظَرْف أو جارٍّ ومَجرور فلا بُدَّ له من شيء يَتعلَّـق به؛ لأن الظرف والجارَّ والمَجرور لا يُمكِن أن يَكون عامِله مَعنويًّا، لا بُدَّ أن يَكون عامِله لفظيًّا، بخِلاف غيرهما، فإنه قد يَكون عامِله مَعنوِيًّا فيَكون مُبتَدَأ، لكن الظرف لا يَكون مُبتَدَأ، والجارُّ والمجرور لا يَكون مُبتَدَأ، فلا بُدَّ له من عامِل لَفْظيٍّ، والعامِل اللفظيُّ إمَّا فِعْل، وإمَّا ما كان بمَعنَى الفِعْل كاسْمِ الفاعِل واسم المَفعول، وعلى هذا يَقول ناظِمُ الجُمَل:

لَا بُـدَّ لِلْجَـارِّ مِـنَ التَّعَلُّـقِ ... بِفِعْـلٍ اوْ مَعْنَـاهُ نَحْـوُ مُرْتَـقِ

وَاسْـتَثْنِ كُـلَّ زائِـدٍ لَـهُ عَمَـلْ ... كَالْبَاءِ وَمِنْ وَالْكَافِ أَيْضًا وَلَعَلّ

إذن: قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ ﴾: ﴿ وَيَوْمَ ﴾ هذه ظَرْف تَحتاج إلى مُتعلَّق، ومُتعَلَّقها الفِعْل الذي بعدَه ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ﴾ يَعني: وتَرى الذين كذَبوا على الله يـوم القيامة ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾، ولكن قدَّم المَعمـول للأَهمِّيَّة؛ لأن المُهِمَّ التَّحدُّث عن هذا اليوم.

وقوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ﴾ الخِطاب لكل مَن يَصِحُّ خِطابه، فيَعُمُّ الرسول ﷺ، وغيره ممَّن يَصِحُّ توجيه الخِطاب إليهم.

والرُّؤية هنا رُؤيةٌ بصَرية؛ لأن السَّواد لون، والرُّؤية باللَّون هي رُؤيةٌ بصَرية؛ لأن الألوان تُرى ولا تُعقَل؛ يَعنِي: تُدرَك بالرؤية لا بالعَقْل.

قوله تعالى: ﴿كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بكل أنواع الكذِب، فكلُّ مَن كـذَب على الله تعالى فإن وجهَه سيَكون مُسوَدًّا يوم القيامة، وذلك [بنِسبة الشَّريك له]، كما قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [بنِسْبة الولَد له]، كما قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا، وبنِسبة الجَوْر له، وبنِسْبة الظُّلْم، وبأي شيء يَكذِب على الله تعالى، فإن الذين يَكذِبـون على الله تعالى ستكون وجوهُهم يوم القِيامة مُسوَدَّة، حتى لو كانوا في الدُّنيا بِيضًا فإنهم يَأتون يوم القيامة وجوهُهم مُسوَدَّة -والعِياذُ بالله-.

قال تعالى: ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ ولم يَقُل: تَـرَى وجوهَ الذين كذَبوا على الله مُسوَدَّة؛ لأن التَّركيب المَذكور في القُرآن أَبلَغُ في الإثبات؛ حيث جعَل هذا الوَصْـفَ -أَعنِي: سَواد وجوهِهم- مُكوَّنًا من جُملة واحِـدة؛ لأن الجُملة الاسْمِيَّة تُفيد الثُّبوت والاستِمْرار، بخِلاف الجُمْلة الفِعْلية فإنها تُفيد التَّجدُّد والحُدوث.

فـ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ تَرَى نفس الإنسان وجهُه مُسوَدٌّ، لكن لو قال: تَرَى وجوه الذين كذَبوا على الله تعالى مُسوَدَّة لم تَحصُل هذه الفائِدة.

إذن: هذا التركيـبُ الذي في الآية الكريمة يُفيـد مَعنًى أكثَرَ ممَّا لو كان على التَّركيـب الذي ذكَرْته؛ لأن هذا التَّركيـبَ القرآنيَّ يَدُلُّ على أن هذا الاسـوِدادَ في

وجوههم ثابتٌ مُستَقِرٌّ، حيث جاء بالجُملة الاسمِيَّة، والجُملة الاسْمِيَّة تُفيد الثُّبوت والاستِمْرار.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾: ﴿أَلَيْسَ﴾ الاستِفهام هنا للتَّقرير، ويَقول العُلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: كلَّما جاءَت أداة النفيِ بعد الاستِفْهام فإنه للتَّقرير، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨].

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٤٠]، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٦٠]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، والآيات في هذا كثيرة.

فالاستِفهام إذَنْ في هـذه الآيـةِ: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ -والجَوابُ: بلى- استِفهام تَقرير.

وقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ﴾ اسمٌ من أسماء النار -أَعاذَني الله تعالى وإيَّاكم منها- وهل هو اسمٌ مُعرَّب، أو هو اسمٌ عرَبيٌّ على وَزْن فَعلَل؟

في ذلك قولان:

منهم مَن قال: إنه اسمٌ مُعرَب وأصلُه في الفارسية: (كهَنّام) فعُرِّب فآلَ إلى جَهنَّمَ. وقيل: بل هو اسمٌ عرَبيٌّ على وَزْن فَعلَّل، مَأْخُوذٌ مِنَ الجُهمة وهي الظُّلْمة؛ لأن النار -والعِياذُ بالله- سَوداءُ مُظلِمة.

وإذا دار الأمرُ بين أن تَكون الكلِمة أصيلة أو دَخيلة فالأصل أنها أَصيلة؛ لأن القُرآن عرَبيٌّ، فإذا حكَمْنا بأن الأصل عرَبيٌّ جعَلنا اللغة العربية غَنيَّةً عن غيـرها، وإذا جعَلْنا أصلَه فارِسيًّا، أو حبَشِيًّا، أو ما أَشبَه ذلك، ولكنه عُرِّب، فهذا يَعنِي أن

اللغة العربية افتَقَرت إلى هذه الكلِمةِ فعرَّبتها وأَدخَلَتْها في لسان العرَب.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَثْوًى﴾ مَأوًى] فالمَثوَى والمَأوَى بمَعنًى واحِد، والمُراد بالمَثْوى والمَأْوَى: المَقرُّ والمَسكَن.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان] وعن الأعمال أيضًا، فكُلُّ مُتكبِّر -والعِياذُ بالله- فهو من أصحاب النار.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بلى] هذا جَوابُ: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، وإذا جاءت مثل هذه الصِّيغةِ في القُرآن فجَوابها: (بلى)؛ فإذا قرَأْت قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ أو قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزمر:٣٧]، أو قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، أو قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فالجَوابُ: بلى. وهكذا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ويوم القيامة هو يوم قِيام الساعة، وسُمِّيَ بذلك لأن الناس يَقومون من قُبورهم لربِّ العالَمين؛ ولأنه يُقام فيه العَدلُ؛ ولأن الأَشهاد تَقوم فيه؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٦]؛ ولقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء:١٤٧]؛ ولقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

فهذا هو سبَب تَسمية يوم القيامة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: سُوء عاقِبة الكاذِبين على الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَحريم الكذِب على الله تعالى، ويُؤخَذ ذلك من العُقوبة، فالتَّحريم لا يُستَفاد من صيغة فقَطْ، بل يُستَفاد التحريم من صيغة النَّهيِ، والقَتْل لفاعِله، وبيان عُقوبة فاعِله، وما أَشبَه ذلك، المُهِمُّ أن وسائل العِلْم بالتَّحريم مُتعدِّدة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: التحذير من الفُتيا بلا عِلْم؛ لأن مَن يُفتِي بلا عِلْم فقد قال على الله تعالى ما لا يَعلَم، وقد بيَّن تَحريم ذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الكاذِبين على الله تعالى مَقرُّهم النار؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تحريم التَّكبُّر؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ تَكبُّرٌ عن الحقِّ، تَكبُّرٌ على الخَلْق، ويَدُلُّ لهذا التنويع أن النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»(١). فقوله: «**بَطَرُ الحَقِّ**» تَكبُّر عن الحَقِّ، و«**غَمْطُ النَّاسِ**» تَكبُّر على الخَلْق، وأَعظَمُهما الأوَّل، وهو التَّكبُّر عن الحقِّ؛ لأن الثانيَ داخِلٌ فيه، فإن التَّكبُّر على الخَلْق تَكبُّر عن الحقِّ، إذ إن الحقَّ يَأمُرك أن تَكون مُتواضِعًا للحقِّ وللخَلْق.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: التَّحذير من التَّكبُّر، وأن عُقوبة المُتكبِّرين دُخول ا لنار، بل إذا كان التَّكبُّر تَكبُّرًا مُطلَقًا فإن عُقوبته السُّكنَى في النار والخلود في النار، أمَّا مَن تَكبَّر مُطلَق تَكبُّر فهذا لا يُحكَم له بالخُلود في النار؛ لأنه قد يَتكبَّر عن بعض الحَقِّ، أو يَتكبَّر على الخَلْق فلا يَستَحِقُّ الخُلود.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٦١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر:٦١].

لَمَّا ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عِقاب الذين كذَبوا على الله تعالى بيَّن ثواب الذين اتَّقَوُا الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا دأْبُ القرآن الكريم أنه إذا ذكَر الشيء ذكَر مُقابِله، وهو من مَعنَى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر:٢٣].

قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: ﴿مَّثَانِيَ﴾ أي: تُثنَّى فيه المَعاني، فإذا جاء وَصْف المُؤمِنين جاء وَصْف الكافِرين، وإذا جاء ثواب المُؤمِنين جاء ثواب الكافِرين، وكذلك بالعكس، وذلك من أَجْل أن لا يَستَغرِق الإنسان في جانب الرجاء إذا ذَكَرَ وَصْف المُؤمِنين وثوابهم، وكذلك لا يَيْأَس إذا ذكَر وَصْف الكافِرين وعِقابهم.

وهنا يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾: ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ من عِقاب الكافِرين، فلا تَكون وجوهُهم مُسوَدَّةً، ولا تَكون مَثواهم جَهنَّمَ، وقد بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ في آيات أخرى أن يوم القِيامة ﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦]، فتَسوَدُّ وجوهُ الكافِرين، وتَبيَضُّ وجوه المُؤمِنين، فيُنجِّي الله تعالى الذين اتَّقَوْا من عِقاب الكافِرين في هذا وفي هذا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ﴾ من جَهنَّمَ] صحيح، لكن لو قال: من

عِقاب الكافِرين. لكان أعمَّ؛ لتَشمَل النَّجاة نجاتَهم من جَهنَّمَ، ومن أن تَكون وجوهُهم مُسوَدَّةً، ومن غير ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ الشِّرْكَ]، والصواب أن يُقال في هذا: اتَّقوا الله؛ لأن التَّقوى عند الإطلاق إنما يُراد بها تَقوى الله عَزَّوَجَلَّ، وقد تُذكَر في غير الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]، وما أَشبَه ذلك، لكن عند الإطلاق لا يُراد بها إلَّا تَقوَى الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِمَفَازَتِهِمۡ﴾ أي: بمَكان فَوْزهم من الجَنَّة بأن يَجعَلوا فيه].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بمَكان فَوْزهم من الجَنَّة بأن يَجعَلوا فيه]، فأَفادَنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا التَّفسيرِ: أن الباء بمَعنَى (في) أي: يُنجِّي الله الذين اتَّقَوْا من العذاب في مكان فَوْزهم، وهو الجَنَّة.

والباء تَأتي بمَعنَى (في) في اللغة العربية، ومنه قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨]، ﴿وَبِٱلَّيۡلِ﴾ يَعنِي في الليل.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ هذا من نَجاتهم أنهم لا يَمَسُّهم السوء، أي: لا يَمسُّهم شيء يَسوؤُهم، لا من عِقاب، ولا من تَوبيخ، ولا غير ذلك؛ ولهذا إذا دخَل أهل الجَنَّةِ الجَنَّةَ يُقال: يا أهلَ الجَنَّة، خُلودٌ فلا موت. ويقال: إن لكم أن تَنعَموا، وإن لكم أن تَصِحُّوا، وإن لكم أن تَحيَوْا. يَعنِي: فلا تَموتوا، ولا تَسقَموا، ولا تَبأَسوا. دائِمًا هم في نعيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي: لا يَحزَنون على ما سبَقَ؛ لأنَّ الحُزْن يَكون على ما مضَى، والغَمَّ

يَكون للمُستَقبَل، أمَّا المُستَقبَل فقال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾، وأمَّا الماضي فقال تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي: لا يَحزَنون على ما مضَى؛ لأنهم لم يُفرِّطوا فيه، بل عرَفوا قَدْر الزمَن، وعمِلوا فيه ما نجَوْا به من عَذاب الله عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فضل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على المُتَّقين، حيث يُنجِّيهم إلى مكان الفَوْز.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فضيلة التَّقوى وآثارها وثمَراتها، وقد ذكَر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في القرآن الكريم من ثمَراتها شيئًا كثيرًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هؤلاءِ الناجِين لا يَمَسُّهم سوء في المُستَقبَل، ولا يَحزنون على شيء مضَى، وبذلك يَتِمُّ نعيمهم؛ لأن النعيم يَنقُص إذا أصاب الإنسانَ همٌّ أو غمٌّ للمُستَقبَل، ويَنقُص أيضًا إذا أَصابَه حُزْنٌ على الماضي، أمَّا إذا عرَف أنه كَسَب الماضيَ وأنه لن يَنالَه سوءٌ في المُستَقبَل فسوف يَتِمُّ له النعيم.

الآيــة (٦٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر:٦٢].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ جُملة اسْمِية تُفيد الثُّبوت والاستِمرار، وأن الله تعالى دائِمًا وأبدًا هو الخالِق.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مَعناها: مُوجِده على الصورة التي أَرادَها الله عَزَّوَجَلَّ.

والخَلْق في الأصل بمَعنَى: التقدير، ولكنه يُطلَق على الإيجاد المَقرون بالتَّقدير والتَّسوِية والإحكام والنِّظام، فهُنا الخَلْـق يُراد به الإيجاد على وجهٍ كامِـل بتَقديره وتَسوِيته وتَنظيمه.

وقوله تعالى: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ قال بعض الناس: يُستَثنَى من ذلك نفسُه، ولكن هذا ليس بصواب؛ لأنه من المَعلوم أن الفاعِل ليس المَفعولَ، وحينئذٍ لا يُحتاج إلى استِثناء، والاستِثناء يُحتاج في جُملةٍ يَكون فيها المُستَثْنى داخِلًا فيها لولا الاستِثناء، أمَّا هنا فلا يُمكِن أن يَكون داخِلًا فيها؛ لأن الفاعِل غير المَفعول، فالخالِق غير المَخلوق، ولا يُمكِن أن يُوجَد مَخلوقٌ ويُوجَد بعده خالِقه مثَلًا حتى نَقول: إن الجُملة تَحتاج إلى استِثناء.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾: ﴿وَهُوَ﴾ يَعنِـي: الله عَزَّوَجَلَّ ﴿عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُتصرِّفٌ فيه كيف يَشاء]، ولو قال: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حفيظًا عليه مُدبِّرٌ له، لكان أعَمَّ؛ لأن الوكيل في اللغة هو الذي وُكِل إليه الشيء حِفْظًا وتَدبيرًا، والله عَزَّوَجَلَّ على كل شيء وكيل حِفْظًا وتدبيرًا، وهنا لا يُقال: كيف كان وَكيلًا؟ ومَن الذي وكَّله؟ ونَقول: إذا كان الوكيل بمَعنَى: الحفيظ المُدبِّر فلا حاجةَ إلى استِحْفاظ، بل هو الذي تَولَّى ذلك بنَفْسه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عُموم خَلْق الله عَزَّوَجَلَّ لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الرَّدُّ على القدَرية الذين قالوا: إن الإنسان خالِقُ أفعالَه؛ ووجه ذلك: أن أفعَال العِباد داخِلة في العُموم، فهي شيء من الأشياء، فتكون داخِلةً في العُموم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله تعالى خالِقٌ للأعيان والأَوْصاف؛ لأن الأعيان شيء يَعنِي: تُسمَّى شيئًا، والأوصاف تُسمَّى أيضًا شيئًا.

فإن قال قائِل: إن القُرآن مَخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، والقرآن شيء؛ وأن الله تعالى مَخلوق؛ لأنه شيء، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ [الأنعام:١٩]، فما تَقولون في ذلك؟

الجَوابُ: نَقول: هذا ليس بصحيح، أمَّا كون الله تعالى مَخلوقًا فقد تَقدَّم قبل قليل، وهو: ضرورةُ أن الفاعِل ليس هو المَفعولَ؛ هذا واحِد.

وأمَّا أنَّ القرآن غير مَخلوق؛ فلأنَّ القُرآن وصفُ الله عَزَّوَجَلَّ، والربُّ بصِفاته

ليس مَخلوقًا، بل هو لم يَزَل ولا يَزال بصِفاته، فكلامه غير مَخلوق ومنه القُرآن.

وعلى كل حال: فيَكون الربُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصِفاته ليس داخِلًا في هذا العُمومِ بالضرورة؛ لأنَّ الخالِق غير المَخلوق.

وأمَّا قول الذين استَدَلُّوا بهذه الآيةِ على خَلْق القُرآن: أنَّ هذا عامٌّ؛ فنَقول: إن العامَّ قد يُراد به الخُصوص، هذا إذا صحَّ أن الذِّهْن يَنتَقِل من هذا العُمومِ إلى كل شيء، ونَقول: إن كلِمة (كل شيء) تَأتي ولا يُراد بها العُموم، مثل قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف:٢٥]، ومَعلومٌ أنها لم تُدمِّر السمَواتِ ولا الأرضَ، بل ولا مَساكِنَ القوم، كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: عِناية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما خلَق؛ لأنه لَمَّا ذكَرَ أنه خلَق كل شيء بيَّن أنه على كل شيء وَكيل، وهذا يَدُلُّ على عِناية الله بخَلْقه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن ما يُصيب الناس من البلاء والفِتَن فإنه مِن الله تعالى ومن مُقتَضى وَكالته؛ لعُموم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

ومَعلومٌ أن الإنسان إذا آمَن هذا الإيمانَ فإنه سيَسهُل عليه كلُّ ما صعُب، وإذا آمَن أيضًا أنه بالصبر والاحتِساب تَنقَلِب هذه المَصائِبُ نِعَمًا هانَت عليه أيضًا؛ ولهذا لا نَجِد أحدًا أَعظَمَ راحةً ممَّن آمَن بالقدَر خيرِه وشَرِّه، فإنك تَجِد الإنسان وإن تَقلَّبَت به الأحوال تَجِده راضيًا مُطمَئِنًّا؛ إن أَصابَتْه الضرَّاءُ صبَر فكان خيرًا له، وإن أَصابَتْه السرَّاءُ شكَرَ فكان خيرًا له.

• • ۞ • •

الآيــة (٦٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الزمر:٦٣].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: مَفاتيحُ خزائِنها من المطَر والنبات وغيرهما]، قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ﴾ المَقاليد جَمْع: مِقلاد، وهو ما يُقلَّد به الشيء، هذا هو هذا الأصل، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعَل المَقاليد هنا بمَعنَى: المَفاتيح، ولو أنه قال: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: تَدبير السمَواتِ والأرض. لكان أَوْلى؛ لأن كلِمة: المَفاتيح قد يَظُنُّ الظانُّ أنه يَملِك المفاتيح دون التَّدبير، ولكن الأمر ليس كذلك، فهو بيَدِه مَقاليد السمَواتِ والأرض. أي: تَدابيرُهما كما يَشاء.

ثُمَّ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مُبتَدَأ، وجملة: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ خبَرُه، وعلى هذا فتكون هذه الجُملةُ تَتَضمَّن جُمْلَتين: كُبرى، وصُغرى.

الكبرى: هي المُكوَّنة من المُبتَدَأ والخَبَر، والصُّغرى: هي التي وقَعَت خبَرًا، فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مُبتَدَأ، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مُبتَدَأ آخَرُ ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ خبَر المُبتَدَأ الآخَر، والجُملة من المُبتَدَأ الثاني وخبَرِه خبَرُ المُبتَدَأ الأوَّل.

وفائِدة الإتيان بهذا التَّركيبِ: أنه أُسنِدَت الجُمْلة الثانية إلى الأُولى حتى صارت

الجُمْلة جُمْلتين في المَعنَى.

أمَّا قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فـ﴿هُمُ﴾ ضَمير فَصْل لا مَحَلَّ له من الإعراب.

وفائِدتُه:

أوَّلًا: التَّوكيد.

ثانيًا: الحَصْر.

ثالثًا: التَّمييز، أو إن شِئْت فقُلِ: الفصل بين كون ما بعدَه خبَرًا أو وَصْفًا، فإنك إذا قلت: زيدٌ هو الفاضِلُ. فإن كلمة (الفاضِل) تَحتَمِل أن تَكون خبَرًا، أو أن تَكون صِفة إذا حَذَفت (هو)، وإذا قلت: زيدٌ الفاضل. فربما يَترَقَّب الإنسان كلِمة أُخرى تَتِمُّ بها الجُملة، ويَعتِقد أن (الفاضِل) صِفة، فإذا قلتَ: هو الفاضِل. زال هذا الوهمُ، أو زال هذا التَّوقُّع، وعَلِم أن ما بعد (هو) خبَرَ المُبتَدَأ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن] وهذا فيه شيءٌ من القُصور؛ لأن آياتِ الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن وفي غير القرآن، ثُمَّ الآياتُ كونيةٌ وشَرْعيةٌ، والكُفْر يَكون بهما جميعًا؛ أي: بالآيات الكونية والآيات الشرعية، ويَكون بالقرآن وبالتَّوراة وبالإنجيل وبغَيرِهما من الكُتُب التي أَنزَلها الله عَزَّوَجَلَّ، فالأَوْلى العُموم أن يُقال: كفَروا بآيات الله تعالى الكَوْنية والشَّرْعية، القرآن وغير القرآن.

وأصل الكُفْر الجَحْد، ومنه: الكفرة الذي هو وِعاء طَلْع النَّخْلة؛ لأنه يَستُر الطَّلْع ولا يَتبيَّن، والكافِر جاحِدٌ ساتِرٌ لحَقِّ الله عَزَّوَجَلَّ ولنِعَم الله عَزَّوَجَلَّ، وكُفرهم بآيات الله تعالى يَكون تارةً بالتكذيب وتارةً بالاستِكْبار، ففي مُقابِل الأخبار يَكون بالتَّكذيب،

وفي مُقابِل الأمر والنَّهي يَكون بالاستِكْبار.

إذَنِ: الكُفْر قُلنا: إنه يَتضمَّن شيئين: إمَّا جُحودًا، وإمَّا استِكبارًا.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ اسمُ إشارة، وهنا المُشار إليه بعيد؛ لأن الكافَ لا تَأتِي إلَّا إذا كان المُشار إليه بعيدًا، فإنها تَأْتي الكاف لتَنبيه المُخاطَب إلى المُشار إليه؛ لبُعْده، أمَّا إذا كان المُشار إليه قريبًا فإنه لا يُؤتَى بالكاف، بل يُقال: (أولاءِ) مثل: (هَـؤلاءِ)، ويُقال: (هذا) لكن إذا كان بَعيدًا فإنه يُؤتَى بالكاف؛ لتَنبيه المُخاطَب إلى المُشار إليه؛ لأنه لا شَكَّ أن الإنسان إذا خُوطِب كان ذلك أبلَغَ في تَنبيهه: (أولئكِ) إذا قلتَ الكافَ سيَنتَبِه ويَنظُر من هذا المُشارُ إليه.

فإذا كان لا يَكون إلَّا البعيد، فالبُعْد إمَّا عُلوٌّ أو سُفول، وإمَّا حِسِّيٌّ وإمَّا مَعنَوِيٌّ، فالأقسام إذَنْ أربعة، والقِسْم الذي يَنطَبِق على الذين كفَروا هنا حِسِّيٌّ، لكن في الدنيا مَعنوِيٌّ؛ لأنه قد يَكون كافِرًا وهو في قِمَّة الجبَل.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ هم لا غيرهم الخاسِرون الذين خسِروا الدُّنيا والآخِرة، أمَّا خُسْران الآخِرة فظاهِر، وأمَّا خُسْران الدنيا فإنهم إنما خُلِقوا لعِبادة الله تعالى، ولم يَقوموا بعِبادة الله تعالى، إذَنْ خَسِروا المعنى الذي من أَجْله خُلِقوا، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وقال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُتَّصِلٌ بقوله: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ﴾ وما بينهما اعتِراض] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُتَّصِلٌ] يَعنِي بقوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ

بِمَفَازَتِهِمْ﴾؛ هذا ما ذهَب إليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولكن هذا قد يُنازَع، قد يُقال إن قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ هو مُتَّصِل بما قبلَه، لَمَّا ذكَر الذين كذَبوا على الله تعالى أن وجوهَهم مُسوَدَّة قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾، أمَّا هذا فليس له صِلة بما ذُكِر، بل صِلَته بما قَبْله مُباشَرةً أَبْيَنُ وأَظهَرُ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَعنِي: فبَعدَ هذا البيانِ، وبعد إقرار الكُفَّار بأن الله تعالى خالِق كل شيء لا يَبقَى لهم رِبْحٌ إذا كفَروا، بل همُ الخاسِرون.

فتكون هذه الآيةُ مُتَّصِلةً بما قبلَها مُباشَرةً، وليست مُتَّصِلةً بقوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾؛ لأن هذه الآيةَ: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ﴾ مُتَّصِلة بما قبلَها، وهذا هو مُقتَضى النَّظْم القرآني، أمَّا أن نُشَتِّتَ الآياتِ ونَقول: كلُّ هذه الجُملةِ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كل هذا جُملة اعتِراضية، أو كل هذا اعتِراضٌ لا مَحَلَّ له هنا؛ فلا شَكَّ أن هذا خِلاف ما يَقتَضيه النَّظْم وسِياق القرآن.

فالصَّوابُ: أن هذه الجُملةَ مُتَّصِلة بما قبلَها، ووجهُ الاتِّصال أنه بيَدِه مَقاليدُ السمَوات والأرض، وأنه خالق كل شيء، وهم يُقِرُّون به؛ فصار هؤلاء الذين يُقِرُّون بأن الله تعالى خالِق كل شيء، وأن له مَقاليدَ السموات والأرض وكفَروا به يَكونون خاسِرين لا شكَّ هم أَخسَرُ الناس، فكيف يُقِرُّون بأن الله تعالى خالِق كل شيء، وأن له مَقاليدَ السموات والأرض ثُم يَكفُرون بآياته؟! وكان مُقتَضى هذا الإقرارِ أن يُؤمِنوا بآياته، ولكنهم خَسِروا فكفَروا بآيات الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن المُدبِّر للسَّموات والأرض هو الله تعالى وحدَه؛ ووجهُ كونه وحدَه: أنه قُدِّم الخَبَر في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ﴾ وتقديم الخَبَر يُفيد الحَصْر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: لَفْت نظَر الإنسان إلى أن لا يَستَعين إلَّا بالله تعالى، ولا يَسأَل إلَّا الله تعالى، ولا يَتوكَّل إلَّا على الله تعالى؛ وجهُ ذلك: أنه هو الذي له مَقاليدُ السمَوات والأرض، فإذَن لا تَلتَفِت إلى غيره، كما قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لعَبدِ الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»(١).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الكافِرين همُ الخاسِرون وإن كانوا في الدنيا قد ربِحوا الجَوْلة، فإنهم خاسِرون دُنيا وأُخرى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وُجوب الإيمان بآيات الله تعالى؛ ووجهُ الدَّلالة: أنه إذا كان الوَعيد على مَن كفَر بها دلَّ ذلك على وُجوب الإيمان.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَحريم الكُفْر؛ لكونه سببًا للخَسارة.

فإذا قال قائل: أين في الآية لفظ يحرم؟

قُلْنا: التحريم يُستَفاد بعِدَّة طرُق، منها: النهيُ مثل: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣٢]، ومنها: التصريح بالتحريم مثل: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة:٣]، ومنها: نفيُ الحِلِّ مثل: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ﴾ [البقرة:٢٨٨]، ومنها: الوعيد على الشيء، ومنها: بيانُ فَوات الخير.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١٦).

وطرق إفادة التحريم مُتعَدِّدة، لكن من جُمْلتها: أن تَرتيب الخُسْران على فعل الشيء يَدُلُّ على أنه حرام.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: رِبْح الذين آمَنوا، وأنهم هم الرابِحون، فيُؤخَذ من مفهوم خَسارة الكافِرين: أن يَكون الرِّبْح للمُؤمِنين، وقد صرَّح الله تعالى بذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

• ● ۞ ● •

الآيــة (٦٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ [الزمر:٦٤].

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ الهَمْزة للاستِفْهام، والفاء حَرْف عَطْف، وهنا يُشكِل على هذا الإعرابِ ما اشتُهِر من أن هَمزة الاستِفهام لها الصَّدارة، وهنا قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ فإذا كان لها الصَّدارة فكيف تَأتِي الفاء بعدَها الدالة على أن الجُملة مَعطوفة؟

فالجَوابُ: إن في ذلك لعُلماءِ النَّحوِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وَجهَيْن:

الوجهُ الأوَّل: أن الهمزة للاستِفهام، وأنها داخِلة على جُملةٍ مَعطوف عليها، وتُقدَّر هذه الجُملةُ بما يُناسِب السِّياق، وعلى هذا فيَكون التَّقديرُ في هذه الآيةِ: قُلْ أَتَجْهَلون فغيرَ الله تَأمُرونِّي أَعبُد أيُّها الجاهِلون؛ ويُقدَّر في كل مَوضِع ما يُناسِبه، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف:١٠٩]، التَّقدير: أَغفَلوا فلم يَسيروا في الأرض.

وقيل: إن الهَمْزة للاستِفْهام، وإن الفاء مُزحَلَقة عن مَكانها، والتَّقدير: فأَغَيرَ الله. فتكون هذه الجُملةُ مَعطوفةً على ما سبَق، ولكن المَعنَى الأوَّل إذا تَيسَّر وأَمكَن أن يُقدَّر شيءٌ مُناسِب فإنه أَوْلى.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إعرابه: [﴿غَيْرَ﴾ مَنصوب بـ﴿أَعْبُدُ﴾ المَعمول

لـ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ بتَقدير (أَن)؛ بنونٍ واحِدة وبنُونين، وبإدغامٍ وفَكٍّ]، هذه على قول: (تَأمُرونِّي).

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الإعراب: إن ﴿غَيْرَ﴾ مَنصوبة بـ﴿أَعْبُدُ﴾، والتقديرُ: أَأَعبُد غير الله تعالى بأَمْركم. هذا مَعنَى الآية.

وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ فيها قِراءات:

أوَّلًا: قِراءتها بنون واحِدة: (تَأمُرونِي).

ثانيًا: قِراءتها بنونين بإدغام (تَأمُرونِّي).

ثالثًا: قِراءتها بنُونين بدون إدغام (تَأمُرونَنِي).

فقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ﴾ يَعنِي: أَتَأْمُرونَني أَعبُد غير الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي: الجاهِلون بحقيقة ما يَجِب لله عَزَّوَجَلَّ وبحقيقة عِبادة الأصنامِ، ويُحتَمَل أن المَعنى المُراد بقَوْله تعالى: ﴿ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي: السُّفَهاء؛ لأن الجَهْل تارةً يُراد به السفَـهُ، وتارةً يُراد به عدَم العِلْم، وإذا كان المُراد به السفَـهُ فإنه يُسمَّى جهالةً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧].

وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ يَشمَـل كلَّ ما سِوى الله تعالى من حَيٍّ وميت وصالِحٍ وفاسِد وجَمادٍ وحَيَوان.

قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾: (أيُّ) مُنادى، و﴿ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ وَصْـف لـ(أَيُّ)؛ ولهذا جاءَتْ مَرفوعةً، والاستِفهام هنا للتَّوْبيخ والإنكار بدليل قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: جَهالة أُولئِك الذين يَأمُرون بعِبادة الأَصنام.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هؤلاء الجاهِلين حاوَلوا أن يَجعَلوا الرسول ﷺ نفسَه يَعبُد الأصنام مع أنه إنما جاء لتَوحيد الله عَزَّوَجَلَّ وحدَه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الربَّ عَزَّوَجَلَّ عِبادته عِلْم ورُشْد؛ لأنه إذا كانت عِبادة غيره جَهْلًا فعِبادته عِلْمٌ ورُشْد.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه إذا كان المُشرِكون يُحاوِلون أن يُشرِك النبيَّ ﷺ، فما بالُكَ بأَتباع الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟! فإنهم سوف يُحاوِلون أن يَجعَلوهم مُشرِكين أكثَرَ من مُحاوَلتهم إشراكَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ويَتفَرَّع على هذه الفائِدةِ: الحذَرُ من دُعاة الشِّرْك والكُفْر، مثل دُعاة النَّصرانية اليومَ، فإن النَّصارى -علَيْهم لَعْنة الله تعالى إلى يوم القِيامة- يُحاوِلون بكل ما يَستَطيعون أن يُضلِّلوا المُسلِمين، وأن يُنصِّروهم، وإذا عجَزوا عن ذلك فعلى الأقَلِّ أن يُخرِجوهم من دِينهم وإن لم يَدخُلوا دِين النَّصْرانية، وهذا الآنَ واضِح، فتَجِدهم يُنشِئُون الإذاعاتِ القويَّةَ الواضِحة من أَجْل دعوة المُسلِمين إلى النَّصْرانية، وتَجِدهم يَكتُبون الكِتاباتِ الكثيرةَ من رسائِلَ وكتُبٍ أكبَرَ يَبُثُّونها بين المُسلِمين، وتَجِدهم أيضًا يَكتُبون الإنجيل كِتابةً ككِتابة المُصحَف تمامًا مُفصَّلًا مُعرَبًا مَشكولًا؛ حتى يَظُنَّه العامِّيُّ من الناس الذي لم يَعرِف القرآن أنه هو القُرآن، وتَجِدهم أيضًا يَذهَبون إلى البِلاد الفَقيرة العاجِزة، ويُنشِئُون فيها المَدارِس والمَرافِق، ثُمَّ الكَنائِس من أَجْل إبلاغ الناس.

فالمُهِمُّ: أن أعداء المُسلِمين لا يَأْلـون جُهْدًا في إخراج المُسلِمين عن دِينهم إلى مِلَّتهم التي كانوا عليها.

• • ۞ • •

الآيــة (٦٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾ هذه الجُملةُ مُؤكَّدة بمُؤكِّدين: اللَّام، والقسَم المُقدَّر، والتَّقدير: واللهِ لقَدْ.

وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ في هذا إشكالٌ: وهو كيف يَقول الله تعالى في حقِّ رسوله ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾؟ وهل يَجوز أن يُشرِك؟

الجَوابُ: من وَجْهَيْن:

الوَجْه الأوَّلُ: أن المُراد بهذا الأُمَّةِ، وإن كان الخِطاب مُوجَّهًا للرسول ﷺ؛ فالمُرادُ به الأُمَّة، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨].

الوجه الثاني: أن التَّعليق بالشَّرْط لازِم منه وُقوع المَشروط، ونَظيره قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]، ومَعلومٌ أنه يَمتَنِع أن يَتَّخِذ الله تعالى ولَدًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ مُؤكَّدة باللَّام والقسَم المُقدَّر؛ لأن اللَّام هذه تَكون جَوابًا للقسَم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الشِّـرْك مُحبِطٌ للعمَل، ولو وقَـع من أفضـل الخَلْق؛ لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هذا الحُكمَ ثابِتٌ في جميع الشرائِع؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عِظَم الشِّـرْك، وأنه أَفسَدُ أنواع المَعاصِي؛ ولهذا يُحـبِط العمَل كُلَّه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الوَحيِ للرسـول ﷺ، ولِمَن سبَـقَه من الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الشِّرْك سبَبٌ للخُسْران في الدنيا والآخِرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الكُفَّار وإن ربِحوا في الدنيا فإنهم في الحَقيقة خاسِـرون للدُّنيا وللآخِرة؛ لأنهم لم يَنتَفِعوا في الدنيا بما خُلِقوا له؛ فلذلك كانوا خاسِرين، وقد قال الله تعالى في آية أُخرى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥].

الآيــة (٦٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٦].

قوله تعالى: ﴿ بَلِ ﴾ هذه لإِضراب الإِبْطال؛ والإضرابُ عِندهم نَوْعان:

١ - نَوْعٌ يُراد به إبطال ما سبَق وإثبات ما لَحِق.

٢ - ونَوْعٌ يُراد به الانتِقال من شيءٍ إلى آخَرَ.

مِثال الأوَّل: هذه الآيةُ.

ومِثال الثاني: قولُه تعالى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل:٦٦]، فهنا انتِقالات من سيِّءٍ إلى أَسوأَ ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ ﴾، أي: بعد عِلْمهم في الآخِرة ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾.

وهُنا يَقول تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ هذا إضرابٌ إِبْطاليٌّ لما سبَق من الشِّرْك. يَعنِي: بل دَعِ الشِّرْك فإنه باطِل واعبُدِ الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وحدَه] وأخَذ هذه الوَحْدانيةَ المُفيدةَ للحَصْر من تَقدير المَعمول؛ والقاعِدة في البَلاغة: أن تَقديم ما حقُّه التَّأخيرُ يُفيد الحَصْر والاختِصاص، ومَعلومٌ أن المَفعول به حَقُّه التأخيرُ، فإذا قُدِّم على عامِله أَفاد الاختِصاص والحَصْر، أي: بل اللهَ تعالى وحده فاعبُدْ.

وقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡ﴾ الفاء يَقولون: إنه جِيء بها لتَحسين اللَّفْظ، ولو حُذِفت في غير القُرآن لاستَقام الكلام، لكنها في القرآن لا تُحذَف؛ لأنه نزَل من عند الله تعالى، ولا يُمكِن تَغييرُه، إنما في التَّعبير بمِثْل ذلك يُسمُّون هذه الفاءَ فاءَ التَّزْيين، ولها نَظير مثل قولهم: عِندي كذا وكذا فقَطْ. أي قَطُّ، والفاء زائِدة؛ لتَحسين اللَّفْظ.

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾: (اعْبُدْ) فِعْل أَمْر أي: تَذلَّل له بفِعْل عِبادة بامتِثال أوامِره واجتِناب نَواهيه.

واعلَمْ أن العِبادة تُطلَق على مَعنيَيْن:

المَعنَى الأوَّل: التَّعبُّد.

والمَعنَى الثاني: المُتعبَّد به.

أمَّا التَّعبُّد فمَعناه: التَّذلُّل لله تعالى مَحبَّةً وتَعظيمًا، بالقِيام بأَوامِره واجتِناب نَواهِيه، فإذا رأَيْنا شَخْصًا يُصلِّي مثَلًا قلنا: هذا يَتعبَّد. أي: يَتَذلَّل لله تعالى بفِعْل الصلاة، وتُطلَق على المُتعَبَّد به، أي: على نَفْس المَفعول.

وعرَّفها شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذا المَعنَى بقوله: «العِبادة اسمٌ جامِع لكل ما يُحِبُّه الله تعالى ويَرضاه من الأقوال والأعمال الباطِنة والظاهِرة»[1].

وعلى هذا فالصلاةُ نَفسُها نُسمِّيها عِبادة، والصدَقة عِبادة، والصوم عِبادة، والحَجُّ عِبادة، وبِرُّ الوالِدَيْن عِبادة، وصِلة الأَرْحام عِبادة، والإحسان إلى الفُقَراء عِبادة، وهكذا.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: (كُنْ) فِعْل أَمْر، و﴿مِّنَ

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: مِنَ الذين يَشكُرون الله تعالى.

واعْلَمْ أن (أل) إذا اتَّصَلت بمُشتَقٍّ فإنها تَكون اسْمًا مَوصولًا من أسماء المَوْصول العامَّة، فهي بمَنزِلة (مَن) وبمَنزِلة (ما) إذا اتَّصَلت بمُشتَقٍّ، مثل: الشاكِر والمَشكور والأحسَن وما أَشبَهها؛ فعلى هذا يَكون قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ مُفيدًا للعُموم، أي: من القائِمين بشُكْر الله تعالى، والشُّكْر هو القِيام بطاعة المُنعِم عَقيدةً وقولًا وفِعْلًا؛ ولهذا قال الشاعِر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا[1]

يَعنِي: أنكم مَلَكْتم بإنعامكم عليَّ قلبي ولِساني وجَوارحي.

فإن قال قائِل: هل الشُّكْر هو الحَمْد أو غيرُه؟

فالجَوابُ: بينهما عُموم وخُصوص، يَجتَمِعان فيما إذا كانا في مُقابَلة نِعمة، فإن الحَمْد هو الشُّكْر؛ لأنه ثَناءٌ على الله تعالى باللِّسان، فإذا أكَل الإنسان أو شَرِب فقال: الحَمْد لله تعالى؛ كان بذلك شاكِرًا وحامِدًا، ويَنفَرِد الحمد بوَصْف الله تعالى بالكَمال دون مُقابَلة نِعْمة، فإذا أَثنَيْت على الله تعالى بأنه الحيُّ العَظيم، وما أَشبَهَ ذلك فهو حَمْد، وليس شُكْرًا؛ لأنه ليس في مُقابِل نِعْمة، لكن ربما نَعتَبِره شُكْرًا باعتِبار أنه عِبادة، والقِيام بطاعة المُنعِم من الشُّكْر.

وإذا قُمْتَ بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جَزاءً على نِعْمته ولم يَكُن في ذِهْنك وَصْفه بالكَمال صار ذلك شُكْرًا لا حَمْدًا.

وعلى كل حال: قد يَحصُل انفِراد أحدِهما عن الآخَر، وذلك لأن الثَّناء نفسه وإن لم يَكُن في مُقابَلة نِعْمة يُعتَبَر شُكْرًا؛ لأنه قِيامٌ بطاعة المُنعِم.

---

(١) غير منسوب، وانظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجوب إخلاص العِبادة لله تعالى؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾.

ويَتفرَّع على هذه القاعِدةِ: أن الإنسان لو أَشرَك بالله تعالى لحَبِط عمَله؛ لأنه إذا أَشرَك بالله تعالى عمِل عمَلًا ليس عليه أَمْر الله تعالى ورسولُه ﷺ، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(١).

وهذا بغَضِّ النظَر عن قوله تعالى: ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾، فهذا نصٌّ صريح، لكن إذا أَرَدْنا أن نَأْخُذها من قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾؛ فنَقول: إن مَن أَشرَك مع الله تعالى أَحَدًا فعمَله حابِط مَردود، والدليل: قوله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**».

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وُجوب الشُّكْر على كل أحَدٍ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾، وإذا وجَب الشُّكْر حرُم ضِدُّه وهو الكُفْر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الإخلاص لله تعالى من شُكْره؛ لأنه أَعقَب قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

• • ❁ • •

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الآيــة (٦٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

قوله تعالى: ﴿مَا﴾ نافية، و﴿قَدَرُواْ﴾ بمَعنَى: عظَّموا، ولَفْظ الجَلالة مَفعول لـ(قَدْروا)، و﴿حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ مَفعولٌ مُطلَق؛ لأنه أُضيف إلى المَصدَر، والمُضاف إلى المَصدَر يُسمَّى مَفعولًا مُطلَقًا؛ لأنه بمَنزِلة المَصدَر، وعلى هذا فنَقول: ﴿حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي: حقَّ تَعظيمه.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ما عرَفوه حَقَّ مَعرِفته، أو ما عظَّموه حقَّ عظَمَته حين أَشرَكوا به غيرَه]، والصَّواب: الثاني: أن المَعنَى: ما عظَّموه حقَّ عظَمته حين أَشرَكوا به غيره، لأن من عَظَّم الله تعالى حقَّ تَعظيمه لا يُمكِن أن يُشرِك به أحَدًا.

ودليلُ ذلك: أن هؤلاءِ عرَفوا الله تعالى كما في قوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٧٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٣٨]، لكن لم يُعظِّموا مَن عرَفوه حقَّ تَعظيمه، وهذا هو الذي نَفاه الله تعالى هنا.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الواو للحال، ويَجوز أن تَكون استِئْنافية؛ لبيان عظَمة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ مُبتَدَأ، و﴿جَمِيعًا﴾ حال، و﴿قَبْضَتُهُۥ﴾ خبر المُبتَدَأ؛ يَعنِي: أن الأرض كلَّها جميعًا -كل الأرَضين السَّبْع- تكون يوم القيامة قَبْضته؛ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا﴾ حال؛ أيِ: السَّبْع]، فقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ﴿ٱلْأَرْضُ﴾.

وبهذا نَعرِف أنه يَجوز مَجيءُ الحال من المُبتَدَأ قبل الإتيان بالخَبَر، فتَقول مثَلًا: زَيْدٌ قائِمًا خيرٌ منه قاعِدًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ أي: مَقبوضةٌ له، أي: في مُلْكه وتَصرُّفه] فسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ القَبْض بمَعنى المُلْك والتَّصرُّف، وفي هذا نظَرٌ ظاهِر، بل هذا تَحريف؛ لأن المُلْك والتَّصرُّف كل شيء في مُلكه وتَصرُّفه الأرض والسماء يومَ القيامة وقبلَ يوم القيامة، لكن القَبضة بمَعنَى: المَقبوضة التي تَكون في اليَدِ تُحيط بها اليد.

فيُقال مثَلًا: قبضةٌ من طعام؛ بمَعنَى أن الإنسان يَقبِض الطعام بيَدِه، فالأرض يوم القِيامة قَبْضة الله عَزَّوَجَلَّ، وقد جاء ذلك مُبيَّنًا في حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قِصَّة النبيِّ ﷺ مع حَبْرٍ من أحبار اليَهود أن الله تعالى يَجعَل الأرض على إِصبَع والشجَر على إِصبَع والجِبال على إِصبَع...إلخ[1].

فالصوابُ المُتعيَّن: أن يُقال: المُراد بالقَبْضة أنها في قَبْضة يَدِه عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائِل: وهل يَجوز لنا أن نُمثِّل هذه القَبضةَ بحيث نَأخُذ تَمرةً أو تُفَّاحة ونَضَعها في أيدينا، ونَقول: قَبْضَتُه ثُم نَقبِض على التُّفَّاحة أو التَّمرة؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾، رقم (٧٤٥١)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٦).

الجَوابُ: لا؛ لأنَّنا لو فعَلْنا ذلك لكان هذا تَمثيلًا لقَبْضة الله عَزَّوَجَلَّ للأرض، وهذا لا يَجوز، أمَّا أن نُبيِّن مَعنَى القبضة فلا بأسَ بأن نَقول: القبضة هي وَضْع الشيء في اليد ثُمَّ قَبْضه بها، لكن نُكيِّف كيف قبَضَ الله عَزَّوَجَلَّ على الأرض، هذا خِلاف مُعتَقَدِ أهل السُّنَّة والجماعة، كما هو معروف.

فإن قال قائِل: إن الرسول ﷺ عندما قرَأَ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤] وَضَع إصبَعه على عَيْنه وأُذُنه[1]، فهل يَجوز مثل هذا في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾؟

فالجَوابُ: الجمع بينهما أن ما جاءت به السُّنَّة نَأخُذ به، وما لا فالأصل المَنْع، فأنت إذا قضبت شيئًا بيدك، فواضِح أنك كيَّفْت، لكن نَقول: ﴿قَبْضَتُهُۥ﴾: أن تَكون هذه الأرضُ جميعًا في يدِ الله عَزَّوَجَلَّ، أمَّا (كيف) فاللهُ تعالى أَعلَمُ.

فيَجِب أن نَعلَم أن الرسول ﷺ فعَل هذا تَحقيقًا لا تَكييفًا، فهو يُحقِّق مَعنَى السمع والبصَر، سَمْع وبَصَر حَقيقيٌّ.

وعلى كل حال: نَقتَصِر في هذا على ما ورَد مهما كان الأمرُ.

ومثل هذا في صِفة الطَّي والقبض، فنَقول: يَطوِي ويَقبِض، والله تعالى يَقدِر ويَبسُط، كما في قوله تعالى.

فإن قال قائِل: ما حُكْم مَن يَقول: (بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِن أَصابِعِ الرَّحْمَنِ) فيُشِير بإِصْبعيه؟

فالجَوابُ: هو لا يَستَطيع أن يُحدِّد أيَّ الأصابع، ثُمَّ إذا أَشار فقد يَفهَم الرائِي

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في الجهمية، رقم (٤٧٢٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أن أصابع الرحمن عَزَّوَجَلَّ مُباشِرة للقَلْب، وليس كذلك، فالقلب بين إِصْبَعيـن من أصابع الرحمن[1]، لكن لا نَقول: إنه مُباشِر.

فإذا قال قائِل: كيف يُعقَل أن يَكون القلب بين إِصبَعيـن من أصابع الرحمن بدون مُباشَرة؟

قلنا: استَمِـع لقـول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤]، السَّحاب مُسخَّر بين السماء والأرض، فهل هو مُباشِر للسماء والأرض؟

الجوابُ: لا، فلا يَلزَم من البَينية المُباشَرة، فلا يَجوز أن يُعيِّن إِصبَعين، لأنه إذا فعَل لزِم من ذلك أنه جزَم بأنه بين هذَيْن الإِصبَعين.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظَـرْف للقَبْضة، أي: أنها تَكون قبضةً له يـوم القِيامة، ويوم القِيامة هو اليوم الذي يُبعَث الناسُ من قبورهم لله عَزَّوَجَلَّ، وسُمِّيَ بهذا الاسمِ لوجوهٍ ثلاثةٍ: لقيام الناس من قُبورهم لربِّ العالَمين؛ ولإقامة العَدْل؛ ولِقيام الأشهاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مجموعات بيَمينِه وقُدْرته].

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ﴾ الطَّيُّ مَعروف: عَطْف الثَّوْب بعضِهِ على بعضٍ يُسمَّى: طيًّا، ومنه طيُّ الورَقة، فإذا فرَغ الكاتِب منها طواها، يَعنِي: عطَـف

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

بعضَها على بعضٍ، وقد شبَّه الله عَزَّوَجَلَّ طيَّه للسَّموات بطيِّ السِّجِلِّ للكتُب، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، فتبارَكَ اللهُ ربُّ العالَمين!.

فهذه السماءُ العَظيمة الواسِعة الأَرْجاء التي ورَد أن سُمْكها خَمسُ مئة عام، يَطوِي الله عَزَّوَجَلَّ هذه السمواتِ كما يَطوِي السجِلُّ الكتُبَ، أو كما يُطوَى السجلُّ الكتُبَ ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ يَعنِي: كما يَطوِي السجِلُّ وهو كاتِب القاضي، أو كما يُطوى السجِلُّ الذي تُكتَب به القضايا، فالطيُّ مَعروف قُلنا: إنه عَطْف الثوب بعضِه على بعضٍ، أو الورَقة، وما أَشبَه ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ﴾ أتَى بصيغة اسم المَفعول للعِلْم بالطاوِي وهو الله سبحانه، كما تُفسِّره الآياتُ الأخرى ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَطْوِيَّٰتُۢ﴾ مَجموعاتٌ] وهذا فيه نظَر؛ لأننا: نَقول هي مَجموعةٌ طيًّا، وإذا فسَّرْناها بالمَجموعات فإننا لم نُفسِّر تَفسيرًا دقيقًا؛ لأن الشيء قد يَكون مَجموعًا بلا طيٍّ، ولكن إذا كان مَطويًّا فهذا مَعنًى زائِدٌ على مُجرَّد الجَمْع، فالصواب أن يُقال: ﴿مَطْوِيَّٰتُۢ﴾ أي: مَلفوفٌ بعضُها إلى بعضٍ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ بقُدْرته] وهذا تَحريف على مَذهَب مَن لا يُؤمِنون بصِفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الخبَرية، والصوابُ: أن المُراد باليَمين اليدُ اليُمنَى يَطويها جَلَّوَعَلَا بيَدِه اليُمنى.

فإن قال قائِل: إنه وَصْف في السُّنَّة أن كِلتا يدَيِ الله عَزَّوَجَلَّ يَمين، فما فائِدة ذِكْره في الآيةِ: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾؟

فالجَوابُ: كما تَقدَّم وقُلْنا: لله تعالى يَدٌ يمين ويدٌ شِمال، لكن الرسول ﷺ قال: «كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»[1]، يَعنِي: من اليُمن وهو البرَكة؛ ولدَفْع تَوهُّم أن تكون اليد الأُخرى ناقِصةً؛ لأن اليَدَ الشِّمال بالنِّسبة لنا ناقِصة عن اليَد اليمين، وقد أَفتَى شيخ الإسلام مُحَمَّدُ بنُ عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آخِر (كتاب التوحيد) فقال: وفيه التصريح بالشِّمال لله عَزَّوَجَلَّ[2].

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ اسمُ مَصدَر، وفِعْله: سبَّح، والمَصدَر: تَسبيحٌ، واسمُ المَصدَر: سُبحانَ، وهو مَنصوب على المَفْعولية المُطلَقة دائِمًا، ومُلازِم للإضافة غالِبًا.

وعلى هذا فلا يُخطِئ المَرء في إعرابه؛ فيُعرِبه دائمًا على أنه مَفعول مُطلَق لِفعْلٍ مَحذوف، والتَّقدير: يُسبِّح تَسبيحًا.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تَنزيهًا له، فقَدْ فسَّرْنا كلمة التَّسبيح من حيث التَّصريف، أمَّا مَعنَى التسبيح: التَّنزيه؛ لأنه مِن سبَح يَسبَح إذا بَعُد في الماء، فالتَّنزيهُ: الإبعاد عن السُّوء؛ وعلى هذا فمَعنَى: (سُبحانَ اللهِ) أي: تَنزيهًا له، ويُنَزِّه الله تعالى عن شيئين:

١- عن مُماثَلة المَخلوق.

٢- وعن كل نَقْص وعَيْب في صِفاته.

فمثَلًا: قُدْرته مُنَزَّهة عن العَجْز، وعِلْمه مُنزَّهٌ عن الجَهْل والنِّسْيان، وقوَّتُه مُنزَّهة عن الضَّعْف، ويَدُه مُنزَّهة عن مُماثَلة المَخلوقين، ووجهُه كذلك، وهلُمَّ جَرًّا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الإمام العادل، رقم (١٨٢٧)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) كتاب التوحيد (ص١٥٠).

الخُلاصةُ: أن تَنزيه الله عَزَّوَجَلَّ يَعود إلى شيئين:

الأوَّل: مُماثَلة المَخلوق.

والثاني: العَيْب والنَّقْص.

والدليلُ على أن الله تعالى مُنزَّهٌ عن النَّقْص: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، أي: من تعَبٍ وإعياءٍ.

والدليل على تَنزُّهِه عن المُماثَلة قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

مَسألَةٌ: لماذا قُلْنا: «يُنزِّه الله تعالى عن كل نَقْص وعن المُماثَلة» أليسَتِ المُماثَلة نقصًا؟

فالجَواب: أن النقص شيء والمُماثَلة شيء آخَرُ، مثَلًا: لله تعالى القُدْرة، فنَقول: ليسَت كقُدْرة المَخلوق، لكن لا يُمكِن أن يَلحَقها النقصُ.

إذَنْ: لا بُدَّ أن نَقول: «عن كل نَقْص»، فلا يَكفِي نفيُ المُماثَلة، ربما يُغنِي قولُنا: (عن كل نَقْص) عن نفيِ المُماثَلة؛ لأن المُماثَلة نَقْص، لكن نَقول: إذا كان الله تعالى قد نصَّ على ذلك فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]؛ فيَنبَغي أن نُنبِّهَ عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ أي: تَرفَّع لعظَمته.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾] أي: عمَّا يُشرِكون معَه، ولا شكَّ أن هذا هو الواقِعُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيان عظَمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن مَن أَشرَك بالله تعالى فإنه لم يُعظِّم الله تعالى حقَّ تَعظيمه، بل بالعَكْس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حُسْن التعليم في القُرآن الكريم؛ لأنه لَمَّا نفَى عنهم أنهم قدَروا الله تعالى حقَّ قَدْره؛ بيَّن وجه ذلك، فهو عَزَّوَجَلَّ أَعظَمُ من كل شيء، قال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه يَجِب أن يُعظِّم الله تعالى حقَّ تَعظيمه.

ولكن قد يَقول قائِل: إن هذا فيه مَشَقَّة عظيمة؛ لأن الله تعالى أَعظَمُ وأَجَلُّ من أن يُحيط به عمَل العَبْد؛ ولهذا لَمَّا نزَل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢] صعُب ذلك على الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فمَن الذي يَستَطيع أن يَتَّقيَ الله تعالى حقَّ تُقاته؟!

فيُقال: إن هـذه الآيةَ الكريمةَ مُقيَّدة بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وإلَّا فمَن الذي يُحصِي أن يُعظِّم الله تعالى حقَّ تَعظيمه على الوجه الذي أَراده الله عَزَّوَجَلَّ؟! ولكن نَقول: إن تَعظيم الله تعالى حقَّ تَعظيمه يَكون بامتِثال أَمْره، وهذا حاصِل بقَدْر المُستَطاع؛ لقوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]؛ ولقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات اليَدِ لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قَبْضَتُهُۥ﴾، وقوله تعالى: ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الأرض يومَ القيامة يَقبِضها الله عَزَّوَجَلَّ بيَدِه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن السموات تُطوَى يومَ القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بَيانُ قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ، حيث يَطوِي هذه السَّمَواتِ على رُكنها كطَيِّ السجِلِّ للكُتُب.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تَنزيهُ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عن كل نَقْص وعَيْب؛ لقوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: تَنزيهُه عَزَّوَجَلَّ عن مُماثَلة المَخلوقين؛ لأن مُماثَلة المَخلوقين عَيْب، فإن تَمثيل الكامِل بالناقِص يَجعَله ناقِصًا.

قال الشاعِرُ:

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ السَّـيْفَ يَـنْقُصُ قَـدْرُهُ ... إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ الْعَصَا[1]

فكَيْف إذا قيل: إن السَّيْفَ مِثْل العَصا؟!

فتَمثيـل الله عَزَّوَجَلَّ بالمَخلـوق تَنقُّص لله عَزَّوَجَلَّ؛ ولأنَّ تَمثيل الكامِل بالناقِص يَجعَله ناقِصًا.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ عُلوِّ الله تعالى؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

---

(١) غير منسوب، وممن ذكره ابن كثير في تفسيره (٨/ ٤٢٦).

وعلُوُّ الله سبحانه يَنقَسِم إلى قِسْمين: عُلوُّ ذاتٍ، وعُلوُّ صِفة.

أمَّا عُلوُّ الصِّفة فلم يَختَلِف فيه أحَد من أهل القِبْلة، حتى أهل التَّعطيل يُثبِتون لله تعالى عُلوَّ الصِّفة، لكن على اختِلاف بينهم وبين أهل السُّنَّة في كون هذا الشيءِ عُلُوًّا أو نُزولًا؛ لأنهم يَرَوْن أن من عُلوِّ الله تعالى في صِفَته نفيَ الصِّفات عنه، أمَّا أهل السُّنَّة والجماعة فيَرَوْن أن من عُلوِّه إثباتَ جَميع صِفات الكَمال له على حسَب ما ورَد في الكِتاب والسُّنَّة.

فالخُلاصةُ: أن أهل القِبْلة اتَّفَقوا على إثبات عُلوِّ الصِّفة، لكن اختَلَفوا: كيف يَكون علوُّ الصِّفة؟.

أمَّا عُلوُّ الذاتِ: فقدِ اختَلَفوا اختِلافًا عَظيمًا، حتى قال بعض مَن يَنتَسِب للإسلام: إثبات عُلوِّ الذاتِ كُفْرٌ.

وقال أهل السُّنَّة والجماعة: إثبات عُلوِّ الذات واجِبٌ، ولا بُدَّ أن نُثبِت لله تعالى عُلوَّ الذات كما أَثبَتْنا له عُلوَّ الصِّفات.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: التَّبايُن العَظيم بين الربِّ الخالِق العَظيم وبين الأصنام المَعبودة التي يُشرَك بها مع الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تَنزيهًا له وتَعاظُمًا ورِفْعةً عمَّا يُشرِك به هؤلاء؛ ولهذا جاء استِفْهام التوبيخ والاحتِقار لهذه الأصنام في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٨-٢٠]، يَعنِي: أَخبروني مَن الذي لهذه الأَصنامِ بالنِّسبة لآيات الله تعالى العَظيمةِ الكُبرى التي رآها النبيُّ ﷺ، أي: بعدَ أن تَقرَّرت هذه الآياتُ الكبيرة أَخبِروني ما لهذه الأصنامِ، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ ماذا تكون أمامَ هذه الآياتِ الكبيرة؟ لا شيءَ؛ ولهذا قال تعالى:

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقد بيَّن الله تعالى في القُرآن الكريم انحِطاط رُتْبة هذه الأصنام فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧]، وقال تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [المائدة:٧٦]، والآياتُ في هذا كثيرة تَحُطُّ من قَدْر هذه الأصنامِ، وتُبيِّن أن الربَّ عَزَّوَجَلَّ مُنزَّهٌ مُتعالٍ عن هذه الأصنامِ.

الآيــة (٦٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ﴾ النَّفخ مَعروف، والنافِخ (إسـرافيلُ) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأَبهَمه للتَّعظيم؛ لأن الإبهام يَأتِي للتَّعْـظيم كما في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨]، فإن هذا يَدُلُّ على عِظَم ما غَشِيَهم، والنَّفْخ لا شكَّ أنه أَمْر عظيم؛ ولهذا لم يُبيَّن مَن النافِخُ، وكل ما في القُرآن من النَّفْخ في الصُّور يَأتِي بصيغة: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ﴾، ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ الصِّيغة هنا صِيـغة ماضٍ، مع أنه مُستَقبَل، لكن عبَّر عنه بالماضِي؛ لتَحقُّق وقوعه، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١] مع أنه لم يَأتِ بعدُ.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾، الصُّور: قَرْن عَظيم، قيل: إن سَعة دائِرته كما بين السماء والأرض، وهذا الصُّورُ يَنفُخ فيه إسرافيلُ.

يَقـول المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ النَّفخـة الأُولى ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾] وهذا بِناءً على أنَّ النَّفْخ في الصُّور يَكون مرَّتَيْن، وقيل: بل النَّفْخُ في الصُّور ثلاثَ مرَّاتٍ، وقد دلَّ على هذا حديـثُ الصُّور

الذي ذكَره ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بطوله في تَفسير سورة الأنعام.

وهذه الثلاثُ هي: نَفْخة الفزَع، ونَفْخة الصَّعْق، ونَفْخة البَعْث؛ لقوله تعالى في سورة النَّمْل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٨٧]، وهنا قال تعالى: ﴿فَصَعِقَ﴾، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾.

وقيل: بل النَّفْخ مرَّتان، وهو ما مشَى عليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأن نَفْخة الفزَع هي نَفْخة الصَّعْق، وأن الناس إذا سمِعوه أوَّلَ مرَّة فزِعوا ثُمَّ يُطيل في النَّفْخ فيُصعَقون: يَموتون بعد الفزَع، وعلى هذا فيَكون النَّفْخ مرَّتين: فزَعٌ، ثُم صَعْق؛ لأنه يُطيل النَّفْخ، ثُمَّ يُصعَق الناس، ولا شَكَّ أن شيئًا يُصعَق الناس منه؛ لا بُدَّ أن يَكـون شيئًا عظيمًا مُزعِجًا مُرعِبًا، وهو كذلك.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَصَعِقَ﴾ مات ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾] ﴿مَن﴾ اسمٌ مَوْصول تُفيد العُموم، وتُستَعمَل غالِبًا في العاقِل، وقد تُستَعمَل في غيـره تبَعًا أو للشُّمول؛ مِثالها تبَعًا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ [النور:٤٥]، ومَعلوم أن الذي يَمشِي على بَطْنه أو على أربَعٍ ليس من ذَوي العُقول، لكن أُتِيَ بـ(مَن) تبَعًا، وقد يَكون للعُموم كما في هذه الآيةِ: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، فكُلُّ مَن في السمَوات والأرض من آدَمِيِّين أو بهائِمَ أو غيرها كلها تَموت.

يَقول تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: ألَّا يُصعَق فإنه لا يُصعَق، وقدِ اختَلَف العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ مَن هذا المُستَثْنى؟

فذهَبَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجماعة إلى إن المُستَثْنى: [الحُـور والوِلْدان]، وهُم في الجَنَّة.

وقيل: الحُور والوِلْدان والمَلائِكة، ولا يَمنَع منه كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لقوله: [وغيرهما].

وقيل: الله أَعلَمُ نَقول: إلَّا مَن شاء الله تعالى، كما أَبهَم الله عَزَّوَجَلَّ، ولا نَتعَرَّض للتَّفصيل؛ لأنه ليس هناك دليلٌ صحيحٌ صريحٌ في تَعيُّن هؤلاءِ المُستَثْنَيْنَ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾، والنافِخُ إسرافيلُ، وقوله تعالى: ﴿أُخْرَىٰ﴾ مَفعول مُطلَق أي: نَفْخة أخرى، أو نَقول: إنها وَصْف لمَوْصوف مَحذوف، والتَّقدير: نَفْخة أُخرى، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة:١٣].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أي: جميع الخلائِق المَوْتى، ﴿قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ يَنتَظِرون ما يُفعَل بهم] قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ الفاء حرفُ عَطْف، و(إذا) فُجائِيَّة، والفُجائِيَّة تَدُلُّ على حُصول ما بعدَها مُفاجأةً، بمَعنَى: أنه يَأتِي بسُرعة.

وقوله تعالى: ﴿هُمْ قِيَامٌ﴾ جملةٌ اسمِيَّةٌ، والغرَض منها الثُّبوت والاستِمْرار، وهي أبلَغُ ممَّا لو قال: فقاموا؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ تَدُلُّ على أن هذا وَصْف لهم كأنه أَمْر ثابِت من قديم، مُستَقِرٌّ مع أنهم لم يَقوموا إلَّا في النَّفْخة الواحِدة الأخيرة.

وقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ﴾ قال: [يَنتَظِرون ماذا يُفعَل بِهِمْ]، ويُحتَمَل أن يَكون المعنى: يَنظُرون ما حدَث، من النظَر بالعَيْن، وهذا الاحتِمالُ لا يُنافِي ما ذكَره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فتكون الآية شامِلةً لهذا وهذا، أي: يَنظُرون بأعينهم ما حصَل، ويَنتَظِرون ماذا يُفعَل بهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات النَّفْخ في الصُّور، وأنه واقِع لا مَحالةَ، يُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ﴾ حيث عبَّر عنه بالماضِي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عِظَم هذا النَّفخِ، ويُؤخَذ من إبهام الفاعِل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هـذا النفخَ عَظيم في تأثيـره، حيـث يَفزَع الناس منـه، ثُم يُصعَقون، أي: يَموتون.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الصَّعْق شامِل لكل مَن في السمَوات ومَن في الأرض إلَّا مَن شاء الله تعالى، وهم أقلُّ ممَّن يُصعَقون؛ لأن الغالِب أن المُستَثْنى يَكون أقلَّ من المُستَثْنى منه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات المَشيئة لله عَزَّوَجَلَّ، وهي كثيرة في كِتاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولم يُنكِرها أحَد من الناس إلَّا فيما يَتعلَّق بأفعال العِباد، حيث أنكَرها القدَرية.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنه يُنفَخ في الصُّور مرَّتَيْن؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن النَّفْخة الأخرى يَكون بها البَعْث؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن القِيام من القُبور يَلي النَّفْخ في الصُّور مُباشَرةً، نَأخُذها من (إذا) الفُجائِية.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنهم -أيِ: الذين يَقومون- يَقومون وكأنَّ لهم زمَنًا طويلًا في القيام، بدليل أنه أتَى في ذلك بصيغة الجُمْلة الاسمِيَّة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: تَمام قُدْرة الله جَلَّوَعَلَا، حيث إن الخَلائِق كلها تَقوم مرَّةً واحِدة بهـذه النَّفْخة، وقد قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤] أي: على سَطْح الأرض وظَهْر الأرض.

فإذا قال قائِل: ما عَلاقةُ نَفْخ الصُّور بحياة الناس وبَعْثهم من القُبور؟

فالجَوابُ: أن هذا الصُّورَ مُجتَمَع الأرواح تُجمَع فيه أرواح الخلائِق، ثُمَّ إذا حصَل نَفْخ تَطايَرتِ الأرواح ودخَلَت كلُّ رُوحٍ في جسَدها الذي كانت تَعمُره في الدنيا، لا تُخطِئه أبدًا على كَثْرة الخَلْق وتَفرُّقهم، فإن أرواحهم لا تُخطِئ أجسامهم، فكلُّ رُوح تَدخُل في جسَدها الذي كانت تَعمُره في الدنيا.

فإن قال قائِل: ما حُجَّتهم على أن الأرواح تُوجَد داخِلَ الصُّور قبل النَّفْخ وبعد النَّفْخ تُوضَع في الأجساد، فتُوضَع كلُّ رُوح في الجَسَد، وهو من الأمور الغَيْبية؟

فالجَوابُ: دليلهم حديث الصُّورِ الطويلُ[1]، وهذا الحديثُ فيه أشياءُ مُنكَرةٌ، لكن فيه أشياءُ تَشهَد لها النُّصوص الأخرى الصحيحة، وفيه أشياءُ ليسَتْ مُنكَرة، وليس فيها ما يَشهَد لها في الأحاديث الصحيحة، لكن العُلَماءَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَلقَّوْه بالقَبول.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال رقم (٣٦)، والبيهقي في البعث والنشور رقم (٦٠٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٦٨): مداره على إسماعيل بن رافع، واضطرب في سنده مع ضعفه.

الآيـة (٦٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٦٩].

قوله تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَضاءَت]، ومنه: أَشرَقتِ الشمسُ، إذا انتَشَر ضَوؤُها، وشرَقَتْ إذا برَزَت، ويُقال: شرَقَتِ الشمسُ. إذا ظهَرَتْ على الأُفُق، وأَشرَقَت، إذا ارتَفَعَت أو استَطار ضَوْؤُها؛ ولهذا تُسمَّى الصلاة التي بعد ارتِفاعها قِيدَ رُمْح تُسمَّى: (صلاةَ الإِشْراق) لا صلاةَ الشُّروق، إذِ الشُّروق ظُهور الشمس في الأُفُق، والإشراق ارتِفاعها واتِّساع ضَوْئِها.

وهنا يَقول تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ بنور الله تعالى الذي هو نوره، وليس بنـور المَخلوق، فإضافة النـور إلى الربِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من باب إضافة الصِّفة إلى مَوْصوفها، أي: أن الله جَلَّ وَعَلَا يُنير الأرض بنُوره؛ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ حين يَتجَلَّى] أي: يَظهَر [لفَصْل القَضاء]، فيَأتي عَزَّوَجَلَّ للقَضاء بين العِباد.

فإن قال قائِل: إنه نـورٌ مَخلوق، وأَضافه الله تعالى إلى نَفْسـه إضافةَ مَخلوق إلى خالِقه مثل قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾ [الشمس:١٣]، وبيت الله؟

فالجَوابُ: أن هذا خِلاف الظاهِر، فالله تعالى يَقول: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾، والله تعالى له نـور، يَقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فكل إنسان يُحـرِّف الكلِم عن

ظاهِره نُجيبه بهذا، ونَقول: هذا غيرُ مَقبول؛ لأنه خِلاف ظاهِر اللَّفْظ، فإن أَتيتَ بدليل صحيح يُخرِجه عن ظاهِره فعلى العَيْن والرَّأْس، وإن لم تأتِ بدليل صحيح يُخرِجه عن ظاهِره فقولُك مَردود.

وقد ورد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُنزِل مَلائِكة السماء الدنيا حتى تُحيط بالخَلْق، ثُم تَنزِل مَلائِكة السماء الثانية حتى تُحيط بأهل السماء الدُّنيا؛ لأن أهل السماء الثانية أكثَرُ من أهل السماء الدنيا، إِذْ إن السماءَ الثانية أَوسَعُ من السماء الدنيا، فيَكون سُكَّانها أكثَرَ، ثُم يَنزِل أهل السماء الثالِثة فيُحيطون بمَن قَبْلهم، وهم أكثَرُ من أهل السماء الثانية، وهَلُمَّ جَرًّا، إلى السماء السابِعة.

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان:٢٥]، ﴿وَنُزِّلَ﴾ أي: نزَلوا شيئًا فشيئًا؛ أهل السماء الدنيا، ثُم الثانية، ثم الثالثة... إلى السابِعة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ قال أهلُ العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إن هذا الغَمامَ هو الذي يَأتِي بين يدَيِ الله عَزَّوَجَلَّ، وهو غَمام عظيم لا نَعلَم قَدْره ولا نَعلَم كيفِيَّته.

ولهذا قال تعالى: ﴿تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ ولم يَقُل: تَنشَقُّ، بل: (تَشقَّق)، كأنه شيء يَنبَعِث منها شيئًا فشيئًا، وسيَكون هذا عظيمًا، وذلك بين يدَيْ مَجيء الربِّ جَلَّوَعَلَا، ثُم يَنزِل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للقَضاء بين العِباد، وحينئذ تُشرِق الأرض بنور ربها.

ولا نَستَطيع الآنَ أن نَتصوَّر كيف هذا الإشراقُ! وكيف هذا النُّورُ! وكيف هذا الغَمامُ! فهو أَمْرٌ لا تُدرِكه عُقولنا الآنَ!.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ كِتاب الأعمال للحِساب] (وُضِع)

أي: وُضِع بين أَيْدي الناس، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء:١٣]، هذا الكِتابُ كُتِب فيه أعمال العِباد، مَن عمِل مِن خَير أو شَرٍّ، إلَّا ما انمَحَى بالمَغفِرة أو بالتَّوْبة فإنه لا يُوجَد في الكِتاب، فالصغائِر مثَلًا تُكتَب، فإذا صلَّى الإنسان فإن الصلواتِ الخَمسَ يَمحو الله تعالى بهن الخَطايا، وربما يَتوب الإنسان من سَيِّئات كُتِبَت عليه، فلا يُوجَد في الكِتاب إلَّا ما واجَه الإنسان به ربَّه، وكان خُتِم عليه في حياته.

وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: (أل) هنا الظاهِر أنها للعُموم لا للجِنْس، يَعنِي: وُضِع كلُّ كِتاب فأَخَذه صاحبه، وهذا الكِتابُ الذي تُكتَب فيه الأعمال يُقال لصاحِبه: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ أنتَ بنَفْسك ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤].

وإذا قرَأَه فلا يُمكِن أن يُنكِر ما فيه، فلا بُدَّ أن يُقِرَّ، إلَّا المُشرِكين، فإنهم يُنكِرون ويَقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]؛ لأنهم إذا رأَوْا أن المُوحِّدين المُخلِصين نَجَوْا من العذاب سَوَّلت لهم أنفسهم أن يُنكِروا الشِّرْك لعلهم يَنجون من العذاب، ولكن هـذا لا يَنفَعهم، فإذا قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ شهِـدَ عليهم سَمْعهم وأبصارهم وجُلودهم بما كانوا يَعمَلون، وحينئـذ يَوَدُّ الذين كفَروا لو تُسـوَّى بهم الأرضُ ولا يَكتُمون الله حَديثًا.

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ كِتاب الأعمال للحِسـاب]، وكيفية تَوزيع الكِتاب أنه يُوزَّع على وَجْهين:

الوجهُ الأوَّلُ: أن يُعطَى باليَمين.

والثاني: أن يُعطَى بالشِّمال.

فالمُؤمِن يُعطَى باليَمين، ويَقـول للناس: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾، انظُروا اقرؤُوا، يَقول هذا ابتِهاجًا بنِعْمة الله تعالى، وتَحدُّثًا بنِعمة الله تعالى كما لو أُعطِيَ الواحدُ نَتيجتَه وإذا فيها التَّقدير مُمتاز، مِئة بالمِئة، فإنه يُريها لكل واحـد من الطُّلاب، وإذا كان كلُّ رقَم عليه دائِرة حَمراءُ فإنه يُمزِّقه، لكن في القِيامـة لا يُمكِنه أن يُمزِّقه، أمَّا في الدنيا يُمكِنه أن يُمزِّقه أو يُخفيه.

على كل حال: هذا أمرٌ جِبلِّي طبيعيٌّ: أن الإنسان يَفخَر بنِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ ويُريها للناس فيَقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقة:١٩-٢٠]، الظنُّ هنا بمَعنَى اليَقين، يَعنِي: أَيقَنْت أني مُلاقٍ حِسابِي، وأن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ سيُحاسِبني.

أمَّا مَن أُوتِيَ كِتابه بشِماله -والعِياذ بالله- فيَقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقة:٢٥-٢٦]، كما يَقول القائِل للزائِر الثَّقيل: لَيْتَه لم يَأتِ، لَيْتَني لم أَرَ وجهه. فالكِتاب الذي يَكون بالشِّمال -والعِياذ بالله- يَعرِف صاحِبه ما فيه فيَقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾.

مَسأَلَةٌ: في القرآن الكريم ذَكَر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن مَن لم يُؤْتَ كِتابه بيمينه يَأخُذه بشِماله، وفئة أُخرى من وراء ظَهْره، فهل هُما صِفتان أو صِفة واحِدة؟

الجَوابُ: قال بعضُ العُلماءِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنهما صِفتان.

وقال بعضُ العُلَماءِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنهما صِفة واحِدة، يَعنِي: أنه يُعطَى الكِتاب بالشِّمال من وراءِ الظَّهْر، ليس هو من الأمام يُعطَى إيَّاه من وجهه، بل من وراء ظَهْره، فيَكون في هذا تَنبيهٌ له وتَذكير له بما فعَل بكِتاب الله تعالى في الدنيا.

فوَضَع يَساره وراءَ ظَهْره؛ تَذكيرًا له بحاله في الدنيا، أنه نبَذ كِتاب الله تعالى وراءَ

ظَهْـره، قال تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران:١٨٧]، كأنه يُقال له: جَزاؤك من جِنْس عمَلك.

وقيل: بل إن من الناس مَن يَأخُـذه بشِماله من قِبَل الشِّمال، ومن الناس مِن وراء ظَهْره فتكون صِفتَيْن، والله أَعلَمُ.

فإن قال قائِل: ألَا يُمكِن أن نَقـول: إن أَخْذ الكُفَّار المُعرِضيـن عن كِتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وآياته الكِتابَ بيُسراهم من وراء ظُهورهم، لا يَستَوِي مع أَخْذ المُؤمِنين العُصاة الكِتاب بيُسراهم؟

فالجَوابُ: أنه لا دليلَ على هذا، فمَن يَقول: إن عُصاةَ المُؤمِنين يَأخُذون الكُتُب بشِمالهم، وقَوْل الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يُثْبِـتُ هذا المَعنَى، فلو ثبَت أن عُصاة المُؤمِنين يَأخُذون بالشِّمال لكان لا بأسَ، لكن الآية تَقول: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقة:٢٥-٣٣]، فهذا في الكافِر.

وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جاء بهم الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن المُلْك في ذلك الوقتِ لله تعالى، فله التَّصرُّف فيُؤتَى بالنَّبيِّين، و(النَّبيِّين) هنا يَشمَل النَّبيِّين الذين أُرسِلوا، والنَّبيِّين الذين لم يُرسَلوا، فهو عامٌّ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الشُّهداء جمع شَهيد، وليس المُراد بالشُّهداء الذين قُتِلـوا في سـبيل الله تعالى، بل المُرادُ بالشُّهداء الذين يُستَشهَـدون يوم القِيامة، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: بمُحمَّد ﷺ وأُمَّته، يَشهَدون للرُّسُل بالبِلاغ].

أمَّا قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: بمُحمَّد] فظاهِره أنه يُريد أن يُفسِّر النَّبيِّين بمُحمَّد، فيَكون على تفسيره عامًّا أُريد به الخاصُّ، وهذا غير مُسلَّم به، بل الصوابُ: أنه عامٌّ باقٍ على عُمومه، أي: يُؤتَى بالنَّبيِّين كلهم يَشهَدون على أُممهم بأنهم بلَغوهم.

أمَّا قوله: (الشُّهَداء) فهو من باب عَطْف العامِّ على الخاصِّ، والمُراد بهم: الذين يَشهَدون على الأُمَم وللرُّسُل، وهم هذه الأُمَّةُ، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ ﴾ [البقرة:١٤٣] مُحمَّد ﷺ ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾، فالرُّسُل شُهَداءُ على أُممهم يَقولون: يا ربَّنا نَشهَد أنك أَرسَلْتنا إلى أقوامنا وأننا بلَّغْناهم.

ولا يُمكِن أن يَقول أحَدٌ في ذلك اليومِ: هذه دَعْوى، فأين البَيِّنة؟ لأنه لو قال مثل هذا القولِ فإنه يَشهَد عليه أَعضاؤُه، والله تعالى يَشهَد قبل كل شيء.

أمَّا الشُّهَداء فهُمْ أُمَّة مُحمَّد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾، وهذه الأُمَّةُ -ولله الحمدُ- تَشهَد على الناس في الدُّنيا وفي الآخِرة، ونحن الآنَ نَشهَد أن الله تعالى أَرسَل نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى قومه، ونَشهَد أن قومَه أُبلِغوا على الوجه الأَكمَل، ونَشهَد أنه بَقِيَ فيهم ألفَ سَنَة إلَّا خَمْسين عامًا، كل هذا نَشهَد به، بما علَّمنا الله عَزَّوَجَلَّ في كِتابه، فيَوم القِيامة تَكون الشهادة لنا على الأُمَم.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَشهَدون للرُّسُل بالبَلاغ] لو قال: (وعلى الأُمَم بإقامة الحُجَّة) لكان هذا خيرًا، فنحن كذلك نَشهَد على الأُمَم بأنهم بُلِّغوا، وأُقيمت عليهم الحُجَّة، فلنا شَهادتان: شَهادة للرُّسُل، وشهادة على الأُمَم.

وقوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: العَدْل، والقاضي هو الله عَزَّوَجَلَّ، لكن

أَبهَمه للتعظيم، وهو مَعلوم فليس هناك ضَرورة إلى التَّعْيين؛ لأنه مَعلوم أن القاضِيَ هو الله ربُّ العالَمين.

وقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ أي: بين الناس، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعَدْل، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئًا، يُقضَى بين الناس يوم القيامة بالعَدْل، وليس القضاء بين الناس فقَطْ بالعَدْل، بل وبين البَهائم أيضًا بالعَدْل، حتى إن الرسول ﷺ أَخبَر بأنه يُقتَصُّ للشاة الجَلحاءِ من الشاة القَرناءِ[1]، سُبحانَ الله! ثُمَّ بعد ذلك تكون تُرابًا؛ لأنها ليس لها جَنَّة ولا نار، لكِنْ إظهارًا للعَدْل وشِفاءً لما في الصدور؛ لأن الشاة الجَلحاءَ إذا نطَحَتْها الشاه القَرناءُ صار في قَلْبها شيء، لكنها لا تَستَطيع أن تَقتَصَّ؛ لأن هذه لها قُرون وهذه ليس لها قُرون، لكن يوم القِيامة يُعطِي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الشاة الجَلْحاء قُدرة حتى تَقتَصَّ، أو يُريها الله عَزَّوَجَلَّ كيف يَقتصُّ لها من الشاة القَرناءِ؛ ولهذا يَقول تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: العدل]، وفسَّر الحَقَّ هنا بالعَدْل ولم يُفسِّره بالصِّدْق؛ لأن المَقام مَقام حُكْم وقَضاء، والمُناسِب فيه العدل.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الضمير (هم) يَعود على الناس، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئًا]، أي: لا يُنقَصون من حُقوقهم شيئًا، بل يُعطَى كل إنسان حقَّه على وجهِ الكَمال.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الجُمْلة حالِيَّة، يَعنِي: والحال أنهم لا يُظلَمون شيئًا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ النُّور صِفةً لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات الرُّبوبية الخاصَّة لله تعالى في ذلك اليومِ، حيث أَضاف الرُّبوبية إلى الأرض مع أنه ربُّ كلِّ شيء، وإضافة رُبوبية الله تعالى إلى شيء مُعيَّن تَقتَضي تَعظيم هذا الشيءِ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٩١]، ولَمَّا كان قوله تعالى: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ قد يُوهِم أنه ربٌّ لهذه البَلدةِ دون غيرها؛ قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الكِتاب الذي كُتِبت فيه الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الشُّهَداء على الناس بما عمِلوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه يُقضَى بين الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وبين مَن كذَّبوهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنه يُقضَى بين العالِم وأُمَّته؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ والعلماءُ شُهَداءُ لا شَكَّ، بل هُم رُؤوس الشهداء بعد الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فالعالِم مُبلِّغ عن الرُّسُل، فيُقضَى بينه وبين مَن بلَغَته الرسالةُ بواسِطتهم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات القَضاء بين الخَلْق في ذلك اليومِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن القَضاء لا حَيفَ فيه ولا جَوْرَ؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾،

فيُعطَى الإنسان حَقَّه كامِلًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: انتِفاء الظُّلْم في ذلك اليومِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وانتِفاء الظُّلْم هنا ليس المُرادُ به نَفيَ الظُّلْم فقَطْ، بلِ المُراد به إثبات كمال العَدْل الذي ليس فيه ظُلْم بوَجْه من الوجوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

• • ۞ • •

الآيــة (٧٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر:٧٠].

قوله تعالى: (وُفِّيَت) أي: أُعطِيَت وفاءً، كمـا تقول: وفَّيْتُه حَقَّه. أي: أَعطَيْته إيَّاه وفاءً.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: ﴿كُلُّ﴾ بالضَّمِّ على أنها نائِب فاعِل.

قوله تعالى: ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ أيِ: الذي عمِلَت، فـ﴿مَّا﴾ هو اسمٌ مَوْصول، وهو مَفعول ثانٍ لـ(وُفِّيَت)، والمَفعول الأوَّل هو ﴿كُلُّ﴾ وإن كانت بالضَّمِّ، لكن نائب الفاعل يَنوب مَناب المَفعول؛ فلهذا صارت ﴿كُلُّ﴾ في مَحلِّ المَفعول الأوَّل، و﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ في مَحلِّ المَفعول الثاني.

فإن قال قائِل: الفِعْل المَبنيُّ للمَجهـول هل الأَوْلى دائِمًـا أن نَقـول: مُبنيٌّ لما لم يُسَمَّ فاعِلُه. أم في هذه الصِّيَغِ؟

فالجَوابُ: أن نَقـول: الأَوْلَى دائِمًـا: (لما لم يُسمَّ فاعِله)، وأنت إذا قُلـتَ: (لما لم يُسمَّ)، فصحيح سـواءٌ كان مَجهولًا أو غيرَ مَجهـول، ثُمَّ إن الفِعْل المَبنيَّ لما لم يُسمَّ فاعِله إذا كان الله تعالى هو الذي تَكلَّم به؛ فلا يَصِحُّ أن نَقـول: إن هذا مَجهـول لله تعالى. يَعنِي: في القرآن لا يُمكِن أن تَقول: مَبنيٌّ للمَجهول؛ لأن الله تعالى لا يَجهَل الفِعْل، أمَّا في غيـره فربما يَقول القائِل مثلًا: لَمَّا أَصبَح صاحَ. فقيل: ماذا أَصابَك؟

قال: سُرِق مَتاعي. فهذا مَبنيٌّ للمَجهول؛ لأنه لا يُمكِن أنه يُريد السَّتْر على السارِق!.

قوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: جزاءَه] حمَلَه على هذا التأويلِ أن العمَلَ قد مضَى في الدنيا، والذي تُوفَّى النفسُ هو الجَزاءُ، كما قال الله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

فإذا قال قائِل: الأمر واضِح كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن ما الحِكْمة في أن الله عَزَّوَجَلَّ عبَّر بالعمَل عن جَزاء العمَل؟

فالجَوابُ: الحِكْمة في ذلك: الإشارة إلى أن الجَزاء لا يَتَجاوَز العمَل، ولا يَنقُص عن العمَل، فكأنه هو العمَل، فإذا كان لا يَتَجاوَزه ولا يَنقُص عنه فكأنه هو العمَل، وهذا هو كَمال العَدْل، وكما تَدين تُدانُ.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ الضمير (هو) يَعود على الله عَزَّوَجَلَّ، يَعنِي: كأنَّ قائِلًا يَقول: كيف يَعلَم ما عمِلت النَّفْس، وقد مضَت دُهور ودُهور وفي العمَل الدقيق والجَليل؟ فقال: ﴿وَهُوَ﴾ أيِ: الله ﴿أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، يَعنِي: لا يَخفَى عليه شيء، وهو عَزَّوَجَلَّ لا يَضِلُّ ولا يَنسَى، فلا يُمكِن أن يَفوت شيء من عمَل الإنسان.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: [عالِمٌ ﴿بِمَا يَفْعَلُونَ﴾] تفسيره ﴿أَعْلَمُ﴾ بـ(عالِم) يُعتبَر تفسيرًا قاصِرًا؛ لأن (أَعلَم) أعلى درجةً من عالِم، فإنك تَقول: زَيْد عالِم، وعَمرٌو عالِم، فيَتَساوَيان في العِلْم، وتَقول: زَيْد أَعلَمُ من عَمرٍو، فيَكون زَيْدٌ أَعلَمَ وأعلى درجةً من عَمرٍو.

فالمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآنَ إذا قال: ﴿أَعْلَمُ﴾ أي: [عالِم] نقَص من عِلْم الله تعالى؛ لأن كلِمة (عالِم) لا تَمنَع المُشارَكة، لكن (أَعلَم) تَمنَع المُشارَكة؛ لأنه لا يَستَوِي الأفضل والمَفضول.

والعجَبُ أننا لو سألَنا سائِل: لماذا عدَل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن اسمِ التَّفضيل إلى اسمِ الفاعِل؟ قال: لأنه لا يَنبَغي أن يَكون هناك تَناسُب أو مُفاضَلة بين الخالِق والمَخلوق.

إذا قُلتَ: (أَعلَمُ) مَعناه: فضَّلت الخالِق عن المَخلوق، فنَقول له: سبحان الله! وإذا قُلت: (عالِم) فقد سوَّيْت الخالِق بالمَخلوق، فانْظُر كيف عدَل عن ظاهِر اللَّفْظ إلى فَساد المَعنَى! فجَنَى جِنايَتَيْن -عفا الله عنه-:

الأُولى: مُخالَفة ظاهِر اللَّفْظ.

الثاني: تَنقيص الخالِق في عِلْمه.

فنَحن نَقول: إن الله تعالى أَعلَمُ وأَرحَمُ، ففي القرآن الكريم: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥١]، وأَحكَم ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨].

بل أَبلَغُ من ذلك أن الله تعالى قال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]، مع العِلْم بأنه لا أَحَدَ يَظُنُّ أو يُقدِّر أن الأصنام مثل الخالِق، لكن قال هذا من أَجْل إفحام الخَصْم، وبيان ضَلاله؛ بأن نَقول له: آللهُ خيرٌ أَمِ الذي تُشرِكون به؟

فالحاصِلُ: أن علينا أن نُجرِي (أَعلَم) على ظاهِرها من أن المُراد بها تَفضيل الله تعالى في عِلْمه على عِباده، فهو أَعلَمُ بما يَفعَلون.

فإن قال قائِل: إن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدَل عن (أَعلَم) إلى (عالِم)؛ لأن الناس لا يَعلَمون ما يَفعَلون، فالعِلْم مُنتَفٍ وحينئذ لا يَكون تَفسيرُه (أَعلَم) بـ(عالِم) ضارًّا؟

قُلْنا: هذا خطأ أيضًا، بلِ العالِم يَعلَمون ما يَفعَلون، إِذْ كل إنسان يَعلَم ما فعَل،

وكل مَن شاهَد غيره أنه يَفْعَل عَلِم ما فعَل.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تارةً تَأتِي (يَفعَلون)، وتارةً تَأتِي (يَعمَلون)، وتارةً تَأتِي (يَكسِبون)، فهل بينها فَرْق؟

نَقول: لا ليس بينها فَرْق؛ لأن مُؤدَّاها واحِد، لكن إذا قيل: قولٌ وفِعْلٌ؛ صار القول باللِّسان، والفِعْل بالجَوارِح، وإذا قيل: عمِل صار شامِلًا للقول والفِعْل، وإذا قيل: قول فإنه يَكون شامِلًا للقول والفِعْل.

ومنه -أي: من إطلاق القَوْل على الفِعْل- قول الرسول ﷺ لعَمَّار بنِ ياسِر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولَ هَكَذَا» ثُمَّ ضرَب يدَه بالأرض[1]. ومعلوم أن هذا ليس قولًا، بل هو فِعْل.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فلا يَحتاج إلى شاهِد] نعَمْ، لا يَحتاج إلى شاهِد، كفَى بالله تعالى شَهيدًا، لكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُقيم الشهود إظهارًا للعَدْل، وتَوْبيخًا للفاعِل؛ لأنه إذا أُقيم عليه الشهود بعد أن أَنكَر صار ذلك أَشدَّ تَوْبيخًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الناس يَستَوْفون أعمالهم يومَ القِيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ بعد أن قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا...﴾ إلى آخِره.

ويَدُلُّ لهذا -أن استِيفاء العمَل يَكون يوم القِيامة- قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب المتيمم هل ينفخ فيهما، رقم (٣٣٨)، ومسلم: كتاب الحيض، باب التيمم، رقم (٣٦٨).

أمَّا في الدُّنيا فإن الإنسان قد يُوفَّى عمَلَه وقد لا يُوفَّى، فالكافِر مثلًا: لا يُمكِن أن يُوفَّى جزاءَ عمَله في الآخِرة، وأُريدُ: جزاءَ عمَله الصالِح، يَعنِي: لو أن الكافِر تَصدَّق، أو أَصلَح شيئًا يَنفَع المُسلِمين، أو فَعَل أيَّ شيء يَتعدَّى نَفعُه؛ فإنه لن يُجازَى عليه في الآخِرة، ولكن يُطعَم به في الدنيا فيُجازَى عليه في الدنيا، ثُمَّ قد يُجازَى في الدنيا ويُطعَم إيَّاه وقد لا يُجازَى.

أمَّا المُؤمِن فإنه وإن جُوزِيَ في الدنيا على عمَله الصالِح فإنه لن يُحرَم الجزاء في الآخِرة، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ هذا جزاء دُنيويٌّ، ثُم قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هذا أُخرَويٌّ.

المُهِمُّ: أن مُنتَهى الجَزاء هو يوم القِيامة، لقوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾.

فإن قال قائِل: يَقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ إلى آخِر الآية [عبس:٣٤]، فهل يُمكِن في هذا المَوقِفِ العَظيم الإنسان أن يَتنازَل بشيء من حسَناته لأُمِّه وأبيه؟

فالجَوابُ: الظاهِر أنه لا يُمكِن؛ لأن العمَل انتَهى وقتُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عَدْل الله تعالى في جَزائه؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ لا زِيادةَ ولا نَقصَ، ويُؤكِّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، فإذا كان أَعلَمَ بما يَفعَلون وهو حكَمٌ عَدْل؛ عُلِم أنه لن يَنقُص الإنسان من أَجْره شيئًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات العِلْم لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله تعالى يَعلَم أعمال العِباد كما يَعلَم أعمال نَفْسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: احتِراز الإنسان من العمَل بما لا يُرضِي الله تعالى، وأنه يَجِب عليه أن يَحـذَر منه؛ لأن الله تعالى يَعلَم ذلك، والإنسـان الحيُّ القَلْـب لا شكَّ أنه سيَخجَل إذا علِم أن الله تعالى يَعلَم عمَله فعمِل ما لا يُرضيه.

• • ۞ • •

الآيــة (٧١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر:٧١].

قوله تعالى: (سِيق) فِعْل ماضٍ مَبنيٌّ للمَجهـول، والأَوْلى أن نَقـول: مَبنيٌّ لما لَمْ يُسمَّ فاعِله؛ قالوا: أن الأَوْلَى الثاني؛ لأنه قد يَكون الفاعِل مَعلـومًا، لكن حُـذِف لغرَض آخَرَ؛ ولهذا كان تَعبير المُحقِّقين من النَّحويِّين أن يَقولوا: ما لم يُسمَّ فاعِله. وفي هذا الفِعْلِ نَقـول: مَبنيٌّ لما لَمْ يُسمَّ فاعِله. فالظاهِر أن السائِـق المَلائِكة، يَسوقُونهم إهانةً.

وقول المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بعُنْـف] دَليلـه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [الطور:١٣] مَعنَى الدَّعِّ: الدَّفْع بشِدَّة وقوة، هذا كيفية سَوْق الذين كفَروا.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ حُذِف المَفعول ليَعُمَّ كل ما يُكفَر به ممَّا يَجِب الإيمان به، فإذا كفَروا بالمَلائِكة فهم داخِلون في هذا، وكذلك إذا كفَروا بالنَّبيِّين، وبالكِتاب، وباليوم الآخِر، وبالقَدْر؛ فهم داخِلون في هذه الآيةِ، وكذلك إذا استكْبَروا عمَّا يَجِب عليهم الإيمان به فإنهم يَكفُرون؛ لأن الكُفْر نَوْعان: كُفرُ جُحود، وكُفرُ

استِكْبار؛ فالتَّكذيب كُفْر جُحود، وتَرْك العمَل كُفْر استِكْبار، والآية تَشمَل هذا وهذا.

فإن قال قائل: في هذه الآيةِ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾، وفي الحديث في صحيح البُخارِيِّ وغيره: أنه تُصوَّر لهم النار كأنها سَراب فيأتون مُسرِعين[1]، فكيف يُمكِن الجَمْع بين السُّوق وبين كونهم هم يَتبادَرونها؟

فالجَوابُ: أن الجَمْع من أحد الوَجْهين:

إمَّا أنه يُجمَع لهم بين السَّوْق وبين انطِلاقهم، ولا مانِعَ من أن يَركُض الإنسان وهناك واحد وراءَهُ يَدفَعه.

أو يُقال: إنهم إذا وصَلوا إلى حَوْلها ورأَى المُشرِكون النار هابوا ووقَفوا، وعلِموا أنها ليسَتْ بماءٍ، فسوف يَنكِصون وحينئذ يُساقون ويَدَعُّون إلى جَهنَّمَ دعًّا.

وإن قال قائِل: هل يُعذَّب الجِنَّ كما يُعذَّب الإنسان في جَهنَّمَ؟ وهل هُما سواءٌ؟

فالجَوابُ: نعَمْ، هذا هو الظاهِر، أن الجِنَّ يُعذَّبون كما يُعذَّب الإِنْس، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨].

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ قوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾ سبَق الكلام عليها، وأن العُلَماءَ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ اختلَفوا فيها، وهل هي مُعرَّبة أو عرَبية أصلِيَّة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، رقم (٧٤٣٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿زُمَرًا﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جماعاتٍ مُتفرِّقةً] ووجهُ التَّفريق في هذه الجَماعاتِ قد يَكون باعتِبار الأُمَم، أو باعتِبار الأعمال، بحيث تَكون الزُّمْرة الأُولى هي الكافِرة المُشرِكة، والثانية ما دونَها، والثالِثة ما دونَها وهكذا.

فإن قُلْنا بالأوَّل -أي: أن هـذه الزُّمَرَ باعتِبار الأُمَم- فإن دليلـه قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف:٣٨]، فإن هذا يَدُلُّ على أنهم يُذهَب بهم إلى النار أُمَمًا.

وإن قُلنا بالثاني: فدَليله ما يُصنَع بأهل الجَنَّة أن أوَّل زُمْرة تَدخُل الجَنَّة وجوهُهُم كالقمر ليلةَ البَدْر، أو على صُورة القمَر ليلةَ البَدْر، فإن هذا يَقتَضي أن يَكون الزُّمَر باعتِبار العمَل، فالله أَعلَمُ.

المُهِمُّ: أن نَعرِف أنهم يُساقون زُمَرًا.

فإن قال قائِل: أَلَا يَمنَع من كونه المَعنَى ﴿زُمَرًا﴾ أن يَكـون جَماعاتٍ باعتِبار العمَل؛ لقول النبيِّ ﷺ: «**أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ ثَلَاثَةٌ**»[1]؟

فالجَوابُ: نعَمْ، هذا يُؤيِّد أن المُراد باعتِبار العمَل؛ لأن هؤلاءِ الثلاثةَ يَكونون في الأُمَم من قَبْلنا وفينا.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ شَرْطها: ﴿جَآءُوهَا﴾، وجوابُها: ﴿فُتِحَتْ﴾ يَعنِي: من حين أن يَصِلوا إليها تُفتَح، وفَتْحُها أَكْرَهُ شيءٍ إليهم -نَسأَل اللهَ العافِيَةَ-؛ لأنهم يَوَدُّون أن يَقِفوا ولو على شَفيرها دون أن يَدخُلوا فيها، ولكنهم يُفاجَؤُون بفَتْحها من أَجْل مُبادَرتهم بالعَذاب، والعِياذ باللهِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، رقم (١٩٠٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بمعناه.

وقوله تعالى: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ فقوله تعالى: ﴿أَبْوَابُهَا﴾ جَمْع: باب، وقد بيَّن الله تعالى في كِتابه أن أبوابها سَبْعة، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٣-٤٤] حَسْب عمَله.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾: ﴿خَزَنَتُهَا﴾ أي: القائِمون عليها المُوكَّلون بها، وهم مَلائِكة غِلاظ شِداد؛ غِلاظ الطِّباع، شِداد الأجسام، هؤلاء هُمْ خزَنة النار، ليس فيهم رحمة إلَّا امتِثالًا بأَمْر الله عَزَّوَجَلَّ، والله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يوم القيامة لا يَظلِم الكافِر، بل يَقول تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، فهُمْ أبعَدُ الناس عن رحمة الله.

وقوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ مُوبِّخين ومُقرِّرين ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، فالاستِفْهام هنا للتَّوْبيخ والتَّقرير، يَعنِي: يُقرِّرون إتيان الرسُل، ويُوبِّخون هؤلاء على الكُفْر بهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ يَعنِي: لا من غيركم، فلو أَرسَل الله تعالى للبشَر مَلائِكة لكانوا يَنفِرون، يَقول تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٥]، وهذا رَدٌّ عليهم لَمَّا قالوا: أين المَلائِكةُ؟ فليس من الحِكْمة أن نُنزِل للبشَر ملَكًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾ لو أَنزَل الله تعالى ملَكًا، أي: لو فُرِض أن الله تعالى يُرسِل للبشَر ملَكًا ﴿لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام:٩]، أي: على صورة الرجُل؛ كي لا يَنفِروا منه.

وهنا يَقول: ﴿يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ وهذا أبلَغُ؛ من أن يُقال: (مِن أَنفُسِكم)، فمُحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من قُرَيْش من بني هاشِم، يَعرِفونه ويَعرِفون أباه ويَعرِفون أجداده، ويَصِفونه بالأمين، ويَثِقون به، وحَكَّموه حين اختَصَموا في وَضْع الحجَر

في مَكانه في الكعبة حتى حكَم فيهم ذلك الحُكْمَ العَدْلَ[1]؛ ولهذا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤] من جِنْسهم؛ لأن الرسول ﷺ ليس مَلَكًا، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢]؛ لأنه من العرَب.

ولَمَّا جاءَهُم بالبينات قالوا: هذا الساحِر، هذا الكذَّابُ، هذا المَجنونُ، هذا الكاهِنُ، هذا الشاعِرُ. سبحان الله! وهو رجُل منهم يَعرِفونه، لكن الاستِكْبار يَأبى أن يَقول الحقَّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ جُمْلة: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ يَجوز أن تكون حالًا، ويَجوز أن تكون صِفةً أُخرى؛ لأن قوله تعالى: ﴿مِّنكُمْ﴾ صِفة، والنَّكِرة إذا وُصِفت جاز وقوع الحالُ منها، وجاز أن تكون الجُمْلة صِفةً أُخْرى؛ لأنه لا مانِعَ من تَعدُّد الصِّفات، على أن الحال في الواقِع صِفة، كما قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الحَالُ وَصْفٌ فَضْلَةٌ مُنْتَصِبُ ... مُفْهِمُ فِي حَالٍ كَفَرْدًا اذْهَبُ[2]

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يَقرَؤُون عليكم آياتِ ربكم، والمُراد بالآيات هنا: الآياتُ الشَّرْعية؛ لأن المُراد بها ما نزَل من الوَحيِ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القُرآن وغيره] يَعنِي: أنه يَشمَل كلَّ الكتُب التي أُنزِلت.

---

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده رقم (١١٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٥/ ٤٤)، من حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الألفية (ص٣٢).

قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ يُخوِّفونكم لقاءَ هذا اليوم، حيث أَخبَروكم به وأَخبَروكم بما فيه من الأهوال العِظام، فلم يَبقَ لكم عُذْر؛ ولهذا أَقَرُّوا: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ يَعنِي: قد أَتانا رُسُل مِنَّا يَتلون علينا آياتِ ربِّنا ويُنذِروننا لِقاء يومِنا هذا، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهذا هو الذي منَعَنا من طاعة الرُّسُل.

وقوله تعالى: ﴿حَقَّتْ﴾ بمَعنَى: وجَبَت وثبَتَت، و﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ هي الكلِمة التي يَستَوْجبون بها العَذاب، وفي هذه الكلِمةِ -﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾- قولان:

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هي قول الله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩]، هذه هي الكلِمة؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التَزَم لجَهَنَّمَ بمَلْئها من الجِنَّة والناس أَجمَعين، فإذا كان قدِ التَزَم للنار بمَلْئها، فلا بُدَّ أن يَخلُق لها أقوامًا يُكذِّبون الرُّسُل ليَستَحِقُّوا نار جهنَّمَ -والعِياذُ بالله-.

وقيل: إن الكلِمة -﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾- هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس:٩٦-٩٧]، فإنها لما حقَّتْ عليهم كلِمة الله تعالى امتَنَع إيمانهم، ولكن هنا يَقول الإنسان: هل هذا من باب الاحتِجاج بالقدَر، أم من باب الاعتِراف بالواقِع؟

الجَوابُ: الثاني؛ لأنه لا يُمكِن أن يَحتَجُّوا بالقدَر في ذلك المَوْضِعِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيان إهانة الكُفَّار عند دُخولهم النار؛ لكونهم يُساقون بعُنْف ويُدَعُّون دعًّا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنهم يَدخُلون النار زُمَرًا، والحِكْمة من ذلك أَشار الله تعالى إليها في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن أهل النار يُفاجَؤُون بها، فمِن حين إتيانهم تُفتَح؛ ليَكون ذلك أَشَدَّ مُباغتةً وأَشَدَّ حَرارةً -والعِياذُ بالله- فلا يُمَكَّنون من الصبر عنها طَرْفةَ عَيْن، مع أنهم يَوَدُّون أنها لا تُفتَح، ولكن الأمر على خِلاف ما يَوَدُّون فتُفتَح فَوْرًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن للنار أبوابًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن النار مُظلِمة بعيدةُ القاع، يُؤخَذ من اسمها في قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: كمال تَنظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للخَلْق، حيث جعَل للنار خزَنة، وللجَنَّة خزَنة، وفي هذه الآيةِ يَقول تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن هؤلاءِ الخزَنةَ يَنطِقون كما يَنطِق البَشَر بخِطاب مَفهوم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن لُغة أهل النار واحِدة، وربما يُقال: إن لغاتِهم مُختلِفةٌ، وأن الملائكة لكَثْرتهم كلٌّ يُخاطِب القوم بما يَفهَمون من اللغة، والله أَعلَمُ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: اجتِماع العَذاب القلبي والبدَني على أهل النار، أمَّا البدَنيُّ فظاهِر، وأمَّا القَلْبيُّ فما يَحصُل لهم من التوبيخ والتقريع في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ﴾، ومَعلوم أن من الناس مَن يُحِبُّ أن يُوسَع جِسْمه ضربًا ولا يُوبَّخ

بكلِمة واحِدة، فالتَّوْبيخ ليس بالأمر الهيِّن، لا سيَّما في مثل هذا الحالِ؛ لأنهم إذا ذُكِّروا بهذه النِّعمةِ في حال لا يَتمكَّنون من استِدْراك ما فات كان ذلك أشدَّ حَسْرةً، والعِياذُ بالله.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: تَمام الحُجَّة على بني آدَمَ بإرسال الرُّسُل منهم؛ لقوله تعالى: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾؛ لأنهم لو كانوا من غير الجِنْس لم تَتِمَّ الحُجَّة، لكن إذا كانوا من الجِنْس نَفْسه، بل من القَبيلة نفسِها لتَمَّتِ الحُجَّة.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن الرُّسُل صلى الله عليهم وسلم كانوا قد بلَّغوا البلاغ المُبين؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن ما جاءت به الرُّسُل من الوحيِ حُجَّة مُلزِمة؛ لأن الله تعالى سمَّاه: ﴿ءَايَٰتِ﴾، والآية العلامة المُعيَّنة لما دلَّت عليه، فهي حُجَّة مُلزِمة لكلِّ مَن سمِعها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنه ما من رَسول إلَّا وقد أتى بكِتاب؛ لقوله تعالى: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾، ويُؤيِّد هذا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥]، وقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

لكننا لا نَعلَم كل كِتابٍ أُوتِيَه رسول، فالذي نَعرِفه التَّوراة والإنجيل والزَّبور وصُحُف إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ والقرآن.

ولا عجَبَ أَنْ لا نَعلَم إلَّا هذه الخَمسةَ، كما أننا لا نَعلَم من الرُّسُل إلَّا خَمْسة

وعِشْرين، والباقون لا نَعلَمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨]، يَعنِي: ليس كلُّ الرُّسُل قُصُّوا عليك، قال بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: ولم يُقَصَّ علينا إلَّا مَن كانوا في الجَزيرة العربيـة أو ما حولها، يَعنِي لم يُقَصَّ علينا الرُّسُل الذين في أمـريكا، أو أَقصى آسيا، أو ما أَشبَه ذلك، إنما قُصَّ علينا مَن كانوا حولَنا؛ لأن هؤلاء يُمكِن أن نَعتَبِر بهم أَكثَرَ من الآخَرين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: بيان مُقتَضى الربوبية -أَعنِـي: ربوبية الله- أنها رُبوبية مَبنيَّة على الرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾، فلو أن الله تعالى ترَكَنا هَمَلًا لم تَكُن رُبوبيته تامَّـةً، لكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يَتْرُكْنا هَمَلًا، بل أَرسَـل إلينا الرُّسُل، فتَمَّت بذلك الرُّبوبيَّةُ التي كان مُقتضاها هِداية الخَلْق.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: اعتِناء الرُّسُل باليوم الآخِر، حيث يُنذِرون الناس به؛ ووجهُ ذلك: أنه إذا لم يَكُن يومٌ يُرجَـع فيه الناس إلى الله تعالى وتُوفَّى كلُّ نفـسٍ ما عمِلت فإن الناس لا يَعمَلون ولا يَهتَمُّون بالعمَل، فإذا كان الناس يَعيشون في الدنيا ما شاء الله تعالى أن يَعيشوا ثُم يَمـوتون ولا يَرجِعون فلا يُمكِن لأحَدٍ أن يَسـتَقيم إلَّا بما أَملاه عليه ضميرُه، أمَّا أن يَستَقيم على ما أُمِر به فهذا بعيد جِدًّا؛ لأن الإنسان يَقول: إنه سيَعيش ثُم يَموت ولا شيءَ بعد ذلك، لكن إذا علِم وأَيقَن أنه سيَكون يومٌ يُبعَث فيه ويُجازَى على عمَله فحينئذ لا بُدَّ أن يَحرِص للاستِعْداد لهذا اليَومِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: إقرار المُكذِّبيـن في ذلك اليوم إقرارًا كامِلًا لقولهم: ﴿بَلَىٰ﴾، و(بَلَى) حَرْف جواب لإثبات النَّفيِ المُصدَّر بالاستِفْهام، فمثَلًا: إذا قُلت:

أَلَيْس زيدٌ قائِمًا؟ فقيل: بلى. أي: أنه قائِم، لكن لو قُلت: نعَمْ. لكان المَعنَى: لم يَكُن قائِمًا.

ولهذا يُذكَر عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢]: «لو قالوا: نعَمْ. لكَفَروا»[1]؛ لأنهم إذا قالوا: نعَمْ. فالمَعنَى: لستَ برَبِّنا، وهذا كُفْر، فالنَّفيُ المَسبوق بالاستِفْهام يُجاب في الإثبات بـ(بَلَى)، وفي النَّفيِ بـ(نعَمْ)، لكن مع ذلك تَأتِي (نعَمْ) في مَحَلِّ (بَلَى)، لكنه قليل في اللغة العرَبية، قالوا: ومنه قول الشاعِر:

أَلَيْسَ اللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرٍو ... وَإِيَّانَا فَذَاكَ لَنَا تَدَانِ

نَعَمْ وَتَرَى الهِلَالَ كَمَا أَرَاهُ ... وَيَعْلُوهَا النَّهَارُ كَمَا عَلَانِي[2]

والبَيْتان مَعروفان؛ فهذا الرجُل يُقرِّر أنه قريب من مَعشوقته؛ لأن الليل يَجمَعهما، فما دام الليلُ يَجمَعهما فكأن الفِراش يَجمَعهما، فقوله:

أَلَيْسَ اللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرٍو ... وَإِيَّانَا فَذَاكَ لَنَا تَدَانِ

هذا دليل على التَّقارُب بَينَنا: أن الليل يَجمَع بَيْننا.

الدليل الثاني: قوله: (وَتَرَى الهِلَالَ كَمَا أَرَاهُ)، وما دامَت رُؤْيتنا كلُّها تَتَّفِق في رُؤية الهِلال فهذا اجتِماع.

الدليل الثالِثُ: قوله: (يَعْلُوهَا النَّهَارُ كَمَا عَلَانِي)، فما دام النهار يَعلوها كما عَلاني فنَهارُنا واحِد وليلُنا واحِد، وهِلالُنا واحِد، فإننا مُتادَنون (فَذَاكَ لَنَا تَدَانِ)،

---

(١) ذكره ابن جزي في تفسيره (١/ ٣١٢)، والسمين الحلبي في الدر المصون (١/ ٤٥٦).

(٢) البيتان من شعر جحدر العُكْلي، انظر: الأمالي للقالي (١/ ٢٨٢)، وخزانة الأدب (١١/ ٢٠٩).

وهذا المِسكينُ إذا كان يَقتَنِع بهذا التَّدانِي فهو قَنوع جِدًّا.

الشاهِد من هذين البَيْتين قولُه: (نَعَمْ) يَعنِي: نعَمْ أن الليل يَجمَعه مع أُمِّ عَمرٍو، وهذه (نعَمْ) في مَحَلِّ (بَلَى).

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن مَن حقَّتْ عليه كلِمة العذاب فقد أَوجَبَ؛ لقولهم: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: أن المُكذِّبين للرُّسُل يُبصِرون في ذلك اليومِ بَصَرًا شَديدًا، ويَعلَمون الحقَّ عِلْمًا أَكيدًا؛ لقولهم: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فلو كان هذا الإقرارُ في الدنيا لنَجَوْا من العذاب، قال الله تبارك تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ يَعنِي: يوم القِيامة ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢]، أمَّا في الدنيا فبَصَرك أَعشَى، لكن في الآخِرة البصَر حَديد قَويٌّ جِدًّا يَرَى أكثَرَ ممَّا يَراه في الدنيا أضعافًا مُضاعَفة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: أن الكلِمة إنما تَحِقُّ على الكافِرين؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: أن هـؤلاءِ لم تَحِقَّ عليهم الكلِمة إلَّا لكُفْرهم، فهو كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

وعلى هذا يَندَفِع الإشكال، فلو قيل: كيف حَقَّت كلمة ربِّك أو كلِمة الله تعالى على هؤلاء دون غيرهم؟

فالجَوابُ على ذلك من وَجْهين:

الوجهُ الأوَّل: أن الله تعالى علِم من هؤلاء أنهم ليسوا أهلًا للهِداية، قال تعالى:

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ أعاذَنا الله تعالى وإيَّاكم من زَيْغ القلوب.

الوجه الثاني: أن يُقال: هل ظلَم الله تعالى هؤلاءِ حيث منَعَهم فَضْله؟

والجَوابُ: لا، ففَضْل الله تعالى يُؤتيه مَن يَشاءُ، وفي صحيح البخاري: أن مثَلَنا ومثَلَ مَن قبلَنا كمَثَل رجُل استَأْجَر أُجَراءَ إلى نِصْف النهار، وإلى العَصْر، وإلى الغُروب، فأَعطَى الأوَّلين على قِيراط قِيراط، والآخَرين على قِيراطَيْن قِيراطَيْن، فاحتَجَّ الأوَّلون، فقال: أَظَلَمْتُكم شيئًا؟ قالوا: لا. قال: ذلك فَضْلي أُوتيه مَن أَشاءُ[1].

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب الإجارة إلى صلاة العصر، رقم (٢٢٦٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيــة (٧٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٧٢].

قوله تعالى: ﴿قِيلَ﴾ فِعْل ماضٍ مَبنيٌّ لما لَمْ يُسمَّ فاعِله، وقال بعض العُلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنه أَبهَم الفاعِل ليُفيد أن كل الكون يَقول لهم هذا، ﴿قِيلَ﴾ يَعنِي: من قِبَل المَلائِكة، من قِبَل أهل الجَنَّة، من قِبَل كلِّ مَن شهِد.

وقوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ﴾ فِعْل أَمْر للإهانة، وليس للإكرام؛ لأن مَن قيل له: ادخُلِ النار. فإنه ليس بمُكرَم -أَعوذ بالله-، ولكنه مُهان.

وقوله تعالى: ﴿أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ سبَقَ لنا أنها بنَصِّ القرآن سبعةُ أَبواب.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الواو في قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ﴾، يَعنِي: حال كونكم خالِدين فيها؛ قال المُفسِّر رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: [مُقدِّرين الخلود] يَعنِي: مَعناها: أن الحال مُقدَّرة؛ لأن الخُلود يَأتي بعد الدُّخول، يَدخُلون أوَّلًا ثُمَّ يُخلَّدون ثانيًا، فالحال إذا لم تَكُن مُصاحِبة تَكون حالًا مُقدَّرة.

والخُلود في الأصل: المُكْثُ الطويل، وقيل: المُكثُ الدائِم، فعلى القول الأوَّلِ يَكون ذِكْر التأبيد بعد الخُلود تَأسيسًا، وعلى القول الثاني -أن الخُلود هو البَقاء الدائِم- يَكون ذِكْر التَّأبيد بعد الخُلود تَوْكيدًا، وأيًّا كان فإن الله تعالى قد صرَّح في ثلاث آيات

من القُرآن: أن خُلود أهل النار فيها أَبَديٌّ.

أمَّا أهل الكبائِر فدُخولُهم بلا خُلود، وأمَّا أهل النار -الذين هُمْ أهل النار- فإنه دُخول بخُلود، وتَقدَّم أن بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يَقول: الخُلود هو المُكْث الدائِم، وبعضهم يَقول: هو المُكْث غير الدائِم، ولكن على هذا القولِ يَكون هذا الخُلودُ مُقيَّدًا بالآيات الأخرى الدالَّةِ على الدوام.

مَسأَلَةٌ: في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٧] هل استَثْنى الله تعالى خُلودهم بالمَشيئة؟

الجَوابُ: أن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ عائِد على دوام السمَوات والأرض، يَعنِي: إلَّا ما شاء ربُّك ممَّا فوقَ ذلك؛ لأن دوامَ السمَواتِ والأرض مُؤقَّت، لكن عذاب هؤلاء غيرُ مُؤقَّت؛ فقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ممَّا فوق ذلك إلى ما لا نِهايةَ له، فقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ مَعناها: خالِدين فيها مُدَّةَ دوام السماء والأرض ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ يَعنِي: إلَّا الذي زاد على مُدَّة دوام السموات والأرض، وهو ما شاء الله تعالى؛ وهذا إذا جعَلنا الاستِثْناء مُتَّصِلًا؛ أمَّا إن جعَلْناه مُنقَطِعًا وصار مَعنَى ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، لكن ما شاء الله فلا حدَّ له؛ فالمَعنَى واضِح.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾: (بِئْس) فِعْل ماضٍ جامِدٌ لا يَتَصرَّف، وهو مُحتاج إلى فاعِل وإلى مَخصوص، ففاعِله ﴿مَثْوَى﴾، ومَخصوصه مَحذوف، قدَّره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [جَهنَّم]؛ والمَثْوَى: المَأْوَى.

والمُتكبِّر فسَّره أَعلَمُ الناس به مُحَمَّدٌ ﷺ في قوله: «الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»[1]؛ فالمُتكبِّرون هم الذين يَرُدُّون الحقَّ ويَعْلُون على الخَلْق، هؤلاء همُ المُتكَبِّرون.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن هؤلاءِ المُكذِّبين إذا وصَلوا جَهنَّمَ كأنهم -واللهُ أَعلَمُ- يَتَرَدَّدون أو يَتوقَّفون، فيُقال لهم إهانةً: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾، ففيه: إهانة هؤلاء الكافِرين عند دُخولهم جهنَّمَ، حيث يُقال: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات الخُلود -أي: خُلود أهل النار فيها-؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أمَّا كون هذا الخُلودِ مُؤبَّدًا أو إلى أمَد، فهو مُؤبَّدٌ، دلَّ عليه آياتٌ ثلاثة من كِتاب الله تعالى: في سورة النِّساء، وفي سورة الأحزاب، وفي سورة الجِنِّ:

ففي سورة النِّساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩].

وفي سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

وفي سورة الجِنِّ: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَقبيح مَسْكَن النار، وخُبْث سَكَنها؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن النار مَثْوَى أهل الكِبْر، وأمَّا أهل التَّواضُع فمَأواهُمُ الجَنَّة، فالمُتواضِعون للحَقِّ وللخَلْق هؤلاء في الجَنَّة، والمُتكبِّرون عن الحَقِّ وعن الخَلْق هؤلاء مَثْواهمُ النار.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التَّحذير من الكِبْر؛ لئَلَّا يَكون الإنسان من أصحاب النار.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الكِبْر قد يَصِل بصاحِبه إلى عمَل أهل النار وإن كان يَبدو قليلًا في قَلْبه، يَعني: إذا رأيتَ من نَفْسك تكبُّرًا على أحَد فعالِجْ هذا الداءَ! عالِجْ هذا المَرَض قبل أن يَستَشرِيَ؛ لأن هذا المَرَض للقَلْب بمَنزِلة السَّرَطان للبدَن، إن لم تُبادِر بعِلاجه فإنه يَقضِي عليك، ولا تَتَهاوَنْ بالكِبْر، فالكِبْر خُلُق رَذيل ذَميم، وجَرِّب نَفْسك إذا تَواضَعْت: تَجِدْ راحة وطُمَأْنينة، تَجِد أنك لن تَندَم، لكن لوِ استكْبَرت على أحَد ثُمَّ عُدْت إلى عَقْلك لنَدِمت واستَغْفَرت.

أمَّا إذا تَواضَعْت فإنك تَجِد راحة وطُمَأنينة ويَحصُل لك في قُلوب العِباد مَحبَّة وأُلفة، فإيَّاك والكِبرياءَ، وعليك بالتَّواضُع، ولِين الجانِب، وإذا انضَمَّ إلى ذلك أنك تُريد بها الوصول إلى كَرامة الله عَزَّوَجَلَّ والخُضوع لله تعالى؛ فإنك تَزداد ثوابًا ورِفْعة؛ قال ﷺ: «مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ»[1]؛ وفي قوله ﷺ: «تَوَاضَعَ للهِ» مَعنَيان:

المَعنَى الأوَّل: تَواضُع للخَلْق من أَجْل الله تعالى؛ لأن الإنسان قد يَتَواضَع للخَلْق لا لله تعالى، ولكن لِطَمَعٍ، فيَتواضَع له ويَتخضَّع لشخص لأَجْل أن يَنال

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

منه لُقْمة عَيْش، ولكن إذا تَواضَع لله تعالى -يَعنِي: امتِثالًا لأَمْره- فإن ذلك يَكون سببًا للرِّفْعة.

المَعْنى الثاني: مَن تَواضَع لله تعالى نَفْسِه، والتَّواضُع لله تعالى نَفْسه هو التَّواضُع لدِينه، بحيث يَقبَله الإنسان وهو يَشعُر أنه مُحتاج إليه ومُضطَرٌّ إليه وأن مَقام الدِّين أعلى منه.

مَسأَلة: إذا نُصِح بعضُ الناس قال: إن النار لها حطَب؛ يَعنِي: أنه هو من حطَب نار جَهنَّمَ؟

فالجَوابُ: أن هذا يُوشِك أن يَكون كما قال، مِثْل الشيخ الكبير الذي عادَه النَّبيُّ ﷺ وهو مَريض، فقال له ﷺ: «**لَا بَأْسَ طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ**»، فقال الرجُل: طَهور! بل حُمَّى تَفور، على شيخ كبير، تُزيرُه القُبور. فقال النبيُّ ﷺ: «**أَوْ ذَاكَ**» فما أَصبَح الرجُل إلَّا مَيْتًا[1]، يَعنِي: أنه عُومِل بما أَراد لنَفْسه، ولو قَبِل هذا الرجاءَ من الرسول ﷺ لأَوْشَك أن يُعافَى.

فهذا الرجُلُ -والعِياذُ بالله- الذي يَقول: (إِنَّ لِجَهَنَّمَ حطَبًا) هذا يُوشِك أن يَكون من حطَبها؛ لأن هذا يَدُلُّ على أحَد أمرين: إمَّا السُّخرية، وإمَّا عدَم المُبالاة، وكلاهما كُفْر، فعليه أن يَتوب إلى الله تعالى وأن يَرجِع إلى الإسلام بعد أن خرَج منه.

• • ❁ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٦) من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيــة (٧٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر:٧٣].

نَقول في قوله تعالى: (سِيق) ما قُلناه فيما سبَق: أنها فِعلٌ ماضٍ مَبنيٌّ للمَجهول، أو مَبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعِله، وجاءت بصيغة الماضِي مع أنها للمُستقبَل تَحقيقًا لوقوعه؛ لقول الله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، فالماضِي يَأتي بصورة المُضارِع أحيانًا حِكايةً للحال، والمُستقبَل يَأتِي بصيغة الماضي تَحقيقًا لوقوعه كأنه شيء وقَع ويُتحدَّث عنه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ التَّقوَى أن يَتَّخِذ الإنسان وِقايةً من عذاب الله تعالى، وذلك بفِعْل أوامِره واجتِناب نواهيه؛ لأنك لو سأَلْت: ما الذي يَقِي من عَذاب الله تعالى؟ لقيل لك: طاعته بامتِثال أَمْره، واجتِناب نَهيِه.

وقيل في التَّقوَى: أن تَعمَل بطاعة الله تعالى على نور من الله تعالى تَرجو ثَواب الله تعالى، وأن تَترُك ما نَهَى الله تعالى على نور من الله تعالى، تَخشَى عِقاب الله تعالى.

وقيل في التَّقوَى:

خَـــلِّ الـــذُّنُوبَ صَـــغِيرَهَا وَكَبِيرَهَـــا ذَاكَ التُّقَـــى
وَاعْمَـــلْ كَـــمَاشٍ فَـــوْقَ أَرْ ضِ الشَّـــوْكِ يَحْـــذَرُ مَـــا يَـــرَى
لَا تَحْقِـــرَنَّ صَـــغِيرَةً إِنَّ الْجِبَـــالَ مِـــنَ الحَصَـــى (١)

ولكن ما ذكَرْناه أوَّلًا هو الجامِع المانِع؛ أن يَتَّخِذ الإنسان وِقايةً من عَذاب الله تعالى بفِعْل أَوامِره واجتِناب نواهيه، فإن خالَف وترَكَ شيئًا من الأوامِر أو فعَل شيئًا من النواهِي؛ فإنه يَنقُص من تَقْواه بقَدْر ما أخلَّ به، وحينَئِذ يَجتَمِع في الإنسان تَقوى وعِصيان، وهذا مَذهَب أهل السُّنَّة والجماعة: أن الإنسان يَجتَمِع فيه خِصال إيمان وكُفْر، خِصال تَقوَى وفِسْق، ولا مانِعَ، ولكلٍّ حُكْمه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ أَضاف الرُّبوبية إليهم؛ لأن رُبوبية الله تعالى للمُتَّقين رُبوبية خاصَّة ليست كالرُّبوبية العامة لجميع العالَمين، بل هي رُبوبية خاصَّة ربَّاهم حتى اتَّقَوْا ربَّهم.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بلُطْف] مُقابِل قوله في أهل النار: [بعُنْف]؛ لأن الله تعالى صرَّح بأن أهل النار يُدفَعون دَفْعًا إلى نار جهنَّمَ، أمَّا المُؤمِنون فإنهم يُساقون سَوْق إكرام، كأن المَلائِكة تَحتَفُّ بهم إكرامًا لهم وإجلالًا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ الجَنَّة في اللغة: البُستان الكثير الأشجار، وسُمِّيَ بذلك لأنه يَجِنُّ مَن فيه، أي: يَستُرُه، وأصل المادة الجيم والنون، أصلُها من السَّتْر؛ ولهذا سُمِّيَ القلبُ: جَنانًا؛ لأنه مُستَتِر، وسُمِّيَ الجِنُّ: جِنًّا؛ لأنهم مُستَتِرون، وسُمِّيتِ الجَنَّةُ: جَنَّةً؛ لأنها تَستُر مَن فيها؛ لكثرة أشجارها، هذا في الأصل.

---

(١) الأبيات لابن المعتز، انظر: ديوانه (ص٢٩).

أمَّا في الشَّرْع: فالجَنَّة هي الدار التي أَعَدَّها الله تعالى لأَوْليائه، التي فيها ما لا عَينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَت، ولا خطَر على قَلْب بشَر.

وقوله تعالى: ﴿زُمَرًا﴾ جَمْع: زُمْرة، ومَعناها: جماعات مُتفرِّقة، وكيفية تَوْزيع هذه الجَماعات قيل: جماعات حسَب الأُمَم. وقيل: حسَب الأعمال. والقول الأَرجَحُ: أنه بحسَب الأعمال، والدليل قوله ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»[1]، ثُم يَتَتابَع الناس على حسَب أعمالهم، فالنار مِثلها، يَعنِي: أن الأسبَق إلى النار الأَشَدُّ جُرْمًا كالأسبَق إلى دُخول الجَنَّة الأفضَلُ عمَلًا.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ الفاتِح خزَنَتُها.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ للغاية ﴿إِذَا جَآءُوهَا﴾ أي: جاؤُوا الجَنَّة.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ إذا قرأْت الآية هكذا سيبقَى قلبُك مُعلَّقًا، ستقول: أينَ جوابُ ﴿إِذَا﴾؟ فقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ كلُّها جُمَل مُتعاطِفة.

الجَوابُ: اختلَف المُعرِبون في ذلك:

فمِنهم مَن قال: إن جوابَ (إِذَا) (فُتِحَتْ)، وإن الواو زائِدة. ولكن هذا القولَ ضعيف؛ لأن زيادة الواو لم يُعهَد في اللغة العربية.

ومنهم مَن قال: إن الواو للحال بتَقدير (قَدْ)، أي: (حتى إذا جاؤُوها وقد

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٥٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، رقم (٢٨٣٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فُتِحَت أبوابُها)، ويَكون الجواب على هذا مَحذوفًا، وهذا ما ذهَب إليه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقيل: الواو حرفُ عَطْف، والجوابُ مَحذوف مُقدَّر قبلَها، والتَّقدير: (حتى إذا جاؤُوها هُذِّبوا ونُقُّوا وفُتِحَت أبوابُها)، وهذا القولُ أصَحُّ الأقوال أن الواو للعَطْف وليست للحال، وأن الجواب مَحذوف مُقدَّر قبل الواو.

وهذا القولُ هو الراجِحُ لدَلالة الأحاديث عليه، فإنه قد ورَدَ في الأحاديث الصحيحة أنهم إذا عبَروا الجِسْر -الصِّراط المَمدود على جَهنَّمَ- وقَفوا على قَنطرةٍ بين الجَنَّة والنار، فيُقتَصُّ لبعضهم من بعض، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دُخول الجَنَّة، ثُمَّ إنهم أيضًا إذا وصَلوا الجَنَّة لا يَجِدون أبوابها مَفتوحة، بل يَجِدونها مُغلَقة حتى يَشفَع النبيُّ ﷺ، فيَفتَح الله تعالى أبوابَها، هذا القولُ هو الراجِح المُتعيِّن بدَلالة السُّنَّة عليه.

مَسأَلَةٌ: ورَد أن المُؤمِنين قبل دُخولهمُ الجَنَّة يُوقَفون على قَنطَرة يُقتَصُّ من بعضهم لبعض، فهل هذه القَنطرةُ من الصِّراط أم غيره؟

الجَوابُ: القنطرة التي يُوقَفون عليها بعد العُبور على الصِّراط؛ قيل: إنها طرَف الصِّراط، فهي قَنطرة وإن لم يَكُن تَحتَها شيء، فـ(وُقِفُوا على القَنْطرة) أي: على جانِب الصِّراط الكبير، وقيل: إنها قَنطَرة أُخرى للعُبور عليها، فالله أَعلَمُ.

فإن قال قائِل: كيف يُقتَصُّ لبعضهم من بعض والقِصاص كان في عرَصات القيامة قبل العُبور على الصِّراط؟

فالجَوابُ: هذا الاقتِصاصُ غير الاقتِصاص الأوَّل، الاقتِصاص الأوَّلُ للجزاء والمُعادَلة، وهذا الاقتِصاصُ لإزالة ما بَقِيَ في النفوس من أجل إزالة الغِلِّ والحِقْد؛

وقد تَقدَّم: أنهم إذا هُذِّبوا ونُقُّوا دخلوا الجَنَّة كما جاء في الحديث.

وقوله تعالى: ﴿أَبْوَٰبُهَا﴾ قد عَلِم أن أبوابها ثمانية لقول النبيِّ ﷺ في الوُضوء: «فُتِّحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»[1]. وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ﴾ العجَب أن بعض النَّحويِّين قال: إن الواو هنا واوُ الثمانية، فأَحدَث للواو مَعنًى جديدًا، واستَدَلَّ لقوله بأَمْر عَجيب؛ قال: إن الله تعالى قال في القرآن: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢]، فالواو للثَّمانية، فيُقال: سُبحانَ الله! من أين جاءَتْ؟! فالفائِدة في قوله تعالى: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ تَقرير ما ذكَرَ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنه قال: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ تَقريرًا لهذا القولِ؛ ولهذا قال فيما قبله: ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ لم يَقُل: ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾؛ لأن الواو عاطِفة تَدُلُّ على أن ما قبلَها ثابِت مُتقرِّر.

قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ خزَنتها المُوَكَّلون بها، وهم ملائِكة، يَقولون لأهل الجَنَّة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ هذا خبَر، وليس دُعاءً فيما يَظهَر؛ لأنه لو كان دُعاءً لكان القادِمون هم الذين يُسلِّمون، وهنا المَلائِكة هي التي تَقول: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، فكأنها تُخبِرهم بأنهم حلَّ عليهم السلامُ؛ لأن الجَنَّة دارُ السلام.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، رقم (٢٣٤)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾ حال ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾] يَعنِي: سلام عليكم حالَ كَوْنكم طَيِّبين.

فالجُملة إذَنْ: حال من الكاف في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾.

وقوله تعالى: ﴿طِبۡتُمۡ﴾ أي: طِبْتم في كل شيء؛ في الأبدان والعُقول والتَّصرُّف وكل شيء، فهم طَيِّبون حَلُّوا مَكانًا طيِّبًا، طابوا من الغِلِّ والحِقْد، قال تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧]، وطابوا من كل مرَض، لا يُمكِن أن يُصيبهم مرَض، وطابوا من كل كلام فاحِش ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦]، فالطَّيِّب هنا قَدِّرْه في كل شيء.

وقوله تعالى: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾: (ادْخُلوا) فِعْل أَمْر يُراد به الإكرام، ليس أمرًا حقيقيًّا يُراد به إلزام المُخاطَب، ولكنه أمرٌ للإِكْرام، كما تَقول لمَنِ استَأْذَن عليك في بيتك: ادخُلْ.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من الواو في (ادْخُلُوهَا) أي: حالَ كَونِكم خالِدين، والحال هنا مُقدَّرة؛ لأن الخُلود بعد الدُّخول.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُقدِّرين الخُلود فيها، وجَواب (إذا) مُقدَّر، أي: دخَلوها، وسَوْقهم وفَتْح الأبواب قبل مَجيئهم تكرمةً لهم، وسَوْق الكُفَّار وفَتْح أبواب جَهنَّمَ عند مَجيئهم ليَبقَى حرُّها إليهم إهانةً لهم]، قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: دخَلوها] في نُسْخة: (أَيْ: دخَولها) وهو غلَط.

وقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتۡ﴾ الواو على رَأْي المُفَسِّر للحال؛ وتَجِد أن الكلام على هذا الوجهِ فيه رَكاكة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ يَعنِي وقد فُتِحت أبوابها

﴿أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ أي: دخلوها؛ لا يَستَقيم، لكن ما ذكَرْنا أنه الراجِح هو المُطابِق تمامًا لما جاءت به السُّنَّة، والسُّنَّة تُفسِّر القرآن.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وسَوْقهم وفَتْح الأبواب قبل مَجيئهم تكرمة لهم] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سَوْقهم] مُستَفاد من قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ﴾، [وفَتْح الأبواب قبل مَجيئهم]؛ لأنه يَقول: الواو للحال، وقد فُتِحت أبوابها تَكرِمة لهم، لكن يُقال: إن دَعوَى أن أبوابها فُتِحت قبل مَجيئهم دَعوَى لا يُسعِفها الدليلُ، بلِ الدليل على خِلافها؛ لأنهم إذا جاؤُوها لا يَجِدونها مَفتوحةً، بل يَجِدونها مُغلَقة، ثُمَّ يَشفَع النبيُّ ﷺ أن تُفتَح الأبواب لأهلها.

فإذَن: قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه خطأ من الناحية العِلْمية لمُخالَفته للأحاديث الصحيحة أن النبيَّ ﷺ يَشفَع في فتح أبواب الجَنَّة؛ وهذه مَسأَلة عَقدية في الواقِع؛ لأننا نُؤمِن ونَعتَقِد أن للنبيِّ ﷺ شَفاعةً خاصَّةً به، وهي الشفاعة لأهل الجَنَّة أن يَدخُلوا الجَنَّة، وعلى كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا شَفاعةَ؛ لأنهم يَجِدون الأبواب مَفتوحةً.

ثُمَّ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وسَوْقُ الكُفَّار وفَتْح جهنَّمَ عند مَجيئِهم ليَبقَى حَرُّها إليهم إهانةً لهم] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ليَبْقَى حَرُّها إليهم] عِبارة فيها نظَر.

وعلى كل حال: على كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإنها تُفتَح عند مَجيئهم من أَجْل أن يُباشِرَهم حَرُّها مُباشَرةً بدون تَأَخُّر.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن المُتَّقين يُساقون إلى الجَنَّة كما يُساق أهل النار إلى النار، لكن

تَختَلِف الكيفية، والدليل على اختِلاف الكيفية قوله تعالى في أهل النار: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣]، وقوله تعالى في أهل الجَنَّة هنا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، فهذا دليل على أنهم يُساقون سَوْق إكرام.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن التَّقوَى سبَب لدُخول الجَنَّة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾؛ ووجهُ ذلك: أن تَرتيب الحُكْم على الوَصْف يَدُلُّ على عِلِّيَّتِهِ؛ يَعنِي: إذا رُتِّب الحُكْم على وَصْف دلَّ ذلك على أن هذا الوَصفَ هو عِلَّة الحُكْم، فالسِّياق إلى الجَنَّة هو سبَب التَّقوى؛ إذَنْ: تُفيد الآية أن التَّقوى سبَب لدُخول الجَنَّة، ويُؤيِّد هذا قولُه تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ...﴾ إلخ [آل عمران:١٣٣].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن أهل الجَنَّة يَدخُلونها جماعاتٍ مُتفرِّقةً؛ لقوله تعالى: ﴿زُمَرًا﴾، وهذه الجَماعاتُ يَترَتَّب تَقديمها على حسَب أعمالهم الصالِحة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن أهل الجَنَّة إذا جاؤُوها لا يَجِدونها مَفتوحة الأبواب؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾، ولكن يَجِدونها مُغلَّقة، حتى يَشفَع النبيُّ ﷺ في فتح أبواب الجَنَّة لداخِليها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن للجَنَّة أبوابًا، وقد ثبَتَ في الصحيح أن أبوابَها ثمانيةٌ[1].

ويَترَتَّب على هذه الفائِدةِ: ما ثبَت مِن أن رحمة الله تعالى سبَقَت غضَبَه، وأن عطاءَه أكبَرُ وأعظَمُ من مَنْعه؛ لأن أبواب النار سَبْعة، وأبواب الجَنَّة ثمانية.

فإن قال قائِل: ما رأيُكم فيمَن قال: إن كُلًّا من الجَنَّة والنار جِسْم؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، رقم (٢٣٤)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالجَوابُ: نَقول: صدَق، أَلَيْسَت جَنَّة عَرْضها السمَواتُ والأرضُ؟! أَلَيْس الله تعالى يَضَع قَدَمَهُ على النار حتى يَنزَوِي بعضُها إلى بعض؟! أَلَيْس الإنسان يَنظُر إلى مُلْكه في الجَنَّة مَسيرةَ ألفَيْ عام، يَنظُر أقصاه كما يَنظُر أدناه؟! فإذا لم يَجعَلها جِسْمًا فماذا تَكون، أتكون بالهَواء؟!

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات أن للجَنَّة خزَنةً؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ [الزمر:٧٣].

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: كمالُ تَقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للأشياء، وأن كل الأشياء مُنظَّمة مَحفوظة مُرتَّبة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات أن المَلائِكة يَنطِقون ويَتكَلَّمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الجَنَّة دارُ السلام، السلام مِن كل آفَة؛ لقول الخزَنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جمَع لهم -أي: لأَهْل الجَنَّة- بين السلامة من الآفات وطِيب الأحوال والأَوْقات؛ لقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾، فجمَع لهم بين نَفيِ الآفات وطِيب الأحوال والأَوْقات.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الإِذْن لهم على وَجه الإكرام بدُخول الجَنَّة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الفَرْق التامُّ والتَّبايُن العَظيم بين ما يُقابَل به أهل الجَنَّة وأهل النار، فأهل النار يُقابَلون بالتَّوْبيخ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ

رَبِّكُمْ ...﴾ إلخ، وأهل الجَنَّة يُقابَلون بالتكريم والعِناية والبُشرَى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إزعاج النُّفوس وإغراؤُها على العمَل بعمَل أهل الجَنَّة؛ لأنَّ الإنسان إذا تَبيَّـن له الفَرْق العظيم والتبايُن الكبيـر بين أهل النار وأهل الجَنَّة، فلا بُدَّ أن يَكون عنده ما يَحُثُّه، بل يُزعِجه إزعاجًا إلى العمَل بعمَل أهل الجَنَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: خُلود أهل الجَنَّة فيها؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، والخُلود هذا خُلود أَبَديٌّ، سواءٌ قلنا: إن الخُلود هو المُكْث الدائِم، أو إن الخلود المُكْث زمَنًا طويلًا، وذلك لأنه قد تَكرَّر ذِكْر التَّأبيد لأهل الجَنَّة في عِدَّة آيات.

• • ❁ • •

الآيــة (٧٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [الزمر:٧٤].

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالُواْ﴾ عُطِـف على (دَخَلوها) المُقدَّر]، فعلى كلام المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَقَالُواْ﴾ الواو حَرْف عَطْـف، والفِعْل (قالـوا) مَعطـوف على (دَخَلوها)، والصوابُ أن الواو للاستِئْناف، وأنهم بعد أن دخَلوا واستَقَرُّوا قالـوا هذا الكلامَ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ بالجَنَّة] حَمَدوا الله عَزَّوَجَلَّ هنا على إنعامه وعلى كَماله؛ لأن صِدْق اللهِ تعالى إيَّاهم وعدَه بالجَنَّة يَتَضمَّن شَيْئين:

الشيء الأوَّل: وَصْف الله تعالى بالصِّدْق، وهذا حَمْد له على كَمال صِفَته.

والثاني: تَحقيق ذلك لهم، أي: أنه حَقٌّ لهم فيَكون حمدًا على الشُّكْر.

فحَمْدهم اللهَ تعالى الآنَ على أَمْرين: على الكَمال وعلى الإِفْضال:

الأوَّل: الكَمـال في صِفاته، والصِّفة هنا الصِّدْق، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾، ولا شَكَّ أن الصِّدْق كَمال.

الثاني: الإِفْضال، حيث أَسكَنَهم الجَنَّة.

فيَكون الحَمْد هنا شامِلًا للأَمْرين؛ لأن الله تعالى يُحمَد على ما لَهُ من صِفات الكَمال، وعلى ما له من تَمام الإِفْضال.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾: (صدَق) المُخفَّف غير (صَدَّق) المُشدَّد؛ لأن (صدَق) يَعنِي: أَخبَر بالصِّدْق، و(صدَّق) صدَّق مَن أَخبَر بالصِّدْق، يُقال: حدَّثني فصدَقني. المَعنَى: أَخبَرَني بالصِّدْق، ويُقال: حدَّثْتُه فصدَّقَني. يَعنِي قال: إني صادِق؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾، فالذي جاء بالصِّدْق هو الذي صدَق، وصدَّق مَن أَخبَر بالصِّدْق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ بالجَنَّة ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرضَ الجَنَّة ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ نَنزِل ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾؛ لأنها كلها لا يُختار فيها مَكان على مَكان]، قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي: جعَلنا نَرِثها، والأرض هنا دخَلَت عليها (أل)، فهلِ المُراد بها الأرض المَعهودة، أو المُراد بها أرضُ الجَنَّة؟

يَرَى المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المُراد بها أرض الجَنَّة، وهذا التَّفسير يَرِدُ عليه أَمْرانِ:

الأَمْرُ الأَوَّلُ: أن الأرض إذا أُطلِقت فهي الأرضُ المُقابِلة للسَّماء، وهي أَرْضنا هذه.

الأمرُ الثاني: أنه تعالى قال: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾، وكان مُقتَضى السِّياق إذا كانت الأرض هي الجَنَّة أن يُقال: (وأَوْرَثنا الأرض نَتبَوَّأ منها حيثُ نَشاءُ)، فلا يَأتي بالظاهِر؛ لأن الظاهِر في هذا المَكانِ لا مَعنَى له.

وعلى هذا فالقولُ الصحيح: إن المُراد بالأَرْض هنا الأرضُ المُقابِلة للسماء، فتكون (أل) هنا للعَهْد، أيِ: العَهْد الذِّهْنيِّ، لا الحُضورِيِّ، ولا الذِّكْريِّ.

فإذا قال قائِل: كيف أَوْرَثهمُ الأرضَ؟

نَقول: **أوَّلًا**: أن الله تعالى قال في كِتابه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، فتَوريث الله تعالى الأَرْض للمُؤمِنين في الدُّنيا: أنهم يُقاتِلون الكُفَّار ويَستَوْلون على أراضيهم.

ثانيًا: أن وُجودهم على الأرض وسُكْناهم فيها وعُمرانهم إيَّاها كالميراث بالنِّسبة للكُفَّار؛ وذلك لأن الكُفَّار لا يَتمتَّعون بنِعْمة في الدنيا إلَّا كانت عليهم نِقْمة.

فاللُّقْمة إذا رفَعَها الكافِر إلى فمِه يُعاقَب عليها؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ [المائدة:٩٣]، فمَفهومه: أن مَن لم يَكُن كذلك فعليه جُناح فيما طَعِم.

ويَقول عَزَّوَجَلَّ في اللِّباس: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]، فالكُفَّار ليسَتْ لهم في الدنيا ولا خالِصةً لهم يوم القيامة، فهم يَكتَسون بغير حَقٍّ؛ لأنهم يَتَنَعَّمون بنِعْمة الله تعالى ويَكفُرون بالله تعالى.

على كل حال نَقول: إيراثُ الأرض في الدنيا: ما يَستَولِي عليه المُسلِمون من أراضِي الكُفَّار؛ وإيراثٌ آخَرُ: أن وُجودهم على الأرض بحَقٍّ، ووجود الكُفَّار بغير حقٍّ، لكن الله تعالى أَبقاهم لِحِكْمة.

وقوله تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ ظاهِره: أي: نَسكُن حيث نَشاءُ، وهذا ليس على ظاهِره، بمَعنَى أن الإنسان الذي في أَدْنى الجَنَّة نُزُلًا لا يَستَطيع أن يَصعَد إلى أعلى شيءٍ، قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الْغُرَفَ**»

يَعنِي: التي فَوْقَهم «كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ»[(١)]، يَعنِي: بعيدًا وله إِضاءة، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر:٢٠].

ولكن يُقال في تَوجيه هذه الآيةِ الكَريمة ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾:

الوَجهُ الأَوَّلُ: إمَّا أن المَعنَى: نَتبوَّأ من الجَنَّة حيث نَشاء في الدُّنيا، يَعنِي: نَعمَل في الدنيا ما نَشاءُ من الأعمال التي تُبوِّئُنا النُّزُل التي هي ثوابٌ لأعمالنا، ففي الدنيا قد يَكون الإنسان مع الأبرار الأخيار، وقد يَكون مع المُقتَصِدين، وقد يَكون من الظالِمين أنفسَهم؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر:٣٢]، فالإنسان في الدنيا يُمكِن أن يَتبوَّأ من الجَنَّة حيث يَشاءُ بأعماله الصالِحة المُختَلِفة، فهو إمَّا: ظالِم لنَفْسه، أو مُقتَصِد، أو سابِقٌ بالخَيْرات.

الوجهُ الثاني: أن نَقول: ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أن كل واحِد من أهل الجَنَّة لا يَشاء سِوى الذي هو فيه، يَعنِي: لا يَقَع في قَلْبه أن يَتمنَّى أنه فوقُ، بل هو مُطمَئِنٌّ تمامًا في مكانه الذي هو فيه؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨]، يَعنِي: لا يَطلُبون تَحوُّلًا، كل واحد منهم راضٍ بما هو فيه، ولا يَرَى أن أحَدًا أنعَمَ منه، حتى لو رآه حِسًّا لم يَرَه قَلْبًا؛ لأنه لو رأَى أحَدًا من الناس أعلى منه لكان في قلبه شيءٌ من الحَسْرة واللَّوْعة، وهذا مُنتَفٍ في الجَنَّة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٥٦)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، رقم (٢٨٣١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لأنها كلها لا يُختار فيها مَكان على مَكان]، فجَنَح المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الاحتِمال الثاني: أن كل إنسان في مَكانه لا يَخْتار مَكانَ غيره.

فإن قال قائِل: قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ لماذا لم يَقُل: (ونَتبوَّأ)؛ ليَكون العَطْف يَقتَضي المُغايَرة؟

فالجَوابُ: أنه يُقال: إن جُمْلة (نَتبوَّأ) حال، ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ﴾ يَعنِي: حالَ كَوْننا مُتبوِّئِين، وهي حال مُقدَّرة، والحال المُقدَّرة هي التي يَتَّصِف بها صاحِبها بعدُ، يَعنِي: لا حال الفِعْل أو حال التَّلبُّس بها، فنَقول: الحال هنا صحيح أننا لسنا نَتبوَّأ من الجَنَّة في نَفْس الدنيا، لكنها حال مُقدَّرة، والحال المُقدَّرة هي أن الحال تَقَع بعد عامِلها؛ وتَقدَّم أنه يَمتَنِع أن تَكون أرض الجَنَّة لشَيْئين.

وقوله: [﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ الجَنَّةُ]: [الجَنَّةُ] بالضَّمِّ على أنها مَخصوص، والفاعِل ﴿أَجْرُ﴾، و(نِعْمَ) و(بِئْسَ) يَحتاجان إلى شَيْئين: فاعِل ومَخصوص، الفاعِل واضِحٌ والمَخصوص يَكون مَحذوفًا في الغالِب.

وقوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾: (نِعْمَ) فِعْل جامِد لإِنْشاء المَدْح، والأجر هنا بمَعنَى الثواب، ولكن الله تعالى سمَّاه أَجْرًا تَفضُّلًا منه ومِنَّةً، كأننا استَحْقَقنا ذلك وجوبًا كما يَستَحِقُّ العامِل أُجْرته وجوبًا.

فإن قال قائِل: وهل يَجِب على الله تعالى أن يُثيبَنا؟

فالجَوابُ: يَجِب بوَعْده فإنه وَعَد أن يُثيبَنا، وما وَعَد به فإنه لا يُمكِن إخلافُه.

إذَن: فالوُجوب هنا ليس منًّا على الله تعالى، بل مِن الله تعالى على نَفْسه؛ قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤].

فتَسمية الثواب أَجْرًا من باب تفضُّل الله عَزَّوَجَلَّ أنه جَعَل هذا الثوابَ على نَفْسه كالأُجْرة للعامِلِ الأجرةَ الثابتةَ اللازمةَ، فكذلك ثواب المُحسِن أَجْر ثابِت واجِب على الله تعالى بإيجابه هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على نفسه تَفضُّلًا منه وإحسانًا.

وفي مثل هذا يَقول ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

مَـا لِلْعِبَـادِ عَلَيْـهِ حَـقٌّ وَاجِـبٌ ... هُوَ أَوْجَبَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ الشَّانِ

إِنْ عُـذِّبُوا فَبِعَدْلِـهِ أَوْ نُعِّمُـوا ... فَبِفَضْـلِهِ وَالْفَضْـلُ لِلْمَنَّـانِ[1]

إذَنْ: فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي مَنَّ علينا -في الواقِع- مَرَّتين:

المرَّة الأُولى: بتَوفيقنا للعمَل.

والمرَّة الثانية: بجَزائِنا على هذا العمَلِ الحسَنةَ بعشَرة أمثالها.

وانظُرْ إلى الفَضْـل أيضًا والمِنَّة الثالِثـة: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، فكأننا نحن الذين أَحسَنَّا فأَحْسَن إلينا، مع أن الإحسان لله تعالى أوَّلًا وآخِرًا، فالحمدُ لله ربِّ العالَمين.

وقوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ قد يَكون كلامًا مُبتَدَأً من الله تعالى، وقد يَكون بقيةَ كلام أهل الجَنَّة حين قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾؛ فإن كان من أهل الجَنَّة فهو زِيادة ثَناء على الله عَزَّوَجَلَّ، وإن كان من الله تعالى ابتِداءً فهو حَثٌّ لنا على أن نَعمَل هذا العمَلَ الذي يَكون هذا جَزاءَه.

---

(١) النونية (ص٢٠٨-٢٠٩).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الثَّناء على الله عَزَّوَجَلَّ بالكَمال والإِفْضال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ فإن صِدْق الوَعْد كَمال، ثُم إن إِيراثَهم الجَنَّة إِفْضال، فجمَعوا في هذا بين الحَمْد على الكَمال والحَمْد على الإِفْضال؛ لأن الله تعالى يُحمَد على الأمرَيْن جميعًا، على كَماله وعلى إِفْضاله، فيَكون هذا جامِعًا بين الحمد والشُّكْر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: صِدْق اللهِ تعالى وَعْدَه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾، وقد أَخبَر الله تعالى في آيات مُتعَدِّدة أنه لا يُخلِف الميعاد، وذلك لكَمال صِدْقه وكَمال قُدْرته، فإن إِخْلاف الوَعْد إمَّا أن يَكون لكَذِب الوَعْد، وإمَّا أن يَكون لعَجْز الواعِد، وكلاهما ممَّا يُنزَّه الله تعالى عنه؛ فيَكون فيه كَمال الصِّدْق وكَمال القُدْرة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: شُكْر أهل الجَنَّة على إِيراثِهم الأرضَ ونَصرِهم وظُهورهم على الكافِرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الإنسان يَتبوَّأ بنَفْسه من الجَنَّة حيث يَشاءُ وذلك بعمَله؛ لقوله تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الرَّدُّ على الجَبْرية الذين يَقولون: إن الإنسان مُجبَر على عمَله وليس فيه اختِيار، وذلك لقوله تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ فإن الفِعْل هنا ظاهِر بنِسْبته إليهم فيَكون باختِيارهم؛ ففيه: إِثبات المَشيئة للعَبْد.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن أهل الجَنَّة في مَنازِلهم لا يُريدون غيرها؛ لقوله تعالى: ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾، وهذا من تَمام النعيم؛ لأن الإنسان لو تَطلَّع إلى مَنازِل غيره لرَأَى أنه لم يُكمَل له النَّعيم، يَقول مثَلًا: فلان أَحسَنُ مِنِّي قِصَرًا، فلان أكثَرُ مِنِّي مالًا. فيَتَنَغَّص

عليه النعيم، لكن إذا رأى أنه في المكان الذي يَشاؤُه ولا يُريد التَّحوُّل عنه فإن هذا من كمال النَّعيم، قال الله تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨].

فإن قال قائِل: ما تَوجيهكم لقول ابن القَيِّم[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن ذِكْرَ الله تعالى أمانٌ من الحَسْرة في الجَنَّة، واستَدَلَّ بحَديث: «أَنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَا يَتَحَسَّرُونَ إِلَّا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهَا»[2]، فهل هذه الحَسرةُ تَتَوجَّه مع ما تَقدَّم؛ لأنهم يَنظُرون مَن سَبَقهم ومَن هو أَعلَى منهم؟

فالجَوابُ: هذه ليس حَسْرة، هذا تَمَنٍّ، يَعنِي: يَتَمنَّون أنهم فعَلوا ذلك، وتَمَنِّي الشيء لا يَدُلُّ على الحَسْرة، ولا يُمكِن أن يَكون في الجَنَّة حَسْرة بمَعنَى النَدَم والانقِباض مثلًا؛ لأن هذا يُنافِي كمال النَّعيم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الثَّناء على هذا الثوابِ الذي حصَل لأَهْل الجَنَّة في قوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بَيان مِنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالجَزاء، حيث جعَله أَجْرًا، وكأنه أَجْر مَفروض على الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائِل: كيف تَجعَلون على الله تعالى شَيئًا مَفروضًا؟

قُلْنا: لم نَجْعَلْه نحن، لكنه عَزَّوَجَلَّ هو الذي جعَله على نَفْسه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الحَثُّ على العمَل الصالِح الذي يُورِث الجَنَّة، وأن الإنسان لا يَنبَغي أن يَكون كَسولًا مُتراخِيًا الهِمَّةَ في الأعمال الصالِحة.

---

(١) انظر: الوابل الصيب (ص٤٤).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٩٣ رقم ١٨٢)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٥٠٩)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٧٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾: (تَرَى) تَرى أيُّها المُخاطَب، ويُحتَمَل أن المُراد به رسـول الله ﷺ، ولكن القول الأوَّلَ أَوْلى؛ لأن القول الأوَّلَ يَشمَل القولَ الثانِيَ ولا عكسَ، فإنك لو قُلتَ: وتَرى يا مُحَمَّدُ. حجَبْت هذا الخِطابَ عن بقية الأُمَّة، وإذا قُلت: وتَرى أيُّها المُخاطَب صار عامًّا للنبيِّ ﷺ ولغيرِه من الأُمَّة.

والقاعِدةُ: أنه إذا دار اللَّفْظ بين مَعنًى عامٍّ ومَعنًى خاصٍّ فإنه يُحمَل على المَعنَى العامِّ؛ لأنك إذا حمَلته على المَعنَى العامِّ دخَل فيه الخاصُّ ولا عكسَ.

وقوله: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ جَمعُ ملَك، والمَلَك في الأصـل هو الرَّسـول، والمَلائِكـة جعَلهم الله تعالى رُسُلًا، وهم عالَم الغَيْب قائِمون بأَمْر الله عَزَّوَجَلَّ، مخلوقون من نور؛ ولهذا ليس فيهم مَعْصية؛ لأنهم خُلِقوا من نور.

والجِنُّ خُلِقـوا من النار؛ ولهذا كان الأصل أنه ليس فيهم طاعـة، فإن أَباهم وزعيمهم استكبَر عن أمر الله تعالى الذي خاطَبَه به مُشافَهةً.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حال]، وإنما جعَلها حالًا؛ لأن الرُّؤْية هنا بصَرية، والرؤية البصَرية لا تَنصِـب إلَّا مَفعولًا واحِدًا، فمـا

يَأتي بعدَه مَنصوبًا يَكون مَنصوبًا على الحال، بخِلاف الرُّؤية العِلْمية فإنها تَنصِب مَفعولين.

إِذَنِ: الرؤيةُ هنا بصَرية، ولهذا أَعرَب المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله تعالى: ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أَعرَبها حالًا.

وقوله تعالى: ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي: مُحيطين به.

والعَرْش هو عَرْش الله عَزَّوَجَلَّ الذي استَوَى عليه، وهو أَعظَمُ المَخلوقات وأَعلاها، وأَوْسعها، فإن الكرسيَّ وسِعَ السمواتِ والأرضَ؛ يَعنِي: أَحاط بها وشمِلَها، والعَرْش أَعظَمُ من الكُرسيِّ؛ وقد ورَد عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن الكُرسيَّ مَوضِع القَدَمَيْن[1]، وقال بعضُ العُلَماءِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنه بالنِّسبة للعَرْش كالدرَجة.

وقد جاء في الحديث: «**أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي الْكُرْسِيِّ كَحَلَقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ**» الحلَقة: حلَقة المِغفَر وهي حلَقة ضَيِّقة «**أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَنَّ فَضْلَ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى هَذِهِ الحَلَقَةِ**»[2].

إِذَنْ: فيَكون هذا العرشُ عظيمًا لا يَقدُر قَدْره إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ من كل جانِب] ووجهُ هذا التَّفسيرِ: أنه من كل جانِب؛ لأنه أَطلَق قوله تعالى: ﴿حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾، وحينئذ لا بُدَّ أن يَكون هذا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٢٥٠ رقم ٣٠٣٠)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٩١ رقم ٢٦٠١)، والطبراني في معجمه الكبير (١٢/ ٣٩ رقم ١٢٤٠٤)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٥٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٢).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٣٦١)، وابن بطة في الإبانة (٧/ ١٨١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الحَولُ من كل جانب؛ لأنهم لو أَحاطوا من جانِبٍ واحِد لم يَكونوا حول العَرْش من الجانب الخالي، فإذا كانوا حافِّين من حوله فلا بُدَّ أن يُحيطوا بجميع جوانِبه؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن كُلِّ جانِب].

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُسَبِّحُونَ﴾ حال] يَعني: الجُمْلة هذه حاليَّة [من ضمير ﴿حَآفِّينَ﴾]؛ لأن ﴿حَآفِّينَ﴾ اسم فاعِل، واسم الفاعِل يَتَحمَّل الضمير كما يَتَحمَّله الفِعْل.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ مُلابِسين للحَمْد] يَعني: جعَل الباء في قوله تعالى: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ للمُلابَسة، وإن شِئْت فقُلْ: للمُصاحَبة. أي: يُسبِّحون تَسبيحًا مَصحوبًا بالحَمْد، أي: يَقولون: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه.

والجمع بين التَّسبيح والحمد هو كَمال المُسبَّح والمَحمود؛ لأن بالتَّسبيح زوال النقائِص والعُيوب، وبالحَمْد إثبات الكمال، فيَكون الجَمْع بين التَّسبيح والحَمْد مُفيدًا لمَعنًى أكثَرَ ممَّا لوِ انفرَد التسبيح أوِ انفرَد الحمد.

فإن قال قائِل: قال بعضُ أهل العِلْم في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: إن التسبيح هنا للتَّلذُّذ لا للتَّعبُّد؛ لأنه لا تَكليفَ في ذلك اليومِ، فما رأيُكم؟

فالجَوابُ: رأْيُنا أن هذا قول باطِل، بل وللتَّعبُّد، ولكنهم يَتَلذَّذون بالعِبادة، يَعنِي: يَشعُرون بأنهم خاضِعون لله تعالى مُتذَلِّلون له.

وأمَّا قوله: لا تَكليفَ في ذلك اليومِ. فهو أيضًا باطِل، ففي ذلك اليومِ تَكليف؛ أَلَيْسَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقول: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢]؟ ففيه تكليف، ومَن نَفَى التَّكليف في ذلك اليومِ فقَدْ أَخطَأ وغفَل عن النُّصوص الدالَّة على أن فيه تَكليفًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ بين جميع الخلائق ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: العدل، فيَدخُل المُؤمِنون الجَنَّة، والكافِرون النار]، قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ﴾ أي: حُكِم؛ لأن القَضاء مَعناه: الحُكْم.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: ﴿وَقِيلَ﴾ أُبهِم الفاعِل؛ ليَكون أَعمَّ. يَعنِي: أن الله تعالى في تلك الحالِ يُحمَد من كل أحَد، ومن كل جانِب، ومن كل جِهة، والحمد هنا مَقرون بـ(أل) المُفيدة للاستِغْراق، واللَّام في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ للاختِصاص والاستِحْقاق، فإذا جعَلْنا الحمد للاستِغْراق شمِلت كلَّ أنواع الحَمْد، سواءٌ كان على كَمال الصِّفات أو على الإِفْضال والإِحْسان والإِنْعام، وإذا قُلنا: اللَّام في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ أنها للاستِحْقاق والاختِصاص تَبيَّن أن الحَمدَ المُطلَق لا يَستَحِقُّه إلَّا الله تعالى، ولا يَكون إلَّا لله تعالى اختِصاصًا، ولا يُحمَد به إلَّا اللهُ تعالى استِحقاقًا.

والفَرْق بين الحَمْد والمَدْح مع تَساويهما في الحُروف: أن المَدْح وَصْف بالكَمال، لكن لا يَستَلزِم المَحبَّة، وأمَّا الحَمْد وهو وَصْف للكَمال مُستَلزِمٌ للمَحبَّة، فالله تعالى يُحمَد ويُمدَح، لكن الحَمد أَخَصُّ من المَدْح؛ لأن المَدْح هو مُطلَق الثَّناء، وأمَّا الحمد فهو ثَناء مَقرون بمَحبَّة وتَعظيم.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: خالِق العالَمين ومالِكهم ومُدبِّرهم، والعالَم كلُّ مَن سِوى الله تعالى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ختَمَ استِقْرار الفَريقين بالحَمْد من المَلائِكة]، وهذا فيه نظَر، فليس من المَلائِكة فقَطْ، بل من المَلائِكة وغيرهم؛ ولهذا أُبهِم الفاعِل فقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات المَلائِكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾.

مَسأَلَةٌ: هل المَلائِكة مُكلَّفون؟

الجَوابُ: نعَمْ؛ لأنهم يَستَجيبون لله عَزَّوَجَلَّ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، فنَفْيُ العِصيان عنهم يَدُلُّ على أنهم يُكلَّفون بالشيء، وعلى أن العِصيان منهم مُمكِن عَقْلًا، لكنهم لا يَعصون الله تعالى ما أمَرَهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إظهار عظَمة الله في ذلك اليومِ، حيث تَحُفُّ جنودُه بعَرْشه، وهذا من مَظاهِر العظَمة وكمال السُّلْطان: أن يُرَى الجُنودُ حافِّين بمالِكهم وخالِقهم وسيِّدهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات العَرْش؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾.

فإن قال قائِل: قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ ألَا يَدُلُّ هذا على أن للعَرْش جوانِبَ وأركانًا؟

فالجَوابُ: بلى، هو كذلك، والحديث الثابِت في الصحيحين: أن مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يَكون آخِذًا بقَوائِمِ العَرْش[1].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الثناء على المَلائِكة وذلك بحُسْن انتِظامهم بحَفِّهم من حول العَرْش، وهذا حُسْن فِعْليٌّ، وبكونهم يُسبِّحون الله تعالى بحَمْده وهذا حُسْن قَوْليٌّ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب نفخ الصور، رقم (٦٥١٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، رقم (٢٣٧٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فيَجْمَعون بين تَعظيم الله تعالى بالفِعْل وتَعظيمه بالقول.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: اختيار الجَمْع بين التسبيح والحمد؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ وذلك لأن بالتَّسبيح زوال النَّقْص والعَيْب، وبالحمدُ إثباتُ الكمال.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ربٌّ لهؤلاءِ المَلائِكةِ مع عِظَمهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ وأن رُبوبيته للمَلائِكة رُبوبية خاصَّة بدليل الإِضافة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الله تعالى يَقضِي بعد هـذا كلِّه بين الخَلْق بالعَـدْل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: حُكِم بينهم، وقضاء الله تعالى نَوْعان: كونيٌّ وشَرْعيٌّ.

فالشَّرعيُّ: مثل قوله تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، يَعني: وصَّى ألَّا نَعبُد إلَّا الله تعالى.

والكونيُّ: مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء:٤]، فإن هذا لا يُمكِن أن يَكون قضاءً شَرْعيًّا؛ لأن الله تعالى لا يَقضِي بالفَساد، ولكنه قضاءٌ كَوْنيٌّ.

وبهذا نَعرِف الفرق بين القضاء الكَوْنيِّ والشَّرْعيِّ:

الفَرْقُ الأوَّل: أن الكونيَّ فيما يُحِبُّ وما لا يُحِبُّ، والشرعيُّ فيما يُحِبُّ.

والفرقُ الثاني: أن الكونيَّ لا بُدَّ من وقوع المَقْضِيِّ، والشَّرْعيُّ لا يَلزَم منه وقوع المَقضِيِّ، فقد يَقَع وقد لا يَقَع.

فإن قال قائِل: يَرِد كثيرًا: (القضاءُ الكونيُّ)، و(القدَر الكونيُّ) و(الحُكْم الكونيُّ)؛ وكذا (الشَّرْعيُّ)، والفُروق بينهم ليسَتْ فُروقًا، فما هذا؟

فالجَوابُ: صحيح هو كذلك، ومَعنَى الإرادة غير الحُكْم، فالحُكْم قد يَكون بمَعنَى القضاء، لكن الإرادة غير ذلك؛ وهي تَنقَسِم هذا التَّقسيمَ كما هو واضِح.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ القَضاء في ذلك اليومِ قَضاء بالعَدْل، ليس فيه جَوْر بوجه من الوجوهِ؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: حَمدُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ذلك اليومِ الذِي يَتِمُّ فيه الأمر؛ قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وإذا قارَنْت بين هذا وبين قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١] تَبيَّن لك أن الله تعالى محمودٌ في أوَّل الأمر وآخِره، ففي أوَّل الأمر في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وفي آخِره بعد أن قُضِيَ بين الخَلائِق بالحَقِّ قيل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: بيانُ استِحْقاق الله تعالى للحَمْد كلِّه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ و(أل) ذكَرْنا أنها للاستِغْراق، واللَّام للاختِصاص والاستِحْقاق.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات عُموم الرُّبوبية؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والعالَمون كلُّ مَن سِوى الله تعالى؛ قال بعضُ العُلَماءِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنما سُمُّوا بهذا؛ لأنهم عَلَمٌ على خالِقهم.

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ[1]

• ● ❁ ● •

(١) من شعر أبي العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد. انظر: ديوانه (ص١٢٢)، ومعاهد التنصيص (٢/ ٢٨٦).

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث **الصفحة**

«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ» ٢٥

«إنك لم تُصَلِّ» ٢٥

«أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّـرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» ..... ٢٦، ٣٥

«إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ» ٣٧

«سِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ» ٣٨

«مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ» ٤٦

«إِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ» ٥٥

«أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ» ٥٥

«إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً...» ٥٧

«يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم ما نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا» ٦٤

«السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ» ٧١

«قَدْ سَتَرْتُها عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وأنا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» ٧٣

«إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ

عَلَيْهَا» ٧٧
«مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ٧٨
«مَا قُتِلَتْ نَفْسٌ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ -الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ- كِفْلٌ مِنْ ذَلِكَ» ٧٨
«رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَبْلُغَ» ٧٩
«الرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» ٧٩
«أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» ٨١
«اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» ٨١
«لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ٩٥
«إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي» ٩٧
«أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ لِرَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ» ٩٩
«أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ» ١٠٠
«أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ صَلَاةُ اللَّيلِ» ١٠٧
«أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَإِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ بِي شَرًّا فَلَهُ» ١٠٨
«لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ» ١٠٨
«مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» ١٠٩
«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ» ١١٢
«أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» ١١٣

«وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ» ١١٨
«أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ» ١٢١
«أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» ١٢٢
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ١٢٣
«أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتُحَجَّ الْبَيْتَ» ١٢٦
«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ؛ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» ١٢٦
«اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ» ١٣٠
«لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» ١٣٥
«تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ» ١٤٤
«الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا أَوْ تُرَى لَهُ» ١٤٤
«إِنَّ المَرْءَ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ» ١٤٥
«مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُمْ» ١٤٥
«مَا فَرِحْنَا بعد الإسلام بِشَيْءٍ أَحَبَّ إلينا من هذا الحديث» ١٤٥
«فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وأُحِبُّ أبا بَكْرٍ وعُمَرَ» ١٤٥
«خِيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ» ١٥٤
«يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا» ١٥٨

«أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» ١٦٤
«أنَّها تَجرِي بلا أُخدودٍ» ١٦٦
«أنها تَجرِي باختِيار الإنسان حيث يُوجِّه النهرَ حيث شاء، ويُمسِكه حيث شاء» ١٦٦
النيل وسيحون وجيحون: «مِنْ أَنْهَارِ الجَنَّةِ» ١٦٦
«اللَّهُمَّ آجِرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا» ١٦٧
«اللَّهُمَّ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» ٢٠٣
«مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ اللهُ» ٢٢١
«أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» ٢٢٣
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» ٢٢٣
«يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ أَوْ بَعْثَ النَّارِ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُ مِئَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ» ٢٢٤
«الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ» ٢٢٥
«الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ» ٢٢٥
«إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» ٢٣١
«لو قالوا: (نعَمْ) لكَفَروا» ٢٣٣
«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي» ٢٣٥

«إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدِكُمْ» ..... ٢٣٦، ٢٣٧
«أيُّ أَرْضٍ تُقِلُّني، وأيُّ سَماءٍ تُظِلُّني إن قُلتُ في كلام اللهِ ما لا أَعلَمُ» ٢٣٧
«إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ، ثُمَّ لْيَنْزِعْهُ، فَإِنَّ فِي أَحَدِ جَنَاحَيْهِ دَاءً، وَفِي الْآخَرِ دَوَاءً» ٢٣٩
«أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ» ٢٣٩
«أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ» ٢٤٣
«إن كان قد قال ذلك فهو صادِقٌ» ٢٤٣
«إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ» ٢٥٠
«إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» ٢٥١
«فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ» ٢٥٢
«قضى النبيُّ ﷺ بالشُّفعةِ في كُلِّ ما لَمْ يُقسَمْ» ٢٥٤
«مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ» ٢٦٧
«هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ» ٢٦٨
«وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ» ٢٧٩
«أَفِرارًا من قَدَر الله؟ قال: نَفِرُّ من قَدَر الله إلى قدَر الله» ٢٨٠
«يا فُلانُ بنَ فُلانٍ، هل وجَدْتُم ما وعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا، فإنِّي وَجَدْتُ ما وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا» ٢٨٤
«وَكُنْتُمْ عَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي» ٢٨٨
«يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ» ٣٠٤
«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ» ٣٠٥

«تَفَكَّروا في آلاءِ اللهِ» ٣٠٧
«مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ» ٣٢١
«نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ٣٢٤
«لَوْلَا أَنَا كَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» ٣٢٥
«مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ» ٣٢٨
«أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا» ٣٣٥
«إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْفَقْرُ» ٣٥٢
«إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ٣٥٥
«مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» . ٣٥٨
«اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ» ٣٦٠
«أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءَ» ٣٨٠
«لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ ثُمَّ جَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ» ٣٨٤
«أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ» ٣٨٨
«إِنْ صَدَقَ هَذَا دَخَلَ الجَنَّةَ» ٣٩١
«أَيْنَ تُرِيدُ أَنْ أُصَلِّيَ؟» ٤٠٢
«أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» ٤١٣

«لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا وُضُوءَ لَهُ» ٤١٩
«الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ» ٤٢٤
«إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ» ٤٣٥
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ٤٤٦
«كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ» ٤٥٢
«إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولَ هَكَذَا» ٤٧٥
«أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ ثَلَاثَةٌ» ٤٨٠
«لو قالوا: نعَمْ. لكَفَـروا» ٤٨٧
«الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ» ٤٩٢
«مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ» ٤٩٣
«لَا بَأْسَ طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ» ٤٩٤
«أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ» ٤٩٧
«فُتِّحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ» ٤٩٩
«إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الْغُرَفَ» ٥٠٧
«أَنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَا يَتَحَسَّرُونَ إِلَّا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهَا» ٥١٢
«أَنَّ السَّمَـوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِيـنَ السَّبْعَ فِي الْكُرْسِيِّ كَحَلَقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ» ٥١٤

فهرس الفوائد

الفائدة **الصفحة**

تَسْمِيَة السُّور تكون لِأَدْنى ملابَسَة وأدنى مُناسَبَة ٧

إنَّ ترتيبَ الآيات توقيفِيٌّ، وترتيب السُّوَر؛ منه توقيفيٌّ، ومنه اجتهادي من الصَّحابة ٨

تَرْتيب الحروف توقيفيٌّ ٩

هل لفظ الجلالة (الله) مُشْتَقٌّ أو جامِدٌ؟ ١١

الحُكْمُ المضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ يَشْمَلُ: الحكم الكونِيَّ، والحكم الشَّرْعِيَّ ١٦

هل إنزالُ القرآنِ إلى الرَّسول إنزالٌ إلينا؟ ٢٢

الأدلة على إثبات علو الله تعالى ٢٣

حالُ بَعْضِ النَّاس عند القبور ٣١

إذا كان العمَلُ خالصًا في أوَّلِه مُشْرَكًا فيه في آخره، فهل يَبْطُل العَمَلُ كلُّه، أو يَبْطُل ما فيه الشِّرْكُ؟ ٣٤

أحيانًا يهاجِمُ الرِّياءُ القَلْبَ، ويدافعه الإنسانُ، فهل يؤثِّر هذا على إخلاصِهِ؟ ٣٥

في حق الله تعالى: هل في اتِّخاذ الوَلَدِ من عَيْبٍ؟ ٤١

الفَرْقُ بين الإرادة الشَّرْعيَّة والكَوْنِيَّة ٤٤

السَّماء تطلَق على معنيين ٤٥

الرَّدُّ على من زعم أنَّ تعاقُبَ اللَّيل والنَّهار يكون بدوران الأرض ٥١

ينبغي للإنسان أنْ يقرأَ القرآنَ بِجَميعِ القِراءات ٦٧

إذا قرأ الإنسان في الصَّلاة في الركعة الأولى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وفي الركعة الثانية قرأ: (مَلِك يوم الدين) هل هذا صحيح؟ ٦٧
كيف نجمع بين هذه الآية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ﴾ وبين ما ورد أنَّ المَيِّتَ يُعَذَّبُ ببكاء أهله عليه؟ ٧٠
الذين يُحرِّفون الكَلِم عن مواضِعِه يقعون في ثلاثَةِ محاذيرَ ٧٥
التفسير للقرآن أحيانًا يكون تَفْسيرًا لفظيًّا، وأحيانًا يكون تفسيرًا معنويًّا ٨٧
تأبيد النار ذكر في ثلاثَةِ مواضِعَ من القرآن ٩٦
القنوت يُطْلَقُ على معانٍ متعَدِّدة ٩٨
إذا حُذِفَ الشَّيْءُ من الكلام استفاد المخاطَبُ فائدتينِ ١٠٠
الفرق بين الإضراب الانتقالي والإضرابِ الإبطاليِّ في اللغة ١٠٢
الإحسانُ تمام الإخلاص، وتمام المُتابَعَة ١١٣
أنواع الصَّبْر ثلاثة ١١٦
العبادة تطلق على مَعْنيينِ ١٢١
إذا كانت الآيةُ تَحْمِلُ مَعْنيينِ لا يتنافيان تُحْمَلُ عليهما جميعًا ١٣٣
ضمير الفصل يُؤْتَى به لفوائِدَ ثلاثٍ ١٣٦
الطاغوت مأخوذ من الطُّغْيان وهو مجاوَزَةُ الحَدِّ ١٤٢
مما يَدْخُل في البشرى ١٤٤
الفرق بين العَقْل الإدراكيِّ والعَقْل الرشْدِي ١٥١
ما هي كلِمة العَذاب؟ ١٥٣
هناك بعض الناس عندما يُؤدِّي عِبادة من العِبادات يَتَّخِذها عادةً ليس كأَمْر من الله تعالى، فهل يُؤجَر على فِعْل هذا؟ ١٦٣

عادات المُوظَّف عِبادات، وعِبادات الغافِل عادات ١٦٣
ما كمَل في الدنيا فمَآله إلى النَّقْص ١٧٢
المعاني التي تَختَلِف واللَّفْظ واحِد ما الذي يُعيِّن أحَدَ المَعنَيَين؟ ١٨١
كيف يَكون الشيء الواحِد مُؤثِّرًا لنَتيجتَيْن مُتبايِنَتَيْن؟ ١٨٤
فرَّق العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ بين الخَشْية والخوف بوُجوهٍ ١٩٠
الأدلة على إثبات الأَسباب ١٩٨
أَليسَ في القُرآن من الكلِمات ما أصلُه أَعجميٌّ في القُرآن؟ ٢١٣
من قواعِد التَّفسير أن يُعرَف تَفسير الكلِمة بذِكْر ما يُقابِلها ٢١٨
وصية شيخ الإسلام ابن تيمية لابن القيم حينما يَعرِض عليه بعضَ الشُّبُهات ٢٥١
(العَزيز) له ثلاثة مَعانٍ ٢٦٣
قاعِدة المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الكِتابِ: أنه إذا قال: (وقُرِئَ) فهي شاذَّة، وإذا قال:
وفي قِراءة. فهي سَبْعية ٢٧١
مُقاتَلة المُسلِم ليسَتْ كمُقاتَلة الكافِر ٢٧٣
هل العاصِي التائِب إلى الله أَفضَلُ أم الذي لم يَعصِ الله عَزَّوَجَلَّ؟ ٢٧٣
توجيه حول قراءة تفسير الجلالين للمُبتَدِئين ٢٨٤
التَّفريق بين هذه الكلِماتِ الثلاثة (فهو لله وبالله وفي الله) ٣٠٤
التَّفكُّر إنما يَكون في آياتِ الله تعالى ومَعاني أسمائه وصِفاته ٣٠٧
مسألة حول اعتماد بعض الناس على العَقْل في قَبول النُّصوص ٣١٦
للشَّفاعة ثلاثة شُروط ٣٢٠
الشفاعة الخاصَّة بالرسول ﷺ ثلاثة أنواع ٣٢٣

الكلام على قصة الغرانيق ٣٣٠
الغَيبوبة تكون كلِّيةً، وتكون نِسبيَّة ٣٣٤
التَّوسُّل الجائِز سبعة أنواع..... ٣٣٧
الظُّلْم يَنقَسِم إلى قِسْمَيْن..... ٣٤٠
سُمِّيَ: يومَ القيامة لأُمورٍ ثلاثة ٣٤٢
هل يَرَى المُؤمِنون يَوْم القِيامة مَن يُعذَّبون؟ ٣٤٧
إذا امتَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العَبْد بنِعْمة متى يَعرِف العبد أن هذا امتِنان أو امتِحان؟ ٣٥٥
كيف يُبلِغ النبيُّ ﷺ قولَه تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؟ ٣٦٧
التائِبُ من الشِّرْك في الحقيقة له ثلاث حالات..... ٣٧٤
إذا اغتَبْت شَخْصًا فهل لا بُدَّ أن تَذهَب إليه؟ ٣٨٢
شَريعة مَن قَبْلَنا شَرعٌ لنا بشَرْعنا ما لم يَرِد شَرْعُنا بخِلافه ٣٩٣
ما حُكْم السُّخْرية بالله تعالى؟ وما الحكم لو كان مازحًا؟ ٤٠٥
أَجمَعُ ما قيل في التَّقوى ٤٠٩
يَنبَغي أن نَقول: (آياتُ الأنبياء) بدَلَ (مُعجِزاتُ الأنبياء) ٤١٥
التحريم يُستَفاد بعِدَّة طرُق..... ٤٣٥
الحذَرُ من دُعاة الشِّرْك والكُفْر..... ٤٣٩
هل الشُّكْر هو الحَمْد أو غيرُه؟ ٤٤٥
كيف يُعقَل أن يَكون القلب بين إِصبَعين من أصابع الرحمن بدون مُباشَرة؟..... ٤٥٠
كيفية تَوزيع الكِتاب يوم القيامة على وَجْهين ٤٦٥

في القرآن الكريم ذَكَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن مَن لم يُؤْتَ كِتابه بيمينه يَأْخُذه بشِماله، وفئة أُخرى من وراء ظَهْره، فهل هُما صِفتان أو صِفة واحِدة؟ ٤٦٦

الفِعْل المَبنيُّ للمَجهول هل الأَوْلى دائمًا أن نَقول: مُبنيٌّ لما لم يُسَمَّ فاعِلُه. أم في هذه الصِّيَغِ؟ ٤٧٢

ورَد أن المُؤمِنين قبل دُخولهمُ الجَنَّة يُوقَفون على قَنطَرة يُقتَصُّ من بعضهم لبعض، فهل هذه القَنطرةُ من الصِّراط أم غيره؟ ٤٩٨

هل يَجِب على الله تعالى أن يُثيبَنا؟ ٥٠٩

الفَرْق بين الحَمْد والمَدْح ٥١٦

يَرِد كثيرًا: (القضاءُ الكونيُّ)، و(القدَر الكونيُّ) و(الحُكْم الكونيُّ)؛ وكذا (الشَّرْعيُّ)، والفُروق بينهم ليسَتْ فُروقًا، فما هذا؟ ٥١٨

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة
تقديم	٥
سورة الزمر	٧
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾	١٣
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾	٢٠
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾	٢٨
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾	٣٩
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾	٤٥
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾	٥٤
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن	

تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ٦٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ ٨٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ ٩٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ ١١١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ ١٢١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ ١٢٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ ١٢٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ ١٣٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ ١٣٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ ١٤٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ ... ١٥٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ ١٦٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ ١٦٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ ١٧٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ ١٨٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ٢٠٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ٢١٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ٢١٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ ٢٢٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ ٢٣٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾. ٢٤١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ... ٢٤٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ٢٤٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ ٢٥٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ ٢٦٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ٢٦٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ ٢٨٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾ ٢٨٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ٢٩٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ

شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ ٣٠٩
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ٣٢٠
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ ٣٢٩
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ٣٣٣
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ... ٣٤٠
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ٣٤٥
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ٣٤٩
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ .. ٣٥٦
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾ ٣٥٩
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ ٣٦٢
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ ٣٦٦
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ

ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ٣٨٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ٣٩٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ ٣٩٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾ .. ٤٠٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ ٤١١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ ٤١٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ ٤٢٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ ٤٢٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ ٤٢٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ٤٣١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ٤٣٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ ٤٤١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ٤٤٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ . ٤٤٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ٤٥٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ٤٦٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ٤٧٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ ٤٧٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ٤٩٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ٤٩٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ٥٠٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ٥١٣

فهرس الأحاديث والآثار ٥٢١
فهرس الفوائد ٥٢٩
فهرس الموضوعات ٥٣٥

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٥٠)

تفسير القرآن الكريم

سورة غافر

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٥٠)

تفسير القرآن الكريم

سورة غافر

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٧ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة غافر. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٧هـ
٥٨٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٥٠)
ردمك: ٠ ـ ٧٤ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة غافر ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٧/١٨٥١

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٨٥١
ردمك: ٠ ـ ٧٤ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٧ هـ

يُطلب الكتاب من :
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين.

أَمَّا بَعْدُ: فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدَايَةُ التَّسْجِيلِ الصَّوتيِّ لَـهَا مِن سُورة النُّور وَمَا بَعدَها؛ حتَّى بلَغ فَضيلتُه قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ،

المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[١]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد بنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[٢]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخ مُحَمَّد بنِ صالِح العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَرِيم؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضَاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

١٤ مُحَرَّم ١٤٣٧هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

(٢) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالَمين، وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمد وعلى آله وأصحابه ومَن تَبِعهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

إن العِلْم يَحتاج إلى مُكابَدة وإلى مُثابَرة وإلى دأَبٍ وكلَّما عوَّد الإنسان نفسَه على ذلك اعتاده وصار أَمْرًا سهلًا عليه.

أمَّا إذا ركَنَ إلى الكَسَل والدَّعة والسُّكون فإنه يَصعُب عليه جِدًّا أن يَكون مُجتَهِدًا؛ لأن النفس وما تَعوَّدت، والإنسان في طلَب العِلْم كالمُجاهِد في سبيل الله في إعداد العُدَّة؛ لأن الله تعالى جعَل الجِهاد في سبيل الله والعِلْم عَديلَيْن؛ حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ [التوبة:١٢٢] يَعني: لا يُمكِن أن يَخرُجوا جميعًا في الجِهاد، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يَعني: وقعَدَت طائِفة ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾ الفاعِل همُ الفِرْقة الباقِية ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، بل قال بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إن طلَب العِلْم أَوكَدُ من الجِهاد في سبيل الله؛ لأن طلَب العِلْم يَنبَني عليه الجِهاد والعِلْم لا يَنبَني على الجِهاد، بل إن المُجاهِد لا يُمكِن أن يُجاهِد على الوجه الصحيح إلَّا بطلَب العِلْم؛ فلِهَذا كان أَوكَدَ.

إِذَنْ: فبَقاء الإنسان يُطالِع ويُراجِع ويُذاكِر ويَحفَظ في العِلْم الشَّرْعيِّ هو كالمُجاهِد في سبيل الله سَواءً بسَواءٍ.

ولو سُئِلْنا: أيُّهما أفضَلُ الجِهاد في سبيل الله أو طلَب العِلْم ؟

قُلْنا: لا يُمكِن أن نُفضِّل أحدَهما على الآخـَر على الإطلاق، فمِن الناس مَن نَقول له: طلَـبُ العِلْم في حقِّك أفضَلُ. ومن الناس مَن نَقول: الجِهاد في حقِّكَ أفضَلُ؛ ولهذا تَجِدون أَجْوبة النَّبيِّ ﷺ في التَّفاضُل بين الأعمال أنه يُخاطِب كل إنسان بما تَقتَضِيه حاله، وبهذا يَنفَكُّ الإشكال الذي يَرِد على النَّفْس؛ حيث يَقول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في بعض الأحاديث: «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ كَذا وَكَذا»، وفي بعضِها: «أَفْضَلُ الأَعْمالِ كَذا وكَذا»، فيُقال: إن هذا الاختِلافَ هو على حَسب حال المُخاطَب نَقول: بعض الناس طلَب العِلْم أَفضَلُ في حقِّهم، وبعض الناس الجِهاد في حَقِّهم أفضَلُ، فمَن كان وِعاءً للعِلْم حافِظًا فاهِمًا مُكابِدًا للعِلْم، فهذا طلَب العِلْم في حقه أَفضَلُ؛ لأنه يُنتِج أكثَرَ، ويَنفَع المُسلِمين أكثَرَ، ومَن كان على غير هذه الحالِ قليلَ الحِفْظ، قليلَ الفَهْم ولكنه شُجاع قوِيٌّ بطَلٌ فهُنا الجِهاد في حَقِّه أفضَلُ، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾.

وقبل البَدْء بالتَّفْسير نُقدِّم مُقدِّمة -نَسأَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَنفَع بها-، فنَقولُ:

إنَّ مِنْ نِعْمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العَبْد أن يُحبِّب إليه العِلْم، وذلك لأن العِلْم الشَّرْعيَّ مِفتاح كل خير؛ لقول النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[1] وهذه بُشْرى لكُلِّ مَن فقَّهَه الله في دِينه وعلَّمه، أنَّ الله أَراد به خيرًا، والفِقْه في الدِّين هو مَعرِفة الأحكام الشرعية من أدِلَّتها، ثُم تَطبيق هذه الأحكامِ التي عُلِّمها؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا، رقم (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧)، من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لأن مَن لم يُطبِّق فليس بفقيه؛ بل هو قارِئ؛ ولهذا حذَّر عبدُ الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أن يَكثُر القُرَّاء ويَقِلَّ الفُقَهاء[1]، فالفَقيه في دِين الله هو الذي يَعلَم شريعة الله ثُم يُطبِّقها على نفسه وعلى غيره، بقَدْر استِطاعته.

وطالب العِلْم عليه مَسؤُولية كبيرة؛ لأنه واسِطة بين الخَلْق وبين الرسول ﷺ إذ إنَّه يَنقُل شريعة الرسول -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- إلى أُمَّته؛ ولهذا يَجِب أن يَكون أُسْوة حسَنة في عِباداته وأخلاقه ومُعامَلاته؛ لأنه إذا كان أُسوة حَسَنة في ذلك، فقد أَثمَر العِلْم في حقِّه ثمَراته الجَليلة، ولأنه إذا كان أُسوة للنَّبيِّ ﷺ في ذلك أَحبَّه الناس وأَلِفوه، واقتَدَوْا به، وصار إمامًا، وإن لم يَكُن إمامًا كبيرًا؛ لكنه إمام بحَسَبِ حاله، وكلَّما ازداد الإنسانُ عِلْمًا وتَمَسُّكًا بما عِلم، ازداد احتِرام النَّاس له، واقتِداؤُهم به، وجَعْلهم إيَّاه أُسوةً.

ثُم إن طالِب العِلْم يَجِب عليه الإخلاصُ لله عَزَّوَجَلَّ في طلَبه؛ لأن الإخلاص هو أهمُّ شيء، وهو الذي يَكون به تَحقيق ما أَراده العَبْد، والإخلاص لله في طلَب العِلْم أَشار الإمامُ أَحمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى شيء منه، فقال: العِلْم لا يَعدِله شيء لِمَن صحَّتْ نِيَّته. قالوا: وبِمَ تَصِحُّ النِّيَّة؟ قال: يَنوِي بذلك رَفْع الجَهْل عن نَفْسه وعن غيره[2].

وهذا لا شَكَّ أنه تَصحيح النِّيَّة، لكنه ليس كلُّه، أو ليس كلُّه تَصحيحَ النِّية، بل هناك أَشياءُ تَجِبُ مُلاحظَتُها أيضًا، وذلك بأن يَنوِيَ بطلَب العِلْم امتِثال أَمْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الله أَمَر بالعِلْم، ورغَّب فيه، فقال تَعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٧٣، رقم ٧٧)، والدارمي في السنن رقم (١٩١، ١٩٢).
(٢) انظر الفروع لابن مفلح (٢/ ٣٣٩).

وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]، وقال الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة:١١]، وهذا شيء مُشاهَد، بيِّنوا لي تاجِرًا من أكبَر التُّجَّار في عهد الأئِمَّة الأربَعة حصَل له من رَفْع الذِّكر ما حَصَل لهؤلاءِ الأئِمَّة الأربعة، لن تَجِدوا إلى ذلك سبيلًا؛ فأَهْل العِلْم مَرفوعون عِند الله، ومَرفوعون عِند العِبَاد، مَرفوعون في حَياتهم ومَرفوعون بعد مَماتِهم، حتى وإن نَالَ أحَدًا منهم ما يَنالُه من التَّعذيب أو المُضايَقة، أو ما أَشبَه ذلك فإنه يَزداد بذلك رِفْعة عِند الله ورِفْعة عِند العِباد.

فأنت إذا نَوَيْت بطلَبك للعِلْم امتِثال أَمْر الله، صارَت كلُّ حرَكة تَتحَرَّكها في هذا المَجالِ عِبادة، إن راجَعْت الدَّرْس فعِبادة، وإن حَفِظت فعِبادة، وإن مَشَيْت فعِبادة، وقد ثبَت عن النَّبيِّ ﷺ أن «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ الله لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ**»(١).

وهذه مسائل تَغيب عنَّا كثيرًا:

الأولى: كثيرًا ما نُراجِع الكُتُب لتَحقيق مَسأَلة ما، ولكن يَغيبُ عنَّا أنَّنا الآنَ في عِبادة نَرجو بها ثَواب الله؛ لكن إذا استَحضَر طالِب العِلْم أنه يَمتَثِل أَمْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بطَلَب العِلْم، صارَ طلَبُه للعِلْم عِبادة.

الثانية: أن يَنوِيَ بطلَب العِلْم حِفْظ الشريعة؛ لأنَّ الشريعة تُحفَظ برِجالها؛ ولهذا قال النَّبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «**إِنَّ الله لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، معلقًا مجزومًا به، ووصله مسلم: كتاب الذِّكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، رقم (٢٦٩٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُهُ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ؛ حَتَّى إِذَا لَمْ يَجِدِ النَّاسُ عُلَمَاءَ يَسْتَفْتُونَهُمْ، اسْتَفْتَوْا أُنَاسًا جُهَّالًا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[1].

إِذَنْ: حِفْظ الشريعة يَكون بالعُلَماء، برِجالها فانْوِ بذلك -أي: بطلَبك العِلْم- حِفْظ الشريعة، ونِعْمَ الرجُلُ أنتَ؛ إذا كُنْت خِزانة لشَريعة الله عَزَّوَجَلَّ!.

الثالِثة: أن يَنوِيَ بهذا -أي: بطلَبه العِلْم- حِماية الشَّريعة والذَّوْد عنها؛ لأن الشَّريعة لها أَعداءٌ، أعداءٌ مُعلِنون بعَداوتهم، وأَعداءٌ ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨]، فلها أَعداءٌ؛ فأنت انْوِ بطلَبك العِلْم حِماية الشَّريعة، والدِّفاع عنها؛ وإذا كان هذا مَقصودَ طالِب العِلْم، فإنه سوف يَختار الجِهَة التي يَكون غَزو أعداء المُسلِمين من ناحِيَتها، وعلى هذا يَجِبُ أن يَكونَ على عِلْمٍ بما يَجرِي في الساحة من الأفكار الرَّديئة أو العقائِد الفاسِدة.

ونَضرِب مثَلًا بوَقْت من الأَوْقات مَرَّ على الناس وهُمْ لا يَعرِفون مَذاهِبَ أهل التَّعْطيل، ولا يَعرِفون الأفكار المُنحرِفة الهَدَّامة؛ لأنَّهم لم يَخرُجوا من بلادهم، ولم يَفِد إليهم أَحَدٌ من غيرهم، فهم مُلتَفُّون على عُلَمائهم، ولا يَعرِفون إلَّا الحَقَّ، هؤلاء لا يُهِمُّهم أن يَشتَغِلوا بأمور أخرى من وَسائِل العِلْم، أو الدِّفاع عن الشَّريعة؛ لأنَّهم آمِنون، لكن إذا جاء العَدوُّ فلا بُدَّ أن نَستَعِدَّ له، وأن يَكون استِعْدادنا بسِلاح مُناسِب لسِلاحه، فمِن المَعلوم مثَلًا أنَّ مَن هَاجَمَك بالمَدافِع والصواريخ، لا يَصِحُّ ولا يَستَقيم

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، رقم (١٠٠)، ومسلم: كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، رقم (٢٦٧٣)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أن تُدافِعه بما يُسمَّى بالسِّلاح الأبيض بالخَناجِر والسيوف وما أَشبَهها؛ لأن الواجِب أن تَستَعدَّ لكل عَدوٍّ بما يُناسِب سِلاحه.

فالآنَ صار في الساحة أَفكار رَديئة خَبيثة، إن لم تَكُن مُلحِدة فهِيَ إلى الإِلْحاد أقرَبُ من الاعتِدال، ولا حاجةَ إلى التَّخصيص؛ لأنه مَعلوم عند كَثير مِنْكم.

فنَحتاج أن نَعرِف هذه الأفكارَ وكَيفَ نُبطِلها، وإني أَقول لكُمْ: إن جميع الأفكار المُنحرِفة إبطالُها سَهْل جِدًّا، حتى وإن هَوَّلوا الأمر، وإن ضَخُمُوا فهُمْ كالإِسْفِنج، اعصُرْه بيَدِك يَخرُج كلُّ ما فيه، ولا تَتَهيَّبوا لأنهم ليس عِندهم عِلْم مَسموع ولا عَقْل مَصنوع، فلا بُدَّ أنَّ الإنسان إذا كان قد نوَى بطلَب العِلْم حماية الشريعة والدِّفاع عنها، لا بُدَّ أن يَعرِف ما يَكون في الساحة؛ حتى يَستَطيع أن يُدافِع، ولكل مَقامٍ مَقال، ولكل مَكان ما يُناسِبه.

وإني أَقولُ لكُم: إن حِماية الشريعة والدِّفاع عنها لا يَكون إلَّا بِرجالها، لو أنَّك كُنت في مَكْتبة، ومعَك جماعة ودخَل رجُل مُلحِد يُقرِّر الإلحاد، وأنتُمْ لا عِلْمَ عِنْدكم، لكن المَكتَبة مَملوءة من الكتُب التي تَرُدُّ على المُلحِدين، وتُبيِّن زَيْف ما هُم عليه، فلا يُمكِن أن يَقفِز كِتاب منها من أَجْل أن يَرُدَّ على هذا المُلحِدِ؛ فالكُتُب وإن كثُرَتْ لا تُفيد، لا بُدَّ من عُلَماء، وإذا كان في هذا المَكانُ الذي ذكَرْت إذا كان فيه عالِمٌ، فسوف يَتكلَّم بما يَرُدُّ قول هذا المُلحِدِ، حتى يَنكِص على عَقِبيه. هَذِه أُمور ثلاثة كلُّها تَترَتَّب على إخلاص النِّيَّة.

الرابِعة: ما أَشار إليه الإمامُ أَحمَدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنْ يَنوِيَ رَفْع الجَهْل عن نَفْسه وعن غيره، ومتى كان يَنوِي ذلك لا بُدَّ أن يَجِدَّ في الطلَب، لأنَّ مَن أَراد الغِنَى لا بُدَّ أن يَكتَسِب، ولا بُدَّ أن يَتَّجِر، ولا بُدَّ أن يَخوض جميع مَيادين التِّجارة؛ فإذا كان يُريد

رَفْع الجَهْل عن نفسه فليس من المُمكِن، ولا من المَعقول أن يَجلِس من غير تَعلُّم، لا بُدَّ أن يَجِدَّ في الطَلب.

وإذا كان يُريد رَفْع الجَهْل عن غيره فلا بُدَّ أن يَحرِص غاية الحِرْص على نَشْر العِلْم بالوَسائِل المُناسِبة، الوسائِل القَويَّة في كل مَجال:

أولًا: يُمكِن أن يَنشُر العِلْم عن طريق الحَديث في المَجالِس العادِيَّة؛ جلَس مَجلِسًا في وَليمة في أي مَكان، يُمكِن أن يَنشُر عِلْمه، وذلك بالطريقة اللَّبِقة المُحبَّبة للنُّفوس، والتي لا تُوجِب المَلَل والاستِثْقال، يُمكِن أن يُورِد مَسأَلة من المَسائِل في هذا الجَمْعِ الذي عِنده يُورِد مَسألة يَقول: ما تَقولون في رجُلٍ فَعَل كذا وكذا، أو قال كذا وكذا؟ أو يَأتِي بمَسأَلة إلغازٍ حتَّى يَفتَح الأَذْهان، وحِينئذٍ يَدخُل في تعليم الناس.

لسْتُ أَقولُ: افرِضْ نَفْسك في المَجلِس الذي أنت فيه؛ لأن هذا صَعْب على النُّفوس، لكن اجلِبْهم إلى العِلْم بالطرُق المُحبَّبة المُناسِبة، حتى يَشْتَغِل المَجلِس بالعِلْم مُناقَشة، أو إلقاءً، أو ما أَشبَه ذلك.

ثانيًا: كذلك أيضًا يَنشُر عِلْمه عن طريق الأشرِطة، والأشرِطة -ولله الحمد- نفَع الله بها نَفْعًا كثيرًا، خُصوصًا وأنَّ الناس كثيرٌ مِنهم -وخاصَّة من الشَّباب- يَتلقَّوْن هذه الأشرِطةَ بشغَف ولَهف، لا تَكاد تَخرُج إلَّا والناس يَتلَقَّوْنها ويَنتَفِعون بها، فهذه الأَشرِطةُ -ولله الحمد- فيها مَصلَحة كبيرة ونَشْر للعِلْم، وليس في مَكانِك أو بلَدِك، أو مَنطِقتك، بل إنه يَتَعدَّى إلى خارِج بلادِك، كما سمِعنا أنَّ أَشرِطة الدُّعاة والعُلَماء تَذهَب إلى أماكِنَ بَعيدةٍ. هذه من وَسائِل نَشْر العِلْم.

ثالِثًا: يُمكِن أن تَنشُر العِلْم عن طَريق الكِتابة، كِتابة الرَّسائِل، تَأليف كُتُب، نَشرة وَرَقية، وما أَشبَه ذلك، بقَدْر المُستَطاع؛ حتى تَنشُر عِلْمك، وتَنفَع وتَنتَفِع.

وهناك نَشْر للعِلْم بطَريق خَفيٍّ، يَخفَى على طالِب العِلْم، أو على كثير من طلَبة العِلْم، ألَا وهو نَشْر العِلْم عن طريق العمَل به، كثيرًا ما يَرقُب النَّاس هذا العالِمَ، ويَرَوْن ماذا يَصنَع، فيَقتَدون به، قال بعض الناس: إنه كان يُصلِّي. فقال بعض الذين شاهَدوه: إنَّك تَفعَل كذا وكذا في صلاتِك. فانظُرْ كيف كان الناس يُراقِبون أَفعال طالِب العِلْم من أَجْل أن يَقتَدوا به، وهذا من طريق نَشْر العِلْم، بل قد يَكون هذا من أَبلَغِ الطُّرُق التي يَتَأَثَّـر بها الناس؛ لأنَّ تَأَثُّر الناس بالفِعْل قد يَكون أَشدَّ وأقوَى من تَأَثُّرهم بالقَوْل؛ ولهذا نُكرِّر ما أَسلَفْناه من أنَّ طالِب العِلْم لا يَكون فَقيهًا إلَّا إذا عمِل بعِلْمه، وإلَّا فهو قارِئ وليس بفَقيهٍ.

وبهذه المُناسَبة أَوَدُّ أن أَحُثَّكم على مَكارِم الأخلاق، من: السَّماحة، وبَذْل السَّلام، وبَذْل المَعروف، والتَّسامُح فيما بينكم، ومُلاقاة الناس بالبِشْـر، وطلاقة الوَجْه، فقد كان من صِفات النَّبيِّ ﷺ أنه كان دائِم البِشْر كثير التَّبسُّم، صلَواتُ الله وسلامه عليه؛ دائِم البِشْر لا تَجِده مُنغلِقًا ولا مُكفَهرًّا، كَثير التَّبسُّم في مَحلِّه، فلنا فيه صلوات الله وسلامه عليه أُسوة حسَنة؛ قال الله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

وممَّا يَنبَغي لطالِب العِلْم أن يَحفَظ وَقْته عن الضَّياع، وضَياع الوقت يَكون بأسباب، أو يَكون له وُجوهٌ:

الوجهُ الأوَّل: أن يَدَع المُذاكَرة ومُراجَعة ما قرَأ.

الوجه الثاني: أن يَجلِس إلى أصدقائه، وأَحِبَّائه، ويَتحدَّث معهم بحَديث لَغو، ليس فيه فائِدة.

الوَجْه الثالِثُ: وهو أَضَرُّها على طالِب العِلْم، ألَّا يَكون له همٌّ إلَّا تَتبُّع أقوال

الناس، وما قيل وما يُقال، وما حصَل وما يَحصُل في أمر ليس مَعنِيًّا به، وهذا لا شَكَّ أنه من ضَعْف الإسلام؛ لأن النَّبيَّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قال: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»(١).

والاشتِغال بهذا القِيلِ والقال وكَثْرة السُّؤال مَضيَعة للوقت، وهو في الحَقيقة مرَض إذا دبَّ في الإنسان -نَسأَل الله العافِية- صار أكبَرَ همِّه، ورُبَّما يُعادِي مَن لا يَستَحِقُّ العداء، أو يُوالي مَن لا يَستَحِقُّ الوَلاء، من أَجْل تَشاغُله في هذه الأُمورِ، التي تَشغَله عن طلَب العِلْم، بحُجَّة أنه يَقول له فِكْرة. هذا من باب الانتِصار لصاحِب الحَقِّ، وليس كذلك، بل هذا من إِشْغال النَّفْس بما لا يَعنِي الإنسان.

أمَّا إذا جاءك الخبَرُ بدون أن تَتَلقَّفه، وبدون أن تَطلُبه، فكل إنسان يَتلقَّى الأخبار، لكن لا يَنشَغِل بها، لا تَكون أكبَرَ همِّه؛ لأن هذا يَشغَل طالِب العِلْم، ويُفسِد عليه أمرَه، ويَفتَح في الأُمَّة باب الحِزْبية والوَلاء والبَراء، فتَتَفرَّق الأُمَّة فنَسأَل الله تعالى أن يُوفِّقَنا وإيَّاكم لما فيه الخَيْر والصَّلاح، وأن يَجمَع القُلوب على طاعته، ويَرزُقنا عِلْمًا نافِعًا، وعمَلًا صالِحًا، ورِزْقًا طيِّبًا، واسِعًا يُغنينا به عن خَلْقه.

فإن قال قائِل: كثير من المَشايِخ يَهتَمُّون بالعِلْم ويُهمِلون فِقْه الواقِع، وكثير من الطُّلَّاب يُنكِرون إنكارًا شديدًا على مَن اهتَمَّ بالواقِع ويَقولون: العِلْم قال الله قال الرسولُ.

فالجوابُ: النَّاس في كل أُمورهم يَنقَسِمون إلى ثلاثة أقسام: طرَفان ووسَط، طرَف مُفرِّط، وطرَف مُفرِط، ووسَط. من الناس مَن يَشتَغِل بما يُسمُّونه فِقْه الواقِع،

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٣١٧)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولا يَكون له هَمٌّ إلَّا تَتبُّع الناس، وقيل وقال وكَثْرة السؤال، وهذا لا شَكَّ أنه مَضيَعة وتَشاغَل بالمُهِمِّ إن كان مُهِمًّا عن الأهمِّ، وهذا غلَط.

ومن الناس مَن يَتَشاغَل بالفِقْه الشَّرْعيِّ ويَحرِص عليه، لكنه لا يَلتَفِت إلى أحوال الناس إطلاقًا، بل رُبَّما يُنكِر من الفِقه الشَّرعيِّ ما يَظُنُّ أنَّ الدليل لا يَدُلُّ عليه، وهذا أيضًا طرَف خَطَأ.

ومن الناس مَن يُحاوِل الجمع بين هذا وهذا، ونحن إذا سَبَرْنا سِيرة النّبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- وجَدْنا أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَفهَم الواقِع، ويَفهَم الناس، ويَفهَم الخَيِّر من الشِّرير، لكنه ﷺ يَهتَمُّ بالأمر الثاني، الذي هو الفِقْه في الدِّين، ولهذا قال: «**مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[1] لم يَقُل: يُفقِّهْه في الواقِع، فِقْه الواقِع وَسيلة للتَّطبيق فقَطْ، فلا بُدَّ لطالِب العِلْم من هذا ومن هذا، لا تَجنَح إلى طرَف الفِقْه في الواقِع، ولا تَغلُ في الفِقْه في الدِّين، فتُعرِض عن كل شيء، فالإنسان يَجِب أن يَكون وسَطًا.

فإن قال قائِل: لكن لو نظَرْنا إلى واقِعنا المُعاصِر الآنَ بعض وسائِل الإعلام تَدعو إلى الكُفْر والإلحاد والشِّرْك، وما أَشبَه ذلك، الواقِع الحَقُّ يَمنَع من ذلك، فكيف تَكون حِماية الشَّريعة؟

فالجوابُ: أنت انْوِ بذلك حِماية الشريعة، أمَّا كونُك تُطبِّق ذلك في المُجتَمَع، هذا ليس إليك، هذا إلى الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]، ومعلومٌ ما جرَى للإمامِ أحمدَ وغيرِه من الأئِمَّة من المِحَن، في

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا، رقم (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧)، من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مُحاوَلة تَطبيق الشَّريعة في الناس، ومع ذلك هم صبَروا واحتَسَبوا حتى ظهَر الحَقُّ، ولله الحمدُ.

فتَطبيق الشَّريعة ليس مَعناه أن طالِب العِلْم إذا نَوى تَطبيق الشَّريعة وحِمايَتها، أنه يَستَطيع ذلك، قد لا يَستَطيع، لكن هو يَنوِي هذا، ويَجعَل طلَبه للعِلْم مُركَّزًا على هذه النِّيَّةِ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُيَسِّر له الأمر، ثُم إذا أُوذِيَ في الله، فهو رِفْعة لدرَجاته، ورِفْعة لِذكْره، لو تَأمَّلت مَن أكثَر الناس إيذاءً من العُلَماء لوَجَدْت أنهم العُلماء الكِبار هم الذين يَلحَقهم الأذى من حَبْس وضَرْب وإهانة، وربَّما قَتْل، فيَكون هذا من رِفْعة الله لهم.

مسألة: ما هي العُلوم التي يَحسُن لطالِب العِلْم البَدْء بها؟

الجَوابُ: نَرى أن أهمَّ المهمَّات هو العِلْم بهذا الكِتابِ العَزيز، كِتاب الله قبلَ كل شيء؛ لأن الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا يَتَجاوَزون عَشْر آيات حتى يَتَعلَّموها وما فيها من العِلْم والعمَل، ثُمَّ العِناية بما صحَّ من السُّنَّة، ثُم العِناية بما كتَبَه أهل العِلْم وأَخَذوه من هَذين المَصدَرَيْن الأساسين؛ الكِتاب والسُّنَّة، ولا يَعنِي إذا قُلنا: إنَّك تَحرِص على مَعرِفة كلام الله، وكلام رسوله، أن تُعْرض عن كُلِّ شَيءٍ، لا بُدَّ أن نَنْتَفِعَ بأفْكَارِ العلماء الذين كرَّسوا جُهودَهم لِخِدْمة العِلْم، وإلَّا لضِعْنا؛ ولهذا كتَب العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ في أُصول الفِقْه، وفي أُصول الحديث، وفي قَواعِد الفِقْه، وفي قَواعِد التَّحديث، وغير ذلك من أَجْل الضَّبْط؛ حتى يَنضَبِط الناس ويَكونوا ماشِين على قَواعِدَ معلومةٍ.

فإن قال قائِل: حِفْظ المُتون فيه صُعوبة، بعض الناس يَقول: أنا أُكرِّر مَسائِلَ مرَّاتٍ، وأَفهَمها وأَكتَفِي بذلك عن حِفْظ المُتون، حِفْظ المُتون مِثْل الفِقْه مثَلًا يَقول: هذه إنما كَلام أُناس نحن نَأتِي بمِثْله، فما رأْيُك؟

فالجوابُ: أنا رَأْيِي أنَّ حِفظ المُتون هو الأساس، وما انتَفَعْت بشيء من انتِفاعي بما حَفِظت من الكتُب؛ لأنَّ حِفْظ المَسائِل يُطيل إلَّا مَسائِلَ تَتكرَّر على الإنسان يَوميًّا فهو لا يَنساها من قِبَل العمَل، فحِفْظ المُتون هو العِلْم في الواقِع، وكونه صعبًا على بعض الناس هذا صَحيح، فبعضُ الناس يَصعُب عليه جدًّا أن يَحفَظ، تَجِده يُكرِّر المَتْن تكرارًا كثيرًا، ولكِن لا يَحفَظه، لكِنِ احرِصْ على هذا، وكُلَّما تَقدَّمتِ السِّنُّ بالإنسان قوِيَ فَهمُه وضَعُف حِفْظه، يَعنِي: فَهمه يَقوَى ويَتفتَّح عليه من الفُهوم ما لم يَكُن يَعرِفه من قَبلُ، لكن يَقِلُّ حِفْظه؛ ولهذا نَنصَح الشابَّ إلى الحِفْظ، وأوَّل ما يَجِب أن يُحفَظ هو كِتاب الله، الذي هو أساس كلِّ شيء.

فإن قال قائِل: هل يُنصَح طالِب العِلْم أن يَسير في فنٍّ من الفُنون مثل فَنِّ الفِقْه، أو أنه يَتنقَّل في الفُنون من فَنِّ العَقيدة إلى فَنِّ الفِقه؟

فالجوابُ: العُلوم ليسَتْ سواءً، بعضُها أهمُّ من بعض؛ فأنت كَرِّس جُهودك على الأهَمِّ، ولا تَخلُ نَفسُك من العُلوم الأخرى المُسَانِدة للأهَمِّ، يَعنِي مثَلًا: رجُل قال: أَنا أَهوَى النَّحو، أُكرِّس جُهودي على النَّحو ولا أَتعرَّض لغير هذا. نَقول: غلَط، كَرِّس جُهودك على ما تَهواه نَفْسك؛ لئَلَّا يَضيع عليك الوَقْت؛ لأنَّ الإنسان إذا حاوَل أن يُرغِم نفْسَه في دِراسة شيء لا يَختاره سيَضيع عليه الوقتُ، لكن لا تَنْسَ العُلوم الأُخرى.

وكذلك أيضًا لا تُكثِر على نَفْسك من العُلوم؛ لأن كَثْرة العُلوم تُضعِف الإنسان في هِمَّته، وفي فَهْمه والَّذين درَسوا في المَدارِس النِّظامِية يَعرِفون هذا، تَجِد مثَلًا في المَعاهِد أو المدارس الثانويَّة تَجِد فيها مثَلًا خمسَ عشْرَةَ مادَّةً تَضيع على الإنسان، لو أَرَدْت أن تَبحَث معه في شيء عَميق من المَوادِّ التي درَسها ما وجَدْت

عنده شيئًا، فإذا رَكَّز الإنسان على العُلوم واختَصَرها بقَدْر ما يَستَطيع، صار هذا أَجوَدَ له، وأكثَرَ استِفادةً.

ويُذكَر أنَّ بعض الناس يَقول: إن مَن أَتقَن عِلْمًا من العلوم إتقانًا جيِّدًا استَغنَى به عن سائِر العُلوم، وهذا لا شَكَّ أنه غلَط، لو أنك أَدرَكْت النَّحْو جيِّدًا، لا يُغنِيك عن مَعرِفة الفِقْه. وما يُذكَر عن أبي يُوسُفَ والكِسائيِّ أنَّهما تَناظَرا في حَضْرة الرشيد، وقال الكِسائيُّ: إن الإنسان إذا أَتقَن العِلْم -أي عِلْم أَتقَنه- يَستَغنِي به عن غيره، وأنَّ أبا يُوسُفَ أَورَدَ عليه الرجُل يَسهو في سُجود السَّهْو، فقال الكِسائيُّ: ليس عليه سُجود. قال: ومن أَيْن يُوجَد هذا في عِلْمك. لأنَّ الكِسائيَّ إمامٌ في النَّحوِ، قال: من قَواعِد عِلْمي أن المُصغَّر لا يُصغَّر[1]. هذا لا يَصِحُّ دليلًا في حُكْم شَرعيٍّ أبَدًا. وأنا أَظُنُّ أنَّ هذه القِصَّةَ مَصنوعة، ليسَتْ صَحيحة.

لكن الإنسان يَنبَغي له أن يُركِّز، وأنا في نظَري أن أَهَمَّ ما أُركِّز عليه هو القُرآن الكَريم، القُرآن كُنوز عَظيمة، كُلَّما أَخَذْت آية وصِرْت تَتَأمَّلها انفَتَح لك من العُلوم فيها ما لا يَعلَمه إلَّا الله، ثُم القُرآن سَنَد يَعنِي: ليس القُرآن ككِتاب أيِّ عالِم من العُلَماء، هو سَنَد يَحتَجُّ به الإنسان أمام الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه كَلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فلهذا أنا أَرَى أن نُركِّز على عِلْم التَّفسير، ثُم على مَعرِفة ما صَحَّ عن النَّبيِّ ﷺ، وأَنتُمْ تَعرِفون أنَّ ما نُسِب للرسول ﷺ يَحتاج إلى جُهْد قَبلَ أن يَكون دليلًا، الجُهْد هو أن نَعرِف صِحَّته إلى الرسول؛ لأنه ما أَكثَرَ الأحاديثَ التي رَواها ضِعَاف النَّاس رِوايةً! إمَّا لقِلَّة أمانَتِهم، أو لسُوء حِفْظهم، أو ما أَشبَه ذلك.

---

(١) ذكرها الجويني في نهاية المطلب (٢/ ٢٧٥)، وابن مفلح في النكت على المحرر (١/ ٨٢)، وانظر: الموافقات للشاطبي (١/ ١١٨).

بل ما أَكثَرَ الأحاديثَ المَوْضوعةَ المَكْذوبة على الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ! لأنَّ الأهواءَ كثُرَت، فصار مَن لا يَخاف الله يَضَع ما شاء من الأحاديث، ويَنسُبها للرسول ﷺ، تَحتاج السُّنَّة إلى عِناية كَبيرة في ثُبوت صِحَّتها عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أمَّا القُرآن فلا يَحتاج إلى هذا؛ لأنه ثابِت بالنَّقْل المُتواتِر الذي يَنقُله الأصاغِر عن الأكابِر؛ فالعِناية بالكِتاب والسُّنَّة هو أهمُّ شيء، لكن لا يَعنِي ذلك الإعراضَ عمَّا كتَبَه العُلَماء، لا بُدَّ من الاستِعانة بآراء العُلَماء، وكيفية استِنْباطهم للأحكام من القُرآنِ والسُّنَّة.

ويَنبَغي أن نُلِمَّ بشَيْء من قَواعِد التَّفسير، فنَقولُ:

أوَّلًا: التَّفْسير مَأْخوذ من الفَسْر، فسَرَتِ الثَّمَرَةُ عن قِشْرِها؛ أي: اتَّضَحت وبانَت، وهو عِبارة عن تَوضيح كلام الله عَزَّوَجَلَّ، والتَّفسير يُراد به التَّفْسير اللَّفْظيُّ، يَعنِي: أن تُفسِّر اللَّفْظة بقَطْع النَّظَر عن سِياقها، ويُراد به التَّفْسير المَعنَويُّ، بأن تُفسَّر اللَّفْظة بحَسب سِياقها، فمثَلًا قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، إذا فسَّرنا القُوَّة التَّفسير اللفظيَّ، صار مَعناها ضِدَّ الضَّعْف، لكن الرسول ﷺ قال: «إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ»[1]، وعلى هذا فنَقول: مَعنَى القُوَّة ضِدُّ الضَّعْف، هذا باعتِبار اللَّفْظ، والمُراد بها الرَّميُ، هذا باعتِبار المَعنَى المُراد.

ومِثله أيضًا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، الزِّيادة مَعناها: الفَضْل، زِيادة الشيء على الشيء، هذا من حيثُ اللَّفْظ؛ لكن المُراد النَّظَر إلى وَجْه الله عَزَّوَجَلَّ كما فسَّره النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي، رقم (١٩١٧)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِذَنِ: التَّفْسير اللَّفْظيُّ غير المُراد، المُراد يُعيِّنه السِّياق، أو يُبيِّنه النَّبيُّ ﷺ أو ما أَشبَه ذلك، وأمَّا اللَّفْظ فأن تُفسَّر الكلِمة باعتِبار مَعناها، مُنْفرِدَة دون النَّظَر إلى سِياقها، والقُرآن الكَريم يُفسَّر بالمعنى الثاني، أي: بما أَراد الله به.

ثانيًا: هل المُراد يُخالِف الظاهِر أو هو الظاهِر إلَّا بدَليل؟ المُراد هو الظاهِر، يَعنِي: أنَّ الله يُريد بكَلامه ظاهِره، ولا بُدَّ، ولا يُمكِن أن نَعدِل عن الظاهِر إلَّا بدليل، فمَن عَدَل عن الظاهِر إلى غيره بدون دَليل، كان مِمَّن يُحرِّفُون الكَلِمَ عن مَواضِعه.

مثال هذه القاعِدةِ: قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] فظاهِر قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: عَلا عليه، علُوًّا يَليقُ بجلاله وعظَمته، وهو عُلوٌّ خَاصٌّ بِالعَرْش، وليس هو العُلوَّ العامَّ على جميع المَخلوقات، فإذا جاء الإنسان، وقال: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يَعنِي: استَوْلى عليه، فإننا لا نَقبَل منه؛ لأنَّ هذا خِلاف الظَّاهِر بلا دليلٍ، فإذا كَانَ خِلافُ الظَّاهِر بلا دليلٍ؛ فإنه من باب تَحريف الكلِم عن مَواضِعه، وإن تَسَمَّى أهْلُه بأنَّهم مُؤَوِّلة، فإنَّما يُسمُّون أنفسهم بذلك من أَجْل قَبول قولهم، وتَسهيل خطَئِهم على الناس؛ لأنه فَرْق بين أن تَقول: هذا مُؤَوِّل، أو هذا مُحرِّف. وإلَّا فالحقيقة أنهم مُحرِّفون.

ولهذا تَجِد شيخ الإسلام ابنَ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عبَّر بالعَقيدة الواسِطية بقوله: من غير تَحْريف[1]. ولم يَقُل: من غَيْر تَأوِيل؛ لأن التَّحريف مَذموم بكُلِّ حال، والتَّأوِيل منه صَحيح ومنه فاسِد.

---

(١) العقيدة الواسطية (ص:٥٧).

فإن دَلَّ دليل على أن المُراد خِلاف الظاهِر، فَسَّرناه بالمُراد، مِثْل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ [النحل:٩٨]، مَعنى قرَأْت، يَعنِي: أرَدْت أن تَقرَأ، وليس المعنى: إذا فرَغْت، لو أننا فَسَّرْنا اللَّفْظ بظاهِره، لقُلنا: إذا قرَأْت. يَعنِي إذا انتَهَيْت من القِراءة فاستَعِذْ بالله، ولكنَّ هذا غيرُ مُراد، والذي يُبيِّن أن هذا غيرُ مُراد فِعْلُ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإنه كان يَستَعيذ قبل أن يَبدَأ القِراءة. هاتان قاعِدتان.

القاعِدة الثالِثة: إلى مَن يُرجَع في تَفسير القُرآن؟ هل يُرجَع إلى اللُّغة والحَقيقة اللُّغَوية، أو يُرجَع إلى الحَقيقة الشرعية، أو ماذا؟ نَقولُ: أوَّلًا يُرجَع في التفسير إلى تَفسير مَن تَكلَّم به، وهو الله عَزَّوَجَلَّ فيُرجَع في التَّفسير:

أوَّلًا: إلى كلام الله، فإذا كانت الكلِمة مُجمَلة في مَوْضِع من القُرآن ومُفصَّلة في مَوْضِع؛ فإنه يُرجَع إلى ما فُصِّل بالقُرآن نفسه، إذا كانت مُبهَمة في مَوضِع لكنها مُبيَّنة في مَوْضِع آخرَ نَرجِع إلى المَوْضِع الآخَر.

فيُفسَّر القُرآن أوَّلًا بالقُرآن؛ لأن المُتكلِّم به أَعلَمُ به من غيره، ففي قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١-٣]، ما هي القارِعة؟

نَقول: بيَّنها الله بقوله: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ [القارعة:٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ [الانفطار:١٧-١٨] فسَّرَها بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩]، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ [العلق:١٥]، أيُّ ناصِية هي؟ كلُّ ناصِية يَسفَع الله بها؟ لا ﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ [العلق:١٦]، وعلى هذا فقِسْ.

فنَرجِع أوَّلًا إلى تَفسير مَن تَكلَّم به وهو الله؛ أي: إلى تَفسير القُرآن بالقُرآن؛ ثُم بعد هذا نَرجِع إلى:

ثانيًا: تَفسير القُرآن بالسُّنَّة؛ لأنَّ أَعلَمُ الناس بكلام الله رسولُ الله ﷺ فنَرجِعُ إلى تَفْسيره، ولا نَقبَل تفسير غيره.

مِثال ذلك قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس:٢٦]، فقد فسَّرَها ﷺ بأنَّها النظَر إلى وجه الله؛ فلو جاءَنا جاءٍ وقال: وزِيادة؛ أي: زِيادة في الحُسْن، قُلنا له: لا نَقبَل قولَك. وإن كانت الكلِمة من حيثُ مَعناها اللَّفْظيُّ تَحتَمِل ما قلت لكنَّنا لا نَقبَل؛ لأن النَّبيَّ ﷺ فسَّرها بأنها النظَر إلى وجهِ الله، وهو أَعلَم الناس بمُراد ربِّه، فلا نَقبَل قوله.

ثالثًا: نَرجِع إلى تَفْسير الصحابة، يَعنِي: إذا لم نَجِد في القُرآن ولا في السُّنَّة، رجَعْنا إلى تَفسير الصحابة؛ لأن الصحابة أَعلَمُ النَّاس بمُراد الله ورسوله؛ حيث إنَّهم في عَصْر التَّنزيل، وشاهَدوا الأحوال والقرائِن الدالَّة على المُراد، ولا شَكَّ أن المُشاهِد للشيء ليس كالغائِب عنه؛ فالآنَ رُبَّما أَتكلَّم أنا بكلام، مُنفعِل فيه، وأَقول: أَتَفْعَلون كذا؟ ولِـمَ كَذا؟ وتَجِدونَني مُنفَعِلًا والذي يَسمَع كلامي ولم يُشاهِدْني يَظُنُّه كلامًا عادِيًّا، ولا يَعرِف؛ لأنه ليس عنده قَرينة.

ولـهذا نَقول: الصحابة أَعلَمُ الناس بتَفسير كَلام الله ورسوله؛ لأنهم قد شاهَدوا الأحوال، وعرَفوا القَرائِن؛ فيُرجَع إلى تَفسيرهم.

مثال ذلك: قولُه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء:١٢]، فهُنا فسَّر أبو بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الكَلالة

بأنه مَن لَيْس له ولَد ولا والِد[1]، بأنه الميت يَموت ليس له ولَد ولا والِد، يَعنِي: لا أُصولٌ ولا فُروعٌ. هنا نَأخُذ بتَفسير أبي بَكْر؛ لأنه من الصَّحابة، والصَّحابة أَعلَم النَّاس بتَفسير كلام الله عَزَّوَجَلَّ.

ومَعنَى قولنا هذا: أنه لو جاء أَحَدٌ من المُتأخِّرين، وفسَّر القُرآن بخِلاف ما فسَّرَت به الصحابة، فإننا لا نَرجِع إلى قوله أبَدًا.

رابِعًا: إذا لم نَجِد في القُرآن ولا في السُّنَّة، ولا في كلام الصحابة، نَرجِع إلى أقوال التابِعين، ولا سِيَّما مَن عُرِف مِنهم بالتَّلقِّي عن الصحابة، مثل مُجاهِد بنِ جَبْر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإنه قال: عرَضْتُ المُصحَف على ابن عبَّاس مرَّتَيْن أو أكثَرَ أَقِف عند كل آية وأَسأَله عن مَعناها[2]. فمِثْل هذا يُؤخَذ بقوله؛ لأنه أَخَذ عن الصَّحابة، وإن كان بعض التابِعين قد لا يَنال هذه المَرتَبة؛ لعدَم أَخْذه عن الصَّحابة، لكن التابِعون أَقرَبُ إلى المعنى الصَّحيح ممَّن بَعدَهم إلَّا أنهم -كما عرَفْتم- يَقِلُّون مَرْتَبةً عن الصحابة.

خامِسًا: نَرجِع إلى المعنى الحَقيقيِّ للكلِمة، وهو المعنى اللُّغويُّ، يَعنِي: نَرجِع إلى مَعنَى الكلِمة في اللُّغة العرَبية، ودليلُ ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣]؛ يَعنِي: تَفهَمون المَعنَى، وهذا إحالةٌ من الله عَزَّوَجَلَّ إلى اللُّغة العرَبية، وأنَّ عَقْل القُرآن يَكون بمُقتَضى اللُّغة العرَبية، ولنا حُجَّة.

فإذا قال قائِل: ما دَليلُك على أن معنى هذه الكلِمةِ هو كذا؟

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٠/ ٣٠٤)، وسعيد بن منصور في التفسير من السنن رقم (٥٩١)، وابن أبي شيبة (١٦/ ٣٧٠).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٨٥)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٧٧، رقم ١١٠٩٧).

قلنا: هذا مَعناها في اللُّغة، والقُرآن نزَل باللُّغة العرَبية، وقد أَشار الله إلى ذلك في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان:٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الواضِحة.

فإن اختَلَفَتِ الحَقيقة اللُّغَوية والحَقيقة الشَّرْعية، رجَعْنا إلى الحَقيقة الشَّرْعية، يَعنِي: الحَقيقة الشرعية واللُّغَوية لا شكَّ أنها تَتَّفِق في أشياءَ كَثيرةٍ؛ فالسَّماء سَماء لُغة وشرعًا، والأرض أرض لُغة وشَرْعًا، والإبِل إبِل لُغة وشَرعًا، وما أَشبَه ذلك، فإن تَعارَضت الحقيقة الشرعية والحَقيقة اللُّغَوية فنُقدِّم الحَقيقة الشَّرْعية؛ لأن هُناك كلماتٍ نقَلها الشَّرْع من المعنى الأصليِّ اللُّغَويِّ إلى المَعنَى الشَّرعيِّ.

مِثال ذلك: «الإيمان» الإيمان في اللُّغة هو: الإقرار والاعتِراف، أو التَّصديق، على خِلاف بين العُلَماء في التَّفسير. لكنه في الشَّرْع غير ذلك، الإيمان في الشَّرْع أَوسَع من هذا؛ يَشمَل المَعنى اللُّغَويَّ، ويَشمَل ما سِواه، مثل: الأعمال، الأقوال، الأفعال، التُّروك. كلُّ هذه من الإيمان شرعًا، ومِثل: الصلاة، وجَدْنا في القُرآن: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على أيِّ شيء نَحمِل الصلاة، على المَعنَى اللُّغَويِّ الذي هو الدُّعاء أو على المَعنَى الشَّرْعيِّ؟ على المعنى الشَّرعيِّ؛ لأنَّ الشَّرْع نَقَل بعض الألفاظ العرَبية إلى مَعنًى جَديدٍ، ليس مُستَعمَلًا في اللُّغة العرَبية فنَأخُذ بما أَقرَّه الشَّرْع.

إِذَنْ: نَرجِع في التَّفْسير إلى القُرآن، السُّنَّة، الصَّحابة، التابِعين، مَعنَى الكلِمة، وإذا تَعارَض اللُّغة والشَّرْع، قَدَّمنا المَعنَى الشَّرْعيَّ، وهذا هو المَبحَث الثالِث.

المَبحَث الرابع: هل يَجوزُ لنا أن نُفسِّر القُرآن دون الرُّجوع إلى كلام العُلَماء المَكتوب أو المَسموع؟ هذا يُنظَر إذا كانَتِ الكلِمة لها مَعنًى لُغويٌّ، ولم نَعلَم أن

لـها مَعنًى شرعيًّا يُعارِضه؛ فلنا أن نُفسِّر القُرآن بمُقتَضى اللغة، إذا لم نَعلَم أن لـها مَعنًى شرعيًّا نُقِلت إليه؛ لأن القُرآن -كما قُلْنا واستَدْلَلنا- نزَل باللُّغة العرَبية، فإذا فسَّرته بمُقتَضى اللُّغة العرَبية فلا بأسَ، لكن بشَرْط أن يَكون لي عِلْمٌ باللُّغة العرَبية، ليس أيُّ عامِّيٍّ يَجيء يُفسِّر القرآن.

أمَّا إذا فَسَّرتُ القُرآن بما يُوافِق رَأْيِي مع مُخالَفته للقَواعِد السابِقة، فهذا جاءت الأَحاديث بالوعيد فيه، وأن «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[1] ولهذا أَمثِلة كثيرة عقَدية وفِقْهية.

كثير من العُلَماء فسَّروا القُرآن بآرائهم؛ أي: بما يُناسِب مَذاهِبهم، وهذا في العَقائِد مَشهور مَعروف، مثل يُفسَّر قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢]؛ أي: جاءَ أَمْر رَبِّك، يُفسَّر قوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]؛ بأنه الكَلام المَخلوق، يُفسَّر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يَعني: استَوْلى عليه، يُفسَّر قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾؛ أي: بقُدْرتي، وما أَشبَه ذلك، هذا قارِئٌ في القُرآن برَأْيه لا شكَّ؛ لأنه لا فسَّره بمُقتَضى اللُّغة، ولا بمُقتَضى الشَّرْع، وإنَّما بمُقتَضى رَأْيه، الَّذي يُطابِق ما هو عليه من المَذهَب أو من الطَّريقة.

فالتَّفسير بالرَّأْي إِذَن مُحرَّم ومن كبائر الذُّنوب، وهو داخِل في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام:٢١]؛ لأن هذا المفَسِّر يَقول: إنَّ الله أَراد بهذا هذا. فيَكون كاذِبًا؛ فيَكون ممَّن افتَرى على الله كذِبًا حيث قال: إن الله أَراد كذا.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٣٣)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، رقم (٢٩٥١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثُم هو مِمَّنِ اعتَدَى في حقِّ الله؛ حيث قال: لم يُرِد كذا. انظُرِ الخطَر، إذا قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ قال: أَراد الله: وجاء أَمْر رَبِّك، فيَكون كذَب على الله. قال: ولم يُرِد أنه جاء بنَفْسه، يَكون اعتَدَى على كلام الله، وتَجاوَز حَدَّه، مَن قال لكَ: إنَّ الله لم يُرِد هذا، وهذا ظاهِر كلامه؛ فيَكون هذا مُعتَدِيًا مُحرِّفًا، والعِياذ بالله.

وكذلك أيضًا في المَسائِل الفِقْهية، مثلًا: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة:٦]، قال الرافِضة: يَعنِي أنَّ الله أَمَرنا أن نَمسَح الأرجُل بدَل الغَسْل؛ فيُقال: هَؤلاء قالوا برَأْيِهم؛ لأنهم أَهمَلوا قِراءة النَّصْب ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ ولم يَعمَلوا بها، ثُم خالَفوا المُراد بقِراءة الجَرِّ، وهي أنها تُمسَح الرِّجْل على الوَجْه الذي بيَّنَتْه السُّنَّة، والذي بيَّنَته السُّنَّة أنَّ الرِّجْل تُمْسَح إذا كان عليها خُفَّان، أو جَوْربان، أو ما أَشبَه ذلك؛ فتَبيَّن الآنَ أنَّ التَّفسير بالرَّأْي من كبائِر الذُّنوب؛ لأنه يَتَضمَّن مَفسَدَتين عَظيمتين: إحداهما: تَحريف الكلِم عن مَواضِعه، والثاني: الكذِب على الله، والتَّعدِّي في حَقِّه؛ حيث قالوا: إنه لم يُرِد كذا، وأَراد كذا.

المَبحَث الخامِس: أهمِّيَّة التَّفسير: التَّفْسير من أجَلِّ العُلوم وأَعلاها قَدْرًا؛ لأن الإنسان يُحاوِل أن يَفهَم به مَعنَى كلام الله عَزَّوَجَلَّ والعُلوم تَشْرُف بحَسب مَوْضوعها، ولا أَشرَف من مَوضوع تَفْسير كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فيَكون التَّفْسير من أجَلِّ العُلوم إن لم نَقُل: هو أجَلُّ العُلوم وأَعظَمها قَدْرًا؛ لأنه عِناية بكَلام الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولأنه اتِّباعٌ لطَريق السَّلَف الذين لا يَتَجاوَزن عَشْر آيات حتى يَتعَلَّموها وما فيها من العِلْم والعمَل، ولأن الإنسان إذا فهِمَ كلام الله ذاقَ له طَعْمًا، وصار يَقرَؤُه وهو يَجِد حَلاوة مَعناه، والأُنْس به، أكثَرُ من إنسان أُمِّيٍّ لا يَعلَم الكِتاب إلَّا أَمانيَّ.

ففي عِلْم التَّفْسير يَطمئِنُّ القَلْب، وفي عِلْم التَّفْسير يَعرِف الإنسان قَدْر هذا القُرآنِ العظيم، الذي وصَفه الله بعِدَّة أَوْصاف عَظيمة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧]، وأَكثَرُنا -عفا الله عنَّا- لا يَعتَني بالتَّفسير، ولا يَهتَمُّ به، رُبَّما يَستَشرِق كِتابَ عَالِمٍ منَ العُلَماء، يُخطِئ ويُصيب، ويَتأمَّل هذا الكِتابَ مَنطوقًا ومَفهومًا وإشارةً وإيماءً، وغير ذلك من أنواع الدَّلالة، لكن كَلام الله لا يَعتَني به، ولولا أنه يَتبرَّك به في أَجْره لما عَرَّج عليه أصلًا إلَّا أن يَشاءَ الله. وهذا غلَط، حتى في طلَبة العِلْم الآنَ مَن لا يَهتَمُّ بالتَّفْسير، تَجِده يَهتَمُّ بكُتُب الفِقْه، يَهتَمُّ في كتُب الحديث، يَهتَمُّ في كتُب الرِّجال؛ ويُعرِض عن هذا الذي هو أَصْل الأصول، الذي يَجِب علينا أن نَعرِفه، والَّذي سنُحَاسب عليه. «**الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**».

استَوقِفْ شخصًا من أكبَر طلَبة العِلْم عند آية من القُرآن؛ قل له: ما مَعناها؟ ماذا يَقول؟ إمَّا أن يَكون جَريئًا فيَقول: أَراد الله بهذا كذا وكذا. وهو لم يُرِد ذلك، أو أنه يَكون ورِعًا، ويَقول: لا أَدرِي.

لكن لو أنَّ طلَبة العِلْم أخَذوا القُرآن من أوَّله يَقرَؤُونه ويَتَدبَّرونه ويَتَأمَّلونه، لوجَدوا خيرًا كثيرًا، وانفتَح لهم من أبواب المَعرِفة ما لا يَخطُر على البال، والله عَزَّوَجَلَّ يَقول في القُرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر:١٧]، ليس هو صَعْبًا، القُرآن إذا أَقبَلْت عليه حَقيقةً بقَلْب ونِيَّة جازِمة؛ فهو سَهْل، أَسهَلُ من جميع الكُتُب؛ لأن الله يَقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

هذه نُبَذ تَكلَّمتُ بها -أَسأَل الله تعالى أن يَنفَع بها- في مُقدِّمة التَّفْسير، ومِثْل هذه القَواعِدِ سوف تُفيدُ، إن شاء الله تعالى.

فإن قال قائِلٌ: يَقول بعضُهم: إنَّه هُناك شَيْئان ليس لهما سنَد: التَّفْسير والتاريخ، فما صِحَّة هذا القولِ؟

فالجوابُ: نعَمْ، هذا يُذكَر عن الإمامِ أَحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال فيه ثلاثة: المَغازِي، والسِّيَر، والتَّفْسير[1]. ومُراده بأنها ليس لها سنَد، أنَّ الناس يَتَناقَلونها بدون إسناد، فمثَلًا يَقول: قال مُجاهِد كذا، قال ابنُ عباس كذا، بدون إسناد هذا المَعنَى.

كذلك التَّواريخُ تَجِد مثلًا الناس يَتكلَّمون بهذا في غَزوة أُحُدٍ، لكن لا تَجِد الرجُل يَقول؛ حدَّثَني فُلان عن فُلان حتَّى يَصِل إلى الغَزْوة، وكذلك يُقال في السِّيَر، هذا مُراد الإمامِ أَحمَدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قَصْده بذلك أنَّك إذا سَمِعت مثل هذا الذي اشتُهِر ونُقِل أن تَتَأكَّد منه.

فإن قال قائِل: لو أنَّ شيخًا أو مُدرِّسًا عرَض على طلابه تَفسير آية، وقال: ما تَقولون في هذه الآيةِ؟ وهو عالِم بها فجلَسَ التلاميذ يَقولون، هذا بقوله، وهذا بقوله، هل يَدخُلون في ضِمْن مَن يُفسِّر القُرآن برَأْيه؟

فالجَوابُ: لا، هذا لا يَدخُل في ضِمْنه؛ لأن هذا الذي قال: مَعنَى الآية كذا. لا يُريد أنَّ هذا المَعنَى مُستَقِرٌّ، لكن يَعرِضه على شيخ أَعلَمَ منه، فكأنه حينما يَقولُ: أَراد الله كذا. كأنَّه يَقولُ بلِسان الحال: هل أَراد الله بهذا كذا؟ فهذا لا يُعتبَر تَفسيرًا للقُرآن بالرَّأْي ولا مُحرَّمًا.

فإن قال قائِل: بعض الناس يَترُكون التَّفسير ويَتَّبِعون السُّنَّة وآثار الرِّجال، وما أَشبَه ذلك، ويُعلِّلون ويَقولون: إن أَهْل البِدَع يَستَدِلُّون بالعُمومات من القُرآن،

---

(١) أخرجه عنه ابن عدي في الكامل (١/ ٢١٢)، والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ١٦٢).

فنَقرَأ السُّنَّة لكي نُبيِّنَ هذه العُموماتِ من السُّنَّة، فما رَأْيُكم في هذا؟

فالجَوابُ: رأيُنا: صَحيح أننا لا نُزهِّد في السُّنَّة، ولا في مَعرِفة الرِّجال، ولا في مَعرِفة المُصطَلَح، لكِنَّنا نَرى أنَّ هُناك أَوْلوياتٍ، وهُناك أَهمِّيات قبل المَهَمَّات. وأمَّا ما ادَّعاه من أنَّ القُرآن لم يُبيِّن الرَّدَّ على أهل البِدَع، والسُّنَّة بَيَّنته، فهذا غير صَحيح، القُرآن ليس فيه دليلٌ واحِد لأيِّ بِدْعة من البِدَع أبَدًا، بل إنَّ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال في كِتابه دَرْء تَعارُض العَقْل والنَّقْل قال: «أي دَليل يَستَدِلُّ به شَخْص على بِدْعة، فأنا أَجعَل هذا الدَّليلَ دَليلًا عليه»[1]، وصَدَق، أَضرِب مثَلًا لكم: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ استَدَلَّ بهذه الآيةِ مَن يَرَى أنَّ الله لا يُرَى، والحَقيقة أنَّها تَدُلُّ على أنَّ الله يُرَى، انظُرِ استَدَلَّ بها وهي دَليل عليه؛ لأن نَفيَ الأَخصِّ يَستَلزِمُ وجودَ الأعَمِّ، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ إذَنْ تَراه، ولو كانَت لا تَراه لقال: لا تَراه الأبصار، أمَّا أن يُعبِّر بـ: لا تُدرِكه. عن: لا تَراه، فهذا لا شَكَّ أنه تَعمية وإلغاز، ولا يُمكِن أن يَكون هذا في كلام الله، الذي جَعَله الله تِبيانًا لكل شيء.

استَدَلُّوا بقول موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣] قالوا: هذا يَدُلُّ على أن الله لا يُرَى، نَقول: هذا دَليل عليكم. فمُوسى سأَل الرُّؤْية في الدُّنيا، فكَيْف تَنقُلونها أنتُم إلى الآخِرة؟! ولهذا قال الله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ يَعنِي: الآنَ ليس بكَ قُدْرة على أن تَتَحمَّل رُؤْيَتي، ورُؤْية الله مُستَحيلة في الدُّنيا، لا لأَمْر يَتعلَّق بالرُّؤْية، لكن لأَمْر يَتعلَّق بالرَّائِي، فالرائِي لا يَتحَمَّل.

ولهذا ضرَب الله مثَلًا لمُوسى فقال: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ جلَّ وعَلَا، ماذا صَار؟ ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾

(١) انظر: درء التعارض (١/ ٣٧٤)، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ١٠٤-١٠٥).

[الأعراف:١٤٣] هذا الجبَلُ العَظيمُ الذي لا تَدُكُّه القنابل صار دَكًّا بمُجَرَّد أنَّ الله تَجلَّى له، ولهذا خَرَّ موسى صَعِقًا، عجَز أن يَتحَمَّل المَوْقِف فَضْلًا عن رُؤْية الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ.

فالمُهِمُّ: أنَّ الآية الآنَ فيها دليلٌ عليهم؛ لأن مُوسى إنما سأَل الرُّؤية في الدنيا لا في الآخِرة، ثُم إنَّ مُوسى سأَل الرُّؤْية وأنتُم تَقولون: رُؤْية الله مُستَحيلة، إذَنْ أَنتُم أَعلَمُ بالله من موسى، يَعنِي: إمَّا أن تَكونوا أعلَمَ بالله من موسى؛ لأن موسى سأَل شيئًا مُستَحيلًا، يَرَى أن الله يُرَى، لكن البَشَر لا يَتحَمَّلون ذلك؛ فإمَّا أن يَكون جاهِلًا بقَدْر الله، وأنتم عَالِمُون به، وإمَّا أن يَكون مُعتَدِيًا على الله؛ حيث سأَل ما لا يَحِلُّ له سُؤاله.

فأَقول لكم يا إخواني: مَن قال: إن البِدَع لا تُدفَع إلَّا بالسُّنَّة، أو لا يَتِمُّ دَفْعها إلَّا بالسُّنَّة، فقد أَخطَأ، وهذا يَدُلُّ على قُصور فَهْمه للقُرآن، أو على تَقصير في تَفهُّم القُرآن، وإلَّا فالقُرآن نفسه لا يُمكِن أن يُوجَد بِدْعة إلَّا رَدَّ عليها أَبَدًا، ولو لم يَكُن من ذلك إلَّا قوله: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١]، هذه الآيةُ قاضِية على كل بِدْعة، فكلُّ بِدْعة تَبطُل بهذه الآيةِ، سواء كانت عَقَدية أو قَوْلية أو فِعْلية.

مسألةٌ: التَّقلِيد في التَّفسير يَعنِي: أن يُمسِك بتَفْسير ابن كثير، أو غيره من العُلَماء، هذا تَقْليد؛ لكن أنا أُريد التَّفْسير المُجتَهِد، أمَّا مَن لم يَجِد إلَّا مَيْتة فيَأكُل مَيْتة للضَّرورة؛ ولهذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَنبَغي أن نَعلَم أن التَّقليد بمَنزِلة أَكْل المَيْتة إن اضْطُرِرْتَ إليها فقَلِّدْ»[1]. وإلَّا فاجتَهِد أَدْلِ إلى البِئْر بمِثْل ما أَدْلى به الناس، أَدْلِ بِدَلْوك.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٠٣-٢٠٤)، وإعلام الموقعين لابن القيم (٢/ ١٨٥).

والحَقيقة أنَّ التَّقليد لا يَجوز إلَّا عِند الضَّرورة وعِند العَجْز، وإلَّا مَن أَمكَنه أن يَأخُذ الأحكام أو العقائِد من كِتاب الله وسُنَّة رسوله فلْيَفعَل؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقول: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥] هذه تَحتاج إلى جَوابٍ، ولولا قول الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، لقُلْنا: يَجِب على كل إنسان أن يَجتَهِد، وأن يَأخُذ الحُكْم من القُرآن والسُّنَّة، لكن الحَمد لله وَسَّع الله علينا، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وإلَّا لقُلْنا: كُلُّ واحِد يَجِبُ أن يَأخُذ من الكِتاب والسُّنَّة؛ لأننا سنُسأَل عن القُرآن والسُّنَّة.

مسألة: ما هي أَفضَلُ كتُب التَّفْسير التي تَمشِي على القَواعِد التي ذكَرت، حتَّى يَتبَيَّن للطالِب ويَتمَرَّن عليها؟

الجَوابُ: أحسَنُ شيء فيما أَرَى من التَّفاسير التي تَعتَني بالأثَر، تَفسير ابن كَثير، من أَحسَن ما يَكون من الكتُب التي تَعتَمِد على التَّفْسير بالأثَر، لكن القُرآن -سُبْحان الله- واسِع، لوِ اجتَمَع الناس كلُّهم على أن يُدرِكوا مَعناه ما استَطاعوا، تَجِد مثَلًا هذا يَبحَث في القُرآن من النَّاحِية اللُّغَوية، وهذا من الناحِية العَقَدية، وهذا من الناحِية الفِقْهية، وهذا من ناحِية البَلاغة، فهناك عُلوم شَتَّى كَثيرة في القُرآن الكَريم، ابنُ كثير مثَلًا في الأَثَر لا شكَّ أنه جيِّد، لكن في كثير من أُمور اللُّغة يَكون قاصِرًا، أيضًا في استِنْباط الأحكام قَليل جِدًّا أن يَتكَلَّم في الأَحْكام، نَجِد مثَلًا القُرطبيَّ يَعتَني بالأحكام، ويُفرِّع الآية وما أَشبَه ذلك.

المُهِمُّ: كل عالِمٍ له مَنهَج في تَفْسير كلام الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائِل: إذا كان القُرآن الكَريم تَفسيره مَبنيٌّ على اللُّغة، هل نَقول:

إن وجهَ تَفسير القُرآن باللُّغة هو الوَجهُ الصحيح؟

فالجَوابُ: إذا وجَدْنا كلِمة لم تُفسَّر بالقُرآن ولا بالسُّنَّة، ولا بأَقْوال الصَّحابة، فنَرجِع إلى اللغة؛ لأن القُرآن -كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥] ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ [الزُّخرُف:٣] أي: صيَّرْناه ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: باللُّغة العرَبية ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ انظُرِ الآياتِ الثانية ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ [الشعراء:١٩٨-١٩٩] أَكمِل ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾؛ لأَنَّهم لا يَفهَمون مَعناه.

فإن قال قائِل: قُلتُ: إن مَن فسَّر القُرآن برَأْيه، ولو كان من العُلَماء كيف نَجمَع بين هذا وحديث النَّبيِّ ﷺ: «إذا اجتهد فأَصاب...» إلخ[1].

فالجَوابُ: إذا اجتَهَد، والذي يُفسِّر القُرآن برَأْيه لم يَجتَهِد، وأنا ضرَبْت لكم عِدَّة أمثِلة من التَّفْسير بالرأي، ليس مَعنَى التفسير بالرَّأْي أنْ تُفسِّر القُرآن حَسب ما تَقتَضيه اللُّغة العرَبية، التَّفسير بالرَّأي أَنْ تَحمِل مَعنى القُرآن على رَأْيك، وهذا إنما يَكون في المُتعَصِّبين لمَذاهِبهم، الذين يُحاوِلون أن يَلْووا أعناق النُّصوص إلى ما كانوا عليه.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (٧٣٥٢)، ومسلم: كتاب الحدود، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (١٧١٦)، من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سورةُ غافر

سورة غافِر هي مَكِّيَّة، وكل السُّوَر المُبتَدَأَة بحروف الهِجاء مَكِّية إلَّا البقَرةَ وآلَ عِمران.

والمَكِّيُّ ما نزَل قبل الهِجرة، وما نزَل بعدها فهو مدَنيٌّ، هذا هو أَرجَحُ الأقوال حتى وإن نزَل بمكَّةَ.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ البَسْملة: آية من كِتاب الله عَزَّوَجَلَّ مُستَقِلَّة، ليست من السُّورة التي قبلَها، ولا من السورة التي بعدَها، ولكن يُؤتَى بها في ابتِداء السور، إلَّا سورة واحِدة وهي سورة بَراءة، فإنه لم يَرِد عن النَّبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- أنه جعَل فيها بَسْملة، ولهذا ترَكها الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بدون بَسمَلة؛ لعدَم ثُبوت ذلك عن رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

وأمَّا ما قيل: إنها تُرِكَت بلا بَسمَلة؛ لأنها نزَلَت بالسيف؛ فإنه قول باطِل، ليس هذا هو السبَبَ، والسَّيْف إذا كان رحمة فإنه غَنيمة، ومعلوم أن السَّيْف على الكُفَّار رحمة، يُقصَد به إعلاء كلِمة الله عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ البَسمَلة جُمْلة ليس فيها فِعْل ولا اسم فاعِل، لكنها جارٌّ ومَجرور، ومُضاف، ومُضاف إليه، وصِفة ومَوْصوف.

الجارُّ: هو الباء، والمَجرور اسم، والمُضاف اسم، والمُضاف إليه لفظ الجَلالة، ومَوْصوف وهو الله، وصِفة وهو الرحمن الرحيم، فأين المُتعلَّق؛ لأنه لا بُدَّ لكل جارٍّ

ومجرور، أو ظَرْف، لا بُدَّ له من مُتعلَّق، كما قال ناظِم الجمل[1]:

لَا بُـــدَّ لِلْجَـــارِّ مِـــنَ التَّعَلُّـــقِ بِفِعْـــلٍ اوْ مَعْنَـــاهُ نَحْـــوَ مُرْتَقِـــي

وَاسْـــتَثْنِ كُـــلَّ زَائِـــدٍ لَـــهُ عَمَـــلْ كَالْبَاءِ وَمِنْ وَالْكَـافِ أَيْضًـا وَلَعَـلْ

فأين مُتعلَّق البَسمَلة؟

أحسَنُ ما يُقال: إن مُتعلَّقها فِعْل مُتأخِّر مُناسِب لما ابتُدِئ بالبَسمَلة من أَجْله، فنحن الآنَ نُريد أن نَقرَأ فنقول: المُتعلَّق تَقديره: باسم الله أَقرَأ، نُريد أن نَتوضَّأ نَقول: التقدير، باسم الله أَتوضَّأ، نُريد أن نَذبَح نَقول: التَّقدير، باسم الله أَذبَحُ، وإنما قدَّرناه فِعْلًا لا اسم فاعِل؛ لأنَّ الأصل في العمَل هو الفِعْل، وإنَّما قدَّرناه مُتأخِّرًا لوجهين:

الوَجْه الأوَّل: التَّيمُّن بالبَداءة باسم الله.

والثاني: إفادة الحَصْر؛ لأنَّك إذا أَخَّرت العامِل وقدَّمت المَعمول كان ذلك دَليلًا على الحصر، إذ إنَّ القاعِدة المَعروفة في البلاغة هي أن تَقديم ما حقُّه التَّأخير يُفيد الحَصْر، وإنما قدَّرناه مُناسِبًا لما ابتُدِئ به؛ لأنَّه أدلُّ على المَقصود، فمثَلًا لو قلت: إنَّ التقدير باسم الله أَبتَدِئ. صحَّ، لكن أَبتَدِئ بأي شيء؟ فإذا قلنا: نُقدِّره فعلًا خاصًّا مُناسِبًا لما ابتُدِئ به، صار ذلك أدلَّ على المَقصود، ومعلوم أنَّ ما كان أدَلَّ على المقصود كان أبينَ في المُراد.

فيه أيضًا وجه آخرُ تَبيَّن لنا، وهو أنك إذا قلت: باسم الله أَبتَدِئ صارت البَسملة على الابتِداء فقَطْ، إذا قلت: باسم الله أَقرَأ، صارت البسملة على كل الفِعْل، وهذه فائِدة أَكبَرُ بكثير من مُناسَبة التَّعيين، إذا قلت: باسم الله أَبتَدِئ صارت البَسمَلة على

(١) انظر: كشف النقاب على نظم قواعد الإعراب للسعدي (ص:٥٧).

الابتِداء فقَطْ، إذا قلت: باسم الله أَقرَأُ، صارَت البَسمَلة على كل الفعل، وكذلِك باسم الله أتوضَّأ صارَت البَسملة على كُل الفِعل من أوله إلى آخره، بخِلاف ما إذا قُلت: باسم الله أَبتَدِئ. فإن البَسملة تكون على الابتِداء فقَطْ.

هذا هو إعرابُ هذه البَسْملة.

أمَّا مَعناها: فإن (اسم) مُفرَد مُضاف، وكلُّ مُفرَد مُضاف فإنه للعُموم، أَرأَيْتم قول الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨]؟ فإنَّ ﴿نِعْمَةَ﴾ مُفرَد مُضاف لكن ليست نِعمة واحِدة؛ لأنَّ النِّعمة الواحِدة تُحصَى، لكنَّها نِعَمٌ كَثيرة، فتَشمَل كلَّ ما أَنعَم الله به على العَبْد، إذا كان المُفرَد المُضاف يُفيد العُموم فما مَعنى قولنا: بسم الله الرحمن الرحيم؟ مَعناها: بكلِّ اسمٍ من أسماء الله أَفعَل كذا وكذا، بكلِّ اسمٍ، فتكون أنت الآنَ مُستَعينًا بكل اسمٍ من أسماء الله على هذا الفِعْلِ الذي بَسْمَلت من أَجْله.

وأمَّا (اسم) فقيل: إنه مُشتَقٌّ من السُّموِّ، وهو الارتِفاع؛ وذلك لأن الاسم يَرفَع المُسمَّى ويُبيِّنه، وقيل: إنه مُشتَقٌّ من السِّمة، وهي العَلامة، قال الله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾؛ أي: عَلامتهم في وجوههم، وأيًّا كان فالاسمُ يُعيِّن مُسمَّاه، ويُميِّزه من غيره.

وأسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غيرُ مَحصورة بعدَد، كما جاء في الحديث الصَّحيح: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأمَّا (الله) فهو علَمٌ على الذات المُقدَّسة العَليَّة، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال النَّحويُّون: «وهو أَعرَف المَعارِف» أَعرَف المَعارِف هو هذا العَلَمُ، وقد رتَّبوا المَعارِف بأن أَعرَفَها: الضميرُ، ثُمَّ الأَعلامُ، لكن هذا العَلَم هو أَعرَفها؛ إذ لا تُحتَمَل المشاركة فيه، وغيره من المَعارِف يُمكِن المُشارَكة فيه.

وأمَّا قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فهو اسمٌ من أسماء الله دالٌّ على الرحمة الواسِعة؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ اسمٌ من أسماء الله دالٌّ على الرحمة التي تَقَع بالفِعْل، فالرحمن للوَصْف، والرحيم للفِعْل، يَعنِي: أنه رَحْمن يَرحَم، وبذلك تَبيَّن فائِدة الجمع بينهما، فإن فائِدة الجَمْع بينهما هو الدَّلالة على أن رحمة الله واسِعة، وذلك في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ لأنَّ فَعْلان يَدُلُّ على الامتِلاء والسَّعة، كما تَقول: شَبْعان، ورَيَّان، وما أَشبَهَها، وأمَّا ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فهو باعتِبار الفِعْل، أي: إيصال الرَّحْمة إلى مَن قدَّر الله أن يَرحَمه.

والبَسْملة لها أَحْكام:

منها أنَّها تَكون أحيانًا شَرْطًا في الحِلِّ؛ كالتَّسمية على الذبيحة، فإنَّ التَّسمية على الذبيحة شَرْط لحِلِّها، حتى إنه لو ترَك التَّسمية ولو نِسيانًا لم تَحِلَّ الذَّبيحة.

وقد تَكون واجِبةً لا شَرْطًا كما في الوُضوء عند بعض العُلَماء، فإنَّ التَّسمية في الوُضوء واجِبة، ولكنها ليسَتْ شَرْطًا للصِّحة، إذ لو ترَكها نِسيانًا صحَّ وُضوؤُه، وقد تَكون مُستحَبَّة في كل أَمْر ذي شأن، كما جاء في الحديث: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي شَأْنٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ الله فَهُوَ أَبْتَرُ» أو: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ -يَعنِي: ذي شَأْن مُهِمٍّ- لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ الله فَهُوَ أَبْتَرُ»[1]، أي: مَنزوع البرَكة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «بذكر الله».

ولهذا كان النَّبيُّ ﷺ يبتَدِئ بها في المُكاتَبات إلى المُلوك وغيرهم، وكذلك الأَنْبياء من قَبله، كما جاء في القُرآن الكريم: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل:٣٠-٣١].

الآيات (١-٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر:١-٣].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿حمٓ﴾ هذه كلِمة مُكوَّنة من حَرْفَيْن مُهمَلين هِجائِيَّين: الحاء، والميم. ولهذا نَنطِق بها باسمِها لا بلَفْظها، فلا نَقول: حَمْ. بل نَقول: «حامِيم» باسمِها، فهما إِذَن حَرفان مُهمَلان هِجائِيَّان يَتركَّب منهما كلام الناس، فهل لهذَيْن الحرفَيْن معنًى؟

يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: [الله أَعلَمُ بمُراده به] يَعنِي لا نَدرِي ماذا أَراد، هل أَراد إثبات معنًى، أم لم يُرِد إثبات معنًى، وهل أراد مَعنًى مُعيَّنًا أم ماذا؟

المُهِمُّ: أننا نُفوِّض، فمَوقِفنا من هذا التَّفويضِ كغيره من الحُروف الهِجائية التي ابتُدِئَت بها بعض السُّور.

ولكن مُقتَضى كون القُرآن باللسان العرَبيِّ أن نَقول: إنَّهما حَرْفان هِجائِيَّان مُهمَلان ليس لهما مَعنًى، يَعنِي نَجزِم بأنه لا معنَى لهما؛ لأن القُرآن نزَل باللغة العربية، واللغة العرَبية لا تَجعَل للحروف الهِجائية مَعنًى، وهذا مَرويٌّ عن مُجاهِدٍ[2] إمام

(١) المقصود بـ(المفَسِّر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رحمه الله تعالى، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧٠).

المفَسِّرين في زمانه، زمَن التابِعين.

وهو الحـقُّ؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

فإن قال قائِل: يَرِد على هذا القولِ أنَّ في القُرآن ما ليس له مَعنًـى، وليس له فائِدةٌ، وإنَّما هو حروف مُقطَّعة ليس لها فائِدة!!.

قلنا: الجَوابُ عن هذا الإيرادِ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تكلَّم بذلك لَمغزًى لا لَمعنًى؛ أي: لِحِكْمة بالِغة، وهي أنَّ هذا القُرآن الذي أَعجَزكم أيُّها البُلَغاء من العرب لم يَكُن أَتَى بشَيْء جديد من حروف، بل أَتَى بالحروف التي تُركِّبون منها كلامكم، ومع ذلك أَعجَزكم، فعجَزْتم عن صَفِّ الحروف حتى تَكون مثل القُرآن، فإذا كُنْتم عجَزْتم عن ذلك، فعَجْزُكم عن معنَى هذه الكلِماتِ من بابِ أَوْلى.

وهذا الذي ذكَرَه الزَّمخشريُّ[1] في تفسيره وارْتَضاه شيخ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ وذكَره أيضًا إمَّا ابتِداءً أو تَقليدًا.

المُهِمُّ: أنَّ هذا هو الصوابُ عند المُحقِّقين، وهو أن الله تعالى أَنزَلها لتَمام التَّحدِّي لهؤلاء البُلَغاءِ الذين عجَزوا أن يَأتوا بمِثل القُرآن، أو بمِثل بعضه، وأيَّدوا قولهم هذا بأن الله تعالى لم يَبتَدِئ سورة بحروف هِجائية إلَّا ذكَر بعدَها القُرآن إلَّا نادِرًا.

فإن قال قائل: ما نَقول في الحُروف المُقطَّعة هذه في أوائل السُّوَر، هل تَدخُل فيما قال ابن عبَّاسٍ[3] أن القُرآن أربعة أقسام: القِسْم الرابع أنه ما لا يَعلَمه إلَّا الله؟

---

(١) الكشاف (١/ ٢٦).

(٢) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٧١).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ٢٥٣).

فالجوابُ: لا، هذه تَدخُل على رأْيِ المفَسِّر، أمَّا على القول الذي رجَّحنا فإنَّه مَعلوم أنه ليس لها مَعنًى، يَعنِي ممَّا يَدخُل تحت عِلْمنا أنه ليس لها مَعنًى.

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر:٢].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ القُرآن، مُبتَدَأ] يَعنِي: المُراد بالكِتاب هنا القُرآن، مع أنَّ الكِتاب اسم جِنْس يُحتَمَل أن تكون فيه (أل) للجِنْس، فيَشمَل كل كِتاب، ولكن الظاهِر ما ذهَبَ إليه المفَسِّر؛ لأنَّ المَقصود بذلك تَقرير كون هذا القُرآنِ الذي نَزَل على المُكذِّبين من عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: [مُبتَدأٌ] يُريد قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾؛ أي: أنَّها مُبتَدَأ، والمُبتَدَأ يَحتاج إلى خبَر، والخبَر قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ ولهذا قال المفَسِّر: [﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبَرُه] تَنزيل الكِتاب من الله لا من غيره.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في مُلْكه ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بخَلْقه] العَزيز: ذو العِزَّة، وقد سبَق أن عِزَّة الله تَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام:

١- عِزَّة القَدْر.

٢- وعِزَّة القَهْر.

٣- وعِزَّة الامتِناع.

وهو كذلك في كل مَوضِع جاء فيه «العَزيز» فهذا هو مَعناه، أي: أنَّه ذو عِزَّة.

أمَّا عِزَّة القَدْر: فمعناها: أنه ذو شَرَف وسيادة.

وأمَّا عِزَّة القَهْر فمَعناها: أنه ذو غلَبة وسُلْطان.

وأمَّا عِزَّة الامتِناع: فمَعناه: أنه ذو امتِناع عن كل نَقْص وعَيْب.

وقد سبَقَ الاستِشْهاد على هذه المعانِي الثلاثة وبيان اشتِقاقها؛ فيَكون قولُ المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في مُلْكه] فيه قُصور؛ لأنَّه جعَله بمَعنى الغالِب فقَطْ، والصواب ما ذكَرْنا لكم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بخَلْقه] والعليم أي: ذو العِلْم، وعِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس بمَحدود لا أوَّلًا، ولا آخِرًا، ولا مِقدارًا، فعِلْم الله تعالى واسِعٌ شامِلٌ لكل شيءٍ، عِلْم الله تعالى أزَلِيٌّ؛ أي: لم يَسبِقْه جَهْل، عِلْم الله تعالى أبدَيٌّ؛ أي: لا يَلحَقه نِسْيان، فصار عِلْم الله تعالى واسِعًا شامِلًا زمَنًا وكيفًا، زمَنًا أي: في المُستَقبَل وفي الماضي، وكيفًا أي: أنَّه شامِل لكُلِّ ما من شأنه أن يُعلَم.

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر:٣].

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ للمُؤمِنين ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ لهم ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ للكافِرين]، قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ الغَفْر هو السَّتْر مع الوِقاية، ومنه المِغفَر: ما يُوضَع على الرأس عند الحَرْب؛ لاتِّقاء السِّهام، ومعلومٌ أنَّ المِغفَر ساتِر، فهو جامِع بين السَّتْر والوِقاية، والذَّنْب: المعصية، يُقال: أَذنَب الرجُل. إذا عصى، ومَعنَى غافِر الذَّنْب؛ أي: ساتِره المُتجاوِز عنه.

وقول المفَسِّر: [للمُؤمِنين] فيه نظَر واضِح؛ لأنَّ مَغفِرة الذَّنْب شامِل للمُؤمِنين وغير المُؤمِنين، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]، فهو غافِر الذَّنْب لكلِّ مَن تاب إلى الله وسأَلَ المَغفِرة.

وقوله: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ قابِلُه: مَعناها: أن مَن تاب إلى الله قَبِلَ الله توبَتَه، و﴿ٱلتَّوۡبِ﴾ بمعنى: الرُّجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ من مَعصيته إلى طاعته.

وقال المفسِّر: [لهم] أي: للمُؤمِنين، وهذا أيضًا ليس بصحيح، فالتَّوْبة مَقبولة من المُؤمِنين والكافِرين، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن المُشرِكين: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة:١١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٧-١٨].

فقال: ﴿يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ إِذَنْ: لو تابوا قَبْل ذلك لقُبِلت، فتَبيَّن بهذا أن ما ذهَب إليه المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تَخصيص ذلك بالمُؤمِنين يُعتبَر قصورًا.

قال: [مَصدَر] ﴿وَقَابِلِ﴾ اسم فاعِل، إِذَنْ فالمَصدَر هو ﴿ٱلتَّوْبِ﴾.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ للكافِرين] كأنَّ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خصَّ الغافِر والقابِل بالمُؤمِنين؛ لقوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾؛ لأن شِدَّة العِقاب إنَّما هي للكافِرين، ولكنَّ في هذا نظَرًا؛ لأنَّ المَقصود هنا ذِكْر صفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه جمَع بين الفَضْل والعَدْل، بين الفَضْل في كونه غافِرَ الذَّنْب وقابِل التوب، والعَدْل في كونه شَديدَ العِقاب؛ لأنَّ شِدة العِقاب من الله عَزَّوَجَلَّ لمَنِ استَحَقَّها عَدْل، إذ إنَّ الله أَخبَرنا وبيَّن لنا أنَّ مَن فعَل كذا عاقَبَه بالعُقوبة الشديدة، فإذا فعَل الإنسان ما تُوعِّد عليه بالعُقوبة الشَّديدة فهو الذي اختار لنَفْسه هذا، فيَكون مُعامَلة الله له به تَكون عَدْلًا.

وقوله: [أي: مُشَدِّدُه] وليُنْتَبه لهذا التَّفسيرِ! فقَد عَدَل عن ظاهِر الآية التي تُفيد أنه نفسه شَديد العقاب؛ لأنهم -الأشاعِرة- يَنفون الصِّفاتِ، والتَّشديدُ فِعْل بائِن عن الله عَزَّوَجَلَّ، فهي مِثْل القادِر، يَعني تَعود الصِّفة على مَذهَب الأشاعرة إلى القُدْرة،

وتَعود على مَذهَب الماتُريدية إلى الخَلْق؛ لأن الماتُريدية يُثبِتون الخَلْق والتَّكوين بخِلاف الأشاعِرة.

فلنَنظُرِ الآنَ: فعلَى كلام المفَسِّر تكون ﴿شَدِيدِ﴾ بمَعنى مُشدِّد، ولنا أن نُطالِب فنَقول: هل «فَعيل» تأتي بمَعنى «مُفعِل»؟ الجوابُ: نعَمْ، تَأتي «فعيل» بمَعنى مُفعِل كقول الشاعِر:

أَمِــنْ رَيْحَانَــةَ الــدَّاعِي السَّــمِيعُ يُــؤَرِّقُنِي وَأَصْــحَابِي هُجُــوعُ[1]

«السَّميع» هنا بمَعنى المُسمِع، «الداعِي» الذي يُسمِعه، «يُؤرِّقُني» فلا أَنام، «وأَصحابي هُجوع» نائِمون.

فمن حيثُ اللَّفْظ لا اعتِراضَ على المفَسِّر؛ أي: من حيثُ جَعْله (فعيل) بمَعنَى (مُفعِل) لا اعتِراضَ عليه؛ لأن ذلك وارِد في اللغة العرَبية، لكن من حيثُ المَعنَى فيه نظَر؛ لأن ظاهِر قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾، أنه هو نَفسُه عِقابُه شديد، وهو كذلك، فإذا كان العِقاب شَديدًا لزِمَ أن يَكون الألَمُ -ألَمُ مَن عُوقِب- شديدًا أيضًا، والعِقاب مَأخوذ من المُعاقَبة، وهي المُجازاة، وسُمِّيَت المُجازاة عِقابًا؛ لأنها تَعقُب العمَل، لكنها تُذكَر غالِبًا فيما يَسوء لا فيما يَسُرُّ.

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر:٣].

قوله: ﴿ذِى﴾ بمَعنَى صاحِب، وهي مَجرورة بالياء نِيابةً عن الكَسرة؛ لأنَّها من الأسماء الخَمسة.

---

(١) البيت لعمرو بن معدي كرب (ت٢١هـ)، انظر: الأصمعيات (ص:١٧٢)، الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣٦٠).

و﴿ٱلطَّوْلِ﴾ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: الإنعام الواسِع] هذا الطَّوْلُ، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء:٢٥] إلى آخِره؛ فالطَّوْل هو الغِنَى الواسِع، ومن تَمام الغِنَى أن يَكون مُنعمًا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنعِم، واسِع الغِنى.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ وهو مَوْصوف على الدوام بكُل من هَذه الصِّفاتِ، فإضافة المُشتَقِّ منها للتَّعريف كالأخيرة] فيه عِدَّة صِفات ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ هذه أربَعة، والأَخيرة غيـر مُشتَقَّة، فإنَّ ﴿ذِى﴾ بمَعنى صاحِب غيـر مُشتَقَّة، لكنَّها مُؤوَّلة بمُشتَقٍّ، أمَّا ما قبلها ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾، ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾، ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾، فهي مُشتَقَّة، ووَصْف؛ ولهذا جاءت باسم الفاعِلِ، وجاء «الغَفورُ» الذي هو اسمُه على صيغة المُبالَغة.

وجعَل المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الصِّفاتِ لا يُراد بها إثبات المَعنى المُشتَقِّ منه، ولكنها للتَّعريف فقَطْ، ولا يَخفَى ما في هذا الكلامِ من القُصور التامِّ، فكيف نَجعَل المُشتَقَّ لمُجرَّد التَّعريف؟ كيف نَقول: إن ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ المُراد بذلك التَّعريفُ بالله عَزَّوَجَلَّ، لا أنه غافِر، ولا أنه قابِل، ولا أنه شديد العِقاب؟! فهو قاصِر جدًّا، ولا يَصِحُّ أن نُفسِّر كلام الله تعالى بهذا الكلامِ، بل نَقول: ﴿غَافِرِ﴾ مُشتَقٌّ من الغَفْـر، وهو صِفة مَقصودة، ليس المَقصود بها التعريف، وكذلك نَقول في ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾، وفي ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾.

وقول المفَسِّر: [مَوْصوف على الدوام بكُلٍّ من هذه الصِّفاتِ] قال ذلك هرَبًا من إثبات صِفات الأفعال، فانتَبِهْ لأنك إذا قلت: غافِر بمَعنَى يَغفِر، صارت صِفة فِعْل يَتعلَّق بالمَشيئة!. وعند الأشاعِرة وغيرهم من المُتكلِّمين يَمتَنِع أن يُوصَف الله

تعالى بوَصْف هو فِعْل، لا يُمكِن، قالوا: لأن الفِعْل يَدُلُّ على الحُدوث، والحُدوث لا يَكون في القديم، لا يَكون الحُدوث إلَّا لحادِث!.

وقد سبَق لنا بيانُ بُطلان هذا القَوْلِ، فالصَّواب إِذَنْ: أنَّ ﴿غَافِرِ﴾ ﴿وَقَابِلِ﴾ صِفتان من صِفات الأفعال، وأمَّا ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ فهي أيضًا صِفة من صِفات الأفعال؛ لأن التَّقدير: عِقابُه شديد، فهو من باب إضافة الصِّفة إلى مَوْصوفها؛ أي: أن عِقابه شديد، فتكون كما سبَق من الصِّفات الفِعْلية.

وأمَّا ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ فإذا قلنا: إن مَعناه ذي الغِنَى الواسِع، فهي من صِفات الذات، وإذا قلنا: إنَّها بمَعنَى الإنعام الواسِع؛ فهي من صِفات الأفعال.

فإن قال قائِل: هل ﴿شَدِيدِ﴾ صِفة فِعْل لله عَزَّوَجَلَّ؟

فالجوابُ: لا هي صِفة لفِعْله، ليسَتْ صِفة فِعْل، وإنما هي صِفة لفِعْل الله، يَعنِي نفس العِقاب شديد، وهو جَعلها مُشدِّدًا شيئًا مُنفصِلًا عن الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قيل: عِقاب الله منه النار، فكأنها هي التي وُصِفَت بالشِّدة، فكيف وصَفنا بها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

فالجوابُ: هو نفسه شديد العِقاب، أنا مثَلًا إذا قلت: فُلان قَويُّ الضَّرب. يَعني ضَرْبه الواقِع منه قويٌّ، والعِقاب الواقِع منه شديد، والمَوْصوف الله عَزَّوَجَلَّ شِدَّة عِقابه هو، أمَّا المُعاقَب به فهذا شيء آخَرُ، فعندنا عِقاب ومُعاقَب به ومُعاقَب وارِد عليه العِقاب، فإذا عاقَبت شخصًا بالضرب فهذا الضربُ مُعاقَب به، وأمَّا ضَرْب الضارِب فهو وَصْفه الذي هو عِقابه.

فإن قال قائِل: قلنا: إن المفَسِّر يَتهَرَّب من إثبات الصِّفات الفِعْلية، ثُم هو قال

هنا: [ذي الطَّوْل الإنعام الواسِع، وهو مَوْصوف على الدوام بكُلٍّ من هذه الصِّفات]. فهو هنا أثْبَت الصِّفات؟

فالجَوابُ: أي لكن على أنَّها صِفات ذاتِية، ثُم إنَّ المفَسِّر أيضًا لاحَظَ شيئًا آخرَ من جهة النَّحْو، وهو أن ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ و﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ و﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ هذه صِفات مُضافة، وإضافتها ليست مَحْضة، بل إضافتها إضافة لَفْظية، والإضافة اللَّفْظية لا تَقتَضي التعريف.

فإن قال قائل: لكن سَمَّاها صِفاتٍ!.

فالجوابُ: لا مُخالفةَ، هي صِفات لكن ما قصَده؟ انظُرْ عِبارة المفَسِّر: [وهو مَوْصوف على الدوام بكُلٍّ من هذه الصِّفات] إذا كان موصوفًا بها على الدوام فتكون صِفاتٍ ذاتيةً. ثُم يَقول: [فإضافة المُشتَقِّ منها للتَّعريف كالأخيرة] المُشتَقُّ: ﴿غَافِرِ﴾ و﴿وَقَابِلِ﴾ و﴿شَدِيدِ﴾، يَقول: للتَّعريف، يَعني أن إضافتها أَفادَت التَّعريف كالأخيرة: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾ فإن هذه الإِضافةَ أَفادَتِ التَّعريف لا شَكَّ؛ لأنها إضافة اسمٍ جامِد إلى مَعرِفة، فيَكون مَعرِفة.

واسم الفاعِل واسم المَفعول والصِّفة المُشبَّهة إذا أُضيفت فإنها لا تُفيد التعريف، ويُسمُّون هذه الإضافةَ: إضافةً لَفْظية، لا مَعنَوية، وبعضُهم يَقول: مَحْضة، وغير مَحْضة، وأَتَى المفَسِّر بهذا الكلامِ؛ لأنه يُورَد عليه مَسألة: «الله العزيز العليم»، فهذه مَعارِف، وإذا قلنا: غافِر صِفة لله. وقُلنا: إن إضافَتها لَفْظية، ورَدَ علينا إشكالٌ، الإضافة اللَّفْظية لا تَقتَضي التعريف، فتكون الصِّفة نكِرة وُصِفَ بها مَعرِفة، ووَصْف المعرفة بالنكِرة غير جائِز.

ولا يَجوز أن تَقول: جاء زَيْد فاضِل. يَجِب أن تَقول: جاء زَيْد الفاضِلُ. فإذا كانت الإضافة في ﴿غَافِرِ﴾ و﴿وَقَابِلِ﴾ و﴿شَدِيدِ﴾ لا تُفيد التعريف، وأَعرَبْناها على أنَّها صِفة، فصار في هذا إشكال، وهو أننا وصَفْنا مَعرِفة بنكِرة، وهذا غير جائِز، فأَراد المفَسِّر أن يُصحِّح المَوْضوع فقال: إن هذه الصِّفاتِ لا يُراد بها الحُدوث، وإنَّما هي صِفات على الدوام، وإذا كانت الصِّفات على الدوام خرَجَت عن مُشابَهة الفِعْل، وصارَت الإضافة للتَّعريف؛ لأَجْل أن يَصِحَّ وَصْف اسم الجلالة، أو لفظ الجلالة بهذه الصِّفاتِ لَمَّا كانت إضافتُها مَحْضة مَعنَوية.

لكنْ للمُعْرِبين قول آخَرُ، بل قول ثالِث: في القول الآخَر يَقولون: إن ﴿غَافِرِ﴾ و﴿وَقَابِلِ﴾ و﴿شَدِيدِ﴾ بدَل من الله، والبدَل لا يُشتَرط فيه مُوافَقة المُبدَل منه، لكن القول بأنها بدَل غيرُ صحيح؛ لأن عَلامة البدَل أن يَحِلَّ مَحَلَّ المُبدَل منه، وهذا لا يَصِحُّ، هذا وَصْف زائِد على المَوْصوف.

وهناك رَأْيٌ ثالِث لإخواننا الكَوْفيِّين المُيسِّرين يَقولون: يَجوز أن تُنعَت المعرِفة بمِثل هذا التركيبِ، ولو كانت الإضافةُ لفظيةً غيرَ مَحْضة. يَعني يَقولون: ما أُضيف إلى المَعرِفة ولو كانَت الإضافة غيرَ مَحْضة يَجوز أن يَكون نَعْتًا للمَعرِفة اعتِبارًا باللفظ؛ لأن لَفْظ: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ مَعرِفة؛ لأنه أُضيف إلى مَعرِفة، وإن كانَتِ الإضافة عِنْدهم غير حقيقية، وإنَّما هي لَفْظية.

فالنَّحويُّون يَقولون: لا يُهِمُّ لفظية أو مَعنَوية، ما دام ظاهِر اللفظ مُنسجِم الصِّفة مع المَوْصوف، فهذا يَكفِي.

والقاعِدة المُتَّبَعة عندنا فيما إذا ورَد خِلاف بين النَّحويِّين أن نَتَّبِع الأسهَل اقتِداءً بالرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أنه ما خُيِّر بين أَمْرين إلَّا اختار أَيسَرَهما ما لم يَكُن إثمًا.

ونحن لا نَأثَم إذا اتَّبَعْنا الكُوفيين في رَأْيهم؛ لأنها ليست مَسائِلَ شرعية؛ فعَلى رَأْيِ الكوفِيِّين لا حاجةَ إلى كلام المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فنَقول: الإضافة لَفْظية، لكن صورتها أنها إِضافة مَعنَوية؛ لأنها أُضيف إلى معرِفة، فصحَّ أن يُوصَف بها المَعرِفة؛ وهذا البَحثُ لا يُدرِكه الإنسان تمامًا إلَّا إذا عرَف أن الإضافة نَوْعان: مَحْضة مَعنَوية، ولفظية غير مَحضَة.

مَسْألةٌ: كيف نَجمَع بين القول بأنَّ أسماء الله تعالى لا تُحصى، وبين قول النبيِّ ﷺ: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»[1]؟

فالجَوابُ على ذلك أن نَقول -إذا كان السائِل مُستَفهِمًا فقل: الجَوابُ على ذلك، وإذا كان مُورِدًا أي مُناقِضًا، فقل: الجوابُ عن ذلك؛ ولهذا يَكون «الجواب عن ذلك» في مَقام الرَّدِّ على مَن اعتَرَض عليك، و«الجواب على ذلك» في جواب مَنِ استَرشَد-: أن كلام النبيِّ ﷺ ككَلام الله لا يَتَناقَض أبدًا، فإذا كان قد ثبَتَ عنه أنه قال: «أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»[2] علِمنا أن من أسماء الله ما لا يُمكِن الوصولُ إليه، ولا يُمكِن إدراكُه؛ لأن ما استَأثَر الله به لا يُمكِن أن نَعلَمه، فحينَئِذ يَتعيَّن أن نَقول: إن مَعنى قوله: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ» أي: من أسمائه تِسعة وتِسعين مَن أَحصاها دخَل الجَنَّة، فتكون جُملة «مَنْ أَحْصَاهَا» وصفًا لكلمة «اسْمًا»، وليست جُملةً مُستقِلَّة مُستَأنفة، تَكون معنى «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا» مَوْصوفة بأن «مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»، وله أسماءٌ أخرى لكن اختَرْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحدًا (٧٣٩٢)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (٢٦٧٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

منها تِسعة وتِسْعين فإذا أَحصَيْتها دخَلْت الجَنَّة.

ومعنى إحصائها: هو مَعرِفتها لفظًا ومَعنًى، والتَّعبُّد لله بمُقتَضاها، أي: مَعرِفة لَفْظها ومَعناها والتَّعبُّد لله تعالى بمُقتضاها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ المَرجِع] الجُمْلة خبَرية مُكوَّنة من مُبتَدَأ وخبَر، والخبَر فيها مُقدَّم، وإذا قُدِّم الخبَر أَفاد التخصيص والحَصْر؛ إليه أي: إلى الله وحدَه، المَصير: المَرجِع، وهل المُراد بقوله: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: المَرجِع في كل شيء، أو إليه المَصيرُ بعد الموت؟

الجوابُ: إليه المَصيرُ في كل شيء، فإليه المَرجِع في الحُكْم بين النَّاس، إليه المَرجِع في تدبير الأمور، إليه المَرجِع بعد الموت، إليه المَرجِع في كل شيء، ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

من فوائدِ الآياتِ الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ القُرآن الكريم حُروف، تَكلَّم الله به بحُروف، ففيه الرَّدُّ على الأشاعِرة، ومَن سلَك سبيلهم الذين يَقولون: إن كلام الله هو المَعنى القائِم بالنَّفْس، وإنَّ الله لا يَتكلَّم بحَرْف وصَوْت، لكن يَخلُق حُروفًا وأصواتًا تُسمَع تَعبيرًا عمَّا في نفسه.

وحقيقةُ هذا القولِ نَفيُ الكلام؛ لأنَّ ما في النَّفْس من المعلومات المُرتَّبة ليسَت كلامًا، ولكنها مَعلومات، عِلْم، وليست كلامًا.

والرَّدُّ عليهم معلوم من كتُب العقائِد: منها أنَّ القول إذا أُطلِق فهو قول اللِّسان، وإذا أُريد به قول النَّفْس حُدِّد، مثل: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾

[المجادلة:٨] ومثل قوله ﷺ: «إِنَّ الله تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا»(١).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عُلوُّ الله عَزَّوَجَلَّ، يُؤخذ مِن قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن النُّزول لا يَكون إلَّا من أعلى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ القُرآن كلام الله، لا كلامُ غيرِه؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾، وذلك أنَّ ما ذكَر الله أنه نزَّله يَنقَسِم إلى قِسْمين:

إمَّا أن يَكون أعيانًا قائِمة بنَفْسها، فهذه مَخلوقة.

أو تَكون أَوْصافًا لا تَقوم إلَّا بالغَيْر، فهذا غير مَخلوق.

مثال الذي أَضاف الله تعالى إنزالَه إلى نفسه، وهو عين قائِمة بنَفْسها، قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥] فالحَديد مَخلوق، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزُّمَر:٦] أعيان قائِمة بنَفْسها مَخلوقة، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف:٢٦] مَخلوق.

إِذَنْ: فما أَضاف الله تعالى مِن إنزاله إليه، وهو عين قائِمة بنَفْسه؛ فهو مَخلوق، وإلَّا فهو غير مَخلوق، والقُرآن هو كلام لا يَقوم إلَّا بالغير، إِذَنْ هو غير مَخلوق.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وصفُ القُرآن الكريم بالكِتاب، فلماذا وُصِف بالكتاب؟

نَقول: **أوَّلًا**: لأنه يُكتَب فهو مَكتوب بالمَصاحِف التي بأيدينا.

ثانيًا: أنه بصحُف بأَيْدي المَلائِكة: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ [عبس:١٢-١٣].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره، رقم (٥٢٦٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثالثًا: أنَّه مَكتوب في اللوح المَحْفوظ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢١-٢٢]، وعليه فكِتاب بمَعنى مَكتوب، وهل يَأتي «فِعال» بمَعنى «مَفعول»؟ نَقول: كثيرًا، كغِراس بمَعنى مَغروس، وبِناء بمَعنى مَبنيٍّ، وفِراش بمَعنى مَفروش، وما أَشبَهَه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات ثلاثة أسماء من أسماء الله: الله، والعزيز، والعليم، من قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، وإثبات ما دلَّت عليه هذه الأسماءُ من الصِّفات، فالله دلَّ على الأُلوهية، والعَزيز على العِزَّة، والعليم على العِلْم، واعلَمْ أنَّ كل اسم من أسماء الله فإنه مُتضَمِّن لصِفة، وليس كل صِفة يُشتَقُّ منها اسمٌ؛ ولهذا قُلْنا: إنَّ الصِّفاتِ أوسَعُ من الأسماء.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ذِكْر الأسماء المُناسِبة للمَقام. يَعني: أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا يَذكُر من أسمائه ما يُناسب المَقام، فهذه السورةُ تَتَحدَّث عن المُكذِّبين للرُّسُل، وما جرَى عليهم من الهَلاك والانتِقام، فالذي يُناسِبه من الأسماء العِزَّة التي فيها الغلَبة والأَخْذ؛ فلهذا جاءَت هنا العَزيز، وجاء العَليم؛ ليُفيد أنَّه لعِزَّته أخَذَ هؤلاءِ المُكذِّبين، ولعِلْمه أَنزَل الكتُب وعلِم كيف يَأخُذ هؤلاءِ المُكذِّبين.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الله جَلَّ وَعَلَا يَغفِر الذُّنوب جميعًا لقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾، والذَّنْب هنا مُفرَد مُحلًّى بـ(أل) فيكون عامًّا؛ لأن المُفرَّد المُحلَّى بـ(أل) يَكون عامًّا؛ مثل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:٢] أي: إن كل إنسان.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الحَثُّ على كل ما تَكون به المَغفِرة، وجهُ ذلك: أنَّ الله تعالى لم يُخبِرْنا بأنه غافِر الذَّنْب من أَجْل أن نَعلَم أنه غافِر فقَطْ، لكن من أَجْل أن نَتعرَّض لمَغفِرته.

وما هي الأسباب التي تَكون بها المَغفِرة؟

الجواب: الأسباب كثيرة؛ منها: الاستِغْفار، تقولُ: اللهُمَّ اغفِرْ لي، ومنها: أعمال صالِحة يُكفِّر الله بها الخَطايا، ومنها: إحسان إلى الخَلْق، حتى إن الله عَزَّوَجَلَّ غفَر لامرأة بَغيٍّ بسَقْيِها كلبًا عَطشانَ، وغفَر لرجُل وجَد شجَرة في الطريق تُؤذِي الناس فأَزالها، فغفَر الله له.

المُهِمُّ: أن نَتعرَّض لأسباب المَغفِرة؛ لأن ذلِك مُقتَضى قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّه يَقبَل التوبة من عِباده، ولكن لا يُقبَل الشيءُ حتى يَكون جارِيًا على مُقتَضى الشريعة؛ لقول النبيِّ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(١).

والتوبة الجارِية على مُقتَضى الشريعة هي ما جمَعَت خمسة أُمور، وهي ما يُعرَف بشُروط التَّوْبة:

الشَّرط الأوَّلُ: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، بأن يَكون الحامِل للإنسان على التَّوْبة هو إخلاصَه لله عَزَّوَجَلَّ، حُبُّ التَّقرُّب إليه والفِرار من عُقوبته، فلا يَحمِله على التوبة مُراعاة الخَلْق، ولا حُصول الجاهِ والرِّئاسة، وإنَّما يَحمِله الإخلاص لله.

الشَّرط الثاني: النَّدَم على فِعْل المَعصية أن يَشعُر الإنسان بانفِعال ندَم وحَسْرة على ما وقَع منه، فلا بُدَّ من ندَم؛ لأن النَّدَم هو الذي يَتبيَّن به حقيقة رُجوع الإنسان إلى الله، وأن هذه المَعصيةَ أثَّرَت في نفسه، فندِم على ما جرَى منه، لا يُقال: إن النَّدَم

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

انفِعال، والانفِعال يَأْتي بغير الاختيار؛ كالغضَب مثلًا، والحُزْن من الواقِع، يُقال: المُراد بالنَّدَم هنا تَحسُّر القلب، فهو انفِعال يَقَع من الإنسان ليس كالانفِعال الذي يَأتِي سببه من الخارِج، هذا ربَّما لا يَستَطيع الإنسان أن يُغيِّر ما وقَع.

الشَّرط الثالث: التَّخلِّي عن المَعصية والانفِصال عنها، فإن تابَ وهو مُصِرٌّ فإن تَوْبَته أشبَهُ ما تَكون بالاستِهْزاء، كيف يَقول الذي يَأكُل لَحْم الخِنزير: أَستَغفِر الله تعالى، وأَسأَل الله أن يَجعَل طعامي طيِّبًا؟! وهو يَأكُل هو يَمضَغ اللَّحمة جيِّدًا، ويَقول: أَستَغفِر الله من أَكْل لَحْم الخِنزير، وأَسأَل الله أن يَجعَل طعامي طيِّبًا! هذا أَشبَه ما يَكون بالمُستَهزِئ. ولو أنَّ رجُلًا نَهاك عن شيء، ووجَدَك تَعمَل هذا الشيءَ، وأنت تَقول: أَرْجو منك أن تَعذِرني، وما أَشبَه ذلك وهو يَأكُل، وقال له: لا تَأكُل، وهو يَأكُل، فإنَّ هذا الذي يُخاطِبه سوف يَقول: إنك تَستَهزِئ بي وتَسخَر بي. فلا تَوْبةَ مع الإصرار، ولا بُدَّ أن يَتخلَّى عن الذَّنْب.

وإذا كان الذَّنْب لله عَزَّوَجَلَّ فالتَّخلِّي عنه سَهل، لكن إذا كان الذَّنْب لغير الله -يَعنِي: أَذنَب في حق غير الله- فكيف يَتخلَّى عنه؟

نَقول: إذا كان مالًا فالتَّخلِّي عنه بإيصاله إلى صاحِبه، بأيِّ وَسيلة كانت، فإن كان قد مات فإلى ورَثَته، فإن جهِلهم فإلى بيت المال، أو إذا كان بيت المال غيرَ مُنتَظِم، أو يُخشَى عليه أن يَضيع، فلْيَتصَدَّق به هو لصاحِبه، هذه أربَعُ مَراحِلَ: لصاحبه، لورَثَته، لبيت المال، إن جهِلهم، يَتصَدَّق به. والغالِب أن الصدَقة أَوْلى من بيت المال.

وإذا كان عُدوانًا على النفس ليس مالًا، فالتوبة منه أن يُمكِّن صاحب الحَقِّ من الاقتِصاص منه، فمثَلًا: إذا كان قدِ اعتَدَى على شَخْص بضَرْب، فلْيَذهَب إليه

ويَقول: أنا اعتَدَيْت عليك بالضَّرْب اضرِبْني كما ضرَبْتك. كما فعَل النَّبيُّ ﷺ مع الرجُل الذي ضرَبه النبيُّ ﷺ حينما رآه مُتقدِّمًا في الصفِّ فقال الرجُل: أَقِدْني يا رسول الله ﷺ. فكشَف النَّبيُّ ﷺ عن بَطْنه ليُقيدَه، فماذا فعَل الرجُل؟ قبَّله[1].

فهذا النبيُّ ﷺ، وهو أَشرَف الخَلْق، وأَحَبُّ الناس إلى أَتباعه مكَّن من الاقتِصاص منه، هذا اثنان: المال والبدَن.

أما إذا كان في العِرْض: بأنِ اعتَدَيْت على شخص في عِرْضه، يَعني بأنِ اغتَبْته أو سبَبْته، والفرق بين الغِيبة والسَّبِّ أن السَّبَّ مُواجهة والغِيبة مع الغَيبة، فذِكْرك أخاك بما يَكرَه إن كان غائِبًا فهي غِيبة، وإن كان حاضِرًا فهو سَبٌّ، فإنَّ التَّوْبة من هذا أن تَستَحِلَّه، فلو قلت: سُبَّني كما سبَبْتُك فلا يَصِحُّ؛ لأن هذا جِناية على نَفْسك، ولكن استَحِلَّه، وهذا إذا كان سبًّا؛ لأنَّه قد عَلِم بذلك.

فأمَّا إذا كان غَيْبة فهل تَستَحِلُّه تَذهَب إليه وتَقول: إني اغتَبْتك فاعذِرْني اسمَحْ لي؟

الجوابُ: قال بعض العُلَماء: نعَمْ! يَجِب أن تَذهَب إليه وتَقول: أنا اغتَبْتُك فاعذِرني، حُلَّني. وقال بعض أهل العِلْم: لا يَلزَم استِحْلاله بل يَكفِي أن تَستَغفِر له كما جاء في الحديث، وإن كان ضَعيفًا: «كَفَّارَةُ مَنِ اغْتَبْتَهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُ»[2] استَغفِر له وأَثنِ عليه بما هو أَهْله في الأماكِن التي اغتَبْته فيها، يَقول: ﴿ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٦٢٦).

(٢) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده كما في زوائده رقم (١٠٨٠)، وابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٢٩١)، والبيهقي في الدعوات الكبير رقم (٥٧٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا القولُ أَصَحُّ؛ لأنَّ هذا فيه البَراءة وعدَم التَّشويش؛ لأنه ربما لو ذهَبْت إليه تَقول: اغتَبْتك فحُلَّني، مَهْما أَتيت به من صِيغة الغِيبة قد لا يَقتَنِع بها، إذا قلت: إني قُلْت فيك: إنك بَخيل. قد يَقول: إنك قلت: بَخيل وجبانٌ. ربما يَقول له الشيطان هكذا، ويَأبَى أن يُحلِّلك، فإذا كان لم يَعلَم فاحمَدِ الله على ذلك واستَغفِر له وأَثنِ عليه بما هو أَهْله في الأماكن التي كُنت اغتَبْته فيها، وبذلك تَسلَم من الإِثْم، هذه صِفة التَّخلِّي من الذَّنْب إذا كان في حَقِّ غير الله.

وهنا سُؤالٌ: بعض الناس يَكون عليه حقٌّ ماليٌّ لشخص، إمَّا سَرَقه، أو جَحَده، أو ما أَشبَه ذلك، ثُم يَتوب هذا الفاعِلُ، ويَذهَب إلى صاحِب الحقِّ، ويَقول: خُذْ حقَّكَ. فيَأبى صاحِب الحقِّ أن يَأخُذه، فماذا يَصنَع؟ وهذا يَرِد كثيرًا: يَكون صاحِب الحقِّ قد حمَل في نفسه على هذا الظالِمِ الذي ظلَمه، ويَأبَى أن يَقبَل، فماذا يَصنَع؟ هل نَقول: إنه حينَئذٍ سقَط حقُّه وصحَّت تَوْبة المُعتَدي، ويَبقَى إن طلَب حقَّه مرَّة أخرى أُعطِيَ، وإن لم يَطلُب فإن المُعتَديَ بَرِئَ؟

نَقول: نُنزِّل هذه الحالَ على القواعِد الشرعية، فالقَواعِد الشرعية تَقتَضي أن هذا الذي عليه الحقُّ قد برِئَ؛ لأن الله يَقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وهذا ما يَسَعه! قدَّم الحَقَّ لصاحبه، وقال: خُذْ. قال: لا، لا آخُذه، أنت اعتَدَيْت عليَّ في الأَوَّل ولا أَقبَل منك، هذا الذي أَبَى أن يَقبَله هو الذي أَخطَأ وجنَى؛ لأنه يَنبَغي للإنسان إذا اعتَذَر إليه أَخوه أن يَقبَل عُذْره، لكن هذا هو الذي جنَى الآنَ، فهذا الرجُلُ نَقول: أنت الآنَ برِئَت ذِمَّتُك، خلِّ الدراهِم عندَك إن جاء يومًا من الدَّهْر أَعطِها إيَّاه.

وإن مات: فهل يَلزَمه أن يُعطيَه الورَثة؟

الجوابُ: في هذا نظَر، وذلك أن الرجُل الذي اعتُدِيَ عليه لم يَقبَل هذا المالَ، ولم يَدخُل في مُلْكه، فإذا كان لم يَقبَله ولم يَدخُل في مُلْكه، فكيف يَنتَقِل إلى الورَثة؟! ومن شَرْط الإِرْث انتِقال المال عن المَوْروث، وهذا المَوْروثُ لم يَقبَل هذا المالَ، وقد يُقال: إن الأصل أنَّه مُلكه فيَلزَم الرَّدُّ إلى ورَثَته، وهذا الأخيرُ أحوطُ، لكن في وجوبه نظَر؛ لأنَّ الذي اعتَدى وأَراد أن يَرُدَّ، يَقول: أنا أَعطَيْت الرجُل وأَبَى أن يَتملَّكه، فكيف يَنتَقِل إلى الورَثة؟ ولكن نَقول: الأحوَطُ والأَوْلى أن يَرُدَّه إلى الورَثة؛ ليَسلَم منه.

لكن لو فُرِض أنه لا ورَثةَ له، أو أن ورَثَته مَجهولون، فإن هذا التائِبَ قد أدَّى ما عليه.

الشَّرط الرابع: أن يَعزِم على «ألَّا يَعود إلى الذَّنْب»، أو «أن لا يَعود إلى الذَّنْب»، الأوَّل أو الثاني؟ الأوَّل: أن يَعزِم على ألَّا يَعود إلى الذَّنْب، أو الشرط ألَّا يَعود إلى الذَّنْب؟ الأوَّل، والفَرْق بينهما أننا إذا قلنا: الشرط ألَّا يَعود ثُم عاد بطَلَت التوبة الأُولى، وإذا قلنا: الشرط العَزْم على ألَّا يَعود، وقد عزَم ألَّا يَعود، ثُمَّ عاد، فالتوبة الأُولى تَبقَى صحيحة، وعليه أن يَتوب توبة ثانية للذَّنْب الجديد، فالشَّرْط هو: العَزْم ألَّا يَعود في المُستَقبَل، فإن عاد فعليه تَوبة أُخرى، وهكذا.

فإن قال قائِل: أَلَيْس قد ثبَت في الصحيح أنَّ الرسول ﷺ أَخبَر: «**أن رجُلًا أَذنَب ذَنْبًا فتابَ، ثُم أَذنَب فتابَ، ثُم أَذنَب فتابَ، ثُم قال الله** عَزَّوَجَلَّ: **عَلِمَ عَبْدِي أنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنْبَ ويَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ**»[1]، فهل هذا

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:١٥]، رقم (٧٥٠٧)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم (٢٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يَعنِي أن الإنسان إذا تكرَّر منه الذَّنْب وهو يَستَغفِر يُغفَر له؟

فالجَوابُ: نعَمْ، مَهْما أَذنَب ثُم استَغْفَر يُغفَر له.

لكن لو قال قائِل: إن ظاهِر الحديث: «فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ» يَعنِي: فلْيَعْصِ الله!

قُلنا: لا يَستَقيم هذا؛ لأنه يُخالِف الأدِلَّة الكثيرة الدالَّة على أنه لا بُدَّ لكل ذَنْب من تَوْبة إلَّا طائِفة واحِدة من هذه الأُمَّةِ، همُ الذين لا يَحتاجون إلى تَوْبة من الذنب، وهم أهل بَدْر، فإنَّ الله اطَّلَع إليهم وقال: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[1].

فهَؤلاءِ القَومُ ثلاثُ مِئة وبِضعةَ عشَرَ رجُلًا، وهُمْ أَهْل بَدْر اطَّلَع الله عليهم فكافَأَهم مُكافَأَة لم تَحصُل لغَيْرهم، اطَّلَع عليهم فقال: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، هذه الحَسَنةُ العَظيمة مَحَت جميع ما يَعمَلونه من السَّيِّئات، ونفَعَت هذه الغَزوةُ لَمَنْ غَزا، حتى حاطِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي كتَب بأَخْبار النَّبيِّ ﷺ إلى قُرَيْش قُبَيْل غَزوة الفَتْح لَمَّا عُثِر على ما صنَع، قال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للرسول ﷺ: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ فَقَدْ نَافَقَ. فعُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شُجاع ليس عنده إلَّا السَّيْف، قال: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الله اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[2] فوقَعَت هذه السَّيِّئةُ العَظيمة من جُمْلة ما يُغفَر لأهل بَدْر؛ ولهذا كان أهل بَدْر أفضَلَ من أهل بَيْعة الرُّضوان، أفضَلُ لما حصَل فيه من النُّصْرة العَظيمة للنَّبيِّ ﷺ؛ ولهذا يُسمَّى يومُ بَدْر يومَ الفُرقان. قال: فأَهْل بَدْر.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب الجاسوس، رقم (٣٠٠٧)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٤٩٤)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب الجاسوس، رقم (٣٠٠٧)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٤٩٤)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشَّرْط الخامِس: أن تكون التوبة في الوقت الذي تُقبَل فيه التَّوْبة، وهو أن تكون التَّوْبة قبل طلوع الشَّمْس من مَغرِبها، وقبل حُضور الأَجَل.

فالأوَّلُ عامٌّ لكل أحَد، فلا تَوبةَ لأَحَد إذا طلَعَت الشمس من مَغرِبها؛ لقول النبيِّ ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَخْرُجَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(١)، وهذا يُؤيِّده قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]، والمُراد ببَعْض الآيات: طُلوع الشَّمْس من مَغرِبها.

والثاني أن تكون قبل حُضور الأَجَل، فإذا حضَر الأَجَل لم تَنفَعِ التَّوْبة؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨]، هذا ليس لهم تَوْبة، وتَطبيق هذا عمَليًّا أنَّ فِرعونَ لَمَّا أدرَكه الغرَقُ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠] فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾؛ تُؤمِن ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس:٩١-٩٢]، لا رَحمةً بك ولكِن ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، وأمَّا رُوحُك فلا نَجاةَ لها، وإنَّما نجَّاه الله ببَدَنه؛ لأنه قد أَرعَب بني إسرائيلَ، ولا يَكادون يُصدِّقون بأنَّه هلَك حتى يُشاهِدوه فيَطمَئِنُّوا؛ فلهذا نجَّاه الله تعالى ببَدَنه؛ ليُشاهِدوه!.

فإن قال قائِل: هل يُشتَرَط ألَّا يَكون مُصِرًّا على ذَنْب آخرَ؟ يَعنِي: لنَفرِض أنه تاب من شُرْب الخَمْر، لكنه باقٍ على الزِّنا -والعِياذ بالله- فهل تَصِحُّ تَوْبته من شُرْب الخَمْر؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٩٩)، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت؟، رقم (٢٤٧٩)، والنسائي في الكبرى رقم (٨٦٥٨)، من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالجوابُ: في هذا خِلاف، فمن العُلَماء مَن يَقول: لا تَصِحُّ التوبة من ذَنْب مع الإصرار على ذَنْب آخَرَ، ومنهم مَن قال: بل تَصِحُّ؛ لأنَّ كل ذَنْب له جُرْمه. ومنهم مَن قال: إذا كان الذَّنْب الذي أَصَرَّ عليه من جِنْس الذي تاب منه، فإن التوبة لا تَصِحُّ، كرجُل تاب من الزِّنا، لكنه يُطلِق بصَرَه في النظَر المُحرَّم، فإن توبَته من الزِّنا لا تَصِحُّ، أو رجُل تاب من النظَر المُحرَّم، ولكنه لم يَتُبْ من المَسِّ المُحرَّم، هذا أيضًا لا تُقبَل توبتُه.

ومن العُلماء مَن قال: تُقبَل مُطلَقًا، إذا تاب من ذَنْب تاب الله عليه من هذا الذَّنْبِ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ حكَمٌ عَدْل، ورحمتُه سبقَت غضَبَه، وهذا الرجُلُ عِنده جِنايات مُتعدِّدة، تاب من واحِدة منها، فلْيَكُن تائِبًا؛ وهذا القولُ أصَحُّ، ولكن لا يُطلَق على هذا التائِبِ وصفُ التوبة المُطلَقة؛ لأن توبته هذه مُقيَّدة، يَعنِي: لا يَستحِقُّ وصفَ التائِبين على الإطلاق، فلا يَدخُل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]؛ لأنَّ هذا الرجُلَ لا يَصدُق عليه أنَّه تائِب على وَجهِ الإطلاق؛ لكنه تائِب من ذَنْب واقِع في ذَنْب آخرَ.

وهذا القولُ هو الذي تَجتَمِع فيه الأدِلَّة، فيُقال: استِحْقاق الوصف المُطلَق فيمَن تاب من ذَنْب مع الإصرار على غيره لا يَكون، وأمَّا وَصْفه بتَوْبة مُقيَّدة فهذا صحيح، كالسرِقة فإنه إذا قُطِعت يدُه فلا بُدَّ من ردِّ المال إلى صاحِبه، نَقول: هذا بالنِّسبة لحقِّ الله سقَط في إقامة الحدِّ عليه، لكن لا بُدَّ من أن يُوصِل المال إلى صاحِبه.

فإن قال قائِل: مَن يَشتَرِك في الزِّنا؟

فالجوابُ: الواقِع أن الزِّنا يَشتَرِك فيه الفاعِل والمَفعول به، حتى المَفعول به يَتلذَّذُ ويَجِد شَهْوة، أمَّا إذا قلنا: بالإِكْراه فهذا صحيح أنه عُدوان، لا بُدَّ مِن استِحْلاله؛

أمَّا حقُّ الله فنُقيم عليه الحَدَّ، وحقُّ العِباد -وهو الإكراه والعُدوان عليه- لا بُدَّ مِن استِحْلاله.

فإن قال قائِل: رجُل سرَق من شخص مالًا، ثُم ردَّه عليه وقال: هذه هَدية. هل يَبرَأ منه ؟

فالجوابُ: لا يَبرَأ، هو ردَّه على أنه هَدية، وهذا قبِلَه على أنه هَدية، وأن المُهدِي له عليه مِنَّة، وأنه يَحتاج إلى مُكافَأة.

ولو وَضَع معَها رِيالًا وقال: هذه هَدية؛ لكان مُخادِعًا، ولا بُدَّ، لكن -الحَمد لله- يَقول: والله أنا في حالِ السَّفَه، وهذه تَقَع كثيرًا في حال الصِّغَر، وإلَّا فالكبير ليس بسارِق -إن شاء الله-، لكن وهو صَغير يَسرِق من دُكَّان، أو من صاحِب له، يَأخُذ قلَمًا، أو يَأخُذ ساعة، فلا بُدَّ أن يُوصِله إليه ويَقول: هذه حَقٌّ لك عليَّ.

ولكن لو قال مثَلًا: هذه من إنسان تاب، وقد سرَقها منك، ولم يَقُل: أنا أو غيره، فهذا يَصِحُّ، والظاهِر أنه يَنبَني على استِحلال المَجموع.

مسألةٌ: ورَد في حَديث النَّبيِّ أن الإنسان يَكتُب في بَطْن أُمِّه شَقِيٌّ أو سَعيد[1]، فلماذا يعمل الإنسان؟

فالجَوابُ: قد احتَجَّ الصَّحابة بهذه الحجَّة على الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا قال لهم: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ» قالوا: يا رَسول الله، ففيمَ العمَلُ؟ -أي: من أَجْل ماذا نَعمَل؟- فقال: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٨)، وأخرجه مسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لِمَا خُلِقَ لَهُ»[1].

ونَقول: أنت مَكتوب أنَّك في الجَنَّة أو في النار بسبَب عمَلِك، فاعمَلْ عمَل أهل الجَنَّة لتكون من أَهْلها.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ عِقاب الله تعالى شَديد؛ لقوله تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾.

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: الحـذَرُ من التَّعرُّض لعِقابـه، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ لنَبيِّه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحِجر:٤٩-٥٠]، وقال في آية أُخرَى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: بَيانُ كَمال غِنى الله؛ لقَوله: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾؛ أي: صاحِبه، والطَّوْل هو: الغِنَى، كما شرَحْناه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: انفِراد الله تعالى بالأُلوهية؛ لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهو أحَد أقسام التوحيد الثلاثة التي هي: تَوْحيد الرُّبوبية، والأُلوهية، والأَسْماء والصِّفات، ويُسمَّى تَوْحيد العِبادة، فهو باعتِبار العبد تَوْحيد عِبادة، وباعتِبار المَعبود تَوْحيد أُلوهية.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: بَيان أنه لا مَعبودَ حقٌّ إلَّا الله، ولا بُدَّ أن نُقيِّد: لا مَعبودَ حقٌّ إلَّا الله؛ لأنَّ هناك ما يُعبَد من دون الله وتُسمَّى آلِهة، وقد سمَّاها الله تعالى آلِهة: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون:١١٧]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾، رقم (٤٩٤٥)، وأخرجه مسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٧)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود:١٠١]، لكِنها آلِهة باطِلة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن المَصير إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْله: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: وُجوب التَّحاكُم إلى شـريعة الله، تُؤخَذ من قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ حيثُ قدَّم الخبَر، وتَقديم الخبَر يُفيد الحَصْر والاختِصاص.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: الجَمْع بين الخَـوْف والرجاء في السَّيْر إلى الله، وجهُ ذلك: أنَّ الإنسان إذا علِم أن المَصير إلى الله، وأنه غافِر الذَّنْب، وقابِلُ التَّوْب، وشَديد العِقاب، يَرجو من وَجْه، ويَخاف من وَجهٍ آخرَ، ما دام المَصيرُ إلى مَن هذا وَصْفه، فإنه لا شَكَّ أنه يَرجو تارةً، ويَخاف أُخرى. وأيُّهما يُغلِّب؟

قال بعض العُلَماء: يَجِب أن يَكون خوفُه ورجاؤُه واحِدًا، لا يُغلِّب الرجاء؛ فيَقَع في الأَمْن من مَكْر الله، ولا يُغلِّب الخوف؛ فيَقَع في القُنوط من رحمة الله، بل يَكون خوفه ورَجاؤُه واحِدًا، قال الإمامُ أحمدُ رحمه الله تعالى: يَنبَغي أن يَكون خوفُه ورَجاؤُه واحِدًا فأيُّهما غلَب هلَك صاحِبه[1].

وقال بعضُهم: يَنبَغي أن يَسيـر الإنسان إلى الله تعالى سَيْـر الطَّيْر، جَناحاه مُتساوِيان، فإن مال أَحَدُ جَناحيه، جنَح إلى الجانِب الذي مال إليه، وقال بعضُ العُلَماء: يَنبَغي في جانب الطاعة أن يُغلِّب جانِب الرجاء، وأن الله تعالى يَقبَلها، وفي جانِب المَعصية أن يُغلِّب جانِب الخوف؛ لئَلَّا يَقَع فيها، فإذا هَمَّ بسيِّئة ذكَر شِدَّة العِقاب فخاف فارْتَدَع، وإذا عمِل صالِحًا ذكَـر الثواب والجَزاء وقَبول الله عَزَّوَجَلَّ فغلَّب جانِب الرجاء.

---

(١) انظر: الاختيارات العلمية لابن تيمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] (٥/ ٣٥٩).

وقال بعض العُلَماء: يَنبَغي أن يُغلِّب جانب الخَوْف في حال الصِّحة، وجانِب الرجاء في حال المَرَض حتى يَأتيَه الموت وهو يُحسِن الظَّنَّ بالله؛ لقول النَّبيِّ ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ»(١).

فالأَقوال إِذَنْ ثلاثة:

الأوَّل: أن يَكون خوفُه ورجاؤُه واحِدًا.

والثاني: أن يُغلِّب جانب الرَّجاء في العمَل الصالِح، وجانب الخوف إذا همَّ بالمعصية.

والثالث: أن يُغلِّب جانِب الرجاء في حال المَرَض، وجانب الخَوْف في حال الصِّحَّة.

هذه ثلاثة أقوال، والذي يَظهَر أنَّ القول بأنه يُغلِّب جانب الرجاء في حالِ فِعْل الطاعة، وجانب الخوف إذا هَمَّ بمَعصية هو أقرَبُ الأقوال، من أَجْل أن يَردَع نَفْسه إذا هَمَّ بمَعصية خوفًا من الله، وأن يُؤمِّل القَبول من الله والثـواب إذا فعَل الطاعة فيُغلِّب جانِب الرجاء.

وهذا القول ليس جَديدًا، وهو بقَطْع النظَر عن حالات تَعرِض للإنسان، فكما نَقول: هذا الشيءُ مُباحٌ. وقد يَكون واجِبًا، وقد يَكون حرامًا، فنحن إذا رجَّحنا يَعنِي نَنظُر إلى القول من حيثُ هو قولٌ، لكن قد تَعرِض للإنسان حالات حتى إذا هَمَّ بالمَعصية قد يَكون يُغلِّب جانب الرجاء، أو بالعكس، فالقول من حَيثُ هو

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قولٌ القياسُ يَقتَضي أننا نُغلِّب جانِب الرجاء إذا فعَلْنا الطاعة، ونَقول: إن الله تعالى لم يُوفِّقْنا للطاعة إلَّا وسيَقبَلها منا: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر:٦٠]؛ ولهذا قال بعض العُلَماء: مَن وُفِّق للدعاء فلْيُبشِر بالإجابة. وإذا همَّ بالمَعْصية فمَعلوم أنه إذا غلَب جانب الخَـوْف سوف يَرتَدِع، لكن هناك حالات تَطرَأ على الإنسان شيء آخَـرُ، فالحالات العارِضة نَقول فيها: الإنسان طَبيب نَفْسه، أمَّا القول من حيثُ هو قولٌ فهذا القولُ أَقرَبُ للقِياس.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الحَثُّ على التَّوكُّل على الله، والآية دَليل على الحثِّ على التَّوكُّل على الله؛ لأنه لَمَّا كان المَصير إلى الله، كان يَنبَغي أن يَتعَلَّق الإنسان برَبِّه لا بغيره، ما دام المَصيرُ إلى الله، فتَوكَّل على الله لا على غيره.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: اللُّجوء إلى الله تعالى عند الشَّدائد، وعند طلَب المَحبوب، تُؤخَذ من قوله: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾، فإذا اشتَدَّت بك شِدَّة فلا تَلتَفِت إلى زَيدٍ أو عَمرٍو، عليك بالله عَزَّوَجَلَّ، حتى الشدائِد التي أَسبابها خَفِيَّة لا يَنفَعك إلَّا الله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فُصِّلَت:٣٦].

• • ۞ • •

الآية (٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر:٤].

ثُمَّ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر:٤]؛ «ما»: نافِية، و«إلَّا»: أداة حَصْر، والجملة هنا جملة خبَرية حَصْرية، فهي خبَرية لأنها مَنفِيَّة، وحَصْرية لأنه حَصَر الجِدال في الذين كفَروا: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أمَّا الذين آمَنوا فلا يُجادِلون في آيات الله.

والمُجادَلة: المُنازَعة والمُخاصَمة، مَأخوذة من الجَدْل وهو: فَتْل الحَبْل حتى يَشتَدَّ ويَقوَى هكذا، هذا أَصْل الجَدْل: المُنازَعة، وهي مَأخوذة من الجَدْل أي: فَتْل الحَبْل؛ لأن كلَّ واحِد من المُتنازِعَيْن كأنَّما يَفتِل حَبْلًا لمُنازِعه، فيكون ذلك أشَدَّ في الإحكام.

وقوله: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القرآن]، ويَنبَغي أن نُفسِّر الآياتِ بما هو أعَمُّ، وهذا الذي فسَّر المفَسِّر به الآياتِ يُعتبَر قُصورًا، ولا يَنبَغي أن نُفسِّر العامَّ بأَخصَّ منه إلَّا إذا دلَّتْ قَرينة قوية على ذلك، وهنا لا دَلالةَ، فالمُنازِعون في آيات الله منهم مَن يُنازِع في القرآن، ومِنهم مَن يُنازِع في السُّنَّة، ومِنهم مَن يُنازِع في الخَلْق.

فمثَلًا: الكسوف من آيات الله، وخُسوف القمَر من آيات الله، ومن الناس

مَن يُجادِل فيه، ويَقول: ليس هذا من باب تَخويف العِباد، وأيُّ رابِطة بين هذا وبَيْن التخويف، وسبَبه طبيعيٌّ مَعلوم يُدرَك بالحِساب؟! فيُجادِل في شَرْع الله، وفي آيات الله، فيَقول مثَلًا: لماذا كان كذا، وكان في مَوْضِع آخَرَ كذا وكذا؟ كقِصَّة المَعرِّيِّ الذي جادَل في كون اليَدِ تُقطَع في ربُع دِينار ودِيَتُها خَمسُ مِئة دِينار[1]، وكقول بعضِهم: لماذا يَنتَقِض الوُضوء بالريح من أسفَلُ، ولا يَنتَقِض بالرِّيح من أَعْلى؟ والريح من أَعْلى هو: الجُشاء، وما أَشبَه ذلك من المُجادلات في الآيات الشرعية!.

ومِنهم مَن يُجادِل في القُرآن، يَقول: القُرآن فيه تَناقُض! قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، وقال في آية أُخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢] هذا تَناقُض! فيُجادِل.

فالمُهِمُّ: أن الجَدَل يَكون في الآيات الشرعية الثابِتة في القُرآن والسُّنَّة، ويَكون أيضًا في الآيات الكونية، فيَنبَغي أن نُفسِّر الآياتِ بما هو أعَمُّ مِمَّا ذكَر المفَسِّر، فنَقول: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الكَوْنية أو الشَّرْعية ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وأمَّا المُؤمِنون فلا يُجادِلون، المُؤمِنون يَقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧] ولا يُجادِلون، عرَفْنا ذلك من كَوْنه حَصَر المُجادَلة في الذين كفَروا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مَكَّةَ] وهذا تَخْصيص آخَرُ، فالله عَزَّوَجَلَّ يَقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ والمفَسِّر يَقول: من أهل مكَّةَ، سُبحانَ الله! القُرآن يُعَمِّم، ونحن نَخُصُّ، فهذا خطَأ وقُصور في التَّفْسير، فنَقول: ﴿فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أعَمُّ من القُرآن، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أعمُّ من أهل مكَّةَ، فالذي يُجادِل في آيات الله: الذين كفَروا من أهل مكَّةَ ومن غير أَهْل مكَّةَ، من أهل المَدينة، من أَهْل الطائِف، من أهل جُدَّةَ،

(١) انظر: شرح اللزوميات لأبي العلاء المعري (٢/ ٢٠٣)، والذخيرة للقرافي (١٢/ ١٨٥).

من أهل القَصيم، مِن كل مَكان، كلُّهم يُجادِلون في آيات الله، إذا كانوا كُفَّارًا.

فإن قال قائِل: كيف تَجمَع بين هذه الآيةِ وبين قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل:١٢٥] فأمَرَ بالمُجادَلة؟ هنا أَمَر: ﴿وَجَٰدِلۡهُم﴾ وهنا قال: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ؟

فالجوابُ: مُجادَلة الكُفَّار تَكون بالباطِل لإِبْطال الحَقِّ، أمَّا الذين آمَنوا فمُجادَلتهم تَكون لبيان الحَقِّ. إِذَنِ: المُجادَلة هنا غيرُ المُجادَلة هناك.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ الفاء: للتَّفْريع على ما سبَق، والخِطاب في قوله: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ﴾ إمَّا للنَّبيِّ ﷺ؛ لأنه الذي نـزَلَ عليه القُرآن، وإمَّا لعُموم المُخاطَبين؛ لأن القُرآن نزَل للجميع، وأَوْلاهما الثاني؛ لأنَّ القاعِدة التَّفْسيرية عِندنا: أنه إذا دار الأَمْر بين كون المَعنَى عامًّا أو خاصًّا؛ فإنَّه يُحمَل على العامِّ؛ لأن الخاصَّ يَدخُل في العامِّ ولا عَكْسَ.

إِذَنْ: فلا يَغرُرْك أيُّها المُخاطَب، وأوَّل مَن يَدخُل في ذلك الرسولُ ﷺ، و﴿يَغۡرُرۡكَ﴾ يَعني: لا يَخدَعك، ولا تَغتَرَّ به.

وقوله تعالى: ﴿تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ التَّقلُّب هو: التَّردُّد من شيء إلى شيء، ومنه تَقلُّب الإنسان في فِراشِه من جَنْب إلى جَنْب، المعنى: لا يَغُرك تَردُّدهم في البلاد يَمينًا وشِمالًا، وشَرْقًا وغَرْبًا، للتِّجارة ولغير التِّجارة.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ للمَعاش سالِمين فإن عاقِبَتهم النار]، ولكن لو قال: فإنَّ عاقِبَتهم البوارُ لكان أحسَنَ؛ لأنَّ الله تعالى ضرَبَ مثَلًا بمَن كان على حالهم بأنَّ الله أَهلَكَهم، فقال: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ إلى آخِره.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الكُفَّار يُجادِلون في آيات الله، لقوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حِرْص الكُفَّار على إبطال الحَقِّ بالمُجادَلة والمُجالَدة، فالمُجادَلة كما في الآية، والمُجالَدة: إذا عجَزوا عن إبطال الحَقِّ بالجَدَل أَبطَلوه بالقِتال، كما في آيات أُخرى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحَذَر من مُجادَلة الكُفَّار، إذا كانَ ليسَ عِند الإنسانِ سِلاح، أي: لا تَدخُل مع الكُفَّار في جدَل إذا لم يَكُن لدَيْك سِلاح؛ لأنك سَوْف تُهـزَم، وهَزيمتك ليسَتْ هَزيمة شَخْصية لكنها هَزيمة للإسلام.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّه يَنبَغي لنا أن نَعرِف مَعايِب الكُفَّار وأقوالهم حتى يُمكِننا أن نُجادِلهم؛ لأنَّ الجَدَل كما قلنا فيما سبَق: المُنازَعة، كل واحد يُنازِع الآخَر ليَفتِل كلامه أمامَه حتى يَشتَدَّ عليه، فلا بُدَّ أن تَعرِف ما هم عليه من الباطِل من أَجْل أن تُحاجَّهم فيه، يَعنِي: لا يَكفِي في مُجادَلة الكُفَّار أن تَعرِف الحقَّ الذي أَنْت عليه، بل لا بُدَّ أن تَعرِف الباطِل الذي هَمَّ عليه.

والله عَزَّوَجَلَّ يُجادِل الكُفَّار بمِثْل هـذا يَقول: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾ [يونس:٥٩] والآياتُ في هذا كثيرة، اعْرِفْ ما عند عَدوِّك من الباطِل من أَجْل أن تَدْحَض حُجَّته.

فإن قال قائِل: كَيفَ نَجمَع بين هذه الآيةِ الكَريمةِ التي ذكَر الله فيها أنه لا يُجادِل في الآيات إلَّا الكُفَّار، وبيَّنَ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ

ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥] فأَمَر بالجِدال مع أنه في هذه الآيةِ ذَمَّ الجِدال، وقال: إنه لا يُجادِل إلَّا الكُفَّار؟

فالجـوابُ على هذا سَهْل: أن المُجادَلة التي أُمِـرنا بها هي المُجادَلة لإِبْطال الباطِل، وإحقاق الحَقِّ، أمَّا الكُفَّار فإنَّهم يُجادِلون لإِبْطال الحقِّ وإحقاق الباطِل.. عَكْس ما أُمِرنا به.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الله تعالى يُمِلي للكُفَّار ويُمهِلهم، ويُمكِّنهم من التَّقلُّب في البلاد حيث شاؤُوا؛ لقوله: ﴿تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَحذيرُ المُؤمِن أن يَغتَرَّ بما أَنعَمَ الله به على هَـؤلاء الكُفَّار من التَّقلُّب في الدُّنيا حيث شاؤُوا؛ لقوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيانُ سفَه أُولئِك الذين أُغْروا واغتَرُّوا بالكُفَّار، بيان سفَهِهم في العُقول وضَلالهم في الدِّين، فإنَّ بعض المُسلِمين ضُعَفاء الإيمان انبَهَروا ممَّا عليه الكُفَّار، وظنُّوا أن ما هم عليه من تَحلُّل الأخلاق، وفَساد العقائِد والكُفْر، هو الذي أَوجَب أن يَكونوا على هذا المُستَوى من التَّقدُّم المادِّيِّ، فانبَهَروا بذلك، وانفَلَتوا من الدِّين، وضيَّعوا مِشْيتهم ومِشْية الحَمامة.. صاروا كالغُراب، يَقولون: إن الغُراب أعجَبَه مِشْيةُ الحَمامة -ومَعروف الفَرْق بين مِشْية الحَمامة ومِشية الغُراب-، فقال: سأَمشِي مثل مِشْية الحَمامة. فأَراد أن يَفعَل ولم يُدرِك شَيْئًا، أَراد أن يَعود إلى مِشْيته الأُولى، فعجَز أن يَعرِفها، فضَيَّع المِشْية الأُولى والثانية!.

وهؤلاء المَساكينُ الذين انبَهَروا بما عليه الكُفَّار من القوة المادِّيَّة، وما زُخرِف لهم من الدُّنيا، ضيَّعوا دِينَهم ولم يَصِلوا إلى ما عليه هؤلاءِ من الدنيا، وقد قال الله

تعالى لنبيِّه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٣١].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّه مَهما طال الأمَدُ بهؤلاء الكُفَّار، فإن مَآلَهم الهَلاك والبَوار، وانظُروا الآنَ: كلُّ الكُفَّار السابِقين ذهَبوا إلى النار؛ لأنَّنا نَشهَد بالله أنَّ كلَّ كافِر في النار، فهؤلاءِ الذين ماتوا على الكُفْر انتَقَلوا من الدنيا التي جُعِلت لهم جَنَّة إلى النار، والعِياذُ بالله.

وقد كان ابن حجَرٍ العَسقلانيِّ كان قاضِيَ القُضاة في مِصرَ -يَعني: كبير القُضاة- وكان إذا مشَى يَمشِي على عرَبة تَجُرُّها الخُيول أو البِغال في مَوكِب، فمَرَّ ذات يوم بيَهودي سمَّان -يَعني: يَصنَع السَّمْن- أو زَيَّات -ومعلومٌ أنَّ الزَّيَّات والسَّمَّان تَكون ثِيابُه مُلوَّثة بالزيت وأحواله سَيِّئة- فأَشار إلى المَوكِب فوقَف، فقال لابن حجَرٍ: إنَّ نَبيَّكم يَقول: «إِنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»[1]، وكيف يَتَّفِق هذا القولُ مع حالي وحالِك، فأنت الآنَ مُسلِم وفي هذه الرَّفاهية، وفي هذا المَوكِبِ العَظيم، وهو يَهودِيٌّ وتَعِسٌ، في زيت أو سَمْن يُلوِّث ثِيابه ويَدَيْه وكل شيء، فقال له ابنُ حجَرٍ رحمه الله تعالى: «نعَمْ، لكن ما أَنتَ فيه من البُؤْس هو جَنَّة بالنِّسبة لما ستَؤُول إليه إذا مِتَّ». لأنه إذا مات يَكون في النار، فهذا جَنَّة بالنِّسبة للنار، «وأمَّا أنا فنَعيمي هذا بالنِّسْبة للجَنَّة يُعتبَر سِجْنًا»؛ لأن نَعيم الجَنَّة أعلى بكثير من هذا، فقال اليَهوديُّ: أَشهَد أن لا إلَهَ إلَّا الله، وأن مُحَمَّدًا رسول الله[2]، سُبحانَ الله! تَبيَّن له الأمر بكلِمة بَسيطة.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكر هذه القصة المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير (٣/ ٥٤٦).

فأَقول: إن هَؤلاءِ الكُفَّارَ مَهما زُيِّنَت لهم الدُّنيا، فإنهم -والعِياذ بالله- سيَؤُولون إلى عَذاب، وكما نَعلَم جميعًا أنَّ الإنسان إذا آلَ إلى عَذاب بعد النَّعيم صار العَذاب عليه أشَدَّ، لكن لوِ انتَقَل من عَذاب إلى عَذاب صار أَهوَنَ، أمَّا من نعيم إلى عَذاب فصَعْبٌ جِدًّا، ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾.

إِذَنْ: هؤلاءِ الكُفَّارُ الذين يَذهَبون ويَجيئُون كل هؤلاءِ لا يَغُرَّنكم، لا سِيَّما إذا كان تَردُّدهم في البلاد استِكْبارًا في الأرض ومَكْر السَّيِّئ، وعُلوًّا على الخَلْق، وزعمًا منهم أنهم سيُدبِّرون الناس، وسيَسُنُّون نِظامًا عالَمِيًّا كما يَقولون، فإننا نَعلَم أن مَآلَهم الفَشَل إذا نحن صدَّقنا الله، إذا نحن صدَّقْنا الله فإن كَيْدَهم لا يَضُرُّنا: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥-١٦] يَعنِي: كيدًا أعظَمَ، ومَعلوم أنَّ الكَيْد الواقِع من الله أشَدُّ من الكَيْد الواقِع من البَشَر.

مسألة: بعض الناس يَقول: لا يَجوز للإنسان أن يَقول: إن الكُفَّار كلهم في النار، نَقول: الذي بلَغَته الدَّعوةُ نَشهَد أنه في النار، والذي لم تَبلُغه الدَّعوةُ لا نَشهَد له؟

فالجوابُ: لا، بل نَقول: كلُّ كافِر في النار، لكن مَن لم تَبلُغه الدَّعوةُ فلا نَجزِم له بجَنَّة ولا نار؛ لأنه لم يَصدُق عليه أنه كافِر إلى الآنَ، ونَقول: أَمْره إلى الله يوم القِيامة، وهذا بخِلاف الذي يَنتَسِب للإسلام، وفعَل ما يُكفِّر جاهِلًا فقد سبَقَ لنا القول في هذه المَسأَلةِ، وذكَرْنا لكم أن شَيْخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَمَّا ناظَر الجَهْمية وبيَّن لهم الحَقَّ، وأَصَرُّوا على ما هم عليه قال: «أَنَا أَعْلَمُ لَو أَنَّني لو قلتُ بما تَقولون لكنتُ كافِرًا، وأمَّا أنتُم فلَسْتُم كفَّارًا عندي لأنَّكم مُتأَوِّلون»[1] هذا وهو يُناظِر الجَهْمية ويُبيِّن لهمُ الحَقَّ، ذكَر هذا في كِتاب الاستِغاثة.

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (١/ ١٠).

وهذا يَدُلُّ على مَسألة يَشتَدُّ فيها بعض الناس اليوم في مَسأَلة فِعْل ما يُكفِّر، حيث يُكفِّرون الناس مُطلَقًا بلا بَيِّنةٍ، والمَسأَلة هذه كما قُلْنا فيما سبَق خَطيرة، فالآنَ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول: أنا أَعلَم أنني لو قلتُ بقَوْلكم لكُنْت كافِرًا؛ لأني أَعلَمُ أن هذا خِلاف الحَقِّ، أمَّا أنتم فلَسْتم تَكفُرون عِندي لأنَّكم مُتأَوِّلون؛ وهُمْ جَهمية، مع أن إطلاق الكُفْر على الجَهْمية عُمومًا جاء ذلك عن الإمام أحمدَ وغيرِه، وكما نقَلْتُ لكم أيضًا عن الشيخ مُحَمَّدِ بنِ عبدِ الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «إِنَّنا لا نُكفِّر الذين اتَّخَذوا صنمًا على قَبْر البَدَويِّ وعبد القادِر؛ لجَهْلهم وعدَم مَن يُنبِّههم»[1].

وقد كان كثيرٌ من الناس أو من طلَبة العِلْم يُفرِّقون بين الأصل والفَرْع، فيَقولون: الفَرْع يُعذَر فيه بالجَهْل، والأَصْل لا يُعذَر، فهذا ليس بصحيح، أوَّلًا أن تَقسيم الدِّين إلى أصل وفَرْع يَقول شيخ الإسلام[2]: هذا بِدْعة، ليس في القُرآن ولا في السُّنَّة تَقسيم الدِّين إلى أَصْل وفَرْع، وإنما حَدَث هذا من كلام المُتكلِّمين بعد القُرون المُفضَّلة، قسَّموا الدِّين إلى أَصْل وفَرْع، وقال: إن هذا التَّقسيم يَنتَقِض بأن الصلاة عندهم فَرْع، وهي من أصل الأصول، وبأن بعض المَسائِل التي فيها الخِلاف فيما يُسمُّونه أصولًا لا يُكفَّر المُخالِف فيه، كما تقدم في الصِّراط، وفي المِيزان، وفي عذاب القَبْر، وفي رُؤْية النَّبيِّ ﷺ ربَّه، كل هذه مِمَّا يُسمُّونه أصولًا، ومع ذلك ففيها الخِلاف، وإن كان الخِلاف في الأصل لم يَرِد، لكن فُروع الأصول فيها الخِلاف، فهذه المَسائِلُ يَنبَغي لطالِب العِلْم أن يُحرِّر فيها القول قبل أن يَحكُم على عِباد الله بما لم يَجعَله الله له.

• • ۞ • •

(١) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ١٠٤).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٦).

الآية (٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر:٥].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [غافر:٥] هذا كالتَّعليل لقوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر:٤] يَعني: فلْيَنظُر عاقِبة مَن كان قَبلَهم حين كذَّبوا.

وقوله: ﴿قَبْلَهُمْ﴾ الضمير يَعود على الذين كذَّبوا النَّبيَّ ﷺ.

وقوله: ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو أوَّلُ رَسول أَرسَله الله تعالى إلى أهل الأرض بعد أنِ اختلَفوا، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، ونوح بُعِثَ إلى أهل الأرض؛ لأنَّ أهل الأرض كانوا هم قَوْمَه، أمَّا حين تَعدَّدتِ الأقوام فقد كان الرسولُ لا يُبعَث إلَّا إلى قومه خاصَّةً، كما ثبَت ذلك عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»، رقم (٤٣٨)، ومسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، رقم (٥٢١)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائِل: ما هو الدَّليل على أن الذين ذُكِروا من الأنبياء في القُرآن كلُّهُم رُسُل؟

فالجوابُ: الدليلُ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨]، فكُلُّ مَن قصَّه الله علينا فهو رَسولٌ.

فإن قال قائِل: هل يُوجَد دَليل على عدَد الأنبياء والرُّسُل؟

فالجَوابُ: في حديث أبي ذَرٍّ أنهم كانوا مئة وعِشْرين ألفًا مِنهم ثلاثُ مِئة وبِضعةَ عشَرَ رَسولًا والباقي أنبياءُ، لكن الحَديث بعض العُلَماء قالوا: إنه غير صَحيحٍ. وإن كان ابنُ حِبَّانَ صحَّحه[1]، فالله أَعلَمُ. ليس هناك شيء يَركَن إليه الإنسانُ في العَقيدة بأن عدَدهم كذا أو كذا، لا الأنبياء ولا الرُّسُل.

وقوله: ﴿وَٱلْأَحْزَابُ﴾ جمع حِزْب وهي الطائِفة، يَعنِي: الطوائِف، ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد قَوْم نوحٍ.

يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كعادٍ وثَمودَ وغيرِهما] فماذا أَغنَى عنهم التَّكذيب، يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ يَعنِي: كلُّ أمَّة همَّت برَسولهم، أي: بالَّذي أُرسِل إليهم، ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ هذه مُتعَلِّقة بـ﴿وَهَمَّتْ﴾، أي: همُّوا ليَقتُلوه، واللَّام هنا بمعنَى الباء؛ أي: بأن يَأخُذوه فيَقتُلوه، ومنهم مَن قتَلهم بالفِعْل مَن قتَل النَّبيِّين بغير حَقٍّ.

وقوله: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ هذه تُفسِّر مَعنى الجِدال فيما

(١) أخرجه ابن حبان رقم (٣٦١).

سبَق في قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فجادَلوا بالباطِل؛ أي: جعَلوا الباطل سِلاحًا لهم ﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾ [يُزيلوا] به الحقَّ، فكانوا يَأتون بالباطِل يَحتَجُّون به على الحقِّ لإِدْحاضه.

واعلَمْ أن الذين يَأتون بالباطِل ليَدحَضوا به الحقَّ لا يَأتون بالباطِل على وَجْهه، بل يُزخْرِفون القول له كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ [الأنعام:١١٢]، ولهذا تَجِد الذين يُجادِلون بالباطِل يَأتون بعِبارات إذا رآها الإنسان ظنَّها حقًّا، كأنها السراب للظَّمْآن ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور:٣٩].

وكما قال بعضُهم:

حُجَجٌ تَهافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخالُها حَقًّا وَكُلٌّ كَاسِرٌ مَكْسُورُ[1]

فهم يَأتون بزُخْرف القول، الزُّخْرف يَعنِي: القول المُنمَّق المُحسَّن المُزيَّن لأَجْل إِدْحاض الحقِّ.

قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡ﴾ الفاء هنا للسَّببية؛ أي: فبسبَب ما قاموا به من المُجادَلة بالباطِل والتَّكذيب أَخَذْتُهم، والضمير الفاعِل يَعود على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمَفعول يَعود على هَؤُلاءِ المُكذِّبين.

فقوله: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالعِقاب] ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فسَّرَ المفَسِّر الأَخْذ هنا بالعِقاب لقوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: مُعاقَبَتي لهم، وكيف هنا للتَّعجُّب وللتَّقرير وللتَّعْظيم أيضًا، أي: فكان عِقابي عَظيمًا في كيفيَّته، وفي وقوعه

(١) عزاه شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨) للخطابي.

مَوْقعه، وفي شِدَّته، فإنَّه عَذاب لم يُبقِ أحدًا منهم، وعلى هذا فالاستِفْهام له عِدَّة مَعانٍ يُعيِّنها السِّياق.

فإن قال قائل: ما الفرق بين الأخذ في قوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ وقوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ ؟

فالجواب: الأَخْذُ يَأتِي بقَرينة، مِثل قوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي أَهْلَكْتهم، أمَّا أَخْذهُم هُم للأَنبياء فقد يَكون يَأخُذونهم ليَحبِسوهم، كقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال:٣٠]، يُثبِتوك يَعنِي: يَحبِسونك، فتكون ثابتًا في مَكان لا تَتعدَّاه، أو يَقتُلوك، أو يُخرِجوك من البلَد؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران:١١٢]، ولقوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ فيَكون إهلاكُهم في مُقابِل ما يُريدونه من إهلاك الرُّسُل، الرسول ﷺ لَمَّا همُّوا أن يَقتُلوه أَشار عليهم الشيخُ النَّجديُّ قال: لا يُمكِن أن تَقتُلوا قُرَشيًّا، إلَّا أن يكون عشَرة شُبَّان أقوياءَ وأَعطَوْا كلَّ واحد منهم سيفًا، فإذا خرَج مُحمَّد فلْيَقتُلوه ضربة رجُل واحِد، حتى يَتفرَّق دمُه في القبائِل فلا تَستَطيع قُرَيْش أن تُطالِب به، فيَخضَعوا لأَخْذ الدِّيَة[1]. إذَنْ هَمُّوا بقَتْله، واليَهود همُّوا بقَتْله في قِصَّة بني النضير[2].

وقوله: ﴿عِقَابِ﴾ قد يُشكِل على الناظِر لأَوَّل وَهْلة كيف كان مَجرورًا مع أنَّه مُبتَدَأ أو خبر مُبتَدَأ، فيُقال: إنه ليس بمَجرور، وأن الأصل عِقابي، فحُذِفَت الياء تَخفيفًا والكَسْرة قبلها دَليلٌ عليها.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: هو واقِع مَوْقِعه] وهذا بِناءً على أنَّ الاستِفهام تَقريريٌّ،

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٢).
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٠).

وإذا قلنا: للتَّعظيم يَكون المَعنى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فما أَعظَمَ عِقابي، وأَشَدَّه حيث أَزالَهم عن آخِرهم!.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن الله تعالى أَعذَر إلى الخَلْق بإِرْسال الرُّسُل مُبشِّرين ومُنذِرين؛ لئَلَّا يَكون للناس على الله حُجَّة بعد الرُّسُل؛ لقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾، وهذا يَدُلُّ على أن هناك قَوْلًا قاله الأنبياء فكذَّبه هَؤلاءِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن نُوحًا هو أوَّلُ الرُّسُل؛ لقوله: ﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، فجعَلَ الأحزاب المُكذِّبين كلهم من بعد قوم نُوحٍ، وهذا يَدُلُّ على أنَّ نوحًا هو أوَّلُ الرُّسُل، وهذا أمر مَعلوم مُتقرِّر في عِدَّة آيات وفي الأحاديث أيضًا، وبه نَعلَم أن مَن زعَم أن إدريسَ قبل نُوحٍ فإنه خاطِئ، ولا وَجهَ لقوله.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيانُ ما تَنطَوِي عليه صُدور المُكذِّبين للرُّسُل من الهَمِّ بقَتْلهم، يَعنِي أنَّ المُكذِّبين للرُّسُل لم يَقتَصِروا على أن يُكذِّبوا فقَطْ، بل همُّوا بالقَتْل، والقَتْل والاغتِيال وما أَشبَهَ ذلك هو سِلاح العاجِز، وكذلك السَّجْن هو سِلاح العاجِز؛ ولهذا قال فِرعونُ لمُوسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩]، وقال أبو إبراهيمَ (آزَرُ): ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم:٤٦].

فالسَّجْن والقَتْل والاغتِيال والسَّبُّ والشَّتْم كله سِلاح العاجِز؛ لأنَّ القادِر على دَفْع الحُجَّة هو الذي يَدفَع الحُجَّة بمِثْلها بحُجَّة، أمَّا أن يَستَعمِل سُلْطته فهذا يَدُلُّ على عَجْزه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾؛ لأنَّ الفاء للسَّببية،

وإثبات الأسباب حَقٌّ، وهو مُقتَضى حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ أن كل شيء له سبَب، فالإنسان لا يُولَد له مثلًا إلَّا بسبَب إذا تَزوَّج وجامَعَ وأَنزَل وُلِد له، فالله عَزَّوَجَلَّ قَرَن المُسبَّبات بأَسْبابها، وهو مُقتَضى الحِكْمة.

والناس في الأسباب ثلاثة أقسام: طرَفان ووسَط.

فقِسْم أَنكَر الأسباب، وقال لا تَأثيرَ لها، وما يَحصُل بالسبَب فإنه حاصِل عِنده لا به، والسَّبَب أَمارة على حُلول وقت الحادِث، وعَلامة فقَطْ على حُصول الحادِث، أو على حُلول وقته، فانكِسار الزُّجاجة بالحَجْر إذا أُرسِل عليها ليس هو الذي كسَرَها، لكن الله قدَّر انكِسارها عند وجود الصَّدْمة فقَطْ وليس للحجَر أيُّ تَأثير! فالأشياء تَحصُل عند الأسباب بغَيْر الأسباب، لكن السبَب جعَله الله أَمارة وعَلامة على حُلول وقت الحادِث؛ ولهذا يَقولون: لو أنَّ أحَدًا أَثبَت تأثير الأسباب لكان مُشرِكًا؛ لأنه أَثبَت مع الله خالِقًا فاعِلًا.

والقِسْم الثاني، الطرَف الثاني يَقول: بل الأَسْباب ثابِت تَأْثيرها، وهي مُؤثِّرة بنَفْسها؛ لأنها هي القُوَّة الفاعِلة، ولا عَلاقةَ لله بها، وهذا يُشبِه مَذهَب القدَرية وهو قول الفَلاسِفة، يَقولون: هكذا المَسأَلة طبائِعُ، من طَبيعة هذا الشيءِ أن يَحدُث به هذا الشيءُ، وهذا لا شَكَّ أنه خطَأ، وأنه نَوْع من الشِّرْك.

والقِسْم الثالِث: وسَط يَقول: إن للأَسباب تَأثيرًا، ولكن لا بنَفْسها، بل بما أَودَع الله فيها من القُوَّة المُؤثِّرة، وهذا الذي دَلَّ عليه المَنقول والمَعقول وهو الحَقُّ.

والرَّدُّ على الطبائِعِيِّين الذين يَقولون: إن الأسباب مُؤثِّرة بطَبيعتها أن الله تعالى قال لنار إبراهيمَ، وهي مُحرِقة، قال لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] فكانت بَرْدًا وسَلامًا، فخرَجت عن طبيعتها.

إِذَنْ: ليسَت الطبائِع قُوَّةً مُؤثِّرةً بنفسها، ولكن بما أَودَع الله فيها من القُوى المُؤثِّرة، والأدِلَّة على تَأثير الأسباب أكثَرُ من أن تُحصَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم:٤٨]، ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف:٥٧]، والأَعْمال الصالِحة سبَب للفَوْز، والأعمال السَّيِّئة سبَب للخُسْران وهكذا، فالأسباب ثابِتة شَرْعًا ولا شكَّ في الأمور الحِسِّيَّة والأمور الشرعية، فالآية التي معَنا: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ تُفيد إثبات الأَسْباب وتَأثيرها، ولكن بأَمْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَحريم المُجادَلة بالباطِل لإِدْحاض الحقِّ؛ لقوله: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر:٥].

ويَتفرَّع على هذا: أن هذه العادةَ من عادات المُكذِّبين للرُّسُل، ومن المُجادَلة بالباطِل لإِدْحاض الحقِّ أن يُجادِل الإنسان للانتِصار لقوله، وهذا يَقَع كثيـرًا في المُتفَقِّهة والمُتكلِّمة وغيـرهم، يُجادِلون بالباطِل من أَجْل الانتِصار للقول، كما قال تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال:٦]، فمَن جادَل من أَجْل أن يَنصُر قوله لا أن يَنصُر الحقَّ ففيه شبَه من المُكذِّبين للرُّسُل الذين يُجادِلون بالباطِل ليُدحِضوا به الحقَّ.

ثُمَّ إن فيه -أي في الذي يُجادِل لنَصْر قوله فقط- أنه قد عرَّض نفسَه لأمر عظيم جِدًّا، وهو قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، فإنَّ الإنسان إذا جادَل لنُصْرة قوله فإنه يَكون لم يُؤمِن به أوَّل مرَّة، وحينَئِذٍ يُبتَلى بهذه العاهةِ العَظيمةِ أن الله يُقلِّب فُؤادَه وبصَره حتى لا يُبصِر الحَقَّ، ولا يَعِيَ الحقَّ ويَكتُم الحقَّ؛ لأنه لم يُؤمِن به أوَّلَ مرَّة.

والواجِب على المُؤمِن قَبول الحقِّ من أوَّل مرَّة، لا يَتردَّد في قَبوله، كما كان

الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَفعَلون ذلك إذا قال النَّبيُّ ﷺ هذا حرام؛ امتَثَلوا، وكفُّوا عنه فِعْلًا في الحال، وإذا أَمَرَهم ابتَدَروا أَمْره، وهذا شيءٌ له شَواهِدُ كَثيرة وبذلِك حقَّقوا الإيمان عَقيدة وقَوْلًا وعمَلًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيانُ شِدَّة عِقاب الله؛ لقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؛ أي: ما أَعظَمَه! وما أَشدَّه! وما أَحسَنَه؛ لأنه وقَع مَوقِعه!.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنه يُخشَى من مُعاجَلة العُقوبة؛ لأنَّ العُقوبة جاءَت بالفاء: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، ولأن المُسبَّب يَكون بعد السبَب مُباشَرة، فالإنسان العاصِي عليه الخطَر من مُعاجَلة الله له بالعُقوبة.

• • ۞ • •

الآية (٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٦].

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: أي مِثْل ذلك الأَمْرِ، وهو وُقوع العِقاب، ﴿حَقَّتْ﴾ وجَبَت ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ الآية] ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩]، ففسَّر كلمة الله بذلِك، ولكنَّ في هذا نظَرًا واضِحًا؛ لأن الله يَقول: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ هذه الكلِمةُ، وهي قوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: حَقَّت كلِمة ربِّك التي ثبَتَت أزَلًا أن هؤلاءِ أصحابُ النار.

وقوله: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: وجَبَت عليهم، والكلِمة هي قوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، ولهذا قال المفسِّر إنها: [بدَل من ﴿كَلِمَتُ﴾] وإذا كانت بدَلًا من ﴿كَلِمَتُ﴾ كيف نَقول: إن الكلِمة هي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، إذا كانت هي البدَل، فابنُ مالِكٍ يَقولُ:

التَّابِعُ المَقْصُودُ بِالحُكْمِ بِلَا ... وَاسِطَةٍ هُوَ المُسَمَّى بَدَلَا[1]

(١) الألفية (ص:٤٩).

فقوله: «التابعُ المَقصود بالحُكْم بلا واسِطة» هذا البدَلُ.

إِذَنْ: فالمَقصود بالحُكْم المَقْصود بقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هو قوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ وإذا وَجَدْت في القرآن أصحاب النار فالمُراد بها أصحابها المُخلَّدون؛ لأن الصُّحْبة تَقتَضي المُلازَمة، ولا يُمكِن أن تكون أصحاب النار لَمن تُوعِّدوا بدُخول النار، ثُم يُخرَجون منها، إنما تكون لَمن هم أَهْل النار الذين هم أَهْلها وأَصحابُها.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات تَقدير الله عَزَّوَجَلَّ الأَشياءَ، أي: إثبات أن الأشياء قد كُتِبَت من قبلُ؛ لقوله: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، وهذا لا يُنافِي إرسال الرُّسُل، ولا يُنافِي الأمر بما أَمَر به، ولا النَّهيَ عمَّا نَهَى الله عنه؛ لأن الله تعالى أَعطَى الإنسان عَقْلًا ورُشْدًا وبَصيرةً يَعرِف كيف يَتصرَّف، فإذا أُرسِلت الرُّسُل مع الفِطْرة الأُولى ثُم عانَد فقَدْ قامت عليه الحُجَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات الكَلام لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، ومن عَقيدة أهل السُّنَّة والجَماعة: أن الله تعالى يَتكَلَّم بكلام مَسموع وبحَرْف، يَعنِي أنه يُسمَع ويُفهَم بحُروف مُرتَّبة، فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر:٦٥]، نَعلَم أن الهَمْزة قبل اللَّام، واللَّام قبل الحاء، والحاء قبل الميم، والميم قبل الدال، وهكذا، حُروف مُرتَّبة لم تَأتِ جُملة واحِدة، وإذا كانت مُرتَّبة لزِمَ من ذلك حُدوث الكلِمات؛ لأن ما بعد الأوَّل واقِع بعده فيَكون بهذا دَليلًا على حُدوث كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وليس المُراد أصلَ الصِّفة؛ لأن أصل الصِّفة أزَليٌّ لم تَكُن حادِثة من قبلُ، فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لم يَزَل بصِفاته، لم يَزَل عليمًا، لم يَزَل مُتكلِّمًا، لم يَزَل سميعًا، لم يَزَل قَديرًا، لكن الصِّفة قد تَحدُث شيئًا فشيئًا باعتِبار آحادها وأفرادها.

أمَّا ما كانت صِفة مَعنَويَّة فالحُدوث ليس لها، ولكن لمُتعَلَّقها، فسَمْعُ الله عَزَّوَجَلَّ لا نَقول: إنه حادِث؛ لأنه لم يَزَل، لكن الذي يَحدُث هو المَسموع؛ الكلام يَحدُث لأنه نَوْع من الفِعْل.

وعلى هذا فنَقول: في الآية إثبات الكلام لله تعالى، ومَذهَب أهل السُّنَّة والجماعة أن الله يَتكَلَّم بحَرْف مُرتَّب وصوت مَسموع.

فإذا قال قائِل: لو قلت: إنه بحَرْف مُرتَّب لزِمَ أن يَكون كلامُه مُشابِهًا لكلام المَخلوقين؟

فالجَوابُ: لا يَلزَم؛ لأن الكلام لا يُمكِن أن يَكون كلامًا إلَّا بهذا، لكن صوت الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ الذي يُسمَع ليس كأصوات المَخلوقين؛ لأن الصوت هو صِفته، لكن الحُروف صِفة الكلام الذي تَكلَّم به، وهي لا يُمكِن أن تَكون كلامًا إلَّا بتَرتيب بعضُه بعد بعضٍ.

فإن قال قائِل: لماذا لا يَكفُر مَن يَقول: إن القرآن مُحدَث؟

فالجوابُ: لا يَكون كُفْرًا لأن لهم تَأويلًا، يَقولون: مُحدَث إنزالُه، ليس الذِّكْر المُحدَث بل إنزاله، ولا شَكَّ أن هذا إقحام لكلِمة إنزال في غير دليل، مثل قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢] قالوا: المَعنى: وجاء أَمْر رَبِّك، فأَقحَموا أَمْر، فنظَرًا لهذا التَّأويلِ لا نَحكُم بكُفْرهم.

فإن قال قائِل: لا يُنافِي هذا كِتابته في اللَّوْح المَحفوظ؟

فالجَوابُ: لا يُنافِي ذلك، لأنه ليس هناك دَليل قَطعيٌّ يَطمَئِن الإنسان إليه بأن القُرآن كُتِب أوَّلًا في اللَّوح المَحفوظ.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزُّخرُف:٤]، فإنَّه يُمكِن أن يَكون المُراد به ذِكْر هذا الكِتاب، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]، ومَعلوم أن زُبُر الأوَّلين ليس فيها القُرآن، وإنما فيها التَّحدُّث عنه وذِكْره، فليس هناك دَليل قَطعيٌّ يَطمَئِن الإنسان إليه بأن القُرآن كُتِب في اللَّوح المَحفوظ، وإذا ثبَت هذا فلا يُنافِي أن يَكون كلام الله تعالى به مُحدَثًا بمعنى أنه يَتكَلَّم به ليُلْقيَه على جِبريلَ، وإن كان مَكتوبًا من قبلُ في اللَّوح المَحفوظ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عِناية الله عَزَّوَجَلَّ برسوله ﷺ، وجهُه قوله: ﴿رَبِّكَ﴾، حيث أَضاف إليه الرُّبوبية، وهذه الرُّبوبيةُ خاصَّة؛ لأنَّ رُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ نَوْعان: عامَّة وخاصَّة، فالعامَّة الشامِلة لكل شيء، والخاصَّة المُختَصَّة بما أُضيفَت له، استَمِع إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢] في هذه رُبوبية عامَّة ورُبوبية خاصَّة، العامَّة ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والخاصَّة ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٩١]، الأوَّل: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ يَعني: مكَّة الذي حرَّمها، رُبوبية خاصَّة، ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ هذه عامَّة.

إِذَنْ: قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ من باب الرُّبوبية الخاصَّة، ولا شَكَّ أن أخصَّ رُبوبية تَكون للمَربوبين هي رُبوبية الرُّسُل، ولا سِيَّما أُولِي العَزْم منهم، وهم خمسة: مُحمَّد، إبراهيمُ، مُوسى، عِيسى، نُوحٌ، عليهم الصلاة والسلام.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: خُلود الذين كفَروا في النار؛ لقوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾،

وهذا الخلودُ أبَديٌّ، جاء ذلك في آيات ثلاث في القرآن في سورة النِّساء، وفي سورة الأحزاب، وفي سورة الجِنِّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التَّحذير ممَّا يُوجِب غضَب الله وسخَطه؛ لئَلَّا يَكون الرجُل قد حقَّت عليه كلِمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الذي حصَل لهؤلاءِ المُكذِّبين يُحِقُّ كلمة الله عَزَّوَجَلَّ.

الآية (٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر:٧].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مُبتَدَأ مُستأنَف، ويَجِب الوُقوف على ما قَبْله ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّك لو قُلْت: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ ووصَلْتَ لظَنَّ الظانُّ أنَّ أصحاب النار همُ الذين يَحمِلون العَرْش، وهذا فَساد للمَعنى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ مُبتَدَأ]، وجُمْلة ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ خبَر المُبتَدَأ.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ العَرْش: هو عَرْش الرحمن عَزَّوَجَلَّ، وهو أَكبَرُ المَخلوقات، وأعظَمُها، وأَوْسَعها، وأَشرَفُها فيما عدا المُكلَّفين، هذا العَرْشُ لا يَعلَم قَدْره إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأننا لم نُخبَر عن قَدْره، ولا نَعلَم من أيِّ مادَّة هو، أهُوَ من نور أو خشَب أو حَديد؟ لا نَعلَم؛ لأننا لم نُخبَر عن ذلك، ولم نَعلَم عن لونه، ولم نَعلَم عن مَلمَسه، أَلَيِّنٌ هو أم قاسٍ؟ كل هذا لا نَعلَمه، إنما نَعلَم أنه عَرْش عَظيم مُحيط بالمَخلوقات، استوَى عليه الربُّ عَزَّوَجَلَّ، وله حَمَلة، والمَشهور أن حَملته الآنَ أربَعة، وفي يوم القِيامة يَكونون ثَمانية، ومن جُملة حَمَلة العَرْش إسرافيلُ المُوكَّل بالنَّفْخ في الصور، فإنه أحَدُ حَمَلة العَرْش.

ونحن لا نَعلَم صِفاتِ هؤلاء الذين يَحمِلون العَرش، لكن نَعلَم أنهم مَلائِكة، أمَّا كيف هم فإن ذلك مَوْقوف على ما جاء به السَّمْع.

﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ (من) مَعطوفة على ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ أي: والذين حولَه.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ عَطْف عليه] على المُبتَدَأ؛ لأنَّ المفَسِّر قال: [مُبتَدَأ ﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ عَطْف عليه] أي: على المُبتَدَأ، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُسَبِّحُونَ﴾ خبَرُه] خبَرُ المُبتَدَأ وما عُطِف عليه، يَعنِي: حَمَلة العَرْش والذين حول العَرْش يُسبِّحون بحمد الله، والتَّسبيح تَنزيهُ الله عَزَّوَجَلَّ عمَّا لا يَليق به من نَقْص أو مُماثَلة للمَخلوقين.

والباء في قوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ للمُلابَسة؛ أي: تسبيحًا ممزوجًا بالحَمْد، فهُمْ مُسبِّحون حامِدون. قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: يَقولون: سُبحان الله وبحَمْده]، وقد بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ ذلك دائِم مُستَمِرٌّ، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠]، أمَّا ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ [فُصِّلَت:٣٨].

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ تعالى ببَصائرهم. أي: يُصدِّقون بوَحْدانيَّته] الإيمان في اللُّغة الإقرارُ بالشيء.

وأقول: بل الإقرار بالقَلْب واللِّسان وليس هو مُجرَّد التَّصديق فقط، قد لا يُعرَض على الإنسان شيء فيُؤمِن به، كما إذا شاهَد شيئًا بعَيْنه فإنَّه يُؤمِن به وإن لم يُعرَض عليه، والقول بأنَّه في اللغة التَّصديق. فيه نظَر؛ لأنَّ تَفسير الشيء بالشيء

يَلزَم أن يَكون مُطابِقًا له، ومن المَعلوم أنك تَقول: آمَنْتُ به. وتَقول: صدَّقْت به. وتَقول: آمَنْت له. وتَقول: صدَّقْت له. وتَقول: صدَّقْته. ولا تَقول: آمَنْتُه. وهذا يَدُلُّ على أنَّ الإيمان ليس هو التَّصديقَ.

وقد نبَّه على ذلك شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتابه (الإيمان)، فقال: «إن الإيمان بمَعنى التَّصديق ليس بصَحيح»[1] وإن كان قد يَأتِي بمَعناه، ولكنْ حقيقتُه أنه ليس إيَّاه؛ فهو إقرار بالقَلْب، ونُطْق باللِّسان.

وقوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: يُؤمِنون بوُجوده عَزَّوَجَلَّ ووَحْدانيته، وبكل ما يَستَحِقُّه من أسماء وصِفات وغيرها إيمانًا كامِلًا؛ والإيمان بالله يَتَضمَّن: الإيمان بوُجوده، ورُبوبيته، وأُلوهِيَّته، وأسمائه، وصِفاته، وانفِراده بذلك.

وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: يَطلُبون المَغفِرة للذين آمَنوا، وقد تقدَّم مِرارًا أن المَغفِرة هي سَتْر الذَّنْب والتَّجاوُز عنه.

وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ﴾ جُمْلة ﴿رَبَّنَا﴾ مَقول لقَوْل مَحذوف فسَّره المفَسِّر بقوله: [يَقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾] ربَّنا؛ أي: يا ربَّنا، وحُذِفَت منه (يا) النِّداء لكَثْرة الاستِعْمال وتَيمُّنًا بالبَداءة باسم الله عَزَّوَجَلَّ، أو بوَصْفه بالربوبية.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وسِعَتْ رحمتُك كلَّ شيء وعِلْمك كلَّ شيء]، فمَعنى ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أحَطْتَ به رحمةً، وأَحَطْتَ به علمًا، فما بلَغه عِلْم الله بلَغَتْه رحمَته، ولكن الرحمة إمَّا عامَّة، وإمَّا خاصَّة كما سيَأتي في الفَوائِد إن شاءَ الله.

---

(١) كتاب الإيمان (ص:١٠١).

وجُمْلة ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ هي عِبارة عن تَوسُّل؛ أي: تَوسَّلوا بسَعة عِلْم الله ورحمته إلى مَطلوبهم.

يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ من الشِّرْك] ورجَعوا إلى الله تعالى بالتَّوْحيد والإخلاص، ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾؛ أي: طَريقك، وهو دِين الإسلام، سَواءٌ كان إسلام مُحَمَّد ﷺ، أو إسلام من قَبْله؛ لأن هذا الدُّعاءَ عامٌّ لكُلِّ المُؤمِنين، فقَوْل المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [دين الإسلام] يُريد به الإسلام العامَّ، فالذين اتَّبَعوا الرسُل السابِقين مُسلِمون والذين اتَّبَعوا مُحَمَّدًا ﷺ مُسلِمون، لكن لا إسلامَ بعدَ مُحَمَّد ﷺ إلَّا باتِّباع دِينه.

وهنا قال: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ وفي آيـة أُخرى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١١٥]، فأَضاف السبيل إلى المُؤمِنين، وكذلك الصِّـراط يُضيفه تعالى أحيانًا لنفسه مثل قوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٣]، وأَحيانًا للمُؤمِنين مثل: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧]، فالجَمعُ بينهما أن الله أَضاف السبيل أو الصِّراط إليه باعتِبارَيْن:

الاعتِبار الأوَّل: أنه هو الذي وضَعَه لعِباده يَسيرون عليه.

والاعتِبار الثاني: أنه مُوصِل إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فمَن سلَكَه أَوْصَله إلى ربِّه.

أمَّا إضافتُه للمُؤمِنيـن في قوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أو للذين أَنعَم عليهم في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ فلأَنَّهم سالِكوه، فأُضيف إليهم باعتِبار سُلوكهم إيَّاه، وحينَئذٍ ليس بين الآيات تَعارُض.

قوله: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: اجعَلْ لهم وِقاية من عذاب الجَحيم وهو عذاب النار، كما فسَّر بذلك المفَسِّر.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات العَرْش، وقد تَكرَّر ذِكْره في القرآن الكَريم في آياتٍ عَديدة، ووَصْفه بأنه كَريم، وبأنه عَظيم، وبأنه مَجيد.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات أنَّ لهذا العَرْشِ حَمَلةً؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾، وإثبات الحَمَلة له مع قُدْرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على إمْساكه بدون حَمَلة إشعار بتَعْظيمه، وأنه عَظيم مُعتَنًى به؛ ولهذا نَجِد أن الله قال في السَّموات بغير عمَد، ولم يَذكُر لها حَمَلة، والعَرْش ذكَر له حَمَلة مع أن الذي أَمسَك السَّمواتِ والأرضَ أن تَزولا قادِر على إمساك العَرْش بلا حَمَلةٍ، لكن هذا من باب التَّعظيم والتَّنويه بشَرَفه وعظَمته.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن حول هذا العَرْش مَلائِكةً، وأنهم كَثيرون، ربما نَستَفيد كَثْرتهم من قوله: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ [غافر:٧]، كأنَّ كل الذي حول العَرْش، ثُمَّ مَن الذي حَوْل العرش هل يُقدَّر بمَسافة عشَرة أمتار، أو عِشرين مترًا، أو مئة متر، أو أَلْف متر؟ يُقال: الحَوْل في كل مكان بحسَبه، فعِندنا مثَلًا الأرض صَغيرة بالنِّسبة للعَرْش، والذي حَوْل الإنسان فيها لا يَتَجاوَز عشَرة أمتار، ربما نَقول: مَن حَوْلك هو الذي يَسمَع كلامك المُعتاد، لكن مَن حول العَرْش، لا نَعلَم! قد تَكون مِساحاتٍ كبيرةً لا يَعلَمها إلَّا الله.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَعظيم هؤلاء الذين يَحمِلون العَرْش، والذين حول العَرْش، للربِّ عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَنزيهُ الله عَزَّوَجَلَّ عن كل نَقْص، وعن مُماثَلة المَخلوقين؛ فإن قيل: مُماثَلة المَخلوقين من النَّقْص، فلماذا نَقول: وعن مُماثَلة المَخلوقين؟ أفلا يَجدُر بنا أن نَقتَصِر على قولنا: تَنزيهُ الله عن النَّقْص؟

نَقول: لا، مُرادُنا بـ«التَّنزيه عن النَّقْص»: أنَّ صِفاتِه الكامِلةَ مُنزَّهة عن النَّقْص، فقوَّتُه لا يَعتَريها نَقْص ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] وعِلْمه لا يَعتَريه نَقْص ﴿فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾؛ أي: لا يَجهَل ﴿وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، فمُرادُنا بالنقص أن كَماله لا يَعتَريه النَّقْص، وأمَّا نفيُ المُماثَلة؛ فلأنَّ الله نصَّ على نفيها، فينبَغي أن نَتَّبع في ذلك القُرآنِ أن نَقول: مُنزَّهٌ عن مُماثَلة المَخلوقين.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وَصْف الله عَزَّوَجَلَّ بالكَمال والإفضال؛ لقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾؛ لأن الحَمْد وَصْف المحمود بالكَمال والإفضال؛ لأن الله يُحمَد على كَماله، مثل قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، وكذلك مِثْل قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١]، كل هذا حَمْد على الكَمال، ويُحمَد على إفْضاله؛ لقول النبيِّ ﷺ: «**إِنَّ الله لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا**»(١) هذا حمد على الإفْضال.

إذَن: يُستَفاد كَمال الله عَزَّوَجَلَّ وإفضاله؛ لقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن كَمال الكَمال بنَفْي النَّقْص، أو بالجمع بين نَفْي النَّقْص وإثبات الكَمال، فكَمال الكَمال أن تَجمَع بين النَّفي والإثبات في الكَمال، يُؤخَذ من قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ هذا نَفيُ النَّقائِص، و﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ إثبات.

إذَنْ: كَمال الكَمال بالجَمْع بين النَّفي والإثبات.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، رقم (٢٧٣٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: فَضيلة المَلائِكة الذين يَحمِلون العَرْش ومَن حَولَه، تُؤخَذ من إضافة الرُّبوبية إليهم على وَجْه، فإن هذه من الرُّبوبية الخاصَّة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، وإضافة الربوبية إليهم من عِدَّة وُجوهٍ: منها اختِصاص الله لهم بحَمْل العَرْش، تَسبيحهم بحَمْد الله.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ المَلائِكة مُكلَّفون؛ لقوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، ووَجهُ الدَّلالة أنَّهم لولا أنهم مُكلَّفون قاموا بما كُلِّفوا به لم يَكونوا مُستَحِقِّين للثَّناء بالإيمان، لو كان هذا من طَبيعتهم وسَجيَّتهم لم يَكُن للثَّناء عليهم بذلك كبير فائِدة، ويَدُلُّ على أنَّهم مُكلَّفون قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة:٣٤]، ولا شَكَّ أن كل عِباد الله الذين لهم فَهْم وعَقْل لا بُدَّ أن يَكونوا مُكلَّفين.

فائدة: نُزول المَلائِكة في بدرٍ تَثْبيت لقُلوب المُؤمنين، ومُشارَكة لهم في هذا، من باب التَّأييد للمُؤمِنين ونُصرة الحَقِّ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤]، ومن المعلوم أيضًا أنَّ الله لو قال لهؤلاء الكُفَّار: كونوا أَمْواتًا. لماتوا. المَسأَلة ليس مَعناها من باب العَجْز أو القُدْرة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: تَسخير الله عَزَّوَجَلَّ للمُؤمِنين أن تَستَغفِر لهم المَلائِكة، وليس المَلائِكة مُطلَقًا، بلِ المَلائِكة المُقرَّبون؛ لقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر:٧].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الحَثُّ على الإيمان حتى تَدخُل في ضِمْن مَن تَستَغفِر لهم المَلائِكة، والإيمان كلُّه خير وسُرور ونِعْمة في القلب، ونِعمة في البدَن، حتى البلاء الذي يُصيب المُؤمِن هو له خَيْر؛ فلِهذا نقول: احْرِص على تَحقيق إيمانك بفِعْل الوسائِل التي تُنمِّي هذا الإيمانَ وتُغذِّيه وتُقوِّيه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: التَّوسُّل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بصِفاته، كما يُتوسَّل إليه بأسمائه، فهنا تَوسَّل المَلائِكة إلى الله بالرُّبوبية في قولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ وتَوسَّلوا إليه بسَعة الرحمة ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾ [غافر:٧]، وبسَعة العِلْم ﴿وَعِلْمًا﴾، والتَّوسُّل إلى الله تعالى بصِفاته من أسباب إجابة الدُّعاء، كالتَّوسُّل إليه بأسمائه.

وهنا يَجدُر بنا أن نَتعَرَّض لمَعنى الوَسيلة وحُكْمها:

فالوَسيلة فِعْل ما يُوصِّل إلى المَقصود يُسمَّى وَسيلة، وربما نَقول: إنه تَناوَبَت فيه السين والصاد، وأن أَصْل الوَسيلة يَعنِي: الوَصيلة، وَصيلة بمعنى مُوصِلة، فهي فَعيل بمعنى مُفعِل.

والوسائِل لا بُدَّ أن تَكون مَعلومة: إمَّا بالشَّرْع، وإمَّا بالحِسِّ، وإنَّما قُلتُ ذلك لدَفْع الوسائل المَوْهومة؛ كالذين يُعلِّقون على صدورهم أَشياءَ لم يَثبُت شَرْعًا ولا حِسًّا أنها مُفيدة، لكن على سبيل الوَهْم، أو الذين يُعلِّقون نُحاسًا أو خُيوطًا، أو ما أَشبَه ذلك، هذه وَسائِلُ للشِّفاء ادعوها، ولكنها حقيقة ليست وَسيلةً؛ لانتِفاء ثُبوت ذلك شَرْعًا وحِسًّا.

وإذا كانت الوَسيلة هي فِعْلَ ما يُوصِل إلى الشيء فالعِلْم بإيصال هذا إلى المَقصود -العِلْم بكونه مُوصِلًا- يَأتِي عن طريق الشرع، أو عن طريق الحِسِّ، فكون العسَل شِفاءً وتَناوُله وَسيلة للشِّفاء، هذا علِمناه بطريق شَرعيٍّ، وربما حِسِّيٍّ أيضًا بعد التَّجرِبة، وكون السَّنَا مُحرِّكًا للبطن مُسهِلًا له هذه وَسيلة حِسِّية، والسَّنَا باللغة العامِّية يُسمَّى السَّناوَيْن، وهو أوراق شجَر مَعروف يُخمَّر بالماء ثُم يُشرَب على الرِّيق، فإذا شرِبه الإنسان على الرِّيق فإنه يُسهِله ويُنظِّف بَطْنه، وكان الناس يَستَعمِلونه كثيرًا قبل أن تَأتِيَ هذه الأَدْويةُ، يُسمَّى سنا مَكَّةَ، وله أسماءٌ مُختَلِفة.

فالوَسيلة إِذَن هي فِعْل ما يُوصِل إلى المقصود، والعِلْم بإيصاله إلى المَقْصود، يَأتِي عن طريق الشَّرْع وعن طريق الحِسِّ.

والوَسائِل هي التَّوسُّل إلى الله تعالى بإجابة الدُّعاء، أن تَفعَل شيئًا يُوصِل إلى الإِجابة، ولا طريقَ لنا إلى العِلْم بإيصاله الإجابة إلَّا عن طَريق الشرع.

إِذَنْ: نَنظُر التَّوسُّل إلى الله تعالى بأسمائه، هذا القِسْمُ الأَوَّلُ، ودَليله قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، فتَقول: اللهُمَّ يا غَفورُ يا رحيمُ اغفِرْ لي وارْحَمْني. هذا تَوسُّل إلى الله بأسمائه.

الثاني: التَّوسُّل إلى الله بصِفاته، ومنه قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ أَحْيِنِي إِذَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي»[1] تَوسُّل بـ«عِلْمِكَ الْغَيْبَ» والعِلْم صفة «وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ» والقُدرة صِفة، فتَقول: «اللهُمَّ بعِلْمِكَ الغَيْبَ وقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي...» إلى آخِره.

القِسْم الثالِث: التَّوسُّل إلى الله بأَفْعاله، ومنه قوله تعالى عن مُوسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص:١٧]، إن جعَلنا قوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾ من باب الدُّعاء، وإن جعَلْناها من باب الالتِزام لم تَكُن من هذا البابِ.

ولكن من هذا البابِ قولُه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو يُعلِّمنا كيف نُصلِّي عليه: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ»[2] فالكاف هنا ليسَت للتَّشبيه، الكاف للتَّعليل، يَعنِي: صلِّ على مُحمَّد وآل مُحمَّد؛

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٦٤)، والنسائي (١٣٠٥) من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٦٣٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم (٤٠٦)، من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لأنك صلَّيْت على إبراهيمَ، فتَوسَّل إلى الله بِفِعْله، يَعنِي: كما منَنْت أوَّلًا على إبراهيمَ وآله فامنُنْ ثانيًا على مُحَمَّد وآله.

القِسْم الرابع: التَّوسُّل إلى الله تعالى بالإيمان بالله، وهذا من فِعْلك أنت، ومنه قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ هذه الوَسيلةُ ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾؛ أي: بسبَب ذلك اغفِرْ لنا ﴿ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣] هذا تَوسُّل إلى الله بالإيمان به.

القِسْم الخامِس: التَّوسُّل إلى الله بالعمَل الصالِح؛ لأنَّ العمَل الصالِح سبَب للمَثوبة، ومن المَثوبة حُصول ما دعَوْت به، ودليلُه: قِصَّة أصحاب الغار التي حدَّثَنا بها رسولُ الله ﷺ[1]، أصحاب الغار ثلاثة، آواهُمُ المَبيت الليل، فلَجَؤُوا إلى غار فدخَلوا به، فتَدحْرَجت عليهم صَخْرة عظيمة من الجَبَل فسَدَّت عليهم بابَ الغار، ولم يَستَطيعوا أن يُزَحْزِحوها ولا مُغيثَ لهم إلَّا الله، ليس حولهم بشَر، فتَوسَّلوا إلى الله تعالى بأعمالهم الصالِحة، أحدُهم تَوسَّل إلى الله ببِرِّ والِدَيْه، والثاني تَوسَّل إلى الله بالعِفَّة التامَّة، والثالِث تَوسَّل إلى الله بالأمانة التامَّة، فبِرُّ الوالدين عمَل صالِح، والعِفَّة عمَل صالِح، والأمانة وأداء الأمانة عمَل صالِح، فلمَّا تَوسَّل الأوَّل منهم انفرَجَت الصَّخْرة، لكن لا يَستَطيعون الخُروج، تَوسَّل الثاني فانفرَجَت الصخرة، ولكن لا يَستَطيعون الخُروج، تَوسَّل الثالِث فانفرَجَت الصخرة مرَّة واحِدة، فخرَجوا يَمشون.

هذا التَّوسُّل إلى الله بالعمَل الصالِح.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرًا فترك الأجير أجره، رقم (٢٢٧٢)، ومسلم: كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، رقم (٢٧٤٣)، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

السادِس: التَّوسُّل إلى الله بحال الشخص، تَتَوسَّل إلى الله تعالى بذِكْر حالِكَ، أنك فَقير، مُحتاج إلى الله، مَريض، وما أَشبَهَ ذلك، ومِنه قول موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دليله -وإن شِئْت قلتَ: مثل؛ لأن هذا يَصلُح دليلًا وتَمثيلًا-: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]، لَمَّا سقَى للمَرْأَتين تَولَّى إلى الظِّلِّ؛ ليَستَظِلَّ به فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ لم يَقُل: أَعطِني، لكن تَوسَّل إلى الله بحاله؛ لأنَّ قول القائِل: أنا فَقير، أنا مُحتاج، أنا مَسَّنِي الضُّرُّ. وما أَشبَه ذلك يَعنِي: فأَعطِني، اشفِني، وقد جَمع أَيُّوبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بين ذِكْر الحال والتَّوسُّل بالأسماء فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣] الأوَّل: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ ذِكْر الحال، والثاني بالأَسْماء.

السابِع من التَّوسُّل الجائِز: التَّوسُّل إلى الله بدُعاء مَن تُرجَى إجابتُه، ومنه تَوسُّل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى النَّبيِّ ﷺ أن يَدعوَ الله لهم، مثل: الاستِسْقاء، والاستِصْحاء، وغير ذلك كثير.

ومن ذلك تَوسُّل الناس عمومًا يوم القِيامة بشفاعة النَّبيِّ ﷺ إلى الله أن يَقضِيَ بينهم. هذه سَبْعة.

وقولنا: «التَّوسُّل إلى الله بمَن تُرجَى إجابتُه» يُستَفاد منه أن التَّوسُّل إلى الله تعالى بمَن لا تُرجَى إجابته لا يَجوز؛ لأنَّ هذا استِهْزاء بالله، لو أنَّك أَتَيْت بصاحب رِبًا يَأكُل الرِّبا، ويَأكُل المال بالظُّلْم والغِشِّ والكذِب وقلت: ادْعُ الله لي. فإن هذا لا يَجوز؛ لأنَّك تَوسَّلْت إلى الله بمَن تَبعُد إجابتُه، فإن النبيَّ ﷺ ذكَر الرجُل يُطيل السفَر أَشعَثَ أَغبَرَ يَمُدُّ يديه إلى السماء يا رَبِّ يا رَبِّ، ومَلبَسُه حرام، ومَطعَمه حرام،

وغُذِّيَ بالحَرام قال: «فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»[١] وهو سُخرية، لو أنك أَتَيْت بشَخْص -ولله المثل الأعلى- ليَتوجَّه لك إلى ملِك كان الملِك يُبغِض هذا الشَّخْص ويُبعِده، يَكون هذا استِهْزاء بالمَلِك واستِهْتارًا به، كلُّنا يَعرِف هذا، فلا يَجوز أن تَتوَسَّل إلى الله تعالى بدُعاء مَن لا تُرجَى إجابتُه؛ لأن هذا من باب السُّخرية بالله عَزَّوَجَلَّ، هذه سَبْعة أقسام من التَّوسُّل الجائِز.

فائدة: الوَسائِل ليسَت هي الوَسائِطَ، الوسائِلُ ليس فيها وسائِطُ إلَّا السابِعة، وهي التَّوسُّل إلى الله بدُعاء مَن تُرجَى إجابتُه.

وإن قيل: لماذا أَخرَج العُلَماء التَّوسُّل إلى الله بالعمَل الصالِح عن التَّوسُّل بالإيمان؟

فالجوابُ: لأن الإيمان بالقَلْب، والعمَل الصالِح بالجَوارِح، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين:٦] فالإيمان بالقَلْب، والعمَل الصالِح بالجوارِح، ولكن العمَل الصالِح من الإيمان.

فإن قال قائِل: أيَجوز أن أَتوَسَّل بمَحبَّة الرسول، فأَقول: اللَّهُمَّ بمَحبَّتي لرَسولِك؟

فالجواب: يَجوز، لأن مَحبَّة الرَّسول لا شَكَّ أنه عمَل صالِح، فإن من أَفضَل الأعمال مَحبَّة الرسول ﷺ، بل لا يُؤمِن الإنسان حتى يَكون رَسولُ الله ﷺ أَحَبَّ إليه من نَفْسه وولَده ووالِده والناس أَجْمعين.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائِل: ما حُكْم التَّوسُّل إلى الله بمَحبَّة الصالِحين والعُلَماء؟

فالجوابُ: مَحبَّة الصالِحين والعُلماء هي عِبادة تُقرِّب إلى الله.

إِذَنْ: هي عمَل صالِح تَدخُل في التَّوسُّل إلى الله بالعمَل الصالِح.

فإن قال قائِل: ما حُكْم تَخصيص العالِم بعَيْنه؟

فالجوابُ: الأحسَنُ ألَّا تُخصِّص؛ لأن العالِم بعَيْنه -نَسأَل الله تعالى أن يَحمِيَنا وإيَّاكم، ويَجعَل ظواهِرنا كبواطِننا، أو بواطِننا خيرًا منها- لا تَدرِي حقيقته، قد تَغتَرُّ بإنسان، ولكن لا يَكون على ما تَظُنُّ، لكن عمِّم: اللَّهُمَّ بحُبِّي لعلماء الشَّرْع احشُرْني معهم، بحُبِّي للصالِحين اجعَلْني معَهم. وما أَشبَه ذلك.

أمَّا التَّوسُّل المَمنوع: كأن يَتوَسَّل إلى الله بما ليس بوَسيلة، مثل: تَوسُّل المُشرِكين بأَصْنامهم؛ حيث يَقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر:٣]، فهذا لا يَنفَع.

ومن ذلك التَّوسُّلُ إلى الله بجاهِ الرسول ﷺ، فهذا لا يَجوز؛ لأنَّه تَوسُّل بما ليس بوَسيلة، فلا تَستَفيد من جاهِ الرَّسول عند الله شيئًا؛ لأن جاهَ الرسول عند الله إنَّما يَنفَع الرَّسول فقَطْ لا عَلاقةَ لي به، فلِذلك يَكون التَّوسُّل بجاه الرسول ﷺ ممنوعًا مُحرَّمًا، أوَّلًا: لأنه لم يَرِد، والثاني: لأنه ليس بوَسيلة، إذ إن الوَسيلة هي فِعْل ما يُوصِّل إلى المَقصود، وأي ارتِباط بين جاه الرَّسول عند الله وبين مَطلوبك؟!

فصار التَّوسُّل المَمنوع شيئين:

الأوَّل: التَّوسُّل الشِّرْكيُّ: تَوسُّل المُشرِكين بآلِهتهم لتَقرُّبهم إلى الله، فإن هذا لا شَكَّ أنه وَسيلة غيرُ صحيحة، وأنها باطِلة، على أن تَسميتنا إيَّاها وَسيلة إنما نُريد

مَن لا يَعبُد الأصنام، أمَّا مَن يَعبُد الأصنام فإنه مُشرِك ولم يَتوَسَّل إلى الله تعالى بشيء.

والثاني: التَّوسُّل إلى الله تعالى بجاهِ الرَّسول.

فإن قال قائِل: ما هو الضابِط في الفرق بين الوَسيلة الشِّرْكية والوَسيلة البِدْعية؟

فالجوابُ: الوَسيلة البِدْعية هي التي لم تَرِد عن النَّبيِّ ﷺ، ولا عن أصحابه، والشِّرْكية هي ما تَتَضمَّن إشراك غير الله مع الله، مع أنَّ البِدْعة تُسمَّى شِرْكًا بالمَعنى العامِّ؛ لأن المُبتَدِع شرَع شرعًا لم يَشرَعه الله، وقد سمَّى الله ذلك شِرْكًا، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١]، لكن ما كان مَظهَرُه مَظهَرَ الشِّرْك غلِّب عليه اسمَ الشِّرْك، وما كان مَظهَره سِوى ذلك فيُسمَّى بالاسم الذي يَختَصُّ به؛ ولهذا قال بعضُ العُلَماء: إن جميع المَعاصِي شِرْك؛ لأنَّ الإنسان أَشرَك فيها مع الله هَواه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣].

فإن قال قائِل: هل يَجوز تَصنيف الشِّرْك يَعنِي: مثلًا من الآية ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾، نُسجِّل هذا شِرْك الطاعة أو شِرْك الاتِّباع؟

فالجَوابُ: هو شِرْك اتِّباع، أمَّا شِرْك الطاعة هذا شِرْك عِبادة؛ ولهذا من أَحسَن حدود الطاغوت ما قاله ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما تَجاوَز به العبدُ حدَّه من مَعبود، أو مَتبوع، أو مُطاع[1]؛ فالمَعبود: الأصنام، والمَتبوع: العلماء، والمُطاع: الأُمَراء.

وهذا أحسَنُ ما يُقال في حد الطاغوت، لكن باعتِبار الطاغِي، أمَّا باعتِبار المَعبود أو المَتبوع أو المُطاع؛ هؤلاءِ ليسوا طواغيتَ باعتِبار ذواتِهم؛ لأنَّ العالِم قد لا يَرضَى بهذا الشيءِ والأمير كذلك، والمَعبود كذلك، لكن باعتِبار الفاعِل هي

(١) إعلام الموقعين (١/ ٤٠).

طَواغيتُ -باعتِبار الفاعِل يَعنِي: أنه طغَى فيها هي مَحَلُّ طُغيانه- ومَعنى كونِها طواغيتَ أنها مَحلُّ طُغيانه، وليسَت هي طاغِيةً. فعِيسى ابنُ مَريمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعبودٌ، لا نَقول: إنه طاغوت، لكنه مَحَلُّ طُغيان الذين عبَدوه، انتَبِهوا لهذه النُّقطةِ؛ لأن بعض الناس استَشكَل كلام ابن القَيِّم، وقال: كيف نَقول هذا الكَلامَ؟ إذن عِيسى طاغوتٌ؛ لأنه مَعبود، فيُقال: مُرادُه رَحِمَهُ اللَّهُ أن مَحَلَّ الطُّغيان يَكون في المَعبود والمَتْبوع والمُطاع.

فإن قال قائِل: الله عَزَّوَجَلَّ يَقول: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨] كيف عُبِد سيِّدُنا عيسى وغيرُه من الصالِحين؟

فالجَوابُ: قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨-١٠١].

وعيسى مِمَّن سبَقتْ لهُمُ الحُسنى؛ ولهذا ضرَب الكُفَّار عِيسى مثلًا وقالوا لَمَّا نزَلَتِ الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قالوا: إذن عِيسى في النار جدَلًا، فأَنزَل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ مثل قوله: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ [الزُّخرُف:٥٨] قال الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨] وأَبغَضُ الرِّجالِ إِلَى الله الأَلَدُّ الخَصِمُ.

فائدة: الفَترةُ وهي امتِداد بين عِيسى ومُحَمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِحِكْمة؛ وذلك حتى يَعرِف الناس شِدَّة ضَرورتهم إلى الرِّسالة.

مسألةٌ: ذكَر بعض أهل العِلْم أنه من تَمام حُسْن أدَب الإنسان مع الله عَزَّوَجَلَّ، ومع رسوله ﷺ، ومع صَحابته ومع العُلَماء إذا ذُكِر الله تعالى قال: عَزَّوَجَلَّ. والنبيُّ يُصلِّي عليه، والعُلماء يَتَرحَّم عليهم، والصحابة يَترضَّى عليهم، هل هذا على إطلاقه؟ وهل مَن ترَكَه فاته خَيْر عَظيم؟

الجَوابُ: أمَّا من جهـة الصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ فإنه لا شَكَّ أنه إذا ذُكِـر فإن الإنسان مَأمور بالصلاة عليه، إمَّا وجوبًا، وإمَّا استِحْبابًا، فمِن العُلَماء مَن أَوجَب عليك إذا ذُكِر عندك اسمُ الرسول أن تُصلِّيَ عليه لحَديث: «رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ قُلْ: آمِينَ. فَقُلْتُ: آمِينَ»[1].

وأمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فليس بشَرْط الثَّناء عليه عند ذِكْره؛ ولهذا دائمًا يَقول الرسول ﷺ قَوْلًا يُسنِده إلى الله ولا يَذكُر وَصْفًا بالعِزَّة، أو الجَلال، أو التَّعالِي، أو التَّبارُك، أحيانًا يَقول وأَحيانًا لا يَقول، فكونُك أحيانًا تَقول وأحيانًا لا تَقول فهذا أحسَنُ.

وكذلك بالنِّسْبة للتَّرَضِّي عن الصحابة، أو التَّرحُّم على مَن بَعدهم، كل هذا لا يُتَّخَذ سُنَّة راتِبة، ولكن إن ذُكِر أحيانًا فهو حسَن، أمَّا اتِّخاذه سُنَّة راتِبة فهو يَحتاج إلى دَليل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: بَيان الصِّيغة التي تَقولها المَلائِكة في استِغْفارهم للمُؤمِنين، أنَّهم يَتوسَّلون أوَّلًا، ثُم يَطلُبون ثانيًا ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٠/ ١٩٢ رقم ٤٢٧٧)، من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (٦٤٦)، وابن خزيمة في صحيحه رقم (١٨٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وليس فيه قوله: «قل: آمين». وأخرجه أبو يعلى في مسنده رقم (٥٩٢٢)، وابن حبان في صحيحه رقم (٩٠٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين».

لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ [غافر:٧].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: سَعة رحمة الله؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾.

فإن قال قائِل: كيف يَصِحُّ ذلك وأكثَرُ بني آدَمَ كُفَّار، فأين الرحمة؟

فالجوابُ: هم مَرحومون بالرَّحْمة العامة، فمَن يُخرِج لهم النَّبات، مَن يُنزِل لهم المطَر، مَن يَجعَلهم أصِحَّاءَ، مَن يُمتِّعهم بالسَّمْع والبصَر إلَّا الله، وهذه رحمة، فرَحْمة الله وسِعَت كلَّ شيء.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: سَعة عِلْم الله؛ لقوله: ﴿وَعِلْمًا﴾.

ويَترتَّب على هاتين الفائِدَتَيْن: أنَّ الإنسان مَتى علِمَ ذلك تَعرَّض لرحمة الله؛ لعله يَكون من الداخِلين فيها، وإذا آمَن بسَعة عِلْم الله استَحْيَى من الله أن يَفقِده حيث أمَرَه، أو يَجِده حيث نَهاه، فلو قال لك أَبوك: يا بُنَيَّ لا تَفعَل كذا. فأنت إذا غاب أبوك ولكَ هَوًى فيه تَفعَله لا شكَّ؛ لأنه لا يَعلَم بك، فإذا كان يُشاهِدك لا تَفعَله. فالله عَزَّوَجَلَّ لا يَغيب عنك، إذَنْ لا تَفعَله لا في السِّرِّ ولا في الجهر إذا كان فيما نَهَى الله عنه، ولا تَتْرُكه إذا كان فيما أمَر به، ولهذا نَقول: لا يَفقِدُك الله حيث أمَرَك، ولا يَجِدك حيث نَهاك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: فَضيلة التَّوْبة؛ حيث علقت المَلائِكة بطلَب المَغفِرة بها فقالوا: ﴿لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ من تَحقيق التوبة اتِّباعَ سبيل الله؛ لقوله: ﴿وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾؛ ولهذا نَجِد أنَّ الله تعالى يَقرُن دائِمًا مع التوبة ذِكْر العمَل الصالِح: ﴿إِلَّا مَن

تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان:٧٠].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: فضيلة الإسلام؛ لإضافته إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: كمال الإسلام بإضافته إلى الله، ففيه الفَضيلة بإضافته إلى الله باعتِباره مُوصِلًا إليه، وفيه الكَمال بإضافته إلى الله باعتِباره واضِعًا له، أنه هو الذي شرَعَه، وهو كامِل، والكامل لا يَشرَع إلَّا كامِلًا.

الْفَائِدَةُ العِشْرُونَ: أنَّ المَلائِكة أكَّدوا المَغفِرة بحصول أثَرِها، وهي قولهم: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، وذلك أنَّ التَّوْبة لا تَكون إلَّا بالوِقاية من الجَحيم، ولكنهم أكَّدوا ذلك لعِظَم هذا العَذابِ -عذاب الجَحيم- فنَصُّوا عليه لهذا السبَبِ، وإلَّا فإنَّ التَّوْبة في الحقيقة والمَغفِرة تُوجِب الوِقاية من عَذاب الجَحيم، ولكن النَّص عليه يَكون في ذلك زيادة على ما يَتَضمَّنه المَعنَى العامُّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةُ وَالعِشْرُونَ: الرَّدُّ على الجَبْرية، تؤخذ من قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ فأَضاف الاتِّباع إليهم ولو كانوا مُجبَرين على ذلك لم يَصِحَّ أن يُضاف الفِعْل إليهم، ولهذا إذا أُكرِه الإنسان على الكُفْر لا يَكفُر؛ لأن الفِعْل لا يُنسَب إليه حقيقةً فهو مُكرَه عليه، والله أَعلَمُ.

الآية (٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [غافر:٨].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ هذا من جملة دُعاء الذين يَحمِلون العَرْش ومَن حولَه، يَقولون: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ ربَّنا؛ أي: يا ربَّنا، وكرَّروا النِّداء بالربوبية؛ لأنهم كانوا بالأوَّل يَسأَلون الله المَغفِرة لهم، ووِقاية عَذاب الجَحيم، وهذا من باب التَّخلية؛ أي: السلامة ممَّا يَضُرُّ، أمَّا الثاني: فهو من باب التَّحلية؛ أي: من باب حُصول المَطلوب ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ فترَى الجُملة الأُولى من الدُّعاء فيها النَّجاة من المَرهوب، والثانية فيها حُصول المَطلوب، ولهذا كرَّروا قولَهم: ربَّنا.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾ وجعَلوا هذه الجُمْلةَ مَعطوفة على ما سبَقَ لا مُستأْنَفة؛ أي لم يَقولوا: ربَّنا أَدخِلهم. قالوا: وأَدخِلهم؛ لتَحقُّق ما قبلَها؛ لأن العَطْف يَقتَضي ثُبوت المعطوف عليه وكونه أصلًا، فكأنهم قالوا: ربَّنا واجمَعْ لهم مع ما سبَقَ أن تُدخِلَهم جنَّاتِ عَدن.

وقوله: ﴿جَنَّٰتِ﴾ جَمْع جنَّة، والجَنَّة تَأتِي في القُرآن مجموعة وتَأتي مُفرَدة، فباعتِبار الجِنْس هي جَنَّة واحِدة، وباعتِبار الأنواع هي جِنان، ذكَر الله تعالى فيها أربعة

أنواع في مَوضِع واحِد: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦] ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٢]، فهي تُجمَع باعتبار الأنواع، وتُفرَد باعتِبار الجِنْس.

والجَنَّة في الأصل البُستان الكثير الأشجار، وسُمِّيَ بذلك؛ لأنه يَجِنُّ مَن فيه. أي: يَستُره لكَثْرة أشجاره. والمُراد بها شَرْعًا دار النَّعيم التي أَعَدَّها الله تعالى لأَوْليائه، فيها ما لا عَينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَت، ولا خطَرَ على قَلْب بشَرٍ، وسَقْفها عَرْش الله عَزَّوَجَلَّ، فهم أَقرَب الناس إلى الله.

وقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ العَدْن بمَعنى الإقامة، يُقال: عدن بمَكان، أي: أَقام، ومنه سُمِّي المَعدِن لمَعادِن الأرض؛ لأن المَعدِن مُقيم ثابِت راسِخ في الأرض، فجَنَّات عدن أي: جنَّات إقامة، ووُصِفت بذلك؛ لأن أهلَها لا يَبغون عنها حولًا، ولأنها دائِمة أبَدَ الآبِدين.

وقوله: ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ صِفة لـ﴿جَنَّٰتِ﴾، وإنَّما قالوا ذلك اعتِرافًا بفَضْل الله تعالى أوَّلًا وآخِرًا، وتَوسُّلًا إليه بتَحقيق ما طلَبوا؛ لأنَّ الله إذا وعَد شيئًا أَتمَّه، فإنه لا يُخلِف المِيعاد، فصار ذِكْر قول: ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ له فائِدتان:

الأُولى: الاعتِراف بفَضْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ حيث وعَدَهم هذه الجَنَّاتِ.

الثانية: التَّوسُّل إلى الله تعالى بإجابة الدُّعاء، كأنهم يَقولون: أَدخِلهم هذا؛ لأنك وعَدْتهم إيَّاه، فيَكون من باب التَّوسُّل بوَعْده إلى تَحقُّق مَوْعوده.

وقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ مَن صلَح يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَطْف على (هُمْ) في ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ أو في ﴿وَعَدتَّهُمْ﴾]، فالواو حرف عَطْف، و﴿وَمَن﴾ اسم مَوْصول مَبنيٌّ على السُّكون في مَحَلِّ نَصْب عطفًا على

﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ أو على ﴿وَعَدتَّهُمْ﴾، والأحسَنُ أن يَكون عطفًا على ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾، فيَكون الدُّعاء بالدُّخول شامِلًا لهم ولِمَن صلَح من آبائهم وأزواجهم وذُرِّيَّاتهم.

فقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ هذا احتِرازٌ جيِّد حيث قالوا: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ ولم يَقولوا: وآبائِهم وأزواجهم وذُرِّيَّاتهم، قالوا: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾؛ لأنهم لو دعَوْا بالعُموم لكان فيه نوع من الاعتِداء في الدُّعاء؛ لأن الاعتِداء في الدُّعاء هو أن يَدعوَ الإنسان بما لا يُمكِن شَرْعًا أو حِسًّا، كل مَن دعا الله تعالى بما لا يُمكِن شَرْعًا أو حِسًّا فإنه مُعتَدٍ في الدعاء، ولو زِدْنا أيضًا أو حِسًّا أو عادة فهو مُعتَدٍ، فلو سأَل الله تعالى أن يُخرِج له ولَدًا من جِدار بيته لكان هذا اعتِداءً في الدُّعاء، ولو سأَل الله تعالى أن يَجعَله نبيًّا لكان هذا اعتِداءً في الدُّعاء؛ لأن ذلك لا يُمكِن شرعًا، ولو سأَل الله أن يَجعَل السَّموات والأرضَ بيَدِه لكان هذا مُعتَديًا في الدُّعاء؛ لأنه لا يُمكِن عَقْلًا، فما لا يُمكِن شرعًا، أو عقلًا، أو عادة، أو حِسًّا؛ فإنه لا يُدعَى الله به؛ لأن هذا اعتِداءٌ في الدُّعاء.

فهنا يَقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ لو قالوا: آباءهم لكان فيه نَوْع من الاعتِداء حيث إن آباء هَؤلاءِ قد يَكونون مُشرِكين كُفَّارًا، لا يَستَحِقُّون أن يَدخُلوا الجَنَّة، فيَقول: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ﴾ جمع زَوْج، ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ جمع ذُرِّيَّة، فذكَروا الأصول والفُروع والمُصاهَرة، الأُصول والفُروع: آباء وذُرِّيَّات، والمُصاهَرة: أزواج.

أمَّا إذَا قالَ القَائِل في دُعائِه: اللهُمَّ اغفِرْ لنا ولآبائنا وذُرِّيَّاتنا وإخواننا، وجَدَّاتنا وأجدادنا، وخالاتِنا وأَخْوالنا، وعمَّاتنا وأعمامنا، والأصول والفُروع والحَواشي، هذا ليس تَكرارًا للدُّعاء، إنما هو تَكرار للمَدعوِّ لهم، وأنت تَرَى المَلائِكة الآنَ ما دعَت

إلَّا لثلاثة أصنافٍ فقَطْ: الأصول، والفُروع، والأصهار -الزَّوْجات- لكن لا نَقول في هذا شيئًا، لا نُنكِر عليه، لكن كونه يُطوِّل على الناس بمِثْل هذه الأشياءِ قد يَكون فيه مضَرَّة على الناس وتعَب.

قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ هذه جُمْلة استِئْنافية يُراد بها التَّوسُّل إلى الله تعالى بعِزَّته وحِكْمته أن يُحقِّق هذا الدُّعاءَ أو هذا المَدعوَّ به.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات أن المَلائِكة عِباد مَربوبون؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾ إلى آخِره.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الشيءَ لا يَتِمُّ إلَّا بانتِفاء المُؤذِي وحُصول المَطلوب؛ وجهُ ذلك أنَّهم لَمَّا انتَهَوْا من دعاء الله تعالى بانتِفاء المُؤذِي سألوا الله تعالى حُصول المَطلوب، وهو إدخال الجَنَّات.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الجَنَّاتِ أنواعٌ، نَستَفيد هذا من الجَمْع في قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الجَنَّاتِ دارُ إقامة، لا يَبغِي ساكِنُها تَحوُّلًا عنها، ولا يَلحَقه فَناء؛ لقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التَّوسُّل إلى الله تعالى بفِعْله أو قوله؛ لقوله: ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ فإنَّ وَعدَه قول، وهَؤلاء المَلائِكة تَوسَّلوا إلى الله بهذا القولِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيانُ فَضْل الله عَزَّوَجَلَّ على أهل الجَنَّة أوَّلًا وآخِرًا: أوَّلًا: حيث وعَدهم الجَنَّة؛ لأن الوعد بالجَنَّة يَقتَضي العمَل لها. وآخرًا: بإدخالهم إيَّاها.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ من تَمام النَّعيم أن يَجمَع الله بين الإنسان وبين قَرابته وزَوْجه؛

لقوله: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ [غافر:٨] إلى آخِره.

فإن قال قائِل: هل يَلزَم من ذلك أن يَكونوا في درَجة واحِدة؟

قلنا: لا يَلزَم، ولكن الأزواج لا بُدَّ أن يَكونوا في درَجة أزواجهم، والذُّرِّية ذكَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سُورة الطُّور أنهم في درَجة آبائِهم أيضًا، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور:٢١].

وهذا يَدُلُّ على أنَّ الذُّرِّيَّة الذين لم يَبلُغوا مَنازِل آبائهم أنَّهم يُرفَعون حتى يَكونوا في مَنازِل آبائِهم، وأن ذلك لا يَقتَضي نَقْص الآباء من المَنازِل، يَعنِي لا نَقول: إن الحَلَّ الوسَط أن نَرفَع هؤلاءِ قليلًا، ونُنزِل هؤلاءِ قليلًا؛ ولذلك قال: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ لئَلَّا يَظُنَّ الظانَّ أنه إذا رُفِعَت الذُّرِّية فإنها تُرفَع قليلًا، ويُنزَل الآباء بمِقدار ما رُفِع هؤلاء؛ ليَلتَقوا في نُقْطة الوسَط، وهذا ليس كذلك؛ لأنه لو نزَل الآباء قليلًا لزِمَ من ذلك أن يُنقَصوا، ولكن الله يَقول: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾؛ أي: ما نَقَصْناهم، أي: الآباء ﴿مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِىٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الاحتِرازُ في الدُّعاء عن التَّعميم؛ لقولهم: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ﴾، ومن ذلك قولُ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ﴾؛ أي: أهل المَسجِد الحَرام، ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، أهله، ثُمَّ أَبدَل منها قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فاحتَرَز.

ولكن الله تعالى قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ يَعنِي: ارزُقْ مَن في هذا البلَدِ، ولو كانوا كُفَّارًا، لكن: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:١٢٦].

المُهِمُّ: أنه يَنبَغي للإنسان في الدُّعاء أن يَحتَرِز من التَّعميم الذي قد يَتَناوَل مَن

لا يَستَحِقُّ الدُّعاء، فيَكون في دُعائه هذا نوع من الاعتِداء.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات هذَيْن الاسمَيْن: العزيز والحكيم من أسماء الله، وإثبات ما تَضمَّناه من الوَصْف، أو من الصِّفة، فالعَزيز مُتضَمِّن للعِزَّة، والحَكيم مُتضمِّن للحِكْمة والحُكْم.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: التَّوسُّل إلى الله تعالى في الدُّعاء بأَسْمائه.

فإن قال قائِل: سبَق أنَّ التَّوسُّل بالأسماء يَنبَغي أن يَكون مُطابِقًا للسؤال أو للمَسؤول، وهنا ما مُناسَبة العِزَّة والحِكْمة للدُّعاء بإدخال هَؤلاء الجَنَّة؟

فالجوابُ: الظاهِر -واللهُ أَعلَمُ- أن المُطابَقة أنهم دعَوْا أن الله يُدخَل مَن صلَح مِن ﴿ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾، وهذا أَمْر يَحتاج إلى عِزَّة وتَمام سُلْطة، وإلى حُكْم وحِكْمة؛ فلهذا ختَموا هذا الدُّعاء بقَوْلهم: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ دون أن يَقولوا: إنك ذو الفَضل العَظيم.

وإن قال قائِل: إذا خالَف الوَصْف الدعاء، هل يَكون اعتِداءً، يَعنِي إذا قُلت: اللَّهُمَّ اهْدِ الكَفَرَةَ والمُشرِكين، أو أذِلَّ الشِّرْك والمُشرِكين برحمتك يا أَرحَمَ الراحِمين. فإن هذا اعتِداءٌ؟

فالجوابُ: لا، بل هذا غلَط، قال الله تعالى: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾، فهذا زوال مَكروهٍ، وإذلالُ الشِّرْك لا شَكَّ أنه نِعْمة ورحمة.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: التَّرتيب الوُجودي في الأشياء؛ لقوله: ﴿ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾، فهذا هو التَّرتيب: أبٌ، ثُم زَوْج، ثُمَّ ذُرِّيَّة، فهذا تَرتيب وُجودي، ولا شَكَّ أن هذا من مُحسِّنات اللَّفْظ.

• • ۞ • •

الآية (٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [غافر:٩].

ثُم قال الله تعالى: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾، هذا مَعطوف على ما سبَق، على قوله: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ ﴾؛ أي: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ والجُملة فِعْل أَمْر وفاعِل ومَفعول به، بل ومَفعولان، الجُملة تَتضمَّن فِعلًا وفاعِلًا ومَفعولين، الفِعل (قِ)، والفاعِل مُستَتِر وجوبًا، والمَفعول الأوَّل الهاء، والمَفعول الثاني السَّيِّئات، و(قِ) هنا فِعْل أَمْر، لكنه مُكوَّن من حَرْف واحد بعد أن حُذِف منه حُرْفان؛ الأوَّل والثالث، وهكذا كل مِثال ناقِص إذا كان ثلاثِيًّا فإن فِعْل الأمر منه على حَرْف واحِد، هذه القاعِدةُ، كل مِثال ناقِص ففِعْل الأَمْر منه إذا كان ثُلاثيًّا على حَرْف واحد.

والمِثال هو: الذي أوَّله حَرْف عِلَّة، والناقِص: الذي آخِره حَرْف عِلَّة.

إِذَنِ: القاعِدة هذه تَشمَل أمثِلة كَثيرة، وقد جمَعها الخُضَريُّ في حاشِية ابن عَقيل على أَلْفية ابنِ مالِك[1] جمَعَها في أبيات، منها: قِ فِ عِ يَعنِي عدَّد، لكن الضابِط هو هذا، كل ثُلاثي كان مِثالًا ناقِصًا ففِعْل الأمر منه على حَرْف واحِد.

وقوله: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: عَذابها]، وهذا إذا جعَلْنا

(١) حاشية الخضري على شرح ابن عقيل(١/ ٣١).

السيِّئاتِ بمَعنى الأعمال السيِّئاتِ، فإنه يَتعيَّن أن نُفسِّر ذلك بعذاب السَّيِّئات؛ لأنَّ عمَل السَّيِّئات الآنَ قد انتهَى وقته، وإنَّما المَوْجود هو الجزاء، فيُفسَّر حينَئِذٍ بالعذاب.

وأمَّا إذا فسَّرْنا السَّيِّئاتِ بما يَسوء دون العمَل الذي يَقَع من العبد، فإنه لا حاجةَ إلى أن نَقول: عذابها؛ لأنَّ العَذاب ممَّا يَسوء، فكأنهم قالوا: وقِهِم ما يَسوؤُهم من العذاب، والقاعِـدة في التَّفسير وفي شَـرْح الأحاديث: أنَّه إذا دار الأَمْر بين احتِمال التَّقدير وعدَم التَّقدير، فالأَوْلى عدَمُ التَّقدير، وعلى هذا فنَقول: السَّيِّئاتُ هنا لا يُراد بها الأعمال السَّيِّئات التي هي فِعْل العَبْد قطعًا؛ لأن هذا قد انتهَى، وإنما يُراد بالسَّيِّئات ما يَسوء من أعمال، ومن عُقوبات، ومن عادات، ومن غير ذلك.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القِيامة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾] مَنْ شرطيَّة، وجُملة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ جواب الشَّرْط، وإنَّما اقتَرَن جواب الشَّرْط بالفاء؛ لأنه مَبدوء بـ(قَدْ)، وجواب الشَّرْط إذا بُدِئ بـ(قَدْ) وجَب اقتِرانه بالفاء، وله نَظائِرُ ممَّا يَجِب اقتِرانه بالفاء.

المُهِمُّ: أنه يَجِب ارتِباط جواب الشَّرْط بالفاء إذا وقَع واحِدًا من سبعة أُمور، مَجموعة في قول الناظِمِ:

اسْـمِيَّةٌ طَلَبِيَّـةٌ وَبِجَامِـدٍ وَبِـمَا ... وَقَـدْ وَبِلَـنْ وَبِـالتَّنْفِيسِ[1]

التَّنفيس يَشمَل سوف والسِّين، وهذه الآيةُ من نوع قوله: ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾.

قوله: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ المُشار إليه وِقاية السَّيِّئات والرحمة ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿هُوَ﴾: يَجوز أن تَكون مُبتَدَأ، و﴿ٱلْفَوْزُ﴾ خبَرُه، والجُملة من المُبتَدَأ الثاني وخبَرِه

(١) غير منسوب، وانظر النحو الوافي (٤/ ٤٦٣).

خبرُ المُبتَدَأ الأوَّل، ويَجوز أن تَكون ﴿هُوَ﴾ ضميرَ فَصْل لا مَحَلَّ لها من الإعراب، ويَكون التقديرُ: وذلك الفوزُ العَظيم، ويُؤيِّد هذا أنَّها تَأتي بهذه الصِّيغةِ في بعض المَواضِع ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء:١٣].

وضَمير الفَصْل من حيثُ الإعرابُ لا مَحَلَّ له من الإعراب، أمَّا من حَيثُ المَعنَى فله ثَلاثُ فَوائِدُ:

الفائِدةُ الأُولى: الحَصْر.

والفائِدة الثانية: التَّوْكيد.

والفائِدة الثالِثة: التَّمييز بين الصِّفة والخَبَر.

والتمييز بين الخَبَر والصِّفة يَظهَر هذا في المِثال.

إذا قُلت: زيدٌ الفاضِلُ. وأنت تُريد أن تكون (الفاضِلُ) خبرَ المُبتَدَأ، فإنَّه يحتَمَل أن تكون (الفاضِلُ) صِفةً، والخَبَر لم يأتِ بعدُ، ويُحتَمَل أن يَكون المُرادُ زيدٌ الفاضِل فاهِمٌ، ويُحتَمَل أن تكون (الفاضِل) خبرَ المُبتَدَأ، فإذا جاءَت زيدٌ هو الفاضِل، زال الإشكال، وتَعيَّن أن تكون (الفاضِل) خَبَر المُبتدَأ.

أمَّا التَّوْكيد والحَصْر فظاهِر؛ لأنك إذا قلت: زَيدٌ هو الفاضِلُ. أكَّدْت أنه فاضِل، وحصَرْت الفَضْل فيه.

وقوله: ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ الفَوْز: حُصول المَطلوب والنَّجاة من المَرهوب، والدَّليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥] فالنَّجاةُ من المَرهوب في الآية ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ وحُصول المَطلوب ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ﴾ ولا تَفسيرَ أبيَنُ وأَوْضحُ من تَفسير الله عَزَّوَجَلَّ، فالفوزُ

هو: النَّجاةُ من المَرْهوب وحُصول المَطلوب، والدليل ما سمِعْتم.

وقوله: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ وَصْف له بالعَظَمة؛ لأنه لا فوزَ أعظَمُ من هذا، لا فوزَ أعظَمُ من أن يَمُنَّ الله عليك بسُكْنى هذه الدارِ -جعَلَني الله وإيَّاكم من ساكنيها- التي فيها ما لا عَيْنٌ رأَت ولا أُذُنٌ سمِعَت ولا خطَرَ على قَلْب بشَرٍ، كل الناس في الدُّنيا -المُؤمِنون- يَسْعون للوُصول إلى هذه الدارِ؛ ولهذا لَمَّا قال الأَعرابيُّ للنَّبيِّ ﷺ: يا رَسول الله، أنا لا أُحسِنُ دَنْدَنَتَكَ ولا دَنْدنةَ مُعاذٍ، ولكِنِّي أَسأَل الله الجَنَّةَ، وأَستَعيذُ به من النار فقال: «حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ»[1]، نحن لا نُريد إلَّا هذا، وهذا الحَديثُ وإن كان في صِحَّته ما فيه، لكن حَقيقة هو هذا، كل المُؤمنين يَعمَلون للوصول إلى هذه الدارِ، وهو -أي: العَمَل لها- يَسير، لكن على مَن يَسَّرَه الله عليه، ومتى يُيَسِّر الله عليك ذلك؟ اسمَعْ إلى قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾، الجوابُ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-٧]، اعمَلْ أنت كما قال النَّبيُّ ﷺ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِـمَا خُلِقَ لَهُ»[2].

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن المَلائِكة الذين يَحمِلون العَرْش ومَن حولَه يَسأَلون الله تعالى أن يَقِيَ الذين آمَنوا السَّيِّئاتِ؛ أي: عذابها حتَّى يَتِمَّ لهم المَطلوب.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٧٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب في تخفيف الصلاة، رقم (٧٩٢)، من حديث بعض أصحاب النبي ﷺ. وأخرجه ابن ماجه: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾، رقم (٤٩٤٥)، وأخرجه مسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٧)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائِل: أَلَيْس هـذا حاصِلًا مِمَّا سبَق ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾؟

قلنا: بلى، ولكن مَقام الدُّعاء يَنبَغي فيه البَسْط لعِدَّة أَسباب:

السبَب الأوَّل: أنَّ الدُّعاء عِبادة، فكُلَّما بسَطْتَ فيه ازدَدْتَ تَعبُّدًا لله، وازدَدْتَ ثَوابًا وأَجْرًا.

الثاني: أنَّ البَسْط فيه التَّفصيل، والتَّفصيل خَيْر من الإجمال؛ لأنَّ الإِجْمال قد يَنسَى الإنسان فيه أَشياءَ مُهِمَّةً، ولا تَطرَأ على باله، لكن إذا فصَّل تَبيَّن الأَمْر.

الثالِث: أن التَّفْصيل في الدُّعاء انبِساط مع الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الداعِيَ يُناجِي ربَّه.

ومن المَعلوم أن مُناجاة المَحبوب يُستَحَبُّ فيها التَّطويل، أو نَقول بعِبارة ثانية: من المَعلوم أن مُناجاة المَحبوب يُحِبُّ الحَبيب أن تَطول المُناجاةُ بينه وبين حَبيبه، وهذا شيء مُشاهَد، إذا جلَس إليك مَن تُحِبُّ، فإنَّك تَوَدُّ أن يَطول الحَديث، ويَطول الجُلوس حتى إنَّ الزمَن يَنفَرِط بسرعة، وإن جلَس إليك الثَّقيل، قلت:

إِذَا حَلَّ الثَّقِيلُ بِدَارِ قَوْمٍ ... فَمَا لِلسَّاكِنِينَ سِوَى الرَّحِيلِ[1]

فأحيانًا يَجلِس إليك الثَّقيل، يُخاطِبك ويُكلِّمك، كلَّما خاطَبك بكلِمة ولو كانت ثَناءً عليك كأنَّما صفَع وَجْهَك؛ لأنَّك يَكون عندك كأنه جالِس على قلبك، لكن الحَبيب إذا جلَس إليك لا تَوَدُّ أن تُفارِقه، ولا تَمَلُّ حَديثه، ولكن من خير الجُلَساء؟

(١) انظر: روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار لابن قاسم الأماسي (ص: ٣٤٤).

لَنَـا جُلَسَـاءُ لَا نَمَـلُّ حَـدِيثَهُمْ أَلِبَّـاءُ مَـأْمُونُونَ غَيْبًـا وَمَشْـهَدًا[١]

يَعنِي بذلِك: الكُتُب.

أَعَـزُّ مَكَـانٍ فِي الـدُّنَا سَرْجُ سَـابِحٌ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَـانِ كِتَـابُ[٢]

هَؤلاءِ همُ الجُلَساء الذين لا يَمَلُّون والذين يَنفَعون ولا يَضُرُّون.

فيَنبَغي البَسْط في الدُّعاء لثلاثة أَسْباب:

السبَبُ الأوَّل: لأنه عِبادة، فكُلَّما بسَطْت فيه ازدَدْتَ تَعبُّدًا وتَقرُّبًا لله.

الثاني: أنه تَفصيل، والتَّفصيل خَيْر من الإجمال؛ لأنه قد يَكون في التَّفْصيل ما يَغيب عنك عند الإِجْمال.

والثالث: أنه انبِساطٌ مع الله الذي هو أَحَبُّ شيءٍ إليك، والحَديث مع المَحبوب لا شَكَّ أن كل أحَدٍ يُحِبُّ أن يَطول.

وانظُرْ إلى قول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، عَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ، وَمَا أَنتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي»[٣]، يَكفِي عن هذا كلِّه أن يَقول: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ذَنْبِي، لكن البَسْط له تَأثير على القَلْب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن مَن وُقِيَ السَّيِّئاتِ يوم القيامة؛ فقد دخَل في رحمة الله؛ لقوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾.

---

(١) انظر: سراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي (ص:٢٠٧).

(٢) البيت للمتنبي، انظر: ديوانه (ص:٤٧٩).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الرَّحْمة كما تَكون في جَلْب المَحبوب تَكون في دَفْع المَكروه؛ لقوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هذا أعظَمُ فوزٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، ووجهه: أنه أَشار إليه بإشارة البَعيد؛ للدَّلالة على عُلوِّ هذا الفَوْزِ، ووَصَفه بالعَظَمة، فيَكون جامِعًا بين عُلوِّ المَرتَبة وعُلوِّ الماهِيَة أنه عَظيم.

فإن قال قائِل: قلنا: هو الفَوْز العظيم في قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ هل يَدخُل النظَر إلى الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآيةِ؟

فالجوابُ: أي نعَمْ؛ لأن الجَنَّة وما فيها فَوْز، دخول الجَنَّة فَوْز، وأَعظَمُ النعيم في الجَنَّة هو النظَر إلى وجه الله؛ ولهذا ذكَرْنا أن قول الزَّمَخْشريِّ: «أي فَوْز أعظَمُ من هذا»[1] قلنا: هذه كلِمة حقيقةٌ، ولا يُعترَض عليها إلَّا لأننا نَعلَم أن الرجُل لا يُثبِت النظَرَ إلى وجهِ الله، وإلَّا لقُلْنا: متى دخَلْت الجَنَّة فأنت دخَلْت الجَنَّة بكل ما فيها من النعيم.

• • ۞ • •

(١) انظر: الكشاف (١/ ٤٤٩).

الآية (١٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر:١٠].

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ﴾ والنِّداء: هو الكَلام من بعيد، والمُناجاة الكَلام من قَريب، ولم يُبيِّنِ الله تعالى مَن يُناديهم، لكن المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [من قِبَل المَلائِكة]، وذلك عند دُخولهم النار، وهم يَمقُتون أنفسهم في ذلك الوقت أكبَرَ مَقْتٍ -والمَقْت: هو أشَدُّ البُغض-، فهم في ذلك الوقتِ عند دُخولهم النار يُبغِضون أنفسهم بُغضًا شديدًا؛ حيث لم يَتوصَّلوا إلى النَّجاة منها، فيُنادَوْن فيُقال لهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ اللَّام هنا لام الابتِداء، وتَدخُل على المُبتَدَأ تَوْكيدًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ إيَّاكم]، هذا أحَد الوَجْهين في الآية، وعلى هذا فيَكون المَقْت مُضافًا إلى فاعِله لا إلى مَفعوله، يَعنِي: لبُغْض الله إيَّاكم أشَدُّ من بُغْضكم أنفُسِكم، وقيل: إنه مُضاف إلى مَفعوله لا إلى فاعِله، وعلى هذا يَكون المَعنَى: لَمَقتُكمُ الله حين تُدْعَوْن إلى الإيمان أكبَرُ من مَقْتكم أنفسِكم اليومَ، أي: أنهم كرِهوا ما دُعُوا إليه في الدُّنيا من مَحبَّة الله، وأُبدِلوا ذلك بأشَدِّ البُغض، وهذا المَعنى أقرَبُ ممَّا مشَى عليه المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ إيَّاكم]، وعلى ما رجَّحْنا يَكون المعنى: لَمَقتُكم الله، فهو مُضاف إلى مَفعوله.

متى مَقَتوا الله؟ الجواب: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ وعلى هذا فيكون قوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ مُتعلِّقًا بقوله: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾، أي: أنَّكم حينما دُعِيتم إلى الإيمان كرِهتم ذلك، ولم تَقتَنِعوا به، بل أَبغَضْتُموه أشدَّ البُغْض.

وقوله: ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ مَقَتوا أنفسهم حين قيل لهم: ادخُلوا نار جهَنَّمَ، فأَبغَضوا أَنفُسَهم، وقوله: ﴿مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ مَقْت هنا مَصْدر مُضاف إلى فاعِله، يَعنِي: أنَّهم هم مَقَتوا أَنفُسهم، وأَنفُس مَفعول مَقْت.

وقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ تُدعَون في الدُّنيا إلى الإيمان، وأُبهِم الداعِي؛ لأن دَعْوتهم إلى الإيمان تكون من الرُّسُل، وتكون من ورَثة الرُّسُل، وهُم العُلَماء، فالداعِي لهم إلى الإيمان في الدُّنيا ليس واحِدًا، بل هُمُ الرُّسل يَدعونهم، وورَثة الرُّسُل وهم العُلَماء يَدْعونهم كذلك.

وقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾، الإيمان بالله، ومَلائِكته، وكُتُبه، ورُسُله، واليوم الآخِر، والقدَر خَيرِه وشَرِّه، هذا هو الإيمان كما فسَّره النَّبيُّ ﷺ حين سأَله جِبريلُ قال: «أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ...» إلى آخِره[1].

فقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ المُراد بالإيمان هنا -كما ذكَرْت لكم- هو الإيمان بالأركان السِّتَّة، وكذلك الانقِياد اللازِم من الإيمان بهذه الأَرْكانِ السِّتَّة؛ ولهذا هم دُعُوا إلى الإيمان الذي في القُلوب، ودُعُوا إلى الاستِسْلام أيضًا وهو أعمال الجَوارِح، وكفَروا بذلك كلِّه، ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيانُ أن الكافِرين يُوبَّخون يوم القِيامة تَوْبيخًا يَزيدهم ألمًا إلى أَلَمِهم؛ لقوله: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنهم تَبيَّن لهم ما هم عليه من الضَّلال والكُفْر حين رأَوُا العِقاب، وجهُه: أنهم مقَتوا أَنفُسهم في ذلك الوقتِ حين رأَوُا العَذاب، وهذا يَدُلُّ على أنهم تَبيَّن لهم الضَّلال في ذلك اليومِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات المَقْتِ لله؛ أي: أن الله يَمقُت. أي يُبغِض. هذا على ما مَشَى عليه المفَسِّر من أن (مَقْت) مُضافة إلى الفاعِل.

وإذا قُلنا بالقَوْل الراجِح: لم يَكُن في الآية دليلٌ على أن الله يَمقُت، لكن الدَّلالة على أن الله يَمقُت وأن له مَقْتًا من أدِلَّة أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٣]، والمَقْتُ: أشَدُّ البُغض، والبُغْض هو من الصِّفات الفِعْلية التي تَتعلَّق بمَشيئته وإرادته.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الإنسان قد يَكرَه نَفْسه، ويَكون ذلك إذا رأَى من تَصرُّفه ما يَسوؤُه، فإنه يَكرَه نفسه ويَقول: هذا من النَّفْس الأمَّارة بالسُّوء.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الحُجَّة قد قامَت على هؤلاء المُكذِّبين المُعذَّبين؛ لقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾، وهل الدَّعْوة دَعْوة بإفهام أو دَعْوة بمُجرَّد البَلاغ؟

الجواب: الأوَّلُ؛ دَعْـوة بإفهام؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، فلا بُدَّ من فَهْم الحُجَّة، ولكن إذا بلَغَتِ الإنسانَ فالواجِبُ عليه أن يَبحَث عن الفَهْم، فإن لم يَفعَل كان مُقصِّرًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن هَؤلاءِ كفَروا عن عِناد، يُؤخَذ ذلك من قوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾؛ لأنهم دُعُوا فكَفَروا، وهذا كُفْر عِناد، والعِياذُ بالله.

• • ۞ • •

الآية (١١)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر:١١].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ الإماتة هنا ما كان قبلَ الحَياة وبعد الحَياة، ما كان قبل الحَياة أي وهُمْ أجِنَّة في بُطون أُمَّهاتهم، وما كان بعدَها وهو المَوْت الذي يَكون بعد الوُجود في الدنيا، هاتان مِيتَتان،﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ الحَياة وهُم أَجِنَّة في بُطون أمَّهاتهم، والحَياة بعد البَعْث يوم القِيامة، أو حين البَعْث يوم القيامة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] هذه أربعة: إماتتان، وإحياءَتان، فهم يَقولون -كما ذكَر المفَسِّر-: [﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ إماتَتَيْن ﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ إحياءَتَيْن؛ لأنهم نُطُف أموات، فأُحْيوا، ثُم أُميتوا، ثُم أُحْيوا للبَعْث]، هذا تَفسير: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾.

والإماتة الأُولى ليسَت إماتةً بعد حَياة، ولكنها فَقْد حَياة، فصَحَّ أن يُطلَق عليها اسمُ الموت، وقَصْدهم بهذا الإقرارِ بأن الأَمْر حَقٌّ، فكما أننا نُدرِك أنه مرَّت بِنا هذه الأطوارُ الأربَعة: مَوْت فحَياة، ثُم مَوْت فحَياة، فإننا نَتيقَّن أننا أَخطَأْنا؛ ولهذا قالوا: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ يَعنِي: فقدِ اعترَفْنا بذُنوبنا.

فإن قال قائِل: قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ هل يَقصِد بالمِيتَتَيْن: الموت في الدنيا حين المَنام، والموت في الأُخرى في يوم القِيامة؟

فالجَوابُ: لا يَصِحُّ؛ لأن مِيتة الدُّنيا في المَنام ليسَت هي مرَّتَين، ولا ثلاثًا، ولا أربعًا، ولا مِئة، الإنسان في الشَّهْر يَنام على الأقل ثلاثين مرَّةً ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ فإذا بعَثَنا من مِيتة الليلة البارِحة جاءَتِ اللَّيْلة الثانية، مِتْنا ثانيةً، والتي وراءَها، والَّذي يَنام بعد صلاة الفجر، والذي يَنام في القَيْلولة، والذي يَنام بعد العَصْر، أربَع مِيتات في يوم واحِد.

والذُّنوب جَمْع ذَنْب وهو: المَعصية، والمُراد بها هنا الكُفْر، كما قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بكُفْرنا بالبَعْث ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ من النار]، و(هل) هنا للتَّمنِّي، يَعنِي أننا نَتمنَّى الخُروج من النار ولكنه لا يَحصُل لهم ذلك.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ من النار والرُّجوع إلى الدُّنيا لنُطيع رَبَّنا ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ من طَريق؟ وجوابُهم: لا] وهذا من المفَسِّر بِناءً على أن الاستِفْهام على بابه، أنهم يَسأَلون: هل لنا من طَريق فنَخرُج؟ أمَّا على ما قُلنا: إنه للتَّمنِّي فلا يَحتاج إلى جَواب، فهو كقوله: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف:٥٣].

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات اعتِراف هَؤلاءِ المُكذِّبين بأنهم كفَروا بالله، وأنهم مُستَحِقُّون لهذا العِقابِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إقرار الكُفَّار بما كانوا يُنكِرونه من قبلُ من البَعْث، وهذا مَعنى قوله: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّهم في ذلك اليومِ تَبيَّن لهم الحَقُّ، وصِحَّة القِياس؛ لأنهم قالوا: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾، فالمِيتة الأُولى قبلَ أن تُنفَخ فيهم الرُّوحُ قد أقَرُّوا بها، والحياة الدُّنيا قد أَقَرُّوا بها في الدنيا وهم أَحياءٌ، لكن أَنكَروا البَعْث بعد الموت، وأمَّا الآنَ فقالوا: نعَم البَعْث بعد الموت كنَفْخ الرُّوح في الجَنين. يَعنِي: أنا تَيقَّنا الآنَ أن ما ذكَرَه الله عَزَّوَجَلَّ من قياس الإعادة على الابتِداء أَمْر حَقيقيٌّ، وأننا أُحْيينا مَرَّتين وأُمِتْنا مرَّتين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: شِدَّة حَسْرة هؤلاءِ على ما فعَلوا، وتَمَنِّيهم الخُروج ممَّا وقَعوا فيه من العَذاب؛ بقولهم: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾.

وفي هذه الآيةِ إعرابٌ مُشكِل، وهو أن قوله: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ جُمْلة خلَتْ من أحَد الرُّكْنين فيها وهو المُبتَدَأ؛ لأن الذي أمامَنا الآنَ جارٌّ ومجرورٌ في الخبَر، وفيما هو محَلٍّ للمُبتَدَأ.

إِذَنِ: المُبتَدَأ ﴿سَبِيلٍ﴾ دخَلَت عليه حرف (مِن) الزائِدة إعرابًا، ولهذا نَقول في إعرابها: (مِن) حَرْف جرٍّ زائِدٌ، و﴿سَبِيلٍ﴾ مُبتَدَأ مَرفوع بضَمَّة مُقدَّرة على آخِره، منَع من ظُهورها اشتِغال المَحلِّ بحرَكة حَرْف الجَرِّ الزائِد.

• ● ۞ ● •

الآية (١٢)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢].

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذَٰلِكُم﴾ أي: العَـذاب الذي أَنتُم فيه]، فالمُشار إليه مَوْجود، أي: أنَّ العَذاب الذي أنتُم فيه بسبَب كذا وكذا، وهنا قال: ﴿ذَٰلِكُم﴾ وتَأتِي أحيانًا بذلك، وتَأْتي أحيانًا بذَلِكُنَّ، وتَأتي أحيانًا بذَلِكُما، فما هو السبَب في تَغيُّر الخِطاب في هذه الإشاراتِ؟ فيُقال: اسم الإشارة بحَسب المُشار إليه، وكاف الخِطاب التي بعدها بحَسب المُخاطَب.

فإذا أَشَرت إلى واحِد مُخاطِبًا اثنَيْن فقُل: «ذلِكُما»، كما قال يُوسُفُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لصاحِبَي السِّجْن: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٣٧].

وإذا أَشَرْت إلى اثنَيْن مُخاطِبًا واحِدًا تَقول: «ذانِك»؛ كقوله تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٣٢].

وإذا أَشَرْت إلى واحِد مُخاطِبًا جماعة ذُكور، تَقول: «ذلِكُمْ»، ومنه قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ [فُصِّلَت:٢٣].

وإذا أَشَرْت إلى واحِد مُخاطِبًا جماعة إناث تَقول: «ذلِكُنَّ»، قالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف:٣٢].

وإذا أَشَرْت إلى اثنَيْن مُخاطِبًا اثنَيْن تَقول: «ذانكما».

وإذا أَشَرْت إلى اثنَيْن مُخاطِبًا جماعة ذُكور تَقول: «ذانِكُم».

وإذا أَشَرْت إلى اثنَيْن مُخاطِبًا جماعة إناث تَقول: «ذانِكُن».

وإذا أَشَرْت إلى جماعة مُخاطبًا جَماعة ذُكور تَقول: «أُولَئِكُم».

وإذا أَشَرْت إلى جَماعة مُخاطِبًا جماعة إناث تَقول: «أُولَئِكُنَّ».

وإذا أَشَرْت إلى جَماعة مُخاطِبًا اثنَيْن تَقول: «أُولَئِكُما».

المُهِمُّ: أنَّ اسم الإشارة بحَسب المُشار إليه، والكاف بحَسب المُخاطَب، إن كان مُفرَدًا مُذكَّرًا فالكاف تَكون مُفرَدة مُذكَّرة، وإن كان مُفرَدًا مُؤنَّثًا فكَذلِك، ومُثنًّى، وجَمْعًا كذلك، هذا هو الأفصَحُ.

وربما تَأتِي الكاف مَفتوحة للمُخاطَب المُذكَّر مُطلَقًا، واحِدًا كان أو مُثنًّى أو جَماعةً، ومَكسورة للمُخاطَب المُؤنَّث مُطلَقًا، واحِدة أو اثنَتان أو جماعة.

وربَّما تَأتِي الكاف مَفتوحة مُفرَدة لكل مُخاطَب، فتَقول: «ذلك». تُخاطِب الرجُل، والمَرْأة، والاثنَيْن، والجَماعة.

فهذه ثلاث لُغات في كاف الخِطاب المُقتَرِن باسم الإشارة، الأَفصَح أن يَكون بحَسب المُخاطَب، ثُم مَفتوحًا في المُذكَّر، ومَكسورًا في المُؤنَّث، ثُم مَفتوحًا على كل حال مُفرَدًا مُذكَّرًا.

هنا يَقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥ﴾ المُشار إليه واحِد، والمُخاطَب جماعة ذُكور ﴿ذَٰلِكُم﴾: فالمُخاطَبون جَماعة ذُكور.

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: العَذاب الذي أنتُم فيه ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ أي: بسبَب أنه في الدُّنيا ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾]، إذا دُعِيَ الله وحدَه كفَرْتم وأَشرَكْتم، وقُلْتم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَفَرْتُمْ﴾ بتَوْحيده ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾ يُجعَل له شَريك ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾ تُصدِّقوا بالإِشْراك].

وهذا هو الواقِعُ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزُّمَر:٤٥]، فهُمْ يُصدِّقون بقُلوبهم، ويَستَبشِرون بأَلْسِنتهم، وهذا الإيمانُ في الواقِع قد نَقول: إنه إيمان حَقيقيٌّ، وقد نَقول: إنه إيمان دعَويٌّ، يَعنِي: أنَّه دَعْوة، وأنهم في قَرارة أنفُسِهم يُؤمِنون بالله، وانظُروا إلى أَكفَر أهل الأرض فِرعونَ، كيف أَنكَر الخالِق، وادَّعى الرُّبوبية، وقال لقَوْمه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، ومع ذلك كان مُؤمِنًا في قَرارة نَفْسه، قال له مُوسى وهو يُحاوِرُه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢].

هذه الآيةُ أَقولُ لك: تَدُلُّ على أن فِرعونَ كان مُؤمِنًا برُبوبية الله، وذلك لأنه لَمَّا قال له مُوسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لم يَقُل: لم أَعلَم، وهو في مَقام يَرَى نفسه أعلى من موسى، يَعنِي: يَستَطيع أن يُنكِر دعوى موسى لو كان يُنكِر ذلك، لكنه يُقِرُّ بأن الله أَنزَل التَّوراة على موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ويَدُلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]؛ ولهذا لا يُمكِن لأَحَد عاقِل -وأُريد بالعاقِل مَن سِوى المَجنون- أن يُنكِر أنَّ لهذا

العالَمِ خالِقًا أبدًا، كل إنسان عاقِل إذا تَدبَّر أدنى تَدبُّر في هذا الكونِ علِمَ أن له رَبًّا مُدبِّرًا، ولا يُمكِن أن يُنكِر.

فائدة: هُناك قولٌ أن فِرعونَ أَصلُه عرَبيٌّ ويَقولون: اسمُه مُصعَب بنُ رَيَّان. ونَقول: مَن قال هذا؟ فِرعونُ قِبطيٌّ وخَبيث، وهو بَريء من العرَب، والعرَب بَريئون منه، لكن اليَهود من المُمكِن أنهم هم مَن قالوا هذا الكَلامَ؛ لأن اليَهود من بني إسرائيلَ، وفِرعونُ عَدُوُّهم، والعرَب الآنَ أعداؤُهم، فأَرادوا أن يَضَعوا آلَ فِرعونَ معَهم.

فقوله هنا: ﴿بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ الذي يَظهَر لنا أنه إيمان دَعوى، يَعنِي يَقول: نُؤمِن بأن هذا شَريك مع الله، يَقولونه بأَلْسِنتهم، أمَّا في قَرارة قُلوبهم فلا نَظُنُّ أن أحَدًا يُنكِر أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واحِد، وقد يُقال: إن المُراد بقوله: ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ تَوْحيد الأُلوهية. يَعنِي: يَكفُرون بتَوْحيد الأُلوهية، ويُؤمِنون بالشِّرْك في الأُلوهية؛ لأنهم يُؤمِنون بأن هذه الآلِهة تُقرِّبهم إلى الله زُلفَى، فإِذَنْ هم مُؤمِنون بالله رَبًّا، ويُؤمِنون بالأصنام شُفَعاءَ.

ولا شَكَّ أنَّ عِبادة الرُّهبان والأحبار بالمَعنى الذي فسَّره الرسول ﷺ ليسَت كعِبادة الأصنام، لأنَّ عِبَادة الأصنام عِبادة تَقرُّب وخُضُوع، وعِبَادَةُ الأحبار والرُّهْبَان عِبادة اتِّباع، ولا شَكَّ أنها عِبادة كما جاء في الحديث.

وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ [التوبة:٣١]، فإذا كانت عِبادة الأَحْبار والرُّهبان كعِبادة المَسيحِ ابنِ مَريمَ، لزِم من هذا أنهم

يَعبُدونهم عِبادة التَّقرُّب، لكن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال لعَديِّ بنِ حاتِمٍ: «أَلَيْسُوا يُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ الله؛ فَتُحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ الله فَتُحَرِّمُونَهُ؟» قال: نعَمْ. قال: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»[1] فهذه عِبادة اتِّباع، وغالِب عِبادة المُشرِكين تَقرُّب وتَعظيم.

فإن قال قائِل: ماذا يُقصَد بقول بعض المفَسِّرين في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ يقول: «فيه مَتروك استُغنِيَ عنه بدَلالة الظاهِر عليه، ومَجازُه ألَّا سبيلَ إلى ذلك»؟

فالجوابُ: هذا قَصْده لمَّا قالوا: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [غافر:١١] كأنه قال: لا سَبيلَ إلى الخُروج؛ لأنكم قدَّمتم لأنفسكم ما لا يُمكِن معه الخُروج، وهو أنه إذا دُعِيَ الله وحدَه كفَرْتم وإن يُشرَك به تُؤمِنوا.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱلۡحُكۡمُ﴾ في تَعذيبكُم ﴿لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ﴾ على خَلْقه ﴿ٱلۡكَبِيرِ﴾ العَظيم]. يَعنِي: فبِناءً على أنَّكم في هذه الحالِ يَكون حُكْمكُم إلى الله، فالفاء حينَئذٍ تَكون؛ إمَّا للاستِئْناف، وإمَّا للتَّفريع على ما سبَق. يَعنِي: فبِناءً على ذلك يَكون الحُكْم في أَمرِكم إلى الله، الحُكْم في تَعذيبكم لله وحدَه، واللَّام تَكون بمَعنَى الغاية أحيانًا، كما تَقول: ولله تُرجَع الأمور. بمَعنى: إلى الله، وهنا الحُكْم لله. أي: إلى الله. أي: أن حُكْمكم يَنتَهي إلى الله، ويُحتَمَل أن يَكون المَعنى: الحُكْم لله. أي: مُستَحِقٌّ له لا يُشارِكه فيه أحَدٌ.

وقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلۡعَلِيِّ﴾ على خَلْقه] عُلوَّ ذات، وعُلوَّ صِفة، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالٍ على خَلْقه في ذاته فوقَ كل شيء، وعالٍ على خَلْقه في صِفاته، قال

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥).

الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧] المَثَل يَعني: الوصف الأعلى في السَّموات والأرض.

وعُلوُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عُلوًّا مَعنويًّا، وهو عُلوُّ الصِّفة أَمْر مُجمَع عليه، لم يُخالِف فيه أحَد من أهل المِلَّة حتَّى المُعطِّلون الذين يُنكِرون صِفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ، إنَّما أَنكَروها بِناءً على تَنزيههم لله عَزَّوَجَلَّ عن مُشابَهة المَخلوقين، وإن كانوا أَخطَؤوا الطريق لكن هم يَقولون: نحن نَقول هذا تَنزيهًا لله؛ ولهذا يُسمُّون الذين يُثبِتون الصِّفات: المُشبِّهة، والمُجَسِّمة، والحَشوية، وما أَشبَهَ ذلك، ويَرَوْن أنفسهم هم أهلَ التَّوْحيد!.

فعُلوُّ الصِّفة لم يُنكِره أحَد من أهل المِلَّة، حتى أهل البِدَع يُقِرُّون بذلك.

وأمَّا عُلوُّ الذات فهو مَحَلُّ الصِّراع بين أهل السُّنَّة والجَماعة، وبين أهل التَّعطيل، فأهل السُّنَّة والجماعة يُؤمِنون بأن الله تعالى عالٍ على خَلْقه بنَفْسه، وأهل التَّعطيل يُنكِرون ذلك، ثُم انقَسَموا إلى قِسْمين:

قِسْم قالوا: إنَّ الله في كل مَكان؛ في السماء، وفي الأرض، وفي الأَسْواق، وفي المَساجِد، وفي البُيوت، وفي كلِّ مَكان.

وقِسْم آخَرُ قالوا: لا يُوصَف أنه في مَكان، فلا يُقال: فوقَ العالَم، ولا في العالَم، ولا تَحتَه، ولا يَمينَه، ولا شِماله، ولا مُتَّصِل بالعالَم، ولا مُماسٌّ له، وهذا هو التَّعطيل المَحْض؛ لأننا لو أَرَدْنا أن نَصِف المَعدوم لم نَجِد أَبلَغَ من هذا الوَصْفِ، إِذَنْ خالَف في عُلوِّ الذات طائِفَتان:

الطائِفة الأُولى، قالت: إنَّ الله في كل مَكان بنَفْسه، وهو قَولٌ قِيل حقيقةً، ولكن لا تَظُنُّوا أنه تَصوُّر، فيُوجَد الآنَ مَن يَعتَقِدون أن الله في كل مَكان، إن جِئْت السُّوق

وجَدْته في السوق، وإذا قالوا: بالجَبْر قالوا: في السُّوق يَبيع ويَشتَري؛ لأن فِعْل العَبْد مَنسوب إلى الله تعالى، فإذا كان الذي في السُّوق هو في السُّوق، وفِعْل العبد فِعْله لصار يَبيع ويَشتَري!! وإذا جِئْت المَسجِد كان في المَسجِد، يُصلِّي أو يَقعُد! لا نَدرِي! إذا أَتَيْت في أي مَكان وجَدْته فيه. نَسأَل الله العافِيةَ! هذا من لازِم قولهم.

ونحن نَفصِل هذا عن مَسأَلة الجَبْر حتى لا نَصِل إلى نِهاية سَيِّئة جِدًّا، نَقول: هُم يَقولون: إنَّ الله في كل مَكان، حتى قال لهم أَهْل السُّنَّة: كيف يُمكِن أن تَقولوا: إنه في أماكِن القَذَر والأذَى؟ قالوا: نَقول: إذا دخَلْت أنت المَكان صار الله معَك، أيُّ مَكان تَدخُله فالله معَك.

فإن قال قائِل: الذين أَنكَروا عُلوَّ الذات يَستَدِلُّون بآية ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

فالجوابُ: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥] هل هذا يُنافِي العُلوَّ حتى يَكون دليلًا على عَدَمه؟ فيُمكِن أن يَكون الشيء فوقَك وهو أمامَك، هذا في المَخلوق، فكيف بالخالِق المُحيط بكُلِّ شَيْء؟! ثُم كيف نُورِد آية تُحتَمَل على آياتٍ مُحكَمة لا تُحتَمَل وهو العُلوُّ؟ انتَبِهوا لهذا؛ لأن أهل الباطِل يُورِدون المُتَشابِه على المُحكَم، ولا يَحمِلون المُتَشابِه على المُحكَم، يُورِدون المُتَشابِه على المُحكَم؛ ليُناقِضَه، وليسوا يَحمِلون المُتَشابِه على المُحكَم ليَكون مُحكَمًا، وهذا هو البَلاء، قالت عائِشةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «إذا رَأَيْتُمُ الَّذينَ يَتَّبِعونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذينَ سَمَّى الله فَاحْذَرُوهُمْ» هكذا روَتْه عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾، رقم (٤٥٤٧)، ومسلم: كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، رقم (٢٦٦٥).

وهذه مَسأَلة أُحِبُّ أن أُنبِّهَكم عليها، وهو أنه إذا ورَدَت آيات مُتعارِضة، وأحادِيثُ مُتعارِضةٌ، فلا تُورِدوها على أَنْفُسكم على أنَّها مُتعارِضة، أَوْرِدوها على أَنفُسِكم على أنكم تَطلُبون الجمع بينها؛ لتُوفَّقوا للجمع، أمَّا إذا أَوْرَدْتم هذه على أنَّها مُتعارِضة بقِيَت مَحَلَّ إشكال، وأنا دائِمًا أَنْهاكم عن هذا، أَقول: لا تُورِدوا الآياتِ المُتَشابِهَةَ التي ظاهِرها التَّعارُض، أو الأحاديث كذلك على أنها مُتعارِضة، أَوْرِدوها على أَنَّكم تُريدون الجَمْع بينها، لا أن بَعضَها مُعارِض لبعض، حتى تُهْدَوْا إلى الصِّراط المُستَقيم؛ لأن هُناك فَرْقًا بين الإيراد وبين الرَّدِّ، إيراد المُتَشابِه على المُحكَم مَعناه: أنه يَطلُب التَّعارُض، لكِنْ رَدُّ المُتَشابِه إلى المُحكَم هذا معناه أنه حاوَل الجَمْع دون أن يَتصوَّر التَّعارُض، وهذه المَسأَلةُ كما تكون في الأُمور العِلْمية تكون أيضًا في الأمور العمَلية.

أحيانًا تَرِد عن النبيِّ ﷺ صِفاتٌ في عِبادة واحِدة، فيَظُنُّ الظانُّ أن هذا تَعارُض، لكن نَقول: لا تَقرَأْها ولا تُورِدْها على نفسك على أنها مُتَعارِضة، لا، أَورِدْها على أنك تَجمَع بينها، فتَحمِل هذه على وجهٍ وهذه على وَجهٍ، وأكثَرُ ما يَكون الشَّكُّ للطالِب أنه يُورِد الآياتِ المُتعارِضة التي ظاهِرُها التَّعارُض، أو الأحاديث التي ظاهِرُها التَّعارُض على أنها مُتعارِضة، لكن لو أَورِدْها على أنه يُرَدُّ بعضُها إلى بعض، ويُضَمُّ بعضُها إلى بعض، لوَجَد وجهًا ومَخرَجًا ممَّا كان يَظُنُّ، وهذا شيء إذا فعَلتموه ستَنْتَفِعون به، إن شاء الله.

فالذين قالوا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥] يَدُلُّ على عدَم العُلوِّ فيُعارِض أدِلَّة العُلوِّ. نَقول: مَن قال هذا؟! مَن قال: إنه يَدُلُّ على عدَم العُلوِّ؟! وإذا كان الشيءُ مُقابِلًا لك فلا يَلزَم أن يَكون مُحاذِيًا لك، قد تَقول:

هذا عن يَميني وهو أسفَلُ شيء، لكن مع الجِهة اليُمنَى، وهذا عن يَسارِي وهو أسفَلُ شيء، وهو عن الجِهة اليُسْرى، كما جاء في حَديث المِعراج: «أن على يَمينِ آدَمَ أَسْوِدةٌ وعلى يَسارِهِ أَسْوِدَةٌ، فإذا رَأَى إلى اليَسارِ بَكَى»[1] اليَسار هي نَسَمُ بنِيه الكفَرة في النار، وهذا في الأسفَلُ، فلا يَلزَم من كون الشيء على يَمينك أن يَكون مُحاذِيًا لك، ولا يَلزَم من كون الشيء فوقَك أن يَكون مُحاذِيًا لك، ولا من كونه أَسفَلَ منك أن يَكون مُحاذِيًا لك، هذا ليس بلَازِم، لكن الذين في قُلوبهم زَيْغ يَتَّبِعونَ ما تَشابَهَ منه؛ لإيراد التَّشكيك.

القول الثاني: قالوا: لا يَصِحُّ أن يُوصَف الله بأيِّ مَكان، لا فوقَ، ولا تَحتَ، ولا يَمينَ العالَم، ولا شِمال العالَم، ولا اتِّصال بالعالَم، ولا انفِصال من العالَم.

وقد قال مَحمودُ بنُ سُبُكْتِكينَ لمُحمَّد بن فورك وهو يُناظِره في هذه المَسأَلة[2] قال له: إذا قُلت هذا فأَثبِتْ لنا ربَّك، إذا كان لا هو فوقُ ولا تَحتُ، ولا يَمينُ ولا شِمالُ، ولا مُتَّصِلًا ولا مُنفَصِلًا، ولا مُباينًا ولا مُحايِثًا أين يَكون؟ لا يَكون، وهذا العدَم تمامًا.

فليس بصحيح أنه ليس بيَمين ولا بشِمال، لكنه وَصَف نَفْسه بما هو أَحسَنُ من هذا؛ لأنه لو قال: لا يَمين ولا شِمال صارَت الصِّفة صِفةً سَلْبية، لكن إذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ انتَفَى اليمين والشِّمال بوَصْف ثُبوتيٍّ، لا بوَصْف سَلبيٍّ، والوَصْف الثُّبوتي أَكمَل من الوَصْف السَّلبيِّ؛ لأنَّ دَلالة الوَصْف السَّلْبيِّ على الإثبات دَلالة

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم (٣٤٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، رقم (١٦٣)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٧).

التِزام، قد يُنكِرها مُنكِر ولا يَلتَزِم بها.

فإن قال قائِل: نَفيُ العدَم يَعنِي القول بأن الله لا فوقُ ولا تَحتُ، ولا يَمينُ ولا شِمالُ، فبماذا استَدَلَّ القائلون به؟

فالجوابُ: نَقول: لأنك إذا أَثبَتَّ أنه في جِهة فقد جسَّمْت -أي: جعَلْته جِسْمًا- إذا صار فَوقُ مَعناه أنه جِسْم، ويَمينًا وشِمالًا كذلك، كل هذا فِرارًا من التَّجسيم، والسبَب أنَّ الشَّيْطان تَلاعَب بهم في الواقِع، وإلَّا نَقول لهم: ما هو التَّجسيم الذي تُريدون أن تَنفُوه عن الله، تُريدون أن الله ليس بشَيْء؟ فنَحْن لا نُوافِقُكم، تُريدون أن الله تعالى جِسْم مَوْصوف بالصِّفات الكامِلة؟ فهو كذلك هو مَوْصوف بالصِّفات الكامِلة، لكن لا نُطلِق لفظ جِسْم على الله أبَدًا، وقد ورَد في الحَديث ما يَدُلُّ على أنه يُوصَف بالشخص[1]، ومع ذلك لا نَقول: إنه شَخْص كأشخاص المَخلوقين أبَدًا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

فالحاصِلُ: أنَّ العُلوَّ قول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ على خَلْقه] نَقول: العُلوُّ نَوْعان: عُلوُّ صِفة، وعُلوُّ ذاتٍ.

أمَّا عُلوُّ الصِّفة: فهذا لـم يُنكِر أحَد من أهل القِبْلة حتى المُبتَدِعة أنه مَنفيٌّ عن الله، كلُّهم يُثبِتون لله عُلوَّ الصِّفة، لكن أهل التَّعطيل يَرَوْن التَّعْطيل من باب التَّنزيه، ورَفْع الله عَزَّوَجَلَّ، وأَهْل التَّمثيل كذلك يَرَوْن هذا من باب تَعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وإثبات حَقيقته.

وأمَّا عُلوُّ الذات: فهو الذي انقَسَم فيه الناس إلى هذه الأقسامِ الثلاثةِ التي سمِعْتُموها.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب اللعان، رقم (١٤٩٩)، بلفظ: «لا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ الله».

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ العَظيم] وهذا تَفسير تَقريبيٌّ، ولو قال: الكَبير ذو الكِبْرياء لكان أَقرَبَ، فهو كبير عَزَّوَجَلَّ ذو كِبرياء، وهو كبير أيضًا، كبير باعتِبار ذاته، لا يُحيط به شيء من مَخلوقاته، والسَّموات السَّبْع والأرَضون السَّبْع في يدِه كخَرْدلة في يَدِ أحَدِنا.

مسألة: هَل يجِب على الإنسانِ أنْ يُبلِّغ الناس أنه يَجِب عليهم أن يَبحَثوا، ثُم كيف نَقول لهم هذا وهُمْ أصلًا كُسالى، لا يَبحَثون وجهَلة؟

فالجوابُ: نحن لا نَتكلَّم عن العرَب، العرَب يَفهَمون الدَّعْوة بمُجرَّد أن تَبلُغهم، بل نَتكَلَّم عن قوم لا يَفهَمون المَعنى، يَجِب عليهم أن يَبحَثوا، أمَّا عوامُّ الناس الآنَ فقَدْ بلَغَتهم وفهِموها؛ ولهذا يَعرِفون مَعنَى لا إلهَ إلَّا الله، ويَعرِفون مَعنى مُحمَّد رسول الله، وما أَشبَهَها.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ الأَسْباب؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥ﴾، فالباء للسَّبَبية، وقد تقدَّم كثيرًا أنَّ أهل السُّنَّة والجَماعةَ يُثبِتون الأسباب للمُسَبَّبات، ولكن لا على أنَّها فاعِلة بنَفْسها، بل بما أَوْدَع الله فيها من القُوى المُؤثِّرة، يُؤخَذ ذلك من قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ﴾؛ لأن الباء للسَّبَبية.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان ما عليه هؤلاءِ الكُفَّارُ من كونِهم إذا دُعِيَ الله وحدَه كفَروا، وإذا أُشرِكَ به أَقرَّوا هذا الشِّرْكَ؛ لقوله: ﴿بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الحُكْم لله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ وليس لغَيْره.

وحُكْم الله تعالى يَنقَسِم إلى قِسْمين: كَونيٌّ وشَرْعيٌّ.

فالكَوْنيُّ: ما قَضَى به على عِباده كونًا وتَقديرًا.

والشَّرعيُّ: ما قَضَى به على عِباده شَرْعًا وتَنظيمًا.

والحُكْمان مَوْجودان في القُرآن جميعًا، فمِن الحُكْم القَدَريِّ قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف:٨٠]، ومن الحُكْم الشَّرعيِّ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٠].

والفَرْق بينهما:

الفرق الأوَّل: أنَّ الحُكْم الشَّرعيَّ يَرضاه الله عَزَّوَجَلَّ، والحُكْم الكونيَّ يَتعلَّق بما يَرضاه وبما لا يَرضاه.

والفَرْق الثاني: أن الحُكْم الشَّرعيَّ قد يَقَع من المَحكوم عليه وقد لا يَقَع، وأمَّا الحُكْم الكَـوْنيُّ فإنه لا بُدَّ أن يَقَع، فإذا حكَم الله على شخص بمَـوْت، أو مرَض، أو فَقْر، أو عاهة، أو غير ذلك وقَع، ولا بُدَّ، وإذا حكَم الله على شخص بأن يُؤمِن ويَعمَل صالِحًا فقد يَقَع وقد لا يَقَع.

وقوله: ﴿فَٱلْحُكْمُ﴾ هنا يَشمَل الأمرَيْن جميعًا.

ويُستَفاد من هذا أنه لا يَجوز الحُكْم بالقَوانين المُخالِفة للشريعة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾، وهذه الجُملةُ تُفيد الحَصْر؛ أي: الحُكْم لله لا لغيره، والحُكْم بالقوانين المُخالِفة للشريعة قد يَكون كُفْرًا، وقد يَكون ظُلْمًا، وقد يَكون فِسْقًا، كما ذكَره الله عَزَّوَجَلَّ على هذه الوُجوهِ الثلاثة في سـورة المائِدة، وهي من آخِر ما نزَل، فإن وُضِع الحُكْم القانوني شرعًا نافِذًا فهذا كُفْر؛ لأنه يَقتَضي رَفْع الحُكْم الشَّرعيِّ وإحلال حُكْم

آخَرَ مَحَلَّه، وهذا كُفْر بما أَنزَل الله مُحبِط للعمَل؛ لأنه لا يُمكِن أن يُرفَع الحُكْم الشَّرعيُّ إلَّا بعد كـراهَته إيَّاه، وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:٩].

وعلى هذا فالذين يَحكُمون أُمَمَهم بالقَوانين المُخالِفة للشريعة يُعتبَرون كُفَّارًا، يَجِب عليهم أن يَتوبوا إلى الله، وأن يَحكُموا بشَريعة الله، وإلَّا ماتوا كُفَّارًا -والعِياذُ بالله- ونحن لا نَحكُم بهذا الشيءِ لكل واحد بعَيْنه، إذ قد يَكون بعضُهم مُلبَسًا عليه، أو مُغرَّرًا به، أو تَكلَّم عنده مَن يَثِقُ به فأَضَلَّه، قد يَكون هذا الذي وضَع القانون غرَّه مَن يَقول: إنَّ الحُكْم الشَّرْعيَّ إنما يَكون فيما بين الإنسان وبين رَبِّه في العِبادات والأحوال الشَّخْصية والمَواريث، وأمَّا مَسائِل الدُّنيا فهي لأهل الدنيا، ويُشبِّه بقوله ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ»(١).

فيَأتي هذا الحاكِمُ المِسكينُ الذي لا يَعرِف عن الأمر شيئًا، والذي خُدِع بمَظاهِر الدنيا وزَخارِفها فيَظُنُّ أن هذا هو الحقُّ، فيَضَع القانون المُخالِف للشَّرْع، فمِثل هذا لا نَحكُم بكُفْره؛ لأنه مُغرَّر به مُؤَوِّل، لكن إذا بُيِّن له ثُمَّ أَصَرَّ حُكِم بكُفْره.

أمَّا الثاني: الحُكْم بغَيْر ما أَنزَل الله الذي يَكون ظُلْمًا، فهو ما كان الحامِلُ عليه حُبُّ الاعتِداء على الغير، لا كراهةَ الشَّرْع، ولا الحُكْم بغير ما أَنزَل الله، لكن لكراهته للغير حكَم على الغير بغَيْر ما أَنزَل الله ظُلْمًا وعُدوانًا، فهذا له حُكْم الظلَمة، وليس له حُكْم الكافِرين؛ لأنَّه لم يَكْفر، يَقول: أَعرِف أن ما جاء به الشَّـرْع فهو الحقُّ، لكن أُريد أن أَنتَقِم من هذا الرجُلِ، وأَعتَديَ عليه، فيَكون هذا له حُكْم الظالِمِ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا، رقم (٢٣٦٣)، من حديث عائشة وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥].

أمَّا القِسْم الثالِث: فهو الذي حكَم بغَيْر ما أَنزَل الله لهوًى في نفسه، لا كراهةً للحَقِّ، ولا استِبْدالًا له بغيره، لكن يُريد شيئًا في نفسه فحكَم بغير ما أَنزَل الله، مِثْل: أن يَكون يَهوَى، أن تَكون له هذه الأرضُ، أو هذه السَّيَّارةُ، أو ما أَشبَه ذلك فيَحكُم بها لغرَض، ليس قَصدُه ظُلمَ المحكوم عليه، ولكن قَصْده اتِّباع الهَوَى، فيَحكُم، فيَكون بهذا من الفاسِقين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الحُكْم لله عَزَّوَجَلَّ في الدُّنيا والآخِرة.

ولهذا قسَّم بَعْض العُلَماء الحُكْم إلى ثلاثة أقسام: كَونيٍّ، وشَرعيٍّ، وجَزائيٍّ.

والحُكْم الجَزائيُّ: ما يَكون في الآخِرة، ولكن الصحيح أن الحُكْم الجَزائيَّ لا يَخرُج عن كَوْنه حُكْمًا كونيًّا؛ لأنه فِعْل الله، وحينَئذٍ لا حاجةَ إلى كَثْرة التَّقاسيم؛ لأنه كلَّما أَمكَن اختِصار التَّقسيم كان أَوْلى؛ ولهذا -والله أَعلَمُ- كان الرسول ﷺ يَأتي أحيانًا فيَقول: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ الله، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**»(١)، مع أن هُناك آخَرين لا يُكلِّمهم الله يوم القِيامة، ولا يَنظُر إليهم، ولا يُزكِّيهم ولهم عَذاب أَليم، لكن كون الشيء يُجزَّأ وتُقلَّل أَقسامُه يَكون أقرَبَ إلى الفَهْم.

ولهذا يُفرَّق بين أن تُعطِيَ الماء لشخص عَطشانَ دفعة واحِدة، أو أن تُعطِيَه إيَّاه على دفعات، فالثاني أَهنَأُ وأَبرَأُ وأَمرَأُ، كما جاء في الحديث أنه يَنبَغي للإنسان في شَرابه أن يَتنفَّس ثلاث مرَّات، الكأس مثَلًا إذا كُنتَ عَطْشانَ لا تَشرَبْه جميعًا، تَنفَّس

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، رقم (١٠٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فيه ثلاثَ مرَّات، اشرَبْ، ثُمَّ أَبِنِ الكأسَ عن فمِكَ، ثُم رُدَّه، ثُم أَبِنْه، ثُم رُدَّه، حتى يَكون ذلك أَهنَأَ وأَمرَأَ وأَبرَأَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات العُلوِّ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿ٱلْعَلِيِّ﴾ وهو عُلوٌّ بنَفْسه، وعُلوٌّ بصِفته، فصِفاته عُليا، وهو نفسه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فوقَ كل شيء.

وأدِلَّة عُلوِّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذاتيِّ خمسةُ أنواع: الكِتاب، والسُّنَّة، والإجماع، والعَقْل، والفِطْرة.

أمَّا الكِتاب: فمَملوء من ذلك، أي: مِن دَلالته على أن الله فوقَ كل شيء على وجوهٍ مُتنوِّعة، تارةً يُصرِّح بأنه في السَّماء، وتارةً يُصرِّح بأنه استوَى على العَرْش، وتارةً يُصرِّح بأن الأشياء تَنزِل منه، وتارةً يُصرِّح بأن الأشياء تُرفَع إليه، وتَصعَد إليه، وتَعرُج إليه، وكل هذا يَدُلُّ على عُلوِّ الله تعالى بذاته.

والسُّنَّة كذلك جاءت بأَوْجُهها الثلاثة: قولٍ، وفِعْل، وإقرارٍ.

فالقول: ما كان الرسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يَقول: «**رَبُّنَا الله الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**»(١)، وما كان يَقول في سُجوده: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى**»(٢).

والفِعل: إشارته ﷺ إلى السماء حين قال: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطب، باب كيف الرقى، رقم (٣٨٩٢)، والنسائي في الكبرى رقم (١٠٨٠٩)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢)، من حديث حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

والإقرار: إقراره للجارِية حين قالـت: إنَّ الله في السَّمـاءِ. لَمَّا قال لها: «أَيْنَ الله؟»[١].

وأمَّا الإِجْماع: فقَدْ أَجمَع السَّلَف على أنَّ الله تعالى عالٍ بذاته فوقَ كل شيء، ودَليل هذا الإجماعِ أنه لم يَرِد عنهم حَرْف واحِد يُنافِي ما دلَّ عليه الكِتاب والسُّنَّة من عُلوِّ الله، وهذا يَدُلُّ على أنهم كانوا يَقولون به.

وهذا من الطُّرُق التي ذكَرْناها لكم فيما سبَقَ أنه لو قال قائِل: ائْتُوا لنا بحَرْف واحِد من السلَف يَقول: إن الله عالٍ بذاته. نَقول: لا حاجةَ أن نَأتِيَ لكم بذلك؛ لأن وُرود ذلك في الكِتاب والسُّنَّة من غير أن يَأتِيَ عنهم ما يُعارِضه يَدُلُّ على قولهم به، وهم مُجمِعون على هذا.

وقد ذكَرَ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامًا قال فيه: «والله يَعلَم أني بعد البَحْث التامِّ، ومُطالَعَتي ما أَمكَن من كلام السلَف، لم أَجِدْ أحَدًا منهم صرَّح بأن الله ليس في السَّماء، وأن الأشياء لا تَعرُج إليه»[٢] وذكر نَحوَ هذا.

وعلى هذا فنَقول: إن عُلوَّ الله بذاته قد أَجمَعَ عليه السلَف، فمَن قال بغير ذلك فقد شاقَّ الرسولَ، واتَّبَع غيرَ سبيل المُؤمِنين، ولكن الله اشتَرَط قال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [النساء:١١٥].

وأمَّا العَقْل: فدَلالته على عُلوِّ الله ظاهِرة؛ لأننا لو سأَلْنا: أيُّهما أعلى صِفةً العالي أو السافِل؟ لقيل باتِّفاق العُقَلاء: إن العالِيَ أكمَلُ، وإذا ثبَت أن العُلوَّ كَمال وجَب

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ١٥).

أن يَكون ثابِتًا لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله تعالى مَوْصوف بصِفات الكَمال.

وأمَّا الفِطْرة: فاسأَلْ عنها عجائِز المُسلِمين، لا تَسأَلْ طلَبة العِلْم، اسأَلِ العَجوز: أين الله؟ فتَقول لك: في السَّماء. اسأَلْ كلَّ داعٍ إذا دعا: أين يَطيرُ قَلْبه؟ فيَقول لك: إلى السماء.

وهذه الفِطرةُ هي التي أَلجَمَت أبا المَعالي الجُوَيْنيَّ حين قال له أبو جَعفر الهَمَذانيُّ: يا شَيخُ دَعْنا من ذِكْر العَرْش، لَمَّا قال أبو المَعالي: إن الله كان ولا شيء يَعنِي: لا عَرشٌ ولا غيرُه، وهو الآنَ على ما كان عليه. يُريد نَفيَ الاستِواء، إذا كان الله ولا عَرشٌ وهو الآنَ على ما هو عليه لزِم ألَّا يَكون مُستَوِيًا على العَرْش، فقال له: يا شيخُ دَعْنا من ذِكْر العَرْش؛ لأنَّ دليله -دليل استِوائِه على العَرْش- دليل سَمْعيٌّ، لكن أَخبِرْنا عن هذه الفِطْرةِ التي نَجِدها في نُفوسِنا، ما قال عارِفٌ قطُّ: يا الله. إلَّا وجَد من قَلْبه ضرورة بطلَب العُلوِّ، فلطَمَ أبو المَعالي على رأسه وقال: حيَّرَني الهَمَذانيُّ[1]، تَحيَّر؛ لأنَّ هذا أَمْر فِطْريٌّ لا يُمكِن إنكاره أبَدًا، إن كان الإنسان يُنكِر أن يَكون بشَرًا أَنكَر ما دلَّت عليه الفِطْرة.

فالحاصِل: أن عُلوَّ الله بذاته دلَّ عليه الكِتاب، والسُّنَّة، والإِجْماع، والعَقْل، والفِطْرة، وهو -ولله الحمد- لا يَحتاج إلى مُنازَعة، ولولا أنَّ أهل البِدَع والتَّعْطيل أَلجَؤُوا أهل السُّنَّة إلى الحَديث عنه ما احتاج أن يَتَحدَّث الإنسان عنه؛ لأنه أَمْر فِطْريٌّ لا يَحتاج إلى كبير عَناء، لكن هَؤلاء المُتكَلِّمين المُبتَدِعين المُعطِّلين المُحرِّفين المُنحَرِفين همُ الذين أَلجَؤوا أهل السُّنَّة إلى أن يَقولوا بمثل ذلك، وأن يُحاوِلوا إثبات هذه الأُمور بما يَستَطيعون من الأدِلَّة.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٠).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات الكِبرياء لله والكِبَر؛ لقوله: ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾، والله تعالى يَجمَع بين الكبـرياء والكِبَـر في غير ما آية، قال الله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩]، وهنا يَقول: ﴿ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾؛ لأن بذلك يَحصُل الكَمال المُطلَق العُلوُّ والكِبْرياء، والكِبَر فيه كَمال الكَمال.

• • ۞ • •

الآية (١٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر:١٣].

وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ﴾ أي: يُظهِر لكم آياتِه حتى تَرَوْها، والضمير يَعود إلى الله، فهو الَّذي له الحُكْم، وهو العليُّ الكَبير، ومع ذلك لم يَدَعْ عِباده هَمَلًا، بل أَراهُم آياتِه حتى يُؤمِنوا.

فقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾؛ أي: يُظهِرها لكم حتى تَرَوْها عَيانًا، والآيات هنا: العلامات الدالَّة على مَعلومها، وهي أبلَغُ من المُعجِزات وما أَشبَهَها.

وآياتُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَوْعان: آياتٌ كَوْنية وآياتٌ شَرْعية.

فالآياتُ الكَوْنية: هي مَخْلوقات الله عَزَّوَجَلَّ.

والآياتُ الشَّرْعية: هي الوَحيُ الذي جاءَت به الرُّسُل.

كل المَخْلوقات آياتٌ من آيات الله: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢٠-٢١]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ [الروم:٢١]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [الشورى:٢٥].

والأَمْثلة على هذا كَثيرة، كلُّها تَدُلُّ على خالِقها عَزَّوَجَلَّ، وعلى تَفرُّده بالخَلْق، وعلى حِكْمته، وعلى رَحْمته، وعلى عِزَّته إلى غيـر ذلك من مَعانِي الرُّبوبية التي تَدُلُّ عليها هذه الآياتُ، وقد تكون آية واحِدة تَدُلُّ على عِدَّة آيات، وعلى عِدَّة أَوْصاف، هذه الآياتُ الكَوْنية شامِلة لكل المَخْلوقات، وفي هذا يَقول القائِلُ:

فَوَاعَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ؟! أَوْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ(١)

كل شيء تَتَأَمَّل فيه تَجِدُ الدَّلالة الكامِلة على أن له خالِقًا مُدبِّرًا حَكيمًا عليمًا، إلى غير ذلك من مَعانِي الرُّبوبية.

أمَّا الآياتُ الشَّرْعية: فهي ما جاءَت به الرُّسُل وقد أَرانا الله تعالى إيَّاها، وأَعطَى الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام من الآيات ما يُؤمِن على مِثْله البَشَر، فالرُّسُل لم يَأْتوا هكذا يَقولون للناس: نَحْن رُسُلٌ إليكم. بل أَتَوْا بالآيات الدالَّة على ما أُرسِلوا به، وعلى مُرسِلِهم.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ إِذَنِ الآياتُ تَشمَل: الكونية والشَّرْعية، البَرْق: آيةٌ كَوْنية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد:١٢].

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ التَّنزيل يَكون من أعلى، وهنا قال: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو العُلوُّ، وليس المُرادُ بالسمـاء هنا السمـاءَ المَحفوظةَ -السَّقْف المَرفوع-، بل المُراد به العُلوُّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤] فالمَطَر ليس يَنزِل من السَّماء السَّقْف المَحفوظ، وإنَّما يَنزِل من العُلوِّ،

(١) من شعر أبي العتاهية. انظر: ديوانه (ص:١٢٢)، ومعاهد التنصيص (٢/ ٢٨٦).

من السَّحاب المُسخَّر بين السماء والأرض، وهذا أَمْر مُشاهَد.

وقوله: ﴿رِزْقًا﴾ أي: ماءً يَكون به الرِّزْق، فالذي يَنزِل ماءٌ يَكون به الرِّزْق، فهو نَفْسه رِزْق: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة:٦٨-٦٩]، وبه يَكون الرِّزْق ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف:٥٧]، والثمَرات أَرْزاق تُؤكَل، والماء رِزْق يُشرَب، فهو رِزْق بكُلِّ حال.

وفي تَقديم الآيات على إنزال الرِّزْق من السماء دَليل على أن النِّعْمة الدِّينية أَهَمُّ وأكبَرُ من النِّعْمة الدُّنْيوية.

قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣].

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دَلائِل تَوحيده] يَعنِي: التي تَدُلُّ على تَوْحيده وغير ذلك ممَّا تَدُلُّ عليه من مَعاني الرُّبوبية، [﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ بالمَطَر]، فالمفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَرى أنَّ الرِّزْق هو ما يَخرُج بالمطَر. يَعنِي: النَّبات وما أَشبَه ذلك، ولكن ما ذكَرْناه هو الأصوَبُ، أن المطَر نَفسه رِزْق؛ لأن الله قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة:٦٨-٦٩]، وأحيانًا يَكون احتِياج البَدَن إلى الماء أكثَر مِن احتياجه إلى الأَكْل.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يَتَّعِظ ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ يَرجِع عن الشِّرْك]، وقوله: ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَرجِع عن الشِّرْك]، وهذا لا شَكَّ أنه صَحيح لكنه قاصِر، فالصَّواب: ﴿مَن يُنِيبُ﴾ مَن يَرجِع إلى الله عَزَّوَجَلَّ من الشِّرْك وغيره من المَعاصِي والفُسوق، فهو أعَمُّ ممَّا قاله المفَسِّر.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيانُ قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه يُرينا الآياتِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ ما يُرينا الله تعالى من آياتِه حُجَّة مُلزِمة؛ لئَلَّا يَقول قائِل: نحن لم يَأْتِنا آياتٌ حتى نَتَّعِظ بها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ المَخلوقاتِ والمَشروعاتِ كلها تَدُلُّ على الخالِق المُشرِّع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: مِنَّة الله عَزَّوَجَلَّ بإنزال المطَر من السماء، وأنَّه رِزْق لنا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الحِكْمة في أنَّ المطَر يَنزِل من السماء، والله عَزَّوَجَلَّ قادِر على أن يَجعَل للأرض أنهارًا تَسير على سَطْح الأرض، وتَسقِي ما شاء الله أن تَسقِيَه، لكن المَطَر أَنفَعُ وأفضَلُ؛ لأنَّ المطَر إذا نزَل من أعلى شمِلَ قِمَم الجِبال، فيَشمَل السهل والوَعْر، والنازِل والعالِيَ، وهذه من الحِكْمة أن يَكون المطَر يَنزِل من فوقُ حتى يَشمَل الأرض كلَّها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ ما تَتَغذَّى به الرُّوح أهمُّ ممَّا يَتغذَّى به البدَن؛ لأنه سبحانه قدَّم إراءة الآياتِ على الرِّزْق الذي يَنزِل من السماء، وهذا يَدُلُّ على أنَّه أهَمُّ، وهو كذلك، هذا هو الواقِع؛ وذلك لأن فَقْد الغِذاء البدَنيِّ لا يَكون فيه إلَّا شيء لا بُدَّ منه وهو الموت الذي لا بُدَّ منه، حتى لو كان الإنسان في أَنعَم ما يَكون من نَعيم البدَن، وأَترَف ما يَكون فلا بُدَّ أن يَموت، لكن غِذاء الرُّوح هو الذي يَحتاج إلى مُعاناة ومُعالَجة، وبفَقْده يَكون الهَلاك في الدُّنيا والآخِرة.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزُّمَر:١٥]،

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

إِذَنْ: خَسارة البدَن دون خَسارة الرُّوح بكثير، خَسارة الدُّنيا دون خَسارة الدِّين بكَثير؛ ولهذا قدَّم الله عَزَّوَجَلَّ نِعْمته بإِراءة الآيات على نِعْمته بإنزال المطَر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الآياتِ والرِّزْقَ والعَطاء لا يَنتَفِع به إلَّا مَن أَناب إلى الله، أمَّا مَن لم يُنِب إلى الله فإن الله يَقول: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّه كلَّما كان الإنسان أكثَرَ إنابةً إلى الله كان أقوى إيمانًا بالآيات؛ لأنَّ الحُكْم المُعلَّق على وَصْف يَقوَى بقُوَّته ويَضعُف بضَعْفه، فإذا كان التَّذكُّر لِمَن يُنيب، فكلَّما كان الإنسان أقوَى إنابةً كان أقوى تَذكُّرًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ مَن لم يَكُن عنده إنابة فإنه يُحرَم من الانتِفاع بالآيات؛ لأنَّ الله قال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ الإنابة إلى الله سبَب لكَثْرة الرِّزْق، ويَدُلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣] واللهُ أَعلَمُ.

وإذا قال قائِل: كيف نُجيب على مَن يَقول: قولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥] ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧] أنَّ المُراد به الكُفْر؟

فنُجيب بأنه غلَط، كيف يُراد به شيء واحِد ويُكرِّره الله بألفاظ مُتعَدِّدة؟! والأصل أنَّ اختِلاف اللَّفْظ يَدُلُّ على اختِلاف المَعنى، لكن بعض العُلَماء قال: إنَّ وَصْف الحاكِم بالكُفْر لا يَمنَع من وَصْفه بالفِسق؛ لأن الله تعالى وصَف الكُفَّار بالفِسْق، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠]، ووصَف الكافِرين بالظُّلْم، فقال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، فجعَل هذه الأوصافَ الثلاثةَ لمَوْصوف واحِد، ولا مانِعَ من أن يُوصَف الإنسان بعِدَّة أَوْصاف، فالكافِر لا شَكَّ أنه ظالِم، ولا شَكَّ أنه فاسِق خارِج عن الطاعة، بل فِسْقه فِسْق مُطلَق، وفِسْق المُؤمِن العاصِي فِسْق مُقيَّد، ولكننا إذا جعَلْنا اختِلاف هذه الألفاظِ مُنزَّلًا على أحوال كان أَبلَغَ؛ لأننا نَقول: الكُفْر مُتضَمِّن للظُّلْم والفِسق، فدَلالته عليه بالالتِزام، فيَكون مُجرَّد وَصْفنا إيَّاه بالكُفْر هو وصف له بالظُّلْم والفِسق.

ثُم نَستَفيد فائِدة جديدة بالحُكْم بغيـر ما أَنزَل الله، حيـث يَكون ظُلْمًا مَحضًا لا كُفرًا أو فِسْقًا لا كُفرًا.

وأَقول: إن كوننا نَجعَل الاختِلاف في اللفظ اختِلافًا في المَعنى أَحسَنُ؛ لأن هذا هو الأَصْل، وقد قال العُلَماء في هذه المَسأَلةِ: حَمْل الكلام على التَّأْسيس أَوْلى من حَمْله على التوكيد.

فإن قال قائِل: العُلَماء يَقولون في مِثْل مَن لم يَحكُم بما أَنزَل الله ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]: إذا استَحَلَّه، أمَّا إذا لم يَستَحِلَّه فهذا غير كافِر؟

فالجوابُ: الذي يَضَع القانون بدَلًا عن القانون السَّماويِّ هل استَحَلَّه أو لا؟

الجواب: بل رآه أفضَلَ، فيكون كافِرًا، مع أن مَن استَحَلَّ الحُكْم بغير ما أَنزَلَ الله، وإن لم يَحكُم به فهو كافِر، فمَن قال: «إنه يَحِلُّ أن نَحكُم بغير ما أَنزَل الله»، فهو كافِر وإن لم يَحكُم به.

وهذه مُشكِلة، فكثيرًا ما يَلجَأ بعض الناس إلى الاستِحْلال أو إلى الجُحود، فمثَلًا يَقول: مَن ترَك الصلاة جاحِدًا فقد كفَرَ. وهذا تَحريف للكلِم عن مَواضِعه.

وهذه مَسأَلة يَلجَأ إليها المُتعَصِّب لقوله، فيُحاوِل أن يَلوِيَ أعناق النُّصوص إلى ما يَقول؛ فمثَلًا: «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ فَقَدْ كَفَرَ»[1] الذين قالوا: لا يَكفُر. قالوا: مَن ترَكَها جاحِدًا لوُجوبها فقد كفَر، نحن نَقول: سُبحان الله! أنتم إذا فعَلْتم ذلك جنَيْتم مرَّتَيْن على كلام رسول الله ﷺ:

المرَّة الأُولى: حَمْلكم الكلام على غير ظاهِره.

والمَرَّة الثانية: إثبات أَمْر لم يَقُله الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الرسول ﷺ قال: «مَنْ تَرَكَهَا»، ولم يَقُل: مَن جحَدها، هل في لِسانه عِيٌّ أن يَقول: مَن جَحَدَها.

ثُم نَقول لكم: الجَحْد كُفْر وإن صلَّى، والرسول ﷺ يَقول: «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ» لو أن الإنسان قال: إنَّ الصلاة لَيْسَت بواجِبة، ولكنه يُواظِب عليها، وهو أوَّل مَن يَأتِي للمَسجِد، وآخِرُ مَن يَخرُج؛ فإنه يَكفُر، كيف تُلغون وَصْف التَّرْك، وتَأتون بوَصْف جديد تُعلِّقون به الحُكْم؟! وهذه مُشكِلة.

ولَمَّا قيل للإمام أَحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا

(١) أخرجه ابن حبان رقم (١٤٦٣)، من حديث بريدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣] قالوا له: إنَّ فلانًا يَقول: هذا فيمَنِ استَحَلَّ قَتْل المُؤمِن؛ ضحِكَ الإمامُ أحمدُ وقال: «سُبحانَ الله! مَنِ استَحَلَّ قَتْل المُؤمِن فهو كافِر، قَتَله أو لم يَقتُله»، وهذا تَحريف لا شَكَّ أنه مُضحِك.

كذلك أيضًا مَنِ استَحَلَّ الحُكْم بغير ما أَنزَل الله فهو كافِر، سواء حكَمَ به أم لم يَحكُم، والآية علَّقَت الحُكْم بالحُكْم، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وهذه مَسأَلة احذَرُوها، احذَروا تَحريف الكلِم عن مَواضِعه من أَجْل اعتِقاد تَعتَقِدونه، واجعَلوا اعتِقادَكم وحُكْمكم على الشيء تابِعًا للنُّصوص، لا تَجعَلوا النُّصوص تابِعة، إذا جعَلْت النَّصَّ تابِعًا لما تَعتَقِد فإنَّ هذا هو اتِّباع الهوى تَمامًا، اجعَلْ نَفسَك بين يدَيِ النُّصوص كالميت بين يدَيِ الغاسِل، تُقلِّبك النُّصوص ولا تُقلِّبها، هذا هو المُؤمِن، لكن قد يَكون أحيانًا النُّصوص بعضُها يُقيِّد بعضًا، أو يُخصِّص بعضًا، أو الفِقْه بالشريعة يَقتَضي تَقييد المُطلَق، أو تَخصيص العامِّ، وما أَشبَه ذلك، وهذا لا يَخرُج بنا عن اتِّباع النُّصوص.

• • ۞ • •

الآية (١٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:١٤].

لَمَّا بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه أَرانا آياتِه الكونيةَ والشَّرْعية، أمَرَنا أن نَدعوَه وحدَه مُخلِصين له الدِّين.

فقوله: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فاعبُدوه] وهذا أحَدُ مَعنيَيْن: الدعاء، والمعنى الثاني: دُعاء المَسأَلة، يَعنِي: اسأَلوه. والصوابُ: أنه شامِل للأَمْرين؛ أي: دُعاء المَسأَلة، ودعاء العِبادة، فالعِبادة تُسمَّى دُعاءً كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] قال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ﴾ ثُمَّ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾.

وأمَّا دُعاء العِبادة: فإن كل إنسان يَدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنه لا يَدْعوه إلَّا وهو يُؤمِن أنه بكل شيءٍ عَليم، وأنه على كل شيء قَدير؛ فلهذا دَعاه، فصار بذَلِك عابِدًا له.

وقوله: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ حال من الواو في قوله: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾، والإخلاص: التَّنْقية، فتَنْقية الشيء تُسمَّى إخلاصًا، والمَعنَى: نَقُّوا دِينكم من الشِّرْك.

وقوله: ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾، المراد بالدِّين العمَل، سواءٌ كان عِبادة أم دُعاء، والدِّين يُطلَق على العَمَل، ويُطلَق على جزاء العمَل، فقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦] هذا من باب إطلاق الدِّين على العمَل، وقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] هذا من باب إطلاق الدِّين على الجَزاء.

ويُقال: (كما تَدينُ تُدانُ) أي: كما تَعمَل تُجازَى، فالدِّين هنا ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ بمعنى: العمَل.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشِّرْك] كما قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أن نَدعوَ الله تعالى مُخلِصين له الدُّعاء، وأن نَعبُده مُخلِصين له العِبادة من الشِّرْك، فلا نُشرِك به غيره، لا في دُعائنا ولا في عِبادتنا.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إخلاصَكم] يَعنِي: ادْعُوا الله مُخلِصين على كل حال، سواء رَضِيَ الكافِرون أم سخِطوا، ومن المعلوم أنهم سوف يَسخَطون، لكن لا يُهِمُّ أن يَسخَطوا علينا إذا أَخلَصنا الدِّين لله، وقول المفَسِّر: [﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إخلاصَكم] يَنبَغي أن يُقال: ولو كرِهوا عمَلكم المُخلَص؛ لأن الإخلاص نِيَّة القَلْب، والكافِر إنما يَكرَه ما يَظهَر من عمَل الإنسان، فالمَعنى: ولو كرِه الكافِرون عمَلكم الذي تُخلِصون فيه لله على رغم أُنوفهم.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: وجوب الإخلاص لله تعالى في الدُّعاء؛ لقوله: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾، ودُعاء غير الله فيما لا يَقدِر عليه المَدعوُّ يُعتبَر من الشِّرْك، ثُم قد يَكون شِرْكًا أكبَرَ، وقد يَكون شِرْكًا أصغَرَ بحَسب الحال، فمَن دعا قبرًا فهذا شِرْك أكبَرُ،

ومَن دعا غيره ليَحمِل معه مَتاعَه، وما أَشبَه ذلك والغَيرُ لا يَستَطيع أن يَحمِل فهذا ليس بشِرْك أكبَرَ، بل هو إمَّا عبَث وإمَّا شِرْك أصغَرُ، ومَن دعا غائبًا ليُنقِذه من شِدة فهذا شِرْك أكبَرُ؛ لأن هذا يُسمَّى شِرْك السِّرِّ، إذ إن الغائِب لا يُمكِن أن يَدعوَه الإنسان إلَّا وهو يَعتَقِد أن له تَصرُّفًا في الكون، يَتصَرَّف وهو بعيد، بخِلاف مَن دعا قريبًا وقال: يا فُلانُ احمِلْ معِي كذا، أَعنِّي على كذا، فهذا يَدعوه ليَقوم بشَيْء مَحسوس.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وُجوب إخلاص العِبادة لله؛ لأننا فسَّرنا الدُّعاء بدُعاء المَسأَلة ودُعاء العِبادة، فمَن تَعبَّد لغير الله استِقْلالًا فقد صرَف شيئًا من أنواع العِبادة لغير الله، فيَكون بذلِك مُشرِكًا شِرْكًا أكبَرَ، يَعنِي: مَن صلَّى لشخص فإنه يَكون مُشرِكًا شِركًا أكبَرَ، أو ذبَح لشخص تَقرُّبًا إليه وتَعظيمًا له، فإنه يَكون مُشرِكًا شِرْكًا أكبَرَ مُخرِجًا عن المِلَّة، وأمَّا إذا فعَل العِبادة لله، لكن راءَى فيها أو سمَّع، فهذا لا يَكون مُشرِكًا شِركًا أكبَرَ، ولكنه مُشرِك شِركًا أصغَرَ، وعِبادته مَردودة عليه؛ لقول النبيِّ ﷺ فيما رَواه عن ربِّه: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١).

ثُمَّ اعلَمْ أن الرِّياء إذا طرَأ على القَلْب فإن كان قبل الدُّخول في العِبادة أَبطَلها من أَصلها؛ لأنه دخَل فيها على شِرْك، وإن كان في أثناء العِبادة فإن كان آخِرها يَنبَني على أوَّلِها بطَلَت، وإن كان لا يَنبَني على أوَّلها؛ بحيث يَصِحُّ أن يُميِّز الأوَّل عن الثاني فإنه لا يَصِحُّ ما فيه الرِّياء، ويَصِحُّ ما سبَق الرِّياء.

مِثال الأوَّل: إذا دخَله الرِّياء في أثناء الصلاة في الركعة الثانية، فإنَّ الصلاة

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَبطُل كلها؛ لأنه إذا بطَلَـت الركعة الثانية لزِم بُطلان الرَّكْعة الأُولى؛ لأن الصلاة لا تَتبعَّض.

ومِثال الثاني: رجُل أعَدَّ مئة صاعٍ للصدَقة بها، فتَصدَّق بخَمسين صاعًا صدَقةً خالِصة، ثُم دخَله الرِّياء في الأصواع الباقية، فهُنا تَبطُل الأصواع الباقية، أمَّا الأُولى فتَصِحُّ؛ وذلك لأنَّ هذه العِبادةَ -أَعنِي: الصدَقة- تَتبعَّض ولا يَنبَني آخِرُها على أوَّلِها، حتَّى لو فُرِض أنه ممَّا عيَّنه الشَّرْع، كإطعام سِتِّين مِسكينًا مثلًا في الكَفَّارة، فأَطعَم ثلاثين مِسكينًا بإخلاص، ثُم بعد ذلك دخَله الرِّياء فإن ما سبَقَ الثلاثين الأخيرةَ يَكون مُجْزيًا؛ هذا إذا استَرسَل مع الرِّياء، وأمَّا إذا طرَأ عليه الرِّياء فدافَع، وما زال جاهِدًا في مُدافَعته فإنه لا يَضُرُّه شيئًا؛ لقول النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»[1]، وهذا لم يَعمَل ولم يَتكَلَّم، بل رُبَّما أنه لم يُحدِّث نَفْسه، لكن هاجَمَه الرِّياء.

فصار الآنَ مَن فعَل العِبادة لغير الله -يَعنِي: تَعبَّد لغيـر الله- فحُكْمه شِرْك أكبَرُ، ومَن فعَلَ العِبادة لله لكن دخَلها الرِّياء، إن كان قبل الشُّروع في العِبادة بطَلَت، وإن كان في أثنائها ففيه التَّفْصيل، إن كان آخِرها يَنبَني على أوَّلِها بمَعنى أنَّها لا تَتبعَّض بطَلَت، وإن كان آخِرُها لا يَنبَني على أوَّلِها بأن كانت تَتبعَّض بطَل الجُزء الَّذي وقَعَ فيه الرِّياء وما سبَقَ فهو صحيح، وهذا إذا استَرسَل مع الرِّياء واستَمَرَّ المُرائِي، فإن دافَعه فلا شيءَ عليه، ولا يَضُرُّه ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان، رقم (٦٦٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَسْألةٌ: رجُل دخَل في الصلاة مُخلِصًا، فحضَر إنسان فَرَاءَاهُ، ثُمَّ ذهَب الإنسان فعاد إلى الإخلاص؟

فالجوابُ: إذا بطَلَت العِبادة لا تَعود صَحيحة، فهذا تَبطُل عِبادته؛ لأن مُراقَبته لغير الله أشَدُّ من مُراقَبته لله عَزَّوَجَلَّ، لم يُراقِب الله إلَّا حين ذهَبَت مُراقَبة الناس، فهذا عِبادته باطِلة ولا شَكَّ، ولعَلَّه إن جاء آخَرُ يُحدِث رياء، وإذا ذهَب ذهَب الرِّياء، فإن جاء آخَرُ يَحدُث رِياء.

فإن قال قائِل: إذا دخَل المَرْء في الصلاة مُرائِيًا، ثُم دافَع الرِّياء، فهَلْ تَصِحُّ؟

فالجَوابُ: إذا بدَأ مُطمَـئِنًّا للرِّياء فلا تَنعَقِـد عِبادته، لكن هنا مَسأَلة لو أن الرجل حسَّن عِبادته لتعليم الناس، لم يَقصِد أن يَمدَحوه على عِبادته، أو يَتقَرَّب إليهم بالعِبادة، لكن من أَجْل أن يَتَّخِذ الناس منه أُسوة، فهذا لا يَدخُل في الرِّياء، هذا يَدخُل في التعليم، وهو مَأْجور على ذلك، لكن فَرْق بين هذا وبين شخص يُريد أن يَمدَحه الناس على صلاته.

فإن قال قائِل: هل من الرِّياء أن يُظهِر الإنسان بعضَ ما عِنده لأَجْل ألَّا يُذَمَّ؟

فالجَوابُ: دَفْع المَلامة فيه حَديث: «رَحِمَ الله امْرَأً كَفَّ الغِيبَةَ عَنْ نَفْسِهِ»[1]، وأيضًا الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا خـرَج بصَفيَّةَ ليَقلِبها ليلًا، فمَـرَّ به رجُلان من الأنصار فأَسرَعا، فقال النَّبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ»[2] دفعًا للمَلامة عن نفسه، هو مُخلِص لله، لكن يُريد مع ذلك أن يَدفَع المَلامة

---

(١) لا أصل له، وانظر: كشف الخفاء للعجلوني رقم (١٣٦٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، رقم (٢٠٣٨)، ومسلم: كتاب السلام، باب يستحب لمن رئي خاليا بامرأة ..، رقم (٢١٧٥)، من حديث صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

عن نَفْسه؛ لئَلَّا يُقال: إنه بَخيل. مثلًا، أو لئَلَّا يُقال: إنه لا يُصلِّي مع الجماعة. وما أَشبَهَ ذلك، وأصلُ النِّيَّة لله، لكن لدَفْع المَلامة لا ليُمدَح، فبينهما فَرْق بين مَن قَصْده المَدْح، أو مَن قَصْده دَفْع المَلامة.

فإن قال قائِل: التَّمنِّي هل يَدخُل في الرِّياء. يَعنِي مثلًا لو كان يَقرَأ القُرآن، وتَمنَّى في نَفْسه لو أن فُلانًا يَسمَع قِراءته؟

فالجوابُ: هذا رِياءٌ لا شَكَّ -يَعنِي: ليَقول: إنه قارِئ وإنه عابِد- لأنَّه هو الآنَ في قَلْبه أنه لو كان فُلان حاضِرًا لرآه، لكن يَجِب أن تَعلَم أن النِّيَّة لا تَصِل إلى درَجة العمَل لا في الثَّواب، ولا في العِقاب.

فإن قال قائِل: بالنِّسبة لرَجُل عمِل لوَجْه الله، لكن بعدَما أَنهَى العمَل مدَحه الناس؛ فأَحبَّ ولم يَقصِده من الأوَّل، وإنما سُرَّ بمَدْح الناس له؟

فالجوابُ: لا يَضُرُّ هذا، بل هذا من عاجِل بُشْرى المُؤمِن أن يَجِد الإنسان ثَوابَ عمَله مُقدَّمًا، والثواب الأُخرويَّ في الآخِرة.

مسألةٌ: هل يَجوز أن أَذهَب إلى رجُل عاصٍ لأَدعُوَه؟ وكيف إذا ضاق صَدْري؟

فالجَوابُ: اذهَبْ، ما دُمْت تُريد الذَّهاب للدَّعوة، فاذْهَبْ إليه، وإذا ضاق صَدْرك فاصبِرْ؛ فحتى مَن يَدعو الناس في المَسجِد وفي السُّوق، يَضيق صَدْره إذا رآهم على مُنكَر. اصبِرْ ما دُمْت تُريد أن تَدعوَه، أمَّا إذا ذهَبْت تُريد أن تُكرِمه فلا يَجوز.

تنبيه: مِمَّا لا شَكَّ فيه أنَّ الدعوة إلى الله برِفْق أَقرَبُ إلى النَّتائِج الطَّيِّبة بالعُنْف؛ لقول النَّبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «**إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**»

وكذلك قال: «إِنَّ اللهَ يُعْطِي بِالرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ»[1] يَعنِي: لو لم يَكُن إلَّا أن استَعْملنا ما هو أَوْلى، وما يُحِبُّه الله عَزَّوَجَلَّ لكَفَى.

ونحن نُشاهِد الآنَ أنَّ النَّتائِج الطَّيِّبة في الدَّعوة إلى الله برِفْق، وهناك وقائِعُ كثيرة؛ فالرِّفْق كلُّه خير، وهذا شيء مُجرَّب لكن أحيانًا الإنسان للغَيْرة التي عنده يَثور، ويَعجِز أن يَملِك نَفْسه، نحن نَقول: هدِّئْ؛ لأنك أنت مِثْل الطَّبيب الذي يُريد أن يَشُقَّ الجُرْح، فلا بُدَّ أن تَكون بهدوء، وعلى الوجه الذي يَحصُل به المَطلوب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: مُراغَمة الكُفَّار في الإخلاص لله وفي العَمَل؛ لقوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ويَنبَني على ذلك أنه يَجِب على الإنسان أن يَقوم بالواجِب ولو كرِهَ ذلك غيره، ولا يُحابِيَ أحَدًا في هذا، فمثَلًا إذا كرِهَ أبو الشابِّ أن يُصلِّيَ ابنه مع الجماعة -كما يُوجَد الآنَ- فلا يُداهِن أباه في ذلك، يُصلِّي مع الجماعة ولو رغم أَنْف أبيه، ولو كرِه ذلك.

ولو وصَل الشابُّ رحِمَه -كعمِّه وخاله، وما أَشبَه ذلك- وكان بينَه وبين أبيه عَداوة شَخْصية، فكان يَكرَه لابنه أن يَصِل أَقارِبَه الذين يَكرَهُهم أَبوه، فيُواصِلهم ولو كرِه، لكن في هذه الحالِ يُدارِي أباه، بمَعنَى أنه يَكتُم عنه أنه وصَلَهم؛ لتَحصُل المَصلَحة بدون مَفسَدة.

وهناك فَرْق بين المُداراة والمُداهَنة، المُداراة: أن يَفعَل الإنسان ما يَلزَمه مع التَّكتُّم عن الشخص الآخَر الذي يَكرَه؛ ولهذا سُمِّيت مُداراة من الدَّرْء وهو الدَّفْع.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم (٦٠٢٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، رقم (٢٥٩٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وأمَّا المُداهَنة: فأن يُوافِقه في تَرْك ما يَجِب مُداهَنة له، مَأخوذة من الدُّهْن؛ لأنه يَلين، فنَقول: يَتفَرَّع على هذه الفائِدةِ: أن الإنسان يَفعَل ما يَلزَمه، ولو كرِهَ ذلك غيره، ولو كان الكارِهُ أقرَبَ أهلِه إليه.

• • ۞ • •

الآية (١٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر:١٥].

ثُم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾؛ أي: الله عَظيم الصِّفات، أو رافِع درَجات المُؤمِنين في الجَنَّة]، قوله: ﴿رَفِيعُ﴾ من الرِّفْعة وهي العُلوُّ، فسَّرها المفَسِّر - رحمه الله وعفا عنه- بأَحَد مَعنَيَيْن:

المعنى الأَوَّل: أن المُراد بالرِّفْعة العظَمة، والمُراد بالدرَجات الصِّفات، أي: أنَّ الله تعالى عَظيم الصِّفات.

والمعنى الثاني: رَفيع الدرَجات؛ أي: رافِع درَجات غيره وهُمُ المُؤمِنون في الجَنَّة.

وكِلا المَعنَيَيْن تَحريف للكلِم عن مَواضِعه؛ لأنَّ ﴿رَفِيعُ﴾ اسم فاعِل أو صِفة مُشبَّهة، فاعِلها يَعود على الله عَزَّوَجَلَّ المَذكور في قوله: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ وعلى هذا فلا يَصِحُّ أن تُفسَّر بأن المُراد: رافِع درَجات المُؤمِنين؛ لأنه على هذا التَّفسيرِ تكون الدرَجاتُ درَجاتِ غيرِه، درَجات المُؤمِنين.

ولا يَصِحُّ أن تُفسَّر ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ بعظيم الصِّفات، لما بينَهما من الفَرْق العظيم، لكن المفَسِّر عفا الله عنه فسَّرها بهذا التَّفسير فِرارًا من إثبات العُلوِّ الذاتيِّ؛

لأنه مِمَّن لا يَرَوْن ذلك أنه عالٍ بذاته، فلهذا حرَّف القُرآن إلى أحَدِ هذين المَعنيَين، وكِلاهما باطِل.

والصـوابُ: أنه سُبحانَه رفيعُ الدرجـات، ويَدُلُّ لهـذا ويُعيِّنه قوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: صاحِب العَرْش، والعَرْش هو أعلى المَخلوقات، فكأنَّه قال: رَفيع الدرَجات فوق العَرْش، وهذا هو المُتعيِّن.

وقول المفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾: خالِقه] فيه أيضًا إشارة إلى إنكار الاستِواء؛ لأنَّ مَعنى ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: صاحِبه المُستَوِي عليه، هذا هو المَعنى؛ ولهذا لا يُقال: ذو الأرض، ولا ذو السَّماء، ولا ذو الجِبال، ولا ذو السَّحاب، مع أنه خالِقها، فتَفسيره ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ بخالِقه لا شَكَّ أنه تَحريف للكَلِم عن مَواضِعه فِرارًا من إثبات الاستِواء على العَرْش.

وتَفسير الآية المُتعيِّن أن نَقول: إنه رفيعُ الدرَجات؛ أي: هو نَفْسه عَزَّوَجَلَّ مُرتَفِع، بل رفيع الدرَجات أتَى بالصِّفة المُشبَّهة الدالة على الثبوت والدوام، والدرَجات من الدرَجات المعروفة؛ أي: ما كان بعضُه فوقَ بعض حتى يَصِل إلى الغاية، وأمَّا ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ فمَعناه صاحِب العَرْش المُختَصُّ بالاستِواء عليه، هذا هو المُتعيِّن من الآية.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ الوَحيَ ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾؛ أي: قوله ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾] إلى آخِره. ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ الرُّوح: الوَحيُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢] وسَمَّى الله تعالى الوَحيَ رُوحًا؛ لأن به حَياة القُلوب، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: قوله] وهذا جيِّد، هذا التَّفسير يَعنِي أن

الوحيَ من قول الله عَزَّوَجَلَّ، يَقول: فيَسمَع جِبريلُ، ثُم يَنزِل به إلى مَن شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾، ولم يُبيِّن مَن هؤلاءِ، ولكننا نَعلَم أنَّهم الأنبياء؛ لأنهم هم الذين يُلقَى إليهم الوَحيُ، سواءٌ كانوا رسُلًا أم غير رُسُل، ثُم إنَّ قوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ إطلاق المَشيئة في كل مَوضِع جاءَت في القُرآن مُقيَّد بالحِكْمة، كلَّما رأَيْت الله يَقول: يَشاء، فإنه مَشيئة مَقرونة بالحِكْمة؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]؛ ولقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]، وهؤلاء الذين يَشاء الله تعالى أن يُلقِيَ عليهم الرُّوحَ بيَّنَهم في قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ المُراد بالعِباد هنا: العُبودية الخاصَّة، وهمُ الذين آمَنوا بالله عَزَّوَجَلَّ، بل ما هو أخَصُّ وهم الرُّسُل.

قوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِيُنذِرَ﴾ يُخوِّف المُلقَى عليه الناس] واللام هنا للتَّعليل، والإنذار هو: الإعلام المَقرون بالتَّخويف، ولهذا قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ليُخوِّف] تَفسيرًا بلازِمه، وإلَّا فإن الإنذار إعلام مَقرون بتَخويف، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُلقَى عليه الناس] أَفادَنا المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن فاعِل (يُنذِر) هو المُلقَى عليه وهو الرسول، ولا شَكَّ أنه هو المُنذِر مُباشَرة، ويُحتَمَل أنَّ الفاعِل يَعود على فاعِل ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ وهو الله عَزَّوَجَلَّ، أي: ليُنذِر الله، والحِكْمة من عدَم ذِكْر الفاعِل -والله أَعلَمُ- ليَصلُح الفِعْل للأَمْرين؛ أي: ليَكون صالِحًا لأن يَعود الإنذار إلى الله،

وأن يَعود إلى الرسول، فإن عاد إلى الله فلِأنَّه الأصل، وإن عاد إلى الرسول فلِأنه المُبلِّغ المُباشِر للإنذار.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الناس] هذا تَقدير للمَفعول الأوَّل الذي هو مَفعول (يُنذِر)؛ لأنَّ (يُنذِر) تَنصِب مَفعولين ليس أَصلُهما المُبتدَأ والخبَر، المَفعول الأوَّل يَكون مَحذوفًا، أو المَفعول الثاني يَكون مَحذوفًا، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾ [غافر:١٨] هذا مَوْجود فيه المَفعولان جميعًا، ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ﴾ [إبراهيم:٤٤] كذلك المَفعولان جميعًا، وقد يُحذَف أحدُهما إمَّا الأوَّل وإمَّا الثاني؛ لدَلالة السِّياق عليه.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ بحَذْف الياء وإثباتها] أي: أنَّ فيها قِراءَتَيْن «التَّلاقِي» بالياء، و﴿ٱلتَّلَاقِ﴾ بحَذْف الياء، أمَّا إثبات الياء فلِأنَّه الأصل، وأمَّا حَذْف الياء فلِلتَّخفيف، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩] أصلُها المُتَعالِي، لكن حُذِفت الياء للتَّخفيف، فهنا التَّلاقِ أَصلُها التَّلاقِي وحُذِفت الياء للتَّخفيف، ويوم التَّلاقِ هو يوم القِيامة، وعَلَّل المفَسِّر ذلك بقوله: [لتَلاقِي أهل السماء والأرض، والعابِد والمَعبود، والظالِم والمَظلوم فيه] أي: في ذلك اليومِ، ولو قلنا بمَعنى أعَمَّ: لتَلاقِي الخَلائِق في ذلك اليومِ؛ لأن كل شيء يُلاقيه الآخر حتى الوحوش ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٥] فسُمِّي يوم التَّلاقِي؛ لتَلاقِي الخَلْق فيه، يَحشُر الله عَزَّوَجَلَّ الخلائِق كلَّها في ذلك اليومِ فيَتَلاقَوْن.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات عُلوِّ الله عَزَّوَجَلَّ خِلافًا للمُفسِّر؛ لقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ ونَقصِد بالعُلوِّ عُلوَّ الذات، أمَّا عُلوُّ الصِّفة فقَدْ أَقرَّ به المفَسِّر بقوله: [أي: عظيم الصِّفات] ففي هذه الآيةِ إثباتُ عُلوِّ الذات ذاتِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾.

وهذا مرَّ علَيْنا كثيرًا، وبيَّنَّا أنَّ الأدِلَّة الخَمْسة كلُّها تَدُلُّ على عُلوِّ الله: الكِتاب، والسُّنَّة، وإجماع السلَف، والعَقْل، والفِطرة.

فإن قال قائِل: هل هناك حُجَج أُخرى غير السَّمْعية والنظَرية؟

فالجوابُ: مُمكِن أن يُوجَد على سبيل التَّحدِّي، بأن يَتحدَّى الإنسان هَؤلاء بشيء يُغضِب آلِهَتهم يَفعَله ولا يَحدُث شيء، هذا يُمكِن أن يَكون من باب التَّحدِّي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضْل العَرْش؛ لقوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ فإنَّ اختِصاص العَرْش بالله عَزَّوَجَلَّ لا شَكَّ أنه فَضْل عظيم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات العَرْش؛ لقوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات عظَمة الله؛ لأنَّ العَرْش يَختَصُّ بالمَلِك والسُّلْطان، فلا يُقال للرجُل الجالِس على الكُرسِيِّ أنَّه على عَرْش، لكن يُقال للمَلِك أو السُّلْطان الجالِس على الكُرسيِّ الفَخْم العظيم، يُقال له: صاحِب عَرْش.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات مِنَّة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على مَن يَشاء بالوَحيِ؛ لقوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الوَحيَ رُوح تَحيا به القُلوب؛ لقوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات القول؛ لقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَقول ويَتكلَّم متى شاء بما شاء كيف شاء، لا نَحجُر على رَبِّنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الكلام، لا وَقتًا ولا كَيفيَّةً، بل له أَنْ يَتكَلَّم بما شاء متى شاء كيف شاء.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات المَشيئة؛ لقوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ مَرتَبة النُّبوَّة لا تُنال بالكَسْب والفُتوَّة كما قال السَّفَّارينيُّ في العَقيدة[1]، وإنما هي فَضْل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على مَن يَشاء من عِباده.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ العُلماء لهم حَظٌّ ونَصيب من الرُّوح التي يُلقيها الله تعالى على الرُّسُل؛ لأنهم ورَثة الأنبياء، فلهُمْ حظٌّ ونَصيب من هذه الرُّوحِ التي يُلقيها الله على مَن يَشاء، لكن لهم حَظٌّ من هذه الهِداية -هِداية الدَّلالة والبَيان- ثُم قد يَكون لهم حظٌّ من هِداية التوفيق وقد لا يَكون؛ لأنَّ العالِم قد يَعمَل بعِلْمه فيَكون له حظٌّ من الهِدايَتَيْن: هِداية الإرشاد، وهِداية التَّوْفيق، وقد لا يَعمَل بعِلْمه فيَكون له حَظٌّ من هِداية العِلْم والإرشاد، لكنها صارَت وَبالًا عليه؛ حيث خالَفَ مع العِلْم بالحَقِّ، وهذا أَشَدُّ مِمَّن خالَف بدون عِلْم بالحَقِّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الوَحيَ الذي يُنزِله الله عَزَّوَجَلَّ على مَن يُنزِله من عِباده الحِكْمة منه إنذارُ الناس يوم القِيامة ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات الحِكْمة لله، وأن أَفعاله مَقرونة بالحِكْمة؛ لقوله: ﴿لِيُنذِرَ﴾، وما أَكثَرَ لام التعليل و(مِن) التَّعليلية في القُرآن، وكذلك في السُّنَّة، وكلُّها تَدُلُّ على إثبات الحِكْمة لله.

وقد ذكَرَ بعض العُلَماء أن الحِكْمة دلَّ عليها أَلْفُ دَليل من الكِتاب والسُّنَّة، فلا تُحصَى الأدِلَّة المُثبِتة لحِكْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما يَفعَل، خِلافًا لمَن قال: إنه يَفعَل لمُجرَّد المَشيئة لا لحِكْمة، فإن هذا إبطال لصِفة من أَعظَم صِفات الله؛ لأن هذا يَستَلزِم أن يَكون فِعْله عبَثًا لغير غاية مَحمودة.

---

(١) العقيدة السفارينية (ص:٨٣).

فإن قال قائِل: الذين لا يُثبِتون الحِكْمة لله عَزَّوَجَلَّ؛ هل نَقولُ: هذا إنكار جُحود، أو إنكار تَأوِيل؟

فالجَوابُ: إنكار تَأويل؛ لأنهم يَقولون: إنه لو فعَل لِحِكْمة لفعَل لغَرَض، ولا يَفعَل للغَرَض إلَّا مَن كان مُحتاجًا للغرَض، فهذه شُبْهة، فيُقال: هل هذه الحِكْمةُ لأمر يَعود لنَفْسه، أو يَعود لعِباده؟ ثُم إذا كان عائِدًا لنَفْسه، فهو أهل للثَّناء، إذا كانت الحِكْمة صِفة كَمال في نفسه، فهو أهل للثَّناء عَزَّوَجَلَّ، وأيُّهما أكمَلُ؟ مَن يَفعَل لا لِحِكْمة أو مَن يَفعَل لِحِكْمة؟ لا شَكَّ أن الثانِيَ أكمَلُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّه يَنبَغي لمَن آتاه الله عِلْمًا أن يَكون مُنذِرًا، يَعنِي: يَجمَع بين العِلْم والتَّفقيه في الدِّين وبين الإنذار؛ لأنه إنِ اقتَصَر على مُجرَّد التعليم الفِقْهيِّ مثَلًا، أو التوحيد بدون أن يُحرِّك القلوب لم يَستَفِد الناس منه كثيرًا، فلا بُدَّ أن يَكون هناك إنذار من أَجْل تَحريك القُلوب، وكان النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا خطَب احْمَرَّت عَيْناه، وعلا صوتُه، واشتَدَّ غضَبه، حتى كأنَّه مُنذِرُ جَيْش يَقول: صبَّحَكُمْ ومسَّاكُمْ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: التحذير من خِزْيِ يوم القِيامة؛ لأنه يومُ التَّلاقِ، ولا شَكَّ أن العُقوبة إذا كانت لا يَطَّلِع عليها إلَّا القليل أَهوَنُ ممَّا إذا اطَّلَع عليها الكثير، فكيف إذا اطَّلَع عليها الخَلْق كلُّهم؟! تَكون أشَدَّ وأَعظَمَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ قُدْرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ حيث يَجمَع الله الخَلْق كلَّهم على صَعيد واحِد بعد الموت، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كل شيء قَديرٌ.

• ● ۞ ● •

الآية (١٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْۚ شَيْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦].

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْۚ شَيْءٌۚ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ هذه بدَل من يَوْم الأُولى: ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ يومَ هُم بارِزون، وقوله: ﴿هُم بَٰرِزُونَ﴾ مُبتَدأ وخَبَر، والجُمْلة في مَحَلِّ جَرٍّ بالإضافة، إضافة ﴿يَوْمَ﴾ إليها.

و﴿بَٰرِزُونَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خارِجون من قُبورهم]، ولكن المَعنى أخصُّ مِمَّا قال، بل المَعنى ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أي: ظاهِرون، ليس لهم ظِلٌّ يُظِلُّهم، لا من شجَر، ولا حجَر، ولا بيت، ولا غيره؛ لأن البارِز هو الظاهِر الذي لا يَحجُب دونَه شيء، وهم بارِزون في ذلك اليومِ، وتَدنو الشمس مِنهم مِقدار مِيل، ويَعرَق الناسُ في ذلك اليومِ على قَدْر أعمالهم: مِنهم مَن يَصِل العَرَق إلى كَعْبيه، ومِنهم مَن يَصِل إلى رُكْبتيه، ومِنهم مَن يَصِل إلى حِقْوَيْه، ومنهم مَن يُلجِمه العرَقُ إلْجامًا، على حَسب أعمالهم.

وقوله: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: لا يَستَتِر على الله منهم شيء، ولا يُغيب عن عِلْمه منهم شيءٌ، بل هو مُحيط بهم إحاطة تامَّة، كما أنه لا يَخفَى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من قبلِ ذلك أيضًا؛ لأن الله تعالى مُحيط بكلِّ شيء عِلْمًا، لكن قال هنا: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ لأَجْل تَمام التَّخويف.

قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ﴾ هـذه مَقول قَـوْلٍ مَحذوف، التَّقدير: يُقال: لِمَنِ المُلْكُ اليومَ. والقائِل هو الله عَزَّوَجَلَّ، فإنه تعالى يَقبِض السمواتِ بيَمينه وبيَـدِه الأُخرى الأرض، ويَهُزُّهُنَّ ويَقول: أنا الملِك، أين مُلوك الدُّنْيا؟! ويَقول أيضًا: لِمَنِ المُلْك اليومَ؟ فيُجيب نَفْسَه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَقوله الله تعالى ويُجيـب نَفْسه ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾؛ أي: لِخَلْقه] فقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ خبَرُ مُبتَدَأ مَحـذوف، التَّقدير: المُلْك لله الواحِد القهَّار، والواحِد يَعنِي: الذي لا ثانِيَ له، لا في ذاته، ولا في أفعاله، ولا في أَحكامِه، ولا في صِفاتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ صِيغة مُبالَغة من القَهْر، وهو الغَلَبة، فهو قهَّارٌ لكُلِّ شيء، والمفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [أي: لِخَلْقه].

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن الناس يَبرُزون يومَ القِيامة لا يُظِلُّهم شجَر، ولا مدَر، ولا بِناء، ولا جبَل، ولا غير ذلك؛ لقوله: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنهم في ذلك اليومِ لا يَخفَى على الله منهم شيء؛ لأنه مُحيط بِهم عِلْمًا وقُدرة وسُلطانًا.

فإن قال قائِل: هل يُستَثنى من قوله: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أحَدٌ؟

فالجَوابُ: نعَمْ، يُستَثنى مَن يُظِلُّهم الله في ظِلِّه يوم لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه، وهُمْ سبعة، بل هُمْ أكثَرُ، بلَغوا إلى واحِد وعِشرين رجُلًا، لكنَّ النَّبيَّ ﷺ جمَع سبعة في حديث واحِد، وهو حديث مَشهور مَعروف: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ:

إِمَامٌ عَادِلٌ...»[1] إلى آخِره.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن المُلْك بل جميع الأَمْلاك تَتَلاشى في ذلك اليَوْم، فلا فرقَ فيه بين مالِك ومَملوك، وسيِّد ومَسود، وحُرٍّ وعبد، وذكَر وأنثى، ليس لأَحَد في ذلك اليومِ مُلْك؛ ولهذا قال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فيقول: ﴿لِلَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن من أسماء الله الواحِد، والواحِد هو المُتفرِّد الذي لا ثانِيَ له، قال الله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل:٥١].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن من أسماء الله القَهَّار؛ لقوله: ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات صِفَتَين من صِفات الله، دلَّ عليهما قوله: ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ الصِّفة في الواحِد أنه واحدٌ، وفي القَهَّار القَهْر، ويَتَرتَّب على ذلك من الناحية المَسلَكية أن الإنسان إذا اعتَقَد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واحِد لم يَلتَفِت إلى أحَدٍ سِواه، وإذا اعتَقَد أن الله قهَّار خافَ من قَهْره، واستَعان بقَهْره على عَدُوِّه؛ فيَستَفيد من هذه العَقيدةِ أن يَخاف من قَهْر الله، وأن يَستَعين بقَهْر الله على عَدُوِّ الله وعَدوِّه.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم (٦٢٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (١٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر:١٧].

ثُمَّ قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظَرْف مُتعلِّق بـ﴿تُجْزَىٰ﴾، والظَّرْف والجارُّ والمجرور لا بُدَّ لهما من مُتعلَّق؛ لأنهما لا يَقَعان إلَّا مَعمُولَين أو مَعمولًا فيهما؛ لذلك لا بُدَّ لهما من عامِل يَتعلَّقان به.

قال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ﴿تُجْزَىٰ﴾ أي: تُكافَأ؛ لأن الجَزاء بمَعنَى المُكافَأة، جازَيْته على عمَله؛ أي: كافَأْته عليه، فمَعنى ﴿تُجْزَىٰ﴾ أي: تُكافَأ، ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خَيْر وشَرٍّ، ولكِنَّ هذا الجزاءَ في الآخِرة يَختَلِف عن جزاءات الدنيا التي يُجازَى بها الناس بعضُهم من بعض.

وقوله: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ﴿لَا ظُلْمَ﴾ (لا) نافِية للجِنْس، و﴿ظُلْمَ﴾ اسمُها، قال أهل النَّحْو: والنَّفيُ للجِنْس يَنفِي هذا الجِنْسَ مُطلَقًا. أي: قليلَهُ وكثيرَهُ، واحِدَهُ ومُتعَدِّدَهُ، ولهم (لا) أُخرى يُسمُّونها نافِيةَ الوحدة، ونافِية الوحدة لا تَعمَل عمَل (إنَّ)، بل تَعمَل عمَل (ليسَ)، تَقول: لا رجُلٌ في الدار؛ أي: ليس في الدار رجُل واحِد، بل ثلاثة رِجال مثَلًا، أمَّا إذا أَرَدْت الجِنْس فقُلْ: لا رجُلَ في الدار؛ أي: لا واحِد ولا مُتعَدِّد.

وهي -أي: «لا» النافية للجِنْس- نَصٌّ في العموم؛ أي: أنها دالَّة على العُموم بالنَّصِّ، فيَكون ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: لا ظُلمَ واقِعٌ من الله، ولا ظُلمَ واقِع من الخَلْق بعضِهم لبعض، بل كلُّ واحِد من الخَلْق يَفِرُّ من الآخَر، لا ظُلمَ اليومَ.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: سَريع مُحاسَبة الخَلائِق على أعمالهم، وبيَّن المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه السُّرعةَ فقال: [يُحاسِب جميع الخَلْق في قَدْر نِصْف نَهار من أيام الدُّنيا؛ لحَديث ورَد في ذلِكَ] يُحاسِب جميع الخَلائِق كلهم في مِقدار نِصْف يوم، لكن من أيام الدُّنيا. هذا يَحتاج إلى تَحقيق؛ لأن يوم القِيامة يوم مِقْداره خَمْسون ألفَ سَنَةٍ، يَفرَغ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من حِساب الخلائِق في نِصْف ذلك اليَوْمِ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤]، ومَعلوم أن القَيْلولة تكون في نِصْف النهار، وهذا يَدُلُّ على أنه لا يَنتَصِف النَّهار إلَّا وقد فرَغَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من حِساب الخَلائِق، وصار كلُّ واحِد إلى ما آلَ إليه، لكن هل هو كيَوْم الدُّنيا، أو هو يوم القِيامة الذي مِقْداره خَمْسون ألفَ سَنَةٍ؟

فإن قال قائِل: ما هو الدليل على أن الله يُحاسِب الناس في نِصْف يَوْم؟

فالجَوابُ: أوَّله أَحاديثُ ورَدَت في هذا، والثاني قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤] قال: ﴿يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ والمَقيل لا يَكون إلَّا في نِصْف النَّهار بأَطرافه.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات الجَزاء؛ لقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن كَمال الجَزاء يَكون ذلك اليومَ، وذلك أن الجَزاء قد يَكون

في الدُّنيا قد يُجازِي الله الإنسانَ في الدنيا؛ فيُعطيه بالحَسَنة حَسَناتٍ، ويُؤاخِذ الظالِمَ بظُلْمه، وهذا واقِع كثيرًا، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى:٣٠]، وهذا يَدُلُّ على أن الإنسان قد يُجازَى في الدُّنيا على عمَله، لكن الجَزاء الأكمَل الأَوْفى يَكون يوم القِيامة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن النَّفْس لا تُجازَى إلَّا بما كسَبت، ويَكون الكَسْب إمَّا بالقَوْل، وإمَّا بالعَمَل، أمَّا مُجرَّد النِّيَّة فليسَتْ كسبًا، أو مُجرَّد حديث النَّفْس فليس بكَسْب، فالكَسْب قول أو عمَل؛ لأن الإنسان لم يَركَن إليه، ودليل ذلك قول النبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «إِنَّ الله تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»(١).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: على قول بعض العُلماء: أن إهداء القُرَب لا يَصِحُّ، يَعنِي: لو عمِلْت عمَلًا صالِحًا وأَهدَيْته إلي غيرك فإنه لا يَصِحُّ؛ لأن الغير الذي أَهدَيْته له لم يَكسِبه، إلَّا ما دلَّت السُّنَّة عليه، فهو مُستَثنًى، وإلى هذا ذهَب كثير من العُلَماء أنه لا يُهدَى من القُرَب إلَّا ما جاءَت به السُّنَّة، وذهَب آخَرون إلى جَواز إهداء جَميع القُرَب، وقالوا: إن ما ورَدَت به السُّنَّة قضايا أعيان، إذا ثبَتَ الحُكْم فيها ثبَتَ في نَظيرها؛ لأن الشريعة لا تُفرِّق بين مُتماثِلَيْن، وقد ورَدَت السُّنَّة بإجزاء العِبادات المالِية والبدَنية والمُركَّبة من مال وبدَن.

أمَّا العِبادات المالية: ففي قِصَّة الرجُل الذي قال: يا رَسولَ الله، إن أُمِّي افتُلِتَتْ نَفْسُها، وإنَّها لو تَكلَّمَتْ لتَصَدَّقَتْ. افتُلِتَت يَعنِي: أُخِذت بَغْتة، وإنها لو تَكلَّمت

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره، رقم (٥٢٦٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لتَصدَّقت، أفأَتَصدَّق عنها؟ قال: «نَعَمْ»[١].

وكذلك سَعدُ بنُ عُبادةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان له مِخرافٌ؛ أي: بُستان يُخرَف، فتَصدَّق به على أُمِّه بإِذْن الرسول -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-[٢]، هذه العِبادة المالِية.

أمَّا العِبادة البدَنية: فقول النبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»[٣]، وهذه عِبادة بدَنية مَحْضة.

وأمَّا المُركَّبة منهما: فالحَجُّ، وقد قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للمَرْأة التي سأَلَتْه عن أُمِّها أنها ماتَت ولم تَحُجَّ، قال: «حُجِّي عَنْهَا»[٤]، وهذا مَذهَب الإمامِ أحمدَ[٥]. أَعنِي: جوازَ إهداء القُرَب إلى الغير بشَرْط أن يَكون المُهدَى إليه مُسلِمًا، أمَّا إن كان كافِرًا فإنه لو أُهدِيَ إليه لا تُقبَل؛ لأن الكافِر لا يُقبَل له عمَل، لا من نَفْسه، ولا من غيرِه، وهذا القَوْلُ أَقرَبُ إلى الصواب من القول بالمَنْع.

ولكن مع ذلك لا نُحبِّذ أن الإنسان يُهدِي إلى أمواته شيئًا؛ لأن هذا لم يَكُن من عادة السلَف، ولا سِيَّما الإكثار منه، كما يَفعَله بعض الناس اليوم، تَجِد بعض الناس في رَمضانَ يَختِم القُرآن عِدَّة مرَّات، وكل خَتْمة يَجعَلها لواحِد من أَقارِبه، هذه لأُمِّه،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب موت الفجأة البغتة، رقم (١٣٨٨)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه، رقم (١٠٠٤)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب إذا قال: أرضي أو بستاني صدقة لله، رقم (٢٧٥٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من مات وعليه صوم، رقم (١٩٥٢)، ومسلم: كتاب الصيام، باب قضاء الصيام عن الميت، رقم (١١٤٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب الحج والنذور عن الميت، رقم (١٨٥٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) انظر: المغني (٢/ ٤٢٣)، والشرح الكبير (٢/ ٤٢٥)، وكشاف القناع (٢/ ١٤٧).

وهذه لأبيه، وهذه لأَخيه، وهذه لعَمِّه، وما أَشبَهَ ذلك، هذا في الحَقيقة خِلاف عادة السَّلَف.

ونَقول: إن أَرَدْت أن تَنفَع مَيتَك نَفعًا مُحَقَّقًا فاعمَلْ بما أَرشَد إليه النَّبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- حيثُ قال: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[1] هذا هو الذي نُحبِّذه، ونَقول: أَكثِرْ من الدُّعاء لأمواتك، أمَّا إهداء القُرَب فاجعَلْها لنَفْسك؛ لأن هذا هو السُّنَّة، وأنت أيُّها الحيُّ سوف تَحتاج إلى هذه الأعمالِ الصالِحة، كما أن الأموات أيضًا يَحتاجون إلى زِيادة الأعمال الصالِحة، كما جاء في الحديث: «مَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ إِلَّا نَدِمَ، إِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَدِمَ أَلَّا يَكُونَ ازْدَادَ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا نَدِمَ أَلَّا يَكُونَ اسْتَعْتَبَ»[2].

إِذَن نَقول: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ استَدَلَّ بها بعض العُلَماء على أن مَن أُهدِيَ إليه شيء من القُرَب فإنه لا يَنتَفِع به؛ لأنه ليس من كَسْبه، إلَّا ما جاءَت به السُّنَّة، ولكن الصحيح أنه يَنتَفِع به.

فإذا قلت: إن هذا هو الصَّحيح فالجَواب عن الآية أنها تَدُلُّ على أن النَّفْس تُجزَى بما كسَبَت، لكن لا تَدُلُّ على إنها لا تَنتَفِع بعمَل غيرها، الشيء المَضمون تَمامًا هو ما كَسَبت، وأمَّا ما أَهداه الغَيْر لها فهذا شيء آخَرُ، وله أدِلَّة أُخرى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: انتِفاء الظُّلْم في ذلك اليوم؛ لقوله: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾، ولكن الإنسان يُجازَى بحَسَب عمَله، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٤٠٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه:١١٢]، قال المفسِّرون: ظُلْمًا في زِيادة سَيِّئاته، وهَضْمًا في نَقْص حسَناته.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات المُحاسَبة: أن الله يُحاسِب الخَلائِق، وهذا كما أنه مَدلول النُّصوص فهو مُقتَضى الحِكْمة؛ إذ ليس من الحِكْمة أن يُؤمَر الناس ويُنهَوْا ثُم يَذهَب هذا الأَمْر والنَّهيُ هدَرًا لا يُحاسَب عليه العَبْد، هذا في الحَقيقة لو ثبَت لكان عبَثًا، والله تعالى مُنزَّهٌ عنه، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، فلا بُدَّ من مُجازاة، لا بُدَّ من مُحاسَبة حتى يَتبيَّن ما للإنسان وما عليه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَمام قُدْرة الله جَلَّ وَعَلَا وقوَّتِه، مَأخوذة من قوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾؛ لأن السرعة تَدُلُّ على القُدْرة والقُوَّة، كيف يُحاسِب هذه الخَلائِقَ التي لا يُحصيها إلَّا هو عَزَّوَجَلَّ في نِصْف يوم؟! هذا دَليل على كَمال القُدْرة وكَمال القُوَّة.

فإن قال قائِل: كيف يَكون الحِساب؟

فالجَوابُ: الحِسابُ يَختَلِف باختِلاف المُحاسَب:

أمَّا المُؤمِن: فإن الله تعالى يَضَع عليه كنَفَه؛ أي: سِتْره، ويَخلو به ويُقرِّره بذُنوبه، ويَقول: فعَلْت كذا وكذا في يوم كذا. حتى يُقِرَّ، فإذا أَقَرَّ واعتَرَف، قال الله تعالى: ستَرْتُها عليك في الدنيا، وأنا أَغفِرُها لك اليومَ. فيَذهَب طَليقًا.

أمَّا الكُفَّار: فإنهم لا يُحاسَبون حِساب مَن تُوزَن حَسَناتُه وسَيِّئاته؛ لأنهم ليس لهم حَسَنات، ولكن تُحصَى أعمالهم فيُوقَفون عليها، ويُقرَّرون بها، ويُخزَوْن بها، ويُوبَّخون عليها ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ

إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك:٨-٩]، فيُوبَّخون زِيادة في حَسْرتهم -والعِياذُ بالله- وبَيان أنهم لم يُظلَموا، فالحِساب إِذَنْ يَختَلِف.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: يُستَفاد من هذه الآيةِ من الناحِية المَسلَكية: تَحذير الإنسان من المُخالَفة، وحَثُّه على المُوافَقة ويُؤخَذ ذلك من قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر:١٧]، فهذا يُوجِب للإنسان إذا آمَن به أن يَحرِص على مُوافَقة الأَمْر وعلى طاعة الله؛ لأنه يَكسِب.

وأَنا أَسأَلكم كما أَسأَل نَفْسي: هل نحن إذا صلَّيْنا يَكون في نُفوسنا شُعور بأننا سنَأخُذ أجرًا على هذه الصلاةِ، أو الشُّعور السائِد أننا أدَّيْنا ما يَجِب علينا فقَطْ؟ الجوابُ: الثاني، ولهذا لو كان عِندنا الشُّعور الأوَّل؛ إننا سنُجازَى على هذه الصلاةِ وبقَدْر ما أَتْقَنَّا فيها لكنا نُتقِنها جيِّدًا؛ لأننا نَعلَم أن الجَزاء من جِنْس العمَل؛ ابذُلْ دراهِمَ كثيرةً يَأتِك سِلعة طيِّبة، لكِن ابذُلْ قَليلةً يَأتِك سِلعة رَديئة.

لهذا يَنبَغي لنا -ونَسأَل الله أن يُعينَنا ويُعيذَنا من الغَفْلة- أن نَشعُر حين نَعمَل العمَل الصالِح أننا سوف نُجازَى عليه، حتى يَكون ذلك أَشحَذَ لِهمَمِنا في إتقان العمَل؛ لأن الإنسان إذا علِمَ أن عمَله هذا هو جَزاؤُه فسوف يُتقِن العمَل، سوف يَأتِي به على حَسب ما يَرضَي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

• • ۞ • •

الآية (١٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر:١٨].

قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يومَ القِيامة مِن أَزِف الرَّحيل: قَرُب].

﴿ وَأَنذِرْهُمْ ﴾ الضَّمير الفاعِل يَعود على الرسول والمَفعول به الناس، يَعنِي: أَنذِر الناس هذا اليومَ، وهذا العامِلُ استَوْفَى مَفعولَيْن الهاء وهي المَفعول الأوَّل، و﴿يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾ المَفْعول الثاني.

وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾؛ أي: اليوم الآزِف، فهو من باب إضافة المَوْصوف إلى صِفته؛ أي: أَنذِرْهم اليومَ القَريب، وإن شِئْت فقُل: ﴿ٱلْآزِفَةِ ﴾ صِفة لمَوْصوف مَحذوف، والتَّقدير: يوم القِيامة الآزِفة، والآزِفة بمَعنَى: القَريبة، قال الله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم:٥٧-٥٨]، وقال الشاعِر:

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غَيْرَ أَنَّ رِكَابَنَا ... لَمَّا تَزَلْ بِرِحَالِنَا وَكَأَنْ قَدِ[1]

أي: وكأَنْ قد زالَت.

---

(١) البيت للنابغة الذبياني، انظر: ديوانه (ص:٨٩).

فالحاصِلُ: أن الأزف بمعنى القُرْب، فالآزِفة القريبة، وهو يوم القِيامة، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣]، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى:١٧].

فهي قَريبة مَهما طال الوَقْت، لو تَبقَى الدنيا مَلايين الملايين من السِّنين فهي قَريبة، وإذا شِئْت أن يَتبيَّن لك ذلك فانظُرْ ما تَستَقْبِله الآنَ، إذا أَرَدْت أن تَعرِف ذلك فانظُرْ إلى المُستَقبَل، المُستَقبَل تَنظُر إليه نظَر البَعيد فإذا به يَأتِي وبسُرعة، كأنه بَرْق خاطِف، هكذا مُستَقبَل الدنيا كلها قريب، فإن أَدرَكْته أَدرَكْته، وإن لم تُدرِكه قامَت قِيامتُك قبلَها، فقِيامتك قَريبة، وإن بَقِيت إلى القِيامة الكبرى فهي أيضًا قَريبة، إِذَنْ كلُّ آتٍ قريب، وكل ماضٍ بَعيد، الماضِي ولو كان قبلَ وَقْتك بساعة بَعيد؛ لأنه لا يُمكِن أن يَرجِع، والمُستَقبَل قريب.

إِذَنْ: سُمِّيَت القِيامة آزِفة لقُربها، ووجهُ قُرْبها -وإن كان بيننا وبينها ما لا يَعلَمه إلَّا الله من السِّنين- أن المُستَقبَل مهما بعُدَ قريب.

فإن قال قائِل: ما القَوْل في اليوم الذي كأَلْف سَنَة؟

فالجوابُ: قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧]، وقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٥]، لكن يوم القِيامة لم يَرِد فيه إلَّا خَمْسون ألفَ سَنَة ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤]، وفي الحَديث الصحيح في قِصَّة مانِع الزكاة[1]: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤]، وعلى هذا فاليَوْمُ الذي عند رَبِّنا كأَلْف سَنَة لا نَدرِي ما هذا اليومُ، فهو يَوْم مَجهول لنا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم (٩٨٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أمَّا ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة:٥]، فهذا لأنَّ ما بين السَّماء والأرض خمسُ مِئة سَنَة، فإذا كان ما بينهما خمسُ مِئة سَنَة؛ فإن صُعود الأمر إلى الله ثُم رُجوعه، يَكون أَلْفَ سَنَة؛ فالأيام ثلاثة: يومٌ مِقدارُه خَمْسون أَلْفَ سَنَة وهذا يومُ القِيامة، ويومٌ عند الله لا نَعلَم ما هو، مِقداره أَلْف سَنَة، ويوم مِقدارُه أَلْف سَنَة في تدبير الأمر من السماء إلى الأرض، ثُم عُروجه إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

مسألةٌ: ورَد عن النَّبيِّ ﷺ أن الله يُحاسِب الخَلائِق في ساعة واحِدة[1]، فهل الساعة تَدخُل في نِصْف يوم؟

فالجَوابُ: الساعة تُطلَق على الزمَن القليل والكثير، إلَّا إذا فُصِّلت، مثل: «من جاء في الساعة الأُولى في يوم الجُمُعة.. ومَن جاء في الثانية.. ومَن جاء في الثالثة..».

وقوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨].

وقوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ﴾ (إِذْ): بدَل من ﴿يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ يَعني: أَنذِرْهم يوم الآزِفة، أَنذِرْهم إذِ القُلوب لدى الحَناجِر.

و(إِذْ): ظرف لما مَضَى من الزَّمان، وتَأتِي ظَرْفًا وتَأتِي تَعليلًا على حَسب ما جاءَت مَعانيها في اللُّغة العرَبية.

وقوله: ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ (أل): هنا للاستِغْراق؛ أي: كل القُلوب، وقوله: ﴿لَدَى﴾ يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بمَعنَى: عِندَ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٣)، من حديث لقيط بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ﴾ ترتفع خوفًا ﴿لَدَى﴾ عِندَ ﴿ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾]، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:١٠]، وهذا شيء مَعلوم مَحسوس؛ أن الإنسان كلَّما اشتَدَّ به الخَوْف ارتَفَع قلبُه وانكَمَش وازداد خَفَقانًا، فيَوْم القِيامة تَرتَفِع القلوب حتى تَصِل إلى الحَناجِر، والحَنجرة ما بين التَّرْقوتَيْن.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَٰظِمِينَ﴾ مُمتَلِئين غمًّا، حال من ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ عُومِلت بالجمع بالياء والنون مُعامَلة أصحابها]، لم يَقُل: إذِ القُلوب لدى الحَناجِر كاظِمة، لأنه لو جرَى الوَصْف للقُلوب؛ لقال: إذِ القُلوب لدَى الحَناجِر كاظِمة، وقال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات:٨] ولا يُجمَع جَمْعَ المُذكَّر السالِمَ بالواو والنُّون إلَّا للعاقِل.

وقوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ القُلوب جَماد، هي نَفْسها جَماد، والجَماد لا يُجمَع بالواو والنون؛ لأنه لا يُجمَع بالواو والنون إلَّا العاقِل، عَلَمًا كان أو وَصْفًا، وقد مَرَّ عليكم في شُروط جمع المُذكَّر السالِم أن يَكون عَلَمًا أو وَصْفًا لعاقِل، فهنا القُلوب ليست عاقِلة، القُلوب جُزء من البدَن ليست عاقِلة، فكيف تَوجيه الحال التي جاءَت منها بجَمْع على صيغة جَمْع المُذكَّر السالِم؟!

يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لأن المُراد بها أصحاب القُلوب، القُلوب لدى الحَناجِر والكاظِم صاحِبها، وهذا حقٌّ أن ﴿كَٰظِمِينَ﴾ حال من القُلوب باعتِبار أصحابها، والكاظِمُ يَقول: المُمتَلِئ غمًّا، ويَمتَلِئون غمًّا لشِدَّة الأَهْوال، والمَخافة قُلوب مُرتَفِعة أَنفُس مُمتَلِئة غمًّا.

قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨] الظالِمون همُ الكافِرون

هنا؛ لقول الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤] وليس المُرادُ مُطلَقَ الظُّلْم، بلِ المُراد الظُّلْم المُطلَق، وهو ظُلْم الكُفْر، فالظالِمون في ذلك اليومِ ليس لهم حَميم، والحَميم هو: المُحِبُّ، كما قال المفَسِّـر، وقيل: القريب، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١]؛ أي: قَريـب، ولا نَقول: ولا صَديق مُحِبٌّ؛ لأنه ما من صَديق إلَّا وهو مُحِبٌّ، ولولا المَحبَّة ما صادَقه.

وعلى هذا فنَقول: إن الأَوْلى أن تُفسَّر الحَميم بالقَريـب، والغالِب أن الذي يُحامِي عنك ويُدافِع عنك ويَشفَع لك هو القريب، هذا الغالِبُ.

وقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ﴿شَفِيعٍ﴾ بمَعنَى: شافِع، فهي فَعيل بمَعنَى فاعِل، كسَميع بمَعنَى: سامِع، والشافِع: مَن شفَعَك؛ أي: صار معَك حتى تَكون بعد الفَرْد شَفْعًا؛ ولهذا يُقال: الشافِع هو مَن تَوسَّط لك بجَلْب مَنفَعة، أو دَفْع مَضرَّة، هذا هو الشافِع، التَّوسُّط للغير بجَلْب الخير، أو دَفْع الضَّيْر، يَعنِي: الشفاعة هي التَّوسُّط للغير بجَلْب الخير أو دَفْع الضير، هذا إذا أَرَدْت أن تَأتِيَ بها على سَبيل السَّجْع؛ من أَجْل أن تَكون أَريَحَ، ففي يوم القِيامة ليس لهم شَفيع، فلا يَشفَع لهم أحَدٌ؛ لأن مِن شَـرْط الشفاعة أن يَكون الله راضِيًا عن الشافِع وعن المَشفوع له.

ولجَأْنا إلى هذا التَّأويلِ لوُجود الآية الثابِتة للشَّفاعة، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ [الشعراء:١٠٠]، وانتِفاء الشَّفاعة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ وهَؤلاءِ لا يَرتَضيهم الله.

قال المفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ لا مَفهومَ للوَصْف، إذ لا شَفيعَ لهُمْ أصلًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ أو له مَفهومٌ بِناءً على زَعْمهم أن لهُمْ شُفَعاءَ،

أي: لو شفَعوا فَرْضًا لم يُقبَلوا].

كلِمة ﴿يُطَاعُ﴾ جُملة فِعْلية في مَحَلِّ جَرٍّ صِفة لـ﴿شَفِيعٍ﴾ ولو حوَّلناها إلى اسمِ فاعِل لكان التَّقدير: ولا شَفيع مُطاع، فهل هذه الصِّفةُ قَيْد، بمعنى: أن لَهُم شَفيعًا لا يُطاع، أو هي بَيان للواقِع والمُراد نَفيُ الشَّفيع؟ ذكَر المفَسِّر احتِمالَيْن:

الأوَّل: أن يَكون المُراد ليس لهم شَفيع مُطلَقًا، واستَدَلَّ لذلك بقوله تعالى عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

أو أن المَعنَى: لو قُدِّر أن لهم شُفَعاءَ، فإن هؤلاءِ الشُّفَعاءَ لا يُطاعون، وهذا بِناءً على قولهم: إن الذي يَعبُدون من دون الله يَكونون شُفَعاءَ لهم، والآية تَحتَمِل ما قال المفَسِّر، أمَّا إذا قُلْنا بالوَجْه الأوَّل، وهو نَفيُ الشفاعة مُطلَقًا فالأمر ظاهِر لا إِشكالَ فيه.

أمَّا الثاني: أن يُقام لهُمْ شُفَعاءُ، ولكن تُرَدُّ شَفاعتهم، فهذا من أَجْل التَّخجيل لهم، أن يَخجَلوا حيث تُقام الشُّفَعاءُ الذين يَدَّعون أنهم شُفَعاءُ لهم، ثُم تُردُّ الشفاعة، هذا أَبلَغُ في خَجَلهم، وفي رَدِّهم، وعدَم انتِفاعِهم بآلِهَتهم، والله أَعلَمُ.

فإن قال قائِل: إذا قُلْنا بالوجه الثاني ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ثُم يُقام ثُم يُرَدُّ، ما حال الشَّفيع الذي يُقام ثُم يُرَدُّ، هل هو مَن تُقبَل شَفاعته، هل أنه مِثْلهم أصلًا؟

فالجَوابُ: لا، بل تُمثَّل لهم أَصنامُهم، حتى الذين يَعبُدون عِيسى، يُمثَّل لهم عِيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: وُجوب الإنذار على رَسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-؛ لقوله: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ﴾ والأَصْل في الأَمْر الوُجوب لا سِيَّما أن الرسول ﷺ مُكلَّفٌ بذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه يَنبَغي للداعِية أن يَكون مُخوِّفًا أحيانًا ومُبشِّرًا أحيانًا، أمَّا البِشارة أحيانًا ففي آياتٍ كَثيرة، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف:١٣]، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وما أَشبَه ذلك، وأمَّا الإنذار فكذَلِك في مثل هذه الآيةِ؛ فالداعِية يَنبَغي أن يَكون مُنذِرًا مُبشِّرًا من أَجْل أن يُحرِّك القُلوب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه يَنبَغي في الإنذار أن يُذكِّر الناسَ أحوالَ يوم القِيامة وأهوالَها؛ لقوله: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ﴾

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن القيامة قَريبة؛ لقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ والقُرْب هنا يَعنِي أن الوَقْت يَمضِي بسُرعة؛ حتى لا يَشعُر الإنسان إلَّا وقد قامَت القِيامة، إمَّا قِيامته هو، وتُسمَّى القِيامة الصُّغرى، أو القِيامة العامة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيان هذا التَّمثيلِ العَظيم في حال الناس ذلك اليومَ، ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن هذه الحالِ عامَّة للمُؤمِنين وللكافِرين، دليل ذلك: عُموم قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ﴾، ثُم قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾؛ فدَلَّ ذلِك على أن الآية عامَّة، ولكن لا يَلحَق المُؤمِنين شَرٌّ من ذلك اليَوْمِ؛ لقول الله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ [الإنسان:١١]، ومُجرَّد الغَمِّ والهَمِّ لا يَلزَم منه الشَّرُّ والضرَر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن القُلوب عند شِدة الخَوْف تَرتَفِع حتى تَبلُغ الحناجِر، وهذا يَشهَد به الواقِع، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورة الأَحْزاب: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:١٠]، والإنسان في نَفْسه أيضًا يُحِسُّ أنه إذا خاف خوفًا شديدًا، وكأَنَّ قَلْبه قد عُلِّق في حَنجَرته.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الناس في ذلك اليومِ مع شِدَّة الخَوْف يَمتَلِئون غَمًّا؛ لقوله: ﴿كَظِمِينَ﴾، والغَمُّ هو: التَّحزُّن، أو التَّهيُّؤ لما يُستَقبَل، فالغَمُّ في المُستَقبَل، والهَمُّ والحُزْن في الماضِي.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تَقطُّع الأسباب بالظالِمين؛ فلا يَجِدون حميمًا ولا شفيعًا؛ لقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]، والمُراد بالظالِمين ما سبَق، وهُمُ الكافِرون.

فإن قال قائِل: الظُّلْم أَعَمُّ من الكُفْر، فكيف فسَّرْتُمُ الظُّلْم هنا بالكُفْر؟

قُلْنا: لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]؛ ولأن ما دون الكُفْر من المَعاصِي تُمكِن فيه الشَّفاعة؛ فإن الشَّفاعة ثابِتة لأَهْل الكبائِر من هذه الأُمَّةِ.

فإن قال قائِل: هل تَقَع الكبائر من الأنبياء؟

فالجوابُ: تَقَع، لكن يَتوبون منها، فإن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قَتَل نفسًا بغير حَقٍّ، أو لم يُؤذَن له فيها، ويَقَع هذا سواءٌ قبل النُّبوَّة أو بعدها؛ ولهذا فهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اعتَذَر بذلك في طلَب الشفاعة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: تَحذير هَـؤلاء الكُفَّار من ذلك اليومِ؛ فإنهم في الدُّنيا يَجِدون مَن يُناصِـرهم ويُواليهم، ويُساعِدهم ويُعاوِنهم، ولكن في الآخِرة لا يَجِدون شيئًا من ذلك.

• • ۞ • •

الآية (١٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ الفاعِل هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ هذا من باب إضافة الصِّفة إلى مَوْصوفها؛ أي: الأَعيُن الخائِنة، وخِيانة العَيْن مُسارَقتُها النَّظَر إلى الشيء المُحرَّم، يَعنِي: أن الإنسان قد يَنظُر إلى شيء مُحرَّم، وجليسه إلى جَنْبه لا يَشعُر بذلك؛ لأنه يُسارِقه النَّظَر؛ كأنما يَتحَيَّن الفُرَص في غَفْلة صاحِبه؛ حتى يَنظُر إلى ما حرَّم الله عَزَّوَجَلَّ، هذه واحِدة.

ثانيًا: قد يَنظُر الإنسان النظَر بدون مُسارَقة بل بمُجاهَرة، ولا يُحِسُّ جَليسه أنه يَنظُر نظَرًا مُحرَّمًا، لذلك حذَّر الله عَزَّوَجَلَّ من هذه الحالِ.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ بمُسارَقتها النظَر إلى مُحرَّم ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾: القُلوب].

فسَّر المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الصُّدور بالقُلوب؛ لأنَّها في الصُّدور كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، فبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ هنا دِقَّة عِلْمه، ولُطْف عِلْمه بأنه يَعلَم حتى هذه الحالَ التي لا يَعلَمها الناس الذين يُشاهِدون، يَعلَم خائِنة الأَعيُن وما تُخفِي الصُّدور.

الآية (٢٠)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر:٢٠].

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾ الجُمْلة مَعطوفة على قـوله: ﴿يَعۡلَمُ﴾ و﴿يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: يَحكُم به شَـرْعًا وقدَرًا؛ لأن القَضاء -أَعنِـي: قَضاء الله عَزَّوَجَلَّ- على قِسْمين: قَضاء كَوْنيٍّ؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء:٤]، وقَضاء شَرْعي؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، «قَضَى» يَعنِي: قضاءً شَرْعيًّا، ومَعناها: وصَّى ربُّك أَلَّا تَعبُدوا إلَّا إيَّاه؛ فهنا يَقول: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾ والمُراد هنا الأَمْران جميعًا؛ أي: أنه يَقضِي قضاءً كَوْنيًّا بالحقِّ؛ فليس في قَضائه الكونيِّ عبَث ولا لَعِب: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الدخان:٣٨-٣٩].

وكذلك يَقضِي قَضاء شَـرْعيًّا بالحَقِّ؛ فقَضاؤُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الشَّرْعي كلُّه حقٌّ؛ لأنه خير فيَأمُر به، أو شَرٌّ فينهَى عنه، وهذا هو الحقُّ إذَنِ الله يَقضِي بالحَقِّ بالنَّوْعين: القَضاء الكَوْني، والقَضاء الشَّرْعي.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ الواو هنا عاطِفة، ويَجوز أن تَكون استِئْنافية.

قال المفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ يَعبُدون؛ أي: كُفَّار مَكَّة، بالياء والتاء]،

هنا: تَفسير لكلِمة ﴿يَدۡعُونَ﴾، وتَفسير للضَّمير الواو، وقِراءة؛ أمَّا القِراءة فذكَر المفَسِّر أن فيها قِراءَتَيْن: القِراءة الأُولى ﴿يَدۡعُونَ﴾ [غافر:٢٠] بالياء، والقِراءة الثانية: «تَدْعُونَ» بالتاء على سَبيل المُخاطَبة، وكِلاهما قِراءتان سَبْعيَّتان، وأمَّا ﴿يَدۡعُونَ﴾ ففسَّرها بكلِمة [يَعبُدون]، والصواب: أن المُراد بها يَعبُدون ويَسأَلون؛ لأنهم هُمْ يَعبُدون الأصنام ويَسأَلونها، يَسأَلونها جَلْب المَنافِع ودَفْع المَضارِّ، ويَعبُدونها أيضًا بالرُّكوع والسُّجود والنُّذور وغير ذلك.

وأمَّا الواو ففَسَّرها المفَسِّر بكُفَّار مكَّةَ؛ فجعَل الضمير عائِدًا إلى كُفَّار مكَّةَ، وهنا نَسأَل: هل لا يُوجَد أحَدٌ يَعبُد الأصنام ويَدعو الأصنام إلَّا كُفَّار مكَّةَ؟ الجَوابُ: يُوجَد مِنهم ومِن غيرهم، وإذا كان كذَلِك فإن تَفسير العامِّ بالخاصِّ نَقْص في التَّفسير، فالتَّفسير المُطابِق للواو، أن تَكون عامَّة لكُلِّ مَن يَدعو من دون الله من كُفَّار مكَّةَ، أو كُفَّار المدينة، أو كُفَّار الطائِف، أو كُفَّار العِراق، أو كُفَّار الشام، أو كُفَّار هذه الأُمَّةِ، أو كُفَّار مَن قَبلَها، عامَّة، كل مَن يَدعو من دون الله فإنه يَدعو مَن لا يَقضِي بشيء.

فإن قال قائِل: في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ حمَلَها المفَسِّر على أهل مكَّةَ، وقد تقدَّم أيضًا أنَّ المُشرِكين دائِمًا يَحمِلها المفَسِّر على أهل مكَّةَ، رُبما أن السُّورة نزَلَت في مكَّةَ، ورُبما المفَسِّر حمَلها على هذا؟

فالجَوابُ: لكن لا يَصِحُّ هذا، فالعِبرة بعُموم اللَّفْظ لا بخُصوص السبب. هو له وجهة نظَر، وأقوَى من هذه الوِجهةِ قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ بعد الآية هذه، لكن نحن نَقولُ: العِبْرة بعُموم اللفظ، والسبَب لا يُخصِّص العامَّ، وإذا ذُكِر حُكْم يتعلق ببعض أفراد العامِّ، لا يَقتَضي تَخصيصه أيضًا. كما هي القاعِدة.

وقوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾؛ أي: من دون الله، والدُّونُ هنا بما سِوى؛ أي: مَا سِوى

الله عَزَّوَجَلَّ وهُمُ الأصنام هنا، قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهُمُ الأصنام] وكان مُقتَضى اللُّغة العرَبية أن يَقول: وهي الأَصْنام؛ لأن الجَمْع لغير ما يَعقِل لا يَعود عليه ضَمير ما يَعقِل، و(هم) للعُقَلاء، ولكن المفَسِّر عدَل عن الأصل، وهي الأَصْنام لمُراعاة قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ و(الذين) هذه للعاقِل، وذلك أن الله تعالى جعَل هذه المَعبوداتِ نزَّلها مَنزِلة العُقَلاء، ومع كونها مُنزَّلة مَنزِلة العُقَلاء لا تَقضِي بشيء.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ [غافر:٢٠]، ولم يُقابِل هذه الجُملةَ بالجُمْلة التي قَبلَها، بل جعَلَها أعَمَّ، في الجُمْلة الأُولى قال: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾، وهنا قال: ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ ولم يَقُل: لا يَقضُون بالحقِّ، إشارة إلى أنها لا تَقضِي لا بحَقٍّ ولا بباطِل؛ فلَيْسَت أهلًا لأن تُعبَد من دون الله عَزَّوَجَلَّ، لا يَقضون بشَيْء أبَدًا، لا شَرْعٍ، ولا قدَرٍ، ولا حقٍّ، ولا باطِلٍ.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ فكيف يَكونون شُرَكاءَ لله؟!] هذا مَحَطُّ النَّفْي، يَعنِي: إذا كانت هذه الأصنامُ لا تَقضِي بشيء فكيف تُجعَل شَريكةً لله؟! وهذا يَعنِي: تَوْبيخ هؤلاءِ الذين يَعبُدون هذه الأصنامَ من دون الله.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأَقْوالهم ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بأَفْعالهم]، و(هو) في قوله: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾، يَجوز أن تَكون ضَميرَ فَصْل، ويَجوز أن تكون مُبتَدَأ، والجُمْلة خبَر (إن)، لكن هي ضَمير فَصْل أحسَنُ منها مُبتَدَأ.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ أن قَضاء الله تعالى كلُّه حَقٌّ؛ لقوله: ﴿يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ سواءٌ كان القَضاء كونيًّا أم شَرْعيًّا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الثَّناء على الله عَزَّوَجَلَّ بهذه الصِّفةِ الكامِلة، وهي قَضاء الحَقِّ، وأنه لا يَفعَل شيئًا سُدًى أو عبثًا، بل كلُّ ما يَقضيه فإنه حقٌّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التَّنديد بعُبَّاد الأَصْنام؛ حيث عبَدوا مع الله مَن ليس بشيء بالنِّسْبة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَذه الأصنامَ لا تَنفَع عابِديها إطلاقًا؛ لقوله: ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ و(شيء) نكِرة في سِياق النَّفيِ؛ فتَعُمُّ كلَّ شيء.

فإن قال قائِل: إن مِن القَوْم الَّذين يَدْعون مع الله إلهًا آخَر مَن إذا دَعَوْا هذه الأصنامَ أَجابَتْهم، فإذا دعَوْها بكَشْف الضُّرِّ انكَشَف الضُّرُّ عنهم، ومن الناس مَن إذا خالَف هذه الأصنامَ أُصيب ببَلاء، فما هو الجَوابُ؟.

فالجَوابُ: أن يُقال: هـذا الذي يَحصُل، يَحصُل من الله عَزَّوَجَلَّ، لا من هـذه الأصنامِ، ابتِلاءً وامتِحانًا، ويُقال فيه: إنه حصَل عند ذلك لا به، يَعنِي: حصَل هذا القَضاءُ من الله عَزَّوَجَلَّ عند دُعاء هذه الأَصنامِ، لا بدُعاء هذه الأصنامِ.

فان قال قائِلٌ: لماذا تَعدِلون عن السبب الظاهِر إلى سبب آخَرَ لا يُعلَم؟

قلنا: عدَلْنا إلى ذلك؛ لقول الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ [غافر:٢٠]؛ ولقوله تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [فاطر:١٤]، ولقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦].

وإلَّا فإن العامِّيَّ قد يَأْتي إلى صاحِـب القَبْر، ويَقول: يا سَيِّـدي، يا وَلِيَّ الله،

يا مَوْلايَ، أَنقِذْني من هذه البَليَّةِ، أَنقِذْني من هذه الضائِقةِ، فيَذهَب إلى بيته ويَجِد أن الأَمْر قدِ انفرَج، وسَوْف يُضيف هذا الانفِراجَ إلى السبب الظاهِر، الذي قام به، وهو دُعاء هذا القَبْر حتى انفرَجت عنه الغُمَّة؛ فنَقول: هذه فِتْنة، ونَعلَم عِلْم اليَقين أنه -أي: صاحِب القَبْر- ليس هو الذي كشَف الضُّرَّ، وإنَّما الذي كشَفه الله عَزَّوَجَلَّ، لكن حصَل الكَشْف عند دُعاء صاحِب القَبْر، لا بدُعائه.

انتَبِهوا لهذا؛ لأنه دائِمًا يُورِد علينا أصحابُ القُبـور هذه الشُّبْهةَ، يَقول: أنا دعَوْت السَّيِّد الفُلانيَّ فاستَجاب لي، وانكَشَفتِ الغُمَّة.

فإن قال قائِل: ما يَحصُل لعُبَّاد القبور من الابتِلاء والامتِحان، لو قلنا لهم: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَقول كذا، ويَقول كذا؛ لا يَقتَنِعون، والإنسان المُؤمِن بالقُرآن المُقِرُّ هذا يَقتَنِع بالآيات، لكن هؤلاء لا يَقتَنِعون بالقُرآن؟.

فالجوابُ: غالِب أصحاب القُبور مُسلِمين، يَرَوْن أنَّهم على إسلام، ويُؤمِنون بالقُرآن.

المُهِمُّ: أن الله تعالى قد يَجعَل الشِّفاء عَقِب دُعاء صاحِب القَبْر ابتِلاءً وامتِحانًا؛ فيُصدِّق الإنسان بالحِسِّ، ويُكذِّب الشَّرْع، يُصدِّق بالحِسِّ وهو بِناء هذا الأَمْر على الشيء الظاهِر، ويُكذِّب بالشَّرْع.

فإن قال قائل: بعض الناس يدعو ويقول: هذا حصَل بدُعاء الرسول ﷺ؟

فالجواب: أبَدًا لم يَحصُل، الرسول لا يَملِك هذا أبَدًا في حَياته، ربما يُريهم الله آيةً من آيات الرسول فيَحصُل مثل هذا، كما حصَل في عَيْن أبي قَتادةَ أن أُصيبَـت فنُدِرت حتى صارَت على خَدِّه؛ فأَدخَلها النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في مَكانها، والْتَأَمَت في الحال. وهذه آيَة من آيات الله، لكن هذه في حَياته، أمَّا بعدَ مَماته فلا.

فإن قال قائِل: هل لهذا نَظائِرُ؟

قلنا: نعَمْ، قد يَبتَلِي الله الإنسانَ بتَيْسير أَسباب المَعْصية، ابتِلاءً؛ ليَعلَم الله مَن يَخافُه بالغيب، كما ابتَلى بني إسرائيلَ بالحِيتان؛ حرَّم الله عليهم صَيْد الحوت في يوم السَّبْت، وابتَلاهم، فكانَتِ الحِيتان في يوم السَّبْت تَأتِي شُرَّعًا على الماء بكَثْرة، وفي غير يوم السَّبْت لا تَأتِي، فطال عليهم الأمَدُ، وقالوا: لا بُدَّ أن نَصطاد هذا السمَكَ، ولكن يوم السَّبْت مُحرَّم علينا، فماذا العمَلُ؟ قالوا: هناك حِيلة -واليَهود أصحاب حِيَل- ضَعوا شبَكة يوم الجُمُعة، وتَأتِي الحِيتان يوم السَّبْت تَدخُل، وخُذوا الحِيتانَ يوم الأحَد، وقولوا لله: إنَّنا لم نَصطَد يوم السَّبْت؛ فماذا عُومِلوا به؟ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥]، قلَبَهم الله عَزَّوَجَلَّ إلى شيء يُشبِه الإنسان وليس بإنسان؛ كما صنَعوا شيئًا يُشبِه الحِلَّ وليس بحِلٍّ، جَزاءً وِفاقًا.

هذه الأُمَّةُ حرَّم الله عليهم الصيد في حال الإحرام؛ فابتَلاهُمُ الله، بدَأَت الصُّيود تَأتِي بكَثْرة، الصيد الطائِر يَناله الرُّمْح، والصيد الزاحِف تَناله اليَدُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة:٩٤] فصارَتِ الصُّيود الطائِر يَنالُه الإنسان برُمْحه، مع أنه لا يُنال الطائِرُ إلَّا بالسَّهْم، والزاحِف باليَدِ؛ فالصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ تجنَّبوا هذا، لا أَمسَكوا باليَدِ، ولا صادوا بالرُّمْح.

فأَنْت احْذَرْ يا أيُّها المُسلِم، واحذَرْ أن تَنخدِع، إذا تَيسَّرَت لك أسباب المَعْصية؛ فان الله تعالى قد يَبتَليك، ربَّما يَبتَلي الله الإنسانَ بوَظيفة، يَستَطيع أن يَسرِق فيها من بيت المال، إمَّا سرِقة حَقيقية -يَعني: يَأخُذ دَراهِمَ- وإمَّا سرِقة غير مُباشِرة، بأن

يَتأخَّر عن الدوام، أو يَتعَجَّل في الخُروج؛ لأن مَن فعَل ذلك فهو سارِق.

وإذا قدَّرنا أنه يَتأخَّر عن الدوام بمِقدار السُّدُس، أو يَتعَجَّل بمِقدار السُّدُس، فقد سرَق سُدُسًا؛ لأنه إذا تَأخَّر السُّدُس لا يَستَحِقُّ من الراتِبة إلَّا خمسة أَسداس فقَطْ، والباقِي يَأخُذه بغَيْـر حقٍّ، هو مُطمَئِنٌّ لأنه ليس فَـوقَه أحَد، هو المُدير مثَلًا، أو مُطمَئِنٌّ؛ لأن مُديرُه يَتأخَّر، ومَعلوم أن المُدير إذا كان يَتَأخَّر وتَأخَّر مَن تَحتَه أنه لا يَقول لهم شَيئًا؛ لأنه لو قال لهم شَيئًا فضَحَ نَفْسه.

إِذَنِ: احذَرْ أن تَغتَرَّ إذا يسَّر الله لك أسباب المَعْصية، فإن الله يَعلَم خائِنة الأعيُن وما تُخفِي الصُّدور، لا تَغتَرُّ بهذا الشيءِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: النِّداء الصارِخ على سَفاهة هَؤلاءِ القَوْمِ الذين يَعبُدون من دون الله؛ لكونهم عدَلوا عن عِبادة مَن يَقضِي بالحَقِّ إلى عِبادة مَن لا يَقضِي بشَيْء، وهذا في غاية السَّفَه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات اسمَيْن من أسماء الله، هُما السميع والبصير، وإثبات ما دَلَّا عليه من صِفة، وإثبات ما دَلَّا عليه من أثَرٍ، أو من حُكْم؛ وذلك أن أسماءَ الله عَزَّوَجَلَّ لا يَتِمُّ الإيمان بها إلَّا بالإيمان بأمور ثَلاثة، إذا كانت مُتعدِّية، الأوَّل: إثبات الاسم، والثاني: إثبات ما دَلَّ عليه من الصِّفة. والثالث: إثبات ما دَلَّ عليه من أثَرٍ، أو من حُكْم. هذا إذا كان مُتَعدِّيًا، أمَّا إذا كان لازِمًا، فلا يَتِمُّ الإيمان به إلَّا بأَمْرين: إثبات الاسم، وإثبات ما دَلَّ عليه من صِفة.

فقوله: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ مُتَعَدٍّ، قال الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ﴾ [المجادلة:١]، ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ مُتَعدٍّ.

إِذَنْ: لا بُدَّ أن تُؤمِن بالسَّميع اسمًا من أسماء الله.

فإن قال قائِل: ما الفَرْق بين اللازِم والمُتعدِّي؟

فالجَوابُ: اللازِمُ ما لا يَنصِب المَفعول به، والمُتعدِّي ما يَنصِبُ المَفعول به. فـ(سَمِع) تَنصِب المَفعول، مثل: «عَظُمَ» لا يُمكِن أن تَتَسلَّط عظُم على شيء، عَظُمَ هو بنفسه، أمَّا «عَظَّمَ» صَحيح مُتعدٍّ، لكن «عَظُمَ» لازِمة لا شَكَّ، «جَلَّ» لازِمة، فـ«العظيم» من أسماء الله اللازِمة، و«العَليُّ» من أسماء الله اللازِمة، و«الجَليل» من أسماء الله اللازِمة.

فإن قال قائِل: ما هو الفَرْق بين الأفعال اللازِمة التي تَتَعدَّى بحرف الجَرِّ والتي تَتَعدَّى بنفسها؟

فالجَوابُ: يَقولون: ما تَعدَّى بنفسه فهو مُتعَدٍّ، وما لم يَتعَدَّ إلَّا بحَرْف جرٍّ فهو لازِمٌ؛ يَعنِي: الذي يَنصِب المَفعول به هو المُتعَدِّي. وبعضُهم أيضًا قال: هناك علامة ثانية. فهو له عَلامات منها هذه، ومنها أنه يَصِحُّ منه صَوْغ اسم المَفعول المُتعدِّي، وهذا لا يَصِحُّ منه صَوْغ اسم المَفعول إلَّا بمُتعلَّق.

فإن قال قائِل: هل السَّميع صِفة ذاتٍ أو صِفة فِعْل؟

فالجَوابُ: السَّميع صِفة ذاتٍ، لكن الذي يَحدُث المَسموع، أمَّا السَّمْع فلَمْ يَزَل الله ولا يَزال سَميعًا، لا يَتَعلَّق بمَشيئته، وإذا أَرَدْت أن تَعرِف الفَرْق؛ فإن كان يُمكِن أن يَتَخلَّى الله عن هذه الصِّفةِ فهي صِفة فِعْل، وإذا كان لا يُمكِن فهي صِفة ذات، ومَعلوم أنه لا يُمكِن أن يَتخلَّى الله عَزَّوَجَلَّ عن صِفة السَّمْع؛ فيَكون أصمَّ، فإنَّ الله مُنزَّهٌ عن ذلك، لكن الذي يَحدُث هو المَسموع.

ولكن هل هُناك أحَدٌ أنكَر الأسماء؟

الجوابُ: نعَمْ، هناك من المُعطِّلة المُنتَسِبين للمِلَّة الإسلامية مَن يُنكِر أسماء الله تعالى.

الأمر الثاني: أن تُؤمِن بما دَلَّ عليه من صِفة وهي السَّمْع، فليس الله تعالى سَميعًا بلا سَمْع، بل هو سَميع بسَمْع، وهل أحَدٌ أَثبَتَ الاسم دون الصِّفة؟

الجوابُ: نعَمِ، المُعتَزِلة، وقاعِدتُهم: إثباتُ الأسماء وإنكارُ الصِّفات التي دلَّتْ عليها هذه الأسماءُ؛ فيَقولون: إن الله سَميع بلا سَمْع، بَصير بلا بصَر. سُبحانَ الله! كيف بَصيرٌ بلا بصَرٍ؟! قال: نعَمْ بَصير بلا بصَرٍ، لأنك إذا أَثبَتَّ البصَر فالبصَرُ صِفة زائِدة على الذات. أي: نعَمِ الصِّفة غيرُ المَوْصوف زائِدة على الذات.

فإن قلت: إنها قَديمة. أَثبَتَّ تَعدُّد القُدَماء، وصِرْت أَكفَرَ من النَّصارى، فالنصارى أَثبَتوا ثلاثة آلِهة، أنتَ الآنَ تُريد أن تُثبِت خَمسين إلهًا أو أكثَرَ، بقَدْر الأَسماء التي أَثبَتَّ لها الصِّفة، وهذا كُفْر، فإذا كفَّرْنا النَّصرانيَّ بثَلاثة وقُلنا: كافِر. نَقول: أنت كافِر، كافِر، كافِر. اضرِب ثلاثة حتى تَصِل إلى الأسماء، أنت أَكفَرُ من النَّصْراني إذا أَثبَتَّ صِفة قديمة، وإن أَثبَتَّها حادِثة لزِم من ذلك قيام الحَوادِث بالله، والحَوادث لا تَقوم إلَّا بحادِث، فتكون أنت أَثبَتَّ أن الله مَخلوق، وأنه حادِث.

فما بالُكم إذا صِيغ هذا الكَلامُ بكلام أفصَحَ من كلامِي وأَبلَغَ؛ أفلا يَنخَدِع به الجُهَّال؟ يَنخَدِعون به لا شَكَّ، لكننا نَقول: إن الله تعالى سَميع بسَمْع، ولا يُعقَل أن يَكون مُشتَقٌّ بدون ما اشتُقَّ منه أبَدًا، إذ لا يَصِحُّ أن تَقول للأصَمِّ: إنه سَميع. ولا للأَعْمى: إنه بَصير. لا يُمكِن أن يُوجَد اسم مُشتَقٌّ في جميع لُغات العالَم إلَّا والأصل المُشتَقُّ منه سابِق عليه.

وأمَّا قولكم: إن الصِّفة غير المَوْصوف، فإننا نَقول: إن الله تعالى لم يَزَل ولا يَزال بصِفاته، ولا يُوجَد ذاتٌ بلا صِفاتٍ إطلاقًا، مَن ادَّعَى أنه يُوجَد ذاتٌ بلا صِفةٍ، فقَدِ ادَّعى المُحال، ما من مَوْجود إلَّا وله صِفة، لو لم يَكُن من صِفاته إلَّا صِفة الوُجود، والقِيام بالذات، وما أَشبَه ذلك، فما من مَوْصوف إلَّا وله صِفة، لكن المَوْصوف صِفاته ليسَت شيئًا بائِنًا منه؛ ولهذا لا نَقول: إن صِفاتِ الله هي الله، ولا نَقول: إنها غيرُ الله. بل نَقول: إن الله بصِفاته. لأنَّك إذا قلتَ: إن الصِّفاتِ هي الله، صار مَعناه: أنه لا صِفةَ له، وإذا قلتَ: إنها غيرُه. أَبَنْتَ الصِّفة عن المَوْصوف، وهذا مُستَحيل.

إِذَنِ: الإيمان بالاسم لا بُدَّ أن تُؤمِن بما تَضمَّنه من صِفة، وتَضمَّنه للصِّفة قد يَكون تَضمُّنًا وقد يَكون التِزامًا، فنُؤمِن بالصِّفة التي دلَّ علَيْها تَضمُّنًا والتِزامًا، فمثَلًا: الخالِق اسمٌ دلَّ على صِفة الخَلْق، فدَلالته على صِفة الخَلْق بطَريق التَّضمُّن، ودَلالته على العِلْم التِزام؛ لأنه لا خَلْقَ إلَّا بعِلْم، ودَلالته على القُدرة التِزام أيضًا؛ لأنَّه لا خَلقَ إلَّا بقُدْرة.

إِذَنْ: تُؤمِن بما دلَّ عليه الاسم من صِفة سواء كانَت تَضمُّنًا أو التِزامًا.

الأمر الثالِث: إذا كان الاسمُ مُتَعدِّيًا الأثَر أو الحُكْم، فمِثْل السَّميع ذو السَّمع، الذي يَسمَع، لا بُدَّ أن تُؤمِن بسَمْع يَتَعدَّى للغير، فيَسمَع كلَّ قول، البَصير كذلك مُتَعدٍّ، تُؤمِن بالبَصير اسمًا وبالبصَر صِفةً، وبأنه يُبصِر حُكْمًا أو أثَرًا، أمَّا إذا كان الاسم لازِمًا؛ فإنه يُؤمِن بأمرين: الأوَّل الاسم، والثاني: الصِّفة.

الحيُّ: وَصْف لازِم، والحَياة وَصْف لازِم لا يَتَعدَّى لغير الله؛ فالحيُّ إِذَنِ اسمٌ من الأسماء اللازِمة، فتُؤمِن بالحَيِّ اسمًا من أسماء الله، وتُؤمِن بالصِّفة التي دَلَّ عليها الحيُّ وهي الحياة.

إذا آمَنَّا بهذا خالَفْنا كل أهل التَّعْطيل، خالَفْنا مَن لا يُسمِّي الله باسْمٍ، ولا يَصِفه بصِفة، وهؤلاء غُلاةُ الجَهْمية، وخالَفْنا مَن يُؤمِن بأن لله أسماءً ولكن لا صِفاتِ له، مثل: المُعتَزِلة، وخالَفْنا مَن يقول: له أسماءٌ وصِفاتٌ، لكن ليس لها حُكْم، لا يَتَعدَّى؛ لأنه لو تَعدَّى إلى الغير لزِم قِيام الحوادِث به، إذْ إنَّ المَسموع حادِث، فإذا تَعلَّق السَّمْع بحادِث صار السَّمْع حادِثًا حُدوث المَسموع، فلزِم قِيام الحوادِث به، إذَنْ قُلْ: هو سَميع له سَمْع، لكن لا يَسمَع به، لئَلَّا تَقوم به الحَوادِث؛ فإذا أَتَيْنا على هذه الشروطِ الثَّلاثة:

١- الإيمان بالاسْمِ.

٢- بما تَضمَّنه من صِفة.

٣- بالأَثَر أو الحُكْم.

صحَّ إيمانُنا بالأسماء.

أمَّا السَّميع والبَصير فقد سبَقَ لنا مَعناهُما، وذكَرْنا أنَّ السَّميع يَدُلُّ على السَّمْع، وأنَّ سَمْع الله تعالى نوعان:

الأول: سَمْع بمَعنَى: الإجابة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، والسَّمْع يَأتِي بمَعنَى الاستِجابة في اللُّغة العرَبية، والدليلُ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يَستَجيبون. ومنه قولُ المُصلِّي -وأنتُمْ كل يَوْم تُصلُّون على الأقَلِّ سبعَ عشْرَةَ رَكعةً، وتَقولون-: سمِعَ الله لَمن حَمِدَه. ومَعناها: استَجاب. ليس المعنى مُجرَّد سَماعه لَمن حَمِده، لأن هذا لا يُفيد شَيْئًا، لكن مَعناها استَجاب، هذا سَمْع بمَعنى الاستِجابة.

الثاني: سَمْع بمَعنى إدراك المَسموع، وهذا يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام: الأوَّل: ما يُراد به التَّهديد، والثاني: ما يُراد به التَّأييد، والثالث: ما يُراد به بَيانُ شمول سَمْع الله؛ يَعنِي: سَمْع الإحاطة.

مِثال الأوَّل الذي يُراد به التَّـهديد: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الزُّخرُف:٨٠]؛ ولهذا قال: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

ومِثال سَمْع التَّأْييد: قـولُه تعالى لموسى وهارُونَ: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

ومثال ما يُراد به سَمْع الإحاطة، مِثْل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة:١].

فإن قال قائِل: ألَا يَشمَل قـوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ سَمْع إحاطة؟

فالجوابُ: السَّمْع هنا سَمْع إحاطة، لكنه يُراد به النَّصْـر والتَّأييد، لأن مُجرَّد الإحاطة حتى فِرعونُ يَسمَعه الله عَزَّوَجَلَّ.

فصار يُقسِّم السَّمْع إلى قِسْمين: سَمْع إجابة وسَمْع إدراك؛ والإدراك ثلاثة أقسام، وإن شِئْت فقُلْ: ثلاثة أنواع؛ لئَلَّا تَتَداخَل الأقسام: سَمْعٌ يَقتَضي التَّهديد، وسَمْع يَقتَضي التَّأييد، وسَمْع لبيان الإحاطة. وكلُّ هذا ثابِت لله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائِل: ما الذي يُعيِّن أنَّ هذا السَّمعَ للتَّأييد أو للتَّهديد أو للإحاطة؟

قُلنا: سِياق الكلام وقـرائِن الأحوال؛ ولهذا يُمكِن أن يُقال في قول الله تعالى لموسى وهارونَ: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ يُمكِن أن يُقال: إن هـذا

السَّمعَ للتَّأييد والتَّهديد؛ تَأييد موسى وهارونَ، وتَهديد فِرعونَ، لكن يَمنَع من القول بأنه من تَهديد فِرعونَ، أنَّ فِرعونَ لم يَكُن يَسمَع هذا الكلامَ من الله، فكيف يُهدَّد مَن لا يَسمَع التَّهديد؟! ولهذا قال العُلَماء: إن السَّمْع في هذه الآيةِ للتَّأييد، ولم أَرَهُم قالوا: إنه للتَّهديد، ولا لتَهديد فِرعونَ، ووَجهُ ذلك أن فِرعونَ الآنَ ليس يَسمَع ما يَقول الله عَزَّوَجَلَّ، فكيف يُهَدَّد مَن لا يَسمَع التَّهديد؟!.

أمَّا البَصير فهو بمَعنى: ذو البَصَر الثاقِب، الذي لا يَغيبُ عن نظَره شيءٌ عَزَّوَجَلَّ أيُّ حرَكة وأيُّ فِعْل فإن الله تعالى يُبصِره.

وإذا كان يُبصِر كلَّ شيء، فكَيْف مَوقِفنا في مثل قوله: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ الله، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ**»[1] قال: «وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ» فنَفى النظَر إليهم، نَقول: النظَر المُثبَت غير النظَر المَنفيِّ، المَنفيُّ هو نظَر الرَّحمة، والمُثبَت نظَر الإحاطة؛ فالله تعالى يَنظُر كلَّ شيء نظَر إحاطة، حتى المَغضوب عليهم، مَنْظُورون أمام الله عَزَّوَجَلَّ، لكن نظَر إحاطة، وأمَّا المَنفيُّ فهو نظَر الرَّحمة، «لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ» وبهذا تَلتَئِم الأدِلَّة، ويَتبيَّن أنه لا تَعارُض بينها.

وهناك بصَر بمَعنَى العِلْم، لكن المُتبادِر منه الرؤية كما سبَق.

فإن قال قائِل: نظَر الرَّحمة هل هو نَفْس رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، وما المَقْصود بالنظَر؟

فالجَوابُ: المَقصود أنَّ الله يَنظُر إليه نظَرًا يَرحَمه به، ليس هو بنَفْس الرَّحمة، ولهذا تُفرِّق الآنَ بين النَّظَر إلى ولَدِك الذي أَرضاك، والنظَر إلى ولَدِك الذي أَغضَبك، ولَدُك الذي أَرضاك تَنظُر إليه نظَرًا بارِدًا، وهو يَشْعُر بأنَّ عينَك قد قرَّت به -قرَّتْ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، رقم (١٠٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من القَرِّ، وليس من القَرار، من القَرِّ وهو البُرودة؛ ولهذا: أقَرَّ الله عينَك. أي: برَّدها ليسَت من أَقرَّها سكَّنها حتى لا تَتَحرَّك-؛ والولَد الذي غضِبْت عليه إذا نظَرْت إليه تَكون عينُك حارَّة حَمراءَ، يَظهَر منها الشرَر، يَكاد يُعمِي الولَد.

وإن قيل: ألَا يَجوز التَّعبير إذا قلنا: إن هذا العمَلَ أقرَبُ إلى نظَر رحمة الله.

فالجَوابُ: لا يَصِحُّ «نظَر رحمة الله»، الرحمة لا تُنظَر، والصـوابُ: «أَقرَبُ إلى رحمة الله».

فإن قال قائِل: هل نَفيُ الصِّفات كُفْر؟

فالجَوابُ: لا، نَفيُ الصِّفات يَنقَسِم إلى قِسْمين:

نَفي جُحود، وهذا كُفْر، ونَفْي تَأويل، وهذا منه ما هو كُفْر، ومنه ما هو دون ذلك.

فإذا قال القائِل: إن الله لم يَستَوِ على العَرْش فهذا كُفْر جُحود، جحَد كذَّب الخبَر، وإذا قال: إن الله استَوَى على العَرْش، ولكن مَعنى استَوَى استَوْلى، فهذا جَحْد التَّأْويل، قد يَكون كُفْرًا مُخرِجًا عن المِلَّة، وقد يَكون دون ذلك، حسب ما تَقتَضيه القواعِدُ الشَّرْعية.

مسألَةٌ: ما هي أسماء الكُتُب التي تَتَحدَّث عن الأسماء والصِّفات؟

فالجَوابُ: الكُتُـب مُتعدِّدة ومُختَلِفة في المَنهَج، فمثَلًا مُجـرَّد الإثبات -إثبات العَقيدة- من أَحسَـن ما يَكون (العَقيدة الواسِطيـة)؛ لأنها كلها مَبنيَّة على آيات وأَحادِيثَ، أمَّا من جهة المُناقَشة والمُحاجَّة فمن أَحسَن ما رأَيْت (الصواعِق المُرسَلة) لابن القَيِّم، ومُختَصَره، هذا من أَحسَن ما يَكون لطالِب العِلْم في المُناقَشة، فهذا مُفيد

لأنه يَذكُر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أُمَّهاتِ المَسائِل التي فيها الخِلاف، ثُم يُجادِل هؤلاء حتى يَتبيَّن الحَقُّ، و(مُختَصَر الصواعِق المُرسَلة) بهذا الاسم، للمَوْصِليِّ.

• • ۞ • •

الآية (٢١)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر:٢١].

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هذا النَّظْمُ مَوجود في القرآن كثيرًا، أن تَأتِيَ أداة الاستِفْهام وبعدها حَرْف العَطْف ثُم الجُملة، وقد اختلَف المُعرِبون في كيفية إعراب هذا النَّظْمِ وهذا التَّرْكيبِ، فقال بعضُهم: إن التَّقدير: وألَمْ يَسيروا في الأرض؛ فتكون الواو عاطِفة على ما سبَقَ، وتكون الهَمزة داخِلة على جُملتها، مُصَدَّرَةً الجُملةُ بها، وهذا القولُ لا يَحتاج إلى تَقدير، لكنه يَرِدُ عليه أنَّ الهمزة مُتقدِّمة على حرف العَطْف، فأَجابوا عن ذلك بأن الهَمْزة مُقدَّمة، وقالوا: إنَّ تَقديمها في مِثْل هذا سائِغ.

والقول الثاني للمُعرِبين: أن الهَمْزة داخِلة على شيء مُقدَّر، وأنَّ حرف العَطْف عاطِف على ذلك المُقدَّرِ، وحينئذٍ نَحتاج إلى تَعْيين ذلك المُقدَّرِ، ولا يُعيِّنه إلَّا السِّياق؛ فيُقدَّر ذلك المَحذوفُ بحَسب ما يَقتَضيه السِّياق، فمثَلًا: يُقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ أفرَطوا ولم يَسيروا في الأرض، أو: أَغفَلوا ولم يَسيروا في الأرض، أو ما يُؤدِّي إلى هذا المَعنَى.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هل المُراد سَيْرُ القُلوب بالنظَر والتَّأمُّل والتَّفكُّر، أو المُراد سَيْر الأقدام، حتى يَقِف الإنسان على ما حصَل للأُمَم السابِقة بعيني رأْسِه؟

الجوابُ: كِلاهما؛ فمَن لم يَتيسَّر له أن يَسير بقدَمه فلْيَسِر بقَلْبه، ولكن طريق سَيره بقَلْبه أن يَقرَأ تاريخ الأمَم السَّابِقة، وحينئذٍ يَثبُت هذا التاريخُ بطريقين فقَطْ: الطريق الأوَّل: القُرآن. والطريق الثاني: السُّنَّة الصحيحة عن رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال فيمَن سبَقَ: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩] وإذا كان لا يَعلَمهم إلَّا الله؛ فإن مَصدَر التَّلقِّي لأخبارهم من عند الله، أو من رسوله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

أمَّا ما حدَّثَت به بنو إسرائيل عمَّن سبَقَ؛ فهذا يَنقسِم إلى ثلاثة أقسام:

القِسْم الأوَّل: ما شهِد شرْعُنَا به، أو ما شَهِدَ القُرآن والسُّنَّة به؛ فهذا مَقبول، لا لأنه خبَر بني إسرائيلَ، ولكن لأنَّ القُرآن والسُّنَّة شهِدت بصِدْقه.

القِسْم الثاني: ما شهِد القُرآن والسُّنَّة بكذِبه، فهذا مَرفوض، ولا يَجوز التَّحدُّث به إلَّا إذا أَراد الإنسانُ بَيان كذِبه وبُطْلانه.

القِسْم الثالِث: ما لم يَشهَد الوَحيُ بصِدْقه ولا كذِبه؛ أي: ما ليس في القُرآن ولا في السُّنة تَصديقه ولا تَكذيبه، فهذا قال فيه النَّبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ»[1] فيَكون من الكلام الذي يُباح نَقْله، لكن لا فَائِدَةَ منه؛ فلا يُشتَغَل به عمَّا هو أهَمُّ منه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦١)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وبِهذا نَعرِف كيف نَسير بقُلوبنا في أخبار مَن سبَق، فصار مَصدَر التَّلقِّي في أخبار مَن سبَق، المَصدَر الأساسيُّ الأكيد هو الكِتاب والسُّنَّة، وأمَّا ما وقَع من أخبار بني إسرائيلَ، فعرَفنا أنه على ثلاثة أقسام.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال بعض المُعرِبين: إنَّ (في) هنا بمَعنَى (على)؛ لأنه لا يُمكِن السير في جوف الأرض، بِناءً على أنَّ (في) للظَّرفية، والظَّرْف مُحيط بالمَظروف، كما إذا قُلت: الماء في الإناء؛ فإنَّ الإناء مُحيط به، والماء في جَوْفه، ولكن رُبَّما يَقولُ قائِلٌ: إنَّ هذا غير مُتعيِّن؛ لأن المُراد ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في مَناكِب الأرض، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك:١٥]، وتكون الظَّرْفية هنا ظَرْفية الأجواء؛ أي: في جوِّ الأرض، في أجواء الأرض، والأجواء ظَرْف لمَن يَسير فيها.

قوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ الفاء هنا قيل: إنَّها عاطِفَة، وعلى هذا فيكون السير مُنتَفِيًا، والنظَر أيضًا مُنتَفٍ، والتَّقديرُ على هذا القول: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فأَلَمْ يَنظُروا في كيف كان عاقِبة الذين كانوا من قَبْلهم، وقيل: إن الفاء للسَّببية؛ أي: فبسبَب سَيْرهم يَنظُروا كيف كانَ. والمَعنَيان مُتلازِمان؛ لأنهم إذا لم يَسيروا لم يَنظُروا، وإن ساروا نظَروا.

وقوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ﴾ هل النَّظَر هنا نظَرُ قَلْب وبَصيرة، أو نظَر عَيْن وبصَر؟

الجواب: يَنبَني على ما سبَقَ في السير، إن كان سَيْر قَلْب فالنَّظَر نظَرُ قلبٍ وبَصِيرَةٍ، وإنْ كانَ سَيرَ قَدَمٍ فالنَّظر نظَر عَيْن وبصَر. وقد قُلنا: إنَّ السَّيْر صالِح لهذا وهذا؛ فيَكون النظَر أيضًا صالِحًا لهذا وهذا.

قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (كيف) اسمُ استِفْهام، وهو في مَحَلِّ نَصْب على أنه خبَر (كان) مُقدَّم، و﴿عَٰقِبَةُ﴾ اسمُها، ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: مَآلُهم، ماذا كان مَآلُهم؟ سيأتي ذِكْر المآل، لكن الله ذكَر حالهم قبل أن يَذكُر مَآلهم، قال: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ﴿أَشَدَّ﴾ من الشِّدَّة، وهي الصلابة والعِظَم.

و﴿مِنْهُمْ﴾ يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قِراءة «مِنْكُمْ»] فيَكون في هذا الْتِفاتٌ من الغيبة إلى الخِطاب، ومَعلوم أنَّ الخِطاب أشَدُّ وَقْعًا في النَّفس من الحديث بصِيغة الغيبة، يَعنِي إذا كُنتَ تُخاطِبُ الشَّخص مُخاطَبَة فهو أشَدُّ وقعًا في نفسه، ممَّا إذا كُنت تَتَحدَّث بصيغة الغيبة؛ ولهذا جاء قول الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس:١] بصيغة الغيبة، والعابِس والمُتولِّي الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولم يَقُل: عبَسْت وتوَلَّيت؛ لأن الخطاب أشَدُّ وَقْعًا من الغيبة. وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قِراءة: «مِنْكم»] اعلَمْ أنَّ اصطِلاح المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا قال: في قِراءة. فهي سَبْعية، وإذا قالَ: وقُرِئ. فهي شاذَّة ليسَت سَبْعية.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من مَصانِعَ وقُصور] فهُمْ أَقوياء الأبدان، ولهم من الآثار في الأرض أكثَرُ مِمَّا عِند هؤلاء الذين كذَّبوا رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- والشَّاهِدُ في هذا ظاهِر في دِيار ثَمودَ، فإن كل مَن شاهَدها تَبيَّن له كيف كانت قُوَّة القوم، وكذلك آثار عاد في الأَحْقاف، التي اطَّلَع عليها، وقال الله فيها: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر:٧-٨] قُوَّة عظيمة، حتى إنَّ عادًا قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فماذا كانت حالُهم؟

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَهلَكَهم] ﴿بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ

لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ هَؤلاءِ القَوْمُ الأشِدَّاء الذين لهم من الآثار ما يُبهِر العُقول، أخَذَهم الله بذُنوبهم، أَهلَكَهم بسبب ذُنوبهم، وذُنوبهم مكَوَّنَةٌ من شَيْئين: التَّكذيب والتَّولِّي، فهُمْ مُكذِّبون للخبَر، مُتولُّون عن الأمر، فكَذَّبوا الأخبار، وخَالَفُوا الأوامِر، وقَعوا فيما نُهوا عنه، وترَكوا ما أُمِروا به، وكذَّبوا ما يَلزَمهم تَصديقه ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ والباء هنا للسَّببية.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ (مَا) نافِية و(مِن) مُتعلِّقة بـ﴿وَاقٍ ﴾، و﴿وَاقٍ ﴾ اسمُ (كان) دخَلَت عليه (مِن) الزائِدة للتوكيد، وأصل (واقٍ): واقِي، فحُذِفت الياء للتَّخفيف؛ أي: ما كان لهم من أحَد يَقيهم من عَذاب الله.

حتى إنَّ ابنَ نُوحٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يَقِهِ من عذاب الله قُربُه من نوح، ولا دُخوله في العُموم؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكَر أنَّه مُنَجِّيه وأهلَه -أَعنِي: نوحًا- فلمَّا أَرسَل الله عليهم الغرَق، دعا ابنه أن يَركَب معه في السفينة، ولكنه أَبَى، وقال: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ ﴾ [هود:٤٣] فغَرِقَ، وقال نوحٌ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [هود:٤٥] وقَدْ وعَدَه الله أن يُنجِّيَه وأهلَه، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [هود:٤٦]، فلم يَقِ هذا الابنَ قُربُه من أبيه أحَدِ أُولِي العَزْم من الرُّسُل، ولكنه هلَك فيمَن هلَكَ، كما قال تعالى هنا: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الحَثُّ على السير في الأرض، لقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ بِناءً على أنَّ الاستِفْهام هنا للإنكار والتوبيخ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ السير في أرض المُكذِّبين، وبَيان ما أَحَلَّ الله بِهِم من النَّكال،

إذا كان على سبيل العِبْرة فلا بأسَ به، على سَبيل العِبْرَة بما جَـرَى لهم من الهَلاك، لا العِبرة بما كان لهم من القُوَّة، وبِناءً على ذلك نَعرِفُ أنَّ الذين يَذْهَبُون الآنَ إلى ديار ثَمودَ للاطِّلاع على قُوَّتهم، والاعتِبار بصَنْعتهم على خطَأ عظيم؛ لأنهم لم يَسيروا في الأرض السير الذي أمَر الله به، بل ساروا في الأرض السير الذي نَهَى عنه رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، فقد قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا تَدْخُلُـوا عَلَى هَؤُلَاءِ المُعَذَّبِينَ، إِلَّا وَأَنْتُمْ بَاكُونَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ**»(١).

فَمَن الذي يَذهَب الآنَ إلى دِيار ثَمودَ، يَقِفُ يُشَاهِدُ آثارَهم وهو يَبكِي؟

الجواب: لا أحَدَ، إلَّا مَن هَداه الله عَزَّوَجَلَّ وتَبيَّن له الحَقُّ، وإلَّا فإنهم يَذهَبون يَتفرَّجون، والعجَب أنَّ بعض الجُهَّال منا يَرَوْن أنَّ هذا من الآثار المُحترَمة، فيُقال: سُبحانَ الله!! الآثار المُحترَمة! أيُّها الجُهَّال! بل هي الكِتاب والسُّنَّة، آثار الوَحْي، أمَّا آثار المُكذِّبين للرُّسُل فليسَتْ مُحترَمة.

ثُم هل هي آثار آبائِكم وأجدادكم؟! آثار قوم فَنُوا وأَعقَبهم أناسٌ، ثم أناسٌ، ثُم قُرون كثيرة. لكن هذا من الجَهْل والتَّقليد الأعمى، الذي يَجعَل القوم يَتعَلَّقون بالآثار المادِّيَّة دون الآثار المَعنَوية.

وإن قال قائِل: هل العِبْرة الإنسان إذا دخَل في مَكان كل قَوْم أُهلِكـوا، أم أن الكُفَّار الذين لم يَتِمَّ عَذابُهم كذلك؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحِجر، رقم (٤٤١٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالجَوابُ: لا المُراد الذين أُهلِكوا.

والإنسان الذي ذهَب ليَأخُذ العِبْرة لا شَكَّ أنه سيَتَأثَّر، لكن أكثَر الناس -أو كثير من الناس- يَذهَبون ليَعتَبِروا بما عِندهم من القُوَّة، لا بأَخْذ الله لهم.

فإن قال قائِل: هل قُرَى قَوْم لُوط مِثل قُرى ثَمودَ وعادٍ في عدَم جَواز زِيارَتها؟

فالجوابُ: العُلَماء يَقولون: لا فَرْقَ، كل شيء تَذهَب ليَتبيَّن لك آثارُهم وقُوَّتُهم وتُعجَب بهذه القوَّةِ فهو لا يَجوز. أمَّا قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨]، هذه حِكاية عن شيء واقِع، كما قال الرَّسولُ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»(١) هل مَعنى ذلك أنَّ الرسول -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- يُفسِح لنا المَجال؟ أَخبَر عنه أنه واقِع أو سيَأْتي، كما أَخبَر عن المَرأة تَذهَب من صَنْعاءَ إلى حَضرَموت لا تَخشَى إلَّا الله(٢).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ عاقِبة الذين كانوا من قَبْلهم عاقِبة سَيِّئة؛ لقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هَؤلاءِ الذين كانوا من قَبْلهم كانوا أَشَدَّ مِنهم قُوَّة في الأبدان، وقُوَّة في الصناعة، وقُوَّة في الآثار، ومع هذا لم تَمنَعْهم قُوَّتهم هذه من أَخْذ الله لهم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٥٦)، ومسلم: كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٩٥)، من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله». وأخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٢)، من حديث خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه».

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن قُوَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فوقَ كلِّ قوَّة، فإنه قال: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ومع ذلك أخذَهم الله عَزَّوَجَلَّ ذلك؛ لأن الله تعالى إذا أَراد شيئًا قال له: كُنْ. فيَكون، لا يَحتاج إلى أَحَد يُساعِده، ولا يَحتاج إلى صُنْع قَنابِلَ أو مَدافِعَ، بل: كُن فيَكون، انظُروا إلى عاد افتَخَروا بقُوَّتهم، فأَهلَكهمُ الله تعالى بأَلطَف الأشياء سخَّر عليهم الرِّيح، ولم يُسخِّرْها لهم، بل سخَّرَها عليهم، والرِّيح من أَلطَف الأشياء، فدَمَّرَتهم ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥]، حتى كانوا كأَعْجاز نَخْل خاوِية.

يَقولون: إن الرِّيح تَحمِل الواحد منهم حتَّى يَكون في عَنان السماء، ثُم تَرُدُّه إلى الأرض؛ فيَنقَلِبُ مُنحنِيًا كأنَّه عَجُز نَخْل خاوِية، وأَعجاز النَّخيل إذا رأَيْتُموها تَجِدون النَّخْل قد تَقوَّست.

هؤلاء الذين كانوا أَشِدَّاءَ أَقوياءَ يَقِفون على أقدامهم، أَصبَحوا كأنهم أَعجاز نَخْل خاوِية، والآية الثانية ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر:٢٠].

وهذا فِرعونُ قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزُّخرُف:٥١] أَهلَكه الله بأن أَخرَجه من مِصرَ التي كان يَفتَخِر بها باختِياره، خرَج مُختارًا، بل خرَج وكأنه غانِم، كأنه رابِح في المَعرَكة، ثُم أَهلَكه الله بجِنْس ما يَفتَخِرُ به، أَهلَكه بالماء؛ ليَتبيَّن أنَّ القُوَّة قُوَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأنَّ الله أَشَدُّ من هَؤلاء قُوَّة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الله تعالى إذا أَراد بقَوْم سوءًا فلا مَرَدَّ له؛ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر:٢١]، وقد بيَّن الله ذلك صَريحًا في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرعد:١١]، لا يَقِي

دون ما أَراد الله، لا قُصورٌ، ولا مَدافِعُ، ولا طائِراتٌ، ولا أيُّ شيء ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

لكن مِن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أن أَرسَل إلينا رسولًا علَّمَنا كيف نَتوَضَّأ، وكيف نُصلِّي، ثُم يَترَتَّب على هذا الوضوءِ والصلاة مَغْفِرَةُ الذُّنوب، إذا تَوضَّأ الإنسان فإنَّ خطاياه تَخرُج مع آخِر قَطْرة من قَطْر الماء، وإذا صلَّى؛ فالصَّلواتُ الخَمْسُ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، وإذا تَوَضَّأَ في بَيْتِهِ وأَسْبَغَ الوُضُوءَ، وخَرَج إلى المَسجِد لا يُخرِجه إلَّا الصَّلاة، لم يَخُطَّ خُطوةً واحِدةً إلَّا رَفَعَ الله لَهُ بِها درَجَةً، وَحَطَّ عَنْه بِهَا خَطِيئَةً، أَحْصِ خُطواتِك من بيتك إلى المَسجِد في اليوم والليلة خمس مرَّات، كل هذا مِن فَضْل الله عَزَّوَجَلَّ ولولا أنَّ الله هَدانا هِداية إرشاد -ونَسأَل الله تعالى أن يُتِمِّمَها بِهداية التَّوْفيق- لولا ذلِك لهَلَكنا، ولم نَعرِف كيف نَعبُد الله، وهذا من رحمة الله، أَرسَل الرسُل للناس ليُبيِّنوا لهم.

فإن قال قائِل: هل الإنسانُ مَأْجور على خُطواته إذا جاء إلى المَسجِد، وإذا عاد منه؟

فالجَوابُ: أي نعَمْ، أمَّا إذا جاء إلى المَسجِد، فقَدْ تقدَّم، وأمَّا إذَا رَجَع ففِي قِصَّةِ صَاحِبِ الحَمَّار الذي كان بَعيدًا من المَسجِد، فقيل له: أَلا تَشتَرِي حِمارًا تَركَبه؟! فقال: يا رَسولَ الله، إني أَحتَسِب مَمْشايَ إلى المَسجِد ورُجوعِي مِنْه. فقال: «**لَكَ مَا احْتَسَبْتَ**»[1]. فإذا احتَسَب الإنسان هذا، فله ما احتَسَب.

لكن أَقول: إنه يَفوتنا كثيرًا الاحتِساب، فنُصَلِّي ونُريد أن نُؤدِّيَ الصلاة التي علَيْنا فقَطْ، لكن لا نَشعُر بأننا نَحتَسِب أَجْرها، وأننا سنَجِد أَجْر هذه الصلاةِ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب فضل كثرة الخُطا إلى المساجد، رقم (٦٦٣)، من حديث أبي بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

أو أَجْر هذا الوُضوءِ، أو أَجْر هذه الخَطَأ، هذه تَفوتنا كثيـرًا والاحتِساب له أثَرُه، لا من جهة الثواب، ولا من جهة أنه يَحُـثُّ المَرءَ على العمَل؛ لأنَّ الإنسان إذا عمِل فجُوزِيَ يَزداد عمَلًا؛ لكن إذا عمِل على أنه فَـرْض عليه يُؤدِّيه فقَطْ صار كالذي يَقضِي الدِّين عن نفسه، فيُعطِيه الدَّائِن؛ فلِذلِك أنا أَحُـثُّ نَفْسي وإيَّاكم على هذه المَسأَلةِ، مَسأَلة الاحتِساب.

ومَعنَى الاحتِساب أن يُريد بعمَلـه الأجر والثواب، قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح:٢٩]، احتَسِبِ الأَجْر من الله عَزَّوَجَلَّ، ونَسأَل الله أن يُذكِّرنا ذلك ويُعينَنا عليه.

• • ۞ • •

الآية (٢٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [غافر:٢٢].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ذلك المُشار إليه أَخْذ الله تعالى إيَّاهم بذُنوبهم، فهذه الذُّنوبُ أنه ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالمُعجِزات الظاهِرات] ﴿تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾ جمع رَسول، والرَّسول لكل أُمَّة كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النحل:٣٦]، والرُّسُل جاؤُوهم بالبيِّنات، قال المفَسِّر: [بالمُعْجِزات] والصوابُ أن يُقال: بالآيات؛ لأن الله تعالى يُعبِّر عنها هكذا: ﴿ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ والمُراد بالآيات ما يُؤمِن على مِثْله البشَر، وهي نَوْعان: حِسِّية ومَعنَوية وخَلْقية وخُلُقية، كلُّها آياتٌ بَيِّنات، ظاهِرة واضِحة قال النَّبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «مَا بَعَثَ الله نَبِيًّا إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا عَلَى مِثْلِهِ يُؤْمِنُ الْبَشَرُ»(١).

والحِكْمة من هذه الآياتِ أنَّ البشَر لا يُمكِن أن يَقبَلوا دعوةً من شخص عاش بينهم، يَعرِفونه فيأتِي ويَقول: إنَّه نَبيٌّ أو إنه رَسول، فلا بُدَّ من آيات تَدُلُّ على صِدْقه،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «بعثت بجوامع الكلم»، رقم (٧٢٧٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، رقم (١٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وكما قلتُ لكم إنَّ الآياتِ نَوْعان: آياتٌ مَعنَوية: وهي ما يَتَضمَّنه الوحيُ الذي جاء به هَؤلاءِ الرُّسُلُ، وآيات حِسِّية: وهي ما يَظْهَرُ من خَوارِق العادات؛ ولهذا قيل في تَعريف الآية: إنها أَمرٌ خَارِقٌ للعَادَةِ يُظهِره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على يَدِ الرسول تَأْيِيدًا له.

هذه الآياتُ قال العُلَماء -أَعنِي: الآياتِ الحِسِّيَّةَ-: إنها تَكون مُناسِبة للوَقْت الذي بُعِث فيه الرَّسول، واستَشْهَدوا لذلك بأن موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أُعطِيَ آياتٍ سِحْريةً؛ أي: تُشبِه السِّحْر، لكنها أَقوَى منه تَغلِبه؛ فيَضَع العصا -وهي من خشَب- على الأرض فتَنقَلِب حيَّةً تَسرَح، ويُدخِل يَدَه في جيبه فتَخرُج بَيضاءَ تَلوح من غير عَيْب، أي: من غَيْر برَصٍ؛ وهذا لأنه في وَقْته كان للسِّحْر طَوْر عالٍ مُرتَفِع، فجاء بآيات تَغلِب ذلك السِّحرَ، ويَظهَر هذا حينما اجتَمَع مع السَّحَرةِ في اليوم الذي وعَدهم فيه، فأَلقَوْا حِبالهم وعِصِيَّهم، حتى خُيِّل إليه من سِحْرهم أنها تَسعَى، فأَوْجَس في نفسه خِيفةً مُوسى، فقال له الله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ﴾ وأَمَره أن يَضَع العصا، فوَضَعها، فإذا هي حَيَّة تَلقَفُ ما يَأفِكون.

ثُم عِيسَى ابنُ مَريمَ بُعِث في زمَن تَرقَّى فيه الطِّبُّ تَرقِّيًا عظيمًا بالِغًا؛ فجاء بأَمْرٍ يَعجِزُ عنه الأطِبَّاء، يُبرِئ الأكمَه والأَبرَص بإِذْنِ الله، ويُحيِي المَوْتى بإِذْن الله، بل يُخرِج المَوْتى من قُبورهم بإِذْن الله، يَقِف على صاحِب القَبْر ويُخاطِبه فيَقول: اخرُجْ. فيَخرُج، وهذا أَعظَمُ من الطِّبِّ الذي أَتَوْا به.

أَمَّا مُحَمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فقد بُعِث في وَقْت بلَغت فيه البلاغة أَوَجَها، وصار النَّاسُ يَتَفاخَرون أيُّهم أَبلَغُ؛ فيَأتِي الشُّعَراء، ويَأْتِي الخُطَباء إلى أسواق الجاهِلية عُكاظ وغيرِه، يَتَبارَوْن في أشعارهم وخُطَبهم؛ فجاء هذا القُرآنُ قاضِيًا عليها كلها، وأَعجَزَهم، وعجَزوا عن أن يَأْتوا بآية منه، مع أنهم هُمْ أُمَراءُ البلاغة.

المُهِمُّ: أنه لا بُدَّ لكل نَبيٍّ من آية يُؤمِن على مِثْلها البَشَر؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكيمٌ ورحيمٌ؛ حَكيم لا يُرسِل شخصًا إلى الناس يَقول: أنا رَسولٌ. بدون بيِّنة، ورحيم حيث أَيَّدَ هؤلاءِ الرُّسُلَ بالآيات من وَجْه، ورحِمَ الخَلْق فجعَل مع الرُّسُل آياتٍ؛ من أَجْل أن تَكون حُجَّة الرُّسُل مَقبولة لدَيْهم.

قوله: ﴿تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟﴾ الفاء عاطِفة، وتَدُلُّ على مُبَادَرة هؤلاء بالكُفْر، وأنهم لم يَتَأَمَّلوا ولم يَنظُروا، وجه ذلك أنَّ الفاء تَدُلُّ على التَّرتيب والتَّعقيب، ﴿فَكَفَرُوا۟﴾؛ أي: بالرُّسُل وبالبيِّنات التي جاؤُوا بها، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أَهلَكهم، ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أَهلَكهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعامة إلَّا مَن آمَنَ.

ثُم بَيَّنَ أنَّ هذا الأَخْذَ شديد؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ قوِيٌّ أزَلًا وأبَدًا، فلم يَسبِق قوَّته ضَعْف، ولا يَلحَقها ضَعْف، أمَّا البَشَر فإنَّهم ضُعَفَاءُ أوَّلًا ونِهايةً، ومُنتَهى قُوَّتهم أيضًا ليس بشيء، حتى وإن بلَغ الإنسان أشُدَّه وبلَغ غاية قوَّتِه، فإنه ليس بشيء، أمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فإنه قوِيٌّ أزَلًا وأبَدًا.

﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ هذا من باب إضافة الصِّفة إلى مَوْصوفها، المَعنَى عِقابه شَديد، الشديد يَعنِي: الصُّلْب القوِيُّ الذي تَحصُل آثاره على مَن عُوقِب.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيانُ سبَب إهلاك الأُمَم، وأنَّ ذلك بذُنوبهم؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات عَدْل الله عَزَّوَجَلَّ وأنَّه لا يُؤاخِذ أحَدًا بدون ذَنْب؛ لقَوْله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه ما من أُمَّة خلَـتْ إلَّا وقد جاءَتْها رُسُلها؛ لقوله: ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ كُلُّ أُمَّة جاءَها نَذيرٌ وجاءَها رَسولٌ أَنذَرها وبَيَّن لها، وقد أَقرَّت هذه الأُمَمُ بذلك، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورة المُلْك: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا﴾ أي: في النار ﴿فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [المُلْك:٨-٩] ثُم قالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلْك:١٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، وهذا من تَمام رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وحِكْمته أَنْ أَرسَل الرُّسُل مُبشِّرين ومُنذِرين؛ لئَلَّا يَكون للناس على الله حُجَّة بعد الرُّسُل، ولأَجْل مَصْلَحة الخَلْق، نحن لولا رَسولِ الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَرسَله الله إلينا، لا نَعرِف كيف نَتوضَّأ، لا نَعرِف كيف نُصلِّي.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام بُعِثوا بالآيات البَيِّنة الظاهِرة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إقامة الحُجَّة على الخَلْق بإِرْسال الرُّسُل أوَّلًا، ثُمَّ بتَأْييدهم بالآيات البَيِّنات، التي لا تَدَعُ مَجالًا للشَّكِّ أو للإنكار.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ هؤلاء الذين وصَل إليهم، لم يَشكُروا النِّعْمة، بل بادَروا بالكُفْر والتَّكذيب.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنه لو تَأمَّل العاقِل ما جاءَت به الرُّسُل، ما أدَّى ذلك إلى كُفْره؛ لكنَّ غالب المُكَذِّبين للرُّسل يُبادِرُون بالتكذيب، قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إِثْبات الأسباب، وأنَّ الله تعالى ربَط المُسبَّبات بأسبابها، وهذا

يَدُلُّ على تَمام حِكْمَة الله، وأنه عَزَّوَجَلَّ لم يَفعَل شيئًا عبثًا، ولا لُمجَرَّد المَشيئة، خِلافًا لمَن قال من الجَبْرية وغيرهم: إنَّ الله تعالى يَفعَل ما يَشاء لُمجرَّد المَشيئة، وليس لِحِكْمة. وأَنكَروا حِكْمة الله، وقالوا: إنَّ الحِكْمة تَقتَضي النَّقْص. وهذا من غَرائِب الأفهام، الحِكْمة تَقتَضي النَّقْص!! قالوا: نعَمْ؛ لأن الحِكْمة غرَض، فإذا فعَل لكذا، فإنه مُحتاجٌ لهذا الغرَضِ!!

فيُقال لهم: تبًّا لكم ولأفهامِكُم، الحِكْمَةُ هي غايةُ الحُكْم؛ أي: أنَّ الحِكْمَة أكبرُ ما يَدُلُّ على البُعْد عن السَّفَه واللَّعِب، وأمَّا قولُكم: إنَّ الحِكْمة غرَض؛ فإذا قُلتُمْ: إن الله فعَل كذا لكذا. لزِم من ذلك أن يَكون الله مُحتاجًا إليه، فيُقال: الحِكْمة التي يَشرَع الله الشرائِعَ من أَجْلها لا تَعود إلى نَفْسه، إلَّا من حيثُ الكمال فقَطْ، أمَّا المَصلَحة فالذي يَنتَفِع بها الخَلْق، أمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فإنَّ حِكْمَتَه لا تَعُود إليه بشيء سِوى بيان كَمال صِفاته عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات القَويِّ اسمًا من أسماء الله، وهو من الأسماء اللَّازِمة، وعلى هذا لا بُدَّ من إثباته وإثبات ما دلَّ عليه من الصِّفة وهي القوَّة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن الله تعالى شَديد العِقاب، ولكن لمَن عَصاه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: التَّحذير من مُخالَفة الله؛ لأنَّه قوِيٌّ وشديدُ العِقَاب، فيا وَيحَ مَن خالَف أَمْر ربِّه؛ فإنَّه سيَتعرَّض لشِدَّة العَذاب من ذي قُوَّة لا يَلحَقها ضَعْف ﴿إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

الآيتان (٢٣، ٢٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٣-٢٤].

الجُمْلة هذه مُؤكَّدة بعِدَّة مُؤكِّدات: القسم المقدَّر، واللام، و(قَدْ)، والتقدير: «واللهِ لَقَد».

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ مُوسى هو ابن عِمرانَ، أفضَلُ أنبياء بني إسرائيلَ، وأعظَمُهم وأشَدُّهم، وهو من أشَدِّ الأنبياء وأقواهم، ويَدُلُّك على ذلك ما فعَله قبل النُّبوَّة، وما فعَله بعد النُّبوَّة.

فقبل النُّبوَّة مَرَّ برجُل من قومه يُخاصِم رجُلًا من عَدوِّه؛ فوكَزَه موسى فقَضى عليه، وهذا يَدُلُّ على قوَّتِه وشِدَّته.

وبعد النُّبوَّة لـمَّا رجَع ورأَى أنهم أَشرَكوا بالله غضِب غضَبًا شديدًا؛ فأَلقَى الألواح التي كتَبَ الله بها التَّوراة، أَلْقاها قال بعضُهم: فتكسَّرت؛ قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ [الأعراف:١٥٠] هارونَ وهو نَبيٌّ من الأنبياء مُشارِك لموسى في النُّبوَّة، ورَسولٌ؛ أَلَـمْ يَقولا لفِرعونَ: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦]، أخَذ برَأْس أخيه يَجُرُّه إليه، فقال: ﴿يَـٰبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه:٩٤]، ﴿وَلَمَّا سَكَتَ

عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف:١٥٤]، هذا أيضًا يَدُلُّ على قوَّتِه وشِدَّته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذا من الحِكْمة؛ لأنَّه أُرسِل إلى أعتَى أهل الأرض، وهو فِرعونُ؛ ولـهذا قابَله بالقُوَّة؛ قال له: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢].

وهذه قوَّة تَدُلُّ على قوَّتِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أَرْسَله الله تعالى أيضًا إلى قَوْم عُتاة، وهم بنو إسرائيلَ، ولهذا لا يُوجَد شَعْب من الشُّعوب فيما نَعلَم مثل بني إسرائيلَ في العُتوِّ والنُّفور والاستِكْبار، إلى حدٍّ أنه لَمَّا كُتِب عليهم القِتال قالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة:٢٤]، ولَيْتَهم اقتَصَروا على ذلك ﴿فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ سنَقعُد على الفُرُش ولا نَتحرَّك، وأنت وربُّك اذهَبْ فقاتِلا ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

فلهذا كان من الحِكْمة أن يَكون هذا الرَّسولُ على هذا النَّحوِ من الشِّدَّة؛ لمُناسَبة مَن أُرْسِلَ إليهم من فِرعونَ وبني إسرائيلَ.

فإن قال قائِلٌ: إذا ورَد بنو إسرائيلَ في القُرآن على سبيل التَّكريم أو ليس على سبيل الذَّمِّ، وإذا ورَد اليَهود فإنه على سَبيل التَّقريع وعلى سبيل الذَّمِّ. فهل هذا مُطَّرِد في القُرآن؟

فالجَوابُ: لا، ليس بصَحيح، الله يَذكُر بني إسرائيلَ بذُنوبهم ويَذُمُّهم ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لم يَقُلْ: من اليهود. ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧]، وآيات كثيرة.

وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ «آياتنا» جَمْع، تَدُلُّ على أنَّ مَعَهُ آياتٍ مُتَعَدِّدَةً

وهو كذلك، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ [الإسراء:١٠١] إلى آخِره، فهو أُوتِي آياتٍ أَعظَمُها وأَشَدُّها وأبينُها حِسًّا آية العصا؛ فإنَّها من آياتِ الله الحِسِّيَّة العَجيبة الغَريبة، عصًا يَهُشُّ بها على غنَمه، وله فيها مَآرِبُ أخرى، ويَتوَكَّأ عليها، إذا أَلْقاها صارَت حيَّة عَظيمة تَلقَف كل ما عمِلوا، وإذا حمَلها عادت عَصًا، وإذا ضرَب بها الحجَر تَفجَّر ماءً.

هذه العَصا آية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ، تَأمَّلِ الآنَ وتَفكَّر مدَى كثرة العِصيِّ والحِبال التي أَلقاها السحَرة وتَنوُّعها، ثُم أَلْقى هذه العصا فصارت تَلقَف كل ما تَعثُر عليه، وأنا أَتعَجَّب أين البَطْن الذي يَسَعُ كلَّ هذه الأشياءِ، نعَمْ؛ لكن آيات الله تُبهِر العُقول، وإلَّا فتَقول: كيف أنَّها حَيَّة بمِقدار العَصا تَلقَف كلَّ ما أَفِكوا من الحِبال والعِصيِّ، أين تَذهَب؟! نَقول؛ لا تَسأَل أين تَذهَب، أنت صدِّق وآمِنْ بهذا، وكيف تَذهَب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولا مانِعَ من أن تكون هذه الأشياءُ إذا مَضَغَتْهَا صارت الشيءَ الكبير شيئًا صغيرًا.

فائِدةٌ: التِّسْع الآيات التي أُرسِل بها موسى هي: العَصا، واليَد يُدخِلها في جَيْبه، والطُّوفان، والجَراد، والقُمَّل، والضَّفادِع، والدَّم، وانفِلاق البَحْر، والسِّنون ونَقْص من الثَّمَرات، وبعضُهم قال: ضرَب الحَجَر بالعَصا فيَتفجَّر.

أمَّا لبني إسرائيلَ فيَدخُل فَلْق البَحْر، وكذلك انفِجار الماء من الحَجَر، لكِنَّ هذه الثِّنْتَين ليست لآل فِرْعَونَ، فآل فرعونَ آيتهم السِّنون ونَقْص من الثَّمَرات، بالإضافة إلى السَّبْع السابِقة.

فإن قال قائِل: يَستَخدِم بعضُ عُلماء الجَرْح والتَّعديل إذا تَكلَّموا في رجُل يَقولون: هذا الرجُلُ كعصا مُوسى، تَلقَف ما يَأفِكون. وبعض الإِخْوان يَمزَح بها

فيَقول للآخَرِ: أنت كعَصا موسى تَلقَف ما يَأفِكون. فهل يَصِحُّ هذا؟

فالجَوابُ: أنا أَرَى أنه حتَّى المُحدِّثون يَقولون هذا -نَسأَل الله لهم العَفوَ- لا يَنبَغي أن يَقولوا هكذا؛ لأنه يُخشَى أن تُستَعمَل استِهْزاءً، وإن كان المُحدِّثون لا يُريدون هذا إطلاقًا، فالأَوْلى أنْ يُقال: هذا الرَّجُلُ مِثل آية، وهذا الرجُل واسِع الاطِّلاع، وهذا الرجُلُ واسِع العِلْم، وما أَشبَه ذلك.

وكذلك أيضا مَن يَقول: فُلان يَملِك عصا موسى السِّحرية. فهذا أيضًا لا يَجوز، هذا أَشَرٌّ، لأنَّ قوله: عصا موسى السِّحْرية. يَعنِي: أنَّ ما جَاءَ به سِحْرٌ، وهذا خَطير.

وقد أَرسَل الله موسى بآياتِنا وسُلْطان مُبين، والسُّلْطان كل ما يَكون للإنسان به سُلْطة؛ أي: حُجَّة وقُوَّة، ويَختَلِف باختِلاف السِّياق؛، فالسُّلْطان في كل مَوْضِع بحَسَبه، فالسُّلْطان بالنِّسبة للأَبِ مع أولاده في التأديب سُلْطان ضَرْب، والسُّلْطان فيمَن دُعُوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ سُلْطان بيان، والسُّلْطان أيضًا فيمَن جُودِل سُلطان حُجَّة، وهو يَختَلِف باختِلاف المَواضِع.

المُهِمُّ: أنه ما كان فيه سُلْطة على الغير فهو سُلْطان.

وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ يُحتَمَل أن تَكون من اللَّازِم ويُحتَمَل أن تَكون من المُتعدِّي، وذلك أنَّ أَبَانَ الرُّباعيَّ يَكون لازِمًا ويَكون مُتعدِّيًا، فتَقول: أَبَنْتُ له الحقَّ. وتَقول: أَبانَ الصُّبح؛ أي: بانَ وظهَر، فهي رُبَاعِيَّةٌ صَالِحَةٌ للتَّعَدِّي واللُّزوم.

فإن قال قائِل: كيف يَكون فِعلًا واحِدًا صالِحًا للتَّعدِّي واللُّزوم؟

قلنا: نعَم يَصْلُح، اللُّغة العربية واسِعة، فمثلًا: «رَجَعَ» فِعْل ماضٍ ثلاثيٌّ، يَكون لازِمًا ويَكون مُتعدِّيًا، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [المنافقون:٨]،

هذا لازِم، وقال تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ [التوبة:٨٣]، هذا مُتعدٍّ، فلا مانِعَ من أن يَكون الفِعْل الواحِد لازِمًا في سِياق ومُتعدِّيًا في سِياق آخَرَ، ومن ذلك «أَبانَ».

فهل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ مَعناها بَيِّن، أو مُبين مُظهِر للحَقِّ؟ نَنظُر أيُّهما أبْلَغُ البَيِّن في نَفْسه، أو المُبين لغَيْره؟

الجوابُ: الثاني؛ لأنَّ المُبين لغيره لا بُدَّ أن يَكون بيِّنًا في نفسه، وعلى هذا فكلِمة ﴿مُّبِينٍ ﴾ من المُتعدِّي، تكون أَشمَلَ وأَوسَعَ مَعنًى، وما كان أَوسَعَ وأَشمَلَ مَعنًى فإنه يُؤخَذ به، ولا نَقول: يُترَك الثاني؛ لأنَّ الثانيَ داخِل في الأوَّل.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَأكيد رِسالة موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالمُؤكِّدات الثلاثة التي ذكَرْناها آنِفًا. ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾.

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: إقامة الحُجَّة على بني إسرائيلَ، الَّذين كفَروا واعتَدَوْا مع أنَّ الله قد أَرسَل إليهم هذا الرسولَ الكَريمَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُكرِّر ذِكْر قِصَّة موسى، ويَبسُطها تارَةً، ويَختَصِرها تارَةً، ويُنوِّعها، فهي جمَعَت بين الكَثْرة والتَّنويع من حيث الأُسلوب، والتَّنويع من حيثُ البَسْط والاختِصار؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ عاش في قوم مُشرِكين أوَّل الرِّسَالة، وفي قوم يَهود بعد الهِجْرة؛ ولهذا جاءَتِ السُّوَر المَكِّية يُذكَر فيها قِصة موسى ببَسْط واختِصار تارة؛ لأَجْل أَنْ يَتهيَّأ النَّبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- لمُجَادَلة اليَهود الذين سَتكُون الهِجرة إلى بلَدٍ هُم سَاكِنون فيه؛ ولهذا لا تَجِد قِصَّة نبيٍّ مثل قِصة مُوسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا في تَنوُّعها، ولا في تَكرارها، ولا في أُسلوبها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فَضيلة موسى ﷺ وذلك بما أَكرَمه الله به من الرِّسالة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ موسى ﷺ أُوتِيَ آياتٍ، وبيَّن الله تعالى في آية أُخرى أنها ﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ موسى أُوتِيَ سُلْطانًا؛ أي: سُلْطة وقوَّة في إقامة الحُجَّة، وفي غير ذلك؛ لقوله: ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، وإذا أَرَدْت أن تَعرِف شيئًا من سُلْطانه الذي آتاه الله، فانظُر إلى مُحَاوَرتِهِ في سورة الشُّعَراء مع فِرعونَ، حيثُ أَلجَمه وأَلقَمه حجرًا، وفي النِّهاية تَوعَّده بالقوَّة؛ فقال فِرعونُ: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩]، هذه كلِمة إرهاب، ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ أَشَدُّ إرهابًا ممَّا لو قال: لأَسجُنَنَّك. كأنه يَقول: عِندي أُناسٌ سُجَناءُ كَثيرون، وأنا قادِرٌ على سَجْنك، وسأَجعَلك من بينهم، فيَكون هذا أَشَدَّ في الإرهاب ممَّا لو قال: لأَسجُنَنَّك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ما أَشَرْنا إليه في الآية التي قبلَها أنه ما من رَسولٍ أُرْسِلَ إلَّا وأُوتِيَ آياتٍ بيِّناتٍ تَدُلُّ على صِدْقه، وهذا من حِكْمة الله، ومن رحمة الله، ويَأتِي -إن شاء الله- بَقيَّة الكَلام على القِصَّة.

وقد أكَّدَ ذلك الحَديثُ الثابتُ عن النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ الله مَا بَعَثَ نَبِيًّا إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ»(١).

ومَعنَى «مِثله»: أي مثل الآيات التي جاء بها، عدَدًا وكَيْفيةً؛ على مِثله يُؤمِن البَشَر، بحَسب الذي أُرسِل إليهم. يَعنِي: مَعناها أنَّ الآياتِ التي يَأتِي بها الرُّسُل

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «بعثت بجوامع الكلم»، رقم (٧٢٧٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، رقم (١٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُؤمِن البَشَر على مثلها، يَعنِي: أنها آياتٌ مُقنِعة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الآياتِ سُلطانٌ وحُجَّة على مَن أُرسِلوا إليهم -أَعنِي: الرُّسُل- بدليل قوله: ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، وعلى هذا فيَكون عَطْف (سُلطان) على (آيات) من باب عَطْف الشيء على نفسه؛ لبَيان فائِدته وثَمَرته، فالآياتُ هي السُّلْطان.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الآياتِ لا بُدَّ أن تكون مُبيِّنة مُظهِرة للحَقِّ؛ لقوله: ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ثُمَّ قال ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾ إلى آخِره.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الزُّعماء يَقومون مَقام الأَتْباع؛ لأنَّ الرِّسالة ليسَتْ إلى هَؤلاء الثلاثة فقَطْ؛ بل إلى آل فِرعونَ كلِّهم، لكن الأسياد يَقومون مَقام الأَتْباع.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن العُتاة المُعانِدين للرُّسُل تَتنوَّع أسبابُ عِنَادِهم ومُعَارضتهم للرُّسُل، قد تَكون السلطة، وقد تَكون الوزارة، وقد يَكون المال، وقد تَكون القُوَّة البدَنية؛ ففي هذه الآيةِ ثلاثة أسباب: المُلْك، والثاني: الوَزارة، والثالث: المال. وفي عادٍ: القُوَّة البدَنية، ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فُصِّلَت:١٥].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: مُكابَرة المُكذِّبين للرُّسُل؛ حيث قالوا لهذا الرَّسولِ الكريم: إنه ساحِر، وإنه كذَّاب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن ما قالوه في رَدِّ الدَّعوة مُجرَّد دَعوة؛ لأنهم لم يُقيموا على دَعْواهم أيَّ دليل مُجرَّد قالوا: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾، وهذا يَلجَأ إليه الضُّعَفاء العاجِزون، إذا عجَزوا عن مُدافَعة الحُجَّة بالحُجَّة ذهَبوا إلى السَّبِّ والشَّتْم، وما أَشبَه ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الآياتِ التي تَأتِي بها الأنبياء يَعجِز عن مِثْلها عامة

الناس؛ لقوله: ﴿سَٰحِرٌ﴾ والساحِر مَن يَأتِي بأمور تُعجِز الناس، لكن الفَرْق بين الساحِر وبين النَّبيِّ أن النَّبيَّ مُؤيَّد من عند الله عَزَّوَجَلَّ لا بفِعْله هو، بمَعنى: أنَّ السَّاحِر هو الذي يُعَالِج الشيء حتى يَأتِيَ بالمُعجِزة، أمَّا النَّبيُّ فإن الآياتِ تَأتِيه بدون أيِّ عمَل منه، بل بإرادة الله عَزَّوَجَلَّ.

فإذا قال إنسان: إذَنْ ما الفَرْق بين الكَرامة وآية النَّبيِّ؟

قلنا: الفَرْق بينهما أنَّ الكرامة تَأتِي لمُتَّبِع النَّبيِّ، وأمَّا الآية فتَأتِي للنَّبيِّ نفسه، أي أنَّ مَن آتاه الله كَرامة من الأولياء، ليس يَقول: إنه رَسول، ولا إنه نَبيٌّ. ولكِن الله يُعطيه الكَرامة تَأْييدًا له، أو تَأْييدًا للإسلام، وفي ذلك أيضًا آيةٌ للنَّبيِّ الذي يَتبَعُه.

فإن قال قائِل: هناك مَن يَقول: إنَّ في السَّابِق كانت المُعجِزات الحِسِّيَّة خارِقة للعادة، ثُم حين تَطوَّر العقل البشَريُّ وبلَغ أَوَجه في عهد النَّبيِّ ﷺ أتَى القُرآن؟

فالجَوابُ: هذا رُبَّما نَقول: هذا صحيح. لكن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ محمدٌ أتَى بمُعجِزات حِسِّية، ومُعجِزات مَعنَوية، له مُعجِزات حِسِّية عَظيمة؛ انشِقاق القمَر مُعجِزة، نَبْع الماء من بين أَصابِعه[1] مُعجِزة، فوَران الماء من البِئْر التي نضَب ماؤُها لَمَّا مجَّ فيها شيئًا من فمِه[2]؛ كل هذه مُعجِزات حِسِّية.

أمَّا السِّحْر والشَّعْوذة فهو كل خارِق للعادة يَظهَر على يَدِ مُخالِف الرسول.

وقد أَنكَرت المُعتَزِلة الكراماتِ وقالت: لو أنَّنا أَثبَتْنا الكراماتِ لاشتبَه النَّبيُّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب الوضوء من التور، رقم (٢٠٠)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ، رقم (٢٢٧٩)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٧٧)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بالوَلِيِّ، والوَلِيُّ بالساحِـر! فيُقال: هذه مُغالَطة؛ لأن النبيَّ يَقول: إنه نبيٌّ. والذي ظهَرَت كرامةٌ على يَدِه يَقول: إنه وليٌّ وليس بنَبيٍّ. والساحِر ليس نَبيًّا ولا وَليًّا، مَعروف بأنه فاسِقٌ مُخالِف للشَّرْع، فلا يُمكِن أن يَكون التِباسٌ.

فإن قال قائِل: بالنِّسبة لبعض الناس الذين يَعتَقِدون في المَشايِخ، وكذا يَقولون: إن الشَّيْخ يَنفَع ويَضُرُّ، ولكن بإِذْن الله تعالى، فنُريد رَدًّا حاسِمًا عليهم، يَقولون: هم يَنفَعون ويَضُرُّون، ولكن بإِذْن الله.

فالجَوابُ: نَقول: أين الدَّليل على أن الله أَذِنَ لهم؟ فإن قيل: الدَّليل الحِسُّ، وهو كَثْرة حُصول هذا الشيءِ. قيل: كَثْرة حُصول هذا الشيءِ إمَّا أن يَكون شيئًا يُدرِكه كل إنسان، فلا مِيزةَ للمَشايِخ مِثْل الدُّعاء يَدعو فيَستَجيب الله، وإمَّا أن يَكون شيئًا لا يُدرِكه الإنسان فهو من الشَّياطين، الشياطين تَخدُم هَؤلاءِ الشيوخ؛ لأنهم يُضِلُّون عن سبيل الله، والشَّيْطان لا يُريد منَّا إلَّا أن يُوقِع بينَنا العَداوة والبَغْضاء، ويَصُدَّنا عن ذِكْر الله فنَقـول هذا، ولا شَكَّ أنهم يُضِلُّـون العوامَّ، فيقولون: تَعالَ تُريد أن تَصير حِمارًا حصانًا، يَدعو الله عَزَّوَجَلَّ ظاهِرًا، والشَّيْطان يُحوِّل هذا الحِمارَ إلى حصان بالرُّؤْية، يعني نوع من السِّحْر نَوْع بالتَّمويه، وهُمْ يَأكُلون أموال الناس بالباطِل.

وأنا سمِعْت من بعض الجِهات في إفريقيا المَشايخ يَقولون: إنه قد رُفِع عنَّا التَّكليف، لا أحَدَ يَصوم ولا نُصلِّي ولا نُزكِّي ولا شيء، ورُفِع عنَّا كل المُحرَّمات؛ ولهذا يَكون الواحِد منهم مثل التَّيْس يَتزوَّج خَمسين امرأةً أو أكثَرَ بعَقْد النِّكاح، فهو وليٌّ مَرفوعٌ عنه التَّكاليف، ويَقول: هذه التَّكاليفُ ما هي إلَّا وسائِلُ حتى تَصِل إلى الغاية، إذا وصَلت إلى الغاية بطَلَت التَّكاليفُ، كالرجُل يَتأهَّب إلى السفَر ويَركَب السَّيَّارة، أو يَأخُذ عصا الجمَل، فإذا وصَل إلى البَلَد رَماها -نَسأَل الله العافِيةَ-

والشياطين تَخدُمهم، حتى ذكَر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] أن بعض الناس يَقول: إني رأَيْتك أنت في عرَفةَ، أنت يا ابنَ تيميَّةَ. وهو في الشام لم يَحُجَّ، يَقول: هذا الشَّيْطانُ يَتمَثَّل بي. يَقول: أنا ابنُ تَيميَّةَ. ويَقول للذي يجيء إليه: يَقول ابن تيميَّةَ: هذا حلال، وهذا حرام.

وقول الله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ مُتعلِّق بإرسالنا، وفِرعونُ هو حاكِم مِصرَ، الذي مَلَكها وسُلِّطَ على بني إسرائيلَ؛ فكان يُقَتِّل أَبناءَهُم ويَستَحيِي نِسَاءَهم، قيل: إنه كان يَفعَل ذلك من أَجْل أنه قيل له؛ أو قال له بعضُ الكَهَنة: إنه سيَكون في بني إسرائيلَ رجُل يَكون زوالُ مُلْكِك على يَدِه. هذا قول؛ وقول آخَرُ: إنه فعَل ذلك إِذْلالًا لهم وإهانةً؛ لأنَّه إذا قُتِّل الرِّجال وبقِيَت النِّساء هلَكَتِ الأُمَّةُ، وهذا القول أقوى، وذلك لأنَّ القول الأوَّل مُعتمَدُه النَّقْل عن بني إسرائيلَ، ومَعلوم أنَّ النَّقْل عن بني إسرائيلَ لا يُصدَّق ولا يُكذَّب، والمعنى المَعقول لكونه يُذَبِّحُ أبناءَهُم ويَستَحْيي نِساءَهم، هو إذلال هذا الشَّعبِ، وهو قِلَّةٌ بالنِّسبة للأَقْباط.

قوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ﴾ هامانُ وزيرُ فِرعونَ، وقارونُ تاجِرُ آل فِرعونَ؛ لأن قارونَ كان غنِيًّا غِنًى عظيمًا، حتى قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي: من الذهَب والفِضَّة ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ أي: الذي إن مِفاتِحَه ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦] تَنوء يَعنِي: تَثقُل بهم؛ أي: تَثقُل، العَصَبة؛ أي: الطائِفة من الناس الأقوياء هذه مَفاتيحه.

إِذَنْ: فالخَزائِن كثيرة وعَظيمة ﴿قَـٰرُونَ﴾ فقالوا: الضَّمير يَعود على الثلاثة، فِرعونَ وهامانَ وقارونَ ﴿فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿سَـٰحِرٌ﴾ خبَرُ لُمبتَدَأ مَحذوف،

(١) انظر نحوه في: مجموع الفتاوى (١/ ٨٣، ١٣/ ٩٢).

قدَّره المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [هو ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾].

والساحِرُ اسم فاعِلٍ من السِّحْر، وهو الذي يَسحَر الناس؛ فيُريهم الحقائق على غير ما هي عليه، وليس هو الذي يُغيِّر الحَقائِق؛ لأنه لا يُغيِّر الحَقائِق إلَّا الخالِق عَزَّوَجَلَّ، لكن يُرِي الناس الحقائِق على غير ما هي عليه، مثل ما فعَل السحَرة -سحَرة آل فِرعونَ- حين أَلقَوُا الحِبال والعِصيَّ؛ فـرآها الناس وكأنها حيَّاتٌ تَسعى، وهي ليست كذلك.

هؤلاء قالوا: إن موسى ساحِر، كيف يُلقِي العصا فتكون حَيَّة؟! كيف يُدخِل يدَه فتَخرُج بَيْضاءَ من غير سوء؟! ليس هذا إلَّا سِحْر. ﴿كَذَّابٌ﴾.

وقوله: ﴿كَذَّابٌ﴾ أي: كاذِب فيما ادَّعى من الرِّسالة، فهو في آياته ساحِر، وفي دَعْواه كاذِب، ثُم قال: ﴿كَذَّابٌ﴾ صيغة مُبالَغة أو نِسبة، والفَرْق بين صيغة المُبالَغة والنِّسبة أنَّ النِّسبة وَصْفٌ مُلازِم، وصيغة المُبالَغة فِعْل حادِث مُتكرِّر. فكلِمةُ النَّجَّار هذه نِسْبة، وقد تَكون صيغة مُبالَغة لكَثْرة نِجارته. وأمَّا إذا قيل: فُلان أكَّالٌ للطعام فهذا قد لا يَكون نِسبة، ولكن لكَثْرة أَكْله سمَّيْناه بأنَّه أكَّال.

• • ۞ • •

الآية (٢٥)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر:٢٥].

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أَرسَله الله بالآيات؛ فقالوا: ساحِر كذَّاب. قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ بالصِّدْق] ﴿مِنْ عِندِنَا ﴾: من عِند الله عَزَّوَجَلَّ وهو الوَحيُ، حينما قال موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: إنَّ الله هو ربُّكم، وإن الله واحِد، وما أَشبَه ذلك ممَّا جرَت فيه المُحاوَرة بينه وبين فِرْعَونَ، وهذا مَذكور في سورة الشُّعَراء، وفي سورة الإِسْراء وغيرهما.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ الذي عجَزوا أن يُقابِلوه بالحُجَّة الداحِضة، تَوعَّد فِرعونُ موسى فقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء:٢٩]، وهذا وَعيد، شيء آخَرُ قالوا: ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ﴾ [غافر:٢٥]، قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [استبْقوا] ﴿نِسَآءَهُمْ ﴾ وعلى هذا فيَكون القَتْل لأبناء بني إسرائيلَ، واستِحْياء النِّساء يَكون وقَع مرَّتَيْن؛ المرة الأُولى قبل أن يُبعَث موسى، والمرة الثانية بعد أن بُعِث.

﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ﴾؛ لئَلَّا يَبقَى لهم شَوْكة، ولتَزول هَيْبتهم؛ لأنه إذا لم يَبقَ إلَّا النِّساء فالنِّساء ضَعيفات، لا يَدفَعْن عن

أنفُسِهِنَّ، ولا يُدافِعن عن حُقوقِهن، فيَبقَى موسى وقومه على أَسوَأ حال.

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هَلاك] (ما) نافِية، و﴿كَيْدُ﴾ مُبتَدَأ، ولا يَصِحُّ أن يَكون اسمها؛ لأنَّ مِن شرط عمَل (ما) عمَلَ (ليس) أن لا يُنتَقَض النَّفيُ. قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

..... مَـعَ بَقَـا النَّفْـيِ وَتَرْتِيـبٍ زُكِـنْ[1]

فإذا انتَقَض النَّفيُ؛ فإنَّها لا تَكونُ عَامِلَة عمَل (ما)، وفي القُرآن الكريم كثير من هذا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون:٢٤]، ولم يَقُل: ما هذا إلَّا بشَرًا؛ لأنه انتُقِض النَّفيُ، إذَنْ: (ما) نافِية، و﴿كَيْدُ﴾ مُبتَدَأ.

وقوله: ﴿كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الكَيْد والمَكْر والخِداع، وما أَشبَهَها، كلُّها كلِمات مُتقارِبة، معناها التَّوصُّل إلى الإيقاع بالخَصْم، من حيثُ لا يَشعُر، يَعنِي: يَتوصَّل إلى الإيقاع بخَصْمه بأسباب خَفيَّة، لا يَشعُر بها الخَصْم؛ لأن الكائِدَ والماكِر والخادِع لا يَأتِي بالشيء علَنًا هكذا، بل بأسبابٍ خَفيَّة، فهي التَّوصُّل إلى الإيقاع بالخَصْم من حيث لا يَشْعُر؛ أي: بأسباب خَفيَّة؛ فالكُفَّار لهم كيدٌ عَظيم، يَكيدون على الإسلام، وليسوا يَكيدون للإسلام؛ لأن هُناك فَرْقًا بين الكَيْد على الشيء، والكيد للشيء، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف:٧٦]، ولم يَقُل: على. لكن الكَيْد بالعَدوِّ هذا يُسمَّى كَيْدًا عليه، الكافِرون لهم كَيْد على الرُّسُل، يَكيدون كيدًا عظيمًا، ويَفعَلون كل سبَب يُدحِضون به حُجَّة الرُّسُل، ولكن مَهما عمِلوا؛ فالله عَزَّوَجَلَّ يَقولُ: قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ كَيْدُهم في ضَلال؛ أي: في هَلاك وضَياع. كما أنَّ الضالَّ لا يَهتَدِي السَّبيل كذلك كَيْد هَؤلاء الكُفَّارِ لا يُوصِلهم إلى المَقصود.

---

(١) الألفية (ص:٢٠).

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أتى بالحَقِّ إلى فِرعونَ وهامانَ وقارونَ، وهذا يَدُلُّ على أنه صدَع به أمامَهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هَؤلاءِ المُكذِّبين عجَزوا عن رَدِّ الحَقِّ الذي جاء به؛ فلم يُقابِل الحُجَّة بمِثْلها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ هؤلاءِ الثلاثةَ لجَؤُوا إلى القَتْل والتهديد، قالوا: ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [غافر:٢٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الذي يَحمِي الدِّيار ويُدافِع عنها همُ الرِّجال، وأن المرأة ليسَت بذاك الذي يُدافِع عن البلَد، أو يَدفَع العُدوَّ؛ دليل ذلك أنَّ هؤلاءِ قالوا: ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التَّعصُّب التامُّ للكافِرين، يَعنِي: أنهم مُتَعصِّبون، فهم يَقولون: ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ يَعنِي: وغير المُؤمِنين من بني إسرائيلَ لا تَقتُلوهم، اقتُلوا أبناءَ الذين آمَنوا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الله تعالى قد يُسَلِّط أعداءَه على المُؤمِنين، امتِحانًا وابتِلاءً، والواقِع كذلِك، وقد يَكون الإنسان كلَّما اشتَدَّ إيمانه اشتَدَّ إيذاءُ أعداءِ الله له.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الكُفَّار يَكيدون للمُؤمِنين؛ لقوله: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الحُكْم على هَؤلاء الثلاثة بأنَّهم كُفَّار، ولهذا لم يَقُل: وما كَيدُهم. بل أَظهَر في مَوضِع الإضمار، إشارة إلى أنَّ هَؤلاءِ كُفَّار، وقد سبَقَ لنا أنَّ الإظهار

في مَقام الإضمار يُستَفاد منه ثلاث فَوائِدُ:

الفائِدة الأُولى: الحُكْم على هـؤلاء الذين حَلَّ الضَّميـر محَلَّ ضَمِيرهم بهذا الوَصْف.

والثانية: العُموم والشُّمول.

والثالِثة: إفادة التَّعليل ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: البُشْرى التامَّة للمُؤمِنين بأن الكُفَّار مَهما كادوا؛ فإن كيدَهم ضائِع وهالِك لن يَنفَعهم ولن يَستَفيدوا منه شَيئًا، وإنِ استَفادوا فإنما يَستَفيدون فائِدة مُؤقَّتة، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

• • ۞ • •

الآية (٢٦)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦].

ثُم قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أَعوذُ بالله! وقد كانوا اقتَرَحوا أن يَقتُلوا أبناءَ بني إسرائيلَ، ويَستَحوا نِساءَهم، لكِنَّ فِرعونَ قال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ اترُكوني أَقتُل موسى. وإنما قال هذا؛ لأن موسى هو زَعيم بني إسرائيلَ، ومَعلوم أنَّ قَتْل الزعيم يُوجِب وهَن الأَتباع وضَعْفهم.

وفي قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ اترُكوني، دليلٌ على تَمويه فِرعونَ، وأنه رجُل مُموِّه كائِد، خَبيثٌ كأنَّه يَقول: إن الناس يُمسِكُونني عن قَتْل موسى، ولولا أن الناس يُمسِكوني لقَتَلته. فيَقول: اترُكوني عليه، اترُكوني أَقتُله. مع أنه لا أَحَدَ يَستَطيع أن يَرُدَّه عن مُراده؛ لأنه يَقول لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، لكن يُموِّه ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ و﴿أَقْتُلْ﴾ مَجزوم على أنه جَوابُ الأمر ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ وجَوابُ الأمر يَكون مَجزومًا، وهل هو مَجزوم به، أو بشَرْط مُقدَّر؟ على قولَيْن:

القولُ الأوَّلُ: إنه مَجزوم به.

والثاني: إنه مَجزومٌ بشَرْط مُقدَّر، والتَّقدير: إن تَذَروني أَقتُل موسى، والقاعِدة

عِندنا في التَّفسير، وفي الحَديث: أنه إذا دار الكَلام بين التَّقدير وعدَمه فالأصل عدَمُ التَّقدير، وعلى هذا فنَقول: ﴿أَقْتُلْ﴾ فِعْل مُضارِع مَجزوم على أنه جوابُ الأمر، وعَلامة جَزْمه السُّكون.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾؛ لأنهم كانوا يَكُفُّونه عن قَتْله] بنَى المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله هذا على ظاهِر اللَّفْظ، أنهم كانوا يَكُفُّونه، ويَقول: ذَروني أَقتُله، ولكن الذي نَرى: أنَّه كَذَّاب لم يَكُفَّه أحدٌ عن قَتْله، ولا يَستَطيع أحدٌ أن يَكُفَّه عن قَتْله أبدًا، لكن هو أَراد أن يُمَوِّه؛ لأنه لا يَستَطيع أن يَقتُل موسى؛ فادَّعى أنه -أو تَظاهَر بأنه- يُكَفُّ عن قَتْله، ويَقول: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾.

قال: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ تَحَدٍّ -والعِياذ بالله-، والواو حَرْف عَطْف، واللَّام لام الأَمْر، و«يَدْعُ»: فِعْل مُضارِع مَجزوم بلام الأمر، وعلامة جَزْمه حَذفُ الواو، والضَّمَّة قبلها دليلٌ عليه، وأصلُ «يَدْعُ»: «يَدعو».

وقوله: ﴿أَقْتُلْ﴾ و﴿وَلْيَدْعُ﴾ هذا تَحَدٍّ سافِرٌ لموسى ومَن أَرسَله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يَعنِي: إن كان صادِقًا؛ فلْيَدعُ هذا الربَّ الذي أَرسَله، قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ليَمْنَعه مِنِّي].

وقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ ذكَرْنا لكم أنَّ اللَّام لامُ الأمر، وهي ساكِنة، فبعد الواو والفاء و(ثُم) تكون ساكِنة، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [الحج:١٥]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج:٢٩]، وهنا قال: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾.

وقوله: ﴿رَبَّهُۥٓ﴾ ولم يَقُل: رَبَّنا؛ لأنه لا يَعتَرِف ظاهِرًا برُبوبية الله، وإنَّما أَضاف

الرُّبوبية إلى مُوسى، من أَجْل التَّبكيت، يَعني: كأنه يَقول: هذا رَبُّك الذي زعَمْت، إن كُنتَ صادِقًا فلْيَمنَعْك مِنِّي.

قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾.

قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ هذا الخَوفُ حَقيقيٌّ، هو يَخاف أن موسى بما معَه من الآيات يُبدِّل دِين هَؤلاءِ؛ لأن دِينهم التَّعبُّد لفِرعونَ، وموسى يَقول: اعبُدوا الله؛ فإذا جاءَ بالآيات واتَّبعه الناس بَدَّل الدِّين، فصَارَ الناس بدَل أن يَتَّجِهوا إلى فِرعونَ ويَعبُدوه، يَتَّجِهون إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ من عِبادتكم إيايَ فتَتَّبِعونه].

إِذَنْ: دِينهم هو عِبادتهم فِرعونَ، فإذا دعاهم موسى إلى عِبادة الله انصَرَفوا إلى الله، فتَبدَّل الدِّين، واتَّبَعوا موسى.

فقوله: «وَأَنْ يَظهَر فى الأَرْض الفَسادُ» الفَساد على زَعْمه هو: صرف الناس عن عِبادته إلى عِبادة الله، هذا وَجهٌ.

وجهٌ آخَرُ: تَفريق الناس بدَل أن كانوا مُتَّفِقين عليه، ما بين خائِف وراغِب، يَختَلِفون؛ فيَكون بعضُهم تابِعًا لمُوسى، وبعضُهم لفِرْعون، وتَفرُّق الأُمَّة لا شكَّ أنه فَساد، فصار إظهار الفَساد يَدَّعيه من وجهَيْن: الأوَّل: تَغيِير الدِّين. والثاني: تَفريق الأُمَّة.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [«وَأَنْ يَظهَرَ فى الأَرْضِ الفَسادُ» مِنْ قَتْل وغَيْره]، القَتْل هذا غالِبًا من لازِم الاختِلاف، ولازِم الاختِلاف بين الأُمَّة أن يَصِل بهم النِّزاع إلى حَدِّ المُقاتَلة أو غيره، ومنه تَغيُّر عِبادة الناس من عِبادة فِرعونَ إلى عِبادة الله.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قِراءة (أو)] إِذَنِ الشَّارِح شرَح على الواو؛ لأنه قال: [وفي قِراءة (أو)] وهذه القِراءة سَبْعية؛ بِناءً على الاصطِلاح الذي تقدَّم، أنه إذا قال: وفي قِراءَة، أو قال بالضَّمِّ والفَتْح مثلًا؛ فهي سَبْعية. وإذا قال: قُرِئ فهي شاذَّة.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي أُخرَى بفَتْح الياء والهاء وضَمِّ الدال] «وَأَنْ يَظْهَرَ فى الأَرْض الفسادُ» ضمُّ الدال على أنَّ «الفَساد» فاعِل «يَظهَر».

وهذه القِراءات تَختَلِف مَعنى من حيثُ الظاهِر؛ لكنَّ مُؤدَّاها واحِدٌ؛ لأنه إذا أَظهَر موسى الفَساد في الأرض، ظهَر الفَساد، فيكون اختلاف القراءات فيه فائدة: أولًا: الفائدة من (أو) والواو: إذا كانت (أو) صار أنَّه خاف أحَد أَمْرين: أن يُبدِّل الدِّين، أو أن يُظهِر الفَساد، والواو ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ و﴿أَن يُظْهِرَ﴾ يَكون خاف من اجتِماع الأَمْرين؛ تَبديل الدِّين، وظُهور الفَساد.

ولا بُدَّ من أحَدِ الأمرين؛ إمَّا أن يُبدِّل الدِّين، وإمَّا أن يُظهِر الفَساد، وإن لم يُبدِّل الدِّين لا بُدَّ أن يَكون هناك قَتْل ونِزاع، ولا بُدَّ أيضًا من طرَف آخَرَ أن يُجمَع بين الأمرَيْن؛ تَبديل الدِّين، وظُهور الفَساد، بالنِّسْبة (ليَظْهَر) و(يُظْهِر) نَقول: إذا قصَد إظهار الفَساد؛ فقد يَظهَر وقد لا يَظهَر، فإذا كان «وَأَنْ يَظْهَرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسَادِ» صار حُصول ما أَرادَه من إظهار الفَساد.

فالقِراءات مُؤدَّاها واحِد «وَأَنْ يَظْهَرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسَادُ».

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَمويه فِرعونَ، وأنه رجُلٌ ماكِر مُخادِع يُظهِر خِلاف الواقِع؛ لقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: شِدَّة حَنَق فِرعونَ على موسى؛ إلى حَدِّ أنه أَراد قَتْله.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: شِدَّة تَحدِّي فِرعونَ، حيثُ قال: دعَوني أَقتُله، ولْيَدْعُ ربَّه؛ يَعنِي: يَتَحدَّاه إذا دعا رَبَّه هل يُفيده أو لا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: خوفُ الكُفَّار من سِلاح المُؤمِنيـن بالدُّعاء؛ لقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ وإن كان المَقصودُ التَّحدِّي، لكن لا شَكَّ أنه قد فَهِم أن الدُّعاء سِلاح لموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَعصُّب الكُفَّار لدِينهم؛ لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن قَوْم فِرعونَ يَدينون له بالعِبادة، يَعنِي: يَتَّخِذون تَذلُّلهم له عِبادة؛ لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الكُفَّار يَرَوْن أنَّ الإيمانَ فَسادٌ في الأَرْض؛ لقوله: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ وإذا كانوا يَرَوْن ذلك، فلا بُدَّ أن يُحوِّلوا بين الناس وبَيْنَه؛ حتى لا تَفسُد الأَرْض على زَعْمهم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الكُفَّار يَدَّعون ما هو كَذِب؛ لإِبْقائهم على ما هُمْ عليه، وهو دَعْواه أن الناس إذا دانوا لله ظهَـر في الأرض الفَساد، من أَجْل أن يَبقَى الناس على تَديُّنهم لفِرعونَ. واللهُ أَعلَمُ.

• • ۞ • •

الآية (٢٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر:٢٧].

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لقومه وقد سمِع ذلك ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾...] إلى آخِره.

قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ﴾ تَوجيه القَوْل إلى قوم مُوسى ليس بصواب، بل قال مُوسى لِفرعونَ: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ هذا إن كان فِرعونُ قد قاله له مُواجَهةً، يَعنِي: قال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ مُواجَهةً، فإن موسى قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ مِنكم، ولكن قال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾، أمَّا إذا كان فِرْعونُ يَتَحدَّث مع قومه وسَمِعَ موسى ذلك؛ فعلى ما قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ موسى لَمَّا سمِع هذا قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾، ولكن الظاهِر -واللهُ أعلَمُ- أنَّ المعنى الأوَّلَ أصَحُّ أنه قاله لِفرعونَ حين قال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ ﴿عُذْتُ﴾ بمعنى: اعْتَصَمْتُ بالله؛ لأن عِياذة الشيء الاعتِصام به، قال العُلَماء: ويُقال: العِياذ واللِّياذ الفرق بينهما أنَّ اللياذ فيما يُرجَى، والعِياذ فيما يُخشَى.

فمَعنى ﴿عُذْتُ﴾: اعتَصَمْت بربِّي وربِّكم، بربِّي وربِّكم، هذه الرُّبوبيةُ العامَّة

والخاصَّة، ربِّي هذه رُبوبية خاصَّة وربُّكم ربوبية الله لِفرعونَ وقومه من الربوبية العامَّة.

وقوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ وهذا الوَصْفُ يَنطَبِق تَمامًا على فِرعونَ، فهو مُتكَبِّر طاغٍ عاتٍ عالٍ، والمُتكبِّر هو المُترفِّع كِبرياءً عن الحقِّ، وعلى الخَلْق، لأن الكِبْر إمَّا عن الحقِّ وإمَّا على الخَلْق؛ لقول النبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»[1] «بَطَرُ الحَقِّ» يَعنِي: احتِقارَه وازدِراءَه، وهذا التَّكبُّرُ عن الحقِّ، و«غَمْطُ النَّاسِ» يَعنِي: احتِقارهم، وهذا التَّكبُّر على الخَلْق، وإذا اجتَمَع في قَلْب المَرْء تَكبُّر على الخَلْق، وتَكبُّر عن الحَقِّ فهو الهالِك، والعِياذ بالله.

وقوله: ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ يَعنِي: يوم القِيامة، وعدَل عن قوله يوم القِيامة إلى يوم الحِساب؛ لأن الحِساب أشَدُّ خَوْفًا من يوم القِيامة، إذا قِيل للإنسان: إنك سَوْف تُحاسَب على ما عمِلْت من خيرٍ وشَرٍّ؛ فإنه سوف يَخاف ويَوجَل ويَستَقيم.

وإنَّما ذكَر الحِساب دون القِيامة؛ لأنه أشَدُّ تَخويفًا؛ فإن الإنسان إذا عَلِم أنه سيُحَاسَب على عمَله، فسَوْف يَرتَدِع عن المَعاصِي، ويَقوم بالأَوامِر.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: قُوَّة موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وصَراحته؛ حيث أَعلَن أمام مُهدِّديه بالقَتْل بأنه عاذَ بالله ربِّه وربِّهم؛ لقوله: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ [غافر:٢٧].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قوَّةُ تَوكُّله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، حيث اعتَمَد على الله أمام هذا الطاغِيةِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الذي يَسْهُل عليه أن يُنفِّذ ما تَوعَّد به.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وَصْف فِرعونَ بهذَيْن الوَصْفين الذَّميمَيْن: التَّكبُّر، وأنَّه لا يُؤمِن بيَوْم الحِساب.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: العُدول إلى العُموم دون الخُصوص؛ لأنه لم يَقُل: إني عُذْت برَبِّي وربِّكم من فِرعونَ، ولكن قال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ [غافر:٢٧]، ليَعُمَّ فِرعونَ وغير فِرعونَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه إذا جاءَت بصِيغة العُموم وبالوَصْف انطَبَقت على فِرعونَ، وبيَّنت أنه مُتَّصِف بالاستِكْبار، وكذلك الكُفْر بيَوم الحِساب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات يَوْم الحِساب، وهو يوم القِيامة، والحِساب ليس مُناقَشة الإنسان على عمَله؛ لأنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قال: «مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ»[1]؛ لأن الله لو ناقَشَك لكانت نِعْمة من نِعَمه تُغطِّي جَميع الحَسَنات التي قُمْت بها، بل إن حَسَناتك التي قُمْت بها نِعْمة من الله عَزَّوَجَلَّ تَحتاج إلى شُكْر، ثُم إذا وُفِّقت لشُكْرها تَحتاج إلى شُكْر آخَرَ للتَّوْفيق إلى الشُّكْر، ثُم هَلُمَّ جرًّا؛ ولهذا قال الشاعِرُ:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ

وهذا صَحيح؛ فالحِساب هو أنَّ الله تعالى يَخلو بعَبْده المُؤمِن، ويُقرِّره بذُنوبه،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، رقم (٦٥٣٦)، ومسلم: كتاب الجنة، باب إثبات الحساب، رقم (٢٨٧٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فيَقول: عمِلت كذا، عمِلت كذا؛ فإذا أَقَرَّ قال: قد سَتَرْتها عليك في الدُّنيا، وأنا أَغفِرها لك اليومَ، أمَّا الكُفَّار فإنهم لا يُحاسَبون مُحاسَبة مَن تُوزَن حَسَناته، وسَيِّئاته؛ لأنه ليس لهم حَسَنات، ولكن تُحصَى أعمالهم، ويُوقَفون عليها، ويُخزَوْن بها، يَعنِي: يُذلُّون بها، ويُقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨]؛ هذا هو حِساب الكُفَّار، وذاك حِساب المُؤمِنين.

• • ۞ • •

الآية (٢٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر:٢٨].

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا ﴾ إلى آخِره؛ لَمَّا سمِع هذا الرجُلُ المُؤمِن بتَهديد فِرعونَ لموسى بالقَتْل، قال ذلك؛ وتَأمَّل سِياق الآية، ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ لم يُعيِّنه باسْمِه، بل قال: ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ كِتْمانًا له؛ لأنه ليس المَقصود مَعرِفة الاسم، إنَّما المَقصود مَعرِفة القَضيَّة، أمَّا تَعيين الأسماء فهي من فُضول العِلْم، بمَعنَى: إنْ حَصَل فهذا طَيِّب، وإن لم يَحصُل فلَيْس ذا أَهمِّية.

قوله: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ مُؤمِن بالله، ورُبما نَقول: مُؤمِن بمُوسى أيضًا. ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ يُحتَمَل أنَّ المُراد من قَرابته؛ لأن آل الإنسان قرابته، ويُحتَمَل أن المُراد من أَتْباعه؛ لأن الآل تُطلَق على الأَتْباع، وأيًّا كان فالرَّجُل ليس من بني إسرائيلَ، بل هو من قَوْم فِرعونَ، سواء كان من قَرابته، أو من قَوْمه الذين يَنتَمون إليه، وقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قيل هو ابنُ عَمِّه] هذا قول أَشار المفَسِّر إلى ضَعْفه بكلِمة: قيل.

قوله: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ أي: يُخفيه ويُسِرُّه خوفًا على نَفْسه، وفي قوله: ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ هذه ثَلاث صِفات: مُؤمِن، من آل فِرعونَ، يَكتُم إيمانه.

وقد قال عُلَماء النَّحو: إنَّ النَّكِرة إذا وُصِفت أوَّل مرَّة فإن ما بعدَها يَجوز أن يَكون حالًا، ويَجوز أن يَكون صِفَة، وعلى هذا؛ فيَجوزُ أن يَكون ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ حال، و﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ حال، ويَجوز أن يَكون ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ صِفة ثانية، و﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ حال، ويَجوز أن تكون ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ صِفة ثانية، و﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ صِفة ثالِثة، ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾؛ أي: يُخفيه عن فِرعونَ وقومِه.

قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ الاستِفْهام هنا للإنكار، يَعنِي: كيف تَقتُلون رجُلًا لم يَأتِ بشَيْء إلَّا أنه يَقول ربِّي الله؟! وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج:٨]، وقوله: ﴿أَن يَقُولَ﴾ (أن) هذه مَصدَرية على تَقدير اللَّام، ولهذا قدَّرها المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [أي: لأن يَقول] فعلى هذا تَكون (أن) مَنزوعة اللَّام، التي للتَّعليل؛ أي: بقوله ربِّي الله، لا فِرعونَ. وهم يَرَوْن أنَّ ربَّهم فِرعونُ.

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمُعجِزات الظاهِرات من ربِّكم]، ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الباء للمُصاحَبة، والبيِّنات صِفة لمَوْصوف مَحذوف، وتَقديرها -خِلافًا للمُؤلِّف- الآيات؛ أي: جاءَكم بالآيات البيِّنات؛ أي: الظاهِرات التي تَدُلُّ دَلالة قاطِعة على أنه نَبيٌّ.

قوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ هذا يُسمَّى عند عُلَماء المَنطِق (السَّبْر والتَّقْسيم)؛ لأن موسى الآنَ إمَّا

أن يَكون صادِقًا، وإمَّا أن يَكون كاذِبًا، وليس هناك رُتْبة بين الصدَق والكذِب؛ لأنه هو يَقول: إنه رسول الله، فإمَّا أن يَكون صادِقًا في هذا، وإمَّا أن يَكون كاذِبًا، وعلى كلٍّ فإنه لا يَضُرُّكم أن تُصدِّقوه؛ ولهذا قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي: ضرَر كذِبه]، وسوف يُوقِع الله به الخِزيَ والعارَ لو كذَبَ على الله، قال الله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزُّمَر:٣٢]، والآيات في هذا المَعنَى كَثيرة، وأن الله تعالى يَهتِكُ سِرَّه ويُبيِّن كذِبَه؛ فيَكون كذِبُه عليه.

وقوله: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ في أنه رَسول وكذَّبْتُموه أنتم أَصابَكم بعض الذي يَعِدُكم، قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من العَذاب عاجِلًا]، وكذلك يُصِبْكم في الآخِرة آجِلًا؛ فصار الآنَ الخَطَر عليه إن كان كاذِبًا وأنتُم سَوْف تَسلَمون، والخَطَر عليكم إن كان صادِقًا، وهو سَوْف يَنجو.

وهذا لا شَكَّ أنه من تَمام نُصْحِه أنَّ الرَّجُل تَنزَّل مع آل فِرعونَ إلى هذا التَّنزُّل، لم يَقُل: إنه صادِق مع أنه كان يُؤمِن به، لكن هذا من باب التَّنزُّل.

وهنا قال: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا﴾ ولم يَقُل: أَتَقْتلون مُوسى، إبعادًا للتُّهْمة عن نَفْسه؛ لئَلَّا يَظُنَّ أَحَدٌ أنه كان يَعْرِفُ مُوسى وأنه يُدافِع عَنْهُ عَنْ مَعرِفة، ولكنه أَتَى بـ﴿رَجُلًا﴾ النَّكِرة إبهامًا للأمر وَشِدَّةً في إِخْفائه.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿مُسۡرِفٌ﴾ أي: مُتَجاوِز للحَدِّ، ﴿كَذَّابٌ﴾ أي: ذو كَذِب، وهل هَذه الجُمْلة تَعليلية؟ وهل هي تَعود على مُوسى، أو تَعود على فِرعونَ؟

نَقول: هي صالِحة للأَمْرين، كل مَن كان مُسرِفًا كذَّابًا، فإن الله لا يَهديه، وهذا

الوَصْفُ يَنطَبِق على فِرعونَ، فإنه مُسرِف مُتَجاوِز للحَدِّ، كذَّاب، مُدَّعٍ ما ليس له، يَقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، وكذَب في ذلك؛ فهو مُسرِف كذَّاب؛ كذلك أيضًا في مَقام المُجادَلة والتَّنزُّل تَنطَبِق على موسى لو كان كاذِبًا؛ فإنه يَكون مُسرِفًا مُتجاوِزًا للحَدِّ، وادِّعائه الرِّسالة وهو كاذِب، وكذلك كَذَّاب لأنه ادَّعى ما ليس صادِقًا فيه.

وعلى كل حال: فالجُمْلة هنا صالِحة لأن تَكون مُنطَبِقة على فِرعونَ، وهي مُنطَبِقة على الحَقيقة، أو على موسى من بابِ التَّنزُّل مع الخَصْم.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنه يَنبَغي العِناية بمَضمون القِصَّة، دون عَيْن مَن وقَعَت عليه؛ لقوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ﴾ وإلَّا فنحن نَعلَم أنَّ الله يَعلَم مَن هذا الرجُلُ، ويَعلَم اسمه ونَسَبه، وكل شيء يَتَعلَّق به، لكنَّ الله تعالى ذِكْره إبهامًا، إشارة إلى أن المهمَّ مَضمون القِصَّة دون عين مَن وقَعَت عليه، إلَّا إذا كان في تَعْيينه مَصلَحة، فالمَصلَحة ذِكْره وتَعْيينه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه قد يَكون من صُلْب المُعادِين مَن هو من الأَوْلياء؛ لقوله هنا: ﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [غافر:٢٨]، سواء قُلْنا: من قَرابته، أو من أَتْباعه على دِينه؛ فإنه يَدُلُّ على أن الله على كل شيء قَدير، وأنه قد يُقيِّض أو يُهيِّئ الإيمان لَمن كان بين قَوْم مُنغَمِسين في الكُفْر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جَواز إخفاء الإيمان؛ إذا خاف الإنسان على نفسه؛ لقوله: ﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ [غافر:٢٨]، ولكن إذا كان الإنسان لا يَستَطيع أن يَعيش مُؤمِنًا إلَّا

بالكِتْمان، فتَجِب عليه الهِجْرة، ففي دِين الإسلام أن مَن كان لا يَستَطيع أن يَعيش إلَّا مُخفيًا دينه؛ فإنه تَجِب عليه الهِجْرة، ولكن بشَرْط أن يَكون قادِرًا عليها، فإن كان عاجِزًا فإن الله تعالى قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء:٩٨-٩٩].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: شِدَّة إنكار هذا المُؤمِن على فِرعونَ الذي هُدِّد بالقَتْل؛ لقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر:٢٨].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الإنكار على مَن عمِل عمَلًا بدون سبَب يَقتَضيه؛ يُؤخَذ من قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وهذا ليس سببًا للقَتْل، بل على الأقَلِّ يُترَك وشَأْنه، أمَّا أن يُقتَل لهذا السبَبِ فإن هذا مُنكَر، ولا يَجوز إقرارُه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: العُدول عن التَّعيين خوفًا من التُّهْمة، أو إن شِئْت فقُلِ: استِعْمال المَعاريض؛ لقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ ولم يَقُل: أتَقْتُلون موسى؛ لأنه لو عَيَّنه باسمه لاتَّهَمه النَّاس بأنَّ له صِلة به، وفسَد ما يُريد، لكِنَّه أبهَمه وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ إلى آخِره.

فإن قال قائِل: ما مَعنَى المَعاريض؟

فالجَوابُ: المَعاريض مَعناها: أن تُؤدِّيَ بشيء خِلاف الواقِع، أي: يَعنِي كأن يَقول: متى تَجوز المَعاريضُ؟ تَجوز المَعاريضُ إذا كان فيه مَصلَحة، أو دَفْع مَضرَّة، واستِعْمال المَعارِيض على ثلاثة أَوْجُه: الوَجْه الأوَّل: الظُّلْم. والثاني: دَفْع الظُّلْم. والثالِث: ما ليس فيه هذا ولا هذا.

الظُّلْم: هو أن يَستَعمِل الإنسان المَعاريض لدَفْع حَقٍّ عليه.

ودَفْع الظُّلْم: أن يَستَعمِل المَعاريض لدَفْع ظُلْم عن نَفْسه.

وما ليس كذلك ولا كذلك: مثل أن يَستَعمِلها في الأمور المُباحة.

مِثال الأوَّل: تَخاصَم زَيدٌ وعَمرٌو عند القاضِي، وكان عند عَمرٍو لزَيْد مِئة دِرهَم؛ فقال القاضي للمُدَّعي: أَلَكَ بَيِّنة؟ قال: لا. قال: لك اليَمين على صاحِبك، فقال المُدَّعَى عليه: والله ما عِندي له شيء. ظَاهِرُ اللَّفْظ النَّفي، لكن هو في قلبه نَوَى الإثبات، ونوَى بـ(ما) الذي، وتَقدير الكَلام على نِيَّته: والله الذي له عِندي شيء. وهذا صَحيح، له عِنده شيء، لكن هو ورَّى بأن (ما) نافِية، وأنه ليس عِنده شيء، فالقاضِي سَوْف يَحكُم بأنَّها نافِية، حَسب ظاهِر الحال، هذا هي المَعروضة، نَقول: إنها حَرامٌ؛ لأنَّه تَوصَّل بها إلى إسقاط حقٍّ عليه.

وكذلِك أيضًا في الدَّعْوة لو قال له خَصْمه: أنا أَرضَى منك أن تَحلِف أن لكَ عِندي شيئًا، فحلَف مُورِّيًا؛ فإنه حرام عليه.

أمَّا دَفْع الظُّلْم: فمثل: أن يَحلِف على دَفْع الظُّلْم عن نَفْسه أو غيره، مِثال ذلك: دَخَل عليه لِصٌّ، أو جُنديٌّ ظالِم، يُريد أن يَأخُذ ماله فقال: افتَحْ لي هذا الصُّندوقَ. فقال والله: ما في هذا الصُّندوقِ شيء، المُخاطَب سوف يَظُنُّ أنَّ الجُمْلة نافِية فيَنصرِف، وهو يُريد بها الإِثْبات، فهذه التَّوْرية لا شَكَّ في جَوَازِها، بل إذا كان المالُ للغير مثل أَنْ يَأتِيَ شخص ويَقول: فُلان عِندك له كذا وكذا. فأَقول: والله ما عِندي له شيء، أَعرِف أنه لو أَقرَرْت لأَخَذَها.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَتَى بالآيات البَيِّنة، التي يُؤمِن على

مثلها البَشَر؛ لقوله: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: قُوَّة إيمان هذا الرجُلِ، حيث جابَهَ هؤلاءِ بإنكار رُبوبية فِرعونَ ضِمْنًا، يُؤخَذ من قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ فجابَهَهم بأنَّ لهم ربًّا سِوى فِرْعَونَ، وهذا يَدُلُّ على قُوَّة هذا الرجُلِ؛ أمَّا قوله: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ فلَيْس فيها دليلٌ؛ لأن رُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ لمُوسى ليس فيها شيء من الإنكار، لكن ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ واضِح أنه يُعَرِّض بأن فِرعونَ ليس بربٍّ، وأنَّ الرَّبَّ هو الله، وهذا يَدُلُّ على كَمال شَجاعة هذا الرجُلِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: استِعْمال السَّبْر والتَّقْسيم، يَعني: التَّرديد بين حالَيْن أو أحوال لا يَزيد الأَمْر عليهم، لقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾، و﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: مُراعاة الخَصْم فيما يُؤلِّفه ويُقرِّبه؛ لأنه بَدَأ بما كانوا يَعتَقِدون، وهو كذِبُ موسى، فبَدَأ بالكَذِب قبل أن يَبدَأ بالصِّدْق من أَجْل تَأْليفهم، وبَيان أنَّ الرجُل ليس عِنده تَعصُّب لمُوسى؛ ولهذا لم يَبدَأ بالصِّدْق الذي هو أحَدُ الاحتِمالين.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: جواز التَّورِية؛ لقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ وقوله: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾؛ لأنَّنا نَعلَم أنَّ هذا الرَّجُلَ يَعتَقِد أنه صَادِق، لكنه أتَى بهذا الكلامِ تَوْرِية بأنه ليس بمُؤمِن به، وذلك من أَجْل قَبول كلامه؛ لأنهم لو شَعَروا بأنه مُؤمِن به لقَتَلوه، مُؤمِن بمُوسى وهُو مِن آلِهِم، ولكِنه أَتَى بالكَلام الدالِّ على التَّوْرية.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ شُؤم الكَذِب يَعودُ على الكاذِب، وهو كذلك؛ لقَوْله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ وقد فضَح الله عَزَّوَجَلَّ الكاذِبين المُفتَرين عليه، فضَحهم في الدنيا، وسيَفضَحهم في الآخِرة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: قُوَّة إيمان هذا الرجُلِ؛ لكَوْنه يَعتَقِد ويُؤمِن بأن بعض الَّذي وعَدَهم موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سوف يُصيبهم إذا كان صادِقًا وقد كذَّبوه؛ لقوله: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن المُسرِف الكذَّاب؛ أي: المُتَجاوِز للحَدِّ بِفِعْله وبقَوْله، فبِقَوْله: لأنه كَذَّاب، وبفِعْله لأنه مُسرِف، فإنه بَعيدٌ من الهِدَاية؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٨]، وحينئذٍ نَسأَل هل المُراد هِداية التَّوْفيق، أو هِداية البَيان والإِرْشاد؟

الجوابُ: هِداية التَّوْفيق؛ لأن الله تعالى قد بَيَّن للمُسرِف الكَذَّاب ولغيره، لكن وَفَّق مَن شاء من عِباده، وخَذَل مَن شاء.

الآية (٢٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

قال الله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، تَأمَّل حُسْن خِطاب هذا الرجُلِ، كان بالأوَّلِ يُنكِر عليهم: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ ولَمَّا أراد أن يَتودَّد إليهم، وأن يُبيِّن لهم نِعْمة الله عليهم، تَلطَّف في الخِطاب فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ وكأنَّه واحِدٌ منهم، وهذا اللُّطْف في الخِطَاب -في جانِب الدَّعوة- من الأمور التي أَمَر الله بها شَرْعًا، والتي يَهدِي بها الله مَن شاء من عِباده قدَرًا؛ فقَدْ قال الله لمُوسى وهارونَ: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه:٤٤].

ثُم إن القَدَر يُؤيِّد هذا، فكم من إنسان لانَ بسبَبِ القولِ اللَّيِّن، وكم من إنسان اعتَدَى بسبَب العُدوان في القول؛ ولهذا تَجِدُ هذا الرجُلَ من حِكْمته أنهم لَمَّا هَدَّدوا موسى بالقَتْل أَنكَر عليهم علَنًا ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ ولَمَّا أراد أن يُبيِّن لهم النِّعَم ويَدعوهم إلى الحَقِّ، قال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ أي: غالِبين، عالِين على أَهْلها.

وقوله: ﴿لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ يَعنِي: أنتُمُ الآنَ مالِكون، وتَأمَّل أيضًا حُسْن هذا الخِطابِ والتَّحرُّز، ﴿لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾، يَعنِي: والمُستَقبَل لا يُعلَم، قد يَزول مُلكُكم، لكن اليومَ أنتُمْ في نِعْمة، غالِبين في الأرض، ظاهِرين على أهلِها، فيَجِب أن تَشكُروا هذه النِّعمةَ.

وقوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أرض مِصرَ] وعلى هذا فـ(أل) في الأرض للعَهْد الذِّهْنِي؛ أي: الأَرْض المَعهودة أَرْضكم.

وقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عذابِه إن قَتَلْتم أولياءَه] ﴿إِن جَآءَنَا﴾ ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾ (مَن) هذه استِفْهام بمَعنى النَّفيِ؛ أي: لا أحَدَ يَنْصُرنا، والنَّصْر هنا بمعنى المَنْع؛ أي: فما الَّذي يَمنَعنا من بأسِ الله، والبَأْس هو العَذاب. وقوله: ﴿إِن جَآءَنَا﴾ يَعنِي: إن نزَل بنا، فهل أحَدٌ يَنصُرنا، حتى لو كُنَّا اليومَ ظاهِرين في الأرض، وكُنَّا مُلوكًا فإنه إذا نزَل بنا بَأْس الله فلا أَحَدَ يَمنَعنا.

وقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إن قتَلْتُم أَوْلياءَه] قد يُقال: إن هذا الذي عيَّنه المفَسِّر يَدُلُّ عليه السِّياق؛ لأنه أَنكَر عليهم أن يَقتُلوا موسى، وقد يُقال: إن المُراد إن بَقِيتُم على الكُفْر والعُدوان ومنه قَتْل مُوسى، وهذا أَصَحُّ وأعَمُّ. يَعنِي: ما الذي يَنصُرنا من بَأْسِ الله إن جاءَنا؟ لكوننا مُستَحِقِّين لهذا العَذابِ بالكُفْر وقَتْل أَوْليائِه.

قال فِرعونُ مُجيبًا لهذا الرجُلِ: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أَكذَبُ قولٍ في الأرض هو هذا، ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ يَعنِي: ما أُظهِر لكم شيئًا حتى تَرَوْه إلَّا ما أَرى، إلَّا ما أَرَى أنه الحَقُّ، وهذه دَعْوة كاذِبة؛ لأنه يَعلَم أن الحَقَّ في اتِّباع موسى، كما قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢]، وقال تعالى:

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤]، لكن جحَدوا ظُلْمًا وعُلُوًّا.

فهو يَقول: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾؛ أي: ما أَرَى أنه صَواب وأنه حَقٌّ. وهذه الدَّعوةُ كاذِبة، وإن كان أَراد ما أُرِيكم إلَّا ما أَرَى أنه من مَصلَحتي؛ فهذا صادِقٌ لكنه غاشٌّ.

وعلى كل حال: فالجُمْلة مُؤاخَذ عليها؛ لأنها إمَّا كذِب وإمَّا غِشٌّ، إمَّا كذِب إن كان يَقول: ما أُرِيكم إلَّا ما أَرَى من الصَّواب، وإمَّا غِشٌّ إذا كان يَرَى أنَّ الحَقَّ خِلاف ما أَراهُم لكنه لَمصلَحته أَراهُم ما رَأَى.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ما أُشير عَلَيْكم إلَّا ما أُشير به على نَفْسي وهو قَتْل موسى]، هذا أيضًا تَخصيص في غيـر مَحلِّه؛ لأن فِرعونَ لا يُهِمُّه أن يَقولوا: اقْتُلْ موسى أو لا تَقْتُلْه؛ لأنه مُصمِّم على ما يُريد، لكِنَّ أَهَمَّ شيء ألَّا يَكفُروا به، وألَّا يُبدِّل دِينَهم، وعلى هذا فالمَقصود بقوله: ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ في بَقائِكم على دِينكم، هذا مَعنى الآية، لأن أَصْل الإنكار على مُوسى والتَّهديد بقَتْله أَصلُه أنه خاف أن يُبدِّل الدِّين.

قال: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ يَعنِـي: ما أَدُلُّكم إلَّا على سبيل الرَّشاد، والرَّشاد ضِدُّ الغَيِّ؛ ولهذا يُقال: رُشْد وغَيٌّ. ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٦٥] فالرَّشاد هو ضِدُّ الغَيِّ، يَعنِي: الصَّواب والسَّداد، وسَبيل بمَعنى: طَريق، وهو أَكذَب الكاذِبين؛ لأنه ليس يَهديهم سَبيل الرَّشاد، بل يَهديهم سَبيل الغَيِّ والعِناد والاستِكْبار والكُفْر؛ فصار كاذِبًا في الجُمْلتين ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ إذا قُلْنا: إن المَعنَى: إلَّا ما أَرَى أنه صَواب ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ فهو أَيْضًا كاذِب لأنه بلا شَكٍّ يَهديهم سَبيل الغَيِّ والفَساد.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: حُسْن خِطاب هذا الرجُلِ المُؤمِن، حين تَلطَّف في الدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿يَقَوْمِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه يَنبَغي للداعِية أن يُذكِّر المَدعُوِّين بنِعْمة الله عليهم، حتى يَخضَعوا ويَشكُروا هذه النِّعْمة، بقوله: ﴿لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حُسْن احتِراز هذا الرجُلِ المُؤمِن؛ لقوله: ﴿لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ يَعنِي: وأمَّا في المُستَقبَل قد يَزول مُلكُكم، لكِنِ اشكُروا النِّعْمة الحاضِرة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الاعتِبار في الحال بما هي عليه الآنَ، أمَّا المُستَقبَل فقد تَتغيَّر الأَحْوال، لكن نحن مُخاطَبون ومَأمورون أن نَنظُر إلى الحال الحاضِرِ الآنَ.

يَتفرَّع على هذه المَسأَلةِ مَسأَلة اجتِماعية: وهي أنَّ بعض الناس يَخطُب ابنتَه رجُلٌ غيرُ مُستقيم يَعنِي: ليس كافِرًا؛ لكنْ فاسِق يَشرَب دُخانًا، أو حَلَق لِحْيته، أو رِبًا، أو ما أَشبَه ذلك؛ فيَأخُذه الطَّمَع ويَقبَل الخِطْبة، ثُم يَقول: لعَلَّ الله يَهدِيه، أو لعل هذه البِنتَ المُلتَزِمة تَسعَى في هِدايته، فيُقال: نحن لا نَنظُر للمُستَقبَل، المُستَقبَل له الله، بل رُبما أن هذا الرجُلَ يُغوِي المرأة، لأنَّه هو أَقْوى منها جانِبًا؛ فأنت الآنَ مأمور بالنَّظَر إلى الحال الحاضِرة، أمَّا المُستَقبَل فلَسْت مَأمورًا بالنَّظَر إليه، ولا يَجوز أن تَنظُر إليه؛ لأنه مُستَقبَل وغَيْب، فأنت الآنَ اعرِفِ الحالَ التي أنتَ عليها، وتَصرَّف على ما هي عليه الآنَ، هذه نَأخُذها من قول هذا الرجُلِ المُؤمِن ﴿ٱلْيَوْمَ﴾.

فإن قال قائِل: قُلْتم: إن الأَبَ لا يَنبَغي أن يُزوِّج ابنَتَه من فاسِق، فيَقول:

لعَلَّ الله أن يَهـدِيَه. فلو حصَل العَكْس أَراد الرَّجُل أن يَتزوَّج من امرأة ليسَـت مُستَقيمة، وقال: لعَلَّ الله يَهديها بي وإلَّا طَلَّقْتها؟.

فالجوابُ: نفس الشيء، ليس هو (إلَّا طلَّقْتها) فقد يَكون الإنسان عنده عَزْم في هذا أوَّل الأَمْر، ولكن إذا تَزَوَّجَها ورَغِبَ فيها عصَفَت به بعدُ، يَعنِي: جَذْب النِّساء للرِّجال ليس هو بالهَيِّن.

فإن قال قائِل: فلو ظَنَّ فيها قَبول الدَّعوة؟.

فالجوابُ: كلِمة الظَّنِّ هذه غيرُ وارِدة في الواقِع؛ ولذلك أنـت غيرُ مُكلَّف إلَّا فيما بين يَدَيْك، حتى لو أُخلِفت الأُمور فيما بعدُ، فأنت مُجتَهِد ولا لومَ عليك، ولا إثمَ عليك، لكن عليك إثمٌ أنك تُقدِم على شيء تَعرِف الآنَ أنه غير صالِح، لكن رجاءَ أنْ يَصلُح، هذا خطأ. والمَرأةُ رُبَّما تَغلِب الرجُل إذا أَحبَّها حُبًّا شديدًا، ربما تَقول: اسجُدْ لي. فيفعل!! ألَمْ تَعلَم أنه ذكَر أحَد العُلَماء قال: إنَّ مُؤذِّنًا دعَتْ عليه أُمُّه بدَعْوة وكان رجُلًا صالِحًا، فلمَّا صَعِدَ إلى المنارة، يُؤذِّن وإذا بامرَأة نَصْرانية في سَطْح بيتها جميلة، فأَخَذت بلُبِّه فأَرسَل إليها يَخطُبها فقالَتْ: لا يُمكِن إلَّا إذا كنتَ نَصْرانيًّا. فحاوَلَ، فقالت: أبدًا. فتَنصَّر -والعِياذُ بالله- صار نَصْرانيًّا ارتَدَّ عن الإسلام الآنَ، فأَعاد الخِطْبة، قالَتْ: أنت لسْتَ مُسلِمًا ولا نصرانيًّا فلا أَحِلُّ لك، انظُرْ هذا الرجُلَ -نَسأَل الله العافِيةَ- ارتَدَّ عن دِينه وصارت هذه المَرأةُ كيدُها أَعظَمُ من كيده، وقالت له: لستَ مُسلِمًا ولا نصـرانيًّا، والنَّصـرانية لا تَحِلُّ إلَّا للمُسلِم أو النَّصراني ارجِعْ وراءَك. نَسأَل الله العافِيةَ.

واعلَموا أنَّني إذا قُلْت: حُسْن خطابة الرَّجُل، أو احتِرازات، أو ما أَشبَه ذلك،

ليس مَعناه أنِّي أُخبِركم عن قِصَّة مضَت وتاريخ مضَى، لا، بل أُريد أن تَأخُذوا من ذلك عِبْرة تَسيرون عليها؛ لأنه ما دام أننا نُثنِي على هذا الرجُلِ بخِطابه ومُعالجَته للأُمور؛ فإننا نَحُثُّ على اتِّباع طريقه.

مسألة: هل يَجوز للكافِر أن يَتزوَّج مُؤمِنة؟

فالجَوابُ: لا يَجوز.

فإن قال: فِرعونُ وزَوْجته!.

فالجَوابُ: هذا إشكال صحيح، يَقول: هل يَجوز للكافِر أن يَتزوَّج مُؤمِنة. فنَقول: لا، فأَورَد علينا إشكالًا وهو: أنَّ امرأةَ فِرعونَ كانَت مُؤمِنة لا شكَّ، وهو أَكفَرُ الكافِرين.

والجَوابُ: أنَّ هذا شَرْع مَن قَبْلنا، أمَّا شَرْعنا فلا.

وتُعرَف القاعِدة في الأصول: «أن شَرْع مَن قَبْلَنا هو شَرْع لنا، ما لم يَرِد شَرْعنا بخِلافه»، هذا من وَجْه.

ومن وَجْه آخَرَ قد يُقال: إن فِرعونَ أَكرَهَها على ذلك، وإنها لا تُحِبُّه؛ ولهذا تَقول: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم:١١] لكن هو ظالِمٌ ولا يُبالِي.

مسألة: هل لا يُستَحَبُّ للمُسلِم أن يَتزَوَّج المرأة غير مُلتزِمة؛ لأنها قد تَرجِعه إلى طريقتها؟

فالجَوابُ: هذا صحيح؛ ولهذا قال الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعَةٍ**»

ثُمَّ قال في النِّهاية: «فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»[(١)].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن آل فِرعونَ قد غَلَبوا في مِصرَ، وظهَروا عليها، ولم يَكُن لهم مُنازِع؛ لقوله: ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ومِنْ ثَمَّ تكَبَّرَ فِرْعَونُ، ولم يَخضَع لموسى؛ لأن موسى من بني إسرائيلَ، وهم قِلَّة أذِلَّة في مِصرَ، والغلَبة للأَقْباط.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الظُّهور والغلَبة قد يَكونون سببًا للأشَرِ والبطَر، إلَّا مَن وفَّقَه الله، فبعضُ الناس مَن أَعطاه الله تعالى سَبَبَ رِفْعَة لا يَزيده ذلك إلَّا تَواضُعًا للحَقِّ وللخَلْق، وبعض الناس إذا أَعطاه الله رِفْعَة صار هذا سببًا في تَعاليه على الخَلْق، واستِكباره عن الحَقِّ، وهذه مِحْنة يَجِبُ على المرء أن يُعالِج نفسه فيها، لا إذا أَعطاه الله مالًا يَذُمُّ ويَعلو ويَستَكبِر؛ فإنَّ الذي أَعطاه هذا المالَ قادِرٌ على أن يُتلِفه عليه، لا يَقول: إذا أَعطاه الله عِلْمًا: أنا عالِم، وأنا مَن أنا. ثُم يَتَعلَّى عن الحَقِّ وعلى الخَلْق، بل يَجِبُ على الإنسان كلَّما آتاه الله عِلمًا أن يَزْدَاد تَواضُعًا.

هذا ما أَقوله، وأَرجو أَنْ أَتَّصِفَ بِه وإيَّاكم، فعلى الإنسان أنْ يَعْرِف هذه المَسأَلةِ، وأن الله قد يَبْتَلِي الإنسان بالشيء الذي يَكون داعِيًا لعُلوِّه واستِكْباره عن الحَقِّ وعلى الخَلْق؛ فلْيَحذَر هذا الأمرَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: قوة إيمان هذا الرَّجُلِ؛ وأنه لا دافِعَ ولا مانِعَ لما أَراد الله؛ لقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾، وهذا يَدُلُّ على كَمال يَقينه رحمه الله ورضِيَ عنه حيثُ آمَنَ بأنَّه إذا جاء بأسُ الله فإنَّه لا مَرَدَّ له.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: التَّلطُّف بالخِطاب، حتى يشعر الإنسان المُخاطَب وكأنَّه هو

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم (٥٠٩٠)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، رقم (١٤٦٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أوَّل مَن يُراد بهذا الأَمرِ، أو بهذا الخِطابِ؛ لقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ ولم يَقُلْ: فمَن يَنصُركم من بَأْس الله إن جاءَكم، كل هذا من باب التَّنزُّل مع هَؤلاء، وإشعارهم بأنه واحِد منهم.

وقد يُقال: إن في هذا إشارةً إلى أنَّ العَذاب إذا نزَل يَعُمُّ الصالِح والفاسِد؛ ويَكون قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ يُراد به حقيقته؛ أي: أنه هو سيُصيبه ما أَصابَهم، ويَكون هذا شاهِده قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ [الأنفال:٢٥]، وهذا ليس ببَعيد.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنه إذا نزَل بَأْس الله فإنه لا مَرَدَّ له، ويَدُلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ [غافر:٨٤-٨٥]، ولا يُستَثْنى من هذا أَحَدٌ، فكُلُّ مَن أَتاهم بأسُ الله فإنهم لن يَنجوا ولو آمَنوا.

فهل استُثْني من هذا أَحَدٌ؟

قال الله تعالى في قوم يُونُسَ: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ يَعني: إذا نزَل بها العَذابُ ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾ [يونس:٩٨]، وخُصَّ قومُ يُونُسَ لِحِكْمة -لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يُمكِن أن يَخُصَّ أحَدًا بشيء إلَّا بحِكْمة، الناس عِنده سَواءٌ ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحُجُرات:١٣]- والحِكْمة: أنَّ يُونُسَ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَٰةُ وَٱلسَّلَامُ خَرَجَ مِنْ قومِهِ مُغاضِبًا قبل أن يُؤذَن له، وكأنه لم يَستكمِل الدَّعْوة، فلم تَقُم عليهمُ الحُجَّة الكامِلة؛ ولهذا نجَوْا حين آمَنوا بعد رُؤْية العَذاب، فصار إنجاؤُهم له حِكْمة، وهو خُروج نبيِّهم مُغاضِبًا قبل أن يُؤذَن له؛ فكأنه لم يَستكمِل إقامة الحُجَّة عليهم، فصار في هذا نوعُ عُذْر لهم؛ فأَنجاهم الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائل: يُشكِل على هذا: أنَّ نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لقَوْمه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾[نوح:٤]، فكيف قال: إنَّهم إذا آمَنوا يَغفِر لهم من ذُنوبهم، ويُؤخِّرهم إلى أجلٍ مُسمًّى. ثُمَّ قال: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ كان من الأوَّل يَقول: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ والثاني: يَقول: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾؟

فالجَوابُ: يَعنِي: أُحذِّركم من العَذاب، فإنه إذا جاء لا يُؤخَّر، لكن إذا آمَنْتم أخَّرَكم إلى أجَلٍ مُسمًّى، وعلى هذا فلا تَناقُض في الآية.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ إلى آخِره، في هذه الجُمْلةِ والتي بعدَها: دليلٌ على تَمويه فِرعونَ وغِشِّه وكذِبه وضَلالِه؛ لأنه خَدَع قومَه، بقوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ وكذَب في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ قَطْعًا، وكذَب في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ على أَحد الاحتِمالَيْن.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ أهل الباطِل قد يَكون لدَيْهم زُخرُف من القَوْل غرور؛ لأَنَّ مثل هذا الزَّعيم الذي وصَلَت به الزَّعامة إلى أن جعَلوه رَبًّا إذا قال: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ سوف يَخدَع قومَه بلا شَكٍّ، وعلى هذا فيَجِب علينا الحَذَر من خِداع بعض الناس، إذا قالوا: نحن نُريد كذا، ونُريد كذا من الإِصْلاح؛ فيَجِب أن نَنظُر لأَفْعالهم، هل تَشهَد أفعالُهم لأقوالهم، إن كان الأَمْر كذلك فَهُم صدَقة برَرَة، وإن كانوا بالعَكْس فهم كذَبة غَشَشة، يَخدَعون بزُخْرف القول غُرورًا؛ ولهذا كان الإنسان الذي لدَيْه فِراسة، لا يَغتَرُّ بظاهِر الأقوال، وإنما يَقيس ما يَقوله، أو يَعتَبِر ما يَقوله بما يَفعَله، فإذا رأَى أن أَفعالَه تُخالِف أقواله عَلِم أنه كاذِبٌ غَشَّاش، وإذا رأَى أنَّ أَفْعاله تُصدِّق أقواله صار صادِقًا وصار مُخلِصًا لمُوافَقة باطِنه لظاهِره.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ كل أحَدٍ يَعرِف أن الرُّشْد مَطلوب، وأن الغَيَّ مَكروهٌ، يُؤخَذ ذلك من قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ قول فِرعونَ لقَوْمه في الجُمْلة الثانية، إِذَنْ هم يَعرِفون أنَّ الرشاد أَمْرٌ مَطْلُوب، كلُّ إنسانٍ -حَتَّى الكَافِر- يَرَى أنَّ الرُّشْد أَمْر مَطلوب، والرُّشْد الحَقيقيُّ هو اتِّباع الهُدَى، لكن التَّمويه مُشكِل.

• • ۞ • •

الآيتان (٣٠، ٣١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠-٣١].

ثُمَّ قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم﴾ في الأَوَّل قال: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾، وهنا قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ فنَقولُ: كرَّر هذا الوَصْفَ لهذا الرجُلِ لطول الحَديث والفَصْل، قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ أمَّا اختِلاف الجُمْلتين فإنَّ الثانية تُؤكِّد الأُولى، بأنَّ هذا الرجُلَ قدِ اصطَبَغ بالإيمان، وحَقَّق الإيمان.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ يَعنِي بذلك: فِرعونَ وقَوْمه، وهذا من باب التَّلطُّف في المَقال، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ يَعنِي: الطَّوائِف السابِقة، وكأنَّ هذا الرجُلَ مُلهَم، عندَه عِلْمٌ بأَحْوال الأُمَم السابِقين، وسيأتِي -إن شاء الله- الكَلام على فائِدةِ هذه الجُمْلةِ.

وقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ مَعروف أنَّ ياءَ النِّداء إذا دخَلَت على نَكِرة مَقصودة، فإنها تُبنَى على الضَّمِّ، كما إذا دخَلَت على مَعرِفة، وهنا لم تَكُن مَبنيَّة على الضَّمِّ، بل آخِرها الكَسْر، فيُقال: إن أَصلَها (يا قَوْمي)، ولكن

حُذِفت الياءُ للتَّخفيف، وفي قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ تَلطُّف بدعوتهم، وإلَّا فهُمْ مُعادون له؛ لأنهم كُفَّار وهو مُؤمِن، لكن من باب التَّلطُّف في الدَّعْوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أكَّد الجُمْلة، وإن كانت مُستقِرَّة في نفسه، لكن المُخاطَب بها فَعَله فِعْلَ المُنكِر لها.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أي: يوم حِزْب بَعْد حِزْب]، ثُم أَبْدَل منه قوله: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾: ﴿دَأۡبِ﴾ بمَعنَى: عادة، وذَكَر قوم نُوحٍ؛ لأنه هو أوَّلُ رَسول أُرسِل إلى أهل الأرض، ﴿وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾، وكل هَؤلاءِ مُتقدِّمون بَعيدو العَهْد، قبل موسى وقبل فِرعونَ؛ فهُمْ من أوائِل الرُّسُل. ﴿قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ﴾، (عاد) مَعطوفة على ﴿قَوۡمِ﴾، ولا يَصِحُّ أَنْ تكون مَعطوفة على ﴿نُوحٖ﴾؛ لأنَّها لو كانت مَعطوفة على ﴿نُوحٖ﴾ لكان المَعنى مِثْل قوم عادٍ، ولا يَستَقيم الكلام، بل مِثْل عاد وهُمْ قَوْم هُود، وثَمودَ قومِ صالِحٍ.

وقوله: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ (مِثل) هذه بدَل من (مِثْل) التي قَبلَها، ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ﴾ والبَدَل أحَدُ التَّوابع الأربعة المَعروفة من قول ابنِ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يَتْبَعُ فِي الْإِعْرَابِ الَاسْمَاءَ الْأُوَلْ ... نَعْتٌ وَتَوْكِيدٌ وعَطْفٌ وَبَدَلْ[1]

وَعلامة البدَل أنه يَصِحُّ أن يَحِلَّ مَحَلَّ المُبدَل منه، يَعنِي: يَصِحُّ أن يُحذَف المُبدَل منه ويَحِلُّ مَحلَّه البدَل.

فإن قال قائِل: ما الفائِدةُ من أن نَأتِيَ بالمُبدَل منه ثُم بالبَدَل، لماذا لم نَأْتِ بالبدَل من أوَّل الأمر؟

---

(١) الألفية (ص:٤٤).

فالجَوابُ: لا بُدَّ أن يَكون هناك فائِدة، إمَّا تَفْصيلٌ بعد إجمال، أو تَبيينٌ بعد إبهام، أو ما أَشبَه ذلك، ولا بُدَّ أن يَكون للبَدَل فائِدة.

وقوله: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾... إلى آخِره. مِثْل دَأْبهم، هو لا يُريد مثل دَأْبهم، يُريد مثل جزاء دَأْبهم؛ لأن هناك دَأْبًا وهناك جَزاءً؛ فالجَزاءُ مِنَ الله، والدَّأْب من الأُمَم، أو من الأحزاب، ﴿مِثْلَ دَأْبِ﴾ يَعنِي مثل جَزاء دَأْبهم، وبيَّن الله تعالى دَأْبهم بقوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ﴾ [الأنفال:٥٢] أو ﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ﴾ [الأنفال:٥٤] هذا هو دَأْبهم.

وقوله: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ هَؤلاء كلُّهم دَأْبهم التَّكْذيب بالرُّسُل والكُفْر بهم، ﴿وَالَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد قَوْم نُوح، وهم أوَّل الأُمَم، وعاد، وسيأْتي أن هُودًا أَشار إلى يُوسُف بنِ يَعقوبَ بنِ إبراهيمَ عليهم الصلاة والسلام.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِثْل بدَل مِن مِثْل قَبلَه أي: مِثْل جَزاء عادة مَن كَفَر]. فأَفاد المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن في الكَلام تَقديرًا أي: أن في الكَلام شَيْئًا مَحذوفًا، وهو جَزاء، أي: مِثْل جزاء دَأْبهم؛ لأن هذا هو الذي يُخاف منه أن يَنال هؤلاءِ القَومَ عُقوبةٌ، كما نال هَؤلاءِ.

فإذا قال قائِل: كيف يُطلَق العمَل على الجَزاء؟

قُلنا: لأنه سبَبُه، وهذا في القُرآن كثير أنَّ الله تعالى يُطلِق العمَل على الجَزاء مِثْل: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٥]، المَعنَى: ذوقوا جَزاءَه، لكن يُعبَّر به -أي: بالعمَل- عن الجَزاء، لأن الجَزاء من جِنْس العمَل، وحتى يَحذَر الإنسان من عمَله، كما يَحذَر من عُقوبة عمَله.

يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِثْل بدَل من مِثْل قبله؛ أي: مِثْل جزاء عادة مَن كفَر قَبلَكم من تَعذيبهم في الدُّنيا]، إذن مِثْل دَأْب ما هي مِثْل عادتهم، إلَّا إذا أُريد إضافتُها إلى المَفعول به؛ أي: مِثْل العادة التي أَوقَعها الله بهم، لكن كان المفَسِّر جعَلها مُضافة إلى الفاعِل، وأنَّها على تَقدير مثل جزاء عادة؛ لأن الجَزاء من الله، والعادة من هَؤلاء الأقوامِ من الأحزابِ، العادة عادة الأحزاب، والعُقوبة عُقوبة الله.

فإمَّا أن نَقول: إنَّ الكلام على تَقدير: مِثْل عُقوبة عادة قَوْم نُوحٍ.. إلى آخِره، أو نَقول: مِثْل دَأْب قوم نُوحٍ؛ أي: مِثْل العادة التي فعَلها الله بهم، والمَعنَى واحِد. والمُراد أنه يَخاف عليهم مِثْل هذه الأيامِ التي هي عُقوبة لهَؤلاء الذين كذَّبوا رُسَله.

وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ (ما) نافِية وهي حِجازِية؛ لأن هذا القُرآنَ باللُّغة الحِجازِية، انظُروا إلى قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ ولم يَقُل: ما هذا بشَرٌ؛ فنَحْمِل كل ما كان على شاكِلَتها عليها، والصحيح أن ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ لا تَتبيَّن أنها حِجازِية أو تَميمية؛ لأن الخَبَر جملة ليس مُفرَدًا، يَظهَر فيه النَّصْب؛ لكن يُحمَل ما لا يَظهَر فيه الإعراب على ما ظهَر فيه الإعراب، وهو قوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾.

ثُم اعلَمْ أنَّ القُرآن إنما كُتِب بلُغة قُرَيْش، كما قال عُثمانُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للذين كتَبوا المَصاحِف قال: إنِ اختَلَفْتُم في شَيْءٍ فاجْعَلوه على حَرْف قُرَيْش[1]. يَعنِي: على لُغَتها.

فقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ (ما) نافِية، تَعمَل عمَل ليس لتَمام الشروط، ولفظ الجَلالة اسمِها، ويُريد الجُمْلة جُمْلة هي خبَرها، ولو كانَتِ اسمًا لكان التَّقديرُ: وما الله مُريدًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب نزل القرآن بلسان قريش، رقم (٣٥٠٦)، من طريق أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ الظُّلْم يَتناوَل شيئين: إمَّا الزِّيادة في الآثام، وإمَّا النَّقْص في الحسَنات. وكلُّه مُمتَنِع بالنِّسبة لله عَزَّوَجَلَّ لا يُمكِن أن يَقَع منه، ولا يُمكِن أن يُريده؛ لكمال عَدْله.

من فوائدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: شِدَّة خَوْف هذا الرجُلِ من عِقاب الله، وهذا يَدُلُّ على كَمال إيمانه؛ لأنه لا يَخاف أحَدٌ من شيء إلَّا وهو مُؤمِن به.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ عند هذا الرَّجُل عِلمًا من نَبأ الأوَّلين؛ لقوله: ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝٣٠ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ إلى آخره.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيانُ نُصْح هذا الرجُلِ المُؤمِن؛ حيث حذَّر قومَه من عَذاب الله، وفيه دليلٌ على التَّلطُّف في الدعوة إلى الله، وأنَّ الإنسان لا يَستَعمِلُ في الدَّعْوة إلى الله عاطِفته؛ لأنَّه إنِ اسْتَعمَل عاطِفته أَخَذَتْه الغَيرة، ففعَل ما لا يُحْمَد عُقباه، وإنَّما يُحكِّم العَقْل، ويَنظُر إلى العَواقِب والنَّتائِج، ولا ضيرَ على الإنسان إذا أَصابَه ذُلٌّ في أوَّل الأَمْر، إذا كانت النَّتيجة طَيِّبة، ولا أَظُنُّه يَخفَى عليكم ما حصَل للنَّبيِّ ﷺ وأصحابه في غَزوة الحُدَيْبية، من الشُّروط التي ظاهِرها الإهانة، ولكنَّها كانَتْ نَتيجتها طَيِّبة، حتى إنَّ الله تعالى سمَّاها فَتْحًا: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد:١٠].

فالحاصِلُ: أنه يَنبَغي للإنسان عند الدَّعوة إلى الله أن لا يُحكِّم العاطِفة، فتَزِلَّ قدَمه، ولكن يُحكِّم العَقْل، ويَنظُر إلى العَواقِب والنَّتائِج.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيان أنَّ ذِكْرَ الأُمم السابِقة يَنتَشِر في الأُمَم اللاحِقة؛ إمَّا بواسِطة

الكتُب المُنزَّلة، وإمَّا بواسِطة التاريخ المَنقول. ويَدُلُّ لذلك قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾؛ لأنه لا يُمكِن أن يُخوِّفهم بأَمْر لا يَعرِفونه، ولو كان الأَمْر كذلك، لقالوا: ما هذه الأيامُ؟ أو ما هذا الجزاءُ؟.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه يَنبَغي للإنسان أن يَكون عِنده عِلْمٌ بأحوال الأُمَم السابِقة، من أَجْل أن يَكون مُعتَبِرًا بمَن مَضى فيمَن بَقِيَ، وعلى هذا فعِلْم التاريخ عِلْم مُهِمٌّ، ولكن يَجِبُ أن نَعلَم أنَّ التاريخ أَصابه شيء من الوَضْع -أي: من التَّحريف والتَّغيير، والكَذِب، والزِّيادة والنَّقْص- فعلي الإنسان أن يَحتاط في هذا، حتى لا يَنقُل أو لا يَروِيَ إلَّا الصحيح.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ قوم نُوحٍ وعادًا وثَمودَ كانوا أوَّلَ الأحـزاب؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَحذير اللاحِق أن يُصيبَه ما أَصاب السابِق؛ لقوله: ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾.

ووجهُ ذلك: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سُنَّتُه في خَلْقه واحِدة، هو لا يُعذِّب هؤلاء لأنه يَكرَههم شخصيًّا، يُعذِّب هـؤلاءِ لأنه يَكرَه عمَلهم، فإذا وجَد عمَلهم في آخَرين فالكَراهة حاصِلة، واذْكُرْ قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

وحذَّر شعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قومَه أَنْ يُصيبَهم ما أَصاب مَن قبلَهم.

فالحاصِلُ: أنَّ الأُمَم لَا بُدَّ أَنْ يَتَّعِظ اللاحِق بالسابِق، بِناءً على أن سُنَّة الله واحِدة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: انتِفاء إرادة الله الظُّلْم لعِباده، وما الله يُريد ظُلْمًا للعِباد، ومَعلوم

أنَّها إذا انتفَتِ الإرادة انتفَى الفِعْل فنَفيُ إرادة الظُّلْم نَفيٌ للظُّلْم من بابِ أَوْلى، كما أنه جاءَت آياتٌ صَريحةٌ في نَفيِ الظُّلْم عن الله عَزَّوَجَلَّ، فقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصِّلَت:٤٦]، وقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات اتِّصاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالنَّفيِ؛ أي: أنَّ الله يَتَّصِف بالصِّفات المَنفيَّة التي يُعبِّر عنها بعض العُلَماء بالصِّفات السَّلْبية، لأن النفيَ سَلْب.

ولكن إذا قال قائِل: هل في النَّفيِ ثَناء ومَدْح، مع أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، فصِفات الله تعالى كلُّها صِفات كَمال، والنفيُ عدَمٌ فهل يَكون فيه مَدْح وثَناءٌ؟

الجَوابُ: نَقولُ: أمَّا بالنِّسبة لغير الله عَزَّوَجَلَّ، فإنه لا يَدُلُّ على الكَمال، ولا على المَدْح؛ أمَّا بالنِّسبة لله فيَتعيَّن أن يَكون دالًّا على الكَمال؛ لقوله تَعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فكلُّ نَفيٍ نَفاه الله عن نفسه، فإنه مُتضَمِّنٌ لكَمال؛ دَليلنا هذه الآيَةُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وإلَّا فالنَّفيُ المُجرَّد لا يَدُلُّ على الكَمال إطلاقًا، بل أَحيانًا يَدُلُّ على النَّقْص، فقول الشاعِر مثَلًا:

قُبَيِّلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ ... وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ[1]

وصَفهم بأنهم لا يَغدِرون بالعَهْد، وأنهم لا يَظلِمون، وهذا في ظاهِره مَدْح؛ لكنَّه في الواقِع يَذُمهم بأنهم ناس جُبَناءُ، وضُعَفاءُ، لا يَغدِرون لأنهم لا يَستَطيعون

(١) البيت ينسب للنجاشي الحارثي قيس بن عمرو، انظر: الحماسة الصغرى لأبي تمام (ص:٢١٥-٢١٦)، والشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣١٩)، وخزانة الأدب للبغدادي (١/ ٢٣٢).

لجُبْنهم، ولا يَظلِمون لا يَستَطيعون لضَعْفهم، وكذلك قولُ الشاعِرِ الآخَر[1]:

لَكِنَّ قَـوْمِي وَإِنْ كَـانُوا ذَوِي عَـدَدٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّـرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَـا

يَعنِي: ليسوا هُمْ للشَّرِّ إطلاقًا ولو هانَ.

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْـمِ مَغْفِـرَةً وَمِنْ إِسَـاءَةِ أَهْـلِ السُّـوءِ إِحْسَـانَا

ثُم قال:

فَلَيْـتَ لِي بِهِـمُ قَوْمًـا إِذَا رَكِبُـوا شَـنُّوا الْإِغَـارَةَ فُرْسَـانًا وَرُكْبَانَـا

هنا يَذُمُّهم مع أنهم إذا ظُلِموا غفَروا لمَن ظلَمهم، وإذا أُسيءَ إليهم أَحسَنوا لمَن أَساء إليهم، وهذه صِفة قد تَبدو مَطلوبة مَحمودة، لكن إذا كان السبَب في ذلك أنهم ضُعَفاءُ صارَت مَذمومة.

وقد يَكون النَّفيُ لعدَم صلاحية هذا الوَصْفِ لما نُفِيَ عنه، قد يَكون نَفيُ الشيء عن الشيء؛ لأنه غيرُ قابِل وغير صالِح لأن يُوصَف به، كما إذا قُلت: الجِدار لا يَظلِم. فهذا ليس مَدْحًا للجِدار؛ لأنه غير قادِر ولا صالِح للظُّلْم أو عدَم الظُّلْم، فتَبيَّن بذلك أنَّ الله تعالى لا يَنفِي عن نَفْسه شيئًا إلَّا لكَمال ضِدِّ هذا المَنفيِّ، لا لأنه غير قابِل له، أو غير صالِح في حَقِّه، وما أَشبَه ذلك. من الناحِية العَقْلية.

وهذا الظُّلمُ المَنفيُّ عن الله لكَمال العَدْل جائِز؛ لكنه مُستَحيل على الله تعالى لكَمـاله؛ خِلافًا للجَهْمية، الذين قالوا: إن الظُّلْم مُستَحيل على الله لذاته -لذات الظُّلْم-؛ لأنه إذا كان مُستَحيلًا لذاته، لم يَكُن مَدْحًا، المُستَحيل لذاته لا يَمدَح من

(١) ذكره أبو تمام في ديوان الحماسة (ص:١١) عن رجل من بَلْعنبر يقال له: قُرَيط بن أُنَيْف.

استَحال عليه على ذلك؛ لأنه مُستَحيل، وهم يَقولون: إنه مُستَحيل لذاته؛ لأنَّ الخَلْق كله مُلْكه ويَفعَل في مُلْكه ما يَشاء، ومَن تَصَرَّف في مُلْكه؛ فإنَّه لا يُقال: إنه ظالِمٌ ولو قدَّم شَيْئًا على شيء، أو نقَص شيئًا عن حَقِّه، ولكنَّنا نَقول: إن الله تعالى صرَّح بأنه حَرَّم الظُّلْم على نَفْسه، وهذا يَدُلُّ على أنَّ الظُّلْم في حَقِّه مُمكِن عقلًا، لكنه حَرَّمه على نفسه لكَمالِ عَدْله.

والخُلاصة الآنَ: أنه لا يُمكِن أن يُوجَد في صِفات الله تعالى نَفيٌ مَحْض أبَدًا؛ الدليل: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والنَّفيُ المَحْض ليس من المَثَل الأعلى في شيء، ولكن إذا نفَى الله شيئًا عن نفسه، فالمُراد إثباتُ كَمال ضِدِّه، يَعنِي: أنه لثُبوت كَمال ضِدِّه انتَفَى عنه هذا الشيءُ؛ فضِدُّ الظُّلْم العَدْل، إذَنْ نُثبِت من نَفيِ الظُّلْم عن الله كَمال عَدْله، وأنه جَلَّ وَعَلَا لعَدْله لا يَظلِم، لا لعَجْزه، هو قادِر على أن يَظلِم، لكنَّه لا يَظلِم لكَمال عَدْله.

ولا يُوجَد نَفيٌ في صِفات الله إلَّا لكَمال ضِدِّه قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق:٣٨]؛ لكَمال قُوَّته؛ لا لأن اللُّغوب لا يَلحَقه، لكن لكمال قُوَّته لا يَلحَقه اللُّغوب، وليس المَعنَى أنَّه ليس مِمَّا يُمكِن أنْ يَلْحَقه اللُّغُوب، لا لكِنَّه مُستَحيل لكَمال قُوَّته.

قال أَهلُ العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: وإنَّما قُلْنا بذلك؛ لأن النَّفيَ المَحْض عدَمٌ مَحْض، النَّفيُ المَحضُ: نفَيْت الشيء مَعناه: أنه غيرُ مَوْجود، والعدَم المَحْض ليس بشيء، فَضْلًا عن أن يَكون مَدْحًا؛ لأنه عَدَم العَدَم لا يُمدَح عليه، وإمَّا أَنْ يَكون النَّفيُ مُتضمِّنًا لإثبات، هذا الإثباتُ قد يَكون عَجْزًا.

ولهذا جاء في الحَديث الصَّحيح القُدسيِّ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»[1] لم يَقُل: يا عِبادي، إنني لا أَستَطيعُ أن أَظلِم. قال: «إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي» وهذا يَدُلُّ على أنه قادِر على أن يَظلِم، لكنه لا يَظلِم لكَمال عَدْله، ولو كان غير قادِر أن يَظلِم لم يَكُن انتِفاء الظُّلْم عنه مدحًا؛ لأنه عاجِز، لكنه قادِر، ولكنه لا يَظلِم، وأَقولُ هذا؛ لأنَّ الجَهْمية وغيرهم قالوا: إنَّ الله لا يَستَطيعُ أَنْ يَظلِم أَبَدًا، وإلى هذا أَشار ابنُ القيِّمِ في النُّونية حين قال[2]:

وَالظُّلْـــمُ عِنْـــدَهُمُ المُحَـــالُ لِذَاتِـــهِ .....

يَعنِي: أنه مُستَحيل لذاته، لا لكَمال الله لكن لذاته، لا يُمكِن أن يَظلِم، قال: لأنَّ الظُّلم أن يَتَصرَّف الإنسان في مُلْك غيره، والله عَزَّوَجَلَّ يَتَصرَّف في مُلْكه فإذا ظلَم لم يَكُن ظالِمًا؛ لأن هذا مُلْكه، فيُقال: تبًّا لعُقولكم الفاسِدة؛ إذا وعَد المُؤمِن بشيء، ولكن على عمَل مُعيَّن، هو عمِل هذا العمَلَ ولم يُعطِه إيَّاه، يَكون ظُلمًا ولا شكَّ في هذا، وأنتم تَقولون: يَجوز أن يُثيب العاصِيَ الذي يَعصِي الله كل عُمْره، ويُعاقِب المُطيع الذي يَعمَل بطاعة الله كل عُمْره، وأنَّ الأمرين على حدٍّ سواءٍ؛ لأنه لا يَظلِم حيثُ إنه يَتصَرَّف في مُلْكه، فنَقول: هذا لا شَكَّ أنه سَفَه في العَقْل، وضَلالٌ في الدِّين والله عَزَّوَجَلَّ وعَدَ العامِل عمَلًا صالِحًا بالثَّواب، والمُخالِف بالعِقاب. كيف يَجوز أن يُخلِف الله وَعْده.

المُهِمُّ: هذا قولٌ باطِل، ولا شكَّ في بُطْلانه، ومُجرَّد تَصوُّره يَعرِف الإنسان أنه باطِل.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) النونية (ص:٨).

فقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ نَقول: نَفيُ إرادة الظُّلْم يَستَلزِم كَمال عَدْله، وهو أيضًا يَستَلزِم نَفيَ الظُّلْم؛ لأنَّ مَن لا يُريد الظُّلْم لا يُمكِن أن يَفعَل الظُّلْم.

الآيتان (٣٢، ٣٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [غافر:٣٢-٣٣].

ثُم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ رضي الله عن هذا الرجُلِ، خوَّفهم أوَّلًا بالعُقوبة الدُّنيوية؛ حين قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ ثُم خوَّفهم من العُقوبة الأُخْروية، فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بحَذْف الياء وإثباتِها] «التَّنادِى» هذا إثباتُها، (التّنادِ) هذا حَذْفها، أمَّا إثباتها فعلى الأَصْل، وأمَّا حَذْفها فللتَّخفيف، والياء دائمًا تُحذَف للتَّخفيف قِراءةً، مثل قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ [الأنبياء:٣٧] أَصلُها: تَستَعجلونِي، وليسَت النُّون هنا نونَ الرَّفْع؛ لأنَّها مَكسورة فهي نون الوِقاية، وحُذِفت الياء تَخفيفًا.

وقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ كلِمة ﴿يَوۡمَ﴾ هنا هل هي ظَرْف مَنصوبة على الظَّرْفية، والتَّقدير: إني أَخاف عليكم العَذاب يومَ التَّنادِ، أو أنَّ الفِعْل مُسَلَّطٌ عليها فهي مَفعولٌ به؟ الثاني؛ لقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور:٣٧].

فجعَل الخَوْف مُسلَّطًا على ﴿يَوۡمَ﴾؛ لأن يوم تَصْلُح أن تكون مَفعولًا فيه، وأن تَكون مَفعولًا به، وأن تكون مُبتَدَأ، وأن تكون خَبَرَ مُبتَدَأ تَتَصرَّف.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ بحَذْف الياء وإثباتها، أي: يَوْم القِيامة]، هذا هو المُراد به، وأنا أَشَرْتُ في كَلامي على قَواعِد في التَّفسير، أنَّ هُناك تَفسيرًا لفظيًّا، والثاني: مَعنَويًّا، اللَّفظيُّ يُفسِّر اللَّفْظ، والمَعنَويُّ يُفسِّر المُراد[1]؛ فهنا ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ تَفسيرُها اللَّفظيُّ: أي: يوم يَتنادَى الناس بعضُهم مع بعض، والمُراد بها: يوم القِيامة؛ فإذا قلنا: يومَ التَّنادِ؛ أي: يوم القِيامة، فهذا ليس تَفسيرًا لفظيًّا، بل هو تَفسير مَعنَويٌّ للمُراد بالآية.

يَقول: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [أي: يوم القِيامة؛ يَكثُر فيه نِداء أصحاب الجَنَّة أصحاب النار وبالعَكْس، والنِّداء بالسَّعادة لأهلها والشَّقاوة لأهلها، وغير ذلك]. التَّنادِي يوم القيامة يَكثُر، فيُنادِي الله الناسَ، والناسُ يُنادِي بعضُهم بعضًا، وأهل النار يَنادُون أهلَ الجَنَّة، وأهل الجَنَّة يُنادون أهل النار، والتَّنادِي الحاصِل يوم القِيامة ليس كالتَّنادِي الحاصِل في الدنيا؛ لأنه بأصوات مُزعِجة، وحَزينة إذا كان أهل النار يُنادون أهل الجَنَّة، وما أَشبَه ذلك.

فهذا اليومُ ذَكَّر هذا المُؤمِنُ قومَه به؛ ليَحذَروا من عذاب يوم القِيامة، ثُم بيَّن ذلك بقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ عن مَوقِف الحِساب إلى النار ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من عَذابه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ مانِع، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾].

وَصَف هذا اليومَ بأَوْصاف:

أوَّلًا: أنه يوم التَّنادِ، يُنادِي الناسُ بعضُهم بعضًا، والله تعالى يُنادِيهم أيضًا، ويَتَنادَوْن بنِداءات قد يَكون بعضُها مَجهولًا لنا الآنَ.

---

(١) انظر: (ص: ٢٠-٢١).

الوَصْف الثاني: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ يومَ هذه بدَل من قوله: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ أو عَطْف بَيان، ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ مُدْبِرين هذه حال، حال مُؤكِّدة لعامِلها؛ لأن التَّولِّيَ هو الإدبار، وعلى هذا فهي حال مُؤكِّدة لعامِلها، يَعنِي: تُولُّون يوم القِيامة حال كَونِكم مُدبِرين، يُولُّون إلى النار -والعِياذُ بالله- قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:٨٥-٨٦]، فهُمْ -والعِياذ بالله- يُولُّون مُدبِرين.

وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ الجُمْلة هذه جُمْلة خَبَرية مَبدوءة بـ(ما) النافِية، والمُبتَدَأ فيها قوله: ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ لكن دخَلَت عليه (مِن) الزائِدة للتَّوكِيد، وتقدير الكلام: لولا مِن ما لَكُم من الله عاصِمٍ. وهنا نَسأَل: هل هي تَميمِيَّة أو حِجازِيَّة؟

والجَوابُ: تَتَّفِق فيها اللُّغَتان؛ لأنَّها لا تَكون حِجازِية إلَّا بالتَّرتيب، كما قال ابنُ مالِكٍ:

..... مَعَ بَقَا النَّفْيِ وَتَرْتِيبٍ زُكِنْ[1]

وهنا لا تَرتيبَ؛ لأن الخبَر مُقدَّم، وعلى هذا فنَقول: (ما) هنا اتَّفَقت فيها اللُّغَتان، التَّميمية والحِجازِية؛ ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر:٣٣]؛ أي: من مانِع.

وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ هذه الجُمْلةُ؛ قد تُشْكِل كيف ختَمَ بها الدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ؟ لأن مُقتَضى الحال أن يَقول: وأَسأَل الله لكم الهِداية. فيُقال: هل قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ من كلام الرجُل أو من كلام الله؟ لا بُدَّ أن نَبحَث قبل كل شيء، هل هِيَ من كلام الله عَزَّوَجَلَّ ليُبيِّن أنَّ هؤلاءِ القومَ مع قُوَّة الدَّعْوة

(١) الألفية (ص:٢٠).

لم يَستَفيدوا، أو هي من كَلام المُؤمِن؟ إن كانـت من كَلام الله فلا إشكالَ، إلَّا أنَّها حالَت بين الكلام أوَّله وآخِره، وهذا لا يَضُرُّ لأنَّ الجُملة الاعتِراضِية تَأتِي كثيرًا، وإن كانت من كلام الرَّجُل فهنا مَحَلُّ الإشكال.

وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ (مَنْ) هذه شَـرْطية، وفِعْلُ الشَّرْط يُضلِل، وحُرِّك بالكَسْر؛ لالتِقاء الساكِنَيْن، وجواب الشَّرْط جُملة: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ وقُرِن بالفاء؛ لأنه لا يَصلُح أن يَكون فِعْلًا للشَّرْط، وكلُّ جَواب لا يَصلُح أن يَكون فِعْلًا للشَّرْط فإنه يَجِبُ أن يَقتَرِن بالفاء، كما قال ابنُ مالِكٍ:

وَاقْرُنْ بِفَـا حَـتْمًا جَوَابًـا لَـوْ جُعِـلْ ... شَرْطًـا لِإِنْ أَوْ غَيْرِهَـا لَمْ يَنْجَعِـلْ[1]

وذكَروا له سِتَّة ضَوابِطَ مَجموعةً في قوله:

اسْـــمِيَّةٌ طَلَبِيَّـــةٌ وَبِجَامِـــدٍ ... وَبِـمَا وَقَـدْ وَبِلَـنْ وَبِـالتَّنْفِيسِ[2]

فهذه الجُمَلُ السِّتُّ إذا وقَعَت جوابًا للشَّرْط فإنه يَجِب أن يَقتَرِن بالفاء، وهنا الجُملة هي مُصَدَّرة بـ(ما)، وإن شِئْت فقُلْ: إنها جُمْلة اسمِية، ولا مانِعَ من أن يُوجَد سبَبان لحُكْم واحِد.

وقوله: ﴿مِنْ هَادٍ﴾ أَصلُها: من هادِي؛ بالياء، فحُذِفَت الياء للتَّخفيف.

يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: إن مَن يُضلِل الله أي: مَن كتَبَ الله إضلالَه فإنه لا أحَدَ يَهديه؛ لأن الذي يَهـدِي ويُضِلُّ هو الله، بيَدِه الأمـرُ كلُّه، ولكن ليُعْلَم أنَّه لا يَهـدِي أحَدًا إلَّا لِحِكْمة، ولا يَضِلُّ أحَدًا إلَّا لِحِكْمة، فمَن كان أهلًا للهِداية هَداه، ومَن كان أهلًا

(١) الألفية (ص:٥٨).

(٢) غير منسوب، وانظر النحو الوافي (٤/ ٤٦٣).

للإضلال أَضَلَّه -والعِياذُ بالله- وإلَّا فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَحرِم فَضْله مَن أَراده، إنما يَحرِم فَضْله مَن لم يُرِده، ودليلُ هذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، فجعَل إزاغة الله لقُلوبهم مُترتِّبًا على زَيْغهم، أمَّا مَن أَراد الهُدَى بجِدٍّ؛ فان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُيسِّره له: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-٧].

إِذَنْ: قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ مُقيَّد بمَن فعَل ما يَقتَضِي إضلاله؛ لأن الله لا يُضِلُّ أحَدًا إلَّا لِحِكْمة.

من فوائدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ هذا المُحذِّر كان مُؤمِنًا باليَوْم الآخِر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ ما يَحدُث في اليوم الآخِر كان مَعلومًا للناس من قبل أن يَنزِل القُرآن؛ لقوله: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ وذلك لأن هذا أَمْر لا بُدَّ منه، أي: لا بُدَّ أن يَعلَم العِباد ما يَحدُث في اليوم الآخِر؛ ليَكونوا على بَصيرة من أمرهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن يوم القِيامة له أحوال، فقد قال الله تعالى في سورة طه: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه:١٠٨]، وهنا يُذكَر أنه يوم تَنادٍ، والنِّداء هو الصوت الرفيع، وعلى هذا فيَكون الجَمْع بين هذه الآيةِ، وبين قوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ هو أن يوم القِيامة له أحوال؛ لأن يوم القِيامة مِقدارُه خَمْسون ألفَ سَنَةٍ، فلا بُدَّ أن تَتغيَّر أحوال الناس.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: نُصْح هذا الرجُلِ لقَوْمه؛ حيث يُناديهم بهذا النِّداءِ اللَّطيف ﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ ثُم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: مُكمِّلًا لما ذكَره هذا المُحذِّرُ: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ هذه مَعروف أنَّ إعرابها بدَل مِمَّا سبَق، ففيها إثبات أنَّ آل

فِرعونَ يُولُّون مُدْبِرين يوم القِيامة إذا لم يُؤمِنوا، وقد بيَّن الله في آية أخرى أنهم يُعرِضون على النار غُـدُوًّا وعشِيًّا، وأنهم يـوم القِيامة يُقال لهم: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، فهُمْ -والعِياذُ بالله- سيُولُّون مُدبِرين مُعذَّبين في نار جَهنَّمَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه لا أحَدَ يَعصِم من عَذاب الله؛ لقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ وهذا كقَوْل نُوحٍ لابنه؛ لَمَّا قال: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود:٤٣].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنه يَجِب على الإنسان إذا أَراد أن يَسأَل الهِداية أن لا يَسأَلها إلَّا من الله، الذي بيَدِه الإضلالُ والهِداية؛ فلا تَسأَل الهِداية من غَيْره، بل اسأَلْها من الله عَزَّوَجَلَّ؛ فيُستَفاد مِنها: تَفويضُ الأَمْر إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

• • ۞ • •

الآية (٣٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر:٣٤].

ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ هذا من كلام الرَّجُل المُؤمِن المُحذِّر، قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم﴾ الجُمْلة هنا مُؤكَّدة بثَلاثة مُؤكِّدات؛ باللَّام، و(قَدْ)، والقَسَم، وكلَّما جاءَتْك صيغة كهَذه فإنها مُؤكَّدة بثلاثة مُؤكِّدات، اللَّام و(قد) والقَسَم؛ لأنَّ تَقدير الكَلام: والله لقد جاءَكم. وقوله: ﴿يُوسُفُ﴾ المُراد به يُوسُفُ بنُ يَعقوبَ.

فإن قال الإنسان: كيفَ يُخاطِبهم فيَقول: ﴿جَآءَكُم﴾ ويُوسُفُ بنُ يَعقوبَ عليهما الصلاة والسلام قبلهم بأزمان كثيرة؟

فيُقال: إن ما حصَل للأَسلاف فهو للأَخْلاف؛ يَعني: أنَّ ما جاء أَسلافَهم فهو كالذي جاءَهُم.

ودليلُ ذلك أنَّ الله يُخاطِب بني إسرائيلَ في عَهْد النَّبيِّ ﷺ بما حصَل لأَسْلافهم في عهد مُوسَى، وبينهم قُرون كَثيرة؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ [البقرة:٥٥-٥٧]، ومَعلوم أن هذا كلَّه لم يَحصُل لليَهود في عَهْد النَّبيِّ ﷺ، لكنه حصَل لأَسْلافهم؛ فما كان من الأُمَّة من أَوَّلها، فإنه ثابِت للأُمَّة في آخِرها.

إِذَنْ: لا إشكالَ في هذه الآيةِ، ما دُمْنا نَقول: إنه قد جاء أَسلافَهم، وأن ما يَحصُل من أَسْلافهم فيما سبَق، يَكون مَنْسوبًا إلى الجميع، إذا لم يَخرُجوا عن هذا المِنهاجِ.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: من قَبْل مُوسى، وهو يُوسُفُ بنُ يَعقوبَ...] إلى آخِره.

قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ لماذا جرَّها بالضَّمِّ؟ والمَعروف أنَّ (مِن) حَرف جرٍّ إذا دخَلَت على كلِمة جَرَّتها -كسَرَتها- تَقول: مِن زَيدٍ. وهنا قال: ﴿مِن قَبْلُ﴾ حُذِف المُضاف إليه ونُوِيَ مَعناه؛ لأنه إمَّا أن يُوجَد المُضاف أو يُحذَف ويُنوَى مَعناه، أو يُحذَف ويُنوَى لفظُه، أو يُحذَف ولا يُنوَى لا لفظُه ولا مَعناه؛ فالأقسام أَربَعة: تُبنَى في واحِد منها، والباقي مُعرَبة تُبنَى إذا حُذِف المُضاف إليه ونُوِيَ مَعناه.

فإن قال قائِلٌ: ما هو الدَّليلُ؟

قلنا: الدَّليلُ أنها تَكون مَضمومة لأنها تُبنَى على الضَّمِّ؛ فإذا كلَّمْنا مَن هو عالِمٌ بالعرَبية، وبناها على الضَّمِّ، عرَفْنا أنه حَذَف المُضاف ونَوَى مَعناه.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِن قَبْلُ﴾ في قول عُمِّر إلى زمَن موسى، أو يُوسُفَ بنِ إبراهيمَ بنِ يُوسُفَ بنِ يَعقوبَ في قولٍ] حكَى المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قولَيْنِ في المُراد بيُوسُفَ.

فقيل: إنه يُوسُفُ بنُ يَعقوبَ، وأنه عُمِّر إلى زَمَنِ مُوسى، وهذا قولٌ باطِل لا إشكالَ. يَقول: [عُمِّر إلى زمَنِ مُوسَى]، هذا قول ليس بصَحيح، بل هو باطِلٌ؛

لأنَّه لو كان الأمر كذلك لكان يَأتِي مُوسى ويَتَّصِل به؛ لأن كِليهما رَسولٌ.

القولُ الثاني: إنه يُوسُفُ وجَدُّه يُوسُفُ بنُ يَعقوبَ، يُوسفُ بنُ إبراهيمَ بنِ يُوسُفَ، وهذا أيضًا لا دَليلَ له، والصوابُ: أنَّ المُراد به يُوسُفُ بنُ يَعقوبَ، وأنه لم يُعَمَّر إلى زمَن موسى، وأنه مات في زمَنه، لكنه جاء أَسلافَه؛ لأن يُوسُف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَخَذَه المارَّة الذين مَرُّوا بالبِئْر الذي أُلقِيَ فيها، وذهَبوا به إلى مِصرَ، والقِصَّة مَعروفة في سورة كامِلة.

وقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ البَيِّنات من بانَ يَبينُ إذا ظهَر، ومَعلوم أنها وَصْف لمَوْصوف مَحذوف؛ وذلك لأنه يَجوز أن يُحذَف النَّعْت وأن يُحذَف المَنعوت إذا دَلَّ عليه دَليل؛ والمَوْصوف المَحذوف هنا تَقديرُه الآيات، كما يُعبَّر به في القُرآن كثيرًا بالآيات البَيِّنات، بـ: ﴿ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ [البقرة:٩٩]، وما أَشبَه ذلك.

وأمَّا قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالمُعْجِزات] فإن هذا تَعبير مُتأخِّر؛ لم يُعرَف في عَهْد السلَف، وهو تَعبير ناقِص؛ لأن كلِمة (مُعجِزة) تَشمَل ما يَفعَله السَّحَرة والمُشعوِذون من الأمور الخارِقة للعادة، فإنها تُعْجِز مَن ليس مِنهم، ولكنه إذا قيل: آية بمَعنى عَلامة، صَارَتْ أبينَ وأَوْضحَ وأوفقَ لمُوافَقَتها للتَّعبير القُرآني، على أنه لا يُمكِن أن تَكون آية لرَسول إلَّا والناس يَعجِزون عنها؛ لأنهم لو كانوا يَستَطيعون أن يَأْتوا بمِثْلها لم تَكُن آية للنَّبيِّ، كل واحِد يَأتِي بها.

إِذَنْ: تَقدير الكَلام بالآيات البَيِّنات، ولكن حُذِف المَوْصوف لدَلالة السِّياق عليه، ومِنه قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ:١١] يَعني: أن اعمَلْ دُروعًا سابِغاتٍ.

فإن قال قائِل: هل يَصِحُّ أن يُطلَق لفظ الدَّلائِل على مُعجِزات الأنبياء أو آيات الأنبياء؟

فالجوابُ: أي نعَمْ؛ لأن الدليل ما يَهدِي إلى غيره؛ ولهذا يُسمَّى الرَّجُل الذي يَدُلُّك الطريق يُسمَّى هادِيًا؛ فالآيات لا شَكَّ أنها دَليل وبيِّنات.

ونحن نَقـول: الآيةُ دليلٌ، واللُّغة مُتـرادِفة، فمـا دام اللَّفْظ مُرادِفًا للآخَر ولا يَتضَمَّن مَحظورًا فلا مانع أن نُعبِّر به.

قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ يَعنِي: من وَقْت يُوسُفَ، إلى وَقْت مُوسى، وآل فِرعونَ، وإن شِئْت فعَبِّر بالقِبْط.

قوله: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ أي: في شَكٍّ مِمَّا جاء به يُوسُفُ؛ فلم يُؤمِنوا به الإيمان الواجِبَ الخالِيَ من الشَّكِّ.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن غَيْر بُرهانٍ] ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ يَعنِي: أنهم كانـوا في شَكٍّ مِمَّا جاء به يُوسُفُ، ولم يُصدِّقوه، ولَمَّا هلَكَ قالت لهم نُفوسُهم: الآنَ استَرَحْتم، فلن يَبعَث الله من بَعدِه رسولًا، كُفِيتم هلَك مَن أُرسِل، فكذَّبْتموه فاطْمَئِنُّوا لن يَبعَث الله من بَعده رسولًا، قالوا ذلك بِناءً على أُمنِية كاذِبة؛ لأنهم قالوا: هذا الرسولُ الذي جاءَنا وتَوعَّدنا إن خَالَفْناه فإنه مات -هلَك- فلن يَأتِيَ من بعده رَسولٌ، وحِينئذٍ نكون قدِ استَرَحْنا من الرُّسُل ومَشاكِلهم -على زَعْمهم!-.

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾؛ أي: فلَنْ تَزالوا كافِرين بيُوسُفَ وغَيرِه]؛ لأنهم إذا قرَّروا في أَنفُسهم أنَّ الله لن يَبعَث رسولًا، فسَوْف

يُكذِّبون كل مَن جاء من الرُّسُل بعد يُوسُفَ، بِناءً على هذه العَقيدةِ الفاسِدةِ التي أَصَّلوها.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثْل إِضْلالكم ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مُشرِك ﴿مُّرْتَابٌ﴾ شاكٌّ فيما شَهِدَت به البيِّنات]، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ قال المفَسِّر: [أي: مِثْل إضلالكم ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾]، وعلى هذا فتكون إعرابُها: الكاف اسمٌ بمَعنَى (مِثْل)، وهي مَفعول مُطلَق مُضاف إلى اسمِ الإشارة، وعامِله قوله: ﴿يُضِلُّ﴾، عامِله مُتأخِّر عنه، وهذا التَّعبيرُ القُرآنيُّ يَكثُر في كَلام الله عَزَّوَجَلَّ، وإِعْرابه كما سمِعْتم: أن تَقول الكاف اسمُ بمَعنَى (مِثْل) مَنصوبة على المَفْعولية المُطلَقة مُضافة إلى اسم الإشارة، فإن قيل: وهل الكافُ تَأتِي اسمًا؟ قلنا: نعَم، اللُّغَة العرَبية واسِعة، وإلَّا فالأصل أنَّ الكاف حَرْف، لكن تَكون اسمًا.

قال ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

شَبِّهْ بِكَافٍ وَبِهَا التَّعْلِيلُ قَدْ ... يُعْنَى وَزَائِدًا لِتَوْكِيدٍ وَرَدْ

وَاسْتُعْمِلَ اسْمًا وَكَذَا عَنْ وَعَلَى ... .

استُعمِل يَعني: الكافُ اسمًا؛ أي: في اللُّغة العرَبية.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثْل ذَلِكم يُضِلُّ الله ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ لا يُضِل الله تعالى رَجُلًا مُؤمِنًا مُقتَصِدًا مُوقِنًا أبَدًا، يُضِلُّ الله -والعِياذُ بالله- ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

---

(١) الألفية (ص:٣٥).

يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُسْرِفٌ﴾ مُشرِك] ولا شَكَّ أنَّ الشِّرْك من الإسراف؛ لأنَّ الإسراف مَعناه: تَجاوُز الحدِّ، ومَن جعَل لله شَريكًا فقد تَجاوَز الحَدَّ بلا شكٍّ؛ لكن مَعنَى الآية أعَمُّ من المُشرِك؛ فالمُسرَف مَن تَجاوَز حدَّه -هذا المُسرِف- بإفراط أو تَفْريط؛ لكن الغالِب يَكون بالإفراط؛ لأنه مُجاوَزة الحَدِّ زِيادة، فالمُشرِك لا شَكَّ أنه مُسرِف بلا شَكٍّ، والمُستكبِر مُسرِف، والجاحِدُ مُسرِف، وهلُمَّ جَرًّا.

إِذَنْ: ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ يَنبَغي أن يُقال في تَفْسيرها: مَن هو مُجاوِز لحَدِّه؛ كالمُشرِك.

وقوله: ﴿مُّرْتَابٌ﴾؛ أي: شاكٌّ -نَسأَل الله أن يُعيذَنا وإيَّاكُم من الشَّكِّ- المُرتاب -والعِياذ بالله- الذي يَطمَئِنُّ للارتِياب، لا يَهتَدِي يَبقَى على ضَلاله -والعِياذُ بالله- أمَّا إذا أَوْقَع الشَّيْطان في قَلْبك شكًّا ثُم حاوَلْت أَنْ تَنزِعه من قَلْبك، فإنَّ الله يُعينُك عليه ويَهديك، لكن البَلاء كل البَلاء أَنْ تَركَن إلى هذا الشَّكِّ، وأن لا تُنتَشَل منه؛ والدَّليل على هذا ما شَكاه الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ إلى رَسول الله ﷺ مِمَّا يَقَع في نُفوسهم، حتى قالوا: نَوَدُّ أن يَكون الواحِد مِنَّا حممًا؛ أي: فَحْمًا مُحترِقًا، ولا نَتكَلَّم به؛ فأَخبَرهم النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّ ذلك لا يَضُرُّهم؛ لأنهم لا يَركَنون إلى ما حصَل، أو إلى ما وقَعَ في قُلوبهم[1].

ولهذا يَجِب أن تَكون شُجاعًا إذا أَلقَى الشَّيْطانُ في قَلْبك مثل هذه الأُمورِ فكُنْ شُجاعًا لا تَركَن، لا تَستَرسِل معها، كُنْ شُجاعًا، استَعمِل معه السلاح الذي أَعطاك إيَّاه مَن هو عالِمٌ به، ومَن عالِمٌ بإصابته للعَدوِّ، وهو الرسولُ ﷺ، وذلك بأَمْرين

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٤٠)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في رد الوسوسة، رقم (٥١١٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فقَطْ: أن تَستَعيذ بالله من الشيطان الرجيم وتَنتَهي[1]- أي تُعرض- فاستَعِذْ بالله ثُم انتَهِ. وبذلِك يَزول عنك هذا البَلاءُ، أمَّا إنِ استَرْسَلت معه فالأَمْر خَطير جدًّا؛ لأنه يَتَفاعَل في نفسك، ويَقوَى حتى يَصِل إلى درَجة الشَّكِّ والارتياب، وحينَئِذٍ تُحرَم من الهِداية، وهذا لا شَكَّ أنه من حِكْمة القُرآن، مثل هذا التَّعبيرِ لئَلَّا يَقَع في نَفْسك مثل ما ذكَر الله عَزَّوَجَلَّ، فدَواؤُه بهذَيْن الأَمْرين.

لو أنَّ أَذكَى العالَم حاوَل أن يَجِد دواءً لهذا البَلاءِ ما وجَدَه بهذه العِبارةِ المُختَصَرة السَّهْلة، قال: «فَلْيَستَعِذْ باللهِ ثُمَّ لْيَنْتَهِ» اعرِض عن هذا، اشتَغِلْ بشُؤُونك، وقل: أَعوذُ بالله من الشَّيْطان، فاشتِغالُك بشُؤونك وإعراضُك عنه يُوجِب لك أن تَنساه، وهذا شيء مُشاهَد ومُجرَّب.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَمام نُصْح هذا الرجُلِ حينما ذكَّر قومه بما سلَف.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه يَنبَغي للإنسان أن يَكون لدَيْه عِلْم بما سبَقَ؛ فإن التاريخ عِبَر، سواءٌ في هذه المَسأَلةِ الكَبيرة، أو في المَسائِل الصغيرة، اقْرَأ التارِيخ يَتبيَّن لك ما قدَّره الله على العِباد، وأن سُنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في السابِقين ستكون في اللاحِقين، أي: أنه يَنبَغي أن يَكون عند الإنسان خِبْرَة بما سبَقَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن أَعظَمَ رَسولٍ أُرسِل إلى آل فِرعونَ -بعدَ مُوسى- هو يُوسُف؛ ولهذا طُوِيَ ذِكْر مَن بعدَه، والظاهِر -والله أَعلَمُ- أنَّ الله تعالى لا يَدَع هذه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأُمَّة -أَعنِي: أُمَّة فِرعونَ- لا يَدَعهم بلا رَسولٍ من بعد مُوسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الذي له أَزمان كثيرة، لكِنَّهم ليسوا كيُوسُفَ، فنَوَّه بذِكْر يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الرُّسُل يَأتون بالبَيِّنات الدالَّة على صِدْقهم ونُبوَّتهم؛ لأنَّ هذا من حِكْمة الله لو أَرسَل الله رَسولًا للناس ليس معه آية، وقال: أنا رَسولُ الله إليكم، آمِنوا بي، وإلَّا فلكُمُ النَّار، فلن يُطيعوه أبدًا، نَقول: هذا مَجنون، يَعنِي: لا بُدَّ من آية تَدُلُّ على صِدْقه. وقد ثبَتَ عن النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قال: «**مَا مِنْ رَسُولٍ بَعَثَهُ الله إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ**»، فلا بُدَّ من ذلك.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الآياتِ التي جاءَتْ بها الرسُلُ آياتٌ بَيِّنة، لا تَخفَى إلَّا على العُميان، ودليلُ ذلك قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وهُنا ركَّز على الوَصْف دون المَوْصوف؛ لأن الوَصْف أهَمُّ، وهو كون هذه الآياتِ بَيِّنة، لا تَخفَى على أحَد.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ آل فِرعونَ ما زالوا في شَكٍّ حتى مع وُجود يُوسُفَ فهُمْ في شَكٍّ؛ لأنَّ الله تعالى لم يُقدِّر هِدايتهم، فبَقُوا حَيارى، واستَمَرُّوا على الكُفْر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيان كَراهة الشعوب المُكذِّبة للرُّسُل، لما جاءَت به الرُّسُل؛ كأنهم انتَهَزوا الفُرصة لَمَّا هلَكَ يُوسُف، فقالوا: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ وهذا يَدُلُّ على أنهم مُتَضايِقون غاية التَّضايُق بوجود يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الإيمان بوُجود الله لا يَكفِي في التَّوْحيد والخَلاص من عَذاب الله، يُؤخَذ ذلك من قولهم: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ﴾ فهَؤلاءِ كانوا مُقرِّين بالله ومع ذلك لم يَنفَعهم إقرارُهم بالله، وكذلك الذين بُعِث فيهم الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُقِرُّون بالله ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس:٣١] مُؤمنين

بالرُّبوبية، تمامًا، وبأن المُدبِّر هو الله، ومع ذلك استَباح النبيُّ ﷺ دِماءَهم، وأموالهم، ونِساءَهم، وذُرِّيَّاتهم، وأرضَهم؛ لأن مُجرَّد الإيمان بالله ليس إيمانًا أبدًا، لا بُدَّ من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ بوُجوهه الأربعة المَعروفة، وهي: الإيمان بوُجوده، وبرُبوبيته، وبأُلوهِيَّته، وبأَسمائه وصِفاته. لا بُدَّ من هذا، فمَن لم يُؤمِن كذلك فليس مُؤمِنًا بالله.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ إضلال الله عَزَّوَجَلَّ لا يَكون إلَّا في مَحلِّه؛ أي: فيمَن هو أَهْل للإضلال؛ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ مَن لزِمَ حدَّه، وأَيقَن بما يَجِب الإيقان به؛ فإنه أَبعَدُ الناس عن الإضلال، يُؤخَذ هذا من المَفْهوم، إذا كان الله يُضِلُّ مَن هو مُسرِف مُرتاب، فإنه يَهدِي مَن لزِمَ حَدَّه وأَيقَنَ في أَمْره، وآمَن بذلك ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾، واللهُ أَعلَمُ.

فإن قال قائِلٌ: هناك إشكال، وهو قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ لماذا لم يَقُل بعد هذا النُّصْحِ: نَسأَل الله لكُمُ الهِداية، أو شيئًا من هذا؟

فالجَوابُ: جاء في تَفسير (التَّحرير والتَّنوير): قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ لِتَضَمُّنِهَا معنى: إِنِّي أَرشَدْتكم إِلَى الْحَذَرِ مِنْ يَوْمِ التَّنَادِي. وَفِي الْكَلَامِ إِيجَازٌ بِحَذْفِ جُمَلٍ تَدُلُّ عَلَيْهَا الْجُمْلَةُ الْمَعْطُوفَةُ. وَالتَّقْدِيرُ: هَذَا إِرْشَادٌ لَكُمْ، فَإِنْ هَدَاكُمُ الله عَمِلْتُمْ بِهِ، وَإِنْ أَعْرَضْتُمْ عَنْهُ فَذَلِكَ لِأَنَّ الله أَضَلَّكُمْ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَعْنَى التَّذْيِيلُ. ولم يَقُل لهم: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر:٣٧]؛ لِأَنَّهُ أَحَسَّ مِنْهُمُ الْإِعْرَاضَ وَلَمْ يَتَوَسَّمْ فِيهِمْ مَخَائِلَ الِانْتِفَاعِ بِنُصْحِهِ وَمَوْعِظَتِهِ. وقوله هذا تَفسيرٌ.

فإن قال قائِلٌ: قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يَهدِيه إلى طريق النَّجاة أصلًا، وكأنَّ الرَّجُلَ يَئِس من عدَم قَبولهم النُّصْح. فقال ذلك.

فالجَوابُ: هذا هو الظاهِر، أنَّ الرجُل قد أَيِس، وهذا كقَوْل نُوحٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

فإن قال قائِل: في هذه الآيةِ أنَّ الإسراف يَنقَسِم إلى قِسْمَيْن، هنا فسَّر الإسراف بالمُشرِك، وآية أُخرى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف:٣١] هنا أيضًا يَنقَسِم إلى قِسْمين؟

فالجَوابُ: غالِب الأشياء تَنقسِم إلى قِسْمين أو أكثَر. يَعنِي: أكبَرَ وأصغَرَ ومُتوسِّطٍ؛ فليس المُسرِف في الإشراك كالمُسرِف في خُبْزة يَأكُلها.

الآية (٣٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ [غافر:٣٥].

قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ المُجادَلة هي: المُخاصَمة، والمُناظَرة من أَجْل إفحام الخَصْم، مَأخوذة من جَدْل الحَبْل، أي: فَتْله؛ فإن الحَبْل إذا فُتِل احتكَم وصار أَقوى، فهذا المُجادِل تَجِده يَحتكِم ويَتَصلَّب من أَجْل أن يَغلِب مُجادِله.

وقوله: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُعجِزاته] والصوابُ: أن يُقال: آياتُ الله يَعنِي: العلامات الدالَّة على ما يَستَحِقُّه جَلَّوَعَلَا من الرُّبوبية، والأُلوهية، والأَسْماء والصِّفات، والأحكام، وغير ذلك. هذا هو المُراد، وقد سبَقَ أنه لا يَنبَغي أن نُسمِّيَ الآياتِ المُعجِزاتِ؛ لأن ذلك نَقْصٌ في التَّعبير، وليس مُحدِّدًا للمَعنى، ورُبَّما يَدخُل عليه فِعلُ المُشعوِذين، والسحَرة؛ لأنه مُعجِز.

وقوله: ﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هل هم يُجادِلون لإثبات الآيات، أو لنَفيِ الآيات؟ الثاني لا شَكَّ؛ ولهذا قال: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾؛ لأنهم لو كانوا يُجادِلون لإثبات الآيات، والإقرار بها، لكانوا على سُلْطان.

وقوله: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بُرهان] أي: بغَيْر دليل،

وذلك لأن السُّلْطان كل ما يَكون به السُّلْطة، ويَختَلِف بحَسب السِّياق؛ فالإمام الأعظم يُسمَّى السُّلْطان؛ لأنه ذو سُلطة. والدليل يُسمَّى سُلْطانًا؛ لأن الآخِذَ به ذو سُلْطة.

وعلى هذا يَكون معنى قوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ أي: بغَيْر دَليل. وهذا النَّعتُ أو الحالُ؛ لأن جُمْلة: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ حال من فاعِل ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ هذا الوَصْفُ وَصْف لبَيان الواقِع، وليس وَصْفًا مُقيَّدًا، والفَرْق: أننا لو قُلْنا: إنه وَصْف مُقيَّد صار الذين يُجادِلون بآيات الله لإِبْطالها أحيانًا يَكون معَهم سُلْطان، وأحيانًا لا يَكون معَهم سُلْطان، والواقِع أنه ليس لهم سُلْطان، والقيد المُبيِّن للواقِع ليس له مَفهوم، وهذا آتٍ في القُرآن كثيرًا، وإنَّما المَقصود به -أي: بالقَيْد المُبيِّن للواقِع- الاستِدْلال؛ يَعني: فكأنه تَعليلٌ للمَوْصوف.

وانظُرْ إلى قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون:١١٧] فقوله: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ مُبيِّن للواقِع وليس قيدًا؛ لأنه لا يُمكِن أن يَدعوَ أحدٌ مع الله إلهًا آخَرَ له فيه بُرهانٌ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]، فإنَّ هذا لا يَعني أنه قد يَدْعونا لما لا يُحيِينا، بل هو لا يَدعونا إلَّا لما يُحْيينا، فيَكون هذا كالتَّعليل لمَوْصوفه الذي صار قيدًا فيه.

إِذَنْ: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ هذا نَقولُ: إنه وَصْف لبيان الحال والواقِع، وأنه لا سُلْطانَ لهم بذلك، وعلى هذا فيَكون كالتَّعليل لمَوْصوف، وأَعني بالوَصْف هنا ما يَشمَل الحال وغير الحال. وقوله: ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ الجُملة صِفة لـ﴿سُلْطَٰنٍ﴾.

وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ هذه الجُمْلةُ خبَر المُبتَدَأ. وقوله: ﴿كَبُرَ﴾؛ أي: عَظُمَ، وضُمَّت الباء حتى صار من باب فعُل؛ لأنه أُريد به التَّعجُّب، يَعنِي: ما أكبَرَ مَقتَهم عند الله! قال: ﴿مَقْتًا﴾ هذه تَمييز، تَمييز لـ﴿كَبُرَ﴾ لأن كبُر المراد به الجِدال؛ يَعنِي كبُرَ جِدالهم مَقْتًا، فهي مُميِّزة للفاعِل المحذوف، بل الفاعِل المُستَتِر.

وقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَبُرَ﴾ جِدالُهم ﴿مَقْتًا﴾] الصواب أن يُقال: كبُرَ مَقْتهم مَقْتًا عند الله؛ لأن التَّمييز مُبيِّن للفاعِل المُستَتِر، وقوله: ﴿مَقْتًا﴾ المَقْت هو أشَدُّ البُغض.

وقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ مُتعلِّق بـ﴿كَبُرَ﴾.

قوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يَعنِي: وكذلك المُؤمِنون يَكبُر مَقتُهم لهؤلاء المُجادِلين في آيات الله بغير سُلْطان الذين يُريدون إِدْحاض الحَقِّ، وإظهار الباطِل.

وقوله: ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إذا أُطلِق الإيمان فالمُراد به ما يَشمَل الإسلام، وإذا أُطلِق الإسلام فالمُراد به ما يَشمَل الإيمان؛ ولهذا لو سُئِلت وقيل لك: هل الإسلام والإيمان مُتَرادِفان بمَعنًى واحِدٍ؟ فقُلْ: هُما عند الإفراد مُتَرادِفان، وأمَّا عند الاقتِران فإنه يُفسَّر الإيمان بأعمال القُلوب، والإسلام بأعمال الجَوارِح؛ مثال ذلك قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤] ففرَّق بين الإيمان والإسلام؛ وبيَّن أنَّ الإيمان لم يَدخُل في قلوبهم، ولكنه قريب الدُّخول؛ لأنَّ (لَمَّا) تُفيد القُرْب، وفي حديث جِبريلَ فرَّق بين الإيمان والإسلام.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦].

ففرَّق بين هذا وهذا، المُخرَجون مُؤمِنون، والبيت مُسلِم؛ لأن في البيت امرأةً كافِرةً، وهي امرأةُ لُوطٍ؛ فهي في ظاهِر الحال مُسلِمة، مُستَسلِمة؛ لأنها لا تُظْهِر أنها كافِرة، كما قال تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، ولكن حينما أَراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يُنجِيَ مَن يُنجِي من قوم لوط أَنجَى المُؤمِنين فقَطْ، وأمَّا المَرْأة فبَقِيَتْ مع قومها وهلَكَت.

فإن قال قائِل: ما الحِكْمة من بقاء زَوْجاتهم معَهم؟ أي: نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ولوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، هل لم يَكونوا يَعلَمون ذلك؟

فالجَوابُ: ما دام أن الله تعالى يَقول: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، وقال له: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾، فهُمْ لم يَكونوا يَعلَمون، وهذه لأَجْل الاعتِبار بالنِّسبة لزَوْجات الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذه السورة كلُّها نزَلت شِبْه مُعاتِبة لزوجات الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم:٤] فالمَقصود بيانُ عِناية الله عَزَّوَجَلَّ برَسوله ﷺ، وأنَّكما إن تَظاهَرْتُما عليه؛ فله أَولياءُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ نَعوذُ بالله، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تقدمت قريبًا، وقُلْنا: مِثْلُ هذا التَّرْكيبِ يَكون إعرابُه كالتالي: الكافُ اسمٌ بمَعنى مِثْل، وهي مَفعول مُطلَق للفِعْل الذي بعدها، العامِل فيها الفِعْل الذي بعدَها، و﴿يَطْبَعُ﴾ هو الفِعْل العامِل، وعليه فنَقول: مِثْل هذا الطَّبعِ يَطبَع الله.

وأمَّا قول المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِثْل إِضْلالهم] ففيه نظَر، وإن كان يَلزَم من الإضلال الطَّبْع، لكن الأحسن أن يُفسَّر بما يُطابِق العامِل، فيُقال: مِثْل هذا الطَّبْعِ يَطبَع الله.

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَطْبَعُ﴾ يَختِم]، نَعَم؛ الطَّبْع بمَعنى الخَتْم؛ كأن الله جعَل على قُلوبهم غِلافًا ثُم ختَمَ عليه، كما يُختَم على الوثائِق، وقد أَشارَ الله إلى ذلك في قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾ [النساء:١٥٥].

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ بالضَّلال ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾] قوله: [﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ بالضَّلال] يُقال فيها كما قيل فيما سبَق؛ بأن المُراد يَطبَع الله بالطَّبْع على القُلوب على كل قَلْب مُتكبِّر.

وقوله: [﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ بتَنوين قَلْب، ودونَه] على كلِّ قَلْبٍ مُتكبِّر، وعلى كلِّ قلبِ مُتكبِّر، والفَرْق أنه على قِراءة التَّنوين يَكون التَّكبُّر وَصْفًا للقَلْب، وعلى قِراءة الإضافة يَكون الطبع على قَلْب المُتكبِّر، وليس القلبُ هو المُتكبِّر، والمَعنَى واحِد؛ لأنه إذا تَكبَّر القَلْب تَكبَّرَت النَّفْس؛ لقول النَّبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»(١).

قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ أو «قلبٍ مُتكَبِّرٍ» التَّكبُّر معناه التَّرفُّع، يَعنِي: أنَّ الإنسان يَترفَّع، وهو نوعان: تَكبُّر على الخَلْق، وتَكبُّر عن الحَقِّ. وإلى هذا يُشير قول النَّبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»(٢) بطَر

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الحَقِّ يَعنِي: رَدُّه، وعدَم الإذعان له. وغَمْط الناس يَعنِي: احتِقارُهم، فيَرَى نفسه أنه فوقَ الناس، هذا هو الكِبْر -والعِياذ بالله- ومَعلومٌ أنَّ مَن غمَطَ الحقَّ وازدَراه فإنَّه لا يَأخُذ به، إذْ كيف يَأخُذ بشيءٍ يَرَى أنَّه نقيصة، وكذلك مَن غَمَطَ النَّاسَ فإنه لا يَعْدِل فيه، بل يُعامِلهم بالكِبْرياء -والعِياذُ بالله- فيَكون الطَّبْع حقيقًا بمِثْل هذا القَلْبِ، وقد أَخبَرَ النَّبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- أنه لا يَدخُل الجَنَّة مَن في قَلْبه مِثْقال حَبَّة خَرْدَل من كِبْر[1].

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: كراهةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للذين يُجادِلون في آيات الله لأَجْل إبطالها؛ لقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه لا سُلْطانَ لكل إنسان جَادَل لإِدْحاض الحَقِّ وإظهار الباطِل، يُؤخَذ من قوله: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَقوية قُلوب المُجادِلين بالحَقِّ؛ لأنَّ الجِدَال يَكون من طرَفَيْن؛ فالمُجادِل في آيات الله لإِبْطالها هذا لا حُجَّةَ له؛ ويَكون الخَصْم المُقابِل للآخَر يَكون له حُجَّة.

فإِذَنْ: إذا عُلِم المُجادل الذي يُريد إثبات الحَقِّ وإبطال الباطِل أنه لا سُلطانَ لخَصْمه، فإنه سوف يَقوَى قلبُه، ويَزداد ثَباتًا؛ فيُستَفاد منه بطريق المَفهوم أنَّ المُجادِل في آيات الله لإثباتها سيَكون معه السُّلْطان والقوَّة، ولكن ليس كل مَن معه حُجَّة يَستَطيع أن يَحتَجَّ بها؛ قد لا يَستَطيع، وهو يَعرِف أنه على حَقٍّ لكن لا يَستَطيع أن يُجادِل

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بها؛ ولهذا يَنبَغي للإنسان أن يَعرِف ما عِند الأقوام من الباطِل؛ ليَتمَكَّن من رَدِّه. أمَّا كونُه لا يَقرَأ الباطِل، ويَقول: أنا كل ما ورَدَ عليَّ من باطِل فعِندي قُدْرة على دِفاعه فهذا قد يُخذِّل الإنسان في مَكان يُحِبُّ أن يَنْتَصِر فيه؛ فلا بُدَّ من أن يَعرِف الإنسان الباطِل من أَجْل أن يَرُدَّ عليه.

ولهذا نَرى العُلَماء المُحقِّقين يَقرَؤُون كتُب المَناطِقة والفلاسِفة وغيرها؛ ثُم يَرُدُّون عليهم، وهذا إنما يَكون في رجُل رسَخت قدَمُه في العِلم، أمَّا رجُلٌ ابتَدَأ طالِبًا، فهذا لا نُشير عليه أن يَقرَأ كتُب أهل الضَّلال، وذلك لأنه ليس عنده مَنَعة، فيُخشَى أن يَتأثَّر بهذه الكتُبِ فيَضِلَّ؛ لكنَّ الراسِخ في العِلْم نَقول: اقرَأْ حتى تَعرِف كيف تَرُدُّ على هؤلاء.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن مَن جادَلَ بحَقٍّ فليس بمَذموم؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ إذ لو كان لهم سُلْطان لكانوا على حَقٍّ، لكن ليس لهم سُلْطان.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات المَقْت لله عَزَّوَجَلَّ وأنه يَتفاضَل؛ فيَكون مَقتُه على شخصٍ أو طائِفة أكبَرَ من مَقْته على شخصٍ أو طائِفة آخَرين، يُؤخَذ من قوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهل هذا المَقتُ حَقيقة أو يُراد به لازِمه وهو العُقوبة؟

الجَوابُ: الأوَّلُ؛ هذا مَذهَب أهل السُّنَّة والجَماعة؛ أنهم يَقولون: كل ما وصَف الله به نفسه فهو على حقيقته؛ لكنه يَجِب أن نَعلَم أنه لا يُماثِل صِفاتِ المَخلوقين؛ لأن الله أَثبَتَ ونَفَى قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وهذه خُذْها جادَّة عِندك، سِرْ عليها في كل ما وَصَف الله به نَفْسه، لا تَقُل: هذا لا يُراد به ظاهِرُه. كل ما وصَفَ الله به نَفْسه فإنه يُراد به ظاهِرُه، لكن يُنزَّه عن مُماثَلة المَخلوقين.

إِذَنِ: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَمقُت، ويُبغِض، ويَكرَه، ويُحِبُّ حَقًّا على حَقيقته، ولكنه لا يُماثِل صِفاتِ المَخْلوقين، وذهَبَ أَهْل التَّعْطيل الذين يَحكُمون على الله بعُقولهم، لا بكَلامه وكلام رسوله؛ ذهَبوا إلى أنَّ مِثْل هذه الأَوْصافِ يَجِبُ وجوبًا أن تُؤَوَّل إلى لوازِمها، فيَقولون مثَلًا: المَقْت المُراد به الانتِقام والعُقوبة، وليس البُغض، أو الكَراهة، أو الأشَدَّ من ذلك.

فيُقال لهم: إذا فسَّرْتم ذلك بالعُقوبة ارتَكَبْتم مَحظورَيْن:

المَحظور الأوَّل: إخراج كلام الله عن ظاهِره.

والمَحظور الثاني: إثبات مَعنًى لا يُراد به.

وهكذا كلُّ مُحرِّف نَقول: إنه ارتَكَب مَحظورَيْن: المحظور الأوَّل: إخراج الكَلام عن ظاهِره، وهذه جِناية لا شَكَّ؛ حيث سَلَب اللَّفْظ معناه. والثاني: إثبات مَعنًى لا يُراد به؛ أي: لا يُراد باللَّفْظ، وهذا عُدوان أيضًا. فكلُّ مُؤَوِّل فإنه يَرتَكِب هذين المَحظُورَيْن.

والعجَب: أنهم يُسمُّون أَنفُسهم أهل التَّأويل، والصواب أنهم أهل التَّحريف، لكن هم تَسمَّوْا بهذا الاسمِ تَلطيفًا لما هم عليه من الباطِل؛ لأنَّ التأويل يُراد به حَقٌّ، ويُراد به باطِل، إذا أوَّلْنا الكلام بما يُريده المُتكَلِّم به، فهذا حقٌّ؛ لكن بخِلافه هذا باطِل، وهذا هو الذي هم عليه، ولكن عدَلوا عن اسمِ التَّحريف إلى اسمِ التَّأويل.

وانظُرْ إلى دِقَّة عِبارة شيخ الإسلام ابن تَيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العَقيدة الواسِطية قال: «من غير تَحريف ولا تَعطيل»[1]. ولم يَقُل: من غير تَأويل، مع أنَّ أكثَر الذين يَتكلَّمون

(١) العقيدة الواسطية (ص:٥٧).

في العقائِد، أو يَكتُبون في العقائِد يَقولون: من غير تأويل. ولكن ما قاله هو الصحيح؛ لأن كل تَأويل لا يَدُلُّ عليه الدليلُ فهو تَحْريف.

إِذَنْ: نحن نُثبِت لله بأنه يَمقُتُ ويَكرَه ويُبغِض حقًّا على حَقيقته، وأمَّا العُقوبة فهي من لازِمِ ذلك.

ولهذا قال شيخُ الإسلام[1] وغيرُه: قال: أنتُمْ إذا أَثبَتُّم أنَّ الله تعالى يُعاقِب فقَدْ أَثبَتُّم أنَّ الله يَكرَه، بطريق اللُّزوم. إذ لا يُعاقِب إلَّا مَن يَكرَهه، لا يُمكِن أن يُعاقِب من يُحبُّه، فأنتُم لَمَّا فرَرْتم من إثبات الكراهة أو المَقْت، وقَعْتم فيه من وَجهٍ آخَرَ.

إِذَنْ نَقولُ: إذا أَثبَتُّم العُقوبة فلا عُقوبةَ إلَّا بعد مَقْت وكَراهة، هذا أَمْر ضَروريٌّ؛ لأنه لا يُمكِن لأحَد يُحِبُّ شخصًا أن يَقوم ويَضرِبه.

مسألة: كيف نَجمَع بين قول عُمرَ بنِ الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وافَقْت ربي في ثلاث[2]. وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؟

فالجَوابُ: يُوافِق حُكْم الله؛ لأنه يَتكلَّم عنه حُكْم الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات العِنْدية لله عَزَّوَجَلَّ، عِند الله، ثُمَّ العِنْدية نوعان: عِنْدية وَصْف، وعِنْدية قُرْب. فقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، هذه عِندية قُرْب. وقوله هنا: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [غافر:٣٥] عِنْدية وَصْف؛ لأن المَقْت ليس شيئًا مُنفصِلًا بائِنًا عن الله، حتى يَكون عِنْدية قُرْب، بل هذا عِنْدية وَصْف، كما تَقول للشخص: أنت عِنْدي عَزيز. تَقوله

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٢٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب ما جاء في القِبلة، رقم (٤٠٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه، رقم (٢٣٩٩).

وهو بَعيد مِنْك، وليس مَعنَى: أنتَ عِندي عَزيز. يَعنِي: قَريب، لا هذا عِنْدية وَصْف؛ أي: أن عِزَّتك عِندي قائِمة بي.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن ما يَكرَهه الله عَزَّوَجَلَّ فإن المُؤمِنين يَكرَهونه؛ لقوله: ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهذه عَلامة الإيمان، خُذْها قِياسًا ومِيزان عَدْل، متى رأيتَ من نَفْسك أنك تكرَه ما يَكرَهه الله، وتُحِبُّ ما يُحِبُّه الله؛ فذلِك الإيمانُ دلَّ عليه هذه الآيةُ وغيرها من الآيات والأحاديث، ودلَّ عليه العَقْل أيضًا؛ لأن من كَمال المَحبَّة والإيمان أن تُحِبَّ ما يُحِبُّه مَن تُحِبُّ، وتكرَه ما يَكرَهه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: فضيلة الإيمان؛ حيث يَكون المُؤمِن دائِرًا مع الله عَزَّوَجَلَّ في مَحبَّة ما يُحِبُّ وكَراهة ما يَكرَه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: التَّحذير من الكِبْر وأنه سبَبٌ للطَّبع على القَلْب -والعِياذُ بالله-؛ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: التَّحذير من الجَبَروت، وهو التَّعاظُم على الغَيْر، والشِّدَّة عليهم، وما أَشبَه ذلك؛ لقوله: ﴿مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾.

إِذَنْ: في الآية التَّحذيرُ من الكِبْر والجَبَروت.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الرَّدُّ على مَن قال: الكَمال أن تَتَّصِف بصِفات الكامِل؛ يَعنُون بذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ولا أَكمَلُ من الله، ونَقول: لا يُمكِن لإنسان أَنْ يُجارِيَ الله تعالى في أَوْصافه؛ فالتَّكبُّر والجَبروت والتَّعالي والتَّعاظُم بالنِّسبة لله كَمال، وبالنِّسبة لنا نَقْص، نَقْص وعَيْب وسبَب للبَلاء؛ وبهذا بطَلَت هذه القاعِدةُ التي لا أساسَ لها من الصِّحَّة، حتى إنَّ بعضهم وضَع حديثًا قال: تَخلَّقوا بأخلاقِ الله. أَعوذُ بالله،

تَخلَّقوا بأَخْلاق الله؟!. هل نُسمِّي أَوْصافَ الله أخلاقًا؟! أَبَدًا لا نُسمِّيها؛ لأنَّ كلِمة أخلاق قد تَدُلُّ على خَلْق كَسْبي، والأخلاق نَوْعان: غَريزي وكَسْبي، لا إشكالَ في هذا.

ولهذا لَمَّا قال الرسول ﷺ لأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ قال: «إِنَّ فِيكَ لَخُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله؛ الحِلْمُ وَالْأَنَاةُ» قال: يا رسولَ الله، أَخُلُقان تَخلَّقتُ بهما، أَمْ جَبَلَني الله عليهما؟ قال: «بَلْ جَبَلَكَ الله عَلَيْهِمَا»[1] قال: الحمدُ لله الذي جبَلَني على ما يُحِبُّ أو كلِمة نحوها.

فالأخلاقُ كَسْبيٌّ وغَريزيٌّ، ولا يُمكِن أن نُسمِّيَ أوصاف الله تعالى أخلاقًا له، بل نَقول: أَوْصاف وصِفات وما أَشبَه ذلك، على أنَّ من العُلَماء مَن أَنكَر أن تَقول: لله صِفة، مِثل ابنِ حَزْم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إيَّاك أن تَقول: لله صِفة. الله ليس له صِفة. ولا بأس بالأسماء. لكنه مَحجوج بقول الرجُلِ الذي كان يَقرَأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قال: «إنها صِفة الرَّحْمن، وأُحِبُّ أن أَقرَأَها»[2].

ونحن نَقول: إن هذه الآيَةَ تَدُلُّ دَلالة واضِحة على كَذِب هذه القاعِدةِ التي قعَّدها مَن قعَّدها من الناس، ونحن نَقول لكل مُؤمِن: تَخلَّق بأخلاق النبيِّ ﷺ؛ لأن نَبيَّنا ﷺ لنا أُسْوَة.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بتَنوين القَلْب ودونَه، ومتى تَكبَّر القَلْب تَكبَّر صاحِبُه

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في قبلة الرِّجل، رقم (٥٢٢٥)، من حديث زارع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وكان في وفد عبد القيس.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، رقم (٧٣٧٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، رقم (٨١٣)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وبالعَكْس]، متى تَكبَّر القَلْب تَكبَّر صاحِبه، وقوله: وبالعَكْس فيها نظَر؛ لأنه يَقتَضي أن يَتكَبَّر صاحِب القَلْب قبل القَلْب؛ لأنك إذا عكَسْت العِبارة متى تَكبَّر القلب تَكبَّر صاحِبه، متى تَكبَّر صاحِب القَلْب تَكبَّر قَلْبه، فهذا ليس بصحيح، لكن مُراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن تَكبُّر القَلْب وتَكبُّر النَّفْس مُتَلازِمان، إن تَكبَّر القَلْب تَكبَّرت النَّفْس؛ وإن تَكبَّرَت النَّفْس كان ذلك دليلًا على أنَّ القَلْب مُتكبِّر.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [و﴿كُلِّ﴾ على القِراءَتَيْن لعُموم الضَّلال لجميع القَلْب لا لعُموم القُلوب]

قوله: [لعُموم القُلوب] يَعُمُّ جميع أجزاء القَلْب، أي: جميع أَجزائه، أي: لم يَبقَ فيه مَحَلٌّ يَقبَل الاهتِداء. وقولُه: لا لعُموم القُلوب أي: لا لعُموم أفراد القُلوب، وهذا الصَّنيعُ إخراجٌ لها عن مَوْضوعها من أنها إذا دخَلَت على نكِرة مُطلَقة أو على مَعرِفة مَجموعة تَكون لعُموم الأفراد، وإذا دخَلَت على مَعرِفة مُفرَدة تَكون لعُموم الأجزاء، وهنا قد دخَلَت على النَّكِرة، فكان حَقُّها أَنْ تَكون لعُموم الأفراد لا لعُموم الأجزاء؛ كما سلَكَه المفَسِّر فلْيُتَأمَّلْ.

والمفَسِّر يَقول: إن الكُلِّيَّة هنا تَعود على الفَرْد لا على الأفراد، ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ﴾ يَعنِي: على كل القُلْب، لا بعضِه؛ وليسَت لعُموم القُلوب، يَعنِي: ليسَت لعُموم كل قَلْب على حِدَة، ولكن ما ذهَبَ إليه ليس بصَواب، بل نَقول: على كل القُلوب، والعُموم مُستَفاد من كلِمة يَطْبَع على القَلْب لا على بعضه؛ فإذا قُلنا: إنها لعُموم القُلوب شمِلَت عُموم القَلْب، ولا عكسَ.

ثُم إنَّ ظاهِر السِّياق على كل قَلْبٍ مُتكبِّر، أو على كل قلبٍ مُتكبِّر. إذا نظَرْنا إلى السِّياق ماذا نَفهَم؟ هل نَفهَم أنَّ جميع القُلوب المُتكَبِّرة يُطبَع عليها؟ أو نَفهَم أنَّ

القَلْب الواحِد يُطبَع على جميعه لا على بَعْضه؟

الجواب: الأوَّل لا شَكَّ، هذا ظاهِرُ السياق، وهذا كما أنه ظاهِر السِّياق فهو أَشمَلُ في المَعنَى؛ لأنه إذا قيل: كذلك يَطبَع الله على كل القُلوب المُتكَبِّرة الجَبَّارة، والطَّبْع على القلب يَشمَل الطَّبْع على جميعه، ما لم يُوجَدْ دليل على أن المُراد الطبع على بعضِه؛ وحينَئِذٍ يَكون الصواب عَكسَ ما قال المفَسِّر، فالصواب: أنَّ هذا لعُموم القُلوب وليس لعُموم القَلْب.

فإذا قُلنا: إنها لعُموم القَلْب صار المَعنَى: أنَّ الله يَطبَع على القَلْب كُلِّه، يَعنِي: أنَّ معنى الآية أنَّ الله يَطبَع على القَلْب كلِّه لا على جميع القُلوب، فيَخرُج بذلك بعضُ القَلْب، لا يَطبَع على بعض، يَطبَع على القَلْب كُلِّه؛ لكنه مثَلًا على قَلْب فُلان من الناس.

أمَّا إذا قُلْنا: إنها لعُموم القُلوب، صار مَعنَى الآية: أنَّ الله يَطبَع على جميع القلوب المُتكبِّرة في أيِّ واحِد من الناس.

وإذا قُلْنا: لعُموم القَلْب صارت عامَّة للقَلْب الواحِد؛ يَعنِي: والقُلوب الأخرى مَسكوت عنها. هذا وَجْه الفرق، القُلوب الأُخرى مَسكوت عنها، ولكن نَقول: الصَّواب أن مَعنَى قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ يَعنِي: من جميع الناس، وإذا قال: طَبَع على القَلْب، فالمَعنَى أنه على جَميع القَلْب، ما لم يَنُصَّ على أنَّ المُراد بعضُ القَلْب.

فإن قال قائِل: لكن لماذا يَقول: على جميع القَلْب؟

فالجَوابُ: هذا مَعناه: لا على بعضِه؛ ولذلك كَلام المفَسِّر فيه نظَر من عِدَّة

وجوه؛ كلَّما تَأمَّلت عرَفْت أن هناك خَطَأ، والمُحَشِّي -الذي هو الجَمل- يَقول: فيه تَأمُّل. أو قال: فلْيُتأمَّل. وتَأمَّلْناه فوجَدْناه غيرَ صحيح.

فإن قال قائِل: بالنِّسبة لقول الشارِح: [لعُموم القُلوب] لِمَ لَمْ يَقُل: لعُموم القَلْب، والقَلْب هذا كلُّ مَن وُصِف بالتَّكبُّر والجَبروت داخِلٌ؟

فالجَوابُ: ليس هذا مُرادَه، إنما مُرادُه من القَلْب زيد وعَمرو وبَكْر وخالد هذه القُلوب؛ لكن إذا قُلْنا: عُموم القَلْب. صار مَعناه: قَلْب زَيْد فقَطِ، الطَّبْع عامٌّ له.

فإن قال قائِلٌ: وهل كُلُّ مَن وُصِف بهذا الوَصفِ التَّكبُّر مَطبوع عليه؟

فالجَوابُ: نعَمْ، لكن لا نَقولُ: لعُموم القَلْب. نَقول: لعُموم القُلوب؛ هذا عامٌّ في كل قَلْب مُتكبِّر، ففَرْق بين أن تَقول: الكُلِّية هذه للأَجزاء أو للأَفراد. إذا قُلنا: لعُموم الأجزاء. صار لعُموم القَلْب، وإن قُلنا: لعُموم الأَفراد. صار جميع القُلوب، كلُّ القَلْب مُتَّصِف، لو كان مِئات الملايين مُتَّصِفًا بهذا فهو مَطبوع عليه، ولا شَكَّ أن كلام المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليس له وجه إطلاقًا، ولكن سُبحانَ الله!.

• • ۞ • •

الآيتان (٣٦، ٣٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في قِصَّة مُوسى مع فِرعونَ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ فِرعونُ هو مَلِك مِصرَ؛ قيل: إنه اسمُ شَخْص، أو إنه عَلَم شَخْص، وقيل: إنه عَلَم جِنْس، فإذا قلنا: إنه علَم شَخْص صار اسمًا لشَخْص مُعيَّن، وإذا قلنا: إنه علَم جِنْس صار اسمًا لكل مَن ملَك مِصرَ كافِرًا.

وهذا هو الذي عليه الأكثَرُ؛ لكن فِرعونَ موسى عَلَم شَخْص وعلَم جِنْس أيضًا: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ هامانُ وزيرُه، وقوله: ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ يَعنِي: مُرْ مَن يَبني لي ذلك؛ لأنه من المَعلوم أنَّ الوَزير لن يُباشِر بِناء الصَّرْح، ﴿صَرْحًا﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِناءً عاليًا] يَعنِي: رفيعًا.

وقوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ (لعَلَّ) هنا للتَّعليل، وهي تَأتِي للتَّعليل تارة وللإِشْفاق تارة، وللتَّرجِّي تارةً؛ فمِن مَجيئها للتَّعليل هذه الآيةُ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢] هذه للتَّعليل، وكلَّما جاءَت (لعَلَّ) في حَقِّ الله عَزَّوَجَلَّ فإنها للتَّعليل؛ لأنَّ الربَّ عَزَّوَجَلَّ لا يَترجَّى إذ إنَّ كل شيء عليه هَيِّن،

وتَأتِي للإِشْفاق؛ مِثل: أن تَقول: لعَلَّ الحَبيبَ هالِكٌ. يَعنِي: أَخشَى أن يَكون هالِكًا.

وتَأتِي للتَّرجِّي: مثل: حضَرْت إلى الدَّرس فلعَلِّي أَفهَمُ، لو قلت: لعَلِّي أَفهَم؛ احتَمَل أن تَكون للتَّعليل، فإذا قلت: فـ(لَعلِّي) صارَت للتَّرجِّي، وتَكون أيضًا للتَّوقُّع، كما لو قُلت لشَخْص تُخاطِبه: لعَلَّك فاهِمٌ.

وهذه المَعاني التي تَأتِي للحروف بَلْ وللأسماء أيضًا وللأَفْعال، إذا كانت مُتعَدِّدة فالذي يُعيِّنها السِّياق وقَرائِن الأحوال.

قال: ﴿لَعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الأسباب جَمْع سبَب، وهو كل ما يُوصِل إلى المَقصود، فالسبَب وَسيلة والمُسبَّب غاية، والأَسباب هنا بيَّنها بقوله: ﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فـ﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مَحلُّها مِمَّا قبلَها عَطْف بَيان، تُبيِّن الإبهام المَوْجود في الأسباب.

فإن قال قائِل: لماذا لم يَقَع الكَلام مُبيَّنًا من أوَّل الخِطاب، فيُقال: لعلِّي أَبلُغ ﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ؟

قلنا: إن الإبهام أوَّلًا، ثُم التَّفْصيل والبيان ثانيًا؛ أَوقَعُ في النَّفْس؛ لأن الشيء إذا جاء مُبهَمًا ثُم بُيِّن صار للبَيان وَقْع عند تَشوُّف النَّفس لمَعرِفة هذا المُبهَم؛ يَعنِي: لو جاء الكَلام مُبيَّنًا من أول الأمر لكان سهلًا على النفوس، لكن إذا جاء أوَّلًا مُبهَمًا تَشوَّفتِ النفس لمَعرِفة هذا المُبهَم، ثُم جاء البَيان والنَّفس مُستعِدَّة لقَبوله مُتشوِّفة إلى الوصول إليه.

قوله: ﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [طُرُقها المُوصِّلة إليها ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بالرَّفع عطفًا على (أَبلُغ) وبالنَّصْب جوابًا لـ(ابْنِ)]، يَعنِي: أنَّ فيها قِراءَتَيْن سَبْعيَّتين

«فأَطَّلِعُ»، ﴿فَأَطَّلِعَ﴾، أمَّا على قِراءة الرَّفْع؛ فإنها مَعطوفة على (أَبلَغ) يَعنِي: لعَلِّي أَبلُغ الأسباب، فلَعلِّي أَطَّلِع. وأمَّا على قِراءة النَّصْب؛ فإنَّها وقَعَت جوابًا لـ(ابْنِ) و(ابْنِ) فِعْل أمر، وفِعْل الأمر يَقَع جوابه إذا كان مَقرونًا بالفاء بالنَّصب (فأَطَّلِع) فتكون الفاء هنا للسَّبَبية.

واعلَمْ أنَّ القِراءَتَيْن الوارِدَتَيْن في القُرآن الكريم هما أحَدُ الحُروف السَّبْعة التي نزَل القُرآن عليها؛ فإن القُرآن أُنزِل على سَبْعة أَحرُف، ولمَّا كان في زمَن عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمَر أن يُجعَل القُرآن على حَرْف واحِد هو حَرْف قُرَيْش؛ يَعنِي: لغتها؛ فهذه القِراءاتُ المَوْجودة ليسَت هي الأَحرُف السَّبْعة، بل هي على حَرْف واحِد. هذا واحد.

الثاني: اعلَمْ أنَّ القِراءَتَيْن كِلْتاهما صحَّتْ عن النبيِّ ﷺ؛ لأنَّها نُقِلَت بالتَّواتر.

الثالث: اعلَمْ أنه لا يَنبَغي للإنسان أن يَقرَأ بين العامَّة بقِراءة تُخالِف ما في أيديهم من المَصاحِف؛ لأن ذلك يُوجِب التَّشويش والارتِباك، واتِّهام القارِئ، ورُبَّما تَهبِط عظَمة القُرآن في نفوسهم بسبَب هذا الاختِلافِ. أمَّا فيما بينك وبين نَفْسك فالأفضَلُ أن تَقرَأ بهذا تارةً، وبهذا تارةً؛ بشَرْط أن تَكون عالِمًا غير مُتخَبِّط، وإنما قُلنا: هذا هو الأَفضَل لأن كُلًّا من القِراءَتَيْن قد قرَأ به النَّبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، فيَكون هذا مِثل العِبادات الوارِدة على وُجوهٍ مُتنوِّعة؛ كالاستِفْتاحات والتَّشهُّد وما أَشبَه ذلك؛ لكن هذا بينك وبين نَفْسك، أو في مَقام التَّعليم إذا كُنت تُعلِّم طلَبة.

قوله: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ يَعنِي: أَصِلَ إليه وأَنظُر هل هذا حقٌّ أو غير حقٍّ؛ ثُم استَدْرَك خوفًا من أن يَقول أحدٌ من جُنوده: إنه حَقٌّ. فقال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَأَظُنُّهُۥ﴾ أي: موسى ﴿كَٰذِبًا﴾ في أنَّ له إلهًا غيري]؛ قال هذا تَمويهًا على أصحابه؛ وخوفًا من أن يَقَع في نفوسهم شيءٌ حين أَمَر وزيرَه أن يَبنيَ له صرحًا، قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾.

وفِرعونُ في هذه المَقالةِ كاذِب، هو لا يَظُنُّ أنَّ موسى كاذِب، بل يَعلَم أنه صادِق؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن موسى أنه قال له -أي: لِفرعونَ-: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]، قال هذا الكَلامَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ مُؤكِّدًا إيَّاه بالقَسَم واللام و(قَدْ)، ويُخاطِب هذا الرجُلَ القادِر على إنكار ما قاله موسى لو كان كـذِبًا قال له: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ فِرعونُ ليس له مانِع يَمنَعه أن يَقول: لم أَعلَمْ. هو قادِر، لكنه إن قال ذلك يَعلَم أنه ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾، وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾ هذه مَفعول من أَجْله لـ﴿وَجَحَدُواْ﴾ بها ظُلْمًا.

المُهِمُّ: أن قـوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ هذه الجُمْلةُ كـذِب، هو يَعلَم أن موسى صادِق، لكنه قال ذلك تَمويهًا لقومه، وخوفًا من أن يَقَع في قُلوبهم شيء من الشَّكِّ، قال عن فِرعونَ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قال فِرعونُ ذلك تَمويهًا].

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الفِعْلِ، أو مثل هذا التَّزيين أيُّهما الذي على القاعِدة؟

الجَوابُ: الثاني. لأننا قُلْنا: إن (كذلك) تَكون مَفعولًا مُطلَقًا للفِعْل الذي بعدَها؛ أي: مثل هذا التَّزيين الذي زُيِّن لِفرعونَ، وهذا التَّمويهُ والتَّرويجُ لقومه

زيَّنَ لفِرعونَ سوءَ عمَله، والذي زيَّنه الشيطان والنَّفْس الأمَّارة بالسوء.

وقد يُقال: والله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله يُضِلُّ مَن يَشاء، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام:١٠٨]، فالله تعالى زيَّنه قَدَرًا، بمعنى أنه حجَب عنه الهُدَى، ثُم زَيَّن له الشيطان والنَّفْس الأمَّارة بالسوء أن يَعمَل هذا العمَلَ.

وقوله: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ السبيل هنا فيها (أل) التي للعَهْد الذِّهنيِّ، عن السبيل الذي هو سَبيل الهُدَى؛ ولهذا قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [طريق الهُدَى] وفيها قِراءتان «صَدَّ» [بفَتْح الصاد وضَمِّها] ﴿وَصُدَّ﴾ هذه بضَمِّ الصاد على أنها مَبنيَّة لما لم يُسمَّ فاعِله، أمَّا «صَدَّ» بفَتْح الصاد على أنها مَبنيَّة على ما سُمِّيَ فاعِله، ولكن هل هي مُتعدِّية أو لازِمة، هل مَعناه أنه صُدَّ بنفسه أو صَدَّ غيرَه ؟ تَشمَل المَعنيَيْن؛ لأنها لفظ مشترَك صالِح للمَعنيَيْن جميعًا، والقاعِدة في التَّفسير أن كل لفظ يَصلُح لمَعنيَيْن لا يَتنافِيان، فإنه يُحمَل عليهما جميعًا، إلَّا إذا كان في أحدهما ما يُرجِّحه فيَرجُح، فيُعمَل بما يَترَجَّح.

ثم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ ما كَيدُه إلَّا في تَباب، والكيد والمَكْر والخِداع وما أَشبَهَها كلُّها كلِمات مُتقارِبة، ومَعناها: أن يَتوصَّل الإنسان بالأسباب الخَفِيَّة إلى مَقصوده بخَصْمه، كل إنسان يَقصِد من خَصْمه أن يَكون مَغلوبًا، فيَتوصَّل إلى هذا بأسباب خَفيَّة لا يَعلَم بها الخَصْم للوُصول إلى هذا.

فِرعونُ كاد كيدًا في أن يَقول لهامانَ: ابْنِ لي صرحًا من أَجْل أن يَرقَى على هذا الصَّرْحِ، فإذا وصَل غايته نظَر أمام الناس ثُم نزَل، وقال: لم أَجِد ربَّ موسى. وهذا تَمويه، لا سِيَّما على عامة كآلِ فِرعونَ الذين قد بَهَرَهم هذا الظالِمُ الطاغِية، فكل شيء يَكون عِندهم حقيقة، لكن هل هذا الكَيْدُ يَنفَعه؟

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: إلَّا في خَسارة، و(ما) هنا حِجازية مُهمَلة، يَعنِي: أنها لا تَعمَل، والذي أَبطَل عمَلها الإثبات، وابنُ مالِكٍ يَقول:

إِعْـمَالُ لَـيْسَ أُعْمِلَـتْ مَـا دُونَ إِنْ مَعَ بَقَا النَّفْـيِ.....[1]

والنفيُ هنا لم يَبقَ؛ ولهذا نَقول: هي مُهمَلة لبُطلان النَّفيِ وانتِفائه بـ(إلَّا).

من فوائدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: استِعْلاء فِرعونَ وتَرفُّعه، وذلك بتَوْجيه الأمر إلى وَزيره أن يَبنِيَ له صرحًا، وتَأمَّل قوله: ﴿ابْنِ لِي﴾ ولم يَقُل: ابنِ؛ لأن هذا أَعظَمُ في التَّرفُّع والتَّعاظُم؛ إذ لو قال: ابْنِ. لكان لأيِّ أَحد يَبنِي؟ ففيه إبهام، لكن إذا قال: لي؛ دلَّ هذا على أنه استَخْدَم هذا الرجُلَ الذي هو الوزير استِخْدامًا تامًّا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن اتِّخاذ الوُزَراء كان عُرْفًا قديمًا، سواءٌ كان وزيرًا في الخير أو وزيرًا في الشرِّ، فمِن وُزراء الخير قول موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي﴾ [طه:٢٩-٣٠]، وقول عليِّ بن الحُسَيْن بن عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حين سأَله زُعَماء الشيعة -وهم الرافِضة- عن أبي بَكْر وعُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فترَحَّم عليهما، وقال في الثَّناء عليهما: هُما وَزيرَا جَدِّي[2]. يَعنِي: النَّبيَّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، فرَفَضوه؛ لأنهم قد زُيِّن لهم سُوء عمَلهم بأن كل من أَحبَّ أبا بكر وعُمرَ فقد أَبغَض عليًّا، وعلى هذا يَكون النَّبيُّ ﷺ مُبغِضًا لعَليٍّ؛ لأنه سُئِل: أيُّ الرجال

---

(١) الألفية (ص:٢٠).

(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية للسفاريني (١/ ٨٥).

أحبُّ إليك؟ قال: «أَبُو بَكْرٍ»[1] فعلى قاعِدتهم يَكون الرسول مُبغِضًا لعلِيٍّ، فانظُرْ كيف كانت عاقِبة هذه القاعِدةِ الفاسِدة الباطِلة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جـواز نِسبة الشيء إلى الآمِر به دون فاعِله، تُؤخَذ من قوله: ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ وهو لا يُريد أن هامانَ يَتولَّى البِناءَ بنَفْسه، بل يَأمُر؛ لأنه وزير.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات عُلوِّ الله تعالى العلوَّ الذاتي للشَّرائِع السابِقة، يُؤخَذ من قوله: ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فهذا يَدُلُّ على أن موسى -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قد أَبلَغه بأن الله في السماء.

وعُلوَّ الله الذاتي أَمْر لا يُنكَر؛ لأنه دلَّت عليه جميع الدَّلائِل: الكِتاب، والسُّنَّة، والإجماع، والعَقْل، والفِطْـرة، كلُّها دلَّت على عُلـوِّ الله عَزَّوَجَلَّ العُلوَّ الذاتيَّ، وأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في السماء، وأنه لا يُمكِن أن يَكون في الأرض، ونحن نُركِّز على هذه النُّقْطةِ لأهميتها؛ لأنها تَتعلَّق بالعَقيدة، أمَّا القُرآن فما أكثَرَ الأدِلَّةَ المُتنوعة الدالَّة دَلالة قاطِعة على علوِّ الله الذاتيِّ! وكذلك السُّنَّة دلَّت على ذلك قولًا وفِعلًا وإقرارًا، فالنَّبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أَثبَتَ علوَّ الله الذاتيَّ بقوله وبفِعله وبإقراره.

أمَّا بقوله فإنه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يَقول في سُجوده: «**سُبحانَ ربِّي الأَعْلى**»[2]، وأمَّا في فِعْله فأَشار إلى علوِّ الله تعالى في الوقوف بعرَفة حين خطَب الناس وقال: «**اللَّهُمَّ**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذًا خليلًا**»، رقم (٣٦٦٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، رقم (٢٣٨٤)، من حديث عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢)، من حديث حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

اشْهَدْ»[١]، وأمَّا إقراره فبإقراره الجارِيَةَ التي قالت: في السَّماءِ. لَمَّا سأَلَها: «أَيْنَ الله؟»[٢] وأمَّا الإجماع فقد أَجمَعَ السلَف على ذلك، ما منهم أَحَدٌ قال: إن الله ليس في السماء. وما مِنهم أَحَدٌ قال: إن الله في الأرض. وما منهم أَحَدٌ قال: إن الله لا يُوصَف بعُلوٍّ ولا سُفول، ولا مُحايَثة ولا مُجانَبة. يَعنِي: ما منهم أَحَدٌ قال: إن الله ليس فوقُ ولا تحتُ، ولا يمينُ ولا شِمالُ، ولا مُتَّصِلًا بالخَلْق ولا مُنفصِلًا، كما قاله المُعطِّلة.

فإذا قال قائِل: نُسلِّم أنه لم يَرِد عنهم النَّفيُ، فما هو دَليلُ الإثبات؟

فالجَوابُ: دليلُ ذلك أنه كل نَصٍّ في القُرآن والسُّنَّة لم يَأتِ عن الصحابة خِلافُه، فإننا نَعلَم عِلْم اليَقين أنهم يَقولون به؛ لأن القُرآن نزَل بِلُغَتهم ويَعرِفونه، فإذا خوطبوا بهذا ولم يَرِد عنهم خِلافه دلَّ ذلك على أنهم قائِلون به، وهذه نُقطة مُهِمَّة تَنفَعُك عند المُناظَرة مع الخُصوم إذا قال لك: أين قال الصحابةُ: إن الله في العُلو مثلًا؟ تَقول: قال الصحابةُ ذلك؛ لأن كل نصٍّ جاء بإثبات العُلوِّ، ولم يَرِد عن الصحابة خِلافُه فإنهم قائِلون به قَطْعًا؛ لأنه نزَل بلُغَتِهم وعرَفوه وفهِموه على ما أَراد الله عَزَّوَجَلَّ.

وأمَّا العَقْل فلو سأَلْت أيَّ إنسان: هل العُلوُّ صِفةُ كَمال أو النُّزول؟ لقال لك: العلوُّ. ولو قلت: العُلوُّ صِفةٌ أكمَلُ أو المُحاذاة؟ لقال: لك العلوُّ.

إِذَنْ: فالعُلوُّ دلَّ العَقْل على ثُبوته لله عَزَّوَجَلَّ.

وأمَّا الفِطْرة فلا تَسأَل، اسأَلْ عَجوزًا من العَجائِز لم تَقرَأ في كلام المُتكَلِّمين المُعطِّلين ماذا تَقول لك؟ لو سأَلْتها: أين الله؟ قالت: في السَّماء. ولا تَعرِف إلَّا ذلك،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والعجَب أن نَفْس القائِلين بالنفيِ إذا دعَوُا الله عَزَّوَجَلَّ رفَعوا أيديَهم قهرًا عليهم إلى السماء، وهذا شيء مُسلَّم، وادِّعاؤُهم أنهم يَقولون: إن السَّماء قِبلة الداعِي كما أن الكَعْبة قِبلة المُصلِّي. نَقول: إِذَنْ أَنتُم تَدْعـون السماء فوقَعْتم في الشِّـرْك من حيثُ لا تَعلَمون.

فالحَمدُ لله أن عُلوَّ الله أَمْر فِطري لا يَحتاج إلى تَعلُّم ولا إلى تَكلُّف!.

ومع ذلك جميع الأدِلَّة دلَّت عليه، ثُم يَأتِي أقوام أَعمَى الله تعالى بَصائِرهم، فيَقولون: إن الله تعالى ليس في العُلوِّ. ماذا يَقولون؟ استَمِعْ: منهم مَن يَقول: إن الله في كل مَكان، -وهـؤلاءِ حُلـولية الجَهْمية- الله في كل مَكـان، في المَساجِـد، في الأسواق، في البُيوت، في الجَـوِّ، في السماء، -والعِياذُ بالله- في المَراحيض، في كل مَكان، وهذا باطِل كما تُبطِل الشَّمْس ظُلْمة الليل؛ لأنه يَلزَم منه واحِـد من أمرين ولا بُدَّ: إمَّا أن يَكـون الله مُتعدِّدًا، وإمَّا أن يَكون الله مُتجزِّئًا؛ بعضُه هنا، وبعضه هناك، أو مُتعدِّدًا واحِدٌ هنا وواحِدٌ هناك، هذا بقَطْع النَّظَر عمَّا يَلزَم عليه من اللَّوازِم الفاسِدة التي تُوجِب أن يَكون الله في أَقذَر الأمكِنة وأَنتَنِ الأمكِنة.

والقـول الثاني لِمَن يُنكِرون علـوَّ الله الذاتي يَقولون: لا نَقول: إن الله فَـوقُ ولا تحتُ، ولا يَمينُ ولا شِمالُ، ولا مُتَّصِل بالعالَم ولا مُنفصِل عن العالَم. إِذَنْ هو عدَم، يَعنِي قال بعض العُلَماء: لو قيل: صِفوا لنا العدَم. لم نَجِد وَصْفًا أَشمَلَ من هذا، فحقيقة الأمر أنهم لا يَعبُدون الله، وأنه ليس لهم إلهٌ إطلاقًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن من بلاغة المُتكَلِّم أن يَسلُك أقـرَبَ الطُّرُق إلى جَـذْب المُخاطَـب، ومنها الإبهام ثُم البيان؛ لقـوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهذا كثير في القُرآن وفي كلام البَشَر.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن السَّمواتِ جَمْع وعدَد؛ لقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهي كما هو مَعروف سَبْعة، قال الله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ:١٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ﴾ [المؤمنون:٨٦]، وهذا مُتَّفَق عليه، والسَّمَوات هذه بَيْنها فجَوات، ويَدُلُّ على ذلك دَلالة قاطِعة حديثُ المِعراج[1]، فإن النبيَّ ﷺ كان يَعرُج من سماء إلى سماء.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن رُؤَساء الضَّلال وأئِمَّة الضَّلال يَدْعون الناس إلى الضَّلال بكل ما يَستَطيعون، ويُحاوِلون أن يَحولوا بينهم وبين الحَقِّ؛ لقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ وقد بيَّنَّا في التفسير لماذا قال هذه الكلِمةَ، فلا تَغتَرَّ برُؤساء الضلال وأئِمَّة الضلال وما يَقولون من التَّمويه والدجَل، وليس هذا مَقصورًا على أئِمَّة السُّلْطة الذين لهم السُّلْطة، بل حتى على أَئِمَّـة الدَّعْوة الذين يَدْعون الناس إلى أفكارهم الهدَّامة وأخلاقهم السافِلة، تَجِد عِندهم من التَّمْويه والتَّضْليل ما يُوجِب أن يَكون فخًّا يَقَع فيه مَن ليس له بَصيرة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ يَبتَلِي العَبد فيُزيِّن له سُـوء عمَله؛ لقـوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ ويَدُلُّ لهذا قـولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام:١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]، فاحرِصْ على الانتِباه لهذه المَسألَةِ، فإن الإنسان قد يُزيِّن له سوء العمَل، والتَّزيين نَوْعان:

النَّوْع الأوَّل: أن يَرَى الإنسان هذا السيِّئَ حسَنًا، وهذا أعظَمُ النَّوْعين.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾، رقم (٧٥١٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، رقم (١٦٢)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النوع الثاني: أن لا يَراه سَيِّئًا فيَميل إليه بهَواه، ويَقول: هذا سَهْل، وليس فيه شيء، هذا من التَّزْيين في الواقِع؛ لأن مَن لا يَرَى السيِّئَ سيِّئًا فإنه سيَقَع فيه إمَّا رَغبةً فيه؛ لأنه زُيِّن له، وإمَّا هَوًى في نَفْسه؛ لأنه لا يَراه سيِّئًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن فِرعونَ يَصُدُّ الناس عن سَبيل الله، فهو من أئِمَّة الصَّدِّ عن سبيل الله تعالى، وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص:٤١] فاحذَرْ هؤلاءِ الأئِمَّة لا يَخدَعونك، فإنهم يَكيدون كيدًا، والله تعالى يَكيد كيدًا لعَبْده المُؤمِن.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن فِرعونَ أَمَر ببِناء هذا الصَّرْحِ مُكايَدةً لا حَقيقةً، وإلَّا فمِن المَعلوم أنه سوف يَخسَر نَفَقاتٍ كثيرةً على هذا الصَّرْحِ العالي، لكنه لغرَضه وهَواه لا يَهتَمُّ بذلك.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن كَيْد المُضلِّين -والحمد لله- في خَسارٍ، كل مُضِلٍّ فكَيْده في خَسارة؛ لأنه إذا كان كَيْد هذا الطاغِيةِ في خَسارٍ فمَن دونه مِن بابِ أَوْلى ولا شَكَّ؛ ولهذا حصَر كَيْده في الخَسار ما هو إلَّا في خَسار، وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥-١٦]؛ أي: كيدًا أَعظَمَ من كَيْدهم، وقال تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور:٤٢]، وهذه من أَعظَم الآيات التي تُفرِح المُؤمِن أن كَيْد الكافِر يَجعَله هو المَكيد، وجاء في الآية بالجُمْلة الاسمية: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ وبضَمير الفَصْل، إشارة إلى ثُبوت ذلك عليهم، وتَأكُّده إلى ثُبوته بكونه جاء بالجُملة الاسمية؛ لأن الجُملة الاسمية كما يَقول أهلُ العِلْم تُفيد الثُّبوت والاستِقْرار، وجاءَ بالحَصْر عن طريق ضمير الفَصْل: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾.

وهذه الآياتُ -والحمدُ لله- تُفرِح المُؤمِن، لكن لاحِظوا أن هذا وَعْد الله عَزَّوَجَلَّ

وهو لا يُخلِف المِيعاد، لكِنَّه يَحتاج إلى سبَب أن يَكون من المُؤمِن عمَل مُضادٌّ، وأن المُؤمِن إذا عمِل العمَل المُضادَّ لكَيْد الكافِرين يَثِقُ بوَعْد الله ويَقول: إن هذا الكَيْدَ سيَكون عليهم وَهُم في خَسارة منه، أمَّا أن نَقول: إن الله يَكيد لهم وهم المَكيدون. ولكننا نَنام على فُرُشنا ونَدَعُ السِّباع تَأكُل الغنَم؛ فهذا غير صَحيح لا بُدَّ من عمَل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد:٧]، ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾.

فإن قال قائِل: صَحيح أن بعض المفَسِّرين قال: إن هامانَ لم يَبْنِ لِفرعونَ صرحًا؟

فالجَوابُ: هذا لا يَظهَر؛ لأن كونه يَقول: ابْنِ لي صَرْحًا. ولا يَبنِيه هذا بَعيد، إذ إنه سيَقول والناس يَسمَعون، إمَّا أن يَكونوا حاضِرين، أو يَبلُغهم الخبَر وسيَبنِي الصَّرْح.

فإن قال قائِل: لماذا نَقول: إن فِرعونَ استَفاد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في السماء من موسى، أوَ لَا يَكون هذا من فِطْرته؟

فالجَوابُ: سَواءٌ كان بفِطْرته أو بدَعْوة موسى، لكنه إذا قُلْنا: بدَعْوة موسى. لم يَبقَ علينا شيء، أمَّا بفِطْرته فقد تَكون انحرَفَت كما جاء في الحَديث: «**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[1] لكن الشيء المُؤكَّد لدَيْنا الآنَ هو قول موسى وتَقريره بأن الله في السماء.

• • ❁ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، رقم (١٣٥٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيتان (٣٨، ٣٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ [غافر:٣٨-٣٩].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ في أوَّل هذه الآياتِ يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [غافر:٢٨]، وهُنا وما قَبْلها يَقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ تَحقيقًا لإيمانه وأنه مُؤمِن حَقًّا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ سبَق الكَلام على إعْرابها، وبيَّنَّا أنها مُنادى مَنصوبة مُقدَّرة على ما قبلَ ياء المُتكَلِّم المَحذوفة للتخفيف، منَع من ظُهورها اشتِغال المَحلِّ بحرَكة المُناسَبة.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [«اتَّبِعُونِى» بإثباتِ الياء وحَذْفها] يَعني أنها قِراءَتان؛ «اتَّبِعُونِى» و﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ أمَّا على وجود الياء فالأَمْر ظاهِر؛ لأنها ياء المُتكَلِّم، وأمَّا على حَذْفها فهي مَحذوفة للتخفيف، وقوله: ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ فِعْل أَمْر، و﴿أَهۡدِكُمۡ﴾ جَواب فِعْل الأَمْر؛ ولهذا وقَع مَجزومًا بحَذْف الياء، والكَسرة قبلَها دليلٌ عليها، وأَصْل ﴿أَهۡدِكُمۡ﴾: أَهدِيكُم، لكن

الفِعْل المُضارِع إذا وقَع جَوابًا للأَمْر فإنه يَكون مَجزومًا، قيل: إنه مَجزوم به. وقيل: إنه مَجزوم بشَرْط مُقدَّر، والتَّقدير: إن تَتَّبِعوني أَهدِكُم. وهكذا يُقال في كل ما جاء على هذا التَّرْكيبِ ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: طريقه، والهِداية هنا هِداية الدَّلالة؛ لأنه لا يُمكِن أن يُراد بها هِداية التَّوْفيق، إذ إن هِداية التَّوْفيق تكون بيد الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لرسوله مُحمَّدٍ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]؛ أي: لا تَهدِي هِداية التَّوْفيق، فقوله: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ يَعنِي: أَدُلُّكم على سَبيل الرَّشاد، وسبيل الرَّشاد ضِدُّ سَبيل الغَيِّ، والرَّشاد هو حُسْن التَّصرُّف، والغَيُّ هو الضَّلال أو ارتِكاب الخطأ عن عَمْد.

قوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ لَمَّا رغَّبهم باتِّباعه زَهَّدهم بالدُّنيا؛ لأن أصل ضَلال بني آدَمَ هو الطَّمَع في الدُّنيا والتَّنافُس إنما يَكون عليها؛ ولهذا قال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا أَخْشَى أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا -أي: مَن قَبْلنا- فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»[1] فهو لَمَّا طلَب أن يَتَّبِعوه بيَّن لهم حال الدنيا التي يَتنافَسون فيها والتي صَدُّوا عن سَبيل الله بها.

فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حَصْر، و﴿هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ﴾ مُبتَدَأ، و﴿مَتَٰعٌ﴾ خبَرُه؛ أي: ما هذه الدُّنيا إلَّا مَتاع يَتمتَّع به الإنسان قليلًا ثُم يَزول؛ ولهذا قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التَّفسير: [﴿مَتَٰعٌ﴾ تَمتُّع يَزولُ].

قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ ﴿ٱلْءَاخِرَةَ﴾ ما بعد الدنيا هي دارُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم (٦٤٢٥)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦١)، من حديث عمرو بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

القَرار، (هي) ضَمير فَصْل، و﴿دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ خبَر (إن)، واعلَمْ أن ضَمير الفَصْل ضَمير لا مَحَلَّ له من الإعراب لا يُعرَب مُبتَدَأ ولا خبَرًا، ولا أي شيء، لا مَحَلَّ له من الإعراب، واعلَمْ أيضًا أن له ثلاثَ فَوائِدَ:

الفائِدة الأُولى: التَّوْكيد.

والفائِدة الثانِية: الحَصْر.

والفائِدة الثالِثة: تَمييز الخبَر من الصِّفة.

ويَظهَر هذا بالمِثال، فإذا قلت: زَيدٌ هو الفاضِلُ. فهو ضَمير فَصْل استَفَدْنا منه ثلاث فَوائِدَ: أوَّلًا: التَّوْكيد حيث أكَّدْنا أن زيدًا هو الفاضِلُ، بل حيث أكَّدنا أن زيدًا فاضِلٌ، ثُم الحَصْر؛ لأنك قُلت: زَيْد هو. أي: لا غير زَيْد هو الفاضِل، الفائِدة الثالِثة: التَّمييز بين الصِّفة والخبَر، فإنك لو قُلت: زَيْدٌ الفاضِل. لاحتُمِل أن يَكون (الفاضِل) صِفة لـ(زَيْد) وأن الخبَر لم يَأتِ بعدُ، فإذا قلتَ: هو الفاضِل. تَعيَّن أن تَكون الفاضِلُ خبَرًا، فبذلِك يَحصُل التَّمييز بين الخبَر وبين الصِّفة.

وضَمير الفَصْل لا مَحَلَّ له من الإعراب، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء:٤٠]، فهُنا جاءَت ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ خبَرًا لـ(كان)، ولو كان له مَحَلٌّ من الإعراب لكانت: إن كانوا هُمُ الغالِبون. لكنه ليس له مَحَلٌّ من الإعراب، إذَنْ ما هي دار القَرارِ؟

هي الدار الآخِرة، وأكَّد ذلك بالإتيان بضَمير الفَصْل، وأن الدار الآخِرة هي دار القَرار؛ أي: دار المُستَقَرِّ؛ ولهذا يُؤتَى بالمَوْت على صورة كَبْش فيُوقَف بين الجَنَّة والنار، ويُقال: «**يَا أَهْلَ النَّارِ! فَيَشْرَئِبُّون ويَطَّلِعون، وكذلك يُقال: يا أَهْل الجَنَّة!**

فيَشرَئِبُّون ويَطَّلِعون، فيُقال لهم: هل تَعرِفون هذا؟ فيَقولون: نعَمْ هذا الموتُ، فيُذبَح أمامَهم، ويُقال: يا أَهْل الجَنَّة، خُلودٌ ولا موتٌ ويا أهل النار خُلودٌ ولا موتُ».

إِذَنْ: هذا القَرارُ ما دام ليس فيه انتِقال عن هذه الدارِ فهي دار القَرارُ.

إذا كان هي دارَ القَرار والدنيا مَتاع، فالأولى أن يَعمَل له هي الآخِرة؛ لأنها دار القَرار، أمَّا هذه فهي دار عُبور دار مَتاع «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرَ سَبِيلٍ».

من فوائدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أوَّلًا تَلطُّف هذا الداعِي، هذا الرجُلُ المُؤمِن الذي يَدعو إلى الله؛ لقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ فإن هذا لا شَكَّ من أَساليب التَّلطُّف.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قُوَّة جَأْش هذا المُؤمِنِ؛ حيث كان رجُلًا واحِدًا يَقول لهَؤلاءِ الجَماعة: ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ وهذا -كما قُلنا في التفسير- فِعْل أَمْر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه يَنبَغي للداعِية إذا دعا إلى شيء أن يُبيِّن ما يَكون به التَّرْغيب؛ أي: تَرْغيب المَدعوِّ؛ حتى يَنشَط ويَفعَل؛ لقوله: ﴿أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٣٨].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإشارة إلى كَذِب فِرعونَ حين قال لقَوْمه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩]، ففَرْق بين قول فِرعونَ وقولِ هذا المُؤمِنِ، قول فِرعونَ كذِب، وقول هذا الرجُلِ حَقٌّ لا شَكَّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن السُّبُل تَختَلِف: سُبُل ضَلال، وسُبُل غَيٍّ، وسُبُل رَشاد، فالسَّبيل المُوصِل إلى الله هذا سَبيل الرَّشاد، والسُّبُل المُتفرِّقة هذه سُبُل ضَلال،

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيان حال الدُّنيا، وأنها مَتاع يَتمتَّع بها الإنسان ثُم تَزول، إمَّا بزَوال هذا التَّمتُّع، وإمَّا بزَوال المُتمتِّع؛ ولهذا انظُرْ مَصارِع الدنيا هل فيها أحَدٌ خُلِّد؟ وهل فيها أحَد خُلِّد له ما بين يديه؟ كل ذلك لم يَكُن، فالدنيا إمَّا زائِلة وإمَّا أن يُزال عنها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: انحِصار الدُّنْيا في هذه الكلِمةِ القَليلة، وهي ﴿مَتَٰعٌ﴾ كلُّ الدُّنيا مَتاع، لا تَتحمَّل أكثَرَ من ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الاستِعْداد والرَّغْبة في الآخِرة؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩]، فإذا اجتَمَع هذا إلى ما قَبلَه صار مُتضمِّنًا لفائِدَتَيْن: وهُما الزُّهْد في الدُّنيا، والرَّغْبة في الآخِرة.

• • ۞ • •

الآية (٤٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٤٠].

ثُم قال: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ هذا كالبيان لحال الآخِرة، وكيف يُجازَى الناس فيها، فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ ﴿ مَنْ﴾ شَرْطية، و﴿عَمِلَ﴾ فِعْل الشَّرْط، وجملة: ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ هذه جَوابُ الشَّرْط، وقوله: ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ (مِثْل) مَفعول ﴿يُجْزَىٰٓ﴾ الثاني، والمَفْعول الأوَّل هو نائِبُ الفاعِل المُستَتِر.

قوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ السَّيِّئة ما يَسوء حالًا أو مَآلًا، فما أَصاب الإنسانَ من مرَض أو فَقْر أو عاهة أو ما أَشبَه ذلك هذا سُوء، لكنه في الحال، وما أَصاب الإنسان من عُقوبة على أعماله فهذا سُوء، ولكنه في المَآل، وقد يَكون في الحال قد يُعاجَل الإنسانُ بالعُقوبة، فالسَّيِّئة كل ما يَسوء حالًا أو مَآلًا ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ السَّيِّئة بواحِدة مهما كان، حتى وإن كان الإنسان في مَكَّة، أو في المَدينة، أو في المَسجِد، أو في أي مَكان، أو في أيِّ زَمان أيضًا، حتى ولو كان في الأشهُر الحُرُم التي نَصَّ

الله تعالى على النَّهيِ عن الظُّلْم فيها، فقال: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦]، فإن السَّيِّئة لا تَزال.

ولكن اعلَموا أنها قد تكون أشَدَّ من حيثُ الكَيْفيَّة لا من حيثُ الكِمِّية. يَعنِي: أننا نَرى أن ضَرْبة واحِدة قد تكون أشَدَّ على الإنسان من عَشْر ضرَبات بشِدَّتها وشِدَّة وَقْعها؛ ولهذا قال الله تعالى في الحرَم المكِّيِّ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥]، وبهذا التَّقريرِ الذي دلَّ عليه الكِتاب والسُّنَّة تبيَّن أن ما يُذكَر عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه خرَج من مكَّةَ وقال: لا أَبقَى في بلَد سَيِّئاته وحَسَناتُه سواءٌ. فإن هذا لا يَصِحُّ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابنُ عباس أفقَهُ وأَعلَمُ من أن يَلتَبِس عليه هذا الأمرُ، مع أن الله قال في سورة الأنعام وهي مكِّيَّة: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠].

قوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ ﴿وَمَنْ﴾ هذه شَرْطية، و﴿صَٰلِحًا﴾ يَجوز أن نُعرِبها صِفة لمَوْصوف مَحذوف، والتَّقدير: عمَلًا صالِحًا، ويَجوز أن نَجعَلها مَفعولًا مُطلَقًا؛ لأن وَصْف المَصدَر المحذوف يَصِحُّ أن يَقَع الإعراب عليه على أنه مَفعول مُطلَق، أو على أنه صِفة لمَوْصوف مَحذوف، والتَّقدير: عمَلًا صالِحًا.

والعمَل الصالِح ما تَوافَرت فيه شُروط القَبول، وذلك بأن يَكون خالِصًا لله على شَريعة الله، بأن يَجمَع بين أَمْرين: الإخلاص لله، والمُتابَعة لرُسُله عليهم الصلاة والسلام، هذا العمَلُ الصالِح.

إِذَنْ هو ما تَوافَرت فيه شُروط القَبول وهُما:

الأول: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

والثاني: المُتابَعة لرُسُل الله سواء مُحمَّد أو غيره، لكن من المَعلوم أنه بعد بعثة مُحمَّد ﷺ لا يَصِحُّ اتِّباع غيره.

إذا فُقِدَ الإخلاصُ فليس العمَلُ صالحًا، بل هو مَردود على صاحِبه؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الحديث القُدسيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»، وإذا فُقِدت المُتابَعة لم يَكُن العمَل صالحًا وكان مَردودًا؛ لقول النَّبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١).

وقوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بَيان لـ(مَن) فـ(مِن) هنا بَيانِية بَيان لـ(مَن)؛ لأن (مَن) اسمٌ مَوْصول، واسمُ المَوْصول الأصل فيه الإبهام، فإذا وُجِد بعدَه بَيانٌ فإنه يَكون مُبيِّنًا لإبهامه ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ هذا الشَّرطُ لا بُدَّ أن يَكون مُؤمِنًا، فإن لم يَكُن مُؤمِنًا فإن عمَله الصالِحَ لا يَنفَعه، حتى وإن كان العمَل مِمَّا يَتعدَّى نَفعُه، فإنه لا يَنفَعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة:٥٤].

فغيرُ المُؤمِن لا يَنفَعه عمَله، لو أن رجُلًا كافِرًا أَصلَح الطُّرُق، ومدَّ أنابيب الماء يَسقِي الناس، وبنَى المساجِد وطَبَع الكُتُب، وكَسا العُريان، وأَطعَم الجائِع فلا يَنفَعه هذا؛ ولهذا فلا يَنفَع المُنافِقين عمَلُهم؛ لأنهم ليسوا مُؤمِنين، وبه نَعرِف أن الإيمان هو الأصل، آمِنْ ثُم اعمَلْ، أمَّا العمَل بدون إيمان هَباءٌ، نَسأَل الله ألَّا يَخلَع عنا وعنكم الإيمان ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، لا بُدَّ من

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الإيمان أوَّلًا، ثُم إذا آمَنْت فاعمَل، وإذا عمِلْت فأَخلِص واتَّبِعْ.

قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ جُملة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ جَواب الشَّرْط، وهو ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ وهُنا قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ باسْمِ الإشارة المَوْضوع للبعيد، إشارة إلى عُلوِّ مَرتَبَتهم، كأنَّك تُشير إليهم وهم فَوقُ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بضَمِّ الياء وفَتْح الخاء «يُدْخَلُونَ»، وبالعَكْس] أي: ﴿يَدۡخُلُونَ﴾ فيَجوز «يُدْخَلُونَ» أي: يُدخِلهمُ الله، ويَجوز ﴿يَدۡخُلُونَ﴾؛ أي: هُمْ بأَنفُسهم لكن بإِذْن الله.

ومِن المَعلوم أن أهل الجَنَّة لا يَدخُلون الجَنَّة إلَّا بعد الشَّفاعة، بعد شَفاعة مُحَمَّد -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- في فَتْح الجَنَّة؛ لأنهم يَصِلون إليها وبابها مُغلَق فيَطلُبون مَن يَشفَع لهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ أن يَفتَح لهم البابَ، فيَشفَع لهم النَّبيُّ ﷺ وحدَه في أن يُفتَح لهم البابُ فيُفتَح.

قوله: ﴿يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ ﴿يُرۡزَقُونَ﴾ الرِّزْق بمَعنى: العَطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾؛ أي: أَعطُوهم، فمَعنَى ﴿يُرۡزَقُونَ﴾ إِذَنْ: يُعطَوْن، وقوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾؛ أي: بغَيْر تَبْعة، يَعنِي: لا يُحاسَبون عليه، ولا يَنقُدون له ثمَنًا، في الدُّنيا لا تَملِك رِزْقًا إلَّا بثمَن، لكن في الآخِرة تُعطَى الرِّزْق بغير ثمَن وبغَيْر تَبْعة، لا تُحاسَب عليه؛ لأن الثَّمَن كان مُقدَّمًا سَلَمًا وهو نَقْد الثمَن وتَأْخير المُثمَّن، فهُنا الثمَن مُقدَّم، الثمَن كان في الدنيا حين عمِلوا بطاعة الله، فكان هذا هو العِوَض، فالقوم قد أَسلَموا في هذا المَبيعِ وقدَّموا ثمَنه؛ ولهذا قال: ﴿يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن عمَل السَّيِّئة لا يَزداد إثمًا على قَدْر السَّيِّئة؛ لقوله هنا: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه في مَقام التَّهديد يَنبَغي أن يَبدَأ بما يَدُلُّ على التَّهديد قبل أن يَبدَأ بما يَدُلُّ على التَّرْغيب؛ لأنه هنا بَدَأ بالسَّيِّئة، ثُم أَعقَب بالصالِح.

وانظُرْ إلى قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في مَقام ذِكْر الأحكام الشَّرْعية قال: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة:٩٨]، ولَمَّا أَراد جَلَّ وَعَلَا أن يَتحدَّث عن نفسه ويُبيِّن كَمال صِفاته قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، فلكُلِّ مَقام مَقال.

فالإنسان يَنبَغي له أن يُرتِّب المَعانيَ حَسب ما يَقتَضيه الحال، لا يُلقِي الحَديث على عَواهِنه وفَضْل الله يُؤتيه مَن يَشاء، قد يُريد الإنسان هذا الشيءَ، ويُريد أن يُرتِّب كلامه، وأن يَبنِيَه على ما يَقتَضيه الحال؛ ولكن يَخونُه التعبير، إلَّا أن الإنسان إذا استَعان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واعتَمَد عليه يَسَّر له الأَمْر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه لا يُقبَل العمَل إلَّا إذا كان صالِحًا ولا يَنفَع صاحِبَه إلَّا إذا كان صالِحًا، وذكَرْنا أن الصالِح مَن اجتَمَع فيه شُروط القَبول، وهُما الإِخْلاص والمُتابَعة؛ فبِفَقْد الإخلاص يَكون الإنسان مُشرِكًا، وبفَقْد المُتابَعة يَكون الإنسان مُبتَدِعًا؛ ولهذا لا يُقبَل العمَل إلا الخالِص المُوافِق للشَّرْع، فبفَقْد الإخلاص يَقَع الإنسان في الشِّرْك، وبفَقْد المُتابَعة يَقَع الإنسان في البِدْعة.

والأوَّل أشَدُّ، وقد يَكون الثاني حَسب المُخالَفة، لكن الشِّرْك من حيثُ هو

أَعظَمُ من البِدْعة، وقيل: إن البِدْعة أَشَدُّ وأَعظَمُ؛ لأن الله قال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣]، والآية بالتَّدريج من الأدنى إلى الأعلى، وصاحِب البِدْعة يَضُرُّ نَفْسه ويَضُرُّ غيره؛ لأنه يَكون إمامًا يَدعو إلى مُخالَفة الرُّسُل، والذي يَظهَر أن الشِّرْك من حيثُ هو شِرْك أَعظَمُ، لكن قد يَكون المُترتِّب على البِدْعة أَشَدَّ من المُترتِّب على الشِّرْك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الذُّكور والإناث مشتَرِكون في الثواب والعِقاب، بمَعنى أن الله لا يُعاقِب الأنثى أكثَرَ من عُقوبة الرجُل، ولا الرجُل أكثَرَ من عُقوبة الأنثى، وكذلك لا يجزِي الرجُل أكثَرَ من جَزاء الأنثى، ولا الأنثى أَكثَرَ من جزاء الرجُل؛ لقوله في هذه الآيةِ: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾، ونَظيرها قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ [آل عمران:١٩٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن العمَل الصالِح لا يَنفَع إلَّا مَبنيًّا على الإيمان؛ لقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ والجُمْلة كما تُعرِبونها أيُّها المُعرِبون، الجُمْلة في مَوضِع نَصْب على الحال يَعنِي: والحال أنه مُؤمِن، وبِناءً على هذا نَسأَل: هل عمَل المُنافِق يَنفَعه؟

والجَوابُ: لا، لفَقْد الإيمان فهو غير مُؤمِن، وهل الإيمان أن تُؤمِن بالله ومَلائِكته وكتُبه ورُسُله واليوم الآخِر والقَدَر خَيرِه وشَرِّه، أو هو إيمان وراءَ ذلك كلِّه؟

الجوابُ: الثاني، فمن جُملة الإيمان الذي يَجِب أن تَكون الأعمال الصالِحة مَبنِيَّة عليه أن تُؤمِن بالثواب على العمَل؛ ولهذا إذا عمِل الإنسان العمَل الصالِح وهو يَرجو هذا الثَّوابَ، لا شَكَّ أنه سيَزداد رَغْبة في العمَل، وسيَزداد إحسانًا للعمَل؛ لأنه يَعرِف أن السِّلْعة على قَدْر الثَّمَن، فإذا كنت تَعمَل وأنت تَشعُر بأنك ستُجازَى

على هذا العمَلِ مُجازاة تامَّةً فسَوْف تُحسِن العمَل لأَجْل أن يُحسَن لك الثَّـوابُ والجَزاء، وهذه مَسأَلة مُهِمَّة يَغفُل عنها الإنسان كثيرًا؛ أي: يَغفُل الإنسان كثيرًا عن كونه يَنوِي بذلك الثوابِ الذي أَعَدَّه الله لعامِل هذا العمَلِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن رِزْق الجَنَّة ليس فيه حِساب، يَعنِي: أنه لا يُطلَـب من الإنسان عِوَض، ولا يَلحَقه تَبْعة؛ لقوله: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

• • ۞ • •

الآيات (٤١-٤٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿❁ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٤١-٤٣].

ثُم قال هذا الرجُلُ الذي آمَنَ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

هذا استِفْهام تَعجُّب وإنكار، كأنَّه يَقول: عجَبًا لكم أَدعوكم إلى الجَنَّة وتَدْعونَني إلى النار! وهذا والله مَحَلُّ عجَب، مَحَلُّ العَجَب أن تَدعوَ رجُلًا إلى الجنَّة وهو يَدعوك إلى النار، فتَأتِي إلى رجُل تَقول: يا فُلانُ اترُكْ شُـرْب الخَمْر، شُـرْب الخَمْر حرام، ولا يَجوز، من شُرْبه في الدنيا لم يَشرَبْه في الآخِرة، هو أُمُّ الخَبائِث مِفتاح كلِّ شَرٍّ، فيَقول لك: يا ولَدُ لذَّةٌ وطرَب وأُنْس وسُرور، اشرَبْ حتى تَرَى، إذا شرِبْت كأنَّك مِلك الملـوك، ثُم يُرغِّبك، ثُم يَقول له أيضًا يُمَنِّيه يَقول: اشـرَبْ. وإذا شرِبْت وحصَلَت لك اللَّذَّة والطرب، فاستَغفِرِ الله، الباب مَفتوح، فالأَحَقُّ بالإجابة الأوَّل دون الثاني.

فهذا يَقول: ﴿مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وهذا الاستِفْهامُ

-كما قلْت لكم- استِفْهام تَعجُّب وإنكار، وهو مَحلُّ التَّعجُّب ومَحلُّ الإِنْكار أيضًا، والله أَعلَمُ.

وجُمْلة ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ مَعطوفة على الجُمْلة التي قَبلَها، وليسَتِ استِئْنافية ولا حالِيَّة كما قيل به، بل هي مَعطوفة على ما سبَقَ؛ لأن التَّعجُّب إنما يَكون مِنِ اجتِماع الأمرَيْن أنه يَدْعوهم إلى النَّجاة، وهُمْ يَدْعونه إلى النار.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ يَعنِي: النَّجاة إلى النار ولم يَقُل: إلى الجَنَّة مع أنه قال: ﴿وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾؛ لأنَّهم هم يَدْعونه إلى الهَلاك، يَدْعونه إلى النار، فقابَل دَعْوته بدَعْوتهم، فكأنه يَقول: أنا أَدعوكم إلى النَّجاة من النار وأنتم تَدْعونَني إلى النار، والدَّعْوة إلى النار ليس أن يَقول القائِل: هلُمُّوا إلى النار أيها الناسُ. لكنها الدَّعْوة إلى عمَل أهل النار، وليُعلَم أن النار حُفَّت بالشَّهَوات، وأن الجَنَّة حُفَّت بالمَكارِم، وعمَل أهل النار مَبنيٌّ على الشَّهَوات أو على الشُّبَهات يَعنِي: إمَّا جَهالات وضَلالات كعمَل النَّصارَى، وإمَّا شَهَوات كعمَل اليَهود، وعلى هَذَيْن يَدور عمَل أهل النار الشُّبُهات والشَّهَوات، والشُّبُهات دواؤُها العِلْم، والشَّهَوات دَواؤُها الحَزْم والإرادة التامَّة لما يُحِبُّه الله ويَرْضاه.

﴿مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ ثُمَّ بيَّن بعد أن أَجمَل في قوله: ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بَيَّن الأعمال التي يَدْعونه إليها:

وقوله: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ﴾ اللَّام هنا لبَيان المَدعوِّ إليه. يَعنِي: تَدْعونَني لهذا، وعلى هذا فـ﴿لِأَكْفُرَ﴾ مَنصوبة بـ(أن) مُضمَرة بعد اللَّام على مَذهَب البَصْريِّين، أو باللَّام على مَذهَب الكوفِيِّين، ﴿لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: أَجحَده وأُنكِره، والمُراد إنكار وَحْدانيَّته بدَليل قوله: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ﴾ وقد يُقال: إن المُراد إنكار وُجوده

بالكُلِّية، أو الإشراك به مع الإقرار به، فيَكونون يَدْعونه إلى شَيْئَيْن إمَّا إنكار الخالِق عَزَّوَجَلَّ، وهذا مُستَفاد من قوله: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ﴾؛ أي: أَجحَده، أو إثباته مع وُجود شَريك له، وهذا مُستَفاد من قوله: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ﴾.

وقوله: ﴿مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ هذا قَيْد مُبيِّن للواقِع، وأن كل مَن أَشرَك بالله فإنه مُشرِك بلا عِلْم، بل بما يُعلَم بالفِطْرة خِلافه، ولكن من المَعلوم أن الشَّيْء إذا كان بلا عِلْم فإنه لا ثُبوتَ له ولا أَصلَ له.

فالصِّلة في قوله: ﴿مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ لبَيان الواقِع، وقد بيَّنَّا أن كل قَيْد لبَيان الواقِع أو الغالِب أو المُبالَغة؛ فإنه لا مَفهومَ له.

وقوله: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ بدَأ هنا باسْمِ العَزيز؛ لأن المَقام يَقتَضيه؛ إذ إن هَؤلاءِ أَقْباط من آل فِرعونَ يَظُنُّون أن العِزَّة لهم، فقال: ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ ولم يَقُلْ: إلى الغَفور الرَّحيم. بل قال: ﴿إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ يَعني: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالِب، فيُهلِككم إذا أَنْتم أَشرَكْتم به أو كفَرْتُم به ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ يَغفِر لكم ما سبَقَ إن أَنتُم آمَنْتم به، وهذا من تَمام فِقْه هذا الرجُلِ المُؤمِن، فإنه قد يَقول قائِل: إن المَقام يَقتَضِي: وأنا أَدعوكم إلى الغَفور الرَّحيم. لكن الأَمْر بالعَكْس المَقام يَقتَضِي ذِكْر اسمِه العَزيز؛ لأن هَؤلاءِ يَدَّعون أنهم فَوقَ الناس، وأن ربَّهم فِرعونُ، وأنه لا غالِبَ لهم.

وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ اسمٌ من أَسْماء الله، و﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ اسمٌ من أَسْماء الله، والغَفور اسمٌ من أسماء الله.

وليُعلَم أن أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَنقَسِم إلى قِسْمين: الأوَّل ما كان مُشتَقًّا من وَصْف مُتعدِّد، فهذا لا يَتِمُّ الإيمان به إلَّا بأُمور ثلاثة:

الأوَّل: إثباتُه اسمًا لله، والثاني: إثباتُ الصِّفة التي دلَّ عليها، والثالِث: إثبات الحُكْم المُترَتِّب على هذه الصِّفةِ.

والقِسْم الثاني غير مُتعَدٍّ، لا يَتِمُّ الإيمان به إلَّا بإثبات اثنَيْن، إثباته اسمًا من أسماء الله، وإثبات الصِّفة التي دَلَّ عليها؛ لأن كلَّ اسمٍ من أسماء الله يَدُلُّ على صِفة ليس لله اسمٌ يَكون جامِدًا، خِلافًا لمَن قال: إن كلِمة (الله) اسمٌ جامِد غير مُشتَقٍّ، وهذا ليس بصحيح، ما من اسمٍ من أسماء الله إلَّا وهو مُشتَقٌّ؛ لأن الله وصَفَ أسماءَه بأنها حُسنَى، وما لا يَتَضمَّن من وَصْف ليس بحَسَن فضلًا عن أن يَكون أحسَنَ.

نَضرِب أمثِلة لهذا: (الحَي) من اللازِم تُؤمِن به اسمًا من أسماء الله، وبالحَياة التي دَلَّ عليها الاسمُ، و(السَّميع) مُتعَدٍّ تُؤمِن بالسميع اسمًا لله، وبالسَّمْع صِفة لله، وبأنه يَسمَع إثباتًا للحُكْم، وهو الأثَر المُترَتِّب على هذه الصِّفةِ.

ثُمَّ اعلَمْ أن الاسم يَتضَمَّن أحيانًا صِفة وأحيانًا صِفتَيْن، وأحيانًا أكثَرَ؛ لأن أنواع الدَّلالة ثلاثة: مُطابَقة، وتَضمُّن، والتِزامٌ.

فمَثلًا من أسماء الله تعالى الخَلَّاق ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحِجر:٨٦] والخلَّاق والخالِق من أسماء الله، مثل الغَفور وغافِر الذَّنْب والغَفَّار؛ فتُؤمِن بالخَلَّاق اسمًا من أسماء الله، وتُؤمِن بصِفة الخَلْق التي تَضمَّنها اسمُ الخَلَّاق، وإيمانك بالاسم والصِّفة هذا إيمان بدَلالة المُطابَقة، وإيمانك بالاسم وحدَه أو بالصِّفة وحدَها إيمان بدَلالة التَّضمُّن، ثُم إيمانك بأنه عَليم قَدير، إيمان بدَلالة الالْتِزام؛ لأنه ما من خَلَّاق إلَّا وهو عَليم، وما من خَلَّاق إلَّا وهو قادِر؛ لأنه إن كان جاهِلًا فكيف يَخلُق، وإن كان عاجِزًا فكيف يَخلُق؟! فدَلالة الخَلَّاق على العِلْم والقُدْرة دَلالة التِزام.

وهذه الدَّلالة -أَعنِي: دَلالة الاِلْتِزام- يَتَفاوَت فيها الناس تَفاوُتًا كثيرًا، فمن الناس مَن يُعطيه الله تعالى فَهْمًا يُدرِك به اللَّوازِم التي تَلزَم على هذا الاسم، ومن الناس مَن هو دون ذلكَ، فتَجِد بعض الناس يَستَنبِط فَوائِدَ عِدَّةً بدَلالة النُّزول، وآخَرُ لا يَقدِر، وفَضْل الله تعالى يُؤتِيه مَن يَشاءُ.

والعَزيز بمَعني: ذي العِزَّة ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ [الصافات:١٨٠]، والعِزَّة قالوا: إنها ثَلاثة أنواع: عِزَّة القَدْر، وعِزَّة القَهْر، وعِزَّة الامتِناع، عِزَّة القَدْر بمَعنَى أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَزيز قَدْرًا؛ بحيث لا يَكون مِماثِلٌ له، وعِزَّة الامتِناع يَعنِي: أنه عَزَّوَجَلَّ عَزيز، أي: يَمتَنِع أن يَنالَه السوء، والعَزيز يَأتِي بمَعنَى الامتِناع في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:٢٠]؛ أي: بمُمتَنِع، والثالث: عِزَّة القَهْر بمَعنى: أنه الغالِب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، فقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨] العِزَّة يَعنِي: الغلَبة، إذا كان العَزيز بمَعنَى: الغالِب فهو من الأسماء، عَزَّ أي: غلَب فهو غالِب، ومُقابِله مَغلوب، وإذا كانَتْ عَزَّ بمَعنَى: امتَنَع أو بمَعنَى: كان ذا قَدْر عَظيم فهو لازِم.

إِذَنْ نَقول: العَزيز من جِهة تَكون من الأسماء المُتعَدِّية إذا كانت بمَعنَى: الغالِب، ومن جِهة أُخرى تَكون غير مُتعَدِّية إذا كانَت بمَعنَى: الامتِناع أو بمَعنَى: القَدْر.

وهنا جُملة مُعتَرِضة؛ قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ هل الجَوابُ مُطابِق لقولهم، أو غير مُطابِق؟

الجَوابُ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ المُطابِق أن يَقول: والله أَعزُّ، والله أَعزُّ والمُؤمِنون، لكن لم يَذكرُ هذا، بل قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ إشارة إلى

أن المُنافِقين لا عِزَّةَ لهم أصلًا؛ لأنه لو قال: الله أَعزُّ. لأَثبَت للمُنافِقين عِزَّة، ولكنه ليس لهم عِزَّة، حصَر العِزَّة لله ورسوله والمُؤمِنين ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذه من بَلاغة القُرآن، وإذا تَأمَّلت القُرآن -سُبْحانَ الله- تَبيَّن لك أمور تَبهَرك في دَلالاته وإشاراته وإيماءاته، فسُبْحانَ الله الذي أَنزَله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ اسمٌ من أسماء الله المُتعَدِّية؛ لأن الله قال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

إِذَنْ: لا بُدَّ أن نُثبِت الغَفَّار اسمًا من أسماء الله، ولا بُدَّ أن نُثبِت الصِّفة وهي المَغفِرة ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد:٦]، ونُثبِت أنه يَغفِر ويُوصِل المَغفِرة مَن شاءَ.

قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ وهو الكُفْر بالله، والإشراك به ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾؛ أي: ليس له استِجابة دَعْوة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ولا جرَمَ أيضًا أن مَرَدَّنا إلى الله، وأن المُسرِفين هم أَصْحاب النار.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا جَرَمَ﴾ حَقًّا]؛ يَعنِي: أن مَعنَى لا جرَمَ حَقٌّ، وعلى هذا فتكون (لا) زائِدة، و(جرَمَ) بمَعنى: حَقًّا، وهذا ما ذهَب إليه المفَسِّر، والمُعرِبون اختَلَفوا فيها، والصَّواب في إعرابها أن (لا) نافِية للجِنْس، و(جرَمَ) اسمُها، ومَعنَى (لا جَرَمَ): أي لا شَكَّ، أو لا بُدَّ، هذا هو الصواب والتَّرْكيب واضِح، ولا يَحتاج أن يُقدَّر أن (لا) زائِدة و(جرَمَ) بمَعنَى: قطع، وأن مَصير الجُملة إلى أن تَكون مَصدرًا لعامِل مَحذوف يَعنِي: أحق حقًّا أن ما تَدعونَني إليه، لا حاجةَ إلى هذا، إذا قُلْنا: لا شَكَّ أن ما تَدْعونني إليه إلى آخِره، ليس له دَعْوة في الدُّنيا ولا في الآخِرة زال الإشكال، وعلى هذا تكون (جرَمَ) اسم (لا)، وإنما دخَل في تَأْويل المَصدَر خبَر (لا)،

والمَعنَى يَقول: لا شَكَّ ولا ارْتِياب أن الذي تَدْعونني إليه ليس له دَعْوة.

وقوله: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ (ما) مَربوطة بـ(أن)، والظاهِر وحسب القواعِد المَعروفة أن تَكون مَفصولة، لأن المَعنَى: لا جَرَمَ أن الذي تَدْعونني إليه، وإذا كانت (ما) مَوْصولة فإنها تُفصَل عن (أن) كِتابة، لكن رَسْم المصحَف تَمشَّى فيه العُلَماء على الرَّسْم العُثمانيِّ؛ احترامًا للقُرآن أن يُغيَّر؛ ولهذا تَجِدون الصلاة في المُصحَف مَكتوبة بالواو، والزكاة بالواو، والرِّبا بالواو، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] بالتاء المَفتوحة، كلُّ هذا اتِّباعًا للرَّسْم العُثمانيِّ؛ احترامًا لكِتاب الله أن يَدخُله التَّغيير.

وقدِ اختَلَف العُلَماء: هل يُكتَب القُرآن حَسب القَواعِد وفي كل وَقْت بحَسبه، أو على الرسم العُثمانيِّ؟ فقيل: إنه يَجوز أن يُكتَب على القَواعِد في كل وَقْت بحَسبه؛ لأن المَقصود أن يُتلَى كتاب الله على حَسب ما نزَل لا على حَسب ما كُتِب، والقُرآن نزَل مَقروءًا؛ إذَنِ الكِتابة ما هي إلَّا اصطِلاحات تَخضَع لأعراف الناس.

والقول الثاني: إنه لا يَجوز أن يُغيَّر أبدًا؛ سَدًّا للباب، ومَنْعًا للتغيير؛ حتى لا يَجرُؤ أحَد أن يُغيِّر في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا لا شَكَّ أنه يَرمِي إلى قُوَّة احترامنا للقُرآن الكريم، والأوَّل يَرمِي إلى قُوَّة إيصال القُرآن إلى الناس على وَجْه لا إشكالَ فيه.

والقَول الثالِثُ: إنك إن كتَبْته للدارِسين المُبتَدِئين، فلا بأسَ أن تَكتُبه حسب القَواعِد المَعروفة؛ لأن الدارِسين المُبتَدِئين لا يَعرِفونه، وأمَّا إذا كُنت تُريد أن تَكتَبه ليُقرَأ فهذا يُكتَب على حَسب الرسم العُثمانيِّ.

والظاهِر أن هذا القولَ المُفصَّل أَرجَحُ الأقوال الثلاثة.

قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ (أنَّ) حَرْف تَوْكيد يَنصِب المُبتَدَأ ويَرفَع الخبَر، و(ما) اسمُها، و﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ خبَرُها الجُملة.

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ لأَعبُدَه]، ولكِنَّ هذا التَّفسيرَ قاصِر، فالذي دعَوْه إليه أن يَكفُر بالله ويُشرِك به، فهُم دَعَوْه إلى أمرين، والمفسِّر قصَره على أَمْر واحِد، وهو عِبادة غير الله، وهذا إِشْراك.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ أي: ليس له استِجابة دَعْوة، والصواب أنه ليس له دَعْوة يُدعَى بها، ولا دَعوةٌ يُجيبها، فمَعنى ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾: لا يَستَحِقُّ أن يُدعَى، وهو أيضًا لا يَستَجيب إذا دُعِيَ، كما قال الله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤].

زِدْ على ذلك أَنَّكم تُريدون أن يَنفَعوكم في الآخِرة، والأمر ليس كذلك؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، وهذه الآيةُ كقَوْله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥]، هذا الذي تَدْعوه لا يُمكِن أن يَستَجيب لك إلى يوم القِيامة أبَدًا، ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ (هُم) يَجوز أن يَكون المَدْعوُّون، ويَجوز أن يَكون الداعُون، والهاء في ﴿دُعَآئِهِمْ﴾ يَجوز عَوْدها لهذا، وهذا حَسب الضَّمير السابِق.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ وهو الوَقْت الذي يُريد الداعون أن يَنتَفِعوا بالمَدْعوِّين ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٦]؛ لأن الله يَقول: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة:١٦٦] أي: المَودَّة والمَحبَّة التي كانوا يُضمِرونها لهم في الدُّنيا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟

لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴾ [البقرة:١٦٧].

فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ يقول المفسِّر: [ليس له دَعْوة مُستَجابة] يَعنِي: لا يَستَجيب الدَّعْوة، والصواب أن لها مَعنيَيْن: لا يَستَجيب، ولا يَستَحِقُّ، فهو لا يَستَحِقُّ أن يُدعَى، ولو دُعِيَ لم يَستَجِبْ.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لا يَستَطيع هذا لا في الدنيا ولا في الآخِرة، فالأصنام لا تَنفَع عابِديها لا في الدنيا ولا في الآخِرة.

وقوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ذكَّرهم بالحِساب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجَزاه الله خيرًا، قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ﴾؛ أي: مَرجِعنا] إلى الله عَزَّوَجَلَّ في الدُّنيا والآخِرة ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]، فالمَرَدُّ هو الله في الدنيا والآخِرة.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ يَعنِي: ولا جرَمَ أيضًا أن المُسرِفين هُمْ أصحاب النار. يَعنِي: هذه ثَلاثة أشياءَ كلُّها جُزِم بها جَزْمًا.

أوَّلًا: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

والثاني: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

والثالِث: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

والمُسرِف اسمُ فاعِل من الإسراف، وهو تَجاوُز الحَدِّ ويَكون كُفْرًا، ويَكون دون الكُفْر، فالإنسان الذي يَملأ بطنَه من الطَّعام والشراب مُسرِف، لكنه ليس بكافِر؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾، وكذلك الإسرافُ في اللِّباس وغيره لا يُؤدِّي إلى الكُفْر، لكن الإسراف في عِبادة الله بأن تَتَجاوَز عِبادة الله إلى عِبادة غيره، هذا هو الكُفْر، وهذا هو مُراد هذا الرجُلِ المُؤمِن.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ (هم) ضَمير فَصْل، وقد سبَق لنا أن ضَمير الفَصْل من حيث الإعراب لا مَحَلَّ له من الإعراب، فلا يُؤثِّر فيما بَعْده ولا يُؤثِّر فيه ما قَبْله، هذه واحِدة.

وسبَق لنا أن لضمير الفَصْل فَوائِدَ: التَّوْكيد والحَصْر وتَمييز الخَبَر عن الصِّفة، وضرَبنا لذلك مثَلًا لا حاجةَ للإعادة.

من فوائدِ الآياتِ الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إنكار هذا الرجُلِ المُؤمِن على قَـوْمه بما يَشهَد العقل بصِحَّته؛ حيث قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٤١]، وإذا كان العَقْل يَدُلُّ على صِحَّته فهو مَحَلُّ عجَب، كل إنسان عاقِل يَعجَب أن يَكون هذا الشيءُ، رجُل يَدعو قومه إلى النَّجاة ورجُل يَدعوهم إلى النار.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: مُراعاة الحال في الخِطاب، وجهُه أنه قال: ﴿إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ مع أنه يَدْعوهم إلى الجَنَّة، لكن لَمَّا كانت دَعْوتهم إيَّاه إلى الهَلاك آثَرَ أن يَقول: إلى النَّجاة؛ ويَلزَم من النَّجاة من النار دُخول الجَنَّة.

مسألة: قولُ موسى لفِرعونَ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢] هل يُستَدَلُّ بذلك على الإغلاظِ في الدَّعْوة؟

فالجَوابُ: هذا الإغلاظُ في مَحلِّه؛ لأنه قال له كلِمة أشَدَّ منها، قال: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء:١٠١] فهَلْ يُغلِظه بالقَوْل ويَسكُت، وموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مَعروف بالقُوَّة؟!

فإن قال قائِل: من باب التَّلطُّف الداعِية يَقول أحيانًا: وإني أَكثَرُكم تَقصيرًا،

فيَظُنُّ ضِعاف النُّفوس والجُهَّال أنه ما دام هذا الداعِيةُ أو هذا الشيخُ كثير التقصير، نحن إذن من بابِ أَوْلى، ثُم يُصيبهم ما يُصيبهم.

فالجوابُ: أنَّ هذه الكلِمةِ يَنبَغي للإنسان أن يَنظُر في مَصلَحتها، وإلَّا فقد قالها عُمرُ بنُ عبدِ العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آخِر خُطبة خطَبها، قال: إنِّي لأَقولُ لكُمْ هذا وما أَعلَمُ أحَدًا عِنده من الذُّنوب أكثَرَ مِمَّا عِندي[1]. هي بالحقيقة يَعنِي قد تَكون مُشجِّعة وقد تَكون مُخَذِّلة.

قد يَقول قائِل: إذا كان هذا الرجُلُ الداعِية العابِد مُقصِّرًا فكيف بنا نحن؟ إِذَنْ فلْنُشمِّر عن ساعِد الجِدِّ. وقد تَكون -كما قُلت-: سِلاحًا ذا حَدَّيْن؛ فلْيُنظَر إلى المَصلَحة، والإنسان أحيانًا يَقول مثل هذا؛ لأنه يَخشَى على نَفْسه من العُجْب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ كلَّ مَن أَشرَك بالله، أو أَنكَره كفَر به، فلَيْس له عِلْم في ذلك مهما كان، يُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الإشراك بالله كجُحود الله، ويَدُلُّ لذلك قولُ الله تعالى في الحَديث القُدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[2].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَذكير هذا الرجُلِ المُؤمِن هؤلاءِ بعِزَّة الله ومَغفِرته؛ تَرغيبًا وتَرهيبًا؛ لقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ فالتَّرْهيب في قوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ والتَّرْغيب في قوله: ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ واللهُ أَعلَمُ.

---

(١) انظر: سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم المصري (ص:٤٣)، وتاريخ الطبري (٦/ ٥٧١)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٤٥/ ١٧٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائِلٌ: هل أَقوال الأنبياء والصالِحين في القُرآن هي بنَصِّها؟

فالجوابُ: ليسَتْ هي بلَفْظها، وإنَّما هي بالمَعنَى؛ ولهذا تَجِد العِبارات مُختَلِفة ممَّا يَدُلُّ على أنَّ الله تعالى يَنقُلها بالمعنى، وإن أَضافَها إليهم قولًا، لكن بالمَعنَى، ثُم هم لُغَتُهم غير عرَبية.

فهي بالمَعنَى لا شكَّ:

أوَّلًا: لأن لُغَة هؤلاءِ ليسَت لُغةً عرَبية.

وثانيًا: لو كان باللَّفْظ لكان كلام البَشَر مُعجِزًا؛ لأن الإعجاز يَحصُل بالآية والآيَتَيْن والثلاثة، وهذا الرجُلُ المُؤمِن تَكلَّم في كم من آية، والله هو الذي صاغه بنَفْسه، فنقَله بالمَعنى.

مسألة: بعض الآيات التي يَحكِي فيها الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ إنسانًا أو أحَدًا، مثل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف:٣٤] فهَلْ يَقول الإنسان: قال الله تعالى حاكِيًا عن رجُلٍ، أو يَقول: قال الله تعالى. على مِثْل ما رَوَيْت؟

فالجوابُ: الأحسَنُ أن يَقول: حاكيًا؛ لأنه قد يُوهِم أنَّ الضَّمير يَعود على الله.

وهذا يُوصِلنا إلى شيء: هل الحَديثُ القُدسيُّ هو كلام الله بلَفْظه أو مَعناه؟

الجواب: فيه خِلاف: منهم مَن يَقول: تَكلَّم الله به لفظًا. ومنهم مَن يَقول: تَكلَّم به مَعنًى والصِّياغة من الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. ومنهم مَن يَقول: قُل: قال الله. ولا تَقُل: لفظًا ولا مَعنًى. ما دُمْت في عافية فاسْلُك طريق العافِية.

لكن أحيانًا يُحرَج الإنسان، يَقول: أَعطِني الفَرْق بين الحديث القُدسيِّ والقُرآن،

وأما إذا أَمكَن الإنسان السلامة فالسلامة خَيْر، لكن يَأتيك بعض الناس، ويَقول لك: أَخبِرْني عن الفَرْق بين الحَديث القُدسيِّ والقُرآن.

فالفَرْق هو هذا: أن الحَديث القُدسيَّ ليس لَفْظ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه لو كان لَفْظ الله لكان مُعجِزًا، ولثَبَت له أحكام القُرآن، بحيث لا يَقرَؤُه جُنُب، ولا يُمَسُّ إلَّا بطَهارة، ولا أحَدَ يَقدِر على تَحريفه، وما أَشبَه ذلك، وهذا كلُّه مُنتَفٍ.

فإذا قال قائِل: أَلَيْس الرسولُ يَقول: قال الله؟

قُلْنا: بلى. أَلَيْس الله يَقول: قال فِرعونُ، قال مُوسى. وما أَشبَه ذلك وهو بغَيْر لُغَتهم، هذا لا يَمنَع.

ثُم لو قُلْنا: إنه كلام الله باللَّفْظ، أَشكَل علينا إِشْكال عَظيم، فإمَّا أن يَكون بواسِطة جِبريلَ، أو بغير واسِطة، فإن كان بغَيْر واسِطة كان أعلى سنَدًا من القُرآن؛ لأنَّ القُرآن بواسِطة جِبريلَ، وإن كان بغير واسِطة، فأي إنسانٍ يَقول: بغير واسِطة. فإنَّه ربما نَخنُقه أو نُعطِيَه كفًّا على الرأس.

وإذا جعَله بواسِطة والرسول حذَف الواسِطة صار عِندنا إشكال وهو التَّدليس، والرسول ﷺ مُنزَّهٌ عن هذا.

فالمَسأَلة كما قلت: أَحَدٌ يَقول: إنه كلام الله لَفْظًا ومَعنًى. والثاني يَقول: كلام الله مَعنًى لا لَفظًا، والثالث يَسكُت يَقول: نَقول: قال الله. ونَسكُت، وهذا إذا حصَل للإنسان السلامة فهو أَسلَمُ، لكن كما قُلْت لكم، أحيانًا يَقول لك: لازِم! أَعطِني الفَرْق بين القُرآن والحَديث القُدسيِّ، نَقول: هذا الفَرقُ: القُرآن كَلام الله لفظًا ومَعنًى، والحَديث القُدسيُّ كلام الله مَعنًى لا لفظًا.

فإن قال قائِلٌ: وحينَئذٍ نُطالِبكم بالفَرْق بين الحَديث النَّبويِّ والقُدسيِّ؛ لأنَّ الحَديث النَّبويَّ كلام الرسول؟.

فالجواب: هذا سَهْل، الفَرْق بينهما أنَّ الحَديث النَّبويَّ لا يُضيفه الرسولُ إلى الله، والحَديثُ القُدسيُّ يُضيفه إلى الله. فانتَهى الإِشْكال في هذه المَسأَلةِ!.

ثُم اعلَمْ أن هذه المَقاماتِ إذا حصَّلَت السَّلامة فهي أَسلَمُ، ولكن إذا ابتُلِيَ الإنسان فلا بُدَّ أن يُفصِّل.

ومن ذلك مثَلًا لفظ: الجِسْم، معلومٌ أن جميع المُعطِّلة بنَوْا تَعطيلهم على مَسأَلة الجِسْم، حيث ادَّعَوْا أنهم إذا أَثبَتوا الوجه أو اليَدَ أو ما أَشبَه ذلك فإنه يَقتَضِي أن يَكون الله جِسْمًا، حتى الاستِواء يَقول: إذا أَثبَتْنا أن الله استَوَى فهو جِسْم. ونحن نَقول لهم: ما هذا الجِسمُ الذي جعَلْتُموه دَبُّوسًا مُعلَّقًا تَخرِقون به كل سِياج لإثبات الصِّفات؟!

إن أَرَدْتُم أنه جِسْم مُكوَّن مَخلوق يُمكِن انفِصال بعضُه عن بعض، وبانفِصال بعضِه يَنقُص، وربَّما يَهلِك، فالله مُنزَّهٌ عن هذا ولا شَكَّ، ومَنِ اعتَقَد هذا في ربِّه فهو كافِر، وإن أَرَدْتُم بالجِسم أنه ذو ذاتٍ يَفعَل ما يَشاء، ويَتكلَّم، ويَجيء، ويَنزِل، ويَستَوِي، ويَتَّصِف بالصِّفات اللائِقة به فهذا حقٌّ، لكن من جِهة إثبات لَفْظ الجِسْم أو نَفيه فهذا مَمنوع، لا تَقُل إثباتًا: إن الله جِسْم. ولا نَفيًا: إن الله ليس بجِسْم؛ لأنه لم يَرِد إثباتُه ولا نَفيُه.

فهذه مَسائِل يَنبَغي لطالِب العِلْم أن يَفهَمها، فمثَلًا: إذا جادَلَنا إنسان ويَقول: ما تَقول في الجِسْم؟ أَقول: أمَّا باعتِبار لفظه فالواجِبُ الكَفُّ عنه إثباتًا أو نفيًا؛ وأمَّا من جِهة مَعناه فنحن نَستَفصِل.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن كل ما يُدعَى من دون الله فلَيْس له دَعْوة استِحْقاقًا ولا استِجابة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ هذه الأَصنامَ لا تَنفَع عابِدِيها، سواءٌ دعَوْها دَعْوة مَسأَلة، أو دعوةَ عِبادة.

والفَرْق بين دَعْوة المَسأَلة ودَعْوة العِبادة: أن المَسأَلة يَطلُب فيها الإنسان حاجةً ما، ودُعاء العِبادة يَتعبَّد لله، وإنما كانَتِ العِبادة دُعاء؛ لأن العابِد يَدعو بلِسان حاله أن يُثاب على هذه العِبادة، ويَدُلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر:٦٠]، فقال: ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾ ثُم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ فدَلَّ هذا على أن الدُّعاء عِبادة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات الرُّجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وأن مَردَّ الأمور إليه في قوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهذه الآيةُ لها نَظائِرُ؛ منها قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، ومنها: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦]، ومنها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، ومِنها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢]، والآياتُ في هذا المَعنَى كثيرة، أن مَرجِع الخَلائِق إلى ربها عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تَحريم الإسراف، وَجهُ الدَّلالة من الآية: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٤٣].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن الإِسْراف قد يَصِل إلى حدِّ الكُفْر؛ لقوله: ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، ومتى وَجَدت أصحاب النار فهُمُ الذين هم أَهلُها والذين هم مُخلَّدون فيها.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: قُوَّة إيمـان هذا الرجُلِ، يُؤخَذ من أنه دَعاهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وذكَّرهم أنه بعد دَعْوتهم وإرشادِهم صَدَع للحقِّ، فقال: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: استِعْمـال التَّعْريض: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ لأنه لا شَكَّ أنه أوَّل ما يَدخُل في هذه الجُملةِ هَؤلاءِ، لكنه لم يَشَأ أن يَتكلَّم بذلك صريحًا.

ومُمكِن أن نَقول: في هذه الآيةِ إظهار في مَوضِع الإضمار. ومُمكِن أن نَقول: هذا تَوْرية. فالإِظْهار في مَوضِع الإضمار من أساليب اللُّغة العرَبية، وهو كَثير في القُرآن، وله فَوائِدُ منها:

أ- إرادة العُموم: يَعنِي: ليَعُمَّ الحُكْم مَن استَعمَل في حَقِّه ومَن لم يَستَعمِل.

ب- ومنها بيان العِلَّة: التَّعليل؛ لأنه إذا جاء الوَصْف مُعلَّقًا عليه حُكْم من الأحكام دلَّ ذلك على عِلِّيَّة هذا الوَصفِ.

ج- ومنها التَّسجيل على هؤلاء الذين كان مُقتَضى السِّياق أن يُذكُروا بالضَّمير بما يَقتَضيه هذا الوَصفُ.

فهذه ثلاثُ فَـوائِدَ: إرادة التَّعميم، بيان العِلَّـة، الحُكْم على هَـؤلاء بأنهم مُستَحِقُّون لهذا الوَصْفِ.

الآية (٤٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر:٤٤].

ثُم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في بَقيَّة كلام هذا الرجُلِ المُؤمِن: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ [غافر:٤٤].

السين وسوف كِلاهما يَختَصَّان بالفِعْل المُضارِع ومن علاماته، وإذا رأَيْت كلِمة تَقبَل السين وسوف فهي فِعْل مُضارِع، لكنَّهما يَفترِقان، السين تَدُلُّ على القُرْب، وسوف تَدُلُّ على المُهلَة، فقوله: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ ﴾؛ أي: عن قَريب، وهي مع إفادتها القُرْب تُفيد التَّحقُّق؛ يَعنِي: أن هذا أَمْر لا بُدَّ أن يَحصُل.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ إذا عايَنْتم العَذاب]، وهذا ليس ببَعيد؛ لأن غاية ما بينَهم وبينَه أن تَنتَهيَ آجالُهُم، وكل آتٍ قَريبٌ، ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾، وحينئذٍ لا يَنفَعُهم ذلك، كما لو نصَحَك ناصِحٌ عن فِعْل شيء، ثُم لم تَقبَل نصيحته، وبعد ذلك رأَيْت عاقِبَته وَخيمة، فإنك ستَذكُر قول الناصِح، تَذكُره ندَمًا وحُزْنًا.

قال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الواو هنا للاستِئْناف، ولا يَصِحُّ أن تَكون عاطِفة؛ لأنها لو كانت عاطِفة لكان المَعنَى: وسأُفوِّض أَمْري إلى الله، ولكن هذا

ليس المَعنَى، بل المَعنَى: وأنا أُفوِّض أَمْري إلى الله، فالواو هنا للاستِئْناف، أُفوِّضه إلى الله؛ أي: أَكِلُه إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿أَمْرِيٓ﴾ هذا مُفرَد مُضاف يَعُمُّ والمُراد به الشَّأْن، أي: شَأْني كلَّه، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، وهذا غاية ما يَكون من التَّوكُّل، وسيَأتِي -إن شاء الله- في الفَوائِد.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ هذه الجُملةُ التَّعْليلية للحُكْم السابِق، وهو قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ كأن قائِلًا يَقول: لماذا فوَّضَ أَمْره إلى الله؟ فأَجابَ بأن الله تعالى بَصير بالعِباد.

وقوله: ﴿بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾؛ أي: بأَحْوالهم، وحاضِرهم ومُستَقبَلهم، وجميع شُؤُونهم، فهو جَلَّوَعَلَا يَعلَم ما بين أيديهم وما خَلْفهم، يَعلَم كل أحوالهم.

قال المفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [قال ذلك لَمَّا تَوعَّدوه بمُخالَفة دِينِه] يَعنِي: كأنهم تَوعَّدوه، فقال: أُفوِّض أَمْري إلى الله. ولكِن التَّوعُّد ليس في الآية دَليل عليه، والظاهِر -واللهُ أَعلَمُ- أنه لم يَقُل ذلك حين تَوعَّدوه، ولكنه قال ذلك حين أَيِسَ من أن يَمتَثِلوا لنَصيحته، فقال كالمُودِّع لهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾، وأمَّا أنا فأُفوِّض أَمْري إلى الله؛ لأني قُمْت بما يَلزَمُني من نصيحة، وهذا أكثَرُ ما يَجِب عليَّ.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيانُ تَحذير هؤلاء الذين يَنصَحُهم المُؤمِن بأنهم سوف يَذكُرون كلامه، ويَعرِفون أنه الحَقُّ، لكن ذلك في حال لا تَنفَعُهم هذه الذِّكْرى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قُوَّة تَوكُّل المُؤمِن حيث قال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وهكذا يَجِب على كُلِّ مُؤمِن إذا أَراد أن تُقضَى أُموره وتُسهَّل فلْيُفوِّض أمرَه إلى الله؛ لأن الله

تعالى قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، وقال لنبيِّه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤]، ومَن كان الله حَسْبَه فهو رابِحٌ وناجِحٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكُلِّ عِباده؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٤]، وهذا -كما سَبَقَ- تَفسير يَشمَل الأحوال والأعيان.

• • ۞ • •

الآيتان (٤٥، ٤٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٥-٤٦].

قال الله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ هذا أيضًا يَدُلُّ على رَدِّ كلام المفَسِّر؛ لأنهم لو تَوعَّدوه بالقَتْل لم يَكُن هذا مَكرًا، إذ إن المَكْر هو الإيقاع بالغير من حيثُ لا يَشعُر، أمَّا لو تَوعَّدوه بالقَتْل لم يَكُن هذا مَكْرًا، بل كان هذا صَريحًا واضِحًا.

وقوله: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ أي: نَجَّاه من مَكْرِهم السَّيِّئ، فـ﴿سَيِّـَٔاتِ﴾ هنا من باب إضافة الصِّفة إلى مَوْصوفها؛ أي: المَكْر السَّيِّئ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣]، وقوله: ﴿مَا مَكَرُواْ﴾ المَكْر والخِداع والغَدْر، وما أَشبَه ذلك؛ كلُّها أَلْفاظ مُتقارِبة تَدور حول شيء واحِد، وهو أن تُوقِع بغَيْرك من حيثُ لا يَشعُر، فالكَيْد والمَكْر والخِداع والغَدْر والمُحال، وما أَشبَهَها؛ كل هذه أَلْفاظ مُتَقارِبة.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا مَكَرُواْ﴾ به من القَتْل] بيَّن في هذا أنَّ العائِد على الصِّلة في قوله: ﴿مَا﴾ مَحذوف، والتَّقدير: ما مكَروا به.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَحَاقَ﴾ نزَل ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ قومه مَعَه ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾

الغرَق] (حاقَ) بمَعنَى: نزَل، لكن تَشعُر بأنها ليسَت بمَعنَى: نزَلَ من كلِّ وَجْه، وأن تَفسيرها بالنُّزول تَفسير تَقريبيٌّ، (حاق): القاف قَريبة من الطاء فكأن المَعنَى: حاط بهم، وهذا أَشَدُّ من نزَلَ، فالظاهِر أن (حاقَ) بمَعنَى: نزَلَ مُحيطًا بهم، وليسَت بمَعنَى: نزَل على وجه مُجرَّد بدون إضافة مَعنًى.

وقوله: ﴿بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قومِه]، وقال غيرُه: أَتباعِه، والظاهِر أنَّ المعنى مُتقارِب؛ لأن الذين اتَّبَعوه إنما هم قَوْمه، وأمَّا بنو إسرائيلَ فإنهم لم يَتَّبِعوه، بل كان يَذبَح أبناءَهُم ويَستَحْيِي نِساءَهم.

وقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَعَه] ذكَرَها لئَلَّا يَظُنَّ الظانُّ أن العَذاب نزَل بآل فِرعونَ دونه، ولكن هذا لا يُمكِن أبَدًا، إذا كان آلُ فِرعونَ إنَّما نزَل بهم العَذاب؛ لأنهم كفَروا بالله، ففِرعونُ أَكفَرُ بالله من هَؤلاءِ، ثُم إنَّ الظاهِر أن الإنسان إذا قال: أَكرِمْ آل فُلان. فإن فُلانًا هو مُقدَّمهم، ولا بُدَّ أن يَدخُل فيهم لُغَة.

وقوله: ﴿سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ هذا أيضًا من باب إِضافة الصِّفة إلى مَوْصوفها. أي المَعنَى: العَذاب السَّيِّئ، وفسَّره المفَسِّر بأنه الغرَق، وهذا لا شَكَّ أنه من سُوء العَذاب، لكن هناك عَذابات أُخرى أُصيب بها آلُ فِرعونَ: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ [الأعراف:١٣٣]، كل هذا من سُوء العَذاب؛ الطُّوفان ليُغرِق ما بُذِر من نَباتهم، والقُمَّل لأَجْل أن يَفسُد ما ظَهَر، والضَّفادِع لتُفسِد الماء؛ لأنَّهم صاروا كلَّما أَخذوا إناءً يَشرَبونه وجَدوا هذه الضَّفادِعَ قد ملأَتْه، والدم هو نَزيف الدَّمِ إمَّا من الأَنْف أو من غيره، فعُوقِبوا من كل وَجْه، ففي الزُّروع: غَرَق،

وفيما ما ادخَّروه: قُمَّل، وفي الماء: ضَفادِعُ، وبعد أن يَصِل إلى الجِسْم ويَتَغذَّى به الجِسم: يَخرُج يَنزِف دمًا، فهَلكوا.

وهذا فيه التَّرْتيب والدرَجات: الطُّوفان غرَق الزُّروع، والجَراد تَأكُل الزرع، الطوفان يُغرِق ما بُذِر، والجَراد يَأكُل ما ظهَر، والقُمَّل يُفسِد ما ادُّخِر، والضَّفادِع تُفسِد الماء، والدمُ وهو النَّزيف تُذهِب ما حصل من الغِذاء بالطَّعام الذي يُقدَّر أنه سلِمَ من هذه الآفاتِ، فهذا من سوء العَذاب، والنِّهاية هي الغَرَق: أنَّ الله أَغرَق آل فِرعونَ بالبَحْر.

وقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ هذه الجُملةُ مُستَأنَفة، فـ﴿ٱلنَّارُ﴾ مُبتَدَأ، و﴿يُعۡرَضُونَ﴾ الجُمْلة خبرُها.

وقوله: ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾، ليس مَعناها أنها تُحرِقهم؛ لأن الله لو أَراد ذلك لقال: النار يَصلَوْنها غُدُوًّا وعَشيًّا، لكنهم يُعرَضون عليها، فيَأتِيهم مِن سَمومها وعَذابها ما لا يُطيقون -والعِياذُ بالله- يُعرَضون عليها غُدُوًّا في الصباح، وعَشِيًّا في المَساء، والظاهِر أنَّ المُراد الدوام، ويُحتَمَل أن المُراد هذان الوَقْتان فقَطْ.

فأمَّا الأوَّل: فقَدْ يُستَدَلُّ له بقوَّل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم:٦٢] يَعنِي في كل الزَّمَن.

وأمَّا الثاني: فيُمكِن أن يُقال: إن هذا ظاهِر اللَّفْظ؛ أي: في أوَّل النَّهار وآخِره، وأنهم يُعرَضون على النار أوَّل النهار، ثُم إذا صُرِفوا عنها أَمَّلوا أنَّها لا تَعود إليهم فتَعود إليهم، فيَكون هذا أشَدَّ من الاستِمْرار؛ لأنَّ كون الإنسان يُؤمِّل ارتِفاع العَذاب عنه ثُم يَعود أشَدَّ من كَوْنه مُستَمِرًّا آيِسًا من زواله؛ ولهذا قال الله تعالى في أصحاب النار: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠].

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يُقال: «ادْخُلوا» يا ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ هذه قِراءَة] ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾ أَمْر والمَقْصود به الإهانة والإِذْلال، بخِلاف قوله تعالى لأهل الجَنَّة: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر:٤٦] هذه للإِكْرام، أمَّا هذه: «ادْخُلُوا آلَ فِرْعَونَ» هذه للإِهانة، والعِياذُ بالله.

وقوله: ﴿ءَالَ﴾ فسَّرها المفسِّر بقوله: [يا آلَ] إشارة إلى أنها مَنصوبة بـ(يا) النِّداء المحذوفة، ادْخُلوا يا آلَ فِرعونَ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قِراءة بفَتْح الهَمْزة وكَسْر الخاء، أَمْر للمَلائِكة]: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، يَعنِي: ويوم القِيامة يُقال للمَلائِكة: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ عَذاب جَهنَّم] نَسأَل الله العافِيَةَ.

من فوائِدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَكفِي مَن تَوكَّل عليه، فيَحمِيه من عَدوِّه؛ لقول الله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّحذير من أَعْداء المُسلِمين؛ لقوله: ﴿مَا مَكَرُواْ﴾، وأن أَعداء المُسلِمين قد لا يُواجِهونهم بالعَداوة، ولكنَّهم يَمكُرون بهم، فلْيَحذَر المُؤمِن مَكْر أَعداء الله، وهذا في القُرآن كثيـر، قال الله تعالى لنَبيِّه ﷺ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق:١٥-١٧].

ومِن مَكْر أعداء الله أنَّهم لا يُجابِهون المُسلِمين بالعَداوة؛ لكنهم يَغزونَهم من

حيثُ لا يَشعُـرون؛ بالأفكار المُنحَرِفة، والأخلاق السَّيِّئة، كمـا تُشاهِدون الآنَ وتَسمَعون ما يَفعَل أعداء المُسلِمين بالمُسلِمين، يَجُرُّون إليهم الأخلاق السافِلة من وَسائِل الإعلام المَرئِيَّة والمَقـروءَة والمَسموعة، يُوفِدون إليهم كل ما يُخالِـف دِين الإسلام في المَلابِس وغيـر المَلابِس، يُغرُونهم بالأموال الطائِلة؛ لإذهاب أَوْقاتهم سُدًى بلا فائِدةٍ، كمَسأَلة الرِّياضة وما أَشبَهَها.

فالمُهِمُّ: أن أعـداء المُسلِمين يَمكُـرون بهم مَكْرًا عَظيمًا، والمُسلِمـون إمَّا أنهم لا يَهتَمُّون بهذا المَكْرِ، أو أنهم لا يَعرِفونه، ولكن الواجِبُ علينا أن نَحذَر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله تعالى يُجازِي المُحسِن بإحسانه ويُجازِي المُسِيء بإساءَتِه، وتَكون إجازة المُسِيء بإساءَته في الحَقيقة مُجازاة للمُحسِن؛ لأن أَخْذ أعدائِك بالعَذاب هو في الحَقيقة انتِصار لك وأنت تَفرَح بذلك، يُؤخَذ ذلك من قوله: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٥]، فبيَّن الله تعالى جَزاءَ هذا وجَزاءَ هؤلاءِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات عَذاب القَبْـر؛ لقـوله: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾.

وعَذاب القَبْر ثابِت بالقُرآن والسُّنَّة والإِجْماع:

أمَّا القُرآن: ففي مِثل هذه الآيةِ: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾، ثُم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ﴾؛ لأن قوله: (يَوْم) ظَرْف زمان مُتعَلِّق بما بعدَه، المُتعَلِّق بالفِعْل «ادْخُلُوا» أو ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾، وهذا لا يَكون إلَّا بعد يوم القِيامة، وعَرْضهم على النار غُدُوًّا وعَشيًّا يَكون قبل يوم القِيامة، ففيه إثبات عَذاب القَبْر، قلتُ لكم: إنه ثابِت بالقُرآن والسُّنَّة والإجماع، أمَّا القُرآن ففي مثل هذا.

ومن أَدِلَّة القُرآن قولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام:٩٣] (اليَوْمَ) هنا (أل) للعَهْد الحُضوريِّ، يَعنِي: هذا اليومُ الذي هو يوم مَوتِكم، فدَلَّ ذلك على ثُبوت عَذاب القَبْر.

أمَّا السُّنَّة: فهي مُتَواتِرة في ذلك كثيرة على وُجوهٍ مُتَنوِّعة عامَّة وخاصَّة:

فمن الخاصَّة: قولُه ﷺ حين مَرَّ بقَبْرَيْن يُعذَّبان: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ**»(١).

وأمَّا الإِجْماع: فكل المُسلِمين يَقولون في صَلَواتهم: أَعوذُ بالله من عَذاب جَهنَّمَ ومن عَذاب القَبْر؛ وهذا أَمْر لا إشكالَ فيه وهو من عَقيدَتِنا.

فإن قال قائِلٌ: هل العَذاب يَكون على البدَن أو على الرُّوح، أو عليهما جميعًا؟

فالجَوابُ: ظاهِر السُّنَّة أن العَذاب يَكون على البدَن حين مُساءَلة المَلَكين، فإن النَّبيَّ ﷺ أَخبَرَ أن المُنافِق والمُرتاب يَقول: «**لا أَدرِي سمِعْت الناس يَقولون شَيْئًا فقُلْتُه، فيُضرَب بمِرْزَبَّة من حَديد فيَصيحُ صَيْحة يَسمَعها كُلُّ شَيءٍ إلَّا الثَّقَلين الإِنسَ والجِنَّ فإنهم لا يَسمَعونه، وكلُّ شيء يَسمَعُه**»(٢).

والمُراد بذَلِك من قرُبَ منها بحيث يَسمَع، أمَّا مَن كان في أَقْطار الدنيا البَعيدة فلا، وهذا يَدُلُّ على أن الذي يُعذَّب حين المُساءَلة البَدَن؛ لقوله: (فيُضرَب).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله، رقم (٢١٦)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٧)، أبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أمَّا بعد ذلك فالأصل أن العَذاب على الرُّوح، وقد تَتَّصِل بالبدَن، كما قال ذلك شيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإن شِئْنا قُلْنا: هذا بَحْث لا طائِلَ تَحتَه، ولم يَسأَل عنه الصحابة، فنُثبِت عَذاب القَبْر على حَسب ما جاء في الكِتاب والسُّنَّة لا نَزيد ولا نَنقُص.

مسألة: بعض النَّصارى أرد أن يضع جهازًا في القبر، ويَقول: نحن نُريد أن نُصدِّق هل كلامُكم صَحيحٌ أيها المُسلِمون حينما تَقولون: إن عَذاب القَبْر ونعيم القَبْر ثابِت؛ فما الرد عليه؟

نَقول: لو أَرادَ الله أن يَسمَعـوه بالمُسجِّل لأَسمَعَكم إيَّاه بآذانِكُم، وما أنتم بمُصدِّقين.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وجود النار؛ لقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، ووجودها ثابِت في القُرآن والسُّنَّة، وقد رأَى النَّبيُّ ﷺ النار حين عُرِضت عليه وهو يُصلِّي بالناس صلاةَ الكُسوف[٢]، ورأَى فيها مَن يُعذَّب، فالنار مَوْجودة الآنَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات قِيام الساعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، ونحن نُؤمِن بالساعة وأنَّها ستَقوم، وسيُبعَث الناس، وبهذا نَعرِف أن ما يَذكُره بعض الناس اليوم حين يَموت الرجُل فيُدفَن يَقولون مثَلًا: إنهم ذهَبوا به إلى مَثواهُ الأخيرِ. هذه الكلِمة كلِمة كُفْر، إذا قلت: إلى مَثواهُ الأَخيرِ. فهذا يَعنِي أنَّه لا بَعثَ بعد ذلك، وأن هذا آخِر مَرحَلة للإنسان، وليس الأمر هكذا؛ ولهذا نَقول: إنَّ مَن قال هذه الكلِمةَ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، رقم (٩٠٤)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وهو يَعرِف مَعناها ويُريده فإنه كافِر؛ لأنه مُنكِر للبَعْث، أمَّا مَن قالها وقال: إلى مَثواهُ الأخيرِ. باعتِبار الدُّنْيا المُشاهَدة فهذا صحيح، لكن ظاهِر العِبارة الكُفْر؛ ولهذا يَجِب التَّحرُّز منها، ويُقال مثلًا: ذهَبوا به إلى قَبْره، ذهَبوا به إلى مَحلِّ زِيارته.

الواقِعُ أنَّ القَبْر زِيارة، قال الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:١-٢]، ولَمَّا سمِع أعرابيٌّ رجُلًا يَقرَؤُها قال: والله إن الزائِرَ ليس بمُستَقِرٍّ. يَعنِي أن هُناك شَيْئًا وراءَ هذا القَبرِ، وصدَقَ، الزائِرُ ليس هو مُستَقِرًّا، يَزور ويَمشِي.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إهانة الكُفَّار؛ إهانة بدَنية، وإهانة قَلْبية، تُؤخَذ من تَوْبيخهم وإهانَتِهم: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، ولا شَكَّ أن قُلوبهم تَتَأثَّر بهذا، وستَجِد الحَسْرة والنَّدامة -والعِياذُ بالله-.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: التَّبْكيت على آل فِرعونَ، كأنه قال: ادْخُلوا -آلَ فِرعونَ- وانظُروا هل يَنفَعُكم أن تَكونوا من آلِهِ أو لا، ففيها نوعُ تَبكيت لهؤلاءِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ النار أشَدُّ العَذاب، وأن كل ما قَبْلها أَهوَنُ منها؛ لقوله: ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، ولا شَكَّ أنها أشَدُّ العَذاب، كذلك نَقول بالنِّسبة للنَّعيم: ما يَجِده المُؤمِن من النَّعيم في القَبْر، فليس بشيء بالنِّسبة لما يَجِده يوم القِيامة، فأَكمَلُ النَّعيم يَكون بدُخول الجَنَّة وما قَبلَه فهو كالتَّقدِمة بين يديه.

فإن قال قائِل: هل يُستَدَلُّ على عَذاب القَبْر بما يَراه الإنسان في مَنامه من الأحلام والمَنامات؟

فالجَوابُ: لا يُستَدَلُّ، لكن يُستَدَلُّ به على دَفْع دَعوى أهل الإلْحاد؛ حيث قالوا: إنَّكُم تَقولون: إن المَيِّت يُقعَد في قبره ويُعذَّب. ونحن نَحفُر القَبْر ونَجِد أن المَيِّت باقٍ على ما هو عليه.

فنَرُدُّ عليهم بأنَّ هذا النائِمَ يَرَى أنه مُعذَّب، وأنه مُنعَّم، وأنه ذهَبَ، وأنه جاءَ وهو على فِراشِه لم يَتغيَّر، حتى اللِّحاف ما سقَط عن ظَهْره، فنَقول: قِسِ الغائِب بالحاضِر، ثُم لو كان عذابُ القَبْر يُدرَك بالاطلاع عليه لم يَكُن إيمانًا بالغَيْب، لكان إيمانًا بالشَّهادة، والإيمان بالشَّهادة لا يَنفَع، يَعنِي: الإنسان إذا عايَن الشيء فإنَّ إيمانه به لا يَنفَع، فترَى الكافِرين عند حُضور الأَجَل يُؤمِنون، ولكن لا يَنفَعهم ذلك، فِرعونُ لَمَّا أدرَكه الغرَقُ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠].

انظُرْ إلى هذا الحَدِّ: اعترَف لله تعالى بالتَّوحيد، ثُم اعترَف أنه تابعٌ لبَني إسرائيلَ؛ لقوله: ﴿ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، ولم يَقُل: لا إلهَ إلَّا الله. إشارة إلى أنه ذُلَّ حتى صار تابِعًا لبني إسرائيلَ بعد أن كان مُتجبِّرًا عليهم.

فإن قال قائِلٌ: هل يَجوز تَعزِية المُسلِمين للكُفَّار؟

فالجَوابُ: العُلَماء يَقولون: لا بأسَ أن يُعزَّى الكافِر. وبعضُهم يَقول: لا يَجوز. وبعضُهم فصَّل قال: إن فعَلوا بنا ذلك فعَلْنا اعتِمادًا على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ﴾ [النساء:٨٦] وهذا أقرَبُ: أنهم إن كانوا يَفعَلون بنا ذلك فعَلْنا، ولكن هل نَقول: عظَّمَ الله أَجْرك، وأَحسَن الله عَزاءَك، وغَفَر لمَيِّتك؟ لا نَقول هذا، نَقول: هَداك الله إلى الإسلامِ، وجَبَر مُصيبَتَك. فقَطْ، ومَيِّته لا نَقول: غفَرَ الله له. لأنه من أَهْل النار.

الآيتان (٤٧، ٤٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر:٤٧-٤٨].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ ﴾ يَعنِي: يَذكُر إذ يَتحاجُّون في النار؛ أي: يُدلِي كلُّ واحِد منهم بحُجَّته، و(إذ) ظَرْف عامِله محذوف قدَّره المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [اذكُرْ إِذْ يَتحاجُّون].

وحَذْف ما يُعلَم كثيرٌ في القُرآن وفي اللُّغة العرَبية، لكن التَّرتيب والزَّحْلقة هذا قليلٌ، إلَّا أني قُلتُ: إن الإِخْلال بالتَّرْتيب هنا أَيسَرُ للإنسان؛ لأنه أحيانًا حَقيقة تَرِد عليك آياتٌ لا تَدرِي بما تُقدَّر، إلَّا أن تَقول: إن عرَفْت التَّقدير فاسلُكِ الأَقعَد، وإن لم تَعرِف فاسلُكِ الأَسهَل؛ لتكون مُتَتبِّعًا للرُّخَص -يَعنِي: رُخَص النَّحويين- فلا مانِعَ في هذا، نحن قُلنا قاعِدةً مُفيدة فيما إذا اختَلَف النَّحويُّون في شيء فالصَّواب الأَسهَل.

والمُحاجَّة هي المُخاصَمة وإدلاء كلٍّ بحُجَّته على الآخَر، وقوله: ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ يُفيد أن هَؤلاءِ المُتَخاصِمين هم أهل النار، وهي مُتعلِّقة بـ﴿يَتَحَآجُّونَ﴾.

ثُم بيَّن هذه المُحاجَّةَ فقال: ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ الضُّعَفاء إمَّا في المال، وإمَّا في الشرَف والسِّيادة، وإمَّا في غير ذلك، مِمَّا يُعَدُّ ضَعْفًا، والغالِب أن الضَّعيف يَتبَع القَويَّ وقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾؛ أي: تكبَّروا من الكِبْرياء والعظَمة، والسين والتاء فيها للمُبالَغة ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ يَعنِي: في الدُّنيا ﴿لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جَمْع تابِعٍ] أي: مُتَّبِعين ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ يَعنِي: هل تُجازونَنا على مُتابَعَتِنا إيَّاكُم بأن تَتَحمَّلوا عنَّا شيئًا من النار؟ وقولهم: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [دافِعون ﴿عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ جُزءًا من النار].

انظُرْ كيف يَتوسَّل هؤلاءِ الضُّعفاءُ إلى الذين استكْبَروا، كيف يَتوسَّلون إليهم بما قدَّموا من مُتابَعَتهم؛ ليَتحمَّلوا عنهم نصيبًا من النار، فكان جَوابُ الذين استكْبَروا:

وقوله: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ وإذا كُنَّا كلًّا فيها فكَيْف نُغنِيكم نصيبًا من النار؟! وهذه حُجَّة ببَيان الواقِع.

وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ حكَم بينهم بحُكْمه الجَزائِيِّ؛ لأن أَحكام الله عَزَّوَجَلَّ ثلاثة: قدَريٌّ، وشَرعيٌّ، وجَزائيٌّ. والجَزائيُّ من القدَريِّ في الواقِع، لكن بعض العُلَماء يَجعَله مُنفَصِلًا لأهمِّيَّته؛ لأنه هو الغاية، وقوله: ﴿حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ يَعنِي: بين الناس عُمومًا، يَعنِي: بين أهل النار وأهل الجَنَّة فالعُبودية هنا بمَعنَى العُبودية العامة الشامِلة؛ لأن العُبودية عامَّة وخاصَّة.

من فوائِدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَعادِي الكُفَّارِ بعضِهم مع بعضٍ، وأن القويَّ مِنهم لا يَرحَم الضعيف لقوله: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هَؤلاءِ الكُفَّارَ أَدلَوْا بمعروف للمَتبوعين، وهم أنهم كانوا لهم تَبَعًا؛ ليَتوَسَّلوا به إلى أن يَأخُذوا عنهم نَصيبًا من النار، ففيه دليلٌ على تَوسُّل الإنسان بجَميل عطائه على الغير، ولكن هل يُعَدُّ هذا من المِنَّة؟

الجواب: الواقِع أن الذي يُبيِّن أنه تَوسُّل أو مِنَّة هو القَرائِن، قد يكون هذا مِنَّة، وقد يَكون هذا تَوسُّلًا مِثلما رَحِمْتك وأَعطَيْتك وأَحسَنت إليك فأَحسِنْ إليَّ، فيَكون هذا من باب التَّوسُّل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الضُّعفاء دائِمًا يَكونون أتباعًا للأقوياء؛ لقوله: ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ [غافر:٤٧]؛ ولهذا يتبيَّن لنا الآنَ أن تَقليد المُسلِمين للكُفَّار يعنِي: ضَعفهم أمامهم؛ لأن الضَّعيف دائِمًا يُقلِّد القويَّ؛ لضَعف شَخصيته أمامه، وأنه يَجِب على المُسلِمين أن يَكون لهم مَيْزة خاصَّة، وأن يَكون لهم قوَّة ذاتية؛ لأن القُوَّة معهم، هم أهل الدِّين، هم أهل الحَقِّ، وهم الذين عرَفوا الحياة، وهم أهل الحَياة في الواقِع.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَؤلاءِ الأتباعَ يَتمنَّوْن أن يَأخُذ المَتبوعين نَصيبًا، ولو قليلًا من عَذاب النار عنهم، والدليلُ أنه يُريدون ولو قليلًا قولهم: ﴿نَصِيبٗا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن المُستكبِرين يَعتَذِرون بأنه لا طاقةَ لهم في ذلك؛ لأن الجَميع في نار جَهنَّمَ فكيف يَأخُذون نصيبًا عنهم، نعَمْ لو كانوا ليسوا في نار جَهنَّمَ ثُم يَسقُطون في النار من أَجْل أن يُغنُوا عن هَؤلاءِ نَصيبًا لأَمكَن، لكن ما دام الجميعُ في النار فإن طلَبَ تَحقيق ذلك طلَبُ شيء مُستَحيل.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيان خُنوع هؤلاءِ المُستكْبِرين يوم القِيامة؛ لقولهم: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ يَعنِي: الآنَ ليس لنا فَضْل عليكم وليس لكم فَضْل علينا كلٌّ في نار جَهنَّمَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إقرار هَؤلاءِ المُعذَّبين في النار بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد حكَم بين العِباد حُكْمًا عدلًا؛ لقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنه إذا نفَذ حُكْم الله فإنه لا يُمكِن رَفعُه ولا دَفْعه؛ لقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ﴾ وفي هذا يَقول الله عَزَّوَجَلَّ في سورة (ق): ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٨-٢٩]، إذا انتَهى حُكْم الله فلا مُعطِّل لحُكْمه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إقرارُ هَؤلاءِ المُعذَّبين في نار جَهنَّمَ أنهم من عِباد الله، لكن المُراد بالعِبادة العِبادة العامَّة، وهي العِبادة الكَوْنية؛ لأن العِبادة نَوْعان: عامَّة وهي العُبودية الكَوْنية، وخاصَّة وهي العُبودية الشَّرْعية.

فمَن خضَع لله شرعًا فهو عابِد شرعًا وكذلك كونًا، ومَن تَكبَّر عن عِبادة الله شرعًا فهو عابِد كونًا وليس عابِدًا شرعًا.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فأَدخَل المُؤمِنين الجَنَّة، وأَدخَل الكافِرين النار] المَعنَى أعَمُّ مِمَّا قاله رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حكَم بين العِباد بين أَهْل الجَنَّة والنار، وبين أَهْل النار بعضِهم البعض، وحكَم حُكْمًا عامًّا.

مسألة: ما هو الدَّليلُ على الشَّهادة لشَخْص بالجَنَّة؟

فالجَوابُ: الدَّليل إذا شَهِد رسول الله له بالجَنَّة شهِدنا له.

ومَن شَهِد له الرسول ﷺ مثل حاطِب بن أبي بَلْتعةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فهذا نَقول: هو مَغفور له، ولكن لا شَكَّ أنَّه إذا كان حاطِبٌ مَغفورًا له أنَّ أبا بَكْر وعُمرَ وعُثمانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَوْلى من ذلك.

فإن قال قائِل: ما رأيُكم فيما ذهَب إليه شيخُ الإسلام؟

فالجوابُ: هذا رَأْي قُوِيٌّ لا شَكَّ، يَعنِي: ما ذهَب إليه شيخ الإسلام مُؤيَّد بالحَديث «أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ»[1] وإذا كانَتِ الأُمَّة -أو غالب الأُمَّة- أَجمَعوا على ذلك، فهو كافٍ، لولا أنه يُخشَى من مسألة، وهو أنه يَأتينا أهل الفِرَق الضالَّة ويَقولون: نحنُ مُجمِعون على الشَّهادة لفُلان بكذا وكذا. وهو رَأْس بِدْعة، وهم يَدَّعون أنهم أَهْل حَقٍّ، لكن يُمكِن الانفِكاك عن هذا الإيرادِ، بأن نَقول: هَؤلاءِ لا تُقبَل شهادَتُهم؛ لأنَّهم على باطِل وعلى ضَلال، والمُراد شَهادة أهل الحَقِّ.

فـ«كلُّ الصَّحابة في الجَنَّة» على سَبيل العُموم، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠].

مسألة: إذا قال قائل: إذا قُتِل المُسلِم في المَعرَكة قُلْنا: إنَّنا نَحسَبه شَهيدًا ولا نُزكِّي على الله أحَدًا؟

فالجَوابُ: لا تَقُل: أَحسَبه شَهيدًا. قُلْ: مَن قُتِل في سبيل الله فهو شَهيد، كما قال عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عُمرُ خطَب الناس قال: إنَّكم تَقولون: فُلان شَهيدٌ، وفُلان شَهيدٌ. ورُبَّما يَكون فعَل كذا وكذا، ولكن قولوا: مَن قُتِل -أو مات- في سَبيل الله فهو شَهيد[2].

• • ❁ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت، رقم (١٣٦٧)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب فيمن يثنى عليه خيرًا أو شرًّا من الموتى، رقم (٩٤٩)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه، كتاب النكاح، باب ما جاء في الصداق، رقم (٥٩٥، ٥٩٦). وأخرجه الإمام أحمد (١/ ٤٠-٤١)، والنسائي: كتاب النكاح، باب القسط في الأصدقة، رقم (٣٣٤٩)، ولفظه عندهما: «فهو في الجنة».

الآيتان (٤٩، ٥٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر:٤٩-٥٠].

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: قَدْر يَوْم ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾]، استَمِعْ إلى هذا النِّداءِ الدالِّ على البُؤْس واليأْس: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ جَمْع خازِن، وهمُ الذين قاموا على خِزانتها وحِمايتها وحِفْظها؛ لأن النار لها خزَنة، وكذلِك الجَنَّة لها خزَنة، وكل أَمْر مُحكَم، ويُؤتَى بجَهنَّمَ يوم القِيامة تُقاد بسَبعينَ ألفَ زِمامٍ، كل زِمامٍ يَقودُه سَبعون ألفَ ملَكٍ، وما أَدراكَ ما الملائِكة وما قُوَّتهم، فهذه النارُ مُحكَمة لها خزَنة، ولها قُوَّاد يَقودونها يوم القِيامة.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ وجَهنَّمُ اسمٌ من أسماء النار، قيل: إنها عرَبية. وقيل: إنها عجَمية. فعلى القَوْل بأنها عرَبية تَكون مَأخوذة من الجهمة وهي الظُّلْمة؛ لأن النار سَوداءُ مُظلِمة -أَعاذَنا الله وإيَّاكم منها- وعلى القول بأنها أَعجَميَّة يُقال بأن أَصلَها: كَهَنَّام، ولكِنَّها عُرِّبت حتى صارَت: جَهنَّم، وهي من أسماء النار.

يَقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ ويَقولون هذا -واللهُ أعلَمُ-

حين يَقولون لرَبِّهم عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٧-١٠٨] حينَئِذٍ يَتوسَّلون بغَيْرهم أن يُكلِّموا الله، يَقولون: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾ ولم يَقولوا: ادْعُوا ربَّنا؛ لأنهم قد كُسِروا من جِهة ربِّهم، قال لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ لكِن تَوسَّلوا بعد ذلك بدُعاء بطلَب من المَلائِكة أن يَدْعوا الله لهم ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمًا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾.

قوله: ﴿يُخَفِّفۡ﴾ بالجَزْم جَوابًا للأَمْر وهو قوله: ﴿ٱدۡعُواْ﴾ وأَقول: للأَمْر باعتِبار صِيغته، وإلَّا فهو في الحَقيقة دُعاءٌ وسُؤال ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمًا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ طلَبوا تَخفيفًا لا رَفْعًا، وطلَبوا يومًا لا دوامًا؛ لأنهم آيِسون، لكن قال: لعَلَّ المَسأَلة تَنفَع ولو بتَخفيف يوم من العَذاب، نَسأَل الله العافِيةَ.

ومُقتَضى هذا أنَّهم في أَشَدِّ ما يَكون من العَذاب، وأنهم طلَبوا أن يَستَريحوا ولو يومًا.

قوله: ﴿يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمًا﴾ قال: المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: قَدْر يَوْم] وإنَّما قال [قَدْر يَوْم من العَذاب]؛ لأنه في يوم القِيامة ليس هناك يوم ولا ليل، الشمس والقمَر مُكوَّران في نار جَهنَّمَ وكل شيء من أُمور الدنيا مُنتَهٍ ليس هناك إلَّا أَمْر الآخرة، سُبحانَ الله!.

﴿قَالُوٓاْ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: الخَزَنة تَهكُّمًا] هكذا قال المفَسِّر [تَهكُّمًا] ويُحتَمَل أنهم قالوا ذلك تَقريعًا وتَوْبيخًا وتَنديمًا، ليس تَهكُّمًا؛ لأن الأمر واقِع فهم يُقرِّرونهم بشيء حاصِل تَنديمًا لهم؛ ليَزدادوا حُزنًا.

فإن قال قائِلٌ: ما الفَرْق بين التَّوْبيخ والتَّقْريع؟

فالجَوابُ: لا أَعرِفُ بينهما فَـرْقًا، اللَّهُمَّ إلَّا أن يَكون فَـرْقًا قليلًا، أو يُقال: التَّوْبيخ على أَمْر مَضَى، والتَّقريع هو التَّنديم هو على أَمْر حاضِرٍ.

﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر:٥٠] قال المفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالمُعجِزات الظاهِرات] لَيْتَه قال: «بالآيات الظاهِرات»؛ لأن الرسُل جاؤُوا بالآيات لا بالمُعجِزات، لكِنَّ الآياتِ أَمْر خارِق للعادة، فهي مُعجِزة، وقد بيَّنَّا في كرامات الأَوْلياء في التَّوْحيد أن الأَوْلى أن يُسمَّى ما جاءَت به الرُّسُل من الدَّلالة على وَصْف رِسالتهم آيات.

قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: فكَفَروا بهم] ﴿قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾ هذا التَّهكُّمُ.

قوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ مثل هذا التَّعبيرِ يَقَع كثيرًا في القُرآن؛ أي أن الهَمْزة تَأتِي ثُم يَأتِي بعدها حرف عطف، مثل ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ وما أَشبَهَ ذلك، فكَيْف نَقول: في إعرابها؟

نَقول: في إعرابها وَجْهان للنَّحوِيِّين:

الوَجهُ الأوَّل: أن الجُملة مَعطوفة على ما سبَق، وأن الواو مُقدَّمة على مَحلِّها، وأن التَّقدير في ﴿أَوَلَمْ تَكُ﴾: وأَلَمْ تَكُ، وهذا الوَجهُ ليس فيه إلَّا دعوى التَّقديم والتَّأخير، لكنه سَهْل يَعنِي: يَسهُل أن تَقول: هذا مَعطوف على ما سبَقَ.

وقال بعضُهم: إن الهَمْزة داخِلة على جُملة مَحذوفة، فالجُمْلة مُستَأنَفة هذه الجُملةُ يَكون تَقديرها بحَسب السِّياق، ففي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ [الروم:٩]، التَّقدير: أَغفَلوا ولم يَسيروا، وهذا من حيثُ القَواعِد أَقعَدُ، ولكن تواجهك أحيانًا

آيات لا تَستَطيع أن تَعرِف ما هو المُقدَّر، فصار هذا أَقعَدَ، وذاك أَسهَلَ.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ﴾ الاستِفْهام هنا للتَّقرير، ويُقال: كلَّما دخَل الاستِفْهام على نَفيٍ فهو للتَّقرير، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشَّرح:١]، ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة:٣٧]، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزُّمَر:٣٧] وما أَشبَه ذلك، يَقولون: كلَّما دخَل الاستِفْهام على النَّفيِ فهو للتَّقرير، إِذَنْ نحن نَقول: للتَّقرير، لكن هل يَخرُج عن مَعنى التَّقرير، أو يَضُمُّ إلى مَعنَى التَّقرير مَعنًى آخَرَ بحَسب السِّياق؟

الجوابُ: نعَمْ، ففي قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ هو للتَّقرير؛ إظهارًا لِمِنَّة الله عليه، وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾ [غافر:٥٠] للتَّقرير تَوْبيخًا وتَنْديمًا.

قوله: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ جَوابُ الاستِفْهام المَقرون بالنَّفيِ، الإثبات بـ(بَلى) وجَوابُ الاستِفْهام غير المَقرون بالنَّفيِ الإثبات بنَعَمْ، وجوابُ الاستِفْهام المَقرون بالنَّفيِ في حال النَّفيِ نعَمْ، وجَواب الاستِفْهام المَقرون بالإثبات في حال النَّفيِ لا، اعرِفوا الفَرْق يُقال: إن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن أبيه قال في قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢] قال: لو قالوا: نعَمْ. لكَفَروا.

قال الفُقَهاء: لو قيل للرجُل: أَلَسْت قد طلَّقْتَ امرَأَتَك؟ قال: نعَمْ. لم تُطلَّق، وإن قال: بلَى. طُلِّقت.

فقول ابن عباس: لو قالوا: نعَمْ. لكَفَروا، وهذا مُسلَّمٌ فيما إذا كان الإنسان يَعرِف اللُّغة العرَبية جيدًا، وأمَّا العامِّيُّ فعِنده (نعَمْ) و(بَلَى) سَواءٌ؛ ولهذا لو قيل للعامِّي: أَلَسْت طلَّقْت امرأَتك؟ قال: نعَمْ. فعلى القول الصَّحيح تُطلَّق، فالعِبْرة

بالمَعاني على أنه جاءَ في اللُّغة العرَبية جواب هذا بـ(نعَمْ)، ومنه قول العاشِق:

أَلَـيْسَ اللَّيْـلُ يَجْمَـعُ أُمَّ عَمْـرٍو ... وَإِيَّانَـا فَـذَاكَ لَنَـا تَـدَانِي

نَعَـمْ وَتَـرَى الهِـلَالَ كَـمَا أَرَاهُ ... وَيَعْلُوهَـا النَّهَـارُ كَـمَا عَـلَانِي[1]

فقال: نعَمْ، لكن هذا الرجُل قَنوع، اكتَفى أن يَجمَعه الليل مع مَعشوقته ولو كانت في المَشرِق وهو بالمَغرِب، وكذلك النهار، وتَرَى الهِلال كما يَراه، هي في المَشرِق تَرَى الهِلال، وهو في المَغرِب يَرَى الهِلال.

فجوابُ الاستِفْهام المَقرون بالنَّفيِ إثباتًا (بَلَى) ونَفيًا (نعَمْ)، والاستِفْهام مَقرون بالإِثْبات إثباتًا (نَعَمْ) ونَفيًا (لا)، بارَك الله فيكُم.

فإن قال قائِل: هل يُوجَد حديث يَدُلُّ على ما جاء به البَيْت هذا من الشِّعْر على أن (نعَمْ) تَكون في مَكان (بَلى)؟

فالجوابُ: هل يُطلَب الحديث دَليلًا على إثبات مَسأَلة لُغوِيَّة؟ فإن قيل: نعَمْ؛ لأن خَيْر مَن تَكلَّم بالفُصحى الرسول ﷺ.

قيل: إذا جاء عن العرَب فلا يَحتاج دَليلًا؛ لأن قول العرَب هو الدَّليل، أَلَمْ تَعلَم أن بعض النَّحويِّين يَقول: لا نَستَدِلُّ بالحَديث على اللُّغة العرَبية.

إِذَنْ: قال بعض النَّحويِّين: إنه لا يَستَدِلُّ بالحديث النَّبويِّ على اللُّغة العرَبية؛ لأن الرُّواة يُجوِّزون رِواية الحديث بالمَعنَى، ومن المَعلوم أن من بين الرُّواة مَن تَغيَّرت لُغَته، الإمامُ أحمدُ قديم ومن أئِمَّة الحَديث وسمِعْتُموه -وفي قواعِد اللُّغَة العرَبية-

(١) البيتان من شعر جحدر العُكْلي، انظر: الأمالي للقالي (١/ ٢٨٢)، وخزانة الأدب (١١/ ٢٠٩).

يَقول في أي شيء: نعَمْ. وهكذا الرُّواة ربَّما نقَلوا بالمعنَى على لُغَتهم التي يَتكلَّمون بها، فحصَل خطأ، أمَّا القُرآن فنعَمْ؛ لأنه مُتواتِر مَنقول بالتَّواتُر، لكن كثيرًا من عُلَماء النَّحْو يَقولون: إنه يُحتَجُّ بالأحاديث على اللُّغة العرَبية؛ لأن الأصل عدَمُ التَّغيير.

وقوله: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ بلى يَعنِي: قد أَتَتْنا، ولكِنَّهم -والعِياذُ بالله- كفَروا ﴿قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾ هذا الأَمْرُ للتَّهَكُّم؛ لأن المَلائِكة تَعلَم أنه لا يُقبَل منهم، فقوله: ادْعُوا تَهكُّم بهم، والتَّهكُّم هو الذي يُسمَّى عِندنا في العامِّيَّة «الهكَّ»، «هكَكْت عليه» يَعنِي: لعِبَت بعَقْله.

فهنا ﴿قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾ تَهكُّمًا بهم؛ لأن المَلائِكة تَعلَم أنهم لن يُجابوا ﴿قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾ أنتُمْ فإنَّا لا نَشفَع للكافِرين؛ لأن الشَّفاعة للكافِرين مَضيَعة وَقْت، إذ إن الكافِر لا تَنفَع فيه الشَّفاعة، إلَّا كافِرًا واحِدًا نفَعَت فيه الشفاعة بالتَّخفيف عنه، وهو أبو طالِبٍ نفَعت شَفاعة الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيه فقط، لو جاء أبو بَكْر أو عُمرُ يَشفَع في أبي طالب رُدَّ، لكِن النَّبيَّ ﷺ قُبِلت شَفاعته في عمِّه أبي طالِب فخُفِّف عنه العَذاب[1]؛ لأن أبا طالِب حصَل منه خيرٌ كثير للرسول ﷺ، وحصَل منه ما يُسمَّى بالدِّعاية العَظيمة له حتى قال:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا[2]

هذا قاله في الدِّين. وقال في الرَّسولِ ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢١٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: تهذيب اللغة (١٠/ ١١١)، وخزانة الأدب (٢/ ٧٦)، وديوان أبي طالب (ص:٨٧، ١٨٩).

لَقَـدْ عَلِمُـوا أَنَّ ابْنَنَـا لَا مُكَـذَّبٌ لَـدَيْنَا وَلَا يُعْنَـى بِقَـوْلِ الْأَبَاطِـلِ[1]

ودافَعَ عنه، وحُوصِـر معه في الشِّعْب؛ فلِذلِك قبِل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شَفاعة الرسول ﷺ فيه أن يُخفَّف عنه.

أمَّا شَفاعة الرسول ﷺ في أُمِّه فمَنَعه الله في أُمِّه[2]، وهي أَقرَبُ من عمِّه، لَمَّا استَأْذَن الله أن يَستَغفِر لها قال: لا. ولَمَّا استَأْذَنه أن يَزور قَبْرها أذِنَ له فزار النَّبيُّ ﷺ قَبْر أُمِّه، ووقَفَ عليه وجعَل يَبكِي، لكن لا يَدعو لها، وأَبكَى مَن معَه.

فالكُفَّار لا تَنفَع فيهم الشَّفاعة؛ لأن الشَّفاعة مَضيَعة بلا فائِدةٍ، ثُم هي لم يُؤذَن فيها من قِبَل الله، ولا يُمكِن أبدًا شَفاعة بدون إِذْن الله.

قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد:١٤] ﴿وَمَا دُعَآءُ﴾ (ما) نافِيـة، و﴿دُعَآءُ﴾ اسمُها، و(ما) هنا ليسَتْ حِجازيةً؛ لاتِّفاق اللُّغَتَين لُغة التَّميميِّين ولُغة الحِجازِيِّين فيها، وأنها لا تَعمَل في هذا الحالِ.

قوله: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: وما طلَبُ الكافِرين ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾؛ أي: في ضَياع، وقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [انعِدام] فيه نظَر، فالضَّلال الضَّياع وعدَم الاهتِداء، فـ﴿مَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾، فلا تُقبَل دعوة الكافِر أبَدًا إلَّا في حالَيْن:

الحال الأُولى: إذا كان مُضطَـرًّا؛ لقـوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢]، ولقـوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ [لقمان:٣٢]، وإنَّما أُجيبَت دَعْوة المُضطَرِّ لصِدْق

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠)، وديوان أبي طالب (ص:٨٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عَزَّوَجَلَّ في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لُجوئه إلى الله؛ لأن المُضْطَرَّ صادِق اللُّجوء إلى الله.

الحال الثانية: إذا كان مَظلومًا فإنها تُقبَل دَعْوته على ظالِمِه؛ لقول الرسول ﷺ: «اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ»[1]، وهذا وإن كان يُخاطِبه في قوم أَسلَموا لكنها عامَّة، وإنما أُجِيبت دَعوة الكافِر إذا كان مَظلومًا؛ إقامة للعَدْل؛ لأن الله لم يُحِبِ الكافِر مَحبَّة له، ولكِن إقامة للعَدْل؛ لأنه الآنَ هُناكَ خَصْمان مَظلوم وظالِمٌ فلإقامة العَدْل يَستَجيب الله تعالى لدَعْوة الكافِر.

من فوائِدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيان شِدَّة حَسْرة أهل النار؛ لقوله: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن أهل النار يَتَحاجُّون ويُحاجُّون أيضًا، يَتَحاجُّون فيما سبَق فيما بينهم، وكذلك يُحاجُّون غيرهم، أو يَسأَلون غيرهم؛ لقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيانُ إحكام الله عَزَّوَجَلَّ لمَخْلوقاته كما أَحكَم مَشروعاتِه، حيث جعَل للنار خزَنة يَحفَظونها ويَقومون عليها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: شِدَّة خجَل أهل النار من مُخاطَبة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّهم تَوسَّلوا بقول الخزَنة أن يَدْعوا ربَّهم ولم يَقولوا: ادْعُوا ربَّنا. هذا يَدُلُّ على أن هذا بعدَ أن قال الله لهم: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن أهل النار في أشَدِّ ما يَكون من العَذاب، يُؤخَذ من قوله: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فهو يَدُلُّ على أن عليهم شِدَّةً، وأنهم يَتمنَّون يومًا واحِدًا فقَطْ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن أهل النار يُعذَّبون عَذابًا بدَنيًّا وعَذابًا قلبيًّا، يُؤخَذ من التَّقريع والتَّوْبيخ لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، فهذا يَكون أشَدَّ عليهم من عَذاب البدَن؛ ولهذا يَقولون كما في سورة تَبارَك: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلك:١٠]، قال تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ [المُلك:١١].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن لكُل أُمَّة من أَهْل النار رسولًا؛ لقوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟﴾، فكل أُمَّة لها رَسولٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الله تعالى لم يُرسِل رسولًا إلَّا بآيات تَدُلُّ على أنه رسول الله حقًّا؛ لقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الاهتِمام بالوَصْف أَشَدُّ من الاهتِمام من بالأَصْل؛ لأن الوَصْف هو الذي يُبيِّن الأشياء، يُؤخَذ من قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ حيث أَتى بالوَصْف وطوَى ذِكْر المَوْصوف؛ لأن المُهِمَّ هو الوَصْف.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: تَهكُّم الرُّسُل بهؤلاء -أي: بأَهْل النار- يُؤخَذ من قوله: ﴿قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟﴾ هذا من باب التَّهكُّم منهم؛ لأن المَلائِكة يَعرِفون أنهم لن يُجابوا.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنه لا قَبولَ لدُعاء الكافِرين؛ لقوله: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ وذلك يَشمَل دُعاء المَسأَلة ودُعاء العِبادة، والذي يُستَثنَى من دُعاء المَسأَلة في إجابة الكافِر المُضطَرِّ والمظلوم، والدَّليل على استِثْناء المُضطَرِّ أنه

يُجاب ولو كان كافِرًا قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ والحِكْمة من إجابة الكافِر في حال الضَّرورة أنه في هذه الحال يَكون مُخلِصًا لله في الدُّعاء مُظهِرًا للافتِقار إليه فيُجيبه الله.

أمَّا الدليل على أنه يُجيب دَعْوة الكافِر المَظلوم أن مُعاذَ بنَ جبَل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بعَثَه النبيُّ ﷺ لأَهْل اليَمَن... الحديثَ، قال له: «**وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**»[1]. وَالحِكْمَةُ مِن إجابة دَعْوة المَظلوم الكافِر طالب: لإقامة العَدْل.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآية (٥١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

ثُم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ إلى آخِره الجُمْلة هذه مُؤكَّدة بمُؤكِّدين أحدُهما (إنَّ) والثاني اللَّام، وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ﴾ أَتى بصيغة التَّعظيم؛ لأن المَقام يَقتَضيه إِذْ إن النَّصْر لا بُدَّ أن يَكون من قويٍّ، ولم يَقُل جَلَّ وَعَلَا: أنا أَنصُر. قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ﴾؛ لأن المَقام يَقتَضي العظَمة والقُدْرة والقُوَّة ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [غافر:٥١] رُسُلنا جمع رَسول، وهم كل الرُّسُل؛ لأن (رُسُل) جَمْع مُضاف، وجمع المُضاف يَكون للعُموم.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مَعطوف على ﴿رُسُلَنَا﴾؛ أي: ونَنصُر الذين آمَنوا بما يَجِب الإيمان به، والإيمان هو الإقرار المُستَلزِم للقَبول والإِذْعان.

فمَن أَنكَر فليس بمُؤمِن، ومَن أَقَرَّ ولم يَقبَل فليس بمُؤمِن، ومَن أَقَرَّ ولم يُذعِن فليس بمُؤمِن، فأبو طالِب مثلًا مُقِرٌّ برِسالة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولكنه لم يَقبَل ولم يُذعِن فلا يَكون مُؤمِنًا، فالذين آمَنوا همُ الذين أَقَرُّوا بقُلوبهم وأَذعَنوا واستَسْلَموا بجَوارِحهم وقبِلوا ما أَخبَرَت به الرُّسُل، هؤلاءِ هُمُ المُؤمِنون.

وقوله: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ مُتعَلِّق بـ(نَنصُر) أي: نَنصُرهم في الحياة الدنيا.

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ ﴿وَيَوْمَ﴾ هذه مَعطوفة على ما سبَقَ وهي مُتعَلِّقة بـ(نَنصُر) أي: ونَنصُرهم يوم يَقوم الأَشْهاد وذلك يوم القِيامة.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ جمع شاهِد، وهُمُ المَلائِكة يَشهَدون للرُّسُل بالبَلاغ وعلى الكُفَّار بالتَّكذيب]، هكذا قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خَصَّها بالمَلائِكة، والصحيح أنها أَعَمُّ من المَلائِكة، فالمَلائِكة يَشهَدون وهذه الأُمَّةُ تَشهَد على مَن سَبَق، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣]، والجُلود تَشهَد، والجَوارِح تَشهَد، فكلُّ ما ثَبَتَت شَهادته فإنه داخِل في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ وذلِك يوم القِيامة.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَأكيد نَصْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للرُّسُل والذين آمَنوا؛ لقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾.

وفي هَذه الآيةِ شُبْهة استَدَلَّ بها النَّصْرانيُّ يَقول: إن الله ثالِث ثَلاثة. ولي علَيْكم دَليل وهو قوله: ﴿إِنَّا﴾ وقوله: ﴿نَحْنُ﴾ وقوله: ﴿نُرِيهِم﴾، وما أَشبَهَها، مِمَّا يَدُلُّ على الجَمْع، فإِذَن أنا أَقولُ: يَقولُ النَّصرانيُّ: إن الله ثالِث ثَلاثة ولِي حُجَّة. فنُجيبه بقولنا: إنَّك مِمَّن زاغَ قَلْبه؛ لأنك اتَّبَعْت المُتَشابِه، والله عَزَّوَجَلَّ يَقولُ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧] وتَرَكْت المُحكَم المُؤكِّد بأن الله واحِد لا شَريكَ له، مِثْل قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، ومِثْل قوله في تكذيب هَؤلاءِ النَّصارَى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:٧٣].

فهذا النَّصرانيُّ اتَّبَع المُتَشابِه، وكذلك كل مُبطِل يَحتَجُّ بآية فإنه يَكون مِمَّن اتَّبَع المُتَشابِه، والله عَزَّوَجَلَّ حَكيم جعَل في آياته الشَّرْعية وآياته الكَوْنية أيضًا ما يَكون مُتَشابِهًا؛ ابتِلاءً وامتِحانًا للذين آمَنوا والذين في قُلوبهم زَيْغ، الآنَ انظُرْ إلى القُرآن وانظُر إلى السُّنَّة تَجِد في بعض الأحاديث، وفي بعض الآيات ما ظاهِرُه التَّعارُض، أو في بعض الأحاديث أو في بعض الآيات ما ظاهِرُه باطِل مثلًا، هذا إن سلَّمْنا، وأن ليس في القُرآن ولا في السُّنَّة الصحيحة ما ظاهِرُه باطِل إطلاقًا، لكن هذا من باب التَّنزُّل مع الخَصْم، نَقول هذا من بابِ الابتِلاء والامتِحان.

كذلك في الآياتِ الكَوْنية نَجِد أن الله تعالى يُصيب الناس بكَوارِثَ عَظيمةٍ تَموت بها الأَنفُس، تُدمَّر بها البِلاد يُفسَد بها الحَرْث والنَّسْل؛ حتى يَبلوَ العِباد ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد:٣١]، وانتَبِهْ لهذه النُّقْطةِ، وهي امتِحان الله تعالى للعِباد بما يَأتِي من الآيات الشَّرْعية والآيات الكَوْنية، إِذَنْ ردَدْنا على النَّصرانيِّ الذي ادَّعَى تَعدُّد الآلهة مُحتَجًّا بمِثْل قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا...﴾ إلى آخِره.

وفي الآية إِشْكال، وهو أن الله تعالى ذَكَر أن من الناس مَن يَقتُلون الأنبياء بغَيْر حقٍّ، فأين النَّصْر في الحياة الدنيا لمَن قُتِل؟

والجوابُ من أَحَد وَجْهين:

أ- إمَّا أن يَكون المُراد بالنَّصْر نَصْر ما جاؤُوا به من الشَّرْع، وبيان أنه حَقٌّ، وهذا ثابِت لكل رَسول، وتَأْييد ما جاء به الرَّسولُ لا شَكَّ أنه نَصْر له، وحينَئِذٍ لا يُستَثْنى من الرُّسُل أحَدٌ إذا قُلْنا: إن المُراد بالنَّصْر نَصْر ما جاؤُوا به من الحقِّ.

ب- وإمَّا أن يُراد بـ﴿رُسُلَنَا﴾ الذين أُمِروا بالجِهاد؛ لأن النَّصْر يَقتَضِي أن يَكون هناك جِهاد يَنتَصِر فيه أحَدُ الطرَفَيْن على الآخَر، فيَكون المُراد بالرُّسُل هنا

ليس جَميع الرُّسُل، بل مَن أُمِروا بالجِهاد.

وحِينَئِذٍ يَزول الإشكال، هذا باعتِبار النَّصْر في الحياة الدنيا، أمَّا باعتِبار النَّصْر يوم يَقومُ الأَشهاد، فلا يُستَثْنى أحَدٌ ولا إشكالَ فيه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن نَصْر الله العَبْدَ في الدنيا نِعْمة، يَعنِي: للإنسان أن يَفرَح بما أَعطاه الله تعالى من النَّصْر، سواء نَصْرًا فِعْليًّا أو قَوليًّا.

المُهِمُّ: أن الإنسان إذا نصَره الله عَزَّوَجَلَّ على مَن ناوَأَه يُعتبَر هذا نِعْمة ومِنَّة من الله عَزَّوَجَلَّ؛ فلْيَفرَح به الإنسان لقَوْل الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس:٥٨].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الأَشْهاد يوم القِيامة؛ لقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: التَّحْذير من مُخالَفة الرُّسُل من ذلك اليومِ الذي يَقوم فيه الأَشْهاد؛ لأن في ذلك اليومِ لا يَستَطيع أحَدٌ أن يَكذِب. يَعنِي: لو أن الإنسان أَنكَر وكذَّب فستَشهَد عليه جَوارِحه، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، يَقولون هذا؛ لأنَّهم يُشاهِدون المُخلِصين يُنصَرون يومَ القِيامة، فيَقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ رجاءَ أن ينجوا معهم، يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأنعام:٢٤]، هم كذَبوا على أَنفُسهم؛ لأنهم يَقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وهُم مُشرِكون، بل قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

الآنَ استَدْرَكْنا على المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَصْره: ﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ على المَلائِكة، وقُلْنا: إنها أعَمُّ.

• • ۞ • •

الآية (٥٢)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر:٥٢].

ثُمَّ قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالياء والتاء] بالياء ﴿يَنفَعُ﴾ بالتاء «تَنْفَعُ»، إِذَنْ هُما قِراءَتان سَبْعِيَّتان؛ لأن المفَسِّر إذا أَتَى بصيغة القِراءة على هذا الوَجهِ فمَعناه أنهما قِراءتان سَبْعيَّتان، أمَّا إذا قال: وقُرِئَ. فهو للشاذِّ قِراءة شاذَّة، بالتاء لأن (مَعذِرة) مُؤنَّث، فالفِعْل يَكون معها مُؤنَّثًا، لكن بالياء نَقول أوَّلًا: إنه فَصْل بين الفِعْل والفاعِل، وثانيًا أن التَّأْنيث هنا ليس حَقيقيًّا. وابنُ مالِكٍ يَقول:

وَإِنَّمَا تَلْزَمُ فِعْلَ مُضْمَرِ ... مُتَّصِلٍ أَوْ مُفْهِمٍ ذَاتِ حِرِ[1]

قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ المُراد بالظالِمين هنا الكافِرون، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وقوله: ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ يَعنِي: عُذْرهم، قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عُذْرهم لوِ اعتَذَروا] يَعنِي: عُذْرهم فيما سبَقَ، أو اعتِذارُهم فيما لَحِق في ذلك اليومِ، هم يَعتَذِرون لكن لا يُقبَل، لا يُؤذَن لهم فيَعتَذِرون.

---

(١) الألفية (ص:٢٥).

وقوله: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: البُعْد من الرَّحْمة] ولهم سُوء الدار، لهُمُ اللَّعْنة، كيف قال: لهُمُ اللَّعْنة. هل اللَّعْنة مَطلوبة حتى تَأتِي باللَّام؟

قيل: إن اللَّام هنا بمَعنَى (على) كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦١] عليهم فاللَّام هنا بمَعنَى (على)، والصَّواب أن اللَّام على بابها، وأنها ليسَتْ بمَعنَى (على)، بل هي بمَعنَى الاستِحْقاق، يَعنِي: أنهم يُلعَنون لَعْنًا يَستَحِقُّونه، فهي أَبلَغُ من قوله: علَيْهم. من وَجْه، وتِلْك أَبلَغُ من وَجهٍ آخَرَ.

المُهِمُّ: أن اللَّام هنا بمَعنَى (على) مَعناها الأَصْل الاستِحْقاق.

وهنا نَقول لكم: إذا ورَد تَفْسيران في كِتاب الله العزيز أَحَدهما يُؤيِّده اللَّفْظ والثاني لا يُؤيِّده اللَّفْظ فنَأخُذ بالأوَّل، وإن كان كلٌّ من المَعنَيَيْن مُكتَمِلًا، ولكن ما يُوافِق ظاهِر اللَّفْظ هو الأَوْلى.

قوله: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: البُعْد عن الرحمة، وقوله: اللَّعْنة. لم يُبيِّن مِمَّن فتَعُمُّ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [البقرة:١٦١]، وفي آية أُخرَى: ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]، فكُلُّ شيء يَلعَنهم نَسأَل الله العافِيَة.

قوله: ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الآخِرة؛ أي: شِدَّة عَذابها] ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ يُحتَمَل أن تَكون من باب إضافة الصِّفة إلى المَوْصوف؛ أي: الدار السُّوء، ويُحتَمَل أن يَكون على بابها، والمَعنَى: لهم سُوء الدار؛ أي: السَّيِّئ في الدار.

وعلى كل حال: المُراد بسُوء الدار؛ يَقول المفَسِّر: شِدَّة عَذابها، ولكن لو قيل: إن سُوء الدار ما يَسوء من العَذاب الشديد وغير الشديد لكان أعَمَّ.

ثُمَّ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر:٥٢] إلى آخره، موضع ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِمَّا قَبْلُ نقول: هي بَيان يَعنِي: عَطْف بَيان من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن الظالِمِين لا يَنفَعُهم العُذْر ولا الاعتِذار يوم يَقوم الأَشْهاد؛ لقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الكافِرين ظلَمةٌ، وهو كذلك، والشِّرْك بالله أَظلَمُ الظُّلْم، كما قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين سُئِل أيُّ الذَّنْب أَعظَمُ؟ قال: «**أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»[1]؛ وهذا حقٌّ، فالذي خَلَقك وأَعَدَّك وأَمدَّك ثُم تُشرِك به، هذا أَظلَمُ ظُلْم، إن الإنسان لو أَهدَى إليه شَخْص عشَرة ريالاتٍ لاستَحْيَى أن يَناله بسوء، فكيف بمَن أَهدَى إليك حياتَك كلَّها، كيف تُشرِك به وتكفُر به؟! إِذَنْ هو -أَعنِي: الشِّرْك- أَظلَمُ الظُّلْم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الكافِرين يوم القِيامة يَعتَذِرون، ولكن لا يُقبَل؛ لقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾.

فإن قال قائِل: كيف الجَمْع بين هذه الآيةِ وبين قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٥-٣٦]؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، رقم (٤٤٧٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، رقم (٨٦)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالجَوابُ بصِفة عامَّة: أن ما ورَد عليك مِمَّا يَكون يوم القِيامة، أو من أَوْصاف يوم القِيامة مِمَّا ظاهِرُه التَّعارُض فاعلَمْ أنه لا تَعارُضَ فيه، سواءٌ كان ذلك في وَصْف اليوم، أو في وَصْف المَحشورين، أو في وَصْف العَذاب؛ فإنه لا يُمكِن أن يَكون فيه التَّعارُض أبَدًا؛ لأن اليوم طَويل مِقدارُه خَمْسون ألفَ سَنَةٍ، فيُمكِن أن تَتغيَّر فيه الأحوال، يَكون أوَّله للناس حالًا وآخِره للناس حالًا، وما أَشبَه ذلك.

فمَثَلًا قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾، هذا يَدُلُّ على أنهم في ذلك اليومِ سُكوت لا يُؤذَن لهم بأيِّ كلام فيَنتَهِزوا الفُرْصة بالاعتِذار، لكن في مَوقِف آخَرَ يَعتَذِرون ولكن لا يَنفَعهم الاعتِذار، وهذا أَوْلى من قول بعض العُلماء: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لوِ اعتَذَروا؛ لأنه على هذا التَّقديرِ يَكون الكلام كلامًا فَرضيًّا لا واقِعيًّا لا يَنفَعهم لوِ اعتَذَروا.

فأيُّهما أَوْلى أن نَحمِل الكلام على أنه واقِع، أو على أنه مَفروض؟ الأوَّل؛ على أنه واقِع نحن نَقول: يَعتَذِرون في وَقْت ولا يَعتَذِرون في وَقْت آخَرَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الكافِرين مُستَحِقُّون للَعْنة الله، فهل يَعنِي: ذلك أنه يَجوز أن نَلعَن الكافِرين؟

الجَوابُ: أمَّا على سَبيل العُموم فنعَمْ لنا أن نَقولَ: لَعْنة الله على كل كافِر، وكان من قُنوت أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه يَلعَن الكَفَرة في قُنوت الوَتْر[1]: اللَّهُمَّ الْعَنِ الكَفَرَةَ الَّذِينَ كَذَّبُوكَ وَكَذَّبُوا رَسُولَكَ. هذا لا بأسَ به، وهل نَلعَن نوعًا مُعيَّنًا من الكفَرة، كاليَهود والنَّصارى؟ نَقولُ: اللَّهُمَّ الْعَنِ اليَهُودَ، اللَّهُمَّ الْعَنِ النَّصَارَى؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل اللهم ربنا لك الحمد، رقم (٧٩٧)، ومسلم: كتاب المساجد، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة، رقم (٦٧٦)، دون ذكر الوتر.

قال ﷺ: «لَعْنَةُ الله عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(١). لكن قال بعض الناس -إمَّا اجتِهادًا وإمَّا مُحاباةً لليَهود والنَّصارى-، قال: إن الرسول دعا عليهم باللَّعْنة في حال مُعيَّنة، حين اتَّخذوا قبور أنبيائِهم مَساجِدَ لَعَنَهم، كأنه يَقول: لأنَّهم اتَّخذوا. فيُقال: التَّعليل لا يَقتَضي تَخْصيص المَعلول، العِلَّة لا تَقتَضي التَّخصيص، هُم لُعِنوا من أَجْل هذا ومن أَجْل غيرِه أيضًا.

فالصحيحُ أنه يَجوز أن نَلعَن اليَهود والنَّصارى على سبيل التَّخْصيص، فنَقول: لَعْنةُ الله على اليَهود والنَّصارَى. سواءٌ قرَنَّا ذلك بفِعْل من أفعالهم يَقتَضي اللَّعْن أو لا.

إِذَنْ: لنا أن نَلعَن الكُفَّار على سبيل العُموم.

وهل نَلعَنُهم على سبيل التَّعيين؟

الجَوابُ: إن كان حَيًّا فلا يَجوز، لا يَجوز أن أَلعَن شخصًا مُعيَّنًا، ولو كان أكثَرَ الكُفَّار ما دام حيًّا، والدليل أن النَّبيَّ ﷺ لَمَّا صار يَقول: «اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا»(٢) مِمَّن عيَّنهم من أئِمَّة الكُفْر، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٢٨] فنَهاه وقال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وإذا كان رَسول الله ﷺ ليس له من الأَمْر شيء فما بالُك بمَن دُونَه؟!

وأمَّا التَّعليل فإننا نَقول: لا تَلعَنه، ادْعُ الله له بالهِداية؛ لأنَّك لا تَدرِي ربَّما

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة، رقم (٤٣٥، ٤٣٦)، ومسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم (٥٣١)، من حديث عائشة وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾، رقم (٤٠٦٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يَكون هذا العَدوُّ للإسلام اليومَ هو وليَّ الإسلام في يومٍ آخَرَ، ألَمْ يَكُن عُمَرُ من أعداء الإسلام؟ ألَمْ يَكُن خالِدُ بنُ الوَليد وعِكْرمةُ بنُ أبي جَهْل مِمَّن اقتَحَموا الجبَل في أُحُد ليَقتُلوا الرسول وأصحابَه؟ ثم كانوا من قُوَّاد المُسلِمين، وكان عُمَرُ خليفةَ الخَليفةِ الثاني في هذه الأُمَّةِ.

إِذَنْ: يا أخي لا تَدعُ على شخص مُعيَّن من الكُفَّار باللَّعْنة، لكن هل يَجوز أن أَدعُوَ الله له بالهِداية؟

الجَوابُ: يَجوز، يَدعو لفُلان وفُلان، لا نُريد أن نُعيِّن أن الله يَهدِيه.

إِذَنِ: الهِداية لا بأسَ بها، أمَّا اللَّعْن فلا.

فإن قال قائِل: قلنا: إن الكافِر لا يُدعَى عليه إذا كان حيًّا. فما القولُ إن كان مَيِّتًا؟

فالجَوابُ: إذا كان ميتًا فإنه يُنظَر هل في ذلك مَصلَحة، إن كان فيه مَصلَحة فلا بأسَ. يَعنِي: إذا كان فيه مَصلَحة وأنك ستُغيظ أَتباعَه فلا بأسَ، وإلَّا فقَدْ قال: النبيُّ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا»[1].

فإن قال قائِلٌ: هل يَجوز الدُّعاء على الكافِرين بالهَلاك؟

فالجوابُ: الآنَ دُعاء بالهَلاك، ودُعاء باللَّعْنة، ودُعاء بالهِداية، وأَحسَنهم الهِداية، والإنسان الذي يَقول: اللَّهُمَّ أَهلِكه. بدَل: اللَّهُمْ اهْدِ. لا يَقوله إلَّا من شِدَّة الغَيْرة أو الغَضَب عليه، ونحن نَقولُ له: اهْدَأْ!.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما ينهى من سب الأموات، رقم (١٣٩٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الظالِمين -وهُمُ الكافِرون- لهم سُوء الدار يوم القِيامة، وهي جَهنَّمُ -والعِياذُ بالله-؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن هذا العَذابَ -أي: هذا اللَّعْنَ وهذا السُّوءَ- كان هَؤلاءِ مُستَحِقِّين له؛ لقوله: ﴿لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ واللهُ أَعلَمُ.

• ● ۞ ● •

الآيتان (٥٣، ٥٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [غافر:٥٣-٥٤].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ هَذه الجُملةُ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ مُؤكَّدة بثَلاثة مُؤكِّدات: الأوَّل: القِسْم الَّذي دلَّتْ عليه اللَّام. والثاني: اللَّام. والثالِث: قَدْ. وهذه الصِّيغة تَأتِي في القُرآن كثيرًا.

وقوله: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بمَعنَى: أَعطَيْنا، يُقال: أَتَيْنا. ويُقال: آتَيْنا. أَتَيْنا بمَعنى: جِئْنا، وآتَيْنا بمَعنَى: أَعطَيْنا، وهي تَنصِب مَفعولين ليس أَصلُها المُبتَدَأَ والخَبَرَ، المَفعول الأوَّل هنا موسى، والثاني الهُدَى، موسى هو ابنُ عِمرانَ أَحَدُ أُولى العَزْم الخَمْسة، وهم: مُحَمَّد، وإبراهيمُ، وموسى، ونوحٌ، وعِيسى.

وقوله: ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: ما به الهُدى، وهذا يَشمَل الهُدى الذي أُوتِيَه حتى اهتَدَى، والهُدَى الذي يَهتَدِي به الناس فيَكون موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هادِيًا مَهدِيًّا.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [التَّوْراة والمُعجِزات]، أمَّا التَّوْراة فظاهِر أنه هُدًى؛ لأنها كِتاب شَرعيٌّ فيه الهُدَى، وأمَّا المُعجِزات -والصواب أن يُقال: البيِّنات أو الآيات- فإنها هُدًى؛ لأنه يَهتَدِي به الناس، إذ إن الناس إذا رَأَوُا الآياتِ اهتَدَوْا.

وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: جعَلْناهم وارِثين. ويَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: من بَعْد مُوسَى] ويُمكِن أن نَقول: أَوْرَثْناه من بعد مُوسى ومن بعد فِرعونَ، فيَكون الله تعالى أَورَثَ بني إسرائيلَ الكِتاب من بعد نَبيِّهم ومن بعد فِرعونَ، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩].

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [التوراة] وسُمِّيت كِتابًا؛ لأنها مَكتوبة، وعلى هذا يَكون كِتاب بمعنى: مَكتوب، وهذه الصِّيغةُ -أَعنِي: فعالًا- تَأتِي في اللُّغة العرَبية بمَعنَى: مَفعول في مَواضِعَ كَثيرةٍ، مِثل بِناء بمَعنَى: مَبنيٍّ، وغِراس بمَعنى: مَغروسٍ، وفِراش بمَعنَى: مَفروشٍ، وهلُمَّ جرًّا.

﴿هُدًى﴾ يُحتَمَل أن تَكون كما قال المفَسِّر مَصدَرًا بمَعنى اسم فاعِل مَنصوبًا على الحال؛ حيث قدَّرها بقوله: [هادِيًا]، ويُحتَمَل أن تَكون مَفْعولًا من أَجْله، أي: من أَجْل ﴿هُدًى﴾ أي: من أَجْل اهتِداء الناس.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ تَذكِرة لأَصْحاب العُقول] فهي هُدًى، وهى تَذكِرة، هُدًى يَهتَدِي بها الناس، وتَذكِرة يَتذَكَّر بها، ولكن لا يَتذَكَّر بها إلَّا أُولو الأَلْباب، فأُولو الأَلْباب، يَعنِي: أصحاب العُقول، وسُمِّيَ العَقْل لُبًّا بمَنزِلة اللُّبِّ من الحَبِّ؛ لأنه هو المَقصود، وهو رُوح الإنسان.

وقوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ اجْمَعْها إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠] يَتبيَّن لك أن الذين يَنتَفِعون بالآيات الكونية كخَلْق السَّموات والأرض والآيات الشَّرْعية هم أَصْحاب العُقول؛ لأنهم يَنظُرون، ويَتفكَّرون، ويَقيسون الأشياءَ حتى يَهتَدوا.

من فوائدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: مِنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على موسى ﷺ؛ حيثُ آتاه الهُدَى، وهذه أَعظَمُ مِنَّة يَمُنُّ الله بها على العَبْد أن يُعطِيَه الهُدَى يَهتَدِي به بنَفْسه ويَهدِي به غيره.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَأكيد رِسالة مُوسى من قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ وعلى هذا فيَجِب علينا أن نُؤمِن بأن مُوسى رسول الله ﷺ، لكن إلى قَوْمه كما قال النَّبيُّ ﷺ: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً»[1] لكن نُؤمِن بأنه رسول حقٍّ، وأنه جاء بالهُدَى والنُّور.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: مِنَّة الله على بني إسرائيلَ؛ حيث قال: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ولكن هل هَؤلاءِ الَّذين أُورِثوا الكِتاب قاموا به؟

الجَوابُ: لا، لم يَقوموا به، بل كانوا عُتاةً ظلَمة، حتى في عَهْد نَبيِّهم لم يَقوموا به، لَمَّا قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٢١] ماذا قالوا؟ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة:٢٢] إلى أن قالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة:٢٤]، أمَّا نحن فإنَّا قاعِدون، مع أنه وَعَدهم بها، قال الأرض التي كتَب الله لكم، لكِنَّهم كذَّبوا الخَبَر واستكْبَروا عن الأَمْر، فهم -أَعنِي: بني إسرائيلَ، ولا سِيَّما اليَهود منهم- أَخبَثُ أهل الأرض، وأَعتَى أهل الكُفْر، لم يَشكُروا نِعْمة الله عليهم بهذه النِّعْمةِ، أمَّا هذه الأُمَّةُ فقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهُم هذه الأُمَّةُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»، رقم (٤٣٨)، ومسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، رقم (٥٢١)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر:٣٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن التَّوْراة مَكتوبة؛ لقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ كيف كِتابتها؟ اقرأْ قول الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٤٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن التَّوْراة ذِكْرى، لكن ليس لكل أَحَد، بل لأُولِي الأَلْباب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنه لا يَتذَكَّر بالآيات الشرعية إلَّا أُولو الأَلْباب وكذلك الآيات الكَوْنية.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الثَّناء على العَقْل؛ لأن أَهلَه أهل تَذكُّر الذين يَنتَفِعون بما سمِعوا، والمُراد بالعَقْل هنا هل هو عَقْل الإدراك أو عَقْل الرُّشْد؟

الثاني عَقْل الرُّشْد، أمَّا عَقْل الإدراك فهو الذي يُناط به التَّكليف الذي تَجِدونه في كتُب الفُقَهاء من شُروط الطَّهارة العَقْل هذا عَقْل الإدراك الذي يُناط به التَّكْليف، أمَّا عَقْل الرُّشْد الذي به الاهتِداء فقَلَّ مَن يَحصُل عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن كل مَن لم يَتَذكَّر بآيات الله فإنه ليس ذا عَقْل.

فإن قال قائِل: يَرِد عليكم أنَّا نَجِد في أئِمَّة الكُفْر مَن هو على جانِب كبير من الدَّهاء والذَّكاء.

فالجَوابُ: أن هناك فَرْقًا بين العَقْل والذَّكاء؛ لأن العَقْل يَعقِل صاحِبه عمَّا يَضُرُّه؛ ولهذا سُمِّيَ بمَنزِلة العِقال للبَعير، لكِن الذَّكاء ليس كذلك، فالذَّكاء غَريزة، أو كَسْب يَجعَله الله تعالى في الإنسان، وربَّما يَكون بعض الحَيَوانات أَذكَى من

الإنسان، فالغُراب مثَلًا أَذكَى من ابنِ آدَمَ الذي قتَلَ أَخاه؛ لأنه علَّمَه كيف يُوارِي سَوءَة أَخيه، في الحَيوانات ما هو أَذكَى من بني آدَمَ، النَّمْل هذا الذي تُشاهِدون من أذكى الحَيوانات إذا كان في أَيَّام ثِمار الحُبوب حَفَرَت لها جُحورًا وأَوْدَعت فيها الحُبوب، ولكِنَّها لا تُودِع الحَبَّة على ما هو عليه، بل تَأكُل رأس الحَبَّة؛ لئَلَّا تَنبُت؛ لأنها تَعرِف إذا بَقِيَت الحَبَّة على ما هي عليه نَبَتَت وخَرِبت على نَفْسها فتَأكُل رأسَها حتى لا تَنبُت، فإذا قدَّر الله عَزَّوَجَلَّ ونزَل المَطَر وخافَت أن يُعفِّن ويَفسُد أَخرَجَتْه إلى الشمس حتى يَيْبَس ويَجِفَّ، ثُم أَدخَلَتْه، وأَشياءُ تُذكَر عن بعض الحَيَوانات غَريبة.

إِذَنِ: الذَّكاء شيء والعَقْل شيء آخَـرُ، وكم من ذَكيٍّ قادَه الذَّكاء إلى النار - والعِياذ بالله- وهذا شيء مُشاهَد، الذَّكاء إذا لم يَكُن مُقتَرِنًا بعَقْل وإيمان، فالغالِب أن صاحِبه يُدمَّر ويَهلِك، وكم من أُناسٍ كانوا أَذكياءَ وتَوقَّع فيهم بعض العُلَماء أن هؤلاءِ سَوْف يَنحَرِفون فصار الأَمْر كذلك.

إِذَنْ: لا يَرِد علينا أننا نَجِد من أَئِمَّة الكُفْر مَن هو على جانِب كبير من الذَّكاء والدَّهاء؛ لأن الذَّكاء شيءٌ والعَقْل شيءٌ آخَرُ، قال العُلَماء: ولذلك لا يَجوز أن تَقول: إن الله عاقِلٌ؛ لأن العَقْل يَحجِز صاحِبَه عمَّا يَضُرُّه، والربُّ عَزَّوَجَلَّ لا يُمكِن أن يَضُرَّه شيء، ولا يُمكِن أن يَنقُصه شيء.

ومِن ثَمَّ ذهَب بعض النَّحوِيِّين إلى التَّعبير بقولهم: (مَن) للعالِم و(مَا) لغير العالِم. قال: لا يُمكِن أن تَقول: للعاقِل؛ لأنها تَأتِي عائِدةً إلى الله عَزَّوَجَلَّ فقُلْ: (مَنْ) للعالِم، و(ما) لغَيْر العالِم. وقد يُناقَش في هذه المَسأَلةِ، ولكِنِّي قُلْت لكم هذا لتَعلَموا أنه لا يَجوز أن يُوصَف الله بأنه العاقِل؛ لأن العَقْل يَحجِز صاحِبه عمَّا يَضُرُّه والله عَزَّوَجَلَّ لا يَضُرُّه شيء.

الآية (٥٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر:٥٥].

ثُم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ (اصْبِر) الخِطاب للرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ اصْبِرْ على أيِّ شيء، اصْبِرْ على حُكْم الله الكَونيِّ والشَّرْعيِّ؛ لأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان:٢٣-٢٤] وتَأمَّلوا لَمَّا مَنَّ الله عليه بأنه نزَّلَ عليه الكِتاب تَنزيلًا هل قال: فاشْكُرْ نِعْمة ربِّك؟ بل قال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

ومَعناه أنك كُلِّفْت أمرًا عظيمًا يَحتاج إلى صَبْر، اصبِرْ لحُكْم ربِّك الشَّرعيِّ، والثاني الكَونيِّ، وقد لَقِيَ النَّبيُّ ﷺ العَناء الكبير من الصَّبْر على أذى قَوْمه.

وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ هنا في الآية حَذْف. والمَحذوف تُفسِّره الآياتُ الأُخرى ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الكَوْنيِّ والشَّرْعيِّ، ولا نَجِد أحَدًا أَصبَرَ من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ على حُكْم الله، يُوعَك -يَعني: يُمرَض- كما يُمرَض الرَّجُلان منَّا، يشُدَّد عليه، شُدِّد عليه عند الموت وهو يُحتَضَر، شُدِّد عليه، كما قالت ذلك عائِشةُ أُمُّ المُؤمِنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: لَمْ يُشَدَّدْ على أَحَدٍ[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب شدة المرض، رقم (٥٦٤٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، رقم (٢٥٧٠).

أُوذِيَ في الله عَزَّوَجَلَّ فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ، وقِصَّة إيذاء المُشرِكين له في مكَّةَ وغير مكَّةَ أَمْر مَشهور عِندكم ومَعلوم ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [الروم:٦٠] أي: والله ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ هذه الجُملةُ خبَرية مُؤكَّدة بـ(أن) وَعْد الله حَقٌّ، وَعَد الله بنَصْر أَوْليائه وخَذْل أَعدائِه.

فإن قال قائِلٌ: قول الله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [الروم:٦٠] بعضُهم يَقولون: إن الإيذاء والبَلاء في دِين الله دَلالة على أن هذا الدِّينَ باطِل. كيفَ نَرُدُّ عليهم؟

فالجَوابُ: لا، فهذه غَيْرُ، فالرَّسول لولا أن دِينَه حَقٌّ ما أُوذِيَ عليه، لولا أن دِينَه حقٌّ ما أُوذِيَ عليه، لو تَبع ما عليه قومُه ما أُوذِيَ؛ ولهذا كان من حِكْمة الله أن أعمام الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أربَعة الذين أَدرَكوا زَمانَه أربعة: اثنانِ كافِران أَحَدُهما أَذاه والثاني ساعَدَه وآواه، واثنان أَسلَما أحدُهما تَقدَّم إسلامه وله مَقام صِدْق، وكان شهيدًا، والثاني بالعَكْس تَأَخَّر إسلامه، لكن لا شَكَّ أن له مَقامَ صِدْق. الذي كَفَر وآذاه أبو لَهَبٍ، والَّذي كفَر وآواه أبو طالِب، والذي له مَقامُ صِدْق وسَبْق حَمزَةُ، والرابع العَبَّاس بنُ عبدِ المُطَّلِب، فالله حَكِيمٌ عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿حَقٌّ ﴾ والحَقُّ هو الشيء الثابِت الذي لا يَتَغيَّر.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ بنَصْر أَوْليائه ﴿حَقٌّ ﴾، وأنت ومَن تَبِعَك مِنْهم] نعَمْ هم على قِمَّة الأَوْلياء، مُحَمَّد رسول الله والذين معَه قِمَّة الأَوْلياء وَصَفَهم الله بأنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ انظُرْ كيفَ مُعامَلة بعضِهم مع بعضٍ، ومُعامَلتهم مع الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِيُسْتَنَّ بِكَ] «استغفِرْ

لذَنْبِك» أيِ: اطلُبْ من الله المَغفِرة للذَّنْب وهو الإِثْم أو المَعصِية، استَغفِرِ: اطلُبِ المَغفِرة.

والمَغفِرة مُشتَقَّة من المِغفَر، وهو الذي يُوضَع على الرأس أثناء القِتال؛ ليَتَّقيَ به المُقاتِل سِهام المُقاتِلين، هذا هو المِغفَر.

إِذَنْ: فالمَغفِرة سَتْر الذَّنْب والتَّجاوُز عنه، ليس مُجَرَّد السَّتْر، ويَدُلُّ لهذا قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا حاسَب عبدَه المُؤمِن: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(١).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِيُسْتَنَّ بِكَ] إشارة إلى أنه لا ذَنْبَ للرسول، لكن أُمِر بالاستِغْفار لتَستَنَّ به الأُمَّة فتَستَغفِر لذنوبها، وهذا بِناءً على أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لا يُذنِب وكذلك الرُّسُل، ولكِنْ في هذا نظَرٌ، هذا من الغُلوِّ بالنِّسْبة للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ورُبَّ مُذنِبٍ تابَ من ذَنْبه فكان خيرًا منه قبل الذَّنْب.

آدَمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَصَى ربَّه وغَوَى، ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢]، قبل ذلك هل حصَل له الاجتِباء؟ لا، فصار بعد التَّوْبة من الذَّنْب خيرًا منه قَبْل الذَّنْب، والذَّنْب لا يَخدِش في الإنسان، الذَّنْب إذا عرَف الإنسان نَفْسه وعرَف قَدْر ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ثُم رجَع إلى الله وتابَ وندِمَ يَجِد في قلبه إيمانًا لم يَكُن من قبلُ، يَكون عنده حَياءٌ من الله وخَجَل، ولهذا جاء في الحَديث الصَّحيح الذي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

أَخرَجه مُسلِم: «لَوْلَا أَنْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ الله بِكُمْ وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ الله وَيَغْفِرُ لَهُمْ»(١).

وعلى هذا فنَقولُ للمُؤلِّف: عفا الله عَنْك؛ حيث ادَّعَيْت ما ليس بصَحيح إذا كان الله يَقول للرسول ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:١-٢] كيف نَقول: إنه أَمَره بالاستِغْفار من أَجْل أن يُستَنَّ به، لا من أَجْل أن له ذَنْبًا والله يَقول صراحةً: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ويَقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]؟!

ليس له ذَنْب، لكن استَغفِرْ؛ ليُسْتَنَّ به، كيف يَقول: الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم:١-٢] ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ غفرَ الله لكَ ذلكَ، كيف يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣]؟!

كل هذا يَدُلُّ على أن مِثْل هذه الأُمورِ تَقَع على الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، لكن لا شَكَّ أن ما يُخِلُّ بالأَخْلاق أو يُخِلُّ بالرِّسالة لا يُمكِن أن يَقَع منه، هذا شيء مَعلوم، لا يُمكِن أن يَقَع منه فاحِشة، ولا يَقَع منه خِيانة، ولا يَقَع منه كذِب، هذا مُستَحيل؛ لأن هذا يُخِلُّ بالشَّرَف ويُخِلُّ بمَقام النُّبوَّة، أمَّا المَعاصِي البَعيدة عن هذا فتَقَع، أَلَيْس مُوسى ﷺ قتَل نَفْسًا لم يُؤمَر بقَتْلها وهو من أُولي العَزْم؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، رقم (٢٧٤٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فالحاصِلُ: أن قول المفَسِّر: [لِيُسْتَنَّ بِكَ] خطأ، ولكن «استَغفِرْ لذَنْبك» لأن لك ذنبًا لكنه مَغفور، ومن أَسباب مَغفِرة ذَنْبك أن تَستَغفِر، فالاستِغْفار من أسباب المَغفِرة، والطاعات من أَسباب المَغفِرة، تَغلِب الطاعات على المَعاصِي وغير ذلك.

قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ ﴿وَسَبِّحْ﴾ يَقول: المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [صَلِّ] ولا شَكَّ أن الصلاة تُسمَّى تَسبيحًا، ومنه حديثُ: صلَّى النبيُّ ﷺ في بَيْته سُبْحة الضُّحى[1]. ومنه قولُ ابنِ عُمرَ: «لَوْ كُنْتُ مُسَبِّحًا لَأَتْمَمْتُ»[2] يَعنِي: مُصلِّيًا نافِلًا لأَتمَمْت. فلا شَكَّ أن الصلاة تُسمَّى تَسبيحًا.

ومِن الأدِلَّة على ذلك سابِقًا ما ذُكِر -لكِن أَخَّرْناه تَرتيبًا أو نِسيانًا- قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٧-١٨] حيث قال بعضُ العُلَماء: إن هـذه إشارةٌ إلى أَوْقات الصلَوات الخَمْس. لكن هل يَتَعيَّن أن يَكون التَّسبيح في كل مَكان بمَعنَى الصلاة؟ لا؛ ولهذا نَرى أن قوله تعالى هنا: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أَشمَلُ وأَعمُّ من إرادة الصلاة، يَقول: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: تَسبيحًا مَقرونًا بالحَمْد، فالتَّسبيح زوال الصِّفـات التي لا تَليق بالله، وفي الحمد إثبات صِفـات الكَمال لله، فيَكون ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ جامِعًا بين التَّنزيه والإِثْبات، تَنزيه الله عمَّا لا يَليق به، وإثبات ما هو أَهله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الكَمال في صِفاته وأَفْعاله ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ العَشيِّ ما بعد الزَّوال، ومنه حديثُ أبي هُرَيْرةَ في قِصَّة ذي اليَدَيْن:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحيض، باب تستر المغتسل بثوب، رقم (٣٣٦)، من حديث أم هانئ بنت أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٦٨٩).

«صلَّى بِنا رَسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِحْدى صَلاتَيِ العَشِيِّ»[1]؛ فالعَشيُّ ما بعد الزَّوال، والإِبْكار ما قبل الزَّوال.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الصَّلَوات الخَمْس]؛ لأن العَشيَّ يَشمَل الظُّهْر والعَصْر والمَغرِب والعِشاء، والإبكار الفَجْر ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ والصَّواب ما قُلنا: أن المُراد بالتَّسبيح هنا ما هو أَعَمُّ من الصلَوات.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الأَمْر بالصَّبْر، وهو هـنا للوُجوب، والصَّبْر ثلاثة أنواع -كما قالَه العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ-: صَبْر على طاعة الله، وصَبْر عن مَعْصية الله، وصَبْر على أقدار الله المُؤلِمة؛ والأوَّل هو الأكمَلُ، ثُم الثاني، ثُم الثالِث.

فالصَّبْر على طاعة الله أن يَفعَل الإنسان الطاعة على الوَجْه الذي شرَعه الله عَزَّوَجَلَّ بدون تَضجُّر وبدون تَكرُّهٍ، بل ومُستَسْلِم لها غاية الاستِسْلام، هذا الصَّبْرُ على طاعة الله.

أمَّا الصَّبْر عن مَعصية الله أن يَحبِس نفسَه عن مُباشَرة المَعاصِي فلا يَفعَلها، بل يَصبِر ولو شَقَّ عليه ذلك.

والثالث الصَّبْر على أَقْدار الله؛ يَعنِي: على ما يُقدِّره الله عليه من البَلاء في بدَنه، أو عَقْله، أو فِكْره، أو أَهْله، أو ماله، أو مُجتَمَعه يَصبِر ويَحبِس نَفْسه عن التَّسخُّط بالقَوْل، عن التَّسخُّط بالأَرْكان أو اللِّسان أو بالجَنان، التَّسخُّط بالجَنان أن يَكون

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد، رقم (٤٨٢)، ومسلم: كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٣).

في قَلْبه نوع اعتِراض على الله عَزَّوَجَلَّ: لماذا قدَّر عليَّ كذا ولم يُقدِّر على فُلان؟! ولماذا ابتَلاني الله؟! ثُم بعد ذلك ربما يَكفُر، نَسأَل الله العافِيةَ.

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الحج:١١]، التَّسخُّط باللِّسان أن يَدعوَ بالوَيل والثُّبور، وما أَشبَهَ ذلك من دَعوى الجاهِلية، والتَّسخُّط بالأركان بضَرْب الخُدود وشَقِّ الجُيوب، وما أَشبَه ذلك؛ فصار الصَّبْر على أقدار الله يَتَضمَّن حَبْس القَلْب واللِّسان والجَوارِح.

فإن قال قائِل: إن التَّسخُّط القَلبيَّ من أَشَدِّ الأمور، يَقول بعضُهم: إن هذا أَمْر خارِج عن طاقَتي، أنا أَكرَه هذا لكن أَجِده في نَفْسي وأُدافِعه وأَجِده وأَجِده؟!

فالجَوابُ: هناك فَرْق بين كراهة المَقدور وكَراهة التَّقدير، كَراهة المَقدور من طَبيعة الإنسان، كلٌّ يَكرَه أن يُصاب بأذًى، لكن كَراهة التَّقدير هذا هو المُراد، أن تَكرَه تقدير الله من حيثُ هو فِعْل الله، فيُولِّد لك ذلك أنك رُبَّما تُبغِض الله عَزَّوَجَلَّ -أَعوذُ بالله- ربَّما تُبغِض الله، كيف يُقدِّر عليَّ هذا الربُّ هذا التَّقديرَ؟! أمَّا كراهة المَقدور فلا بُدَّ منها، كل إنسان يُصاب بما لا يُلائِم طَبْعه سوف يَكرَه هذا الشيءَ.

فإن قال قائِلٌ: هذه الكَراهةُ تَقَع في القَلْب مع كَراهة الإنسان ظاهِرًا لها، هو يُدافِعها لكن يَجِدها في قَلْبه.

فالجَوابُ: لا أَظُنُّ، لا يُوجَد إنسان مُؤمِن يَكرَه ما قدَّر الله من حيثُ هو تَقديرٌ لله، أَبَدًا، وماذا يَكرَه؟! أنت مَملوك لله، كيف تَكرَه هذا الشيءَ؟ هل أنت تَذبَح بَعيرَك لتَأكُله والبَعير يَكرَه هذا الشيءَ؟! هو مِلْكك، فالله عَزَّوَجَلَّ احذَرْ أن تَكرَه تَقديرَه

من حيثُ هو تَقديرٌ، أمَّا من حيثُ هو مَقدور -كما قُلْت لك- شيءٌ لا بُدَّ منه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَسلية النَّبيِّ ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَحذير المُعارِضين له؛ لأن الله وعَدَه بالنَّصْر وخِذلان أَعدائِه ومُعارِضيه، فقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ كما أن فيه تَسليةً له فيه أيضًا تَحذير لأَعْدائه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن وَعْد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا بُدَّ أن يَقع؛ لقَوْله: ﴿حَقٌّ﴾ والحَقُّ هو الثابِت الواقِع، ويَدُلُّ لهذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ وذلِكَ لتَمام قُدْرته وصِدْق وَعْده لا يُخلِف الميعاد؛ لأن إخلاف الوَعْد ناشِئٌ عن كذِب الواعِد، أو عن عَجْزه عن الوفاء به، وكل ذلك مُحال في حَقِّ الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وُجوبُ الاستِغْفار؛ لقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جَوازُ الذُّنوب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لقوله: ﴿لِذَنۢبِكَ﴾ والخِطاب للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وإذا جاز الذَّنْب على الرسول وهو أَشرَف الرُّسُل فعَلَى غيرِه من بابِ أَوْلى.

فإن قال قائِلٌ: أَلَيْس الأنبياء مَعصومِين عن الذُّنُوب؟

فالجَوابُ: هذه الآيةُ وأَمثالها تَدُلُّ على أن الجَواب بالنَّفْي، لكنهم يُفارِقون غيرَهُم في ذلك في وَجْهَيْن:

الوجهُ الأَوَّلُ: أنهم مَعْصومون من الكَذِب والخِيانة، وما أَشبَهَ ذلك مِمَّا يُؤثِّر على الرِّسالة.

والثاني: أنَّهم مَعْصومون عن كل ذَنْب يُخِلُّ بالشَّرَف.

الثالث: أنهم مَعصومون من الإِقْرار عن الذُّنوب، لا بُدَّ أن يُنبَّهوا عليها حتى يُوفَّقوا للتَّوْبة منها.

فهذه فُروق ثَلاثة بينهم وبين غيرِهم من الناس، أمَّا غيرُهم من الناس فإنَّهم ليسوا مَعصومين مِمَّا يُخِلُّ بالشَّرَف، وما يُخِلُّ بالأمانة، وليسوا مَعصومين عن الإصرار على المَعاصِي.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الأَمْر بالتَّسْبيح بحَمْد الله صَباحًا ومَساءً؛ لقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾، فإن كان المُراد بذلِك الصَّلواتِ الخَمْسَ فالأَمْر هنا للوُجوب، وإن كان المُراد به التَّسبيحَ الذي هو الذِّكْر المَعروف، فإن الأَمْر هنا للاسْتِحباب.

• • ۞ • •

الآية (٥٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر:٥٦].

ثُم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ هذه (إِنَّ) واسمُها وخبَرُها قوله: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾؛ أي: ما في صُدورهم إلَّا كِبْر.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المُجادَلة: المُخاصَمة، وسُمِّيَت المُخاصَمة مُجادَلة؛ لأن كُل خَصْمٍ يَجدُل الحُجَّة؛ ليَغلِب صاحِبه كجَدْل الحَبْل وهو شَدُّه، كل واحِد من الخَصْمين يَجدُل الحُجَّة لنَفْسه ليُفحِم خَصْمه.

وقوله: ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ المُفاعَلة تَأتِي في الغالِب بين اثنَيْن، وقد تَأتِي (فاعَلَ) بدون مُشارِك مثل سافَرَ، سافَرَ على وَزْن فاعَلَ، على وَزْن جادَلَ، لكنها ليسَت بين اثنَيْن، لكن الغالِب أن (فاعَلَ) يَعنِي: المُفاعَلة تَأتِي مِن اثنَيْن ﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يُجادِلون أهل الحقِّ ويُناظِرونهم، ولقد علِمْتم المُناظَرة التي وقَعَت بين إبراهيمَ وقَوْمه ووقَعَت بين إبراهيمَ والذي حاجَّهُ في رَبِّه، ومُجادَلات كثيرة في القُرآن وفي السُّنَّة، وإلى يومِنا هذا.

قوله: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القُرآن]، وهذا التَّفسيرُ قاصِر؛ لأن آياتِ الله تَشمَل الكَوْنية والشَّرْعية، ثُم تَشمَل أيضًا مَن يُجادِل في هذه الأُمَّةِ، ومَن يُجادِل فيمَن سَبَق، والذين يُجادِلون فيمَن سَبَق لا يُجادِلون في القُرآن، فالأَوْلى أن نَجعَل الآية على العُموم، يُجادِلون في آيات الله الكَوْنية والشَّرْعية إن كانوا في هذه الأُمَّةِ، فالشَّرْعية هي القُرآن والسُّنَّة أيضًا، وإن كانوا من قَبْل الأُمَّة فالمُجادَلة في التَّوْراة من قوم مُوسى، وهكذا.

إِذَنْ: تَفسير المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قاصِر؛ لأنه لم يُحِط بالمَعنَى، بل قصَره على بعضه، لكن لو ادَّعى مُدَّعٍ أن المفَسِّر ذكَر القُرآن من باب التَّمثيل، لوِ ادَّعى مُدَّعٍ ذلك لقُلْنا: هذا مُمكِن مُحتَمَل، لكنه أَخطَأ في التَّعبير، إذ إن المُراد يُقال: آياته الشرعية كالقُرآن، حتى يَكون الأمر واضِحًا.

وقوله: ﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، المُجادَلة في الآيات الشَّرْعية، منها اتِّباع المُتَشابِه، فيَأتِي مثَلًا بآية من القُرآن فيها اشتِباه تَحتَمِل مَعنًى حقًّا، ومَعنًى باطِلًا، وهي في الحقِّ أَظهَرُ كما هو مَعلوم، فيُريد أن يَحمِلها على المعنى الباطِل المَرجوح، يَأتِي بآيات من القُرآن ظاهِرها التَّعارُض يَقول: القُرآن مُتناقِض كيف يَقول: كذا، ثُم يَقول: كذا.

فمثَلًا يَقول: إن الله تعالى قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢] يَوَدُّون ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ وفي آية أُخرَى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] فكتَموا، قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ كانوا في الأوَّل مُقرِّين تمامًا، فيَأتِي يَقول: هذا القُرآنُ مُتَناقِض، كيف يُثبِت في مَكان أنهم لا يَكتُمون الله حديثًا وفي مَكان

أنهم يُنكِرون؟

فيُجادِل بمِثْل هذا، إذا لم يَكُن لدَى الإنسان سَيْف يَقطَع حُجَّة هذا، بَقِيَ الإنسان مُرتَبِكًا، فما هو السَّيْف الذي يَقطَع حُجَّته؟ أن نَقول: إن يوم القِيامة ليس ساعة من زمَن مِقداره خَمْسون أَلفَ سَنَة، فأَقَرُّوا بالأوَّل، ولَمَّا رأَوْا أن المُؤمِنين يَنْجون قالوا: نَكتُم لعَلَّنا نَنْتَفِع. أو أنهم كتَموا في الأوَّل، ثُم لَمَّا رأَوْا جَوارِحهم تَشهَد عليهم أَقَرُّوا واعتَرَفوا.

وأنا أَقولُ: المُجادَلة في الآيات في القُرآن منـها اتِّباع المُتَشابِه، هذه المُجـادَلةُ لا شَكَّ.

وكذلِكَ أيضًا المُجادَلة في الآيات الكَوْنية، يَأتِي مثَلًا بأشياءَ من مَخلوقات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيَقول: لماذا خلَقَ الله هذا الشيءَ؟ لماذا خلَق الله العَقْرب؟ لماذا خلَقَ الله الحَيَّة؟ لماذا خلَقَ الله الأسَدَ؟ وما أَشبَهَ ذلك، إِذَنْ ما أَراد الله إلَّا إضرار الخَلْق وإيذاء الخَلْق، انتَبِهْ عندما يُورَد هذا السُّؤالُ على عامِّيٍّ ماذا يَقـول؟ يَقول: والله ما يَدرِي يُمكِن، فيُجادِل مع أننا نَعلَم أن خَلْق هذه المَخلوقاتِ من مَصلَحة العِباد، وقد ذكَرْنا في مَجالِسَ سبَقَت أن في خَلْق هذه المُؤْذِيات ثَمانِ فَوائِدَ تَظهَر للمُتأمِّل، وبذلك نَعرِف المُجادَلة في الآيات تَكون في الآيات الكونية والآيات الشَّرْعية وذكَرْنا مِثالَيْن على ذلك.

يَقـول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بُرْهان] ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ هذه صِفة لـ﴿سُلْطَٰنٍ﴾ والسُّلْطان يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هُو البُرْهان.

وذكَرْنا فيما سَبَق أن السُّلْطان ما يَكون به سُلْطة، سواءٌ كان دَليلًا إذا كانت

المَسأَلة تَحتاج إلى دَليل، أو سُلْطة تَدْبير كالسُّلْطان الأَعظَم، وما أَشبَه ذلك، أو قوَّة وقُدْرة، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣].

المُهِمُّ: أن السُّلْطان ما يَكون به السُّلْطة للإنسان، وفسَّرَه في كل مَكان بحَسبه.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ هل يَعنِي: أنه لا يُمكِن أن نُجادِل الإنسان بالباطِل بسُلْطان.

إِذَنْ: هذا القَيْدُ بَيان للواقِع، وليس قيدًا احترازِيًّا، بل هو قَيْد مُبيِّن للواقِع أن كل مَن جادَل في آيات الله، فإنه مُجادِل بغَيْر سُلْطان ولا يُمكِن أن يَأتِيَه سُلْطان بذلك.

وقوله: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ (إِنْ) يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ما] يَعنِي: أنها نافِية، وذلك أن (إِنْ) في اللُّغة العرَبية مُشتَرَكة بين عِدَّة مَعانٍ، وما أكثَرَ الكلِماتِ التي يَكون لها عِدَّة مَعانٍ، ولكن الذي يُعيِّن المَعنَى السِّياق وقَرائِنُ الأَحْوال، ومن ذلك: أَنَّك متى وجَدْت إثباتًا بعد (إِنْ) فهِيَ نافِية ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾، ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ وهلُمَّ جرًّا، فمتى وجَدْت الإثبات في سِياق (إن) فاعْلَمْ أنها نافِية، ويَأتِي -إن شاءَ الله- الكَلامُ على بقِيَّة مَعانِيها، لكن هنا يَقول: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ قال: ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾، والذي في الصُّدور هو القَلْب، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

وإذا تَكبَّر القلب -والعِياذُ بالله- تَكبَّر البَدَن، وإذا ذُلَّ القلب لله ذُلَّ البَدَن، قال النَّبيُّ ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا

فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[١] وصدَق الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومثَّل أبو هُرَيْرةَ ذلك بالمَلِك له جُنود يَأمُر الجُنود فيَأتَمِرون[٢]، ولكن شيخ الإسلام ابن تَيمِيَّةَ[٣] قال: إن تَمْثيل الرسول ﷺ أَبلَغُ؛ لأن المَلِك قد يَتمَرَّد عليه الجُنودُ؛ لكن القَلْب هل يُمكِن تَتمرَّد عليه الجَوارِحُ، أبَدًا لا يُمكِن، فجعَل الكِبْر في الصُّدور؛ أي: في القُلوب؛ لأن الصُّدور مَحلُّها.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا كِبْرٌ﴾ تكبُّر وطمَع أن يَعلوا عليكَ].

﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ جُمْلة ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ الظاهِر أنها مُستأنَفة، وليست صِفة لـ﴿كِبْرٌ﴾ ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾؛ ولِهَذا نَقول: إذا قرَأْت فقُلْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ هذا المَوْقِفُ الصحيح، ولا تَقِفْ على قوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ لا تَقِفْ عليه؛ لأنَّك إذا وقَفْت على ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ فمَعناه أنك وقَفْت على الكلام قبل التَّمام، ولكن قُلْ: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾، ثُم قِفْ وقُلْ: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾؛ لأنك إذا وصَلْت ﴿إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ صارَت جُمْلة ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ حَسب القِراءة صِفة لكِبْر، وليس الأَمْر كذلك، بل هي جُمْلة مُستأنَفة من الله عَزَّوَجَلَّ يَقول: إنهم لن يَبلُغوا ما في صُدورهم من التَّكبُّر عليك والعُلوِّ عليك، وقوله: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ أَصْله ببالِغِينَه، لكن أين ذهَبَتِ النون؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه معمر في جامعه (١١/ ٢٢١)، والبيهقي في الشعب رقم (١٠٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ١٨٧).

حُذِفَت النُّون للإضافة؛ لأن النون والتَّنوين لا يَجتَمِعان مع الإضافة؛ ولهذا قال أحَدُ الناس يَصِف تَباعُدَه مع صاحِبه:

كَـأَنِّيَ تَنْـوِينٌ وَأَنْـتَ إِضَـافَةٌ فَـأَيْنَ تَـرَانِي لَا تَحِـلُّ مَكَـانِي[1]

والنُّون كالتَّنوين تُحذَف مع الإضافة ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ من شَرِّهم ﴿بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأَقْوالهم ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ لأَحْوالهم]، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ (استَعِذْ) بمَعنَى: استَجِرْ به واعتَصِمْ به فإنه جَلَّ وَعَلَا نِعْمَ المَعاذُ؛ ولهذا لَمَّا دخَل النَّبيُّ ﷺ على امرأةٍ تَزوَّجها فقالت: أَعوذُ بالله مِنْك. قال: «لَقَدْ عُذْتِ بِمَعَاذٍ الْحَقِي بِأَهْلِكِ»[2] وَترَكها مع أنه تَزوَّجها راغِبًا فيها، لكنَّها استَعاذَت بمَن لا يُمكِن أن يُخفَر جِوارُه أبَدًا، قال: «الْحَقِي بِأَهْلِكِ».

فاستَعِذْ بالله؛ مِن أيِّ شيء؟ يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن شَرِّهِم] والأَوْلى أن يَكون الأمر أعَمَّ. أي: استَعِذ بالله من كل مَكروهٍ، فلا مَلجَأَ للإنسان إلَّا إلى الله عَزَّوَجَلَّ ولا عِياذَ إلَّا به، ولا لِياذَ إلَّا به أيضًا، فهو عَزَّوَجَلَّ نفَرَ منه إليه.

وقوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ختَمَ الآية بالسَّمْع والبصَر؛ لأن ما يُؤذون به النَّبيَّ ﷺ إمَّا قول فيُدرَك بالسَّمْع، أو فِعْل فيُدرَك بالبصَر. يَعنِي: آذَوْك بالقول فنَحن نَسمَع، بالفِعْل فنحن نُبصِر، وهذا فيه من تَطمين الرَّسول ﷺ ما يُعلَم -إن شاءَ الله- في ذِكْر الفَوائِد والله أَعلَمُ.

---

(١) انظر: ذكريات علي طنطاوي (٢/ ٣٤١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب من طلق، رقم (٥٢٥٤)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، ورقم (٥٢٥٥)، من حديث أبي أسيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائِل: صحيح ما ذهَب إليه بعض المفَسِّرين في قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ما تَقدَّم قبلَ الرِّسالة، وأمَّا المُتأخِّر هو تَرْك الأَوْلى من الرسول؟

فالجوابُ: هذا غيرُ صَحيح، الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فعَل أَشياءَ عاتَبه الله فيها بعدَ الرِّسالة ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧].

فلا نُنزِّهُ الرسول إلَّا عمَّا نزَّهَهُ الله عنه، ثُم قُلتُ قبلَ قليل: قد يَكون الإنسان بعد التَّوْبة من المَعصِية خيرًا منه قَبْلها وضرَبْنا لكم مثَلًا بقِصَّة آدَمَ، فدعُوا النُّصوص على ما هي عليه، والله عَزَّوَجَلَّ لا يَظلِم أحدًا أبدًا.

فلمَّا قالوا: إن قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩٠] قالوا: إن هَذِه الآيةَ نزَلَت في آدَمَ وحَوَّاءَ أنها حمَلَت فجاءَها الشَّيْطان فقال: سَمِّيَا ولَدَكما عبدَ الحارِث. فأَبَيا أن يُطيعاه فخَرَج مَيْتًا، ثُمَّ حمَلَت ثانيةً فجاءَهُما وقال: لَتُطيعانِّي أو لأَجْعَلنَّ له قرنَيْ أيل -والأيل نوع من الغُزلان قَرنُه قويٌّ كالحربة- فيَخرُج من بَطنك فيَشُقُّك، فأَدرَكَهما حُبُّ الولَد فسَمَّياه عبدَ الحارِث[1] عبَّداه لغَيْر الله، لا يُمكِن أن يَقَع هذا من آدَمَ ﷺ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١١)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأعراف، رقم (٣٠٧٧)، من حديث سمرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ثُم لو فُرِض أنه وقَعَ هل يُمكِن أن يَذكُر الله السُّوءَ ولا يَذكُر التَّوْبة منه؛ لأنَّا نَقـول: إذا وقَعَ فإمَّا أن يَكون قد تاب منه أو لم يَتُب، فإن لم يَتُب فقـد مات على الشِّرْك، فإن تاب فلَيْس من عَدْل الله عَزَّوَجَلَّ أن يَذكُر السُّوء ولا يَذكُر الخَلاص مِنه.

فنحن نَقولُ: بعضُ العُلَماء -عفا الله عنَّا وعَنْهم- يَتَحايَلون أو يَتَمحَّلون على العِبارة الصحيحة، يَتَمحَّلون في تَنزيه الرسُل عمَّا وصَفَهم الله به، لكن نحن نُؤمِن بأن الرسول يَختَلِف مع غيره في مَسأَلَتَيْن:

المَسأَلة الأُولى: أنه لا يُمكِن أن يَفعَل ما يُخِلُّ بالرِّسالة أو بالشَّرَف.

المَسأَلة الثانِية: إذا فعَل مَعصية فلا يُمكِن إلَّا أن يَتوب منها، لا يُقِرُّه الله على مَعصية، نحن الآنَ جائِز على بني آدَمَ أن يَفعَلوا ما يُخِلُّ بالشَّرَف، يَأتون الفاحِشة، يَزنون، جائِزٌ عليهم أيضًا إذا فعَلوا أن لا يَتـوب، فالرُّسُل يَختَلِفـون عن غيرهم بهذَيْن الأَمْرين.

فالخُلاصةُ: أن بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يَتَمحَّلون بالنِّسبة للرُّسُل عليهم الصلاة والسلام ونحن نَقول: لا نَتَعدَّى القُرآن والحديث أبَدًا: «نبيٌّ مِن الأَنْبياءِ قَرَصَتْه نَمْلةٌ -النَّمْلة مَعروف- فأَحرَق قَرْيَة النَّمْل كُلَّها -شبَّ عليها نارًا- فأَوْحى الله إليه هَلَّا نَمْلة واحِدة، تَقرُصُك نَمْلة وتَروح إلى كل القَرْية فتُحرِقَها بسبَبِ ذَنْب واحِدٍ»[1]؟

وهذا إشارة إلى أن الإنسان يَجِب عليه أن يَتحَرَّى، ثُم هذا النَّملُ لا يُمكِن أن يَتأدَّب، هل تَظُنُّون أن إذا سمِعَت النَّمْلة الأُخرى بهذه القِصَّةِ أن تَتُوبَ عن قَرْص

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب إذا حرق المشرك المسلم هل يحرق، رقم (٣٠١٩)، ومسلم: كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، رقم (٢٢٤١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الناس؟ لا، وأَقول لكم هذا؛ لِئَلَّا تُورِدوا على أن الله تعالى قد يُهلِك الطائِعِين بذَنْب العُصاة ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال:٢٥]؛ لأن هَؤلاءِ الطائِعين مُكلَّفون بإنكار المُنكَر، ثُم إذا أُهلِكوا تَأَدَّب بِهِم مَن سِواهم بخِلاف مَسأَلة قرية النَّمْل.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيان حال الذين يُجادِلون في آيات الله، وأنه ليس لهُمْ دَليل فيما يُجادِلون به، ثُم إن الجِدال في آيات الله يَنقَسِم إلى قِسْمين:

جِدال لإثبات الحَقِّ وإبطال الباطِل وهذا مَأْمور به؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

وجِدالٌ بالعَكْس لإثبات الباطِل وإبطال الحَقِّ، وهذا هو المَذْموم، وعليه تَتَنزَّل مِثْل هذه الآياتِ الكَريمةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ آيات الله عَزَّوَجَلَّ وهي كما قُلْنا في التَّفْسير شَرْعية وكَوْنية.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الحامِلَ لهؤلاءِ المُجادِلين هو الكِبْر والتَّعالي؛ لقوله: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَؤلاءِ لم يَبلُغوا مُرادَهم بما يُجادِلون به؛ لقوله: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ وقد أَشارَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى هـذا في قوله: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١٨]، فتَأَمَّل هذه العِباراتِ القَوِيَّة ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ قَذْف وهو الرَّميُ بشِدَّة ﴿فَيَدْمَغُهُۥ ﴾؛ أي: يَصِل إلى أُمِّ دِماغه فإذا هو زاهِق فيَموت في الحال؛ لأن (إذا) فُجائِيَّة، و(إذا) الفُجائِيَّة

تَدُلُّ على مُفاجأة الشَّيْء.

وهذا يَدُلُّ على أن الحَقَّ غالِب للباطِل ولا مَحالةَ.

فإن قيل: إنَّنا نَجِد المُجادَلة من الكُفَّار أحيانًا لا تُدفَع، يَعجِز الإنسان عن دَفْعها.

فالجواب: نعَمْ هذا ربما يَكون، لكن ليسَتِ العِلَّة من الحُجَّة، بل مِن المُحتَجِّ، فالعِلَّة ليست من الحُجَّة، الحُجَّة قائِمة والحقُّ غالِب، لكن العِلَّة من المُحتَجِّ قد يَكون قليلَ العِلْم؛ ولهذا لا يَنبَغي أن تَدخُل في مُجادَلة غيرِك إلَّا ومعَك عِلْم، وقد يَكون قاصِرَ الفَهْم لا يَفهَم، هو عِنده عِلْم لكن لا يَفهَم، وقد يَكون سَيِّئَ القَصْد يُريد الغلَبة فقَط انتِصارًا لقوله، لا انتِصارًا للحَقِّ، وهذا يَخذُل، وقد يَكون لِعِيِّه، ومَعنى العِيِّ أنه ليس عِنده من البَيان والفَصاحة ما يُؤدِّي إلى الغَلَبة؛ لأن البَيان والفَصاحة لهُما تَأثير كبير في إثبات الحَقِّ، بل قد قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»[1].

فهَذه الأُمورُ الأَربَعة هي الَّتي قد تَجعَل الباطِل يَعلُو ظاهِرًا على الحَقِّ والأربَعة هي واحِد.

أمَّا قِلَّة العِلْم هذه فهي الجَهْل، أو عِيِّه عن التَّعبير عَمَّا في نَفْسه، سُوء القَصْد، الرابع قُصور فَهْمه. هذه الأَرْبعة هي التي تَجعَل من الباطِل مَنارًا يَعلو ظاهِرًا على الحقِّ، وأمَّا الحَقُّ نَفْسه فلا يُمكِن إطلاقًا أن يَغلِبه الباطِلُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الكِبْر سبَب لكُلِّ شَرٍّ؛ ولهذا لا يَدخُل الجَنَّة مَن في قَلْبه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٥١٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مِثقال حَبَّة خَردَلٍ من كِبْر، ونوع هذا الكِبْرِ الذي في هَؤلاءِ المُجادِلين هل هو بطَر الحَقِّ وغَمْط الناس، هـذا الكِبرُ -والعِياذُ بالله- جمَعَ نوعَي الكِبْر، وهو غَمْط الحَقِّ ورَدُّه، والثاني ازدِراء الناس بطَر الحَقِّ وغَمْط الناس.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَثبيت النَّبيِّ ﷺ؛ لقوله: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَيْئيس هَؤلاءِ المُجادِلين بأنهم لن يَبلُغوا مُرادَهم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الاسْتِعاذة بالله في مَقام المُجادَلة مَشروعة؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ وذلك أن المُجادِل سيُورِد من الشُّبَه ما يُخشَى أن تُؤثِّر عليه، فإذا استَعاذ بالله واعتَصَم به أَنجاهُ الله من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ في المُجادَلة أَمَر بالاستِعاذة بالله، وعِند الحُكْم أَمَر بالاستِغْفار ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٠٦]، وذلك لأن الذُّنوب تَحول بين الإنسان وبين تَبيُّن الحَقِّ، وأمَّا في مَقام المُجادَلة فالإنسان مُحتاج إلى مَن يَلتَجِئ إليه ويَعتَصِم به؛ فلهذا قال: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات السَّمْع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ وإثبات البصَر؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ والسَّمْع ذكَرَ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أنه يَنقَسِم إلى قِسْمَيْن: الأَوَّل: إدراك المَسموع، والثاني: الاستِجابة.

فأمَّا إدراك المَسموع فيَرِد لمَعانٍ مُتَعدِّدة:

أَوَّلًا: بَيانُ سَعة سَمْع الله عَزَّوَجَلَّ، مِثاله قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]؛

ولهذا قالَتْ عائِشةُ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْواتَ»[1].

الثاني: التَّهديد كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

الثالِث: التَّأييد كقوله تعالى لمُوسى وهارونَ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

أمَّا السَّمْع الذي بمَعنى الاستِجابة فكَقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]؛ أي: مُجيبُه، وكقول المُصلِّي: سمِعَ الله لَمن حَمِدَه. أي: استَجاب لَمَنْ حَمِده، وأمَّا البَصيرُ فلها مَعنَيان: المَعنَى الأوَّل: المُدرِك ببَصَره كلَّ شيء فيَكون بمَعنَى الرُّؤْية؛ والثاني: العِلْم، يَعنِي: أنه عليم بكُلِّ شَيْء.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثبات السَّمْع والبصَر مَعًا، وهو أدَلُّ على الكَمال من انفِراد أحدِهما، وذلك لأن المُجادِل قد يَقول وقد يَفعَل، فهدَّده الله عَزَّوَجَلَّ بهذا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾؛ لأن المُستَعيذ بالله إمَّا أن يَستَعيذ من أقوال، وإمَّا أن يَستَعيذ من أَفْعال.

• • ❁ • •

(١) علقه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (٩/ ١١٧). ووصله الإمام أحمد (٦/ ٤٦)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه: في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨).

الآية (٥٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر:٥٧].

ثُم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ اللَّام هنا لامُ الابتِداء، وتُفيد التَّوْكيد، و﴿ لَخَلْقُ ﴾ مُبتَدَأ، و﴿أَكْبَرُ﴾ خبَر المُبتَدَأ، ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هي السَّبْع الطِّباق ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ هي الأَرْض التي نحن عليها، وقد جاءَتِ السُّنَّة بأنها سَبْع تصريحًا، كما في قول النَّبيِّ ﷺ: «**مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»(١) وأَوْمَأ القُرآن إلى ذلك في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]؛ لأن المُماثَلة هنا لا يُمكِن أن تَكون في الصِّفة؛ لظُهور المُماثَلة في السَّموات والأرض، لكنها مِثْلها في العدَد.

وقوله: ﴿أَكْبَرُ﴾ خبَرُ المُبتَدَأ؛ أي: ﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ يَعنِي: من إيجاد الناس ابتِداء، أو إعادة ابتِداء، وإعادة إيجاد السَّموات والأرض أَكبَرُ من إيجاد الناس ابتِداء وإعادة.

يَقولُ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ونزَلَ في

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٢، ٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

مُنكِري البَعْث: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ابتِداءً ﴿أَكْبَرُ﴾ من خَلْق الناس مرَّة ثانِيةً] فقَيَّد خَلْق الناس بالمَرَّة الثانية [وهي الإعادة] بِناءً على أن الآية نزَلَت في مُنكِري البَعْث، والصَّواب أن الآية نزَلَت فيما هو أَعَمُّ، نزَلَت في مُنكِري البَعْث وفي بَيان قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ.

وعلى هذا فنَقول: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ابتِداءً ﴿أَكْبَرُ﴾ من خَلْق الناس ابتِداءً وإعادةً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: كُفَّار مَكَّةَ] ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وفي هذا التَّفسيرِ قُصور؛ لأن أكثَرَ الناس أعَمُّ من كونهم من مكَّةَ أو غيرهم ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾؛ لأنهم لا يَتَفَكَّرون في خَلْق السَّمَوات والأرض فهُمْ جاهِلون لا يَعلَمون.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذا إثبات أن السَّمواتِ والأَرْضَ أَعظَمُ من البَشَر وهذا واضِحٌ، بل إن البَشَر جُزْء من الأرض؛ لأنهم خُلِقوا من طين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إقامة الحُجَّة على مُنكِر البَعْث بأنكم إذا أَقرَرْتم بأن الله خالِق السَّمَوات والأرض؛ لزِمَكم أن تُقِرُّوا بأنه قادِر على خَلْق الناس؛ لأن مَن قَدَر على الأَعْظم فهو على ما دونَه أقدَرُ، وقد أَقام الله أيضًا أدِلَّة كَثيرةً على إثبات البَعْث منها هذه الآيةُ، وهي الاستِدْلال بالأَعظَم على الأدنى، ومنها قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، ﴿وَهُوَ﴾ الضمير يَعود على الإعادة ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ من الابتِداء وهذا شيء مَعلوم بالحِسِّ وبالعَقْل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات البَعْث، وجهُ الدَّلالة قولُه: ﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأن المَقْصود من الآية تَقرير البَعْث.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن أَكثَر الناس في غَفْلة وجَهْل؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا يُشبِه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام:١١٦]، فاحْرِصْ على ألَّا تكون من هَؤلاءِ الذين لا يَعلَمون.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن العِلْم في الناس قَليلٌ؛ لأنه إذا كان أَكثَرُهم لا يَعلَم؛ لزِمَ أن يَكون الذي يَعلَم هو الأَقَلَّ.

فإن قال قائِلٌ: هل المُراد نَفْيُ العِلْم أو نَفيُ فائِدة العِلْم؟

فالجَوابُ: المُرادُ الأَمْران فأكثَرُ الناس في جَهْل وأَكثَرُ الناس أيضًا، وعِندهم عِلْم لم يَنتَفِعوا بعِلْمهم، ولم يَستَفيدوا منه.

الآية (٥٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر:٥٨].

قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ هذان المَثَلان بيَّنَهما الله عَزَّوَجَلَّ: الأوَّل: الأَعْمى والبَصير لا يَستَوِيان، ولا أَحَدَ من الناس يَقول: إنَّهما يَستَويان، ولا الذين آمَنوا وعمِلوا الصالِحاتِ ولا المُسيءُ. يَعنِي: إذا تَقرَّر أنه لا يَستَوِي الأعمى والبَصيرُ، فكذلِكَ لا يَستَوِي الَّذين آمَنوا وعمِلوا الصالحاتِ والمُسِيءُ، لا يُمكِن.

تنبيه: ليس المُرادُ ذمُّ الأَعْمى والبَصير حتى يُقال: إنَّهما ليس لهما إرادة، المُرادُ بَيان حالِهم أنهما لا يَستَوِيان بالاتِّفاق.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فهُمْ] أيِ: الَّذين لا يَهتَدون [كالأَعْمى ومَن يعلمه كالبَصير] جاء بذلِك المفَسِّر تَوطِئةً لبيان مُناسَبة الآية لما قَبْلها، ولكن قد يُقال: إنها استِئْناف، بيَّن الله بها أنه لا يَستَوِي هَؤلاءِ وهَؤلاءِ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ﴾؛ أي: لا يَتَساوَيان ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهُوَ المُحسِن ﴿وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ فيه زِيادة اللَّام]، وكأن التَّقدير على كَلام المفَسِّر: ولا الَّذين آمَنوا وعمِلوا الصالِحات والمُسيء، وهذا المَعنَى واضِح، لكن قوله:

[وهُوَ المُحسِن] يَعنِي: أن الذي آمَن وعمِل الصالِحاتِ مُحسِن؛ لقوله ﷺ: «**الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»(١).

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ ﴿ءَامَنُواْ﴾ بالقَلْب ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ بالجَوارِح، وذلك أن الإيمان مَتى وقَر في القَلْب صدَّقَتْه الأَعْمال، وقوله: ﴿ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ وَصْف لمَوْصوف مَحذوف، والتَّقدير: الأَعْمال الصالِحات، والعمَل الصالِح ما اجتَمَع فيه أَمْران:

الأَوَّل: الإِخْلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

والثاني: المُتابَعة لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ.

فبفَقْد الأَوَّل يَكون الشِّرْك، وبفَقْد الثاني تَكون البِدْعة، والله عَزَّوَجَلَّ لا يَقبَل عَمَلًا أُشرِك فيه معَه غيرُه، ولا يَقبَل بِدْعة ابتَدَعها أَحَد في دِينه.

قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في الحَديث القُدسيِّ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(٢) وقال النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٣).

إِذَنْ: فلا بُدَّ من إخلاص لا شِرْكَ معه، ومُتابَعةٍ لا ابتِداعَ معَها، وبذلِك يَكون العمَل صالِحًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

وقوله: ﴿وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ﴾ يَعنِي: فاعِل السَّيِّئات، والسَّيِّئات هي إمَّا تَفريط أو إفراط؛ أي: إمَّا تَفريط بالنَّقْص والقُصور وإمَّا إفراط بالزِّيادة، وكِلاهما إساءة.

ثُم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَتَّعِظون؛ بالياء والتاء؛ أي: تَذكُّرُهم قليلٌ جِدًّا] قوله: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: يَتَّعِظون وفيها قِراءَتان: «يَتَذَكَّرُونَ» و﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾، وكِلاهما صَحيحتان سَبْعيتان.

ثُمَّ أَشار المفَسِّر إلى إعراب هذا التَّرْكيبِ، وهو كَثير في القُرآن، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: تَذكُّرهم قَليلٌ جِدًّا] وعلى هـذا تَكون (ما) مَصدَرية، أي: تَذكُّرهم تَذكُّرٌ قَليلٌ، ولكن الذي يَظهَر أن ﴿قَلِيلًا﴾ صِفة لمَوْصوف مَحذوف مَفعول مُطلَق؛ أي: يَتَذكَّرون تَذكُّرًا قليلًا و﴿مَّا﴾ هذه زائِدة للتَّوْكيد، تَوْكيد القِلَّة؛ يَعنِي: قَليلًا قَليلًا، وعلى هذا فتكون الجُمْلة مُركَّبة من فِعْـل وفاعِل ومن مَفعول مُطلَق الذي هو (قَليلًا)؛ لأنه صِفة لمَصدَر مَحذوف، ومن (ما) الزائِدةِ للتَّوْكيد.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: ضَرْب الأَمْثال، وهو إلحاق المَعقول بالمَحْسوس، وجهُ ذلك أن انتِـفاء الاستِواء في الأعمى والبصير أَمْر مَعلوم بالحِسِّ، وانتِفاء استِواء الذين آمَنوا وعمِلوا الصالِحاتِ والمُسيءِ أَمْر مَعلوم بالعَقْل.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه يَنبَغي لمُعـلِّم الناس أن يَربِط المَعقولات بالمَحْسـوسات؛ لأن ذلك أَقرَبُ إلى الفَهْم وأَدعَى إلى التَّصديق؛ إذ إن المَحسوس لا يُنكَر، لكن المَعقول قد يُكابِر فيه مَن يُكابِر ويُنكِره.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: نَفيُ المُساواة بين الأمور المُختَلِفة وهذا من قَواعِد الشريعة أنها

لا تُساوِي بين مُختَلِفين، ولا تَجمَع بين مُفتَرِقين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن من الناس مَن يُطَنْطِن ويَقول: إن الدِّين الإسلاميَّ دِين المُساواة، وهـذا خطأ، الدِّين الإسلاميُّ دِين العَـدْل وليس دِين المُساواة، الذين يَقولون: إنه دِين المُساواة يُريدون أن يَتَحوَّلوا من هذا إلى التَّسوية بين الرجُل والمرأة، وبين الشَّريف والوَضيع، وهذا خطأ، فإن الله تعالى جعَل لكل إنسان ما يَليق به شَرْعًا وقَدَرًا؛ ولهذا لم يَأتِ حَرْف واحِد في القُرآن فيه أن الناس سواءٌ أبَدًا، أكثَرُ ما يُوجَد في القرآن نفيُ الاستِواء أي: نَفيُ المُساواة، لكن العَدْل جاء في القُرآن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠]، ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النساء:٥٨]، ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وذلك لأن العَدْل يَعنِي: أن نُنزِل كل إنسان مَنزِلته فإذا استَوَى إنسانان في مَنزِلة سَوَّيْناهما في الحُكْم، أو ساوَيْنا بينهما في الحُكْم، وإذا اختَلَفا فرَّقْنا بينهما.

والعجَبُ أن كثيرًا من كُتُب المُتأخِّرين يَقـولون بذلك، وهـذا أَمْر قد يَدعو أيضًا إلى التَّسوية بين المُسلِم والكافِر؛ لأن كُلًّا منهما إنسـان بشَر، لكن إذا قُلْنا: العَدْل صار الكافِر لا يُمكِن أن يَلحَق بالمُسلِم؛ لأن ذلك جَوْر وظُلْم في حَقِّ المُسلِم، وغُلوٌّ وإفراط في حقِّ الكافِر.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فضيلة الإيمان والعمَل الصالِح وسُوء العمَل السَّيِّئ؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن كثيرًا من الناس لا يَتَذكَّرون إلَّا قليلًا؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن في هذه الآيةِ شاهِدًا؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، وقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣].

• • ۞ • •

الآية (٥٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر:٥٩].

ثُم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ هذه الجُملةُ مُؤكَّدة بمُؤكِّدين هما: (إنَّ) واللَّام، ثُم أَكَّد هذا التَّأكيد وهو تَأكيد مَعنَويٌّ، والأوَّل تَأكيد لَفْظيٌّ ﴿لَّا رَيْبَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [شَكَّ] ﴿فِيهَا﴾ أي: في إتيانها ووقوعها، والمُراد بالساعة اليوم الذي يُبعَث فيه الناس، وسُمِّيَ ساعة؛ لأن الناس يُطلِقون الساعة على الأَمْر الذي يَدهى الناس ويَفجَعهم حتى لا يَشعُرون به.

والرَّيْب فسَّره المفَسِّر بالشَّكِّ، وهو تَفسير قريب، لكن تَجِد فَرْقًا يَسيرًا لطيفًا بينهما؛ أي: بين الرَّيْب والشكِّ، وهو أن الرَّيْب شكٌّ بافتِراض وتَردُّد، فقول القائِل: ارْتَاب ليس بالتَّحديد كقوله: شكَّ، بل الاِرْتِياب يَحمِل قلَقًا واضطِرابًا، فهو إِذَنْ أَخصُّ من الشكِّ، فكُلُّ رَيْب شكٌّ، وليس كل شَكٍّ رَيبًا، لكن العُلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يُفسِّرون الشيء بمُقارِبه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يُؤمِن بإتيان الساعة؛ ولهذا أكَّد لهم إتيانها، ولمَّا كان أَكثَر الناس لا يُؤمِنون بها كان أكثَرُ الناس كافِرين؛ لأن الإيمان بالساعة له أثَرٌ عَظيم في تَحقيق الإيمان، فإن مَن لا يُؤمِن بالساعة لا يَعمَل،

لأيِّ شيء يَعمَل وهو لا يُؤمِن بيوم الحِساب؟ ومَن آمَن بيَوْم الحِساب كان حَريصًا على أن يَنْجوَ من وَبال هذا اليَوْمِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: ثُبوت قيام الساعة ثُبوتًا مُؤكَّدًا؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّحذير من إهمال هذه الساعةِ وعدَم العمَل لها؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وُجوبُ الإيمان بالبَعْث؛ لأنه خبَرٌ من الله مُؤكَّد، وكل أخبار الله تعالى صِدْق، وكلُّ وَعْد الله حقٌّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: النَّهيُ عن الارْتِياب في هذه الساعةِ؛ لأن قوله: ﴿لَا رَيْبَ﴾ فيها يُحتَمَل أن يَكون خبَرًا مُجرَّدًا للتأكيد، ويُحتَمَل أن يَكون خبرًا بمَعنى الأَمْر؛ أي: فلا تَرْتابوا فيها، ويُحتَمَل أن يَكون خبَرًا بمَعنَى النَّهيِ؛ أي: فلا تَرْتابوا فيها، ونَظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢] فإن فيه تَفسيرَيْن: الأوَّل: أنه خبَرٌ مَحْض، والثاني: أنه خبَر بمَعنى النَّهيِ؛ أي: لا تَرْتابوا فيه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن أكثَر الناس لا يُؤمِنون بهذه الساعةِ ويُنكِرونها، يَقولون: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الرَّدُّ على كلِمة مَشهورة، بل إبطال الكلِمة المَشهورة، وهي أن الإنسان إذا مات قالوا: عاد إلى مَثواهُ الأَخيرِ. فإن هذه الجُملةَ باطِلة؛ لأن القَبْر

ليس المَثوَى الأخيرَ، المَثوَى الأخيرُ هو الجَنَّة والنار، أمَّا القَبْر فإنه زِيارة مَعبَر كما أن الدنيا مَعبَر كذلك القبر مَعبَر؛ ولهذا سَمِع أعرابيٌّ قارِئًا يَقرَأ قول الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:١-٢] فقال الإعرابيُّ: (واللهِ ما الزائِرُ بمُقيم، وإن هُناكَ شَيْئًا وراءَ القُبورِ)؛ يُستَنبَط من قوله: ﴿زُرْتُمُ﴾، فالزائِرُ يَبقَي مُدَّة، ثُم يَرتَحِل.

إِذَنْ: إذا سمِعنا مَن يَقول: إن هذا دُفِن في مَثواهُ الأَخيرِ. أو ما أَشبَه ذلك، فإننا نُنكِر عليه ونَقول: اعدِلْ عن هذه الكلِمةِ؛ لأنها كلِمة مَضمونها لو اعتَقَده القائِل لكان كافِرًا.

• • ۞ • •

الآية (٦٠)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ لَمَّا ذكَر الساعة ذكَر ما يَكون به الوِقاية من وَبالِها، وهو دُعاء الله، فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾ وأَتى بجُملة بصيغة الغَيْبة تَعظيمًا له عَزَّوَجَلَّ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ ولم يَقُل: أَقولُ، أو قُلْنا. أو ما أَشبَهَ ذلك تَعظيمًا لله.

وقوله: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾ أَمْر، و﴿أَسْتَجِبْ﴾ جوابُه جَواب الطلَب، والدَّعْوة هنا تَشمَل دُعاء المَسأَلة ودُعاء العِبادة، فدُعاء المَسأَلة أن يَقول الإنسان: يا رَبِّ اغفِرْ لي. ودُعاء العِبادة أن يَتعبَّد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما شرَع، وإنما كانَتِ العِبادة دُعاءً؛ لأنها مُتضَمِّنةٌ لطلَب الإنسان النَّجاة من النار ودُخول الجَنَّة، لو سأَلْت كلَّ عابِد: لِمَ تَدعُو الله؟ قال: أُريد أن أَنجوَ من النار وأَدخُل في رحمة الله، إِذَنْ فهو مُتضمِّن للدُّعاء بلِسان الحال.

وقوله: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ نُفسِّرها في مُقابِل دُعاء المَسأَلة بإعطائكم ما سأَلْتم، ونُفسِّرها بدُعاء العِبادة بالقَبول. يَعنِي: أَتقبَّل منكم. فاستِجابة الله تعالى لدُعاء المَسأَلة أن يُعطِيَ السائِل ما سأَل، واستِجابته لدُعاء العِبادة أن يَتقبَّل من العابِد.

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: ادْعُوني أُثِبْكم بقَرينة ما بعدَه] وهذا التَّفسيرُ بِناءً على تقدُّم يُعتبَر تَفسيرًا قاصِرًا، وأمَّا ما بعده فليس قَرينة لتَخصيص هذا، بل نَقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ تَدُلُّ على أن الدُّعاء عِبادة؛ لأنه قال: ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾، ثُمَّ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ ولا شَكَّ أن الذي يَستكبِر عن دُعاء الله ويَرَى أنه غَنيٌّ عن الله وليس مُحتاجًا إليه لا شَكَّ أنه مُستَحِقٌّ لهذا الوَعيدِ، وهو أنه سيَدخُل جَهنَّمَ صاغِرًا.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ هذا من جُملة المَقول ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بفَتْح الياء وضَمِّ الخاء وبالعَكْس] «يُدخَلون» وهُما قِراءَتان سَبْعيتان صَحيحتان.

﴿جَهَنَّمَ﴾ اسمٌ للنار، وهو اسمٌ مُعرَب وأَصلُه -على ما قيل- كهَنَّام، وقيل: بل هو عرَبيٌّ، والنون فيه زائِدة وأَصلُه من الجهمة يَعنِي: الظُّلْمة، وأيًّا كان فهو علَمٌ على النار، أَجارَنا الله وإيَّاكُم منها.

وقوله: ﴿دَاخِرِينَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [صاغِرين] الداخِر: الصاغِر.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ القَوْل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا القولُ هل هو قولٌ نَفسيٌّ لا يَظهَر أو هو قَوْل ظاهِر؟

الثاني قول ظاهِر؛ لأن القولَ النَّفسيَّ إذا أُريد قُيِّد كما في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة:٨]، ﴿يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ [آل عمران:١٥٤]، فإذا أُطلِق القولُ صار المُراد به الكَلامَ المَسموعَ، وهذا

قول السلَف، وأَئِمَّة الخلَف أن الله يَتكَلَّم، ويَقول بقَوْل مَسموع وبحَرْف: أنك إذا ادْعُوني سأَستَجِب لكم؛ وهذه كلِماتٌ مُركَّبة من حروف، إِذَنْ يَتكَلَّم بحرف وصوت عَزَّوَجَلَّ.

وقول مَن قال: إن كَلام الله هو المَعنَى القائِم بالنَّفْس، وإن ما يُسمَع عِبارة عن كلام الله، خلَقه الله ليَسمَعه الناس، وإلَّا فإن كلامه في نَفْسه فقَطْ، باطِل؛ أي: هذا قول باطِل؛ لأنَّنا إذا فسَّرْنا القول بهذا صار مَعناه العِلْم وليس القول.

والآنَ نُريد أن نُقارِن بين قولَيْن، قول يَقول: الذي في المُصحَف فهو كَلام الله مَخلوق. وقول آخَرُ يَقـول: الذي في المُصحَف فهو عِبارة عن كلام الله مَخلوق. أيُّهما أقرَبُ إلى الصَّواب؟

الجوابُ: الأوَّل، الأوَّل قول الجَهمية والمُعتَزِلة، والثاني قول الأشاعِرة، فتَبيَّن الآنَ أن قول المُعتَزِلة والجَهْمية في كلام الله خير من قول الأشاعِرة، مع أنهم يَدَّعون؛ أي: الأشاعِرة أنهم من أهل السُّنَّة والجَماعة، وكيف يَكون هذا؟!

إِذَنْ: نُثبِت من هذه الآيةِ القولَ لله تعالى، والقول لا يَكون إلَّا بنُطْق مَسموع وبحُروف.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان عظَمة الربِّ وتَعاظُمه من قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾، فإن هذا الصِّيغةَ تَدُلُّ على عظَمة القائِل عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الرُّبوبية لله، وهي تَنقَسِم إلى قِسْمَيْن عامَّة وخاصَّة، فالعامَّة: الشامِلة للخَلْق، وهي تربية الخَلْق بالنِّعَم وتَغذيتهم بالنِّعَم، والخاصَّة: هي تربية عِباد الله المُؤمِنين؛ حيث ربَّاهم الله عَزَّوَجَلَّ على ما يُحِبُّ، وقدِ اجتَمَع النَّوْعان

في قوله تعالى عن السَّحَرة آل فِرعونَ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢] فالعامَّة ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والخاصة: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وُجوب دُعاء الله تعالى، تُؤخَذ من قوله: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾؛ لأنها تَتضَمَّن: لا تَدعوا غَيري.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله تَكفَّل ووعَد الداعِيَ بأنه يُجاب؛ لقوله: ﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾.

فإن قال قائِلٌ: نَدعو كثيرًا ولا نَرى إجابةً ونَعمَل كثيرًا، ولا نُحِسُّ بقَبول، فما الجَوابُ؟

الجوابُ أن نَقول: الأسباب لا تُؤثِّر إلَّا إذا وَجَدت مَحَلًّا قابِلًا، أَرَأَيْتم السِّكِّين إذا قَدَدْت بها اللَّحْم فإنه يَنقَطِع، وإذا قدَدْت بها الحَديد لا يَنقَطِع مع أنها في اللَّحْم بتَّارة، وفي الحَديد لا تَعمَل شيئًا، فالسبَب لا بُدَّ أن يَكون له مَحَلٌّ قابِل، وإلَّا فلا أثَرَ له.

ففي العِبادة يَعبُد الإنسان ربَّه ولا يَشعُر بقَبول؛ لوجود سبَب يَمنَع ذلك، إمَّا فواتُ شَرْط أو رُكْن أو واجِب، أو حُدوث مُفسِد، وإلَّا لو أنَّا أَقَمْنا العِباداتِ على ما طُلِب منا لوجَدْنا لها أثرًا، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥] مَن مِنَّا يَشعُر إذا صلَّى بكَراهة الفَحشاء والمُنكَر؟ والصلاة تَنهَى عن الفَحْشاء، فلِماذا لا نَشعُر بهذا؟

الجواب: لأنَّنا مُقصِّرون.

ففي الدُّعاء دائِمًا نَدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا نَرى إجابة؛ فنَقول فيها كما قُلْنا

في الأوَّل-: أن السَّبب لا بُدَّ له من مَحلٍّ قابِل، فإذا دعا الإنسانُ ربَّه لكن قد فاتَه شيء من آداب الدُّعاء الواجِبة أو المُستَحبَّة، أو وُجِد مانِع يَمنَع من قَبول الدُّعاء، فليس الخلَل في الدُّعاء، بل الخلَل في الداعِي والمَحَلِّ.

ولْنَضرِب مثَلًا بإنسان دعا وهو لا يَشعُر بالافتِقار إلى الله عَزَّوَجَلَّ ولا يَشعُر بالفِرار إلى الله، فهذا دُعاؤُه ناقِص جِدًّا، إذا قلت: رَبِّ اغفِرْ لي. مثَلًا لا بُدَّ أن تَشعُر أن هُناك ذُنوبًا تَحتاج إلى المَغفِرة، وأنك في أشَدِّ ما يَكون من الضَّرورة إلى مَغفِرة هذه الذُّنوبِ؛ لأن هذه الذُّنوبَ إذا لم تُغفَر فيا وَيلَكَ! ذَنْب مع ذَنْب يَكون كبيرة؛ ولهذا نَهَى الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن مُحقَّرات الذُّنوب، وقال: «**إِنَّ مَثَلَهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضًا، فَأَتَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِعُودٍ فَجَمَعُوا حَطَبًا كَثِيرًا وَأَضْرَمُوا نَارًا كَبِيرَةً**»(١) مع أن الواحِد منهم أتَى بعُود واحِد.

فالمُهِمُّ: أنك لا بُدَّ أن تَشعُر حين الدُّعاء أنك في غاية الضَّرورة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

ثانيًا: من الآداب التي فَقْدُها سببٌ لمَنْع الإجابة أن يَكون عندك شَكٌّ في قَبول الله عَزَّوَجَلَّ لدُعائك، أو في استِجابة الله لدُعائِك، مِثْل أن تَستَعظِم المَدعوَّ به، تَقول: هذا لا يَحصُل. هذا غلَط هذا مِمَّا يَمنَع الإجابة، ولهذا نَهَى النبيُّ ﷺ عن قول القائِل: اللهُمَّ اغفِرْ لي إنْ شِئْتَ. وقال: «**لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ وَلْيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُ عَلَيْهِ شَيْءٌ أَعْطَاهُ**»(٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٤٠٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له، رقم (٦٣٣٩). ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت، رقم (٢٦٧٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كذلك أيضًا من أَسْباب مَنْع الإجابة أن يَدعوَ الإنسان بإثمٍ أو قَطيعة رَحِم، فيَدعو بإِثْم، مثل أن يَدعوَ على شخص لا يَستَحقُّ الدُّعاء عليه، فهذا إِثْم، كأَنْ يَدعوَ على ولِيِّ أَمْر أَساء في مَسأَلة من المَسائِل فيَقول: اللَّهُمَّ لا تُوفِّقْه. وما أَشبَه ذلك اعتِداء في الدُّعاء، إذا رأَيْت ولِيَّ أَمْر صغيرًا كان أم كبيرًا أَخطَأ فليس عِلاجه: اللَّهُمَّ لا تُوفِّقْه. عِلاجه أن تَقول: اللَّهُمَّ وَفِّقْه. يُصلِح ويُصلِح الله به، هذا من الاعتِداء في الدُّعاء الذي لا يُقبَل.

من الاعتِداء في الدعاء قَطيعة الرحِم أن تَدعوَ بقَطيعة الرحِم أيضًا لا يُقبَل. دُعاء الظالِمِ على مَظلومه لا يُقبَل؛ لأنه إِثْم.

ومثال الاعتداء في الدعاء: لو قال: اللَّهُمَّ إني أَسأَلُك أن تَجعَلني من الرُّسُل الكرام. هذا مُعتَدٍ في الدعاء، اللَّهُمَّ اجعَلني لا أُذنِبُ ذنبًا. عُدوان في الدُّعاء، أما أن يقول: اللَّهُم إني أَسأَلُك أن تَقلِب هذا المَسجِدَ من ذهَب وزُمُرُّد. فهذا الله على كل شيء قديرٌ: كُنْ فيَكون، لكن هذا خِلاف العادة، وهو أيضًا في الغالِب لا فائِدةَ منه.

وممَّا هُو مُمكِن لا شيءَ فيه: الله يَجعَلُك كسِيبَوَيْهِ في النَّحْو، وكابن تَيميَّةَ في العِلْم، يقولون: إنه سُمِع واحِد يَطوف في الكعبة فسمِعه شخص وهو يَقول: اللهُمِّ إني أَسأَلُك نَحوًا كنَحْو ابن هِشام، وفِقهًا كفِقْه شيخ الإسلام. فالله على كل شيء قَديرٌ لعله يُعلِّمك.

رابِعًا: أَكْل الحَرام من مَوانِع القَبول؛ لأن النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ذكَر الرجُل يُطيل السفَر أَشعَثَ أَغبَرَ يَمُدُّ يَدَيْه إلى السَّماء يا ربِّ يا ربِّ. كلُّ هذه الوجوهِ الأَرْبعة من أسباب إجابة الدُّعاء ومَطعَمه حرام ومَلبَسه حَرام وغُذِّيَ بالحَرام قال النَّبيُّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»[١] هذه كلُّها تَمنَع، أو تَحول بين الإنسان وبين قَبول دُعائه واستِجابة الله له، فإذا لم يُوجَد المَوانِع، وكان المَحلُّ صالِحًا وقابِلًا بَقِيَ، لكن بَقِيَ شيء وراءَ ذلك، وهو مَشيئة الله عَزَّوَجَلَّ قد يَدفَع الله عن الإنسان من الشَّرِّ ما هو أَعظَمُ مِمَّا طلَب، وقد يُجيب ما طلَب، وقد يَدَّخِر ذلك له أَجْرًا يوم القيامة كما جاء في الحديث، وإلَّا فنحن واثِقون غاية الثِّقة من صِدق قوله تعالى: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وأنه لا بُدَّ أن يَكون.

فإن قال قائِلٌ: هل ما يَقول به بالقَلْب أو بالنَّفْس يُسمَّى قولًا؟

فالجَوابُ: لا، إلَّا إذا قُيِّد.

فإن قال قائِل: إذا نطَقْنا به؟

فالجَوابُ: لا، إلَّا إذا قُيِّد فقيل: قال في نَفْسه ما حَدَّثت به أَنفُسنا.

فإن قال قائِل: قول الأشاعِرة: ما يَقول بالنَّفس. هل هذا صَحيح؟

فالجوابُ: لا، ليس صحيحًا، هذا كلام باطِل؛ ولهذا الآنَ وازَنَّا بين قولهم وبين قول المُعتَزِلة فصار قول المُعتَزِلة أقرَبَ إلى الصواب منهم؛ لأنهم يَقولون: هذا الذي في المُصحَف كلام الله مَخلوق، وهو كَلام الله حَقيقةً، ولكنه مَخلوق، وأُولَئِك يَقولون: مَخلوق وعِبارة عن كلام الله.

فإن قال قائِل: قول عُمرَ بنِ الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا أَحمِل هَمَّ الإجابة، ولكن أَحمِل هَمَّ الدُّعاء[٢] هل يَقصِد أن الإنسان قد لا تَتوفَّر له أسباب القَبول؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٨/ ١٩٣).

فالجوابُ: نعَمْ؛ يَقصِد أن الإنسان قد لا تَتَوفَّر له أسباب القَبول، وأنتم الآنَ حاسِبوا أَنفُسكم هل أنت إذا كنت في الصلاة وقُلت: ربِّ اغفِرْ لي وارْحَمْني بين السَّجْدتَيْن، هل تَشعُر بأن هناك ذُنوبًا ثَقيلة تَسأَل الله الخَلاصَ منها، أو أنها كلِمة تَقولُها لتَأتِيَ بالواجِب؟ الواقِع أننا إذا حاسَبْنا أنفُسنا وجَدْنا عِندنا نقصًا عظيمًا، الإنسان إذا دعا الله عَزَّوَجَلَّ بمُجرَّد دعاء الله يَستَنير قلبه؛ لأن الدُّعاء عِبادة، ولكن نَسأَل الله أن يُعينَنا وإيَّاكم على ذِكْره وشُكْره وحُسْن عِبادته.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الذين يَستكبِرون عن عِبادة الله سيَدخُلون جَهنَّمَ على وجهِ الذُّلِّ والصَّغار؛ لقوله: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الجَزاء من جِنْس العمَل يَعنِي: العُقوبة تُقابِل الجُرْم؛ لأنهم لَمَّا استكْبروا في الدنيا أُدخِلوا النار صاغِرين، وفي الآخِرة سيَدخُلون جَهنَّمَ داخِرين.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات النار؛ لقوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الدُّعاء من العِبادة؛ لقوله: ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾، ثُم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾.

• • ❁ • •

الآية (٦١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر:٦١].

ثُم قال الله تعالى مُبيِّنًا نِعمَته على عِباده: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ ﴿ٱللَّهُ﴾ مُبتَدأ، و﴿ٱلَّذِى﴾ خبرُه، و﴿جَعَلَ﴾ بمَعنى: صيَّر، ونَصَبت مَفعولَيْن الأوَّل: ﴿ٱلَّيْلَ﴾، والثاني: ﴿لَكُمُ﴾، والجَعْل هنا جَعْل قدَريٌّ وليس جَعْلًا شَرعيًّا ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ اللَّام هنا للتَّعدِية مع التعليل، وقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ اللَّام للتَّعليل والسكون ضِدُّ الحرَكة وضِدُّ العمَل، وهو شامِل لسُكون الجَوارِح، وسُكون القَلْب، وسُكون النَّفْس؛ ولهذا يَجِد الإنسان إذا تَعِب ثُم نام يَجِد أن نَشاطه يَستَجدُّ ويَزداد.

وقوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يَعنِي: وجعَل النهار مُبصِرًا، هذه مَعطوفة على ﴿ٱلَّيْلَ﴾؛ أي: جعَل النَّهار مُبصِرًا، وإسناد الإبصار إلى النهار؛ لأنه مَوْضِعه؛ أي: مَوضِع إبصار الناس؛ ولهذا قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إسناد الإِبْصار إليه مَجازِيٌّ؛ لأنه يُبصَر فيه] فهو زمَن الإِبْصار ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ محَلُّ عمَل وبصَرها.

ثُم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أكَّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كونَه ذا

فَضْل على الناس بـ﴿إِنَّ﴾ واللَّام، و(ذو) بمَعنَى: صاحِب، ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ﴿فَضْلٍ﴾ بمَعنَى: إفضال، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المُتفَضِّل على العِباد، ومنه أي: من فَضْله جعَل الليل سكَنًا والنهار مُبصِرًا.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ عامَّة تَشمَل المُؤمِن والكافِر، وهذا هو الواقِعُ؛ لأن الليل سكَن للمُؤمِنين والكافِرين، والنهار مُبصِر للمُؤمِنين والكافِرين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ يَعنِي: مع كون الله ذا فَضْل على الناس أَكثَرهم لا يَشكُر -والعِياذ بالله- أَكثَرُهم كافِر.

ولهذه الآيةِ نَظائِرُ منها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وجاءَت السُّنَّة بمِثْل ذلك؛ حيث أَخبَر النبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله يُنادِي يوم القِيامة: «**يَا آدَمُ أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. فَيُخْرِجُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ كُلُّهُمْ فِي النَّارِ**»[1] من الأَلْف واحِد يَنجو.

والشُّكْر هو الاعتِراف للمُنعِم بالنِّعمة بالقَلْب واللِّسان والجَوارِح، الاعتِراف بالشُّكْر، والاعتِراف للمُنعِم بالنِّعْمة بالقَلْب واللِّسان والجَوارِح، قال الشاعِر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا[2]

«أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً»؛ يَعنِي: أَنَّكم ملَكْتم مِنِّي ثلاثة بسبب نَعمائِكم، يَدي ولِسانِي والضَّمير المُحَجَّب.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج، ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسع مِئة وتسعة وتسعين، رقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤) غير منسوب.

أمَّا الشُّكْر بالقَلْب فهو أن تَعتَرِف بقلبك أن كل نِعْمة بك فإنها من الله، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ ﴾ [النحل:٥٣]، وأكبَرُ النِّعَم نِعَم الدِّين، ثُم العقل، ثُم تَتلوها النِّعَم شيئًا فشيئًا بحَسب حاجتها والضرورة إليها. وأمَّا باليد يَعنِي: بالجَوارِح اليد أو الرِّجْل أو السَّمْع أو البصَر، فاستِعْمال هذه في طاعة الله، شُكْر الجوارِح أن تَستَعمِلها لطاعة الله، اللِّسان كذلك، شُكْر الله باللِّسان أن تَعتَرِف بلِسانك بأن ما بك من نِعْمة فمن الله، وأن تُحدِّث بنِعْمته عليك، لا فخرًا واختِيالًا، ولكن افتِقارًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ واعتِرافًا بفَضْله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، ثُم تَستَعمِل هذا اللسانَ لطاعة المُنعِم.

إذَنْ: صار الشُّكْر حقيقةً هو الدِّين كله: القَلْب، واللِّسان، والجَوارِح؛ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ثُم إن الشُّكْر يَتبَعَّض، قد يَشكُر الإنسان ربَّه على نِعْمة من النِّعَم دون نِعْمة أخرى، قد يُنعِم الله عليه بالمال فيَشكُر، ويُنفِق في سبيل الله، ويُنعِم الله عليه بالعِلْم فيَكتُم، وقد يُنعِم الله عليه بالعِلْم فيَنشُر العِلْم، وبالمال فيَبخَل، فالشُّكْر يَتنوَّع كما أن الكُفْر يَتنوَّع.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: كَمال قُدْرة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بإيجاد اللَّيْل والنهار، فإن هذا من عَظيم قُدْرته جَلَّوَعَلَا، هل يَستَطيع البشَر إذا طلَعَت الشَّمْس أن يَرُدُّوها فتَغرُب، وإذا غابت أن يُرجِعوها فتَرجِع؟ أبَدًا، ولِهَذا قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ فأَقولُ: الليل والنَّهار الذي جعَله الله

للعِباد لا يُمكِن لأحَد أن يُغيِّرَه إطلاقًا. ثُم إذا نظَرنا أيضًا إلى هـذا الليلِ والنَّهار وتُعاقِبه ووُلوجه بعضه ببعـض فهو آية أخرى، أحيانًا يَزيد الليل، وأحيـانًا يَزيد النهار، مَن يَستَطيع أن يَفعَل ذلك إلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَعليل أحكام الله القَدَرية، كما هو ثابِت في الأحكام الشرعية يَعنِي: أن أحكام الله الكَوْنية لا يُمكِن أن تَكون إلَّا لِحِكْمة، يُؤخَذ ذلك من قوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟﴾ واللَّام قُلت لكم: إنها للتَّعليل. إِذَنْ جعَل الله ذلك لنَسكُن.

ذكَرْنا أن أحكام الله الكونيـة مُعلَّلة كأحكامه الشرعية، لكن هل يَلزَم من تَعليلها أن نَعلَم بالعِلَّة؟ لا يَلزَم، إن فتَـح الله علينا ما فتَحَ من ذلك فهذا خَيْر منه وفَضْل، وإن حُرِمنا ذلك بذُنوبنا فنحن المُخطِئُون، وما من شيء إلَّا وله حِكْمة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان مِنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالليل والنهار؛ حيث جعَل الليل سكَنًا وجعَل النهار مُبصِرًا، يُؤخَذ من قوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ لولا هذا ما سكَن الناس؛ ولهذا تَجِد الإنسان بطَبيعته إذا جاء الليل أَحَبَّ السُّكون، ولولا أنه في عَصْرنا هذا شاعَت الأنوار، وشاعَت الأضواء، وصار الليل كالنهار لوجَدْت لليل لذَّة عَظيمة، ونحن أَدْرَكنا ذلك، تَجِد لذَّة ومَحبَّة للسُّكون وسُكون قَلْب وسُكون بدَن وسُكون نَفْس، ثُم إذا طلَع الفجر وإذا هو كالرُّطَب يَأتِي بعدَ التَّمْر نَفرَح به، جاءَ النهار.

الآنَ ما كأنَّ هناك ليلًا ولا نهارًا؛ ولذلك لا نَجِد اللَّذَّة التي كُنَّا نَعرِفها من قبلُ، ولعل منكم مَن أَدرَك ذلك، واخرُجوا إلى البادِية، وخُذوا لكم أُسبوعًا، ابعُدوا عن الأنوار تَجِدوا هذا، وهذا من فَضْل الله عَزَّوَجَلَّ أن جعَل الليل للسكَن والنهار للعمَل.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إن الله ذو فَضْل على الناس، يُؤخَذ ذلك من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وفي آية أُخرى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، فكَيْف نَجمَع بين التَّعميم والتَّخصيص؟

الجَوابُ: أن نَقول: الفَضْل نَوْعان؛ عامٌّ وخاصٌّ، فالعامُّ لجميع الناس والخاصُّ للمُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن أكثَرَ عِباد الله لا يَشكُرون الله؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التَّحذير من قِياس الأحكام الشرعية بأعمال العِباد؛ بمَعنَى: أننا إذا قُلْنا لشخص: هـذا حَرام. قال: كل الناس يَفعَلونه. فيَجعَل المِعيار أعمال الناس، وهذا خطأ كل الناس يَعمَلونه، ليسَتْ حُجَّة، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، الحُجَّة فيما قال الله ورسوله ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]، سواءٌ كان الطائِفة الأخرى أكثَرَ من التي قبلَها أو العكس.

إِذَنْ: لا يَجوز أن نَجعَل أعمال الله مِعيارًا للأَحْكام الشرعية.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: وجوبُ شُكْر الله عَزَّوَجَلَّ والإشارة إلى أن يَكون هذا الشُّكرُ من جِنْس الفَضْل، الشُّكْر يَكون من جِنْس الفضل، فشُكْر صاحِب المال أن يُنفِقَه في سبيل الله، وشُكْر العِلْم نَشْره وتعليمه للجاهِلين، وشُكْر مَن أَعطاه الله شجاعة وقوَّة بدَنية والجِهاد قائِم أن يُجاهِد في سبيل الله.

إِذَنِ: الشُّكْر من جِنْس النِّعَم؛ لأنه قال: ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس:٦٠].

الآيتان (٦٢، ٦٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [غافر:٦٢-٦٣].

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هذه الجُمْلة نُريد أن نُعرِبها أوَّلًا (ذا) لا شَكَّ أنها مُبتَدَأ، واللَّام للبُعد، والكاف للخِطاب، والميم للجَمْع. ﴿ٱللَّهُ﴾ هل نَقول: إنها بَدَل، أو عَطْف بَيان من اسم إشارة، أو أنها خَبَر؟ الظاهِر أنها الأوَّل ﴿رَبُّكُمْ﴾ خبَر المُبتَدَأ، و﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خبَر آخَرُ؛ لأن الخبَر يَتعدَّد؛ إذ إن الخبَر وَصْف للمُخبَر عنه، وإذا كان وَصْفًا له فالأَوْصاف يَجوز أن تَتعدَّد، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٤-١٦] خمسة أَخبار، فالخَبَر يَتعدَّد؛ لأن الخبَر وَصْف للمُخبَر عنه، فإذا قلت: زَيْد قائِمٌ. مَعناه وَصْف القِيام، والأَوْصاف يَجوز أن تَتعدَّد على مَوْصوف واحِد.

إِذَنْ نَقول: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خبَر ثانٍ ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا يَشِذُّ عن هذه الجُملةِ شيء أبَدًا، كُلِّية عامة خالِق كل شيء من العَيان والأَوْصاف والأحوال، كل شيء فالله خالِقه من الأعيان والأَوْصاف والأَحْوال، العبد مَخلوق، أحوال العَبْد من مرَض وصِحَّة ومرَض وجُنون، وما أَشبَه ذلك مَخلوقة، أَفعاله

مَخلوقة، كل شيء فإنه مَخلوق لله عَزَّوَجَلَّ لا يَشِذُّ عنه- عن هذه الجُملةِ- شيء أبَدًا حتى العَجْز والكَيْس، وهـو من الأَوْصاف، العَجْز يَعنِي: أن الإنسان يَكون غـير حازِم، والكَيْس أن يَكون حازِمًا.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لَمَّا بيَّن أنه خالِق كل شيء، وأنه لا خالِقَ معه بِناءً على هذه الجُملةِ الكُلِّية بيَّن أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ كما أنه مُنفَرِد في الخَلْق، فيَجِب أن يُفرَد بالعِبادة.

«إلهٌ» بمَعنَى: مَألوهٍ، وفِعال تَأتِي بمَعنَى: مَفعول في اللُّغة العرَبية كثيرًا، ومنه غِراس بِناء فِراش كِتاب لِباس، وَعُدَّ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

إذا قال قائِل: كيف تَصِحُّ هذه الجُمْلةُ مع قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء:٢٢]، وقـوله: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ [هود:١٠١]، فأَثبَت آلِهَة دون الله؟

الجَوابُ: تَصِحُّ هذه العِبارةُ إذا عرَفنا الخبَر المُقدَّر، وهو: لا إلهَ حَقٌّ إلَّا الله، دليل هذا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢]، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر:٦٢] الاستِفْهام هنا للتَّعجُّب والإنكار.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تُصرَفون عن الإيمان مع قِيام البُرْهان].

ثُم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ﴾ هذا التَّكْييف يَأتِي كثيرًا في القُرآن الكريم، وقد تقدم كيف نُعرِبه، وقُلنا: إن الكاف اسمٌ بمَعنى: مِثْل، وهو مَفعول مُطلَق

للعامِل بعدَه؛ أي: مِثْل ذلك الإِثْم يُؤفَك، والإِفْك بمَعنى: الصَّرْف، كذلك، أي: مثل ذلك الإِفْكِ -وهو الإشراك بالله وعدَم شُكْر النِّعَم- يُؤفَك.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: مِثْل إِفْك هَؤلاءِ إِفْك].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ إعرابها على أنها نائِب فاعِل ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ أي: كانوا يَكفُرون بآيات الله. أي: يَكفُرون. والجَحْد هنا بمَعنى الكُفْر؛ بدليل أنه تَعدَّى بالباء، وقول المفَسِّر: [﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ مُعجِزاته] هـذا لا شَكَّ أنه خطأ، بل نَقول: ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ دَلالاته التي تَدُلُّ على كَماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واستِحْقاقه للعُبودية، فهي آيات وليسَت مُعجِزاتٍ ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بالدَّلالات التي تَدُلُّ على كَماله وعلى استِحْقاقه للعُبودية وحدَه، وآيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَوْعان: كونية وشرعية، فالمَخلوقات كلُّها كَوْنية آياتٌ تَدُلُّ على كَماله:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ[1]

فكل ما في الكَوْن فإنه شاهِد بكَمال الله عَزَّوَجَلَّ وقُدْرته وعِزَّته وسُلطانه وغير ذلك.

المُهِمُّ: أن جميع المخلوقات آياتٌ كَوْنية تَدُلُّ على خالِقها وحِكْمته ورحمته، وغير ذلك من كمال الصِّفات.

وآيات شرعية وهي ما جاءَت به الرُّسُل من أحكام عادِلة، وأخبار صادِقة وقِصص نادِرة. هـذه آياتٌ شَرْعية التَّكليفات والأوامِر والنواهِي كلُّها عادِلة،

(١) من شعر أبي العتاهية، انظر: ديوانه (ص:١٢٢)، ومعاهد التنصيص (٢/ ٢٨٦).

الأَخْبار كلُّها صادِقة ليس فيها شيء كذِب، القِصَص كلُّها نافِعة ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [يوسف:٣].

من فوائدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات الرُّبوبية لله عَزَّوَجَلَّ على كل شيء، أنه رَبُّ كل شيء؛ لقَوْله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الإشارة إلى وُجوب طاعته وعِبادته؛ لقوله: ﴿رَبُّكُمْ﴾ وإذا كان هو الربَّ فهو السَّيِّد، وإذا كان هو الربَّ فهو الذي له السُّلْطان، وإذا كان هو الربَّ فهو الذي له الحَقُّ أن يُعبَد، كل ما يُثبِت الرُّبوبية فهو دَليل على وُجوب الأُلوهية؛ ولهذا يُستَدَلُّ الله عَزَّوَجَلَّ على المُشرِكين بكَوْنهم يُثبِتون الربوبية ويُنكِرون الأُلوهية، فكُلُّ مَن أَثبَت الرُّبوبية لزِمه أن يُثبِت الأُلوهية.

إذن: تَوْحيد الرُّبوبية مُستَلزِم لتَوْحيد الأُلوهية، وتَوْحيد الأُلوهية مُتضَمِّن لتَوْحيد الربوبية، إذ لا يُمكِن لأحَدٍ أن يَعبُد الله إلَّا وهو يَعلَم أنه ربٌّ أَهْل للعِبادة؛ ولهذا لو قال لك قائِل: هل التَّوْحيدان مُتَلازِمان؟ فقل: أمَّا توحيد الرُّبوبية فمُستَلزِم لتَوْحيد الأُلوهية، وأمَّا تَوْحيد الأُلوهية فمُتضَمِّن لتَوْحيد الربوبية.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات خَلْق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لكل شيء؛ لقوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فلو قال قائِل: استَثْنى العَقْل نفسه فليس خالِقًا لها، فلا يَصِحُّ هذا القولُ؛ لأن نفسه لم تَدخُل أصلًا؛ لأن هناك فاعِلًا ومَفعولًا، والفاعِل لا يُمكِن أن يَدخُل في المَفعول حتى يُستَثْنى منه، فنحن نَقول: الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يَدخُل في قوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ أصلًا في هذه الآيةِ؛ لأن الخَلْق، أو إن شِئْت فقُلْ: لأن المخلوق

بائِنٌ من الخالِق، فلا يُمكِن أن يَدخُل الخالِق في المَخلوق حتى نَقول: استَثْنى العَقْل، والاستِثْناء إخراج الشيء من الشيء، وهنا لم يَدخُل أصلًا.

وفي هذه الآية: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ هل نَقول: إلَّا ذاته بدليل العَقْل؟

نَقول: لا؛ لأن الأصل لم يَدخُل، فهو خالِق كل شيء، هو فاعِل وغيره مَفعول، فهو لم يَدخُل أصلًا حتى نَقول: أَخرَج ما يَستَثْنيه العقل في هذا البابِ، وقد استَدَلَّ الجَهْمية والمُعتَزِلة بأن كلام الله مَخلوق لأن كَلام الله شيء، فيَكون داخِلًا في العُموم، ونَقول: إذَنْ يَلزَمكم أن تَقولوا: إن الله مَخلوق؛ لأن الله شيء ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾.

إذَنْ قولوا: إن الله مَخلوق أيضًا. فإن قالوا: لا يُمكِن أن نَقول؛ لأن الفاعِل غير المَفعول، قُلْنا: وصِفات الفاعِل كالفاعِل، الصِّفات يُحذَى بها حَذوَ الذات، فإذا كان الربُّ عَزَّوَجَلَّ خالِقًا وغيرَ مَخلوق، فصِفاته أيضًا غيرُ مَخلوقة، فالقُرآن ليس بمَخلوق؛ لأنه كلام الله، وكلام الله من صِفاته، وصِفات الله كلها غير مَخلوقة.

فإن قال قائِل: إن الخَلْق ثابِت للعَبْد، قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، فأَثبَت أن هُناك خالِقين، وقال الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ في المُصوِّرين: «أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»[1] فأَثبَتَ أنهم خالِقون.

فالجَوابُ: أن الخَلْق الثابِت لله عَزَّوَجَلَّ ليس كالخَلْق الذي أُثبِت للمَخلوق، خَلْق المخلوق للشيء تَحويله من حال إلى حال، وليس إيجادَه، فالنَّجَّار إذا صنَع

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء، رقم (٢١٠٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١٠٧/ ٩٦) من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا.

الخَشَبة بابًا هل يُقال: إنه خلَق الخَشَبة؟ حوَّلها من خشَبة إلى باب، ولم يَخلُقْها، حتى لو قُلنا: إن صُنْعه هذا خَلْق. فهو في الحقيقة بمَعنَى: تَغيير وتَحويل، وليس بمَعنى: الإيجاد.

وقد تَحدَّى الله عَزَّوَجَلَّ الأصنام التي تُعبَد من دون الله والذي يُدَّعى أنها آلِهة قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بِناءُ تَوْحيد الأُلوهية على تَوْحيد الرُّبوبية؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ بعد: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا مَعبودَ إلَّا هو، أي: لا تَعبُدوا إلَّا إيَّاه؛ لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الإنكارُ والتَّعجُّب على أولئك الذين صُرِفوا عن الحَقِّ مع وُضوحه وبَيانه؛ لقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن المُكذِّبين بآيات الله يَصدُر منهم ما يُقضَى به العَجَب؛ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [غافر:٦٣].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الذُّنوب تَحول بين الإنسان وبين رُؤْية الحَقِّ؛ لأن هؤلاءِ لَمَّا جحَدوا بآيات الله صُرِفوا عنها وهذا واقِع، الذُّنوب تَحول بين الإنسان وبين رُؤْية الحَقِّ، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين:١٣]، هل أَحَدٌ يُمكِن أن يَقول: هذا القُرآنُ العَظيم أساطيرُ الأوَّلين، يَقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] من الأعمال السَّيِّئة، حتى رأَوْا هذا الحقَّ المُنير فجعَلوه أساطيرَ؛ ولهذا يَجِب أن نُعالِج أَنفُسنا إذا رأَيْنا أننا نَقرَأ القُرآن وكأنه حُروف تُتلى، نَرجو برَكَتها وثوابها، إذا لم تُؤثِّر على القَلْب

باللِّين والخُشوع، والرُّجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ فإن ذلك دَليل على مرَض القَلْب، وربما نَقول: على موت القَلْب. نَسأَل الله العافيةَ، ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ نَسأَل الله أن يَجعَلنا وإيَّاكم من المُؤمِنين بآياته المُتَّبِعين لمَرْضاته.

• • ۞ • •

الآية (٦٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر:٦٤].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ الجُمْلة ﴿ٱللَّهُ﴾ مُبتَدَأ، و﴿ٱلَّذِى﴾ خبرُه يَعنِي: الله هو الذي ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ إلى آخِرِه ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ هذه من أفعال التَّصْيير؛ أي: صيَّر لكم، و﴿قَرَارًا﴾ بمَعنَى: ذات قَرار؛ أي: مُستَقَرٌّ ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾؛ أي: فوقُ، وقد بيَّن الله تعالى في آية أخرى أنه سَقْف، فالله جعَل الأرض قَرارًا؛ أي: مُستَقَرَّة.

وهل مَعنَى هذا القَرارِ أنها لا تَتحرَّك أو أنها لا تَميد بنا؟

يُقال: القُرآن يُفسِّر بعضُه بعضًا فقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ [النحل:١٥]، فبيَّن أن المُراد بالقَرار أنها لا تَميد بساكِينها؛ أي: لا تَضطَرِب، وليس المَعنَى أنها قارَّة لا تَتحرَّك، كما سيَأتِي -إن شاءَ الله- في الفَوائِد.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾؛ أي: سقفًا عالِيًا، والمُراد بالسَّماء هنا أي: السمَوات ذات الأجرام، وذلك؛ لأن السماء يُطلَق على مَعنَيَيْن، المعنى الأوَّل العُلوُّ،

والمَعنَى الثاني السماء السَّقْف، والذي يُعيِّن أحد المَعنيَيْن هو السياق.

فقول الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧] المُراد بالسَّماء هنا العُلوُّ؛ لأن المطَر ليس يَنزِل من ذات السَّماء السَّقْف، بل يَنزِل من العُلوِّ، ويَدُلُّ لذلِك قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤]، فالسَّماء هنا بمَعنى ذات السَّقْف، والمطَر يَنزِل من السَّحاب، فإذا كان مُسخَّرًا بين السماء والأرض اقتَضى ذلك ألَّا يَكون المطَر يَنزِل من السماء ذات السَّقف، ولكنه يَنزِل من السماء التي بمَعنى العُلوِّ، والذي معَنا هنا ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ المُراد به السَّماء ذات السَّقْف ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾؛ أي: جعَلَكم على صورة مُعيَّنة، والصورة هي الشَّكْل، فشَكْل الآدميِّ هو أَحسَنُ شَكْل في المخلوقات، وأَحسَنُه وأَقوَمُه ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد:٤]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤]، فلا صورةَ أحسَنُ من صورة الآدميِّ، ولا شَكلَ أحسَنُ من شَكْله؛ ولهذا قال: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فبيَّن الله في هذه الآيةِ أربعةَ أشياءَ، الأرض التي هي مَحلُّ السُّكنى، والسماء التي هي مَحلُّ الظِّل، والتَّصوير الذي هو الهَيْكل الإنساني، والإمداد لهذا الهَيْكلِ وهو قوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُمْ﴾؛ أي: أَعطاكم و﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ هنا ما طاب ولَذَّ، واعلَمْ أن الطيِّب تارةً يُراد به الحَلالُ، وتارةً يُراد به الحَسَن، وتارةً يُراد به اللذيذ، ويُعيِّن ذلك السِّياقُ، فقول الله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ المُراد بـ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾ هنا الحَسَن، والمُراد بـ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ الرَّديءُ، والمُراد بقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ المُراد بها الحلال؛ لقوله: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾؛ لأنه لو قِيل: المُرادُ اللَّذيذ لكان قوله: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ لا مَعنَى له، ولا يُمكِن إقامة الشُّكْر إلَّا إذا تَناوَل الإنسان

الشيء الحَلال، والمُرادُ بقوله هنا: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾ المُراد بها ما طاب ولَذَّ، وإنما قُلْنا بذلك؛ لأن رِزْق الله عَزَّوَجَلَّ بالمَعنَى العامِّ يَشمَل الحلال والحَرام؛ ولهذا نَقول: إن الإنسان إذا اكتَسَب مالًا مُحرَّمًا عن طريق الرِّبا مثَلًا فإنه مَرزوق لا شَكَّ، لكنه رِزْق فيه التَّبِعَة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ اسم الإشارة مُبتَدَأ، وما بعدَه عَطْف بَيان أو نَعْت، و(رب) خبَر المُبتَدَأ يَعنِي: هذا الذي أَمَدَّكم بهذه الأشياءِ الأربَعِ هو الله لا أَحَدَ غيرُه، وقوله: ﴿رَبُّكُمْ﴾ يَعنِي: جل وعلا ربُّ عِباده الذي هو الخالِق المالِك المُدبِّر؛ لأن الربَّ يَجمَع ثلاثة أَوْصاف: الخَلْق، والمِلْك، والتَّدبير.

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿فَتَبَارَكَ﴾ قيل: مَعناه: تَعالى وتَعاظَم، وهذا المَعنَى قَريب، ولكن فيه أن (تَبارَك) أَخصُّ من ذلك، ومَعنَى (تَبارَك)؛ أي: أنه ذو البرَكة العظيمة الثابتة؛ ولهذا لا يُطلَق على غير الله بهذا المَعنَى أي: بمَعنى أنه ذو البَرَكة العَظيمة الثابِتة؛ لأن هذا الوَصفَ لا يَليق إلَّا بالله عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا ما يَقوله بعض الناس -كما سيَأْتي إن شاءَ الله في الفَوائِد- فسنَتكلَّم عليه.

وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿رَبُّ﴾ هذه عَطْف بَيان أو صِفة للَفْظ الجلالة، والعالَمون كلُّ مَن سِوى الله، كل الخَلْق عالَمون، وسُمُّوا بذلك؛ لأنهم عالَم على خالِقهم، ففي كلِّ الخَلْق آية من آيات الله، كما قيل:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ[1]

والربوبية هنا الربوبية العامَّة؛ لأنه أَضافها إلى العالَمين، فهي عامَّة شامِلة.

---

(١) من شعر أبي العتاهية، انظر: ديوانه (ص:١٢٢)، ومعاهد التنصيص (٢/ ٢٨٦).

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن الله تعالى هو خالِق الأرض؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: نِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ علينا؛ لكون الأرض ذاتَ قَرار؛ أي: مُستَقِرَّة لا تَميد.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الأرض لا تَتحرَّك؛ لقوله: ﴿قَرَارًا﴾، هكذا قال بعضُ العُلَماء، ولكن إذا قارَنَّا هذه الآيةَ بقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥] تَبيَّن أن الاستِدْلال بهذه الآيةِ على أن الأرض لا تَتَحرَّك فيه نظَر فيُقال: إِذَنْ من فَوائِد هذه الآيةِ أن نِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ علينا بكَوْن الأرض لا تَميد بنا ولا تَضطَرِب بنا.

ومِن ثَمَّ نَعرِف الحُكْم على اختِلاف الناس اليوم ما بين مُؤيِّد ومُفنِّد، هل الأرض تَتحرَّك أو لا تَتحرَّك، فمن المَعروف عند عُلَماء الفَلَك أنها تَتحرَّك، وهذا عِندهم بمَنزِلة الأمور البَدَهيات اليَقينِيَّات التي لا تَقبَل الجدَل، يَقولون: إن الأرض تَتَحرَّك وتَدور بذاتها دَورانًا يَختَلِف به الليل والنهار، وتَدور دَورانًا مِحوَرِيًّا، به تَختَلِف الفُصول، وليس عندهم في ذلك شَكٌّ، ولا يُجادِلون في هذا، ومن العُلَماء مَن قال: لا، إنها لا تَدور، بل هي ساكِنة قارَّة، وإن اختِلاف الليل والنهار إنما يَكون بسبب دوران الشَّمْس على الأرض لا بسبَب دَوَران الأرض.

والذي يَظهَر لي أن القُرآن الكريم ليس فيه شيءٌ صَريح بأنها تَدور أو لا تَدور، وهو إلى كونها تَدور أقرَبُ من كونها لا تَدور؛ لأن نفَي الأخصَّ في قوله: ﴿أَن

تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يَقتَضي وجود الأعَمِّ؛ كما قُلنا في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: إن هـذه الآيةَ تَدُلُّ على ثُبوت رُؤية الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن نَفيَ الإدراك يَدُلُّ على ثُبوت أصل الرؤية، نَفي المَيَدان يَدُلُّ على وجود أصل الحرَكة.

لكن الأمر خَطير فيما أَرَى، هل الشمس هي التي تَدور على الأرض عنـد الطُّلوع والغُروب أو لا؟ نحن نَعتَقِد أنها هي التي تَدور، ولا مانِعَ من أن يَكون هُناك دَوَران للأرض ودَوَران للشمس؛ لأن ظواهِر الكِتاب والسُّنَّة كلها تَدُلُّ على أن الشمس هي التي تَطلُع وتَغرُب وتَميل وتَزول وتَزيغ، وما أَشبَهَ ذلك، فقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٧] فهذه أربعة أَفْعال كلُّها أُضيفَت إلى الشمس، والأصل أن ما أُضيف إلى الشيء فهو فِعْـله، وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورة (ص): ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص:٣٢]، وقال تعالى في سورة الكَهْـف: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ [الكهف:٨٦]. وقال النبيُّ ﷺ لأبي ذَرٍّ حين غرَبت الشمس قال: «أَتَدْرِي أَيْنَ ذَهَبَتْ؟» قال: الله ورسوله أعلَمُ[1].

فكُلُّ هذه الأفعالِ مُضافة إلى الشمس نَفْسها، فكيف نَعدِل عن ظاهِر هذا اللَّفْظ إلى مَعنًى آخَرَ بدون أَمْر قَطعيٍّ يَكون لنا حُجَّة عند الله عَزَّوَجَلَّ أن نُخالِف ظاهِر كلامه.

لكن مَن تَبيَّن له الأمر تَبيُّـنًا واضِحًا ورأَى أنه أَمْر قَطعيٌّ يَقـينيٌّ بدَهيٌّ كما يَقولون؛ فإنه يُمكِن أن تُؤوَّل الآيات بأن نِسبة الطلوع إلى الشمس والغُروب

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣١٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم (١٥٩).

والذَّهاب باعتِبار رَأْي العَيْن، لا باعتِبار الواقِع، لكنِّي إلى الآنَ لم يَتبيَّن لي أن اختِلاف الليل والنهار يَكون بدوَران الأرض، بل هو يَكون بدوَران الشَّمْس، والله على كل شيء قَديرٌ.

فإن قال قائِل: ما الجَمْع بين قول النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**بِأَنَّ الشَّمْسَ تَسْجُدُ كُلَّ غُرُوبٍ عِنْدَ الْعَرْشِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَسْتَأْذِنُ رَبَّهَا فِي أَنْ تُشْرِقَ فَيَأْذَنَ لَهَا**»(١)، ومِمَّا قرَّره العِلْم الحَديث أن الشمس لا يُمكِن أن تَغرُب أبَدًا، فهي كل لحظة إمَّا أن تُشرِق على ناس، أو تَغرُب على آخَرين، وأن في شَمال الكُرَة الأرضية الشمس سِتة أَشهُر كامِلة لا تَغرُب، وسِتة أَشهُر كامِلة غير مَوْجودة.

فالجَوابُ: نحن ذكَرْنا قاعِدة، أن الأمور الغَيْبية التي لا يُدرِكها الحِسُّ تَبقَى على ظاهِرها، ولا يُقال: كيف نَجمَع؛ لأن هذا أمر لا نُدرِكه حتى نَجمَع، فنَقول كما قال الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَنَّهَا إِذَا غَرَبَتْ تَسْجُدُ**»، ولم يَقُل الرسول كلَّما غرَبَت في أي مَكان، قد يَكون سُجودها إذا غرَبَت عن هذا الوجهِ -وجهِ الأَرْض- الذي فيه الحِرمان، بخِلاف ما إذا غابت على وَجْهٍ آخَرَ، لا نَدرِي، فنحن نَقول كما قال الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ونُقيِّد الزمَن بما قيَّده الرسول، يَعنِي: إذا غابَت عن المَدينة حصَل هذا، وهذا أَمْر مُمكِن مُحتَمَل؛ لأن أَفضَلَ وجه الأرض هو هذا الوَجهُ الذي فيه المَسجِد الحرام، والمَسجِد النبويُّ، والمَسجِد الأقصى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن السماء مَبنيّـة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَـآءً﴾ وهو كذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات:٢٧]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣١٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم (١٥٩)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧] إِذَنْ فهِي أَجرامٌ، ولا شكَّ في هذا، وهي أجرام مَحفوظة لا يُمكِن الوُلوج إليها إلَّا بعد إِذْن، ويَدُلُّ لهذا أن أَفضَل الرُّسُل البشَرية مُحَمَّدًا ﷺ، وأَفضَلَ الرُّسُل الملَكية جِبريلَ؛ كِلاهُما لم يَدخُل السماء الدنيا وما بعدَها إلَّا بعد استِئْذان، مِمَّا يَدُلُّ على كَمال حِفْظها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: مِنَّة الله تعالى علينا نحن البَشَر أن صوَّرنا هذا التَّصويرَ البَديع الذي هو أحسَن الصُّوَر فقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن:٣].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَحريم التصوير، نَقول: إن مَن صوَّر فقد نازَع الله تعالى فيما هو من اختِصاصه وهو الخَلْق؛ ولهذا جاء في الحَديثِ: «**يُقَالُ لِلْمُصَوِّرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ**»(١) وهذا هو الصحيح أن التَّصوير حرام، بل هو من كَبائِر الذُّنوب؛ لأن النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لعَنَ فاعِله(٢).

ولكن هنا ثلاثة أُمور:

الأمر الأول: الصُّورة التِّمثالية بمَعنى أن يَخلُق الإنسان من الطين، أو الخشَب، أو الحديد شيئًا على شَكْل صورة، هذه لا شَكَّ في تَحريمها؛ ولهذا قال في حديث عليِّ بنِ أبي طالب الذي رواه مُسلِم أنه قال: لأبي الهياجِ: «أَلَا أَبعَثُكَ على ما بعَثَني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تَدَعَ قَبْرًا مُشرِفًا إلَّا سَوَّيْتَهُ، ولا تِمْثالًا إلَّا طَمَسْتَه»(٣)

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء، رقم (٢١٠٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١٠٧/٩٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب من لعن المصور، رقم (٥٩٦٢)، من حديث أبي جحيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب الأمر بتسوية القبر، رقم (٩٦٩).

ولا أَعلَمُ نِزاعًا بين العلماء في تحريم ذلك.

الثاني: ما كان بالرقْم -أي: التصوير بالرقْم- بمَعنى أن الإنسان يُصوِّر بيَدِه صُورة، فهذه اختَلَف فيها السلَف والخلَف، فمِنهم مَن قال: إنها لا تَحرُم؛ لقوله في الحديث الصحيح الذي رواه البُخاريُّ: «إِلَّا رَقْمًا فِي ثَوْبٍ»[1] وهذا رقْم في ثوب، فلا يَحرُم؛ ولأن هذا ليس شَيْئًا مُجسَّمًا حتى يُطابِق ما خلَق الله عَزَّوَجَلَّ، إنَّما هو شَكْل فقَطْ، والصورة التي صوَّرها الله هي جِسْم مَحسوس مَلموس يُشاهَد بالعين، وأمَّا هذا فهو مُجرَّد تَلوين، فلا يَدخُل في الحديث، ولكن الجُمهور على أنه داخِل في الحديث، بدليـل حَديث النُّمرُقة حديث عائِشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: أن الرسول ﷺ جاءَ إلى بَيْتِه فلم يَدخُل من أَجْل صورة كانت في نُمرَقة جعَلَتها للنبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ[2].

وهذا هو الصَّحيح أن التَّصوير برَسْم اليد حرام، وداخِل في اللَّعْن، ولا يَحِلُّ لأحَد أن يَقوم به.

الثالث: ما كان تَصويرًا بالالتِقاط، وليس باليـد، وذلك ما يُعرَف بالتصوير الفُوتوغرافيِّ الذي ليس للإنسان فيه أي عمَل، بل هو شيء يَتمثَّل أمام هذا الضوءِ المُعيَّن فيَنطَبِع، وليس للإنسان فيه أيُّ عمَل سِوى تحريك الآلة التي تَقوم بالْتِقاط هذه الصُّورةِ، فهذا مُختَلَف فيه اختِلافًا كبيرًا بين المُتأخِّرين؛ لأنه لم يَظهَر إلَّا أخيرًا، فاختَلَفوا فيه، والذي يَتبيَّن لي أنه لا يَدخُل في التصوير؛ لأن هذا لم يَخلُق بيَده كما

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب من كره القعود على الصورة، رقم (٥٩٥٨)، ومسلم: كتاب اللباس، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١٠٦)، من حديث أبي طلحة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء، رقم (٢١٠٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١٠٧/٩٦) من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

خلَق الله عَزَّوَجَلَّ لم يُشكِّل العَيْن، ولا الأَنْف، ولا الفَمَ، ولا الشَّفَة، ولا أي شيء، غاية ما هنالك أن هـذا الضوءَ انعكَس على هذه الصورةِ، فانطَبَعت فهو بمَنزِلة ما لو شاهَدْت المِرآة فرأَيْت صورتَك فيها، إلَّا أن الفَرْق أن هـذا يَثبُت، وما في المِرآة يَزول بزوالِكَ، ولهـذا نُسمِّي صورة الناظِر في المِرآة نُسمِّيها صورة، وهي بالاتِّفاق لا تَدخُل في التصوير المَنهيِّ عنه، لكن يَبقَى النَّظَر لماذا صوَّر هذه الصورةَ؟

إِذَنِ الآنَ: تَقرَّر عندي هذا التَّصويرُ مُباح.

لكن لماذا صوَّر؟ نَقول: نُجرِي على هذا ما نُجرِيه على سائِر المُباحات، وهو أنه إذا كان لغرَض مَقصود فهو مُباح، وإذا كان لغرَض مُحرَّم فهو حرام، فلو أن إنسانًا صوَّر صورة امرَأة أَجنَبِيَّة من أَجْل أن يَتلَذَّذ برؤيتها كلَّما سنَحَت له الفُرصة؛ لقُلنا: هذا حرام لا شَكَّ. ولو أَراد أن يُصوِّر صورة عَظيم ليُعلِّقها في بيته؛ قلنا: هذا حرام. ولو أَراد أن يُصوِّر صورة أبيه أو أخيه أو عمِّه أو صديقه من أَجْل أن يَتَسلَّى به عند المَصائِب؛ قلنا: هـذا حرام. فيَكون هذا المُباحُ حُكْمُه حُكْم الغرَض الذي من أَجْله صُوِّر، هـذا ما يَظهَر لي حول هذه المَسأَلةِ، والناس فيها بين مُتهاوِن وبين مُتَشدِّد، والذي يَظهَر -والله أَعلَمُ- هو هذا.

فإن قال قائِل: أحيانًا لا يَتمكَّن الخاطِب من رُؤْية مَخطوبته، وفي الغالِب صورة لها فهل تقوم مقام النظر؟

فالجَوابُ: من السُّنَّة أن يَنظُر الخاطِب إلى مَخطوبته بالشُّروط المَرعيَّة المَعروفة عند العُلَماء، والصورة لا تَقوم مَقام النظَر، ولا فائِدةَ منها؛ أوَّلًا لأنك كثيرًا ما تَرَى صورة شخص ما في مَجلَّة أو صَحيفة، ثُم إذا رأَيْت الرجُل نفسه وجَدْته يَختلِف، وهذا شيء مُجرَّب ومُشاهَد، هذه واحِدة.

الشيء الثاني: ربما تكون هذه المَرأةُ عند التِقاط الصُّورة لها على أحسَن تَجميل بمكياج وكُحْل، وما أَشبَه ذلك، فتُصوَّر على هذا الوجهِ وتُعطَى الخاطِب، فإذا نظَرها على الطبيعة -كما يَقولون- وجَد خِلاف ذلك، وجَد أن لا عينَ ولا وجهَ، وحينَئِذٍ يَحصُل البَلاء، فالذي نَرى أنه يَحرُم أن يَتَبادَل الخَطيبان الصوَر، ثُم إن هذه الصورةَ قد تَبقَى عند الخاطِب أو عند المخطوبة أيضًا، ولو بعد إطلاق الخِطبة، يَتمتَّع بالنظَر إليها متى شاء، وهي أيضًا تَتَمتَّع بالنظَر إليه متى شاءَتْ.

مسألة: بالنسبة لحَبْس الضوء في الكاميرا، هناك عمَلية تُسمَّى بالرتوش، وهذه العمَلية يَدخُل فيها المُصوِّر بقلَم رَصاص يُغيِّر في الصورة إذا أَراد؛ فما حكمها؟

فالجَوابُ: الظاهِر أن هذه تَدخُل في التَّحريم؛ لأن له عمَلًا في شَكْل الصورة.

فإن قال قائِل: بعض صِغار السِّنِّ يَعنِي: غير المُكلَّفين يَرسُمون رُسوماتٍ للناس، هل لنا أن نُحرِّم هذا عليهم كما يَحرُم على الكِبار، على القاعِدة المُطَّرِدة؟

فالجوابُ: أي نعَمْ، فما يَحرُم على الكِبار يَحرُم على الصِّغار، لكن الصغير لا يُؤاخَذ عليه، وإنما يُؤاخَذ عليه وليُّه؛ حيث لم يَمنَعه منه، ثُم هناك أشياءُ يُمكِن أن يَتَسلَّى بها الإنسان غير صوَر الحَيوان: شجَر، جِبال، نُجوم، شمس، أنهار، بِناء، مُمكِن، لكن الشَّيْطان زَيَّن للناس سوء العمَل، أمَرَهم أن يَصنَعوا هذا الشيءَ المُشتَبِه، أو الذي هو مُحرَّم بالاشتِباه، ويَعدِلوا عن شيء مُباح.

الآنَ في بعض المَصنوعات ما هو جميل، والإنسان يَتَمتَّع بالنظَر إليه وهو مَصنوع: سيَّارة، قلَم، ساعة، وغير ذلك، فلماذا نَعدِل إلى الشيء الذي فيه اشتِباهٌ، أو إلى شَيءٍ مُحرَّم لا اشتِباهَ فيه عن شيء مُباح؟!

تنبيه: نحن نَتكلَّم عن التصوير من حيثُ هو تَصويرٌ، لا عن المُصوِّر، المُصوِّر هو ونِيَّته، إذا كانت نِيَّته سَيِّئة فهو حرام وإذا كانت غير سَيِّئة فهو حلال.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: مِنَّة الله عَزَّوَجَلَّ علَيْنا برِزْقه إيَّانا من الطَّيِّبات؛ لقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ذكَرْنا أن المُراد بـ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ هنا اللَّذائِذ؛ ليَشمَل الرِّزْق العامَّ والخاصَّ، وليُعلَم أن الرِّزق يَنقَسِم إلى قِسْمين: رِزْق عامٍّ، ورِزْق خاصٍّ. فالعامُّ كل ما يَنتَفِع به الإنسان فهو رِزْق، كما قال السَّفَّارينيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والـرِّزْق مـا يَنفَـع مـن حَـلال أَوْ ضِده.....[1]

وهو الحَرام، هـذا رِزْق عامٌّ يَستَوي فيـه المُؤمِن والكافِر، والبَرُّ والفـاجِر، والمُكتَسَب عن طريق حلال والمُكتَسَب عن طريق الحَرام، كل هذا رِزْق، وعلى هذا فالمَسروق بالنِّسبة للسارِق رِزْق، لكنـه رِزْق، وإن تَمتَّع به في الدنيا فسيَكون عليه وَبالًا في الآخِرة.

أمَّا النوع الثاني من الرِّزْق فهو الرِّزْق الطَّيِّب الحَلال، وهذا هو الرِّزْق الخاصُّ، وهو الطَّيِّب الحلال، وهو خاصٌّ بالمُؤمِن، وعلى هذا فالكافِر ليس له رِزْق خاصٌّ إطلاقًا حتى لو اكتَسَبه عن طريق الحـلال، فليس رِزْقًا خاصًّا، بل هو داخِـل في العُموم؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]، ولغير الَّذين آمَنـوا ليسَتْ لهم؛ ولهذا نَقول: الكافِرُ يُحاسَب على كل لُقْمة وكل شَرْبة، كل لُقْمة أَكَلها وكل شَرْبة شَرِبها يُحاسَب عليه يوم القِيامة، بل إن مِن الخطَر أن يُحاسَب

(١) العقيدة السفارينية (ص:٦٤).

المُؤمِن على الطَّيِّبات إلَّا بالشُّروط التي ذكَرَ الله ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾ [المائدة:٩٣]، شُروط ثَقيلة بِحِلِّ الرِّزْق، مع أنه طَيِّبٌ، نَسأَل الله أن يُعينَنا على تَحقيق هذه الشُّروطِ.

إِذَنِ: الكافِرُ لا يُمكِن أن يَكون في حَقِّه رِزْق خاصٌّ، كل الرِّزْق وإن كان طيِّبًا فهو عامٌّ بالنِّسبة له؛ لأنه يُحاسَب عليه، أمَّا المُؤمِن فيَنقَسِم الرِّزْق في حَقِّه إلى خاصٍّ وعامٍّ، فما أَثِمَ به فهو من العامِّ، وما لم يَأثَم به فهو من الخاصِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بَيان أن رُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ مَبنيَّة على الرحمة؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾؛ أي: الذي أَعطاكُم هذه الأشياءَ الأَرْبعة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ فرُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ مَبنيَّة على الرحمة، ويَدُلُّ على ذلك قولُه في سورة الفاتِحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٢-٣]، فرُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ مَبنيَّة على الرحمة والرَّأْفة.

فإن قال قائِلٌ: يَنتَقِض عليكم هذا بما يَحصُل في الحياة الدنيا من المُنغِّصات التي تُؤذِي الإنسان، وربَّما تَضُرُّه؟!

قلنا: هذه بالنِّسْبة للمُؤمِن رَحمة؛ لأنها مُكفِّرة للذُّنوب، لَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ شَيْءٌ مِنْ هَمٍّ أَوْ غَمٍّ أَوْ أَذًى إِلَّا كَفَّرَ الله بِهِ عَنْهُ حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا، إِذَنْ هي رحمة؛ لأنها تُكفِّر السَّيِّئات، ومع احتِساب الأَجْر مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تكون حسَنات؛ لأن تَرقُّب ثواب الله، واحتِساب الأَجْر على الله عمَل صالِح يُثاب عليه المَرْء، وهذا الأذى، أو هذا الضرَرُ الذي يَنال العَبد عرَض يَزول؛ ولهذا لو رجَعْت إلى الوَراء في تَفكيرك لوَجَدْت أنه مَرَّ بك أشياءُ كَثيرة من الأَذى، وأَشياءُ كثيرة من الضرَر، فزالَت وكأنها لم تَكُن.

إِذَنِ: الثَّواب الذي حصَل وتَكفير السَّيِّئات الذي حصَل هو خَيْر من هـذه الأَذايا وهذه الأَضرارِ، فتكون بذلك رَحْمة، فلا تَخرُج عن نِطاق الرَّحمة والرُّبوبية.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بيان عظَمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وقدِ استَنْبط بعض العُلَماء من هذا أن اسمَ الله عَزَّوَجَلَّ تُنال به البرَكة واستَشهَد لذلك بقوله: «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ بِبِاسْمِ الله فَهُوَ أَبْتَرُ**»(١) وهذا ليس ببَعيد، وإن كان فيه شَيءٌ من الرَّكاكة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: عُموم رُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

ويَتفرَّع على ذلك: أنه يَجِب أن يَقوَى اعتِماد الإنسان على الله في جَلْب المَنافِع، ودَفْع المَضارِّ؛ لأنه إذا كان ربَّ العالَمين عَزَّوَجَلَّ، فهو مُسيطِر على كل العالَمين، وله السُّلْطان على كل العالَمين.

ويَتفرَّع على ذلك أيضًا مَسأَلة أُخرى، وهي: اللُّجوء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عند حُصول المُضايَقات من بني آدَمَ أو غير بني آدَمَ؛ لأنه سبحانه رب العالَمين بيَـدِه الأَمْر، فهو القادِر على أن يَعـصِم الإنسان من الأَسَد الضارِي المُهاجِـم، وإن كان الإنسان لا يَستَطيع بمُجرَّد قُدْرته، لكن الله تعالى قد يَصرِفه عنه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثبـات رُبوبية العامة؛ لقـوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وهناك رُبوبية خاصَّة، ورُبوبية أخصُّ، وقدِ اجتَمَع النوعان في قوله تعـالى عن سحَرة آل فِرعونَ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، بلفظ: «بذكر الله».

إِذَنْ: رُبوبية الله العامَّة شامِلة للمُؤمِن والكافِر، والبَرِّ والفاجِر، الرُّبوبية الخاصَّة للمُؤمِنين، الرُّبوبية التي هي أخصُّ للرُّسُل وللأَنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ ولهذا نَعرِف أن من صِفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما يَكون عامًّا، وخاصًّا، وأخصَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن كل المَخلوقات آيَة على الله؛ لقوله: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقد قُلْنا: إنهم سُمُّوا بذلك لأنهم علَمٌ على خالِقهم جَلَّ وَعَلَا، والله أَعلَمُ.

• • ۞ • •

الآية (٦٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر:٦٥].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ ﴾ جملة خبَرية تُفيد الحَصْر وهذا الحَصرُ حَصرٌ إضافيٌّ؛ لأن المُرادَ بـ﴿ٱلْحَىُّ﴾ هنا الحيُّ حياةً كامِلةً، أمَّا مُطلَق الحياة فيَكون فيه وفي غيره؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [المُلك:٢]، أمَّا الحَياة الكامِلة فهي لله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (لا) نافية للجِنْس، و(لا) النافِية للجِنْس نصٌّ في العُموم، و﴿إِلَٰهَ﴾ بمَعنى: مَأْلوهٍ؛ لأن فِعالًا يَأتِي بمَعنَى: مَفعول في اللُّغة العرَبية، وله شَواهِدُ كثيرة: مثل: غِراس، وبِناء، وفِراش، وما أَشبَهها.

إِذَنْ: ﴿إِلَٰهَ﴾ بمَعنَى: مَألوهٍ، والمَأْلوه مَعناه: الذي تَألَهُه القُلوب مَحبَّةً وتَعظيمًا؛ أي: تَهواه وتَميل إليه؛ مَحبَّة له وتعظيمًا له، فبالمَحبَّة يَكون فِعْل المأمور، وبالتَّعْظيم يَكون تَرْك المَحظور.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ (إلَّا) أداة حَصْر، والحَصْر إثبات الحُكْم في المحصور فيه، ونَفيُه عمَّا سِواه، وإذا كان الأمر كذلك بَقِيَ فيه إشكال؛ أنك إذا قلتَ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقلت: إن ذلك للحَصْر، ورَدَ على قَلْبِك، أو أُورِد عليه أن هُناك آلهةً

دون الله بنَصِّ القُرآن، كما قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [هود:١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص:٨٨].

والجَوابُ عن ذلك أن يُقال: إن خبرَ (لا) مَحذوف، وتَقديرُه (حَقٌّ)؛ أي: لا إلهَ حقٌّ إلَّا الله، وإذا كان هذا هو التَّقديرَ لم يَرِد الإشكال الذي ذكَرْنا؛ لأن الآلِهة التي سِوى الله كلُّها باطِلة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

وما قرَّرْناه هنا في هـذه الكلِمةِ -كلِمة الإخلاص- هو الذي تَطمَئِنُّ إليـه النَّفْس، وإلَّا قد اختَلَف فيه العُلَماء -عُلَماء العرَبية، وعُلَماء التوحيد- على أقوال مُتعدِّدة تَبلُغ نحو سِتَّة أقوال، ومِمَّا ذُكِر أن الخبر مَحذوف تَقديره مَوجودٌ، لا إلهَ مَوجـودٌ، وهذا لا شَكَّ أنه باطِل؛ لأنك إذا قلتَ: لا إلهَ مَوْجـودٌ إلَّا الله. لزِمَ من ذلك أن تَكون الآلِهة التي تُعبَـد من دون الله هي الله، وأن تَكون عِبـادتها حَقًّا، وأُلوهيَّتها حقًّا.

إذَنِ: المُتعيِّن ما دَلَّ عليه القُرآن أن الخبَر مَحذوف تقديرُه (حَقٌّ)؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:٦٥].

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱدْعُوهُ﴾ اعبُدُوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾] وهذا التَّفسيرُ يُعتبَر قاصِرًا؛ لأن المُراد بالدُّعاء هنـا دُعاء العِبادة ودُعاء المَسأَلة، فالذي يُدعَى دُعاءَ مَسأَلة هو الله، والذي يُدعَى دُعاءَ عِبادة هو الله.

كأن المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ اقتَصَر على العِبـادة؛ لقوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ لأن

الدِّين هو العمَل، ولكن يُقال: إن الدُّعاء من العمَل، ولا بُدَّ فيه من إخلاص، فالصواب أن قوله: ﴿فَٱدْعُوهُ﴾؛ أي: اعبُدوه واسأَلوه، فهو دُعاء عِبادة ودُعاء مَسأَلة.

إذا قال قائِل: دُعاء المَسأَلة واضِح أنه دُعاء، تَقول مثلًا: يا ربِّ اغفِرْ لي، يا ربِّ يَسِّرْ أَمري وإخواني المُسلِمين؛ لكن كيف كانت العِبادة دُعاء؟.

فالجَوابُ: العابِد يَدعو الله بلِسان الحال؛ لأنَّك لو سأَلته لماذا عبَدْتَ الله لقال: أَرجو ثَوابه، وأَخشَى عِقابه. إِذَنْ فهو داعٍ بلِسان الحال، ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ﴿مُخْلِصِينَ﴾ اسم فاعِل، وفِعْله: أَخلَص، ومَعنَى أَخلَص؛ أي: نَقَّى الشيء من غيره، أَخلَصه يَعني: جعَله خالِصًا لا شائِبَةَ فيه، إِذَنْ فمَعنَى مُخلِصين؛ أي: مُنقِّين العِبادة والدعوة له وحدَه.

فإن قال قائِل: التَّفريق بين دُعاء المَسأَلة ودعاء العِبادة، أليس جميع الدُّعاء يُعتبَر من العِبادة؟

فالجَوابُ: بلى، لكن فَرْق بين أن أَقوم أُصلِّي، أو أَقول: يا ربِّ اغفِرْ لي، الثاني سُؤال صريح.

والعِبادة سُمِّيت دُعاءً؛ لأن العابِد يُريد الثواب والنَّجاة من العِقاب، فهو داعٍ بلِسان الحال. أمَّا الدُّعاء الصريح فهو بلِسان المَقال: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي وارحَمْني، وما أَشبَهَ ذلك.

والكل يُطلَق على العِبادة، لكن هذا عِبادة، والدُّعاء عِبادة؛ لأنك تَتعبَّد لله، وتَتذلَّل له بالسُّؤال، والعِبادة مَعروفة، وكلُّها أيضًا يُسمَّى مَسأَلة؛ لأن العابِد سائِل.

قوله: ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾، الدِّين يُطلَق في القُرآن الكريم على مَعنيَيْن: المَعنَى الأوَّل العمَل، والمعنى الثاني الجزاء، فمن الأوَّل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]؛ لأن يوم القِيامة لا عمَلَ فيه، فيَوْم الدِّين يَعنِي: يوم الجَزاء، والمُراد به هنا ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ العمَل ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: مُخلِصين له عمَلَكم، وهو الدُّعاء.

وقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من الشِّرْك] مُتعلِّق بـ﴿مُخْلِصِينَ﴾؛ أي: مُنقِّين له من الشِّرْك؛ بحيث لا يَكون في عمَلكم إشراك.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه جُملة تَتَضمَّن الثناء على الله عَزَّوَجَلَّ بعُموم رُبوبيته، والحمد مَصدَر حمِد يَحمَد حَمْدًا، وهو -أَعنِي: الحمدَ- وَصْف المَحمود بالكَمال على وجه المَحبَّة والتَّعظيم.

فقولنا: «وَصْف المَحمود بالكَمال» خرَج به القَدْح؛ لأن القَدْح وَصْف المَوْصوف بالنَّقْص.

وقولنا: «على وجهِ المَحبَّة والتَّعْظيم خرَج به المَدْح»؛ لأن المَدْح المُجرَّد قد لا يَكون للمَحبَّة ولا للتَّعْظيم، قد يَكون للخَوْف، فربَّما يَمدَح الرجُل سُلطانًا جائِرًا لا لمَحبَّته ولا لتَعظيمه، ولكن للخَوْف منه، أمَّا الحمد فلا يَصدُر إلَّا عن مَحبَّةٍ وتَعظيم.

وقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ الله»[1] المُراد بالمَدْح هنا الحَمْد.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الغيرة، رقم (٥٢٢٠)، ومسلم: كتاب التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، رقم (٢٧٦٠)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ اللَّام هنا للاختِصاص والاستِحْقاق، للاختِصاص لأن الحمد المُطلَق لا يَصِحُّ إلَّا لله وحدَه، والاستِحْقاق لأن المُستَحِقَّ للحمد حَقيقة هو الله عَزَّوَجَلَّ، المخلوق وإن استَحَقَّ الحمد لكنه ليس استِحْقاقًا حَقيقيًّا؛ لأن كلَّ شيء يَأتيك من المَخلوق، أو كلَّ كَمال في المخلوق فمِن الله، فأنا أَحمَد المَخلوق عندما يُحسِن إليَّ، أو عندما أَرَى فيه صِفاتِ كَمال أَحمَدُه، لا لأنه هو المُستَقِلُّ بذلك ولكن لأنه السبَب.

إِذَنِ: اللَّام هنا ﴿لِلَّهِ﴾ للاستِحْقاق والاختِصاص.

وقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الرَّبُّ هو الخالِق المالِك المُدبِّر، يَعني: كلِمة (رب) المُضافة إلى الله عَزَّوَجَلَّ أو التي وُصِف بها الله تَتَضمَّن ثلاثة مَعانٍ: الخَلْق، والمُلْك، والتَّدْبير، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الخالِق لكل شيء، وهو المالِك لكل شيء، وهو المُدبِّر لكل شيء، حتى المُشرِكون يُقِرُّون بهذا ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس:٣١].

وقوله: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال العُلَماء: العالَم كلُّ مَن سِوى الله، وسُمُّوا عالَمًا؛ لأنهم علَم على خالِقهم جَلَّوَعَلَا، إِذْ إن في كل شيء من هذه المَخلوقاتِ آيَة تَدُلُّ على عظَمة الربِّ وقُدْرته، وغير ذلك ممَّا تَقتَضيه مَعانِي الرُّبوبية.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: ثُبوت الحَياة المُطلَقة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾، وحَياة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كامِلة من كل الوُجوه، فهي كامِلة؛ لأنها لم يَسبِقْها عدَم، كامِلة

لأنها لا يَلحَقها فَناءٌ، كامِلة لأنها مُتضَمِّنة لجميع أوصاف الكَمال، كامِلة لأنها مُنزَّهة عن كل صِفات النَّقْص، فكَمالها من وُجوه أربَعة: من جهة أنه ليست تُسبَق بعدَم، ومن جهة أنه لا يَعتَريها الفَناء، ومن جهة أنها كامِلة مُتضمِّنة لجميع أَوْصاف الكَمال، ومن جهة رابِعة مُنزَّهة عن كل نَقْص، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، انظُرِ ﴿ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ صِفة كَمال، ونَفيُ نَقْص.

فإن قال قائِل: الحيُّ من الأسماء اللازِمة أو المُتعدِّية؟

فالجوابُ: من الأسماء اللازِمة، وقد ذكَر العُلَماء في كتُب التَّوْحيد أن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ إن كانت مُتَعدِّية فإنه لا يَتِمُّ الإيمان بها إلَّا بأمور ثلاثة: إثباتها اسم لله، وإثبات ما دلَّتْ عليه من الصِّفات، وإثبات ما يَترتَّب على هذه الصِّفاتِ.

وأمَّا إذا كان الاسم لازِمًا فإنه يَتضمَّن شَيْئَيْن: إثبات ذلك الاسمِ لله عَزَّوَجَلَّ، والثاني إثباتُ ما دلَّ عليه من الصِّفات فقَطْ.

مسألةٌ: هناك قاعِدة عِلْمية أن المادَّة لا تَفنَى ولا تُستَحْدَث من العدَم، ورأَيْنا أن الذي يَعتَقِد مَدلولها فهذا كُفْر، كلُّ شيء فانٍ إلَّا وجهَ الله، كل شيء هالِك إلَّا وجهَه، ومَعنَى هالِك: قابِل للهَلاك، وقد يَجعَله الله مُؤبَّدًا كالجَنَّة والنار، لكن الذي أَوجَد قادِر على الإعدام، والإعدام أهوَنُ من الإيجاد، وقولهم أيضًا: لا تُستَحْدَث، مَعناه: حكَموا بأنها أزَليَّة، أزَليَّة أبَدية، لا يَقول هذا مُؤمِن.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: انتِفاء الأُلوهية عمَّا سِوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهي تَألُّه العبد لله عَزَّوَجَلَّ مَحبَّةً وتعظيمًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وُجوب الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في العِبادة والدُّعاء؛ لقوله:

﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:٦٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات كَمال الله عَزَّوَجَلَّ في ذاته وفي إنعامه؛ لقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فالله أَثنَى على نَفْسه بذلك لكَمال صِفاته.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: عُموم رُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ لكل شيء؛ لقوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن المُستَحِقَّ للحَمْد هو الله عَزَّوَجَلَّ، والمُختَصَّ بالحَمْد المُطلَق هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الآية (٦٦)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر:٦٦].

ثُم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [غافر:٦٦] إلى آخِره.

﴿قُلْ﴾ الخِطاب للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، يُخاطِب المُشرِكين، أُمِر أن يُخاطِب المُشرِكين فيقول: ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ الجُملة هنا مُؤكَّدة بـ(إنَّ)، و﴿نُهِيتُ﴾ فِعْل ماضٍ مَبنيٌّ لما لَمْ يُسمَّ فاعِله، وحُذِف الفاعِل للعِلْم به، كما قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، حُذِف الفاعِل للعِلْم به؛ لأنه لا أحَدَ يُنازِع في أن الخالِق هو الله.

وهنا المَسأَلة مَسأَلة شَرْعية نَهيٌ، فلا نِزاعَ في أن الذي له الأمر والنَّهيُ هو الله، كما أنه الذي له الخَلْق. إِذَنْ يَكون الناهِي هو الله عَزَّوَجَلَّ، والنَّهيُ: طلَب الكفِّ على وجهِ الاستِعْلاء بصيغة المُضارِع المَقرون بـ(لا) الناهِيةِ، هذا تَعريف النَّهيِ في أُصول الفِقْه.

فقَوْلنا: «طلَب الكفِّ» خرَج به الأَمْر، وخرَج به المُباح.

وقولنا: «على وَجْه الاستِعْلاء» خرَج به الدُّعاء، مثل: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾؛

لأنَّنا لا نَدعو الله على وجه الاستِعْلاء، بل على وَجهِ الاستِضْعاف، نَستَضْعِف أنفسنا أمام الله عَزَّوَجَلَّ.

وخرَج بقولنا: «بصِيغة المُضارِع المَقرون بـ(لا) الناهِيةِ» خرَج به نحوُ قولِك: انتَهِ عن كذا، اجتَنِبْ كذا، هذا نَهيٌ لكِنه ليس نَهيًا اصطِلاحيًّا، بل هو أَمْر بالاجتِناب.

فلو قال لك قائِل: اجتَنِبِ الرِّجْس من الأوثان. فهذا أَمَر باجتِنابه الرِّجْس من الأوثان، لكن إذا قلت: لا تَقرَبِ الرِّجْس من الأوثان. صار نَهيًا.

فائدة: النهيُ المَعنويُّ غير النَّهيِ الاصطِلاحيِّ، ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج:٣٠] هذا ليس نهيًا اصطِلاحيًّا، فالنَّهيُ في الاصطِلاح هو طلَب الكفِّ على وَجْه الاستِعْلاء بصيغة المُضارِع المَقرون بـ(لا) الناهِية، هذا تَعريفه عِند العُلَماء، أمَّا النَّهيُ بمَعنى العامِّ فهو ما دلَّ على نَهيٍ، حتى الاستِفْهام بمَعنى الإِنْكار يَدُلُّ على النهيِ، حتى لو قلت لواحِد فعَل شيئًا غيرَ مَرغوب فيه: أَتَفْعَل هذا؟ مع أنك مُستَفهِم الآنَ، لكنه مُتضَمِّن للنَّهيِ، نحن لا نَتكلَّم عن الاصطِلاح، تَعريفه اصطِلاحًا وارِد، ولَسْنا نَتكلَّم عمَّا يُفيد النهيَ، ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ﴾ لو قُلت: إن هذا نهيٌ. قلنا: غلَط، بل نَقول: هذا أَمْر بالاجتِناب.

فقوله: ﴿نُهِيتُ﴾ هذه صِيغة فِعْل ماضٍ، لكن ليسَت صِيغة نهيٍ، إخبار بأنه نُهي، فما صِيغة النَّهيِ؟! فالنهيُ بالصِّيغة المُصطَلَح عليه هو طلَب الكفِّ على وَجْه الاستِعْلاء بصيغة المُضارِع المَقرون بـ(لا) الناهيةِ، هذا النهيُ، وأمَّا ما دلَّ على النهيِ بغير هذه الصِّيغةِ فهو لا يُسمَّى نَهيًا اصطِلاحًا، وإن كان نهيًا بالمَعنَى، ولكن ليس نَهيًا بالاصطِلاح.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ﴾ العِبادة

هي التَّذلُّل للمَعبود مَحبَّة وتَعظيمًا.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَعبُدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾] وهذا أيضًا فيه شيء من القُصور، والصَّواب أن المُراد تَدْعون؛ أي: تَعبُدون وتَسأَلون؛ لأن من المُشرِكين مَن يَسأَلون أصنامَهم، ويَتَذلَّلون لها بالسُّؤال، فهي أعَمُّ مِمَّا ذكَره المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مِن سِوى الله.

وقوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ ﴿لَمَّا﴾ ظَرْف زَمان بمَعنَى: حين، و(لَمَّا) تَأتِي في اللُّغة العرَبية على أربعة أَوْجهٍ:

الوجه الأوَّل: أن تَكون بمَعنى (حين) كما في هذه الآيةِ.

والوجه الثاني: أن تَكون بمَعنَى (إلَّا) كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤]، مَعنَى ﴿لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ﴾: إلَّا علَيْها حافِظ.

الوجه الثالِث: أن تَكون أداة جَزْم كقوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص:٨] أي: بَلْ لم يَذوقوا عَذابي، ولكنه قَريب.

الوجه الرابع: أن تَكون حَرْف وجود لوجود؛ كقولك: لَمَّا جاءَ زَيْد جاء عَمرٌو.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ أي: حين جاءَني، والبَيِّنات صِفة لمَوْصوف مَحذوف للعِلْم به، والتَّقدير: الآياتُ البَيِّنات.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [دَلائِل التَّوْحيد] والمَعنَى أعَمُّ مِمَّا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بل هي دَلائِل التوحيد، ودَلائِل القُدْرة، ودَلائِل السَّمْع والبصَر، وغير ذلك.

المُهِمُّ: أنه جاءَه البَيِّنات من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنتم تَرَوْن في القُرآن العزيز كلِمة البَيِّنات دائِمًا مَحذوف مَوْصوفها، وذلك للعِلْم به، والشيء المَعلوم يَجوز حَذْفه كما قال ابنُ مالِكٍ في الأَلْفية:

وَحَـــذْفُ مَـــا يُعْلَـــمُ جَـــائِزٌ ..... [1]

وهذه قاعِدة عامَّة في كل شيء، ليس في المُبتَدَأ والخبَر فقَطْ، بل في كل شيء.

وقوله: ﴿مِن رَّبِّي﴾ مُتعَلِّق بـ(جاءَ) أي: جاءَني من الله عَزَّوَجَلَّ، ولكنه ذكَره باسمِ رُبوبية؛ لأن هذه رُبوبية خاصَّة يُربِّي بها الله عَزَّوَجَلَّ أنبياءَه ورُسُله.

﴿وَأُمِرْتُ﴾ مُقابِل: ﴿نُهِيتُ﴾، ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الآمِر الله، والأَمْر طلَب الفِعْل على وجه الاستِعْلاء بصيغة الأَمْر، أو غيرها مِمَّا يَدُلُّ على الأَمْر.

وقوله: ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾ ﴿أَنْ﴾ مَصدَرية، و﴿أُسْلِمَ﴾ فِعْل مُضارِع مَنصوب بها، ومَعنى ﴿أُسْلِمَ﴾: أَستَسْلِم لربِّ العالَمين، والمُراد بالإسلام هنا الإسلام الشرعيُّ؛ لأنه هو الذي بِطاقتنا، وهو الذي يُمكِن أن نَفعَله أو لا نَفعَله، وهو الذي لا يَكون إلَّا من المُؤمِن.

أمَّا الإسلام الكَونيُّ فليس بطاقَتِنا ولا يُمكِنُنا أن نُدافِعه، ويَكون من المُؤمِن والكافِر.

إِذَنْ: يَتبيَّن لنا أن الإسلام يَأتِي على وَجْهين أو له مَعنيَان:

المعنى الأَوَّل: الإسلام الكَونيُّ.

---

(١) الألفية (ص:١٨).

والثاني: الإسلام الشرعيُّ، فالإسلام الكونيُّ القَدريُّ، والثاني الإسلام الشرعيُّ الدِّينيُّ.

فمِن الأوَّل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣] الإسلام هنا كَونيٌّ؛ لأنه قال: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ والإسلام الشرعيُّ لا يَكون بالإكراه، والإسلام الشرعيُّ لا يَكون عامًّا لكل شيء، فالإِسْلام هنا كَوْنيٌّ قَدَريٌّ، وهنا قوله: ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾ المُراد به الإسلام الشرعيُّ الدِّينيُّ، يَعنِي: ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾؛ أي: أَستَسْلِم تَعبُّدًا وتَذلُّلًا لله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ نَقول فيها ما قُلْنا في مِثل الآيات السابِقة، لكن لو قال قائِل: لماذا لم يَقُل: أن أُسلِمَ لله؟ قُلنا: ليَكون ذلك دليلًا على وجهِ الإِسلام يَعنِي: لماذا أَسلَمْت؟ لأن الله ربُّ العالَمين، وربُّ العالَمين أحَقُّ أن يُسلَم له، وأن يُتعَبَّد له عَزَّوَجَلَّ، فهو كالدليل للحُكْم السابِق الذي هو الإسلام.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن النبيَّ ﷺ عَبْد مَأْمور مَنهيٌّ، يُؤخَذ ذلك من قوله: ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾.

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: بُطلان دَعْوى مَن يَقول: إن النبيَّ ﷺ له الأَمْر والنَّهيُ في السمَوات والأرض؛ لأنه لا يُمكِن أن يَكون كذلك وهو مَأمور مَنهيٌّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وجوب الإِخْلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله: ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ وهذا حَقيقة الإِخْلاص.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الإشارة إلى القاعِدة المَشهورة، وهي أن التَّخلِية قبلَ التَّحلِية، ليسَت تَحليـة الماء، التَّحلية يَعنِي: التَّزيين، التَّخْلية قبـل التَّحْلية، تُؤخَذ من قـوله: ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ فهذه تَخْلية، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ هذه تَحلِية، ووجهُ كون التَّخْلية قبل التَّحْلية أن التَّحْلية إذا ورَدَت على مَحلٍّ غيرِ نَظيف صارَت ناقِصة مُتلوِّثة، فأنت طهِّر المَحلَّ أوَّلًا ثُم حَلِّهِ ثانيًا. وهكذا كلِمة الإخلاص (لا إلهَ) نَفيٌ (إلَّا الله) إثباتٌ، الأوَّل تَخلية والثاني تَحلِية.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بُطلان عِبادة ما سِوى الله؛ لأن النهيَ يَقتَضِي البُطلان والفَساد، فلمَّا نُهينا عن عِبادة ما سِوى الله دلَّ ذلك على أنها باطِلة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كغَيْره يَحتاج إلى العِلْم؛ لقوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾.

فإن قال قائِل: في هذا إشكال كبير، وهو كيف يَكون الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يَعلَم ببُطْلان هذه الآلهةِ إلَّا حين جاءَه النَّهيُ، مع أن بُطلان هذه الآلِهةِ مَركوز في الفِطَر والعُقول؛ أمَّا كونه مَركوز في الفِطَر فلِقوله ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الفِطْرَةِ**»[1]، والفِطْرة هي عِبادة الله وحدَه؛ وأمَّا العَقْل فلأنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ استَدَلَّ على بُطلان الآلِهة بدَليل عَقْليٍّ، حين قال لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢]؟

قُلنا: إن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعلَم هذه الآلِهةَ، لكنه أَسنَد هذا العِلْم إلى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، رقم (١٣٥٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيات البيِّنات؛ لإثبات الرِّسالة، فتكون الرِّسالة مُؤيِّدة لما تَقتَضيه الفِطْرة، ويَدُلُّ عليه العَقْل.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن ما جاء به الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فهو آياتٌ بيِّناتٌ ليس فيها خَفاءٌ؛ لقوله: ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، والعجَب أن المُشرِكين كانوا يَتَردَّدون إلى مَنزِل الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خِفْية يَستَمِعون القُرآن؛ لأنه أَخَذ بألبابهم وعُقولهم، لكِنهم -والعِياذ بالله- يُنكِرون استِكْبارًا ومُكابَرة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: التَّحذيرُ من خَفاء ما جاء به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بمعنى أن الذي لا يَرَى ما جاء به الرسولُ مُتضَمِّن للآيات البيِّنات فلْيَعلَم أن على قَلْبه غِشاوة؛ لأن القَلْب النَّظيف النَّزيهَ لا بُدَّ أن يَعرِف أن ما جاء به الرسول حقٌّ بيِّن، لكن قد تَتَراكَم الذُّنوب -والعِياذ بالله- على القُلوب، فلا تَعرِف الحقَّ، قال الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٣-١٤]، فصاروا يَرَوْن هذا القُرآنَ الكَريمَ يَرَوْنه أساطيرَ الأوَّلين، نَسأَل الله أن لا يُعمِيَ قُلوبَنا وقلوبَكم، فالمَسأَلة خطيرة، إذا لم تَجِد قلبَك مُستَنيرًا بهذا القُرآنِ، أو بعِبارة أعمَّ بما جاء به الرسولُ، فاعلَمْ أن في القَلْب بَلاءً، فداوِ القَلْب ما دام في أوَّل المَرَض، حتى لا يَستَشرِيَ المَرَض فيَقضِي على القَلْب، فلا تَتَمكَّن من إصلاحه بعدُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: عِناية الله تعالى برسوله محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وذلك في إثبات رُبوبيته الخاصَّة في قوله: ﴿مِن رَّبِّى﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: وُجوب الإسلام لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الإشارة إلى أنه لا بُدَّ للقَلْب من حرَكة، فإمَّا إلى باطِل وإمَّا

إلى حَقٍّ؛ لقوله: ﴿نُهِيتُ﴾، وهذا تَفريغ، فهذا الفَراغ لا بُدَّ أن يَكون له ما يَملَؤُه وهو الإسلام؛ لأن كل شيء إذا لم يَكُن له بَديل سيَبقَى الأمر خاوِيًا، فإذا خَلا المَكان من الباطِل وجَبَ أن يُملأ بالحَقِّ، وهكذا أيضًا إذا تَأمَّلت وجَدْت كل شيء باطِلًا، إذا لم يَخلُفه حقٌّ بَقِيَ الأمر خاوِيًا فيتَذبذب الإنسان، لَمَّا قال الله تعالى: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ ماذا قال؟ ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ [البقرة:١٠٤] فلا بُدَّ من قول، فإذا أُبطِل الباطِل فلا بُدَّ أن يَخلُفه حقٌّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن ما سِوى الله لا يَستَحِقُّ أن يُسلَم له؛ لقوله: ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فمَن كان ربَّ العالَمين فهو الأحَقُّ بالإسلام له، ولا يُوصَف بربِّ العالَمين إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات عُموم الرُّبوبية لله؛ لقوله: ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: مُراعاة الوَصْف المُناسِب وإن كان فيه عُدول عن الأشهَر؛ لقوله: ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عُدولًا عن (لله) مع أن الله هو الأَشهَر، لكن اعتِبار الوَصْف المُناسِب أَوْلى، والله أَعلَمُ.

• • ۞ • •

الآية (٦٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر:٦٧].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ إلى آخره ﴿خَلَقَكُم﴾ أي: ابتَدَأ خَلْقَكم، والخَلْق بمعنَى: الإيجاد مع التَّقدير، قال الشاعِرُ:

فَلَأَنْتَ تَخْلُقُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُ ... النَّاسِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي[1]

فهو إيجاد بتَقدير.

﴿مِّن تُرَابٍ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بخَلْق أبيكُم آدَمَ مِنه]، فالأصل أنَّنا من تُراب من هذه الأَرْضِ ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥]، فالأَرْض هي الأوَّل والآخِر بالنِّسبة لبني آدَمَ إلى يوم البَعْث.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَنِيٍّ]، وهذا باعتِبار نَسْل آدمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ هذا الطورُ الثالِثُ، والثاني باعتِبار نَسْل آدَمَ، والعلَقة قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [دَمٌ غَليظ]، مثل الخَيْط ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾، وطوَى الله تعالى ذكَر المُضْغة،

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، انظر: ديوانه (ص:٣٢).

وإنشاء الخَلْق الآخر إلى قوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾؛ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بمَعنَى: أطفالًا]، وإنَّما قال: [بمَعنى: أَطْفالًا]؛ لأنها حال من الكاف في ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ وهي جَمْع، وطِفْل مُفرَد، وعلى هذا فيَتعيَّن أن يَكون (طِفل) بمَعنَى: (أطفالًا)، وقيل: إن ﴿طِفْلًا﴾ بمَعنَى المُفرَد، وأن المعنى: ثُم يَخرُج كل واحِد مِنكم طِفْلًا. فيَكون ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ جَمعًا باعتِبار المَجموع؛ أي: أن كل واحِد منَّا يَخرُج طِفلًا، وعلى هذا فلا حاجةَ إلى تَأْويل طِفل بمَعنَى: أطفال.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثُم يُبقِيكم لتَبلُغوا] وإنَّما قدَّر ذلك؛ لأن اللَّام تَحتاج إلى مُتعلَّق، وعلى هذا فمُتَعلَّقها مَحذوف، والتَّقدير: ثُم يُبقِيكم ﴿لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَتكامَل قُوَّتُكم من الثلاثين سَنَةً إلى الأَرْبَعين]، هذا بُلوغ الأشَدِّ، أَقْوى ما يَكون الإنسان من ثلاثينَ سَنَةً إلى أَربَعين، ثُم يَبدَأ بالانحِدار شيئًا فشيئًا، ولكن قد يَكون هناك عوامِلُ تُوجِب أن تَبقَى قوَّته مُدَّة من الزمَن أكثَر، وقد تَكون هناك عوامِلُ تُوجِب أن تَنهَدِم قوَّته قبل تَمام الأربَعين، لكن في الأصل أنه إذا تَمَّ الإنسان أربَعين سَنَةً بَدَأَ بالضَّعْف.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ أي: كامِل قُوَّتكم، ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بضَمِّ الشين وكَسْرها] يَعنِي: ﴿شُيُوخًا﴾ و«شِيُوخًا» والقِراءتان سَبْعيَّتان. وهذه طريق المفسِّر إذا ذكَر الوَجْهين جميعًا فمَعناه أن القِراءتَيْن سَبْعيَّتان.

﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾ يَعنِي: كبارًا. يَعنِي: تَبلُغوا سِنَّ الشَّيْخوخة، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾. قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: قبلَ الأَشدِّ والشُّيخوخة، فَعَل ذلك بكم لتَعيشوا ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾]. والمفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُقدِّر ذلك لوُجود حَرْف العَطْف، وهو قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾، ولعلَّ ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ قال المفسِّر: [وَقْتًا

محدودًا]، والمُسمَّى بمَعنى: المُعيَّن، وهو بمَعنَى: المَحدود ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: تَكونوا من ذَوِي العُقول، وتَفهَموا حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ في تَقديره وتشَريعه.

فأَنْتُم تَرَوْن الآنَ أن القَدَر يَكون فيه المُقدَّر شيئًا فشيئًا حتى يَكمُل، وهكذا الشَّرْع تَكون فيه الشرائِع شيئًا فشيئًا حتى تَكمُل، وهذه من سُنَّة الله تعالى الكونية وسُنَّته الشرعية؛ أن الأُمور لا تَأتِي دَفْعة واحِدة، بل تَتطوَّر حتى تَبلُغ الكَمال، وهذا من حِكْمته البالِغة.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ليس المُراد بذلك عَقْل الإدراك، بلِ المُراد بذلك عَقْل التَّدبير والرُّشْد؛ لأن العَقْل عَقْلان: عَقْل إدراك تَتوقَّف عليه التَّكاليف الشَّرْعية؛ ولهـذا يُقال: من شُروط صِحَّة الصلاة العَقْل، والمُراد به عَقْـل الإدراك، وعَقْل التَّدْبير والرُّشْد، وهو حُسْن التَّصرُّف؛ ولهـذا نَقول: إن الكُفَّار لا يَعقِلون، مع أنهم بالنِّسبة لعَقْل الإدراك أقوياءُ أشِدَّاءُ أذكياءُ، لكن عَقْل التدبير والتَّصرُّف هم خالون منه.

قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ في هَـذه الآياتِ بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَنشَأ بني آدَمَ، وغاية بني آدَمَ.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيانُ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي خلَقَنا وحدَه، وأنه لا خالِقَ إلَّا الله، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة الطُّور: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥] جوابُنا أنه لم يَخلُق من غير شيء، وليس هُمُ الخالِقين، إِذَنْ فلَهُم خالِق.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان أن أصل بني آدَمَ هو التُّراب؛ لقوله: ﴿مِن تُرَابٍ﴾ والتُّراب

مَعروف أنه يَختَلِف، ومن ثَم اختَلَفَت طبائِعُ بني آدَمَ، واختَلَفت ألوان بني آدَمَ، واختَلَفَت أَلْسِنة بني آدَمَ كما اختَلَف أَصْلُهم، فالتُّراب منه الرَّمْل والطين والسِّباخ، وغير ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: انتِقال هذا الأصلِ إلى أصلٍ آخَرَ، وهو الماء النُّطْفة المَنيُّ؛ قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق:٥-٧]، وفي آيةٍ أُخرى: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ يَعني: غَليظ، لا يَندَفِع ولا يَجرِي؛ لأنه غير سائِل ليس كالماء المائِع الذي يَسيل، بل هو ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: ضَعيف لا يَتحرَّك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَطوُّر خَلْق الإنسان في بطن أُمِّه، وهنا لم يَذكُر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلَّا النُّطْفة والعلَقة؛ لأن النُّطْفة هي الأصل والعلَقة هي الأصل، والعَلَقة هي أصل مادَّة الحَياة، إذْ إن الحَياة لا تَكون إلَّا بالدَّمِ، وهو أصل المادَّة، ولهذا لو تَفرَّغ دمُ الإنسان لهلَكَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيانُ قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ أنه بعد هذا الجَنينِ، أو بعد هذه الحالِ في بَطْن أُمِّه يَخرُج طِفلًا مُتكامِلًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الله تعالى قَسَم الناس بعد خُروجهم أطفالًا إلى أقسام:

القِسْم الأوَّل: أن يَبلُغ الإنسان أَشُدَّه ثُم يَموت.

والثاني: أن يَبلُغ الشيخوخة.

والثالث: أن يَموت قبل ذلك؛ أي: قبل أن يَبلُغ وقبل الشيخوخة، وعلى أيِّ أَساس يَكون هذا؟ نَقول: هذا مَحْض مَشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ليس له أساس مَعلوم، لكنه مَحضُ المَشيئة، لكن مع كونه مَحْض المَشيئة قد يُقدِّر الله تعالى أسبابًا كونية

وأسبابًا شرعية بها يَطول العُمر، وتَبقَى الصِّحَّة، وقد يُقدِّر الله أسبابًا على العكس من ذلك.

فمن أَسْباب الشَّرْعية ما ذكَره النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قوله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، وَيُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[1] فهذا دليل على أن صِلة الرحِم من أسباب سَعة الرِّزْق، وطول العُمر، فيُيسِّر الله تعالى لهذا العبدِ أن يَصِل رحمه فيَطول عُمره، وهذا شيء مَكتوب، ولكنَّنا لا عِلمَ لنا به، فحثَّنا النبيُّ ﷺ عليه بهذه الطَّريقةِ.

وأمَّا الأسباب الكونية فهو تَوقِّي الأسباب الضارَّة في الصِّحَّة، وهذا شيء لا نِهايةَ له، وهو أَمْر مَعلوم وأكثرُ مَن يَعرِفه الأطِبَّاء، فيُيسِّر الله تعالى للإنسان من أسباب الصِّحَّة من دواء وغِذاء وهواء ما يَكون به طول العُمر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الأَجَل مَهما طال بالإنسان فإنه مَحدود، له غاية مع أن الإنسان في نَفْسه يَمُدُّ أمَلًا بعيدًا جدًّا، يَظُنُّ أنه سيَبقَى عشَرات المِئات، ولكنه في الواقِع مَهما بلَغ فإن الأجَل مَحدود، والشيء المَحدود المعدود غايَتُه النِّهاية؛ لأن كل يوم يَمضِي يَنقُص العُمر، قال الشاعِرُ:

وَالمَـرْءُ يَفْـرَحُ بِالْأَيَّـامِ يَقْطَعُهَـا ... وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِـنَ الْأَجَـلِ[2]

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم، رقم (٥٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكره الأصمعي في قصة له مع أعرابي، انظر: نثر الدر في المحاضرات (٦/ ٣٧)، وزهر الآداب (٢/ ٤٥٦). وقريب منه بيت أبي العتاهية:

تظـلّ تفـرح بالأيـام تقطعهـا ... وكلّ يوم مضى يدني من الأجـل

انظر: محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (٢/ ٣٩٦).

وهذا صَحيح، فالمَرْء يَفرَح بالأيام يَقطَعها، يَقول: ما شاء الله عُمري طويل، ومُتِّعْت كثيرًا. لكن كل يوم يَمضِي وكل يوم مضَى يُدنِي من الأَجَل، إِذَنْ يَطول من وَجْه ويَقصُر من وجهٍ آخَرَ، ثُم عند انتِهاء الأجَلِ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦].

وقِسْ ما يُستَقبَل بما مَضَى الآنَ، مِنَّا مَن عُمِّر سِتِّين سَنَةً، أو خَمسين، أو عِشرين سَنَةً، أو ما أَشبَه ذلك، هذه الأيامُ التي مضَت كأنها ساعة. يَعنِي: أنت اليوم كأَنْت بالأَمْس، وأنت بالأَمْس كأَنْت قبل أَمْسٍ، كأنها ساعة، كأنها أحلام؛ ولذلك ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بَيانُ نِعْمة الله علينا بالعِلْم والبَيان؛ لأن ذلك سبَب لبُلوغ الغاية في العَقْل، وذلك لقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات تَعليل أَحْكام الله؛ أي: أن أحكام الله تعالى مُعلَّلة بحِكْمة، وهل هذا مُقتَصِر على الأحكام الشرعية، أو على الأحكام الشَّرْعية والكَوْنية؟

الجوابُ: الثاني، فكُلُّ أحكام الله الكَوْنية والشَّرْعية كلُّها مُعلَّلة، كلُّها لِحِكْمة، لكِنَّ هذه الحِكْمةَ قد تكون مَعلومة لنا، والناس يَختَلِفون في هذا اختِلافًا عَظيمًا مُتباينًا، مِنهم مَن يُطلِعه الله عَزَّوَجَلَّ على أسرار خَلْقه وأسرار شَرْعه، ومنهم مَن لا يُطلِعه، ومِنهم مَن بَيْنَ ذلك.

وكذلك أحكام الله الشَّرْعيةُ كلُّها لِحِكْمة، كلُّها مُعلَّلة، وما يَذكُره الفُقَهاء من أن هذا الحُكمَ تَعبُّديٌّ لا يَعنُون بذلك أنه ليس له عِلَّة، وإنما يَعنون بذلك أن عِلَّته غير مَعلومة لنا، فنحن ليس لنا إلَّا مُجرَّد التَّعبُّد؛ ولهذا لَمَّا سأَلَتِ المرأة أُمَّ المُؤمنين عائِشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: ما بَالُ الحائِضِ تَقضِي الصَّوْمَ ولا تَقْضِي الصَّلاةَ؟ قالَتْ:

كانَ يُصيبُنا ذَلِكَ فنُؤْمَرُ بِقَضاءِ الصَّوْمِ ولا نُؤْمَرُ بقَضاءِ الصَّلاةِ[1]. هذه الحِكْمةُ، إذَنِ الحِكْمة شَرْع الله، شَرْع الله كلُّه حِكْمة، لكن لو أَراد إنسان أن يَلتَمِس لذلك حِكْمة مَعقولة فلا حرَجَ عليه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الثَّناء على أهل العَقْل؛ أي: على العُقَلاء؛ لأن الله تعالى جعَله غاية فقال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ذكَرْنا الآنَ أن أحكام الله الكَوْنية والشَّرْعية لها حِكمة.

فإن قال قائِل: ماذا تُجيبون عن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]؟

الجَوابُ: إنه لا مُنافاةَ؛ لأن الله لم يَقُل: لا حِكمةَ لما يَفعَل. بل قال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾؛ لأن كل ما يَفعَله فهو حِكْمة لا يُسأَل عنه، نَعلَم أنه ما فعَله إلَّا لِحِكْمة فلا يُسأَل عنه.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥).

الآية (٦٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [غافر:٦٨].

ثُم قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ هذا كالأوَّلِ جُملة استِئْنافية تُبيِّن كَمال قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾؛ أي: يَجعَل الحياة في الميت، والموت في الحيِّ، هـو الذي يُحيِي ويُميت وحدَه، لا أحَدَ يُحيِي ويُميت؛ ولهذا قال إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للَّذي حاجَّه في ربِّه: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة:٢٥٨].

فلا يُمكِن أن يُحيِيَ أحَدٌ ميتًا، ولا أن يُميت حيًّا، فإن قيل: أَلَيْس عِيسى ابنُ مَريمَ يُحيِي الموتى؟ قُلنا: بلى، ولكن بإِذْنِ الله بنَفْس الآية يُحيِي المَوْتى بإِذْن الله، فإن قيل: أَلَيْس الرجُل يَقتُل الآخَر وهو حيٌّ فيَموت؟ قلنا: بلى، لكن ما فعَله فهو سبَب الموت، وليس هو الإِماتة، وكثيرًا ما تُقطَع أوداجُ الإنسان ويُشَقُّ بَطْنه ثُم يَبقَى حيًّا ويَحيا.

فالحاصِلُ: أن الإِحياء والإماتة بيَدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا قضَى أَمْرًا أَراد إيجاد شيء فيَقول له: كُنْ. فيَكونُ، أمرًا هنا بمَعنى: شَأْن؛ أي: فهو واحِد الأمور، وليس

واحِد الأَوامِر أي: إذا قضَى شَأْنًا من الشُّؤون فقَدَّره فإنه لا يُعجِزه أن يُوجِده.

ونُجيبُه بالكلِمة: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ ولهذا فعِيسى يُوصَف بأنه كلِمة الله؛ أي: كان بكَلِمَته.

فالحاصِلُ: أنه إذا أَراد شيئًا، إذا قضَى أمرًا وقدَّره قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، وهل المُراد المَوْجوداتُ أو المَعْدوماتُ أو الكُلُّ؟

الجَوابُ: الكل حتى لو أَراد إعدامَ شيءٍ قال له: ﴿كُن﴾ فيَنعَدِم، فقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إيجاد شَيْءٍ] لو زادها: «أو إعدامه» لكان خَيْرًا؛ لأنه إذا قضَى أمرًا من إيجاد أو إعدام قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

أمَّا غَير الله عَزَّوَجَلَّ فلو أَرَدْت أن تَهدِم بيتًا تَبقَى أيامًا وأنت تَهدِمه، لكن الله إذا أَراد أن يُهدَم هذا البَيْتُ أو القَريةُ كلُّها بكامِلها ماذا يَقول: كُنْ. فيَكون تَنهَدِم، تَكون هَباءً.

فإذَنْ نَقول: إذا قضَى أمرًا بإيجاد شيءٍ أو إعْدامه، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩] كلُّ شيء بقَدَر، الصغير والكبير، المُتعَلِّق بأفعاله وأفعال عِباده، كلُّ شيء خلَقه فهو بقَدَر ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ ويَتأخَّر المأمور؟

الجواب: ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ لَمح البَصَر ليس شيءٌ أسرَعَ منه واحِدة بدون تَكرار.

﴿كُن فَيَكُونُ﴾ الفاء للتَّعقيب، وقال تعالى في بَعْث الناس: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ

وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤] سُبحانَ الله! ما أَعظَمَ قُدرةَ الله! كلِمة واحِدة بها تكون الأشياءُ كلُّها، كما أَراد الله عَزَّوَجَلَّ تكون كما أَراد الله، وليُنتَبه للنُّقْطة الأخيرة: «تَكون كما أَراد الله» وإن كان هذا المَأمورُ لا يَعلَم به لكِن لا بُدَّ أن يَكون كما أَراد الله؛ فلمَّا قال القلَمُ: ربِّي ماذا أَكتُبُ؟ قال: اكْتُبْ مَا هُوَ كائِنٌ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ، وماذا فعَـل؟ كتَبَ ما هو كائِن إلى يوم القِيـامة، لأنه لا يَعلَم، لكن أُمِر فلا بُدَّ أن يَمتَثِل؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلت:١١]، لا إكراهَ، بل طَوْع.

إِذَنْ نَقول: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي: بإيجاد شيء، أو إِعْدام شيء ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ الفاء في قول: ﴿فَإِنَّمَا﴾ رابِطة للجَواب -جَواب إذا- وهي تَدُلُّ على التَّعقيب، وقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ بدون تَأْخير؛ لأن الفاء هنا للتَّعْقيب، قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بضَمِّ النُّون وفَتْحها بتَقْدير (أَنْ)].

إِذَنْ فيها قِراءَتان: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ «كُن فَيَكُونَ» فعَلى القِراءة الأُولى تَكون الفاء للاستِئْناف، وعلى الثاني تَكون الفاء فاءَ السَّبَبية التي يَنتَصِب بعدها الفِعْل، وهي مَعروفة في عِلْم النَّحْو، قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بتَقْدير (أن) أي: يُوجَـد عَقِب الإرادة التي هي مَعنَى القَوْل المَذكور]، اللَّهُمَّ اعفُ عن هذا المفَسِّر، يَقول: عقِب الإرادة التي هي بمَعنَى القول المَذكور، يُريد أن يَنفيَ بذلك القولَ يَعنِي: أن قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ إِنَّما يُريد أن يَقول؛ لأنه عفا الله عنه. يُريد أن يَنفِيَ قول الله عَزَّوَجَلَّ فإن مَذهَبه مَذهَبُ الأشاعِرة الذين يَقولون: إن الكلام هو المَعنَى القائِم بالنَّفْس، وليس شيئًا يُسمَع، وليس تَوجيـهًا يُصدَر إلى المُوجَّه إليـه، مع أن الآية صَريحة ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾ قـول صَريح مَصدَر، نعَمْ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ نَقـول: مَعنَى

﴿يَقُولُ لَهُۥ﴾ على كلامِه. أي: يُريد أن يَكون فكان، ولا شَكَّ أن هذا تَحريف للكلِمِ عن مَواضِعه، نَسأَل الله تعالى أن يَعفُوَ عمَّن حرَّفه بحُسْن نِيَّة، والمفَسِّر لا نَعتَقِد فيه -إن شاءَ الله- إلَّا الخيرَ، لكنه أَخطَأَ في هذا، والصواب أنه يَقول قولًا مَسموعًا يَسمَعه المُوجَّهُ إليه، فيَمتَثِل أَمْر الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائِل: البعض يَقول: سُبحانَ مَن أَمْره بين الكاف والنون، فهل هذا صحيح؟.

فالجوابُ: ليس بصحيح، فأَمْره بعد الكاف والنون ﴿كُنْ﴾ فهو يَكون بعد الكاف والنون. يَعنِي: أَمْره هنا بمعنى: مَأمور، فإن كان الأَمْر هو الفِعْل فهو قبل الكاف والنون، وإن كان الأَمْر هو مَأموره فهو بعد الكاف والنون.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيانُ أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الذي يُحيِي ويُميت، وهذا من تَمام رُبوبيته.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الإحياء والإماتة ليسَتْ صَعْبة عليه؛ لقوله: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الرَّدُّ على مُنكِري البَعْث الذين قالوا: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ وجهُه أنه إذا قَضَى البَعْث يَقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس:٧٧-٨٠]،

إلى أن قال: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

ولنَأتِ على بَيان الأدِلَّة الدالَّة على قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ على إحياء المَوْتى في هذه الآياتِ، لقَد ذكَر الله تعالى ثَمانية أَوْجُه على قُدْرته على إحياء المَوْتى:

الدليلُ الأوَّل: قـوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وجـهُ الدَّلالة على قُدْرته على إِحياء المَوْتى من هذه الجُملةِ؛ لأن الذي قدَرَ على إِنْشائها أوَّلَ مرَّة قادِر على إعادتها؛ لأن الإعادة أَهوَنُ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

الدليلُ الثاني: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ وجهُ الدَّلالة: الذي يَخلُق المَخلوقاتِ عالِمٌ بما خلَقَ. يَعنِي: هو لا يَخفَى عليه الخَلْق، فإذا كان لا يَخفَى عليه الخَلْق فما الذي يُعجِزه وهو على كل شيء قَديرٌ.

الدليل الثالث: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ وجـهُ دَلالة هذه الجُمْلةِ على قُـدْرة الله على إِحياء الموتى أنه يُوجَـد شجَر مَعروف في الحِجاز إذا ضرَبْته بالقَدَح هكذا اشتَعَل نارًا فخرَجَت النار من ضِدِّها، فالذي أَخرَج الضِّدَّ من ضِدِّه قادِر على أن يُحيِيَ الموتى، فالشجَر الأخضَر فيه الرُّطوبة والبُرودة، والنار فيها اليُبوسة والحرارة، فيُخرِج هذه المادَّةَ الحارَّة اليابِسة من مادة رَطْبة بارِدة، وهذا من تَمام القُدْرة، وقوله: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ هذا للتَّأْكيد، لتأكيد أنه خرج هذا وأَوْقَدْتُموه.

الدليل الرابع: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾ الذي خلَق السمَواتِ والأرضَ يَقدِر على إحيـاء المَوْتى، وجهُ الدَّلالة كما أنه خلَق السمواتِ والأرضَ على عظَمَتها فخَلْق الإنسانِ من بابِ أَوْلى أو إعادته؛

لأن خَلْق السمَواتِ والأرضِ أكبَرُ من خَلْق الناس، فالقادِر على الأكبَرَ قادِرٌ على ما دونَه.

الدليل الخامس: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فإذا كان الخَلَّاق العليم فهو قادِرٌ على أن يَخلُق كلَّ شيء، ومنه إعادة الموتى.

الدليل السادس: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وجهُ الدَّلالة أن (شيئًا) نكِرَة في سِياق الشَّرْط فتَعُمُّ كل شيء حتَّى إحياء الموتى، أن يَقول له: كُنْ. فيَكون لا يَحتاج إلى أعوان، ولا إلى تَردُّد.

الدليل السابع: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ هذه الجُملةُ، وجهُ الدَّلالة منها:

الوجهُ الأوَّلُ: إذا كان مالِكًا لكل شيء -من عُموم ﴿كُلِّ﴾-، فإنه إذا كان مالِكًا لكل شيء فالبَعْث يَدخُل ضِمْن العُموم.

الوجهُ الثاني: (سُبحان) تَنزيهُ الله عن النَّقائِص.

الوجهُ الثالِثُ: كون الله تعالى مالِك كل شيء هو خالِقه، خالِق كل شيء، وخالِق الشيءِ مالِكٌ له.

الدليل الثامن: قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وجهُ الدَّلالة فيه: لولا هذا الرُّجوعُ لكان الخَلْق عبثًا، فكونُنا لا بُدَّ أن نَرجِع إلى الله، إذَنْ فلا بُدَّ من الإحياء، وإلَّا لكانت الحياة كلُّها عبثًا، فانظُرْ إلى تَقرير الله عَزَّوَجَلَّ الإحياءَ بعد الموت؛ لأنه يَنبَني عليه العمَل، لو أن أحَدًا لا يُؤمِن بيَوْم الحِساب لم يَعمَل، ما دام ليس في إلَّا الحياة الدنيا نَموت ونَحيا فلأيِّ شيءٍ يَعمَل، إذَنْ إنسان يَعمَل في الدنيا يَنهَب، ويَسرِق، ويَزنِي،

ويَشرَب الخَمْر، ويَعمَل كل شيء؛ لأنه ليس وراءَ هذه الدُّنيا شيء.

فلا يُمكِن أن نَستَقيم إلَّا بالإيمان باليومِ الآخِر؛ ولهذا تَجِدون الله عَزَّوَجَلَّ يَقرُن الإيمان باليوم الآخِر بالإيمان به في مَواضِعَ كَثيرةٍ، ربما لو أَحصَيْناها لوجَدْناها أكثَرَ من الإيمان به وبالرُّسُل؛ لأن الإيمان باليومِ الآخِرِ عليه أساس العمَل، ونحن لولا أننا نَعتَقِد ونُؤمِن بأن أعمالنا أمامَنا يوم القِيامة، ما حرَصْنا على العمَل الصالِح؛ لأنه يَذهَب هَباءً؛ فلهذا الإيمانُ باليوم الآخِر من أعظَمِ البواعِث على الاستِقْرار، أمَّا مَن لا يُؤمِن باليَوْم الآخِر -والعِياذ بالله- ولا بالبَعْث، فهذا سيَكون عمَله كلُّه هَباءً.

• • ۞ • •

الآية (٦٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ [غافر:٦٩].

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هـذا الاستِفْهامُ للتَّقْرير؛ لأن هَمْزة الاستِفْهام إذا دخَلَت على النَّفيِ صارَت مُقـرِّرة له، فمَعنَى ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي: رأَيْت، والخِـطاب إمَّا للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، أو لكُلِّ مَن يَصِحُّ أن يَتـوَجَّه إليه الخِطاب، وهذا الخِـطاب يَرِد كثيرًا في القُرآن.

وقد بيَّنَّا أن الخِطاب المُوجَّـه إلى الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أو الذي ظاهِره أنه مُوجَّه إلى الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسامٍ:

القِسْم الأوَّل: ما هو مُختَصٌّ به قطعًا.

القِسْم الثاني: ما هو عامٌّ له وللأُمَّة قطعًا.

والقِسْم الثالِث: ما لا يَتَبيَّن فيه هذا ولا هذا.

أمَّا الأوَّل: وهو الخاصُّ بالرَّسول قَطعًا، فهو خاصٌّ به، ولا إشكالَ في ذلك مِثْل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:١-٢]، ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى:٦-٧]، وما أَشبَهها، الخِطاب هنا للرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خاصَّةً ولا يَشمَل الأُمَّة.

وأمَّا الذي له ولغَيْره قَطْعًا، فمِثْل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق:١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ لم يَقُل: إذا طلَّقْتَ النِّساء. فدَلَّ هذا على أن الخِطاب الخاصَّ به له وللأُمَّة؛ لأنه خاطَبه أوَّلًا بالنِّداء، ثُم وجَّه الخِطاب إلى الأُمَّة عُمومًا فقال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ فدَلَّ هذا على أن الخِطاب الخاصَّ به بالنِّداء ليس خاصًّا به، بل هو له وللأُمَّة.

وأمَّا ما ليس كذلك -يَعنِي: ما ليس هذا ولا هذا- فقد اختَلَف فيه العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ هل هو خِطاب خاصٌّ بالرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا يَشمَل الأُمَّة إلَّا حُكْمًا على سَبيل التَّأسِّي به، أو أنه عامٌّ للرَّسول ﷺ ولغَيْره، ويَكون الخِطاب فيه لَمن يَصِحُّ خِطابه، والخِلاف في مِثْل هذا يَكاد يَكون لَفْظيًّا؛ لأن الجميع مُتَّفِقون على أن هذا الحُكْم ثابِت للرسول ولغيره، لكن إذا قُلْنا: إنه خاصٌّ. به صار بالنِّسبة لغَيْره عامًّا على وجهِ التَّأسِّي والقُدْوة، لكن الحُكْم لا يَختَلِف في الواقِع؛ لأنه إن لم يَشمَل الأُمَّة لفظًا فقد شمِلها حُكْمًا؛ للأَمْر بالتَّأسِّي به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فهُنا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ مِمَّا يَدخُله الاحتِمال أنه خاصٌّ بالرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أو عامٌّ لكل مَن يَتوجَّه إليه الخِطاب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القُرآن] وهذا التَّفسيرُ يُعتبَر قاصِرًا؛ لأن آياتِ الله أَعظَمُ من كونِها كَوْنية أو شَرْعية، وأعظَمُ من كونها في القُرآن، أو التَّوْراة، أو الإنجيل، أو غيرها من الكُتُب المُنزَّلة على الرُّسُل، فالصواب أن نَقول: في آيات الله الكَوْنية والشَّرْعية، وأَوْلَى ما يَدخُل فيها القُرآن.

والمُجادَلة هي المُنازَعة مع الخَصْم من أَجْل صَرْفه عمَّا كان عليه من المُجادَلة، مَأخوذة من الجَدَل، وهو فَتْل الحَبْل حتى يَحتكِم ويَكون قويًّا، هؤلاء الذين يُجادِلون

في آيات الله يُجادِلون الرُّسُل وأَتْباعَهم، فالمُجادَلة بين الرُّسُل وأتباعهم كانت مُنذُ أن أُرسِل الرُّسُل إلى يَوْمنا هـذا، ولا تَستَغرِب أن يُوجَد مَن يُجـادِل في آيات الله عَزَّوَجَلَّ في هـذا الزمَنِ؛ لأن هـذا سُنَّة الله عَزَّوَجَلَّ مُنذُ أَرسَلَ الرُّسُل؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١]، ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وإذا كان له عَدوٌّ من المُجرِمين فلا بُدَّ أن يُجـادِل، وبالتالي أن يُجـالِد بالسُّيوف، المُجادَلة في آيات الله الكَوْنية أن يُنكِر أن يَقول: الله هو الخالِق. وقد وُجِد هذا فِعلًا، وُجِد مَن يَنسُب ما يَحدُث للكَوْن إلى الأمور الطَّبيعية دون أن يَكون لها مُدبِّر وقال: هذه طَبيعةٌ تَتفاعَل ويَنتُج منها ما يُشاهَد.

ويُوجَد مَن يُجادِل في آيات الله الكونية بالأمور التي دون ذلك مِثْل أن يُثبِت شيئًا من الأَسْباب لم يَجعَله الله سببًا؛ كما يَحدُث لأهل الجاهِلية من التَّشاؤُم بالطيور والأماكن والأزمـان، وما أَشبَـه ذلك، فهُمْ يَتَشاءَمون في الأزمان بشَهْر صـفَر، يَقولون: إن هذا الشَّهرَ شَهْر شَرٍّ. يَتَشاءَمون أيضًا بالطَّيْر: بنوع الطير، أو بكَيْفية طَيَرانه، أو باتِّجاهه، أو ما أَشبَه ذلك، يَتَشاءَمون أيضًا بالأشخاص، يَرَى الإنسان الرجُـلَ أوَّل ما يَرَى فيَتَشاءَم به؛ حتى كان هـذا مَوْجودًا إلى قريب عَصْرنا فيما يَظهَر؛ بعض الناس في جِهة ما من المَمْلكة إذا أَتَى ليَفتَح دُكَّانه ثُم قابَلَه شَخْص قبيحُ المَنظَر مثَلًا قال: اليَوْم شُؤْم ليس هناك بَيْع ولا شِرَاء، هذا تَشاؤُم بالأَشْخاص. هذا أيضًا من المُجادَلة في آيات الله الكَوْنية.

أمَّا المُجادَلة في آيات الشَّرْعية فحدِّثْ ولا حرَجَ، يُكذِّبون بآيات الله الشرعية، يُنكِرونها، يُجـادِلون في بعض الأُمور فيها يَقولون: فيها تَناقُض، وفيها كذا، وفيها كذا. وأنواع الجَدَل كَثيرةٌ.

يَقـول: ﴿أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ﴾ قال المفَـسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنَّىٰ﴾ كيفَ ﴿يُصۡرَفُونَ﴾ عن الإِيمان] يَعنِي: كأن هذا استِفْهام تَعجُّب وإنكارٍ، كيف يُصرَفون عن الإيمان مع أنه واضِحٌ بين، فهُمْ يُصرَفون عنه، ويُجادِلون فيه.

• • ۞ • •

الآيات (٧٠-٧٢)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧٠-٧٢].

ثُم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾ هذا بدَل من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ أو عَطْف بَيان، والفَرْق بينهما أن عَطْف البَيان يُشبِه الصِّفة في بَيان المُبدَل منه، وأمَّا البدَل فقد يَكون بدَلًا مُجرَّدًا عن الصِّفة، فمثَلًا إذا قُلْت: جاء زَيْـد أَخوك. أخوك هنا بدَل لم يَستَفِد منها شيئًا كثيرًا، لكن إذا جاء عَطْف البيان مِثْل هذه الآيةِ: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ فقَدِ استَفَدْنا منها مَعنًى هو إلى الصِّفة أَقرَبُ منه إلى البدَلية؛ فلهذا يُسمُّونه عطْفَ بَيان ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾؛ أي: قالوا إنَّه كذِبٌ. والكِتاب هنا مُحلًّى بـ(أل)، فهل هي للعَهْد، أو للاستِقْرار، أو للجِنْس؟ أَقرَبُ شيء أنها للجِنْس، والمفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعَلها للعَهْد فقال: [القُرآن] ولا شَكَّ أنه لا يَجوز العُدول عن الجِنْس أو بَيان الحَقيقة، لا يَجوز العُدول عن ذلك إلَّا بدَليل.

فما هو الأصل في (أل) أن تَكون لبَيان الحَقيقة أو لبيان الجِنْس أو للعَهْد؟

الجواب: لبَيان الجِنْس؛ لأن بيان الجِنْس يَعنِي: الاستِغْراق، وهذا هو الأصل،

فإذا جعَلْتها للعهد فقَدْ عدَلْت بمَعناها العامِّ إلى مَعنًى خاصٍّ، وكذلك إذا جعَلْتها للحَقيقة، ونحن نَضرِب ثلاثة أمثِلة؛ ليَتبيَّن الأمر، إذا قلت: الرجُل خَيْر من المرأة. فهي ليسَتْ للعُمـوم؛ لأن من النِّساء من هـو خَيْر من الرِّجال؛ إِذَنْ: هذا لبَيان الحَقيقة.

فإذا أَورَد عليك مُورِد ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ لأيِّ شيءٍ هذا؟ للجِنْس -يَعنِي: للعُموم، يَعنِي: خُلِق كلُّ إنسان ضَعيفًا-.

وإذا أَورَد عليك قولَ الله تعـالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل:١٥-١٦] فهي للعَهْد الذِّكريِّ.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ هذا أيضًا للعَهْد؛ أي: العَهْد الذِّهنيِّ.

هنا قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حمَل قولَه: «الكِتاب» على العَهْد الذِّهنيِّ، وقال: إنَّه [القُرآن]، والصَّواب أنه عـامٌّ، وأن المُراد به جِنْس الكِتاب، وذلك لأن التَّـوراة كَذَّبت بها أُناسٌ، والإِنْجيل كذَّب به أُناس، وكذلك الزَّبور وبَقيَّة الكُتُب، وآخِرُها القُرآن.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلذِّكْرِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن التَّوْحيد والبَعْث وهُمْ كُفَّارُ مكَّةَ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ عَطَفها على قوله: ﴿بِٱلذِّكْرِ﴾ بإعادة العامِل؛ لأن العَطْف يَكون بإعادة العامِل وبغَيْر إعادة العامِل، فتَقول: مرَرْت بزَيدٍ وعَمرٍو. هذا عَطْف بدون إعـادة العامِل، مرَرْت بزَيْد وبعَمْرٍو هذا عَطْف

بإعادة العامِل، ويُفيد إعادة العامِل استِقْلال المعطوف عن المعطوف عليه؛ لأنه ليس تابِعًا له من كل وَجْه بدليل إعادة العامِل، فقوله: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ يَدُلُّ على أن ما أُرسِلَت به الرُّسُل كأنه مُستَقِلٌّ عن الكِتاب؛ ولهذا كانَتِ السُّنَّة بمَثابة الكِتاب في الدَّلالة بوُجوب العَمَل بها.

وقوله: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من التَّوْحيد والبَعْث وهُمْ كُفَّار مكَّةَ] التَّوْحيد يَعنِي: تَوْحيد الله عَزَّوَجَلَّ بما يَستَحِقُّ من الأسماء والصِّفات والعِبادة والربوبية، وأمَّا البَعْث فهو إخراج الناس من قُبورهم يومَ القِيامة.

وقوله: [وهُمْ كُفَّارُ مكَّةَ] هذا لا وَجهَ له؛ لأن هذا الوَصفَ التَّكذيب بالكِتاب، وبما أُرسِل به الرُّسُل لا يَختَصُّ بأَهْل مكَّةَ هم وغيرهم، فالأَوْلى أن يُجعَل هذا عامًّا في كل مَن كذَّب بمُحمَّد ﷺ، بل قُلْ: عامًّا لكل مَن كذَّب الرُّسُل انتَبِهْ.

لكن إذا قال قـائِلٌ: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ أَلَا تَدُلُّ بذلك على أن المُراد بذلِكَ الكُفَّار الذين كذَّبوا مُحَمَّدًا ﷺ؟

الجَوابُ: لا؛ لأن قوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ تَهديد بما سيَكون في الدُّنيا، وما سيَكون في الآخِرة بدليـل قوله: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ والأغلال لا تَكون في الأَعْناق إلَّا يوم القِيامة.

قال المفَسِّر: [﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ عُقوبةَ تَكذيبِهم ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ ﴿إِذِ﴾ بمَعنَى: إذا، ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ عَطْف على ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾ فتكون في الأَعْناق، أو مُبتَدَأ خبَرُه مَحذوف؛ أي: في أَرجُلِهم، أو خبَرُه ﴿يُسۡحَبُونَ﴾ أي: يُجَرُّون بها].

قوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ هو تَهديد بلا شَكٍّ؛ كقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾، فقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ

أَعْنَقِهِمْ﴾ فيقول المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن [﴿ إِذِ﴾ بمَعنَى: إذا]، ومِن المعلوم أن (إِذْ) تَأتِي للحاضِر وتَأتِي للماضِي، و(إذا) تكون للمُستَقبَل، فما الذي جعَل المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَصرِف مَعناها إلى المُستَقبَل؟

الذي جعَله يَصرِف ذلك إلى المُستَقبَل أن الأَغلال لا تكون إلَّا يوم القِيامة، وهو مُستَقبَل.

ولكنَّنا نَقول: لا حاجةَ إلى ذلك، بل هي (إِذْ) على بابها، ولكنَّها حِكاية حال، وحِكاية الحال هي التي تَجعَل المُستَقبَل كأنه حاضِر، وهذا أَبلَغُ في التَّهديد. يَعنِي: كأن الأَغْلال الآنَ حاضِرة؛ لأنها أمر مُؤكَّد، ولا بُدَّ أن تكون الأَغْلال في الأَيْدي، كما قال الله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ [المائدة:٦٤]، والسلاسل تكون في الأَرجُل، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم:٤٩-٥٠]، لكن هنا يَقول: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ تَقتَضِي أن يَكون ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ في الأعناق في مَحلِّ الأَغْلال، ولكن في احتِمال آخَرَ بيَّنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقَوْله: [عَطْف على ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ تكون في الأعناقِ] أي: مُبتَدَأ خبرُه مَحذوف؛ أي: في أَرجُلهم، وإذا كانت مُبتَدَأ نَقول: الواو للاستِئْناف، و(السلاسل): مُبتَدَأ وخبرُه مَحذوف؛ أي: في أَرجُلهم، أو خبره ﴿يُسْحَبُونَ﴾ ويَكون العائِد مَحذوفًا، والتَّقديرُ: يُسحَبون بها ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ بها، فهُنا صار في إعراب (السَّلاسِل) ثَلاثةُ أَوْجُهٍ:

الوجه الأَوَّلُ: أنها مَعطوفة على ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ فتكون والسلاسِل في الأعناق يَعنِي: مَعناه: تُغَلُّ أيديهم إلى أَعْناقهم بسَلاسِلَ.

والثاني: أن تكون السلاسِل بالأَرْجُل، والخبَر مَحذوف؛ أي: في أَرجُلهم.

والثالِث: أن تكون السلاسِل في الأَرجُل، والخَبَر قوله: ﴿يُسْحَبُونَ﴾، والمَعنَى: أنهم يُسحَبون بهذه السلاسِلِ، وهذا المَعنَى هو أقرَبُها لظاهِر القُرآن كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر:٤٨]، فهُمْ إذا سُحِبوا على وُجوههم فتكون السلاسِلُ في الأَرجُل، فهذا أَقرَبُ الاحتِمالات التي ذكَرَها المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِي ٱلْحَمِيمِ﴾؛ أي: جَهَنَّمَ] ووُصِفَت بذلك لأنَّها شَديدةُ الحَرارة، [﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ يُوقَدون]؛ لأن النار وَقودُها الناسُ والحِجارةُ.

من فوائدِ الآياتِ الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: العَجَب من حال هَؤلاءِ المُكذِّبين بالكِتاب وبما جاءَت به الرُّسُل؛ لقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهُمْ -واللهِ- عجَب؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد:٥].

وإن قال قائِلٌ: في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فسَّرْتم الاستِفْهام أنه استِفْهام تَقريريٌّ، ثُم قُلْتم: من فَوائِده التَّعجُّب، فهل هذا التَّعجُّبُ ليس استِفْهامًا؟

فالجَوابُ: من قوله: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾، فقَوْله: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ استِفْهام.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الإنسان يُصرَف عن الحَقِّ مع بَيانه ووُضوحه، وهذا يُؤدِّي إلى فائِدة أُخرى، وهي خَوْف الإنسان من أن يُصرَف عن الحَقِّ، ويَنتُج عن ذلك فائِدة ثالِثة، وهي سُؤال الإنسان ربَّه دائِمًا أن يُثبِّتَه؛ ولهذا كان من دُعاء المُؤمِنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨]، فيَنبَغي للإِنْسان أن يَكون دائِمًا على خَوْف وأن يَسأَل الله الثَّباتَ دائِمًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَهديد هَؤلاءِ المُكذِّبين بهذه العُقوبةِ، أن تُغَلَّ أيديهم يوم القِيامة،

وأن تُسلسَل أَرجُلهم، وأن يُسحَبوا في النار على وُجوههم، وكل هذا يُوجِب للإنسان أن يُصدِّق بالكُتُب وبما جاءَتْ به الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الإنسان لا يَعلَم عِلْم اليَقين حتى يُشاهِد ما أَخبَرَت به الرُّسُل؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ وفي ذلك الوقتِ يُقِرُّون بالحقِّ ويقولون: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف:٥٣]، لكن هذا لا يُمكِنهم ولا يُمهَل لهم في ذلك، بل قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات النار، وأنها في أَشَدُّ ما يَكون من الحرارة؛ لقوله: ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ هذا العَذابُ لا يَخفَى علينا جميعًا أنه عَذاب بدَنيٌّ جسَديٌّ.

• • ۞ • •

الآيتان (٧٣، ٧٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [غافر:٧٣-٧٤].

هناك عَذاب قَلبيٌّ بيَّنه في قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ ﴾ تبكيتًا ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ معه وهي الأَصْنام]، والاستِفْهام هنا لا شكَّ أنه للتَّوْبيخ والتَّنْديم والتَّعْجيز، كلُّها يَتضَمَّنها هذا الاستِفْهامُ وهذا ألَمٌ قَلبيٌّ؛ لأن الإنسان يَندَم أشَدَّ الندَم إذا كانت هذه الأصنامُ التي كان يَعبُدها لتُقرِّبه إلى الله عَزَّوَجَلَّ كما يَدَّعي، ثُم تَضِلُّ عنها الآنَ ولا تُوجَد، كما لو أَمسَكْت عبدًا الآنَ وعذَّبْته وقلت: أين سيِّدُك الذي تَدَّعي أنه يَحميك؟ هذا يَكون أشَدَّ ندَمًا له.

إِذَنْ: هَؤلاء يَندَمون هذا التَّنديمَ فيُقال: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: مع الله وهي الأصنامُ، وحينَئذٍ يَتحَسَّرون حسرةً ليس فوقَها حَسْرة؛ ولهذا يَقولون إقرارًا، إقرار المُكرَه في الواقِع: [﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟﴾ غابوا ﴿عَنَّا﴾ فلا نَراهُم]، إِذَنْ عرَفوا أنها لن تَنفَعهم وأنها غابت عنهم في أشَدِّ ما يَحتاجون إليها فيه، بل قالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ سُبحانَ الله! يَعنِي: أَنكَروا أن يَكونوا أَشرَكوا؛ كما قال تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام:٢٣-٢٤].

فالحاصِلُ: أنهم يَندَمون هذا الندَمَ العَظيم ثُم يُنكِرون يَقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ ﴿نَّدْعُواْ﴾ بمَعنى نَعبُـد؛ لأن الدُّعاء يَنقَسِم إلى قِسْمَين: دُعاء مَسألة، ودُعاء عِبـادة، وكِلاهما مُتلازِمان فدُعاء المَسأَلة عِبـادة، كما جاء في الحَديث: «الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ»(١) ودُعاءُ العِبادة دُعاء مَسأَلة؛ لأنك لو سأَلْت العابِد لماذا عبَدْت الله؟ لقال: رجاءَ ثَوابِه وخوفَ عِقابه. فهو داعٍ بلِسان الحال؛ ولذلك صار الدُّعاء بمَعنَى العِبادة، والعِبادة بمَعنى الدُّعاء، وانظُرْ إلى ذلك في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

لكن دُعاء المَسأَلة دُعاء صَريح في السُّؤال يَقول القائِل: ربِّ اغفِرْ لي وارْحَمْني.. إلى آخِره، ودُعاء العِبادة دُعاء باللَّازِم؛ لأن الإنسان إنما يَعبُد الله خوفًا من عِقابه ورجاءً لثَوابه.

ودُعاء المَسأَلة عِبادة باللَّازِم؛ لأن السائِل مُتذَلِّل للمَسؤول، فهو مُتعَبِّد له.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أَنكَروا عِبادتهم إيَّاها ثُم أُحضِرت، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: وَقودها].

وتَمام الآية: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٩]، فهَؤلاءِ أَنكَروا، كذَبوا على أَنفُسهم، ظَنُّوا أن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٦٧)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٧٩)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، رقم (٢٩٦٩)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، رقم (٣٨٢٨)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

هذا سيَنفَعُهم، كما لو أن الجانِيَ في الدنيا أَنكَر جِنايته ربما يَنفَعه ذلك، لكن في الآخِرة لا يَنفَع، حتى إنهم إذا أَنكَروا خُتِم على أَفْواهِهم، فتتكلَّم الأيدي والأَرجُل والجُلود والأَلْسُن بما تَعمَل، وحينئذٍ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف حَرْف، لكنها اسمٌ في الواقِع، فهي مَفعول مُطلَق، وتَقديرُ الكَلام: مثل ذلك الإِضلالِ يُضِلُّ الله الكافِرين، فهي حَرْف صورةً، لكِنَّها بالمَعنى اسمٌ، هذا الاسمُ مَحلُّه من الإعراب مَفعول مُطلَق للفِعْل الآتِي بعده، ومِثْل هذا التَّعبيرِ يَأتِي كثيرًا في القُرآن، وإعرابه كما سمِعْتم أن الكاف حَرْفٌ بمَعنَى (مِثْل)، وأن إعرابها مَفعول مُطلَق للفِعْل الذي بعدَها، والتَّقدير في كل سِياق بحَسبه، لكن في الآية التي معَنا: مثل ذلك الإِضلالِ يُضِلُّ الله الكافِرين.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: يَجعَلهم في ضَلال يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مِثل إِضْلال هَؤلاءِ المُكذِّبين ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾].

من فوائدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن هَؤلاءِ المُكذِّبين بالكِتاب وبما أَرسَل الله به الرُّسُل يُعذَّبون عذابًا جَسَديًّا بالسلاسل والأغلال والسَّحْب في النار، ويُعذَّبون عذابًا قَلْبيًّا بالتَّوْبيخ والتَّقْريع والتَّنْديم، فيُقال: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

مسألة: إثبات القَوْل لله عَزَّوَجَلَّ هل يُمكِن أن يُؤخَذ من الآية؟

الجَوابُ: الآية لا تَدُلُّ على هذا؛ لأن القائِل لم يُبيِّن، بل قيل لهم، ولكِنها في آية أُخرَى تَدُلُّ على أن الله يَقول لهم ذلك: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ

تَزْعُمُونَ ﴾ الذي يُنادِيهم الله؛ لأنه قال: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾، ويُمكِن أن يُقال: إنهم يُنادَوْن من قِبَل الله، ويُنادَوْن أيضًا من قِبَل الملائِكة الذين وكَّلَهم الله عَزَّوَجَلَّ. أو يُقال: إن المَلائِكة تُناديهم، ولكن مُناداتهم أُضيفَت إلى الله؛ لأنه الآمِر بها كما أَضاف الله الوَفاةَ إليه؛ مع أن التي تَتَوفَّى الأَنفُس مُباشَرةً هي الرُّسُل، ولكن نَقول: هذه احتِمالات لا نُورِدها مع وجود الظاهِر؛ لأن الكلام يُحمَل على ظاهِره حتى يَقوم دَليلٌ على صَرْفه عن الظاهِر، فإذا كان الله يَقول: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ صَريح بأن المُنادِيَ هو الله، ويَبقَى على ما هو عليه، ويُحمَل ما كان مَبنيًّا للمَفعول على أن المُنادِيَ هو الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الله تعالى يُضِلُّ الكافِر لكُفْره، وجهُ الدَّلالة: أن الحُكْم إذا عُلِّق على وَصْف كان ذلك الوصفُ عِلَّةً له، فما الذي عُلِّق على الكُفْر هُنا؟ الإضلالُ.

إِذَنْ: الكُفْر سبَب الإضلال، ويُؤيِّد هذا قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

يَتفرَّع على ذلك: أن الضالَّ إذا ضلَّ فإنه هو السبَب في ضَلاله؛ لأن الله تعالى لو عَلِم فيه خيرًا لأَسمَعه؛ ولهذا يَقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾، وهذه الآيةُ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ تَعنِي أن الله أَعلَمُ حيث تكون الرِّسالة في شخص مُعيَّن، وكذلك حيث يَكون أَثَرُ الرِّسالة في شخص مُعيَّن، وأَثَر الرِّسالة الهِداية.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الرَّدُّ على القدَرية: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وجهُ ذلك: أن القَدَرية يَقولون: إن أَفعال العِباد ليسَت مَخلوقة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا عَلاقةَ لله به، لكنَّ الآيةَ تَدُلُّ على أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يُضِلُّهم، فيَكون في ذلك رَدٌّ على القَدَرية.

يَنبَغي بهذه المُناسَبة أن نَقول: إن الناس انقَسَموا في هذا البابِ إلى طرَفَيْن ووسط، -أي: في أَفْعال العِباد-:

فمِنهم مَن يَقول: إن أَفْعال العِباد مَخلوقة لله، والعَبْد مَجبور عليها وليس له إرادة؛ لأن الله خالِقُ كل شيء، وإذا كان الله هو الخالِقَ فالإنسان ليس له تَدْبير.

ومنهم مَن قال بالعَكس: إن الإنسان فاعِل باختِياره وليس لله عَلاقةٌ به. هذان طرَفان.

ومِنهم مَن قال: إن الإنسان فاعِل باختِياره لكن فِعْله مَقرون بمَشيئة الله، وهذا هو الوَسَط.

واعلَموا أن أسباب الضَّلال في مِثْل هذه الأُمورِ أن من الناس مَن يَنظُر إلى النُّصوص من زاوِية واحِدة، بمَعنى أنه يَأْخُذ نَصًّا ويَدَع نصًّا:

فالجَبْرية رأَوْا عُموم مَشيئة الله وعُموم خَلْق الله، وأن الإنسان فَقير إلى الله، وما أَشبَه ذلك فقالوا: إِذَنْ الإنسان ليس له إرادة ولا اختِيار، وفِعْله على وَجْه الإجبار.

والقدَرية رأَوْا أن الإنسان يَفعَل ولا يُحِسُّ أن أحَدًا مُكرِهٌ له، والله تعالى قد أَضاف الفِعْل إليه فقال: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وما أَشبَهَ ذلك، فإِذَنْ هو مُستَقِلٌّ بعمَله ليس لله فيه عَلاقة، فأَخَذوا من جانَب وتَرَكوا من جانبٍ آخَرَ.

وهكذا جميع خِلاف العُلَماء إذا رأَيْت العُلَماء مُختَلِفين على طرَفَيْن ووسَط، فاعلَمْ أن الطَّرَفين كل واحد مِنهما أَخَذ بجانِب من الأدِلَّة وترَك جانِبًا آخَرَ.

• • ۞ • •

الآية (٧٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر:٧٥].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ويُقال لهم أيضًا: ﴿ذَٰلِكُم﴾ العَذاب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾] ﴿ذَٰلِكُم﴾ المُشار إليه العَذاب، والمُخاطَب أُولئِك الكافِرون؛ ولهذا جاءَتِ الكاف بضَمير للجَماعة، وجاءَتِ اسمَ إشارة بالإشارة لمُفرَد مُذكَّر؛ لأن العَذاب مُفرَد مُذكَّر، واعلَمْ أن اسمَ الإشارة وكاف الخِطاب تارةً يَتَّفقان وتارةً يَخْتَلِفان، فاسمُ الإشارة يَكون بحَسب المُشار إليه، وكاف الخِطاب بحَسب المُخاطَب، وليُنتَبه للقاعدة.

فإذا قيل لك: أَشِرْ إلى مُفرَد مُذكَّر مُخاطِبًا جماعةَ نِساءٍ. تَقول: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾، وإذا قيل: أَشِرْ إلى مُثنًّى مُذكَّر مُخاطِبًا مُثنًّى مُؤنَّثًا تَقول: ذانِكما. وإذا قيل: أَشِرْ إلى مُفرَدة مُؤنَّثة مُخاطِبًا جماعةَ ذُكور. تقول كما في القُرآن: ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الأعراف:٤٣].

المُهِمُّ هذه القاعِدةُ: اسمُ الإشارة بحَسب المُشار إليه وكاف الخِطاب بحَسب المُخاطَب قد يَتَّفِقان وقد يختَلِفان.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ﴾ الباء للسَّبَبية، و(ما) مَصدَرية، وعَلامة (ما) المَصدَرية

أن يَصِحَّ تَحويلُ ما بَعدها إلى مَصدَر، فمثَلًا قوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ﴾ إذا حوَّلْنا ما بعدَها إلى مَصدَر يَكون التقدير: ذلِكُم بكَوْنِكم تَفرَحون في الأرض بغير الحقّ. وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ مَعلوم أن (كان) هذه للماضِي أي: قبل المَوْت ﴿كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: تَفرَحون بالباطِل؛ وذلك لأنهم يَفرَحون بالشِّرْك والكُفْر، وكلُّ مَن شارَكهم في إثمهم فإنَّهم يَفرَحون به.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مِن الإِشْراك وإنكار البَعْث]، وهذا في الواقِع قُصور، إلَّا إذا كان يُريد به التَّمثيل، وإلَّا فإن قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أعَمُّ من الشِّرْك وإنكار البَعْث، فهم يَفرَحون في الأرض بغير الحَقِّ من الشِّرْك وإنكار البَعْث، والعُدوان، وتَحليل الحَرام، وتَحريم الحَلال، كالسائِبة، والوَصيلة، والحامِي، وما أَشبَه ذلك.

المُهِمُّ: أن قول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالإِشراكِ وإنكار البَعْث] هذا قُصور ما لم يُرِدِ التَّمثيل، فإن أَراد التَّمثيل فإن التَّمثيل لا يُفيد الحَصْر.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ تَتَوسَّعون في الفَرَح]، الواو حرف عَطْف والباء للسبَبية، وهذه الجُملةُ مَعطوفة على ما قَبلَها بإعادة العامِل الذي هو الباء، والعَطْف بإعادة العامِل يَعنِي: أن الثانيَ مُستَقِلٌّ عن الأوَّل، فهُمْ يُعذَّبون بالأمرَيْن جميعًا: يُعذَّبون عَذابًا خاصًّا بالفرَح، وعذابًا خاصًّا بالمرَح، والباء للسبَبية ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ تَتَوسَّعون في الفرَح.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات الأَسْباب، يُؤخَذ من قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾؛ لأن الباء هنا للسبَبية.

واعلَمْ أيضًا أن الناس اختَلَفوا في الأسباب على ثلاثة أقوال: طرَفان ووسَط، طرَف من الناس أَثبَتَ الأسباب، وأنها فاعِلة بنَفْسها يَعنِي: أنه إذا وُجِد السبَب لزِمَ وُجود المُسبَّب ولا بُدَّ، وطائِفة أُخرى أَنكَرت تَأثير الأسباب وقالوا: الأَسْباب لا تُؤثِّر؛ لأنك لو جعَلْت هذا مُتأثِّرًا بسبب لأَثبَتَّ لله شريكًا في الإيجاد، وهذا شِرْك.

الطائِفة الثالِثة: قالتِ: الأسباب مُؤثِّرة بلا شَكٍّ، لكن لا بنَفْسها، بل بما أَودَع الله فيها من القُوَّة التي صارت بها مُؤثِّرة، ما هي بنَفْسها غير مُؤثِّرة، لكن الله تعالى أَودَع فيها قُوًى تُؤثِّر، ولو شاء الله تعالى لسلَب تِلْك القُوَى فلم تُؤثِّر.

وهذا قَوْل وسَط، وهو مَذهَب أهل السُّنَّة والجَماعة، وهو الذي يُوافِق السَّمْع والعَقْل.

وأَضرِب لك مثَلًا: رجُل رَمَى زُجاجة بحجَر فانكَسَرَت، مُثبِتو الأسبابِ يَقولون: الذي كسَرها الحجَرُ بذاته. ونافو الأَسبابِ يَقولون: الحَجَر لم يَكسِر الزُّجاجةَ، لكِن انكَسَرَت الزُّجاجة عند رَمْيها بالحجَر، وليس بالحجَر، وإنما الحَجَر أَمارة فقَطْ، أَمارة حصَل الشيء عِندها، وكَذلِك بَقيَّة الأسباب. والوسَط يَقولون: الحجَر كَسَر الزُّجاجة، فهو السبَب بما جعَلَ الله تعالى في الحجَر من قُوَّة، وبما جعَل في الزُّجاجة من قابِلية تَقبَل الانكِسار، وهذا هو الحَقُّ.

ثُم إذَا أَلقَيْنا في النـار ورَقة فاحتَرَقَت، مُثبِتو الأسباب الذين يَقـولون: إن الأسباب تُؤثِّر بنَفْسها. يَقولون: النـار أَحرَقَت الورَقة، ولا بُدَّ. ونافـو الأسبابِ يَقولون: إن النار لم تُحرِق الورَقَ ولكِن احتَرَقَت الورَقة عند إلقائِها في النار لا بالنار. والوَسَط يَقولون: احتَرَقَت الورَقة بالنار بما جعَل الله تعالى في النار من قُوَّة الإِحْراق،

وبما جعَلَ في الورَق من قابِلية ذلك.

ولهذا يُوجَد الآنَ مَوادُّ تُضادُّ النار، تُلقَى في النار ولا تَحتَرِق؛ لأن هُناك مانِعًا يَمنَع من تأثير السبَب، وهذا القولُ هو الراجِح، أَلَمْ تَرَوْا أن إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُلقِيَ في النار العَظيمة التي لم يَستَطِع مُلقوه أن يَقرَبوا منها حتى أَلقَوْه في المَنجَنيق ورمَوْه فيها رَمْيًا؛ لم يَحتَرِق مع أن النار سبَب للإِحْراق، لكن الله قال لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فكانت بَرْدًا وسَلامًا عليه، قال العُلَماء: لو قال الله كوني بَرْدًا، ولم يَقُل: كُوني سَلامًا. لكانت بَرْدًا مُهلِكًا، لكن الله قال: ﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾، فكانت بَرْدًا وسَلامًا وكأنه لم يَكُن في نار.

إِذَنْ نَقول: الأصَحُّ من أقوال العُلَماء في تأثير الأسباب أنها مُؤثِّرة لا لذاتها، ولكن بما جعَل الله فيها من القُوى المُؤثِّرة في المَحلَّات القابِلة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الفرَح بغير الحَقِّ سبَب للعَذاب والإِضلال، يُؤخَذ من قوله: ﴿تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الفرَح بالحَقِّ مَحمود؛ ولهذا جاء في الحَديث عن النبيِّ ﷺ: «**مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ**»(١)، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]، فالفرَح بالحَقِّ مَحمود، والفَرَح بغير الحَقِّ مَذموم، والفرَح بما ليس حَقًّا ولا باطِلًا ليس مَحمودًا ولا مَذمومًا؛ لأنه من اللَّغْو، ولكن عِباد الرحمن إذا مَرُّوا باللَّغْو مَرُّوا كِرامًا.

ثُم اعلَمْ أن الفرَح يَكون طبيعيًّا، الإنسان إذا أَتاه ما يَسُرُّه لا بُدَّ أن يَفرَح

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ١٨)، والترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم (٢١٦٥)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَنفعِل بدون إرادة، ومَعلوم أن هذا لا يُؤاخَذ به الإنسان إلَّا إذا كانَت طَبيعته مُنحَرِفة بحيث يَفرَح بالسُّوء دون الخَيْر.

فإن قال قائِل: قُلنا: الفرَح بالحَقِّ مَمدوح، فما ضابِط الحَقِّ الذي يُفرَح به؟

فالجوابُ: إذا فعَـل الإنسان خيرًا فهذا حَقٌّ، فإذا فرِح بذلك فهو حَقٌّ، إذا فرِح بالمَطَر فهذا حقٌّ، إذا فرِحَ بأن الله أيَّدَه بشيء فهذا حقٌّ؛ ولهذا فرِحَ ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين أَفتَى الرجُلَ بالتَّمتُّع في الحَجِّ فرأَى في مَنـامه رجُلًا يَقول له: عُمْرة مُتَقبَّلة وحَجٌّ مَبرور. فأَخبَرَ بذلك ابنَ عبَّاس ففَرِح بها، وقال: انتَظِرْ حتَّى نُعطِيَك مِن العَطاءِ[1] أو كلِمة نَحوَها.

فإن قال قائِل: فَرَح قارونَ الذي ذُمَّ عليه، هل هو بالبَغيِ أو بالمال الذي أُوتِيَ؟

فالجوابُ: بكِلا الأَمْرَيْن

فإن قال قائِل: لكن الفرَح بالمال ذاته ليس مَذمومًا.

فالجَوابُ: لا، قد يَكون مَذمومًا وقد يَكون مَمدوحًا، إذا فرِح بالمال ليَستَعين به على حَقٍّ، يَعنِي: إنسان يُريد أن يَشتَرِيَ كُتُبًا وليس عنده مال فرَزَقه الله المال فيَفرَح ليَشتَرِيَ الكُتُب، لكن إنسان يُريد أن يَشتَرِيَ آلةَ لَهْوٍ وليس عِنده مال فرَزَقه الله المالَ فاشتَرَى به آلةَ لَهْوٍ، فالفرَح هنا مَذموم.

فإن قال قائِل: هل يُثاب الإنسان على الفَرَح؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾، رقم (١٦٨٨)، ومسلم: كتاب الحج، باب جواز العمرة في أشهر الحج، رقم (١٢٤٢). وقوله أنه أعطاه عطية أخرجه الطيالسي في مسنده رقم (٢٨٧٢).

فالجوابُ: أي نعَمْ؛ لأنه يَدُلُّ على حُسْن نِيَّة وقَصْد، إذا فرِح بالحَقِّ فإنه يُثاب على ذلك؛ لأنه يَدُلُّ على أنه يُريد الحَقَّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الأسباب تَتَوارَد، بمَعنى أنه قد يَرِد على الشيء سببٌ، يُؤخَذ من قوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾، والمَرَح أشَدُّ الفَرَح، وهكذا الأسبابُ الشَّرعية تَتَوارَد، بمَعنَى أنه قد يَكون في الإنسان سَبَبان، واحِد مِنهما يُوجِب الحُكْم، فإذا اجتَمَعا صار كل واحِد يُقوِّي الآخَرَ.

فإنِ اختَلَف مُوجِب السبَبَيْن فهل نَقول: إننا نَأخُذ بأَحَد السبَبَيْن دون الآخِر، أو نَأخُذ بالسبَبَيْن ونَعمَل بمُوجبهما؟

الجوابُ: الثاني ما لم يَكُن أحدُهما أقوى فيَندَرِج به الأصغَرُ، فإذا اجتَمَع سببان واختَلَف مُوجبهما، أَخَذْنا بمُوجب كل منهما ما لم يَكُن أحدُهما أقوى فيُؤخَذ بالأَقْوى.

مثال ذلك: ابنُ عَمٍّ هو زَوْج ماتت امرَأَتُه، هنا اجتَمَع في حقِّ هـذا الزَّوْجِ جِهة فَرْض وجِهة تَعصيب، فهل يَرِث بالفَرْض أو بالتَّعصيب أو بهما؟

الجَوابُ: بِهما، فنَقول: هذا الزَّوجُ له النِّصْف فَرْضًا، والباقِي تعصيبًا، فهُنا وَرِث بالفَرْض وبالتَّعصيب.

ورجُل ملَكَ أَمَةً ثُمَّ تزوَّجها فهل يَصِحُّ هذا الزواجُ ليَملِك بُضْعها أو لا يَصِحُّ؟

الجوابُ: لا يَصِحُّ؛ لأن المِلْك أَقوى؛ ولهذا لا يَصِحُّ على السَّيِّد أن يَعقِد النِّكاح على أَمَته، لكن يَستَمتِع بها بمِلْك اليمين.

ورجُل بالَ وتَغوَّطَ، هنا سبَبان مُوجِبان للوُضوء هل نَأخُذ بكُلِّ واحِد منهما؟

الجَوابُ: هنا لم يَختَلِف المُوجِب هنا؛ لأن المُوجِب هـو الوضوء فلا يَختَلِف،

لكن يَقوَى المُوجِب بتَعـدُّد المُوجَب، لكن لَمَّا لم يَختَلِف فنَقـول: نَأخُذ بهما جميعًا؛ لأن لا فائِدةَ من ذلك.

إِذَنْ: إذا اجتَمَع مُوجِبان فإذا اتَّحَد مُوجِبهما أَخَذْنا بواحِد وكفَى، وإن اختَلَف المُوجِب أَخَذْنا بهما ما لم يَكُن أحدُهما أقوى، فيُؤخَذ بالأقوى ويُترَك الأَضْعَف

الآية (٧٦)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [غافر:٧٦].

قال تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ ﴾ فِعْل أَمْر، والآمِر هُمُ المَلائِكة، والأَمْر يُراد به لإهانة، ليس أَمْر إكرام، ولكِنه أَمْر إهانة وإِلْزام؛ لأنه لا بُدَّ أن يَدخُل. وقوله: ﴿أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ جَمْع، وعدَد أبواب جَهنَّمَ سَبْعة كما قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤]، و﴿جَهَنَّمَ﴾ اسمٌ من أَسْماء النار، وسُمِّيَت بذلك لأنها ذاتُ جُهْمة، إذا قُلْنا: إن جَهنَّمَ اسمٌ عرَبيٌّ زِيدت فيه النون. وإن قُلنا: إنه اسمٌ غيرُ عرَبيٍّ ولكنه عُرِّب، فلا حاجةَ أن نَقول: إنه مُشتَقٌّ من الجُهمة التي هي الظُّلْمة أو القَعْر، وأيًّا كان فهو اسم من أَسْماء النار، أَعاذَنا الله وإيَّاكم منها.

فإن قال قائِل: قُلْتم: إن العدَدَ لا مَفهومَ له في قوله ﷺ: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»(١) قُلْتم: هذا العدَدُ لا يَدُلُّ على الحَصْر، وإن لله أَسماءَ أُخرى فلِماذا نَقولُ بالحَصْر، أو بإفادة العدَد الحَصْر في أبواب جَهنَّمَ وأبواب الجَنَّة؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحدًا، رقم (٧٣٩٢)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، رقم (٢٦٧٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالجوابُ: نَقول: أمَّا الأوَّلُ وهو قوله: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا» فإنَّما قُلنا: إنها لَيْسَت للحَصْر بدليلٍ وهو حَديث عبد الله بن مَسعود في حَديث الهَمِّ والغَمِّ، قال: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»[1]، وإذا كان الله مُستَأْثِرًا به في عِلْم الغَيْب عنده، فإنه لا يُمكِن للإنسان أن يُدرِكه؛ لأن الله استَأْثَر به، فمن ثَم قُلنا: إن العَـدَد لا مَفهومَ له في قوله: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا» وأن المعنى أن مِن أَسماء الله تِسْعة وتِسْعين اسمًا مَن أَحصاها دخَل الجَنَّة.

فإن قال قائِل: إذا قُلنا: ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ ﴾ تَأتِي للإهانة وتَأتِي للإكرام أَفَلا يَكون فيها رَدٌّ على مَن قال: إن القُرآن فيه مَجاز، وذلك لأَنَّنا نَقول: كلُّ كلِمة في مَوْضِعها فهي حَقيقة فيها.

فالجوابُ: نعَمْ، ربما يَكون في ذلك دَلالة على نَفيِ المَجاز؛ ولهذا كان الصوابُ ما اختـارَه شَيْخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ «أنَّه لا مَجازَ في اللُّغـة ولا في القُرآن».

والعُلَماء اختَلَفـوا على هذا في أَقْوال: فمِنْهم مَن قال: لا مَجـازَ لا في القُرْآن ولا في غيره. ومِنهم مَن قال: لا مَجـازَ في القُرآن ويَجوزُ في اللُّغة. ومِنهم مَن قال: المَجاز في القُرآن واللُّغة. ومِنهم مَن قال: كلُّ الكَلام مَجاز. وأَظُنُّ هـذا رَأْيُ ابن جِنِّي[3]، أن جميع الكلام كله مَجاز، حتى إذا قال: ضرَبْت زَيْدًا. قال: هذا مَجاز. قُلتُ: خيرًا. قال: هذا مَجاز. وهَكذا، لكن الراجِح أن لا مَجازَ؛ وذلك لأن الذي يُعيِّن مَعنَى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: كتاب الإيمان (ص:٧٣).

(٣) انظر: المزهر في علوم اللغة للسيوطي (١/ ٢٨٧)، ومنع جواز المجاز للشنقيطي (ص:٥).

الكلِمة هو السِّياق والقَرائِن؛ ولهذا ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ﴾ القَرينة تَدُلُّ على أن الأَمْر للإِهانة ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ القَرينـة تَدُلُّ على أنه للإكرام.

فائِدةٌ: قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في أَهْل النار يُقال لهم: ﴿ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ الأمر بدُخول النار أَمْر الله عَزَّوَجَلَّ، والمُراد به يومَ القيامة هو الإِهانة، وقوله تعالى في أهل الجَنَّة: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ المُراد بالأَمْر الإكرام؛ إِذَنْ نَأْخُذ من هذا أن الكلِماتِ يَختَلِـف مَعناها باختِلاف السِّياق، وهذه فائِدة عَظيـمة لطالِب العِلْم أن الكلِماتِ يَختَلِف مَعناها باختِلاف السِّياق، فكَمْ كلِمةٍ كان لها مَعنًى في سِياق ولها مَعنًى آخَرَ في سِياقٍ آخَرَ.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ ﴾ هذه حالٌ من الفاعِل في قوله: ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ﴾ والخُلودُ هل هو طُول المُكْث أو هو التَّأْبيد؟

نَقـول: اللُّغة العرَبية يَأتِي فيها الخُـلود مُرادًا به طولُ المُكْث، ويَأتِي مُرادًا به التَّأبيد، والمُراد به هنا الثاني يَعني: أنهم خالِدون فيها أبدًا.

ودليلُ ذلك أن الله تعالى صرَّح في القُرآن الكريم بأن أَهْل النار خالِدين فيها أَبَدًا في ثلاثة مَواضِعَ:

المَوضِع الأوَّل: قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩].

والآيةُ الثانية: قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

والآيةُ الثالِثةُ: قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

وبهذِه الآياتِ الثلاثِ يَتبيَّن ضَعْف -بَلْ بُطلان- قولِ مَن يَقول: إن النار ليسَتْ مُؤبَّدة، وإنها تَفنَى. فإن هذا القَوْلَ مُنكَر؛ لأنه مُخالِف لصريح القُرآن، ولا يُمكِن لإنسان يُخالِف صريح القُرآن لمُجرَّد تَعليلات يُعلِّلها، مثل أن يَقول: إن رحمة الله تعالى سبقَت غَضَبَه، وإن هَؤلاءِ مَآلُهم إلى أن يَفنَوْا هم والنار. يُقال: نعَمْ رحمة الله سبقَت غَضَبَه، لكن وَعْد الله حَقٌّ، وإذا كان وَعْد الله حقًّا، فإنهم يُخلَّدون فيها أبَدًا.

فإن قال قائِل: نحن قُلنا بأن القولَ: إن النار ليسَتْ مُؤبَّدة مُخالِفٌ لصَريح القُرآن؛ فإن قيل: هذا وعيد، وإخلاف الوَعيد جائِز!.

فالجَوابُ: نَقولُ: هذا لا يُمكِن؛ لأنَّنا لا نَقول: إخلاف الوَعيد جائِز، إلَّا في أَمْر ضَروريٍّ لا بُدَّ منه مِثْل: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [النساء:٩٣].

وهذه بعضُ الأَجْوبة التي أُجيب عن هذه الآيَةِ بها، أن هذا الوَعيدُ، وإخلافُ الوعيد كرَمٌ، وهو ثَناء ومَدْح للمُخلِف، لكِنْ هذا الجَوابُ في الواقِع جَواب يُهَزُّ ليس جَوابًا راسِخًا؛ لأنَّنا نَقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد:٣١] أي: ما وعَدَ به من عُقوبة أو كرامة، وأمَّا الآية: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ في آية القَتْل فيُحمَل الخُلود على المَعنَى الثاني وهو المُكْث الطويل، وبهذا ليس هناك تَناقُض.

فإن قال قائِل: التَّخليد الأبَديُّ في هذا العذابِ الأَليم كيف يَكون جَزاء لإنسان لم يَبقَ في الدُّنيا إلَّا مِئة سَنَة، أو مِئتي سَنَة، أو أَلْف سَنَة، فيَكون هنا العَذاب أكثرَ

من زمَن العمَل؛ لأنه لا أَحَدَ بَقِيَ في الدنيا أبَدَ الآبِدين فيَقتَضي هذا أن يَكون فيه ظُلْم؛ لأن الجَزاء صار أكثَرَ من العمَل بكثير، ولا يُنسَب له، كما قُلت لكم يَعنِي: لنَفرِض أن أحَدًا من الناس عاشَ أَلْفَ سَنَة، أو أَلفَيْ سَنةٍ، أو عشَرة آلاف سَنَة، لكنه عاش إلى أَمَد ثُم نَقول: عَذابه مُؤبَّد. يَكون هذا ظُلمًا؟

فيُقال: إن هـذا أَمضَى حَياته الدُّنيا كُلَّها في مُحادَّة الله ورُسُله فيُمضِي حَياته الأخرى كلَّها في العَذاب، وهذا عَدْل، ثُم إن هذا الذي عُذِّب أبَدًا قد قيل له في الدُّنيا وبُيِّن له أن جزاءَه العَذاب الأبَديُّ، فلماذا يُقدِم على شَيْء يَعرِف أن هذا جَزاءَه، وحينَئِذٍ لا ظُلمَ، ولا عُذْرَ للكافِرين.

فالمُهِمُّ: أن قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يُراد به الخُلود الأبَديُّ.

فإن قال قائِل: ما قولكم في ما ورَد: «يَبْلغ المرءُ بنِيَّته ما لَا يَبْلغ بعَمَله»؟

فالجَوابُ: أوَّلًا هذا ليس حَديثًا صحيحًا عن الرسول ﷺ، وثانيًا مُرادُ قائِله أن الإنسان يُدرِك بنِيَّته ما لا يُدرِك بعمَله، هذا المَعنَى، فالإنسان المَريض الذي يَتمَنَّي أنه صحيح يَقوم بما أَوْجَب الله عليه، هذا أَدرَكَ بالنِّيَّة ما لم يُدرِك بالعمَل، وكذلك أيضًا بالنِّسبة للشَّرِّ، الإنسان إذا نوَى الشرَّ وهو عاجِز عنه يُعاقَب مُعاقَبة الفاعِل لكن بالنِّيَّة، دَليل ذلك قول النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الرجُل الفَقير الذي ليس عِندَه مال، وكان هناك رَجُل آخَرُ يُنفِق المال في غير مَرضاة الله فقال الرجُل: «لَوْ أَنَّ لِي مَالَ فُلَانٍ لَعَمِلْتُ فِيهِ عَمَلَ فُلَانٍ» قال النَّبيُّ ﷺ: «فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَهُمَا فِي الوِزْرِ سَوَاءٌ»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، رقم (٢٣٢٥)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب النية، رقم (٤٢٢٨)، من حديث أبي كبشة الأنماري.

وقوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ هذه الجُملةُ جُملةٌ إنشائِية يُراد بها الذَّمُّ، ويُقابِل هذا في المَدْح: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿فَبِئْسَ﴾ هنا فِعْل إنشائِيٌّ يُراد به الذَّمُّ، والمَعنى: أن هذه الدارَ كلُّها ذَمٌّ كلُّها بلاءٌ؛ ولهذا وُصِفت بأنها ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إهانةُ الكُفَّار، وهو عَذاب قَلْبيٌّ؛ لأن العَذاب القَلبيَّ قد يَكون أشَدَّ من العَذاب البدَنيِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن لجَهنَّمَ أبوابًا؛ لقوله: ﴿أَبْوَٰبَ﴾ وقد جاء في القُرآن الكَريم: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: خُلود أهل النار فيها؛ لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ والصواب الذي لا شَكَّ فيه أن الخُلود مُؤبَّد للآيات الثلاث التي سُقْناها قبلَ قَليل.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَناوُل القَدْح على نار جَهنَّمَ؛ لقوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التَّحذير من التَّكبُّر؛ لقوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ»[1] فالكِبْر -والعِياذُ بالله- سبَب لدُخول النار.

لكن قد يَكون سببًا لدُخولها مع الخُلود، وقد يَكون سببًا لدُخولها للتَّطهير فقَطْ، فإن كان هذا التَّكبُّرُ تَكبُّرًا عن الحقِّ ورَدًّا له فهذا سبَب لدُخول النار على

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

التأبيد، وإن كان التَّكبُّر دون ذلك، مثل أن يَتكبَّر على الخَلْق مع القِيام بحقِّ الخالِق أو يَتكَبَّر عن بعض الأشياء ولا أَظُنُّ أحَدًا يَتكبَّر عن أَمْر من أَمْر الله إلَّا وهو كافِر كُفْرًا مُطلَقًا؛ لأن إبليسَ تَكبَّر عن شيء واحِد وكفَر وهو السُّجود، لكن مَن تَكبَّر على الخَلْق دون الحقِّ فهذا لا يُخلَّد في النار، يُعاقَب بمِثْل ما فعَل من ذَنْب.

تنبيه: أنا أُحِبُّ من طالِب العِلْم أن يَكون قوِيًّا في استِنْباط الأَحْكام من الأَدِلَّة؛ لأن القادِر على استِنْباط الأحكام من الأدِلَّة يَحصُل على عِلْم كثير من أدِلَّة قَليلة، كم من إنسان يَستَنبِط من آية واحِدة عِشرين فائِدةً ويَأتِي إنسان آخَرُ ولا يَستَنبِط إلَّا خمسَ فوائِدَ مثَلًا، الأوَّلُ حصَل على ثلاثة أضعاف ما حصَل عليه الثاني، وذلك بالاستِنْباط، ولكن هنا مَسأَلة، لا تُفْرط في الاستِنْباط؛ لأنك إن أَفْرَطتَ فيه حمَّلْت النُّصوص ما لا تَحتَمِل، فكُن وسَطًا وإذا دار الأَمْر بين أن يَكون هذا الحُكْمُ مُستَنبَطًا من آية أو حَديث أو لا يَكون فما هي السَّلامةُ؟

إن قلت: لا يَكون. قال لك الآخَرُ: السَّلامة أن يَكون؛ حتى لا نُبطِل دَلالة النَّصِّ، لكن نَقول: الأوَّلُ أرجَحُ؛ لأنك إذا لم تَتيقَّن أن الآية دلَّت عليه وسَكَتَّ فقد سلِمْت؛ لأنَّك لم تَنفِ.

والسكوتُ درَجة بين النَّفيِ والإثبات فأنت إذا سكَتَّ لم تَكُن قلتَ على الله بغير حَقٍّ، لكن إذا أَثبَتَّ في النصِّ ما لا يَدُلُّ عليه فقد قُلتَ على الله بغير حَقٍّ.

إِذَنْ: فالسَّلامة فيما إذا شكَكْت هل النَّصُّ دلَّ على هذا أو لا، السَّلامة أن تَسكُت، ولكن لا تَنفِ؛ لأنه قد يَكون دالًّا عليه في نَفْس الأمر، ولكن فَهْمك لم يُدرِكه.

• • ۞ • •

الآية (٧٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر:٧٧].

قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ الخِطاب هنا للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وهو فِعْل أَمْر، والأَمْر الأصل فيه الوُجوب كما سيأتِي، أمَّا مَعنَى الصَّبْر لُغة فهو الحَبْس، ومنه قولهم: قُتِل فُلان صبرًا. أي: حَبْسًا؛ أي: أُمسِكَ ثُم قُتِل، لكنه في الاصطِلاح الشرعيِّ أَخَصُّ من مُطلَق الحَبْس، فهو حَبْس النَّفْس عمَّا يُسخِط الله تعالى فيما يُرضِي الله.

ومن ثَم قال العُلماء: إن الصَّبْر يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام: صَبْر على طاعة الله وهو أعلى الأقسام، وصَبْر عن مَعْصية الله وهو الثاني في المَرتَبة، وصَبْر على أقدار الله المُؤلِمة وهو الثالِث في المَرتَبة أيضًا.

الأوَّل: صَبْر على طاعة الله، بأن يَصبِر الإنسان نَفْسه على طاعة الله بأن يَقوم بالواجِب، وأن يُكمِل ذلك بالمُستَحَبِّ، وهذا يَحتاج إلى صَبْر وإلى عَناء، ولا سِيَّما مع ضَعْف الإيمان، فإن ضَعيف الإيمان يَشُقُّ عليه فِعْل الطاعات، فيَحتاج إلى أن يَصبِر وأن يَحبِس نفسه على فِعْل الطاعة، ويَعِدَها بالخير والثواب، ويَقول: إن الوَقْت ماضٍ وذاهِبٌ، فإمَّا أن يَكون في طاعة الله، وإمَّا أن يَكون في مَعْصية الله،

وإمَّا أن يَكون لَغْوًا فيَحمِلها ذلك على القيامِ بطاعة الله.

والصَّبْر على طاعة الله شاقٌّ من وَجْهين: من وَجْه إلزام النَّفْس بالقِيام به، ومن وَجْه تعَب البدَن بالقِيام به، فهنا عَناءان: الآنَ الأوَّل مع النَّفْس، والثاني مع الجَوارِح؛ ولهذا كان هو أعلى أَقْسام الصَّبْر، مثال ذلك الصَّبرُ في الجِهاد، هذا صَبْر على طاعة الله، وهو أَشَقُّ أنواع الطاعة التي يُصبَر عليها؛ ولهذا جعَلها النبيُّ ﷺ ذُروة سَنام الإسلام؛ لأنَّه أَشَقُّ ما يَكون.

الثاني: صَبْر عن مَعصية الله؛ يَعنِي: أن الإنسان قد يَهوَى المَعْصية، ولكن يَحبِس نفسه عنها، فهذا صَبْر عن مَعْصية الله عَزَّوَجَلَّ ويَتَضمَّن هذا الصَّبرُ حَبْس النَّفْس مع الكفِّ، ففيه عَناءٌ واحِد، وهو حَبْس النَّفْس عن المعصية، لكن ليس فيه تعَب بدَنيٌّ؛ إذ إنه كفٌّ بلا فِعْل، والكفُّ بلا فِعْل أَهوَنُ من الفِعْل؛ يَعنِي: ليس فيه مَشقَّة بدَنية، غاية ما فيه أن مُعاناة قلبية للصَّبْر عن هذه المَعصيةِ.

والقِسْم الثالِث: الصَّبْر على أقدار الله عَزَّوَجَلَّ المُؤلِمة، هي التي لا تُلائِم النَّفْس إمَّا بوَفاة مَحبوب، وإمَّا بحُصول مَكروهٍ فيَحبِس الإنسان نَفْسه في هذا الأَمرِ، وهو أقلُّ أقسام الصَّبْر رُتبةً؛ لأنه يَأتِي بغير اختيار الإنسان. انتَبِه الصَّبْر على الطاعة باختيار الإنسان، وعن المَعصية باختِياره، لكن على الأقدار لا، ليس بمَلْكك أن تَمنَع ما قـدَّر الله عليك من وَفاة مَحبوب، أو حُصول مَكروهٍ؛ ولهـذا قال بعضُ السلَف: عند حُلول المَصائِب إمَّا أن تَصبِر صَبْر الكِرام، وإمَّا أن تَسلوَ سَلوَ البَهائِم. وقِس نَفْسـك إذ تَأتيك المُصيبة اليومَ أَكبَرَ من الجِبال وأَحرَّ من النِّيران، ثُم تَخِفُّ شيئًا فشيئًا حتى لا تَكاد تَذكُرها.

إِذَنْ: إمَّا أن تَصبِر وتَحتَسِب، وإمَّا أن تَسكُت حتى لو تَسخَّطْت، فالمآل إلى نِسيانها، وإما أن يَسلوَ الإنسان سَلوَ البَهائِم.

فإن قال قائِلٌ: قوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا**»(١) ما يَقَع في القَلْب أثناء المصائِب، وما أَشبَه ذلك هل هذا يُنافِي الصبر؟

فالجَوابُ: لا، الحُزْن على الشيء لا يُنافِي الصَّبْر، الذي يُنافيه أن يَقَع في قلبه التَّسخُّط على الله، وما يقَعُ فتَجِب مُدافَعته، وأن يَعلَم أن الله عَزَّوَجَلَّ حَكيم، وقد يُريد الله بالإنسان خيرًا إذا ابتَلاه، فإذا كان هجَم على قلبه فالواجِب أن يُدافِع، لكن لا أَعتَقِد أن مُؤمِنًا يَتَسخَّط على ربه، نعَمْ يَكرَه ما حصَل، صحيح كل إنسان يَكرَه ما يَحصُل له من البَلاء، لكن كونه يَعتَقِد أن الله ظلَمَه، وأن هذا عُدوان من الله عليه، وما أَشبَهَ هذا لا أَظُنُّ أحَدًا يَفعَله.

فإن قال قائِلٌ: ما عَلامة الإنسان الذي لم يَبلُغ الصَّبْر؟.

فالجَوابُ: إذا وجَد في نَفْسه التَّسخُّط، وفي قلبه التَّسخُّط.

وهذا القِسْمُ الثالث من أقسام الصَّبْر: الصَّبْر على أقدار الله عَزَّوَجَلَّ المُؤلِمة؛ يَكون بالأمور الآتِية: حَبْس اللِّسان عن التَّسخُّط، لا تَسخَط تَقول: أَصابَني الله بكذا، ولم يُصِب فلانًا، أَصابَني بالفَقْر والناسُ أغنياءُ، أَصابَني بالمَرَض والناسُ أصِحَّاءُ. وما أَشبَه ذلك ما يَقول هذا، لا يَقول: واوَيْلاه واثُبوراه وانقِطاع ظَهْراه. وما أَشبَه ذلك لا يَقول هذا؛ لأن هذا مُنافٍ للصَّبْر، الإخبار بما أَصاب الإنسانَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيا في الأيمان، رقم (٦٦٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

من مُصيبة دون التَّشكِّي، وقَعَ هذا من النَّبيِّ ﷺ؛ حيثُ قال: «بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهُ»(١) ولا حرَجَ؛ يَعنِي هناك فَرْق بين شخص يَتكلَّم بما أَصابَه تَسخُّطًا أو شِكاية لمخلوق، وبين شخص يُخبِر عمَّا أَصابه، فقَطْ مُجرَّد خبَر، والأعمال بالنِّيَّات.

الثاني: حَبْس الجَوارِح عند المُصيبة عن فِعْل ما لا يَجوز وما يُنبِئ عن الغَضَب؛ مثل: شَقِّ الجُيوب، لَطْم الخُدود، نَتْف الشُّعور، وما أَشبَه ذلك. هـذا أيضًا مُنافٍ للصَّبْر؛ ولهـذا تَبرَّأ النبيُّ ﷺ من فاعِله فقال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ شَقَّ الجُيُوبَ، وَلَطَمَ الخُدُودَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»(٢).

الثالِثُ: وهو حَبْس القَلْب عن كراهة ما قَدَّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهذا أَعظَمها وأَدَقُّها، قد يَرَى الإنسان الضعيف المَخلوق المَمْلوك المُدبَّر، قد يَرَى أن ربَّه ظلَمه -والعِياذُ بالله- دون أن يَتكلَّم ودون أن يَفعَل، لكن قَلْبه مملوء على الله سُخْطًا، مِن السُّخْط ورُؤْيةِ أنَّ الله تعالى ظلَمه، أو ما أَشبَه ذلك. هذا يَجِب أيضًا أن يَتخلَّى القلب عنه، وهذا أَخطَرُ ما يَكون بالنِّسبة للصَّبْر على الأقدار، اتْلُ قولَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ [الحج:١١] ﴿حَرۡفٖ﴾ يَعني: طرَفٍ، ليسَت عِبادةً راسِخة ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج:١١].

وهذا يَشمَل فِتْنة المَصائِب وفِتْنة الشُّبُهات، من الناس مَن يُؤمِن بالله واليوم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب قول المريض: إني وجع، رقم (٥٦٦٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ليس منا من شق الجيوب، رقم (١٢٩٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، رقم (١٠٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآخِر، لكنه على طرَف إن أَصابَه خَيْرٌ ولم يُناقِشه أَحَد أو يُجادِله أحَدٌ مَشَى، وإن جاء أَحَد يُشكِّكه في هذا الأَمْرِ شكَّ، فانقَلَب على وَجْهه؛ خسِر الدنيا والآخِرة.

ومن الناس أيضًا مَن يَكون في نِعْمة، قد أَنعَم الله عليه بالأموال والأولاد وما يَحتاج إليه من الدُّنيا أو يُكمِلها، فأُصيب بحادِث فقَدَ أَهلَه به كلَّهم.

فمن الناس مَن إذا كان يَعبُد الله على حَرْف يَسخَط على الله، ويَكرَه قضاء الله، كَراهة سَخَط، ليس كَراهة أنه يَتمَنَّى ما لم يُصِبْه، لا، إنما يَتَسخَّط على ربِّه، وهذا من جَهْل الإنسان، أنت مِلْك لله عَزَّوَجَلَّ هذا الربِّ الكَريمِ الذي إذا أَصابَك بسَرَّاء فشَكَرْت أَثابَك، وإن أَصابَك بضَرَّاءَ فصبَرْت أَثابَك. كيف تَسخَط على هذا الربِّ الكَريم وأنت مِلْكه وعَبْده، يَتَصرَّف فيك بما شاء، وله الحِكْمة فيما فعَل؟! وظيفتك الصَّبْر عند البَلاء، والشُّكْر عند الرَّخاء.

فالمُهِمُّ: أن الصَّبْر الآنَ تَبيَّن أنه ثلاثة أقسام:

الأوَّل -أَعلاها وأَتَمُّها-: وهو الصبر على طاعة الله.

الثاني: الصَّبْر عن مَعْصية الله.

الثالث: الصَّبْر على أَقْدار الله.

فأَفضَلها الأوَّل، ثُم الثاني، ثُم الثالِث.

يُوسُف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أُصيب ببَلاء في خُلُقه وبَلاء في جَسَده، صبرَ على هذا وهذا، دعَتْه امرأةُ العَزيز في مَكان مُغلَق، وهي امرأة العَزيز عِندها من الحُلِيِّ والزِّينة -وربَّما من الجَمال- ما ليس عند غيرها، وهو فَتاها أيضًا، ليس هو أكبَرَ منها شرَفًا عِندها، دَعَتْه إلى نفسها في مَكان خالٍ وهمَّ أن يَفعَل؛ لأن النَّفْس البَشَرية قد يَغيب

عنها مُلاحَظة أَمْر الرُّبوبية، فهَمَّ بها لكِنْ هي السابِقة: همَّتْ به وهَمَّ بها، لكن بعد أن هَمَّ رأَى بُرهانَ الله عَزَّوَجَلَّ، أَراه الله البُرهانَ الآيةَ، كأنها رُؤْية عَيْن، فامتَنَع وقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ هـذا صَبْر عن المَعْصية، وصَبْر عَظيم، فتًى شابٌّ مع سَيِّدته الجَميلة، في مَكان لا يَطَّلِع عليه أَحَدٌ، ومع هذا كفَّ عنها.

وأُوذِيَ في جَسَده، فحُبِس، سُجِن ولَبِث في السِّجْن بِضْع سِنين، ومع ذلك صَبَر؛ حتى إن الملِك لَمَّا قال: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ أَبى أن يَخْـرُج حتى تُسأَل النِّسْوة ماذا حصَل؛ ليَتبَيَّن براءَتَه قبل أن يَخرُج، وهذا لا شَكَّ صَبْر عَظيم، لكن أيُّ الصَّبْرين أعظَمُ؟

الجَوابُ: الأوَّل الصَّبْر عن المَعصية؛ لأن السَّجْن حاصِل حاصِل، صبَر أو لم يَصبِر، وليس باختِياره.

فإن قال قائِل: ما هو الفَرْق إذا أَصاب الإنسانَ شيءٌ من الخَوْف قال: قدَّر الله ما شاء فعَل. وبعضُهم يَقول: قدَرُ الله وما شاءَ فعَلَ؟

فالجوابُ: يَجوز هذا وهذا، قدَّر الله. هذا فِعْل ماضٍ، وقدَرُ الله. خبَرٌ لُمبتَدَأ مَحذوف، التَّقديرُ: هذا قدَرُ الله.

فقول الله تعالى لرسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ فَٱصْبِرْ﴾ يَتَضمَّن كل الأَقْسام؛ ولهذا كان نَبيُّنا ﷺ أَصبَرَ الناس في أَحْكام الله، وأَصبَرَ الناس على أَحْكام الله.

فإن قال قائِل: بعضُ العُلَماء، قال: إن ما أَصاب الرُّسُل من التَّكْذيب والتَّعْذيب أَشَدُّ مِمَّا أَصاب يُوسُفَ من اتِّهامه بما اتُّهِمَ به؟

فالجَوابُ: لكل شيء حُكْم، فيُوسُفُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ اتُّهِمَ بما اتُّهِمَ به، وعُذِّب

عليه، وسُجِن مع بَراءَته وظُهور براءَته في النِّهاية، وهؤلاء المُكذِّبين بعضُهم فُعِل به أكثَرَ مِمَّا فُعِل بيُوسُفَ، من التعذيب، بل بعضُهم قُتِل، فلكل شيء وجهٌ، ولا يُمكِن المُقارَنة بين هذا وهذا.

فإن قال قائِلٌ: علِمْنا أنَّ فِرعونَ وهامانَ وقارونَ قد أَهلَكهم الله عَزَّوَجَلَّ هل هلَكوا كلُّهم مرَّة واحِدة، أم كل واحِد على حِدَة؟

فالجوابُ: أمَّا قارونُ فالله عَزَّوَجَلَّ بيَّن أنه خُسِف به وبداره الأرض، فليس مِمَّن هلَك بالغرَق، وأمَّا هامانُ فالظاهِرُ أنه هلَك مع فِرعونَ.

فإن قال قائِل: هل سبب هَلك قارونَ أنه أتَى بامْرأة غانِية فافتَرَت على مُوسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه زنَى بها؟

فالجَوابُ: افتِخاره بماله هو الذي خسَفَ به الأرض.

وقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ هذه جُمْلة مُؤَّدة بـ(إِنَّ) وَعْـد الله حَقٌّ. ويَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنَّ وَعْد الله بعَذابِهم حَقٌّ] وهذا قُصور من المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بل إن وَعْد الله بعَذابهم ونَصْرك حَقٌّ، بل لو قُلْنا بأنه أعَمُّ من ذلك أيضًا، لولا أنه في سِياق المُحاجَّة مع الكُفَّار لقُلْنا: إنه أَعَـمُّ. إن وَعْد الله حَقٌّ في كل شيء؛ في عَذاب هَؤلاءِ، ونَصْره، وفي الجَنَّة، وفي كل شيء.

وقوله: ﴿حَقٌّ﴾؛ أي: أَمْر ثابِت واقِع، فكُلُّ ما وعَد الله به فهو حَقٌّ ثابِت واقِع؛ لكَمال صِدْقه وكَمال قُدْرته؛ لأن إخلاف الوَعْد يَأتِي من أَحَد أَمْرين: إمَّا كَذِب الواعِد، وإمَّا عَجْزه عن تَنفيذ ما وَعَد به، والله عَزَّوَجَلَّ لا يُخلِف المِيعاد؛ لكَمال صِدْقه وكَمال قُدْرته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إعرابها: [فيه (إِنِ) الشَّرْطية مُدغَمة و(ما) زائِدة تُؤكِّد مَعنى الشَّرْط أوَّل الفِعْل والنون تُؤكِّد آخره...] إلى آخِره.

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ الفاء هذه عاطِفة، و(إِنْ) شَرْطية، و(ما) زائِدة للتَّوْكيد، وهي كزِيادتها في قوله تعالى: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠]، ﴿أَيًّا مَّا﴾ (ما) زائِدة، لو حُذِفت: وقيل: أيًّا تَدْعو. استَقام الكلام، لكن يُؤتَى بحُروف الزِّيادة للتَّوْكيد. ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ لو حُذِفت (ما) وقال: إن نُرِيَنَّك. استَقام، لكنها تَأتِي للتَّوْكيد.

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ (نُرِي) فِعْل مُضارِع، لكنه بُنِيَ على فَتْح آخِره، وهي الياء؛ لاتِّصاله بنون التَّوْكيد، والنون للتَّوْكيد، والكاف مَفعول به. التَّوْكيد هنا في آخِر الفِعْل، و(ما) في أوَّله، فصار هذا الفِعلُ -الذي هو الإِراءَة- مُؤكَّدًا بمُؤكِّدين: (ما) الزائِدة في أوَّله، ونون التَّوْكيد في آخِره، والكاف هذه مَفعول أوَّل، و﴿بَعْضَ﴾ مَفعولٌ ثانٍ، و(نُرِي) الرُّؤْية هنا بَصَرية، لكن لَمَّا دخَلت علَيْها همزة التَّعْدية صارت ناصِبة مَفعولين، تَقول: فُلان رأَى النَّجْمة. نصَبَت مَفعولًا واحِدًا. فلان أَرَيْته النَّجْمة. مَفعولين. من أَجْل دُخول الهَمْزة، على (رأَى). هذه مَثْلها؛ لأن (نُرِي) رُباعيٌّ أَصْلها أَرَى يُرِي ونُرِي.

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ يَعنِي: فأنت تَراه. قال المفَسِّر: [﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ به من العَذاب في حَياتك، وجَواب الشَّرْط مَحذوف أي: فذاك]، أين جواب الشَّرْط (إن) في قوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ ؟ يَعنِي: إن أَرَيْناك بعض الذي نَعِدهم فقد رأَيْته بعَيْنك وأَقَرَّ الله عَيْنك به، وهذا هو المَطلوب.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ يَعنِي: قبل أن نُرِيَنَّك ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ وسنُريك بهم، هذا تَهديد عظيم. وقوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ هذه مَعطوفة على ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ وهي قَسيم قوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يَعنِي: إمَّا أن تَرَى العَذاب قبل مَوْتك، وإمَّا أن نَتوفَّاك ثُم نُعذِّبهم بعد الرجوع إلينا، وهذا أشَدُّ؛ فإن عَذاب الآخِرة أشَدُّ وأَبقَى؛ ولهذا جاء في الحَديث: «إِنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ شَخْصًا عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا»[1] عُوقِب في الدنيا بماله أو بدَنه أو أَهْله أو مُجتَمَعه، وإلَّا ترَكه حتى يُوافَى به يوم القِيامة، نَسأَل الله أن يَقيَنا وإيَّاكم عَذاب الدُّنيا والآخِرة، ويَرزُقنا العافِية.

قال المفَسِّر: [﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فنُعذِّبهم أشَدَّ العَذاب، فالجَواب المَذكور للمَحذوف فقَطْ]، أين المَحذوفُ ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ يَعنِي: إذا تَوفَّيْناك فإلينا يُرجَعون.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: وُجوب الصَّبْر؛ لأن الله تعالى أَمَر به في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ ووجهُ كَوْنه واجِبًا: الأصل في الأَمْر الوجوب، وهذه المَسأَلةُ اختَلَف فيها الأُصوليون: هل الأَصْل في الأَمْر في كِتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ الوُجوب أو الأَصْل النَّدْب؟ إن قُلْنا: الأصل الوُجوب كان هذا المأمورُ به مُلزَمًا به، وإذا قلنا: النَّدْب؛ صار الإنسان بالخِيار: إن فعَله فهو خَيْر، وإن ترَكه فلا شَيءَ عليه.

وهذا مَحلُّ إشكال في الواقِع: عند التَّطبيق، وعند التدليل أيضًا فيه نظَر.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٨٧)، وابن حبان رقم (٢٩١١)، من حديث عبد الله بن المغفل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَقول: الأُصوليُّون اختلَفوا في هذه الأمرِ هل هو للوُجوب أو للنَّدْب؟ يَعنِي: هو المُرادُ الأمر المُطلَق المُجرَّد عن القَرينة، أمَّا ما دلَّت عليه القَرينة؟ فالأمر فيه واضِحٌ، إن دلَّت على الوُجوب فهو واجِب، وإن دلَّت على الاستِحْباب فهو مُستَحَبٌّ، وإن دلَّت على الإباحة فهو مُباح، وإن دلَّتْ على التَّهديد فهو للتَّهْديد.

قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ هل المَعنَى أن الإنسان يَعمَل ما يَشاءُ، أو أن هذا تَهديد؟ الجَوابُ: تَهديد. ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، لكن المُراد الأَمْر المُجرَّد عن كل قَرينة؛ هل هو للوُجوب أو للاستِحْباب؟ من العُلَماء مَن قال: إنه للوُجوب، ولهم أدِلَّة. ومنهم مَن قال: إنه للاستِحْباب، ولهم أدِلَّة.

القائِلون بالوُجوب يَستَدِلُّون بمِثْل قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣] قالوا: هذا يَدُلُّ على الوَعيد فيمَن خالَف أَمْر الله عَزَّوَجَلَّ فيَدُلُّ إِذَنْ على أن الأَمْر للوُجوب. وقالوا أيضًا: إن الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ»[1] وهذا أيضًا يَدُلُّ على الوُجوب؛ لأنه قال: «فَأْتُوا مَا اسْتَطَعْتُمْ» مثل هذا التَّعبيرِ إنَّما يَكون في الواجِب «وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ»؛ ولأنه يَقبُح عادةً أن يَقول السَّيِّد لعَبْده: افعَلْ كذا. ثُم يُخالِف، فتكون مُخالَفة الأمر قَبيحة، والقبيح مَنهيٌّ عنه مَكروهٌ.

أمَّا القائِلون بأن الأصل في الأمر الاستِحْباب فيَقولون: إن كونه مَأمورًا به يَدُلُّ على فِعْله، والأصل بَراءَة الذِّمَّة، فلا نُؤثِّم الإنسان إذا تَرَك ما أُمِر به إلَّا بدَليل؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٨)، ومسلم: كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، رقم (١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لأن الأصل بَراءَة الذِّمَّة، ولأنَّنا وجَدْنا مَسائِلَ كَثيرةً وأدِلَّة كثيرة فيها الأَمْر، أَجمَع العُلَماء على أنها للاستِحْباب، وهذا يُوهِن القول بأن الأَمْر للوُجوب.

تَوسَّط قوم فقالوا: إذا كان الأَمْر في عِبادة فهو للوُجوب، وإذا كان في آداب فهو للاستِحْباب. وهذا أَقرَبُ من الإطلاق بأنه للوُجوب، أو الإِطْلاق بأنه للاستِحْباب. يَعنِي: هذا التَّفسيرُ هو أَقرَبُ ما يَكون، ومع هذا فليس بمُنضَبِط، بل قد تَأتِي أَوامِرُ في الآداب وهي واجِبة.

فنَقول: الأصل أَقرَبُ ما يُقال في هذه المَسأَلةِ: أن الأصل في الأوامِر في التَّعبُّد الوُجوب؛ لأننا خُلِقنا للعِبادة وأُمِرنا بها فنتَعبَّد. والأصل في الأَوامِر في غير العِبادة -كالآداب مثَلًا- للاستِحْباب، ومثل ذلك يُقال في النَّهيِ: هل هو للتَّحريم أو للكَراهة؟

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات وُقوع وَعْد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنه حَقٌّ، ولا بُدَّ أن يَقَع؛ لقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وهذه جُمْلة مُؤكَّدة بـ﴿إِنَّ﴾ تَدُلُّ على أن وَعْد الله لا بُدَّ أن يَقَع، ووَعيده كذلِك حَقٌّ، ولا بُدَّ أن يَقَع، إلَّا أن يَمُنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعَفْو، وإلَّا فالأصل أن وَعيده واقِع. لا يُقال كما يَقول بعض الناس: الوَعيدُ ليس بواقِع، وليس بحَقٍّ، وأمَّا الوَعْد فهو حَقٌّ، نَقول: كلُّه حَقٌّ، لكِن الوَعيد قد يَعفو الله عَزَّوَجَلَّ عنه، والعَفو كرَم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن وَعْد الله حَقٌّ ثابِت لا بُدَّ أن يَقَع، وهو كذلك، ولقد صرَّح الله بذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَهديد هَؤلاءِ المُكذِّبين للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأَحَد أمرَيْن: إمَّا بعُقوبة عاجِلة قبل أن يُتوفَّى، وإمَّا بعُقوبة آجِلة في يوم القِيامة؛ لقوله: ﴿فَإِمَّا

نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن مَرجِع الأُمور كلِّها إلى الله، وليسَتْ باختِيار أحَدٍ، فهو الذي يُقدِّر ما شاء، سَواءٌ في الدُّنيا أو في الآخِرة؛ لقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن عَذاب العَدوِّ يَشفِي غَليل عَدوِّه؛ لقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ فإن الإنسان إذا رأَى عَذاب الله تعالى لعَدوِّه فلا شَكَّ أنه يَشفِي غَليلَه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنه لا بَأسَ أن نَفرَح إذا أَصاب الله عَدُوَّنا بمُصيبة؛ لأن الظاهِر أن قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ لأَجْل أن تَقَرَّ عَينُه بذلك، فإذا أُصيب أَعداؤُنا بخَسْف أو صَواعِقَ أو فَيضانات، أو ما أَشبَه ذلك، وفرِحنا بهذا، فلا لومَ علينا؛ لأنهم أَعداؤُنا يَفرَحون بما يُصيبنا، فالجَزاء مِن جِنْس العمَل.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات رُجوع الخَلْق إلى الله؛ لقوله: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ وهذا عامٌّ في كلِّ شيء، في الأَحْوال، والأَوْقات، وفي كل شيء، المَرجِع إلى الله وحدَه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات كَلام الله، أن الله يَتكَلَّم، يُؤخَذ من قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن الوَعْد يَكون بالقَوْل، ولا شَكَّ أن الله تعالى يَتكَلَّم، وأنه لا نَفادَ لكلِماته، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف:١٠٩] ﴿ٱلْبَحْرُ﴾ اسمُ جِنْس يَعُمُّ كل البِحار، لنَفِد البَحْر قبل أن تَنفَد كلِمات الله، سُبحان الله، لو كان حِبْرًا يُكتَب به البِحار كلُّها لنَفِدت قبل أن تَنفَد كلِماتُ الله.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ يَعنِي: لو أن الذي في

الأَرْض من الشَّجَر كان أقلامًا ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ يَعنِي: وكُتِب بالأقلام بمِداد البَحْر، قال: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧] وهذا يَدُلُّ على عظَمة الربِّ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه مُدبِّر الكون، وإذا أَراد أَمْرًا فإنما يَقول له: كُنْ فيَكون، ولا مُنتَهى لإرادة الله.

وهل قول الله عَزَّوَجَلَّ قول مَسموع بصَوْت، قول الله تعالى بصَوْت؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]، ولا نِداءَ ومُناجاةَ إلَّا بصَوْت، وورَد الصوت صريحًا فيما ثبَت عن النبيِّ ﷺ أن الله تعالى يَقول: «يَا آدَمُ -يَوْمَ القِيَامَةِ- فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ الله: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ الله يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. قالَ: يا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ...» إلى آخِره[1]. هذا صريحٌ بأن الله يَتكلَّم بصَوْت.

وهنا في هذه المَسأَلةِ مَذاهِبُ، نَذكُر منها المَذاهِب المَشهورة الثلاثة:

الأوَّل: أنه يَتكلَّم بصَوْت مَسموع وحَرْف غير مَخلوق؛ لأنه كلامُه، وهذا مَذهَب السلَف وأئِمَّة الخلَف أن الله يَتكَلَّم بصَوْت مَسموع وحَرْف غير مَخلوق، فكَلامه عَزَّوَجَلَّ هو اللَّفْظ والمَعنَى.

والقول الثاني: أن الله تعالى يَتكلَّم بصَوْت مَسموع وحَرْف مَخلوق، والكَلام كلامه، وهذا مَذهَب الجَهْمية الذين يَقولون: إن القُرآن كَلام الله ولكنه مَخلوق؛ لأن كل كَلام الله عِندَهم مَخلوق.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج، ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسع مِئة وتسعة وتسعين، رقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والثالِث: مَن يَقولون: إنه لا يَتكلَّم بصَوْت ولا بحَرْف مَخلوق، إنَّما كلامه هو المَعنى القائِم في نَفْسه، لكن يَخلُق شيئًا يُعبِّر عن هذا الذي في نَفْسه، فيُسمَع هذا المَخلوقُ، ويُضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ إضافةَ تَكريم وتَشريف، وهذا مَذهَب الأشاعِرة الذين هُمْ أهل الكَلام.

والذين يَقولون: همُ الذين دافَعوا المُعتَزِلة عن الباطِل، وهمُ الذين انتَصَروا للإسلام، وهم في الحقيقة لا للإسلام انتَصَروا، ولا لحَرْب الإسلام كسَروا، بل قد نَقول: قولهم في الكَلام شَرٌّ من قول الجَهْمية؛ لأنهم اتَّفَقوا على أن ما يُسمَع من كَلام الله مَخلوق، وعلى أن القُرآن مَخلوق؛ لكن الجَهْمية يَقولون: مَخلوق، وهو كَلام الله. وهَؤلاء يَقولون: مَخلوقٌ، وليس كَلامَ الله، بل هو عِبارة عنه.

إِذَنْ: أين كَلامُ الله؟ قال: المَعنَى القائِم بنَفْسه، والحَقيقة أن المَعنَى القائِم بالنَّفْس ليس كلامًا وإنما هو عِلْم، عِلْم بما سيُخلَق من كلام، فيَقول: هذا هو كلامُه. والعَجيب أنهم استَدَلُّوا بآية وشِعْر نَظْم، أمَّا الآية فقالوا: إن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَقول: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ [المجادلة:٨] فأَثبَت القَوْل النَّفْسيَّ. أمَّا الشِّعْر فقالوا: إن الشاعِر قال:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا ... جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلَا[1]

الفُؤادُ يَعنِي: القلب.

فنَقول لهم: أمَّا الآية فلا دَلالة فيها لكم، بل هي على رُؤُوسكم؛ لأن الله تعالى

(١) البيت نسبه البعض إلى الأخطل، وليس في ديوانه، انظر: الموشى لأبي الطيب الوشاء (ص:٨)، وتمهيد الأوائل لأبي بكر الباقلاني (ص:٢٨٤)، والفصل في الملل والنحل للشهرستاني (٣/ ١٢٢)، ومجموع الفتاوى (٧/ ١٣٨).

لم يُطلِق القول، بل قَيَّد فقال: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ وهـذا كقَوْل الرسول ﷺ: «إِنَّ الله تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا»(١) وحَـديث النَّفْس لا يُمكِن أن يُقال: إنه حَـديث. ولا أن يُقال: إنه قَوْل إلَّا بقَيْـد؛ ولهذا لو حُـذِفت ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ وقيل: ويَقولون: لولا يُعذِّبنا الله. يُفهَم منه أنه كَلامُ اللِّسان. لكن هم بأَنفُسهم يُقدِّرون، يَقول الواحِد مِنهم: ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ إِذَنْ ما نَقوله حَقٌّ؛ لأن الله لم يُعذِّبْنا، هذا يُقدِّره الإنسان في نَفْسه.

أمَّا الشِّعْر فـ«إن الكَلام لَفِي الفُؤاد» فهو قول الأَخطَل الشاعِر النَّصرانيِّ، قاله بعد تَغيُّر الأَلْسُن، وعلى فَرْض أنه يُوافِق فإنه يَجِب أن يُحمَل على أن المَعنى أن الكلام المُعتبَر هو ما يُقدَّر أوَّلًا في الفُؤاد ثُم يَنطِق به اللِّسان؛ ولهذا لا يُعتبَر الكلام الذي يَسبِق على اللِّسان كَلامًا، ولا يُؤاخَذ به، فالكَلام الحَقيقيُّ الرَّصين المُعتبَر هو الذي يَكون أوَّلًا في القَلْب ثُم يُعبَّر عنه باللسان، هذا مَعنى البَيْت الذي لا يَحتَمِل غيرَه.

فإن قال قائِل: هل يَلزَم أن يَتكَلَّم بمُخاطَبة المَخلوق؟

فالجواب: لا، قد يَتكَلَّم بما يُثنِي به على نَفْسه، مثل أن يَقول: أنا الله الواحِد الأَحَدُ، وما أَشبَه ذلك، كما يَقول الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يومَ القِيامة: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ﴾ لا يُجيب أحَدٌ، فيَقول: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦].

ونَقول: الكَلام صِفة كَمال، والله تعالى مَوْصوف بالكَمال أزَلًا وأبَدًا، وإذا كان كذلك فإن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لم يَزَل مَوْصوفًا به، ولا يَلزَم من هذا أن يَكون هُناك

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيا في الأيمان، رقم (٦٦٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

مُخاطَب، وكذلك الأفعال، فالذين أَثاروا مثَلًا مَسأَلة التَّسلسُل، وما أَشبَه ذلك، هم بَعيدون عن النُّصوص في الواقِع، وإلَّا لعلِموا أن الله تعالى لم يَزَل ولا يَزال فَعَّالًا، وأنه لم يَكُن في وقت من الأَوْقات مُعطَّلًا عن الفِعْل، ولا يَلزَم من الفِعْل المَفعول؟ حتى نَحن لا يَلزَم من فِعْلنا أن يَكون هناك مَفعول، قد يَتحرَّك الإنسان ولا يُنتِج شيئًا، لكن الفِعْل يُقال: لا يُمكِن أن يَمُرَّ على الله تعالى زَمانٌ من الأَزمِنة وهو مُعطَّل عن الفِعْل؛ لأنه إمَّا أن يُقال: تَعطَّل هذا عن عَجْز، أو عن غير عَجْز. فإن قلنا: عن عَجْز. فهذا بَليَّة، وإن قُلنا: عن غير عَجْز. نَقول: ما الذي يَمنَعه؟

إِذَنْ: فالتَّسلسُل ليس بمَمنوع في الماضِي، كما أنه ليس مَمنوعًا في المُستَقبَل، مع أنِّي أنا أَكرَه أن يَتكَلَّم الناس في هذا؛ لأنه كَلام لا فائِدةَ فيه، ولم يَكُن السَّلَف يَقولون به، لكن جاءَنا أهل الكَلام وأَدخَلونا في هذه المَعمَعةِ، وصار ما كان.

• • ۞ • •

الآية (٧٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر:٧٨].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ إلى آخِره. الجُملةُ هَـذه مُؤكَّدة بثَلاثة مُؤكِّدات: اللَّام، و(قد)، والقَسَم المَحذوف، والتَّقدير: والله لقَـدْ أَرسَلْنا رُسُلًا من قَبلِك، والرسولُ هو بشَرٌ، يُوحَى إليه بشَرْع، ويُؤمَر بتَبليغه؛ ولهذا سُمِّي رسولًا؛ أي: مَدفوعًا من قِبَل الله عَزَّوَجَلَّ ليُبلِّغ، وأمَّا النبيُّ فإنه بشَرٌ أُوحِيَ إليه بشَرْع، ولكنه لم يُكلَّف بتَبليغه، بمَعنَى: أنه يُجدِّد شَرْع مَن قَبلَه إن كان قَبْله رَسولٌ حتى يُحيِيَ هِمَم الناس فيَقتَدُوا به، وإذا لم يَحتَجِ الناس إلى رسول لم يُرسِل إليهم أحَدًا، فإن آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان نَبيًّا ولم يَكُن رسولًا، هو نَبيٌّ يَتعَبَّد لله تعالى بما أَوْحاه الله إليه، ولكن لم يُرسَل؛ لأن الناس لم يَختَلِفوا بعدُ، كما قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، فالرُّسُل إنَّما أُرسِلوا بعد الاختِلاف؛ ولهـذا قال بعضُ أَهْل العِلْم: إن تَقـدير الآية الكَريمة: كان الناس أُمَّة واحِدة فاختَلَفوا فبعَثَ الله النَّبيِّين مُبشِّرين. وقال: إن في الآية إيجـاز حَذْف؛ أي: حُذِف منها ما دَلَّ السِّياق على حَذْفه.

فالرَّسولُ بشَر أُوحِيَ إليه بشَرْع وأُمِر بتَبليغه.

فإن قال قائِل: في تَعريف النَّبيِّ أنَّه الذي أُمِر بوَحْي ولم يُبلِّغه؛ فكيف نُوفِّق بينه وبين قول النَّبيِّ ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ الله إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يُبَيِّنَ لِأُمَّتِهِ خَيْرَ مَا يَعْرِفُهُ وَيُحَذِّرُهُمْ شَرَّ مَا يَعْرِفُهُ»[1]؟

فالجَوابُ: هذا المُراد بالنَّبيِّ الرسول، المُراد به الرَّسول؛ ولهذا تَجِد الآنَ في القُرآن الكَريم أنبياءَ هُمْ رُسُل، لكِن تُذكَر بلَفْظ الأنبياء ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]، ثُم قال في الأَخير: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ وقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾.

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ﴾ وهـؤلاءِ الرُّسُل كان يُرسَلـون إلى أُممِهم فقَطْ، كما ثبَتَ ذلك في الصَّحيحَيْن من حديث جابِر: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[2] ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ كلُّ أُمَّة أَرسَل الله إليها رَسولًا لتَقوم الحُجَّة.

قوله: ﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَ﴾ (مِن) هَـذه تَبعيضِيَّة؛ أي: بعضُهم قصَصْناهم عليك وأَخبَرْناك بهم، وبعضُهم لم نَقصُصْهم عليك. قال أَهلُ العِلْم: وإنما قَصَّ الله على رسوله ﷺ مَن كانوا من الجَزيرة العرَبية وما حَولَها؛ لأن أَخبار هَؤلاءِ له بَقيَّة في العرَب؛ فلِهذا قَصَّه الله، أمَّا مَن كانوا في

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء، رقم (١٨٤٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»، رقم (٤٣٨)، ومسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، رقم (٥٢١)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَمْريكا، أو في شَرْق آسيا، أو ما أَشبَه ذلك من الأماكِن البَعيدة فهَؤُلاءِ لم يَقُصَّ علينا من نَبئِهم شَيئًا.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ رُوِيَ أنه تعالى بعَث ثَمانية آلاف نَبيٍّ؛ أربعة آلافٍ من بَني إسرائيلَ، وأربَعة آلافٍ من سائِر الناسِ] وجَديرٌ بالمفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يَقول: [رُوِيَ] بصيغة التَّمْريض؛ لأن هذا لا يَصِحُّ، كيف يَكون من بني إسرائيلَ وهم مُتَأَخِّرون عن أُمَمٍ كَثيرة أربَعة آلاف، ومن سائِر الناس أَرْبعة آلافٍ؟! هذا بَعيدٌ، بل إن الله أَرسَل في كُلِّ وَقْت وحين ما تَقوم به الحُجَّة، وليس لنا أن نَبحَث عن عدَد هَؤلاءِ، وإن قُلْنا: لنا فإنه ليس عَلَيْنا، يَعنِي: لو قيل لنا أن نَبحَث للاطِّلاع لم يَكُن سائِغًا أن نَقول: علينا أن نَبحَث. بل نَقول: آمَنَّا بالله وبرُسُله، مَن عَلِمنا مِنهم ومَن لم نَعلَم.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ مِنْهم ﴿أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّهُم عَبيد مَربوبون]. قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ ﴿ما﴾ نافِية، و﴿كَانَ﴾ فِعْل ماضٍ ناقِص، و﴿لِرَسُولٍ﴾ خبَرُه، و﴿أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ اسمُ (كانَ)؛ أي: وما كان إتيان أَحَدهم بآيَة إلَّا بإِذْن الله، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يَعنِي: أن الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام آتاهُم آياتٍ، لكن هل هُمُ الذين يَملِكون هذا؟

الجواب: لا، هذا من عِند الله، ولكن الله تعالى بَيَّن أنه ما من رَسولٍ إلَّا وأُوتِيَ آية.

وقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يَعنِي: بالآيات البَيِّنات، حتى يُؤمِن البَشَر، وحتى لا يَكون لهم حُجَّة عِند الله؛ لأن الله لو بَعَث رسولًا هكذا إلى الناس وقال: إنِّي رَسول الله، ولم يَأتِ بآية، فإن الناس لن يَقبَلوا منه، وإلَّا لأَمكَن كلَّ كاذِب أن يَدَّعِيَ الرِّسالة،

لكن لا بُدَّ من آيات، آيات بَيِّنات واضِحة على أنه رَسولٌ، ومعَ هذا لا يُمكِن لرَسول أن يَأتِيَ بآية إلَّا بإذْن الله.

وقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الإذْن الكَونيّ، فإذا أَذِن الله كَوْنًا أن يَأتِيَ الرسول بآية أَتَى بآيَة، والرَّسول قد يَأتِي بآيَة ابتِداءً وقد يَأتِي بآيَة بطلَب من المُرسَل إليهم، كما قِيل: بل قد جاء في الحَديث الصحيح: إنَّ قُرَيْشًا قالوا للرَّسولِ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: أَرِنا آيَةً. فأَشارَ إلى القَمَر، فانفَلَق فِلْقَتَيْن، إحْداهُما على الصَّفا، والثانية على المَرْوةِ[1]، وشاهَدَ الناسُ ذلِكَ، ولكِن مع ذلك ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:٢] قالوا: إن مُحَمَّدًا سحَرَنا، والقَمَر لم يَتصَدَّع، ولكن لَمَّا لم يُعيِّنوا الآيَةَ التي طلَبوها لم يُؤاخَذوا بالعِقاب؛ لأن الأُمَم إذا عيَّنوا الآية التي طلَبوها ثُم لم يُؤمِنوا عاجَلَهم الله بالعُقوبة.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ﴾ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ أي: عَلامة على صِدْقه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهنا قال: (آية) ولم يَقُل: بمُعجِزة، وقد جَرَى على أَلسِنة كثيرٍ من العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَسمية آيات الأَنْبياء بالمُعجِزات، ولكن هذه التَّسْمية غير سَديدة، بل الأَوْلى أن نُعبِّر بآيَة، نَقول: آية النَّبيِّ، ولا نَقول: مُعجِزة؛ أوَّلًا لأن هذا هو التَّعبير القُرآنيُّ، وثانيًا لأن المُعجِزة تَأتِي من الرسول، وتَأتِي من الساحِر، وتَأتِي من الشَّياطِين، يَأتِي من هَؤلاء ما يَعجِز عنه البَشَر.

فالتَّعبير السَّليم أن نُعبِّر بآيَة:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية، رقم (٣٦٣٦)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب انشقاق القمر، رقم (٢٨٠٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الأوَّل: لمُوافَقة القُرآن.

والثاني: لأن المُعجِزة تكون من الرسول وغيرِه.

والثالث: أن كلِمة (آية) فيها إشارة إلى أن ما جاء به هذا الرسولُ مِمَّا يَعجِز البَشَر آية، عَلامة.

فهذه ثلاثة أَشياءَ تُبيِّن رُجْحان التَّعْبير بآية على التَّعبير بمُعجِزة.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بنُزول العَذاب على الكُفَّار ﴿قُضِىَ﴾ بين الرُّسُل ومُكذِّبيها ﴿بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر:٧٨] أي: ظهَر القَضاء والخُسران للناس، وهم خاسِرون في كل وقت قبل ذلِك].

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أَمْر الله تعالى الكَـونيُّ؛ لأن أَمْر الله يَنقسِـم إلى قِسْمين: كونيٍّ، وشَرعيٍّ، كما سنَذكُره إن شاء الله.

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بنُزول العَذاب على الكافِرين، ونُزول النَّصْـر للرُّسُل وأتباعهم.

وقوله: ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ والقاضِي هو الله عَزَّوَجَلَّ، وحُذِف الفاعِل هنا للعِلْم به؛ لأن الله تعالى هنا هو الذي يَقضِي بالحَقِّ؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ [غافر:٢٠]، ويُحذَف الفاعِل أحيانًا للعِلْم به، كما في قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، وكما في هذه الآيةِ، وقد يُقال: إنه حُذِف الفاعِل هنا للتَّعْميم؛ ليَكون القاضِي هو الله، وكذلك القاضِي بالحَقِّ هم الرُّسُل وأتباعُهم؛ لأنهم قضَوْا بالحَقِّ بالانتِصار على عَدوِّهم، لكن الأَوَّل أَوْلى، أن يَكون الفاعِل واحِدًا، ولكن حُذِف للعِلْم به: ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾.

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ هنا الخُسْران: فواتُ الرِّبْح، و(هنا) اسمُ إشارة للمَكان، والمُراد به الزَّمان؛ ولهذا قال المفَسِّر: [في كل وقت] المَعنَى: خَسِر في ذلك الوقتِ المُبطِلون.

فإذا قال قائِل: أَلَسْتُم تَقولون: إن (هنا) إشارة إلى المَكان؟

قُلنا: بلى، لكن قد تُستَعار إشارة للزَّمان. واللَّام في قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ للبُعْد، والكاف حَرْف خِطاب ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: الذين وقَعوا في الباطِل؛ لأن القَضاء بالحَقِّ يَقتَضي زوال الباطِل، وإذا زال الباطِل خسِرَ أهله، والباطِل ضِدُّ الحَقِّ، ويُفسَّر في كل مَوضِع بحَسبه، فالباطِل في الكلام الخَبَريِّ هو الكذِب، والباطِل في الحُكْم الجَوْر، والباطِل في المُعامَلة الغِشُّ، وما أَشبَهَ ذلك.

المُهِمُّ: أن الباطِل يُفسَّر في كل مَوْضِع بحَسبه.

وقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهم خاسِرون في كلِّ وَقْت] احترازًا من الإشارة في قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾؛ لئَلَّا يَظُنَّ ظانٌّ أنهم خاسِرون حين نُزول العَذاب فقَطْ، مع أنهم خاسِرون كلَّ وقت، وقد يُقال: لا حاجةَ إلى ذلك -يَعنِي: لا حاجةَ إلى ما قال المفَسِّر- لأن المَقصود: وخَسِر هنالِكَ، أي: ظهَرَت خَسارتهم وبانَتْ؛ لأنه قبل أن يُؤتَوْا بالعَذاب ربما يَقول القائِل: إنَّهم ربِحوا، كما قال أبو سُفْيانَ في يوم أُحُد، قال: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، والحَرْب سِجالٌ[1]. فظَنَّ أنه ربِح في ذلك اليوم، فالأَوْلى أن تَبقَى الآية على ظاهِرها، وألَّا يُستَدرَك القُرآن، فيُقال: ﴿خَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: ظهَر خُسْرانهم وبانَ.

أمَّا خُسْرانهم قبل نُزول العَذاب فهو ليس ببيِّن، إذ قد يَقول القائِل: إنهم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، رقم (٣٠٣٩)، من حديث البراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يَربَحون فيما إذا أَدَالَ لهم الله تعالى على الإسلام إدالة غير مُستَقِرَّة؛ لأنه لا يَجوز أن نَعتَقِد أن الله يُديل الكُفْر على الإسلام إدالةً مُستَقِرَّة، بل مَن ظَنَّ بالله هذا فقَدْ ظنَّ به ظنَّ السَّوْء، لكن الله تعالى يَقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ الرُّسُل السابِقين؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عَـدْل الله عَزَّوَجَلَّ في عِباده؛ حيـث لم يُعاقِبهم إلَّا بعدَ إرسال الرُّسُل، وتكذيب هَؤلاءِ القَوْمِ الذين أُرسِل إليهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الإشارة إلى أنَّه لا رسولَ بعدَ مُحمَّد؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ ولم يَقُل: سنُرسِل. وهذه الفائِدةُ في الواقِع ليسَـت بتِلْك القَويَّةِ؛ يَعنِي: مَأخوذة من الآية، لولا الواقِع ما أَخَذْناه من الآية؛ لأن الله إنما يَتَحدَّث عن شيء مضَى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن من الرُّسُل مَن قَصَّهم الله على محمد ﷺ، ومِنهم مَن لم يَقُصَّه؛ لقوله: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات كـلام الله؛ لقوله: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا﴾ والقَصُّ في الأصل: تَتَبُّع الأثَر، وأمَّا في الكلام فهو ذِكْر أخبار مَن سلَف، وهذا يَدُلُّ على أن الله يَتكلَّم عَزَّوَجَلَّ، وهذا هو ما دلَّ عليه الكِتاب والسُّنَّة وإجماع السَّلَف، ولكن هل يَتكلَّم بصَوْت يُسمَع أو لا؟ نعَمْ، يَتكلَّم بصَوْت يُسمَع.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ في حَديثه عن الأُمَم السابِقة؛ حيث قسَّم إلى مَن قُصَّ علينا نَبؤُهم ومَن لم يُقَصَّ، وما ذلِك إلَّا لِحِكْمة عَظيمة بالِغة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام أَيَّدَهم الله تعالى بالآيات؛ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الرُّسُل لا يَملِكون إيجاد الآيات مَهما بلَغَت مَنزِلتهم؛ فإنهم لا يَملِكون أن يَأْتوا بآية واحِدة؛ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تَسْلية الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإن الكُفَّار يَطلُبون منه آياتٍ، ولكن الله تعالى يَقول: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يُسلِّي الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأن هذا الأمرَ ليس إليك، بل هو إلى الله، إذا شاءَ أن يُؤتِيَك آيةً أتاكَ، وإلَّا فهو الحَكيمُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثبات الإِذْن لله عَزَّوَجَلَّ، والإِذْن نَوْعان: إِذْن شَرعيٌّ، وإِذْن كَونيٌّ، فالإِذْن الكَونيُّ ما يَتعلَّق بالمَخلوقات، وإِيجادُها، وإِعدامُها، وتَغيُّرها، وما أَشبَه ذلك. والإِذْن الشَّرْعيُّ ما يَتعَلَّق بالمَشروعات؛ فلْنَنظُر إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس:٥٩]، شَرعيٌّ، ولا يَصِحُّ أن يَكون كونيًّا، لأنَّنا نَعلَم أنه إذا فعَلوه فقَدْ أَذِنَ الله فيه.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١] أي: لم يَأذَن به شرعًا، ولا يَجوز أن يَكون الإِذْنُ هُنا إِذْنًا كونيًّا؛ لأنه وقَع فقَدْ أَذِن الله تعالى فيما شَرَع هَؤلاءِ إِذنًا كونيًّا.

وقال الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]. هو يوم القِيامة، لكن أين الشَّرْع؟

الجواب: الشَّفاعة؛ إذ يَطلُب من الله عَزَّوَجَلَّ أن يُخفِّف العَذاب عن شخص أو ما أَشبَه ذلك، أو يَرفَع درَجاتِه، وهذا إِذْن كَوْنيٌّ لا شَكَّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات أَفْعال الله الاختِيارية؛ يَعنِي: أن الله تعالى قد يُحدِث من أَمْره ما شاء؛ لقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ و(إذا) هنا شَرْطية للمُستَقبَل، إِذَنِ الأَمْر لم يَأتِ بعدُ.

وهذا يَـدُلُّ على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُتَّصِف بالأفعـال الاختِياريـة خِـلافًا للأشاعِرة ونحوهم الذين قالوا: إن الله تعالى لا يُوصَف بالأَفْعال الاختِيارية، كيف يُوصَف بالأفعال الاختِيارِية؟! إذا قُلْنا: يُوصَف، قالوا: هذا يَقتَضِي أَحَدَ أَمْرين: إمَّا أن يَكون الله حادِثًا، وإمَّا أن يَكون ناقِصًا.

أمَّا كونه يَستَلزِم أن يَكون الله حادِثًا فلأَنَّ الحَوادِث لا تَقوم إلَّا بحادِث، فإذا أَثبَتُّم أن الحَـوادِث تَقوم به لزِمَكم أن يَكون الله حادِثًا؛ لأن الحـوادِث لا تَقوم إلَّا بحادِث، هذه واحِدة.

أمَّا النَّقْص فنَقول: إذا كان هذا الفِعْل الذي فعَله الآنَ كمالًا فلماذا لم يَتَّصِف به من قَبلُ؟ إذا كان كَمالًا فلماذا يَحدُث بعد أن لم يَكُن؟ وإن لم يَكُن كمالًا فهو نَقْص يَجِب أن يُنزَّهَ الله عنه. وهذا لا شَكَّ أنه تَلْبيس. أمَّا الأوَّل فقولهم: إن الحَوادِث لا تَقوم إلَّا بحادِث. نَقول: من أين أَتاكُم هذا؟ أمِنْ جُيوبِكم، أم من آرائِكم الفاسِدة؟

مَن قال: إن الحَوادِث لا تَقوم إلَّا بحادِث؟ الحَوادِث تَحدُث قبل أن تَكون ونحن سابِقون عليها، فكذلك ما يُحدِثه الله عَزَّوَجَلَّ يُحدِثه وهو سابِق عليه، وسَبْقه أَزَلِيٌّ، فدَعْواكم هذه باطِلة تَحتاج إلى دَليل، ولا دَليلَ، بل الدليلُ على نَقْضها.

وأمَّا قولُكم: إن كان كمالًا فلماذا لم يَتَّصِف به من قبلُ؟ وإن لم يَكُن كَمالًا فهو نَقْص، فيَجِب نفيُه، نَقول: هذا أيضًا باطِل؛ لأننا نَقول: إن فِعْل الله الذي يُحدِثه هو

كَمال حال إحداثه، وليس كَمالًا حالَ عدَمه؛ لأن الله تعالى مُتَّصِف بالكَمال، ففي حال عدَمه لا يَكون كمالًا، وفي حال وُجوده يَكون هو الكَمال، وهذا واضِح، فِعْل الإنسان أحيانًا يَكون مُناسِبًا وفي محلِّه، وأحيانًا يَكون غير مُناسِب وتَكون الحِكْمة ألَّا يَفعَله.

وبذلك نَعرِف أن الرُّجوع إلى العَقْل فيما يَتعلَّق بالله باطِل وضَلال؛ لأن العَقْل قد يَزِلُّ وقد يَهن، فالرُّجوع فيما يَتعلَّق بالله عَزَّوَجَلَّ إلى الكِتاب والسُّنَّة، لا ثالِثَ لهما، اللَّهُمَّ إلَّا أن يُقال: إجماعُ السلَف أيضًا يُرجَع إليه، فيَكون مَصدَر التَّلقِّي في العَقيدة وفيما يَتعلَّق بذات الله عَزَّوَجَلَّ وبأسمائه وصِفاته ثلاثة: القُرآن، والسُّنَّة، وإجماع السَّلَف، لكننا نَقول: لا حاجةَ إلى قول إجماع السَّلَف؛ لأن إجماع السَّلَف لا يَكون إلَّا عن كِتاب أو سُنَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: تَهديد هؤلاءِ المُشرِكين الذين كذَّبوا الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ ووَجهُ التَّهديد أن عُلماء البلاغة يَقولون: إن (إذا) تُفيد وقوعَ الشَّرْط في المُستَقبَل، كما إذا قلت لك: إذا جاء زَيْدٌ فأَكرِمْه. تَفهَم من هذا أن زَيْدًا سوف يَأتِي، لكنه بشَرْط أن يكون مُتأخِّرًا، بخِلاف (إنْ)، فإن (إنْ) شَرْطية لكن للمُحتَمَل: إن جاء زَيْد فأَكرِمْه. إذْ مَجيئُه ليس مُحقَّقًا، لكن: إذا جاء فأَكرِمه، يَكون المَجيءُ مُحقَّقًا، لكنه مَربوط بزمَن مُستَقبَل. هذه ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ تُفيد أن أَمْر الله لا بُدَّ أن يَأتِيَ.

وأَمْر الله يَنقَسِم إلى قِسْمين: كَونيٌّ، وشَرعيٌّ؛ فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨] شَرْعيٌّ، وليس كونيًّا؛ لأنه لو كان كونيًّا لكان كل الناس يُؤدُّون الأمانة إلى أهلها، إذَنْ هو شَرعيٌّ؛ وقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ

لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ كَونيٌّ، فصار الأَمْر الآنَ يَكون كونيًّا ويَكون شرعيًّا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أن ما قضَى الله تعالى من عِقاب أو عَذاب فإنه حَقٌّ؛ لقوله: ﴿قُضِيَ بِٱلْحَقِّ﴾ وعلى هذا يَنتَفِي بذلك أن يَكون الله تعالى ظالِمًا لَمن عاقَبه.

فإن قال قائِل: أَلَيْسَت العُقوبة تَنزِل بالأُمَّة وفيهم الصالِحون؟

فالجَوابُ: بلى، تَنزِل العُقوبة على الأُمَّة وفيهم الصالِحون؛ لكنها تَكون عُقوبة على المُسيء ورِفْعة درَجات وتَكفير سَيِّئات على الصالِح؛ ولهذا لَمَّا قالت إحدى أُمَّهات المُؤمِنين: أَنَهْلِكُ وَفينا الصالِحُونَ؟ قال: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ»[1] فإذا غلَب الخَبَثُ على الطَّيِّب حلَّت العُقوبة على الجَميع.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن المُبطِل خاسِر إذا نزَل به العَذاب؛ لقوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ وإذا كان المُبطِل خاسِرًا فالمُصلِح رابِح؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧]؛ ولهذا إذا كان الأَهْل مُصلِحين فإن الله لا يُهلِك الأُمَّة، لكن إذا كانوا صالِحين فقَدْ تَهلِك الأُمَّة إذا كثُر الخَبَث، وهذه نُقطة قد لا يَتَفطَّن لها كثير من الطلَبة، انتِفاء الإِهْلاك إذا كان الأهل مُصلِحين ومُحاوِلين للإصلاح، أَمَّا إذا كانوا صالِحين فإنه قد يَقَع الإهلاك إذا كثُرَ الخَبَث، أمَّا مع الإصلاح ولو كثُرَ الخَبَث ما دامَتِ الأُمَّة تُحاوِل الإصلاح وتَسعَى به فإنها لن تَهلِك، وهذه نُقْطة -كما قُلت لكم- قد لا يَتَفطَّن لها كثير من الناس، نَسأَل الله أن يُصلِح أحوالَنا وأحوالَكُم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب يأجوج ومأجوج، رقم (٧١٣٥)، ومسلم: كتاب الفتن، باب اقتراب الفتن، رقم (٢٨٨٠)، من حديث زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فإن قال قائِل: قلنا: مِن عَدْل الله عَزَّوَجَلَّ أنه لا يُعذِّب العِباد إلَّا بعد أن أَرسَل إليهم الرُّسُل، في هذه الأيامِ هل هناك ضابِط للعُذْر بالجَهْل في الذين يَقَعون في الباطِل وعلى اعتِقادهم أن هذا صوابٌ؛ فهل يُعذَرون بجَهْلهم هذه الأيامِ؟

فالجوابُ: والله، قد يُعذَرون بجَهْلهم؛ لأن من العوامِّ مَن لا يَعرِف الحَقَّ إلَّا عن طريق ناس مُعيَّنِين، وهؤلاء الأناسُ المُعيَّنون مُنحَرِفون، فيُعذَرون، وربما أُناس في الغابات البَعيدة لا يَسمَعون إذاعاتٍ، ولا يَقرَؤُون صُحُفًا، ولا يَعرِفون شيئًا.

فإن قال قائِل: أَورَد بعض المُستَشْرِقين على قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤] على أن هُناكَ فتَراتٍ بين الأنبياء.

فالجوابُ: لا، هذا غلَط؛ لأنه إذا جاء النَّذيرُ ليس مَعناه أن النَّذير يَبقَى نذيرًا ما دام حَيًّا فقَطْ، قد تَبقَى الرِّسالة، أليسَتْ رِسالةُ إسماعيلَ وإبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقِيَت في العرَب إلى قُرْب بعثة الرُّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أوَّل ما دخَل الشِّـرْك على العرَب من عَمرِو بنِ لُحَيٍّ فهو متأخِّر.

• • ۞ • •

الآيتان (٧٩، ٨٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر:٧٩-٨٠].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قيل: الإِبِل خاصَّة هنا، والظاهِر: والبقَر والغَنَم].

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾، ﴿جَعَلَ﴾؛ أي: سيَّرها مُسخَّرة لكم، والجَعْل هنا جَعْل كَونيٌّ؛ لأن الجَعْل المُضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ يَكون كونًا ويَكون قدَرًا، يَعني: يَكون جَعْلًا كونيًّا ويَكون جَعْلًا قدَريًّا شرعيًّا؛ ففي قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة:١٠٣]، هذا الجَعْل شَرعيٌّ، وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ هذا جَعْل كونيٌّ. وفي قوله تعالى هنا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ جَعْل كَوْنيٌّ.

والأنعام جَمْع نَعَم. قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قيل: الإِبِل خاصَّةً. والظاهِر والبَقَر والغَنَم]، بل والظاهِر ما هو أَعَمُّ من ذلك، وهو ما أَنعَم الله به علينا من الحَيوان الذي سخَّره لنا من إِبِل وبقَر وغَنَم وفِيَلة وغيرها، وكل شيء.

وقوله: ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ قسَّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه الأَنْعام

إلى قِسْمين: قِسْم تُركَب، وقِسْم تُؤكَل ولا تُركَب. وعلى هذا تكون ﴿مِنْ﴾ في المَوْضِعين للتَّبْعيض، وعلامة (مِنَ) الَّتي للتَّبعيض أن يَحِلَّ محلَّها كلِمة (بَعْض)، فهُنا احذِفْ ﴿مِنْ﴾ وقُلْ: «لتَرْكَبوا بعضَها، وبعضَها تَأكُلون» يَستَقيم الكَلام، فهذه عَلامة (مِنَ) التَّبْعيضية، أن يَحِلَّ محلَّها كلِمة (بَعْض).

وقوله: ﴿مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ هذا التَّقْسيمُ لا يَعنِي الانقِسامَ، بمَعنى أنه يُمكِن أن يُوجَد من الأنعام ما يُؤكَل وما يُركَب؛ مثل: الإبِل؛ فإنها تُؤكَل وتُركَب.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن الدَّرِّ والنَّسْل والوَبَر والصُّوف]، يَعنِي: والشَّعر، وغير ذلك من المَنافِع، كنَقْل البَضائِع وغيرها؛ ولهذا جاءَت كلِمة ﴿مَنَافِعُ﴾ جَمْع (مَنْفَعة) بصِيغة مُنتَهى الجُموع، وصِيغة مُنتَهى الجُموع ما كانَت على وَزْن (مَفاعِل) أو (مَفاعِيل).

قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هي حَمْل الأَثْقال إلى البِلاد] ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ فسَّرَها المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنها حَمْل الأَثْقال، ولكن الذي يَظهَر أنها غيرُ ذلك، وأنها قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ يَعنِي: ما يَكون في قَلْب الإنسان من مَحَبَّة الفَخْر والخُيَلاء وغيرها، وإن كانت هذه الحاجاتُ قد تكون مَمنوعةً كالفَخْر والخُيَلاء، لكن لا شَكَّ أن هذه حاجةٌ لكل إنسان، أنه يَجِد فرَحًا وسُرورًا إذا غَنِم كثيرًا من المَواشِي، من الإبِل والبَقَر والغَنَم والظِّباء والأرانِب، وغيرها، يَجِد الإنسان لهذا طَعْمًا في نفسه، ويُمكِن أن يُقال أيضًا: ومن الحاجات في النَّفْس الاتِّجار

بها، فإن بعض الناس يَتَّجِر بهذه الأنعام، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يَذكُر نوع الحاجة، فيَشمَل كل ما يَقَع في القَلْب من مِثْل هذه الأُمورِ.

وقوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَعَلَيْهَا﴾ في البَرِّ، ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ السُّفُن في البَحْر: ﴿تُحْمَلُونَ﴾]. بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أن هذه الأَنعامَ نُحمَل عليها، وكذلك السُّفُن كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف:١٢-١٤].

من فوائدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيانُ نِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ علَيْنا بهذه الأنعامِ؛ حيث جعَلَها لنا مُسخَّرة مُذلَّلَة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: جَواز رُكوب الأنعام وأَكْلها، ومن المَعلوم أن هذا ليس على إطلاقه؛ فإن الذي يُركَب لا يُركَب على وَجْه يَشُقُّ عليه، لو أَراد إنسان أن يَركَب على بَهيمة وهي لا تُطيق أَكثَرَ من واحِد فأَردَف عليها، قلنا: هذا لا يَجوز؛ لما في ذلك من المَشقَّة. وكذلك أيضًا: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، ليس على إطلاقه؛ إذ مِن هذه الأَنعامِ ما لا نَأكُله؛ مثل: الحُمُر؛ فإنها لا تُؤكَل، ولكنها تُحمَل عليها وتُركَب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الأصل جَواز كل ما يُنتَفَع به من وُجوه الانتِفاع في هذه الأَنعامِ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ وبِناءً على ذلك يَجوز أن يُركَب ما لا يُركَب عادة إذا لم يَشُقَّ عليه؛ لأن ذلك من المَنافِع، فلو كان مع الإنسان بقَرَة واحتاج إلى أن يَركَب عليها -لأن بعض الحَيوان الذي لم يَعتَد أن يُركَب يَشُقُّ عليه هذا، حتى وإن كان

يَستَطيع أن يَحمِله- قُلْنا له: اركَبْ؛ لأن هذه من المَنافِع، والله تعالى أَطلَق المَنافِع ما لم يَشُقَّ عليها، فإن شَقَّ عليها كان مَمنوعًا؛ لأن إيذاء الحَيوان مُحَرَّم.

فإن قال قائِل: بعض الناس يَستَخدِمون هذه الأنعامَ في ما يُسمَّى بالسِّيرك أو الأَلْعاب البَهْلوانية، وما أَشبَه ذلك، مِمَّا يَكون فيه المُوسيقى وأَشياءُ أخرى، هل هَؤلاء الناس آثِمون؟

فالجوابُ: مِمَّا لا شَكَّ فيه أن استِعْمال هذه الحَيواناتِ فيما هو مُحَرَّم قصدًا أو ذاتًا؛ هذا لا يَجوز، حتى لو رَكِب هذه الأنعامَ ليَصِل إلى بلَد يُفعَل فيه الفواحِش، أو يُلعَب فيه القِمار؛ كان هذا حَرامًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جَواز ما يَقَع في قَلْب العبد من الفرَح والسرور بهذه الأنعامِ؛ بشَرْط أَلَّا يُؤدِّيَ ذلك إلى الكِبرياء والخُيَلاء، فما دام هذا الفرَحُ في نِطاق الأَمْر المُباح فإن الإنسان لا يُلام عليه، بل هو مِمَّا جعَله الله له.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيان نِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ بحَمْلنا على هذه الأَنعامِ وعلى الفُلْك؛ يَعنِي: أن الله سَخَّر لنا ما نَركَبه في الماء وما نَركَبه في البَرِّ. وهنا تَسخير ثالِث حدَث بعد نُزول القُرآن، وهو ما نُحمَل عليه في الجَوِّ، فيَكون الله عَزَّوَجَلَّ أَنعَم علَيْنا بمَراكِبَ جَوِّيَّة وبَحرية وبَرِّيَّة.

• • ۞ • •

الآية (٨١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر:٨١].

﴿وَيُرِيكُمْ﴾؛ أي: يُظهِرها لكم حتَّى تَرَوْها، وعلى هذا فـ(يُرِي) من الرُّباعي لا من الثُّلاثيِّ؛ لأنها مِن (أَرَى) (يُرِي)؛ أي: أَظهَر الشيء حتَّى يَراه الإنسان. وقوله: ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ جَمْع (آية)، والآية هي العَلامة على الشيء، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١]، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧]، أي: عَلامة. فما هي العَلامة؟ الآية عَلامة على ما يَختَصُّ بها من صِفة؛ فمثلًا: إذا نزَل الغَيْث وأَنبَتَتِ الأرض فهو آية على رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، إذا اهتَزَّتِ الأَرْض بأهلها، أو خُسِفت بأَهْلها فهو آية على سَخَط الله وعِقابه وعلى قُدْرته؛ حيث يُزلزِل هذه الأرضَ الكَبيرةَ العَظيمة فيَكون هذا آيةً على ما يَختَصُّ به.

فالآياتُ إِذَنْ آياتٌ على ما تَختَصُّ به من صِفة، لا نَقول: إنها كلها آية على شَيءٍ واحِد، بل نَقول: منها ما يَكون آيةً على الرحمة، وآيةً على العِزَّة، وآيةً على الحِكْمة، وآيةً على القُدْرة، وهَلُمَّ جرًّا.

إذن: ﴿ءَايَٰتِ﴾ نَقول: جَمْع (آيَة) وهي العَلامة، وهذه الآياتُ لا تَدُلُّ كلُّها على شيء مُعيَّن، بل لكُلِّ آية ما يَختَصُّ بها.

﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ ﴿فَأَىَّ﴾ هنا استِفْهامية مَنصوبة على أنها مَفعول

مُقدَّم لقوله: ﴿تُنكِرُونَ﴾. وأَسأَلكم: لو كانَت الآية تُنكِرونها أو تُنكِرونه فهل نَنصِب (أيَّ) أو نَرفَعها؟

الجَوابُ: نَرفَعها، ويَجوز النَّصْب؛ لأن هذا يَكون من باب الاشتِغال، وأَضرِب لكم مثَلًا من عِندي حتى لا نَتصَرَّف في كلام الله، لو قُلت: (زَيْدًا أَكرَمْت) هنا يَتعَيَّن النَّصْب على أنه مَفعول مُقدَّم، ولو قُلت: (زَيْدٌ أَكرَمْتُه) فهنا يَجوز الوَجْهان، والرَّفْع أَرجَح؛ لأنه الأصل، أمَّا النَّصْب فيَكون على سبيل الاشتِغال، وعليه فإذا جاء مَعمولٌ مُقدَّم وعامِل مُؤخَّر لم يَستَوفِ عمَله فإنه يَجِب أن يَكون هذا المَعمولُ السابِق حَسبما يَقتَضِيه هذا العامِلُ.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالَّة على وَحْدانيَّته] يَعنِي: لو قال المفَسِّر: ما هو أَعَمُّ. لكان أَحسَنَ؛ لأنها ليسَتْ آياتٍ دالَّةً على وَحْدانيَّة فقَطْ، بل على الوَحْدانية وعلى ما يَختَصُّ بتِلْك الآيةِ.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تُنكِرُونَ﴾ استِفْهام تَوْبيخ] يَعنِي: قوله: ﴿فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ وهو أيضًا استِفْهام تَحَدٍّ، فهو جامِع بين التَّوْبيخ والتَّحدِّي، يَعنِي: هذه آياتٌ ظاهِرة لا يُمكِنكم أن تُنكِروها، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وتَذكيرُ (أي) أَشهَر من تَأْنيثها]؛ لأنَّه يُقال: (أيَّة) ويُقال: (أي) وعلى كلام المفَسِّر يَكون التَّذكيرُ أَشهَرَ من التَّأْنيث ولو كان المُشارُ إليه مُؤنَّثًا؛ ولهذا قال: ﴿فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾، و﴿ءَايَـٰتِ﴾ مُؤنَّث، ولم يَقُل: (فأيَّة آيات الله) لكن في غير القُرآن لو قيل: (فأيَّة آيات الله) لكان هذا سائِغًا، إلَّا أنه مَرجوح.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: نِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عِباده بإِراءَتِهم الآياتِ الدالَّةَ عليه، ولو شاءَ الله لأَخفَى عنَّا ذلك، ووكَلَنا إلى ما في نُفوسِنا وفِطَرنا، ولكن مِن رَحْمته أنه يُظهِر الآياتِ حتى يَكون هذا عَوْنًا على ما في الفِطْرة من مَعرِفة آيات الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: جَواز تَحدِّي الإنسان بما يَعتَرِف به لولا الجَحْد؛ لقوله: ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾.

وهَلْ تَعرِف أن أحَدًا جَحَد الآياتِ مع تَيقُّنه بها؟

الجَوابُ: فِرعونُ وقومُه؛ فإنهم جَحَدوا بآيات الله مع أن أَنفُسهم مُستَيْقِنة بها.

• • ۞ • •

الآية (٨٢)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [غافر:٨٢].

ثُم قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ إلى آخِره.

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هذا الاستِفْهام يُحتَمَل أن يَكون للحَثِّ؛ وعليه فيَكون بمَعنَى الأَمْر؛ أي: سِيروا في الأرض، ويُؤيِّد هذا قولُ الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾. ويُحتَمَل أن يَكون للتَّوْبيخ؛ أي: تَوْبيخ هَؤلاءِ عن عدَم السَّيْر في الأرض.

والسَّيْر هنا يَشمَل السَّيْر بالقدَم، والسَّيْر بالقَلْب، أمَّا السَّيْر بالقَلْب فمَرجِعه إلى الأخبار الصادِقة؛ بحَيثُ يَقرَأ الإنسان عن الأُمَم السابِقة ولا شيءَ أصَحُّ من كِتاب الله عَزَّوَجَلَّ في الحَديث عن الأُمَم السابِقة؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]، فلا شيءَ أصَحُّ في الأخبار مِمَّا جاء به الكِتاب العَزيز وصحَّت به السُّنَّة، نَقول: هذا سَيْر بالقَلْب. والسَّيْر بالقَدَم أن يَمشِيَ الإنسان لِيَنظُر ما صنَعَ الله تعالى بالمُكذِّبين.

مِثال ذلك: أن يَسير الإنسان إلى دِيار ثَمودَ؛ ليَنظُر ماذا صنَعَ الله بهم، ولكن كما قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا يَجُوزُ أَنْ يَدْخُلَهَا إِلَّا وَهُوَ بَاكٍ»[1] خَوْفَ أَنْ يُصِيبَهُ مَا أَصَابَ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ.

وأمَّا مَن ذهَب إليها للتَّنزُّه والفُرْجة فإن ذلِك لا يَجوز، كما يَصنَع كثير من الناس اليومَ، يَذهَبون إليها لا على سَبيل العِظة والاعتِبار، ولا يَدخُلونها وهم باكُونَ، بل على سبيل الاطِّلاع فقَطْ على آثار السابِقين، وعلى سبيل النُّزْهة، وهذا حَرام ولا يَحِلُّ.

فإن قال قائِل: مَن ذَهَب إلى دِيارِ ثَمود للعِبْرة ولكنه لم يَستَطِع أن يَبكِيَ فهل يَتَباكَى؟

فالجَوابُ: لا، وفي الحَديث: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا»، ورسول الله ﷺ لَمَّا مَرَّ بها قَنَّع رَأسَه يَعنِي: غَطَّاه وخَفَضه وأَسرَع ناقَتَه.

فإن قال قائِل: إِذَنْ نَقول: ابْكِ أو ارجِعْ.

فالجوابُ: نعَمْ، نَقول: ابْكِ أو ارجِعْ، إمَّا أن تَبكِيَ وإمَّا أن تَرجِع، فإن لم تَبكِ وأنت مرَرْت بالبلَد فعَجِّل وقَنِّع رَأْسك، كما فعَل الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فإن قال قائِل: إِذَنْ نَقول بعدَم جَواز مَن يُصوِّر هذه الصُّوَرَ ويُريها الناس يَنشُرها؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحِجر، رقم (٤٤١٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالجَوابُ: أي نعَم، الظاهِر أنه للمَنْع أَقرَبُ؛ وذلك لأنه إنَّما يُريهم إيَّاها لبَيان قُوَّة القَوْم، لا لِبَيان أن الله أَهلَكهم مع قُوَّتهم، هذا هو الظاهِر من هَؤلاء المُصوِّرين.

فإن قال قائِل: هل يَشمَل هذا كلَّ الآثار القَديمة أو التي عُذِّبت فَقَطْ؟

فالجَوابُ: نَحنُ قرَأْنا آية تَدُلُّ على المُراد ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾.

فإن قال قائِلٌ: بعض القَوْم السابِقين دمَّرَهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خارِجَ دِيارِهم، مثل الفَراعِنة، هل نَقول: لا نَدخُل آثارَهُم كدِيار ثَمودَ؟

فالجوابُ: لا، وعلى هذا نَقول: لنا أن نَدخُل المَكان الذي أُغرِق فيه فِرعونُ، ولنا أن نَدخُل مِصرَ أيضًا؛ لأنه لم يُهلَك فِرعونُ في مِصرَ.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ إعْراب الجُمْلتين أن نَقول: إن (لَمْ) حَرْف نَفيٍ وجَزْم وقَلْب، حرف نَفيٍ؛ لأنَّها تَنفِي، وجَزْم لأنها تَجزِم، قَلْب لأنها تُحوِّل المُضارِع إلى الماضِي، والفاء في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ عاطِفة لا شَكَّ، لكن: هل هي عاطِفة على مُقدَّر مَحذوف، أو عاطِفة على ما قَبلَها من الجُمَل؟

في ذلك قَوْلان:

القول الأوَّل: أنها عاطِفة على مَحذوف مُقدَّر بعد الهَمْزة، ويُقدَّر بما يُناسِب المَقام، وعلى هذا فتَرتِيبُها بعد الهَمْزة تَرتيب طَبيعيٌّ.

والثاني: أنها عاطِفة على الجُمْلة السابِقة، وبِناءً على ذلك تَكون الفاءُ هنا مُزَحْلَقة عن مَوضِعها؛ إذ إن مَوضِعها يَكون قبل الهَمْزة.

والقَوْلان مَعروفان لأَهْل العِلْم بالنَّحوِ، على التَّقدير الأوَّل أنها عاطِفة على

مُقدَّر بعد الهَمْزة يَكون المَعنَى: أَغفَلوا فلَمْ يَسيروا في الأَرْض.

وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: على الأَرْض؛ لأن ﴿فِي﴾ للظَّـرْفية، ولو جعَلنا ﴿فِي﴾ للظَّرْفية في هذا السِّياقِ لكان مَعنى الآية: أن يَدخُلوا في جوف الأَرْض، وهذا غير مُرادٍ قَطْعًا، فتكون ﴿فِي﴾ بمَعنَى (على)؛ كقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] أي: مَن على السَّماء، وليس المُراد أن الله في جَوْف السماء؛ لأن ذلك مُستَحيل فقد وَسِع كُرسِيُّه السمَواتِ والأرضَ.

وقوله: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ الفاء عاطِفة على ﴿يَسِيرُواْ﴾ وعلى هذا يَكون المَعنى: أَفلَمْ يَسيروا فلَمْ يَنظُروا. ويُحتَمَل أن تَكون مَنصوبة بعد فاء السببية؛ أي: انتَفَى سَيْرهم ﴿فَيَنظُرُواْ﴾، كما تَقول: لم تَزَرْني فأُكْرِمَك... وما أَشبَه ذلك من الكلام.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿كَيْفَ﴾ هَذه اسمُ استِفْهام، وهي مَحـلُّ نَصْب خَبَر ﴿كَانَ﴾ مُقـدَّمًا، و﴿عَـٰقِبَةُ﴾ اسمُها. ﴿عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، والعاقِبة ذكَرها الله تعالى في سورة القِتال في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا﴾ [محمد:١٠].

هذا هو فائِدة النَّظَر: أن هَؤلاء القَوْمَ المُكذِّبين كانوا أَشَدَّ من هَؤلاء قُوَّةً، ومع ذلِك دمَّرهمُ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ أي: في العدَد. ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ أي: في الكيفية. فصاروا مُتمَيِّزين عنهُم في العدَد والكَيْفية.

﴿وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يَعنِـي: من العُمـران والقُصور وغيـرها، ومع ذلك لم تَنفَعْهم هذه الكَثرةُ ولا هذه القُوَّةُ، قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: المَصانِع والقُصور]، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (ما) نافِيـة، و﴿أَغْنَىٰ﴾ فِعْـل ماضٍ ﴿مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (ما) اسمٌ مَوْصول فاعِل ﴿كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ صِلة المَوْصول، ويُحتَمَل أن

تكون (ما) استِفْهامية والمَعنى: فما الذي أَغنَى عنهم ما كَسَبوا، والاستِفْهامية أَبلَغُ؛ لأنها تَتَضمَّن النَّفيَ مع التَّحدِّي؛ أي: أي شيء أَغنَى عنهم كَسْبهم حين دمَّرَهم الله؟

إن كانت نافِية فالمَعنَى: ما أَغنَى عنهم كَسْبهم شيئًا، وإن كانت استِفْهامية، فالتَّقدير: ما الذي أَغنَى عنهم ما كانوا يَكسِبون، ونظيرُ ذلك قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧]؛ أي: أيُّ شيء أَغنَى عنهم، أو أن المَعنَى نَفيُ الإِغْناء.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الحثُّ على النظَر في أحوال الأُمَم السابِقة، يُؤخَذ من قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وَجهُ الدَّلالة أن الله وبَّخَهم على عدَم السَّيْر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن السَّيْر في الأرض بالقدَم إذا لم يَصحَبْه النظَر والاعتِبار فإنه لا يَنفَع؛ لقوله: ﴿يَسِيرُوا۟﴾ ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾.

يَتفَرَّع على هذا: ما يَفعَله كثير من الناس اليومَ من السَّيْر إلى ديار ثَمودَ؛ حيث يَسيرون بأَبْدانهم، لكن لا يَسيرون بقُلوبهم، ولا يَعتَبِرون، بل يَذهَبون إلى هُنالِك للاطِّلاع على مَآثِر القَوْم، بل على آثار القَوْم الدالَّة على قُوَّتهم، وهذا لا يَجوز، الواجِب على مَن سار إلى تِلك الدِّيارِ أن يَدخُلها وهو باكٍ؛ لقول النبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا»[1] ولا يَنفَع التَّباكي؛ لقَوْله: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا»، ولم يَقُل: فتَباكَوْا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحِجر، رقم (٤٤١٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إِذَنْ: مَن لم يُوطِّن نَفْسه على هذا الوصفِ الذي رخَّص فيه النبيُّ ﷺ للدُّخول في ديارِ ثَمودَ فإنه لا يَجوز أن يَدخُل، وغالِبُ الناس الذين يَذهَبون الآنَ إنَّما يَذهَبون للفرجة والنُّزْهة فقَطْ، وهذا حرام.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن من الأُمَم مَن هو أَشَدُّ قُوَّةً وآثارًا ممَّا كانت عليه قُرَيْش؛ لقوله: ﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله تعالى لا يُعجِزه قُوَّة العَدوِّ، ولا كَثرة العَدوِّ، فإن الله تعالى أَهلَكهم مع كَثْرتهم وقُوَّته، وهل الله عَزَّوَجَلَّ إذا أَراد إهلاكَهم يَكون إهلاكُهم مُمتَدًّا لمُدَّة من الزمَن حتى يَقضِيَ عليهم؟

الجَـوابُ: لا، قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر:٣١]، ﴿صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ ﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ يَعنِـي: الذي أَحاط أَرضَه بحظار، والحظار مُركَّب من أعواد خَفيفة أو من سعَف النَّخْل، وتَأكُله الشمس والهواء بسُرْعة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن قُوَّة الإنسان وكَثْرة عدَده لا تُغنِي عنه شيئًا من عَذاب الله؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

الآية (٨٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [غافر:٨٣].

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ هـذا الذي أَتى بعد ذِكْـر تَدميرهم هو في الحقيقة عَوْد إلى شَرْح ما حصَل، فإن الله أَرسَل إليهم الرُّسُل بالبَيِّنات الواضِحة، وأَنزَل الكُتُب، ولكن ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ قال المفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُعجِزات الظاهِرات]، والصواب أن يَقول: الآيات البَيِّنات. هو رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعَلَ البَيِّنات بمَعنَى: الظاهِرات، وهذا حَقٌّ، وجعَل البَيِّنات صِفة لمَوْصوف مَحذوف تَقديرُه: المُعجِزات، وهذا فيه نظَرٌ، بل يُقدَّر: الآيات، وذلك لأن المُعجِزات لم تَرِد في الكِتاب والسُّنَّة مَحَلَّ الآيات أبَدًا.

وأيضًا المُعجِـزات تَكون من الرُّسُل وغيـر الرُّسُل، فالسحَرة مثَلًا تَأتِي لهم الشَّياطين بالمُعجِزات، لكن الآيات يَعنِي: العَلامات الدالَّة على صِدْقهم. هذه أَبلَغُ؛ ولهذا إذا وجَدْتم في الكُتُب -وما أكثَرَ ما تَجِدون المُعجِزاتِ، أو مُعجِزات الأنبياء، أو ما أَشبَه ذلك- فاضرِبوا عنها صَفْحًا وقولوا بدَلها: الآيات. كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: الآيات. والآياتُ -كما قُلْت- أدَقُّ من كلِمة المُعجِزات؛ لأن المُعجِزاتِ يَدخُل فيها ما يَعجِز البشَر ممَّا تَصنَعه الشياطينُ مع السحَرة وغيرهم.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَرِحُواْ﴾ أي: الكُفَّار ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ أي: الرُّسُل من العِلْم فرَح استِهْزاء وضَحِك مُنكِرين لها].

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ﴾ الواو فاعِل فمَن الفارِحُ؟ يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: الكُفَّار]، وهذا صَحيح فَرِحَ الكُفَّار ﴿بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾.

وقوله: ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ الضمير يَعود على الرُّسُل على حدِّ تَفسير المفَسِّر بما عند الرُّسُل من العِلْم؛ أي: بما جاؤُوا به من البيِّنات، لكن هل هذا الفَرَحُ فرَحُ استِبْشار أو فرَحُ استِهْزاء؟ يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه فرَحُ استِهْزاء وضَحِك وسُخْرية؛ ولكِنْ هذا التَّفسيرُ إذا تَأمَّلْته وجَدْتَه تَحريفًا وليس تَفسيرًا؛ لما فيه من البُعْد المَعنَويِّ واللَّفْظيِّ.

أمَّا البُعْد اللَّفظيُّ فلأَنَّ فيه تَشتيتَ الضَّمائِر؛ لأن قوله: ﴿فَرِحُواْ﴾ الواو للكُفَّار ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ الهاء للرُّسُل، هذا تَشتيت للضَّمائِر، والهاء في قوله: ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ إذا جعَلْنا الكلام نَسَقًا واحِدًا لا شَكَّ أنها تَعود على الكُفَّار؛ أي: بما عِند الكُفَّار من العِلْم.

وأمَّا البُعْد المَعنويُّ؛ فلِأَن الفَرَح في الأصل استِبْشار، فإذا صرَفْناه عن مَعناه الظاهِر إلى أن يَكون فرَحَ استِهْزاء كان هذا إخراجًا للمَعنَى عمَّا يَدُلُّ عليه ظاهِر اللَّفْظ.

والحاصِلُ: أن هذا التَّفسيرَ الذي ذكَرَه المفَسِّر تَفسير ضَعيف جدًّا، بل هو تَحريف، والصَّواب أن المَعنَى: فَرِح الكُفَّار بما عِندهم؛ أي: بما عِند الكُفَّار من العِلْم، وقالوا: نحن أَعلَمُ بما يُصلِحنا وما يُصلِح دُنيانا ودِينَنا الذي نحن عليه، فأنتم أيها

الرُّسُل سحَرة مجانينُ، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذريات:٥٢]، وإذا كانوا يَعتَقِدون بقُلوبهم، أو يَقولون بأَلْسِنَتهم ما لا يَعتَقِدون من أن الرُّسُل سحَرة مجانينُ فإنَّهم لا شَكَّ سيَجْعَلون ما عِندهم من العِلْم هو العِلْم الحَقيقيَّ فيَفرَحون به.

وعلى هذا فنَقول: الفرَح هنا فرَح بطَر واستِبْشار فيما يَظُنُّون أنهم على عِلْم أعلى من عِلْم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، ويَعجَب الإنسان أحيانًا فيما يَذهَب إليه بعضُ العُلَماء من تَفسير الآياتِ أو الأحاديث، الآنَ لو قرَأْت هذه الآيةَ على إنسان عامِّيٍّ ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ فعلى أيِّ شيء يَتنزَّل الضمير في قوله: ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ عِند هذا العامِّيِّ؟

الجَوابُ: على الكُفَّار ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم﴾ والإنسان يَفرَح بما عِندَه لا بما عِند غَيْره.

قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ ﴿وَحَاقَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نَزَلَ]، لكِنها -أَعنِي: ﴿حاق﴾- ليسَتْ كـ(نَزَل) من كُلِّ وَجْه؛ لأن (نزَل) تَكون بالخَيْر وبالشَّرِّ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ هذا خير، لكن (حاقَ) لا تَأتِي إلَّا في الشَّرِّ، فلا يُقال: حاقَ به القُرآن، أو حاقَ عليه القُرآن. كما يقال: نزَلَ عليه. فـ(حاقَ) هنا بمَعنَى: (نزل)، لكنها لا تُستَعمَل إلَّا في نُزول الشَّرِّ، وهو شَرٌّ بالنِّسْبة لمَن نزَل به، وقد يَكون خيرًا بالنِّسْبة لغيره.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ ﴿مَّا﴾ فاعِل ﴿حاق﴾، و﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يَعنِي: فيما سبَق؛ أي: أنهم لَمَّا جاءَهُم بَأْس الله عَزَّوَجَلَّ ونزَل بهم حاقَ

بهم ما كانوا يَستَهزِئون به فيما سَبَق، حيث كانوا يَستَهْزِئون بالرُّسُل، وبما جاؤُوا به، وبالشَّرائِع، بل ربما يَستَهْزِئون بالله عَزَّوَجَلَّ.

انظُرْ إلى قـول الله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة:٦٥]، يَتبَيَّنْ لك أن الكُفَّار يَستَهْزِئون بالله، ويَستَهزِئون بآيات الله، ويَستَهزِئون بالرُّسُل.

وقوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [أي: العَذاب] أي: حاق بِهِمُ العَذاب الذين كانوا يَستَهزِئون به حين تَوعَّدَتْهم الرُّسُل به، فجعَلوا يَستَهزِئون: أين العَذابُ الذي تَقولون؟ أي: كانوا يَستَفهِمون استِهزاء.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات حِكْمة الله ورَحْمته، وذلك أنه جعَل الآياتِ التي تَأتِي بها الرُّسُل آياتٍ بيِّناتٍ؛ حتَّى لا يَبقَى حُجَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الكُفَّار يَفخَرون بما عِندهم من العِلْم، ولو كان باطِلًا؛ لقوله: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ وهذا الذي كان فيما سبَقَ مَوْجود الآنَ، فإن بعض أُولَئِك القومِ الذين آتاهم الله من عِلْم الدنيا ما آتاهم تَجِدهم يَفرَحون بها ويَقولون: هي خَيْر من عِلْم أُولَئِك المُقوقَعِين على أَنفُسهم، ويَعنُون بهم عُلماء الشَّريعة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التَّحذير البالِغ من رَدِّ ما جاءَت به الرُّسُل؛ لقوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَرسَل الرُّسُل بالآياتِ البيِّنات الدالَّة على صِدْقهم.

ويَتفرَّع على هذا فائِدتان أو أكثَرُ، وهُما: رحمة الله بالعِباد، وحِكْمة الله تعالى في فِعْله:

أمَّا رحمة الله بالعِباد فلأن الله تعالى لو أَرسَل إليهم رُسُلًا بدون آيات؛ لكان في ذلك تَكليفٌ بما لا يُطاق؛ لأن الإنسان لا يُمكِن أن يُصدِّق برسول بدون آياتٍ تَدُلُّ على صِدْقه وإلَّا لأَمكَن كلَّ كاذِب أن يَقول: إنه رسولٌ.

وأمَّا الحِكْمة فظاهِرة أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَمَّا أَرسَل الرُّسُل لم يَترُكْهم هَمَلًا، بل أَعطاهم ما على مِثْله يُؤمِن البَشَر كما أَخبَر بذلك نبيُّنا ﷺ أن الله ما بعَث رسولًا إلَّا آتاه ما يُؤمِن على مِثْله البَشَر، والذي أُوتِيَه الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو الوَحيُ القُرآن؛ ولهذا قال: «فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1]؛ لأن القُرآن آية باقِية إلى يوم القِيامة، أو إلى أن يَأذَن الله تعالى بفَساد العالَم، أمَّا آيات الرُّسُل فغالِبُها تَنقَضِي في زمانهم، لكن آية الرَّسول باقِية.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن آياتِ الرُّسُل بيِّنة لا تَحتَمِل الشَّكَّ؛ لقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

ويَتفرَّع على ذلك: أنه يَنبَغي للعالِم الذي يَنشُر شريعة الله عَزَّوَجَلَّ إذا نشَرَها بين الناس أن يَكون نَشْره إيَّاها على وَجهٍ بَيِّن لا اشتِباهَ فيه:

أوَّلًا: اقتِداءً بالرُّسُل. وثانيًا: ليَزداد المُخاطَب طُمأنينة؛ لأن الطُّمأنينة لها أثَرٌ في قَبول ما يُلقَى وفي القِيام به، فإن الإنسان إذا لم يُبيَّن له الحَقُّ على وَجْه تَحصُل به الطُّمَأنينة تَجِده يَمشِي، أو يَأخُذ بالحَقِّ وهو مُتردِّد، لكن إذا زِيد طُمَأْنينة انتَفَع بذَلِك.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «بعثت بجوامع الكلم»، رقم (٧٢٧٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، رقم (١٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائِل: هل النَّبيُّ لا بُدَّ له من أَتْباع؟

فالجَوابُ: لا، قال الرسولُ ﷺ: «وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»(١).

مسألةٌ: عادَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَمَدَّ لهم في العَذاب؛ لأنهم يَقولون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ؟! فأَرسَل الله عليهم الرِّيح التي هي أَخَفُّ وأَلطَفُ ما يَكون، فأَهلَكَتْهم، قال: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]، «فيها»: هذه المُدَّةِ قد يَكون بعضُهم هلَك في أوَّل يَوْم، وبعضُهم في ثاني يوم، تبَعًا لما يَكون من المَلاجِئ أو غيره.

فإن قال قائِلٌ: هل هذا مُستَثنًى من العُقوبة؟

فالجَوابُ: لا؛ لأنه أَرسَل عليهم العُقوبة على هذا الشَّكلِ. ويُقال: إن هَذه وإن امتَدَّتْ فهي من حين ابتَدَأ العَذاب هلَك مَن هلَكَ.

فإن قال قائِلٌ: ما ورَد عن الأُمَم السابِقة مِمَّا ذكَره الله أنهم كانوا يَتَّخِذون من الجِبال بُيوتًا، هل يُقال: إن عِندهم آلاتٍ يَصنَعون بها هذه الأشياءَ؟

فالجَوابُ: يُحتَمَل أنها آلاتٌ، أو يُحتَمَل أنها لكَثْرتهم كل واحِد يُمسِك عمَلًا ويَقوم به، وتَعرِف أن الإنسان إذا اعتاد على عمَل مُعيَّن ولو كان شاقًّا صار سهلًا عليه.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، رقم (٦٥٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢٢٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيتان (٨٤، ٨٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [غافر:٨٤-٨٥].

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: شِدَّة عَذابنا]. ﴿رَأَوْا﴾ يَعنِي بأَبْصارهم، يَعنِي: رأَوْه رُؤية العَيْن، والبَأْس أَشَدُّ العَذاب.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾؛ أي: دون شُرَكائنا ودون ما كُنَّا نَعبُده، وهذا غاية الإِخْلاص، ثُم أَكَّدوا هذا بقولهم: ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿بِمَا﴾ الباء حَرْف جَرٍّ مُتعَلِّقة بـ﴿وَكَفَرْنَا﴾، و﴿بِهِۦ﴾ يُحتَمَل أن تَكون للسبَبية؛ أي: بما كُنَّا بسبَبه مُشرِكين، وأن تَكون مُتعَلِّقة بـ﴿مُشْرِكِينَ﴾ تَعلُّق الجارِّ بعامِله، المَعنى: أنهم لَمَّا رأَوْا عَذاب الله آمَنوا، ولكن هل يَنفَعُهم هذا الإيمانُ؟ لا، إن فِرعونَ لَمَّا غرِقَ وأَدرَكه الغَرَق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩٠]، ولكن قيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ يَعنِي: أَتُؤمِن الآنَ؟! ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، فلَمْ يَنفَعه إيمانُه، وقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨]، هذا لا تَنفَعه التَّوْبة؛ لأنه رأَى وشاهَدَ، شاهَدَ ما كان غَيْبًا يَكفُر به، والإيمان عن مُشاهَدة لا يُفيد؛ لأن

كل إنسان يُؤمِن بما يُشاهِد، ولو كان أكفَرَ الناس، وإنما الذي يُحمَد عليه الإنسان ويُنجِيه من عَذاب الله أن يُؤمِن بالغَيْب، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ ﴿فَلَمْ يَكُ﴾ أَصلُها: (لَمْ يَكُن)، لكِن حُذِفت النون تَخفيفًا، وقد جاء الحَذْف والإبقاء في آيَتَيْن من كِتاب الله، فقال تعالى في إبراهيمَ: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠]، وهذا الحَذْفُ تَخفيف، وله شُروط مَعروفة في كتُب النَّحوِ.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ إيمان هل تُعرِبونها على أنها اسمُ (يَكُن) مُؤخَّر، أو على أنها فاعِل (يَنفَع) واسمُها مُستَتِر؟

الجَوابُ: الثاني، والتَّقدير على هذا: فلم يَكُ إيمانُهم يَنفَعهم. أمَّا على الأوَّل فيَكون (يَنفَع) ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾، فيَكون اسمُها ضَميرَ الشَّأن اسمَ ﴿يَكُ﴾ مَحذوف.

وقوله: ﴿لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ ﴿لَمَّا﴾ هنا ظَرْف بمَعنى: حِين، واعلَمْ أن (لَمَّا) تَأتِي في اللُّغة العرَبية على أوجُه:

الأوَّلُ: أن تَكون ظرفًا بمَعنَى (حين) كما في هذه الآيةِ، فإن مَعنَى ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ أي: حينَ رأَوْا بَأْسَنا. وتَأتِي جازِمة، مثل قوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾، وهي للنَّفْيِ أيضًا ﴿لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ جازِمة ونافِية، لكن الفَرْق بينها وبين (لَمْ) أن ﴿لَّمَّا﴾ تُفيد قُرْب مَدخولها ﴿لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾، ولكن سيَذوقونه قريبًا، بخِلاف (لَمْ) فتَأتِي للنَّفيِ المُطلَق، وتَأتِي (لَمَّا) شَرْطية، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾، وتَأتِي بمَعنَى: (إلَّا) كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، وكذلك قوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ فهَذِه أَرْبعة مَعانٍ في (لَمَّا).

قال تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ ﴿سُنَّتَ﴾ يقول المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نَصبُه على المَصدَر بِفِعْل مُقدَّر من لَفْظه] ﴿سُنَّتَ﴾ بمَعنَى: طَريقة؛ أي: هذه طَريقةُ الله، و﴿سُنَّتَ﴾ في مِثْل هذا التَّركيبِ يَجوز أن تَكون مَرفوعة؛ أي: «سُنَّة الله» على أنها خَبَر مُبتَدَأ مَحذوف؛ أي: هذه سُنَّة الله، ويَجوز أن تَكون مَنصوبة، والمفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول: إنها مَنصوبة على المَصدَر بِفِعْل مُقدَّر من لَفْظه؛ أي: سَنَّ الله بهم سُنَّة الله، ويَجوز أن تَكون مَصدَرًا عامِله مَحذوف، لكنه مُقدَّر من الجُمْلة التي قَبلَه؛ لأن هذه العِبارةَ بمَعنَى ما قَبلَها تمامًا، يَعنِي: سُنَّة الله، بمَعنَى ما قبلَها وهي أَخْذُ المُكذِّبين بالعَذاب، فتكون مَنصوبة بمَضمون الجُمْلة لا بِفِعْل مُقدَّر، وما ذكَرَه المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَجهٌ لا شَكَّ، والمُهِمُّ أن السُّنَّة بمَعنَى: الطريقة، وطَريقة الله تعالى إِهلاكُ المُكذِّبين وتَعذيبهم، وأنَّهم لو آمَنوا بعد نُزول العَذاب لم يَنفَعْهم.

فإن قال قائِل: في رَسْم القُرآن هنا ﴿سُنَّتَ﴾ التاء فيها مَفتوحة والقاعِدة أنها مَربوطة؛ لأنها لمُفرَد.

فالجَوابُ: إن الرَّسْم العُثمانيَّ ليس على القَواعِد المَعروفة الآنَ، بل هو تَوْقيف، وقد اختَلَف العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: هل يَجِب أن يُرسَم القُرآن بالرَّسْم العُثمانيِّ أو لا يَجِب، أو يُفصَّل بين أن يُلقَّن التلاميذ الصِّغار أو الكِبار؟ على ثلاثة أَقوال:

القَوْل الأوَّل: إنه لا يَجوز أن يُرسَم القُرآن إلَّا بالرَّسْم العُثمانيِّ على كل حال، حتى وإن كُنتَ تُعلِّم الصِّبيان فعلى الرَّسْم العُثمانيِّ، فتكتُب: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣] تُكتَب: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بالواو، حتى وإن كُنتَ تُدرِّس صَبِيًّا اتِّباعًا للرَّسْم ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فـ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بالواو، و﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بالواو؛ لأن هذا هو الرَّسْم العُثمانيُّ.

وقال بعضُهم: بل لا يَجِب؛ لأن الرَّسْم العُثمانيَّ حين رُسِم المُصحَف صادَف أنه على هذا الوَجهِ، ولو كان الرَّسْم العُثمانيُّ على غير هذه القاعِدةِ لكُتِب بحَسب القاعِدة التي كانت في ذلك الوَقتِ، فالمَسأَلةُ ليسَت تَوفيقيةً، لكن صادَف أن الرَّسْم في ذلك الوَقْتِ على هذا الوَجهِ فرُسِم القُرآن عليه؛ وذلك لأن القُرآن لم يَنزِل مَكتوبًا حتى نَقول: لا بُدَّ أن يَكون كما كُتِب. بل نَزَل مَقروءًا، وقاعِدة الرَّسْم تَختَلِف من حينٍ لآخَر، وهذا القولُ له وَجهٌ قَويٌّ؛ لأنا نَعلَم عِلْم اليَقين أنه لو كانت قاعِدة الرَّسْم على غير هذا الوَجهِ في ذلك العَهْدِ؛ لكُتِب بمُقتَضى القاعِدة المَعروفة في ذلِكَ العَهْدِ.

والقول الثالِثُ: يَقول: إن كان القُرآن مَكتوبًا للصِّبيان للتَّعلُّم فاكْتُبْه على القاعِدة المَعروفة بَينَهم، وإن كان للكِبار يَعنِي: يَكتُب الإنسان مُصحَفًا فلْيَكتُبْه على حَسب الرَّسْم العُثمانيِّ، وهذا فيه جَمْع بين القَوْلين؛ لأنك لو تَرسُم القُرآن للصَّبيِّ على حَسب الرَّسْم العُثمانيِّ لحَرَّفه؛ لأن القاعِدة التي بين يَدَيْه تُخالِف الرسم فيُحرِّفه، فيَقرَأ مثلًا: ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الزَّكوت، و﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الصلوات، و﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ الربو، وهَلُمَّ جرًّا.

فأنا أَميل إلى أنه لا بَأْس أن يُكتَب بمُقتَضى القاعِدة الحاضِرة بالنِّسْبة للمُتعَلِّم، لا شَكَّ في ذلك بالنِّسْبة لغيره في احتِمال، ولكن القَوْل بالمَنْع فيه نظَرٌ.

﴿ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في الأُمَم أن لا يَنفَعَهم الإيمانُ وقتَ نُزولِ العَذابِ]، هذه واحِدة، والثانية: أن يُعذِّب المُكذِّبين. فالسُّنَّة التي استَفَدْناها من هذه الآيةِ شَيْئان:

أوَّلًا: إهلاك المُكذِّبين، والثاني: أنه لا يَنفَعُهم إيمانهم إذا رأَوُا العَذابَ.

قوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ﴿وَخَسِرَ﴾ فسَّرها المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمَعنَى: [تَبيَّن خُسْرانهم لكُلِّ أحَدٍ، وهُم خاسِرون في كلِّ وَقْت قبلَ ذلك].

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مَعلوم أن ﴿هُنَالِكَ﴾ ظَرْف مَكان، هذا هو الأصل، فهي اسْمُ إشارة إلى المَكان.

وقد تُستَعار إشارةً للزَّمان، فتَقول هُنالِك؛ أي: في ذلِكَ الوَقْتِ، ومِنه هذه الآيةُ انتَبِه، الآنَ إذا قُلْت: فُلان هناك. هذا ظَرْف مَكان، وهذا هو الأصل، ولو قُلْت مثلًا: قَدِم فُلان هُناك. تُشير إلى الوَقْت صارَت إشارةً للزَّمان، لكن هذا خِلاف الأَصْل، بَقِيَ علينا أن يُقال: خَسِرَ في ذلك الوَقتِ الكافِرون. أليسَ الكافِرون خاسِرين في كُلِّ وَقْت؟ بلى، لكن تَبيَّن خُسْرانهم وظهَر؛ لأنَّهم كانوا قبل أن يَنزِل عليهم العَذاب يَظُنُّون أنهم رابِحون؛ ولهذا فرِحوا بما عِندهم من العِلْم، لكن إذا نزَلَ بهم العَذابُ ظهَرَ لهم الخُسْران.

فإن قال قائِلٌ: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال في الآيَةِ الأُولى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر:٧٨] وفي آخِرِ السُّورة قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فما فائِدةُ التَّغيير؟

فالجَوابُ: الفائِدةُ من هذا هو بَيان أن كُلَّ كافِر هو مُبطِل ليس معه حَقٌّ، وكل مُبطِل لا يَقول إلَّا الباطِل فهو كافِر يَعني: المُبطِل في كل أحواله فهو كافِر ليس معه شيء من الحَقِّ، والكافِر مُبطِل ليس معه شيء من الحَقِّ أيضًا، فاختِلاف التَّعبير لزِيادة المَعنَى، كما يَكون أيضًا في اختِلاف القِراءات أَحْيانًا، كقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾، وفي قِراءة أُخرى: «تَسْتَأْذِنُوا»، ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾، وفي قِراءَةٍ: «فَتَثَبَّتُوا»، فتكون القِراءة هَذه مُفسِّرةً للقِراءة الثانية.

من فوائدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن أُولَئِك القومَ المُكذِّبين للرُّسُل إذا رأَوُا العَذاب قالوا: آمَنَّا، والمِثال على ذلِك: فِرعونُ لَمَّا أَدرَكَه الغرَقُ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هَؤلاءِ الذين يُؤمِنون بعد أن نزَلَ بِهِمُ العَذابُ لا يَستَفيدون من إيمانهم شيئًا؛ لقوله: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن سُنَّة الله عَزَّوَجَلَّ في العِباد واحِدة، فإنه لا يُحابِي أحَدًا لغِناه، أو لفَقْره، أو لغير ذلك، بل إن أَكرَم الخَلْق عِند الله أَتقاهُم؛ لقوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدۡ خَلَتۡ فِى عِبَادِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: التَّحذير من تكذيب الرُّسُل، وأن مَن كذَّب الرُّسُل فإنه سيَنالُه ما نالَهُم من العَذاب سيَناله ما نالَهم؛ أي: ما نال الأُمَم السابِقة من العَذاب.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: ظُهور الخُسْران لهَؤلاءِ المُكذِّبين قبلَ أن يَموتوا؛ لقوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾؛ أي: حين جاءَهُم البَأْس تَبيَّن لهم الخُسْران ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة
«مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»	٩
«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ الله لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ»	١٠
«إِنَّ الله لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُهُ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ»	١١
«مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»	١٥
«مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»	١٦
«إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ»	٢١
«مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»	٢٦
«الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»	٢٨
«إذا اجتهد فأَصاب...»	٣٣
«أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»	٣٦، ٤٩
«كُلُّ أَمْرٍ ذِي شَأْنٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ الله فَهُوَ أَبْتَرُ»	٣٧
«إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»	٤٩
«إِنَّ الله تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا»	٨١
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»	٥٣
«كَفَّارَةُ مَنِ اغْتَبْتَهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُ»	٥٥

«أن رجُلًا أَذنَب ذَنْبًا فتابَ، ثُم أَذنَب فتابَ، ثُم أَذنَب فتابَ، ثُم قال الله عَزَّوَجَلَّ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنْبَ ويَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ» ٥٧
«اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» ٥٨
«لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَخْرُجَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» ٥٩
«مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ» ٦١
«اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» ٦١
«لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ» ٦٤
«إِنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ» ٧١
«إِنَّ الله لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا» ٩٢
«اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ أَحْيِنِي إِذَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي» ٩٥
«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ» ٩٥
«فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ» ٩٨
«رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ قُلْ: آمِينَ. فَقُلْتُ: آمِينَ» ١٠٢
«حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ» ١١٤
«اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» ١١٤
«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، عَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ» ١١٦
«أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ...» ١١٩
«أَلَيْسُوا يُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ الله؛ فَتُحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ الله فَتُحَرِّمُونَهُ؟» ١٢٩
«إِذا رَأَيْتُمُ الَّذينَ يَتَّبِعونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذينَ سَمَّى الله فَاحْذَرُوهُمْ» ١٣١

«أن على يَمينِ آدَمَ أَسْوِدةٌ وعلى يَسارِهِ أَسْوِدَةٌ، فإذا رَأَى إلى اليَسارِ بَكَى» ١٣٣
«أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ» ١٣٧
«ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ الله، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ... ١٣٨
«رَبُّنَا الله الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» ١٣٩
«سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى» ١٣٩
«اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ١٣٩
«أَيْنَ الله؟» ١٤٠
«مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ فَقَدْ كَفَرَ» ١٤٩
«أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» ..... ١٥٣، ٣١٨، ٣٣٣، ٤٠٧
«إِنَّ الله تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ» ١٥٤
«رَحِمَ الله امْرَأً كَفَّ الغِيبَةَ عَنْ نَفْسِهِ» ١٥٥
«عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ» ١٥٥
«إِنَّ الله رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ» ١٥٦
«إِنَّ الله يُعْطِي بِالرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ» ١٥٧
«سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ...» ١٦٧
«إِنَّ الله تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ» ١٧١
«مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ» ١٧٢
«حُجِّي عَنْهَا» ١٧٢
«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» ١٧٣

«مَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ إِلَّا نَدِمَ، إِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَدِمَ أَلَّا يَكُونَ ازْدَادَ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا نَدِمَ أَلَّا يَكُونَ اسْتَعْتَبَ» ١٧٣
«من جاء في الساعة الأُولى في يوم الجُمُعة» ١٧٨
«ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ الله، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ» ١٩٨
«حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ» ٢٠٢
«لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ، إِلَّا وَأَنْتُمْ بَاكُونَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ» ٢٠٦
«لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» ٢٠٧
«لَكَ مَا احْتَسَبْتَ» ٢٠٩
«مَا بَعَثَ الله نَبِيًّا إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا عَلَى مِثْلِهِ يُؤْمِنُ الْبَشَرُ» ..... ٢١١، ٢٢١
«الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ» ٢٣٧
«مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ» ٢٣٨
«تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعَةٍ» ٢٥٤
«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي» ٢٦٧
«إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي» ٢٦٧
«فَلْيَستَعِذْ باللهِ ثُمَّ لْيَنْتَهِ» ٢٨٨
«مَا مِنْ رَسُولٍ بَعَثَهُ الله إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ» ٢٨٢
«أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ» ٢٨٩
«الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ» ٢٨٩
«إِنَّ فِيكَ لَخُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله؛ الحِلْمُ وَالْأَنَاةُ» ٢٩٥

«إنها صِفة الرَّحْمن، وأُحِبُّ أن أَقرَأَها» ٢٩٥
«أيُّ الرِّجال أحب إليك؟ قال: أَبُو بَكْرٍ» ٣٠٥
«سُبحانَ ربِّي الأَعْلى» ٣٠٥
«اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ٣٠٥
«أَيْنَ الله؟» ٣٠٦
«فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» ٣١٠
«وَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ» ٣١٢
«يا أَهْل الجَنَّة، خُلودٌ ولا موتٌ ويا أهل النار خُلودٌ ولا موتُ» ٣١٣
«كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرَ سَبِيلٍ» ٣١٤
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ٣١٨
«إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» ٣٤٧
«لا أَدرِي سمِعْت الناس يَقولون شَيْئًا فقُلْتُه، فيُضرَب بمِرْزَبَّة من حَديد فيَصيحُ صَيْحة يَسمَعها كُلُّ شَيءٍ إلَّا الثَّقَلين الإِنسَ والجِنَّ فإنهم لا يَسمَعونه، وكلُّ شيء يَسمَعُه» ٣٤٧
«أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الْأَرْضِ» ٣٥٥
«اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ» ..... ٣٦٣، ٣٦٥
«أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» ٣٧٢
«لَعْنَةُ الله عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» ٣٧٤
«اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا» ٣٧٤
«لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا» ٣٧٥

«وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً» ٣٧٩
«قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» ٣٨٤
«لَوْلَا أَنْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ الله بِكُمْ وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ الله وَيَغْفِرُ لَهُمْ» ... ٣٨٥
«لَوْ كُنْتُ مُسَبِّحًا لَأَتْمَمْتُ» ٣٨٦
«صلَّى بِنا رَسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِحْدى صَلاتَيِ العَشِيِّ» ٣٨٧
«أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» ٣٩٤
«لَقَدْ عُذْتِ بِمَعَاذٍ الْحَقِي بِأَهْلِكِ» ٣٩٦
«نبيٌّ مِن الأَنْبِياءِ قَرَصَتْه نَمْلةٌ، فأَحرَق قَرْيَة النَّمْل كُلَّها، فأَوْحى الله إليه هَلَّا نَمْلة واحِدة، تَقرُصُك نَمْلة وتَروح إلى كل القَرْية فتُحرِقَها بسبَبِ ذَنْب واحِدٍ» ٣٩٨
«إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا» ٤٠٠
«الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْواتَ» ٤٠٢
«مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ الله بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ» ٤٠٣
«الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» ٤٠٧
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ٤٠٧
«إِنَّ مَثَلَهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضًا، فَأَتَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِعُودٍ فَجَمَعُوا حَطَبًا كَثِيرًا وَأَضْرَمُوا نَارًا كَبِيرَةً» ٤١٨
«لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ وَلْيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ الله لَا يَتَعَاظَمُ عَلَيْهِ شَيْءٌ أَعْطَاهُ» ٤١٨
«فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ» ٤٢٠
«يَا آدَمُ أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. فَيُخْرِجُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ كُلُّهُمْ فِي النَّارِ» ٤٢٣

«أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ» ..... ٤٣١، ٤٤٠
«أَتَدْرِي أَيْنَ ذَهَبَتْ؟» ٤٣٨
«أَنَّ الشَّمْسَ تَسْجُدُ كُلَّ غُرُوبٍ عِنْدَ الْعَرْشِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَسْتَأْذِنُ رَبَّهَا فِي أَنْ تُشْرِقَ فَيَأْذَنَ لَـهَا» ٤٣٩
«أَلَا أَبعَثُكَ على ما بعَثَني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تَدَعَ قَبْرًا مُشرِفًا إلَّا سَوَّيْتَهُ، ولا تِمْثالًا إلَّا طَمَسْتَه» ٤٤٠
«إِلَّا رَقْمًا فِي ثَوْبٍ» ٤٤١
«كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ بِبِاسْمِ الله فَهُوَ أَبْتَرُ» ٤٤٦
«لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ الله» ٤٥١
«مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الفِطْرَةِ» ٤٦٠
«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، وَيُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» ٤٦٧
«الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ» ٤٨٨
«مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ» ٤٩٥
«إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ» ..... ٤٩٩، ٥٠٠
«أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ» ٥٠٠
«يَبْلغ المرءُ بنيَّته ما لَا يَبْلغ بعَمَله» ٥٠٣
«لَوْ أَنَّ لِي مَالَ فُلَانٍ لَعَمِلْتُ فِيهِ عَمَلَ فُلَانٍ» ٥٠٣
«لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ» ٥٠٤
«إِنَّ الله تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا» ٥٠٨

«بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهُ» ٥٠٩
«لَيْسَ مِنَّا مَنْ شَقَّ الجُيُوبَ، وَلَطَمَ الخُدُودَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ» ٥٠٩
«إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ شَخْصًا عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا» ٥١٤
«مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ» ٥١٥
«إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ» ٥١٨
«إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا» ٥٢٠
«مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يُبَيِّنَ لِأُمَّتِهِ خَيْرَ مَا يَعْرِفُهُ وَيُحَذِّرُهُمْ شَرَّ مَا يَعْرِفُهُ» ٥٢٣
«وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» ٥٢٣
«نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ» ٥٣٢
«لَا يَجُوزُ أَنْ يَدْخُلَهَا إِلَّا وَهُوَ بَاكٍ» ٥٤٢
«فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا» ..... ٥٤٢، ٥٤٥
«فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ٥٥١
«وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ» ٥٥٢

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة
الإنسان في طلَب العِلْم كالمُجاهِد في سبيل الله في إعداد العُدَّة	٧
مِنْ نِعْمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العَبْد أن يُحبِّب إليه العِلْم	٩
الحِرْص على نَشْر العِلْم بالوَسائِل المُناسِبة	١٣
يَنبَغي لطالِب العِلْم أن يَحفَظ وَقْته عن الضَّياع	١٥
العُلوم التي يَحسُن لطالِب العِلْم البَدْء بها	١٧
القُرآن كُنوز عَظيمة، كُلَّما أَخَذْت آية وصِرْت تَتأمَّلها انفتَح لك من العُلوم فيها ما لا يَعلَمه إلَّا الله	٢٠
إلى مَن يُرجَع في تَفسير القُرآن؟	٢٢
إن اختَلَفَتِ الحَقيقة اللُّغَوية والحَقيقة الشَّرْعية، رجَعْنا إلى الحَقيقة الشَّرْعية	٢٥
هل يَجوزُ لنا أن نُفسِّر القُرآن دون الرُّجوع إلى كلام العُلَماء؟	٢٦
التَّفسير بالرَّأْي مُحرَّم ومن كبائر الذُّنوب	٢٦
أهمِّيَّة التَّفسير	٢٧
المراد بكون المَغازِي، والسِّيَر، والتَّفْسير ليس لها سنَد	٢٩
التَّقليد لا يَجوز إلَّا عِند الضَّرورة وعِند العَجْز	٣٢
أحسَنُ شيء فيما أَرَى من التَّفاسير التي تَعتَني بالأثَر، تَفسير ابن كَثير	٣٢
إذا وجَدْنا كلِمة لم تُفسَّر بالقُرآن ولا بالسُّنَّة، ولا بأَقْوال الصَّحابة، نَرجِع إلى اللغة	٣٣

الذي يُفسِّر القُرآن برَأْيه لم يَجتَهِد ٣٣
كل السُّوَر المُبتَدَأَة بحروف الهِجاء مَكِّية إلَّا البقَرةَ وآلَ عِمران..... ٣٤
المَكِّيُّ ما نزَل قبل الهِجرة، وما نزَل بعدها فهو مدَنيٌّ..... ٣٤
البَسْملة: آية من كِتاب الله عَزَّوَجَلَّ مُستَقِلَّة ٣٤
أسماء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ غيرُ مَحصورة بعدَد..... ٣٦
قال النَّحويُّون: «الله هو أَعرَف المَعارِف»..... ٣٧
أحكام البسملة ٣٧
الحروف المقطعة ليس لها مَعنًى ٣٩
عِزَّة الله تَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام..... ٤١
القاعِدة المُتَّبَعة عندنا فيما إذا ورَد خِلاف بين النَّحويِّين أن نَتَّبِع الأسهَل ٤٨
كيف نَجمَع بين القول بأنَّ أسماء الله تعالى لا تُحصى، وبين قول النبيِّ ﷺ: «إِنَّ لِلهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا»..... ٤٩
ما ذكَر الله أنه نزَّله يَنقَسِم إلى قِسْمين..... ٥١
لماذا وصفُ القُرآن الكريم بالكِتاب؟ ٥١
الله جَلَّوَعَلَا يَذكُر من أسمائه ما يُناسب المَقام..... ٥٢
الأسباب التي تَكون بها المَغفِرة..... ٥٣
التوبة الجارِية على مُقتَضى الشريعة هي ما جمَعَت خمسة أُمور ٥٣
الغالِب أن الصدَقة أَوْلى من بيت المال..... ٥٤
من اغتبته لا يَلزَم استِحْلاله بل يَكفِي أن تَستَغفِر له ٥٥
من يَكون عليه حقٌّ ماليٌّ لشخص، ثُم يَتوب الفاعِلُ، ويَذهَب إلى صاحِب الحقِّ، ويَقول: خُذْ حقَّكَ. فيَأبى أن يَأخُذه، فماذا يَصنَع؟..... ٥٦

إن مات صاحب الحق هل يَلزَمه أن يُعطيَه الورَثة؟ ٥٦
الإنسان إذا تكرَّر منه الذَّنْب وهو يَستَغفِر يُغفَر له ٥٨
التوبة من ذَنْب مع الإصرار على ذَنْب آخَرَ ٥٩
الزِّنا يَشتَرِك فيه الفاعِل والمَفعول به ٦٠
ورَد في حَديث النَّبيِّ ﷺ أن الإنسان يَكتُب في بَطْن أُمِّه شَقِيٌّ أو سَعيد، فلماذا يعمل؟ ٦١
أقسام التوحيد ثلاثة: تَوْحيد الرُّبوبية، والأُلوهية، والأَسْماء والصِّفات ٦٢
وُجوب التَّحاكُم إلى شريعة الله ٦٣
الجَمْع بين الخَوْف والرجاء في السَّيْر إلى الله ٦٣
يَنبَغي لنا أن نَعرِف مَعايِب الكُفَّار وأقوالهم حتى يُمكِننا أن نُجادِلهم ٦٩
كلُّ كافِر في النار، لكن مَن لم تَبلُغه الدَّعوةُ فلا نَجزِم له بجَنَّة ولا نار ٧٢
مَسأَلة فِعْل ما يُكفِّر ٧٣
ليس في القُرآن ولا في السُّنَّة تَقسيم الدِّين إلى أَصْل وفَرْع ٧٣
الذين ذُكِروا من الأنبياء في القُرآن كلُّهُم رُسُل ٧٥
نُوح هو أوَّلُ الرُّسُل، ومَن زعَم أن إدريسَ قبل نُوحٍ فإنه خاطِئ ٧٨
الناس في الأسباب ثلاثة أقسام: طرَفان ووسَط ٧٩
من عَقيدة أهل السُّنَّة والجَماعة: أن الله تعالى يَتكَلَّم بكلام مَسموع وبحَرْف ٨٣
هل يَكفُر مَن يَقول: إن القرآن مُحدَث؟ ٨٤
ليس هناك دَليل قَطعيٌّ يَطمَئِن الإنسان إليه بأن القُرآن كُتِب في اللَّوح المَحفوظ ٨٤
أخصَّ رُبوبية تَكون للمَربوبين هي رُبوبية الرُّسُل، ولا سِيَّما أُولِي العَزْم منهم ٨٥

العَرْش: هو أَكبَرُ المَخلوقات، وأعظَمُها، وأَوْسَعها، وأَشرَفُها فيما عدا المُكلَّفين ٨٧
الإقرار بالقَلْب واللِّسان وليس هو مُجرَّد التَّصديق فقط ٨٨
الصِّراط يُضيفه تعالى أحيانًا لنفسه وأَحيانًا للمُؤمِنين ٩٠
المَلائِكة مُكلَّفون ٩٣
معنى الوَسيلة وحُكْمها ٩٤
الوسائِل لا بُدَّ أن تَكون مَعلومة: إمَّا بالشَّرْع، وإمَّا بالحِسِّ ٩٤
سَبْعة أقسام من التَّوسُّل الجائِز ٩٥
الوَسائِل ليسَت هي الوَسائِطَ ٩٨
التوَسَّل بمَحبَّة الرسول ﷺ ٩٨
حُكْم التَّوسُّل إلى الله بمَحبَّة الصالِحين والعُلَماء ٩٩
حُكْم تَخصيص العالِم بعَيْنه في التوسل بمحبته ٩٩
التَّوسُّل المَمنوع ٩٩
الضابِط في الفرق بين الوَسيلة الشِّرْكية والوَسيلة البِدْعية ١٠٠
شِرْك الطاعة وشِرْك الاتِّباع ١٠٠
أحسَنُ ما يُقال في حد الطاغوت ١٠
الإنسان مَأمور بالصلاة على النَّبيِّ ﷺ، إمَّا وجوبًا، وإمَّا استِحْبابًا ١٠٢
الذُّرِّيَّة الذين لم يَبلُغوا مَنازِل آبائهم أنَّهم يُرفَعون حتى يَكونوا في مَنازِل آبائِهم ١٠٩
يَنبَغي للإنسان في الدُّعاء أن يَحتَرِز من التَّعميم الذي قد يَتَناوَل مَن لا يَستَحِقُّ الدُّعاء ١٠٩
إذا خالَف الوَصْف الدعاء، هل يَكون اعتِداءً ١١٠

التَّرتيب الوُجودي في الأشياء ١١٠
الفعل المِثال هو: الذي أوَّله حَرْف عِلَّة، والناقِص: الذي آخِره حَرْف عِلَّة ١١١
ضَمير الفَصْل من حيثُ الإعرابُ لا مَحَلَّ له من الإعراب، أمَّا من حَيثُ المَعنَى فله ثَلاثُ فَوائِدُ ١١٣
مَقام الدُّعاء يَنبَغي فيه البَسْط لثلاثة أَسْباب ١١٥
النِّداء: هو الكَلام من بعيد، والمُناجاة الكَلام من قَريب ١١٨
﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ في هذه الآيةِ إعرابٌ مُشكِل ١٢٤
(ذلك) اسم الإشارة بحَسب المُشار إليه، والكاف بحَسب المُخاطَب ١٢٥
لا يُمكِن لأَحَد عاقِل -وأُريد بالعاقِل مَن سِوى المَجنون- أن يُنكِر أنَّ لهذا العالَمِ خالِقًا أبدًا ١٢٧
عُلوُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عُلوًّا مَعنَويًّا، وهو عُلوُّ الصِّفة أَمْر مُجمَع عليه ١٣٠
عُلوُّ الذات هو مَحَلُّ الصِّراع بين أهل السُّنَّة والجَماعة، وبين أهل التَّعطيل ١٣٠
إذا ورَدَت آيات مُتعارِضة، وأحادِيثُ مُتعارِضةٌ، فلا تُورِدوها على أَنْفُسكم على أنَّها مُتعارِضة ١٣٢
هَل يجِب على الإنسانِ أنْ يُبلِّغ الناس أنه يَجِب عليهم أن يَبحَثوا؟ ١٣٥
حُكْم الله تعالى يَنقَسِم إلى قِسْمين: كَونيٌّ وشَرْعيٌّ ١٣٦
الحُكْم بالقوانين المُخالِفة للشريعة قد يَكون كُفْرًا، وقد يَكون ظُلمًا، وقد يَكون فِسْقًا ١٣٦
أدِلَّة عُلوِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذاتيِّ خمسةُ أنواع: الكِتاب، والسُّنَّة، والإجماع، والعَقْل، والفِطْرة ١٣٩
آياتُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَوْعان: آياتٌ كَوْنية وآياتٌ شَرْعية ١٤٣

ما تَتَغذَّى به الرُّوح أهمُّ ممَّا يَتَغذَّى به البدَن..... ١٤٦
الإنابة إلى الله سبَب لكَثْرة الرِّزْق ١٤٧
مَنِ استَحَلَّ الحُكْم بغير ما أَنزَل الله فهو كافِر، سواء حكَمَ به أم لم يَحكُم..... ١٤٨
اجعَلوا اعتِقادَكم وحُكْمكم على الشيء تابِعًا للنُّصوص، لا تَجعَلوا النُّصوص تابِعة ١٥٠
وجوب الإخلاص لله تعالى في الدُّعاء ١٥٢
لو أن الرجل حسَّن عِبادته لتعليم الناس، وأن يَتَّخِذوا منه أُسوة، فهذا لا يَدخُل في الرِّياء..... ١٥٥
هل من الرِّياء أن يُظهِر الإنسان بعضَ ما عِنده لأَجْل ألَّا يُذَمَّ؟ ١٥٥
التَّمنِّي هل يَدخُل في الرِّياء؟..... ١٥٦
هل يَجوز أن أَذهَب إلى رجُل عاصٍ لأَدعُوَه؟..... ١٥٦
يَجِب على الإنسان أن يَقوم بالواجِب ولو كرِهَ ذلك غيره، ولا يُحابِيَ أحَدًا في هذا الفَرْق بين المُداراة والمُداهَنة..... ١٥٧
العُلماء لهم حَظٌّ ونَصيب من الرُّوح التي يُلقيها الله تعالى على الرُّسُل..... ١٦٤
الأدِلَّة المُثبِتة لِحِكْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما يَفعَل لا تُحصَى ١٦٤
يَنبَغي لِمَن آتاه الله عِلْمًا أن يَكون مُنذِرًا..... ١٦٥
هل يُستَثنى من قوله: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أحَدٌ؟..... ١٦٧
(لا) نافِيةَ الوحدة، ونافِية الوحدة تَعمَل عمَل (ليسَ) ١٦٩
إهداء القُرَب للغير..... ١٧١
كيف يَكون الحِساب يوم القيامة؟ ١٧٤

يَنبَغي لنا أن نَشعُر حين نَعمَل العمَل الصالِح أننا سوف نُجازَى عليه ١٧٥
الساعة تُطلَق على الزمَن القليل والكثير، إلَّا إذا فُصِّلت ١٧٨
الله تعالى قد يَجعَل الشِّفاء عَقِب دُعاء صاحِب القَبْر ابتِلاءً وامتِحانًا..... ١٩٠
ربَّما يَبتَلي الله الإنسانَ بوَظيفة، يَستَطيع أن يَسرِق فيها من بيت المال، إمَّا سرِقة حَقيقية وإمَّا سرِقة غير مُباشِرة..... ١٩١
الفَرْق بين الفعل اللازِم والمُتعدِّي..... ١٩٣
السَّميع صِفة ذاتٍ، لكن الذي يَحدُث المَسموع ١٩٣
هل هُناك أحَدٌ أنكَر الأسماء؟..... ١٩٣
قاعِدة المُعتَزِلة إثباتُ الأسماء وإنكارُ الصِّفات التي دلَّتْ عليها هذه الأسماءُ ١٩٤
الله تعالى لم يَزَل ولا يَزال بصِفاته، ولا يُوجَد ذاتٌ بلا صِفاتٍ إطلاقًا..... ١٩٥
إذا كان الاسمُ مُتَعدِّيًا الأثَر أو الحُكْم، فمِثْل السَّميع، لا بُدَّ أن تُؤمِن بسَمْع يَتعدَّى للغير..... ١٩٥
نظَر الرَّحمة هل هو نَفْس رحمة الله عَزَّوَجَلَّ؟ ١٩٨
نَفيُ الصِّفات يَنقَسِم إلى قِسْمين: نَفي جُحود، وهذا كُفْر، ونَفْي تَأويل ١٩٩
الكُتُب التي تَتَحدَّث عن الأسماء والصِّفات..... ١٩٩
ما حدَّثَت به بنو إسرائيل عمَّن سبَقَ؛ فهذا يَنقسِم إلى ثلاثة أقسام ٢٠٢
السير في أرض المُكذِّبين، وبَيان ما أَحَلَّ الله بهِم من النَّكال، إذا كان على سبيل العِبْرة فلا بأسَ به ٢٠٥
هل قُرَى قَوْم لُوط مِثل قُرى ثَمودَ وعادٍ في عدَم جَواز زِيارَتها؟ ٢٠٧
يَفوتنا كثيرًا الاحتِساب، فنُصَلِّي ونُريد أن نُؤدِّيَ الصلاة التي علَيْنا فقَطْ، لكن لا نَشعُر بأننا نَحتَسِب أَجْرها..... ٢٠٩

لا بُدَّ لكل نَبيٍّ من آية يُؤمِن على مِثْلها البَشَر ٢١٣
أنَّ الله تعالى ربَط المُسبَّبات بأسبابها..... ٢١٤
التِّسْع الآيات التي أُرسِل بها موسى ٢١٨
بعضُ عُلماء الجَرْح والتَّعديل إذا تَكلَّموا في رجُل يَقولون: هذا الرجُلُ كعصا مُوسى ٢١٨
مَن يَقول: فُلان يَملِك عصا موسى السِّحرية! ٢١٩
كيف يَكون فِعلًا واحِدًا صالِحًا للتَّعدِّي واللُّزوم؟..... ٢١٩
الفَرْق بين الكَرامة وآية النَّبيِّ ٢٢٣
الذي يَحمِي الدِّيار ويُدافِع عنها همُ الرِّجال، وأن المرأة ليسَت بذاك الذي يُدافِع عن البلَد ٢٢٩
أحكامُ التَّورِية ٢٤٦
شُؤم الكَذِب يَعودُ على الكاذِب ٢٤٦
نحن مُخاطَبون ومَأمورون أن نَنظُر إلى الحال الحاضِرِ الآنَ..... ٢٥١
الظُّهور والغلَبة قد يَكونون سببًا للأشَرِ والبطَر..... ٢٥٤
أهل الباطِل قد يَكون لدَيْهم زُخرُف من القَوْل غرور..... ٢٥٦
كل أحَدٍ يَعرِف أن الرُّشْد مَطلوب، وأن الغَيَّ مَكروهٌ..... ٢٥٧
علامة البدَل أنه يَصِحُّ أن يَحِلَّ محَلَّ المُبدَل منه..... ٢٥٩
أنَّ القُرآن إنما كُتِب بلُغة قُرَيْش ٢٦١
انتِفاء إرادة الظُّلْم عن الله عَزَّوَجَلَّ ٢٦٢
مِن قَواعِد الأَسماء والصِّفات أنه لا يُوجَد النَّفيُ المَحضُ في صِفات الله..... ٢٦٦
يَجِب على الإنسان إذا أَراد أن يَسأَل الهِداية أن لا يَسأَلها إلَّا من الله..... ٢٧٤

يَنبَغي للإنسان أن يَكون لدَيْه عِلْم بما سبَقَ؛ فإن التاريخ عِبَر ٢٨١
أَعظَم رَسولٍ أُرسِل إلى آل فِرعونَ -بعدَ مُوسى- هو يُوسُف ٢٨١
الإيمان بوُجود الله لا يَكفِي في التَّوْحيد والخَلاص من عَذاب الله ٢٨٢
الإنسان يَترفَّع، وهو نوعان: تَكبُّر على الخَلْق، وتَكبُّر عن الحَقِّ ٢٨٩
العُلَماء المُحقِّقون يَقرَؤُون كتُب المَناطِقة والفلاسِفة وغيرها؛ ثُم يَرُدُّون عليهم، وهذا إنما يَكون لمن رسَخت قدَمُه في العِلم ٢٩١
كل ما وصَف الله به نفسه فهو على حقيقته ٢٩١
دِقَّة عِبارة شيخ الإسلام ابن تَيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العَقيدة الواسِطية قال: من غير تَحريف ولا تَعطيل ٢٩٢
إثبات العِنْدية لله، عِند الله، وهي نوعان: عِنْدية وَصْف، وعِنْدية قُرْب ٢٩٣
الرَّدُّ على مَن قال: الكَمال أن تَتَّصِف بصِفات الكامِل ٢٩٤
الأخلاقُ كَسْبيٌّ وغَريزيٌّ، ولا يُمكِن أن نُسمِّيَ أوصاف الله تعالى أخلاقًا له ٢٩٥
هل كُلُّ مَن وُصِف بهذا الوَصفِ التَّكبُّر مَطبوع عليه؟ ٢٩٨
لا يَنبَغي للإنسان أن يَقرَأ بين العامَّة بقِراءة تُخالِف ما في أيديهم من المَصاحِف ٣٠١
جواز نِسبة الشيء إلى الآمِر به دون فاعِله ٣٠٥
كل نَصٍّ في القُرآن والسُّنَّة لم يَأتِ عن الصحابة خِلافُه، فإننا نَعلَم عِلْم اليَقين أنهم يَقولون به ٣٠٦
الإنسان قد يُزيِّن له سوء العمَل، والتَّزيين نَوْعان ٣٠٨
ضَمير الفَصْل ضَمير لا مَحَلَّ له من الإعراب، وله ثلاثَ فَوائِدَ ٣٠٩
العمَل الصالِح ما تَوافَرت فيه شُروط القَبول ٣١٧

الذُّكور والإناث مشتَرِكون في الثواب والعِقاب ٣٢١
أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَنقَسِم إلى قِسْمين ٣٢٥
هل يُكتَب القُرآن حَسب القَواعِد وفي كل وَقْت بحَسبه، أو على الرسم العُثمانيِّ؟ . ٣٢٩
هل الحَديثُ القُدسيُّ هو كلام الله بلَفْظه أو مَعناه؟..... ٣٣٥
ما يَنقُله الله عَزَّوَجَلَّ عن الأُمَم السابِقة هل هو بالمَعنَى أو باللَّفْظ؟..... ٣٣٥
الفَرْق بين الحَديث النَّبويِّ والقُدسيِّ ٣٣٦
الفَرْق بين دَعْوة المَسأَلة ودَعْوة العِبادة ٣٣٧
استِعْمال التَّعْريض ٣٣٨
الإِظْهار في مَوضِع الإضمار من أساليب اللُّغة العرَبية، وله فَوائِدُ..... ٣٣٨
عَذاب القَبْر ثابِت بالقُرآن والسُّنَّة والإِجْماع ٣٤٦
هل العَذاب يَكون على البدَن أو على الرُّوح، أو عليهما جميعًا؟..... ٣٤٧
هل يَجوز تَعزِية المُسلِمين للكُفَّار؟..... ٣٥٠
هل يُطلَب الحديث دَليلًا على إثبات مَسأَلة لُغوِيَّة؟ ٣٦٠
لا تُقبَل دعوة الكافِر أبَدًا إلَّا في حالَيْن ٣٦٢
أين النَّصْر في الحياة الدنيا لمَن قُتِل من الأنبياء؟ ٣٦٨
هل يَجوز أن نَلعَن الكافِرين؟ ٣٧٤
هل يَجوز أن أَدعُوَ الله للكافر بالهِداية؟ ٣٧٥
كل مَن لم يَتَذكَّر بآيات الله فإنه ليس ذا عَقْل ٣٨٠
هناك فَرْق بين العَقْل والذَّكاء..... ٣٨٠
الصَّبْر ثلاثة أنواع: صَبْر على طاعة الله، وصَبْر عن مَعْصية الله، وصَبْر على أقدار الله المُؤلِمة ٣٨٧

جَوازُ الذُّنوب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ٣٨٩
إذا تَكبَّر القلب تَكبَّر البَدَن، وإذا ذُلَّ القلب لله ذُلَّ البَدَن ٣٩٤
الرسول يَختَلِف مع غيره في مَسأَلَتَيْن ٣٩٨
أَرْبعة أمور تَجعَل من الباطِل مَنارًا يَعلو ظاهِرًا على الحقِّ، وأمَّا الحَقُّ نَفْسه فلا يُمكِن إطلاقًا أن يَغلِبه الباطِلُ ٤٠٠
الكِبْر سبَب لكُلِّ شَرٍّ ٤٠٠
إدراك المَسموع فيَرِد لَمعانٍ مُتَعدِّدة ٤٠١
العمَل الصالِح ما اجتَمَع فيه أَمْران ٤٠٧
ضَرْب الأَمْثال، وهو إلحاق المَعقول بالمَحْسوس ٤٠٨
نَفيُ المُساواة بين الأمور المُختَلِفة وهذا من قَواعِد الشريعة ٤٠٨
إبطال الكلِمة المَشهورة، وهي أن الإنسان إذا مات قالوا: عاد إلى مَثواهُ الأَخيرِ ٤١٢
إثباتُ القَوْل لله عَزَّوَجَلَّ ٤١٥
لا بُدَّ أن تَشعُر حين الدُّعاء أنك في غاية الضَّرورة إلى الله عَزَّوَجَلَّ ٤١٨
من الآداب التي فَقْدُها سببٌ لَمْنع الإجابة ٤١٨
من مَوانِع القَبول ٤١٩
الشُّكْر هو الاعتِراف للمُنعِم بالنِّعمة بالقَلْب واللِّسان والجَوارِح ٤٢٣
التَّحذير من قِياس الأحكام الشرعية بأعمال العِباد ٤٢٦
الذُّنوب تَحول بين الإنسان وبين رُؤْية الحَقِّ ٤٢٦
أحكامُ التصوير ٤٤٠
التصوير الفُوتوغرافي ٤٤١

الرِّزق يَنقَسِم إلى قِسْمين: رِزْق عامٍّ، ورِزْق خاصٍّ ٤٤٤
رُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ مَبنيَّة على الرحمة ٤٤٥
رُبوبية العامة؛ لقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهناك رُبوبية خاصَّة، ورُبوبية أخصُّ ٤٤٦
النَّهيُ: طلَب الكفِّ على وجهِ الاستِعْلاء بصيغة المُضارِع المَقرون بـ(لا) الناهِية ... ٤٥٥
(لمَّا) تَأتِي في اللُّغة العرَبية على أربعة أَوْجهٍ ٤٥٧
الإسلام يَأتِي على وَجْهين أو له مَعنيَان: المعنى الأَوَّل: الإسلام الكَونيُّ، والثاني: الإسلام الشرعيُّ ٤٥٨
التَّخلِية قبلَ التَّحلِية ٤٦٠
قَسَّم الله تعالى الناس بعد خُروجهم أطفالًا إلى أقسام ٤٦٦
أحكام الله تعالى مُعلَّلة بحِكْمة ٤٦٨
الخِطاب الذي ظاهِره أنه مُوجَّه إلى الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسامٍ ٤٧٧
يَنبَغي للإِنْسان أن يَكون دائِمًا على خَوْف وأن يَسأَل الله الثَّباتَ دائِمًا ٤٨٥
دُعاء المَسأَلة عِبادة باللَّازِم ٤٨٨
الناس انقَسَموا في أَفْعال العِباد إلى طرَفَيْن ووسط ٤٩١
إذا رأَيْت العُلَماء مُختَلِفين على طرَفَيْن ووسَط، فاعلَمْ أن الطَّرَفين كل واحد مِنهما أَخَذ بجانِب من الأدِلَّة وترَك جانِبًا آخَرَ ٤٩١
اسمُ الإشارة بحَسب المُشار إليه وكاف الخِطاب بحَسب المُخاطَب قد يَتَّفِقان وقد يختَلِفان ٤٩٢
الناس اختَلَفوا في الأسباب على ثلاثة أقوال: طرَفان ووسَط ٤٩٤

الفرَح بالحَقِّ مَحمود، والفَرَح بغير الحَقِّ مَذموم، والفرَح بما ليس حَقًّا ولا باطِلًا ليس مَحمودًا ولا مَذمومًا ٤٩٤
صرَّح في القُرآن الكريم بأن أَهْل النار خالِدين فيها أَبَدًا في ثلاثة مَواضِعَ ٥٠١
الصَّبْر يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام ٥٠٦
هل قول الله عَزَّوَجَلَّ قول مَسموع بصَوْت؟ ٥١٨
الآياتُ أدَقُّ من كلِمة المُعجِزات ٥٤٧
السَّيْر في الأرض بالقدَم إذا لم يَصحَبْه النظَر والاعتِبار فإنه لا يَنفَع ٥٤٥
يَنبَغي للعالِم الذي يَنشُر شريعة الله عَزَّوَجَلَّ إذا نشَرَها بين الناس أن يَكون نَشْره إيَّاها على وَجهٍ بَيِّن لا اشتِباهَ فيه ٥٥١

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة
تقديم	٥
مقدمة	٧
سورة غافر	٣٤
" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾	٣٩
" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤﴾	٦٦
" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾	٧٤
" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾	٨٢
" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾	٨٧
" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨﴾	١٠٥

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ ١١١

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ١١٨

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ﴾ ١٢٢

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ ١٢٥

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ ١٤٣

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ١٥١

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾ ١٥٩

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ ١٦٦

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾ ١٦٩

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ ١٧٦

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ ١٨٥

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍۗ

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ١٨٦

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ٢٠١

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ٢١١

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ٢١٦

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ ... ٢٢٧

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ٢٣١

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ٢٣٦

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ٢٤٠

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ٢٤٨

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ . ٢٥٨

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾﴾ ٢٦٩

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ ٢٧٥

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾﴾ ٢٨٥

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾﴾ ٢٩٩

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ .. ٣١١

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾﴾ ٣١٦

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى

ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى
ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ ٣٢٣

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ ٣٣٩

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ
ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ
فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ ٣٤٢

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾
قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾.. ٣٥١

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا
يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ
قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍۭ ﴿٥٠﴾﴾ ٣٥٦

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ ٣٦٦

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ
﴿٥٢﴾﴾ ٣٧٠

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ
﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾ ٣٧٧

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ ٣٨٢

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾ ٣٩١

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ ٤٠٣

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ٥٨﴾ ٤٠٦

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٩﴾ ٤١١

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ ٤١٤

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١﴾ ٤٢٢

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٦٣﴾ ٤٢٧

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٤﴾ ٤٣٤

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾ ٤٤٨

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ

ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ٤٥٥

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ٤٦٣

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ ٤٧٠

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ... ٤٧٧

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ٤٨١

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ ٤٨٧

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ ٤٩٢

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ ٤٩٩

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ ٥٠٦

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ ٥٢٢

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ٥٣٤

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ ٥٣٨

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ٥٤١

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ٥٤٧

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ٥٥٣

فهرس الأحاديث والآثار ٥٥٩

فهرس الفوائد ٥٦٧

فهرس آيات السورة ٥٨١

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٥١)

تفسير القرآن الكريم

سورة فصلت

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٥١)

تفسير القرآن الكريم

سورة فصلت

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٧ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة فصلت. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٧هـ
٣٥٧ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٥١)
ردمك: ٣ ـ ٧٣ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة فصلت ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٧/١٨٥٠

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٨٥٠
ردمك: ٣ ـ ٧٣ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٧ هـ

يُطلب الكتاب من :
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين.

أَمَّا بَعْدُ: فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدَايَةُ التَّسْجِيلِ الصَّوتيِّ لَـهَا مِن سُورة النُّور وَمَا بَعدَها؛ حتَّى بلَغ فَضيلتُه قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ،

المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[١]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[٢]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخِ مُحَمَّد بنِ صالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَرِيمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضَاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

١٤ مُحَرَّم ١٤٣٧هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

(٢) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سورة فصلت

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آلهِ وأصحابهِ ومَن تَبِعَهم بإحْسانٍ إلى يومِ الدِّين.

أمَّا بَعْدُ؛ فلا رَيْبَ أنَّ القرآنَ الكريمَ نزَلَ ليتَعَبَّد النَّاسُ بتِلاوَتِه ولِيَتدَبَّرُوا آيَاتِه، ولِيتذكَّرَ أُولو الألْبابِ؛ قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وإذا كان الإنْسانُ لو قرَأَ متْنًا ألَّفَهُ إنسانٌ منَ البَشَرِ، فلا بُدَّ أنْ يَتدبَّر مَعانيَه ويَتفَهَّمَها، فكذَلِك كَلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مِن باب أوْلَى أنْ يَتدبَّر الإنسانُ مَعانيَه ويَتفَهَّمها؛ لأنَّ قِراءةً بلا معنًى ليستْ قِراءةً، فالقارئُ الذي لا يَفهمُ المعنى؛ بمنزِلةِ الأُمِّيِّ الذي لا يَقرأُ.

ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨]، يعني إلَّا قِراءةً، فوصَفَهمُ اللهُ بأنَّهمْ أُمِّيُّون؛ لأنَّهم لا يَعلَمون الكِتابَ إلا قِراءةً فقطْ.

وقد ذَكَر العلماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ لتفسيرِ كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ قواعدَ مهمَّةً، نَذكرُ مِنها ما يَلي:

١ - أَوْلى ما يُفسَّرُ به القرآنُ أنْ يُفَسَّر القُرآنُ بالقُرآنِ؛ لأنَّ الَّذي فسَّرهُ هُو الَّذي أَنزَلَه، وهُو أعلَمُ بمُرادِه، فنُفسِّر القرآنَ بالقرآنِ ما وجَدْنا إلى ذلك سبِيلًا، ولِهذا

أمثلةٌ كثيرةٌ؛ مِثلُ قولِه تَعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفِطارِ:١٨]، فسَّر اللهُ ذلك اليومَ بقولِه: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفِطار:١٩].

فلو سألَنا سائلٌ: ما هو يومُ الدِّينِ؟

نَقولُ: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [القارِعةِ:١-٥]، ولِهذا أمثلةٌ كثيرةٌ.

٢- ثمَّ نفسِّرُ القُرآنَ بتَفسيرِ أعلَمِ الناسِ به، وهو رسولُ اللهِ ﷺ ولِهذا أمثلةٌ:

منها: قولُه تَعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس:٢٦]، الزِّيادةُ لمْ يُبيِّنْها الله عَزَّوَجَلَّ ولكِنْ بيَّنَها الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقوله: «النَّظَرُ إلى وجْهِ اللهِ»[1].

وكذَلِك مِثالٌ آخرُ: قولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفالِ:٦٠]، فسَّرَها النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقوله: «ألا إنَّ القُوةَ الرَّميُ»[2]، وكرَّرَها.

وكَما يكونُ تفسير النَّبيِّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- للْقُرآنِ بلفظِه، يَكوُن كذَلِك بفعلِه؛ فقولُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرةِ:٤٣]، لمْ يُبيِّنِ اللهُ تَعالَى كيفيَّةَ هذه الإقامةِ الَّتي أمَر بها، لكنْ فسَّرها النبيُّ ﷺ بفعلِه، فَقامَ ورَكعَ وسَجدَ وقَعدَ، وقالَ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رقم (١٨١)، من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي، رقم (١٩١٧)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«صلُّوا كما رأيتُموني أصلِّي»[١].

إذَن: أوَّلُ ما نُفسِّرُ القرآنَ به هو القرآنُ؛ لأنَّ الَّذي فسَّرَه هو الَّذي تَكلَّم به وهو أعلمُ بمُرادِه، ثمَّ بسُنَّة النبيِّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- القوليَّة والفعليَّة؛ لأنّ النَّبِيَّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أعلمُ الناسِ بكلامِ اللهِ؛ لأنَّه رسولُه.

٣- ثُمَّ بعدَ ذلكَ بتفسيرِ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وتفسيرُ الصَّحابةِ لا شكَّ أنَّه أَوْلى مِن غيرِه؛ لأنَّ الصَّحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أعلمُ النَّاسِ بِلُغَةِ القرآنِ بلا مُنازِعٍ؛ ولأنَّ القرآنَ نزلَ في عَصرِهم وفي الأحْوالِ الَّتي يعرِفونها.

ولا ريبَ أنَّ المعنَى يُعرَف في الزَّمنِ والحالِ الَّتي نزلَ بها؛ ولهذا يَنقُلون إلَيْنا أسبابَ النُّزولِ في الآياتِ التي نزَلَتْ على سببٍ؛ لأنَّهمْ كانوا يَعلَمون ذلك.

فيُرجَعُ في تفسيرِ القرآنِ -إذا لمْ يُوجَدْ في كتابِ اللهِ أو سنةِ رسولِه- إلى أقوالِ الصَّحابةِ.

والصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَختلِفون في فَهْمِ القرآنِ اختِلافًا ظاهرًا، كما يَختَلِفون في مَراتِبهم في الفَضائلِ، كذَلِك أيضًا يَختلِفون في العلمِ وفي تَفسيرِ القرآنِ، ومِنْ أعلَمِهم بالتَّفسيرِ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لأنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- دعا له، وقال: «**اللَّهمَّ فقِّهْهُ في الدِّينِ وعلِّمْهُ التَّأويلَ**»[٢]، يعني: التَّفسيرَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، رقم (٦٣١)، من حديث مالك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، رقم (١٤٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رقم (٢٤٧٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. دون قوله: «وعلمه التأويل»، وأخرجه أحمد (١/ ٢٦٦) بلفظه.

٤- وبعْد هذا في المَرتَبة الرَّابِعة: الرُّجوعُ إلى كلامِ التَّابِعين الَّذين أخَذوا عنِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وليسَ كلّ التَّابِعين، بلِ الَّذين اشتُهِرَ عنهمُ الأخْذُ عنِ الصَّحابةِ.

وعلى رأسِهم مُجاهِدُ بنُ جبرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ الذي أخذَ تَفسيرَ القرآنِ عن عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فكانَ يَقرأُ القرآنَ على ابنِ عبَّاسٍ، ويقِفُ عندَ كلِّ آيةٍ، يَسألُهُ عنْ تفسِيرِها[1].

٥- ثمَّ بعدَ ذلكَ يُؤخَذُ بالأمْثلِ فالأمْثلِ من أقوالِ أئمةِ هذهِ الأمَّةِ وعلمائِها.

ثمَّ اعْلمْ أنَّ تفسيرَ القرآنِ لا يقتَصرُ على تَفسِيرِ الصَّحابةِ والتَّابِعين؛ لأنَّه قدْ يَخرجُ للآياتِ معانٍ لم تكنْ تَطْرَأُ على البالِ فيما سبَقَ، كما تُشيرُ بعضُ الآياتِ إلى المخترَعاتِ الحديثةِ الَّتي وقعَتْ في زمانِنا هذا، وكما تُشيرُ بعضُ الآياتِ إلى ما عُلِم في عِلْمِ الأحياءِ والكائِناتِ؛ وذلك لأنَّ القرآنَ كتابٌ عالَـمِيٌّ لا يَزالُ النَّاسُ يَستخْرِجون كُنوزَه وفَوائِدَه إلى يومِ القِيامةِ.

وبِناءً على ذلك: يجبُ علينا أنْ نعتَنيَ بكلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنْ نتَدبَّرَه ونتفَهَّمَه؛ حتَّى نلْحقَ بالرَّكْبِ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٨٥)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٧٧، رقم ١١٠٩٧).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

البَسمَلةُ تَقدَّمَ الكَلامُ عليها كثيرًا، وبيَّنَّا أنَّها آيةٌ مِنْ كِتابِ الله، ولكِنَّها ليستْ آيةً تابِعةً للسُّورةِ الَّتي بَعدَها ولا الَّتي قَبلَها، بلْ هيَ آيةٌ يُؤتَى بها لابتِداءِ السُّوَرِ، ما عدا سُورةَ (بَراءةَ).

أمَّا مَعناها: فإنَّ الإنْسان يَقولُ: أبتَدئُ بكلِّ اسمٍ مِنْ أسماءِ اللهِ، وإنَّما جعَلْنا المَعنَى بكلِّ اسمٍ مِن أسماءِ اللهِ؛ لأنَّ كلمةَ «اسم» مفردٌ مضافٌ، وكلُّ مفردٍ مضافٍ إلى معرفةٍ فإنَّه يُفيدُ العُمومَ؛ ألمْ ترَوْا إلى قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النَّحلِ:١٨] ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ لو نَظَرْنا إلى لفْظِها لقُلْنا: إنَّها واحِدةٌ، لكنَّها كثيرةٌ لا تُحصَى؛ فيكونُ هذا المفردُ الَّذي أُضِيفَ: للعُمومِ.

وهذه هي القاعِدةُ: كلُّ مُفردٍ مُضافٍ لَمعرفةٍ فإنَّهُ مُفيدٌ للعُمومِ؛ ولِهذا قُلنا: بكلِّ اسْمٍ مِن أسْماءِ اللهِ.

و«الرَّحْمنِ الرَّحِيم» صِفتان للفظِ الجَلالةِ، لكنَّ الأُولى رُوعيَ فيها الوَصفُ، والثَّانيةَ رُوعي فيها الفِعلُ، وهو إيصالُ الرَّحمةِ.

أمَّا مُتعلِّق هذا الجارِّ والمَجرورِ فإنَّه مَحذوفٌ، ويُقدَّرُ مُؤخَّرًا مُناسِبًا للمَقامِ، فإذا كنتَ تُريدُ أنْ تَقرأَ فقُلتَ: بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ فقَدِّرْ: أقرَأُ، وإنَّما اختِيرَ أنْ

يكونَ فعْلًا لأنَّ الأصْلَ في العمَلِ الأفْعالُ؛ ولهذا يَعملُ الفِعلُ بلا شَرطٍ، والأسْماءُ الَّتي تَعمَلُ عمَلَ الفِعلِ لا بُدَّ لها مِن شُروطٍ- كما هو مَعروفٌ في عِلمِ النَّحوِ.

وإنَّما اخْتَرنا أنْ يَكونَ مُتأخِّرًا لفائِدتيْنِ:

الفائِدةُ الأولى: تيَمُّنًا بذِكْرِ اسمِ اللهِ.

والفائِدةُ الثَّانيةُ: إرادةُ الحَصْرِ؛ لأنَّه إذا تأخَّرَ العامِلُ كانَ ذلك حَصْرًا، فإذا قُلتَ: زيدًا أكرِمْ، فالمعنى: لا تُكرِم غيرَه، لكنْ لو قلتَ: أكرِمْ زيدًا، لم يمتنعْ أنْ تُكرمَ غيرَه.

وقدَّرْناه مُناسِبًا؛ لأنَّه أَبْيَنُ للمَقصودِ، فلو قال قائلٌ: «بسمِ اللهِ أبتدئُ»، قلنا: صحيحٌ، لكنَّها لا تُبيِّنُ المرادَ كما تُبيِّنُه: «بسمِ اللهِ أقرأُ»؛ وذلك لأنَّ الِابتِداءَ يكونُ للقِراءةِ ولغيرِ القِراءةِ، فلهذا اختِيرَ أنْ يكونَ مناسبًا للمَقامِ.

والخُلاصَةُ: أنَّ مُتعلقَ الجارِّ والمَجْرورِ مَحذوفٌ، وهو فِعلٌ مُتأخِّرٌ مُناسِبٌ للمَقامِ.

فإنْ قال قائِل: هَلْ صَحِيحٌ ما يَروي بعضُهم عنْ أبي هُريرةَ أنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- قال: «**إذا قرأتُم: الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين فاقرؤُوا: «بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ»** فإنَّها إحدى آياتِها»[1]؟

فالجوابُ: هذا الحديثُ ليس بصحيحٍ، ويدُلُّ على ذلك:

أوَّلًا: حديثُ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الثَّابتُ في الصَّحيحِ، أنَّ اللهَ تعالى قالَ: «**قَسمتُ الصَّلاةَ بيني وبينَ عبدي نِصفَينِ**»-يعني الفاتِحةَ -«**فإذا قالَ: الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين،**

(١) أخرجه الدارقطني (١/ ٣١٢)، والبيهقي (٢/ ٤٥).

قالَ: حمِدني عبدي...» إلى آخرِ الحديثِ[1]؛ فبَدأ بقولِه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثانيًا: أنَّ الرَّسول ﷺ كانَ لا يَجهرُ بها في القِراءةِ الجهْريَّةِ على القولِ الرَّاجِحِ، ولو كانتْ منَ الفاتِحةِ لَجَهَرَ بها، كما يَجهرُ ببقيةِ الآياتِ.

ثالِثًا: أنَّ بقيَّةَ سوَرِ القرآنِ ليستِ البسْملةُ منها، فنحتاجُ إلى دليلٍ قويٍّ يُبيِّنُ أنَّها منَ الفاتِحةِ.

رابِعًا: أنَّ قولَه تَعالى: «قَسمْتُ الصَّلاةَ بيني وبين عَبْدي نِصفيْن»، هي نِصفٌ في السِّياقِ ونِصفٌ في المعنى، ولا يتِمُّ ذلك إذا جعلْنا البسْملةَ منها؛ فقولُه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذِه للهِ، و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ثلاثُ آياتٍ للهِ؛ و﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ للعبدِ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ للعبدِ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ للعبدِ؛ إذَن: ثَلاثٌ وثَلاثٌ.

وقولُه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ صارتْ بينهما كما جاء في الحَديثِ: «هَذا بيني وبين عبدي»، فصارتْ ثَلاثَ آياتٍ ونصفًا مِنْها للهِ، وثلاثَ آياتٍ ونصفًا للعبد، ولو قُلنا: إنَّ البَسْمَلةَ مِنْها، ما اسْتَقامَ هذا.

خامِسًا: أنَّك إذا جَعَلْت البَسْمَلة مِنَ الفاتِحةِ صارتِ الآيَةُ الأخيرةُ طويلةً لا تتَناسَبُ مَع ما قبلها؛ لأنَّه ستكونُ الآياتُ الأخيرةُ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وهذه لا تتَناسَبُ مَع قولِه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أو ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، فهو خِلافُ البلاغةِ.

فصارَ عندنا خمسةُ أوجُهٍ كلُّها تدُلُّ على أنَّ البسْملةَ ليستْ منَ الفاتِحةِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (١)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حمٓ﴾ [فصلت:١].

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: [اللهُ أعلمُ بمُرادِه به]، وهذا هوَ الأدبُ مَع كِتابِ اللهِ وسنَّةِ رسُولِه -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أنَّ الَّذي لا تَعرِفُ معناهُ قلْ: اللهُ أعلمُ بمُرادِه به؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

ولكن قد يَقول قائِل: إنَّنا نعلَم أنَّه لا معنى لهذه الحُروف الهِجائيَّة الَّتي تُوجَد في كثير منَ السُّوَر؛ ونعلمُ ذلك بدَلالَةِ القرآنِ، فقدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشُّعراء:١٩٣-١٩٥]، واللِّسانُ العرَبيُّ لا يكونُ التَّعبيرُ بمثلِ هذهِ الحُروفِ لهُ معنًى في حدِّ ذاتِهِ لوْ قُلتَ: «أ، ب، ج، ح، خ»؛ فلَيسَت لها معنًى، فإذا لم يكنْ لها معنًى بمُقتضَى اللِّسانِ العَربيِّ، قُلْنا: إنَّ قولَه: ﴿حمٓ﴾ و﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓر﴾، وما أشبهَها، ليسَ لها معنًى في حدِّ ذاتِها.

ويَرِدُ على هذا: إذا لم يكُنْ لها معنًى صارتْ لَغوًا، وكلامُ اللهِ تعالى لا لَغوَ فيهِ!!

---

(١) المقصود بـ(المُفَسِّر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رحمه الله تعالى، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

فيُقالُ: إنَّها ليستْ لَغوًا، وإنَّما المُرادُ إقامةُ الحُجَّةِ على أولئك المُشرِكين؛ حيثُ عجَزوا عنِ الإتْيانِ بمِثلِ القرآنِ، ولا بآيةٍ واحِدةٍ، مَع أنَّ هذا القرآنَ: هل أتى بحُروفٍ لا يَعرِفونها حتَّى يَعتذِروا ويَقولوا: إنَّه جاءَ بحرُوف ليستْ مَعروفةً لنا؟

الجَوابُ: لا؛ فالقرآنُ جاءَ بحُروف يَعرِفونها، قالَ شيخُ الإسلامِ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولذلِك لا تَكادُ تَرى سُورةً مَبدوءةً بهذهِ الحُروفِ إلَّا وبعدَها ذُكِرَ القرآنُ، وابْدأْ مِنْ أوَّلِ البَقرةِ إلى أنْ تأتيَ إلى آخِرِ السُّوَرِ المَبدوءَةِ بهذِه الحروفِ، تَجِدُ أنَّ بعدَها ذِكرَ القُرآنِ؛ وذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ هذا القرآنَ الَّذي أَعجزَكم -مَعْشَر العرَبِ- كانَ مِن هذهِ الحُروفِ الَّتي تُكَوِّنون مِنها كلامَكم، وهذا الَّذي ذَهبَ إليهِ شيخُ الإسْلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ واضِحٌ جدًّا.

وأمَّا القولُ بأنَّه ليسَ لها معنًى؛ فقدْ قالَه مُجاهِدُ بنُ جبرٍ[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ أعلمُ التَّابِعين بكِتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

• • ۞ • •

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧١).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٠٩)، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧٠).

الآيتان (٢، ٣)

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٢-٣].

قَولُه تَعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾، قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَنزِيلٌ﴾ مُبتدأٌ، و﴿كِتَٰبٌ﴾ خبرُهُ]، وَلَوْ قِيلَ بِالْعكسِ -في غَيرِ القُرآن- لَكانَ أوضحَ، لو قِيلَ: كِتابٌ فُصِّلتْ آياتُهُ تنْزيلٌ مِنَ الرَّحمنِ الرَّحيم؛ لأنَّهُ يُخبرُ بالمعنى عنِ الذَّاتِ، ولا يُخبِرُ بالذاتِ عنِ المعنَى؛ وهذا هو الأصلُ، فتقولُ: زيدٌ قائمٌ، قائمٌ خبرٌ، ولا تَقُلْ: زيدٌ خبرٌ، لكنْ ما ذهبَ إلَيهِ المُفسِّر من الإعْراب له وجْهٌ، فليسَ باطِلًا، لكنْ لو قِيلَ: إنَّ ﴿تَنزِيلٌ﴾ هوَ خبرُ مقدَّمٌ و﴿كِتَٰبٌ﴾ مُبتَدأٌ مُؤخرٌ لكانَ أوْضحَ وأبْينَ.

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يَعني به الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ أيْ تنـزيلٌ منَ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، لكنَّه أَتى بهذَيْنِ الاِسمَينِ الكَريمَينِ إشارةً إلى أنَّ القُرآنَ رحمةٌ؛ لأنَّ إنزالَه منْ مُقتَضى رحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أليسَ منَ الممكنِ أنْ يُقالَ: تنزيلٌ منَ اللهِ؟ بلَى، كما جاءَ في آياتٍ أخرى، لكنَّه قالَ: ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، إشارةً إلى أنَّ هذا القرآنَ نزلَ بمُقتَضى رَحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنَّ اللهَ رحِمَ بهِ العِبادَ.

والرَّحمنُ الرَّحيمُ: اسمانِ منْ أسْماءِ اللهِ، منْ أشرفِ أسماءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ويأتيانِ

مُقترِنينِ، ويأتِيانِ مُنفَصلَيْنِ بعضُهما عنْ بعضٍ؛ فإنِ انفَصلَا فكلُّ واحدٍ مُتضمِّنٌ معنَى الآخَرِ.

فقولُه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، هذا مُنفَرِدٌ عنِ الرَّحيمِ، فيتَضمَّن الصِّفَةَ والفِعلَ؛ أيْ: أنَّ اللهَ تَعالى مَوصوفٌ بِالرَّحمةِ الواسِعةِ، وهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَرحَم -بهذِه الرَّحمةِ- مَنْ شاءَ مِن عِبادِه.

وفي قَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يُونُس:١٠٧]، أيضًا نَقولُ: الرَّحيمُ هُنا تشْملُ الوَصفَ والفِعلَ؛ لِأنَّها انفردتْ عنِ الرّحمنِ.

أمَّا إذا اجْتَمعَ (الرَّحمنُ والرَّحيمُ) كانتِ الرَّحمنُ للصِّفةِ والرَّحيمُ للفِعلِ؛ ولهذا جاءتِ الرَّحمُن على وزنِ «فَعلان»، وهذا الوزنُ في اللُّغةِ العَربيَّةِ يَقتَضي الِامتِلاءَ وكَمالَ وتَمامَ الوصفِ الَّذي كانَ مُرادًا؛ فَمثلًا يُقالُ: غضبانُ لِمَنِ امْتلأَ غضَبًا، ويُقالُ: غاضِبٌ لِمَنْ كانَ غضَبُه خفِيفًا، وكذَلِك سكْران للمُمتَلِئ سُكْرًا، فكلُّ هذا الوَزنِ يُفيدُ الِامْتِلاءَ والسَّعَةَ.

أمَّا الرَّحيمُ فغُلِّبَ فيها جانبُ الفِعلِ؛ أيْ: إيْصالُ الرَّحمةِ إلى المَرحومِ؛ ولهذا جاءتْ في القُرآنِ الكَريمِ: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]؛ أي: قدْ وَصلَت رحْمتُه إلى المؤمِنين على وجْهٍ مُطلقٍ، أمَّا غيرُ المؤمنينَ فإنَّهُ يَرحمُهُم بالمعنَى العامّ.

وقد ذَكَر بعضُ المُفسِّرينَ: أنَّ الرَّحمنَ أعمُّ منَ الرَّحيمِ، فتَشملُ الكُفَّارَ، أمَّا الرَّحيمُ فهيَ خاصَّةٌ بِالمؤمنينَ، لكنَّ ما ذَكَرتُه أحسن، وقدْ نبَّهَ عليهِ ابنُ القيِّمِ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وخُلاصةُ ما قُلنا في «الرَّحمَنِ الرَّحيمِ»: إمَّا أنْ يُذكَرَ الرَّحمنُ مَع الرَّحيمِ، أو يُفردُ

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٥٦).

أحدُهُما عنِ الآخَرِ، فإنْ أُفرِدَ أحدُهما عنِ الآخَرِ تضمَّنَ الثَّاني، وإنْ ذُكِرَا جميعًا غُلِّبَ في الرَّحمَنِ جانِبِ الصِّفَةِ، وفي الرَّحيمِ جانِبُ الفِعْلِ.

واعلَمْ أنَّ هذَينِ الاِسمَينِ الكَريمَينِ يدلَّانِ على أنَّ اللهَ تعالَى مَوصوفٌ بالرَّحمةِ، كما قالَ تَعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكَهْفِ:٥٨] ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعامِ:١٣٣]، فالرَّحمةُ صِفتُهُ والرَّحيمُ اسمُهُ، وهل هذا الاسْمُ ممَّا يتَعدَّى أو منَ المَصادِرِ اللَّازِمةِ؟

الجَوابُ: يَتعَدَّى؛ لقولِه تَعالى: ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العَنكَبوتِ:٢١]؛ والقاعِدةُ في العَقيدَةِ: أنَّه إذا كانَ الاِسمُ لازِمًا لا يَتعدَّى، فإنَّهُ يتَضمَّنُ أمرَيْنِ: إثْباتَ الاِسمِ، وإثْباتَ الصِّفَةِ، وإذا كانَ يَتعدَّى فإنَّه يَتضمَّنُ ثلاثةَ أشياءَ: إثْباتَ الاِسمِ، وإثْباتَ الصِّفَةِ، وإثْباتَ الفِعْلِ.

فكلِمةُ العَظيمِ اسمٌ منْ أسْماءِ اللهِ لازِمٌ؛ ولهذا يُقالُ: عَظُمَ؛ أي: صارَ عَظيمًا؛ والإيمانُ بهِ يَتَضمَّنُ الإيمانَ بالعَظيمِ، على أنَّه اسمٌ منْ أسْماءِ اللهِ، ويتَضمَّنُ أيضًا ثُبوتَ العظَمةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

وكلِمة الرَّحمنِ تَتضمَّنُ ثلاثةَ أشياءَ: تَتضمَّنُ «الرَّحمنَ»، اسمٌ من أسماءِ اللهِ، والثَّاني: الرَّحْمةُ؛ صِفةٌ مِن صِفاتِهِ، والثَّالثَ: الفِعلُ؛ أيْ: أنَّهُ يَرحمُ مَن يَشاءُ، وعلى هذا فَقِسْ.

فالإيْمانُ بالأسْماءِ: إنْ كانتْ مُتعدِّيةً لزِمَ أنْ تُؤمِنَ بالاسمِ والصِّفةِ والفِعلِ، وإنْ كانتْ لازِمةً وجَبَ أنْ تُؤمنَ بالاِسمِ والصِّفَةِ.

وقولُه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ كِتابٌ فِعالٌ بمعْنَى مَفعُولٍ؛ أي: مَكتوبٌ،

وهو مَكتوبٌ في اللَّوْحِ المَحفوظِ، ومَكتوبٌ بالصُّحُفِ الَّتي بأيدِي الملائكَةِ، ومَكتوبٌ بِالصُّحُفِ الَّتي بأيْدِينا.

أمَّا الأوَّلُ فدَليلُه قولُه تَعالَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البُروجِ:٢٢].

وأمَّا الثاني فدَليلُه قولُه تَعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عَبَس:١٦].

وأمَّا الثَّالثُ فواضِحٌ؛ فكلُّ ما جاءَ من كِتابٍ فهوَ يَتضمَّنُ هذه المعاني الثَّلاثةِ.

قَولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بُيِّنتِ بالأحْكامِ والقصَصِ والمَواعِظِ] التَّفْصيلُ ضدُّ الإجْمالِ، يَعنِي: أنَّ آياتِ القُرآنِ مُفصَّلةٌ، لكِنَّها تأتي أحْيانًا مُجملةً، وتأتي أحْيانًا مُفصَّلةً، وإذا فُصِّلَ المُجملُ صارَ الجَميعُ مُفصَّلًا.

وقولُه: ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾ جَمعُ آيةٍ، والآيةُ في القرآنِ هي كلُّ ما فُصِلَ بينها وبين ما سبَقها ولحِقَها بفاصلٍ؛ ولهذا تَسمَعون في كلامِ العُلَماءِ: «**فَواصِلُ الآياتِ**»، يعنِي الأماكنَ الَّتي تُفصَلُ فيها الآيةُ عمَّا قبلَها وعمَّا بعدَها.

والآياتُ الكَريمةُ مِنها ما هو طَويلٌ، ومنها ما هو قَصيرٌ، ومنها ما هو مُتوسِّطٌ؛ فأطوَلُ آيةٍ في كِتابِ اللهِ آيةُ الدَّينِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ [البقَرَةِ:٢٨٢]، وأقْصَرُ آيةٍ: ﴿طه﴾ [طه:١]، لكنَّ هذه منَ الحُروفِ الَّتي ليسَ لها معنًى، كما قرَّرْنا. فقولُه: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المُدَّثِر:٢١] أقصرُ آيةٍ في كِتابِ اللهِ، والباقي مُتوسِّطٌ منهُ ما يَميلُ إلى الطُّولِ، ومنهُ ما يَميلُ إلى القِصَرِ.

والسُّنَّةُ في الآياتِ: أنْ تَقرَأها حسْبَ ما فُصِّلَتْ؛ فتُقرَأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:١-٧].

فهذه سبعُ آياتٍ، تَقرَؤها هَكَذا مُفصَّلَةً، وإنْ أُدرِجَتْ فلا بأسَ؛ لأنَّه لم يرِدِ النَّهْيُ عن ذلك، إلَّا أنَّه لا يَنْبغِي للإنسانِ أنْ يَهُذَّ القُرآنَ هَذًّا، تخْفَى معه الحُروفُ، بل قد يَحرُمُ عليهِ إذا لَزِمَ أن تَخفى بعضُ الحُروفِ. أمَّا الهذُّ الذي يَستكمِلُ فيهِ الإنسانُ الحُروفَ فلا بأسَ، لكنَّ الأفْضلَ الوقوفُ على كلِّ آيةٍ.

فإنْ قالَ قائلٌ: هل تقِف على قولِه تَعالى: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلۡمُصَلِّينَ﴾ [الماعون:٤]؟

فالجَوابُ: يقِفُ؛ لأنَّها آيةٌ؛ لأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ هو الَّذي أنزَلَها، وجعَلَ هذه آيةً مُنفصِلةً عنِ الأُخرى، وربَّما يَكونُ في الوُقوفِ على الآيةِ هكذا حتَّى يَندهِشَ القلبُ، فيترَقَّبَ بشغَفٍ المعنى المُبيِّنَ لهذا، فتَقولُ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٥]، فكَأنَّها مطَرٌ على أرْضٍ قاحِلةٍ، إذَنْ: نقِفُ على هذا ولا مانِعَ.

أمَّا قولُه: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فهذِه لا نقِفُ عليها؛ لأنَّها ليستْ رأسَ آيةٍ بَلْ نَقولُ: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النِّساء:٤٣].

إذَنْ: فقَولُه تَعالى: ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، يَشْملُ التَّفصيلَ اللَّفْظِيَّ والمعنَوِيَّ؛ فالتَّفْصيلُ اللَّفْظيُّ: أنَّ اللهَ جعلَ كلَّ آيةٍ مُستقلَّةً عنِ الأُخرَى، مَفصولًا بعضُها عن بعضٍ، والمَعنَوِيُّ: التَّبْيينُ والإيضاحُ لِما كانَ مُجْملًا؛ ولهذا أَشارَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى التَّفْصِيلِ المَعنَوِيِّ فقطْ؛ فقالَ: [بُيِّنَتْ بالأحْكامِ والقَصَصِ والمَواعِظِ]، ولكنْ ينْبَغِي أنْ يُقالَ: إنَّها فُصِّلَتْ مِن وَجْهَينِ: لفظِيٍّ ومَعنوِيٍّ. فاللَّفظِيُّ: أنَّ كلَّ آيةٍ فُصِلَتْ عنِ الأُخرَى، والمعنَوِيُّ: أنَّها بُيِّنَتْ وبُيِّنَ ما أُجمِلَ منها، سَواءٌ مِنَ الأحكامِ أو غيرِها.

فقولُه تَعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الإنفطار:١٧-١٨]، هذا مُجمَلٌ فصَّلَهُ بِقَولِه: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الإنفطار:١٩].

وقَولُه تَعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارِعَة:١-٣] مُجمَلٌ فصَّلَه بِقولِه: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾. فالتَّفْصيلُ هُنا -أي: التَّفْصيلُ المعنويُّ- يعني بيانَ القرآنِ أنَّه بيَّنَ ووضَّحَ، حتَّى لو جاءَ مُجملًا فلا بدَّ أنْ يُبيَّنَ.

فإذا قالَ قائلٌ: قالَ اللهُ تَعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾، وفي آيةٍ أُخرى قالَ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزُّمَر:٢٣]، فأين الجَمعُ بينَ هذِه الآياتِ؟

الجَوابُ: لا تَعارُضَ؛ لأنَّ قولَه: «مَثانيَ» بمعنى «فُصِّلَتْ»، حيثُ إنَّ معناها تُثَنَّى فيه المَعاني، فيَذكُرُ الخَيرَ ثمَّ الشَّرَّ، يَذكُرُ أهلَ الخَيرِ وأهلَ الشَّرِّ، والجنَّةَ والنَّارَ وما أشبَهَ ذلِكَ؛ هذا هوَ المُرادُ بِقولِه: «مَثانيَ».

أمَّا قوله: «مُتَشابِهًا»، فمَعناه: أنَّه يُشبِهُ بعضُهُ بعضًا في الكَمالِ والحُسْنِ والجَودَةِ.

فإنْ قِيلَ: ما الجَمعُ بينَ ثَناءِ اللهِ على القُرآنِ بأنَّه مُتَشابِهٌ وبيْنَ قولِه تَعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آلِ عمرانَ:٧]؟

قُلْنا: الجَمعُ بينهما أنَّه مُتشابِهٌ في الحُسْنِ، يُشبِهُ بَعضُه بَعضًا، وأمَّا مُحكَماتٌ ومُتَشابهاتٌ، فالمُحكَماتُ هي: ما اتَّضحَ مَعناها، والمُتَشابهاتُ هي: ما خفِيَ مَعناها.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حالٌ مِنْ «كتابٌ» بصفَتِه].

مفسِّرُ الجلالَيْنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ جيد جدًّا، حيث قالَ: إنَّ ﴿قُرْءَانًا﴾ [حالٌ]، فكأنَّ

إنسانًا أورَدَ عليهِ كيفَ تَقولُ: إنَّه قُرآنٌ، والحالُ وصفٌ، والقرآنُ ليسَ وصفًا، فقالَ: بصِفتِه، وصفْتُه: ﴿عَرَبِيًّا﴾؛ يَعني: لو كانتْ في الآيةِ الكريمةِ قُرآنًا فقطْ، لـمَا صحَّ أنْ تَكونَ حالًا؛ لأنَّ الحالَ لا بُدَّ أنْ تَكونَ مُشتقَّةً: اسمَ فاعلٍ، أوِ اسمَ مَفعولٍ، أو ما أشبهَ ذلكَ، وقرآنٌ غيرُ مشتقٍّ؛ فلهذا قالَ: إنَّها [حالٌ مِن «كتابٌ» بصِفتِه].

إذَن: [بصِفَتـه] عائِدٌ على «قـرآنٍ»، كأنَّه قالَ: صـحَّ أن يَكونَ حالًا لأنَّه مَوصوفٌ.

فإذا قالَ قائِلٌ: كيفَ تجعَلونَهُ حالًا مِنْ كتابٍ وكتابٌ نكرةٌ وصاحبُ الحالِ لا بُدَّ أنْ يكونَ مَعرِفةً؟

قُلنا: إنَّ هذهِ النَّكرةَ خُصِّصَتْ في قولِه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، خُصِّصتْ بالصِّفةِ، والنَّكرَةُ إذا خُصِّصتْ صارتْ قريبةً منَ المَعرِفةِ؛ فلِذلك جازَ وقوعُ الحالِ منها.

فلدَينا الآنَ إشْكالانِ:

الإشْكالُ الأوَّلُ: كيفَ جاءتِ الحالُ مِن كِتابٍ وهوَ نكِرةٌ؟

وجَوابُه: أنَّ كِـتابًا الَّذي هو النَّكِـرةُ وُصِفَ بقولِه: ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، وإذا وُصِفتِ النَّكِرة جازتِ الحالُ منها.

الإشْكالُ الثَّاني: الحالُ ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ إذا أعرَبْنا قُرآنًا حالًا، فكيفَ صحَّ أنْ يكونَ حالًا وليسَ بمُشْتقٍّ؟

فالجوابُ: أنَّه مَوصوفٌ مُشتقٌّ؛ فلذلكَ جازتِ الحالُ منه.

وقولُه: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ معنَى كونِه عرَبيًّا: أوَّلًا: كلِمةُ «قُرآن» على وزنِ فُعْلانٍ،

كشُكرانٍ وغُفرانٍ وما أشبهَ ذلكَ. فهلْ هو بمعنى قارئٍ أو بمعنى مَقروءٍ؟ قِيلَ: إنَّه بمعنى مَقروءٍ، ومَقروءٌ هلْ هو منَ الجَمْعِ أو منَ التِّلاوَةِ؟ قِيلَ: إنَّه مِنْ قَرى يَقري بمعنى جمَع، ومنه اسمُ القريةِ؛ لأنَّها جامعةٌ للنَّاسِ، وقِيلَ: مِن قرَأَ بمعنى تَلا.

والصَّوابُ: أنَّه جائزٌ أنْ يَكونَ مِنْ هذا ومِن هذا؛ لأنَّه ما دامَ اللَّفظُ صالحًا للمعنيَّينَ ولا مُنافاةَ بينَهما، فإنَّه يُحمَلُ عليهما جَميعًا؛ وهذا إذا قُلنا: إنَّ ﴿قُرْءَانًا﴾ بمعنَى مَقرُوءٍ.

ويَجوزُ أنْ تكونَ بمعنى اسمِ الفاعِلِ «قارِئ»؛ فَقُرآنٌ بمَعنى قارِئ؛ أي: جامِعٌ؛ جامِع للأحكام والتَّوْحيد وغير ذلك.

أمَّا «عرَبِيًّا» فهو نِسبة للعَرَب؛ لأنَّه جاءَ بلُغَتِهم.

وقولُه تعالى: [﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يَفهَمون ذلك، وهم العرَب]، يعنِي: أنَّ الله جعلَه قرْآنًا عرَبيًّا لقَوْم يعلَمونَه ويفهَمُونه، ولا حُجَّة لهم في مُعارَضته والكُفرِ به؛ لأنَّهم يَعلَمُونه، كما قالَ تعالى في آية أُخْرى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزُّخرُف:٣]؛ أي: تَفهَمون معناه، حيثُ جاء بلِسان العَرَب.

فائِدة: ورَدت في القرآنِ آيات تَجرِي على سبيل المَثَل، مِثل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠] فهل صحيحٌ أنَّه وردَ النَّهي عن استِعمالها في غير مَكانها؟

الجَواب: للاستِشهاد بها لا بأسَ به؛ أمَّا أنْ تَجعَل القرآنَ بدلًا عن الكلامِ فهذا حَرام.

وقد ذَكَر صاحبُ (جواهِرِ الأدَب) قِصَّة عَنوَنها بقولِه: «المُتكلِّمةُ بالقرآنِ

الكريمِ بدَلًا عن الكَلام»[١]، وجاءَ بقِصَّة امْرأةٍ تُخاطِب أولادَها بالقُرآن، إذا قالَت: تَغدُّوا، قالَت: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، ولو أمَرْتَهم يَشترون حاجَة منَ السُّوق قالَت: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الكهف:١٩]، وما أشْبه ذلك.

ثُمَّ قالَ في آخر القِصَّة: هذه امْرَأة لها كذا من السِّنين تَتكلَّم بالقرآن مَخافَة أنْ تَزِلَّ، فيغضَب عليها الرَّحمَن. والواقِع أنَّها زَلَّت تَمامًا، فقد جعَلَت تُنزِّل آيات القرآن الكريمِ على أغراضِها الخاصَّة، وهذا لا يَجوز.

أمَّا الاسْتِشهاد بالقُرآن مِثلَ أنْ تَرى رَجُلًا مَفْتُونًا بالدُّنيا، تَقُول: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦] هَذا لا بأْس به، وقَد جاء في الحَديثِ أنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لـمَّا رَأى الحَسنَ والحُسَينَ وهُما يَعثُران بثَوبٍ جديدٍ نَزَل وأخذَهُما وقالَ: صدَق اللهُ: «﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التَّغابُن:١٥]»[٢].

مِن فَوائدِ الآيتَيْن الكَرِيمَتيْن:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ نُزول القرآنِ من عندِ اللهِ؛ لِقولِه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ إنزالَ القُرآنِ من آثارِ رحمةِ الله؛ حيثُ قالَ: ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

---

(١) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب لأحمد الهاشمي (١/ ٤٠٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٥٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الإمام يقطع الخطبة للأمر يحدث، رقم (١١٠٩)، والترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رقم (٣٧٧٤)، والنسائي: كتاب صلاة العيدين، باب نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة، رقم (١٥٨٥)، وابن ماجه: كتاب اللباس، باب لبس الأحمر للرجال، رقم (٣٦٠٠)، من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ اسمَين من أسماءِ اللهِ، وهما: الرَّحمنُ الرَّحيمُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ ما دلَّ عليه هذانِ الاسْمان مِن صِفة الرَّحمةِ، وقد ذَكَرْنا في التَّفْسير: أنَّ أهلَ التَّعطيلِ نفَوْا أن يَكونَ للهِ رَحمةٌ، وقُلنا: إنَّهم يُفسِّرون الرَّحمةَ إمَّا بالإحْسانِ والثَّوابِ، وهو مُنفصِلٌ، وإمَّا بإرادَة الإحْسانِ والثَّوابِ؛ لأنَّهم كانوا يُقرُّون بالإرادَة، وبيَّنَّا بُطلان هذا القَول، وأنَّ الصَّواب أنَّها -الرَّحمةُ- من صِفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولكنَّها ليْست كرَحمةِ المَخلوقِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ القُرآنَ فُصِّلتْ آياتُه، والتَّفصيلُ: تَفصيلٌ لفظيٌّ ومَعنويٌّ؛ فالتَّفصيلُ اللَّفظيُّ بالفَواصِل بينَ الآياتِ، والمَعنويُّ بالتَّفصيل في المَعنى، فإذا ذَكَرَ الله تَعالى أمْرًا ذَكَر نهْيًا، وإذا ذَكَرَ ثَوابًا ذكرَ عِقابًا، وإذا ذَكَرَ أهلَ الخير ذَكَرَ أهلَ الشَّرِّ، وهكذا «مَثاني».

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ القرآنَ كلُّ آيةٍ منه تُعتَبر آيةً على صِدق الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِقولِه تَعالى: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾، وآياته جَمعٌ يعُمُّ كلَّ فردٍ على حِدتِه ويَعمُّ المَجموعَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ القُرآنَ نَزلَ باللُّغةِ العرَبيَّةِ، ففيه مَنقَبةٌ للعرَبِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ نَزلَ بلغَتِهم، وفيهِ إحياءٌ للُّغةِ العرَبيَّةِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ سيبقى إلى أنْ يأذَنَ الله بخَرابِ العالَمِ. ومنَ المَعلومِ أنَّه إذا بقِي باللِّسانِ العَربيِّ فسوف تَحيَا اللُّغةُ العَربيَّة وتَبقى، وهذا من آثارِ القُرآنِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّه لا يَفقَه هذا القُرآنَ -ولَو كان باللُّغةِ العرَبيَّةِ- إلَّا ذَوُو العِلمِ؛ لِقولِه: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أمَّا مَن ليْسَ مِن أهلِ العِلمِ فإنَّه لا يَستَفيدُ مِن هذا الكِتابِ شيئًا؛ لأنَّه أمِّيٌّ.

والَّذي يَقرأُ القُرآنَ بلا فَهمٍ للمَعنى فهو أمِّيٌّ وإنْ تلاهُ؛ لِقولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البَقرةِ:٧٨]، فالَّذي لا يَعلمُ القُرآنَ إلَّا قراءَةً فقطْ؛ فهوَ كالَّذي لا يَقرأُ القُرآنَ ولا فرقَ.

الآية (٤)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فُصِّلت:٤].

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَشِيرًا﴾ صِفة «قرآنًا»]، يعني: جعَلْناه قرآنًا عربيًّا؛ بَشِيرًا لِمَن آمَن به، كما قالَ تعالى: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٧]، ونذِيرًا لِمَن كَفر به، وإن شِئْتَ فقُل: إنَّه نذِير لجَميع العالَمين، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

المُهِمُّ: أنَّ البِشارة خاصَّة والإنْذار عامٌّ، ورُبَّما يَكون خاصًّا كما قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم:٩٧] يعني: الَّذين كَفروا به، فصارَت (البَشيرُ) خاصَّة بمَن آمنَ، و(النَّذيرُ) تَكونُ عامَّة، وتَكونُ خاصَّة.

والبَشيرُ هو المُخبِرُ بِما يسُرُّ، وسُمِّي خَبَرُه بِشارَة؛ لأنَّ أثَره يَظْهر على بَشرَة الإنْسان؛ ولهذا تَبْرُق أسارِيرُ وجْهِه منَ الفرَحِ.

وقوْلُه: ﴿وَنَذِيرًا﴾ الإنْذار: هو الإعْلام المَقْرون بالتَّخوِيف.

وقولُه: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الفاءُ عاطِفَة، و«أعرَضَ» مَعْطوفة على «فُصِّلت» يَعنِي: كتابٌ فُصِّلت آياتُه، ومعَ ذلِك أعرَضَ أكثرُهم، ويَحتَمل أن تَكون الفاء للاستِئناف؛ يَعنِي: أنَّها جُملة مُستأنَفة لا تُعطَف على ما قبْلَها: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أكثَرُ الَّذين بَلَغَهم.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سَماعَ قَبُولٍ]، وهذا نَتيجةُ الإعْراضِ: أنَّهم صارُوا لا يَسْمَعون، ونَفْي السَّماعِ عنْهم؛ لانتِفاءِ فائِدتِه، وهي الاتِّعاظُ والقَبولُ.

واعْلَم أنَّ السَّمعَ يُنفَى تارَةً لِعدَم أصْلِه، وتارَة لعدَم ثمرَتِه؛ فقولُه تَعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ هذا نَفيٌ لأصلٍ، فالميْتُ لا يَسمَعُ، وقولُه تَعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١] لانتِفاءِ ثمَرتِه؛ لأنَّ السَّمعَ الَّذي لا ثمرَة له كالمَعدُومِ.

مِن فَوائِدِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ القُرآنَ فيه البِشارَةُ والنّذارَةُ؛ لكنْ هلْ هذا مُوزَّعٌ، أم يُمكِنُ أنْ يَكونَ بَشيرًا ونَذيرًا في آنٍ واحدٍ؟

الجَوابُ: يُمكِن هذا وهذا؛ أمَّا عنِ الأوَّل -﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾- فنجِدُ مِن آياتِه ما هو بِشارةٌ للمُؤمِنين، ونجِدُ مِن آياتِه ما هو إنْذارٌ. وأمَّا على الثَّاني -أنَّ الآيَةَ الواحِدةَ قد ينتَفِعُ بها أقوامٌ ويتضرَّرُ بها آخرون- قال تَعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التَّوبة:١٢٤-١٢٥].

ولا تَستَغربْ أنْ يكونَ الشَّيءُ الواحِدُ ضارًّا بوجهٍ ونافعًا من وجْهٍ آخرَ، فالقُرآنُ نافعٌ للمُؤمنين ضارٌّ لغيرِ المؤمِنين، ولا تستَغرِبْ هذا.

وأضرِب لَك مثلًا حِسِّيًّا بالتَّمرِ؛ حُلوُ المذاقِ: فاكِهةٌ، وغِذاءٌ، وقوتٌ يأكلُه واحدٌ فيتضرَّر به، ويأكله آخرُ فينْمو به، مَع أنَّه شيءٌ واحدٌ!.. هكذا القُرآنُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّه مَع وصْفِ القُرآنِ بهذا الوصْفِ الجلِيلِ بتفصِيلِ الآياتِ، وأَنَّه بلسانٍ عربيٍّ، وأَنَّه بشيرٌ ونذِيرٌ، لم يَسلَمْ مِنَ المُعارَضةِ والإعْراضِ؛ لِقولِه: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جَوازُ نفيِ السَّمعِ لَمن لا ينتَفِعُ به؛ لِقولِه: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، وكذَلِك يُقالُ في بَقِيَّة الحَواسِّ، لَمن لمْ ينتَفِعْ بها، نقول: إنَّ وجودَها كالعدَم؛ فمَن لمْ ينتفِع بما رَأى نَقول: هذا لا يُبصرُ ولو كان لهُ عيْنانِ.

• • ۞ • •

الآية (٥)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت:٥].

وقولُه: ﴿وَقَالُواْ﴾: مَعطوفةٌ على ﴿فَأَعۡرَضَ﴾، قالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالُواْ﴾ للنَّبيِّ ﷺ ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ أغطِيةٌ] ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ هذا -والعِياذُ باللهِ- من شِدَّة عِنادِهم وكُفرِهم؛ فقالوا للنَّبيِّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَٰةُ وَٱلسَّلَامُ وهو يَدعُوهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ كقولِهم: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ يعني: الأكِنَّة جمْع كنٍّ، وهو ما يُستَتَرُ به.

وقولُه: ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ أي: مِن التَّوحِيد والطَّاعة، والشَّهادةِ لله تَعالى بالوحدانيَّةِ وللنَّبيِّ بالرِّسالةِ، وإنَّما ذَكَروا القُلوبَ وبدؤُوا بِها؛ لأنَّها مَحلُّ الوعْي.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ ثِقَل] يعنِي فلا نَسمَع، يَعني أنَّنا نستَمِع إليكَ على كَراهَةٍ وبُغضٍ، فكأنَّ في آذاننا ثِقَلَ سمْعٍ.

وقولُه تَعالى: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ أي: حائِل يَحُول بيننا وبينك فلا نَراك، فأتَوْا على كلِّ مَدارِك الإحاطَةِ؛ فالمُدرِك الأوَّل: القلْبُ، والثَّاني: السَّمْعُ، والثَّالِثُ: البَصَرُ، وانتِفاء البصَرِ عنهم؛ لقَوْله: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾.

وقدْ جمَع اللهُ تَعالى بَين هَذه الثَّلاثَةِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء:٣٦]، وتَأمَّل قولَـهم: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ لم يَقولوا: «وبينَنا وبينَك حِجاب» إشارَة إلى أنَّ هذا الحِجابَ مُمتدٌّ من عِندِنا إلَيك، وعلَى هَذا فكُلَّما تَباعَدنا عَنك غَلُظَ هذا الحِجابُ؛ لأنَّه إذا كان ابتِداؤه مِن عِنْدهم إلَى الرَّسول، صار كلَّما زادَت المَسافَةُ ازدادَ غِلَظُه؛ لأنَّ (مِنْ) هُنا للابتِداء، فتُفِيد أنَّ هذا الحِجاب مُباشرٌ منهم إلى الرَّسول ﷺ لكنْ لو قالوا: «وبينَنا وبيْنَك حِجاب» لأمكَن أن يَكونَ الحِجاب في الوَسَط، ولو كان بينَه وبينَهم مَسافَة، وهَذا يدلُّ على غِلَظ ما بينَهم وبينَ الرَّسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَٰةُ وَٱلسَّلَامُ وبُعدِه.

وقولُه: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ هذا -والعِياذُ بالله- التَّحدِّي للرَّسول ﷺ فيما يَظْهرُ، وليس من بابِ الإباحَةِ، بل من بابِ التَّحدِّي، قال المُفسِّرُ: [﴿فَٱعۡمَلۡ﴾ على دِينِك ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ على دِيننا]، ويَحتَمِل: اعمَل لمُجاهدَتِنا فإنَّنا عامِلون لمُجاهدتِك، وهذا القَول ممَّا ذَهبَ إليه المُفسِّر؛ فكأنَّهم يَقولون: اعمَلْ ونَحن سنَعْملُ.

مِن فَوائِد الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: شِدَّة كَرَاهةِ المُشرِكين لِـما نَزَل مِن الحَقِّ، والدَّليلُ قولُهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: شِدَّةُ مُعانَدةِ المُعارِضين ومُعارَضتِهم لهذِه الأوْصافِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تحدِّي هؤلاءِ المُبطِلين على باطِلِهم.

ويَتفرّع عليْها: أنَّ مِنْ أهلِ الباطِل مَن يَتحدَّى أهْلَ الحقِّ إلَى يومِنا هَذا، ولَكِن على أهلِ الحقِّ أنْ يَستَعِينوا بالله عَزَّوَجَلَّ في مُقاوَمةِ هَؤلاء، وأنْ يعلَموا أنَّ كَلِمةَ حقٍّ

تغلِبُ ألْفَ كلِمةِ باطلٍ، لكِنَّ السَّيفَ بِضارِبِه، ربَّما يكونُ السَّيفُ بيَدِ جبانٍ، فإذا رأَى العدُوَّ مُقبلًا سقَط السَّيـف مِن يَدِه، فَلا يَنتَفِعُ بالسَّيْـفِ، ولو كان سيفٌ بيدِ شُجاعٍ مُثَلَّمًا لَقَرَعَ به هامَ الأعْداءِ.

فالحَقيقَةُ: أنَّ السَّيفَ بِضارِبِه، فكَمْ مِن إنسانٍ يَحمِلُ مِنَ الشَّريعَةِ أشياءَ كثيرةً، لكنْ لا ينتَفعُ بها ولا يَنفَعُ، وكمْ مِن إنسانٍ دُونَ ذلِك بكثيرٍ لكِنْ نفَعَ اللهُ به؛ لأنَّه مُجاهِدٌ، يُجاهِدُ أهلَ الباطِلِ بما معَه مِنَ الحقِّ.

الآيتان (٦، ٧)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت:٦-٧].

قالَ الله تَعالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [فُصِّلَت:٦]؛ يَعني: فلَسْتُ غَريبًا علَيكُم؛ لِماذا تَكفُرون بِي؟! أنا بَشَر مِثلُكم لسْتُ جِنِّيًّا فتَنفِروا مِنْه، وَلا مَلِكًا فتَنفِروا مِنه، وإنَّما أنا بَشرٌ مِثلُكم.

والبَشَر هُم بَنُو آدَم، وسُمُّوا بَشَرًا؛ لِظُهورِ بَشرَتهم؛ حيثُ بدَتْ أجْسامُهم عارِيةً غيرَ مَكسُوَّة، وهَذا مِن نِعمَة اللهِ عَزَّوَجَلَّ علَينا، ومِنْ رَحمَتِه جَعَلَ اللهُ الإنْسانَ عارِيًا إلَّا بِكُسْوَة؛ حتَّى يتَذكَّر أنَّه عارٍ مِنَ الإيمان إلَّا بِكُسْوَة، وكُسْوَة الإيمان هيَ التَّقوى؛ لِقوْل اللهِ تَعالَى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعْراف:٢٦]؛ فإنَّ الله جَعَلنا نفتَقِر إلى السِّتْرِ الحسِّيِّ حتَّى نعْلَم أنَّنا أيضًا مُفتَقِرون إلى السِّتْر المعنَوِيِّ، فأنتَ عارٍ مِنَ الإيمان إلَّا بِلِباسِ التَّقوى.

إذَن: البَشَر هُم بَنُو آدَمَ، سُمُّوا بِذلِك لِظُهور بَشْرَتِهم عارِيةً لا غِطاءَ عليها، بِخِلافِ الحَيَواناتِ الأُخرى، فإنَّه مُغطًّى إمَّا بالوَبَر أو بِالصُّوفِ أو بالشَّعْرِ أو بالرِّيشِ أو بغَيْرِ ذلك.

وقَوْله: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ هذِه تَوكِيدٌ لِمعْنى البَشَرِيَّةِ، وإلَّا لَوِ اقتَصر على إنَّما أنا بشَرٌ لكانَ مُقتَضى ذلِك أنْ يَكونَ مِثْلَنا ولا مُخالِفَ، لكِنَّه أكَّدَ هذا المَعنَى بِقوْلِه: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ لَكِنَّه يَمتازُ بأنَّه: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾...إلخ، هذا هُو المَيْزَةُ، والفرْقُ أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ بشَرٌ يُوحَى إلَيْهِ.

وقَوْلُه: ﴿يُوحَىٰٓ﴾ المُوحِي هُو الله؛ لِقولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، [الشُّورَى:٧] فالمُوحِي هُو اللهُ، وحُذِفَ لِلْعِلْم به، ورُبَّما يُقالُ: حُذِفَ لِلْعِلم به وَلِلتَّعْميمِ؛ لِأنَّ الله تَعالَى قدْ يُوحِي لنَبِيِّه ﷺ بِواسِطَةِ جِبريلَ، وقدْ يُوحِي إلَيْه بِدُونِ واسِطةٍ.

والإيحاءُ هُو الإعْلامُ بسُرعةٍ وخَفاءٍ، يُسمَّى إيحاءً؛ ولِذلِك إذا كان إلى جَنْبِك واحِدٌ، وأرَدْتَ أنْ تَسْأَلَه والدَّرْسُ مكْتَظٌّ بالطلَبةِ -وخِفْتَ أنْ يُسْمعَ إليكَ- فتكلِّمه ببطء وخُفْية؛ لِئَلَّا يُتَفطَّنَ لَكَ؛ فكُلُّ إعْلام بسُرْعة وخُفيَة يُسَمَّى وَحْيًا، وإنَّما كان كذَلِك؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ يُوحَى إلَيْه وعِنْدَه النَّاسُ جالِسُون لا يَدْرون ماذا قالَ الرَّسولُ.

وقَوْله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ هَذه الجُملَة في محَلِّ رفْع نائِبِ فاعِلٍ؛ أي يُوحَى إلَيَّ هذا الخَبَر.

وقَولُه: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ﴿أَنَّمَآ﴾ أداةُ حَصْرٍ، وعلَى هَذا تَكون الجُمْلةُ مُتَضَمِّنةٌ لنَفْيٍ وإثْباتٍ؛ لأنَّ الحَصْرَ هُو إثْباتُ الحُكْمِ في المَذْكورِ ونَفْيُه عَن ما سِواه.

ومِنْ طُرُقِ الحَصْرِ:

الأوَّلُ: الحَصْرُ بـ«إنَّما».

الثَّاني: النَّفيُ والإثْباتُ، مِثْلَ: لا قائِمَ إلَّا مُحَمَّدٌ.

الثَّالِثُ: تَقْـديمُ ما حقُّه التَّأخيـرُ، مِثْـلَ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقَرَة:٢٨٤].

الرَّابعُ: دُخُولُ ضَمِيرِ الفَصْلِ، مِثْلَ أنْ تَقولَ: زيْدٌ هُوَ الفاضِلُ، فإنَّ ضَميرَ الفَصْلِ يُفِيدُ الحَصْرَ.

هَذِه أرْبعَةُ طُرُقٍ، وهِي الأكْثَرُ دَوَرانًا.

وقَوْلُه: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ الظَّاهِرُ أنَّها مِنْ تَتِمَّـةِ قَوْلِ الرَّسولِ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلَى آلِهِ وسلَّمَ- الَّذي أمَرَ أنْ يَقولَه، ومَعْنى «استَقِيموا إلَيْهِ»: أيِ اسْتَقِيمُوا على دِينِه قاصِدين إلَيْه؛ فهِي تُفِيدُ الإخْلاصَ في الْعَملِ.

فقَوْلُه: «استَقِيموا إلَيْه»؛ أي: اقْصُدُوا، ولِهذا لمْ يَقُلْ: استَقِيموا لَه، بلْ قالَ: «إلَيْه»، فضَمَّنَ «استَقِيموا» مَعْنى اقْصُدوا إلَيْه، فتكونُ أبْلَغ مِن «استَقِيموا لَه»؛ لأنَّ المُستَقيمَ لِلشَّيءِ قدْ يَستَقيمُ لَه وهُوَ في مَكانِه دُونَ أنْ يَسْعى إلَيْه؛ أمَّا إذا قِيلَ: «اسْتَقيموا إلَيْه» فتُفيدُ السَّعْيَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وقَصْدِه؛ فلِهذا عُدِّيَت بـ«إلى»؛ فهَل هُنا نابَ حَرْفٌ عَن حَرْفٍ، أو إنَّ الحَرْفَ على مَعْناه، ولكنْ ضُمِّنَ الفِعلُ ما يُناسِبُ الحرْفَ؟

الجَوابُ: فيها قَولان:

أحدُهما: أنَّ الاِستِعارَة في الحرْفِ، يَعنِي: أنَّ الباءَ بِمعْنى «مِن» أي: يَشْرَبُ مِنها عِبادُ اللهِ، والعَينُ يُشرَبُ مِنها باليَدِ، أو بالإناءِ، أو بأيِ وسيلةٍ.

القولُ الثَّاني: أنَّ الاستِعارَة في الفِعلِ؛ أي: أنَّ «يشْرَبُ» ضُمِّنَ فِعلًا يُناسِبُ

الباءَ، والَّذي يُناسِبُ الباءَ هُنا: يَرْوَى بِها عِبادُ اللهِ، يَعنِي: أنَّها عَينٌ تَروِي.

وأيُّهما أحسَنُ وأسْهَلُ؟

الجَوابُ: أمَّا إذا قُلْنا إنَّ الباءَ بِمَعنى (مِن) فَهي سَهْلةٌ؛ لأنَّكَ تَقَدِّرُ أيَّ حرْفٍ مُناسِبٍ ويَنْتَهي المَوضُوعُ، لكِنَّا إذا قُلنا إنَّ الباءَ على بابِها، وإنَّ الفِعْلَ ضُمِّنَ مَعْنًى يَتَناسَبُ مَعها، فحِينَئذٍ قد يَصْعُبُ على الإنسانِ أنْ يُقدِّرَ الفِعْلَ المُناسِبَ، لكنْ نَقولُ: إنَّ تَضْمينَ الفِعلِ مَعنًى مُناسِبًا للْحَرفِ أوْلَى.

وبَيانُ ذلِك: إذا قُلْنا: يَشْرَبُ بها عِبادُ اللهِ، فإنَّ الباءَ بِمعنى (مِن)، لم نستفِدْ فائِدة لاستِعارةِ الباءِ بدَلَ «مِن»، إذَنْ: فإتيانُنا بهذا الحرْفِ يُوجبُ بعْضَ الإشْكالِ، فنكُونُ قدْ تضرَّرْنا، فضْلًا عن كَونِنا لم نسْتَفِد؛ لأنَّ كَوْنكَ تضَعُ حرْفًا بدلَ حرْفٍ بِدُونِ مُوجِبٍ، فإنَّ هذا يُوجِبُ التَّشْويشَ والإيْهامَ، لكنْ إذا ضَمَّنَّا الفِعْلَ معْنًى يتَناسَبُ مَع الحَرْفِ ازدَدْنا فائِدةً، فإنَّ قولَك: إنَّ التَّقديرَ «يَرْوَى» بِها، يتَضمَّنُ الشُّربَ الَّذي ذُكِرَ، ويتضَمَّنُ الرِّيَّ، فاسْتَفَدنا فائِدَةً.

وهَذا الرَّأيُ -أعنِي: أنَّ الفِعْل يتَضَمَّن معنًى يُناسِبُ الحرْفَ- هُو الَّذي ذهَبَ إلَيْهِ البَصْرِيُّون، وهو اختِيارَ شيْخِ الإسْلامِ ابنِ تيْمِيَةَ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ لِهذِه الفائِدة الَّتي ذَكَرنا.

وأرْجُو دائمًا منَ الطَّلابِ أنْ يَفهَموا هذِه الفُروقَ الدَّقيقةَ؛ لأنَّها تَشْحَذُ الذِّهنَ مِن وَجْهٍ، وتَفْتحُ آفاقًا بَعيدَةً لِفَهمِ المَعاني، وزِيادَةِ الاِستِفادةِ مِن وَجهٍ آخَرَ.

وقَوْلُه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ اطْلُبوا مِنه المَغْفِرةَ، والمَغفِرةُ تَتضَمَّنُ شيئَيْن؛ سَتْرَ الذَّنْبِ، والعَفوَ عَنه؛ لأنَّها مَأخُوذَةٌ منَ المِغْفَرِ وهُو ما يَلبَسُه المُقاتِلُ على رأسِه يتَّقي به السَّلاحَ،

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢١/ ١٢٤).

وأنَّ يَغفِرَ مُتضمِّن لِلوِقايةِ والسَّترِ.

وعلَى هذا فكُلَّما طَلَبتَ المَغفِرةَ استَحضِرْ أنَّكَ تُريدُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنْ يَتجاوزَ عَنك فَلا يُعاقِبكَ، وأنْ يستُرَ ذَنْبكَ؛ إذنْ: قولُه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ أيِ اطْلُبوا مِنه المَغْفِرةَ، وهِي سَتْرُ الذَّنبِ والتَّجاوزُ عنه.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَوَيۡلٞ﴾ كلمةُ عذابٍ ﴿لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾] «ويلٌ» هذِه مُبتَدأٌ، وسوَّغَ الابْتِداءَ بِها وهِي نَكِرة أنَّها للتَّهدِيدِ، فهِي كلِمةُ وعيدٍ وتهديدٍ، وقِيلَ: إنَّها وادٍ في جَهنَّمَ، ولكنَّ الأصحَّ الأوَّلُ: أنَّها كلِمةُ تَهديدٍ ووعيدٍ لكلِّ مَن خالَفَ.

وقولُه: ﴿لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ أي: المُشرِكين باللهِ عَزَّوَجَلَّ سَواءٌ كانَ إشْراكُهم في العُبُوديَّةِ أو في الأُلُوهيَّةِ، أو في الأسْماءِ والصِّفاتِ؛ فمَنِ ادَّعى أنَّ مَع اللهِ خالقًا أو مُعيِّنًا أو مُستَقِلًّا بِخلْقِ بعضِ الأشياءِ فَهُو مُشرِكٌ، ومَنْ عَبَدَ مَع اللهِ غَيرَه أو راءَى بِعِبادتِه غيرَه فهُو مُشرِكٌ، ومَن زَعَمَ أنَّ صِفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مُماثِلةٌ لِصفاتِ المَخْلُوقين فهُو مُشرِكٌ.

واعْلَمْ أنَّ الشِّركَ يَنْقسِمُ إلى قِسْمين: أصْغَرَ وأكْبَرَ. ومِن وجْهٍ آخرَ إلَى: خفِيٍّ وجلِيٍّ، وكلُّ هذا مَعلُومٌ في كُتُبِ التَّوحِيدِ والعَقائِدِ.

وقولُه تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فُصِّلَت:٧] هذه صِفةٌ للمُشرِكين، وقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ﴾؛ أيْ: لا يُعطُون الزَّكاةَ، والزَّكاةُ هُنا يَحتَمِلُ أنْ تَكونَ زَكاةَ النَّفْسِ، ويَحتَمِلُ أنْ تَكونَ زَكاةَ المالِ، فإنْ كانتْ زكاةَ المالِ ففِيه إشْكالٌ؛ لأنَّ ظاهِرَها يَقْتَضِي أنَّ الكُفَّار يلزَمُهم إخْراجُ الزَّكاةِ، ومَعْلُومٌ أنَّ إخْراجَ الزَّكاةِ لا يُطالَبُ به العَبْدُ حتَّى يُسلِمَ؛ لِقَوْلِ النَّبي ﷺ لِمُعاذٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إنَّكَ تَأتِي قومًا أهلَ كِتابٍ، فَليَكُن أوَّلَ ما تَدْعُوهم إلَيْه تَوحيدُ اللهِ، ثمَّ ادْعُهم إلى الصَّلاةِ، ثمَّ ادْعُهم إلى**

الزَّكاةِ...»[١]، وهَذا يدُلُّ على أنَّ الزَّكاةَ لا يُخاطَبُ بِأدائِها الإنسانُ إلَّا بعْدَ أنْ يُسلِمَ.

أمَّا إذا قُلنا: إنَّ المُرادَ بالزَّكاةِ زكاةُ النَّفسِ، فإنَّه لا يَرِدُ على هذا إشْكالٌ، لكنْ يَرِدُ على هذا إشْكالٌ مِن جِهةِ اللَّفْظِ، وهُو قولُه: ﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فهَلْ زكاةُ النَّفسِ شيْءٌ يُعطَى؟ هذا مَحَلُّ نظَرٍ؛ ولِذَلك الآيةُ فِيها إشْكالٌ، سَواءٌ فسَّرْتها على هَذا أو على هذا، وإذا كانَ فيها إشْكالٌ بيْن معنيَيْن، فإنَّنا نَطْلُبُ المُرجِّحَ. والرَّاجِحُ: أنَّ المُرادَ بها زَكاةُ النَّفسِ، والمَعْنَى: لا يُؤتُون أنفُسَهم زَكاتَها، وفِي الحَدِيثِ: «آتِ نفسِي تقْواها، وزَكِّها أنت خيرُ مَن زَكَّاها»[٢]؛ فعلى هذا نُرَجِّحُ أنَّ المُرادَ بالزَّكاةِ زكاةُ النَّفْسِ، ويَكونُ المَعْنى: لا يُؤتُون أنْفُسَهم زَكاتَها، بلْ يُهمِلُونها ويَغفُلون عنْها.

وقولُه: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ «هُم بالآخِرَة»: «بالآخِرَةِ» جارٌّ ومجرُورٌ مُتَعلِّقٌ بـ«كافِرُون»، و«هُم»: مُبتَدَأٌ؛ و«هُمْ» هي الثَّانيَةُ، ويقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَأكيدٌ]؛ أي تَأكِيدٌ لفظيٌّ لـ«هم» الأولَى، والتَّأكِيدُ اللَّفْظيُّ أنْ تُعادَ الكَلِمةُ بِلفْظِها، كما قالَ ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]:

ومَا مِنَ التَّوكيدِ لفظِيٌّ يَجِي ... مُكَرَّرًا كقَوْلِكَ ادْرُجي ادْرُجي

وقولُه: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: جاحِدُون لها غيرُ مُؤمِنين بِها، يَقولُون: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤] يَعنِي: يَمُوتُ قَومٌ ويَحيا آخرُون وما يُهلِكنا إلَّا الدَّهرُ ولا بَعْثَ ولا حِسابَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٢٠٩)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٣) الألفية (ص:٤٦).

فإنْ قالَ قائِلٌ: إنَّ هُناك أُناسًا مِنَ المُسلمين يُصَلُّون ويُزَكُّون، لكنْ إذا ذَكَّرْتَهم مَثلًا بِعَذابِ القَبْرِ وبِأهوالِ يومِ القِيامَةِ يَقولُون: هلْ رأيتَ عذابَ القَبْرِ؟ وهلْ رأيتَ أهوالَ يومِ القِيامةِ؟ وهلْ رأيْتَ الجَنَّة؟ فما حُكْمُ هَؤُلاءِ؟

فالجَوابُ: إذا قُلْتَ لَهم هَكذا قالَ اللهُ ورَسُولُه؛ فَإن قالُوا: لا نُصَدِّق إلَّا ما نَرى فهَؤلاء كُفَّارٌ، ولو يَرْكَعون باللَّيلِ والنَّهارِ، ويُخْرِجون جَمِيعَ ما في صَنادِيقهم مِن النَّفقةِ فهُم كفَّارٌ؛ لأنَّهم يُكذِّبون، فهذا كُفر تَكذِيبٍ!

مِن فَوائدِ الآيتَيْن الكَرِيمَتيْن:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجوبُ إعْلامِ النَّبيِّ ﷺ أُمَّتَه بأنَّه بَشَرٌ مِثْلُهم؛ لِقَولِه تَعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: آكديةُ هذا الإعْلانِ؛ حيثُ أُمَر النَّبي -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أنْ يُبلِّغَه على وجْه خاصٍّ، وذَلِك أنَّ القُرآنَ كلَّه أُمِرَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنْ يُبَلِّغه؛ قالَ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

لكِنْ -في بعْضِ الأحْيان- يمرُّ بك آياتٌ يُؤمر النَّبي ﷺ بتبلِيغها بذاتِها؛ فيكونُ هذا دليلًا على الاعتِناءِ بها وأهميتِها، وهو كثيرٌ، مثل قولِه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور:٣٠]، وقوله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ [النور:٣١] وما أشبهَ ذلك، فيكونُ في هذا توصيةٌ خاصَّةٌ بتبلِيغه، وهو دالٌّ على العِنايةِ به والاهتمامِ به.

الخُلاصَةُ: أنَّ القُرآنَ كلَّه قدْ أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بتَبْلِيغه، والدَّلِيلُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، وهُناكَ بعضُ الآياتِ يُؤمَرُ النبيُّ ﷺ بتَبلِيغها على وجْهٍ خاصٍّ؛ فَيُقالُ: «قلْ كذا»، وهَذا يدُلُّ على العِنايةِ بها والاِهتِمامِ بها، وأنَّها ذاتُ

شأنٍ خاصٍّ، وهُنا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، أُمِرَ أن يُبلِّغَ ويُعلِنَ بأنَّه بشَرٌ مِثلُنا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الرَّدُّ على مَن قال: إنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- خُلِقَ مِن نُور لِقولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وأنَّه لا ظِلَّ له: يَمشِي في الشَّمسِ؛ فلا يَكونُ لَه ظلٌّ.

وجْهُ ذلِك: تحقِيقُ البَشَريَّةِ بالمُماثَلَةِ؛ قال تَعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فأيُّ أحادِيثَ تَأتي بِمثْلِ هَذه الأمُور الَّتي تُوجِب أنْ يَخْرُجَ النبيُّ ﷺ عَن نِطاق البَشَريَّة، فإنَّها مَوضُوعَةٌ مَكذُوبَةٌ؛ لأنَّه بشرٌ مِثْلُنا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ يلْحَقُه الحَرُّ والبرْدُ والجُوعُ والعَطَشُ والخَوْفُ والأمْنُ، وغيرُ ذلِك منْ مُقتَضيات البشَريَّة؛ لِعُموم قولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، وتَحقِيقُ البَشَريَّة بالمِثْليَّةِ حتَّى لا يَقولَ قائِلٌ: إنَّ هذا مَجازٌ، فأكَّد هذِه البشَريَّةَ بالمِثليَّةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- لا يعلمُ الغَيْبَ إلَّا ما أُوحِي إليه؛ لأنَّنا نحن لا نَعلَم الغَيبَ وهُو بشَرٌ مِثلُنا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- لا يَملِك لنَفسه نَفعًا ولا ضَرًّا ولا لِغَيْرِه.

وجْهُ ذلِك: أنَّه مِثلُنا، وإذا كُنَّا نحن لا نَمْلِك لأنفُسِنا نفْعًا ولا ضَرًّا ولا لِغَيرنا، فكذَلِك النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ-.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ موْتَ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- مَوتٌ حقيقيٌّ، وأنَّه بمَوْتِه انقَطَعَ عملُه إلَّا ما يأتِيه مِن ثوابِ أجُورِ أمَّتِه؛ لِقولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، والمُماثَلةُ تَقتَضي المُساواةَ مِن كلِّ وجْهٍ إلَّا ما خصَّه الدَّليلُ، وبِه ينْقَطِعُ أمَلُ

كلِّ مَن طلَبَ منَ الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أنْ يَشفَعَ له، فيقِفُ عِندَ قبرِه ويقُولُ: يا رسُول الله، اشْفَعْ لِي!! فإنَّ هذا لا يَجُوزُ؛ لأنَّه اعْتِداءٌ في الدُّعاءِ، حيثُ يَطلُبُ الإنْسانُ ما ليْسَ له، ولا يُمكِنُ للرَّسُولِ أنْ يَفعَلَه -صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- لأنَّه ماتَ، وإذا ماتَ ابنُ آدَم انقَطَعَ عمَلُه، لا بالدُّعاءِ وَلا غيْرِه.

فإنْ قالَ قائِلٌ: بَعضُ النَّاس يَذهَبون إلَى قبْرِ النَّبي ﷺ ويدْعُون اللهَ هُناك وَيَستَدِلُّون بِقول اللهِ تَعالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، وَيَقولُونَ: إنَّ هذِه الآيةَ لا تدلُّ على الخُصُوصيةِ، وما ذَنبُ مَن يَأتُون مِن بَعْده أنَّه لا يَستَغفِرُ لهُم النَّبيُّ، ﷺ؟

فالجَوابُ: هذا داخِلٌ في قولِه تَعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آلِ عِمران:٧] إنَّ الَّذي قال له: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [النِّساءِ:٦٤]، يتَحدَّث عَن قومٍ معيَّنِين، بِدليلِ قولِه: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾، و«إذ» لِما مَضَى، وقولُه: ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ يعني استَغْفَرتَ لهم، لكنْهُنا أظْهَرَ في مَقام الإضْمارِ؛ تَعظِيمًا لشَأنِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وبيانًا لأنَّه أقرَبُ مِنهم إجابَةً، ثمَّ قال: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٤-٦٥] إلى آخرِه؛ ولم يقلْ:

ولو أنَّهم إذا ظَلَموا أنفُسَهم، فإنَّه لو قال: إذا ظَلَموا قُلْنا: هَذه لَهم ولِغَيرِهم، ولكِن قال: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾.

ثمَّ إنَّ استِغفارَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَعْد مَوْتِه مُستَحيلٌ؛ لأنَّ الاِسْتغفارَ عَمَلٌ، والعَمَلُ قدِ انقَطَعَ بموْتِه.

ثمَّ إنَّ هؤُلاء ليْسُوا أفقَهَ في كِتابِ اللهِ، وليْسُوا أعلَمَ بِحالِ رسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ

الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فهل أحدٌ مِنهُم جاءَ إلَى قبْرِ الرَّسُولِ، قال: يا رَسُول الله استَغْفِر لي؟.. أبدًا! بلْ إنَّهم لـمَّا أُصِيبُوا بالجَدْب لم يَقولوا: يا رسُول الله، هلَكَـتِ الأَمْوالُ وانقَطَعتِ السَّبلُ، فادْعُوا اللهَ يُغيثُنا، مَع أنَّهم إلى جَنْبِه، بل هُم استَغاثُوا، ودعَوُا الله، وطلَبَ عمَرُ منَ العبَّاسِ، أنْ يدعُوَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ[1].

ولكِـنْ لا بدَّ لكـلِّ ذي باطِلٍ أنْ يجِدَ شُبهةً في الكِتابِ والسُّنَّةِ، وهَـذا مِن حِكمةِ الله عَزَّوَجَلَّ وابتلائه وامتِحانِه، ولكِن كما قال شَيْخُ الإسْلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ في كِتابِه (دَرْء تَعارضِ العَقْلِ والنَّقْلِ) وفِي (فتاواه) أيضًا؛ يقولُ: «كلُّ إنْسانٍ يَستدِلُّ بدَليلٍ صَحيحٍ مِنْ كِتابٍ أو سُنَّةٍ على باطِلٍ، فإنَّ هذا الدَّليلَ دَليلٌ على إبْطالِ باطِلِه لا على إثْباتِ باطِلِه»؛ والدَّليلُ قَولُ اللهِ تَعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت:٤٢].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قدْ يَنْسى؛ لأنَّ هذا مُقتَضى البَشَريَّةِ، وكما حقَّقَ ذلِك في قولِه: «**إنَّما أنا بشرٌ مِثْلُكم أنْسى كما تَنسَوْن**»[2] إثْباتِ باطِلِه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ النَّبيَّ -صلى اللهُ علَيْه وعلَى آلِه وسلَّم- يجتَهِدُ، ورُبَّما يُخطِئ في اجتِهاده؛ لأنَّ هذا مُقتَضى البَشرِية، وكما هُو الواقِعُ في مِثلِ قوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣]، وفي قولِه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، رقم (١٠١٠)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب التوجه إلى القبلة، رقم (٤٠١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٢) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس:١-١٠].

ولكنه ﷺ يَمتازُ عن غيرِه: في أنَّه لا يُقَرُّ على خطأٍ -ولو بالاجتِهادِ- بخلافِ غيرِه، فقدْ لا يُذكَّرُ ولا يَذْكُرُ إذا نَسِي، وقد لا يُعَلَّمُ ولا يَعْلَمُ إذا جهِلَ، يعني: خطؤُنا نحنُ قد نَستمرُّ عليه دون أن نُنَبَّه له أو أن نَنْتَبِه، لكنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يُمكنُ أنْ يُقَرَّ على خطأٍ، ولا يمكنُ أن يُقَرَّ على نِسيانِ ما يجبُ، بل لا بدَّ أن يَتنبه أو يُنَبَّه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثْباتُ رِسالَةِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- تُؤخَذُ مِن قولِه: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ لأنَّ الوَحْيَ لا يَكون إلَّا لنَبيٍّ.

فإنْ قالَ قائلٌ: كَيفَ تَقُولُون: إنَّ الوَحيَ لا يَكون إلَّا لِنبيٍّ، وقدْ أوحَى الله تَعالَى إلَى غيرِ الإنْسانِ فَقال الله تَعالَى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ وقال تَعالَى في غيْرِ الأنْبياءِ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القَصصِ:٧]؟

قُلنا: هَذا الإشْكالُ لا يَرِدُ إلَّا على مَنْ لا يُفرِّقَ بينَ مَعاني الوَحيِ، فأمَّا مَن فرَّقَ بينَها، وقالَ: إنَّ الوحْي إمَّا أنْ يَكونَ بشَرْعٍ، وإمَّا أنْ يَكونَ بغيْرِه، فإنْ كان بشَرْعٍ فهَذا لا يكُونُ إلَّا للرُّسُلِ أوِ الأنْبياءِ، وإنْ كانَ بغَيْرِ الشَّرعِ فإنَّه يكُونُ مِن بابِ الإلْهامِ، فيَكونُ قولُه تَعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النَّحل:٦٨] أي: ألْهَمها أنْ تتَّخِذَ مِنَ الجِبالِ بُيوتًا.. إلَى آخِرِه، وكذَلِك قوْلُه تَعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ يَعنِي: وحْي إلْهامٍ، وبذلِك يَزولُ الإشْكالُ.

مسْألة: في تَعريفِ النَّبيِّ أنَّه مَنْ أُوْحي إليْه ولَم يُؤمَرْ بالتَّبْليغِ، فَإذا قال قائِلٌ: كَيف ونَحنُ -أُمَّةَ النَّبيِّ ﷺ- لمْ يُبلَّغ إلَيْهم، ومَع ذلِكَ أُمِروا بالتَّبْليغِ؟

الجَوابُ: هذِه مسْألة تنْبَني على اختلافِ العلماءِ، في مَن هو «النَّبيُّ» ومَن هو «الرَّسول»؛ فجُمهورُ العُلَماءِ على أنَّ الرَّسولَ هُو مَن أُوحي إلَيه بالشَّرعِ وأُرسِلَ به، وأُمِرَ أنْ يُبلِّغَه؛ وأمَّا النَّبيُّ فهُو مَنْ نُبِّئَ أي: أُخبِرَ، والإخْبارُ لا يلْزَمُ مِنه التَّكلِيفُ بالإبْلاغِ؛ فهُو مَن أُوحِيَ إلَيْه بشَرْعٍ ولَم يُؤمَرْ بتَبلِيغِه، بلْ أُمِرَ أنْ يفْعَلَه بنَفْسِه، فيَكونُ هذا الإنْباءُ تجديدًا للرِّسالَةِ السَّابقةِ، أو إنْشاءً لِشرِيعة لَم تَكن قائِمةً.

وهَذا هو الَّذي قالَه الجُمهورُ وهو الصَّحيحُ؛ لأنَّنا لو قُلنا: إنَّ النَّبيَّ هو من جدَّدَ شريعةً سابِقةً وأمَرَ أنْ يُبلِّغَ النَّاسَ وأنْ يُوقِظَهم. لو قُلنا: النَّبيُّ هو هَذا لَأَشْكلَ علينا نُبوَّةُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنَّ آدمَ نبيٌّ مُكلَّمٌ، ومع ذلِك لم يَسبِقْه رسُولٌ.

فإنْ قال قائلٌ: ما الفائدَةُ إذنْ؟

قُلنا: الفائدةُ؛ **أوَّلًا**: مَصلَحةُ هَذا النَّبيِّ هو بنفْسِه فإنَّه أوحِيَ إلَيه بشَرْعٍ.

ثانيًا: أنَّه إنْ كانَ في شَريعةٍ سابقةٍ، فهُو عِبارةٌ عَن تَجديدِ تِلكَ الشَّريعةِ، وإنْ كان في غيرِ شريعةٍ سابقةٍ كآدمَ، فإنَّ النَّاسَ في عهدِه بدائيُّون لم يكثروا ولم يختلفوا ولم تُفتَحْ عليهِم الدُّنيا، فكانوا يَنظُرون إلى ما يَفعَلُه أبُوهم فيَفعَلونه، دُون الحاجَةِ إلى أنْ يُرسَلَ إلَيهم؛ ولهَذا قالَ الله تَعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة:٢١٣] يَعني فاختَلَفوا؛ ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾.

فيَترَجَّحُ عندي قولُ جمهُورِ العلَماءِ: أنَّ «النَّبيَّ» هو مَن أُوحِي إليه بالشَّرعِ، ولم يُؤمَرْ بتبْلِيغِه؛ وأمَّا نحْن فلمَّا لم يَكُنْ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ نبيٌّ صِرْنا مأمُورين بإبْلاغِ رِسالتِه، فنَحن -في الحَقِيقةِ- رُسلُ رسُولِ الله؛ ولِهذا جاءَ في الحَديثِ: «**أنَّ العُلماء**

ورَثَة الأنْبياء»[١].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أهميَّةُ التَّوحيدِ؛ حيثُ حُصرَ الوَحيُ بالتَّوْحيدِ؛ قالَ تَعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ﴾ مَع أنَّه يُوحَى إلَيهِ أشْياءُ أُخرَى كالصَّلاةِ والزَّكاةِ وغَيرِ ذَلِك، لكِن لـمَّا كانَ أهمُّ ما جاء به ﷺ التَّوحيدُ حُصِرَ الوحْيُ بِه؛ فقالَ: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الأنبياء:١٠٨].

وإنِّي أقُول: مَتى حقَّق الإنْسانُ التَّوحيدَ فلا بُدَّ أنْ يَقومَ بشَرائِعِ الإسْلامِ؛ لأنَّه إذا وحَّدَ الله بالقَصْدِ وجَعلَه هو حَياتَه، فلا بُدَّ أنْ يتَّجِه إلَيه، بالطَّرِيقِ الَّذي شرَعَه مُوصِلًا إلَيه؛ ولِهذا نَقولُ: إنَّ حَدِيثَ عَتْبانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنَّ الله حرَّم على النَّارِ مَنْ قال لا إلَه إلَّا اللهُ يَبْتَغي بذَلِك وجْهَ اللهِ**»[٢]، هُو على ظاهِرِه، فمَنْ قال: لا إلَهَ إلَّا اللهُ يَبْتغي بذلِك وجْهَ الله، فإنَّه محرَّمٌ على النَّارِ، ومُقتَضى تَحْرِيمِه على النَّار ألَّا يَعْملَ كَبيرَةً تُوجِبُ دُخُولَه النَّارَ، أو تَقتَضي دُخولَه النَّارَ.

فكلُّ مَن قال: لا إلَه إلَّا الله يَبْتغي وجْهَ اللهِ، فلَن يَعملَ ما يُغضِبُ اللهَ؛ إذْ كيف تُريدُ وَجْهَه ثمَّ تَعمَلُ ما يُغضِبُه؟! فإنَّ عمِلَ ما يُغضِبُه يصُدُّك عنِ الوُصُولِ إلَى وجْهِه، وإذا كانَ يَصدُّك وأنتَ تبتَغِي وجْهَه فلا بُدَّ أنْ تَعدِلَ عنه، إمَّا بالكفافِ مُطْلقًا وإمَّا بالتَّوبةِ مِنْه إنْ وقَعَت فِيه. ولِيُنْتَبَهَ لِهذِه النُّقْطةِ؛ لأنَّ بعضَ النَّاسِ يَقولُ لَنا: أنتُم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٩٦)، وأبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم (٣٦٤١)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٣)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، رقم (٤٢٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة لعذر، رقم (٣٣).

تُكفِّرون تاركَ الصَّـلاةِ، وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله قَد حـرَّمَ على النار مَن قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللهِ يَبْتَغي بِذلِك وجْهَ اللهِ»[1] ولَم يَذكُرِ الصَّلاةَ، قُلنا له: بلْ ذَكَرَ الصَّلاةَ وذَكَرَ ما دُون الصَّلاةِ أيضًا في قَولِه: «يَبتَغي بذلِك وجْهَ اللهِ».

ونَحْن نَقُـولُ: لا يُمكِنُ بأيِّ حالٍ منَ الأحْـوالِ أنْ يكُونَ رجُلٌ يَقـولُ: لا إلَهَ إلَّا اللهَ يَبْتَغي بذَلك وجْهَ الله، أنْ يُحافِظَ على تَرْكِ الصَّلاةِ أبدًا، وإنَّ مَن حاوَلَ أنْ يَجمَعَ بيْن ذلِك وبيْن ترْكِ الصَّلاةِ، فقَد حاوَلَ أنْ يجْمَع بيْن الماءِ والنَّارِ، وهَذا أمرٌ ظاهرٌ.

وسأَضرِبُ مَثلًا -ولله المَثَلُ الأعْلَى-: لو كُنتَ تُريد أنْ تَصِلَ إلَى شخْصٍ منَ النَّاسِ، وتَسْعى بكلِّ وَسِيلةٍ أنْ تَصِلَ إلَيه، هلْ تَفْعلْ ما يَحُولُ بينَك وبيْن الوُصُولِ إلَيه مِنْ مَعصِيَتِه؟ أبدًا! بلْ تَنْظرُ ماذا يُحبُّ فتفْعَلُه مِن أجْلِ أنْ تصِلَ إلَيْه، ومِن أجلِ أنْ يكُونَ مُستقبِلًا لك بالتَّرْحيبِ.

أمَّا أنْ تَقولَ: واللهِ أنا أُحِبُّ فُلانًا وأُحِبُّ أنْ أصِلَ إلَيْه، وفُلانٌ يَقولُ: لا تَمْشِ مَع هذا الطَّرِيقِ، وإذا أرَدْتَ أنْ تأتِي إليَّ فائتِني مَع الطَّرِيقِ الأيْمَنِ؛ فقُلتَ: والله أنا أحِبُّ فُلانًا، وأحِبُّ أنْ أصِل إلَيْه، ولكِن مَع الطَّرِيقِ الأيْسَرِ، فتَمْشي فيه وأنْت تقُولُ: واللهِ أنا أحِبُّ هذا وأعَظِّمُه، وهُو أحَبُّ إلَيَّ مِن نَفْسي. فهَذا كذِبٌ لا شكَّ.

إذَنْ: كلُّ مَن قال: لا إلَه إلَّا الله يَبْتَغي بذلِك وجْه الله، فإنَّه سوْف يَتَحاشى المَعاصِي ولَو صَغِيرة؛ ولِهذا جاء حصْرُ الوَحْيِ في هذِه الآيَةِ بالتَّوحِيدِ: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ وَهُو الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، رقم (٤٢٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة لعذر، رقم (٣٣).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: وُجُوبُ الإخْلاصِ للهِ والاِسْتِقامَةِ على دِينِه؛ لِقَولِه: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾؛ فـ«استَقِيموا» هَذا الْعَمَلُ، و«إلَيْه» هَذا الإخْلاصُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: تَهديدُ المُشرِكين؛ لِقولِه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾، وهَذا النَّوعُ مِنَ التَّهديدِ يَكونُ فيما هُو شِركٌ، ويَكون فيما هُو دُون ذلِك؛ فقَد قال الله تَعالَى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [المطففين:١-٢] وَهَؤلاء لَيسُوا بمُشرِكين، يعْني أنَّ عمَلَهم هَذا لا يُوصلُ إلَى الشِّرك، وقال النبيُّ ﷺ: «**ويْلٌ لِمن حدَّث فكذَبَ ليُضحِكَ به القَوم، ويلٌ له! ثمَّ ويلٌ له!**»[1]، وهَذا أيضًا ليسَ منَ الشِّركِ.

وعَلى هَذا فَلا يُقالُ: إنَّ كلَّ وعِيد كان بهَذه الكَلِمةِ يُفِيدُ أنَّ الفِعلَ شِركٌ، بَل قَد يَكونُ شِركًا أو ما دُونَه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ التَّوحيدَ تَزْكِيةٌ للنَّفْسِ؛ لِقَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ولا شكَّ أنَّ التَّوحيدَ تَزْكِيةٌ للنَّفْسِ؛ لأنَّك تَقْطعُ العَلائقَ مَع غَيْرِ اللهِ إلَّا فيما يُحبُّ اللهُ.

فالمُوَحِّدُ حقِيقةُ قلْبِه دائمًا مَع اللهِ عَزَّوَجَلَّ دائمًا يَتقلَّبُ في قضائِه الكَونِيِّ راضِيًا به كَما يتقلَّبُ في قضائِه الشَّرعيِّ راضيًا به؛ ولِهذا تَجِدُه إذا أصابَته سرَّاءُ شكَرَ ولم يَبْطَرْ، وإذا أصابَتْه ضرَّاءُ صبرَ ولم يتسَخَّطْ؛ فهو دائمًا مَع اللهِ، يَقولُ لنَفْسِه: أنا عبْدُ اللهِ يَفْعلُ بي ما شاء، أنا عبْدُ اللهِ إنْ أصابَني بالسَّرَّاءِ شكَرْتُ فكان خيْرًا لِي، وإنْ أصابَني بالضَّرَّاءِ صبَرْتُ فكان خيْرًا لي، أنا عبْدُ اللهِ لا يُمكِنُ أنْ أُعارِض قضاءَ اللهِ، يَقضِي

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، رقم (٤٩٩٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، رقم (٢٣١٥)، من حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عليَّ اليومَ بالسُّرورِ فأُسَرُّ، وغدًا بالسُّوءِ فأَسْتاءُ؛ فيَمْشِي مَع اللهِ مَع قضائه وقَدَرِه، وهَذا هو الَّذي يجِدُ الرَّاحةَ تمامًا.

ولِهذا مِن ثمَراتِ الإيمانِ بالقدَرِ: أنَّ الإنْسانَ يَكونُ دائمًا مُطمَئنًّا لَيس به قَلَقٌ ولا حُزْنٌ، وإنْ كان ربَّما في الصَّدمةِ الأولى يجِدُ الإنسانُ الحُزْنَ، لكِن بالتَّصْبِيرِ -تَصْبِير نفسِه- ومُشاهَدةِ القَدَرِ يُسَهِّلُ علَيه الأمْرَ، وإلَّا فمِن المَعلُومِ أنَّ الإنسانَ ليسَ حدِيدًا ولا حِجارةً فَلا يَتَأَثَّرُ! لكِنَّه عِندما يُصَبِّرُ نفْسَه ويَحمِلُها يَصبِرُ فيَطمِئنُّ.

فالمهمُّ: أنَّ التَّوحيدَ كلَّه خيرٌ، وكلَّه زَكاةٌ؛ تَزكِية للنَّفسِ وتَطْهيرًا لها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ المُشرِكين لا يُؤمِنون بالآخِرةِ؛ ولِهذا إذا قِيلَ له: وحِّدِ اللهَ تنْجُ مِن عَذابِه، قال: ليسَ هُناك عَذابٌ؛ فيَكفُرون بالآخِرَةِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الإيْمانَ بالآخِرَةِ يدْعُو إلَى التَّوحِيدِ وتحقِيقِه، وهذا حقٌّ وواقِعٌ، فكلُّ إنسانٍ يُؤمِنُ بأنَّه سَوف يُحشَرُ يومَ القِيامةِ في أرضٍ قاعٍ صفصفٍ، لا يرى فيها عِوجًا ولا أمْتًا، وأنَّه سيُجازَى على عمَلِه، وكلُّ إنسان عاقِل سَوف يستَعدُّ لِهذا اليَومِ؛ ولِذلك يَنْبغي لَنا مَع كَون قُلوبِنا مَع الله عَزَّوَجَلَّ أنْ نتَذكَّرَ السَّاعةَ وقِيامَ النَّاسِ، ولَيس بيْن الإنْسانِ وبين هذِه الحالِ وقْتٌ مُحدَّدٌ مَعلُومٌ أبدًا. ولا يَصِلَ إلى هذا إذا مات ومَتى يَمُوتُ ولا يعْلَمُ؛ فقدْ يَخْرجُ الإنسانُ مِن بَيْتِه ولا يَرجِعُ إلَيه، قدْ ينامُ على فِراشِه ويُحمَلُ مَيتًا، قدْ يَركَبُ سيَّارَتَه ولا يَنزِلُ مِنها.

فإذن تَذكَّرْ -يا أخِي- عِنْدما تَستَولي على قلْبِك الغَفْلةُ هذا اليَوْمَ الَّذي تُحشَرُ فيه أنْت وسائِرَ الخَلْقِ حافيًا عارِيًا أغْرَلَ، لَيس عِندَك مالٌ ولا بَنون وَلا أحدٌ يَحمِيك، تَذكَّرْ هَذا! فَإذا تَذكَّرتَه فَسَوف تَعمَلُ لِهذا اليَومِ، وإنَّ إخْوانَك وأوْلادَك وآباءك

الَّذِين فقَدتَهم في الحَياةِ ستَجتَمعُ بهم في هذا اليَومِ، ولَيس هُناك اجْتِماعٌ إلَّا في هذا اليَومِ.

إذن: استعِدَّ لِهذا اليَومِ، فاعْمل صالحًا ولا يفُتكَ الرَّكبُ، وكُن في مُقَدِّمَتِه، واجْعَلِ الدُّنيا وراءَ ظَهْرِك، اجْعَلها تابِعةً لك ولا تَجْعلْ نَفسك تابعًا لَها حتَّى تنْجُوَ، فكُلُّ إنْسانٍ يُؤمِنُ بالآخِرةِ فإنَّه إذا تَذَكَّرها سَوف يَعْمَلُ لها؛ لِقولِ اللهِ تَعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصَّافَّات:٦١]، أسْألِ اللهَ تَعالى أنْ يَجْعلَنـي وإيَّاكُم مِنَ المُتَّقِين الَّذِين يُؤمِنون بالآخِرةِ ويَعْمَلون لها.

• • ۞ • •

الآية (٨)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ [فُصِّلَت:٨].

لَـمَّا ذَكَرَ عُقُوبَةَ المُشْرِكين بَيَّن ثَوابَ المُؤمِنين؛ لأنَّ اللهَ تَعالى أنْزَل هَذا الكِتابَ مَثانيَ، وإنَّما كان الأمْرُ كذَلِك؛ لِيَكونَ الإنْسانُ سائِرًا إلَى ربِّه بين الخَوفِ والرَّجاءِ، فإنَّه إذا سمِعَ عُقوبَةَ المُكذِّبين خاف، وإذا سمِعَ ثوابَ المُؤمنين رجَعَ، وهكذا يَنْبَغي للإنْسانِ أنْ يَكونَ سائِرًا إلَى الله عَزَّوَجَلَّ بيْن الخَوفِ والرَّجاءِ، كما قال تَعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗا﴾ [الأنبياء:٩٠].

ولكِن في بعضِ الأحيانِ، قد يَكونُ مِن المَصلَحةِ تغْليبُ الرَّجاءِ، أو مِن المصلَحةِ تغليبُ الخوْفِ، فإذا اشتَدَّتْ رَغْبةُ الإنْسانِ في المَعْصيةِ فلْيُغلِّبْ جانِبَ الخَوفِ حتَّى يرتَدِعَ عنها، وإذا فعَل الإنسانُ عِبادةً فلْيغلِّبْ جانِبَ الرَّجاءِ، وهو قَبُولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إياها، وكذَلِك أيضًا يَنْبَغي له في حالِ المَرَضِ أنْ يَرجِعَ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنْ يُحسِنَ الظَّنَّ به، كما جاء في الحَديثِ: «**لا يمُوتنَّ أحدُكم إلَّا وهُو يُحسِنُ الظَّنَّ بربِّه** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»(١).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قولُه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جَمَعَ اللهُ تَعالى بيْن العَقِيدةِ والعَمَلِ، بيْن الإيمانِ والإسْلامِ، فـ﴿ءَامَنُواْ﴾: العَقيدَةُ، و«عمِلوا الصَّالحاتِ»: الإسْلامُ. وهَذا يقَعُ في القُرآنِ كثِيرًا؛ فالإيمانُ وحدَه لا يَكفِي، بل لا بُدَّ مِن عمَلٍ صالِحٍ حتَّى يَحصُلَ الثَّوابُ، وكلَّما جاءَت «آمَنُوا» فالمُرادُ: آمَنُوا بما يَجِبُ الإيمانُ به منَ الأُصُولِ السِّتةِ الَّتي بيَّنها الرَّسولُ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- لِجبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قال: «**الإيمانُ أنْ تُؤمِنَ باللهِ وبمَلائِكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خيْرِه وشرِّه**»[1]؛ وذَلِك لأنَّ الإيمانَ المُجمَلَ في القُرآنِ يُفسِّرُه تَفْصِيلُ السُّنَّةِ؛ لأنَّه لا أحدَ أعْلمُ بكِتابِ الله مِن رسُولِ اللهِ ﷺ.

أمَّا قوْلُه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فمَعلومٌ أنَّ «الصَّالحاتِ» وَصْفٌ لمَوصُوفٍ مَحذُوف، والتَّقدير: الأعْمال الصَّالحات؛ فما هي الأعْمالُ الصَّالحاتُ؟

الجَوابُ: الأعْمالُ الصَّالحاتُ هي ما جَمعَتْ شرطَين:

الأوَّلُ: الإخْلاصُ لله عَزَّوَجَلَّ.

والثَّاني: المُتابعةُ لرسُولِ اللهِ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ-.

فكُلُّ عمَلٍ فيه شِرْكٌ، فإنَّه ليْس بصالِحٍ، وهُو مردُودٌ على صاحبِه؛ لقَولِ الله تَعالى في الحَديثِ القُدسيِّ: «**أنا أغنَى الشُّركاءِ عنِ الشِّركِ، مَن عمِلَ عمَلًا أشرَك فيه معِي غيرِي ترَكتُه وشِركَه**»[2].

وكذَلِك أيضًا فلا بُدَّ مِن اتِّباعِ الرَّسولِ، فالعَملُ البِدعيُّ غيرُ مقبُولٍ وإنْ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أخلَصَ الإنسانُ فِيه؛ لِقوْلِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ-: «مَن عمِلَ عمَلًا ليْس علَيه أمرُنا فهُو ردٌّ»(١).

إذنْ: الأعمالُ الصَّالحاتُ لا بُدَّ أنْ تتَضمَّـن شيئين، وهُما: الإخْلاصُ للهِ، والمُتابَعةُ لرَسولِ الله -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ-.

وقولُه تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ هذِه الجُملَةُ خبَرُ إنَّ؛ وقدْ نقولُ: إنَّ تقدِيمَ الجارِّ يدُلُّ على الحَصْرِ؛ أيْ: لهُم لا لِغيرهم مِن المُكذِّبين أو الفاسِقين أجْرٌ؛ أي: ثوابٌ. ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [غيرَ مَقطُوعٍ] بلْ هُو دائِمٌ كَما قال تَعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢] وقِيلَ: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غيـر مَمنُونٍ بِه؛ أي: يُعطُونه بلا مِنَّةٍ، وهَذا مُحتَملٌ.

وإذا كان مُحتَملًا ولا يُنافي المَعنَى الأوَّلَ كان المُرادُ بالآيَةِ المَعنَيَيْن جمِيعًا؛ إذْ لدَيْنا قاعِدةٌ في التَّفسيرِ -وكذَلِك في الحدِيثِ- مُهِمَّةٌ، وهِي إذا كان النَّصُّ يحتَمِلُ معنيَين لا يُنافي أحدُهُما الآخَرُ فإنَّ النَّصَّ يُحمَلُ عليهِما جميعًا؛ وذلِك لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَعْلَم ما يَحتَمِلُه كلامُه، وكذَلِك الرَّسولُ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- فلَمَّا لم يُعيَّن أحدُ الاحتِمالَين وجَبَ أنْ يكُونَ شامِلًا لهُما، لكِن إذا كان أحدُهما أرجَحَ منَ الآخَرَ فإنَّه يتْبَعُ الأرْجَحَ؛ ولِهذا نقُولُ: يُقدَّمُ ظاهِرُ النَّصِّ على تأويلِ النَّصِّ، والتَّأويلُ هو اتِّباعُ المَعنَى المَرجُوحِ.

إذنْ: قَولُه تَعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: ثَوابٌ غيرُ مقْطُوعٍ، وثوابٌ غيرُ ممْنُونٍ به.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

مِن فوائِدِ الآيَةِ الكَرِيمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَحقِيقُ أنَّ القُرآنَ مثانٍ، تُثنَّى فيه المَعاني المُتقابِلَةِ، فإذا ذُكِرَ ثوابُ المُجرِمين ذُكِرَ ثَوابُ المُتَّقِين، وإذا ذُكِرتِ الجَنَّة ذُكِرتِ النَّارُ، وهلُمَّ جَرًّا؛ مِن أجلِ أنْ يَكونَ الإنسانُ سائِرًا إلَى ربِّه بيْن الخوْفِ والرَّجاءِ، وهكَذا يَنبَغي للإنْسانِ في سَيرِه إلى ربِّه أنْ يكُونَ خائِفًا راجِيًا؛ لِقولِه تَعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠] فما سببُ (الرَّهَب) والخَوفِ؟

الجَوابُ: سببُ الخوفِ ذُنوبُ الإنسانِ، فإذا نَظرَ إلى ذُنوبِه وتَقصِيرِه خافَ كَما قال تَعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠] أي: يَخافون ألَّا يُقبَل منهم. والرَّجاءِ، إذا نَظَر إلى عفْوِ اللهِ وفضْلِه، وأنَّه جَلَّ وَعَلَا حلِيمٌ رَجَاهُ، وقوِيَ رجاؤه، فيكُونُ دائرًا بينَ الخَوفِ والرَّجاءِ.

وقال بعضُ أهْلِ العِلمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: في الطَّاعةِ يُغلِّبُ جانِبَ الرَّجاءِ، وفي المَعصِيةِ يُغلِّبُ جانِبَ الخوْفِ، وهَذا لَه نظَرٌ قوِيٌّ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا فعَلَ الطَّاعةَ فيَنْبَغي أنْ يُحسِنَ الظَّنَّ باللهِ، وأنَّ اللهَ سيَقبَلُ مِنه فيقوَى رجاؤه. أمَّا إذا همَّ بالمَعصِيةِ فيَنبَغي أنْ يُغلِّبَ جانِبَ الخَوفِ حتَّى لا يَقَعَ في المَعصِيةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإيمانَ وحْدَه لا يَكفِي حتَّى يقتَرِنَ بعَمَلٍ، لكِن إذا أُطلِقَ الإيمانُ شمِلَ العمَلَ، وإنْ ذُكِرَ معَه العمَلُ صارَ العَمَلُ علانيةً والإيمانُ سِرًّا؛ مِثل قولِه تَعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هُنا جمَعَ بيْن الإيمانِ والعمَلِ؛ فيَكون الإيمانُ في القَلْبِ، والعَمَلُ في الجَوارِحِ.

فإنْ قال قائلٌ: في قَولِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

هل هذه الآيَةُ ومَثيلاتُها تَصلُحُ دليلًا لِمن أخرجَ العَمَلَ الصَّالحَ من الإيمانِ بِمُقتَضى أنَّ العَطْفَ يَقْتَضي المُغايَرةَ؟

الجَوابُ: هذا لا يصِحُّ؛ لأنَّ العمَلَ الصَّالحَ دلَّتِ النَّصوصُ على أنَّه مِنَ الإيمانِ، لكِن لا مانعَ أنْ يكُونَ الشَّيءُ الواحدُ مُنقَسِمًا إلَى أنْواعٍ، فالإيمانُ تَدخُلُ فِيه الأعْمالُ لا شكَّ، لكِنَّه يَتنوَّع؛ فمِنه ما هُو عقِيدةٌ، ومِنه ما هو عمَلٌ قوليٌّ، ومِنه ما هُو عمَلٌ فِعليٌّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: دوامُ نَعيمِ المُؤمنين العامِلين الصَّالِحاتِ؛ لِقولِه: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي لا يُقطَعُ، كما قال تَعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ أجْرَ الآخِرة خيْرٌ مِن أجْرِ الدُّنيا وثوابِها، وجْه ذلِك: أنَّ أجْرَ الآخِرَة غيرُ مقطوعٍ، بلْ هُو مستمِرٌّ دائِمًا وغيرَ ممْنُونٍ به أيْضًا، بلْ يُعطَى الإنسانُ بِدون مِنَّةٍ. وأمَّا ثوابُ الدُّنيا فإنَّه بالعَكْسِ.

الآية (٩)

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت:٩].

ثمَّ قال تَعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ قُل: أيْ يا مُحمَّدُ لِهؤُلاءِ المُكذِّبين: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ ...﴾.

وقولُه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ الجُملَةُ هذِه استِفْهامٌ، بِمعنَى التَّقريرِ، يَعني: إنَّكم لتكفُرون، و«إنَّ» للتَّوكِيدِ، و﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ للتَّوكِيدِ أيضًا؛ وذلِك لأنَّ اللَّامَ الواقِعَةَ في خبَرِ «إنَّ» أو اسْمَها المُؤخَّرَ تكون للتَّوكِيدِ؛ فـ«إنَّ» تنْصِبُ المُبتَدأَ وتَرْفَعُ الخَبرَ، والكافُ اسْمُها، وجُملَةُ ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ خبَرُها.

أمَّا مِن حَيثُ الْقِراءاتِ فيَقولُ المُفَسِّر: [بتَحقِيقِ الهَمْزةِ الثَّانيَةِ وتسهِيلِها] تَحقِيقُها أنْ تقولَ: «أإنَّكم»، وتَسهيلُها أنْ تقُولَ: «أإنَّكم» فتمُرَّ بها بسُرعَةٍ، [وإدْخال ألِف بينَهما بوَجهَيها وبيْن الأُولى]، والوجْهان هُما التَّحقِيق والتَّسهِيل، فأدْخَل أَلِفَيْنِ بينَهُما على القِراءتَين، فتكونُ القِراءاتُ أرْبَعًا: إدْخال الألِفِ تَقُول: «آإنَّكم» هذا في التَّحقيقِ، «آاِنكم» هذا بالتسهيل.

إذَن: تَحقيقٌ وتَسهِيلٌ بألِف، وبدُونِها: اثْنتان في اثنَتيْن: بأرْبَعِ قِراءاتٍ.

مَسْألةٌ: قِيلَ في قَولِه تَعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾: إنَّهم يَقرَؤُونها: «أهِنَّكُم»؛ فَإذا ثَبتتِ القِراءةُ بالهاءِ، فَهذا يُعتَبرُ إبْدالًا ولَيس بِتَسهِيلٍ، إبْدال الهَمزَةِ هاءً.

فإنْ قِيلَ: بعضُ النَّاسِ يَنطِقون التَّسْهيلَ كأنَّه هاءٌ!

فالجَوابُ: بعضُ النَّاسِ يتَشدَّدُ في التَّسهيلِ حتَّى تَكونَ هاءً، وربَّما يتَشدَّدُ آخَرُ حتَّى تَكونَ حاءً حقِيقةً؛ لأنَّ بعضَ النَّاس -الله يهدِينا وإيَّاهم- يَفعَلُ هذا عِندَ القِراءَةِ وقَد أنكَر هَذا شَيخُ الإسْلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (فتاواه)[1] وغيْرِها هَذا التَّشدُّدَ في تَحقِيقِ بعْضِ القِراءاتِ، فبَعْضُ النَّاسِ -مثَلًا في القَلقَلةِ-: يُقلْقِلُ كأنَّه يُقلْقِلُ حصاةً أو حَجرًا؛ يَعني يُؤكِّدُ على الحَرفِ كَثيرًا.

والحَقيقَةُ: أنَّ التَّنطُّـعَ ليسَ بحَسَنٍ، والإهْمال ليس بحَسَنٍ، وخَيـرُ الأمُورِ الوَسَطُ.

وقولُه تَعالى: ﴿لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ تكفُرون به؛ أي: تَجحَدونَه وتَستكبِرون عن عِبادَتِه؛ لأنَّ الكُفرَ كلَّه يدُورُ على شَيئَينِ: إمَّا جَحدٌ، وإمَّا استِكبارٌ، فمَثلًا الشَّيطانُ إنَّما كفَرَ بالاستِكبارِ، وإلَّا فهُو مُقِرٌّ باللهِ وبعِزَّةِ الله وبقُدرَةِ اللهِ، لكِنه استكبَرَ، وآلُ فِرعَونَ ومَن شابَهَهم كَفروا بالجُحودِ، فمَدارُ الكُفرِ كلِّه على هَذين الأمْرَين: الجَحدِ أو الاسْتِكبارِ، فقَوله: ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ يَشمَلُ المعنَيَيْن؛ لأنَّهم جَحدوا تَوحِيدَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ واستكبَروا عَن عِبادَتِه.

وقال تَعالى: ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ ولم يَقُلْ: بالله، بلْ أتَى بفِعلٍ مِن أفعالِه جَلَّوَعَلَا بفِعْل لا تَقدِرُ علَيه هَذه الأصْنامُ، والإتْيانُ بالفِعلِ الَّذي لا تَقدِرُ علَيه الأصْنامُ،

(١) انظر: جامع المسائل لابن تيمية (٣/ ٣٠٣-٣٠٥)، والآداب الشرعية (٢/ ٣١١، ٣١٥).

هُو إقامةٌ للحُجَّةِ في نفْسِ الوَقتِ؛ أي: تَكفُرون بِهذا مَع أنَّ أصْنامَكم لا تَفْعَلُه.

وقولُه: ﴿لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ قال المُفسِّرُ: [الأحَد والاثنين]؛ لأنَّ أوَّلَ يومٍ ابتَدأ فيه اللهُ الخَلْقَ الأحَدُ.

وقولُه: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ الواوُ حرْفُ عطْفٍ، و«تَجعَلُون» مَعطُوفةٌ على «تَكفُرون»، لا على الصِّلةِ يَعني: لا على «خَلَقَ».

وقولُه: [﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ شركاء]، أنْدادًا جَمْع نِدٍّ، والنِدُّ في الأصْلِ هُو المُساوي والمُماثِلُ، يُقالُ: هَذا نِدُّ هَذا؛ أيْ: مُماثِلٌ له ونَظِيرٌ له، والمُرادُ بِهم هُنا: الشُّركاءُ الَّذِين يعبُدُونهم كما يَعبُدون اللهَ، والعَجَبُ أنَّ هؤُلاء المُشرِكين مِن سَفَهِهم يَقولون: إنَّما نعْبُدُهم لِيُقرِّبونا إلَى اللهِ، تَعْبدُونهم مَع اللهِ وتَقُولون: يُقرِّبونا إلَى الله؟! إنَّ الله غنِيٌّ عنْ هذا، وهَذا لا يَزيدُكم مِن الله إلَّا بُعدًا.

وقولُه تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ذلِك، أتَى باسِم الإشارة دُون الضَّمِير، ثمَّ جعَلَها إشارةَ بُعدٍ للتَّعْظيمِ والتَّفخيمِ والتَّعلِيةِ؛ لأنَّ البُعدَ هُنا إشارةٌ إلَى المَكانِ العالي ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولَو قال: «هُو ربُّ العالَمين» استَقام الكَلامُ، لكِن لمْ يَحصُل ما تدلُّ علَيْه الإشارةُ مِنَ التَّعظيمِ، ثمَّ ما يدُلُّ علَيْه صِيغَةُ البُعدِ منَ العُلُوِّ. ونظِيرُ ذلِك: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١-٢] ولمْ يَقُلْ: «هوَ الكِتابُ»، ولا: «هَذا الكِتابُ»، إشارةً إلَى ما ذكَرنا.

قولُه: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال المُفسِّرُ: [مالِك] وفِي هَذا التَّفسيرِ قُصورٌ، بلْ نقُولُ: خالِقٌ ومالِكٌ ومدبِّرٌ؛ لأنَّ الرُّبوبيَّةَ هِي الخَلْقُ والمُلكُ والتَّدبِيرُ، فإذا قُلنا: مالِكٌ، صار في هذا قُصُورٌ؛ فقَولُه: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: خالِقُهم ومالِكُهم ومدبِّرُ أمُورِهم.

وقولُه: [﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمْعُ عالَم وهُو ما سِوى اللهِ] عَزَّوَجَلَّ فكلُّ ما سِوى اللهِ فهُو عالَم، وسمِّي عالَمًا؛ لأنَّه عَلَم على خالِقِه جَلَّوَعَلَا، فإنَّ كلَّ شيْء فِيه آيَةٌ تدلُّ على وَحْدانيَّة الله وقُدرَتِه وحِكمَتِه وعِزَّتِه، وغيرِ ذلِك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وجمَعَ لاختِلافِ أنْواعِه] يَعنِي: لمْ يَقُلْ: العالَم، بلِ أتَى بالعالَمِين [بالياءِ والنُّونِ تغْلِيبًا لِلعُقلاءِ]، فإنْ قال قائِلٌ: هلِ العُقَلاءُ أكثَرُ أو غيرُ العُقلاءِ؟

فالجَوابُ: إنْ قِيلَ: إنَّ العُقَلاءَ أكثَر، فيُحتاجُ إلَى دلِيلٍ، ورُبَّما يَكونُ دلِيلُه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «أطَّتِ السَّماءُ وحُقَّ لَـها أنْ تَئِطَّ، ما مِن مَوضِعِ أربَعِ أصابِعَ مِنها إلَّا وفِيه مَلَكٌ قائِمٌ للهِ أو راكِعٌ أو ساجِدٌ»[1]، والسَّماءُ واسِعةٌ عظِيمةٌ، كلُّ سماءٍ أوسَعُ ممَّا تحْتَها، فمَن يُحصِي هؤُلاء! هَذا شيْءٌ عظِيم، والبَيْت المَعمُور في السَّماء السَّابِعةِ يدْخُلُه كلَّ يومٍ منَ المَلائِكةِ سبعُون ألْف مَلكٍ لا يعُودُون إلَيه، فمَن يُحصِي الأيَّامَ، كُلَّ يَومٍ يُضرَبُ في سَبعِين ألفِ مَلَكٍ! فإذا رأَينا هَذا قُلْنا: العُقلاءُ أكثَرُ.

وإنْ نظَرْنا إلى ما في الأرْضِ قُلنا: غيرُ العُقَلاءِ أكثَرُ؛ فعلى هَذا التَّقدِيرِ -أنَّ المرادَ مثلًا من في الأرضِ- نقولُ: إنه غلَّبَ العُقلاءَ لشرَفِهم، والحاصِلُ: أنَّ تغلِيبَ العُقلاءِ إنْ كانَ العُقلاءُ أكثَرُ فغُلِّبوا لِكَثرَتِهم، وإنْ قُلنا: غيرُ العُقلاءِ أكثرُ، فغُلِّبَ العُقلاءُ، يُغلَّبُ مَن لَيْس بمُمَيِّزٍ لِشرَفِهم.

مِن فوائِدِ الآيةِ الكَريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: في هَذا دَلِيلٌ على وُجُوبِ إعْلانِ المُؤمِنِ ما علَيه الكُفَّارُ مِنَ الكُفرِ باللهِ؛ لِقولِه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٧٣)، والترمذي: كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا»، رقم (٢٣١٢)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ويتفرَّعُ على هَذه الفائدَةِ: أنَّه لا تجُوزُ مُداهَنةُ الكُفَّارِ، وإنْ كانَت المُداراةُ تَجُوزُ لكِنَّ المُداهَنةَ لا تَجُوزُ.

والفَرقُ بينَهما: أنَّ المُداهَنةَ سُكوتُ الإنسانِ عَن مَعصِيةِ العاصِي، كأنَّه يَقولُ: لَك مَعصِيتُك ولِي طاعَتي، فأنتَ اعْمَلْ وأنا أعمَلُ، فهَذه مُداهَنةٌ ومُصانعةٌ لا تَجُوزُ؛ قال اللهُ تَعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القلم:٩]، ولَكِن لا يَجُوزُ لِلمُؤمنِ أنْ يُداهِنَ.

أمَّا المُداراةُ فمَعناها: أنْ يَنقُلَ الإنْسانَ ممَّا هُو عليْه مِن المَعصِيةِ شيئًا فشَيئًا وهُو غيرُ راضٍ بها، بلْ هُو كارِهٌ، ولا يَرى أنَّه يَجُوزُ إقْرارُها، بِخلافِ المُداهِنِ.

وأمَّا المُداهَنةُ في الحَقِيقةِ فأشْبَه ما لَها في وقتِنا الحاضِرِ ما يُسمُّونه بالمُجامَلةِ أو بالعَلمَنة، فإنَّ العلمانيِّين يقُولُون: دَعْ كلَّ إنْسانٍ وشأنَه، الدَّولةُ دولَةٌ، والدِّينُ دِينٌ، فالدَّولةُ لا بُدَّ أن تتَّحِدَ، وأما الدِّينُ فلكلٍّ دِينُه، فلا تُنكِر على الكافِرِ ولا على الفاسِقِ، دعْ كلَّ إنسانٍ يعمَلُ ما شاء!!

المُهمُّ: أنَّ هذِه الآيَةَ صرِيحةٌ في أنَّه يجِبُ أنْ نُنكِرَ على الكافرين كُفرَهم، وَألَّا نُداهِنهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه يَنبَغي تأكِيدُ ما يُمكِنُ أنْ يُنْفَى أو يُشَكَّ فِيه؛ وجْهُه: أنَّه أكَّد ذلِك بقَولِه: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ﴾، وإلَّا فيكْفي أنْ يقُولَ: قلْ لقَد كفرْتُم، أو قلْ كفرْتُم، لكِن لـمَّا كان هَذا أمْر يُشَكُّ فِيه ويُقالُ: هؤُلاء لمْ يكفُروا بالله بلْ آمَنوا به؛ لأنَّهم يؤمِنُون بأنَّ اللهَ مَوجُودٌ وبأنَّ اللهَ خالِقُ السَّمواتِ والأرْضِ، لكِن إذا لمْ يتَّبِعوا شَرعَه فهُم كافِرون به، ولَو أقرُّوا بِوجُودِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيانُ قُدرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وبيانُ حِكمَتِه في خلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ، حيثُ خلَق هذِه الأجْرامَ العَظيمَةَ الكَبيرَةَ الواسِعةَ في خِلال ستَّةِ أيَّامٍ.

أمَّا الحِكمَةُ فوجْهُها: أنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا كان قادِرًا على أنْ يخْلُقها بلَحظَةٍ واحِدَةٍ: كُن فيكُونُ، لكنَّه جَلَّ وَعَلَا ربَطَ الأسبابَ والمُسبَّبات، وجعلَها تتفاعَلُ شيئًا فشَيئًا حتَّى تنتَهِي، هَذا مِن وجْهٍ.

ومِن وجْهٍ آخرَ: أنَّه أخَّرَ ذلِك لِيُعَلِّم عِبادَه التَّأنِّي في الأُمُورِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ خلْقَ الأرْضِ قبْل خلْقِ السَّماءِ؛ لأنَّه لـمَّا ذكَرَ خلْقَ الأرْضِ في أربَعةِ أيَّام قالَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ وَهَذا كقَوْلِه تَعالى في سُورةِ البَقَرةِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرة:٢٩].

ولكِن هَذا يُعارِضُه ظاهِرُ قولِه تَعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النَّازِعات:٢٧-٣٠] فهُنا ذَكَرَ أنَّ الأرْضَ دُحِيت بَعدَ خلْقِ السَّماءِ، فهلِ المُرادُ بالدَّحْوِ شَيءٌ سِوى الخلْقِ، أو أنَّ البَعْديَّةَ هُنا بَعدِيةُ ذِكرٍ؛ يعنِي كما يَقولُون: هَذا تَرتِيبٌ ذِكريٌّ، ولَيس ترتِيبًا زمَنِيًّا؟

الجَوابُ: في هَذا وجْهان:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنَّ الدَّحْو ليْس الخلْقَ، بلْ هُو شَيْءٌ آخَرُ، فسَّرَه اللهُ بِقولِه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النَّازِعات:٣١] فهَذا الدَّحوُ، وإخْراجُ الماءِ والمَرْعى شَيءٌ زائِدٌ على الخلْقِ والتَّكْوينِ.

وأمَّا الوجْهُ الثَّاني: فإنَّ البَعدِيةَ هُنا بَعديَّةُ ذِكرٍ، وهُو ما يُعرفُ عِند عُلَماءِ النَّحوِ بالتَّرتِيبِ الذِّكريِّ، ومِنه قَولُ الشَّاعِر[1]:

---

(١) البيت لأبي نواس الحسن بن هانئ، يمدح به العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر. انظر: ديوانه ط. آصاف (ص:١٢٢)، وخزانة الأدب (١١/ ٤٠).

إنَّ مَـن سـادَ ثُـمَّ سـادَ أَبُـوه ثمَّ سادَ مِن بعْـدِ ذلِـك جَـدُّه

فتجِدُ أنَّ التَّرتيبَ على خِلافِ التَّرتيبِ الزَّمنيِّ، لكِنَّ هَذا يُسمَّى ترتيبًا ذِكريًّا، يَحتَمِلُ الوَجهَين.

ولكنَّ الوجْهَ الأوَّلَ أوْلَى؛ أنْ يُقالَ: إنَّ الدَّحوَ ليْس الخَلْقَ، الخلْقُ والتَّكوِينُ شيْءٌ، والدَّحْوُ شيْءٌ آخَرُ.

والدَّلِيلُ: أنَّ اللهَ تَعالى قال فِي الدَّحوِ مُفسِّرًا إيَّاه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾.

إذَنْ: لا مُعارَضةَ بيْن الآيَتَين؛ لتَنزِل كلُّ واحِدةٍ مِنهُما على وجْهٍ لا يُعارِضُ الوجْهَ الآخَرَ.

واعْلَمْ أنَّه ينبَغي للإنسانِ إذا رأَى آيتَيْن ظاهِرهُما التَّعارُضُ ألَّا يُسرِعَ في الحُكْمِ بالتَّعارُضِ؛ لأنَّه لا يُمكِنُ أنْ تَتعارَضَ آيتان مِن كلِّ وجْهٍ -كما ذكَرْنا ذلِك في أصُولِ التَّفسِيرِ- ولكِن ليَتأنَّى وليَتأمَّل وليُفكِّرْن، فإنَّ أدْرَك أنْ لا تَعارُضَ فهَذا المَطْلُوبُ، وإلَّا وجَب أنْ يَسْأَلَ أهلَ العِلْم، فإنْ لمْ يَتبيَّن لَه الأمْرُ وجَب علَيه التَّوقُّفُ، وصارَتْ هَـذه مِن الآياتِ المُتشابِهاتِ الَّتي يجِـبُ أنْ يقُـولَ فِيها: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آلِ عِمران:٧].

وقد ذَكَـرنا لكُم فِيما مَضَى أنَّ مِن العُلمـاءِ مَن ألَّف في الآياتِ الَّتي ظاهِرُها التَّعارُضُ وجمَع بيْنها، وذَكَرْتُ لكُم أنَّ مِن أحْسنِ ما رأيْتُ ما ألَّفَه الشَّيخُ الشّنقِيطيُّ (دَفْع إيْهام الاضْطِراب عَن آيِ الكِتاب).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ نوْعَ الكُفرِ الَّذي حصَل مِن هؤُلاء المُخاطَبين هو الشِّركُ؛ لِقولِه: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [فُصِّلَت:٩]، وجعَلوا الأندادَ لَه أنواعًا كثيرَةً؛ إمَّا أنْ يجعَلَ

لَه أندادًا في الذَّاتِ، فيَقولَ: إنَّ اللهَ لَه مَثِيلٌ كما فعلَتِ النَّصارَى، حيثُ قالُوا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]، وكما فعَلَ المُمثِّلَةُ الَّذِين مَثَّلوا صِفاتِ الله بصِفاتِ خَلْقه، فإنَّ هَذا مِن الشِّركِ.

وقدْ يَكون نِدًّا في العِبادةِ يَعبُده وإنْ كان لا يَرى أنَّه مِثل اللهِ عَزَّوَجَلَّ لكِن يَعبُده، ويدَّعي أنَّه إنَّما عبَده لِيُقرِّبَه إلى الله عَزَّوَجَلَّ وقَد يَكون هُناك أنْداد في المَحبَّة بأنْ يُحِبَّ الشَّيءَ كما يُحِبُّ اللهَ.

والعَجَبُ أنَّ الشَّيطانَ يَجرِي مِن ابْن آدَم مجرَى الدَّم، فيُحِبُّ الشَّخصَ، ويتعلَّقُ به كَثيرًا، ويَقولُ: أنا أُحِبُّه للهِ، والحَقِيقةُ أنَّه يُحِبُّه مَع اللهِ ولَيسَ للهِ. فالَّذي يُحِبُّ الشَّخْصَ لله تَكونُ المَحبَّةُ الأصلِيَّةُ هي مَحبَّةَ اللهِ؛ فهَذا أحبَّه؛ لِأنَّه يُحِبُّ اللهَ، لكِنَّ الَّذي يَجعَلُ قَلْبه مُنْصرفًا إلى هَذا المَحبُوبِ لا يُفكِّرُ إلَّا به، ولا ينامُ إلَّا على ذِكْرِه، ولا يَستَيقِظُ إلَّا بذِكْرِه؛ هَذا لَم يُحِبَّه للهِ، بَلْ أحبَّه مَع اللهِ، وهَذا شِركٌ كَما قال تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

وكذَلِك مِن النِّدِّ أنْ يَتعلَّقَ قَلْبُ الإنْسانِ بِالمَخْلُوقِ خَوفًا ورَجاءً، لا مَحبَّةَ خوفٍ ورَجاءٍ، بِحَيثُ يَعتَمِدُ علَيه في تَحصِيلِ مَعاشِه، أو في دَفْعِ الضَّرَرِ عنْه، وهَذا يَقَعُ كثِيرًا ولا سِيَّما بعْد فتْحِ المُستَشفَياتِ؛ فإنَّ أكثَرَ النَّاسِ يَتعلَّقُ قلبُه بالمُستَشفى، تَجِدُه إذا مرِضَ أخَذ حبَّةً أو حبَّتَيْن، ولا يقُولُ: يا ربِّ عافِني! أو يلْجَأُ إلَى اللهِ، مَع أنَّه رُبَّما يَكون هَذا الطَّبِيبُ الَّذي اعتَمدَ علَيه ورَجاه كافِرًا مُلْحدًا، فهَذا أيْضًا مِن اتِّخاذِ النِّدِّ للهِ.

ولِهَذا كان ضرَرُ بعضِ المُستشفِياتِ الآن -مَع ما فِيها مِن النفْعِ والخَيرِ الكَثِيرِ والحَمدُ للهِ-: أنَّ النَّاسَ صاروا يُعلِّقون آمالَهم، ويجُرُّون آلامَهم إلَيْها، فلَو تُصيبُ الإنْسانَ الشَّوكةُ، أو المَرْأةُ إذا جاءَها الطَّلْقُ، وصارَت تُطلِق طلْقًا عاديًّا -واللهِ هذِه

مَسألَةٌ خَطيرَةٌ- قالُوا: لا بُدَّ مِن قيْصَريَّة، والقَيصَريَّةُ تعنِي شَقَّ البَطنِ، ثمَّ إذا وَلَدتْ عَشـرةَ أولادٍ يَكون في بَطنِها عشْـرَةُ شُقوقٍ؛ فلا يَتحمَّل هذا البطنُ أيَّ حمل، بلْ لو حمَلت لانفجر.

وكلُّ هذا مِن نوعٍ مِن الشِّركِ، فلا تَلجَأْ إلى المُستَشفى إلَّا لِلضَّرُورةِ القُصوى، اجْعَلْ رجاءَك دائِمًا مُعلَّقًا بِاللهِ، وقُلْ: إنَّ الَّذي خلَقَنِي وأوجَدَني أوَّلَ مرَّة قادِرٌ على أنْ يُزيلَ ما بِي مِن مرَضٍ، وهُو أقدَرُ مِن كُلِّ أحَدٍ يُزيلُها عَزَّوَجَلَّ بدُون أيِّ عمَليَّة، وبدُون حُبوب، وبدُون مِياه، وبدُون إبَرٍ.

المهِمُّ: أنَّ اتِّخاذَ الأنْدادِ لَيْس خاصًّا بشَيءٍ مُعيَّنٍ، بل يَكونُ في أشْياءَ كَثيرَةٍ، فإيَّاك أنْ يَكونَ لكَ نِدٌّ، حتَّى إنَّ الرَّسُولَ ﷺ قال: «تعِسَ عبْدُ الدِّينارِ، تعِسَ عبْدُ الدِّرهَمِ، تعِسَ عبْدُ الخَميصَةِ، تعِسَ عبْدُ القَطِيفة»[1]؛ وهلِ الإنْسانُ يضَعُ الدِّينارَ فَوقَه ويَسجُدُ له ويَركَعُ؟!

الجوابُ: لا، وكذَلِك الدِّرهَمُ والخَمِيصةُ والخَمِيلةُ، لكِن لـمَّا كان قلْبُه معلَّقًا بهَذا الشَّيءِ؛ إنْ أُعطِي رضيَ، وإنْ لمْ يُعطَ سخِطَ، صارَ عَبدًا لها، نَسْألُ اللهَ أنْ يُعيذَنا وإيَّاكم مِن ذلِك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيانُ امتِناعِ النِّدِّ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقولِه: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [فُصِّلَت:٩] وجْهُ الِامتِناعِ أنَّه ربُّ العالَمِين وأيُّ نِدٍّ لا بدَّ أن يكُونَ ربَّ العالَمِين؛ فلا أحدَ يُمكِنُ أنْ يُقالَ: إنَّه ربُّ العالَمِينَ؛ فهُو ربٌّ وما سِواه مرْبُوبٌ؛ إذَن: ما سِواه لا يصِحُّ أنْ يكُونَ نِدًّا له.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، رقم (٢٨٨٦، ٢٨٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: عُمـومُ ربُوبيَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لكـلِّ العالَمِ؛ لِقـولِه: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وُجوبُ الخُضوعِ له شَرعًا كما أَنَّنا نخْضعُ لَه قدَرًا؛ لأنَّ هَذا مُقتَضى الرَّبوبيَّةِ أنْ تخضَعَ لِهذا الرَّبِّ شَرعًا كما أَنَّك خاضِعٌ لَه قدَرًا، فكلٌّ خاضِعٌ للهِ قدَرًا، قال تَعالَى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرَّعد:١٥]، وهَذا السُّجودُ قَدَريٌّ؛ فيجِبُ أنْ تَخضَع لَه شرعًا، وأنْ تَتذلَّلَ لَه، فتكونَ أمامَه ذلِيلًا كما كُنت أمامه ذلِيلًا في قَدَرِه.

• • ۞ • •

الآية (١٠)

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠].

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَعَلَ﴾ مُستَأنفٌ] يعنِي: وليْس معطُوفًا على خَلَقَ، والعَجَبُ أنَّه يقُولُ: [ولا يجُوزُ عطْفُه على صِلَةِ «الَّذي» لِلفاصلِ الأجنَبِيِّ]، هَذا ما ذهَب إلَيْه المُفسِّرُ: أنَّ قوْلَه: ﴿وَجَعَلَ﴾ مُستأنَفٌ، ولا شكَّ أنَّنا إذا جعَلْناه مُستَأنفًا لَم يَكُن الكَلامُ مُنتَظِمًا.

والصَّوابُ: أنَّه على خِلافِ ما قال المُفسِّرُ: أنَّ «جَعَل» مَعطُوفةٌ على ﴿خَلَقَ﴾، يعنِي: بالَّذي خلَق الأرْضَ في يومَيْن وجعَل فِيها رواسيَ. والفاصِلُ الأجنَبيُّ هُنا لا يضُرُّ؛ إمَّا أنَّه لا يضُرُّ مُطلَقًا، كما قِيل به، وإمَّا أنَّه لا يضُرُّ؛ لأنَّه في مَضمُونِ الكَلامِ والكَلامُ واحِدٌ.

فالصَّوابُ: أنَّ قولَه: ﴿وَجَعَلَ﴾ مَعطُوف على ﴿خَلَقَ﴾؛ أي: بالَّذي خلَق الأرْضَ في يومَيْن، وجعَلَ فيها رواسِي.

وقولُه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جِبالًا ثوابِت] أوَّلًا: «جعَل» هُنا هلْ هِي مِن أفعالِ التَّصيِيرِ، أو مِن أفعالِ الإيْجادِ؟

يَحتَمِلُ المعنَى: وأوجَد فِيها رواسيَ، ويَحتَمِلُ أنْ تكُونَ مِن أفعالِ التَّصيِيرِ، أي:

صَيَّر فِيها رواسيَ. والمَعنَى لا يختَلِفُ، لكنَّ الإعْرابَ يَختلِفُ، إذا قُلنا «مِن أفعالِ التَّصييرِ» صارَتْ تنصِبَ مفعُولَين، وإذا قُلنا «مِن أفعالِ الإيجادِ» صارَتْ تنْصِبَ مَفعُولًا واحِدًا.

وقولُ المُفسِّرِ: [جِبالًا ثوابِتَ] أفادَنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ ﴿رَوَٰسِيَ﴾ صِفةٌ لمَوصُوفٍ مَحذُوفٍ، والتَّقدِيرُ: جِبالًا رواسيَ، و﴿رَوَٰسِيَ﴾ بمَعنَى ثوابِتَ، وهلْ يجُوزُ أنْ يُحذَفَ المنعُوتُ؟ الجَوابُ: نعَم، وهُو كثِيرٌ، كثِيرٌ جِدًّا.

وما مِنَ المنْعوتِ والنَّعْـتِ عُقِـل ... يَجوزُ حَذْفُـه وفِي النَّعْـتِ يَقِـلّ[1]

أي: في المَنعُوتِ يَكثُرُ؛ قال تَعالَى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ:١١]؛ أي: دُرُوعًا سابِغاتٍ، وقولُه: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ المُهِمُّ أنَّها كثِيرةٌ كما تَقدَّم، فإنَّ المَقصُودَ الصِّفةُ، والصِّفةُ تَكونُ بالنَّعْتِ وهُو موجُودٌ.

وقولُه: ﴿مِّن فَوْقِهَا﴾ أي: هذِه الرَّواسي مِن فوْق؛ يعنِي: صيَّرَ فِيها رواسيَ، فالمَفعُولُ الأوَّلُ هُو ﴿رَوَٰسِيَ﴾، والثَّاني الجارُّ والمَجرُورُ.

وقولُه: ﴿مِّن فَوْقِهَا﴾ انتبِه لهذِه الكَلِمةِ؛ فلَها فائِدةٌ عظِيمةٌ! إذِ الرَّواسِي قد تكُونُ مِن أسفَلَ، وقدْ تَكونُ مِن فوْق؛ فقَد تكُونُ مِن أسفَلَ، يعنِي يكُونُ مَثلًا يَحفِرُ في الأرْضِ قواعِدَ تُرسِي، وتَكونُ راسِيةً، لكِن هُنا قال: ﴿مِّن فَوْقِهَا﴾؛ وذلِك لفَوائِدَ:

الفائِدةُ الأُولى: ظُهورُ هذِه الرَّواسي وبيانُها للنَّاسِ؛ حتَّى يعرِفوا بذلِك حِكْمةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ورُبَّما لا تَكونُ رواسِيَ إلَّا إذا كانَتْ مِن فوْق؛ بِناءً على أنَّ الأرْضَ تدُور حتَّى تحفَظَ توازُنَها.

---

(١) الألفية (ص:٤٥).

الفائِدةُ الثَّانيةُ: هذِه الرَّواسِي إذا كانَت مِن فوْق حصَل فِيها مِن المَنافِعِ في درْءِ العَواصِفِ وفِي الملاجِئِ شَيْءٌ كثِيرٌ، كما هُو معْرُوفٌ في المَغاراتِ، وكما يُعرَفُ مِن سُفوحِ الجِبالِ وخُدودِ الجِبالِ ورُؤوس الجِبالِ، مِن نَوابِتَ لا تُوجَدُ لولا هذِه المُرتَفَعاتُ.

الفائِدةُ الثَّالِثةُ: أنَّها تُوجِبُ أنْ تنْدَفعَ مِياهُ الأمْطارِ بشِدَّةٍ حتَّى تصِلَ إلَى أراضٍ صالِحةٍ للنَّباتِ؛ لأنَّكم تعْرفون أنَّ بعضَ الأرضِ سبَخاتٌ ليْس فيها خَيْرٌ وبعضُها رِياضٌ تُنبِتُ، فإذا نَزَل الماءُ على هذِه الجِبالِ على قِمَمِها وعلَى خُدودِها نزَلَ إلَى الأرْضِ بشِدَّةٍ عظيمَةٍ حتَّى يصِلَ إلَى ما أرادَ اللهُ إيْصالَه.

الفائِدةُ الرَّابِعةُ: أنَّ في قِمَمِ الجِبالِ مِن المَعادنِ الجيِّدةِ أكثَرُ مِمَّا في الأرْضِ السُّفلَى؛ ولِهذا قال تَعالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥] أنْزَلْناه مِن قِمَمِ الجِبالِ؛ ولِهذا يَقولُ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: «إنَّ الحَدِيدَ الَّذي يَكونُ مِن قِممِ الجِبالِ أعلَى وأقوَى مِن الَّذي يَكونُ مِن الأسْفَلِ».

هَذا ما نَعْلَمُه، وما لا نعْلَمُه أكْثَرُ.

المُهِمُّ: أنَّ كلِمةَ ﴿مِّن فَوْقِهَا﴾ لَها فائِدةٌ عظِيمَةٌ ذكَرْنا مِنها أربَعَ فوائِدَ.

وقولُه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾، قال المُفسِّرُ: [بِكثْرةِ المِياهِ والزُّرُوعِ والضُّروعِ] «بارَك فِيها» أي في الأرْضِ، وما أعظَمِ برَكاتِ الأرْضِ مِنَ الزُّروعِ والأشْجارِ والأنْهارِ والمَعادِنِ، وغيرِها مِن برَكاتِ الأرْضِ!

وقوْلُ المُفسِّرِ: [الضُّرُوع] يعنِي ضُروعَ البَهائِمِ؛ لأنَّ البَهائِمَ كلَّما شبِعتْ مِن الرَّبيعِ ازدادَ دَرُّها، ومَن يتأمَّلْ يجِدْ أنَّ في الأرْضِ برَكاتٍ عظِيمَةٍ؛ فقَد حمَلتِ الأحْياءَ

والأمْواتَ والوُحوشَ والسِّباعَ والبَهائِمَ والحشَراتِ والآدمِيِّين، وكانَت واسِعةً أيْضًا مَع كَثرَةِ ما فِيها؛ فلَو أنَّ هـؤُلاء الأحْياءَ الَّذِين على ظهْرِ الأرْضِ يَحيَون إلَى الآنَ، لرَأيْتَ أمْرًا بَشِعًا وصَعبًا، لكِنْ جعَلَ اللهُ الأرْضَ كِفاتًا أحياءً وأمْواتًا، وهَذِه مِن برَكاتِها.

وقوْلُه: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ «قدَّر» قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قَسَّم ﴿فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ للنَّاس والبَهائِم...] إلخ، قـدَّر فِيها الأقْواتَ؛ يَقولُ: إنَّ «قدَّر» مِن التَّقـدِيرِ وهُو التَّقسِيمُ، قدَّر الأقواتَ ولَم يجْعَل القُوتَ في جانِبٍ واحِدٍ مِنَ الأرْضِ، إذْ لو كان في جانِـبٍ واحِدٍ مِن الأرْضِ لشقَّ هَذا على النَّاسِ كَثِيرًا؛ لَو قُدِّر مَثلًا أنَّ الأقْواتَ لا تكونُ إلَّا في غرْبِ الكُرَةِ الأرْضِيَّةِ، فكَيْف يعِيشُ أهْلُ الشَّرقِ، أو بالعَكْسِ: كيْف يعِيشُ أهلُ الغرْبِ؟ لكنَّه مُقدَّرٌ.

ثمَّ قدَّره مِن ناحِيةٍ أُخرَى: جعَل في هذِه الأراضِي ما لا يصْلُحُ في الأراضِي الأُخرَى والعَكْسَ.

والحِكْمَةُ: مِن أجْلِ أنْ يتَبادَلَ النَّاسُ الأقْواتَ، فيَأتِي النَّاسُ الَّذِينَ ليْس عِندَهم هَذا النَّوْعُ مِن القُوتِ يَذهَبُون إلَى الأراضِي الَّتي فِيها هَذا القُوتُ فيَجلِبونه إلَى الأرْضِ الخالِيةِ مِنْه، وكذَلِك العَكْسُ، ففِي بعْضِ الجِهاتِ مِن الأرْضِ يَكْثُرُ فِيها النَّخِيلُ والعِنَبُ، لكِن تقِلُّ فِيها الحَمْضِيَّاتُ وأشباهُها، وفِيه أيْضًا أشْياءُ كثِيرَةٌ -وأنا لسْتُ مِن أهْلِ الزِّراعَةِ- تصْلُحُ في مكانٍ دُون مكانٍ مِن أجْلِ أنْ يقَعَ التَّبادُلُ بيْن النَّاسِ والضَّرْبُ في الأرْضِ ابْتِغاءَ الرِّزْقِ، وهَذا مِن الحِكمَةِ في قوْلِه: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾.

وقولُه: ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِيٓ﴾ تمام ﴿أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أيِ الجَعْلُ، وما ذُكِرَ معَه في يوْمِ الثُّلاثاءِ والْأرْبِعاءِ] إذا كانَ خلْقُ الأرْضِ أوَّلُه الأحَدُ والاثْنَينُ،

ثُمَّ قال: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ فيكونُ الباقِي؛ الثُّلاثاء والأرْبِعاء، فتكونُ الأرْضُ خُلِقتْ وقُدِّر فِيها الأقْواتُ في أرْبَعَةِ أيَّامٍ.

قال الله تَعالى: ﴿سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [مَنْصُوبَةٌ على المَصْدَرِ؛ أيِ: اسْتوَتِ الأربَعَةُ اسْتِواءً لا تَزِيدُ ولا تنْقُصُ]، فأفادَنا بقَوْلِه: «استَوَتِ استِواءً»؛ أنَّ سواءً مَنصُوبةٌ على المَصدَرِ؛ وفِيه تجَوُّزٌ لأنَّنا إذا قُلنا «سَواءً» مَصْدرُ «اسْتَوى»، فإنَّه لا يَستَقِيمُ مَع القاعِدةِ؛ لأنَّ القاعِدةَ: أنَّ المَصدَرَ ما وافَقَ الفِعْلَ في حروفِه، وهنا «استوى» لا توافقها «سواء»، بَلِ الَّذي يُوافِقُها «اسْتِواء».

إذَنْ «فسَواء» تَكونُ اسْمَ مَصْدرٍ، مِثْل: (كَلَّم)، والمَصْدَرُ (تَكلِيمٌ)، واسْمُ المَصْدَر (كَلام)؛ فَهُنا (اسْتَوَى)، والمَصْدَر (اسْتِواءٌ)، واسْم المَصْدَر (سَواءٌ).

المُهِمُّ أنَّ قوْلَه: «سواء» يَعنِي: أنَّ هَذا الخَلْقَ استَوْعَب الأرْبَعةَ كلَّها، فلَم يَكُن في يوْمَين أو ثلاثَةٍ، بلْ في الأيَّامِ الأرْبَعةِ كلِّها، فعلى هَذا يَكونُ قوْلُه: [مَنصُوبٌ على المَصْدرِ] الصَّوابُ: أنْ يُقالَ على أنَّه مَفعُولٌ مُطلَقٌ؛ أيِ: استَوَتِ الأرْبَعُةُ استِواءً لا تَزيدُ ولا تنْقُصُ.

وقَولُه: [﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ عَن خَلْقِ الأرْضِ بِما فِيها]. قوْلُه: [﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ هذِه لا تظُنَّ أنَّها مُتعلِّقةً بسَواءٍ، بَلْ هِي جوابٌ لخَبَرٍ مَحذُوفٍ؛ أيْ: هَذا جوابٌ للسَّائِلِين، أوْ نحْوٍ مِن هذِه الكَلِمةِ.

المُهِمُّ أنَّ قوْلَه: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ يُفِيدُ أنَّ ما ذُكِر جوابٌ لِمَن سَأَل عَن خلْقِ الأرْضِ وتَقْدِيرِ أقواتِها: بأنَّها في أرْبَعَةِ أيَّامٍ سواءً.

مَسْأَلَةٌ: ما الحِكْمَةُ فِي: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ذَكَرَ السَّماءَ والأرْضَ وقَدَّمَ السَّماءَ على الأرْضِ؟

الجَوابُ: الحِكْمةُ في أنَّ اللهَ تَعالَى يَذْكُرُ الأعْلَى قَبلَ الأسْفَلِ، أمَّا التَّحدُّثُ عنِ خلْقِ السَّماءِ فقَدْ بيَّن اللهُ تَعالَى أنَّ الأسْفَلَ يُخْلَقُ قبْل الأعلَى كالبِناءِ، فعِندَما تُريدُ أنْ تبْنِيَ شَيئًا فلَن تبْنِيَ السَّقْفَ قبْل أنْ تبْنِيَ العمُودَ، فعِنْدَ الذِّكْرِ والتَّحَدُّثِ يَبِينُ الأشْرَفُ والأعْلَى؛ يُقدَّمُ، وعِنْد التَّكوِين والبِناءِ يُبْدأُ بالأسْفَلِ؛ لأنَّه هُو الأصْلُ.

مِن فوائِدِ الآيَةِ الكَريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: مِنَّةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على عِبادِه؛ حيْثُ جعَلَ في الأرْض رواسِي، أيْ: ثوابِتَ، والحِكمَةُ ذَكَرها اللهُ تعالَى في قوْلِه: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان:١٠]؛ لوْلا هذِه الرَّواسِي لمادَتْ بِنا الأرْضُ، فيستفاد من ذلك: أنَّ الأرْضَ تدُورُ؛ لِقوْلِه: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾؛ لأنَّ نفْي المَيَدانِ دلِيلٌ على وُجُودِ أصْلِ الحَرَكةِ؛ إذْ لَم يَقُلْ: أنْ تتحرَّكَ بِكَم، ونَفْيُ الأخَصِّ يَقْتَضِي وُجُودَ الأعمِّ، كما قُلْنا في قوْلِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، إنَّه دلِيلٌ على أنَّ اللهَ يُرَى لِكن لا يُدْرَكُ؛ إذْ لَو كان لا يُرى لوَجَبَ أنْ يَقولَ: لا تَراه الأبْصارُ، فلَمَّا نفَى الأخَصَّ صار دَلِيلًا على وُجُودِ الأعمِّ. هَكَذا قرَّرها بَعضُهم، وقال: إنَّ في الآيَةِ دَلِيلًا على أنَّ الأرْضَ تَدُورُ؛ لِأنَّ اللهَ ألْقَى هَذه الرَّواسِيَ؛ لِتكون دَوْرتُها مُتَّزِنةً، لا تَرْتَجُّ فتَضْطَرِبُ بالنَّاسِ.

ولكِنَّ هَذا -وإنْ كان قَوِيًّا مِن حَيْث النَّظر- لَكِنَّه ليْس مُتعَيِّنًا؛ إذْ يجُوزُ أنْ يَكونَ مَعنَى «أنْ تَميدَ بِكُم»؛ تَضطَرِبَ ولَو كانَت واقِفَةً، فالسَّفِينَةُ مَثلًا على الماءِ تضْطَرِبُ ولَو كانَتْ واقِفةً، فيَكونُ معنى «أنْ تَميدَ بِكُم»: أنْ تضْطَرِبَ بِكُم، وسواءٌ كانَتْ تدُورُ أو لا تَدُورُ؛ ولِهذا ليْس في الآيَةِ دَلالَةٌ قَطعِيَّةٌ على أنَّ الأرْضَ تدُورُ.

فإنْ قال قائِلٌ: إذا قُلْت: إنَّه يَحتَمِلُ أنْ تَكونَ دالَّةً على أنَّ الأرْضَ تُدُورُ؛ فما جوابُك عنْ آياتٍ كثِيرَةٍ تدُلُّ على أنَّ الشَّمْسَ تجْري وتَطْلُعُ وتَغرُبُ وتَزاوَرُ وتَوارَى

وتذْهَبُ؛ فكُلُّ هذِه الأفْعالِ أُسْنِدت إلَى الشَّمْسِ، والأصْلُ أنَّ الفِعْلَ إذا أُسنِدَ إلَى شيْءٍ أنْ يَكونَ قائِمًا بِه، فيَكونُ ظاهِرُ القُرْآنِ أنَّ الشَّمسَ هِي الَّتي تَدُورُ على الأرْضِ: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت﴾ [الكهف:١٧]، إذَنْ مَعناها هِي الَّتي كانَت مُختَفيةً ثُمَّ طَلَعت علَينا، وهؤُلاءِ الَّذِين يقُولُون: الأرْضُ تدُورُ فيَكون معْنَى ﴿إِذَا طَلَعَت﴾ أيْ إذا طلَعنا علَيْها؛ لأنَّنا نحْن الَّذِين نأتِي إلَيها، أمَّا الشَّمسُ فهِي ثابِتةٌ قارَّةٌ؟

قُلنا: يَجُوز أنْ تَكونَ الأرْضُ تَدُورُ والشَّمْسُ أيْضًا تدُورُ، وإذا كان الدَّوَرانُ بِالعَكْسِ فظاهِرٌ أنَّه يَتعاقَبُ اللَّيلُ والنَّهارُ، يعْنِي: إذا كانَتِ الأرْضُ تَدُورُ نحْوَ الشَّرْقِ والشَّمْسُ تَدُورُ نحْو الغَرْبِ، فهَذا مُمكِنٌ بكُلِّ سُهُولةٍ، فإن كانَتا تَدُوران إلَى اتِّجاهٍ واحِدٍ فإنَّ إحْداهُما إذا كانَت أسْرَعَ مِنَ الأُخْرَى تَحقَّقَ اخْتِلافُ اللَّيْلِ والنَّهارِ، ومَن قال: إنَّه لا يُمكِنُ أنْ نَقولَ: إنَّ الشَّمسَ تجْرِي إلَّا إذا قُلْنا: إنَّ الأرْضَ ثابِتةٌ لا تَدُورُ.

فأمَّا إثْباتُ دوَرانِ الأرْضِ مَع دَوَرانِ الشَّمْسِ فإنَّ هَذا لا يُمْكِنُ، فإنَّه قوْلٌ غيْر صَحِيح، أمَّا الإمْكانُ فمُمكِنٌ، ولَو قُلْنا بِدَوَرانِهما جَمِيعًا، لكِنَّ الشَّيْء الَّذي نَعْتَقِدُه الآنَ: أنَّ اللَّيْلَ والنَّهارَ يحْصُلُ بتَعاقُبِ الشَّمْسِ على الكُرَةِ الأرْضِيَّةِ، لا بِتَعاقُبِ الكُرَةِ على الشَّمْسِ؛ لأنَّ هَذا هُو ظاهِرُ القُرْآنِ والقُرْآنُ صَدَر عَن الخالِقِ عَزَّوَجَلَّ وهُو أعلَمُ بما خلَقَ، ولا يُمكِنُ أنْ نَحِيدَ عَن هَذا قِيدَ أُنْمُلةٍ ما دام لَم يَظْهرْ لنا أمْرٌ حِسِّيٌّ لا يُمْكِنُ التَّكْذِيبُ بِه.

وعِنْد بعْضِهم -أيْ: بَعْضِ الَّذِين يَقولُون بِدوَران الأرْض- يَقولُون: عِندنا أمْرٌ قَطْعِيٌّ بِدليلِ الصَّوارِيخِ العابِرةِ لِلقَّارَّاتِ؛ فإنَّها تُقَدَّرُ بتَقْدِيرٍ مُعيَّنٍ بِحَيثُ يَتَماشَى مَع دَورانِ الأرْضِ، فَيُصِيبُ الهَدَفَ وإلَّا لـما أمْكَنَ.

وعلى كلِّ حالٍ: فهَذِه المَسْألَة -في يوْمٍ مِن الأيَّامِ- كانَت مَثارًا للْجَدَلِ بيْن

النَّاسِ بيْن طلَبةِ العِلمِ وبيْن عامَّةِ النَّاسِ، وبيْن الَّذِين لمْ يَتمكَّنوا منَ العِلمِ كَثيرًا؛ فنَحْن نَقُولُ:

أوَّلًا: البَحْثُ العَمِيقُ في هَذا والجَدَلُ في هَذا، أمْر لا يَنْبَغي وَلا فائِدةَ مِنه.

ثانيًا: عِندما نُريدُ أنْ نُحقِّقَ المَسْألةَ تَحقِيقًا عِلْميًّا نَظرِيًّا نَنظُر إلَى الآياتِ، فإذا كان ظاهِرُ قَولِه تَعالَى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يَقتَضي أنَّها تدُور قُلْنا بذلِك ولا حَرَجَ، ولا مانِعَ أنْ نَقُولَ: هِي تَدُورُ، وكذَلِك الشَّمْسُ، فنكُونُ أخذْنا بظاهِرِ القُرْآنِ في الشَّمْسِ وبِظاهِرِ ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ في الأرْضِ، وإذا كان قَولُه: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لا يَتعيَّنُ أنْ يَكونَ بِحَرَكَتِها، وإنَّما قَد تَضْطَربُ وهِي ساكِنَةٌ قارَّةٌ؛ فَلا يَبْقى في الآيَةِ دَلِيلٌ على أنَّ الأرْضَ تَدُورُ.

فَإنْ قال قائِلٌ: ألَا يُمكِن أنْ نُقِرَّهم على قَولِهم بأنَّ الشَّمْسَ ثابِتَةٌ؟

فالجَوابُ: نحْن نَقُولُ: لا نُقرُّهم على أنَّ اختِلافَ اللَّيلِ والنَّهارِ يكُونُ باخْتِلافِ دَورَةِ الأرْضِ، بلْ نَقُولُ بِاخْتِلافِ طُلُوعِ الشَّمْسِ على الأرْضِ، ولا يَمْنعُ أنْ تَكونَ الأرْضُ تَدُورُ، لكِن لَو فُرِضَ أنَّه جاءَنا دَلِيلٌ حِسِّيٌّ مَلمُوسٌ على أنَّ اختِلافَ اللَّيلِ والنَّهارِ بِسَبَبِ دَورَةِ الأرْضِ لَقُلنا بِه، ويَكونُ إضافةُ الأفْعالِ هذِه إلَى الشَّمْسِ على حسْبِ رُؤيَةِ الإنْسانِ لَها.

والآنَ إذا قَرَأْنا قوْلَه تَعالَى: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٧]، هَذه فِيها أرْبَعةُ أفْعالٍ أُضِيفَت كلُّها إلَى الشَّمسِ. والأصْلُ أنَّ الأفْعالَ مُضافةٌ إلَى الشَّيْءِ أنَّها قائِمةٌ بِه، فالشَّمسُ هِي الَّتي تَطْلُع، وهُم يَقولون: لا، الشَّمْسُ لا تَطْلُع علَيْنا، بلْ نَحْن الَّذِين نَطلُعُ علَيْها بِسبَبِ دَورانِ الأرْضِ، فالقُرْآنُ لا يُخالِفُ الحِسَّ أبَدًا، وتُفَسَّرُ الأفْعالُ المُضافَةُ إلَى

الشَّمْسِ بِحَسْبِ رُؤيَةِ الرَّائِي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ اللهَ تَعالَى جعَلَ الرَّواسِيَ فوْقَ الأرْضِ لِـما في ذلِكَ مِنَ المَنافِعِ ودَفْعِ المَضارِّ، وأشَرْنا إلَيه في أثْناءِ التَّفسِيرِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ اللهَ تَعالى بارَك في الأرْضِ، ووَجْهُ البَرَكَةِ ظاهِرٌ، فقَد حَمَلتِ الأحْياءَ والأمْواتَ، وحَمَلَـتْ مِنَ الدَّوابِّ ما لا يَعْلَم أجْناسَه -فَضْلًا عَن أنْواعه، فَضْلًا عَن أفرادِه- إلَّا اللهُ، عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ اللهَ تَعالَى قدَّر في الأرْضِ أقْواتَها؛ أي جعَلها مُقَدَّرةً بِقَدَرٍ مَعلُومٍ، ومِن ذلك التَّقديرِ: أنْ جعَلَ في جِهاتٍ مِن الأرْضِ مِنَ الأقْواتِ ما لَيْس في جِهاتٍ أُخْرى، حتَّى يتَبادلَ النَّاسُ هَذه الأقْواتَ وتتَحرَّكَ التِّجارةُ...، إلَى غيْرِ ذلِكَ مِن الفَوائِدِ، ولعلَّه يُشِيرُ إلَى هَذا قَولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ يَعنِي: المَطَر ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الفرقان: ٥٠].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ خلْقَ الأرْضِ تمَّ في أرْبَعةِ أيَّامٍ؛ لِقوْلِه تَعالَى: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُجيبُ السَّائِلين أسْئِلتَهم، سَواءٌ سَألُوا بِلِسانِ الحالِ أو بِلِسانِ المَقالِ؛ فالْإنْسانُ مُتَشوِّفٌ إلَى عِلْمِ المَسْألةِ دُون أنْ يَنْطقَ بِلِسانه، فَيُقالُ: إنَّه سائِلٌ بِلِسانِ الحالِ، والإنْسانُ الَّذي يَتكلَّمُ باللِّسانِ سائِلٌ بِلِسانِ المَقالِ، والسُّؤالُ عَن خلْق السَّمواتِ والأرْضِ؛ فهَذا يَكونُ بِلِسانِ الحالِ، ويَكونُ بِلِسانِ المَقالِ.

الآية (١١)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١].

﴿ثُمَّ﴾ أيْ: بعْد خلْقِ الأرْضِ وتقْدِيرِ أقواتِها، اسْتَوى إلَى السَّماءِ.

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قصَد ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾]، وهَذا أحَدُ القَوْلَيْن في هَذه الجُملَةِ: أنَّها بِمعنَى قصَد، لكِن قصْدًا كامِلًا؛ وذلِك لأنَّ «استَوى» تدُلُّ على الكَمالِ، كما قال تَعالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤].

والقَوْلُ الثَّاني: أنَّ «استَوَى إلَى السَّماء» بمَعنَى «استَوى على السَّماء»؛ أيْ عَلا علَيها، ولكِنَّ المَعنَى الَّذي سلَكَه المُفسِّرُ أرْجَحُ، أنَّه قصَد إلَى السَّماءِ بإرادةٍ تامَّةٍ مُستَوِيَةٍ؛ لأنَّ «إلَى» تُفِيدُ الغايَةَ، و«على» تُفِيدُ الاِسْتِعلاءَ.

ومَعلُومٌ أنَّ السَّمواتِ لَم تَكُنْ خُلِقتْ في تِلك السَّاعَةِ، ثمَّ إنَّنا لو قُلْنا: إنَّ اسْتَوى بِمَعنَى عَلا: «ثُمَّ اسْتَوى على السَّماء»، كان قَبْل ذلِك حِينَ خلَق الأرْضَ ليْس عاليًا على السَّماءِ، مَع أنَّ عُلُوَّ اللهِ تَعالَى وَصْفٌ لازِمٌ لِذاتِه.

وقَولُه: [﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ بُخارٌ مُرتَفِعٌ]؛ جُمْلَةُ ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ حالِيَّةٌ، والسَّماءُ هُنا بمَعنَى العُلُوِّ؛ لأنَّها لَم تَكُنْ خُلِقتْ بعْدُ، لَكنَّها كالدُّخانِ، أيِ: البُخارُ المُرتَفعُ؛ قِيل: إنَّ هَذا البُخارَ المُرتَفِعَ تَصاعَدَ مِن الماءِ الَّذي كان قَبلَ أنْ تُخلَقَ

الأرْضُ؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هُود:٧]، فكان قَبْل خلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ ماءٌ فوْقه عرْشُ الرَّحمَنِ عَزَّوَجَلَّ ثمَّ خُلِقتِ الأرْضُ، وقدِ انْدفعَ مِن هَذا الماءِ بُخارٌ مُتصاعِدٌ كَثِيفٌ صار مِثلَ الدُّخانِ.

وقولُه: [﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ إلَى مُرادي مِنكُما ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ في مَوضِعِ الحالِ أيْ: طائِعتَيْن أو مُكرَهتيْن ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا﴾ بمَن فِينا ﴿طَآئِعِينَ﴾] إلَى آخِرِه. قوْله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ هَذا الأمْرُ هَل هُو أمْرُ تَكوِينٍ أو أمْرُ تَكلِيفٍ؟

الجَوابُ: إنْ قُلْنا: إنَّه تكلِيفٌ، لَم يَكُن هُناكَ فرْقٌ بيْن أنْ يكُونَا طائِعتَيْنِ أو مُكرهتَيْن؛ وظاهِرٌ أنَّه أمْرُ تكلِيفٍ؛ ولِهَذا قال: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

وإنْ قُلنا: إنَّه أمْرُ تَكوِينٍ فإنَّه لا يسْتَقيمُ أنْ يكُونَ طوْعًا أو كرْهًا؛ لأنَّ أمْرَ التَّكوينِ كائِنٌ لا مَحالَةَ.

فالظاهِرُ -واللهُ أعلم- أنَّه أمْرُ تكلِيفٍ، وللهِ تَعالَى أنْ يُكلِّفَ ما شاء مِن خلْقِه.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا﴾ بمَن فِينا ﴿طَآئِعِينَ﴾] احْتاجَ المُفسِّرُ إلَى أنْ يُقدِّرَ «بمَن فِينا» لِوَجْهيْن:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنَّ ﴿طَآئِعِينَ﴾ جمْعٌ، و﴿قَالَتَآ﴾ مُثنًّى، ولا مُطابَقةَ بيْن المُثنَّى والجَمْعِ، ولَو أرادَ المُطابَقةَ لقال: «قالَتا أتيْنا طائِعتيْن».

الوَجْهُ الثَّاني: أنَّه جمَعه بالمُذكَّرِ العاقِلِ، فكان لا بُدَّ أنْ يُقدَّرَ بـ«مَن فِينا» لِيَدخُلَ فِيهِ العُقَلاءُ، ويَكونُ هَذا مِن بابِ التَّغلِيبِ.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِيه تَغلِيبُ المُذكَّرِ العاقِلِ] ذَكَرْنا فِيما سبَقَ أنَّه غلَّبَ المُذكَّرَ

لشَرَفِه، أو لكَثْرَتِه إذا قُلْنا: إنَّ العاقِلَ أكْثَرُ.

وقَولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أوْ أُنْزِلَتا لِخطابِهما مَنْزِلَتَه] يَعنِي: أن المَسْألةَ فِيها إمَّا تَغلِيبُ، وإمَّا أنَّ الأرْضَ والسَّماءَ أُنْزِلَتا مَنزِلةَ العاقِلِ لِخطابِهما؛ أي: لِكَونِهما خُوطِبا، ولا يُخاطَبُ غالِبًا إلَّا العاقِلُ.

مِنْ فوائِدِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ السَّماءَ كانَتْ قبْلَ أنْ تُخلَقَ دُخانًا، ثمَّ حَوَّل اللهُ هَذا الدُّخانَ إلَى سَمواتٍ؛ لِقَوْلِه تَعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثْباتُ علُوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ على أحَدِ القَوْلَين في تَفسِيرِ «اسْتَوى»، وهُما قصَدَ أو ارتَفَعَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ كلَّ شَيْءٍ قابِلٌ لِمُخاطَبَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أيْ: قابِلٌ أنَّ اللهَ يُخاطِبُه؛ لأنَّ اللهَ خاطَبَ السَّماءَ والأرْضَ -وهِي جَماد- فقالَ: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، لكِنَّنا لَو خاطَبْنا الجَمادَ لَعُدَّ ذلِك سَفَهًا ونَوعًا مِن الجُنونِ؛ أمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فإنَّه يُخاطِبُ ما شاءَ مِن عِبادِه مِن عاقِلٍ وغَيره وجَمادٍ وغَيرِه؛ لأنَّ كلَّ مَن خاطَبه اللهُ فإنَّه يَفْهمُ خِطابَ اللهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ كلَّ شَيْءٍ خاضِعٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ سَواءٌ كَرِهَ أمْ رَضِيَ؛ لِقَولِه تَعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: كَمالُ خُضُوعِ الأرْضِ والسَّمواتِ للهِ عَزَّوَجَلَّ حَيثُ قالَتا: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّهُ يصِحُّ أنْ يُعبِّرَ عَن غيْرِ العاقِلِ بما يُعبَّرُ به عَن العاقِلِ،

إذا نُزِّلَ غيْرُ العاقِلِ مَنزِلةَ العاقِلِ لِقَولِه: ﴿طَآئِعِينَ﴾، فإنَّ هَذا الجَمْعَ جَمْعُ المُذكَّرِ السَّالِمِ لا يَصْدُرُ إلَّا مِنَ العاقِلِ وغيْرِه، يُقالُ: «طائِعاتٍ»، وما أشْبَهَ هَذا، لَكِنْ إذا نُزِّلَ غيْرُ العاقِلِ مَنزِلتَه بالخِطابِ صحَّ أنْ يُعامَلَ مُعامَلةَ العاقِلِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثْباتُ الطَّواعِيةِ والكراهيَةِ لغيْرِ العاقِلِ؛ لقَولِه تَعالَى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، فهَلْ هَذا يَعنِي أنَّ لغَيْرِ العاقِلِ إرادَةٌ؟ الجوابُ: نعَمْ؛ لأنَّ الطَّائِعَ لَه إرادَةٌ، ومَنْ يُتَصوَّرُ إكْراهُه فلَه إرادَةٌ أيْضًا، وإرادَةُ كلِّ شيْءٍ بحَسَبِه، وقَد ورَدَ أنَّ الحَصَى تَسبِّحُ بيْنَ يدَيِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولا تسْبِيحَ إلَّا بَعْدَ إرادَةٍ، وثبُتَ عَنِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أنَّه قالَ في أُحُدٍ: «**يُحِبُّنا ونُحِبُّه**»[1]، والمَحبَّةُ أخَصُّ مِنَ الإرادَةِ؛ وعلَى هذا: فهَذه الجَماداتُ الَّتي نحْن لا نفْقَه تسْبِيحَها لها إرادَة، وتسَبِّحُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل الخدمة في الغزو، رقم (٢٨٨٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، رقم (١٣٩٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (١٢)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت:١٢].

قولُه: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ يقول المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الضَّميرُ يَرجِعُ إلَى السَّماءِ؛ لأنَّها في معنَى الجَمعِ الآيلَةِ إلَيْه؛ أي صيَّرَها ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾]؛ قولُه: [﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾، الضَّمير يَرجِع إلَى السَّماءِ] حِينَئِذٍ يرِدُ إشْكالٌ، فإنَّ السَّماءَ مُفرَدٌ و«قَضاهُنَّ»، الضَّميرُ جمْعٌ، فكيْف كان الأمْرُ كذَلِك؟

يَقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَرجِعُ إلَى السَّماءِ؛ لأنَّها في معنَى الجمْعِ الآيلةِ إلَيه]؛ لأنَّ هَذه السَّماءَ المُفرَدَ يَؤُولُ إلَى جمْعٍ، ومِقدارُه: سبْعُ سَمواتٍ، فكأنَّه عبَّرَ عَنِ السَّماءِ بِاعْتِبارِ مَآلِها أنَّها سَتكونُ سبْعِ سَمواتٍ.

وقوْلُه: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ أيْ صيَّرهُنَّ، وعلَى هَذا فيَكونُ الضَّمِيرُ في «قَضاهُنَّ» المَفْعُولُ الأوَّلُ، و﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ المَفْعُولُ الثَّاني، ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ «قَضاهُنَّ» بمَعنَى: فَرَغَ مِنْهُنَّ، وعلَى هَذا فيَكونُ الضَّمِيرُ الأوَّلُ مَفعُولًا بِه و﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ حالًا؛ أيْ: حالَ كَونِها سبْعَ سَمواتٍ.

وعلَى كلٍّ: فَإنَّ السَّمواتِ كانتْ سَبْعًا.

وقَولُه: ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ قال المُفسِّرُ: [الخَمِيسُ والجُمُعةُ فُرِغَ مِنها في آخِرِ ساعةٍ

مِنه، وفِيها خُلِقَ آدَمُ؛ ولِذلِك لمْ يَقُلْ هُنا: «سَواءٌ»، ووافَقَ ما هُنا آياتُ خَلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ في سِتَّةِ أيَّامٍ]؛ أيْ: قَضاهُنَّ سَبْع سَمـواتٍ في يَومَيْنِ، و«فِي» للظَّرفِيَّةِ، والظَّرْفُ يَكونُ أوْسَعَ مِنَ المَظْرُوفِ، فيَحتَمِلُ أنَّه قضاهُنَّ في يَومَيْن مِن أوَّلِ اليَومَيْنِ إلَى آخِرِهُما، ويَحتَمِلُ أنَّه قَضاهُنَّ في يَومَيْن؛ أي: في هَذا الظَّرْفِ، وإنْ كانَ القَضاءُ لَم يَستوعبْ هَذا الظَّرْفَ، وهَذا هُو الَّذي مَشى علَيه المُفسِّرُ، وسيَتبيَّن ما فِيه إنْ شاءَ اللهُ.

وقَولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فُرِغَ مِنها في آخِر ساعَةٍ مِنه، وفِيها -أيْ في آخِرِ ساعَةٍ خُلِق آدَمُ- ولِذلِك لمْ يَقُلْ سَواءً]، بَينَما قال في خَلْقِ الأرْضِ: ﴿فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ﴾، وهُنا لمْ يَقُلْ: «في يَومَيْن سَواءً»؛ لِأنَّ بَعْضَ اليَومَيْنِ خُلِقَ فِيه آدَمُ، هَذا ما ذَهَب إلَيْه المُفسِّرُ، وفِيه نَظَرٌ ظاهِرٌ؛ لِأنَّ هَذا يَقتَضِي أنَّ آدَمَ خُلِقَ حِينَ خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ، يَعنِي في الأيَّام السِّتَّة الَّتي خُلِقتْ فِيها السَّمواتُ والأرْضُ، وهَذا لا شكَّ أنَّه خَطأٌ، بلْ إنَّه خُلِقَ بَعد ذلِك، لا أقُول: بمَلايِينَ، بَلْ بِمِئاتِ السِّنِين؛ لأنَّ آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ -كَما هُو مَعلُومٌ- جَعلَه اللهُ تَعالَى خَلِيفَةً لأُناسٍ قَبْلَه أو لِلجِنِّ الَّذِين سَكَنُوا الأرْضَ قَبْلَه، ولِهَذا لَـمَّا قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة:٣٠]، قالَتِ المَلائِكةُ: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة:٣٠]إلَى آخِرِه.

فدَعْوَى المُفسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ آدَمَ خُلِقَ في آخِرِ ساعَةٍ مِن يَوْمِ الجُمُعةِ الَّتي تمَّ فِيها خَلْقُ السَّمواتِ والأرْضِ غيْرُ صَحِيحٍ.

نَعم؛ خُلِقَ آدَمُ يوْمَ الجُمُعةِ لا شكَّ في هَذا، كَما ثبُتَ عَنِ النَّبيِّ[1] عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لكِنَّها ليْسَتِ الجُمُعة الَّتي تمَّ بها خلْقُ السَّمواتِ والأرْضِ؛ إذَنْ: خلَقَهنَّ في يومَيْن؛ يقُولُ المُفسِّرُ: [وَوافَقَ هُنا آياتُ خلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ في ستَّةِ أيَّامٍ] لأنَّ أرْبَعةَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة، رقم (٨٥٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أيَّامٍ كانَتْ لِخلْقِ الأرْضِ، ويَومَيْن كانَتْ لخَلْقِ السَّماء، فيَكونُ المَجمُوعُ ستَّة أيَّامٍ، وهَذا أمْرٌ مُتَّفقٌ علَيه بيْن المُسلِمين أنَّ خلْقَ السَّمواتِ والأرْضِ في ستَّةِ أيَّامٍ.

وفِي بعْضِ الآياتِ يَقولُ: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ لِأنَّ بيْن السَّمواتِ والأرْضِ مِنَ الآياتِ العَظِيمةِ ما اسْتَحقَّ أنْ يَكونَ قَسِيمًا لِخَلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ، قال تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ وقَد كُنَّا نَقولُ: كَيْف يَكونُ خَلْقُ ما بيْن السَّماءِ والأرْضِ قَسِيمًا لخَلْقِ السَّمـواتِ والأرْضِ مَع أنَّه في نَظَرِنا لا يُساوي شَيئًا بالنِّسبَةِ إلَى خلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ، إذْ كُنَّا لا نَعْلَمُ إلَّا أنَّ الَّذي بيْن السَّماءِ والأرْضِ هُو الغُيُومُ والهَواءُ فقَطْ، وكُنَّا نَقولُ: إنَّ القَمَرَ والنُّجُومَ والشَّمسَ كانَت في السَّماءِ. وكُنَّا نَقولُ: القَمَرُ في السَّماءِ الدُّنيا، والشَّمْسُ في السَّماءِ الرَّابِعةِ وزُحَلُ في السَّماءِ السَّابِعةِ، وكُنَّا نُنْشِدُ قوْلَ الشَّاعِرِ[1]:

زُحلُ شَرَى مِرِّيخَه مِن شَمْسِه ... فَتَزاهَـرَت بِعُطـارِدِ الأقْـمارُ

هَذه الكَواكِبُ السَّبْعةُ؛ والمَعنَى: مِن أعْلى إلَى أسْفَل، فـ«زُحَل» هَذا أعْلاها، «شَرى» المُشْتَرى، «مِرِّيخَه» المِرِّيخ، «مِن شَمسِه» الشَّمسُ، «فتَزاهَرت» الزّهرة، «بِعُطارد» عُطارد، «الأقْمار» القَمَر هُو الأخِيرُ، وعَلى هذا فتكونُ الشَّمْسُ في السَّماءِ الرَّابعةِ، وكُنَّا نَظُنُّ أنَّ هَذه مُرَصَّعةً بالسَّماءِ كَما يُرصَّعُ المِسْمارُ على الخَشَبةِ!

لكِن تَبيَّنَ الآنَ أنَّ هَذه في أجْواءٍ بيْن السَّماءِ والأرْضِ ولَيْسـت مُرَصَّعةً في السَّمواتِ والأرْضِ، وأنَّ السَّماءَ مِن فَوقِها بأمَدٍ بَعِيدٍ، وحِينَئِذٍ تَبين الحِكْمَةُ مِن كَوْنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يَجْعَلُ خَلْقَ ما بيْنَ السَّماءِ والأرْضِ عَدِيلًا لِخَلْقِ السَّماءِ والأرْضِ.

---

(١) غير منسوب، وانظره في: الفروق للقرافي (٢/ ١٨٣)، المواعظ والاعتبار للمقريزي (١/ ١٣)، حاشية ابن عابدين (١/ ٢٩).

ثمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ الَّذي أمَر به مَن فِيها مِن الطَّاعةِ والعِبادةِ] «أوْحَى في كلِّ سَماءٍ أمْرَها»، يَعنِي: قدَّرَ بِما أوحاه في كلِّ سماءٍ أمْرَها، فكُلُّ سَماء لَها مَلائِكةٌ خاصَّةٌ، وعِباداتٌ خاصَّةٌ، وأجْواءٌ خاصَّةٌ، وكُلُّ سَماءٍ تَخْتَلِفُ عَنِ السَّماءِ الأُخْرَى، حتَّى إنَّ بَعْضَهم يَقولُ -وَهُو مِن الإسْرائِيلِيَّاتِ الَّتي لا تُصَدَّقُ وَلا تُكذَّبُ-: إنَّ جِرْمَ السَّماءِ الدُّنيا يَخْتَلِفُ عَن جِرْمِ السَّماءِ الثَّانيَةِ، والثَّانيةُ عَنِ الثَّالِثةِ، كُلُّ واحِدةٍ مِن مادَّةٍ أُخرَى غَيرِ مادَّةِ السَّماءِ الأُخْرَى، والله أعْلَمُ.

وقَولُه: ﴿أَمْرَهَا﴾ مُفْرَدٌ مُضافٌ فيَعُمُّ جَميعَ الأُمُورِ، فجمِيعُ ما يَتعلَّق بكُلِّ سماءٍ قَد أوْحاه اللهُ بِها.

وَقَولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ [﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ الَّذي أَمَرَ بِه مَن فِيها مِنَ الطَّاعَةِ والعِبادَةِ] صَرَفَ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأمْرَ هُنا إلَى الأمْرِ الشَّرْعيِّ لا الأمْرَ الكَوْنيَّ؛ ولِذلِكَ قال: [﴿أَمْرَهَا﴾ الَّذي أمَرَ بِه مَن فِيها مِنَ الطَّاعَةِ والعِبادَةِ] ويَحتَملُ أنْ يَكونَ المُرادُ بِالأمْرِ هُنا الشَّأنُ، أيْ أوْحَى في كُلِّ سماءٍ شَأنَها، فيَشْمَلُ أحْوالَ السَّماءِ وأحْوالَ مَن فِيها، وهَذا أعَمُّ مِمَّا ذَكَرَه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإنَّنا نُقرِّرُ قاعِدةً في التَّفسِيرِ: إذا ورَدَ تَفْسِيرانِ في الآيَةِ أحَدُهما أعمُّ أخَذْنا بالأعمِّ؛ لأنَّ الأعمَّ يدْخُلُ فِيه الأخصُّ ولَا عَكْسَ؛ فَإذا قُلْنا: «شَأنُها» صارَ أعمَّ مِن أنْ نَقُولَ: «إنَّه أمْرُها الشَّرْعيُّ»؛ لأنَّ هَذا أخصُّ، فالحَمْلُ على الأعمِّ أوْلَى.

وقَولُه: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ انْظُرْ إلَى خَصائِصِ السَّماءِ الدُّنْيا ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [بنُجُوم] ﴿وَحِفْظًا﴾ [مَنْصُوبٌ بِفِعلِه المُقدَّرِ؛ أي: حَفِظْناها مِنِ استِراقِ الشَّياطِينِ السَّمْعَ بالشُّهُبِ] «زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا»، «الدُّنيا» يَعنِي: القُربَى، وسُمِّيَتْ دُنيا لأنَّها قَريبَةٌ مِنَ الأرْضِ، فهِي أقْرَبُ السَّمواتِ، زيَّنَها بمَصابِيحَ،

والمَصابِيحُ هِي النُّجُومُ، وسُمِّيتْ مَصابِيحَ؛ لأنَّها بمَنزِلةِ القَنادِيلِ المُعلَّقةِ بالسَّقْفِ، فإنْ قال قائِلٌ: ظاهِرُ الآيَةِ أنَّ هَذه المَصابِيحَ مُرصَّعةٌ بالسَّماءِ!

قُلْنا: إنْ كان هَذا ظاهِـرُها فالواقِعُ خِلافُ ذلِك؛ ولا مانِـعَ مِن أنْ تُـزيَّنَ بمَصابِيحَ وإنْ لمْ تَكُنْ مُلتَصِقةً بها، أرَأيْتَ لَو أنَّك دَلَّيْتَ مَصابِيحَ مِن سَقْفٍ عالٍ، ثُمَّ كُنْت تَحْت هَذه المَصابِيحِ، أفَلا تَكونُ هَذه المَصابِيحُ زِينَةً لِلسَّقْفِ، وإنْ كانتْ غيْرَ لاصِقَةٍ به، بَل جِهتَها -أي جِهةَ هَذا السَّقف- مُزيَّنةً بِهَذه المَصابِيحِ، فلا يَلزَمُ مِن قوْلِه: «زيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بمَصابِيحَ» أنْ تَكونَ مُرصَّعةً بالسَّماءِ، بلْ نَقولُ: هِي مُزيَّنةٌ بِها وإنْ كان بَينَها وبيْن السَّماءِ مَسافةٌ.

وقَولُه: ﴿وَحِفْظًا﴾ أي: حَفِظْناها حِفْظًا، فالسَّمـاءُ مَحفُوظَةٌ، كما قال تَعالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢]، ولِهَذا لمْ يَستَطِعْ جِبريلُ أنْ يَدْخُلَ مِن السَّمواتِ مَع أنَّه نازِلٌ مِنها حِين كان مَعه مُحَمَّدٌ ﷺ حتَّى استَأذَن له، ففي حدِيثِ المِعْراج[1]: «إنَّ جِبرِيلَ لـمَّا وصَل بالنَّبيِّ ﷺ إلَى السَّماءِ الدُّنيا اسْتَفتَح؛ فقِيل: مَن هذا؟ قال: جِبرِيلُ، قِيل ومَن مَعَك؟ قال: مُحَمَّد، فقِيل لَه: هَل أُوحِي إلَيْه؟ قال: نَعَم، ففُتِح لَه»؛ لِأنَّ السَّماءَ مَحفُوظةٌ، لا يُمكِن أنْ يَدخُل أحَدٌ فيها إلَّا بِإذْنِ الله؛ فإنَّ جِبْرِيلَ قال: «مَعِي مُحَمَّدٌ، فقِيلَ: له: وقَد أُرسِلَ إلَيه؟ قال: نعَم، قالوا: مَرْحبًا بِه؛ فنِعْم المَجِيءُ جاء»، ثمَّ فَتَحوا لَه، فدَخَل السَّماءَ الدُّنيا ثمَّ الثَّانيَةَ والثَّالِثةَ...، وهكَذا، ممَّا يدُلُّ على إتْقانِ حِفْـظِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للسَّمـواتِ، وأنَّها مُتقَنةٌ، علَيْها مَلائِكـةٌ لا يُمكِنُ أنْ يَتَجاوَزها أحَدٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، رقم (١٦٤)، من حديث مالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقَولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَحِفْظًا﴾ مَنْصُوبٌ بِفعلِه المُقدَّرِ؛ أي: حَفِظناها حِفْظًا مِنِ اسْتِراقِ الشَّياطِين السَّمْعَ بالشُّهُبِ...] إلَى آخِرِه؛ فقَوْله: ﴿وَحِفْظًا﴾ مَصْدرٌ عامِلُه مَحْذُوفٌ، والتَّقدِيرُ: حَفِظْناها حِفْظًا؛ ومِن أيِّ شَيْءٍ حَفِظْناها؟ قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحِجر:١٦-١٧]، فَيكونُ المُرادُ بالحِفْظِ حَفِظُها مِنَ الشَّياطِين؛ لِأنَّ القُرْآنَ يُفسِّرُ بَعضُه بَعضًا.

وأمَّا شَأنُ الشَّياطِين بالنِّسْبةِ للسَّمْعِ فإنَّها تَصْعَدُ فيَرْكَبُ بعضُها بعْضًا، إلَى أنْ تَصِلَ إلَى السَّماءِ، فتَستَمِعُ إلَى أخْبارِ السَّماءِ، وما تَتحدَّثُ به المَلائِكةُ، ثمَّ تنْزِلُ بِه إلَى الأرْضِ، وتُلقِيه إلَى الكُهَّانِ الَّذين لكُلِّ واحِدٌ مِنهُم رَئِيٌّ مِن الجِنِّ، والكاهِنُ يأخُذُ هَذا الخَبرَ ويُضِيفُ إلَيهِ أخْبارًا أُخرَى، ثمَّ يُحَدِّثُ النَّاسَ بذلِك؛ ومِن المَعلُومِ أنَّ ما سُمِعَ في السَّماءِ لا بُدَّ أنْ يَكونَ، فتكونُ هَذه الكَلِمةُ الواحِدة -التي هي صدق- مَثارًا لإعْجابِ النَّاسِ بالكُهَّانِ والرُّجوعِ إليهم؛ ولِهذا كانُوا بالجاهلِيَّةِ يَتَحاكَمُون إلَى الكُهَّان؛ فهَذه هِي قَضِيَّةُ استِراقِ السَّمْعِ.

ثمَّ إنَّ اللهَ تَعالَى حَفِظ السَّماءَ وقْتَ بَعثَةِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- وصارَتِ الشَّياطِينُ إذا حاولَت الاستِماعَ أرْسَلَ اللهُ تعالى عليها شهابًا يحرقُها وتهلِكُ.

وهَل بَقِي هَذا الحِفْظُ بعْد موْتِ الرَّسُولِ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أو لا؟

الجَوابُ أنْ يُقالَ: اللهُ أعْلَمُ، وَلا نَدرِي، لكِنَّها حُفِظتْ في عَهْدِ النُّبوَّةِ مِنِ اسْتِراقِ السَّمْعِ، أمَّا الآنَ فاللهُ أعْلَمُ فقَدْ يَكونُ ذلِك وقَد لا يَكونُ؛ لأنَّه ليْس هُناك نبِيٌّ حتَّى يَختَلِطَ المَسمُوعُ المُستَرَقُ بالوَحْيِ الصَّحِيحِ.

وقَولُه تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ المُشارُ إلَيْه ما سَبَق مِن قَولِه: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ إلى آخره؛ قَولُه: ﴿تَقۡدِيرُ﴾ أيْ مُقدَّرٌ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾، أو ﴿تَقۡدِيرُ﴾ مَصدَرٌ على بابِه، ويَكونُ المُشارُ إلَيْه فِعْلُ اللهِ لِهَذا الشَّيْءِ، فعِندَنا الآن كَلِمةُ ﴿تَقۡدِيرُ﴾ مَصْدَرٌ، يَجُوزُ أنْ تَكونَ بمَعنَى اسْمِ المَفعُولِ، ويَكونُ المَعنَى: ذلِك مُقدَّرُ العَزِيزِ، ويَجُوزُ أنْ تَكونَ مَصْدرًا وهُو فِعْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ويَكونُ هَذا أيْضًا مَعنًى صَحيحًا وكِلاهما مُتلازِمان؛ لِأنَّه إذا كان هَذا الشَّيْءَ مُقدَّرُ اللهِ فَهُو مِن تَقدِيرِه يَعنِي ناتِجٌ عَن تَقدِيرِه.

فقَولُه: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ أي: الَّذي قَدَّره هُو ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾، و﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ هُنا مُناسَبَتُها، أنَّ المَسْأَلَةَ تَحتاجُ إلَى عِزَّةٍ وقُوَّةٍ.

والعِزَّةُ؛ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ في مُلْكه] يَعنِي الَّذي لَه العِزَّةُ التَّامَّةُ في مُلْكه، وفِيه شَيْء مِن القُصُورِ، فلَم يُبيِّن لنا ما هِي العِزَّةُ، والعِزَّةُ قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنَّها تَنْقسِمُ إلَى ثَلاثَةِ أقْسامٍ: عِزَّةُ القَدْرِ، وعِزَّةُ القَهْرِ، وعِزَّة الِامْتِناعِ؛ ثَلاثَة مَعانٍ.

١- أمَّا عِزَّةُ القَدْرِ فمَعناها الشَّرفُ، يَعنِي: أنَّه ذُو قَدْرٍ عَظيمٍ بالِغِ العِظَمِ.

٢- وعِزَّةُ القَهْرِ يَعنِي: أنَّه قاهِرٌ ولا يُغلَبُ.

٣- وعِزَّةُ الِامْتِناعِ؛ أيْ يَمتَنِعَ أنْ ينالَه سُوءٌ جَلَّوَعَلَا بأيِّ حالٍ مِن الأحْوالِ.

ولِمُلاحَظةِ هَذا المَعنَى الثَّالِثِ نَقولُ: إنَّه مُشتَقٌّ مِن قَولِه: أرْضٌ عَزازٌ، عَزازٌ يَعنِي: قَوِيَّةٌ صُلْبَةٌ، ونَحْن نُسمِّيها باللُّغَةِ العامِّيَّةِ: «الأرْض عزا»، يَعنِي: صُلْبَةٌ لَيْسَت لَيِّنَةً كالرَّمْلِ والرَّوْضِ، ولكِنَّها صُلْبَةٌ.

أمَّا ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ فهِي صِفَةٌ مُشَبَّهةٌ، ويَجُوزُ أنْ تَكونَ مِن بابِ المُبالَغةِ؛ لِأنَّ فَعِيلٌ

يَصِحُّ أنْ تَكونَ صِفَةً مُشبَّهةً، ويَصِحُّ أنْ تَكونَ صِيغَةَ مُبالَغةٍ، ومَعناها ذُو العِلْمِ، فهُو ذُو العِلمِ، وعِلْمُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ واسِعٌ؛ قال اللهُ تَعالَى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾ [الطَّلاق:١٢]، فعِلْمُه تَعالَى واسِعٌ شامِلٌ لكُلِّ شَيْءٍ، يَعلَمُ ما كان فَلا يَنْساهُ، ويَعلَمُ ما يَكون فَلا يَجْهلُه، ويَعْلم مَا لم يَكُن لو كانَ كيفَ كانَ يكُونُ، يَعنِي لَيس يَعلَمُ أنَّ هَذا الشَّيءَ يَقَعُ فقَطْ، بلْ يَعلَمُ أنَّه يَقَعُ ومَتَى يَقَعُ وكَيف يَقَعُ وأينَ يَقَعُ، مِن كلِّ جِهَةٍ.

وقَد فصَّل اللهُ تَعالَى دَقائِقَ العِلْمِ في قَولِه تَعالَى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

وعِلْمُنا بأنَّه عَلِيمٌ يَستَوجِبُ مِنَ النَّاحِيةِ المَسلَكِيَّةِ بالنِّسبَةِ للْعَبدِ: أنَّه إذا علِم أنَّ اللهَ بكُلِّ شَيْءٍ علِيم: أنْ يَخافَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وأنْ يَقومَ بِطاعَتِه وأنْ يَدَعَ مَعصِيَتَه؛ لأنَّه يعْلَمُ أنَّ اللهَ تَعالَى عالِمٌ بِه، حتَّى وإنْ خَفِيتَ على النَّاسِ؛ فإنَّك لَن تَخفَى على اللهِ، بَلْ إنَّ اللهَ يَعلَمُ مِنْ نَفْسِك ما لا تَعْلمُه أنْت، فأَنْت تَعْلَم مِن نَفسِك ما يُمكِنُ أنْ تُحِيطَ به، لكِنَّ اللهَ يَعلَمُ مِن نَفسِك ما لا تُحِيط بِه، فيَعلَم مُستَقبَلَك ومَآلَك وحالَك وأنْت لا تَعلَمُ، وهَذا يُوجِبُ لِلعَبدِ المُؤمِنِ بذلِك: أنْ يَخافَ ربَّه في السِّرِّ والعَلَنِ، حتَّى لَو كُنْت بِحُجرَةٍ مُظلِمةٍ لَيس عِندَك أحَدٌ، وأرَدْتَ أنْ تُغضِبَ اللهَ، فاعلَم أنَّ اللهَ تَعالَى يَراك.

مِن فوائِدِ الآيَةِ الكَريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ مُدَّةَ خَلْقِ السَّمواتِ أقلُّ مِن مُدَّةِ خلْقِ الأرْضِ مَع أنَّ السَّمواتِ أعظَمُ، لكِن لـمَّا كانَت الأرْضُ مَوضُوعةً لِلأنامِ- كَما قال تَعالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ

وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ [الرَّحمن:١٠] -كان خَلْقُها أكثَرَ مُدَّةً؛ لبَيانِ عِنايةِ اللهِ تَعالَى بِهَذه الأرْضِ الَّتي وضَعَها لِلأنامِ، ولِيعلَمَ الأنامُ الَّذِين على الأرْضِ أنَّ العِبرَةَ بالإِتْقانِ لا بِالسُّرْعةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ اللهَ أتمَّ خَلْقَ السَّمـواتِ حِين أوْحَى في كلِّ سَماءٍ أمْرَها، ورتَّبَها التَّرتِيبَ المُحكَمَ المُتقَنَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ اللهَ تَعالَى خَلَقَ هَذه النُّجومَ لثَلاثِ فوائدَ:

الفائِدةُ الأُولَى: زِينَةُ السَّماءِ.

والفائِدةُ الثَّانيَةِ: حِفْظُ السَّمواتِ مِنَ الشَّياطِينِ.

والفائِدةُ الثالِثة: ذَكَرَها اللهُ تَعالَى في سُـورَةِ النَّحْلِ في قَولِه تَعالَى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النَّحل:١٦]؛ ولِهَذا قال قَتادةُ -وهُو مِن أئِمَّةِ التَّابِعِين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: خَلَق الله هَذه النُّجُومَ لِثَلاثٍ؛ زِينَةً لِلسَّماءِ، ورُجومًا لِلشَّياطِينِ، وعَلاماتٍ يُهتَدى بِها[1].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كَمالُ إتْقانِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِمَخْلُوقاتِه؛ لِقَولِه: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، وَهَذا التَّقْدِيرُ لا شكَّ أنَّه تَقْدِيرٌ مُحكَمٌ مُتْقَنٌ مِن جَمِيعِ الوُجُوهِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثْباتُ اسمَيْن مِن أسْماءِ اللهِ وهُما «العَزِيزُ، العَلِيمُ»، وهَذان الاِسْمان يَتَضمَّنان صِفتَيْن، هُما العِزَّةُ والعِلْمُ.

وهَلْ في «العَزِيزِ» ما يُسمَّى بالحُكْمِ أوْ بِالأثَرِ؟

الجَوابُ: نَعَم، بِناءً على أنَّ مِن مَعناه عِزَّةِ القَهْرِ، والقاهِرُ لا بُدَّ مِن شَيْءٍ مَقْهُورٍ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٩٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٢٩١٣)، وعبد بن حميد كما في فتح الباري (٦/ ٢٩٥)، وعلقه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب في النجوم.

حتَّى يتِمَّ بِه القَهْرُ، فعلى هَذا يَكونُ الإيمانُ بهَذَين الاِسْمَيْن يَتَضَمَّنُ ثلاثَةَ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: الإيْمانُ بِالاِسْمِ اسْمًا للهِ.

والثَّاني: الإيمانُ بِالصِّفَةِ.

والثَّالِثُ: الإيمانُ بِالأثَرِ، وإنْ شِئْتَ فَقُلْ: بِالحُكْمِ.

الآيتان (١٣، ١٤)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فُصِّلَت:١٣-١٤].

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أيْ كُفَّارُ مَكَّةَ]، ومَعلُومٌ أنَّ الآيَةَ لمْ تَنُصَّ على كُفَّارِ مَكَّةَ، لكِنَّ السِّياقَ يدُلُّ على ذلِك، حيْثُ قال: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾؛ أي: كُفَّارُ مَكَّةَ عَن الإيْمانِ بعْد هَذا البَيانِ ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾ خَوَّفْتُكم ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾؛ أيْ: عَذابًا يُهلِكُكم مِثْلَ الَّذي أهْلَكَهم].

قَولُه تَعالَى: ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾ الإنْذارُ فَسَّره المُفسِّرُ بأنَّه [التَّخوِيفُ]، وهُو كذَلِك؛ لِأنَّ المُنْذِرَ هُو مَن تَكلَّم بِكلامٍ يُخوِّفُ به غَيْرَه؛ ولِهَذا قِيل: إنَّ الإنْذارَ هُو الإعْلامُ المُتضَمِّنُ للتَّخوِيفِ.

وقَولُه: ﴿صَاعِقَةً﴾ الصَّاعِقةُ ما يَصْعَقُ المَرْءَ؛ أي: يُهلِكُه ﴿مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾. والمِثْلِيَّةُ هُنا لا تَقتَضي -واللهُ أعْلَمُ- المُماثَلةَ مِن كُلِّ وَجْهٍ، بَلْ مِثْلِيَّةٌ في أصْلِ الإهْلاكِ، أو في مَآلِ العَذابِ، ويَحتَمِلُ أنَّ اللهَ تَعالَى أنْذَرَهم مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وثَمُودَ.

وصاعِقَةُ عادٍ وثَمُودَ نَوعان؛ الرَّجْفَةُ، والرِّيحُ الشَّدِيدةُ، الَّذِين أُهلِكوا بالرِّيحِ الشَّدِيدَةِ هُم عادٌ، والَّذِين أُهلِكوا بالرَّجْفَةِ والصَّيحَةِ هُم ثَمُودٌ، وإنَّما ذَكرَ اللهُ عادًا

وَثَمُودَ لِأَنَّ العَرَبَ يَعرِفُونَهما، فَهُم يَمُرُّون بدِيارِ ثَمودَ إذا ذَهَبوا إلَى الشَّامِ، وهُم كذَلِك يَعرِفون مَحَلَّ عادٍ بِالأحْقافِ، ويَذْكُرون ويَتَناقَلون ما جَرى لَهم مِن العَذابِ، وإلَّا فَهُناك أُناسٌ أيضًا أهلَكهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ ولَكِن لـمَّا كان هؤلاءِ القَومُ -أعْنِي: عادًا وَثَمُودَ- هُم الَّذِين تَعرِفُهم العَرَبُ؛ أي: كُفَّارُ مكَّةَ، نَصَّ علَيْهم.

قَولُه: ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، عادٌ هُم قَومُ هُودٍ، وثَمُودُ هُم قَومُ صالِحٍ؛ فَأُهلِكتْ عادٌ بالرِّيحِ. والحِكْمَةُ مِن ذلِك أنْ يُرِيَهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ ضَعْفَهم، وكانُوا قَد افْتَخَروا بِقُوَّتهم فَقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، فَقالَ اللهُ تَعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾. وَأمَّا ثَمُودُ فأهْلَكَهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِرَجْفَةٍ وصَيحَةٍ، صِيحَ بِهِم ورَجَفَتْ بِهم الأرْضُ فهَلَكوا.

وقَولُه: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [فُصِّلَت:١٤] إلَى آخِرِه، ﴿إِذْ﴾ هَذه ظَرْف للتَّعلِيل، يَعنِي أنَّ تَعلِيلَ الصَّاعِقةِ الَّتي، أهْلَكَتْهم سَببُ ذلِك أنَّ الرُّسُلَ جاءَتْهم مِن بَيْن أَيدِيهِم ومِن خَلْفِهم، قال المُفَسِّرُ: [أيْ مُقبِلين علَيْهم ومُدبِرين عَنْهم فَكَفَروا- كَما سيَأتِي- والإهْلاكُ في زَمَنِه فَقَط].

وقَولُه: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يَقولُ المُفسِّرُ: [أيْ مُقبِلِين علَيْهم ومُدبِرين عَنْهم] يَعنِي: تارَةً يُقبِلُون فيَدعُون وتارَةً يُدبِرون فيُهدِّدون إذا لمْ يُؤمِنوا، ويَحتَمِلُ أنْ يَكونَ المُرادُ: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ أي: أتَوْهُم بِالآياتِ الماضِيةِ والآياتِ المُستَقبَلةِ، فلمْ يُقَصِّروا في بَيانِ الحَقِّ، بلْ جاؤُوا بِبَيانِ الحَقِّ مِن كُلِّ وجْهٍ.

وقَولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فكَفَروا] هَذا هُو المَقْصُودُ مِنَ الإنْذارِ، أنَّهم كَفَروا فَأُهلِكوا؛ ولِهَذا قال: [والإهْلاكُ في زَمَنِه فقَط]؛ أيْ: في زَمَنِ الكُفْرِ ولَيْس في زَمَنِ المَجِيءِ؛ لِأنَّ الرُّسُلَ جاءَتْ أوَّلًا ثُمَّ دَعَتْ ودَعَتْ، فلَمَّا أصَرُّوا على كُفرِهم أُهلِكُوا.

وقَولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيْ بِأنْ لا ﴿تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُوٓاْ﴾] أفادَنا المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ (أنْ) هُنا مَصْدَرِيَّةٌ، والتَّقدِيرُ: أنْ لا تَعبُدوا، أي: جاءَتْهم بِعَدمِ عِبادةِ غيرِ اللهِ. ويَحتَمِلُ أنْ تَكونَ (أنْ) تَفسِيرِيَّةً؛ لِأنَّه سَبَقها مَعنَى القَولِ دُون حُرُوفِه؛ لِأنَّ الرُّسُلَ جاؤُوا بِكَلامٍ وَوَحْيٍ يَتكلَّمون به، ففِيه مَعنَى القَولِ دُون حُرُوفِه، وكُلَّما جاءَتْ (أنْ) بَعْد ما فِيه مَعنَى القَولِ دُون حُرُوفِه، فَإنَّهم يُسمُّونَها تَفْسِيرِيَّةً، مِثْل قَولِه تَعالَى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [المؤمنون:٢٧] أَوْحَينا أنِ اصْنَعِ الفُلْكَ ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي﴾ [النَّحل:٦٨]، فـ(أنْ) هُنا تَفْسِيرِيَّةٌ، فكُلَّما جاءَتْ بَعد ما تَضمَّن مَعنَى القَوْلِ دُون حُروفِه؛ فإنَّها تَكونُ تَفسِيرِيَّةً.

إذَنْ: (أنْ) هُنا يَحتَمِلُ أنْ تَكونَ مَصدَرِيَّةً كَما مَشَى عَلَيها المُفسِّرُ، وأنْ تَكونَ تَفسِيرِيَّةً، يَنبَنِي على هَذا الخِلافِ كَيف نُعرِبُ (لا)، إنْ أعْرَبْنا (أن) مَصدَرِيَّةً فـ(لا) نافِيةٌ والفِعْلُ مَنصُوبٌ بأنْ، وإنْ أعَرْبناها تَفسِيرِيَّةً فـ(لا) ناهِيةٌ، والفِعْلُ مَجزُومٌ بـ(لا)، فإعْرابُ (تَعْبُد) إذَن يَتَنزَّلُ على الخلافِ في (أنْ)، إذا جَعلْناها تَفسِيرِيَّةً يَكونُ الفِعلُ مَجزُومًا بـ(لا) النَّاهيَةِ، وإذا أعرَبْنا (أنْ) مَصدرِيَّةً فـ(تَعْبُد) مَنصُوبةٌ بـ(أنْ)، وتَكونُ على هَذا (لا) نافِيةً بالفِعْلِ، وعلى الأوَّلِ تَكونُ ناهِيةً.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُوٓاْ﴾ إلَى آخِرِه، لا تَعبُدوا إلَّا اللهَ هُو مَعنَى قَولِ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ؛ لِأنَّ (لا إلَه) بمَعنَى لا مَعبُودَ حَقٌّ إلَّا اللهُ، وهَؤُلاء يَقولُونَ: لا تَعبُدوا إلَّا اللهَ فهِي بمَعنَى لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وهِي بمَعنَى قَولِه تَعالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، ومتَى حقَّقَ الإنْسانُ هَذه الكَلِمةَ؛ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، فلا بُدَّ أنْ يَقومَ بطاعَةِ اللهِ، لا بُدَّ، ما دُمْتَ تَشْهدُ بأنَّه لا إلَهَ إلَّا اللهُ فَلا بُدَّ أنْ تَتَّخِذَ الوَسائِلَ الَّتي تُوصِلُكَ إلَى هَذا الإلَه الَّذي شَهِدْتَ أنَّه لا إلَهَ سِواه.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿قَالُوا﴾ الفاعِلُ قَومُ عادٍ وثَمُودَ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ﴾ علَيْنا ﴿مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ علَى زَعمِكم ﴿كَافِرُونَ﴾ [فُصِّلَت:١٤]]، هَذا الجَوابُ جَوابٌ غايَةٌ في السُّقُوطِ، لَو شاءَ رَبُّنا أنْ نَهتَدِيَ وألَّا نعبُدَ إلَّا اللهَ لَأنْزَلَ مَلائِكَةً، وعلَى هَذا التَّقدِيرِ الَّذي قُلْتُ لكُم يَكونُ مَفعُولُ شاء مَحْذُوفًا؛ أيْ: لَو شاءَ ربُّنا ألَّا نَعْبُدَ إلَّا إيَّاه لَأنْزَلَ مَلائِكَةً. فـ﴿لَوْ﴾ شَرْطِيَّةٌ، و﴿شَاءَ﴾ فِعْلُ الشَّرْطِ، وجَوابُ الشَّرْطِ ﴿لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾، ومَفعُولُ شاء مَحذُوفٌ، التَّقْدِيرُ: لَو شاءَ ألَّا نَعبُدَ إلَّا إيَّاهُ لَأنْزَلَ مَلائِكةً، هَذه الحُجَّةُ حُجَّةٌ باطِلةٌ؛ لِأنَّ المُرسَلَ إلَيْهم بَشَرٌ فكَيف يُنزِلُ اللهُ مَلائِكةً على بَشَرٍ؟!

ثُمَّ إنَّ اللهَ قالَ في جَوابِ هَذا: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام:٩]، يَعنِي بِصُورَة رَجُلٍ، فَلا يُمكِنُ أنْ نُنزِّل مَلَكًا بِصُورَةِ المَلَك على بَشَرٍ، ولَو فُرِضَ أنَّ اللهَ أنْزَلَ مَلَكًا لَجَعلَه بصُورَةِ البَشَرِ، وحِينَئِذٍ تَعُودُ الشُّبْهةُ ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩]، أرَأيْتُم لَو أَرْسَلَ الله إلَى بَنِي آدَمَ جِبرِيلُ ولَه سِتُّ مِائةِ جَناحٍ قَدْ سدَّ الأُفُقَ، أيَتَطابَقُ هَذا مَع النَّاسِ؟ أبَدًا، بلْ يَهرَبون مِنه ولا يَقِفون أمامَه، فَإذا كان كذَلِك بَطَلَتْ هَذه الحُجَّةُ؛ لأنَّنا نَقولُ لِهَؤُلاء ولِمَن قال مِثلَ قَولِهم: لَو أنْزَل اللهُ مَلَكًا لَجعَلَه رجُلًا، وحِينَئِذٍ تَعودُ الشُّبهَةُ، إذَن الحُجَّةُ باطِلةٌ.

وقَولُه: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ الفاءُ هُنا للتَّفرِيعِ؛ أيْ: فبِناءً على أنَّه لمْ يُنزِلْ مَلائِكةً إنَّا بما أُرسِلْتم به كافِرون -نَسْألُ اللهَ العافِيَةَ!- أكَّدُوا كُفرَهم وقالُوا: ﴿بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾، فقَدَّم المَفعُولَ؛ لأنَّ ﴿بِمَا أُرْسِلْتُم﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿كَافِرُونَ﴾، وقُدِّمَ علَيه؛ لِوجهَيْن:

الوَجْهُ الأوَّلُ: مُراعاةُ فَواصِلِ الآياتِ؛ فلَو قال: فإنَّا كافِرُون بما أُرسِلْتم بِه

لمْ تَتناسَبِ الفَواصِلَ، ولَمَّا قال: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ تَناسَبتِ الفَواصِلُ، ومُراعاةُ المُناسَبةِ أمْرٌ ثابِتٌ؛ أرَأيتُم مُوسَى وهارُون؟ الأفْضَلُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهُو الَّذي يُقدَّمُ في القُرآنِ إلَّا في آيَةٍ واحِدةٍ مِن أجْلِ التَّناسُبِ في سُورةِ طه، ذَكَرَ اللهُ عَن السَّحَرةِ أنَّهم قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠]، مَع أنَّهم كَانوا قالوا: «آمَنَّا بِرَبِّ مُوسى وهارُون»، هَذا قَولُ السَّحَرةِ، لكِن لـمَّا نقَلَه اللهُ عَنْهم في سُورَةِ طه، قَدَّم ذِكْرَ هارُون لِتَناسُبِ الآياتِ مَع أنَّ مُوسى أفْضَلُ، ومُوسَى هُو الَّذي نَطَقَ بتَقدِيمِه السَّحَرةُ، كَما في آياتٍ عدَّةٍ، لكِن الله عَزَّوَجَلَّ نَقَل كَلامَهم في سُورَةِ طه مُقدِّمًا هارُون على مُوسى لِتَناسُب الفَواصِلِ هُنا.

الوَجْهُ الثَّاني: الحَصْرُ، كَأنَّ هؤُلاء المُكذِّبين المُعانِدين قالُوا: لَو أنَّا آمنَّا بكُلِّ شَيءٍ لكَفَرنا بما أُرسِلتُم به، فكَأنَّهم يَقولُون: لا نَكفُرُ بأيِّ شَيْءٍ إلَّا بِما أُرسِلتُم به، وتَقدِيمُ ما حقُّه التَّأخِيرُ يُفِيدُ الحَصْرَ، انْظُر إلَى العِنادِ، قالُوا: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ كَأنَّهم قالُوا: لا نَكفُر إلَّا بما أُرسِلتُم به، هَذا مَعنَى الحَصْر، فيَكونُ هَذا أبْلَغُ في العِنادِ، كأنَّهم يَقولُون: لو آمنَّا بكلِّ شَيْءٍ، فلَن نُؤمِن بِما أُرْسِلتم به.

ثُمَّ إنَّ قَولَه: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾، قالُوه على سَبِيل التَّنزُّلِ؛ ولِهَذا قال المُفَسِّرُ: [على زَعمِكُم]، وإنَّما قُلْنا: إنَّهم قالُوه على سَبِيلِ التَّنزُّلِ؛ لأنَّهم لَو قالُوه على سَبيلِ الإقْرارِ لكانُوا مُؤمِنين.

في هَذه الآيَةِ أُمِرَ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أنْ يُنذِرَ هَؤلاء المُكذِّبين بِعذابِ مَن قَبْلِهم لِقَولِه: ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ﴾ [فصلت:١٣].

فإنْ قالَ قائِلٌ: كَلامُ الله عَنْ قَومِ عادٍ وثَمُودَ ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ هَل هُو اللَّفْظُ الَّذي قالَه القَومُ أمْ أنَّ هذا لِسانُ حالِهم؟

فالجَوابُ: لا، قالُوه هُم ولُغَتُهم غَيرُ عَربِيَّةٍ، لكِنَّ اللهَ يَنقُلُ عَنهم بالمَعنَى.

وقَولُهم هَذا كما يُقالُ: تَصوُّرُ هَذا القَولِ كافٍ في ردِّه وإبْطالِه، يَعنِي حتَّى كُفَّارُ قُريشٍ قالُوا هَكذا في سُورةِ الأنْعامِ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ [الأنعام:٨-١٠].

مِن فَوائِدِ الآيَتينِ الكَريمَتينِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثْباتُ القِياسِ؛ لِأنَّ إنْذارَ المُكذِّبين إذا لمْ يَكُنِ المُرادُ بذَلِك قِياسُ حالِ المُكذِّبين للرَّسُولِ ﷺ على حالِ المُكذِّبين لِهُودٍ وصالِحٍ لمْ يَكُنِ لِهَذا الإنْذارِ فائِدةٌ، لَولا القِياسِ ما كان لِهذا الإنْذارِ فائِدةٌ.

إذَن ففِيه جَوازُ القِياسِ والاِعتِبارِ بالنَّظِيرِ والمُماثِلِ، ولقَد قال اللهُ تَعالَى في آيَةٍ أُخرَى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١] وإثْباتُ القِياسِ دَلِيلًا، مِن مَحاسِنِ الشَّرِيعَةِ؛ لِأنَّ إثْباتَ القِياسِ دَلِيلًا، هُو مُقتَضى العَقلِ السَّلِيمِ إذْ إنَّ العَقْلَ لا يُمكِنُ أبدًا أنْ يُفرِّقَ بيْن مُتَماثِلَيْن، وعلَى هَذا، فالَّذِين أنْكَروا القِياسَ وقالوا: لا قِياسَ في الشَّرِيعةِ خالَفوا الدَّلِيلَ السَّمعِيَّ والدَّلِيلَ العَقلِيَّ.

وسُبحان اللهِ! القُرآنُ كلُّه يُشِيرُ إلَى هَذا، كُلُّ الأمْثالَ المَضرُوبةُ في القُرْآنِ كُلُّها دَلِيلٌ على القِياسِ لا شكَّ، وإلَّا لمْ تَكُنْ فائِدةٌ في المَثَلِ، السُّنَّةُ أيضًا أتَتْ بالقِياسِ: «**أرَأيْتَ لَو كان على أمِّك دَيْن أكُنتِ قاضِيتِه؟... اقضُوا اللهَ فاللهُ أحَقُّ بالْوَفاءِ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب الحج والنذور عن الميت، رقم (١٨٥٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

هُم أيْضًا مُخالِفون لِلعَقلِ؛ لِأنَّه لَولا ثُبُوتُ القِياسِ لَكانتِ الشَّرِيعةُ ناقِصةً، حَيْث لَم تَجمَعْ بيْن المُتماثِلين. إذَن في الآيَةِ إثْبات القِياسِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الرُّسُلَ أتَوا قَومَهم مِن كُلِّ جانِبٍ، مُقبِلِين ومُدبِرين، يُرونَهم الآياتِ الماضِيةِ والآياتِ المُستَقبَلةِ، ولكِن لا فائِدةَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الرُّسُلَ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه علَيْهم أتَوا بتَحقِيقِ التَّوحِيدِ لِقَولِه: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وهَذِه هِي الأصْلُ الأصِيلُ الَّذي دَعَت إلَيْه الرُّسُلُ جَمِيعًا، والدَّلِيلُ على ذَلِك ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النَّحل:٣٦]. وآيَةٌ أصْرَح مِنْها: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنْبياء:٢٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ أهْلَ الباطِلِ يُشبِّهون بما لَيس لَه حَقِيقةٌ، وذَلِك حِين رَدُّوا دَعْوةَ الرُّسُلِ بما لا يَصِحُّ أنْ يَكونَ رَدًّا، فـ﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، فَهَذه الشُّبهَةُ لَيْست بِحُجَّةٍ، بِدَلِيلِ أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقولُ في آيَةٍ أُخرَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩]، وحِينَئِذٍ لَو أنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مَلَكًا لَجَعلَه رَجُلًا ولَعادَتِ الشُّبْهةُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: شِدَّةُ عِنادِ المُكذِّبين لِصالِحٍ وعادٍ وهُودٍ، ووَجْهُه: أنَّهم حتَّى مَع إثْباتِ الرِّسالةِ لَهُم، فهُم مُصِرُّون على عِنادِهم، وعَدَم إيمانِهم بهَؤُلاء الرُّسُلِ، ووَجْهٌ آخَرَ كَأنَّهم يَقولون لِعِنادِهم: لَو آمَنَّا بكُلِّ شَيءٍ، لَمْ نُؤمِن بما أُرسِلْتم بِه، يَعنِي: بما أُرسِلتُم به خاصَّة، ووَجْه الخُصُوصِيَّةِ تَقدِيمُ الجارِّ والمَجْرُورِ على مُتعَلِّقه، وأيْضًا مِن مَظاهِرِ العِنادِ لِهؤُلاء أنَّهم أكَّدُوا كُفْرَهم بـ«إنَّ» ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، فَصارَ

تَأكِيدُهم لِكُفرِهم وعِنادِهم مِن عِدَّة أوجُهٍ:

أوَّلًا: التَّأكِيدُ بـ«إنَّ».

وثانيًا: الحَصْرُ، وذَلِك بتقديمِ ما حقُّه التَّأخيرُ؛ أي: بتقديمِ الجارِّ والمجرورِ على متعلِّقه.

وثالثًا: أنَّهُم أتَوا بِه بالجُملَةِ الاسْمِيَّةِ الدَّالَّةِ على الثُّبوتِ والاِستِمرارِ، بِخِلافِ الفِعلِيَّةِ؛ فهِي دالَّةٌ على الحُدُوثِ وعَدَمِ الاِستِمرارِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ المُكذِّبين للرُّسُلِ -وهُم كُفَّارٌ- يُؤمِنون بالمَلائِكةِ؛ لِقولِه: ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ المُقرَّ بالرُّبوبيَّةِ لا يُعتبَر مُؤمِنًا حتَّى يُقِرَّ بالأُلوهيَّةِ؛ لِقَولِهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، وهَكَذا الكُفَّارُ الَّذِين بُعِثَ فِيهم الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كانوا مُقِرِّين بالرُّبُوبيَّةِ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزُّخرُف:٩] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

ولكِنَّ الإيمانَ بالرُّبُوبيَّةِ لا يكفِي في كَوْنِ الإنسانِ مُسلمًا، لا بُدَّ مِنَ الإيمانِ بالْأُلوهِيَّةِ إضافَةً إلَى الإيْمانِ بالرُّبوبيَّةِ، فهُما مُستَلْزِمٌ أحَدُهُما للآخَرِ ومُتضمِّنٌ، المُستَلزِمُ للآخَرِ مَن آمَنَ بالرُّبُوبيَّةِ لَزِمَه أنْ يُؤمِنَ بالأُلوهيَّةِ، إذَن المُستَلْزَمُ هُو الرَّبُوبيَّةُ، ومَن آمَنَ بالأُلوهيَّةِ فقَد تضَمَّنَ إيمانُه بالأُلوهيَّةِ الإيمانَ بالرُّبُوبيَّةِ، فأحَدُهما مُتضَمِّنٌ للآخَرِ، والثَّاني مُستلزِمٌ للآخَرِ.

فَإِنْ قالَ قائِلٌ: هَلْ قَولُه: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩]، يَدُلُّ على أنَّ الكُفَّارَ كانُوا يُوقِّرُون اللهَ في الأسْماءِ والصِّفاتِ؟

فالجَوابُ: لا، قَد يَكونُ ذَلِك، وقَد يَكونُون أقرُّوا ببَعضِ الأسْماءِ والصِّفاتِ، وهُم يُنكِرُون الرَّحْمَنَ، أيْ: أنَّ البَعْضَ يُثبِتُونها لا شكَّ.

• • ۞ • •

الآيتان (١٥، ١٦)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت:١٥-١٦].

لـمَّا ذَكَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أمْرَ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنْ يُنذِرَ قُريشًا بِصاعِقةٍ مِثل صاعِقةِ عادٍ وثَمُودَ، بَيَّن ماذا كان مِن عادٍ، وماذا كان مِن ثَمُودَ، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

(أمَّا) أداةُ شَرْطٍ وتَفصِيلٍ؛ أمَّا كَونُها أداةَ شَرْطٍ؛ فَلِأنَّ لها شَرْطًا وجَزاءً؛ ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، وأمَّا كَونُها أداةَ تَفصِيلٍ؛ فلأنَّها تَأتِي كذَلِك في التَّفصِيلِ؛ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [اللَّيل:٥-٦] ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [اللَّيل:٨-٩]. فَهِي إذَنْ حَرْفُ شَرْطٍ وتَفصِيلٍ.

قَولُه تَعالَى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ اسْتكبَروا أيْ أصابَهم الكِبْرُ، وإنَّما أتَتِ السِّينُ والتَّاءُ لِلمُبالَغةِ؛ أيْ: تَكبَّروا تَكبُّرًا عَظِيمًا.

وقَولُه: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ هَذه لَيسَتْ صِفةً مُقيِّدةً، ولَكِنَّها صِفةٌ كاشِفةٌ؛ لأنَّ كُلَّ استِكْبارٍ في الأرْضِ فإنَّه بغَيْرِ الحَقِّ، فالِاستِكبارُ لا يَنقَسِمُ إلَى قِسمَين، بل هُو قِسْمٌ

واحِدٌ، فكُلُّ استِكبارٍ فإنَّه بغَيْـرِ حقٍّ، ويُسمَّى مِثْلُ هَذا القَيْدِ صِفةً كاشِفةً؛ أيْ: تَكشِفُ ما سَبَقَ وتُبيِّنُ حقيقَتَه.

فإنْ قالَ قائِلٌ: هَل مِثلُه قَولُه تَعالَى: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٣٣]؟

فالجَوابُ: نَعَم مِثلُها، فهِي صِفَةٌ كاشِفَةٌ.

إذَن: فحَقِيقَةُ الِاستِكبارِ أنَّه بغَيْرِ حقٍّ، والحقُّ ضِـدُّ الباطِلِ، والباطِلُ إمَّا أنْ يَكونَ في الخَبَرِ، وإمَّا أنْ يَكونَ في الطَّلَبِ. فأمَّا الباطِلُ في الخَبَرِ فَأنْ يَكونَ كَذِبًا، وأمَّا الباطِلُ في الحُكم فَأنْ يَكونَ جَوْرًا، وقَولُه تَعالَى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، يَشمَلُ الأمْرَيْن؛ يَشْمَلُ دَعْواهم أنَّ هَذه آلِهةٌ وهَذه دَعوَى كاذِبَةٌ، ويَشمَلُ عَمَلَهم لِهذِه الآلِهَةِ، وهُو جَورٌ وظُلمٌ، حَيثُ يَعدِلون المَخلُوقَ بالخالِقِ.

وقولُه: ﴿وَقَالُوا۟﴾ يَعنِـي: مِن جُملَةِ ما اسْتَـكبَروا بِه؛ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالُوا۟﴾ لـمَّا خُوِّفُوا بالعَذابِ ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، أي: لا أحَد]، و﴿مَنْ﴾ هُنا استِفْهامٌ بمَعنَى النَّفْي والإنْكارِ.

وقَدْ كرَّرْنا مِرارًا أنَّ الِاسْتِفهامَ إذا كان بمَعنَى الإنْكارِ والنَّفي صارَ أبْلَغَ مِن النَّفيِ المُجرَّدِ؛ لأنَّه يَتَضمَّنُ التَّحدِّيَ.

﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ﴿مَنْ﴾ اسْمُ استِفْهامٍ مُبتَدأٌ، و﴿أَشَدُّ﴾ خَبَرُ مُبتَدأٍ، و﴿قُوَّةً﴾ تَمييزٌ لـ﴿أَشَدُّ﴾، ومِنَ الضَّوابِطِ الغالِبةِ: أنَّه إذا أتَى الِاسْمُ مَنصُوبًا بَعْدَ اسْمِ التَّفضِيلِ كان تَمييزًا.

يَقولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؛ أي: لا أحَدَ]، ثُمَّ ذَكَرَ المُفَسِّرُ نَمُوذَجًا مِن قُوَّتِهم، فقال: [كان واحِدُهم يَقلَعُ الصَّخْرةَ العَظِيمةَ مِن الجَبَلِ يَجعَلُها حَيثُ

يَشاءُ]، وهَذا المِثالُ قَد يكونُ حَقًّا وقَد يَكونُ إسْرائِيليًّا؛ لأنَّه مِنَ المَعْرُوفِ أنَّ عادًا كانُوا يَعمَلُون بالنَّحت، وإذا ثَبتَ فيمكِن أنْ يَحمِلُوا الجَبَلَ؛ ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١]، والمَعرُوف أنَّ الأحْقافَ كُلُّها جِبالٌ رَمليَّةٌ.

لَكِن سَواءٌ صَحَّ هَذا المِثالُ أوْ لَم يَصِحَّ، فإنَّهم كانوا -بلا شكٍّ- أقوِياءَ أشِدَّاءَ.

﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى رادًّا عَلَيهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾، يَقولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أيْ: [يَعلَموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾]، وَهَذا تَقرِيرٌ لِكَونِ اللهِ تَعالَى هُو أشَدَّ مِنْهُم قُوَّةً.

قال تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: (إنَّ اللهَ أشَدُّ)، بلْ قالَ: ﴿خَلَقَهُمْ﴾؛ لِيُبيِّن ضَعفَهم، وأنَّهم مَخلُوقُون، وأنَّ الخالِقَ سَوفَ يَكونُ أقْوى مِنهم، فالَّذِي خَلَقهم أشَدُّ مِنْهُم قُوَّةً؛ لِأنَّه هُو الَّذي أعْطاهم القُوَّةَ، ومُعْطِي الكَمالَ أوْلَى به، وهَذه هِي الحِكمَةُ مِن كَونِه تَعالَى قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾، ولَم يَقُل: أوَلَم يَعلَموا أنَّ الله الَّذي خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ، أوْ أنَّ الله هُو أشَدُّ مِنْهم قُوَّةً لِيُبيِّن ضَعفَهم وأنَّهم مَخلُوقُون ضُعفاءُ.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾، قَولُه: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ مَعطُوفةٌ على قَولِه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المُعجِزات ﴿يَجْحَدُونَ﴾] يَعنِي يُكذِّبون؛ لأنَّ الجَحْدَ هُو التَّكذِيبُ والإنْكارُ، لا سيَّما وهُو مُعدًّى بالباءِ الدَّالَّةِ على ذلِك. وقَولُ المُفسِّرِ: [﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المُعجِزات] فِيه نَظَرٌ؛ لأنَّ الآياتِ هِي العَلاماتُ والدَّلالاتُ على الخالِقِ عَزَّوَجَلَّ ولَيْست مُعجِزاتٍ.

وقَد ذَكَرنا أنَّ المُعجِزاتِ تَأتِي آياتٌ، وتَأتِي مِن الشَّياطِينِ بِواسِطةِ السَّحَرةِ وغَيْرِ ذلِك، لكِن إذا قُلْنا: «آياتٍ» صار مَعناها عَلاماتٌ دالَّةٌ على الحَقِّ.

يَقولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، بارِدةٌ شَديدَةُ الصَّوْتِ بِلا مَطَرٍ].

قَولُه تَعالَى: ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾، ﴿رِيحًا﴾ هُنا نَكِرةٌ يُرادُ بِها التَّعظِيمُ؛ أيْ: رِيحٌ عَظِيمةٌ صَرْصرٌ شَدِيدَةُ الصَّوْتِ، تَسْمَعُ لها صَوتًا كالرَّعدِ مِن شِدَّتِها وشِدَّةِ اصْطِدامِها بالهَواءِ والأشْجارِ والأحْجارِ والبُيوتِ.

وقَولُ المُفَسِّرِ: [بِلا مَطَرٍ] الظَّاهِرُ أنَّها لا يَدُلُّ علَيْها السِّياقُ المَوجُودُ الآنَ، المَوجُودُ في هَذه الآيَةِ لا يدُلُّ على أنَّها بِلا مَطَرٍ -فِيما ظَهَر لِي- لَكِنَّه قَدْ دَلَّ علَيْه قَولُه تَعالَى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذَّاريات:٤١]، يَعنِي: الَّتي لَيسَ فيها مَطَرٌ؛ لأنَّ المَطَرَ مِن أسْبابِ الرِّياحِ، يُرسِلُها اللهُ تَعالَى ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الرُّوم:٤٨]، لَكِنَّ رِيحَ عادٍ لَيسَ فِيها ذَلِك.

يَقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ بِكَسر الحاءِ وسُكُونِها، مَشؤُوماتٌ عَلَيهِم].

قَولُه تَعالَى: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ﴾ هَذِه الأيَّامُ بيَّن اللهُ قَـدْرَها في آياتٍ أُخرَى في قَولِه: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقَّة:٧]، ابْتدَأت بِالفَجْرِ، وانْتَهت بِه أو بِالغُرُوبِ. ابْتدَأتْ بِالفَجْرِ، فانْظُرْ: الأوَّلُ والثَّاني والثَّالثُ والرَّابعُ والخامِسُ والسَّادِسُ والسَّابعُ، سَبْعُ لَيالٍ وثَمانيةُ أيَّامٍ تَنتَهي بالغُرُوبِ، وسَبْعُ لَيالٍ؛ لِأنَّ اللَّيلَةَ الأُولَى حُذِفَتْ.

فإنْ قالَ قائِلٌ: قَولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ فِيه إضافَةُ النَّحْسِ إلَى الأيَّامِ؟

فالجَوابُ: لا بَأْس بِه، كَما قال لُوطٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ [هُود:٧٧]، وَهَذا إذا كان المُرادُ بِه مُجَرَّدُ الخَبَرِ، كَما هُنا، وأمَّا إذا كان المُرادُ بِه العَيْبَ والسَّبَّ فإنَّه لا يَجُوزُ. فَإذَن يَكونُ هَذا السَّبُّ أوِ العَيْبُ إمَّا أنْ يَكونَ على سَبِيلِ الإخْبارِ أو على سَبِيلِ السَّبِّ، على الأوَّلِ جائِزٌ وعلى الثَّاني غَيْرُ جائِزٍ.

نَظِيرُ ذلِك: إخْبارُ المَرِيضِ بما يَجِدُ، فأحْيانًا يَسْأَلُه الصَّاحِبُ: كَيف أنْتَ البارِحةَ؟ فَيَتَشكى ويَقولُ: واللهِ ما نِمْتُ البارِحةَ؛ آلامٌ في الرَّأسِ، في الرَّقبةِ، في الظَّهْرِ، في البَطْنِ، في الرِّجلَيْن، هَذا إذا قالَه على سَبِيلِ التَّشَكِّي فَلا يَجُوزُ؛ لأنَّه يُنافي الصَّبْرَ، وإذا قالَه على سَبيلِ الإخْبارِ فَلا بَأسَ بِه؛ ولِهَذا بَعْضُ المَرضَى يُقدمُ فَيَقولُ إخْبارًا لا شَكوى: حَصَل لِي كَذا وكَذا.

يَقولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لِنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾ الذُّلُّ ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾]، اللَّام لِلعاقِبةِ، ويَحتَمِلُ أنْ تَكون للتَّعلِيلِ وكِلاهُما صَحِيحٌ، فإنَّ اللهَ تَعالى أرْسَل علَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ لِهَذا الغَرَضِ، أوْ أرْسَلَ علَيهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ حتَّى كانَتْ عاقِبتُهم أنْ ذاقُوا ﴿عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ يَعنِي: هَذه الحَياةُ الَّتي نَحياها، وسُمِّيَتْ دُنيا لِوَجهَيْن:

الوَجْهُ الأوَّل: لدَناءَتِها وحَقارَتِها بالنِّسْبَةِ للآخِرَةِ؛ لأنَّ مَوضِعَ سَوْطِ الإنْسانِ في الجَنَّةِ خيْرٌ مِن الدُّنْيا وما فِيها؛ ولِأنَّها أيْضًا دُنْيا مُنَغِّصةٌ لا تَكادُ يَمُرُّ بِكَ الشَّهْرُ إلَّا وقَد وَجَدتَ تَنْغِيصًا، بَلْ أقَلَّ مِن ذَلِك، كَما قال الشَّاعِر[1]:

---

(١) البيت للنمر بن تولب، انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٨٦)، وشرح الكافية الشافية لابن مالك (١/ ٣٤٦).

فَيَــومٌ عَلَينــا ويَــوْمٌ لَنــا ويَــوْم نُســاءُ ويَــوْم نُسَــرُّ

الوَجْهُ الثَّاني: لدُنُوِّها لأنَّها سابِقَة للآخِرَةِ فهِي أدْنَى إلَى المَخْلُوقاتِ مِن الآخِرَةِ، كما قال تَعالَى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:٢٣]؛ أي قَرِيبَةٌ.

يَقولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ أشَدّ ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾، بمَنْعه عَنْهم]، اللَّام في قَولِه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ﴾ يُسمُّونها لامَ الابْتِداءِ وهِي للتَّوكِيدِ؛ ولِذلِك إذا جاءَتْ (إنَّ) تُزَحْلِقُ اللَّامَ فتُؤَخَّرُ عَن مَكانِها وتَكونُ في المُتَأخِّرِ مِن اسْمِ (إنَّ) أوْ لِخَبَرِها، وإنَّما زَحلَقْناها لِئَلَّا يَجتَمِعَ في أوَّلِ الكَلامِ مُؤكِّدان مُتَوالِيان؛ ولِهَذا نَقولُ: إنَّ اللامَ في قَولِه: ﴿وَلَعَذَابُ﴾ هِي لامُ الِابْتِداءِ وتُفِيدُ التَّوكِيدَ، ويَدُلُّ هَذا على أنَّها مَع (إنَّ) تُزَحْلَق حتَّى تَبْعُد عَنْها.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ يَعنِي: أشَدَّ خِزْيًا والعِياذُ باللهِ؛ لِأنَّ عَذابَ الدُّنْيا لا يَسْمَعُ به مَن سَبَقَ، ولا يَراه مَن لَحِقَ، لا يَسْمَعُ بِه مَن سَبَقَ؛ لِأنَّه جاء بَعْدَهم، فالقَوْمُ الَّذِين قَبْلَ عادٍ ما عَلِموا بذَلِك، والقَوْم الَّذِين بَعْدَهم ما رَأوْه، سَمِعوا بِه ولَم يَرَوه، لَكِن في الآخِرَةِ سَماعٌ ورُؤيَةٌ والعِياذُ باللهِ، الَّذي يُعَذَّب في الآخِرَةِ سَماعًا ورُؤيَةً يَسمَعُه كُلُّ أحَدٍ؛ السَّابِقُ واللَّاحِقُ، ولِهَذا قال: ﴿أَخْزَىٰ﴾، ثُمَّ هُو أيْضًا ﴿أَشَدُّ﴾ كَما قال تَعالَى في آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:١٢٧] أشَدُّ وأعْظَمُ مِن عَذابِ النَّارِ، أعاذَنا اللهُ وَإيَّاكم مِنْها.

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾، هَذِه استِئْنافِيَّةٌ يَعنِي: إنَّهم في الآخِرَةِ لا أحَدَ يَنْصُرُهم، فِفِي الدُّنيا رُبَّما يُنصَرُ الإنْسانُ مِن العَذابِ بِدَفْعِه قَبْل وُقُوعِه أوْ رَفْعِه بَعْد وُقُوعِه، لَكِن في الآخِرَةِ لا ناصِرَ.

مِنْ فَوائِدِ الآيَتين الكَرِيمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ عِظَمِ استِكْبارِ هَؤلاء المُكذِّبين لنَبِيِّهم، أعْنِي: عادًا؛ لِقَولِه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ طُغيانِ الإنْسانِ وأنَّ الإنْسانَ لا حَدَّ لِطُغيانِه؛ لأنَّ وُصُولَه إلَى هَذِه الدَّرَجةِ ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ يَدُلُّ على الطُّغيانِ العَظِيمِ والكِبْرِياءِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حِكْمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِأخْذِهم بِالعَذابِ؛ حَيْثُ أُخِذوا بِما هُو أَلْطَفُ الأشْياءِ وَهُو الرِّيحُ، الرِّيحُ اللَّطِيفةُ الَّتي يَكونُ بِها إنْعاشُ البَدَنِ وتَقْوِيَتُه ونَشاطُه، هِي الَّتي أُهْلَك بِها عادًا؛ لِأنَّهم قالُوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، وانْظُر إلَى فِرعَونَ حِينَ قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزُّخرُف:٥١-٥٢]، عُذِّبَ بِالماءِ الَّذي كان بالأمْسِ يَفْتَخِرُ به.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَلاغَةُ القُرآنِ في الإقْناعِ وإقامَةِ الحُجَّةِ؛ لقَوْلِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، وجْهُ ذلِك أنَّه قال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جَوازُ عَقْدِ المُفاضَلَةِ بَيْن الخالِقِ والمَخْلوقِ؛ لِقَولِه: ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ مَع أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أشَدُّ مِن كُلِّ أحَدٍ، لَكِن المَقامَ مَقامُ مُحاجَّةٍ، ومَقامُ المُحاجَّةِ لا بَأس أنْ تُذْكرَ فِيه المُفاضَلةُ بيْن المُفَضَّلِ والمُفَضَّلِ عَلَيه، ونَظِيرُ هَذا -بلْ أبْلَغ مِنْه- قَولُ اللهِ تَعالَى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]، لَيْس في أصْنامِهم خَيرٌ، لَكِنَّ هَذا مِن بابِ المُحاجَّةِ، وأنَّ الإنْسانَ يُحاجُّ الخَصْمَ بِما يُقِرُّ بِه.

يَتفَرَّعُ على هذا مِن الفوائدِ: خطأُ مَن يُفسِّرُ قَولَ اللهِ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤] ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:٥٥]

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥] وما أَشْبهَ ذلك؛ حيثُ يُفسِّر أعلمَ بعالمٍ -كالجلالَين رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ- هذا خطأٌ عَظيمٌ وتَحريفٌ لِلقُرآنِ، أَعْلَمُ أَبلغُ من عالمٍ؛ لأنَّ أَعْلمَ يَمنعُ المُشاركَةَ، وعالِمٍ لا يَمنعُ المُشاركةَ، تَقولُ: فُلانٌ عالمٌ، وفُلانٌ عَالمٌ، وفُلانٌ عالمٌ، لكن إذا قُلتَ: فُلانٌ أَعلمُ، معناها أنَّه لا يُساويه أحدٌ في دَرجتِه، فتَفسيرُ أَعلم بعالمٍ لا شكَّ أنَّه تَحريفٌ للقُرآنِ وقُصورٌ عَظيمٌ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيانُ أنَّ هؤلاءِ المُكذِّبين لهُودَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهم عادٌ جَمَعوا بينَ الأمرَينِ، جَمَعوا بين الاستِكبارِ وبَينَ التَّكذيبِ، الاسْتِكْبارُ في قولِه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فُصِّلَت:١٥]، والتَّكذيبُ في قولِه: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فُصِّلَت:١٥].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَرسَلَ الرُّسلَ بالآياتِ وأَقامَ البَيِّناتِ والبَراهينَ على أنَّه الحقُّ، وأنَّ رَسولَه حقٌّ؛ لقولِه: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الرِّياحَ تَجري بأَمْرِ اللهِ؛ لقولِه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾[فُصِّلَت:١٦]، ولا شكَّ أنَّ كلَّ شَيءٍ يَجري بأمْرِ اللهِ، حتَّى أَفْعالُ البَشرِ تَكونُ بأَمْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كما هو مَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، فكُلُّ شيءٍ يَسيرُ بأَمْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الرِّياحُ السَّحابُ البِحارُ الأنْهارُ، كُلُّها تَجْري بأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بَيانُ حال هـذه الرِّيحِ الَّتي أَهلكَ اللهُ بها عادًا، وأنَّها ريـحٌ صَرْصَرٌ شَديدةٌ، وفي آياتٍ أُخرَى ما يَدُلُّ على أنَّها ليس فيها مَطَرٌ وليس فيها خَيرٌ، بل هي عَقيمَةٌ مِن الخَيرِ كُلِّه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: حِكمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في مُجازاةِ مَن يستَحِقُّ الجَزاءَ؛ حيثُ يُجازَى بمِثلِ عَملِهِ، ولـهذا يَقولُ العُلماءُ: الجَـزاءُ مِن جِنسِ العَمَلِ، ووَجهُ ذلك أنَّ اللهَ

أَرسلَ على هَؤلاءِ المستكبِرين الَّذين يَقولون مَن أَشَدُّ منَّا قُوَّةً الرِّيحَ اللَّيِّنَةَ الهَيِّنَةَ، ومن حِكمةِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ في هذا العَذابِ أنَّها لم تَكُنْ تَجرُفُهم في آنٍ واحدٍ، بل سُلِّطت عليهم سبعَ لَيالٍ وثَمانيَةَ أيَّامٍ؛ ليَكونَ هذا أَشَدَّ في استِمْرارِ العُقوبَةِ؛ لأنَّ الإنْسانَ المُعاقَبَ لو عوقِبَ بما يُهلِكُه فورًا لكان ينتهي من العُقوبَةِ، لَكِنْ إذا كانت العُقوبَةُ تأتي عليه في ساعاتٍ أو أيَّامٍ صار هذا أَشَدَّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: بَيانُ أنَّ أفعالَ اللهِ تَعالَى مَقرونَةٌ بالحِكمةِ؛ لقوله: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ﴾ [فُصِّلَت:١٦]، وهذا مَذهبُ أهلِ السُّنَّة والجماعَةِ: أنَّ أفعَالَ اللهِ تَعالَى مَقرونَةٌ بالحِكمةِ، وأنَّ شرعَه مَقرونٌ بالحِكمةِ، فكُلُّ ما شَرَعه أو قدَّرَه، فإنَّه لِحكمةٍ، منها ما هو مَعلومٌ، ومنها ما ليس بمَعلومٍ، مِثْلَ: الصَّلواتِ الخَمسِ ما نعلمُ الحِكمَةَ في أنَّها خَمسٌ؛ لأنَّ عُقولَنا قاصِرةٌ، لكنَّنا نعلمُ أنَّ اللهَ لا يَفعلُ شيئًا إلَّا لِحكمةٍ، ولهذا كان جَوابُ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لُمعاذَةَ أن قالت: «**كان يُصيبُنا ذلك فنُؤمَرُ بقَضاءِ الصَّومِ ولا نُؤمَرُ بقَضاءِ الصَّلاةِ**»[1] يعني: وإذا كان الأَمرُ كذلك نُؤمَرُ بقَضاءِ هذا دون هذا فهذا لا بُدَّ أن يَكونَ لِحكْمةٍ.

ومن عُلماءِ الأُمَّة وفِرَقِها مَن يَقولُ: إنَّ أفعالَ اللهِ لا تُعَلَّلُ، ليس لها حِكمةٌ، وشَرْعَه ليس له حِكمَةٌ، يُفعلُ لمجرَّدِ المَشيئَةِ، يُحكَمُ بالشَّرعِ لُمجرَّد المَشيئَةِ، وهؤلاء لا شكَّ أنَّهم وَصَفوا اللهَ بالنَّقصِ والسَّفَهِ، وقد أَنكَرَ اللهُ على ذلك بقولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨] وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥).

أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[المؤمنون:١١٥]، والآياتُ في هذا كَثيرةٌ، وكُلُّ آيةٍ فيها لامُ التَّعليلِ فإنَّها تَدُلُّ على الحِكمةِ.

وآخرونَ عَكَسوا وقالوا: إنَّ أفعالَ اللهِ مُعلَّلةٌ بحِكمةٍ، وأنَّه يَجبُ عليه أن يَفعلَ ما تَقتَضيه الحِكمةُ، وأن يُشرِّعَ ما تَقتَضيه الحِكمَةُ، وهؤلاء أصابوا مِن وَجهٍ وأَخطَؤوا مِن وَجهٍ، فإنْ أَرادوا بذلك أنَّنا نُوجبُ على اللهِ أن يَفعلَ ما تَقتَضي عُقولُنا أنَّه الحِكمةُ فهذا غَلطٌ، وإنْ أرادوا أنَّ اللهَ أَوجَبَ على نَفسِه أن يَفعلَ ما بِه الحِكمةُ؛ لأنَّه حَكيمٌ، فهذا صَحيحٌ.

ونحنُ لا نشكُّ أنَّ الحكمَةَ هي مُرادُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنَّه لا يَفعلُ شيئًا ولا يَحكُمُ شيئًا إلَّا لِحِكمَةٍ، لكن هل نحنُ الَّذين نُقدِّر الحكمةَ ثمَّ نُوجبُ على اللهِ أن يَفعلَ؟ هذا هو الخَطأُ.

فالثَّاني هذا مَذهَبُ المُعتزِلَةِ، والأَوَّل مَذهبُ الأشاعِرَةِ وأَتْباعِهم.

والصَّوابُ الوَسَطُ، ودائمًا خيرُ الأُمورِ الوَسَطُ، وهو أنَّ اللهَ يَجِبُ عليه أن يَفعلَ لإيجابِه على نفسِه الحِكمَةَ؛ لأنَّه نفى أن يَكونَ فعلُه عبثًا أو لَعِبًا أو باطلًا، وهذا يَقتَضي أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَفعلُ الأَشْياءَ لِحِكمَةٍ، لكنَّنا لَسنا نَحنُ الَّذينَ نوجبُها على اللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ عذابَ الآخِرَةِ أَشدُّ من عَذابِ الدُّنيا؛ لقولِه: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الكافِرَ يُعاقَبُ بالعُقوبتَينِ: عُقوبَةِ الدُّنيا وعُقوبَةِ الآخِرَةِ؛ لقولِه: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾. أَمَّا المُؤمنُ فإنَّ اللهَ تَعالَى لا يَجمعُ عليه عُقوبتَينِ، إذا عوقِبَ بالذَّنبِ في الدُّنيا لم يُعاقَبْ به في الْآخرَةِ؛

لقولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى:٣٠]؛ ولأنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعَلَى آلِه وسلَّم- «أَخبرَ أنَّ مَن أتى شيئًا مِن هذه القَاذوراتِ -يَعني المَعاصي-، فعوقِبَ به في الدُّنيا لَمْ يُعذَّبْ به في الْآخرَةِ»(١)، فالمُؤمنُ إذا عوقِبَ في الدُّنيا عَلى عَمَلِه لَمْ يُعاقَبْ في الآخِرَةِ، والكافر يُعاقَبُ بهذا وهذا.

وانظُرْ إلى قولِه تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [الفرقان:٦٨-٦٩] حيثُ قال: ﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ ﴾ فإمَّا أنْ يَكونَ المُرادُ أنَّ عَذابَ الآخِرَةِ أَشدُّ فيَكونُ بالنِّسبَةِ لشِدَّتِه مُضاعفًا، وإمَّا أنْ يَكونَ هو الجَمعُ له بَينَ عَذابِ الدُّنيا وعَذابِ الآخِرَةِ.

وقولُنا: «إنَّه يَجمعُ له بَينَ عَذابينِ» ليس مَعْناه أنَّه حتميٌّ، لكن نَقولُ: إنَّه إذا عُذِّب بذَنْبِه في الدُّنيا لم يَسلَمْ من تَعذيبِه به في الآخِرَةِ، حتَّى لا يَرِدُ علينا أنَّ الكُفَّار الآنَ يَموتون وهم في غايةِ ما يَكونُ من السُّرورِ والعافيةِ والأَمْوالِ والأَولادِ ولم يَجِدوا عَذابًا، والمَعْنى أنَّهم لم يَجِدوا عَذابًا يُشاهدُ لكنَّ العَذابَ القَلبيَّ عندهُمْ لا شكَّ أنَّه مَوجودٌ، فأَشَدُّ النَّاس عذابًا قَلبيًّا وقلقًا هم الكُفَّار، وكلَّما كان الإنسانُ أَعْصى لربِّه كان أَشدَّ قلقًا وأقلَّ راحةً، وكُلَّما كان أَشدَّ إيمانًا وعملًا صالحًا كان أَشدَّ طُمأنينَةً.

واستمعْ إلى قَولِه تعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[النحل:٩٧] ولم يَقُلْ عَزَّوَجَلَّ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة، رقم (٣٨٩٢)، ومسلم: كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، رقم (١٧٠٩)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لنُعطينَّهم مالًا كثيرًا، لا لنُحيينَّه حياةً طيِّبةً ولو كان فقيرًا، فتَجِدُ حياتَه طيِّبةً مُطمئِنَّ البالِ مستريحًا لا يَهتمُّ بشيءٍ إلَّا بما يُرضي اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

فإنْ قال قائِلٌ: هل مُعاقَبَةُ المُؤمنِ على الذَّنْبِ في الدُّنيا دون الآخِرَةِ يَشملُ حتَّى ولو لم يَتُبْ فعوقِبَ وهو مُصِرٌّ على ذَنْبِه كالزَّاني مَثلًا؟

فالجَوابُ: نَعَمْ، لأنَّه إذا تاب فلا يُعاقَبُ لا في الدُّنيا ولا في الآخِرَةِ.

وإن قيل: أليس التَّائبُ مِن الذَّنْب كمَنْ لا ذَنْبَ له، عَكْسُها أنَّه كَمَنْ عليه ذَنْبٌ، يعني ما استفاد مِن هذه العُقوبَةِ وما ارتدع؟

فالجَوابُ: أنَّه إذا عوقِبَ مُحِيَ عنه إِثْمُ ما سَبَقَ؛ لأنَّه أَخَذَ جزاءَه وانتهى، لكن قد يُؤخَّرُ له العَذابُ إلى يوم القيامة، ولهذا إذا أَحَبَّ اللهُ قومًا عجَّل لهم العُقوبَةَ في الدُّنيا حتَّى لا يُخزَونَ بها يومَ القيامَةِ.

وإن قيل: لو عوقب الآنَ ثُمَّ مات مُباشرةً قبل أن يَفعلَ الذَّنبَ الآخَرَ هل يُعاقبُ بنِيَّةِ عدمِ التَّوبَةِ؟

فالجَوابُ: إنِ استمرَّت النِّيَّةُ بعدَ العُقوبَةِ، فهذا رُبَّما يُعاقَبُ على نِيَّتِه لا على فعله.

وإن قيل: الَّذي يُعاقَبُ في نيَّتِه هل يُعاقَبُ إذا لم يُباشِرِ الفِعلَ؟

فالجَوابُ: لا، العِقابُ على النِّيَّة إذا نوى الإنسانُ فِعْلَ المَعصيَةِ، إمَّا أن يُدافِعَ هذهِ النِّيَّةَ ويَدَعُ المَعصيَةَ لله عَزَّوَجَلَّ فهذا يُثابُ، وإمَّا أن يستمرَّ على نِيَّتِه ويَعزِمُ ولكنَّه يَعجَزُ فهذا يُعاقَبُ على نِيَّتِهِ.

وإنْ قال قائلٌ: هل عَذابُ القبرِ مُتَّصِلٌ إلى يومِ الْقيامَةِ؟

فالجَوابُ: عَذابُ القَبرِ بالنِّسبَةِ للمُؤمنِ قد يَنقطِعُ، فيُعذَّبُ بقَدْرِ ذُنوبِه ثُمَّ يَنقطِعُ، وبالنِّسبَةِ للكافِرِ فإنَّ الظَّاهرَ استمرارُهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّه لا ناصِـرَ للمُعذَّبين يومَ القيامَةِ؛ لقولِه: ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ وهذه لها شواهِدُ، ومنها قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق:٩-١٠]، وكذلك هم يُقِرُّون: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١]، ثم قال: ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

الآية (١٧)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٧].

أمَّا التَّقسيمُ الثَّاني فقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ بيَّنَّا لهم طَريقَ الهُدى.

﴿ثَمُودُ﴾ بِلا تَنوينٍ و(عادٌ) بتَنوينٍ؛ لأنَّ (ثمودَ) مَمْنوعَةٌ مِن الصَّرفِ و(عاد) ليست مَمْنوعَةً مِنَ الصَّرفِ، والصَّرفُ جرُّ ما لا يَنْصرِفُ بالفَتْحةِ أو عَدمُ التَّنوينِ، قال ابنُ مالكٍ[1]:

الصَّرفُ تَنوينٌ أتى مُبيِّنًا ... مَعْنى به يكونُ اسمٌ أَمْكَنا

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ بَيَّنَّا لهم طَريقَ الهُدَى]، فالهِدايَةُ هنا هِدايَةُ بَيانٍ، يعني بَيَّنَ لهمُ الحَقَّ.

واعلم أنَّ كُلَّ مَن كَفَرَ فإنَّه كَفَرَ بعدَ أن تَبيَّنَ له الحَقُّ إذا جاءَه الرَّسولُ؛ لأنَّ الرُّسلَ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- يُبيِّنون الحَقَّ لا يَدَعونَ شيئًا يَحتاجُ إلى بَيانٍ إلَّا بيَّنوه، قال هُنا: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: بَيَّنَّا لهم طَريقَ الحقِّ، فالهِدايَةُ هُنا هِدايَةُ بَيانٍ وإرْشادٍ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ﴾ اختاروا الكُفْرَ على الهُدَى]؛ أي:

---

(١) الألفية (ص:٥٥).

هِدايَةُ التَّوفيقِ، يَعني على الاهْتِداءِ، استحبُّوا العَمَى الَّذي هو الكُفْرُ على الهُدَى الَّذي هو الإسلامُ.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فُصِّلَت:١٧]، أَخَذَتْهم صاعِقَةُ العَذابِ يَعني عَذابَ الصَّاعقَةِ؛ لأنَّ ثَمودَ صِيحَ بهم ورُجِفَ بهم، فصُعِقوا هَلَكوا هَلَكَةَ رَجلٍ واحدٍ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود:٦٧] والعِياذُ باللهِ على رُكَبِهِمْ هامِدينَ.

وقولُهُ: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ أيِ العَذابُ [المُهينُ] لأنَّ الهونَ هو الإذلالُ.

وقولُهُ: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (الباءُ) للسَّببيَّة، و(ما) إمَّا موصولَةٌ، وعليه فيَكونُ عائدُها محذوفًا، التَّقديرُ: بما كانوا يَكسِبونَهُ، وإمَّا أن تَكونَ مَصدريَّةً فلا تَحتاجُ إلى عائدٍ، ويَكونُ التَّقديرُ: بِكَسْبِهِمْ.

مِن فوائِدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ اللهَ تعالَى أَبْلغَ رِسالاتِه كُلَّ أحدٍ ولم يَدَعْ أحدًا بلا هِدايةٍ دَلالَةً؛ لقولِهِ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ وهذه الجُملةُ التَّفصيليَّةُ كما سبق في التَّفسيرِ معطوفةٌ عَلَى ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الهِدايةَ ليست مَقْصورَةً على هِدايةِ التَّوفيقِ، ولكنَّها تُطلَقُ على هِدايةِ الدَّلالَةِ والبَيانِ؛ لقولِهِ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: دَلَّلناهُمْ على الحَقِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الرَّدُّ على الجَبريَّةِ الَّذين قالوا: إنَّ الإنسانَ مُجْبَرٌ على عَملِهِ، يُؤخَذُ من قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ﴾ لأنَّ استَحبُّوا تَدُلُّ على اخْتيارِهِمْ لهذا الشَّيءِ، وأنَّهمْ آثَروه على الهُدَى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ من لم يَتَمَشَّ على هُدَى اللهِ فإنَّه أَعْمى، يُؤخَذُ من قول اللهِ تَعالَى: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ﴾، وإذا كانوا مُبْصرينَ بأَعينِهِمْ فهُمْ عُمْيُ البَصائِرِ، إذن نَأْخُذُ من ذلك فائدةً، وهي أنَّ العَمى نَوعانِ: عَمَى بَصَرٍ وعَمَى بَصيرَةٍ، وأَشدُّهُما عَمَى البَصيرَةِ، فكم مِن إنسانٍ أَعْمى البَصَرِ، لكنَّه مُبْصِرُ البَصيرَةِ، وكم من إنسانٍ مُبْصِرِ البَصَرِ لكنَّه أَعْمى البَصيرَةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَعجيلُ العُقوبةِ لِمَنْ آثَرَ العَمَى على الهُدَى، يُؤخَذُ مِن قولِه تَعالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أنَّ الفاءَ للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ هذا وَجْهٌ، ووَجْهٌ آخَرَ أنَّ الفاءَ هنا للسَّببيَّةِ والمُسبَّبُ يَعْقُبُ السَّببَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التَّحذيرُ من إيثارِ العَمَى على الهُدَى، وأنَّ الإنسانَ إذا بُيِّنَ له الحقُّ، ولكنَّه عَمِيَ عنْه فإنَّه جَديرٌ بأن يُعاقِبَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ لأنَّ اللهَ أَخْبرنا بأَخْذِهِمْ لنَحْذَرَ من ذلك، فأَخْبَرنا اللهُ تَعالى بعُقُوبتهمْ حينَ خالفوا لِنَحْذَرَ من ذلك، ودَليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١] هذا دَليلٌ، ودَليلٌ آخَرُ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد:١٠].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ ثَمودَ أُهلِكوا بِصاعِقَةٍ أي بشيء صُعِقوا به، وهَلَكوا، وقد بَيَّنَ اللهُ في آيَةٍ أُخْرَى أنَّهم أَخَذَتْهمُ الرَّجفَةُ، فيكونُ أُخِذوا بالرَّجفَةِ، حتَّى صُعِقوا وهَلَكوا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ هؤلاءِ الَّذين غَرَّهم الْكِبْرُ أُهينوا وأُذِلُّوا، نَأْخُذُها مِن قولِه تَعالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ يَعني: عَذاب الذُّلِّ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ الأَسبابِ، لقولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ والباءُ هنا للسَّببيَّةِ.

واعلمْ أنَّ اللهَ تعالى لن يَحكمَ حُكمًا شرعيًّا ولا حُكمًا قَدريًّا ولا حُكمًا جَزائيًّا إلَّا لسببٍ، هذه خُذْها قاعِدَةً لن يَحْكُمَ حُكمًا شرعيًّا كالإيجاب والتَّحريمِ والإباحَةِ، ولا قَدَريًّا كالخَلْقِ والتَّكوينِ، ولا جَزائيًّا إلا لسببٍ نعلمُ ذلك عِلْمَ اليَقينِ، ونَأخُذُه من أنَّ اللهَ تَعالَى حَكيمٌ، والحَكيمُ هو الَّذي يَضَعُ الأشياءَ مَواضعَها لا يُمكنُ أن يَكونَ فعلُ اللهِ فَلتةً ولا صُدفةً ولا لَغوًا ولا لَعِبًا، بل لا بُدَّ له من سَببٍ اقتَضاه، لكن هل كُلُّ سببٍ اقتَضى حُكمَ اللهِ يَكونُ مَعلومًا للخَلقِ؟

الجواب: لا، لأنَّ الخَلقَ أَعجزُ مِن أن يُدْرِكوا حِكمةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وكم من أَحْكامٍ شَرعيَّةٍ وكَونيَّةٍ وجَزائيَّةٍ لا نَعلمُ حِكمتَها؛ لأنَّنا أَقْصرُ من أنْ نُحيطَ بحِكمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثباتُ أنَّ العَمَلَ كَسْبٌ للإنسانِ؛ لقَولِهِ: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

ويَتَفَرَّعُ على هَذِهِ الفائِدَةِ: أنَّه إذا كان العَمَلُ كَسْبًا للإنسانِ، فإنَّه يَجِبُ عليه بمُقْتَضى العَقْلِ كَما هو مُقْتَضى الشَّرعِ أنْ يَسعَى إلى الكَسْبِ المُفيدِ لا إلى الكَسْبِ الضَّارِّ، كما كان يَفعلُ في الدُّنيا، أليس الواحِدُ منَّا في الدُّنيا يَسعَى إلى الكَسْبِ النَّافعِ، بَلَى، إذن يَجِبُ أن تَسعَى إلى الكَسْبِ النَّافعِ في الآخِرَةِ، ولهذا ضَلَّ مَنْ ضَلَّ في عَقلِه ودينِه مَن احتَجَّ بالقَدَر على مَعاصي اللهِ، ولم يَحتَجَّ بالقَدَر على أُمورِ الدُّنيا، ففي أُمور الدُّنيا يَعمَلُ ويَكْدَحُ ويَسعَى لِما فيه المَنْفَعَةُ والمَصلحَةُ، لكن في أُمورِ الآخِرَةِ يَتكاسلُ، ثُمَّ يَقولُ هذا القَدَرُ، فنَقولُ: قد ضَلَلت، كيف تَحتَجُّ بالقَدَر على كَسْبِ الآخِرَةِ ولا تَحتَجَّ به عَلَى كَسْبِ الدُّنيا.

الآية (١٨)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [فصلت:١٨].

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَنَجَّيْنَا ﴾ منها] أي: من صاعِقَةِ العَذابِ الهونِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾[فُصِّلَت:١٨] نَجَّينا من هذا العَذابِ الَّذين آمَنوا، وكانوا يَتَّقونَ، جَمَعوا بَينَ الإيمانِ والتَّقْوى، وهذا هو سَبَبُ النَّجاةِ.

من فوائدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: عَدْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يُؤخَذُ من قولِه: ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ فيها إثباتُ العَدْلِ لله عَزَّوَجَلَّ والعَدْلُ مَعناه عَدَمُ الجَوْرِ وعَدَمُ الظُّلمِ، ووَجهُ الدَّلالَةِ في الآيَةِ والَّتي قَبلَها إثباتُ النَّجاةِ لِلمُؤمِنينَ والعَذابُ لِلمُعرضينَ هذا دَليلٌ على الْعَدْلِ؛ لأنَّه أَعْطى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلَّ إنسانٍ ما يَستحِقُّ، ولا شكَّ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أحكمُ الحاكِمينَ، ومن كونِه أَحكم الحَاكمينَ لازِمٌ أنْ يكونَ أَعْدلَهم؛ لأنَّه كُلَّما كان الحُكْمُ أَعدلَ كان أَحْكمَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإيمانَ والتَّقْوى سببٌ للنَّجاةِ؛ لقولِهِ: ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ومثلُه قولُه تَعالَى: ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾[الزُّمَر:٦١].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الإيمانَ وَحدَه لا يَكفي بَلْ لا بدَّ من إيمانٍ وتَقْوى؛ لقولِهِ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ووَجْهُ المُقارَنَةِ بَيْنَ هذِهِ الآيَةِ وبَيْنَ قولِه تَعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] أنَّ الَّذين آمَنوا وكانوا يَتَّقونَ والَّذينَ يُنَجِّيهُمُ اللهُ هم أولياءُ اللهِ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ يُطابقُ تمامًا هذِهِ الآيَةَ حتَّى في اللَّفظِ هُناكَ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ وهذه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جَوازُ حَذْفِ ما يُعلمُ، يُؤخَذُ مِن قولِهِ: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ والمَحذوفُ مَفعولٌ ﴿يَتَّقُونَ﴾؛ أي: وكانوا يَتَّقون اللهَ، وإن شِئتَ فقُلْ: وكانوا يَتَّقونَ ما يَجِبُ اتِّقاؤُهُ؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى أحيانًا يَقولُ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وأحيانًا يَقولُ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ﴾ [البقرة:٤٨]، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١] فإذا قُلنا: وكانوا يتَّقون ما أُمِروا باتِّقائِه صار ذلك أَعَمَّ، وقد أَمَرنا بتَقْوى اللهِ، وتَقْوى النَّار وتَقْوَى يَومِ القيامَةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فَضيلَةُ الإيمانِ والتَّقوَى وأنَّه سَببٌ للنَّجاةِ؛ لقولِهِ: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ فإذا قال قائلٌ: أَلَيْسَ اللهُ تعالَى يُنزِلُ عُقوبَةً أحيانًا في أَقْوامٍ فيهم المُتَّقي وفيهم غَيْرُ المُتَّقي؟

فالجَوابُ: أنَّ اللهَ تعالى يَأخُذُ المُتَّقيَ بذَنْبِ غير المُتَّقي في الدُّنيا، ففي الدُّنيا يُعذَّبون جَميعًا ويُبْعَثون في الآخِرَةِ على نِيَّاتهم وأعمالِهِمْ، دَليلُ هذا قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥] يعني: احْذَروا هذه الفِتْنَةَ، وهذا يَعني أَنَّنا نَأْمُرُ بالمَعروفِ ونَنْهى عن المُنْكَرِ لنتَّقِيَ بها ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

الآيات (١٩-٢٤)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ [فُصِّلَت:١٩-٢٤].

قوله تعالى: ﴿يُحْشَرُ﴾ فيها قِراءتانِ: ﴿يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ وعَلَى هذه القِراءةِ يَكونُ الفِعلُ مَبنيًّا لِـما لَمْ يُسَمَّ فاعلُهُ، ﴿يُحْشَرُ﴾ يَكونُ مبنيًّا لـما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، وكلَّما رَأَيتَ فِعلًا مُضارعًا مَضمومَ الأَوَّل مَفتوحَ ما قَبْلَ الآخِرِ فهو مَبنيٌّ لِـما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، فإنْ رأيتَه مَضمومَ الأوَّل فقط فلا يَكونُ مبنيًّا لِـما لم يُسَمَّ فاعلُهُ؛ لأنَّ المُضارِعَ من الرُّباعيِّ يَكونُ مَضمومَ الأوَّل مثل: يُقْدِمُ الرَّجلُ، يُكرِمُ الرَّجلَ وما أَشْبَهَ ذلك.

إذن هذا اللَّفظُ إِحْدى القِراءتَيـنِ ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ وعلى هذا فيَكونُ ﴿يُحْشَرُ﴾ فِعلًا مُضارعًا مبنيًّا لِـما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، ولاحِظْ أنَّ قولَنا لـما لَمْ يُسمَّ فاعلُه أولى من قولنا مبنيٌّ للمَجهولِ؛ لأنَّه قد يَكونُ الفاعِلُ معلومًا كقولِه تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ الخالقُ اللهُ، مَعلومٌ مع أنَّ الفِعلَ مبنيٌّ لِـما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، ولهذا

فالتَّعبيرُ بقولِكَ: (خُلِقَ) فِعلٌ ماضٍ مبنيٌّ لـما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، أَولَى مِن قولِكَ: (خَلَقَ) فِعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمَجهولِ، وكذلك ﴿يُحْشَرُ﴾ فِعلٌ مُضارعٌ مَبنيٌّ لِـما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، وقولُهُ: ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ ﴿أَعْدَآءُ﴾ نائبُ فاعلٍ.

وفيها قِـراءةٌ أُخْرى: «ويَومَ نَحشُرُ أَعداءَ اللهِ» أشار إليه المفسِّر ما حاجَةٌ للتَّعليقِ، ويومَ نَحشُرُ أَعداءَ اللهِ، وعلى هذه القِراءةِ تَكونُ (نَحشُرُ) فعلًا مضارعًا مبنيًّا للفاعلِ، والفاعلُ هنا مُستترٌ وُجوبًا، و(أعداءَ) مَفعولٌ به مَنصوبٌ.

والفاعلُ إذا كان تَقديرُه أنا أو أنت أو نحن فهو مُستترٌ وجوبًا، وإذا كان تَقديرُه هو أو هي فهو مستترٌ جوازًا. مَثَلًا: (أَقُومُ) مُستترٌ وجوبًا تَقديرُه: أنا، (تَقُومُ) تُخاطِبُ رجلًا تَقولُ أنت تَقومُ وجوبًا؛ لأنَّ تَقديرَه أنت، (نَقومُ) وجوبًا؛ لأنَّ تَقديرَه: نحن، (قام) جوازًا؛ لأنَّ تَقديرَه: هو، (قامت) جوازًا؛ لأنَّ تَقديرَه هي، (تقوم) إذا كان تَتَحدَّث عن امرأةٍ فقلت: هندُ تَقومُ فهو مستترٌ جوازًا؛ لأنَّ التَّقديرَ: هي، وإذا كنت تُخاطِبُ رجلًا فهو مُستترٌ وجوبًا؛ لأنَّ التَّقديرَ: أنت، إذن هذا الضَّابطُ ما كان تَقديرُه هو أو نحن أو أنت فهو مستترٌ وجوبًا، وما كان تَقديرُه هو أو هي فهو مستترٌ جوازًا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ﴾ (يوم) ظرفٌ، وكُلُّ ظرفٍ لا بدَّ له من مُتعلِّقٍ؛ لأنَّ الظَّرفَ اسمُ مفعولٍ فيه، فلا بدَّ من فِعلٍ، ولهذا قال ناظمُ الجُمَلِ:

لا بـدَّ للجـارِ مِـن التَّعلُّـق ... بفِعلٍ أو معنـاه نحـو مُرتَقـي

والعامِلُ في (يوم) مَحذوفٌ، التَّقديرُ كما قال المفسِّر: [واذكر يومَ يُحشَرُ] ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ و﴿يُحْشَرُ﴾ بمعنى يُجمَعُ ويُساقُ، وفيها قِراءتانِ: بالياءِ والنُّون المَفتوحَةِ، يَعني يُحشَرُ بالياءِ والنُّونِ المَفتوحَةِ وضَمِّ الشِّينِ. يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالياءِ والنُّون المَفتوحَةِ وضَمِّ الشِّينِ وفَتحِ الهَمْزَةِ].

لم يُكمِلِ المفسِّر في الواقِعِ القِراءةَ الثَّانيةَ، ﴿يُحْشَرُ﴾ فيها قِراءتانِ: الأُولَى ضَمُّ الياءِ وفتحِ الشِّينِ، وعلى هذه القِراءَةِ يَجِبُ أن تكونَ ﴿أَعْدَآءُ﴾ مَرفوعَةً على أَنَّها نائبُ فاعِلٍ.

القِراءَةُ الثَّانيةُ: بفَتحِ النُّون (نَحشُرُ) وضَمِّ الشِّين وعلى هذِهِ القراءِةِ فيَجِبُ أن تَكونَ (أعداءَ) مَنصوبَةً على أَنَّها مَفعولٌ به، «ويَومَ نَحشُرُ أعداءَ اللهِ».

والقِراءتانِ اللَّتانِ تكونانِ في القُرآنِ الَّذي بَيْنَ أَيدينا ليس هما الحُروفَ السَّبعةَ، فالحُروفُ السَّبعَةُ الآنَ غيرُ مَعلومَةٍ؛ لأنَّه قُضِيَ عليها بتَوحيدِ المُصحفِ في عَهدِ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لكنَّ القِراءاتِ السَّبعَ المَوجودَةَ في حَرفٍ واحدٍ وهو حَرفُ قُريشٍ الَّذي تَوحَّدت المَصاحِفُ عليه في عَهْدِ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولهذا لا حاجَةَ إلى التَّفتيشِ والتَّنقيبِ عن الحُروفِ السَّبعَةِ في وقتنا هذا؛ لأنَّها انتهت وقُضِيَ عليها.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ يُمكنُ أن نَعرفَهم بمَعرِفَةِ أولياءِ اللهِ، وأَوْلياءُ اللهِ تعالَى قال اللهُ في بَيانِهِمْ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣]، ضِدُّ الإيمانِ الكُفْرُ، وضِدُّ التَّقوى المَعاصي والفُسوقُ، فأعداءُ اللهِ إذن هُمُ الكُفَّارُ والفَسَقَةُ يُحشَرونَ ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: يُساقونَ إليها ويُجمَعون إليها.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: يُساقونَ] ولها معنًى آخَرَ أيضًا: يُساقونَ بالتَّوزيعِ؛ يَعني أنَّهم طَوائِفُ وأُمَمٌ كُلَّما دَخلت أُمَّةٌ لعنت أُخْتَها، فهم يُوزَعونَ بالسِّياقِ أي يُساقونَ، ويُوزَعونَ أيضًا بالتَّفريقِ، كُلُّ أُمَّةٍ وَحْدَها فهُمْ يُوزَعونَ.

قال اللهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ﴾ إلخ [فُصِّلَت:٢٠].

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ زائدَةٌ] يَعني: كَلِمَةَ ﴿مَا﴾ زائدَةٌ؛ لأنَّها وقعت بَعْدَ ﴿إِذَا﴾، وكُلَّما وقعت (ما) بعدَ (إذا) فهي زائدَةٌ، وعليك بحِفْظِ البيتِ:

يا طالبًا خُذْ فائدَه (ما) بَعدَ (إذا) زائدَه

قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ ﴿جَآءُوهَا﴾ أي وصلوا إليها ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قَبْلَ أن يَدخُلوها تَستَشْهِدُ عليهم هذه الجَوارحُ حتَّى يَدخُلوا وهم موقِنونَ أنَّهم عومِلوا بالعَدْلِ والإنصافِ.

ويَشْهَدُ عليهم سَمْعُهم، فهل يَشْهَدُ بما سَمِعوا مِن اللَّغوِ والكَلامِ المُحرَّمِ، أو يَشهدُ السَّمْعُ بجَميعِ الأعمالِ؟ يَحتَمِلُ وَجْهَينِ: إمَّا أن يَكونَ المَعنَى: شَهِدَ عليهم سَمْعُهم بما سَمِعوا مِنَ الباطِلِ، وأَبصارُهُم بما شاهَدوه مِن الباطلِ، وجُلودُهم بما لَمسوا مِنَ الباطلِ، أو أنَّ هذه الأعضاءَ تَشْهَدُ على كُلِّ عَمَلٍ عَمِلوه، يَحتَمِلُ هذا وهذا، والثَّاني أَعظَمُ، أن يَكونَ السَّمعُ يَشهَدُ بما حَصَلَ عن طَريقِهِ، وبما حَصَلَ عن طَريقِ البَصَرِ، وبما حَصَلَ عن طَريقِ اللَّمْسِ، هذا أعظَمُ مِمَّا لو شَهِدَ بما حَصَلَ منه فقط.

وهَلْ هذا الإِشْهادُ بعد إنكارٍ أو لِلتَّحقيقِ والتَّوكيدِ؟

الجواب: ليس في الآيَةِ ما يَدُلُّ على ذلك، لكن قيلَ -كما في آيَةٍ أُخْرَى- أنَّ هذا إنَّما يَكونُ بعدَ إنكارِهِم أن يَكونوا أَشْركوا كما قال تَعالَى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣].

وقولُهُ: ﴿وَجُلُودُهُم﴾ بما مَسَّت، وهي أَعَمُّ من شَهادَةِ السَّمعِ والبَصَرِ؛ لأنَّه يَدْخُلُ في ذلكَ اليدُ والرِّجلُ والشَّمُّ وغيرُ ذلك، كُلُّ هذا عَن طَريقِ المُلامَسَةِ.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَاۖ﴾ ولم يَقُلْ: لأبصارِهِم؛ لأنَّ شَهادَةَ الجُلودِ أَعْظَمُ وأعَمُّ، ﴿وَقَالُواْ﴾ أي: أعداءَ اللهِ، ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ وهذا الاسْتِفهامُ اسْتِفهامُ إنكارٍ، كأنَّهم يَقولونَ: نَحنُ نُجادِلُ عنكم فكيفَ تَشهدونَ عَلينا.

﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ يَعني أنْ شَهِدْنا؛ لأنَّ اللهَ أَنطَقَنا واللهُ عَزَّوَجَلَّ بيدِه مَلكوتُ السَّمَواتِ والأَرْضِ يُنْطِقُ كُلَّ شيءٍ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: أراد نُطقَهُ] ولا حاجَةَ إلى هذا القَيدِ؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى لا يَكرهُه أحدٌ حتَّى نَقولَ إنَّ هذا الفِعْلَ مُقَيَّدٌ بالإرادَةِ، ونَقولُ: أَنْطقَ كُلَّ شيءٍ ولا نَقولُ أراد نُطْقَه لأنَّه لا يُمكِنُ أن يَنطِقَ الشَّيءُ إلَّا بعدَ إرادَةِ اللهِ، ومثل هذا القَيْدِ غَيرُ مُناسبٍ؛ لأنَّنا لو اعتَبَرناه لقلنا: كُلُّ فِعلٍ ذَكَرَه اللهُ عن نَفْسِه يَجِبُ أن نُقيِّدَه بالإرادَةِ، وهذا أَمْرٌ مُستكرَهٌ إذ إنَّنا نَعلَمُ أنَّ كلَّ فِعلٍ فَعَلَه اللهُ فإنَّما هو عن إرادةٍ، كما قال تَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

فاللهُ تعالى أَنْطَقَ كلَّ شيءٍ، أنطَقَ الحَجَرَ والشَّجَرَ، وسُمِعَ تَسبيحُ الحَصا والطَّعامِ بين يَدَيِ النَّبيِّ[1] -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-، بل قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء:٤٤] كُلُّ شيءٍ يُسبِّحُ اللهَ بلِسانِ المَقالِ إلَّا الكافِرَ فإنَّه لا يُسَبِّحُ اللهَ بلسانِ المَقالِ؛ لأنَّه كافِرٌ يَصِفُ اللهَ تعالى بكُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، وكُلُّ شيءٍ يُسَبِّحُ اللهَ بلِسانِ الحالِ حتَّى الكافِرُ يُسبِّحُ اللهَ بلسانِ الحالِ، بما أودَعَ اللهُ فيه مِنَ الآياتِ في الخِلقَةِ والخَلْقِ وما أَشبَهَ

(١) أخرجه البزار في مسنده رقم (٤٠٤٠)، والطبراني في الأوسط رقم (١٢٤٤)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٦٤)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ذلكَ، كُلُّه يُسبِّحُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ؛ أي: يُستَدَلُّ به على تَنزيهِ اللهِ عن كُلِّ نقصٍ وعَيبٍ.

فإنْ قال قائلٌ: هل عُمومُ قولِه تَعالَى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ ينطبق على قول الصحابة أن الطعام كان يسبح بين أيديهم ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ بأن يَكونَ سَبَّحَ ولكن لم يَفْقَهوا تَسبيحَه إلَّا بإخبارِ النَّبيِّ ﷺ، أو أنَّه سَبَّحَ حَقيقةً يَفهمُه أيُّ أحدٍ.

فالجَوابُ: ظاهرُ النُّصوصِ أنَّه يُسبِّحُ حَقيقَةً، لكنَّ التَّسبيحَ ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ باعتِبارِ المَجموعِ لا باعتِبارِ كُلِّ فردٍ، فإنَّ مِنَ الأشياءِ ما نَسمَعُ تَسبيحَه يُسبِّحُ تمامًا ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨] فالظَّاهرُ أنَّها تُردِّدُ كما قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ:١٠].

فإن قيلَ: هل التَّسبيحُ كما نقولُ نَحنُ أو خاصٌّ بها؟

فالجَوابُ: أنَّه تَقولُ سبحانَ اللهِ.

وإن قيل: هل صوتُ غَديرِ الماءِ هو تَسبيحُهُ؟

فالجَوابُ: لَا، هذا خطأٌ، فخَريرُ الماءِ ليس صوتَ تَسبيحٍ، بل هذا طَبيعيٌّ، فهل نَقولُ حركةُ الإنسانِ بالأرضِ إذا وَطِئت أقدامُه الأرضَ وسَمِعَ لها الصَّوتَ هذا تَسبيحٌ؟!

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قيل: هو مِن كلامِ الجلودِ، وقيل هو مِن كَلامِ اللهِ تَعالَى كالَّذي بَعدَهُ، وموقِعُه قَريبٌ مِمَّا قَبلَه، بأنَّ القادِرَ على إنشائِكم ابتداءً وإعادَتِكم بعدَ الموتِ أحياءً قادرٌ على إنطاقِ جُلودِكم وأعضائِكم].

وقولُهُ: ﴿خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يَحتَمِلُ أنَّه مِن كَلامِ اللهِ يُخاطِبُ به هَؤلاءِ المكذِّبينَ والأعداءَ، ويَحتَمِلُ أنَّه تَتِمَّةُ كَلامِ الجلودِ، يعني أنَّ الجلودَ تَستدِلُّ على قُدرةِ الله تعالَى على إنطاقِها بأنَّه خَلَقَهم أوَّل مَرَّة.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان ذلك: [قيل: هو مِن كَلامِ الجُلودِ، وقيل: هو مِن كَلامِ اللهِ]، وإذا قال المُؤَلِّفونَ: قيل كذا وقيل كذا، فالخِلافُ هنا مُطلَقٌ لا تَقديمَ فيه ولا تَأخيرَ، وإذا قيل: هو مِن كَلامِ الجُلودِ، وقيل: مِن كَلامِ الله هنا يَكونُ قَدَّمَ الأوَّلَ، أمَّا إذا قال المُؤَلِّفون: قيل وقيل، فهذا لَيسَ فيه تَقديمٌ، بل هو نَقْلُ خِلافٍ على وَجهِ الإطْلاقِ.

وعلى هذا فالقَولانِ لَدى المفسِّر مُتساويانِ؛ وأَن نَجعلَه من كَلامِ الجُلودِ حتَّى يَتَّصِلَ الكَلامُ بَعضُه ببَعضٍ: أَقْرَبُ من حيثُ اللَّفظِ، أَقْربُ أنَّ الجُلودَ تَقولُ: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، وتَقولُ لِهؤلاءِ: هو الَّذي خَلَقَكم أَوَّل مَرَّةٍ وإليه تُرجَعونَ.

لكنَّ القَولَ الثَّاني أَقوَمُ للمَعْنى، يَعني: أنَّ اللهَ لـمَّا بَيَّنَ أنَّ هؤلاءِ يُعادونَ يومَ القيامَةِ ويُحاسَبونَ وتَشهَدُ عليهمُ السَّمعُ والأبصارُ والجُلودُ بَيَّنَ عَزَّوَجَلَّ أنَّه قادرٌ على الإعادَةِ؛ لأنَّ هؤلاءِ الَّذينَ كَذَّبوا يُنكِرونَ البَعْثَ فقال: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، والقادِرُ على الخَلْقِ أَوَّلَ مَرَّةٍ قادرٌ على إعادتِهِ، دَليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] فهو يَقولُ: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، والقادِرُ على ذلك قادِرٌ على الإعادَةِ.

وقولُهُ: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذا فيه أيضًا إشارَةٌ إلى الحِكْمةِ مِن خَلْقِ الخَلْقِ أنَّهم يُبتَلونَ فيُؤمَرونَ ويُنْهَونَ، ومَآلُهُم إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، يُجازيهم بِحَسَبِ أعمالِهِم الَّتي كَلَّفهم بها.

فإنْ قال قائلٌ: هَلِ العَذابُ الواقعُ على الأعضاءِ تَأثيرُه في نَفْسِ الأعضاءِ؟

فالجَوابُ: لا، الواقِعُ أنَّ العذابَ على أَهْلِ النَّارِ واقعٌ على كُلِّ البَدَنِ، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦] لكن هم يتَعَجَّبون، ويُوَبِّخون السَّمعَ والأبصارَ والجُلودَ، لِمَ شَهِدْتُم علينا ونحن نُجادِلُ عنكم.

ثُمَّ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾.. إلى آخرِه، هذا هو معنى قولِ المفَسِّر: [كالَّذي بعده]، وهذا لا شكَّ أنَّه من كَلامِ الله ولَيْسَ من كَلامِ الجُلودِ، وقولُ المفسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ومَوقعُه قَريبٌ مِمَّا قَبْلَه] يعني: مَوقعُ هذا الكَلامِ ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قَريبٌ مِمَّا قَبلَهُ، يعني: يُبيِّنُ مُناسَبَةَ هذه الجُملَةِ لِما قَبلَها، وهو أنَّ القادِرَ على إنشائِكُم ابتداءً وإعادَتِكم بَعدَ المَوتِ أحياءً قادرٌ على إنْطاقِ جُلودِكم وأَعْضائِكم.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ عنِ ارتِكابِكم الفَواحِشَ من ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾]، يعني: ما كُنتُم تَستَخفونَ في مَعاصيكُم وكُفْرِكم، وغَيرُ ذلك مِمَّا يَستَترونَ به خوفًا من: ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾، يعني: أنَّ الكُفَّارَ يَستِرونَ أحيانًا بِالمَعاصي لكن لا يَستَتِرونَ خوفًا مِن أن تَشهَدَ عليهم سَمْعُهم وأبصارُهُم وجُلودُهُم؛ لأنَّ هذه الأشياءَ لا استِتارَ عنها إطلاقًا إذ إنَّها هي الإنسانُ، ولا يُمكِنُ الاستِتارُ عنها، وأيضًا هُم لا يُؤمنونَ بأنَّها سوف تَشهَدُ عليهم يومًا من الأيَّامِ، فصاروا لا يَستَتِرونَ عن هذه الأشياءِ لوَجهينِ:

الأوَّلُ: أنه لا انفكاكَ عنها، وَجهُه أنَّها هي مُكوِّناتُهم.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه ما كان يَطرأُ على بالِهم يومًا مِن الأيَّام أنَّ هذه سوف تَشهدُ عليهم؛ لأنَّهم يُنكِرونَ البعثَ، وإنكارُ البَعثْ يَستلزِمُ ألَّا يُؤمنوا بأنَّها تَشهَدُ عليهم.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ معنى ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾: تستخفـون، وقولُهُ: ﴿أَن يَشْهَدَ﴾ هي على تَقديرِ مَحذوفٍ، التَّقديرُ: خَوفَ أن يَشهَـدَ عليكُمْ سَمْعُكم وأَبصارُكم.. إلى آخِرِه.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لأنَّكم لم توقِنوا بالبَعثِ]، هذا التَّعليلُ أضفنا إليه تعليلًا آخَرَ، وهو عَدَمُ انْفِكاكِ جُلودِهِمْ وسَمْعِهم وأبصارِهِم.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ﴾ عند استِتارِكم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾] هذا الَّذي ظَنُّوه باللهِ فظَنُّوا باللهِ تَعالَى ظَنَّ السَّوءِ، وأنَّهم إذا استَتروا عَنِ الخَلْقِ استَتَروا عن اللهِ، ولهذا قال: ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ والكَثيرُ الثَّاني: ما يَفعَلونه عَلانيَةً ولا يَهتمُّون به.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ مبتدأٌ ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بَدَلٌ منه ﴿ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ نَعتٌ والخَبَرُ ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾] المفسِّر أعرَبَ الآيَةَ على وَجْهِ التَّفصيلِ.

﴿وَذَٰلِكُمْ﴾: (ذا) اسْمُ إشارَةٍ و(اللَّام) للبُعْدِ و(الكافُ) حَرفُ خِطابٍ وجاءت بالجَمْعِ؛ لأنَّ المُخاطَبَ جَماعَةٌ.

وهنا يَجِبُ أن نَعرِفَ أنَّ اسمَ الإشارَةِ يَعودُ إلى المُشارِ إليه، و(الكافُ) تَعودُ إلى المُخاطَبِ، فإذا خاطبت ذَكرًا تُشيرُ إلى شيءٍ مُذكَّرٍ تَقولُ: ذلك، وإذا أشرت إلى اثنين مُخاطبًا ذَكَرًا تَقولُ: ذانِكَ، وإذا أشرت إلى واحدٍ تُخاطِبُ اثنين تَقولُ: ذلكما، وإذا أشرت إلى واحدٍ تُخاطِبُ جماعَةَ نساءٍ تَقولُ: ذلكن، وإذا أشرت إلى واحدةٍ تُخاطِبُ جماعةَ إناثٍ، تَقولُ: تِلْكُنَّ، وإذا أشرت إلى جَماعَةٍ مُخاطِبًا جماعَةَ ذُكورٍ، تَقولُ: أولئكم، ففي القُرآنِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء:٩١]، وإذا أَشَـرت إلى مُؤَنَّثتينِ تُخاطِبُ اثنتَينِ، تَقولُ: تانِكُما، والأمثِلَةُ كَثيرةٌ، لكنَّ المُهِمَّ ألَّا يَلتَبِسَ المُشارُ

إليه بالمُخاطَبِ، فاسْمُ الإشارَةِ يَكونُ بِحَسَبِ المُشارِ إليه، والكافُ بِحَسَبِ المُخاطَبِ.

وفي (كافِ المُخاطَبِ) في الإشارَةِ أَقوالُ ثَلاثَةٌ وكُلُّها لُغاتٌ:

١- نُلزِمُها طَريقةً واحدَةً بالإفرادِ والفَتْحِ، فنقول: ذلكَ تانكَ ذانكَ.

٢- أو نُلزِمُها الإفرادَ مع الفَتْحِ للمُذكَّر والكَسرِ للمُؤَنَّث، هذانِ وَجهانِ.

٣- أو نَقولُ: هي حَسَبُ المُخاطَبِ المُفرَدِ المُذكَّر له كافٌ مفتوحةٌ والمُفردَةُ المُؤنَّثةُ كافٌ مكسورةٌ، والمُثنَّى كافٌ مَقرونَةٌ بعَلَم التَّثنيَةِ، وجماعَةُ النِّساءِ كافٌ مقرونَةٌ بنونِ النِّسوَةِ، وجماعَةُ الذُّكورِ كافٌ مقرونَةٌ بميمِ الجَمْعِ، الأخيرِ هو الأفصَحُ، لكن يَجوزُ الوَجهانِ الآخَرانِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ مبتدأٌ ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بدلٌ منه ﴿ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ نعتٌ، والخَبَرُ ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾]، يعني مَعناه أنَّ قولَه: ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ وما عُطِفَ عليها أو صار صِفَةً لها في مقامِ المبتَدَأِ، و﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ في مقامِ الخَبَرِ.

ويُمكِنُ احتِمالَ وَجْهٍ آخَرَ أن نَجعلَ (ذا) مُبتدأٌ و﴿ظَنُّكُمُ﴾ خَبرُهُ، و﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ خَبَرٌ ثانٍ، وهذا الوَجهُ أَقْوَى في المعنَى، يعني: ذلكم ظنُّكُم الَّذي ظَنَنتم بربِّكم -ولم تَظنُّوا به سواه- أنَّه لن يُعيدَكم، ثُمَّ أَخبَرَ عن هذا الظَّنِّ خَبرًا آخَرَ فقال: ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾، فهذا المعنى أَقْوى من قَولِ المفسِّر رَحِمَه اللهُ تَعالَى.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ وأَضافَ الرُّبوبيَّة إليهم؛ لأنَّهم يُقِرُّون برُبوبيَّة اللهِ لا يُنكِرونها ﴿قُل مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:٨٦-٨٧] وفي قِراءةٍ أُخْرَى سَبعيَّةٍ: «سيقولون الله».

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي [أَهْلَكَكُمْ].

وقولُه تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: صِرتُمْ مِن الخاسِرينَ، وهُنا (أَصْبَحَ) لو نَظَرنا إلى مُجَرَّدِ لَفْظِها لكانت دَالَّةً على الإِصْباحِ، لكنَّها تُستَعْمَلُ في اللُّغة العربيَّة بمعنى الصَّيرورَةِ، تَقولُ: أصبَحَ لا يَعلَمُ شيئًا أي صار لا يَعلَمُ شيئًا، وهُنا أصبحتم مِنَ الخاسِرينَ ليس المَعْنى دَخَلْتم في الصَّباح خاسِرينَ، ولكنَّ المَعْنَى: صِرتُمْ مِن الخاسِرينَ، والخاسِرُ ضِدُّ الرَّابِحِ، وإنَّما قال: ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لأنَّ هؤلاءِ الَّذين أَنْكَروا البَعثَ خَسِروا الدُّنيا والآخِرَةَ في الواقِعِ، فدُنياهُمْ لم تَنفَعْهم وهُمْ في الآخِرَةِ في النَّار، وهذا غَايةُ الخُسْرانِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟﴾ على العَذابِ ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى﴾ مأوى ﴿لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ يَطلُبوا العُتْبَى؛ أَيِ: الرِّضا ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ المَرضِيِّين].

﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ (الفاءُ) رابطَةٌ لجَوابِ الشَّرطِ، (ما) نافِيةٌ تَعمَلُ عَمَلَ (ليس)، واسم (ما): (هم) مَبنيٌّ على السُّكونِ، ﴿مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ جارٌّ ومَجرورٌ مُتعلِّقٌ بالمَحذوفِ خبرُ (ما).

وهنا تَتَّفِقُ اللُّغتانِ الحِجازِيَّةُ والتَّميمِيَّةُ من حيثُ اللَّفظِ، وتختلفان من حيثُ الإعرابُ، أمَّا في قولِه تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف:٣١] فلا تَتَّفِقُ اللُّغتانِ، فلُغةُ تميمٍ أن يُقالَ: (ما هذا بَشَرٌ)؛ لأنَّ (ما) مُهمَلَةٌ عند التَّميميِّينَ، وعامِلَةٌ عَمَلَ (ليس) عند الحِجازيِّينَ، فتَقولُ مَثلًا: (ما زَيدٌ قائمًا)، وإذا كُنْتَ خاطبت إنسانًا وقلت: (ما زَيْدٌ قائمًا) عرفنا أنَّك حِجازِيٌّ، وإذا خاطبت إنسانًا وقلت: (ما زَيْدٌ قائمٌ) عرفنا أنَّكَ تَميميٌّ؛ ولهذا قال الشَّاعِرُ[1]:

---

(١) غير منسوب، وانظر: نفح الطيب للمقري التلمساني (٥/ ٢٢٧).

ومُهفهَف الأعطافِ قلت له انتسب فأجابَ ما قَتْلُ المُحِبِّ حرامٌ

قوله: «انتسب» يعني: مِنْ أين أنت؟؛ فأخبَرَه بنَسَبِه أنَّه تَميميٌّ إذ لو كان غَيرَ تَميميٍّ لقال: (ما قَتْلُ المُحِبِّ حَرامًا).

والاستِعتابُ طَلَبُ العُتْبَى، والعُتْبَى مَعناها قَبولُ العُذْرِ والرِّضا، فالمفسِّر فَسَّرها في النِّهايَةِ بالغايَةِ الَّتي هي الرِّضا؛ لأنَّ الإنسانَ إذا استُعْتِبَ وقُبِلَ عُذْرُه رَضِيَ عنه المُستَعتِبُ.

وهُنا وَعيدٌ شَديدٌ، إن يَصْبِروا فَالنَّارُ مَثوًى لهم، لم يَقُلْ إن يَصْبِروا فلْيَنْتَظِروا الفَرَجَ، بل قال: ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، أي: لَيْسَ لهم إلَّا النَّارُ، وهذا كقولِه تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور:١٦] فَالعَذابُ سِوَى عَذابِ الآخِرَةِ يُنتَظَرُ الفَرَجُ له؛ لأنَّ دوامَ الحالِ مِنَ المُحالِ، فإذا صَبَرَ الإنسانُ على البَلاءِ فَالنِّهايَةُ الزَّوالُ، لكن في الآخِرَةِ إن يَصبِروا فلن يَسلَموا مِنَ العذابِ ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، وهي مَثوًى لهم قَبْلَ الصَّبرِ وبعد الصَّبرِ، لكنَّ هذا من بابِ التَّيئيسِ لهم، وأنَّ صَبرَهم لا يُفيدُهم شيئًا.

ومُناسَبَةُ جَوابِ الشَّرطِ لفعل الشَّرطِ هنا تَيئيسُ هؤلاءِ مِنَ الفَرَجِ، وقد تخفى مُناسبَتُه إذ إنَّ الإنسانُ يَتوقَّعُ أن يَكونَ الجَوابُ خِلافَ ذلك؛ لأنَّ ظاهِرَ الحالِ أن يَقولَ: فإن يَصبِروا فَالفَرَجُ قَريبٌ مَثلًا، لكنَّه قال: فالنَّارُ مثوًى لهم، أي: فلن يَتخلَّصوا منها.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ﴾ يَطلُبوا العُتْبى أي: الرِّضا ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾] لأنَّهم يَسألونَ الله تعالى فيَقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧]، والجَوابُ: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، في الدُّنيا لو طالَبوا

العُتْبى وتابوا إلى اللهِ لحَصَلَ لهم ذلك، لكن في الآخِرَةِ قد فات الأَوانُ، وقولُهُ: ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: مأوى، وكُلُّ إنسانٍ مأواه النَّارُ فلا حَظَّ له في الجَنَّةِ.

مسألة: إخبارُ الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسِه في القُرآنِ بصيغَةِ الغائِبِ يَقولُ: قال اللهُ قال اللهُ..، أليسَ الأَفْضَلُ في اللُّغةِ الإِخْبارَ بصيغَةِ المُخاطَبِ؟

الجَوابُ: لا هذا له أَحْوالٌ، لكن يَقولُ العُلَماءُ إِنَّ المُتكلِّمَ إذا عَبَّر عن نفسِه بصيغَةِ الغائِبِ، فهذا دَليلٌ على العَظَمَةِ والتَّعظيمِ، ففَرْقٌ بَينَ أن يَقولَ المَلِكُ مَلِكُ الدُّنيا: إنَّ المَلِكَ يَأمُرُكم أن تَفعَلوا كذا، أو يَقولَ: إنِّي آمُرُكم، الأَوَّلُ أَعْظَمُ في التَّفخيمِ، وهذا من قَواعِدِ البَلاغَةِ تَعبيرُ المُخاطِبِ عن نفسِه بصيغَةِ الغائِبِ يدُلُّ على التَّعظيمِ لا سِيَّما إذا كان بوَصْفٍ يَقتَضي ذلك.

من فوائدِ الآياتِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ حَقيقَةِ النَّارِ؛ لقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ أعداءٍ للهِ كما أنَّ له أَولياءَ، وعَدُوُّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مَن كان كافِرًا فاجِرًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ أهلَ النَّارِ والعياذُ باللهِ يُساقونَ إلى النَّارِ أَوْزاعًا؛ أي مُتَفَرِّقينَ أُممًا؛ لقولِهِ: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ حَقيقَةِ النَّارِ وأنَّ هؤلاءِ يَصِلونَ إليها حَقيقَةً؛ لقولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: دُخولُ التَّوكيدِ في كَلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ لأَنَّنا قلنا: (ما) زائدَةٌ لكنَّها للتَّوكيدِ، فإن قال قائِلٌ: كَلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مُؤكَّدٌ بدونِ أداةِ

تَوكيدٍ، فما الفائدَةُ مِن أنَّ اللهَ تعالَى يأتي كَثيرًا في كلامِه بأدواتِ التَّوكيدِ؟

فالجَوابُ: القُرآنُ لا شكَّ أنَّه مؤكَّدٌ، وأنَّ أخبارَه لا تحتاجُ إلى توكيدٍ، لكنَّ القُرآنَ نَزَلَ بلسانٍ عَربيٍّ مُبينٍ واللِّسانُ العَربيُّ يَقتضي أن يَكونَ الكَلامُ الهامُّ مُؤكَّدًا بأنواعٍ مِنَ التَّأكيداتِ؛ إذن تَأكيدُ ما يُؤَكَّدُ في القُرآنِ دَليلٌ على بُلوغِ القُرآنِ الفَصاحَةُ في أعلى مَعانيها؛ لأنَّه مُتَمشٍّ على قواعِدَ اللُّغةِ العَربيَّةِ الفُصحى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ النُّطقِ للسَّمعِ والبَصَرِ والجُلودِ؛ لقولِهِ: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ﴾ والشَّهادَةُ تَكونُ بالنُّطقِ، وقد تَكونُ بغَيْرِ النُّطقِ، ولكنَّها في الأَصْلِ بالنُّطقِ، ولذلك قالوا لجُلودِهِمْ ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ أعضاءَ الْإِنسانِ تَكونُ يومَ القيامَةِ خُصومًا لَهُ، وَجهُ ذلك أنَّ هؤلاءِ أَنكَروا على سَمْعِهم وأَبصارِهم وجُلودِهم أن شَهِدوا عليهم.

وما ظنُّك بأعضاءٍ تَكونُ يومَ القيامَةِ خُصومًا لك؛ فيَتَفَرَّعُ على هذه الفائدَةِ أنَّ الواجِبَ على الإنسانِ أنْ يَرعى هذه الأعضاءَ حَقَّ رِعايتِها، وأَلَّا يُورِّطَها فيما تَكونُ خَصمًا له به يَومَ القيامَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الأعضاءَ مُنْفرِدةٌ تَعرِفُ رَبَّها عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِها: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: عُمومُ قُدرَةِ اللهِ تعالى؛ لقَولِها: ﴿أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ ابتِداءَ الخَلْقِ مِنَ اللهِ لم يُشْرِكْ أحدٌ رَبَّ العالَمينَ في الخَلْقِ لا أُمٌّ ولا أَبٌ ولا سُلطانٌ ولا رَئيسٌ ولا وَزيرٌ، المُنْفَرِدُ بالخَلْقِ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: جَوازُ استعمالِ الأدِلَّةِ العَقليَّةِ، يُؤخَذُ مِن استِدلالِ اللهِ

تَعالى بالمَبْدَأِ على المَعادِ، فَإنَّ هذا دَليلٌ عَقليٌّ.

فإن قال قائلٌ: وهل تُقدَّمُ الأدِلَّةُ العَقليَّةُ على الأدِلَّةِ السَّمعيَّةِ؟

فالجَوابُ: لا؛ لأنَّ العَقلَ قد يُخطِئ، فيَظنُّ الإنسانُ أنَّ هذا عَقلٌ وليس بعَقْلٍ، وأمَّا الأدِلَّةُ السَّمعيَّةُ الثَّابتَةُ عن اللهِ ورَسولِه فهذه لا تُخطِئُ، ولهذا أَخْطَأَ مَن استَعْمَلَ العَقلَ، بل قَدَّمَه على السَّمعِ والنَّقلِ فيما يَتعلَّقُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ، وحَكَموا بعُقولِهم القاصِرَةِ على أُمورِ الغَيبِ استحالةً أو وجوبًا أو جوازًا، وأَعْرَضوا عن نُصوصِ الكِتابِ والسُّنَّةِ، ومن هؤلاء جَميعُ المُتكلِّمينَ مِنَ الأشاعِرَةِ والمُعتزِلَةِ والجَهميَّةِ وغيرِهم؛ حيثُ جَعَلوا التَّلَقِّي فيما يَتعلَّقُ بأسماءِ اللهِ وصِفاتِه على الاعتِمادِ على العَقْلِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ الرُّجوعِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فاستَعِدَّ لهذا الرُّجوعِ واعْلَمْ أنَّك مُلاقٍ ربَّك، ولكن أَبْشِرْ إن كُنتَ مُؤمنًا، قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٢٣] يعني لا يَخافُ المُؤمنُ من هذه المُلاقاةِ، بل له البِشارَةُ في الدُّنيا قَبْلَ الآخِرَةِ، لكنَّ حَقيقَةَ هذه البِشارَةِ لِلْمُؤمنِ خاصَّةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هؤلاءِ المُجرِمينَ لا يُؤمنونَ بالبَعثِ؛ لقولِهِ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَمامُ قُدرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنَّه قادرٌ على إنطاقِ كُلِّ شيءٍ حيثُ أَنطَقَ السَّمعَ والأبصارَ والجُلودَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هؤلاءِ المُجرِمينَ يَظنُّون أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ كَثيرًا مِمَّا يَعمَلونَ، وهو الَّذي يُخفونَه، فلهذا كانوا يُخفونَ عن اللهِ عَزَّوَجَلَّ ما يَقَعونَ فيه مِنَ الكُفْرِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ مثلَ هذا الظَّنِّ سببٌ لهلاكِ المَرْءِ -أن يَظُنَّ أنَّه لن يُبْعَثَ- بل هو هَلاكُه حَقيقَةً؛ لأنَّ الَّذي يُنكِرُ البَعثَ كافِرٌ، والكافِرُ لا حظَّ له لا في الدُّنيا ولا في الآخِرَةِ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزُّمَر:١٥].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هؤلاءِ المُجرِمينَ يظُنُّونَ أنَّهم رَبِحوا المَعرَكَةَ باستِخفائِهم، وهذا يَنْطَبِقُ تمامًا على المُنافِقينَ، ولكنَّ حَقيقَةَ الأَمْرِ أنَّهم خَسِروا؛ لقولِه تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: أنَّ أهلَ النَّارِ لن يَخرُجوا منها سَواءٌ صَبَروا أم لم يَصْبِروا؛ لقولِه: ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ ويُبَيِّنُه قولُه تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٦] وقولُه تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم:٢١].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: الإشارَةُ إلى أنَّ النَّار لا تَفنى؛ لقولِه: ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ وهذا -أعني أنَّ النَّار لا تَفنى- هو قَولُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ كما أنَّ الجَنَّةَ أيضًا لا تفنى.

وقد زَعَمَ بعضُ العُلماءِ أنَّ النَّارَ تفنى في آخِرِ النِّهايَةِ، لكنَّ هذا الزَّعْمَ باطلٌ، يعني لا يَستَحِقُّ مَنزلَةً أن نَقولَ: إنَّه ضعيفٌ، بل نَقولُ إنَّه باطلٌ لا يَنْبَغي أن تُسوَّدَ به الصَّحائفُ، وذلك لأنَّ كَلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الَّذي خَلَقَ النَّارَ، وهو عالمٌ بها وبمَصيرِها فيه التَّصريحُ بالتَّأبيدِ في ثَلاثَةِ مَواضِعَ من كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ:

المَوضِعُ الأَوَّلُ في سورَةِ النِّساءِ قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٣٧].

والمَوضِعُ الثَّاني في سورَةِ الأحزابِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

والمَوضِعُ الثَّالثُ في سورَةِ الجِنِّ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

ولهذا الإنسان يَعجَبُ أن يَقَعَ من بعضِ العُلماءِ القَولُ بأنَّ النَّارَ تفنى مع وُجودِ الآياتِ الثَّلاثِ.

وقولُه: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ قد يَكونُ فيها إشارَةٌ إلى أنَّها ستَبقى أَبَدَ الآبِدينَ لأنَّه لو كان لها مُنتَهى فسوف يَعْتَبون في النِّهايَةِ.

فإنْ قال قائلٌ: هل يَثبُتُ عن ابنِ القَيِّمِ القَولُ بفَناءِ النَّارِ؟

فالجَوابُ: ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَجِدُ كَلامَه في (مِفتاحِ دارِ السَّعادَةِ) وفي (شِفاءُ العَليلِ)[1] تَشَمُّ منه رائحَةَ أنَّه يُرَجِّحُ ذلك بأنَّه ذَكَرَ القَولَينِ وذَكَرَ الأَدِلَّةَ، وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا تَكلَّمَ يشفي ويُطيلُ النَّفَسَ، فكَلامُه في هذين الكِتابَينِ تَشَمُّ منه رائحَةَ أنَّه يَميلُ إلى ذلك، لكن له كَلامٌ آخَرُ في (الوابلُ الصَّيِّبُ)[2] يدُلُّ على أنَّه يَرى أنَّ النَّارَ نارانِ؛ نارُ الكُفَّارِ هذه لا تفنى لأنَّهم خالدين فيها أبدًا، ونارُ العُصاةِ الَّذينَ يُعذَّبونَ بقَدْرِ ذُنوبِهم ثُمَّ يُخرَجون تفنى؛ لأنَّ أهلَها خَرَجوا منها، فإذا خَرَجوا منها ما بَقِيَ لبَقائِها فائدَةٌ.

وهذا التَّقسيمُ مِن النَّاحيَةِ العَقليَّةِ تَقسيمٌ قَوِيٌّ -أن يَميلَ إليه الإنسانُ من النَّاحيةِ العَقليَّةِ-، لكن قد يبقى النَّظَرُ بأَنْ يَقولَ القائِلُ ما الدَّليلُ على أنَّ هناك نارين؟

---

(١) شفاء العليل (ص:٢٦٤).

(٢) الوابل الصيب (ص:٢٠).

الجواب: هذا يَحتاجُ إلى دَليلٍ، والَّذي يَظهَرُ مِنَ الأدِلَّةِ أنَّ النَّارَ واحدةٌ، وأنَّ العُصاةَ يُعذَّبونَ بِالنَّارِ الَّتي يُعذَّبُ بها الكُفَّارُ، لكن عقلًا كَلامُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا التَّفصيليُّ كَلامٌ جَيِّدٌ، حتَّى لو قال قائِلٌ أيضًا: العَقْلُ يَدُلُّ على أنَّه لا بُدَّ أن تَكونَ النَّارُ نارين؛ لأنَّه لا يُمكنُ أن يُعَذَّبَ المُؤمنُ الفاسِقُ بنارٍ شَديدةِ الحَرارَةِ كُلَّما نَضَجَ جِلدُه بُدِّلَ جلدًا آخَرَ كما تَكونُ نارُ الكُفَّارِ مِنَ النَّاحيَةِ العَقليَّةِ يُوافِقُ العَقْلَ تمامًا، فإن كان صوابًا فمِنَ اللهِ وإن كان خطأً فاللهُ يَعفو عنه.

ولا يَجوزُ أبدًا أن نَعرِفَ الحَقَّ بالرِّجالِ، يَجِبُ أن نَعرِفَ الحَقَّ بالدَّليلِ، فما دام بين أيدينا كَلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كيف نُفَكِّرُ أن نُرَجِّحَ أو أن نَقولَ: قال فُلانٌ أو قال فُلانٌ، لو قال أَكْبَرُ النَّاسِ ما عدا الرَّسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قلنا: لا سَمْعَ ولا طاعَةَ ولا تَصديقَ ولا إيمانَ، بين أيدينا كَلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهو الخالِقُ عَزَّوَجَلَّ والعالِمُ بكُلِّ شيءٍ.

الْفَائِدَةُ العِشْرُونَ: إثباتُ النَّارِ؛ لقولِه: ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، وأنَّها هي المَثْوى وليس كما يَزْعُمُ بعضُ الكُتَّابِ اليومَ يَقولون: إنَّ المَيِّتَ إذا مات صار إلى مَثْواه الأخيرِ، وقد بَيَّنَّا أنَّ هذه الكَلِمَةَ كَلِمَةُ كُفْرٍ لو اعتَقَدَ الإنسانُ مَدلولَها، يعني لو اعتَقَدَ أنَّ القَبْرَ هو المَثْوى ولا قِيامَ بَعدَه لكان كافِرًا، فيُقالُ: إنَّ القَبْرَ ليس المَثْوى الأخِيرَ.

• • ۞ • •

الآية (٢٥)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ [فصلت:٢٥].

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَيَّضْنَا﴾ سببنا] والصَّوابُ: أنَّ معناها هَيَّأنا؛ أي هَيَّأْنا لهم قُرَناءَ، وذُكِرَ الفاعِلُ بضَميرِ الجَمْعِ للتَّعظيمِ؛ لأنَّ ضَميرَ الجَمْعِ يُرادُ به تَارَّةً التَّعظيمُ وتَارَّةً التَّعدُّدَ، وهُنا لا يُمكِنُ أن يَكونَ المُرادُ به التَّعدُّدَ؛ لأنَّ اللهَ إلَهٌ واحدٌ.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من الشَّياطينَ]، والمُرادُ شَياطينُ الإنسِ وشَياطينُ الجِنِّ؛ لأنَّ هُناك قَرينًا خَفيًّا وهو قَرينُ الجِنِّ يَأمُرُ الإنسانَ بالسُّوءِ ويَنهاه عنِ الخَيرِ، وهُناكَ قَرينُ سوءٍ مِنَ الإنسِ، ولهذا مَثَّلَ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- قَرينَ السُّوءِ بأنَّه كَنافِخِ الكيرِ، إمَّا أن يَحرِقَ ثِيابَك وإمَّا أن تَجِدَ منه رائِحَةً كريهَةً[1].

قال اللهُ تعالى: ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فُصِّلَت:٢٥] زَيَّنوا أي القُرَناءُ، ﴿لَهُم﴾ أي للمُقْتَرِنينَ بهم، ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم (٢٦٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

[﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أَمْرِ الدُّنيا واتِّباعِ الشَّهواتِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِن أمْرِ الآخِرَةِ بقَولِهِم: لا بَعْثَ ولا حِسابَ] هؤلاءِ القُرناءُ حَسَّنوا لهم ما بين أيديهم مِنْ أمْرِ الدُّنيا، وقالوا لهم: اتَّبِعوا الشَّهواتِ، كَيِّفوا كما شِئْتُمْ، أتْرِفوا كما شئتم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة:٤٥] ومَنُّوهم وما خَلْفَهم، أي: ما أمامهم؛ لأنَّ الخَلْفَ والوَراءَ قد يُرادُ به الأَمامُ كما في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف:٧٩] يعني: أَمامَهم.

إذن: زَيَّنوا لهم الآخِرَةَ أيضًا بأنْ مَنُّوهم بأَحَدِ أَمْرينِ: إمَّا بالنَّجاةِ منَ العَذابِ في قولِهم: لا بَعْثَ ولا حِسابَ، وإمَّا أن يَنْتَقِلوا إلى خَيرٍ من ذَلِكَ، ويقولوا: إنَّ الَّذي أَتْرَفَنا في الدنيا سوف يُتْرِفُنا في الآخِرَةِ، كقول بعضهم: ﴿هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فُصِّلَت:٥٠]، وكقولِ صاحِبِ الجَنَّتَينِ: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦]، فهكذا يُمَنِّي الشَّيطانُ أولياءَه يَقولُ: انبَسِطوا بالدُّنيا أَتْرِفوا أنفُسَكم، وفي الآخِرَةِ سوف تَنْتَقِلونَ إلى ما هو أَفْضَلُ، زَيَّنوا لهم ما بين أيديهم وما خَلْفَهم ومَنَّوا لهمُ الأمانِيَّ.

قال تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [فُصِّلَت:٢٥]، حقَّ عليهم أي: وَجَبَ القولُ، قَولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والقَولُ الَّذي حَقٌّ فَسَّرَه المفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [وهو ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ السجدة:١٣]. وقيل: القَولُ: هو قولُه تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

ونَقولُ -كما أَسْلَفنا في القاعِدَةِ في التَّفسيرِ- أنَّ الآيَةَ إذا كانت تَحتَمِلُ مَعنيينِ لا مُرَجِّحَ لأَحَدِهِما على الآخَرِ، ولا مُنافاةَ بينهما، فإنَّها تُحمَلُ على المَعنَيينِ جميعًا،

نَقولُ: حقَّ عليهم قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وهذا في الدُّنيا، يعني: مهما عالجتَ الإنسانَ الَّذي حَقَّت عليه كَلِمَةُ اللهِ، فلن يَهتَديَ، وحَقَّت عليهم كَلِمَةُ اللهِ في الآخِرَةِ وهي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، إذن لا فائِدَةَ.

إنَّ أَبْرَزَ مَثَلٍ لنا في هذا ما حَصَلَ للنَّبيِّ ﷺ مع عَمِّه أبي طالِبٍ الَّذي كان -أعني: عَمَّه- يُدافِعُ عنه أَشَدَّ المُدافَعَةِ ويُؤويه ويَنْصُرُه ويَشْهَدُ أنَّه حقٌّ، لكنَّه لم يَنقاد لذلك ولم يَتَّبِعْ، فما أَغْنَى عنه مِنَ اللهِ شيئًا، عند موتِه يَقولُ: «**يا عَمِّ، قل: لا إلَهَ إلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحاجُّ لك بها عِنْدَ اللهِ**»[1]، ولم يَنْفَعْه ذلك كان آخِرَ ما قال: أنَّه على مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِبِ؛ لأنَّ أبا طالِبٍ عِندَ مَوتِه حَضَرَه النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وحَضَرَه رجُلانِ من كِبارِ قُريشٍ، فكان الرَّسولُ يَقولُ: «**يا عَمِّ قُلْ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ وهما يقولانِ له: أَتَرْغَبُ عن مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِبِ يَعني عن مِلَّةِ الكُفْرِ**»، فآخِرُ ما قال هو على مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِب، وأبى أن يَقولَ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ مع العِلْمِ بأنَّه يُقِرُّ ويَعترِفُ بأنَّ الرَّسولَ حَقٌّ، يَقولُ[2]:

ولقد عَلِمْتُ بأنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِن خَيرِ أَديانِ البَرِيَّةِ دِينًا

ويقولُ في لامِيَّتِه المَشهورةِ[3]:

لقد عَلِموا أنَّ ابْنَنا لا مُكَذَّب ... لَدَينا ولا يُعنى بقَولِ الأباطِلِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، رقم (١٣٦٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، رقم (٢٤)، من حديث المسيب بن حزن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: تهذيب اللغة (١٠/ ١١١)، وخزانة الأدب (٢/ ٧٦)، وديوان أبي طالب (ص:٨٧، ١٨٩).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠)، وديوان أبي طالب (ص:٨٤).

أي: بقولِ السَّحَرَةِ، يعني: ليس بِساحِرٍ، ومع ذلك فقد حَقَّتْ عليه الكَلِمَةُ نَسألُ اللهَ العافِيَةَ، وأن يُحسِنَ لنا ولكم الخاتِمَةَ، حَقَّت عليه الكَلِمَةُ فلم يُؤمِنْ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِيٓ﴾ جُمْلَةِ ﴿أُمَمٖ﴾] يَعني في جُمْلتِها، واحتَجْنا إلى قَولٍ في جُمْلَةٍ، يعني: إدخالَ جُمْلَةٍ مع أنَّها مَعروفَةٌ في السِّياقِ، لأنَّه لو قال: في أُمَمٍ، لكان هؤلاءِ مُشارِكينَ لكُلِّ الأُمَمِ الماضيةِ والمُستَقْبَلَةِ مع أنَّهم في أُمَّتِهم وَحدَهم، فيكونُ المعنى: ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ أيْ [﴿فِيٓ﴾ جُمْلَةِ ﴿أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ﴾ هَلَكَتْ ﴿مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾.. إلخ].

قولُه تعالى: ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾؛ أي: قَبْلَ هؤلاءِ المُكذِّبينَ، ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾، الجِنُّ هم عالَمٌ غَيبيٌّ خَلَقَهمُ اللهُ تعالى من نارٍ؛ لأنَّ أباهم إبليسَ كان مِن نارٍ، ولهذا كان شأنُهم، أو كانت حالُهم الطَّيشَ والسُّرعَةَ والاِنْدِفاعَ كالنَّارِ في لَهَبِها، فهم خُلِقوا مِنَ النَّارِ، وهم مُكلَّفون بالإيمانِ باللهِ ومَلائِكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليومِ الآخِرِ، ولكن هل الأعمالُ الَّتي كُلِّفوا بها، هَلْ هي الأَعْمالُ الَّتي كُلِّفتْ بها الإنسُ أو غَيرُهَا؟

إن نَظَرنا إلى عُموماتِ الأدِلَّةِ قُلنا: إنَّ الجِنَّ مُكلَّفَةٌ بما كُلِّفَ به الإنسُ؛ لأنَّ الشَّريعَةَ الَّتي بين أيدينا لم تأتِ بشَريعَةٍ للجِنِّ، بَلِ الشَّريعَةُ واحدَةٌ والرَّسولُ واحدٌ، فهم مُكلَّفون مَثلًا بصَلاةٍ كصَلاتِنا ووُضوءٍ كوُضوئِنا وحَجٍّ كحَجِّنا وصَومٍ كَصَومِنا وصَدَقَةٍ كصَدَقَتِنا، كُلُّ ما نَحنُ مُكلَّفون به فَهُمْ مُكلَّفون به، إذ إنَّنا لا نَرى في الشَّريعَةِ الَّتي بينَ أيدينا تَشريعاتٍ لِلجِنِّ هذا إذا نظرنا إلى عُمومِ الأدِلَّةِ.

وإذا نَظَرنا إلى حِكْمَةِ اللهِ تعالى في شَرْعِه قُلنا: إنَّهم مُكلَّفون بِشَريعَةٍ تَليقُ بهم، فكما أنَّ الإنسَ إذا اختَلَفوا يُجعَلُ لكُلِّ صِنفٍ ما يَلِيقُ به فكذلك الجِنُّ، والجِنُّ مُخالِفونَ تَمامًا للإنسِ في الحَدِّ والحَقيقَةِ، فتكونُ شَريعَتُهُمْ خاصَّةً تَلِيقُ بهم، لكنَّ

تَحريمَ الشِّركِ والظُّلمِ والعُدوانِ وما أَشْبَهَ ذلك هذا عامٌّ على الجِنِّ والإنسِ، إنَّما أُريدَ التَّكليفاتُ البَدَنيَّةُ كالصَّلاةِ مثلًا، هل صَلاتُهُمْ كصَلاتِنا أو صِيامُهم كصِيامِنا، هذا هو مَحَلُّ الخِلافِ بينَ العُلَماءِ.

فمنهم مَنْ يَقولُ: إنَّ الجِنَّ مُكلَّفونَ كما كُلِّف الإنسُ تمامًا، وحُجَّةُ هَؤلاءِ عُمومُ الأَدِلَّةِ الَّتي بين أَيدينا الَّتي أُرسِلَ بها الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا نَجِدُ فيها أحكامًا تَخُصُّ الجِنَّ، فالأصلُ العُمومُ، وَالأصلُ أنَّ كُلَّ ما كُلِّفَ بِهِ الإنسُ هو ما كُلِّفَ به الجِنُّ.

فإنْ قال قائلٌ: حُجَّتُهم أنَّهم خَلْقٌ من خَلْقِ اللهِ! **قلنا**: تَرِدُ عليه المَلائِكَةُ.

القَولُ الثَّاني: أنَّ الجِنَّ يَختَلِفونَ عن الإنسِ في العِبادَةِ وما كُلِّفوا به، ووَجهُ ذلك أَنَّنا نَجِدُ مِن حِكمَةِ اللهِ أنَّ التَّشريعاتِ مُناسِبَةٌ للمُكَلَّف بها، فالمَريضُ يُصلِّي قاعدًا، والمُسافِرُ يُؤخِّرُ الصَّومَ، والَّذي لا يَستطيعُ الرُّكوبَ على الرَّحلِ لا يَحُجُّ، فإذا كانت هذه الاِختِلافاتُ تَكونُ بين الإنسِ لاختلافِ أحوالِهم، فما بين الإنسِ والجِنِّ من باب أَوْلَى.

لكنَّ هُناك أشياءَ لا إشكالَ فيها وهي: تَحريمُ الشِّركِ والظُّلمِ والعُدوانِ وما أَشْبَهَ ذلك؛ ولذلك نَجِدُ كَثيرًا مِنَ العُلماءِ الَّذين يَقرَؤونَ على مَنْ مَسَّهم الشَّيطانُ يُذَكِّرونهم بتَحريمِ الظُّلمِ، وأنَّه حَرامٌ، وأنَّهم مُعتَدونَ، وما أَشْبَهَ ذلك ممَّا يدُلُّ على أَنَّهم مُلتَزِمون بهذا.

فإنْ قال قائلٌ: مِنَ المَعلومِ أنَّ العِباداتِ تَوقِيفِيَّةٌ فكيفَ سيَعْبُدون اللهَ عَزَّوَجَلَّ إذن؟

فالجَوابُ: يَعْبُدونَه بشَريعَةٍ مِنَ اللهِ يَكونُ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد عَلَّمَهُمْ؛ لأَنَّهُ اجتَمَعَ بهم وعَلَّمَهم ما يَلْزَمُهم.

يَقولُ اللهُ تَعالَى: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، إذن الجِنُّ عالَمٌ غَيبيٌّ، خُلِقوا مِن نارٍ، مُكلَّفون بشَريعَةِ النَّبيِّ ﷺ إلزامًا؛ لأنَّه مُرسَلٌ إلى الجِنِّ والإنسِ، لكنَّ غَيْرَ الرَّسولِ لا نَعلَمُ هل هُمْ مُلْزَمونَ بذلك أو لا، لكنَّهم مَأذونٌ لهم أن يَعْمَلوا بها كما قال تَعالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٠] ممَّا يدُلُّ على أنَّهم انْتَفَعوا بكِتابِ موسى: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣٠]، فهم مُلْزَمون بالعَمَلِ بِشَريعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

قُلنا: إنَّهم عالَمٌ غَيبيٌّ، لكن رُبَّما يَبْرُزونَ لبَعضِ النَّاسِ يَتَلَوَّنونَ، فقد يَتَراءَى الجِنُّ للإنسيِّ بصورَةِ إنسانٍ فَخْمٍ كَبيرٍ عَظيمٍ، أو بصورَةِ هيكلٍ له قُرونٌ وله آذانٌ وله أَرْجُلٌ طَويلَةٌ وما أشبه ذلك، وأمَّا ما زَعَمَ بَعضُ النَّاسِ أنَّهم أَجسادٌ ليس فيها عِظامٌ، وأنَّهم إذا لَمَسْتَه وَجَدتَه رَقيقًا جدًّا، وأنَّ أعينَهم مَشقوقَةٌ طولًا هكذا، فهذا لا أَصْلَ له.

إذن؛ نَقولُ: هُمْ عالَمٌ غَيبيٌّ، ويَدُلُّ لذلك المادَّةُ الَّتي يوصَفونَ بها يعني: الجِنَّ؛ لأنَّ الجيمَ والنُّونَ تَدُلُّ على الاِستِتارِ والخَفاءِ، أرأيتم الجَنَّةَ، الجَنَّةُ: هي البُستانُ الكَثيرُ الأشجارِ، والجِنَّةُ: الجِنُّ، والجُنَّةُ: ما يَتَّخِذُه المُقاتِلُ لحِمايَةِ نَفسِه مِنَ السِّهامِ يَستَتِرُ به.

فإنْ قال قائِلٌ: الجِنُّ هل فيهم رَسولٌ؟

فالجَوابُ: يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٣] وقال العُلماءُ: إنَّ الرِّجالَ لا يَكونونَ مِنَ الجِنِّ، لكن في هذا التَّعليلِ نَظَرٌ؛

لأنَّ اللهَ يَقولُ في سورَةِ الجِنِّ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن:٦]، قالوا: الآيَةُ الأُخرى: ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف:١٠٩]، فيُقالُ: الجِنُّ أيضًا من أَهْلِ القُرى، لكنَّ الأحقَّ بالأرضِ الإنسُ لا شكَّ، ولهذا لو اعتَدى أحدٌ مِنَ الجِنِّ ونزل بَيتَكَ فلك أن تُخرِجَهُ، والدَّليلُ هو أنَّ الرَّسولَ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- جَعَلَ الأرضَ لمالكِها: «**مَنِ اقتَطَع شِبرًا مِنَ الأرضِ ظُلمًا طَوَّقه اللهُ بها يومَ القِيامَةِ من سَبْعِ أَرَضِينَ**»(١).

فأنا أَستطيعُ أن أَحْرُثَ في الأَرْضِ وأَزرَعَ وأَبني وأَعْمَلَ ما شِئتُ ولا مُعارِضَ لي، ولكن: كيف لو جاءوا واعتدوا على بَيتِك وحَفَروا فيه وأصبحت، وإذا السَّطْحُ مملوءٌ مِنَ الزَّرعِ والمَجالِسُ مملوءةٌ مِنَ النَّخيلِ!

قال اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلْإِنسِ﴾ هُم هَؤلاءِ البَشَرِ مِن بَني آدَمَ وسُمُّوا إنسًا؛ لأنَّ بَعضَهم يأنسُ ببَعضٍ، ولهذا قيل: إنَّ الإنسانَ مَدنيٌّ بالطَّبْعِ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ﴾، أي الَّذين حَقَّ عليهم القَولُ ﴿كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ كانوا في عِلمِ اللهِ وليس يَومَ القيامَةِ؛ لأنَّه لو كان كذلك لقال: يَكونون، لكن ﴿كَانُوا۟﴾ في عِلمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وتَقديرُهُ: ﴿خَٰسِرِينَ﴾.

فإنْ قال قائِلٌ: ألا يَجوزُ أن يَكونَ قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ على أنَّه يومُ القيامَةِ من باب قولِهِ تَعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]؟

فالجَوابُ: لا، ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ لولا أنَّهُ قال: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ لكان على ظاهِرِه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٢، ٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولكن اعْلَموا بارَكَ اللهُ فيكم أنَّه لا يُمكِنُ لأحدٍ أن يَضِلَّ إلَّا وهو السَّببُ في ضلالِ نفسِه، لَدينا آيَةٌ من كِتابِ اللهِ حاكِمَةٌ على كُلِّ ذلك، على كُلِّ مَن يَتوهَّمُ أنَّ الضَّلالَ مُقَدَّرٌ من عِندِ اللهِ تَعالَى ابتلاءً وامتحانًا، وإن كان الأَمْرُ كذلك، لكان سَببُ ضَلالِ الإنسانِ هو نَفسُهُ، قال اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وقال تَعالَى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦]، فماذا نَفعَلُ إذا كان هو الَّذي أَخلَدَ إلى الأَرضِ واتَّبَعَ هَواهُ فماذا نَفعلُ؟

فاعْلَمْ أنَّ كُلَّ شيءٍ مِنَ المَعاصي فأنت سَببُه، وإن شِئتَ فاقْرَأْ قولَ اللهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩] يا لها من مَوعِظَةٍ في هذه الآيَةِ، أنَّك إذا تَوَلَّيت عن أَمْرِ اللهِ فاعْلَمْ أنَّ ذلك مِن ذَنبِك، فاعْلَمْ أنَّ اللهَ إنَّما يُريدُ أن يُصيبَهم ببَعْضِ ذُنوبِهم، فصار الإِعْراضُ عُقوبَةً، وهذا أَمْرٌ قد لا يَتَفَطَّنُ له بَعضُ النَّاسِ، إعراضُك عَنِ اللهِ وعن دينِ اللهِ هو عُقوبَةٌ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لقولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٩].

من فوائدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ عَظمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لقوله: ﴿وَقَيَّضْنَا﴾، لأنَّ (نا) تُفيدُ العَظَمَةَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الرَّدُّ على المُعتَزِلَةِ الَّذين يَقولون: إنَّ الإنسانَ مُستَقِلٌّ بعَمَلِه، وأنَّه لا عِلاقَةَ للهِ تَعالَى به.

والنَّاسُ في هذا البابِ على ثَلاثَةِ أقسامٍ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: مَن قال: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عَمَلِه وليس له إرادَةٌ ولا اختيارٌ،

وأنَّ فِعلَه الاختِياريَّ كفِعْلِه الاضْطِراريِّ، فالَّذي يَذهَبُ ويَجيءُ باختِيارِهِ كالَّذي يَرتَعِشُ أو يَمْشي مَجنونًا في الأرضِ، وهذا مَذهبُ الجَبْرِيَّةِ وزَعيمُهم الجَهْمُ بنُ صَفوانَ الَّذي تَتَلمَذَ على الجَعْدِ بنِ دِرهَمٍ.

القِسْمُ الثَّاني: مَن قال: إنَّ العَبدَ مُستقِلٌّ بعَمَلِه وليس للهِ فيه عَلاقَةٌ، فالإنسانُ مُريدٌ مُختارٌ ولا لأَحدٍ عليه سُلطَةٌ، وهذا مَذهَبُ القَدريَّةِ وهم المُعتزِلَةُ، والقَدَريَّةُ يُسَمَّونَ مَجوسَ هذه الأُمَّةِ؛ لأنَّهم ادَّعَوْا أنَّ للحَوادثِ خَالِقَينِ، فالحَوادثُ الَّتي هي من فِعْلِ اللهِ هي مِن فِعلِهِ، والحَوادثُ الَّتي هي مِن فِعلِ العَبدِ هي مِن فِعلِه استقلالًا، وهؤلاء هُمُ المُعتزِلَةُ ومَن ظاهَرَهم، وزُعماؤُهم عَمْرُو بنُ عُبَيْدٍ وواصِلُ بنُ عَطاءٍ.

القِسم الثَّالثُ: مَن قالوا: إنَّ العَبدَ له إرادةٌ واختيارٌ، ولكنَّ إرادتَه واختيارَهُ تَابعَةٌ لإرادَةِ اللهِ تَعالَى ومَشيئتِهِ، وهَؤلاءِ هُمُ السَّلَفُ الصَّالحُ أَهْلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ، فقالوا: إنَّ العَبدَ هو الصَّائمُ القائمُ الرَّاكعُ السَّاجدُ الذَّاهبُ الجَائي هو العَبدُ وليس اللهُ، وقالوا: إنَّ هذه الأفعالَ تُنسَبُ إليه، وما أَكثرَ ما في القُرآنِ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأحقاف:١٤]، ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [التوبة:٨٢]، وما أَشبَهَ ذلك؛ ولكنَّها لم تَقعْ خارجَةً عن قُدرةِ اللهِ تعالى ومَشيئتِهِ، بل هي تَحتَ قُدرَةِ اللهِ تعالى ومَشيئتِه، وفائِدَةُ ذلك أنَّه إذا وَقَعَ الفِعلُ مِنَّا عَلِمْنا أنَّ اللهَ قد شاءَه وأَرادَه، ولسنا مُستقِلِّين به.

وهذه الآيـةُ: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم﴾ تَـرُدُّ على الطَّائفتَيـنِ جميعًا. ﴿وَقَيَّضۡنَا﴾ تَرُدُّ على القَدَريَّةِ، و﴿فَزَيَّنُواْ﴾ نَسَبَت الفِعلَ إليهم تَرُدُّ على الجَبريَّةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحَـذَرُ مِنَ الوَساوسِ الَّتي يُلقيها الشَّيطانُ لفاعلِ المَعصيَـةِ ويُزيِّنُها له، ويَقولُ: هذه سَهلَةٌ، اللهُ غَفورٌ رَحيمٌ، افعَلْ هذا ثُمَّ تُبْ وما أَشْبَهَ ذلك، احذَرْ من هذا، فإنَّ هذا وَعدُ الشَّيطانِ، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هؤلاءِ الَّذين تابَعوا القُرناءَ قد خَسِروا؛ لقولِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾[فُصِّلَت:٢٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هؤلاءِ الَّذين استَحْسَنوا ما زَيَّنَه لهمُ القُرناءُ حَقَّ عليهم القَولُ، وسَبَقَ أنَّ القَولَ على رَأي المفسِّر هو: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف:١٨]، وهو على ما ذَكَرْناه هو قَولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس:٩٦]، ولا يَبعُدُ أن يَكونَ المُرادُ به بذلك الأَمْرانِ جميعًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: كَثرةُ الضَّالِّينَ مِن هؤلاء القُرَناءِ؛ لقولِه: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ﴾.

الآية (٢٦)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عِندَ قِراءَةِ النَّبيِّ ﷺ] يعني: للقُرآنِ: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ يعني: أنَّ بَعضَهم يوصي بَعضًا يَقولُ: لا تَسْمَعوا لهذا القُرآنِ، أي: لا تُنْصِتوا له ولا تَستَمِعوا إليه، وابتَعِدوا عنه؛ وذلك لأنَّ القُرآنَ يُؤثِّرُ في قَلبِ مَنْ يَسمعُه، حتَّى إنَّ بَعضَ المُشرِكينَ مِن كُبَرائِهم يَأتونَ إلى النَّبيِّ ﷺ يَستَمِعون قِراءَتَه اختِفاءً في اللَّيلِ لئلَّا يَطَّلِع عليهم؛ لأنَّهم يَسمَعون قَولًا يَسلُبُ العُقولَ ويَأخُذُ بالنُّفوسِ، فهُم يوصي بَعضُهم بعضًا يَقولُ: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾.

و﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ هو كَلامُ اللهِ وهو على وَزنِ فَعلانَ، وفَعْلانُ مَصدَرٌ كالغُفْرانِ والشُّكرانِ.

وهل هو مِنْ قَرَأَ أو مِن قَرَى أو منهما جَميعًا؟ نَقولُ: هو صالِحٌ للجَميعِ، فإنْ كان مِن (قَرَأَ) فهو مِنَ القِراءةِ وهي التِّلاوَةُ، وإن كان مِنْ (قَرَى) يَقري بمعنى جَمَعَ، ومنه القَرْيَةُ لأنَّها تَجمَعُ أقوامًا، فالقُرآنُ جامِعٌ.

ثُمَّ هل هو فاعِلٌ أو مَفعولٌ؟ نَقولُ: إذا كان مِنْ (قَرَأَ) فهو مَفعولٌ؛ لأنَّه قُرآنٌ مَقروءٌ، فهو مَصدرٌ بمعنى مَفعولٍ، وإن كان مِن (قَرَى) فهو بمَعنى فاعِلٍ وبمعنى

مَفعولٍ؛ أي: إنَّه مُشترَكٌ بين فاعِلٍ ومَفعولٍ، فهو جامِعٌ وهو مَجموعٌ؛ لأنَّه يُكتَبُ وتُجمَعُ حُروفُه بَعضُها إلى بَعضٍ، والمُرادُ به ما نَزَلَ على مُحَمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم-.

﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ ﴿لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، المُرادُ بالإشارَةِ هنا التَّحقيرُ يعني: هذا لا يُساوي شيئًا لا تَسمَعوا إليه، ويُشْبِهُ هذا مِن بَعضِ الوُجوهِ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٣٦] احتِقارٌ، يعني: أهذا الَّذي يَسُبُّها مَنْ هو، ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان:٤١]، وهـذا للاحتِقارِ لكنَّه مُستَفادٌ مِنْ الاستِفهامِ. أمَّا هُنا فهو مُستَفادٌ مِنَ الإشارَةِ الدَّالَّةِ على التَّحقيرِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ ائتوا باللَّغَطِ ونَحْوِه وصيحوا في زَمَنِ قِراءتِه].

﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ يعني: عِندَما تَسمَعون رَسولَ اللهِ ﷺ يَقرأُ صَوِّتوا وتَصايَحوا؛ لأَجْلِ أن تَخْلِطوا عليه قِراءَتَه وتَحولوا بينَهُ وبين السَّماعِ.

يَعني: فَهُمْ يَفْعَلون ذلك لأَمْرينِ:

الأَوَّلُ: التَّخليطُ على النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في قِراءتِهِ.

والثَّاني: ألَّا يَسمَعَ أحدٌ قِراءتَه من أَجْلِ الضَّوضاءِ واللَّغَطِ.

﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فُصِّلَت:٢٦] (لعلَّ) للتَّعليلِ، وتَأتي لِلإشفاقِ، وللتَّرَجِّي، وللتَّمَنِّي. كُلُّ هذه المَعاني تَختَلِفُ بِحَسَبِ السِّياقِ؛ لأنَّ السِّياقَ هو الَّذي يُعَيِّنُ مَعاني الكَلِماتِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فيَسكُتُ عنِ القِراءةِ]؛ لأنَّه إذا سَمِعَ

الأصواتَ والضَّجَّةَ والضَّوضاءَ واختَلَطَت عليه قِراءَتُهُ؛ فإنَّه لا يَرى فائدَةً مِنَ القِراءَةِ، وحينَئذٍ يَسكُتُ هذا ما يَفعَلُه هَؤلاءِ المُشركونَ.

فإنْ قال قائلٌ: إنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ يَشغَلونَ القُرآنَ في المَنازِلِ والمَتاجِرِ، ولم يَعتادوا اللَّغَطَ والسَّبَّ والشَّتمَ، لكن رُبَّما حَدَّثوا أَحاديثَ جانِبيَّةً كأن يَكونَ في المَطبَخِ مثلًا أو ما أشبه ذلك.

ثُمَّ إنَّ القُرآنَ على إذاعَةِ القُرآنِ الَّتي يَأتي مَرَّةً حَديثٌ ومرةً قرآنٌ، وهم يُحبُّون القُرآنَ ويَأنَسونَ به ويَستفيدونَ فوائِدَ كَثيرةً، ويَقولون: إذا لم نُشَغِّلِ القُرآنَ تَأتي هَواجِسُ؟

فالجَوابُ: المَحظورُ اللَّغو فقط، أمَّا إن كانوا لا يَنْتَبِهون أحيانًا فإنَّ الإنسانَ الَّذي يَقرأُ والمُصحَفُ بين يديه أحيانًا يَقْرَأُ بفَمِه وقَلْبِه ليس بِقارِئٍ، فالمَحظورُ مثلًا أنَّ ناسًا مَشغُولونَ بدُنياهم والقُرآنُ يُقْرَأُ، أمَّا مثلًا امْرأةٌ تَطْبُخُ أو تَغسِلُ ثِيابَها وتَستَمِعُ لِلقُرآنِ، فهذا لا يوجِبُ التَّلَهِّي عنه.

فإنْ قال قائِلٌ: ما حُكْمُ مَن يُشَغِّلُ القُرآنَ في المُسَجِّلِ ويُرَدِّدُ معه للتَّحَفُّظِ وتَحسينِ النُّطْقِ؟

فالجَوابُ: لا بَأسَ به، ليس هناك مانِعٌ.

فإنْ قال قائِلٌ: بالنِّسبَةِ لِمَنْ يَقرأُ القُرآنَ في غَيرِ الصَّلاةِ، هل يَجِبُ الاستِماعُ إليه أم لا؟

فالجَوابُ: لا، الصَّحيحُ لا يَجِبُ الاستِماعُ، لكن لا يَجوزُ اللَّغَطُ، ولهذا قال الإمامُ أَحْمَدُ في قولِهِ تَعالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

[الأعراف:٢٠٤] قال: أَجْمَعوا على أنَّ هذه في الصَّلاةِ، أمَّا غَيرُ الصَّلاةِ فلا يَجِبُ أن نَستَمِعَ؛ لأنَّنا لو قُلنا بِوجوبِ الاِستِماعِ لقُلنا: إذا شَرَعَ قَارِئٌ يَقرَأُ وأنت إلى جَنْبِه حَرُمَ عليك أن تَقومَ؛ لِوجوبِ الاِستِماعِ، وهذا ما أَظُنُّ أحدًا مِنَ العُلماءِ يَقولُ به، المَمنوعُ اللَّغو واللَّغَطُ.

من فوائدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: خَوفُ المُشركِينَ وانزِعاجُهم مِن تَأثيرِ قِراءَةِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-، وَجهُ ذلك أنَّ بَعضَهم يوصي بَعضًا أن لا يَسمَعوا لهذا القُرآنِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قُوَّةُ تَأثيرِ القُرآنِ على سامِعِه، وهذا هو الواقِعُ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]، لكنَّ القُرآنَ إنَّما يُؤَثِّرُ على مَن يَفهمُ اللُّغةَ العَربيَّةَ ومَعاني الكَلِماتِ، وأمَّا الأَعْجَميُّ حَقيقَةً أو حُكْمًا فإنَّه لا يَتَأَثَّرُ بها، ثانيًا: إنَّما يُؤَثِّرُ القُرآنُ وهو كَمالُ التَّأثيرِ على المُؤمنِ به، أمَّا المُكَذِّبُ المُستكْبِرُ فلا، حتَّى إنَّه يَقولُ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:٢٥].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه لا يَجوزُ اللَّغطُ والضَّوضاءُ حينَ قِراءَةِ القُرآنِ، فإمَّا أن تَستَمِعَ إليه وإمَّا أن تَقومَ، أمَّا أن تَجلِسَ إلى قارِئِ القُرآنِ وتُثيرُ الأصواتَ واللَّغَطَ والضَّوضاءَ، فهذا أَقَلُّ ما فيه أنَّه شَبيهٌ بصَنيعِ المُشرِكينَ، يعني: لو قَدَّرنا أنَّ هَؤلاءِ القَومَ الَّذين عِندَهم اللَّغَطُ والضَّوضاءُ لا يُريدونَ أن يُشَوِّشوا على القارِئِ، ولا يُريدون ألَّا يَسمَعَ قِراءتَه أحدٌ، لكن نقول: أدنى ما فيه أنَّه مُشابِهٌ لعَمَلِ المُشرِكينَ.

ويَتَفَرَّعُ على ذلك: ما يَفعَلُه بعضُ النَّاسِ في مَتاجِرِهم ومَساكِنِهم، حيث يَفتحونَ القُرآنَ على المُسَجِّلِ ويَجعَلونَه يَقرَأُ وتَجِدُهم في ضَوضاءَ وفي كَلامٍ قبيحٍ وفي كَذِبٍ، وهذا إهانَةٌ للقُرآنِ.

فنَقولُ: إمَّا أن تَستَمِعَ إلى كَلامِ اللهِ، وإمَّا أن تَغلِقَه أمَّا أن يَبْقى يَقرَأُ وهذا يَشْتُمُ وهذا يَلعَنُ وهذا يَغِشُّ، فهذا في غايَةِ الامتِهانِ لكَلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وإن لم يُرِدِ الإنسانُ، فإنَّ صورَتَه صورَةُ الامتِهانِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ التَّشويشَ على الدَّاعيَةِ قد يَظُنُّ فاعلُهُ أنَّه يَغلِبُ، ويَصِلُ إلى مَقصودِهِ، ولكن ليس الأمرُ كذلك، وَجهُ الدَّلالَةِ مِنْ هذا أنَّ هؤلاء المُشرِكينَ لم يَحصُلْ لهم مَطلوبُهم مِنَ الغَلَبَةِ.

الآية (٢٧)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [فُصِّلَت:٢٧].

﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾، الجُملَةُ هذه مُؤكَّدَةٌ بثَلاثَةِ مُؤَكِّداتٍ: القَسَمُ المُقَدَّرُ، ويَدُلُّنا على القَسَمِ تَوكيدُ الفِعلِ واللَّامُ أيضًا، والثَّاني: اللَّامُ، والثَّالثُ: النُّونُ.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: لَنُعذِّبَنَّهم عَذابًا يَذوقونَ أَلَمَه، وهو كِنايَةٌ عن شِدَّةِ هذا العَذابِ الَّذي يَصِلُ إلى مَذاقِهم حتَّى كأنَّه شَيءٌ مَحسوسٌ يَتَذَوَّقونَه بأَفواهِهم.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، المُرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مَن سَبَقَ، وهُم الَّذين قالوا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، وحينَئذٍ قد يَقولُ قائل: لماذا لم يُضْمِرْ فيقول: «فلَنُذيقَنَّهم»، نَقولُ: هُنا إظهارٌ في مَوضِعِ الإضمارِ، والإظهارُ في مَوضِعِ الإضْمارِ له فَوائِدُ:

الفائِدَةُ الأُولى: تَنبيهُ المُخاطَبِ؛ لأنَّه جَرَت العادَةُ أنَّ الكَلامَ إذا كان السِّياقُ يَقتَضي الإضمارَ، فإنَّه يَأتي الإضْمارُ، فإذا جاء الإظْهارُ صار هذا على خِلافِ العادَةِ، فَالعادَةُ أنَّ الكَلامَ إذا كان في سياقِ الإضْمارِ، فإنَّ الَّذي يَأتي هو الإضْمارُ، يَعني: الضَّميرُ، فإذا جاء الظَّاهِرُ مَوضِعَ الضَّميرِ فسوف يَتوقَّفُ الإنسانُ، لماذا جاء الظَّاهِرُ مَوضِعَ الضَّميرِ؟ فيكون في ذلك انتباهٌ له هذه فائدَةٌ.

الفائدَةُ الثَّانيَةُ: الحُكْمُ على مَرجِعِ الضَّميرِ بمُقْتَضى هذا الاسمِ الظَّاهِرِ، ففي الآيَةِ الَّتي معنا: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، إذن تَكونُ الفائِدَةُ الحُكمَ عليهم بالكُفْرِ، وهكذا كُلَّما جاء الإِظْهارُ في مَوضِعِ الإِضْمارِ فاحكُمْ عليه بهذه الفائِدَةِ.

الفائدَةُ الثَّالثَةُ: العُمومُ لو قال: فلَنُذيقَنَّهم، صار هذا الوَعيدُ خاصًّا بالَّذين قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، فإذا قال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ صار عامًّا لهم ولغيرهم.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ هنا ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ مَنصوبٌ نَصَبَهُ ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾ وهي تَنْصِبُ مَفعولَينِ؛ لأنَّ لَدينا قاعِدَةً: أنَّ الفِعلَ إذا تَعَدَّى لواحِدٍ فأُدخلت عليه هَمْزَةُ التَّعدِيَةِ تَعَدَّى لاثنَينِ، وإذا كان يَتَعَدَّى لاثنينِ فأُدْخِلت عليه الهَمْزَةُ تَعَدَّى إلى ثَلاثَةٍ، مِثالُ ذلك مثلًا (ذاق) تَتَعَدَّى إلى واحِدٍ، (ذاقَ طَعمَ الإيمانِ ورَضِيَ باللهِ ربًّا)، فإذا أُدخِلت عليها الهَمْزَةُ تَعَدَّت إلى مَفعولَينِ.

و(رأى) تَقولُ: (رَأيتُ الرَّجُلَ قائمًا) تَنْصِبُ مَفعولَينِ، فإذا أُدْخِلت عليه الهَمْزَةُ تَعَدَّت إلى ثَلاثَةٍ، تَقولُ: (أَريتُ زيدًا الرَّجُلَ قائمًا). هذه قاعِدَةٌ عَربيَّةٌ مُطَّرِدَةٌ، أنَّ الفِعلَ إذا كان لازمًا فدَخَلَت عليه الهَمْزَةُ تَعَدَّى لواحِدٍ، وإذا كان مُتَعَدِّيًا لواحِدٍ فدَخَلَت عليه الهَمْزَةُ تَعَدَّى لاثنينِ، وإذا كان متعدِّيًا لاثنينِ فدَخَلت عليه الهَمْزَةُ تَعَدَّى لثَلاثَةٍ.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، ﴿عَذَابًا﴾ أي: عُقوبَةً، ﴿شَدِيدًا﴾: قويًّا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ معطوفَةٌ على ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾، ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ هذه تَنْصِبُ مَفعولَينِ؛ الأَوَّلُ الهاءُ والثَّاني ﴿أَسْوَأَ﴾.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: أَقْبَحَ جَزاءِ عَمَلِهم].

فهم يُجزَونَ الجَزاءَ، أَمَّا العَمَلُ منهم فليسوا مَجْزِيِّين به، هُمُ الَّذين عَمِلوا، فإذا قال: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ صار المُرادُ بذلك: أَسوَأَ الجَزاءِ، وليس المُرادُ: أَسوَأَ العَمَلِ؛ لأنَّ العَمَلَ فِعْلُ العَبدِ، والجَزاءُ فِعلُ اللهِ بهم، والمُرادُ هنا فِعلُ اللهِ بهم، ولهذا قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾.

فإذا قال قائلٌ: لماذا عَبَّرَ بالعَمَلِ عن جَزائِهم؟

نَقولُ: إشارَةٌ إلى أَنَّ الجَزاءَ بِقَدْرِ العَمَلِ، ولهذا قالَ العُلماءُ: «الجَزاءُ مِن جِنسِ العَمَلِ»، لكنَّه بالنِّسبَةِ للسَّيِّئاتِ عَدْلٌ، وبالنِّسبَةِ للحَسَناتِ فَضْلُ الحَسَنَةِ بعَشْرِ أَمثالِها إلى سَبعِ مئَةِ ضِعفٍ إلى أضعافٍ كَثيرةٍ، والسَّيِّئةُ بمِثلِها.

وقولُهُ: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ظاهِرُ الآيَةِ أنَّ اللهَ يَجزيهم أَسوَأَ أعمالِهم، وغَيرُ الأَسوَأِ ما دون الأَسْوأِ، يَعني: السَّيِّئَ، فهل يُجازَى الكافِرُ بأَقْبَحِ أعمالِه أو بِكُلِّ أعمالِهِ؟ هذا يَنْبَني على: هلِ الكافِرُ مُخاطَبٌ بالفُروعِ أو لا؟ يعني: مثلًا الكافِرُ هل هو مُخاطَبٌ بِصِلَةِ الرَّحِمِ؟ هل هو مُخاطَبٌ بالصِّدْقِ؟ هل هو مُخاطَبٌ بالصَّلاةِ؟ هل هو مُخاطَبٌ بالزَّكاةِ؟ وما أَشبَهَ ذلك، في هذا خِلافٌ بينَ العُلماءِ، والصَّحيحُ أَنَّه مُخاطَبٌ، مُخاطَبٌ بِفُروعِ الأعمالِ؛ لأَنَّه إذا كان المُسلِمُ مُخاطَبًا بها، فالكَافِرُ من باب أَوْلى، كيف نَقولُ: إنَّ المُسلِمَ يُجازَى ويُعاقَبُ على عُقوقِ الوالِدينِ والكَافِرُ لا يُعاقَبُ، لا يُمكِنُ هذا، فالصَّوابُ أَنَّهم مُخاطَبونَ بِفُروعِ الشَّريعَةِ، لكنَّهم غَيرُ مُخاطَبينَ بِفِعلِها. يَعني لا يُقالُ للكافِرِ مثلًا: لماذا تَشرَبُ الدُّخانَ؟ حَرامٌ عليكَ، هذا غَيرُ لائِقٍ، هذا كافِرٌ، ادعُه أَوَّلًا للإسلامِ ثُمَّ كَلِّمْهُ.

إذن يُخاطَبُ بفُروعِ الشَّريعَةِ ليس مَعناها أنَّه يُؤمَرُ بفِعلِها، ولا يَعني أنَّه يَقضيها إذا أَسلَمَ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨].

إذن ما الفائِدَةُ؟ قال العُلماءُ الفائِدَةُ بقولنا: إنَّ الكافِرَ مُخاطَبٌ بفُروعِ الشَّريعَةِ هو زيادَةُ عُقوبَتِهم في الآخِرَةِ أنَّهم يُعاقَبونَ عَليها، وهذا حَقٌّ، أصحابُ اليَمينِ يَتَساءلونَ عَنِ المُجرِمينَ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر:٤٢] يعني: ما الَّذي أَدْخلَكم في النَّارِ؟ ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر:٤٣-٤٧] فذَكَروا الصَّلاةَ وإطعامَ المِسكينِ، وهما مِن فُروعِ الشَّريعَةِ، فعلى القَولِ بأنَّهم لا يُجازَونَ بفُروعِ الشَّريعَةِ نَقولُ: نعم، يَومَ القِيامَةِ لا يُجازَون إلَّا على أَسوَأِ أَعمالِهم وهو الكُفْرُ، ولكن على القَولِ الرَّاجحِ أنَّهم يُخاطَبون بفُروعِ الشَّريعَةِ ويُعاقَبونَ عليها، ويَكونُ هنا ذِكْرُ الأَسوَأِ؛ لأنَّه هو الأَشَدُّ، والمَقصودُ هُنا التَّهديدُ، وهل الإنسانُ يُهَدَّدُ بالأَشَدِّ، هذا هو الظَّاهِرُ واللهُ أعلَمُ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: أَقبَحُ جَزاءِ عَمَلِهم].

في الآيةِ الكَريمَةِ هُنا وَعيدٌ لهؤلاءِ الكُفَّارِ بالعَذابِ الشَّديدِ، وهذا مِن أَساليبِ القُرآنِ، أنَّ اللهَ تعالى يُهَدِّدُ الكافِرَ والمُجرِمَ وغَيرِهما مِمَّن أَساؤوا، وفيه دَليلٌ على أنَّه ليس مِنَ القَدْحِ أنْ يَقومَ الإنسانُ بطاعَةِ اللهِ خوفًا من عَذابِ اللهِ، أنَّه لا حَرَجَ، وليس مِنَ القَدْحِ أن يَتَجَنَّبَ الإنسانُ مَعصيَةَ اللهِ خوفًا من عِقابِهِ، خِلافًا لَمن قال: أَعبُدُ اللهَ لا طَمَعًا في ثَوابِهِ ولا خوفًا من عِقابِهِ، وهَؤلاءِ تَرُدُّ عليهم النُّصوصُ كُلُّها، بل إنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ عُقوبَةَ الدُّنيا سَببًا للرَّدعِ عَنِ المَعاصي، قال اللهُ تعالَى في قَضيَّةِ السَّارِقِ

﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨]، فلم يُشَرِّعِ اللهَ الحُدودَ إلَّا من أَجْلِ أن يَخافَ النَّاسُ منها ويَجتَنِبوا المَعاصي، والقَريَةُ الَّتي دَمَّرت قَريَةَ بَني إسرائيلَ حتَّى صار أَهْلُها قِرَدَةً خاسِئينَ لِماذا: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة:٦٦].

فالحاصِلُ: أنَّه لا حَرَجَ على الإنسانِ أن يَدَعَ المَعاصيَ خوفًا مِن عُقوبَةِ اللهِ الدُّنيويَّةِ والأُخْرويَّةِ، ولا يُعَدُّ ذلك قَدْحًا في سُلوكِهِ ومَنهجِهِ.

من فوائدِ الآيةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ العَذابِ، ويَكونُ في الدُّنيا وفي القبرِ وفي الآخرَةِ، في الجَميعِ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [السجدة:٢١]، وهو عَذابُ الدُّنيا: ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ وهو عَذابُ الآخِرَةِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وهذا يَتَعَيَّنُ أن يَكونُ المُرادُ بـ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾، ليس عَذابُ القَبْرِ كما قيل، بل هُو عَذابُ الدُّنيا؛ لأنَّ عَذابَ القَبرِ لا يُمْكنُ فيه الرُّجوعُ، فإذن: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ هو عَذابُ الدُّنيا و﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ هو عَذابُ الآخِرَةِ، ولهذا جاء في الحَديثِ حَديثِ المُتَلاعِنينِ أنَّ الرَّسولَ قال: «عَذابُ الدُّنيا أَهونُ من عَذابِ الآخِرَةِ»(١).

فإنْ قال قَائلٌ: بَعضُ أَهلِ العِلمِ استَدَلَّ بقولِهِ تَعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [السجدة:٢١] على عَذابِ القَبرِ، ما وَجهُ استِدْلالِهِم؟

فالجَوابُ: ظَنُّهم أنَّ العَذابَ هُنا عَذابُ عُقوبَةِ الآخِرَةِ وقالوا: إنَّ عُقوبَةَ القَبرِ قَبْلَ عُقوبَةِ يومِ القِيامَةِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب اللعان، رقم (١٤٩٣)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وإن قيل: فكيف يُوجِّهون قولَهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

فالجَوابُ: يُمكنُ أن يُوجِّهوها بأن يُحَرِّفوها عن ظاهِرِها، يَقولون: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعني: أَخْبَرْناهم بذلك لعلَّهم يَرجِعون، لكنَّ هذا خِلافُ ظاهِرِ اللَّفظِ.

فإن قيل: إذا قُلنا إنَّ هذا عَذابُ الدُّنيا، كيف نُثْبِتُ أنَّ القُرآنَ أَثْبَتَ عَذابَ القَبرِ؟

فالجَوابُ: كَثيرٌ في القُرآنِ، قولُهُ تَعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، وقولُهُ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٠]، وقولُهُ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

فإن قيل: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ البَعضُ يَستدِلُّ بهذه الآيَةِ على عَذابِ القَبرِ يَقولُ: إنَّ ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ هو عَذابُ الدُّنيا، ولكن ﴿مِّنَ﴾ في الآيَةِ للتَّبعيضِ، فهل تَبقَى لهم بَقِيَّةٌ من هذا العَذابِ يُعذَّبونَ بها في القَبرِ؟

فالجَوابُ: لا، ﴿مِّنَ﴾ للبَيانِ، مِن بَيانِيَّةٌ، هذا هو الأقرَبُ، ويَجوزُ أن تَكونَ للتَّبعيضِ ولنُذيقَنَّهم بعضَ العَذابِ الأَدْنَى، ولا حاجَةَ له، فإثباتُ عَذابِ القَبرِ -والحمدُ لله- جاء في آياتٍ صَريحَةٍ ما يَحتاجُ أن نَأتيَ إليه بآياتٍ تَحتَمِلُ هذا وهذا، وهي في غَيرِهِ أَرْجَحُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ الجَزاءِ بالأَسْوَأِ؛ لقولِه: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الجَزاءَ من جِنسِ العَمَلِ، فالجَزاءُ الصَّالحُ للعَمَلِ الصَّالحِ والجَزاءُ السَّيِّئُ للعَمَلِ السَّيِّئِ، وهذا -سُبحانَ اللهِ- حتَّى في مُجازاةِ الدُّنيا، قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠]، فإذا أساء إليك إنسانٌ بسيِّئَةٍ فلَكَ أن تُقابِلَه بمِثلِها، وإنْ عَفوتَ وأَصلحتَ فأَجرُك على اللهِ.

فإنْ قال قائلٌ: أمَا يُمكِنُ أن نَأخُذَ من قَولِهِ تعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أنَّهُ يُجازيهم أَسوأَ عَمَلِهم هذا، وهُو اللَّغو بألَّا يَهتَدوا إلى مَعانيهِ الَّتي تَهديهِمْ إلى الخَيرِ فتكونُ مُجازاتُهم مِن جِنسِ عَمَلِهم كذلك؟

فالجَوابُ: لا؛ لأنَّ: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ هذا في الآخِرَةِ، الوَعيدُ هُنا في الآخِرَةِ.

الآية (٢٨)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [فصلت:٢٨].

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذَٰلِكَ﴾ العَذابُ الشَّديدُ وأَسوَأُ الجَزاءِ: ﴿جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ﴾ بتَحقيقِ الهَمزَةِ الثَّانيَةِ وإبدالِها واوًا]، يعني: أنَّ في ذلكَ قِراءتَينِ الأُولَى تَحقيقُ الهَمزَةِ، ﴿جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ﴾ والثَّانيَةُ قَلبُها واوًا: «جزاو أعداءِ الله» وهذا مُطَّرِدٌ في كُلِّ هَمزَةٍ بعدَ واوٍ أن تُحقَّقَ أو تُقلَبَ واوًا، ومن ذلك قَولُ المُؤذِّنِ: اللهُ أكبرُ، يَعني: أنَّه يَجوزُ إبْدالُ الهَمْزَةِ واوًا وتحقيقها اللهُ أكبَرُ، وهذه اللُّغَةُ تُهوِّنُ علينا ما يَفعَلُه بعضُ المُؤذِّنينَ من قَلبِ الهَمزَةِ واوًا، فتَجِدُهم يَقولونَ: اللهُ وكبر، كما أنَّه يُهوِّنُ علينا اللُّغَةَ الَّتي تَنْصِبُ الجُزْأَينِ في إنَّ وأَخواتِها؛ حيثُ إنَّ بَعضَ المُؤَذِّنينَ يَقولُ: أَشهَدُ أنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ، فإنَّ نَصبَ الجُزأينِ بـ(أنَّ) لُغةٌ عربيَّةٌ ثابتَةٌ.

قَولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ﴾ أعداءُ اللهِ تَعالَى هُمُ الَّذين نَصَبوا لَهُ العَداوَةَ وذلك بمُحاربتِهِ بالمَعاصي، ومِنهم الَّذين آذَنوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ ورَسولِهِ أَكَلَةُ الرِّبا؛ لقَولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩].

المُهِمُّ: أنَّ عَدُوَّ اللهِ مَن نَصَبَ له العَداوَةَ وذلك بمُحاربتِهِ بمَعاصيه.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلنَّارُ﴾ عَطفُ بَيانٍ للجَزاءِ المُخبَر به عن ذلك: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾] يعني: أنَّ كَلمةَ ﴿ٱلنَّارُ﴾ بَدَلُ عَطْفِ بَيانٍ لِلجَزاءِ المُخبَرِ به عن ذلك.

فأَفادَنا أنَّ (ذا) مُبتدأٌ، و﴿جَزَآءُ﴾ خَبَرُ المُبتدأِ، و﴿ٱلنَّارُ﴾ عَطفُ بَيانٍ له ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾، كأنَّ الكَلامَ على إعرابِ المفسِّر انتهى، ثُمَّ قال: ﴿ٱلنَّارُ﴾ عَطْفُ بَيانٍ لهذا الجَزاءِ، ويَحتَمِلُ أن تَكونَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُبتدأٌ و﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ عَطفُ بَيانٍ له، لكن ما مَشي عليه المفسِّر أَقربُ للقَواعِدِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي إِقامَةٍ لا انتقالَ منها]، ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أَضافَ الدَّار للخُلْدِ من بابِ إضافَةِ المَوصوفِ إلى صِفتِهِ يعني: دارَ الخُلودِ الَّتي ليسَ فيها انتِقالٌ، ويَجوزُ أن تَكونَ من بابِ إضافَةِ الشَّيءِ إلى نَوعِهِ؛ لأنَّ الدُّورَ تَنقَسِمُ إلى أَقسامٍ، دُورٌ هي دُورُ انتقالٍ ودُورٌ هي دارُ خُلدٍ، فيَدورُ الانتقالُ الأوَّلُ بَطنُ الأُمِّ والثَّاني الحَياةُ الدُّنيا والثَّالثُ البَرزخُ، ودارُ الخُلدِ هي الأخيرَةُ، ويُذكَرُ أنَّ أعرابيًّا سَمِعَ قارئًا يَقرأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فقال: واللهِ ما الزَّائرُ بمُقيمٍ، وإنَّ هناك دارًا أُخْرى، وهذا لا شَكَّ أنَّه من قُوَّةِ الاستِنباطِ والفَهمِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿جَزَآءًۢ﴾ مَنصوبٌ على المَصدرِ بفِعلِهِ المُقدَّر]، والمَصدَرُ لا بُدَّ له مِن عاملٍ، والعامِلُ تارَّةً يَكونُ من لفظِ المَصدرِ، وتارَّةً يَكونُ من مَعناه، فإذا قلت: قُمتُ وقوفًا، فالعامِلُ مِن معناه، وإذا قلتَ: وقفتُ وقوفًا، فالعاملُ مِن لَفظِه المُقَدَّرِ، ويُقدَّرُ مِن لَفظِه، ولا يُقدَّرُ من مَعناه؛ لأنَّنا لا نَلجأُ إلى تَقديرِ المَعنى إلَّا إذا وُجِدَ أَمامَنا ما يَختَلِفُ في لَفظِه، وأمَّا إذا لم نَجِدْ فيُقَدَّر مِنَ اللَّفظِ، وعلى هذا فيَكونُ التَّقديرُ يُجْزَونَ جَزاءً.

قال اللهُ تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: بِكونِهم يَجحَدون، وعلى هذا فـ(ما)

هُنا مَصدَرِيَّةٌ، ولا تَصِحُّ أن تَكونَ مَوصولَةً.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القُرآنُ ﴿يَجْحَدُونَ﴾] أي يُكذِّبون، وإنَّما قدَّرنا يُكذِّبون من أَجْلِ تَعدِّيها بالباءِ؛ لأنَّ جَحَدَ تَتَعَدَّى بنَفسِها، فيُقالُ: جَحَدتُ الشَّيءَ يعني: أَنْكَرتُه، لكن إذا عُدِّيَ المَعمولُ بالباءِ صار الجَحدُ مُضمَّنَ معنى التَّكذيبِ؛ أي: بما كانوا يَكذِبون بآياتِنا.

من فوائدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ جزاءَ أعداءِ اللهِ هي النَّارُ ولا بدَّ، ولذلك قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ وبيَّنَ أنَّ هذا الجزاءَ هو النَّارُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ خُلدِ أهلِ النَّارِ فيها؛ لقَولِه: ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ وهلِ التَّخليدُ مُؤبَّدٌ أو مُؤَقَّتٌ؟ المَقطوعُ به أنَّه مُؤبَّدٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى صَرَّحَ به في آياتٍ ثلاثةٍ؛ في النِّساءِ وفي الأحزابِ وفي الجِنِّ.

ففي النِّساءِ قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]، وفي سورَةِ الأحزابِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥]، وفي سورَةِ الجِنِّ ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ عَدلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنَّه لا يُعذِّبُ أحدًا إلَّا بذَنبٍ؛ لقَولِه: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ الأَسبابِ يُستفادُ من قَولِه: ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾؛ لأنَّ الباءَ هنا للسَّببيَّةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ التَّكذيبَ بآياتِ اللهِ رِدَّةٌ؛ لأنَّ اللهَ وَصَفَ المُكذِّبين بأنَّهم أعداءٌ وأنَّ جَزاءَهم دارُ الخُلدِ، وهذا أَمْرٌ مُتَّفقٌ عليه، أنَّ مَن كَذَّبَ اللهَ ورَسولَه فإنَّه مُرتدٌّ كافِرٌ يُستَتابُ، فإن تاب وأَقَرَّ وإلَّا قُتِلَ.

فإن قال قائلٌ: مِن المَعلومِ أنَّ مَن كذَّب شيئًا مِن القُرآنِ فهو مُرتدٌّ؛ لأنَّ القُرآنَ ثَبتَ بالتَّواتُرِ، فهل مَن كذَّب بشيءٍ مِنَ السُّنَّةِ يكونُ كذلك؟

قُلنا: إذا صَحَّت السُّنَّةُ وقال القائلُ: أنا أَعلَمُ أنَّ هذا من كَلامِ الرَّسولِ لكنَّه ليس بصَحيحٍ، فهذا مُرتدٌّ؛ لأنَّه أقرَّ بصِحَّةِ نِسبتِه إلى الرَّسولِ ثُمَّ كَذَّبه، أمَّا لو كَذَّبه بِناءً على استِبعادِ أن يَكونَ صَدَرَ مِن الرَّسولِ ﷺ فهذا لا يُكفَّرُ؛ لأنَّه متأوِّلٌ، لكنَّه يَجِبُ عليه أن يَنظُرَ مرَّةً بعد أخرى حتَّى يتبيَّنَ له الأمرُ.

إذن مَن كذَّب شيئًا مِن القُرآنِ فهو كافِرٌ بدونِ تَفصيلٍ لثُبوتِ القُرآنِ ثُبوتًا مُتواترًا لا تَواتُرَ مثلَه في أيِّ كتابٍ مِن الكُتبِ، ومَن كذَّب شيئًا مِن سُنَّةِ الرَّسولِ ﷺ فهو كافِرٌ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بَيِّنةٌ ظاهرةٌ لا يُمكنُ أن يُكذِّبَ بها أحدٌ؛ لقَولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وتَخصيصُ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك بالقُرآنِ فيه شَيءٌ من النَّظرِ، بل يُقالُ: إنَّه أعَمُّ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ عَظمَةِ اللهِ حيثُ أَتى بضَميرِ الجَمعِ، ولم يَقُلْ: بآياتي، بل قال: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، ولا شكَّ أنَّ اللهَ تعالى له العَظَمةُ المُطلَقَةُ من كُلِّ وجهٍ.

• • ۞ • •

الآية (٢٩)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فُصِّلَت:٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا﴾ كَفروا باللهِ عَزَّوَجَلَّ بسببِ إضلالِ الشَّيطانِ منَ الجِنِّ والإنسِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في النَّارِ: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾]، قَولُه: في النَّارِ، هذا قَيدٌ لا يَدُلُّ عليه القُرآنُ، فإنَّه يَحتمِلُ أنَّهم يَقولونَ ذلك في النَّارِ أو في عَرَصاتِ القِيامَةِ -اللهُ أعلمُ-، لكنَّهم لا بدَّ أن يَقولوا هذا القَولَ: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

قَولُه تعالى: ﴿أَرِنَا﴾ أي: اجعَلنا نَرى، و﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، ﴿ٱلَّذَيْنِ﴾ اسمٌ موصولٌ مُثنًّى، والمُرادُ الجِنسُ لا الواحِدُ.

وقَولُه: ﴿أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ بَيانٌ للَّذي قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي إبليسُ وقَابيلُ سنَّا الكُفْرَ والقَتْلَ]، يعني: مَعناها أنَّ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حَمَلَ هذا العُمومَ على التَّعيينِ، فقال: ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ مُثنًّى اثنينِ، أحدُهما إبليسُ سَنَّ الكُفْرَ، هو أوَّلُ مَن كَفَرَ، والثَّاني قَابيلُ سَنَّ القَتْلَ، فالأوَّلُ عُدوانٌ في حقِّ اللهِ، والثَّاني عُدوانٌ في حَقِّ عِبادِ اللهِ.

أمَّا إبليسُ فأَوَّلُ مَن سَنَّ الكُفْرَ؛ لأنَّ اللهَ أَمَرَه أن يَسجُدَ لآدَمَ فأبى واستكبَرَ وكان مِن الكافِرينَ، وأمَّا قَابيلُ فأَوَّلُ مَن سَنَّ القَتلَ بِغيرِ حَقٍّ؛ لأنَّه قَتَل أخاه حَسدًا وبَغيًا، قَرَّبا قُربانًا فتُقُبِّلَ من أحدِهما ولم يُتَقَبَّلْ مِن الآخرِ، وكيف عَلِما أنَّه تُقُبِّلَ من أَحدِهما دون الآخَرِ؟ اللهُ أعلمُ، إمَّا أن يَكونَ بنارٍ نَزَلَت فأَكَلَت ما تُقُبِّلَ كما يَكونُ ذلك في الغَنائمِ سابقًا، وإمَّا بغَيرِ ذلك مِن العَلاماتِ. المُهمُّ أنَّ أحدَهما تُقُبِّل منه والثَّاني لم يُتَقَبَّلْ منه، الَّذي تُقُبِّل منه هو هابيلُ، والثَّاني قابيلُ لم يُتَقَبَّلْ منه فحَسَدَه وقال: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ لماذا؟ حَسدًا؛ لأنَّ اللهَ تَقبَّل منه، فقال له أخوه هابيلُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] كأنَّه يَقولُ له: اتَّقِ اللهَ فيَتقبَّل منك؛ ثُمَّ قال لَهُ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:٢٨] يَعني: أنَّك إن أَردتَ أن تَقتُلَني ما أَنا بباسِطٍ يدي لأَقتلَك لأنِّي أَخافُ اللهَ.

ولعلَّ هذا كان في شَريعَةِ مَن سَبَقَ أنَّه لا يَجوزُ للإنسانِ أن يُدافِعَ عن نفسِهِ، أو أنَّه خاف مِن مَفسدَةٍ أَكبَرُ، ومَعلومٌ أنَّ دَفْعَ المَفسدَةِ الكُبرى أَمْرٌ واجِبٌ: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٢٩-٣٠] فكان قابيلُ أَوَّلَ مَن سَنَّ القَتلَ بغَيرِ حَقٍّ، وصارت كُلُّ نفسٍ تُقتَلُ بغيرِ حَقٍّ فعلى قابيلَ شيءٌ مِن وِزرِها والعِياذُ باللهِ؛ لأنَّهُ أَوَّلُ مَن سنَّ القَتلَ، ومَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فعليه وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِلَ بها إلى يومِ القِيامَةِ.

فإنْ قال قائلٌ: قَولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حكايةً عن ابنِ آدمَ الأَوَّلِ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ هل يَكونُ هذا في شَرعِنا فيما يَخُصُّ الفِتَنَ؟

فالجَوابُ: بلى، هذا في الفِتنَةِ لكن في مَسألَةِ قابيلَ وهابيلَ ليس فيها فِتنَةٌ،

ولهذا أَمَرَ الرَّسولُ عند الفِتنَةِ أن يَكونَ الإنسانُ كخيرِ ابنَيْ آدمَ، كما فَعلَ عُثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينَ ثارَ عليه الثُّوَّارُ، وأراد الصَّحابَةُ أن يُدافِعوا عنه، أَمَر بالإمساكِ.

لكن هل الأمرُ كما قال المفسِّر: إنَّه الشَّيطانُ، يعني: إبليسُ الَّذي أبى واستكبرَ عنِ السُّجودِ لآدمَ أوِ المُرادُ الجِنسُ؟ الصَّوابُ الثَّاني بِلا شَكٍّ؛ لأنَّ كَثيرًا مِن الكافِرينَ لا يَخطُرُ ببالِهِم أنَّهم كَفَروا تَأسِّيًا بالشَّيطانِ الَّذي أبى واستكْبَرَ، وكَثيرٌ منَ القَتَلَةِ لا يَتَأَتَّى ببالِه أنَّه فَعَلَ ذلك تَأَسِّيًا بقابيلَ.

فإذا كانت الآيَةُ تَدُلُّ بلَفظِها على العُمومِ والمَعنى يَقتَضي ذلك، فإنَّه لا وَجهَ لكونِنا نَخُصُّها بمُعَيَّنٍ. وهذه قاعِدَةٌ يَجِبُ أن نَفهَمَها من قَواعِدِ التَّفسيرِ: أنَّ اللَّفظَ العامَّ لا يَجوزُ أن يَقتَصِرَ فيه على بعضِ أفرادِه إلَّا بدَليلٍ، فإن لم يَكُن دَليلٌ فالواجِبُ العُمومُ.

هُنا نَقولُ الواجِبُ العُمومُ؛ لأنَّ اللَّفظَ عامٌّ ولأنَّ المَعنى يَقتَضيه؛ لأنَّ كُلَّ إنسانٍ كافِرٍ قد لا يَخطُرُ ببَالِه أنَّه مُتَأسٍّ بالشَّيطانِ بإبْليسَ، كُلُّ إنسانٍ يَقتُلُ عمدًا بِلا حقٍّ لا يخطُرُ ببالِه أنَّه قَتَل تأسِّيًا بقابيلَ، وحينَئِذٍ فاللَّفظُ والمَعنى لا يُساعدانِ على التَّخصيصِ بإبْليسَ وقابيلَ.

وقولُهُ: ﴿أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، ﴿ٱلْجِنِّ﴾ على كَلامِ المفسِّر هو إبليسُ: ﴿وَٱلْإِنسِ﴾ قابيلُ، والصَّوابُ العُمومُ.

فإن قال قائِلٌ: نَحنُ نَعلمُ أنَّ الإنسانَ يُضِلُّه البَشَر يَأتي إنسانٌ سَيِّئٌ ويُضِلُّه، لكن كيف يَكونُ مِنَ الجِنِّ؟

قُلنا: لأنَّ الجِنَّ وعلى رَأسِهم الشَّيطانُ يَأمرُ الإنسانَ بالفَحشاءِ، ويَأمُرُه بالمُنكَرِ،

ويَأمُرُه بالكُفرِ، فيَكونُ بذلك مُضلًّا له، أرأيتم ما حَصَلَ من آدَمَ وزَوجِه ألم يَكُنِ الشَّيطانُ قد أَضَلَّهما؟ بلى، قد أَضَلَّهما، نَهاهما اللهُ عن الأَكلِ مِنَ الشَّجرَةِ، فجاء لَهما الشَّيطانُ بغُرورٍ، وجعل يُقسِمُ لهما أنَّه ناصحٌ، ووَسوسَ إليهما حتَّى أَكَلا مِنَ الشَّجَرةِ.

فإنْ قال قائلٌ: هلِ الجِنُّ المُضِلُّ للإنسِ يَكونُ مِن جَميعِ الجِنِّ أم مِن جِنسٍ خاصٍّ؟

فالجَوابُ: مِن المَعلومِ أنَّ الجِنَّ فيهم الصَّالحونَ وفيهم دونَ ذلك، وفيهم المُسلِمونَ وفِيهم الكُفَّارُ، فالَّذي يُضِلُّ إنَّما هو الكافِرُ، أمَّا الجِنِّيُّ المُؤمنُ فلا يُضِلُّ.

وإن قيل: هل جَميعُ كُفَّارِ الجِنِّ مَكَّنَهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ من إغواءِ الإنسِ؟

فالجَوابُ: لا، لكن أَصلُ كُفرِ الإنسانِ منَ الشَّيطانِ والنَّفسِ، والشَّيطانُ منَ الجِنِّ لا شكَّ في هذا: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف:٥٠].

قال اللهُ تعالى: ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾، ﴿نَجۡعَلۡهُمَا﴾ بالجَزمِ جَوابُ الأمرِ في قَولِه: ﴿أَرِنَا﴾ يعني: إن أَريتَنا إيَّاهما: ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾، يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في النَّارِ]، ولا شكَّ أنَّ الَّذي يَجعَلَه الإنسانُ تحتَ قدمِه قد أذلَّه أعظَمَ الإذلالِ، ولهذا مِن الأمثالِ السَّائرَةِ أنَّ الإنسانَ إذا أرادَ إعزازَ شَخصٍ قال: أنت مِنِّي على الرَّأسِ، وإذا أَرادَ إذلالَه قال: أنت تَحتَ قَدَمي.

فهم يَقولونَ: ﴿أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾. يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: أَشَدَّ عذابًا منَّا] كما كانا عالِيَينِ علينا مِن قَبلُ فلْنَجْعَلْهما نحنُ الآنَ تَحتَ أقدامِنا؛ ليَكونا مِن الأسفَلينَ.

فإنْ قال قائلٌ: الدُّعاءُ في قولِهِ تعالَى: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا﴾، هل هو خاصٌّ

بكَفَرَةِ الإنسِ أم شاملٌ لكَفَرَةِ الإنسِ والجِنِّ؟

فالجَوابُ: يَشملُ هذا وهذا؛ لأنَّ الجِنَّ يَدخلُ كافِرُهم النَّارَ بالإجماعِ.

وإنْ قِيل: لماذا أتتِ الآيَةُ بصيغَةِ الماضي؟

فالجَوابُ: أنَّ هذا القَولُ لم يَحصُلْ لكنَّه على حِكايةِ الحالِ، أو يُقالُ: إنَّه لـمَّا تَحقَّقَ وُقوعُه صار بمَنزِلةِ الماضي كقَولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، فإنَّ أمْرَ اللهِ لم يأتِ بَعدُ بدليلِ قولِهِ: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾.

فإنْ قال قائلٌ: ألا يُمكنُ أن يُقالَ: إنَّ قَولَ الكافِرينَ: ﴿أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا﴾ كذلك في النَّارِ بدَليلِ قولِهم بعدَ ذلك: ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾؟

فالجَوابُ: لا يـدُلُّ عليه؛ لأنَّه يُمكـنُ أن يَجعَلونهم تَحـتَ أقدامِهم وهم في عَرَصاتِ القِيامَةِ لا يَلزَمُ أن يَكونَ هذا في النَّارِ.

من فوائدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: إقرارِ الكُفَّارِ برُبوبيَّةِ اللهِ، وأنَّه المُجيبُ للدُّعاءِ؛ لقولِهم: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا﴾ وهذا كَلامُ الكُفَّارِ.

فإنْ قال قائلٌ: قَولُهم: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ﴾ أليس فيه إقرارٌ بالأُلوهِيَّةِ وتَوحيـدِ العِبادَةِ؟

فالجَوابُ: لا، دُعاءُ اللهِ تعالَى يَكونُ بالدُّنيا لكنَّهم يَدعونَ اللهَ تعالَى بالضَّرَّاءِ ويَنسونَه في السَّرَّاءِ، وهُناكَ أيضًا في الآخِرَةِ رُبَّما يُقِرُّونَ بأنَّه حقٌّ، لا إلَهَ إلَّا اللهُ، لكن لا يَنفَعُهم هذا الإقْرارُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإنسانَ يَنبَغي له أن يَبتَعِدَ، بل يَجِبُ عليه أن يَبتَعِدَ عن قُرناءِ السُّوءِ؛ لقولِهِ: ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، وقد حَذَّرَ النَّبيُّ ﷺ مِن جَليسِ السُّوءِ فقال: «**المَرءُ على دينِ خَليلِه فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُم مَنْ يُخالِلْ**»[1] أي: على دينِ صَديقِه ومُحِبِّه فَلْيَنْظُرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَثَلُ الجَليسِ السُّوءِ كنافِخِ الكيرِ، إمَّا أن يَحرِقَ ثيابَك وإمَّا أن تَجِدَ منه رائِحةً خَبيثَةً**»[2]، فاحذَرْ قَرينَ السُّوءِ لا تَجتمِعْ به، لا تُصادِقْه، لا تَستأمِنْه على أيِّ شيءٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَبَرُّؤ التَّابعينَ مِن المَتبوعينَ يومَ القيامَةِ، ويَشهَدُ على ذلك قولُهُ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [البقرة:١٦٦]، فالمَتبوعون في آيَةِ البقرَةِ يَتبرَّؤونَ مِنَ التَّابعينَ، كما أنَّ التَّابعينَ أيضًا يَتبرَّؤون مِنَ المَتبوعينَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الإضلالَ يَكونُ مِنَ الجِنِّ والإنسِ؛ لقولِه: ﴿أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ فمُصاحبَةُ الإنسيِّ للإنسيِّ واضحَةٌ، مُصاحبَةُ الجِنِّيِّ للإنسيِّ أيضًا مُستفادَةٌ من قولِه تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فُصِّلَت:٢٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: شِدَّةُ حَنْقِ هؤلاءِ الضَّالينَ على المُضلِّينَ؛ لقولِه: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٠٣)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم (٤٨٣٣)، والترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم (٢٦٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآيات (٣٠-٣٢)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فُصِّلَت: ٣٠-٣٢].

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، قالوا بألْسِنَتِهم وقُلوبِهم، ولا يَكفي مُجَرَّدُ القَولِ باللِّسانِ؛ لأنَّ القَولَ باللِّسانِ يَقعُ مِن المُنافقِ ومِنَ المُخلصِ، لكنَّ المُرادَ: القَولُ باللِّسانِ والقَلبِ.

﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وهذا القَولُ الَّذي قالوه ليس مُجَرَّدَ قَولٍ باللِّسانِ أو اعتِقادٍ بالجَنانِ، بل هو مُستلزِمٌ لطاعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي: استَقاموا على طاعَةِ اللهِ، في الإيمانِ في القَلبِ والاستِقامَةِ في الجَوارحِ، فلم يَكتَفِ اللهُ بالثَّناءِ عليهم وبَيانِ جَزائِهم على الإيمانِ بالقَلبِ، بل لا بدَّ مِنْ الاستِقامَةِ، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾، وقول المُفسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [على التَّوحيدِ وغَيرِه ممَّا وَجبَ عليهم] صَحيحٌ، يعني: استَقاموا على التَّوحيدِ فلا إشْراكَ، استَقاموا على الاِتِّباعِ فَلا بِدعةَ، استَقاموا على الطَّاعَةِ فلا مَعصيَةَ، استَقاموا على الخَيرِ فلا شَرَّ، وهَلُمَّ جرًّا.

وتَأمَّلْ قولَه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أتى بـ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالَّةِ على التَّرتيبِ بمُهلَةٍ يعني:

أنَّ إيمانَهم لم يَكنْ إيمانًا خاطِفًا، آمَنَ ثُمَّ زال، بل إيمانٌ مُستقِرٌّ؛ لأنَّهم استَقاموا على دينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقد سُئلَ النَّبيُّ ﷺ سأله رَجلٌ فقال: «**يا رَسولَ اللهِ، قُل لي في الإسلامِ قولًا لا أَسألُ عنه أحدًا غيرَك** -يعني: قَولًا فَصلًا-، **فقال لَه: قُل آمَنتُ باللهِ ثُمَّ استَقِمْ**»(١) وهو مَأخوذٌ من هذه الآيَةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾.

وقولُه: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ مَدلولُها يُخالِفُ مَدلولَ تَنَزَّلُ؛ لأنَّ ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ فيها زِيادَةُ (التَّاء)، فهذه الزِّيادَةُ تَقتَضي مَعنيينِ: المَعنى الأَوَّلُ أنَّ تَنزُّلَهم يَكونُ شيئًا فشيئًا. ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ لا تَنزَّلُ دُفعةً واحدَةً، والثَّاني: أنَّ التَّنزُّلَ أو النُّزولَ مُتكرِّرٌ، ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ﴾، يعني: كُلَّما دَعت حالُهم إلى تَنزُّلِ المَلائِكةِ عليهم تَنزَّلت عليهم، فصار الفَرقُ الآنَ بين تَنزَّلُ و﴿تَتَنَزَّلُ﴾ من وجهين:

الوَجهُ الأَوَّلُ: أنَّ تَنزَّلُ تَعني النُّزولَ مَرَّةً واحدةً.

والوَجهُ الثَّاني: دُفعَةً واحدةً.

و﴿تَتَنَزَّلُ﴾ تَقتَضي تَكرارَ النُّزولِ، وأنَّه يَكونُ شيئًا فشيئًا.

قولُه تعالَى: ﴿عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ سَبَقَ الكَلامُ على ذِكرِ المَلائِكَةِ، وقَول المُفسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عندَ المَوتِ] فيه نَظَرٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى لم يُقيِّدْ ذلك، فالظَّاهرُ أنَّ المَلائكَةَ تَتَنزَّلُ عليهم كُلَّما دعت الحالُ إلى النُّزولِ عندَ المَوتِ وعِندَ الخَوفِ وعندَ المَعارِكِ، وفي كُلِّ حالٍ تَقتَضي أن تَنزِلَ المَلائكةُ عليهم؛ لأنَّ اللهَ أَطلقَ: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ﴾، ويَشهَدُ لهذا قولُه تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال:١٢].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، رقم (٣٨)، من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فإنْ قال قائلٌ: قولُنا نَستفيدُ نُزولَ المَلائكَةِ في الآخِرَةِ عندَ المَوتِ مِن قَصْرِ الآيةِ، هل يَصدُرُ هذا عن قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٤]، يعني أنَّ أكثرَ المُفسِّرينَ على أنَّها في القَبرِ في الآخِرَةِ وهُنا الآيَةُ عامَّةٌ؟

فالجَوابُ: وهو كذلك الآيَةُ عامَّةٌ، ويدُلُّ لعُمومِها قولُه تَعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل:٩٧]، فإنَّ مَفهومَها أنَّ مَن لم يَتَّصِفْ بذلك فَليسَ لَه حَياةٌ طَيِّبةٌ.

فإن قيل: فما الَّذي حَمَلَهم -على كَثرَتِهم- على هذا؟

فالجَوابُ: لعلَّهم فَهِموا أنَّ السِّياقَ يدُلُّ على هذا، فهُنا مثلًا: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ البِشارَةُ بالجَنَّةِ حَقيقَةً إنَّما تَكونُ عندَ المَوتِ، فلعلَّه السِّياقُ ظَنُّوا أنَّه يَقتَضي التَّخصيصَ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَ﴾ بأنْ لا ﴿تَخَافُوا۟﴾ مِن المَوتِ وما بَعدَهُ ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما خَلَّفتم من أهلٍ وولدٍ، فنحن نَخلُفُكم فيهم].

نحن نَقولُ: ألَّا تَخافوا مِن مُستَقْبَلِكم ولا تَحزنوا على ماضيكم؛ لأنَّ الإنسانَ عندَ الخوفِ إمَّا أن يَخافَ من المُستقبَلِ أو يَحزنَ على ما مَضى فيَقولُ: لو أنِّي فَعلتُ كذا لكان كذا، لم يَحدُثْ لي الخَوفُ مثلًا، فالمَلائِكةُ تَتَنزَّلُ عليهم فتَقولُ: لا تَخافوا مِنَ المُستقبَلِ ولا تَحزَنوا مِنَ الماضي، وقَدَّمَ الخَوفَ مِنَ المُستقبَلِ؛ لأنَّه أَهمُّ مِن الحُزنِ على ما مضى؛ لأنَّ مُستقبَلَ الإنسانِ هو الَّذي يَجعَلُه يَسيرُ أو يَتوقَّفُ؛ فلهذا بَدَأَ به قَبْلَ ذِكرِ الحُزنِ.

وإذا جعلناها مَثلًا ممَّا يَدعو إلى التَّنزُّلِ حالَ المَوتِ، فالإنسانُ عندَ المَوتِ حالُه

يَقتَضي أن يَزدادَ قُوَّةً ونشاطًا على الإيمانِ والتَّوحيدِ، فتَتنزَّلُ عليهمُ المَلائِكَةُ عندَ المَوتِ أيضًا وتُبَشِّرُهم بها: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وهي مِن البِشارَةِ، والبِشارَةُ هي الإخبارُ بما يَسُرُّ، وسُمِّيت بِشارَةً؛ لأنَّه إذا سُرَّ الإنسانُ ظَهَرت عَلامَةُ السُّرورِ على وَجهِه فتَغيَّرت بِشرَةُ الوَجهِ.

وقد تُطلَقُ البِشارَةُ على الإِخْبارِ بما يَسوءُ من بابِ التَّهكُّمِ، قال اللهُ تَعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣٤]، مع أنَّ هذا مِمَّا يَسوءُ، لكنَّه على سَبيلِ التَّهَكُّمِ بهم كما تَقولُ أنت لِلعاصي: أَبشِرْ بِسوءِ العاقِبةِ أبشِرْ بالنَّارِ وما أَشْبَهَ ذلك ممَّا يَكونُ تَهكُّمًا به، ومثلُ قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٨-٤٩].

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ الجَنَّةُ هي الدَّارُ الَّتي أعدَّها اللهُ لأوليائِه، وفيها كما في القُرآنِ الكريمِ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]، وفيها كما جاءَ في الحديثِ القُدسيِّ: «**ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سَمِعت، ولا خَطَرَ على قَلبِ بشرٍ**»(١).

﴿بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وعَدَهم بها اللهُ عَزَّوَجَلَّ قال اللهُ تَعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة:٧٢].

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾] أي: نَحفَظُكم فيها ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: نَكونُ معكم فيها حتَّى تَدخلوا الجَنَّةَ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، رقم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ تَطْلُبون].

تَقولُ لـهم المَلائِكَةُ: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ يعني: أنَّ المَلائكَةَ تَتولَّى المُؤمنينَ، تَحثُّهم على الخَيرِ، وتُحذِّرُهم منَ الشَّرِّ، وقد قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم-: أنَّ «**للمُلكِ في قَلبِ ابنِ آدمَ لَـمَّةً وللشَّيطانِ لَـمَّةً، فلَمَّةُ المُلكِ إيعادٌ بالخَيرِ وحثٌّ على الطَّاعَةِ، ولَـمَّةُ الشَّيطانِ بالعَكسِ**»(١).

فإنْ قال قائلٌ: هل تَرِدُ اللَّمَّتانِ في آنٍ واحدٍ؟

فالجَوابُ: نعم، قد تَرِدُ اللَّمَّتانِ في آنٍ واحدٍ فيَهوى الإنسانُ الخَيرَ وإذا بالشَّيطانِ يَصُدُّه عنه، وقد يَكونُ لم يَطرأْ على بالِه فِعلُ الخَيرِ، والشَّيطانُ قد وَسوسَ له بالشَّرِّ.

وقولُه: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: نَحفَظُكم فيها؛ وذلك أنَّ الإنسانَ إذا كانت المَلائِكَةُ معه فإنَّها تُسدِّدُه وتَدُلُّه على الخَيرِ وتَحثُّه عليه، ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ يَتولَّونَهم أيضًا، فإنَّ المَلائِكَةَ تَتلقَّاهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣]، وفي الجَنَّةِ تَدخُلُ عليهم المَلائِكَةُ من كُلِّ بابٍ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤]، فهُمْ أولياءُ المُؤمنينَ في الدُّنيا وفي الآخِرَةِ، جَعلَنا اللهُ منهم وإيَّاكم.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الآخِرَةِ ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ كُلُّ ما اشتَهاهُ الإنسانُ وإن لم يَطلُبْه فإنَّه يَحصُلُ بين يَديه، وكذلك أيضًا كُلُّ ما طَلَبَه فإنَّه يَحضُرُ بين يَديه.

في الدُّنيا لا يَتسَنَّى للإنسانِ ما يَطلُبُه حتَّى لو طَلَبَ وكـرَّرَ الطَّلبَ فإنَّه قد

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، رقم (٢٩٨٨)، من حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لا يَأتيه، لكن في الآخِرَةِ مُجَرَّدُ ما يَقعُ في قَلبِ الإنسانِ أنَّه يَشتَهي كذا يحضُرُ، كذلك أيضًا ما يَطلُبون يَحضُرُ أيضًا، ويَأتيهم أيضًا ما لا يَخطُرُ على بالِهم كما قال تَعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥] يَعني يَأتيك منَ النَّعيمِ ما لم تَطلُبْه وما لم تَشتَهِه نفسُك وما لم يخطُرْ على بالِك.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿نُزُلًا﴾] رِزقًا مُهَيَّأً منصوبٌ بجُعِلَ مُقَدَّرًا]؛ أي: جُعِل نُزلًا [﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي اللهِ] عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّهم لم يَصِلوا إلى الجَنَّةِ إلَّا بمغفِرتِه ورَحمتِه.

يعني على تَقديرِ المفسِّر: أنَّ ﴿نُزُلًا﴾ مفعولٌ ثانٍ لجُعِلَ المَحذوفِ، أي: جُعِل ﴿نُزُلًا﴾ ومَفعولُها الأوَّلُ هو نَائبُ الفاعِلِ؛ لأنَّ نائبَ الفاعِلِ يَنوبُ عن المَفعولِ به. يَقولُ: ﴿نُزُلًا﴾، أي: جُعِلَ ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ وذَكَرَ المغفرةَ والرَّحمةَ؛ لأنَّهم بمَغفِرَةِ اللهِ ورحمتِهِ وصَلوا إلى هذا، فبِمَغفِرتِه للذُّنوبِ نقُّوا منها وبرحمَةِ اللهِ تَعالى صاروا أهلًا لدُخولِ الجَنَّةِ.

من فوائدِ الآياتِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ مُجَرَّدَ العَقيدَةِ لا يُغني شيئًا حتَّى يَكونَ معه عَملٌ؛ لقولِه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾، وما يَقولُه كَثيرٌ منَ النَّاسِ: نحن على العَقيدَةِ هذا حَقٌّ ولا شكَّ، ويَمدَحونَ عليه لكن لا بُدَّ مِن أن يُقالَ: نحن على العَقيدَةِ والعَملِ الصَّالحِ، إذ لا بُدَّ منَ العملِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الحثُّ على الاستقامَةِ، والاستقامَةُ على دينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن يَثبُتَ عليه، ويَستَقيمَ عليه ولا يَتغيَّرُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ المَلائكَةِ؛ لقولِه: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ اللهَ تَعالى سَخَّرَ المَلائكَةَ لبَني آدَمَ في مَواطنَ كَثيرةٍ كما في هذه الآيَةِ، وكما في قولِهِ تَعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤]، وكما سَخَّرهم اللهُ تَعالى يَجلِسونَ على أَبوابِ المَساجِدِ يومَ الجُمُعةِ يَكتُبونَ الأَوَّلَ فالأَوَّلَ، إلى غَيرِ ذلك مِنَ المَواطنِ الَّتي جاءت في الكِتابِ والسُّنَّةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ المَلائكَةَ الَّتي تَتنزَّلُ على هَؤلاءِ المُؤمنينَ المُستَقيمينَ تُبشِّرُهم بثَلاثَةِ أُمورٍ: أَوَّلًا: أنَّه لا خَوفَ عليهم، والثَّاني: أنَّهم لا يَحزنونَ، والثَّالثُ: أنَّ الجَنَّةَ مَأواهم، وقد سَبَقَ الفَرْقُ بين الخَوفِ والحُزنِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَحقيقُ البُشرى بما يُؤيِّدُها، يعني: لا يَكفي أن تَقولَ: يا فُلانُ أَبشِرْ بالخَيرِ حتَّى تُبيِّنَ ما يُؤيِّدُ هذه البُشْرى، يُؤخَذُ من هذه الآيَةِ وهي قولُه: ﴿ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وذلك لِعِلمِهم بأنَّ وعدَ اللهِ لا يُخلَفُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ المَلائكَةَ أَولياءُ لَمن آمَنَ واستقامَ في الحَياةِ الدُّنيا وفي الآخِرَةِ.

أمَّا في الحَياةِ الدُّنيا فهِيَ حِفظُهم مِنَ المَعاصي والزَّللِ وتَهيئَتُهم للعَملِ الصَّالحِ ومَعونَتُهم على ذلك وتَثْبيتُهم عليه.

وأمَّا في الآخِرَةِ فلا تَسألْ، فإنَّ المَلائكَةَ تَتلقَّاهم، وكذلك أيضًا يَدخُلونَ عليهم مِن كُلِّ بابٍ في الجَنَّةِ إلى غيرِ ذلك ممَّا ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ للَّذين آمَنوا باللهِ واستَقاموا في الجَنَّةِ ما تَشتَهيهِ الأنفُسُ، وفي آيَةٍ أُخرى: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزُّخرُف:٧١] فيَكونُ لأهلِ الجَنَّةِ فيها مُتعَتانِ؛ المُتعَةُ الأُولى بالذَّوقِ والطَّعمِ، والمُتعَةُ الثَّانيةُ بالرُّؤيَةِ والنَّظرِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ في الجَنَّةِ كُلَّ شيءٍ يَطلُبُ؛ لقولِه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾،

فكُلُّ ما يَطلُبون فإنَّه مَوجودٌ في الجَنَّةِ، نَسألُ اللهَ أن يَجعلَني وإيَّاكم من أَهلِها.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّهم يُؤتَونَ هذا الرِّزقَ في الجَنَّةِ على أنَّه إكرامٌ وكَرامةٌ؛ لقولِهِ: ﴿ نُزُلًا ﴾، وأصلُ النُّزُلِ ما يُقدَّمُ للضَّيفِ مِنَ الكَرامَةِ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّهم إنَّما وَصَلوا إلى ذلك بمَغفِرةِ اللهِ ورَحمَتِه؛ لقولِه: ﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾، ولولا ذلك ما وَصَلوا إلى ما وَصَلوا إليه، ولهذا أَخبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّه «**لن يَدخُلَ الجَنَّةَ أحدٌ بعَمَلِه**»، قالوا: ولا أنت يا رَسولَ اللهِ؟ قال: «**ولا أنا؛ إلَّا أن يَتَغَمَّدَني اللهُ برَحمَتِه**»[1]، فالإنسانُ لا يَصِلُ إلى الجَنَّةِ بالعَمَلِ، ووَجهُ ذلك أنَّه لو قوبِلَ العَمَلُ بالنِّعمَةِ الَّتي أَنعَمَ اللهُ بها على الإنسانِ لم يَكُنْ شيئًا، إذ إنَّ نِعَمَ اللهِ لا تُحْصَى ولا تُعَدُّ.

بل قال بَعضُ أهلِ العِلمِ: إنَّ شُكرَ نِعمَةِ اللهِ على النِّعمَةِ هو نِعمَةٌ يَحتاجُ إلى شُكرٍ ثانٍ، والشُّكرُ الثَّاني نِعمَةٌ يَحتاجُ إلى شُكرٍ ثَالثٍ وهَلُمَّ جرًّا، وعليه يَقولُ الشَّاعرُ[2]:

إذا كـان شُـكْري نِعمَـةَ اللهِ نِعمَـةً ... عَـلَيَّ لـه في مِثلِهـا يَجِـبُ الشُّـكرُ
فكيـف بُلـوغُ الشُّـكرِ إلَّا بفَضـلِه ... وإن طالـت الأيَّـامُ واتَّصـلَ العُمـرُ

فإنْ قالَ قائِلٌ: في الحَدِيثِ: «**لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كان في قَلْبه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن**

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البيتان لمحمود بن الحسن الوراق، انظر: الفاضل للمبرد (ص:٩٥)، والصناعتين لأبي هلال العسكري (ص:٢٣٢).

كِبْرٍ»[١]. هَلْ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ دُخولًا أوَّليًّا، أمْ لا يَدخُلُ الجَنَّةَ أبَدًا؟

فالجَوابُ: هَذا فِيه تَفصِيلٌ؛ إنْ كان الكِبْرُ كُفرًا فَلا يَدخُل الجَنَّة أبَدًا، وإنْ كان كِبْرٌ مَعَ الإيمانِ فَإنَّه لا يَدخُلُها الدُّخولَ المُطلَقَ الَّذي لمْ يُسبَق بعَذابٍ، وهَذا أيْضًا مِن آيات الوَعِيدِ، إذا شاء اللهُ تَعالَى عَفا عَنْه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٨].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ اسمَينِ مِن أَسماءِ اللهِ وهُما الغَفورُ الرَّحيمُ.

وهُنا قاعدَةٌ مُفيدَةٌ في الأسماءِ الحُسنى: الأَسْماءُ الحُسنى تَدُلُّ على الذَّاتِ والصِّفاتِ دَلالَةً مُطابقَةً وتَضمَنُ ودَلالَةَ التِزام، فغَفورٌ يَدُلُّ على أنَّ هُناك غافرًا وهو اللهُ، ويدُلُّ على صِفةِ المَغفرَةِ له إذ لا يُمكِنُ أن يُوجَدَ اسمٌ مُشتقٌّ لا يوجَدُ في مَوصوفِه أَصلُ الاشتِقاقِ، ولهذا لا تَقولُ للأعمى أنَّه بَصيرٌ ولا الأَصَمِّ أنَّه سَميعٌ.

فلا بدَّ إذن مِن إثباتِ الذَّاتِ المُتَّصِفَةِ بما دلَّ عليه الاِسمُ، ولا بدَّ مِن إثباتِ الصِّفَةِ الَّتي اشتُقَّ منها الاِسمُ، ولا بُدَّ أيضًا مِن إثباتِ لازمِ تلك الصِّفةِ، مِثالُ ذلك قال اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

فأَخبَرَ أنَّه خَلَقَ وبَيَّنَ أنَّه أخبَرنا بذلك لنَعلمَ أنَّه على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّ اللهَ قد أَحاطَ بكُلِّ شيءٍ عِلمًا، فكيف دَلَّت صِفةُ الخَلقِ على العِلمِ والقُدرَةِ؟ لأنَّه لا يُمكنُ أن يَخلُقَ إلا بِعلمٍ، فهو يَعلمُ كيف يَخلُقُ، ولا يُمكنُ أن يَخلُقَ إلَّا بقُدرَةٍ؛ ولهذا مَن لا عِلمَ له لا يُمكنُ أن يَخلُقَ، ومَن عِندَه عِلمٌ ولكنَّه عاجِزٌ لا يُمكِنُ أن يَخلُقَ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أرأيتَ لو أنَّ شخصًا أرادَ أن يُلحَ مُسَجِّلًا، هل يُمكنُ أن يُصلحَه إلَّا بعِلمِ كيف يُصلحُه؟ لا يُمكنُ، وهل يُمكنُ أن يُصلحَه وهو عاجِزٌ أَشَلُّ؟ لا يُمكنُ.

إذن الخالِقُ مِن أسماءِ اللهِ تَتضَمَّنُ الدَّلالَةَ على الذَّاتِ وهو اللهُ، وعلى صِفَةِ الخَلقِ، وعلى صِفةِ العِلمِ، وعلى صِفةِ القُدرَةِ، فتَدُلُّ على صِفةِ الخالِقِ الَّذي هو ذاتُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وعلى صِفةِ الخَلقِ بالتَّضمُّنِ والمُطابَقةِ، فإذا أُخِذَ اللَّفظُ بكامِلِ معناه سُمِّيتِ الدَّلالَةُ مُطابِقةً، وإذا أُخِذَ ببَعضِ معناه صارت الدَّلالَةُ تَضَمُّنًا، وإذا أُخِذَ بما يَلزَمُ على ذلك صارت الدَّلالَةُ التِزامًا، فدَلالَةُ الخالِقِ على الذَّاتِ وصِفةِ الخَلقِ مُطابِقَةٌ، ودَلالَتُها على الذَّاتِ وحدَها تَضَمُّنٌ، وعلى الخَلْقِ وحدَه تَضَمُّنٌ، وعلى العِلمِ والقُدرَةِ التِزامٌ.

نَضرِبُ مَثلًا في المَحسوساتِ تَقولُ مَثلًا: (لي دارٌ) الدَّارُ كما نَعلَمُ تَتضَمَّنُ غُرَفًا وحُجَرًا وساحاتٍ وأبوابًا وشَبابيكَ وما إلى ذلك، دَلالَةُ هذه الكَلِمَةِ (دار) على مَجموعِ هذا دَلالَةٌ مُطابِقَةٌ، ودَلالَتُها على كُلِّ حُجرَةٍ وغُرفَةٍ وشَبَّاكٍ تَضَمُّنٌ، ودَلالَتُها على أنَّ لهذا البَيتِ بانيًا التِزامٌ؛ وأسماءُ اللهِ تَعالى تَجرِي على هذا.

وكذلك أيضًا: يَقولون إذا كانَ الاسمُ مُتعدِّيًا فلا بدَّ منَ الإيمانِ به اسمًا من أسماءِ اللهِ، والإيمانُ بما دَلَّ عليه من صِفَةٍ، والإيمانُ بما يَترتَّبُ على تلك الصِّفَةِ من أفعالٍ.

فالغَفورُ لا يَتِمُّ الإيمانُ به حتَّى تُؤمِنَ بأنَّ اللهَ تعالى تَسمَّى بهذا الاسمِ، فتُؤمِنُ بأنَّ الغَفورَ اسمٌ من أسماءِ اللهِ، ولا بدَّ أن تُؤمِنَ بما تَضَمَّنه من صِفَةِ المَغفرَةِ، ولا بدَّ أن تُؤمنَ بأنَّ اللهَ يَغفِرُ، يَغفِرُ بمُقتَضى هذا الاسمِ، ويَغفِرُ لِمَنْ يَشاءُ ويُعذِّبُ مَن يَشاءُ.

فهُنا قاعِدَتانِ:

١- الدَّلالَةُ دَلالَةُ الاسمِ على المَعنى تَتضَمَّنُ ثَلاثَةَ دَلالاتٍ: مُطابِقةٍ، تَضمُّنٍ، التِزامٍ.

٢- ثُمَّ الاسمُ من أسماءِ اللهِ إذا كان مُتعدِّيًا فلا يَتِمُّ الإيمانُ به إلَّا بثَلاثَةِ أُمورٍ: أن تُؤمنَ بأنَّه اسمٌ من أسماءِ اللهِ، أن تُؤمِنَ بما دَلَّ عليه مِن صِفةٍ، أن تُؤمِنَ بما يَترتَّبُ عليه مِن أَثَرٍ، فإذا كانَ الاسمُ غيرَ مُتَعَدٍّ فلا بُدَّ مِن الإيمانِ بأنَّه اسمٌ من أسماءِ اللهِ وبما تَضَمَّنه مِن صِفَةٍ، وليس له أَثَرٌ؛ لأنَّه غَيرُ مُتعَدٍّ.

فالحَيُّ مثلًا، الحَيُّ اسمٌ من أسماءِ اللهِ لا يَتِمُّ الإيمانُ به حتَّى تُؤمِنَ بأنَّه اسمٌ من أسماءِ اللهِ وبأنَّ اللهَ مُتَّصِفٌ بما دَلَّ عليه من صفة وهي الحَياةُ، ولا أَثَرَ لها؛ لأنَّ الحَياةَ صِفةٌ لازمَةٌ لا تَتعَدَّى، لكنَّ السَّميعَ مُتعدٍّ، السَّميعُ ذو سَمْعٍ يَسمَعُ به، والبَصيرُ ذو بَصَرٍ يُبصِرُ به.

الآية (٣٣)

❁ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

هذه ثَلاثةُ أوصافٍ إذا اتَّصَفَ بها الإنسانُ، فلا أَحسَنَ من قولِهِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ أي: لا أَحَدَ أحسنُ قولًا] تَفسيرُ المفسِّر بهذه الجُملَةِ يُفيدُ أنَّ (مَن) اسمُ استفهامٍ، لكنَّها بمَعنى النَّفيِ (من أحسن) يعني: لا أحَدَ أحسنُ.

وإذا جاء الاستِفهامُ بمَعنى النَّفيِ فإنَّه مُشْرَبٌ معنى التَّحدِّي، أيُّهما أَبلغُ: أن تَقولَ لا أحدَ أحسنُ قولًا ممَّن دعا إلى اللهِ، أو أن تَقولَ: مَن أحسنُ؟ الثَّاني أَبلغُ؛ لأنَّ الثَّاني يَتضمَّنُ النَّفيَ ويَتضمَّنُ التَّحدِّي كأنَّه يَقولُ: ائتني ببيِّنَةٍ على أنَّ هُناك أحدًا أَحسنَ مِمَّن دعا إلى الله، فكُلُّ استِفهامٍ جاء بمَعنى النَّفيِ فإنَّه مُشرَبٌ مَعنى التَّحدِّي؛ لأنَّك إذا قُلت: مَن كذا؟ يَعني: مَعناها أتَحدَّاك أن تَأتيَ لي بشَيءٍ سِوى ذلك.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ أَشَدُّ نفيًا مِن قولِ: لا أَحَدَ أحسنُ، وذلك لأنَّها جُملَةٌ استِفهاميَّةٌ مُشرَبةٌ مَعنى التَّحدِّي.

﴿أَحْسَنُ﴾ هذه خَبرُ مُبتدأٍ، و(مَن) هو المُبتَدَأُ و﴿قَوْلًا﴾ تَمييزٌ؛ لأنَّه كُلَّما جاءَك اسمٌ مَنصوبٌ بَعدَ اسمِ التَّفضيلِ فإنَّه تَمييزٌ له.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بالتَّوحيدِ]. وهذا لا شَكَّ حَسَنٌ، لكنَّ الآيَةَ أشمَلُ مِنَ التَّوحيدِ، ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بالتَّوحيدِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وغَيرِ ذلك مِمَّا يُجعلُ إلى اللهِ، وقولُه: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَعني: إلى دينِ اللهِ، ودينُ اللهِ يَتضمَّنُ التَّوحيدَ والأعمالَ الصَّالحةَ.

ثانيًا: قال: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فبَدَأَ بإصلاحِ الغَيرِ ثُمَّ ثَنَّى بإصلاحِ النَّفْسِ مع أنَّ مَن دعا إلى اللهِ فهو مُصلِحٌ أيضًا.

قَولُه تعالى: ﴿صَٰلِحًا﴾ صِفةٌ لَموصوفٍ مَحذوفٍ، التَّقديرُ: وعَمِلَ عملًا صالِحًا، ولا يَكونُ العَمَلُ صالِحًا إلا بشَرْطينِ هما: الإخْلاصُ للهِ، والمُتابَعةُ لرَسولِ اللهِ ﷺ.

فعَمَلُ المُرائي فَقَدَ الإخلاصَ، وعَمَلُ المُبتَدِعِ فَقَدَ المُتابعةَ، وحينَئِذٍ نَقولُ لهؤلاء المُبتَدِعينَ الَّذين عِندَهم منَ الإخلاصِ للهِ ما عِندَهم: إنَّ عَمَلَكم حابِطٌ، قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-: «**مَن عَمِلَ عملًا ليس عليه أَمرُنا فهو رَدٌّ**»[1].

ثُمَّ نَقولُ: حَقيقَةُ الإخلاصِ تَستلزِمُ ألَّا تَعبُدَ اللهَ إلَّا بما شَرَعَ لا تَعبُدُه بهَواكَ؛ لأنَّك إذا عَبدتَ اللهَ بهَواكَ بالبِدعَةِ فأنت غَيرُ مُخلِصٍ، المُخلِصُ لا بدَّ أن يَعبُدَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما شَرَعَ، فصار العَمَلُ الصَّالحُ ما تَركَّبَ من شَيئينِ: الأَوَّلُ: الإخلاصُ، والثَّاني: المُتابَعةُ لرَسولِ اللهِ ﷺ.

فإنْ قال قائلٌ: كيف نَجمَعُ بين هذا وبينَ حَديثِ الرَّسولِ ﷺ: «**أنَّه يَخرُجُ مِنَ النَّارِ أُناسٌ لم يَعمَلوا خَيرًا قط**»[2]؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فالجَوابُ: أنَّ هذا عُذِّبَ على ما تَرَكَ، وما تَنزَّلت عليه المَلائِكةُ، ثُمَّ لا بدَّ أن يَكونَ عِندَ الإنسانِ عَقيدَةٌ إيمانيَّةٌ وإلَّا لقُلنا: إنَّ النَّصارى أيضًا يَخرُجون مِنَ النَّارِ بعَقيدتِهم.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال باللِّسانِ والقَلبِ بهما جَميعًا.

فإن قال قائِلٌ: قولُهُ: إنِّي مِنَ المُسلمينَ هو مِنَ العَمَلِ الصَّالحِ لا شكَّ، فما الفائِدَةُ من ذلك؟

قُلنا: الفائِدَةُ أنَّه يُعلنُ هذا القَولَ ولا يُبالي بمَنْ خالَفَهُ؛ لأنَّ مِن النَّاسِ مَن يَعمَلُ صالِحًا لكن تَجِدُه مُتَستِّرًا ليس عِندَه الشَّجاعَةُ الَّتي تَجعَلُه يُعلِنُ ذلك.

أمَّا هذا فإنَّه يُعلِنُ ويَقولُ بلِسانِ المَقالِ غَيرَ مُبالٍ: ﴿إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، والجُملَةُ ﴿إِنَّنِي﴾ مُؤَكَّدةٌ بأنَّ.

ذَكَرَ بعضُ أهلِ العِلمِ أنَّ المُرادَ بذلك المُؤذِّنُ؛ لأنَّ المُؤذِّنَ يَدعو إلى اللهِ يَقولُ للنَّاسِ: حَيَّ على الصَّلاةِ حَيَّ على الفَلاحِ، ولأنَّه مُؤمنٌ عاملٌ صالِحًا، ولأنَّه يَقولُ: أشهدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ، يُعلِنُها وأَشهَدُ أنَّ محمَّدًا رَسولُ اللهِ، وهذا معنى قولِه: ﴿إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

لكنَّ الصَّحيحَ أنَّ الآيَةَ عامَّةٌ تَشمَلُ المُؤَذِّنَ وغَيرَ المُؤذِّنِ، الخَطيبُ على المِنبرِ يَدخُلُ في الآيَةِ، المُعلِّمُ في حَلْقةِ تَعليمِه يَدخُلُ في ذلك، فالآيَةُ أَعمُّ مِمَّا ذُكِرَ.

ولكنِ اعلَمْ أنَّ بعضَ السَّلَفِ يَذكُرُ للآيَةِ مَعنًى خاصًّا لا يُريدُ حَصرَها في هذا المَعنى، وإنَّما يُريدُ التَّمثيلَ، وهذه مَسألَةٌ قد تَفوتُ على بَعضِ النَّاسِ، دائمًا نَنظُرُ في تَفسيرِ ابنِ كثيرٍ أو ابنِ جَريرٍ أنَّه قال فُلانٌ كذا لجُزءِ المَعنى، فهم لا يُريدون أن

يَقْصُروا العامَّ على الخاصِّ؛ لأنَّهم أَعلمُ مِن أن يَقتَصِروا على بَعضِ أفرادِ العامِّ مثلًا، لكنَّهم يُريدونَ التَّمثيلَ.

مِثالُ ذلك: قال بَعضُ العُلماءِ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [فاطر:٣٢] قال: الظَّالمُ لنَفسِه الَّذي يُؤخِّرُ الصَّلاةَ عن وقتِها، المُقتَصِدُ الَّذي يُصلِّيها في آخِرِ الوقتِ، السَّابقُ بالخَيراتِ الَّذي يُصلِّيها في أَوَّلِ الوقتِ.

هذا لا شكَّ أنَّه حَصرٌ بل لا شكَّ أنَّه تَخصيصٌ لعامٍّ، فنَقولُ: أَرادوا بذلك التَّمثيلَ.

ويَرِدُ علينا كَثيرًا سُؤالُ: هل الأفْضلُ طَلَبُ العِلمِ أو الاِشتِغالُ بالدَّعوةِ؟

والواقعُ أنَّه سُؤالٌ غَيرُ مُحَرَّرٍ:

أوَّلًا: أنَّه يُمكنُ الجَمعُ بين هذا وهذا، ونحن نَعلَمُ أنَّ الدَّاعيَةَ ليس يَشغَلُ وقتَه من صَلاةِ الفَجرِ إلى ما بعدَ صَلاةِ العِشاءِ وهو يَدعو أبدًا، هل أَحَدٌ مِنَ الدُّعاةِ يَفعلُ هكذا، يَدعو نِصفَ ساعَةٍ هُنا ونِصفَ ساعَةٍ هُناك، وأمَّا أن يَبقى لا يَسكُتُ من صَلاةِ الفَجرِ إلى أن يُصلِّيَ العِشاءَ، لا يُمكنُ لا بدَّ مِن فَتراتٍ، فلا يَتعذَّرُ الجَمعُ بينَ الدَّعوَةِ إلى اللهِ وطَلَبِ العِلمِ، يَطلُبُ العِلمَ ساعةً أو ساعَتين، ثُمَّ يَدعو نِصفَ ساعةٍ مثلًا فلا منافاةَ، هذه واحدةٌ.

ثانيًا: أنَّه لا يُمكنُ الدَّعوَةُ إلى اللهِ بلا عِلمٍ والدَّعوةُ إلى اللهِ عن جَهلٍ قد يكونُ فيها مِنَ الضَّررِ أَكثَرُ من عَدمِ الدَّعوةِ، فكَثيرٌ مِنَ الدُّعاةِ، يَكونُ عندَه غَيْرَةٌ ومَحبَّةٌ للخَيرِ فتَجِدُه يُحرِّمُ الحَلالَ أو يوجِبُ ما ليس بواجبٍ بِناءً على ما عِندَه مِنَ الغَيرَةِ،

ولو كان ذا عِلمٍ لحَصَلَ له الثَّباتُ، ولا يَخفى ما جَرى من عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صُلحِ الحُديبيَّةِ صار يُعارِضُ الصُّلحَ[1]، ويَأتي للرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُريدُ أن يَحِلَّ عُقدةَ الصُّلحِ، لكنَّ الثَّباتَ كَثباتِ أبي بكرٍ تَبيَّنَ بحَقٍّ، فلا يُمكنُ أن يَكونَ داعِيةً يَدعو إلى اللهِ بِلا عِلمٍ، هذا إذا أَردْنا العِلمَ بما يَدعو إليه، ولسنا نُريدُ أنَّه لا يُمكنُ أن يَدعوَ إلى اللهِ إلَّا مَن كان مُتبحِّرًا بالعُلومِ، لا، لو قُلنا هكذا ما صحَّ قَولُ الرَّسولِ: «**بَلِّغوا عنِّي ولو آيَةً**»[2].

فالجَوابُ إذن مِن وَجهينِ:

الوَجهُ الأَوَّلُ: أنَّه لا مُنافاةَ بين العِلمِ والدَّعوةِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه لا تُمكنُ الدَّعوةُ إلَّا بعِلمٍ بما يَدعو عليه.

بَقِيَ علينا وَسائلُ الدَّعوةِ، ووَسائلُ الدَّعوةِ كَثيرةٌ يَعني: ليس الدَّعوَةُ مُختَصَّةً بأن يَقومَ الإنسانُ يَتكَلَّمُ، بل الدَّعوَةُ تَكونُ بالقَولِ وتَكونُ بالكِتابَةِ وتَكونُ بنَفْسِ الفِعلِ، الإنسانُ الَّذي تَثِقُ منه تَجِدُ أنَّك تَنظُرُ ماذا يَصنَعُ وتَفعَلُ مِثلَه، هذه دَعوَةٌ، هذا نَوعٌ مِنَ الدَّعوَةِ، بل قد تَكونُ الدَّعوَةُ بالفِعلِ والعَملِ أَقوَى تَأثيرًا مِنَ الدَّعوَةِ باللِّسانِ.

فإن قيل: طالِبُ العِلمِ الَّذي يُريدُ الدَّعوَةَ ولا سِيَّما الدَّعوةُ في الحاراتِ؛ لأنَّه يوجَدُ في الحاراتِ مُنكرٌ كَثيرٌ كتَركِ الصَّلاةِ ويَعرِفُ فُلانًا وفُلانًا وتَركَهم الصَّلاةَ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم (٢٧٣١)، من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن مَشَى إليهم ضاعَ وَقتُه، فهل يَترُكُهم؛ لأنَّ الوَقتَ قَليلٌ؟ وهل يُعذَرُ الإنسانُ إذا غَلَبَ على ظَنِّه أنَّ هذا الشَّخصَ بَعيدُ الاستِجابَةِ أو بَعيدٌ أن يَقبَلَ منه، ولا يَجِدُ الوَقتَ المُناسبَ له؟

فالجَوابُ: هذه في الواقِعِ مَوعِظةٌ أو أمْرٌ، فالدَّعوَةُ تَكونُ بصِفةٍ عامَّةٍ، أمَّا أن تَذهَبَ إلى فُلانٍ وتَنصَحُه فهذا في الحَقيقَةِ مَوعِظةٌ، وإن كان لك سُلطَةٌ فهو أمرٌ، أمرٌ بالمَعروفِ، وهذا كما نَعرِفُ له أَحوالٌ، لا يَجِبُ على الإنسانِ أن يَترُكَ ما يَهُمُّه في دينِه ودُنياهُ من أجلِ أن يَذهبَ إلى النَّاسِ ويَقرَعَ أبوابَهم ليَأمُرَهم أو يَعِظَهم، هذا ليس بواجبٍ.

فإن قيل: قولُهُ ﷺ: «مَن رأى مِنكم مُنكرًا فَلْيُغيِّرْه»[1]؟

فالجواب: نعم في: (مَن رَأى)، لكنَّ الرَّسولَ ﷺ ما ذَهبَ وما قال: تطلَّبوا رُؤيَةَ المُنكَرِ، وهذا الَّذي لا يُصلِّي يُمكنُ أن أَعِظَه في السُّوقِ أو في المَسجدِ؛ ولهذا نَجِدُ النَّاسَ الآنَ يَستثقِلونَ أن يَقرعَ عليهِمُ البابَ أحدٌ فيَعِظَهم أو يَأمُرَهم، ورُبَّما حَصَلَ من ذلك ما يُسَمَّى بَردُّ الفِعلِ.

من فوائدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَفاضُلُ الأعمالِ؛ لقَولِه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾، وأحسنُ اسمُ تَفضيلٍ، ولا شكَّ أنَّ الأعمالَ تَتَفاضَلُ بثَلاثِ اعتِباراتٍ: باعتِبارِ الجِنسِ، وباعتِبارِ النَّوعِ، وباعتِبارِ الهَيئَةِ والكَيفيَّةِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم (٤٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَتفاضَلُ باعتِبارِ الجِنسِ: فمَثلًا الصَّلاةُ أفضَلُ مِنَ الزَّكاةِ، الزَّكاةُ أفضَلُ مِنَ الصَّومِ، الصَّومُ أفضَلُ مِنَ الحَجِّ، هذا باعتِبارِ الجِنسِ، وتَتَفاضَلُ أيضًا مِن وَجهٍ آخَرَ؛ واجِبُ العِبادَةِ أفضلُ مِن نَفلِها، فصَلاةُ الظُّهرِ مَثلًا أفضَلُ مِن قيامِ اللَّيلِ، هذا تَفاضُلٌ باعتِبارِ الجِنسِ لكنَّه من وَجهٍ آخَرَ، ودَليلُ ذلك أنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- قال عن اللهِ: «**وما تَقرَّب عَبدي بشَيءٍ أحبُّ إلَيَّ ممَّا افتَرضتُ عليه**»(١).

وتَتفاضَلُ باعتِبارِ النَّوعِ: مِثلَ: الوِترُ أفضلُ من مُطلَقِ التَّهجُّدِ، والرَّواتبُ أفضَلُ مِنَ النَّفلِ المُطلَقِ، هذا باعتِبارِ النَّوعِ، وإن شِئتَ فاجعَلْ تَفاضُلَها باعتِبارِ الوُجوبِ والنَّدبِ من هذا النَّوعِ.

والثَّالثُ باعتِبارِ الهَيئَةِ: صَلاةٌ يَخشعُ فيها الإنسانُ ويَتدبَّرُ ما يَقولُ وما يَفعَلُ ويَطمَئِنُّ، وصَلاةٌ أخرى يَقتَصِرُ على الواجبِ وبدون خُشوعِ قَلبٍ مثلًا فالأُولَى أفضَلُ.

والمُهِمُّ أنَّنا نُؤمِنُ بأنَّ الأعمالَ تَتفاضَلُ وأنَّ بعضَها أَحبُّ إلى اللهِ من بعضٍ، لكن يَبقى النَّظرُ: هل يَلزَمُ مِن تَفاضُلِ العَملِ تَفاضُلُ العامِلِ؟ نَعَمْ، وعلى هذا فالعامِلُ أيضًا يَختلِفُ ويَتفاضَلُ، قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-: «**لا تَسُبُّوا أصحابي، فوالَّذي نَفسي بيدِهِ لو أَنفَقَ أحدُكم مِثلَ أُحُدٍ ذَهبًا ما بَلَغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه**»(٢). العَملُ واحدٌ لكنَّ العامِلَ مُختلِفٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلَةُ الدَّعوةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ في قولِه: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذا خليلا»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رقم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الإشارَةُ إلى الإخلاصِ في الدَّعوَةِ نَأخُذُها من قولِه: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الدَّاعيَ رُبَّما يَدعو ويَقومُ للنَّاسِ ويُذكِّرُهم ويَعِظُهم ويَحُثُّهم على الخَيرِ ويُحذِّرُهم مِنَ الشَّرِّ، لكن يُريدُ أن يَكونَ مَرموقًا بينهم، هذا دعا إلى نَفسِه، فلا بدَّ إذن مِنَ الإخلاصِ، فلو قال قائلٌ: هل يُسلَبُ الإخلاصُ ما لو أَرادَ بالدَّعوَةِ إِصلاحَ النَّاسِ؟ الجَوابُ: لا، لا يُسلَبُه؛ لأنَّ الأصلَ دَعوتُهُ من أجلِ إصلاحِ النَّاسِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فَضيلَةُ العَمَلِ الصَّالحِ الَّذي جَمَعَ بينَ أمرَينِ: الإخلاصِ والمُتابَعَةِ؛ لقَولِه: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وُجوبُ العِلمِ، نَأخُذُه مِن قَولِه: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ لأنَّه لا يُمكِنُ أن تَعرِفَ أنَّ العَمَلَ مُوافِقٌ للشَّرعِ أو غَيرُ مُوافِقٍ إلَّا بالعِلمِ، وهذا واضِحٌ، فيَكونُ في الآيَةِ دَليلٌ على وُجوبِ العِلمِ؛ لأنَّه إذا كان العَمَلُ الصَّالحُ مِنَ الواجِباتِ فلا بُدَّ أن تَعلَمَهُ بالشَّرعِ، وما لا يَتِمُّ الواجِبُ إلَّا به فهو واجِبٌ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّه يَنبَغي للمُسلمِ أن يَكونَ عَزيزًا بِدِينِه وأن يُعلِنَ به وأن يَقولَ: ﴿إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وألَّا يَستحيَ إذا قيل له أنَّه مُسلِمٌ؛ لقَولِهِ: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الإشارَةُ إلى تَجنُّبِ التَّزكيةِ الذَّاتيَّةِ؛ لأنَّه قال: ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، ولم يَقُلْ: وقال إنَّني مُسلِمٌ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يَعتزُّ بقَولِه: إنَّني مُسلمٌ ويَفخَرُ أكثرَ ممَّا يَكونُ ذلك فيما لو قال: ﴿إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الإشارَةُ إلى المُؤاخاةِ بينَ المُسلمينَ؛ لقَولِه: ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إشارَةٌ إلى أنَّني كواحِدٍ من هَؤلاءِ، لا افْتِراقَ عنهم.

• • ۞ • •

الآيات (٣٤-٣٦)

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٤-٣٦].

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ في جُزئِيَّاتِها؛ لأنَّ بعضَها فوقَ بَعضٍ].

قَولُه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ فَسَّرها المفسِّر بأنَّ المَعنى: لا تَستَوي الحَسناتُ بعضُها مع بعضٍ، ولا السَّيِّئاتُ بعضُها مع بَعضٍ، وعلى هذا التَّفسيرِ تَكونُ (لا) غَيرَ زائدَةٍ تَكونُ أَصلِيَّةً، ويَكونُ المُرادُ بالآيَةِ انتِفاءَ تَساوي الحَسناتِ وانْتِفاءَ تَساوي السَّيِّئاتِ.

وهذا أمرٌ لا إِشكالَ فيه أنَّ الحَسناتِ بَعضُها أَحسَنُ مِن بَعضٍ وأَفضلُ مِن بعضٍ وأَوكَدُ مِن بَعضٍ، وكذلك السَّيِّئاتُ بَعضُها أَسوأُ مِن بَعضٍ وأَشَدُّ، لكنَّ هناك تفسيرًا آخَرَ، وهو أنَّ المَعنى أنَّ الحَسناتِ والسَّيِّئاتِ لا تَتَساوى بدَليلِ قَولِه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلخ؛ وبِناءً على ذلك تَكونُ (لا) زائدَةً للتَّوكيدِ كما هي في قَولِه تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٧]، فإنَّ (لا) هُنا زائدَةٌ

للتَّوكيدِ، ولهذا لو قُلتَ في غَيرِ القُرآنِ العَزيزِ لو قُلتَ: غَيرَ المَغضوبِ عليهم الضَّالينَ، لاستَقامَ الكَلامَ، فإذا قال قائِلٌ: هل هُناكَ تَرجيحٌ؟ قُلنا: المفسِّر رَجَّح المَعنى الأَوَّلَ وهو: أنَّ الحَسناتِ لا تَتَساوى والسَّيِّئاتِ لا تَتَساوى. وبَعضُهُم رَجَّحَ الثَّانيَ؛ لأنَّه قال: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ ﴾ إلخ.

ولو قيل بالمَعنيينِ جَميعًا لم يَكُنْ هُناكَ بَأسٌ، وذلك أنَّ الآيَةَ إذا كانت تَحتمِلُ مَعنَيينِ على السَّواءِ وهما لا يَتَنافيانِ، فإنَّها تُحمَلُ عليهما جَميعًا، هذه قاعِدَةٌ في أُصولِ التَّفسيرِ.

﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ هي ما يَحسُنُ ذِكرُهُ و﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾ هي ما يَسوءُ ذِكرُه، هذا التَّفسيرُ العَامُّ للحَسَنَةِ وللسَّيِّئةِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱدْفَعْ﴾ السَّيِّئَةَ ﴿بِٱلَّتِى﴾ أي بالخِصلَةِ الَّتي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾] إلى آخِرِه.

الغَريبُ أنَّ كَلامَ المفسِّر في: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يَقتَضي أنَّ مَعنى الجُملَةِ قَبلَها: لا تَستَوي الحَسَنةُ مع السَّيِّئَةِ، ﴿ٱدْفَعْ﴾ السَّيِّئَةَ ﴿بِٱلَّتِى﴾ أي: بالخِصلَةِ الَّتي هِي أحسَنُ.

أفادَنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ (الَّتي) صِفةٌ لمَوصوفٍ مَحذوفٍ؛ أي: بالخِصلَةِ الَّتي هي أَحسَنُ مِنَ السَّيِّئَةِ، فإذا قال قائِلٌ: السَّيِّئَةُ ليس فيها حُسنٌ، فكيف يَقولُ: أَحسَنَ مِنَ السَّيِّئَةِ؟ قُلنا: إنَّ اسمَ التَّفضيلِ قد يَأتي وليس في الطَّرَفِ الآخَرِ منه شَيءٌ، كما في قَولِه تَعالى: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان:٢٤] مع أنَّ أصحابَ النَّارِ ليس في مُستقَرِّهم خَيرٌ ولا في مَقيلِهم خَيرٌ.

ويَكونُ معنى الآيَةِ أنَّه لـمَّا كان مِن المُعتادِ أنَّ الإنسانَ لا يَدفَعُ السَّيِّئَةَ بالَّتي هي أَحسَنُ أَمَرَه اللهُ أن يَدفَعَ بالَّتي هي أحسنُ وذلك؛ لأنَّ مُدافعَةَ السَّيِّئةِ تَكونُ من ثَلاثةِ وجوهٍ:

الوَجهُ الأَوَّلُ: أن يَدفَعَ سَيِّئةً بمِثلِها وهذا جائِزٌ، يَقولُ تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى:٤٠].

والثَّانيَةُ: أن يَدفعَ السَّيِّئَةَ بحَسَنَةٍ -لكنَّ هناك شَيئًا أَحسنَ منها- وهذا أيضًا جائِزٌ وهو أَعلَى مِنَ الأَوَّلِ.

الثَّالثُ: أن يَدفَعَ السَّيِّئَةَ ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ يعني: بأَحسَنِ ما يَدفَعُها به، وهذا أَفضَلُ وأَطيَبُ، وهو الَّذي أَمَرَ اللهُ به. يَعني: إذا أَساءَ إليكَ إنسانٌ فلا تُقابلْه بإِساءَةٍ ولا تُقابلْه بحَسنَةٍ أيضًا، بل قابِلْه بما هو أَحسَنُ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُمَثِّلًا: [كالغَضبِ بالصَّبرِ، والجَهلِ بالحِلمِ، والإِساءَةِ بالعَفوِ]، هذه أَمثلَةُ الغَضبِ بالصَّبرِ يعني: إذا غَضِبَ عليك إنسانٌ فاصبِرْ وتَحمَّلْ، والجَهلِ بالحِلمِ إذا جَهِلَ عليكَ إنسانٌ بالإِساءةِ فقَابلْه بالحِلمِ.

فإذا قال إنسانٌ: الجَهلُ هل هو يُقابِلُ الحِلمَ أو يُقابِلُ العِلمَ؟

قُلنا: أمَّا الجَهلُ الَّذي هو عَدمُ العِلمِ فيُقابَلُ بالعِلمِ، وأمَّا الجَهلُ الَّذي هو ضِدُّ الحِلمِ بمَعنى أن يَكونَ الإنسانُ ذا عُدوانٍ على الغَيرِ فهذا يُقابَلُ بالحِلمِ، قال الشَّاعرُ العَربيُّ[1]:

ألا لا يَجهَلَنْ أحدٌ علينا ... فنَجهلُ فوقَ جَهلِ الجاهِلينا

(١) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته المشهورة، انظر: جمهرة أشعار العرب (ص:٣٠٠)، وشرح القصائد السبع لابن الأنباري (ص:٤٢٦).

وكذلك الإِساءَةُ بالعَفوِ، إذا أَساءَ إليكَ إِنسانٌ فاعفُ عنه، وقد سَبَقَ مِرارًا ونُكرِّرُه تِكرارًا: أنَّ العَفوَ إنَّما يَندُبُ إليه إذا كان فيه إِصلاحٌ؛ لقَولِه تَعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].

فإِنْ قال قائلٌ: الَّذي لا يَقدِرُ على رَدِّ السَّيِّئةِ بمِثلِها هل يَدخُلُ في قَولِه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؟

فالجَوابُ: لا، هذا ضَعفٌ وجُبنٌ، الَّذي لا يَقدِرُ على الإِنتِصارِ لنَفْسِه هذا لا يُحمَدُ، بل يُقالُ: هذا ضَعيفٌ، ولأنَّه لا يُحمَدُ إلَّا العَفوُ عندَ المَقدِرَةِ، والصَّفحُ عندَ المَقدِرَةِ. أمَّا إنسانٌ عاجِزٌ فيَجيءُ شَخصٌ ضَعيفٌ يَضرِبُه يَضرِبُه يَضرِبُه وهو يَقولُ: جَزاكَ اللهُ خَيرًا، عَفا اللهُ عنك، فهذا لا يُحمَدُ؛ لأنَّه عاجِزٌ.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فُصِّلَت:٣٤] فإذا فُجائيَّةٌ والفاءُ عاقبَةٌ؛ أي: فإذا دَفعتَ بالَّتي هي أَحسَنُ فاجَأتك هذه الحالُ، وهي أن تَنقَلِبَ عَداوةُ الشَّخصِ الَّذي أَساءَ إليك، فيَصيرُ كأنَّه وَليٌّ حَميمٌ، يعني: صَديقًا قَريبًا.

وتَأَمَّلْ كَونَ الجَوابِ بـ«إذا» الفُجائيَّةِ لِيتبيَّنَ لك أنَّ انقِلابَ عَداوتِهِ إلى وِلايَةٍ حَميمَةٍ لا يَتأَخَّرُ كَثيرًا؛ لأنَّ إذا الفُجائيَّةَ تَدُلُّ على الفَورِيَّةِ: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ لو كان المُخبِرُ بذلك غَيرَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لكان الإنسانُ يَتردَّدُ، وكيف يَنقلِبُ العَدوُّ صَديقًا حَميمًا بهذه السُّرعَةِ، نَقولُ: إنَّ الَّذي أخبَرَ بذلك هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢].

ثُمَّ إنَّ الَّذي أخبَرَ بذلك هو الَّذي قُلوبُ بَني آدمَ بين أُصبُعينِ من أَصابعِهِ

يُقلِّبُها حيثُ يَشاءُ، لا تَستبعِدُ هذه الأمورَ بيدِ اللهِ، وكم مِن عَدوٍّ انقلَب صَديقًا وصَديقٌ انقلَبَ عَدوًّا.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾، فيَصيرُ عَدوُّك كالصَّديقِ القَريبِ في محبَّتِه إذا فَعلتَ ذلك، فالَّذي مُبتدأٌ وكأنَّه الخَبرُ وإذا ظَرفٌ لِمَعنى التَّشبيهِ].

قال اللهُ تَعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ ﴾ أَعرَبَها المفسِّر: يَقولُ: ﴿ٱلَّذِى﴾ مُبتدأٌ ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾، هذا صيغَةُ المَوصولِ ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ الخَبرُ خَبرُ المُبتدأِ ﴿ٱلَّذِى﴾، و(إذا) في قولِهِ: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى ﴾ ظَرفٌ لمعنى التَّشبيهِ الَّذي هو ﴿كَأَنَّهُۥ﴾؛ لأنَّ التَّشبيهَ مُضَمَّنٌ مَعنى الفِعلِ؛ فلذلك صَحَّ أن يَتعلَّقَ به الظَّرفُ، هذا ما ذَهَبَ إليه المفسِّر بالنِّسبَةِ لـ(إذا)، والصَّحيحُ أنَّ (إذا) فُجائيَّةٌ لا تَحتاجُ إلى مُتعلِّقٍ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ أي: يُؤتى الخِصلَةَ الَّتي هي أحسنُ، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ ﴾ ثَوابٍ ﴿عَظِيمٍ ﴾].

قال اللهُ تَعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: يُؤتى الخِصلَةَ]. وقيل: مَعناها لا يُوَفَّقُ لها، والمَعنى مُتقارِبٌ، يَعني: لا يَنالَ أحدٌ هذه الخِصلَةَ، وهي الدِّفاعُ بالَّتي هي أَحسنُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾.

وهذه الجُملَةُ فيها حَصرٌ، طَريقُه النَّفيُ والإثباتُ: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾.

وقَولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ أي: حَبَسوا أَنفُسَهم وأَجبَروها على تَحمُّلِ هذا الأمرِ؛ وذلك لأنَّ هذا الأمرَ شَديدٌ إذ إنَّ النُّفوسَ تُحبُّ الانتِقامَ ممَّن أساءَ إليها، لكن قال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾؛ لهذا قال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾، فكُلُّ إنسانٍ سوف

يُعاني مُعاناةً شَديدةً إذا سَلَكَ هذا الطَّريقَ وهي الدِّفاعُ بالَّتي هي أحسنُ، لا بُدَّ أن يَجِدَ عَناءً ومَشقَّةً فأثْنَى اللهُ تَعالى على الصَّابرينَ على ذلك.

والصَّبرُ لا يَحتاجُ إلى أن نُطيلَ الشَّرحَ فيه؛ لأنَّهُم قالوا: يَكونُ ثَلاثَةَ أنواعٍ: يَكونُ صَبرًا على طاعَةِ اللهِ، وصَبرًا عن مَعصيتِه، وصَبرًا على أقدارِه.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذُو حَظٍّ﴾ ثوابٍ]، والصَّوابُ أن يُقالَ: الحَظُّ النَّصيبُ، أي: وما يُلَقَّاها إلَّا ذو نَصيبٍ عَظيمٍ، ليس مِنَ الثَّوابِ فَحسْبُ، بل مِنَ الثَّوابِ والأخلاقِ والرَّزانَةِ وغيرِ ذلك، يَعني: مَن له نَصيبٌ عَظيمٌ مِنَ الثَّوابِ والأخلاقِ والرَّزانَةِ والتَّأنِّي وغيرِ ذلك، فلا يَنبَغي أن يَقتَصِرَ في ذلك على الثَّوابِ.

فإنْ قال قائِلٌ: قَولُه تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ هل يَكونُ ظاهِرًا أو معنَويًّا، لأنَّ الصَّفحَ في مَنظورِ النَّاسِ هو خَوفٌ وجُبنٌ؟

فالجَوابُ: لا، هذا هو الحِكمَةُ في أنَّ اللهَ قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ لأنَّ الإنسانَ يَنالُ دَرجةً عَظيمَةً عاليةً مِنَ الأخلاقِ والرَّزانَةِ والرُّجولَةِ والثَّوابِ، وليس الحَظُّ العَظيمُ أنَّ الإنسانَ يَزدادُ دِرهمًا ودينارًا، الأخلاقُ هي كُلُّ شيءٍ سَواءٌ مَع اللهِ أو مَع عِبادِ اللهِ.

وإنَّما الأُمَمُ الأخلاقُ ما بَقِيَت ... فإن هُمُ ذَهَبت أخلاقُهم ذَهَبوا

ولَمَّا ذَكَر اللهُ تَعالى دَفعَ العَدُوِّ مِن بني آدَمَ ذَكَر دَفعَ العَدُوِّ مِن غيرِ بَني آدمَ؛ فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ في مُدافعَةِ العَدُوِّ مِن غيرِ بَني آدَمَ، لم يَقُلْ: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، بل قال: الجَأْ إلى اللهِ؛ لأنَّك لا تَستطيعُ أن تَدفَعَ

الشَّيطانَ إلَّا باللُّجوءِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ إذ إنَّ الشَّيطانَ ليس أَمامَك حتَّى تَلوِيَ عُنقَه وتَقتُلَه، ولكنَّه لا يَدفَعُه إلَّا اللهُ ولهذا قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، فالمُناسَبةُ بين هذه الآيَةِ والَّتي قَبلَها أنَّه لـمَّا ذَكرَ مُدافعَةَ العَدُوِّ مِن بَني آدمَ ذَكَرَ مُدافعَةَ العَدُوِّ من غَيرِ بَني آدمَ فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِمَّا﴾ فيه إدغامُ نونِ (إنِ) الشَّرطيَّةِ في (ما) الزائدَةِ].

﴿وَإِمَّا﴾ أَصلُها: وإنْ يَنزَغنَّك، لكن (ما) الزَّائدَةَ تُزادُ كَثيرًا في أدواتِ الشَّرطِ كقَولِه هنا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾، وكقَولِه تَعالى: ﴿أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ يَعني: إنْ يَنزَغْك مِن الشَّيطانِ نَزغٌ فاستَعِذْ باللهِ. يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: يَصرِفُك عنِ الخِصلَةِ وغَيرِها مِنَ الخَيرِ صارفٌ ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾].

المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا نَظرنا إلى تَفسيرِه وجَدْناه يَقْصُرُ هذه الآيَةَ على شَيءٍ مُعيَّنٍ وهو: إنْ صَرَفَك الشَّيطانُ عَنِ المُدافعَةِ بالَّتي هي أَحسنُ فاستَعِذْ باللهِ، والصَّوابُ خِلافُ ذلك، الصَّوابُ أنَّ الآيَةَ عامَّةٌ، ولهذا قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ أي: يُصيبَنَّك مِن الشَّيطانِ نَزغٌ، -نَزغٌ- نَكِرَةٌ في سياقِ الشَّرطِ فتكونُ عامَّةً سَواءَ كان في المُدافعَةِ بالَّتي هي أحْسَنُ أو غَيرَ ذلك، كُلَّما أَصابَك نَزغٌ مِنَ الشَّيطانِ فاستَعِذْ باللهِ، ولهذا أَمَرَ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- الَّذي شَكا إليه الوَسوسَةَ في الصَّلاةِ أَمَرَه بأنْ يَستَعينَ باللهِ قال: يَتفُلُ عن يَسارِه ثَلاثًا ويَستعيذُ باللهِ[1].

المُهِمُّ أنَّه متى نَزَغَك مِنَ الشَّيطانِ نَزغٌ فَالجَأْ إلى مَن يَستطيعُ دَفعَه، وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ ولكن كيف أَعرِفُ أنَّ الشَّيطانَ نَزَغَ أحدًا؟ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة، رقم (٢٢٠٣)، من حديث عثمان بن أبي العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨] كُلَّما رَأيتَ أنَّه أُلْقِيَ في رُوعِك أن تَفعَلَ مَعصيَةً فاعلَمْ أنَّه نَزْغٌ مِنَ الشَّيطانِ، وكُلَّما أُلقِيَ في رُوعِك أنَّك تَتَرُكُ طاعَةً فهذا نَزْغٌ مِنَ الشَّيطانِ استَعِذْ باللهِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ ليس شَيئًا مَحسوسًا يَحُسُّه الإنسانُ ويَسمَعُه لكنْ يُعرَفُ بما يُلقي في القَلبِ فاستَعِذْ باللهِ أي: اعتصِمْ به.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جَوابُ الشَّرطِ وجَوابُ الأمرِ مَحذوفٌ، أي: يَدفَعُه عنك]، الأمرُ (استَعِذْ) يَعني: كأنَّ قائلًا يَقولُ: وإذا استَعَذْت فالنَّتيجَةُ أن يَدفَعَه اللهُ عَنك؛ لأنَّ اللهَ تَعالى لم يَأمُرْك بِالاستِعاذَةِ به، والاستِعاذَةُ كما هو مَعروفٌ هي الاستِجارَةُ ممَّا يَسوءُ استَعِذ باللهِ يَدفَعْه عنك.

قَولُه: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ جَوابُ الشَّرطِ اقْتَرَنَ بالفاءِ؛ لأنَّ الجُملَةَ طَلَبيَّةٌ، والقاعِدَةُ ذَكَرَها ابنُ مالكٍ[1]:

واقْرِنْ بفا حَتمًا جَوابًا لو جُعِل ... شَرطًا لـ(إن) أو غَيرها لم يَنْجَعِلْ

يعني: إذا لم يَصِحَّ مُباشرةً جَوابُ الشَّرطِ لأَداةِ الشَّرطِ فإنَّه يَجِبُ اقترانُه بالفاءِ.

فإنْ قال قائلٌ: ما مَعنى قَولِه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢].

فالجَوابُ: السُّلطانُ هو الَّذي يَتولَّى الأمرَ بسُلطَتِه ويَغلِبُ، فالشَّيطانُ يَنْزغُ حتَّى عِبادَ اللهِ الصَّالحينَ، ولكن ليس له عَليهم سُلطانٌ، أليس قَد تَفَلَّت على الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ شَيطانٌ يُريدُ أن يُفسِدَ عليه صَلاتَه؟ لكن ما له سُلطانٌ، فالسُّلطانُ يَقولُ ويَفعلُ، كما قال ابنُ الوَردي في المَنظومَةِ[2]:

جانِبِ السُّلطانَ واحذَرْ بَطشَه ... لا تُخاصِمْ مَن إذا قال فَعَلَ

---

(١) الألفية (ص:٥٨).

(٢) شرح لامية ابن الوردي (ص:١٥٧).

فالمُرادُ بأنَّه ليس لك عليهم سُلطانٌ، يعني: لا يُمكِنُ أن تَتَسلَّطَ عليهم فتُغوِيَهم.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ للقَولِ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالفعل]، هذه الجُملَةُ تَعليلِيَّةٌ؛ لقَولِه: (استَعِذ باللهِ)، يَعني: فإنَّك إذا استَعذت مِنه باللهِ سَمِعَك، وإنَّه عَليمٌ بكيفيَّةِ دَفعِ هذا الشَّيطانِ الَّذي نَزَغَك منه نَزْغٌ فهو سَميعٌ لقولك إذا استَعَذتَ به، عليم بما يَدفَعُ به عنك هذا الشَّيطانَ.

من فوائدِ الآياتِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: انتِفاءُ تَساوي الحَسناتِ بَعضِها ببَعضٍ، وانتِفاءُ تَساوي السَّيِّئاتِ بَعضِها ببَعضٍ، فيَترَتَّبُ على ذلك فائدَةٌ: أنَّ الحَسناتِ تَتَفاوتُ والسَّيِّئاتِ تَتفاوتُ، فمِن الحَسناتِ ما هو أُصولٌ في الإسلامِ كالأُصولِ الخَمسَةِ، ومنها ما هو دونَ ذلك، ومنه ما هو فَرائضُ ومنه ما هو نَوافلُ، كذلك في المُحرَّماتِ ما هو شِركٌ مُخرِجٌ عنِ المِلَّةِ وما هو شِركٌ دون ذلك، وكذلك يُقالُ في الكُفْرِ، منه ما هو فُسوقٌ ومنه ما هو دونَ ذلك، هذا إذا قُلنا: إنَّ المُرادَ أنَّ الحَسناتِ لا تَتَساوى والسَّيِّئاتِ لا تَتَساوى.

أمَّا إذا قلنا: لا تَستَوي الحَسنَةُ ولا السَّيِّئةُ فهي أنَّ الحَسَنَةَ والسَّيِّئَةَ لا يَتساويانِ، فَيُفيدُ الحثَّ على فِعلِ الحَسناتِ في مُقابِلِ السَّيِّئاتِ، وليس الفائدَةُ أن يَعلَمَ أنَّ الحَسنَةَ لا تُساوي السَّيِّئَةَ؛ لأنَّ هذا أمرٌ مَعلومٌ، ولا يُمكنُ في القُرآنِ ببَلاغتِه أن يَأتيَ بمِثلِ ذلك؛ لأنَّ هذا كقولكَ السَّماءُ فَوقَنا والأرضُ تَحتَنا، لكنَّ المُرادَ الحَثُّ على أن تُقابِلَ السَّيِّئَةَ بحَسَنةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الإرشادُ إلى مُدافَعَةِ السَّيِّئاتِ، يُؤخَذُ من قولِهِ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحَثُّ على المَقاماتِ في مُدافعَةِ السَّيِّئاتِ تُؤخَذُ من قولِهِ: ﴿أَحْسَنُ﴾ ولم يَقُلِ ادفَعْ بالحَسَنِ، بل قال: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ اللهَ تَعالى مُقَلِّبُ القُلوبِ، فقد يَكونُ العَدوُّ صَديقًا والصَّديقُ عَدوًّا؛ لقَولِه: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّك لا تَأخُذُك العِزَّةُ بالإثمِ فتَقولَ: لا يُمكنُ أن أَسكُتَ أمامَ هذا الَّذي أَساءَ إِلَيَّ ولا بُدَّ أن آخُذَ بحَقِّي، نَقولُ: إذا أَخذْتَ بحَقِّك فذلك لك ولكن هُناكَ خُلُقٌ أفضَلُ وأكمَلُ وهو المُدافعَةُ بالَّتي هي أحسنُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ المُدافعَةَ بالَّتي هي أَحسنُ شاقَّةٌ على النَّفسِ؛ لقَولِهِ: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ ولكِن اصبِرْ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ مَن سَلَكَ هذا الطَّريقَ وهي مُدافعَةُ السَّيِّئَةِ بالَّتي هي أَحسَنُ، فإنَّه ذو نَصيبٍ عَظيمٍ مِنَ الأخلاقِ والثَّوابِ والرَّزانَةِ والرُّجولَةِ والشَّهامَةِ وغَيرِ ذلك؛ لقَولِه: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ مَلجأَ الإنسانِ عِندَ الخَوفِ مِمَّا لا يُمكِنُه دَفعُه هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ لقَولِه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّك كُلَّما أَحسستَ بشيءٍ مِن نَزغاتِ الشَّيطانِ مِن تَهاوُنٍ بمَأمورٍ أو ارتِكابٍ لمَحظورٍ، فعليك أَنْ تَلجأَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائلٌ: نَجِدُ الاستِعاذةَ مَشروعَةً في غَيرِ هذا الحالِ، مَشروعَةً عندَ قِراءَةِ القُرآنِ مثلًا، مَشروعَةً عِندَ دُخولِ الخَلاءِ، فما الجَوابُ؟

الجَوابُ: أنَّ مشروعيَّتَها عندَ تِلاوتِه القُرآنَ؛ لأنَّ الشَّيطانَ يَتسلَّطُ على الإنسانِ

عندَ قِراءةِ القُرآنِ بأن يَصُدَّه عمَّا فيه مِنَ الذِّكرِ الحَكيمِ، يَصُدُّه عن تَدَبُّرِه، عنِ الخُشوعِ فيه، عن كَونِ الإنسانِ يَلتزِمُ بأوامِرِه ونَواهيه ويُصَدِّقُ بإخبارِه. المُهِمُّ أنَّ الشَّيطانَ يَحرِصُ على الإنسانِ إذا أَراد قِراءةَ القُرآنِ، فنَاسَبَ أن يُؤمَرَ بِالاستِعاذةِ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ وكَذلك عِند الخَلاءِ؛ لأنَّ الخَلاءَ مَوطِنُ الشَّياطينِ، الشَّياطينُ تَكونُ في أَخبثِ الأماكِنِ، والمَلائِكةُ في أَطيبِ الأماكِنِ؛ ولهذا كانت المَساجِدُ بُيوتَ المَلائكَةِ وكانت المَراحيضُ بُيوتَ الشَّياطينِ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثباتُ الشَّيطانِ وأنَّ له سُلطةً على بَني آدَمَ؛ لقَولِه: ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ وهو كذلكَ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَلَّطَ الشَّيطانَ على بَني آدَمَ وأَيَّدَ المُؤمنينَ بِالملائكَةِ، فإنَّ الشَّيطانَ إذا أَمَر بِالفَحشاءِ فإنَّ هناك أَمْرًا آخَرَ يُضادُّه وهو أَمْرُ المُلْكِ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّه لا يُستعاذُ إلَّا باللهِ؛ لقَولِه: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾، لكن هذا مُقيَّدٌ بما لا يَقدِرُ عليه إلَّا اللهُ، فإنَّه لا استِعاذَةَ منه إلَّا باللهِ، وكذلك أيضًا لا استِعاذَةَ بمَخلوقٍ غَيرِ قادِرٍ، فمثلًا لو أنَّ الإنسانَ استَعاذَ بمَيِّتٍ لكان هذا شِركًا؛ لأنَّ المَيِّتَ لا يُمكنُ أن يُفيدَك، لكن لو استَعاذَ بحَيٍّ فيما يَقدِرُ عليه فلا بَأسَ بذلك؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَن وَجَدَ مَلاذًا فلْيَعُذْ به أو مُعاذًا فلْيَعُذْ به**»[1]، فالاستعاذَةُ بالمَخلوقِ فيما يَقدِرُ عليه كَالاستِعانَةِ به فيما يَقدِرُ عليه، وكالاستِغاثَةِ به فيما يَقدِرُ عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ السَّميعِ العَليمِ للهِ بأنَّهما مِن أَسماءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وسَبَقَ أنَّه لا يَجوزُ الإيمانُ بِالاسمِ إلَّا بثَلاثَةِ أُمورٍ إن كان مُتعَدِّيًا، وبأمرينِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦٠١)، ومسلم: كتاب الفتن، باب نزول الفتن كمواقع القطر، رقم (٢٨٨٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إن كان غَيرَ مُتعدِّيًا.

والسَّميعُ مُتعدٍّ فتُثْبِتُ السَّميعَ اسمًا والسَّمْعَ صِفةً وكَونُه يَسمَعُ أَثرًا. وكذلك يُقالُ في العَليمِ.

وقَولُ المُفَسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ للقَولِ]، هذا صَحيحٌ؛ لأنَّ مُتعلَّقَ السَّمعِ هي الأَقوالُ، [﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالفِعلِ] فيه نَظَرٌ؛ لأنَّ اللهَ عَليمٌ بالفِعلِ، عَليمٌ بالقَولِ، عَليمٌ بما ليس بِفِعلٍ ولا قَولٍ. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦] فقَصْرُها على الفِعلِ لا شكَّ أنَّه قاصِرٌ، فيُقالُ: الصَّوابُ العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ مِنَ الأقوالِ والأفعالِ والإِرَاداتِ والحاضِرِ والمُستَقْبَلِ والماضي.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: بَلاغَةُ القُرآنِ بِذِكْرِ المُتَقارِبَيْنِ في المَعنى وإن كان بَينَهما فَرقٌ مِن حَيثُ الحَقيقَةُ، وَجهُ ذلك أنَّه ذَكَرَ في الآيَةِ الأُولَى مُعاملَةَ المُسيءِ مِنَ الإنسِ بأن تَدفَعَه بالَّتي هي أحسنُ، وذَكَرَ في الثَّانيَةِ مُعاملَةَ المُسيءِ مِن غيرِ الإنسِ وهو الشَّيطانُ.

الآيتان (٣٧، ٣٨)

۞ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت:٣٧-٣٨].

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ أي: آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والآيَةُ في اللُّغةِ العَلامَةُ وهي بالنِّسبَةِ لآياتِ اللهِ ما كان عَلامَةً على قُدرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وقُوَّتِه وحِكمَتِه وعِلمِه ورَحمَتِه وغَيرِ ذلك. وقَولُه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ الدَّالَّةُ على قُدرَتِه وعِلمِه وحِكْمتِه ورحمَتِه وغَيرِ ذلك مِمَّا دَلَّ عليه هذا اللَّيلُ والنَّهارُ.

﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ اللَّيلُ بظَلامِه والنَّهارُ بضِيائِه، هذا من آياتِ اللهِ لا أَحَدَ يَستَطيعُ أن يَفعَلَ ذلك إطلاقًا يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص:٧١] الجَوابُ: لا إِلَهَ، لا أَحَدَ يَأتي بذلك، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧٢] الجَوابُ: لا أَحَدَ.

فهذا مِن آياتِ اللهِ العَظيمَةِ الدَّالَّةِ على قُدرَتِه وعلى رَحمَتِه وعِلمِه وحِكمَتِه وقُوَّتِه، بينَما اللَّيلُ قد غَشِيَ الأَرضَ بظَلامِه، وإذا بِالصُّبْحِ قد كَشَفَ هذا الغِطاءَ،

فأصبحت الدُّنيا ضياءً.

كذلك مِن آياتِه الشَّمسُ والقَمرُ، وما أَعظَمَها من آيَةٍ، هذانِ الكَوكبانِ يَسيرانِ مُنذُ خَلَقَهما اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى أن يَأذَنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بخَرابِها يَسيرانِ على نَمَطٍ واحدٍ لا يَتَعَدَّيانِه ولا يَتجاوَزُانِّه قال بَعضُ العُلماءِ: لو أنَّ الشَّمسَ بَعُدَت عن مَقَرِّها شَعرةً واحدةً لَهَلَكَ النَّاسُ مِنَ البَردِ وجَمُدَت المَائعاتُ، ولو أنَّها نَزَلَت شَعرَةً واحدةً لَذابَت الأرضُ مِنَ الحَرِّ، وهذا مِن قُدرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ثُمَّ هذا الجِرمُ العَظيمُ له هذه الإضاءةُ العَظيمَةُ مع البُعدِ التَّامِّ.

وهذه الحَرارَةُ العَظيمَةُ مع البُعدِ التَّامِّ، لو أنَّك سَعَّرت أَقوَى نارٍ في الدُّنيا ما بَلَغَت مَسافةَ حَرِّها إلى مئةِ مِترٍ، ومعَ ذلك تَجِدُ مَسَّ الحَرارَةِ فقط لا أن يَصِلَ إلى هذه الدَّرجَةِ، وهذه بَينَك وبَينَها ما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ وتَجِدُ هذا الحَرَّ في أيَّامِ الصَّيفِ، قال لي بَعضُهم: رُبَّما بَدَأَ المَاءُ يَغلي مِن شِدَّةِ الحَرارَةِ في بَعضِ المَناطِقِ، مِمَّا يَدُلُّ على عَظَمَةِ هذه الشَّمسِ.

والقَمرُ أيضًا عَظيمٌ، هذا القَمرُ الكَوكَبُ الكُتلَةُ يُضيءُ هذه الإضاءَةَ العَظيمَةَ مِن بُعدٍ مع ذلك هو باردٌ لا يُسخِّنُ الجَوَّ ولا يُسَخِّنُ الأرضَ؛ لأنَّه آيَةَ لَيلٍ. أرأيتم لو أنَّه كان حارًّا أيَتمتَّعُ النَّاسُ باللَّيلِ كما يَتمتَّعونَ اليومَ؟ لا يَتمتَّعونَ أبدًا، لكن مِن رحمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن جَعَلَه نورًا باردًا حتَّى لا تَبقى حَرارَةُ الأرضِ طَوالَ أَربعٍ وعِشرينَ ساعةً، وحتَّى يَستقِرَّ النَّاسُ في مَنامِهم وذَهابِهم ومَجيئِهم.

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾ (مِن) هذه للتَّبعيضِ وعَلامَةُ مِنِ التَّبعيضِيَّةِ أن يَحِلَّ مَحلَّها بَعضُ، يَعني: بَعضُ آياتِه اللَّيلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقَمرُ، وذَكَرنا وَجهَ كَونِها هذه الأربع مِن آياتِه.

ثُمَّ قال اللهُ تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ الخِطابُ لجَميعِ العِبادِ نَهاهم أن يَسجُدوا للشَّمسِ ولا للقَمرِ؛ لأنَّ مِن النَّاسِ مَن يَعبُدُ الشَّمسَ والقَمرَ ويَسجُدُ لها، وقد أَخبَرَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أنَّ الشَّمسَ تَطلُعُ بين قَرنَيْ شَيطانٍ فإذا طَلَعَت سَجَدَ لها الكُفَّارُ**»(١)؛ ولذلك نُهِيَ عنِ الصَّلاةِ عندَ طُلوعِ الشَّمسِ وعندَ غُروبِها، وقال بَعضُ العُلماءِ رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ المُرادَ: لا تَسجُدوا للشَّمسِ ولا للقَمرِ عندَ تَغيُّرِهما بالكُسوفِ.

ولكن في قوله تعالى: ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: الآياتِ الأربعَ، ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾]، يَعني: إن كُنتُم صادِقينَ في عِبادتِه فلا تَسجُدوا لغَيرِه؛ لأنَّ مَن يعبُدُ اللهَ ويَعبُدُ غَيرَه ليس صادقًا في عِبادَتِه، فالصَّادقُ في عِبادَتِه هو الَّذي يُخلِصُ العِبادَةَ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ المُرادُ بِالسُّجودِ هُنا -واللهُ أعلمُ- ما هو أعمُّ مِنَ السُّجودِ الخاصِّ الَّذي هو وَضعُ الأعضاءِ السَّبعَةِ على الأرضِ؛ أي أنَّ المُرادَ بالسُّجودِ هُنا الذُّلُّ، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد:١٥].

ويَحتَمِلُ أن يَكونَ المُرادُ به السُّجودَ الخاصَّ؛ لقَولِه: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ والقاعدَةُ في عِلمِ التَّفسيرِ أنَّه إذا كان اللَّفظُ يَحتَمِلُ مَعنيينِ أَحدُهما أوسعُ وأعَمُّ وأشمَلُ، فإنَّه يُحمَلُ على الثَّاني الَّذي هو أَوسَعُ وأعمُّ.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ الَّذي خَلَقَ هذه الأشياءَ، وفي

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب إسلام عمرو بن عبسة، رقم (٨٣٢)، من حديث عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا إِشارَةٌ إلى أنَّ اللهَ هو المُستَحِقُّ لأن يُسجَدَ له؛ لأنَّه هو الخالِقُ، وأمَّا هذه فهي مَخلوقَةٌ لا تَستَحِقُّ أن يُسجَدَ لها.

وقَولُه تَعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: إن كُنتم ذَوِي عِبادَةٍ للهِ حقًّا فاسجُدوا للهِ ولا تَسجُدوا للشَّمسِ ولا للقَمرِ.

وقَولُه: ﴿إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ العِبادَةُ بمَعنى: الذُّلِّ، ومنه قَولُهم طَريقٌ مُعَبَّدٌ؛ أي: مُذَلَّلٌ لمَن سَلَكَه ليس فيه وُعورَةٌ لا طُلوعَ ولا نُزولَ ولا التِفافَ يَمينًا ولا شِمالًا، فالطَّريقُ المُعَبَّدُ يَعني: المُذَلَّلَ. إذن فَالتَّعبُّدُ للهِ هو التَّذَلُّلُ له مَحَبَّةً وتَعظيمًا. واعلَمْ أنَّ العِبادَةَ تُطلَقُ على مَعنيينِ:

المَعنى الأَوَّلِ: التَّعبُّدُ للهِ الَّذي هو فِعلُ العابِدِ.

والمَعنى الثَّاني: المُتَعَبَّدُ به الَّذي هي العِباداتُ، ولهذا قال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ العِبادَةَ اسمٌ جامعٌ لكُلِّ ما يُحِبُّه اللهُ ويَرضاه»[1] بناءً على أنَّ المُرادَ بها المُتَعَبَّدُ به.

قَولُه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ قَدَّمَ المَفعولَ به لإِفادَةِ الحَصْرِ؛ لأنَّ مِن القَواعِدِ المُقَرَّرةِ في عِلمِ البَلاغَةِ وغَيرِها أنَّ تَقديمَ ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحَصْرَ، فإذا قُلتَ مَثلًا: إيَّاكَ أَكرَمْتُ، المَعنى لم أُكرِمْ غَيرَك، وقَولُ القائِلِ في سورَةِ الفاتِحَةِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يَعني: لم نَعبُدْ غَيرَك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] يَعني: لا نَستَعينُ غَيرَك.

ثُمَّ قال تَعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ يَعني: عن عِبادَةِ اللهِ والسُّجودِ له فإنَّ اللهَ تَعالى غَنيٌّ عنهم.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ عَنِ السُّجودِ للهِ وَحدَه ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: فالمَلائِكةُ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ يُصَلُّون ﴿لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ لا يملون] يَعني: فإنِ استكبَرَ هَؤلاءِ عَن عِبادَةِ اللهِ فللهِ عِبادٌ آخَرون، كما في قَولِهِ تَعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩].

ثُمَّ على فَرضِ أنَّه لا يُوجَدُ عابدٌ للهِ فإنَّ اللهَ تَعالى يَقولُ: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ﴾ [الزُّمَر:٧] ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧] فهُنا شَيئانِ:

الشَّيءُ الأَوَّلُ: أن يَستكبِرَ طائفَةٌ مِن المَخلوقينَ عن عِبادَةِ اللهِ، فإنِ استكبَروا فهُناكَ طائفَةٌ أُخرى تَعبُدُ اللهَ.

الثَّاني: أن يَستكْبِرَ الكُلُّ وهذا مُحالٌ حَسَبُ ما نَعلمُ، لكن على فَرضِ أنَّ جَميعَ المَخلوقاتِ استكبَرَت عن عِبادَةِ اللهِ، فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عنهم، كُلُّ هذا أَفصَحَ اللهُ عنه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ﴾ ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾، هذا إذا كَفَرَ بَعضٌ وآمَنَ بَعضٌ.

﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ هذا إذا استكبَرَ بَعضٌ وذَلَّ بَعضٌ: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾.

جُملَةُ ﴿فَٱلَّذِينَ﴾ هي جَوابُ الشَّرطِ وقُرِنت بالفاءِ؛ لأنَّ ما بَعدَها لا يَصِحُّ أن يَكونَ فِعلًا للشَّرطِ، وهذه قاعِدَةٌ: إذا كان جَوابُ الشَّرطِ لا يَستقيمُ أن يَكونَ فِعلًا للشَّرطِ وَجَبَ اقترانُه بالفاءِ كما قال ابنُ مالكٍ[1]:

واقرِنْ بفا حتمًا جَوابًا لو جُعِلَ ... شرطًا لـ(إن) أو غَيرِها لم يَنْجَعِلْ

---

(١) الألفية (ص:٥٨).

وقد ذَكَرَ بَعضُ الجامِعينَ لـما يَجِبُ أن يَقتَرِنَ بالفاءِ جَمَعَ ذلك في بَيتٍ هو[1]:

اسمِيَّةٌ طَلبيَّةٌ وبجامِدٍ وبما ... قـد وبلـن وبـالتَّنفيسِ

قال اللهُ تَعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهُم المَلائِكَةُ ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أي: يُصَلُّون]، وهذا نَعَمْ له وِجهَةُ نَظَرٍ؛ لأنَّ السِّياقَ في السُّجودِ ويُمكِنُ أن نَقولَ: يُسبِّحونَ بما هو أَعمُّ مِنَ الصَّلاةِ أي: يَقولون: سُبحانَ اللهِ والحَمدُ للهِ وما أَشبَهَ ذلك مِن كُلِّ ما فيه تَنزيهٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ عمَّا لا يَليقُ به.

وقَولُه: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ﴾ أي للهِ، واعْلَمْ أنَّ التَّسبيحَ مَعناه التَّنزيهُ، فما الَّذي يُنزِّهُ اللهُ عنه؟

يُنزِّهُ اللهُ تَعالى عن كُلِّ نَقصٍ، فهو عَزَّوَجَلَّ مُنزَّهٌ عن كُلِّ نَقصٍ، لا يُمكِـنُ أن يَعتَرِيَه نَقصٌ بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ.

ثانيًا: يُنزِّهُ عن كُلِّ نَقصٍ في كمالِه فلا نَقصَ في سَمعِه ولا بَصَـرِه ولا قُدرَتِه ولا قُوَّتِه.

الثَّالثُ: يُنزِّهُ عن مُماثَلةِ المَخلوقيـنَ فلا يُمـاثِلُ المَخلوقَ أبدًا بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ، والتَّماثُلُ بينَ الخالِقِ والمَخلوقِ مِن أكبرِ المُحالِ.

فما يُنزِّهُ اللهُ عنه ثَلاثَةُ أشياءَ:

الأَوَّلُ: النَّقصُ لا يُمكنُ أن يَعتَرِيَه نَقصٌ إطلاقًا.

---

(١) انظر النحو الوافي (٤/ ٤٦٣).

والثَّاني: النَّقصُ في كَمالِه، فكَمالاتُه من عِلمٍ وقُدرةٍ وحَياةٍ وسَمْعٍ وبَصرٍ ورحمةٍ وغيرِ ذلك لا يُمكنُ أن يَعترِيَها نقصٌ بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ.

والثَّالثُ: مُماثلَةُ المَخلوقينَ.

ولاحِظوا هذه المَسألَةَ فأكثرُ الَّذين يُعبِّرون بمِثلِ هذا يُعبِّرون بمُشابهَةٍ، وهذا ليس بصَوابٍ، الصَّوابُ أن يُعبِّرَ بما عَبَّر اللهُ به عن نَفسِه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، ولم يَذكُرِ التَّشبيهَ بأيِّ حالٍ منَ الأحوالِ، ولهذا كان التَّعبيرُ بنَفيِ التَّمثيلِ هو الصَّوابُ دونَ التَّشبيهِ.

دَليلُ هذا أنَّ اللهَ مُنزَّهٌ عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ قَولُه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠] المَثَلُ يعني: الوَصفَ؛ لأنَّ المَثَلَ يُطلَقُ على ذلك كما في قَولِه تَعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [محمد:١٥] مَثَلُ بمعنى: وَصفُها صِفتُها، ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ فإذا كان اللهُ له المَثَلُ الأعلى؛ أيِ: الأكمَلُ لَزِمَ أن يَكونَ مُنزَّهًا عن كُلِّ نقصٍ.

أمَّا النَّقصُ في كَمالِه فيَدُلُّ له قَولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] أي: مِن نَقصٍ على أنَّ هذه المَخلوقاتِ عَظيمَةٌ جدًّا، ومع ذلك ما لَحِقَ اللهُ تَعالى فيها نَقصٌ. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف:٣٣].

الثَّالثُ: عدمُ مُماثلَةِ المَخلوقينَ، يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤]، ويَقولُ تَعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

إذن؛ التَّسبيحُ بمعنى: التَّنزيهِ، والَّذي يُنزِّهُ اللهُ عنه ثَلاثَةُ أشياءَ.

قال اللهُ تَعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الباءُ هُنا بمَعنى (في)؛ لأنَّ المَقصودَ ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾ يَعني: ظَرفَ اللَّيلِ، وعلى هذا تَكونُ الباءُ بمعنى (في) كما هي في قَولِه تَعالى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨] باللَّيلِ يَعني: في اللَّيلِ.

فإنْ قال قائِلٌ: ما القَولُ في رَأيِ عُلماءِ البَصرَةِ الَّذين يُنكِرون تَقابُلَ الحُروفِ بَعضِها بَعضًا؟

فالجَوابُ: نَحنُ لَدينا قاعدَةٌ:

أَوَّلًا: أنَّه إذا دَلَّ القُرآنُ على شَيءٍ جائزٍ فلا عِبرَةَ بمَن خالَفَه.

ثانيًا: إذا اختَلَف النَّحويُّون في مسألَةٍ، فإنَّنا نتَّبعُ الأسهَلَ، لا يوجَدُ دَليلٌ شَرعيٌّ مَثلًا يُؤيِّدُ هؤلاءِ ولا هَؤلاءِ فنتَّبعَ الأسهَلَ، فإذا رَأيتُم عُلماءَ البَصرَةِ وعُلماءَ الكوفَةِ مُختلِفون في شَيءٍ فاتَّبعوا الأسهَلَ، وأَقولُ: الحَمدُ للهِ على الرَّاحةِ.

فإن قيل: هَل شَيخُ الإسلامِ يُغَلِّطُ مثلَ هذا؟

فالجَوابُ: لا، لا يَغلِّطُ بمثل هذا، شَيخُ الإسلامِ[1] يُغلِّطُ فيما إذا أَمكَنَ تَضمِينُ الفِعلِ مَعنًى يُناسبُ حَرفَ الجَرِّ مثل: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦] منهم مَن يَقولُ ﴿بِهَا﴾ (الباءُ) بمَعنَى (مِن) أي: يَشرَبُ مِنها عِبادُ اللهِ. نحنُ نَقولُ: لا، الأَوْلَى أن تُضَمِّنَ الفِعلَ مَعنًى يُناسِبُ الحَرفَ، أمَّا الآيَةُ الَّتي مَعَنا ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ﴾ [فُصِّلَت:٣٨] فلا تَستَقيمُ.

وقَولُه: ﴿بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يَعني: إذن كُلُّ الوَقتِ يُسبِّحونَ اللهَ.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢١/ ١٢٣-١٢٤).

ويَقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ هُم مَعَ كَونِهم مُستغرِقينَ اللَّيلَ والنَّهارَ في تَسبيحِ اللهِ ﴿لَا يَسْـَٔمُونَ﴾. يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا يَمَلُّون] وكذلك لا يَتعَبونَ؛ لأنَّ المَلَلَ يَكونُ مِنَ الضَّجَرِ والتَّعَبِ وذُلِّ النَّفسِ أَمامَ ما يَتحمَّلُه الإنسانُ، هؤلاء المَلائِكةُ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- ﴿لَا يَسْـَٔمُونَ﴾.

من فوائدِ الآيتينِ الكَريمتَينِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ للهِ آياتٍ كثيرةً لا تَنحَصِرُ بآيتينِ أو ثَلاثٍ نُدركُ ذلك من قَولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وما أَكْثَرَها في القُرآنِ الكَريمِ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم:٢٠] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [الروم:٢١] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [الشورى:٢٩] وهي كَثيرَةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ للهِ تَعالى آياتٍ مَحسوسةً تُعينُ على الآياتِ المَعقولَةِ، وهذا من رَحمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنَّ اللهَ أرى عِبادَه الآياتِ المَحسوسَةَ ليَستَعينوا بها على الآياتِ المَعقولَةِ.

فالآياتُ المَعقولَةُ كُلٌّ يَعلمُ أنَّ كُلَّ حادثٍ لا بدَّ له من مُحدِثٍ هذه آيَةٌ عَقليَّةٌ لا يُنكِرُها أحدٌ؛ ولهذا قال تَعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥] الجَوابُ: لا هذا ولا هذا. هم لم يُخلَقوا مِن غيرِ شَيءٍ بل لا بدَّ لهم مِن خالقٍ ولا خَلَقوا أنفُسَهم، إذن لَهم خالِقٌ وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا لـمَّا سَمِعَ جُبيرُ بنُ مُطعَمٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هذه الآيَةَ وكان من أَسرى بَدرٍ، وسَمِعَ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- يَقرَأُ بالطُّورِ يَقولُ: كاد قَلبي يَطيرُ[1]، يَعني: عَرفْتُ أنِّي على خَطأٍ وأنَّ المُشركينَ كُلَّهم يُخطِئونَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب سورة والطور، رقم (٤٨٥٤).

إذن آياتُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إمَّا عقليَّةٌ وإمَّا سَمعيَّةٌ محسوسَةٌ هنا، ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ الآياتُ هذه محسوسَةٌ، كُلٌّ يَعرِفُها، اللَّيلُ والنَّهارُ، وأنَّه لا يُمكِنُ لأحدٍ أن يَأتيَ بهما.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والقَمرَ آياتٌ عَظيمَةٌ، ولهذا نَصَّ اللهُ عليهن، والأمرُ كذلكَ، هذه الشَّمسُ الكَوكَبُ العَظيمُ المُنيرُ الحارُّ لا يُمكِنُ لأيِّ مَخلوقٍ أن يَصنَعَ مِثلَها إطلاقًا، وقد بَيَّنَّا في أثناءِ التَّفسيرِ وَجهَ ذلك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: النَّهيُ عنِ السُّجودِ للشَّمسِ والقَمرِ؛ لقَولِه: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ مع أنَّهما مِن آياتِ اللهِ، لكنَّها مَخلوقَةٌ، والسُّجودُ إنَّما يَكونُ للخالِقِ.

ونَنتَقِلُ مِن هذا إلى نُقطةٍ مُهمَّةٍ أشارَ إليها شَيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو أنَّ صِفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ليست هي اللهُ. فلا يَجوزُ دُعاءُ الصِّفةِ ولا السُّجودُ لصِفاتِ اللهِ، ولهذا قال شَيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَن دعا صِفةً من صِفاتِ اللهِ فإنَّه كافرٌ بالاتِّفاقِ[1]، يَعني: لو قال قائِلٌ: يا رَحمَةَ اللهِ ارحَميني، كيف يا رَحمَةَ اللهِ ارحميني، هل الرَّحمَةُ شَيءٌ بائنٌ عنِ اللهِ يَستطيعُ أن يَرحَمَ؟ لا، فإذا قُلتَ: يا رَحمةَ اللهِ ارحميني، مَعناها أنَّك جَعلْتَ معَ اللهِ إلهًا آخَرَ وهذا كُفْرٌ.

وكذلك إذا قُلت: يا قُدرَةَ اللهِ أنقِذيني هذا حَرامٌ شِركٌ، قُل: يا اللهُ بقُدرَتِك أَنقِذني، ولا يَرِدُ على هذا قَولُه: اللهُمَّ برحمَتِك أستَغيثُ[2]؛ لأنَّ ليس مَعناها أنِّي أستَغيثُ بالرَّحمَةِ وكأنَّني أَعتَقِدُها شيئًا مُستقلًّا، لكنَّ المَعنى التَّوسُّلُ إلى اللهِ تَعالى برَحمَتِه كأنَّه يَقولُ: يا رَبِّ أَغِثني برَحمتِك. فيَجِبُ التَّنبُّهُ لهذه المَسألَةِ.

---

(١) انظر: تلخيص كتاب الاستغاثة (ص:١٨١).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٢٤)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ومن ذلك أيضًا مِنَ الخَطأِ في مِثلِ هذا قَولُ بَعضِ النَّاسِ: شاءَت قُدرَةُ اللهِ، شاءَ القَدَرُ، هذا حَرامٌ، لا يَجوزُ، القُدرَةُ نَفسُها ليس لها مَشيئَةٌ، المَشيئَةُ للهِ عَزَّوَجَلَّ أمَّا القُدرَةُ فليس لها مَشيئَةٌ؛ لأنَّها صِفةٌ في موصوفٍ والشَّائي والمُختارُ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ. أمَّا اقتضت قُدرَةُ اللهِ فهذا صَحيحٌ، يعني: أنَّ من مُقتَضَياتِ القُدرَةِ كذا وكذا، أمَّا المَشيئَةُ فلا تَكونُ إلَّا مِن شاءٍ له اختِيارٌ، وهذا لا يُمكِنُ أن يَكونَ من صِفةٍ.

فإنْ قال قائِلٌ: هُناك عِبارَةٌ شائعَةٌ بَينَ العامَّةِ قَولُهم: نَحمَدُ اللهَ ونَشكُرُ فَضلَه؟

فالجَوابُ: أليس اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقولُ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١١٤]، والمُرادُ نِعمَةُ اللهِ المَخلوقَةُ لا الصِّفَةُ، يَعني: ما أَنعَمَ اللهُ، كذلك أَشكُرُ فَضلَ اللهِ ليس مَعناه أنِّي أَجعَلُ هذه الصِّفَةَ مَشكورَةً لكنَّ هذا الفضلَ الَّذي مَنَّ اللهُ عَلَيَّ أشكُرُه عليه، فهذه العِبارَةُ لا شَيءَ فيها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ من بَلاغةِ القُرآنِ أنَّه إذا ذَكَرَ الحُكْمَ ذَكَرَ الدَّليلَ العَقليَّ عليه؛ لقَولِه: ﴿وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ اسجُدوا للهِ، هذا واضحٌ أمرٌ شرعيٌّ لكن: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ دَليلٌ كونيٌّ قَدَريٌّ على أنَّ المُستحِقَّ للسُّجودِ الَّذي خَلَقَ هذه الأشياءَ، كيف تَسجدونَ للشَّمسِ والقَمرِ ولا تَسجُدون للهِ الَّذي خَلَقَهنَّ، ونَظيرُ هذا قَولُه تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة:٢١] وقَولُه تَعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فُصِّلَت:١٥] قال اللهُ تَعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾، لم يَقُل: أَوَ لَمْ يَروا أنَّ اللهَ هو أَشدُّ منهم قُوَّةً، بل قال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ﴾ ليَدُلَّ بذلك دَلالةً عَقليَّةً واضحَةً أنَّهم دونَ اللهِ تعالى في القُدرَةِ؛ لأنَّ اللهَ هو الَّذي خَلَقَهم، وهذا مِن أساليبِ القُرآنِ المُعجزَةِ الَّتي تَدُلُّ على أنَّه من لَدن حَكيمٍ خَبيرٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الرَّدُّ على عابدِ الشَّمسِ والقَمرِ؛ لقَولِه: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾، استنبَطَ بَعضُ العُلماءِ من تلكَ الآيَةِ فائدَةً وهي مَشروعِيَّةُ صَلاةِ الكُسوفِ، قال: لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾، ولم يَقُلْ: للَّيلِ وللنَّهارِ وذلك لأنَّ الشَّمسَ والقَمرَ إذا تَغيَّرتا فَقدْ يَنشأُ في قَلبِ عابِدِهما أن يَسجُدَ لهما كالتائِبِ، فقال: لا تَسجُدوا للشَّمسِ ولا للقَمرِ واسجُدوا للهِ الَّذي خَلَقَهما، وهذا الاستِنباطُ فيه شَيءٌ مِنَ البُعدِ لكنَّه ليس مُمْتنعًا أنْ يَكونَ في ذلك إشارَةٌ إلى مَشروعِيَّةِ صَلاةِ الكُسوفِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه لا يُمكنُ لإنسانٍ يَدَّعي أنَّه يَعبُدُ اللهَ حقًّا أن يَسجُدَ لغَيرِ اللهِ؛ لقَولِه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: التَّحدِّي لِمَنْ أَشرَكَ باللهِ -بأيِّ نَوعٍ مِنَ الشِّركِ- أن يَكونَ عابدًا حقًّا للهِ، فالمُرائي مَثلًا نَقولُ: إنَّك لم تَعبُدِ اللهَ حَقًّا لم تُفرِدْه بالعِبادةِ لأنَّك أَردتَ بعِبادتِك التَّقرُّبَ إلى المَخلوقينَ؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ المُستكبرينَ عن عِبادةِ اللهِ لن يَضُرُّوا اللهَ شيئًا؛ لقَولِه: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: كَشفُ تَحدِّي هَؤلاءِ الَّذين يَعبُدونَ غَيرَ اللهِ بأنَّهم إذا عَبَدوا غَيرَ اللهِ فللهِ مَن يَعبُدُه عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: استدَلَّ بها بَعضُهم على أنَّ المَلائِكَةَ أفضلُ مِنَ البَشَرِ، وعَلَّلَ ذلك بأنَّ المَلائكةَ ليس فيهم مُشرِكٌ؛ لقَولِه: ﴿الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ وبنو آدَمَ فيهم مُؤمنٌ وكافِرٌ والجِنسُ الَّذي ليس فيهم مُشرِكٌ خَيرٌ مِنَ الجِنسِ الَّذي يَكونُ فيه مُشرِكٌ ومُوحِّدٌ.

ولكن قد يُعارَضُ هذا الاستدلالُ فيُقالُ: عِبادةُ الجِنسِ الَّذي فيه مُشركٌ ومُوحِّدٌ أفضلُ مِن عِبادةِ جِنسٍ ليس فيه مُشرِكٌ، وذلك لَمشقَّةِ التَّوحيدِ في جِنسٍ فيه مُشرِكٌ والمُوحِّدُ فيكونُ المُوَحِّدُ مِن بَني آدمَ أفضلَ مِن المَلائِكَةِ؛ لأنَّه عَبَدَ اللهَ في قَومٍ لا يَعبُدون اللهَ، أمَّا المَلائكةُ فكُلُّهم يَعبُدونَ اللهِ ولا يَستكبِرون عن عِبادتِه.

وهذه المَسألَةُ فيها خِلافٌ بينَ أهلِ العِلمِ ولكُلٍّ منهم أَدِلَّةٌ لكن جَمَعَ شَيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بينَ الأَدِلَّة فقال: المَلائكَةُ أفضلُ باعتِبارِ البِدايةِ وصالِحُ البَشَرِ أفضلُ باعتِبارِ النِّهايَةِ[1]، وهذا قَولٌ لا بأسَ به، جَمَعَ بين الأَدِلَّةِ الدَّالَّةُ على التَّفضيلِ تَفضيلِ المَلائكَةِ على البَشَرِ والبَشَرِ على المَلائكَةِ، ولهذا قال السِّفارينيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]:

وعِندَنا تَفضيلُ أعيانِ البَشَرِ ... على مَلائكِ رَبِّنا كما اشتُهِرَ

قال: ومَن قال سِوَى هذا افْتَرَى ... .

قوله: «قال» الأُولى يَعني: الإمامُ أحمدُ- يَعني: مَن قال بغَيرِ تَفضيلِ أعيانِ البَشَرِ على المَلائكَةِ فهو مُفتَرٍ، لكنَّ الصَّوابَ أن نَقولَ كما قال شَيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أمَّا باعتِبارِ البِدايَةِ فالمَلائكَةُ أفضلُ؛ لأنَّهم خُلِقوا مِن نورٍ، و﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]. لكن في النِّهايَةِ يَكونُ لصالِحِ البَشَرِ مِنَ الثَّوابِ والأَجْرِ والقُربِ مِنَ اللهِ ما ليس للمَلائِكَةِ.

فإنْ قال قَائلٌ: كيف تَكونُ المَلائكَةُ أفضَلَ بِدايَةً والبَشَرُ أفضَلَ نِهايَةً؟

فالجَوابُ: المَلائكَةُ أفضَلُ مِن حيثُ البِدايَةُ؛ لأنَّهم خُلِقوا مِن نورٍ وامتَثَلوا

(١) الاختيارات العلمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] (٥/ ٣٧٩).
(٢) العقيدة السفارينية (ص:٩٠).

أمْرَ اللهِ، وليس فيهم مَن يَستكبِرُ عن عِبادَةِ اللهِ، لكن في النِّهايَةِ يَكونُ مآلُ البَشرِ أفضَلَ حتَّى المَلائِكَةُ عَملُهم في يومِ القِيامَةِ أنَّهم يَدخُلون عليهِمْ مِن كُلِّ بابٍ يُهَنِّئونَهم يَقولُون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ [الرعد:٢٤] ولا يَنالون مِنَ النَّعيمِ مِثلَما يَنالُه المُؤمنونَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ للمَلائِكَةِ إرادةً، يُؤخَذُ مِن ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ﴾ ولا تَسبيحَ إلَّا بإرادَةٍ. ومِن هُنا نَقفِزُ إلى فائدَةٍ ثانيَةٍ:

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: وهي أنَّ جَميعَ المَخلوقاتِ مِن الأشجارِ والأحجارِ والأنهارِ والشَّمسِ والقمرِ والسَّماءِ والأرضِ لها إرادَةٌ؛ لأنَّها كُلَّها تُسبِّحُ اللهَ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤].

وبهذا نَرُدُّ على الَّذين قالوا: إنَّ قَولَه تَعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف:٧٧] يعني: الجِدارَ، هذا مَجازٌ؛ لأنَّ الجِدارَ ليس له إرادَةٌ، فيُقالُ: مَن قال لكم إنَّه ليس له إرادَةٌ؟ بل له إرادَةٌ، ومَيلُه يَدُلُّ على أنَّه أرادَ، ولقد قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في أُحُدٍ: «**إنَّه يُحبُّنا ونُحبُّه**»[1]، والمَحبَّةُ أخصُّ مِنَ الإرادَةِ وأثبَتَها الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للجَبَلِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ بَعضَ أهلِ العِلمِ استَدَلَّ بها على عُلوِّ اللهِ، وأنَّ الأشياءَ ليست كُلُّها سَواءً بالنِّسبَةِ للقُربِ منه؛ لقَولِه: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾، والعِندِيَّةُ تَقتَضي القُربَ، وأنَّ بعضَ المَخلوقاتِ إلى اللهِ أقرَبُ مِن بعضٍ، وهذا لا إشكالَ فيه، مَن يَقولُ: إنَّ مَن كان في الأرضِ السَّابعَةِ السُّفلى هو في القُربِ إلى اللهِ كالَّذي في السَّماءِ السَّابعَةِ لا أحدَ يَقولُ بهذا.

أمَّا مِن جِهةِ الإحاطَةِ بالخَلقِ فلا شَكَّ أنَّ القَريبَ والبَعيدَ عِندَ اللهِ على حدٍّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل الخدمة في الغزو، رقم (٢٨٨٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، رقم (١٣٩٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سواءٍ، وأمَّا من جِهةِ الواقعِ فلا شكَّ أنَّ مَن كان في السَّمواتِ أَقربَ إلى اللهِ مِمَّن كان في الأرضِ، ولهذا قال: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾.

أَقولُ: إنَّ بَعضَ العُلماءِ استَدَلَّ بهذه الآيَةِ على عُلوِّ اللهِ، وقال: نحنُ في الأرضِ والَّذين عِندَ اللهِ لا بُدَّ أن يَكونوا في السَّماءِ؛ لأنَّه لولا عُلوُّه لكُنَّا نحن أيضًا عِندَه، فكَونُه يَقولُ: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يُخاطِبُ مَن في الأرضِ يَدُلُّ على عُلوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهذا لا شكَّ أنَّه استنباطٌ جَيِّدٌ، لكنَّنا لسنا بحاجَةٍ إلى أن نَأتيَ بهذا الدَّليلِ الَّذي قد تَخفى دَلالتُه على كَثيرٍ مِنَ النَّاسِ.

وعِندَنا أدِلَّةٌ كَثيرةٌ واضحَةٌ على عُلوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أدِلَّةٌ عَقليَّةٌ وأدِلَّةٌ سمعيَّةٌ وأدِلَّةٌ فِطريَّةٌ على عُلوِّ اللهِ، ولا أَحَدَ يُنكِرُ عُلوَّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ العُلوَّ الذَّاتيَّ إلَّا مَخبولٌ غيرُ عاقلٍ، وهو بَيْن أَمرينِ: إمَّا أن يَقولَ بالحُلولِ، وإمَّا أن يَقولَ بالعَدَمِ، وفِعلًا التَزِموا ذلك، فالَّذين أنكَروا عُلوَّ اللهِ انقَسَموا إلى قِسمَينِ:

قِسمٌ قال: إنَّ اللهَ في كُلِّ مَكانٍ، ولم يُنزِّهِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ عَن الحُشوشِ والأقذارِ والأنتانِ والأسواقِ الَّتي بها اللَّغو والكَذِبُ والغِشُّ، وهذا فيما أَرى كُفْرٌ صَريحٌ، أنَّ من قال: إنَّ اللهَ بذاتِه في كُلِّ مكانٍ، فهو كافِرٌ لو مات ما صَلَّيتُ عليه ولا دَعوتُ له بالرَّحمَةِ؛ لأنَّه مُكذِّبٌ للقُرآنِ وللأدِلَّةِ العَقليَّةِ وواصِمٌ لرَبِّه بكُلِّ عيبٍ.

ومنهم مَن يَقولُ: إنَّ اللهَ تَعالى ليس داخلَ العالَمِ ولا خارِجَ العالَمِ ولا مُتَّصِلٌ بالعالَمِ ولا مُباينٌ ولا مُحايثٌ ولا فوقُ ولا تَحتُ ولا يَمينَ ولا شِمالَ، بماذا وَصَف اللهَ؟ بالعَدَمِ، لو قيل لنا صِفوا المَعدومَ ما وَصَفناه بأَكثرَ مِن هذا، فيُقالُ: أين هو ما دام لا داخِلُ العالَمِ ولا خارِجُه ولا مُتَّصلٌ بالعالَمِ ولا هو مُنفصِلٌ عنِ العالَمِ، ولا فَوقُ ولا تَحتُ ولا يَمينَ ولا شِمالَ أين يَروحُ إلَّا العَدَمَ!؟

ولهذا لـما قال ابنُ فَورَكٍ لمحمودَ بنِ سُبُكْتِكِين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنِّي لا أقولُ: إنَّ اللهَ فَوقَ العالَمِ ولا تَحتَ إلى آخرِه، قال: بيِّنْ لنا الفَرقَ بين وُجودِ رَبِّك وعَدمِه أو كَلِمَةً نحوَها[1] يَعني: مَعناه أنَّك إذا وَصَفْتَ اللهَ بهذه الأوصافِ فهذا هو العَدمُ تمامًا.

وتَقريرُ أنَّ اللهَ تَعالى في السَّماءِ يَعني: العُلوَّ الذَّاتيَّ أمرٌ لا إشكالَ فيه، والعَجَبُ أنَّك تَأتي العَجوزَ الَّتي لم تَدرُسْ ولم تَفهَمْ ولم تَعلَمْ وتَسألُها أين اللهُ؟ تَقولُ في السَّماءِ، إلَّا إذا كان الأمرُ كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**أبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه**»[2] أي: إلَّا إذا كانت عائشَةُ بين قومٍ يُنكِرونَ العُلوَّ فرُبَّما تُنكِرُ بِناءً على أنَّ البِيئَةَ تُغيِّرُ، أمَّا لو أتينا إلى الإنسانِ مِن حيثُ الفِطرةُ لرأينا أنَّه لا يشكُّ في أنَّ اللهَ في السَّماءِ.

ولذلك أَفْحَمَ الهَمَذانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أبا المَعالي الجُوَينيَّ حين كان أبو المَعالي الجُوينيُّ يُنكرُ استِواءَ اللهِ على العَرشِ ويَقولُ: إنَّ اللهَ تَعالى كانَ ولا عَرشَ.

وهو الآنَ على ما كان عليه يُريدُ أن يُنكِرَ استواءَه على العَرشِ، واستواءُ اللهِ على العَرشِ دَليلُه سَمعيٌّ، يَعني: لولا أنَّ اللهَ أخبَرَنا أنَّه استَوى على العَرشِ ما عَلِمنا بخِلافِ العُلوِّ، فالعُلوُّ دَليلُه عَقلِيٌّ وسَمْعيٌّ وفِطرِيٌّ، أمَّا هذا فدَليلُه سَمعِيٌّ.

قال له الهَمَذانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا شَيخُ دَعْنا مِن ذِكرِ العَرشِ، وأَخْبِرنا عن هذه الضَّرورَةِ، فما قال عارفٌ قطُّ: يا أللهُ إلَّا وَجَدَ من قلبه ضَرورَةً بطَلَبِ العُلوِّ، صَحيحٌ هذا أم لا؟

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٢٥٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، رقم (١٣٥٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يَعني: أيُّ إنسانٍ يَقولُ: يا أللهُ يَجِدُ قَلبَه يَتَّجهُ إلى السَّماءِ، وكَلمَةُ (عارف) اصطِلاحٌ صوفيٌّ، العارِفُ عِندَهم هو العالِمُ الواسعُ العِلمَ، العابِدُ الكَثيرُ العِبادةَ.

فصَرَخَ أبو المَعالي وجَعَلَ يَضرِبُ على رَأسِه ويَقولُ: حَيَّرني الهَمَذانيُّ حَيَّرني الهَمَذانيُّ[1]، وعَجَز أن يَرُدَّ على هذا.

فنحن نَقولُ والحَمْدُ للهِ: إنَّ العُلوَّ أمرٌ لا غُموضَ فيه ولا إشكالَ فيه، ولا يُنكِرُه إلَّا شَخصٌ مَغموسٌ -والعِياذُ باللهِ- بالبِدعَةِ، ونحن نَرى أنَّه كافرٌ وأنَّه لا تَنفَعُه صَلاةٌ ولا صَدقةٌ ولا صيامٌ ولا حَجٌّ ولو مات ما صلَّينا عليه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ المَلائكَةَ مُستغرِقون الزَّمنَ كُلَّه في العِبادَةِ؛ لقَولِه: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، و(الباءُ) وإن كانت بمَعنَى (في) الَّتي للظَّرفِيَّةِ لكن فيها نَوعٌ مِنَ الدَّلالَةِ على الاِستِيعابِ، كما قال اللهُ تَعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾[الأنبياء:٢٠].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: بَيانُ قُوَّةِ المَلائكةِ؛ لقَولِه: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ أي: لا يَمَلُّون ولا يَتْعَبون مِمَّا يَدُلُّ على قُوَّتِهم.

والأَدلَّةُ على قُوَّتِهم كَثيرةٌ منها قِصَّةُ سُليمانَ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين جاءَه الهُدهُدُ بخَبَرِ مَلِكةِ سَبأٍ أنَّ لها عَرشًا عَظيمًا، فقال سُليمانُ: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٌ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ وكان له وَقتٌ مُحدَّدٌ يَقومُ فيه: ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل:٣٨-٣٩] جِنِّيٌّ يَأتي به مِن أقصى اليَمَنِ إلى الشَّامِ وهو واحدٌ ويَقولُ: إنِّي عليه لقَوِيٌّ يُؤكِّدُ قُوَّتَه أمينٌ لن أَخونَ فيه: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٠).

عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠] اللهُ أكبرُ! في الحالِ وَجَدَه أَمامَه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ [النمل:٤٠] و(الفاء) تَدُلُّ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، ثُمَّ قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾، ولم يَقُلْ فلمَّا رآه عِندَه، ﴿مُسْتَقِرًّا﴾ كأنَّه وَضَع في هذا المَكانِ مِن سنواتٍ مُستقِرًّا، ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾، الآنَ حَضَرَ مِن هناك بلَحظَةٍ، يَعني: كأنَّ العَرشَ مثلًا على يَمينِك فنَقلتَه على يَسارِك بل أدنى، وهذا أشدُّ، قال أهلُ العِلمِ: لأنَّ هذا دَعا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فحَمَلَته المَلائكَةُ، والمَلائكَةُ أقوى مِن الجِنِّ، وهذا لا شكَّ فيه أنَّهم أَقوى مِنَ الجِنِّ.

مسألةٌ: يَقولون عنِ السِّحْرِ أنَّه عِلمٌ ويَستدِلُّون بهذه الآيَةِ: ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النمل:٤٠] فكيفَ نَرُدُّ على هَؤلاءِ النَّاسِ؟

فالجَوابُ: نحنُ نَقولُ: السِّحْرُ عِلمٌ، أليس اللهُ تَعالى قال عَنِ المَلَكينِ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة:١٠٢] لا إِشكالَ هُنا أنَّه عِلمٌ، أمَّا استِدلالُهم بهذه الآيَةِ فلا، ليس بصَحيحٍ، يَعني: كأنَّهم يُريدون أنَّ هذا الَّذي عِندَه عِلمٌ بالكِتابِ ساحِرٌ، وقد قال تَعالَى: ﴿عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وما قال عِلمٌ مِنَ السِّحْرِ، ثُمَّ إنَّ السِّحرَ لا يُمكنُ أن يُغيِّرَ الحَقائقَ، السِّحرُ يُخيِّلُ الأشياءَ، إمَّا أن يَجعلَ المَسحورَ يَرى السَّاكنَ مُتحرِّكًا أو المُتحرِّكَ ساكنًا.

الآية (٣٩)

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ (مِن) للتَّبعيضِ و(آياتٌ) جَمعُ آيَةٍ وهي العَلامَةُ المُعيَّنَةُ لمَعلومِها، فكُلُّ عَلامَةٍ تُعيِّنُ مَعلومَها وتُحدِّدُه فهي آيَةٌ.

قَولُه: ﴿أَنَّكَ﴾ الخِطابُ هُنا لكُلِّ مَن يَتأتَّى خِطابُه وليس خاصًّا بالنَّبيِّ ﷺ واعلمْ أنَّ الخِطابَ المُوجَّهَ إلى واحدٍ يَنقَسِمُ إلى ثَلاثةِ أقسامٍ:

الأوَّلُ: ما دَلَّ الدَّليلُ بأنَّه خاصٌّ برَسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم- فهو خاصٌّ به.

والثَّاني: ما دَلَّ الدَّليلُ على العُمومِ فهو للعُمومِ.

والثَّالثُ: ما لا دَليلَ فيه على هذا ولا على هذا، فيَصِحُّ أن يَكونَ خاصًّا بالرَّسولِ وأن يَكونَ مُوجَّهًا لكُلِّ مَن يتأتَّى خِطابُه.

ففي قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشَّرح:١-٢]، الخِطابُ خاصٌّ بالرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذ إنَّ هذا لا يَتأتَّى لغَيرِه، وفي قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧] هذا أيضًا خاصٌّ به، وفي قَولِه تَعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق:١] هذا عامٌّ دَلَّ الدَّليلُ عليه؛ لأنَّه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ثُمَّ قال: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾.

وغالِب ما يَأتي ألَّا يَكونَ فيه دَليلٌ لهذا ولا لهذا، فنَقولُ: إمَّا أنَّه مُوجَّهٌ للرَّسولِ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَٰةُ وَٱلسَّلَامُ وأُمَّتُه تَكونُ مُتأسِّيةً به في ذلك، وإمَّا أن نَقولَ: إنَّه خِطابٌ لكُلِّ مَن يَتأتَّى خِطابُه.

في هذه الآية: ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ﴾ الخِطابُ عامٌّ للرَّسولِ ولغَيرِه، إمَّا أنَّ غيرَه داخلٌ في ذلك في أصلِ المُخاطبَةِ وإمَّا بالتَّبَعِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً﴾: يابِسةً] هامِدَةً ليس فيها نَباتٌ إطلاقًا، ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ﴾ يعني المَطَرَ [﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ تَحرَّكت ﴿وَرَبَتۡ﴾ انتَفَخت وعَلَت].

قال اللهُ تَعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ﴾ أي: ماءَ المَطَرِ ﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ أي: اهتزَّ نَباتُها من فَوقِها، وليس المُرادُ أنَّ الأرضَ نَفسَها تَهتزُّ؛ لأنَّنا لا نَشعُرُ بذلك، وإن كنَّا نَجوزُ أن يَكونَ اهتِزازُها اهتِزازًا يَسيرًا، لكنَّ الَّذي يَظهرُ أنَّها اهتَزَّت بالنَّباتِ، ﴿وَرَبَتۡ﴾ أي: عَلَت.

وهلِ المُرادُ ما أشارَ إليه المفسِّر انتِفاخُ الأرضِ عِندما تُريدُ الحَبَّةُ أن تَخرُجَ، فإنَّ الحَبَّةَ تَنتفِخُ في باطنِ الأرضِ، ثُمَّ إذا أَراد غُصنُها أن يَخرُجَ رَفَعَ الأرضَ، فهل هذا هو مَعنى رَبَتْ، أو المُرادُ عَلَت بالنَّباتِ؟

الجواب: يَحتمِلُ هذا وهذا، أنَّها عَلَت بالنَّباتِ وأنَّه لـمَّا ذَكَرَ اهتِزازَها أوَّلًا اهتِزازُ النَّباتِ الخَفيفِ ذَكَر عُلوَّ النَّباتِ والأشجارِ الكَبيرةِ الَّتي تَعلو، كُلُّ هذا مُمكِنٌ.

ثُمَّ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا﴾ أي: أحيا الأرضَ الخاشعةَ ﴿لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ﴾ الجُملَةُ مُؤكَّدَةٌ بمُؤكِّدينِ إنَّ واللَّامَ، و﴿ٱلۡمَوۡتَىٰٓ﴾ جمعُ مَيِّتٍ، والمُرادُ به كُلُّ مَن مات مِن بَني آدمَ وغَيرِهم، فهو قادرٌ على إحيائِهم.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ أيضًا جُملَةٌ مُؤكَّدةٌ بإنَّ، و﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ كُلُّ شيءٍ، فاللهُ قادرٌ عليه قادرٌ على إيجادِ المَعدومِ، وعلى إعدامِ المَوجودِ وعلى تَغييرِ الثَّابتِ وعلى تَثبيتِ المُتغيِّرِ كُلُّ شيءٍ قادِرٌ عليه.

من فوائدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ مِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على قُدرتِه أنَّ الأرضَ اليابِسةَ الهامدَةَ إذا نَزَل عليها الماءُ نَبتَتْ واهتَزَّت ورَبَت. وهل أحدٌ يَستطيعُ أن يَفعَلَ مِثلَ ذلك؟ أبدًا قال اللهُ تَعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٤] لا أَحَدَ يَستطيعُ مهما بَلَغَ مِن القُوَّةِ أن يُنبِتَ ورقةً واحدةً، وقد تَحدَّى اللهُ عَزَّوَجَلَّ جَميعَ الخَلقِ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ﴾ [الحج:٧٣] وهذا تَحدٍّ بالأمرِ الكونيِّ القَدريِّ، وتَحدَّى اللهُ الخَلقَ بالأمرِ الشَّرعيِّ فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٨] إذن فالإنسانُ عاجزٌ مهما كان.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الاستِدلالُ بالمَحسوسِ المَنظورِ على المَوعودِ المُنتَظَرِ، وَجهُه أنَّ اللهَ استدَلَّ بالشَّيءِ المَنظورِ المَحسوسِ وهو نَباتُ الأرضِ بعدَ أن كانت هامدَةً على شَيءٍ مُنتَظَرٍ وهو إحياءُ المَوتَى بعد مَوتِهم، وفيه أيضًا الاستِدلالُ بالأدِلَّةِ العَقليَّةِ أنَّ

الإنسانَ يَستَدِلُّ بالمَحسوسِ على المَعقولِ يَعني: أنَّ قُدرةَ اللهِ على هذا تَدُلُّ على قُدرَتِه على الآخَرِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: استِعمالُ القِياسِ وأنَّ القياسَ ثابتٌ؛ لأنَّ اللهَ تَعالى قاس إِحياءَ المَوتى على إِحياءِ الأرضِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَأكيدُ ما يَنبَغي تَأكيدُه سَواءٌ كان ذلك لإنْكارِ مُنكَرٍ أو شكٍّ شاكٍّ أو لأهَمِّيَّةِ الأمرِ؛ لأنَّ التَّأكيداتِ تَكونُ: إمَّا لأَهَمِّيَّةِ الأمرِ، وإمَّا لرَفعِ الشَّكِّ والتَّردُّدِ في الشَّيءِ حتَّى يَكونَ أمرًا يَقينيًّا، وإمَّا لإثباتِ الشَّيءِ المُنكَرِ. فمثلًا إذا كانت الآيَةُ تُخاطِبُ الَّذين يُنكِرونَ البَعثَ، فهذا الإثباتُ لِإثباتِ مُنكَرٍ يَعني لإثباتِ شَيءٍ أنكَرَه قَومٌ.

وإذا كانت الآيَةُ تُخاطِبُ مَن يَتَرَّددون في ذلك فهي لرَفعِ الشَّكِّ والتَّردُّدِ، وإذا قَدَّرنا أنَّها تُخاطِبُ مَن لا شكَّ عندَه ولا إنكارَ، فهي لأَهَمِّيَّةِ الأمرِ أوِ المَوضوعِ؛ لأنَّ الإيمانَ بذلك هو الَّذي يَحدو الإنسانَ إلى أن يَعمَلَ لولا أنَّ الإنسانَ يُؤمنُ بأنَّه سوف يُبعثُ ويُجازى لكان غَيرَ نَشيطٍ على العَمَلِ، أكثَرُ ما يُنَشِّطُ الإنسانَ على العملِ هو خوفُ يومِ القيامَةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: عُمومُ قُدرةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فلا يُعجِزُه شَيءٌ لتَمامِ عِلمِه وتَمامِ قُدرتِه، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر:٤٤] لأنَّ العاجِزَ إمَّا أن يَكونَ لعَدَمِ عِلمِه، وإمَّا أن يَكونَ لعَدَمِ قُدرتِه، فنَفَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ العَجزَ وبَيَّن ذلك بسَببِ كمالِ عِلمِه وقُدرَتِه، إذن إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٍ.

ذَكَرَ الجَلالُ السُّيوطِيُّ -غَفَر اللهُ لنا وله- في سورَةِ المائدَةِ كلامًا مُنْكَرًا قال: [وخصَّ العقلَ ذاتَه فليس عليها بقادِرٍ]. يعني: كأنَّه يَقولُ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ إلَّا على ذاتِه فليس عليها قادرًا، وهذا لا شكَّ أنَّه قَولٌ مُنكَرٌ، كأنَّه يَقولُ مثلًا هل يَقدِرُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ على أن يُفنِيَ نفسَه على كَلامِه؟

فنَقولُ: هذا قَولٌ ساقطٌ؛ لأنَّ القُدرَةَ إنَّما تَتعلَّقُ بالشَّيءِ المُمكِنِ أمَّا الشَّيءُ المُستحيلُ فهو مُستحيلٌ وليس مُستَحيلًا على قُدرتِنا، لا، المُستَحيلُ على قُدرتِنا غَيرُ المُستَحيلِ على قُدرةِ اللهِ، لكنَّ المُستَحيلَ لذاتِه فإنَّه لا يُمكِنُ أن تتعلَّقَ به قُدرةٌ ولا غَيرُ قدرةٍ إلَّا العِلمَ؛ ولهذا قال السَّفارينيُّ في العَقيدَةِ[1]:

....واقتَدَرْ

بقُدرةٍ تعلَّقت بمُمكِنٍ .....

فيُقالُ للجَلالِ عَفا اللهُ عنَّا وعنه: إن أَردتَ أنَّ اللهَ ليس بقادِرٍ على أن يُفنِيَ نفسَه فهذا أمرٌ غيرُ واردٍ إطلاقًا؛ لأنَّ القُدرَةَ لا تُعلَّقُ بهذا، وإن أَردتَ أنَّه غَيرُ قادرٍ على أن يَنزِلَ إلى السَّماءِ الدُّنيا، وأن يَأتيَ للفَصلِ بَينَ عِبادِه، وأن يَستوِيَ على عَرشِه ونحو ذلك مِنَ الأفعالِ الاختِيارِيَّةِ، فهذا كَذبٌ بل هو قادرٌ على ذلك، لكنَّ السُّيوطيَّ عفا اللهُ عنَّا وعنه ممَّن يَرونَ أنَّ الأفعالَ الاختِيارِيَّةَ لا تَقومُ باللهِ، يَعني: يَقولُ: اللهُ ما يُمكنُ يَنزِلُ ولا يَستَوِي ولا يَأتي يَومَ القيامَةِ؛ لأنَّ هذه على زَعمِه حَوادثُ والحَوادثُ لا تَتعلَّقُ إلَّا بحادِثٍ.

على كُلِّ حالٍ: هذه فَلسفَةٌ جاءَ بها أهلُ الكَلام، وما أكثَرَ ما جاؤوا به مِنَ الكَلامِ، وكَلامُهم كَلامٌ في كَلامٍ، لا فائدَةَ فيه، تَطويلٌ بلا فائدَةٍ، إضاعَةُ الوَقتِ

(١) العقيدة السفارينية (ص:٥٢).

بلا فائدَةٍ مُؤدٍّ إلى الشَّكِّ والتَّردُّدِ بلا فائدَةٍ، ولهذا قال بعضُهم: أكثرُ النَّاسِ شكًّا عندَ الموتِ أهلُ الكَلامِ نَعوذُ باللهِ، لماذا؟ لأنَّهم لم يَبنوا عَقيدَتَهم على الكِتابِ والسُّنَّةِ بَنَوْها على وَهْمِيَّاتٍ ظَنُّوها عقليَّاتٍ، فضلُّوا وأَضَلُّوا، نحنُ نَقولُ كما قال رَبُّنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٤٨] فقط ويَكفي.

أمَّا العِلمُ فهو أَوسَعُ مِنَ القُـدرةِ؛ لأنَّ العِلمَ يَتعلَّقُ بالواجـبِ والمُستحيلِ والمُمكِنِ، يَعني: عِلمُ اللهِ مُتعلِّقٌ بكُلِّ شيءٍ يَتعلَّقُ حتَّى بالمُستحيلِ، قال اللهُ تَعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] وهذا مُستَحيلٌ، ومع ذلك تَعلَّقَ به العِلمُ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١] وهذا أيضًا مِنَ المُستَحيلِ على حِكمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الاِستِدلالُ بالعُمومِ على الخُصوصِ، فاللهُ تَعالى استَدَلَّ على قُدرَتِه على إِحياءِ المَوتى بدَليلَينِ أحدُهما خاصٌّ والثَّاني عامٌّ، الخاصُّ يُحيي الأرضَ بعدَ مَوتِها، والعامُّ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

ويَنبَني على هذه الفائدَةِ: أنَّ العامَّ يَتناوَلُ جَميعَ أفرادِهِ، وقد ذَكَرَ ذلك النَّبيُّ ﷺ في قَولِه حينَ عَلَّمَ أُمَّتَه التَّشهُّدَ قال: «**إذا فَعلتُم ذلك فقد سَلِمْتُم على كُلِّ عَبدٍ صالحٍ في السَّماءِ والأرضِ**»[1] فمثلًا، إذا قال الرَّجلُ: دُورِي وَقفٌ، يَشمَلُ جَميعَ الدُّورِ، ولو قال: سَيَّاراتي لفُلانٍ، يَشمَلُ جَميعَ السَّيَّاراتِ، ولو قال: نِسائي طَوالقُ، يَشمَلُ كُلَّ امرأةٍ له، ولو قال: عَبيدي أحرارٌ، شَمِلَ كُلَّ عبدٍ، المُهِمُّ أنَّ العامَّ يَتناولُ جَميعَ أفرادِه.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة، رقم (٨٣١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٤٠)

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت: ٤٠].

ثُمَّ قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾ يَقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن ألْحَدَ ولَحَدَ] مِن أَلحَدَ تَكونُ يُلحِدون، ولَحَدَ يَلحَدون، وأصلُ اللَّحدِ أو الإلحادِ هو المَيلُ ومنه سُمِّيَ اللَّحدُ لحدًا؛ لمَيلِه إلى جانبِ القبرِ. إذن فهذه المادَّةُ (لامٌ حاءٌ دالٌ) مأخوذَةٌ مِنَ المَيلِ، فمَعنى: ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يَميلون فيها، وآياتُنا جَمعُ آيةٍ، وآياتُ اللهِ تَعالى تَنقَسِمُ إلى قِسمَينِ: آياتٍ شرعيَّةٍ وهي الوَحيُ المُنزَّلُ على الأنبياءِ والرُّسلِ، وآياتٍ قَدرِيَّةٍ وهي المَخلوقاتُ، كُلُّ المَخلوقاتِ آياتٌ قَدريَّةٌ تَدُلُّ على خالِقِها وبارِئِها، وفي ذلك يَقولُ الشَّاعرُ الصَّادِقُ في قَولِه[1]:

فوا عَجبًا كيف يُعصى الإلَهُ ... أم كيف يَجحَدُه الجاحِدُ
وفي كُلِّ شيءٍ لَه آيَةٌ ... تَدُلُّ على أنَّه واحِدُ

كُلُّ المَخلوقاتِ آيةٌ من آياتِ اللهِ، والإلحادُ في الآياتِ الكَونيَّةِ يَكونُ بواحدٍ مِن أُمورٍ ثلاثَةٍ؛ إمَّا بإضافتِها إلى غَيرِ اللهِ، وإمَّا باعتِقادِ مُشارِكٍ للهِ فيها، وإمَّا باعتِقادِ مُعينٍ للهِ فيها.

---

(١) من شعر أبي العتاهية، انظر: ديوانه (ص:١٢٢)، ومعاهد التنصيص (٢/ ٢٨٦).

أمَّا الأوَّلُ: فنِسبَتُها إلى غَيرِ اللهِ فيَقولُ مثلًا الَّذي خَلَقَ السَّماءَ القُوَّةُ الطَّبيعيَّةُ هذا إلحادٌ بالآياتِ الكَونيَّةِ.

والثَّاني: اعتِقادُ مُشارِكٍ للهِ فيها مِثل أن يَقولَ الَّذي يُدَبِّرُ الكَونَ هو اللهُ والإمامُ الفُلانيُّ كما تَقولُه بعضُ الرَّافضَةُ.

والثَّالثُ: اعتِقادُ مُعينٍ للهِ فيها يَعني: كأنَّ اللهَ عَجَزَ عن إقامَةِ السَّمواتِ والأرضِ فأَعانَه آخرُ، يَعني: أن يَكونَ عَزَّوَجَلَّ مُنفرِدًا بالخَلقِ لكنَّ هناك مَن يُساعِدُه، ولكنَّ هذا المُساعِدَ ليس له شَرِكةٌ في الخَلقِ، وبهذا نَعرفُ الفَرقَ بَينَ المُعينِ والمُشارِكِ.

هذا هو الإلحادُ في آياتِ اللهِ الكَونيَّةِ، وإلى هذا يُشيرُ قَولُه تَعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سبأ:٢٢] كُلُّ الثَّلاثَةِ نَفاهُنَّ، ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على سَبيلِ الاستِقلالِ ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ على سَبيلِ المُشارَكَةِ، ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي: ما للهِ منهم من ظَهيرٍ أي مُعينٍ.

والآياتُ الشَّرعِيَّةُ قُلنا: إنَّها ما نَزلَ مِنَ الوَحيِ على رُسلِ اللهِ، الإلحادُ فيها يَكونُ أيضًا في ثَلاثةِ أُمورٍ: تَكذيبُها أو تَحريفُها أو مُخالفَتُها، هذا الإلحادُ في الآياتِ الشَّرعيَّةِ، فمَن كَذَّب وقال: إنَّ مُحمدًا مثلًا لم يَنزِلْ عليه الوَحيُ وإنَّما يُعلِّمُه بَشَرٌ فهو مُلحِدٌ، ومَن حَرَّفَها وغَيَّرَ مَعناها أو غَيَّرَ لَفظَها فهو مُلحِدٌ؛ لأنَّ التَّحريفَ يَكونُ لفظًا ويَكونُ مَعنًى، والثَّالثُ مَن خَالفَها فهو مُلحِدٌ، فمَن عصا اللهِ فهو مُلحِدٌ لكنَّه ليس الإلحادُ الَّذي نَفهَمُه وهو الخُروجُ مِنَ الدِّينِ، بل هو مُلحِدٌ إلحادًا بقَدْرِ ما فَعَلَ مِنَ المَعصيَةِ والمُخالَفَةِ، دَليلُ ذلك قَولُه تَعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ

عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥] هذا سَمعيٌّ، والدَّليلُ العَقليُّ: أنَّنا قُلنا الإلحادُ في اللُّغةِ هو المَيلُ، والعاصي المُخالفُ للأوامِرِ مائلٌ بلا شَكٍّ.

هَؤلاءِ الَّذين يُلحِدون في هذا أو في هذا، يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ هذه صِفَةُ نَفيٍ ﴿لَا يَخْفَوْنَ﴾ نَفَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يَخفى عليه هَؤلاءِ؛ لِكمالِ عِلمِه.

واعلمْ أنَّه لا يُمكنُ أن يوجَدُ في صِفاتِ اللهِ نَفيٌ مَحضٌ، بل كُلُّ ما نَفى اللهُ عن نَفسِه فهو مُتَضَمِّنٌ للكَمالِ والإثباتِ، وهذه ضَعْها قاعدَةً عِندَك لا تُفرِّطُ بها: لا يوجَدُ في صِفاتِ اللهِ نَفيٌ محضٌ، بل كُلُّ ما نَفى اللهُ عن نَفسِه فإنَّه مُتضَمِّنٌ لكَمالٍ، فمثلًا ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ لماذا؟ لكَمالِ عِلمِه؛ لأنَّ اللهَ تَعالى كامِلُ العِلمِ مُحيطٌ بكُلِّ شيءٍ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

إذن ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ أي: لا تَخفى عَلينا حالُهم ولا أعيانُهم لكَمالِ عِلمِه، والمُرادُ بهذه الجُملَةِ التَّهديدُ، كما تَقولُ لابنِك: يا بُنيَّ اذهبْ لما شِئتَ فإنَّه لا يَخفى عَلَيَّ فِعلُك. فالمُرادُ بها التَّهديدُ وهي في غايَةِ التَّهديدِ؛ لأنَّه إذا قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فسوف تَرتَعِدُ الفَرائصُ من هذا الوعيدِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِي آيَاتِنَا﴾ القُرآنِ بالتَّكذيبِ ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فنُجازيهم].

في تَفسيرِ المفسِّر قُصورٌ:

أوَّلًا: أنَّه جَعلَ الآياتِ هُنا الآياتِ الشَّرعيَّةَ وهذا غَلطٌ، فالآياتُ أعمُّ.

ثانيًا: أنَّه لم يَجعلِ الإلحادَ في الآياتِ الشَّرعيَّةِ إلَّا بنَوعٍ واحدٍ منَ الإلحادِ وهو التَّكذيبُ، وقد قُلنا: إنَّ الإلحادَ فيها يَكونُ بواحدٍ من ثَلاثةِ أُمورٍ؛ إمَّا التَّكذيبُ

أو التَّحريفُ أو المُخالفةُ.

ولم نَتكلَّمْ على الإلحادِ في الأسماءِ؛ لأنَّه ليس في الآيَةِ، لكن إتمامًا للفائدَةِ نَقولُ: الإلحادُ يَكونُ في أسماءِ اللهِ، وهو المَيلُ بها عمَّا يَجبُ؛ وذلك أوَّلًا أن يُسمِّيَ اللهَ تَعالى بما لم يُسَمِّ به نَفسَه كتَسمِيَةِ الفَلاسِفَةِ له: عِلَّةٌ فاعلَةٌ. يَقولون: إنَّ اللهَ هو العِلَّةُ الفاعِلَةُ لهذا الكَونِ، وتَسميَةُ النَّصارى إيَّاه أبًا يُسمُّونَه الأبَ والابنَ والرُّوحَ القُدُسَ.

الثَّاني: أن يُنكِرَ شَيئًا منَ الأسماءِ، أو مِمَّا دَلَّت عليه وهذا عَكسُ الأوَّلِ، الأوَّلُ سَمَّى اللهُ بما لم يُسَمِّ به نَفسَه، والثَّاني أنكَرَ ما سَمَّى اللهُ به نَفسَه إمَّا إنكارًا كُلِّيًّا وإمَّا إنكارًا جُزئيًّا، أو يُنكِرُ ما تَضمَّنَته الأسماءُ مِنَ المَعاني والصِّفاتِ، فيُنكِرُ الأسماءَ أو بَعضَها أو ما دَلَّت عليه مِنَ المَعاني والصِّفاتِ، فمثلًا الَّذين يَقولون: إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس لَه أسماءٌ ولا صِفاتٌ كغُلاةِ المُعتزلَةِ والجَهميَّةِ، هؤلاءِ مُلحِدونَ، والَّذين يَقولونَ له أسماءٌ لكن ليس لها مَعانٍ هَؤلاءِ أيضًا مُلحِدون كما هو المَشهورُ مِن مَذهَبِ المُعتزِلَةِ، والَّذين يُنكِرون بَعضَ الصِّفاتِ كالأشاعِرَةِ هم أيضًا مُلحِدونَ فيَقولون مَثلًا: إنَّ اللهَ لا يَثبُتُ له مِنَ الصِّفاتِ إلَّا سَبعُ صِفاتٍ، زَعَموا أنَّ العَقلَ دَلَّ عليها وأنَّ البَاقيَ لا يَدُلُّ عليه العَقلُ، وقد تَكلَّمنا على هذا كثيرًا ولا حاجَةَ لإعادتِهِ.

الثَّالثُ: أن يُشتَقَّ من أسمائِه أسماءٌ للأصنامِ، ومنه اشتِقاقُ اللَّاتِ مِنَ الإلَهِ والعُزَّى مِنَ العَزيزِ ومَناةَ من المَنَّانِ، هذا أيضًا مِن الإلحادِ في أسماءِ اللهِ.

كُلُّ الإلحادِ هذا وغَيرُه في أسماءِ اللهِ قد تَوعَّدَ اللهُ مَن سَلَكَه في قَولِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ استِفهامٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ والجَوابُ لا شكَّ أنَّه الثَّاني.

وفي قَولِه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ﴾ هذا نَتيجَةُ قَولِه: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ إذن فالمَعنَى لا يَخفَونَ علينا وسنُلقيهم في النَّارِ، يَعني: هذه هي النَّتيجَةُ، وأخبِروني: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ والجَوابُ أنَّ النَّاسَ بصَوتٍ واحدٍ سيَقولونَ مَن يَأتي آمِنًا يومَ القيامَةِ هو الخَيرُ.

وقَولُه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ﴾ ﴿يُلْقَىٰ﴾ يُفيدُ هذا أنَّ أهلَ النَّارِ والعِياذُ باللهِ إذا وَردوها لا يَدخُلوها طائِعينَ ولا مُختارينَ، ولكنَّهم يُلْقَون إلقاءً كما يُلقى الحَجَرُ مِن على الجَبَلِ، قال اللهُ تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ [المُلك:٨]، وقال تَعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣]؛ لأنَّهم لا يُريدون أن يَذهَبوا، ولكن قد ثَبَتَ أنَّ النَّارَ تُمثَّلُ لهم كالسَّرابِ فيَأتونَ إليها سِراعًا، نَقولُ: لا مُنافاةَ هي تُمثَّلُ لهم كالسَّرابِ وهم يُريدون الشُّربَ فيَأتونَ إليها سِراعًا، فإذا وَصَلوا إليها وعَرَفوا أنَّها النَّارُ فهُم حينَئِذٍ يَقِفونَ ثُمَّ يُدَعُّون إلى نارِ جَهنَّمَ دعًّا -أعاذَنا اللهُ وإيَّاكم منها-، ثُمَّ يُلقَون فيها إلقاءً.

وقَولُه: ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهم المُؤمِنونَ الَّذين لا يُلحِدون في آياتِ اللهِ هَؤلاءِ يَأتونَ يومَ القيامَةِ آمِنين، قال اللهُ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام:٨٢] في الدُّنيا والآخِرَةِ.

﴿أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا﴾ إعرابُ ﴿ءَامِنًا﴾ حالٌ، والفاعِلُ مُستتِرٌ، التَّقديرُ: أمَّن يَأتي هو آمِنًا يومَ القِيامَةِ.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يَعني: به يَومَ البَعثِ والنُّشورِ وسُمِّيَ يَومَ القِيامَةِ لوُجوهٍ ثَلاثَةٍ:

الأوَّلُ: أنَّ النَّاسَ يَقومون فيه مِن قُبورِهم لرَبِّ العالَمينَ، كما قالَ تَعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطفِّفين:٦].

الثَّاني: أنَّه يُقامُ فيه العَدلُ كما قالَ تَعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧].

والثَّالثُ: أنَّه يُقامُ فيه الأشهادُ، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]، فلهذا سُمِّيَ يومَ القيامَةِ.

قال اللهُ تَعالى: ﴿أَمْ مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ يَعني بَعدَ هذا الإنذارِ والتَّهديدِ والوَعيدِ: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ وهذه الجُملَةُ أيضًا تُفيدُ التَّهديدَ بِلا شَكٍّ، يَعني: اعمَلوا ما شِئتم مِنَ الخَيرِ أو مِنَ الشَّرِّ، ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

إذن ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ ليست إِباحةً أنَّ الإنسانَ يَعملُ ما شاءَ كما يَدَّعي هَؤلاءِ أنَّ الحُرِّيَّةَ أن تَعمَلَ ما شِئتَ، عندَ هؤلاءِ الكُفَّارِ أنَّ الإنسانَ حُرٌّ في دينِه، يَدينُ بما شاءَ، حُرٌّ في أخلاقِه، يَتَخَلَّقُ بما شاءَ، حُرٌّ بأعمالِه يَعمَلُ ما شاءَ، هكذا عِندَهم، ونحن نَقولُ: لا، الحُرِّيَّةُ المُطلَقَةُ هي الرِّقُّ المُطلَقُ؛ لأنَّك إذا تَحَرَّرت من قُيودِ الشَّرعِ تَقَيَّدت بقُيودِ الشَّرِّ، ولهذا يَقولُ ابنُ القَيِّمِ في النُّونيَّةِ[1]:

هَرَبوا مِنَ الرِّقِّ الَّذي خُلِقوا لـه ... وبُلـوا بِـرِقِّ الـنَّفسِ والشَّـيطانِ

الرِّقُّ الَّذي خُلِقنا له هو عِبادَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ وقوله: «وبُلوا» يَعني: ابتُلوا.

فصاروا عَبيدًا لأنفُسِـهم والشَّياطيـنَ. فَرُّوا من رِقِّهم للهِ إلى رِقِّهم للهَـوى والشَّيطانِ.

فنَقولُ: إنَّ قَولَه: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ ليس إطلاقًا بمَعنى ليس إِباحَةً، ولكنَّه تَهديدٌ، وهو أُسلوبٌ عَربيٌّ مُبينٌ منذُ نَزَلَ القُرآنُ وإلى يَومِنا هذا، ولهذا أَكَّدَه بقَولِه:

---

(١) النونية (ص:٣٠٨).

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَهديدٌ لهم].

قَولُه: ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضَّميرُ يَعودُ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقَولُه: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: عَليمٌ، وقُدِّمَ على عامِلِه لسَببيـنِ: أحدُهما لَفظِيٌّ، والثَّاني مَعنَويٌّ.

أمَّا اللَّفظيُّ: فهو لتَناسُبِ رُؤوسِ الآياتِ، والقُرآنُ الكريمُ نَزلَ بلِسانٍ عَربيٍّ، يُراعي التَّناسُبَ اللَّفظيَّ والمَعنويَّ.

والفائدَةُ الثَّانيةُ: أنَّه أَشَدُّ تَهـديدًا مِمَّا إذا جاءَ مُتأخِّـرًا عن عامِلِه كأنَّه يَقولُ: لو لم يَكُنْ عالِمًا بأيِّ شَيءٍ لكانَ عالمًا بأعمالِكم. فهُنا الحَصرُ لِبيانِ التَّهديدِ لهَؤلاءِ كأنَّه يَقولُ: لو خَفِيَ عليه كُلُّ شيءٍ لم يَخفَ عليه أَعمالُكم.

من فوائدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَحـريمُ الإلحادِ في آياتِ اللهِ، وَجـهُ ذلك أنَّ اللهَ تَعالى هَـدَّد المُلحِدينَ في آياتِ اللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ الآياتِ والتَّقسيمُ من عِندنا مَبنِيٌّ على التَّتبُّعِ والاستِقراءِ، يَعني: إثباتُ أنَّ اللهَ تَعالى له آياتٌ كونِيَّةٌ وشَرعيَّةٌ، والآياتُ ليس فيها ذلك لكن بالتَّتبُّعِ والاستِقراءِ عَلِمنا أنَّ آياتِ اللهِ تَنقَسِمُ إلى قِسمينِ شَرعِيَّةٍ وكَونيَّةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَهديدُ المُلحِدينَ بأنَّ اللهَ مُطَّلعٌ عليهم لا يَخـفى عليهِ شَيءٌ مِن أحوالِهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: سِعةُ عِلمِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأنَّه لا يَخفى عليهِ شَيءٌ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الإلحادَ سببٌ لدُخولِ النَّارِ؛ لقَولِه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ يَعني: مِثلَ المُلحِدينَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ أهلَ النَّارِ والعِياذُ باللهِ يُلْقَونَ فيها إلقاءً ويُدَعُّون إليها دَعًّا إهانَةً لهم وذُلًّا وإذلالًا؛ لقَولِه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: جَوازُ المُفاضَلَةِ بينَ شَيئينِ بَينَهما مِنَ التَّباينِ أكثرُ مِمَّا بَينَ السَّماءِ والأرضِ إفحامًا للخَصْمِ.

والدَّليلُ: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كُلٌّ يَعلَمُ أنَّ الثَّاني خَيرٌ وأنَّه لا حاجَةَ للاستِفهامِ لكن من أَجْلِ إفحامِ الخَصمِ وإقامَةِ الحُجَّةِ عليه، ونَظيرُ ذلك قَولُه تَعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩] كُلٌّ يَعرِفُ أنَّ اللهَ خَيرٌ لكنَّ هذا من بابِ إفحامِ الخَصمِ، ومنه قولُه تَعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠] كُلٌّ يَعلَمُ أنَّ الأعْلَمَ هو اللهُ لكنَّ هذا أيضًا من بابِ إفحامِ الخَصمِ، وهذه فائدَةٌ يُنتبَهُ لها: أنَّ المُفاضَلَةَ بَينَ شَيئينِ التَّفاوُتُ بينَهما ظاهِرٌ لا يُرادُ به المُقارَنَةُ، ولكنْ يُرادُ به إفحامُ الخَصمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ مَنِ استَقامَ في آياتِ اللهِ ولم يُلحِدْ فيها فإنَّه يَأتي يَومَ القِيامَةِ آمنًا؛ لقَولِه: ﴿أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في مُقابلِ المُلحِدينَ الَّذين يُلْقَون في النَّارِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: عَظمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وقُوَّةُ سُلطانِه؛ لقَولِه: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ فإنَّ مِثلَ هذا التَّهديدِ لا يَكونُ إلَّا من كاملِ السُّلطانِ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثباتُ يَومِ القيامَةِ؛ لقَولِه: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: ومنها أيضًا أنَّ النَّاسَ في يَومِ القِيامَةِ بينَ آمِنٍ وخائِفٍ؛ لقَولِه: ﴿أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إِثباتُ المَشيئَةِ للعَبْدِ؛ لقَولِه: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ فيكونُ في ذلك رَدٌّ على الجَبرِيَّةِ.

فالجَبرِيَّةُ يَقولونَ: الإنسانُ مُجبَرٌ على العملِ، وليس له أيُّ إرادَةٍ فيما يَفعَلُ، عَجبًا لهم يُصلِّي بِلا إرادَةٍ، ويَتوضَّأُ بِلا إرادَةٍ، ويَمشي بِلا إرادَةٍ، ويَقعُدُ بِلا إرادَةٍ، ويُؤمنُ بِلا إرادَةٍ، ويَكفُرُ بلا إرادَةٍ، سُبحانَ اللهِ- مُجبَرٌ قال: نَعَمْ، مُجبَرٌ، فالحَركةُ هذه طَبيعيَّةٌ فيه كالإحراقِ في النَّارِ، هل النَّارُ تَحرِقُ باختِيارِها؟ لا، لكن أُودعَ فيها الإحراق، هم يَقولونَ: هذه الأفعالُ والحَركاتُ مِنَ الإنسانِ لا إرادِيَّةَ، لكنَّه جُبِلَ عليها.

ويَقولونَ: إنَّ حركَتَه الإرادِيَّةَ كحَركتِه الاضطراريَّةِ فنُزولُ الإنسانِ في الدَّرجِ مِنَ العُليا إلى السُّفلى وصُعودُه مِنَ السُّفلى إلى العُليا، كمَن دَحرَجَ دَحرجَةً على الدَّرجِ، والمُدحرِجُ ليس له اختِيارٌ، هم يَقولون هكذا، الَّذي يَنزِل باختِيارِه لا فَرقَ.

فقيل لهُم: إذا كان كذلك، فإنَّ مِن أظلَمِ الظُّلمِ أن يُعذِّبَ اللهُ الظَّالمَ؛ لأنَّ الظَّالمَ يَقولُ: أنا مُجبَرٌ ولا لي قُدرَةٌ ولا لي اختيارٌ قالوا: لا يُمكنُ، الظُّلمُ في حقِّ اللهِ مُستحيلٌ لذاتِه، لا لأنَّ اللهَ لا يُريدُه لكنَّه مُستحيلٌ لذاتِه لماذا؟ قالوا: لأنَّه تَصرُّفُ الخالِقِ في مُلكِه والمُتَصَرِّفُ في مُلكِه ليس بظالِمٍ، ولهذا قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنهم[1]:

والظُّلمُ عندهم المُحالُ لذاتِـه .....

ونحنُ نَقولُ: أخطَأتُم؛ لأنَّ اللهَ تَعالى شَرَعَ شَرائِعَ وأوعَدَ مَن خالفَها ووَعَدَ مَن وافَقَها وأعطى الإنسانَ حُرِّيَّةً، والظُّلمُ مُمكِنٌ في حَقِّ اللهِ لكنَّه مُستحيلٌ عليه إرادَةً، بمعنى أنَّه لا يُريدُ الظُّلمَ ولو شاءَ لظَلَمَ لكنَّه لا يُريدُه وليس وَصْفَه إطلاقًا،

(١) النونية (ص:٨).

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فُصِّلَت:٤٦] وقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩]، وقال تَعالى في نَفيِ إرادَةِ الظُّلم ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ [غافر:٣١] وكيف يَتَمَدَّحُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بأمرٍ مُستحيلٍ هذا غَيرُ مُمكِنٍ، لو لا أنَّ الظُّلمَ مُمكِنٌ ما كان وَصْفُ اللهِ به كمالًا فهو مُمكِنٌ، مُمكِنٌ أن يُعذِّبَ الإنسانَ الَّذي أمضى لَيلَه ونَهارَه في طاعَةِ اللهِ مُمكِنٌ عقلًا، لكنَّ اللهَ تَعالى لا يُريدُ هذا، لذلك بَطَلَ قَولُهم بأنَّ الظُّلمَ مُحالٌ في حقِّ الخالِقِ؛ لأنَّه يَتصرَّفُ في مُلكِه.

وعلى كُلِّ حالٍ: في الآيَةِ هذه ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ دَليلٌ على إثباتِ المَشيئَةِ للعَبدِ وهو يَرُدُّ ردًّا واضحًا على الجَبرِيَّةِ، العَجبُ أنَّه قامَ أُناسٌ ضِدَّ الجَبريَّةِ فدَاوَوا البِدعَةَ ببِدعَةٍ، قالوا: الإنسانُ له مَشيئةٌ وإرادةٌ واختِيارٌ لكنَّه مُنفَصِلٌ عن إرادَةِ اللهِ ومَشيئَتِه مُستَقِلٌّ بالعَمَل ما للهِ إرادةٌ فيه إطلاقًا كيف؟ قال: نعم أنت الآنَ تَذهَبُ وتَجيءُ باختِيارِك لا تَشعُرُ أنَّ أحدًا يُجبِرُك أو يُكرِهُك فإذن لا عَلاقَةَ للهِ بفِعلِك، فأنت تَفعَلُ مُختارًا مُستقِلًّا عن إرادَةِ الخالِقِ، والأقرَبُ إلى المَعقولِ هم القَدريَّةُ؛ لأنَّ كُلَّ إنسانٍ يَعرِفُ أنَّه يَفعَلُ الشَّيءَ باختِيارِه، وأنَّه يُحمَدُ على فِعلِه للخَيرِ، ويُذمُّ على فِعلِه للشَّرِّ، ولو كان بِغيرِ اختِيارٍ ما استحَقَّ أن يُحمَدَ على الخيرِ ولا أن يُذَمَّ على الشَّرِّ، كُلٌّ يَعلمُ ذلك ولهذا يُسمَّونَ العَقلانِيِّينَ؛ لأنَّهم يُحكِّمون العَقلَ حتَّى في مِثلِ هذا الأمرِ.

إذن؛ نَقولُ: قوبِلَت بِدعَةُ الجَبريَّةِ ببِدعةِ القَدريَّةِ الَّذين أثبَتوا للإنسانِ إرادَةً استقلالًا؛ ولهذا يُسمَّونَ مَجوسَ هذه الأُمَّةِ؛ لأنَّ المَجوسَ يَقولون: الحَوادثُ لها خالِقانِ: الظُّلمَةُ والنُّورُ. كُلُّ ما في الدُّنيا مِن شَرٍّ فخالِقُه الظُّلمَةُ وكُلُّ ما فيها مِن خيرٍ فخالِقُه النُّورُ؛ لأنَّ الأشياءَ في الدُّنيا كُلِّها إمَّا خَيرٌ وإمَّا شَرٌّ.

فيَجبُ أن يَكونَ هناك إلهانِ إلهُ الخيرِ وإلهُ الشَّرِّ، والمُناسِبُ للخَيرِ النُّورُ؛ لأنَّ

فيه سِعةَ الصَّدرِ والانشِراحِ، والأنسَبُ للشَّرِّ الظُّلمَةُ، قالوا: إذن جَميعُ ما يَحصُلُ في الكَونِ له خالِقانِ ظُلمَةٌ ونورٌ، الظُّلمةُ تَخلُقُ الشَّرَّ والنُّورُ يَخلُقُ الخيرَ، وفي هذا يَقولُ المُتنبِّي في مَمدوحِه[1]:

وكم لظَلامِ اللَّيلِ عِندَك مِن يدٍ تُحدِّثُ أنَّ المانَويَّةَ تَكذِبُ

(كم) للتَّكثيرِ (كم لِظَلامِ اللَّيلِ عِندَك من يدٍ) أي: مِن نِعمَةٍ، (تُحدِّثُ أنَّ المانَويَّةَ) وهم فِرقَةٌ مِنَ المَجوسِ (تَكذِبُ)؛ لأنَّ المانويَّةَ تَقولُ: الظُّلمَةُ تَخلُقُ الشَّرَّ والنَّعم خيرٌ، فيَقولُ لَممدوحِه: أنت تَجودُ ليلًا ونهارًا ممَّا يُكَذِّبُ المانويَّةَ الَّذين يَقولونَ: إنَّ الظُّلمةَ تَخلُقُ الشَّرَّ.

ونحن نَقولُ: إنَّ الجبريَّةَ قوبِلت بِدعتُهم ببِدعةٍ؛ واعلمْ أنَّ البدعةَ لا يُمكنُ أن تُقَاوَمَ ببدعة؛ لأنَّك إذا ابْتَدَعتَ ادَّعَوا عَليك، ومِنْ ذلك ما يَفعلُه بعضُ النَّاس في يومِ عاشوراءَ، فَيومُ عاشوراءَ عند الرَّافضةِ يومُ حزنٍ وبَلاءٍ فجاءَ أُناسٌ مِن أهلِ السُّنَّةِ قالوا: إذنْ نَجعلَه يومَ فَرحٍ وسُرورٍ، وأنَّه يَنبغي أنْ نَتزيَّنَ ونَتجمَّلَ ونُوسِّعَ على العِيال، ضدَّ الحُزنِ، لكن هل هَذا صَحِيحٌ؟ لا؛ لأنَّا إذا فَعَلْنا هَذا قالتِ الرَّافضةُ: ما دَلِيلُكُمْ على هَذا؟ فلا يُمكِنُ أن تُقابَلَ البِدعةُ بالبدعَةِ أبدًا، لا تُقابَلُ إلَّا بالسُّنَّةِ.

مسألة: وَجدنَا ما يُسَمَّى الآنَ بالتَّمثيلِ السَّاقطِ، فَالبعضُ دعا إلى التَّمثيلِ الهادفِ، هل هَذا مُقابَلةُ بِدْعةٍ بِبدعةٍ؟

فالجوابُ: هذا التَّمثيلُ ليس هو بِدعةٌ في حَدِّ ذاتِها، التَّمثيلُ تَقريبُ المَعاني بصورتِهَا الفِعليَّةِ، وقد وَرَدَ التَّمثيلُ في الحديثِ الصَّحيحِ في قصَّةِ المَلَكِ الَّذي جاءَ

(١) البيت للمتنبي، انظر: ديوانه (ص:٤٦٦).

إلى الأَقرعِ والأَبرصِ والأعمى بِصورَتِه الَّتي عليها[1] وقالَ: إِنَّهُ مسكينٌ وابنُ سبيلٍ، ولا أَبرصَ ولا أَقرعَ ولا أَعمَى، لكنَّ هذا للتَّقريبِ، إِنَّما المُبالغةُ في التَّمثيلِ بحيثُ لا نَدْعو النَّاسَ إِلَّا بِه، هَذَا هو الخطأُ.

فنَقولُ: الدَّعـوةُ إِلَى اللهِ تَعالى لَها وَسـائلُ، كُلُّ ما يَكونُ فيه تَصـويرُ الواقعِ والتَّحذيرُ منه بِدونِ أن يَشتملَ على كَذِبٍ أو مُحاكاةِ البَهائمِ أو مُحاكاةِ الرَّجُلِ المَرأَةَ أو بالعكسِ، فَلا مانِعَ، فنَحنُ لا نُنكِرُ التَّمثيلَ مُطلقًا ولا نُحَبِّذُه، ونُنكِرُ أن يَكونَ هوَ الوَسيلةَ إلى الدَّعوةِ إلى اللهِ؛ لِأَنَّكَ إذا عَـوَّدتَ النَّاسَ على أَنَّك لا تَدعُوهم إلى اللهِ إِلَّا بِهَذه الوَسيلَةِ نَسوا الأَهَمَّ وهو مَوعِظةُ القُرآنِ والسُّنَّةِ.

نحنُ نُقابلُ الجَبريَّةَ الَّذينَ يُنكِـرونَ مَشيئَةَ العبدِ بِدَلالةِ الكِتابِ والسُّنَّةِ أنَّ لِلإنسانِ مَشيئَةً، ونُقابلُ القَدَريَّةَ بأنَّ اللهَ تَعالَى له مُلكُ السَّمواتِ والأَرضِ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠].

إذن أَنا إذا شِئتُ شَيئًا وفَعَلتُهُ أَقولُ: إنَّ اللهَ شَاءَ ذلكَ قَبْلَ أن أَشاءَه، لا يُمكِنُ أن أَشاءَ شَيئًا وأَفعلَه دونَ أنْ يَكونَ اللهُ شَاءَه أبدًا.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَنتَ إِذَا قُلتَ هَذَا، وأَنَّ مَشيئَتَك بَعْدَ مَشيئَةِ اللهِ وتَابعَةٌ لِمَشيئَةِ اللهِ لَزِمَ على ذَلكَ أن يَحْتَجَّ العَاصِي عَلينَا بِقَدَرِ اللهِ ومَشيئَتِه. العاصي يَشاءُ المَعصيَةَ ويَفعَلُ المَعصيةَ. قُلنَا له: لِماذَا؟ قَالَ: لأنَّ اللهَ شَاءَ ذلك، أَنتم تَقُولُونَ: إِنَّه ما مِنْ مَشيئَةٍ لِلعبدِ إِلَّا وَهي مَسبُوقَةٌ بمَشيئَةِ اللهِ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، أَنا ماذا أَفعلُ! شَاءَ اللهُ أن أَفْعلَ فَفَعلتُ، كيف تَلومونَني على أَمرٍ كَتبَه اللهُ عَلَيَّ وشَاءَهُ عَلَيَّ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، رقم (٣٤٦٤)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نَقولُ قَبْلَ كُلِّ شَيءٍ: مَن أَعْلَمَكَ أنَّ اللهَ شَاءَ ذلكَ؟ هل أَحدٌ يَعْلمُ أنَّ اللهَ شَاءَ الشَّيءَ إلَّا بَعدَ وقوعِهِ؟ لا يَعلَمُ ذلك أَحَدٌ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان:٣٤]. أَنا مَثلًا عِندمَا أَقومُ وأُصلِّي، أَعْلمُ أَنَّني عِندَما شِئتُ الصَّلاةَ وفَعَلتُ فَقدْ شاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنْ قَبْلِي، لكن قَبْلَ أن أُصَلِّيَ هل أَعْلمُ أنَّ اللهَ شَاءَ أَنْ أُصَلِّيَ أم لا؟ الجَوابُ: لَا، فالعاصي حينَ يَفعلُ المَعْصيةَ هل يَعلَمُ أنَّ اللهَ شاءَ له أَنْ يَفْعلَ المَعصيةَ قَبْلَ أن يَفعلَها؟ لَا، إذن لَا حُجَّةَ له، وما أَحْسَنَ مَا قال بَعضُ العُلماءِ: «إنَّ القَدَرَ سِرٌّ مَكتومٌ لا يُعلَمُ إلَّا بَعْدَ وقوعِ المَقدورِ» وهوَ كذلِكَ، هذا جَوابٌ مُفحِمٌ، لا يُمكِنُ أن يَتخطَّاه المُجرِمُ قِيدَ أُنمُلَةٍ.

ثم نَقولُ له: أَلَستَ الآنَ إذا كان أَمَامكَ نارٌ مُحرِقَةٌ أو أَوديةٌ مُغرِقةٌ، أَلَستَ تُحجِمُ عنها ولا تُقدِمُ عليها؟ فإن قيلَ: بَلَى، قُلْنَا: فلماذا لا تُقدِمُ وتُلْقي نَفسَكَ بالنَّارِ وتَقولُ: هَذِه مَشيئَةُ اللهِ؟ لا يُمكِنُ أن يُقْدِمَ لا على أَوْديةٍ مُغرِقةٍ ولَا على نَارٍ مُحرِقةٍ، ويَدَّعي أنَّ ذلك مَشيئَةُ اللهِ، فلِماذا لم تَتجنَّبِ المعاصيَ الَّتي عَلِمتَ بِوَعدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أو وَعيدِه أَنَّها سببٌ لِدُخولِ النَّارِ؟ هذا نُخاطبُه عندَما نُريدُ منه أن يَجتنِبَ المَعاصيَ.

وأمَّا عندما نُريدُ مِنْه أَنْ يَفعلَ الطَّاعاتِ نَقولُ: نَزَلَ في الصُّحُفِ مُسابقةٌ على وَظيفتَينِ؛ إحداهُمَا عَشَرةُ آلَافِ رِيالٍ في الشَّهرِ، والثَّانيَةُ عَشَرَةُ رِيالاتٍ في الشَّهْرِ إلى أَينَ يَذْهبُ؟ هل يَذْهبُ إلَى عَشَرَةٍ ويَقولُ هذا تَقديرُ اللهِ؟ أَلَستَ تَذهبُ لِلْعَشَرةِ آلَافٍ تُريدُ هَذَا الرَّاتبَ الجيِّدَ؟

فإنَّ العملَ الصَّالِحَ عُرِضَ عَليكَ بأنَّ جَزاءَ الحَسنةِ بِعَشَرةِ أمثالِها إلى سَبع مئةِ ضِعْفٍ، لِماذا لا تُقدِمُ عليها كَما كُنتَ تُقدِمُ على ما تَراه حظًّا لَك في الدُّنيَا، فَلماذا لَا تُقدِمُ على ما تَراه حظًّا لَكَ في عَملِ الآخرَةِ؟ وبهذا تَنقطعُ حُجَّةُ الظَّالِمِ سَواءٌ ظَلَمَ

بفعلِ المُحرَّماتِ، أو بتَرْكِ الواجباتِ.

وقد تَعرَّضْنا لِهَذا وإنْ كان لَيسَ من خَصائصِ عِلْمِ التَّفْسيرِ؛ لِأنَّ هذا مِنْ عِلْمِ العَقيدةِ، المُهِمُّ رُبَّما يُشَوِّشُ على الإنسانِ مِثْلُ هذهِ الإِراداتِ مِنَ الجَبريَّةِ أو مِنَ القَدَريَّةِ، فنَقولُ بِما تقدَّم، والأمرُ والحمدُ للهِ واضحٌ حتَّى إنَّ الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَلَّ هذه المُشكلةَ بكَلِمتَينِ فقط، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو على شَفيرِ قَبْرٍ لِإحدَى بَناتِه قال: «**ما مِنكُم مِن أَحدٍ إلَّا وقد كُتِبَ مَقعدُهُ مِنَ الجَنَّةِ ومَقعدُهُ مِنَ النَّارِ، قَالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلا نَدَعُ العَمَلَ ونَتَّكِلُ على الكِتَابِ؟**»، هذا اعتِراضٌ لكنَّه اعتراضٌ في بادِئِ الأَمْرِ كما قَالَ تَعالَى: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ ما دامَ الشَّيءُ مَكتوبًا فَلا حاجَةَ لِلعَمَلِ، هذا مَكْتوبٌ لهُ السَّعادةُ فلْيَنَمْ؛ لأنَّه من أَهْلِ السَّعادةِ، وهذا مِنْ أَهْلِ الشَّقاوَةِ فَلا يَعْملُ؛ لأنَّه مِن أَهْلِ الشَّقاوَةِ، فَلا حاجَةَ أنْ يَعمَلَ!؟ فقال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَلِمَتَينِ: «**اعْمَلوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لَهُ**»(١). سُبْحانَ اللهِ لم يَأْتِ بِفَلسفةٍ وتَطويلٍ بل كَلِمتَينِ: «**اعمَلوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له**»، هذا الَّذي مِنْ قِبَلِنا -أنْ نَعمَلَ- ثُمَّ كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له.

فإذا وَجَدتَ مِن نَفْسِكَ أنَّ اللهَ يَسَّرَ لكَ الخَيرَ والهُدَى والنَّشاطَ على العِبادةِ، فاعْلَمْ أنَّكَ مِمَّن كُتِبَ من أَهلِ السَّعادةِ لِقَولِ النَّبيِّ ﷺ: «**أَمَّا أهلُ السَّعادةِ فيُيَسَّرونَ لِعَمَلِ أهلِ السَّعَادةِ، وأمَّا أهلُ الشَّقاوَةِ فيُيَسَّرونَ لِعَمَلِ أَهلِ الشَّقاوَةِ**».

فَالأَمرُ -والحَمدُ لله- واضِحٌ جِدًّا أنَّه لا حُجَّةَ للعاصي بالقَدَرِ على مَعصيتِه ولَا لِلمُتَهاونِ بِالواجِبِ بالقَدَرِ على تَهاوُنِه، فالأمرُ أَوضَحُ مِن أن يَحتاجَ إلى كَثيرِ كَلامٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾، رقم (٤٩٤٩)، وأخرجه مسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٧)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَقِيَ عَلينا أن يُقالَ: أَلَيسَ آدَمُ قَدِ احتَجَّ بالقَدَرِ؟ أَوَلَيسَ اللهُ تَعالَى قد احتجَّ بالقَدَرِ فقال لرسولِه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ فما هو الجَوابُ؟ الجَوابُ أن يُقالَ: أمَّا قولُه تَعالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الأنعام:١٠٧]، فهَذا تَسليةٌ للرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، حيثُ قال اللهُ له: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾، فشِرْكُهمْ بمَشيئَةِ اللهِ، ومَعلُومٌ أنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سوف يَرْضَى بقَضاءِ اللهِ، ولِهَذا يَجِبُ عَلينا أن نَنظُرَ إلى أهلِ المَعاصي بنَظرينِ؛ نَظرٍ قَدَريٍّ ونَظرٍ شَرعيٍّ.

النَّظرُ القَدَريُّ أنْ نَرضى بِما وَقَعَ مِن مَعاصيهم؛ لأنَّه بتَقديرِ اللهِ، والنَّظرُ الشَّرعيُّ أن نُلْزِمَهم بِشَرعِ اللهِ، فنُقيمُ عليهمُ الحُدودَ والتَّعْزيراتِ، وغَيرَ ذلك مِمَّا يَحمِلُهُم على فِعلِ الطَّاعاتِ وتَرْكِ المُحرَّماتِ، فانْتبِهوا يا إِخوانُ، هذه المسائِلُ مُهمَّةٌ جدًّا.

إذن نَقولُ: إنَّ قولَهُ تَعالَى للرَّسولِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾، الغَرضُ منه تَسليةُ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأنَّه إذا عَلِمَ أنَّ ذلك بمَشيئةِ اللهِ رَضِيَ، ولكنَّ اللهَ تَعالَى أَبطلَ هذه الدَّعوَى منهم بقولِه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] بعُقوبَةِ اللهِ، أَبطلَ اللهُ هذه الحُجَّةَ؛ لأنَّهم أَرادوا بذلك إِبطالَ الشَّرْعِ بالقَدَرِ، فبَيَّنَ اللهُ تَعالَى أنَّه عذَّبَهم.

وأمَّا آدمُ لَمَّا احتَجَّ عليه موسى وقالَ له: خَيَّبْتَنا أَخْرَجتَنا ونَفْسَكَ مِنَ الجنَّةِ -بمَعصيتِه بأَكْله مِنَ الشَّجرةِ- فقال له آدَمُ: أَتلومُني على شيءٍ كَتَبه اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أن يَخلُقَني بأربعينَ سَنَةً؟ قال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**فَحَجَّه آدَمُ**»[1]. وفي رِوايةٍ:

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٦٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

«فحَجَّ آدَمُ موسى»[١]، ومعنى حَجَّه؛ أي: غَلَبَه في الحُجَّةِ.

فإنْ قال قائِلٌ: في احتِجاجِ آدَمَ على موسى وأنَّهُ قال: «كَيف تَلومُني على شيءٍ قد كَتَبهُ اللهُ عَلَيَّ قَبلَ أن أُخْلَقَ بأربعينَ سَنَةً»، ألا يَدُلُّ على أنَّ آدَمَ خُلِقَ قَبْلَ خَلْقِ القَلَمِ بأربَعينَ سَنةً؟

فالجوابُ: لا، هو يَقولُ: كُتِبَ عليه قَبلَ أن يُخْلَقَ، أي مَكتوبٌ قَبلَ خَلْقِ آدَمَ، فآدَمُ خُلِقَ بَعدَ أن كُتِبَ عليه بأربَعينَ سَنَةً، لكن كيف نَجْمعُ بَينَ قولِه بأربَعينَ سَنةً، وبَينَ أنَّ اللهَ تَعالَى خَلَقَ القَلَمَ، وقال له: اكْتُبْ، قَبلَ أن يَخلُقَ السَّمَواتِ بخَمسينَ أَلْفَ سَنَةٍ، يُقالُ: إذا صَحَّتِ الكَلمةُ هَذهِ وكانت مَحفوظةً، فإنَّ هذه كتابَةٌ أُخْرَى خَاصَّةٌ بآدَمَ.

فاحتجَّ آدَمُ بالقَدَرِ الَّذي كُتِبَ عليه قَبْل أن يُخْلَقَ وخَصَمَ موسى. هَذا الحَديثُ يَحتجُّ به أَهلُ المَعاصي على مَعاصيهم ويَقولونَ: إنَّ آدَمَ احْتجَّ بالقَدَرِ على موسى وحَكَمَ النَّبيُّ -صَلواتُ اللهِ وسَلامهُ عَليهِ- لآدَمَ وقال: إنَّهُ حَجَّه، فنحنُ نحتَجُّ بالقَدَر كما احْتجَّ أَبونا، نُجيبُ عَن هَذَا بجَوابَينِ:

الجوابُ الأوَّلُ مِن شيخِ الإسلامِ ابنِ تَيْميَّةَ[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إنَّ آدمَ لم يَحتجَّ بالقَدَرِ على المَعصيَةِ، وإنَّما احْتجَّ بالقَدَرِ على الخُروجِ مِنَ الجنَّةِ، أَمَّا المَعصيَةُ فَقدِ اعْتذَرَ منها آدَمُ وقالَ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة:٣٧]، فآدمُ لا يُمكنُ أن يَحتجَّ بالقَدَرِ على المَعصيَةِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد، رقم (٣٤٠٩)، ومسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، رقم (٢٦٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٣٠٣).

لا يُمكنُ إطْلاقًا وهو أَجَلُّ قَدْرًا من أن يَحتجَّ بالقَدَرِ على مَعصيَةِ اللهِ، وإنَّما احْتجَّ بالقَدَرِ على إخراجِهِ منَ الجنَّةِ لا على سببِ الإخراجِ، والاحتجاجُ بالقَدَرِ على المَصائبِ أَمْرٌ جائِزٌ، وهو غايةُ التَّسليمِ لله عَزَّوَجَلَّ. أَرَأيتُم قولَ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**المُؤمنُ القَويُّ خَيرٌ وأَحَبُّ إلَى اللهِ مِنَ المُؤمنِ الضَّعيفِ، وفي كُلٍّ خيرٌ، احْرِصْ على ما يَنفعُكَ واسْتعِنْ باللهِ ولا تَعجَزْ، وإنْ أصابَكَ شيءٌ فلا تَقُلْ: لو أَنِّي فعلتُ لكانَ كَذا وكَذا، ولكنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَما شاءَ فَعَلَ**»(١). وهذا احْتِجاجٌ بالقَدَرِ لكنْ بعدَ فِعْلِ الأسبابِ، فالاحتِجاجُ بالقَدَرِ على المَصائبِ أَمْرٌ جائِزٌ، والإنسانُ عِندما يُصابُ بالمُصيبَةِ ويَقولُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]، فهَذا يَعني: التَّسليمَ للقَدَرِ.

إذنِ احْتِجاجُ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالقَدَرِ على المُصيبَةِ لا عَلَى المَعصيةِ، هذا وَجهٌ.

وجهٌ آخَرُ: ما كانَ لموسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يَلومَ أَباه على ذَنبٍ تابَ منه وحَصلَ له بَعدَه أَنِ اجْتَباه رَبُّه وهداه، أدنى وَاحدٍ منَ النَّاسِ إذا أُصيبَ بذَنبٍ ثُمَّ تابَ، فإنَّه لنْ يُوَجِّهَ اللَّومَ إليه، قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [طه:١٢١-١٢٢]، أَيِ: اصْطَفاه واختارَه ﴿وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢]، هذِهِ المَنزِلَةُ ما حَصَّلَها قَبْل أن تَحْصُلَ له المعصيَةُ.

إذن لا يُمْكِنُ لموسَى أن يَلومَ أَباه على ذَنبٍ تابَ مِنه وارْتَفَعَ بعد التَّوبةِ منه مَنزلةً عِندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، هذا لا يُمْكنُ أن يَكونَ لأدنَى وَاحدٍ فَضلًا عن رَجُلٍ مِن أُولِي العَزمِ مِنَ الرُّسلِ، هذا جَوابُ شيخِ الإسلامِ ابْنِ تَيميَّةَ وهُو جَوابٌ جيِّدٌ لَا شكَّ.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وذَهبَ ابنُ القَيِّمِ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى جَوابٍ آخَرَ وقالَ: «إنَّ الاحتِجاجَ بالقَدَرِ على المَعصيةِ بعدَ التَّوبَةِ منها والإقْلاعِ عنها مَقبولٌ، لا لرَفْعِ اللَّومِ واستِباحَةِ الاستِمرارِ»، فيقولُ: الاِحتجاجُ بالقَدَرِ نَوعانِ: نَوعٌ احْتجاجٌ بالقَدَرِ بَعدَ فَواتِ الأَوانِ مَع الإقْلاعِ عنِ المَعصيَةِ وحُسْنِ الحالِ فَهَذا جائِزٌ، واحْتِجاجٌ بالقَدَرِ لِدَفعِ اللَّومِ والاستِمرارِ في المَعصيَةِ، فهذا مَمنوعٌ. يَعني: إذا قَدَّرْنا أَنَّ احتجاجَ آدَمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالقَدَرِ على المَعصيَةِ الَّتي تابَ مِنها وهَداه اللهُ واجْتَباه يَكونُ جائِزًا على هذا التَّقديرِ؛ لِأنَّ آدَمَ ما احْتجَّ بذَلكَ لِيَستمِرَّ، احتجَّ بذلك لِأمرٍ قَد فاتَ.

ونَظيرُ هَذا فيما عِندَنا الآنَ لَوْ أنَّ إنسانًا زَنَى -وَالعياذُ بِاللهِ- وَهو رَجلُ خَيّر، لَكِنْ غَلَبَتْه شَهْوَتُه وزَنَى ثُمَّ تابَ، وقُلْنا لَهُ: يَا فُلانُ، كَيفَ يَقَعُ مِنك هذا الشَّيءُ؟ قَال: واللهِ هذا قَضاءٌ وقَدَرٌ، وإلَّا فَلَستُ من أَهلِ هَذا الأمرِ لكنَّ المُقَدَّرَ كائنٌ، نَقْبلُ مِنه، لَكنْ لَو كانَ يَزني ويَستمِرُّ نَقولُ: تُبْ إلى اللهِ، فَإنْ قالَ: هذا رَغْم عنه؟ قُلْنا: سُبحانَ اللهِ رغمًا عنك وأنت مُمارِسٌ لِهذا العَملِ، لَيسَ هذا رغمًا عنك.

يَقولُ ابْنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الاِحتجاجُ بالقَدَرِ بَعدَ وقوعِهِ تَسليمًا للقَدَرِ وَتَفويضًا لِأمْرِ اللهِ، لا اسْتِمرارًا ولَا دَفعًا لِلَّومِ» فهَذا جائِزٌ، ثُمَّ استدَلَّ بِقِصَّةٍ وَقَعَتْ مِن عَليِّ بنِ أَبي طالِبٍ وزَوْجِه فاطمَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا حينَ دَخَلَ عَليهما النَّبيُّ ﷺ فقال لَهُما: «**أَلا تُصلِّيانِ؟**» قال عَليٌّ: يا رَسولَ اللهِ، أنفُسُنا بِيَدِ اللهِ لَو شَاءَ لَأَقامنا، احْتجَّ بالقَدَرِ، فَخَرَجَ النَّبيُّ ﷺ أو تَوَلَّى عنهما وهو يَضرِبُ بيَدِه على فَخِذِه ويَقولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[2]، فَالرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هَل قَبِلَ مِنهما؟ إنْ قُلْتم: قَبِلَ على

(١) انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر (ص١٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل، رقم (١١٢٧)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، رقم (٧٧٥)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الإطلاقِ، لَيسَ هَذا بصَحيحٍ، وإنْ قُلتم: قَبِلَ الواقِعَ لكنَّهُ كَرِهَ الجِدالَ، فَهَذا هو الواقعُ؛ لأنَّه لو أَرادَ الإنكارَ عليهما لَقالَ غَيرَ ذَلِكَ، لقالَ: لا حُجَّةَ لَكُما في هَذا، لكنَّه جَعلَ ذلكَ مِن بابِ الجَدَلِ الَّذي نَهَى عنه، فَقَدْ خَرجَ يَومًا عَلى أَصْحابِه، وهُم يَتجادلونَ في القَدَرِ، فَغَضِبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كأنَّما فُقِعَ في وجهِه حَبُّ الرُّمَّانِ، ونَهَى عنِ التَّنازُعِ فِي القَدَر[1].

فإنْ قال قائلٌ: ما مَعنى: قَبِلَ الواقعَ وكَرِهَ الجِدالَ؟

فالجَوابُ: قَبِلَ الواقعَ وهو احْتجاجُهم بالقَدَر، النَّائمُ في الحقيقَةِ ما عليه لَومٌ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠] مِن اللهِ، فيَقولُ: أَنفسُنا بأَيْدي اللهِ لَو شاءَ أن نَقومَ لقُمْنا، هذا واقعٌ، أَمَّا الجَدلُ فَكَونُه يُجادِلُ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالقَدَرِ، هَذا أَمرٌ لا يَنبغي، ولِهذا تَشْعُرُ أَنَّه ما هو راضٍ، يَضرِبُ عَلى فَخِذِه ويَقولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف:٥٤]، والجَدَلُ قَد يَكونُ بِحَقٍّ ويُقبَلُ حَتَّى وإنْ كانَ فيهِ جَدَلٌ إذا كان بحقٍّ.

إذَن المَخرجُ الثَّاني من قصَّةِ آدَمَ مع موسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أنَّ آدمَ احْتجَّ بالقَدَر على أَمرٍ مَضَى وانقَضى وتَخَلَّص منه، ولكِنْ قالَ: هَذا أَمْرٌ فَرَط مِنِّي، ولِكُلٍّ مِنهما وِجهةٌ.

ولَكنَّ الوِجهةَ الأُولى في ظَنِّي أنَّها أَقْوَى؛ لِأَنَّ موسَى لَا يُمكنُ أَنْ يَلومَ أَباه على أَمْرٍ تاب مِنه، لكنَّ الثَّانيَ لَه وِجهةُ نَظرٍ لا شكَّ، لكنْ لا نُنزِلُ قِصَّةَ آدَمَ وموسى عليها بَلْ نَقولُ: هي في سائرِ النَّاسِ الآنَ لَو أَنَّكَ لُمتَ شَخصًا على أَمْرٍ فَعَلَه مِن مَعصيةِ اللهِ، ثمَّ احتجَّ بالقَدَرِ بَعدَ أنْ تابَ، فأَنا أَقبَلُ مِنه، وهَذا يَقَعُ كَثيرًا، كثيرًا مَا يَفعلُ الإنسانُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٧٨)، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب في القدر، رقم (٨٥)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الذَّنبَ ثُمَّ يَتندَّمُ نَدامةً عَظيمةً، ثمَّ يَقولُ: قَدَّرَ اللهُ ومَا شاءَ فَعَلَ، كيف يَقَعُ منِّي هذا؟ كيف تَغْلِبُني نَفْسي وهذا أَمرٌ لا بأسَ به.

ولا بُدَّ لِطالبِ العِلم أَنْ يَكونَ عِندَه عِلمٌ بمِثلِ هَذهِ الأمورِ؛ لِيُخَلِّصَ بها نَفْسَه مِنَ الشُّبُهاتِ الَّتي يُورِدُها عليه الشَّيطانُ، ومِنَ الشُّبُهاتِ الَّتي يُوردُها عليه أَولياءُ الشَّيطانِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ عِلْمِ اللهِ تَعالى بكُلِّ ما يَعملُ هَؤُلاءِ لِقولِه: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَخصيصُ الحُكمِ بما فيه النِّزاعُ، وإِنْ كان الحُكمُ عامًّا، فَلَنا أَن نُخصِّصَ هذا الحُكْمَ بمَحَلِّ النِّزاعِ، يُؤخَذُ هذا من تَقديم المَعمولِ: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، لا نَقولُ: هَذَا الحصرُ حَقيقيٌّ أَنَّهُ لا يَعلمُ عَزَّوَجَلَّ إلَّا بما عَمِلوا، بَلْ يَعلمُ كُلَّ شَيءٍ، لكنْ لَمَّا كانَ الكَلامُ في عَمَلهم جاءتِ الآيَةُ، أو جاء الحُكمُ بِصيغةِ الحَصرِ مِن أَجْلِ شِدَّةِ التَّحذيرِ، وأَنَّهم لن يَفوتوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ واللهُ أعلمُ.

فإِنْ قال قائلٌ: كيف نَرُدُّ على مَن قَالوا: إنَّ الظُّلمَ يُمكنُ أن يُطلَقَ على اللهِ تَعالى من بابِ المُقابَلةِ، أَيْ رَدَّ الظُّلم على الظَّالِمِ، واستَدلُّوا بالبَيتِ الجاهِليِّ[1]:

أَلا لا يَجْهلَنْ أحدٌ علينا ... فنَجهلُ فَوقَ جَهلِ الجَاهِلينا

فالجَوابُ: أقولُ هذا مِنَ العَجبِ! أَين في القُرآنِ والسُّنَّةِ أنَّ اللهَ تَعالى وَصفَ نَفسَه بالظُّلمِ في مُقابلةِ الظَّالِمِ؟ وإذا لم يَكُنْ، فَلِما نَصِفُ اللهَ بالظُّلمِ وَهو قَد نَفاه عَن نَفْسِه؟

---

(١) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته المشهورة، انظر: جمهرة أشعار العرب (ص:٣٠٠)، وشرح القصائد السبع لابن الأنباري (ص:٤٢٦).

فإن قيلَ: إنَّ الرَّدَّ عَلى الظَّالمِ كَمالٌ، نَقولُ: لا -أبدًا- الانتِقامَ مِنَ الظَّالمِ كَمالٌ، لكنْ أن يُرَدَّ على الظَّالمِ بظُلمٍ، ولهَذا لم يأتِ بالقُرآنِ والسُّنَّةِ أنَّ: فَلَمَّا ظَلمونا ظَلَمناهم، بَلْ قالَ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:١١٨]، وأمَّا الاِستهزاءُ والخِداعُ والمَكرُ والكَيدُ، هذا لا بأْسَ بِه، فَقَدْ ذَكرَ اللهُ تَعالَى هَذِهِ الأَوصافَ في مُقابلةِ مَنْ عَامَله بِمِثْلِها.

• • ۞ • •

الآيتان (٤١، ٤٢)

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ هَذِه جُملةٌ مُؤكَّدةٌ بِإِنَّ، يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِٱلذِّكْرِ﴾ القرآنُ] الكَريمُ كَما قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء:٥٠]، وقال تَعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[الزُّخرُف:٤٤]، وسُمِّيَ القرآنُ ذِكرًا؛ لأَنَّه يُذكِّرُ صاحبَه بما للمُتَّقينَ مِن خَيرٍ وَما للطَّاغينَ مِن شرٍّ، ولأَنَّه ذِكْرٌ لِصاحبِه أَيْ: يَرفعُ اللهُ به ذِكْرَ مَنْ تَمسَّكَ به، ولِهَذا قالَ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، ولأَنَّه يُذكِّرُ الإنسانَ بِرَبِّه، فَإِنَّ أَقربَ النَّاسِ أو مِن أَقربِ النَّاسِ إِلَى اللهِ مَنْ تَلا كِتابَه، ولِهذا نَقولُ: إِنَّ تِلاوةَ الكتابِ أَفضلُ الذِّكرِ المُطلَقِ، وأَمَّا الأذكارُ المُعيَّنةُ المُقيَّدةُ بشيءٍ مُعيَّنٍ، فهذه تَبعٌ لِما قُيِّدَتْ بِهِ.

وقولُه: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: حينَ جاءَهم.

واعْلَمْ أَنَّ (لَمَّا) تَأْتي في اللُّغةِ العربيَّةِ لعِدَّةِ أَوجُهٍ:

١- منها أَنْ تَكونَ ظَرفًا كَما في هَذهِ الآيَةِ، فَمعنى: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أَيْ: حينَ جاءَهم.

٢- وَمِنها أَنْ تَأتيَ نَافيةً جازمةً، لِكنَّها لِتُوقعَ ما بَعدَها، كَقَولِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص:٨] لَـمَّا هُنا بِمعنى «لَمْ»، فَهي نافيةٌ لَكنَّها لَا تَدخلُ إِلَّا على شيءٍ مُتَوقَّعٍ، فمعنى: ﴿لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أي: لَمْ يَذوقوه، ولَكنَّهم مُستحِقُّون لَه، وَالعذابُ مِنهم قَريبٌ.

٣- وَمنها أَنَّها تَأتي بِمعنى «إِلَّا» كَقولِه تَعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤] أي: إِلَّا عليها حَافِظٌ.

٤- وَمنها أَنَّها تَأتي شَرطيَّةً كَقولِه تَعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [يوسف:٩٦] تَقولُ: لَمَّا زارَني أَكرمتُهُ.

فهذه أَربَعةُ أَوجُهٍ لِـ(لَـمَّا)، الوَجهُ الأَوَّلُ: ظَرفٌ، الثَّاني: نَافيةٌ جَازمةٌ، الثَّالثُ: بمعنى إِلَّا، الرَّابعُ: شَرطيَّةٌ.

لم يَذكُرِ اللهُ تَعالى خَبرَ «إِنَّ» بَلْ حَذَفَه من أَجْلِ أَنْ تَذهبَ النَّفسُ في تَقديرِه كُلَّ مَذهَبٍ، بِمعنَى أَنْ يُفكِّرَ الإِنسانُ فيما يَحصُلُ لَهُم، فتَجدُ الإنسانَ يُؤَمِّلُ ويُفكِّرُ كَذا أو كَذا، ولِهذا قَدَّرهُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِقَولِه: [نُجازيهم]، فـ(نُجازيهم) على تَفسيرِ المفسِّر هي خَبرُ إِنَّ، ويَجوزُ أَنْ تُقدَّرَ، لِهذا يُمْكنُ أَنْ تَقولَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ سوف يُعاقَبون أو لَهُم نارُ جهنَّمَ، أو ما أَشْبهَ ذلكَ.

المُهمُّ أنَّ حَذْفَه من أَجْلِ أن يَذْهبَ الذِّهنُ كُلَّ مَذهبٍ في تَقْديرِ الخَبَرِ، لكنَّنا نَعلمُ عِلمَ اليقينِ أَنَّه لا يُمكنُ أَنْ يُقدِّرَ خَبرًا سارًّا، يَعني لا يُمكنُ أن نَقولَ: التَّقديمُ أَنَّ الَّذينَ كَفَروا بذِكري لَمَّا جاءهم لَهُم جنَّاتُ النَّعيمِ، هذا مُستحيلٌ، إِنَّما يُقدَّرُ في أيِّ شيءٍ تُقدِّرُه مِنَ العَذابِ، وهذا مِنْ بَلاغةِ القُرآنِ أَنْ يَجعلَ الأَمرَ مَفتوحًا لِيُقدِّرَه الإنسانُ كُلَّ تَقديرٍ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ منيعٌ].

قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾ أَكَّدَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هذا الكِتابَ أو عِزَّةَ هذا الكتابِ بمُؤكِّدَينِ: إنَّ واللَّام. وموضعُ الفائدَةِ في الواقعِ ليس «كتابُ» فقطْ، بَلِ الفائدَةُ قَولُه: ﴿عَزِيزٌ﴾ هذا هو المُهِمُّ، أَمَّا كتابُ كُلِّ شيءٍ كتابُ كُلِّ ما يُكْتبُ فهو كِتابٌ، لقد قالَت مَلِكةُ سَبَأٍ: ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ [النمل:٢٩-٣٠]، لَكنَّ مَوضعَ الفائدَةِ قولُهُ: ﴿عَزِيزٌ﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾ الضَّميرُ في «إنَّه» يَعودُ إِلَى الذِّكرِ وَهو القُرآنُ، وكتابٌ هُنا بمعنى مَكتوبٍ، وهو مَكتوبٌ في المَصاحفِ في اللَّوحِ المَحفوظِ، في الصُّحُفِ الَّتي بِأَيْدي الملائِكةِ.

إِذَن هو كتابٌ في ثَلاثِ مَواضعَ: في اللَّوْحِ المَحفوظِ، والثَّاني: في الصُّحُفِ الَّتي بأَيْدي المَلائكةِ، والثَّالثُ: في الصُّحُفِ الَّتي بأَيْدينا.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَزِيزٌ﴾ مَنيعٌ] ولا شكَّ أنَّ مَنيع من مَعاني عَزيزٍ، ولكنْ هيَ أَعمُّ ممَّا قال المفسِّر: «عَزيزٌ» بمعنى «مَنيعٍ»، أي: يَمتنعُ أَنْ يَنالَه أَحَدٌ بِسوءٍ إِلَّا فَضَحَه اللهُ.

الثَّاني: عَزيزٌ بمعنى غالِبٍ، فَالقرآنُ لا شكَّ أَنَّه غالبٌ على غَيرِه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح:٢٨]، فهوَ غالبٌ لكُلِّ شَيءٍ.

إِذنْ هوَ مُمتنِعٌ أَنْ يَنالَه أَحَدٌ بِسوءٍ إِلَّا فَضَحَه اللهُ. والثَّاني: أَنَّه غالبٌ، ولِهذا لَمَّا كانتِ الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ مُتمسِّكةً به كانت غالبةً، هَدَّتْ عروشَ كِسْرى وقَيْصَرَ

وغيرِهما مِنَ الجبابرةِ، وفَتحتْ بِه مَشارقَ الأرضِ ومَغاربَها، فلمَّا تولَّت عنه الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ حُرِمَت مِن هذا الخَيرِ العَظيمِ الَّذي هو العِزَّةُ وَالغَلبَةُ والقَهرُ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: لَيس قَبْلَه كتابٌ يُكذِّبه ولا بَعده] ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ ضِدُّ الصَّحيحِ وضِدُّ الحقِّ، فَعِند الفُقَهاءِ يَقولونَ: «الصَّلاةُ باطلَةٌ الصَّلاةُ صَحيحةٌ»، فيَجعلون البُطلانَ في مُقابلِ الصَّحيحِ، وَفي القُرآنِ الكريمِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، فجَعَلَ الباطلَ في مُقابلةِ الحَقِّ، إذن لا يَأتيهِ الباطلُ الَّذي هو ضِدُّ الحقِّ.

وقولُه: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فَسَّرها المفسِّر بتَفسيرٍ غَريبٍ قالَ: [أَيْ لَيس قَبْلَه كتابٌ يُكذِّبه وَلا بَعده]، وفي هَذا نَظرٌ ظاهرٌ، والصَّوابُ أنَّه لا يَأتيه الباطلُ ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: فيما يُخبِرُ به، ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فيما أَخبرَ عنه، فَكُلُّ ما أَخبرَ به فَهو حقٌّ، وكُلُّ ما أَخبرَ عنه بأنَّه سيكونُ فَهو حقٌّ.

أَيضًا لا يَأتيهِ الباطلُ مِن حَيثُ الأَحكامُ، فَكُلُّ ما حَكَمَ به فَهو حقٌّ وغايتُهُ حقٌّ، فيكونُ المعنَى أنَّ هذا القُرآنَ الكَريمَ ليس فيه شيءٌ مِنَ الكَذِبِ، لا في الإخبارِ عن ما مَضَى وما هو بَيْن يَديه، ولا في الإخبارِ عمَّا يُستقبَلُ وَهو قَولُه: ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ وإنْ شِئتَ اعْكِسْ، فقُلْ: ما بَين يَديه هو المُستَقبَلُ وما خَلفَه هو الماضي.

كَذلكَ أَيضًا لا يَأتيه الباطلُ مِن حيثُ الأحكامُ، أَحكامُهُ كُلُّها عَدلٌ ما فيها جَوْرٌ؛ ولهذا تَجِدُ القُرآنَ الكَريمَ كَما يُعطي الرَّبَّ حَقَّه مِن العِبادةِ يُعطي المَخلوقَ حَقَّه أَيضًا: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦] هَذا حَقُّ اللهِ، بَعدَه: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء:٣٦]. فَهو حقٌّ في أحكامِه، حقٌّ في أَخبارِه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ

وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فُصِّلَت:٤٢]، وَاقرَؤوا إِنْ شِئتُم قولَه تَعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] صِدقًا باعتبارِ الإِخبارِ، وعَدلًا بِاعتِبارِ الأحكامِ.

قَولُه تَعالى: ﴿تَنزِيلٌ﴾ خبرُ مُبتدأٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: هوَ ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، ولَعلَّ هذا التَّقديرَ أَوْلى؛ لِأَنَّه يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الجُملةَ استِئنافيَّةٌ لِبَيانِ عَظمةِ هَذا القُرآنِ، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ خَبرًا ثانيًا أو ثالثًا لقَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، فقَولُه: ﴿عَزِيزٌ﴾ صِفةٌ لكتابٍ، وقَولُه تَعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ يَجوزُ أَنْ تَكونَ صِفةً لكتابٍ أيضًا، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ خبرًا ثانيًا لـ«إنَّ»، وعلى هَذا فتكونُ ﴿تَنزِيلٌ﴾ خبرًا ثالثًا.

قَولُه تَعالى: ﴿تَنزِيلٌ﴾ أي: مُنزَّلٌ من حَكيمٍ حَميدٍ، فإذا فَسَّرنا ﴿تَنزِيلٌ﴾ بأنَّه مُنزَّلٌ صارَ المصدرُ بِمَعْنى اسمِ المَفعولِ، والمَصدرُ يَأتي بمَعْنى اسمِ المَفعولِ، وبمَعْنى اسمِ الفاعلِ، والَّذي يُعيِّنُ ذلكَ هُو السِّياقُ.

قَولُه تَعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ حَكيمٍ أي: ذي حِكمةٍ وذي حُكمٍ، فالحُكمُ للهِ، والحِكمةُ في أَحْكامِه عَزَّوَجَلَّ، فالرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ مُتَّصِفٌ بالحُكمِ الَّذي لا مُعقِّبَ لَه، وبِالحُكمِ النَّافذِ الَّذي لا مانعَ لَه، وفي الدُّعاءِ المَأثورِ: «لا مانِعَ لِما أَعْطَيتَ ولا مُعطيَ لِما مَنعْتَ»[1]، وأيضًا هو مُتَّصِفٌ بالحِكمةِ، فكُلُّ أَحكامِه حِكمةٌ، فإنْ نَظرتَ إلى الأحكامِ القَدَريَّةِ، وجدْتَها في غايةِ الحِكمةِ، وإنْ نَظرتَ في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ وَجدتَها كَذلكَ في غايَةِ الحِكمةِ.

فهو عَزَّوَجَلَّ حاكِمٌ وذُو حكمَةٍ، وكَمْ مِن حاكمٍ لا حِكمةَ لَه، وكَمْ من حَكيمٍ لا حُكْمَ لَه:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، وأخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فكثيرٌ منَ الرِّجالِ حُكماءُ عُقلاءُ، ولَكن ليس عِندَهم حُكمٌ فلا يَستطيعُ أن يَحكُمَ ولا على امرَأتِه.

وكَمْ مِن إنسانٍ حاكمٍ ذي سُلطةٍ قَويٍّ، ولكنْ لَيس عِندَه حِكمةٌ.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ ليسَ بحاكمٍ ولا بِحكيمٍ.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ هو حاكمٌ حكيمٌ.

فالأقسامُ إِذَنْ أَربعةٌ.

لَكنَّ بَعضَ النَّاسِ يَكونُ عِندَه عِلمٌ ولَيس عِندَه حِكْمةٌ، وهَذا خَللٌ في تَوازنِ العبدِ، وسَيرُ العبدِ أَنْ يَكونَ عِندَه عِلمٌ ولكن مع الحِكْمة.

أمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فَهو حاكمٌ حَكيمٌ.

فإِنْ قال قائلٌ: هَلِ الإحكامُ صِفةٌ ثالثةٌ في قَولِه: حَكيمٍ؟

فالجَوابُ: لا، لأنَّ الإِحكامَ هو الحِكمَةُ.

وبَدَأَ بذِكرِ الحَكيمِ قَبْلَ الحَميدِ؛ وذلك لأنَّ الحَمدَ مُفرَّعٌ على الحِكمةِ، فإنَّ الحَكيمَ يَكونُ مَحمودًا.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: اللهُ المَحمودُ]، يَعني: كأنَّه يُريدُ أنْ يَقولَ: المُرادُ بالحَكيمِ الحَميدِ هو اللهُ، وقَولُه: [المَحمودُ في أَمْرِه] أشارَ إِلَى أنَّ فَعيلًا هُنا بمَعْنى مَفعولٍ، وفي اللُّغةِ العربيَّةِ تَأتي فَعيلٌ بمَعْنى فاعلٍ وَمَفعولٍ، فَإِذا قُلتَ: فُلانٌ جَريحٌ بمَعْنَى مَجروحٍ، وإذا قُلتَ: فُلانٌ سَميعٌ بمَعْنى سامِعٍ، فهِيَ تَأتي في اللُّغةِ العربيَّةِ بمَعْنى فاعلٍ وبمَعْنى مَفعولٍ، وهُنا فَسَّرها المفسِّر بمَعْنى مَحمودٍ.

لكنَّ هذا التَّفسيرَ فيه قُصورٌ؛ لِأنَّ حَميدًا هُنا بمَعْنى فاعلٍ وبمَعْنى مَفعولٍ، فهو مَحمودٌ وهو أَيضًا حامِدٌ، أَليس اللهُ تَعالى يُثني كَثيرًا عَلَى المُؤمنينَ، وعَلَى الرُّسلِ، وعَلَى مَنْ شاءَ مِنْ عِبادِه؟ فهذا حَمْدٌ، فَوَصْفُ هَؤلاءِ المَخلوقينَ الَّذين أَثْنى اللهُ عليهم هو حَمدُهم في الواقِعِ.

وفي هذه الآيةِ الكَريمةِ تَهديدٌ لِلمُكذِّبين بِالقُرآنِ في قَولِه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾ وحُذِفَ الخبرُ لِيَذهبَ الذِّهْنُ في تَقديرِه كُلَّ مَذهبٍ.

مِن فَوائدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ القُرآنَ ذِكرٌ سَمَّاه اللهُ ذِكرًا؛ لِما ذَكَرنا في التَّفسيرِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤلاءِ كَذَّبوا بِالذِّكرِ بَعد أنْ جاءَهم وتَحقَّقوه وعَرَفوه، ومَعلومٌ أنَّ المُكذِّبَ بالشَّيءِ بَعدَ أنْ يَتحققَّ لَديهِ أَشدُّ إِثمًا ووَبالًا ممَّن كَذَّب في أمرٍ مُشتبَهٍ عندَهُ، يُؤخذُ هذا مِن قولِهِ: ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ هذا القُرآنَ عَزيزٌ غالٍ، لا أحدَ يَنالُه بِسوءٍ إِلَّا فَضَحه اللهُ، ولَا أحدَ يَقومُ أَمامَه إِلَّا كان مَهزومًا مَغلوبًا، ووَصَفَ اللهُ تَعالى القُرآنَ بأَنَّه عَزيزٌ، وبأَنَّه مَجيدٌ وبِأَنَّه كَريمٌ وبأَوصافٍ مُتعدِّدةٍ، مِمَّا يَدُلُّ عَلى عَظمةِ هَذا القُرآنِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ مَن تَمسَّكَ بالقُرآنِ فَلَه العِزَّةُ، وَجْهُه أَنَّه إِذا كَان القُرآنُ عَزيزًا، فلا بُدَّ أنْ يَنالَ العِزَّةَ مَن تَمسَّكَ بِه، وإِلَّا لكانَ القُرآنُ غَيرَ عَزيزٍ، ويَدُلُّ لهذا قَولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ القُرآنَ الكَريمَ حَقٌّ مُنتفٍ عنهُ الباطلُ مِن كلِّ وجهٍ؛ لقولِهِ:

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ هذِهِ الصِّفةُ للقُرآنِ مِن صِفاتِ النَّفيِ، وتضمَّنتْ بالإثباتِ أنَّه إذا انْتفَى الباطلُ عَنه مِن كُلِّ وجهٍ من بَيْن يَدَيهِ ومِن خلفه لَزِمَ من ذلكَ أنْ يَكونَ حقًّا من كلِّ وجْهٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ يُؤخذُ مِن قولِهِ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وَجْهُ كَونِه كَلامَ اللهِ أنَّ القُرآنَ صفةٌ، ليس عَينًا مُستقلَّةً مُنفصلَةً، فإذا كان صفةً وذَكَرَ اللهُ أنَّه نَزَلَ منه لَزِمَ أنْ يَكونَ كلامَه.

أمَّا لو كان الشَّيءُ الَّذي ذَكَرَ اللهُ أنَّه أنزلَه شَيئًا مُعيَّنًا مُنفصلًا عن اللهِ، فهذا لا يدُلُّ عَلى أنَّه مِن صِفاتِ اللهِ، كقَولِه تَعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الزُّمَر:٢١] هذا الماءُ مَخلوقٌ، وقَولُه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزُّمَر:٦] الأنعامُ مَخلوقةٌ؛ لأنَّها شَيءٌ مُنفصلٌ عنِ اللهِ، وقَولُه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد:٢٥] الحديدُ مَخلوقٌ.

فإنْ قال قائلٌ: هل التَّنزيلُ هُنا بمَعْنى الخَلْقِ؟

فالجَوابُ: الفَرقُ أدقُّ مِن الخَلْقِ؛ لأنَّ هذه الأشياءَ لَولا أنَّ اللهَ سخَّرَها ما اسْتَطعنا أنْ نُسيطِرَ عليهَا، فهَذا عَلَى أنَّ نِعمةَ التَّسخِيرِ أَنْزَلَها مِنْ عَلياءَ إلَى أسفلَ حتَّى تَكونَ مُسخَّرةً للخَلْقِ.

لكنْ إذا جاءَ التَّنزيلُ أَوِ الإنزالُ في أَمرٍ هو صِفةٌ، فإنَّه لَا يُمكنُ أنْ يَكونَ مَخلوقًا بائنًا عَنِ اللهِ بَلْ هو صِفةٌ من صِفاتِ اللهِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ عُلُوِّ اللهِ، وَجهُ ذلك أنَّه قَالَ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت:٤٢]، وإذا كانَ تَنزيلًا منه لَزِمَ أنْ يَكونَ عَزَّوَجَلَّ فَوقُ، وهو كذلكَ، وقدْ ذَكَرنا

كَثيرًا وذَكَرَ غَيرُنا أَيضًا أنَّ عُلُوَّ اللهِ ثابتٌ بالأَدلَّةِ كلِّها، وهيَ الكتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ والعقلُ والفِطرةُ، كُلُّها مُتَّفِقةٌ على عُلُوِّ اللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثباتُ هَذَينِ الاِسمَينِ -الحَكيمِ والحَميدِ- للهِ عَزَّوَجَلَّ، وإثباتُ مَا تضمَّناه مِنَ المَعاني والصِّفَاتِ.

فإنْ قال قائِلٌ: ما مَدَى صِحَّةِ تَسميةِ اللهِ تَعالَى بالطَّبيبِ والنَّظيفِ؟

فالجَوابُ: أمَّا الطَّبيبُ فَوَرَدَ عن أَبي بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه قالَ: «إنَّ الطَّبيبَ رَآني، فقالَ: إنِّي أَفعلُ ما أُريدُ»[1]، وهَذا لا بَأْسَ بهِ في مَقامِ الخَبرِ، لكنْ ليسَ في التَّسميةِ، وأمَّا النَّظيفُ فوَرَدَ أيضًا في حديثٍ[2].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّه لَا يَجوزُ لِأحدٍ أنْ يُشرِّعَ شَرعًا من عِندِه، يُؤخَذُ مِن قَولِه: ﴿حَكِيمٍ﴾ بمعنى حاكمٍ؛ لأنَّ مِن الحُكمِ الحُكمَ بينَ النَّاسِ، فالحُكمُ إمَّا أنْ يَكونَ حُكمًا في النَّاسِ أو أنْ يَكونَ حُكمًا بينَ النَّاسِ، فَلا يَجوزُ لِأحدٍ أنْ يَحكُمَ بينَ النَّاسِ إلَّا بِما أَنزلَ اللهُ؛ لأنَّ الحُكمَ للهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧]، وليس لنا أنْ نَتجاوزَ حَدَّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في الحُكمِ على أَحدٍ بالفِسقِ أو البِدعةِ أَوِ الكُفرِ أَوِ الإيمانِ وصِحَّةِ العَقيدةِ إلَّا بدَليلٍ مِن الشَّرعِ، يَعني: إلَّا إذا عَرَضنا ما عليه عَلَى الكتابِ والسُّنَّةِ، وإلَّا: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ اللهَ تَعالى محمودٌ، بِناءً على أنَّ (حَميد) اسمُ مَفعولٍ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ يُحمَدُ عَلى كلِّ حالٍ، فعَلى السَّرَّاءِ واضحٌ أنَّه يُحمَدُ؛ لأنَّهُ أَحسَنَ إلَيكَ ورَأَفَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد رقم (٥٨٧).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الأدب، باب ما جاء في النظافة، رقم (٢٧٩٩)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

بِك، وأمَّا على الضَّرَّاءِ فيُحمَدُ أولًا: على أنَّهُ -لا شكَّ- ما قَدَّر هذا إلَّا لِحكمةٍ، ثانيًا: أنَّ ما يَترتَّبُ عَلى هذه الضَّرَّاءِ منَ المَصالحِ العَظيمةِ يَقتضي أنْ يُحمَدَ اللهُ عليها، فالإنسانُ إذا أصابَته الشَّوكةُ وتَألَّمَ بها يُحطُّ عنه مِن خَطيئتِه، وخَطيئَتُه مُثقِلةٌ عَظيمَةٌ مُخزيَةٌ في الآخرَةِ، والشَّوكةُ لَيست مُؤلِمةً إلى ذاكَ ولَيست ظَاهرةً للنَّاسِ، ومع ذلك يُكفَّرُ بها مِنْ سيِّئاتِه.

ولِهذا قيلَ لِبعضِ العابِداتِ لَمَّا أُصيبَ أُصْبعُها ولَمْ تَتألَّمْ ولَمْ تَتأثَّرْ ولَمْ تَحزنْ قالت: إنَّ حَلاوةَ أَجرِها أَنسَتْني مَرارةَ صَبرِهَا -الصُّوفيَّةُ لهُمْ كَلماتٌ عَجيبةٌ فِي العبادةِ وَالأَخذِ باللُّبِّ-؛ لأنَّ الأجرَ أَعظمُ مِن المُصيبةِ، فإذن حتَّى ما يُصيبُ الإنسانَ مِنَ الضَّررِ، فإنَّ اللهَ تَعالَى مَحمودٌ عليهِ؛ لأنَّه لِحكمةٍ لا شكَّ، والإنسانُ عَبدُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يَفعَلُ به ما يَشاءُ ولِأنَّ العاقبَةَ حَميدةٌ.

ويُحمَدُ اللهُ تَعالَى حتَّى على وُجودِ الكافرينَ؛ لأنَّه لَولا وُجودُ الكافرِ لَمْ يُعرَفِ المُؤمنُ، ولَمْ يَعْرفِ الإنسانُ قَدْرَ نِعمةِ اللهِ عَلَيهِ، ولَمْ يَقُمْ عِلمُ الجِهادِ؟ ولَمْ يَبْقَ للنَّارِ أحدٌ.

لكنَّ هُنا مَسألةً كانَ النَّبيُّ - صلَّى الله عليه وعلَى آلِه وسلَّم - إذا أَصابَه شَيءٌ يَسوؤه لا يَقولُ: الحَمدُ لله على الضَّرَّاءِ مَثَلًا أو على كَذا، بل يَقولُ: «الحَمدُ للهِ على كُلِّ حالٍ»[1]، فيَنبغي أنْ تَنتبِهَ لذلك، إذا أَصابتْكَ سَرَّاءُ تَقولُ: الحمدُ للهِ الَّذي بنِعمتِهِ تَتمُّ الصَّالِحاتُ، وإذَا أصابتك ضَرَّاءُ تَقولُ: الحَمدُ للهِ عَلى كلِّ حالٍ.

وبِهذا نَعرفُ خَطأَ مَن يَقولُ: «الحَمدُ للهِ الَّذي لا يُحمَدُ على مَكروهٍ سِواهُ» هذا غَلطٌ؛ لأنَّ هذه العِبارةَ تُنبئُ عن تَأَزُّمٍ نَفسيٍّ وعن كَراهةٍ لِمَا قَدَّرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ على

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الإنسانِ، ثُمَّ إنَّ فيها تَضادًّا مَكروهًا، وحَمدُ هذا غَيرُ مُستقيمٍ، ثُمَّ إنَّ فيهَا أيضًا مُخالَفةً لسُنَّةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقولُ: «الحَمدُ للهِ عَلى كلِّ حالٍ»، ولَا يَذكرُ المَكروهَ، ولَا يَشعُرُ بأنَّه مُتأزِّمٌ منه.

فأَنت إذا أُصِبتَ بسَرَّاءَ فقُلِ: الحَمدُ للهِ الَّذي بِنعمتِهِ تَتِمُّ الصَّالحاتُ، وَإنْ شِئتَ فعَيِّنْ، مثلًا: الحمدُ للهِ الَّذي رَزقَني وَلدًا، الحَمدُ للهِ الَّذي رزَقَني نَجاحًا، الحمدُ للهِ الَّذي رَزَقني مَالًا ومَا أَشبهَ ذَلك؛ لأنَّ هذا خَيرٌ والثَّناءُ عَليه وَاضحٌ، لكنَّ الأمورَ المكروهَةَ لَا تَقُلِ: الحمدُ للهِ الَّذي أَمْرَضَني، الحمدُ للهِ الَّذي أَصابَني بمُصيبةٍ؛ بِفَقْدِ أَخي أو أَبي أو عَمِّي، وإنَّما تَقولُ: الحمدُ للهِ على كُلِّ حالٍ، وإنْ شِئتَ فَقُلِ: الحَمدُ للهِ على ما قَدَّرَ؛ لأنَّ هَذه بمَعْنى على كُلِّ حالٍ.

فإنْ قال قائلٌ: ما توجيه قوله ﷺ: «والشَّرُّ ليسَ إليهِ»[1].

فالجَوابُ: أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ خالقُ كلِّ شَيءٍ ولهَذا جاءَ في الحَديثِ: «تُؤمِنُ بالقَدَرِ خيرِه وشَرِّه»[2]، لكنْ لَا نَنسِبُ الشَّرَّ إلى اللهِ؛ لِأنَّ اللهَ لم يُقَدِّرْ هذا الشَّرَّ إلَّا لخَيرٍ، فالشَّرُّ إذن في مَفعولِه لا في فِعلِه، فمَثلًا إذا قَدَّر اللهُ عَزَّوَجَلَّ على النَّاسِ مَرضًا، فالشَّرُّ في نَفْسِ المَرَضِ، لكنْ في كَونِ اللهِ قَدَّرَه ليس بشَرٍّ بل هو خَيرٌ؛ لأنَّه من أَكبرِ ما يَكونُ مِن مَصالِحِ الأَمراضِ؛ مثلًا تكفيرُ السَّيِّئاتِ، ومنهَا أنَّ النَّاسَ يَرجِعونَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، ومنها أنَّ الإنسانَ يَعرفُ قَدْرَ نِعمةِ اللهِ عليهِ بالعافيةِ، فمَثلًا نحنُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآنَ لا نَعرفُ قَدْرَ النِّعمَةِ الَّتي أَنعمَ اللهُ بِها عَلينا في النَّفَسِ والحركَةِ وما أَشبَهَ ذَلكَ، لكنْ لو أُصيبَ الإِنسانُ مِنَّا بضِيقِ نَفَسِهِ عَرَفَ قَدْرَ نِعمةِ اللهِ بالنَّفَس، أو بِتَعبٍ في أَعضائِه فيَتكلَّفُ مِنَ الحَركةِ عَرفَ قَدْرَ نِعمةِ اللهِ عَليهِ، ولِهَذا قيلَ: وبضِدِّها تَتبيَّنُ الأَشياءُ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ كاملُ العدلِ بحَيثُ يَحمِدُ مَنْ يستحقُّ الحمدَ كَما أنَّه يُحمَدُ؛ لأنَّه أَهلٌ لِلحمدِ؛ بِناءً على أنَّ «حَميدٌ» بمَعْنى حامدٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ جميعَ ما في القُرآنِ مُطابقٌ لِلحِكمةِ تَمامًا من تَحليلٍ أو تَحريمٍ أو إيجابٍ أو إِطلاقٍ؛ لأنَّه نَزَلَ مِن حَكيمٍ حَميدٍ، والنَّازلُ مِن حَكيمٍ لا بدَّ أنْ يَكونَ مُشتملًا على الحِكمةِ.

• • ۞ • •

الآية (٤٣)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فُصِّلَت:٤٣].

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾ مِن التَّكذيبِ] يَعني: وَالاستهزاءُ والسُّخريةُ وغيرُ ذلك: ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ ومِنه قَولُهم: إنَّه ساحرٌ ومجنونٌ، كَما قال تَعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، هَذهِ الكَلمةُ يَقولُها كُلُّ أحدٍ لِلرَّسولِ، ويَحتملُ أَنْ يَكونَ المعْنَى: مَا يُقالُ لَك مِنَ الوَحيِ إلَّا ما قد قيلَ للرُّسُلِ مِنْ قَبْلكَ، أي مِثلَه، والآيةُ تَحتَملُهما ولا مانعَ من إرادتِهما.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا﴾ مثل: ﴿مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾] زاد المفسِّر [مثل]، ومَعلومٌ أنَّ قولَه: ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ﴾ لا يُساويه قَولُه: إلَّا مثلَ، وإنَّما لَجأَ المفسِّر إلى ذلك؛ لأنَّ الَّذي قيلَ للرَّسولِ ﷺ لَيس هو بحُروفِه مَا قيلَ لمَنْ قَبلَه، ولكنَّ الأَوْلى أنْ يُقالَ: الآيةُ على ظاهِرِها أنَّ مَا قيلَ للرَّسولِ قَد قيلَ لِمَنْ قَبلَه، وكَما ذَكَرْتُ لكم آنِفًا: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، فيُقالُ: إنَّهم قَالوا نَفسَ الكلامِ لَكن بِلُغَتِهم ليس بِلُغَةِ العربِ.

قَولُه تَعالَى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ فيه

عَرْضٌ لِلمُكَذِّبين أَنْ يُؤمِنوا فَإِنْ لَمْ يُؤمِنوا فَقَدْ تَعرَّضوا لِلعِقابِ، عَرَضَ أَنْ يُؤمِنوا بِقَولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ يعني: كأَنَّه يَقولُ: فَآمِنوا يَغفرْ لَكم، وهوَ قَولُه تَعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ يَعْني: إنْ لم يُؤمِنوا، ففيهِ تَرغيبٌ وتَرهيبٌ، التَّرغيبُ في قَولِه: ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ والتَّرهيبُ فِي قَولِه: ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾، والعِقابُ هو الانتِقامُ، والأَليمُ بمَعْنى المُؤلِمِ، ففَعيلٌ تَأتي بمَعْنى مُفْعِلٍ كثيرًا في اللُّغَةِ العربيَّةِ كَما قَال الشَّاعرُ[1]:

أَمِنْ رَيْحانةِ الـدَّاعي السَّـميعُ ... يُـؤرِّقُني وأَصْـحابي هُجـوعُ

السَّميعُ يَعني: المُسْمِعُ.

من فَوائِدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَسليةُ الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عَليه وعَلى آلِهِ وسلَّم-؛ لِأَنَّه إذَا عَلِمَ أَنَّه قد قيلَ للرُّسلِ مِن قَبلِه مِثلَما قيلَ له سَهُلَ عَليه الأمرُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ سُنَّةَ اللهِ تَعالَى وَاحدةٌ، فَالمُكذِّبونَ قَولُهم وَاحدٌ وفِعلُهم وَاحدٌ لِقَولِه: ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِثْباتُ صِفةِ المَغفرةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ وهيَ سَتْرُ الذَّنبِ والتَّجاوزُ عَنه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إِثباتُ شِدَّةِ عِقابِه؛ لقَولِه: ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إِثباتُ رَحمةِ اللهِ بِالعبادِ، حَيثُ يَعرِضُ عَلَيهم مُوجبَ التَّوبةِ حَتَّى لا يَتمادَوْا في مَعصيتِهم؛ لِقَولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾.

---

(١) البيت لعمرو بن معدي كرب، انظر: الأصمعيات (ص:١٧٢)، الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣٦٠).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ هَذا القُرآنَ مِثلانِ، فَإذا ذُكِرَ فِيه جانبُ التَّرغيبِ ذُكِرَ مَعه جانبُ التَّرهيبِ؛ لِئلَّا تَطمعَ النَّفسُ وتَغلوَ فِي الطَّمعِ، فتَأمنَ مِنْ مَكرِ اللهِ، فَيَجمعُ اللهُ بَين هَذا وهَذا؛ لِئلَّا يَطْمعَ الإِنسانُ فِي الفَضلِ فَيَأمنَ مِنْ مَكْرِ اللهِ؛ ولِئلَّا يَخافَ فَيَقْنطَ مِن رَحمةِ اللهِ، وعَلَى هَذا فيَكونُ سَيرُه إِلَى اللهِ تَعالى بَينَ الخوفِ والرَّجاءِ؛ ولِهذا قالَ الإمامُ أَحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَنبَغي لِلسَّائرِ إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنْ يَكونَ خَوفُه ورَجاؤُه واحدًا فأَيُّهما غَلَبَ هَلَكَ صاحبُه»[1].

وقالَ بَعضُهم: «يَنْبَغي أَنْ يَكونَ الخَوفُ والرَّجاءُ لِلْإنسانِ كَجَناحَي الطَّيرِ إِنِ انْخفَضَ أَحدُهما سَقَطَ الطَّيرُ»، فَيكونُ الرَّجاءُ والخوفُ واحدًا مُتَساويًا تَرجو وتَخافُ، ولِهذا قالَ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة:١٦].

وفَسَّر بَعضُ أَهْلِ العِلمِ فَقالَ: يَنبَغي لِلإنسانِ إِذا عَمِلَ الحَسناتِ أَنْ يَكونَ جانِبُ الرَّجاءِ في حَقِّه أَرجحَ؛ لِأنَّ هَذا مِن إِحْسانِ الظَّنِّ باللهِ، ووَجهُه أَنَّ اللهَ لَمَّا وفَّقكَ لِلعملِ فإِنَّه قَد وَعَدكَ بِالثَّوابِ، ولَمَّا وَفَّقكَ لِلدُّعاءِ فَقدْ وَعدَكَ بِالإجابَةِ، فَعَليه إِذَا فَعلتَ الخيرَ فَغَلِّبْ جانبَ الرَّجاءِ، وإِنْ فَعلتَ الشَّرَّ أو هَمَمْتَ به- فَغَلِّبْ جانبَ الخَوفِ؛ لِيردَعَكَ الخَوفُ عنِ التَّمادي في الشَّرِّ أو عَنْ مُواقعةِ الشَّرِّ.

وبَعضُهم سَلَكَ مَنحًى آخَرَ فَقالَ: في حالِ الصِّحَّةِ يَنبَغي أنْ يَغلُبَ جانبُ الخَوفِ؛ لأنَّ الإِنسانَ الصَّحيحَ الَّذي قَدْ أَعطاه اللهُ صِحَّةً في بَدَنِه وعَقْلِه رُبَّما يَتَمادى فِي الشَّرِّ ولا يُبالي، وإِذا كُنتَ في المَرَضِ فَغَلِّبْ جانبَ الرَّجاءِ؛ لأنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعَلَى آلِهِ وسلَّم- قالَ: «لا يَموتنَّ أَحدُكم إِلَّا وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّه»[2]؛ لأنَّ اللهَ

---

(١) انظر: الاختيارات العلمية لابن تيمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] (٥/ ٣٥٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

تَعالَى عِندَ حُسْنِ ظَنِّ عَبدِه به.

والَّذي يَنبَغي أنْ يُقالَ: إنَّ الإنسانَ طَبيبُ نَفسِه، فَإذا خافَ مِن نَفْسِه التَّماديَ في المَعاصي والتَّهاوُنَ بِالطَّاعاتِ فَلْيُغَلِّبْ جانبَ الخوفِ، وإنْ خافَ مِنْ نَفْسِه الزَّهوَ والخُيَلاءَ والأمنَ مِن مَكرِ اللهِ فَلْيُغلِّبْ جانِبَ الخَوفِ، فَالإنسانُ في الحَقيقةِ طَبيبُ نَفْسِه.

الآية (٤٤)

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ الضَّميرُ يَعودُ عَلى القُرآنِ، يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي الذِّكرُ] وإنَّما قالَ الذِّكْرُ؛ لأنَّه سَبقَ ذِكرُه قَريبًا في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾. والمَعْنى مُتَّفَقٌ عَليه: أنَّ الضَّميرَ في الهاءِ في ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ يَعودُ إِلَى القُرآنِ.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي: بِلُغةِ العَجَمِ وهو قَدْ نَزلَ عَلى العَربِ: ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ ﴿لَّقَالُوا۟﴾ أَي: المُكذِّبونَ لِلرَّسولِ ﷺ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿فُصِّلَتْ﴾ بَيَّنت ﴿ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ حتَّى نَفهمَها]، ولكنَّ اللهَ تَعالَى قَد قَطَعَ عَليهِمُ الحُجَّةَ، فقالَ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزُّخرُف:٣]، وقالَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢].

وقَولُه: ﴿لَوْلَا﴾ بمَعْنى هَلَّا أَفادَنا المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ لَولا تَأتي لِلتَّحضيرِ وتَأْتي شَرطيَّةً، ويُقالُ في إِعرابِها حَرفُ امتِناعٍ لِوُجودٍ.

وهُنَا تَتقاسَمُ هَذِه الحُروفُ لِلوُجودِ والعدَمِ، فَلَو حَرفُ امتِناعٍ لِامتِناعٍ، ولَمَّا حَرفُ وُجودٍ لِوُجودٍ، ولَولا حَرْفُ امتِناعٍ لِوُجودٍ، تَقولُ: لَمَّا جاءَني أَكرَمتُه، هُنا

الإِكْرامُ وُجِدَ لِوُجودِ المَجيءِ، وتَقولُ: لَو جاءَ زَيدٌ لَأَكرمْتُه، هُنا امتنعَ الإِكرامُ لامتِناعِ الوُجودِ، وتَقولُ: لَولا زَيدٌ لَهَلكتُ أو لَفَعلتُ كَذا وكَذا، فَلَولا هُنا امتِناعُ لِوُجودِ، أمَّا في الآيةِ الكريمَةِ فَلَولا لَيست مِن هَذا ولا مِنْ هَذا، لَولا هُنا انتَقلَت عَن مَعْنى الشَّرطيَّةِ إِلَى مَعْنى التَّحضيرِ.

فإِنْ قالَ قائلٌ: لَولا في قَولِه تَعالَى في سورَةِ يوسفَ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف:٢٤] هَلْ هي شَرطيَّةٌ؟

فالجَوابُ: نَعَمْ، شَرطيَّةٌ لَكِن مَحذوفةُ الجَوابِ، يَقولُ تَعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ يَعْني: لِفِعْلِ.

فإِنْ قيل: هَلِ الهَمُّ حَصَلَ مِنه؟

فَالجَوابُ: لَا، فَلَولا بُرهانُ رَبِّه لَفَعَلَ، يَعْني: لَأَجابَها إِلَى ما دَعت، ولَيس المراد بـ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾: لَمَّا هَمَّ؛ لأَنَّه لَو كانَ كَذلكَ لَتَناقَضَ الكلامُ، بَلْ هو هَمَّ بِها لَكن لَولا أَنَّه رَأى بُرهانَ رَبِّه لأَجابَها إِلى مَا دَعت.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أ﴾ قُرآنٌ ﴿أعجمي و﴾ نَبيٌّ ﴿عربي﴾] استِفهامُ إِنكارٍ مِنهم، يَعني: لَوْ كانَ القُرآنُ بِلُغةِ العَجمِ لَقالوا: لَولا فُصِّلتْ آيَاتُه، وبُيِّنتْ باللُّغةِ العربيَّةِ، ثُمَّ لَقالوا: أَيضًا أَأَعْجميٌّ وعَربيٌّ، يَعني: لا يُمكنُ أَنْ يَكونَ القُرآنُ بِلُغةِ العَجمِ ونَزلَ عَلى نَبيٍّ عَربيٍّ، وهَذا الَّذي قَالوه استِفهامٌ حَقيقيٌّ، بمَعْنى أَنَّ قَولَهم حَقٌّ لا يُمكنُ أَنْ يَنزلَ قُرآنٌ أَعجميٌّ عَلَى نَبيٍّ عَربيٍّ، وقَد نَصَّ اللهُ عَلى ذَلكَ في قَولِه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، فكَلامُهم هَذا حقٌّ ونَحنُ نَقبلُهُ.

أمَّا قولُهم: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾، فنقولُ: هي مُفصَّلةٌ، لَكنَّها حُجَّةٌ لو كانَ القرآنُ أَعجميًّا، وعَلى هَذا يَكونُ قَولُهم صَحيحًا لَوْ كانَ القرآنُ باللُّغةِ الأعجميَّةِ، حُجَّةً في قَولِهم: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾، وحقًّا في قَولِهم: ﴿ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِتَحقيقِ الهمزةِ الثَّانيةِ] أَنْ تَقولَ: ﴿أأعجمي﴾ كَما هي القِراءةُ المَشهورةُ [وقَلْبُها أَلِفًا] ﴿ءَاعْجَمِيٌّ﴾ قَلَبْنا الثَّانيةَ أَلِفًا [بِإشباعٍ ودونِه] يَعني: أَنَّك تَمُدُّ الأَلِفَ مَدًّا طَبيعيًّا أو تَمُدُّها مَدًّا زائدًا عَلى ذَلكَ، والمَدُّ الطَّبيعيُّ قَولُه: ودونه، والمدُّ الزَّائدُ قَولُه: بِإشباعٍ، وعَلَى هَذا فَيَكونُ فيها ثَلاثُ قِراءاتٍ: «أَأَعْجَمِيٌّ» «أَآعْجَمِيٌّ» ﴿ءَاعْجَمِيٌّ﴾ ثَلاثُ قِراءاتٍ.

والقِراءاتُ كَما هو مَعلومٌ كُلُّها سُنَّةٌ؛ لِأنَّها ثَبتتْ عَنِ النَّبيِّ ﷺ ويَنبَغي لِلإنسانِ الَّذي أَتقنَها وحَفِظها أنْ يَقرأَ بِهذا مَرَّةً، وبِهذا مَرَّةً كَما نَقولُ في العِباداتِ الَّتي وَرَدت عَلى وُجوهٍ مُتنوِّعةٍ: إنَّه يَنْبغِي أَنْ تَفعلَ هَذَا مَرةً وهَذا مَرَّةً.

ولَكنْ لا نَقرأُ بِما يُخالِفُ القُرآنَ الَّذي بَينَ أَيْدي العَوامِّ بِقِراءةٍ أُخرى، فَنَرى أَنَّ مِن عَدَمِ الحِكمةِ ما يَفعلُهُ بَعضُ الطَّلبةِ إذَا كَانَ يَعرفُ القِراءاتِ أَنْ يَقرأَ بِالقِراءةِ الَّتي لَيست بَينَ أَيْدي العَوامِّ، فإنَّ هَذا خَطأٌ عَظيمٌ؛ لأَنَّ العامِّيَّ لا يُدركُ هَذِهِ الأشياءَ، وسَوفَ يَهبطُ قَدْرُ القُرآنِ في نَفسهِ وتَقِلُّ عَظمتُه عِندَه، ثُمَّ رُبَّما يَتَّهِمُ هَذا القارِئَ بِأنَّه أَخطأَ وغَلِطَ، فَإذا كانَ الصَّحابةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ تَنازَعوا وهُم مَنْ هُمْ في اخْتلافِ القِراءاتِ فَكيفَ بِعَوامِّ هَذا الزَّمانِ.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: قُل يا مُحَمَّدُ في جَوابِهم.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ مِنَ الضَّلالةِ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ مِنَ الجهلِ]، ﴿هُوَ﴾ الضَّميرُ يَعودُ على القُرآنِ الذِّكرِ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ أي:

عِلمٌ ونورٌ، ﴿وَشِفَآءٌ﴾. يَقولُ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنَ الجَهلِ] وهَذا فيه نَظرٌ؛ لأَنَّ مِنَ الجَهلِ داخلٌ في قَولِه: ﴿هُدًى﴾، إِذْ إِنَّ الهُدى هو العلمُ وَضِدُّه الجَهلُ، لَكن ﴿شِفَاء﴾ يَعني: مِن المَرَض مَرَضِ القُلوبِ، كَما قالَ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧]، فالصَّوابُ أَنَّ قَولَه: ﴿هُدًى﴾ مِن الضَّلالةِ وهي الجهلُ، فَهو هُدًى مِن الجَهلِ، وَالضَّلالةُ شِفاءٌ مِنَ المَرضِ مَرَضِ القُلوبِ، بَلْ هو أيضًا شِفاءٌ مِن مَرَضِ الأبدانِ، فَإِنَّ القُرآنَ يُستَشفَى بِه في أَمراضِ القُلوبِ، ويُستَشفَى بِه كَذلكَ في أَمراضِ الأَبدانِ، وكَمْ مِن إنسانٍ مَريضٍ مَرضًا بَدَنيًّا شَفاه اللهُ تَعالى بِالقُرآنِ.

وقِصَّةُ اللَّديغِ -المَشهورةُ- الَّذي كَانَ سَيِّدَ قَومِه، ونَزَلَ به سَرِيَّةٌ مِنَ الصَّحابةِ ولَمْ يُضيِّفوهُم، فَسَخَّر اللهُ تَعالى عَقربًا كَبيرةً شَديدةً فلَدَغتْ سَيِّدَهمْ فطَلَبوا راقيًا مِنَ الصَّحابةِ، فَقالوا: لا نَرْقي لَكُمْ إِلَّا بكَذا وكَذا مِنَ الغَنَمِ فَأَعْطَوهم، فذَهَبَ أَحَدُهم يَقرأُ عَليهِ سورةَ الفاتحةِ حَتَّى قَام كَأَنَّما نُشِطَ مِنْ عِقالٍ، لَكنَّهمْ تَربَّصُوا فِي الغنمِ الَّتي أَخَذوها خافوا أَلَّا تَكونَ حِلًّا لَهمْ حَتَّى أَتَوُا النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليهِ وعَلى آلِه وسلَّم- فَسألوهُ فَقالَ: «**خُذوا وَاضْرِبوا لِي مَعكُمْ بِسَهمٍ**»[1]، قالَ ذَلكَ لا حاجةَ إِلَى اللَّحمِ ولَكن تَطييبًا لِقُلوبِهم وَاطْمِئنانًا لِنُفوسِهم؛ لِيَتبيَّنوا أَنَّه حَلالٌ حَلالٌ لا إِشكالَ فيهِ.

الشَّاهدُ: أَنَّهم أَخبَروا النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعَلى آلِه وسلَّم- أَنَّهم قَرَؤوا عَلى هَذا اللَّديغِ الفاتِحةَ فَقالَ: «**وَما يُدْريكَ أَنَّها رُقْيَةٌ**»، فَتبيَّنَ بِهَذا أَنَّ القُرآنَ شفاءٌ مِن

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، رقم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أَمراضِ القلُوبِ وَأَسقامِ الأَبدانِ لَكنْ، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ آمَنوا بِالقُرآنِ وبأَنَّه مِن عِند اللهِ وبأَنَّه شِفاءٌ، أَمَّا رَجُلٌ لَمْ يُؤمِنْ به ولَمْ يَرفعْ به رَأسًا ولَمْ يَرَ بِمُخالفتِه بَأْسًا، فَإِنَّ هَذا لا يَنتفعُ بِه.

فإِنْ قال قائلٌ: كَيفَ يُشترَطُ للرُّقيةِ أنْ يَكونَ المَرقيُّ -الَّذي يُتلى عليه القُرآنُ- مُؤمنًا بِه وزَعيمُ القَومِ هَذا لَمْ يَكُنْ مُسلمًا؟

فَالجَوابُ: هو مُؤمنٌ بأَنَّ قِراءتَهم سَوف تُفيدُه، وهَذا لا بُدَّ مِنه؛ لِأَنَّه إِذا لَم يُؤمنْ لَمْ تَنْفعلِ النَّفسُ وتَكُونُ قَابلةً لَه، فَلا يُمكـنُ أَنْ تَنفعلَ النَّفسُ لِقَبـولِ هَذا العِلاجِ إِلَّا إِذا آمَنَ بأَنَّه مُفيدٌ.

فَإِن قيلَ: هَل يُعالَجُ الكافِرُ بِالقُرآنِ؟

فَالجوابُ: نَعَمْ، يُعالَجُ بِالقُرآنِ، ورُبَّما يَكونُ عِلاجُه بِالقُرآنِ أَوْلى مِن عِلاجِ المُؤمنِ بِه؛ لِأَنَّه إِذا عَرَفَ أَنَّهُ مُؤثِّرٌ يَكونُ ذَلكَ سَببًا لِإِسلامِه.

وإِنْ قالَ قائلٌ: بَعضُ النَّاسِ يَتوسَّعُ في الرُّقيةِ الشَّرعيَّةِ ويُضيفُ فيها كَيفيَّاتٍ مِن عِندِه، فَهَلِ الرُّقيةُ مُتوقِّفةٌ عَلى ما جاءَ عَنِ السَّلفِ أَمْ لَهم أَنْ يَتوسَّعوا؟

فَالجَوابُ: الأَوْلى بِالقارئِ أَنْ يَقتَصِرَ عَلى ما جاءَ بِهِ السَّلَفُ، أَمَّا غَيرُ ما جاءَ عَنِ السَّلفِ فَهَذا رُبَّما نَقولُ: إِنَّه خاضعٌ لِلتَّجربةِ إِذا جُرِّبَ ونَفَعَ، فَالمَقصودُ النَّفعُ، وَإِذا لَمْ يُجَرَّبْ ولكنَّ الإِنسانَ يَتخرَّصُ فَالظَّنُّ بَعضُهُ إِثمٌ.

وإِنْ سَأَلَ سائلٌ عَنِ اسْتِنطاقِ الجِنِّ بِالقُرآنِ، فَبَعضُ مَن يَرْقي يَقولُ أَنَّه اسْتَنطَقَ الجِنَّ، فَقالوا لَهُ كَذا وقَالوا لَهُ كَذا؟

فَالجَوابُ: أَنَّنا لا نَدري عَن هَذا شَيئًا، فَدائمًا يَقولونَ: إِنَّهم يَسْتَنطِقونَ ودائمًا

يُعالِجونَ بِالتَّخييلِ يَضعُ القَارئُ يَدَه عَلَى رَأسِ الإنسانِ ويَقولُ: غَمِّض عَينَيك، مَاذا تَرى؟ يَقولُ: أَرى كَذا وكَذا. يَقولُ: مَنْ تَتَّهِمُ؟ فَيَقولُ: أَتَّهِمُ فُلانًا.

هَذهِ طُرُقٌ غَريبةٌ تَحتاجُ إِلَى دِراسةِ أَحوالِ هَؤلاءِ القارِئينَ ومَعرفةِ كَيْف يَتوصَّلونَ إِلى هَذا، وَمِنْ أَين جاءَهم؟!.

ثم قال اللهُ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ نَسألُ اللهَ العَافيةَ!.

قَولُه تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ مُبتدأٌ ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾ مُبتدأٌ وخَبرٌ، والجُملةُ خَبرُ المُبتدأِ الأوَّلِ الَّذي هو: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ يعني: كأنَّه قال: هو للَّذينَ آمَنوا هُدًى وشِفاءٌ، وأَمَّا الَّذين لا يُؤمنونَ فَفي آذَانِهم وَقْرٌ لا يُؤمنونَ بِاللهِ ولا بِالرُّسلِ وَلا بِالكُتبِ هَؤلاءِ: ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾ يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثِقْلٌ]؛ لأَنَّ الوَقْرَ بِمَعْنى الحِمْلِ الثَّقيلِ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ [الذاريات:٢]، يَعْني: السَّحابَ تَحْمِلُ الماءَ الكثيرَ، فَعَلى هَذا يَكونُ ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾ أي: ثِقْلٌ وصَمَمٌ فَلا يَسمعونَ وَالعياذُ بِاللهِ.

﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ فَلا يُبصِرونَ، فَصارتْ مَنافذُ الفَهْمِ عِندَ غَيرِ المُؤمِنينَ مَسدودةً لا يَسمَعونَ ولا يُبصِرونَ، فَلا يَصِلُ هُدَى القُرآنِ إِلَى قُلوبِهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾.

فَإِذا قالَ قائلٌ: كيفَ يَكونُ الكَلامُ الواحدُ لِقَومٍ هُدًى وشِفاءً ولِآخرينَ عَمًى وضَلالًا، قُلنا: هَذا بِحَسَبِ ما في القَلبِ؛ لأَنَّ اللهَ قالَ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف:٥]، ونَحنُ نَرى الغِذاءَ الحِسِّيَّ يَكونُ لِقومٍ غِذاءً وَشِفاءً، ويَكونُ لِآخرينَ

مَرَضًا وعِلَّةً، مَثَلًا: بَعضُ النَّاسِ يُحْجَبُ عَنِ التَّمرِ أَوِ العِنبِ أَوْ عَن كلِّ ما فيه حَلالٌ فَيَضُرُّه، وآخَرونَ يَنفعُهم الحَلالُ، مَعَ أنَّ الطَّعامَ واحدٌ لكنَّ المَحلَّ مُختلِفٌ، يَكونُ مَحلَّ هَؤلاءِ قابلًا له، ومَحلُّ آخَرينَ غَيرُ قابلٍ.

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المُشارُ إِلَيهمُ الَّذينَ لا يُؤمنونَ وَأَشارَ إِلَيهِمْ بِصيغَةِ البَعيدِ لَيس رِفْعةً لِشأنِهم وَلَكِنْ إِظْهارًا لِلتَّبرُّؤِ مِنهم وإِبْعادهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ يَعْني: كالَّذي يُنادَى مِن مَكانٍ بَعيدٍ، وَالَّذي يُنادَى مِن مَكانٍ بَعيدٍ يَعوقُه عَن الحُضورِ وَالِاستجابةِ أَمرانِ:

الأمرُ الأوَّلُ: أَنَّه لِبُعدِهِ قَد لا يَسمعُ النِّداءَ.

الأمْرُ الثَّاني: أَنَّه لِبُعدِهِ قَد يَرى أَنَّ الِاستجابةَ شاقَّةٌ عَليه فَلا يُجيبُ، وعَلَى هَذا فَكَونُهم يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ يَتعلَّقُ بِندائهم آفَتانِ:

الأُولَى: يَرَوْنَ المَسافةَ بَعيدةً فَيَكسِلونَ ويَرَوْنها مِن المَشقَّةِ فَيَدَعون إِجابَةَ المُنادي.

والثَّاني: أَنَّهم لَا يُدركُون المُناديَ لِبُعْدهم عَنه فَلا يُجيبونَ عَلَى الوَجْهِ المَطلوبِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أَيْ: هُمْ كَالمُنادَى مِن مكانٍ بَعيدٍ لَا يَسمَعُ].

من فَوائدِ الآيَةِ الكَريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: حِكْمةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في كَونِ الوَحيِ النَّازلِ عَلَى النَّبيِّ ﷺ على وِفقِ لُغةِ القَومِ الَّذين أُرسِلَ إِلَيهم يُؤخَذُ مِن قَولِه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت:٤٤] إلخ؛ واللهُ تَعالَى جَعلَه قُرآنًا عَربيًّا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الحُجَّةَ لا تَقومُ حَتَّى يَفهمَ الإنسانُ مَعْنى هَذهِ الحُجَّةِ، وأَنَّ مُجَرَّدَ البَلاغِ لا يُعَدُّ حُجَّةً قائمةً حتَّى يَفهَمَها مَن بلُغتِه؛ لِأَنَّك لَو أَلقَيْتَ كَلامًا عَربيًّا بِأَفصحِ ما يَكونُ عَلى قَومٍ عَجَمٍ، وهُمْ لا يَعرفونَ مَقصودَكَ أَصلًا فَلا يَفهمونَ شَيئًا، وكَذَلكَ بِالعَكسِ لَو جاء رَجلٌ أَعجميٌّ وقامَ يَتكلَّمُ بِأَفصحِ ما يَكونُ من لُغةِ العَجمِ ونَحنُ لَا نَعرفُ مُرادَه لَمْ نَفهمْ مِنه شيئًا؛ ولِهَذا قالَ تَعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم:٤].

فَإن قالَ قائلٌ: يَرِدُ عَلى قَولِكم هَذا -وَهو أَنَّه لا بُدَّ مِن فَهْمِ الحُجَّةِ بَعد بُلوغِها- قَولُه تَعالَى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩] ولَمْ يَقُلْ: ومَنْ بَلَّغ وفَهِمَ.

قُلنا: هَذا مُطلَقٌ، لكنَّ الآياتِ الأُخرَى تُقيِّدُه أَنَّه لا بدَّ مِن البيانِ والمَعرفةِ، وكَذَلكَ لَو قالَ قائلٌ: يَرِدُ عَلى قَولِكم هَذا قَولُ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعَلى آلِه وسلَّم-: «**وَالَّذي نَفْسي بِيَدِه لا يَسمَعُ بي أَحدٌ من هَذِهِ الأُمَّةِ؛ يَهوديٌّ ولا نَصرانيٌّ، ثُمَّ لَا يُؤمنُ بِما جِئتُ بِه إِلَّا كانَ مِنْ أَصحابِ النَّارِ**»[1]، قال: «**لا يَسمعُ بي**»، فَيُقالُ: لأَنَّه إِذا سَمِعَ به يَجِبُ عليهِ أَنْ يَبحثَ حتَّى وإِنْ كانَ لا يَفهمُ يَجِبُ عَليه أَنْ يَبحثَ، أَمَّا أَنْ يَترُكَ الأمرَ فَهو لا يُعذَرُ لِتَفريطِه وتَهاونِه، وعَلى هَذا فَلا بدَّ مِنْ بُلوغِ الحُجَّةِ وَلا بدَّ من فَهمِها.

وإِنْ قال قائِلٌ: فَكَيف الجَوابُ عَن قَولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ ﴾ [البقرة:٧]؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم أخرج بعث النار، رقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فالجَوابُ: خَتمَ عليها بَعد الفَهمِ؛ لِأنَّ الخَتمَ مَعناه قَدْ يَكونُ خَتْمٌ يَمنَعُ الفَهمَ، وقَدْ يَكونُ خَتْمٌ يَمنعُ الِانقيادَ كَقَولِه تَعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

ونَحنُ في الحَقيقةِ لا نَتهاونُ في تَكفيرِ مَن كَفَّره اللهُ، ولا نُبالي أَنْ نُكفِّرَ مَن كَفَّره اللهُ، لكنَّنا لا نَتجاسَرُ أَنْ نُكفِّرَ مَن لَمْ يُكفِّرْه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فَالحُكمُ بِالتَّكفيرِ وَعَدمِ التَّكفيرِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَيس إِلينا وَلا لِعَواطِفِنا، وإِلَّا لَوْ كانَ إِلَينا أَوْ إِلَى عَواطِفِنا لَكُنَّا نُكفِّرُ مَن كانَ فاسقًا، بَلْ قَد نُكفِّرُ مَن كان تاركًا لِلأَوْلَى؛ لأنَّ الإنسانَ لَا شكَّ أَنَّ مَعَه غَيرةً يَبغُضُ بِها مَن خالفَ الشَّرعَ، لكن كَونُنا نَحكُم عليه بالكُفرِ أَو بِعَدمِ الكُفرِ لَيسَ إِلَينا، بَل هو إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والخَلقُ عَبيدُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَيسوا عَبيدَنا حتَّى نَحكُمَ عَليهم بِما نَرى، بل نَحكُمُ عَليهم بِمُقتضى كَلامِ اللهِ ورَسولِهِ.

فإِذا دارَ الأَمرُ بَين أَنْ نَقولَ: هَذَا كافرٌ وهو يَنتسبُ إِلى الإِسلامِ، وبَين أَنْ نَقولَ: لَيس بِكافرٍ، فَالأحوطُ أَنْ نَقولَ: لَيس بِكافرٍ لأَنَّنا بِهذا سالِمونَ، لَكنْ لَو كَفَّرناه ثُمَّ بِناءً عَلى تَكفيرِه نَستَبيحُ دَمَه ومالَه ولا نُصَلِّي عليه وَلا نَدعو لَه بِالرَّحمةِ، فَالمَسألةُ لَيست بِسَهلةٍ، والمَسألةُ صَعبةٌ جِدًّا.

ولِهذا خَطأُ مَن يَتسرَّعون بِالتَّكفيرِ أَشدُّ مِن تَهاوُنِ مَن لا يُكفِّرونَ؛ لِما يَترتَّبُ عَلَى التَّكفيرِ مِن المَصائبِ وَالبَلاءِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ التَّناقُضَ بَين الرَّسولِ وَالوَحيِ مُستَحيلٌ، والدَّليلُ قَولُه تَعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت:٤٤] وَهَذا مُستحيلٌ أَنْ يَتناقَضَ الوحيُ ومَنْ أُوحِيَ إِليه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ القُرآنَ يَكونُ لِأَقوامٍ رَحْمةً ولِآخرينَ نِقمةً، ويَشهَدُ لِهذا قَولُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «القُرآنُ حُجَّةٌ لَك أَوْ عليك»(١). رَحمةٌ لِلمُؤمنينَ ونِقمةٌ عَلى الكَافرينَ، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الحاقة:٥٠].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّه لا يُمكنُ أَنْ يُبتغَى الهُدَى مِن غَيرِ القُرآنِ لِقولِه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ [فصلت:٤٤]، فَمَنِ ابْتَغى الهُدَى مِن غَيرِ القُرآنِ أَضَلَّه اللهُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٣-١٢٤].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ القُرآنَ شِفاءٌ مِن أَمراضِ القُلوبِ وَأَسقامِ الأَبدانِ لِقولِه: ﴿هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤].

وقد فَهِمنا أَثناءَ التَّفسيرِ أَنَّ الفاتِحةَ رُقيةٌ، كَذلكَ أيضًا إذا أَردتَ أَنْ تَرقيَ أحدًا فَانْظُر مَع الفاتحةِ الآياتِ المُناسِبةَ، فمَثلًا إذَا كنتَ تُريدُ أَنْ تَرقِيَه مِنَ السِّحرِ فَاقرأْ إضافةً لِلفاتحةِ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾؛ لِأَنَّهما السُّورَتانِ اللَّتانِ رُقِيَ بِهما الرَّسولُ ﷺ(٢).

كَذلكَ انظُرْ إِلَى آياتِ السِّحرِ الَّتي تُبطِلُ السِّحرَ مِثلَ قَولِه تَعالى عَنْ موسى: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١]، وَأَمْثالِ ذَلكَ.

وَإِذَا كُنتَ تُريدُ أَنْ تَرقيَ مِن مَرَضٍ اقْرأِ الآياتِ المُناسبةَ مِثل: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٧/ ٩٢-٩٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء:٨٠]، لِأَنَّ التَّناسبَ بَين الآياتِ الَّتي هي الدَّواءُ وبَين المَرضِ الَّذي هو الدَّاءُ لا بُدَّ أَن يَكونَ أَمرًا مُهمًّا يُراعيه الإِنسانُ.

كَما يُراعي ذلكَ في الأَدويةِ الحِسِّيَّةِ، فَالحارُّ يُعالَجُ بِالباردِ، ولِهذا قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الحُمَّى: «الحُمَّى مِن فَيحِ جَهنَّمَ فَأَبرِدوها بِالمَاءِ»(١)، وقَدْ شَهِدَ الأطبَّاءُ الآنَ أنَّ البُرودةَ لِمَنْ أُصيبَ بِالحُمَّى مِنْ أَكبرِ العِلاجِ حتَّى كانوا يَجعَلونَ المَريضَ أَحيانًا إِلَى جَنبِ المُكيِّفِ مِنْ أَجْلِ البُرودةِ، ويَضَعون أَحيانًا عَلى المَريضِ بِالحُمَّى ثَوبًا مَبْلولًا بِالماءِ مِن أَجْلِ تَبريدِه.

فَإِن قال قائلٌ: سَبقَ أَنَّ الأَصلَ إِبقاءُ المُطلَقِ عَلى ما جاء، وَهُنا بَعضُ أَهلِ العِلمِ يُقيِّدونَ بَعضَ الأَمراضِ بِآياتٍ مُعيَّنةٍ، يَقولُ: تَقرأُ آيةَ كَذا وكَذا وهَكَذا، فَهَلْ هَذا يُخالِفُ القاعدَةَ أَمْ لا؟

فالجَوابُ: هَذا لا يُخالفُ القاعدةَ فَهَذه مُوافِقةٌ لِلحِكمةِ، كَما ذَكرنا أَنَّ المَرضَ يُعالَجُ بِما يُناسبُه.

فَإِنْ قيلَ: مِنْ أَين عَرَفوا هَذا؟

فالجَوابُ: مِن حِكْمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فَيُعرَفُ هَذا مِنَ الحِكْمةِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ الإِنسانَ كُلَّما كانَ أَقوى إِيمانًا كانَ أَهدى وَأَشفى مِن قَولِه تَعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤]، وهُنا قاعِدةٌ مُفيدةٌ مُهمَّةٌ: أنَّ كلَّ حُكمٍ مُعلَّقٍ بِوَصفٍ أَوْ مُرَتَّبٍ على وَصْفٍ، فَإِنَّه يَقوى بِقُوَّةِ ذَلك الوَصْفِ ويَضْعُفُ بِضَعفِ ذَلك الوَصْفِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٦٣)، ومسلم: كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي، رقم (٢٢١٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بَلاغةُ القُرآنِ بِتَصويرِ المَعقولِ بِصورَةِ المَحسوسِ، فَهؤلاءِ الَّذين لا يُؤمنونَ لَوْ أَنَّك نَظَرتَ إِلَيهم نَظرةً حِسِّيَّةً لم تَجِدْ: ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾؛ لِأنَّهم يَسمَعونَ، وَقَدْ يَكونونَ أَقوى سَمْعًا مِن المُؤمنِينَ، ولَمْ تَجِدْ أَيضًا أَنَّهمْ إِذَا قُرِئَ عليهمُ القُرآنُ عَميَتْ أَعينُهم كَما قالَ: ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾، ولَمْ تَجِدْ أَنَّهمْ يُنادَون مِن مَكانٍ بَعيدٍ، بَل تُعْرَضُ عَليهم الدَّعوةُ إِلَى جَنْبِ الدَّاعي، لَكنَّ هَذا مِن بَلاغةِ القُرآنِ أَنْ يُصَوِّرَ الشَّيءَ المَعقولَ بِصورَةِ المَحسوسِ حتَّى يَكونَ أَقربَ إِلى الفَهمِ، فَهُنا صَوَّر اللهُ حالَ هَؤلاءِ بأَنَّهمْ صُمٌّ وبأنَّهم عُمْيٌ وبِأنَّهمْ بَعيدونَ مِن الدَّاعي.

الآية (٤٥)

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت:٤٥].

﴿ءَاتَيْنَا﴾ أَعْطَيْنَا، والإِيتاءُ هُنا إِيتاءٌ شَرعيٌّ قَدَريٌّ، إِيتاءٌ شَرعيٌّ؛ لِأَنَّه أُضيفَ إِلَى الوَحْيِ، وقَدَرِيٌّ؛ لِأَنَّه وَقَعَ فِعلًا.

وَموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو أَفضلُ أَنْبياءِ بَني إِسرائيلَ، وهو بالنِّسبةِ لِأُولي العَزمِ بِالمَرتبةِ الثَّالثةِ؛ لِأَنَّ أُولي العَزمِ خَمسةٌ، أَفضلُهم مُحَمَّدٌ ﷺ ثُمَّ إِبراهيمُ ثُمَّ موسى، وَهو -أَيْ مُوسَى- أَكثرُ الأنبياءِ أَتْباعًا بَعْدَ الرَّسولِ ﷺ لِحَديثِ: «**أَنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رَأى سَوادًا عَظيمًا قَدْ سَدَّ الأُفقَ فَقيلَ: هَذا موسى وقَومُه**»(١).

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التَّوراةِ] وسُمِّيتْ كتابًا لأَنَّها مَكتوبَةٌ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥] فَهي نَزَلت مَكتوبةً.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ بِالتَّصديقِ والتَّكذيبِ كَالقُرآنِ]، اخْتَلفَ فيه أَقوامُه، قَومُ موسى اخْتَلفوا، فَمِنهم مَنْ صَدَّقَ، ومِنهم مَن كَذَّب، لكنَّ قَومَ موسَى مَشهورونَ بِالعُتُوِّ والطُّغيانِ والاِستِكبارِ العَظيمِ وَالجهلِ العَميقِ، لَـمَّا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره، رقم (٥٧٠٥)، ومسلم: كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، رقم (١١٣٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

مَرُّوا بأَقوامٍ يَعبدونَ غيرَ الله: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، وَلَمَّا صَنَعوا مِنَ الحُلِيِّ عِجلًا قَالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾، فَجعلوا العِجلَ الَّذي صَنَعوه بِأَيديهِمْ إِلهًا، نَسأَلُ اللهَ العافيةَ.

قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ [فصلت:٤٥]، لَـمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعالَى هَذا الكِتابَ العَزيزَ، وَأَنَّه لِلَّذينَ آمَنوا هُدًى وشِفاءٌ وللَّذين في قُلوبِهم مَرضٌ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ بَيَّنَ ما كانَ مِنَ الأُممِ السَّابقةِ نَحوَ كُتُبِهم فَقالَ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [فصلت:٤٥] ﴿آتينا﴾ بمَعْنى أَعْطَيْنا، الجُملةُ هَذِه مُؤَكَّدةٌ بِثَلاثةِ مُؤكِّداتٍ وَهي:

القَسَمُ وَاللَّامُ وَ(قَدْ) وَتَقديرُ الكلامِ: وَاللهِ لَقدْ آتَيْنا، وَهو يَقَعُ كَثيرًا في الكِتابِ العَزيزِ، أَيْ: مِثْلُ هَذِه الصِّيغَةِ تَقَعُ كَثيرًا في القُرآنِ، وقَولُه: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ هَذا الإِتيانُ إِتيانٌ كَونيٌّ وشَرعيٌّ، فاللهُ تَعالى قَد أَنزلَ عليه التَّوراةَ فِعلًا، وقَدْ آتاهُ الحُكمَ بِها.

و﴿مُوسَى﴾ هو ابْنُ عِمرانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَفضلُ أَنبياءِ بَني إِسرائِيلَ، وَهو في المَرتبةِ الثَّالثةِ بِالنِّسبةِ لِأُولي العَزمِ؛ لِأَنَّ أُولي العزمِ هُم خَمسةٌ أَفْضلُهم مُحَمَّدٌ ﷺ، ثُمَّ إِبْراهِيمُ ثُمَّ موسى عليهم الصلاة والسلام.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التَّوراةُ] وسَمَّاها اللهُ تَعالى كِتابًا؛ لأَنَّ اللهَ كَتبها بِيدِه تَباركَ كَما قالَ تَعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥].

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ بِالتَّصديقِ وَالتَّكذيبِ كَالقُرآنِ] أَيِ: اخْتَلفَ النَّاسُ فيه فَمِنهم المُصدِّقُ ومِنهم المُكذِّبُ كَما كان النَّاسُ أيضًا بالنِّسبةِ لِلقُرآنِ،

وهَكذا جَميعُ الأُممِ بِالنِّسبةِ لِما جاءت بِه الرُّسلُ مِنهمُ المُصدِّقُ وَمِنهمُ المُكذِّبُ، كَذلِكَ أيضًا جَميعُ ما جاءَتْ بِه الرُّسُلُ يَختلِفُ النَّاسُ فيه بَين مُؤمنٍ وكافرٍ، وهَذا تَسليةٌ لِلرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وَعَلى آله وَسلَّم-.

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [فصلت:٤٥]، ﴿وَلَوْلَا﴾ هَذه حَرْفُ شَرطٍ، وَهي كَما قال النُّحاةُ: حَرفُ وُجودٍ لِعَدمٍ، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ هَذا مَوجودٌ ﴿لَقُضِيَ﴾ هَذا مَعدومٌ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتَأخيرِ الحِسابِ وَالجَزاءِ لِلْخلائِقِ إِلَى يَومِ القِيامةِ]، فَإنَّ الجَزاءَ الكامِلَ إِنَّما يَكونُ يَومَ القِيامةِ، أَمَّا في الدُّنيا فَهو جزاءٌ لَا شكَّ يُعاقَبُ فيه المُجرمونَ ويُفلحُ فيه المؤمنونَ، لَكنَّه لَيس الجَزاءَ الكاملَ مِن كلِّ وَجهٍ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدُّنيا فيما اختَلفوا فيه]، وَالمُرادُ بِذلك القَضاءُ التَّامُّ فَلا يُنافي هَذا ما وَقعَ لِآلِ فِرعونَ مِنَ الغرقِ وَالهَلاكِ لَمَّا كَذَّبوا موسَى ﷺ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أَيِ: المُكذِّبينَ بِه ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ مُوقعٌ في الرِّيبةِ].

من فوائدِ الآيَةِ الكَريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَأكِيدُ الكَلامِ إِذا دَعَتِ الحَاجةُ إِلَيه، إِمَّا لِأَهمِّيَّتِه، وإِمَّا لِلشَّكِّ فيه، وإِمَّا لِإنكارِه، قالَ عُلماءُ البَلاغةِ: والمُخاطَبُ لَهُ ثَلاثُ حالاتٍ:

الحالُ الأُولَى: حَالُ ابتداءٍ وَهي أَلَّا يَكونَ عِندَ المُخاطَبِ عِلمٌ ولا تَردُّدٌ ولا إِنكارٌ،

هَذا تُلقى إِليهِ الجُملةُ غَيرَ مُؤكَّدةٍ؛ لأَنَّه لا حاجةَ لِلتَّوكيدِ، مِثلَ أَنْ يُقالَ: قَدِمَ فُلانٌ اليومَ لِإِنسانٍ لَمْ يَكُنْ في قَلبِه شيءٌ مِن قُدومِه إِثباتًا وَلا نَفيًا، وَتُسمَّى هَذِه الجُملةُ ابتِدائيَّةً.

الحالُ الثَّانيةُ: أَنْ يَكونَ المُخاطَبُ مُتردِّدًا في الأمرِ شاكًّا فيه لَكنَّه لَا يُنكِرُه، فَهَذا يَحتاجُ إِلى تَوكيدٍ لكنَّه لَيس بواجبٍ، مِثل أَنْ تُخاطِبَ رَجُلًا في أَمرٍ يَستَبعدُه لكنَّه لَا يُنكرُه، فهُنا يَحسنُ أَنْ تُؤكِّدَ لَه الكَلامَ من أَجلِ أنْ يَزولَ عَنه الشَّكُّ وَالتَّردُّدُ.

الحالُ الثَّالثةُ: أَنْ يَكونَ مُنكِرًا مُكذِّبًا، فَهذا يَتعيَّنُ تَوكيدُ الخبرِ لَه؛ لِأَنَّ ذَلكَ أَبلغُ في إِقامَةِ الحُجَّةِ عَليهِ وَإِقْناعِه.

إِذن: أَحوالُ المُخاطَبِ ثَلاثةٌ: ابتداءٌ، وتَردُّدٌ، وإِنكارٌ، ولِكلِّ حالٍ حُكمُها فِيما يَتعلَّقُ بِالتَّوكيدِ.

فَإِنْ قال قائلٌ: يَرِدُ عَلى كَلامِكم هَذا قَولُه تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٥-١٦] وَالمُرادُ الجُملةُ الأُولى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ فَلا أحدَ يُنكرُ الموتَ حتَّى يُؤكَّدَ لَه، أَجابوا عَنْ ذَلكَ بأَنَّ تَكذيبَهم وإِنكارَهم وَاستِكبارَهم وتَمرُّدهم يَفعلونَ ذَلِكَ فِعلَ المُنكِرِ فخوطِبوا خِطابَ المُنكِرِ، وهَذا لَا شكَّ أَنَّه جَوابٌ صَحيحٌ.

وقولُه تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ مُؤكَّـدٌ بثَلاثِ مُؤكِّـداتٍ؛ لِأَهمِّيَّةِ المَوضوعِ؛ لِأَنَّ المَوضوعَ مُهِمٌّ فَيحتاجُ إِلَى التَّوكيدِ لِتَسليةِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وإِنْ قال قائلٌ: هَلِ الجُملةُ الخَبريَّةُ تُؤكَّدُ لِلاهتمامِ بِالأَمرِ؟

فَالجوابُ: أَنَّ تَوكيدَ الخَبرِ لِلاهتمامِ بِه وَإِنْ كانَ المُخاطَبُ مُقِرًّا حالَ المُخاطِبِ

لا تَستدعي التَّوكيدَ؛ لِأَنَّه مُقِرٌّ لكنَّ الاِهتمامَ بِه اقْتضَى التَّوكيدَ مَثلًا: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة:١] إنْ خاطَبنا بِهِ المُؤمنَ فَهو لِلتَّوكيدِ فَقَطْ وَالاِهتمامُ بِالأمرِ، وَإِنْ خاطَبنا بِه المُنكِرَ صارَ لِلإنكارِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ رِسالةِ موسَى تُؤخذُ مِن قولِه تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾، ووَجهُ ذَلك أَنَّ الكِتابَ لَا يُؤتَى إِلَّا لِنبيٍّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وُجوبُ الإيمانِ بِأنَّ اللهَ تَعالى آتَى موسى كِتابًا؛ لِأنَّ اللهَ أَخبرَ بِه وخَبرُه حَقٌّ، ولأنَّ ذَلك مِن الإيمانِ بِكُتب اللهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الخِلافَ لَم يَكنْ بِدْعًا في الأُممِ، وقَدْ سَبقَ هَذه الأُمَّةَ مَنِ اختلفوا في كُتُبِهم ورُسلِهم لِقَولِه: ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَسليةُ المُصابِ بِذِكرِ المُشارِكِ لَه؛ لأنَّ الغَرضَ مِنَ الإخبارِ بِأنَّ اللهَ آتى موسى الكِتابَ ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾، تَسليةُ النَّبيِّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وعَلى هَذا فَينبَغي تَسليةُ المُصابِ، ومِنه ما يُسمَّى بِتعزيةِ المُصابِ بِالمَوتِ، فَمَن أُصيبَ بموتٍ، فَإِنَّ مِنَ السُّنَّةِ أَنْ يُعزَّى أي: يُقَوَّى على الصَّبرِ عَلى المُصيبةِ، وتَسليةُ المُصابِ سُنَّةٌ لِما في ذَلك مِن رَفعِ أَلَمِ المُصيبةِ عَن أَخيكَ المُسلمِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: حِكمةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِتَأخيرِ العَذابِ عن مَنْ كَذَّبوا الرُّسلَ؛ لِأنَّ اللهَ تَعالى جَعلَ لك شيئًا قَدَرًا، فمِنْ حِكمَتِه تَأخيرُ العذابِ عَنِ الأُممِ لَعلَّهم يَرجِعونَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَمامُ سُلطانِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأَنَّه جَلَّوَعَلَا هو المُدبِّرُ لِلأمورِ أَخْذًا ورَفْعًا لِقولِه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ [فصلت:٤٥].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: رِفعةُ مَنزلةِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِندَ اللهِ تُؤخذُ مِن قَولِه: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فَأضافَ الرُّبوبيَّةَ إليه، وَهذه رُبوبيَّةٌ خاصَّةٌ، وهي تُفيدُ عُلُوَّ مَنزلةِ المَربوبِ عِندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وقَدِ اجْتمعتِ الرُّبوبيَّتانِ العامَّةُ والخاصَّةُ في قَولِ السَّحَرةِ مِن آلِ فِرعونَ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:١٢١] ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٢] الأُولى: رَبُّ العالَمينَ عامَّةٌ، والثَّانيةُ: خَاصَّةٌ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ اللهَ تَعالى يُكَنِّي عَنِ الشَّرِّ بِبناءِ الفِعلِ لِما لَمْ يُسمَّ فاعِلُه لِقولِه: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ولم يَقُلْ: لَقَضى بَينهُم، وهَذا هو المُطَّردُ في القُرآنِ وَالغالبُ، وَانْظُرْ إِلَى أَدَبِ الجِنِّ حيثُ قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠] أَدَبٌ عالٍ، فَقالوا في الشَّرِّ: ﴿أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وَلَمْ يُضيفوه إِلَى اللهِ، وفي الرُّشدِ قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ولم يَقولوا: أَمْ أُريدَ بِهم رَشدًا.

وهَذا مِنْ أَدبِ الجنِّ، والجنُّ أَحيانًا يَكونونَ آدَبَ مِن الإنسِ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ [الأحقاف:٢٩]، أَوصى بَعضُهم بَعضًا أَنْ يُنصِتوا حتَّى يَستمِعوا استِماعًا تامًّا، ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أيضًا لَمْ يَتوقَّفوا أَوْ يَكسلُوا، ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩] بادَروا إِلى قَومِهم مُنذِرينَ: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا ...﴾ إِلَخْ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أَنَّ المُكذِّبينَ بكِتابِ مُوسَى في شكٍّ مُريبٍ مُوقِعٌ في الرَّيبِ، وهو الشَّكُّ مَع القَلقِ يَعْني: الفَرقُ بَينَ الرَّيبِ والشَّكِّ قَريبٌ؛ ولِهذا يُفسِّرُ بَعضُ العُلماءِ الرَّيبَ بِالشَّكِّ، ولكنَّ شَيخَ الإِسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «هَذا تَفسيرٌ قَريبٌ»[1].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٢).

والرَّيبُ أَخصُّ مِن مُطلَقِ الشَّكِّ إِذْ إِنَّ فيه قلقًا مَع ريبةٍ، وذَلكَ لِأَنَّ الأمرَ المشكوكَ فيه إمَّا أَلَّا يَكونَ ذا أَهمِّيَّةٍ فتَجدُ الشَّاكَّ فيه يَقولُ: ما يَهُمُّني ثَبتَ أَم لَم يَثْبُتْ، وإِمَّا أَنْ يَكونَ ذا أَهمِّيَّةٍ فحينئِذٍ إِذا شَكَّ فيه سيكونُ في قَلقٍ أَيُؤمنُ بِهذا أَمْ يُنكرُ؛ لِأَنَّهُ أَمرٌ هامٌّ، فَالغالبُ أَنَّ الرِّيبةَ لا تَأتي إِلَّا في الأُمورِ الهامَّةِ، وأَمَّا الشَّكُّ الَّذي يُشَكُّ هَلْ فُلانٌ قَدِمَ أو ما قَدِمَ، وليس له أَهمِّيَّةٌ في قُدومِه أو غيابِه، فَهذا لَا يوجبُ الرِّيبةَ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الإيمانَ يَجِبُ أَلَّا يُخالطَه شَكٌّ، وأنَّه إذا وَرَدَ عَلَى القَلبِ شَكٌّ ولَو يَسيرًا بِشَرطِ أَلَّا يُدافعَه بَل يَركنُ إِليه، فَإِنَّ هذا مُحبِطٌ لِإيمانِه، أَمَّا لَو وَرَدَ الشَّكُّ عَلى القَلبِ وطَرَدَه وجاهَدَ نَفسَه عَلى دَفعِه، فَهذا لا يَضُرُّه شيئًا، ولِهذا أَخبرَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «**أَنَّ النَّاسَ يَتساءلونَ مَنْ خَلَقَ كذا مَنْ خَلَقَ كذا؟ حتَّى يَقولوا: مَنْ خَلَقَ اللهَ؟**» وهذا شَكٌّ ولَكنَّ الرَّسولَ أَخبرَ قَالَ: «**فَإذا بَلَغَ أحدُكم ذَلكَ -أو كَلمةً نَحوها- فَليَستَعِذْ بِاللهِ ولْيَنْتَهِ**»[1]، وأخبرَه الصَّحابةُ أنَّهم يَجِدون في نُفوسِهِمْ مَا يُحبُّونَ أَنْ يَكونوا حِممًا -أي: فَحْمةً مُحتَرِقَةً- ولَا يَنطقونَ بِه، فقالَ ﷺ: «**ذاكَ صَريحُ الإِيمانِ**»[2].

فالحاصِلُ: أَنَّ الشَّكَّ الواردَ عَلى القَلبِ إِنِ اطْمأنَّ بِه الإِنسانُ ورَكَنَ إِليه، فَلْيَعلمْ أَنَّه ليس بِمؤمنٍ؛ لأنَّ الإِيمانَ يُنافيه شيئانِ: الشَّكُّ، والإِنكارُ. أَمَّا إِذا وَرَدَ عَلى القلبِ وطارَدَه وجاهَدَ نَفسَه عَلى تَرْكِه، فَفي هَذه الحالِ لا يَضُرُّه، بَلْ هذا صَريحُ الإيمانِ وخالصُ الإِيمانِ، وذَلكَ أَنَّ الشَّيطانَ لا يوردُ مِثلَ هذِه الأُمورِ عَلى قَلبِ مَيِّتٍ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، رقم (١٣٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، رقم (١٣٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالقلبُ الميِّتُ مُستريحٌ مِنه، إنَّما يورِدُها على قَلْبٍ حَيٍّ لِيُميتَه، ولَمَّا ذَكَر اليَهودُ لابنِ مَسعودٍ أَوْ لِابنِ عَبَّاسٍ أَنَّهم لا يُوَسْوَسونَ في صَلاتِهِمْ، يُريدونَ بِهذا أَنْ يَفتَخِروا على المُسلمينَ، قال: صَدَقوا وما يَصنعُ الشَّيطانُ بِقلبٍ خَربٍ. وهذه كَلمةٌ عَظيمةٌ! يَعني: أنَّ قُلوبَهم خَرِبَةٌ، والشَّيطانُ ماذا يَصنَعُ في قَلبٍ خَرابٍ؟ أَيَأتي إليه لِيُخرِبَه؟ الجوابُ: لا، إنَّما يَأتي الشَّيطانُ بِهَذه الوَساوسِ إلى قَلبٍ حَيٍّ لِيُهلِكَه أو يُمرِضَه.

• • ۞ • •

الآية (٤٦)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦].

قوله: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ هَذه جُملةٌ شَرطيَّةٌ أَداةُ الشَّرطِ فيها ﴿ مَّنْ﴾ وفِعلُ الشَّرطِ ﴿عَمِلَ﴾ وجوابُ الشَّرطِ ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ تَمامُ هَذه الجُملةِ شرطيَّةٌ، واقْتُرِنَتْ بِالفاءِ لِأنَّها جُملةٌ اسميَّةٌ إِذِ التَّقديرُ: فَعَمَلُه لِنفْسِه، وقَدَّرَها المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِقولِه: [﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ عمل]، ولَكِنْ إذا قَدَّرناها جُملةً اسميَّةً فَلا حَرَجَ.

﴿صَٰلِحًا﴾ صِفةٌ لِموصوفٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: عَملًا صالحًا، والعَملُ الصَّالحُ مَا اجْتَمعَ فيه أَمرانِ:

الأَوَّلُ: الإِخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

والثَّاني: المُتابَعةُ لِشَريعةِ اللهِ، وَلا نَقولُ هنا: المُتابَعةُ لِمُحمَّدٍ ﷺ لأَنَّنا نَتكلَّمُ عَن العَمَلِ الصَّالحِ في هَذه الأُمَّةِ وَفي غَيرِ هَذه الأُمَّةِ، فَنقولُ: الإِخلاصُ للهِ والمُتابَعةُ لِشريعةِ اللهِ؛ لِيَشملَ ما كانَ في أُمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ وما كان في أُمَمٍ سابقةٍ.

إِذا فَقَدَ الإِخلاصَ فَليس بِصالحٍ؛ لأَنَّه شِركٌ مَردودٌ على صَاحبِه، قال اللهُ تَعالى في الحَديثِ القُدسيِّ: «أَنا أَغنى الشُّركاءِ عَنِ الشِّركِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْركَ فيه مَعي

غيري تَرَكْتُه وشِرْكَه»[١]، ومَنْ أَخلصَ لكن عَلَى غَيرِ شَريعةِ اللهِ فَعَمَلُه بِدعةٌ مَردودٌ؛ لِقولِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عَليه وعلى آلِه وسلَّم-: «مَنْ عَمِلَ عملًا لَيس عَليه أَمرُنا فَهو رَدٌّ»[٢]. وَفي رِوايةٍ: «مَنْ أَحدثَ في أَمرِنا هَذا ما لَيس مِنه فَهو رَدٌّ»[٣].

قَولُه: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ يَعْني: فَالمَصلحةُ لِنفسِه، فَإِنَّ ذَلك لا يَنفعُ اللهَ شيئًا، ولِهَذا قال اللهُ تَعالى في الحَديثِ القُدسيِّ الَّذي رَواه أَبو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ اللهَ قال: «يا عِبادي لَو أَنَّ أَوَّلَكم وآخِرَكم وإِنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أَتْقى قَلبِ رَجلٍ واحدٍ مِنكم ما زاد ذَلِكَ في مُلْكي شيئًا»[٤]. لِماذا؛ لِأَنَّ اللهَ تَعالى لا يَنتفعُ بِطاعةِ الطَّائعينَ، وَلا يَتضرَّرُ بِمعصيةِ العاصينَ، فَالعملُ لِنفسِك.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: فَضرَرُ إِساءتِه عَلى نَفسِه]، وَلَوْ قُلنا: التَّقديرُ فَإِساءَتُه عليها لَكفى، مَنْ أَساءَ، أي: عَمِلَ عَملًا غَيرَ صالِحٍ، وَالَّذي يَدُلُّنَا عَلى أَنَّ المُرادَ بِالإِساءَةِ هُنا العَملُ غَيرُ الصَّالحِ أَنَّهُ قُوبِلَ بِما سَبَقَ بِمَن عَمِلَ عَملًا صالحًا، وهَذا أَحدُ الطُّرقِ الَّتي يُعرفُ بِها تَفسيرُ القُرآنِ الكَريمِ بَلْ وغَيرُهُ مِن الكَلامِ، إِذا ذُكِرَ الشَّيءُ ثُمَّ ذُكِرَ ما بَعدَه عَلى وَجهِ المُقابَلةِ فيُفسَّرُ ما بَعدَه عَلى ضِدِّ ما قَبله، وَمِن ذَلكَ قَولُه تَعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١] لَو أَنَّك

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تأمَّلتَ ما مَعنى ﴿ثُبَاتٍ﴾ هل مَعناها انفِروا ثَابِتينَ على الجِهادِ؟ لا، بَلْ يُفسِّرُها ما بَعْدَها: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ فَيكونُ مَعْنى ثُباتٍ أي: فُرادَى: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾، إذن الإساءَةُ تَكونُ إمَّا بالإشراكِ بِاللهِ كالرِّياءِ مثلًا، وإمَّا بِالبدعةِ كَبِدَعِ الصُّوفيَّةِ وغَيْرِهم مِن أَصْحابِ الطُّرُقِ الَّذين هم مُخلصونَ إلى اللهِ ويَودُّونَ التَّقرُّبَ إلَى اللهِ لكن بغيرِ ما شَرَعَ اللهُ، فكانوا ضالِّين كالنَّصارى تمامًا.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أَيْ: بذي ظُلمٍ] ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ هذه كقَولِه فيما سَبَق: ﴿سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ [فصلت:٤٥].

و﴿وَمَا﴾ هُنا حِجازيَّةٌ، فَكُلُّ ما في القُرآنِ حِجازِيٌّ؛ لِأَنَّهُ بِلُغةِ قُريشٍ، وعلى هَذا فمتى أَتَتكَ ﴿مَا﴾ فَهي حِجازيَّةٌ، قال الله تَعالَى: ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف:٣١] وَلَو كانتْ تَميميَّةً لقالَ: ما هَذا بَشَرٌ، لكن قال: ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا﴾.

إذن: كُلَّما أَتَتْكَ ﴿مَا﴾ الَّتي تَكونُ دائرَةً بَينَ الحِجازيَّةِ والتَّميميَّةِ فَاجعَلْها حِجازيَّةً، فهُنا نَقولُ: ﴿مَا﴾ حِجازيَّةٌ و(رَبُّ) اسْمُها وَ﴿بِظَلَّـٰمٍ﴾ خَبَرُها لكنَّه جُرَّ بِحَرفِ الجَرِّ الزَّائدِ.

وقَولُه: ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ هَلِ الخطابُ لِلرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وَليس عَامًّا، فسياقُ الآيةِ يَدُلُّ على أَنَّه خاصٌّ بِالرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولكن لِيعلمَ أَنَّ ما وُجِّهَ الخِطابُ فيه إلى رَسولِ اللهِ ﷺ، فَإِنَّهُ لَا يَعْني: أَنَّ الحُكمَ خَاصٌّ بِه، بَلْ هو لَه ولِلْأُمَّةِ؛ ولِهذا نَقولُ: الخطابُ المُوجَّهُ إِلَى الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَنقسمُ إِلَى ثلاثةِ أَقسامٍ:

الأَوَّلُ: مَا دَلَّ الدَّليلُ على أَنَّه خَاصٌّ بِهِ كَقَولِه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] هَذا خاصٌّ بِالرَّسولِ.

الثَّاني: ما دَلَّ الدَّليلُ على أنَّه عامٌّ كَقَولِه تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ وهَذا خطابٌ للرَّسولِ: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق:١] هَذا عامٌّ؛ لأنَّه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ وَمِنه قَولُ اللهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم:١-٢] فأَوَّلُ الآيةِ خاصٌّ والثَّاني عامٌّ.

الثَّالثُ: ما لا دَليلَ فيه عَلى هَذا ولا عَلى هَذا، فَهو خَاصٌّ بالرَّسولِ، لَكن لَنا فيه أُسوَةٌ، وقيلَ: إنَّه للأُمَّةِ لكن خوطِبَ بِها الرَّسولُ؛ لأنَّه قائدُها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: بذي ظلم] إشارَةٌ مِنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنَّ «ظَلَّامَ» صيغةُ نِسبةٍ وليست صيغةَ مُبالغةٍ؛ لأنَّ فعَّالًا تأتي للنِّسبةِ كنَجَّار وحدَّاد وخشَّاب، وما أَشبهَ ذَلكَ، وتأتي للمُبالَغةِ، فَهُنا (ظَلَّامٌ) يَتعيَّنُ أَنْ تكونَ للنِّسبةِ؛ لأنَّك لو جَعلتَها لِلمبالغةِ لكان المَنفيُّ هو المُبالغةُ في الظُّلمِ دونَ أَصلِ الظُّلمِ؛ وَالمعلومُ أَنَّ اللهَ تَعالَى مَنفيٌّ عَنه الظُّلمُ أَصلُه والمُبالغةُ فيه، إذن يَتعيَّنُ أَنْ نَقولَ: إنَّ (ظَلَّام) صيغةُ نِسبةٍ ولَيست صيغةَ مُبالغةٍ؛ ولهذا فَسَّرها بِقولِه: [أي: بذي ظُلمٍ] واستَدلَّ لِذلكَ بِقَولِه تَعالى: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾] [النساء:٤٠]. وَمَنِ انتَفى عَنه الظُّلمُ في مِثقالِ ذرَّةٍ لا يُمكنُ أَنْ يَكونَ لَديه ظُلمٌ بأَكثرَ، وَلا بِمثقالِ ذرَّةٍ أيضًا، وَلا بِدونِ مِثقالِ ذرَّةٍ.

فَإن قالَ قائلٌ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ مَفهومُه أَنَّ ما دونها يُمكنُ؟

قُلنا: لا؛ لأنَّ مِثقالَ ذَرَّةٍ جِيءَ به على سَبيلِ المُبالغةِ لا التَّمثيلِ، وَما كانَ قَيدًا لِلمبالغةِ، فإنَّه لا مَفهومَ لَه، أَرَأَيتُم قَولَ الرَّسولِ ﷺ: «مَنِ اقتطعَ شِبرًا مِنَ الأَرضِ ظُلمًا طُوِّقَه يومَ القيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضينَ»[1]، فهَل نَقولُ: مَنِ اقْتطعَ نِصفَ شِبرٍ لا يُعاقَبُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئا من الأرض، رقم (٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، رقم (١٦١٢/ ١٤٢) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

عليه؟ لا، لَكن ذَكَرَه على سَبيلِ المُبالغةِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي: بِذي ظُلمٍ]. وقولُه: ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾ أيِ: العبيدِ كونًا لا شَرعًا، يَعني: لَنْ يَظلمَ أَحدًا حتَّى الكافرَ لا يَظلمُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

فإنْ قال قائلٌ: إنَّ اللهَ تَعالى -وحاشاه- يَظلمُ الكافرَ، فَالكافرُ مُتِّعَ في الدُّنيا ولنَقُلْ: أَلْفَ سَنَةٍ على كُفرِهِ وسيَخْلدُ في النَّارِ إلى الأَبَدِ آلافَ ومَلايينَ السِّنينَ مع أَنَّه لَمْ يَكفُرْ إِلَّا أَلفَ سَنَةٍ، فَالعُقوبةُ زائدةٌ عَلى العملِ، وَهَذا ظُلمٌ!

قُلنا: كَلَّا وَاللهِ إنَّ اللهَ تَعالى أَعذَرَ إلى هَذا الرَّجلِ ببَعثِ الرُّسلِ وَإِنزالِ الكُتبِ وأَعطاهُ عَقلًا وَقالَ: إنْ فعلتَ كَذا عذَّبتُك أَبد الآبدينَ فَأقدمَ باختيارِهِ، فَإذا فَعَلَ ما يُوجبُ هَذه العُقوبةَ بِاختيارِه ثُمَّ عوقبَ بِهَا لا يُقالُ: إنَّه مَظلومٌ، إلَّا إذا كان جاهلًا بِالعُقوبةِ لَقُلنا: نَعَم، الواجبُ أَلَّا يُعاقبَ إلَّا بِمِقدارِ ذَنبِهِ كَمًّا وكَيفًا، لكنَّا نَقولُ: إنَّ هذا الرجُلَ قَد عَلِمَ وأُعذِرَ إليه بِإرسالِ الرُّسلِ وبَيانِ ما يُعذَّبُ به، ومَع ذَلك أصرَّ كأنَّه يَقولُ: أَنا لا أُبالي إذا عُذِّبتُ أَبَدَ الآبدينَ، وحِينَئذٍ يَكونُ هو الَّذي جَنَى عَلى نَفسِه وفَعَلَ ما يوجبُ هذا العذابَ المؤبَّدَ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾.

مِنْ فَوائدِ الآيةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: الحثُّ عَلى العَملِ الصَّالحِ لِقولِه: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦ﴾؛ لِأَنَّك مَتَى عَلِمتَ أَنَّ عَمَلَك لنَفسِك فسوفَ تَجتهدُ في هذا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ لا إِخلاصَ فيه فهو ضررٌ على صاحبِه ولَيس لَه، لِأَنَّنا فَسَّرنا العَمَلَ الصَّالحَ بأَنَّه ما جَمَعَ بَين شَرطينِ؛ الإِخلاصِ والمُتابَعةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ مَنْ عَمِلَ عملًا بِدْعيًّا فعَمَلُه عليه لا له؛ لأَنَّه لا يَدخُلُ في

العَملِ الصَّالِحِ، وكَثيرٌ مِن إِخوانِنا الَّذين يَعمَلون بهَذه البِدَعِ تَجِدُهم يَبكون ويَخشَعون وتَلينُ قُلوبُهم، ولَهم مِنَ البُكاءِ ما لا يَكونُ عِندَ المُخلِصينَ المُتَّبِعينَ، فَهؤلاءِ نَقولُ لَهمْ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤]، فَلا يَخدعنَّكَ هذا الشَّيءُ الَّذي يَقَعُ مِنهم؛ لأنَّ هَذا مِنْ إِغْواءِ الشَّيطانِ لَهمْ وغُرورِه إِيَّاهمْ.

فإِنْ قال قائلٌ: قولُه تَعالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ هل يُقصَدُ به قَولُه بَعدَه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾؟

فالجَوابُ: أنَّ كلَّ مَنْ عَمِلَ عَملًا سَيِّئًا وهو يَظنُّ أنَّه مُحسنٌ داخلٌ في الآيةِ وإِنْ كانَ بَعدَها قَولُه تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾، لَكنَّها تَشملُ حتَّى غَيرَهُمْ.

فإِنْ قالَ قائلٌ: هَل نتَّبعُ مثلَ هَذا السَّبيلِ الَّذي ذُكِرَ في الآيةِ؟

فالجَوابُ: نَعَمْ نَتَّبعُ هَذا فَنحكُمُ عَلى ما ثَبَتَ قُبحُه بِعَمَلٍ مُعَيَّنٍ أَنْ يُشارِكَه ما وافقَه في العِلَّةِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّهُ لا يُمكنُ أَنْ يَصِلَ ثَوابُ العَمَلِ الصَّالِحِ إِلَى الغَيرِ لِقولِه: ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾، وبِهَذا أَخَذَ أَكثرُ العُلماءِ وَقالوا: إِنَّ الميِّتَ لا يَنتفعُ إِلَّا بِعَمَلِ وَلَدِه فَقَطْ، أَمَّا غَيْرُهُ فَلا، يَعْني: لَو أَنَّك اعْتمرْتَ لِصَديقٍ لَك مَيِّتٍ أو حَيٍّ لا يَستطيعُ العُمرةَ، فإِنَّ ذلكَ لَا يَنفَعُه؛ لأنَّ ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ لا يَتعدَّى غَيرَه، وما جاءتْ به السُّنَّةُ مِن صيامِ المَرأةِ نَذْرَ شَهرٍ على أُمِّها[1] أو حَجِّها عَن أَبيها الَّذي لا يَثبتُ على

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٣٨)، والنسائي: كتاب الأيمان والنذور، باب من نذر أن يصوم ثم مات قبل أن يصوم، رقم (٣٨١٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفيه: عن أختها.

الرَّاحلةِ[١]، فهَذا إِنَّما وَقَعَ مِن الوَلَدِ، وقَدْ قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ أَطيبَ ما أَكَلتم مِن كَسبِكم وإنَّ أَولادَكُمْ مِنْ كَسبِكم»[٢].

فالعملُ مِن كَسبِ الأبِ وَالأُمِّ، وهو جُزءٌ مِنْ أَبيه كَما قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-: «فاطمَةُ بِضعةٌ منِّي يَريبُها ما رابَني»[٣]، قال ذَلكَ عَلى المِنبرِ، وأَشارَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هَذا الحديثِ -وَهو حَديثٌ طَويلٌ- إِلى التَّنديدِ بِعليِّ بنِ أَبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأَثنى على أَبي العاصِ بْنِ الرَّبيعِ زَوْجِ ابْنتِهِ زَيْنبَ فَقال: «حَدَّثَني فَصَدَقَني ووَعَدَني فوَفَّاني»، وانْتَقدَ عَليًّا؛ لأَنَّه قيلَ: إِنَّه أَراد أَنْ يَتزوَّجَ بِنتَ أَبي جَهلٍ، فَقامَ الرَّسولُ وخَطَبَ النَّاسَ وَقال: «فاطمةُ بِضعةٌ مِنِّي يَريبُها ما رابَني»، وتَكلَّم بِكلامٍ غليظٍ، لكن عَليَّ بنَ أَبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَدَلَ عَنْ هَذا الأمرِ لَمَّا رَأَى النَّبيَّ -صَلَّى اللهُ عَليه وعَلى آله وسلَّم- مُتأثِّرًا هَذا التَّأثُّر، وأَنَّه لا يُمكنُ أَنْ يَجمعَ بَينَ بِنتِ نَبيِّ اللهِ وبَين بِنتِ عَدوِّ اللهِ، يَعني: هَذا يَكونُ مُتحدَّثَ النَّاسِ.

ونَحنُ نَقولُ: إِنَّ بَعضَ أَهلِ العِلمِ أَخَذَ بما يُفيدُه ظاهرُ هذه الآيةِ، وَقال: لَا يَنفعُ العمَلُ لِأيِّ إِنسانٍ نَويْتَه إِلَّا مِنَ الوَلَدِ، ولَكِنَّ كثيرًا مِنَ العُلماءِ قالَ: بَل إِنَّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب وجوب الحج وفضله، رقم (١٥١٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب الحج عن العاجز رقم (١٣٣٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ١٦٢)، وأبو داود: كتاب البيوع، باب في الرجل يأكل من مال ولده، رقم (٣٥٢٨)، والترمذي: كتاب الأحكام، باب ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده، رقم (١٣٥٨)، والنسائي: كتاب البيوع، باب الحث على الكسب، رقم (٤٤٤٩)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، رقم (٢٢٩٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب ذكر أصهار النبي ﷺ، رقم (٣٧٢٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي عَلَيْهَا السَّلَامُ، رقم (٢٤٤٩)، من حديث المسور بن مخرمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الَّذي يَنتفعُ بِهِ الميِّتُ مِنْ وَلَدِه لا مانعَ مِن أَنْ يَنتفعَ به مِن غَيرِه، ورُبَّما يُستدلُّ لِذلكَ بِحديثِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ النَّبيَّ ﷺ سَمِعَ رَجلًا يَقولُ: لَبَّيكَ عَنْ شُبرُمَةَ، قال: «مَنْ شُبْرُمَةُ؟» قال: أَخٌ لِي، أو قَريبٌ لِي[1]، فقال: أَخٌ أَو قَريبٌ وَهو مُحْرِمٌ عنه، قالوا: فَهذا يَدُلُّ على أنَّه يَجوزُ للإنسانِ أَنْ يَنوبَ عن غَيرِه فيُقالُ: هَذه نِيابةٌ عَن الغيرِ، والحجُّ أَيضًا يَسلَمُ له.

ولكنَّ الَّذي يَظهرُ لي أنَّه لا فَرْقَ بين الولَدِ وغَيرِه وبَين الحجِّ وغَيرِه، لكنَّ الَّذي نَنتقِدُه إِسرافُ النَّاسِ الآنَ بالأعمالِ لِلأمواتِ تَجِدُه يَخْتُمُ القُرآنَ في رَمضانَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ ويَقولُ: المرَّةُ الأُولَى لِأُمِّي والثَّانيَةُ لِأَبَوَيَّ والثَّالثةُ لِجَدَّتي وَالرَّابعةُ لِجَدِّي والخامسةُ لِأخي، وَالسَّادسةُ لِأُختي وَالسَّابعةُ لِعَمِّي وَالثَّامنةُ لعَمَّتي، ويَمضي رَمضانُ ولَيس لَه ثَوابٌ كُلُّه أَعطاه لِلنَّاسِ، هَذا غَلطٌ وإِفراطٌ ولَيس مِن هَدي السَّلفِ الصَّالحِ.

كَذلكَ أَيضًا بَعضُ النَّاسِ يُسرفُ ويُخالفُ السُّنَّةَ فِي إِسرافِه تَجدُه يَذهبُ يَعتمرُ أَوَّلَ عُمرةٍ لَه، وَفي نَفس الوقتِ وَهو في مَكَّةَ ثَاني عُمرةٍ لِأُمِّه، وثَالثُ عُمْرةٍ لِأبيه كُلَّ يومٍ عُمْرةٌ، وَإِذا قَدَّرنا أَنَّه بَقِي عَشَرةُ أَيَّامٍ ولَهُ عَشَرَةُ أَقاربَ عَشْرَ عُمْراتٍ، هَذا غَلَطٌ ولَيس مِن هَدي السَّلفِ، والشَّرعُ لَيس حَسَبَ الذَّوقِ أو مَيلِ النَّفسِ أَوِ الهَوى، بل الشَّرْعُ مُحَدَّدٌ، فهَلْ وَرَدَ عَنِ السَّلَفِ أَنَّهمْ يُكرِّرونَ العُمرةَ لا لأنفسهم ولا لِغيرِهم، لَمْ يَرِدْ إِطْلاقًا، فَأصلُ تكرارِ العُمرةِ في سَفَرٍ واحدٍ غَيرُ مَشروعٍ؛ ولِهَذا قال عَطاءُ بنُ أَبي رَباحٍ وهو عَالمُ مَكَّة في زَمنِه: لا أَدْري هَؤلاءِ الَّذين يَخرُجونَ إِلى التَّنْعيمِ أَيأْثمونَ أَمْ يَسلمونَ؟

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب المناسك، باب الرجل يحج عن غيره، رقم (١٨١١)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب الحج عن الميت، رقم (٢٩٠٣)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يَعْني: مَعناهُ أَنَّه لَيس لهم أَجرٌ؛ لأَنَّه لَمْ يَرِدْ عن الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَلذلكَ يَجبُ على طَلَبَةِ العلمِ أَن يُبيِّنوا لِلنَّاس حتَّى وإِنِ انتقدوهم، فَنحنُ دائمًا نُحذِّرُ مِن هَذا في الحَرَمِ، ونَقولُ: هَذا غَلطٌ ولَيس بمَشروعٍ، ثُمَّ يَذهبونَ إِلَى ناسٍ مِنَ النَّاسِ فَيقولُ لَهم: لا بأس، أَوَّلُ يَومٍ لكَ وثَاني يومٍ لِأُمِّك وثَالثُ يَومٍ لِأبيك، أَعطِها العالَمَ كُلَّ واحدٍ عُمرةً، وإِنْ كَثُرَ أَقاربُكَ وقَلَّتْ أَيَّامُكَ في مكَّةَ فَلا بَأْسَ أَنْ تأخُذَ عُمرتَينِ في يَومٍ لا مانِعَ فيه، وإِنْ كَثُروا أَكثِرْ، وقَلَّتِ الأَيَّامُ أَقِلَّ، اجْعلْ عُمرتَينِ في اليومِ وعُمرتَينِ في اللَّيلَةِ! فلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ! ومَنْ قالَ بِهَذا!

لكنَّ المُشكلَةَ أَنَّ بَعضَ العُلماءِ يَتهاونونَ في هَذه الأُمورِ ولا يُريحونَ عِبادَ اللهِ، فتَجِدُه مِسكينًا في أَيَّامِ مَوسمِ الحجِّ يَتكلَّفُ كُلفةً عَظيمةً في الزِّحامِ وَالمشقَّةِ، ومع ذَلك يُصِرُّ على أَنْ يَأتيَ بِعُمرةٍ لِأبيه وأُمِّه مع أَنَّ هَذا ليس مِنْ هَدي السَّلفِ، ويُضيِّقُ عَلى النَّاسِ، يُضيِّقُ بَعضُهم على بَعضٍ، فنَسأَلُ اللهَ الهِدايةَ.

فإِنْ قال قائلٌ: هَلْ يُفْهمُ أَنَّه لا فَرْقَ بين الولَدِ وَغيْرِه، وبين الحَجِّ وغَيرِه كرَجلٍ صلَّى رَكعتَينِ للهِ ويَقولُ: هُما لِأبي؟

فالجوابُ: هُنا صيغتانِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَعمَلَ لِغيرِه:

الصِّيغةُ الأُولَى: أَنْ يَنويَ النِّيَّةَ لِلغيرِ مِن ابتداءِ العَملِ مِن الأَصلِ مِنْ حين ما أَرادَ أَنْ يُكبِّرَ نَوى أَنَّها لِأبيه أو لِأُمِّه، فَهذَا يَصِلُ ولا إِشكالَ فيه؛ لأَنَّه كالَّذي يَحُجُّ ناويًا الحَجَّ عن أَبيهِ أو أُمِّه مِن الأَصلِ.

الثَّانيةُ: أَنْ يَعمَلَ العملَ ثُمَّ بَعد الفَراغِ مِنه يَنويهِ لِأبيه أو أُمِّه هَذه اخْتَلفَ فيها العُلماءُ حتَّى الَّذين يَقولونَ بِجَوازِ إِهْداءِ القُربِ اختلفوا، هَل يَصِحُّ هَذا أَمْ لا؟

ووَجْهُ الفَرقِ بَينَ هَذه وَالَّتي قَبْلَها أَنَّ الَّتي قَبلَها ابْتدَأَ النِّيَّةَ مِن أَوَّل الفِعلِ، فَهو يَفعلُ ويَتحرَّكُ ويَتكلَّمُ فَيَشعُرُ أَنَّه قائمٌ به عَن الغيرِ، أَمَّا هَذا فَقدْ صلَّى وَانتهى مِنْ صَلاتِه على أَنَّها لَهُ فَثَبَتَ الأَجْرُ لَه، وَإِذا ثَبتَ الأَجرُ لَه فَليسَ من حقِّه أَنْ يَتصرَّفَ في الثَّوابِ هُو يَتصرَّفُ فِي العملِ، أَمَّا الثَّوابُ فَلا، فَيَقولُ هَؤلاءِ: إِنَّه إِذا أَهدى العَملَ بَعْدَ فِعلِه لا يَصِلُ إِلَى المُهدَى إِلَيه؛ لِأَنَّ العملَ ثَبَتَ لِنفسِه وَانتهى العمَلُ وَالنِّيَّةُ لِنفسِه، وَإِذا أَهداه لِغيرِه فَقدْ تَصرَّف في الثَّوابِ والتَّصرُّفِ في الثَّوابِ لَيس إِليه، وإِنَّما هو إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولَيس هَذا أَمْرًا ماليًّا تَقولُ: واللهِ أَبي أَعطَى فُلانًا عَشَرةَ دراهمَ أو مِئةَ دِرهمٍ، هَذا ثَوابٌ عِندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وكُتبَ لَكَ وانتهى الأَمرُ.

وهَذا التَّفريقُ تَفريقٌ جَيِّد ولَه مَعنًى لَطيفٌ، ولا شَكَّ أَنَّه معنًى جيِّدٌ التَّفْريقُ بَين أَنْ تَعملَ العَملَ من أَوَّلِه لصاحبِك، وبَين أَنْ تَعمَلَه لِنفسِك، ثُمَّ بَعدَ ذَلكَ تُهدي ثَوابَه لِصاحبِك، فَهُنا العملُ كُتِبَ لَكَ والثَّوابُ كُتِبَ لَكَ، فَلَا يُمكنُكَ أنْ تَتصرَّفَ فيه التَّصرُّفَ في الثَّوابِ للهِ عَزَّوَجَلَّ واللهُ أَعلمُ.

إِذنْ قَولُه تعالى: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ اسْتدلَّ بِها بَعضُ العُلماءِ على أَنَّ العَمَلَ الصَّالحَ لا يَتعدَّى الغيرَ؛ أَيْ: لا يَتعدَّى فَاعلَه ونَحنُ نَقولُ: ما جاءت به السُّنَّةُ فَهو مُخصِّصٌ لِهَذا، والسُّنَّةُ تُفسِّرُ القُرآنَ وتُبيِّنُه، ولكن هل يُقاسُ عَليهِ؟ هَذا مَحلُّ نَظرٍ، وعِندي أَنَّهُ لا بَأسَ أَنْ يُقاسَ عَليهِ؛ لِأَنَّ الَّذي وَرَدَ إِنَّما هو قَضايا أَعيانٍ، فَإِذا كَانتْ قَضايا أَعيانٍ، فَرُبَّما نَقيسُ على هَذه العَينِ ما شابَهَها، لكنَّ الَّذي يُنكَرُ هو الإِسرافُ وَالإِفراطُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ مَن أَساءَ فَعَلى نَفسِه أَساءَ لا يَضُرُّ اللهَ شيئًا.

ولكن لَو قال قائلٌ: أَليس النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- أَخبَرَ بأَنَّ مَن

سَنَّ في الإِسلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعليهِ وزرُهَا ووِزرُ مَنْ عَمِلَ بِها إلى يَومِ القيامةِ[1]، إذن هَذا الإنسانُ صارتْ إِساءَةُ غَيرِه عليهِ وَاللهُ يَقولُ: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ على نَفسِه فَقَطْ؟

فيُقالُ: إِنَّ كَونَه سَنَّ هَذه السَّيِّئَةَ هو عَمَلُه الَّذي تَبِعَه النَّاسُ عَليه، ولَولا أَنَّه فَعَلَه ما فَعَلَه النَّاسُ، فَالنَّاسُ إِنَّما فَعلوا اتِّباعًا لَه فَيكونُ هَذا في الحَقيقَةِ منْ فِعلِه؛ لِأَنَّه هو الَّذي سَنَّ هَذه السُّنَّةَ السَّيِّئَةَ؛ ولِهذا ما مِنْ إِنسانٍ يَقتُلُ نفسًا عَمدًا بِغيرِ حَقٍّ إِلَّا كان على ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفلٌ مِنها، يَعني: قابيلَ حَيث قَتَلَ هابيلَ حَسَدًا بِدونِ إِساءةٍ إِليه، قَرَّبا قُربانًا فتَقَبَّل اللهُ مِن هابيلَ ولَمْ يَتقبَّلْ من قابيلَ. فَقالَ لَهُ: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ حَسَدًا؛ لِأَنَّ اللهَ قَبِلَ مِن صاحبِه ولَمْ يَقبَلْ منه، فأَرشدَه صاحبُه إِلى ما يَكونُ بِه القَبولُ: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]، ومَعنى الآيةِ حَثُّه على أَنْ يَتَّقيَ، ولَيس المعنى أَنَّه كان مُتَّقيًا فَقُبِلَ، وإِنَّما يَحثُّه على التَّقوى كأَنَّه يَقولُ: اتَّقِ اللهَ يَتقبَّلْ منك. ثُم قال لَه: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:٢٨].

ولَعَلَّ هَذا لَم يَكُنْ مَشروعًا في عَهدِهمْ أَنْ يُدافعَ الإنسانُ عَن نَفسِه؛ لأَنَّ في شَريعتِنا مَنْ أَرادَ قَتلَك يَجِبُ عَليكَ أَنْ تُدافِعَه حتَّى لو قَتَلْتَه فهو في النَّارِ، ولو قَتَلَكَ فأنت شَهيدٌ، لكن لَعلَّه في عَهدِهم لَم يَكُنْ ذَلكَ مَشروعًا، وهو مِنَ الآثارِ الَّتي كَتبَها اللهُ على مَنْ قَبلَنا ونَجَّانا اللهُ منها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: انتفاءُ الظُّلمِ عَن اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِقولِه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهَذه مِن صِفاتِ النَّفيِ، وصِفاتُ اللهِ تعالى نَوعانِ: صِفاتُ إثباتٍ، وصِفاتُ نَفيٍ، فصِفاتُ الإثباتِ كَثيرَةٌ جدًّا وصِفاتُ النَّفيِ أَقلُّ، ولكن مَعَ ذَلكَ صِفاتُ النَّفيِ هي في الحقيقةِ صِفاتُ إثباتٍ؛ لأنَّ المُرادَ بِالنَّفيِ إثباتُ ضِدِّ ذَلكَ فَمثلًا: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ﴾ المُرادُ إثباتُ كَمالِ عَدلِه وأَنَّ عَدْلَه لا ظُلمَ فيه بِوَجهٍ مِنَ الوجوهِ.

إذن خُذْ قاعدةً عَريضةً: لا يوجدُ النَّفيُ المحضُ فِي صِفاتِ اللهِ أَبدًا، كُلُّ نَفيٍ في صِفاتِ اللهِ فَهو إِثْباتٌ لِضدِّ النَّفيِ، فكأنَّه يَقولُ عَزَّوَجَلَّ: هو أَعدلُ الحاكمينَ وَلا ظُلمَ في حُكمهِ إطلاقًا.

وقولُه تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤] مِن صِفاتِ النَّفيِ لكن لِإثباتِ كَمالِ عِلمِه، وَأَنَّه لِكمالِ عِلْمِه لا يَرِدُ عليه النِّسيانُ إطلاقًا، وأَمَّا عِلمُنا نَحنُ فَيَرِدُ عليه النِّسيانُ، وَهو أيضًا حاصلٌ بعدَ جهلٍ سابقٍ يَقولُ اللهُ تَعالَى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل:٧٨] فعِلمُنا في الواقعِ مَعيبٌ مِن وجوهٍ:

الأَوَّلُ: أَنَّه مَسبوقٌ بِجهلٍ.

الثَّاني: أَنَّه مَلحوقٌ بِنسيانٍ.

الثَّالثُ: أَنَّه لَيس شاملًا عامًّا.

ونَقولُ: هَذا النَّفيُ في صِفةِ الله لا يُرادُ به النَّفيَ المَحضَ، بَل هُو إِثباتٌ في الواقعِ، إذ إِنَّ المُرادَ به إِثباتُ كَمالِ ضِدِّه؛ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ﴾ أي: أَنَّه عَدلٌ لا ظُلمَ في عَدلِه إطلاقًا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إِثباتُ العدْلِ في أَعلى مَقاماتِه، حَيثُ قال: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾؛ أَيْ: لِعبيدِه، وهَذا أَبْلغُ لو قُلتُ لَك: أَنتَ لا تَظلِمُ عَبيدَك، فَهو أَبلغُ مِمَّا لَو قُلتُ: أَنت

لا تَظلِمُ النَّاسَ؛ لأنَّ عَدمَ ظُلمِك النَّاسَ؛ لِأنَّه لا سَيطرةَ لك عليهم لكن إذا كُنت لا تَظلِمُ عَبيدَك كان هَذا أَبلغَ في إثباتِ العدلِ، إذا كُنتَ لا تَظلمُ مَن لكَ سُلطةٌ عليهِ، فلِئلَّا تَظلِمَ مَن لا سُلطةَ لَك عليه مِن بابِ أَوْلَى.

إِذَنْ فَقابِلْ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ بقَولِ القائلِ: فُلانٌ لا يَظلِمُ النَّاسَ، أَيُّهما أَبلغُ؟ الأوَّلُ؛ لِأنَّه إذا كانَ لا يَظلِمُ عَبيدَه مع أَنَّهم عَبيدُه يَفعلُ بِهِمْ ما يشاءُ، فَلِئلَّا يَظلِمَ غَيرَهم، ولَكنَّ هَذا على سَبيلِ الفرضِ وإلَّا فَكلُّ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ آتي الرَّحمنَ عبدًا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الرَّدُّ على الجبريَّة في قَولِهم: إنَّ الظُّلمَ في حَقِّ اللهِ مُحالٌ، وانتفاءُ المُحالِ ليس مَدْحًا؛ لأنَّ المُحالَ لا يُمكنُ وُجودُه لِذاتِه ولو أَرادَه الإنسانُ لَم يُوجَدْ؛ لأنَّه مُحالٌ، لكنَّ انتفاءَ المُمكنِ إذا كان الانتفاءُ مَدْحًا فهو مَدْحٌ.

وهُنا في قَولِه تَعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ﴾ تُفيدُ الآيَةُ أَنَّ الظُّلمَ في حقِّه مُمكنٌ، لكن لِكمالِ عَدلِه لا يُمكنُ، فَالظُّلمُ ليس مُحالًا لِذاتِه في حَقِّ اللهِ، بل هو مُحالٌ لِكمالِ عَدْلِ اللهِ، وبِهذا يَتحقَّق المدحُ مَدحُ اللهِ تَعالَى بِانتفاءِ الظُّلمِ عنه، أَمَّا لو كان شيئًا مُحالًا لا يُمكنُ فالمُحالُ لا يُمدَحُ به.

فإنْ قال قائلٌ: الأُمورُ الَّتي يُحدِّثُ بها الشَّخصُ نَفسَه غَيرَ الشَّكِّ -كالمَعاصي- إذا رَكَنَ إليها ولَمْ يَعملْ بها هل تَدخلُ في قولِ الرَّسولِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَجاوزَ عن أُمَّتي ما حَدَّثتْ به أَنْفُسَها ما لَم تَعْمَلْ أو تَتكلَّمْ**»[1]؟

فَالجَوابُ: إن كان فَكَّر فيها ولكن ما هَمَّ بها هَذا لا شَيءَ عليه، ولكنَّ السَّلامةَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره، رقم (٥٢٦٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَسلمُ، ولِهذا نَقولُ: إِنَّ مَن أَرادَ المعصيةَ ولَمْ يَفعلْها له ثلاثُ حالاتٍ:

الحالُ الأُولَى: أَنْ يعجزَ عنها ويَفْعلَ الأسبابَ الَّتي يُريدُ الوصولَ بها إليها ولكن يَعجزُ كَرَجُلٍ سارقٍ هَمَّ بِالسَّرقةِ ووَضَعَ السُّلَّمَ على الجِدارِ لِيَصْعدَ منه، وبَينما هو في أَثناءِ الصُّعودِ إِذا بِرجُل يَمرُّ في الشَّارعِ فَنَزَل وَهَرَب، هذا يُكتَبُ له عَمَلُ السَّيِّئةِ، كأَنَّه عَمِلَها تمامًا مَعَ أَنَّه لم يَعملْها؛ لأَنَّه أَرادَها وعَمِلَ لها لكن عَجَزَ.

والدَّليلُ على ذَلِكَ قَولُ النَّبيِّ ﷺ: «**إذا التَقَى المُسلِمانِ بِسَيفَيهما فالقاتلُ وَالمقتولُ في النَّار**»، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، هَذا القاتلُ -يَعني: في النَّارِ- فما بَالُ المَقتولِ؟ قال: «**لأَنَّه كان حَريصًا على قَتْلِ صاحِبه**»[1].

إِذنْ: مَن هَمَّ بالسيِّئةِ وعَمِلَ لها عَمَلها لكن عَجَزَ عن إِتمامِها كُتِبَ له وِزْرُها كاملًا.

الثَّانيةُ: مَنْ هَمَّ بها وتَمنَّاها ولَكنَّه عَجَزَ عَنها بِدونِ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلَها، فَهذا عليه وِزرُ النِّيَّةِ، والدَّليلُ على هَذا: «**أَنَّ النَّبيَّ ﷺ أَخبرَ عنْ رَجُلٍ آتاهُ اللهُ المالَ فَجَعَلَ يَتخبَّطُ فيه، فقالَ الفقيرُ: لو أَنَّ لي مِثلَ مالِ فُلانٍ لَعمِلْتُ فيه عَمَلَ فُلانٍ، قال: فَهو بِنِيَّتِه فَهُما في الوِزْرِ سواءٌ**»[2]، في الوِزْرِ الإِراديِّ لا العَمَليِّ؛ لِأَنَّ هذا لَمْ يَعمَلْ.

الثَّالثةُ: أَنْ يَكونَ هَمَّ بِالسَّيِّئةِ وعَـزَمَ عليها، ولكن تَذكَّـر خَشْيَةَ اللهِ فتَرَكَها

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، رقم (٣١)، ومسلم: كتاب الفتن، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، رقم (٢٨٨٨)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٣٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، رقم (٢٣٢٥)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب النية، رقم (٤٢٢٨)، من حديث أبي كبشة الأنماري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خوفًا مِنَ اللهِ، فَهذا تُكتَبُ له حَسنَةٌ كاملَةٌ.

وهُناكَ قِسْمٌ رابعٌ -لَكن لا يَدْخُلُ في تَقسيمِنا-، وَهو مَنْ لم تَطرأْ له المَعصيةُ على بالِه، فَهذا لا يُكْتبُ له ولا عَليه، كإِنسانٍ مُستقيمٍ، ولا يَطْرأُ على بالِه السَّرِقةُ ولا الزِّنا وَلا شُربُ الخَمرِ، هَذا لَيسَ له ولا عليه، لَكنَّ هَذا غَيرُ داخلٍ في تَقْسيمِ الإِرادةِ يَعني: مَنْ أَرادَ السُّوءَ.

• • ۞ • •

الآية (٤٧)

۞ قال اللهُ تَعالَى: ﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٧].

قوله: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إِلَى اللهِ وَحدَهُ، وإِنَّما قُلنا: وَحْدَهُ لِتقديمِ المَعمولِ، وتَقديمُ المَعمولِ يُفيدُ الحَصرَ، وذَلكَ أَنَّ المعمولَ مكانُه أَنْ يَكونَ بَعدَ العامِلِ، فَإذا تَقدَّمَ فَإنَّه يَكونُ مِن بابِ تَقديمِ ما حَقُّه التَّأخيرُ، وَالقاعدةُ اللُّغويَّةُ البلاغيَّةُ: أَنَّ تَقديمَ ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحَصرَ، وعلى هَذا فقَولُه: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ﴾ المعنَى: إِليه لا إِلى غَيرِه، وأَخَذنا النَّفيَ -لا إِلى غَيرِه- مِن تَقديمِ المعمولِ؛ لِأَنَّ المعمولَ حَقُّه أَنْ يَكونَ بَعدَ العامِلِ، فَإذا قُدِّم كان هَذا مِن بابِ تَقديمِ ما حَقُّه التَّأخيرُ، وتَقديمُ ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحصرَ، هَذه قاعدةٌ لُغويَّةٌ بَلاغيَّةٌ.

﴿يُرَدُّ﴾ أَيْ: يَرجِعُ ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَتَى تَكونُ لا يَعلمُها غَيرُه]، أَخَذَ هَذا الحصرَ لا يَعلَمُها غَيرُه مِن تَقديمِ المَعمولِ وهو ﴿إِلَيْهِ﴾.

وهَذا لا شَكَّ فيه أَنَّه لا يَعلَمُ مَتَى تَقومُ السَّاعةُ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولِهذا قال اللهُ تَعالَى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ [الأعراف:١٨٧]

يَعني: ما عِلْمُها إِلَّا عِندَ رَبِّي: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف:١٨٧].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «وقَدْ سَأَلَه جِبريلُ: أَخْبِرني مَتَى السَّاعةُ؟ قال: ما المَسؤولُ عَنها بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»(١).

يعني: أَنَّه لا عِلمَ عِندي كما أَنَّك أنت ليس عِنْدكَ عِلمٌ، وعَلَى هَذا فَمَنِ ادَّعى عِلْمَ السَّاعةِ فهو كاذبٌ لا شَكَّ فيه ثُمَّ هو كافرٌ أيضًا؛ لأَنَّه مُكذِّبٌ للقُرآنِ وَالسُّنَّة.

قال اللهُ تَعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ قَوْلُه: ﴿وَمَا تَخْرُجُ﴾ قَدْ يَتراءى لِلإنسانِ أَنَّ (ما) اسمٌ مَوصولٌ يَعني: ويُرَدُّ إِليهِ عِلْمُ: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ ولكنَّ هذا وَهْمٌ، وعَلَى هَذا فنَقُولُ: (ما) نافيةٌ.

يَقُولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [«وما تَخرُجُ مِن ثَمَرَةٍ» وَفي قِراءةٍ ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾]. المفسِّر فَسَّر على قِراءةِ «ثَمَرةٍ» مُفردةٍ، والقراءَةُ الَّتي بَين أَيْدينا في المصحفِ ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾، وَاعْلَمْ أنَّ للمُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ اصطلاحًا وهو أَنَّه إذا قال: [وفي قراءةٍ] فَهي سَبْعيَّةٌ، وَإذا قال: [وقُرِئَ] فهي قراءةٌ شاذَّةٌ ليست مِنَ السَّبْعِ هَذا اصطلاحُ الجَلالَينِ رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ.

إِذنْ: في قِراءةِ ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ القراءةُ هَذه سَبْعيَّةٌ يَعني: أَنَّها ثابتةٌ تَجوزُ القراءَةُ بِها في الصَّلاةِ، وَتَكونُ حُجَّةً في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ وَفي الأَخبارِ العلميَّة.

فَأمَّا عَلَى صيغةِ الجمعِ فَواضحٌ ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ كُلُّ الثَّمراتِ، وأمَّا عَلى صيغَةِ الإفرادِ فَهي أيضًا تُفيدُ العمومَ؛ لِأنَّ «ثمرة» نَكِرَةٌ في سياقِ النَّفيِ مُؤكَّدةٌ بِمِن الزَّائدةِ فتَشملُ جَميعَ الثَّمراتِ، وعَلَى هَذا فَلا اختلافَ في المَعنَى بين ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ وَ«ثمرة».

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثمرة﴾، وفي قِراءةٍ ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أَوعيتُها] الأكمامُ الأَوعيةُ يَقولُ: [جَمْعُ كِمٍّ بِكسرِ الكافِ].

﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ الأكمامُ هي أَوعيةُ الطَّلْعِ هَذا مَعروفٌ في النَّخلِ، وكَذلكَ مَعروفٌ في الأزهارِ تَجِدُ الزَّهرةَ عَليها غِلافٌ يُسمَّى كِمًّا، فما تَخرجُ مِن ثَمَرَةٍ مِنْ كِمِّها إِلَّا بِعِلمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَيُّ ثَمَرةٍ تَكونُ صَغيرةً أَوْ كَبيرةً مَأكولةً أَوْ غَيرَ مَأكولةٍ، فَهي بِعِلمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ووَجْهُ كَونِها بِعِلمِهِ أَنَّ هَذه الثَّمراتِ مَخلوقةٌ للهِ، وكُلُّ مَخلوقٍ للهِ فَهو مَعلومٌ لَه لِقولِه تَعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

فأَنت مَتَى أَقْرَرْتَ أَنَّ اللهَ خالقُ هَذه لَزِمَ مِن إِقْرارِك أَنْ يَكونَ اللهُ عالمًا بِها؛ لِأَنَّه لا يُمكنُ أَنْ يَخْلُقَها وهو لا يَعلمُ، ولِهَذا استدَلَّ اللهُ لِذلك بِدَليلٍ عَقليٍّ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فصلت:٤٧]، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ أَيْ: أُنْثى مِن بَني آدَمَ أو مِن الحَيوانِ ما تَحملُ ولا تَضَعُ إِلَّا بعِلمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فابتداءُ الحملِ مَعلومٌ عِندَ اللهِ، ووَضْعُه كَذَلكَ مَعلومٌ عِندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

نَرجِعُ إِلى قَولِهِ: ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾ وإِلَى قَولِه: ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ الإِعرابُ ﴿مِنْ﴾ حَرفُ جَرٍّ زائدٌ مِن حَيثُ الإِعرابُ وليس زائدًا مِن حَيثُ المعنَى؛ لِأَنَّه يُفيدُ مَعنًى وَهو التَّوكيدُ، وعَلَى هَذا فنَقولُ: ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ حَرفُ جَرٍّ زائدٌ وَ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ فاعلٌ مَرفوعٌ بِضمَّةٍ مُقدَّرةٍ عَلَى آخِرِه مَنَعَ مِن ظُهورِها اشتغالُ حَركَةِ المَحلِّ بِحرفِ الجرِّ الزَّائدِ، وكَذلِك يُقالُ: ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾ ﴿مِنْ﴾ حَرفُ جَرٍّ زائدٌ وَ﴿أُنثَىٰ﴾ فاعلٌ مَرفوعٌ بضَمَّةٍ مُقدَّرةٍ عَلَى آخِرِه، مَنَعَ مِن ظُهورِها التَّعذُّر، وهو في مَحلِّ جَرٍّ لَفظًا لِدخولِ ﴿مِنْ﴾ عَليهِ.

وقَولُه: ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ بعِلْمِهِ السَّابقِ؛ لِأنَّ عِلمَ اللهِ تَعالى مُحيطٌ بِكلِّ شَيءٍ أَزلًا وأَبَدًا، فَهو يَعلمُ ما تَخرجُ مِن ثَمَراتٍ مِن أَكمامِها إِلى يَومِ القِيامةِ، وَكَذلكَ ما تَحملُ مِن أُنثَى وَما تَضعُ.

ثُمَّ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ ﴿وَيَوْمَ﴾ ظَرفٌ والظَّرفُ يَحتاجُ إِلَى ما يَتعلَّقُ بِه؛ لِأنَّه مَفعولٌ فيه، وَإِذا كانَ مَفعولًا فيه فَلا بُدَّ مِن فِعلٍ يَكونُ عاملًا فيه، وَالعاملُ في هَذا مُقدَّرٌ، وَالتَّقديرُ: «وَاذْكُرْ يومَ يُناديهم أَينَ شُركائِي..» إلى آخرِه، ومِثْلُ هَذا التَّعبيرِ مَوجودٌ في القُرآنِ كَثيرًا.

وإِنَّما أَمَرَ اللهُ تَعالَى نَبيَّهُ بِذِكرِهِ تخويفًا لِهؤلاءِ المُكذِّبينَ، وتَسليةً لِرَسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عَليه وعَلى آلِهِ وسَلَّم-.

وقَولُه: ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ أَيْ: يَدعوهمْ بِصوتٍ رَفيعٍ؛ لِأنَّ النِّداءَ يَكونُ بِصَوتٍ رَفيعٍ والمُناجاةُ تَكونُ بِصوتٍ أَدنَى، وفاعلُ ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ هو اللهُ بِدَليلِ قَولِهِ: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ يَعني: أَنَّ اللهَ تَعالى يُنادي هَؤلاءِ المُشرِكينَ يَقولُ: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾، وَهذا الِاستِفهامُ لِلتَّعجيزِ وَالتَّوبيخِ أيضًا، فَهو جامعٌ بَينَ مَعنيَينِ: التَّعْجيزِ، وَالثَّاني التَّوبيخُ. يَعني: أَينَ الَّذينَ أَشركتُم مَعي؟

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾ أَعلَمناكَ الآنَ: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾] آذَنَ بِمعنَى أَعلَمَ، ومنهُ قَولُه تَعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة:٣] أَيْ: إِعلَامٌ مِنَ اللهِ ورَسولِه (فَآذَنَ) بِمعنَى أَعْلَمَ، ومِنه في الحَديثِ: أَنَّ الرَّسولَ -صلَّى اللهُ عَليهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّم- قالَ لِلنِّساءِ اللَّاتي يَغسِلْنَ ابْنتَه: «إِذا فَرَغْتُنَّ فَآذِنَّني»[1]. أي: أَعْلِمْنَني.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يستحب أن يغسل وترا، رقم (١٢٥٤)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب في غسل الميت، رقم (٩٣٩)، من حديث أم عطية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾، يَقولُ المفسِّر: [أَعْلمناكَ الآنَ] فَأفادَ المفسِّر بِقولِه: الآنَ أَنَّ الفعلَ الماضيَ ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ بمَعنَى المُضارِعِ، فَهوَ إِذن جُملَةٌ خَبريَّةٌ حاليَّةٌ بِمعنَى الآنَ نُعلِمُكَ، ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾. وقيلَ: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ إِنَّها فِعلٌ ماضٍ عَلى بابِها، فَهي بِمعنَى الخبرِ عن شَيءٍ ماضٍ.

فعِندَنا قَولانِ هَلِ الإِعلامُ هُنا يَومَ القيامةِ كَما قال المفسِّر: أَعْلمناكَ الآنَ، أَمْ هو إِعلامٌ سابقٌ في الدُّنيا؟

إِنْ نَظرْنا إِلَى ظاهرِ اللَّفظِ نُرجِّحُ أَنَّه إِعلامٌ في الدُّنيا يَعني: أَعلمْناكَ في الدُّنيا فَيكونُ عَلى ظاهرِه، لَكنْ يَشكُلُ عَلى هَذا التَّفسيرِ أَنَّ واقعَ حالِهم لا يَدُلُّ عَلَى هَذا؛ لِأَنَّهم مُشركونَ فِعلًا فَكيْفَ يُؤذِنونَه أَنَّه ما منهم مِن شَهيدٍ بِذلكَ، أَجابَ القائِلونَ بِهذا أَنَّ المَعْنَى ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ بِحَسَبِ الفِطرةِ وَما في قُلوبِنا؛ لِأَنَّه ما مِن مَوْلودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الفِطرةِ.

﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ صيغَتُها فِعلٌ ماضٍ يَقتضي أَنْ يَكُونَ هَذا الإِعلامُ سابقًا عَن وَقْتِ الخِطابِ، هَذهِ واحدَةٌ. وَالثَّانيةُ: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ فِعْلٌ ماضٍ لَكنْ يُرادُ به الخَبرُ عَنِ الحالِ الحاضرَةِ، فَهو بِمعنى نَحنُ نُؤذِنُك الآنَ، وهَذا التَّفسيرُ مُخالفٌ لِظاهِرِ اللَّفظِ لَكنَّه مُوافقٌ لِواقِعِ حالِهِمْ.

التَّفسيرُ الأَوَّلُ مُوافقٌ لِلَّفظِ لكنَّه مُخالفٌ لِظاهِرِ حالِهِمْ؛ لِأَنَّهم لا يُعْلِمونه بِذلِكَ، إِذ إِنَّهم مُشركون فِعلًا، وأَجابَ هَؤلاءِ الَّذين يَقولون: إِنَّه آذَنَكَ في الدُّنيا أَنَّهمْ أَعْلَموه بِحسَبِ الفِطرةِ الَّتي فُطِرُوا عَليها؛ لِأَنَّه ما من مَولودٍ يُولَدُ إِلَّا على الفِطرةِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أَيْ: شاهدٌ بِأَنَّ لَكَ شَريكًا].

﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ ﴿مَا﴾ نافيةٌ و﴿مِنَّا﴾ جارٌّ ومجرورٌ خبرٌ مُقدَّمٌ و﴿مِن﴾ حَرْفُ جَرٍّ زائدٌ إعْرابًا، وَ﴿شَهِيدٍ﴾ مُبتدأٌ مَرفوعٌ بِضمَّةٍ مُقدَّرةٍ عَلى آخِرِه مَنعَ مِن ظُهورِها اشْتغالُ المحلِّ بِحركَةِ حَرفِ الجرِّ الزَّائدِ.

يَعني: أَنَّنا قَد أَقْرَرنا بِأَنَّه لا أَحَدَ مِنَّا يَشهدُ بِأَنَّ لَكَ شريكًا، وهم يَقولون هَذا الآنَ لَكنَّه لا يَنْفعُهم؛ لِأَنَّه إقرارٌ بَعدَ مُعاينةِ العَذابِ، وَالإقْرارُ بَعدَ مُعاينةِ العَذابِ لَيس بِنافِعٍ؛ ولِهذا أَقرَّ فِرعَونُ حينَ أُغْرِقَ بِأَنَّه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ولكنَّه لَمْ يَنفَعْه فَقيلَ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩١].

مِن فَوائِدِ الآيَةِ الكرِيمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّ عِلمَ السَّاعةِ عندَ اللهِ وحدَه يُؤخَذُ مِن قَولِه تَعالَى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ لِأَنَّهُ قَدَّمَ ما حَقُّه التَّأخيرُ وَهو المَعمولُ، وهَذا يُفيدُ الحَصرَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَنِ ادَّعى عِلْمَ السَّاعةِ فَهو كافرٌ؛ لأَنَّه مُكذِّبٌ للهِ ورَسولِه -وتَكذيبُ اللهِ ورَسولِه مِنْ أَسبابِ الرِّدَّةِ؛ لأنَّ الرِّدَّةَ تَدورُ على شَيئين: إِمَّا تَكْذيبٌ وَإِمَّا استكبارٌ، فَكُلُّ رِدَّةٍ يَحكُم العُلماءُ بِها فإنَّها لا تَخرجُ عَنْ هَذَينِ الأَمرينِ: إِمَّا التَّكذيبُ، وإِمَّا الإستكبارُ- وَمَنْ صَدَّقَه فَهو كافرٌ أيضًا؛ لِأَنَّه صَدَّق ما هو تَكْذيبٌ لِلقُرآنِ الكريمِ، ومَنْ صَدَّقَ ما هو تكذيبٌ لِلقُرآنِ الكَريمِ فإنَّه كافرٌ بِلا شَكٍّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عُمومُ عِلْمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِقولِه: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ إلى آخرِه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَوبيخُ الكُفَّارِ يومَ القيامةِ؛ لِقولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾، وَهذا هو التَّوبيخُ في ذَلكَ المَكانِ مِن أَعْظمِ ما يَكونُ مِنَ التَّوبيخِ؛ لِأَنَّه

اليَومُ المَشهودُ الَّذي يَشْهدُه اللهُ وَمَلائكتُه وجَميعُ خَلْقِه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إِقْرارُ هَؤلاءِ المُكذِّبينَ بِالبعثِ في ذَلكَ اليَومِ أَنَّه لا شَريكَ للهِ عَزَّوَجَلَّ لِقولِه: ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾.

• ● ۞ ● •

الآية (٤٨)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [فصلت:٤٨].

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَضَلَّ﴾ غاب ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ﴾] ﴿مِن قَبْلُ﴾.

قَولُه تَعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟﴾ ﴿مَّا﴾ اسْمٌ مَوصولٌ فاعلٌ بِمعنَى الَّذي.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ﴾ يَعبُدونَ ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الدُّنيا مِن الأصنام] أَصْنامَهُم الَّتي كانوا يَتعلَّقونَ بِها ويَعْبُدونها لِتُقرِّبَهم إِلَى اللهِ زُلفى، في ذَلكَ اليَومِ الَّذي هُمْ أَشدُّ ما يَكونون حاجَةً لَها تَغيبُ عَنهم ولا تَنْفعُهم؛ وَلِهَذا قال: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أَيْ: ضاعَ وغابَ ما كانوا يَدعون، أَيْ: يَعْبُدونَ مِنْ قَبلُ، ويُريدُ بِذلكَ الأَصنامَ الَّتي كانوا يَعبُدونها في الدُّنيا.

مَثلًا النَّصارى يَعْبُدونَ عيسى ابنَ مَرْيمَ، وقُريشٌ تَعبُدُ اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ وهُبَلَ، ومِنهم مَنْ يَعبُدُ النَّارَ كَالمَجوسِ، ومَنْ يَعبُدُ الشَّمسَ، ومَنْ يَعبُدُ القمرَ.. إِلَخْ، هَذه الأصنامُ الَّتي تُعبَدُ مِن دونِ اللهِ لا تَنفعُهم يَومَ القيامةِ؛ ولِهذا قالَ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ [فصلت:٤٨]، ورُبَّما نَفْهَمُ مِن قولِه: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أَنَّهم ذَهبوا يَطلُبونها يَبحثونَ عَنْها، ولَكنَّها ضَلَّت وضاعَت، ويَكونُ هَذا أَشدَّ حَسرةً في نُفُوسِهم أَنَّهم طَلبوها في وَقتِ الحاجةِ وَلكنْ لَمْ يَجِدوها.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَظَنُّوا۟﴾ أيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾] ظَنَّ هُنا بمَعنَى أَيقنَ، والظَّنُّ يَأتي كَثيرًا بمَعنَى اليَقينِ، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف:٥٣] إذن ظَنُّوا بمَعنَى أَيْقَنوا، وقالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٤٦] معنى يَظُنُّونَ: أي: يُوقِنون أَنَّهمْ مُلاقو رَبِّهم، ولو كانَ الظَّنُّ بمعنى الشَّيءِ الرَّاجحِ لَمْ يكونوا مُؤمِنينَ، لَكنْ يَظُنُّونَ بمَعْنى يُوقِنون، إذن الظَّنُّ في اللُّغةِ العربيَّةِ يَأتي بِمعنى اليَقينِ، ﴿وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أَيقَنوا.

وقَولُه: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ فِيها تَقديمٌ وتَأخيرٌ وتَوكيدٌ، التَّقديمُ والتَّأخيرُ أَنَّه قَدَّم فيها الخَبرَ وَأَخَّر فيها المُبتدَأَ، وَالخَبرُ ﴿لَهُم﴾ وَالمُبتدأُ ﴿مَّحِيصٍ﴾، فيها أيضًا تَوكيدٌ وهو ﴿مِّن﴾ الزَّائدةُ؛ لِأنَّ مَحيصَ مُبتدأٌ مُؤَخَّرٌ ودَخلَتْ عَليه ﴿مِّن﴾ الزَّائدةُ للتَّوكيدِ، وإِعْرابُه أَنَّه مُبتدأٌ مَرفوعٌ بِالِابْتِداءِ، وعَلامَةُ رَفعِه ضَمَّةٌ مُقدَّرةٌ عَلى آخِره مَنَعَ مِن ظُهورِها اشتغالُ المَحلِّ بِحَركَةِ المُناسبةِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَّحِيصٍ﴾ مَهْربٌ مِنَ العَذابِ] يَعني: أَيقَنوا أَنَّه لا مَهْربَ لهم مِنَ العذابِ ولا مَفرَّ لَهمْ مِنه، وأَنَّه واقعٌ بِهمْ لا مَحالةَ.

ثُمَّ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [والنَّفيُ في المَوضعينِ مُعلَّقٌ عَنِ العَمَلِ، وجُملةُ النَّفيِ سَدَّت مَسدَّ المَفعولَينِ].

النَّفيُ في المَوضِعينِ:

المَوضِعُ الأَوَّلُ: ﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ هَذهِ ﴿مَا﴾ نافِيةٌ مُعلَّقةٌ عَنِ العَملِ؛ لِأنَّ ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أَعْلمناكَ وَهي تَنْصبُ ثلاثةَ مفاعيلَ، تَقولُ مَثلًا: أَعْلمتُ زيدًا عَمرًا قائمًا، نَصَبتْ ثلاثةَ مَفاعيلَ زيدًا وعَمرًا وقائمًا، وهُنا ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ المفعولُ

الأَوَّلُ مَوجـودٌ وهو الكافُ، والمفعـولُ الثَّاني وَالثَّالثُ مُعلَّقٌ أَغنـت عَنهما جُملةُ الإستفهامِ: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾، وَعَلَى هَذا فتكونُ جُملةُ: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ كُلُّها تَكونُ في مَوضعِ نَصْبٍ سَدَّت مَسدَّ مَفْعولَيْ آذَنَ.

المَوضعُ الثَّاني: ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ (ظَنَّ) هَذه تَنْصِبُ مَفعولينِ، وهُنا عُلِّقتْ عَنِ العَملِ بِجُملةِ النَّفيِ وَهي قَولُه: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، وعَلَى هَذا فَيكونُ: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ جُملةً في مَحلِّ نَصبٍ سَدَّت مَسدَّ مَفعولَي (ظَنَّ)، وهَذا الإِعرابُ في الحَقيقَةِ لا يُدْركُه إِلَّا مَنْ كان عِنده عِلمٌ بِالمفاعيلِ لكنَّا نَحنُ الآنَ شَرحْناه، فَمَنْ فَهِمَه فَهذا المَطلوبُ، وَمَنْ لم يَفهَمْه فَإِنَّه لا يَضُـرُّه؛ لأَنَّه ليسـت لَهُ عِلاقةٌ بِالمَعْنى عِلاقَتُه إِنَّما هو بِالإِعرابِ فَقط.

مِن فَوائِدِ الآيَةِ الكَريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّ ما يُعبَدُ من دونِ الله فإنَّه هَلاكٌ وضَلالٌ ولَنْ يُجدِيَ شيئًا عَن عابِديه؛ لِقولِه تَعالَى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هَـؤلاءِ المُكذِّبينَ يُوقنـون في ذَلكَ اليومِ أَنَّه لا مَفرَّ لَهُمْ مِن عذابِ اللهِ؛ لأَنَّه لَيس هُناكَ أَحدٌ يَدفعُ عَذابَ اللهِ تَعالى عَنْهم فَيوقنونَ بِأَنَّه لا مَحيصَ لَهُمْ مِنه.

الآية (٤٩)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت:٤٩].

﴿لَّا يَسْـَٔمُ﴾ يَعني: لا يَمَلُّ فَهو دائمًا يَسألُ الخيرَ مِنَ المالِ والغِنى وَالجاهِ وغَيْرِ ذَلكَ.

و﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ هُنا يَحتَمِلُ أنْ يَكُونَ المُرادُ بِهِ الكافرَ ويَحتملُ أَنْ يُرادَ بِه الجِنسُ أَيْ: جِنسُ الإِنسانِ سَواءً كان مُؤمنًا أم كافرًا، ثُمَّ تَنْزلُ الأحوالُ على ما يَليقُ بِها.

﴿دُعَآءِ﴾ مُضافٌ وَ﴿ٱلْخَيْرِ﴾ مُضافٌ إِليهِ مِن بابِ إِضافةِ المَصدرِ إِلَى مَفعولِهِ، وهو أيضًا -أَعنِي الخَيرَ- مَفعولٌ لِدُعاء، وَالمَدعوُّ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ فعِندنا داعٍ ومَدعوٌّ ومَدعوٌّ به أي: مَطْلوبٌ، فالدَّاعي الإِنسانُ، والمدعوُّ اللهُ، والمَدعوُّ بِه الخيرُ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: لَا يَزالُ يَسألُ رَبَّه المالَ وَالصِّحَّةَ وغَيرَهما] مِنَ البَنينَ وَالزَّوجاتِ وَالجاهِ وَالشَّرَفِ، وغَيرِ ذَلكَ مِمَّا يَدعوه الإِنسانُ رَغبةً به.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الفقرُ وَالشِّدَّةُ]، وتَخصيصُ الشَّرِّ بِالفَقرِ وَالشِّدَّة ليس على سَبيلِ الحَصْرِ، بَلْ هو على سبيلِ المِثالِ؛ لِأَنَّه يَشمَلُ الفَقْرَ والشِّدَّةَ وفَقْدَ الأولادِ، وفَقْدَ الجاهِ، وَالإيذاءَ مِنَ الخَلْقِ وأَشياءَ كَثيرَةً، فتَخصيصُ المفسِّر ذَلكَ بِالفَقْرِ وَالشِّدَّةِ مِن بابِ التَّمثيلِ.

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ الفاءُ رابطةٌ لِجوابٍ وَهو (إن) و﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ خبرٌ لِمُبتدأٍ محذوفٍ، أي: فَهو يَؤوسٌ قَنوطٌ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ رَحمةِ اللهِ وهَذا وما بَعدَه في الكافرينَ].

﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ هُناكَ فَرقٌ بين اليَأسِ والقُنوطِ، اليَأْسُ هو زَوالُ الرَّجاءِ بِحَيْثُ يَنقطعُ رجاءُ الإنسانِ، وَالقُنوطُ أَشَدُّ اليأسِ، وعَلَى هَذا فَيكونُ قَولُه: ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ هَذا ابْتداءُ القُنوطِ، وَ﴿قَنُوطٌ﴾ هَذا نِهايتُه.

وَقولُه: ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ أَعْرَبْنا ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ خَبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، وأَمَّا ﴿قَنُوطٌ﴾ فَنُعربُه عَلى أَنَّه خَبرٌ ثانٍ، وتَعدُّد الأخبارِ جائزٌ، واقعٌ في اللُّغةِ العربيَّةِ وَواقعٌ في القُرآنِ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٤-١٦] كُلُّ هذه أَخبارٌ مُتعدِّدةٌ وَلا يَصِحُّ أَنْ يَكونَ الثَّاني وَصفًا لِلْأَوَّل لأنَّها كُلَّها تَعودُ عَلى مَوصوفٍ واحدٍ. وَعليه فَنَقولُ: ﴿قَنُوطٌ﴾ خَبرٌ ثانٍ لِلمُبتدأِ المحذوفِ، وَلا يَصحُّ أَن يَكونَ نَعتًا لِيَؤوسٍ؛ لأنَّ يَؤوسًا نَفْسَها نَعتٌ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَهذا وَما بَعده في الكافرينَ] هَذا المُشارُ إليه اليأسُ وَالقُنوطُ، وما بَعدَه سَيُذكَرُ في الكافرينَ، وإنَّما قالَ المفسِّر ذَلكَ؛ لأنَّ المُؤمنَ لا يَيأَسُ ولا يَقنَطُ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، وَقال تَعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]، فَلا يُمكنُ لِلمُؤمنِ أَنْ يَيأَسَ، وعَلى هَذا فَيكونُ هَذا الوصفُ لِلكافرينَ.

مِن فَوائِدِ الآيَةِ الكَريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّ الإِنسانَ شَحيحٌ وأَنَّه حَريصٌ على الخَيرِ شَحيحٌ بِبذلِ ما يُطلبُ منه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الإنسانَ يُحبُّ الخيرَ دائمًا لِقولِه: ﴿لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾، وَهذا بِطَبيعةِ الإنسانِ أَنَّه يُحبُّ الخيرَ وَهو ما يُلائمُ نَفسَه ومُرادَه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الإنسانَ الَّذي لَيس عِندَه إيمانٌ إذا مَسَّه الشَّرُّ يَئِسَ وقَنَطَ مِن رَحمةِ اللهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ذَمُّ أَهلِ اليأسِ والقُنوطِ مِنْ رَحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ اللهَ ساقَ هَذا مَساقَ الذَّمِّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّه لا يَنبَغي لِلإنسانِ أَنْ يَغلِبَ جانبُ اليأسِ وَالقُنوطِ، كَما أَنَّه لا يَغلِبُ جانبُ الرَّحمةِ؛ لأَنَّه إِنْ غَلَبَ جانبُ الرَّجاءِ وَالرَّحمةِ فإنَّه يَدخلُ فيمَنْ لا يَأمنُ مَكرَ اللهِ، وَإِن غَلَبَ جانبُ اليأسِ وَالقُنوطِ دَخَلَ في أَهلِ اليأسِ وَالقُنوطِ.

وهَلِ الَّذي يَنبَغي لِلْإنسانِ أَنْ يَغلبَه جانبُ الرَّجاءِ أوِ الخوفِ؟

اخْتلَفَ السَّالِكونَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ في هَذا فَمِنهم مَنْ قال: يَنْبَغي أَنْ يَغلبَ جانبُ الخوفِ لِيَحذرَ المَعاصيَ ويَتجنَّبَها؛ لأَنَّه إذا غَلَبَ جانبُ الخوفِ خافَ وحَذِرَ مِنَ المعاصي، ومِنهم مَنْ قال: يَغلِبُ جانبُ الرَّجاءِ؛ لأنَّ اللهَ تَعالى عِندَ حُسنِ ظَنِّ عَبدِه بِه، وَإِذا غَلَبَ الرَّجاءُ ابتعدَ عَنِ اليأسِ وَالقُنوطِ.

ومِنهم مَنْ قال: إِنَّه لا يَنبَغي أَنْ يَغْلِبَ هَذا على هذا، وَأَنْ يَجعلَ خَوفَه وَرَجاءَه واحدًا، قالَ الإِمامُ أَحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يَنْبَغي أَنْ يَكونَ خَوفُه ورَجاؤُه واحدًا فَأَيُّهما غَلَبَ هَلَكَ صاحبُه[1].

وَقالَ بَعضُهمْ: إِنَّه يَنبَغي لِلإنسانِ أَنْ يَكونَ بَينَ الخوفِ والرَّجاءِ، كالطَّائرِ

---

(١) انظر: الاختيارات العلمية لابن تيمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] (٥/ ٣٥٩).

بين جَناحَيْه إنِ انْخَفَضَ أَحدُهُمَا سَقَطَ، وقالَ بَعضُ أَهْلِ العِلمِ: يَنبَغي أَنْ يَغلِبَ جانبُ الرَّجاءِ عِندَ فِعلِ الطَّاعةِ فَيرجو القَبولَ والثَّوابَ، ويَغلِبُ جانِبُ الخَوفِ عِندَ الهَمِّ بِالمَعصيةِ حتَّى لا يَعصيَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

وَمِن العُلماءِ مَنْ يَقولُ: يَغلِبُ جانبُ الرَّجاءِ عِند المَرَضِ حتَّى إذَا مَاتَ لَقِيَ اللهَ وَهو يُحسنُ بِهِ الظَّنَّ، وَفي حالِ الصِّحَّةِ يَغلِبُ جانِبُ الخَوفِ؛ لأنَّ حالَ الصِّحَّةِ يَدعو الإنسانَ إلَى البَطَرِ وَالأَشَرِ فَلْيَغلِبْ جانبُ الخوفِ.

كُلُّ هَذه الأقوالِ الَّتي تَبلغُ سِتَّةً أو سَبعةً كُلُّها في الواقعِ تَنْظُرُ إلى حالِ العبدِ؛ ولِهذا نَرى في هَذه المسألَةِ أَنَّ الإنسانَ يَنْظرُ إلَى حالِه، فَإنْ كانَ قَدْ عَمِلَ عَملًا صالحًا وكَدِحَ فيما يُرضي اللهَ فَلْيَغْلِبْ جانبُ الرَّجَاءِ، فَكُلَّما عَمِلَ طاعةً غَلَبَ جانبُ الرَّجاءِ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تَجاوزَ عنها، وَأَنَّ اللهَ تَعالى قَبِلَها وسَيُثيبُه، وإذا رَأى مِن نَفسِه العُلوَّ والتَّعاظُمَ فَلْيَغْلِبْ جانبُ الخَوفِ حتَّى يَصيرَ إلَى اللهِ تَعالى صَيْرًا حسنًا.

• • ۞ • •

الآية (٥٠)

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت: ٥٠].

يَقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ وَلَئِنْ ﴾ لَامُ قَسَمٍ] و(إِنْ) شَرْطِيَّةٌ [﴿أَذَقْنَاهُ﴾ آتيناه ﴿رَّحْمَةً﴾ غِنًى وصِحَّةً]، ﴿مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ﴾ ﴿مِّنَّا﴾ أي: مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ﴾ شِدَّةً وبَلاءً] ﴿مَسَّتْهُ﴾ يَعني: أَصابَته [﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾، أي: بِعملي] انْظُرْ إِلَى حالِ هَذا.

نَبدأُ أَوَّلًا بالإِعرابِ؛ لأنَّ فيه شيءٌ مِنَ الإِشكالِ، قَولُه: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ ﴾ إلى قولِه: ﴿لَيَقُولَنَّ ﴾، ففي الجُملةِ الأُولَى ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ ﴾ حَرْفُ شَرطٍ، والشَّرطُ يَحتاجُ إِلى جَوابٍ، وَفي سياقِ الآيةِ لَمْ نَجِدْ جوابًا لِلشَّرطِ، فَجوابُ الشَّرطِ في هَذه الآيةِ مَحذوفٌ؛ لأنَّه اجْتَمَعَ قَسَمٌ وشَرْطٌ، وَإِذا اجْتَمَعَ القَسَمُ والشَّرطُ حُذِفَ جوابُ المتأخِّر مِنهما. والقَسَمُ في اللَّامِ والشَّرطُ (إِنْ) والمتأخِّرُ هو الشَّرطُ، فَيُحذَفُ جَوابُ الشَّرطِ؛ ولِهذا جاءَ جوابُ القَسَم في قولِه: ﴿لَيَقُولَنَّ ﴾.

قال ابْنُ مالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في الألْفيَّةِ[1]:

---

(١) الألفية (ص:٥٩).

واحْذِفْ لَدى اجْتماعِ شَرْطٍ وقَسَمٍ جَـوابَ مـا أَخَّـرتَ فَهـو مُلتـزَمٌ

فَهو: أَيْ هَذا الحذفُ.

قَولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾، آتيناه لَكِنْ عَبَّر بِالإذاقةِ عَنِ الإيتاءِ؛ لأنَّ مَنْ ذاقَ شيئًا فَقدِ انتفعَ بِه، وَالإيتاءُ قَد يَنتفعُ بِه الإنسانُ وَقَدْ لا يَنتفعُ، فَإذا أَعطيتُكَ خُبْزةً مَثلًا قَد تَنتفعُ مِنهَا وقَد لا تَنتَفعُ، يَعني: قد تَأكلُها وقَد لا تَأكلُها لَكنْ إذا ذُقتَها فَقد أَكلْتَها وَانتفعـتَ بِها؛ فَلِهذا عَبَّر عَنِ الإتيانِ بِالإذاقةِ؛ لأنَّه أَبْلغُ في المَماسَّةِ وَفي الِانتفاعِ.

وقَولُه: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ فَسَّر المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرَّحْمةَ بِأنَّه الغنَى وَالصِّحَّةُ، وهذا مثالٌ ولَيس هو الحصرَ، بَل تَشمَلُ الرَّحمةُ كُلَّ ما هو مَطلوبٌ لِلْإنسانِ مِن غِنًى وَصِحَّةٍ وَجاهٍ وأَمْوالٍ وبَنينَ وغَيرِ ذَلِكَ.

وقَولُه: ﴿مِّنَّا﴾ إشارةٌ واضحةٌ إِلَى أَنَّ هَذه الرَّحمةَ لَيْست بكَسبِه ولكنَّها فَضْلٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَالغِنَى أَتاه مِن حيث لا يَحتسِبُ، والصِّحَّةُ أتتْهُ مِن حيثُ لا يَحتسِبُ، والبَنونَ وغَيرُهم، هي مِن عندِ اللهِ، وَواضحٌ أَنَّها مِن اللهِ ولَيستْ بِكَسبِه.

وقَولُه: ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ رَحمَةٌ مِنْ بَعدِ ضَرَّاءَ يَعني: مَعناه أَنَّه تَيقَّنَ الضَّررَ ثُمَّ جاءتِ الرَّحمَةُ مِن عِندِ اللهِ، وهَذا أَبلغُ في النِّعمَةِ أَنْ تَأتيَ بَعدَ الضَّررِ؛ لأنَّ النِّعمةَ الدَّائمةَ لا يَحسُّ بِها، لَكنَّ النِّعمةَ الطَّارئةَ بَعدَ الضَّررِ هي الَّتي يَحسُّ بِها؛ ولِهذا مَنْ لَمْ يَذُقْ مَرارةَ المَرضِ، فَإنَّه لا يَتذوَّقُ حَلاوةَ الصِّحَّةِ حتَّى في الأُمورِ الشَّرعيَّةِ، قالَ عُمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لا يَنقُدُ الإسلامَ إِلَّا مَن لَمْ يَعرِفِ الجاهليَّةَ[1] أو كَلِمةً نَحوَها.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠١).

يَعْني: الَّذي لا يَعرفُ الكُفْرَ لا يَعرفُ قَدرَ الإيمانِ، كَذلكَ أيضًا الرَّحمَةُ إذا كانت مُستديمةً مُستمِرَّةً لا يَحسُّ بِها الإنسانُ، لَكنْ إذا جاءَت مِن بَعدِ الضَّررِ أَحسَّ بها وذاق لَها طَعمًا، وأَضْرِبُ لَكُمْ مثلًا الآنَ في النَّفَس، النَّفَس نِعمةٌ كَبيرةٌ مِن أَكْبرِ النِّعَمِ، الإنسانُ لا يَحسُّ بِه، ما دامتِ النِّعمةُ مُستَمِرَّةً لكن لو أُصيبَ بِكَتمِ النَّفَس وحَجْبِهِ ثُمَّ فُرِجَ عَنْهُ لَوَجَدَ لِهذا النَّفَسِ نِعْمةً عَظيمةً وأثرًا عَظيمًا، كَذلكَ المَرضُ فَالإنسانُ الصَّحيحُ المُستمرُّ في صِحَّتِه لا يَعرِفُ قَدْرَها لكن لو مَرِضَ ثُمَّ شُفِيَ تَبَيَّنَ له قَدْرُ النِّعمَةِ.

وَالرَّحمةُ الَّتي ذَكرها اللهُ هنا رَحمةٌ مِنْ بَعدِ الضَّرَّاءِ، فَيكونُ لها أثرٌ بالغٌ أَعظمُ مِمَّا لو كانتِ الرَّحمةُ مُستمرَّةً.

إذا أَذاقَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ رَحمةً من عندِه مِنْ بَعدِ الضَّرَّاءِ ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾، ﴿هَٰذَا﴾ جوابُ القَسَمِ، يَعني: يَقولُ هَذا لِي.

قَولُه تَعالى: ﴿هَٰذَا لِي﴾ أَيْ: هَذا بِعَمَلي فتكونُ اللَّامُ بمعنى مِنْ؛ أي: هذا مِنِّي وليس مِن اللهِ، وقيل: اللَّامُ للاستِحقاقِ، يَعني: أَنِّي مُستحِقٌّ له فَلا مِنَّةَ للهِ عَلَيَّ به لأَنِّي له أَهلٌ، فأنا حَقيقٌ به، المفسِّر مَشَى على القولِ الأوَّلِ وهو أنَّ اللَّامَ بمعنى مِن؛ أي: لَيَقُولَنَّ هذا مِنِّي وأَنا الَّذي اكْتَسبتُه أَنا الَّذي اتَّجَرْتُ، وما أَشبهَ ذلك. القولُ الثَّاني: يَقولُ: هَذا مِنَ اللهِ. لكن لا مِنَّةَ له عَلَيَّ به؛ لأَنِّي مُستحِقٌّ له، والآيةُ تَحتَملُ هذا وهذا.

والقاعدةُ في التَّفسيرِ: أنَّه إذا كانت الآيةُ تَحتَملُ مَعنيينِ لا يُنافي أَحدُهما الآخرَ، فإنَّها تُحملُ عَليهما جَميعًا إذا لَمْ يُوجَدْ مُرَجِّحٌ لِأحدِهما.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ نَسأَلُ اللهَ العافيةَ، يَعني: ظَنَّ أَنَّه مُخَلَّدٌ لـمَّا جاءَته هَذه الرَّحمةُ قال: إذن لا بَعْثَ ولا جَزاءَ، ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ ثُمَّ قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ يَعني: عَلى فَرضِ أَنْ تَقومَ السَّاعةُ وأُرَدُّ إِلَى اللهِ، فإنَّ الَّذي نَعَّمَني في الدُّنيا سَيُنعِّمُني في الآخرةِ؛ ولِهذا قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾، يَقُولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيِ: الجنَّةَ].

نَقولُ في إعـرابِ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ ما قُلناه في: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾؛ لأنَّه اجْتمعَ قَسَمٌ وشَرْطٌ، وتَأخَّر الشَّرطُ فَحُذِفَ جوابُه وبَقِيَ جَوابُ القَسَمِ في قَولِه: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ فتَجِدُ هذا الرَّجلَ مِن غرورِه -وَالعِياذُ بِاللهِ- أَنَّه أَكَّدَ بِالقَسَمِ و﴿إِنَّ﴾ و(اللَّامُ) القَسَمُ في قولِه: ﴿وَلَئِن﴾ و﴿إِنَّ﴾ في قولِه: ﴿إِنَّ لِي﴾ واللَّامُ في قولِه: ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ فَهو أَكَّدَ أَنَّه على فَرْضِ أَنْ يَرجِعَ إِلَى اللهِ فَسيجِدُ الحُسنى وهي الجنَّةُ كما قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأَخَذَ المفسِّر هذا التَّفسيرَ مِنْ تَفسيرِ النَّبيِّ ﷺ في قَولِه تَعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] حَيثُ قَالَ: «إِنَّ الحُسنى الجنَّةُ والزِّيادةُ النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ»[1].

إذن هذا الرَّجلُ مَغرورٌ في غايةِ الغُرورِ:

أَوَّلًا: أَنَّه أضاف النِّعمةَ الَّتي حَصلَتْ له في الدُّنيا أَضافَها إِلَى نَفْسِه، إمَّا مُباشرَةً هو الَّذي حصَّلَها من دونِ اللهِ، وإمَّا لأَنَّه مُستحِقٌّ لها فلا فَضْلَ للهِ عليه بها.

الغُرورُ الثَّاني: أَنَّه أَنكرَ البَعثَ لِقولِه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، رقم (١٨١)، من حديث صهيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الغُرورُ الثَّالثُ: أنَّه على فَرْضِ أَنَّ السَّاعةَ قائمةٌ فَسيَجدُ عندَ اللهِ ما هو أَحسنُ: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾.

فإن قال قائلٌ: هَل للإنسانِ أَنْ يَنْسِبَ الخيرَ إِلى نَفسِهِ وهو يَعترِفُ بِفضلِ اللهِ عليه؟

فالجَوابُ: إِضافةُ العملِ إِلَى النَّفْس جائزةٌ حتَّى إِنَّ الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال في عَمِّه أَبي طالبٍ: «لَولا أَنا لكانَ في الدَّركِ الأسفلِ مِن النَّارِ»[1]، لكنَّ الإنسانَ يُضيفُه إِلى نَفسِهِ، كما قال هذا الكافرُ: ﴿هَٰذَا لِي﴾ هَذا بِعَملي أَوْ أَتاني مِنَ اللهِ لأَنِّي مُستحِقٌّ له، هَذا لا يَصلُحُ.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ أي: نُخبرنَّ، والفاءُ عاطفةٌ واللَّامُ مُوطِّئةٌ للقَسَمِ المَحذوفِ، والتَّقديرُ: فَواللهِ لَنُنبِّئَنَّ.

إِذن الجُملةُ مُؤكَّدةٌ بثَلاثةِ مُؤكِّداتٍ ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ المؤكِّدُ الأوَّلُ القَسَمُ، والثَّاني: (اللَّامُ)، والثَّالثُ: نونُ التَّوكيدِ في قَولِه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ وَالضَّميرُ في قَولِه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ يَعودُ عَلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وعادَ إليه بصيغَةِ الجَمعِ مِن بابِ التَّعظيمِ وَإِلَّا فاللهُ إِلهٌ واحدٌ.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أَيْ: بالَّذي عَمِلوه نُخبرُهم بِذلكَ يَومَ القيامةِ، وكَيفيَّةُ هذا أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحصي أَعمالَهم يَومَ القيامةِ، فَيُنادِي عَليهم على رُؤوسِ الأَشهادِ بِأَنَّه قَد أَخزاهُم الله: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، رقم (٢٠٩)، من حديث العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عم الرسول ﷺ.

ثم يَقولُ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يَعني: بَعدَ أَنْ نُنبِّئَهم ويُقِرُّوا بِذلكَ نُذيقُهم ﴿مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [شَديدٍ واللَّامُ في الفِعلَينِ لَامُ القَسَم] وَالفِعلانِ هما: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾.

في هَذه الآيَةِ وَالَّتي قَبلَها بَيانُ حالِ الإنسانِ الكافرِ وَهو كُفرُه بِنعمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ واعْتزازُه بِنَفسِه؛ لِقَولِه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾؛ فَإنَّ هَذا يَدُلُّ على كُفرِه الشَّديدِ، وَاعتزازِه بِنفسِه وَإعجابِه بِها.

مِن فَوائِدِ الآيةِ الكَريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّ اللهَ تَعالى يَرحَمُ الكافرَ لِقَولِه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً﴾، ولَكنِ اعْلَمْ أَنَّ رَحمَةَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نَوعانِ: رَحْمةٌ خاصَّةٌ، ورَحمةٌ عامَّةٌ.

فما به قوامُ البَدنِ مِنَ الرَّحمةِ العامَّةِ؛ لأنَّه يَشملُ المُؤمنَ وَالكافرَ وَالبَرَّ والفاجِرَ والإنسانَ وَالحيوانَ، هَذه رَحمةٌ عامَّةٌ، وَما بِهِ قَوامُ الدِّينِ مِنَ الرَّحمَةِ الخاصَّةِ، وَهَذا يَختصُّ بِالمُؤمنينَ.

وَالفرقُ بَينهما: أَنَّ الرَّحمةَ العامَّةَ إِنَّما هي غذاءُ البدنِ فَقط وتَزولُ بِزَوالِه، والرَّحمةُ الخاصَّةُ غذاءُ الرُّوحِ تَبقَى بِبقاءِ الرُّوحِ في الدُّنيا وَالآخِرةِ، وَالرُّوحُ مُنذُ خَلَقَهَا اللهُ لا تَفنى كَالوِلْدانِ في الجَنَّةِ وَالحورِ العِينِ في الجنَّة، خُلِقت لِلبَقاءِ، بِخِلافِ الأجسادِ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ فَضلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلى الكافرِ؛ لِكَونِ الرَّحمةِ الَّتي أَصابتِ الكافرَ مِنْ عِندِ اللهِ؛ لِقَولِه: ﴿مِّنَّا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِعجابُ الكافرِ بِنفسِه حَيثُ يُضيفُ هَذه الرَّحمةَ الَّتي هي مِنَ اللهِ

إلى نَفسِه لِقَولِه: ﴿هَٰذَا لِي﴾ أَوْ يُضيفُها إلى اسْتحقاقِه إيَّاها، فَكأنَّ اللهَ لا مِنَّةَ له عليه على القولِ الثَّاني أنَّ مَعنَى قولِه: ﴿هَٰذَا لِي﴾ هذا مُستَحَقٌّ لي.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيانُ عُتوِّ الكافرِ حَيثُ أَنكرَ ما قامتِ الأدلَّةُ الشَّرعيَّةُ والعقليَّةُ والحِسِّيَّةُ على ثُبوتِه في قَولِه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

والأدلَّةُ الشَّرعيَّةُ على ثُبوتِ قيامِ السَّاعةِ كَثيرةٌ لا تُحصى، والأدلَّةُ العقليَّةُ هو أَنَّه ليس مِنَ الحِكمةِ أَنْ يُوجِدَ اللهُ هَذِهِ الخَليقةَ ويَأمُرُها ويَنهاها، ويُسلِّطُ بَعضَها على بَعضٍ بِالسَّيفِ، وَيُقاتلُ المُؤمنُ الكافرَ ثُمَّ تكونُ النِّهايةُ لا شيءَ، هذا سَفَهٌ، وقَدْ أَشارَ اللهُ إلى ذلك في قَولِه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥] أيُّ فائدةٍ لِخَلقٍ يُوجَدُ ويُؤمَرُ ويُنْهَى ويُسلَّطُ بَعضُهُ على بَعضٍ في القتلِ العَمدِ، ثُمَّ النِّهايةُ لا شيءَ! لا فائدةَ مِن هذا، وحِكمةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تَأْبى أَنْ يَقعَ مِثلُ ذَلكَ مِنَ اللهِ، هَذا دَليلٌ عَقليٌّ واضحٌ يُوجبُ أَنْ يُبعثَ النَّاسُ لِيُجازَوْا عَلى أَعْمالِهِمْ.

أَمَّا الدَّليلُ الحِسِّيُّ على ثُبوتِ البَعثِ وإمكانِه وجَوازِه، فَاللهُ تَعالَى يُقرِّرُه في القُرآنِ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ يَعني: هامدةً لَيس فيها نَباتٌ: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ أَي: ماءُ المَطرِ ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ فَصارت حَيَّةً بَعدَ أَنْ كانت مَيْتةً، قال اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]، فَإحياءُ الأرْضِ مِنْ بَعدِ مَوتِها وَالنَّاسُ يُشاهدونَ دَليلٌ عَلى إمكانِ إحياءِ الموتى وبَعْثِهم، وهَذا دَليلٌ واضحٌ حسِّيٌّ مُشاهَدٌ، كَذلِكَ أيضًا أَشْهدَنا اللهُ عَزَّوَجَلَّ في الدُّنيا إحياءَ المَوتى، فَلْنَسْتَعْرِضْ هَذا في القُرآنِ:

المَشهدُ الأوَّلُ: بَنُو إسرائيلَ قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥] فَأَخذَتْهمُ الصَّاعقةُ وَماتوا ثُمَّ بُعِثوا، هذا في الدُّنيا.

المَشْهَدُ الثَّانِي: القتيلُ الَّذي اخْتَلفتِ القَبيلتانِ فيهِ فَأَمَرَهُمُ اللهُ أَنْ يَذبَحوا بَقرةً وأَنْ يَضْربوا القَتيلَ بِبعضِها، فَفَعَلوا فَحَيِيَ القَتيلُ وَقالَ: إِنَّ الَّذي قَتَلَهُ فُلانٌ، فَهذا إِحياءٌ بَعدَ الموتِ.

المَشهدُ الثَّالِثُ: ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [البقرة:٢٤٣] خافوا مِنَ الموتِ وخَرَجوا مِن دِيارهم ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ فماتوا ﴿ثُمَّ أَحۡيَـٰهُمۡ﴾ أَماتهم لِيَعْلموا أَنَّه لا مَفَرَّ لَهُمْ مِن قَضاءِ اللهِ ﴿ثُمَّ أَحۡيَـٰهُمۡ﴾ لِيَقْضِيَ أَجَلًا.

المَشهَدُ الرَّابعُ: صاحبُ القَريةِ مَرَّ على قريةٍ: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة:٢٥٩].

المَشْهَدُ الخامِسُ: إِبْراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠] فَأَمَرَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَذبَحَ أَربعةً مِنَ الطُّيورِ وَيَجعلَ على كُلِّ جبلٍ مِنها جُزءًا، وأَنْ يَدعوها فَفَعَلَ، فَأَقْبَلَت إِليه حَيَّةً إِمَّا أَنَّها تَطيرُ أو تَمشي بِسرعةٍ.

هَذِه خَمسةُ مَشاهِدَ مَذكورةٍ في البَقرةِ، كُلُّها تَدُلُّ عَلَى إِمْكانِ الإِحياءِ بَعْدَ المَوْتِ.

أَمَّا قِصَّةُ عِيسى فَكذلِكَ أيضًا، فَقدْ كانَ عيسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يُحيي المَوتى بِإِذْنِ اللهِ يَقِفُ عَلَى المَيِّتِ ويَقولُ: يا فُلانُ، قُمْ ويَقومُ بل يَقِفُ عَلَى قَبْرِ المَيِّتِ المَدفونِ، ويَأمرُه أَنْ يَخْرُجَ حَيًّا، فيَخْرُجُ كما قال تَعالَى: ﴿وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِي﴾ [المائدة:١١٠].

وفي الدَّجَّالِ أَخبَرَنا النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَنَّهُ يَقْطَعُ رَجلًا جِزْلَتَيْنِ ويَمُرُّ بينهما ثُمَّ يَقِفُ ويَأمرُه أَنْ يُقبِلَ يَأمُرُ هذا المَيِّتَ القِطعَتينِ أَنْ يُقْبِلَ فَيَلْتئمَ حالًا ويَقومَ،

والنَّاسُ يَنظُرون[1]، هذا أيضًا شاهِدٌ محسوسٌ، فَالمُهِمُّ أَنَّ البعثَ دَلَّ عَليه السَّمعُ والعقلُ والحسُّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هذا الكافرَ عِندَه مِنَ العَجبِ وَالثِّقةِ بنفسِه على أَنَّه لَيس له شَيءٌ يَثِقُ بِه ما أَمْكنَه أَنْ يَقولَ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الإِقرارَ بِالرُّبوبيَّةِ لا يُدخِلُ الإنسانَ في الإِسلامِ؛ لأنَّ هذا المُنكِرَ مُقِرٌّ بِالرُّبوبيَّةِ، يُؤخَذُ من قَولِهِ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾.

والمُشركون كانوا مُقِرِّينَ بِالرُّبوبيَّةِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩]، لَكنَّ الإِقرارَ بِالرُّبوبيَّةِ لا يُغني عَنِ الإنسانِ شيئًا، ولقد فَخِرَ بَعضُ النَّاسِ الجُهَّالِ أَنَّ أحدَ رُوَّادِ الفَضاءِ شَهِدَ بِأنَّ لِهذا الكونِ خالقًا لَمَّا صَعَدَ في الفضاءِ، ورَأى الأرضَ وَرَأى ما حولَه مِن الآياتِ شَهِدَ بأنَّ لها خالقًا، فَصارَ بَعضُ النَّاسِ الجُهَّال يُطَنْطِنُ على إثباتِ أنَّ للكونِ خالقًا بِشهادةِ هذا الرَّجُلِ الكافرِ.

وهذا -حَقيقَةً- يَدُلُّ على ضَعفِ إيمانِه؛ لأنَّ خَبرَ اللهِ ورَسولِه عَنْ ذَلك أَصدقُ وأَوجبُ لِلإيمانِ، نَعَمْ لو كُنَّا نُجادلُ شخصًا مُنكِرًا لا يُؤمِنُ بِالأديانِ فَنقولُ له: صاحبُك الَّذي هو مِثلُك أَقَرَّ بِأنَّ لِلكونِ خالقًا رُبَّما يَنفعُ، فَيكونُ هَذا مِن بابِ إقامةِ حُجَّته عليه، لَكنْ نَجعلُ هذا حُجَّةً مُطلَقةً، فيه نَظرٌ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: التَّأكيدُ على أنَّ هؤلاءِ الكافرينَ سوف يُخبَرونَ بما عَمِلوا؛ لِقولِه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ وَيكونُ هذا يومَ القيامةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب لا يدخل الدجال المدينة، رقم (٧١٣٢)، ومسلم: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، رقم (٢٩٣٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَإِنْ قال قائلٌ: هَلْ لِهذا القَيدِ مَفهومٌ أو هو لِبيانِ الواقعِ: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؟

فَالجوابُ: لِبيانِ الواقعِ لَيس له مفهومٌ لِأَنَّك لو جَعلْتَ له مَفهومًا لكانَ المؤمنونَ لا يُنبَّؤونَ بما عَمِلوا مَع أَنَّهم يُنبَّؤونَ، قال اللهُ تَعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧].

وَثَبَتَ عَنِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عَليه وعَلَى آله وسلَّم- أَنَّ اللهَ يَخلو بِعبدِه المُؤمنِ فَيُقَرِّره بِذنوبِه عَمِلْتَ كذا فِي يَومِ كذا[1].

إذن: تَقييدُ الإِنباءِ بِالكافِرِ لبَيانِ الواقعِ يَعني: أَنَّ هَؤلاء الَّذين كَذَّبوا واقعُهم أَنَّهم سَيُنبَّؤونَ بِما عَمِلوا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ كُلَّ شيءٍ مُقيَّدٌ محفوظٌ على الإنسانِ، نَأخذُه مِن قَولِهِ: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ فَإِنَّ ﴿بِمَا﴾ اسمُ مَوصولٍ يُفيدُ العُمومَ، وقَدْ قال اللهُ تَعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] فَأيُّ قَولٍ تَلْفِظُ بِهِ فَلَديكَ رَقيبٌ حاضرٌ عَتيدٌ يَعني: حاضرٌ يَكتبُ ما تَقولُ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ عذابَ هَؤلاءِ الكُفَّارِ سَيكونُ غَليظًا، أي: شَديدًا؛ لِأَنَّ الغِلظَةَ مَعناها القَسوةُ، وهي في كلِّ مَوضعٍ بِحسبِهِ، فَغِلَظُ الطِّباعِ لَيْس كَغِلَظِ الطِّينِ أو العَجينِ أَو ما أَشبهَ ذَلكَ، وغِلَظُ العذابِ ليس كَغِلَظِ الطِّينِ والعَجينِ وغِلَظِ القولِ، وَما أَشبهَ ذَلِكَ، كُلُّ غِلْظةٍ بِحَسَبِها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثباتُ العذابِ في الآخرةِ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ فَهلْ هناك عَذابٌ قَبلَ الآخرَةِ؟

الجوابُ: نَعَمْ، يُعذَّبُ الإنسانُ في قَبرِه قَبْلَ أَنْ يُبعث، وَهذا ثابتٌ بِالقُرآنِ وَالسُّنَّةِ اسْتَمِعْ إِلَيهِ في القُرآنِ قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام:٩٣]، فَقولُه: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ يَدلُّ على أَنَّهم شَحيحونَ بِأَنْفسِهم لا يُريدونَ أَنْ تَخرُجَ ولـهذا يُقالُ: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ تَوبيخًا، ثُمَّ يُقالُ لَـهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: يَومَ مَوتِكم: ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ وهَذه نَصٌّ في إِثباتِ عَذابِ القبرِ.

وقال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَن آلِ فِرعونَ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

وأَمَّا السُّنَّةُ فَطافِحةٌ في ذَلكَ وكَثيرةٌ، ومِنها ما أَجمعَ المُسلمونَ عَليه، فَكُلُّ المُسلمينَ يَقولون في الصَّلاةِ: أَعوذُ بِاللهِ مِنْ عَذابِ جَهنَّمَ ومِن عَذابِ القبرِ، وهل يُتصوَّرُ أَنَّ أحدًا يَتعوَّذ مِن شيءٍ إِلَّا وهو يُؤمنُ بوجودِه! لا يُتصوَّرُ.

إِذَنْ: فَعذابُ القَبرِ ثابتٌ بِالقرآنِ والسُّنَّة وَالإجماعِ، وعليهِ فَيكونُ العَذابُ المَذكورُ في قولِه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ هو عذابُ الآخرةِ، وهو أَشدُّ مِن عَذابِ القبرِ، أَجارنا اللهُ وإِيَّاكم مِن ذلك.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ مِن عِبادِ اللهِ مَن لا يَشكُرُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ولا يَعْترفُ له بِالفَضلِ، فَإِذا جَاءته الرَّحمَةُ بَعْدَ الضَّرَّاءِ ادَّعى أَنَّ هذا بِعمَلِه وأَنَّه مَحقوقٌ به وأَهلٌ له؛ لِقولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾.. إلخ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الرَّحمةَ إِنَّما هي مِن اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا يَستطيعُ الإِنسانُ أَنْ يَجلِبَ لِنفسِه نَفعًا ولا أَنْ يَدفَعَ عَنْهَا ضَررًا، بل ذلك إلى اللهِ، ولكنَّ اللهَ قَد جَعَلَ لِكُلِّ شيءٍ سببًا، فَللرَّحمةِ أَسبابٌ ولِلعذابِ أَسبابٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: بَيانُ حالِ هذا الإِنسانِ الَّذي إِذا أصابتْه الرَّحمةُ والخَيرُ: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ ثُمَّ ادَّعَى دَعوَةً أُخرى أَنَّه لَو رَجعَ إِلى اللهِ لَوَجَدَ عِندَه خَيرًا من ذلك، مع أَنَّه يُنكِرُ قيامَ السَّاعةِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَهديدُ مَنْ هَذهِ حَالُه بِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سَوف يُقَرِّرُه بِذنوبِه ويُذيقُه مِنَ العَذابِ الغَليظِ لِقولِه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الإِظهارَ في مَوضعِه خَيرٌ مِنَ الإِضمارِ يَعني: إِذا دارَ الأمرُ بَينَ أَنْ تَأتيَ بِضميرِ المُتحدِّثِ عَنه أو بِاسْمٍ ظاهرٍ، فَإِنَّ الأصلَ أَنْ تَأتيَ بِالضَّميرِ، لكن إِذا صارَ هناك فائدةٌ في الإِظهارِ في مَوضعِ الإِضمارِ فَهو أَوْلَى وأَحْسَنُ، الإِظهارُ في مَوضعِ الإِضمارِ في قَولِه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وَلو أَضْمرَ لقالَ: فَلَنُنَبِّئَنَّهُمْ، لكنَّه أَظْهَرَ في مَوضِعِ الإِضمارِ، والإِظهارُ فِي مَوضعِ الإِضمارِ، ذَكَرْنا أَنَّ فيه أَربعَ فَوائدَ:

١- بَيانُ الصِّفَةِ أَو الوَصْفِ الَّذي اسْتحقَّ مِن أَجْلِه أَنْ يُعاقَبَ بِهذه العُقوبةِ.

٢- بَيانُ العُمومِ، يَعني: أَنَّ هذا الوعيدَ ليس لِهذا الرَّجُل وَحدَه بَل لكُلِّ كافرٍ، هذا بِالنِّسبةِ لِهذه الآيةِ.

٣- انْتباهُ المُخاطَبِ؛ لِأَنَّ الكلامَ إِذا كانَ على نَسَقٍ واحدٍ بضمائرِه ومُظهَراتِه، فإِنَّ الإِنسانَ لا يَنتبهُ لكن إِذا جاء شيءٌ يُخرِجُ الكلامَ عَن سياقِه، فَإِنَّه لا بُدَّ أَنْ يَنْتبِهَ.

٤- مُراعاةُ فَواصلِ الآياتِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: إِثْباتُ البعثِ لِقولِه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: عُمومُ عِلْمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ الْمُنْبِئَ بِالعَملِ لا بُدَّ أَنْ يكونَ عالِمًا به.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: بَيانُ عَظمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَيثُ أَضاف الضَّمائِرَ إِليه بِصيغةِ الجَمعِ، والجَمعُ لِلواحِدِ يُرادُ بِه التَّعظيمُ.

• • ۞ • •

الآية (٥١)

❁ قال اللهُ تَعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت:٥١].

قَولُه تَعالَى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يَعني: أَعْطيناهُ نِعمةً والنِّعمةُ تَدورُ على شَيئينِ: على حُصولِ المَرغوبِ، وعلى النَّجاةِ مِنَ المَرهوبِ. فَمَنْ سَقطَ في بَحرٍ ثُمَّ هيَّأَ اللهُ له مَن يُنقذُه مِنَ الغَرَقِ فَتلكَ نِعمةٌ. وكَذلك أيضًا مَنْ رَزَقَه اللهُ مالًا وولدًا هَذه نِعمةٌ، فَالنِّعمَةُ إِمَّا انْدفاعُ نِقمةٍ، وإِمَّا حُصولُ مَحبوبٍ لِلإنسانِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾] المُرادُ [الجنس] يَعني: ليس المُؤمنُ ولا الكافرُ، بَل هذا الوصفُ يكونُ مِنَ المُؤمنِ ويكونُ أيضًا مِنَ الكافرِ. يَعني: أَنَّ جِنسَ الإنسانِ بالنَّظَرِ إِلى كَونِه إِنسانًا فقط هَذه حالُه، إِذا أَنعمنا على إِنسانٍ أَعرضَ عَنِ الشُّكرِ، والشُّكرُ حَقيقةً هو طاعةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ويَكونُ بِالقَلبِ وبِاللِّسانِ وبِالجَوارحِ، ويَدُلُّ على أَنَّ الشُّكرَ هو طاعةُ اللهِ قَولُ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعَلَى آلِه وسلَّم-: «إِنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤمنينَ بِما أَمَرَ به المُرسَلينَ، فَقال اللهُ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون:٥١] وَقالَ لِلْمُؤمنينَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٧٢]»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، بابِ قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فَجَعَلَ النَّبيُّ ﷺ الشُّكرَ لله هُوَ العَمَلُ الصَّالحُ يَعني: القيامَ بطاعَةِ اللهِ ويَكونُ بِالقلبِ ويَكونُ بِاللِّسانِ ويَكونُ بِالجَوارحِ، أَمَّا بِالقلبِ فَهو شُعورُ الإِنسانِ بِأَنَّ هَذه النِّعمةَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأَنَّه لَولا فَضلُ اللهِ ما حَصَلَت له فيُقِرُّ بِقلبِه، ويَعترِفُ أَنَّ ذلك من عندِ اللهِ وليس بِحولِه وقُوَّته، وأَمَّا الشُّكرُ بِاللِّسانِ فالتَّحدُّثُ بِنِعمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ اعترافًا بِفضلِه لا افتخارًا على خَلقِه بأنْ يَقولَ: الحمدُ لله قدْ رَزقَني اللهُ أَولادًا وَمالًا وعِلمًا وجاهًا وما أَشبهَ ذَلِكَ.

وَمِنَ الشُّكرِ بِاللِّسانِ جَميعُ الطَّاعاتِ القَولِيَّةِ، فَإِنَّها مِنَ الشُّكرِ بِاللِّسانِ فَقِراءَةُ القُرآنِ مِنَ الشُّكرِ؛ لأَنَّ كُلَّ طاعةٍ بِاللِّسانِ فهي مِنْ شُكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

والشُّكرُ بِالجوارحِ العملُ؛ كَالرُّكوعِ والسُّجودِ والقِيامِ والقُعودِ والصَّدقةِ وَما إِلى ذلك، وفي هذا يَقولُ الشَّاعرُ[1]:

أَفَادتْكُم النَّعماءُ مِنِّي ثَلاثةً ... يَدي ولِساني والضَّميرَ المُحَجَّبَا

يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [فصلت:٥١].

يَقُولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي: ثَنَى عِطفَهُ مُتبخْتِرًا] يَعني: أَعْرَضَ بِبَدَنه وبقَلْبِه مُفْتخِرًا مُتعاظِمًا هَذا بِالنِّسبةِ لِحالِه، وبِالنِّسبةِ لِمَا يُطلبُ مِنه مِنَ الشُّكرِ يُعرِضُ ولا يَشكُرُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وهذه حالُ كَثيرٍ مِن بَني آدَمَ؛ ولِهذا عَمَّمها اللهُ قالَ: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾؛ لِأَنَّ أَكثَرَ بَني آدَمَ عَلى هذه الحالِ.

وقَولُه: ﴿وَنَـَٔا﴾ في التَّفسيرِ: [(ناء)] يَقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَفي قِراءةٍ بِتَقديمِ الهمزةِ] في قِراءةٍ سَبْعيَّةٍ، واعلمْ أَنَّ اصطلاحَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّه إِذا قال: «وفي قِراءةٍ»

(١) انظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤) غير منسوب.

فَهي سَبعيَّةٌ أي: مِنَ القِراءاتِ السَّبعِ، وإذا قال: «وقُرِئَ» فَهي مِن القِراءاتِ الشّاذَّةِ.

إذن: (ناء) و(نأى) مَعناهُما واحدٌ كَأَيِسَ ويَئِسَ بِتَقديمِ الهَمزةِ وتَأخيرِها ومَعناهُما واحدٌ، أَيِسَ من كذا ويَئِسَ من كذا، وناءَ بِكذا أو نَأَى بكذا مَعناهُما واحدٌ، والمقصودُ أَنَّه كما قال المفسِّر: ثَنَى عِطفَه وانصرفَ مُتبختِرًا ومُتعاظِمًا.

قالَ الله تَعالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أَقبَلَ: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾، يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كثير]. أي: إذا مَسَّه الشَّرُّ لَجَأَ إلى اللهِ وأَطالَ الدُّعاءَ وأَكثرَ مِنهُ، وانظُروا ما حَكَى اللهُ تَعالَى عَنِ المُشركينَ إذا كانوا في البَحرِ وهاجَ البحرُ: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس:٢٢]، ولكنَّهم يَعِدونَ ويَكذِبونَ إذا أَنجاهم اللهُ عادوا إلى كُفرِهم والعياذُ بِاللهِ.

من فَوائِدِ الآيةِ الكَريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّ الإِنسانَ مِن حيثُ هو إنسانٌ بَطَرٌ عندَ النَّعماءِ لكنَّه مُقبِلٌ عند الضَّرَّاءِ لِقولِه: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ ما يَتمتَّعُ به الإِنسانُ مِنَ النَّعيمِ، فإنَّما هو مِن عندِ اللهِ لقَولِه: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التَّحذيرُ مِن هذه الحالِ، فإذا رَأى الإِنسانُ مِن نَفسِه أَنَّه عند النِّعمَةِ يَفرحُ ويَبطُرُ ويَتهاوَنُ بِما أَوجبَ اللهُ عَليه، فَليَعلَمْ أَنَّه داخلٌ في هذا الإنسانِ المَذمومِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الإنسانَ يَعرفُ مِن نَفسِه الضَّعفَ إذا أَصابَه الضَّررُ ويَلجأُ إلى اللهِ حتَّى الكافرُ يَعرفُ مِن نَفسِه الضَّعفَ، ويَلجأُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الكُفَّارَ يُؤمنونَ باللهِ وبأنَّه هو كاشفُ الضُّرِّ لِقولِهِ: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾.

الإعرابُ في قَولِه: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ هذه جُملةٌ شَرطيَّةٌ، وجَوابُها: ﴿أَعْرَضَ﴾، و﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ مَعطوفٌ عليه. وأمَّا في قَولِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، فَجوابُه: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ وعامِلُه مُقَدَّرٌ أي: فَهو ذو دُعاءٍ عَريضٍ. واقتُرِنتِ الفاءُ في جَوابِ الشَّرطِ؛ لِأنَّ جَوابَ الشَّرطِ جُملةٌ اسميَّةٌ، وَإذا كانَ جَوابُ الشَّرطِ جُملةً اسميَّةً وَجَبَ اقترانُها بِالفاءِ وَلا تَسقطُ إلَّا نادرًا، والجُمَلُ الَّتي إذا وَقَعَت جَوابًا لِلشَّرطِ فَإنَّها تُقترَنُ بِالفاءِ مَجموعةٌ في قَولِ النَّاظمِ:

اسميَّةٌ طَلبيَّةٌ وبِجامِدٍ ... وبِلَن وقَد وبِالتَّنفيسِ

فَإذا وَقَعَ جَوابُ الشَّرطِ جُملةً من هَذهِ الجُمَلِ السَّبعِ وَجَبَ اقترانُه بِالفاءِ ولا تُحذَفُ إلَّا نادرًا مثل قولِ الشَّاعرِ[1]:

مَن يَفعلِ الحسناتِ اللهُ يَشكُرُها ... .

الأصلُ مَن يَفعلِ الحَسناتِ فاللهُ يَشكُرُها، لَكِنَّها سَقطت إمَّا لِضرورَةِ الشِّعرِ وإمَّا لِلقِلَّةِ؛ لِأنَّها تَسقطُ حتَّى في النَّثرِ ولكن ذلك قليل.

• • ۞ • •

(١) اختلف في قائله، فنسبه سيبويه في الكتاب (٣/ ٦٤-٦٥) لحسان بن ثابت، ونسبه ابن هشام في مغني اللبيب (ص:٨٠) لعبد الرحمن بن حسان، ونسبه جماعة لكعب بن مالك كما في خزانة الأدب (٩/ ٥١).

الآية (٥٢)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٥٢].

ثم قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كَما قالَ النَّبيُّ -صلَّى الله عَليه وعلى آله وسلَّم-]: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٥٢].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾، ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ بمَعنَى أَخبِروني، وقَولُه: ﴿إِن كَانَ﴾ يَعني: القُرآنَ: ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم﴾ وأَنكرتُم أن يَكونَ من عند اللهِ: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أَصلُ الجُملةِ مَن أَضَلُّ مِنكُم أَرأيتُم إِن كانَ مِن عندِ اللهِ وتَبيَّن لَكُم أَنَّه مِن عندِ اللهِ: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ الأصلُ لا أَحَدَ أَضَلُّ مِنكُم ولَكنَّه أُظهِرُ في مَوضعِ الإضمارِ، وذَكَرنا أَنَّ لِلإظهارِ في موضِعِ الإضمارِ فَوائدَ مِنها:

أولًا: تَنبيهُ المُخاطَبِ.

ثانيًا: بَيانُ الصِّفةِ الَّتي استحقَّ بِها صاحبُ الضَّميرِ هذا الوَصفَ.

ثالثًا: بَيانُ العُمومِ.

رابعًا: مُراعاةُ فَواصلِ الآياتِ.

وقَولُه: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: القرآن] وتَبيَّن لَكم ذَلكَ واتَّضحَ، ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ أَتى بـ«ثُمَّ» الدَّالَّةِ علَى التَّرتيبِ والتَّراخي إِشارةً إلى أَنَّ هَؤلاءِ أَنكروا وكَفَروا بَعدَ التَّروِّي وبَعدَ المُدَّة الَّتي يُؤمنُ بِها مَن أَرادَ الإيمانَ.

وقَولُه: ﴿بِهِۦ﴾ الضَّميرُ يَعودُ عَلى القُرآنِ ويَجوزُ أَن يَكونَ عائدًا إلى الرَّسولِ -صَلَّى اللهُ عليه وعَلى آلِه وسَلَّم-؛ لِأَنَّه هو الَّذي نَزَلَ عليه القُرآنُ.

﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: لا أحد ﴿أَضَلُّ﴾]، إِشارةٌ إلى أنَّ الاِستفهامَ هُنا بمَعنَى النَّفيِ، واعلَم أَنَّ الاِستفهامَ يَأتي بِمعنَى النَّفيِ كَثيرًا وَإِتيانُه في مَوضعِ النَّفيِ أَعظمُ مِنَ النَّفيِ؛ لِأَنَّه إذا أَتى الاِستفهامُ في مَوضعِ النَّفيِ صارَ مُشربًا مَعنَى التَّحدِّي كَأَنَّه قالَ: أَروني أحدًا أَضَلَّ، وهذا لا شكَّ أَنَّه مُشتَمِلٌ على النَّفيِ وعلى التَّحدِّي.

وقال: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿مَنْ﴾ مُبتدأٌ اسمُ استِفهامٌ وَ﴿أَضَلُّ﴾ خَبرُهُ، ﴿مِمَّنْ هُوَ﴾ أي: مَنِ الَّذي هو في ﴿شِقَاقٍ﴾، يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خلافٍ ﴿بَعِيدٍ﴾] بَل شِقاقٍ أَخصُّ مِنَ الخِلافِ؛ لِأَنَّه قَد يُخالِفُك ولا يُشاقُّك ولَكِنَّ هَؤلاءِ خالَفوا وشاقُّوا.

وقولُه: ﴿بَعِيدٍ﴾ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَعِيدٍ﴾ عَنِ الحقِّ أَوقعَ هَذا مَوقِعَ منكم بَيانًا لِحالِهم]، يُريدُ أَوقعَ: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ مَوقِعَ مِنكُم؛ أي: مَوقِعَ الضَّميرِ، فَهو إِظهارٌ في مَوضعِ الإِضمارِ لِبيانِ حالِهم؛ أَي: بَيانُ أَنَّهم هُم أَضلُّ من كُلِّ أَحدٍ وأَنَّ حالَهم الشِّقاقُ البَعيدُ فَفيهِ إِظهارٌ في مَوضِعِ الإِضمارِ.

من فوائدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَحدِّي هَؤلاءِ المُكذِّبينَ لِلرَّسولِ ﷺ الكافِرينَ بِالقُرآنِ، وأنَّهم بَعدَ أن عَلِموا بِالحقِّ كَفَروا بِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ لِقولِه: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وَجهُ ذَلِكَ أنَّ القُرآنَ وَصفٌ لأنَّه كَلامٌ، والوصفُ لا بُدَّ أن يَقومَ بِمَوصوفٍ، وإذا كانَ مِن عندِ اللهِ لَزِمَ أن يَكونَ المَوصوفُ بِهِ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ زيادَةً على ذَلكَ وَجهُ الدَّلالَةِ كَونُه مِن عندِ اللهِ، وأنَّ الكلامَ صِفةٌ ولَيس عَينًا قائمةً بِنَفسها حَتَّى نَقولَ: إنَّه مَخلوقٌ كَما في قَولِه تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٢٠٦].

وهذا ما نُؤمنُ بِه ويُؤمنُ بِه السَّلفُ أَهلُ السُّنَّةِ والجماعَةِ بِأنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ تَكلَّمَ بِهِ حَقيقةً بِحُروفِهِ، وسَمِعَه مِنه جِبريلُ وأَلقاه عَلى قَلبِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسَلَّم-.

ويَرى أَهلُ التَّعطيلِ أنَّ القرآنَ كَلامُ اللهِ لَكنَّه مَخلوقٌ، لَيسَ وَصفًا مِن صِفاتِه بل هو مَخلوقٌ مِن مَخلوقاتِه، وهذا رَأيُ الجَهميَّةِ والمُعتزلَةِ، وهَذا الرَّأيُ يُبطِلُ الأمرَ والنَّهيَ ويُبطِلُ الشَّريعَةَ كُلَّها؛ لِأنَّه إذا كانَ كَذلكَ صارَ مُجرَّد أَصواتٍ أو مُجرَّد حُروفٍ لا مَدلولَ لَها، كَما نَسمعُ صَوتَ الرَّعدِ مَثلًا لا نَستفيدُ مِنهُ شَيئًا، إنَّما هو شَيءٌ يُسمَعُ فقط ولَيس لَه مَعنًى، أو حُروفٌ خُلِقَت عَلى هَذا النَّحوِ كَأنَّها نَقشٌ في جِدارٍ أو في بابٍ، نُقوشٌ لَيسَ لَها مَعنًى؛ ولِهذا يُعتبَرُ هَذا القولُ مِن أَشدِّ الإلحادِ؛ لِأنَّه تَبطلُ بِه الشَّريعَةُ.

فَمثلًا: كَلمَةُ (قُل) إذا قلنا: إنَّها مَخلوقَةٌ إن رَسمتَها في وَرقةٍ صارت صورةَ كَلِمةٍ فَقط كَأنَّها نَقشٌ؛ لِأنَّها لَيست بِكلامٍ، وإن تَكلَّمتَ بِها فالصَّوتُ مَخلوقٌ،

بَلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ حينَ تَكلَّم بِها وأَوحاها إِلى جِبريلَ يُعتبرُ خَلَقَ صَوتًا ليس له مَعنًى؛ لِأَنَّه مَخلوقٌ مِنَ المخلوقاتِ.

واللهُ عَزَّوَجَلَّ فَرَّق بَينَ الخلقِ والأمرِ فَقالَ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤] وكَذَلكَ: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢] ولَم يَقُل: مِن خَلقِنا.

فالقائلونَ بِأنَّ القرآنَ كَلامُ اللهِ لكنَّه مَخلوقٌ قد عَطَّلوا الشَّرائِعَ نِهائيًّا، إِذ إِنَّه لَيس هُناكَ أَمرٌ ولا نَهيٌ.

وهُناكَ قَولٌ آخَرُ لِلأشاعِرَةِ يَقولونَ: إِنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ، لكنَّه أي: الكلامُ هو المعنَى القائمُ بِنفسِهِ أَمَّا ما سَمِعَه جِبريلُ فَإِنَّه مَخلوقٌ، فالقُرآنُ عندهُم كَلامُ اللهِ لَكِنَّ كَلامَ اللهِ هو المعنَى القائِمُ بِنفسِه، وأَمَّا ما يُسمَعُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كَمُناجاتِه موسَى وكَلامِه بِالوحيِ إلى جِبريلَ فَإِنَّه مَخلوقٌ عِبارةٌ عَنِ المعنَى القائِمِ بالنَّفسِ.

وهذا المعنَى أَشدُّ وأَخبثُ مِن قَولِ المُعتزلَةِ؛ لِأنَّ المُعتزِلَةَ يَقولونَ: ما نَقرأُه في المَصاحفِ كَلامُ اللهِ حقًّا، والأشاعِرَةُ يَقولونَ: عِبارةٌ عَن كَلامِ اللهِ ولَيس كَلامَ اللهِ، والكلُّ مُتَّفِقونَ عَلى أنَّ ما نَقرأُه في المَصاحفِ مَخلوقٌ، لكنَّ المُعتزِلَةَ يَقولونَ: هو كَلامُ اللهِ، والأَشعريَّةُ يَقولون: عِبارةٌ عن كَلامِ اللهِ، فصاروا مِن هَذهِ النَّاحيةِ أَخبثَ وأَشَرَّ مِنَ المُعتزِلَةِ والجهميَّةِ.

أَمَّا نَحنُ فَنُؤمنُ بِأنَّ ما كُتِبَ في المَصاحفِ وحُفِظَ في الصُّدورِ فَإِنَّه كَلامُ اللهِ وهو غَيرُ مَخلوقٍ.

فإن قالَ قائلٌ: أَرَأَيتَ القارئَ يَقرأُ نَسمَعُ صَوتَه بِالقراءَةِ هَل هذا الصَّوتُ مَخلوقٌ أو غَيرُ مَخلوقٍ؟

قلنا: هو مَخلوقٌ؛ لِأنَّ صَوتَ الإِنسانِ وَصفٌ مِن أَوصافِه فَهو مَخلوقٌ كَأصلِه لَكِنَّ الملفوظَ بِهِ والمُصَوتَ بِه غَيرُ مَخلوقٍ، وهُناكَ فَرقٌ بَينَ الصَّوتِ والنُّطقِ وبَينَ المُصوَّتِ به والمَنطوقِ به، فأَنا لَو قَرأتُ كِتابًا أَلَّفَه عالِمٌ مِنَ العُلماءِ فالصَّوتُ صَوتي لَكِنَّ المَقروءَ لِلعالِمِ الَّذي كَتَبَ الكِتابَ؛ ولِهذا قالَ شَيخُ الإِسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتابِه العقيدةُ الواسطيَّةُ: الكلامُ إِنَّما يُضافُ حَقيقةً إلى مَن قالَه مُبتَدئًا لا إلى مَن قالَه مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا[1].

فَلَو أَرادَ الإِنسانُ أَن يَستَفصِلَ، هَل لَفظُ الإِنسانِ بِالقُرآنِ مَخلوقٌ أو لا؟

نَقولُ: لَفظُه الَّذي هو تَلَفُّظَه مَخلوقٌ؛ لِأَنَّه حَركاتُ الإِنسانِ وشَفَتَيه وصَوتِه، وأَمَّا المَلفوظُ بِه فَإِنَّه كَلامُ اللهِ غَيرُ مَخلوقٍ، ويَدُلُّ لِهذا أَنَّ اللهَ تَعالَى قالَ في القُرآنِ الكريمِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير:١٩-٢٠] الرَّسولُ هُنا جِبريلُ، وَقالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾ [الحاقة:٤٠-٤١] الرَّسولُ هُنا مُحَمَّدٌ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا يُمكِنُ أَن يَكونَ كَلامٌ واحِدٌ لِمُتَكَلِّمَينِ اثنَينِ لَكن أَضافَه إِليهِما لِأَنَّهما رَسولانِ مُبَلِّغانِ عَنِ اللهِ؛ ولِهَذا قال: ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ﴾ في الآيتَينِ.

وذُكِرَ عَنِ الإِمامِ أَحمَدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّ مَن قال: لَفظي بِالقُرآنِ مَخلوقٌ فَهو جَهميٌّ، ومَن قالَ: غَيرُ مَخلوقٍ فَهو مُبتدِعٌ[2]، هكذا رُوِيَ عنه، وفي رِوايةٍ: مَن قالَ: لَفظي بِالقُرآنِ مَخلوقٌ يُريدُ القُرآنَ فَهو جَهميٌّ، ومَن قال: غَيرُ مَخلوقٍ فَهو مُبتدِعٌ[3].

---

(١) العقيدة الواسطية (ص:٩٠).

(٢) انظر: سيرة الإمام أحمد لابنه صالح (ص:٧٠)، والكامل لابن عدي (٣/ ٢٤١)، طبقات الحنابلة (١/ ٧٥).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ٧٤).

فالرِّوايَةُ الثَّانيةُ عنه فَسَّرتِ الرِّوايةَ الأولَى أي: مَن قالَ لَفظي بِالقُرآنِ مَخلوقٌ يُريدُ القُرآنَ الَّذي هو الملفوظُ به.

فإن قالَ قائِلٌ: هَل يُمكنُ أَن يُرادَ بِاللَّفظِ المَلفوظُ؟ قُلنا: نَعَم؛ لِأنَّ لَفظَ مَصدرٌ والمَصدَرُ يَأتي أَحيانًا بمَعنَى اسمِ المَفعولِ كَما في قولِه -صلَّى اللهُ عليه وَعلَى آلِه وسَلَّم-: «**مَن عَمِلَ عَملًا لَيسَ عَليهِ أَمرُنا فَهو رَدٌّ**»[1]. رَدٌّ بمَعنَى مَردودٍ. وكَما في قَولِه تَعالَى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ﴾ [الطلاق:٦] أي: أولاتُ مَحمولٌ، فالحَملُ مَصدَرٌ ويُرادُ بِه اسمُ المَفعولِ.

ونَحنُ نَقولُ في كَلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: إِنَّه كَلامٌ مَسموعٌ بِحرفٍ وصَوتٍ وأَنَّه غَيرُ مَخلوقٍ وأَنَّه صِفةٌ مِن صِفاتِه.

ولَكِن هل هو مِنَ الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ أو مِنَ الصِّفاتِ الفِعليَّةِ؟ نَقولُ: أَمَّا بِاعتِبارِ أَصلِه وأَنَّه تَعالَى لَم يَزلْ ولا يَزالُ مُتكلِّمًا فهو مِنَ الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ، وأَمَّا بِاعتِبارِ آحادِه فَهو مِنَ الصِّفاتِ الفِعليَّةِ؛ لِقولِه تَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] صارت ﴿كُن﴾ بَعدَ الإِرادَةِ، وَهذا دَليلٌ على أنَّ كَلامَ اللهِ من حَيثُ آحادُه وأَفرادُه مِنَ الصِّفاتِ الفِعليَّةِ.

فإن قالَ قائِلٌ: قَولُ الأشاعِرَةِ هَل يُكَفِّرُهم؟

فالجَوابُ: يَجبُ أَن نَعلَمَ قاعدةً مُهِمَّةً أنَّ المُجتَهدَ مِن هَذهِ الأُمَّةِ ولَو أَخطَأَ فَإِنَّه مَغفورٌ لَهُ، هُم يُريدونَ بهذا أنَّ اللهَ مُنزَّهٌ أن تَقومَ بِه الحوادِثُ؛ لِأنَّهم يَعتَقدونَ بِعُقولِهم السَّخيفَةِ أنَّ الحَوادثَ لا تَقومُ إِلَّا بِحادثٍ وهُم يَعلَمونَ أنَّ الكَلامَ حادثٌ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

كُلُّ حَرفٍ حَدَثَ بَعدَ الحَرفِ الَّذي قَبلَه، لكن لِعُقولِهم السَّخيفَةِ ظَنَّوا أنَّ مَن يَقومُ بِالحادثِ فَهو حادثٌ، وهَذا خَطأٌ، ولَكن لا نُكفِّرهم في هَذا، ولَو أنَّ إنسانًا تَبيَّن لَهُ الحقُّ وقالَ: إنَّه لا يُريدُ الحقَّ وإنَّما يَتَّبعُ هَواه فَقَد يكفر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الكُفرَ بَعدَ التَّبيُّنِ أَشدُّ قُبحًا مِنَ الكُفرِ مع الجَهلِ بِدَليلِ قولِهِ: ﴿ثُمَّ كَفَرتُم بِهِۦ﴾، فإنَّ ﴿ثُمَّ﴾ تَدُلُّ على التَّرتيبِ والتَّراخي وأنَّ كُفرَهُم كان بَعدَ أَن تَبيَّنَ الأمرُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّه لا أَحَدَ أَضَلُّ مِمَّن شاقَّ اللهَ ورَسولَه حَيثُ إنَّه في شِقاقٍ بَعيدٍ لِقولِه تَعالَى: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَلاغَةُ القُرآنِ التَّامَّةُ حيثُ يَختارُ في كُلِّ تَركيبٍ ما يُناسبُ الحالَ؛ لِقولِه تَعالَى: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وُقوعُ الاِستِفهامِ مَوقعَ النَّفيِ وأنَّ إيقاعَ الاِستِفهامِ مَوقِعَ النَّفيِ أُسلوبٌ عَربيٌّ صَحيحٌ، وفائدتُه أنَّه إذا كانَ بِصيغَةِ الاِستِفهامِ كانَ مُشربًا بِالتَّحدِّي، فَقولُه: ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ أَبلغُ مِن قولِه: لا أَضَلَّ.

الآيتان (٥٣، ٥٤)

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فصلت:٥٣-٥٤].

﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ السِّينُ لِلتَّنفيسِ، وهي تُفيدُ القُربَ والتَّحقيقَ، و(سوف) لِلتَّسويفِ وَهي تُفيدُ التَّحقيقَ مع البُعدِ؛ ولذلكَ يَجِبُ أن نُفرِّقَ بَينَ سَوفَ والسِّين، إذا كان الشَّيءُ سَيكونُ قَريبًا فَقُل: سَيكونُ، وإذا كانَ بَعيدًا فَقُل: سوفَ يَكونُ، ولِهذا تَجِدونَ قَولَ اللهِ تَعالَى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر:٣-٤]؛ لأنَّه لَم يأتِ بَعدُ وهو بَعيدٌ بِالنِّسبةِ لِكونِه في الدُّنيا.

﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ يَعني: عَن قُربِ قِراءَةٍ مُتحقِّقةٍ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾ أي: نُظهِرُها لَهم حتَّى يَرونَها بِأَعيُنهم أو حتَّى يَرونَها بِبَصائرِهم.

﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الآياتُ جَمعُ آيَةٍ وهي في اللُّغةِ العَلامَةُ، والمُرادُ بِآياتِ اللهِ عَلاماتُه الدَّالَّةُ عَلى كمالِ عِلمِهِ وحِكمتِه وقُدرتِه وغَيرِ ذَلكَ مِن مُقتضياتِ رُبوبيَّتِه، واعلَم أَنَّ الآياتِ نَوعانِ:

١- آياتٌ شَرعيةٌ وَهي ما جاءت بِهِ الرُّسلُ ومِنها هَذا القُرآنُ الكَريمُ.

٢- وَآياتٌ كَونيَّةٌ: وَهي الدَّالَّةُ عَلى كَمالِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في العِلمِ والخَلْقِ وكُلِّ

ما يَتعلَّقُ بِرُبوبيَّته، وهي ما يَعجَزُ البَشرُ عَن مثلِه، فالبَشَرُ كُلُّهم عاجزونَ عَن أَن يَخلُقوا أَرضًا أو سَماءً أو نُجومًا أو شَمسًا أو قَمرًا؛ ولِهذا قال تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧]، هذه آياتٌ كَونيَّةٌ؛ لأَنَّه يَعجَزُ عن مِثلِها البَشَرُ.

والآياتُ الشَّرعيةُ مِثلَ قَولِه تَعالَى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم:١٥].

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أَقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ مِنَ النَّيِّراتِ والنَّباتِ والأشجارِ].

قَولُهُ تعالى: ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ ﴿ٱلْءَافَاقِ﴾ جَمعُ أُفُقٍ وَهو النَّاحيةُ، والآفاقُ هُنا جَمعٌ فتَدُلُّ على أنَّ هذِه الآياتِ سَتكونُ في كُلِّ ناحيةٍ مِنَ السَّماءِ والأرضِ، فَفي السَّماءِ نُجومٌ وَفي السَّماءِ شَمسٌ وَفي السَّماءِ قَمرٌ، وفيها مَشارِقُ وفيها مَغارِبُ، كُلُّ هَذه مِن آياتِ اللهِ مَن يَستطيعُ أَن يَخلُقَ مِثلَ الشَّمسِ؟ لا أَحَدَ. مَن يَستطيعُ أَن يُجريَها بِهذا الِانتظامِ البديعِ مُنذُ خَلَقَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى أن يَأذنَ بِخَرابِ العالَمِ؟ لا أَحَدَ يَستَطيعُ، مَن يَستطيعُ أَن يُزحزِحَها مِن مَشارِقِها الشَّرقيَّةِ الشَّماليَّةِ إلى مَشارِقِها الشَّرقيَّةِ الجَنوبيَّةِ؟ لا أَحَدَ، وهَلُمَّ جَرًّا هذا في آفاقِ السَّماءِ.

ومِن آفاقِ السَّماءِ ما يَحصُلُ مِنَ الأمطارِ الغَزيرَةِ أَوِ الخَفيفةِ والرَّعدِ والبرقِ وغَيرِ ذَلكَ، المُهمُّ أنَّ آفاقَ السَّماءِ كُلُّ ما عَلا فَإنَّه داخلٌ في آفاقِ السَّماءِ.

كَذلكَ أيضًا آفاقُ الأرضِ فيها مِن آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ما يَدُلُّ على كَمالِ عِلمِه وقُدرتِه وحِكمتِه ورَحمتِه جِبالٌ وأَنهارٌ وبِحارٌ، فَيافي وأَوديةٌ، هِضابٌ إلى غَيرِ ذَلكَ، نَباتاتٌ مُختلِفَةٌ تَجِدُ النَّباتَ كَأَنَّه رُقعةُ ثَوبٍ موشًّى، هذا أَخضرُ وهذا بَنَفسَجيٌّ وهذا

أَبيضُ، وزُهورُها مُختلِفةٌ وثِمارُها مُختلِفَةٌ تُسقَى بِماءٍ واحدٍ ويُفضِّلُ اللهُ بَعضَها عَلى بَعضٍ في الأُكُلِ.

كَذَلِكَ أَيضًا يَدخُلُ في قولِهِ: ﴿فِي ٱلْآفَاقِ﴾ ما يَحصُلُ في الآفاقِ مِن حَربٍ وَسِلمٍ وأَمنٍ وخَوفٍ وشِدَّةٍ ورَخاءٍ، كُلُّ هَذهِ مِنَ الآياتِ مِن آياتِ اللهِ في الآفاقِ.

كَذلكَ ما يحصُلُ مِن غَلَبَةٍ وانهزامٍ وغَيرِ هَذا، فاللهُ تَعالَى وَعَدَ بِأن يُرِيَ العِبادَ آياتِه في الآفاقِ، فَكلُّ ما في الآفاقِ العُلويَّةِ والسُّفليَّةِ مِمَّا لا يَستطيعُ الخَلقُ أَن يَأتوا بِمِثلِه فَهو مِن آياتِ اللهِ.

﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ يَعني: ونُريهُم آياتِنا في أَنفسِهم وذَلكَ مِن نَواحٍ مُتعدِّدةٍ، أَولًا مِن جِهةِ الخِلقَةِ كَيفَ خَلَقَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الآدميَّ على هَذهِ الصِّفةِ البَديعَةِ الغَريبَةِ الَّتي لا يوجَدُ مِنَ الحيواناتِ مَن هو مِثلُه في حُسنِ القامةِ وحُسنِ التَّدبيرِ والعقلِ وغَيرِ ذَلكَ.

كَذلكَ أَيضًا في أَنفُسهم مِن طولٍ وقِصَرٍ وبَياضٍ وسَوادٍ وحُسنِ خُلُقٍ وسوءِ خُلُقٍ.

كَذلكَ في أَنفُسِهم مِن تَقلُّباتِ الأحوالِ وكَونِ الإنسانِ أَحيانًا يُريدُ كَذا، وأَحيانًا يُريدُ كَذا وأَحيانًا يُريدُ الشَّيءَ ويُصمِّمُ عَليهِ، وإِذا به مَصروفٌ عنه هَذا مِن آياتِ اللهِ.

ولِهذا قيلَ لِعَربيٍّ: بِم عَرفتَ رَبَّك؟ قال: بِصَرفِ الهِمَمِ، يَعني: تَقليبَ القُلوبِ، تَجِدُ الإنسانَ مَثلًا مُتَّجِهًا إلى أن يَنصَرِفَ إلى الشَّمالِ، فَإِذا به يَنصرِفُ إلى الجَنوبِ بِدونِ أيِّ سَببٍ لَكن بِتقديرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

كَذلكَ أيضًا مِن آياتِ اللهِ في الإنسانِ تَركيبُ هذا البَدَنِ العَجيبِ البَديعِ، واسأَل أَهلَ التَّشريحِ عَن هَذا تَجِدُ العَجَبَ العُجابَ إِن أَتيتَ إلى الرَّأسِ وَما فيه مِنَ

المُخِّ وما فيه مِنَ الأدواتِ، وإذا أَتيتَ إلى الأَمعاءِ وإلى المَعِدَةِ وإلى الكَبِدِ وإلى الغُدَدِ وإلى غَيرِها تَجِدُ العجَبَ العُجابَ، يَعني: أَنَّه دولَةٌ في الواقعِ، دولةٌ كُلُّ شَيءٍ مِنهُ لَهُ عَملُه الخاصُّ. مَن يَستَطيعُ أَن يُرَكِّبَ هَذا؟ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

كَذلِكَ أَيضًا مِنَ الآياتِ في الأنفُسِ: ما حَصَلَ لِقُريشٍ في بَدرٍ حَيثُ إِنَّ قُريشًا في بَدرٍ خَرجت إلى بَدرٍ كَما وَصفَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٤٧] يَقولُ القائلُ مِنهم: «واللهِ لن نَرجعَ حتَّى نَقدُمُ بَدرًا فنُقيمُ فيها ثَلاثًا نَنحرُ الجَزورَ ونَسقي الخُمورَ وتَعزفُ عَلينا القيانُ وتَسمَعُ بِنا العَربُ، فَلا يَزالونَ يَهابونَنا أَبَدًا».

هَكَذا قالوا، ولَكِنَّ الأمرَ صارَ بِالعَكسِ -والحَمدُ لله-، صار العربُ يَتحدَّثون عَن هَزيمتِهم إلى أن يَشاءَ اللهُ مِن أَمَدِ الدُّنيا، هَذا مِن آياتِ اللهِ.

كَذلِكَ مِن آياتِ اللهِ تَعالَى في الإِنسانِ: أنَّ النَّاسَ يَختَلِفونَ اختلافًا عَظيمًا في الفَهمِ والحِفظِ والعملِ، تَجِدُ هَذا يَختارُ هَذا العَمَلَ، والآخرُ يَقولُ: كَيفَ يَصبِرُ هَذا الرَّجلُ عَلى هذا العَمَلِ، وَآخَرُ بِالعَكسِ، هَذا مِن آياتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

كَذلِكَ أَيضًا النَّاسُ يَختَلِفونَ في الفَهمِ: مِنَ النَّاسِ مَن إذا قَرأتَ عليهِ العبارةَ فَهِمَها من أَوَّل مَرَّةٍ، ومِنَ النَّاسِ مَن لا يَفهمُها في أَوَّل مرَّةٍ، مِنَ النَّاس مَن إذا تَلَوتَ عَليهِ العبارَةَ حَفِظَها مِن أَوَّل مَرَّةٍ، ومِنَ النَّاسِ مَن لَيس كَذلكَ، كُلُّ هَذا مِن آياتِ الله، وإِلَّا فالدَّمُ واحدٌ والعَصَبُ واحدٌ والعِظامُ واحدةٌ والجِلدُ واحدٌ، وكُلُّ شَيءٍ واحدٌ لَكن يَختلِفُ النَّاسُ هَذا الاِختلافَ العَظيمَ.

كُلُّ هَـذا داخلٌ في قَولِه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يَقـولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ مِن لَطيفِ الصَّنعةِ وبَديعِ الحِكمةِ]. ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ

لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ يَتبَيَّنُ بِمعنًى يَتَّضحُ لَهُم أي: لِهؤلاءِ المُكذِّبينَ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أنه﴾ أَيِ: القُرآنَ]، ويَحتملُ أَن يُرادَ بِهِ الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويَحتَمِلُ أَن يُرادَ المَعنيانِ جَميعًا.

قولُه تَعالَى: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْحَقُّ﴾ المُنزَّلُ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالبَعثِ والحِسابِ والعِقابِ فيُعاقَبونَ عَلى كُفرِهم بِهِ وبِالجائي بِه].

﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الحقُّ في الأصلِ هو الشَّيءُ الثَّابتُ الواقعُ لا مَحالَةَ، ومِنه قَولُه تَعالَى: ﴿ٱلْحَاقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٢] يَعني: الشَّيءَ الثَّابتَ، ويُطلَقُ عَلى مَعانٍ مُتعدِّدةٍ مِنها: أَنَّه الصِّدقُ، فالصِّدقُ حَقٌّ وضِدُّهُ الكَذِبُ باطلٌ، ومِنها: العدلُ، فالعَدلُ حَقٌّ وضِدُّه الجَورُ وهو باطلٌ؛ ولِهذا قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام:١١٥] ومِنها -أي: مِن مَعاني الحَقِّ- أَنَّه الشَّيءُ الثَّابتُ الَّذي لا يُزَحزِحُه أَحَدٌ، وضِدُّه الشَّيءُ الَّذي لا يَثبُتُ ولا يَستَقِرُّ وكُلُّ إنسانٍ يُبطلُهُ.

فَأنتَ الآنَ تَجِدُ أنَّ القُرآنَ الكَريمَ مَهما جادلَ بِهِ المُجادِلُ ليدفَعَه فَحُجَّتُه باطِلةٌ، ولا يُمكنُ لِأحدٍ أَن يَغلبَ القُرآنَ بل القُرآنُ غالبٌ، لَكنِ اعلَموا أَيُّها الإخوةُ أَنَّ كَونَ القُرآنِ غالبًا إنَّما هو بِحَسَبِ حامِلِه؛ ولِذلكَ تَجِدُ السَّيفَ البَتَّارَ بيدِ الجَبانِ لا يُغني شَيئًا، لا بُدَّ أن يَكونَ القُرآنُ بِحَسَبِ حامِلِهِ وإلَّا فالقُرآنُ نَفسُهُ لا يُمكنُ أَن يُغلبَ أَبدًا إلَّا أَنَّه قَد يُغلَبُ مِن جِهةِ حامِلِه، وهذا لَيسَ عَيبًا في القُرآنِ ولَكنَّه عَيبٌ في حامِلِ القُرآنِ.

قَولُه تَعالَى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُنزَّلُ مِنَ اللهِ بِالبَعثِ والحِسابِ]، وهذا التَّخصيصُ مِنَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على سَبيلِ المِثالِ، وَإلَّا فَإنَّه

يَتبيَّنُ أَنَّه الحَقُّ في كُلِّ شَيءٍ في كَونه يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، وفي كَونِ أَحكامِه عَدلًا وأَخبارِه صِدقًا وغَيرِ ذلك.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيُعاقَبونَ على كُفرِهم بِه]، أَفادنا المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ المُرادَ بِالتَّبَيُّنِ هُنا لازِمَه وهو المُعاقَبَةُ؛ لِأَنَّه لَو كانَ المُرادُ التَّبَيُّنَ فقط بِدونِ عِقابٍ عَلى مُخالفتِه بَعدَ التَّبيُّنِ لَم يَكنْ هُناكَ فائدةٌ، وَمِن ذَلكَ أَيضًا -أَي مِن كَونِه يُطلَقُ البَيانُ أَوِ العِلمُ ويُرادُ بِه اللَّازِمُ- قَولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة:٦] أَي: ليرَوها ويُجازَوا عَليها، وهذه الآيةُ أَيضًا ﴿يَتَبَيَّنَ﴾ فَيُعاقَبونَ على كُفرِهم به.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وبِالجائي به] الجائي بِهِ الرَّسولُ ﷺ.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ لَمَّا بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّه سَيُظهِرُ الآياتِ حتَّى يَتبَيَّنَ أنَّ هَذا القُرآنَ حَقٌّ وأَنَّ مُحَمَّدًا حَقٌّ ذَكَرَ شيئًا أَعظمَ دَلالَةً على أَنَّ القُرآنَ حَقٌّ، وعلى أنَّ الرَّسولَ ﷺ حَقٌّ، إِنَّه هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ ولِهذا قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾؟

والجَوابُ: بَلَى يَكفي ذَلِكَ؛ لِأنَّ اللهَ تَعالَى إِذا رَأَى هذا الرَّجلَ يَدعو النَّاسَ إلى ما يَدعوهم إِلَيه ويُقاتِلُهم بِهِ ويَنصُره اللهُ عَليهِم ويُمكِّنُ له في الأرضِ ويَتَّبِعُهُ النَّاسُ هَل يُمكنُ أن يُقِرَّ اللهُ ذَلِكَ وهو باطلٌ؟

لا يُمكنُ أَبدًا، لا يُمكنُ إِطلاقًا، فَكَونُ اللهِ تَعالى يُمَكِّنُ لِرسولِه ﷺ في الأرضِ، ويَجلِبُ قُلوبَ النَّاسِ إِليهِ ويَنصرُه عَلى أَعدائِهِ ويَفتَحُ بِدينِه آفاقَ الشَّرقِ والغَربِ، كُلُّ هَذا دَليلٌ عَلى أَنَّه حَقٌّ، وشَهادَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِرسولِه نَوعانِ:

١- شَهادَةٌ قَوليَّةٌ.

٢- وشَهادةٌ فِعليَّةٌ.

أَمَّا الشَّهادَةُ القوليَّةُ فَدَليلُها قَولُه تَعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٦٦] هذه شَهادَةٌ مِنَ الله.

أَمَّا الشَّهادَةُ الفِعليَّةُ فَهي تَمكينُ اللهِ تَعالَى لِمُحمَّدٍ ﷺ في الأرضِ ونَصرُه إيَّاه وغَلَبَةُ دينِهِ عَلى جَميعِ الأديانِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ فاعلُ يَكفي] والباءُ مَزيدَةٌ فيهِ لِتَحسينِ اللَّفظِ ونَظيرُها: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: وَكَفَى اللهُ شَهيدًا، وعلى هَذا فَنَقولُ في إعرابِها: الباءُ حَرفُ جَرٍّ زائِدٌ إعرابًا فائدَتُه تَحسينُ اللَّفظِ، ورَبُّ فاعلُ يَكفي مَرفوعٌ بِضَمَّة مُقدَّرةٍ عَلى آخِرِه مَنَعَ مِن ظُهورِها حَرفُ الجَرِّ الزَّائِدِ.

وقولُه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أَضافَ الرُّبوبيَّةَ لِلرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذا لِلتَّشريفِ والتَّكريمِ؛ لِأنَّه رَبُّ كُلِّ شَيءٍ.

وانظُر إلى قَولِه تَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٩١]؛ لِئَلَّا يَظُنَّ الظَّانُّ أنَّ الرُّبوبيَّةَ خاصَّةٌ بِهذه البَلدَةِ، كَذلِكَ أَيضًا إِضافَةُ الرُّبوبيَّة إلى الرَّسولِ مِن بابِ التَّشريفِ والتَّكريمِ، والإِشارَةُ إلى أَنَّه سَوفَ يَنصُرهُ على عَدوِّه؛ لِأنَّ رُبوبيَّةَ اللهِ لِلرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رُبوبيَّةٌ خاصَّةٌ.

وقَولُه تَعالَى: ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ بَدلٌ مِن قَولِه: ﴿بِرَبِّكَ﴾. والبَدلُ يَقولونَ في تَعريفِه: هو الَّذي إذا أَسقطتَ المُبدَلَ مِنه استَقامَ الكلامُ. تَقولُ: أَعجبَني زَيدٌ خُلُقُه هَذا بَدَلٌ، أَسقِط زَيدًا: أَعجَبني خُلُقُ زَيدٍ. أَكَلتُ الرَّغيفَ ثُلُثَهُ: أَسقِطِ الرَّغيفَ، ويَستَقيمُ الكَلامُ، هَذا رابطُ البَدلِ، وهُنا نَقولُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾

أَسقِط بِرَبِّكَ تَقولُ: أَوَلَم يَكفِ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ شَهيدٌ، يَستَقيمُ، لَكن لا شَكَّ أَنَّ القُرآنَ الكَريمَ لا يُمكنُ أَن يُوجِدَ بَدلًا ومُبدلًا مِنهُ إِلَّا لفائدةٍ عَظيمةٍ، فيكونُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ شَهادَةً ونُصرةً وتَثبيتًا وما أَشبهَ ذَلِكَ، ثُمَّ قالَ: ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ هَذا بَعضٌ مِن مُقتَضى رُبوبيَّتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بَدَلٌ مِنه أي: أَوَلَم يَكفِهِم في صِدقِكَ أَنَّ رَبَّك لا يَغيبُ عَنه شَيءٌ ما؟]، والشَّهادَةُ هُنا نَوعُها فِعليَّةٌ، يَعني: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وَقَد مَكَّنَ لَكَ في الأَرضِ وَثَبَّتَك ونَصَرَك عَلَيهِم وعلى كُلِّ عَدوٍّ لَكَ؟

والجَوابُ: بَلَى، واللهِ إِنَّ هَذا لَكافٍ، وهذا كقولِه تَعالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت:٥٠] بَعدَها: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١]، الكِتابُ أَعظمُ آيةً شَهادَةٌ مِنَ اللهِ عَلى صِدقِ رَسولِه.

ثُمَّ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿أَلَآ﴾ أَداةُ استِفتاحٍ وتُفيدُ شَيئَينِ:

الشَّيءَ الأَوَّلَ: التَّوكيدَ.

والشَّيءَ الثَّانيَ: التَّنبيهَ ﴿أَلَآ﴾ وهي غَيرُ مُركَّبةٍ بَل هي كَلمةٌ واحدَةٌ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ﴾ شكٌّ ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ لِإنكارِهِم البَعثَ]، فَهُم والعياذُ بِاللهِ في شَكٍّ مِن لِقاءِ اللهِ ولَو كانوا يَرجونَ للهِ لِقاءً لاستقاموا وخافوا مِنه، كُلُّ إِنسانٍ يُؤمِنُ بِأَنَّه مُلاقٍ رَبَّه، فَإِنَّه سوف يَستقيمُ على أَمرِ اللهِ؛ لِأَنَّه يَعلمُ أَنَّ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ سوف يُحاسِبُه على هذا.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ﴾ ﴿أَلَآ﴾ أداةُ استفتاحٍ أُخرى تُفيدُ التَّنبيهَ والتَّوكيدَ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَلَآ إِنَّهُۥ﴾ تَعالَى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ عِلمًا وقُدرةً فَيُجازيهم بِكُفرِهم].

هُم في شَكٍّ مِن لِقاءِ اللهِ لَكِن سوفَ يُنَبِّئُهمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِما عَمِلوا؛ لِأَنَّه بِكُلِّ شَيءٍ مُحيطٌ وعلى هَذا فَصلَةُ قَولِه: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ بما قَبلَها الإِشارةُ إلى أَنَّه سوفَ يُجازيهم.

من فوائدِ الآيَتين الكريمَتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ اللهَ تَعالَى سَيُظهرُ ما يَتبيَّنُ بِه صِدقُ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الآفاقِ وَفي أَنفُسهم، نَأخذُها مِن قولِهِ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ هذه الإِراءَةَ قَريبةٌ مُحقَّقةٌ، تُؤخَذُ مِن: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ لِأَنَّها صُدِّرت بِالسِّينِ الدَّالَّةِ على التَّحقُّق والقُرب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يَنبغي لِلإنسانِ أَن يُفكِّرَ في آياتِ اللهِ تَعالَى وفي نَفسِه؛ لِأَنَّ ذَلكَ طَريقٌ إلى أن يَتبيَّنَ لَه الحَقُّ، نَأخذُها مِن: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾، فأَنتَ كُلَّما ازددتَ تَأمُّلًا وتَدبُّرًا لِآياتِ اللهِ الآفاقيَّةِ والآتيَةِ بِنفسكَ فَإِنَّكَ لا شكَّ تَزدادُ إيمانًا ويَتبيَّنُ لَكَ صِدقُ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الإِنسانَ ناقصُ العِلمِ نَقصًا عَظيمًا؛ وَجهُه: أَنَّ اللهَ تَعالَى يُريهِ آياتِه في نَفسِه، فالإنسانُ غَيرُ عالِمٍ بِنَفسِه إِلَّا إذا عَلَّمه اللهُ؛ ولِذلكَ النَّفسُ الَّتي هي مادَّةُ الحياةِ لا نَعرِفُها.

ولِهذا اختَلفَ فيها النُّظَّارُ مِنَ المُتكلِّمينَ والفَلاسِفَةِ وغَيرِهِم، مِنهم مَن قال: إِنَّ النَّفسَ هي الدَّمُ، ومِنهم مَن قال: إِنَّ النَّفسَ جُزءٌ مِنَ البدنِ، ومِنهُم مَن قالَ: إِنَّ النَّفسَ عَرَضٌ في البدنِ، ومِنهم مَن قال: إِنَّ النَّفس لا توصَفُ بِشيءٍ فَلا هي داخلُ العالَمِ، ولا خارِجُه ولا مُتَّصلَةٌ ولا مُنفصلَةٌ، إِلى آخِر ما يَقولونَ في النَّفيِ المُطلَقِ، ومِنهم مَن قال: إِنَّ النَّفس مَخلوقٌ مِن مَخلوقاتِ اللهِ وأَنَّها ذاتُ جُرمٍ وأَنَّها تَدخُلُ في البدَنِ وتَسيرُ فيهِ كَما تَسيرُ الجَمرُ في الفَحمِ أَوِ الماءُ في المَدَرِ.

وَيَدُلُّ لِذلكَ أَنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَخبرَ أَنَّ الإِنسانَ إِذا قُبِضَ أُخِذَت نَفسُه، أَخَذَتها المَلائِكَةُ وجَعَلَتها في كَفَنٍ وحَنوطٍ وأَنَّه إِذا قُبِضَ اتَّبَعهُ البَصرُ، وهَذا يَدُلُّ عَلى أَنَّها شَيءٌ مَخلوقٌ لَه جُرمٌ وجَسَدٌ، لَكِننا مَع ذلك لا نَعلَمُ مِنها إِلَّا قَليلًا، ولِهذا لَمَّا سَألوا عَنِ الرُّوحِ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ القُرآنَ والرَّسولَ -صَلَّى اللهُ عَليهِ وعلى آلِهِ وسَلَّم- حَقٌّ؛ لقَولِه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الآياتِ الدَّالَّةَ عَلى ذَلكَ: آياتٌ توصِّلُ إِلى اليَقينِ لِقولِه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ التَّبيُّن أي: الوُضوحُ والظُّهور، ومنه قَولُه تَعالَى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [البقرة:١٨٧] فَإِذا عَلِمتَ أَنَّك لَم تَصِل إِلى اليَقينِ فاتَّهِم نَفسَكَ، وعَلَيكَ أَن تُعالِجَ هَذا المَرَضَ العُضالَ الخَطيرَ حَتَّى تَصِلَ إِلى اليَقينِ؛ حَتَّى تَصِلَ إِلى ما يَدُلُّ عَليه قَولُ الرَّسولِ -صَلَّى اللهُ عَليه وعلى آلِه وسَلَّم-: «**أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَراهُ، فَإِن لَم تَكُن تَراهُ فَإِنَّه يَراكَ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: كِفايَةُ اللهِ تَعالَى عَن كُلِّ شَيءٍ بِشهادَتِه لِقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الِاستِدلالُ بِالآثارِ على مُؤَثِّراتِها، وَجهُ ذَلكَ أنَّ اللهَ تَعالَى استدلَّ بِتَمكينِه الرَّسولَ عَلى أَنَّه حَقٌّ، فالإِنسانُ يَستَدِلُّ بِالآثارِ عَلى مُؤَثِّراتِها؛ ولِهذا قيلَ: البَعرَةُ تَدُلُّ عَلى البَعيرِ، وَهذا جَوابٌ مِن أَعرابي سُئِلَ بِما عَرَفتَ رَبَّك؟ فَقالَ عَلى البَديهَةِ: «البعرَةُ تَدُلُّ على البَعيرِ -اختارَ هذا؛ لِأَنَّه أَعرابيٌّ ما يَعرفُ إِلَّا الإِبِلَ -والأَثَرُ يَدُلُّ عَلى المَسيرِ -إِذا رَأَيتَ مَثلًا صورةَ القَدمِ عَلى الأَرضِ عَرفتَ أَنَّه قد سارَ على هَذا أَحَدٌ- فسَماءٌ ذاتُ أَبراجٍ وأَرضٌ ذاتُ فِجاجٍ وبِحارٌ ذاتُ أَمواجٍ أَلا تَدُلُّ على السَّميعِ البَصيرِ؟»[1]، والجَوابُ: بَلَى هذا الأَعرابيُّ استدلَّ بِالآياتِ الآفاقيَّةِ عَلى وُجودِ اللهِ وعلى قُدرتِه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الحذَرُ مِنَ المُخالَفةِ وهذه فائِدَةٌ تَربَويَّةٌ، تُؤخَذُ من: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فَإِذا عَلِمتَ أَنَّ اللهَ شَهيدٌ على كُلِّ شَيءٍ عَلى نَفسِك أَفعالِك أَقوالِك كُلِّ التَّصرُّفاتِ، فَإِنَّكَ سَوفَ تُراقِبُ الله عَزَّوَجَلَّ، ومَن لَم يَتَّعظ بِمِثلِ هذه الآيةِ فَإِنَّه لَن يَتَّعِظَ، إِذا عَلِمتَ أَنَّ اللهَ شَهيدٌ عَليكَ في خَلَواتِكَ في وَحدَتِك في جُلوسِكَ مَع أَهلِكَ في جُلوسِكَ مع صَحبِكَ، فَإِنَّك سوفَ تُراقِبُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وهذا هو مَعنَى قَولِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ فَإِن لم تكن تَراهُ فَإِنَّه يَراكَ**»[2].

---

(١) انظر: زاد المسير (١/ ٢٦٦)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٠٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: بَيانُ حالِ هَؤلاءِ المُكذِّبينَ وأنَّ سَببَ تكذيبِهم أنَّهم في شَكٍّ مِن لقاءِ اللهِ، ومَعلومٌ أنَّ مَن كانَ في شَكٍّ مِن لِقاءِ اللهِ فَلن يَعمَلَ للهِ؛ ولِـهذا تَجِدونَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقرِنُ دائمًا بَينَ الإيمانِ بِه واليومِ الآخرِ؛ لِأنَّ مَن نَقَصَ إيمانُه بِاليومِ الآخِرِ فَسوفَ يَنقُص عَملُه ومَن كَمُلَ إيمانُه بِاليومِ الآخرِ فَسوفَ يَكمُل عَمَلُه؛ لِأنَّه يَرجو أن يَكونَ سَعيدًا في ذَلكَ اليومِ، أَنت حينما تَركَعُ وتَسجُدُ اجعل عَلى بالِكَ أنَّ هَذا الرُّكوعَ والسُّجودَ سَوفَ يَنفعُكَ يَومَ القيامةِ، وهو يَنفَعُكَ مِنَ الآنِ؛ لِأنَّ الصَّلاةَ تَنهى عَنِ الفحشاءِ والمُنكرِ، لَكِنَّ الثَّمرةَ المَلموسَةَ يَومَ القيامَةِ الَّتي تَظهرُ لِكُلِّ أحدٍ، وفي الدُّنيا يَظهرُ لِلمُؤمِنِ الإنتِفاعُ التَّامُّ بِالطَّاعاتِ، كَما قالَ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما يَفعلُ أَعدائي بي! إنَّ جَنَّتي في صَدري، حَبسي خُلوةٌ ونَفيي سياحَةٌ وقَتلي شَهادَةٌ»[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالإنسانُ المُؤمنُ يَجِدُ هَذا في نَفسِهِ قَبلَ يَومِ القيامَةِ، وفي يَومِ القيامَةِ يَكونُ الظُّهورُ الكاملُ يَكشِفُ عَن كُلِّ شَيءٍ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: بَيانُ إحاطةِ اللهِ بِكلِّ شيءٍ: عِلمًا وقُدرةً، وسُلطانًا وتَدبيرًا، وغَيرِ ذَلكَ؛ مُحيطٌ بِكلِّ شَيءٍ بِأفعالِهِ وأَفعالِ العِبادِ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾ [الطلاق:١٢].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: تَحقيقُ مُراقبةِ اللهِ؛ لِأنَّك إذا آمَنتَ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيءٍ مُحيطٌ فَسوفَ تُراقبُه المُراقبةَ التَّامَّةَ، بِحيثُ لا يَفتقدُكَ حَيثُ أَمَرَك، ولا يَراكَ حَيثُ نَهاكَ.

• • ۞ • •

(١) انظر: الوابل الصيب (ص:٤٨).

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث **الصفحة**

«النَّظَرُ إلى وجْهِ اللهِ» ٨
«ألا إنَّ القُوةَ الرَّميُ» ٨
«صلُّوا كما رأيتُموني أصلِّي» ٩
«اللَّهمَّ فقِّهْهُ في الدِّينِ وعلِّمْهُ التَّأويلَ» ٩
«إذا قرأتُم: الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين فاقرؤُوا: «بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ» ١٢
«قَسمتُ الصَّلاةَ بيني وبينَ عبدي نِصفَينِ» ..... ١٢، ١٣
«فإذا قالَ: الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين، قالَ: حمِدني عبدي...» ١٢
«إنَّكَ تَأتِي قومًا أهلَ كِتابٍ، فَليَكُن أوَّلَ ما تَدْعُوهم إلَيْه تَوحيدُ اللهِ، ثمَّ ادْعُهم إلى الصَّلاةِ، ثمَّ ادْعُهم إلى الزَّكاةِ...» ٣٧
«آتِ نفسِي تقْواها، وزَكِّها أنت خيرُ مَن زَكَّاها» ٣٨
«إنَّما أنا بشرٌ مِثْلُكم أنْسى كما تَنسَوْن» ٤٢
«أنَّ العُلماء ورَثَة الأنْبياء» ٤٤
«إنَّ الله حرَّم على النَّارِ مَنْ قال لا إلَه إلَّا اللهُ يَبْتَغي بذَلِك وجْهَ اللهِ» ٤٥
«ويْلٌ لِمن حدَّث فكذَبَ ليُضحِكَ به القَوم، ويلٌ له! ثمَّ ويلٌ له!» ٤٧
«لا يمُوتنَّ أحدُكم إلَّا وهُو يُحسِنُ الظَّنَّ بربِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ» ٥٠
«الإيمانُ أنْ تُؤمِنَ باللهِ وبمَلائِكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خيْرِه وشرِّه» ٥١

«أنا أغنَى الشُّركاءِ عنِ الشِّركِ، مَن عمِلَ عمَلًا أشرَك فيه معِي غيرِي ترَكتُه وشِركَه» ٥١
«مَن عمِلَ عمَلًا ليْس علَيه أمرُنا فهُو ردٌّ» ٥٢
«أطَّتِ السَّماءُ وحُقَّ لَـها أنْ تَئِطَّ، ما مِن مَوضِعِ أربَعِ أصابعَ مِنها إلَّا وفِيه مَلَكٌ قائِمٌ للهِ أو راكِعٌ أو ساجِدٌ» ٥٨
«تعِسَ عبْدُ الدِّينارِ، تعِسَ عبْدُ الدِّرهَمِ، تعِسَ عبْدُ الخَميصَةِ، تعِسَ عبْدُ القَطِيفة» ... ٦٣
«يُحِبُّنا ونُحِبُّه» ٧٧
«إنَّ جِبرِيلَ لـمَّا وصَل بالنَّبيِّ ﷺ إلَى السَّماءِ الدُّنيا اسْتَفتَح؛ فقِيل: مَن هذا؟ قال: جِبرِيلُ، قِيل ومَن مَعَك؟ قال: مُحمَّد، فقِيل لَه: هَل أُوحِي إلَيْه؟ قال: نَعَم، ففُتِح لَه» ٨٢
«مَعِي مُحمَّدٌ، فقِيلَ: له: وقَد أُرسِلَ إلَيه؟ قال: نعَم، قالوا: مَرْحبًا بِه؛ فنِعْم المَجِيءُ جاء» ٨٢
«أرَأيْتَ لَو كان على أمِّك دَيْن أكُنتِ قاضِيتِه؟... اقضُوا اللهَ فاللهُ أحَقُّ بالْوَفاءِ» ٩٣
«كان يُصيبُنا ذلك فنُؤمَرُ بقَضاءِ الصَّومِ ولا نُؤمَرُ بقَضاءِ الصَّلاةِ» ١٠٥
«أخبَرَ أنَّ مَن أتى شيئًا مِن هذه القَاذوراتِ، فعوقِبَ به في الدُّنيا لَمْ يُعذَّبْ به في الْآخرَةِ» ١٠٧
«يا عَمِّ، قل: لا إلَهَ إلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحاجُّ لك بها عِنْدَ اللهِ» ١٣٦
«يا عَمِّ قُلْ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ وهما يقولانِ له: أتَرْغَبُ عن مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلبِ يَعني عن مِلَّةِ الكُفْرِ» ١٣٦
«مَنِ اقتَطَع شِبرًا مِنَ الأرضِ ظُلمًا طَوَّقَه اللهُ بها يَومَ القِيامَةِ من سَبْعِ أرَضِينَ» ١٤٠
«عَذابُ الدُّنيا أهونُ من عَذابِ الآخِرَةِ» ١٥٣

«المَرءُ على دينِ خَليلِه فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُم مَنْ يُخالِلْ» ١٦٥
«مَثَلُ الجَليسِ السُّوءِ كنافِخِ الكيرِ، إمَّا أن يَحرِقَ ثيابَك وإمَّا أن تَجِدَ منه رائِحةً خَبيثَةً» ١٦٥
«يا رَسولَ اللهِ، قُل لي في الإسلامِ قولًا لا أَسأَلُ عنه أحدًا غَيرَك، فقال لَه: قُل آمَنتُ باللهِ ثُمَّ استَقِمْ» ١٦٧
«في الجنة ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سَمِعت، ولا خَطَرَ على قَلبِ بشرٍ» ١٦٩
«للمُلكِ في قَلبِ ابنِ آدمَ لَـمَّة وللشَّيطانِ لَـمَّةً، فلَمَّةُ المُلكِ إيعادٌ بالخَيرِ وحثٌّ على الطَّاعَةِ، ولَـمَّةُ الشَّيطانِ بالعَكسِ» ١٧٠
«لن يَدخُلَ الجَنَّةَ أحدٌ بعَمَلِه» ١٧٣
«لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كان في قَلْبه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ» ١٧٣
«مَن عَمِلَ عملًا ليس عليه أَمرُنا فهو رَدٌّ» ١٧٨
«أنَّه يَخرُجُ مِنَ النَّارِ أُناسٌ لم يَعمَلوا خَيرًا قط» ١٧٨
«بَلِّغوا عنِّي ولو آيَةً» ١٨١
«مَن رأى مِنكم مُنكرًا فَلْيُغيِّرْه» ١٨٢
«وما تَقرَّب عَبدي بشَيءٍ أحبُّ إِلَيَّ ممَّا افتَرضتُ عليه» ١٨٣
«لا تَسُبُّوا أصحابي، فوالَّذي نَفسي بِيـدِهِ لو أَنفَقَ أحدُكم مِثلَ أُحُدٍ ذَهبًا ما بَلَغ مُـدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه» ١٨٣
«مَن وَجَدَ مَلاذًا فلْيَعُذْ به أو مُعاذًا فلْيَعُذْ به» ١٩٥
«أنَّ الشَّمسَ تَطلُعُ بين قَرنَيْ شَيطانٍ فإذا طَلَعَت سَجَدَ لها الكُفَّارُ» ١٩٩
«إنَّه يُحبُّنا ونُحبُّه» ٢١٠

«أبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه» ٢١٢
«إذا فَعلتُم ذلك فقد سَلِمْتُم على كُلِّ عَبدٍ صالحٍ في السَّماءِ والأرضِ» ٢٢٠
«ما مِنكُم مِن أَحدٍ إلَّا وقد كُتِبَ مَقعدُهُ مِنَ الجَنَّةِ ومَقعدُهُ مِنَ النَّارِ، قَالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلا نَدَعُ العَمَلَ ونَتَّكِلُ على الكِتَابِ؟» ٢٣٤
«اعْمَلوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِـما خُلِقَ لَهُ» ٢٣٤
«أَمَّا أهلُ السَّعادةِ فيُيَسَّرونَ لِعَمَلِ أهلِ السَّعَادةِ، وأمَّا أهلُ الشَّقاوَةِ فيُيَسَّرونَ لِعَمَلِ أَهلِ الشَّقاوَةِ» ٢٣٤
«فَحَجَّه آدَمُ» ٢٣٥
«فحَجَّ آدَمُ موسى» ٢٣٦
«كَيف تَلومُني على شيءٍ قد كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبلَ أن أُخْلَقَ بأربعينَ سَنَةً» ٢٣٦
«المُؤمنُ القَويُّ خَيرٌ وأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤمنِ الضَّعيفِ، وفي كُلٍّ خيرٌ» ٢٣٧
«أَلا تُصلِّيانِ؟» ٢٣٨
«لا مانِعَ لِـما أَعْطَيتَ ولا مُعطيَ لِما مَنعْتَ» ٢٤٦
«إنَّ الطَّبيبَ رَآني، فقالَ: إنِّي أَفعلُ ما أُريدُ» ٢٥٠
«الحَمدُ للهِ على كُلِّ حالٍ» ..... ٢٥١، ٢٥٢
«والشَّرُّ ليسَ إليهِ» ٢٥٢
«تُؤمِنُ بالقَدَرِ خيرِه وشَرِّه» ٢٥٢
«لا يَموتنَّ أَحدُكم إلَّا وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّه» ٢٥٦
«خُذوا وَاضْرِبوا لِي مَعكُمْ بِسَهمٍ» ٢٦١
«وَما يُدْريكَ أَنَّها رُقْيَةٌ» ٢٦١

«وَالَّذي نَفْسي بِيَدِه لا يَسمَعُ بي أَحدٌ من هَذِهِ الأُمَّةِ؛ يَهوديٌّ ولا نَصرانيٌّ، ثُمَّ لَا يُؤمنُ بِما جِئتُ بِه إِلَّا كانَ مِنْ أَصحابِ النَّارِ» ٢٦٥
«القُرآنُ حُجَّةٌ لَك أَوْ عليك» ٢٦٧
«الحُمَّى مِن فَيحِ جَهنَّمَ فَأَبرِدوها بِالمَاءِ» ٢٦٨
«أَنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَأى سَوادًا عَظيمًا قَدْ سَدَّ الأُفقَ فَقيلَ: هَذا موسى وقَومُه» ٢٧٠
«فَليَستَعِذْ بِاللهِ ولْيَنْتَهِ» ٢٧٦
«ذاكَ صَريحُ الإِيمانِ» ٢٧٦
«أَنا أَغنى الشُّركاءِ عَنِ الشِّركِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْركَ فيه مَعي غَيري تَرَكْتُه وشِرْكَه» ٢٧٨
«مَنْ عَمِلَ عملًا لَيس عَليه أَمرُنا فَهو رَدٌّ» ٢٧٩
«مَنْ أَحدثَ في أَمرِنا هَذا ما لَيس مِنه فَهو رَدٌّ» ٢٧٩
«يا عِبادي لَو أَنَّ أَوَّلَكم وآخِرَكم وإِنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أَتْقى قَلبِ رَجلٍ واحدٍ مِنكم ما زاد ذَلِكَ في مُلْكي شيئًا» ٢٧٩
«مَنِ اقتطعَ شِبرًا مِنَ الأَرضِ ظُلمًا طُوِّقَه يومَ القيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضينَ» ٢٨١
«إِنَّ أَطيبَ ما أَكَلتم مِن كَسبِكم وإِنَّ أَولادَكُمْ مِنْ كَسبِكم» ٢٨٤
«فاطمَةُ بِضعةٌ منِّي يَريبُها ما رابَني» ٢٨٤
«حَدَّثَني فَصَدَقَني ووَعَدَني فوَفَّاني» ٢٨٤
«مَنْ شُبْرُمَةُ؟» ٢٨٥
«إِنَّ اللهَ تَجاوزَ عن أُمَّتي ما حَدَّثتْ به أَنْفُسَها ما لَم تَعْمَلْ أو تَتكلَّمْ» ٢٩٠
«إِذا التَقَى المُسلِمانِ بِسَيفَيهما فالقاتلُ وَالمقتولُ في النَّار» ٢٩١

«أنَّ النَّبيَّ ﷺ أَخبرَ عنْ رَجُلٍ آتاهُ اللهُ المالَ فَجَعَلَ يَتخبَّطُ فيه، فقالَ الفقيرُ: لو أَنَّ لي مِثلَ مالِ فُلانٍ لَعمِلْتُ فيه عَمَلَ فُلانٍ، قال: فَهو بِنِيَّتِه فَهُما في الوِزْرِ سواءٌ» ٢٩١
«ما المَسؤولُ عَنها بِأعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» ٢٩٤
«إِذا فَرَغْتُنَّ فَآذِنَّني» ٢٩٦
«إِنَّ الحُسنى الجنَّةُ والزِّيادةُ النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ» ٣١٠
«لَولا أَنا لكانَ في الدَّركِ الأسفلِ مِن النَّارِ» ٣١١
«إِنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤمنينَ بِما أَمَرَ بِه المُرسَلينَ» ٣٢٠
«مَن عَمِلَ عَملًا لَيسَ عَليهِ أَمرُنا فَهو رَدٌّ» ٣٢٩
«أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَراهُ، فَإِن لَم تَكُن تَراهُ فَإِنَّه يَراكَ» ..... ٣٤١، ٣٤٢

* * *

فهرس الفوائد

الفائدة **الصفحة**

قواعدُ مهمَّةٌ في تفسيرِ كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ٧

تفسير القرآنِ لا يقتَصرُ على تَفسِيرِ الصَّحابةِ والتَّابِعين ١٠

البَسمَلةُ آيةٌ مِنْ كِتابِ الله ١١

خمسةُ أوجُهٍ تدُلُّ على أنَّ البسْملةَ ليستْ منَ الفاتِحةِ ١٢

لا تَكادُ تَرى سُورةً مَبدوءةً بهذِهِ الحُروفِ إلَّا وبعدَها ذُكِرَ القرآنُ ١٥

السُّنَّةُ في الآياتِ: أنْ تَقرَأها حسْبَ ما فُصِّلَتْ ١٩

ورَدت في القرآنِ آيات تَجرِي على سبيل المَثَل ٢٣

الَّذي يَقرأُ القُرآنَ بلا فَهمٍ للمَعنى فهو أمِّيٌّ وإنْ تلاهُ ٢٦

مِنْ طُرُقِ الحَصْرِ في اللُّغة ٣٤

كُلَّما طَلَبتَ المَغفِرةَ استَحضِرْ أنَّكَ تُريدُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنْ يَتجاوزَ عَنك فَلا يُعاقِبكَ، وأنْ يستُرَ ذَنْبكَ ٣٧

الأعْمالُ الصَّالحاتُ هي ما جَمعَتْ شرطَين ٥١

لا تَجُوزُ مُداهَنةُ الكُفَّارِ، وإنْ كانَت المُداراةُ تَجُوزُ لكِنَّ المُداهَنةَ لا تَجُوزُ ٥٩

الفَرقُ بين المُداراة والمُداهَنة ٥٩

ينبَغي للإنسانِ إذا رأَى آيتَيْن ظاهِرهُما التَّعارُضُ ألَّا يُسرِعَ في الحُكْمِ بالتَّعارُضِ ٦١

جعَل الله تعالى في هذِه الأراضِي ما لا يصْلُحُ في الأراضِي الأُخرَى والعَكْس لِحِكْمة ٦٨

دوَران الأرْض ٧٠
إثْباتُ الطَّواعِيةِ والكراهيَةِ لغيْرِ العاقِلِ..... ٧٧
دَعْوَى المُفسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ آدَمَ خُلِقَ في آخِرِ ساعَةٍ مِن يَوْمِ الجُمُعةِ الَّتي تمَّ فِيها خَلْقُ السَّمواتِ والأرْضِ غيْرُ صَحِيحٍ ٧٩
الكَواكِبُ السَّبْعةُ ٨٠
إذا ورَدَ تَفْسِيرانِ في الآيَةِ أحَدُهما أعمُّ أخَذْنا بالأعمِّ ٨١
العِزَّةُ لها ثَلاثَة مَعانٍ ٨٤
الله تَعالَى خَلَقَ هَذه النُّجومَ لثَلاثِ فوائدَ ٨٦
إنْ قالَ قائِلٌ: كَلامُ الله عَنْ قَومِ عادٍ وثَمُودَ ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ هَل هُو اللَّفْظُ الَّذي قالَه القَومُ أمْ أنَّ هذا لِسانُ حالِهم؟..... ٩٢
جَوازُ القِياسِ والاِعتِبارِ بالنَّظِيرِ والمُماثِلِ..... ٩٣
هل قَولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ فِيه إضافَةُ النَّحْسِ إلَى الأيَّامِ؟ ١٠١
الدُّنيا سُمِّيَتْ دُنيا لِوَجهَيْن ١٠١
أفعال اللهِ -تَعالَى- مَقرونَةٌ بالحِكمةِ ١٠٥
هل عَذابُ القبرِ مُتَّصِلٌ إلى يومِ الْقيامَةِ؟ ١٠٨
الحُروفُ السَّبعَةُ -في القرآن- الآنَ غَيرُ مَعلومَةٍ ١١٨
في (كافِ المُخاطَبِ) في الإشارَةِ أَقوالُ ثَلاثَةٌ وكُلُّها لُغاتٌ ١٢٤
التَّصريحُ بتأبيدِ النَّار في ثَلاثَةِ مَواضِعَ من كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ..... ١٣١
هل يَثبُتُ عن ابنِ القَيِّمِ القَولُ بفَناءِ النَّارِ؟ ١٣٢
الجِنُّ مُكلَّفونَ..... ١٣٧
الجِنُّ هل فيهم رَسولٌ؟ ١٣٩

هل الإنسانُ مُستَقِلٌّ بعَمَلِه؟ ١٤١
أحكامُ مَن يُشَغِّلُ القُرآنَ في المُسَجِّلِ ١٤٦
الإظهارُ في مَوضِعِ الإضْمارِ له فَوائِدُ ١٤٩
مَن كذَّب شيئًا مِن القُرآنِ فهو مُرتدٌّ فهل تكذيب السُّنة كذلك؟ ١٥٩
هل الأفضلُ طلب العلم أو الاشتغال بالدعوة؟ ١٨٠
وَسائلُ الدَّعوةِ كَثيرةٌ ١٨١
مُدافعَةَ السَّيِّئةِ تَكونُ من ثَلاثةِ وجوهٍ ١٨٧
ما يُنَزِّهُ اللهُ عنه ثَلاثَةُ أشياءَ ٢٠٢
كيف تَكونُ المَلائكَةُ أفضَلَ بِدايَةً والبَشَرُ أفضَلَ نِهايَةً؟ ٢٠٩
مسألة احتِجاج آدَمَ على موسى عليهما الصلاة والسلام ٢٣٥
(لَـمَّا) تَأْتي في اللُّغةِ العربيَّةِ لعِدَّةِ أَوجُهٍ ٢٤٢
ما مَدَى صِحَّةِ تَسميةِ اللهِ تَعالَى بالطَّبيبِ والنَّظيفِ؟ ٢٥٠
كَيفَ يُشترَطُ للرُّقيةِ أنْ يَكونَ المَرقيُّ -الَّذي يُتلى عليه القُرآنُ- مُؤمنًا بِه وزَعيمُ القَومِ -الذي رقاه الصحابي- لَمْ يَكُنْ مُسلمًا؟ ٢٦٢
هَل يُعالَجُ الكافِرُ بِالقُرآنِ؟ ٢٦٢
الخطابُ المُوجَّهُ إِلَى الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَنقسمُ إِلَى ثلاثةِ أَقسامٍ ٢٨٠
هَلِ الَّذي يَنبَغي لِلْإنسانِ أَنْ يَغلبَه جانبُ الرَّجاءِ أوِ الخوفِ؟ ٣٠٥
فوائدُ الإظهار في موضع الإضمار ..... ٣١٨، ٣٢٤
إذا كانت الآيةُ تَحتَمِلُ مَعنيينِ لا يُنافي أَحدُهما الآخرَ، فإنَّها تُحملُ عَليهما جَميعًا إذا لَمْ يُوجَدْ مُرَجِّحٌ لِأحدِهما ٣٠٩

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة
تقديم	٥
سورة فصلت	٧
البسملة	١١
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حمٓ ۝١﴾	١٤
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾	١٦
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤﴾	٢٧
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾	٣٠
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾	٣٣
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾	٥٠
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩﴾	٥٥
" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾	٦٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ ٧٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ ٧٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ ٨٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ ٩٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ ١١٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ ١١٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ ١١٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥)﴾ ١٣٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ ١٤٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧)﴾ ١٤٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ۖ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨)﴾ ١٥٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ ١٦٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)﴾ ١٦٦

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)﴾ ١٧٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾ ١٨٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ ١٩٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ ٢١٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ ٢٢١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ ٢٤٢

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ ٢٥٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ ٢٥٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾ ٢٧٠

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ ٢٧٨

" قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾ ٢٩٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ ٣٠٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ ٣٠٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ ٣٠٧

" قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ ٣٢٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ ٣٢٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ ٣٣١

فهرس الأحاديث والآثار ٣٤٣

فهرس الفوائد ٣٤٩

فهرس آيات السورة ٣٥٣

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٩)

تفسير القرآن الكريم

سورة الشورى

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٩)

تفسير القرآن الكريم

سورة الشورى

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٧ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة الشورى. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٧هـ
٣٨٥ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٤٩)
ردمك: ٦ ـ ٧٢ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة الشورى ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٧/١٨٤٩

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٨٤٩
ردمك: ٦ ـ ٧٢ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٧ هـ

يُطلب الكتاب من :
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين.

أَمَّا بَعْدُ: فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحِ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدَايَةُ التَّسْجِيلِ الصَّوتيِّ لَـهَا مِن سُورة النُّور وَمَا بَعدَها؛ حتَّى بلَغ فَضيلتُه قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ،

المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[١]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد بنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[٢]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخ مُحَمَّد بنِ صالِح العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَرِيم؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضَاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ فِي المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعِينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

١٤ مُحَرَّم ١٤٣٧هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

(٢) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قبْل أنْ نبدأَ بالتفسيرِ أحبُّ أن أحثَّ طلَّابَ العلمِ على تعلُّمِ تفسيرِ القرآنِ؛ لأنَّ القرآنَ أشرفُ كتابٍ وأعظمُ كتابٍ، فإنَّه كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ تَكَلَّمَ به حقيقةً، وسَمَّعَه جبريلَ فألقاه إلى النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- ثم إن هذا شأنُ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فقد كانوا لا يتجاوزون عَشْرَ آياتٍ حتى يتعلَّموها وما فيها من العلمِ والعملِ، قالوا: فتَعَلَّمْنا القرآنَ والعلمَ والعملَ جميعًا[1].

ومن المعلومِ أنَّ الإنسانَ إذا قرأ القرآنَ بدونِ معرفةٍ لمعناه فإنه لا يستفيدُ منه شيئًا، كما لو قرأ كتابَ فقهٍ، أو كتابَ طبٍّ، أو كتابَ أدبٍ، وهو لا يعرفُ المعنى فإنه لا يستفيدُ من هذا شيئًا.

أهمُّ شيءٍ في القرآنِ أن تَتَدَبَّرَ آياتِهِ وتَتَّعِظَ بها؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

ويوجَدُ بعضُ الناسِ تميلُ نفسُهُ إلى فنٍّ من فنونِ العِلْمِ ويُهمِلُ القرآنَ، ولو ناقشْتَه في أقلِّ معنًى للآياتِ وَجَدْتَه ليس عنده منها خبر، ولا وَقَفَ منها على عيْنٍ ولا أثر، وهذا نقصٌ كبيرٌ في العِلْمِ، فأصْلُ المعلوماتِ وأهمُّها وأشرفُها وأَجَلُّها هو تَعَلُّمُ القرآنِ الكريمِ؛ ولذلك تنبغي العنايةُ به، واعْلَمْ أنَّ القرآنَ الكريمَ لم يَنْزِلْ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٤١٠)، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ... فذكره.

على أنه كتابُ نحوٍ، أو كتابُ صَرْفٍ، أو كتابُ فَلَكٍ، أو ما أَشْبَهَ ذلك إنما نَزَل ليستقيمَ العبدُ في معاملتِه مع اللهِ ومعاملتِه مع الخَلْقِ؛ ولذلك تَجِدُ القرآنَ الكريمَ لا يعتني كثيرًا بالآياتِ الكونيَّةِ الفلكيَّةِ، وإنما يشيرُ إليها إشارةً، لكنَّه في الأحكامِ الشرعيَّةِ يأتي فيها بالتفصيلِ والبيانِ.

ولقد حاول بعضُ المتأخِّرين أن يُنزِّل المعلوماتِ الكونيَّةَ الفلكيَّةَ والأرضيَّةَ، وحاول أن يَجْعَلَ القرآنَ دالًّا عليها بالتفصيلِ، فصار يَسُوقُ الآياتِ ويتكلَّفُ في معناها؛ ليُخْضِعَها إلى موافَقةِ ما قيلَ عن علمِ الفَلكِ والأرضِ، وهذا غلطٌ؛ لأنَّ القرآنَ إنَّما نَزَلَ لهدايةِ الخَلْقِ في العباداتِ والمعاملاتِ، وما أتى فيه من كلامٍ عن الأمورِ الكونيَّةِ فهذا أتى على وجْهٍ إجماليٍّ التفصيلُ فيه قليلٌ إن كان هناك تفصيلٌ، فليعتنِ طالبُ العلمِ بتفسيرِ كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

مسألة: أَحْسَنُ ما عَلِمْتُ (تفسير ابْنِ كَثِيرٍ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهو موثوقٌ من جِهَةِ العقيدةِ وإن كان فيه بعضُ القصورِ، فإنَّه يَذْكُرُ أشياءَ إسرائيليَّةً، ويتكلَّمُ على كثيرٍ منها. و(تفسيرُ الشَّيخِ عبْدِ الرحمنِ السَّعْدِيِّ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ جيِّدٌ خصوصًا في استنباطِ الفوائِدِ من الآياتِ، و(تفسيرُ الشَّيخِ الشَّنْقِيطِيِّ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ جيِّدٌ، لكن لا يَصْلُحُ إلا لطالِبِ عِلْمٍ مُتَمَكِّنٍ. هذا الَّذي أَعْلَمُ الآنَ.

سورةُ الشُّورى

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: [سورةُ الشُّورى] ويُقالُ: سورةُ شورى وهي تقالُ بهذا وهذا، أمَّا الشُّورى فـ (أل) فيها للبيانِ، وأمَّا شورى فهي مأخوذةٌ من قولِهِ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشُّورى:٣٨]، وليس فيها (أل).

فهذه السُّورةُ تُسَمَّى سورةَ شورى وسورةَ الشُّورى.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَكِّيَّةٌ] ما نَزَلَ بعْدَ الهجرةِ ولو في مكَّةَ، فهو مَدَنِيٌّ ما نَزَلَ بعْدَ الهجرةِ ولو بمكَّـةَ فهو مَدَنِيٌّ؛ كقـولِهِ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدةِ:٣]، هذه نَزَلتْ في عرفةَ والنَّبيُّ ﷺ واقفٌ بعرفةَ[2]، وما نَزَلَ قبْلَ الهجرةِ، ولو في الأسفارِ، أو في أيِّ مكانٍ فإنه مَكِّيٌّ، إذنِ الحدُّ الفاصلُ بيْنَ السُّوَرِ المكِّيَّةِ والمَدنيَّةِ هو الهجرةُ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إلا ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ الآياتِ الأربعَ] استثنى المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذه السُّورةِ هذه الآياتِ الأربعَ، يَعني: أنها مدنيَّةٌ وبقيَّةُ السُّورةِ مكِّيَّةٌ، ولكن لاحِظ أنَّ أيَّ إنسانٍ يَستثني آياتٍ من سورةٍ مدنيَّةٍ؛ لِتكُونَ هذه الآياتُ مكِّيَّةً أو بالعكسِ فإنَّنا نطالبُه بالدليلِ، وإلا فالأصلُ أنَّ السُّورةَ المكِّيَّةَ مكِّيَّةٌ بجميعِ آياتِها، وأنَّ السُّورةَ المدنيَّةَ مدنيَّةٌ بجميعِ آياتِها.

---

(١) المقصود بـ(المُفَسِّر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رحمه الله تعالى، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (٤٥)، ومسلم: كتاب التفسير، رقم (٣٠١٧)، من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قد يقولُ قائلٌ مثلًا: الدليلُ أنَّ أسلوبَ الآياتِ المدنيَّةِ يختلفُ عن أسلوبِ الآياتِ المكِّيَّةِ. نقولُ: هذا لا يكفي.

وقد يقولُ قائلٌ مثلًا: الدليلُ على الاستثناءِ أنَّ هذه الآياتِ تبحثُ في فروعِ الدِّينِ وهذه علامةٌ على أنَّها مدنيةٌ؛ لأنَّ غالبَ السُّوَرِ المكِّيَّةِ تبحثُ في أصولِ الدِّينِ.

نقولُ: هذا ليس بدليلٍ، وعلى هذا فالأصلُ أنَّ هذه السُّورةَ مكِّيَّةٌ بجميعِ آياتِها حتى يَقُومَ دليلٌ واضحٌ على أنَّ هذه الآياتِ التي استثناها المُفسِّر مدنيَّةٌ، ثم اعلمْ أنَّ جميعَ السُّوَرِ المبدوءةِ بالحروفِ الهجائيَّةِ مكِّيَّةٌ إلَّا سورتيْنِ هما: البقرةُ وآلُ عمرانَ والباقي كُلُّه مَكِّيٌّ.

ثم قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثلاثٌ وخمسون آيةً] الآيةُ هي عِبارةٌ عن جُملةٍ من القرآنِ الكريمِ انفصلتْ عمَّا قبْلها انفصالًا توقيفيًّا، يَعني أنَّ الآياتِ فُصِلَتْ هذه عن هذه بالتوقيفِ، وليس تابعًا للمعنى؛ ولهذا تجدون قولَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٤-٥] هاتانِ آيتانِ، مع أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ مرتبطةٌ تمامًا بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾.

المهمُّ: أنَّ فصلَ آيةٍ عن آيةٍ إنما هو بالتوقيفِ، كذلك أيضًا وَضْعُ الآياتِ بعضِها إلى بعضٍ هو أيضًا توقيفيٌّ، ليس للرأيِ فيه مجالٌ، وليس لأحدٍ فيه أيُّ عملٍ، بل هو توقيفيٌّ، إذا نزلتِ الآيةُ قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم-: «ضعوا هذه الآيةَ في مكانِ كذا من سورةِ كذا»[1]. فصار الآن فَصْلُ الآياتِ عن بعضِها البعضِ ترتيبُها توقيفيٌّ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٥٧)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٨٦)، من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أمَّا السُّوَرُ فبعضُها ترتيبُه توقيفيٌّ وبعضُها ترتيبُه غيرُ توقيفيٍّ، فمثلًا البقرةُ وآلُ عمرانَ ترتيبُها توقيفيٌّ، آلُ عمرانَ بَعْدَ البقرةِ، ولا يُشْكِلُ عليك حديثُ حذيفةَ أنَّه صلَّى مع النبيِّ ﷺ ذاتَ ليلةٍ فقرأ بالبقرةِ، ثم قرأ بالنساءِ، ثم قرأ بآلِ عمرانَ[1]؛ لأنَّ الترتيبَ النِّهائيَّ أنَّ آلَ عمرانَ بعدَ البقرةِ، ويكونُ حديثُ حذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبْلَ الترتيبِ النِّهائيِّ؛ ولهذا تجدون في الحديثِ أنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- يَقْرِنُ دائمًا بيْنَ البقرةِ وآلِ عمرانَ؛ كقولِهِ: «**اقْرَؤُوا الزَّهْراوَيْنِ**»[2] يَعني البقرةَ وآلَ عمرانَ.

فصار عندنا الآن ترتيبُ السُّوَرِ بَعْضُه توقيفيٌّ وبَعْضُه غيرُ توقيفيٍّ، ترتيبُ الآياتِ توقيفيٌّ، تفصيلُ الآياتِ توقيفيٌّ.

وإنما سُمِّيت القطعةُ أو الجملةُ من القرآنِ آيةً؛ لأنَّها مُعجِزةٌ، يعني: الآيةُ الواحدةُ لا يستطيعُ أحدٌ أن يأتِيَ بمثْلِها، لا في موضِعِها، ولا في صيغتِها ولا في مدلولِها.

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، رقم (٨٠٤)، من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيات (١-٣)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الشورى:١-٣].

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ هذه خمسةُ أحرفٍ (حاء) (ميم) (عين) (سين) (قاف) خمسة أحرف، لكنها أحرفٌ هجائيةٌ يعني هي مثلُ: (ألف) (باء) (تاء) (ثاء) (جيم) (حاء) (خاء) هذه (حاء) (ميم) (عين) (سين) (قاف) ليس لنا أن نتكلمَ لماذا اختار اللهُ عَزَّوَجَلَّ هذه الحروفَ بعينِها دونَ غيرِها؟ هذا ليس إلينا، ولا يمكننا أن نحيطَ بذلك علمًا.

لكن لنا أن نسأل: هل لهذه الحروفِ معنًى؟

الجواب: المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: [اللهُ أعلمُ بمرادِه به]، وهذا يقتضي أنه أثبتَ لهذه الحروفِ معانيَ لكنها غيرُ معلومةٍ، وهذه الحروفُ الهجائيةُ التي ابتُدئت بها بعضُ السُّوَرِ اختَلف فيها العلماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ سلفًا وخَلفًا ما معناها، وهل هي رموزٌ أو أسماءٌ للسورِ التي ابتُدئت بها؟ ولكنَّا إذا طبَّقْنا ذلك على ما تقتضيه الأدلةُ وَجَدْنا أنها حروفٌ هجائيةٌ ليس لها معنًى.

الدَّليلُ: أنه لا يُوجَدُ في القرآنِ شيءٌ ليس له معنًى معلومٌ لجميعِ الناسِ؛ لأنَّه لو قدر أن في القرآن شيئًا مجهولًا لجميعِ الناسِ لم يكنْ هذا القرآنُ بيانًا للناسِ؛

لأنَّ مقتضَى البيانِ ألا يكُونَ فيه شيءٌ إلا كان معلومًا للناسِ جميعًا أو لبعضِ الناسِ، أمَّا أن يوجد فيه ما ليس معلومًا لجميع الناسِ فهذا لا يمكنُ، وقد قال اللهُ تعالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨]، وهذا يشملُ البيانَ اللفظيَّ والبيانَ المعنويَّ.

إذَن: أولًا: اعلم أنه لا يوجَدُ شيءٌ في القرآنِ لا يَفْهَمُ الناسُ معناه أبدًا، لا بُدَّ أن يفهموا معناه، فإذا وُجِدَ شيءٌ لا يُعْرَفُ معناه يعني ذلك أنه ليس له معنًى، هذه واحدةٌ.

ثانيًا: إذا طَبَّقْنا هذه الحروفَ على قولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥]، وقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزُّخرُف:٣]، قلْنا: هذه الحروفُ في لغةِ العربِ ليس لها معنًى، إذن فمقتضَى كوْنِ القرآنِ باللسانِ العربيِّ المبينِ ألا يكونَ لهذه الحروفُ معنًى؛ لأنَّ هذه الحروفَ ليس لها معنًى في اللغةِ العربيةِ، وهذا هو الذي نَقَلَه ابْنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن إمامِ المفسِّرين في عهْدِه مجاهدِ بنِ جبرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي أَخَذ تفسيرَ القرآنِ عن عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ.

فقال: إن هذه الحروفَ الهجائيَّةَ ليس لها معنًى[1] نَجْزِمُ بذلك، لا تَخَرُّصًا ولكن استدلالًا بالقرآنِ، واستدلالًا بحالِ القرآنِ، استدلالًا بالقرآنِ؛ لأنَّه نَزَلَ باللغةِ العربيةِ وهذه الحروفُ الهجائيَّةُ ليس لها معنًى في اللغةِ العربيَّةِ، واستدلالًا بحالِ القرآنِ أنَّ القرآنَ ليس فيه شيءٌ لا يَعْرِفُ الناسُ معناه كُلَّهُ، لا بُدَّ أن يَكُونَ فيه شيءٌ معلومٌ.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٠٩)، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧٠).

وعلى هذا فإننا نَجْزِمُ بأنَّ هذِه الحروفَ ذاتَها ليس لها معنًى، لكن إذن يَرِدُ علينا إشكالٌ، إذا قلنا: ليس لها معنًى صار إنزالُها وكلامُ الرَّبِّ بها عَزَّوَجَلَّ عبثًا، واللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يَفْعَلُ شيئًا عبثًا، فنقولُ: ليس بعبثٍ، هي ذاتُها ليس لها معنًى، لكن لها مغزًى يقترنُ بالتحدي، وهو أن يُقالَ: إنكم أيها العربُ تركِّبون كلامَكم من هذه الحروفِ والقرآنُ لم يأتِ بحرفٍ لم تتكلموا به، بل كُلُّهُ من الحروفِ التي تتكلمون بها، وهذا مثالٌ: (ح) (م) (ع) (س) (ق)، ومع هذا عَجَزْتُمْ أن تأتوا بمثْلِهِ، فيكون بهذا مغزًى عظيمٌ، وهو أنَّ القرآنَ الذي أَعْجَزَكُم أيها العربُ مع أنكم أئمَّةُ الفصاحةِ، هل أتى بحروف جديدة، تقولون: واللهِ لا نعرف هذه الحروف، أو هو من الحروفِ التي أنتم تنطقون بها؟ فالجوابُ: الثاني ومع ذلك أَعْجَزَكُم.

ويدُلُّ لهذا المغزى الذي أقرَّهُ شيخُ الإسلامِ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن سَبَقَه ومن لَحِقَه، يدُلُّ على هذا: أنك لا تكادُ تجدُ سورةً مبدوءةً بهذه الحروفِ إلا وبعدها ذِكْرُ القرآنِ الكريمِ، أو ذِكْرُ ما لا يُمْكِنُ إلا بوحيٍ، ننظرُ الآنَ: ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة:١] في أوَّلِ البقرةِ بَعْدَهَا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، وفي آلِ عمرانَ: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران:١-٣]، و ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف:١] ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ وهلمَّ جرًّا، ليس هناك إلا سورتان أو ثلاثٌ، لكنَّ حقيقةَ الأمرِ أنَّ الذي يلي هذه الحروفَ لا يتأتَّى العلمُ به إلا عن طريقِ الوحيِ.

فقولُهُ: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ نقولُ في تفسيرِها: هذه حروفٌ هجائيَّةٌ ليس لها معنًى، لكن لها مغزًى.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الإيحاءِ ﴿يُوحِيٓ إِلَيْكَ﴾ وأوحى

(١) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٧١).

إلى الذين من قبلِك، اللهُ فاعلُ الإيحاءِ] ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ تأتي في القرآنِ كثيرًا، وإعرابُها في جميعِ المواطنِ إلا يسيرًا أن تقول: الكافُ بمعنى (مثل) منصوبةٌ على أنها مفعولٌ مطلقٌ عاملُها ما يأتي بَعْدَهَا. حوّل الكافَ إلى مثلٍ تقولُ: مِثْلَ ذلك، والعاملُ فيها ﴿يُوحِيٓ﴾ أي: يوحي إليك مثلَ ذلك الإيحاءِ اللهُ العزيزُ الحكيمُ.

وقولُهُ: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ (ذلك) المشارُ إليه الوحيُ النازلُ على الرَّسُولِ ﷺ يوحي إليك: الوحيُ في اللغةِ الإعلامُ بسرعةٍ وخفاءٍ، ويُطْلَقُ على الرمزِ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١]، ويُطْلَقُ على الإلهامِ؛ كما في قولِهِ: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحلِ:٦٨]، ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القَصَصِ:٧].

أمَّا في الاصطلاح: فالوحيُ إعلامُ اللهِ تعالى بالشرعِ لأنبيائِهِ ورسُلِه.

وقولُهُ: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ الواوُ حرفُ عطْفٍ ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ معطوفةٌ على ﴿إِلَيْكَ﴾ وإذا كانتْ معطوفةً على ﴿إِلَيْكَ﴾ كان تقديرُ الفعلِ: ويوحي إلى الذين من قَبْلِك. لكنْ لاحظوا أنَّ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ صَرَفَهَا فقال: [وأوحى إلى الذين من قَبْلِك]، فَقَدَّرَ فعلًا ماضيًا، مع أنها معطوفةٌ على معمولِ فعلٍ مضارعٍ؛ لأنَّ إيحاءَ اللهِ إلى رسولِهِ محمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- مستمرٌّ، وإيحاؤه إلى من سَبَقَه ماضٍ منتهٍ؛ فلهذا قَدَّرَ المُفسِّر فعلًا ماضيًا.

ولكننا نقولُ: الأصلُ عدمُ التقديرِ؛ لأنَّ القرآنَ كاملٌ لا يحتاجُ إلى تقديرٍ إلا ما دعتِ الضَّرُورةُ إليه، ولا ضرورةَ هنا، ونقولُ: كذلك يوحي إليك ويوحي إلى الذين من قَبْلِك، ويكونُ ذِكْرُ الإيحاءِ لمن سَبَقَنَا من بابِ ذِكْرِ صورةِ الحالِ، فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حين وحْيِهِ إلى من سبق، و﴿يُوحِيٓ﴾ فعلٌ مضارعٌ، فيكونُ هذا على حكايةِ الحالِ.

وقولِهِ: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ المرادُ بهم الأنبياءُ والرسلُ، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱللَّهُ﴾ فاعلُ الإيحاءِ] لو قال: فَاعِلُ ﴿يُوحِىٓ﴾ كان أَحْسَنَ من حيث البيانُ الإعرابيُّ، فعلى هذا نقولُ: ﴿يُوحِىٓ﴾ فعلٌ مضارعٌ، و﴿ٱللَّهُ﴾ فاعلٌ: يوحي اللهُ.

فـ﴿ٱللَّهُ﴾ هو عَلَمٌ على ربِّنَا عَزَّوَجَلَّ قيل: وأصلُهُ (الإلهُ) فحُذفت الهمزةُ؛ لكثرةِ الاستعمالِ كما حُذفت الهمزةُ من خيرٍ وشرٍّ في قولهم: فلانٌ خيرٌ من فلانٍ، أو فلانٌ شرٌّ من فلانٍ، والتقديرُ: أَخْيَرُ وَأَشَرُّ.

﴿ٱللَّهُ﴾ معنى هذه الكلمةِ العظيمةِ قيلَ: إنه اسمٌ جامدٌ ليس له معنًى فهو غيرُ مشتقٍّ، لكن هذا القولَ غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠]، والاسمُ المجرَّدُ عن معنًى لا يَدْخُلُ في الحسنى، بل ولا في الحَسَنِ، فكلُّ اسمٍ من أسماءِ اللهِ، فإنه متضمنٌ لصفةٍ من صفاتِ اللهِ أو أكثرَ، وليس في أسماءِ اللهِ اسمٌ جامدٌ لا يحملُ معنًى أبدًا، وعلى هذا فنقول: اللهُ مشتقٌّ من الألوهيَّةِ، والألوهيَّةُ هي: التذلُّلُ للمألوهِ مع المحبَّةِ والتعظيمِ؛ إذنْ فاللهُ بمعنى المتألَّهِ إليه حبًّا وتعظيمًا.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ قال: في مُلْكِه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الحكيمُ في صُنْعِه].

أولًا: قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في مُلْكِه] لكنْ لم يفسرْ معنى العزَّةِ، العزيزُ في الأصلِ: الغالبُ، العزيزُ يعني: الغالبَ القاهرَ لمن سِوَاه عَزَّوَجَلَّ، واستمعْ إلى قولِ اللهِ تعالى عن المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، يريدون بالأعزِّ أَنْفُسَهُمْ، ويريدون بالأذلِّ الرسولَ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم- وأصحابِهِ.

قال اللهُ ردًّا عليهم: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]؛ أي: للهِ الغلبةُ ولرسولِهِ وللمؤمنين، وتَأَمَّلْ قولَهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ ولم يَقُلْ: واللهُ الأعزُّ، مع أنهم هم يقولون: الأعزُّ والأذلُّ، لم يَقُلْ: واللهُ أعزُّ قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾؛ لأنَّه لو قال: واللهُ هو الأعزُّ لأثبت للمنافقين عزةً مفضولةً، لكنَّ الحقيقةَ أنه لا عِزَّةَ للمنافقِ، بل هو مغلوبٌ دائمًا، بل حالُهُ تَدُلُّ على أنه مغلوبٌ؛ لأنَّه مختفٍ جبانٌ يُظْهِرُ أنه مُسْلِمٌ وليس بمُسْلِمٍ.

ولهذا نقولُ: إن الكافرين الخُلَّصَ الصرحاءَ أشجعُ من المنافقين؛ لأنَّهم يُصَرِّحُون ويُعْلِنون، أمَّا المنافقُ فذليلٌ يُظْهِرُ الإسلامَ خوفًا من المسلمين ويُبْطِنُ الكفرَ؛ لأنَّه كافرٌ، والعياذُ باللهِ.

مسألة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النِّساء:١٤٥] لا تدلُّ على أنَّ غيْرَهم لا يكونُ فيها، كما لو قلتَ مثلًا: فلانٌ في بيتِ فلانٍ، لا ينافي أن يَكُونَ أحدٌ في هذا البيتِ.

الخلاصةُ: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يُبَيِّنْ معناها، فنقولُ: العزَّةُ يعني: الْغَلَبَةَ.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ يقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في صُنْعِه]، وهذا ناقصٌ جدًّا؛ لأنَّ حِكْمَةَ اللهِ تعالى في صُنْعِه وفي شَرْعِه، فهو حكيمٌ في صُنْعِه؛ أي: في خَلْقِه، وهو حكيمٌ في شَرْعِه.

واقرأْ قولَ اللهِ تعالى في سورةِ المُمْتَحَنَةِ: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ [الممتحنة:١٠] كُلُّ هذه أحكامٌ شرعيَّةٌ، ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

فهو جَلَّ وَعَلَا حكيمٌ في شَرْعِه وحكيمٌ في صُنْعِه؛ يعني: في خَلْقِه، كُلُّ ما خَلَقَه اللهُ تعالى فالحكمةُ تقتضي وجودَه، وكلُّ ما أَعْدَمَهُ اللهُ تعالى فالحكمةُ تقتضي عَدَمَهُ، هذا أمرٌ مُسَلَّمٌ به، كلُّ ما شَرَعَه اللهُ إيجابًا، أو تحريمًا، أو تحليلًا، فالحكمةُ تقتضي شَرْعَه، كذلك الواجبُ تقتضي الحكمةُ إيجابَهُ، والمُحَرَّمُ تقتضي الحكمةُ تحريمَه، والمباحُ تقتضي الحكمةُ إباحَتَهُ، لكنْ لا يَلْزَمُ من وُجُودِ الحكمةِ في ذلك أن تكونَ معلومةً لنا، هناك حكمةٌ لكنْ قد نَعْلَمُها وقد لا نَعْلَمُها. وإذا حُجِبَ عنا عِلْمُهَا لا يعني العَدَمَ؛ لأننا قاصرون، إننا قاصرون بكلِّ شيءٍ، ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، في كلِّ شيءٍ ضعيفٌ؛ في قوتِهِ، في إدراكِهِ، في عِلْمِهِ، في كلِّ شيءٍ.

ولهذا لما قالوا: ما هي الرُّوحُ يا محمَّدُ؟ قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، خَتَمَ الآيةَ بقولِهِ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ كأنه يقول: لم يَبْقَ عليكم من العلم إلا الروحُ حتى تسألوا عنها، بل الذي فاتَكُم من العِلْمِ أكثرُ من الذي أدركتُمُوه؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ ولذلك واجبُ المسْلمِ تجاه خَلْقِ اللهِ وتجاه شَرْعِ اللهِ أن يستسلمَ تمامًا، وأن يقول: هذا هو الحكمةُ.

أَضْرِبُ مثلًا في الشرائعِ: لماذا يأتي الناسُ بحصى حجراتٍ صغيرةٍ يضربون بها مكانًا معينًا؟ قد يقولُ قائلٌ: ما الحكمةُ من هذا؟

فنقول: مجرَّدُ كوْنِ اللهِ شَرَعَ ذلك دليلٌ على الحكمةِ، ونكتفي بهذا. مع أن من أعظمِ الحِكَمِ فيه كمالُ التعبُّدِ أن يأتيَ الإنسانُ بحجرٍ يَضْرِبُ بها مكانًا لمجرد امتثالِ أمْرِ اللهِ، ففيه كمالُ التعبُّدِ؛ لأنَّ انقيادَ النفسِ لما تَعْلَمُ فائدتَهُ أسهلُ من انقيادِها لما لا تَعْلَمُ فائدتَهُ، وانقيادُها لما لا تَعْلَمُ فائدتَه أَبْلَغُ في التذلُّلِ والتعبُّدِ للهِ عَزَّوَجَلَّ مع أن

هذا العملَ مقرونٌ بِذِكْرِ كلِّ حَصاةٍ ترميها تقولُ: اللهُ أكبرُ. مقرونٌ أيضًا باتباعِ، كلِّ حصاةٍ ترميها وأنت تَشْعُرُ أنك متبِّعٌ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

ونقولُ: إنَّ قَصْرَ المُفسِّر (الحكيمَ) على حِكمةِ الصنعةِ قاصرٌ بلا شكٍّ، فهو حكيمٌ في صُنْعِه، وحكيمٌ في شَرْعِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ولا بُدَّ أن نَعْرِفَ ما هي الحكمةُ؛ يقولُ العلماءُ: إن الحكمةَ هي وَضْعُ الأشياءِ في مواضِعِها؛ بمعنى: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا خَلَقَ شيئًا، أو شَرَعَ شيئًا، فإنه في مكانِهِ اللائقِ به؛ ولهذا قال بعضُ السَّلَفِ: إنَّ اللهَ تعالى لم يأمُرْ بشيءٍ فيقولُ العقلُ: ليته لم يَأْمُرْ به، ولم يَنْهَ عن شيءٍ فيقولُ العقلُ: ليْتَه لم يَنْهَ عنه، فكلُّ ما ثَبَتَ بالشرعِ فإنه لا ينافي العقلَ، بل إن العقلَ يؤيِّدُ ويَشْهَدُ بِصِحَّتِه.

فالحكيمُ إذن هو واضعُ الأشياءِ مواضِعَها، سواءٌ الشرعيَّةُ أو الكونيَّةُ، فما أمرَ اللهُ بشيءٍ فقال العقلُ: ليْتَه لم يَأْمُرْ به، وما نهى عن شيءٍ فقال العقلُ: ليته لم يَنْهَ عنه.

أمَّا في الأمورِ الكونيَّةِ؛ فإن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ربَّما يُقَدِّرُ أشياءَ تظنُّها فسادًا فإذا بها تكونُ صلاحًا وخيرًا، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩]، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد يُقَدِّرُ أشياءَ إذا نَظَر إليها الإنسانُ أوَّلَ وَهْلَةٍ قال: هذه لا فائدةَ فيها. أو قال: هذه مُضِرَّةٌ، لكنْ إذا تأمل وجد أن الحكمةَ تقتضي ذلك.

وأنت أيها العبدُ إذا آمنْتَ أن اللهَ حكيمٌ في شرْعِه وحكيمٌ في خَلْقِه، فإنه لا يبقى لك شَكٌّ في أن ما شَرَعَه خيرٌ، وما قَدَّرَه خيرٌ.

وللحكيمِ معنًى آخرُ غيرُ الحكمةِ، وهو الحاكمُ؛ لأنَّ هذه المادةَ (حاء) (كاف)

(ميم) تدلُّ على المَعْنَيَيْن: على الحكمةِ وعلى الحُكْمِ، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحاكمُ، يَحْكُمُ في الناسِ ويَحْكُمُ بين الناسِ، يَحْكُمُ في الناسِ بما يُلْزِمُهُم به من الأحكامِ الشرعيَّةِ، ويَحْكُمُ بَيْنَ الناسِ فيما يختصمون فيه، فهو الحاكمُ وحُكْمُهُ مبنيٌّ على العدلِ التَّامِّ لا ظُلْمَ ولا جَوْرَ، لا بالنسبةِ لما يَحْكُمُ فيه بين النَّاسِ، ولا بالنسبةِ لما يُحْكَمُ به في الناسِ، كُلُّه عدلٌ، كلُّهُ خيرٌ. إذن الحكيمُ له معنًى آخرُ: الْحُكْمُ.

والحُكْمُ ينقسمُ إلى: حُكْمٍ قَدَرِيٍّ، وحُكْمٍ شَرْعِيٍّ؛ ولهذا إذا أُصيبَ الإنسانُ بمصيبةٍ قال: هذا حُكْمُ اللهِ. هذه اللغةُ تعبيرٌ عامِّيٌّ، هذا حُكْمُ اللهِ، يعني القَدَرِيَّ، لكنْ إذا قيل له: يجبُ عليك كذا وكذا قال: لماذا يَجِبُ؟ قال: هذا حُكْمُ اللهِ الشرعيُّ، وكلاهما في القرآنِ.

فمن الأولِ -أعني الحُكْمَ الْقَدَرِيَّ- قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن أخي يوسفَ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ [يوسف:٨٠]؛ أي: يُقَدِّرُ لي، لم يَقُلْ: يَحْكُمُ فيَّ، قال: ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾، فالحُكْمُ هنا قَدَرِيٌّ.

ومثالُ الثاني -الحُكْمِ الشرعِيِّ- قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حينما ذَكَرَ أحكامَ الكافرات اللاتي يأتين من الكفارِ إلى المؤمنين قال: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:١٠] أي: حُكْمَ اللهِ الشرعيَّ.

والفَرْقُ بين الحُكْمِ القَدَرِيِّ والشرعيِّ أن الحُكْمَ القدريَّ يكونُ فيما يرضاه اللهُ وفيما لا يرضاه اللهُ، الحكمُ الكونيُّ يكون فيما يرضاه الله وما لا يرضاه الله، يسرقُ الرجلُ، يزني، يشربُ الخمرَ، هذا حُكْمُ اللهِ القدريُّ، وهذا لا يرضاه اللهُ، يصلي الإنسانُ، يتصدقُ، يصومُ، يَحُجُّ، هذا حكمُ اللهِ الْكَوْنِيُّ، يرضاه الله، إذن الحكمُ الكونيُّ أو القدريُّ إن شئتَ يكون فيما يرضاه الله وما لا يرضاه.

أما الحكمُ الشرعيُّ فلا يكونُ إلا فيما يرضاه اللهُ، فلا يُحَرِّمُ اللهُ شيئًا إلا وهو يرضى ألا يَكُونَ، ولا يُوجِبُ شيئًا إلا وهو يرضى أن يكونَ.

كذلك أيضًا فَرْقٌ آخرُ: الحكمُ الكونيُّ -أو القدريُّ والمعنى واحدٌ- لا بد من وقوعِهِ، إذا حَكَمَ اللهُ بشيءٍ كونًا أو حَكَمَ به لا بُدَّ أن يَقَعَ، أمَّا الحُكمُ الشرعيُّ فقد يقعُ وقد لا يقعُ، وليس كلُّ النَّاسِ ملتزمين بأحكامِ اللهِ الشرعيَّةِ. فهذان فَرْقَانِ بَيْنَ الحكمِ الكونيِّ والحكمِ الشرعيِّ، وكلاهما يتضمنُه قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

من فوائدِ الآياتِ الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ قدرةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حيث إن كلامَه المُنَزَّلَ على نبيِّه من الحروفِ التي يتكلمُ بها النَّاسُ، ويركِّبُون منها كلامَهم ومع ذلك أَعْجَزَهُم، وجْهُ الدلالةِ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ نُبُوَّةِ النبيِّ ﷺ بقولِهِ: ﴿يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ النبوةِ في الأممِ السَّابقةِ؛ لقولِهِ: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ هذين الاسميْنِ للهِ عَزَّوَجَلَّ وهما: العزيزُ والحكيمُ، واعلمْ أن أسماءَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا بُدَّ أن تتضمَّنَ شيئيْن:

الأول: ثبوتُ ذلك اسمًا للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فمثلًا العزيزُ الآنَ نحنُ نَشْهَدُ أنَّ من أسماءِ اللهِ العزيزِ، كذلك نَشْهَدُ أن من أسماءِ اللهِ الحكيمُ.

والثاني: الصفةُ التي دلَّ عليها هذا الاسمُ فمثلًا العزيزُ دلَّ على العِزَّةِ، والحكيمُ على الحكمةِ، لا بُدَّ لكلِّ اسمٍ من هذين.

قد يتضمَّنُ الاسمُ شيئًا ثالثًا: وهو الفعلُ المترتِّبُ على ذلك، وإن شئْتَ فَقُلْ:

الأثرُ المترتِّبُ على ذلك، فمثلًا: السميعُ يتضمنُ إثباتَ اسمِ السميعِ للهِ، وإثباتَ السمعِ له، والصفةُ معنًى زائدٌ على الذاتِ، والثَّالث: أنه يسمعُ كُلَّ شيءٍ.

وفي (الحكيمُ) نقولُ كذلك، إثباتُ الحكيمِ اسمًا للهِ، والثاني: إثباتُ الحكمةِ على أَحَدِ المعنيَيْن، وإثباتُ الحُكمِ على المعنى الآخرِ، والثالثُ: أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَحْكُمُ بَيْنَ العبادِ، ويَحْكُمُ في العبادِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: كمالُ عزَّتِه وكمالُ حِكمتِه؛ لأنَّ اللهَ قَرَنَ بَيْنَ العزيزِ والحكيمِ؛ إشارةً إلى أن عِزَّتَهُ وغَلَبَتُه مبنيَّةٌ على الحكمةِ.

فعزةُ المخلوقِ قد تُوجِبُ أن يتصرَّفَ تصرفًا سفيهًا، كما في قولِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٦]، فهنا صار له عِـزَّةٌ لكنها لم تنفعْه؛ لأنَّها ليستْ مقرونة بالحكمةِ.

كذلك أيضًا حِكمةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مقرونةٌ بعزَّتِه؛ لأنَّ الحكيمَ قد يكونُ خوَّارًا ليس عنده غَلَبَةٌ فيَفُوتُه شيءٌ كثيرٌ، ويَفُوتُهُ الحزمُ من أجْلِ أنه يقولُ: إن ذلك هو الحكمةُ، لكنَّ حكمةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مقرونةٌ بعزَّتِه؛ ولهذا نحن نستفيدُ الآنَ من قَرْنِ الأسماءِ بعضِها ببعضٍ، نستفيدُ بذلك معنًى زائدًا على ما نستفيدُهُ من مُجَرَّدِ الاسمِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الشرائعَ التي أُوحيتْ إلى الرُّسُلِ عزةٌ وحكمةٌ، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، وقال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣]، فمن تَمَسَّكَ بهذه الشرائعِ نال الأمْرَيْنِ جميعًا، وهما مجتمعانِ وهما: العزةُ والحكمةُ والحُكمُ أيضًا.

الآية (٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى:٤].

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿لَهُۥ﴾ الضميرُ يَعُودُ على اللهِ، ومعلومٌ أن ﴿لَهُۥ﴾ خبرٌ مقدَّمٌ، والمبتدأُ ﴿وَمَا﴾ لقولِهِ: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّ ﴿وَمَا﴾ هنا اسمٌ موصولٌ والتقديرُ: له الذي في السَّمواتِ.

والقاعدةُ عند البُلَغاءِ: أن تقديمَ ما حقُّهُ التأخيرُ يقتضي الحصرَ والاختصاصَ، فقولُهُ: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني: لا لغيرِه كلُّ ما في السمواتِ والأرضِ فهو للهِ ربِّ العالَمين.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُلْكًا وخَلْقًا وعَبِيدًا] لو بدأ بالخلقِ قبل المُلكِ لكان أحسنَ؛ لأنَّ الخَلقَ سابقٌ، والمسألةُ ليست ذاتَ أهمِّيَّةٍ كبيرةٍ، المهمُّ أنَّ له ما في السموات مُلكًا؛ يعني: أنه مالكُ أعيانِها، وخَلقًا؛ يعني: أنه خالقُها، وعَبيدًا بالمعنى القَدَريِّ يعني: أنَّ ما في السَّمَواتِ والأرضِ متذلِّلٌ للهِ تعالى، كما قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

وقولُهُ: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جَمَعَها ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَفْرَدَها؛ لأنَّ السَّمواتِ أعظمُ من الأرضِ؛ ولهذا تجيءُ كثيرًا بلفظِ الجمعِ وتجيءُ بلفظِ الإفرادِ؛ كما في قولِهِ تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران:٥]، فإذا جاءتْ بالإفرادِ فالمرادُ الجنسُ، وإذا جاءتْ بالجَمْعِ فالمرادُ العددُ، والسَّمواتُ عددُها سبعٌ، كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [المؤمنون:٨٦].

والأَرَضُونَ لم تأتِ في القرآنِ إلا مفردةً باعتبارِ الجنسِ، ولكنَّ القرآنَ أشار إلى أنها سبعٌ في قولِهِ تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ ﴾ [الطلاق:١٢]، والمثليَّةُ لو نَزَّلْتَهَا على الكيفيةِ لا تصحُّ؛ لأنَّ السَّماءَ أعظمُ وأوسعُ. إذن لم يبق إلا أن نُنْزِلَها على الكمِّيَّةِ، فيكونُ المعنى ﴿مِثۡلَهُنَّ﴾ يعني في العددِ سبعُ أَرَضِينَ، وقد جاءتِ السُّنَّةُ بلفظِ السَّبْعِ فقال النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ-: «مَنِ اقتطعَ شِبْرًا مِنَ الأرضِ ظُلْمًا طَوَّقَه اللهُ به يومَ القيامةِ من سبْعِ أَرَضِينَ»[1]، وهذا نصٌّ صريحٌ.

وكذلك أيضًا يُـرْوَى عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه كان يقولُ إذا أقبل على البلدِ: «اللهُمَّ ربَّ السَّمواتِ السَّبعِ وما أَظْلَلْنَ وَرَبَّ الأرَضينَ السَّبْعِ وما أَقْلَلْنَ»[2]. فهي سبعُ أرَضينَ، ولكن كيف هي سبعُ أرَضينَ؟ هل المعنى أنها سبعةُ أقاليمَ أو سبعُ قارَّاتٍ أو ماذا؟

نقولُ: هي سَبْعُ أرَضين طباقًا، كما أن السَّمواتِ سبعٌ طباقٌ، كذلك الأرَضون سبعٌ طباقٌ، ويدلُّ لهذا أن النبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- قال: «طُوِّقَهُ يومَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٢، ٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى رقم (٨٧٧٦)، وابن خزيمة في صحيحه رقم (٢٥٦٥)، وابن حبان في صحيحه رقم (٢٧٠٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص:٤٧٢)، والحاكم (٢/ ١٠٠)، من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القيامةِ من سَبْعِ أَرَضِين»؛ لأنَّها لو كانتِ الأقاليمَ أو القارَّاتِ لكان الذي يَمْلِكُ قطعةً من الأرض هنا لا يَمْلِكُها في المكانِ الآخرِ، لكن الذي يَمْلِكُ قطعةً هنا له ما يَمْلِكُه على سطحِ الأرضِ، وله ما تحته إلى الأرضِ السابعةِ.

ولهذا قال العلماءُ: الهواءُ تابعٌ للقرارِ، والأسفلُ تابعٌ للأعلى.

مثلًا: أنا لي بيتٌ مساحتُهُ عَشَرَةُ أمتارٍ في عَشَرَةِ أمتارٍ، لي في الجوِّ -في السماءِ- عشرةُ أمتارٍ في عشرةِ أمتارٍ، فلا أَحَدَ يَقْدِرُ يَطْلُعُ شيئًا على ما يقابلُ أرضي ولو كان بعيدًا جدًّا، وليس للطائرةِ أن تمرَّ على أرضي، لو شِئْنا لمنعناها، هذه أرضي تَلُفُّ يمينًا أو يسارًا؛ لأنَّ الهواءَ تابعٌ للقرارِ.

لكن مسألةَ الطائرةِ قد يقولُ قائلٌ: إنَّ العُرْفَ جرى بأنها لا تُمْنَعُ؛ ولهذا تمرُّ من عندِ البلدِ من فوقِ البيوتِ وربما تُزْعِجُ الناسَ بأصواتِها ولا أحدَ يَمْنَعُهَا، ولو أنَّ أحدًا قال: أمنعُها من أن تمرَّ من فوق بيتي لَعُدَّ سَفَهًا، فالعُرْفُ له أحكامٌ.

وقلنا: من مَلَكَ الأعلى مَلَكَ الأسفلَ، فمثلًا قعرُ الأرضِ لي؛ ولهذا لو أراد الإنسانُ أن يفتح نفقًا تحت أرضي فلي أن أمنعَه؛ لأنَّ الهواءَ الأسفل تابعٌ للأرضِ.

فإن قال قائلٌ: إذا قلنا: الهواءُ تابعٌ للقرارِ والأسفلُ تابعٌ للأعلى يُوجدُ مساجدُ الآن أعلاها مسجدٌ وأسفلها دكاكينُ؟

فالجوابُ: هذا إشكالٌ جيِّدٌ، وهذا في أَصْل وضعِ الإنسانِ لها أنه وَضَعَ هذه دكاكينَ وهذا مسجدًا، كما أنه يُوجَدُ الآن بعضُ العمارات يكون أسفَلَها مملوكٌ لزيدٍ، والذي فَوْقَه لعمرٍو، والذي فَوْقَه لخالدٍ، هذه موجودةٌ، لكن إذا كانتِ الأرضُ التي تحته لا يَمْلِكُها أحدٌ فهي له؛ لأنَّ العماراتِ هذه على حَسَبِ ما صَرفَهَا مالكُها، إذا جعل هذه الجهة مسجدًا صارت مسجدًا، وإذا جعل هذه مساكن صارتْ مساكن.

أما لو كان هذا مسجدًا مثلَ المسجدِ الذي نحن فيه الآنَ، لو أرادَ أحدٌ أن يُعَمِّرَ فيه شيئًا قلنا: لا يَجُوزُ.

المهمُّ: السَّمواتُ سبعٌ، والأرَضون سبعٌ.

فائدة: الظاهرُ -واللهُ أَعْلَمُ- أنَّ الأرضَ التي يَنْتَفِعُ بها الخَلْقُ فيكونُ لهم فيها مصلحةٌ -والمرادُ الأنس- هي أرضٌ واحدةٌ، هذا الظاهرُ، واللهُ أعلمُ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ على خَلْقِه ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الكبير]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ قَرَنَ اللهُ بينهما في هذه وفي آيةِ الكرسيِّ.

﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ وزنُها الصرفيُّ: فَعِيلٌ، صفةٌ مُشبَّهةٌ، والصفةُ المُشَبَّهَةُ تقتضي وصفَ الموصوفِ بها دائمًا، إذن ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ وصفٌ لازمٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ أزلًا وأبدًا، لا يُمْكِنُ أن يكونَ خلافَ العلوِّ أبدًا، فالعلوُّ إذن صفةٌ ذاتيَّةٌ.

فهل العُلُوُّ هو علوُّ الصفةِ الذي اتفقتْ عليه الأمَّةُ الإسلاميَّةُ، أو هو عُلُوُّ الذاتِ الذي أَنْكَرَهُ مَنْ أَنْكَرَهُ؟

فالجوابُ: كلاهما، عُلُوُّ الذَّاتِ وعُلُوُّ الصِّفَةِ، أمَّا علوُّ الصفةِ فإن المسلمين كلَّهُم أجمعوا على ذلك حتى الجهميَّةُ والمعتزلةُ والأشعريَّةُ والماتريديَّةُ وغيرُهُم كُلُّهُم أجمعوا على ثبوتِ صفةِ العُلُوِّ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا أقولُ لكم: المُعَطِّلَةُ الذين يُنكرون الصِّفاتِ قالوا: لأننا نُنَزِّهُ اللهَ؛ لأنَّ ثبوتَ هذه الصفاتِ يستلزمُ على زعمِهم النقصَ فَيَنْفُونَهَا تنزيهًا للهِ عَزَّوَجَلَّ، إذن العُلُوُّ الذي هو عُلُوُّ الصِّفَةِ ثابتٌ للهِ بإجماعِ الأمَّةِ، ولا يُنكرُه أحدٌ.

أما عُلُوُّ الذَّاتِ هذا هو الذي اختلف فيه الناسُ، فانقسموا إلى ثلاثةِ أقسامٍ رئيسيَّةٍ:

القسْمُ الأوَّلُ: مَنْ أَنْكَرَهُ، لكنَّهُ جعل اللهَ تعالى في كلِّ مكانٍ، يقولُ: اللهُ ليس فِي مكانٍ خاصٍّ في العلوِّ بل هو في كلِّ مكانٍ، وهذا رَأْيُ الجهميَّةِ الحُلوليَّةِ يُصَرِّحُون بهذا، يقولون: لا يُمْكِنُ أن يكونَ اللهُ تعالى عاليًا على كلِّ شيءٍ، بل هو في كلِّ شيءٍ، إن كنتَ في المسجدِ فهو في المسجِدِ، في المرحاضِ فهو في المرحاضِ -قَاتَلَهُمُ اللهُ وحَاشَاهُ من قولِهم-، ولهم شُبْهَةٌ.

القِسْم الثاني: عَكْسُ هذا تمامًا قال: لا يَجُوزُ أن نقولَ: إنَّ اللهَ في مكانٍ لا عالٍ ولا نازلٍ، بل هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس فوق العالَمِ ولا تَحْتَه، ولا يمينَ ولا شِمالَ، ولا متصلٌ ولا منفصلٌ، ولا مباينٌ ولا محايثٌ، وهلمَّ جرًّا من الأمورِ السلبيَّةِ، هذا عكسُ الأوَّلَيْنِ تمامًا، وإني أسألُكُم باللهِ أين يكونُ الإلهُ إذا كان يُنْفَى عن كُلِّ هذا؟! يكونُ عَدَمًا؛ ولهذا قال محمودُ بنُ سبكتكين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحدُ القُوَّادِ المشهورين وهو يُناظرُ محمَّدَ بنَ فورك أحدَ المتكلِّمِين، لَمَّا قال محمدُ بنُ فورك: «لا دَاخِلَ العالَمِ ولا خارجَهُ... إلخ». قال له: «بَيِّنْ لي ما الفَرْقُ بَيْنَ العدمِ وبين رَبِّكَ الذي تَصِفُهُ بهذه الصفاتِ؟»[1]، والجوابُ: لا فَرْقَ.

القِسْم الثالثُ: يقولون: إنَّ اللهَ تعالى عالِمٌ بذاتِهِ فوق كلِّ شيءٍ ولا يحيطُ به شيءٌ من مخلوقاتِهِ وعُلُوُّهُ لازمٌ لذاتِهِ، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بائنٌ من خَلْقِهِ بمعنى أنه ليس حالًّا فيهم، ولا هم حَالّون فيه.

وهذا مَذْهَبُ أهلِ الحقِّ الذي دلَّ عليه القرآنُ والسُّنَّةُ والعقلُ والفطرةُ والإجماعُ، خمسةُ أدلةٍ كُلُّهَا تدُلُّ على العُلُوِ الذاتيِّ، وهي أيضًا متنوعةٌ، يعني دلالةُ القرآنِ ليست آيةً واحدةً، ولا على وجهٍ واحدٍ متنوعةٌ، وكذلك في السُّنَّةِ، فالقرآنُ مملوءٌ من إثباتِ

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٧)، ودرء تعارض العقل والنقل (٦/ ٢٥٣).

العلوِّ الذاتيِّ للهِ، مثلَ قولِهِ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

وأدلةٌ لا تُحْصَى، من السُّنَّةِ؛ أدلةٌ قوليَّةٌ، وفعليَّةٌ، وإقراريَّةٌ. يعني: كلُّ أنواعِ السُّنَّةِ دلَّتْ على علوِّ اللهِ الذاتِيِّ.

أما السُّنَّةُ القوليَّةُ فها هو النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- يقولُ في سجودِهِ: «سبحانَ ربِّيَ الأعلى»[1] فيثبتُ عُلُوَّهُ.

وأمَّا الإقراريَّةُ: فإنه ﷺ سألَ الجاريَةَ: «أين اللهُ؟» قالت: في السماءِ[2]، فأَقَرَّهَا.

وأمَّا الفعليَّةُ: فكان ﷺ يَخْطُبُ الناسَ يومَ عَرَفَةَ ويقولُ: «أَلَا هل بَلَّغْتُ؟» فيقولون: نعم، فيرفعُ إصبَعُه إلى السماءِ ويقولُ: «اللهُمَّ اشْهَدْ»[3] يعني: على هؤلاء الناسِ، يشيرُ إلى السماءِ. وهذه دلالةٌ فعليَّةٌ بالإشارةِ.

وأمَّا الإجماعُ: فالسَّلَفُ الذي على رأسِهِم الصحابةُ مُجْمِعُون على أن اللهَ تعالى فوقَ كلِّ شيءٍ، مُجْمِعون على هذا إجماعًا قطعيًّا؛ لأنَّهم كُلَّهُم يقولون في سجودِهِم: سبحانَ رَبِّيَ الأعلى، ولم يُنْقَلْ عن واحدٍ منهم أنه قال: إنَّ اللهَ ليس في السماءِ أبدًا.

وعدمُ نقلِ المخالفةِ لِمَا في الكتابِ والسُّنَّةِ يُدُّل على الإجماعِ، وهذا طريقٌ واضحٌ بأنه إذا لم يَرِدْ عن السلفِ ما يخالفُ دلالةَ القرآنِ، فهم مُجْمِعُون على ما دلَّ عليه القرآنُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أما دلالةُ العقلِ: فَسَلْ نَفْسَك: أَيُّما أَوْلى رَبٌّ يُوصَفُ بما يَدُلُّ على العدَمِ، أو ربٌّ لا يُنَزَّهُ عن الأماكِنِ القذرةِ، أو ربٌّ عالٍ فوقَ كلِّ شيءٍ؟ الجوابُ: الثالثُ، لا شكَّ.

ثم إن العُلُوَّ من حيث هو عُلُوٌّ صفةُ كمالٍ، وإذا كان صفةَ كمالٍ فقد أثبتَ اللهُ لنفسِهِ كلَّ صفةِ كمالٍ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، هذه الدلالةُ عقليَّةٌ.

أما الدلالةُ الفطريَّةُ: فالفطرةُ دَلَّتْ على عُلُوِّ اللهِ، الإنسانُ بفطرتِه قَبْلَ أن يَتَعَلَّمَ أين يتصورُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ؟ في العُلُوِّ؛ ولهذا تَجِدُ الإنسانَ العامِّيَّ الذي لم يقرأْ هذا البحثَ إذا أراد أن يَدْعُوَ اللهَ يتوجَّهُ إلى السماءِ؛ ولهذا قال أبو جعفر الهمَذانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لإمامِ الحَرَمْيِن الجُوَيْنِيِّ، وهو يُقَرِّرُ الجوينيَّ -عفا اللهُ عنه، ولعلَّهُ تاب فتاب اللهُ عليه- يُقَرِّرُ إنكارَ العُلُوِّ -يعني: إنكارَ الاستواءِ على العرشِ مع العلوِّ- ويقولُ: إن اللهَ تعالى كان ولم يكن شيءٌ قَبْلَه وهو الآن على ما كان عليه، يريدُ أن نُنْكِرَ الاستواءَ على العرشِ والعُلُوَّ أيضًا.

قال له أبو جعفرٍ الهمَذانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا أستاذُ، دعنا من ذِكْرِ العرشِ والاستواءِ على العرشِ، أَخْبِرْنَا عن هذه الفطرةِ، ما قال عارفٌ قطُّ: يا اللهُ، إلا وَجَدَ من قلبِهِ ضرورةً بطلبِ العُلُوِّ، سبحانَ اللهِ! ما قال عارفٌ، والعارفُ يُطْلَقُ على الصوفيِّ عندهم، لكنَّ المرادَ هنا ما هو أعمُّ، ما قال عارفٌ قط: يا اللهُ إلا وَجَدَ من قلبِه ضرورةً بطلبِ العلوِّ، جعل يلطِمُ على رأسِهِ ويقولُ: حَيَّرَنِي حَيَّرَنِي[1].

لأنه عاجزٌ عن الإجابةِ.

هذه دلالةٌ فطريةٌ لا يمكنُ لأحدٍ أن يُنْكِرَها، فالحمدُ للهِ الذي هدانا لهذا.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٠).

إذن علوُّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ينقسمُ إلى قِسْمَيْن:

علوٌّ ذاتيٌّ، وعلوٌّ وصفيٌّ، الثاني لم تختلفِ الأمةُ الإسلاميَّةُ فيه، أما الأولُ العلوُّ الذاتيُّ فانقسموا فيه إلى ثلاثِ فِرَقٍ والفرقةُ الناجيةُ -جعلني اللهُ وإياكم منهم- هم الذين أثبتوا عُلُوَّهُ بذاتِهِ جَلَّوَعَلَا فوق كلِّ شيءٍ، لا شيءَ يحاذي اللهَ عَزَّوَجَلَّ كلُّ الخَلْقِ في قبضتِهِ، كلُّ الخَلْقِ ليس عنده بشيءٍ إذا كانت السَّمواتُ السبعُ والأرَضون السبعُ بالنسبةِ للكرسيِّ كحَلْقةٍ أُلْقِيَتْ في فَلاةٍ من الأرضِ، السَّمواتُ السبعُ على عظمِها وسعتِها، والأرَضون السبعُ بالنسبةِ للكرسيِّ كحلْقَةٍ أُلْقِيَتْ في فلاةٍ من الأرضِ، الحلْقَةُ حلْقَةُ المِغْفَرِ ضيقةٌ أُلقيتْ في فلاةٍ من الأرضِ، لا تشغلْ هذه الحلقةُ من هذه الفلاةِ شيئًا.

قال النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ-: «**وإنَّ فضلَ العرشِ على الكرسيِّ كفضلِ الفلاةِ على هذه الحلْقَةِ**»[1] إذنْ ماذا يكونُ الكرسيُّ بالنسبة للعرشِ؟ لا شيءَ، والربُّ عَزَّوَجَلَّ فوق ذلك فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فوق كلِّ شيءٍ، لا شيءَ يحاذيه، كلُّ المخلوقاتِ تحته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهو فوق كلِّ شيءٍ.

إذنْ أثبتْنا هذا العلوَّ وأَطَلْنَا فيه؛ لأنَّه مُهِمٌّ؛ ولأنه يُوجَدُ الآن من يُنْكِرُهُ -نسألُ اللهَ العافيَةَ- ولا شكَّ أن هؤلاء قد أزاغ اللهُ قلوبَهُم، وإلا فلو رَجَعُوا إلى فِطْرَتِهم -الفطرةِ فقط- لَعَلِمُوا أنَّ اللهَ تعالى فوق كلِّ شيءٍ، وأن ذلك من كَمَالِهِ.

وقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ على خَلْقِهِ] لا نستطيعُ أن نقولَ: إن المُفسِّر أنكر العلوَّ الذاتِيَّ، ولا نستطيعُ أن نقولَ: إنه أَثْبَتَهُ قطعًا؛ لأنَّ [﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ على خَلْقِهِ]

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٣٦١)، وابن بطة في الإبانة (٧/ ١٨١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

يحتملُ العليَّ عليهم بالسلطانِ والسيطرةِ، فيكون علوًّا وصفيًّا، ويحتملُ أنه علا عليهم بذاتِهِ.

فلا يَجُوزُ لنا أن نرميَ المُفسِّر بأنه أَنْكَرَ الْعُلُوَّ، ولا أن نَشْهَدَ بأنه أَثْبَتَهُ؛ لأنَّ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الأشاعرةِ، فلا ندري، لكننا يَجِبُ علينا إذا سَمِعْنَا كلامًا من إخوانِنا المسلمين يُمْكِنُ أن يَكُونَ له محملٌ صحيحٌ أن نَحْمِلَهُ على المحملِ الصحيحِ ما لم تُوجَدُ قرينةٌ تَمْنَعُ ذلك، وإلا فالأصلُ إذا سَمِعْتَ من أخيك كلمةً فاحْمِلْها على المعنى الصَّحيحِ، حتى لو أنك سَمِعْتَ كلمةً وقلتَ: هذا الرجلُ يَسْخَرُ بي مثلًا أو يستهزئُ لا تَحْمِلْهَا على هذا، احْمِلْها على المعنى الحقِّ.

وأمَّا ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ فيقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الكبيرُ] وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّ الكبيرَ غيرُ العظيمِ، العظيمُ يعني: ذُو العَظَمَةِ، وعَظَمَةُ الشيءِ أو عَظَمةُ العظيمِ يعني: قُوَّةَ السلطانِ، قُوَّةَ العِلْمِ، قوةَ أيِّ شيءٍ يحتمل من المعاني فهو داخلٌ في كلمةِ العظيمِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عمومُ مُلْكِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقولِهِ: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ (ما) اسمٌ موصولٌ يفيدُ العمومَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن ذلك مختصٌّ باللهِ لا يشارِكُهُ فيه أحدٌ، وذلك بتقديمِ الخبرِ، والقاعدةُ البلاغيةُ: أن تقديمَ ما حقُّهُ التأخيرُ يفيدُ الحصرَ والاختصاصَ.

فإن قال قائلٌ: يَرِدُ على قولِكم هذا أن اللهَ تعالى أَثْبَتَ للإنسانِ المُلْكَ، فقال: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون:٦]، وقال: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور:٦١]، وما أَشْبَهَ ذلك.

فالجوابُ: أن مُلْكَ الإنسانِ في الشيءِ ليس مُلْكًا مطلقًا، ولا مُلْكًا عامًّا، فهو ليس مُلْكًا مطلقًا، إذ إن الإنسانَ لا يَمْلِكُ أن يَتَصَرَّفَ في مالِهِ كما شاء، لو أراد أن يَحْرِقَ مالَه، فليس له ذلك، ولو أراد أن يستعمِلَه في الحرامِ لم يكن له ذلك. وليس أيضًا عامًّا، فمُلْكُ كلِّ إنسانٍ منا خاصٌّ به، أنت لا تَمْلِكُ مالي، وأنا لا أَمْلِكُ مالك.

أما مُلْكُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فمطلقٌ عامٌّ، فَظَهَرَ الفَرْقُ بين مُلكِ الربِّ عَزَّوَجَلَّ ومُلكِ المخلوقِ، وحينئذٍ لا معارضةَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ عددِ السَّمواتِ؛ حيث جاءت بالجمْعِ، وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى في مَوْضِعٍ آخَرَ أنها سبعُ سَمواتٍ، أما الأرضُ فجاءت في القرآنِ مُفْرَدةً، لكنَّ اللهَ أشار إلى أنها جَمْعٌ في قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ عُلُوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في قولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن العُلُوَّ صفةٌ لازمةٌ، ليست من صفاتِ الأفعالِ التي إنْ شاء فَعَلَها، وإنْ شاء لم يَفْعَلْها؛ وَجْهُ الدلالةِ أن العليَّ صفةٌ مُشَبَّهَةٌ والصفةُ المُشَبَّهَةُ تفيدُ الثبوتَ وعدمَ التحوُّلِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: عمومُ علوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الشاملِ لعلوِّ الذاتِ وعلوِّ الصفةِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ عَظَمةِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في قولِهِ: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثباتُ هذين الاسمين للهِ عَزَّوَجَلَّ العَلِيُّ والعظيمُ.

واعلمْ أنَّ كلَّ اسمٍ من أسماءِ اللهِ، فإنه دالٌّ على صفةٍ، كلُّ اسمٍ دالٌّ على صفةٍ وليس كلُّ صفةٍ يُشْتَقُّ منها اسمٌ، وحينئذٍ يتبينُ أن الصِّفَاتِ أوسعُ من الأسماءِ؛ لأنَّ كلَّ اسمٍ متضَمِّنٌ لصفةٍ، وليس كُلُّ صفةٍ يُشْتَقُّ منها اسمٌ.

فمثلًا من صفاتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ المكرُ بمن يستحقُّ المكرَ، وهل يجوزُ أن نشتقَّ من هذه الصفةِ اسمًا من أسمائِهِ؟

الجواب: لا يجوزُ؛ لأنَّ بابَ الصفاتِ أوسعُ، من أوصافِ اللهِ أو من صفاتِ اللهِ، الصُّنْعُ ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النملِ:٨٨]، هل يُمْكِنُ أن نشتقَّ من ذلك اسمًا للهِ هو الصانعُ؟

الجواب: لا، وعلى هذا فَقِسْ.

ثم اعلمْ أن دلالةَ الصِّفَةِ على مدلولِها تنقسمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

دلالةِ تَضَمُّنٍ، ودلالةِ مُطَابَقَةٍ، ودلالةِ التزامٍ.

فدلالةُ الاسمِ على جميعِ معناه تسمى دلالةً مُطَابَقَةٍ، وعلى جُزْئِهِ دلالةَ تَضَمُّنٍ، وعلى شيءٍ خارجٍ لازمٍ دلالةَ التزامٍ.

ونحن نُمَثِّلُ لكم الآن بالمحسوسِ والمعقولِ إذا قلتَ: هذه دارٌ، أو هذا بيتٌ دلالتُها على جميعِ ما هُو داخِل السُّورِ دلالةُ مطابَقةٍ يعني: يَشْمَلُ الحُجَرَ -وهي الغُرفُ الأسفل- ويشملُ الغُرفَ التي في الدَّوْرِ الثاني والثالثِ، وهلمَّ جرًّا، فهذه دلالةُ مطابَقَةٍ.

ودلالةُ هذا اللفظِ على الصالةِ، وعلى المطبخِ، وما أشبهَ ذلك على واحدٍ منها دلالةُ تضمُّنٍ؛ لأنَّه يدلُّ على جزءِ المعنى.

ودلالتُهُ على بانٍ بَنَاهُ دلالةُ التزامٍ؛ لأنَّه لا يُمْكِنُ أن يُوجَدَ بيتٌ إلا ببانٍ. هذا مثالٌ في المحسوسِ.

أنا الآن معي هذا القلمَ دلالتُهُ على غِطائِه وعلى أصلِهِ مُطَابَقَةٌ، ودلالتُهُ على واحدٍ منها تَضَمُّنٌ، ودلالتُهُ على أن هناك مَنْ صَنَعَه دلالةُ التزامٍ.

ونأتي على أسماءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ نقولُ: من أسماءِ اللهِ تعالى الخالقُ البارئُ المُصَوِّرُ.

فالخالقُ دلالتُهُ على الذاتِ الإلهيَّةِ وعلى الصفةِ التي هي الخَلْقُ جميعًا دلالةُ مُطَابَقَةٍ، ودلالتُهُ على الذاتِ وَحْدَهَا أو على الخَلْقِ وَحْدَه دلالةُ تَضَمُّنٍ، ودلالتُهُ على العِلْمِ والقُدْرَةِ أنه ما من خالقٍ إلا وهو عَالِمٌ، وما من خالقٍ إلا وهو قادرٌ، هذه دلالةُ التزامٍ.

أما النوعان الأولان: دلالةُ المُطَابَقَةِ والتضمُّنِ، فهذا لا يُشْكِلُ على أَحَدٍ، كُلُّ طالبِ عِلْمٍ يُمْكِنُ أن يَعْرِفَ.

وأمَّا دلالةُ التزامٍ فهي التي تخفى على كثيرٍ من الناسِ؛ ولذلك يختلفُ فيها العلماءُ اختلافًا كثيرًا، وهنا نسألُ هل دلالةُ الالتزامِ لازمةٌ في كلِّ قولٍ أو فيما قال اللهُ ورسولُهُ؟

الجوابُ: الثاني؛ لأنَّ دلالةَ الالتزامِ قد يُنْكِرُهَا من تَكَلَّمَ بالكلامِ، فمثلًا نقولُ: الجهميَّةُ يقولون: إنَّ اللهَ في كلِّ مكانٍ. من لازِمِ قوْلِهم أن يكونَ في الحشوشِ والأماكِنِ القذرةِ، هم لا يلتزمون بهذا، ولو التزموا بهذا لكفروا، ولا أَحَدَ يَشُكُّ في كُفْرِهِم، لكن لا يلتزمون بهذا؛ ولذلك عَبَّرَ العلماءُ عن هذه المسألةِ: هل لازمُ القولِ قولٌ أو لا؟

نقول: أمَّا قولُ اللهِ ورسولِهِ فلازِمُهُما حقٌّ ومن قَوْلِ اللهِ ورسولِهِ، وأمَّا غيرُهُما فلا؛ لأنَّه يحتملُ إذا ألزمناه به ألا يلتزمَ، ويحتملُ إذا ألزمناه به أن يَدَعَ قَوْلَهُ؛ لئلا يلزمَ منه هذا اللازمُ الباطلُ ويحتملُ أنه حين تَكَلَّمَ لم يطرأْ على بالِهِ هذا اللازمُ.

ونحن نقولُ: أسماءُ اللهِ تعالى تدلُّ على الذاتِ الْعَلِيَّةِ على ذاتِ اللهِ، وعلى الوصفِ الذي تَضَمَّنَهُ هذا الاسْمُ، فـ (العليُّ) يدلُّ على الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ وعلى صفةِ العُلُوِّ، و(العظيمُ) كذلك يَدُلُّ على الرَّبِّ وعلى صفةِ العظمةِ.

والاسمُ وصفٌ -هذا لا بُدَّ في كلِّ اسمٍ-، والأثرُ. يعني: الذي يترتبُ على هذا، لا نقولُ: مقتضى الاسمِ. وليس كلُّ اسمٍ، عندنا (الحي) لا أَثَرَ فيه، فـ(الحيُّ) وصفٌ لازمٌ لذاتِهِ لا يتعدى، لكنْ إذا قلتَ: البصيرُ السميعُ هذا يتعدى إلى المسموعِ في السميعِ، وإلى المُبْصَرِ في البصيرِ.

فالضابطُ: أن الذي لا بُدَّ فيه من الإيمانِ بالأثرِ هو الاسمُ المتعدِّي.

فائدة: إذا قُلْنَا: عُلُوُّ الصفةِ شَمِلَ عُلُوَّ القَدْرِ وعلوَّ القَهْرِ، وجميعَ أنواعِ العُلُوِّ. يعني: أن هذا أَعَمُّ، وبعضُ العلماءِ يقولُ: ثلاثةُ أقسامٍ: علوُّ الذاتِ، وعلوُّ القَدْرِ، وعلوُّ القهرِ. لكن إذا قلنا: علوُّ الذاتِ وعلوُّ الصفةِ صار أشملَ وأعمَّ.

فإن قال قائلٌ: إذا كان الرجلُ مبتدعًا وأتى بكلامٍ يَحْتَمِلُ أنه على مذهبِ السلفِ أو على مذهبِ الخَلَفِ، فهل نَحْمِلُهُ على أنه على مذهبِ السَّلَفِ؟

فالجوابُ: ذَكَرْنا قبْل قليلٍ أنه يُحْمَلُ على المعنى الصحيحِ ما لم يُوجدْ قرينةٌ، فإن وُجِدَ قرينةٌ لا نَحْمِلُهُ على المعنى الصحيحِ، بل نَحْمِلُهُ على ما نَعْلَمُ من حالِ الرجلِ؛ ولهذا يقولُ البلقينيُّ: استخرجتُ اعتزالياتِ (الكشافِ) بالمناقيشِ[1].

و(الكشافُ) تفسيرٌ للزمخشريِّ، تفسيرٌ جيدٌ في الواقعِ من حيث اللغةُ ومن حيث المعنى جيِّدٌ، ويتكلمُ أحيانًا عن الأمورِ الفقهيَّاتِ، وكلُّ مَن بَعْدَهُ رأيناه يستقي

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٤/ ٢٤٣).

منه فيما يتعلقُ بالبلاغةِ والإعرابِ، مثلَ أبي السعودِ وغيرِه، لكنه معتزليٌّ بَحْتٌ، ويَذُمُّ أهلَ السُّنَّةِ ويُسَمِّيهم الحشويَّةُ، تجدُ في كلامِهِ أشياءَ تَظُنُّ أنَّها جيِّدَةٌ، وتقول: هذا كلامٌ من أحسنِ ما يَكُونُ، كما في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آلِ عمرانَ:١٨٥] قال الزمخشري: أيُّ فوزٍ أعظمَ من أن يُزَحْزَحَ عن النارِ وَيُدْخَلَ الجنَّةَ؟[1].

فهذا إذا سَمِعْتَهُ تقولُ: كلامٌ طيِّبٌ لا فوزَ أعظمُ من هذا، لكنه يشيرُ إلى نَفْيِ رؤيةِ اللهِ؛ لأنَّه من المعلومِ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل رؤيتَه زيادةً على نعيمِ الآخرةِ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ هو يقولُ: أيُّ فوزٍ أَعْظَمَ من أن يُزَحْزَحَ عن النارِ وَيُدْخَلَ الجنةَ؟

الجوابُ: كلُّ واحدٍ سيقولُ: لا شيءَ، لا فوزَ أعظمُ من هذا. لكن هو يشيرُ إلى إنكارِ رؤيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ ولولا أننا عَرَفْنَا من مذهبِ الرجلِ أنه معتزليٌّ يُنْكِرُ رؤيةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لكنا نقولُ: لا يَجُوزُ أن نَتَّهِمَه؛ لأنَّ من دَخَل الجنةَ فسوف يرى اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

• • ۞ • •

(١) انظر: الكشاف (١/ ٤٤٩).

الآية (٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى:٥].

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾ ﴿تَكَادُ﴾ يقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالتاءِ والياءِ] ﴿تَكَادُ﴾ و(يكادُ) أمَّا ﴿تَكَادُ﴾ فَمُطَابَقَتُهَا لمرفوعِها ظاهرٌ؛ لأنَّ السَّمواتِ جمعٌ، وكما قال الزمخشريُّ:

..... كُلُّ جَمْعٍ مُؤَنَّثٌ[1]

إذنْ ﴿تَكَادُ﴾ مطابقَتُها لمرفوعِها ظاهرٌ، (يكادُ) مُذَكَّرٌ للمذَكَّر والسَّمواتُ مؤنثٌ، فما هو الجوابُ؟

الجوابُ: الجمعُ المؤنَّثُ إذا كان مجازيًّا جازَ تذكيرُهُ وتأنيثُهُ؛ أي: تذكيرُ فعلِهِ وتأنيثُهُ، تقولُ: طلعَ الشمسُ وطلعتِ الشمسُ، يَجوزُ هذا وهذا؛ لأنَّه مجازٌ، أمَّا إذا كان حقيقيًّا -وهو الذي له فَرْجٌ من بني آدمَ أو غيرِهِم- فإنه يَجِبُ تأنيثُ عاملِهِ فتقول: قامتِ امرأةٌ ولا ريبَ، ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ من المؤنثِ المجازيِّ؛ ولهذا جاء فيها قراءتان ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ ومعنى ﴿تَكَادُ﴾: تَقْرُبُ، فهي من أفعالِ المقاربةِ.

---

(١) انظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني (٢/ ٧٧).

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ يعني: السبعَ (يَنْفَطِرْنَ) بالنونِ، وفي قراءةٍ بالتاءِ والتشديدِ] وهي قراءةٌ سَبْعِيَّةٌ؛ لأنَّ قاعدةَ المفسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا قال: في قراءةٍ، أو قال: بالتاءِ والياءِ، أو قال: بالمدِّ والقَصْر. أن القراءةَ سَبْعِيَّةٌ، إذن لك أن تقرأ (يَنْفَطِرْنَ) و﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾.

وَالِانْفِطَارُ بمعنى الانشقاقِ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار:١].

وقولُهُ: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ لم يقلْ: من أسفلَ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فوقَ والسَّمواتُ تكاد يَتَفَطَّرْنَ من فوقِهن من عَظَمَتِهِ.

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيْ: تنشقُّ كلُّ واحدةٍ فوق التي تليها من عظمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ] ولولا أن اللهَ أَمْسَكَهَا لَتَفَطَّرَتْ، كما أنه جَلَّوَعَلَا لَمَّا تجلَّى للجبلِ جعله دكًّا، فالسَّمواتُ على عِظَمِها وقُوَّتِهَا وشِدَّتِها تكادُ تَنْفَطِرْنَ من عظمةِ اللهِ جلَّ وعلا سبحانَه وبحمْدِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ انظرِ العظمةَ، عظمةٌ تكادُ السَّمواتُ تتفطرُ منها، عظمةٌ أخرى بجنودِهِ جَلَّوَعَلَا، الملائكةُ يُسَبِّحُون بحمْدِ ربِّهم.

والملائكةُ عالمٌ غيبيٌّ لا يُشاهَدُون، خَلَقَهُم اللهُ تعالى من نورٍ، وسَخَّرَهم لعبادتِهِ؛ يُسَبِّحُون الليلَ والنهارَ لا يَفْتُرُونَ، قال النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ-: «**أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لَهَا أن تَئِطَّ، ما من موضعِ أربعِ أصابعَ منها إلا وفيه مَلَكٌ قَائِمٌ للهِ، أو راكعٌ، أو ساجدٌ**»(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٧٣)، والترمذي: كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا**»، رقم (٢٣١٢)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

«أَطَّتْ» يعني: صار لها صريرٌ كصريرِ الرَّحْلِ المحملِ، الرَّحْلُ على البعير إذا ثَقُلَ الحِمْلُ صار له صريرٌ مع حركةِ السيرِ، فالسماءُ لها هذا من كثرةِ من عليها من الملائكةِ؛ ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «حُقَّ لَـهَا أن تَئِطَّ».

إذن الملائكةُ تفسيرُهُم: عالمٌ غيبيٌّ، خَلَقَهُم اللهُ تعالى من نورٍ، كما ثَبَتَ عن النبيِّ[1] عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهو سَخَّرَهُم لعبادتِهِ، يُسَبِّحُون الليلَ والنهارَ لا يَفْتُرُونَ إذا أَمَرَهُم اللهُ بشيءٍ، لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُم، ويَفْعَلُون ما يُؤْمَرون، ضِدَّهُم الشياطينُ، فالشياطينُ: عالمٌ غيبيٌّ، خُلِقُوا من نارٍ، عُصَاةٌ للهِ، مستكبرون عن عبادتِهِ، وأبوهم الشيطانُ الأكبرُ إبليسُ.

فإذا قال قائلٌ: أنتم قلتم: إنهم عالـمٌ غيبيٌّ، أليس جبريلُ قـد شاهَدَهُ النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- على خِلْقَتِهِ وله ستُّ مئةِ جناحٍ قد سدَّ الأفقَ[2]؟

فالجوابُ: بلى، لكنَّ هذا لا ينافي أن يكون عالمًا غيبيًّا في الأصلِ، يعني: قد يُظْهِرُهُم اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيراهم الناسُ وقد يتشكَّلون أيضًا، يكونُ المَلَكُ بصورةِ الآدميِّ، كما جاء جبريلُ مرةً بصورةِ رجلٍ غريبٍ، لكنه لا يُرَى عليه أثرُ السفرِ، وجاء مرةً بصورةِ دِحْيَةَ الكلبيِّ، فهم قد يتشَكَّلون بصُوَرِ الآدميِّ.

فإن قال قائِل: هذا التشكُّلُ هل هو بإرادتِهم، أو من اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟

فالجواب: السؤالُ عن هذا بدعةٌ، يعني: هل لنا مصلحةٌ أن نَعْرِفَ أن جبريلَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة، رقم (٢٩٩٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم (١٧٤)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُحَوِّلُ نَفْسَهُ إلى صورةِ آدمِيٍّ، أو أن اللهَ يَقْلِبُهُ إلى صورةِ آدمِيٍّ؟ ليس لنا مصلحةٌ، لكن نَعْلَمُ أنه لم يَقَعْ ذلك إلا بإرادةِ اللهِ، سواءٌ كان بفعلٍ اختياريٍّ من جبريلَ، أو بفعلٍ خِلْقِيٍّ من اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

نحن ليس لنا حقٌّ أن نسألَ عن ذلك، كلُّ أمورِ الغيبِ لا تَسْأَلْ عنها، أَجْرِهَا على ما جاءتْ؛ لأنَّه سَبَقَك من هو أَحْرَصُ منك على العِلْمِ وأقوى منك إيمانًا، وباشر من يستطيعُ الجوابَ والرَّدَّ، وهم الصحابةُ، ومع ذلك ما سألوا، إذا لم يَسَعْكَ ما وَسِعَ الصحابةَ فلا وسَّعَ اللهُ عليك.

ولهذا يجبُ أن نقولَ لبعضِ الشبابِ الآن الذين يبحثون في أسماءِ اللهِ وصفاتِهِ ويتعمقون يجبُ أن ننهاهم، ونقولَ: اتَّقُوا اللهَ، آمِنُوا بالقرآنِ والسُّنَّةِ على ما جاءَ بالكتابِ والسُّنَّةِ ولا تبحثوا، سَبَقَكم من هو خيرٌ منكم وأَحْرَصُ على العلمِ ولم يسألوا.

ثم هُمْ إذا سألوا يسألون الرسولَ الذي قد يَنْزِلُ عليه الوحيُ ويُخْبِرُهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بما سألوا عنه، أمَّا أن تسألَ إنسانًا يخطئُ ويصيبُ وأنت وهو سواءٌ في عِلْمِ الغيبِ، فهذا من الغلطِ والسفهِ، ومن مخالفةِ جَادَّةِ السلفِ، وما أحسنَ ما قاله مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ للذي سأله عن كيفيةِ الاستواءِ قال: «السؤالُ عنه بدعةٌ، وما أراك إلا مبتدعًا»[1].

فنصيحتي لكم إذا أردتُمُ السلامةَ أن تَدَعُوا السؤالَ عن الأمورِ الغيبيَّةِ، اتركوها، وإلا هذا يَرِدُ عن الإنسانِ. يعني أنه هل المَلَكُ يستطيعُ أن ينقلبَ إلى صورةِ آدمِيٍّ، أو أن هذا بأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟ بمعنى أنه لا يستطيعُ لكن اللهَ يَقْلِبُهُ.

---

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة رقم (٦٦٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٨٦٧)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والدارمي في الرد على الجهمية رقم (١٠٤).

ونقولُ: الطريقَ السليمَ في الجوابِ عليه أن نقولَ: السؤالُ عن هذا بدعةٌ، بدعةٌ في دينِ اللهِ، ما سأل عنه من هو خيرٌ منا، دعوه.

فإذا قال قائلٌ: الملائكةُ هل هم أجسامٌ؟

الجوابُ: نعمْ لا شكَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر:١]، وأما من قال: إن الملائكةَ كنايةٌ عن قوى الخيرِ، والشياطينَ كنايةٌ عن قوى الشرِّ، فهذا يعني إنكارَ الملائكةِ والشياطين، بل نقولُ: الملائكةُ أجسامٌ ذوو أجنحةٍ، الشياطينُ أجسامٌ تأكلُ وتشربُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء:٦٤]، أعاذني اللهُ وإياكم من الشيطانِ.

المهمُّ: أننا نؤمنُ بأن الملائكةَ أجسامٌ، وأن الشياطينَ أجسامٌ، لكنْ لا نَعْرِفُ كَيْفِيَّتَهم إلا ما عَلَّمَنا اللهُ، فما عَلَّمَنا اللهُ نَعْرِفُه وما لا فلا نَعْرِفُهُ؛ لأنَّهم عالمُ الغيبِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أيْ: مُلابِسين للحمدِ] أفادنا المُفسِّر بقولِهِ: [أي ملابسين للحمدِ] أن الباءَ هنا للملابَسةِ والمصاحَبَةِ، ومعنى (يُسَبِّحُ): أي: يُنَزِّهُ، ومعنى بِحَمْدِ: أي: تسبيحًا مَصْبُوغًا بالحمد؛ لِأَنَّ التسبيحَ تَنْزِيهٌ وتخليةٌ، والحمدُ بالعكسِ إثباتٌ؛ فقولك: «سبحانَ اللهِ وبحمْدِه» يجتمعُ فيه تنزيهُ اللهِ عن كُلِّ نقصٍ، وإثباتُ كلِّ كمالٍ له؛ أخذْنا إثباتَ الكمالِ من الحمدِ، والتنزيهَ من التسبيحِ ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

و(رَبٌّ) هنا بمعنى: خَالِقٌ، مَالِكٌ، مُدَبِّرٌ.

وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ المفعولُ محذوفٌ للعِلْمِ به، فمَن هو المُسْتَغْفَرُ؟ اللهُ، ويستغفرون اللهَ، والاستغفارُ طلبُ المغفرةِ؛ لأنَّ استفعل تأتي دائمًا وغالبًا بمعنى

الطلبِ، تقولُ: استسقى بمعنى: طَلَبَ السُّقيا، استغفرَ بمعنى: طَلَبَ المغفرةَ، استرحمَ بمعنى: طلبَ الرحمةَ، وما أشبهَ ذلك، وقد تأتي بغيرِ ذلك كما في قولِك: استكبرَ ليس فيها طلبُ استكبارٍ، لكنه بلغَ في الكبر غايتَهُ.

وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: يطلبون المغفرةَ من اللهِ، والمغفرةُ قالوا: إنها مشتقةٌ من المِغفرِ، المغفرُ: شيءٌ يجعَلُه المقاتلُ على رأسِهِ يغطي الرأسَ ويقيه السهامَ، ففيه سترٌ ووقايةٌ، فإذا قلتَ: أستغفرُ اللهَ، أو ربِّ اغفرْ لي، فأنت تَطْلُبُ شيئَيْن:

الشيءُ الأولُ: السترُ، سترُ عيوبِك عن الناسِ، لو عَلِمَ الناسُ ما عندك من الذنوبِ ما رَدُّوا عليكَ السلامَ، كما قال القحطانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واللهِ لو علموا خَبِيءَ سَرِيرتي ... لأبى السلامَ عليَّ مَنْ يلقاني[1]

فأنت تسألُ اللهَ أن يسترَ عليك.

الثاني: تسألُ اللهَ وقايةً من الذنبِ، وقايةَ العذابِ، كُلُّ مُذْنِبٍ مستحقٌّ للعقابِ.

لو قال الإنسانُ: المغفرةُ عدمُ المؤاخذةِ على الذنبِ، نقولُ: هذا بعضُ معناها، فمعناها: سَتْرُ الذنبِ وعدمُ المؤاخذةِ عليه.

وقولُهُ: ﴿لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (من) هُنَا اسمٌ موصولٌ يفيدُ العمومَ، وهو ليس عامًّا، إنما هذا عامٌّ يُرادُ به الخاصُّ؛ بدليلِ قولِهِ تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ [غافر:٧]. إذنْ ﴿لِمَن﴾ هنا عامٌّ يُرادُ به الخصوصُ.

---

(١) نونية القحطاني (ص:١٨).

لو قال قائلٌ: إنه عامٌّ خُصِّصَ. قلنا: لا؛ لأنَّه لم يُرِدِ العمومُ من الأصلِ، إنما أُريدَ الخصوصُ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

فإن قال قائلٌ: ما الفَرْقُ بين العامِّ الذي أُريدَ به الخصوصُ وبيْنَ العامِّ المخصوصِ؟

فالجواب: أي العامُّ المخصوصُ هو الذي أُريدَ عمومُهُ أولًا، ثم أُخْرِجَ بعضُ أفرادِه، مثلَ أن تقولَ: قام القومُ إلا زيدٌ والعامَّ المخصوصُ الذي أُرِيدَ به الخصوصُ لم يُرَدْ عمومُهُ أصلًا، ودلالتُهُ عقليَّةٌ دلالةُ العامِّ المخصوصِ عقليَّةٌ فمثلًا ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ هل هم كُلُّ الناسِ؟ هل يَفهمُ أحدٌ من هذه الكلمةِ أن جميعَ الناسِ قالوا أصلًا؟ الجواب: لا يَفْهَمُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾.

ولهذا قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من المؤمنين].

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (ألا) أداةُ استفتاحٍ تبتدِئُ بها الجملةُ، وتفيدُ شيئيْن: الأولُ: التنبيهَ، والثاني: التوكيدُ.

فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ (إنَّ) حرفُ توكيدٍ، هو ضميرُ فصلٍ، وضميرُ الفصلِ يفيدُ التوكيدَ، وحينئذٍ يحقُّ لنا أن نقول: إن هذه الجملة أُكِّدَتْ بثلاثةِ مؤكِّداتٍ: (ألا)، و(إن)، و(هو) الذي هو ضميرُ الفصلِ: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ ولذلك طَلَبَتِ الملائكةُ منه المغفرةَ؛ لأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أهلٌ لذلك، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدَّثر:٥٦]، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فبمغفرتِهِ تزولُ المكروهاتُ وبرحمتِهِ تحصلُ المحبوباتُ، غفر اللهُ لنا ولكم.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ عظمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأن هذه السَّمواتِ على شدَّتِها وقُوَّتِها تكادُ تتفطرُ من عظمةِ اللهِ، وهذا كقولِهِ لَمَّا سأل موسى أن يرى ربَّه قال: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣]. بلْ إنَّ كلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهو كلامُهُ لو نَزَلَ على جبلٍ ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١]، ففي هذه الآيةِ: بيانُ عظمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيانُ علوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الذاتيِّ في قولِهِ: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ الملائكةِ؛ لقولِهِ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ويجبُ علينا أن نؤمنَ بالملائكةِ على أنهم عالمٌ غيبيٌّ وأن لـهم أجسادًا، وأن لـهم أجنحةً، كما قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كمالُ عبادةِ الملائكةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِهِ: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ فيجمعون له بَيْنَ التنزيهِ والتمجيدِ، التنزيهِ في قولِهِ: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾، والتمجيدِ في قولِهِ: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الملائكةَ أَفْضَلُ من بني آدمَ؛ لأنَّ بني آدمَ ليست حالُـهُم هذه -أي: التسبيحُ بحمدِ اللهِ- بل منهم مؤمنٌ ومنهم كافرٌ، فيكون الملائكةُ أفضلَ من بني آدَمَ، وهذا هو أحدُ الأقوالِ في هذه المسألةِ، ومن العلماءِ من يقولُ: بل صالحُ البشرِ أفضلُ؛ يعني: أن المؤمنين من البشرِ أفضلُ من المؤمنين من الملائكةِ؛ ولهذا كانت الملائكةُ مسخَّرةً لهم.

وهذا القولُ هو الذي نصَّ عليه الإمامُ أحمدُ[١]: أن صالحَ البشرِ أَفْضَلُ من الملائكةِ؛ لأنَّ الملائكةَ خُلِقُوا للعبادةِ، فليس عندهم صوارفُ تَصْرِفُهُم عن عبادةِ اللهِ، والبشرُ خُلِقُوا للعبادةِ لا شكَّ، لكن هناك صوارفَ تَصْرِفُهُم، وهي الشُّبُهاتُ والشَّهَواتُ.

ومن المعلومِ أن تحقيقَ الإيمانِ مع الصوارفِ أشدُّ معاناةً ومجاهدةً من تحقيقِ الإيمانِ مع عدمِ الصوارفِ؛ ولهذا كان الرجلُ المتمسكُ بدينِ اللهِ في آخرِ الزمانِ أَفْضَلَ من خمسين من الصحابةِ؛ كما قال النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ-: «**للعامِلِ فيهنّ أجرُ خمسين منكم**»[٢]، وإنما كان كذلك لمشقَّةِ العبادةِ على هذا الذي بَيْنَ أمةٍ فاسدةٍ، واختار شيخُ الإسلامِ[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ التفصيلَ في ذلك، فقال: الملائكةُ أفضلُ باعتبارِ البدايةِ، والبشرُ أفضلُ باعتبارِ كمالِ النهايةِ؛ لأنَّ البشرَ في النهايةِ يدخلون الجنَّةَ، والملائكةُ يدخلون عليهم من كلِّ بابٍ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ [الرعد:٢٤]، كأنما خُلِقُوا لتهنئتِهم وتطمينِهم، فيكونُ في هذا تفصيلٌ.

فالملائكةُ أفضلُ باعتبارِ البدايةِ؛ لأنَّهم خُلِقُوا من نورٍ وبنو آدمَ من طينٍ؛ ولأنهم في عبادةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لكنهم باعتبارِ النهايةِ الْبَشَرُ أفضَلُ.

وبعد هذا، فإن الخوضَ في ذلك ليس من الأمور المهمَّةِ؛ لأننا قد نقولُ: ما عَلِمْنَا من فضائِلِهم وفضائلِ البشرِ نؤمنُ به، وأمَّا التفضيلُ عندَ اللهِ فهم درجاتٌ

(١) انظر: العقيدة السفارينية (ص:٩٠).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٤١)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾، رقم (٤٠١٤)، من حديث أبي ثعلبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) الاختيارات العلمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] (٥/ ٣٧٩).

عندَ اللهِ ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦]، لا ندري، باعتبارِ ما يَظْهَرُ لنا نعطي كلَّ إنسانٍ ما تَمَيَّزَ به، وباعتبارِ ما عند اللهِ اللهُ عليمٌ به، ولسنا مؤاخَذين فيما إذا تَوَقَّفْنَا في هذا الأمرِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فضيلةُ الجمعِ بين التسبيحِ والتحميدِ؛ لقولِهِ: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾، وقد ثَبَتَ عن النبيِّ ﷺ قولُهُ: «كلِمتانِ حَبيبتان إلى الرحمنِ، خفيفتان على اللسانِ، ثقيلتان في الميزانِ: سبحانَ اللهِ وبحمْدِه، سبحانَ اللهِ العظيمِ»[1]. فما أَجْدَرَنَا أن تكونَ هاتان الكلمتان على ألسنتِنا دائمًا؛ لأنَّهما خفيفتانِ على اللسانِ لا تَعَبَ فيهما، حبيبتانِ إلى الرحمنِ ثقيلتانِ في الميزانِ، فماذا علينا لو كان الإنسانُ يُديمُ هذا القولَ: سبحانَ اللهِ وبحمْدِهِ سبحانَ اللهِ العظيمِ، وهو يشتغلُ، وهو يعملُ، وهو يمشي، وهو مضطجعٌ، وهو قاعدٌ! لحصَّلْنَا خيرًا كثيرًا، ولَوَصَلْنا بإذنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إلى محبَّةِ اللهِ لنا؛ لأننا ما دُمْنا نأتي ونلازمُ ما نحبُّه فهو أكرمُ منا عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الملائكةَ مربوبون ليس لهم حقٌّ من الربوبية؛ لقولِهِ: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾، وعلى هذا فمن دعا جبريلَ، أو ميكائيلَ، أو إسرافيلَ، أو مالِكًا، أو غير ذلك؛ فإنه كافرٌ مشركٌ باللهِ؛ ولهذا أهلُ النارِ لم يقولوا: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ أَخْرِجْنَا من النارِ، ولكنهم قالوا كما قال اللهُ عنهم: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزُّخرُف:٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمًا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩].

وانظرْ إلى الحياءِ والخجلِ -والعياذُ باللهِ- لم يقولوا: ادْعُوا ربَّنَا بل قالوا: ﴿ٱدۡعُواْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم (٦٤٠٦)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ لأنهم أَحْقَرُ في أَنْفُسِهم من أن يدْعوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ فيقولون: يا رَبَّنَا خَفِّفْ عنا يومًا من العذابِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: فَضْلُ الملائكةِ على البشرِ، بمعنى: أن لهم مِنَّةً ونعمةً؛ لقولِهِ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ولا شك أن من استغفر لك فله عليك منَّةٌ وفَضْلٌ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: نعمةُ اللهِ علينا بأن سَخَّرَ لنا الملائكةَ يستغفرون لنا؛ لأنَّ الملائكةَ لولا أن اللهَ سَخَّرَهم لنا ما استغفَروا لنا، لكنَّ اللهَ سَخَّرَهم، ففيه فضلٌ ونعمةٌ من اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على المؤمنين؛ حيث إن الملائكةَ يستغفرون لهم.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: التوكيدُ على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غفورٌ رحيمٌ، بثلاثةِ مؤكِّداتٍ في الآيةِ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ ثلاثةِ أسماءٍ من أسماءِ اللهِ، وهي: ﴿ٱللَّهَ﴾ ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، وهل أسماءُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مُشْتَقَّةٌ؟

الجوابُ: نعم مشتقةٌ بلا شكٍّ، ﴿ٱللَّهَ﴾ من الألوهيَّةِ، ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ من المغفرةِ، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ من الرحمةِ.

فهو لم يُسمَّ بهذه الأسماءِ إلا وهو متصفٌ بما دلت عليه من صفاتٍ؛ ولهذا نقولُ: كلُّ اسمٍ من أسماءِ اللهِ فهو متضمِّنٌ لصفةٍ أو صفتيْن أو أكثرَ، حسَبَ ما تدلُّ عليه هذه الأسماءُ من المطابقةِ والتضمنِ والالتزامِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أننا إذا عَلِمْنَا أن اللهَ غفورٌ رحيمٌ فجديرٌ بنا أن نَسْأَلَهُ المغفرةَ والرحمةَ؛ لأنَّه أهلٌ لذلك، فيكون في هذا تربيةٌ للإنسانِ وسلوكِهِ في وصولِهِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن يَعْلَمَ بأنه غفورٌ فَيَسْتَغْفِرُ، وأنه رحيمٌ فَيَسْتَرْحِمُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أن فيها حثًّا للإنسانِ على تركِ الذنوبِ وعلى فعْلِ الطاعاتِ، وجْهُ ذلك: أن المغفرةَ تحتاجُ إلى عملٍ صالحٍ، إلى توبةٍ يغفرُ اللهُ بها الذنبَ، والرحمةُ تحتاجُ إلى طاعاتٍ يتوصَّلُ بها الإنسانُ إلى رحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: بيانُ الحكمةِ في حُكْمِ اللهِ الكونيِّ القَدَرِيِّ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ كالتعليلِ لقولِهِ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كأنَّ قائلًا يقولُ: لماذا يستغفرون لمن في الأرضِ؟ قال: لأنَّ اللهَ هو الغفورُ الرحيمُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أن الأسماءَ الحسنى تكونُ كاملةً بانفرادِها واجتماعِها؛ لأنَّه لـمَّا جَمَعَ بيْنَ الغفورِ والرحيمِ تَوَلَّدَ منهما صفةٌ ثالثةٌ غيرُ المغفرةِ والرحمةِ، وهي اجتماعُ هذيْن الوصفيْن -أو هذيْن الاسميْن- الدَّالَّيْنِ على الوصفِ في حقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فبالمغفرةِ تُمْحَى الذنوبُ، وبالرحمةِ يَحْصُلُ المطلوبُ.

• • ۞ • •

الآية (٦)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى:٦].

أولًا: في الإعرابِ ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ﴾ مبتدأٌ و﴿أَوۡلِيَآءَ ﴾ مفعولٌ ثانٍ لِـ﴿ٱتَّخَذُواْ ﴾ لأنَّ التقديرَ اتخذوا الأصنامَ أولياءَ، ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأٌ ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ و﴿حَفِيظٌ ﴾ خبرُهُ، والجملةُ من المبتدأِ والخبرِ في محلِّ رفعٍ خبرُ المبتدأِ الأوَّلِ وهو ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾.

فإن قال قائلٌ: المعروفُ عندَ النحْويِّين أنَّ الجملةَ الواقعةَ خبرًا لا بُدَّ أن تتضمَّنَ ضميرًا يعودُ على المبتدأِ حتى يُعْرَفَ اتصالُها به، قلنا: هنا حلَّ الظاهرُ محلَّ الضميرِ، وهو قولُهُ: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ يعني: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ هو ﴿حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ يعني: اللهُ، ويجوزُ أن يكونَ الرابطُ هو قولَهُ: ﴿عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي: الضميرُ.

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ اتخذوا الأصنامَ، ولهذا قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: الأصنامَ]، وهذا التقديرُ لبيانِ المفعولِ الثاني، كأنه يقولُ: المفعولُ الثاني محذوفٌ، تقديرُهُ: الأصنامُ.

﴿أَوۡلِيَآءَ ﴾ جَمْعُ وَلِيٍّ؛ أي: أنهم يَتَوَلَّوْن هذه الأصنامَ يعبُدُونها، يَذْبَحُون لها، يَنْذِرُون لها، وهم عن اللهِ غافلون.

ولا تَجِدُ في القرآنِ أن الأولياءَ هم الأصنامُ، لكن المفسِّرين يُفَسِّرُونهم بالأصنامِ

على سبيلِ التمثيلِ، وإلا فقد قال الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «تَعِسَ عبْدُ الدينارِ، تَعِسَ عبْدُ الدرهمِ، تَعِسَ عبْدُ الخَمِيصةِ، تعس عبد القَطِيفَة»[1]، فجعلَ الذي يرْبِطُ قولَهُ ومحبَّتَه ومعاداتَه وكَرَاهَتَه على هذا، جَعَلَهُ عبدًا لهم.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ﴾ مُحْصٍ عليهم لِيُجَازِيَهُم] تفسيرُ الـ﴿حَفِيظٌ﴾ بالمُحْصِي تفسيرٌ باللازمِ، ولكنَّ المرادَ بالحفيظِ؛ أي: حافظٌ لأعمالِهم رقيبٌ عليهم، لا يَفُوتُهُ شيءٌ من أعمالِهم ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾، وإذا كان حفيظًا عليهم حَافِظًا لَهُمْ مراقبًا لهم؛ فلا بَدَّ أن يُحْصِيَ عليهم أعمالَهُم ويجازيَهُم عليها.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُحَصِّلُ المطلوبَ منهم، وما عليك إلَّا البلَاغُ] ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم﴾ الخطابُ للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: بحفيظٍ، فالآيةُ واضحةٌ، كأنَّ اللهَ يقولُ: أنا الحفيظُ عليهم، أمَّا أنت فلستَ بحفيظٍ، ما الذي على الرسولِ؟ ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ ليس عليه إلا أن يُبَلِّغَ، أمَّا أن يَهْدِيَ أحدًا، أو يُحْصِيَ أعمالَ أحدٍ، فهذا ليس إليه، إنما هو إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ حتى إن اللهَ قال له في آلِ عمرانَ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آلِ عمرانَ:١٢٨].

من فوائدِ الآيةِ الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ سفهِ أولئك المُتَّخِذِين أولياءَ من دونِ اللهِ، وجْهُ السَّفَهِ: قولُهُ: ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني كأنهم غَفَلُوا عن اللهِ عَزَّوَجَلَّ نهائيًّا واتخذوا هذه الأصنامَ أولياءَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، رقم (٢٨٨٦، ٢٨٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وعيدُ مَنِ اتخذ من دونِ اللهِ أولياءَ؛ لقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ هذا التهديدُ، كما يقولُ القائلُ للإنسانِ: اذهب وأنا معك، أنا وراءك، أنا أُحصي عليك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيانُ عمومِ عِلْمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ لأنَّ قولَهُ: ﴿حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ يَشْمَلُ جميعَ ما يقومون به من عملٍ، وهذا يَدُلُّ على سَعَةِ عِلْمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واطِّلَاعِهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن النبيَّ ﷺ بشرٌ لا يَعْلَمُ الغَيْبَ، ولا يُحصي أعمالَ العبادِ؛ لقولِهِ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الرسولَ ﷺ -وهو سَيِّدُ الدُّعاةِ وإمامُ الدُّعاةِ- لا يَلْزَمُهُ إلا أن يُبَلِّغَ؛ لقولِهِ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ وهذه الآيةُ لها شواهدُ لفظيَّةٌ ومعنويَّةٌ، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، يعني لا تستطيعُ، وإذا كان سَيِّدُ الدعاةِ وإمامِهم لا يَمْلِكُ أن يَهْدِيَهُم فما بالُك بمن سواه؟

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَسْلِيَةُ الدعاةِ إلى اللهِ إذا لم يَطِعْهُمُ الناسُ، أكثرُ الناسِ -يعني الدعاةَ- إذا لم يُطِعْهُمُ الناسَ تتفطَّرُ قلوبُهُم وتنحلُّ أجسامُهُم، نقولُ: يا أخي رويدك! مَن الذي مَنَعَهُم ألا يطيعوك، من الذي مَنَعَهم أن يطيعوك؟ نقولُ: اللهُ عَزَّوَجَلَّ نحن نقولُ: من الذي مَنَعَهم ألا يطيعوك؟ ثم قلت أن يطيعوك وكلتا العبارتين صحيحةٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف:١٢]، ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥]، فكلا التعبيرين صحيحٌ.

ونقولُ لهذا الداعي الحريصِ على هدايةِ الناسِ: لا تَحْزَنْ عليهم ﴿وَلَا تَكُن فِى

ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل:٧٠]، ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]، أنتَ عليكَ ما عليكَ! وهو البلاغُ، والهدايةُ بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولو شاء اللهُ لاهْتَدَوْا، فإذا كان هذا واقعًا بمشيئةِ اللهِ فإن الإنسانَ يَطْمَئِنُّ، لكن إذا تَقَطَّعَ قلبُهُ حسرةً اشتغلَ بعيوبِ الناسِ عن عيوبِهِ؛ ولهذا تجدُ الداعيةَ الذي هذا وصفُهُ دائمًا مشغولًا بأحوالِ الناسِ وينسى نفسَهُ، لو فَتَّشْتَ ما فَتَّشْتَ لرأيْتَهُ في العبادةِ مُقَصِّرًا، وإذا جاء على العبادةِ وحَضَرَ فقلبُهُ في وادٍ آخَر، وهذا غَلَطٌ، أنت مأمورٌ قبْلَ كلِّ شيءٍ بإصلاحِ نَفْسِكَ.

ومأمورٌ أيضًا بالرضا بقضاءِ ربِّكَ، قضى اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يَهْدِيَ هؤلاء الأمرُ أمرُهُ، والعِبادُ عبادُهُ، صحيحٌ أن الإنسانَ يَحْزَنُ، لكن لا ينبغي أن يَصِلَ إلى درجةٍ يَغْفُلُ بها عن نفْسِه كما هو شأنُ بعضِ الدعاةِ، والإنسانُ إذا كان هكذا فَثِقْ أنه سيكونُ متزنًا في الدعوةِ إلى اللهِ، وإلا يكنْ فَسَيكونُ متهورًا، ويأتي بما لا تُحْمَدُ عقباه؛ لذلك كُنْ داعيًا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ كما كان عليه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ.

فإن قال قائلٌ: بعضُ من يَعْمَلُ بالدَّعوةِ يُقَسِّمُ المجتمَعاتِ إلى أقسامٍ: المجتمعُ المدنيُّ، المجتمعُ الحبشيُّ، ونَزَلَ على كلِّ مُجْتَمَعٍ آياتٌ نَزَلَتْ في الصَّحابةِ في ذاك الوقتِ، فهل يصحُّ هذا؟

فالجوابُ: هو لا شكَّ هذا، وليس بسببِ أنَّ القومَ حَبَشِيُّونَ أو مَكِّيُّونَ أو مَدَنِيُّونَ، هذه قاعدةٌ عامَّةٌ: تُنَزَّلُ الآياتُ الَّتي نزلتْ في مَكَّةَ على من كان مثلَ أَهْلِ مَكَّةَ كما نَزَلَتْ فيهم، فالعبرَةُ بعمومِ اللَّفْظِ لا بخصوصِ السَّبَبِ.

مسألةٌ: يقولون: إن بَعْضَ السُّنَنِ تجبُ على طالبِ العِلْمِ؟

فالجوابُ: نعم، بعضُ السُّنَنِ تَجِبُ على طالِبِ العِلْمِ إذا كان عَمَلُه إيَّاها إحياءً للسُّنَّةِ، فهنا يجبُ عليه فِعْلُها؛ لأنَّ هذا من بابِ البلاغِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن النبيَّ ﷺ بَشَرٌ ليس له من الأمرِ شيءٌ؛ لقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾، فالرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بَشَرٌ لا يستطيعُ أن يَهْدِيَ أحدًا ولا أن يُحْصِيَ أعمالَ أحدٍ، لو استطاع أن يَهْدِيَ أحدًا لَهَدى عمَّه أبا طالبٍ؛ الذي كان له من الفضلِ على الدعوةِ الإسلاميَّةِ ما هو معلومٌ، لكنه لم ينفعْه إلا في شيءٍ واحدٍ، هو حقيقةٌ لَمْ يَجْزِ شيئًا أنه شَفَعَ له عندَ اللهِ، فخفَّفَ عنه العذابَ، فكان في ضحضاحٍ من نارٍ عليه نعلانِ يغلي منهما دماغُهُ[1]، ومع هذا يرى أنه أشدُّ الناسِ عذابًا؛ لأنَّه لو رأى أنه أخفُّ الناس عذابًا لهان عليه الأمرُ وتسلَّى بغيرِهِ، لكنه يرى أنه أشدُّ الناسِ عذابًا، نسألُ اللهُ العافيَةَ.

وقد أشارَ اللهُ إلى أن الاشتراكَ في العذابِ يُخَفِّفُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزُّخرُف:٣٩]، في الدنيا ينفعُ ذلك أن الإنسانَ إذا شاركه غيرُهُ، لكن في الآخرة لا يَنْفَعُ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢١٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الكافُ هنا اسمٌ بمعنى (مثل)، وهي منصوبةٌ على المفعوليَّةِ المُطْلقةِ؛ ولهذا قَدَّرَها المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقولِهِ: [مِثْلَ ذلك الإيحاءِ].

الأولُ قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾ [الشورى:٣]، ولمْ يُبيِّن المُوحى، وهنا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا﴾ فبيَّنَ الموحى، فكان الآن هنا تفصيلٌ بعد إجمالٍ؛ الإجمالُ ﴿يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾؛ لأنَّه لم يُبيِّن الموحى، وهنا ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا﴾ فهو تفصيلٌ بَعْدَ إجمالٍ، ولا يخفى علينا أن التفصيلَ بَعْدَ الإجمالِ من أساليبِ اللغةِ البلاغيةِ العظيمةِ؛ لأنَّ الشيءَ إذا أُجْمِلَ بَقِيَتِ النفْسُ متضلعةً متطلعةً متشوفةً متشوقةً إلى تفصيلِهِ، فإذا جاء مفصلًا وَرَدَ كالماءِ على أرضٍ يابسةٍ، فالماءُ على الأرضِ اليابسة تشربُهُ على الفورِ، فكذلك إذا وَرَدَ التفسيرُ بَعْدَ الإجمالِ فإنه يَرِدُ على قلبٍ متطلعٍ تمامًا إلى التفصيلِ.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي مثلَ هذا الإيحاءِ] ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ والخطابُ للرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن طريقِ جبريلَ، قال اللهُ تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣] على قلبِك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ﴾ ﴿قُرْءَانًا﴾ بمعنى مقروءٍ،

أو بمعنى قارئٍ، أمَّا هنا فهو مَصْدرٌ، قرآنٌ مَصْدَرُ قَرَأَ، كغُفْرانٍ مَصْدَرُ غَفَرَ، وشُكْرَانٌ مَصْدَرُ شَكَرَ، إذن ﴿قُرْءَانًا﴾ مصدرٌ، لكن هل هو بمعنى اسمِ الفاعلِ، أو بمعنى اسمِ المفعولِ، أو هو بمعناهما جميعًا؟

لنا قاعدةٌ سبقت أن الآيةَ، أو الحديثَ أيضًا إذا احْتَمَلَ معنيَيْن على السواءِ، ولا منافاةَ بينهما وَجَبَ أن يُحْمَلَ عليهما جميعًا، إذن قرآنٌ بمعنى قارئٍ، وقرآنٌ بمعنى مقروءٍ.

فكيف يكونُ قرآنٌ بمعنى قارئٍ؟

الجواب: (قارئ) بمعنى جامعٌ، ومنه سُمِّيَت القريةُ؛ لأنَّها تجمعُ الناسَ فيكونُ ﴿قُرْءَانًا﴾ بمعنى قارئٍ، ولا شكَّ أن القرآنَ جامعٌ، جامعٌ لعلومِ الأوَّلِينَ والآخرين، ولكلِّ علمٍ نافعٍ، وعملٍ صالحٍ.

وهذه القاعدةُ مفيدةٌ جدًّا: إذا احتملَ النصُّ مَعْنَيَيْنِ على السواءِ ولا منافاةَ بينهما وجبَ أن يُحْمَلَ عليهما جميعًا؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا يَعْلَمُ ماذا يَحْتَمِلُه كلامُهُ، وكذلك الرسولُ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ-؛ وهذه قاعدةٌ نافعةٌ لطالبِ العلمِ.

أما إذا تنافيا فيُطْلَبُ المرجِّحُ من دليلٍ آخَرَ.

وأما إذا كان أحدُهُما أرجحَ أُخِذَ به وتُرِكَ الآخَرُ.

فهنا ثلاثةُ أقسامٍ: أن يكونَ أحدُهُما أرجحَ فيؤْخَذُ به ويُتْرَكُ الآخرُ، أي: لا مُرَجِّحَ واللفظُ لا يَحْتَمِلُ إلا أحدَهُما، أو يَطْلُب الترجيحَ من دليلٍ آخَرَ؛ أو أن يكونَ اللفظُ يحتَمِلُهُما جميعًا فَيُحْمَلَ عليهما؛ لأنَّ ذلك أوسعُ وأشملُ.

وقولَهُ: ﴿عَرَبِيًّا﴾؛ أيْ: بلسانِ العربِ، والعروبةُ هنا هل هي عروبةُ النَّسبِ أو عروبةُ اللسانِ؟

الجوابُ: الظاهرُ أنها عروبةُ اللسانِ، لكنَّ حقيقةَ الأمرِ أن عروبةَ اللسانِ أصلُها عروبةُ النسبِ، إذ إن اللغةَ العربيةَ وإن تَكَلَّمَ بها من ليس بعربيٍّ هي أصلُها من عروبةِ النسبِ؛ ولذلك أولئك القومُ الذين من فارسَ والرومِ نقولُ: هم عربٌ لسانًا وليسوا عربًا نسبًا، فهل يَلْحَقُهُم مدحُ العربِ؟

الجوابُ: لا يَلْحَقُهُم؛ لأنَّ المدحَ في العربِ إنما هو عربُ النَّسبِ، أما الوصفُ الذي هو عربُ اللسانِ فلا يستحقُّ هذا المدحَ؛ ولهذا أشرفُ الناسِ نسبًا عربُ النّسبِ، هنا يُشارُ إلى هذا.

وبَيَّنَّا فيما سَبَقَ أن اللهَ تعالى أَجْمَلَ ثم فَصَّلَ فقال في أولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾ [الشورى:٣] وهنا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الشورى:٧]، وأضاف الإيحاءَ إليه عَزَّوَجَلَّ لأن الأمرَ مُهِمٌّ جدًّا، والموحى به هو أشرفُ الكلامِ ﴿قُرۡءَانًا﴾ قلنا: إن ﴿قُرۡءَانًا﴾ مَصْدَرٌ كالغفرانِ والشكرانِ، وهل هو بمعنى اسمِ الفاعلِ أو بمعنى اسمِ المفعولِ؟ أيْ: هل المعنى أنه قارئٌ أو المعنى أنه مقروءٌ؟

ذَكَرْنا أنه يَجُوزُ فيه الوجهان، أما كونُهُ قارئًا؛ فلأنه جامعٌ لجميعِ الكمالاتِ في الكلامِ ومنه القريةُ؛ لأنَّها تَجْمَعُ الناسَ.

وأما كونُهُ بمعنى مفعولٍ؛ فلأنه يُقْرَأ ويُتْلَى، وكلاهما وصفٌ صالحٌ للقرآنِ، ولا يُنافي بعضُهُما بعضًا، وعلى هذا فَيُحْمَلُ على المعنيَيْن جميعًا، كما هي القاعدةُ بالتفسيرِ، وفي الحديثِ النبويِّ إذا كان يَحْتَمِلُ معنيَيْن لا مُرَجِّحَ لأحدِهِما على الآخَرِ وليس بينهما منافاةٌ، فالواجبُ أن يُحْمَلَ عليهما جميعًا.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: بِلُغَةِ العربِ، والمرادُ بِلُغَةِ العربِ نُطقًا أو نَسَبًا؟ الأصلُ نَسَبًا؛ لأنَّ لغةَ العربِ انتشرتْ بعد الفتوحاتِ الإسلاميَّةِ وإلا كانت في الجزيرةِ فقط، ثم قال: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ [الشورى:٧]، اللامُ للتعليلِ، والمعلَّلُ هو قولُهُ: ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ وعلى هذا فاللامُ متعلقةٌ بقولِهِ: ﴿أَوْحَيْنَآ﴾. ﴿لِّتُنذِرَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِتَخوُّفِ، ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى:٧]، أي: أهلَ مكَّةَ وسائرَ الناسِ].

قولُنا: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ هي مكَّةُ، وسُمِّيَتْ بذلك؛ لأنَّها جامعةٌ للقرى إذ إنَّ جميعَ القُرى تأوي إليها، ولا شكَّ أن المسلمين كُلَّهُم يتجهون إلى أُمِّ القُرى؛ لأنَّ الكعبةَ فيها، وهي أيضًا تَجْمَعُ القرى من جهةِ أنه يَجِبُ على كلِّ المسلمين أن يَحُجُّوا هذا البيتَ من استطاع إليه سبيلًا؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ ـ أو «حَجُّ البَيْتِ» قراءتانِ سَبْعِيَّتَانِ ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آلِ عمرانَ:٩٧].

إذن سُمِّيَتْ أُمُّ القُرى؛ لأنَّها تَجْمَعُ جميعَ القرى، والقرى هنا المُدُنُ؛ لأنَّ القريةَ البلدُ الصغيرُ عُرفًا، أمَّا لغةً فإنَّ القريةَ تُطْلَقُ حتى على المدينةِ الكبيرةِ، كما قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ [محمدٍ:١٣].

وقولُهُ: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ المرادَ بمن حَوْلَهَا: [سائرُ الناسِ]، وهذا التفسيرُ وإن كان معناه صحيحًا؛ لأنَّ رسالةَ النبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- بَلَغَتْ جميعَ الناسِ، ومن لم تَبْلُغْهُ فَسَتَبْلُغُه، ولكنَّ ظاهرَ اللفظِ خلافُ ذلك؛ لأنَّ ما حَوْلَ الشيءِ فهو القريبُ منه، وحينئذٍ يبقى في الأمرِ إشكالٌ، فإنَّ النبيَّ ﷺ مبعوثٌ إلى جميعِ الناسِ. ولكنْ يقالُ: لا إشكالَ فهو كقولِهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعةِ:٢]، وهو مبعوثٌ لكلِّ الخَلقِ؛ ولهذا قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ [الجمعةِ:٣].

وعلى هذا فنقولُ: المرادُ بالإنذارِ الإنذارُ المباشِرُ، والإنذارُ المباشِرُ من النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما كانَ إلا لِأُمِّ القرى ومَنْ حَوْلَهَا؛ ولهذا ما فُتِحَتِ الشامُ ولا العراقُ ولا مصرُ في عهدِ النبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- وإنما كان الجزيرةَ فقط، وعليه فيكونُ المرادُ بقولِهِ: ﴿لِّتُنذِرَ﴾ الإنذارَ الذي تمَّ في حياتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنه لم يَشْمَلْ إلا أُمَّ القرى ومَنْ حَوْلَهَا.

وقولُهُ: ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، هل المرادُ بهذا إنذارُ المدينةِ نفسِها أو المرادُ الأهلُ؟

الجوابُ: الأهلُ لا شكَّ، ولا يُشْكِلُ هذا على أحدٍ، وهذا هو الذي جَعَلَ شيخَ الإسلامِ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: «إنه لا مجازَ في القرآنِ ولا في غيرِهِ من اللغةِ العربيَّةِ؛ لأنَّه إذا كان اللفظُ دالًّا على معناه الخاصِّ فإنه لا يُعْتَبَرُ مجازًا».

ونحن نقولُ هنا: ليس المرادُ أن الرسولَ يُنْذِرُ بيوتَ مكةَ وأسواقَها، وإنما المرادُ أن يُنْذِرَ أهلَها، بقيَ أن يقالَ: أين مفعولُ ﴿لِّتُنذِرَ﴾ الثاني؛ لأنَّ أَنْذَرَ تَنْصِبُ مفعولَيْن، كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤]، الكافُ مفعولٌ أولُ و﴿نَارًا﴾ مفعولٌ ثانٍ؟

نقولُ: المفعولُ الثاني محذوفٌ، ويُقَدَّرُ بما يُنَاسِبُ، ممكنٌ أن نُقَدِّرَهُ بقولِهِ: يومَ الجمعِ. أي: لِتُنْذِرَ أُمَّ القرى ومَنْ حَوْلَهَا يومَ الجمْعِ. بدليلِ قولِهِ: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ فتجدُ الآنَ الآيةَ الكريمةَ الجملةَ الأولى حُذِفَ منها مفعولٌ، والثانيةُ حُذِفَ منها مفعولٌ، لكن الجملةَ الأولى حُذِفَ مفعولُها الثاني، والجملةُ الثانيةُ حُذِفَ مفعولُها الأولُ، وهذا من بلاغةِ القرآنِ.

---

(١) انظر: كتاب الإيمان (ص:٧٣).

إذن المفعولُ الثاني في قولِهِ: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ محذوفٌ تقديرُهُ يومَ الجمْعِ، ولنا أن نُقَدِّرَهُ تقديرًا آخَرَ، لكن ما دام بيْنَ أيدينا ما يَدُلُّ عليه فهو أَوْلَى.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ [الشورى:٧]، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَتُنذِرَ﴾ الناسَ] الناسَ هذا المفعولُ الأولُ المحذوفُ، و﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ المفعولُ الثاني، أي: تُنْذِرُهُمُ اليومَ الذي يُجْمَعُ فيه الناسُ، وذلك يومَ القيامةِ تُجْمَعُ فيه الخلائقُ، وهذا من أسماءِ يومِ القيامةِ يومُ الجمعُ، كما أنه يُسَمَّى يومَ القيامةِ؛ لأنَّه يشتملُ على المعنى هذا وهذا.

وقولُهُ: ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُجْمَعُ فيه الخلائقُ] لقولِ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا رَيْبَ﴾ شَكٌّ ﴿فِيهِ﴾] إلخ.. قولُهُ: ﴿لَا رَيْبَ﴾ الرَّيْبُ هو الشَّكُّ، لكن قال شيخُ الإسلامِ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن تفسيرَ الرَّيْبِ بالشكِّ تفسيرٌ مقاربٌ وليس مطابِقًا»؛ لأنَّ الرَّيْبَ يوحي بقلقٍ في النفْسِ، والمعنى: ليس فيه ريبٌ وقلقٌ.

قولُهُ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (لا) نافيةٌ، فهل المرادُ بالنفيِ النهيُ، فيكون المعنى لا ترتابوا فيه، أو المرادُ بالنفي معناه الحقيقيُّ؟

نقولُ: المرادُ به معناه الحقيقيُّ؛ لأنَّه إذا كان معناه النفيَ صار صفةُ هذا اليومِ انتفاءَ الرَّيْبِ، وعلى هذا فمَنِ ارتاب فيه فقدِ ارتابَ في أمرٍ واقعٍ، لكن لو جعلْنَا النفيَ بمعنى النهيِ لَكُنَّا أَخْرَجْنَا الكلامَ عن ظاهِرِه، هذا من جهةٍ.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٢).

ومن جهةٍ أخرى: أن النهيَ قد يمتثلُهُ الناسُ وقد لا يمتثلُونه، لكنَّ النفيَّ هنا أَوْضَحُ؛ أولًا: لمطابقتِهِ لظاهرِ اللفظِ. يعني ظاهرُ اللفظِ النفيُ.

وثانيًا: أنه يعطي أن هذا اليومَ موصوفٌ بانتفاءِ الريبِ فيه، فيكونُ مَنِ ارتابَ مخالفًا للواقعِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَرِيقٌ﴾ منهم ﴿فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ النارُ] ﴿فَرِيقٌ﴾ مبتدأٌ و﴿فَرِيقٌ﴾ الثاني مبتدأٌ، ومن كان عارفًا بالنحو فسيقول: في هذا إشكالٌ وهو الابتداءُ بالنكرةِ، فالابتداءُ بالنكرةِ غيْرُ جائزٍ؛ لأنَّ المبتدأَ محكومٌ عليه، فإذا قلتَ: زيدٌ قائِمٌ، فقد حكمْتَ على زيدٍ بالقيامِ، والمحكومُ عليه لا بُدَّ أن يكون معروفًا، فإذا كان نكرةً فأيُّ فائدةٍ في الحُكمِ عليه انتبهوا، فكلامُ النحْويين في أنه لا يَجوزُ الابتداءُ بالنكرةِ هذا تعليلُهُ؛ لأنَّ المبتدأَ محكومٌ عليه، والمحكومُ عليه لا بدَّ أن يكونَ معرفةً معلومًا، فهنا ابتُدِئَ بالنكرةِ، يقولُ النحْويون: إن المسوِّغَ للابتداءِ بالنكرةِ في هذه الآيةِ هو التقسيمُ، والتقسيمُ يفيدُ: فريقٌ ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: نَوْعٌ من الناسِ في الجنةِ، ونوعٌ من الناسِ في السعيرِ، فالتقسيمُ يبيحُ الابتداءَ بالنكرةِ، ومنه قولُ الشاعِرِ:

فيَــوْمٌ عَلَيْنــا ويَــوْمٌ لنــا ... وَيَــوْمٌ نُســاءُ ويَــومٌ نُســرُّ[1]

هذا مبتدأٌ نكرةٌ، لكنه فيه التقسيمُ، فيكونُ المسوِّغُ للابتداءِ بالنكرةِ هنا هو التقسيمُ.

فقوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ وفريقُ السعيرِ أكثر، كما جاء في

(١) البيت للنمر بن تولب، انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٨٦)، وشرح الكافية الشافية لابن مالك (١/ ٣٤٦).

الحديثِ الصحيحِ «إنَّ اللهَ تعالى يومَ القيامةِ ينادي يقولُ: يا آدمُ فيقولُ: لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ فيقولُ: أَخْرِجْ من ذُرِّيَّتِكَ بَعْثَ النارِ -أو بعثًا إلى النارِ. أي: مبعوثًا إلى النارِ- قال: يا رَبِّ وما بَعْثُ النَّارِ؟ قال: من كلِّ ألفٍ تسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعون» واحدٌ في الجنةِ والباقي من الألفِ في النارِ.

إذَنْ: أهلُ النارِ أكثرُ من أهلِ الجنةِ بكثيرٍ -أجارنا اللهُ وإياكم من النارِ- ففزعَ الصحابةُ لهذا وقالوا: يا رسولَ اللهِ أينا ذلك الواحدُ؟ قال لهم: «أَبْشِرُوا إنكم في أُمَّتَيْنِ ما كانتا في شيءٍ إلا كَثَّرَتَاه، يأجوجَ ومأجوجَ» وهم من بني آدمَ يأجوجُ ومأجوجُ من بني آدمَ كما دلَّ على ذلك القرآنُ «فمنكم واحدٌ وألفٌ منهم» ففرِحَ الصحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بذلك[1].

المهمُّ أن اللهَ تعالى قال: ﴿فَرِيقٌ﴾ ﴿وَفَرِيقٌ﴾ مع اختلافِ الفريقيْن اختلافًا عظيمًا، فدلَّ ذلك على أن الفريقَ في اللغةِ يُطْلَقُ على القليلِ والكثيرِ ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ والجنةُ هي الدارُ التي أَعَدَّهَا اللهُ تعالى للمؤمنين والمُتَّقِين، وهي دارٌ فيها ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ، وأصنافُ النعيمِ في هذه الجنةِ -جعلني اللهُ وإياكم منهم- موجودةٌ في القرآنِ والسُّنَّةِ، أمَّا السعيرُ -والعياذُ باللهِ- فهي النارُ تُسَعَّرُ بها الأجسادُ، وفيها من أنواعِ العذابِ والنَّكالِ ما يتمنى أهلُها أن يموتوا ولا يَحْصُلَ لهم، قال اللهُ تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزُّخرُف:٧٧-٧٨].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾، رقم (٤٧٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: «يقول الله لآدم: أخرج بعث النار»، رقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن القرآنَ كلامُ اللهِ؛ لقولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا﴾ وَجْهُ كونِهِ كلامَ اللهِ: أن هذا القرآنَ كلامٌ، وإذا كان كلامًا وقد أضافه اللهُ لنفْسِهِ عَلِمْنَا أنه كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهل هو مخلوقٌ؟ لا؛ لِوَجْهَيْنِ:

الوجهُ الأولُ: أنه وصفُهُ وجميعُ أوصافِ اللهِ غيرُ مخلوقةٍ؛ لأنَّ الصفةَ تابعةٌ للذاتِ، فالخالقُ هو اللهُ وصفاتُهُ غير مخلوقةٍ.

الوجهُ الثانِي: لو قُلْنَا: إنه مخلوقٌ لَبطَلَ الأمرُ والنهيُ؛ لأننا إذا قلنا: إنه مخلوقٌ، صار شيئًا مخلوقًا على شيءٍ معيَّنٍ، كما تُخْلَقُ الشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والأنهارُ على شكلٍ مُعَيَّنٍ.

فيكونُ مثلًا: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام:٧٢] ليستْ أمرًا؛ لأنَّه خُلِقَ على هذا الرَّسْمِ، الآنَ مثلًا لو رُسِمَتْ في القرآنِ ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولكن أنت تقولُ: إن هذه ليست كلامًا، ولكنها مخلوقةٌ لن تفيدَ الأمرَ، وكذلك يُقالُ في الأخبارِ، الأخبارُ تأتيك آيةً طويلةً كُلُّهَا في خبرِ ما، إذا قلَت: إن القرآنَ مخلوقٌ؛ صارت مُجَرَّدَ نقشٍ فقط ليس كلامًا؛ ولذلك قال ابنُ القَيِّمِ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ القولَ بأن القرآنَ مخلوقٌ مُبْطِلٌ للشريعةِ؛ لأنَّه لا يكونُ فيه أمرٌ ولا نهيٌ، إنما فيه أشكالٌ خُلِقَتْ على هذا.

فقوله تعالى: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أنتم الآن إذا شاهدْتُم ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تَجِدُون أنها شيءٌ يختلفُ بعضُهُ عن بعضٍ ﴿أَقِيمُواْ﴾ لها شكلٌ و﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لها شكلٌ، فإذا قُلْنَا: إن هذه أشياءُ خَلَقَهَا اللهُ على هذا الشكلِ لم يكنْ أمرًا ولا نَهْيًا.

---

(١) انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٢٣٣).

إذن الآيةُ تفيدُ أن القرآنَ كلامُ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أضافه إلى نفْسِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَخْرُ العربِ؛ لأنَّ القرآنَ عربيٌّ، وهو للأممِ كُلِّهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حكمةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في إنزالِ القرآنِ باللغةِ التي يفهمُها من أُنْزِلَ إليه، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: التأكيدُ على معرفةِ اللغةِ العربيَّةِ، وجْهُ ذلك: أنه إذا كان القرآنُ عربيًّا، وكنا مُخَاطَبِين به ومُلْزَمِين بالعملِ به، فإنه لا يُمْكِنُ الوصولُ إلى ذلك إلا بتعلُّمِ اللغةِ العربيَّةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الإشارةُ إلى أن الناسَ جميعًا ينبغي أن يكونوا يتحدثون باللغةِ العربيَّةِ؛ لأنَّ الناسَ كُلَّهُمْ جميعًا يَجِبُ أن يكونَ دينُهُمُ الإسلامَ، فإذا كان يجبُ أن يكون دينُهُمُ الإسلامَ؛ فإنه يَلْزَمُ من ذلك أنه يجبُ أن يتعلموا لغةَ الإسلامِ.

ولذلك نرى أن الإسلامَ لما كان في أوجِ عِزَّتِهِ وقُوَّتِهِ دخلَ الناسُ في دينِ اللهِ وتعلَّمُوا اللغةَ العربيَّةَ، ومن الفُرْسِ والرومِ من كانوا أئمةً في الدينِ وأئمةً في العربيةِ، فـ(القاموسُ المحيطُ) -مَرْجِعُ الناسِ في اللغةِ الآن وقبل الآن- مؤلفُهُ الفيروزأبادي لا من قريشٍ، ولا من بني هاشمٍ، بل هُو فارسيٌّ، ومع ذلك هو مرجعُ اللغةِ العربيَّةِ، كذلك البخاريُّ إمامُ المُحَدِّثِينَ يعني إمامَ نَقَلَةِ سُنَّةِ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غيرُ عربيٍّ؛ لأنَّه في الفتوحاتِ الإسلاميةِ كانت الغلبةُ للمسلمين الذين يتكلمون باللغةِ العربيةِ فتَعَلَّمَ الناسُ العربيَّةَ ضرورةَ أنه لا يُمْكِنُ الوصولُ إلى فهمِ الدِّينِ إلا باللغةِ العربيةِ.

أَمَّا حالُ الناسِ اليومَ فعلى العكسِ، الآن العربيُّ يحاولُ أن يَتَعَلَّمَ اللغةَ غيرَ

اللغةِ العربيَّةِ؛ لأنَّ الإسلامَ مع الأسفِ الشديدِ بمعاصي أهلِهِ خُذلوا وذَلُّوا، وكانوا من أذلِّ الأممِ إن لم أَقُلْ: أذلُّ الأممِ، أنا أقولُ: أذلُّ الأممِ ولا أبالي؛ لأنَّ عند المسلمين من الثرواتِ العظيمةِ، والمعادنِ العظيمةِ، والأماكنِ الفسيحةِ والواسعةِ ما إذا قِسْنَاه بحالِهم وَجَدْنا أنهم أذلُّ الأممِ، من يكونُ عنده هذه الثرواتُ، ثم يَتَخَلَّفُ هذا التخلُّفَ، حَفْنَةٌ من اليهودِ تَلْعَبُ بعقولِهم ليلًا ونهارًا -ولو قلتَ: أممٌ من النصارى يلعبون بهم-، ولو كان لهم عزَّةٌ لكانوا هم الذين يتحكمون في الناسِ، ويقاتلونهم حتى يكونَ الدينُ كُلُّه للهِ، لكن لَمَّا ذُلُّوا ذَلَّتْ لُغَتُهُمْ، الآنَ تجدُ المتاجرَ في البلادِ بلادِ العربِ في مُدُنِنَا في قُرَانا تجدُها مملوءةً باللافتاتِ باللغةِ غيرِ العربيَّةِ، أحيانًا تجدُ المتاجرَ كأنك في سوقِ لندن، إلا أن يشاءَ اللهُ، كلُّ هذا من الذلِّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ حِكمةِ اللهِ، تُؤْخَذُ من قولِهِ: ﴿لِّتُنذِرَ﴾؛ لأنَّ اللامَ هنا للتعليلِ، وكلما وجدْتَ لامَ التعليلِ في القرآنِ فإن فيها إثباتَ حكمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وحينئذٍ نَعْلَمُ أن جميعَ ما يَفْعَلُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ أو ما يَشْرَعُه فهو لِحِكْمَةٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الاقتصارُ على أحدِ موضوعَيِ الرسالةِ إذا اقتضتِ الحكمةُ ذلك، وجْهُهُ: أنه قال: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ولم يَذْكُرِ البشارةَ، مع أنَّ اللهَ تعالى في مواضعَ كثيرةٍ يَذْكُرُ الإنذارَ والبشارةَ ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم:٩٧]؛ لأنَّ السياقَ مع قريشٍ، وقريشٌ عتاةٌ معتدون، فناسَبَ ذِكْرُ الإنذارِ دون ذكرِ البشارةِ؛ لأنك إذا رأيتَ شخصًا معتديًا فأنت تحاولُ استقامتَه بالإنذارِ أولًا، وهذا من بلاغةِ القرآنِ أن يجعلَ كلَّ شيءٍ في موضِعِه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن النبيَّ ﷺ ملزمٌ بإنذارِ أمِّ القرى إلزامًا أوليًّا؛ لقولِهِ: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ وما سواها إنذارًا ثانويًّا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الإشارةُ إلى أن النبيَّ ﷺ لن يصلَ إلى من أُرْسِلَ إليهم مباشرةً، وإنما يُنْذِرُ مَنْ حَوْلَـهَا؛ لقولِهِ: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن القرآنَ باللغةِ العربيةِ لا يُمْكِنُ أن يَنتَذِرَ به إلا أُمُّ القرى ومَنْ حَوْلَهَا الذين هم عربٌ، وأما فارسُ والرومُ والأقباطُ وما أَشْبَهَهم، فهؤلاءِ لا ينتفعون بالقرآنِ إلا بَعْدَ أن يعرفوا اللغةَ العربيةَ ويعرفوا معانيَ القرآنِ، ولعلَّ هذا -واللهُ أعلمُ- أيضًا من الحكم أن اللهَ قال: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: تخويفُ الناسِ من يومِ القيامةِ؛ لقولِهِ: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن يومَ القيامةِ واقعٌ لا محالةَ؛ لقولِهِ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أن الناسَ في ذلك اليومِ ينقسمون إلى قِسميْن: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ أهلُ الجنةِ يتجهون إلى الصراطِ؛ ليصلوا إلى الأعلى إلى الجنةِ، وأما أهلُ النارِ فلا يصعدون الصراطَ؛ لأنَّه لا يُرجى منهم أن يَنْجُوا؛ بل إنهم يُساقونَ إلى جَهَنَّمَ وِرْدًا؛ أي: على أشدِّ ما يكُونُ من العطشِ، وتُمَثَّلُ لـهم النارُ كأنها سرابٌ يظنونها ماءً فيُسْرعون إليها، فإذا جاؤوها وَجَدُوا الأمرَ بالعكسِ، فيتوقفـون، ولكنهـم ﴿يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣]، ويقالُ لـهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور:١٤]، ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟﴾ [الطور:١٦].

الآية (٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى:٨].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: على دينٍ واحدٍ هو الإسلامُ]. لو شاءَ اللهُ أن يَجْعَلَ الناسَ أمةً واحدةً لَجَعَلهم أمةً واحدةً على الضلالِ، أو على الهدى، يعني لو شاء هذا أو هذا؛ لأنَّ الأمرَ كُلَّهُ بيدِه عَزَّوَجَلَّ وقولُهُ: ﴿لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني: فرقةٌ واحدةٌ على دينٍ واحدٍ.

وقولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهو الإسلامُ]، قد يُنَازَعُ فيه؛ لأنَّ الآيةَ مطلقةٌ وليس فيها ما يَدُلُّ على أنه الإسلامُ أو غيْرُ الإسلامِ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى:٨]، ذَكَرَ الأمْرَيْن، فنقولُ: إن الآيةَ تَحْتَمِلُ المعنييْن جميعًا ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني: على الإسلامِ، أو على الكفرِ، ولكنه عَزَّوَجَلَّ لِحِكْمَتِه جعلهم متفرقين ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابُن:٢].

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ قولُهُ: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ﴾ ﴿مَن﴾ اسمٌ موصولٌ عامَّةً، ولكن يجبُ أن نَعْلَمَ أن هذا العمومُ مقيَّدٌ بمَنْ عَلِمَ اللهُ فيه خيرًا، فهو الذي يُدْخِلُه في رحمتِهِ؛ لأنَّ كلَّ فعلٍ أضافه اللهُ إلى مشيئتِهِ فلا بدَّ أن

يكونَ لحكمةٍ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

إذن؛ يُدْخِلُ من يشاءُ في رحمتِهِ ممن عَلِمَ فيه خيرًا؛ ليكونَ إدخالُهُ في الرحمةِ على وَفْقِ الحكمةِ، وقولُهُ: ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ فهل المرادُ هنا بالرحمةِ التي هي وَصْفُهُ، أو المرادِ بالرحمةِ التي هي خَلْقُه؟ الثاني؛ لأنَّ الرحمةَ التي هي وَصْفُهُ لا يَدْخُلُهَا الناسُ، وإنما يدخلون في الرَّحْمَة التي هي خَلْقُهُ وهي الجنَّةُ، ويدُلُّ لهذا قولُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الحديثِ القدسيِّ للجنَّةِ: «أنتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بكِ مَن أشاءُ»[1] فقال لها: «أنتِ رحمتي».

وقوله: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الكافرون] ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مبتدأٌ وليس معطوفةً على ﴿مَن﴾ لفسادِ المعنى واللفظِ، وَفَسَّرَ المُفسِّر هنا (الظالمون) بالكافرين؛ لأنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَصَفَ الكافرين بالظُّلْمِ فقال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، وقال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، فَسَّرَهَا النبيُّ ﷺ بالشِّرْكِ، وقال: «ألمْ تسمعوا قولَ الرجلِ الصالحِ إن الشركَ لظُلْمٌ عظيمٌ»[2].

﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿مَا﴾ نافيةٌ، و﴿لَهُم﴾ خبرٌ مُقَدَّمٌ، و﴿وَلِىٍّ﴾ مبتدأٌ مُؤَخَّرٌ دَخَلَ عليه حرفُ الجرِّ الزائدُ للتوكيدِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، رقم (٣٣٦٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، رقم (١٢٤)، من حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يَدْفَعُ عنهم العذابَ] أي: ﴿مِّن وَلِيٍّ﴾ يَتَوَلَّاهم ويَتَحَمَّلُ عنهم، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يَدْفَعُ عنهم، فليس لهم من يُسَلِّيهم في حالِ المصيبةِ، ولا من يَدْفَعُ عنهم إذا وَقَعَتْ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ مشيئةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِهِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الشورى:٨].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الرَّدُّ على القَدَرِيَّةِ، والقدريَّةُ هم الذين يقولون: إن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا عَلَاقَةَ له في فعلِ العبدِ، يقولون: العبدُ مستقلٌّ ليس للهِ فيه إرادةٌ، وغُلاتُهُم يُنْكِرُونَ عِلمَ اللهِ بأحوالِ العبدِ إلا ما وقع منها، يقولون: إن اللهَ لا يَعْلَمُ ماذا يَصْنَعُ العبدَ، لكن إذا صَنَعَهُ العبدُ عَلِمَ به، وهؤلاء لا شكَّ في كُفْرِهِم؛ لأنَّهم أنكروا عِلْمَ اللهِ، مُقْتَصِدُوهم يُنْكِرُونَ المشيئةَ والخَلْقَ، هذا الذي استقرَّ عليه رأيُهُم، يقولون: إن اللهَ لا مشيئةَ له في فعلِ العبْدِ، وليس خالقًا لفعلِ العبدِ، العبدُ حرٌّ، يقولُ ويَسْكُتُ، يَفْعَلُ ويتركُ، ينامُ ويستيقظُ استقلالًا ليس للهِ فيه مشيئةٌ؛ ولهذا سُمُّوا مجوسَ الأمةِ المحمَّدِيَّةِ؛ لأنَّهم بهذه العقيدةِ يجعلون للحادثِ خَالِقَيْنِ، حوادثُ العبادِ خَلَقَهَا العِبادُ، وحوادثُ اللهِ خَلَقَها اللهُ، ولهذا يُسَمَّوْنَ مجوسَ الأمةِ الإسلاميَّةِ.

ففي الآياتِ الكريمةِ ردٌّ عليهم، وَجْهُ الرَّدِّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ كما قال تعالى في سورةِ هودٍ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٨-١١٩].

وهذا فيه الرَّدُّ على القَدَرِيَّةِ، وفيه حُجَّةٌ للجَبْرِيَّةِ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ إذن هُمُ انقسموا بمشيئةِ اللهِ، وما شاء اللهُ كان، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ، فهذا دليلٌ على أنَّ الإنسانَ لا اختيارَ له، بل فِعْلُهُ بمشيئةِ اللهِ.

فيقالُ: هذا مما احتجَّ به مَن في قلوبِهم زَيْغٌ؛ لأنَّ الذين في قلوبِهم زيغٌ يتبعون المتشابِهَ ويَدَعُونَ المُحْكَمَ، يَتَّبِعُون المتشابِهَ في مثلِ هذه الآيةِ، ويقولون: هذا دليلٌ على أن فِعْلَ العبدِ بمشيئةِ اللهِ ولا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يُغَيِّرَ مشيئةَ اللهِ.

نقولُ: سبحانَ اللهِ! أنتم نظرْتُمْ إلى الأدلَّةِ بعينِ أعورَ، والعينُ الباقيةُ عليها غبشٌ أو غمشٌ[1] ليستْ جيدةً، فنظروا بعينِ أعورَ وَرُبُعٍ أو أَكْثَرَ، هناك آياتٌ صريحةٌ في إضافةِ العملِ إلى الإنسانِ نفسِهِ، وأنه بمشيئةِ الإنسانِ، أليس اللهُ يقولُ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]؟ أليس اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير:٢٨]؟ والآياتُ في هذا كثيرةٌ.

أليس الإنسانُ يُحِسُّ بنفْسِهِ أنه يفعلُ الفعلَ ولا مُكْرِهَ له، أنت تأتي إلى المسجدِ بدونِ أن يُكْرِهَكَ أحدٌ، تَدْخُلُ المسجدَ بدونِ أن يُكْرِهَك أحدٌ، تَخْرُجُ من المسجدِ بدونِ أن يُكْرِهَك أحدٌ، وهذا شيءٌ ملموسٌ، إذن ما معنى كونِنا فِعْلُنَا بمشيئةِ اللهِ؟ نقولُ: معنى فِعْلُنَا بمشيئةِ اللهِ: أننا مَهْمَا فعلنا من شيءٍ فاللهُ قد شاءه، ومشيئتُهُ له سابقةٌ لمشيئتِنا، لكننا لا نعلمُ بمشيئةِ اللهِ إلا بَعْدَ وقوعِ الشيءِ، فنعرفُ أن اللهَ قد شاءه.

فنحن الآن نشاءُ، أنا الآن أشاءُ أن أَتَكَلَّمَ معكم، وأشاءُ أن أُحَرِّكَ يدي، فهل شاء اللهُ أن أَتَكَلَّمَ وأن أُحَرِّكَ يدي؟ نعم. عَرَفْنا ذلك بوقوعِه، لأني أعلمُ علمَ اليقينِ أنه لا يُمْكِنُ أن يكونَ في مُلكِ اللهِ ما لا يشاؤه، وأنا في مُلْكِ اللهِ، والسَّمواتُ والأرضُ كُلُّهَا في مُلكِ اللهِ، فإذنْ لا يُمْكِنُ أن يكونَ في مُلكِهِ ما لا يشاءُ، لكن أنا لا أعلمُ بمشيئةِ اللهِ إلا بَعْدَ وقوعِ الشيءِ؛ ولهذا قال بعضُ العلماءِ: إنَّ القَدَرَ سِرٌّ مَكْتُومٌ لا يَعْلَمُ به العبادُ؛ لأنَّ العِبادَ لا يَعْلَمون به إلا بعد وقوعِهِ.

---

(١) الغبش والغمش، إظلام الرؤية. انظر: تاج العروس (غبش، غمش).

فالخلاصة: أن الناسَ انقسموا بالنسبةِ لأفعالِ العبدِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

قِسْمٍ يقولون: إن العبدَ لا اختيارَ له ولا إرادةَ ولا مشيئةَ، وأنه يفعلُ الفعلَ الاختياريَّ كالفعلِ الإجباريِّ، وهؤلاء هم الجبريَّةُ وهم الجهميَّةُ، الجهميَّةُ جبريَّةٌ بالنسبةِ لأفعالِ العبدِ، فحركةُ الإنسانِ الاختياريَّةُ، كقيامِهِ وقعودِهِ وأكلِهِ وشربِهِ ونومِهِ واستيقاظِهِ مُجْبَرٌ عليه، فهو في هذه الحركاتِ كالمريضِ الذي يرتعشُ من الحرارةِ بغيرِ اختيارِهِ، وهؤلاء ضالُّون؛ لأنَّه على قاعدتهم يكونُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إذا عُذِّبَ الإنسانُ المخالفُ يكونُ ظالمًا له؛ لأنَّه ليس اختيارَهُ، هم يَرَوْنَ أن الظُّلْمَ في حقِّ اللهِ مُحَالٌ مستحيلٌ؛ لأنَّ الظُّلْمَ تصرُّفُ الفاعلِ في غيرِ مِلْكِهِ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ له مُلْكُ السَّمواتِ والأرضِ؛ ولهذا كان الظُّلْمُ عندهم مستحيلًا هذه طائفةٌ.

طائفةٌ أخرى يقولون: الإنسانُ مستقلٌّ بعمَلِهِ يَفْعَلُ ما يشاءُ، ولا علاقةَ للهِ تعالى في عملِهِ، وهؤلاء هم القَدَرِيَّةُ الذين سمَّاهم النبيُّ ﷺ «مجوسَ هذه الأمَّةِ»[1]؛ لأنَّ هؤلاء يقولون: الحوادثُ الكونيَّةُ لها خالقان، حوادثُ العِبَادِ هم يَخْلُقُونها، وحوادثُ الكونِ يَخْلُقُها اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فجعلوا للحوادثِ خالِقَيْنِ كما أن المجوسَ جعلوا للحوادثِ خالِقَيْنِ؛ ولهذا سَمَّاهم النبيُّ ﷺ «مجوسَ هذه الأمَّةِ».

وعلى رأيِهِم يَكُونُ في مُلْكِ اللهِ ما لا يشاؤُهُ اللهُ، لكن قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة:١١٦]، فإذا كانتْ أفعالُ العبادِ بغيرِ مشيئةِ اللهِ وإرادتِهِ صار في مُلْكِهِ ما لا يشاءُ وهؤلاء ضالُّونَ غالِطُونَ؛ لأنَّه كيف يكونُ اللهُ هو الخالقَ للعبْدِ ونقولُ: العبدُ مستقلٌّ عن اللهِ ولا للهِ فيه دخلٌ ولا شيءٌ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٨٦)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٦٩١)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أمَّا أهْلُ السُّنَّةِ والجماعةِ فيقولون: إنَّ الإنسانَ يفعلُ باختيارِهِ وإرادتِهِ والقرآنُ دلَّ على ذلك: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩]، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ [هود:١٥]، ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آلِ عمرانَ:١٥٢].

يقولون: الإنسانُ له إرادةٌ واختيارٌ، ويُفَرِّقُ بَيْنَ الفعلِ الاختياريِّ والفعلِ الإجباريِّ ولا شكَّ، الإنسانُ يقومُ ويَقْعُدُ، ويأكلُ ويشربُ، وينامُ ويستيقظُ، كلُّ ذلك لا يَشْعُرُ أنَّ أحدًا يُجْبِرُهُ عليه، ولكنْ مع ذلك هذا الفعلُ وهذه الإرادةُ مخلوقةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ لأنَّ الإنسانَ نفْسَه مخلوقٌ للهِ، فإراداتُهُ التي تكونُ في نفْسِهِ، وأفعالُهُ التي تكُونُ في جوارحِهِ تكونُ مخلوقةً؛ لأنَّ أوصافَ المخلوقِ وأفعالَ المخلوقِ هي مخلوقةٌ، كما أن أوصافَ الخالقِ غيرُ مخلوقةٍ؛ ولهذا نقولُ: القرآنُ غيرُ مخلوقٍ؛ لأنَّه كلامُ اللهِ.

إذن أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ -والحمدُ للهِ- هداهم اللهُ للحقِّ، فكانوا وسطًا بين متطرفين.

إذن الآيةُ الكريمةُ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الشورى:٨]، تَرُدُّ على القدريةِ الذين يقولون: إن الإنسانَ مستقلٌّ بعمَلِهِ، على رأيِهِم لا يستطيعُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يَهْدِيَ الناسَ جميعًا، أو يُضِلَّهُمْ جميعًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن من حكمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن يَنْقَسِمَ الناسُ إلى مؤمنٍ وكافرٍ، من قولِهِ: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ [الشورى:٨]، لأنه لا يُمْكِنُ أن يَظْهَرَ أثرُ الرحمةِ إلا إذا انقسمَ الناسُ إلى مرحومٍ وغير مرحوم، فكان من حكمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن اختلفَ الناسُ، ونحن نَعْلَمُ لولا اختلافُ الناسِ لم يَتَمَيَّزْ مؤمنٌ من كافرٍ، لولا

اختلافُ الناسِ ما قام الجهادُ ولا قام الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ، ولم يكن فائدةٌ في خَلْقِ الجنةِ والنارِ، إلى غيرِ ذلك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ الرحمةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِهِ: ﴿فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ واعلمْ أن الرحمةَ نوعان: مخلوقةٌ، وغيرُ مخلوقةٍ. أما غيرُ المخلوقةِ: فهي رحمةُ اللهِ التي هي وصفُهُ؛ لأنَّ جميعَ صفاتِ اللهِ غيرُ مخلوقةٍ. وأما المخلوقةُ: فهي الرحمةُ التي هي من آثارِ رحمةِ اللهِ التي هي وصْفُهُ. فالمخلوقةُ الشيءُ البائنُ عن اللهِ الذي كان من آثارِ رحمتِهِ التي هي وصفُهُ؛ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آلِ عمرانَ:١٠٧]، هذه مخلوقةٌ، و(في) للظرفيَّةِ، ولا يُمْكِنُ أن تكون رحمةُ اللهِ التي هي وصفُهُ ظرفًا لهؤلاء الذين آمنوا؛ إذن ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: المخلوقةُ، والرحمةُ المخلوقةُ هي الجنَّةُ؛ لقولِهِ تعالى للجنَّةِ: «أنتِ رحمتي أَرْحَمُ بكِ من أشاءُ»[1]، وقولُهُ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهفِ:٥٨]، المرادُ بالرحمةِ هنا الصفةُ. إذن؛ من صفاتِ اللهِ تعالى الرحمةُ.

والعَجَبُ من قومٍ يَدَّعُونَ أنهم مُنَزِّهُونَ للهِ يقولون: إن اللهَ لا يُوصَفُ بالرحمةِ -نسألُ اللهَ ألَّا يُزيغَ قلوبَنَا- يقولون: إن اللهَ ما يُوصَفُ بالرحمةِ؛ لأنَّ الرحمةَ انفعالٌ وانكسارٌ كما تَرَحَّمَ الصبيُّ تَرَحُّمَ اليتيمِ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ مُنَزَّهٌ عن ذلك، ماذا نفعلُ في الآياتِ التي لا تُحْصَى المُثْبِتَةِ لرحمةِ اللهِ؟ قالوا: فَسَّرَ الرحمةَ بالإنعامِ، فيفسرونها بالرحمةِ المخلوقةِ، أو فَسَّرَ الرحمةَ بإرادةِ الإنعامِ فيفسرونها بالإرادةِ، وهؤلاء الأشاعرةُ؛ لأنَّهم يُقِرُّونَ بالإرادةِ على أنها صفةٌ للهِ، وسبحانَ اللهِ حُجَّتُهُم في هذا يقولُ: الإرادةُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق:٣٠]، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

دلَّ عليها العقلُ، والرحمةُ لَمْ يَدُلَّ عليها العقلُ، بل دلَّ العقلُ على خلافِها. فنقولُ لهم: ما هو العقلُ الذي دلَّ على الإرادةِ؟ قالوا: العقلُ الذي دلَّ على الإرادةِ التخصيصُ، تخصيصُ المخلوقاتِ، الجَمَلُ له صورةٌ معيَّنَةٌ، الشاةُ لها صورةٌ معيَّنَةٌ، بنو آدمَ لهم صورةٌ معيَّنَةٌ، فكَوْنُهُ يجعلُ البعيرَ على هذه الصفةِ، والشاةَ على هذه الصفةِ وبني آدمَ على هذه الصفةِ تَدُلُّ على الإرادةِ.

وهناك أدلةٌ عقليَّةٌ على الرحمةِ أكثرُ دلالةً من دلالةِ التخصيصِ على الإرادةِ، كلُّ ما في الكونِ من النِّعَمِ يَدُلُّ على الرحمةِ، ولهذا العامِّيِّ إذا أمطرتِ السماءُ قال: مُطِرْنَا بفضلِ اللهِ ورحْمَتِه. فدلالةُ هذه الأشياءِ على الرحمةِ أقوى من دلالةِ التخصيصِ على الإرادةِ.

فنحن نُؤْمِنُ بأن للهِ رَحْمَةً، فإذا قال: إن الرحمةَ انكسارٌ وانفعالٌ، قلنا: هذا بالنسبةِ لرحمةِ المخلوقِ أما رحمةُ الخالقِ فهي تليقُ به عَزَّوَجَلَّ لا انكسارَ فيها، ولا نَقْصَ فيها، ولا عَيْبَ فيها.

أرأيتُمُ الغضبَ، الغضبُ انفعالٌ يَحْدُثُ للإنسانِ حتى يَفْقِدَ أعصابَهُ ويتصرَّفَ تَصَرُّفَ المجانين، حتى ربما كَسَرَ مَالَهُ، وَضَرَبَ أولادَهُ، وطَلَّقَ زوجَتَه، وربما يؤدِّي إلى أن يرميَ بنفسِهِ في الماءِ؛ لأنَّه جمرةٌ يلقيها الشيطانُ في قلبِ الإنسانِ حتى يَفُورَ دَمُه.

هل نقولُ: إن غضبَ اللهِ كغضبِ الإنسانِ؟ أبدًا حاشا إن غضبَ اللهِ صفةٌ تليقُ به، تدُلُّ على كمالِ سلطانِهِ وقدرتِهِ على الانتقامِ، لكنها لا يُمْكِنُ أن يَنْتُجَ عنها سوءُ تَصَرُّفٍ أبدًا، بخلافِ غضبِ المخلوقِ.

المهمُّ أن نقولَ: هناك قومٌ أنكروا رحمةَ اللهِ، وفسروا الرحمةَ بواحدٍ من أمْرَيْنِ:

إمَّا الإنعامُ، أو إرادةُ الإنعامِ. وهذا لا شكَّ من ضَلَالِهم وبِدْعِهم وإرجاعِهم أمورَ الغيبِ إلى ما تقتضيه عقولُهُم القاصرةُ، والحقيقةُ أن هذه العقولَ ليست عقولًا، بل هي أوهامٌ، وإلا فنحن نَعْلَمُ عِلْمَ اليقينِ أن ما جاءت به الشريعةُ لا يمكن أن يخالفَ صريحَ المعقولِ أبدًا، صحيحٌ المنقولُ لا يخالفُ صريحَ المعقولِ أبدًا، ولشيخِ الإسلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابٌ مجلَّداتٌ في بيانِ موافقةِ صريحِ المعقولِ لصحيحِ المنقولِ ويسمى: (دَرْءُ تَعَارُضِ العقلِ والنقلِ).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن اللهَ تعالى يَمُنُّ على من يشاءُ من عبادِهِ فيُدخلُهُم في رحمتِهِ؛ لقولِهِ: ﴿وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنه ليس في الجنةِ ما يُكَدِّرُ، وجهُ ذلك قولُهُ: ﴿فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ والرحمةُ تستلزمُ حصولَ المطلوبِ والنجاةَ من المرهوبِ؛ ولهذا ينادى أهلُ الجنةِ: أن لهم أن يَصِحُّوا فلا يَسْقَموا، وأن يَشِبُّوا فلا يَهْرَموا، وأن يَحْيَوْا فلا يَمُوتوا، وأيضًا أن نقولَ: وأن يُسَرُّوا فلا يَحْزُنُوا.

جميعُ النعيمِ كاملةً لأهلِ الجنةِ، وليس فيها تنغيصٌ ولا خوفٌ من مرضٍ، ولا خوفٌ من موتٍ، بل إنهم لا ينامون، حتى النومُ لا ينامون من القلقِ والألمِ؟ لا واللهِ، لا ينامون من الفرحِ والسرورِ، حتى تكونَ أوقاتُهُم كلها مستغرقةً في الفرحِ والسرورِ، وعدمُ نومِهِم دليلٌ على كمالِ حياتِهِم؛ لأنَّ النومَ إنما نحتاجُ إليه لنقضِ التعبِ السابقِ واستجدادٍ لقوةٍ لاحقةٍ؛ ولهذا كلما تَعِبَ الإنسانُ احتاج إلى النومِ وإذا نام قام نشيطًا.

إذن نحن محتاجون إلى النوم في الحياة الدنيا؛ لنقصِ حياتِنا، لكن في الآخرةِ لا نقصَ، دائمًا هُمْ في سرورٍ -اللهمَّ اجعلْنا منهم-، دائمًا هم في سرورٍ؛ ولذلك قال:

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ الرحمةُ لا شيءَ فيها يُحْزِنُ ولا يُكَدِّرُ، وإنما كُلُّها خيرٌ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الكفارَ ظَلَمَةٌ، بل هم أَظْلَمُ الظَّلَمةِ، فأعظمُ الذنبِ الكفرُ: أنْ تَجْعَلَ للهِ ندًّا وهو خَلَقَك، فأظلمُ الظالمِين هم الكفارُ، وإذا كنا نؤمنُ بهذا -ويجبُ علينا أن نؤمنَ بهذا- فهل نرجو من الكفارِ خيرًا وهم أظلمُ الظَّلَمةِ؟ لا واللهِ لا نرجو خيرًا للإسلامِ أبدًا؛ لأنَّهم أظلمُ الظَّلَمةِ.

ولهذا يجبُ أن تَغْرِسَ في قلبِك بُغضَ الكافرين والكُفْرِ، يجبُ أن تجعلَه غريزةً مستقرَّةً كامنةً تُبْغِضُ كلَّ كافرٍ وكلَّ كُفرٍ، وإذا كان في الإنسانِ خصالُ كُفْرٍ وخصالُ إيمانٍ، القسطُ والعدلُ أن أُحِبَّهُ على ما معه من الإيمانِ وأُبْغِضَهُ على ما معه من الكُفْرِ، والإنسانُ قد يكونُ فيه خصلةُ إيمانٍ وخصلةُ كُفْرٍ، قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اثنتان في الناسِ هما بهم كُفْرٌ: الطعنُ في النَّسَبِ، والنِّياحةُ على الميِّتِ»[1]، وهذان لا يُخْرِجَانِ الإنسانَ من الإيمانِ.

إذن؛ الكفَّارُ أَظْلَمُ الظالمين، ومن كان أَظْلَمَ الظالمِين فإنه لا يُمْكِنُ أن يُرْجى منه خيرٌ ولا عدلٌ، واعلم أنه إن عَدَلَ فلاستغلالِ الفرصةِ ليأْخُذ بدلَ العدلِ مرةً الظلمَ مَرَّاتٍ.

الآن اليهودُ نَعْلَمُ أنهم أشدُّ الناسِ حرصًا على المالِ، ومع ذلك نَجِدُهُم يَبْذُلُون، لكنهم يَبْذُلُون قرشًا ليأخذوا دينارًا، فلا تُفَكِّرْ أبدًا أنهم يَبْذُلُون شيئًا إلا لينالوا أكثرَ منه، وهذا شيءٌ معلومٌ ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة:٩٦].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الظالمين لا يَجِدُون ناصرًا ولا يَجِدُون وليًّا، لا ناصرَ يَدْفَعُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة، رقم (٦٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

العذابَ أو يَرْفَعُه، ولا وَلِيَّ يواسيهم فيُهَوِّنَ عليهم المصائبَ، ليس لهم هذا؛ وهذا يدُلُّ على أنهم في حسرةٍ شديدةٍ؛ لأنَّهم لا يَرْجُون نفعًا، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزُّخرُف:٣٩].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: سوءُ عاقبةِ الظُّلْمِ لقولِهِ: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى:٨]، حتى أولياؤهم في الدنيا لا ينفعونهم في الآخرةِ، ليس لهم وَلِيٌّ يتولاهم، ولا نصيرَ يَدْفَعُ عنهم الأذى.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن القائمَ بالعدلِ له ناصرٌ ووليٌّ، يُؤْخَذُ ذلك من مفهومِ المخالفةِ، إذا كان الظالمُ لا وَلِيَّ له ولا نصيرَ، فمن قام بالعدلِ فله وليٌّ ونصيرٌ.

مسألةٌ: في غيْرِ هذه البلادِ مثلًا يوجَدُ علماءُ مُتضلِّعون في بعضِ العلومِ، ممن يَكُونُ مثلًا أَشْعَرِيًّا أو معتزليًّا، ففي أثناءِ الدرسِ مثلًا قد يُقَرِّرُ مذهَبَه المذهبَ الأشعريَّ أو المعتزليَّ، هل لطالبِ العلمِ إذا كان يَعْلَمُ الحقَّ في هذه المسألة أن يناقشَ شيخَه فيها؛ خاصةً أنه يكونُ كبيرًا في السِّنِّ؟

فالجوابُ: مما لا شكَّ أنَّ الذين يدعون إلى البدعةِ هؤلاء تَجَنُّبُهُمْ والرزقُ على اللهِ، حتى لو كانوا علماءَ في النحوِ والبلاغةِ لا خيرَ فيهم -هؤلاء الذين يَدْعُونَ-، أما الذين لا يَدْعُونَ إلى بِدْعَتِهِم ويتسترون فلا بأسَ أن تجلسَ إليهم فيما ينفعُ، لكن إذا رأيْتَهم خرجوا عن الجادَّةِ، فيجبُ عليك أن تُنَبِّهَهم، لكنْ لا تُنَبِّهْهُم أمامَ الطلابِ؛ لأنَّ الإنسانَ قد تَأْخُذُه العزَّةُ بالإثمِ خصوصًا إذا رأى نفْسَهُ أنه مُبرزٌ في عِلْمٍ من العلومِ يجيءُ طالبُ علمٍ وَيَرُدُّ عليه أمامَ الناسِ، فهذا ثِقْ بأنه سينتفخُ ويكونُ أطولَ من الجبلِ ولا يرجعُ، لكن من الممكنِ أن تَكْتُبَ له كتابًا تُبَيِّنُ له الحقَّ إذا لم تستطعْ أن تناقَشُه مباشرَةً.

إذن؛ إن كان داعيةً لا تَقْرَبْهُ أبدًا وحَذِّرْ منه؛ لأنَّ هذا يُخْشَى منه، ثم إذا رأى الناسُ أنك أنتَ وفلانٌ وفلانٌ تجتمعُ إليه تَوَهَّمَ أنه على حقٍّ.

نسألُ اللهَ تعالى أن يَتَوَلَّانا وإيَّاكم برحمَتِهِ، وأن يُوَفِّقَنا وإيَّاكم لما يُحِبُّ ويرضى.

الآية (٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الشورى:٩].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ (أَمْ) هذه منقطعةٌ و(أم) المنقطعةُ تكونُ بمعنى (بل) وهمزةِ الاستفهامِ، هناك (أمْ) متصلةٌ، وهي التي تقعُ بيْنَ شيئيْن متقابِليْن، وتكونُ بمعنى (أو)، مثالُ ذلك: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [المنافقون:٦]، هذه (أَمْ) يُسَمُّونها متصلةً؛ لأنَّها بيْن شيئيْن متقابليْن؛ ولأنَّها بمعنى (أو) سواءٌ عليهم أَسْتَغْفَرْتَ لهم أم لم تستغفرْ لهم، في غير القرآنِ لو وُضِعَ بَدَلَ (أم) (أو) لاستقامَ الكلامُ.

فإذن نقولُ: إن (أمْ) تكونُ منقطعةً وتكون متصلةً، والفَرْقُ بينهما:

أولًا: أن (أَمِ) المتصلةَ بمعنى (أوْ)، و(أم) المنقطعةُ بمعنى (بل) وهمزةِ الاستفهامِ.

ثانيًا: (أَمِ) المتصلةُ تَكُونُ بيْنَ شيئيْن متقابِلَيْن، و(أَمِ) المنقطعةُ بخلافِ ذلك.

هنا يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ ليس فيه شيئان متقابلان، إذن؛ فهي منقطعةٌ بمعنى: بل والهمزةِ، ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ الضميرُ يَعُودُ على المُشْركين ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ الضميرُ يَعُودُ على الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ يقولُ الشارحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي:

الأصنامَ] إشارةٌ منه إلى أن المفعولَ الأولَ لـ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾ محذوفٌ والتقديرُ: أَمِ اتخذوا من دونه الأصنامَ أولياءَ؛ لأنَّ ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾ تَنْصِبُ مَفْعُولَيْن، فقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥].

ففي هذه الآيةُ ليس أمام أعيننا إلا مفعولٌ واحدٌ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ نقولُ: المفعولُ الأولُ محذوفٌ، والتقديرُ: أَمِ اتخذوا الأصنامَ أولياءَ.

وقوله: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: أنصارًا يستغيثون بهم ويستنصرون بهم ويوالونهم ويتقربون إليهم كأنهم رَبٌّ.

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمِ﴾ منقطعةٌ بمعنى (بل) التي للانتقالِ والهمزةُ للإنكارِ؛ أي: ليس المتخذونَ أولياء] يعني: هؤلاء اتخذوا أولياءَ الأصنامَ، والأصنامُ بعضُها شجَرٌ، وبعضها حَجَرٌ، وبعضها مخلوقاتٌ كونيَّةٌ، كالشمسِ والقمرِ، وبعضُها مخلوقاتٌ بشريَّةٌ، كلُّ هذه لا تنفعُ صاحبَها؛ ولذلك تجدُ المشركين إذا وقعوا في الضرورةِ من يَدْعُونَ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان:٣٢]، فهي لا تنفعُ، وهم أيضًا مقرونٌ بهذا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر:٣].

وقوله: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: الناصرُ للمؤمنين، والفاءُ لمجردِ العطفِ] (الفاءُ) في قولِهِ: ﴿فَٱللَّهُ﴾ يعني: أنها ليست جوابًا لشرطٍ، ولكنها لمجردِ العطفِ، ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ انتبهْ في إعرابِ الجملةِ هذه (الله) مبتدأٌ، و﴿هُوَ﴾ ضميرُ فَصْلٍ، و﴿ٱلْوَلِىُّ﴾ خبرُ المبتدأِ.

واعلمْ أنَّ ضميرَ الفصلِ حرفٌ وليس اسمًا، هذه واحدةٌ، وله ثلاثُ فوائدَ:

الفائدةُ الأولى: الحصرُ.

الفائدةُ الثانيةُ: التوكيدُ.

والفائدةُ الثالثةُ: الفصلُ بين الخبرِ والصفةِ.

يعني: مثلًا إذا قلتَ: فلانٌ الكريمُ، فـ (فلانٌ) مبتدأٌ، و(الكريمُ) خبرٌ، ويحتملُ أن تكونَ (فلانٌ) مبتدأً، و(الكريمُ) صِفَتَهُ والخبرُ محذوفٌ، فلانٌ الكريمُ حاضرٌ، فإذا قلتَ: فلانٌ هو الكريمُ. تَعَيَّنَ أن تكونَ (الكريمُ) خبرًا وليست صفةً؛ ولهذا يُسَمُّونه ضميرَ الفصْلِ؛ لأنَّه يَفْصِلُ؛ أي: يُمَيِّزُ بين الخبرِ وبَيْنَ الصفةِ.

إذن: هو يفيدُ الحصرَ، والتوكيدَ، والتمييزُ بينَ الخبرِ والصفةِ، نَزيدُ ذلك بالمثالِ: محمدٌ الرسولُ. يَحْتَملُ أن تكونَ (الرسولُ) صفةً لـ(محمدٌ)، وأن التقديرَ: محمدٌ الرسولُ صادقٌ.

فإذا أتيتَ بـ(هو) وقلتَ: محمدٌ هو الرسولُ. يتعيَّنُ أن (الرسولُ) خبرٌ هذه واحدةٌ، أيضًا هو الرسولُ يفيدُ الحصرَ يعني: لا غيرُهُ، ولا شكَّ أن محمَّدَ بنَ عبدِ اللهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو الرسولُ لهذه الأمةِ، ولا رسولَ غيرُهُ.

فـ(هو) ليس له محلٌّ من الإعرابِ؛ لأنَّه حَرْفٌ؛ ولهذا نقولُ: (اللهُ) مبتدأٌ، و﴿ٱلْوَلِيُّ﴾ خبرُهُ، و﴿هُوَ﴾ ضميرُ فصلٍ لا محلَّ له من الإعرابِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ أي: الناصرُ للمؤمنين]. وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّ المُفسِّر الآنَ قَصَرَ الولايةَ على الولايةِ الخاصَّةِ، والصوابُ أنها عامَّةٌ، هو الوليُّ لكلِّ أحدٍ بالوَلايةِ العامَّةِ والوَلايةِ الخاصَّةِ، الوَلايةُ العامَّةُ لكلِّ أحدٍ، فإنه لا يتولى شؤونَ الخَلْقِ إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ والوَلايةُ الخاصَّةُ هي وَلايةُ النُّصْرةِ والتأييدِ، وعلى هذا فاقتصارُ

المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على الوَلايةِ الخاصَّةِ فيه نَظَرٌ.

إذن ﴿هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ على كلِّ أَحَدٍ بالوَلايةِ العامةِ والوَلايةِ الخاصَّةِ.

والفَرْقُ بين الوَلايةِ العامَّةِ أنَّ الوَلايةَ العامَّةَ تَشْمَلُ كلَّ أحدٍ، فَكُلُّ أحدٍ فاللهُ وليُّهُ يتولى أَمْرَهُ، حتى الكافرون اللهُ وَلِيُّهُم، أمَّا الوَلايةُ الخاصةُ فتقتضي النصرَ والتأييدَ، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الجملةُ هذه فيها حصرٌ وطريقُهُ ضميرُ الفصلِ: اللهُ هو الوليُّ.

وقوله: ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وغيرُهُ لا يُمْكِنُ أن يُحْيِيَ الموتى؛ لأنَّ الإحياءَ هو جَعْلُ الشيءِ حيًّا بعد أن كان ميتًا، وهذا لا يَقْدِرُ عليه إلا اللهُ، بل إن اللهَ عَزَّوَجَلَّ إذا أراد أن يُمِيتَ أحدًا لا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يمنعَ الموتَ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ﴾، يعني: هلَّا ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٧] الجوابُ: لا يُمْكِنُ. إذن اللهُ يُحْيِي الموتى ويُميتُ الأحياءَ عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أَيُّ شيءٍ معدومٍ فاللهُ قادرٌ على إيجادِهِ، أَيُّ شَيْءٍ موجودٍ فاللهُ قادرٌ على إعدامِهِ، كلُّ شيءٍ فاللهُ تعالى قديرٌ عليه، وضدَّ القدرةِ العَجْزُ؛ ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الإنكارُ على الذين اتخذوا من دونِ اللهِ أولياءَ؛ لأنَّ (أَمْ) هنا بمعنى بل وهمزةِ الاستفهامِ الإنكاريَّةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هؤلاء طلبوا شيئًا من غير محَلِّهِ؛ لقولِهِ: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾، فهو الذي ينبغي أن يُتَّخَذَ وليًّا عَزَّوَجَلَّ فاللهُ هو الوَلِيُّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ الوَلايةِ للهِ؛ لقولِهِ: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ وهل هي عامَّةٌ أو لا؟

الجواب: في (تفسير الجلالين) مشى على أنها خاصَّةٌ قال: [وَلِيُّ المؤمنين] والصحيحُ أنها عامَّةٌ، الصحيحُ أن في هذه الآيةِ عامَّةً اللهُ وليُّ كلِّ أحدٍ، فإنَّ اللهَ تعالى وليٌّ للكافرين يَرْزُقُهُم ويعافيهم، ويدفعُ عنهم السُّوءَ، ويتولاهم، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦١-٦٢]، لكننا نقولُ: الوَلايةُ قسمان: عامَّةٌ، وخاصَّةٌ. كما بيَّنَّاه في التفسيرِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه لا وَلايةَ لأحدٍ دون اللهِ، يُؤخَذُ ذلك من قولِهِ: ﴿هُوَ﴾؛ لأنَّ (هو) ضميرُ فصْلٍ يفيدُ الحصرَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيانُ قدرةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ على أمرٍ لا أحدَ يَدَّعِيهِ، ومن ادَّعاه كَذَّبَه الواقعُ؛ لقولِهِ: ﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الشورى:٩]، هذه الجملةُ لا أحدَ يَدَّعِيها أبدًا، ولو ادَّعاها فهو كاذبٌ.

فإن قال قائلٌ: أليس يؤتى بالرجلِ يستحقُّ القتلَ فَيَأْمُرَ السلطانُ ألا يُقتلَ أليس هذا إحياءً؟

الجوابُ: لا، لا يُمْكِنُ أن يكون إحياءً ولكنه استبقاءُ حياةٍ؛ لأنَّ الحياةَ سابقةٌ، هو لم يجعل في هذا حياةً فيبقى ولكنه استبقى حياةً موجودةً.

وإن قال قائلٌ: ما تقولون في قولِ اللهِ تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢]؟

فالجوابُ: لا مخالَفةَ؛ فقوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أحياهم بإبقاءِ حياتِهم يعني: من رَفَعَ القتلَ عن الإنسانِ ودافعَ عن شخصٍ يُقْتَلُ فهو كأنما أحيا الناسَ جميعًا، ومن المعلومِ أنه لا أحدَ يستطيعُ أن يَنْفُخَ الروحَ في ميتٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: عمومُ قدرةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لقولِهِ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: حثُّ الإنسانِ على أن يَدْعُوَ اللهَ بكلِّ ما أراد، ما لم يَعْتَدِ في الدعاءِ.

وهذه فائدةٌ تربويَّةٌ: أن تَدْعُوَ اللهَ بكلِّ شيءٍ إلا ما حَرَّمَ اللهُ عليك الدُّعاءَ به؛ لقولِهِ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فإنك إذا دَعَوْتَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بأيِّ شيءٍ لا تَيْأَسْ لا تَقُلْ: هذا لا يُمْكِنُ، إلا ما كان عدوانًا واعتداءً، فلا يَجُوزُ، وهذا يَفْتَحُ للإنسانِ بابَ الرجاءِ، وبابَ دعاءِ اللهِ واللجوءِ إليه، لو كان عندك مريضٌ مزمنٌ أَيِسْتَ منه، فقلتَ: واللهِ لا أستطيعُ، لا أَقْدِرُ أَنْ أدعوَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الرجلَ وصلَ إلى حال خطيرةٍ، فهذا لا شكَّ غلطٌ؛ لأنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فادعُ اللهَ.

فإنسانٌ تَقَطَّعَتْ به الأسبابُ، طَلَبَ الرزقَ في البيعِ والشراءِ فخَسِرَ، طلبَ الرزقَ في التقديمِ للوظيفةِ فلم يَنْجَحْ وهكذا، قال: إذن لا حاجةَ إِلَى أَنْ أَدْعُوَ. نقولُ له: هذا خطأٌ وغلطٌ ادعُ اللهَ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، كمْ من إنسانٍ دعوْا له الغاسلَ، واشتروْا له الكفنَ، وقرَّبُوا له النعشَ، وتهيَّأَ أصحابُهُ لتشييعِهِ ثم

يعافيه اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، إذن؛ متى آمنْتَ -يا أخي- بأن اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ فلا تَسْتَصْعِبْ شيئًا على قدرةِ اللهِ، اسألْ كلَّ شيءٍ ما لم يَكُنْ إثمًا أو قطيعةَ رَحِمٍ ولا تَيْأَسْ؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهذه الجملةُ كما قلتُ لكم تفيدُ أن الإنسانَ لا يَيْأَسُ من رحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأن يدعوَ اللهَ تعالى بكلِّ ما أرادَ، ما لم يَكُنْ إثمًا أو قطيعةَ رَحِمٍ.

الآية (١٠)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى:١٠].

قوله: ﴿مَا﴾ شَرْطيَّةٌ، و﴿ٱخْتَلَفْتُمْ﴾ فعلُ الشَّرْطِ، ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الجملةُ جوابُ الشَّرْطِ، قولُهُ: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾ أيُّ شيءٍ يَقَعُ بيْنَ الناسِ من الخلافِ فَمَرَدُّهُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، سواءٌ كان في الأمورِ الدينيَّةِ، أو في الأمورِ الدنيويَّةِ، وسواءٌ كان مع المسلمين مع المؤمنين أو كان مع الكفَّارِ، أيُّ شيءٍ فَحُكْمُهُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا أحدَ يُرَدُّ إلى حُكْمِهِ إلا اللهَ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ﴾ مع الكفَّارِ ﴿فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾] والصوابُ: أنه أعمُّ، المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خَصَّه بالكفارِ؛ لاختلافِنا مع الكفارِ، وفي هذا التخصيصِ نظرٌ أيضًا، والصوابُ أنه عامٌّ ما اختلفتم أيُّها الناسُ مع الكفارِ، أو فيما بينكم أيُّها المسلمون فَحُكْمُهُ إلى اللهِ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِن شَىْءٍ﴾ من الدِّينِ وغيرِهِ] الدِّينُ: كلُّ ما يَتَعَبَّدُ به الإنسانُ إلى اللهِ، وغيرُهُ ما ليس كذلك، فحُكْمُهُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَحْدَهُ؛ أي: مَرَدُّ حُكْمِه إلى اللهِ، ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَحُكْمُهُۥٓ﴾ مَرْدُودٌ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَوْمَ القيامةِ يَفْصِلُ بَيْنكم] والصوابُ: أنه مردودٌ إلى اللهِ في الدنيا والآخرةِ؛ ويدلُّ لهذا قولُهُ تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩].

وفَهِمْنَا أن المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قصَّرَ في تفسيرِ الآيةِ في قولِهِ: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ حيث خَصَّهَا بالمؤمنين بالوَلايةِ الخاصَّةِ، وقَصَّرَ أيضًا في قولِهِ: [﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يومَ القيامةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ] هذا أيضًا قُصُورٌ، والصوابُ: أن حُكْمَه إلى اللهِ في الدنيا والآخرةِ.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ ويمرُّ بنا كثيرًا (ذلك) فلماذا تختلفُ الكافُ من موضعٍ إلى موضعٍ؟

فالجوابُ: أن الكافَ بحسبِ المخاطَبِ، واسمُ الإشارةِ بحَسَبِ المشارِ إليه، فإذا أَشرْتَ إلى مفردٍ مذكَّرٍ مخاطبًا مفردًا مذكرًا تقولُ: ذلك.

وإذا أشرْتَ إلى اثنين مخاطبًا اثنين تقولُ: ذانكما.

وإذا أشرْتَ إلى أُنْثَى مخاطِبًا ذَكَرًا تقولُ: تلك؛ لأنَّ الإشارةَ إلى الأنثى بالتاءِ.

وإذا أشرتَ إلى أنثى مخاطبًا أُنْثَيَيْنِ تقولُ: تلكما.

إذن اسمُ الإشارةِ بحسَبِ المشارِ إليه، والكافُ بحسَبِ المخاطَبِ.

هنا قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ اسمُ الإشارةِ بحسَبِ المشارِ إليه؛ لأنَّه يُشيرُ إلى لفظِ الجلالةِ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ واحدٌ ويخاطبُ جماعةً ﴿ذَٰلِكُمُ﴾، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾، ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مبتدأٌ، و﴿ٱللَّهُ﴾ عطفُ بيانٍ ﴿رَبِّى﴾ خبرُ المبتدأِ.

يعني: أن الرسولَ ﷺ يجبُ أن يُعْلِنَ لهؤلاء أن اللهَ تعالى رَبُّهُ، وأنه لا رَبَّ له سواه، وإنما قلنا: إنه لا ربَّ له سواه؛ لأنَّ كلًّا من طرفَيِ الجملةِ مَعْرِفةٌ، وإذا كانت الجملةُ قد عُرِّف طرفاها دَلَّت على الحَصْرِ، لو سألَنَا سائلٌ: بِمَ تَعَلَّقَتِ الكلمةُ ﴿عَلَيْهِ﴾؟ قلنا: تَعَلَّقَتْ بـ﴿تَوَكَّلْتُ﴾، وبم تَعَلَّقَتْ (إليه)؟ قُلْنا: بـ﴿أُنِيبُ﴾؛

إذَنِ: العاملُ متأخِّرٌ عن المعمولِ في ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ وفي ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾.

والقاعدةُ عند البلاغِيِّين: أنه إذا تَقَدَّمَ ما حَقُّهُ التأخيرُ كان ذلك دليلًا على الحَصْرِ، فـ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ بمنزلةِ: ما تَوَكَّلْتُ إلا عليه، ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ بمنزلةِ: ما أُنِيبُ إلا إليه.

فقوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾؛ أي: فَوَّضْتُ أمري إلى اللهِ تفويضًا كاملًا.

والتوكُّلُ على اللهِ ليس كالتوكُّلِ على البشرِ، التوكُّلُ على البشرِ بمعنى أنك تَعْمِدُهُ أن يشتريَ لك شيئًا، وهذا تفويضٌ خاصٌّ، وأيضًا تفويضٌ تعتقدُ أنك أنت صاحبُ الشأنِ فيه؛ بمعنى: لو شئتَ لعزلْتَه، وفسخْتَ الوكالةَ، لكنَّ تَوَكُّلَكَ على اللهِ تفويضٌ إلى اللهِ في كلِّ شيءٍ ولا يُمْكِنُكَ أن تَفْسَخَ الوكالةَ، حتى لو فسخْتَها فاللهُ عَزَّوَجَلَّ وكيلٌ عليك.

وبهذا نَعْرِفُ الفَرْقَ بين أن يقولَ القائلُ: توكَّلْتُ على فلانٍ؛ يعني: معناه أني وَكَّلْتُهُ، وتَوَكَّلْتُ على اللهِ، هل: تَوَكَّلْتُ على اللهِ مثل: وَكَّلْتُ فلانًا؟

الجواب: لا أبدًا وإن اتَّفق اللفظان، ولكن يختلفُ المَعْنَيَانِ اختلافًا عظيمًا، لاحظوا، تَوَكَّلْتُ على فلانٍ؛ أي: فَوَّضْتُهُ بأمري والأمرُ إليه إن شئتُ عَزَلْتُه، لكنْ تَوَكَّلْتُ على اللهِ فَوَّضْتُ أمري إليه مستندًا إليه جَلَّوَعَلَا في تيسيرِ أمري وتسهيلِهِ.

وحينئذٍ لا نقولُ: إن مَنْ تَوَكَّلَ على شخصٍ في شراءِ شيءٍ يكونُ مشركًا باللهِ، لا نقولُ هذا؛ لأنَّه يَظْهَرُ الفرقُ العظيمُ بين توكُّلِي على الشخصِ الذي وَكَّلْتُه أن يشتريَ حاجةً وبيْنَ توكُّلِي على اللهِ، توكُّلِي على اللهِ عَزَّوَجَلَّ تفويضٌ واستعانةٌ، لكنْ توكُّلِي على الشخصِ هو الاستخدامُ في الواقعِ، فتوكيلي إياه أو تَوَكُّلِي عليه في الوكالةِ

عبارةٌ عن استخدامٍ؛ ولهذا متى شئتَ قلتَ: لا أَتَوَكَّلُ عليه وأعْزِلُهُ، لكن بالنسبةِ للتوكُّلِ على اللهِ ليس كذلك.

فالتوكُّلُ على اللهِ هو تفويضُ الأمرِ للهِ عَزَّوَجَلَّ تفويضًا تامًّا، وبعضُهُم يقولُ: صِدْقُ الاعتمادِ على اللهِ؛ يعني: التوكُّلُ صدقُ الاعتمادِ على اللهِ في جَلْبِ المنافعِ ودفْعِ المضارِّ مع الثقةِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

والتوكُّلُ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا يعني: إلغاءَ الأسبابِ؛ ولهذا لو قيل لرجلٍ: تَزَوَّجْ حتى يأتِيَك أولادٌ قال: أنا متوكِّلٌ على اللهِ. لا يَصْلُحُ؛ لأنَّ الأولادَ لا يَنْبُتُون في الصخرِ، افعل الأسبابَ وتوكَّلْ، وفي المَثَلِ اعْقِلْها. يعني: اعقِلِ الناقة وَتَوَكَّلْ، لا تُطْلِقِ الناقةَ وتقولَ: إني متوكِّلٌ على اللهِ، الناقةُ إذا أَطْلَقْتَها ذَهَبَتْ حيث شاءت، حتى لو قلتَ: متوكِلٌ على اللهِ، افعلِ الأسبابَ. لو أن إنسانًا قيل له: يا فلانُ، ابتغِ الرزقَ، فبِعْ واشترِ، واعملِ الأسبابَ التي تُحَصِّلُ بها المالَ، قال: واللهِ أبدًا أنا متوكِّلٌ على اللهِ، فهذا ليس صادقًا، هذا تَوَكُّلُ المتهاوِنِين، إذا كنتَ صادقًا في التوكُّلِ على اللهِ فاعملِ السببَ، ولكن لا تعتمدْ على السببِ، اجعلِ السببَ سببًا والمدبِّرُ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أَرْجِعُ] إلى اللهِ تعالى في عباداتي وفي جميعِ أحوالِي.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنه لا مَرْجِعَ للقوانينِ، وأن القوانين المخالِفَةَ لِحُكْمِ اللهِ باطلةٌ، وهو كذلك؛ لأنَّ القانونَ من وَضْعِ البشرِ، فالبشرُ ليس عندهم إحاطةُ علمٍ، لا في الحاضرِ ولا في المُسْتَقْبلِ، فهم لم يحيطوا بالدنيا علمًا، غايةُ ما هنالك:

أولًا: أن هذا الذي وَضَعَ المادَّةَ القانونيَّةَ يَعْرِفُ ظواهرَ شَعْبِه فقط، وهو لا يَعْرِفُ كُلَّ الناسِ، وأن هذا الحُكمَ مناسبٌ لهم، فهذا قصورٌ.

ثانيًا: أنه لو عَلِمَ أحوالَ الناسِ من حيث العمومُ، فلا يُمْكِنُ أن يَعْلَمَ حالَ كلِّ أحدٍ؛ لأنَّ الناسَ يختلفون حتى في الحُكمِ الواحدِ، أرأيتَ غنيًّا وفقيرًا، فالغنيُّ عليه زكاةٌ، والفقيرُ ليس عليه زكاةٌ، الفقيرُ يَجُوزُ دفْعُ الزكاةِ له، والغنيُّ لا يجوزُ له، العاجزُ والقادرُ، القادرُ يُصَلِّي قائمًا، والعاجزُ يُصَلِّي قاعدًا، هذا الذي وَضَعَ القانونَ لا يَعْرِفُ أحوالَ الناسِ بحيث يكونُ القانونُ صالحًا لكلِّ حالٍ من أحوالِ الناسِ، وهذا نقصٌ آخرُ.

ثالثًا: واضعُ القانونِ لا يُدْرِكُ أحوالَ الناسِ في المستقبلِ، ومعلومٌ أن الأحكامَ تختلفُ باختلافِ الأحوالِ؛ ولهذا نَجِدُ أن الشريعةَ الإسلاميَّةَ تختلفُ عن الشريعةِ النصرانيَّةِ، والشريعةَ النصرانيَّةَ تختلفُ عن الشريعةِ اليهوديَّةِ، فها هو عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يقولُ: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠]، والدينُ الإسلاميُّ أيضًا جاء مغايرًا في كثيرٍ من الأشياءِ الفرعيَّةِ لما سَبَقَه من الأديانِ، قال اللهُ تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

إذَنِ: القانونُ قاصرٌ من كلِّ وجهٍ، وإذا كان قاصرًا من كلِّ وجهٍ فلا يُمْكِنُ أن يكونَ هذا الشيءُ القاصرُ مَرَدًّا في النزاعِ.

بَقِيَ لنا أن مَن رَجَعَ إلى القانونِ فهل يكونُ كافرًا؟

الجواب: يحتاجُ إلى تفصيلٍ؛ إذا لم يَجِدِ الإنسانُ طريقًا إلى أخْذِ حَقِّهِ إلا عن طريقِ القانونِ، فليس هذا بكفرٍ، بل ولا مُحَرَّمٍ، فلو كنتَ في بلدٍ تَحْكُمُ بالقانونِ، ولك خصومةٌ مع شخصٍ ولا يُمْكِنُ أن تلجأَ إلى حُكْمٍ شَرْعِيٍّ؛ فلا حَرَجَ أن تَتَحاكَمَ

إلى القانونِ، وإذا حُكِمَ لك فهذا يعني: أنه كالشُّرطةِ، ولو أننا ما قُلْنا بهذا لضاعت حقوقُ الناسِ، وقد أشار إلى هذا المعنى المحقِّقُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِ الطرقُ الحُكْمِيَّةُ، لكن إذا تحاكمتَ إلى القانونِ، وأنت تعلمُ أنه يَحْكُمُ بالظلمِ فلا يَجُوزُ أن تتحاكمَ إليه، لا إشكالَ في ذلك؛ لأنَّ بعضَ الناسِ قد يكونُ من حيث الحكمُ الشرعيُّ لا يستحقُّ هذا الشيءَ لكن باعتبارِ القانونِ يستحقُّ فقال: أحاكِمُه لآخذَ حقي بمقتضى القانونِ. فنقولُ: هذا حرامٌ، ولا يَجُوزُ.

مثالُ ذلك: ما يُسَمُّونه بالفوائدِ البنكيَّةِ، فالفوائدُ البنكيَّةُ في الحكمِ الشرعيِّ حرامٌ، وهذا الرجلُ يعْرفُ أنها حرامٌ في الشرعِ، لكن قال: أريدُ أن أتحاكمَ إلى القانونِ؛ لأنَّ القانونَ سوف يُمَكِّنُني منها فلا يَجوزُ؛ لأنَّ هذا أَكْلٌ للمالِ بالباطلِ.

إذَن: التحاكمُ إلى الطاغوتِ -وهو ما خالفَ الحكمَ الشرعيَّ- إن كان لاستخراجِ الحقِّ لا لاعتقادِ أنَّ ما حُكِمَ به هو الحقُّ؛ فهذا جائزٌ، وكأنك جعلْتَهم شُرطةً يستخرجون حقَّكَ من هذا الذي ظَلَمَك، وإن كان لاعتقادِ أن ما جاء في القانونِ حقٌّ مع مخالفَتِهِ للشرعِ فهذا حرامٌ. هذا في التحاكمِ إلى القانونِ.

بقينا في واضعِ القانونِ؛ فواضعُ القانونِ إما أن يَعْلَمَ أنه مخالفٌ للشرعِ، لكنه يعتقدُ أنه أَنْفَعُ للخلقِ من شَرْعِ رَبِّ الخَلْقِ، فهذا كافرٌ لا شكَّ، كافرٌ كفرًا مُخْرِجًا عن المِلَّةِ؛ لأنَّه مُكَذِّبٌ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، وَمُكَذِّبٌ لقولِهِ تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨]؛ لأنَّه وَضَعَ الآن كتابًا بدلًا عن كتابِ اللهِ، وهذا واضحٌ أنه كافرٌ، أَبْدَلَ بدينِ اللهِ غَيْرَهُ، أبدلَ بِحكمِ اللهِ غَيْرَهُ، فهذا كافرٌ، أما إذا كان لا يدري أنه مخالفٌ للشَّرْعِ، وإنما صَنَعَ ذلك بتأويلٍ إن كان من أهلِ الاجتهادِ، أو بتضليلٍ إن كان من غيرِ أهلِ الاجتهادِ، فهذا لا يَكْفُرُ.

مِثْلَ: أن يعتقدَ أن مسألةَ العِينَةِ جائزةٌ ويَضَعُهَا قانونًا، ومسألةُ العِينةِ معروفةٌ: أن يبيعَ شيئًا بثمنٍ مؤجَّلٍ ويشتريه نقدًا بأقلَّ، فيقولُ مثلًا: المادَّةُ كذا: إذا باعَ شيئًا بثمنٍ واشتراه بأقلَّ، إذا باع شيئًا بثمنٍ مؤجَّلٍ واشتراه بأقلَّ فالعَقْدُ صحيحٌ. فهذه المادَّةُ تخالفُ الشَّرْعَ؛ لكنه هو لا يدري أنها تخالفُ الشرعَ، أو تؤولُ أنها جائزةٌ بناءً على صورةِ المعامَلةِ، هذا لا يَكْفُرُ.

وقد يكونُ وَضْعُ القانونِ المخالِفِ للشرعِ عن تضليلٍ وليس عن تأويلٍ؛ بحيث يكونُ الحاكمُ جاهلًا أمِّيًّا لكن ضَلَّلَه بعضُ الناسِ، بعضُ علماءِ الدولةِ قال: هذا لا بأسَ به؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ يقولُ: «أنتم أَعْلَمُ بأمورِ دنياكم»[1] ونحن نَعْلَمُ أن هذا خيرٌ لنا في الدنيا بناءً على ظنِّهم، فهذا لا يَكْفُرُ.

فصار الآن الذي يَضَعُ قانونًا مخالفًا للشرعِ معتقدًا أنه أولى من الشرعِ وأنفعُ للخلقِ، فهذا كافرٌ لا نَشُكُّ في هذا، لكنْ بِشَرْطَيْن: يَعْلَمُ أنه مخالفٌ للشرعِ، ويعتقدُ أنه أنفعُ للخلقِ، أو مثلُ الشرعِ، حتى الذي يعتقدُ المماثلةَ فهو كافرٌ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة:٥٠]، ويقولُ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨].

أمَّا من وَضَعَه مخالفًا للشرعِ بتأويلِهِ أو تضليلٍ فإنه لا يَكْفُرُ؛ لأنَّ هذا في نظري لم يخالِفِ الشرعَ، فلا يَكْفُرُ بهذا.

الخلاصةُ الآن: عندما يختلفُ الناسُ في شيءٍ فَيَرْجِعُون إلى اللهِ ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا، رقم (٢٣٦٣)، من حديث عائشة وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فإذا قال قائلٌ: من أين نَعْلَمُ حُكْمَ اللهِ؟

قلنا: من القرآنِ والسُّنَّةِ، يُفَسِّرُ هذا قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه لا بُدَّ أن يكونَ اختلافٌ بيْنَ الناسِ وهذا هو الواقعُ، يعني: لا يمكن أن ترفعَ الاختلافَ بيْنَ الناسِ لا بُدَّ أن يختلفوا، وأسبابُ الاختلافِ كثيرةٌ ذَكَرَهَا شيخُ الإسلامِ ابْنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (رَفْعُ الملامِ عن الأئمةِ الأعلامِ) وهو كتابٌ مختصرٌ نافعٌ لَخَّصْنَاه، وزِدْنَا عليه بعضَ الشيءِ، وذكَرْنَا الأمثلةَ التطبيقيَّةَ على القواعدِ التي ذَكَرَهَا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِنا -رسالة صغيرة- اسمُها اختلافُ العلماءِ، وموقِفُنا نحوَ هذا المعنى وهو مفيدٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الواجبَ عندَ الاختلافِ الرجوعُ إلى حُكْمِ اللهِ؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن حُكْمَه إلى اللهِ في الدنيا والآخرةِ؛ لعمومِ قولِهِ: ﴿فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وأمَّا من خَصَّ ذلك في الآخرةِ فغلطٌ، حتى في أمورِ الدنيا نرجعُ إلى حكمِ اللهِ كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [النساء:٥٩].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تحريمُ الرجوعِ إلى القوانينِ البشريَّةِ عندَ الاختلافِ؛ لقولِهِ: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠]، لا إلى غيرِهِ، فإن قال قائلٌ: ألستم تقولون: إن قولَ الصحابيِّ حُجَّةٌ؟ فالجوابُ: بلى.

على خلافٍ في هذا، فالمسألةُ ليست إجماعيَّةً، لكن على القولِ بأن فقهاءَ الصحابةِ أقوالُهُم حُجَّةٌ، قلنا: بلى نقولُ بذلك، لكننا مستندون إلى قولِ الرسولِ

ﷺ: «عليكم بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخلفاءِ الراشدين المَهْدِيِّينَ من بَعْدي»[1]؛ لأنَّ الصحيحَ أن صِفة «الخلفاءَ الراشدين» معلَّقةٌ بأوصافٍ لا بأعيانٍ؛ يعني: ليس الخلفاءُ الراشدون هم الأربعةَ بل كُلُّ من خَلَفَ النبيَّ ﷺ في أُمَّتِه عِلْمًا ودعوةً وتعليمًا هذا خليفةٌ راشدٌ، وأَرْشَدُ من خَلَفَ النبيَّ ﷺ هم الصَّحَابَةُ رجوعًا إلى حُكْمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إعلانُ النبيِّ ﷺ بالإخلاصِ والتوحيدِ؛ لقولِهِ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾؛ أي: ذلكم الذي يُرْجَعُ إلى حُكْمِهِ هو اللهُ ربي.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن من هَدْيِ النبيِّ ﷺ التَّوَكُّلَ على اللهِ وَحْدَهُ؛ لقولِهِ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ لَكِنَّ كلمةَ وَحْدَهُ أخذناها من الحصرِ الذي طريقُهُ تقديمُ ما حقُّهُ التأخيرُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن من هَدْيِ الرسولِ ﷺ الإنابَةَ إلى اللهِ تعالى وَحْدَهُ؛ لقولِهِ: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، وإذا كان هذا من هَدْيِ الرسولِ ﷺ وَجَبَ علينا أن نَأْخُذَ به؛ لقولِهِ تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزابُ:٢١].

• • ۞ • •

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٢٦)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم (٤٢)، من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (١١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿فَاطِرُ﴾ خبرُ المبتدأِ المحذوفِ، والتقديرُ: هو فاطرُ، وإنما قلنا هذا؛ لأنَّ اللغةَ العربيَّةَ لا يُمْكِنُ أن يَتَرَكَّبَ بها الكلامُ إلا من مبتدأٍ وخبرٍ، أو فعلٍ وفاعلٍ، أو ما ينوبُ منابَ الفعلِ.

﴿فَاطِرُ﴾؛ أي: هو فاطرُ، والفاطرُ بمعنى: الخالقُ على غير مثالٍ سَبَقَ فهو بمعنى: بديعُ السَّمواتِ، والسَّمواتُ والأرضُ معروفان، السَّمواتُ: هي هذه السَّمواتُ السبعُ التي أَخْبَرَنَا اللهُ عنها، وبيَّنَ أنها سبعٌ شدادٌ، وبَيَّنَ أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بناها بأيدٍ، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧]؛ أي: بقوَّةٍ، وليس المرادُ بالأَيْدِ في هذه الآية يَد اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ اللهَ لم يُضِفْهَا إلى نفْسِه لم يَقُلْ: بأيدينا، قال ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ وَ(أَيْدٍ) مَصْدَرُ آدَ يَئِيدُ، إذا قَوِيَ، فهو كقولِهِ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ:١٢]، هذه السَّبْعُ الشدادُ إذا كان يومُ القيامةِ فقد قال اللهُ عنها: إنها تكونُ واهيةً ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾؛ أي: ضعيفةً.

أما الأرضُ فهي أرْضُنا المعروفةُ، والسَّمواتُ مجموعةٌ؛ لأنَّها سبعٌ، والأرضُ

مفردةٌ يراد بها الجنسُ، وقد بَيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في سورةِ الطلاقِ أنها سبعٌ، فقال اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاقِ:١٢]، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ومن المعلومِ أن المماثلةَ هنا ليست مماثلةً في الذاتِ، إذ إنَّ بَيْنَ السَّمواتِ والأرضِ بَوْنًا شاسعًا، لكن المرادَ مِثْلُهُنَّ في العددِ، ويُؤَيِّدَ ذلك ما جاءت به السُّنَّةُ، فقد قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ: «من اقْتَطَعَ شبرًا من الأرضِ ظلمًا طَوَّقَهُ اللهُ به يومَ القيامةِ من سَبْعِ أرَضين»[1].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُبْدِعُهُمَا] يريدُ أن يُفَسِّرَ ﴿فَاطِرُ﴾ بمعنى مبدعٍ، ولكنا فَسَّرْناها بمعنى بديعٍ، وتفسيرُنَا لا ينافي تفسيرَهُ المعنى واحدٌ، لكن مُطَابَقَةَ اللفظِ لما جاء به القرآنُ أَوْلَى والذي جاء في القرآنِ ﴿بَدِيعُ﴾.

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: صَيَّرَ لكم من أنْفُسِكم أزواجًا، قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حيث خَلَقَ حواءَ من ضِلعِ آدَمَ] فكأنه يَميلُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن المرادَ بالأزواجِ هنا حواءُ، ولكن هذا غيرُ صحيحٍ، بل جَعَلَ من أنْفُسِنا أزواجًا يعني: نساءً مُشَاكِلَاتٍ لنا لم تَكُنِ الأنثى بعيدةً عن شَكْلِ الرجلِ؛ لأنَّها لو كانت بعيدةً عن شَكْلِ الرجلِ ما أَلِفَهَا، ولا جَعَلَ اللهُ بينهم مودةً ورحمةً.

وقولُهُ: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أيْ: من جِنْسِكم، وليس المرادُ من نفْسِ الإنسانِ جَعَلَ له زوجةً، لا لو كانت من نفْسِهِ لم تكن زوجةً؛ لأنَّها تكون بِنْتَه، ولكن المرادَ ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من جِنْسِكُم، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٢، ٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الروم:٢١]، وَجَعَلَ لكم أيضًا ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ الأنعامَ جَمْعُ نَعَمٍ كبهيمةِ الأنعامِ.

﴿أَزْوَٰجًا﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: ذكورًا وإناثًا] من أَجْلِ الإنتاجِ والتنميةِ وغيرِ ذلك من المصالحِ.

﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالمعجمةِ يَخْلُقُكم] ما معنى المعجمةِ؟ هل في القرآنِ شيءٌ عجميٌّ؟ لا، لكن يُعَبِّرُونَ عن المنقوطِ بأنه مُعْجَمٌ من بابِ تسميَةِ الشيءِ بِضِدِّهِ، وإلا فهو مُعْرِبٌ في الواقعِ؛ لأنَّه لولا هذه النقطُ مثلًا لأَشْكَلَ ولم يُفْهَمِ المعنى، إذن؛ المُعْجَمُ: المُنَقَّطُ، وسُمِّيَ بذلك من بابِ تسميةِ الشيءِ بضِدِّهِ، كما يُسَمُّونَ التعبُّدَ بالتحنُّثِ، كما في حديثِ بدءِ الوحيِ «يَتَحَنَّثُ فيه»[1]؛ أي: يَتَعَبَّدُ.

المُعْجَمَةُ ضِدُّهَا المُهْمَلَةُ، فالشِّينُ ضدُّ السِّينُ، والذالُ معجمةٌ ضدَّ الدالِ، أمَّا الحركاتُ فيُسَمُّونَها مُثَلَّثَةً، أو بالوجْهَيْن، أو ما أَشْبَهَ ذلك، وأحيانًا يقولون: إذا كانت الكلمتان المشتبهتان كلتاهما معجمةٌ قالوا: بالمثلثةِ مثلَ: (التاءِ) و(الثاءِ) لو قالوا: معجمةٌ لم يَزَلِ الإشكالُ، ولكن يقولون: بالمثلثةِ، (الطاءُ) و(الظاءُ) يقولون: بالظاءِ المُشالةِ؛ يعني: الذي فيها ألفٌ، احترازًا من (الضادِ)؛ لأنَّها غيْرُ مشالةٍ. المهمُّ أنها اصطلاحاتٌ معروفةٌ عندَ العلماءِ.

وقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يَخْلُقُكُمْ] فَسَّرَ (يَذْرَأُ) بِـ (يَخْلُقُ)، وهو تفسيرٌ ناقصٌ؛ لأنَّ يَذْرَأُ لـها معنًى زائدٌ على الخَلْقِ، وهو البثُّ والانتشارُ، كما قال اللهُ تعالى في آيـةٍ أخرى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة:١٦٤]، فالـذَّرْءُ أخـصُّ من

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم (٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي، رقم (١٦٠)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

الخَلْقِ، فمعنى ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ إذن: يَبُثُّكُم ويَنْشُرُكُم.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِيهِ﴾؛ أي: الجعلُ المذكورُ، أي يُكَثِّرُكُم بسببِهِ] انظرْ فَسَّرَ الأوَّلَ ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ بـ(يَخْلُقُكُم) ثم قال [أي: يُكَثِّرُكُم] والتفسيرُ الثاني هو الأصحُّ، التكثيرُ والبثُّ والنَّشْرُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالتوالُدِ والضميرُ للأناسيِّ والأنعامِ بالتغليبِ] ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يقولُ: إن الضميرَ -وهو الكافُ والميمُ- للأناسيِّ والأنعامِ، الأناسيُّ يعني: البشرَ، والأنعامَ: البهائمَ، للتغليبِ؛ لأنَّ الضميرَ هنا جاء ضميرَ العاقلِ، والأنعامُ لا يأتي لها ضميرُ العاقلِ؛ لأنَّها غيرُ عاقلةٍ، لكن جاء ذلك للتغليبِ لَمَّا كان الذَّرْءُ للإنسانِ والبهائمِ قال: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ ولم يَقُلْ: يَذْرَؤُكُنَّ.

إذَن: التغليبَ قد يكونُ بتغييرِ الاسمِ، وقد يكونُ بالضميرِ، وما أَشْبَهَ ذلك، القمران للشمسِ والقمرِ تغليبٌ بتغييرِ الاسمِ؛ لأنَّ القمران لو فُكَّتْ عن التثنيةِ لكانت قمرٌ وقمرٌ، وليس كذلك المرادُ قمرٌ وشمسٌ، فهنا بتغييرِ الاسمِ.

الضميرُ هنا في قولِهِ: ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يعودُ على ما سَبَق ذِكْرُهُ من بهائِمَ وأناسيَّ على سبيلِ التغليبِ، لولا التغليبُ لوجب أن يكونَ الضميرُ ضميرًا مؤنثًا للبهائمِ وضميرًا مذكَّرًا للأناسيِّ.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقالُ ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ لما يَفْعَلُ] جلَّ وعلا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾ الكافُ زائدةٌ؛ لأنَّه تعالى لا مِثْلَ له] الكافُ زائدةٌ، وزيادةُ الكافِ ليست غريبةً تأتي دائمًا زائدةً؛ ولهذا قال ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في

الألفيَّةِ -التي ينبغي لطالبِ النحْوِ ألَّا يتركَ حِفْظَهَا- يقولُ:

شبِّه بكافٍ وبها التعليلُ قد ... يُعنى وزائدًا لتوكيدِ وَرَدَ[1]

(شبِّه بكافٍ): تشبيهٌ، (وبها التعليلُ قد يُعنى) أي: قد يُرادُ بها التعليلُ، (وزائدًا) لتوكيدِ (وَرَدَ): يعني: وقد تأتي زائدةً.

في هذه الآيةِ الكافُ زائدةٌ بمعنى أنها لو حُذِفَتِ لاستقام الكلامُ، لو قيل: ليس مِثْلَهُ شيءٌ. يستقيمُ الكلامُ لا شكَّ، لكن جاءت الكافُ للتوكيدِ؛ كأنه نفى المِثْلَ مَرَّتَيْنِ: ليس كهو ليس مثلَهُ، فالزيادةُ هنا فيها زيادةُ المعنى، وهو أن كأنه نفى المثليَّةَ مَرَّتَيْن: مرَّةً عن طريقِ الكافِ، ومرَّةً عن طريقِ مثل، وبعضُهُم يقولُ: إن الزائدَ (مثل) وإن التقديرَ: ليس كهو شيءٌ، لكن هذا قولٌ ضعيفٌ؛ لأنَّه إذا دارَ الأمرُ بين أن تكونَ الزيادةُ حرفًا أو اسمًا فالواجبُ أن تكونَ الزيادةُ حرفًا؛ لأنَّه لم يأتِ في اللغةِ العربيةِ زيادةُ الأسماءِ؛ ولأنَّ الحرْفَ معناه في غيرِهِ فمجيئُهُ زائدًا ليس بغريبٍ، والاسمُ يدُلُّ على معنًى في نفْسِه، فإتيانُهُ زائدًا بعيدٌ.

إذن عندنا قولان:

الأوَّلُ: أن الكافَ زائدةٌ، وهذا سهلٌ، وجرى في اللغةِ العربيَّةِ مِثْلُه، وتكونُ الزيادةُ هنا للتوكيدِ، وبعضُهُم قال: الزائدُ (مِثْل) وهو قولٌ ضعيفٌ، بعضُهُم يقولُ: إن المِثْلَ هنا بمعنى الصفةِ. يعني: ليس كصِفَتِهِ شيءٌ، والمِثْلُ ذاتيٌّ بمعنى الصفةِ مِثْلَ قولِهِ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرَّعْدِ:٣٥]؛ أي: صِفَتُها، وهذا أيضًا ضعيفٌ؛ لأننا نقولُ: إن اللهَ ليس مِثْلَهُ شيءٌ، لا في ذاتِهِ، ولا في صفاتِهِ، بعضُهُم يقولُ:

---

(١) الألفية (ص:٣٥).

إن هذا على سبيلِ المبالغةِ؛ يعني: إذا لم يَكُنْ لِمِثْلِهِ مِثْلٌ، لو فُرِضَ أن له مثلًا، فمن بابِ أَوْلَى ألا يكونَ له هو مِثْلٌ، وأن هذا مما جرى على لسانِ العربِ في المبالغةِ في الوصفِ. وأنشدوا على ذلك:

لـيس كَمِثْـلِ الفتـى زُهَـيْرٍ .....[1]

من المبالغةِ؛ يعني هذا لا نظيرَ له إطلاقًا، وهذا الأخيرُ والأوَّلُ هما أقربُ الأقوالِ في إعرابِ هذه الجملةِ.

لكن من حيثُ المعنى والاعتقادُ نؤمنُ بأنَّ اللهَ تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لا في ذاتِهِ، ولا في صفاتِهِ، ولا في أفعالِهِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ في كلِّ شيءٍ، يجبُ علينا أن نُؤْمِنَ بهذا، فذاتُهُ مخالِفَةٌ لجميعِ الذواتِ، نحن نرى الذواتِ مختلفةً، الإنسانُ مُرَكَّبٌ من عَظْمٍ ولحمٍ وعَصَبٍ ودمٍ، هناك أشياءُ مُرَكَّبَةٌ من جواهرَ أخرى.

الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ مُبَايِنٌ لكلِّ شيءٍ موجودٍ في الكَوْنِ في ذاتِهِ، لا تَقُلْ مثلًا: إنه مثلُ الذَّهَبِ، مثلُ الفِضَّةِ، وما أَشْبَهَ ذلك؛ ولهذا لَمَّا قال المشركون للرسولِ: يا مُحَمَّدُ، هل رَبُّكَ من ذَهَبٌ، أو من فضَّةٍ، أو من كذا، أو من كذا؟ أنزل اللهُ قولَهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[2].

فلا تَتَصَوَّرْ ذات الرب جلَّ وعَزَّ أبدًا؛ لأنك مهما تَصَوَّرْتَ على أيِّ شيءٍ

---

(١) ذكره أبو حيان في البحر المحيط (٩/ ٣٢٦)، والسمين الحلبي في الدر المصون (٩/ ٥٤٥) منسوبًا لأوس بن حجر، وانظره غير منسوب في درء تعارض العقل (٧/ ١١٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٣٣)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الإخلاص، رقم (٣٣٦٤، ٣٣٦٥)، من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَتَصَوَّرُهَا لا مثيلَ له، ولا نظيرَ له، كذلك في صفاتِهِ ليس له مثيلٌ، ليس له نظيرٌ في أيَّةِ صفةٍ من صفاتِهِ، ولْنَأْخُذِ العِلْمَ من صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ هل له نظيرٌ في هذه الصفةِ؟ لا نظيرَ له في هذه الصفةِ أبدًا، عَلِمَ كُلِّ ذي عِلْمٍ محدودٍ، أعلمُ الناسِ عِلْمُه محدودٌ.

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان:٣٤] فأنت بنفْسِكَ لا تدري ماذا تَكْسِبُ غدًا، قد تُقَدِّرُ أنك سوف تعملُ كذا وكذا، ولكن لا تعملُ إما لصرفِ الهمَّةِ، وإما لمانعٍ خارجيٍّ، كلُّنا نُقَدِّرُ أننا غدًا سوف نَفْعَلُ كذا وكذا، لكن لا نَفْعَلُ ولا ندري ما يكونُ، قد يُصَرِّفُ الله هِمَّتَنا عن هذا الفعلِ، أو تُوجدُ موانعُ خارجيَّةٌ من مرضٍ أو سفرٍ أو حيلولةٍ بيننا وبين مرادِنا، لا ندري عنها.

أيضًا عِلْمُكَ محدودٌ بالمشاهدةِ، الغائبُ لا تُفَكِّرْ أن عندك علمًا منه، حتى في المشاهدِ علمُك ناقصٌ، الإنسانُ لا يَعْلَمُ ماذا يَفْعَلُ ولَدُهُ في بيتِهِ، ولا أهْلُه في بيتِهِ، بل أشدُّ من هذا وأضعفُ في العِلْمِ أنك لا تَعْلَمُ عن نفْسِك؛ سبحانَ اللهِ! روحُك التي بها حياتُك وهي في جِسْمِك لا تدري عنها، لَمَّا سألوا النبيَّ ﷺ عن الرُّوحِ أنزلَ اللهُ تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء:٨٥] ـ ثم وَبَّخَهُم على هذا السؤالِ فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥] كأنه يقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: تسألون عن الرُّوحِ وأنتم ما أَحَطْتُمْ بالأشياءِ، ما عَلِمْتُمْ عن الأشياءِ إلا قليلًا، ما بقي عليكم إلا علمُ الروحِ حتى تسألوا عنها، فإذا كان الإنسانُ لا يَعْلَمُ رُوحَه التي بَيْنَ جنبيه وبها حياتُه؛ فهو دليلٌ على نقصانِ العِلْمِ.

وفي عِلْمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦]، كلُّ إنسانٍ، كلُّ حيوانٍ فاللهُ عَزَّوَجَلَّ يَعْلَمُ ما في نفْسِه، هل عَلِمَ المخلوقُ مثلَ

هذا في القدرةِ؟ ليس أحدٌ، بل لو اجتمعَ الخَلْقُ كُلُّهُم بقدرهم ما ساووا شيئًا من قُدْرَةِ اللهِ؛ فإن اللهَ عَزَّوَجَلَّ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس:٥٣] يعني: البعثُ صَيْحَةٌ واحدةٌ يصرفُهُ اللهُ بهم ـ ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣].

كُلُّهُم في أقطارِ الدنيا، ولو في الغاباتِ والكهوفِ وأعماقِ البحارِ، كُلُّهُم يأتون في آنٍ واحدٍ، ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ هذه القدرةُ لا يُمْكِنُ أبدًا أن يشابِهَها أو يماثِلَها قدرةٌ؛ لذلك نقولُ: إن اللهَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ واعلمْ أن هذه الآيةَ استدَلَّ بها المُعَطِّلَةُ والمُمَثِّلَةُ وأهلُ السُّنَّةِ، كلُّ الثلاثةِ.

المُمَثِّلَةُ قالوا: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ إثباتٌ يدُلُّ على المماثلةِ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -هذه شُبْهَتُهُم- خاطَبَنا بالقرآنِ، والقرآنُ جَعَلَهُ اللهُ بلسانٍ عربيٍّ؛ من أجْلِ أن نَعْقِلَ ونَفْهَمَ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ لماذا؟ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزُّخْرُف:٣]، قالوا: فإذا خاطَبَنا اللهُ بشيءٍ ممَّا وَصَفَ به نفسَهُ وَجَبَ أن نَحْمِلَه على ما نَفْهَمُ، ونحن لا نَفْهَمُ إلا ما نُحِسُّ به، فيجبُ أن تَحْمِلَ كُلَّ صِفَةٍ للهِ على ما كان معلومًا؛ ولذلك قالوا: إن اللهَ تعالى مِثْلَ خَلْقِهِ، نسألُ اللهَ العافيَةَ.

واللهِ لو كان مِثْلَنَا ما عَبَدْنَاه ولا يُمْكِنُ أن يَعْبُدُ الإنسانُ مِثْلَه، لكن هُمْ بعقولِهم الضالَّةِ قالوا: يَلْزَمُ مما أَخْبَرَ اللهُ به عن نفْسِه من الصفاتِ أن تكونَ مِثْلَ صفاتِنا، وشُبْهَتُهُم أنَّ اللهَ خاطَبَنا بما نَفْهَمُ وَنَعْقِلُ، ونحن لا نَفْهَمُ إلا ما نُشاهدُ فإذا خاطَبَنا عن شيءٍ غائبٍ وَجَبَ أن نَحْمِلَه على المعلومِ عندنا.

والمُعَطِّلَةُ استدلُّوا بقولِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وقالوا: كلُّ صفةٍ أثبتها اللهُ لنفْسِه فإنها تدُلُّ على التمثيلِ فَيَجِبُ أن تكونَ مَنْفِيَّةً، والذي فتح لهم البابَ هم

المُمَثِّلَةُ يقولون: كلُّ صفةٍ أَثْبَتَهَا اللهُ لنفْسِه فإنها تَسْتَلْزِمُ التمثيلَ والتمثيلُ ممتنِعٌ، إذن يجبُ أن تمتنعَ كلُّ صفةٍ، مثالُ ذلك يقولون: إن اللهَ عَزَّوَجَلَّ لم يستوِ على العرشِ الاستواءَ الحقيقيَّ؛ لأنَّه لو استوى على العرشِ لكان جسمًا، فيكونُ مماثلًا للمخلوقِ.

والرَّدُّ عليهم سهلٌ، نقولُ: هل أَثْبَتَ اللهُ لنفْسِه يدًا أو لا؟ فسيقولون: نعم. لماذا لا تُثْبِتُهَا أنت؟ قال: أخشى أن تكونَ مُمَاثِلَةً ليدِ الإنسانِ. نقولُ: لا تخش هذا، كيف تخشى هذا واللهُ يقولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؟ ثم نقولُ له: ألستَ تُثْبِتُ لشاتِكَ يدًا؟ يقولُ: نعم. هل يَدُ شاتِك مثلُ يَدِكَ؟ لا، إذا انتفتِ المشابهةُ بين المخلوقاتِ فيما تَتَّفِقُ فيه بالأسماءِ فانتفاءُ المُشابَهَةِ في حقِّ الخالقِ من بابِ أَوْلَى، بل انتفاءُ المُشابهةِ في حقِّ اللهِ واجبٌ، وفي حقِّ المخلوقِ غيرُ واجبٍ.

الآن القِطُّ، عندنا الآن اثنان واحدٌ يقول: البَسُّ -والبَس بالفتح وإذا قلت: البِسُّ فأنت لاحنٌ، الصواب البَسُّ-، والآخرُ قال: الهِرُّ، وثالثٌ يقول: القطُّ والسِّنَّوْرُ، فما أكثرَ أسماءَ الهِرِّ والأسدِ، وسبحانَ اللهِ أيدي الهرِّ وأيدي الأسدِ متشابهتان تمامًا.

فهُمْ تَصَوَّروا أن استواءَ اللهِ على عرشِهِ كاستواءِ الإنسانِ على الأنعامِ، فلما فهموا هذا الفهْمَ أنكروا الاستواءَ، الإنسانُ يستوي على البعير كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٢-١٣] هم فَهِمُوا أن استواءَ اللهِ على العرشِ كاستواءِ الإنسانِ على البعيرِ، وقالوا: هذا تمثيلٌ، والتمثيلُ مستحيلٌ على اللهِ فيجبُ إنكارُهُ، وهذا قولُ المعتزلةِ والجهميَّةِ، ومَن ظَاهَرَهُم، نَفَوْا كلَّ صفةٍ للهِ وقالوا: لا يمكن أن نَصِفَ اللهَ بشيءٍ. الحُجَّةُ أن الإثباتَ يستلزمُ التمثيلَ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ قد نفى أن يكونَ له مِثْلٌ، وأيضًا المماثلةُ مستحيلةٌ عقلًا، فيكونُ دلَّ العقلُ على زَعْمِهم، دلَّ العقلُ والشرعُ على أن اللهَ

ليس له مثيلٌ، فيجبُ أن ننفيَ جميعَ الصفاتِ.

هؤلاء حقيقةُ أَمْرِهِم أنهم مَثَّلوا أولًا، ثم عَطَّلوا ثانيًا، مَثَّلوا أولًا حيث اعتقدوا أن الأدلةَ تَدُلُّ على التمثيلِ، وهذا اعتقادٌ فاسدٌ، ثم بعد ذلك عَطَّلوا وأَنْكَرُوا، ولكنَّ هذه الشُّبهةَ دَفْعُها يسيرٌ، نقولُ لهم: هل تُثْبِتُون للهِ وُجُودًا؟ إما أن يقولوا: لا، وإما أن يقولوا: نعم. لا يُمْكِنُ أن يَحْرُصُوا، إما أن يقولوا: نعم، أو يقولوا: لا، فإذا أثبتوا للهِ وُجُودًا نقولُ: هل هو وجودٌ حقيقيٌّ أو وهميٌّ؟ إن قالوا: وهميٌّ، كَفَرُوا بلا إشكالٍ، وإن قالوا: حقيقيٌّ، قلنا: هل تُثْبِتُون لأنفُسِكم وُجُودًا؟ إما أن يقولوا: نعم أو يقولوا: لا إن قالوا: لا، قلنا: ما نخاطبُ أشباحًا بلا شيءٍ، لكن لن يقولوا: لا، يقولون: نعم نثبتُ لأنفُسِنا وجودًا، نقولُ: إذن يَلْزَمُكُم التمثيلُ؛ لأنكم أَثْبَتُّمْ للهِ تعالى صفةً هي ثابتةٌ للمخلوقِ، فيلزَمُكُم التمثيلُ، انظر الباطلَ لا بُدَّ أن يندحرَ، لكنِ انْفَكَّ قومٌ عن هذا الإلزامِ من الغلاةِ قالوا: لا نقولُ: إن اللهَ موجودٌ. أعوذُ باللهِ تعبدون مَن؟ قالوا ما نقولُ: إنه موجودٌ. قلنا: معدومٌ؟ إذا قلتُم: غيرُ موجودٍ لزمَ أن تقولوا: إنه معدومٌ، وإنْ قلتُم: إنه معدومٌ مَثَّلْتُم؛ لأنَّ الموجودَ من الخَلْقِ يكونُ معدومًا قبلَ وجودِهِ وبعد وجودِهِ، قال اللهُ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١].

وهذا حقيقةٌ، الواحدُ منا قبل ولادتِه بسنتين ليس بشيءٍ، معدومٌ، فإن قلتُم: إن اللهَ معدومٌ شَبَّهْتُم ومَثَّلْتُم على قاعدَتِكُم، قالوا: إذن نقولُ: لا موجودٌ، ولا معدومٌ. أعوذُ باللهِ لا موجودٌ ولا معدومٌ، نقولُ: اللهُ أكبرُ، هل يُمْكِنُ أن يكونَ الشيءُ لا موجودًا ولا معدومًا؟ كلُّ شيءٍ فهو إما موجودٌ أو معدومٌ؛ لأنَّ تقابُلَ الوجودِ والعدمِ تقابُلُ تناقُضٍ، والمتناقضان لا بدَّ من وجودِ أحدِهِما، لا يُمْكِنُ أن يجتمعَا،

ولا أن يمتنعَا، فإذا قالوا: لا موجودٌ ولا معدومٌ. نقولُ: شَبَّهْتُمُوه الآنَ بالمستحيلاتِ والممتنِعاتِ.

فأهلُ الباطلِ لا مَفَرَّ لهم من لوازِمِهم الباطلةِ.

تَكَايَسَ قومٌ وقالوا: نحن لا نقولُ: إنه لا يتصفُ بصفةٍ، لكننا نَصِفُهُ بما نَحْكُمُ به عليه، ولا يَحْكُمُ به على نفْسِهِ. انتبهْ قالوا: لا نُنْكِرُ الصفاتِ لكن نَصِفُهُ بما نَحْكُمُ به عليه لا بما يَحْكُمُ به على نفْسِه، وهؤلاء المتكايسون هم الأشعريَّةُ أثبتوا بعضَ الصفاتِ، وأنكروا أكثرَ الصفاتِ، أثبتوا من الصفاتِ سبعًا وأنكروا الباقيَ، أثبتوا الحياةَ، والعِلْم، والقُدْرَةَ، والسَّمْعَ، والبصرَ، والإرادةَ، والكلامَ، وأنكروا الباقيَ قالوا: لا نُثْبِتُ من الصفاتِ على وجهِ الحقيقةِ إلا هذه الصفاتِ السبعَ: الحياةَ، والعِلْمَ، والإرادةَ، والقدرةَ، والسمعَ، والبصرَ، والكلامَ. هذه ثابتةٌ حقيقةً على اختلافٍ بَيْنَهُم وَبَيْنَ أهلِ السُّنَّةِ في بعضِها، الكلامُ عندهم غيرُ الكلامِ عندَ أهْلِ السُّنَّةِ، والباقي لا نُثْبِتُهُ. فماذا تَعْمَلُون فيه؟ قالوا: لنا فيه طريقان: إما التفويضُ بأن نقولَ: لا ندري ما معناه، وإما التأويلُ الذي يُسَمُّونه تأويلًا وهو في الحقيقةِ تحريفٌ.

والأشاعرةُ هم أكثرُ الناسِ انتشارًا في البلادِ الإسلاميَّةِ؛ ولهذا يجبُ أن نَعْرِفَ مَذْهَبَهُم تمامًا ونَعْرِفُ الرَّدَّ عليهم حتى يتقلَّصَ هذا المَدُّ، أو يزولَ بالكُلِّيَّةِ -ونسألُ اللهَ تعالى أن يُزِيلَهُ إلى الحقِّ- يقولون: نُثْبِتُ هذه الصفاتِ السَّبْعَ وغيْرُها لا؛ ولذلك يقولون في استعمالِهم للنصوصِ ما سوى هذا إما أن نُفَوِّضَه ونقولَ: لا ندري معناه، وإما أن نُؤَوِّلَهُ، ونحن نُسَمِّي تأويلَهُم تحريفًا؛ لأنَّ التأويل الذي لا دليلَ عليه تحريفٌ، وفي ذلك يقول ناظمُ عقيدتِهم:

وكـلُّ نـصٍّ أَوْهَـمَ التشـبيهَا ... أَوِّلْـهُ أو فَـوِّضْ تَـرُمْ تنزيهَـا

واللهُ عليمٌ إن فَوَّضْنَاه، أو أَوَّلْنَاه بمعنى التحريفِ فإننا لم نَرُمِ التنزيهَ، بل وَقَعْنَا في العيبِ، وَجْهُهُ أننا إذا قلنا: لا نَعْلَمُ هذا المعنى، فهذا يعني أن اللهَ أَنْزَلَ علينا كتابًا مجهولًا لا يُدرى معناه، وَلَيْتَه لا يُدْرى معناه في الأمورِ التي تتعلَّقُ بفعلِ العبدِ كالصلاةِ والطهارةِ في العقيدةِ، وإن حَرَّفْنَاه وَقَعْنا أيضًا في بلاءٍ في اتهامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنه لم يُبَيِّنْ لعبادِهِ إلا ما كان خلافَ الحقِّ، وكلاهما شيءٌ كبيرٌ.

حتى إن شيخَ الإسلامِ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: إن قَوْلَ أهلِ التفويضِ من شرِّ أقوالِ أهلِ البدعِ والإلحادِ، وأنه هو الذي فَتَحَ للفلاسفةِ القَدْحَ في الدِّينِ وقالوا: إذا كنتم لا تعرفون المعنى وأنتم عَجَمٌ بالنسبةِ للقرآنِ العربيِّ نحن نَعْرِفُ، وصاروا يَخْبِطُونَ خَبْطَ عَشْوَاءَ.

فالأشاعرةُ يُثْبِتُونَ للهِ سبعَ صفاتٍ: الحياة، والعِلْمَ، والإرادةَ، والقدرةَ، والسمعَ، والبصرَ والكلامَ، ومع ذلك إثباتُهُم لها ليس كإثباتِ أهلِ السُّنَّةِ، نَضْرِبُ مثلًا بالكلامِ، الكلامُ يقولون: إن اللهَ عَزَّوَجَلَّ لا يتكلَّمُ بصوتٍ مسموعٍ أبدًا، وإنما كلامُهُ هو المعنى القائمُ بنفْسِه، وما يَسْمَعُهُ العِبادُ فإنما هو عبارةٌ عن الكلامِ المخلوقِ؛ فلما قال اللهُ لنبيِّه ﷺ: «إني فرضتُ عليك خمسين صلاةً»[2] بهذا اللفظِ أو معناه، اللهُ لم يَقُلْها؛ لأنَّ الكلامَ هو المعنى القائمُ بنفسه، لكن خلق أصواتًا سَمِعَها النبيُّ ﷺ تُعَبِّرُ عما في نَفْسِهِ!! سبحانَ اللهِ!.

الآن لو تَفَكَّرْنَا لَوَجَدْنَا قولَهم هذا أَخْبَثُ من قولِ الجهميَّةِ، الجهميَّةُ عندهم

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم (٣٤٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، رقم (١٦٣)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

صراحةٌ قالوا: كلامُ اللهِ مخلوقٌ ومسموعٌ، لكنه مخلوقٌ، هؤلاء قالوا: كلامُ اللهِ غيرُ مخلوقٍ لكنه غير مسموعٍ هو المعنى القائمُ بنفْسِه ويَخْلُقُ أصواتًا تُسْمَعُ تُعَبِّرُ عما في نفْسِه.

فَأَصْرَحُهُمَا الجهميَّةُ، فالقرآنُ الذي بين أيدينا، الجهميَّةُ يقولون: هذا كلامُ اللهِ حقيقةً لكنه مخلوقٌ، أما الأشاعرةُ فيقولون: لا هذا ليس كلامَ اللهِ حقيقةً، هذا عبارةٌ عن كلامِ اللهِ، وكلامُ اللهِ هو المعنى القائمُ بالنفْسِ. إذن أَحْسَنُهُما الأوَّلُ، وكلاهما غيرُ حَسَنٍ، ولكننا نقولُ: الأوَّلُ أَحْسَنُ، كما قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان:٢٤]، مع أنه لا خيرَ في مستقرِّ أهلِ النارِ.

فالأشعريةُ أثبتوا سبعَ صفاتٍ، ولمَّا قيلَ لهم: ما هو الدليلُ على إثباتِ الصفاتِ السبعِ ونفيِ ما سواها؟ قالوا: الدليلُ العقلُ، فالعقلُ دلَّ على إثباتِ هذه الصفاتِ، ولم يَدُلَّ على إثباتِ غيرها، إذن حكَّموا العقلَ فيما يُثْبِتُونَ للهِ ولم يُحكِّمُوا اللهَ فيما يُثْبِتُ لنفْسِه، وهذا عدوانٌ في حقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

من الذي يَحْكُمُ بنفْسِهِ على نَفْسِه؟ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنتم تَتَحَكَّمُونَ على اللهِ؟! قالوا: اللهُ خاطَبَنَا ولنا عقولٌ، ولا بُدَّ لنا من أن نُعملَ العقولَ. قلنا: أعطونا دليلًا عقليًّا على هذه الصفاتِ السَّبْعِ، قالوا: نعم نعطيكم أدلةً عقليَّةً، الإيجادُ يَدُلُّ على القدرةِ؛ لأنَّ العاجزَ لا يُوجِدُ شيئًا، ومعلومٌ أننا نرى المخلوقاتِ تتواجدُ شيئًا فشيئًا، قالوا: إيجادُها يدلُّ على القدرةِ، المخلوقاتُ الكائنةُ بعضُها إنسانٌ، وبعضُها حصانٌ، وبعضُها جَمَلٌ، وبعضُها شمسٌ، وبعضُها قمرٌ، وبعضُها سماءٌ، وبعضُها أرضٌ، وهذا التخصيصُ يدلُّ على الإرادةِ، لولا الإرادةُ ما صار هذا كذا وهذا كذا. إذن أثبتنا الإرادةَ والقدرةَ، وهذه المخلوقاتُ مُحْكَمةٌ متقنةٌ ما فيها تناقضٌ ولا تصادمٌ، لم نر

الشمسَ في يومٍ من الأيامِ اصطدمت بالأرضِ أو بالقمرِ أو بالنجومِ، مُحْكَمٌ متقنٌ يدلُّ على العِلْمِ.

إذن ثَبَتَتْ ثلاثُ صفاتٍ عن طريقِ العقلِ وهي: العِلْمُ والإرادةُ والقدرةُ، قالوا: وهذه الصفاتُ لا يُمْكِنُ أنْ تقومَ إلا بحيٍّ، فثبتتْ بذلك صفةُ الحياةِ، قالوا: والحيُّ إما أن يكونَ سميعًا بصيرًا متكلمًا، أو أصمَّ أعمَى أخرسَ، والأولُ كمالٌ والثاني نقصٌ، واللهُ تعالى منزَّهٌ عن النقصِ، فوجب أن يكونَ سميعًا بصيرًا متكلمًا.

فنحن قد نوافِقُهم على هذا ونقولُ: العقلُ دلَّ على ذلك، لكنْ ما سوى هذه دلَّ عليها الشَّرْعُ، ونحن نتنزَّلُ معهم إلى آخرِ شيءٍ، نقولُ: ما سوى ذلك دلَّ عليه الشرعُ.

ومن المعلومِ أن انتفاءَ الدليلِ المُعَيَّنِ لا يستلزمُ انتفاءَ المدلولِ؛ لأنَّ الأدلةَ قد تتعدَّدُ على مدلولٍ واحدٍ، فإذا قَدَّرْنَا أن العقلَ لم يَدُلَّ على الصفاتِ التي أَثْبَتَهَا اللهُ لنفسِه سوى السبعِ، فقد دلَّ عليها الشرْعُ، والشرْعُ يَثْبُتُ بدليلٍ واحدٍ، وبدليلين، وبثلاثةٍ، المهمُّ أن يكونَ له دليلٌ، هذا جوابٌ.

جوابٌ آخرُ: أن نَمْنَعَ من كَوْنِ العقلِ لم يدلَّ على بقيَّةِ الصفاتِ، ونقولُ: بقيَّةُ الصفاتِ منها ما دلَّ عليه العقلُ، ومنها ما دلَّ عليه السَّمْعُ فقط، فمثلًا: إنزالُ المطرِ، إنباتُ النباتِ، رَفْعُ الوباءِ، بَسْطُ الرزقِ، هذا من اللهِ عَزَّوَجَلَّ ويَدُلُّ على الرحمةِ دلالةً واضحةً أقوى من دلالةِ التخصيصِ على الإرادةِ؛ لأنَّ دلالةَ التخصيصِ على الإرادةِ لا يَفْهَمُ ذاك عن بيانٍ إلا طالبُ العلمِ المختصُّ، حتى طلبةُ العلمِ أحيانًا يقولون: كيف دلَّ التخصيصُ على الإرادةِ؟! لكن كَوْنَ هذه الأمورِ النافعةِ -حصولِ النِّعَمِ، واندفاعِ النِّقَمِ- تدلُّ على الرحمةِ هو واضحٌ حتى للعامِّيِّ، فالعامِّيُّ يَخْرُجُ

من بيتِه في الصباح وقد جاء المطرُ في الليلِ، فيقولُ: مُطِرْنَا بفضلِ اللهِ ورحمَتِه وهو عامِّيٌّ!.

فنقولُ لهم: الآن ما نَفَيْتُمُوهُ زاعمين أن العقلَ لا يَدُلُّ عليه فَلَنَا عنه جوابان:

الجوابُ الأوَّلُ: أننا لا نُسَلِّمُ أن العقلَ لا يدلُّ عليه، بل نقولُ: إن العقلَ يدُلُّ عليه، وإن كان لا يدلُّ على كلِّ الصفاتِ لكن في الجملةِ.

ثانيًا: أن نقولَ: هبْ أن العقلَ لا يدلُّ عليه، لكن دلَّ عليه السمعُ -القرآنُ والسُّنَّةُ- ولا يلزمُ من انتفاءِ دلالةِ العقلِ ألا يَثْبُتَ الشيءُ بدليلٍ آخَرَ؛ لأنَّ انتفاءَ الدليلِ المُعَيَّنِ لا يستلزمُ انتفاءَ المدلولِ، وهذه قاعدةٌ مفيدةٌ، وأَضْرِبُ لكم مثلاً بشيءٍ محسوسٍ، مَكَّةُ كم لها من طريقٍ؟ طرقٌ متعددةٌ، فإذا قُدِّرَ أن هذا الطريق يمتنعُ السيرُ معه؛ لوجودِ قُطَّاعِ طريقٍ، أو وجودِ أمطارٍ أَفْسَدَتْهُ، أو ما أَشْبَهَ ذلك، ألا يُمْكِنُ أن نَصِلَ إلى مَكَّةَ من طريقٍ آخَرَ؟ بلى، هكذا المعاني، إذا انتفى دليلٌ من الأدلَّةِ لكن وَجَدْنَا دليلًا آخرَ، هل ننكرُ هذا المدلولَ؛ لأنَّ أحدَ الأدلةِ غيرُ قائمٍ؟ لا، نقولُ: ما دام هذا الدليلُ غَيْرَ قائمٍ فهناك دليلٌ آخَرُ؛ ولذلك هَدَى اللهُ أَهْلَ السُّنَّةِ والجماعةِ إلى القولِ الوسطِ: لا تمثيلَ ولا تعطيلَ.

قالوا: نُثْبِتُ للهِ عَزَّوَجَلَّ جميعَ ما وَصَفَ به نَفْسَهُ في القرآنِ، أو فيما صَحَّتْ به السُّنَّةُ، لاحظْ لا بُدَّ من القيدِ بالنسبةِ للسُّنَّةِ: فيما صَحَّتْ به السُّنَّةُ؛ لأنَّ من الأحاديثِ ما هو ضعيفٌ أو موضوعٌ، أمَّا القرآنُ فلا تَقُلْ: ما صحَّ في القرآنِ، فكُلُّهُ صحيحٌ، إنما السُّنَّةُ لا بُدَّ أن تُقَيَّدَ: ما صَحَّتْ به السُّنَّةُ.

نُثْبِتُ كُلَّ صفةٍ، ولا نتحاشى، ولا نَتَهَيَّبْ إذا كان اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَثْبَتَ لنفْسِه يدًا، وقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، هل علينا أن نَتَهَيَّبَ من إثباتِ اليدِ؟ بل هل

لنا أن نَتَهَيَّبَ؟ لا يَجُوزُ أبدًا، بل الهيبةُ أن نخالفَ، أَثْبِتِ اليدَ ولا تُبَالِ.

أَثْبَتَ رَبُّكَ لنفْسِه وَجْهَه، فلا تَتَهَيَّبْ من إثباتِ الوجْهِ، فالتهيُّبُ حقيقةٌ من نفيِ الوجْهِ، أما ما أَثْبَتَه اللهُ فيجبُ أن نُثْبِتَه لكن على هذه القاعدةِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، فنقولُ: للهِ وجهٌ وليس كوجهِ المخلوقِ يقينًا.

فإن قال قائلٌ: ما دليلُك؟ ولماذا لا تَحْمِلُ الوجهَ على وجهٍ معروفٍ؟

فالجوابُ: دليلي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

أَثْبَتَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه يأتي يومَ القيامةِ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢] أَتَتَهَيَّبُ أن تَصِفَ اللهُ بالمجيءِ؟ لا نَتَهَيَّبُ، نقولُ: نَصِفُ اللهَ بالمجيءِ لكن هل هو كمجيءِ المَلِكِ على فَرَسٍ، أو سَيَّارةٍ، أو ما أَشْبَهَ ذلك؟

الجواب: لا، يقينًا ليس كذلك، لكنه مجيءٌ يليقُ بجلالِهِ.

أَثْبَتَ اللهُ لنفْسِه أنه استوى على العرشِ في عِدَّةِ مواضعَ من القرآنِ تَبْلُغُ سبعًا بهذا اللفظِ ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ هل تَتَهَيَّبُ أن تُثْبِتَ ذلك للهِ؟ لا، بل هو مستوٍ حقيقةً، أَتَهَيَّبُ أن أقولَ: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعنى استولى؛ لأنَّ ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعنى استولى تحريفٌ للكَلِمِ عن مواضِعِه، لكنني أؤمنُ إيمانًا لا شكَّ فيه أن هذا الاستواءَ لا يُمَاثِلُ استواءَ المخلوقين في أيِّ حالٍ من الأحوالِ، استوائي على الفلك، أو على البعير لو أُزيلَ ما استويتُ عليه لسقطْتُ لا شكَّ، لكن استواءَ اللهِ على العرشِ ليس كذلك، ليس استواءَ احتياجٍ. أعني استواءُ اللهِ على العرشِ ليس استواءَ احتياجٍ إلى العرشِ؛ لأنَّ اللهَ غنيٌّ عن العرشِ وعن غيرِه، لكنه استواءُ عظمةٍ وسلطانٍ.

حَقِّقُوا العقيدةَ، لا تَغُرَّكُم الأوهامُ، وما ذنبُ الإنسانِ إذا قال: أنا أؤمنُ بكلِّ

ما أَثْبَتَه لنفْسِه؟ ليس ذَنْبًا، بل هذا حقيقةُ الانقيادِ والاستسلامِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، لكن يجبُ شيءٌ واحدٌ، وهو أن تُؤْمِنَ بأنه لا مثيلَ له؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحلِ:٧٤]، وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:٢٢]، وأشباهُ ذلك، وأنت يا أخي لا تَعْلَمُ الغيبَ، اللهُ عَزَّوَجَلَّ هو الذي يَعْلَمُ، وهو أَخْبَرَكَ عن نفْسِه بكذا، فقل: آمَنَّا وَصَدَّقْنَا.

وقد ذَكَرَ شيخُ الإسلامِ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المُعَطِّلَةَ أقسامٌ: قِسْمٌ عَطَّلوا البعضَ، وقِسْمٌ عَطَّلُوا الصفةَ دون الاسمِ، وقسْمٌ عطَّلُوا الاسمَ والصفة، نفيًا لا إثباتًا؛ يعني بمعنى قالوا: لا نَصِفُ اللهَ بشيءٍ ثابتٍ، لكن نَصِفُه بالنَّفْيِ.

وقسمٌ قالوا: لا نَصِفُهُ لا بالنفيِ ولا بالإثباتِ، إن وصفناه بثابتٍ شَبَّهْنَاه بالموجوداتِ، وإن وَصَفْنَاه بمنفيٍّ شَبَّهْنَاه بالمعدوماتِ.

فائدةٌ: يجبُ أن نعرفَ أن التأويلَ يُرادُ به التفسيرُ، فيدخلُ فيه التضمينُ، وهذا هو الذي قال فيه الرسولُ ﷺ لابنِ عباسٍ: «اللهمَّ فَقِّهْهُ في الدينِ وعَلِّمْه التأويلَ»[2] يعني: التفسيرَ.

أما التأويلُ المنهيُّ عنه في الصفاتِ، فهذا لا يسمى تأويلًا، هذا يسمى تحريفًا ولا يجوزُ أن نُسَمِّيَه تأويلًا، وإن سَمَّوْه هم تأويلًا، لكن هم يقولون: تأويلٌ كيلا ينفرَ الناسُ من صنيعِهِم، لو قالوا: أهلُ التحريفِ والسلفِ لا يَقْبَلُهُم أحدٌ، فجاؤوا بالتأويلِ تلطيفًا.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٧-٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، رقم (١٤٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، رقم (٢٤٧٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. دون قوله: «وعلمه التأويل»، وأخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٦٦) بلفظه.

ولهذا نظائرُ النصارى سموا في الأخير أنفسَهم مسيحيين؛ ليضْفُوا على مِلَّتِهم المنسوخةِ أنها شرعيةٌ، وأنهم أتباعُ المسيحِ والمسيحُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أبرأُ الناسِ منهم، ولو خرج لقاتَلَهم، وهم كاذبون على المسيحِ فيما يدَّعون، لكن سَمُّوا أنفسَهم بالمسيحيين يُضْفُون على أنفسِهم الشرعيَّةِ.

ونظيرُ ذلك أيضًا: الرافضةُ يرفضون اسمَ الرافضةِ ويغضبون عليك فسمُّوا أنفسَهم شيعةً، وأحقُّ أن يكونَ شيعيًّا أهلُ السنَّةِ؛ لأنَّهم هم الذين يحبون آلَ البيتِ محبَّةً سُنِّيَّةً شرعيَّةً، أما هؤلاء الرافضةُ فإنهم يحبون آلَ البيتِ محبَّةً شِرْكِيَّةً، أهلُ البيتِ يتبرؤون منهم بلا شكٍّ؛ ولهذا لما قال عبدُ اللهِ بنُ سبأٍ وجماعتُهُ لعليِّ بنِ أبي طالبٍ: «أنت اللهُ حقًّا»، تبرأ منه، وأمرَ بالأخاديدِ فخُدَّت ومُلِئَتْ حطبًا وألقاهم في النارِ[1] حرَقَهم من شدةِ ما أصابه منهم، إذن هل يُقالُ لهؤلاء الذين غالوا في آلِ البيتِ حتى أنزلوهم فوق منزلتِهم، هل يُقالُ: إنهم شيعةٌ لآلِ البيتِ؟ أبدًا واللهِ، هم أعدى عدوٍّ لآلِ البيتِ؛ لأنَّهم أنزلوهم فوق منزلتِهم، وقد قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ما أحبُّ أن تُنْزِلُوني فوق منزلتي التي أَنْزَلَني اللهُ**»[2]، وآلُ البيتِ مثلُ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يحبون أن يُنْزَلُوا فوق منزلتهم التي أنزلهم اللهُ أبدًا.

فالضابط: أن دلَّ عليه الدليلُ فهو تأويلٌ، وإن لم يدلَّ عليه الدليلُ فهو تحريفٌ.

فإذا لَبِسْتَ ثوبَك، فقلتَ: أكلتُ خبزةً، تعني لَبِسْتَ ثوبك! هل له وجهٌ؟ فإذا كان التأويلُ ليس له وجهٌ، لا لغةً ولا شرعًا؛ فهو كُفرٌ؛ لأنَّه تكذيبٌ، ولهذا

---

(١) أخرجه ابن الأعرابي في معجمه رقم (٦٧، ١٥٥٣)، والآجري في الشريعة (٥/ ٢٥٢٠-٢٥٢١)، ويشهد له ما أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله، رقم (٣٠١٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٥٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نقولُ: جَحْدُ الصفاتِ نوعان: إما تأويلًا، وإما تكذيبًا. إن كان تكذيبًا، فلا شكَّ أنه كُفْرٌ، لو قال قائلٌ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]: إنه لم يستوِ على العرْشِ. فكَذبٌ، فنقولُ: كُفْرٌ؛ لأنَّه مُكَذِّبٌ لو قال نعم: استوى على العرش لكن معناه استولى، قلنا: هذا تأويلٌ، ينظرُ إن كان للتأويلِ مساغٌ، إن دلَّ عليه دليلٌ أخذْنَا به، وإن لم يدلَّ عليه دليلٌ رَدَدْناه، لكن إن كان له مساغٌ لم يَكْفُرْ، وإن لم يَكُنْ له مساغٌ فإنه يَكْفُرُ.

فمثلًا: الَّذي أوحاه اللهُ إلى الرَّسولِ هو القرآنُ، إذن لم نُؤَوِّلْ، فهذا هو الَّذي أُوحِيَ إلى الرَّسولِ وسمَّاه اللهُ رُوحًا؛ لأنَّه تحيا به القلوبُ، واعلمْ أنَّنا نحن لا نُنْكِرُ التَّأويلَ فقد نُؤَوِّلُ، لكن إذ دلَّ الدَّليلُ على التَّأويلِ فلا بَأْسَ، فنقولُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النَّحل:٩٨] نقولُ: إذا أَرَدْتَ أن تَقْرَأَ. وظاهِرُ الآية: إذا فَرَغْتَ من القراءةِ فاسْتَعِذْ، والسُّنَّةُ بَيَّنَتْ هذا، فنحن لا نُنْكِرُ التَّأويلَ؛ لأنَّ التَّأويلَ الَّذي دلَّ عليه اللفظُ تفسيرٌ، إنَّما نُنْكِرُ التَّأويلَ الَّذي هو التَّحْريفُ، وهو التَّأويلُ بدونِ دليلٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ نرى في بعضِ الكتبِ: إن اللهَ لا شبيهَ له. فهل هذا التعبيرُ يماثلُ قولَنا: إن اللهَ لا مثيلَ له؟ لا؛ ولهذا التعبيرُ بقولِنا: نؤمنُ بإثباتِ ذلك بلا تمثيلٍ خيرٌ من التعبيرِ بقولِنا: نُثْبِتُ ذلك بلا تشبيهٍ، مع أننا نرى أكثرَ الكُتُبِ التي بأيدينا أنهم يقولون: بلا تشبيهٍ، لكن هذا نَقْصٌ، التعبيرُ بلا تمثيلٍ أَوْلَى:

أولًا: لأنه تعبيرُ القرآنِ، وكلما أَمْكَنَك أن تُعَبِّرَ بالقرآنِ أو السُّنَّةِ عن المعاني التي تريدُ فهو أَوْلَى.

ثانيًا: أن التشبيهَ عند قومٍ يَعْنُون به إثباتَ الصفاتِ، ويقولون: كلُّ من أَثْبَتَ للهِ صفةً فهو مُشَبِّهٌ، فإذا قلتَ: بلا تشبيهٍ، وكان هذا المخاطَبُ لا يَفْهَمُ من التشبيهِ إلا الإثباتَ، فَهِمَ منك أنك لا تُثْبِتُ شيئًا، ثم إن التشبيهَ أيضًا له احتمالاتٌ، إن نَفَيْتَ التشبيهَ من كلِّ وجهٍ فهذا لا يُمْكِنُ؛ لأنَّه لا بُدَّ أن يشتركَ الخالقُ والمخلوقُ في أصلِ الصفةِ، فالحياةُ مثلًا عندنا حياةٌ، واللهُ تعالى حيٌّ، أصلُ الحياةِ موجودٌ، لكن المنفيَّ هو أن تكونَ حياتُنا مماثلةً لحياةِ اللهِ، السمعُ موجودٌ فينا وموجودٌ عند اللهِ عَزَّوَجَلَّ فإن اللهَ تعالى سميعٌ، فلا بدَّ من اشتراكٍ في الأصلِ، وُجُودُنا: نحن موجودون والرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ كذلك واجبُ الوُجُودِ، وهلمَّ جرًّا، فصار التعبيرُ بنفيِ التمثيلِ أَوْلى من التعبيرِ بنفيِ التَّشْبِيهِ.

ونقُولَ لهؤلاء القوم قُولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨] فالقلبُ إذا زاغ -والعياذُ باللهِ- انقلب الحقُّ عنده باطلًا، وانقلب الباطلُ حقًّا، وإلا فكيف نقولُ: يقصدُ التمثيلَ؟ فأنت لو أَخْبَرْتَنِي أنك رأيتَ الفيلَ، هل أَتَصَوَّرُ أن الفيلَ مثلُ الإنسانِ؟ لا أَتَصَوَّرُ هذا، إن كنتُ قد رأيتُ الفيلَ عَرَفْتُ الفَرْقَ، وإن لم أَكُنْ رأيْتُه، فأنا أَعْلَمُ بأن بينهما فَرْقًا؛ لأنَّه لو لم يَكُنْ فَرْقٌ لكان الفيلُ آدميًّا، ولا تَسْتَغْرِبُ الإنسانُ -والعياذُ باللهِ- إذا طَمَسَ اللهُ على قَلْبِهِ رأى الباطلَ حقًّا، والحقَّ باطلًا.

والآنَ ما أَعْظَمَ كلامَ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ وقد قال اللهُ تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين:١٣] حِكاياتٌ لا يُتَصَوَّرُ لها معنًى يُوجِبُ الإيمانَ، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا﴾ يعني ليست أساطيرَ الأَوَّلِينِ ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

مسألة: خطباءُ الأشاعرةِ يُحَدِّثُون بمذهبِهم، ويَذْكُرُون أنَّ عُلماءَهم ابْنَ حجرٍ والنَّوَوِيَّ والعزَّ بْنَ عبدِ السلامِ!.

فالجوابُ: إذا قالوا: ابْنُ حجرٍ و النووِيُّ، أما ابْنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فأنا رأيي فيه أنه ليس على طريقةِ الأشعريَّةِ، فالرجلُ متذبذبٌ أحيانًا يتكلَّمُ بكلامٍ هو كلامُ أهلِ السُّنَّةِ مئةً بالمئةِ، وأحيانًا يَنْقُلُ كلامَ الأشاعرةِ وهو أحيانًا يَنْقُلُ عن شيخِ الإسلامِ مقرِّرًا قولَهُ.

وأما النووِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فصحيحٌ على مذهبِ الأشاعرةِ في جميعِ ما قرأْتُ له من كتبٍ، لكن إذا قابلونا بفلانٍ وفلانٍ نقولُ: هل أنتم تعرفون الحقَّ بالرجالِ أم الرجالَ بالحقِّ؟

إن قالوا: نعرفُ الحقَّ بالرجالِ كان عندنا شيخُ الإسلامِ ابن تيميَّةَ، وابنُ القَيِّمِ، والإمامُ أحمدُ، وغيرُهُم من العلماءِ الفحولِ، فهؤلاء مقابلَ هؤلاء، ثم لدينا شيءٌ فوق الجميعِ الصحابةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ائتونا بدليلٍ واحدٍ يؤيِّدُ مذهبَ الأشاعرةِ، يقولُ: استوى بمعنى استولى، لا أحدَ منهم قال: استوى بمعنى استولى، كُلُّهُم يقول: استوى بمعنى علا. عَلِمْنا هذا بأنهم يقرؤون القرآنَ، ويعرفون معناه ولم يأتِ عن أحدٍ منهم قولٌ بصرْفِ اللفظِ عن ظاهِرِه، الحمدُ للهِ الحقُّ واضحٌ، فلو قال لنا قائلٌ: إن الصحابةَ أجمعوا على أن معنى قولِهِ تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ علا عليه، فلا يُمْكِنُ لأحدٍ أن ينازعَ ويقولَ: لم يُجْمِعوا؛ لأننا نَعْلَمُ أن الصحابةَ يقرؤون القرآنَ ويُنْزِلُون معناه على اللغةِ العربيَّةِ، واللغةُ العربيةُ في جميعِ موارِدِها أنه إذا تَعَدَّتْ (استوى) بـ(علا) فالمرادُ العُلُوُّ.

أمَّا مَن قالَ عَن كُتب النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يَجب أن تُحرقَ، فهذا غلَط منه؛ فكيف

نَدَعُ الاستفادةَ من هذه الكُتُبِ العظيمةِ والخطأُ فيها لا يُمَثِّلُ ولا عُشْرَ عُشْرِ المِعشارِ، قال ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِهِ (القواعدُ الفقهيَّةُ)[1]: «ويأبى اللهُ العِصْمةَ لكتابٍ غير كتابِهِ، والمُنْصِفُ من اغتفر قليلَ خطأِ المرءِ في كثيرِ صوابِه». صحيحٌ هذا الإنصافُ، ولا تكادُ تَجِدُ مؤلفًا إلَّا وفيه الخطأُ إمَّا متعمَّدًا أو غيرَ مُتَعَمَّدٍ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النَّساء:٨٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ هذا ردٌّ على المُعَطِّلَةِ، والجملةُ الأولى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ على المُمَثِّلَةِ، السميعُ أي: ذو السمعِ، وسَمْعُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ له معنيان:

المعنى الأوَّلُ: الاستجابةُ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، معنى سميعٌ: أي: مستجيبٌ، وليس المرادُ أنه يَسْمَعَه فقط؛ لأنَّ مُجَرَّدَ كَوْنِهِ يَسْمَعُه ولا يستجيبُ قليلُ الفائدةِ، لكنَّ ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: مستجيبُهُ واستجابتُهُ إياه تستلزمُ سَماعَه لا شَكَّ.

ومن ذلك أيضًا -أي: من كونِ السماعِ بمعنى الاستجابةِ- قولُ المصلِّي: سَمِعَ اللهُ لمن حَمِدَه، ومعنى سَمِعَ أنه استجابَ له؛ لأنَّهُ كما قُلْتُ لكم: مجرَّدُ سماعِ الصوتِ لا يفيدُ شيئًا بالنسبةِ للداعي؛ ولهذا لو قال لك إنسانٌ: يا فلانُ أرجو أن تساعدَني تقولُ: أسمعُ يعني أسمعُ بأذني، فلا يستفيدُ من هذا؛ لأنَّه سيقولُ لك: إذا كنتَ تَسْمَعُ فأعطِني، فصار كلُّ ما أضيفَ للدعاءِ من السمعِ معناه الاستجابةُ.

النوعُ الثاني من السمعِ: إدراكُ المسموعاتِ: بمعنى أنه لا يخفى على اللهِ أيُّ صوتٍ، قَرُبَ أم بَعُدَ خَفِيَ أم بانَ، فإن اللهَ يسمعُ كلَّ شيءٍ، أرأيتُم قولَهُ تعالى:

---

(١) القواعد الفقهية (ص:٣).

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة:١]؟ اللهُ في السماءِ على العرشِ، والمكانُ الذي كانت هذه تشتكي فيه في الأرضِ، تقولُ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: الحمدُ للهِ الذي وَسِعَ سَمْعُهُ الأصواتَ لقد كانت تجادلُ الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وإني لفي الحُجْرَةِ يخفى عليَّ بعضُ حديثِها[1]، وهي في الحجرةِ واللهُ عَزَّوَجَلَّ لم يَخْفَ عليه شيءٌ، سَمِعَ المجادِلَةَ، وسمعَ التحاوُرَ، وأَنْزَلَ حلَّ المُشْكِلةِ.

إذن السمعُ بمعنى: سَمْعُ الإدراكِ شاملٌ لكلِّ صوتٍ، ثم هذا السمعُ إما أن يكونَ للتأييدِ، أو للتهديدِ، أو للإحاطةِ، ثلاثةُ أقسامٍ:

الأول: التأييدُ: مِثْلُ قولِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦] لماذا قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ تأييدًا لهما. يعني أَسْمَعُ ما تقولان وما يقالُ لكما، والأمرُ أَمْرُهُ عَزَّوَجَلَّ. هذا سماعٌ يُرادُ به التأييدُ.

الثاني: ما يُرادُ به التهديدُ: مِثْلَ قولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزُّخرُف:٨٠] ليس المرادُ بهذه الآيةِ مُجَرَّدَ أن اللهَ يُخْبِرُ أنه يَسْمَعُ سِرَّهم ونجواهم، المرادُ بذلك التهديدُ، ونظيرُ هذا قولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آلِ عمرانَ:١٨١]، فهذا تهديدٌ، بدليلِ قولِهِ: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ [آلِ عمرانَ:١٨١].

الثالثُ: الإحاطةُ: أن يُخْبِرَ مِثْلَ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ هذا إخبارٌ بأنه تعالى

---

(١) علقه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، (٩/ ١١٧). ووصله الإمام أحمد (٦/ ٤٦)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه: في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨).

محيطٌ بكلِّ شيءٍ سمعًا، وكما في قصةِ المجادِلَةِ فإن اللهَ تعالى أَخْبَرَ بذلك؛ لِيُعْلِمَنَا أنه محيطٌ بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ له معنيان: المعنى الأوَّلُ: إدراكُ الشيءِ بالبصرِ، والثاني: العِلْمُ.

فهنا البصيرُ تَشْمَلُ المعنيَيْن، فَبَصَرُ اللهِ تعالى محيطٌ بكلِّ شيءٍ لا يخفى عليه، والدليلُ على أنَّ البصيرَ تَتَضَمَّنُ البصرَ قولُهُ في الحديثِ الصحيح: «حِجَابُهُ النورُ لو كَشَفَه لأحرقتْ سُبُحَاتُ وَجْهِه ما انتهى إليه بَصَرُهُ من خَلْقِه»[1]. يعني لأَحْرَقَتْ كلَّ شيءٍ؛ لأنَّ بَصَرَ اللهِ ينتهي إلى كلِّ شيءٍ، فالمعنى لأحرقتْ هذه السُّبُحَاتُ -والسُّبُحَاتُ هي البهاءُ والعظمةُ- كلَّ شيءٍ، لا إلهَ إلا اللهُ، بصيرٌ بمعنى عليمٌ، مِثْلَ قولِهِ تعالى: ﴿بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحُجُرات:١٨]، ومعلومٌ أننا نَعْمَلُ أشياءَ لا تُرى، في قلوبِنَا أشياءُ لا تُرى واللهُ يَعْلَمُها.

فإذن البصيرُ من أسماءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أي: ذو البصرِ، وله معنيان:

الأول: بصيرٌ بمعنى إدراكُ المَرْئِيَّاتِ لِبَصَرِه.

والثاني: بمعنى العليمِ.

فإذا سَمِعْت أسماءَ اللهِ وصفاتِهِ فليس المقصودُ أن نَعْلَمَ المعنى فقط، بل أن نَتَعَبَّدَ للهِ بها، فإذا عَلِمْنَا أنه سميعٌ أَوْجَبَ لنا أن نخافَ من قولٍ يُغضبُ اللهَ؛ لأنَّ اللهَ يسمعُ، إذا عَلِمْنَا أنه بصيرٌ أَوْجَبَ لنا أن نَحْذَرَ من كلِّ فعلٍ يُغْضِبُ اللهَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يُبْصِرُهُ ويَرَاه.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إن الله لا ينام»، رقم (١٧٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ففي هذه الأسماءِ -التي يُخْبِرُنَا اللهُ بها- تربيةٌ للإنسانِ أن يَحْذَرَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ من أن يخالفَه بقولٍ أو فِعْلٍ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ولَعَلَّنا أَشْبَعْنَا إن شاءَ اللهُ الكلامَ في هذا، وأهمُّ شيءٍ أن تَبْنِيَ عقيدَتَك على أَمْرَيْنِ: إثباتِ ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفْسِه في القرآنِ أو السُّنَّةِ، والثاني: نَفْيُ المماثَلَةِ، أنه لا مثيلَ له.

بَقِيَ شيءٌ آخرُ هل علينا أن نُكَيِّفَ الصفةَ بدونِ أن نَذْكُرَ مماثلًا؟

الجوابُ: لا يَجُوزُ أن نُكَيِّفَ الصفةَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]، هل أنت عَلِمْتَ كيفيَّةَ صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟

الجواب: لا، أنا أؤمنُ بأنه يَنْزِلُ، لكن لا أدري كيف يَنْزِلُ، أؤمنُ بأنه استوى على العرشِ، ولكن لا أدري كيف استوى، فالكيفيَّةُ لا يَجُوزُ للإنسانِ أن يتخيَّلَها، ولا يجوزُ أن ينطقَ بها؛ لأنَّ اللهَ تعالى أعظمُ من كلِّ تَخَيُّلٍ تتخيَّلُه؛ ولأنك لو تَخَيَّلْتَ فإنك سوف تعبُدُ صنمًا؛ لأنَّ هذا المتخيَّلُ لا بُدَّ أن يكونَ عندك تَصَوُّرٌ أنك تَعْبُدُ هذا الذي تَخَيَّلْتَهُ، فتكونُ من جنسِ المُمَثِّلِين. وفي مُقَدِّمَةِ النونيَّةِ لابْنِ القَيِّمِ قال: «المُعَطِّلُ يَعْبُدُ عدمًا، والمُمَثِّلُ يَعْبُدُ صنمًا»[1].

إذن: لا تَتَخَيَّلِ الْكَيْفِيَّةَ؛ ولهذا جاء في الأثرِ: «تَفَكَّرُوا في آياتِ اللهِ، ولا تُفَكِّرُوا في ذاتِ اللهِ»[2]، الآياتُ تُفَكِّرُ فيها؛ السماءُ، الأرضُ، النجومُ، البَشَرُ، المخلوقاتُ

---

(١) النونية (١/ ١٢) ط.عالم الفوائد، وانظر: الصواعق المرسلة (١/ ١٤٨).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٧/ ٢٢١٩)، وأبو الشيخ في العظمة رقم (١)، والطبراني في الأوسط رقم (٦٣١٩)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة رقم (٩٢٧)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (١١٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الأخرى، تُفَكِّرُ فيها بِقَدْرِ ما تستطيعُ؛ لِتَسْتَدِلَّ بها على الخالِقِ عَزَّوَجَلَّ، لكن في ذاتِ اللهِ لا تَتَفَكَّرْ.

فإن قال قائلٌ: هل لنا أن نَتَفَكَّرَ في معاني أسماءِ اللهِ وصفاتِهِ؟

فالجوابُ: نعمْ، بل يجبُ أن نَتَفَكَّرَ في المعنى، والمعنى غيرُ الكيفيَّةِ، سُئِلَ الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قيلَ له وهو يُدَرِّسُ في الحلْقَةِ: يا أبا عبدِ اللهِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ فقام الإمامُ مالكٌ يتصبَّبُ عرقًا، وأَطْرَقَ رأسَهُ حياءً وخجلًا، ومن كان باللهِ أَعْرَفَ كان منه أَخْوَفَ، نحن تَمُرُّ علينا هذه الكلمةُ مرَّ الرياحِ لا تُؤَثِّرُ في القلوبِ شيئًا، لكنَّ أهلَ المعرفةِ باللهِ الذين هم أهلُهُ، لا بدَّ أن يتأثروا، أَطْرَقَ برأسِهِ وقام يتصبَّبُ عرقًا، ثم رَفَعَ رَأْسَه وقال: يا هذا الاستواءُ غير مجهولٍ، والكيفُ غير معقولٍ، والإيمانُ به واجبٌ، والسؤالُ عنه بدعةٌ، وما أُراك -يعني ما أَظُنُّكَ- إلا مُبْتَدِعًا، ثم أمرَ به فأُخْرِجَ[1]، فلا مقامَ له عنده.

هؤلاء هم الرجالُ، فالمعاني معلومةٌ ولا يُمْكِنُ أن يخاطِبَنا اللهُ عَزَّوَجَلَّ بما لا نَعْلَمُ أبدًا، لكن الكيفيَّاتِ مجهولةٌ.

فإن قال قائلٌ: كيف أَتَصَوَّرُ المعنى ولا أَتَصَوَّرُ الكيفيَّةَ؟

قلنا: هذا سهلٌ، الآن لو أقولُ لك: فلانٌ صَعِدَ على السَّطْحِ. تَعْرِفُ معنى صَعِدَ، لكن لا تَعْرِفُ كيف صَعِدَ، مع أنه مِثْلُكَ، لا تَعْرِفُ كيف صَعِدَ فمن الممكنِ أنه صَعِدَ على يديه ورِجْلَيْهِ، أو صَعِدَ بسيَّارَةٍ، أو صَعِدَ محمولًا.

---

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة رقم (٦٦٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٨٦٧)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والدارمي في الرد على الجهمية رقم (١٠٤).

فإذن عقلُ المعنى دون الكيفيَّةِ أمرٌ واقعٌ، فنحن نؤمنُ بأن اللهَ عَزَّوَجَلَّ استوى على العَرْشِ، لكن لا نُكَيِّفُ ذلك، ولا ندري كيفِيَّتَهُ، وما لا ندري كيفِيَّته لا يجوزُ أن نتكلَّمَ فيه، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

أرجو اللهَ تعالى أن يَنْفَعَ بهذا الكلامِ؛ لأنَّه كلامٌ مهِمٌّ جدًّا، فهُو كلامٌ في العقيدةِ، ولا يُمْكِنُ أن يستريحَ الإنسانُ راحةً نفسيَّةً، ولا أن يتخلَّى عن الشُّبُهاتِ إلا إذا لَزِمَ مَذْهَبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، نُثْبِتُ للهِ ما أَثْبَتَه لنفْسِه، وننفي ما نفاه عن نَفْسِه، وإثباتُنا إثباتُ تنزيهٍ لا إثباتُ تمثيلٍ، ونَفْيُنَا نفيُ تنزيهٍ أيضًا لا نَفْيُ تعطيلٍ، واللهُ المُوَفِّقُ.

من فوائدِ الآيةِ الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن اللهَ تعالى هو الذي خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ ابتداءً على غيرِ مثالٍ سَبَقَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تمامُ قدرةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ هذه السَّمواتِ العظيمةَ لا يَقْدِرُ عليها أحدٌ إلا اللهُ، ثم إنه خَلَقَهَا في ستَّةِ أيَّامٍ، جاءت مُفَصَّلَةً في سورةِ فُصِّلَتْ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن السَّمواتِ سبعٌ، والأرضَ سبعٌ، لكن من غيرِ هذه الآيةِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: حكمةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ورحْمَتُه؛ حيث جَعَلَ لنا من أَنْفُسِنا أزواجًا، فإن هذا حكمةٌ حيث كانت من أَنْفُسِنا، ورحمةٌ حيث جعل لنا أزواجًا نتمتعُ بهنَّ من جهةٍ، وننمو ونزدادُ من جهةٍ أخرى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: رحمةُ اللهِ تعالى بنا حيث جَعَلَ لنا من الأنعامِ أزواجًا؛ لأنَّ هذا لا شكَّ من مصلحَتِنا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَنْشُرُ ويبُثُّ ويكثِّر بني آدم وما خَلَقَ لهم من أنعامٍ، بسببِ التزاوُجِ؛ لقولِهِ: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى:١١].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الرَّدُّ على المشركين الذين جعلوا مع اللهِ إلهًا آخَرَ، حيث قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا مِثْلَ له، لا في الخَلْقِ، ولا في الصفاتِ، ولا في غيرِها.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الرَّدُّ على أهلِ التمثيلِ في قولِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ اسميْنِ من أسماءِ اللهِ هما: السميعُ، والبصيرُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثباتُ السمعِ والبَصَرِ وصفًا للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ السميعَ من السمعِ، والبصيرَ من البصرِ، وهنا قاعدةٌ نشيرُ إليها: كلُّ اسمٍ من أسماءِ اللهِ فإنه متضمِّنٌ لشيئين:

الأوَّلُ: إثباتُ كونِهِ اسمًا.

والثاني: إثباتُ الصفةِ التي دَلَّ عليها.

فمن قال: إن اللهَ سميعٌ ولكن بلا سَمْعٍ؛ فإنه لم يُؤْمِنْ بالاسمِ؛ لأنَّه لا بُدَّ أن تُؤْمِنَ بما دلَّ عليه من صفةٍ، وإلا لم تُؤْمِنْ به.

أيضًا إثباتُ أن هذه الصفةَ متعديةٌ للغيْرِ، إذا كانت متعديةً، فمثلًا: السميعُ نؤمنُ بأن اللهَ من أسمائِهِ السميعُ، ومن صفاتِهِ السمعُ، ونؤمنُ بأمرٍ زائدٍ وهو أنه يسمعُ كلَّ شيءٍ؛ ولهذا قال أهلُ العِلْمِ: الاسمُ إذا كان لازمًا لم يَتِمَّ الإيمانُ به إلا بشيئين:

الأوَّلُ: إثباتُ كونِهِ اسمًا من أسماءِ اللهِ.

والثاني: إثباتُ الصِّفَةِ التي دلَّ عليها.

وإذا كان متعديًا فلا بدَّ في الإيمانِ به من أمورٍ ثلاثةٍ:

الأوَّلُ: إثباتُ كونِهِ اسمًا للهِ.

والثاني: إثباتُ الصفةِ التي دلَّ عليها.

والثالثُ: إثباتُ تَعَدِّي هذه الصفةِ إلى ما تتعلَّقُ به، بمعنى: أن السَّمْعَ يتعلَّقُ بكلِّ مسموعٍ، والبصرَ بِكُلِّ مُبْصِرٍ.

والإيمانُ بالاسمِ لا يَتِمُّ إلَّا بالإيمانِ بما يتعلَّقُ به، فإثباتُ السَّمْعِ لا بدَّ أن نُثْبِتَ أنه يَسْمَعُ، فيه أيضًا يقولون: الأسماءُ تَتَضَمَّنُ الدلالاتِ الثلاثةَ: دلالةَ المطابَقَةِ، ودلالةَ التضَمُّنِ، ودلالةَ الالتزامِ. وإن شِئْتَ فقل: دلالةُ اللزومِ.

إذن الدلالاتُ ثلاثةٌ: مُطَابَقَةٌ، وتَضَمُّنٌ، ولزومٌ، فدلالةُ الاسمِ على الذاتِ وَحْدَها دلالةُ تَضَمُّنٍ، وعلى الصفةِ وَحْدَها دلالةُ تَضَمُّنٍ، وعليهما جميعًا دلالةُ مُطَابَقَةٍ، ودلالةُ ذلك الاسْمِ على معنًى لازمٍ له دلالةُ التزامٍ. هذه أيضًا من القواعدِ المهِمَّةِ.

نَضْرِبُ لهذا مثلًا: الخالقُ، من أسماءِ اللهِ تعالى الخالقُ، فدلالتُهُ على الذاتِ وَحْدَها تَضَمُّنٌ، وعلى صفةِ الخَلْقِ وَحْدَها تَضَمُّنٌ أيضًا، وعليهما جميعًا مُطَابَقَةٌ.

إذن فَهِمْنَا أن دلالةَ اللفظِ على جميعِ معناه دلالةُ مُطَابَقَةٍ، وعلى بعضِهِ تَضَمُّنٌ، على اللازمِ الخارجِ الذي يَلْزَمُ منه دلالةُ التزامٍ، مثلًا المثالُ الذي معنا الآن لا يزالُ باقيًا، الخالقُ يدلُّ على صفةِ الخَلْقِ وعلى الخالِقِ نفْسِه، ويدلُّ أيضًا على شيءٍ لازمٍ، من لازمِ الخلقِ القدرةُ، من لازمِ الخلقِ العِلْمُ، إذ من ليس بقادرٍ لا يُمْكِنُ أن يَخْلُقَ،

ومن ليس بعالِمٍ لا يُمْكِنُ أن يَخْلُقَ، فتكونُ دلالةِ الخالقِ على العِلْمِ والقدرةِ دلالةُ التزامٍ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الرَّدُّ على أهلِ التعطيلِ في قولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وذَكَرْنا فيما مرَّ: إثباتَ السميعِ اسمًا للهِ، والبصيرِ اسمًا للهِ وإثباتَ البصرِ صفةً للهِ، وإثباتَ السمعِ صفةً للهِ.

فإن قال قائلٌ: أيُّما أوسعُ الصفةُ أو الاسمُ؟

فالجوابُ: الصفةُ أوسعُ؛ وَجْهُ ذلك: أن كلَّ اسمٍ متضمِّنٍ لصفةٍ، وبهذا يكونُ الاسمُ والصفةُ متوازِيَيْنِ، هناك صفاتٌ لا يُمْكِنُ أن يُسَمَّى اللهُ بها، فالصفةُ أوسعُ، ألسنا نقولُ: عَبَّرَ اللهُ بكذا وكذا؟ ألسنا نقول: تَحَدَّثَ اللهُ عن كذا؟ ومع ذلك لا نُسَمِّي اللهَ تعالى متحدِّثًا، ولا نسميه مُعَبِّرًا، لماذا؟ لأن الوصفَ أوسعُ من الاسمِ، وهذه فائدةٌ أيضًا مهمَّةٌ عَكْسَ ما يقولون: إنَّ الأسماءَ لا تَتَضَمَّنُ الصفاتِ.

ويجوزُ لنا أن نقولَ: «عبَّرَ الله تعالى في الآيةِ كذا» لأنَّ التعبيرَ بمعنى الكلامِ ووصفُ الأفعالِ واسعٌ بالنسبةِ لأفعالِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ليس هو من جنسِ الأسماءِ، كلُّ ما يصحُّ أن يُنْسَبَ لله فَعَبَّرَ به.

• • ۞ • •

الآية (١٢)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى:١٢].

قولُهُ: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿لَهُۥ﴾ أي: للهِ وَحْدَهُ، وإنما قلنا: وَحْدَهُ؛ لأنَّ تقديمَ الخبرِ يدلُّ على الحصْرِ، بل القاعدةُ أوسعُ من هذا: تقديمُ ما حقُّهُ التأخيرُ يُفيدُ الحصرَ، حتى لو قلتَ: زيدًا أَكْرَمْتُ. يعني: أنك لم تُكْرِمْ غَيْرَهُ؛ لأنك قَدَّمْتَ المعمولَ فنقولُ له: أيْ لا لغيرِه.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أيْ: مفاتيحَ خَزَائِنِهِما]. فَجَعَلَ المقاليدَ بمعنى مفاتيحَ.

ولكن من حيث اللغةُ العربيَّةُ لا تتناسبُ مع الاشتقاقِ؛ لأنَّ (مقاليدَ) مأخوذٌ من القلادةِ؛ يعني: أزمَّةُ الأمورِ في السَّمواتِ والأرضِ كُلُّهَا بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، كما تقولُ: قلادةُ البعيرِ؛ لأنك تَجُرُّها بها، فالظاهرُ -واللهُ أَعْلَمُ- أن المفسِّرَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَسَّرَها بما يخالفُ الظاهرَ.

لكنَّ بعضَ الناسِ يقولُ: إن (مقاليدَ) اسمٌ أعجميٌّ مُعَرَّبٌ والمقلادُ بمعنى المفتاحِ، لكن هذا قولٌ ضعيفٌ بلا شكٍّ؛ لأنَّه يجبُ ألا نَلْجَأَ إلى التعريبِ إلا للضرورةِ، يعني: لا يُمْكِنُ أن نقولَ: هذه كلمةٌ أَصْلُها فارسيَّةٌ، أَصْلُها روميَّةٌ، أَصْلُها كذا،

وعُرِّبَتْ، لا يَجوزُ أن نَعْدِلَ إلى هذا إلا عند الضرورةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ القرآنَ عربيًّا، فإذا قلنا: فيه كلمةٌ عربيَّةٌ أَصْلُها غيرُ عربيٍّ، فهذا خلافُ ظاهرِ القرآنِ، لكن إذا اضْطُرِرْنَا إلى هذا بأنْ لم نجدْ لهذه الكلمةِ أصْلًا في اللغةِ؛ حينئذٍ نقولُ: مُعَرَّبَةٌ.

فـ(مقاليدُ) لها أَصْلٌ مأخوذةٌ من القلادةِ التي تُقادُ بها البعيرُ، فمعنى مقاليدَ؛ أي: أَزِمَّةُ الأمورِ في السَّمواتِ والأرضِ له وَحْدَهُ، أما المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: [مفاتيحُ خزائِنِهما من المطرِ والنباتِ وغيرِهما].

وقوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ﴿يَبْسُطُ﴾ يعني: يُوَسِّعُ ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يعني: يُضَيِّقُ، الْبَسْطُ وَالْقَدر امتحانٌ وابتلاءٌ؛ لأنَّ من الناسِ من لا يُصْلِحُهُ إلا الفقرُ، ومن الناسِ من لا يُصْلِحُه إلا البسطُ، وفي الحديثِ القدسيِّ: «إنَّ مِن عبادِي لو أَغْنَيْتُه لأَفْسَدَه الغِنى، وإنَّ مِن عِبادِي لو أَفْقَرْتُه لأفْسَدَه الفقرُ»[1].

يقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ -والمرادُ بالرِّزْقِ العطاءُ- يُوَسِّعُهُ ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ امتحانًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُهُ لمن يشاءُ ابتلاءً] امتحانًا هل يَشْكُرُ أو لا يَشْكُرُ، ابتلاءً هل يَصْبِرُ أو لا يَصْبِرُ.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ إنه عليمٌ بكلِّ شيءٍ، فهو يَعْلَمُ أن البَسْطَ لهذا أَفْضَلُ، وأن التضييقَ لهذا أَفْضلُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن أزمَّةَ الأمورِ للهِ وَحْدَهُ في السَّمواتِ والأرضِ، فهو الذي يُدَبِّرُ الأمورَ، ويداولُ الأيامَ بَيْنَ الناسِ، ويقَلِّبُ الأحوالَ، وكم من رجلٍ أصبحَ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٨-٣١٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٢٣١)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

كافرًا وأمسى مؤمنًا، وكم من إنسانٍ أصبحَ مؤمنًا وأمسى كافرًا، كما أَخْبَرَ النبيُّ ﷺ عن الفِتَنِ في آخِرِ الزمانِ أنه: «يُمْسِي الإنسانُ كافرًا ويصبحُ مؤمنًا ويُمْسِي كافرًا»(١).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الأرزاقَ بَسْطُهَا وَتَضْيِيقُهَا بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهل يَلْزَمُ من هذا ألا نَفْعَلَ الأسبابَ؟ لا؛ لأنَّ هذا ضَعْفٌ في التَّوَكُّلِ إذا لم تَفْعَلِ الأَسْبَابَ، افْعَلِ الأسبابَ واعتمدْ على الخلَّاقِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ألا نَطْلُبَ الرزقَ إلا من اللهِ؛ لأنَّه هو الذي يَبْسُطُ الرزقَ أو يُضَيِّقُهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ المشيئةِ للهِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾.

فإن قال قائلٌ: هل هذه المشيئةُ مُجَرَّدَةٌ عن الحكمةِ أو مقرونةٌ بالحكمةِ؟

فالجوابُ: الثاني لا شكَّ، يعني: ليس عطاءُ اللهِ أو مَنْعُه مُجَرَّدُ أنه أراد، لا، لا بدَّ أن يكونَ لحكمةٍ، وهذه قاعدةٌ أَثْبِتْهَا في دماغِكَ، كلُّ شيءٍ قَرَنَهُ اللهُ بمشيئَتِهِ فإنه مقرونٌ بحكمةٍ ولا بدَّ، لا يُمْكِنُ أن يَفْعَلَ شيئًا عبثًا، كما قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]، فكلُّ ما مرَّ بك شيءٌ مقرونٌ بالمشيئةِ فاعلمْ أنه تابعٌ لحكمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

واقرأْ قولَ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل:١٩]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ بعدها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠] يعني: فمشيئتُه مقرونةٌ بالعِلْمِ والحِكْمةِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، رقم (١١٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ عمومِ عِلْمِ اللهِ؛ لقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بكلِّ شيءٍ كائنٍ أو معدومٍ؟ كلاهما، لكلِّ شيءٍ واجبِ الوجودِ، أو جائِزُه، أو مُمْتَنِعُه، يَعْلَمُ حتى المُمْتَنِعَ، قال اللهُ تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]. ولا يُمْكِنُ أن يكونَ فيهما آلهةٌ إلا اللهُ، ومع ذلك عَلِمَ عَزَّوَجَلَّ أنه لو كان ذلك لَفَسَدَتِ السَّمواتُ والأرضُ؛ ولهذا نقولُ: عِلْمُ اللهِ تعالى متعلِّقٌ بكلِّ شيءٍ، في الواجبِ كَعِلْمِه بنفْسِه، في المستحيلِ كَعِلْمِه بفسادِ السَّمواتِ والأرضِ لو كان فيهما آلهةٌ إلا اللهُ، في الممكنِ كعِلْمِه بالمخلوقاتِ.

فَعِلْمُ اللهِ متعلِّقٌ بكلِّ شيءٍ من واجبٍ ومستحيلٍ ومُمكِنٍ.

وهنا تنبيهٌ على خطأٍ جارٍ بَيْنَ الناسِ: إذا كان شيءٌ قليلٌ قالوا: هذا بسيطٌ، هذا غَلَطٌ؛ لأنَّ البَسْطَ في اللغةِ يعني التوسيعَ والتكثيرَ، فلا تَقُلْ: هذا بسيطٌ، قُلْ: هذا يسيرٌ، هذا قليلٌ، إن كان من حيثُ الصفةُ قل: يسيرٌ، وإن كان من حيثُ العددُ فَقُلْ: هذا قليلٌ.

الآية (١٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣].

قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ الخطابُ لهذه الأُمَّةِ -ولله الحمدُ- ومعنى ﴿شَرَعَ لَكُم﴾؛ أي: سَنَّ لكم، وجَعَلَ لكم شريعةً هي ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾، قال الشارحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو أوَّلُ أنبياءِ الشريعةِ]، وتَسَاهَلَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا، والصوابُ أن يقولَ: هو أوَّلُ رُسُلِ الشريعةِ؛ لأنَّه جاء في الحديثِ الصحيحِ: «أنَّ الخَلْقَ يومَ القيامةِ يأتون إلى نوحٍ لِيَشْفَعَ لـهم، فيقولون له: أنت أوَّلُ رسولٍ أرسله اللهُ»[1] ولأنَّ الرسولَ أخصُّ من النَّبيِّ، ولا ينبغي أن نَعْدِلَ عن الأخصِّ إلى الأعمِّ.

إذن: الصوابُ أن نقولَ: هو أوَّلُ رُسُلِ الشريعةِ، أما أوَّلُ أنبياءِ الشريعةِ فهو آدمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نبيٌّ مُكَلَّمٌ، لكنه ليس برسولٍ، والحكمةُ من كونِهِ غيرَ رسولٍ: أنَّ الناسَ لم يختلفوا بَعْدُ، واللهُ تعالى أرسل الرُّسلَ لِيَحْكُمُوا بَيْنَ الناسِ فيما اختلفوا فيه، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، رقم (٣٣٤٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

لكن في عَهْدِ آدَمَ لا اختلافَ، فالعددُ قليلٌ، وليس هناك مُغْرِيَاتٌ، ولا أشياءَ تُوجِبُ أن يختلفَ الناسُ، فلذلك كان آدمُ يَتَعَبَّدُ للهِ تعالى بشريعَتِه التي شَرَعَهَا اللهُ لهم، أبناؤُهُ يَتَّبِعُونه، لَمَّا كَثُروا وانتشروا واختلفوا، حينئذٍ جاءتِ الحاجةُ، بل الضرورةُ إلى الرُّسُلِ. إذن الأولى أن نقولَ هو أوَّلُ رُسلِ الشريعةِ؛ لأنَّ أَوَّلَ أنبياءِ الشريعةِ من آدمَ.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يعني: وشَرَعَ لكم الذي أوحينا إليك، ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ معطوفةٌ على ما في قولِهِ ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾.

والوصيَّةُ: هي العهدُ بالشيءِ الذي يُهْتَمُّ به ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ وهو: القرآنُ، ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ اللهُ أَكْبَرُ، ذَكَرَ اللهُ تعالى أوَّلَ الأنبياءِ الذين هم الرُّسُلُ وآخِرَهم، ثم ذَكَرَ ما بَيْنَ ذلك؛ لِيَجْمَعَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ والوسَطِ، أوَّلُ هؤلاء الرسلِ الكرامِ نوحٌ، وآخِرُهُم مُحَمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وعليهم وسلَّمَ- هؤلاء الخمسةُ هم أولو العَزْمِ من الرسلِ، قال اللهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥] وذُكِرُوا في القرآنِ في مَوْضِعَيْنِ؛ هذا واحدٌ، والثاني قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى﴾ [الأحزاب:٧]، وهذه الآياتُ في سورةِ الأحزابِ.

فإن قال قائلٌ: هل من فائدةٍ أو حكمةٍ في تخصيصِ النَّبيِّ ﷺ بالوحْيِ وباقي الأنبياءِ بالوصيَّةِ؟

فالجوابُ: نعم، الحكمةُ هي إثباتُ أنَّ هذا القرآنَ موحًى به.

مسألةٌ: إذا مرَّ الإنسانُ بآيةٍ فيها ذِكْرُ الأنبياءِ سواءٌ في الصلاةِ أو خارجَ الصلاةِ، فهل يُشْرَعُ له أن يُصلِّيَ عليهم؟

فالجوابُ: لا، إلا الرسولَ ﷺ ولو خارجَ الصلاةِ؛ لأنَّه لا نعلمُ أن الرَّسولَ إذا مرَّ برسلٍ سَلَّمَ عليهم؛ أما نبيُّنا ﷺ فإذا مرَّ عليك فصلِّ عليه في أيِّ حالٍ أنت؛ إلا إذا كنتَ على الخلاءِ فلا.

وقوله: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ (أنْ) هذه تفسيريَّةٌ، بمعنى (أي)؛ ولذلك لا تَعْمَلُ شيئًا؛ لأنَّها لمجرَّدِ التفسيرِ والتبيينِ.

وقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ يعني: ائتوا به مُستقيمًا، غَيْرَ مُنْحَرِفٍ.

والدِّينُ القَيِّمُ هو الدِّينُ الذي شَرَعَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فيجبُ علينا أن نُقِيمَ الدِّينَ كما أقامه اللهُ عَزَّوَجَلَّ لا نغلو فيه، ولا نُقَصِّرُ عنه، ولذلك كان الناسُ في دينِ اللهِ على ثلاثةِ أقسامٍ: قِسْمٍ غَلَوْا، وقِسْمٍ قَصَّرُوا، وقِسْمٍ اعْتَدَلُوا. فما الذي أُمِرْنَا فيه؟ الاعتدالُ، ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ غَيْرَ مُتَجَاوِزِينَ ولا قَاصِرِينَ عنه.

ولذلك هَلَكَ أقوامٌ ممن قَصَّروا أو تجاوزوا، والأخطرُ التجاوُزُ وهو الغُلُوُّ، قال النبيُّ ﷺ: «**إنما أَهْلَكَ من كان قَبْلَكُم الْغُلُوُّ**»[1] ولأن الغاليَ، يعتقدُ أنَّ هذا دينٌ فلا يكادُ يُقْلِعُ عنه، والمُقَصِّرُ يَعْتَرِفُ أنه مُقَصِّرٌ، فرُبَّما حاسَبَ نفْسَه يومًا من الأيامِ وأتمَّ، فالغُلُوُّ أخطرُ، ولذلك تَجِدُ بِدَعَ المبتدعةِ، أشدُّها الغلوُّ؛ فالرَّافضةُ مثلًا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢١٥)، والنسائي: كتاب مناسك الحج، باب التقاط الحصى، رقم (٣٠٥٧)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي، رقم (٣٠٢٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

غَلَوْا في آلِ البيتِ، وتجاوَزُوا الحدَّ، والمُؤَلِّهَةُ للرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذين يعتقدون أنه أشدُّ من الإلهِ عَزَّوَجَلَّ غَلَوْا في الرسولِ، وهَلَكوا. والغاليةُ في الدِّينِ الذين يُريدونَ من الناسِ أن يستقيموا على الدِّينِ، وألا يَفْعَلوا كبيرةً أيضًا غَلَوْا؛ كالخوارجِ.

المُهمُّ أنكَ إذا تأمَّلْتَ البدعَ وجدْتَ أنَّ الغُلُوَّ فيها أشدُّ خطرًا على الإنسانِ؛ لأنَّ الغاليَ يعتقدُ أن ما عليه دِينٌ، والمقصِّرُ يَعْرِفُ أنه مقصِّرٌ، وربما استقام بعد ذلك.

قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ الدِّينُ يُطْلَقُ على مَعْنَيَيْنِ، المعنى الأوَّلُ: الجزاءُ. والمعنى الثاني: العملُ. يعني: يُطْلَقُ على العملِ وعلى الجزاءِ، فمن إطلاقِهِ على العملِ؛ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]، يعني: لكم عَمَلُكم ولي عملي؛ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونُس:٤١]، ومن إطلاقِهِ على الجزاءِ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧-١٨]، وما نقرأه نحن في كلِّ صلاةٍ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ المرادُ به الجزاءُ.

وقولُهُ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ هنا المرادُ به العملُ ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ يعني: لا تَتَفَرَّقوا في دينِكم؛ فتكونوا أحزابًا، فنهى اللهُ عَزَّوَجَلَّ عن التفرُّقِ في الدِّينِ، وهذا يَسْتَلْزِمُ وجوبَ الاجتماعِ عليه؛ لأنَّ النَّهْيَ عن الشَّيْءِ أمرٌ بضِدِّه إذا لم يَكُنْ له إلا هذا الضِّدُّ، وحينئذٍ يَجِبُ على المسلمين أن يجتمعوا في دِينِ اللهِ، وألا يتفرَّقُوا فيه.

وما اختلف العلماءُ فيه من الآراءِ، فإنَّ الهدفَ منه واحدٌ، لمن صَلَحَتْ نِيَّتُه؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من المُختلفين إنما يُريدُ الوصولَ إلى الحَقِّ، لكن اختلفوا في الطريقِ،

وإذا كان الهدفُ واحدًا، وهو الوصولُ إلى الحقِّ؛ فإنه لا يَجوزُ أن يُجْعَلَ هذا الاختلافُ سببًا للتفرُّقِ في الاتجاهِ، لا يَجُوزُ هذا إطلاقًا، بل تَجِبُ الوحدةَ والاجتماعَ، حتى مع اختلافِ الآراءِ.

ولهذا كان السادةُ الغُرَرُ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يختلفون في أشياءَ كثيرةٍ مُهِمَّةٍ، ومع ذلك فالقلوبُ واحدةٌ، ولَمَّا وَصَلَ الاختلافُ بهم إلى تَفَرُّقِ القلوبِ، حَصَلَ ما حَصَلَ من الفِتَنِ بين معاويةَ وعليٍّ، وعائشةَ والزُّبيرِ، وما أَشْبَهَ ذلك، في وقتِنا الحاضرِ لا شكَّ أنَّ الناسَ مختلفون، فمنهم من يتجهُ اتجاهًا سياسيًّا، ومنهم من يتجهُ اتجاهًا صوفيًّا، ومنهم من هو مُعتدلٌ. اختلافاتٌ كثيرةٌ فالواجبُ علينا أن نَنْزِعَ فتيلَ هذا الاختلافِ، وأن نَكُونَ أمَّةً واحدةً؛ حتى لا نتفرَّقَ فنفشَلَ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ يعني: ولا يَكُنْ لكمْ قيمةٌ. ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

ولهذا نَجِدُ الآنَ -مع الأسفِ الشديدِ- أن ما يُسَمَّى بـ(الصحوةِ الإسلاميَّةِ) أُصيبَت بهذا البلاءِ، وصار نَفْسُ المُتَدَيِّنِينَ يَلْمِزُ بعضُهُم بعضًا، ويُضَلِّلُ بعضُهُم بعضًا، ويُبَدِّعُ بعضُهُم بعضًا، وربما يُكَفِّرُ بعضُهُم بعضًا، فضاعت تلك الصحوةُ، وصار الذين يُرادُ منهم أن يكونوا حزبًا على أعداءِ اللهِ، وحربًا على أعداءِ اللهِ، صاروا حربًا على أنْفُسِهم، وأحزابًا بأنفُسِهم، وهذا ما يَبْذُلُ فيه العدوُّ أغلى ما يكونُ لِيَحْصُلَ، وقد حَصَلَ له مجَّانًا؛ فالواجبُ علينا أن نُزيلَ هذه الاختلافاتِ، وأن نَدَعَهَا، وأن نَتْرُكَ ما يُعَمِّرُ به كثيرٌ من الناسِ مجالسَهُم في سبِّ فلانٍ وفلانٍ، أو ذمِّ فلانٍ وفلانٍ، أو الغلوِّ في فلانٍ وفلانٍ؛ لأنَّ هذا يُضَيِّعُ الأوقاتَ، ويولِّدُ الأحقادَ، ولا يُفيدُ شيئًا، بل يَضُرُّ، ما لنا ولفلانٍ، إن كان ميتًا فقد واجه الحسابَ، وإن كان حيًّا فنرجو له

الاستقامةَ، وأمَّا أن نَجْعَلَ أَكْبَرَ هَمِّنا هو هذا الكلامُ الذي لا يَعُودُ إلى الأمَّةِ إلا بالشَّرِّ فلا!.

ولهذا يَنْهَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ عن التفرُّقِ في عدَّةِ آياتٍ، كما في هذه الآيةِ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾.

فإذا اختلفْتَ أنت وصاحبُكَ في رأيٍ من الآراءِ، وهو محلٌّ للاجتهادِ؛ فالواجبُ أن تعتقدَ أنَّ صاحِبَك لم يخالفْك؛ لأنَّه سَلَكَ السبيلَ الذي تسلُكُه أنت، هو اجتهد فقال هذا هو الصوابُ، وأنت اجتهدْتَ فقلْتَ: هذا هو الصوابُ، إذن: مرادُ كلِّ واحدٍ منكما الوصولُ إلى الحقِّ، ولا يُمْكِنُ أن يكونَ اجتهادُكَ حُجَّةٌ عليه، ولا اجتهادُهُ حُجَّةً عليكَ، وحينئذٍ نكُونُ في الواقعِ مُتَّفِقين، حتى لو خالفني فأنا أعتقدُ أنه يوافقني؛ لأننا كلنا نقصدُ الحقَّ، ولا نريدُ مُخالفةَ الحقِّ.

لكن مع الأسَفِ الآنَ بعضُ الناسِ يَتَّخِذُ من هذا الخلافِ، الذي هو محلُّ الاجتهادِ، يَتَّخِذُ منه سُلَّمًا للتفرُّقِ والطَّعْنِ، قبل سنواتٍ في منًى حَضَرَتْ طائفتانِ إفريقيَّتَانِ، كلُّ واحدةٍ تَلْعَنُ الأخرى وتُكَفِّرُها، فأتوا إلى مدير التَّوعِية التي أنا من ضِمْنِ أعضائِها، أتوْا إليه مُتشاكِسِينَ جدًّا جدًّا في منًى، في أيامِ الحَجِّ في شهرٍ حرامٍ في بلدٍ حرامٍ؛ فهو -جزاه اللهُ خيرًا- حَضَرَ إليَّ معهم، وسألته فقال: هؤلاء كفارٌ، هؤلاء رَغِبوا عن سُنَّةِ الرسولِ ﷺ وقد قال النبيُّ ﷺ: «**مَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي فليس مني**»[1] ونحن نَبْرَأُ منهم كلامٌ طويلٌ عريضٌ.

والخلافُ أن إحدى الطائفتين تقولُ: إذا قام يصلي فإنه يضعُ اليدَ اليمنى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣)، ومسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، رقم (١٤٠١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

على اليسرى، والطائفةُ الأخرى تقولُ: إذا قام يُصلي يُرسلُ يديه. والمسألةُ ليست خلافًا في العقيدةِ، وإنما المسألةُ خلافٌ في سُنَّةٍ من سننِ الصلاةِ، وهي محلُّ اجتهادٍ، كلُّ واحدٍ يقولُ للآخرِ إنه كافرٌ؛ لأنَّه رَغِبَ عن سُنَّةِ النبيِّ ﷺ وقد قال ﷺ: «مَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي فليس مني». انْظُرِ البلاءَ.

الآن الشبابُ صار خلافُهُم في أمرٍ آخَرَ في الأشخاصِ، يجعلون الشخصَ هدفًا، ما تقولُ في فلانٍ؟ إن قال: واللهِ فلانٌ من خيرِ عبادِ اللهِ، انشرح صدرُه، وكأنما أُعْطِيَ الجنَّةَ، وإذا قال: واللهِ هذا الرجلُ عنده انحرافٌ في المَسْلَكِ، إنسانٌ فيه كذا وفيه كذا انقبض، وضاق صَدْرُه، وتَرَكَ صاحبَه.

وهذا غَلَط يا إخوانُ! فالرجالُ إن أخطؤوا فاسألِ اللهَ أن يَعْفُوَ عنهم خَطَأَهم؛ لأنَّهم مسلمون مَهْمَا كانوا لا يخرجون من الإسلامِ، وإن أصابوا فخُذْ بصوابِهم واحمَدْهم، وخَطَؤُهم لا تَأْخُذْ به، أما أن تَجْعَلَهُم مَحَكًّا للولاءِ والبَرَاءِ، فهذا غَلَطٌ عظيمٌ.

فإن قال قائلٌ: في بعضِ الأحيانِ قد يُسألُ الإنسانُ من بعضِ العوامِّ، أو من المستقيمين الذين ليس عندهم عِلْمٌ: ما رأيُكَ في فلانٍ وفلانٍ ممن هم معيَّنون، فما هو موقفُ طالِبِ العِلْمِ؟

فالجوابُ: إذا قال: ما رأيُكَ في فلانٍ وفلانٍ؟ فنحن نَعْرِفُ الآن أنَّ هناك رؤوسًا هي الناقوسُ للناسِ، هذه إذا سألني أقولُ: «ما لك ولفلانٍ؟ دَعْه إن كان ميتًا فقد واجه رَبَّه، وإن كان حيًّا فنسألُ اللهَ له الاستقامةَ»، فقط؛ أمَّا إذا حَدَّدَ فقال: ما تقولُ في رأيِ فلانٍ، هنا يجبُ أن أتكلَّمَ، أقولُ: هذا صوابٌ أو خطأٌ، حسبما يكون عندي.

فلذلك أنا أدعو إخوانَنَا من السُّعُودِيِّين وغَيْرِهم، إلى نَبْذِ هذه الطريقِ، والبُعْدِ عنها، وأن نعتقدَ أننا إخوانٌ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منا مَجْزِيٌّ بعملِه، وألا نجعلَ هذا سببًا للتفرُّقِ، لأنَّ اللهَ نهانا، ونحن نعلمُ علمَ اليقينِ أنَّ اللهَ لا ينهانا إلا عن شيءٍ فيه ضَرَرُنَا.

فائدةٌ: الشِّيعَةُ خلافُهُم متباينٌ مع أهْلِ السُّنَّةِ، ليس خلافُ الشيعةِ مع أهلِ السُّنَّةِ كخلافِ الشافعيَّةِ مع المالكيَّةِ مثلًا، لا أبدًا، اختلافٌ عظيمٌ، اختلافٌ في أصْلِ العقيدةِ؛ فمثلًا من أصولِ عقيدةِ الشِّيعَةِ أنَّ عندهم رؤوسًا يُسَمُّونهم الأئمَّةَ، يدَّعون أن من هؤلاءِ الأئمةِ من يَعْلَمُ الغيْبَ، ويُدَبِّرُ الكوْنَ، وأن من أئمَّتِهم من يَبْلُغُ منزلةً لا يبلُغُها مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نبيٌّ مُرْسَلٌ، يعني: معناها منزلةُ الربوبيَّةِ، هذا لا يُمْكِنُ أن نَتَّفِقَ معهم بأيِّ حالٍ من الأحوالِ، ومنهم من يَسُبُّ الصحابةَ عمومًا إلا نفرًا قليلًا، ومنهم من يَلْعَنُ أبا بكرٍ وعمرَ، ويقول: إنهما ماتا على النفاقِ.

والعجيبُ أني رأيتُ في كتابِ ابْنِ حزمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (المِلَل والنِّحَل)[1] رأيتُ شِيعَةً تُكَفِّرُ عليًّا وتُكَفِّرُ أبا بكرٍ، كلا الاثنين، أمَّا أبو بكرٍ فتقول: لأنه ظَلَمَ بأخْذِ الخلافةِ، وأمَّا عليٌّ فإنه تراخى عن الواجبِ عليه، لماذا لم يَمْنَعْ أبا بكرٍ، فهذا معتدٍ وهذا مُفَرِّطٌ، وكلاهما كافرٌ؛ لم يبق إلا أن يقولوا الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لماذا لم يُعَيِّنْه من البدايةِ ويقطعُ النِّزاعَ، شيءٌ عجيبٌ.

وأقولُ: هذا لا يُمْكِنُ الاتفاقُ معه، لكنَّ الاتفاقَ مع المالكيَّةِ والشافعيَّةِ والحنابلةِ، هذا ممكنٌ، فالخلافَ بيْنَ المالكيَّةِ والشافعيَّةِ والحنابلةِ والأحنافِ، وما أَشْبَهَهم هذا ليس خلافًا في الواقعِ، إلا إنسانًا مُتعصبًا نقولُ: هذا الحقَّ، ويقولُ: لا.

---

(١) الملل والنحل (١/ ١٧٤).

وهنا يقولُ الله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ يعني: غَيْرُ مُغالين فيه، ولا مُقَصِّرِينَ. ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ اجتمعوا عليه.

وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿كَبُرَ﴾ بمعنى: عَظُمَ]، واشتدَّ عليهم، ﴿عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني: باللهِ، ما تدعوهم إليه من التوحيدِ؛ لأنَّ المُشركَ ما يَكْبُرُ عليه هو التوحيدُ، أَكْبَرُ شيءٍ عنده هو التوحيدُ، يعني: أكبرُ شيءٍ يشقُّ عليه هو التوحيدُ، ولهذا قالوا في الرسولِ ﷺ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص:٦] انظرْ صَبَّرُوا أنْفُسَهم على الشِّرْكِ -والعياذُ باللهِ- وقالوا في التوحيدِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾؛ أيْ: عجيبٌ جدًّا، والشيءُ العُجابُ حقيقةً هو إشراكُهُم باللهِ عَزَّوَجَلَّ الذي يُقِرُّونَ هم أنه خالِقُهُم، ولا خالقَ سواه.

من هنا نَأْخُذُ أن المشركين يَعْظُمُ عليهم التوحيدُ، وأقولُ لكم: إذا كان يَعْظُمُ عليهم التوحيدُ فلا بدَّ أن يفعلوا كلَّ سببٍ يَحُولُ بَيْنَ هذا التوحيدِ وقيامِهِ وانتشارِهِ، فكلُّ شيءٍ عظيمٌ عليك لا بدَّ أن تدافعَ عنه، فهم الآن حربٌ على التوحيدِ وأهْلِه.

ولهذا تَسْمَعُ الآن مُخططاتِ النصارى -على ما في ديانتِهم التي هم عليها من الضلالِ والمخالفةِ للمعقولِ والمحسوسِ-، تَجِدُهُم يَبُثُّون الإذاعاتِ القويَّةَ التي ليس فيها تشويشٌ، والتي تأتي في أوقاتٍ مناسبةٍ للدعوةِ إلى الدِّينِ الذي هم عليه، ما أقولُ إلى دينِ المسيحِ، فالمسيحُ بريءٌ منه، لكن إلى الدِّينِ الذي هم عليه، تَجِدُ بعضَ أهلِ البدعِ يَكْبُرُ عليهم جدًّا من يدعو إلى السُّنَّةِ، ويُحاربون من يدعو إلى السُّنَّةِ، ويُشَوِّهُونَ السُّمْعَةَ؛ لأنَّه عظيمٌ عليهم، فهنا يقول: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾.

يقولُ: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ﴾ ﴿يَجۡتَبِيٓ﴾ بمعنى: يختارُ ويصطفي، وقولُهُ: ﴿إِلَيۡهِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إلى التوحيد]. أعاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ الضميرَ إلى التوحيدِ، ولكنْ فيه احتمالٌ أقوى مما قال، وهو أنَّ الضميرَ يعودُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ أي: اللهُ يجتبي إلى نَفْسِهِ عَزَّوَجَلَّ من يشاءُ، ويهدي إلى نفْسِه من يُنيبُ، وهذا أحسنُ مما سلك المُفسِّر؛ فاللهُ تعالى يختارُ إليه من يشاءُ -نسألُ اللهَ تعالى أنْ يَجْعَلَنا وإياكم ممن اختارهم إليه، ويَكْرَهُ آخرين- فالأوَّلُون يَهْدِيهم صِراطَهُ المستقيمَ، والآخرون يُضِلُّهُم؛ لأنَّهم هم الذين فعلوا السَّبَبَ.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ﴾ تقدَّم آنفًا قريبًا جدًّا أنَّ كلَّ شيءٍ عَلَّقَه اللهُ بالمشيئةِ فإنه مقرونٌ بالحكمةِ، لا يشاءُ شيئًا إيجادًا أو إعدامًا، أو تغييرًا إلا لحكمةٍ.

وقوله: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: من يُقْبِلُ إلى طاعته] يقولُ الشارحُ: من يُقْبِلُ إلى طاعتِه فهو يَهْدِيه اللهُ إليه. وقد ثَبَتَ عن النبيِّ ﷺ فيما رواه عن ربِّهِ؛ أن اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقولُ: «ما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضْتُهُ عليه». يعني: الفرائضَ أحبُّ إلى اللهِ من النوافلِ «ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتى أحبَّه، فإذا أَحْبَبْتُه كُنْتُ سَمْعَه الذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ التي يمشي بها»[1] وكذلك قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الحديثِ القدسيِّ: «من تَقَرَّبَ إليَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إليه ذراعًا، ومن تَقَرَّبَ إليَّ ذراعًا تَقَرَّبْتُ إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»[2] فمن أناب إلى اللهِ، فإن اللهَ يَهديه إليه؛ ويُعِينُه ويُسَدِّدُه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ شَرْعَ الدِّينِ عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَحْدَهُ، ولهذا أَنْكَرَ اللهُ تعالى على الذين يُشَرِّعُونَ لأقوامِهم دِينًا لم يَأْذَنْ به اللهُ، فقال: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الأصلَ في العباداتِ المنعُ، إلا بدليلٍ، ولهذا إذا رأيتَ شخصًا يعملُ عملًا يتقرَّبُ به إلى اللهِ، فَأَنْكِرْ عليه، إلا إذا أقام دليلًا، بخلافِ غيرِ العباداتِ فالأصلُ فيها الحِلُّ، ولهذا إذا رأيت شخصًا يفعلُ شيئًا ليس عبادةً فأنْكَرْتَ عليه فعليك الدليلُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن أديانَ الأنبياءِ واحدةٌ؛ من نوحٍ إلى محمدٍ ﷺ؛ لقولِهِ: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ فما هذا التوحيدُ في الأديانِ؟ التوحيدُ في الأديانِ هو ما أفاده قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، فهذه القاعدةُ العامَّةُ في جميعِ الرسالاتِ ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾. أمَّا الشرائعُ والمنهجُ فلكلِّ أمَّةٍ ما يناسبُها؛ لقولِهِ تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

ولهذا نَجِدُ أنَّ بني إسرائيلَ يُشَدِّدُ اللهُ على أقوامٍ منهم بالشريعةِ، ويُخَفِّفُ بالشريعةِ الأخرى، قال عيسى ابْنُ مريمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠].

إذن الأصلُ هو توحيدُ الرسالاتِ، وهذا الأصلُ هو المشارُ إليه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾. أمَّا الشرائعُ والمناهجُ فهذا يُشَرِّعُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لكلِّ أمَّةٍ ما يُناسِبُها، حتى الأُمَّةُ الواحدةُ يُشَرِّعُ لها ما يناسِبُها

في أوَّلِ أَمْرِها، وفي آخِرِ أمْرِها، كالمنسوخِ في هذه الشريعةِ الإسلاميَّةِ.

فإن قال قائلٌ: هل شَرْعُ من قَبْلَنا شرعٌ لَنا؟

فالجوابُ: هذا فيه خلافٌ، بعضُ العلماءِ يقولُ: شرعُ من قَبْلَنا شرْعٌ لنا، وبعضُهُم يقولُ: لا، شرعُ من قَبْلَنا لهم، ولنا شَرْعُنا؛ لقولِهِ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، والمسألةُ لها ذيولٌ طويلةٌ، وبحوثٌ عميقةٌ في أصولِ الفقهِ، والظاهرُ لي: أنَّ شَرْعَ من قَبْلَنا الذي أوحاه اللهُ إلينا شرعٌ لنا؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يُوحِ إلينا عبثًا، بل لنَعْتَبِرْ ثم إنْ نُسِخَ في شريعَتِنا نُسِخَ، ولذلك تَجِدُ العلماءَ يستنبطون أحكامًا كثيرةً من قصصِ الأنبياءِ، ولشيخِنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ فوائدُ مستنبَطةٌ من قِصَّةِ يوسُفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في رسالة.

فإن قال قائلٌ: هل النَّسْخُ شاملٌ لكلِّ أمةٍ سابقةٍ، أو هو خاصٌّ لأمَّةِ محمدٍ؟

فالجوابُ: لا، بل لنا ولغيرِنا، قالَ اللهِ تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء:١٦٠]، هذا نَسْخٌ؛ كانت هذه الطَّيِّباتُ حلالًا ثم نُسِخَتْ وحُرِّمَتْ والشريعةُ واحدةٌ، أما الشريعتان فقال عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لبني إسرائيلَ: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ نبوَّةِ نوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى عليهم السلام؛ لقولِهِ تعالى: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: عنايةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالشرائعِ؛ حيث جعل ذلك وصيَّةً، والوصيَّةُ هي العهدُ بالشيءِ المهتمِّ به.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ هذا القرآنَ الكريمَ وحيٌ أوحاه اللهُ تعالى إلى رسولِهِ ﷺ؛ لقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن القرآنَ شاملٌ لجميعِ الشريعةِ؛ لقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

فإن قال قائلٌ: في الشريعةِ ما لا يُوجَدُ في القرآنِ تفصيلًا؟

فالجوابُ: تكفي الإشارةُ إليه. يعني: لو أننا بَحَثْنَا هل في القرآنِ ما يدلُّ على عددِ الصلواتِ، وعلى عددِ ركعاتِها، وعلى كيفيَّتِها لكان الجوابُ: لا يوجَدُ. لكنَّ كَوْنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يأمُرُنا أن نطيعَ رسولَ اللهِ ﷺ وأن نَتَّبِعَه يكفي، لأنَّ سُنَّةَ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قد أُمِرْنَا بها، وبكلِّ ما تتضمنه، وعلى هذا تكونُ الشريعةُ كُلُّها موجودةً في القرآنِ، إما بالإشارةِ والإيماءِ، وإما بالتصريحِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثباتُ رسالةِ النبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- حيث قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الأممَ جميعَهُم مأمورون بإقامةِ الدِّينِ، وعدمِ التفرُّقِ فيه؛ لقولِهِ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ التفرُّقَ في دينِ اللهِ مُنافٍ للذي أوحى اللهُ إلى رسولِهِ ﷺ ووصَّى به نوحًا وإبراهيمَ وموسى وعيسى.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن ما يدعو إليه النبيُّ ﷺ من التوحيدِ كان عظيمًا وشاقًّا على المشركين؛ لقولِهِ: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.

ويتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنه متى ما كان التوحيدُ كبيرًا على المشركين، فلا بدَّ أن يَسْعُوا بكلِّ جهودِهِم على إحباطِ هذا التوحيدِ؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ بمقتضى فِطْرَتِهِ لا بدَّ أن يسعى في إزالةِ ما يكونُ شاقًّا عليه. ويتفرَّعُ على ذلك فائدةٌ: وهو الحَذَرُ من كَيْدِ المُشْرِكين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يدعو المسلمين وغيرِ المسلمين لدِينِ اللهِ؛ لقولِهِ: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ وهذا قد وَقَعَ تطبيقُهُ، وشاهِدُهُ في حالِ النبيِّ ﷺ كان يَخْرُجُ إلى البلادِ الأخرى لِيَدْعُوَ الناسَ إلى التوحيدِ، كما خَرَجَ إلى الطائفِ، وكان في مَوْسِمِ الحَجِّ يَعْرِضُ نَفْسَهُ على القبائِلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يأتي لكلِّ قبيلةٍ ويدعوهم، ويقولُ: «**ألا أحدَ يؤويني -أو كَلِمَةً نَحْوَها- حتى أُبَلِّغَ رسالةَ ربي، فإن قريشًا منعوني أن أُبَلِّغَ كلامَ ربي**»[1].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أن اللهَ قد يَمُنُّ على بعضِ العِبَادِ بالاجتباءِ والهدايةِ؛ لقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ مشيئةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لفعْلِ العبْدِ؛ لقولِهِ: ﴿يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ فيكونُ فيها رَدٌّ على القَدَرِيَّةِ، الذين يقولون: إن الإنسانَ مستقلٌّ بعمَلِه، ولا مشيئةَ للهِ تعالى في فِعْلِه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ الهدايةِ لكلِّ مُنيبٍ، وهذه الهدايةُ غيرُ الإنابةِ، الإنابةُ هدايةٌ سابقةٌ؛ لكن كلما أناب الإنسانُ إلى ربِّه ازداد هدايةً.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: عصمةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَن يُنيبُ من البدعِ والمخالفاتِ؛ لقولِهِ: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ﴾ وهذا -بلا شكٍّ- ضدَّ البِدَعِ؛ لأنَّ البدعَ ليس فيها هدايةٌ إلى اللهِ، بل هي ضلالةٌ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الحثُّ على الإنابةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ لأنَّه سببٌ للهدايةِ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٩٠)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في القرآن، رقم (٤٧٣٤)، والترمذي: كتاب فضائل القرآن، رقم (٢٩٢٥)، وابن ماجه: المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (٢٠١)، والنسائي في الكبرى رقم (٧٦٨٠)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: الرَّدُّ على الجبريَّةِ؛ لقولِهِ: ﴿مَن يُنِيبُ﴾ فأضاف الفعلَ إلى العبْدِ، والجبريَّةُ لا يُضِيفونَ الأفعالَ إلى العبْدِ، يقولون: إن العبْدَ يَفْعَلُ بغيرِ إرادةٍ ولا اختيارٍ.

ففي الآيةِ إذن: ردٌّ على القَدَرِيَّةِ وردٌّ على الجبريَّةِ، وهما طائفتان مُبْتَدِعَتان مُتَطَرِّفَتان، والمذهبُ الوسطُ هو الذي يَقُولُ: إنَّ الإنسانَ لا يُجْبَرُ على عملِه، وأنه يفعلُ الفعلَ باختيارِه، ولا يَشْعُرُ أنَّ أحدًا أَجْبَرَهُ، لكننا نَعْلَمُ أن هذا الفعلَ الذي وَقَعَ منه واقعٌ بمشيئةِ اللهِ وإرادةِ اللهِ، ولا يُمْكِنُ أن يستقلَّ الإنسانُ بشيءٍ في الكَوْنِ من دونِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

• • ۞ • •

الآية (١٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ [الشورى:١٤].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ أي: أهلُ الأديانِ في الدينِ بأن وَحَّدَ بعضٌ، وكَفَرَ بعضٌ، ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ بالتوحيدِ ﴿بَغۡيَۢا﴾ من الكافرين، ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾].

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ يقولُ المُفسِّر: [أي: أهلُ الأديانِ] وهذا تفسيرٌ جيدٌ، وقد ذَكَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورةِ البيِّنَةِ قولَهُ: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ [البيِّنَة:٤]، فهل نقولُ: إن هذه الآيةَ العامَّةَ، ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ تُخَصَّصُ بآيةِ البيِّنةِ، ويكونُ المرادُ: وما تَفَرَّقَ الذين أوتوا الكتابَ؟ أو نقولُ: هي عامَّةٌ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بعضٌ من الأفرادِ، وإذا ذُكِرَ بعضُ الأفرادِ بحكمٍ يطابقُ حكمَ العامِّ، فإنه لا يُعَدُّ مُخَصِّصًا؟ الجوابُ: الثاني. وهذه قاعدةٌ أصوليَّةٌ أنه إذا ذُكِرَ بعضُ أفرادِ العامِّ بحكمٍ يطابقُ العامَّ، فهذا ليس بتخصيصٍ.

مثالُهُ: قلتُ: أَكْرِمِ الطلبةَ، ثم قلتُ: أَكْرِمْ محمَّدًا وهو منهم، هل هذا يقتضي ألا تُكْرِمَ سواه؟ لا، إذن: ذِكْرُهُ بحكمٍ يوافقُ حُكْمَ العام، لا يقتضي تخصيصَه به،

أمَّا لو كان يُخَالفُ فهذا تخصيصٌ، لو قلتَ: أكرمِ الطلبةَ، ثم قلتَ: لا تُكْرِمْ محمدًا، فحينئذٍ يَخْرُجُ حُكْمُهُ عن حكمِ العامِّ.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ قولُ المُفسِّر: [بأن وَحَّدَ بعضُهُم وكَفَرَ بَعْضٌ] هذا مناسبٌ؛ لقولِهِ: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِ﴾ وإلا فالاختلافُ أوسعُ من أن يكونَ اختلافًا في التوحيدِ والكفرِ.

وقوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ فيكونُ تَفَرُّقُهم عن علمٍ، قد قامت عليهم الحُجَّةُ. وقولُهُ: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ مفعولٌ لأجْلِه، أي: أنَّ تَفَرُّقَهم للبغْيِ والعُدوانِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ لتأخيرِ الجزاءِ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾...إلخ].

قولُهُ: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ الكلمةُ التي سَبَقَتْ من اللهِ هي تأخيرُ الجزاءِ، حتى يُوافوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي: مُعَيَّنٌ، وهو يومُ القيامةِ ﴿لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ بتعذيبِ الكافرين في الدنيا]. ﴿لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: فُصِلَ وحُكِمَ بينهم، وأُهْلِكَ الكُفَّارُ وأُبْقِيَ المُوَحِّدون.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ وهم اليهودُ والنصارى ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾ من محمدٍ ﷺ ﴿مُرِيبٖ﴾ مُوقِعٌ في الرِّيبَةِ].

قولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ الكلمةُ هي أنه قضى عَزَّوَجَلَّ بتأخيرِ العذابِ عنهم، فتنةً واختبارًا، وقد أشار اللهُ تعالى إلى هذه الفتنةِ والاختبارِ،

بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤]، لو انتصرَ اللهُ منهم وأَهْلَكَهُم ما بَقِيَ للجهادِ محلٌّ، و لا بَقِيَ للمؤمنين محنةٌ واختبارٌ؛ ولهذا قال: ﴿لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

وقولُهُ: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: مُعَيَّنٌ مُحَدَّدٌ؛ وذلك يومُ القيامةِ، يومُ القيامةِ محدَّدٌ في عِلْمِ اللهِ، لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ، كما أنَّ موتَ الإنسانِ مُحَدَّدٌ من قِبَلِ اللهِ لا يَتَقَدَّمُ ولا يَتَأَخَّرُ.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: أَعْطُوهُ، مجانًا. يعني: بدون تعبٍ، كما أن الوارِثَ يَرِثُ مالَ مُوَرِّثِه بدونِ تعبٍ مجانًا.

وهل المرادُ بالكتابِ هنا التوراةُ والإنجيلُ، أم المرادُ بالكتابِ القرآنُ؟ ويكونُ المعنى: وإن الذين أُورِثُوا الكتابَ وهو القرآنُ من بَعْدِهِم؛ أي: من بَعْدِ الذين تَفَرَّقُوا من أهلِ الكتابِ وغيرِهم ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾؛ أي: من هذا الكتابِ ﴿مُرِيبٍ﴾، هذا الذي قُلْته أَحْسَنُ مما ذَهَبَ إليه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أمَّا المُفسِّر فيُفيدُ قولُهُ: أنَّ المرادَ بالكتاب: التوراةُ والإنجيلُ؛ لأنَّه قال: [هم اليهودُ والنصارى] فاليهودُ لهم التوراةُ، والنصارى لهم الإنجيلُ، ولكن الظاهرَ أنَّ المرادَ بالكتابِ هو هذا القرآنُ.

وقوله: ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾؛ أي: من هذا الكتابِ، ﴿مُرِيبٍ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [موقعٌ في الرِّيبَةِ]، والريبةُ أشدُّ من الشكِّ؛ لأنَّها ارتيابٌ وقلقٌ، الشاكُّ قد يكونُ باردَ الضميرِ، ليس عنده قلقٌ، لكن المرتابَ أَشَدُّ، والغالبُ أن الارتيابَ يكُونُ مع تَعَارُضِ الأدلَّةِ، التي كلُّ واحدٍ منها يقتضي أن يكونَ المصيرُ إليه، فيرتابُ

الإنسانُ ويتردَّدُ ويَقْلَقُ، لكنَّ الشكَّ المجرَّدَ هو شكٌّ، لا شكَّ في هذا، لكن لا يُؤَدِّيَ إلى الرِّيبَةِ، إلا إذا عَظُمَ وقَوِيَ، وتعارضتِ الأدلَّةُ؛ حينئذٍ يبقى الإنسانُ في ارتيابٍ شديدٍ.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ تَفَرُّقَ هؤلاء كان بَعْدَ أن قامت عليهم الحُجَّةُ؛ لقولِهِ: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ﴾ [الجاثية:١٧].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن من خالفَ الدِّينَ بَعْدَ مجيءِ العِلْمِ فإنه باغٍ معتدٍ؛ لقولِهِ: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِهِ: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ ولا شكَّ أنَّ اللهَ تعالى موصوفٌ بالكلامِ؛ لأنَّه كمالٌ، وضدُّ الكلامِ الخَرَسُ، والخَرَسُ نقصٌ، فلو نَفَيْنَا الكلامَ؛ لَزِمَ من ذلك ثبوتُ الخَرَسِ وهذا نقصٌ يُنَزَّهُ اللهُ عنه.

فإن قال قائلٌ: ما هو كلامُ اللهِ؟

فالجوابُ: كلامُ اللهِ هو المسموعُ بالآذانِ، يَسْمَعُه جبريلُ ويسمعُه غيرُهُ ممن يُكَلِّمُه اللهُ، هذا هو الحقُّ، وقد وافَقَنَا عليه الجهميَّةُ، فقالوا: إن كلامَ اللهِ هو المسموعُ بالآذانِ، لكننا اختلفْنَا عنهم بأنهم يقولون هو مخلوقٌ، ونحن نقولُ: إنه ليس بمخلوقٍ. أمَّا الأشعريَّةُ والكُلابيَّةُ وأمثالُهُم فقالوا: كلامُ اللهِ هو المعنى القائمُ بنفْسِه، وليس المسموعَ؛ فالمسموعُ عِبَارَةٌ -أو حكايةٌ- عن كلامِ اللهِ، وكلامُ اللهِ هو ما قام في نفْسِه، ولذلك يَرَوْنَ أن كلامَ اللهِ لا يتعلَّقُ بمشيئتِهِ، فلا يقولون: إن اللهَ يتكلَّمُ متى شاء؛ لأنَّه معنى قائمٌ بالنفسِ كقيامِ السمعِ والبصرِ.

ولا شَكَّ أنَّ هذا قولٌ باطلٌ، وأنه أَبْعَدُ من الصوابِ من قولِ الجهميَّةِ؛ لأنَّ الجهميَّةَ يُصَرِّحُونَ بأنَّ كلامَ اللهِ هو المسموعُ، وليس المعنى القائمَ بالنَّفْسِ، لكنهم يقولون: إنَّه مخْلُوقٌ.

هؤلاء إذًا قالوا: إن كلامَ اللهِ هو المعنى القائمُ بنفسه، وخَلَقَ أصواتًا تُعبِّرُ عما في نفْسِه؛ لم يخالفوا الجهميَّةَ، فقد اتفقوا على أنَّ هذا المصحفَ الذي بَيْنَ أيدينا مخلوقٌ، لكن الجهميَّةَ صاروا أَشْجَعَ من الأشعريَّةِ، فالجهميَّةُ قالوا: هذا كلامُ اللهِ، وأولئك قالوا هو عبارةٌ عن كلامِ اللهِ.

فإن قال قائلٌ: ما الفرقُ بين عبارةِ كلامِ اللهِ وحكايةً عن كلامِ اللهِ؟

فالجوابُ: معنى العبارةِ أنه لا عَلاقةَ بَيْنَ ما في نفْسِه وبَيْنَ ما خَلَقَهُ، قد يكونُ في نفْسِه شيءٌ الآن ويَخْلُقُه بعد ساعةٍ أو ساعتين.

أما الحكايةُ فهي كحكايةِ الصَّدَى، الصَّدَى الآن إذا كنتَ بَيْنَ جبالٍ وتَكَلَّمْتَ تَسْمَعُهُ يَرُدُّ عليك، هذا يُسَمَّى حكايةً، وهذا يَلْزَمُ منه أن يكونَ ما يُسْمَعُ في الحالِ.

فليس هناك فرْقٌ بيِّنٌ، لكن الأشاعرةَ يقولون: عبارةٌ، والكلابيَّةُ يقولون: إنه حكايةٌ، فالعبارة معناها أن الله خَلَقَه ليعَبِّرَ، خَلَقَ هذا الصوتَ ليعَبِّرَ عما في نفْسِه، والحكايةُ تُشْبِهُ ما يُعْرَفُ بالصدى، إذا كان الإنسانُ بين جبالٍ وتَكَلَّمَ تَجِدُ كلَّ الجبالِ يكونُ لها صوتٌ تحكي صوتَ اللهِ. والعباراتُ الباطلةُ كُلُّهَا سيئةٌ.

أما عبارة للموفَّقِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عقيدَتِهِ فهي التي جاء بها الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالإمامِ أحمدَ نفسُه فَسَّرَها قال: «نؤمنُ بذلك، لا كَيْفَ، ولا مَعْنَى»[1]، ومرادُهُ بقولِهِ:

(١) انظر: الإبانة لابن بطة (٧/ ٥٨).

«لا معنى» ما ذهب إليه أهلُ التحريفِ الذين يجعلون لآياتِ الصفاتِ معنًى يُعَيِّنُونَهُ هم؛ لأنَّه قال: «لا كَيْفَ» ردًّا على المُمَثِّلَةِ «ولا معنى» ردًّا على المُعَطِّلَةِ.

فالمرادُ بالمعنى الذي نفاه الإمامُ أحمدُ، وتَبِعَهُ ابنُ قُدَامَةَ[1] رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ المرادُ به المعنى الذي ابتكره هؤلاء المُعَطِّلَةُ.

ونحن نقولُ: إنَّ اللهَ تعالى أضاف الكلامَ إلى نفْسِه، وقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، وأكَّدَ ذلك بقولِهِ: ﴿تَكۡلِيمًا﴾ أثبتتِ الأدلَّةُ أنَّه يُكَلِّمُ من شاء من خَلْقِهِ، فما الذي يجعلُنا نُحَرِّفُ، وأيُّهما أحقُّ بالكمالِ، إلهٌ يتكلَّمُ متى شاء بما شاء، وإلهٌ لا يتكلَّمُ؟

الجوابُ: الأوَّلُ؛ بل الثاني لا يستحقُّ أن يكون إلهًا؛ ولهذا قال إبراهيمُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم:٤٢].

إذن: من قولِهِ: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ﴾ نستفيدُ إثباتَ الكلامِ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: حِكْمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بتأخيرِ العقوبةِ عن العصاةِ، ومن الحُكْمِ في هذا أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُمْهِلُهُم لَعَلَّهُم يستعتبون، ولذلك قال: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [فاطر:٤٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الدنيا لـها حدٌّ؛ لقولِهِ: ﴿مُّسَمّٗى﴾؛ أي: مُعَيَّنٌ محدودٌ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾؛ أي: العذابَ ﴿إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الذين أُورثوا الكتابَ من بعدهم في شكٍّ منه مُريبٍ،

---

(١) انظر: لمعة الاعتقاد (ص:٦-٧)، وذم التأويل (ص:٢٢).

يعني: اليهودَ الذين أدركوا هذا القرآنَ، وورِثُوه من بَعْدِ اليهودِ السابقين، وكذلك النَّصارى في شكٍّ منه مُريبٍ.

ويتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أن مِثْلَ هؤلاء لا تَنْفَعُ فيهم المواعظُ، ولا الآياتُ؛ ويدُلُّ لهذا قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونُس:١٠١].

• • ۞ • •

الآية (١٥)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الشورى:١٥].

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ المشارُ إليه إقامةُ الدِّينِ وعدمُ التفرُّقِ فيه.

وقولُهُ: ﴿فَٱدۡعُ﴾ الفاءُ زائدةٌ لتحسينِ اللفظِ، والأصلُ فلذلك ادْعُ، ولهذا نقولُ: إنَّ هذه الجملةَ فيها حصرٌ، تقديمُ ما حقُّهُ التأخيرُ، والمقدَّمُ هو الجارُّ والمجرورُ، ولهذا قلتُ لكم: إنَّ الفاءَ في قولِهِ: ﴿فَٱدۡعُ﴾ زائدةٌ لتحسينِ اللفظِ، ولولا أنَّها من كلامِ اللهِ، لقُلنا: فلذلك ادْعُو، وهذا هو السرُّ في أنَّنا قلنا: إنَّ هذه الجملةَ تفيدُ الحَصْرَ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ التوحيدُ] ولو قال: ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ أي: لإقامةِ الدِّينِ وعدمِ التفرُّقِ فيه لكان أَجْوَدَ ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ﴾ والخطابُ للرسولِ ﷺ ولهذا قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يا محمدُ الناسَ] الناسَ: أشار به إلى أن مفعولَ (ادْعُ) محذوفٌ، والتقديرُ: الناس.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱسۡتَقِمۡ﴾ عليه ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ في تَرْكِه]، ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ هذا ليس خاصًّا بالرسولِ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لقولِهِ

تعالى في سورةِ هودٍ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود:١٢١].

وقولُهُ: ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾؛ أي: على الوجْهِ الذي أُمِرْتَ من غيرِ زيادةٍ ولا نَقْصٍ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أهواؤُهم التي نُهِيَ عن اتِّباعِهَا ما يُخالفُ ما أُمِرَ به. ولهذا قال الشارحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في تَرْكِهِ].

قولُهُ: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ قل: مُعلنًا لهم ولغيْرِهم، ﴿ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ آمنتُ بمعنى: أقررتُ، والإيمانُ هو الإقرارُ المستلزِمُ للقَبولِ والإذعانِ. وليس مجرَّدَ الإقرارِ، ولهذا نقولُ: إنَّ أبا طالبٍ ليس بمؤمنٍ، مع أنَّه مُقِرٌّ بِرِسَالةِ النبيِّ ﷺ فإنَّه كان يقولُ في لامِيَّتِه المشهورةِ[1]:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ

ويقولُ[2]:

ولقد علمتُ بأنَّ دينَ محمَّدٍ ... من خيرِ أديانِ البريَّة دِينَا

لولا الملامةُ أو حذارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بذاك مُبينَا

ولكنه -والعياذُ باللهِ- قد سَبَقَتْ له من اللهِ الشقاوةُ، فكان آخِرَ ما قال: أنه على ملةِ عبدِ المُطَّلِبِ، وصَرَّحَ في تلك الحالِ أنه لولا أن قَوْمَه يلومونه ويقولون: عندما أَيِسَ من الحياةِ آمَنَ لآمَنْتُ، هكذا يقولُ -والعياذُ باللهِ- وهو في سياقِ الموتِ.

فقولُهُ: ﴿ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ نقولُ: الإيمانُ هو: الإقرارُ المستلزِمُ للقبولِ والإذعانِ، أبو طالبٍ مُقرٌّ لكنه لم يَقْبَلْ، ولم يُذْعِنْ فصار كافرًا،

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠)، وديوان أبي طالب (ص:٨٤).

(٢) انظر: تهذيب اللغة (١٠/ ١١١)، وخزانة الأدب (٢/ ٧٦)، وديوان أبي طالب (ص:٨٧، ١٨٩).

﴿ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾؛ أي: بالذي أَنْزَلَ اللهُ من الكُتُبِ كلها، وهكذا يجبُ علينا نحن أيضًا أن نُؤمنَ بما أَنْزَلَ اللهُ من كتابٍ، ولكن لا يجبُ علينا أن نَتَّبِعَ ما أنزل اللهُ من كتابٍ، نَتَّبِعُ ما جاء في شريعتِنا، وإن خَالفَ ما في الشرائعِ الأولى، لكن نؤمنُ بأنَّ الكُتبَ النَّازلةَ على موسى وعيسى وداودَ وغيْرِهم من الأنبياءِ، نؤمنُ بأنها حقٌّ. أمَّا الاتِّباعُ فهو لشريعةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: بأن أَعْدِلَ]. أفادنا المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ اللامَ في قولِهِ: ﴿لِأَعْدِلَ﴾ بمعنى الباءِ، أي: أُمِرْتُ بأنْ أَعْدِلَ بينكم، هذا ما قَدَّرَهُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولا شَكَّ أنَّ هذا تقديرٌ سهلٌ، فسهلٌ أن يقولَ: اللامُ بمعنى الباءِ؛ لكنَّ إتيانَ اللامِ بمعنى الباءِ قد لا يكونُ سائغًا في اللغةِ العربيَّةِ، وأن اللهَ تعالى أَمَرَ رسولَهُ ﷺ بأمرٍ فوق ذلك؛ أي: وأُمِرْتُ بالشَّرعِ أو بالعدلِ ﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ فيكونُ المأمورُ به محذوفًا، ويكونُ الموجودُ هو العِلَّةَ، أُمِرْتُ بكذا لأَعْدِلَ بينكم، وهذا أَبْلَغُ من أن نقولَ اللامُ بمعنى الباءِ، ويكون أُمِرْتُ بالعدلِ بينكم، لا أُمِرْتُ بالشرعِ والإيمانِ بكلِّ كتابٍ؛ لأَعْدِلَ بينكم. قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في الحُكْمِ].

وقولُهُ: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ هذه الجُملةُ حقٌّ لا شَكَّ فيه، ولكن قد يقولُ قائلٌ: ما الفائدةُ منها؟ أليس هذا كقولِ القائلِ: السماءُ فوقنا والأرضُ تحتنا، لأنَّ هؤلاء يُقِرُّون بأن اللهَ ربُّهم، فما الفائدةُ؟

فالجوابُ: الفائدةُ من ذلك هو إلزامُهُم أن يكونوا مِثْلَ ما كُنا عليه من الدِّينِ؛ لأنَّ الرَّبَّ واحدٌ ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ بإقرارِكم، فإذا كان كذلك، فالواجبُ عليكُم أن تخضعوا لأوامرِ ربِّكم عَزَّوَجَلَّ.

قولُهُ: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ يعني: أنه لا يَضُرُّنا عملُكُم، ولا يَضُرُّكُم عملُنا، فإذنْ: لا تتعلقوا بنا، ولا نتعلَّقُ بكم؛ كلٌّ له عَمَلُه. قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فكلٌّ يُجازى بعمَلِه].

وقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ﴾، كيف لا حُجَّةَ بَيْنَنا وبَيْنكم ولدينا الحجَّةُ عليهم؟

الجواب: قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا حُجَّةَ﴾ خصومةٌ] بأن أَعْدِلَ ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ﴾...] إلخ، والصوابُ عدمُ تقديرِ: بأن أَعْدِلَ؛ لأنَّه لا داعيَ له، بل المعنى لا حُجَّةَ قائمةٌ على وجهِ الخصومةِ بيننا وبينكم؛ لأننا قد أَيِسْنا منكم، ولن تنفعَ فيكم المُحاجَّةُ.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هذا قبلَ أن يُؤْمَرَ بالجهادِ] وبعد أن أُمِرَ بالجهادِ، صار لهم أعمالُنا ولنا أعمالُهم، وحين شُرِعَ الجهادُ لا تَبْطُلُ المحاجَّةُ.

ولهذا نقولُ للمؤلِّفِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عفا اللهُ عنك! أولًا: أَثْبِتْ لنا أنَّ هذه الآيةَ قبل الأمرِ بالجِهادِ، فإذا قال هذه الآيةُ مَكِّيَّةٌ والجِهادُ إنما أُمِرَ به في المدينةِ، نقولُ: أَثْبَتَّ لنا أنه لَمَّا أُمِرَ بالجِهادِ بَطَلَتْ هذه البراءةُ، لا يستطيعُ أن يُثْبِتَ ذلك.

واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إنما يتحدَّث في هذا عن حالِ المشركين، والنبيُّ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِم في مكَّةَ، وهذا أصلًا لا جهادَ فيه، حتى نقولَ: إن هذا من بابِ النَّسْخِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾ في المعادِ، لفصلِ القضاءِ، ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ المَرْجِعُ]، والجملةُ ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فيها حصرٌ طريقُهُ تقديمُ ما حقُّهُ التأخيرُ.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: وجوبُ الدعوةِ إلى توحيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِهِ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ﴾، وتقديمُ المعمولِ يدلُّ على الاهتمامِ به.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه يَجِبُ عَلَى المرءِ أن يستقيمَ كما أُمِرَ؛ فلا يُحْدِثُ في دينِ اللهِ ما ليس منه؛ لقولِهِ: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه يجوزُ توجيهُ الأمرِ لمن كان متصفًا به من قبلُ، من أجْلِ الثباتِ عليه؛ لقولِهِ: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ استقام كما أُمِرَ من حين ما أُرْسِلَ، بل من حين ما بُعِثَ؛ لكن المرادَ بذلك الثبوتُ على هذا الشيءِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ النَّبي -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- عبْدٌ مأمورٌ، يُوجَّهُ إليه الأمرُ، وليس له من الأمرِ شيءٌ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آلِ عمرانَ:١٢٨]، وهنا قال: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الرَّدُّ على أولئك القومِ الذين يدَّعون أنَّ للنبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- تصرُّفًا في الكونِ، وتدبيرًا له، ومن بابِ أَوْلَى، أن يكونَ فيها رَدٌّ على القائلين بأنَّ من دون الرسولِ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له تَصَرُّفٌ في الكونِ؛ كقولِ الرَّافضةِ وبعضِ الصوفيَّةِ الذين يَدَّعونَ أنَّ من أئمَّتِهم من يَتَصَرَّفُ في الكونِ، وأولئك الصوفيَّةُ يَدَّعُونَ أن من أقطابِهم من يتصرَّفُ في الكونِ، فهؤلاء -لا شكَّ- ضالُّونَ مُشْرِكُونَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: النهيُ عن اتِّباعِ الهَوَى؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾.

فإن قال قائلٌ: هل اتباعُ الهوى محمودٌ أو مذمومٌ؟

فالجوابُ: أما ما كان موافقًا للشريعةِ فهو محمودٌ، ولهذا رُوِيَ عن النبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أنه قال: «لا يُؤْمِنُ أحدُكُم حتى يكونَ هواه تبعًا لما جئتُ به»[1]. وأما ما خالفَ الشريعةَ فإنه مذمومٌ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تثبيتُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لنبيِّهِ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- لأنَّ مِثلَ هذه الأوامِرِ والنواهي تؤيِّدُهُ وتُثَبِّتُه وتُقَوِّيه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وجوبُ الإيمانِ بكلِّ ما أَنْزَلَ اللهُ من كتابٍ؛ لقولِهِ: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى:١٥]، ولكن كيف يكونُ الإيمانُ بالكتبِ السابقةِ؟ الإيمانُ بالكتبِ السابقةِ يكونُ بالإيمانِ بأنَّها نازلةٌ من عند اللهِ عَزَّوَجَلَّ حقًّا، وأمَّا اتِّباعُها؛ فإنَّه منسوخٌ بهذه الشريعةِ التي جاء بها مُحَمَّدٌ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ.

فإن قال قائلٌ: وهل نُؤْمِنُ بأنَّ الكتُبَ التي في أيدي النَّصارى واليهودِ الآن هي الكتبُ النازلةُ على أنبيائِهِم؟

فالجوابُ: لا؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذكر أنهم حرفوها وأَخْفَوْا كثيرًا منها، فلذلك لا ثِقَةَ لنا بما عندهم من الكتبِ التي يَزْعُمُونها كُتُبَ اللهِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: وجوبُ العدلِ؛ لقولِهِ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في كلِّ معاملةٍ، بل حتى في مُعاملةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فإنَّ الواجبَ العدلُ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل:٩٠]، ولـمَّا بَعَثَ النبيُّ ﷺ عبدَاللهِ بْنَ رواحةَ إلى اليهودِ في خَيْبَرَ، من أجْلِ مُقاسمَتِهِم جَمْعَهُم وقال لهم: إني أتيتُ مِن عِندِ أحبِّ الناسِ إليَّ، وإنكم لأبغضُ إليَّ من عدَّتِكم من القردةِ والخنازيرِ،

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة رقم (١٥)، وابن بطة في الإبانة رقم (٢٧٩)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢١٢-٢١٣)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وليس حُبي إيَّاه وبغضي إياكم بمانِعي من أن أقومَ فيكم بالعَدلِ، فقالوا: بهذا قامتِ السَّمواتُ والأرضُ[1].

وقد ذَكَرَ العلماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أنَّه لو اجتمع مسلمٌ وكافرٌ في خصومةٍ بَيْنَ يدي القاضي، فإنَّ الواجبَ عليه أن يَعْدِلَ بينهما في الجلوسِ، وفي النظرِ، وفي الكلامِ. يعني: لا يتكلَّمُ للكافرِ بغلظةٍ وينظرُ إليه شَذْرًا، وإنما يُعامِلُه كما يُعامِلُ المُسْلِمَ؛ لأنَّ العدلَ واجبٌ، ولا يَجوزُ في مقامِ الحُكمِ أن نُفَرِّقَ بيْنَ فلانٍ وفلانٍ؛ ولهذا قال: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إعلانُ ما به الإلزامُ للخصمِ؛ لقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾؛ يعني: وإذا كان رَبَّنا وربَّكُم فالواجبُ أن ننقادَ جميعًا لأوامِرِه.

فإن قال قائلٌ: وهل اللهُ تعالى رَبٌّ للكافرين؟

فالجوابُ: نعم، ربُّ كلِّ شيءٍ، لكن لا يُضافُ إليه فيقالُ ربُّ الكافرين كذا، اللهمَّ إلا في مقامِ الاحتجاجِ؛ لأنَّه وإن كان اللهُ تعالى خالقُ كلِّ شيءٍ، وربُّ كلِّ شيءٍ، لكن لا ينبغي أن تُضافَ رُبُوبِيَّتُه وخَلْقُهُ إلى أقبحِ خَلْقِه، كما أننا نَعْلَمُ أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رَبُّ الكلابِ، وربُّ الخنازيرِ، وربُّ القردةِ، وما أَشْبَهَ ذلك، لكن لا نقولُ: ربُّ القردةِ، وربُّ الكلابِ، وما أَشْبَه ذلك، وهذه نُقْطَةٌ قد لا يَتَفَطَّنُ لها بعضُ الناسِ، وهو الأدبُ في التعبيرِ.

ويُذْكَرُ أن أحدَ الملوكِ رأى في المنامِ أنَّ أسنانَه ساقطةٌ، فدعا مُعبِّرًا يَعْبُرُ الرؤيا، فَعَبَرَها هذا العابرُ أنَّ حاشيتَه تموتُ وأَهْلَه؛ لأنَّ الإنسانَ بأسنانِه يتغذى ويحفظُ

---

(١) أخرجه ابن حبان رقم (٥١٩٩)، والبيهقي (٦/ ١١٤)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

حياتَهُ، فأمر بسَجْنِه. ثم إنه دعا عابرًا آخرَ فقال له: إنَّك أطولُهُم عُمرًا. فَأَكْرَمَه وارتاح لقولِهِ. والمعنى واحدٌ؛ لأنَّه إذا مات أهلُه قَبْلَه صار أطولَهُم عمرًا، لكن التعبيرَ يختلفُ هنا ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أضاف ربوبيَّته عَزَّوَجَلَّ إلى الكافرين، لكن في مقامِ الاحتجاجِ؛ ثم إنه يُسَهِّلُ الأمرَ، أنه قال: ﴿رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ لإفادةِ العمومِ.

مسألة: من الغلطِ العظيمِ الرجوعُ إلى الكتبِ التي تَعْبُرُ الرؤيا، وهو غلطٌ لأنَّ الرؤيا تختلفُ باختلافِ الرائي واختلافِ المرئيِّ الذي رُئِيتَ فيه... إلخ، ومن الناسِ مثلًا من يرى أنه يؤذِّنُ فنفسِّرُ له الأذانَ بأنه سيحُجُّ؛ لقولِهِ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج:٢٧]، ومن الناسِ من يرى هذه الرؤيا ونقولُ: إنه سارقٌ ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف:٧٠] على حسبِ الحالِ.

إذن لا يجوزُ أن نرجعَ إلى كتبِ التعبيرِ حتى نَنْظُرَ في كلِّ قضيَّةٍ بعيْنِها، ثم إن عَبْرَ الرؤيا في الواقعِ ليس سببُها العلمَ، قد يكونُ إنسانًا من أعلمِ الناسِ ولا يَعْرِفُ أن يَعْبُرَ الرؤيا، وقد يكونُ من عوامِّ الناس ويَعْبُرُها وتقعُ كما عَبَرَ؛ إذنْ لا نعتمدُ على هذه الكتبِ، لكن إن كان فيها قواعدُ عامَّةٌ يستعينُ بها الإنسانُ فهذا يُمْكِنُ أنْ نَرْجِعَ له.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سوفَ يَجْمَعُ بَيْنَ الناسِ يومَ القيامةِ ويَحْكُمُ بينهم، فيما كانوا فيه يختلفون؛ لقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ المَرْجِعَ إلى اللهِ خاصَّةً؛ لقولِهِ: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ لكن في أيِّ شيءٍ؟ هل معناه إليه المصيرُ يومَ الحسابِ، أو إليه المصيرُ في كلِّ شيءٍ؟

الجوابُ: الثاني، إليه المصيرُ في كلِّ شيءٍ، إن أردنا الحكمَ الشرعيَّ فالمصيرُ

إلى اللهِ، أو الحكـمُ القـدريُّ فالمصيرُ إلى اللهِ، أو الحُكْـمُ في الـدنيا فالمصيرُ إلى اللهِ، أو الحكمُ في الآخرةِ فالمصيرُ إلى اللهِ، فكلُّ شيءٍ فإن مصيرَهُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

يتفرَّعُ على هذه القاعدةِ: أن الإنسانَ لا يرجو، ولا يخافُ، ولا يدعو إلا اللهَ وحده لا شريكَ له، ولا يستغيثُ إلا باللهِ، ولا يستعينُ إلا به.

• • ۞ • •

الآية (١٦)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى:١٦].

الإعرابُ: (الذين يُحاجون) مُبتدأٌ، و﴿حُجَّتُهُمۡ﴾ مبتدأٌ ثانٍ، و﴿دَاحِضَةٌ﴾ خبرُ المبتدأِ الثاني، والمبتدأُ الثاني وخبرُهُ في محلِّ رفعٍ خبرُ المبتدأِ الأوَّلِ.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: يُجادلون فيه، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في دين الله]، يعني: يُحَاجُّونَ في دِينِ اللهِ، والصوابُ: العمومُ، فالمحاجَّةُ في اللهِ تَشْمَلُ المحاجَّةَ في دِينِهِ، والمحاجَّةَ في أسمائِهِ وصفاتِهِ، والمحاجَّةَ في ذاتِهِ؛ لأنَّ الآيةَ عامَّةٌ في اللهِ، والمُحاجَّةَ أيضًا في قَدَرِهِ؛ فكوْنُنَا نخُصُّها في دينِ اللهِ، فيه نظرٌ حتى لو قُدِّر أنَّ الذين يُحاجُّونَ إنما يحاجُّونَ في الدِّينِ، ويقولون: إنه ليس بصحيحٍ، فأَخْذُها بالعمومِ أَوْلَى؛ لأنَّ العِبْرَةَ بعمومِ اللفظِ لا بخصوصِ السَّبَبِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نَبِيَّهُ] مفعولٌ ﴿يُحَآجُّونَ﴾، يعني: كأنه قال: من يحاجُّونَ؟ فيقالُ: نَبِيَّهُ. وهذا أيضًا فيه نَظَرٌ؛ لأنَّ تقييدَ المحاجَّةِ في اللهِ عَزَّوَجَلَّ مع النبيِّ ﷺ غيرُ صحيحةٍ؛ لأنَّهم يُحاجُّونَ نبيَّ اللهِ، ويحاجُّونَ غيرَهُ أيضًا، فإطلاقُ الآيةِ أوْلى.

ويقولون: إنَّ حَذْفَ المفعولِ يفيدُ العمومَ، فإبقاءُ الآيةِ على ما هي عليه هو الأوْلى.

إذن: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: يحاجُّون كلَّ من يجادلُهُم في اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأيضًا ليس بدِينِ اللهِ فقط، بل في دينِ اللهِ، وذاتِ اللهِ، وكلِّ ما يتعلَّقُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقولُهُ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ يعني: من بَعْدِ ما استجاب له مَنْ مَنَّ اللهُ عليهم بالاستجابةِ. وهذه الجملةُ كإقامةِ البرهانِ على هؤلاء.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ بالإيمانِ، لظهورِ معجزتِهِ، وهم اليهودُ]. هذا قولُهُ: [﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ بالإيمانِ] صحيحٌ، وقولُهُ: [لظهورِ معجزتِه] بناءً على أنهم يحاجُّونَ النبيَّ ﷺ وإذا قُلْنَا بالعمومِ؛ فلا حاجةَ إلى هذا القيدِ.

وقولُهُ: [وهم اليهودُ] أيضًا فيه نظرٌ، بل نقولُ: كلُّ من يحاجُّ في اللهِ، حتى المشركون من قريشٍ وغيرُهُم حاجَّهُمُ النبيُّ ﷺ أليسوا يخاصمونه دائمًا، ويستهزئون به، ويَسْخَرون منه؟ فتقييدُ هذا أيضًا باليهودِ فيه نظَرٌ.

فصار عندنا الآن أشياء في هذه الآيةِ؛ خَصَّصَها المُفسِّر بشيء: الأوَّلُ قَوْلُهم: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ وهو أعمُّ، والثاني: نَبِيُّهُ، وهو كذلك أعمُّ.

قولُهُ: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ نقولُ: داحضةٌ باطلةٌ، لكنَّ الدحوضَ أشدُّ البطلانِ. يعني: باطلةٌ بطلانًا لا فوقه، ﴿دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ فلا تنفعُهم، وسيأتي -إن شاء اللهُ- بيانُ هذا في فائدةِ قولِهِ: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾.

قولُهُ: ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ عليهم غضبٌ من اللهِ ومن أولياءِ اللهِ، ولهذا لم يقيِّدِ الغضبَ بكونِهِ من اللهِ؛ لإفادةِ العمومِ. وتأمَّلْ سورةَ الفاتحةِ حيث قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٧]؛ لأنَّ النعمةَ من اللهِ، وإضافتَها

إلى الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ ثناءٌ ومَدْحٌ للهِ، ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يَقُلْ غيْرَ الذين غَضِبْتَ عليهم، بل قال: ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؛ ليَشْمَلَ غضبَ اللهِ، وغضبَ أوليائِهِ من الأنبياءِ والصِّدِّيقِينَ والشهداءِ والصالحين، ولئلا يُسْنِدُ اللهُ الغضبَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ في هذا المقامِ؛ وإلا فإنَّ الغضبَ قد أُسْنِدَ إلى اللهِ تعالى في قولِهِ: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقوله: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: قويٌّ، قد يكونُ في الدنيا، وقد يكونُ في الآخرةِ، وقد يكونُ فيهما.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ بُطلانِ جميعِ الحُجَجِ المُخالفةِ لدينِ اللهِ؛ لقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ أولئك المُحَاجِّينَ لا وَجْهَ لمُحَاجَّتِهم؛ لأنَّ الحقَّ قد بان، وقَبِلَه الناسُ؛ لقولِهِ: ﴿مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بطلانُ حُجَجِ أهلِ الباطلِ؛ لقولِهم: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هؤلاء المُبْطِلِين وإن غَلَبوا أهلَ الحقِّ في الظاهِرِ؛ فإنَّ حُجَّتَهُم عندَ اللهِ لا تنفعُهم، بل هي باطلةٌ، وهذا من فوائدِ قولِهِ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ لأنَّ حُجَّةَ الكافرِ والمُبْطِلِ قد لا تندحضُ أمام الناسِ، قد يكونُ الذي حاجَّه ضعيفًا في عِلْمِه، أو فَهْمِه، أو في خصومتِه؛ لكن مهما كان فهي عند اللهِ باطلةٌ، بل داحضةٌ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الغضبِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِهِ: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾.

فإن قال قائلٌ: كيف تُثْبِتُ الغضبَ للهِ عَزَّوَجَلَّ وهو لم يُضَفْ إلى اللهِ هنا، بل قال

وعليهم غضبٌ وهو نكرةٌ، فكيف تُثْبِتُه للهِ؟

فالجوابُ: أن السياقَ يُعَيِّنُ هذا؛ لقولِهِ: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وإذا دحضت عند رَبِّهم فلا يرضى اللهُ عنهم بل يغضبُ. هذا وجهٌ، الوجهُ الثاني: أنَّ اللهَ تعالى قد أَثْبَتَ لنفسِه الغضبَ في آياتٍ أخرى.

إذن: يصحُّ أن نُثْبِتَ الغضبَ للهِ بهذه الآيةِ الكريمةِ، وإنما أوردْتُ هذا الإيرادَ؛ لأنَّه لا يجوزُ لنا أن نُثْبِتَ للهِ إلا ما أضافه لنفْسِه.

وانظرْ إلى قولِ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢]، هل يُمْكِنُ أن نُثْبِتَ للهِ الساقَ في هذه الآيةِ؟ لا يجوزُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يُضِفْه إلى نفْسِه، بل قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾. ولهذا رُوِيَ عن ابْنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه فَسَّرَها بقولِهِ: (عن شدَّةٍ)[1].

ولكننا نقولُ: هذه الآيةُ لا نستطيعُ أن نُثْبِتَ منها الساقَ لرَبِّنا عَزَّوَجَلَّ لأنَّ ظاهرَها خلافُ ذلك، لكن سياقَها يُوافقُ حديثَ إثباتِ الساقِ للهِ عَزَّوَجَلَّ حيثُ جاء مُصَرَّحًا به، أن اللهَ تعالى يكشفُ عن ساقِهِ، وحينئذٍ نقولُ: ما دام سياقُ الآيةِ مطابقًا لسياقِ الحديثِ؛ فإن النبيَّ ﷺ أعلمُ الناسِ بتفسيرِ كتابِ اللهِ، وإلا فلا يجوزُ أن نُثْبِتَ للهِ عَزَّوَجَلَّ ما لم يُضِفْه إلى نفْسِه.

الخلاصةُ: أنه يُستفادُ من هذه الآيةِ إثباتُ الغضبِ للهِ، والسياقُ يدلُّ عليه، وهو ليس ممتنعًا على اللهِ بدليلِ ثبوتِهِ صريحًا في آياتٍ أخرى.

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٩٩-٥٠٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٧٤٦)، وانظر: الدر المنثور (٨/ ٢٥٤).

فإن قال قائلٌ: بماذا تُفَسِّرُون الغضبَ؟

فالجوابُ: نُفَسِّرُ الغضَبَ: بأنه صفةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ لائقةٌ به، وليس كغضبِ المخلوقين.

فإن قال قائلٌ: ما قولُكُم فيمن يُفَسِّرُ غضبَ اللهِ بانتقامِهِ، فيقولُ: غَضِبَ بمعنى انْتَقَمَ، أو بمعنى أرادَ الانتقامَ؟ فالجوابُ: نقولُ هذا غلطٌ خطأٌ يُبطلُه أدلةٌ:

أولًا: أنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥]، ومعنى: ﴿ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا فـ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فجعل الانتقامَ مُرتَّبًا على الغضبِ؛ فهما متباينان.

ثانيًا: أن نقولَ: إن الغضبَ الذي نُثْبِتُه للهِ ليس كغضبِ المخلوقِ، إذا غَضِبَ أساء التصرُّفَ، ولم يَتَصَرَّفْ تَصَرُّفَ الحكيم؛ لأنَّ الإنسانَ إذا غَضِبَ تكلَّمَ بكلامٍ يندمُ عليه، وفَعَلَ أفعالًا يَنْدَمُ عليها، رُبَّما يُطَلِّقُ زوجاتِهِ ربما يُوقِفُ أملاكَهُ، ربما يُحَرِّرُ عبيدَه من شدةِ الغضبِ، لكنَّ غضبَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ينتفي عنه ذلك غايةَ الانتفاءِ، فهو حكيمٌ وإن غَضِبَ عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائلٌ: هل الغضبُ صفةُ مدحٍ أو صفةُ عيبٍ؟

فالجوابُ: الغضبُ صفةُ مدحٍ في محلِّها؛ لأنَّه يدلُّ على قوةِ الغاضِبِ وقُدرتِه على الانتقامِ، بخلافِ الحزْنِ، ولهذا لا يُوصَفُ اللهُ بالحزنِ؛ لأنَّه صفةُ ذمٍّ، وإنما يوصَفُ بالغضبِ بما يدلُّ على قدرتِه على الانتقامِ، انظرْ مَثلًا إلى رجلٍ أساء إليه ابنُه، فإنه يغضبُ ويؤدِّبُه، وانظرْ إلى شخصٍ ضعيفٍ أساء إليه رجلٌ قويٌّ فإنه يَحْزَنُ، ولا يستطيعُ أن يَغْضَبَ، ماذا يفعلُ إذا غَضِبَ؟ فرجلٌ مِثْل الجَمَل بقوةِ الفيلِ

يضربُ شخصًا يكونُ قَدْرَ فَخِذِه، وضعيفًا، هذا يَغْضَبُ؟ وماذا يفعلُ له غضبُه؟! فالغضبُ لا يكونُ إلا من قادرٍ على الانتقامِ، ولهذا نقولُ: إن الغضبَ في محلِّهِ صفةُ مدحٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ هؤلاء -والعياذُ باللهِ- مع الغضبِ لهم عذابٌ شديدٌ، فيَجْمَعُون بين غضبِ اللهِ عليهم وبين عذابِهِ الشديدِ.

الآية (١٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى:١٧].

قال اللهُ تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآنُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلقٌ بـ ﴿أَنزَلَ﴾].

أولًا: قولُ المُفسِّر: [﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: القرآنُ] فيه نظرٌ؛ وهو أن الكتابَ أعمُّ من القرآنِ؛ بدليلِ قولِهِ تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥] التي سُقْنَاها تطابقُ هذه الآيةَ التي معنا، والمُفسِّر خصَّ الكتابَ بالقرآنِ، وفيه نظرٌ، بل الصوابُ أن المرادَ بالكتابِ كلُّ كتابٍ أَنْزَلَه اللهُ فـ(أل) هنا للجنسِ، وقولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يقولُ المُفسِّر: متعلِّقٌ بـ﴿أَنزَلَ﴾] وعلى هذا يكونُ المعنى: أن نزولَ هذه الكتبِ من عندِ اللهِ حقٌّ.

ولكنا نقولُ: الآيةُ أعمُّ مما قال المُفسِّر، فهي نازلةٌ بالحقِّ، يعني أنَّها نزلتْ حقًّا من عندِ اللهِ، وهي أيضًا متصفةٌ بالحقِّ؛ بمعنى أنها جاءت بالحقِّ، والفَرْقُ بَيْنَ المعنيَيْن ظاهرٌ؛ لأنَّها على ما فَسَّرْنا تتضمَّنُ أن هذه الكتبَ حقٌّ من عندِ اللهِ، وأن ما جاءت به هذه الكتبُ فهو حقٌّ، فتكونُ الباءُ هنا على كلامِ المُفسِّر تكونُ للتَّعْدِيَةِ، وعلى ما قلنا: تكونُ للتعديةِ والمصاحبةِ أو للملابَسَةِ.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [العدْلُ] وعَبَّرَ عن العدلِ بالميزانِ؛ لأنَّه يُعْرَفُ به العدلُ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيْ ما يعلمك] أيُّها المخاطَبُ ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾؛ أي: إتيانُها قريبٌ، وعَبَّرَ المُفسِّر بقولِهِ: [أي إتيانَها] ليطابِقَ قولَهُ: ﴿قَرِيبٌ﴾؛ لأنَّ قريبٌ مُذَكَّرٌ والساعةَ مؤنثٌ وكان مقتضى ذلك أن يقولَ: «وما يدريك لعل الساعة قريبة»، لكنه قال: ﴿قَرِيبٌ﴾ احتاج المُفسِّر أن يُؤَوِّلَ هذا إلى قولِهِ: «إتيانها» حتى يكون مُذَكَّرًا ويكونَ قريبًا مطابِقًا له. إذن فالآيةُ على تقديرِ المضافِ ألجأُ إلى تقديرِهِ أن الخبرَ مُذَكَّرٌ والساعةَ مُؤَنَّثٌ.

وقال بعضُ العلماءِ: إن ﴿قَرِيبٌ﴾ صفةٌ يستوي فيها المذكَّرُ والمؤنَّثُ؛ كقتيلٍ وجريحٍ، وقال: إن هذا له نظائرُ في القرآنِ منها قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣]، ومنها قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]. قال: فلما اطَّرد تذكيرُها في مواضعَ عدَّةٍ وَجَبَ أن يقال: إن قريبٌ -يعني هذا اللفظَ- يستوي فيه المُذَكَّرُ والمؤَنَّثُ؛ وبناءً على هذا لا نحتاجُ إلى تقديمٍ؛ لأنَّ الأصلَ في الكلامِ عدمُ التقديمِ.

وقوله: ﴿قَرِيبٌ﴾ وَصَدَقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الساعةُ مهما طال الزمنُ فهي قريبةٌ، لا من حيث الساعةُ العموميةُ ولا من حيثُ الساعةُ الخصوصيَّةُ. الساعةُ الخصوصيَّةُ ساعةُ كلِّ إنسانٍ بحَسَبِه، ساعةُ كلِّ واحدٍ منا قريبةٌ، لو نَبْلُغُ آلافَ السنين؛ لأنَّ ما مضى من سنين كأن لا شيءَ، الآن مضى أمسِ القريبُ كأنه لم يَكُنْ، ويومُ ولادتِك كأنه أمسِ.

إذن الساعةُ قريبٌ باعتبارِ كلِّ إنسانٍ بنفْسِه، وكذلك الساعةُ الكبرى هي قريبةٌ أيضًا ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦]، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ

ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ ولذلك من عباراتِ الناسِ: «كلُّ آتٍ قريبٌ، وكلُّ ماضٍ بعيدٌ».

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [و﴿لَعَلَّ﴾ معلقٌ للفعلِ عن العملِ، وما بعده سدَّ مسدَّ مفعولين]. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ تَنْصِبُ ثلاثةَ مفاعيلَ:

المفعولُ الأولُ موجودٌ، وهو قولُهُ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾.

والمفعولُ الثاني والثالث تَنْصِبُه، ولكنه عُلِّقَ عن العملِ بالإتيانِ بـ ﴿لَعَلَّ﴾؛ لأنَّ (لعل) موجِبةٌ لتعليقِ أفعالِ القلوبِ عن العملِ، فتسدُّ مسدَّ المفعولَيْنِ. فـ﴿لَعَلَّ﴾ معلِّقٌ للفعلِ عن العملِ، والفعلُ المعلَّقُ هو ﴿يُدْرِيكَ﴾ وما بَعْدَه، أي ما بَعْدَ ﴿لَعَلَّ﴾ سدَّ مسدَّ المفعولَيْنِ، والذي بَعْدَ ﴿لَعَلَّ﴾ هو ﴿ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فيكونُ هنا ﴿لَعَلَّ﴾ عَلَّقَتْهَا عن العملِ؛ أي أَبْطَلَتْ عَمَلَها لفظًا دونَ المحلِّ، والمعلِّقاتُ كثيرةٌ، ذَكَرَها ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الألفيَّةِ فَلْيُرْجَعْ إليها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: علوُّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن القرآنَ كلامُ اللهِ؛ لأنَّ القرآنَ كلامٌ وإذا أضيفَ إنزالُهُ إلى أحدٍ صار كلامًا له وصفةً من صفاتِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الكتبَ التي أَنْزَلَها اللهُ نازلةٌ بحقٍّ فليس فيها باطلٌ، الباطلُ في الأخبارِ هو الكذبُ، والباطلُ في الأحكامِ هو الظُّلمُ والجَوْرُ والفسادُ، فكلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ليس فيه كذبٌ وليس به ظلمٌ ولا جورٌ ولا فسادٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنها نازلةٌ من عندِ اللهِ حقًّا؛ لقولِهِ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ وذَكَرْنا في معناها وَجْهَيْنِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتَ القياسِ؛ لقولِهِ: ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ لأن الميزانَ ما تُوزَنُ به الأشياءُ ويُقَارَنُ بينها، ففيه إثباتُ القياسِ في الشرائعِ السَّماويَّةِ، وهذه المسألةُ -أعني مسألةَ القياسِ- أَنْكَرَهَا بعضُ العلماءِ، ولا سِيَّما الظاهريَّةُ -عفا اللهُ عنا وعنهم- وإنكارُهُم هو المُنْكَرُ؛ لأنَّ القياسَ جاء في الكتابِ والسُّنَّةِ، فهنا ذُكِرَ الميزانُ، والميزانُ ما تُوزَنُ به الأشياءَ وهذا لا يكونُ إلا بالقياسِ.

واعلم أن كلَّ مثلٍ ضَرَبَه اللهُ في القرآنِ فإنه مُثْبِتٌ للقياسِ؛ لأنَّ المقصودَ به قياسُ هذه الحالِ على هذه الحالِ، فقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:٢٤] إلخ. عندنا هنا مُشَبَّهٌ وَمُشَبَّهٌ به، والتشبيهُ يقتضي المماثلةَ وإلحاقَ المُشَبَّهِ بالمشبَّهِ به، وهذا تمامًا هو القياسُ، وهذه خذها قاعدةً: كلُّ مثلٍ في القرآنِ فإنه يتضمَّنُ إثباتَ القياسِ.

وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس:٨١]، هذا فيه قياسُ أولويَّةٍ، ورسولُ اللهِ -صلى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- ذَكَرَ القياسَ في عدةِ أحاديثَ منها أنه شَبَّهَ قضاءَ الحجِّ عن الميِّتِ بقضاءِ الدَّيْنِ، ومنها أن رجلًا جاء إليه وقال: يا رسولَ اللهِ إن امرأتي وَلَدَتْ غلامًا أسودَ وهو والمرأةُ أبيضان فقال له النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ-: «هل لك من إبلٍ؟» قال: نعم قال: «ألوانُها؟» قال: حُمْرٌ قال: «هل بها من أَوْرَقَ؟» قال: نعم، قال: «أنى لها ذلك؟» ما الذي جاء بالأَوْرَقِ؟ قال: يا رسولَ اللهِ، لَعَلَّه نَزَعَه عِرْقٌ قال: «فوَلَدُكَ -أو قال: فابنُك- هذا لعلَّه نَزَعَه عِرْقٌ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد، رقم (٥٣٠٥)، ومسلم: كتاب اللعان، رقم (١٥٠٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإثباتُ القياسِ لا بدَّ منه، ولا يُمْكِنُ أن تتوسَّعَ الشريعةُ إلا بالقياسِ؛ لأنَّ أكثرَ الحوادثِ لم يوجَدْ بعينِهِ في النصوصِ لكن وُجِدَتْ قواعدُ وأصولٌ تَرْجِعُ إليه هذه الحوادثُ في حُكْمِها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الإشارةُ إلى قُرْبِ الساعةِ؛ لقولِهِ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى:١٧]، وسَبَقَ في التفسيرِ أنَّ المرادَ بالساعةِ الساعةُ العظمى الكبرى والساعةُ الصغرى، وهي موتُ كلِّ إنسانٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن النبيَّ ﷺ لا يَعْلَمُ متى تقومُ الساعةُ؛ لقولِهِ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي ما يُعْلِمُكَ؟ وهذا حقٌّ ثابتٌ «فإن جبريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سأل النبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- قال: أَخْبِرْنِي عن الساعةِ، فقال: «**ما المسؤولُ عنها بأعلمَ من السائلِ**»[1]؛ يعنى: كما أنك أنت تَجْهَلُها فأنا أَجْهَلُها.

ولهذا من ادَّعَى علمَ الساعةِ فإنه كاذبٌ مكذَّبٌ؛ لقولِ الله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف:١٨٧].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثباتُ علوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِهِ: ﴿أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ والمرادُ بالكتابِ هنا كلامُهُ عَزَّوَجَلَّ الذي أوحاه إلى رُسُلِهِ.

وَجْهُ الدلالةِ: أنَّ النزولَ يكونُ من الأعلى إلى الأسفلِ، وعلوُّ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ثابتٌ بالقرآنِ والسُّنَّةِ والإجماعِ والعقلِ والفطرةِ، كلُّ الأدلةِ الممكنةِ حاصلةٌ لإثباتِ علوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهل العلوُّ علوٌّ ذاتيٌّ أو علوٌّ وصفيٌّ؟ بمعنى أن عُلُوَّه علوُّ صفةٍ أو علوُّ ذاتٍ وصفةٍ؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الجوابُ: الثاني ذاتٌ وصفةٌ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ﴾ [النحل:٦٠] يعني الوصفَ الأعلى.

إذن فعلوُّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ علوُّ ذاتٍ وعلوُّ صفاتٍ، علوُّ الصفةِ لا أعلمُ أحدًا ينتسبُ إلى الإسلامِ أَنْكَرَهُ، كلُّ المُنْتَسِبين إلى الإسلامِ من مُبْتَدِعَةٍ وسُنِّيَّةٍ كُلُّهُم يؤمنون بعلوِّ اللهِ تعالى علوَّ صفةٍ؛ وهنا تختلفُ الأفهامُ فبعضُهُم يقولُ: من علوِّ صفتِه تعطيلُ صفاتِهِ!!.

أمَّا علوُّ الذاتِ فهذا محلُّ المُعْتَرَكِ بيْنَ السُّنِّيِّينَ والبِدْعِيِّينَ، انقسمَ الناسُ فيه إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

١- قِسْمٍ أَثْبَتُوه.

٢- وقسمٍ نَفَوْهُ وقالوا: إنَّ اللهَ تعالى لا يُقالُ: إنه فوقَ ولا تحتَ.

٣- وقسمٍ: نَفَوْهُ وقالوا: إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كلِّ مكانٍ في السماءِ، وفي الأرضِ، في الأسواقِ، في المساجِدِ في المراحيضِ، وأعوذُ باللهِ في كلِّ شيءٍ.

إذن فالأقوالُ ثلاثةٌ:

القولُ الأوَّلُ: علوُّ اللهِ تعالى بذاتِهِ، أنه بذاتِهِ فوقَ كلِّ شيءٍ، دلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ والعقلُ والفطرةُ، نأخذُ من كلِّ نوعٍ بدليلِ القرآنِ، ما أكثرَ ما يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في كتابِهِ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ [سبأ:٢٣] والعليُّ هنا صفةٌ مُشَبَّهَةٌ، والصفَةُ المُشَبَّهَةُ صفةٌ ثبوتيَّةٌ لا تفارقُ مَوْصُوفَها.

ويقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ الأعلى اسمُ تفضيلٍ حُذِفَ المُفَضَّلُ عليه؛ ليَدُلَّ على العمومِ يعني الأعلى على كلِّ شيءٍ، ونكتفي بهذا وإلا ففي القرآنُ

ما لا يحصى على وجوهٍ متنوعَةٍ.

أما في السُّنَّةِ: كان النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا سَجَدَ يقولُ: «سبحانَ رَبِّيَ الأعلى»[1]، وقد دلَّتِ السُّنَّةُ القَوْلِيَّةُ والفعليَّةُ والإقراريَّةُ على علوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ:

فقولُ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعلى» هذا سُنَّةٌ قَوْلِيَّةٌ.

وقولُهُ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ للجاريَةِ: «أين اللهُ؟» قالت: في السماءِ، قال: «أَعْتِقْهَا فإنها مؤمنةٌ»[2]، هذه إقراريَّةٌ.

ورَفْعُ يَدِهِ إلى السماءِ عندَ الدعاءِ[3] وهو يدعو اللهَ يا ربِّ، سُنَّةٌ فعليَّةٌ، وقد جَرَتِ السُّنَّةُ الفعليَّةُ في أكبرِ اجتماعٍ حَصَلَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ مع أصحابِهِ، وذلك في يومِ عَرَفَةَ حين قال: «ألا هل بَلَّغْتُ؟» قالوا: نعم قال: «اللهمَّ اشْهَدْ»[4]، «اللهُمَّ» إشارةٌ إلى علوِّ اللهِ. «اشْهَدْ» هذا سُفْلٌ عُلُوٌّ، سُفْلٌ للخَلْقِ وعُلُوٌّ للخالِقِ؛ قال: «ألا هل بَلَّغْتُ؟» قالوا: نعم قال: «اللهُمَّ اشْهَدْ» ثلاثَ مراتٍ. يُشْهِدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ على إقرارِ أُمَّتِه بأنه بَلَّغَ.

ونحن واللهِ نَشْهَدُ أنه بَلَّغَ البلاغَ المُبينَ، وأنه عانى من أَجْلِ ذلك أكبرَ عناءٍ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه، هذه سُنَّةٌ فِعْلِيَّةٌ، إذن السُّنَّةُ بجميعِ أنواعِها كلها دَلَّتْ على علوِّ اللهِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) من ذلك ما أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب الاستسقاء في الخطبة، رقم (٩٣٣)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أما الإجماعُ: إجماعُ الصحابةِ وأئمَّةِ المسلمين من بَعْدِهِم على علوِّ اللهِ.

فإن قال قائلٌ: أَثْبِتْ لي قولًا واحدًا عن أبي بكرٍ أو عمرَ أو عثمانَ أو عليٍّ على أنهم قالوا: إن اللهَ عالٍ بذاتِهِ؟!.

قلنا: إن هؤلاء يقرؤون القرآنَ ويَعْرِفُونَ من السُّنَّةِ ما عَرَفوا، ولم يَرِدْ عنهم حرفٌ واحدٌ يدلُّ على نقيضِ ما جاء في القرآنِ، وكفى بذلك دليلًا. لو كان عندهم معارضةٌ لوَرَدَ عنهم خلافُ ما في القرآنِ، وهم يقرؤون القرآنَ وهم عَرَبٌ يعرفون المعنى ويعرفون المرادَ.

وهذا من أحسنِ ما يكونُ في تقريرِ إجماعِ الصحابةِ، يعني إذا أتاك إنسانٌ وقال لك: يا أخي أَثْبِتْ لي قولًا واحدًا عن الصحابةِ أنهم آمنوا بعلوِّ اللهِ بذاتِهِ، أقولُ: لا يحتاجُ أن أُثْبِتَه، قرؤوا القرآنَ، وعَلِمُوا من السُّنَّةِ ما عَلِموا ولم يَرِدْ عنهم حرفٌ واحدٌ يقولون فيه: إن اللهَ ليس في السماءِ أبدًا ولا إنه بذاتِهِ في كلِّ مكانٍ وهذا إجماعٌ. هكذا كلُّ الصفاتِ لم يَرِدْ عن الصحابةِ ما يناقضُها، فهو دليلٌ على إجماعِه.

فإن قال قائلٌ: العقلُ هل يَدُلُّ على عُلُوِّ اللهِ؟

فالجوابُ: نعم يدلُّ على علوِّ اللهِ؛ لأنك لو سألْتَ أيَّ إنسانٍ هل العلوُّ أَكْمَلُ أو السفولُ؟ لقال لك: العلوُّ أكملُ لا شكَّ، حتى في أمورِ الدنيا يقالُ: هذا اللباسُ أعلى من هذا اللباسِ، كلٌّ يَعْرِفُ أن العلوَّ صفةُ كمالٍ، وإذا كان كذلك فالرَّبُّ موصوفٌ بالكمالِ عقلًا؛ ولهذا قال إبراهيمُ لأبيه محتجًّا عليه بدليلِ العقلِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم:٤٢]، هذا ما يُعْبَدُ، هذا استدلالٌ عقليٌّ.

أيضًا نحن نقولُ: العلوُّ باتفاقِ العقلاءِ صفةُ كمالٍ، والسفولُ باتفاقِ العقلاءِ صفةُ نقصٍ، فحينئذ ثَبَتَ للهِ العُلُوُّ الذاتيُّ عقلًا.. فبَقَيْنا بالفطرةِ، والفطرةُ لا تسألُ، اسألْ عجوزًا تدورُ بالرحى تَطْحَنُ الطحينَ: اسألْها: أين اللهُ؟ وهي ما دَرَسَتِ لا العقيدةَ الواسطيَّةَ ولا الطحاويَّةَ ولا غيرَهُ، اسألْها: أين ربُّكِ؟ تقولُ: في السماءِ ولا تتوقفُ لحظةً؛ لأنَّ هذا أمرٌ مفطورٌ عليه الخَلْقُ.

ويقالُ: إن أبا المعالي الجوينيَّ -عفا اللهُ عنا وعنه وهو إمامُ الحرمين- كان يتكلَّمُ على الاستواءِ، ومعروفٌ أن الأشاعرةَ -وهو من أئمةِ الأشاعرةِ- معلومٌ أنهم يُنكرون استواءَ اللهِ على العرشِ، يقولون: استوى على العرش. يعني استولى عليه لا يوجَدُ علوٌّ استولى عليه؛ فقال له أبو جعفرٍ الهَمَذَانِيُّ: يا شيخُ دَعْنا من ذِكْرِ العرشِ -يعني نبحثُ بحثًا آخَرَ- أَخْبِرْنَا عن هذه الفطرةِ ما قال عارفٌ قط: يا اللهُ إلا وَجَدَ من قلبِه ضرورةً لطلبِ العُلُوِّ -كلُّ إنسانٍ يقولُ: يا اللهُ اسألْه: أين يتجهُ قلبُهُ يمينًا أم يسارًا أم فوق؟ الجوابُ: فوق- فجعل يَلْطِمُ على رأسِه حَيَّرَنِي الهَمَذَانِيُّ، حَيَّرَنِي الهَمَذَانِيُّ[1].

وأُحَدِّثُكُم أنا عن مجلسٍ جمعني بعوامِّ مجلسٍ عاديٍّ مَقْهًى، تَكَلَّمَ أحدُ الطلبةِ في نفسِ المجلسِ وقال: إن أهلَ التأويلِ -يعني أهلَ التحريفِ- يقولون: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] يقولون: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ثم استولى عليه!!.

فدَعَا علَيه العامِّيُّ -وهو جَمَّالٌ يَحْمِلُ على الجمالِ يسافرُ من بلدٍ إلى آخَرَ-، دعا عليه بدعوةٍ معروفةٍ عندنا في العامِّيَّةِ يقولون: غَرْبَلَه اللهُ غَرْبَلَهُ اللهُ -يعني:

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٠).

عاقَبَه-؛ العرشُ منه أمْ قَبْل هذا!.

فانظرْ -سبحانَ اللهِ!- فِطرة؛ لأنَّه خَلَقَ ثم استوى، إذن: فالفطرةُ تدلُّ عليه.

فإن هذه المسألةَ فطريَّةٌ، كالإنسانِ مفطورٌ -لولا أن الشياطينَ اجتالته- على علوِّ اللهِ تعالى بذاتِهِ فوقَ كلِّ شيءٍ.

فإذن علوُّ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ والعقلُ والفطرةُ.

القولُ الثاني في هذه المسألةِ: أن اللهَ تعالى لا يُوصَفُ بالعلوِّ إطلاقًا. اللهُ في كلِّ مكانٍ، ثم شَبَّهوا بقولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] ﴿أَيْنَ مَا﴾ هذه ظرفُ مكانٍ. أي: في أيِّ مكانٍ كُنْتُمْ فاللهُ معكم. قال: اللهُ معك في كلِّ مكانٍ. إذا كنتَ في المسجِدِ يكونُ اللهُ في المسجِدِ، والمرحاضُ كذلك، والسوقُ كذلك، والطائرةُ أيضًا، فهل هذا يقولُه عاقلٌ؟ ويلزمُ من هذا القولِ:

أولًا: وصفُ اللهِ بما لا يليقُ أن يكونَ اللهُ في المراحيضِ والحمَّاماتِ والأماكنِ القَذِرَةِ والعاليةِ والسافلةِ.

ثانيًا: يلزمُ أحدُ أَمْرَيْنِ إما تَجَزُّؤُ اللهِ، وإما تَعَدُّدُ اللهِ، إن قالوا: بالتعددِ صِحْنَا بهم صيحةً تتقطعُ منها قلوبُهُم، نقولُ لهم: كَفَرْتُمْ وصرْتُم أَعْظَمَ من النصارى الذين قالوا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣] وأنتم تقولون: ملايينُ الملايينِ. وإن قالوا: يَتَجَزَّأُ، قلنا: الآن أَبْطَلْتُمْ قولَكم إذا كان يتجزَّأُ وكان مثلًا جزءٌ منه مع فلانٍ وجزءٌ مع فلانٍ، لم يَصِرْ مع فلانٍ وهو يقولُ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ ولم يَقُلْ: جزءٌ منه معكم.

فأنتم الآن خُذِلْتُمْ -والحمدُ للهِ- وهذا واللهِ لا أظنُّ قدمَ مؤمنٍ باللهِ تَثْبُتُ

عليه، لا أظنُّ إنسانًا يؤمنُ باللهِ حقًّا تَثْبُتُ قدمُه على القولِ بأن اللهَ بذاتِه في كلِّ مكانٍ أبدًا.

أما ما لبثوا به وشبَّهوا من قولِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ فإننا نقولُ: لا يلزمُ من المعيَّةِ أن يكونَ في نفسِ المكانِ؛ ولهذا العربِ تقولُ في لغتِها: القمرُ معنا ومكانُهُ في السماءِ وهم يقولون: معنا.

العربُ تقولُ: المرأةُ مع زوجِها. يعني في عصمتِه، ولو كان هو في أقصى المشرقِ وهي في أقصى المغرِبِ. والقائدُ يوجِّهُ جُنْدَهُ إلى المعركةِ في الميدانِ وهو يقولُ: اذهبوا واغزوا باسمِ اللهِ وأنا معكم، وهو في مكانِهِ، فالمعيَّةُ مدلولُها واسعٌ لا تستلزمُ الاختلاطَ لا في المكانِ ولا في الذاتِ. إذنِ الحمدُ للهِ هذا القولُ بأنه بذاتِهِ في كل مكانٍ هذا باطلٌ.

بَقِيَ لنا القولُ الثالثُ الذي يقولُ: لا تَصِفِ اللهَ أنه معك، ولا أنه فوق، ولا تحت، ولا متصلٌ، ولا منفصلٌ، ولا مباينٌ، ولا منحرفٌ، لا تصفِ اللهَ بعلوٍّ، ولا نزولٍ، ولا يمينٍ، ولا يسارٍ، ولا متصلٍ، بالخَلْقِ ولا مباينٍ. إذن هو عدمٌ؛ ولهذا قال بعضُ أهلِ العلمِ: لو قيل لنا: صِفوا العدمَ ما وجدنا أدقَّ من هذا الوصفِ. ولَمَّا جيءَ بابنِ فورك إلى الأميرِ محمدِ بنِ سبكتكين رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وهو من الأبطالِ- جيءَ إليه وقال له: صِفْ لنا رَبَّكَ قال: الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ ليس بداخلِ العالَمِ ولا خارجَ العالَمِ، ولا يمينٌ ولا يسارٌ، ولا متصلٌ ولا منفصلٌ، قال له: وصفْتَ ربَّكَ بالعدمِ، ولو أردْتَ أن تصفَهُ بالعدمِ ما وجدْتَ أحسنَ من هذا الوصْفِ، وسكت رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]؛ فاللهُ على هذا الزعمِ غيرُ موجودٍ، معدومٌ.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٧)، ودرء تعارض العقل والنقل (٦/ ٢٥٣).

نسألُ اللهَ أن يُمِيتَنَا وإيَّاكم على ملَّةِ الإسلامِ وطريقِ الذين أنعم اللهُ عليهم.

فالقولُ الذي لا يرتابُ عاقلٌ في صحَّتِه ولا يُمْكِنُ أن يُؤْمِنَ الإنسانُ بسواه -إلا من اجتالته الشياطينُ- هو أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالٍ بذاتِهِ عالٍ بصفاتِهِ، ولا يُمْكِنُ أن تستقرَّ قدمُ مؤمنٍ باللهِ واليومِ الآخِرِ إلا على هذا القولِ.

وأنا رأيتُ بعضَ الناسِ الذين تَنْقُصُهُم الدرايةُ ما هو العلمُ إذا رأى إنسانًا يظنُّه من منكري العلوِّ أوَّل ما يُسَلِّمُ يقولُ: السلامُ عليكم.. وعليكم السلامُ، كيف أصبحْتَ؟ أين اللهُ؟ كيف هذا؟! هل الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يبدأ الناسَ بقولِهِ: أين اللهُ؟ هذا من الغلطِ أبدًا، ألا ابْسُطْ له القولَ ولا تناقشْهُ أيضًا إلا إذا فتح البابَ، هو مُسْلِمٌ، والأصلُ في الإسلامِ السلامةُ، لا تناقشْهُ إلا إذا فتحَ البابَ أو إذا رأيتَ المسألةَ يعني صَدْرُهُ متسعٌ، وهو نَفْسُه يستطعمُ منك فحينئذ ابدأْ، فالإحسانُ في الدعوةِ والحكمةُ في الدعوةِ أمرٌ مهِمٌّ.

فالرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما قال لهذه الجاريَةِ «أين اللهُ؟»[1] إلا لسببٍ يقتضيه بالنسبةِ لهذه المرأةِ، والأعرابيُّ الذي شهد أنه رأى الهلالَ ماذا قال له؟ قال: «**أتشْهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأن محمدًا رسولُ اللهِ؟**»[2]، ما قال له أين اللهُ، ورسولُ اللهِ ﷺ أعطاه اللهُ الحكمةَ يخاطبُ كلَّ إنسانٍ بما تقتضيه حالُه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصوم، باب في شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان، رقم (٢٣٤٠)، والترمذي: كتاب الصوم، باب ما جاء في الصوم بالشهادة، رقم (٦٩١)، والنسائي: كتاب الصيام، باب قبول شهادة الرجل الواحد على هلال شهر رمضان، رقم (٢١١٢)، وابن ماجه: كتاب الصيام، باب ما جاء في الشهادة على رؤية الهلال، رقم (١٦٥٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فإن قال قائلٌ: بالنسبةِ للأشاعرةِ هل هم من أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، أم لهم تقسيمان؟

فالجوابُ: أولًا: أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ هم الذين اجتمعوا على السُّنَّةِ وأخذوا بها، والإنسانُ قد يكونُ من أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ في شيءٍ دون آخَرَ، كما أن الإنسانَ يكونُ فيه خصائلُ كفرٍ وخصائلُ إيمانٍ، كذلك يكونُ فيه سُنَّةٌ وبدعةٌ، فالأشعريَّةُ -وأعني بذلك المذهبَ الأشعريَّ- كمذهبٍ ليس على مذهبِ أهلِ السُّنَّةِ؛ لمخالفتِهم إياهم في كثيرٍ من الأشياءِ الأصوليَّةِ المهمَّةِ، كمسألةِ الصفاتِ، ومسألةِ الإيمانِ باليومِ الآخِرِ فيه مخالفاتٌ كثيرةٌ، ومسألةِ الإيمانِ وأعمالِ العبدِ، وغيرِ ذلك، لكن رجلًا من الناسِ نَعْرِفُ صِدْقَه وإخلاصَهُ في دينِ اللهِ ومدافَعَتَه عنه ذَهَبَ إلى قولٍ من أقوالِ الأشعريَّةِ لا نقولُ: إنه أشعريٌّ، بل نقولُ: هو من أهْلِ السُّنَّةِ لكن نقولُ: قال في ما قالت الأشعريَّةُ في كذا وكذا، أيضًا نقولُ: المسلمون الآن انقسموا إلى سُنَّةٍ وشيعةٍ، فباعتبارِ هذا التقسيمِ كلُّ من عدا الرافضةِ فهو سُنِّيٌّ بهذا التقسيمِ فالمسألةُ لها اعتباراتٌ.

فإن قال قائلٌ: ائتِني بدليلِ أن الصحابةَ أثبتوا علوَّ اللهِ بذاتِهِ، أو أَنْكَرُوا هذا.

فالجوابُ: هذا هو الأصلُ، لكن نحن نريدُ دليلًا ثبوتيًّا، أما الدليلُ السلبيُّ فهذا لا يحتاجُ نقولُ: هاتِ دليلًا على أنهم حَرَّفُوها كما قلتَ، وقد أشرْنا إليها قبل قليلٍ قلنا: إنه لم يَرِدْ عنهم حرفٌ واحدٌ أنهم قالوا: إن اللهَ ليس في السماءِ، ولا داخلَ العالَمِ، ولا خارجَهُ بحدٍّ، كلمةُ حدٍّ، وكلمةُ جسمٍ، وما أشبهَ ذلك من العباراتِ المُبْتَدِعَةِ التي يريدُ بها أهلُ التعطيلِ إلزامَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ بما لا يليقُ باللهِ، فالحدُّ نوعان، نسألُ: أولًا كلمةُ حدٍّ لمْ تردْ في الكتابِ والسُّنَّةِ لا إثباتًا ولا نفيًا فلتكن جانبًا.

ثانيًا من حيث المعنى إن أردْتَ أن اللهَ محدودٌ بمعنى أنه منحازٌ عن الخلائقِ، ووحده شيءٌ آخرُ، والمخلوقاتُ شيءٌ آخرُ فهذا صحيحٌ، وإن أردْتَ أنه محدودٌ يعني أن شيئًا من المخلوقاتِ أحاط به فهذا باطلٌ، ولا نحتاجُ أن نقولَ: بحدٍّ، ولا بغيرِ حدٍّ، حتى إن بعضَ العلماءِ أَنْكَرَ أن يقولَ القائلُ: استوى على العرشِ بذاتِهِ، لا يحتاجُ أن نقولَ بذاتِهِ، لكن بعضَ السَّلَفِ اضْطُرَّ إلى كلمةِ بذاتِهِ دفعًا للبدعةِ.

كذلك: يَنْزِلُ إلى السماءِ الدنيا بذاتِهِ. لا نحتاجُ لكلمةِ بذاتِهِ؛ لأنَّ اللهَ أَضافَ الفعلَ لنفْسِه يَنْزِلُ إلى السماءِ الدنيا، لا يحتاجُ أن نقولَ: بذاتِهِ، معروفٌ من كلمةِ (يَنْزِلُ) أنه هو الذي يَنْزِلُ، لكن احتاجوا أن يقولوا: بذاتِهِ ردًّا على المبتدعةِ الذين قالوا: يَنْزِلُ اللهُ؛ أي: أَمْرُهُ. فقابلوا أَمْرَهُ في ذاتِهِ، وكلمةُ بذاتِهِ صحيحةٌ والتعبيرُ دلَّ عليها، وكلمةُ أَمْرِهِ باطلةٌ.

وليُنتبه فإن السلفَ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أحيانًا يُعَبِّرُونَ بأشياءَ يُضْطَرُّونَ إلى التعبيرِ بها، لكنها لا تخالفُ الحقَّ، وإن كان الأَوْلى تَرْكُها؛ لأنَّ الصحابةَ تركوها، لكن الصحابةَ هل لم تَظْهَرْ عندهم هذه البدعُ؛ ولهذا يقولُ: استوى على العرشِ، يَنْزِلُ إلى السماءِ، يأتي للفصْلِ بَيْنَ عبادِه، ولا يقولُ: بذاتِهِ؛ لأنَّه لم يكن عندهم من يقولُ: إنه يأتي أَمْرُه، أو يَنْزِلُ أمْرُه، أو ما أَشْبَهَ ذلك.

فكلمةُ «بذاتِهِ» تحقيقٌ للمعنى، ويُضْطَرُّ الإنسانُ إليها دفعًا لقولِ أهْلِ البدعِ، ليس لأنَّ المعنى لا يتمُّ إلا بها، فالمعنى يَتِمُّ بدونِها، كلُّ فعلٍ أضافه اللهُ إلى نفْسِه فالمرادُ نفْسُه، ﴿خَٰلِقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الشورى:٢٩]، فلا تَقُلْ: بذاتِه، هو نفْسُه يَنْزِلُ إلى السماءِ لا يحتاجُ إلى قَوْلٍ بذاتِهِ، ما دام يَنْزِلُ؛ أي: هو، أَيْ نَفْسُ اللهِ، يأتي إلى القضاءِ أي هو، وهلمَّ جرًّا..

لكنَّ السلفَ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ مُضْطَرُّونَ إلى قولٍ لا يُخالفُ المرادَ؛ دفعًا لباطلِ ابتدعه أهلُ البِدَعِ. مثلًا قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، ألا تعلمون أنه لم يَشْتَهِرْ عن السلفِ إلا قولُهُم: هو معهم بِعِلْمِه. قالوا هذا، كما قال عبدُ اللهِ بنُ المباركِ، نقولُ: هو معهم بعِلْمِه، ولا نقولُ كما يقولُ هؤلاء هو في الأرضِ[1]، فَقَصْدُه معهم بِعِلْمِه ردًّا لمن قالوا: إنه معهم بذاتِهِ. يعني في المكانِ الذي هم فيه.

لكن لو رَجَعْنا إلى مدلولِ الآيةِ، بقطعِ النظرِ عن الرَّدِّ على أهلِ البِدَعِ، قلنا: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ كما عرف الله خلق إلى نفْسِه، وهو معهم أي نَفْسُه؛ لكن لا يَلْزَمُ من المعيَّةِ أن يكونَ في الأرضِ، بل هو بالنِّسبةِ للهِ تعالى مُمْتنعٌ غايةَ الامتناعِ، انتبهوا لهذا، مع أنَّه معنا بعِلْمِه، وسَمْعِه، وَبَصَرِه، وسُلْطَانِه، وتدبيرِه، وكلُّ ما تقتضيه معاني الربوبيَّةِ؛ لكنَّ هناك ظروفًا تلجئُ الإنسانَ إلى القولِ إلى شيءٍ زائدٍ عن النصِّ؛ لتوضيحِ النصِّ، والرَّدِّ على من حَرَّفَه.

أرأيتُم التَّسَلْسُلَ مثلًا، التسلسلُ أصولُ الخلافِ فيه ثلاثةٌ: المنعُ في المستقبلِ والماضي، الجوازُ في المستقبلِ والماضي، الجوازُ في المستقبلِ والمنعِ في الماضي. والتسلسلَ في الواقعَ أنه من المُحْدَثاتِ، هل اللهُ عَزَّوَجَلَّ لم يَزَلْ ولا يزالُ فعالًا؟ أو كان في الأولِ مُعَطَّلًا عن الفعلِ ثم فَعَلَ؟ هذا واحدٌ. وهل لا يزالُ فعَّالًا؟ أو سيأتي اليومُ الذي تنتهي فيه الخلائقُ، ويفنى كلُّ شيءٍ، هذا اثنان، أو أنَّ اللهَ تعالى لم يزلْ في الماضي، ولا يزالُ في المستقبلِ فعَّالًا. الثالثُ هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه؛ أنه لم يَزَلْ ولا يزالُ فعَّالًا، لكنَّ فِعْلَه تابعٌ لمشيئتِه، إنْ شَاءَ فَعَلَ، وإن شاء لم يَفْعَلْ.

هذا القولُ وهو جوازُ التسلسلِ في الماضي والمستقبلِ هو المُتَعَيَّنُ، الجنَّةُ باقيةٌ أبدًا،

---

(١) انظر: خلق أفعال العباد للبخاري (ص:٣٠)، والأسماء والصفات للبيهقي رقم (٩٠٣).

وما يحدُث فيها من النعيمِ مُتسلسلٌ إلى ما لا نهايةَ له، وكذلك النَّارُ.

وفي الماضي لم يُخْبِرْنَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلا عن خلقِ السَّمواتِ والأرضِ والعرشِ، وما أَشْبَهَ ذلك، لكن نَعْلَمُ أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ له أن يَفْعَلَ ما شاء قَبْلَ هذه المخلوقاتِ؛ لأنَّه قادرٌ، والقادرُ على الشيءِ يجوزُ أن يَفْعَلَ، وقولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]، يَشْمَلُ الماضيَ والمستقبلَ، وهذا هو الذي دلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ والعقلُ، وإن كان بعضُ الناسِ أَنْكَرَ على شيخِ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين صَرَّحَ بجوازِ التسلسلِ في الماضي[1]، وقالوا: هذا لا يُمْكِنُ، إذا قلتَ بالتسلسلِ في الماضي لَزِمَ أن يكونَ الخلقُ مع الخالقِ، وهذا باطلٌ إلى أَبْعَدِ الحدودِ.

هل يلزمُ أن يكونَ الفعلُ مع الفاعلِ؟ إذا قلتَ: إن اللهَ فَعَّالٌ، لا يلزمُ، بل من الضروريِّ أنَّ المفعولَ قد سَبَقَهُ فِعْلٌ، وأنَّ الفِعْلَ قد سَبَقَه فاعلٌ مُريدٌ، هذا شيءٌ عقليٌّ.

فأنا أقولُ لكم: البحثُ في التسلسلِ، وإتعابُ النفوسِ فيه، وإتعابُ الأفكارِ، وملءُ الأسفارِ منه، كلُّ هذا إنما حَدَثَ حينما قال به أهلُ البدعِ، ودخل على الأمةِ الإسلاميَّةِ حين عُرِّبَتِ الكتبُ الرومانيَّةُ واليونانيَّةُ، وإلا فالناسُ في غفلةٍ عن هذا، على فِطَرِهِمْ أن رَبَّنَا عَزَّوَجَلَّ لم يَزَلْ ولا يزالُ فعَّالًا، وأن ذلك لا يَسْتَلْزِمُ قِدَمَ الحوادِثِ؛ فالمفعُولاتُ شيءٌ، والفاعلُ شيءٌ آخرُ، انتبهوا لهذه المسائلِ، لو فَكَّرْتُم لوجدْتُم الطريقَ الأسلمَ والأعلمَ والأحكمَ طريقَ السَّلَفِ.

واستمعْ إلى القَوْلَةِ المشهورةِ الباطلةِ، التي تَجِدُونَها في كتبِ من عُرِفُوا بالصلاحِ والإصلاحِ، يقولون: «طريقةُ السلفِ أَسْلَمُ، وطريقةُ الخَلَفِ أَعْلَمُ وأَحْكَمُ».

---

(١) انظر: درء التعارض (١/ ٣٦٨).

سبحانَ اللهِ! كيف تَكُونُ أَعْلَمَ وأَحْكَمَ ولَيْسَتْ بأَسْلَمَ، لأنَّا نعلمُ أنَّ الأعلمَ والأحكمَ يَجِبُ أن يَكُونَ الأسلمَ، ونعلمُ أيضًا أنكم إذا أَقْرَرْتُم أنَّ طريقةَ السَّلَفِ أَسْلَمُ فهي الأعلمُ والأحكمُ؛ لكن هؤلاء أتوا حيث لم يفهموا طريقةَ السَّلَفِ، ظنُّوا أنَّ طريقةَ السَّلَفِ التفويضُ، وأنْ نكونَ أمامَ آياتِ الصفاتِ وأحاديثِها كالأُمِّيِّين الذين لا يَعْلَمُونَ عن الكتابِ إلا أمانِيَّ، يظنُّون أنَّ السلفيَّ إذا قلتَ له: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢] ما معنى ﴿وَجَآءَ﴾؟ اللهُ أعلمُ، لا أدري. ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] ما معناه؟ قال: لا أدري. ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧] ما معناه؟ قال: لا أدري.

هذا رأيُهُم في مَذْهَبِ السَّلَفِ، وهل هذا حقيقةُ مذهبِ السَّلَفِ؟ لا، أبدًا السَّلَفُ يقولُ: نَعْرِفُ المعنى، نَعْرِفُ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أنه أتى عَزَّوَجَلَّ على وَجْهٍ يليقُ بجلالِهِ، أنَّ له وجهًا يليقُ بجلالِهِ، أنَّ له استواءً يليقُ بجلالِهِ، نَعْلَمُ هذا، ونعرفُ المعنى لكن تسألُني الكيفيَّةَ لا أستطيعُ أن أتكلَّمَ؛ لأنَّه ليس لي عِلْمٌ بهذا.

هم لَمَّا ظنوا أنَّ مذهبَ السلفِ هو التفويضُ -يعني: تفويضُ المعنى والكيفيَّةِ- قالوا: طريقةُ الخلفِ أَعْلَمُ وأَحْكَمُ. ونحن معهم، إذا كان مَذْهَبُ السلفِ أنهم لا يَفهمون المعنى؛ فالذي يَفْهَمُ المعنى أحسنُ من الذي لا يَفْهَمُ، لا شكَّ في هذا، وإن كان فَهْمَهُم خاطئًا لكن طريقَتَهُم سليمةٌ، إلا أننا نقولُ لهم: طريقةُ السلفِ إثباتُ المعاني، وهذا مشهورٌ متواترٌ عنهم، يقولون في آياتِ الصفاتِ وأحاديثِها: أَمِرُّوها كما جاءت بلا كَيْفٍ.

هذه الجملةُ التي اتفق عليها السَّلَفُ، تدلُّ على أنهم يُثْبِتُونَ المعنى من وجهين:

أولًا: أنَّهم قالوا: أَمِرُّوهَا كما جاءت. ونحن نَعْلَمُ أنَّ اللهَ تعالى أتى بها، ورسولَهُ أتى بها لإثباتِ معانٍ؛ ليس لتُقْرَأَ ألفاظًا جوفاءَ.

ثانيًا: قولُهُم: بلا كيفٍ؛ يدلُّ على ثبوتِ أصْلِ المعنى؛ لأنَّ نفيَ الكيفِ عما ليس بموجودٍ لغوٌ من القولِ، فإذنْ أصلُ المعنى موجودٌ، والكيفيَّةُ مجهولةٌ، والإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين سُئِلَ عن الاستواءِ، قال: الاستواءُ غَيْرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقولٍ، والإيمانُ به واجبٌ، والسؤالُ عنه بِدْعَةٌ[1].

هم لما ظنوا أنَّ السَّلَفَ لا يُثْبِتُونَ المعانيَ قالوا: إنها أَسْلَمُ، ونحنُ نَقُولُ لهم: إمَّا أن تكونوا كاذبين على السَّلَفِ، أو جاهلين بحقيقةِ مَذْهَبِهم، لا تَخْرُجُون عن هذا، فكلامُهُم هذا عن السلفِ لا يخلو من ظُلْمٍ، وهو إما القولُ بلا عِلْمٍ، أو الكذبُ على السَّلَفِ، وكلاهما ظُلْمٌ؛ فهُم ظالمون للسلفِ بهذا الكلامِ، الذي قالوا: إنه مذهبُ السلَفِ.

فمن يقولُ: إن أَهْلَ السُّنَّةِ قِسمانِ مُفَوِّضَةٌ وَمُؤَوِّلَةٌ، نقول له: لا تَكُنْ كالغرابِ أراد أن يُقَلِّدَ كالحمامةِ ولم يَعْرِفْ، ثم أراد أن يَرْجِعَ إلى مِشْيَتِهِ وَضَيَّعَهَا، فَبَقِيَ لا شيءَ عنده؛ فمن قال: إن أهلَ السُّنَّةِ أهلُ تفويضٍ على وَجْهِ الإطلاقِ فهو كاذبٌ، بل أهلُ السُّنَّةِ مُفَوِّضَةٌ للكيفيَّةِ، غيرُ مُفَوِّضَةٍ للمعنى، وكلامُ الإمام مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي تقدَّم واضحٌ قال: «الاستواءُ غَيْرُ مجهولٍ، وَالكَيْفُ غيرُ معقولٍ». هنا نُفَوِّضُ.

والظاهرُ أن المُفَوِّضَةَ خرجوا بعدما خَرَجَتْ بِدْعَةُ التعطيلِ، فقد عجزوا أن يُقابلوا أهلَ التعطيلِ فقالوا: إذن نُفَوِّضُ؛ لأنَّ أهلَ التعطيلِ الجهميَّةَ صار لهم شأنٌ كبيرٌ، فضغطوا على علماءِ السُّنَّةِ، وعَجَزُوا عن مقاوَمَتِهم، فقالوا: إذن لا نقولُ لا بهذا ولا بهذا، نُفَوِّضُ الأمرَ.

---

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة رقم (٦٦٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٨٦٧)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والدارمي في الرد على الجهمية رقم (١٠٤).

وأما من زَعَمَ أن الإمامَ مالكًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُفَوِّضٌ فقد كَذَبَ، هذا كلامُهُ قال: «الاستواءُ غيرُ مجهولٍ». يعني معلومٌ ولا يَجْهَلُهُ أحدٌ، وأما قولهم: «أَمِرُّوها كما جاءت»، فنعم -واللهِ- قالوا هكذا: أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيفٍ. هذا حقٌّ.

فإن قال قائلٌ: إذا أَمْرَرْنَاها كما جاءت، فهل نُثْبِتُ اللفظَ فقط دون المعنى؟

فالجوابُ: لا؛ لأنَّها ألفاظٌ جاءت لمعانٍ لم يُنْزِلْهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ ألفاظٌ جوفاءُ لا معنى لها، أو لها مئةُ معنًى ولا ندري أيها المرادُ أبدًا، فنقولُ: أَمْرَرْنَاها كما جاءت؛ أي: ألفاظًا لمعانٍ، ثم قولُهُم: بلا كَيْفٍ. يدلُّ على إثباتِ المعنى؛ لأنَّه لولا ثبوتُ المعنى ما صحَّ أن يقولوا: بلا كيفٍ؛ إذ نفيُ الكيفِ عما ليس بالموجودِ لغوٌ من القولِ، يُنَزَّهُ عنه كلامُ السلفِ.

فمن استدلَّ بقولِ السَّلَفِ هذا قلنا: هذا دليلٌ عليك وليس لك، وأنا أعطيكم فائدةً: عن شيخِ الإسلامِ ابْنِ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلُّ إنسانٍ يَسْتَدِلُّ بدليلٍ صحيحٍ ثبوتًا، فإنه سيكونُ دليلًا عليه، سبحانَ اللهِ! كلُّ إنسانٍ يستدلُّ بدليلٍ صحيحٍ ثبوتًا على باطلٍ فسيكونُ دليلًا عليه.

هذه قاعدةٌ، وشيخُ الإسلامِ الْتَزَمَ بها قال: أنا أَلْتَزِمُ أن كلَّ إنسانٍ يأتي بدليلٍ صحيحٍ ثبوتًا يعني: ثابتًا ثبوتًا لا شكَّ فيه على باطلٍ؛ أَلْتَزِمُ أن أَجْعَلَه دليلًا عليه؛ لأنَّ استدلالَ أهلِ الباطلِ بالدليلِ الصحيحِ معناه: أنه يَشُمُّ منه رائحةَ المعنى، ولا يُمْكِنُ أن يكونَ المعنى الذي يُشَمُّ من هذا الاستدلالِ باطلًا.

ولذلك تَأَمَّلْ -إذا فَتَحَ اللهُ عليك- جميعَ الأقوالِ الباطلةِ التي يستدلُّ قائلوها بدليلٍ صحيحٍ من الكتابِ والسُّنَّةِ، فسترى أن ما استدلوا به دليلٌ عليهم، هذه الجملةُ التي ذُكِرَتْ أَمِرُّوهَا كما جاءت بلا كيفٍ، الآن فَهِمْنَا أنها تَرُدُّ عليهم من وَجْهَيْنِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أننا إذا أَمْرَرْنَاها كما جاءت لَزِمَ من ذلك إثباتُ المعنى؛ لأننا نَعْلَمُ أن اللهَ لن يخاطِبَنَا بشيءٍ لا نَعْرِفُ معناه أبدًا، لا يُمْكِنُ هذا، لا سِيَّما في أسماءِ اللهِ وصفاتِهِ التي هي العقيدةُ.

فالمُفَوِّضُ لا يُثْبِتُ معنًى أصلًا، يعني: هؤلاء المُفَوِّضَةُ نقرأُ عليهم قولَ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر:٢٢] إلى آخر السُّورةِ، سبعةَ عَشَرَ اسمًا! نقول له: ما معناها؟ فيقول: واللهِ لا ندري. ونقول: تُثْبِتُ أن له رحمةً؟ قال: لا أدري. ونقول: تُثْبِتُ أنه مَلِكٌ له المُلْكُ؟ قال: لا أدري! أنا عليَّ أن أَقْرَأَ القرآنَ فقط.

فهل يُعْقَلُ أن يكونَ هذا مذهبًا لأهلِ السُّنَّةِ، هذا مذهبٌ للجهَّالِ وعلماءُ السُّنَّةِ -والحمدُ للهِ- فيهم العلماءُ الفحولُ، الذين جمعوا بَيْنَ العِلْمِ بالمعقولِ والمنقولِ، ثم يا سبحانَ اللهِ، هل يُمْكِنُ أن نقولَ: إن أبا بكرٍ، وعُمرَ، وعثمانَ، وعليًّا، وابْنَ مسعودٍ، وابْنَ عبَّاسٍ، وغَيْرَهم يَقْرؤون القرآنَ وهم لا يعرفون معناه في أسماءِ اللهِ وصفاتِهِ؟ إن كنا نعتقدُ هذا فهو أكبرُ قَدْحٍ في الصحابةِ، بل إنهم يقولون: إن الرسولَ ﷺ يُحَدِّثُ بالحديثِ ولا يدري معناه، أعوذُ باللهِ.

قالوا: إنه قال: «يَنْزِلُ رَبُّنا إلى السماءِ الدُّنْيا حين يبقى ثُلُثُ الليلِ الآخِرُ»[1] ما معناها يا رسولَ اللهِ؟ أيقول: واللهِ لا أدري! فهل يُعْقَلُ هذا؟! لكن عند المضايقاتِ في المناظرةِ تَجِدُ الإنسانَ يرتقي مرتقًى صعبًا هو نَفْسُهُ يَعْرِفُ أنه غيرُ صوابٍ لو تَأَمَّلْ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، رقم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثاني: قولُهُم: بلا كيفٍ. يدلُّ على أن المعنى موجودٌ، ولولا ثبوتُ أصلِ المعنى ما صحَّ أن يقولوا: بلا كيفٍ.

مسألةٌ: المعِيَّة إذا قُلنا أنَّ مَعناها العِلم فَسَّرْنَاها بلازِمِها، وقصَّرْنا في معناها؛ لأنَّه معهم بعِلْمِه وسَمْعِهِ وبَصَرِهِ وسلطانِه، وغيرِ ذلك، كما ذكر ذلك ابنُ كثيرٍ في تفسيرِهِ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد ذَكَرَ ابنُ رجبٍ أيضًا في جامعِ العلومِ والحِكَمِ[2] أنَّه ليس معهم بالعلمِ فقط، بل بكلِّ ما تقتضيه الربوبيَّةُ: من علمٍ، وسمعٍ، وبصرٍ، وقدرةٍ، وسلطانٍ، وغيرِ ذلك.

ثانيًا: المَعيَّةُ شيءٌ والعلمُ من لازِمِها ومقتضياتِها، فهي أشملُ إحاطةً ومعنًى، لكنهم يُفَسِّرُونها بالعِلْمِ، ردًّا لقولِ أولئك القومِ الذين يقولون إن اللهَ معَنا في نفسِ المكانِ، والعامِّيُّ عندما تقولُ له: المَعِيَّةُ لها معنًى، والعِلْمُ مُقتضاها ولازِمُها لا يَفْهَمُ، والحملةُ الشديدةُ في ذلك الوقتِ في زمنِ الأئمةِ بالنسبةِ لتحريفِ المعيَّةِ، فلذلك أتوْا بهذا المعنى السَّهْلِ، الذي يَتَصَوَّرُه الإنسانُ عن قُرْبٍ.

• • ۞ • •

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٨).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٧١).

الآية (١٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى:١٨].

قوله: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يقولون: متى تأتي؟ ظنًّا منهم أنَّها غيرُ آتيةٍ] ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ﴾؛ أي: يستعجلونها أين هي؟ متى تكُونُ؟ ليس ذلك حرصًا عليها، ولا رَغبةً فيما يكونُ فيها من الخيرِ، ولكنه استبطاءٌ لها، وإنكارٌ لها، أين الساعةُ التي تقولون؟ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥] وهم بهذا مُلَبِّسون مُشَبِّهُون؛ لأنَّهم لم يُقَلْ لهم إنهم يأتون في الدنيا، بل يأتون يومَ القيامةِ.

فالرسُلُ لم تَقُلْ: إن آباءكم سيأتون وأنتم أحياءٌ؛ لأنَّ من مات لا يُبْعَثُ إلى يومِ القيامةِ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون:١٥-١٦] اللهمَّ إلا أن تكونَ آيةً من آياتِ الرسُلُ، كما جرى لعيسى ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ أما الذين آمنوا فيقولُ اللهُ عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خائفون] ﴿مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ ﴾ والإشفاقُ أشدُّ الخوفِ، وتفسيرُ المُفسِّر

له بالخوفِ تقريبٌ، وليس على وجهِ التحديدِ، والإشفاقِ خوفًا وزيادةً، مُشفِقون منها خائفون منها؛ لأنَّهم يَعْلَمُون أنَّها الحقُّ، وأنها ستقومُ، وستكونُ الأهوالُ العظامُ، ستكونُ ﴿ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٥] وسَتُدَكُّ الأرضُ، وكُلما ذُكِرَ في الكتابِ والسُّنَّةِ مما يكُونُ في الآخرةِ، فإنَّ الذين آمنوا مؤمنون به، مشفِقون منه.

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يُجَادِلُونَ] ﴿فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

قوله: ﴿أَلَآ﴾ أداةُ استفتاحٍ الفائدةُ منها التنبيهُ والتحقيقُ والعنايةُ، ولهذا تأتي بعدها غالبًا (إنَّ)، و﴿إِنَّ﴾ للتوكيدِ، مثل قولِهِ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٢]، فإذنْ: (أَلَا) أداةُ استفتاحٍ تفيدُ التوكيدَ والتنبيهَ والتحقيقَ والعنايةَ.

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ (إنَّ) للتوكيدِ، واللامُ في قولِهِ: ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ لامُ التوكيدِ داخلةٌ على الخبرِ ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾؛ أي: لفي ضلالٍ بعيدٍ عن الهدى؛ لأنَّ الضلالَ قد يكونُ قريبًا، ويهتدي الإنسانُ عن قُرْبٍ، وقد يكونُ بعيدًا فلا يهتدي -والعياذُ باللهِ- إلا بعدَ التي واللُّتيَّا.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن مُنْكِري الساعةِ يستعجلونها، يقولون: «متى؟»، والمُرادُ بقولِهم: «متى؟» الإنكارُ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن المؤمِنَ بالساعةِ خائفٌ منها؛ لقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى:١٨]، ولكنهم مشفِقون منها. يعني: خائفين خوفًا يَحْمِلُهم

على العملِ لها؛ لا خَوْفَ ذعرٍ فقط، بل خوفٌ يَحْمِلُهُم على العملِ لها، وهذا هو الخوفُ النافعُ، أما مجردُ الذعرِ فلا يكفي.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الإشارةُ إلى ترجيحِ جانبِ الخوفِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى امتدحَ الذين يخافون من الساعةِ، وهذه المسألةُ اخْتَلَفَ فيها أربابُ السلوكِ والمعارفِ أَيُّهما أَفْضَلُ أن يُغَلِّبَ الإنسانُ جانبَ الخوفِ، أو جانبَ الرجاءِ؟ فقال الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ينبغي أن يكونَ خوفُهُ ورجاؤُهُ واحدًا؛ فأَيُّهما غَلَبَ هَلَكَ صاحبُه[1].

استمعْ إلى كلامِ الإمامِ أحمدَ، يقول: ينبغي أن يكون خوفُهُ ورجاؤُهُ واحدًا؛ فأَيُّهما غَلَّبَ هَلَكَ صاحبُه؛ لأنَّه إن غَلَّب جَانِبَ الخوف وقعَ الإنسانُ في القنوطِ من رحمةِ اللهِ، وإن غلَّبَ جانبَ الرَّجاءِ وَقَعَ في الأمنِ من مكرِ اللهِ، وكلاهما خطرٌ على الإنسانِ.

وقال بعضُ العلماءِ: ينبغي عند إرادةِ العملِ السَّيِّئِ -يعني: عند إرادةِ المعصيةِ- أن يُغَلِّبَ جانبَ الخوفِ؛ لئلا يَقَعَ فيها، وعند فعلِ الطاعةِ أن يُغَلِّبَ جانبَ الرَّجاءِ، وهذا جيِّدٌ جدًّا؛ لأنَّه عند الهمِّ بالمعصيةِ إذا لم يُغَلِّبْ جانبَ الخوفِ وَقَعَ فيه، وعند فعلِ الطاعةِ إذا لم يُغَلِّبَ جانبَ الرجاءِ لم يَنْشَطْ على الطاعةِ.

فعليه نقولُ: إن تغليبَ أحدِ الجانِبَيْنِ الخوفِ والرَّجاءِ يَرجِعُ إلى حالِ الشَّخصِ، في حالِ الهمِّ بالمعصيةِ يُغَلِّبُ جانبَ الخوفِ، وفي حالِ فعلِ الطاعةِ يُغَلِّبُ جانبَ الرَّجاءِ؛ لئلا يَقْنَطَ من رَحْمَةِ اللهِ، وييأسَ من رَوْحِ اللهِ؛ فيغَلِّبُ جانبَ الرجاءِ، ويكونُ رجاؤُهُ هذا مبنيًّا على أنه لَمَّا يَسَّرَ اللهُ له فِعْلَ الطاعةِ؛ فإن رجاءَهُ باللهِ يكونُ أعظمَ وأَمْتَنَ؛ فيكونُ اللهُ تعالى عند حُسْنِ ظنِّه به. هذان قولان.

---

(١) انظر: الاختيارات العلمية لابن تيمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] (٥/ ٣٥٩).

القولُ الثالثُ: في حالِ المرضِ ودنوِّ الأجلِ يُغلِّبُ جانبَ الرَّجاءِ؛ حتى يموتَ وهو مُحْسنٌ ظَنَّه باللهِ عَزَّوَجَلَّ وفي حالِ الصِّحَّةِ يُغَلِّبُ جانبَ الخوفِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا كان صحيحًا، فإنه يكونُ عنده شيءٌ من البَطَرِ والأشَرِ، ورُبَّما يُقْدِمُ على المعاصي والتهاوُنِ بالواجباتِ، فيُغلِّبُ هنا جانبَ الخوفِ، ولهذا جاء في الحديثِ: «**نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناسِ الصِّحَّةُ والفراغُ**»[1] وعند العوامِّ يقولون: نعمتان مجحودتان: الصِّحَّةُ في الأبدانِ، والأمْنُ في الأوطانِ. وهذا ليس صحيحًا، الصحيح: «**نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناسِ الصِّحَّةُ والفراغُ**».

ولم يكن فارغًا إلا لأنَّه غَنِيٌّ؛ لأنَّ الفقيرَ لا يكونُ فارغًا، يعملُ ويَكْدَحُ ويَكْتَسِبُ، فهاتان النعمتان كثيرٌ من الناسِ مغبونٌ فيهما؛ لأنَّه لا يَرْبَحُ فيهما.

إذنِ القولُ الثَّالثُ أنه في حالِ المرضِ يُغلِّبُ جانبَ الرجاءِ، وفي حالِ الصِّحَّةِ يُغَلِّبُ جانبَ الخوفِ، ولكنَّ القولَ الوسطَ هو القولُ الثاني: إذا هَمَّ بالمعصيةِ فَلْيُغَلِّبْ جانبَ الخوفِ، وإذا فَعَلَ الطاعةَ فليغَلِّبْ جانبَ الرجاءِ.

مسألةٌ: هُناك كتابٌ يَتحدَّث عن تاريخِ نِهايةِ أُمَّة الإسلامِ، ويَستدِلُّ صاحبُه بأحاديثَ صحَّحها بعضُ العلماء، ويَنقل كلامَ بعضِ أهل العِلم في ذلِك، ويقولُ: بَقِي عليها سَبعُون سنةً أو ستُّون سنةً، قد تزيدُ قليلًا أو تَنْقُصُ قليلًا، أمَّا علمُ الساعةِ فعند اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويقول: فهذا عُمرُ أمَّةِ الإسلامِ.

الجوابُ: لا شكَّ أن هذا كَذِبٌ، ودَجَلٌ واتِّبَاعٌ للمتشابِهِ، عندنا آياتٌ صريحةٌ مثل الشمسِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم (٦٤١٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:١٨٧] كيف يجيءُ واحدٌ يقولُ: أنا أَعْلَمُ؟! أمَّا عُمرُ الأمةِ الإسلاميَّةِ، بمعنى أنَّ الإسلامَ يزولُ بعد هذه المُدَّةِ، فهذا قد يقولُ قائلٌ: إنه مُمْكِنٌ، وقد يقولُ: إنه غيرُ ممكِنٍ العلمُ به؛ لأنَّ قيامَ الساعةِ يكونُ على شرارِ الخَلْقِ؛ حتى لا يُقالَ: اللهُ اللهُ، لكن هذا ما عندنا عِلْمُه، فكلُّ هذا باطلٌ، وكلُّ هذا يجبُ أن يُكَذَّبَ ويُنْكَرَ.

وأما الأحاديثُ التي يستدلُّ بها، فينظر أولًا في سَنَدِها وصِحَّتِها؛ وليس كلُّ ما صَحَّحَه فلانٌ أو فلانٌ يكونُ صحيحًا، البُخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد يَذْكُرُ تعاليقَ هو يَجْزِمُ بصِحَّتِهَا، كما قالوا: إنَّه إذا ذَكَرَ تعليقًا مجزومًا به عنده فهو صحيحٌ عنده، ومع ذلك هي ضعيفةٌ وهو إمامُ المُحَدِّثِينَ.

وثانيًا: إذا تمَّ النظرُ في صِحَّتِها وصارتْ صحيحةً؛ فينظرُ في دلالاتِها، فلا يُمْكِنُ أن تَدُلَّ الأحاديثُ الصحيحةُ عن النبيِّ ﷺ بخلافِ ما جاء في القرآنِ، وبخلافِ ما هو صريحٌ، وقولُ الرسولِ صحيحٌ بالسُّنَّةِ، وقولُ الرسولِ ﷺ: «أتاكم يُعَلِّمُكُم دينكُم»[1] يدلُّ على أن من ديننا أن نُؤْمِنَ بأنه لا عِلْمَ لأحدٍ بقيامِ الساعةِ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآية (١٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ [الشورى:١٩].

قولُهُ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ الجملةُ استئنافيَّةٌ، وهى مبتدأُ آية ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ لا يخفى أنَّها مبتدأٌ وخبرٌ، ومعنى اللطيفِ هو الذي يَلْطُفُ بالعبدِ، فيُقَدِّرُ له من التيسيرِ ما لا يَخْطِرُ له على بالٍ، قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النونيَّةِ[1]:

وهو اللطيفُ بعبْـدِه ولعَبْـدِه .....

لطيفٌ به، يَرْفُقُ به ويُيَسِّرُ له الأمرَ، لطيفٌ لعبْدِه يُقَدِّرُ له من الأمورِ الخارجيَّةِ ما يكونُ فيه اللطفُ. كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ إذن: اللطافةُ تعتبرُ كنايةً عن تيسيرِ الأمرِ وتسهيلِ الأمرِ لمن شاء من عبادِهِ. لكن هنا يقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ بَرُّهُمْ وَفَاجِرُهُمْ]. حتى الفاجرُ اللهُ لطيفٌ به، لطيفٌ به بالمعنى العامِّ. ولهذا يُنَزِّلُ عليهم المطرَ، ويُنبتُ لهم النباتَ، ويدفعُ عنهم الشرورُ...إلخ.

فاللهُ عَزَّوَجَلَّ لطيفٌ بالعبادِ كُلِّهم؛ البَرِّ والفاجِرِ، لكنَّ لُطْفَه بالبَرِّ لطفٌ خاصٌّ، مُستمرٌّ في الدنيا وفى الآخرةِ، ولُطْفَه بالفاجرِ لُطْفٌ عامٌّ، يكونُ ابتلاءً وامتحانًا، وربما يزدادُ به الفاجرُ فجورًا بما لطف اللهُ به، كما قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ ليُملي للظالمِ

(١) النونية (ص:٢٠٧).

حتى إذا أَخَذَه لم يُفْلِتْهُ»[١].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حيث لم يُهْلِكْهُم جوعًا بمعاصيهم]، وإنما فَسَّرها بقولِهِ: [حيث لم يُهْلِكْهُم جوعًا بمعاصيهم] توطئةً لقولِهِ تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ ﴿يَرْزُقُ﴾ أي: يعطي، فالرِّزقُ بمعنى العطاءِ، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم﴾؛ أي: أَعْطُوهُمْ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَن يَشَآءُ﴾ من كلٍّ منهم ما يشاءُ]؛ لأنَّ المسألةَ فيها مرزوقٌ وفيها رزقٌ، والمرزوقُ عَبَّرَ عنه بقولِهِ: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ وأتى بـ (من) التي للعقلاءِ، والمرزوقُ قَدَّرَها الشارحُ بقولِهِ: [ما يشاءُ].

إذن: لدينا رزقٌ ومرزوقٌ، المرزوقُ عَبَّرَ اللهُ عنه بقولِهِ: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ والرزقُ حُذِفَ لِلْعِلْمِ به، وقَدَّرَهُ المفَسِّرُ بقولِهِ: [ما يشاءُ].

ونظيرُ هذا قولُهُ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾.

وقولُهُ: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ تَرِدُ كثيرًا في القرآنِ أشياءُ معلَّقَةٌ بالمشيئةِ؛ فهل هذه الأشياءُ المعلَّقَةُ بالمشيئةِ هي لمشيئةٍ مُجَرَّدَةٍ أو لمشيئةٍ مقرونةٍ بالحكمةِ؟ الجوابُ: الثاني، يتعيَّنُ هذا؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أفعالِهِ لا يفعلُ إلا الحكمةَ؛ كلَّما وجدْتَ مُضافًا إلى اللهِ معلَّقًا بالمشيئةِ، فاعلمْ أنه مقرونٌ بالحكمةِ.

ودليلُ ذلك: قولُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]، ففي هذا إشارةٌ إلى أنَّ مشيئةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ صادرةٌ عن عِلْمٍ وحكمةٍ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾، رقم (٤٦٨٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣)، من حديث أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فَخُذْها بقلبِكَ، كلما وجدْتَ شيئًا من أفعالِ اللهِ، أو أحكامِ اللهِ الشرعيَّةِ مُعلقًا بالمشيئةِ فاعلمْ أنه مقرونٌ بالحكمةِ؛ خلافًا لمن قال من الجهميَّةِ وغيرِهم: إنَّ أفعالَ اللهِ تعالى لمجرَّدِ المشيئةِ، وليست مقرونةً بحكمةٍ.

قولُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ القويُّ ضدُّ الضعيفِ؛ يعني ذا القوَّةِ الكاملةِ، التي لا يَلْحَقُهَا ضعفٌ، ولنسألْ أَنْفُسَنا: هل لدينا قوةٌ كاملةٌ؟ الجوابُ: لا، ثم لا، ثم لا، وهل قُوَّتُنا النَّاقصةُ تستمرُّ؟ لا، وهل قُوَّتُنا الناقصةُ ثابتةٌ لنا من حين وُلِدْنا؟ لا، واستمعْ إلى قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ هذا واحدٌ، مرةً ثانيةً ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ هكذا حالُ الإنسانِ، ولا مفرَّ منها، الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ هو القويُّ ذو القوَّةِ التامَّةِ التي لم تَزَلْ ولا تزالُ.

واستمعْ إلى قولِ عادٍ حين فخروا بقُوَّتِهم؛ وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فقال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ اللهُ أكبرُ، لو قالت أمريكا الآن: من أشدُّ مِنَّا قوةً، ماذا نقولُ؟ اللهُ الذى خَلَقَكم، أنتم الآن مخلوقون ضعفاءُ، ولو شاء اللهُ لَسَلَبَكم القوةَ والقدرةَ والعقولَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى الذي خَلَقَكُم هو أشدُّ منكم قُوَّةً، وكذلك غيرُها من الدولِ الذين يعتزُّون بقُوَّتِهم المادِّيَّةِ، نقول: إن فوقكم رَبَّ العبادِ عَزَّوَجَلَّ الذي خَلَقَكُم ولم تكونوا شيئًا فهو أشدُّ منكم قُوَّةً.

وقد يكونُ تفتيتُ القوةِ من نفسِ القوةِ؛ فالاتحادَ السوفيتيَّ كان يُهَدِّدُ العالمَ من قَبْلُ والآن الاتحادُ السوفيتيُّ فَتَّتَه اللهُ من داخِلِهِ.

فالمهمُّ أن اللهَ هو القويُّ الكاملُ القُوَّةِ، ولا يُمْكِنُ أن يَلْحَقه ضَعْفٌ.

هنا فائدةٌ: هناك قدرةٌ وقوةٌ، وهناك ضعفٌ وعجزٌ، الذي يُقابِلُ القوَّةَ الضَّعْفُ، والدليلُ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ [الروم:٥٤] والذي يقابِلُ القدرةَ العجْزُ،

والدليلُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤] لم يَقُلْ: عليمًا قويًّا، أيُّهما أشدُّ وأكْمَلُ؟ نقولُ: كلُّ شيءٍ بحسَبِ، القدرةِ لا يُوصَفُ بها إلا ذَوُو الإرادةِ؛ فالجدارُ مثلًا لا تقُل: إنه قديرٌ، والقوةُ يوصَفُ بها ذوو الإرادةِ وغيرُهُم، تقولُ: الجدارُ قويٌّ، والحجارةُ قويَّةٌ. لكن لا تقولُ: قديرةٌ.

والقوةُ أَكْمَلُ من جهةٍ أخرى؛ لأنَّه ليس كُلُّ قادرٍ قويًّا، فلو امتحنَّا واحدًا منكم، وقلنا: احملْ هذا الحَجَرَ، فأراد أن يَحْمِلَهُ عَجَزَ أن يُقِلَّه عن الأرضِ، فهل نقولُ هذا غيرُ قويٍّ أم غير قادرٍ؟ الجوابُ: غير قادرٍ؛ لأنَّه عَجَز لم يُزَحْزِحْه.

ولو قلنا لآخَرَ: احمِلْ هذا الحَجَرَ؛ فكشف عن ذراعيه ثم حَمَلَه، لكنه تَعَثَّرَ، نقولُ: غير قويٍّ، فهو قادرٌ، الآن حَمَلَه، لكنه غَيْرُ قويٍّ. فصارت القوةُ من هذه الناحيةِ أَكْمَلُ؛ لأنَّها هي القدرةُ على الشيءِ بلا ضعفٍ.

هنا يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ يعني: الغالبُ على أَمْرِه]؛ قَسَّمَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ العزَّةَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: عِزَّةَ القَدْرِ، وعزَّةَ القَهْرِ، وعزَّةَ الامتناعِ.

الأولُ: عزَّةُ القَدْرِ: يعني: أن قَدْرَه عظيمٌ؛ لا نظيرَ له، ومنه قولُ العربِ: هذا عزيزٌ. يعني: نادرُ الوجودِ، هذه عزَّةُ القَدْرِ.

الثاني: عزَّةُ القَهْرِ: يعني: الغلبةَ، وهذا أكثرُ ما تَرِدُ بهذا المعنى؛ فالعزيزُ بمعنى الغالِبِ، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ردًّا على قولِ المنافقين؛ ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾.

الثالثُ: عزَّةُ الامتناعِ، يعني: أنه يمتنعُ عليه السوءُ عَزَّوَجَلَّ ويمتنعُ عليه النقصُ؛ يُحاولُ المجرمون أن يصفوه بالنقصِ، ولكنه يَمْتَنِعُ عليه، ومنه قولُهُم: هذه أرضٌ

عزازٌ. يعني: شديدةٌ صُلْبَةٌ، الشديدةُ الصُّلْبةُ التي لا تُؤَثِّرُ فيها المَعاولُ، يقولون: إنها عزازٌ، وفي لغتنا نحن العامَّةَ يقولون: عَزا فيحذفون الزاي الثانيَةَ أرضًا عزا؛ يعني: صُلْبَةً.

قال ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وهُو العزيزُ فلن يُـرامَ جَنَابُـه ... أنى يُرامُ جنابُ ذي السلطانِ

وهُو العزيزُ القاهرُ الغلَّابُ لم ... يَغْلِبْـه شيءٌ هـذه صـفتانِ

وهُو العزيزُ بقوةٍ هي وصـفُهُ ... فـالعزُّ حينئـذ ثـلاثُ معـانِ

وهُو الذِي كمَلت له سبحانَه ... مِن كُلِّ وجهٍ عـادِمِ النُّقصـانِ

فالعزُّ له ثلاثةُ معانٍ: اللهُ عَزَّوَجَلَّ هو القويُّ، وهو الغالبُ، وإذا جُمِعَ بيْنَ القُوَّةِ والغَلَبَةِ كَمُلَ السلطانُ؛ لأنَّ من النَّاسِ من يكونُ قويًّا ولكن لا يَغْلِبُ؛ أرأيْتُمْ لو كان هناك رجلٌ قويًّا جدًّا قُوَّةَ الحِصانِ، لكنه جبانٌ؛ فإنه لا يَغْلِبُ؛ لأنَّه جبانٌ؛ إذا اجتمعتِ القوةُ والعزةُ كَمُلَ السلطانُ ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾...إلخ

• • ۞ • •

(١) النونية (ص:٢٠٥).

الآية (٢٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى:٢٠].

قوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ لا يخفى علينا جميعًا من حيث الإعرابُ أنَّ (مَنْ) هنا شرطيَّةٌ. والدليلُ قولُهُ: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ حيثُ جاء الجوابُ مجذومًا، وهذا فيه: أنَّ فِعْلَ الشرطِ يكونُ ماضيًا، والجوابُ يَكُونُ مضارعًا؛ لقولِهِ: ﴿ مَن كَانَ﴾ الجوابُ: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ وكذلك بالعكس قد يكونُ فعلُ الشرطِ مضارعًا والجوابُ ماضيًا. مثلَ: مَنْ يَشْكُرِ اللهَ زادَهُ اللهُ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ﴾ بِعَمَلِه ﴿حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ ﴾؛ أي: كَسْبُها وهو الثوابُ ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾] بالتضعيفِ فيه، الحسنةُ إلى العشرةِ أو أكثرَ. ﴿حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ ﴾ أصلُ الحرثِ ما يُحْرَثُ للنماءِ والزيادةِ، ومنه حَرَثَ الفلاحُ الأرضَ من أجلِ أن يَزْرَعَها؛ فيكسِبَ ويزدادَ مالَهُ، وقولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ ﴾ يقولُ: أي كَسْبُها وهو الثوابُ ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾] فَسَّرَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ زيادةَ الحَرْثِ بزيادةِ الثوابِ؛ الحسنةُ بعَشْر أمثالِها إلى سبعِ مِئةِ ضِعْفٍ، إلى أضعافٍ كثيرة، ونَزيدُ أمرًا آخَرَ؛ أي: نُؤْتِه من الدنيا والآخرةِ؛ بدليلِ قولِهِ: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾.

إذن: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ﴾ من وجهين: الوجهُ الأوَّلُ: أن اللهَ تعالى يعطيه ثوابَ الدنيا والآخرةِ.

والثاني: أنه يُضاعِفُ الثوابَ؛ الحسنةُ بعَشْر أمثالِها؛ إلى سبعِ مِئةِ ضِعْفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ.

قال: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: كَسْبَها والتَّنَعُّمَ فيها. هذا في الغالبِ يُعْرِضُ عن الآخرةِ؛ لأنَّه لا يُريدُ إلا الدنيا، ولهذا تَجِدُهُ مهتمًّا بأمورِ الدنيا غايةَ الاهتمامِ، حتى السيارةُ إذا أصابَتْها بقعةٌ من الطينِ بالمشيِ على الطينِ ذهب يُنَظِّفُها ويَمْسَحُها، لكن قَلْبَهُ مملوءٌ من البلاءِ، ولكنَّه لا يَحْرِصُ على تنظيفِهِ وتنقيتِهِ؛ لأنَّه لا يُريدُ إلا الدنيا. تجدُهُ مثلًا في قصورِهِ؛ لا يهتمُّ إلا بإصلاحِ الجُدُرِ وتنظيفِها، لكن بناءَ الدِّينِ لا يهتمُّ به، هذا يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فيه: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، ولا نُؤْتِه كلَّ ما أراد.

وكلمةُ ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ هذه مُطْلَقةٌ، لكنها مُقيَّدةٌ بما في سورةِ الإسراءِ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ لا ما يَشاءُ هو، ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ يعني: حتى إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بيَّن أنَّ المُعَجَّلَ تابعٌ لمشيئَتِهِ، وأنَّ المُعَجَّلَ له -وهو الإنسانُ- تابعٌ لإرادتِهِ، فقال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ ولا تظنَّ أن الآيةَ فيها تكرارٌ، لا ﴿مَا نَشَآءُ﴾ هذا باعتبارِ المعجَّلِ ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ باعتبارِ المعَجَّلِ له. فلا كلُّ أحدٍ أراد شيئًا يُعَجَّلُ له، ولا كلُّ أحدٍ أراد شيئًا يَحْصُلُ له ما أراد؛ لأنَّ الأمرَ بيدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولهذا يقولُ هنا: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾.

فإذا قال قائلٌ: كلمةُ ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ جوابُ الشَّرْطِ؛ وهي تقتضي أن اللهَ سيؤتيه منها؟

نقولُ: هذا المُطْلَقُ مُقَيَّدٌ بآيةِ سورةِ الإسراءِ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ وهي الدنيا ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:١٨].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿نُّؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ بلا تضعيفٍ لما قُسمَ له ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾] نسألُ اللهَ العافيةَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: حثٌّ على أن يريد الإنسانُ بعمَلِهِ الآخرةَ.

فإن قال قائلٌ: كيف يريدُ الآخرةَ بعملِ الدُّنْيا؟ ولنفرضِ الأكلَ والشُّرْبَ، ذَهَبَ الإنسانُ إلى السُّوقِ ليشتريَ خُبزًا وإدامًا، كيف يُريدُ الآخرةَ؟

نقولُ: يُمْكِنُ أن يُريدَ الآخرةَ بذلك، فيريدُ أولًا امتثالَ أَمْرِ اللهِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ ويريدُ ثانيًا: حِفْظَ قُوَّتِه وصِحَّتِه، وهذا أمرٌ مطلوبٌ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، وَأَمَرَنا أن نأكُلَ من الطَّيِّباتِ ونشكُرَهُ، يريدُ بذلك التَّقَوِّيَ على طاعةِ اللهِ؛ لأنَّه كلما كان الجسمُ قويًّا كانت العبادةُ أَكْمَلَ، فيريدُ بأكْلِه وشُرْبِه، التَّقَوِّيَ على طاعةِ اللهِ؛ ويُريدُ بذلك التَّنَعُّمَ بكرمِ اللهِ؛ لأنَّ الكريمَ يُحِبُّ أن يُقْبَلَ كَرَمُه. يعني: لو أنَّ رجلًا جَوَادًا كريمًا أهدى إليك هَدِيَّةً، فهو يُسَرُّ إذا قَبِلْتَهَا ويُغَمُّ إذا رَدَدْتَها. إنَّ رَبَّنَا جَلَّ وَعَلَا أَكْرَمُ الأَكْرَمِين، فهو يُحِبُّ من عبادِه أن يَتَبَسَّطُوا بِنِعَمِه، ويَتَنَعَّمُوا بها.

إذن: هذا إرادةُ حَرْثِ الآخرةِ بعَمَلِ الدُّنْيا؛ أمَّا عَمَلُ الآخرةِ المَحْضُ؛ كالصَّلاةِ والصِّيامِ والحَجِّ وما أَشْبَهَ ذلك فهذا أَمْرُه واضحٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التحذيرُ من إرادةِ الدُّنْيا فقط؛ لقولِهِ: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ من أراد حَرْثَ الدُّنْيا؛ فإنه لا يُعطى كُلَّ ما أراد؛ لقولِهِ: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ ومن أراد حَرْثَ الآخرةِ يُعطى كلَّ مرادِهِ وزيادةً.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإشارةُ إلى أن الأعمالَ بالنِّيَّاتِ؛ لقولِهِ: ﴿يُرِيدُ﴾ ففيه إشارةٌ إلى حُسْنِ النِّيَّةِ، وأن الإنسانَ ينبغي له إحسانُ النِّيَّةِ، بل يجبُ عليه إحسانُها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الرَّدُّ على الجبريَّةِ، يُؤْخَذُ من قولِهِ: ﴿يُرِيدُ﴾؛ لأنَّ الجبريَّةَ يقولون: إنَّ الإنسانَ لا إرادةَ له، سبحانَ اللهِ! طَبَخَ الطعامَ ليأكُلَه، فهذا بغيرِ إرادةٍ! حَضَّرَ أدواتِ المنزلِ ليستعْمِلَها، قال: هذا ليس بإرادتي، ماذا تقولون في هذا الرَّأْيِ؟ هذا رأيٌ مخالفٌ للفِطَرِ، مخالفٌ لأدنى فِطْرَةٍ، حتى الصَّبِيُّ يَعْرِفُ إذا أُجْبِرَ وإذا فَعَلَ بالاختيارِ.

وقد قُدِّمَ لأميرِ المؤمنين عمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سارقٌ فأمر بقَطْعِ يَدِه، اقطعوا يَدَه تَمَّتْ شروطُ القطعِ، فقال: مهلًا يا أميرَ المؤمنين، واللهِ ما سَرَقْتُ هذا إلا بِقَدَرِ اللهِ. يريدُ أن يرتفعَ عنه الحَدُّ، فإذا كان بإرادةِ اللهِ ليس لي فيه اختيارٌ، فقال له أميرُ المؤمنين: ونحن لا نقطعُ يَدَكَ إلا بإرادةِ اللهِ. فَبُهِتَ! لا يستطيعُ أن يقولَ شيئًا، مع أن قَطْعَ يَدِهِ كان بإرادةِ اللهِ الكونيَّةِ والشرعيَّةِ، والسارقُ بإرادةِ اللهِ الكونيَّةِ فقط؛ لأنَّه لم يُؤْذَنْ له بالسَّرقةِ.

إذن: في الآيَةِ ردٌّ على الجبريَّةِ، وهل في الآية ردٌّ للقَدَرِيَّةِ الذين يُنْكِرُون إرادةَ اللهِ فيما فَعَلَ العبدُ؟ الجوابُ: لا، ليس بها ردٌّ لقوْلِهم، لكن ليس فيها إثباتٌ لقوْلِهم؛

لأنَّ إرادةَ الإنسانِ من صفاتِهِ، هو الذي يريدُ، العبدُ مخلوقٌ، فإذا كان مخلوقًا، كانت صفاتُهُ أيضًا مخلوقةً ولا بُدَّ، فإرادتُهُ مخلوقةٌ للهِ باعتبارِ أنك أنت مخلوقٌ وصِفَةُ المخلوقِ مخلوقةٌ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: كمالُ سلطانِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِهِ: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، و:﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ كَرَمِ اللهِ، وأنه عَزَّوَجَلَّ أَكْرَمُ من عبْدِه، يعملُ العبدُ قليلًا ويُثابُ كثيرًا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثباتُ الآخرةِ، وإثباتُها ثابتٌ بالقُرآنِ والسُّنَّةِ وإجماعِ المسلمين والنظرِ الصحيحِ. يعني: الحقَّ.

أما الكتابُ والسُّنَّةُ فمملوآن من إثباتِ اليومِ الآخِرِ، وأما الإجماعُ فهو ثابتٌ لا أَحَدَ من المسلمين يُنْكِرُ الآخرةَ ومن أَنْكَرَها كَفَرَ.

وأما النَّظَرُ الصحيحُ؛ فلقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]. وقولِهِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

أرأيتُم لو أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ خَلَقَ هذا الخَلْقَ، وأَرْسَلَ الرُّسُلَ، وأَنْزَلَ الكتبَ، وفَرَضَ الجهادَ، وكان هذا يَقْتُلُ هذا على دينِ اللهِ ويغنمُ مالَه ويُسبي نساءَهُ، ثم تكونُ المسألةُ عائدةً إلى أن نكونَ رِمَمًا لا نُبعثُ، ويكونُ هذا العملُ عبثًا يُنَزَّهُ اللهُ عنه، ولولا إيمانُنا باليومِ الآخِرِ؛ لكان القويُّ منا يأكلُ الضعيفَ؛ لأنَّه لا يرجو حسابَهُ، ولكن العقلَ يقتضي ويوجِبُ الإيمانَ باليومِ الآخِرِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن من أرادَ بعمَلِه الدُّنْيا فإنه لا نَصِيبَ له في الآخرةِ، ولكن هل نَفْيُ النَّصيبِ هنا نفيٌ كاملٌ، أو ليس له نَصيبٌ في الآخرةِ بهذا العملِ الذي أراد به الدنْيا؟ الجوابُ: الثاني بلا شكٍّ، اللهمَّ إلا أن يكون هذا العملُ والإرادةُ مما يُخْرِجُ عن الدِّينِ فإنه لا نَصِيبَ له مطلقًا.

وهل لو أرادَ الإنسانُ بدراسَتِه أن ينالَ الإجازةَ -يعني: الشهادةَ- هل يكونُ ممن أرادَ حَرْثَ الدُّنْيا أو الآخرةِ؟

الجوابُ: حَسَبَ ما في قَلْبِه، إنْ كان أراد بالشهادةِ أن يرتقيَ إلى مَنْصِبٍ دُنْيَوِيٍّ فقد أراد الدُّنْيا، وإن أراد بذلك أن يرتقيَ إلى مَنْصِبٍ يتمكَّنُ به من نفعِ المسلمين بالتدريسِ أو بالتربيةِ فهذا أراد الآخرةَ لا شكَّ، ولذلك ما بين الدُّنْيا والآخرةِ في هذه المسألةِ إلا شَعْرَةٌ أو أقلُّ، هل أنت تريدُ بالشهادةِ أن تقولَ أنت في المرتبةِ الخامسةِ أو العاشرةِ أو المئةِ أو المئتين أو الألفِ أو الألفين، أو تريدُ بذلك أن تتبوَّأَ مكانًا تنفعُ به الناسَ؟ الأولُ خاسرٌ، والثاني رابحٌ؛ لأننا مع الأسفِ الآن أصبحنا لا يُقَدِّرُ الإنسانُ إلا بما معه من البطاقةِ، العلمُ هو ورقةٌ، شهادةُ دكتوراه رَقْمُ أَلْفٍ إذا تَعَدَّيْتَ إياه أين نُوَظِّفُكَ؟ أيَّ مكانٍ تريدُ؟ لكن يأتي رجلٌ في العِلْمِ مثل شيخِ الإسلامِ ابْنِ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم يقولُ بعضهم: وظِّفْه في مدرسةٍ ابتدائيَّةٍ. فيقال: لا شهادةَ مَعَه لا نُوَظِّفُه.

فصار الآن ميزانُ عِلْمِ الناسِ بهذه البطاقةِ، فإذا كان الناسُ نَزَلُوا إلى هذا المستوى أنا أجاريهم ونِيَّتِي عند اللهِ معلومةٌ، وقصدي أن أتبوَّأَ مكانًا في الأمَّةِ، أكُونُ مدرِّسًا، قاضيًا، رئيسًا لشيءٍ فأُوَجِّهَ الناسَ.

• • ۞ • •

الآيـة (٢١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:٢١].

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمْ﴾ بمعنى بل] أشار بهذا إلى أن ﴿أَمْ﴾ هنا منقطعةٌ، و(أمِ) المنقطعةُ هي التي تأتي بمعنى (بل) وهمزةِ الاستفهامِ. أي: بل ألَهُ شركاءُ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَهُم﴾ لِكُفَّارِ مَكَّةَ] والصوابُ: أنها أعمُّ من ذلك، يعني: أن جميعَ المُشركين لهم شركاءُ جعلوهم مع اللهِ عَزَّوَجَلَّ يُشَرِّعُون لهم من الدِّينِ ما لم يَأْذَنْ به اللهُ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ هم شياطينُهُم ﴿شَرَعُواْ﴾ أي الشركاءُ ﴿لَهُم﴾ للكفَّارِ] وهنا قال: [للكفارِ] وفيما سبق قال: [كفارُ مَكَّةَ] فتكونُ (ال) في كلامِهِ للعهْدِ الذِّكْرِيِّ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ الفاسدُ ﴿مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ كالشِّرْكِ وإنكارِ البَعْثِ]، وهذا الاستفهامُ هنا بمعنى الإنكارِ عليهم أن يتخذوا هؤلاء شركاءَ يُشَرِّعُون لهم من الدِّينِ ما لم يَأْذَنْ به اللهُ.

وقولُهُ: ﴿مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ ٱللَّهُ﴾ المرادُ بالإذنِ هنا الإذنُ الشرعِيُّ؛ لأنَّ الإذنَ يكونُ قَدَريًّا ويكونُ شَرْعيًّا، فما تَعَلَّقَ بالأمرِ والنهيِ شرعيٌّ، وما تَعَلَّقَ بالخَلْقِ والتكوينِ قدريٌّ، فقولُهُ تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]. يَحْتَمِلُ أن يُرادَ به الإذن الشرعيّ أو القدريّ، ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بأن يَأْذَنَ قَدَرًا بأن يَشْفَعَ، أو يأذنَ شَرْعًا. وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢]. يحتملُ الإذنَ القدريَّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يأذنُ شَرْعًا بأن يَضُرَّ السحرةُ أحدًا.

وهنا ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ما لم يأذن به شرعًا، أما قدرًا فقد أَذِنَ به؛ لأنَّه وَقَعَ، وكلُّ شيءٍ يقعُ فإنه مأذونٌ فيه قدرًا؛ لأنَّه لا يُمْكِنُ أن يقعَ في مُلْكِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ما لم يَأْذَنْ به قَدَرًا، ومن ذلك؛ أي: من شَرْعِ ما لم يأذنْ به اللهُ تحليلُ ما حَرَّمَ اللهُ، أو تحريمُ ما أحلَّ اللهُ، ولهذا جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هؤلاء الذين يُحَلِّلُون ما حَرَّمَ ويُحَرِّمُون ما أَحَلَّ جَعَلَهم أربابًا، كما في قولِهِ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]. قال عديُّ بْنُ حاتمٍ للرسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ: «إنا لَسْنَا نَعْبُدُهم، قال: أليس يُحِلُّون ما حَرَّمَ اللهُ فتُحِلُّونه، ويُحَرِّمُونَ ما أحلَّ اللهُ فتحرِّمُونه؟ قال: بلى، قال: فتلك عبادتُهم»[1]، يعني: طاعَتَهم.

قال المُفسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾؛ أي: القضاءُ السابقُ بأن الجزاءَ في يومِ القيامةِ ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ وبين المؤمنين بالتعذيبِ لهم في الدنيا ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مُؤْلِمٌ].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥).

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ (لولا) يقولُ النحويون: إنها حرفُ امتناعٍ لوجودٍ، والذي امْتَنَعَ في هذه الآيةِ القضاءُ بينهم، والموجودُ كلمةُ الفَصْلِ، واعلمْ أن (لولا) حرفُ امتناعٍ لوجودٍ، و(لما) حرفُ وجودٍ لوجودٍ، و(لو) حرف امتناعٌ لامتناعٍ. فاقتسمت هذه الأدواتُ الثلاثُ المعانيَ الثلاثةَ.

(لو) حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ؛ تقولُ: لو زُرْتَنِي لأكْرَمْتُكَ. هنا امتنعَ الإكرامُ لامتناعِ الزيارةِ. وتقولُ: (لَمَّا) رَأَيْتُكَ أَكْرَمْتُكَ. هنا وُجِدَ الإكرامُ لوجودِ الرؤيةِ. وتقولُ: (لولا) زيدٌ لفعلْتُ كذا وكذا. هذا حرفُ امتناعٍ لوجودٍ.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ وهي كلمةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ السابقةُ التي قضى عَزَّوَجَلَّ بها أن لكلِّ شيءٍ أَجَلًا مُقَدَّرًا، هذه الكلمةُ التي جَعَلَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ لكلِّ شيءٍ أَجَلًا مقدَّرًا، لولا هذه لقضى اللهُ بينهم وبين المؤمنين بتعجيلِ العذابِ لهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن من أطاع الزعماءَ والكبارَ في تحريمِ شيءٍ أَحَلَّه اللهُ، أو تحليلِ شيءٍ حَرَّمَه اللهُ، أو إيجابِ شيءٍ لم يُجِبْه اللهُ؛ فإنه قد اتخذهم شركاءَ.

ويترتَّبُ على هذه الفائدةِ: أن مُتَّبِعي دعاةِ البِدَعِ قد اتخذوهم شركاءَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الأمورَ المشروعةَ لا بدَّ أن يكونَ فيها إذنٌ من اللهِ. يعني التي يَفْعَلُها الإنسانُ تديُّنًا لا بدَّ أن يكونَ فيها إذنٌ من اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أَنْكَرَ على هؤلاء الذين اتخذوا شركاءَ ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ وهذا بمعنى قولِنا: الأصلُ في العباداتِ الحظْرُ والمنعُ، إلا إذا قام دليلٌ على مشروعِيَّتِه؛ وعليه فلو رأيْنا شخصًا تَعَبَّدَ بعبادةٍ لم نَكُنْ نَعْرِفُها فلنا أن نُنْكِرَ عليه حتى يأتيَ بدليلٍ؛ لأنَّ الدِّينَ مُتَلَقًّى من عندِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن ما سوى الأمورِ الدينيَّةِ فإنه خاضعٌ للأمورِ العاديَّةِ أو للأحوالِ العاديَّةِ؛ لقولِهِ: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾، وعلى هذا لو شَرَعُوا قوانينَ ونُظُمًا لا علاقةَ لها بالدِّينِ؛ فإن ذلك جائزٌ، ولا تُعَدُّ موافقةُ هذه النظمِ شِرْكًا. فكيف إذا كانت هذه النظمُ تؤيَّدُ بالقواعدِ العامةِ، وهي جلبُ المصالحِ ودفعُ المفاسِدِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الرَّدُّ على أولئك القومِ الجهلةِ الذين ينكرون كلَّ نظامٍ تسُنُّهُ الحكوماتُ، بقطعِ النظرِ عن كونِهِ أمرًا دينيًّا أو أمرًا دنيويًّا، وبقطعِ النظرِ عن كونِه موافقًا للشرعِ أم غيرَ موافقٍ للشرعِ؛ لأنَّ بعضَ الناسِ مثلًا يقولُ: أنا لا أتقيَّدُ بأنظمةِ المرورِ؛ لأنَّه لا دليلَ فيها، وربما يقولُ: هذه بدعةٌ. فيقال له:

أولًا: الأمورُ الدنيويةُ الأصلُ فيها الحِلُّ، ولا يُبَدَّعُ من أتى بها خارجًا عن العادةِ، لكن يُنْظَرُ هل هي حلالٌ أم حرامٌ.

ثانيًا: أن النصوصَ تدُلُّ على وجوبِ طاعةِ ولاةِ الأمرِ؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء:٥٩]. وقولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ في الأميرِ: «**اسمعْ وأطِعْ ولو أَخَذَ مَالَكَ وضَرَبَ ظَهْرَكَ**»(١).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: حكمةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بتعجيلِ أو تأخيرِ العذابِ؛ لقولِهِ: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ [يونس:١٩].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن ما قضاه اللهُ أزلًا لا يتغيَّرُ يعني في الماضي لا يتغيَّرُ؛ لقولِهِ: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن، رقم (١٨٤٧/ ٥٢)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائلٌ: ما تقولون في قولِهِ تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩]. هل يعارضُ ما قررناه من فوائدَ هذه الآيةَ؟

فالجوابُ: لا يعارضُ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: أصْلٌ، فما في أمِّ الكتابِ لا يتغيَّرُ، وما لم يَكُنْ كذلك فإنه يتغيَّرُ، أليس اللهُ تعالى يقولُ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؟ [هود:١١٤]. فالسيئاتُ بعد أن كُتِبَتْ أتتِ الحسناتُ فَمَحَتْها، فالإنسانُ يُذْنِبُ فيكتبُ الذَّنْبَ ثم يستغفرُ فيمحى الذَّنْبُ، وأما ما في أصْلِ الكتابِ فإنه لا يتغيَّرُ؛ وعلى هذا فلا يعارضُ هذه الآيةَ وهي قولُهُ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾.

فإن قال قائلٌ: ما تقولون في الحديثِ الصحيحِ: «من أحبَّ أن يُبْسَطَ له في رزْقِه ويُنْسَأَ له في أثَرِه فَلْيَصِلْ رَحِمَه»[1]؛ فإن هذا يدلُّ على أن صلة الرحمِ سببٌ لكثرةِ الرزقِ وسببٌ لطولِ العمرِ، وأنتم تقولون: إن العمرَ مكتوبٌ، وإن الرزقَ مكتوبٌ؟

فالجوابُ: الرزقُ مكتوبٌ على هذا السببِ والأجلُ مكتوبٌ على هذا السببِ، فيكونُ اللهُ تعالى قد كتب أَجَلَ هذا مؤخرًا لصلةِ الرحِمِ، وَوَسَّعَ في رزقِ هذا لصلةِ الرحمِ، ويكونُ هذا معلومًا عند اللهِ، لكن النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ ذكر هذا ترغيبًا في صلةِ الرحِمِ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يعْلمُ ما كُتِبَ له في المستقبلِ؛ وحينئذٍ لا منافاةَ.

وأما من قال من العلماءِ: إن المرادَ بقولِهِ: «يُنْسَأُ له في أثَرِهِ» أن اللهَ يبارِكُ له في العمرِ. هذا غير صحيحٍ؛ لأنَّه خلافُ ظاهرِ الحديثِ، بل ظاهرُ الحديثِ أنه يؤخَّرُ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق، رقم (٢٠٦٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم، رقم (٢٥٥٧)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لكن يكونُ مكتوبًا عند اللهِ أنه واصلٌ، وأن عُمْرَه إلى كذا، لكن هل الإنسانُ يَعْلَمُ بأنه مكتوبٌ عند اللهِ هكذا؟ لا يَعْلَمُ. فأراد النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ أن يحثَّ الإنسانَ على صلةِ الرحمِ بمثلِ هذا الوعدِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ الأسبابِ؛ لقولِهِ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾. فالكلمةُ السببُ بتأخيرِ العذابِ، وإثباتُ الأسبابِ أمرٌ لا يُنكره إلا الجاحدُ. واعلمْ أن الناسَ انقسموا في الأسبابِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

قسمٍ أنكروا الأسبابَ نهائيًّا، وقالوا: لا تأثيرَ للسببِ في المسبَّبِ.

وقسمٍ أثبتوا الأسبابَ على وجه الغلوِّ وزعموا أنها -أي: الأسبابُ- موجِبةٌ ولا بدَّ.

والقسمُ الثالثُ: أثبتوا الأسبابَ ولكنهم جعلوا ذلك تابعًا لمشيئةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ. وهذا القولُ هو المتعيِّنُ أننا لا ننكرُ الأسبابَ، وكيف ننكرُها ونحن نشاهدُ هذا بأعيُنِنا؟ هم يقولون: إن ما يحصلُ بالسببِ ليس حاصلًا به لكنه حاصلٌ عنده، فمثلًا: إذا رميْتَ بحجرٍ على زجاجةٍ ثم انكسرت يقولون: إن الذي كسرها ليس الحجرَ لكن كسرتْها إرادةُ اللهِ عند ملامسةِ الحجرِ، إذن حَصَلَتْ عند السببِ لا بالسَّبَبِ.

وأيضًا عندما تدخلُ ورقةٌ في النارِ تحترقُ يقولُ: النارُ لم تحرقْها، أحرقتْها إرادةُ اللهِ عند ملامسةِ النارِ. هذا كلامٌ غير معقولٍ يضحكُ منه السفهاءُ قبل الحكماءِ، كيف نقولُ ونحن نشاهدُ أن الحجرَ يقعُ على الزجاجةِ يكسِرُها، كيف نقولُ لم يكسِرْها، الإنسانُ لو اتكأ على الزجاجةِ لقال له من عنده لا تتكئْ فتنكسرَ.

وأما القولُ الثاني الغالي في إثباتِ الأسبابِ، والذين يقولون إن الأسبابَ

فاعلةٌ ولا بدَّ، أو موجِبةٌ ولا بدَّ، هؤلاء أيضًا ضالُّون، فها هي النارُ العظيمةُ كانت على إبراهيمَ بردًا وسلامًا، ولو كان السببُ موجِبًا بذاتِهِ ولا بدَّ لأحرقت إبراهيمَ على كلِّ حالٍ، لكن اللهَ قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]. فكانت بردًا وكانت سلامًا.

قال العلماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: لو قال اللهُ تعالى: ﴿كُونِي بَرْدًا﴾ ولم يَقُلْ: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لأهلكتْ إبراهيمَ من البرْدِ، لكن اللهَ قَرَنَ البرْدَ بالسلامِ. إذن الآيةُ التي معنا فيها إثباتُ الأسبابِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الوعيدُ الشديدُ للظالمين؛ لقولِهِ تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: من فوائدِها اللغويَّةِ: أن (أليمٌ) بمعنى مُؤْلِمٌ؛ يعني فعيلٌ بمعنى مُفْعِلٍ. وهذا قليلٌ في اللغةِ العربيةِ، أكثرُ ما يأتي (أليمٌ) في اللغةِ العربيةِ بمعنى آلِـمٌ؛ أي: بمعنى فاعِلٍ، هذا هو الأكثرُ، لكن قد يأتي فعيلٌ بمعنى مُفْعِلٍ كما في هذه الآيةِ، وكما في قولِ الشاعرِ:

أمن ريحانةِ الـداعي السـميعُ ... يُؤرِّقني وأصحابي هُجـوعُ[1]

السميعُ بمعنى المُسْمِعِ، يقولُها في معشوقتِه.

• • ۞ • •

(١) البيت لعمرو بن معدي كرب، انظر: الأصمعيات (ص:١٧٢)، الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣٦٠).

الآيتان (٢٢، ٢٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى:٢٢-٢٣].

قالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خَائِفِينَ ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ فِي الدُّنْيَا مِنَ السَّيِّئَات أَنْ يُجَازَوْا عَلَيْهَا، ﴿وَهُوَ﴾ أَيِ الْجَزَاءُ عَلَيْهَا ﴿وَاقِعُۢ بِهِمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا مَحَالَةَ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ أَنْزَهِهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ دُونَهُمْ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ﴾ مِنَ الْبِشَارَة مُخَفَّفًا وَمُثَقَّلًا بِهِ ﴿ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ ﴿أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، أَيْ: لَكِنْ أَسْأَلُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا قَرَابَتِي الَّتِي هِيَ قَرَابَتُكُمْ أَيْضًا، فَإِنَّ لَهُ فِي كُلِّ بَطْنٍ مِنْ قُرَيْش قَرَابَة ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ﴾ يَكْتَسِب ﴿حَسَنَةً﴾ طَاعَة ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ بِتَضْعِيفِهَا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِلذُّنُوبِ ﴿شَكُورٌ﴾ لِلْقَلِيلِ فَيُضَاعِفُهُ][1].

---

(١) لم يوجد تسجيل صوتي لتفسير هاتين الآيتين، ولهذا نُقل تفسيرهما من تفسير الجلالين رحمهما الله تعالى.

الآيـة (٢٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الشورى:٢٤].

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمْ﴾: بل] يعني: أن ﴿أَمْ﴾ بمعنى (بل) ويُسَمُّونها منقطعةً؛ لأنَّ (أمْ) تكون متصلةً وتكونُ منقطعةً، إذا صارتْ بمعنى (بل) فهي منقطعةٌ؛ لأنَّها تُشْبِهُ الإضرابَ عما سبق، وإذا كانت بمعنى (أو) فهي متصلةٌ، مثلَ أن أقولَ: أتريدُ كتابًا أم ساعةً. هذه متصلةٌ؛ لأنَّها بمعنى (أو)، ولا يستغني أحدُ الطرفين فيها عن الآخَرِ، وإذا قلتَ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ﴾ لا تجدُ لها مقابلًا، فهي منقطعةٌ بمعنى (بل).

﴿يَقُولُونَ﴾ أي الكفارُ من مشركي قريشٍ وغيرُهُم ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: اخْتَلَقَ على اللهِ كذبًا، وذلك بقولِهِ: إن القرآنَ كلامُ اللهِ، فقالوا: إن القرآنَ ليس كلامَ اللهِ، وإن محمدًا كاذبٌ، ولكنه ساحرٌ، كاهنٌ، مجنونٌ، وما أَشْبَهَ ذلك من الكلماتِ التي يَرْمُون بها رسولَ الله ﷺ.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ مفعولٌ ﴿يَشَإِ﴾ محذوفٌ ويُقَدَّرُ بما يدلُّ عليه السياقُ؛ أي: فإن يشاءُ ﴿ٱللَّهُ﴾ أن تفتريَ عليه كذبًا -وهذا شيءٌ محالٌ- ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ قال

المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَرْبِطُ] والصوابُ: أن الختمَ هنا بمعنى الطبعِ؛ يعني: إن افتريتَ على اللهِ كذبًا طَبَعَ اللهُ على قلبِكَ، ويمحو اللهُ الباطلَ الذي افتريْتَه لو قَدَّرَ أنك افتَرَيْتَه. ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ (يُحِقُّ) أي: يُثْبِتُه بكلماتِه المنزَّلةِ على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

فزعم المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يختمَ -يعني يَرْبِطَ- على قلبِه والربطُ ثناءٌ لا يتناسبُ مع السياقِ، ولم تأتِ (يختمُ) بمعنى (يربِطُ) بل تأتي (يختمُ) بمعنى (يَطْبَعُ)، كما قال الله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:٧]. وقال: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:٨٧].

معنى الآيةِ إجمالًا: أنه لو قَدَّرَ أنك افْتَرَيْتَ على اللهِ كذبًا فلم يتركْكَ اللهُ، لا بدَّ أن يُبَيِّنَ الحقَّ فيختمَ على قلبِك، ويطبعَ عليه ثم ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ويُشْبِهُ هذا قولَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ يعني: إذا قرأ ألقى الشيطانُ في قراءته ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج:٥٢].

وقولُهُ: ﴿فَإِن يَشَإِ﴾ لا يلزمُ من الشرطِ الوقوعُ، يأتي الشرطُ أحيانًا في أعلى المستحيلاتِ، أرأيتَ قولَ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]. ولا يُمْكِنُ أن يكونَ للهِ ولدٌ، ومع هذا جاءت الشرطيَّةُ. وقال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥]. وهذا لا يستلزمُ إشراكَ النبيِّ ﷺ. وقال اللهُ تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤]. ولا يُمْكِنُ أن يكونَ في شكٍّ.

إذن ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ﴾ يعني: إن يشاء اللهُ أن تفتريَ عليه كذبًا لا يلزمُ من هذا الشرطِ جوازُ افتراءِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ على اللهِ كذبًا، ومن المعلومِ أن اللهَ قد شَهِدَ للنبيِّ ﷺ بالرسالةِ فقال: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء:١٦٦].

قال تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بصاحبةِ الصدورِ، وهي القلوبُ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: محاولةُ المشركين أن يُلَبِّسُوا على الخلقِ؛ حتى يُنكروا رسالةَ النبيِّ ﷺ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ حتى يظُنَّ العوامُّ أنه مفترٍ على اللهِ كذبًا، فيُعرضوا عما جاء به.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيانُ شدةِ منابذةِ الكفارِ لما جاء به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ؛ لقولِهم: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن مِثْلَ هذا الكلامِ قَدْحٌ في اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قَدْحٌ في القرآنِ، قَدْحٌ في النبيِّ ﷺ، أما كونُه قدحًا في الله؛ فلأنه ليس من الحكمةِ أن يؤيِّدَ اللهُ تعالى هذا الذي افترى عليه كذبًا، بل الحكمةُ أن يُؤَاخِذَه ويعاقبَه ولا يؤيِّدَه، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد أيَّدَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ بالآياتِ الدالةِ على صدقِه.

وهو قَدْحٌ في القرآنِ؛ لأنَّه على زَعْمِهم كلامٌ مفترًى من عند الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولقد قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ فقال اللهُ تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣].

وهو قدحٌ في الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ أن يَجْعَلَ أصدقَ الخلقِ في مقامِ المُفْتَرِي على اللهِ، والافتراءُ على اللهِ أشدُّ من الافتراءِ على غيْرِه، ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [العنكبوت:٦٨].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ المشيئةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، يُؤْخَذُ ذلك من قولِهِ: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ﴾ وهل مشيئةُ اللهِ مجرَّدةٌ عن الحكمةِ أو لا يشاءُ شيئًا إلا لحكمةٍ؟ الجوابُ: الثاني؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]، فَبَيَّنَ أنه عَزَّوَجَلَّ له مشيئةٌ تامَّةٌ، وأردف ذلك بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ليتبيَّنَ أن مشيئةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليست مجرَّدَ مشيئةٍ عبثًا ولكن لحكمةٍ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن النبيَّ ﷺ مربوبٌ للهِ يَفْعَلُ به ما شاء، يُؤْخَذُ ذلك من قولِهِ: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن القلبَ محلُّ الإدراكِ والعقلِ والتصرُّفِ؛ لقولِهِ: ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فدلَّ هذا على أن مدارَ التصرُّفِ كُلِّه على القلبِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الطبعَ على القلبِ عقوبةٌ، سواءٌ كان طبعًا على العِلْمِ، أو طبعًا على القصْدِ والإرادةِ، فإنه عقوبةٌ بلا شكٍّ؛ ولهذا كان من دعاءِ النبيِّ ﷺ: «اللهمَّ مُقَلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلوبَنا على طاعَتِكَ»[1]، «اللهمَّ مُصَرِّفَ القلوبِ صَرِّفْ قلوبَنَا إلى طاعتِكَ»[2].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٨٢)، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٩٩)، والنسائي في الكبرى رقم (٧٧٣٨)، من حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «ثبت قلوبنا على دينك».

(٢) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالإنسانُ يجبُ ألا يعتمدَ على ما في قلبِهِ من اليقينِ؛ فإن هذا ربما يزولُ، بل عليه أن يسألَ اللهَ دائمًا التثبيتَ، يُؤْخَذُ من قولِهِ: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: حُسْنُ أدلةِ القرآنِ الكريمِ؛ حيث استدلَّ بأمرٍ واضحٍ على ما زعمه هؤلاء، وهو أنه لو شاء اللهُ أن يفتريَ الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ على اللهِ كذبًا لختم على قلبِهِ، وأنساه ما عنده، ثم محا اللهُ الباطلَ الذي افتراه ثم أحقَّ الحقَّ بكلماتِه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن اللهَ تعالى لا يُقِرُّ على باطلٍ، يمحو اللهُ الباطلَ، فلا يُمْكِنُ أن يُقِرَّ اللهُ تعالى على باطلٍ.

ويتفرَّعُ على هذه الفائدةِ فائدةٌ عظيمةٌ: وهي ما فُعِلَ في عَهْدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ ولم يُعْلَمْ أن النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ اطَّلَعَ عليه، فهل نَحْكُمُ بجوازِه؛ لأنَّ اللهَ اطَّلَعَ عليه وسَكَتَ عنه، أو لا نَحْكُمُ به حتى نَعْلَمَ أن النبيَّ ﷺ علمه؟

الجوابُ: الأولُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يُقِرُّ على باطلٍ، والوحيُ ما زال يَنْزِلُ، ولهذا يخطئُ بعضُ العلماءِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ إذا استدلَّ بما وقع في عهدِ النبيِّ ﷺ، يقولون: إن النبيَّ ﷺ لم يَعْلَمْ. فنقولُ: هبْ أنه لم يَعْلَمْ، فإن اللهَ قد عَلِمَ.

مثالُ ذلك: قال بعضُ أهلِ العلمِ: إنه لا يصحُّ أن يكونَ الإمامُ متنفلًا والمأمومُ مفترضًا؛ يعني: لا يصحُّ أن يصليَّ الفجرَ خلفَ من يصلِّي النافلةَ، هذا هو المذهبُ عندنا، فقيل لهم: هذا قولٌ مردودٌ؛ لأنَّ معاذَ بنَ جبلٍ كان يصلِّي صلاةَ العشاءِ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ، ثم يذهبُ إلى قومِه فيصلِّي بهم تلك الصلاةَ،

في عهدِ النبيِّ ﷺ[1]. قالوا: لا حجةَ في هذا؛ لأننا لم نَعْلَمْ أن النبيَّ ﷺ اطَّلَعَ عليه، فما الجوابُ؟ الجوابُ: إذا لم يَطَّلِعْ عليه اطَّلَعَ اللهُ عليه، ولو كان باطلًا عند اللهِ لبيَّنه، كما بَيَّنَ حالَ الذين يُبَيِّتُونَ ما لا يرضى من القولِ ويَكْتُمُونه عن الناسِ، فقال: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨].

إذن دَفَعْنَا شبهةَ هؤلاء الذين قالوا: لعلَّ النبيَّ ﷺ لم يَعْلَمْ به، بأن اللهَ عَلِمَه، ولو كان باطلًا لم يُقِرَّه، على أننا نقولُ: يَبْعُدُ أن النبيَّ ﷺ لم يَعْلَمْ به ومعاذٌ قد شُكِيَ إلى الرسولِ ﷺ بأنه يطيلُ في الصلاةِ، لكن نريدُ أن نتنزلَ مع الخصمِ ونقولَ: هبْ أن الرسولَ لم يَعْلَمْ به فإن اللهَ قد عَلِمَ به.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنه لا يُمْكِنُ أن يُمَكِّنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لأحدٍ كافرٍ تمكينًا مطلقًا، يُؤْخَذُ ذلك من قولِهِ: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فلا يُمَكِّنُكَ من الباطلِ.

وقولُنا: «التمكينُ المُطْلَقُ» خرج به ما لو مَكَّنَ اللهُ تعالى للكافرِ على وجهٍ لا يستقرُّ، كما حصل في غزوةِ أُحُدٍ، فإن المشركين هزموا المسلمين، لكنه ليس هزمًا مستقرًّا، بل هو من حِكْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن يُمَكِّنَ للكفارِ حتى يتشجعوا على حَرْبِ المسلمين، ثم يقضي المسلمون عليهم.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا محا الباطلَ جَعَلَ مكانَهُ الحقَّ؛ لقولِهِ: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب إذا صلى ثم أم قوما، رقم (٧١١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، رقم (٤٦٥)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ الكلماتِ للهِ؛ لقولِهِ: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ متكلِّمٌ بكلامٍ حقيقيٍّ؛ بحروفٍ وأصواتٍ مسموعةٍ ومحاورةٍ بينه وبين من شاء من خَلْقِه، وهذا مذهبُ السلفِ الصالحِ، وعليه جرت المحنةُ العظيمةُ على أئمةِ المسلمين من أمراءِ الجَوْرِ والظُّلْمِ وعلماءِ السُّوءِ؛ حيث ابتدعت الجهميَّةُ والمعتزلةُ القولَ بأن اللهَ لا يتكلَّمُ وإنما يَخْلُقُ كلامًا، فقالوا: إن اللهَ عَزَّوَجَلَّ لا يتكلَّمُ لكن يَخْلُقُ كلامًا وكلامُهُ مخلوقٌ، فيقالُ: لو قُلْنا بأن كلامَ اللهِ مخلوقٌ لبطلت الشريعةُ؛ لأنَّه يستوي الأمرُ والنهيُ، والخبرُ والاستخبارُ، والقصصُ تستوي؛ لأنَّها مخلوقةٌ لا يمتاز بعضُها عن بعضٍ فهي باعتبارِ الصوتِ كزمجرةِ الرعدِ، وباعتبارِ الكتابةِ كنقوشُ البدعِ؛ لأنَّها مخلوقةٌ، وحينئذٍ لا أَمْرَ ولا نهيَ، ولا خبرَ ولا استخبارَ، ولا شيءَ.

وتلطفت طائفةٌ فلم تُوَفَّقْ وقالوا: إن كلامَ اللهِ غيرُ مخلوقٍ، لكن كلامَهُ هو المعنى القائمُ بنفسه، وما سُمِعَ منه فهو عبارةٌ عن كلامِ اللهِ وهو مخلوقٌ.

فانظر كيف ضَلَّتْ هذه الطائفةُ حتى صارت أشدَّ ضلالًا من الذين قالوا إن الكلامَ مخلوقٌ. ما معنى كلامِهِم: يقولون: كلامُ اللهِ هو المعنى القائمُ بنفْسِه. كما أنه لو أنك في نفْسِك قَدَّرْتَ أن تَتكَلَّمَ بقولٍ ثم قلْتَ، هم يقولون: إن اللهَ تعالى أَضْمَرَ الكلامَ في نفْسِه ثم خَلَقَ أصواتًا تدلُّ عليه. فيكونُ هذا الذي في المصحفِ ليس كلامَ اللهِ، لكنه مخلوقٌ خَلَقَه اللهُ ليعبِّرَ عما في نفسِ اللهِ، المعتزلةُ يقولون: الذي في المصاحفِ كلامُ اللهِ مخلوقٌ، والأشاعرةُ يقولون: ليس كلامَ اللهِ وهو مخلوقٌ، فأيهما أقربُ إلى الصوابِ؟

الجوابُ: المعتزلةُ أقربُ، وهؤلاء يزعمون أنهم العقلاءُ عن الأشاعرةِ، وأنهم حاولوا الجَمْعَ بين المنقولِ والمعقولِ، ولكنهم أفسدوا المنقولَ والمعقولَ، فنحن نقولُ:

إن اللهَ يتكلَّمُ بكلامٍ مسموعٍ وبحروفٍ متتاليةٍ، واللهُ يَفْعَلُ ما يشاءُ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: عمومُ علْمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وبُطُونُ عِلْمِ اللهِ، أنه عِلْمٌ عميقٌ يصلُ إلى أخفى شيءٍ، يُؤْخَذُ ذلك من قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الفائدةُ المسلكيَّةُ المهِمَّةُ: وهي أن الإنسانَ إذا عَلِمَ بأن اللهَ تعالى عليمٌ بما في قلْبِه فإنه سوف يُمْسِكُ عن كلِّ إرادةٍ سيئةٍ، ويُقْدِمُ على كلِّ إرادةٍ حسنةٍ، ومنها أنه يجبُ على العبْدِ أن يُصَحِّحَ ما في قلْبِه؛ لأنَّ المدارَ عليه، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات:٩-١٠].

واعلمْ يا أخي أن الحُكْمَ في الدنيا على الظاهرِ والحُكمَ في الآخرةِ على الباطنِ، فهل تُحَسِّنُ ظاهِرَك ليُحْكَمَ عليك بالدنيا بما يقتضيه هذا الظاهرُ، أو تُحَسِّنُ باطِنَك ليُحْكَمَ لك يومَ القيامةِ بما يقتضيه هذا الباطنُ أيهما؟

الجوابُ: الثاني، ولهذا لا تَغْتَرَّ بكثرةِ الركوعِ، والسجودِ، وبكاءِ العيْنِ، وما أَشْبَهَ ذلك، بل انظر إلى ما في القلبِ -وإن كانت هذه الأعمالُ التي ذَكَرْتُها علامةً على صلاحِ القلبِ لكن ثَبِّتِ الإيمانَ في القلبِ-، عليك بإصلاحِ القلبِ قبل كلِّ شيءٍ، اغرزْ في قلبِك محبَّةَ اللهِ ورسولِهِ، اغرزْ في قلبِك محبَّةَ الشريعةِ وإن ثَقُلَتْ عليك، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].اغرزْ في قلبِك محبَّةَ المؤمنين، لا تَكْرَهْ أيَّ مؤمنٍ وإن أساء إليك، إن أساء

إليك المؤمنُ فاكره إساءتَهُ، أما هو شخصيًّا فلا تَكْرَهْه، اغرزْ في قلبِك الولايةَ لكلِّ مسلمٍ، والعداوةَ لكلِّ كافرٍ، وهلمَّ جرًّا.

المهمُّ أن تعتنيَ بصلاحِ قلبِك؛ لأنَّه هو الذي عليه مدارُ الحسابِ يومَ القيامةِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٨-٩]؛ أي: تُخْتَبَرُ السرائرُ، اللهمَّ أَصْلِحْ ظواهِرَنَا وبواطِنَنا يا ربَّ العالمين.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أن المدارَ على القلوبِ، وأنها في الصدورِ، القلوبُ في الصدورِ وبها العقلُ. قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

وعلى هذا فيجبُ علينا أن نؤمِنَ بأن العقلَ في القلبِ؛ لأنَّ الآيةَ في هذا صحيحةٌ أو ظاهرةٌ، وأما قولُ بعضهم: إن العقلَ في الدماغِ فضعيفٌ مقابَلٌ بقولِ العالمِ الخالِقِ عَزَّوَجَلَّ، ولكن الدماغَ لا شكَّ أنه إذا اختلَّ، اختلَّ تَصَرُّفُ الإنسانِ، وأصْلُ العقلِ في القلبِ لا شكَّ. قال الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العقلُ في القلبِ وله اتصالٌ بالدماغِ[1].

ونروي عن شيخِنا عبدِ الرحمنِ السّعْدِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن أحدَ المعتزلةِ حُكِمَ عليه بالقتلِ على حينِ اختلافٍ بين الناسِ في العقلِ أهو في الدماغِ أم في القلبِ؟ فقال لهم: إذا قَتَلْتُمُوني فأَبِينوا رأسي، ثم إن كان العقلُ في قلبِي حَرَّكْتُ يدي -أو قال أصبعي- وإن كان في الدماغِ راح مع الدماغِ، ففعلوا، فلما قتلوه حرَّكَ العضوَ الذي قال لهم على الوجْهِ الذي قال لهم.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣)، والتبيان في أقسام القرآن لابن القيم (ص:٤٠٤).

وهذا دليلٌ حسِّيٌّ -إن ثَبَتَتِ القصةُ- على أن العقلَ في القلبِ؛ لأنَّه حَرَّكَ عُضْوَهُ، إما أصبعَه، أو يَدَه على الوجهِ الذي ذَكَرَ لهم، وهذا يدلُّ على أنه استحضرَ في قلبِهِ بعد أن بان رأسُهُ استحضر في قلبِهِ ما وَعَدَهم به وأدَّاه كما وَعَدَهم، فإن ثبتتْ هذه القصةُ فدليلٌ حسِّيٌّ، وإن لم تَثْبُتْ فعندنا دليلٌ سمعيٌّ، والدليلُ السمعيُّ عند العلماءِ هو الذي ثَبَتَ بالكتابِ والسُّنَّةِ.

• • ۞ • •

الآية (٢٥)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى:٢٥].

قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ يَقْبَلُ توبةَ التائبين، بل ويحبُّ توبةَ التائبين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، والتوبةُ: هي الرجوعُ من معصيةِ الله إلى طاعةِ الله، وتقعُ كليَّةً وجزئيَّةً، كليَّةً بأن يتوبَ الإنسانُ من كلِّ ذنبٍ، ومنها توبةُ الكافرِ فإنها كليَّةٌ، يمحو الله تعالى بها كلَّ ما سَلَفَ من ذَنْبِه، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفالِ:٣٨].

ويقول المسلمُ: اللهمَّ إني أستغفرُكَ من جميعِ الذنوبِ، وأتوبُ إليك، هذه كليَّةٌ.

التوبةُ الخاصَّةُ: أن يتوبَ من ذنبٍ معيَّنٍ؛ كإنسانٍ تاب من أكْلِ الرِّبَا لكنه مصرٌّ على شربِ الخمرِ -والعياذُ بالله- فهذه توبةٌ خاصَّةٌ جزئيَّةٌ ليست شاملةً، وسيأتي إن شاء اللهُ الكلامُ عليها قريبًا.

وللتوبة شروطٌ خمسةٌ:

الأول: الإخلاصُ لله.

والثاني: الندمُ على ما فَعَلَ.

والثالث: الإقلاعُ عنه.

والرابع: العزمُ على ألا يعودَ.

والخامس: أن تكونَ التوبةُ قبل غلقِ الأبوابِ.

الإخلاصُ: بأن يكون الحاملُ على التوبةِ خَوْفَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ورجاءَ التقرُّبِ إليه بألا يَقْصِدَ بذلك دنيا ولا جاهًا ولا شيئًا من مخلوقاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لا يريدُ إلا الوصولَ إلى رضا اللهِ عَزَّوَجَلَّ ودارِ كرامَتِهِ، والإخلاصُ شرطٌ في كلِّ عملٍ.

الثاني: الندمُ على ما مضى من الذنبِ؛ بحيث يشعرُ الإنسانُ بالحزنِ والتأثُّرِ كيف وَقَعَ منه هذا الذنبُ، والندمُ هو انفعالٌ في النفسِ يَحْصُلُ بفعلِ الإنسانِ وبغيرِ فعلِهِ، لكن كلامَنَا في الندمِ بالتوبةِ الذي يكونُ بفعلٍ، بمعنى أنه يتحَسَّرُ ويتأسفُ أن وقع منه الذنبُ، ولا يكونُ حالُه كحالِ من لم يُذْنِبْ.

الثالثُ: الإقلاعُ عن الذنبِ فإن كان معصيةً في مُحَرَّمٍ فليجتنبْه، وإن كان إفراطًا في واجبٍ فليفعلْه، وعلى هذا فمن زعم أنه تائبٌ من الغِيبةِ ولكنه لا يَدَعُ فرصةً تَحْصُلُ فيها الغِيبةُ إلا اغتاب، فلا نقولُ: إنه تائبٌ؛ لأنَّه لم يُقْلِعْ.

كذلك من جَحَدَ مالَ شخصٍ وأنكره وقال: إنه تائبٌ فلا بدَّ أن يَرُدَّ المالَ إلى صاحِبِه، وإلا فلا تُقْبَلُ توبَتُه، ومن اغتاب شخصًا؛ أي: ذَكَرَه بما يَكْرَهُ في غِيبَتِه فلا بدَّ أن يُقْلِعَ عن ذلك ويتحلَّلَ صاحبَ الغِيبةِ، يذهبُ إليه ويقولُ: سامحني، حَلِّلْني، فقد قلتُ فيك قولًا قد تُبْتُ منه، لا بدَّ من هذا، فإن قال: إن ذَهَبْتُ إليه أستحلُّه أخشى أن يظنَّ الأمرَ أكبرَ مما قلتُ، تقعُ العداوةُ.

فالجوابُ: وإن كان كذلك أنت أبرئْ ذِمَّتَك. وكونُهُ يترتبُ على ذلك عداوةٌ، أو ما أَشْبَهَ ذلك ليس إليك، نعم لو أن صاحبَك لم يَعْلَمْ بغِيبتِكَ إياه فهنا يكفي أن تندمَ وتُقْلِعَ عن غِيبتِه في المستقبلِ، وتذكُرُه في المجلس الذي اغْتَبْتَه فيه بما له من صفاتٍ حميدةٍ.

الرابعُ: العزمُ على ألا يعودَ، بأن يقعَ في قلبِهِ أنه لن يعودَ لهذه المعصيةِ، فإن كان تاب لكنه مترددٌ فيما لو تَيَسَّرَت له هذه المعصيةُ أيفعلُها أم لا. فالتوبةُ غير صحيحةٍ، لا بدَّ أن يعزمَ على ألا يعودَ، فإن عاد -يعني عزم ألا يعود ثم عاد بعد ذلك- هل تَبْطُلُ التوبَةُ؟

الجوابُ: لا تَبْطُلُ، التوبةُ الأولى صحيحةٌ، لكن عليه أن يجددَ التوبةَ للذنبِ الثاني، ولهذا كانت العبارةُ العزمُ على ألا يعودَ، وليست العبارةُ بشرطِ ألا يعودَ، وبينهما فَرْقٌ، إذا قلنا عزمَ على ألا يعودَ وعزمَ ألا يعودَ ثم عاد فالتوبةُ الأولى صحيحةٌ، لكن عليه أن يُجَدِّدَ التوبةَ للذنبِ الثاني، أما إذا قلنا بشرطِ ألا يعودَ فهذا يقتضي أنه لو عاد لبطلتِ التوبةُ وليس كذلك.

الشرطُ الخامسُ -وما أَعْظَمَه-: أن تكونَ التوبةُ في زمنِ الإمكانِ فإن فات الأوانُ لم تُقْبَلْ، وفواتُ الأوانِ عامٌّ وخاصٌّ: العامُّ طلوعُ الشمسِ من مَغْرِبِها، والخاصُّ حضورُ الموتِ، أما الأولُ فدليلُه قولُ اللهِ تبارك تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]. فَسَّرَ النبيُّ ﷺ بعضَ الآياتِ بأنها الشمسُ تَطْلُعُ من مغرِبِها. وقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ: «لا تنقطعُ الهجرةُ حتى تنقطعَ التوبَةُ، ولا تنقطعُ التوبةُ حتى

تخْرُجَ الشمسُ من مَغْرِبِها»[١].

أما الخاصُّ فهو حضورُ الأجَلِ، فإنه إذا حضر الموتُ لم تُقْبَلِ التوبةُ؛ لقول اللهِ تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٨].

الشاهدُ قولُهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ وهذا الشرطُ يستلزمُ أن تكونَ التوبةُ على الفورِ بدونِ تأخيرٍ، وجْهُ ذلك: أنه لا يَعْلَمُ متى يأتيه الموتُ، فقد يموتُ بَغْتَةً على فراشِهِ، أو على كرْسِيِّه أو وهو ساجدٌ أو راكعٌ، وحينئذٍ يتبيَّنُ أن التوبةَ واجبةٌ على الفورِ، فاستدركْ نَفْسَك أيها العبْدُ، إن كان في أمرٍ بينك وبين اللهِ، أو بينك وبين الخَلْقِ؛ لأنك لا تدري متى يأتي الموتُ.

الخلاصةُ: شروطُ قَبُولِ التوبةِ خمسةٌ: أولًا: الإخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ثانيًا: الندمُ على الذنبِ، ثالثًا: الإقلاعُ في الحالِ، رابعًا: العزمُ على ألا يعودَ، خامسًا: أن تكونَ التوبةُ في زمنِ الإمكانِ. نسألُ اللهَ لنا ولكم التوبَةَ.

وقولُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [منهم] فَصَرَفَ معنى (عن) إلى معنى (من)، وهذا مبنيٌّ على ما سبق من أن حروفَ المعاني تتناوبُ؛ أي: ينوبُ بعضُها عن بعضٍ، ولكن إبقاءَ اللفظِ على ظاهِرِه أَوْلى، ويكون ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ مضمنًا معنى يعفو عنه، فيقبلُ التوبةَ عن عبادِهِ؛ أي: يَقْبَلُها ويعفو عنهم. ونجعل (عن) على بابِها، ويكونُ قولُهُ: ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ كالتوكيدِ لما سبق، يقبلُ التوبةَ عن عبادِهِ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٩٩)، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت؟، رقم (٢٤٧٩)، والنسائي في الكبرى رقم (٨٦٥٨)، من حديث معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قولِهِ: ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المَتَابُ عنها].

والعفوُ مأخوذٌ من قولِهم: عفا الأثرُ إذا أَخْفَتْهُ الرياحُ، وهو التجاوزُ عن العقوبةِ بالذنوبِ، و﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ جمعُ سيئةٍ، وهي كلُّ ما يسوءُ الإنسانَ فِعْلُه أو وقوعُه، والمرادُ بالسيئاتِ هنا: -يعني تفسيري لها على حَسَبِ اللفظِ- مخالفةُ الشرعِ، فكلُّ ما خالف الشرعَ فهو سيئةٌ، سواءٌ كان بتركِ واجبٍ، أو فعلِ مُحَرَّمٍ.

قولُهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يقولُ: قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالياءِ والتاءِ] ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ و«ما يفعلون»، أما على قراءةِ (ما يفعلون) فهي مطابقةٌ للضمائرِ السَّبْعِ، (ويَعلمُ ما يفعلون)؛ أي: ما يَفْعَلُه العِبَادُ.

وأما على قراءةِ التاءِ فهي من بابِ الالتفاتِ عن الغيبةِ إلى الخطابِ. وأسلوبُ الالتفاتِ أسلوبٌ بلاغيٌّ ويُقْصَدُ به تنبيهُ المخاطَبِ إلى ما سيلقى إليه، وذلك لأن الكلامَ إذا كان على وتيرةٍ واحدةٍ فإن الإنسانَ يَنْسَجِمُ معه وربما يغفُلُ عنه، وإذا اختلف وقَف الإنسان، لماذا صار الأمرُ كذلك؟ انتبه صار الالتفاتُ على قراءةِ ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ التفاتًا من الغَيْبةِ إلى الخطابِ، الالتفاتُ فنٌّ معروفٌ في البلاغةِ من فوائده تنبيهُ المخاطَبِ.

انظر إلى قولِ الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة:١٢]. مقتضى السياقِ أن يقولَ: وبَعَثَ منهم، لكن قال: وبعثْنَا منهم، فانتقل من الغَيْبَةِ إلى التكلُّمِ؛ لأجلِ تنبيهِ المخاطَبِ.

قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ علمه بما نعمل يشملُ العلمَ بالأشياءِ الظاهرةِ والأشياءِ الباطنةِ، قد يُذْنِبُ الإنسانُ ذَنْبًا ظاهرًا يعلمُه الناسُ ويعلمُه ربُّ الناسِ عَزَّوَجَلَّ، وقد يكونُ خفيًّا لا يعلَمُه الناسُ، ولكن يَعْلَمُه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: رحمةُ اللهِ تعالى بعبادِهِ؛ حيث حَثَّهم على التوبةِ، وجهه في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ فإن هذا ليس مجرَّدَ خبرٍ أن الله يَقْبَلُ، بل هو حثٌّ من اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن نتوبَ إلى الله. اللهمَّ وَفِّقْنا للتوبةِ يا ربَّ العالمين، نظيرُ ذلك أن أقولَ: من زارني أعطيْتُه مئةَ درهمٍ. معنى هذا حثُّ الناسِ على الزيارةِ، كلُّ إنسانٍ سوف يُقْبِلُ على الزيارةِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ حثٌّ للناسِ بلا شكٍّ على التوبةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيانُ كرمِ الربِّ عَزَّوَجَلَّ؛ حيث يَقْبَلُ التوبةَ عن عبادِهِ مهما كان الذنبُ، واقرأ قولَ الله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]. التوبةُ من الكفرِ مقبولةٌ، والإسلامُ يَهْدِمُ ما قبله مهما عَظَم، حتى من سَبَّ اللهَ أو رسولَهُ ثم أسلم تُقْبَلُ توبتُه؛ لعمومِ الأدلةِ، وقد قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟﴾ يعني عن كفرِهم ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]. ما قد سلف وإن عظُمَتْ، لقولِهِ: ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ (ما) اسمٌ موصولٌ يُفيدُ العمومَ، حتى لو قَتَلَ هذا الكافرُ ألفَ رجلٍ مؤمنٍ ثم أَسْلَمَ؛ تاب اللهُ عليه، ولذلك إذا أسلم الكفارُ وقد أتلفوا أموالَ المسلمين في الحربِ لا يَضْمَنُون أموالَ المسلمين؛ لأنَّ الإسلامَ يَهْدِمُ ما قبله.

مسألةٌ: الكافرُ حربيٌّ -ما لم يكن بيننا وبينه عَهْدٌ- فلنا أن نَقْتُلَه وله أن يَقْتُلَنا. بمعنى أنه لو قَتَلَنا لم يَضْمَن، وإلا حَرَّمْنَا عليه أن يَقْتُلَنا وحرامٌ عليه أن يَكْفُرَ؛ ولهذا كان القولُ الراجحُ: أن الكفارَ مخاطَبون بفروعِ الشريعةِ كما أنهم مخاطَبون بالتوحيدِ،

بل أقولُ: إن الكافرَ آثمٌ حتى في المباحِ، الآن الكافرُ يأكلُ ويشربُ وآمِنٌ ويلبَسُ وكلُّ شيءٍ كلُّ نعمةٍ فإنه معاقَبٌ عليها، زيادةً على عقوبةِ الكفرِ ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧]، وإذا سُئِلَ أصحابُ النارِ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر:٤٢-٤٧]، إذن فَهُمْ آثمون، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ [المائدة:٩٣] وغيرهم عليهم جناحٌ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢] للذين آمنوا، وغيرِ الذين آمنوا ليست لهم ولا خالصة لهم يومَ القيامةِ.

انتبهوا: الكافِرُ عدُوُّ اللهِ، ولو ساوت الدنيا جناحَ بعوضةٍ عند اللهِ ما سقى منها كافرًا شربةَ ماءٍ، فهم إذا أكلوا، أو شربوا، أو أَمِنُوا، أو صحوا، أو أي نعمةٍ تصيبُهُم فإنهم معاقبون عليها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الإشارةُ إلى لطفِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حيث قال ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ يعني: كأنه -والله أعلمُ- لما كانوا عبيدًا له عامَلَهُم بالرفقِ والعفوِ والتوبةِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله إذا تاب على العبدِ عفا عن سيئاتِهِ مهما عظمت؛ لقولِهِ: ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ عمومِ علمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لكلِّ ما نفعَلُ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يتفرعُ على هذه الفائدةِ التحذيرُ من المخالفةِ؛ وجْهُ ذلك: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾؛ يعني: فاحذروا أن تفعلوا شيئًا يُغْضِبُه فإنه عالمٌ بكم.

الآية (٢٦)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى:٢٦].

قولُهُ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يجيبُهُم إلى ما يسألون] ﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾ بمعنى: يجيبُ، مع أنه قد يتبادرُ إلى ذهنِ الإنسانِ أن معنى ﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾؛ أي: يطيعُ، كما إذا قلت: دعوتُ فلانًا فاستجاب لي؛ أي: أطاعني، لكن هنا ﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾ بمعنى يُجيبُ، ودليلُ هذا التفسيرِ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:١٩٥]؛ إذن استجاب بمعنى: أجاب، ويستجيبُ بمعنى: يجيبُ.

وقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعولٌ به، وليست فاعلًا، الفاعلُ ضميرٌ مستترٌ يعودُ على الله.

وإننا إذا قلنا: ﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾ أنها عائدةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ صارت ﴿ٱلَّذِينَ﴾ محلُّها النصبُ فهم مجابون، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعولٌ به، وأيضًا يُضْعِفُ هذا القولَ -بأن قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الشورى:٢٦]؛ يعني: الذين آمنوا هم الذين استجابوا لربِّهم- قولُهُ: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشورى:٢٦]، فإن الأصلَ أن الضمائرَ تكونُ واحدةً، ومعلومٌ أن الزيادةَ ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ من الفضلِ خاصَّةٌ باللهِ عَزَّوَجَلَّ فالقولُ بأنها تحتملُ المعنى الثانيَ ضعيفٌ؛ لأنَّه مرجوحٌ.

وعندنا مُرَجِّحٌ على أن المجيبَ هو اللهُ وهو قولُهُ: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ ولو كان كذلك لقال: فيزيدُه ويَستجِيبُ الذِين آمَنُوا وعَمِلوا الصالحاتِ فيزيدُهُم. إذا استجابوا، فلما جاء حرفُ العطفِ الذي يقتضي تساويَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه لم يصحَّ ما قلتَ، وإلا لقال: ويَستجِيبُ الذِين آمَنُوا وعَمِلوا الصالحاتِ فيزيدُهُم؛ أي: بسببِ استجابتِهم يزيدُهُم من فضْلِه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ آمنوا بقلوبِهم ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بجوارحِهم، والإيمانُ والعملُ الصالحُ يُقرنان دائمًا؛ لأنَّ أحدَهُما ملازمٌ للآخَرِ، فكلُّ من آمن حقًّا فسيعملُ الصالحاتِ قطعًا، دليلُ هذه القاعدةِ: قولُ النبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ-: «**ألا وإن في الجسدِ مضغةً إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسدُ كلُّهُ، وإذا فسدتْ فسَدَ الجسدُ كلُّه**»(١).

إذن: آمنوا بكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به، وأركانَ الإيمانِ قال عنها النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ-: «**إنها الإيمانُ باللهِ، وملائكتِه، وكتُبِه، ورسُلِه، واليومِ الآخِرِ، والقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ**»(٢).

وقوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الصالحاتُ: هذه صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، والتقديرُ: الأعمالُ الصالحاتُ. فما ضابطُ العملِ الصالحِ؟ ضابطُ العملِ الصالحِ: أن يكونَ خالصًا للهِ، موافقًا لشريعةِ الله؛ هذا يقعُ في أمةِ محمدٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لكن هل يقعُ في الأممِ السابقةِ؟ الجوابُ: نعم، حين كانت شرائعُهُم قائمةً يقعُ منهم الإيمانُ والعملُ الصالحُ، إذن العملُ الصالحُ ضابطُهُ أن يكونَ خالصًا للهِ موافقًا لشريعةِ الله.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فقولُنا: أن يكون خالصًا لله احترازٌ من العملِ الذي يقعُ فيه الشركُ فليس بصالحٍ، وإن قلَّ الشركُ؛ لقولِهِ تعالى في الحديث القدسيِّ: «أنا أغنى الشركاءِ عن الشركِ من عَمِلَ عملًا أَشْرَكَ فيه معي غيري تركْتُه وشِرْكَه»[1].

وعلى وَفْقِ الشريعةِ أن يكون خاليًا من البدعةِ، فإن كان فيه بدعةٌ لم يكن صالحًا، حتى لو كانت أجزاءُ هذه البدعةِ عملًا صالحًا، فإنها إذا كانت بدعةً لا تكونُ عملًا صالحًا؛ يعني: لو أن أحدًا أَحْدَثَ أذكارًا من القرآنِ أو من السُّنَّةِ، لكن على صفةٍ لم تأتِ بها الشريعةُ، فإنها ليست عملًا صالحًا، ولا يكونُ العملُ صالحًا إلا إذا وافقَ الشريعةَ في أمورٍ ستةٍ: السببِ، والقَدْرِ، والكيفيَّةِ، والنَّوْعِ، والزمانِ، والمكانِ. لا بدَّ أن يوافقَ الشريعةَ في هذه الأشياءِ الستَّةِ:

السببُ: بأن يكونَ هذا العملُ مشروعًا لسببٍ معيَّنٍ، فلو أن إنسانًا أحدثه لسببٍ آخَرَ لم يُقْبَلْ منه، ولم يَكُنْ صالحًا.

مثالُ ذلك: نرى بعضَ الناسِ إذا قُدِّمَ إليه الطِّيبُ، يقولُ: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ. هذا ليس عملًا صالحًا.

إذا قال قائلٌ: كيف تقولُ: ليس عملًا صالحًا وهو صلاةٌ على الرسولِ؟

قلنا: لأنه ليس من هديِ الرسولِ ﷺ أنه كلما تَطَيَّبَ صلى على النبيِّ، ولا أَمَرَ أُمَّتَهُ بذلك، إذن فأنت الآن أَثْبَتَّ سببًا غيرَ شَرْعِيٍّ.

ومن ذلك أن بعضَ الناسِ إذا تجشَّأ -وهو خروجُ الريحِ من فوقُ- قال: الحمدُ للهِ. نقولُ: من قال لك إنه يشرعُ عند التجشؤِ أن تَحْمَدَ اللهَ؟ إذن عملُك غيرُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صالحٍ؛ لأنَّه غيرُ مطابقٍ للشريعةِ، ونقولُ: يلزمُ على قولِك أنك إذا فَسَوْتَ أن تحمدَ اللهَ، ولا دليلَ على هذا.

والثاني: بأن يكونَ من جنسِ ما جاءتْ به الشريعةُ، فإن خرج عن ذلك لم يكن عملًا صالحًا، مثالُه: لو أن أحدًا ضحَّى بفرسٍ فالفرسُ أغلى من الشاةِ غالبًا، فإن الأضحيةَ لا تُقْبَلُ؛ لأنه ليس من جنسِ المشروعِ التضحيةُ به، إذ إن التضحيةَ لا تكونُ إلا من بهيمةِ الأنعامِ: الإبلِ والبقرِ والغنمِ، كما قال تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج:٢٨].

الثالثُ: أن يكونَ مطابقًا للشريعةِ في قَدْرِه فلا يزيدُ على ما جاءت به الشريعةُ؛ ولهذا لو أن إنسانًا زاد في الصلاةِ ركعةً لم يكن عملًا صالحًا، حتى وإن كانت صلاتُهُ في الأصلِ مشروعةً، لكنها في هذا الحالِ ليست مشروعةً.

فإن قال قائلٌ: ماذا تقولون لو أن الإنسانَ زاد في صلاةِ الليلِ على إحدى عشرة ركعةً، هل تكونُ الزيادةُ عملًا صالحًا؟

إذا قلتُ: نعم، أَشْكَلَ علينا أننا قلنا: لا بدَّ أن تطابق الشريعةَ في قَدْرِها. أعني: العبادةَ، ومعلومٌ أن النبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- كان لا يزيدُ في رمضان ولا غيرِهِ على إحدى عشرة ركعةً[1]، وربما صلى ثلاثَ عشرةَ ركعةً[2].

فالجوابُ: أن صلاةَ الليلِ لم يردْ فيها تحديدٌ عن -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ-

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ بالليل، رقم (١١٤٧)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل، رقم (٧٣٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ، رقم (٧٣٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

بأن قال: لا تزيدوا على كذا، بل صلى هو إحدى عشرة ركعةً، وقال للذي سأله عن صلاةِ الليلِ: قال له: «مثنى مثنى فإذا خَشِيتَ الصبحَ فصلِّ ركعةً تُوتِرُ لك ما قد صَلَّيْتَ الليلَ»[1]، فقولُهُ: «مثنى مثنى»، بدون تحديدٍ يدلُّ على أن صلاةَ الليلِ لا حدَّ لها، صلِّ ما شئتَ من الركعاتِ.

الأمرُ الرابعُ: أن تكونَ موافقةً للشريعةِ في الزمانِ، فإن خالفت الشريعةَ في الزمان فإنها لا تُقْبَلُ.

مثالُ ذلك: رجلٌ ضَحَّى وذبح أضحيتَهُ قبل صلاةِ العيدِ، فلا تصحُّ هذه الأضحيةُ؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ للذي أخبره أنه ذبح قبل أن يصلي قال له: «شاتُك شاةُ لحمٍ»[2].

الخامسُ: في المكانِ: أن تكونَ موافقةً للشريعةِ في المكانِ. يعني: أنه إذا خص الشارعُ العبادةَ بمكانٍ معيَّنٍ فإن صلاتَها في غيرِ هذا المكانِ لا تُقْبَلُ، فالوقوفُ بعرفةَ لو أن إنسانًا وقف في مزدلفةَ بدَلَ الوقوفِ بعرفةَ، فإن ذلك لا يصحُّ؛ لأنَّه وقف في غيرِ المكانِ الذي حُدِّدَ، ولو اعتكف الإنسانُ في بيتِهِ لم يصحَّ الاعتكافُ؛ لأنَّ الاعتكافَ مخصوصٌ بالمساجِدِ.

السادسُ: أن تكون مطابقةً للشريعةِ في هيئتها يعني: الكيفيَّةَ، فلو توضأ الإنسانُ وغسل يديه قبل وجْهِه فالوضوءُ لا يصحُّ؛ لأنَّه مخالفٌ للشريعةِ في الهيئةِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الحلق والجلوس في المسجد، رقم (٤٧٢)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل مثنى مثنى، رقم (٧٤٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العيدين، باب الأكل يوم النحر، رقم (٩٥٥)، ومسلم: كتاب الأضاحي، باب وقتها، رقم (١٩٦١)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إذ إن الله يقولُ: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ﴾ [المائدة:٦] ولو صلى الإنسانُ فسجد قبل أن يركعَ، ثم قام وركع لم تصحَّ الصلاةُ؛ لعدمِ موافقةِ الشريعةِ في الهيئةِ.

هذه ستةُ أشياءَ لا يُمْكِنُ أن تكونَ العبادةُ مطابقةً للشريعةِ إلا إذا تحققت هذه الأشياءُ الستةُ.

قولُهُ: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾؛ أي: يعطيهم من فضلِه زيادةً على ما عمِلوا، فالحسنةُ بعشْرِ أمثالِها إلى سَبْعِ مئةِ ضِعْفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ.

قولُهُ: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ هذه جملةٌ مستأنفةٌ، لَمَّا ذَكَرَ ما يحصلُ للذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ ذَكَرَ ما يَحْصُلُ لِضِدِّهم؛ لأنَّ القرآن الكريمَ مثاني تثنى فيه المعاني، فتذكر فيه الجنة ثم يذكر النار، والثواب ثم العقاب، والمؤمن ثم الكافر، وهلمَّ جرًّا.

وقوله: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ الكافرُ: في الأصلِ الجاحدُ مأخوذٌ من الكُفراء، وهي من وعاءِ طلعِ النخلِ، ولكنه يُطْلَقُ على كلِّ من كَفَرَ باللهِ تعالى بجحدٍ أو غيرِه، سواءٌ كان بجحدٍ مثل: أن يجحد الرسالةَ أو القرآنَ، أو كان باستكبارٍ عن دينِ اللهِ مثل: أن يدعَ الصلاةَ التي تَرْكُهَا كُفْرٌ.

وقولُهُ: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ، خبرُ المبتدأِ الأوَّلِ الذي هو ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وأتت العبارةُ بهذا الوجهِ للتأكيدِ على عذابِهم -والعياذُ باللهِ-، وإلا لكان يكفي أن يقال: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [البقرة:٩٠] أو ما أَشْبَهَ ذلك، لكن اللهَ تعالى قال: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ الشديدُ: القويُّ، وإذا رأيتَ أن تعرف هذا فاقرأْ ما في القرآنِ والسُّنَّةِ من عذابِ أهلِ النارِ.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فضيلةُ الإيمانِ والعملِ الصالِحِ، وأنه سببٌ لإجابةِ اللهِ تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن اللهَ تعالى يعطي المؤمنين العاملين للصالحاتِ أكثر مما عملوا؛ لقولِهِ: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، وهذه الزيادةُ بَيَّنَها اللهُ تعالى في مواضعَ أخري من كتابِهِ فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، وقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٦١].

وربما يقالُ أيضًا بزيادةٍ أخرى غيرِ العددِ وهي: أنه يزيدُهم من الإيمانِ والعملِ الصالِحِ؛ لأنَّه كلما عمِلَ الإنسانُ عملًا صالحًا ازداد يقينُهُ؛ ولهذا كان من قولِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أن الأعمالَ داخلةٌ في الإيمانِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن كلَّ ما ينالُ الإنسانُ من خيرٍ فبفضلِ الله، وعلى هذا يجبُ على الإنسانِ أن يَقْطَعَ عن نفسِه الإعجابَ، ويجبُ عليه ألا يقولَ: هذا من عندي، أو أنا جديرٌ به، أو ما أَشْبَهَ ذلك من الكلماتِ التي يَفْخَرُ بها على اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: التحذيرُ من الكفرِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ لأنَّه ليس المرادُ من هذه الجملةِ الإخبارَ بشدةِ العذابِ للكافرين، ولكن المرادَ بيانُ هذا والتحذيرُ من الكفرِ؛ خوفًا من العذابِ الشديدِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن اللهَ تعالى يُنْذِرُ الناسَ عن المعاصي والكفرِ بذكْرِ العقابِ، أخذ العلماءُ من هذا أنه إذا ذكر اللهُ تعالى عقابًا في عملٍ من الأعمالِ دلَّ ذلك على تحريمِه، وإذا ذكر ثوابًا في عملٍ من الأعمالِ دلَّ ذلك على مشروعِيَّتِه.

الآية (٢٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى:٢٧].

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ﴿بَسَطَ﴾ بمعنى وَسَّعَ، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة:٢٤٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الزُّمَر:٥٣]، فالبسطُ بمعنى التوسيعِ، يعني: لو وَسَّعَ اللهُ الرزْقَ للعبادِ لبغَوْا في الأرضِ.

وقولُهُ: ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جميعُهُم] يعني: لو كان كلُّ الناسِ أغنياءَ بُسِطَ لهم في الرِّزْقِ لبغوْا في الأرضِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَبَغَوْا۟﴾ جميعُهُم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: طَغَوْا فيها] وتجاوزوا حدودَهم؛ وذلك لأن الجميعَ كانوا في رفاهيةٍ وفي رزقٍ واسعٍ ولا رادعَ ولا اعتبارَ ولا اتِّعَاظَ.

وأيضًا لو بَسَطَ اللهُ الرزقَ لجميعِ العبادِ لفسدت الدنيا؛ لأنَّه لولا هذا التفاضلُ بين العبادِ في الرِّزْقِ ما خدم أحدٌ أحدًا، ولا استقامت الأحوالُ، لو كان الناسُ كُلُّهُم على حدٍّ واحدٍ في الغنى، وطلبت من شخصٍ أن يعملَ لك فإنه لن يستجيبَ؛ لاستغنائِهِ بما عنده، ولكنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَضَّلَ بعضَ الناسِ على بعضٍ، ورَفَعَ بعضَهُم

فوق بعضٍ درجاتٍ؛ ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف:٣٢]. هذا ما ذهب إليه المُفسِّر، ولكن قد يقالُ: إن قولَه تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ شاملٌ للجميعِ أو للأفرادِ، فإن الإنسانَ لو بَسَطَ اللهُ له الرزقَ بغى واستغنى؛ ولذلك تجدون أكثرَ من يُكَذِّبُ الأنبياءَ هم الملأُ الأغنياءُ الكبراءُ، وأمَّا الفقراءُ الضعفاءُ ففي الغالبِ هم الذين يَتَّبِعُون الأنبياءَ، فيكونُ المعنى المرادُ بقولِهِ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ المرادُ الجنسُ يعني: لواحدٍ من عبادِهِ لبغى في الأرضِ.

قولُهُ: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُنَزِّلُ﴾ بالتخفيفِ وضِدِّه] ضِدُّهُ التشديدُ؛ يعني: يُنزِّلُ ويُنزِلُ، ينزِّلُ من نزَّلَ ويُنزِلُ من أنزَلَ وقولُهُ: [بالتخفيفِ وضِدِّهِ] اصطلاحُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا أتى بِمِثْلِ هذا التعبيرِ فالقراءتان سَبْعِيَّتَانِ، وكذلك إذا قال: وفي قراءةٍ، فالقراءتان سَبْعِيَّتان، أمَّا إذا قال: وقُرِئَ فالقراءةُ شاذَّةٌ؛ لأنَّه أتى بها بصيغةِ التمريضِ، هذا التعبيرُ الذي معنا [بالتخفيفِ وضِدِّهِ] على حدٍّ سواءٍ يعني: ساوى بين القراءتين، وعلى هذا فهما سبعيتان.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من الأرزاقِ] بيانٌ للمنزَّلِ، فالمُضْمَرُ إذن من الأرزاقِ، ويدلُّ على أن المُضْمَرَ من الأرزاقِ قولُهُ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ﴾؛ أي بتقديرٍ مكتوبٍ في الأزلِ لا يتغيَّرُ، ولا يتبدَّلُ ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ فيبسطُها لبعضِ عبادِه دون بعضٍ، وينشأُ عن البسْطِ البغيُ ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

قولُهُ: ﴿بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ هذه المشيئةُ كما سبق مقرونةٌ بالحكمةِ، فمن اقتضتِ حكمةُ اللهِ أن يُغْنِيَهُ أغناه، ومن اقتضتْ حكمةُ اللهِ أن يُفْقِرَهُ أَفْقَرَهُ.

وفي الحديثِ القدسيِّ «إن من عبادي من لو أغنيْتُه لأفسده الغنى، وإن من

عبادي من لو أفقرْتُه لأفسده الفقرُ»[1]، فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حكيمٌ. وكم من إنسانٍ رجع إلى اللهِ تعالى بسببِ المصائبِ من فقرٍ، أو موتِ قريبٍ، أو صديقٍ، أو ما أَشْبَهَ ذلك.

قولُهُ: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيبسُطُها لبعضِ عبادِه دون بعضٍ، وينشأ عن البسطِ] يعني توزيعَ الرزقِ [البغيُ]، هذا كالتعليلِ؛ لكونِ الجواب: لو بسطَ اللهُ الرزقَ لعبادِهِ لَبَغَوْا؛ بأنه ينشأُ عن البسطِ البغيُ والطغيانُ والاستكبارُ عن العبادةِ والتكذيبُ بالحقِّ.

قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ الجملةُ استئنافيَّةٌ تُبيِّنُ أن بَسْطَه الرِّزْقَ وعدَمَه ناشئٌ عن عِلْمٍ وخبرةٍ، والخبرةُ أخصُّ من العِلْمِ؛ لأنَّها العلمُ ببواطنِ الأمورِ، ولكن نقولُ: إن العلمَ ببواطِنِ الأمورِ يدلُّ بالالتزامِ على العِلْمِ بظواهرِ الأمورِ من بابِ أولى.

﴿بَصِيرٌ﴾ مأخوذةٌ من الإبصارِ بالعيْنِ، ومن البصيرةِ وهي العِلْمُ، فيكونُ بصيرٌ لها معنيان: الأولُ: من الإبصارِ وهو الرؤيا بالعيْنِ، والثاني: من البصيرةِ وهي العلمُ ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾، وهذا يعني أنه يُضَيِّقُ على من شاء ويوسِّعُ على من شاء.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن بَسْطَ الرزقِ وتضييقَهُ من عندِ اللهِ وحده؛ لقولِهِ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٨-٣١٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٢٣١)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائلٌ: ألا يَرِدُ على هذا أننا نرى الرجلَ يعملُ ويكدحُ ويتَّجِرُ فيزيدُ مالُهُ؟

قلنا: لا يرِدُ؛ لأنَّ أَصْلَ عَمَلِه من عندِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ هو الذي أَوْقَعَ في قلبِهِ النِّيَّةَ وأَقْدَرَهُ على العملِ، فهو من فَضْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ هذا وَجْهٌ.

وجهٌ آخرُ أننا نجدُ بعضَ الناسِ يَكْدَحُ ويَتْعَبُ ويعملُ، ولكن لا يُوفَّقُ، كلما ضرب وجهًا ازداد خسرانًا وحينئذٍ ينتفي هذا الإيرادُ.

إذن فالبسطُ كلُّهُ من اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لا من أَصْلِهِ، ولا مما يتفرَّعُ عنه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الحذرُ من الترفِ وسَعةِ الرزقِ، وجْهُ ذلك أن الله تعالى أخبر بأن بَسْطَ الرزقِ سببٌ للبغْيِ، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦-٧]، وأخبر النبيُّ ﷺ أن أَخْوَفَ ما يخافُ علينا ما يُفْتَحُ علينا من زَهْرَةِ الدنيا[1]، فليحذرِ الإنسانُ ما يُبْسَطُ له من الرزقِ، فلعل شقاءه يكونُ بسببِه، نسألُ اللهَ السلامة والعافيَة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حكمةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيما يُنَزِّلُ من الرزقِ؛ لقولِهِ: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ المشيئةِ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حتى فيما يَحْصُلُ للعبدِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الإشارةُ إلى أن توسيعَ الرزقِ لشخصٍ وتضييقَهُ لآخَرَ مبنيٌّ على خبرةٍ وعلمٍ؛ لقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم (٦٤٢٥)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦١)، من حديث عمرو بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٢٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨].

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ يُنَزِّلُه من السماءِ، ﴿ٱلْغَيْثَ﴾ أي: ما يَحْصُلُ به الإغاثةُ وهي الإنقاذُ من الشدَّةِ، أما المطرُ فقد يَنْزِلُ ولا تزولُ به الشدَّةُ، دليلُ ذلك قولِ النبيِّ ﷺ: «ليس السَّنَةُ أن لا تُمْطِرَ ولكن السَّنَةَ أن تُمْطِرَ فلا تُنْبِتُ الأرضُ شيئًا»(١).

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ أي: ما قَنَط العبادُ، قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْغَيْثَ﴾ المطرُ، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾؛ أي: يَئِسُوا من نزولِهِ]؛ لتأخُّرِه عن وقتِه قالوا: إذن هذا العامُ لا مَطَرَ، فيُنْزِلُ اللهُ المطرَ، وإنزالُ المطرِ على حينِ شفقةٍ له وقنوطٍ من نزولِهِ يكونُ أشدَّ وقْعًا في النفوسِ، وأبْيَنَ لرحمةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وفَضْلِهِ.

وقولُهُ: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ بيانٌ للواقعِ وليس تقريرًا للقنوتِ؛ لأنَّ القنوطَ حُكْمُه الشرعيُّ لا يَجُوزُ، بل هو من كبائرِ الذنوبِ. الإخبارُ بالواقعِ أو عن الواقعِ لا يعني إقرارَهُ، ودليلُ هذا قولُهُ ﷺ: «ليكونَنَّ من أمتي أقوامٌ يستحلُّونَ الحِرَّ والحريرَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في سكنى المدنية وعمارتها قبل الساعة، رقم (٢٩٠٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والمعازفَ»[١]. وقولُهُ: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ من كان قَبْلَكم اليهودِ والنصارى»[٢]، وإخبارُهُ بأن الظعينةَ تخرُجُ من كذا إلى كذا لا تخشى إلا الله[٣]. فهذا الإخبارُ عن الواقِعِ لا يقتضي حِلَّهُ وإقرارَهُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ يَبْسُطُ مَطَرَه] هكذا قال المفَسِّرُ، ولو كان المرادُ كما قال لقال: يُنَزِّلُ الغيثَ من بَعْدِ ما قَنَطُوا ويَنْشُرُه، ولكن الصوابَ: ينشرُ رَحْمَتَه؛ أي: الرحمةَ التي تَحْصُلُ بهذا الغيْثِ، من نباتِ الزرعِ، ودَرِّ الضَّرْعِ، وسَعَةِ الرزقِ، وغيرِ ذلك مما ينشأُ عن المطرِ.

وقال بعضُ العلماءِ: يَنْشُرُ رحمتُه؛ أي: يجعلُ السماءَ صحوًا حتى تَخْرُجَ الشمسُ، وفي هذا نظرٌ، اللهمَّ إلا إذا وصلتِ الأمطارُ إلى حدٍّ يُخْشَى من ضَرَرِها، فحينئذٍ يكونُ انجلاءُ الغَيْمِ، وخروجُ الشمسِ يكونُ رحمةً، أما مجرَّدُ خروجِ الشمسِ وانجلاءُ الغيْمِ فإنه ليس برحمةٍ، لكنه حِكْمَةٌ، نَعْلَمُ بأن الله تعالى يَفْعَلُ هذا لحكمةٍ ويَنْشُرُ رحْمَتَه، فالمسألةُ أعمُّ مما ذَكَرَ المُفسِّر.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ المُحْسِنُ للمؤمنين ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمودُ عندهم]. قولُهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ المُحْسِنُ للمؤمنين] فَسَّرَ الوَلايةَ بالإحسانِ، والصوابُ أن الولايةَ أعمُّ، فقولُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾؛ أي: الذي يتولَّى أمورَ عبادِهِ. وقولُهُ:

---

(١) أخرجه معلقًا البخاري: كتاب الأشربة، باب فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه، رقم (٥٥٩٠)، من حديث أبي عامر أو أبي مالك الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٥٦)، ومسلم: كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٩٥)، من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾؛ أي: المحمودُ على هذه الوَلايةِ؛ لأنَّها وَلايةُ رحمةٍ وحكمةٍ وعدلٍ، فيُحْمَدُ عليها، إذا كان اللهُ تعالى هو الوليَّ فإلى من يلجأُ إذا ضاقت عليه الأمورُ؟ يلجأُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه وليّه، كما أن اليتيمَ يرجعُ إلى وَلِيِّه في تصريفِ مالِهِ، وقولُهُ: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾؛ أي: المحمودُ على وَلايَتِهِ، فكلُّ ما أجراه الله عَزَّوَجَلَّ في مُلْكِه فإنه محمودٌ عليه، ماذا كان يقولُ النبيُّ ﷺ إذا أصابه ما يسوؤه يقولُ: «الحمدُ للهِ على كلِّ حالٍ»، وإذا أصابه ما يَسُرُّهُ قال: «الحمدُ لله الذي بِنِعْمَتِه تتمُّ الصالحاتُ»[1]، وأما ما يقولُهُ بعضُ الجهَّالِ: الحمدُ للهِ الذي لا يُحْمَدُ على مَكْرُوهٍ سواه، فهذه عبارةٌ بِدْعِيَّةٌ لا تجوزُ؛ لأنَّها تُنبئُ عن كراهةِ الإنسانِ لما يَفْعَلُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ ثم هناك تناقضٌ بين مكروهٍ ومحمودٍ، ثم إن كلَّ ما يجيءُ به اللهُ عَزَّوَجَلَّ فإن الإنسانَ يجبُ عليه أن يرضى به؛ لأنَّ من الإيمانِ الإيمانَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّه، فالمهمُّ أن هذه عبارةٌ مُحْدَثَةٌ يُنْهَى عنها، ويقالُ لمن يقولُها: قل ما قاله الرسولُ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- وهو: «الحمدُ لله على كلِّ حالٍ».

ووَلايةُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تنقسمُ إلى قسمين لا تَخْرُجُ عنهما: إما إحسانٌ وإما عدْلٌ والثالثُ: ممتنعٌ، وهو الظُّلْمُ، فولايةُ الله تعالى لا تَخْرُجُ عن هذين الأمْرَيْنِ أعني: الإحسانَ، والعدْلَ.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن إنزالَ المطرِ بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن بإنزالِ المطرِ زوالَ الشِّدَّةِ؛ لأنَّ الغيثَ هو إزالةُ الشدَّةِ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الإنسانَ لا يَصْبِرُ، طبيعةُ الإنسانِ أنه لا يَصْبِرُ، فيستولي عليه اليأسُ والقنوطُ من رحمةِ اللهِ، والذي يجبُ على المرءِ ألا يَقْنَطَ من رحمةِ اللهِ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر:٥٣]، وقال عن إبراهيمَ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحِجْر:٥٦].

فالواجبُ عليك إذا مَسَّكَ السوءُ ألا تَقْنَطَ، الواجبُ أن تَصْبِرَ وتَحْتَسِبَ، ودوامُ الحالِ من المحالِ، لكنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَذْكُرُ الشيءَ بحسبِ الواقِعِ، لا بِحَسَبِ ما ينبغي للإنسانِ من ملازمةِ الصبرِ وانتظارِ الفرَجِ.

فمثلًا: إذا نَزَلَ بالإنسانِ ضائقةٌ، وقَدَّرَ في نفْسِه أنه لا يُمْكِنُ زوالُها فهذا قنوطٌ بلا شكٍّ، لكن إذا قَدَّرَ في نفْسِه أنه لا تُمْكِنُ إزالتُها من المخلوقِ فهذا حقٌّ؛ لأنَّ بعضَ الأمراضِ مثلًا حَسَبَ المعروفِ أنه لا يُمْكِنُ للمخلوقِ أن يزيلَها، لكن قد تزولُ بإذنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يُذكر لنا أن بعضَ القراءِ الذين وَهَبَهُم اللهُ تعالى إيمانًا وتَقوَى يَقْرَأُ على المصابِ بالسرطانِ فيبرأُ بإذنِ اللهِ، فالسرطانُ حَسَبَ الطِّبِّ الحسِّيِّ يرونه من الأمراضِ الميؤوسِ منها.

إذن: اليأسُ من أن هذه الضائقة لا تزولُ على يدِ المخلوقِ حقٌّ، ولا مانعَ فيه، أما من عند الخالِقِ فلا يجوزُ؛ لأنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ والذي خلقك من ماءٍ مهينٍ قادرٌ على أن يَشْفِيَكَ من هذا المرضِ مثلًا، والذي أَخْرَجَكَ من بطنِ أُمِّكَ ليس عليك ثيابٌ حتى هَيَّأَ اللهُ لك الثيابَ قادرٌ على أن يَكْسُوَكَ بالغنى بَعْدَ الفقرِ، فلا تَيْأَسْ من رَحْمَةِ اللهِ أبدًا، انتظِرِ الفَرَجَ، ولكن اصْبِرْ لا تتعجَّلِ الأمورَ، فاللهُ تعالى جَعَلَ لكلِّ شيءٍ سُنَّةً وطريقةً تأتي بها في النهايةِ.

فإن قال قائلٌ: ما الفَرْقُ بين اليأسِ والقنوطِ؟

فالجوابُ: القنوطُ أشدُّ اليأسِ، يعني إذا ارتفعَ اليأسُ حتى لم يبقَ في الإنسانِ أيُّ أَمَلٍ فهذا قنوطٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن نزولَ المطرِ رحمةٌ؛ لقولِهِ: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾، وهذا على تفسيرِ المُفسِّر أن المرادَ بالرحمةِ المطرُ، وقد ذَكَرْنَا أن الرحمةَ أعمُّ من ذلك وهو هكذا، تشملُ نزولَ المطرِ، نباتَ الأرضِ، سِمَنَ المواشي، كثرةَ التصرفاتِ والحركاتِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ وَلايةِ الله عَزَّوَجَلَّ لجميعِ الخَلْقِ؛ لقولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ ولم يُقَيَّد، واعلمْ أن ولايةَ الله تعالى نوعان:

ولايةٌ خاصَّةٌ، وولايةٌ عامَّةٌ، الولايةُ العامَّةُ: هي التي تشملُ ولايةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لجميعِ العبادِ مُؤْمِنِهم وكافِرِهم، بَرِّهِم وفاجِرِهم، صغيرِهِم وكبيرِهِم، ذَكَرِهِم وأنثاهم، هذه عامَّةٌ ومنها قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦٢]، هذا من الولايةِ العامَّةِ؛ لأنَّ المرادَ بهم الكافرون.

الولايةُ الخاصَّةُ: هي التي للمؤمنين فقط، ودليلُها قولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، إذن ما الفَرْقُ بين الخاصَّةِ والعامَّةِ؟

الفَرْقُ بينهما في المحلِّ ظاهرٌ، الولايةُ العامةُ تشملُ كلَّ أحدٍ، الولايةُ الخاصةُ بالمؤمنين، الفرقُ بينهما أيضًا من حيث الأثرُ أو التأثيرُ أن الولايةَ الخاصةَ تستلزمُ توفيقَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للعبدِ في الهدايةِ وغيرَ ذلك، والعامَّةُ لا تستلزمُ ذلك، فإن الكفارَ اللهُ وليُّهم بالمعنى العامِّ، ومع ذلك لم يَهْدِهِم؛ لأنَّ الحكمةَ تقتضي ألا يَهْدِيَهُم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن ولايةَ اللهِ تعالى محمودةٌ على كلِّ حالٍ؛ لقولِهِ: ﴿ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ اقرِنْ بين هذا وبين قولِهِ: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان:٢٦]، تجِدِ التناسبَ التامَّ، فالغنيُّ الحميدُ: الذي يُحْمَدُ على غناه التامِّ، بحيث يُغْنِي به ما شاء، والوليُّ الحميدُ: الذي يُحْمَدُ على وَلايتِه بحيث يختصُّ بالولايةِ الخاصَّةِ من شاء، ويمنعُها عما شاء، وعلى كلِّ حالٍ فولايتُهُ حميدةٌ وغناه حميدٌ عَزَّوَجَلَّ.

• ● ۞ ● •

الآية (٢٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى:٢٩].

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (من) للتبعيضِ، و(آياتٌ) جَمْعُ آيةٍ، وهي العلامةُ المعيَّنَةُ لما كانت له، العلامةُ التي تعيِّنُ الشيءَ وتُحَدِّدُه يقالُ لها: آيةٌ.

من آياتِ اللهِ؛ أي: من علاماتِ اللهِ على كمالِ قُدْرَتِه عَزَّوَجَلَّ وكمالِ سلطانِه ومن آياتِهِ خلقُ السَّمواتِ والأرضِ، فإنه لا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يَخْلُقَ مِثْلَهُم، وسبق الكلامُ على السَّمواتِ والأرضِ، ولم جمعت الأولى والثانيةُ أُفْرِدَتْ، وما أَشْبَهَ ذلك.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(و) خَلَقَ (ما بَثَّ) فَرَّقَ ونَشَرَ ﴿فِيهِمَا﴾ أي في السَّمواتِ والأرضِ ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ وهي ما يدبُّ على الأرضِ من الناسِ وغيرِهِم] فهو من آياتِ اللهِ.

فمن آياتِ اللهِ في هذه المخلوقاتِ أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه أعطى كلَّ شَيْءٍ خَلْقَه ثم هدى، تَجِدُ الحيواناتِ وهي بُهَمٌ، لا عقولَ لها، تجدُها تكسبُ رزْقَها وتذهبُ تطلُبُه، وتُخَزِّنُ ما تُخَزِّنُ منه إن كانت مما يُخَزِّنُ الأقواتَ، وتجدُها تحنُّ إلى أولادِها،

وتَرْحَمُ أولادَها وتجوعُ لِشِبَعِهِم، إلى غيرِ ذلك مما إذا تأمَّلْتَه عَجِبْتَ من هذه المخلوقاتِ البُهمِ.

الطيورُ أعطاها اللهُ عَزَّوَجَلَّ قُوَّةَ نظرٍ بعيدةً، بدليلِ أنها ترى الحَبَّ وهي في جوِّ السماءِ، والآدميُّ لا يرى هذا بلا شكٍّ، لكن لَمَّا كانت الطيورُ لا تمشي على الأرضِ يَسَّرَ اللهُ لها بصرًا نافذًا قويًّا حتى ترى الحَبَّةَ وهي في جوِّ السماءِ فتنزلَ وتأخُذَها وتطيرَ، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ العجيبةِ.

انظر مثلًا إلى الذَّرِّ الصغيرِ كيف يهتدي إلى جُحْرِه وهو يأتي إليه من بعيدٍ، ثم إنه يمشي على خطٍّ واحدٍ، شاهدناه بأعيُنِنا يمشي على خطٍّ واحدٍ على البساط الذي ليس فيه أثرُ ترابٍ. فتجدُه يصلُ إلى النهايةِ وإذا به ينحرفُ على زاويةٍ، كيف اهتدى إلى هذا إلا بهدايةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟ وقد قيل: إنه كلما مشى فإنه يَخْرُجُ منه شيءٌ؛ أي: مادَّةٌ، يشمُّها الذَّرُّ الآخرُ فيمشي تَبَعَهُ، هذا من آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

تجدُ النملَ -وهو أكبرُ من الذَّرِّ- يحرصُ على أن يأتيَ بزادِهِ من بعيدٍ ثم يُخَزِّنَه في جُحْرِهِ، وإذا أراد أن يُخَزِّنَهُ أَكَلَ رؤُوسَ الحبِّ من أجلِ ألا يَنْبُتَ؛ لأنَّه لو بَقِيَ الحبُّ برؤوسه نَبَتَ وفَسَدَ عليه فتجدُه يَأْكل أعلى الحبَّةِ وأسْفَلَها حتى لا تَنْبُتَ، ثم إذا جاءَ المطرُ وابتلَّت الأرضُ ووَصَلَ البللُ إلى جُحْرِهِ تَجِدُه ينقُلُ هذا الحَبَّ ليُخْرِجَه إلى الشمسِ والهواءِ حتى يَيْبَسَ، مَن الذي عَلَّمَهُ؟ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لا شكَّ، فهو من آياتِ اللهِ.

وما أحسنَ الاستعانةَ على هذا بقراءةِ كتابِ (مفتاحُ دارِ السعادةِ)[1] لابنِ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا ذكرٌ فيه عجائبُ، حتى ذكر به قِصَّةَ أن رجلًا وَضَعَ طُعْمًا لذَرَّةٍ من

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٤٣).

الذَّرَّاتِ -إما لحمًا أو غيرهُ- فحاولت الذَّرَّةُ أن تَحْمِلَها فعجزتْ، فرجعت إلى جُحْرِهَا، واستغاثت بأَخَواتِها فأقبلْنَ إليها يزفُّون، فلما أقبَلْن عليه نزعها -رَفَعَه من الأرضِ- فجعل الذَّرُّ تطلبُه ولا تجدُ شيئًا، فصرخت وبقيت الأولى التي كانت قد دَلَّتْ عليه، فوضع الطُّعْمَ، فلما تيقنتْه ذهبتْ إلى قومِها فَدَعَتْهُم، فلما أَقْبَلْنَ نَزَعَها، فطلبْنَه فلم يَكُنْ، فرجعن، ثم وُضِعَ الطُّعْمُ للمرةِ الثالثةِ فتأكدته هذه الذرةُ، ثم رجعتْ إلى قومِها تستفزعُهُم، فلما أقبلن نَزَعَه فلما طَلَبْنَه ولم يجدنه أَكَلْنَ هذه الذَّرَّةَ نهائيًّا، قَطَّعْنَها أوصالًا، يقولُ: فحكيتُ ذلك لشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ متعجبًا منها قال: نعم كلُّ شيءٍ مفطورٌ على عقوبةِ الظالمِ الكاذِبِ، وهذه كَذَبَتْ عليهن وظَلَمَتْهُنَّ فلم يبقَ إلا أن تُعْدَمَ؛ لأنَّ الساعيَ في الأرضِ فسادًا يجبُ إعدامُهُ حتى الآدميُّ.

وهل عليه دِيَةُ هذه المقتولةِ؟ الجوابُ: هو ظالمٌ لها نسألُ اللهَ أن يَعْفُوَ عنه.

وكلُّ شيءٍ هداه اللهُ عَزَّوَجَلَّ لما خَلَقَه له حتى الذَّرُّ شاهدْتُه أنا في حوضِ نخلةٍ لما سقيتُ النخلةَ بالماءِ دخل الماءُ من تحت الأرضِ إلى جُحْرِ الذَّرِّ، فجعلت الذَّرُّ تحملُ بَيْضَها الأبيضَ بسرعةٍ، حتى أَخْرَجَتْه عن الماءِ، فالذي هداها لهذا هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ. وآياتُ اللهِ كثيرةٌ؛ ولهذا قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ وفي الآيةِ الأخرى ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ [الجاثية:٤] فأتى بالماضي وأتى بالمضارعِ الدالِّ على الاستمرارِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ للحشرِ ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾]، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾؛ أي: جَمَعَ هذه المخلوقاتِ ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾؛ أي: إذا يشاءُ جَمَعَهُم، فالمفعولُ به محذوفٌ دلَّ عليه السياقُ.

﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، يقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في الضميرِ تَغْلِيبُ

العاقِلِ] الضميرُ يعني في جَمْعِهم تغليبُ العاقِلِ؛ لأنَّ الميمَ الدالَّةَ على الجَمْعِ لا تكونُ إلا في العقلاءِ، وأما غيرُ العقلاءِ فيؤتى بنونِ النِّسْوَةِ، لكن هنا أتى بضميرِ الجمْعِ مع أن ما في الأرضِ من دابَّةٍ أكثرُهُ غيرُ عقلاءَ، لكن يقولُ المُفسِّر يقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تغليبٌ للعاقِلِ.

من فوائد الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ أن خالقَ السَّمواتِ والأرضِ هو اللهُ؛ لقولِهِ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الروم:٢٢]، ولم يشاركْهُ أحدٌ في ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هذه المخلوقاتِ من آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولكن لا يتبيَّنُ أنها من آياتِ اللهِ إلا بالتأمُّلِ والتدبُّرِ؛ لأننا اعتدنا هذه المخلوقاتِ، اعتدنا طلوعَ الشمسِ وغروبَهَا، وطلوعَ القمرِ وغروبَهُ، فلم يكن ذلك محرِّكًا لقلوبِنا؛ لأنَّه شيءٌ معتادٌ ولكن لو أننا تَدَبَّرْنَا هذه المخلوقاتِ لتبيَّنَ لنا أنها من آياتِ اللهِ العظيمةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن من آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ما يَبُثُّ في السَّمواتِ والأرضِ من دابَّةٍ من الآدميين وغير الآدميين، فإن في كلِّ شيءٍ منها آيةٌ تدلُّ على كمالِ وحدانيَّتِه عَزَّوَجَلَّ ورحْمَتِه وحكمَتِه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن ظاهرَ الآيةِ أن في السَّمواتِ دوابَّ؛ لقولِهِ: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ أما الأرضُ فالدوابُّ فيها معلومةٌ لنا أكثرُها معلومٌ لنا نعْرفُه ونشاهدُه، أما السَّمواتُ ففيها دوابُّ، لكن لا ندري ما هي، إن قلتَ: الملائكةُ. صار في ذلك إشكالٌ، وإن قلتَ: غيرُ الملائكةِ قلنا: إن اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ لأنَّ الملائكةَ بَيَّنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنهم أولو أجنحةٍ فقال: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ﴾ [فاطر:١]، وذو الجناحِ يطيرُ، وربما يكونُ يمشي أيضًا.

وعلى كلِّ حالٍ: نحن لسنا مُكَلَّفِين إلا بما نَفْهَمُه من ظاهِرِ الآيةِ ولا نتجاوزُ ذلك.

فنقولُ: ظاهرُ الآيةِ الكريمةِ أن السَّمواتِ فيها دوابُّ كالأرضِ، وإذا سَأَلَنَا السائلُ: ما هذه الدوابُّ؟ قلنا: إما الملائكةُ أو غيرُها، اللهُ أعلمُ.

وقال بعضُ العلماءِ: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: في الأرضِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن:١٩] إلى قولِهِ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢] وزعموا أن هذا لا يكونُ إلا في المالِحِ، والصوابُ: أن الآيةَ على ظاهِرِها في آيةِ الرحمنِ ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ وأن البحريْنِ المالحَ والعذْبَ كلاهما يَخْرُجُ منه اللؤلؤُ والمَرْجانُ، وإن كان في أحدِهِما أكثرُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تمامُ قدرةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بجمْعِ هذه الدوابِّ ليوم الحسابِ؛ لقولِهِ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الرَّدُّ على أولئك المُنْكِرِينَ للبعْثِ الذين قالوا: ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥] المنكرون للبعثِ يقولون: إن كنتم صادقين هاتوا آباءَنا فيقالُ: إن اللهَ تعالى لم يشأْ ذلك، وسيشاؤه فيما بعدُ، وأنتم لم يقلْ لكم: إنكم مجموعون اليومَ، بل قيل: إن ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة:٤٩-٥٠]. وأما تحَدِّيهم بما لم يلتزمْه المتكلِّمُ فهذا ضائعٌ سُدًى.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تمامُ قدرةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بجمعِ هذه المخلوقاتِ، فإن قيل: هل في الآيةِ ما يَدُلُّ على تقييدِ القدرةِ بالمشيئةِ؟

فالجوابُ: لا؛ لأنَّ المُقَيَّدَ بالمشيئةِ ليس القدرةَ ولكن الجمْعَ، وبهذا نَعْرِفُ أن

بعضَ الناسِ الذين يقولون: إنه على ما يشاءُ قديرٌ قد أخطؤوا خطأً عظيمًا وقيَّدُوا ما أَطْلَقَه اللهُ فإن اللهَ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٤٨] على ما يشاءُ وما لا يشاءُ، وهؤلاء يقولون: إنه على ما يشاءُ قديرٌ، فقدَّمُوا المعمولَ وتقديمُ المعمولِ يفيدُ الحصْرَ، إذن هو قديرٌ على الذي يشاءُ، وأما الذي لا يشاءُ فهو قديرٌ عليه. وهذا غلطٌ عظيمٌ اللهُ قادرٌ على كلِّ شيءٍ الذي يشاؤُهُ والذي لا يشاؤه.

إذن هل ننهى من نسمعُه يقولُها؟

الجوابُ: ننهاه عن ذلك نقولُ: يا أخي، قلْ ما قاله اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف:٣٣] لا تقلْ: على ما يشاءُ قديرٌ.

• • ۞ • •

الآية (٣٠)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشُّورَى:٣٠].

قَوْلُهُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾ هذه شَرْطِيَّةٌ. أَعْنِي ﴿وَمَآ﴾ جَوَابُهَا ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾.

وقَوْلُهُ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ خَبَرُ مبتدأٍ مَحْذُوفٍ والتَّقْديرُ: فهو بما كَسَبَت أيديكُم.

يقولُ المفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾ خطابٌ للمؤمنين ﴿مِّن مُّصِيبَةٖ﴾] بيانٌ لِـ(ما) [بَلِيَّةٌ وَشِدَّةٌ ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾؛ أي: كَسَبْتُم من الذُّنوبِ، لكنه عَبَّرَ بالأيدي لأنَّ أَكْثَرَ الأفعالِ تُزَاوَلُ بها ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ مِنْها، فلا يُجَازِي عليه، فهو تعالى أَكْرَمُ من أن يُثَنِّيَ الجزاءَ في الآخِرَةِ، أمَّا غَيْرُ المُذْنِبِينَ فما يصيبُهُم في الدُّنْيا لرفْعِ درجاتِهم في الآخِرةِ].

يقُولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ﴾ خَصَّ المفَسِّرُ هذا بالمؤمنين، ووجْهُ التَّخْصِيصِ أنَّه قال: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ والكُفَّارُ ليسوا أهلًا للعفْوِ، وقولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِّن مُّصِيبَةٖ﴾ بَلِيَّةٌ وشِدَّةٌ]، ويشْمَلُ المصائبَ الدِّينيَّةَ والمصائِبَ الدُّنْيويَّةَ، وأعْظَمُهَا المصائبُ الدِّينيَّةَ، فإنها أَعْظَمُ من المصائِبِ الدُّنْيويَّةِ، فإذا قُدِّرَ أن أحدًا

أُصِيبَ بِانْتِكَاسَةٍ -والعياذُ باللهِ- فهو أَشَدُّ من أن يُهْلِكَ أَهْلَه وَمَالَه، فإنَّ المصائِبَ الدِّينيَّةَ أَعْظَمُ بكثيرٍ من المصائِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ، إذ إنَّ المصائبَ الدُّنْيويَّةَ تَزُولُ وَتُنْسَى، كما قال بعضُهُم: إمَّا أن تَصْبِرَ صَبْرَ الكِرَامِ، وإمَّا أن تَسْلُوَ سَلْوَ البهائِمِ، لا بُدَّ أَنْ تَزُولَ.

أمَّا المصائِبُ الدِّينيَّةُ -والعياذُ باللهِ- فَخَسَارةٌ في الدُّنْيا والآخِرةِ.

فإنْ قال قائلٌ: ما هو الدَّليلُ على أنَّ الإعْراضَ من المصائِبِ؟

فالجوابُ: الدَّليلُ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩]، فتأمَّلْ أنَّ الذنوبَ صَارتْ سببًا لإعْرَاضِهِمْ، والإعْراضُ مُصِيبةٌ عظيمةٌ، المهِمُّ أن قَوْلَه: ﴿مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ يشمَلُ مَصائِبَ الدُّنْيا؛ كَتَلَفِ المالِ، ومَوْتِ الأحبَّةِ، والخَوْفِ، والفَقْرِ، وما أَشْبَهَ ذلك.

ومصائِبُ الدِّينِ؛ كالمعاصي، والبِدَعِ، وكَراهةِ الحَقِّ، وكراهةِ أَهْلِ الحَقِّ، وما أَشْبَهَ هذا، فمثلًا: الإنسانَ إذا أصابه فُتورٌ في الطَّاعةِ، أو إعْراضٌ عن الطَّاعةِ لا شكَّ أنها مُصيبةٌ، لكنَّها لا يُقرُّ عليها، يجبُ أن يَهْرُبَ منها كما يَهْرُبُ من المصائِبِ الحسِّيَّةِ.

وكُلُّهُ ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ والمرادُ بما كَسَبْتُمْ؛ لأنَّها قد تكُونُ الكَسْبَ باليدِ، وقد يَكُونُ الكسْبَ بالرِّجْلِ، ويَكُونُ الكسْبُ بالعَيْنِ، ويَكُونُ الكَسْبُ بالشَّمِّ، ويكُونُ الكسْبُ باللِّسانِ، لكنْ عَبَّرَ بالأيدي عن الكُلِّ؛ لأنَّ أكْثَرَ ما تُزَاوَلُ الأعمالُ باليدِ، الآنَ في جلوسِنا هذا الرِّجْلُ لا تَعْمَلُ، أمَّا اليدُ فإنَّها تَعْمَلُ بلا شكٍّ، تَأْخُذُ الكِتابَ تَرْفَعُه تُنْزِلُه، تَكْتُبُ، أَكْثَرُ الأعمالِ تُزَاوَلُ باليدِ، فَعَبَّرَ بِاليَدِ عَنِ النَّفْسِ لهذا السَّبَبِ. ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ بأن يَعْفُوَ عن كثيرٍ ممَّا أَذْنَبْتُمْ فلا يُؤاخِذُ به.

فإن قال قائلٌ: قولُهُ تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشُّورَى:٣٠]، ما الفَرْقُ بَيْنَه وبَيْنَ البَلاءِ الموجِبِ؟

فالجوابُ: أنَّ هذا لمن أُصِيبَه فيبيِّنُ لهم أنَّ هذا بما كَسَبَت أيديهم؛ لعلَّهم يَتُوبون ويَرْجِعون إلى اللهِ، وأمَّا الإصابةُ بدونِ ذنبٍ فهذه لرِفْعَة الدَّرَجاتِ؛ لأنَّ الإصابَةَ يقابِلُها الصَّبْرُ، لا بُدَّ من صَبْرٍ عليها، والصَّبْرُ دَرَجَةٌ عاليةٌ لا ينالُها إلَّا من وُفِّقَ لها ولا يُمْكِنُ أن يُقَالَ: صابرٌ لمن لم يَمَسَّه أذًى، ولهذا كان البَلاءُ الَّذي للأنبياءِ مضاعَفًا على البَلاءِ الَّذي لغيْرِهِم حتَّى في الأمراضِ، فإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ كان يُوعَكُ -يَعْنِي تأتيه الوَعْكَاتُ- كما يُوعَكُ الرَّجُلانِ منا، وشُدِّدَ عليه في المَوْتِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حتى يَكُونَ آخِرُ حياتِه على أتَمِّ مَقاماتِ الصَّبْرِ، أمَّا إذا قِيلَ ذلك في المذنبين فالمُرادُ أن يَنْتَهوا عن ذُنُوبِهِم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ الأسبابِ لقوْلِه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وَجْهُ ذلك: أنَّ الباءَ هنا للسَّببيَّةِ ففيه إثباتُ الأسْبابِ، وإثْباتُ الأسبابِ ثابِتٌ شَرْعًا وعَقْلًا وحِسًّا، وإنكارُه ضلَالٌ في الدِّينِ، وَسَفَهٌ في العَقْلِ.

أقولُ: تأثيرُ الأسبابِ ثابتٌ بالشَّرعِ والعقْلِ والحِسِّ، ثلاثةُ أدِلَّةٍ. وإنكارُهُ ضلالٌ في الدِّينِ وسَفَهٌ في العقْلِ.

أمَّا ثبوتُ الأسبابِ في الشَّرْعِ فكما في الآيةَ، والأدلَّةُ على هذا لا تُحْصى لا في القرآنِ، ولا في السُّنَّةِ، وأمَّا ثُبُوتُها بالعقْلِ؛ فإننا نَعْلَمُ أن كلَّ شيءٍ حادثٍ لا بُدَّ أن يَكُونَ له سببٌ يُحْدِثُه، إمَّا معلومٌ لنا، وإمَّا مجهولٌ، لا بدَّ من هذا، فالطِّفْلُ لا يُمْكِنُ

أنْ يَنْبُتَ على ظهرِ بَطْنِ أُمِّهِ، لا بدَّ أنْ يكُونَ له سببٌ لوجودِه وبقائِهِ، وكذلك كلُّ الحوادِثِ لا بدَّ لها من سببٍ إمَّا معلومٍ، وإمَّا مجهولٍ.

أمَّا الحِسُّ فظاهرٌ أنَّ للأسبابِ تأثيرًا، لو أنَّكَ رَمَيْتَ زجاجةً بحَجَرٍ تكَسَّرَت، فالَّذي كسرها هو الحَجَرُ. إذن لها سببٌ. لو أَوْقَدْتَ على الماءِ الباردِ صار حارًّا السَّببُ أَوْقَدْتَ عليه، هذا شيءٌ معروفٌ حسًّا، يرى بعضُ العلماءِ من سَفَاهَتِهم أنَّ الأسبابَ ليس لها تأثيرٌ إطلاقًا، سبحانَ اللهِ ليس لها تأثيرٌ، قالوا: نعم ليس لها تأثيرٌ، أليس إذا رَمَيْتَ الزُّجاجةَ بِحَجَرٍ انكسرت الزُّجاجةُ؟ قالوا: نعمْ، لكن حَصَلَ الانكسارُ عند وُجودِ الرَّمْيِ، لا بوجودِ الرَّامي، كيف هذا؟ يقولون: لَمَّا لَمَسَ الحَجَرُ المقذوفُ الزُّجاجةَ انكسرت، هل هذا صحيحٌ؟ ليس صحيحًا، بدليلِ أنَّه لو أَتَيْتَ بِحَجَرٍ أَكْبَرَ من الزجاجةِ ثلاثَ مرَّاتٍ وَوَضَعْتَه جانبَ الزُّجاجةِ وَضْعًا ما انْكَسَرَت.

احتراقُ ما يَقْبَلُ الاحتراقَ في النارِ لسببٍ، وَضْعُ وَرَقَةٍ في النارِ تحترقُ فهذا أمرٌ معقولٌ مُدْرَكٌ بالحِسِّ، يقولُ: لا أبدًا لو أنك أَثْبَتَّ تأثيرَ الأسبابِ في مُسَبِّباتِها لكُنْتَ مُشْركًا باللهِ العظيمِ -أعوذُ باللهِ- لأنَّك جَعَلْتَ مع اللهِ خَالِقًا.

أقولُ: لم أَجْعَلْ مع اللهِ خالقًا، لكني أقولُ: إنَّ السَّبَبَ يؤثِّرُ لا بنفْسِه، ولا بما أَوْدَعَه اللهُ من قوَّةٍ ليس هو بنفْسِه، والدَّليلُ على هذا أنَّ نارَ إبراهيمَ وهي نارٌ عظيمةٌ أَحْرَقَتْ، جَمَعوا حطبًا عظيمًا وأَوْقَدوا عليها، حتى إنَّهم رَمَوْا إبراهيمَ بالمنجنيقِ؛ لأنَّهم لا يستطيعون أن يَحُومُوا حول هذه النارِ من حرارتِها، ماذا كانت؟ قال اللهُ تعالى لها: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] فكانتْ بَرْدًا وسلامًا عليه فلم تؤثِّرْ.

إذن نحن نقولُ: إنَّها سببٌ لما أَوْدَعَ اللهُ فيها من قوَّةٍ، وليست المؤثِّرَةَ بنفْسِها.

هناك طَرَفٌ آخَرُ تَطَرَّفَ قال: الأسبابُ مؤثِّرَةٌ بنفْسِها، وهذا هو الَّذي نقولُ: إن في قولِهِ نوعًا من الشِّرْكِ، وليستِ الأسبابُ مؤثِّرَةً بنفْسِها، والدَّليلُ هو نارُ إبراهيمَ.

وعلى كلِّ حالٍ: نحن نُؤْمِنُ بأنَّ للأسبابِ تأثيرًا بما أَوْدَعَه اللهُ فيها من القُوَّةِ المؤثِّرَةِ، وأنَّ هذه القوى قد لا تُؤَثِّرُ إذا أراد اللهُ عَزَّوَجَلَّ

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإنسانَ يُجازَى على كَسْبِه بمثْلِ كَسْبِه؛ لأنَّه إذا كان بما كَسَبَ فلا بدَّ أن يكُونَ على قَدْرِ ما كَسَبَ، فإن كان أَزْيَدَ كان ظُلْمًا، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَظْلِمُ أحدًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جوازُ التعبيرِ بالبعضِ عن الكلِّ؛ لقولِهِ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ مع أنَّه يَشْمَلُ ما كَسَبَه الإنسانُ برِجْلِه كمَشْيِه إلى بيوتِ الدِّعارةِ والخَمْرِ، وما أَشْبَهَ ذلك، فإنَّه يُؤاخَذُ عليه.

فإذا قال قائلٌ: هل كلُّ بعضٍ يَجُوزُ أن يُعَبَّرَ به عن الكُلِّ؟

فالجوابُ: لا، ولكنْ بشَرْطِ أن يَكُونَ لهذا البعضِ تأثيرٌ على الكلِّ، فكسْبُ اليدِ له تأثيرٌ بلا شكٍّ؛ لأن أكثرَ الأعمالِ بها، أَعْتِقْ رَقَبَةً، هل المرادُ أن أَضْرِبَ بصفحةٍ رَقَبَةَ العتيقِ وأقولُ: أنتِ أَيَّتُها الرَّقبةُ عتيقةٌ؟ الجوابُ: لا، لكنْ عَبَّرَ بالرَّقبةِ عن الكلِّ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يُمْكِنُ أن يعيشَ بدونِ رَقَبةٍ؛ ولأنَّ الرَّقَبَةَ محلُّ القتْلِ الَّتي إذا فُصِلَتْ عن البَدَنِ هَلَكَ الإنسانُ.

الخُلاصةُ: جوازُ التَّعبيرِ بالبعضِ عن الكلِّ بِشَرْطِ أن يَكونَ له أَثَرٌ فيما عُبِّرَ عنه به.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ اللهَ يَعْفُو عن كثيرٍ من الذُّنوبِ، فلا يُؤَاخِذُ بها؛ لقولِهِ:

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ لكن هل هذا العَفْوُ غيرُ مضمونٍ، والدَّليلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساءِ:٤٨]، فلا يَأْخُذْكَ الأمْنُ من مَكْرِ اللهِ أن تقولَ: إنَّ هذا الذَّنْبَ ممَّا يعفو اللهُ عنه وَتَفْعَلُ الذَّنْبَ، هذا غرورٌ واغترارٌ؛ لأنَّ قَوْلَه: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ مُقَيَّدٌ بقوْلِه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساءِ:٤٨].

قال المفسِّرُ: [وهو تعالى أَكْرَمُ من أن يُثَنِّيَ الجزاءَ في الآخرةِ]. مرادُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المصائِبَ الَّتي تُصِيبُنا بذُنُوبِنا لا نُعَاقَبُ على ذنوبِنا في الآخرةِ، تكفي المصائبُ، هذا ظاهرُ الآيةِ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ يَدُلُّ على أنَّ هذه المُصِيبةَ هي الجزاءُ، وإذا كانت هي الجزاءَ فَلَنْ يُثَنِّيَ اللهُ الجزاءَ في الآخرةِ؛ لأنَّه أَكْرَمُ من أن يُثَنِّيَ الجزاءَ، وهذا صحيحٌ أنَّ ما أُصِيبُ به الإنسانُ في الدُّنْيا فهو كَفَّارةٌ عن ذُنُوبِه.

إذا أُقِيمَ عليه الحَدُّ في معصيةٍ فيها حدٌّ فهو كفَّارةٌ، إذا عُذِّرَ على ذَنْبٍ ليس فيه حدٌّ فهو كفَّارةٌ، إذا أصابتْه مُصِيبةٌ عن هذه الذُّنُوبِ فهي كفَّارةٌ، فلا يُعِيدُ اللهُ عليه العُقوبةَ في الآخرةِ إلا ذَنْبًا واحدًا وهو السَّعْيُ في الأرضِ فسادًا.

قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدةِ:٣٣].

فهذا مُسْتَثْنًى؛ وذلك لفَداحةِ هذا النوعِ من الذُّنوبِ، فإنَّ الفَسادَ في الأرضِ ليس بالأمْرِ السَّهْلِ، فَجَعَلَ اللهُ هؤلاء المحارِبين المُفْسِدين في الأرضِ لهم عُقُوبتانِ، العقوبَةُ الأولى بقطْعِ الأعضاءِ، والثَّانيةُ ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ [المائدةِ:٣٣-٣٤].

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أمَّا غَيْرُ المُذْنِبين فما يُصِيبُهم في الدُّنْيا لرَفْعِ درجاتِهم في الآخرةِ]. هذا الكلامُ يُوحي بأنَّ هناك أناسًا كثيرين غَيْرَ مُذْنِبين، وهذا عند التأمُّلِ فيه نَظَرٌ؛ لأنَّه ما من إنسانٍ إلا ويُصابُ بذَنْبٍ، حتَّى إن النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ قال: «لولا لم تُذْنِبوا لَذَهَبَ اللهُ بكم ولَجاءَ بقومٍ يُذْنِبون فيستغْفِرون اللهَ فَيَغْفِرُ لهم»(١)، وقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ: «كلُّ بني آدَمَ خَطَّاءٌ وخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»(٢).

وقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ عن نفْسِه: «اللهُمَّ اغْفِرْ لي ذنبي كُلَّه دِقَّه وَجِلَّه علانِيَتَه وسِرَّه وأوَّلَه وآخِرَه»(٣)، وقال اللهُ تعالى يُخاطِبُ نَبِيَّه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:١-٢] فهل يُمْكِنُ أن يَجْرُؤَ أَحَدٌ فيقولَ: إنَّ الرسولَ لم يُذْنِبْ واللهُ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ لا يُمْكِنُ أن تقولَ: لا ذَنْبَ له حتَّى يَمُنَّ اللهُ عليه بمغْفِرَتِه له. نعم الرسُلُ معصومون من شيْءٍ ليس لغيْرِهم، وهو الاستمرارُ في الذَّنْبِ، هذا لا يُمْكِنُ، لا بدَّ أن يَعْفُوَ اللهُ عنهم، إمَّا باستغفارِهم وتَوْبَتِهم إلى اللهِ، وإمَّا بمِنَّةِ اللهِ عليهم. قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ لنبيِّه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التَّحريم:١-٢]، وقال اللهُ له: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التَّوبة:٤٣]،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، رقم (٢٧٤٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٩٨)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٩٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥١)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

هذا هو النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُ اللهُ له: اسْتَعْجَلْتَ فَأَذِنْتَ لهم، وهذه آيةٌ عظيمةٌ تُرَتِّبُ سَيْرَ الإنسانِ أَلَّا يَتَعَجَّلَ في الأمورِ إذا كان اللهُ عاتَبَ نَبِيَّهُ؛ لأنه أَذِنَ لهم قَبْلَ أن يَتَبَيَّنَ له الأمْرُ، فما بالُكُم بغيْرِه؟ وقال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧].

نعم الرُّسُلُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ معصومون من كبائِرِ الذُّنُوبِ، معصومون من الشِّرْكِ، معصومون من سفاسِفِ الأخلاقِ، أمَّا المعاصي الَّتي دُونَ ذلك فإنَّهم غَيْرُ معصومين منها، ولكنَّهم معصومون من الاستمرارِ فيها، وهذا شيءٌ ليس لغيْرِهم. نسألُ اللهَ تعالى أن يَجْعَلَنا وإيَّاكم من أتْباعِهِ، إنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

إذن قوْلُ المفسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أمَّا غيْرُ المُذْنِبين] غيْرُ مُسَلَّمٍ؛ لأنَّه ما من أحدٍ إلَّا ويُذْنِبُ، كما جاء في الأحاديث، وعليه فهذا الكلامُ من المفَسِّرِ غيْرُ واردٍ، نعم من النَّاسِ من تكُونُ له ذُنوبٌ وله أعمالٌ صالحةٌ تُكَفِّرُ الذُّنُوبَ دون أن يُصَابَ بمُصِيبةٍ، هذا واقِعٌ كثيرًا.

حكى رجُلٌ للنَّبيِّ ﷺ أنَّه رأى امرأةً، وأصاب منها ما يُصيبُ الرجُلُ من امرأتِهِ، غَيْرَ أنَّه لم يَزْنِ بها فقال: «أَشَهِدْتَ معنا صلاةَ الفَجْرِ؟ قال: نعم، قال له: إنَّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ»[1]، فصلاتُهُ الفَجْرَ أَذْهَبَت السَّيِّئاتِ.

وكذلك قال النَّبيُّ ﷺ: «الصَّلَواتُ الخمْسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعةِ، ورمضانُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب إذا أقر بالحد ولم يبين، رقم (٦٨٢٣)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، رقم (٢٧٦٤)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

إلى رمضانَ، مُكَفِّراتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مُجَنِّباتٌ للكبائِرِ»[١].

فائدةٌ: أوَدُّ أن أُنَبِّهَكم! فأنتم طَلَبَة عِلْمٍ جئتُم من بلادِكم إلى هنا لطَلَبِ العِلْمِ، وأنتم في بلادِكم تَطْلُبُون العِلْمَ؟ لكن ما فائدةُ العِلْمِ؟ هل فائدةُ العِلْمِ أن يَكُونَ الإنسانُ نُسْخةً من كِتابٍ يَجْمَعُ في دماغِهِ ما يَجْمَعُ، أم فائدةُ العِلْمِ العَمَلُ؟ الجوابُ: الثَّاني، ولا خَيْرَ في عِلْمٍ لا عَمَلَ فيه، والعِلْمُ بدونِ عمَلٍ به حُجَّةٌ على الإنسانِ؛ لقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ: «**الْقُرآنُ حُجَّةٌ لك أو عَلَيْكَ**»[٢] لا يُوجَدُ قسْمٌ ثالثٌ، وإذا عَمِلَ الإنسانُ بعِلْمٍ وَرَّثَهُ اللهُ تعالى عِلْمَ ما لم يَكُنْ يَعْلَمُهُ من قَبْلُ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ [محمَّد:١٧] ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾؛ أيْ عِلْمًا ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمَّد:١٧] أيْ: صاروا مُتَّقِين للهِ عَزَّوَجَلَّ فالعملُ بالعِلْمِ مُهِمٌّ، والمقصودُ من العِلْمِ أن يتربَّى الإنسانُ به حتَّى يَكُونَ عالِمًا ربانيًّا.

أنا أَنْقِمُ من بَعْضِ الطَّلبة شيئًا مهمًّا وسهلًا وهو إفشاءُ السَّلامِ. نشاهدُ الآن الواحدَ يمرُّ بزميلِه وهو واقفٌ ولا يقولُ: السَّلامُ عليكم، لماذا؟ أرغبةً عن السُّنَّةِ، أم زُهْدًا في الأجْرِ، أنا لا أدري، أم إيجادَ سببٍ للكراهةِ والعداوةِ؟ لأنَّ الإنسانَ إذا مرَّ بك ولم يُسَلِّمْ لا بُدَّ أن يَكُونَ في قلْبِك شيءٌ إلَّا من تَحَجَّرَ قَلْبُه واعتاد عَدَمَ السَّلامِ، فهذا ميِّتٌ، ثمَّ إنَّ النَّبيَّ ﷺ أَقْسَمَ قال: «**واللهِ لا تَدْخُلُوا الجنَّةَ حتى تُؤْمِنوا ولا تُؤْمِنوا حتى تَحَابُّوا -داخل في القَسَمِ- أفلا أَدُلُّكُم أو قال: أُخْبِرُكُم- بشيءٍ إذا**

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان، رقم (٢٣٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَعَلْتُمُوه تَحَابَبْتُم أفشُوا السَّلامَ بَيْنكم»[١].

لماذا لا نُفْشِيه بَيْنَنا مع أنَّ المُسَلِّمَ إذا سَلَّم يأتيه عَشْرُ حسناتٍ، وأظنُّ لو أنَّ أحدًا قيل له: كلما سَلَّمْتَ أَعْطَيْنَاكَ دِرْهمًا ريالًا واحدًا يُسَلِّمُ، ويتردَّدُ مَرَّةً ومرَّةً ومرَّةً كيْ تَكْثُرَ الدَّراهمُ، مع أنَّ هذه الدَّراهمَ الَّتي حَصَّلَها زائلةٌ في الواقِعِ، كلُّ ما تَمْلِكُه في الدنيا فإمَّا أن يَزُولَ عنك، وإمَّا أن تَزُولَ عنه ولا بدَّ، لكنَّ الحسنَةَ تبقى لك وتَجِدُها أشدَّ ما تكونُ حاجةً إليها.

أوصيكم: بالعملِ بالعِلْمِ، فإن لم تَعْلَمُوا فأنتم نُسَخٌ كالكُتُبِ في الجدرانِ، ومع ذلك الكُتُبُ في الجدرانِ سالمةٌ، أمَّا أنتم إذا لم تَعْمَلُوا فَغَيْرُ سالِمِين، واللهِ غَيْرُ سالِمِين، اعْمَلُوا، تَرَبَّوْا بالعِلْمِ في عبادةِ اللهِ، وفي معامَلةِ عبادةِ اللهِ، وفي معامَلةِ أنْفُسِكم، هذه نصيحةٌ أرجو ألَّا تَغِيبَ عن بالِكُم فإنَّها إن شاء اللهُ مفيدةٌ، واللهُ المُوَفِّقُ.

فإن قال قائلٌ: يكونُ الشَّخصُ في مكانٍ يقرأُ أو يكتبُ، ثمَّ الإنسانُ يريدُ حاجةً من مكانٍ آخَرَ يَمُرُّ عليه، هل كلما مرَّ يُسَلِّمُ عليه ولو كان يخشى أن يقاطِعَه؟

الجوابُ: أوَّلًا إذا رأيْتَ إنسانًا مشغولًا وتخشى أنك لو سَلَّمْتَ عليه شَوَّشْتَ عليه فلا تُسَلِّمْ؛ لأنَّ هذا من مَصْلَحَتِه، ولهذا قال الفقهاءُ: يُكْرَهُ السَّلامُ على إنسانٍ مُشْتَغِلٍ بِذِكْرٍ، أو أَكْلٍ، أو غَيْرِه، لكن لا أريدُ أنا هذه الحال، فهذه ربَّما يكونُ الَّذي لم يُسَلِّمْ أَفْرَحَ منه ممن لو سَلَّمَ عليه، لكن إذا كان يَلْبَسُ حذاءَهُ ومَرَّ إنسانٌ من عنده فتَجاوَزَه ولم يُسَلِّمُ فلماذا لا يُسَلِّمُ؟ واللهِ أكادُ أَتَقَطَّعُ أن أرى طَلَبَةَ عِلْمٍ يرى بعضُهُم البعضَ ولا يُسَلِّمُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم (٥٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائلٌ: إنَّ بَعْضَ النَّاسِ إذا سَلَّمْتَ عليه جَعَلَ يَنْظُرُ إليك.

فالجوابُ: هذا صحيحٌ، والسَّببُ أنَّ هذه السُّنَّةُ مَيِّتةٌ عندنا، أمَّا العوامُّ فنعم بعضُ العوامِّ إذا سَلَّمْتَ عليه حَيَّاكَ؛ لأنَّهم لم يعتادوا هذا، أمَّا طالبُ العِلْمِ في هذا ليس له حَقٌّ.

فإن قال قائلٌ: هل أُسَلِّمُ لو مَرَرْتُ على ناسٍ كثيرين؟

فالجوابُ: إذا كانوا جالسين هكذا صفًّا سَلِّمْ عند أَوَّلِهِمْ يكفي.

فإن قال قائلٌ: بعضُ الطَّلبةِ حريصون على السَّلامِ، وبعضُهُم قد ينسى أحيانًا، لكنَّ الشَّخصَ لا تَدْري إما سَلَّمَ أو تَنَحْنَحَ؟

فالجوابُ: الاشتباهُ بَيْنَ التَّنحنحِ والسَّلامِ غَيْرُ واردٍ. وهناك من لا يَنْطِقُ بها شيئًا، ربَّما يَهْمِسُ بها همسًا، وهذا غَلَطٌ، سَلِّمْ سلامًا واضحًا، كما أنَّ بعضَ النَّاسِ بالسَّيَّاراتِ الآن يَضْرِبُ بمنبِّه السَّيارة، وهذا غَلَطٌ أيضًا، لكن ربَّما يقولُ بعضُ النَّاسِ: يضرب بمنبِّه السَّيارة كي أَنْتَبِهَ وأُسَلِّمَ.

• • ۞ • •

الآية (٣١)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [الشُّورَى:٣١].

﴿وَمَآ﴾ نافيةٌ وهي تَعْمَلُ عَمَلَ ليس على لغةِ الحِجازِيِّين، والقرآنُ الكريمُ نَزَلَ بِلُغَتِهم، وعلى هذا فيكُونُ قولُهُ: ﴿أَنتُم﴾ اسْمَها، وقوْلُه: ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ خَبَرَها، لكنَّه اقْتَرَنَ بالباءِ الزَّائدةِ إعرابًا، الزَّائدةِ معنًى؛ يعني أنَّها من حيث الإعرابُ زائدةٌ، لو حُذِفَتْ لتمَّ الكلامُ بدونِها، لكن من حيث المعنى غيرُ زائدةٍ، بل هي مفيدةٌ، وفائدةُ حروفِ الزِّيادةِ هي التَّوْكيدُ. كلَّما جاءك حرفٌ زائدٌ فهو لتأكيدِ العمومِ.

يقولُ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي بِمُعْجِزِينَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إذا طَلَبَكم، فلن تُعْجِزُوه في الأرضِ.

وقولُ المفسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ اللهَ هَرَبًا] هذا كالمثالِ، وإلَّا فالمعنى أعمُّ مما قال، أي: بمُعْجِزِين اللهَ هَرَبًا، وبمُعْجِزين اللهَ اختفاءً، وبمُعْجِزين اللهَ اضطجاعًا، وما أَشْبَهَ ذلك، الإنسانُ بالنسبةِ للإنسانِ ربما يُعْجِزُه إذا هَرَبَ منه ويكُونُ أَسْبَقَ منه، ربَّما يُعْجِزُه إذا اختفى عنه بجدارٍ، أو غارٍ، أو شجرٍ، أو ما أَشْبَهَ ذلك، ربَّما يُعْجِزُه إذا اختفى عنه بالاضطجاعِ على الأرضِ، وما أَشْبَهَ ذلك.

فهل هذا الإعجازُ الَّذي يكونُ من الإنسانِ للإنسانِ هل يكونُ من الإنسانِ للهِ؟

لا؛ لأنَّ اللهَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آلِ عمرانَ:٥] ولا يمتنعُ على قُـدْرَتِه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّـماءِ، وهذا كالـوعيدِ لهؤلاء.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غَيْرِه] ﴿وَمَا لَكُم﴾ ﴿ما﴾ هذه نافيةٌ ونقولُ: إنَّها حجازيَّةٌ؛ لأنَّ من شَرْطِ عَمَلِها عَمَلَ (ليس) التَّرْتيبَ، أن يَكُونَ الاسمُ هو المُقَدَّمَ، وهنا الخبرُ هو المُقَدَّمُ، وعليه فتكونُ نافيةً غَيْرَ عاملةٍ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ ﴿مِن﴾ هذه زائدةٌ لتوكيدِ النَّفْيِ.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يَدْفَعُ عَذَابَهُ عنكم] ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يتولَّاكم، ويُحْسِنُ وَلايَتَكُم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يَدْفَعُ عنكم. فليس هناك وَلِيٌّ يتولاكم من دُونِ اللهِ، ولا نَصِيرَ يَدْفَعُ عنكم عذابَ اللهِ، بل أنتم في قَبْضَتِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أينما كُنْتُم.

فالوَلِيُّ هو الَّذي يتولَّى الأمورَ وقد لا يستطيعُ المُدافعةَ، يتولَّى أمورَهُم ولكن لا يستطيعُ أن يُدَافِعَ، والنَّصيرُ يستطيعُ أن يُدَافعَ، فليس لهم وَلِيٌّ يَجْلِبُ الخيراتِ، ولا نصيرٌ يَدْفَعُ الشُّرورَ.

من فوائد الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: تهديدُ المشركين بعذابِ اللهِ، وأنَّ اللهَ إذا أرادهم لم يُعْجِزْه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وجوبُ الخَوْفِ من اللهِ تعالى ورِقَابَتِهِ؛ لأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا أراد أن يُعَذِّبَ العاصيَ فلن يخفى عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه ليس أحدٌ يقومُ بتولِّي هؤلاء المُكَذِّبين ويَنْصُرُهُم من دونِ اللهِ، وعلى رأسِ هؤلاء الأصنامُ، فالأصنامُ لا تنفعُهم، بل هي إن كانت عاقلةً تتبرَّأُ

منهم يومَ القيامةِ، وإن لم تكن عاقلةً فهي وإياهم حَصَبُ جَهَنَّمَ، كما قال عَزَّوَجَلَّ في سورةِ الأنبياءِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياءِ:٩٨].

• • ۞ • •

الآيات (٣٢-٣٥)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [الشُّورَى:٣٢-٣٥].

قَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ ﴿من﴾ للتبعيضِ، و﴿ءَايَٰتِهِ﴾ علاماتُهُ الدَّالَّةُ على رحمتِهِ وقُدْرَتِهِ وحِكْمَتِه ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ مبتدأٌ مؤخَّرٌ، ولكنَّها مُعْرَبَةٌ بتقديرِ الضَّمَّةِ على الياءِ المحذوفةِ للتَّخفيفِ، وأصْلُ ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ الجواري بالياءِ جَمْعُ جاريةٍ، والجاريةُ هي السَّفينَةُ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقَّة:١١].

من آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ هذه السُّفنُ في البحرِ على الماءِ ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: كالجبالِ في العِظَمِ]. هذه السُّفُنُ العظيمةُ المحمَّلَةُ بالأموالِ والأناسيِّ والحيوانِ من آياتِ اللهِ، أن تكونَ في هذا البحرِ المتلاطِمِ تمشي على الماءِ، تَنْخُرُ عُبابَ الماءِ بما فيها من الأرزاقِ، لا شكَّ أنها من آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

هَدَّدَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ راكِبيها بما يلي ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ هذا أدنى عقوبةٍ يُسْكِنُ الرِّيحَ فَيَظْلَلْن رواكِدَ على ظَهْرِه؛ لأنَّ السُّفُنَ سابقًا إنَّما تمشي حَسَبَ الرياحِ؛ لأنَّها تمشي على شِراعٍ، شراعٍ طويلٍ فتصطدمُ به الرِّياحُ فتسيرُ، فإذا سَكَنَتِ الرِّياحُ وَقَفَت؛ ولهذا قال: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ﴾؛ أي: الجواري

﴿رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾؛ أي: على ظَهْرِ البحْرِ، وحينئذٍ تَتَعَطَّلُ المصالحُ، وربَّما تأتي ريحٌ عاصفٌ تقصفُ بالسَّفينةِ فتُغْرِقُها.

فالأحوالُ إذن ثلاثةٌ: إمَّا رياحٌ طَيِّبةٌ تسيرُ بها السَّفينةُ على ما ينبغي، وإمَّا رياحٌ عاصفةٌ تُغْرِقُ السَّفينةَ، وإمَّا سُكُونٌ فتقفُ رواكِدَ على ظَهْرِ الماءِ، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُبَيِّنُ أنَّ من آياتِهِ سَيْرَ هذه السُّفُنِ.

قال المفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ﴾ يَصِرْنَ ﴿رَوَاكِدَ﴾ ثَوَابِتَ لا تَجْرِي ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾؛ أي: ظَهْرِ البَحْرِ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾].

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ ثم قال: ﴿لَءَايَٰتٍ﴾؛ لأنَّ التَّبعيضَ بعضُ الشَّيءِ، فإذا كان الشَّيءُ ألفًا فبعضُه قد يكونُ مائتين أو ثلاثَ مِئَةٍ، وإذا كان الشَّيْءُ اثنين فالبعضُ واحدٌ، والسُّفنُ كثيرةٌ لا تحصى؛ ولهذا قال ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ باعتبارِ السُّفنِ الكثيرةِ الَّتي تجري على البحْرِ، وربَّما نقولُ باعتبارِ السَّفينةِ الواحدةِ مما يشاهدُه ركَّابُها في البحرِ من الآياتِ العظيمةِ الدالَّةِ على كمالِ قدرةِ اللهِ؛ ولهذا يُحَدِّثُنَا الَّذين يَذْهَبون في البحرِ لاصطيادِ السَّمَكِ عن عجائِبَ ممَّا يشاهِدون من السَّمكِ باختلافِ أنواعِها، واختلافِ ذواتِها كِبَرًا وصِغَرًا وشَكْلًا، ممَّا هو من أعظمِ آياتِ اللهِ.

قولُهُ: ﴿صَبَّارٍ﴾ صيغةُ مبالَغَةٍ؛ أي: كثيرِ الصَّبْرِ ﴿شَكُورٍ﴾ كَثِيرِ الشُّكرِ، فما وجْهُ الجمْعِ بين الصَّبْرِ والشُّكْرِ؟ وجْهُه ظاهرٌ؛ لأنَّ هذه السُّفُنَ إن جرت على ما ينبغي فوظيفةُ الإنسانِ الشُّكْرُ، وإن جرت على ما لا ينبغي فوظيفَتُه الصَّبْرُ، فالصَّابِرُ والشَّاكرُ كلاهما سيرى من آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في هذه السُّفُنِ ما يُوقِنُ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّه رحيمٌ بالعبادِ، وغيرَ ذلك ممَّا سيراه.

يقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو المؤمنُ يصْبرُ في الشِّدَّةِ ويشكُرُ في الرَّخاءِ]، وقد يُقالُ المؤمنُ والكافرُ، لكنَّ الكافرَ يصْبِرُ ولا يَشْكُرُ، والمؤمِنُ يصْبِرُ ويشْكُرُ، يصْبِرُ في موْضعِ الصَّبْرِ ويَشْكُرُ في مَوْضِعِ الشُّكْرِ، أمَّا الكافرُ فيصْبِرُ في مَوْضِعِ الصَّبْرِ ويَتَحَمَّلُ، ولكن لا يَشْكُرُ في مَوْضِعِ الشُّكْرِ، وإنما يزدادُ بَطَرًا وأَشَرًا.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ﴾ عَطْفٌ على ﴿يُسۡكِنِ﴾ أي: يُغْرِقُهُنَّ بِعَصْفِ الرِّيحِ بِأَهْلِهِنَّ] هذا قِسْمٌ ثالثٌ ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ وإن يَشَأْ يُوبِقْهُنَّ؛ أي: يُغْرِقُهُنَّ. ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾؛ أي: بِسَبَبِ كَسْبِهم، والكسْبُ الَّذي يؤدِّي إلى العقوبةِ هو المعاصي، إمَّا بترْكِ الواجباتِ، وإمَّا بفِعْلِ المُحَرَّمَاتِ ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشُّورَى:٣٤].

قوْلُه: ﴿وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾ ليست معطوفةً على ﴿يُسۡكِنِ﴾؛ لأنَّه يُفْسِدُ المعنى؛ إذ يكونُ المعنى إن يشأْ يُسْكِنْ، أو يُوبِقْ، أو يَعْفُو عن كثيرٍ، وهذا فاسدٌ، ولكنَّ المعنى ﴿يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ﴾ الجملةُ استئنافيَّةٌ لكنَّها حُذِفَتِ الواوُ للتَّخفيفِ، المعنى أنَّ اللهَ تعالى يعفو عن كثيرٍ من الذُّنوبِ فلا يُعَاقِبُ عليها. قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾ منها فلا يُغْرِقُ أَهْلَهَا].

وقوله: ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الرَّفْعُ مُسْتَأْنَفٌ، والنَّصْبُ معطوفٌ على تعليلٍ مُقَدَّرٍ؛ أي: يُغْرِقُهُم لِيَنْتَقِمَ منهم وَيَعْلَمَ].

أوَّلًا فيها قراءتان «وَيَعْلَمُ» ﴿وَيَعۡلَمَ﴾ على قراءةِ الرَّفعِ الواوُ استئنافيَّةٌ تقديرُها: وهو يَعْلَمُ الَّذين يجادلونك، وعلى قراءةِ النَّصْبِ وجَّهَها المفَسِّرُ بأنها معطوفةٌ على

تعيينِ المُقَدَّرِ؛ أي: يُغْرِقَهُم لِيَنْتَقِمَ منه ويَعلَمَ ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ﴾ تَجِدُ أنَّ الكلامَ لا يتناسبُ إلَّا إذا قُدِّرَ ما يناسبُه، المُقَدَّرُ على كلامِ المفَسِّرِ؛ أي: يُغْرِقُهم لِيَنْتَقِمَ منهم. قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: مَهْرَبٍ من العذابِ].

وقوله: ﴿يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ المجادَلَةُ هي المُناظَرَةُ والمُخاصَمَةُ مأخوذةٌ من الجَدَلِ وهو الفَتْلُ، يُقالُ: جَدَلَ الحبْلَ؛ أي: فَتَلَه، وسُمِّيَ المُناظِرُ مجادِلًا؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من المتناظِرَيْن يَفْتِلُ حُجَّتَه لتقوى على حُجَّةِ الآخَرِ، هذا أصْلُ المجادَلَةِ وهي المنازَعَةُ والمخاصَمَةُ، بآياتِنا لِيُثْبِتَ الباطلَ ويُبْطِلَ الحقَّ، تأمَّلْ مُجادَلَةَ المشركين للأنبياءِ ما قَصْدُهُم؟ إبطالُ الحقِّ الَّذي جاءت به الرُّسُلُ، وإثباتُ الباطلِ الَّذي هم عليه.

فإن قال قائلٌ: ﴿يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ ما المقصودُ بالآيةِ هنا الشَّرعيَّةُ أم الكونيَّةُ؟

فالجوابُ: الكونيَّةُ والشَّرعيَّةُ، فالمجادَلَةُ في الآيةِ الكونيَّةِ أن يقولَ: إن يَشَأْ يُقَدِّرِ اللهُ كذا، ولماذا يُقَدِّرُ اللهُ مثلًا على الشَّعْبِ المُسْلِمِ الحروبَ والفِتَنَ، وما أَشْبَهَ ذلك، وفي الآياتِ الشرعيَّةِ يقولُ: لماذا أوجبَ اللهُ كذا، لماذا حَرَّمَ كذا وما أَشْبَهَ.

﴿مَا لَهُم﴾ ﴿مَا﴾ نافيةٌ، ولا يَصِحُّ أن تكونَ هنا حجازيَّةً؛ لعدمِ التَّرتيبِ، حيث قُدِّمَ الخَبَرُ، إذن هي ﴿مَا﴾ نَفْيُها مُجَرَّدٌ لا تَعْمَلُ، و﴿مَّحِيصٍ﴾ مُبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ دَخَلَتْ عليه مِنِ الزَّائِدَةُ، والمَحِيصُ المَهْرَبُ.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ مَهْرَبٍ من العذابِ، وجُملةُ النَّفْيِ سَدَّتْ مَسَدَّ مفعولَيْ ﴿وَيَعْلَمَ﴾ والنَّفيُ مُعَلَّقٌ عن العملِ]، هذا جوابُ سؤالٍ مُقَدَّرٍ، وهو أين مفعولا ﴿وَيَعْلَمَ﴾ لأنَّ (يَعْلَمَ) من أفعالِ القلوبِ الَّتي تَنْصِبُ المبتدأَ والخبَرَ،

يعنى: أنَّها من أخواتِ (ظَنَّ) تنصبُ مفعولين، أين المفعولان؟ يقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ عَمَلَها مُعَلَّقٌ الآن»، مُعَلَّقٌ بالنفْيِ، فجملةُ النَّفيِ سَدَّتْ مَسَدَّ المفعولين، وهذا يُعْلَمُ من درسِ النَّحْوِ؛ لأنَّ أفعالَ القلوبِ إمَّا أن تَعْمَلَ، وإمَّا أن تُعَلَّقَ، وإمَّا أن تُلْغَى، إذا أُلْغِيَتْ بَطَلَ عَمَلُها في المحلِّ واللَّفظِ، وإذا عُلِّقَتْ بَقِيَ عَمَلُها في المحلِّ دُونَ اللَّفظِ، وإذا عَمِلَتْ عَمِلَت باللَّفظِ والمحلِّ.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: التَّهديدُ بإغراقِ السُّفنِ؛ لقولِهِ: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ وقد عَلِمْتُمْ قبلَ قليلٍ أنَّ الرِّياحَ بالنِّسبةِ للسُّفنِ تَنْقَسِمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: ريحٍ مناسبةٍ طَيِّبَةٍ، وريحٍ عاصفةٍ مدمِّرةٍ مُغْرِقةٍ، وريحٍ ساكنةٍ تُبْقِي السَّفينةَ راكدةً على ظَهْرِ الماءِ.

فمن فوائِدِها التَّهديدُ بإغراقِ السُّفنِ بالمعاصي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّحذيرُ من المعاصي، وأنَّها سببٌ للعقوباتِ؛ لقولِهِ: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعفو عن كثيرٍ من السَّيِّئاتِ فلا يُعَاقِبُ عليها؛ لقولِهِ: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ يعني: حتَّى مع إغراقِ السُّفنِ يعفو اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن كثيرٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تهديدُ أولئك العصاةِ بأنَّه ليس لهم مهربٌ من اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِهِ: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: ذَمُّ المجادَلَةِ لإبطالِ الحقِّ، تُؤْخَذُ من قولِهِ: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ أمَّا المجادَلَةُ لإثباتِ الحقِّ فإنَّها واجبةٌ حيث كان الإنسانُ يُجيدُها ويُحْسِنُها،

قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النَّحل:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾، فالمجادَلَةُ لإثباتِ الحقِّ وإبطالِ الباطلِ واجبةٌ لكنْ بِشَرْطِ أن يَكُونَ عند الإنسانِ عِلْمٌ بما يُجادِلُ به، فإن لم يَكُنْ له عِلْمٌ فالواجبُ ألَّا يُجادِلَ؛ لأنَّه إذا جادل لإثباتِ الحقِّ بدون عِلْمٍ فقد تَنْعَكِسُ القضيَّةُ عليه، يُورَدُ عليه من الشُّبُهاتِ ما لا يستطيعُ دَفْعُه، وحينئذٍ ينقطعُ وانقطاعُ المجادِلِ بالحقِّ ليس ضررُه على نفْسِه، بل هو على نفْسِه وعلى الحقِّ الَّذي يُجادِلُ من أجْلِ إثباتِهِ.

فالجدال المنهي عنه هو جدالُ المِراءِ الَّذي يُقْصَدُ به المُغالَبَةُ، أمَّا الَّذي يُقْصَدُ به إثباتُ الحقِّ فواجبٌ. وقولُهُ تعالى في الحجِّ: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾ [البقرة:١٩٧] هذا الجدالُ الَّذي من أَجْلِ أن يمارِيَ السُّفهاءَ أو بغيرِ فائدةٍ، أمَّا لإثباتِ الحقِّ فلا بدَّ منه، ويَجِبُ للمُجَادِلِ لإثباتِ الحقِّ أن تَكُونَ نِيَّتُه إعلاءَ كلمةِ الله، فإن شَابَهُ شيءٌ من الرِّياءِ فإنَّه يَبْطُلُ، لكن يجبُ للإنسانِ أنْ يدافعَ الرِّياءَ، أو يقصدُ مثلًا بالرِّياءِ أن يَعْلُوَ على هذا العدوِّ المجادِلِ بالباطِلِ.

وهل المجادَلَةُ تحصُلُ بالغريزةِ أو بالمِرانِ؟

الجوابُ: بهما كليهما، قد يعطي اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الإنسانَ قُوَّةَ حُجَّةٍ وقريحةً وسرعةَ إجابةٍ، وهذا من اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقد يكونُ قليلًا في هذه الناحيةِ من أَصْلِ خِلْقَتِه، ولكن مع المجادَلَةِ يَتَمَرَّنُ، ولهذا كان بعضُ أهْلِ العِلْمِ إذا أراد أن يُحَرِّرَ مسألةً ويُثْبِتَها، فَرَضَ نَفْسَه على مجادلٍ فيعرضُ على نفْسِه إشكالًا ثمَّ يجيبُ عنه، ثمَّ إشكالًا ثمَّ يجيبُ عنه، حتَّى يَتَمَرَّنَ على المجادَلَةِ، ويُذْكَرُ أنَّ عامِّيًّا يجادِلُه نصرانيٌّ يقولُ له: أنتم أيُّها المسلمون ظَلَمَةٌ. قال لِمَ؟ قال: لأنَّكم تجيزون أن تتزوجوا منَّا ولا تجيزون أن نتزوَّجَ

منكم. إذا جاء هذا الإعراضُ على شخصٍ لا يعرفُ المجادَلَةَ، قال: هذا نعم صحيحٌ، فقال العامِّيُّ: إنَّنا نؤمنُ برسولِكم ولا تُؤْمِنوا برسولِنا، آمِنوا برسولِنا نُزَوِّجْكم. وهذه حُجَّةٌ صحيحةٌ بلا شكٍّ، فإذا كانت صحيحةً من عامِّيٍّ كان هذا دليلًا على أنَّ المجادَلَةَ تكُونُ غريزةً، وتكونُ بالمِراس والتَّمَرُّنِ.

مسألةٌ في مُجادلةِ أهلِ الباطِلِ: إذا كان لهم السُّلْطَةُ بمعنى أنك لو جادَلْتَهم علنًا لكان عليك خطرٌ، فَدَعْ هذه المجادَلَةَ، لكن لك أن تتكلَّمَ في المجالِسِ الخاصَّةِ، أو في المجالِسِ التي لا يوجَدُون فيها، وتَعْرِضُ المَذْهَبَ وتُبَيِّنُ بُطْلانَهُ، لو لم يَكُنْ من هذا العَرْضِ إلا تشكيكُ العامَّةِ في هؤلاء لكان كَافِيًا، وزحزحةُ العقيدةِ والتشكيكُ فيها مهمٌّ جدًّا، فأنت مثلًا إذا رأيتَ أناسًا على باطلٍ وبَيَّنْتَ الحقَّ، لو لم يَكُنْ من الفائدةِ إلا أن يَشُكُّوا في الأمرِ، حتى عند زعمائِهم يَشُكُّون في قولِهم، ما دُمْتَ أنت أَتَيْتَ بالحقِّ وبَيَّنْتَهُ؛ ولهذا سَمِعْتُ عن بعضِ دعاةِ النصرانيَّةِ -قاتَلَهُم اللهُ وَلَعَنَهُم إلى يومِ القيامةِ- سَمِعْتُ أنه يقولُ لقومِهِ: يا قَوْمَنا إنكم لم تَنْقُلُوا المُسْلِمُ إلى النصرانيَّةِ هذا مستحيلٌ؛ لأنَّ دِينَنَا النصرانيَّةَ الموجودَ الآن كلٌّ يَعْرِفُ أنه خرافةٌ وليس على شيءٍ، لكن يَكْفِيكم أن تُشَكِّكُوا المُسْلِمَ في دينِه.

انْظُرِ الخُبثاءَ، يكفيكم أن تُشَكِّكُوا المُسْلمَ في دينِهِ، اجعلوه يَشُكُّ فقط، وإذا شكَّ الإنسانُ فيما يجبُ الإيمانُ به فهو كافرٌ، ما يجبُ الإيمانُ به يجبُ الجزمُ به، فانظرْ كيف أساليبُهُم ونحن -والحمدُ للهِ- عندنا من الأساليبِ أقوى منهم، لكن فقط عندنا أن الإنسانَ إذا رأى هذا العالِمَ يُمْكِنُ أن يخافَ، وشجاعةُ خالدِ بنِ الوليدِ وحمزةَ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ غيرُ موجودةٍ الظاهرُ إلا في قليلٍ من الناسِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّه لا مفرَّ لـمن حادَّ اللهَ ورسولَهُ من عقوبةِ اللهِ؛ لقولِـهِ: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾.

من المعلومِ أن (يَعْلَمَ) تَنْصِبُ مَفْعُولَيْنِ، ومفعولُها جملةُ ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ ويُسمَّى تعليقًا، وذكَرْنَا لكم أنَّ ظنَّ وأخواتِها تكونُ عاملةً ومعلَّقَةً ومُلْقاةً.

إذن نقولُ المجادَلَةُ لإظهارِ الحقِّ وبيانِهِ مأمورٌ بها، أمَّا المجادَلَةُ الَّتي للعكسِ لإبطالِ الحقِّ وإظهارِ الباطلِ هذه هي الَّتي عليها الوعيدُ.

• ● ۞ ● •

الآية (٣٦)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشُّورَى:٣٦].

قوله: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَآ أُوتِيتُم﴾ الخطابُ للمؤمنين وغيرِهم، ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ من أثاثِ الدُّنْيا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾].

قولُهُ: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ (مَا) ليست نافيةً، لكنَّها زائدةٌ لعمومِ النَّهْيِ؛ أي: أيُّ شيءٍ أوتيتموه ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

وقولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الخطابُ للمؤمنين وغيْرِهم]، صحيحٌ؛ لأنَّ هذا يُخَاطَبُ به المؤمنُ والكافرُ، الكافرُ يتمتعُ بالدُّنْيا؛ ولكنهم يتمتعون كما تَتَمَتَّعُ ﴿ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمَّدٍ:١٢]، والمؤمنُ يَتَمَتَّعُ بالدُّنْيا ولكنَّه إذا قام بعملِ الآخرةِ صار نعيمُهُ في الدُّنْيا وفي الآخرةِ.

قَوْلُهُ: ﴿فَمَتَٰعُ﴾ الفاءُ رابطةٌ لجوابِ الشَّرْطِ، وهو قولُهُ: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾؛ لأنَّ (ما) هنا شَرْطِيَّةٌ و﴿مِّن شَيْءٍ﴾ بيانًا لها، وجملةُ ﴿فَمَتَٰعُ﴾ هذه جوابُ الشَّرْطِ، وعلى هذا فنقولُ: إنَّ (مَتَاعَ) خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: فهو متاعٌ، قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يَتَمَتَّعُ فيها ثم يزولُ].

وهذا هو الواقعُ أنَّ متاعَ الحياةِ الدُّنْيا يزولُ، أو يُزَالُ عنه؛ يعني: إمَّا هذا وإمَّا هذا، لو قُدِّرَ أن الإنسانَ أن يبقى غنيًّا، صحيحَ الجسْمِ، آمِنَ المقامِ، أليس من الجائِزِ أن يُسْلَبَ هذا؟ بلى، فيكونُ متاعًا قد زال، فإن لم يَزُلْ عنه زال الإنسانُ عنه. مَن الَّذي مُتِّعَ أَبَدَ الآبدين؟ لا يوجَدُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤].

وقوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (مَا) هذه اسمٌ موصولٌ مبتدأٌ، و﴿خَيْرٌ﴾ خَبَرُهُ، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ خيْرٌ من متاعِ الدُّنْيا في ذاتِهِ ونوعِهِ وكلِّ مُتَعِه، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾؛ أي: أَدْوَمُ؛ لأنَّ متاعَ الدُّنْيا يزولُ، فنعيمُ الآخرةِ جَمَعَ بين الوَصْفَيْن: أنَّه خيرٌ، وأنَّه أبقى، فباعتبارِ نوعِهِ وجِنْسِه وأصنافِه هو خيرٌ، وباعتبارِ بقائِهِ هو أبقى، والإنسانُ لا يُريدُ من النَّعيمِ إلَّا هذا، لا يريدُ إلا الأَكْمَلَ والأبقى حتَّى لا يزولَ عنه، لكن لمن ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

وذلك لأنَّ ما في الدُّنيا فهو متاعٌ زائلٌ مُنَغِّصٌ لا يكادُ يمرُّ بك أسبوعٌ إلَّا وَجَدْتَ التَّنغيصَ، وهذا على حدِّ قوْلِ الشَّاعِرِ:

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ... ويومٌ نُساءُ ويومٌ نُسَرُّ[1]

أمَّا الآخرةُ فهي خيرٌ مَحْضٌ ليس فيه شَرٌّ، وأيضًا هو أبقى؛ يعني: أَدْوَمُ، متاعُ الدُّنيا قليلٌ يزولُ سريعًا، بخلافِ ما عند اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

واعْلَمْ أنَّ مِثْلَ هذه العِبارةِ وَرَدَتْ على ثلاثةِ أوْجُهٍ:

---

(١) البيت للنمر بن تولب، انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٨٦)، وشرح الكافية الشافية لابن مالك (١/ ٣٤٦).

الوجهُ الأوَّلُ: أن يُخَاطَبَ بها الشَّخصُ بعينِهِ، فيقالَ له: إنَّ الآخرةَ خيرٌ لك.

والثَّاني: أن تَأْتِيَ مُقَيَّدَةً بأوصافٍ محبوبةٍ مطلوبةٍ.

والثَّالثُ: أن تأتِيَ مُطْلَقَةً.

قالَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضُّحى:٤]، فالآن نَشْهَدُ أنَّ الآخرةَ للنَّبيِّ ﷺ خيرٌ له من الأُولى، هذا قُيِّدَ بشخصٍ معيَّنٍ، المُقَيَّدُ بأوصافٍ كالآيةِ الَّتي معنا، وكقولِهِ تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [يوسف:١٠٩]، فهذه مقيَّدَةٌ بأوصافٍ. الثَّالثةُ مُطْلَقَةٌ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، لكنَّ هذا المُطْلَقَ يُحْمَلُ على المُقَيَّدِ، أو يُقالُ: هذا باعتبارِ وصْفِه لا باعتبارِ من يَحْصُلُ له، فيكونُ من حيث الإجمالُ الآخرةُ خيرٌ وأبقى، أمَّا من حيث التَّفصيلُ فَيُفَصَّلُ في كلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِه.

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ آمنوا بكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به، وقد سأل جبريلُ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- عن الإيمانِ، فقال له: «الإيمانُ أن تُؤْمِنَ باللهِ، وملائكتِه، وكتبِه، ورسُلِه، واليوم الآخِرِ، والقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ»[1]. إذنْ آمِنوا بما يجبُ الإيمانُ به، هذه العبارةُ الَّتي تَشْمَلُ كُلَّ شيءٍ.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قَدَّمَ المعمولَ لإفادةِ الحَصْرِ والعنايةِ به ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ الرَّبُّ هو الخالقُ المالِكُ المُدَبِّرُ، ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي: يَعْتَمِدُونَ ويُفَوِّضُونَ أَمْرَهُم إليه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ والتَّوَكُّلُ فَسَّرَه بعضُهُم بأنَّه: صِدْقُ الاعتمادِ على اللهِ في جلْبِ المنافعِ ودفْعِ المضارِّ مع الثِّقةِ باللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ صِدْقُ الاعتمادِ على اللهِ؛ يعني: أن تعتمدَ على اللهِ اعتمادًا صادقًا، لا تَلْتَفِتُ إلى سواه في جَلْبِ المنافعِ ودفْعِ المضارِّ، زِدِ: الثِّقةَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ؛

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يعني: تَعْتَمِدُ عليه عَزَّوَجَلَّ وأنت واثقٌ بأنه حَسْبُكَ وسيُعِينك، والتَّوكُّلُ على اللهِ نِصْفُ الدِّينِ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، إذ لا يمكنُ للإنسانِ أن يأتيَ بشرائعِ الإسلامِ إلَّا بالتوكُّلِ على اللهِ والاعتمادِ عليه، انظرْ إلى قولِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وإلى قولِهِ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، تجدْ أنَّ اللهَ تعالى قَسَّمَ الدِّينَ إلى قِسْمين: عبادةٍ، واستعانةٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: التَّزهيدُ في الدُّنيا وأنَّها زائلةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إنذارُ الكفَّارِ بأنَّ ما هم فيه من النَّعيمِ ليس بشيءٍ بالنِّسبةِ لنعيمِ الآخرةِ.

ويَقْرَأُ أهلُ التَّاريخِ أنَّ ابنَ حَجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحبَ فَتْحِ الباري كان قاضيَ القضاةِ في مِصْرَ، فمرَّ ذاتَ يومٍ برجُلٍ يهوديٍّ زيَّاتٍ -يعني يَعْمَلُ في الزَّيْتِ- كُلُّ ثيابِهِ وَسِخَةٌ وأوانيه، وفي تَعَبٍ شديدٍ، فمرَّ ابنُ حجرٍ العسقلانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو قاضي القضاةِ بمَرْكَبِه، تجرُّهُ الخيولُ أو البغالُ وفي أُبَّهَةٍ، فأَوْقَفَه اليهوديُّ وقال: ما تقولون في قولِ نَبِيِّكُم: «إنَّ الدُّنْيا سِجْنُ المُؤْمِنِ وجَنَّةُ الكافِرِ»[1]؟ كيف يَتَّفِقُ هذا مع الحال الَّتي نحن عليها الآن، أنت مؤمِنٌ وفي هذا النَّعيمِ، واليهوديُّ يهوديٌّ وفي هذا العَنَاءِ والتَّعَبِ، كيف يَتَّفِقُ هذا؟

فأجابه الحافظُ ابنُ حَجَرٍ جوابًا على البديهةِ، فقال: ما أنا فيه من النَّعيمِ بالنِّسبةِ لنعيمِ الآخرةِ سِجْنٌ؛ لأنَّ الآخرةَ خيرٌ، وهذا ليس بشيءٍ، وأنت بما أنت فيه من العناءِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

بالنِّسبةِ لعذابِ النَّارِ في جنَّةٍ، فقال اليهوديُّ: أشهد أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ[1].

فآمَنَ على الفورِ؛ لأنَّ هذا دَخَلَ عَقْلَهُ، وأنَّ ما قاله الرَّسولُ حقٌّ، الدُّنْيا مهما كانت فهي بالنِّسبةِ للآخرةِ سِجْنٌ ما هي بشيءٍ، ولكنَّ الدُّنيا مهما كانت من الضِّيقِ فهي بالنِّسبةِ للنَّارِ جنَّةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ حياتَنَا هذه دنيا، من الدُّنُوِّ؛ أي: القُرْبِ، أو من الدَّناءةِ؛ أي: الخِسَّةِ والحقارةِ، تَشْمَلُ المَعْنَيَيْنِ جميعًا، فهي قريبةٌ؛ لأنَّها سابقةٌ على الآخرةِ من حين يُولَدُ الإنسانُ وهو فيها، وهي دنيئةٌ؛ أي: حقيرةٌ بالنِّسبةِ للآخرةِ، إذن دنيا مُؤَنَّثُ أَدْوَنَ، وهي إماَّ من الدُّنُوِّ، وإمَّا من الدَّناءةِ وهي الحقارةُ، فبها تحقيرُ الدُّنيا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ ما عند اللهِ خيرٌ من الدُّنيا بأجمَعِها؛ لقولِهِ: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ إذن في الآيةِ التَّزهيدُ في الدُّنيا والتَّرغيبُ في الآخرةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الثَّناءُ على من جَمَعَ بَيْنَ الإيمانِ والتَّوكُّلِ؛ لقوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ التَّوكُّلَ عبادةٌ يَجِبُ إفرادُ اللهِ به، وجْهُ الدِّلالةِ: تقديمُ المعمولِ، هذا دليلُ وجوبِ إفرادِ اللهِ به، وأمَّا الدَّليلُ على أنه عبادةٌ فلأنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَهُ في مقامِ الثَّناءِ، ولا ثناءَ إلا في عبادةٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: فضيلةُ الجمْعِ بين هذه الصِّفاتِ المذكورةِ؛ لأنَّ كلَّ صفةٍ منها صفةُ مَدْحٍ لا شكَّ، لكنَّ اجتماعَها يَكُونُ أَكْمَلَ، أرأيْتَ لو وَصَفْتَ إنسانًا بالكرمِ

(١) ذكر هذه القصة المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير (٣/ ٥٤٦).

فقلتَ: فلانٌ كريمٌ، أليس مدحًا؟ إذا قلتَ: شجاعٌ، انضمَّ الآن الكرمُ إلى الشَّجاعةِ وانضمامُ الصِّفتيْن بعضِهما إلى بعضٍ يُوَلِّدُ صفةً ثالثةً، وهو جَمْعُهُ بين الصِّفاتِ، وهكذا نقولُ في كلِّ الصِّفاتِ المتعددةِ إن جَمْعَهَا يَزيدُ الموصوفَ بها ثناءً.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وجوبُ التَّوكُّلِ على اللهِ؛ لقولِهِ: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ حيث قَدَّمَ المعمولَ.

فإن قال قائلٌ: أيجوزُ أن يَتَوَكَّلَ على الغَيْرِ فيما يَقْدِرُ عليه؟

فالجوابُ: نعم، ولكن لا يَجْعَلُ هذا التَّوكُّلَ تفويضًا يتعلَّقُ القلْبُ به؛ لأنَّ هناك فَرْقًا بَيْنَ أن أقولَ: يا فلانُ وَكَّلْتُكَ لِتَشْتَرِيَ لي كذا وكذا، هنا أعتمدُ عليه لكنِّي لا أفوِّضُ الأمرَ إليه، بل أنا حينما أقولُ: يا فلانُ اشترِ لي كذا وكذا، أعتبرُ نفْسِي فَوْقه؛ لأنَّني الآن أنا الَّذي بيدي الأمرُ، آمُرُهُ وأنهاه، لكنَّ الاعتمادَ الَّذي هو التفويضُ المُطْلَقُ، هذا لا يكُونُ إلَّا للهِ عَزَّوَجَلَّ.

فإذا أَوْرَدَ علينا إنسانٌ هذا الإيراد الَّذي ذَكَرْتَهُ نقولُ: الجوابُ سهلٌ، التَّوكيلُ في الشيءِ لا يدلُّ على التَّفويضِ المُطْلَقِ، التَّوكيلُ على الشَّيءِ لا يَتَعَلَّقُ القلبُ بنفسِ المتوكَّلِ عليه، بخلافِ التَّوَكُّلِ على اللهِ، فبهذا يَظْهَرُ الفَرْقُ، ويُقالُ للإنسانِ الَّذي وَكَّلَ غَيْرَه: إنه ليس ناقِصَ التَّوَكُّلِ؛ بدليلِ أن الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وكَّلَ عليَّ بْنَ أبي طالبٍ في حَجَّةِ الوداعِ أن يَنْحَرَ عنه بَقِيَّةَ هَدْيِهِ[1]، ووكَّلَ عُرْوَةَ بْنَ الجَعْدِ أن يشتريَ له أُضْحِيَّةً، أعطاه النَّبيُّ ﷺ دينارًا وقال: اشترِ لي به أُضْحيَّةً، فاشترى أُضْحِيَتَيْن بدينارٍ، ثم باع واحدةً منهما بدينارٍ، فرجع إلى النَّبيِّ ﷺ بشاةٍ ودينارٍ، الرَّسولُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يَنْقُصْه شيءٌ دينارُه الَّذي سَلَّمَهُ له رَجَعَ إليه، وشاتُهُ الَّتي يريدُها حَصَلَتْ له، فدعا له النَّبيُّ ﷺ بالبَرَكَةِ في بَيْعِهِ[1]، فكان لا يَشْتَرِي شيئًا إلا رَبِحَ فيه، حتَّى لو اشترى ترابًا لَرَبِحَ فيه بِبَرَكَةِ دعوةِ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

وأخذ العُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ من هذه القصَّةِ جوازَ التَّصرُّفِ في مالِ الغَيْرِ لمصلحةٍ؛ لأنَّ عروةَ بْنَ الجَعْدِ تَصَرَّفَ، اشترى شاتين وهو مأمورٌ بشاةٍ واحدةٍ، باع واحدةً وهو لم يُؤْمَرْ بالبيعِ، لكن هذا لمصلحةِ الغَيْرِ، إلَّا أنَّه مع ذلك موقوفٌ على إجازتِهِ، فلو أنَّ هذا المتصرِّفَ قال له صاحبُه: لا أرضى بهذا التَّصرُّفِ، فإنَّه يُرَدُّ، لو عَلِمْنَا أنَّ فلانًا يريدُ أن يبيعَ بَيْتَه قد عَرَضَه للبيعِ، وجاء شخصٌ وبذل فيه مالًا كثيرًا بَذَلَ مِثْلَ قيمته مرَّتَيْن، فجاء رجلٌ تَقَدَّمَ وباعَ فإنَّه لا يجوزُ؛ لأنِّي أعرفُ أنَّ الرَّجُلَ عازمٌ على بيعِ البيتِ، وهو إذا عَزَمَ على بيعِ البيتِ سيكونُ بَيْعُه بثمنِ المِثْلِ، فإذا جاء إنسانٌ بَذَلَ أكثرَ من قيمةِ المِثْلِ مرَّتين مثلًا، وتَقَدَّمَ شخصٌ لم يوكَّلْ وباعه فالبيعُ صحيحٌ؛ لأنَّ هذا تَصَرَّفَ للغَيْرِ بما يحبُّه، لكن لو فُرِضَ أنَّ صاحبَ البيتِ قال: لا أجيزُ هذا، فحينئذٍ يُرَدُّ البيْعُ.

فيبقى إشكالٌ آخَرُ مع المشتري، المشتري يقول: أنا اشتريتُ، والموكِّلُ يقولُ: أنا لم أَرْضَ. والوكيلُ يقولُ: أنا راضٍ، فما الحلُّ؟

الجوابُ: الحلُّ إذا كان الوكيلُ قد أخبر المشتريَ بأنَّه وكيلٌ، وأنَّ البيت لفلانٍ ثمَّ قال فلانٌ وهو الموكِّلُ: أنا لا أرضى بهذا البيْعِ، فُسِخَ، وإلَّا بَقِيَ البيعُ، وضَمِن الوكيلُ ما يَطْلُبُه الموكِّلُ، واللهُ الموفِّقُ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، رقم (٣٦٤٢)، من حديث عروة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٣٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشُّورَى:٣٧].

قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ نَصَّ على أنه معطوفٌ عليه؛ لئلَّا يَظُنَّ الظانُّ أنَّ الواوَ هنا للاستئنافِ، وعلى هذا فيكونُ من بابِ عطفِ الصِّفاتِ، وليس من بابِ عطفِ الأعيانِ؛ فالَّذين استجابوا لرَبِّهم هم الَّذين آمنوا وعلى رَبِّهم يتوكلون، هل لهذا نظيرٌ؛ أي: عَطْفُ الأوصافِ لموصوفٍ واحدٍ؟

الجوابُ: كثيرٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ [الأعلى:١-٤] قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ ليس هو شَيْئًا آخَرَ، بل هو الأوَّلُ، فيكونُ هذا من بابِ عَطْفِ الأوصافِ دونَ الأعيانِ، أنت إذا قلتَ: قام زيدٌ وعمرٌو وبكرٌ وخالدٌ، فهذا من بابِ عطفِ الأعيانِ؛ لأنَّ الثانيَ غيرُ الأوَّلِ، وإذا قلتَ: جاء زيدٌ الفاضلُ والكريمُ والشُّجاعُ؛ هذا من بابِ عطفِ الأوصافِ؛ لأنَّ الثَّانيَ هو الأوَّلُ، لكن اختلفت الصِّفَةُ، إذن فالعطفُ نوعان: عطفُ أعيانٍ، وعطفُ أوصافٍ.

فالآياتُ الَّتي معنا ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ هذا من بابِ عطفِ الأوصافِ؛ لأنَّ الَّذين يَجْتَنِبون كبائرَ الإثْمِ والفواحشَ هم الَّذين آمنوا وعلى ربِّهم

يتوكَّلُون ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ كَبَائِرُ جَمْعُ كَبِيرَةٍ، وما ذَكَرَ الشَّرعُ أنَّه كبيرةٌ فهو كبيرةٌ؛ كقولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ في حديثِ أبي بَكْرَةَ: «ألا أُنَبِّئُكُمْ بأكبرِ الكبائِرِ؟» قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ، قال: «الإشـراكُ باللهِ، وعُقُوقُ الوالدَيْنِ -وكان متَّكئًا فجلس- فقال: ألا وقَوْلُ الزُّورِ، ألا وشهادةُ الزُّورِ»[1] هنا نَصَّ على أنَّها كبيرةٌ.

أمَّا ما لم يَنُصَّ عليه الشَّرعُ فقد اختلف العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في حدِّ الكبيرةِ، وأَقْرَبُ شيءٍ ما اختاره شيخُ الإسلامِ ابْنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: «إنَّ الكبيرةَ ما رُتِّبَ عليه عقوبةٌ خاصَّةٌ»[2]؛ يعني: ما خُصَّ بعقوبةٍ؛ وذلك أنَّ المَنْهِيَّاتِ تَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ: قِسْمٍ فيهِ النَّهيُ أو التَّحريمُ أو ما أَشْبَهَ ذلك، لكنْ لم يُذْكَرْ فيه عقوبةٌ، وقِسْمٍ آخَرَ ذُكِرَ فيه العقوبةُ، فيقولُ: ما ذُكِرَ فيه عقوبةٌ خاصَّةٌ فهو كبيرةٌ، إذا رُتِّبَ على الذَّنبِ لعنةٌ؛ كقولِهِ: لَعَنَ اللهُ من لَعَنَ وَالِدَيْهِ. يكُونُ كبيرةً؛ لأنَّه رُتِّبَ عليه عقوبةٌ خاصَّةٌ وهي اللَّعنُ، وإذا رُتِّبَ عليه السُّخْطُ فهو كبيرةٌ؛ كقولِ النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ في المرأةِ «تَبِيتُ وزَوْجُهَا سَاخِطٌ عليها فإن اللهَ يَسْخَطُ عليها»[3]، هذا كبيرةٌ، إذا قيل: «ليس منا من شَقَّ الجُيُوبَ ولَطَمَ الخُدُودَ ودعا بدعوى الجاهليَّةِ»[4]، فهو

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، رقم (٢٦٥٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم (٨٧)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٠).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء فيمن أم قوما وهم له كارهون، رقم (٣٦٠)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم:..، فذكر منهم: وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط».

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ليس منا من شق الجيوب، رقم (١٢٩٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، رقم (١٠٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

كبيرةٌ، فالَّذي تَرَتَّبَ عليه البراءةُ منه، ليس منَّا كذا، «من غشَّ فليس منَّا»[1]، وكذلك: «لا يُؤْمِنُ من لا يَأْمَنُ جارُه بَوَائِقَه»[2]، كبيرةٌ؛ لأنَّه رُتِّبَ عليه نَفْيُ الإيمانِ.

إذن الكبيرةُ محدودةٌ -يعني تُعْرَفُ بالحَدِّ دونَ العَدِّ- وأحسنُ ما قيل فيها ما اختاره شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أنَّ الكبيرةَ ما رُتِّبَ عليه عقوبةٌ خاصَّةٌ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ بالنَّصْبِ معطوفةٌ على ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾؛ أي: ويجتنبون الفواحشَ، قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهي موجِباتُ الحدود من عطفِ البعضِ على الكلِّ]. فَسَّرَ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الفواحشَ بأنَّها ما تُوجِبُ الحَدَّ، فَلْنَعُدَّ الزِّنا فاحشةً، وهو بنصِّ القرآنِ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء:٣٢]، نكاحُ ذواتِ المحارِمِ فاحشةٌ؛ لقولِ اللهِ تبارك تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النِّساء:٢٢]، تأمَّلِ الآن أيُّما أعظمُ نكاحِ ذواتِ المحارِمِ أو الزِّنا؟

الجوابُ: الأوَّلُ؛ لأنَّ اللهَ قال فيه: ﴿كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، وفي الزِّنا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ ولهذا كان القولُ الرَّاجحُ أنَّ الإنسانَ إذا زنى بمحارِمِه وَجَبَ رَجْمُهُ، سواءٌ كان مُحْصَنًا أمْ غَيْرَ مُحْصَنٍ.

والمفسِّرُ يقول: كلُّ ما فيه حدٌّ فهو فاحشةٌ؛ فالسَّرقةُ فاحشةٌ؛ وقَطْعُ الطَّريقِ فاحشةٌ؛ لأنَّ فيه حدًّا، والخمرُ فاحشةٌ، والصَّحيحُ أنَّ عقوبةَ الخمرِ ليست حدًّا،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب من غشنا فليس منا، رقم (١٠١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، رقم (٦٠١٦)، من حديث أبي شريح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

بل هي عقوبةٌ لكنَّها لا تَنْقُصُ عن أربعين، والدَّليلُ أنَّها عقوبةٌ أنَّ شاربَ الخمرِ في عهدِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُؤتى به فيضربُه النَّاسُ الَّذي يضربُ بيَدِه، والَّذي يضربُ بثوبِهِ، والَّذي يضرِبُ بنعْلِه بدونِ حدٍّ معيَّنٍ، ثم جعلها أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أربعين، ثم جَعَلَهَا عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أربعين، ثم كَثُرَ شُرْبُ الخمرِ فزادها عُمَرُ إلى ثمانين، بعد أن استشار الصَّحابةَ فقال عبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أرى أن تَجْعَلَهَا كأخفِّ الحدودِ[1]. وأخفُّ الحدودِ حدُّ القذْفِ ثمانون، فَجَعَلَها عمرُ ثمانين، وهذا كالإجماعِ من الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنَّ عقوبةَ شارِبِ الخمرِ ليستْ حدًّا؛ لأنَّه لو كانتْ حدًّا لا يُمْكِنُ لأيِّ أحدٍ أن يَزيدَ؛ ولهذا لو كَثُرَ الزِّنا في النَّاسِ لا نزيدُ عن مئةِ جَلْدَةٍ، أيضًا قال عبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اجعلْها كأخفِّ الحدودِ.

فدلَّ هذا على أنَّها ليستْ حدًّا وإلَّا لما صحَّ أن يقولَ: اجعلْها كأخفِّ الحدودِ، وأيضًا إذا تَكَرَّرَ جَلْدُه ففي الرَّابعةِ يُقْتَلُ على رأيِ كثيرٍ من العُلَماءِ؛ لما جاء ذلك في السُّنَنِ: «إذا شَرِبَ فاجْلِدُوه، ثمَّ إن شَرِبَ فاجْلِدوه، ثمَّ إن شَرِبَ فاجْلِدُوه، ثمَّ إن شَرِبَ الرَّابعةَ فاقْتُلُوه»[2]. هذا الحديثُ صحيحٌ، ذَهَبَ إليه أهلُ الظَّاهِرِ، وأكثرُ العُلَماءِ يقولُ: لا يُقْتَلُ لو شَرِبَ ألفَ مرَّةٍ، ويُجْلَدُ ألْفَ مرَّةٍ. واختار شيخُ الإسلامِ قولًا وسطًا، وقال: إذا لم يَنْتَهِ النَّاسُ بدون القتلِ فإنه يُقْتَلُ؛ لئلَّا يتكاثرَ شُرْبُ الخمرِ، وأمَّا إذا انتهى النَّاسُ بدونِ القتلِ فإنه لا يُقْتَلُ[3].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحدود، باب حد الخمر، رقم (١٧٠٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٢٨٠)، وأبو داود: كتاب، باب إذا تتابع في شرب الخمر، رقم (٤٤٨٤)، والنسائي: كتاب الأشربة، باب ذكر الروايات المغلظات في شرب الخمر، رقم (٥٦٦٢)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب من شرب الخمر مرارًا، رقم (٢٥٧٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٣٦-٣٣٧)، (٣٤/ ٢١٦-٢١٧).

المُهِمُّ أن المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أنَّ الفواحشَ هي موجِباتُ الحدودِ، قال: [وهو من عطفِ البعضِ على الكلِّ]؛ لأنَّ الفواحشَ بعضُ كبائرِ الإثْمِ، فهو من بابِ عطفِ البعضِ على الكُلِّ، وهذا يقعُ كثيرًا عطفُ البعضِ على الكلِّ، كما أنَّه يَقَعُ أحيانًا عَطْفُ الكلِّ على البعضِ فقولُ اللهِ تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القَدْرِ:٤] هذا من بابِ عطفِ البعضِ على الكُلِّ، وإذا قلتَ: أَكْرِمْ زيدًا والطَّلبةَ، وهو منهم، فهو من بابِ عطفِ الكلِّ على البعضِ، وتخصيصُ بعضِ الأفرادِ بكونِهِ معطوفًا أو معطوفًا عليه يَدُلُّ على العنايةِ به والاهتمامِ به.

قولُهُ: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (مَا) هنا زائدةٌ في الإعرابِ، وأمَّا في المعنى فهي للتَّوكيدِ، وأقولُ:

يـــا طالبًـــا خـــذْ فائـــدهْ (مـــا) بعـــد (إذا) زائـــدهْ

يعني: كلَّما أتتك (مَا) بعد (إذا) فهي زائدةٌ، كهذه الآيةِ ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ﴾ المعنى وإذا غضبوا، وكقولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ﴾ [فُصِّلَت:٢٠]؛ أي: حتَّى إذا جاؤوها، فخذ هذه الفائدةَ.

و(ما) من أوسعِ الحروفِ معنًى؛ لأنَّ لها عَشَرَةَ معانٍ أو أَكْثَرَ جُمِعَتْ في قولِ النَّاظِمِ:

محامـلُ (مـا) عشـرٌ إذا رُمْـتَ عَـدَّها فحافظْ على بيـتٍ سـليمٍ مـن الشِّـعرِ

ستفهمُ شرطَ الوصْلِ فاعجبْ لنُكْرِها بِكـفٍّ ونفْـيٍ زِيـدَ تعظـيمُ مَصْـدَرِ

(سَتَفْهَمُ) إشارةٌ إلى (مَا) الاستفهاميَّةِ، (شرطُ) إشارةٌ إلى (مَا) الشَّرْطِيَّةِ، (الوصْلُ) إشارةٌ إلى (مَا) الموصولةِ، (فاعجبْ) إشارةٌ إلى (ما) التعجبيَّةِ مِثْلَ أن

تقولَ: ما أحسنَ زيدًا! (لنُكْرِها) إشارةٌ إلى (ما) النَّكِرةِ الموصوفةِ أو الواصفةِ، (بِكَفٍّ) إشارةٌ إلى (ما) الكافَّةِ وهي الدَّاخلةُ على (إنَّ) مثل: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النِّساءِ:١٧١]، (ونَفْيٍ) إشارةٌ إلى (مَا) النَّافيةِ، (زِيدَ) إشارةٌ إلى (مَا) الزَّائدةِ، (تعظيم) إشارةٌ إلى (مَا) التَّعظيميَّةِ مثلَ: لكنَّها ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقَّةِ:١-٢]، ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعةِ:١-٢]، (مَصْدر) إشارةٌ إلى (ما) المَصْدَرِيَّةِ مثل: يُعْجِبُني ما فَعَلْتَ؛ أي: يُعْجِبُني فِعْلُكَ. هذه عَشَرَةُ معانٍ لـ (مَا).

وقوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾؛ يعني: إذا نالهم الغضبُ فإنَّهم يَمْلِكُون أَنْفُسَهم، فيغفرون لمن أَغْضَبَهم، ومعنى ﴿يَغْفِرُونَ﴾ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يتجاوزون] ونحن نَزيدُ شيئًا آخَرَ: السِّتْرَ. يعني: يتجاوزون عمَّن أساء إليهم ويَسْتُرُونه.

من فوائدِ الآيةِ الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ مِن وصْفِ الَّذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلون اجتنابَهُم كبائرَ الإثمِ والفواحشَ، وبُعْدَهُم عنها؛ لأنَّ اجتنب بمعنى: صار في جانبٍ وآخَرَ في جانبٍ، فيفيدُ بُعْدَهُم عن كبائرِ الإثمِ والفواحِشِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ صغائرَ الذُّنُوبِ لا تَنْقُصُ من كمالِ الإيمانِ؛ لأنَّها تقعُ مغفورًا باجتنابِ الكبائرِ، كما قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سُورةِ النَّجْمِ: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النَّجْمِ:٣٢]؛ يعني: إلَّا الصَّغائرَ فإنَّها لا تَضُرُّ، وأَخْبَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ أنَّ الصلواتِ الخمْسَ، والجُمُعَةَ إلى الجُمُعَةِ، ورمضانَ إلى رمضانَ، مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إذا اجْتُنِبَتِ الكبائرُ[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان، رقم (٢٣٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ولكن لو قال قائلٌ: هل الإصرارُ على الصَّغائِرِ يُحَوِّلُهَا إلى كبائِرَ؟

فالجوابُ: نعم، هذا المشهورُ عند أهْلِ العِلْمِ أنَّ الإصرارَ على الصَّغيرةِ كبيرةٌ، لكنَّهم لا يقولون: إنَّ الصَّغيرةَ تكُونَ كبيرةً، يقولون: إنَّ إصرارَ الإنسانِ على المعصيةِ يَدُلُّ على استخفافِهِ بشريعةِ اللهِ وعدمِ مبالاتِهِ بها، فمن هنا صار الإصرارُ كبيرةً، وليس المعنى أن الصَّغيرةَ تَنْقَلِبُ كبيرةً، لكن لَمَّا كان الإصرارُ يَدُلُّ على استخفافِ الإنسانِ بشريعةِ اللهِ صار هذا كبيرةً من أجْلِ الاستخفافِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ من صفاتِ الَّذين آمنوا وعلى رَبِّهِم يَتَوَكَّلون أنَّهم إذا غَضِبُوا غَفَرُوا، والغضبُ وَصَفَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ بأنه جمرةٌ يلقيها الشَّيطانُ في قلْبِ الإنسانِ، فيفورُ دَمُه وتنتفخُ أوداجُه[1]، أمَّا المتكلِّمون فيقولون: إنَّ الغضبَ غليانُ دمِ القلبِ لمحبَّةِ الانتقامِ، وما ذكره النَّبيُّ ﷺ خيرٌ أنَّه جمرةٌ يُلْقِيها الشَّيطانُ، ولذلك تَجِدُ الرجُلَ إذا غَضِبَ يَتَصَرَّفُ تَصَرُّفًا سيئًا لا يَحْمَدُهُ هو إذا سَكَنَ غَضَبُه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه ينبغي للإنسانِ عند الغضبِ أن يَكْظِمَ غَيْظَهُ، وقد طَلَبَ أحدُ الصَّحابةِ من النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ أن يُوصِيَهُ فقال: «لَا تَغْضَبْ» فردَّدَ مرارًا فقال: «لَا تَغْضَبْ»[2].

• • ۞ • •

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٩)، والترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن، رقم (٢١٩١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب: الحذر من الغضب، رقم (٦١١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٣٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى:٣٨].

قولُهُ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ ﴾ الواوُ حرفُ عطفٍ، (الَّذين) معطوفةٌ على ما سَبَقَ، عطفُ أوصافٍ، والَّذين استجابوا لربِّهم.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ ﴾ أجابوه إلى ما دعاهم إليه من التَّوحيدِ والعبادةِ]. ﴿ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ بمعنى أجابوه، وقد سبق لنا ذِكْرُ الأمثلةِ على كَوْنِ استجاب بمعنى أجاب، وقولُهُ: [من التَّوحيدِ والعبادةِ] تفسيرٌ لا بَأْسَ به، ولو قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: استجابوا لرَبِّهم؛ أي: أجابوه إلى كلِّ ما دعاهم إليه من فِعْلِ الأوامِرِ وتَرْكِ النَّواهي لكان أَبْيَنَ وأعَمَّ.

وقوله: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ معطوفةٌ على ﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾ فهي داخلةٌ في صلةِ الموصولِ، قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أداموها] وفيها نظرٌ، بل معنى «أقاموا الصَّلاةَ»: أَتَوْا بها مستقيمةً على الوجْهِ الَّذي طُلِبَ منهم؛ لأنَّ هناك فَرْقًا بين إقامةِ الصَّلاةِ وبين إدامةِ الصَّلاةِ، نعم إدامتُها من إقامَتِها لا شكَّ، ولكن ليست الإقامةُ هي الإدامةَ، إذن الإقامةُ معناها: أن يأتِيَ بالصَّلاةِ مستقيمةً على الوَجْهِ المطلوبِ. وقولُهُ: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾، يَعُمُّ الفريضةَ والنَّافلةَ.

وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أَمْرُهُمْ؛ أي شَأْنُهُمْ، والمرادُ الشَّأنُ العامُّ لا الشَّأنُ الخاصُّ، الشَّأنُ العامُّ الَّذي يُهِمُّ الجميعَ يتشاورون فيه، ومعنى يتشاورون فيه. يعني: يتبادلون الرَّأيَ؛ هل يُقْدِمُونَ أو يُحْجِمُونَ، هل يُعَدِّلُونَ أو يُبْقُونَ الشَّيْءَ على ما هو عليه.

المهمُّ أن المشاورةَ هي تَدَاوُلُ الرَّأْيِ ليَخْرُجُوا بنتيجةٍ مَرْضِيَّةٍ للجميعِ. قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ يتشاورون فيه ولا يَعْجَلُونَ].

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (مِنْ) هنا للتَّبعيضِ، ويُحْتَملُ أن تكونَ للجنسِ، فإن كانت الأولى صار المدحُ لمن يُنْفِقُ بعضَ مالِهِ، وإن قلنا بأنَّها الجنسُ صار المدحُ لمن يُنْفِقُ مالَهُ كُلَّه أو بَعْضَه، فأيُّهما أَوْلَى أن نَقُولَ للتَّبعيضِ أو للجنسِ؟

الجوابُ: للجنسِ أَوْلَى، لِيَشْمَلَ القليلَ والكثيرَ والكلَّ. قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أَعْطَيْنَاهُمْ ﴿يُنفِقُونَ﴾ في طاعةِ اللهِ].

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ من صفاتِ المؤمنين المتوكِّلين أنَّهم يستجيبون للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ أي: يجيبونه إلى ما طَلَبَه منهم، ومعناه المبادَرَةُ وعدمُ التأخُّرِ؛ لأنَّ التأخُّرَ عن تنفيذِ الواجِبِ نَقْصٌ في الاستجابةِ، وأَضْرِبُ لكم مَثَلًا برجلٍ أمَرَ ابْنَه أن يأتيَ إليه بشيءٍ، فتوانى الابْنُ وبقيَ ساعةً أو ساعتين ثم جاء بالشَّيءِ؛ فهل يُقالُ: إن الابْنَ امتثلَ امتثالًا كاملًا؟ لا، فالامتثالُ الكاملُ بالمبادَرةِ، وهذا معنى قولِهِ: ﴿ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: العنايةُ بإقامةِ الصَّلاةِ، وَجْهُ ذلك: أن اللهَ نَصَّ عليها بَعْدَ التعميمِ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ يَشْمَلُ الصَّلاةَ وغيْرَهَا، فلمَّا قال: أقاموا الصَّلاةَ

نَصَّ عليها بخُصُوصِها، وهذا دليلٌ على العنايةِ بها، وحُقَّ واللهِ أن يُعْتَنَى بها؛ لأنَّه ليس هناك عبادةٌ أقوى صلةً بك للهِ عَزَّوَجَلَّ من الصَّلاةِ، الإنسانُ يَتَصَدَّقُ، لكن لا يَشْعُرُ بالصِّلةِ بينه وبين رَبِّهِ، يصُومُ، يَحُجُّ، لكن الصَّلاةَ الحقيقيَّةَ الشَّرعيَّةَ أن الإنسانَ يَشْعُرُ بأنه في صلةٍ بَيْنَه وبَيْنَ اللهِ، ومن أجْلِ ذلك سُمِّيَتْ صلاةً؛ لأنَّها صلةٌ بَيْنَ الإنسانِ وبَيْنَ اللهِ، إذا قال الإنسانُ: الحمدُ للهِ، قال اللهُ: حَمِدَني عَبْدِي؛ وهكذا محاورةً، ثم هو يَشْعُرُ بأنَّه إذا رَكَعَ ففوقه رَبٌّ يُعَظِّمُهُ، وإذا سَجَدَ فكذلك يَضَعُ أَشْرَفَ أعضائِه في مواطِئِ الأقدامِ، ولذلك صارت العنايةُ بالصَّلاةِ؛ حيث قال: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

وفُرِضَتِ الصَّلاةُ لَيْلَةَ المعراجِ، من اللهِ إلى الرَّسولِ بدون واسطةٍ، وهذا يَدُلُّ على أهَمِّيَّتِهَا والعنايةِ بها، ثم إنَّها فُرِضَتْ خمسين صلاةً، وخَفَّفَ اللهُ على العِبادِ فَجَعَلَها خَمْسَ صلواتٍ، لكنَّها في الواقعِ خمسون صلاةً، بمعنى أنَّك إذا صَلَّيْتَ فريضةً واحدةً كأنَّما صَلَّيْتَ عَشْرًا، ليس هو من أَجْلِ أن الحسنةَ بعَشْرِ أمثالِها؛ لأنَّ هذا لجميعِ الحسناتِ، لكن كأنَّك صَلَّيْتَ الظُّهْرَ مثلًا عَشْرَ مَرَّاتٍ، صَلَّيْتَ وسَلَّمْتَ، صَلَّيْتَ وسَلَّمْتَ حتَّى بَلَغْتَ عَشْرًا، وبهذا يَظْهَرُ الفَرْقُ بينها وبين سائرِ العباداتِ في الثَّوابِ الحسنةُ بعشْرِ أمثالِها، لكنَّ هذه كأنَّك فعلًا صَلَّيْتَ خمسين صلاةً.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: مراعاةُ الأحوالِ الاجتماعيَّةِ، وأنَّ الأمورَ العامَّةَ يجبُ التَّشاوُرُ فيها؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ولا تَدُلُّ الآيةُ على أنَّ الإنسانَ إذا أراد أن يَفْعَلَ فعلًا خاصًّا فيه يُشَاوِرُ، لكنَّ المشاوَرَةَ مشروعةٌ إذا أَشْكَلَ عليك شيءٌ فلديك شيئان: الاستخارةُ والمشاورةُ، لكنَّ الأمْرَ العامَّ لا بدَّ من التَّشاوُرِ فيه، يُسْتَثْنَى من ذلك إذا بان الأمْرُ لِوَلِيِّ الأمْرِ فإنَّه لا حاجَةَ للمشاوَرَةِ فيه؛ يعني لو تَبَيَّنَ للأميرِ

أو الرَّئيسِ أو المَلِكِ مصلحةُ ما يريدُ فلا حاجةَ للتَّشاوُرِ؛ لأنَّ التَّشاوُرَ يُرْجَعُ إليه عند الإشكالِ والتَّردُّدِ، أمَّا مع ظهورِ المصلحةِ فلا حاجةَ لأنْ يُشَاوِرَ؛ لأنَّ المشورةَ حينئذٍ لا تزيدُ الأمْرَ إلا إشكالًا وفوضى، فالنَّاس ليسوا على رأيٍ واحدٍ، إذا أَرَدْتَ أن يَتَمَزَّقَ الأمرُ فَضَعْهُ بَيْنَ يَدَيْ عَشَرَةٍ، وإن أَرَدْتَ أن يَذُوبَ بالكُلِّيَّةِ فَضَعْهُ بين يَدَيْ عِشْرِين، لا بدَّ من اختلافِ النَّاسِ.

والأصْلُ أنه -ولي الأمر- مُؤْتَمَنٌ، وإذا أراد أن يَخُونَ مَنَعَ الشُّورَى ولو احتاجَ لها، وليسَ علينا بذِمَّتِهِ، لأنَّنا لو قلنا: إنَّ وَلِيَّ الأمْرِ يُشَاوِرُ في كلِّ شيءٍ فهذِه مُشْكِلَةٌ، ولا يُمْكِنُ أَنْ تَسْتَقِيمَ الحالُ، معناه لو يكتب للشُّرْطَةِ: احْبِسُوا فلانًا لأنَّه أساء يقولُ: واللهِ أَجْمَعُ الناسَ أُشَاوِرُ.

وهل نقولُ: كلُّ مسألةٍ تَتَعَلَّقُ بالعامَّةِ لا بُدَّ أن تُشَاوِرَ فيها، لا يُمْكِنُ هذا، وقد بَيَّنَّا أن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أشدِّ الخلفاءِ مشاورةً ومع ذلك تكادُ تُحْصَى مشاوراتُهُ، لا بدَّ من هذا وإلا فلا يستقيمُ الأمرُ.

فإن قال قائلٌ: إذا أَشْكَلَ على الإنسانِ الشَّيءُ هل يبدأُ بالاستخارةِ أو الاستشارةِ؟

فالجوابُ: يبدأُ بالاستخارةِ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ قال: «**إذا هَمَّ أَحَدُكُم بالأمْرِ فليصلِّ ركعتين**»[1] (هَمَّ) يعني أصابه الهَمُّ فيه وتَرَدَّدَ وشَكَّ، وليس المرادُ أنَّ كلَّ أمرٍ تَهُمُّ به تصلِّي ركعتين أوَّلا، لكن إذا هَمَّ أحدُكُم بالأمرِ، إذا هَمَّ الإنسانُ أن يَذْهَبَ للغداءِ يُصَلِّي ركعتين يستخيرُ؟ لا، إذن «**إذا هَمَّ أحدُكُم بالأمْرِ**» يعني إذا أَهَمَّهُ الأمْرُ ولم يَتَبَيَّنْ له شيءٌ فليصلِّ ركعتين، فنقولُ: ابدأْ أوَّلًا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، رقم (٦٣٨٢)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بالاستخارةِ؛ لوجهين: الأوَّلُ أنَّه ظاهرُ الحديثِ، والثَّاني أن كَوْنَكَ تَرْجِعُ إلى اللهِ خيرٌ من كونِك ترجعُ إلى آراءِ النَّاسِ.

إذَن: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ يُسْتَثْنَى منه ما ظَهَرَتْ مَصْلَحَتُه لوَلِيِّ الأمْرِ، فإنه لا حاجةَ إلى أن يُشَاوِرَ، ويَدُلُّ لهذا الاستثناءِ عملُ السَّلفِ الصالِحِ، فها هو عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو من أشدِّ الخلفاءِ اهتمامًا بالرَّعيَّةِ لا يُشاورُ إذا كانتِ المصلحةُ ظاهرةً له، وإنما يشاوِرُ إذا أَشْكَلَ عليه الأمْرُ، لو أَحْصَيْتَ ما شاور فيه ما بَلَغَ إلا العشراتِ أو أقَلَّ، وقد بَقِيَ عَشْرَ سنواتٍ في الخلافةِ، هذا العملُ السَّلفِيُّ من الخلفاءِ الرَّاشدين يُقَيِّدُ قَوْلَهُ تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ من صفاتِ الَّذين آمَنوا وعلى ربِّهم يَتَوَكَّلون بَذْلَ المالِ في طاعةِ اللهِ؛ لقولِهِ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وهل يُطْلَبُ من الإنسانِ أن يُنْفِقَ جميعِ مالِهِ؟ هذا يَنْبَنِي على (مِنْ) هل هي للتَّبعيضِ أو للجنسِ؟ إذا قُلْنا: للتَّبعيضِ صار المدحُ على مَن أَنْفَقَ بعضَ مالِهِ، وإذا قُلْنا: للجنسِ؛ أي: أنهم ينفقون من هذا الجنسِ الَّذي رَزَقَهُم اللهُ، صار عامًّا، والتَّفصيلُ هو التَّأصيلُ إن شاء اللهُ إذا كان الإنسانُ لا يَنْقُصُ إنفاقُهُ شيئًا من واجباتِ الإنفاقِ على الأهلِ فلا حَرَجَ أن يُنْفِقَ جميعَ مالِهِ، مثلَ أن يَكُونَ عِنْدَ إنسانٍ مئةُ ريالٍ لا يَحْتَاجُهَا للإنفاقِ على أَهْلِهِ، وليس عنده سواها نقولُ هنا: أَنْفِقْ جميعَ المئَةِ، ثم اكتسبْ للإنفاقِ على أَهْلِكَ، كما فعل أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]، أمَّا إذا كان يحتاجُ المالَ للإنفاقِ الواجبِ على أهْلِهِ وهو ضعيفُ الاكتسابِ، فهنا نقولُ: لا تُنْفِقْ جميعَ مالِكَ، أَمْسِكْ عليك بَعْضَ مالِكَ فهو خيرٌ لك.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب الرخصة في ذلك؛ أي أن يخرج الرجل من ماله، رقم (١٦٧٨)، والترمذي: كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رقم (٣٦٧٥)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٣٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشُّورَى:٣٩].

قولُهُ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ الواوُ حرفُ عطفٍ، والمعطوفُ هنا باعتبارِ الصِّفاتِ؛ أي: من صفاتِهم أنَّهم إذا بغى عليهم أحدٌ انتصروا لأنفسِهم.

وقوله: ﴿إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ﴾ أي: العدوانُ من أحدٍ عليهم.

وقوله: ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ ينتصرون لأنفسهم، لا يَظْهَرون مَظْهَرَ الضعيفِ الذَّليلِ، بل ينتصرُ لنفْسِه، والانتصارُ للنَّفْسِ في مقامِ العزِّ أمْرٌ مطلوبٌ، أمَّا في مقامِ التَّواضعِ فهذا شيءٌ آخَرُ يأتي إن شاء اللهُ في المستقبلِ.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ صنف] المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذَكَرَ أنَّ الَّذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلون صنفان، ولكنَّ الصَّحيحَ أنَّ هذا كُلَّه وَصْفٌ لموصوفٍ واحدٍ، وليس هناك أصنافٌ؛ وعليه فنقولُ: من صفاتِ الَّذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكلون أنَّهم ينتصرون لأنْفُسِهم إذا ظلموا؛ أي: يَنْتَقِمون ممن ظَلَمَهم بمِثْلِ ظُلْمِه بدونِ عُدْوانٍ، على أنَّ قولَهُ: ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ لا يَسْتَلْزِمُ أن يأخذوا لأنْفُسِهم بحقِّها، بل إذا انتصروا فلهم أن يعفوا، وإذا عَفَوْا مع القُدرةِ كان ذلك أَكْمَلَ.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ من صفاتِ الَّذين آمنوا وعلى ربِّهم يَتَوكَّلون: أنَّهم لا يَرْضُون بالذُّلِّ والانخناثِ عن الأخذِ بحقِّهم؛ لقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ وهل من لازِمِ الانتصارِ أن يقتصَّ، أو أن يَكُونَ له اليدُ العليا سواءٌ بالقِصاصِ، أو بالعفْوِ، أو بغيْرِ هذا؟

الظَّاهرُ الثَّاني؛ لأنَّه أعمُّ؛ لأنَّ من عفا عن قُدْرَةٍ وعزَّةٍ فإنَّه لا شكَّ منتصرٌ، ومن أَخَذَ بحقِّهِ فهو منتصرٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤلاء لا ينتصرون لأنْفُسِهم إلَّا إذا تحقَّقوا البغْيَ عليهم، وأمَّا مجرد التُّهمةِ فلا يعتبرونها؛ يُؤْخَذُ ذلك من قولِهِ: ﴿إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ﴾ فلو اتَّهموا أحدًا أنَّه ظَلَمَهم فإنَّهم لا يتحركون، لكن إذا أصابَهَم البغيُ حينئذٍ ينتصرون.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه يجبُ على من انتصر إذا أصابه البغْيُ ألَّا يتجاوزَ الحدَّ في الاستيفاءِ.

• • ۞ • •

الآية (٤٠)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

قولُهُ: [﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ سُمِّيت الثَّانيةُ سَيِّئَةً؛ لمُشَابَهَتِها للأُولى في الصُّورةِ، وهذا ظاهرٌ فيما يُقْتَصُّ فيه من الجِراحاتِ، قال بعضُهُم: وإذا قال له أخزاك اللهُ، فيجيبُه أخزاك اللهُ] قولُهُ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ هذه في الحقيقةِ قاعدةٌ أنَّ للإنسانِ أن ينتقم لنفْسِه السَّيِّئَةِ بمِثْلِها لا يَزيدُ؛ لأنَّه إن زاد فقد ظَلَمَ، والزِّيادةُ قد تكونُ في الكمِّيَّةِ، وقد تكونُ في الكيفيَّةِ، وقد تكونُ في النَّوعيَّةِ.

فإذا انتصر لنفْسِه فَضَرَبَ من ظَلَمَه ثلاثًا وقد ظَلَمَه باثْنَتَيْنِ هذا من بابِ الكمِّيَّةِ. وإذا ضَرَبَ من ضَرَبَه ضَرْبًا خفيفًا فانتصر لنفْسِه بِضَرْبٍ ثقيلٍ. هذا من بابِ الكيفيَّةِ، وإذا ضَرَبَ من اعتدى عليه بسوْطٍ ضعيفٍ بسوْطٍ أكْبَرَ، هذا من بابِ النَّوعيَّةِ.

المهِمُّ: أنَّه لا بدَّ أن تكونَ المُجازاةُ بمثْلِ السَّيِّئَةِ الَّتي أُسِيءَ إليه فيها ولا تزيدُ، فإن زاد فهو ظالمٌ؛ ولهذا يُقالُ: هذه بهذه والبادئُ أَظْلَمُ.

فإن قال قائلٌ: إذا ظُلِمَ فدعا على الظَّالِمِ فهل لا يجوزُ له أن يَدْعُوَ عليه بأكثَرَ من مَظْلَمَتِهِ.

فالجوابُ: هذا هو الواجِبُ؛ لكن قد يَظُنُّ الظانُّ أنَّ هذه المَظْلِمَةَ لا يسوغُ أن يُتَجاوَزَ فيها، وهي مَظْلِمَةٌ عظيمةٌ؛ كدُعاءِ سعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على من ظَلَمَه، وقال: إنَّه يَظْلِمُ الرَّعيَّةَ، ولا يَقْسِمُ في السَّوِيَّةِ، ويؤخِّرُ الصَّلاةَ عن وَقْتِها. فدعا عليه بدعوةٍ عظيمةٍ: اللهمَّ أَعْمِ بَصَرَهُ، وَأَطِلْ عُمرَهُ، وَعَرِّضْهُ للفِتَنِ[1].

فهذه قد يقولُ القائلُ: إن هذه أكبرُ من ظُلْمِه، ولكنَّها في الحقيقةِ ليست أكبرَ؛ لأنَّ ظُلْمَهُ له يَتَضَمَّنُ القَدْحَ في وَلِيِّ الأمْرِ، حيث وَلَّى على النَّاسِ مِثْلَ هذا.

مسألة: إذا ضَرَبَ مثلما ضُرِبَ يكفي، ونعلمُ أنَّ الضَّربةَ أكثرُ العُلَماءِ يقولون: لا قِصاصَ فيها؛ إلَّا أن يموتَ، ونَعْلَمُ أنَّ مِثْلَ هذه الضَّربةِ تَقْتُلُ غالبًا، فيُقْتَصُّ منه.

لكن لِنَقُلْ غَيْرَ هذه المسألةِ: فقيرٌ أَخَذ منه غنيٌّ عَشَرَةَ ريالاتٍ، صار الفقيرُ مُعْدَمًا، هذا الَّذي أَخَذَ منه عَشَرَةُ ريالاتٍ عنده ملايينُ، إذا أُخِذَ منه عَشَرَةُ ريالاتٍ ما ضَرَّه شيءٌ، فنقولُ: العدلُ أن يُعْطى هذا مِثْلَ ما أُخِذَ منه فقط.

فإن قال قائلٌ: أحيانًا يموتُ الظَّالمُ ولم يُتقصَّ منه، فهل يجوزُ الدُّعاءُ عليه بعد موتِهِ؟

فالجوابُ: لا بَأْسَ، له أن يَدْعُوَ عليه ولو بعد موتِهِ؛ مع أنَّ المظلومَ لو فُرِضَ أنَّه لم يَدْعُ؛ فإنَّ حَقَّه سوف يأتيه يومَ القيامةِ، وهو إذا استوفى بالدُّعاءِ عليه لم يَأْخُذْ من حسناتِهِ يومَ القيامَةِ.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٣٦٠)، والبزار رقم (١٠٦٢)، وأبو يعلى رقم (٦٩٣)، من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقولُ المفسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سُمِّيَتِ الثَّانيةُ سَيِّئَةً لمشابَهَتِها الأُولى في الصُّورةِ]، فيه نظرٌ واضحٌ فالمقاصَّةُ سيئةٍ، لكن ليست سيئةً بالنِّسبةِ للفاعِلِ، بل هي سيئةٌ بالنِّسبةِ لمن اقْتُصَّ منه، تسوؤُه وتؤلمُه وتردُّ اعتبارَه إذا كان يرى أنَّه فوق صاحبِه، فهي سيئةٌ لا باعتبارِ الفاعِلِ ولكن باعتبارِ المُقْتَصِّ منه.

وأمَّا قولُهُ: [لمشابَهَتِها الأُولى] فلا يُمْكِنُ أن تُطْلَقَ السَّيِّئةُ لمُطْلَقِ المشابَهةِ، أو لمجرَّدِ المشابَهةِ ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ هذا في الواقِعِ هذه قاعدةٌ في جميعِ الاقتصاصِ، فلننظرْ إذا شقَّ ثَوْبَكَ فهل تشقُّ ثوبَهُ؟ ظاهرُ الآيةِ نعم، لكن إذا كان ثوبُك رديئًا يساوي عَشَرَةً وثوبُهُ جيدًا يساوي مئةً، إذا شَقَقْتَه يَنقُصُ العُشْرَ، مثلًا هذا الثوبُ يساوي عشرةَ ريالاتٍ شَقَّه المعتدي بشقٍّ يُنْزِلُ قيمتُه العُشْرَ، أي: ريالًا واحدًا، فهل نقولُ: العِبْرةُ بالمعنى فإنه لَمَّا شقَّ ثَوْبَكَ أَذَلَّكَ وأنت إذا اقْتَصَصْتَ منه وشَقَقْتَ ثَوْبَهُ أَذْلَلْتَه، وهو البادئُ، فَنَشُقُّ ثَوْبَهُ ولو كان أغلى؛ لأنَّ هذا الَّذي ثَوْبُهُ بعَشَرَةٍ يَنْكَسِرُ اعتبارُه كالَّذي ثوبُهُ بمئةٍ، والمقصودُ إذلالُ المعتدي وكسْرُ اعتبارِهِ. وعلى هذا فنقولُ: من شَقَّ ثَوْبَكَ فَشُقَّ ثَوْبَهُ.

وهل المُعْتَبَرُ المساحةُ أو المُعْتَبَرُ النِّسبةُ؟ يعني مثلًا: هذا إنسانٌ قصيرٌ شُقَّ ثَوْبُه بمقدارِ شِبْرٍ، الشِّبْرُ هذا يُساوي العُشْرَ مثلًا من ثوْبِه، والآخرُ طويلٌ جدًّا شُقَّ ثَوْبُهُ بمقدارِ شِبْرٍ، هل يتساوى في النِّسبةِ مع ذاك؟

الجوابُ: لا يتساوى، إذن: العدلُ أن يَكُونَ المُعْتَبَرُ النِّسبةَ؛ فإذا شُقَّ نِصْفُ هذا الثوْبِ القصيرِ، مساحتُهُ ذراعٌ، والطَّويلُ شَقَّهُ بمساحةِ ذراعٍ، لكنه طويلٌ، طولَ الأوَّلِ مرتين، لا يكفي. نقولُ شُقَّ إلى أن تَبْلُغَ النِّسبةَ، إذا كان العُشْرَ فهذا العُشْرُ؛ لأنَّ هذا هو العدلُ في الحقيقةِ، لأنَّ المعتديَ أَفْسَدَ عُشْرَ ثوبِ المُعْتَدَى عليه،

فَلْنُفْسِدْ عُشْرَ ثَوْبِه مع أنَّه هو المعتدي، وهذا ينطبقُ تمامًا على قولِ اللهِ تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشُّورَى:٤٠].

مثال ذلك: رجلٌ غاضِبٌ قال لشخصٍ: أنت حمارٌ، فهل يقولُ له: أنت الحمارُ؟ الجوابُ: يقولُهُ، لكن هل يقولُ: أنت حمارٌ وأبوك حمارٌ؟ الجوابُ: لا، هذا عُدْوَانٌ، لكن يقولُ: أنت حمارٌ.

فإذا قال له: لَعَنَكَ اللهُ، هل يقولُ: بل لعنك أنت؟

الجوابُ: معكم كتابُ اللهِ: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ فله أن يقولَ هذا؛ ولذلك إذا لَعَنَ الإنسانُ شخصًا لم يَكُنْ أهلًا له تَرْجِعُ اللَّعنةُ إلى الأوَّلِ؛ فَيُعَاقَبُ بمثلِ ما فَعَلَ.

واسْمَعْ كلامَ المفسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: [وهذا ظاهرٌ فيما يُقْتَصُّ فيه من الجراحاتِ] ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ الَّذي يُقْتَصُّ فيه من الجراحاتِ كُلُّ عُضْوٍ قَائِمٍ بنَفْسِه، وكلُّ جُرْحٍ ينتهي إلى عَظْمٍ، هذا فيه القِصاصُ.

وكلُّ عُضْوٍ قائمٍ بنَفْسِه مِثْلَ: العينِ والإصْبَعِ وما أَشْبَهَ ذلك، هذا يُقْتَصُّ، رَجُلٌ قَطَعَ خِنْصَرَكَ تُقْطَعُ خِنْصَرَه. أو جُرْحٌ يَنْتَهِي إلى عَظْمٍ، جَرَحَه في رَأْسِه حتَّى بان عَظْمُ رأْسِه يُقتصُّ منه، جَرَحَهُ في ساقِه حتَّى بان العظْمُ يُقْتَصُّ؛ حتَّى لو كانت طبقةُ اللَّحمِ الَّتي على العظمِ في الجاني أَغْلَظَ، يُقْتَصُّ حتَّى يَصِلَ إلى العظْمِ، فإذا كان الجُرْحُ لا يَصِلُ إلى العَظْمِ؛ مِثْلَ أن جَرَحَه في فَخِذِه جُرْحًا لم يَنْتَهِ إلى العَظْمِ؛ يقولُ الفقهاءُ: إنَّه لا يُقْتَصُّ منه، وذلك لعدَمِ انضباطِ القِصاصِ، فهو لا يَنْضَبِطُ إلَّا إذا وَصَلَ للعَظْمِ، لكن نظرًا لتقدُّمِ الطِّبِّ، نقولُ: إذا أمكن أن يُقْتَصَّ منه اقْتُصَّ منه.

إذا قَطَعَ يَدَه من نِصْفِ الذِّراعِ الفقهاءُ يقولون: لا يُقْتَصُّ منه؛ لعدمِ الانضباطِ، لكن إذا كان من المِفْصَلِ، كما لو قُطِعَ كَفُّهُ من مِفْصَلِهَا، يُقْتَصُّ منه.

والصَّحيحُ: أنَّه في الصُّورةِ الأولى: إذا قَطَعَ يَدَهُ من نِصْفِ الذراعِ، أنَّه إذا أَمْكَنَ القِصَاصُ؛ فإنه يُقْتَصُّ منه.

وفي عَصْرِنا الآن يُمْكِنُ على الشَّعْرَةِ، أو أدنى من الشَّعْرَةِ؛ فإذا كان لا يُمْكِنُ، وقال المَجْنِيُّ عليه: اقطعوا يَدَهُ وأنا أعفو عما قَطَعَ من الذِّراعِ، الصَّحيحُ أنَّه يُقْتَصُّ منه؛ فتُقْطَعُ كَفُّ الجاني، وإذا أَسْقَطَ الزَّائدَ -أعني: المجنيَّ عليه- سَقَطَ. فإن قال المجنيُّ عليه: أنا أريدُ أن تَقُصُّوا كَفَّه وآخُذَ أَرْشَ الزَّائِدِ؛ له ذلك؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة:٤٥] وهنا يقولُ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.

إذن الَّذي يُقْتَصُّ به من الجراحاتِ كُلُّ عُضْوٍ مُسْتَقِلٍّ أو عَظْمٍ أو جُرْحٍ ينتهي إلى عَظْمٍ، والباقي فيه خلافٌ.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قال بعضُهُم] يعني بعضَ العُلَمَاءِ [وإذا قال له: أخزاك اللهُ فيجيبُه أخزاك اللهُ]؛ لقولِهِ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.

أما إذا قال: لَعَنَ اللهُ أباك فهل تقول: لَعَنَ اللهُ أباك؟ الجوابُ: لا؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «لَعَنَ اللهُ من لَعَنَ وَالِدَيْهِ»، قالوا: يا رسولَ اللهِ، وهل يَلْعَنُ الرَّجُلُ والديه؟ قال: «نعم، يَسُبُّ أبا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أباه، ويَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ»[1] هذا يَدُلُّ على

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، رقم (٥٩٧٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم (٩٠)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. وليس فيهما قوله: «لعن الله من لعن والديه» وإنما أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، رقم (١٩٧٨)، من حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

عدمِ الجوازِ؛ لأنَّ قولَ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذا، لبيانِ الواقعِ لا لبيانِ الحُكْمِ الشَّرعِيِّ، يعني: إن جرت العادةُ في المُسَابَّةِ بين النَّاسِ أنَّ الرَّجلَ إذا سَبَّ أبا الرَّجُلِ سَبَّ أباه.

وانْزِلْ إلى الأسواقِ انظُرِ المسابَّةَ بين النَّاسِ، إذا سبَّ أباه سبَّ أباه، فيكونُ قولُ الرَّسولِ هذا بيانًا للواقِعِ، وبيانُ الواقعِ لا يعطي الجوازَ شَرْعًا، والدَّليلُ على أنَّ بيانَ الواقعِ لا يُعطِي الجوازَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ من كَانَ قَبْلَكُم»[1]، اليهودِ والنَّصارى، فليس لنا أن نَتَّبِعَ اليهودَ والنصارى، ولكنَّ هذا لبيانِ الواقِعِ.

كذلك أيضًا أخبر أنَّ المرأةَ تُسافِرُ من كذا إلى كذا وَحْدَها، لبيانِ الواقِعِ، وليس لبيانِ الحُكْمِ الشرعِيِّ.

فإذا قال قائلٌ: ما هو الَّذي حَمَلَكَ على أن تَجْعَلَ قولَهُ: «**يَسُبُّ أبا الرجُلِ فَيَسُبُّ أباه، ويَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ**» لبيانِ الواقِعِ لا لبيانِ الحُكْمِ الشَّرْعِيِّ؟

فالجوابُ: الَّذي حَمَلَني على هذا أنَّه لا يجوزُ العدْوانُ على أحدٍ لم يقعْ منه عدوانٌ، هذا ظُلْمٌ، كيف أسبُّ أباه؟! هذا ظُلْمٌ لا شكَّ، والظُّلمُ لا يَأْذَنُ به الشَّرعُ، لكن لو قال قائلٌ: إنَّه إذا لَعَنَ والديه فلا تَطِيبُ نفسُ الَّذي لُعِنَ والداه إلَّا إذا لَعَنَ وَالِدَيِ الآخَرِ؛ لأنَّ لَعْنَ الوالدين إذلالٌ للولدِ، وهو يُريدُ أن يُطَيِّبَ نَفْسَه. نقولُ: الحمدُ للهِ، هذا ليس هناك ضرورةٌ؛ إذا لَعَنَ والديك الْعَنْه هو، وهذا أشدُّ في الإذلالِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٥٦)، ومسلم: كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالحاصلُ: أنَّه إذا دعا على أبيك وأُمِّكَ لا تَدْعُ على أبيه وأمِّهِ؛ لأنَّه لا ذَنْبَ لهما، والحديثُ تقدم الجوابُ عنه، أنَّه بيانٌ للواقِعِ لا للحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، ولكن لك أن تُحَوِّلَ السَّبَّ واللَّعْنَ إلى نَفْسِ الفاعِلِ لا إلى والديه.

فإن قال قائلٌ: هل القاتلُ يُقْتَلُ بِمِثْلِ ما قَتَلَ به أو يُقْتَلُ بالسَّيْفِ؟

فالجوابُ: يُقْتَلُ بِمِثْلِ ما قَتَلَ به؛ لأنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- رَضَّ رَأْسَ اليهوديِّ بين حَجَرَيْنِ، لأنَّه رَضَّ رَأْسَ الجاريةِ بين حَجَرَيْنِ[1]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤] لكن استثنى العُلَمَاءُ أن تكونَ الوسيلةُ مُحَرَّمَةً لذاتِها، فلا يُقْتَصُّ منه، قالوا: فلو تَلَوَّطَ رجلٌ بطفلٍ صغيرٍ، وهو يَعْرِفُ أنَّ هذا الفِعْلَ يَقْتُلُه، ثمَّ مات الطفلُ من أَجْلِ هذا، فلا نُقِيمُ رجلًا يتلوَّطُ بهذا. قال بعضُ العُلَمَاءِ: لا نَفْعَلُ. وهذا معلومٌ؛ لأنَّ اللِّواطُ مُحَرَّمٌ لذاتِهِ، لكن هل نُدْخِلُ خشبةً في دُبُرِهِ حتَّى يموتَ؟ وهذا له وِجْهَةُ نظرٍ؛ لكن عندي أنَّ فيه نظرًا، وذلك لأنَّ الْخَشَبَةَ أشدُّ ألمًا من اللِّوَاطِ، فلا يُمْكِنُ القِصاصُ.

قولُهُ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ (مَنْ) هذه شَرْطِيَّةٌ، وفِعْلُ الشَّرْطِ ﴿عَفَا﴾، والمعطوفُ عليه جملةُ ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هي جوابُ الشَّرْطِ.

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَنْ عَفَا﴾؛ أيْ: لم يُؤاخَذْ بالذَّنْبِ، يعني: عمَّن ظَلَمَه، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الوُدّ بينه وبين المَعْفُوِّ عنه ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: أنَّ اللهَ تعالى يَأْجُرُه لا محالةَ].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الإشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، رقم (٢٤١٣)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين، باب ثبوت القصاص في القتل بالحجر...، رقم (١٦٧٢)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَنْ عَفَا﴾ عن ظَالِمِه] والعفوُ عنه يعني: عدمُ مؤاخَذَتِه. ﴿وَأَصْلَحَ﴾ يقولُ: [الوُدُّ بينه وبين ظالِمِه]. وهذا تفسيرٌ قاصرٌ جدًّا، بل المرادُ أَصْلَحَ في عَفْوِه، أي: صار عَفْوُه مشتملًا على الإصلاحِ، وإنَّما قلنا ذلك؛ لأنَّ ما ذَكَرْنَاه أعمُّ وأنْفَعُ بالنِّسبةِ للمعنى.

إذن ﴿أصلح﴾ المُفَسِّرُ يراها قاصرةً على إصلاحِ الوُدِّ بينه وبين من ظَلَمَه، والصَّوابُ: أنَّ المُرادَ أَصْلَحَ في عَفْوِهِ؛ أي: كان عَفْوُهُ إصلاحًا.

﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يقولُ المفَسِّرُ: [أي أنَّ اللهُ يَأْجُرُه لا محالةَ] أَجْرٌ بمعنى ثوابٍ، وسمَّى اللهُ -سبحانه- الثَّوابَ أجرًا؛ لأنَّه في مُقابِلِ عملٍ؛ كأُجْرَةِ الأجيرِ إذا قام بعمَلِه، وفيه أيضًا إيماءٌ إلى أنَّ هذا الثَّوابَ واجبٌ، كما يجبُ إعطاءُ الأجيرِ أَجْرَه، وقولُ المفَسِّرِ: [أي فإنَّ اللهَ يَأْجُرُه لا محالةَ] أَخَذَ هذا المعنى؛ يعني: قولَه: [لا محالةَ] من كَوْنِ الجملةِ اسميَّةً؛ لأنَّ الجُملةَ الاسميَّةَ تفيدُ الثُّبوتَ والاستمرارَ.

قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: البادئين بالظُّلْمِ فَيَتَرَتَّبُ عليهم عقابُهُ].

قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ﴾ الضَّميرُ يَعُودُ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: المعتدين سواءٌ ظلموا أنْفُسَهم أو ظلموا غَيْرَهم؛ فصاحبو المعاصي غَيْرُ محبوبين إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ والمعتدي على عبادِ اللهِ غيرُ محبوبٍ للهِ عَزَّوَجَلَّ وقولُ المفَسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: البادئين بالظُّلْمِ]، فيه نظرٌ؛ فالآيةُ عامَّةٌ، تَشْمَلُ الظَّالمين ابتداءً والظَّالمين في الثَّاني. بمعنى: أنَّ المبتدئَ بالظُّلمِ غيرُ محبوبٍ إلى اللهِ، وكذلك من تجاوَزَ في حَقِّهِ؛ فإنه غيرُ محبوبٍ عند اللهِ؛ فإبقاءُ الآيةِ على إطلاقِهَا أَوْلَى؛ أي: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ابتداءً، ولا اقْتِصاصًا.

مسألةٌ: إن قال قائل: إنَّ بَعْضَ العُلَماءِ أَخَذَ من قولِهِ تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ أنَّ الإنسانَ لو جَحَدَ لك مالًا؛ فلك أن تَأْخُذَ من ماله بمقدارِ ما جَحَدَ بدونِ عِلْمِه؟

الجوابُ: نعم، هذا ظاهرُ الآيةِ، أنَّه إذا أَخَذَ من مَالِكَ وَقَدَرْتَ على استردادِه من مالِهِ فلك هذا، ولكن قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ-: «أَدِّ الأمانةَ إلى مَنِ ائْتَمَنَكَ ولا تَخُنْ مَن خَانَكَ»[1]. ولو فُتِحَ هذا البابُ لكانت الأمورُ فوضى، كلُّ واحدٍ يَأْخُذُ من مالِ الثَّاني، ويقولُ: قد جَحَدَ لي مالي، فلا يَسْتَقِيمُ هذا، عمليًّا لا يَسْتَقيمُ. وأمَّا قضيَّةُ هِنْدَ فإنَّ السَّببَ فيها ظاهرٌ، كلُّ النَّاسِ يعرفون أنَّ هذه زَوْجَتُه، وأنَّه يجبُ عليه أن يُنْفِقَ، فإذا أَخَذَتْ من مالِهِ بغيْرِ عِلْمِهِ؛ وقالتْ: إنَّه لا يُنْفِقُ عليَّ، لم يَقُلِ النَّاسُ شيئًا، لأنَّ السَّببَ ظاهِرٌ، ومِثْلُهَا: لو نَزَلَ الضَّيفُ على أَحَدٍ، ولم يُقَدِّمْ له الضِّيافَةَ، وقَدَرَ على أن يَأْخُذَ شيئًا من مالِهِ بِقَدْرِ ضِيَافَتِهِ؛ فله ذلك لأنَّ السَّببَ ظاهرٌ. وبهذا يتمُّ الجمْعُ بين الأدلَّةِ.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّه يَجِبُ أن تكونَ المُقَاصَّةُ على وَجْهِ العدْلِ؛ فيكونُ جزاءُ السَّيِّئَةِ سيئةً مِثْلَهَا، فلا يجوزُ أن يَعْتَدِيَ في القِصاصِ؛ لا القوليِّ ولا الفعليِّ، فلو أنَّ رجلًا سَبَّكَ بوَصْفَيْنِ، وَسَبَبْتَه بثلاثةِ أوصافٍ فلا يجوزُ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾. ولو أن رجلًا قَطَعَ يَدَ إنسانٍ، وطلبَ القِصاصَ؛ فقال الجاني: أنا أُريدُ أن أَضَعَ بِنْجًا في يدي حتَّى لا أُحِسَّ بالألمِ، وقال المجنيُّ عليه: لا، فالقولُ قولُ المَجْنِيِّ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب البيوع، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، رقم (٣٥٣٥)، والترمذي: كتاب البيوع، رقم (١٢٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عليه؛ لأنَّ الجانيَ أتى مَفْسَدَتَيْنِ: الإيلامَ، وَفَقْدَ العُضْوِ. فلا تتمُّ المُقاصَّةُ إلا إذا حَصَلَ هذان الأمْران بالنِّسبةِ للجاني.

ولو أنَّ سارقًا حُكِمَ عليه بقطعِ اليدِ، وطَلَبَ أن تُبَنَّجَ يَدُهُ؛ فيجوزُ هذا؛ لأنَّ المقصودَ -بالنِّسبةِ للسَّارقِ- إعدامُ اليدِ المتعديةِ، وهو حاصلٌ؛ وليس هناك قِصاصٌ حتَّى نقولَ: لا بدَّ أن يَكُونَ المِثْلُ بالمِثْلِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تأكيدُ المُقاصَّةِ بالعدْلِ؛ لقولِهِ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ فأكَّدَ ذلك بقولِهِ: ﴿مِّثۡلُهَا﴾ لو أراد المجنيُّ عليه أنْ يأخُذَ بعضَ حقِّه؛ يجوزُ. يعني: معناه إذا أردْنا العدْلَ فهذا هو؛ وإذا عفا الإنسانُ عن حقِّهِ الخاصِّ به فلا بَأْسَ، كما أنَّه لو عفا مطلقًا فلا حَرَجَ عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحثُّ على العفْوِ إذا كان إصلاحًا؛ فإن لم يكن إصلاحًا فالأخْذُ بالحزْمِ أَوْلى، دليلُ هذا أنَّ اللهَ قال: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ يتفرَّعُ على هذا مسألةٌ مهمةٌ: لو أنَّ الجانيَ معروفٌ بالشَّرِّ والفسادِ؛ فاعتدى على شخصٍ، هل نقولُ: الأفضلُ أن يَعْفُوَ عنه؟ الجوابُ: لا نقولُ. بل نشترطُ أن يَكُونَ ذلك إصلاحًا، هذا الرَّجلُ الشِّرِّيرُ المعروفُ بالشَّرِّ، إذا جنى على شخصٍ لا نقولُ للشَّخصِ المجنيِّ عليه: اعفُ عنه، وأَجْرُكَ على اللهِ؛ لأنَّنا لو عَفَوْنا عن هذا الرَّجلِ الشِّرِّيرِ في هذه القضيَّةِ المعيَّنةِ، فَعَلَ مِثْلَهَا، أو أشدَّ بعد ذلك؛ لأنَّه أَخَذَ على العفْوِ، فكان يُؤَمِّلُ أن يعفى عنه في كلِّ فِعْلٍ.

يجبُ أن نَعْلَمَ أنَّ قولَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٧] هذه الآيةُ المُطْلَقَةُ تُقَيَّدُ بهذه الآيةِ، بل كلُّ نَصٍّ فيه الحثُّ على العفْوِ فإنه مُقَيَّدٌ بهذه الآيَةِ. إذن لا بُدَّ أن يَكُونَ العفْوُ إصلاحًا، وليُنتبه لهذا.

ولو أنَّ أحدًا صَدَمَ شخصًا وهو يقودُ السَّيَّارَةَ فمات؛ فهل الأفضلُ لأولياءِ المقتولِ أن يَعْفُوا عن الدِّيَةِ، أو أن يأخذوا بالدِّيَةِ؟ فيه تفصيلٌ، وهو إن كان هذا الرَّجُلُ معروفًا بالتَّهَوُّرِ، وعدمِ المُبالاةِ؛ وكما يقولُ بعضُ السُّفهاءِ: الدِّيَةُ في دُرْج السَّيارة، فهذا لا ينبغي أن يُعْفَى عنه، وأمَّا إذا كان رجلًا ذا مروءةٍ، ونَعْلَمُ أنَّ هذا أمْرٌ حَصَلَ منه -كما يقولُ العوامُّ- فواتَ الحِرْصِ؛ فإن الأفضلَ أن يُعْفَى عنه، وهذه الآيةُ هي ميزانُ العفْوِ المحمودِ، وغيرِ المحمودِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَفَضَّلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على عبادِه؛ حيث أَوْجَبَ على نَفْسِهِ أجرَ العافي، يُؤْخَذُ ذلك من قولِهِ: ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ضَمِنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لهذا العافي الأجْرَ، لكن بشرطِ أن يَكُونَ ذلك إصلاحًا.

• • ۞ • •

الآية (٤١)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشُّورَى:٤١].

اللَّامُ في قولِهِ: ﴿وَلَمَنِ﴾ اللَّامُ للابتداءِ، و(مَنْ) اسْمُ شرطٍ جازمٌ، وفِعْلُ الشَّرْطِ ﴿ٱنتَصَرَ﴾، وجوابُهُ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾.

قوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ﴾ يعني: أخذ بحقِّ نَفْسِه ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: ظُلْمِ الظَّالِمِ إِيَّاهُ]؛ فظُلْمٌ هنا مَصْدَرٌ، هل هو مضافٌ إلى الفاعِلِ أو إلى المفعولِ به؟ كلامُ المفسِّرِ يدلُّ على أنَّه مضافٌ إلى المفعولِ به، [أي ظلْمُ الظَّالِمِ إياه] وعلى هذا فالمصدرُ مضافٌ إلى مفعولِهِ، لا إلى فاعلِهِ، ولا يَصِحُّ أن يَكُونَ مضافًا إلى فاعِلِه؛ لأنَّه لو كان كذلك لكان المعنى: ولمن انتصر بعد أن يَظْلِمَ النَّاسَ، فأولئك ما عليهم من سبيلٍ، والظَّالمُ غير معتدٍ عليه، حتَّى ينتصرَ لنفْسِه. إذن فالمصدرُ مضافٌ إلى المفعولِ.

فقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ قد سبق أنَّ اللهَ تعالى مَدَحَ الَّذين إذا أصابَهُم البغْيُ انتصروا لأنْفُسِهم.

وقولُهُ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُؤَاخَذَةٍ]، وأصْلُ السَّبيلِ الطريقُ؛ أي: ليس عليهم طريقٌ لِلَّوْمِ والمؤاخَذَةِ، وقولُهُ: ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾

﴿مِّن﴾ حرفُ جرٍّ زائدٌ، و﴿سَبِيلٍ﴾ مبتدأٌ مؤخَّرٌ مرفوعٌ بضمَّةٍ مُقَدَّرَةٍ على آخِرِهِ، مَنَعَ من ظهورِها اشتغالُ المحَلِّ بحركةِ حرْفِ الجرِّ الزَّائِدِ. والمعنى: فأولئك ما عليهم سبيل.

فإذا قال قائلٌ: ما هي فائدةُ حروفِ الجرِّ الزَّائدةِ؟

فالجوابُ: أنَّ فائدَتَها التَّأكيدُ، يعني: تأكيدَ النَّفْيِ.

من فوائد الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ محبَّةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لذوي العدْلِ والقِسْطِ، يُؤْخَذُ ذلك من قولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مفهومُه أنَّ غيرَ الظَّالِمِ يحبُّهُ اللهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ثبوتُ صفةِ المحبَّةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ وهذه مسألةُ بَحْثٍ عَقَدِيٍّ. وجْهُ الدِّلالةِ: أنَّه لَمَّا نفى محبَّتَه للظَّالمين دلَّ ذلك على أنَّه يُحِبُّ العادلين ذوي القِسْطِ، وهذا الاستدلالُ يُشابِهُ استدلالَ الإمام الشَّافعيِّ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أنَّ المؤمنين يَرَوْنَ اللهَ؛ لقولِهِ تعالى في الفُجَّارِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] فقال: لو كان مُحْتَجَبًا على الجميعِ مثلًا فلا فائدةَ للنَّفْيِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التَّحذيرُ من الظُّلْمِ؛ وجهُهُ أنَّ في الظُّلْمِ انتفاءَ محبَّةِ اللهِ للعبْدِ، وما أَعْظَمَ الخَسارةَ فيمن خَسِرَ محبَّةَ اللهِ له، اللهمَّ إنَّا نَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ من يُحِبُّكَ، وحُبَّ العملِ الَّذي يُقَرِّبُنَا إلى حُبِّكَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ من انتصر لنَفْسِه بعد أن يُظْلَمَ فلا اعتراضَ عليه؛ لقولِهِ: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشُّورَى:٤١].

---

(١) انظر: الإبانة لابن بطة (٧/ ٥٩-٦٠)، واعتقاد أهل السنة للَّالكائي رقم (٨٠٩، ٨١٠)، حلية الأولياء (٩/ ١١٧).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ انتفاءَ السَّبيلِ عَمَّنْ انتصرِ لنفْسِهِ مشروطٌ بِتَحَقُّقِ الظُّلْم؛ لقولِهِ: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ [الشُّورَى:٤١] أمَّا الأخذُ بالتُّهَمِ فإنه لا يَجُوزُ؛ لا بدَّ أن تَتَحَقَّقَ أنَّك مظلومٌ حتَّى تَنْتَصِرَ لنفْسِكَ.

• ● ۞ ● •

الآية (٤٢)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشُّورَى:٤٢].

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ﴾ يَعْمَلُونَ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بالمعاصِي ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مُؤْلِمٌ].

قولُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ هذه الجُمْلَةُ فيها أداةُ حصرٍ وهي (إنَّما)، والحَصْرُ إثباتُ الحُكْمِ في المذكورِ، ونفْيُه عمَّا سواه؛ فكأنَّه قال: لا سبيلَ إلَّا على هؤلاء ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ يعني: الطَّريقَ إلى اللَّوْمِ والقَدْحِ والمؤاخَذَةِ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ سواءٌ بأموالِهم أو دمائِهم أو أعراضِهم؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ أَعْلَنَ في حَجَّةِ الوداعِ؛ فقال: «إنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حرامٌ»[1] فَظُلْمُ النَّاسِ يدورُ على هذه الأشياءِ الثَّلاثةِ: الدِّماءِ، والأموالِ، والأعراضِ. فمن اغتاب أحدًا فقد ظَلَمَه، ومن أخذ مَالَهُ فقد ظَلَمَه، ومن خانَه في معامَلةٍ بينه وبينه فقد ظَلَمَه، وهذه لا حَصْرَ لأمثِلَتِها، المُهِمُّ أنَّ الَّذين يظلِمون النَّاسَ عليهم اللَّومُ.

وقولُهُ: ﴿وَيَبْغُونَ﴾ فَسَّرَها المُفَسِّرُ بقولِهِ: [يعملون] وكأنَّه تحاشى أن يَجْمَعَ بين

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، رقم (١٧٤١)، ومسلم: كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء، رقم (١٦٧٩)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

البغْيِ وبين القوْلِ بغيْرِ الحقِّ؛ فقال: [يعملون] من أجْلِ أن يَكُونَ الفِعْلُ يبغون له معنًى مستقلٌّ، وبغيْرِ الحقِّ له معنًى مستقلٌّ؛ والصَّوابُ: إبقاءُ الآيةِ على ظاهِرِهَا، ومعنى (يبغون): أي: يعتدون، من بغى على غيْرِه؛ أي: اعتدى عليه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾.

فقولُهُ: ﴿وَيَبْغُونَ﴾ معناها: يعتدون على غيْرِهم، ويتجاوزون حَدَّهم في معامَلَتِهم؛ ويكونُ قولُهُ: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ صفةً كاشفةً تُبَيِّنُ أنَّ كلَّ بَغْيٍ فهو بغيرِ حقٍّ؛ فإبقاءُ النَّصِّ القرآنيِّ على ظاهِرِهِ هو الواجبُ، لا سيَّما أنَّ هذا التَّفسيرَ يَجْعَلُه قاصرًا.

إذن: ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يعتدون فيها ويتجاوزون الحَدَّ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بيانٌ للواقِعِ؛ فهو صفةٌ كاشفةٌ إذ إنَّ كلَّ بَغْيٍ فإنَّه بغيْرِ حقٍّ.

والصِّفةُ الكاشفةُ معناها أنَّها كالتَّعليلِ لما سبق، وأيضًا ليس لها مفهومٌ، وهذا هو المُهِمُّ.

وقولُهُ: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فَسَّرَها بأنَّها المعاصي، ونعم المعاصي كُلُّهَا بغيْرِ حَقٍّ؛ لكن لا تفهمْ من هذا أنَّ ذلك خاصٌّ بحقِّ اللهِ، بل هو عامٌّ في حقِّ اللهِ وغيْرِهِ؛ فالبغْيُ في حقِّ اللهِ مُحَرَّمٌ، وكذلك البغْيُ في حقِّ الآدميِّ.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ المشارُ إليه الَّذين يَظْلِمون النَّاسَ ويَبْغُون في الأرضِ بغيْرِ الحقِّ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلِمٌ، والإيلامُ بمعنى: الإيجاعِ؛ أي: أنَّه مُوجِعٌ.

من فوائد الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ من ظَلَمَ النَّاسَ فإنه مؤاخَذٌ، وجْهُه: أنَّه حَصَرَ المؤاخذةَ بمن ظَلَمَ النَّاسَ وبَغَى في الأرضِ بغيْرِ الحقِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ البغْيَ ظلـمٌ لا حـقَّ فيه؛ لقولـهِ: ﴿وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تهديدُ أولئك الَّذين يَظْلِمون النَّاسَ ويبغون في الأرضِ بغيْرِ الحقِّ بالعذابِ الأليمِ؛ لقولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ عَذابَ هؤلاء عظيمٌ؛ لأنَّه أتى به بالجملةِ الاسميَّةِ، على هذه الصِّيغةِ المُعَيَّنَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الآية (٤٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشُّورَى:٤٣].

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ فلم يَنْتَصِرْ ﴿وَغَفَرَ﴾ تَجاوَزَ] يعني: عن الجاني [﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصَّبْرَ والتَّجاوُزَ ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: مَعْزُومَاتِها، بمعنى المطلوباتِ شَرْعًا].

قولُهُ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ اللَّامُ هذه لامُ الابتداءِ، وتُفيدُ التَّوكيدَ، و(مَن) اسمُ شرطٍ جازمٌ، وفعلُ الشَّرْطِ ﴿صَبَرَ﴾، وجوابُ الشَّرْطِ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾. انتبِهوا لهذا الإعرابِ، (مَن) شرطيَّةٌ، فِعْلُ الشَّرْطِ ﴿صَبَرَ﴾ وما عُطِفَ عليه جوابُ الشَّرْطِ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

وهنا إشكالٌ: وهو أنَّه: إذا كان جوابُ الشَّرْطِ جملةً اسميَّةً، وَجَبَ اقترانُ الجوابِ بالفاءِ؛ كالآيةِ الَّتي قَبْلَها، الآيةُ الَّتي قَبْلها ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشُّورَى:٤١] وهنا حُذِفَتِ الفاءُ، الإشكالُ هنا كيف حُذِفَتِ الفاءُ في جوابِ الشَّرْطِ وهو جملةٌ اسميَّةٌ؟ الجوابُ: أنَّ الفاءَ قد تُحْذَفُ وإن كانت الجملةُ -أي جملةُ جوابِ الشَّرطِ- اسميَّةً، وأنشدوا على هذا قولَ الشَّاعِرِ:

مَنْ يَفْعَلِ الحسَنَاتِ اللهُ يشكُرُها .....[1]

(١) اختلف في قائله، فنسبه سيبويه في الكتاب (٣/ ٦٤-٦٥) لحسان بن ثابت، ونسبه ابن هشام في

(من يَفْعَلِ الحسناتِ) هذه شرطيَّةٌ؛ فِعْلُ الشَّرْطِ (يَفْعَلُ)، جوابُ الشَّرْطِ: (اللهُ يَشْكُرُها) وليس فيها فاءٌ.

فقالوا: إنَّه يجوزُ أحيانًا حَذْفُ الفاءِ، واستدلُّوا بالآيةِ، واستدلُّوا بالبيتِ. قال بعضُهُم في الإعرابِ في الآيةِ: حَذْفُ الفاءِ يدلُّ على أن (مَن) ليست شرطيَّةً، وإنَّما هي اسمٌ موصولٌ، وعليه يكونُ المعنى: وللَّذي صَبَرَ وغَفَرَ إنَّ ذلك من عزمِ الأمورِ.

والحقيقةُ: أنَّ الإعرابَ الأوَّلَ والثَّانيَ جائزٌ؛ لكنَّ كَوْنَنَا نَجْعَلُ (مَن) اسمَ شرطٍ كالآيةِ الَّتي قَبْلَها أَوْلَى من حيث تلاؤُمُ السِّياقِ بعضِهِ مع بعضٍ، ويكونُ الإشكالُ في حذفِ الفاءِ في الجوابِ، وجوابُهُ: أنَّها قد تُحْذَفُ أحيانًا.

قولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾؛ أي: صَبَرَ على ظُلْمِ الظَّالِمِ إياه؛ وإن شِئْتَ فقل: إنَّها عامَّةٌ، تَشْمَلُ كُلَّ من صَبَرَ على أَذِيَّةٍ من مَرَضٍ، أو سفرٍ، أو ما أَشْبَهَ ذلك، ولكنَّ العمومَ قد يَمْنَعُ القولَ به قولُهُ: ﴿وَغَفَرَ﴾ فإنَّ ظاهرَ هذا السِّياقِ أنَّ المرادَ صَبَرَ عن مؤاخذةِ الظَّالِمِ؛ ﴿وَغَفَرَ﴾؛ أي: سَتَرَ ما حَصَلَ عليه من ظُلْمٍ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: معزوماتِها]، يعني: لدليلٌ على أنَّ الرَّجلَ من ذوي العزْمِ؛ لأنَّه تَحَمَّلَ وَسَتَرَ، تَحَمَّلَ فَصَبَرَ وعفا فَغَفَرَ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: الحثُّ على الصَّبْرِ والمغفرةِ، لقولِهِ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ

= مغني اللبيب (ص:٨٠) لعبد الرحمن بن حسان، ونسبه جماعة لكعب بن مالك كما في خزانة الأدب (٩/ ٥١).

لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشُّورَى:٤٣]، ولكن يَجِبُ أن تُلاحظوا الآيةَ السَّابقةَ. أن يَكُونَ في ذلك إصلاحٌ.

فإن قال قائلٌ: إنَّ رجلًا شرِّيرًا اعتدى على آخَرَ فعفا عنه الآخرُ؛ فهل له أجْرٌ؟

فالجوابُ: ننظرُ إذا كان هذا لم يَعْلَمْ أنَّ الرَّجلَ شِرِّيرٌ وعفا يُريدُ الإصلاحَ؛ فله أجْرٌ، أمَّا إذا كان يَعْلَمُ ولكن يَقُولُ أعفو عنه، ولا أبالي سواءٌ سعى في الأرضِ فسادًا أو لا، فإنه يَأْثَمُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الأمورَ تَخْتَلِفُ في العزَماتِ، وما دونها؛ لقولِهِ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشُّورَى:٤٣]، ولا شكَّ أنَّها تختلفُ، فبعضُها يكونُ المقدَّمُ عليه ذا عزيمةٍ صادقةٍ، ومروءةٍ تامَّةٍ وبعضُها دون هذا.

الآيتان (٤٤، ٤٥)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشُّورَى:٤٤-٤٥].

قولُهُ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ (مَنْ) هذه شرطيَّةٌ، وهي للعمومِ يعني: أيُّ أحدٍ يُقدِّرُ اللهُ تعالى أن يُضِلَّ فإنَّه لا يُمْكِنُ أن يتولَّاه أحدٌ بَعْدَ اللهِ، ومعنى هذا: أنَّه لا يُمْكِنُ أن يَهْدِيَه أحدٌ، كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:٢٣].

واقترن جوابُ الشَّرطِ بالفاءِ في قولِهِ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ لأنه مقترنٌ بـ (ما).

وقوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ يقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيُّ أحدٍ يلي هدايتَه بَعْدَ إضلالِ اللهِ إياه].

وقوله: ﴿وَتَرَى﴾ بَصَرِيَّةٌ، و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مفعولٌ به، و﴿يَقُولُونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ، و﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ (لَمَّا) هذه جازمةٌ، بمعنى حِينَ ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والمرادُ بالظَّالمين هنا الكافرون، كما قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

وقوله: ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: حين رأوُا العذابَ بأعيُنِهم يقولون: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ (هل) استفهامٌ للتَّمنِّي يعني: يَتَمَنَّوْنَ أن يَكُونَ لهم سبيلٌ إلى الرَّدِّ، وقولُهُم: ﴿إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾ أي: إلى مَرْجِعٍ، والمرادُ: مَرْجِعٌ للدُّنيا ليعملوا صالحًا، ولكنَّ هذا التَّمَنِّيَ باءَ بالفشلِ؛ لأنَّ ذلك أمرٌ غيرُ مُمكِنٍ، بل قد قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨] فهم يَتَمَنَّوْنَ هذا ويدَّعُون أنَّهم إذا رَجَعُوا صَلُحُوا ولكنَّ الأمْرَ ليس بذلك.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: من طريقٍ]: والجوابُ: لا سبيلَ، وكما تقدَّم لو رُدُّوا لعادوا لما نُهُوا عنه، كما أنَّهم إذا غَشِيَهم موجٌ كالظُّلَلِ في البحارِ ودَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ له الدِّينَ؛ إذا نَجَوْا عادوا إلى الشِّرْكِ قال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ غُدُوًّا وعَشِيًّا كلمةُ (ترى) هنا والَّتي قبلها هل المرادُ بها الرَّسولُ ﷺ وَحْدَهُ أو ترى أيُّها المخاطَبُ؟

الجوابُ: الثَّاني؛ لأنَّنا إذا قلنا بالثَّاني صار أعمَّ ممَّا إذا قلنا بالأوَّلِ ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾ أيُّها الرَّائي ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

ثُم قال المفسِّرُ: [﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على النَّارِ] ﴿خَٰشِعِينَ﴾ خائفين مُتَواضِعِينَ ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ (مِنَ) للسَّببيَّةِ؛ أي: بسببِ ذُلِّهم، هؤلاء الَّذين كانوا في الدُّنيا مُسْتكْبِرين مُتَعَنْجِهين لا يَرَوْنَ النَّاسَ شيئًا ولا يَقْبَلُون الحقَّ يُعْرَضُون على النَّارِ على هذا الوصْفِ ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ يعني: قد امتلأت قلوبُهُم ذلًّا.

فيُعْرَضُون عليها قبل أن يَدْخُلُوها، والكفَّارُ لا يحاولون الصُّعودَ على الصِّراطِ؛ لأنَّهم يُصْرَفُون إلى جهنَّم في عَرَصَاتِ القيامةِ.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَنظُرُونَ﴾ إليها ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ضعيفِ النَّظَرِ مُسَارَقَةً]؛ يعني: ينظرون إلى النَّارِ -والعياذُ باللهِ- ﴿مِن طَرْفٍ﴾ أي: من بَصَرٍ ﴿خَفِيٍّ﴾؛ أي: ضعيفٍ، يُسَارِقُونَ النَّظَرَ، كالإنسانِ الَّذي هو خائفٌ من شيءٍ تَجِدُهُ ينظرُ إليه نظرًا ضعيفًا ثمَّ يَصْرِفُ النَّظَرَ على الفورِ؛ وذلك لشدَّةِ ذُلِّهم، أعاذنا اللهُ وإيَّاكم من حالِهم.

(ومن) ابتدائيَّةٌ أو بمعنى الباءِ (من) في قولِهِ: ﴿مِن طَرْفٍ﴾ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ابتدائيَّةٌ أو بمعنى الباءِ]؛ أي: ينظرون بطَرَفٍ خَفِيٍّ، وإذا دار الأمْرُ بين أن تكونَ ابتدائيَّةً على بابِها أو بمعنى الباءِ فالأولى أن تُجْعَلَ على بابِها؛ يعني: يبتدئُ نَظَرُهم من الطَّرَفِ الخَفِيِّ ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ قالوا مُثْنِينَ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ مُتَحَدِّثِينَ بِنِعَمِه قالوا: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ﴿إِنَّ﴾ تحتاجُ إلى اسمٍ وخبرٍ، فاسمُها ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ خبرُها ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: فَقَدُوها فَقَدُوا أَنْفُسهم وأَهْلِيهم يومَ القيامةِ. قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بتخليدِهِم في النَّارِ وعدمِ وصولِهم إلى الحُورِ المُعَدَّةِ لهم في الجنَّةِ].

الخاسرون حقيقةً ليسوا الَّذين فقدوا المالَ، ولا الَّذين فقدوا الأهْلَ في الدُّنيا، الخاسرون حقيقةً هم الَّذين خَسِروا أَنْفُسَهم وأهْلِيهم، أمَّا خُسرانُ أهليهم فظاهرٌ؛ لأنَّه لا يُجْمَعُ بينهم وبين أهْلِيهم في النَّارِ بخلافِ أهلِ الجنَّةِ، فإن أهْلَ الجنَّةِ يقولُ اللهُ

فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطُّور:٢١] يعني: حتَّى لو كانتِ الذُّرِّيَّةُ نازلةَ المَرْتبَةِ، فإن الله يَرْفَعُهُم إلى آبائِهِم هؤلاء -والعياذُ باللهِ- يُفَرِّقُ بينهم وبَيْنَ أَهْلِيهم في النَّارِ، حتَّى لو جُمِعَ بينهم فماذا يكونُ؟ فخُسْرَانُهُم أَهْلِيهم واضحٌ، لكن كيف خسروا أنْفُسَهم؟ خسروا أنْفُسَهم لأنَّهم لم يستفيدوا من الحياةِ الدُّنيا شيئًا، حياتُهُم خَسارةٌ؛ لأنَّهم لم يستفيدوا منها شيئًا فلم يؤمِنوا باللهِ ورُسُلِهِ.

وقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بتخليدِهِم في النَّارِ وعدمِ وصولِهِم إلى الحُورِ المُعَدَّةِ لهم في الجنَّةِ لو آمنوا] في هذا نظرٌ ظاهرٌ، والمرادُ بـ ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ أَهْلُوهم في الدُّنيا وليس المرادُ الحُورَ المُعَدَّةَ لهم في الآخرةِ لو آمنوا؛ لأنَّ هذا قد عُلِمَ من قَبْلُ فإنَّه يقالُ للميِّتِ إذا دُفِنَ في قبْرِه: هذا مقعدُك من الجنَّةِ يعني لو آمَنْتَ، ويُقالُ للمؤمِنِ: هذا مَقْعَدُك من النَّارِ يعني لو لم تُؤْمِنْ. فالمرادُ بالأهلين هنا: أهلوهم في الدُّنْيا لم يربحوا، وقولُ المفسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [والموصولُ خبرُ إنَّ] ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ هذا هو الموصولُ، ونَبَّهَ على ذلك؛ لئلَّا يظنَّ الظانُّ أنَّ الَّذين خَسِروا صفةٌ للخاسرين.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين ﴿فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ دائمٍ وهو من مَقُولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ] يعني: ليس من مَقُولِ الَّذين آمنوا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشُّورَى:٤٥].

ولو نَظَرْنا إلى السِّياقِ لقلنا: إن هذا بقيَّةُ كلامِ المؤمنين لكنَّ المفَسِّرَ نَبَّهَ على أنَّ هذا من كلامِ اللهِ، وليس من كلامِ الَّذين آمنوا، والسِّياقُ مُحْتَمِلٌ لهذا وهذا، محتمِلٌ أن يَكُونَ كما قال المفسِّرُ من كلامِ اللهِ، ومحتمِلٌ أن يَكُونَ من كلامِ الَّذين آمنوا، والَّذين آمنوا يعلمون أنَّ الظالمين في عذابٍ مُقيمٍ من الوقتِ الَّذي هم فيه في الدُّنيا؛ لأنَّهم

قرؤوا كتابَ اللهِ وسُنَّةَ رسولِهِ ﷺ.

وقولُهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذه الجملةُ مؤكَّدَةٌ بمُؤَكِّدَيْنِ: الأوَّلُ: ﴿أَلَآ﴾؛ لأنَّ ﴿أَلَآ﴾ هنا للتَّنبيهِ، والتَّنبيهُ يقتضي التَّوكيدَ، والمؤكِّدُ الثَّاني: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (إنَّ)؛ لأنَّ إنَّ حَرْفُ توكيدٍ ﴿فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: دائمٍ، والعياذُ باللهِ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ من أَضَلَّه اللهُ فلا أَحَدَ يَهْدِيهِ، مهما كانت منزلةُ هذا الَّذي حاول أن يَهْدِيَه؛ لقولِهِ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [الشُّورَى:٤٤] ويَشْهدُ لهذا الحُكْمِ العظيمِ المخوفِ ما جرى للنَّبيِّ ﷺ مع عمِّه أبي طالبٍ.

أبو طالبٍ شقيقُ أبي الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- كان يَنْصُرُ الرَّسولَ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- ويَحُوطُه ويدافعُ عنه، ولَمَّا حَضَرَتْه الوفاةُ كان عنده النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- ورجلان من قريشٍ، فكان يَعْرِضُ عليه الإسلامَ يقولُ: «يا عمُّ قلْ: لا إلهَ إلَّا اللهُ كلمةً أحاجُّ لك بها عند اللهِ»، فقال له الرَّجلان: أترغبُ عن ملَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ وهي مِلَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ فأعاد عليه النَّبيُّ ﷺ فأعاد فكان آخِرُ ما قال: هو على ملَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ[1]. نسألُ اللهَ العافيةَ والسَّلامةَ، مع محبَّتِهِ للرَّسولِ ﷺ وشهادتِهِ له بالرِّسالةِ لكنَّه لم يُذْعِنْ ولم يَقْبَلْ، فكان آخِرُ حياتِهِ أن قال: (على مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ)، ومات على الشِّرْكِ.

أَذِنَ اللهُ تعالى لرسولِهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ أن يَشْفَعَ له في تخفيفِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، رقم (٢٤)، من حديث المسيب بن حزن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

العذابِ عنه، فَشَفَعَ له فكان في ضَحْضَاحٍ من نارٍ وعليه نعلان من نارٍ يغلي منهما دماغُه[١] والعياذُ باللهِ دماغُهُ أعلى شيءٍ في بَدَنِهِ والنَّعلان في أسفلِ شيءٍ، وإذا كان الأعلى يغلي فما دونه أشدُّ وأشدُّ، قال النَّبيُّ ﷺ: «ولولا أنا لكان في الدَّرْكِ الأسفلِ من النَّارِ»[٢]، لولا أنا في رسالتي الَّتي كان يدافعُ عنها أبو طالب الظَّاهرُ أنَّه للأمْرَيْنِ جميعًا لأنَّ اللهَ شَكَرَ له؛ بل لأنَّ اللهَ تعالى أَذِنَ لرسولِهِ ﷺ أن يَشْفَعَ فيه لِمَا قَدَّمَه للإسلامِ من نَصْرٍ.

ويُؤْخَذُ منه أنَّ مَن نَصَرَ الإسلامَ ولو من الكافرين فله فَضْلٌ؛ لأنَّ الإسلامَ دينُ العدلِ يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فمثلًا إذا أعان الكفَّارُ المسلمين إعانةً صادقةً نَعْلَمُ أنَّه ليس لهم طَمَعٌ في ذلك، وانتفع المسلمون بهذا النَّصْرِ فإنه يَجِبُ أن نَعْتَرِفَ بفضْلِهم في هذا البابِ؛ لأنَّهم صَنَعوا إلينا مَعْروفًا؛ ولأنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ دينُ العدلِ لا يَظْلِمُ أحدًا حَقَّهُ، وأمَّا قولُ بعضِ النَّاسِ لن نَعْتَرِفَ لهم بالفضلِ؛ لأنَّهم كفَّارٌ، فكفْرُهُم بينهم وبين اللهِ وتفضُّلُهم علينا حقٌّ يَجِبُ أن نَعْتَرِفَ به.

أضربُ مثلًا لذلك في قضيَّةٍ كوسوفا، فقضيَّةُ كوسوفا حصل فيها ما سَمِعَه كثيرٌ منكم والَّذي انتصر لهم هم الكفَّارُ، فالحلفُ الأطلسيُّ وَضَعَ كلَّ ما يَمْلِكُ من مُعَدَّاتٍ يُمْكِنُه أن يقاتِلَ بها ودافع عنهم، ولم نَسْمَعْ أحدًا من المسلمين أَرْسَلَ طائرةً أو قذيفةً، ولعلَّ له عذرًا وأنت تلومُه، لكنَّ كَوْنَنَا نَجْحَدُ هذا الفضلَ غلطٌ نقول:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢١٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، رقم (٢٠٩)، من حديث العباس عم الرسول ﷺ ورضي الله عنه.

هؤلاء لهم فَضْلٌ وكُفْرُهم بينهم وبين اللهِ، ونحن لا نُحِبُّهم على كُفْرِهم أبدًا، بل نَشْكُرُ لهم الفضلَ وإن كنَّا نَكْرَهُهم غايةَ الكراهةِ؛ لأنَّهم أعداءُ اللهِ ورسولِهِ.

وهذا إذا عَلِمْنَا أنَّ النِّيَّةَ صادقةٌ، أمَّا إذا عَلِمْنَا أنَّه مَكْرٌ وخديعةٌ عِلْمًا يقينيًّا فهنا نَذُمُّهُم على ما فَعَلوا ولا نَمْدَحُهم، ولا نعترفُ لهم بفضلٍ؛ لأنَّ الحُكْمَ يدورُ مع عِلَّتِه وُجُودًا وعَدَمًا.

مسألة: ما الجمْعُ بين حديثِ: «**لولا أنا**» وبين النَّهْيِ عن «لو»؟

الجوابُ: نسبةُ الشَّيءِ إلى سَبَبِهِ إذا كان سببًا صحيحًا لا بَأْسَ بها، فمثلًا لو أنَّ رجلًا سقط في البحْرِ، فقام آخَرُ فَأَنْقَذَهُ يجوزُ أن يقولَ: لولا فلانٌ لَغَرِقْتُ؛ لأنَّه نَسَبَهُ إلى سببٍ معلومٍ، لكن لو قال: لولا فلانٌ وهو مدفونٌ في قَبْرِه فهذا ليس سببًا معلومًا، إنسانٌ غَرِقَ في السماءِ وقال: واللهِ لولا الوليُّ فلانٌ سَيِّدي لَغَرِقْتُ، هذا لا يَصْلُحُ، هذا شِرْكٌ.

المهمُّ خُذْ قاعدةً: نسبةُ الشَّيءِ إلى سَبَبِهِ المعلومِ يجوزُ، لكن لا يُقْرَنُ مع اللهِ بالواوِ، فإن قُرِنَ مع اللهِ بالواوِ صار حرامًا، مثلَ أن يقولَ: لولا اللهُ وفلانٌ لَغَرِقْتُ، هذا لا يجوزُ، فنذكرك السُّؤالَ إذا قال: لولا اللهُ قَيَّدَ لي فلانًا لغَرِقْتُ. هذا يصحُّ، وهو أعلى الأنواعِ؛ لأنَّه ذَكَرَ المسبِّبَ والسَّبَبَ، إذا قال: لولا فلانٌ لغَرِقْتُ، هذا جائزٌ؛ لأنَّه أضافه إلى سببٍ معلومٍ وصحيحٍ، إذا قال: لولا اللهُ وفلانٌ لَغَرِقْتُ، هذا لا يجوزُ؛ لأنَّه شرَّكَ بين اللهِ وغيْرِه بحرفٍ يقتضي التَّسويةَ، إذا قال: لولا اللهُ ثم فلانٌ لغَرِقْتُ، يجوزُ.

وإذا قال: لولا اللهُ ففلانٌ لغَرِقْتُ. الفاءُ ليست مثلَ الواوِ، الفاءُ تقتضي التَّرتيبَ، لكنَّها في الواقعِ في منزلةٍ بين منزلتين ليست كـ(ثمَّ)؛ لأنَّ (ثمَّ) تدلُّ على

التَّرتيبِ والتَّراخي، وليست كالواوِ؛ لأنَّ الواوَ تقتضي التَّسويةَ، فهي في منزلةٍ بين منزلتين، فهل نقولُ: إنَّها كـ(ثُمَّ)؛ لأنَّها دالَّةٌ على التَّرتيبِ، أو إنَّها كالواوِ؛ لأنَّ ترتيبَها يقتضي التَّعقيبَ؟

الأوَّلُ هو الصَّوابُ؛ يعني: لولا اللهُ ففلانٌ؛ لأنَّك جعلْتَ فلانًا بعد اللهِ عَزَّوَجَلَّ وكونُهُ متراخيًا أو متعاقبًا هذا شيءٌ آخَرُ.

فإن قال قائلٌ: يُشْكِلُ علينا في هذه المسألةِ ما نُقِلَ عن ابْنِ عبَّاسٍ أنَّه كان يقولُ: قولُ القائلِ لولا الرُّبَّانُ لغَرِقَتِ السَّفينةُ كان يَعُدُّ هذا من الشِّرْكِ الأصغرِ[1] فما وَجْهُهُ؟

فالجوابُ: وجْهُهُ أمران:

أوَّلًا: الحديثُ رواه ابْنُ أبي حاتمٍ فيحتاجُ إلى تصحيحٍ.

ثانيًا: أنَّ ابْنَ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لعلَّه في وقتٍ النَّاسُ قريبون من الشِّرْكِ، فأراد أن يُشَدِّدَ في هذا الأمرِ حتَّى ينتهيَ النَّاسُ عنه؛ لأنَّ قولَ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لولا أنا» واضحٌ أنَّه أضاف الشَّيءَ إلى سَبَبِه دون أن يَقْرِنَه بمشيئةِ اللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ مَن هداه اللهُ فقد تولَّاه؛ لأنَّه لَمَّا نفى الوَلايةَ عن الظَّالمين فإنَّها تَثْبُتُ للمؤمنين، وبذلك جاء التَّصريحُ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه ينبغي للإنسانِ أن يُلِحَّ على اللهِ دائمًا أن يَهْدِيَهُ من الضَّلالِ؛ لأنَّه إذا كان المَرْجِعُ في الإضلالِ إلى اللهِ فإلى من نلتجئُ؟ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فما دام

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١/ ٦٢).

الإضلالُ والهدايةُ بيدِ اللهِ فلنرْجِعْ إليه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَحَسُّرُ وذُلُّ الظَّالمين إذا رأوُا العذابَ؛ لقولِهِ: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشُّورَى:٤٤]، تَحَسُّرُهُم بقولِهِم: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾؛ لأنَّ هذا تَمَنٍّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هؤلاء الظَّالمين يُعْرَضُون على النَّارِ على أَكْمَلِ ذُلٍّ، وأخزى حالٍ خاشعين؛ أي: ذليلين خائفين من الذُّلِّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ المُسْتَكْبِرين على الحقِّ المعانِدين يُجازَوْنَ بعقابٍ يناسبُ مَعْصِيَتَهُم، وجْهُ ذلك أنَّهم يُعْرَضُون على النَّارِ خاشعين ذليلين، ومعلومٌ أنَّ العقوبةَ بالذُّلِّ مناسِبَةٌ للمعصيةِ بالاستكبارِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الظَّالِمين يَلْحَقُهم الذُّلُّ ظاهرًا وباطنًا: الباطنُ في قولِهِ: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾. والظَّاهرُ في قولِهِ: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: تَحَدَّثَ الَّذين آمنوا بِنِعَمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فكأنَّهم يُثْنُونَ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ بكوْنِهم رَبِحُوا دنياهم وأخراهم.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ العاصيَ قد خَسِرَ نَفْسُه، وعلى حَسَبِ مَعْصِيَتِه تَكُونُ الخَسارةُ؛ لأنَّه لم يَسْتَفِدْ من وُجُودِه في الدُّنيا شيئًا، ويتفرَّعُ على هذا أنَّه ينبغي للإنسانِ أن يُحَاسِبَ نَفْسَه ويَنْظُرَ ماذا صَنَعَ فإن رأى أنَّه قد ملأَ زَمَنَه من الخيْرِ المقصودِ والوسيلةِ، فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وإن رأى أنَّه أضاعه فَلْيُسْتَعْتَبْ؛ يُؤْخَذُ ذلك من قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾.

ولْنَضْرِبْ لهذا مثلًا: رَجُلٌ قام يُصَلِّي ويَقْرَأُ القرآنَ لمدَّةِ ساعةٍ وآخَرُ يَلْعَبُ هذه المُدَّةَ، مَن الرابحُ؟ الأوَّلُ هو الرَّابحُ؛ لأنَّه ملأ هذا الفراغَ عبادةً، والثَّاني خاسرٌ ضائعٌ حتَّى إنَّ بعضَ أهلِ العِلْمِ قال: إنَّه يَحْرُمُ عليه ألَّا يشغلَ الزَّمنَ بالطَّاعةِ؛ لأنَّه كالَّذي عنده مالٌ فلم يُنْفِقْه في سبيلِ اللهِ، لكنَّ الصَّحيحَ أنَّه إذا لم يُعَمِّرْه بالمعصيةِ فلا له ولا عليه، إلَّا أنَّه يُعْتَبَرُ خاسرًا بالنِّسبةِ لمن شغله بطاعةِ اللهِ، وأنت فَكِّرْ في هذا: عندما تقومُ تصلِّي قلْ لنَفْسِك: إنَّ عُمُرَكَ هو هذا الزَّمنُ الَّذي أَمْضَيْتَهُ في طاعةِ اللهِ، عَوِّدْ نَفْسَك على هذا؛ من أَجْلِ أن تَحْرِصَ على أن تُعَمِّرَ زَمَنَكَ بِطَاعَةِ اللهِ.

مسألةٌ: قِراءة القرآن حَسَبِ نشاطِ الشَّخص، لكن قال العُلَمَاءُ: ينبغي أن يَجْعَلَ حزبًا معينًا يتلوه كلَّ يومٍ تنظيمًا لقراءتِه؛ لأنَّ الإنسانَ إذا جَعَلَها مفتوحةً هكذا مرَّت به الأيَّامُ وهو لم يُحَصِّلْ شيئًا، وهذا وإن كان يعني: ليس معهودًا فيمن سَلَف، إلَّا إن كان دلَّ عليه حديثٌ أظنُّهُ عبدَ اللهِ بْنَ عَمْرو قال: «أستطيعُ أن أقرأَه في شَهْرٍ في أسبوعٍ في ثلاثة أيامٍ» فقال ﷺ: «**لا تَقْرَأْه في أقلَّ من ثلاثةِ أيامٍ**»[1].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ عذابَ الكافرين دائمٌ؛ لقولِهِ: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: تأكيدُ هذه العقوبةِ؛ لئلَّا يقولَ قائلٌ: إنَّ العذابَ قد يَنْقَطِعُ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٦٥)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب في كم يقرأ القرآن، رقم (١٣٩٠)، والترمذي: كتاب القراءات، رقم (٢٩٤٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب في كم يستحب يختم القرآن، رقم (١٣٤٧)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآية (٤٦)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشُّورَى:٤٦].

قولُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: غَيْرِهِ يَدْفَعُ عقابَه عنهم]، وما كان لهم؛ أي: للظَّالمين ﴿مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ (مِنْ) زائدةٌ إعرابًا، وهي للتَّوكيدِ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ يَنْصُرونهم؛ يعني: ليس لهم من يَتَوَلَّاهم ويَنْصُرُهم من دونِ اللهِ أي: من عذابِهِ، و﴿دُونِ﴾ هنا بمعنى غَيْرُ كما فَسَّرَها المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنَّه لا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يَدْفَعَ عذابَ اللهِ عمَّن أراد اللهُ أن يُعَذِّبَه أبدًا ولا يَنْصُرَه منه، في الدُّنْيا لو أراد ظالمٌ أن يَظْلِمَ أحدًا أَمْكَنَ أن نَدْفَعَه، لكن عقوبةَ اللهِ لا يُمْكِنُ أحدًا أن يَدْفَعَهَا.

وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ جملةٌ شَرْطِيَّةٌ، وهي كما سبق جوابُها مقرونٌ بالفاءِ؛ لأنَّه اتَّصل بـ (ما) ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: طريقٍ إلى الحقِّ في الدُّنيا وإلى الجنَّةِ في الآخرةِ] بل يكونُ أعمى -والعياذُ باللهِ-، ليس له سبيلٌ إلى الحقِّ؛ ولذلك تجدُ الَّذين قضى اللهُ بإضلالِهم يُقَدَّمُ لهم الحقُّ كالشَّمسِ في رابعةِ النهارِ ولكن لا يفهمونه، قد حِيلَ بينهم وبينه.

واستمعْ إلى قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المطفِّفين:١٣]، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا﴾ يعني: ليست أساطيرَ الأولينَ ﴿بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

[المطففين:١٤] الذُّنوبُ جَعَلَتْه يرى الحقَّ باطلًا ويرى الباطلَ حقًّا، تُتْلى عليه آياتُ اللهِ كالقرآنِ أو التَّوراةِ حين لم تُنْسَخْ، ولكنَّه يقولُ: هذه أساطيرُ الأوَّلينَ قد حِيلَ بينه وبين فَهْمِها؛ ولذلك كلَّما رأيْتَ قَلْبَك مطمئنًّا بالقرآنِ محبًّا له متدبرًا له، فاعلمْ أنَّه نَقِيٌّ من الذُّنوبِ، وكلَّما وجدْتَ الأمرَ بالعكْسِ فَطَهِّرِ القَلْبَ.

من فوائدِ الآية الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الظَّالمين لا أحدَ يَنْصُرُهم من دونِ اللهِ؛ لأنَّهم استحقُّوا العذابَ، ولا مانعَ لما أعطى اللهُ ولا مُعْطِيَ لما مَنَعَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإضلالَ بيدِ اللهِ، وأن من أَضَلَّهُ اللهُ لا يُمْكِنُ أن يَرْجِعَ للحقِّ؛ لقولِهِ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه يجبُ على المرءِ أن يَلْجَأَ إلى اللهِ دائمًا ويسألَ اللهَ الهدايةَ، وها هو النبيُّ ﷺ يسألُ رَبَّه أن يَهْدِيَه، أوَّلَ ما يدعو في صلاةِ اللَّيلِ يدعو بالاستفتاحِ المشهورِ: «اللهمَّ رَبَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السَّمواتِ والأرضِ، عالِمَ الغَيْبِ والشَّهادةِ، أنت تَحْكُمُ بين عبادِك فيما كانوا فيه يختلفون، اهْدِني لما اختُلِفَ فيه من الحقِّ بإذْنِكَ، إنَّك تهدي من تشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ»[1]؛ يقولُ: «اهْدِني لما اختُلِفَ فيه من الحقِّ بإذْنِك» فكيف بنا؟!.

فالمُهِمُّ: أنَّه يُؤْخَذُ من الآيةِ: أن يرجعَ الإنسانُ في طلبِ الهدايةِ إلى اللهِ تعالى وَحْدَهُ وأن يُعِيذَهُ من الضَّلالِ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الآية (٤٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشُّورَى:٤٧].

قولُهُ: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ استجاب بمعنى أجاب؛ ولهذا قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أجيبوه بالتَّوحيدِ والعبادةِ] بالتَّوحيدِ ضدَّ الشِّرْكِ، والعبادةِ ضدَّ الاستكبارِ، وهذا واجبٌ على كلِّ مُسْلِمٍ أن يجيبَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالإيمانِ به وتوحيدِهِ وطاعتِه.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ هو يومُ القيامةِ ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أنَّه إذا أتى به لا يُرَدُّ] ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا أَحَدَ يَرُدُّه ويَمْنَعُه، وقيل: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَرُدُّهُ إذا أتى به، وكلا المَعْنَيَيْنِ صحيحٌ.

فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إذا أتى به فقد قضى به فلا يُمْكِنُ أن يَرُدَّه، وكذلك لا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يَرُدَّهُ من دون اللهِ، لا أَحَدَ يَمْنَعُه من اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ ولذلك لو أن أحدًا حاول أن يَرُدَّ يومَ القيامةِ لم يَتَمَكَّنْ ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ تلجؤون إليه يومَئذٍ ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ إنكارٌ لذنوبِكم] ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ هذه جملةٌ مبتدأٌ وخبرٌ، قُدِّمَ فيها الخبرُ على المبتدأِ، وأُدْخِلَتْ (من) الزَّائدةُ على المبتدأِ من بابِ التَّوكيدِ؛ يعني: ما لكم

أيُّ ملجأٍ من دونِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ والملجأُ بمعنى: المعاذُ أو الملاذُ، الَّذي يلوذُ به الإنسانُ عما نَزَلَ به.

وقولُهُ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أيْ: يومَ إذ يأتي ذلك اليومُ ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ قال: إنكارٍ لذنوبِكم فكأنَّه فَسَّرَ النَّكيرَ بمصدرٍ وهو الإنكارُ، فإن صحَّ ما فسَّره به ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ فإنه يُشْكِلُ على هذا قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] وهذا إنكارٌ، فعلى تفسيرِ المفسِّرِ: ما لكم من إنكارٍ لذنوبِكم. يحتاجُ أن نَجْمَعَ بينه وبين هذه الآيةِ.

والجوابُ أن نقولَ: الجمعُ بينهما أنَّهم يُنْكِرون أوَّلًا ﴿قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] ظنًّا منهم أنَّهم إذا فعلوا ذلك نَجَوْا كما نجا أهلُ التَّوحيدِ، ثمَّ تَشْهَدُ عليهم ألسنتُهُم وأيديهم وأرْجُلُهم بما كانوا يَكْسِبُون وحينئذٍ يعترفون ويُقِرُّون، فيكونُ الإنكارُ أوَّلًا، ثمَّ الإقرارُ ثانيًا، وتكونُ الآيةُ هذه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: باعتبارِ المآلِ؛ أي: لا يُمْكِنُكُم أن تُنْكِروا.

وقيل: إنَّ نكيرًا بمعنى مُنْكِرٍ، كسميعٍ بمعنى مُسْمِعٍ، والمعنى: لا أَحَدَ يُنْكِرُ ما نَزَلَ بكم ويدفَعُه عنكم، وهذا المعنى أصحُّ وأنسبُ لسياقِ الآيةِ ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ وما لكم من منكرٍ؛ يعني: لا ملجأَ تلجؤون إليه، ولا أحدَ يدافعُ عنكم ويُنْكِرُ ما نزل بكم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وجوبُ الاستجابةِ إلى اللهِ تعالى فورًا؛ لقولِهِ: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ﴾ هذا اليومُ الَّذي هدَّدَ اللهُ به هل له وقتٌ مُحَدَّدٌ في عُمرِ الإنسانِ بحيث يستطيعُ أن يُؤَخِّرَ التَّوبةَ والاستعتابَ؟

الجوابُ: لا؛ لأنَّ الإنسانَ لا يدري متى يفاجِئُه الموتُ، وإذا فاجأه الموتُ انقطع كلُّ عَمَلٍ، كما ثبت عن النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- إذا مات الإنسانُ انقطع عملُهُ[1]، فلا فَرْقَ بين قيامِ الساعةِ الكبرى وبين موتِ الإنسانِ من حيث انقطاعِ العملِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: رأفةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بعبادِهِ حيث يُنْذِرُهُم بعذابِهِ قبل الوقوعِ، ولا شكَّ أنَّ هذا من رَحْمِته ورأْفَتِه بهم، وإلَّا لَتَرَكَهُم يَفْعَلون ما يشاؤون حتَّى أَنْزَلَ بهم العذابَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه لا مَلْجَأَ يومَ القيامةِ من اللهِ عَزَّوَجَلَّ في الدُّنْيا يُمْكِنُ أن يلوذَ الإنسانُ بذي سُلْطَةٍ يستجيرُ به، لكن في الآخرةِ لا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّه لا أَحَدَ يُنْكِرُ ما نَزَلَ بأهلِ العذابِ من العذابِ؛ لقولِهِ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾.

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٤٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ [الشُّورَى:٤٨].

ثم قال عَزَّوَجَلَّ مسلِّيًا النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ-: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ يعني عن الاستجابةِ، ولم يستجيبوا، فلا لَوْمَ عليك، ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَحْفَظُ أعمالَهُم بأن توافِقَ المطلوبَ منهم].

فالشرط (إن أَعْرَضوا) وجوابُ الشَّرْطِ: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ والمعنى: إن أعرضوا فلا لَـوْمَ عَلَيْكَ؛ لأنَّك لم تُرْسَلْ عليهم حفيظًا على أعمـالِهم ولا مسيطِرًا عليهم، إنما أُرْسِلْتَ للإبلاغِ، وقد حَصَلَ ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنْ﴾ ما] أراد أن يُفَسِّرَ (إِنْ) بمعنى (ما)، و(إِنْ) تأتي نافيةً كما هنا، وتأتي زائدةً، وتأتي شرطيَّةً، وتأتي مخفَّفَةً من الثَّقيلةِ. فهنا جاءت نافيةً، والغالبُ أنَّها تكونُ نافيةً إذا أتى بعدها إثباتٌ مثل ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٣] ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [الأعرافِ:١٨٨] وما أَشْبَهَ ذلك، هذه تكونُ نافيةً بمعنى (مَا).

وتأتي شرطيَّةً مثل: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤].

وتأتي زائدةً كما في قولِ الشَّاعِرِ:

بنـي غُدانَـةَ مـا إن أنـتم ذهـبٌ ولا صَرِيفٌ ولكن أنـتم الخـزفُ[1]

(بني غُدانةَ ما إن أنتم ذهب): هذه (إن) زائدةٌ؛ لأنَّها لو حُذِفَتْ لاستقام الكلامُ، لو قيل: بني غُدانةَ ما أنتم ذهب، استقام الكلامُ فهي زائدةٌ.

وتأتي مخفَّفةً من الثقيلةِ بمعنى: أنْ تكونَ هي بمعنى (إنَّ) ولكن خُفِّفَتْ، وفي هذه الحالِ يكونُ اسمُها ضميرَ الشأنِ محذوفًا، والجملةُ الَّتي بعدها تكونُ خبرًا.

هذه أربعة معانٍ لـ (إِنْ).

﴿إِنۡ﴾ بمعنى (ما) ﴿عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ يعني: ما عليك إلَّا البلاغُ وقد بَلَّغَ البلاغَ المُبِينَ وتَعِبَ في ذلك تعبًا عظيمًا، وأُوذِيَ في ذلك أذًى عظيمًا ومع ذلك فهو صابرٌ مُحْتَسِبٌ؛ لأنَّه -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ- يَعْلَمُ أنَّ ما أصابه في ذاتِ اللهِ فهو خيرٌ ورِفْعَةٌ، جاهدَ في اللهِ حقَّ جِهادِه وبلَّغَ الرِّسالةَ غايةَ البلاغِ، وأُوذِيَ على ذلك ولكنَّه صَبَرَ، وكان يقولُ:

هـل أنـتِ إلا إصـبعٌ دَمِيـتِ وفي سـبيلِ اللهِ مـا لَقِيـتِ[2]

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهذا قبل الأمْرِ بالجهادِ] إذن فالآيةُ على كلامِ المفسِّرِ منسوخةٌ.

---

(١) انظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٦٦)، وشرح الأشموني (١/ ٢٥٤)، وهمع الهوامع (١/ ٤٤٩)، غير منسوب.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب من ينكب في سبيل الله، رقم (٢٨٠٢)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، رقم (١٧٩٦)، من حديث جندب بن سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والمفسِّرُ ونحْوُهُ دائمًا إذا أتى بمِثْلِ هذه الآيةِ يقولُ: «هذه منسوخةٌ» وهذا غلطٌ؛ لأنَّ النَّسْخَ ليس بالأمرِ الهيِّنِ، ادِّعاءُ النَّسْخِ. يعني أنَّ المنسوخَ باطلٌ حكمًا زائلٌ، وهذا صعْبٌ أن تَرْفَعَ حُكْمَ آيةٍ أو حديثٍ لمجرَّدِ وَهْمٍ تَوَهَّمْتَهُ؛ لذلك لا يجوزُ للإنسانِ أن يَسْلُكَ هذا المسْلَكَ المُشِينَ، أنَّه إذا عَجَزَ عن الجمْعِ بين الآياتِ ذهب يقولُ: إنَّها منسوخةٌ.

فالنَّسخُ يحتاجُ إلى العِلْمِ بتأخُّرِ النَّاسِخِ، ويحتاجُ أيضًا إلى تَعَذُّرِ إمكانِ الجمْعِ، فإن أَمْكَنَ الجَمْعُ فلا نَسْخَ.

فإن قال قائلٌ: هل قولُهُ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشُّورَى:٤٨] منسوخٌ؟

فالجوابُ: أبدًا؛ إلى آخِرِ رَمَقٍ من حياةِ النَّبيِّ ﷺ وهو عليه البلاغُ، فلم يَنْسَخْ، والبلاغُ لا ينافي أن يَكُونَ معه جهادٌ، ولكن من حِكْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنَّ اللهَ لم يَفْرِضِ الجِهادَ إلَّا حين قَوِيَتِ الأمَّةُ الإسلاميَّةُ، فلم يَفْرِضِ الجهادَ في مكَّةَ، وإنَّما فَرَضَه في المدينةِ حين صار للأمَّةِ الإسلاميَّةِ دولةٌ مستقلَّةٌ تستطيعُ أن تُجاهِدَ، فهذا من الحِكمةِ، ويعبَّرُ عنه أنَّه من بابِ التدرُّجِ في التَّشريعِ، ومن بابِ الحكمةِ في التَّشريعِ.

إذن نقولُ: إنَّ قوْل المفسِّرِ -عفا اللهُ عنه وغَفَرَ له-: [إنَّ هذا قبل الأمْرِ بالجهادِ] خطأٌ عظيمٌ نقولُ: البلاغُ واجبٌ عليه حتَّى بعد الأمْرِ بالجهادِ، ولا يتنافيان، لا ينافي أن يَكُونَ عليه البلاغُ وأن يَكُونَ مأمورًا بالجهادِ ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ نعمةً؛ كالغنى والصِّحَّةِ ﴿فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ الضَّميرُ للإنسانِ باعتبارِ الجنْسِ ﴿سَيِّئَةٌۢ﴾ بلاءٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: قَدَّمُوه، وعبَّرَ بالأيدِي؛ لأنَّ أكْثَرَ الأفعالِ تُزاوَلُ بها ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ للنِّعْمَةِ].

قولُهُ: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا﴾ معلومٌ أنَّ اللهَ تعالى واحدٌ، فلماذا قال: إنَّا؟

نقولُ: للتَّعظيمِ لإظهارِ العظمةِ والسُّلْطَةِ وقُوَّةِ المُلْكِ ﴿إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾؛ يعني: أوصَلْنَاها إليه، حتَّى كأنَّها طعامٌ ذاقَه لا يشكُّ فيه، وقولُهُ: ﴿مِنَّا﴾؛ لأنَّ كلَّ نعمةٍ بنا فإنَّها من اللهِ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النَّحلِ:٥٣].

وقوله: ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ يقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نعمةٌ كالغنى والصِّحَّةِ] والمثالُ هنا لا يعني الحصْرَ، لكنَّه مثال، الغنى نِعْمَةٌ، الصِّحَّةُ نعمةٌ، الأولادُ نعمةٌ، الأمْنُ نعمةٌ، نِعَمُ اللهِ لا تُحْصى، كما قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النَّحلِ:١٨] إذن ما ذكره المفسِّرُ على سبيلِ التَّمثيلِ، والتَّمثيلُ لا يُعطي الحَصْرَ.

وقولُهُ: ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ المرادُ بذلك: فَرَحُ البَطَرِ والأَشَرِ لا الفَرحُ بالنعمةِ مع اعتقادِه أنَّها من عندِ اللهِ، فإنَّ هذا مأمورٌ به أن يَفْرَحَ الإنسانُ بنِعَمِ اللهِ، وفي الحديثِ: «إنَّ اللهَ إذا أَنْعَمَ على عبْدِه نعمةً يُحِبُّ أن يرى أَثَرَ نِعْمَتِه عليه»(١).

ومن آثارِ النِّعمةِ الفَرَحُ؛ فالإنسانُ إذا رزقه اللهُ مالًا فَرِحَ، إذا عافاه اللهُ بعد المرضِ فَرِحَ، إذا تَزَوَّجَ فَرِحَ، إذا وُلِدَ له فَرِحَ، ولكنَّ الفَرَحَ نوعان:

- فَرَحُ أَشَرٍ وبَطَرٍ، فهذا مذمومٌ.
- وفَرَحٌ بنِعمةِ اللهِ تعالى مع التزامِ شريعتِه، فهذا ممدوحٌ ولا بأسَ به.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٤٣٨)، من حديث عمران بن الحصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. والترمذي: كتاب الأدب، باب ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، رقم (٢٨١٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ولا ينبغي أن يَكُونَ الإنسانُ كالحمارِ لا يَفْرَحُ بنِعمةٍ ولا يتألَّمُ بنِقمةٍ، بل يجبُ أن يَكُونَ الإنسانُ إنسانًا منفعلًا مع الحوادِثِ، يَفرحُ في موضِعِ الفرَحِ، ويغتمُّ في موضِعِ الاغتمامِ.

وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ يقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الضَّميرُ للإنسانِ باعتبارِ الجنسِ] أزال بذلك إشكالًا وهو أن الآيَةَ ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ [الشُّورَى:٤٨] والإنسانُ واحدٌ، كيف يقولُ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ فيُعيدُ الضَّميرَ عليه جمعًا؟ أجاب عنها المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنَّ المرادَ بالإنسانِ الجنسُ، فيشْمَلُ كلَّ إنسانٍ. ويصحُّ أن يقولَ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ ضدَّ رَحْمَةٍ؛ ولهذا فَسَّرَها المفسِّرُ بالبلاءِ.

وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بما قدَّموا من المعاصي، وعبَّرَ بالأيدي؛ لأنَّ أكْثَرَ الأفعالِ تُزاوَلُ بها، لو أنَّك فكَّرْتَ أيُّها أكْثَرُ عملًا الأيدي أم الأرجُلُ؟ الجوابُ: الأيدي، فمشْيُكَ من بيْتِك للمسجِدِ كم خطوةً كم حركةً؟

فيُقالُ: إنَّ حركةَ الرِّجْلِ في جنسٍ واحدٍ، وهو المشْيُ، لكنَّ حركةَ اليدِ ما أَكْثَرَ أنواعَهَا فضلًا عن أفرادِها، فالأعمالُ حقيقةً إنَّما تُزاوَلُ باليدِ؛ لأنَّها أَكْثَرُ من أيِّ عضوٍ في البَدَنِ مزاوَلةً للأعمالِ، حتَّى لو قال قائلٌ: اللِّسانُ أكثرُ من اليدِ، مَن يُحصي كلماتِ اللِّسانِ؟ نُجيبُ عن هذا بما أَجَبْنا عن المشْيِ بأنَّها من جنسٍ واحدٍ، لكنَّ اليدَ تَبْطِشُ، تَضْرِبُ، تكتبُ، تمحو، يعني لا تُحصى أنواعَها؛ فلذلك عُبِّرَ بالأيدي عن النَّفْسِ.

ومن ذلك قولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس:٧١] ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ المرادُ: مما عَمِلْنا، لكنَّ اللغةَ العربيَّةَ واسعةٌ تُعَبِّرُ بالأيدي عن النَّفْسِ، ومن ثَمَّ نَعْلَمُ أنَّه لا سَواءٌ بين خَلْقِ آدمَ بِيَدِ اللهِ وبين عَمَلِ أيدي اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الإبِلِ ونحْوِها.

قولُهُ: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ أعاد الإفْرادَ بَعْدَ أن جاء الجمْعُ ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هذا ابتداءٌ بالمُفْرَدِ، ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ خَتَمَها بالمفْرَدِ، من أجْلِ أن يَشْمَلَ الإنسانَ مجتمِعًا أو منفرِدًا، فهذه حالُهُ.

ولكنْ مَن المرادُ بالإنسانِ هنا؟ الظَّاهرُ -واللهُ أَعْلَمُ- أنَّ المرادَ بذلك الكافرُ؛ لأنَّه هو الَّذي يَنْطَبِقُ عليه فَرَحُ البَطَرِ والأَشَرِ، والكُفْرِ إذا أُصيبَ بسوءٍ.

وقولُهُ: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ هذه ليست صِفَةَ مُبالَغَةٍ، هذه صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ يعني يكونُ من صفتِه الكُفْرُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَسْلِيَةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ حينما أَعْرَضوا عن إجابتِه؛ لقولِهِ: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّها تَسْلِيَةٌ للدُّعاةِ من بَعْدِ الرَّسولِ ﷺ، أنَّ الداعيَ عليه البلاغُ وليس عليه أن يَهْدِيَ النَّاسَ ولا يُمْكِنه ذلك، وإذا كان النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَخْبَرَنا بأنه رأى النَّبيَّ وليس معه أحدٌ، فكيف نَغْضَبُ إذا دَعَوْنا إلى اللهِ ولم يَسْتَجِبْ لنا أحدٌ؟! إذا كان الأنبياءُ وَهُمُ الأنبياءُ لا يُستجابُ لهم، كيف بنا نحن؟! ولهذا نرى بعْضَ الدُّعاةِ إذا لم يَجِدْ مجيبًا استحسر وترك الدَّعوةَ، هذا غلطٌ لا يجوزُ أبدًا أن تيأسَ من رحمةِ اللهِ، ادعُ، ثم ادعُ، ثم ادعُ، حتَّى لو أُذِيتَ بَدَلَ أن يُستجابَ لك فلا تَيْأَسْ.

إذن: في هذه الآيةِ تسليةٌ للدُّعاةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، كما أنَّ فيها تسليةً للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ فأنت إنَّما عليك البلاغُ، وما أَجَلَّ أن تقومَ بما عليك من البلاغِ، أمَّا أنَّ النَّاسَ يهتدون فلا، هذه واحدةٌ.

ثُمَّ إن بعضُ النَّاسِ يريدُ أن يهتديَ النَّاسُ بين عَشِيَّةٍ وضحاها، وهذا غلطٌ، هذا لا يُمْكِنُ خلافَ سنَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ. إنَّ النَّبيَّ ﷺ بَقِيَ في مكَّةَ ثلاثَ عَشْرَةَ سنةً يدعو إلى اللهِ إلى التَّوحيدِ فقط، وفي الآخِرِ إلى الصَّلاةِ ومع ذلك لم يَسْتَجِبْ أَكْثَرُهم، لم يَسْتَجِبْ مَلَؤُهم حتَّى أَلْجَؤُوه إلى أن يُهَاجِرَ ويَدَعَ بَلَدَه، فكيف بك أنت؟ تعيشُ في قومٍ أَفْسَدَهم الاستعمارُ العسكريُّ والفكريُّ والخُلقيُّ تريدُ أن يهتدوا بين عَشِيَّةٍ وضحاها؟! من أنت حتَّى تريدُ خلافَ سُنَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟! فاصبِرْ وبالتَّدريجِ، ولا حَرَجَ عليك فيما أرى أن تُعَامِلَ النَّاسَ بالتَّدريجِ، ما دام المقصودُ الإصلاحَ فاصْبِرْ على بعضِ المعاصي ودَرِّجِ النَّاسَ عليها.

يعني مثلًا: لو أن الإنسانَ حَذَّرَ النَّاسَ من شُرْبِ الدُّخَانِ الَّذي ابْتُلِيَ به كثيرٌ من النَّاسِ، فقال له الشَّاربُ: أنا لا أستطيعُ، قال: لا مانعَ، كلَّ يومٍ اشربْ عَشَرَةً لمدةِ أسبوعٍ، ثم ثمانيةً لمدةِ أسبوعٍ حتَّى يتقاصَرَ إلى آخِرِ النِّهايةِ. فهذا جائزٌ؛ لأنَّني الآن لم أُقِرَّهُ على شُربِ الدُّخَانِ أَقْرَرْتُه على بعضِ المفسدةِ من أجْلِ أن أَتَوَصَّلَ إلى زوالِ المَفْسدةِ نهائيًّا.

وهذا من العلاجِ ومن الدَّعوةِ بالحكمةِ وهذا كما أنَّه في الأمراضِ المعنويَّةِ الدِّينيَّةِ فهو أيضًا في الأمراضِ البدنيَّةِ، الطبيبُ يعالجُ المريضَ شيئًا فشيئًا ويصْبِرُ على ما به من المَرَضِ شيئًا فشيئًا، ولا يُعطيه الدَّواءَ كاملًا للَحْظَةٍ واحدةٍ كما فعل أحدُهم لما أَعْطَوْه علاجًا، وقالوا له: خُذْ هذا كلَّ ستِّ ساعاتٍ واحدةً استبطأَ الأمْرَ وقال: هذا آخُذُه كلَّ ستِّ ساعاتٍ واحدةً؟! بل أَبْلَعُ الجميعَ! فَبَلَعَ الجميعَ فقُضِيَ عليه، استعجل الأمْرَ وهَلَكَ. فاصْبِرْ وعالِجِ الشَّيءَ بالَّتي هي أَحْسَنُ، المهمُّ: أن تكونَ عازمًا على إزالةِ هذا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ ليس حفيظًا على الأمَّةِ لا في حياتِهِ ولا بَعْدَ مماتِه، وعلى هذا فلا يُستغاثُ به بعد موتِه ولا يُطْلَبُ منه الهدايةُ، وإنَّما الهدايةُ من عند اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وجوبُ الإبلاغِ ولم يُبَيِّنِ اللهُ تعالى الوسيلةَ للإبلاغِ، فنقولُ: كلُّ وسيلةٍ للإبلاغِ فهي واجبةٌ، والوسائلُ لها أحكامٌ ومقاصدُ، فيما سبق الإبلاغُ محصورٌ يُبَلِّغُ الإنسانُ أهْلَ بَلَدِه ومن يَفِدُ إليها من النَّاسِ، الآن يُمْكِنُه أن يُبَلِّغَ العالَمَ كلَّه، وحينئذٍ نسألُ: لو أنَّ شخصًا أراد أن يَجْعَلَ له صفحةً في الإنترنتِّ فإنه يجوزُ، بالرغمِ من أنَّ الإنترنتَّ فيها أغانٍ وفيها مصائبُ، لكنَّه لا دَخْلَ له في ذلك، فإذا صار قبله أغنيَّةٌ وبعده أغنيَّةٌ، لا يَضُرُّهُ عملُ عاملٍ، ولو قلنا: قبله أغنيَّةٌ ويُفْتَتَحُ بالأغاني ويُخْتتمُ بالأغاني، أليس له داعٍ أن يُبَلِّغَ؟

الجوابُ: لا، بَل يُبَلِّغُ حتَّى لو قبله أغنيةٌ وبعده أغنيةٌ؛ لأنَّ الأغنيَّةَ قَبْله وبعده ليست من فِعْلِه، هذا من فِعْلِ من يَتَصَرَّفُ في هذه المحطَّةِ، لكن لا يجوزُ أن نَتْرُكَ الدَّعوةَ إلى الحقِّ لأنَّ في هذه الإذاعةِ مثلًا أو المحطةِ؛ لأنَّ فيها سيئةً، هذا غيرُ صحيحٍ، ونظريَّةٌ قاصرةٌ، زَاحِمْ أهْلَ الباطِلِ حتَّى يَتَبَيَّنَ الحقُّ ولا يَضُرُّكُ إذا أَدْخَلوا فيها أشياءَ مُنْكَرةً.

بعضُ النَّاسِ مثلًا يقولُ لنا أو لغَيْرِنا: لا تَدْخُلُوا الإنترنتَّ لا تتدخلوا فيها، كيف تدخلون فيها وفيها الأغاني وفيها البلايا وفيها..!! ونقول: لا يصحُّ هذا، أيُّما أوْلى أن نَدْخُلَ في هذا المضمارَ لعلَّ اللهَ يَهْدي بنا واحدًا من النَّاسِ، أو أن نَدَعَ المجالَ لأهْلِ الشَّرِّ؟

الجوابُ: الأوَّلُ بلا شكٍّ أَحْسَنُ.

ومِثْلُ ذلك ما يقالُ في الانتخاباتِ إذا كان البلدُ مَبْنِيًّا على الانتخاباتِ يقولُ بعضُ النَّاسِ: لا تَنْتَخِبْ! فأقول: يا جماعة لا أُرْشِحُ واحدًا من أهْلِ الخيرِ؟! قال: لا لأنَّ الانتخاباتِ فيها بلاءٌ، فيها رشاوٍ فيها أهواءٌ! ونقول: إذا كان فيها رشاوٍ وأهواءٌ أنا لن أدخل في الرَّشاوي والأهواءِ لكن أَدْخُلُ في ترشيحِ رجلٍ أعرفُ أنَّ فيه خيرًا. قالوا: إذا رَشَّحْتَ واحدًا يأتي مئةُ فاسقٍ، إذا كان مئةُ فاسقٍ ليس معهم مستقيمٌ أو مئةُ فاسقٍ ومعهم مستقيمٌ؟ فالجوابُ: الثَّاني أَحْسَنُ.

وإذا قالوا: إنَّ هذا لا يُجْدي ولا يَنْفَعُ واحدٌ في المئةِ لا فائدةَ فيه، نقولُ: لا بدَّ أن يَكُونَ فيها فائدةٌ، إذا أَخْلَصَ النِّيَّةَ للهِ لا بدَّ أن يؤثِّرَ؛ لأنَّ الكلمةَ للهِ ليستْ تُؤَثِّرُ؛ لأنَّ فلانًا تَكَلَّمَ بها لكن تُؤَثِّرُ؛ لأنَّها كلمةُ اللهِ.

واسْتمعْ إلى قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ [التَّوبة:٤٠] وبَعْدَها ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التَّوبة:٤٠] بالرَّفعِ؛ لأنَّه لو قال: وكلمةَ اللهِ، دَخَلَت في المفعولِ به يعني: وجَعَلَ كلمةَ اللهِ، وكلمةُ اللهِ هي العليا بجعْلِه وبغيْرِ جعْلِه، ولهذا تَبَيَّنَ الآن أن قولَهُ: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ لها موقعٌ عظيمٌ جدًّا؛ يعني: أن كلمةَ اللهِ هي العليا مَهْمَا جاءت هي العليا.

ولا يَخْفى ما يتكرَّرُ في قصَّةِ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع السَّحَرةِ وفرعونَ لَمَّا اجتمعوا وكان موسى واثقًا بنصْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا لما قالوا: اجعلْ لنا مَوْعدًا جَعَلَ لهم موعدًا في وَضَحِ النَّهارِ، وفي يومِ الزِّينَةِ يوْمِ العيدِ ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه:٥٩] شيءٌ عجيبٌ، جاء السَّحَرةُ وجمع فرعونُ كَيْدَه ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه:٦٤] فقال موسى كَلِمَةً واحدةً قال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه:٦١] ما

الَّذي حصل من هذه الكلمةِ؟ ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ [طه:٦٢] في الحالِ الفاءُ تدلُّ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ والسَّببيَّةِ ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ وإذا تَنازَعَ النَّاسُ فَلْتَتَحَدَّثْ عن الفشلِ! حَدِّثْ ما شئْتَ ولا حَرَجَ! ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ ففشِلوا، وفي النِّهايةِ أنَّ هؤلاء السَّحرةَ الَّذين جاؤوا يَكِيدون لموسى صاروا مع موسى وهُدِّدُوا بالقتْلِ والصَّلْبِ ولكن أَبَوْا، قالوا لفرعونَ: ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ مِثْلَ ما نقولُ نحن: افعلْ ما تريدُ ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ [طه:٧٢] اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ، الإيمانُ إذا دَخَلَ القلبَ فلا تسألْ عن الحزْمِ والعزْمِ والقوَّةِ ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ والَّذي لا يموتُ اليومَ يموتُ غدًا.

فالمهمُّ أنِّي أقولُ: إنَّ بعض النَّاسِ إذا رأى الموقفَ غَلَبَ فيه الشَّرُّ اسْتَحْسَرَ وتخلَّى، وهذا غلطٌ، خُضْ غِمارَ القومِ والنَّصرِ للحقِّ، أنا لم أَدْخُلْ مع هؤلاء لأوافِقَهم على باطِلِهم، سأدافعُ عن الحقِّ الَّذي أعتقِدُه مهْما أَمْكَنَ، ثم إنَّه من الحكمةِ أن يُفَتَّتَ القومُ المجتمِعون. يعني يُؤْخَذُوا واحدًا واحدًا ويُتَكَلَّمَ مع كلِّ واحدٍ ويقالَ: يا فلانُ ما فائدتُك من هذا؟ هذا إثمٌ عليك، هذا سُوءٌ في الدُّنيا والآخرةِ، كما فعلت قريشٌ في نقْضِ الصَّحيفةِ الَّذين تعاهدوا فيها على مقاطعةِ بني هاشمٍ، والقصَّةُ مشهورةٌ، صار أحدُ المعارِضِين لهذه الصَّحيفةِ يأتي كُبراءَهم -كبراءَ الَّذين وَقَّعُوا- ويقولُ لهم واحدًا واحدًا: كذا وكذا وكذا حتَّى تَفَتَّتُوا، وهذه من السِّياسةِ؛ لأنَّك إذا فَتَّتَّ المجتمِعِين زالت قُوَّتُهم وزال سلطانُهم وحَصَلْتَ على الخيرِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ النَّاسَ ينقسمون إلى قِسْمَيْن:

قسْمٍ: إذا أصابته رحمةٌ من اللهِ فَرِحَ بها فرحَ أَشَرٍ وَبَطَرٍ.

وقسْمٍ آخَرَ: إذا أصابته رحمةُ اللهِ تعالى فإنَّه يستعملُها في طاعةِ اللهِ. وهذا يُستفادُ من غيرِ هذه الآيةِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التَّحذيرُ من الفَرَحِ بنعمةِ اللهِ إذا كان فَرَحَ أَشَرٍ وبَطَرٍ، وأمَّا إذا كان فرحَ استبشارٍ وسرورٍ وقيامٍ بطاعةِ اللهِ فإنَّه يُمْدَحُ، قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ ما يُصيبُ الإنسانَ من سيئةٍ فإنَّما هو بسببِ عَمَلِه؛ لقولِهِ: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: التَّعبيرُ بالبعضِ عن الكلِّ إذا كان لهذا البعضِ تأثيرٌ كبيرٌ؛ لقولِهِ: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ الإنسانَ من حيثُ هو إنسانٌ إذا أصابتْهُ السَّيِّئةُ كَفَرَ، بمعنى أَيِسَ من رَحْمَةِ اللهِ تعالى أن يَصْرِفَ عنه هذه السَّيِّئَةَ، وأمَّا المؤمنُ فإنَّه لا يَيْأَسُ، بل يَصْبِرُ وينتظرُ الفَرَجَ إيمانًا بقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ: «**واعلمْ أنَّ النَّصْرَ مع الصَّبْرِ، وأنَّ الفَرَجَ مع الكَرْبِ، وأنَّ مع العُسْرِ يُسْرًا**»(١).

• • ۞ • •

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٠٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيتان (٤٩، ٥٠)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشُّورَى:٤٩-٥٠].

قولُهُ: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الجملةُ خبريَّةٌ خَبَرُها مُقَدَّمٌ يُرادُ به الحصْرُ؛ لأنَّ القاعدةَ البلاغيَّةَ أنَّ تقديمَ ما حقُّهُ التَّأخيرُ يدلُّ على الحصْرِ والاختصاصِ، إذن ﴿لِّلَّهِ﴾ لا لغيرِهِ ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خَلْقًا وتدبيرًا، فاللهُ تعالى مالكُ السَّمواتِ والأرضِ خَلْقًا وتدبيرًا؛ ولهذا قال: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ وقولُهُ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ (ما) هذه موصولةٌ، ويُعَبَّرُ عنها غالبًا لما لا يَعْقِلُ، وكان التَّعبيرُ بـ(ما) ليعُمَّ الأعيانَ والأوصافَ؛ لأنَّه إذا قُصِدَتِ الأوصافُ عُبِّرَ بـ(ما) ولو كان لعاقلٍ.

انظرْ إلى قولِ اللهِ تعالى: ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّساء:٣] ولم يَقُلْ: مَن طاب، مع أنَّ النِّساءَ من العقلاءِ، لكن لما كانت المرأةُ إنما تُنْكَحُ من أجْلِ صفاتِها لا لعَيْنِها قال: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

وهنا ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ نَقُولُ: عَبَّرَ بـ(ما)؛ لأنَّ المقصودَ بذلك الأعيانُ والأوصافُ، أمَّا الأعيانُ فلو سُئِلْنَا أيُّها أكثرُ العاقلُ أو غيرُ العاقِلِ؟

فالجوابُ: على الأرضِ غيرُ العاقلِ، لكن في السَّماءِ لا، فالسَّماءُ أَوْسَعُ من

الأرضِ، وما فيها موضعُ أرْبعِ أصابعَ إلَّا وفيه مَلَكٌ، فيكونُ العاقلُ باعتبارِ الجميعِ أكْثَرَ، لكن باعتبارِ ما في الأرضِ غيرِ العاقِلِ، كذلك أيضًا إذا اعتبرْنا الأوصافَ فالأوصافُ تَشْمَلُ العُقلاءَ وغيْرَهُم؛ فلهذا عَبَّرَ بـ(ما).

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾؛ أي: يوجِدُه بَعْدَ العدَمِ، ولكنَّ الخَلْقَ ليس مُجَرَّدَ إيجادٍ، بل هو خَلْقٌ عن تقديرٍ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ هذا من جُمْلَةِ خَلْقِهِ أيضًا.

وقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ الهِبَةُ هي التَّبرُّعُ بالشَّيْءِ مجانًا، وَوَصَفَ اللهُ تعالى الأولادَ بالهِبَةِ؛ لأنَّه لا طاقَةَ للإنسانِ في إيجادِهِم بل هو مُجَرَّدُ فَضْلٍ من اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ من الأولادِ إناثًا] قولُهُ: [من الأولادِ] كيف تتلاءَمُ مع قولِهِ: [إناثًا]؟

الجوابُ: لأنَّ الأولادَ في اللغةِ العربيَّةِ تَشْمَلُ الذَّكَرَ والأنثى، كما في قولِهِ تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النِّساء:١١].

وقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشُّورَى:٤٩] ولم يَقُلْ: ذكورًا، بل أتى بـ(أل) المعرفةِ الدَّالَّةِ على شرفِ مَدْلُولِها، فإنَّ الذُّكُورَ عند النَّاسِ أَشْرَفُ من الإناثِ، ولكن مع هذا جَبَرَ نَقْصَهُنَّ بتقديمِ ذِكْرِهِنَّ على الذكورِ، أو يقالُ: إنَّ اللهَ قَدَّمَ الإناثَ؛ لأنَّ إرادةَ الإنسانِ أن يَكُونَ أولادُهُ ذكورًا، فقدَّمَ الإناثَ إشارةً إلى أنَّ الأمْرَ إلى اللهِ وَحْدَهُ لا إلى ما يريدُ الإنسانُ ويهواه.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ أي: يَجْعَلُهم] والصَّوابُ: يُصَنِّفُهم؛ لأنَّ التَّزويجَ بمعنى التَّصنيفِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن

شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ [ص:٥٨]؛ أي: أصنافٌ، فمعنى ﴿يُزَوِّجُهُمْ﴾: أي: يُصَنِّفُهُم فَيَجْعَلُهُم صِنْفَيْنِ ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ فلا يَلِدُ ولا يُولَدُ له] فلا يَلِدُ باعتبارِ الأنثى، ولا يُولَدُ له باعتبارِ الذَّكَرِ.

فهذه أربعةُ أصنافٍ:

الأوَّلُ: أن يَهَبَ لمن يشاءُ إناثًا.

الثَّاني: أن يَهَبَ ذكورًا.

الثَّالثُ: أن يَهَبَ ذكورًا وإناثًا.

الرَّابعُ: أن يَجْعَلَ الإنسانَ عقيمًا لا ذكورَ ولا إناثَ.

ذلك لأنَّ الأمْرَ أَمْرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولا أَحَدَ يستطيعُ أن يَخْلُقَ شيئًا من هذا بل اللهُ وَحْدَهُ هو الخالقُ.

فإن قال قائلٌ: وَرَدَ الحديثُ الَّذي فيه فضيلةُ تربيةِ البناتِ[1] والصَّبْرِ على ذلك؛ فهل هذا الفضْلُ يَثْبُتُ للأُمِّ أيضًا أو أنَّه خاصٌّ للأبِ؟

فالجوابُ: الظَّاهرُ أنَّه يَثْبُتُ للجميعِ، ورد في الحديثِ للنَّسَائِيِّ «أنَّ المرأةَ إذا مات لها ثلاثةٌ من الولدِ كان لها سِتْرًا من النارِ»[2]، وأمَّا مسألةُ التَّربيةِ فلأنَّ الأبَ هو المسؤولُ عن تربيةِ الأولادِ، فيكونُ خاصًّا بالآباءِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة، رقم (١٤١٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل الإحسان إلى البنات، رقم (٢٦٢٩)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى رقم (٥٨٦٥)، والحديث متفق عليه أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب فضل من مات له ولد فاحتسب، رقم (١٢٤٩)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه، رقم (٢٦٣٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ فهو: ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يَخْلُقُ ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما يَخْلُقُ، فهو يَعْلَمُ ما يَخْلُقُ عَزَّوَجَلَّ وقديرٌ على أن يَخْلُقُ ما أراد.

من فوائدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: عمومُ مُلْكِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لما في السَّمواتِ والأرضِ؛ لقولِهِ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: اختصاصُ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَى بذلك، وَجْهُ ذلك أنَّ اللهَ قَدَّمَ الخبرَ والخَبَرُ حَقُّهُ التَّأخيرُ وتقديمُ ما حقُّهُ التَّأخيرُ يفيدُ الحَصْرَ.

فإن قال قائلٌ: قال اللهُ تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النِّساءِ:٣] فللإنسانِ مِلْكٌ فكيف الجمْعُ بين قولِنا: إن مُلْكَ السَّمواتِ والأرضِ خاصٌّ باللهِ وإثباتِ المِلْكِيَّةِ لغيرِ اللهِ؟

فالجوابُ: أولًا: مُلْكُ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَى تامٌّ شاملٌ، ففيه شمولُ التَّصرُّفِ، وفيه شمولُ المكانِ بمعنى: أنَّ مُلْكَ اللهِ تعالى تامٌّ من كلِّ وجْهٍ، عامٌّ من كلِّ وجْهٍ، أمَّا مُلْكُ الإنسانِ فقاصرٌ من جهةِ العمومِ المكانيِّ ومن جهةِ عمومِ التَّصرُّفِ، فكلُّنا نَمْلِكُ لكنَّ مُلْكَنَا محدودٌ، أنا أملِكُ حقيبةً ولا أمْلِكُ حقيبةً أخرى لغيري فهو محدودٌ.

ثانيًا: مُلْكٌ ناقصٌ، لا يُمْكِنُني أن أَتَصَرَّفَ في مُلْكي كما أشاءُ صحيحٌ، لا يُمْكِنُ أن أُضَيِّعَه؛ لأنَّني مَنْهِيٌّ عن إضاعةِ المالِ، لا يُمْكِنُ أن أُعَذِّبَهُ إذا كان حيوانًا لأنِّي مَنْهيٌّ عن ذلك، لا يُمْكِنُ أن آكُلَ من مِلْكي ما شئتُ وأدَعَ ما شئتُ، فالحيوانُ مُحَرَّمٌ لا يجوزُ أن آكُلَهُ ولو كان مِلْكِي المهمُّ أنَّ مُلْكَ الإنسانِ محدودٌ. ثانيًا: ناقصٌ. محدودٌ لا يشملُ كلَّ شيءٍ، ناقصٌ لا يَمْلِكُ كلَّ تَصَرُّفٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَخْلُقُ ما يشاءُ من الأعيانِ والأوصافِ، على أيِّ كيفيَّةٍ وعلى أيِّ صفةٍ؛ ولهذا انظرْ إلى مخلوقاتِ اللهِ هل هي واحدةٌ؟ لا، ليست واحدةً تختلفُ اختلافًا عظيمًا كبيرًا في الشَّكْلِ، في الأيدي، في الأرْجُلِ، في الغذاءِ، في كلِّ شيءٍ، فاللهُ تعالى يَخْلُقُ ما يشاءُ، لكن اعْلَمْ أنَّ اللهَ تعالى هدى كلَّ مخلوقٍ لما خُلِقَ له، قال اللهُ تعالى: عن موسى حين سَأَلَهُ فرعونُ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أيْ: خَلْقَهَ اللَّائقَ به ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]؛ أي: هَدَى كلَّ مخلوقٍ لما خُلِقَ له؛ ولذلك تَجِدُ هذا المخلوقَ لا يَأْكُلُ من هذا النَّوعِ من العُشْبِ والمخلوقَ الآخَرَ يأكُلُ منه، تجدُ هذا المخلوقَ لا يَسْكُنُ هذا النَّوعَ من الأرْضِ ويَسْكُنُ أرضًا أخرى، ومخلوقًا آخَرَ بِضِدِّهِ.

الرَّمْلُ مثلًا لا يَسْكُنُه النَّملُ؛ لأنَّه لا يَمْلِكُ الجحورَ لكن يَسْكُنُه الحشراتُ أو الزَّواحفُ الَّتي تَنْدَسُّ في الرَّملِ؛ لأنَّ هناك زواحفَ صغيرةً تَنْدَسُّ في الرملِ اندساسًا، وتشاهدُها كأنما يغوصُ السَّابحُ في الماءِ وليس لها جحورٌ، هناك أشياءُ لا تَسْكُنُ هذا النَّوعَ من الأرضِ بل تَسْكُنُ أرضًا صُلْبَةً حتَّى تَبْنِيَ لها الجحورَ، أشياءُ غريبةٌ في مخلوقاتِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الأولادَ هبةٌ من اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِهِ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ ويَهَبُ، ويَهَبُ، والهِبةُ: هي العَطِيَّةُ بلا عِوَضٍ. فما هو العِوَضُ الَّذي علينا بالنِّسبةِ لهذه النِّعَمِ؟ الجوابُ هو الشُّكْرُ.

وهنا سؤالٌ هل يجوزُ أن تُسَمِّيَ ابْنَك أو بِنْتَك «هِبةَ اللهِ»؟

الجوابُ: يجوزُ، ولهذا قال الفقهاءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في السِّقْطِ -يعني الحَمْلَ-: إذا سَقَطَ بعد أن تُنْفَخَ فيه الرُّوحُ فَسمِّه ولو مات في الحالِ سَمِّه، فإذا جَهِلْتَ أنَّه ذكرٌ أم أنثى فسمِّه اسمًا يَصْلُحُ لهما بأن تقولَ: هذا «هبةُ اللهِ»، وسَمِّهِ «هِبةَ اللهِ».

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّه لا اختيارَ للمرءِ بالنِّسبةِ للأولادِ؛ لقولِهِ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ فَجَعَلَ الأمرَ راجعًا إلى مشيئتِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّه لا ينبغي للإنسانِ أن يَيْأَسَ إذا أتاه إناثٌ متتابعاتٌ، فإنَّ بعضَ النَّاسِ إذا أتاه إناثٌ متتابعاتٌ أَيِسَ، وقال: لن يُولَدَ لي ذَكَرٌ، وهذا غلطٌ فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَخْلُقُ ما يشاءُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تمامُ قُدْرَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حيث خَلَقَ من هذه النُّطْفَةِ وهي واحدةٌ خَلَقَ منها ذكورًا خُلَّصًا وإناثًا خُلَّصًا، والثَّالثُ: أصنافًا ذكورًا وإناثًا مع أنَّ الماءَ واحدٌ ولكنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ العُقْمَ يُعْتَبَرُ نقصًا بالنِّسبةِ لمن يُولَدُ له؛ لقولِهِ: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ بعد أن ذَكَرَ أنَّ الأولادَ هبةٌ، فيكونُ العقيمُ ليس موهوبًا له، إذن هذا نَقْصٌ.

ويتفرَّعُ على هذه القاعدةِ: أنَّه لو تَبَيَّنَ زوجُ المرأةِ عقيمًا فلها فَسْخُ النِّكاحِ، يعني: لو أنَّ أحدًا تَزَوَّجَ امرأةً وهو لا يَعْلَمُ عن نفْسِه ثم تَبَيَّنَ أنَّه عقيمٌ فلها أن تَفْسَخَ إمَّا بنَفْسِها، تُشْهِدُ اثنين تقولُ: إنِّي فَسَخْتُ نكاحي من فلانٍ أو بالقاضي تَذْهَبُ وزوجُها إلى القاضي فيَفْسَخُ النِّكاحَ وهذا حقٌّ لها، فإن قال الزَّوجُ: إنَّه ليس فيه عيبٌ، وإنَّه يَقْدِرُ على الوطءِ، وإنَّه مستقيمٌ خُلقًا ودينًا، فلماذا تفسخونها منه؟ الجوابُ: لأنَّ العُقْمَ عيبٌ، والمرأةَ لها حقٌّ في الأولادِ، ولذلك يَحْرُمُ على الزَّوْجِ أن يَعْزِلَ عن زَوْجَتِه إلَّا بإذنِها؛ لأنَّه إذا عَزَلَ عنها حَرَمَهَا من الأولادِ إلَّا أن تَأْذَنَ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ هذيْن الاسميْن الكريميْن للهِ عَزَّوَجَلَّ وهما: العليمُ والقديرُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثباتُ ما دلَّ عليه هذان الاسمان من صفةٍ، العليمُ دلَّ على العِلْمِ. والقديرُ على القدرةِ، وكلُّ اسمٍ من أسماءِ اللهِ متضمِّنٌ لصفةٍ أو أَكْثَرَ وليست كلُّ صفةٍ يُشْتَقُّ منها اسمٌ، انتبهْ كُلُّ اسمٍ من أسماءِ اللهِ فهو متضمِّنٌ لصفةٍ أو أكْثَرَ ولا يُشْتَقُّ من كلِّ صفةٍ اسمٌ للهِ. وبه نَعْرِفُ أنَّ الصفاتِ أكثرُ من الأسماءِ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ المشيئةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لا أَحَدَ يُجْبِرُه على أن يَخْلُقَ أنثى أو ذكرًا، بل له عَزَّوَجَلَّ المشيئةُ التَّامَّةُ في خَلْقِه، واعلمْ أنَّه كلما ذَكَرْتَ المشيئةَ للهِ عَزَّوَجَلَّ فإنَّها مقرونةٌ بالحكمةِ، وانتبهْ لهذه النُّقطةِ يعني: أنَّ مشيئةَ اللهِ ليست مشيئةً مجرَّدَةً، بل هي مقرونةٌ بالحكمةِ.

والدَّليلُ على هذا قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]، ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ بعد أن قال ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فَعُلِمَ من هذا أنَّ مشيئةَ اللهِ تابعةٌ لعِلْمِه وحِكْمَتِه، وأنَّه لا يشاءُ شيئًا مشيئةً مجرَّدَةً بل لا بدَّ أن تكُونَ مقرونةً بالحِكمةِ، وهذا في كلِّ نصٍّ يأتيكَ فيه ذِكْرُ المشيئةِ للهِ فاعلمْ أنَّها مقرونةٌ بالحكمةِ.

ثمَّ قال عَزَّوَجَلَّ لَمَّا ذَكَرَ خَلْقَه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأنَّه هو الخالِقُ له المشيئةُ المُطْلَقَةُ ذَكَرَ شيئًا آخَرَ وهو الشَّرعُ، لو تأمَّلْتَ الآياتِ القرآنيَّةَ لَوَجَدْتَ أنَّ اللهَ تعالى يَذْكُرُ الشَّرعَ قبل القَدَرِ، اقرأ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن:١-٢] بَعْدَها ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ [الرحمن:٣]، فبدأ بالشَّرْعِ عَلَّمَ القرآنَ خَلَقَ الإنسانَ. وقال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق:١-٢] فبدأ بالقراءةِ، وهكذا تَجِدُ هذه القاعدةَ مُضْطَرِدَةٌ إلَّا أن يَكُونَ هناك سببٌ لتقديمِ الخَلْقِ على الشَّرعِ.

• • ۞ • •

الآية (٥١)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشُّورَى:٥١].

قولُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ (ما كان) هذه الصِّيغةُ في القرآنِ الكريمِ تدلُّ على أنَّ الشَّيءَ مُمْتَنِعٌ غايةَ الامتناعِ إمَّا قَدَرًا وإما شَرْعًا، قال اللهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم:٣٥] يعني: مُمْتَنِعٌ غايةَ الامتناعِ، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التَّوبة:١١٣] ممتنعٌ غايةَ الامتناعِ شَرْعًا؛ لأنَّه يجوزُ أن يستغفروا، لكنَّه حرامٌ عليهم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ هذا ممتنعٌ قَدَرًا يعني: حَسَبَ خَبَرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وإلَّا فاللهُ قادرٌ على أن يُكَلمَ على غَيْرِ هذا الوجْهِ، حَسَبَ خبرِ اللهِ يكونُ مُمْتنعًا ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشُّورَى:٥١] ﴿لِبَشَرٍ﴾ البشرُ هم الآدميُّونَ سُمُّوا بشرًا؛ لأنَّ بَشَرَتَهُم باديةٌ إلَّا أن يستتروا غيْرَ الآدميِّ من الحيواناتِ مستورٌ، إمَّا بالريشِ وإمَّا بالصوفِ وإمَّا بالوَبَرِ وإمَّا بالشَّعْرِ.

إمَّا بالرِّيشِ مثْلَ: الطيرِ، وإمَّا بالشَّعْرِ مثْلَ: المَعْزِ، وإمَّا بالصُّوفِ كالضَّأْنِ، وإمَّا بالوَبَرِ كالإبِلِ. الآدميُّ لم تُسْتَرْ بَشَرَتُه؛ والحكمةُ من ذلك أنَّه إذا شَعَرَ الإنسانُ بافتقارِه إلى الكسوةِ الحِسِّيَّةِ انتقل من هذا إلى افتقارِه إلى الكسوةِ المعنويَّةِ، انظر الحكمةَ

من اللهِ عَزَّوَجَلَّ حتَّى يَعْرِفَ الإنسانُ أنَّه محتاجٌ إلى سَتْرِ العورةِ المعنويَّةِ كما احتاجَ إلى سَتْرِ العورةِ الحسِّيَّةِ، وإلى هذا يشيرُ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ [الأعراف:٢٦] اللِّباسَ العاديَّ ﴿وَرِيشٗا﴾ [الأعراف:٢٦] اللِّباسَ الجميلَ الَّذي يَتَزَيَّنُ به المرءُ، ثم قال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف:٢٦] لباسُ التَّقْوى هذا اللِّباسُ معنويٌّ، وقيل: إنَّ الآدميَّ سُمِّيَ بَشَرًا؛ لظهورِ أَثَرِ ما في قَلْبِه على بَشَرَتِه، إذا غَضِبَ الإنسانُ يَظْهَرُ أثرُ الغضبِ على بَشَرَتِه يَحْمَرُّ وَجْهُه وعيناه، وتَنْتَفِخُ أوداجُه ويقفُ شَعْرُه، وإذا بُشِّرَ بما يَسُرُّه يَتَهَلَّلُ وَجْهُه وتَجِدُ فيه البُشْرى، والظَّاهرُ -واللهُ أعلمُ- أنَّ المعنى الأوَّلَ أقوى، أنَّه سُمِّيَ بشرًا لظهورِ بَشَرَتِه إلَّا بساترٍ.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ إلَّا أن يُوحِيَ إليه وحيًا في المنامِ أو بإلهامٍ] هذا واحدٌ ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾؛ يعني: يُكَلِّمُه مباشَرَةً غَيْرَ الوحْيِ الَّذي في القلبِ من وراءِ حجابٍ كما حَصَلَ لموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وحَصَلَ لمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليلةَ المعراجِ، فإنَّ اللهَ كَلَّمَه من وراءِ حجابٍ، فما هو الحجابُ الَّذي يَحْتَجِبُ اللهُ به؟

قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ: «حجابُهُ النُّورُ لو كَشَفَه لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِه ما انتهى إليه بَصَرُه مِن خَلْقِه»[1]، هذا النُّورُ نورٌ عظيمٌ جدًّا لا يَتَصَوَّرُه أحدٌ، هذا هو الَّذي احْتَجَبَ اللهُ به عن الخَلْقِ -تعالى اللهُ- فإذا كان هذا النُّورُ من قُوَّتِه يُحْجَبُ فما بالُكَ بنورِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ هو أَعْظَمُ وأَعْظَمُ، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النُّور:٣٥] ولا يَتَصَوَّرُ أحدٌ ذلك أبدًا، وإنَّما يُكَلِّمُ اللهُ تعالى

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إن الله لا ينام»، رقم (١٧٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

عبادَه من وراءِ حجابٍ؛ لأنَّه لو كَشَفَ الحجابَ لَهَلَكَ الإنسانُ ولم يستطعْ أن يَثْبُتَ أمام رؤيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ولَمَّا قال موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف:١٤٣] قال هذا شوقًا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا شكًّا قال ذلك شوقًا إلى اللهِ قال اللهُ له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ يعني: لا يُمْكِنُ أن تراني ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ الجبلِ الأصَمِّ الصُّلْبِ ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ تَجَلَّى لَمْ يَظْهَرْ كُلُّه، تَجَلَّى للجبلِ ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ [الأعراف:١٤٣] انْدَكَّ الجبلُ مرةً واحدةً وساوى الأرضَ، أما موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فلَمَّا رأى هذا صَعِقَ -غُشِيَ عَلَيْهِ- من هَوْلِ ما رأى، فهل الآدميُّ الضعيفُ يَثْبُتُ لرؤيةِ اللهِ والجبلُ لم يَثْبُتْ؟ لا واللهِ؛ ولهذا انْدَهَشَ موسى وصَعِقَ وعَلِمَ أنَّه لا يُمْكِنُ أن يرى اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

تنبيه: ذَكَرْنا أنَّه ﴿تَجَلَّىٰ﴾ أي: بعْضُه عَزَّوَجَلَّ على أنِّي في قلقٍ من هذا، من كَوْنِ المرادِ بَعْضَه؛ لأنَّ الأصْلَ أنَّه كُلُّه، لكن قد يقالُ: إنَّه يَمْنَعُ من هذا أنَّ اللهَ تعالى يعني: لا يحيطُ به شيءٌ من مخلوقاتِهِ، فلا يُمْكِنُ أن يتجلَّى كلُّه والأرضُ ما هي ليستْ بالنِّسبةِ إليه شيءٌ.

فإن قال قائلٌ: هل معنى هذا أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سوف يَرْزُقُنا يومَ القيامةِ قُوَّةً في أبصارِنا حتَّى نَنْظُرَ إليه؟

فالجوابُ: أي نعم، قوةُ النَّاسِ يومَ القيامةِ لا تُنْسَبُ إليها قوةُ الدُّنْيا أبدًا، أليس يَمْكُثون خمسين ألْفَ سنةٍ لا يأكلون ولا يَشْرَبُون، هذا لا يُمْكِنُ أن يُطاقَ في الدُّنْيا، أليس الواحدُ يَنْظُرُ إلى مُلْكِه في الجنَّةِ مسيرةَ ألفيْ سَنَةٍ يرى أقصاه كما يرى أدناه؟ هذا لا يُمْكِنُ في البشرِ في الدُّنْيا.

مسألة: هل كَلَّمَ اللهُ أحدًا غَيْرَ موسى؟

الجوابُ: أيْ نَعَم، كَلَّمَ النَّبيَّ ﷺ، وكَلَّمَ آدمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكنَّ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سُمِّيَ الكَلِيمَ؛ لأنَّه أوَّلُ ما أوحى اللهُ إليه كَلَّمَه وغَيْرُهُ أوحى اللهُ إليه بواسطةِ الخَلْق أوَّلًا ثمَّ بالشَّرعِ؛ وذلك لأنَّ الشَّرعَ يختصُّ بالأنبياءِ الشَّرْعُ المذكورُ هنا الوحيُ الخاصُّ بالأنبياءِ، هذا السَّببُ أنَّه خاصٌّ بالأنبياءِ.

وهل كلُّ من كَلَّمَه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يكونُ نبيًّا؟

الجوابُ: نعم إذا كَلَّمَه اللهُ بشرعٍ كان نبيًّا، وإن كَلَّمَه بغيْرِ ذلك فقد يكونُ شيطانًا، أليس اللهُ تعالى خاطَبَ الشَّيطانَ قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥].

فإن قال قائلٌ: ما الحكمةُ في ذِكْرِ الخَلْقِ بعد الشَّرْعِ في الآياتِ؟

فالجوابُ: أقولُ: مما يدلُّ على أنَّ الاهتمامَ بالشَّرْعِ أَبْلَغُ والناسَ ما خُلِقُوا إلَّا للشَّرْعِ ما خُلِقَ النَّاسُ إلَّا للشَّرْعِ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات:٥٦].

قولُهُ: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ الوحْيُ هو ما يَحْصُلُ للرسولِ من الإلهامِ أو الرؤيةِ المناميَّةِ؛ لأنَّ أَصْلَ الوحيِ الإعلامُ بسرعةٍ وخفاءٍ، هذا أصْلُه في اللُّغةِ، فيكونُ ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾؛ أي: عن طريقِ الإلهام -وبيانُ الإلهامِ إما أن اللهَ يُوقِعُ في قَلْبِه، مِثْلَ قولِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إنه أُوحِيَ أنَّه قد أُلْقِيَ في رَوْعِي أنَّه لن تَمُوتَ نَفْسٌ حتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَها وأَجَلَها»[1]-؛ أو طريقِ المنامِ، أو من وراءِ حجابٍ يعني: يُكَلِّمُهُ اللهُ تعالى

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ١٦٦ رقم ٧٦٩٤)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٦)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مُكَالمةً صريحةً ولكن من وراءِ حجابٍ، والحجابُ المذكورُ هو النُّورُ كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ: «حجابُهُ النُّورُ لو كَشَفَه لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِه ما انتهى إليه بَصَرُه من خَلْقِه»[1]؛ وذلك لأنَّ البَشَرَ لا يستطيعُ رؤيةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في الدُّنيا.

وبعضُ المفَسِّرين قالوا: مُنَوِّرُ السَّمواتِ والأرضِ؛ لكنَّه خلافُ ظاهِرِ الآيةِ فيقالُ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النُّورِ:٣٥] وليس هو النُّورَ المخلوقَ بل هو عَزَّوَجَلَّ نورٌ وكلامُهُ نورٌ وحجابُهُ نورٌ.

قال موسى لربِّه عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ قال ذلك شوقًا ومحبَّةً، فقال اللهُ تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ أي: لن تستطيعَ ذلك ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ فنظر موسى إلى الجبلِ، فلما تَجَلَّى اللهُ له جَعَلَه دكًّا انْدَكَّ حتَّى ساوى الأرْضَ، فلمَّا رأى موسى هذا خَرَّ صَعِقًا؛ أي: غُشِيَ عليه من هَوْلِ ما وَجَدَ وعَدَمِ تَحَمُّلِه ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعرافِ:١٤٣] فإذن إذا أرادَ اللهُ أن يُكَلِّمَ أحدًا من الرسُلِ فلا بدَّ أن يَكُونَ هناك حِجابٌ.

القِسْمُ الثَّالثُ: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشُّورَى:٥١] وهو جبريلُ يُرْسِلُه إلى المُرْسَلِ إليه فيوحِي إلى هذا الرَّسولِ بإذنِ اللهِ تعالى ما يشاءُ، وإنَّما خَصَّصْناه بجبريلَ؛ لأنَّ جبريلَ موكَّلٌ بالوحْيِ وقد كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ يَسْتَفْتِحُ في صلاةِ اللَّيلِ بهذا الاستفتاحِ: «اللهمَّ رَبَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السَّمواتِ والأرضِ، عالِمَ الغيْبِ والشَّهادةِ، أنت تَحْكُمُ بين عبادِكَ فيما كانوا فيه يختلفون، اهْدِني لما اختُلِفَ فيه من الحقِّ بإِذْنِكَ، إنَّك تَهْدِي من تشاءُ

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إن الله لا ينام»، رقم (١٧٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إلى صراطٍ مستقيمٍ»[1]، هؤلاء الثَّلاثةُ كُلُّ واحدٍ منهم مُوَكَّلٌ بما فيه الحياةُ، جبريلُ بما فيه حياةُ القلوبِ، إسرافيلُ بما فيه حياةُ النَّاسِ للبعْثِ، ميكائيلُ بما فيه حياةُ الأرضِ الَّذي به يحيا البهائمُ والإنسانُ.

وقوله: ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: إِذْنِه القَدَرِيِّ ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أي: مِمَّا أوحاه اللهُ إلى هذا الرَّسولِ الَّذي بَعَثَه إلى الرَّسولِ البشريِّ.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عن صفاتِ المُحْدَثِين] هذا التفسيرُ تَفْسِيرٌ غلطٌ؛ لأنَّه يُوهِمُ أنَّ كلَّ صفةٍ للمخلوقِ لا تَثْبُتُ للخالِقِ، فالسَّمْعُ لا يَثْبُتُ للخالِقِ! والبصَرُ وكلُّ صفةٍ للمخلوقِ لا تَثْبُتُ للخالِقِ!! ولذلك لو قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّه عليٌّ عن صفاتٍ عن مماثَلَةِ المخلوقين وصفاتِ النَّقصِ لو قال هذا لكان أَهْوَنَ، مع أنَّنا نقولُ: إنَّه عليٌّ بذاتِهِ وصفاتِهِ فذاتُهُ فوق كلِّ شيءٍ وصفاتُهُ هي المَثَلُ الأعلى، هذا هو الصَّوابُ.

لكن المفَسِّرَ -عفا اللهُ عنه- يُفَسِّرُ القرآنَ على طريقِ الأشاعرةِ؛ لأنَّه منهم؛ فلذلك يُحَرِّفُ الكَلِمَ عن مواضِعِهِ ليُوَافِقَ مَذْهَبَهُ الباطِلَ وهذه آفةٌ قلَّ مَن يَسْلَمُ منها من أهْلِ العِلْمِ. تجدُ الرَّجُلَ يعتقدُ شيئًا ما في العقيدةِ أو في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ التَّكليفيَّةِ ثم يحاولُ في النُّصوصِ الَّتي تخالفُ ما ذهب إليه أن يَلْوِيَ أعناقَهَا إلى ما ذَهَبَ إليه فيجعلَ النُّصوصَ تابعةً، والواجبُ أن تكونَ متبوعةً، لكنَّ هذه آفةٌ ابتُلِيَ بها كثيرٌ من النَّاسِ.

وإنما نحن نقولُ: ﴿عَلِيٌّ﴾ يعني: بذاتِهِ وصفاتِهِ عن كلِّ نقْصٍ، أمَّا عن صفاتِ المُحْدَثِين؛ فهذا من الغرائبُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وقول المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [: ﴿حَكِيمٌ﴾ في صُنْعِه] هذا أيضًا ناقصٌ، بل هو حكيمٌ في صُنْعِه حكيمٌ في شَرْعِه، والحكمةُ في الشَّرْعِ أَبْلَغُ من الحكمةِ في الصُّنْعِ؛ لأنَّ الصُّنْعَ أمرٌ كَوْنِيٌّ لا طاقةَ للإنسانِ في تغييرِه ولا في الحيادةِ عنه أمَّا الأمْرُ الشَّرعيُّ، فهو الَّذي محلُّ التَّلاعُبِ من البشرِ، فنقولُ للبشرِ: لا تتلاعبوا بأحكامِ اللهِ فإنَّها صادرةٌ عن حِكْمَةٍ. إذن يُعْتَبَرُ تفسيرُ المفسِّرِ الَّذي قَصَرَه على الحِكْمةِ القَدَرِيَّةِ في صُنْعِ اللهِ تفسيرًا ناقصًا، فنقولُ: حكيمٌ في صُنْعِه وشرْعِه.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ عظمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنَّه لا يستطيعُ البشرُ أن يُكَلِّمُوه بلا واسطةٍ إمَّا رسولٍ أو حجابٍ؛ لقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشُّورَى:٥١].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ تكليمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وقد سبق الكلامُ عليه فلا حاجَةَ إلى إعادتِهِ وبيَّنَّا أنَّ كلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كلامٌ بحرفٍ وصوتٍ مسموعٍ وأنَّ ذلك من كمالِهِ، وليس كما يَزْعُمُ الزاعمون أنَّه من النَّقْصِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ إيحاءَ اللهِ تعالى على ثلاثةِ أوْجُهٍ:

الأوَّل: وحيُ إلهامٍ.

والثَّاني: تكليمٌ من وراء حجابٍ.

والثَّالثُ: إرسالُ رسولٍ يوحِي إلى المُرْسَلِ إليه ما شاء اللهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ مشيئةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِهِ: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ عُلُوِّه بقِسْمَين: العلوِّ الذاتِيِّ، والعلوِّ الوصفيِّ.

فأمَّا علوُّ الذاتِ فهو أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فوق كلِّ شيءٍ، وأمَّا علوُّ الوصْفِ فهو أنَّ جميعَ صفاتِه عُليا ليس فيها نقصٌ بوجْهٍ من الوجوه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ الحِكْمةِ في شَرْعِه وخَلْقِه، وإثباتُ الحُكْمِ الكَوْنِيِّ والشَّرعِيِّ؛ لأنَّه تقدَّم أنَّ كَلِمَةَ حكيمٌ تعني الحُكْمَ والحِكْمَةَ.

الآيتان (٥٢، ٥٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشُّورَى:٥٢-٥٣].

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثْلَ إيحائِنا إلى غيْرِك من الرُّسلِ أَوْحَيْنَا إليك]. (كذلك) تأتي في القرآنِ كثيرًا، وحَسَبَ كلامِ المفَسِّرِ أنَّ الكافَ اسمٌ بمعنى مِثْلٍ، فتكونُ مصدرًا لفعلٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: مِثْلَ ذلك. ثم تُفَسِّرُ الفِعْلَ بما يناسِبُ المقامَ؛ أي: مِثْل إيحائِنا لمن سبق من الرُّسُلِ.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا مُحَمَّدُ]. أفادنا بقولِهِ: [يا مُحَمَّدُ] أنَّ الخِطابَ هنا خاصٌّ بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ ولا يتعدَّاه إلى غيْرِه. ﴿رُوحًا﴾ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو القرآنُ به تحيا القلوبُ] صَدَقَ المرادُ بالرُّوحِ هنا القرآنُ؛ لأنَّه تحيا به القلوبُ.

وقولُهُ: ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الَّذي نوحيه إليك] يعني: مما نأْمُرُ به، ويحتملُ أن يَكُونَ الأمرُ هنا واحدَ الأمورِ لا واحدَ الأوامِرِ؛ أي: من شَأْنِنا.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ تَعْرِفُ قبل الوحْيِ إليك ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾

القرآنُ ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾؛ أيْ: شرائِعُه ومَعالِمُه].

أوحى اللهُ إلى نَبيِّه نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مِن أمْرِه -سواءٌ قلنا: واحدُ الأمورِ أو واحدُ الأوامِرِ-، وأخبر أنَّ للهِ المِنَّةَ الكبرى عليه في ذلك؛ لأنَّه كان قبل هذا ما يدري؛ أي: ما يَعْلَمُ أو ما يَعْرِفُ ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ كَلِمَةُ ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ يحتملُ أنَّ المرادَ بها ما الكتابةُ، ويحتملُ أن يُرادَ بذلك ما ذكره المفَسِّرُ وهو القرآنُ، أمَّا الأوَّلُ فلأنَّ اللهَ تعالى قال في نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨]، وأمَّا كونُ المرادِ به القرآنَ فهذا أمثلتُه كثيرةٌ.

المهمُّ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ لم يكن يَعْرِفُ حتَّى الكتابةَ، لا يَكْتُبُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولم يَكُنْ يَعْرِفُ أيضًا الوحْيَ قبل أن يُوحَى إليه.

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: شرائعُهُ ومَعالِمُه] يعني: وما كُنْتَ تدري عن شرائِعِ الإيمانِ، فلم يَكُنِ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ يدري عما شَرَعَه اللهُ له في هذه الشَّريعةِ كاملةً قَبْلَ ذلك.

ثم قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [والنَّفيُ مُعَلِّقٌ للفِعْلِ عن العملِ وما بعده سَدَّ مَسَدَّ المفعولَيْن] الجملةُ هذه للإعرابِ، كلمةُ ﴿تَدْرِى﴾ تَنْصِبُ مفعولَيْن، فهل بَعْدَها شيءٌ منصوبٌ؟ لا، بَعْدَها (ما) استفهاميَّةٌ مبتدأٌ و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ خَبَرُه، ليس فيها شيءٌ منصوبٌ، إذا جاءتِ الجملةُ الاستفهاميَّةُ في محلِّ المفعولَيْن، فإنَّها تُعَلِّقُ الفِعْلَ عن العملِ ظاهرًا، ولكنَّ الجُمْلَةَ تَكُونُ في محلِّ نَصْبٍ، إذن الاستفهامُ هنا عَلَّقَ الفِعْلَ عن العملِ وما بَعْدَه سدَّ مَسَدَّ المفعولَيْن.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: الرُّوحَ أو الكتابَ] يعني: جعلنا الكتابَ الَّذي أَوْحَيْنا إليك أو الرُّوحَ الَّذي أَوْحَيْنا إليك، والمعنى لا يَختلفُ.

وقوله: ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ اللهمَّ اهْدِنا به! النُّورُ يَهْتَدي به النَّاسُ، ومنه قولُ الخنساءِ في أخيها:

وإن صخرًا لتأتمُّ الهُداةُ به ... كأنه عَلَمٌ في رَأْسِه نارُ[1]

يعني: أنَّ النَّارَ تَجْعَلُ علامةً على الشَّيءِ إذا كان النَّاسُ في البَرِّ أَوْقَدُوا في اللَّيلِ نارًا على رأسِ جَبَلٍ أو على رأسِ أَكَمَةٍ؛ حتَّى يهتديَ بها من يُرِيدُهم. يقولُ: ﴿جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ [الشُّورَى:٥٢] نَهدي بهذا النُّورِ من نشاءُ وهذا مبنيٌّ على حكمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسانِ:٣٠] فالحريُّ أن يُهْدى بهذا النُّورِ من تَمَسَّكَ به وعَمِلَ بما فيه، تصديقًا للأخبارِ، وتنفيذًا للأحكامِ، من فَعَلَ هذا صار القرآنُ له نورًا يهتدي به، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [مُحَمَّدٍ:١٧]. وأمَّا من أَعْرَضَ عنه -والعياذُ باللهِ- فإنَّه سيكونُ حُجَّةً عليه ولا يَنْتَفِعُ به.

وقوله: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ قولُهُ: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ هل المرادُ العبوديَّةُ العامَّةُ أو الخاصَّةُ؟

الجوابُ: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ هذه تَقْسِمُ النَّاسَ إلى قِسْمَين: مهتدٍ وضالٍّ، فيكونُ ﴿عِبَادِنَا﴾ المرادُ به العبوديَّةُ العامَّةُ؛ لأنَّه جَعَلَ العبوديَّةَ هذه قِسْمَيْنِ

---

(١) ديوان الخنساء ط دار المعرفة (ص:٤٦).

مهتدٍ وضالٌّ ﴿مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ﴾ يعني: يا مُحَمَّدُ. ﴿لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تدعو بالوحْيِ إليك إلى صراطٍ مستقيم] لو أنَّ المفسِّرَ قال: ﴿لَتَهْدِىٓ﴾ أي: تدلُّ لكان أَوْضَحَ وأَخْصَرَ ﴿لَتَهْدِىٓ﴾ بمعنى تدلُّ فهي هدايةُ الدِّلالةِ. إنَّما قال: [تدعو بالوحْيِ إليك] ولكنَّ هذا لا يكفي؛ لأنَّه لو دعا فهل يهتدي النَّاسُ، لكن إذا قلنا: تدلُّ فقد وَضَّحَ الطَّريقَ ودلَّ عليه، ثمَّ ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الزُّمَرِ:٤١].

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ طريقٍ ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ يقولُ: دينُ الإسلامِ] وصَدَقَ الصِّراطُ المستقيمُ بَعْدَ بعثةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ، هو دِينُ الإسلامِ.

وقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ هذه بَدَلٌ من قولِهِ: الصِّراطِ المستقيمِ، وقولُهُ: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ أضافه اللهُ تعالى إلى نفْسِه؛ لأنَّه الَّذي وَضَعَه لعباده؛ ولأنَّه مُوَصِّلٌ إليه، فأُضيفَ إلى اللهِ باعتبارين:

الأوَّلُ: أنَّه الَّذي وَضَعَه للعِبادِ وشَرَعَه لهم.

والثَّاني: أنَّه مُوَصِّلٌ إليه.

وقوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: قويمٍ غَيْرِ مُعْوَجٍّ ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿لَهُۥ﴾ الجارُّ والمجرورُ خبرٌ مُقَدَّمٌ و﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدأٌ مؤخَّرٌ، وتقديمُ الخبرِ يُفيدُ الحَصْرَ؛ أي: له وحده ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ.

قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُلْكًا وخَلْقًا وعَبِيدًا] لو قَدَّمَ المفسِّرُ [خَلْقًا] على [مُلْكًا] لكان أَحْسَنَ؛ لأنَّ الخَلْقَ سابقٌ على المُلْكِ، ولكنِ الخُلْفَ في هذا سهلٌ، وقولُهُ:

[عَبِيدًا] يعني: تدبيرًا يُدَبِّرُهُم ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشُّورَى:٥٣] ﴿أَلَآ﴾ هنا أداةُ استفتاحٍ والمقصودُ بها التَّنبيهُ والتَّأكيدُ.

وقولُهُ: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ مفعولٌ ﴿تَصِيرُ﴾ مُقَدَّمٌ عليها لإفادةِ الحَصْرِ؛ أي: إلى اللهِ لا إلى غَيْرِه ﴿تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ أي: شؤونُ الخَلْقِ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ أنَّ هذا القرآنَ الكريمَ روحٌ تحيا به القلوبُ، وعلى هذا فإذا وَجَدْتَ قَلْبَكَ مَيِّتًا أو وَجَدْتَه مريضًا أو وَجَدْتَه قاسيًا فعليك بالقرآنِ، اقرأْه عن محبَّةٍ وتَدَبُّرٍ فسيتغيَّرُ القلبُ، من مرضٍ إلى صِحَّةٍ، ومن موتٍ إلى حياةٍ، ومن قسوةٍ إلى لِينٍ. قال ابنُ عَبْدِ القويِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وحافِظْ على دَرْسِ القُـرَانِ فإنـه ... يُلَيِّنُ قلبًـا قاسـيًا مِثْـلَ جَلْمَـدِ[1]

أيْ: مِثْلَ الحصى، ويدُلُّ عليه هذه الآيةُ.

مسألةٌ: إذا كان الإنسانُ يَقْرَأُ كُتُبَ العلماءِ ثم يَرِدُ عليه نسيانُ بعضِ الأقوال، فهل يُفَرَّقُ بَيْنَ نسيانِ القرآنِ ونسيانِ غيرِهِ؟

فالجوابُ: النِّسْيانُ لا يخلو منه الإنسانُ حتى إنَّ النَّبيَّ ﷺ قَرَأَ ذاتَ يومٍ ونَسِيَ آيةً من كتابِ اللهِ[2]. فلا أحدَ يَسْلَمُ منه، لكنَّ القرآنَ تَجِبُ العنايةُ به أَكْثَرَ؛ لأمْرِ النَّبيِّ ﷺ بتَعَهُّدِه، والقرآنُ أكثرُ الأشياءِ نسيانًا، يعني أنْ تَحْفَظَ مثلًا مَتْنًا من متونِ الفِقْهِ

---

(١) انظر: الآداب الشرعية لابن مفلح (٣/ ٥٩٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٧٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الفتح على الإمام في الصلاة، رقم (٩٠٧)، من حديث المسور بن يزيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لا يحتاجُ إلى تَعَهُّدٍ كثيرٍ، أمَّا القرآنُ فلا بدَّ أن تَتَعَهَّدُه كثيرًا وإلَّا نَسِيتَهُ، قال النَّبيُّ ﷺ: «**تَعَهَّدُوا بالقرآنِ، فوالَّذي نفسي بيَدِه لهو أشدُّ تَفَصِّيًا -أو تَفَلُّتًا- من الإِبِلِ في عُقُلِهَا**»(١).

والحكمةُ من أنَّ القرآنَ يُنْسَى أكثرُ من غيرِهِ:

أوَّلًا: الابتلاءُ؛ لِيَعْلَمَ اللهُ تبارك تعالى من هو راغبٌ في حِفْظِ القرآنِ ومن هو غيرُ راغبٍ.

ثانيًا: كثرةُ الأجْرِ والثَّوابِ بترداده، فإنَّ في كلِّ حرفٍ عَشْرَ حسناتٍ.

ثالثًا: أن يَبْقَى ذِكْرُ اللهِ تعالى في القلْبِ؛ لأنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ، فإذا كنْتَ تقرأُ القرآنَ فكأنَّما تُنَاجي اللهَ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّكَ تقرأُ كلامَه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ ولهذا جَعَلَ اللهُ تعالى من الحكمة أن يُنْسَى سريعًا؛ حتَّى تَحْرِصَ عليه.

فإن قال قائلٌ: عندما جاء النَّبيَّ ﷺ مَلَكَانِ في المنامِ، فرأَى أنَّه مَرَّ على قومٍ يُعَذَّبُون في قبورِهِم، منهم رجلٌ آتاه اللهُ القرآنَ فنام عنه باللَّيلِ ولم يَعْمَلْ به في النَّهارِ(٢)، فهل هذا يَدُلُّ على وجوبِ قيامِ اللَّيلِ لصاحِبِ القرآنِ؟

فالجوابُ: لا يَجِبُ، ولعلَّ هذا الرَّجُلَ له صفةٌ خاصَّةٌ، أو يُقالُ: نام عنه في اللَّيلِ، يعني عن الواجبِ فيه، كصلاةِ العِشاءِ مثلًا وصلاةِ الفجْرِ؛ لأنَّ المنافقين لا يُصَلُّون الفجْرَ ولا العِشاءَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده، رقم (٥٠٣٢)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الأمر بتعهد القرآن، رقم (٧٩٠)، من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم (١٣٨٦)، من حديث سمرة بن جندب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

مسألة: قيل: إن الإمامَ الشَّافعيَّ كان يَخْتِمُ القُرْآنَ في اليومِ مَرَّتَيْنِ في رمضانَ[1] فهل هذا يُعْتَبَرُ مُخَالَفَةً للسُّنَّةِ؟

فالجوابُ: لا؛ لأنَّ هذا من الأمورِ العارضةِ، هذا لا يُخَالِفُ السُّنَّةَ، الأمورُ العارضةُ لا تُعْتَبَرُ كالأمورِ الدائمةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ القرآنَ من أمْرِ اللهِ وينبني عليها أنَّه ليس بمخلوقٍ، وجْهُ ذلك: قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، فَفَصَلَ الخَلْقَ عن الأمْرِ وجَعَلَه قسيمًا له، فدلَّ ذلك على أنَّ الأمْرَ ليس من الخَلْقِ، وهذا هو المرادُ.

فهذه الآيةُ مما يُسْتَدَلُّ به على طائفتَيِ المُعتزِلَةِ والأشعريَّةِ الَّذين يقولون: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ.

وجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ جعل الأمْرَ قسيمًا للخَلْقِ وقسيمُ الشَّيْءِ منه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تعظيمُ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ نفْسَه؛ لقولِهِ: ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ وقولِهِ: ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ وهو أَهْلٌ للتَّعظيمِ عَزَّوَجَلَّ أَهْلٌ للإكرامِ، وأَهْلٌ للثَّناءِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَبْلَ هذا الوحْيِ لا يدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ، وعليه يدلُّ قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضُّحى:٧] يعني: جاهلًا ﴿فَهَدَىٰ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيانُ مِنَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ على رسولِهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ بإنْزالِ القرآنِ الَّذي صار به عالمًا بالكتابِ وعالمًا بالإيمانِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان أمِّيًّا لا يَقْرَأُ ولا يَكْتُبُ، فيكونُ فيه إبطالٌ

---

(١) انظر: حلية الأولياء (٩/ ١٣٤)، وتاريخ بغداد (٢/ ٤٠٢).

لدعوى أنَّه صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ كاذبٌ؛ لأنَّه لا يستطيعُ أن يأتِيَ بهذا القرآنِ من عِنْدِه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جَعَلَ الكتابَ نورًا يَهدي به من يشاءُ.

وينبني على هذه الفائدةِ: أنَّك إذا أردْتَ أن يستنيرَ قلبُك ويحيا قلبُك فعليك بالقرآنِ، لكنْ قراءة تَدَبُّرٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثباتُ أنَّ الهدايةَ والضَّلالَ بمشيئةِ اللهِ؛ لقولِهِ: ﴿نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ يدلُّ على الصِّراطِ المستقيمِ؛ لقولِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فإن قال قائلٌ: ما الجَمْعُ بَيْنَ هذه الآيةِ وقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]؟

فالجوابُ: الهدايةُ في الآيةِ الثَّانيةِ هدايةُ التوفيقِ، فإن النَّبيَّ ﷺ لا يَمْلِكُ أن يَهْدِيَ أحدًا، وأمَّا الهدايةُ في الآيةِ الَّتي هنا فهي هدايةُ الدِّلالةِ، اقرأْ قوْلَ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فُصِّلَتْ:١٧] هديناهم هدايةَ دلالةٍ يعني: بَيَّنَّا لهم الحقَّ ودَلَلْنَاهم عليه ولكنَّهم -والعياذُ باللهِ- استحبُّوا العمى على الهدى، فلم يهتدوا.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ هَدْيَ النَّبيِّ ﷺ هَدْيٌ مستقيمٌ لا اعوجاجَ فيه؛ لقولِهِ: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فليس فيه اعوجاجٌ في الخَبَرِ، والاعوجاجُ في الخبرِ الكَذِبُ. وليس فيه اعوجاجٌ في الشَّرائِعِ، بل كلُّها مَبْنِيَّةٌ على العدْلِ والفضْلِ والحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الإشارةُ إلى أنَّ ما خالف هَدْيَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ فليس صراطًا مستقيمًا، تُؤْخَذُ من مَفْهُومِ قَوْلِه: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني: ما سوى ما أنت عليه فليس صراطًا مستقيمًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: تعظيمُ شَأْنِ دينِ اللهِ الَّذي يدعو إليه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ؛ لقولِهِ: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشُّورَى:٥٣].

فإن قال قائلٌ: كيف نَجْمَعُ بَيْنَ هذه الآيةِ وبَيْنَ قولِهِ تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦-٧] وهنا يقولُ: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾؟

فالجوابُ: أنَّه يُضافُ إلى اللهِ باعتبارٍ، ويُضافُ إلى الَّذين أَنْعَمَ اللهُ عليهم باعتبارٍ آخَرَ، فإضافتُهُ إلى اللهِ باعتبارِ أنَّه وَضَعَه وأنَّه يُوَصِّلُ إليه، وباعتبارِ إضافتِهِ إلى الذين أنعَمَ علَيهم أنَّهم سالِكُوه المؤمِنون به. اللهمَّ اجْعَلْنَا منهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: عمومُ مُلْكِ اللهِ واختصاصِه بهذا المُلْكِ، العمومُ من قولِهِ: ﴿مَا﴾ فإنَّ (ما) اسمٌ موصولٌ يدلُّ على العمومِ واختصاصِه به من تقديمِ الخبرِ على المبتدأ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الإشارةُ إلى أنَّ اللهَ تعالى يَحْكُمُ ما يشاءُ وأنَّه لا اعتراضَ على حُكْمِه؛ لقولِهِ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فأتى بعمومِ المُلْكِ بعد ذِكْرِ الصِّراطِ المستقيمِ إشارةً إلى أنَّ ما حَكَمَ به تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا اعتراضَ عليه فيه؛ لأنَّ اللهَ له مُلْكُ السَّمواتِ والأرضِ يَخْلُقُ ما يشاءُ ويُشَرِّعُ ما يشاءُ؛ ولهذا تَجِدُ بعضَ أهلِ العِلْمِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ إذا لم يهتدوا إلى عِلَّةِ الحُكْمِ قالوا: هذا تَعَبُّدِيٌّ؛ يعني: علينا أن نَتَعَبَّدَ به وإن لم نَعْلَمِ الحِكْمَةَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: بيانُ أنَّ الأمورَ كُلَّهَا تصيرُ إلى اللهِ؛ أي: تَرْجِعُ إليه خَلْقًا ومُلْكًا وتدبيرًا وحُكمًا، كلُّ شيءٍ يرجعُ إلى اللهِ إذا اختلفْنا في حُكْمٍ في مسألةٍ من مسائِلِ العِلْمِ نَرْجِعُ إلى اللهِ، إذا كان يومُ القيامةِ يُبْعَثُ الخلائقُ ويرجعون إلى اللهِ.

إذن ﴿تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ يعني: كُلُّ الأمورِ تَصيرُ إلى اللهِ تَرْجِعُ إليه، فهو منه المُبْتدأُ وإليه المُنْتهى تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وبهذا تَمَّ تفسيرُ سورةِ الشُّورَى ويكونُ الموقفُ إن شاءَ اللهُ على سورةِ الزُّخْرُفِ.

نسألُ اللهَ تعالى أن يَخْتِمَ لنا ولكم بالسعادةِ، وأن يَرْزُقَنَا فَهْمَ كتابِهِ على الوجْهِ الَّذي يرضاه عنا، وأن يَجْعَلَنا ممَّن يتلونه حقَّ تلاوتِه.

***

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة
«اقْـرَؤُوا الزَّهْراوَيْنِ»	١١
«مَنِ اقتطعَ شِبْرًا مِنَ الأرضِ ظُلْمًا طَوَّقَه اللهُ به يومَ القيامةِ من سبْعِ أَرَضِينَ»	٢٤
«اللهُمَّ ربَّ السَّمواتِ السَّبعِ وما أَظْلَلْنَ وَرَبَّ الأرَضينَ السَّبْعِ وما أَقْلَلْنَ»	٢٤
«طُوِّقَهُ يومَ القيامةِ من سَبْعِ أَرَضِين»	٢٤
«سبحانَ ربِّيَ الأعلى»	٢٨
«أين اللهُ؟»	٢٨
«أَلَا هل بَلَّغْتُ؟»	٢٨
«وإنَّ فضلَ العرشِ على الكرسيِّ كفضلِ الفلاةِ على هذه الحلْقَةِ»	٣٠
«أَطَّتِ السمـاءُ وحُقَّ لَـهَا أن تَئِطَّ، ما من موضعِ أربعِ أصابعَ منها إلا وفيه مَلَكٌ قَائِمٌ للهِ، أو راكعٌ، أو ساجدٌ»	٣٨
«للعامِلِ فيهنّ أجرُ خمسين منكم»	٤٥
«كلِمتانِ حَبيبتان إلى الرحمنِ، خفيفتان على اللسانِ، ثقيلتان في الميزانِ: سبحانَ اللهِ وبحمْدِه، سبحانَ اللهِ العظيمِ»	٤٦
«تَعِسَ عبْدُ الدينارِ، تَعِسَ عبْدُ الدرهمِ، تَعِسَ عبْدُ الخَمِيصةِ، تعس عبد القَطِيفَة»	٥٠
«أَبْشِرُوا إنكم في أُمَّتَيْنِ ما كانتا في شيءٍ إلا كَثَّرَتَاه، يأجوجَ ومأجوجَ»	٦١
«أنتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بكِ مَن أشاءُ»	٦٧

«ألمْ تسمعوا قولَ الرجلِ الصالحِ إن الشركَ لظُلْمٌ عظيمٌ» ٦٧
«القدرية مجوسَ هذه الأمَّةِ» ٧٠
«أنتِ رحمتي أَرْحَمُ بكِ من أشاءُ» ٧٢
«اثنتان في الناسِ هما بهم كُفْرٌ: الطعنُ في النَّسَبِ، والنِّياحةُ على الميِّتِ» ٧٥
«أنتم أَعْلَمُ بأمورِ دنياكم» ٨٨
«عليكم بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخلفاءِ الراشدين المَهْدِيِّينَ من بَعْدي» ٩٣
«من اقْتَطَعَ شبرًا من الأرضِ ظلمًا طَوَّقَهُ اللهُ به يومَ القيامةِ من سَبْعِ أرَضين» ٩٥
«إني فرضتُ عليك خمسين صلاةً» ١٠٥
«اللهمَّ فَقِّهْهُ في الدينِ وعَلِّمْه التأويلَ» ١١٠
«ما أحبُّ أن تُنْزِلُوني فوق منزلتي التي أَنْزَلَني اللهُ» ١١١
«حِجَابُهُ النورُ لو كَشَفَه لأحرقتْ سُبُحَاتُ وَجْهِه ما انتهى إليه بَصَرُهُ من خَلْقِه» ... ١١٧
«إنَّ مِن عبادِي لو أَغْنَيْتُه لأَفْسَدَه الغِنى، وإنَّ مِن عِبادِي لو أَفْقَرْتُه لأفْسَدَه الفقرُ» . ١٢٥
«يُمْسِي الإنسانُ كافرًا ويصبحُ مؤمنًا ويُمْسِي كافرًا» ١٢٦
«أنَّ الخَلْقَ يومَ القيامةِ يأتون إلى نوحٍ لِيَشْفَعَ لـهم، فيقولون له: أنت أوَّلُ رسولٍ أرسله اللهُ» ١٢٨
«إنما أَهْلَكَ من كان قَبْلَكُم الْغُلُوُّ» ١٣٠
«مَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي فليس مني» ..... ١٣٣، ١٣٤
«ما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضْتُهُ عليه» ١٣٧
«من تَقَرَّبَ إليَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إليه ذراعًا، ومن تَقَرَّبَ إليَّ ذراعًا تَقَرَّبْتُ إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» ١٣٧

«ألا أحدَ يؤويني -أو كَلِمَةً نَحْوَها- حتى أُبَلِّغَ رسالةَ ربي، فإن قريشًا منعوني أن أُبَلِّغَ كلامَ ربي» ١٤١
«لا يُؤْمِنُ أحدُكُم حتى يكونَ هواه تبعًا لما جئتُ به» ١٥٥
«هل لك من إبِلٍ؟» ١٦٨
«ما المسؤولُ عنها بأعلمَ من السائلِ» ١٦٩
«سبحانَ رَبِّيَ الأعلى» ١٧١
«سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعلى» ١٧١
«أَعْتِقْهَا فإنها مؤمنةٌ» ١٧١
«ألا هل بَلَّغْتُ؟» ١٧١
«أتشْهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأن محمدًا رسولُ اللهِ؟» ١٧٦
«يَنْزِلُ رَبُّنا إلى السماءِ الدُّنْيا حين يبقى ثُلُثُ الليلِ الآخِرُ» ١٨٤
«نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناسِ الصِّحَّةُ والفراغُ» ١٨٩
«أتاكم يُعَلِّمُكُم دينكُم» ١٩٠
«إنَّ اللهَ ليُملي للظالِمِ حتى إذا أَخَذَه لم يُفْلِتْهُ» ١٩١
«إنا لَسْنَا نَعْبُدُهم، قال: أليس يُحِلُّون ما حَرَّمَ اللهُ فتُحِلُّونه، ويُحَرِّمُونَ ما أحلَّ اللهُ فتحرِّمُونه؟ قال: بلى، قال: فتلك عبادتُهُم» ٢٠٣
«اسمعْ وأطِعْ ولو أَخَذَ مَالَكَ وضَرَبَ ظَهْرَكَ» ٢٠٥
«من أحبَّ أن يُبْسَطَ له في رزْقِه ويُنْسَأَ له في أثَرِه فَلْيَصِلْ رَحِمَه» ٢٠٦
«اللهمَّ مُقَلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلوبَنا على طاعَتِكَ» ٢١٣
«اللهمَّ مُصَرِّفَ القلوبِ صَرِّفْ قلوبَنا إلى طاعتِكَ» ٢١٣

«لا تنقطعُ الهجرةُ حتى تنقطعَ التوبَةُ، ولا تنقطعُ التوبةُ حتى تخْرُجَ الشمسُ من مَغْرِبِها» ٢٢١
«ألا وإن في الجسدِ مضغةً إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسدُ كلُّهُ، وإذا فسدتْ فسَدَ الجسدُ كلُّه» ٢٢٧
«إنها الإيمانُ باللهِ، وملائكتِه، وكتُبِه، ورسُلِه، واليومِ الآخِرِ، والقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ» .. ٢٢٧
«أنا أغنى الشركاءِ عن الشركِ من عَمِلَ عملًا أَشْرَكَ فيه معي غيري تركْتُه وشِرْكَه» ٢٢٨
«صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خَشِيتَ الصبحَ فصلِّ ركعةً تُوتِرُ لك ما قد صَلَّيْتَ الليلَ» ٢٣٠
«شاتُك شاةُ لحمٍ» ٢٣٠
«إن من عبادي من لو أغنيْتُه لأفسده الغنى، وإن من عبادي من لو أفقرْتُه لأفسده الفقرُ» ٢٣٤
«ليس السَّنَةُ أن لا تُمْطِرَ ولكن السَّنَةَ أن تُمْطِرَ فلا تُنْبِتُ الأرضُ شيئًا» ٢٣٧
«ليكونَنَّ من أمتي أقوامٌ يستحلُّونَ الحِرَّ والحريرَ والمعازفَ» ٢٣٧
«لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ من كان قَبْلَكم اليهودِ والنصارى» ٢٣٨
«الحمدُ للهِ على كلِّ حالٍ» ٢٣٩
«الحمدُ لله الذي بِنِعْمَتِه تتمُّ الصالحاتُ» ٢٣٩
«لولا لم تُذْنِبوا لَذَهَبَ اللهُ بكم ولجَاءَ بقومٍ يُذْنِبون فيستغْفِرون اللهَ فَيَغْفِرُ لهم» ٢٥٥
«كلُّ بني آدَمَ خطَّاءٌ وخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ» ٢٥٥
«اللهُمَّ اغْفِرْ لي ذنبي كُلَّه دِقَّه وَجِلَّه علانِيَتَه وسِرَّه وأوَّلَه وآخِرَه» ٢٥٥
«أَشَهِدْتَ معنا صلاةَ الفَجْرِ؟ قال: نعم، قال له: إنَّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» ... ٢٥٦

«الصَّلَواتُ الخمْسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ، مُكَفِّراتٌ لِـمَا بَيْنَهُنَّ مُجْتَنِبَاتٌ للكبائِرِ» ٢٥٦
«الْقرآنُ حُجَّةٌ لك أو عَلَيْكَ» ٢٥٧
«أفشُوا السَّلامَ بَيْنكم» ٢٥٧
«الإيمانُ أن تُؤْمِنَ باللهِ، وملائكتِه، وكتبِه، ورسُلِه، واليومِ الآخِرِ، والقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ» ٢٧٣
«إنَّ الدُّنْيا سِجْنُ المُؤْمِنِ وجَنَّةُ الكافِرِ» ٢٧٤
«ألا أُنَبِّئُكُمْ بأكبرِ الكبائِرِ؟» ٢٧٩
«تَبِيتُ وزَوْجُهَا سَاخِطٌ عليها فإن الله يَسْخَطُ عليها» ٢٧٩
«ليس منا من شَقَّ الجُيُوبَ ولَطَمَ الخُدُودَ ودعا بدعوى الجاهليَّةِ» ٢٧٩
«من غشَّ فليس منَّا» ٢٨٠
«لا يُؤْمِنُ من لا يَأْمَنُ جارُه بَوَائِقَه» ٢٨٠
«إذا شَرِبَ فاجْلِدُوه، ثمَّ إن شَرِبَ فاجْلِدوه، ثمَّ إن شَرِبَ فاجْلِدُوه، ثمَّ إن شَرِبَ الرَّابعةَ فاقْتُلُوه» ٢٨١
«لَا تَغْضَبْ» ٢٨٤
«إذا هَمَّ أَحَدُكُم بالأمْرِ فليصلِّ ركعتين» ٢٨٨
«لَعَنَ اللهُ من لَعَنَ وَالِدَيْهِ» ..... ٢٩٦، ٢٩٧
«لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ من كَانَ قَبْلَكُم» ٢٩٧
«أَدِّ الأمانةَ إلى مَنِ ائْتَمَنَكَ ولا تَخُنْ مَن خَانَكَ» ٣٠٠
«إنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حرامٌ» ٣٠٦

«يا عمُّ قلْ: لا إلهَ إلَّا اللهُ كلمةً أحاجُّ لك بها عند اللهِ» ٣١٦
«ولولا أنا لكان في الدَّرْكِ الأسفلِ من النَّارِ» ٣١٧
«لا تَقْرَأْه في أقلَّ من ثلاثةِ أيامٍ» ٣٢١
«اللهمَّ رَبَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السَّمواتِ والأرضِ، عالِمَ الغَيْبِ والشَّهادةِ، أنت تَحْكُمُ بين عبادِك فيما كانوا فيه يختلفون، اهْدِني لما اختُلِفَ فيه من الحقِّ بإذْنِكَ، إنَّك تهدي من تشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ» ..... ٣٢٣، ٣٤٩
«إنَّ اللهَ إذا أَنْعَمَ على عبْدِه نعمةً يُحِبُّ أن يرى أَثَرَ نِعْمَتِه عليه» ٣٣٠
«واعلمْ أنَّ النَّصْرَ مع الصَّبْرِ، وأنَّ الفَرَجَ مع الكَرْبِ، وأنَّ مع العُسْرِ يُسْرًا» ٣٣٧
«أنَّ المرأةَ إذا مات لها ثلاثةٌ من الولدِ كان لها سِتْرًا من النارِ» ٣٤٠
«حجابُهُ النُّورُ لو كَشَفَه لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِه ما انتهى إليه بَصَرُه مِن خَلْقِه» ..... ٣٤٦، ٣٤٩
«إنه أُوحِيَ أنَّه قد أُلْقِيَ في رَوْعِي أنَّه لن تَمُوتَ نَفْسٌ حتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَها وأَجَلَها» ...٣٤٨
«تَعَهَّدُوا بالقرآنِ، فوالَّذي نفسي بيَدِه لهو أشدُّ تَفَصِّيًا -أو تَفَلُّتًا- من الإبِلِ في عُقُلِهَا» .٣٥٨

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة
حث طلَّابَ العلمِ على تعلُّمِ تفسيرِ القرآنِ	٧
أَحْسَنُ ما عَلِمْتُ (تفسير ابْنِ كَثِيرٍ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ	٨
المكي ما نَزَلَ بعْدَ الهجرةِ ولو في مكَّةَ	٩
ترتيبُ السُّوَرِ بَعْضُه توقيفيٌّ وبَعْضُه غيرُ توقيفيٍّ، ترتيبُ الآياتِ توقيفيٌّ	٩
سُمِّيت القطعةُ أو الجملةُ من القرآنِ آيةً؛ لأنَّها مُعجِزةٌ	١١
لا يُوجَدُ في القرآنِ شيءٌ ليس له معنًى معلومٌ لجميعِ الناسِ	١٢
الأصلُ عدمُ التقديرِ؛ لأنَّ القرآنَ كاملٌ لا يحتاجُ إلى تقديرٍ إلا ما دعتِ الضَّرُورةُ إليه	١٥
الحُكْمُ ينقسمُ إلى: حُكْمٍ قَدَرِيٍّ، وحُكْمٍ شَرْعِيٍّ	٢٠
تقديم ما حقُّهُ التأخيرُ يقتضي الحصرَ والاختصاصَ	٢٣
الأَرَضُونَ لم تأتِ في القرآنِ إلا مفردةً باعتبارِ الجنسِ	٢٤
مُلْك الإنسانِ في الشيءِ ليس مُلْكًا مطلقًا	٣٢
عُلُوُّ الصفةِ يشمل عُلُوَّ القَدْرِ وعلوَّ القَهْرِ، وجميعَ أنواعِ العُلُوِّ	٣٥
نؤمنُ بأن الملائكةَ أجسامٌ، وأن الشياطينَ أجسامٌ، لكنْ لا نَعْرِفُ كَيْفِيَّتَهم	٤١
العامُّ المخصوصُ هو الذي أُريدَ عمومُهُ أولًا، ثم أُخْرِجَ بعضُ أفرادِه	٤٢
الملائكةُ أفضلُ باعتبارِ البدايةِ؛ لأنَّهم خُلِقُوا من نورٍ وبنو آدمَ من طينٍ؛ ولأنهم في	

عبادةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لكنهم باعتبارِ النهايةِ الْبَشَرُ أفضَلُ ٤٥
فضيلةُ الجمعِ بين التسبيحِ والتحميدِ ٤٦
الأسماءَ الحسنى تكونُ كاملةً بانفرادِها واجتماعِها ٤٨
بعضُ السُّنَنِ تَجِبُ على طالِبِ العِلْمِ إذا كان عَمَلُه إيَّاها إحياءً للسُّنَّةِ ٥٢
الآية أو الحديث إذا احْتَمَلَ معنييْن على السواءِ، ولا منافاةَ بينهما وَجَبَ أن يُحْمَلَ عليهما جميعًا ٥٥
المدح في العربِ إنما هو عربُ النَّسبِ ٥٦
القرآن كلامُ اللهِ غير مخلوق ٦٢
الناس جميعًا ينبغي أن يكونوا يتحدثون باللغةِ العربيَّةِ ٦٣
من الفُرْسِ والرومِ من كانوا أئمةً في الدينِ وأئمةً في العربيةِ ٦٣
كل فعلٍ أضافه اللهُ إلى مشيئتِهِ فلا بدَّ أن يكونَ لحكمةٍ ٦٦
الناس انقسموا بالنسبةِ لأفعالِ العبدِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ ٧٠
جميعُ النعيمِ كاملةً لأهلِ الجنةِ ٧٤
الذين يدعون إلى البدعةِ هؤلاء يجب تَجَنُّبُهُمْ ٧٦
الفرق بين (أَمِ) المتصلة، و(أم) المنقطعة ٧٨
ضمير الفصلِ حرفٌ وليس اسمًا، وله ثلاثُ فوائدَ ..... ٧٩، ٨٠
الوَلايةُ قسمان: عامَّةٌ، وخاصَّةٌ ٨٢
ادع اللهَ بكلِّ شيءٍ إلا ما حَرَّمَ اللهُ عليك الدُّعاءَ به ٨٣
لا مَرْجِعَ للقوانينِ، وأن القوانين المخالِفةَ لِحُكْمِ اللهِ باطلةٌ ٨٦
(ذلك) الكاف بحسبِ المخاطَبِ، واسمُ الإشارةِ بحَسَبِ المشارِ إليه ٨٩

التوكُّلُ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا يعني: إلغاءَ الأسبابِ..... ٩١
لا بُدَّ أن يكونَ اختلافٌ بيْنَ الناسِ..... ٩٢
تحريمُ الرجوعِ إلى القوانينِ البشريَّةِ عندَ الاختلافِ..... ٩٢
عِلْمُ الإنسان محدودٌ بالمشاهدةِ..... ١٠٠
الأشاعرةُ هم أكثرُ الناسِ انتشارًا في البلادِ الإسلاميَّةِ؛ ولهذا يجبُ أن نَعْرِفَ مَذْهَبَهُم..... ١٠٤
الأشعريةُ أثبتوا سبعَ صفاتٍ ونفوا ما سواها..... ١٠٥
﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعنى استولى تحريفٌ للكَلِمِ عن مواضِعِه..... ١٠٩
التأويل يُرادُ به التفسيرُ، فيدخلُ فيه التضمينُ..... ١١٠
النصارى سموا في الأخير أنفسَهم مسيحيين؛ ليضْفُوا على مِلَّتِهم المنسوخةِ أنها شرعيةٌ..... ١١١
الرافضةُ يرفضون اسمَ الرافضةِ ويغضبون عليك فسمُّوا أنفسَهم شيعةً..... ١١١
أما ابْنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فأنا رأيي فيه أنه ليس على طريقةِ الأشعريَّةِ..... ١١٤
السمعُ بمعنى: سَمْعُ الإدراكِ شاملٌ لكلِّ صوتٍ..... ١١٦
إذا سَمِعْتُمْ أسماءَ اللهِ وصفاتِهِ فليس المقصودُ أن نَعْلَمَ المعنى فقط، بل أن نَتَعَبَّدَ للهِ بها..... ١١٧
كلُّ اسمٍ من أسماءِ اللهِ فإنه متضمِّنٌ لشيئين: الأوَّلُ: إثباتُ كونِهِ اسمًا. والثاني: إثباتُ الصفةِ التي دَلَّ عليها..... ١٢١
الصفةُ أوسعُ من الاسم..... ١٢٣
ليس عطاءُ اللهِ أو مَنْعُه مُجَرَّدُ أنه أراد، لا، لا بدَّ أن يكونَ لحكمةٍ..... ١٢٦
البَسْط في اللغةِ يعني التوسيعَ والتكثيرَ..... ١٢٧

الرسول أخصُّ من النَّبيِّ ١٢٨
الدِّينُ يُطْلَقُ على مَعْنَيَيْنِ على العملِ وعلى الجزاءِ ١٣١
الواجبُ علينا أن نُزيلَ هذه الاختلافاتِ، وأن نَدَعَهَا، وأن نَتْرُكَ ما يُعَمِّرُ به كثيرٌ من الناسِ مجالسَهُم في سبِّ فلانٍ وفلانٍ، أو ذمِّ فلانٍ وفلانٍ ١٣٢
الشِّيعَةُ خلافُهُم متباينٌ مع أهْلِ السُّنَّةِ ١٣٥
هناك شِيعَة تُكَفِّرُ عليًّا وتُكَفِّرُ أبا بكرٍ، كلا الاثنين ١٣٥
أديان الأنبياءِ واحدةٌ؛ من نوحٍ إلى محمدٍ ﷺ ١٣٨
هل شَرْعُ من قَبْلَنا شرعٌ لَنا؟ ١٣٩
ما الفرقُ بين عبارةِ كلامِ اللهِ وحكايةً عن كلامِ اللهِ؟ ١٤٧
وجوبُ الدعوةِ إلى توحيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ١٥٤
هل اتباعُ الهوى محمودٌ أو مذمومٌ؟ ١٥٤
هل نُؤْمِنُ بأنَّ الكتُبَ التي في أيدي النَّصارى واليهودِ الآن هي الكتبُ النازلةُ على أنبيائِهم؟ ١٥٥
من الغلطِ العظيمِ الرجوعُ إلى الكتبِ التي تَعْبُرُ الرؤيا، وهو غلطٌ لأنَّ الرؤيا تختلفُ باختلافِ الرائي واختلافِ المرئيِّ الذي رُئِيتَ فيه ١٥٧
نُفَسِّرُ الغضَبَ: بأنه صفةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ لائقةٌ به، وليس كغضبِ المخلوقين ١٦٣
الغضبُ صفةُ مدحٍ في محلِّها ١٦٣
إثبات القياسِ ١٦٨
علوُّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ علوُّ ذاتٍ وعلوُّ صفاتٍ ١٧٠
العقل يدلُّ على علوِّ اللهِ ١٧٢

هل الأشاعرةِ من أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ؟ ١٧٧
التسلسلُ أصولُ الخلافِ فيه ثلاثةٌ: المنعُ في المستقبلِ والماضي، الجوازُ في المستقبلِ والماضي، الجوازُ في المستقبلِ والمنعِ في الماضي ١٧٩
مسألة المعِيَّة ١٨٥
مشيئة اللهِ عَزَّوَجَلَّ صادرةٌ عن عِلْمٍ وحكمةٍ ١٩٢
قَسَّمَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ العزَّةَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: عِزَّةَ القَدْرِ، وعزَّةَ القَهْرِ، وعزَّةَ الامتناعِ ... ١٩٤
لو أرادَ الإنسانُ بدراسَتِه أن ينالَ الإجازةَ -يعني: الشهادةَ- هل يكونُ ممن أرادَ حَرْثَ الدُّنْيا أو الآخرةِ؟ ٢٠١
الأمور المشروعةَ لا بدَّ أن يكونَ فيها إذنٌ من اللهِ ٢٠٤
الرَّدُّ على أولئك القومِ الجهلةِ الذين ينكرون كلَّ نظامٍ تسُنُّهُ الحكوماتُ ٢٠٥
صلة الرحمِ سببٌ لكثرةِ الرزقِ وسببٌ لطولِ العمرِ ٢٠٦
إثباتُ الأسبابِ ٢٠٧
القلب محلُّ الإدراكِ والعقلِ والتصرُّفِ ٢١٣
ما فُعِلَ في عَهْدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ ولم يُعْلَمْ أن النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ اطَّلَعَ عليه، فهل نَحْكُمُ بجوازِه؟ ٢١٤
إثباتُ الكلماتِ للهِ ٢١٥
الإنسان إذا عَلِمَ بأن اللهَ تعالى عليمٌ بما في قلْبِه فإنه سوف يُمْسِكُ عن كلِّ إرادةٍ سيئةٍ ٢١٦
الحُكْم في الدنيا على الظاهرِ والحُكمَ في الآخرةِ على الباطنِ ٢١٧
التوبة تقعُ كليَّةً وجزئيَّةً ٢١٩

شروطُ قَبُولِ التوبةِ خمسةٌ ٢١٩
الكافرُ حربيٌّ -ما لم يكن بيننا وبينه عَهْدٌ- فلنا أن نَقْتُلَه وله أن يَقْتُلَنا ٢٢٤
لا يكونُ العملُ صالحًا إلا إذا وافقَ الشريعةَ في أمورٍ ستةٍ: السببِ، والقَدْرِ، والكيفيَّةِ، والنَّوْعِ، والزمانِ، والمكانِ ٢٢٨
بَسْط الرزقِ وتضييقَهُ من عندِ اللهِ وحده ٢٣٥
وَلايةُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تنقسمُ إلى قسمين ٢٣٩
طبيعةُ الإنسانِ أنه لا يَصْبِرُ، فيستولي عليه اليأسُ والقنوطُ ٢٤٠
الفَرْقُ بين اليأسِ والقنوطِ ٢٤١
الطيورُ أعطاها اللهُ عَزَّوَجَلَّ قُوَّةَ نظرٍ بعيدةً، بدليلِ أنها ترى الحَبَّ وهي في جوِّ السماءِ ... ٢٤٤
كلُّ شيءٍ مفطورٌ على عقوبةِ الظالمِ الكاذِبِ ٢٤٥
السَّموات فيها دوابُّ كالأرضِ ٢٤٧
تأثيرُ الأسبابِ ثابتٌ بالشَّرعِ والعقْلِ والحِسِّ ٢٥١
جوازُ التعبيرِ بالبعضِ عن الكلِّ ٢٥٣
الرُّسُلُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ معصومون من كبائِرِ الذُّنُوبِ، والشِّرْكِ، وسفاسِفِ الأخلاقِ، أمَّا المعاصي الَّتي دُونَ ذلك فإنَّهم غَيْرُ معصومين منها، ولكنَّهم معصومون من الاستمرارِ فيها ٢٥٦
هل فائدةُ العِلْمِ أن يَكُونَ الإنسانُ نُسْخةً من كِتابٍ يَجْمَعُ في دماغِهِ ما يَجْمَعُ، أم فائدةُ العِلْمِ العَمَلُ؟ ٢٥٧
إذا رأيْتَ إنسانًا مشغولًا وتخشى أنك لو سَلَّمْتَ عليه شَوَّشْتَ عليه فلا تُسَلِّمْ ٢٥٨
أحوالُ الرياح ثلاثةٌ: إمَّا رياحٌ طَيِّبةٌ تسيرُ بها السَّفينةُ على ما ينبغي، وإمَّا رياحٌ عاصفةٌ تُغْرِقُ السَّفينةَ، وإمَّا سُكُونٌ فتقفُ رواكِدَ على ظَهْرِ الماءِ ٢٦٤

ذَمُّ المجادَلَةِ لإبطالِ الحقِّ، أمَّا المجادَلَةُ لإثباتِ الحقِّ فإنَّها واجبةٌ ٢٦٧
هل المجادلة تحصل بالغريزة أو بالمران؟ ٢٦٨
وجوبُ التَّوكُّلِ على اللهِ ٢٧٦
جواز التَّصرُّفِ في مالِ الغَيْرِ لمصلحةٍ ٢٧٧
حدُّ الكبيرةِ ٢٧٩
(ما) من أوسعِ الحروفِ معنًى؛ لأنَّ لها عَشَرَةَ معانٍ أو أَكْثَرَ ٢٨٢
صغائر الذُّنُوبِ لا تَنْقُصُ من كمالِ الإيمانِ ٢٨٣
هل الإصرارُ على الصَّغائِرِ يُحَوِّلُهَا إلى كبائِرَ؟ ٢٨٤
فُرِضَتِ الصَّلاةُ لَيْلَةَ المعراجِ، من اللهِ إلى الرَّسولِ بدون واسطةٍ، وهذا يَدُلُّ على أهَمِّيَّتِهَا ٢٨٧
مراعاةُ الأحوالِ الاجتماعيَّةِ، وأنَّ الأمورَ العامَّةَ يجبُ التَّشاوُرُ فيها ٢٨٧
إذا أَشْكَلَ على الإنسانِ الشَّيءُ هل يبدأُ بالاستخارةِ أو الاستشارةِ؟ ٢٨٨
للإنسانِ أن ينتقم لنفْسِه السَّيِّئَةِ بمِثْلِها لا يَزيدُ ٢٩٢
لا يجوزُ أن يَدْعُوَ على من ظلمه بأكثَرَ من مَظْلَمَتِهِ ٢٩٢
أحيانًا يموتُ الظَّالمُ ولم يُتقصَّ منه، فهل يجوزُ الدُّعاءُ عليه بعد موتِهِ؟ ٢٩٣
العدلُ في القصاص أن يَكُونَ المُعْتَبَرُ النِّسبةَ ٢٩٤
الَّذي يُقْتَصُّ به من الجراحاتِ كُلُّ عُضْوٍ مُسْتَقِلٍّ أو عَظْمٍ أو جُرْحٍ ينتهي إلى عَظْمٍ، والباقي فيه خلافٌ ٢٩٦
قولُهُ ﷺ: «يَسُبُّ أبا الرجُلِ فَيَسُبُّ أباه، ويَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ» لبيانِ الواقِعِ لا لبيانِ الحُكْمِ الشَّرْعِيِّ ٢٩٦

القاتلُ يُقْتَلُ بِمِثْلِ ما قَتَلَ به ٢٩٨
يَجِبُ أن تكونَ المُقَاصَّةُ على وَجْهِ العدْلِ ٣٠٠
الحثُّ على العفْوِ إذا كان إصلاحًا؛ فإن لم يكن إصلاحًا فالأخْذُ بالحزْمِ أَوْلى ٣٠١
فائدةُ حروفِ الجرِّ الزَّائدةِ ٣٠٤
ثبوتُ صفةِ المحبَّةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ ٣٠٤
الصِّفةُ الكاشفةُ معناها أنَّها كالتَّعليلِ لما سبق ٣٠٧
مَن نَصَرَ الإسلامَ ولو من الكافرين فله فَضْلٌ ٣١٧
الجمْعُ بين حديثِ: «لولا أنا» وبين النَّهْيِ عن «لو» ٣١٨
قِراءة القرآن حَسَبِ نشاطِ الشَّخص، لكن قال العُلَماءُ: ينبغي أن يَجْعَلَ حزبًا معينًا يتلوه كلَّ يومٍ تنظيمًا لقراءتِه ٣٢١
لابد أن يرجعَ الإنسانُ في طلبِ الهدايةِ إلى اللهِ تعالى وَحْدَهُ وأن يُعِيذَهُ من الضَّلالِ .. ٣٢٣
هل قولُهُ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشُّورَى:٤٨] منسوخٌ؟ ٣٢٩
من آثارِ النِّعمةِ الفَرَحُ ٣٣٠
الفَرَحَ نوعان: فَرَحُ أَشَرٍ وبَطَرٍ، فهذا مذمومٌ. وفَرَحٌ بنِعمةِ اللهِ تعالى مع التزامِ شريعتِه، فهذا ممدوحٌ ٣٣٠
الداعي عليه البلاغُ وليس عليه أن يَهْدِيَ النَّاسَ ولا يُمْكِنه ذلك ٣٣٢
وجوبُ الإبلاغِ ولم يُبَيِّنِ اللهُ تعالى الوسيلةَ للإبلاغِ ٣٣٤
لو أنَّ شخصًا أراد أن يَجْعَلَ له صفحةً في الإنترنتِّ فإنه يجوزُ، بالرغمِ من أنَّ الإنترنتَّ فيها أغانٍ وفيها مصائبُ ٣٣٤
حكم الدخول في الانتخاباتِ إذا كان البلدُ مَبْنِيًّا على الانتخاباتِ ٣٣٥

بعض النَّاسِ إذا رأى الموقفَ غَلَبَ فيه الشَّرُّ اسْتَحْسَرَ وتخلَّى، وهذا غلطٌ ٣٣٦
فضيلةُ تربيةِ البناتِ والصَّبْرِ على ذلك؛ هل هذا الفضْلُ يَثْبُتُ للأُمِّ أيضًا أو أنَّه خاصٌّ للأبِ؟ ٣٤٠
الجمْعُ بين قولِنا: إن مُلْكَ السَّمواتِ والأرضِ خاصٌّ باللهِ وإثباتِ المِلْكِيَّةِ لغيرِ اللهِ.. ٣٤١
هل يجوزُ أن تُسَمِّيَ ابْنَك أو بِنْتَك «هِبةَ اللهِ»؟ ٣٤٢
السِّقْط -يعني الحَمْلَ- إذا سَقَطَ بعد أن تُنْفَخَ فيه الرُّوحُ فَسمِّه ولو مات في الحالِ سَمِّه ٣٤٢
لو تَبَيَّنَ زوجُ المرأةِ عقيمًا فلها فَسْخُ النِّكاحِ ٣٤٣
البشرُ هم الآدمِيُّونَ سُمُّوا بشرًا؛ لأنَّ بَشَرَتَهُم باديةٌ إلَّا أن يستتروا ٣٤٥
قوةُ النَّاسِ يومَ القيامةِ لا تُنْسَبُ إليها قوةُ الدُّنْيا أبدًا ٣٤٧
هل كلُّ من كَلَّمَه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يكونُ نبيًّا؟ ٣٤٨
إيحاء اللهِ تعالى على ثلاثةِ أوْجُهٍ ٣٥١
هل يُفَرَّقُ بَيْنَ نسيانِ القرآنِ ونسيانِ غيرِهِ؟ ٣٥٧
الحكمةُ من أنَّ القرآنَ يُنْسَى أكثرُ من غيرِهِ ٣٥٨
قيل: إن الإمامَ الشَّافعيَّ كان يَخْتِمُ القُرْآنَ في اليومِ مَرَّتَيْنِ في رمضانَ فهل هذا يُعْتَبَرُ مُخَالَفَةً للسُّنَّةِ؟ ٣٥٩
إذا أردْتَ أن يستنيرَ قلبُك ويحيا قلبُك فعليك بالقرآنِ ٣٦٠

فهرس آيات السورة

الآية **الصفحة**

تقديم ٥

سورة الشورى ٩

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾ ١٢

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤﴾ ٢٣

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ ٣٧

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦﴾ ٤٩

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ ٥٤

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾ ٦٦

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٩﴾ ٧٨

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾ ٨٥

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ ٩٤

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ ١٢٤

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ ١٢٨

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ ١٤٣

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ ١٥٠

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ ١٥٩

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ ١٦٥

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ ١٨٦

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ ١٩١

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ ١٩٦

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ ٢٠٢

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ ٢٠٩

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ ..... ؟؟؟

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ٢٢٠

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾ ٢٢٧

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ ٢٣٤

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ ٢٣٨

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ ٢٤٤

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ ٢٥٠

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٣١﴾ ٢٦١

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ٣٣ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ٣٤ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٣٥﴾ ٢٦٤

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦﴾ ٢٧٢

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧﴾ .. ٢٧٩

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨﴾ ٢٨٦

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩﴾ ٢٩١

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ ٢٩٣

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١﴾ ٣٠٤

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢﴾ ٣٠٧

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ ٣١٠

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ٤٤ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ٤٥﴾ ٣١٣

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾ ٣٢٣

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ ٣٢٥

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ ٣٢٨

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ ٣٣٩

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ ٣٤٦

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ ... ٣٥٤

فهرس الأحاديث والآثار ٣٦٥

فهرس الفوائد ٣٧١

فهرس آيات السورة ٣٨١

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٥)

تفسير القرآن الكريم

سورة الزخرف

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٥)

تفسير القرآن الكريم

سورة الزخرف

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة الزخرف. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
١٨٢ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٤٥)
ردمك: ١ ـ ٤٨ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة الزخرف ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٣٠

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٣٠
ردمك: ١ ـ ٤٨ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من :
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْن) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[1]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخ مُحَمَّد بنِ صالِح العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَرِيم؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزَاء، ويُضَاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ فِي المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعِينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سورة الزخرف

الحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نَبيِّنا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِه وأصحَابِهِ، ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أمَّا بَعْدُ فإِنَّ تَفْسِيرَ القُرآنِ العَظِيمِ مِنْ أَهَمِّ وَاجِبَاتِ المُسلِمِينَ أَنْ يَعرِفُوا معْنَى كلَامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ الكَلَامَ إِذَا لَمْ يُفهَمْ معْنَاهُ لَا يُنتفَع بِهِ، والَّذِي يَقْرَأُ ولَا يَفْهَمُ بمنْزِلَةِ الأُمِّيِّ الَّذِي لَا يَقْرَأُ، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨] أَيْ: إِلَّا قِرَاءَةً، فسَمَّاهُم اللهُ أُمِّيِّينَ.

والقُرآنُ يُفَسَّر بالقُرآنِ، فإِنْ لَمْ يَكُنْ فبالسُّنَّةِ، فإِنْ لَمْ يَكُنْ فبأَقْوَالِ الصَّحابَةِ، ولا سِيَّما المَشهُورُون مِنْهُم بعِلْمِ التَّفسِير، فإِنْ لَمْ يَكُنْ فبِمَا قَالَهُ كِبَارُ التَّابعِينَ مِنْ أَهْلِ التَّفسِير، هَذِهِ هِيَ القَاعدَةُ الَّتِي مَشَى عَلَيْهَا أَهْلُ السُّنَّة والجَمَاعَةُ.

وأمَّا التَّفسِيرُ بالرَّأْيِ فمِنْهُمُ المُخطِئُ ومِنْهُمُ المُصِيبُ، ولكِنْ لَا يَجُوزُ للإنسَانِ أَنْ يُفسِّرَ القُرآنَ برَأْيِهِ، بمَعْنَى: أَنْ يُحوِّلَ القُرآنَ إِلَى رَأْيِهِ، فإِنَّ مَنْ قَالَ فِي القُرآنِ برَأْيِهِ فلْيَتَبوَّأْ مَقعَدَهُ مِنَ النَّارِ، مِثَال ذَلِكَ: الَّذِين يُفسِّرُونَ قَوْلَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] بأنَّهُما النِّعمَةُ، فهَؤُلاءِ قَالُوا فِي القُرآنِ برَأْيِهِمْ؛ لأَنَّ هَذَا المَعْنَى غيرُ المُرادِ قَطْعًا، وكذَلِكَ الَّذِين يَقُولُون: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، يَعْنِي: استَوْلَى عَلَى العَرشِ، فإِنَّ هَذَا مُنكَرٌ مِنَ القَولِ، وتَفْسِيرُ الآيَة بِهِ مِنَ القَولِ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ، ومِنَ الافتِرَاءِ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

هؤُلَاءِ نَقُولُ: إنَّهُم قَالُوا فِي القُرآنِ برَأْيِهِمْ، أَيْ: حَوَّلوا القُرآنَ إِلَى رَأْيِهِمْ، وأمَّا مَنْ فسَّر القُرآنَ بمُقتَضى الحقَائِقِ الشَّرعيَّةِ واللُّغَويَّةِ إذَا لَمْ تَكُنْ حقيقَةً شرعيَّةً فإنَّه لَمْ يَقُلْ فِي القُرآنِ برَأْيِه.

وقَدْ سبقَتْ هَذِهِ القَاعدَةُ أوَّلَ مَا بدَأْنا فِي عِلْمِ التَّفسِير، فلْتكُنْ مَرْجِعًا لكُمْ، يُفسَّرُ القُرآنُ أوَّلًا بالقُرآنِ، ثُمَّ بالسُّنَّة، ثُمَّ أَقْوالِ الصحَابَةِ، ثُمَّ كِبَارِ التَّابعِينَ الَّذِين اعْتَنَوْا بالتَّفسِير، كمُجَاهِدِ بْنِ جَبْرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الَّذِي أخَذَ التَّفسِير عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وأُقدِّم فِي بِدَاية تَفْسِير سُورة الزُّخْرُف بمُقدِّماتٍ:

١ - القُرآنُ الكَريمُ، مَا عقِيدَةُ أهْلِ السُّنَّة فِيهِ؟

الجَوابُ: عَقيدةُ أهْلِ السُّنَّة فِي القُرآنِ الكَرِيمِ أنَّه كَلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حقيقَةً، تكَلَّم به حَرْفيًّا، وأرَادَ معنَاهُ حسبَ اللُّغةِ العربيَّةِ، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ وهَذَا القُرآنُ يَنزِلُ شَيئًا فشَيئًا، كَمَا قَالَ تعَالَى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦] أَيْ: شَيْئًا فشَيْئًا حسبَمَا يَحْتَاجُ النَّاسُ إلَيْهِ فِي وَقْتِ نُزُولِهِ.

٢ - أنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ نَزَلَ عَلَى وَجْهَينِ:

الوَجْهِ الأوَّل: مَا لَهُ سَبَبٌ.

والثَّانِي: مَا لَا سَبَبَ لَهُ.

فالأوَّلُ: مَا لَهُ سَبَبٌ؛ أَيْ: بسَبَبِ حَادِثَةٍ وَقَعَتْ فنَزَل فِيهَا.

ومِنَ الضَّوابطِ فِي هَذَا: أنَّ كُلَّ آيَةٍ فِيهَا ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ فإنَّهَا لسَبَبٍ، يَسأَلُونكَ عَنْ كَذَا، هَذَا سبَبٌ، فكُلَّما رَأَيْتَ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ آيَةً مُصدَّرةً بكَلِمَةِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾

فإنَّها نزَلَتْ لسَبَبٍ، وقَدْ لَا يُذْكَرُ فِيهَا ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ حسبَما ذُكِرَ فِي كُتُبِ التَّفسِيرِ.

وإذَا نزَلَتِ الْآيَـةُ لسَبَبٍ: فهَلْ تَخْتَـصُّ بذَلِكَ السَّببِ أَوْ تَكُونُ عَامَّـةً لَهُ ولِمَا يُشارِكُه في العِلَّة؟

الجَوابُ: تكُونُ عَامَّـةً لَهُ ولِمَا يُشـارِكُه في العِلَّة؛ ولهَذَا قَـالَ العُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: العِبرَةُ بعُمُومِ اللَّفظِ لَا بخُصوصِ السَّببِ.

فمَثلًا: أوَّلُ سُورةِ المُجادلَة نزَلَتْ في قِصَّةِ رَجُل مُعيَّن -أَوسِ بْنِ الصَّامِتِ-، فهَلْ نَقُولُ: إنَّ هَذَا الحُكمَ خاصٌّ به. أو نَقُولُ: إنَّه عامٌّ لَهُ ولِمَنْ يُشارِكُه في المَعْنَى؟

الجَوابُ الثَّانِي؛ فكُلُّ مَنْ ظَاهَر مِنِ امرَأتِهِ فلَهُ حُكْمُ ظِهَارِ أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهذِهِ قاعِدَةٌ تُفيدُك في استِعْمَال الاستِدْلَالِ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ، وأنَّ الأَصْلَ هُوَ العُمُومُ.

٣- القُرآنُ الكَرِيمُ لَهُ خَصَائِصُ كَثِيرَةٌ:

مِنْـهَا: أَنَّهُ لَا يَمَسُّه الإنسَانُ إِلَّا عَلَى طَهَـارَةٍ؛ يَعْنِي: أنَّ المُحـدِثَ لا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَمَسَّ المُصحَفَ حـتَّى يَتوَضَّأ؛ لقَـولِ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فِيمَا كتَبَهُ لعَمرِو بْنِ حَـزْمٍ: «أَلَّا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ»[1] أيْ: طَـاهِرٌ مِنَ الحدَثِ؛ لأَنَّ الطَّهـارَةَ مِنَ الحَدَثِ تُسمَّى طهَارَةً، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آيَةِ الوُضوءِ والغُسْلِ والتيمم: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦].

واستَثْنَى بعْـضُ العُلماءِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ الصِّغارَ غَيرَ المُكلَّفِينَ، فقَـالَ: لَهُمْ أَنْ يَمسُّوا

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٩٩)، والدارمي في سننه (٢٣١٢)، والدارقطني (١/ ١٢٢).

المُصْحَفَ بدُونِ وُضوءٍ؛ لأَنَّهُم غَيْرُ مُكلَّفِينَ.

وفِي هَذَا الاستِثْنَاء نظَرٌ؛ لأَنَّنا لَوْ قُلْنا بهَذَا لقُلْنا: يَجُوزُ لهؤُلاءِ الصِّغارِ أَنْ يُصَلُّوا بغَيْرِ طهَارَةٍ. ولَا قَائِلَ بِهِ فِيمَا أَعْلَمُ، فعَلَى هَذَا فلَا بُدَّ مِنَ الطَّهارَةِ حتَّى للصِّغارِ، لكِنْ مَا دَعَتِ الحَاجَةُ إِلَى مَسِّه بدُونِ طهَارَةٍ كأَلْواحِ الصِّغار الَّذِين يَتعلَّمُون بِها في المدارِسِ، فهؤُلاءِ لَا يَحتَاجُون إِلَى وُضُوءٍ؛ لأَنَّنَا لَوْ كَلَّفنَاهم بذَلِكَ لشقَّ علَيْهِمْ.

ثُم إنَّ هَذَا القُرآنُ الكَرِيمُ لَا يَحِلُّ للجُنُبِ أَنْ يَقْرَأَ مِنْهُ آيَةً فأَكْثَرَ حتَّى يَغْتسِلَ، فـإِذَا كَانَ عَلَى الإنسَانِ جنَـابَةٌ فإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَقْرَأَ شَيْـئًا مِنَ القُرآنِ -آيَـةً فأَكْثَرَ- إِلَّا إِذَا اغتَـسَل؛ لأَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُقرِئ أصحَـابَهُ القُرآنَ مَا لَمْ يَكُنْ جُنُبًا، أَوْ قَالَ: «**مَا لَمْ نكُنْ جُنُبًا**»(١).

فإِنْ قَالَ قَائِل: هَلْ يَجُـوزُ للجُنُبِ أَنْ يَقْرَأَ آيَةً لَا لقَصْدِ القُرْآنِ ولكِنْ لأَنَّها آيَةُ دُعاءٍ مَثَلًا؛ مِثْلَ: «**رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً**»؟

فالجَوابُ: نَعَمْ، يَجُوزُ لَهُ هَذَا؛ لأَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ تِلاوَةَ القُرْآنِ.

فإِنْ سَأَلَ سَائِلٌ: مَا تقُولُونَ في قِرَاءَةِ الحَائِضِ القُرآنَ؟

فالجَوابُ: اخْتَلَفَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ في هَذِهِ المَسأَلَةِ عَلَى قَوْلَينِ:

القَولُ الأَوَّلُ: أَنَّ الحَائِضَ لَا يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَقْرَأَ القُرآنَ؛ لأَنَّها كالجُنُبِ.

والقَولُ الثَّانِي: لَهَا أَنْ تَقْرَأَ القُرآنَ؛ لأَنَّه ليْـسَ في السُّنَّة دَلِيلٌ صحِيـحٌ صَرِيحٌ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب في الجنب يقرأ القرآن، رقم (٢٢٩)، والترمذي: كتاب الطهارة، باب ما جاء في الرجل يقرأ القرآن على كل حال ما لم يكن جنبًا، رقم (١٤٦)، والإمام أحمد (١/ ٨٤)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَمْنَعُ الحَائِضَ مِنْ قِراءَةِ القُرآنِ، ولَوْ كَانَتْ الحَائِضُ لَا تَقْرَأُ القُرآنَ لبُيِّن ذَلِكَ؛ لكَثْرَةِ وُقُوعِ الحَيْضِ واحتِيَاجِ النِّساءِ إِلَى بَيَانِ الحُكْمِ، فلَمَّا لَمْ يَرِدْ في ذَلِكَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ صَرِيحٌ فالأَصْلُ الجَوَازُ؛ لأَنَّ القُرآنَ مِنَ الذِّكْرِ، والحَائِضُ لَا تُمْنَعُ مِنْهُ.

وعِنْدِي: أنَّ الحائِضَ تَقْرَأُ القُرآنَ لحَاجَةٍ أو مَصلَحَةٍ:

فالحَاجَةُ كأَنْ تَقْرَأُ وِرْدَها مِنَ القُرآنِ؛ مِثْلَ: آيَةِ الكُرسيِّ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، أَوْ تَقْرَأُ القُرآنَ لِئَلَّا تَنسَاهُ، فهذِهِ حاجَةٌ أَيْضًا.

ولمصلحَةٍ مِثْلَ: أَنْ تُقْرِئَ ابنَتَها أَوْ طِفلَها القُرآنَ؛ أَيْ: تُعلِّمَه القُرْآنَ؛ لأَنَّهُ إذَا لَمْ يَرِدْ دَلِيلٌ صَحِيحٌ صَرِيحٌ فِي المَنْعِ، وكَانَتِ المَسْأَلَةُ فِيهَا احْتِمَالٌ؛ فالاحتِيَاطُ أَوْلَى.

إذَن: فالحُكْمُ الآنَ الَّذِي اخْتَرْنَاهُ: أنَّ لَهَا أَنْ تَقرَأَ القُرآنَ لحَاجَةٍ أَوْ مَصْلَحَةٍ؛ لعَدَمِ الدَّلِيلِ الصَّحِيحِ الصَّرِيحِ عَلَى مَنْعِهَا.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الحَائِضُ تَقْرَأُ القُرآنَ لمصلَحَةٍ أَوْ حَاجةٍ، هَلْ تَمَسُّ القُرآنَ؟

فالجَوابُ: لَا، القُرآنُ لَا يَمَسُّه إلَّا طَاهِرٌ، ولكِنَّه لَيْسَ فِيهِ مَنْعٌ مِنْ قِرَاءَةِ القُرآنِ، مُمكِنٌ أنْ تُمسِكَ المُصحفَ بقُفَّازَيْنِ أَوْ مَنْ وَرَاءِ ثَوْبٍ.

٤ - القُرآنُ الكَرِيمُ يَختَصُّ بأَنَّ كُلَّ حَرْفٍ مِنْهُ حَسَنَةٌ، والحَسَنَةُ بعَشْرِ أَمْثَالِهَا:

ولَيْسَ ذَلِكَ مَوْجُودًا في السُّنَّة، حتَّى الأحادِيثُ القُدسيَّة لَا يَثْبُت لَهَا ذَلِكَ، وإنَّما هَذَا خَاصٌّ بالقُرآنِ الكَرِيمِ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هُناكَ أَوْرَاقٌ فِيهَا عدَدُ حُرُوفِ المُصحَفِ كَذَا وكَذَا فإِذَا قرَأْتَ المُصحَفَ كَامِلًا اضْرِبْها فِي عشَرَةٍ، فيَكُونُ لَكَ عَدَدُ الحسَنَاتِ كَذَا. فَمَا رَأْيُكُم؟

فالجَوابُ: هَذَا كَذِبٌ، مرَّ ابْنُ مسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقَوْمٍ يُسبِّحُون ويَعُدُّون بالحَصَى، فقَالَ لَهُمْ: إنَّكُم لَنْ تُحصُوا أعمَالَكُمْ، أعمَالُكُم الصَّالحَةُ مُحصَاةٌ لكُمْ: مَكتُوبَةٌ، لكِنْ أَحْصُوا أعمَالَكُمْ السَّيِّئَةَ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَتُوبُوا إِلَى اللهِ مِنْهَا[1]. وهَذَا حَقٌّ، فكُلُّ هَذِهِ الأشيَاءِ مُحدَثَةٌ، واللهِ عَزَّوَجَلَّ لَنْ يُضِيعَ أجْرَ أحَدٍ يَعْلَمُ عدَدَ حُرُوفِ القُرآنِ، ويَعْلَمُ مَا يَترتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الثَّوابِ، ولَنْ يَضِيعَ.

٥- القُرآنُ الكَرِيمُ يَختَصُّ بالإِعْجَازِ:

أَيْ: بأَنَّ الخَلْقَ لَا يَستَطِيعُون أَنْ يَأْتُوا بمِثْلِهِ؛ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨] أَيْ: مُعِينًا.

وليْسَ ذَلِكَ مَوجُودًا فِي أَيِّ كَلَامٍ مِنْ كَلَامِ البَشَرِ، وإنَّما هُوَ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ، فلَا يَستَطِيعُ أحَدٌ أَنْ يَأتِيَ بمِثْلِهِ، بَلْ وَلَا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِنْهُ، بَلْ ولَا بِسُورَةٍ مِنْهُ، بَلْ وَلَا بِآيَةٍ منه:

فالقُرآنُ كَامِلًا كَمَا فِي قَولِهِ تعَالَى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨].

وعَشْرُ سُوَرٍ كما فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود:١١].

وسُورَةٌ كما فِي قَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [يونس:٣٨].

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه رقم (٢١٠).

وآيَةٌ كما فِي قَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور:٣٣-٣٤] أَيْ: أَيِّ حَدِيثٍ.

وقَد عجَزَ العَرَبُ عَنْ ذَلِكَ، أَيْ: عَنْ أَنْ يَأْتُوا بشَيْءٍ مِثْل القُرآنِ، مَعَ أَنَّهُم قَدْ تَوفَّرتْ لهُـمْ أَسَاليبُ البلَاغةِ والفَـصاحَةِ، وصَارَ الدَّاعي لمُعارَضةِ القُرآنِ عنـدَهُم قَويًّا، فلَمَّا كَانَ الدَّاعي قَويًّا ولم يُوجَدْ مَانِعٌ عُلِمَ أَنَّهُم لَا يَستَطِيعُون أَنْ يَأْتُوا بمِثْلِهِ.

ولذَلِكَ تَجِـدُ القُرآنَ الكرِيمَ لَا يَمَـلُّ الإِنْسانُ مِنْ قِراءَتِـه، ولَا مِنْ تكرارِهِ، وغيرُهُ يُمَلُّ مِنْ تكرارِهِ، ويَمجُّـهُ السَّمْعُ، ويَثْـقُلُ عَلَى اللِّسانِ، لكِنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ لا يَخْلَقُ مَعَ التَّردَادِ أَبَدًا، تَجِدُه طَرِيًّا كُلَّما قرَأْتَهُ.

ثُمَّ إِذَا كَانَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ فتَحَ علَيْكَ، وكَانَ عنْدَك نِيَّةٌ وقصْدٌ صَحِيحٌ في معرِفَةِ المَعْنَى؛ فكُلُّ قِراءَةٍ تَقرَؤُها يَتَّضِحُ لَكَ بهَا معْنًى غَيْرُ الأَوَّل؛ وجرِّبْ تَجِدْ، فهَذَا الشَّيءُ معلُـومٌ، لكِنَّ هَذَا لِمَنْ عَلِمَ اللهُ منْهُ صِدْقَ الطَّلَبِ في مَعرِفَةِ المَعْنَى، أَمَّا مَنْ أَعْرَض عَنْ ذَلِكَ فإِنَّه لَا يَستَفِيدُ، لكِنْ مَن عَلِمَ اللهُ منْهُ صِدْقَ الطَّلَبِ فإِنَّ اللهَ يَفْتَحُ علَيْهِ كُلَّما قرَأَ القُرآنَ مِنَ المَعانِي مَا لَمْ يَكُنْ سَابِقًا.

٦- القُرْآنُ الكَرِيمُ أَنْزَلَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ وجعَلَهُ مُبَارَكًا:

مُبَارَكًا في تَأثيرِهِ؛ مُبَارَكًا في ثَوابِهِ؛ مُبارَكًا في آثَارِهِ:

مُبَارَكًا في تَأثيرِهِ، يَعنِي: أَنَّهُ يُؤثِّرُ عَلَى القَلْبِ، ويُلِيِّنُ القَلْبَ، ويُكسِبُه خَشْيَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١] سُبْحانَ اللهِ! فهذا وهُوَ جبَلُ حَصًى يَكُون خَاشِعًا ذَلِيلًا ويَتَصَدَّع مِنْ خَشيَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فمَا بالُكُم بالقَلْبِ؟! لَوْ كَانَ القَلْبُ حَيًّا

يَكُونُ مِنْ بَابِ أَوْلَى؛ ولهَذَا قَالَ ابْنُ عبْدِ القَوِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وحَافِظْ عَلَى دَرْسِ الْقُرَانِ فَإِنَّهُ يُلَيِّنُ قَلْبًا قَاسِيًا مِثْلَ جَلْمَدِ(١)

ومَا أكثَرَ الَّذِين يَشْكُونَ قَسوَةَ قُلُوبِهِمُ اليَومَ؛ لأَسْبَابٍ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهَا، ولكِنْ إِذَا أَحَسُّوا بقَسْوَةِ القَلْبِ فعَلَيْهِمْ بالقُرآنِ، نَسأَلُ اللهَ أَنْ يُلَيِّن قُلوبَنا.

ومِنْ جهَةِ التَّأثيرِ أيضًا: فالقُرآنُ الكَرِيمُ رُقيَةٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ وكُلِّ مرَضٍ، فالقُرآنُ الكَرِيمُ دوَاءٌ لَهُ مِنْ كُلِّ مَرَضٍ:

المرَضُ القَلبيُّ؛ وهُوَ الشُّبْهةُ الَّتِي تَرِدُ عَلَى القُلُوبِ، أَوْ إرَادَةُ السُّوء، شِفَاؤُها القُرْآنُ.

المرَضُ الجِسْميُّ العُضْويُّ شِفَاؤُه القُرْآنُ؛ وقَد نزَلَ قَومٌ مِنَ الصَّحابَةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الأَعْرَابِ، نزَلُوا ضُيُوفًا، ولكِنَّ هؤُلاءِ العَربَ لم يُضيِّفُوا الصَّحابَةَ، أَبَوْا أَنْ يُضيِّفُوهم، فتَنَحَّى الصَّحابةُ إِلَى جَانِبٍ، ونَزَلُوا، فسَلَّطَ اللهُ عَلَى سَيِّدِ العَرَبِ عَقْربًا فلدَغَتْهُ وآلَمَتْهُ، فقَالَ بعضُهُم لبعضٍ: أَلَا تَنظُرون إِلَى هَؤُلاء القَومِ لعَلَّ فيهِمْ مَنْ يَقْرأُ؟! فأَتَوْا إِلَى الصَّحابَةِ فقَالُوا: إنَّ سيِّدَهُم لُدِغَ، فهَلْ فيكُمْ مِنْ قَارِئٍ؟ قَالُوا: نعَمْ، فِينَا قَارِئٌ، ولكنَّنَا لَنْ نَقْرَأَ عَلَيْهِ -عَلَى هَذَا المَرِيضِ- إِلَّا بقَطِيعٍ مِنَ الغنَمِ -لأَنَّ هَؤُلاءِ العَربَ لَمْ يُكرِمُوهُم، فأَرَادُوا أَنْ يَأخُذُوا حقَّهُم منْهُمْ- قَالُوا: ولكُمْ ذَلِكَ. فقَامَ رَجُلٌ مِنَ الصَّحابةِ عَلَى هَذَا اللَّدِيغِ، وجعَلَ يَقْرَأُ عَلَيْهِ الفَاتِحَةَ حتَّى قَامَ كأَنَّهُ نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ(٢) والسَّمُّ قَدْ سَرَى فِي جِسْمِهِ، لكِنْ زَالَ هَذَا وَطَابَ؛

---

(١) انظر: الآداب الشرعية لابن مفلح (٣/ ٥٩٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، رقم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فهَذَا تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ.

ومَا أَكْثَرَ مَا نَقرَأُ الفاتحَـةَ وغَيْرَ الفَاتحَـةِ والمرِيضُ كَمَا هُـو في مرَضِهِ، فلمَاذَا والْآيَةُ واحِدَةٌ؟

الجواب: لأَنَّه كَمَا يُقالُ: السَّيفُ بضَارِبِهِ، فالسَّيفُ حَدِيدٌ قَاطِعٌ، لكِنْ إِذَا كَانَ مَعَ الجبَانِ لا يَنْفَعُه، رُبَّما إِذَا رَأَى العَدوَّ مُقبِلًا عَلَيْهِ أَلْقَى بالسَّيفِ وهَرَبَ، لكِنْ إِذَا كَانَ بيَدِ الشُّجاعِ فإِنَّه يَنفَعُ ويُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهِ ويَقْتُل عَدُوَّه.

ولهَذَا يُذكَرُ عَنْ رَجُلٍ كَانَ الإِمَامُ أحمَدُ بْنُ حنْبَلٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقرَأُ عَلَيْه، وكَانَ بِهِ صَرَعٌ مِنَ الجِنِّ، فيَخرُجُ الجِنُّ، ولَمَّا مَاتَ الإِمَامُ أحمَدُ عَادَ الجِنِّيُّ، فقَامَ رَجُلٌ يَقْرَأُ عَلَى هَذَا المَصرُوعِ بِمَا كَانَ الإِمَامُ أحمَدُ يَقرَأُ بِهِ، ولكِنَّ الصَّارِعَ أَبَى أَنْ يَخرُجَ، وأَجَابَ بأَنَّ الْآيَةَ هِيَ الْآيَةُ والقَارِئُ غيرُ القَارِئِ. فلَا تَظُنَّ إِذَا لَمْ تَجِدْ تَأثيرَ القُرآنِ مُباشرَةً أَنَّ القُرآنَ غَيْرُ مُؤثِّرٍ، ولكِنَّ القَارِئَ غَيْرُ مُؤثِّرٍ.

ومُبارَكٌ في آثَارِهِ، فقَدْ فتَحَ المُسلمُونَ مشَارِقَ الأَرْضِ ومَغَارِبَها بالقُرآنِ، أَيْ: بالعَمَلِ بالقُرآنِ؛ ولهَذَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ جَاهِـدْهُم بالقُرآنِ ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢]، فتَحُـوا مَشَارِقَ الأَرْضِ ومغَارِبَها بالقُرآنِ حِينَ كَانَ القُرآنُ باليَدِ اليُمنَى والسَّيفُ باليَدِ اليُسرَى.

والْآنَ كَثِيرٌ مِنَ المَمَالِكِ الإِسلَاميَّةِ بيَـدِهَا القَانُونُ الوَضعيُّ بدَلًا عَـنِ القُرآنِ الكَرِيمِ؛ ولذَلِكَ كَانَ التَّأَخُّرُ؛ فالتَّـأَخُّرُ والذُّلُّ فِي الأُمَّةِ الإِسلَامِيَّةِ بسَببِ عمَلِ مَنْ ينتَسِبُون إِلَيْهَا، فالذَّنْبُ -إِذَنْ- في تَأَخُّرِ المُسلِمِينَ اليَوْمَ لَيْسَ ذَنْبَ الإِسلَامِ، ولكِنْ ذَنْبُ المُسلِمِين.

فمِنْ آثَارِ القُرآنِ الكَرِيمِ إذَن: أنَّ مَنْ تَمسَّكَ بِهِ فهُوَ مَنْصُورٌ، والشَّاهِدُ ما سبَقَ لسلَفِنا الصَّالحِ.

وهُوَ أيضًا مُبارَكٌ في ثوابِهِ: فالحَرْفُ الوَاحِدُ فِيه حسَنَةٌ، والحسَنَةُ بعَشْرِ أمثَالِهَا، ومَا أكْثَرَ حُروفَ القُرآنِ!

وبهَذِهِ المُناسبَةِ عَرَضَ عَليَّ فِي الرِّياضِ فِي الأُسْبُوعِ المَاضِي إنسَانٌ ورقَةً مَكتُوبٌ فِيهَا: الإعجَازُ العدَديُّ في القُرآنِ، جدْولٌ ذُكِرَ فِيهِ أنَّ جَمِيعَ حُرُوفِ القُرآنِ كُلُّها تَقبَلُ القِسْمَةَ عَلَى تِسعَةَ عَشَرَ إذَا جُمِعتْ، ولكِن هَذَا افتِرَاءٌ عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومُنَاقِضٌ للوَاقِعِ، ولَا يَجُوزُ تَداوُل هذِهِ البطَاقَةِ؛ لأَنَّهُ لا يُمكِنُ لإنسَانٍ أَنْ يَشْهَدَ أنَّ اللهَ تعَالَى تكلَّمَ بالقُرآنِ بحَيْثُ تكُونُ حُرُوفُه مُنقسِمَةً عَلَى تِسعَةَ عَشَرَ، مَنْ يَقُول هَذَا؟! لكنَّهُ افتِرَاءٌ عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ إنَّ حُروفَ القُرآن الكرِيم لَا يُمكِنُ أَنْ يُقَالَ: إنَّها تَنقَسِمُ عَلَى تِسعَةَ عَشَرَ مَعَ اخْتِلَافِ القِرَاءَاتِ؛ فمَثَلًا ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦]، والقِراءَةُ الثَّانيَةُ «فتَثبَّتُوا» إذَنِ اختَلَّتْ؛ أَتَتِ الثَّاءُ بدَلًا عَنِ البَاءِ «فتَثَبَّتُوا» وبدَلًا عَنِ النُّون، فاخْتَلَّتِ القِسْمَةُ.

كذَلِكَ في القُرآنِ الكَريمِ: «مَلِكِ يَومِ الدِّينِ» و﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] اختَلَّتْ؛ زَادَ حَرْفٌ. لكِنْ هَؤُلاءِ المَشغُوفُون بِمَا يَدَّعُون أَنَّهُ ذكَاءٌ، وأنَّهُم اطَّلَعُوا عَلَى مَا لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أحَدٌ يَأتُون بمِثْلِ هَذِهِ الخُرافَاتِ؛ ليَصُدُّوا النَّاسَ عَنِ المَعْنَى الحَقِيقِيِّ الَّذِي جَاءَ مِنْ أَجْلِهِ القُرآنُ، فهَلِ القُرآنُ جَاءَ ليُحصِيَ النَّاسُ العَددَ ويُقسِّمُونه عَلَى تِسعَةَ عشَرَ؟ لَا، واللهِ! ولَا يُمكِنُ أَنْ يَنزِلَ القُرآنُ الكَرِيمُ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ المُعجزَةِ كَمَا يَقُولُون، مَعَ أنَّهَا ليسَتْ مُعجِزَةً، فهِيَ فَاشِلَةٌ باطِلَةٌ.

وقد أَحببْتُ أَنْ أُنبِّهَ عَلَى هَذَا لأَنَّهُ رُبَّما تَشِيعُ؛ لأَنَّ الَّذِي سأَلَنِي عنْهَا يُرِيدُ أن يَطْبعَ منهَا الملَايينَ ويُوزِّعها عَلَى النَّاسِ، ويَقُولُ: انْظُروا إلى القُرآنِ الكَرِيمِ. فنَقُولُ: هَذَا غلَطٌ، فالقُرآنُ مَا نَزَلَ لهَذَا المَعْنَى، ولَا يُمكِنُ أَنْ يُرادَ بِهِ هَذَا المَعْنَى، فانْتَبِهُوا لِمِثْلِ هَذِهِ الأُمُورِ الَّتِي تُنشَرُ، فقَدْ تَكُونُ مِنْ مُلحِدٍ كَافِرٍ أَوْ فَاسِقٍ فَاجِرٍ يُرِيدُ بِهَا صَدَّ النَّاسِ عَنِ المَعْنَى الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ نَزَلَ القُرآنُ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ يَجُوزُ تَفسِيرُ القُرآنِ بِمَا يُعرَفُ بالإعْجَازِ العِلميِّ مِنَ القُرآنِ والسُّنَّةِ؟

فالجَوابُ: الإعجَازُ العِلمِيُّ نوعَانِ: نَوْعٌ دَلَّ عَلَيْهِ القُرآنُ وأَشَارَ إِلَيْهِ، هَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، وهُوَ مِنْ تَفْسِيرِ القُرآنِ، ونَوْعٌ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ القُرآنُ، وإِنَّما يُؤخَذُ مِنْهُ بتكلُّف، ورُبَّما لَا يَدُلُّ عليْهِ أَصْلًا، فهَذَا لَا يَجُوزُ تفسِيرُ القُرآنُ بِهِ، مِثَالُ الثَّانِي قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣] فسَّرهُ بعضُهُم بالعِلْمِ، وطبَّق هَذَا عَلَى الوُصُولِ إِلَى القَمَرِ فهَذَا لَا يَحِلُّ؛ لأَنَّ الآيَة لَا تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، الآيَةُ فِيهَا بيَانُ الحَالِ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ ولهَذَا قَالَ ﴿مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومَعْلُومٌ أَنَّ هؤُلاءِ لَمْ يَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمواتِ، فالإعْجَازُ العِلميُّ الَّذِي ليْسَ فِيهِ تَكلُّف لَا بَأْسَ بِهِ؛ لأَنَّ القُرآنَ وَاسِعٌ.

ومِمَّا يُنكَرُ أيضًا ممَّا يُقَالُ: الإعجَازُ العِلميُّ؛ مَا يُسمُّونَه بالإعجَازِ العدَديِّ المَبنيِّ عَلَى العدَدِ: تِسعَةَ عَشَرَ، هَذَا أيضًا بَاطِلٌ، ولَا يَجُوزُ أَنْ يقَالَ: إنَّ القُرآنَ مُعجِزٌ مِنْ هَذِهِ النَّاحيَةِ.

أَوَّلًا: لأَنَّ القِراءَةَ مُختَلِفَةٌ، وهُمْ يَقُولُونَ مَثَلًا: التَّاءُ تَكرَّرْت كَذَا وكَذَا مَرَّةً إِذَا

قسَمْتَـها عَلَى تِسعَةَ عَشَرَ انْقَسَـمَت، اللَّامُ تَكرَّرت كَذَا وَكَذَا مَرَّةً إذَا قسَمْتَـها عَلَى تِسْعَةَ عشَرَ انْقَسَمَتْ بِلَا كَسْرٍ، هَكَذَا يَزْعُمُونَ وهَذَا لا شَكَّ أَنَّهُ بَاطِلٌ.

حتَّى قَالَ لِي بعضُهُم: إنَّ اللهَ تعالَى قَالَ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦]، وقَالَ فِي سُورَةِ الفَتْحِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح:٢٤] قَالَ: إنَّ اللهَ ذَكَرَ (بَكَّةَ) مِنْ أَجْـلِ أَنْ تُتِمَّ البَاءُ العدَدَ الَّذِي يَنْقَسِمُ عَلَى تِسعَةَ عَشَرَ، وهَذَا لا شَكَّ أَنَّهُ كَذِبٌ.

والدَّليلُ: مَثَلًا فِي القُرآنِ كَلِمَاتٌ فِيهَا قِرَاءَاتٌ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء:٩٤] فِيهَا قِرَاءَةٌ «فتَثبَّتُوا» إذَنِ: اختَلَّ العَدَدُ، صَارَ بَدَلَ النُّونِ (ثَاءٌ)، وبَدَلَ اليَاءِ بَاءٌ.

كذَلِكَ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] وفِي قِرَاءَة: «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» بحَـذْفِ الأَلِفِ، فنقَـصَتِ الألِفُ، فالقَـصْدُ أنَّ هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ كَذِبٌ، ولَا يَجُـوزُ أنْ يُفسَّر القُرآنُ بالإعجَازِ العدَدِيِّ؛ لأَنَّه أوَّلًا: لَيْسَ فِيهِ إعْجَازٌ كَمَا قَالُوا.

وثَانيًا: القُرآنُ مَا نَزَلَ عَلَى أَنَّه تمرِينٌ حِسَابِيٌّ، بَلْ نزَلَ عَلَى أَنَّهُ مَوعِظَةٌ وشِفَاءٌ لِـمَا فِي الصُّدورِ.

ويُقَالُ: إنَّ الَّذِي أَطْلَقَ هَذِهِ البِدْعَةَ رَجُلٌ كَانَ يُنكِرُ القِسْمَ الثَّانِيَ مِنَ الشَّهادَةِ، ويقُولُ: إنَّ الشَّهادَةَ فقَطْ تَقْتَصِرُ عَلَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وهُوَ رَجُـلٌ يُسمَّى رَشَادًا، ونشَرَهَا فِيمَا سَبَقَ قَبْلَ سنَـوَاتٍ، ولكِنَّهُ قُتِل، قتَلَهُ بعْضُ النَّاسِ؛ لأَنَّهُ ابْتَدَعَ فِي دِينِ اللهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ.

ولكِن هَـذِهِ الأَيَّامَ الأخيرَةَ وجَدْتُ إنسَانًا معَهُ ورَقَةٌ مِنْ هَذَا النَّوعِ يُرِيدُ أَنْ

يَطبَعَها عَلَى حِسَابِهِ الخَاصِّ ويُوزِّعَها بَيْنَ النَّاسِ، فقُلْتُ لَهُ: هَذَا لَا يجُوزُ، ومَزَّقْتُ الورَقَـةَ الَّتِي أَعطَانِي، وقُلْـتُ: يَجِبُ أَنْ تعْـلَمَ أَنَّ القُرآنَ إِنَّما نَزَلَ لإِصْلَاحِ الخَلْـقِ، لَا لامتِحَانِ عُقُولِهِمْ بالعَدَدِ ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، ثُمَّ كَما تَقدَّم: تُوجَدُ آيَاتٌ مُختلِفَةٌ تَمْنَعُ هَذَا التَّركيبَ الَّذِي ذَكَر.

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩] أَيْ: يَتفَكَّرُوا فِيهَا، ويُردِّدُوها بأفكَارِهِمْ؛ حتَّى يَتبيَّنَ لَهُم المَعْنَى، فالقُرآنُ الكَرِيمُ لَمْ يَنزِلْ لِتلاوتِهِ لفْظًا فقَطْ، بَلْ ولتَدبُّرِ معْنَاهُ، ولا يُمكِنُ العَمَلُ بِهِ إِلَّا بمَعرِفَةِ مَعْنَاهُ، ولَا يُمكِنُ معرِفَةُ معنَاهُ إِلَّا بتَدبُّرِهِ.

إِذَنِ: فالتَّفكِيرُ فِي معْنَاهُ أَمْرٌ وَاجِبٌ، فيَجِبُ أَنْ تَتعَلَّمَ مَعْنَى القُرآنِ كَمَا تَتعَلَّمُ مَعْنَى الآجُرُّوميَّـة، وهِيَ كِتَابٌ صَغِيرٌ فِي النَّحْوِ، لَا يُمكِنُ أَنْ يَستَفِيـدَ مِنْهُ الإنسَانُ حتَّى يَعرِفَ معْنَـاهُ، كذَلِكَ أيضًا القُرآنُ الكَرِيمُ، لَا يُمكِنُ أَنْ يَستَفِيدَ الإنسَانُ مِنْـهُ حتَّى يَعرِفَ مَعْنَـاهُ، ولَوْ أَنَّ هُناكَ كِتَابًا فِي الطِّبِّ مِنْ أَفْصَحِ الكُتُبِ وأَنْتَ لَا تَعرِفُ المَعْنَى فَلَا يُمكِنُ أَنْ تَستَفِيدَ مِنْهُ.

إِذَنْ: لَا يُمكِنُ أَنْ تَستَفِيدَ مِنَ القُرآنِ حتَّى تَعرِفَ مَعنَاهُ.

ولقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»(١) وهَذَا يَشْمَلُ التَّعلُّمَ اللَّفظيَّ والتَّعلُّمَ المَعنَويَّ؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩].

وإِذَا شِئْتَ أَنْ تَعرِفَ هَذَا فاقْرَأْ آيَةً مِنَ القُرآنِ مَعَ التَّدبُّرِ، واقْرَأْها مَعَ الغَفْلَةِ، تَجِدْ الفَرْقَ العَظِيمَ بَيْنَ هَذَا وهَذَا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، رقم (٥٠٢٧)، من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لذَلِكَ أَحُثُّكُم -أيُّها الإِخْـوةُ- عَلَى تَعلُّمِ مَعْنَى القُرآنِ الكَرِيمِ، فاقْرَؤُوا كُتُبَ التَّفسِيرِ المَوثُوقَةِ، واحْذَرُوا الكُتُبَ الَّتِي لا يُعرَفُ مَنْ أَلَّفَها أَوِ الَّتِي عُرِفَ مَنْ أَلَّفَهَا بِأَنَّهُ مُنحرِفٌ، أَوْ مَا أَشْبَـهَ ذَلِكَ؛ لأَنَّ مِنَ المُفَسِّرِينَ مَنْ حرَّف القُرْآنَ ونَقَـلَهُ إِلَى مَا يَعتَقِدُهُ هُوَ، لَا إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ القُرآنُ، فاحْذَرُوها، وإِذَا لَمْ تَتَمَكَّنُوا مِنْ هَذَا فاسْأَلُوا أَهْلَ العِلْمِ حتَّى تَستَفِيدُوا مِنَ القُرآنِ الكَرِيمِ.

ثانيًا: قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩] ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ أَيْ: يَتَّعِظَ أصحَابُ العُقولِ. وانْظُر الفَرقَ بيْنَ قَولِهِ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ حَيْثُ عمَّم فِيهَا، وقَولِـهِ: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ حَيْثُ خَصَّ؛ لأَنَّهُ لَا يَتَـذكَّرُ بالقُرآنِ ولا يَتَّعِظُ بِهِ إِلَّا أَصْحَابُ العُقُولِ، كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

فإِذَا قَالَ قَائِلٌ: إِلَى مَنْ نَرجِعُ فِي تَفسِيرِ القُرْآنِ؟

فالجَوابُ: نَرجِعُ إِلَى القُرآنِ، نُفسِّرُ القُرآنَ بالقُرآنِ، فإِنْ لَمْ نجِدْ فبالسُّنَّةِ، فإِنْ لَمْ نَجِـدْ فبأَقْوَالِ الصَّحابةِ، ولا سِيَّما المُفسِّرُونَ مِنْـهُمْ، فإِنْ لَمْ نَجِدْ رَجَعْنا إِلَى أَقْوَالِ التَّابعِينَ -المُفسِّرين منْهُم- كمُجاهِدِ بْن جَبْرٍ وغَيرِهِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

مثَالُ تَفسيرِ القُرآنِ بالقُرآنِ: قولُهُ تعالَى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٧-١٩]، ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة:١-٤]، والأمثلَةُ كَثيرَةٌ.

مثَالُهُ مِنَ السُّنَّة: قَولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يَعْنِي: الجَنَّة. ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هِيَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فَسَّر ذَلِكَ

النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ[١]، وهُوَ أَعْلَمُ الخَلْقِ بكِتَابِ اللهِ تَعالَى.

ومِنْ ذَلِكَ قَولُ اللهِ تعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال:٦٠] قَالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**» مَرَّتينِ أَوْ ثَلاثًا[٢]. ففَسَّر القُوَّة بالرَّمي؛ لأَنَّ الرَّميَ أَشَدُّ مَا يكُونُ فَتْكًا بالنِّسبَةِ للأَسْلِحَةِ، وإِلَى يَومِنَا هَذَا الرَّميُ هُوَ القُوَّةُ، وقَد كَانَ النَّاسُ في الأَوَّلِ يَرمُونَ بالسِّهامِ بالقَوْسِ، والْآنَ يَرمُونَ بالصَّواريخِ والقَنَابِلِ.

فلَا تَظُنَّ أنَّ قولَهُ ﷺ: «**أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**» خَاصٌّ بِمَا كَانَ فِي عهْدِهِ، بَلْ هِيَ عَامَّةٌ بِمَا يُحْدَثُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: نَرجِعُ في تَفْسِيرِ القُرآنِ إِلَى تَفْسِيرِ القُرآنِ بالقُرآنِ، ثُمَّ بالسُّنَّةِ، ثُمَّ بأَقْوَالِ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولا نَعدِلُ عَنْ أَقْوَالِ الصَّحابَةِ إِلَى تَفْسِيرِ المُتأَخِّرينَ أَبَدًا، خُصُوصًا فِي العِبَادَاتِ، أَمَّا فِي الأُمُورِ الَّتِي تَحْدُثُ ويَكُونُ فِي القُرآنِ إِشَارَةٌ لَهَا فهَذِهِ قَدْ لَا يَرِدُ عَنِ السَّلفِ فيهَا تَفْسِيرٌ، ولكِنْ تُفسَّر حسبَ الوَقْتِ؛ لأَنَّ هُناكَ أَشيَاءَ مِنَ الأُمُورِ الكَونيَّةِ الفَضَائيَّةِ والأَرضِيَّةِ لَمْ يَتكلَّمْ فِيهَا السَّلفُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، ولكِنْ تَكلَّم فِيهَا المُتأَخِّرُونَ، فنَقُولُ: يُرجَعُ إِلَى قَولِ المُتأَخِّرينَ فِي هَذَا؛ لأَنَّ السَّلفَ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُون ذَلِكَ.

أَمَّا مَسَائِلُ العِبَادَةِ والمُعَاملَاتِ ومَا أَشْبَهَهَا؛ فإِنَّهُ يُرجَعُ في ذَلِكَ إِلَى تَفسِيرِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ، ثُمَّ بعْدَ ذَلِكَ المَرتبَةُ الرَّابِعَةُ: كِبَارُ المُفسِّرينَ مِنَ التَّابعِينَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، ومَرتبتُهُم أَدْنَى بكَثِيرٍ مِنْ مَرتَبَةِ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رقم (١٨١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي، رقم (١٩١٧)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَسأَلُ اللهَ تعَالَى أن يَجعَلَنا وإيَّاكُم ممَّنْ يَتلُونَ كتَابَ اللهِ حقَّ تِلاوَتِهِ، وأَنْ يَرزُقَنا تَعلُّمَه لفْظًا ومَعْنًى، والعمَلَ بِهِ، إنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: إذَا اجْتَمَعَ جَمَاعَةٌ عَلَى كتَابِ اللهِ يَستَمِعُون القُرآنَ ويُنصِتُون لَهُ فهَلْ لَهُمْ أجْرُ القَارِئِ؟

الجَوابُ: نعَمْ، لهُمْ أجْرُ القَارِئِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤]؛ ولذَلِكَ يُشرَع لهُمْ إذَا سجَدَ القَارِئُ سُجودَ التِّلاوَةِ أَنْ يَسْجُدُوا مَعَهُ، فحُكمُهُمْ حُكمُهُ.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ للمُستَمِعِينَ إلَى التَّسجِيلِ أجْرُ القِرَاءَةِ؟

الجَوابُ: لَا، لَيْسَ لَهُمْ أجْرُ القِرَاءَةِ؛ لأَنَّ هَـذَا حِكَايةُ صَوْتِ قَارِئٍ قَدْ يَكُونُ مَيِّتًا وليْسَ قرَاءَةً، ولهَذَا لا يَحِلُّ أَنْ يُؤدَّى الأذَانُ مِنْ مُسجَّلٍ كَمَا يَفْعَلُ بعْضُ النَّاسِ فِي بَعْضِ الأمكِنَةِ، عندَهُمْ مُسجَّلٌ إذَا جَاءَ وَقْتُ الأذَانِ فتَحُوا المُسجَّل بالمُؤذِّن، هَذَا غلَطٌ عظِيمٌ، ولَا يَنْفَعُ.

• • ۞ • •

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

البسمَلَةُ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ، يَعْنِي: أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْزَلَها كَما أَنْزَلَ بَاقِيَ القُرآن، فهِيَ كلَامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ تُفتتَحُ بِهَا كُلُّ سُورَةٍ مِنَ الفَاتِحَةِ إِلَى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس:١] إِلَّا ﴿بَرَاءَةٌ﴾ فإِنَّها لم تَنْزِلْ لافتِتَاحِهَا.

وليسَتِ البَسملَةُ مِنَ السُّورةِ الَّتِي قَبلَهَا، ولَا مِنَ السُّورةِ الَّتِي بعْدَهَا، وعَلَى هَذَا فلا تُحسَبُ مِنْ آياتِهَا، فالفَاتِحَةُ مثلًا افتُتِحَتْ بالبَسمَلَةِ، والبَسمَلَةُ ليسَتْ منْهَا، بَلْ هِيَ آيَةٌ مُستقِلَّةٌ، وأوَّلُ الفَاتِحَةِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، والدَّلِيلُ عَلَى هَذَا مَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ الصَّحيحِ مِنَ اللهِ، قَالَ فِي الحَدِيثِ القُدسيِّ: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ: فَإِذَا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قَالَ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ اللهُ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. وَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قَالَ اللهُ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[1] فبَدَأَ بـ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويَدُلُّ عَلَى هَـذَا أيضًا: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ لَا يَجْـهَرُ بِهَا -أَيْ: بالبَسْمَلَـةِ- فِي القِراءَةِ الجَهْرِيَّةِ، ولَوْ كانَتْ مِنَ الفاتِحَةِ لجَهَرَ بها كسَائِرِ آيَاتِهَا.

ويَدُلُّ عَلَى هَذَا أنَّ اللهَ تعَالَى قسَمَهَا بينَهُ وبَيْنَ عبْدِهِ نِصْفَينِ، فثَلاثُ آيَاتٍ للهِ، وثلَاثَ آيَاتٍ للعَبْـدِ، ووَاحِـدَةٌ بينَهُما، فالثَّـلاثُ الآيَاتِ للهِ هِيَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢-٤]، والثَّلاثُ الَّتِي للعَبْدِ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٦-٧]، والمُشتَرَكَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، فتَجِدُ هَذِهِ المُشترَكَةَ هِيَ النِّصفُ، وهِيَ بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ اللهِ نِصفَينِ، هِيَ النِّصْفُ مِنْ بَيْنِ سَبْعِ آيَاتٍ.

فإذَا قَالَ قَائِلٌ: نحْنُ نجِـدُ في المُصحفِ أنَّ البَسْملَةَ قَـدْ رُقِّمَتْ عَلَى أنَّها مِـنْ آيَاتِها، وأنَّ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَدْ جُعِلتْ آيَةً واحدَةً.

فالجَوابُ: أنَّ هَذَا عَلَى رَأْيِ بَعْضِ العُلَماءِ، وكَأَنَّ الَّذِين طَبَعُوا المُصحَفَ أوَّلَ مَا طَبَعُـوهُ، طَبَعُوه عَلَى هَذَا الرَّأيِ، واستمَرَّ النَّاسُ عَلَيْهِ، عَلَى أنِّي وَجَـدْتُ مُصحَفًا مَطبُوعًا فِيهِ أوَّلُ آيَةٍ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والآيَةُ السَّابِعَةُ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، والبسمَـلَةُ لَمْ تُرقَّمْ، وهَـذَا هُوَ المُطابِقُ للصَّوابِ.

مِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أيضًا أنَّ الآيَاتِ لَا تَكُونُ مُتناسِبَةً فِي الطُّولِ والقِصَرِ إلَّا إذَا قسَمْنا الآيَةَ الأخيرَةَ قِسمَينِ؛ لأنَّكَ إذَا قُلْتَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ صَارَتِ الآيَةُ هَذِهِ طَويلَةً بالنِّسبَةِ

لبَقيَّةِ الآيَاتِ، فلَا تَناسُبَ، فعَلَى كُلِّ حَالٍ: القَوْلُ الرَّاجِحُ المُتعيِّنُ أنَّ أوَّلَ الفَاتِحَةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وأنَّ البَسمَلَةَ ليسَتْ منْهَا كسَائِرِ السُّوَرِ.

فقِيلَ: البسملَـةُ جملَةُ مَعمُولٍ مجرُورٍ بالبَـاءِ؛ لأَنَّ كُلَّ اسْمٍ مجرُورٍ بالبَـاءِ فإِنَّهُ مَعمُولٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ. فلَا بُدَّ لَهُ مِنْ عَامِلٍ محذُوفٍ، ولهَذَا قَالَ النَّاظِمُ:

لَا بُـدَّ لِلْجَـارِّ مِـنَ التَّعَلُّـقِ ... بِفِعْـلٍ اوْ مَعْنَـاهُ نَحْـوَ مُرْتَقِـي

البَسْمـلَةُ مَعمُولةٌ لعَامِلٍ محذُوفٍ، والقاعِـدَة: كُلُّ اسْمٍ مجـرُورٍ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ عَامِلٍ، فأَيْنَ عَامِلُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟

نَقُولُ: العَامِلُ محذُوفٌ يُقدَّرُ فعْلًا مُتأَخِّرًا مُناسِبًا للمَقَامِ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾؛ فإِذَا أَرَدْنا أَنْ نَقْرَأَ فأَقُولُ: بسْمِ اللهِ. فقَدِّرِ العَامِلَ: (أَقْرَأُ)، فالتَّقدِيرُ (بِاسْمِ اللهِ أَقْرَأُ).

ولَوْ سأَلْتَ: لمَاذَا نُقَدِّره فعْلًا ولم نُقدِّرْه اسْمًا، فنَقُولُ: (باسمِ اللهِ قِرَاءَتِي)؟

فالجَوابُ: الأَصْلُ في العمَلِ الأفعَالُ؛ ولذَلِكَ لا تَجِدُ اسْمًا عامِلًا إِلَّا بشُرُوطٍ.

وَدَليلُ ذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنِ اسْمٍ يَكُونُ عَامِلًا إِلَّا بشُرُوطٍ، لمَاذَا قَدَّرناهُ مُتأَخِّرًا ولَمْ نَقُلْ: (أَقرَأُ باسْمِ اللهِ)؟

الجواب: لفَائِدَتَينِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: التَّبرُّك ببدَاءَةِ الكَلَامِ باسم الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الحَصْرُ، يعْنِي: باسْمِ اللهِ لَا باسْمِ غَيرِهِ؛ لأَنَّهُ إِذَا تَقَدَّم المَعمُولُ عَلَى العَامِلِ كَانَ ذَلِكَ دليلًا عَلَى الحَصْرِ، يَعْنِي: الاختِصَاص، فكَأَنَّ القَارِئَ يَقُولُ: باسْمِ اللهِ أَقرَأُ لَا باسْمِ غَيرِهِ.

وقدَّرناهُ فِعْلًا مُناسِبًا؛ لأَنَّهُ أدَلُّ عَلَى المَقصُودِ؛ فمَثَلًا هُنَا نُرِيدُ أَنْ نَقْرَأَ، نَقُولُ: التَّقدِيرُ: باسْمِ اللهِ أَقْرَأُ.

ولَوْ قَالَ قَائِلٌ: لِمَاذَا لَا نَقُولُ: باسْمِ اللهِ أَبتَدِئُ؟ قُلْنَا: لأَنَّ كلمَةَ (أَبتَدِئُ) صالِحَةٌ لكُلِّ فِعْلٍ يُبتَدَأُ بِهِ، وإِذَا قُلْتَ: (أَقْرَأُ) صَارَ خَاصًّا، وهُوَ أَدَلُّ عَلَى المَقْصُودِ، هَذَا تَقْرِيرُ إعرَابِ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ كُلَّما أَتَتْكَ.

أما عِندَمَا يُقَدَّمُ الغَدَاءُ فتَقُول: باسْمِ اللهِ، فكَيْفَ نُقدِّرُه؟ **الجَوابُ**: أَتَغَدَّى، أَوْ آكُلُ الغَدَاءَ؛ لأَنَّهُ أخَصُّ.

وإذا أَردْتَ أَنْ تَشرَبَ تَقُولُ: باسْمِ اللهِ أَشْرَبُ. وإذا أَرَدْتَ أنْ تَدْخُلَ المسجِدَ تَقُولُ: بسْمِ الله أدْخُل. وهَلُمَّ جرًّا.

أَمَّا قَولُنا: باسْمِ اللهِ. فالمُرادُ: بكُلِّ اسْمِ لله، وإنَّما حَمَلْنَاهَا عَلَى العُمُومِ؛ لأَنَّ المُفرَدَ إِذَا أُضِيفَ صَارَ في العُمُومِ. أَيْ: أَبتَدِئُ بِكُلِّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ.

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أَيْ: ذُو الرَّحمَةِ الواسِعةِ.

وقوله: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أَيْ: ذُو الرَّحمَةِ الخَاصَّةِ بالمُؤمِنِينَ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

الآيــة (١)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حمٓ﴾ [الزخرف:١].

قَالَ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: [اللهُ أَعلَمُ بمُرادِهِ بِهِ].

﴿حمٓ﴾ هَذَانِ حَرْفَانِ هِجَائِيَّانِ؛ أحدُهُما حَاءٌ، والثَّانِي مِيمٌ، لَا إعْرَابَ لَهُمَا، وهَلْ لهُمَا مَعْنًى؟ يَقُولُ المُفسِّرُ: [اللهُ أَعلَمُ بمُرادِهِ بِهِ]؛ إذَنْ: لَا نَدْرِي هَلْ لَهَا مَعْنًى أَوْ لَا، ولَا نَدْرِي مَا المُرادُ بالمعْنَى، فمَوقِفُنَا مِنْ هَذَا التَّفويضُ، فاللهُ أعلَمُ؛ وهكَذَا يُقَالُ فِي كُلِّ حرْفٍ هِجَائيٍّ ابتُدِئَتْ بِهِ السُّورةُ، مثْلَ: ﴿حمٓ﴾ [الزخرف:١]، ﴿الٓر﴾ [يوسف:١]، ﴿نٓ﴾ [القلم:١]، ﴿قٓ﴾ [ق:١]، ﴿صٓ﴾ [ص:١]، وَمَا أَشْبَهَها.

فالمُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: مَا لَنَا ولتَفْسيرِهَا، [اللهُ أَعلَمُ بمُرادِهِ بِهِ]، قَدْ يَكُونُ أَرَادَ مَعْنًى، وقَدْ يَكُونُ لَمْ يُرِدْ مَعْنًى، وقَدْ يَكُونُ أَرَادَ مَعْنًى تَدُلُّ عَلَيْهِ السُّورَةُ، وقَدْ يَكُونُ معْنًى آخَرَ، ولكِنَّ القَوْلَ هَذَا ضَعِيفٌ.

والصَّوابُ أَنْ نَقُولَ: لَا معْنَى لَهُ، لَيْسَ المُرادُ أَنَّهُ حَشْوٌ لَا فَائِدَةَ مِنْهُ، لكِنَّ المَقصُودَ: لَا معْنَى لَهُ ذَاتيًّا؛ بدَلِيلِ قَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:٢]، وقَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣]، وقَولِهِ عَزَّوَجَلَّ:

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥] ثَلَاثُ آيَاتٍ.

واللِّسانُ العَربيُّ لمْ تُوضَعْ فِيهِ حُرُوفٌ هِجَائيَّةٌ لَهَا مَعْنًى، وإنَّما وُضِعَتْ فِيهِ حُرُوفٌ هجَائيَّةٌ لتَركِيبِ الكَلَامِ مِنْهَا، وهِيَ فِي اللُّغةِ العَربيَّةِ ثَمانيَةٌ وعِشرُونَ حَرْفًا، عنْدَما تَقْرَأُ: ألفٌ، بَاءٌ، تَاءٌ، ثَاءٌ، جِيمٌ، حَاءٌ، خَاءٌ، فلَيْسَ لَهَا مَعْنًى، إنَّما هِيَ حرُوفٌ تُكوَّن منهَا الكلمَاتُ، فإذَا كَانَتْ كذَلِكَ -والقُرآنُ الكَرِيمُ نَزَل بلِسَانٍ عَرَبيٍّ-؛ فإنَّنَا نَجْزِمُ بأنَّهُ ليْسَ لهَذِهِ الحرُوفِ مَعْنًى، وإذَا كَانَ قَدْ أَرَادَ بهَا شَيْئًا نَقُولُ: لَا يُمكِنُ أَنْ يُريدَ بهَا شَيْئًا وهُوَ نَازِلٌ باللِّسانِ العرَبيِّ، واللِّسانُ العرَبيُّ لَا يَجْعَلُ لهذِهِ الحُرُوفِ الهِجَائيَّةِ مَعْنًى، فنحْنُ نَجْزِمُ لقَولِهِ: ﴿عَرَبِيٌّ﴾ [النحل:١٠٣][1].

فقَولُهُ: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:١-٢] فـ﴿طه﴾ ليْسَ اسْمًا مِنْ أسمَاءِ الرَّسُول، بَلْ هِيَ مِثْل ﴿الٓر﴾، ﴿حمٓ﴾، حَرْفَانِ هِجائِيَّانِ ليْسَ لهُمَا مَعْنًى، وإذَا قَالَ الإنسَانُ: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ خِطَابٌ؟

نَقُولُ: إذَنِ اجْعَلْ ﴿نٓ﴾ مِنْ أسمَاءِ الرَّسُول؛ لأَنَّ اللهَ قَالَ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:١-٢] وَلَا قَائِلَ بِهِ.

فإذَا قَالَ قَائِلٌ: مَا الفائِدَةُ مِنْ هَـذِهِ الحرُوفِ الهِجَائيَّةِ إذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا معْنًى فِي حَدِّ ذَاتِهَا؟

أَقُولُ: الفَائدَةُ أَشَارَ إليهَا شَيْخُ الإسلَامِ ابْنُ تَيمِيَّةَ[2] وغيرُهُ مِنَ العُلَماءِ الَّذِينَ سَبَقُوهُ ولَحِقُوهُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، وهِيَ التَّنبيهُ عَلَى أَنَّ هَذَا القُرآنَ الكَرِيمَ الَّذِي عَجَزَ النَّاسُ أَنْ

(١) وانظر: تفسير سورة البقرة لفضيلة شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ٢٢).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧١).

يَأْتُوا بمِثْلِه لَمْ يَأتِ بحُرُوفٍ جَدِيدَةٍ فيَحتَجَّ النَّاسُ ويَقُولُونَ: هَذِهِ حرُوفٌ لَا نَعرِفُها فهِي جدِيدَةٌ. فالقُرآنُ الكَرِيمُ جَاءَ بالحُرُوفِ المَعرُوفَةِ عنْـدَ المُخاطَبِينَ، ومَعَ ذَلِكَ أَعجَزَهُم.

قَالَ شَيْخُ الإسلَامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيرُهُ: ولذَلِكَ لَا تَجِدُ سورَةً مُفتَتحَةً بهَذِهِ الحُرُوفِ الهِجَائيَّةِ إلَّا وجَدْتَ بعْدَها ذِكْرَ القُرآنِ.

• • ۞ • •

الآيــة (٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ [الزخرف:٢].

﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ﴾ الوَاوُ حرْفُ قَسَمٍ، وفسَّرَهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأَنَّه [القُرآنُ]؛ لأَنَّ اللهَ تعَالَى سمَّى القُرْآنَ كِتَابًا فقَالَ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ وسُمِّيَ كِتَابًا:

١- لأَنَّه كُتِب فِي اللَّوحِ المحفُوظِ.

٢- ولأَنَّه كُتِب في المصَاحِفِ الَّتِي بأَيْدِي السَّفرَةِ الكِرَامِ البررَةِ.

٣- ولأَنَّهُ كُتِب فِي المصَاحِفِ الَّتِي بأَيْدِينَا.

وقَولُهُ: ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ يَقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُظهِر طرِيقَ الهُدَى ومَا يُحتَاجُ إلَيْهِ مِنَ الشَّريعةِ].

﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ مِنْ أَبَانَ الشَّيءَ إذَا أَظهَرَهُ؛ فمَعْنَى كَونِهِ مُبينًا أَنَّهُ مُظهِرٌ للحَقِّ مُوضِّح لَهُ، بَلْ لِكُلِّ مَا يَحتَاجُ النَّاسُ إلَيْهِ.

فقولنا: ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ مِنْ أَبَانَ الشَّيءَ إذَا أَظهَرَهُ؛ يَعْنِي: أنَّ القُرآنَ أَظهَرَ كُلَّ شيْءٍ يَحتَاجُ النَّاسُ إلَيْهِ في دِينِهِمْ ودُنيَاهُم؛ وقِيلَ: المرَادُ بـ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ البيِّن. والأَعَمُّ أَنَّهُ مُظهِرٌ للحَقِّ؛ لأَنَّهُ لا يُظهِرُ الحَقَّ إلَّا إذَا كَانَ هُوَ ظَاهِرًا، وعَلَى هَذَا ففَسِّرِ ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ بأَنَّهُ المُظهِرُ، وإنْ فسَّرْتَه بهِمَا فَلَا بأْسَ، فقُلْت: إنَّه بَيِّن مُبينٌ؛ لأَنَّ الكلِمَةَ

إِذَا احتَـمَلَتْ مَعنَيَيْنِ -وهذِهِ قاعِدَةٌ- لَا يُنَافِي أحـدُهُما الآخِرَ، ولَيْسَ أرْجَـحَ مِنْهُ؛ فإِنَّها تُحمَلُ عَلَيْهِمَا.

إِذَنْ: إذَا احتَمَل اللَّفظُ معنَيَيْنِ مُتساوِيَيْنِ لَا يُنافِي أحـدُهُما الآخَرَ حُمِل علَيْهِما جميعًا.

• • ۞ • •

الآيــة (٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف:٣].

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ ﴾ يَقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَوْجَدْنا الكِتَابَ ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ بلُغةِ العَرَبِ، ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿تَعْقِلُونَ﴾ تَفهَمُونَ معَانيَهِ].

قولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ ﴾ ضَمِيرُ الفَاعِلِ يَعُودُ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وضَمِيرُ المَفعُولِ يَعُودُ عَلَى القُرآنِ، ومَعْنَى ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ عَلَى كَلَامِ المُفسِّر: أَوْجَدْنَاهُ ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، والصَّوابُ أنَّ المَعْنَى: صَيَّرْنَاه قُرْءانًا عَرَبِيًّا، أَيْ: صَيَّرنَاهُ بلُغَةِ العَرَبِ. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَيْ: تَفْهَمُونَ.

و﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ بمَعْنَى: صيَّرْنَاه، أحيَانًا جَعَلَ تَكُونُ بمَعْنَى صَيَّرَ، وأَحْيَانًا تَكُونُ بمَعْنَى خَلَقَ، حسَبَ السِّياقِ، إذَا نصَبَتْ مفْعُولَينِ فهِي بمَعْنَى صَيَّر، وإِذَا نَصَبَتْ مَفعُولًا واحِدًا فهِي بمَعْنَى ﴿خَلَقَ﴾ مِثْلَ قَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١] أَيْ: بمَعْنَى خَلَق؛ لأنَّها لَمْ تَنْصِبْ إِلَّا مَفْعُولًا واحِدًا، أمَّا إِذَا نَصَبَتْ مَفْعُولَينِ فهِيَ بمَعْنَى صَيَّر.

والخِطَابُ فِي قَولِهِ: ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾ عَلَى كَلَامِ المُفسِّر يَعُودُ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، والصَّوابُ أَنَّهُ يَعُودُ إِلَى العَرَبِ كُلِّهم؛ لأَنَّ العَرَبُ هُمْ أَهْلُ مَكَّةَ وغَيرُهُم، فيَكُونُ المَعْنَى: صَيَّرنَاهُ بلُغَةِ العَرَبِ؛ لتَفهَمُوهُ أَيُّها العَرَبُ.

انْتَهى الكَلَامُ عَنِ الآيَاتِ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ.

أَمَّا مِنْ حَيْثُ المَعْنَى: فاللهُ تعَالَى أَقْسَمَ بالقُرْآنِ أَنَّهُ جعَلَهُ باللُّغةِ العربيَّةِ مِنْ أَجْلِ فَهْمِهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: جوَازُ القَسَمِ مَعَ تَأَكُّدِ صِحَّةِ المُقسِمِ بدُونِ القَسَم، يَعْنِي: جَوَازُ أَنْ يُقسِمَ الإنسَانُ عَلَى الشَّيءِ مَعَ أَنَّ قولَهُ مَقبُولٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وجْهُ الدَّلالَةِ: أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَقسَمَ وقَولُهُ مَقبُولٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ وصِدْقٌ بِلَا يَمِينٍ، حينَئذٍ يَتَولَّدُ مِنْ هَذَا: كَيْفَ يُقسِمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى الشَّيءِ وهُوَ الصَّادِقُ بدُونِ قَسَمٍ؟

فنَقُولُ: لفَائِدَتَينِ:

الأُولَى: بيَانُ أَهميَّةِ هَذَا الشَّيءِ، وأَنَّهُ جَدِيرٌ بأَنْ يُقسَمَ عَلَيْهِ.

والثَّانيَةُ: أَنَّ القَسَمَ مِنْ فصَاحَةِ الكَلَامِ فِي اللُّغةِ العَربيَّةِ، فإِذَا كَانَ مِنْ فَصَاحَةِ الكَلَامِ فالقُرآنُ نَزَل باللُّغةِ العربيَّةِ، فيَكُونُ هَذَا مُطابَقَةً بأُسلُوبِ اللُّغةِ العَربيَّةِ.

ويَرِدُ على هَذَا القَسَمُ بالقُرآنِ: كَيْفَ أَقْسَمَ اللهُ بالقُرآنِ مَعَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ القَسَمُ بغَيْرِ اللهِ؟

والجَوابُ عَلَى هَذَا: أَنَّ القُرآنَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ؛ لأَنَّهُ كَلَامُ اللهِ، والقَسَمُ يَجُوزُ باللهِ وبالصِّفةِ مِنْ صِفَاتِهِ، فزَالَ الإِشْكَالُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيَانُ عظمَةِ القُرآنِ؛ لأَنَّ اللهَ لَا يُقْسِمُ إِلَّا بشَيْءٍ عظِيمٍ، بَلْ إِنَّ القَسَمَ نَفْسَهُ -كَمَا قَالَ مَنْ فسَّرهُ- تأكِيدُ الشَّيءِ بذِكْرِ مُعظَّمٍ بِصِفَةٍ مخصُوصَةٍ بأَحَدِ حُرُوفِ القَسَمِ. وحرُوفُ القَسَمِ ثَلَاثَةٌ: الوَاوُ، البَاءُ، التَّاءُ.

مثَالُ الوَاوِ: قَولُهُ: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ والوُاوُ هِيَ أكْثَرُ مَا يُستَعْمَلُ فِي القَسَمِ.

ومِثَالُ البَاءِ: قَولُ القَائِلِ: أُقسِمَ باللهِ أَنَّ هَذَا حَقٌّ.

ومثَالُ التَّاءِ: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [الصافات:٥٦].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ مُبِينٌ لكُلِّ مَا يَحتَاجُ إِلَى البَيَانِ؛ لقَولِهِ تعالى: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾. ولكِنَّ هَـذَا البيَانَ لَيْسَ حَـاصِلًا لِكُلِّ أحَدٍ، فمِنَ النَّاس مَنْ يَفْـهَمُ مِنَ القُرآنِ أشيَاءَ كثِيرَةً، ومِنَ النَّاسِ مَنْ هُـوَ دُونَ ذَلِكَ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَفْهَمُ شَيْئًا؛ فالأقْسَامُ ثَلَاثَةٌ؛ فمِنَ النَّاسِ مَنْ يفْتَحُ اللهُ عَلَيْهِ فيَفْهَمُ مِنَ الْآيَة الوَاحِدَةِ عَشَرَاتِ المَسَائِلِ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ هُوَ دُونَ ذَلِكَ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَفْهَمُ شَيْئًا.

ولهَذَا لَمَّا سُئِلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ عَهِدَ إِلَيكُمُ النَّبِيُّ ﷺ بشَيْءٍ؟ قَالَ: «**لَا، وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا عَهِدَ إِلَيْنَا بِشَيْءٍ، إِلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللهُ تَعَالَى مَنْ شَاءَ فِي الْقُرْآنِ، وَإِلَّا مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ**»[1]، وإنَّما سُئِلَ عَلِيٌّ عَنْ ذَلِكَ لأَنَّهُ أُشِيعَ فِي زَمَنِهِ أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَهِدَ إِلَيْهِ بالخِلَافَةِ وقَالَ: أَنْتَ الخَلِيفَةُ مِنْ بَعْدِي. فبَيَّنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، والشَّاهِدُ مِنْ هَذَا الأثَرِ قَولُهُ: «**إِلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللهُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ**».

ولذَلِكَ تَرَى بعضَ العُلماءِ إذَا تَكلَّمَ عَنِ الْآيَة مُستنبِطًا فَوائِدَها يَأتِي بالعَجَبِ العُجَابِ، ومِنْ أَبْلَغِ مَا قَرَأْتُ مَا يَحصُلُ لشَيْخِ الإسلَامِ ابْنِ تيمِيَّةَ وتلمِيذِهِ ابْنِ القَيِّمِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ؛ فإِنَّ اللهَ يَفْتَحُ عَلَيْهِما مِنْ فَهْمِ القُرآنِ مَا لَا يَكُونُ لغَيرِهِما، ومِنَ النَّاسِ مَنْ فَهمُهُ دُونَ ذَلِكَ، لكِنْ درجَاتٌ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَفْهَمُ شَيْئًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم (١١١)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل المدينة، رقم (١٣٧٠).

والدَّلِيلُ الأَخِيرُ قَولُهُ تعالَى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨]، يَعْنِي: إِلَّا قِراءَةً، جَمْعُ أمنيَّةٍ، ومِنْهُ قَولُ الشَّاعِرِ فِي أَمِيرِ المُؤمنِين عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ ... وَآخِرَهُ لَاقَى حِمَامَ المَوَارِدِ[1]

معْنَى (تَمَنَّى كتَابَ اللهِ) أَيْ: قرَأَ كِتَابَ اللهِ؛ لأَنَّ أَمِيرَ المُؤمنِينَ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُتِل شهِيدًا فِي دَارِهِ وهُوَ يَتهجَّدُ ويَقْرَأُ القُرآنَ، فالَّذِي لا يَفْهَمُ لا يَقْدَحُ فِي كَونِ القُرآنِ تِبْيانًا لكُلِّ شَيْءٍ؛ لأنَّ القُرآنَ فِي حَدِّ ذَاتِهِ تِبيَانٌ لكُلِّ شَيْءٍ، كَمَا أنَّ الجَبَانَ الَّذِي بيَدِهِ سَيْفٌ بتَّارٌ لَا يُقدِم فيَقتُل به، وليْسَ هَذَا عَيْبًا فِي السَّيفِ.

فإِذَا قَالَ قَائِلٌ: إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَكَرَ أَشيَاءَ لَا مَجَالَ للعِلْمِ فِيهَا فأَيْنَ بَيَانُهَا؟

قُلْنا: بيَانُها فِي قَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] فِيمَا يَتعَلَّقُ بالصِّفَاتِ؛ لأَنَّ بيَانَهَا عَلَى وَجْهِ التَّفصِيل لَا تَحتَمِلُهُ العُقُولُ، فكَانَ مِنَ الحِكمَة ألَّا تُفصَّل، وإلَّا فهُوَ تِبيَانٌ لكُلِّ شَيْءٍ.

ذُكِر أنَّ أحَدَ العُلماءِ كَانَ فِي مَطْعَمٍ، وكَانَ فيه رَجُلٌ مِنَ النَّصارَى، فاستَغَلَّ النَّصرانيُّ الفُرصَةَ ليُلقِيَ عَلَى هَذَا العَالِمِ سُؤَالًا يَتحَدَّاهُ بِهِ، فأَتَى إِلَيْهِ وقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الشَّيخُ. قَالَ: نَعَمْ، مَاذَا تُرِيدُ؟ قَالَ: القُرآنُ كِتَابُكم يَقُولُ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، ونحن نَصنَعُ هذَا الطَّعَام فأَيْنَ هَذَا فِي القُرآنِ؟ وكَانَ العَالِمُ المُسلِمُ ذكيًّا، قَالَ: هَذِهِ مَوجُودَةٌ فِي القُرآنِ، أي مَوجُودٌ كَيْفَ نَصْنَعُها، قَالَ: أَيْنَ هُوَ؟ فنَادَى الطَّبَّاخَ، وقَالَ: كَيْفَ صَنعْتَ هَذَا؟ فجَعَلَ الطَّبَّاخُ يَشرَحُ لَهُ، فقَالَ:

---

(١) غير منسوب، وانظره في: العين (٨/ ٣٩٠)، وسيرة ابن هشام (١/ ٥٣٨)، وتفسير ابن كثير (١/ ٢٠٥).

هَكَذَا جَاءَ فِي القُرآنِ. قَالَ: كَيْفَ؟ قَالَ: إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَالَ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]. فأَحَالَنَا فِيمَا لَا نَعْرِفُ عَلَى مَنْ يَعرِفُ، وهَذَا بيَانٌ، فلَمَ نَتحَيَّرُ الْآنَ فِي مَعرِفَةِ كَيْفَ تُصنَعُ هذَا الطَّعَام؟!

لَوْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: القُرآنُ تِبْيَانٌ لكُلِّ شَيْءٍ، فكَيْفَ نَصنَعُ هَذَا التِّليفُونَ؟ هَلْ فِي القُرْآنِ وصْفٌ لصِنَاعَتِهِ؟ أَيْنَ ذِكْرُهُ فِي القُرْآنِ؟

نقُولُ: الحمْدُ لله، اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أَحَالَنَا إِلَى سُؤَالِ مَنْ يَعرِفُ إِذَا كُنَّا لَا نَعْرِفُ، وهَذَا بيَانٌ، فلَم يُوقِفْنا مُتحيِّرِينَ.

إِذَنْ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ القُرآنَ مُبِينٌ لكُلِّ شيْءٍ، ولكِنَّ القُرآنَ يَحتَاجُ إِلَى تَدبُّرٍ، وبدُونِ التَّدبُّر لَا يُمكِنُ أَنْ تَهتَدِيَ.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّكَ كُلَّما أَمعَنْتَ وتَعمَّقْتَ فِي تَدبُّرِ القُرآنِ فَتَحَ اللهُ لَكَ مِنْ أَبْوابِ المعرِفَةِ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلُ، وصِرْتَ تَستنْبِطُ مِنَ الْآيَة الواحِدَةِ مِنَ الأحكَامِ مَا لَا يَستنْبِطُهُ غَيرُكَ، فاحْرِصُوا عَلَى هَذَا التَّدبُّرِ.

الْآنَ -ولله المثَلُ الأَعْلَى- فِي كَمْ يَومًا خَلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأَرضَ؟! لَوْ شَاءَ لخلَقَها فِي لحْظَةٍ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ لكِنَّه خلَقَها فِي سِتَّة أَيَّامٍ؛ ليَعلَمُ العِبَادُ أَنَّ الإِتْقَانَ خَيْرٌ مِنَ العَجَلَةِ، ولأَنَّ هَذَا الخَلْقَ لَهُ سُنَنٌ وقَواعِدُ وأسبَابٌ كَونيَّةٌ يَنتُج شَيئًا فشيئًا، فأَرَادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُبيِّن للعِبَادِ أَنَّ المُهِمَّ هُوَ الإِتْقَانُ والإحكَامُ دُونَ السُّرعَةِ، ولَوْ أَرَادَ اللهُ لكَانَ فِي لحْظَةٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ هَذَا القُرآنَ الَّذِي أَعجَزَ العَرَبَ مِنَ الحُرُوفِ الَّتِي يُركِّبُون مِنْهَا كَلَامَهُمْ وَمَعَ ذَلِكَ أَعجَزَهُم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ مَكتُوبٌ، وهُوَ مَكتُوبٌ فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ، ومَكتُوبٌ فِي الصُّحفِ الَّتِي بأَيْدِي الملَائكَةِ، ومَكتُوبٌ فِي الصُّحفِ الَّتِي بيْنَ أيْدِينا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ حَادِثٌ؛ يَعْنِي: أنَّهُ بإرَادَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقَولِهِ تعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ واللهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجعَلَهُ بلُغَةٍ أُخْرَى لكِنْ صيَّرَهُ باللُّغةِ العربيَّةِ.

ومَعْلُومٌ أنَّ العَرَبَ حَادِثُون، فيَكُونُ مَا نَزَلَ باللُّغةِ حَادِثًا، وهَذَا هُوَ الحَقُّ؛ أنَّ كلَامَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَادِثٌ، بمَعْنَى: أنَّهُ يَتكَلَّمُ مَتَى شَاءَ، ومَتَى شَاءَ لَا يَتكَلَّمُ، كَمَا قَالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ»[1].

قُلْنَا: إنَّ كلَامَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَادِثٌ. والمَعْنَى: أنَّهُ يُحدِثُ مِنْ كَلَامِهِ مَا شَاءَ. ومِنْ أُصُولِ أهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ: أنَّ اللهَ يَتكَلَّمُ بكَلَامٍ حقِيقيٍّ مَتَى شَاءَ، بِمَا شَاءَ، كَيْفَ شَاءَ، أَلَمْ تَعلَمُوا أنَّ الأشعرِيَّةَ الَّذِين يَنتَسِبُونَ إِلَى أَبِي الحَسَنِ الأشعَرِيِّ يَقُولُونَ: إنَّ اللهَ لَا يَتكَلَّم مَتَى شَاءَ أبَدًا. قَالُوا: لأَنَّ الكلَامَ مَعْنًى قَائِمٌ بنَفْسِهِ، أزَلِيٌّ، لكِنَّهُ يُحْدِث أَصْواتًا يَخلُقُها مَتَى شَاءَ فتُسمَع. فيَرَون أنَّ الكلَامَ لَا يَتعَلَّقُ بمَشيئَتِهِ.

فأيُّهما أكمَلُ مَنْ يتكَلَّم بمَشِيئتِهِ، وبِمَا شَاءَ، وكَيْفَ شَاءَ، أَمْ مَنْ لَا يَستَطِيعُ هَذَا؟

الجَوابُ: الأوَّلُ، لكِنْ أبَتْ بدعَتُهُم إلَّا أَنْ يَقُولُوا بالثَّانيَةِ، وقَدْ ألَّفَ شَيْخُ الإسلَامِ ابْنُ تيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ كتَابًا سمَّاهُ (التِّسعينيَّة) بيَّن بُطلَانَ هَذَا القَوْلِ مِنْ تِسعِينَ وجْهًا رحمه الله وجزَاهُ عَنِ الأُمَّةِ خَيْرًا.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ٢٢١) رقم (٥٨٩)، والدارقطني (٤/ ١٨٣)، البيهقي في السنن (١٠/ ١٢)، من حديث أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وهَلْ يَجُوزُ وَصْفُ القُرآنِ بالحُدُوثِ؟

فالجَوابُ: نَعَمْ، مُحدَثٌ وحَادِثٌ؛ قَالَ اللهُ تعَالَى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء:٥] لكِنْ لَا تَظُنَّ أنَّ معْنَى مُحْدَث أَيْ: أَنَّهُ مَخْلُوق، لَا، مُحْدَثٌ يَعْنِي: أنَّ اللهَ تَكَلَّم بِهِ حِينَ نُزُولِهِ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا القَوْلُ الرَّاجِحُ فِي نُزُولِ القُرآنِ، أَنَّهُ نُزُولٌ وَاحِدٌ أَوْ نُزُولانِ: نَزَلَ إِلَى السَّماءِ الدُّنيا، ثُمَّ نَزَلَ إِلَيْنَا؟

فالجَوابُ: الظَّاهِرُ أَنَّهُ نُزُولٌ وَاحِدٌ، نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تَكَلَّم بِهِ عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ سَمِعَهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ نَزَلَ بِهِ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: عَلَى القَوْلِ بأَنَّ للقُرآنِ نُزُولًا وَاحِدًا كَيْفَ نُفسِّرُ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]؟

فالجَوابُ: نُفسِّر هَذَا بأَنَّ اللهَ تعالى بدَأَ إنزَالَهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ كَوْنَ القُرآنِ باللُّغةِ العربيَّةِ مَنقَبَةٌ كُبْرَى للعَرَبِ: أَنْ يَكُونَ القُرآنُ العَظِيمُ نزَلَ بلُغَتِهِمْ؛ لقَولِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾.

فإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَـذِهِ عَصبيَّةٌ وحميَّةٌ للعَرَبِ ويَفتـخِرُ بهَا العَرَبُ المُلحِدُونَ فمَا الجَـوابُ؛ لأنَّ هَذَا مُشكِـلٌ، فالعَرَبُ المُلحِدُون الَّذِين يَبنُـونَ الوَلَاءَ والبرَاءَ عَلَى القَوميَّةِ العَربيَّةِ يَفْخَرُونَ بهَذَا!.

فنَقُولُ: مَنْ كَانَ كَافِرًا فَلَا فَخْرَ، ولَوْ كَانَ مِنْ صَمِيمِ العَرَبِ؛ والدَّلِيلُ: أَبُو لهَبٍ عَمِّ النَّبيِّ ﷺ أَنزَلَ اللهُ فِي حَقِّهِ سُورَةً كَامِلَةً تُتلَى فِي الصَّلَاةِ، وفِي المَسَاجِدِ، وفِي كُلِّ مَكَانٍ ممَّا يُتلَى فِيهِ القُرآنُ إِلَى يَومِ القِيامَةِ فِي ذَمِّه، وهُوَ مِنْ صَمِيمِ العَرَبِ عَمِّ النَّبيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فالعُروبَةُ لَا تُغنِي شَيْئًا مَعَ الكُفْرِ، فإِذَا اجتمَعَ الدِّينُ والدُّنيا فَمَا أَحْسَنَ الدِّينَ والدُّنيَا إِذَا اجتَمَعَا: صَارَ مُسلِمًا وعَرَبيًّا.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ فِي القُرآنِ مِنَ الكلِمَاتِ مَا لَيْسَ بعَرَبيٍّ؟

فالجَوابُ: لَا، أَبَـدًا، كُلُّ مَا فِي القُرآنِ عرَبيٌّ، لكِنَّ بعـضَهُ مِنْ صَمِيمِ اللُّغـةِ العَربيَّةِ، وبعـضَهُ مُعرَّب، أَي: أَصْلُهُ غَيرُ عرَبيٍّ لكنَّهُ عُرِّب، وإِذَا عُرِّبَ صَارَ عَرَبيًّا، فإِنَّهُ لَمَّا تَكَلَّم بِـهِ العَرَبُ صَارَ عرَبيًّا للاستِـعْمَالِ وإِنْ كَانَ أَصْلُـهُ غَيرَ عرَبيٍّ؛ أَرَأَيْتَ أَنْتَ إِذَا أخذْتَ الجِنْسِيَّةَ فِي بَلَدٍ تكوُن مُنهُمْ، وأَنْتَ فِي الأَصْلِ مِنْ غَيرِهِمْ، فلَيْسَ فِي القُرآنِ مَا لَيْسَ بعَرَبيٍّ.

وأَمَّا قَولُه تَعالَى: ﴿سُندُسٍ﴾، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ فإِنَّ هَذِهِ عُرِّبت فصَارَتْ مِنْ كَلَامِ العَرَبِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ الحُجَّـة لَا تَكُونُ إِلَّا بالفَهْمِ، أَيْ: أَنَّ الحُجَّةَ لَا تَقُوم عَلَى العِبَادِ إِلَّا إِذَا فهِمُوها؛ لقَولِهِ: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ والعَقْـلُ هُنَا بمَعْنَى الفَهْمِ، فَلَوْ تُلِيَ القُرآنُ عَلَى رَجُـلٍ أَعْجميٍّ لَا يَعرِفُ معنَـاهُ ولَمْ يُقَلْ لَهُ: هَـذَا كَلَامُ اللهِ. فإِنَّهُ لَا حُجَّةَ قَائمَةٌ، ويدُلُّ لهَذَا قولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، فهذِهِ مسأَلَةٌ عظِيمَةٌ؛ الحُجَّةُ لَا تَقُومُ عَلَى العِبَادِ إِلَّا بفَهمِهَا ومعرِفَةِ مَعْنَاهَا، وإِلَّا فأَيُّ حُجَّةٍ فِي رَجُلٍ يَتكَلَّمُ بكَلَامٍ لَا نَفهَمُه؟! لَا حُجَّةَ؛ ولذَلِكَ لَوْ قَامَ أعجمِيٌّ أَمَامَنا ونحْنُ عرَبٌ لَا نَعرِفُ لُغتَهُ وتَكَلَّم بأفصَحِ مَا يكُونُ فِي لُغتِهِ لَا نَفهَمُ شَيْئًا أَبَدًا؛ فلَا بُدَّ مِنْ فَهْمِ الحُجَّةِ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَولُكُم: إِنَّ الحُجَّـةَ لَا تَقُوم إِلَّا بفَهْمِهِ، هَلْ يَنبَنِي عَلَى هَـذَا أَنَّ القُبوريِّينَ الَّذِين لَمْ يَفهَمُوا بَابَ العِبَادَةِ حَقَّ الفَهْمِ -ويَقْرَؤُون القُرآنَ- أَنَّهُم مَعذُورُون

بذَلِكَ؛ لأَنَّ البعْضَ يَقُولُ: الحُجَّةُ قَائمَةٌ بوجُودِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ؟

فالجَوابُ: هؤُلاءِ مُقصِّرُون، يَعْنِي: أنَّهُم يُعرَض عليهِمُ الحَقُّ ولكِنَّهُم لَا يَقْبَلُونَهُ، لكِنْ لَوْ فَرَضْنا أنَّ أُنَاسًا بَعِيدِينَ عَنِ المُدُنِ وعَنِ العِلْمِ، وهُمْ مُسلِمُونَ، يُصَلُّونَ، ويَعمَلُونَ كُلَّ أعْمَالِ الإسلَامِ وهُمْ قُبورِيُّون، هؤُلاءِ لَمْ تُقَمْ عليهِمُ الحُجَّةُ، لكِنَّ غَالِبَ القُبورِيِّينَ الآنَ -إنْ لَمْ يَكُنْ كُلُّهم- قَدْ قِيلَ لَهُمْ: إنَّ هَذَا شِرْكٌ، ولكِنْ قصَّرُوا وقَالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢].

وإنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ فَهْمُ القُرآنِ يَكُونُ عَلَى حَسبِ ذَكَاءِ الشَّخصِ أَوْ عَلَى حسبِ تَقْوَاهُ لله جَلَّ وَعَلَا؟

فالجَوابُ: عَلَى هَذَا وهَذَا؛ ولذَلِكَ قَالَ عَليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللهُ تَعَالَى مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ»(١)، والتَّقْوَى لَهَا تأْثِيرٌ فِي فَهْمِ القُرآنِ الكَرِيمِ؛ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧]، وَقَالَ فِي القُرْآنِ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢].

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: مَاذَا تَقُولُون فِي قَولِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩] وَلَمْ يَقُلْ: ومَنْ فَهِمَهُ؟!

فالجَوابُ: أَنْ نَقُولَ ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ مُقيَّدٌ بالنُّصوصِ الأُخْرَى الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الفَهْمِ. أَوْ يُقالُ: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ مِنَ العَرَبِ الَّذِين يَفهَمُونَهُ، ولَا بُدَّ مِنْ هَذَا، واللهُ عَزَّوَجَلَّ أرْحَمُ وأحكَمُ مِنْ أَنْ يُلزِمَ العِبَادَ بِمَا لَا يَفهَمُونَهُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم (١١١)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل المدينة، رقم (١٣٧٠).

فإنْ قِيل: سِيَاقُ الآيَاتِ الَّتِي فِيهَا: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣] إنَّما كَانَ فِي رِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ فهَلْ يَصِحُّ الاستِشْهَادُ بِهِ عَلَى العُمُومِ؟

فالجَوابُ: نعَمْ يَصِحُّ؛ لأَنَّ العِبرَةَ بعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ.

فائدة: بعضُ النَّاسِ يَستَنْبِطُ مِنَ الآيَاتِ مَا لَا تَحتَمِلُهُ الآيَاتُ، أرَأيتُمْ أوَّلَ مَا خرَجَ وُصولُ البشَرِ إِلَى القَمَرِ -ولعَلَّهُ حصَلَ قَبْلَ أَنْ يُميِّزَ أكثَرُكُمْ، أكثرُكُمْ شَبَابٌ والحمْدُ لله- لَمَّا حدَثَتْ هذِهِ الحَادِثَةُ وقَالُوا: إنَّ البَشَرَ وَصلُوا إِلَى القَمَرِ وأخذُوا منْهُ عيِّنةٌ وجَاؤُوا بهَا إِلَى الأَرْضِ وادَّعَوْا أنَّها مِنَ القَمَرِ، أحجَارٌ سودَاءُ رأَيْنَاها، قَالَ النَّاسُ: هَذَا مَوجُود في القُرآنِ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣] أيْ: بعِلْمٍ، وهؤُلاءِ وَصَلُوا إِلَى أقطَارِ السَّمواتِ بالعِلْمِ، فقَالُوا: هذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى هَذَا.

لكِنَّ هَذَا التَّفسِيرَ مُحرَّم، وقَولٌ عَلَى اللهِ، وكذِبٌ عَلَى اللهِ، فإنَّ الْآيَةَ في سِيَاقِ التَّحدِّي ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾، ولا يُمكِنُ أَنْ يَتحَدَّى اللهُ عَزَّوَجَلَّ أحَدًا بِمَا يَستَطِيعُ، التَّحدِّي مَعنَاهُ أنَّ المُخاطبَ لَا يَستَطِيعُ، هذِهِ وَاحِدَةٌ.

ثَانيًا: الْآيَةُ ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ فبَدَأَ بالسَّمواتِ، فلَا يُمكِنُ لهؤُلاءِ أَنْ يَنفُذُوا مِنْ أقطَارِ السَّمواتِ، وإِذَا كَانَ أفضَلُ رَسُولٍ فِي البَشَرِ، وأفضَلُ رَسُولٍ فِي المَلَائكَةِ لَمْ يَدْخُلِ السَّماءَ الدُّنيَا إِلَّا باستِفْتَاحٍ وإِذْنٍ فكَيْفَ بهؤُلاءِ؟!

فهؤُلاءِ إِنْ نفَذُوا مِنْ أقطَارِ الأَرْضِ لَمْ يَنفُذُوا مِنْ أقطَارِ السَّمواتِ.

ثَالثًا: قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بعْدَ قولِهِ: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ قَالَ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن:٣٥] وَلَمْ يُرسَلْ عَلَى هَـؤُلاءِ شُواظٌ مِنْ نَارٍ ونُحَاسٌ؛ فتَفسيرُ القُرآنِ بِمَا لَا يَحتَمِلُه هَذَا مُحَرَّم؛ لأَنَّ المُفسِّر يَشْهَدُ أنَّ اللهَ أَرَادَ كَذَا.

ومِثْلُ قَولِ بعضِهِمْ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨] قَالَ: هَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أنَّ الأَرْضَ تَدُور.

والمَسأَلَةُ هذِهِ حَصَلَ فِيهَا مَعرَكَةٌ كَبِيرةٌ: هَلِ الأَرْضُ تَدُورُ أَوْ لَا تَدُورُ؟ وكُتِبت فِي ذَلِكَ مَنشُوراتٌ فِي الصُّحفِ ورسَائِلُ صَغِيرةٌ؛ إنْكَارًا وتَأْيِيدًا، فجَاءَ هَذَا الرَّجُل المُتعلِّم فقَالَ: هَـذِهِ فِي القُرآنِ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ قِيلَ: هَذَا يومَ القِيَامَةِ. قَالَ: يومَ القِيامَةِ لَا يُمكِنُ أَنْ يُرَى الشَّيءُ إلَّا عَلَى حقِيـقَتِهِ، لَا يَرَاهُ عَلَى غَيرِ حقـيقَتِهِ. فقِيلَ لَهُ جَوَابًا عَلَى هَـذَا: أَلَمْ تَقْرَأْ قَولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج:١-٢] فهَذَا رؤْيةُ الشَّيءِ عَلَى غَيْرِ حقيقَتِهِ، وهُوَ مُمكِنٌ؛ فالآيَةُ ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ يَوْمَ القِيامَةِ ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ لأنَّها تَكُونُ هَبَاءً.

فهَذَا أيْضًا مِنَ الغَلَطِ، وتَحْمِيلِ القُرآنِ مَا لَا يَحْتَمِلُ.

الآيــة (٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف:٤].

قولُه: ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ الضَّمِير يَعُودُ عَلَى ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾، وهُوَ القُرآنُ ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هُوَ اللَّوحُ المحفُوظُ، وسُمِّي أُمًّا؛ لأَنَّهُ مَرجِعٌ لجَمِيعِ مَا يُكتَبُ مِنْ بعْدِهِ، والكِتَابَةُ أَنْواعٌ، والكِتَابَةُ العُظمَى العَامَّة الشَّامِلَةُ مَا كُتِبَ فِي اللَّوحِ المحْفُوظِ.

وقولُه: ﴿لَدَيْنَا﴾ أَيْ: عِنْدَنا، والظَّرفُ هُنَا حَالٌ مِنْ ﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يَعْنِي: أَنَّ الَّذِي لَدَى اللهِ -فِي هَذِهِ الْآيَةِ- هُوَ ﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أَيِ: اللَّوحُ المحفُوظُ عنْدَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهُوَ محْفُوظٌ مِنَ التَّغيِيرِ والتَّبدِيلِ؛ لأَنَّه أُمُّ الكِتَابِ.

وأَمَّا الكُتُبُ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا المَلَائِكَةُ فَفِيهَا تَغْيِيرٌ وتَبدِيلٌ، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩].

وقولُه: ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أَيْ: ذُو عُلُوٍّ ﴿حَكِيمٌ﴾ أَيْ: ذُو حُكْمٍ وحِكمَةٍ، وَصْفانِ عظِيمانِ للقُرآنِ الكَرِيمِ وَصَفَ اللهُ بِهِمَا نفْسَهُ.

(عليٌّ) بمَعْنَى: عَالٍ، لكِنَّه أبلَغُ؛ لأَنَّ (عَليًّا) عَلَى وزْنِ (فعِيل) صِفَةٌ مُشبَّهةٌ، والصِّفةُ المُشبَّهة تَدُلُّ عَلَى الثُّبوتِ والاستِمْرَارِ.

و﴿حَكِيمٌ﴾ أَيْ: ذُو حُكْمٍ وحِكمَة؛ فالقُرآنُ حَاكِمٌ، والقُرآنُ مُشتَمِلٌ عَلَى حِكْمةٍ. ومعْنَى قَولِنا: (حَاكِمٌ) أَنَّه مَرجِعٌ فِي الحُكمِ لا يُحكَم بغَيرِه، ومعْنَى (حَاكِمٌ)

أنَّه مُهيمِنٌ عَلَى جَمِيعِ الكُتُبِ حَاكِمٌ عَلَيْهَا.

وقولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ يَحتَمِل أنَّ مُرادَ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أَيْ: ذِكْرُه كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]، ومَعلُوم أنَّ القُرآنَ ليْسَ فِي زُبرِ الأَوَّلِينَ، ولكِنْ فِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ذِكرُه، ولكِنْ إِذَا تَأمَّلنا قُلْنا: الأَصْلُ أنَّ الضَّمِيرَ يَرجِعُ إِلَى المُضمَرِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ، أَيْ: إِلَى نَفْسِ المُضمَرِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ، وحينَئِذٍ يَكُونُ ﴿إِنَّهُۥ﴾ -أَيِ: القُرآن- كُلُّه فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ.

فإِنْ قَالَ قَائلٌ: هَذَا القَولُ يَرِدُ عَلَيْهِ أنَّ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ كلِماتٍ تَحدَّث اللهُ بِهَا عَنْ شَيءٍ مَضَى، مِثْلَ قَولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١] هَذَا الخَبَرُ بعْدَ المُجادلَة، وقولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران:١٢١] إِشَارةٌ إِلَى غزْوةِ أُحُدٍ ﴿غَدَوْتَ﴾ خرَجْتَ فِي الغَدَاةِ، هَذَا الخَبَرُ بعْدَ أَنْ غَدَا؛ لأنَّ غَدَا فِعْلٌ مَاضٍ، فهُنَا يُشكِلُ يُقَالُ: كيْفَ كَانَ فِي اللَّوحِ المحفُوظِ يَتحَدَّث اللهُ عَنْ شَيءٍ حصَلَ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الآيَة؟

فيُقَال: لَا إِشكَالَ؛ والجَوابُ: أنَّ اللهَ كتَبَ هَذَا فِي اللَّوحِ المحفُوظِ؛ لعِلْمِه أنَّه سيَقَعُ، ثُمَّ أَنزَلَهُ بعْدَ وُقُوعِهِ، كَمَا أَنَّ الحوادِثَ الكَونيَّةَ مَكتُوبَةٌ فِي اللَّوحِ المحفُوظِ لعِلْمِهِ تعَالَى أنَّها ستَقَعُ، ثُمَّ تَكُونُ حِينَ يُرِيدُ اللهُ أَنْ تَكُونَ.

وكنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ أُرجِّحُ، بَلْ أَقُولُ: يَتعيَّن أنَّ الَّذِي فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ لَيْسَ هُوَ القُرآنَ؛ لكِنَّ الَّذِي فِي اللَّوحِ ذِكْرُ القُرآنِ؛ أَيْ أنَّه سيَنْزِلُ قُرآنًا عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ، واستَدَلُّوا عَلَى هَذَا بقَولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]، والَّذِي فِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ هُوَ ذِكْرُ القُرآنِ بلَا شَكٍّ، مُستَنِدًا إِلَى مِثْلِ الآيَاتِ الَّتِي ذَكَرْتُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١] وقولُهُ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ

ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران:١٢١].

حتَّى عثَرْتُ عَلَى كَلَامٍ لشَيخِ الإسلَامِ ابْنِ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبيَّن مَا ذكَرْتُ أخيرًا؛ أَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يُكتَب فِي اللَّوحِ المحْفُوظِ بلَفْظِ المَاضِي؛ لأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلِمَ أَنَّهُ سيَكُون[1]، وأَنَّهُ سيُنْزِلُ هَذِهِ الْآيَةَ بعْدَ أَنْ يَكُونَ.

وبِنَاءً عَلَيْهِ: تَبيَّن لِي أَنَّ الَّذِي فِي اللَّوحِ المحفُوظِ القُرآنُ؛ بِنَاءً عَلَى ظَاهِرِ الآيَاتِ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج:٢١-٢٢] والحمْدُ لله الَّذِي فتَحَ عَلَيَّ، وجَزَى اللهُ شَيخَ الإسلَامِ ابْنَ تيمِيَّةَ خَيْرًا، وهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الإنسَانَ مَهْمَا كَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَعتَرِيَه النَّقْصُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: عنَايَةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بهَذَا القُرآنِ، وهَذَا يَدُلُّ عَلَى شَرَفِهِ؛ حيْثُ جعَلَه عنْدَهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ القُرآنَ عَالٍ بَلْ عَلِيٌّ، وهَذَا يدُلُّ عَلَى أنَّ مَنْ تَمسَّكَ بهَذَا القُرآنِ فلَهُ العُلوُّ كقَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد:٣٥] فنَقُولُ: القُرآنُ عَلِيٌّ، ومَنْ تَمَسَّكَ بِهِ فلَهُ العُلوُّ، وشَاهِدُ هَذَا الوَاقِعُ؛ لَمَّا كَانَتِ الأُمَّةُ الإسلَاميَّةُ مُتمسِّكةً بالإسلَامِ كَانَ لَهَا العُلوُّ والظُّهورُ، وملَكَتْ بِهِ مشَارِقَ الأرْضِ ومغَارِبَها، ولَمَّا تقَاعَسَتْ وتَخَاذَلَتْ وتَنَازَعَتْ وتَبَاغَضَتْ صَارَ الأَمْرُ بالعَكْسِ، صَارَ لَهَا الذُّلُّ، فالْآنَ أُمَّةُ العرَبِ يَدْعُون اليَهودَ إِلَى السِّلْمِ، ويُكرِّرُون ذَلِكَ، ويَمُدُّونَ أيدَيهُمْ إِلَى دُولِ النَّصارَى لتُساعِدَهم عَلَى السِّلمِ؛ لأَنَّنَا لَمْ نَتَمَسَّكْ بالقُرآنِ،

---

(١) انظر: النبوات لابن تيمية (٢/ ٩١٣).

فكُنَّا أذِلَّةً نَتوسَّلُ لأعدائِنَا أَنْ يقعَ السِّلمُ بينَنَا وبَيْنَ أعدائِنَا.

فلَوْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: نحْنُ أُمَّةُ القُرآنِ ومَعَ ذَلِكَ فالنَّاسُ فِي ذُلٍّ!.

قُلْنَا: لأَنَّنا لم نَتمَسَّكْ بالقُرآنِ، ولَوْ تَمَسَّكْنا بالقُرآنِ لضَمِنَّا لأنفُسِنَا العُلوَّ والغلبَةَ والظُّهورَ، لكِنَّ الأمْرَ بالعكسِ، فالْآنَ غَالِبُ المُسلمِينَ يَلهَثُونَ وَرَاءَ الدُّنيَا، مُعرِضِينَ عَنِ الدِّينِ، يَسأَلُونَ: مَا الَّذِي يُنمِّي الاقتصَادَ؟ ما الَّذِي يَصِلُ بِهِ إِلَى التَّرَفِ؟ ومَا أَشْبَه ذَلِكَ، لكِنْ مَا الَّذِي يُقوِّي الدِّينَ؟ هَذَا قَلِيلٌ أَوْ نَادِرٌ، هَذَا قَلِيلٌ أَوْ مَعدُوم.

إذَنِ: الكلِمَةُ ﴿لَعَلِيٌّ﴾ عَلَى ظَاهِرِهَا وعَلَى معْنَاهَا، لكِنْ بشَرْطِ أَنْ نَتمَسَّكَ بهَذَا القُرآنِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ مَنْ جَادَلَ بالقُرآنِ فهُوَ غَالِبٌ؛ لأَنَّ الَّذِي لَهُ العُلوُّ هُوَ القُرآنُ، أيُّ إنسَانٍ يُناظِرُك ووسيلَةُ إقنَاعِهِ ودَحْرِه القُرآنُ فإنَّكَ ستَغْلِبُه بلا شَكٍّ، لكِنْ لَمَّا عَدَلَ كَثِيرٌ مِنَ الأُمَّة إِلَى كلَامِ أهْلِ الكلَامِ -الذِي لَا فائِدَةَ فِيهِ- لم يُهدُوا إِلَى صِرَاطِ المُستَقِيمِ، ولَمْ يَغْلِبُوا الأعْدَاءَ، بَلْ تَسلَّطَ علَيهِمُ الأعدَاءُ.

حتَّى الفَلاسِفَةُ المُلحِدُون صَارُوا يَحتَجُّون بعَمَلِ الأشَاعرَةِ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ البَاطِلِ، ويَقُولُون: أنتُمْ أيُّها الأشَاعِرَةُ، أنتُمْ أيُّها المعتزَلَةُ، حرَّفْتُمُ النُّصوصَ إِلَى مَا تَرَوْنَهُ عقْلًا، ونحْنُ أيضًا انْصرَفْنا عَنِ النُّصوصِ إِلَى مَا نَرَاهُ عَقْلًا، فاحتَجُّوا ببِدَعِ هَؤُلاءِ عَلَى إلحَادِهِمْ، وقَالُوا: نحْنُ وأنْتُمْ سَوَاءٌ، أنْتُمْ حَرَّفتُم ونحْنُ حرَّفْنا؛ ولكِنْ لَوْ تَمَسَّكْنا بالقُرآنِ لَا يَستَطِيعُ هَؤُلاءِ الفلَاسفَةُ أنْ يُجَابِهُونا.

واقْرَأْ كُتُبَ أهْلِ الكَلَامِ تَجِدْ صفحَةً صفحتَينِ لَا تَأتِي منْهُما إلَّا بفَائِدةٍ واحِدَةٍ؛ ولهَذَا صَحَّ أَنْ نَقُولَ: إنَّهُم أهْلُ الكلَامِ وكلَامُهُم كَلَامٌ، بمَعْنَى أنَّ كلَامَهُم لَا فائِدَةَ

فِيهِ؛ وانْظُرْ إِلَى قَولِهِ ﷺ لَمَّا شَكَا إِلَيْهِ الصَّحابَةُ مَا يَجِدُونَ فِي نُفُوسِهم مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيطانِ قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»[1]، وأَمَرَ مَنْ يَجِدُ هَذِهِ الوسَاوسَ أَنْ يَستَعِيذَ باللهِ ويَنْتَهِيَ: «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ»[2] كَلِمَتَانِ. فيَكتُبُ الفَلَاسِفَةُ والمُتكلِّمُونَ عَلَى هَـذَا الكَثِيرَ مِمَّا يَدَّعُون أَنَّهُ عَقليَّاتٌ، وهُوَ وَهْميَّاتٌ.

نَسأَلُ اللهَ أَنْ يرزُقَنا وإِيَّاكُمُ التَّمسُّكَ بهَذَا الكتَابِ العزِيزِ، وأَنْ يُعِزَّنا بِهِ.

• ● ۞ ● •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، رقم (١٣٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، رقم (١٣٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٥)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف:٥].

الهَمزَةُ هُنَا للاستِفْهَامِ، المُرادُ بِهِ النَّفيُ؛ بدَلِيلِ أنَّ المُفسِّر قَـدَّر بعْدَ ذَلِكَ قَوْلَهُ: لَنْ. يَعنِي: لَنْ نَضْرِبَ عنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا. المَعْنَى: أَنَّنا لَا يُمكِنُ أَنْ نَترُكَكُم بدُونِ إنْذَار؛ لكَونِكُم قَومًا مُجرِمِينَ، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ الإنْذَارِ كَمَا تَقُولُ: ضَرَبْتُ عَنْ هَذَا صفْحًا؛ يَعنِي: أَعرَضْتُ عنْـهُ، ولَنْ تَرْفَعْ بِـهِ رَأسًا، والمُرادُ بهَذَا -كَمَا قُلْـتُ- النَّفْيُ؛ تَوبِيخًا لهَؤُلاءِ القَوْمِ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عمَّا جاءَ بِهِ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

والضَّمِيرُ فِي قَولِهِ: (نَضْرِبُ) يَعُودُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأَتَى بالضَّمِيرِ الدَّالِّ عَلَى الجَمْعِ تَعظِيمًا للهِ تعالَى، ولَيْسَ للتَّعدُّدِ؛ لأَنَّ اللهَ الوَاحِدَ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وقَولُهُ: ﴿عَنكُمُ﴾ يَعُودُ إِلَى كُفَّارِ قُريشٍ الَّذِين كَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ.

وقَولُهُ: ﴿صَفْحًا﴾ مَصدَرٌ مَعنَويٌّ لكلِمَةِ (نَضرِبُ)؛ لأَنَّ معنَاهُ (إعْرَاضًا).

فمَعْنَى الآيةِ إجْمَالًا: أَنُعرِضُ عَنْ تَذْكيرِكُم وإنذَارِكُم. وهَذَا هُو الَّذِي يَفعَلُهُ العَرَبُ فِي كَلَامِهِمْ؛ يَقُولُ: أَعْرَضْتُ عنْكَ صفْحًا يَعْنِي: لَمْ أُبالِ بِكَ ولَمْ أَلتَفِتْ إلَيْكَ.

وقَولُهُ: ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾: ﴿أَن﴾ ومَا دخَلَتْ علَيْهِ فِي تَأويلِ

مَصْدَرٍ مَفعُولٍ لأَجْلِهِ؛ أيْ: لأَجْلِ أَنْ كُنْتُم قَوْمًا مُسرِفِينَ، فهِيَ تعلِيليَّةٌ. والإِسْرَافُ مُجاوَزَةُ الحَدِّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ اللهَ لَمْ يَتْرُكْ عِبَادَهُ هَمَلًا، بَلْ بيَّنَ لَهُمُ الحَقَّ، ودَعَاهُم إِلَيْهِ، وخَوَّفَهم مِنْ مُخالفَتِهِ فلَمْ يَبْقَ لأَحَدٍ عُذْرٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإنسَانَ مَعذُورٌ بالجَهْلِ إِذَا لَمْ تَبلغْهُ الرِّسالَةُ، وهَذَا لَهُ أدِلَّةٌ:

مِنْهَا: قَوْلُ اللهِ تعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٣-١٦٥].

ومنْهَا: قَولُهُ تعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء:١٥].

ومنْهَا: قَولُهُ تعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص:٥٩]، والأدِلَّةُ عَلَى هَذَا كثيرَةٌ.

وقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[1]، فقَالَ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ».

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَهَلْ يُشتَرَطُ مَعَ بُلُوغِ الرِّسالَةِ أَنْ يَفْهَمَها المُخاطَبُ؟

فالجَوابُ: نَعَمْ، يُشتَرَطُ هَذَا؛ لقَوْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، أيُّ فَائدَةٍ فِي رَسُولٍ يَأتِي إِلَى قَوْمٍ لَا يَعرِفُونَ لُغتَهُ وَهُو لَا يَعرِفُ لُغتَهُم؟! لَا فائِدَةَ تَحصُلُ، واللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أرْحَمُ وأحْكَمُ مِنْ أَنْ يُعذِّبَ قَوْمًا بدُونِ أَنْ يَفْهَمُوا مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسلُ.

يَبقَى النَّظَرُ إِذَا كَانَ الإنسَانُ مُسلِمًا ولكنَّهُ يَقُومُ بأَعْمالٍ شِرْكيَّةٍ لَا يُظَنُّ أنَّها شِرْكٌ، فهَلْ يُحكَمُ بشِرْكِهِ؟

فالجَوابُ: لَا، حتَّى تَقُومَ علَيْهِ الحُجَّةُ، فإِذَا قَامِتْ علَيْهِ الحُجَّةُ، فحِينَئذٍ نَحْكُمُ بشِرْكِهِ.

فإِنْ قِيلَ: وكذَلِكَ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ البِدَعَ؟

فالجَوابُ: نَعَمْ، لكِنَّ المُبتَدِعَ أشَدُّ؛ لأَنَّ المُبتَدِعَ -والعِيَاذُ باللهِ- يَضِلُّ بِهِ أنَاسٌ كثِيرُونَ، والشِّركُ لَا يَضرُّ إِلَّا صَاحبَهُ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ هَذَا المُشرِكُ لَهُ طَاعَةٌ عِنْدَ قَومِهِ، ويكُونَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ يَتَّبِعُونَه، فهُوَ مِنْ جِنْسِ المُبتدِعِ، أمَّا إِذَا كَانَ عامِّيًّا فإِنَّه لَا يُؤثِّرُ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ؛ ولهَذَا قَالَ بَعْضُ العُلماءِ رَحِمَهُمُاللَّهُ: المُبتَدِعُ لَا تَوْبَةَ لَهُ؛ لأَنَّهُ وإِنْ تَابَ بنَفْسِهِ لَا يَسْلَمُ مِنْ ضَلَالَةِ الَّذِين اتَّبَعُوهُ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مِنَ المُشرِكِينَ أَتَاهُ رَجُلٌ مُسلِمٌ لكِنَّهُ صُوفيٌّ فأَعْطَاهُ الإسْلَامَ عَلَى وَجْهِ الصُّوفيَّة والأذْكَارِ المُبتَدَعَةِ، فصَارَ يَعْمَلُ بهَذَا ويَعتَقِدُ أنَّ هَذَا هُوَ الإسْلَامُ، هَلْ يُعاقَبُ عَلَيْهِ؟

فالجَوابُ: لَا يُمكِنُ أَنْ يُعذَّبَ أحَدٌ عَلَى بَاطِلٍ إلَّا إذَا كَانَ يَعلَمُ أَنَّهُ بَاطِلٌ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ أَرحَمُ وأَحكَمُ مِنْ أَنْ يُعذِّبَ شَخْصًا وهُوَ لَا يَدْرِي، ولكِنْ هناك أُناسٌ مُعَانِدُون يُذكَر لهُمُ الحَقُّ ويَقُولُ: لَا، أَنَا أَتَّبِعُ شَيخِي. حتَّى لَوْ كَانَ الَّذِي ذَكَرَ لَهُ الحَقَّ عَالِمًا مَعرُوفًا يقُولُ: لَا، أَتَّبِعُ مَشَايِخِي. فهَذَا لَا يُعذَرُ، لكِنْ لَوْ أَنَّ عَامِّيًّا أُعلِّمُه أنَّ هَذَا العمَلَ لَا يَجُوزُ وهَذَا شِرْكٌ، ومشَايِخُهُ كُلُّهُم يَقُولُونَ: هَذَا حسَنٌ. فهُوَ مَعذُورٌ؛ لأَنَّهُ لَا يَثِقُ، فلَمْ يَأتِ لَهُ الحَقُّ عَلَى وَجْهٍ يَثِقُ بِهِ، فالْآنَ نَحْنُ العُلماءَ لَوْ جَاءَنَا إنسَانٌ عَلَى عَكْسِ مَا جَاءَ بِهِ عُلمَاؤُنَا ونحْنُ لَا نَعرِفُهُ مَا اتَّبعنَاهُ، لكِنْ قَدْ يُقَال: كَونُهُ أُعلِمَ بأَنَّه عَلَى باطِلٍ وأنَّ الحَقَّ خلَافُهُ يُلزِمُه بأَنْ يَبْحَثَ ويَسْأَلَ، فَقَدْ يُؤَاخَذُ مِنْ هُنَا، أَيْ: مِنَ التَّقصِيرِ فِي طلَبِ الحَقِّ.

وإذَا قَالَ قَائِلٌ: رَجُلٌ فِي الغَابَاتِ بَعِيدٌ عَنِ المُدُنِ، بَعِيدٌ عَنِ الحَضَارَاتِ، لكِنَّهُ ينْتَمِي إِلَى دِينِ كُفْرٍ، فهَلْ هَذَا مَعْذُورٌ؟

فالجَوابُ: أمَّا فِي أحْكَامِ الدُّنيَا فلَيْسَ بمَعذُورٍ. يَعْنِي: أَنَّنا نُعامِلُه مُعاملَةَ الكَافِرِ؛ لأَنَّه لَا يَنتَمِي إِلَى دِينِ الإسْلَامِ، بخِلَافِ الأوَّلِ، نُعامِلُه فِي الدُّنيا مُعامَلَةَ الكَافِرِ، أمَّا فِي الآخِرَةِ فأَمْرُهُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا نَدْرِي مَاذَا يَكُونُ، وقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**أَنَّ أَهْلَ الْفَتْرَةِ يُرْسِلُ اللهُ إِلَيْهِمْ رُسُلًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَمْتَحِنُهُمْ مَنْ أَطَاعَ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَى دَخَلَ النَّارَ**»(١).

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: عَلَى هَذَا القَوْلِ يَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ الآخِرَةُ دَارَ تكلِيفٍ؟

فالجَوابُ: نعَمْ، نَلتزِمُ بهَذَا، وقَدْ دَلَّ القُرآنُ عَلَى أنَّ الآخِرَةَ دَارُ تكلِيفٍ؛ فقَالَ

---

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد (٤/ ٢٤)، من حديث الأسود بن سريع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم:٤٢-٤٣] فهُنَا كُلِّفُوا بالسُّجودِ مَعَ أنَّ الآخِرَةَ ليْسَتْ دَارَ تكْلِيفٍ فِي الأَصْلِ، لكِنْ قَدْ يُكلَّفُ النَّاسُ فِيهَا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ أحكَامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مُعلَّلَةٌ بعِللٍ مُناسبَةٍ للحُكْمِ، وهَذَا مِنْ مُقتضَى حِكْمتِهِ؛ أَلَّا تَجِدَ حُكْمًا إلَّا ولَهُ حِكْمَةٌ، ولكِنْ هَلْ يَلْزَمُ مِنْ كَونِهِ لَهُ حِكْمَةٌ أَنْ تَكُونَ معلُومةً لَنَا؟

الجَوابُ: لَا؛ لأَنَّ أفْهَامَنَا وعُقُولَنَا أدْنَى مِنْ أَنْ تُحِيطَ عِلْمًا باللهِ، بحِكمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّنا نَعلَمُ أنَّهُ لَا يُحكَمُ بشَيءٍ قَدَرًا أَوْ شَرْعًا إلَّا ولَهُ حِكْمَةٌ، إذَا حَكَمَ اللهُ فِي الكِتَابِ أَوِ السُّنَّة بحُكْمٍ فَلَا تَبْغِ بِهِ بَدِيلًا؛ لقَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]، ولَمَّا سُئِلَتْ أُمُّ المُؤمنِينَ عائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ الحَائِضِ تَقْضِي الصَّومَ دُونَ الصَّلاةِ؟ قَالَتْ: «كَانَ يُصيبُنا ذَلِكَ فنُؤمَرُ بقَضَاءِ الصَّومِ ولَا نُؤْمَرُ بقَضَاءِ الصَّلاةِ»[1].

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥).

الآيــة (٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف:٦].

(كَمْ) هذِهِ خبَرِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى الكثرَةِ، عامِلُها مَا بعدَهَا ﴿أَرْسَلْنَا﴾، والإرْسَالُ هُوَ الإيحَاءُ إِلَى بَشَر بشَريعَةٍ ويُؤمَرُ بتَبْلِيغِهَا.

وقولُهُ: ﴿مِن نَّبِيٍّ﴾ بيَانٌ لِـ(كَمْ) والمُرادُ هُنَا الرَّسُولُ؛ لأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ﴾ والنَّبيُّ يُطْلَقُ عَلَى الرَّسُولِ كثِيرًا في القُرآنِ الكرِيمِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم:٤١] وأمثَالُ ذَلِكَ، والمُرادُ: الرَّسُولُ.

﴿فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَيِ: السَّابِقِينَ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ.

الآيــة (٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزخرف:٧].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا﴾ كَانَ ﴿يَأْتِيهِم﴾] قدَّر المُفَسِّر (كَانَ)؛ لأَنَّ الأمْرَ قَدْ مَضَى، ولَوْ كَانَ عَلَى نَسَقِ الكَلَامِ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ لكَانَ هَذَا فِي المُستقبَلِ؛ لذَلِكَ قدَّر المُفسِّر (كان) وهَذَا يَدُلُّ عَلَى عُمْقِ عِلْمِ المُفسِّرِ.

ولكِنْ خيرٌ مِنْ ذَلِكَ أَنْ نَقُولَ: لَا حَاجَةَ إِلَى التَّقدِيرِ؛ لأَنَّهُ إِذَا دَارَ الأَمْرُ بَيْنَ أَنْ يكُونَ فِي الكلَامِ مُقدَّرٌ أَوْ لَا يكُونُ مُقدَّرٌ، فالأَصْلُ عدَمُ التَّقدِيرِ، فنَقُول: الْآيَةُ بَاقيَةٌ عَلَى ظَاهِرِهَا، لكِنَّها عَلَى حِكَايَةِ الحَالِ؛ يَعْنِي: كَأَنَّ المَاضِيَ حَاضِرٌ الْآنَ، وهَذَا أبلَغُ فِي تخْويفِ قُريشٍ مِنَ المُخالفَةِ.

فالمُفَسِّر قدَّر (كان)؛ لأَنَّ القُرآنَ يَتحَدَّثُ عَنْ شَيءٍ مَضَى، فلَا بُدَّ أَنْ يُقدِّر فعْلًا مَاضِيًا، ونحْنُ نقُولُ: لَا حَاجَةَ إِلَى التَّقدِيرِ، وجاءَتِ الْآيَة في سِيَاقِ الفِعْلِ المُضارَعِ الدَّالِّ عَلَى الاستِقْبَالِ حكَايَةً للحَالِ، كأَنَّ الأَمْرَ وَاقِعٌ الْآنَ، فيَكُونُ هَذَا أَبْلَغَ فِي إِنْذَارِ قُريشٍ وتَحذِيرِهِمْ.

وقولُهُ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ﴾: ﴿مِّن﴾ هذِهِ زَائدَةٌ إعْرَابًا، لكنَّهَا مُفيدَةٌ للمَعْنَى، زائِدَةٌ إعْرابًا بمَعْنَى: أنَّها لَوْ نُزِعتْ مِنَ السِّياقِ لتَمَّ بدُونِها، لَوْ كَانَ لَفْظُ الْآيَة الكرِيمَةِ (ومَا يَأتيهِمْ نَبِيٌّ) يَستَقِيمُ الكلَامُ، ولكِنْ جاءَتْ (مِنْ) زِيادَةً فِي الفَائِدَةِ، وهِيَ كَمَا

يقُولُ عُلماءُ البلَاغَةِ وعُلماءُ النَّحْوِ: إنَّ زِيادَةَ الكلِمَةِ -يعْنِي: الحَرْفَ فِي الجُملَةِ- تدُلُّ عَلَى التَّوكيدِ، يعْنِي: كُلُّ كلمَةٍ زَائدَةٍ فِي القُرآنِ مِنْ حَيْثُ الإعْرَابُ فهِيَ مُفيدَةٌ للمَعْنَى.

وقولُهُ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ لَا يقبلُون ولَا يَسكُتُون، بَلْ يَستَهزِئُونَ، والاستِهزَاءُ: السُّخريةُ؛ بمَعْنَى: أنَّهُم يَسخَرُون بهِمْ ويَحتَقِرُونهُم؛ ليُحذِّرُوا النَّاسَ منْهُم، فانْظُرْ إِلَى رَحْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كَيْفَ يُرْسِلُ الرُّسُلَ وهُوَ يَعلَمُ أنَّ هؤُلاءِ المَدعُوِّين سيُقَابِلُونهُمْ بالاستِهْزَاءِ، ولكِنْ إقَامَةً للحُجَّةِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ اللهَ تعالى أَرْسَلَ عَدَدًا كثِيرًا مِنَ الأنْبياءِ فِي السَّابِقِينَ، وقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الأحَادِيثِ أنَّهُم مِئَةٌ وأربَعَةٌ وعِشرُونَ ألفًا، فاللهُ أَعلَمُ؛ لأَنَّ هَذَا يَحتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ صَحِيحٍ صَرِيحٍ، وقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨]، ومعْلُومٌ أنَّ مَنْ لَمْ يُقْصَصْ علَيْنا فلَنْ نَستَطِيعَ أَنْ نَعرِفَ عدَدَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ اللهَ تعَالَى أَقَامَ الحُجَّةَ عَلَى جَمِيعِ الخَلْقِ، ويُؤيِّدُ هَذَا قَولُهُ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَسلِيةُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فإِنَّ النَّبيَّ ﷺ إِذَا عَلِمَ أنَّ الرُّسلَ مِنْ قَبْلِهِ يُستَهْزَأُ بِهِمْ فإِنَّهُ يَتَسلَّى ولَا شَكَّ.

واعْرِفْ أنْتَ هَذَا مِنْ نفسِكَ؛ فإِذَا أُصِبْتَ بمُصيبَةٍ وأُصِيبَ غَيرُك بمِثْلِهَا أَوْ أَشَدَّ، أَلَسْتَ تَتَسلَّى بهَذَا وتَهُونُ عَلَيْكَ المُصيبَةُ؟ بلَى، وفِي هَذَا يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف:٣٩]، يَعْنِي: أَنَّ اشتِرَاكَهُم فِي العَذَابِ لَا يُخفِّفُ العذَابَ عَنْهُمْ، ولَا يَحصُلُ لكُمْ بِهِ تَسلٍّ؛ لأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ -أَعَاذَنَا اللهُ وإيَّاكُمْ مِنْهَا- لَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا منْهُمْ أخفُّ عذَابًا؛ ولذَلِكَ يَشتَدُّ حُزْنُهم -والعِياذُ باللهِ- إذَا رَأَى أَنَّهُ هُوَ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا وهُوَ أَهْوَنُهُمْ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الاستِهزَاءَ بالرُّسلِ تَكذِيبٌ لَهُمْ وزِيادَةٌ؛ لقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ واعلَمْ أنَّ الاستِهْزَاءَ بالرُّسلِ كُفْرٌ، والاستِهْزَاءَ بالكُتُبِ كُفْرٌ، والاستِهزَاءَ باللهِ كُفْرٌ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

واختَلَفَ العُلَمَاء رَحِمَهُمُاللَّهُ فيمَنِ استَهْزَأَ باللهِ أَوْ آيَاتِهِ أَوْ رَسُولِهِ، أَوْ سَبَّ اللهَ أَوْ كتَابَهُ أَوْ رَسُولَهُ، هَلْ تُقبلُ تَوبتُهُ أَوْ لَا تُقْبَلُ؟ عَلَى قَوْلَينِ، والصَّحِيحُ التَّفصِيلُ فِي هَذَا، وهُوَ أَنَّهُ إِنْ وُجِدَ مَا يَدُلُّ عَلَى استِقَامَتِهِ وَصِحَّةِ تَوبتِهِ فإنَّها تُقْبَلُ، وإِلَّا فَلَا، وذَلِكَ لأَنَّ هَذَا المُستَهْزِئَ أَوِ السَّاخِرِ أَوِ السَّابِّ ثَلَاثَ حَالَاتٍ:

الحَالُ الأُولَى: أَنْ يَستَمِرَّ فِي ذَلِكَ، فهَذَا لَا تَوبَةَ لَهُ، ويُقتَلُ رِدَّةً.

الحَالُ الثَّانيَةُ: أَنْ نَعْلَمَ أَنَّهُ تَابَ تَوبَةً نَصوحَةً؛ لأَنَّه استَقَامَ وصَلَحَتْ حَالُهُ، فهَذَا تُقبَلُ تَوبتُهُ بِلَا إِشْكَالٍ.

الحَالُ الثَّالثَةُ: أَنْ نَتَرَدَّدَ هَلْ هُوَ صَادِقٌ فِي تَوْبَتِهِ أَوْ غَيْرُ صَادِقٍ. فهَذَا يُقْتَلُ، ويَكُونُ أَمْرُهُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ نَقتُلُه لظَاهِرِ حَالِهِ؛ لأَنَّنا لَمْ نَتيَقَّنْ أَنَّ هَذِهِ الحَالَ قَدْ تَغيَّرَتْ إِلَى مَا يَمْنَعُ قتْلَهُ، فنَقتُلُه، أَمَّا فِي الآخِرَةِ فأَمْرُهُ إِلَى اللهِ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَيْسَ الاستِهزَاءُ باللهِ وسَبُّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ذَنْبًا عظِيمًا لَا يُحتَمَلُ أَنْ تُقبَلَ تَوبَةُ فَاعلِهِ؟

فالجَوابُ: أَنْ نَقرَأَ قَوْلَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي نَفْسِ الْآيَة المذكُورة: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ ﴾ [التوبة:٦٥] يَعْنِي: إِذَا عَفَوْنا عَنْ طَائفَةٍ بتَوبتِهِمْ عذَّبْنا الطَّائفَةَ الأُخْرَى الَّتِي لَمْ تَتُبْ، واقْرَأْ قَوْلَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

مَسْألَةٌ: هَلْ تُقبَلُ تَوبَةُ المُرتَدِّ؟

الجَوابُ: الصَّحيحُ أَنَّها تُقبَل إِذَا قَامَ الدَّليلُ عَلَى أَنَّهُ صَادِقٌ، أَمَّا إِذَا كَانَ يَلعَبُ بِنَا فيَقُولُ: إِنَّه تَائِبٌ وهُوَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ فَلَا، ويُقتَلُ مَا لَمْ نَعْلَمْ أَنَّهُ تَائِبٌ.

مَسْألَةٌ: مَا حُكْمُ المُستهْزِئِ بأَهْلِ الدِّينِ؟

فالجَوابُ: الَّذِي يَستَهْزِئُ بأَهْلِ الدِّينِ إِذَا استَهْزَأَ بِهِمْ لِدِينِهِمْ فهُوَ مُستهزِئٌ بالدِّين، وإِنِ استهزَأَ بِهِمْ لشَكلِهِم فَلَا، ولذَلِكَ الْآنَ لَوْ وَجَدْنا أَحَدًا رَفَع ثَوبَهُ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ مِنَ العُلماءِ المُعتبَرِينَ المُطاعِينَ لَا تَجِدُ أَحَدًا يَستَهزِئُ بِهِمْ، لكِنْ لَوْ جَاءَ إِنسَانٌ عَاميٌّ استهْزَؤُوا بِهِ، وهُنَا نَقُولُ: إِنَّ الاستِهْزَاءَ هُنَا لَيْسَ استِهْزَاءً للدِّينِ، وإِنَّما هُوَ استِهْزَاءٌ بهَذَا الرَّجُلِ، فيَجِبُ التَّفرِيقُ بَيْنَ هَذَا وهَذَا.

الآيــة (٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف:٨].

(أَهْلَكْنا) يَعْنِي بالمَوْتِ، ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾: ﴿أَشَدَّ مِنْهُم﴾ أَيْ: مِنْ كُفَّارِ قُريشٍ، ﴿بَطْشًا﴾ أَيْ: [قُوَّةً] ﴿وَمَضَىٰ﴾ أَيْ: [سَبَقَ فِي آيَات] ﴿مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ يَعْنِي: قُوَّةً، كقَوْمِ هُودٍ، وقَوْمِ صَالِحٍ، ومَنْ أَشْبَهَهُم، أَهلَكَهُمُ اللهُ وهُمْ أَشَدُّ مِنْ هَؤُلاءِ الَّذِين كذَّبُوا مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أَشَدُّ بَطْشًا، وأَكْثَرُ أَمْوَالًا وأَوْلَادًا، ومَعَ ذَلِكَ مَا أَغْنَتْ عنْهُم شَيْئًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيَانُ شِدَّةِ صَبْرِ الرُّسلِ علَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ حَيْثُ إنَّهُم يُستَهْزَأُ بِهِمْ، وهُمْ صَابِرُون حتَّى يَأتِيَ أَمْرُ اللهِ، وإلَّا فمَنِ الَّذِي يُطِيقُ أَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ وهُمْ يَستَهزِئُون بِهِ، لَوْلَا أَنْ يُثَبِّتَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الإنسَانَ بالقَوْلِ الثَّابتِ، كَمَا قَالَ تعَالَى لنَبيِّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء:٧٤].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تحذِيرُ قُريشٍ مِنْ رَدِّ دَعوَةِ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ؛ لأَنَّ اللهَ تعَالَى تَوعَّدَهم بذِكْرِ إهْلَاكِ مَنْ سَبَقَ، وكُلُّ إنسَانٍ لَهُ قَلْبٌ إذَا ذُكِرَ لَهُ حَالُ الأُمَمِ

السَّابقَةِ، وأنَّهُم أُهلِكُوا فلَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَتَّعِظَ ولَا بُدَّ أَنْ يَخَافَ ويَخْشَى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جَوازُ التَّحويلِ عَلَى شَيْءٍ سَابِقٍ؛ لقَولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ: حَالُهُم وصِفَاتُهُم، والتَّحوِيلُ فِيهِ فائِدَةٌ، وهِيَ: أَنْ يَتذَكَّرَ الإنسَانُ مَا مَضَى وأَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ.

وقَدْ عَابَ قَوْمٌ عَلَى الحَافِظِ ابْنِ حَجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بكَثْرَةِ حِوالَاتِهِ فِي (فَتْح البَارِي) والحقِيقَةُ أَنْ لَا عَيْبَ، ولَا يَرِدُ عَلَى هَذَا أَنَّهُ قَد يُحِيلُ أحْيَانًا ولَا نَجِدُ مَا أَحَالَ بِهِ، فأحْيَانًا يَقُولُ: يَأتِي فِي بَابِ كَذَا وَلَا نَجِدُهُ؛ لأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ مَعذُورًا بالنِّسيَانِ، أَوْ أَلحَقَهُ بنُسخَةٍ لَمْ تَصِلْ إِلَيْنَا، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

المُهِمُّ: فائِدَةُ الإِحَالَاتِ تذْكِيرُ الإنسَانِ مَا سَبَقَ، واهتِمَامُهُ بالكِتَابِ، ورَوَاجُ الكتَابِ كُلِّهِ؛ لأَنَّه إِذَا كَانَ هُنَاكَ إِحَالَاتٌ فلَازِمُ هَذَا أَنْ يكُونَ عنْدَكَ كُلُّ الكِتَابِ، لأَنَّهُ سَيُحالُ عَلَيْهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عِنْدَك.

الآيــة (٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الخِطَابُ للنَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ الجُمْلَةُ هَذِهِ فِيهَا شَرْطٌ وفِيهَا قَسَمٌ، فِيهَا شَرْطٌ ﴿وَلَئِن﴾، وفِيهَا قَسَمٌ دَلَّتْ عَلَيْهِ اللَّامُ؛ لأنَّ اللَّامَ مُوطِئة للقَسَمِ، والقسَمُ يَحتَاجُ إِلَى جَوابٍ، والشَّرطُ يَحتَاجُ إِلَى جوَابٍ، فالقَسَمُ يَحتَاجُ إِلَى جَوَابٍ وهُوَ ذِكْرُ المُقسَمِ عَلَيْهِ، والشَّرطُ يَحتَاجُ إِلَى جَوَابٍ وهُوَ جَوَابُ الشَّرطِ، فإِذَا اجْتَمَعَا مَاذَا نُقدِّمُ؟

الجوابُ: يقُولُ ابْنُ مَالِكٍ رَحِمَهُٱللَّهُ فِي الأَلْفِيَّة:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ[1]

الْآيَةُ الكرِيمَةُ الَّتِي معَنَا المُؤَخَّرُ هُوَ الشَّرطُ، إِذَنِ: احْذِفْ جَوَابَ الشَّرطِ واكْتَفِ بجَوابِ القَسَمِ عَنْهُ؛ ولذَلِكَ نَجِدُ أنَّ الْآيَةَ قُرِنَ بالجَوابِ اللَّامُ، وهِيَ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ ولَوْ كَانَ هَذَا جوَابًا للشَّرطِ لَمْ نَحتَجْ إِلَى اللَّامِ.

وقولُه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ حُذِفَ مِنْهُ نُونُ الرَّفعِ

(١) الألفية (ص:٥٩).

لتَوالِي النُّوناتِ ووَاوِ الضَّمِيرِ؛ لالْتِقَاءِ السَّاكِنَينِ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ أَصْلُها قَبْلَ الحَذْفِ (لَيَقُولُونَنَّ) عِنْدَنا ثلَاثُ نُوناتٍ، احْذِفِ النُّونَ الأُولَى؛ لأَنَّ حَذْفَها مُعتَادٌ، أَيْ: حذْفُ نُونِ الرَّفعِ مِنَ المُضارَعِ كَثِيرٌ، ولأَنَّ نُونَ التَّوكِيدِ جَاءَتْ لغَرَضٍ لَوْ حَذَفْنَاهَا لفَاتَ الغَرَضُ، وهُوَ التَّوكِيدُ، إِذَنْ: فنَحذِفُ نُونَ الرَّفْعِ، وهِيَ النُّونُ الأُولَى؛ لتَوالِي النُّوناتِ، ثُمَّ يَأتِي دَورُ الضَّمِيرِ (لَيَقُولُونَنَّ) الوَاوُ حَذَفنَاهَا لالتِقَاءِ السَّاكِنَينِ، السَّاكِنَانِ هُمَا: الوَاوُ السَّاكِنَةُ، والنُّونُ المُشدَّدةُ الحَرْفُ الأَوَّلُ مِنْهَا سَاكِنٌ، فتُحذَفُ الوَاوُ.

هَذَا التَّعلِيلُ هُوَ مِنَ النَّحوِيِّينَ لَا شَكَّ، وإِلَّا فالرَّجُل العَرَبِيُّ حينَما يَتكَلَّمُ بهَذِهِ الكلِمَاتِ لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالِهِ أَنَّهُ حذَفَ نُونَ الرَّفْعِ وحذَفَ وَاوَ الضَّمِيرِ ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. لكنَّ عُلماءَ النَّحوِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يَلتَمِسُونَ التَّوجيهَاتِ لكَلَامِ العَرَبِ، فوَجَدُوا هَذَا التَّوجيهَ، ولَوْ قُلْتَ لَهُمْ: مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ؟ ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ انظُرِ الجوابُ -وهُو جَوَابٌ صَحِيح مِئَةٌ بالمِئَةِ-: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ أَيِ: السَّمواتِ والأَرْضَ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وقَولُه: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ ذُو العِزَّةِ، والعِزَّةُ أبرَزُ معَانِيهَا الغلَبَةُ، يُقَال: عَزَّ فُلَانٌ فغَلَبَ. ولَهَا مَعْنًى آخَرُ وهُوَ: القَدْرُ، يَعْنِي: الشَّرَفُ والرِّفْعَةُ. ولَهَا مَعْنًى ثَالِثٌ وهُوَ: الشِّدَّةُ والصَّلابَةُ؛ ومِنْهَا قَولُهُمْ: أَرْضٌ عَزَازٌ؛ أَيْ: شَدِيدةٌ صُلبَةٌ.

وإِذَا أَرَدْنا أَنْ نُطبِّقَ هَذِهِ المَعَانِيَ عَلَى الوَصْفِ الَّذِي اتَّصَفَ اللهُ بِهِ مِنَ العِزَّةِ، فنَقُول: عزِيزٌ مِنَ العِزِّ وهُوَ الغلَبَةُ، وعزِيزٌ مِنْ عِزَّةِ القَدْرِ، ومعلُومٌ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أعظَمُ قَدْرًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وعزِيزٌ مِنْ عِزَّة الشِّدَّةِ والصَّلابةِ والامتِنَاعِ؛ وذَلِكَ أَنَّ اللهَ تعَالَى مُمتنِعٌ أَنْ يَتَّصِفَ بأَيِّ سُوءٍ وأَيِّ عَيْبٍ.

وقَولُه: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ أَيْ: ذُو العِلْمِ التَّامِّ.

وتَأمَّل كَيْفَ جاؤُوا بهَذِهِ العِبارَةِ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إشَارَةً إِلَى أنَّهُم مُوقِنُون بأنَّهُم أذِلَّاءُ أمَامَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنَّ جَمِيعَ مَا فِي السَّمواتِ والأَرْضِ فإِنَّهُ صَادِرٌ عَنْ عِلْمٍ، قالُوا: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وهَذَا الإقْرَارُ يُلزِمُهُم أَنْ يُقِرُّوا بأنَّه لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، لكِنَّهُم لَمْ يَفْعَلُوا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فِيها دَلِيلٌ عَلَى أنَّ المُشرِكِينَ يُقِرُّون بتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ لقَوْلِهِمْ في الجَوَابِ: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ والأمْرُ كذَلِكَ، وإقرَارُهم بتَوحِيد الرُّبوبيَّة يُلزِمُهُم أَنْ يُقِرُّوا بتَوحِيدِ الأُلوهيَّةِ، فيُقَال: إِذَا أَقْرَرْتُمْ أنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ فأَقِرُّوا أنَّهُ لَا مَعبُودَ حقًّا إِلَّا اللهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ للسَّمواتِ عَدَدًا؛ لقَولِهِ: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وقَدْ جَاءَ فِي القُرآنِ الكَريمِ وفِي السُّنَّة النَّبويَّةِ أنَّ عدَدَ السَّمواتِ سَبْعٌ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [الطلاق:١٢].

أمَّا الأرْضُ فلَمْ يَأتِ فِي القُرآنِ تصْرِيحٌ بأنَّها سَبْعٌ، لكِنَّ ظَاهِرَ القُرآنِ كذَلِكَ، مِثْلَ قَولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، فإِنَّ المُوازَنَةَ هُنَا لَا يُمكِنُ أَنْ تَكُونَ بالحَجْمِ ولَا بالقُوَّةِ؛ لأَنَّ السَّمواتِ أوْسَعُ وأعْظَمُ مِنَ الأَرْضِ وأقْوَى، فلَمْ يَبْقَ إِلَّا العَدَدُ، وقَدْ جاءَتِ السُّنَّة صريحَةً في ذَلِكَ، فقَالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ**»(١)، والسَّمواتُ طِبَاقٌ، واحِدةٌ فَوْقَ الأُخرَى، وإِذَا كَانَ واحِدةٌ فَوْقَ الأُخرَى

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، رقم (١٦١٢/ ١٤٢) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

لَزِمَ أَنْ تَكُونَ السَّماءُ الثَّانيَـةُ أَوْسَعَ مِنَ الأُولَى؛ لأَنَّها دَائِرَةٌ، والثَّالِثَـةُ: أَوْسَعُ مِنَ الثَّانيَةِ، وهَلُمَّ جرًّا.

ولهَذَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧] كُلَّما ارتَفَعت فِي السَّمواتِ اتَّسعَتِ السَّمواتُ، وهِيَ طِبَاقٌ بلَا شَكٍّ كَمَا فِي القُرآنِ الكَرِيمِ وكَمَا جَاءَ ذَلِكَ صَرِيحًا فِي حَدِيثِ النُّعمَانِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَمَّا الأَرْضُ فهِيَ طِبَاقٌ أَيْضًا بدَلِيلِ أَنَّ مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ الَّتِي نحْنُ عَلَيْهَا طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ، ولَوْلَا أَنَّ الأَرْضَ الثَّانيةَ تَحْتُ، والثَّالِثَةَ تَحتَهَا، وهكَذَا لَمْ يُطوَّقِ الإنسَانُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ؛ لأَنَّهُ ما غَصَبَ إِلَّا ظَاهِرَ الأَرْضِ، فتكُونُ الأَرَضُونَ طِبَاقًا.

أَمَّا كَيْفَ هَذِهِ الطِّباقُ، فإِلَى الْآنَ لَمْ نَصِلْ إِلَى عِلْمٍ بِهَا، وعُلَمَاءُ الجُيولُوجيا الَّذِين يَحْفرُون أعمَاقِ الأَرْضِ لَا يَطَّلِعُون عَلَى هَذَا، فهُوَ مجْهُولٌ لَنَا، لكِنَّ الحدِيثَ: «**طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**» يَدُلُّ عَلَى أَنَّها طِبَاقٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِثْبَاتُ هَذَينِ الاسمَينِ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وَهُمَا ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ واعلَمْ أَخِي أَنَّ كُلَّ اسْمٍ مِنْ أَسمَاءِ اللهِ فهُوَ مُتضمِّنٌ لصِفَةٍ، فالعَزِيزُ مُتضمِّنٌ لصِفَةِ العِزَّةِ، والعَلِيـمُ مُتضمِّنٌ لصِفَةِ العِلْمِ، ولَيْسَ كُلُّ صِفَةٍ يُشتَقُّ مِنْـهَا اسْمٌ؛ ولهَذَا نَقُولُ: إِنَّ بَابَ الصِّفَاتِ أوسَعُ مِنْ بَابِ الأَسْمَاءِ؛ لأَنَّهُ يُوجَدُ صِفَاتٌ لَيْسَ لله مِنْهَا أَسمَاءٌ، لكِنْ لَا يُوجَدُ اسْمٌ إِلَّا ومِنْهُ صِفَةٌ، واللهُ أَعلَمُ.

الآيــة (١٠)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:١٠].

قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [طُرُقًا ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾].

قَـولُهُ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ هَذَا لَيْـسَ مِنْ كَلَامِ الَّذِين سَأَلُوا النَّبيَّ ﷺ. وقَـد انْتَهَى كَلامُهُم عنْدَ قَولِهِ: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾، أمَّا ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فهَذَا مِنْ كَلَامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومَعْـنَى ﴿جَعَلَ﴾ صَيَّر، ﴿لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أَيْ: كالمَهْدِ، مُوطَّأَةً قَرَارًا يَطمَئِنُّ بِهَا الإنْسَانُ.

وقَوْلُه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أَيْ: صيَّر لكُمْ فِيهَا سُبُلًا، أَيْ: طُرُقًا، هَذِهِ الطُّرُقُ تَكُونُ بَيْنَ الشِّعابِ والجِبَالِ والوِهَادِ، حتَّى إنَّه لتَأتِي الرِّياحُ الشَّديدَةُ وتَبْقَى هَذِهِ الطُّرُقُ مَعْلُومةً، يُستدَلُّ عَلَى هَذِهِ الطُّرُقِ بالجِبَالِ والشِّعَابِ والنُّجُومِ، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وقَوْلُه: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: (لعَلَّ) هُنَا للتَّعلِيلِ، ومِنَ المَعلُومِ أنَّ (لعَلَّ) تَأتِي للتَّعليلِ -كَمَا هُنَا- وتَأتِي للتَّرجِّي، وتَأتِي للتَّوقُّع، والَّذِي يُعيِّنُ المَعْنَى هُوَ سِيَاقُ الكلَامِ وقَرائِنُ الأَحْوَالِ.

وقَوْلُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَهْتَدُونَ﴾ أَيْ: تَعلَمُونَ الطُّرُقَ، فالهِدَايَةُ هُنَا هِدَايَةُ الطُّرُق

إِلَى مَقَاصِدِكُم فِي أسفَارِكُمْ. والْآنَ -والحمْدُ لله- وُجِدَت طُرُقٌ مُمَهَّدةٌ بيِّنةٌ مِنَ المُدُنِ والقُرَى وغَيرِها، كُلُّ ذَلِكَ بنِعْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ المقْصُودُ بالهِدَايَةِ هِدَايَةُ الطُّرُقِ، فهَلْ يُمكِنُ أَنْ يُحمَلَ عَلَى هِدَايَةِ الاعتِبَارِ بالْآيَة؟

فالجَوابُ: لَا، فالسِّياقُ يَمْنَعُ هَذَا.

الآيــة (١١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف:١١].

وقَوْلُه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ قِرَاءَتَانِ «مِهَادًا» وقَدْ جَاءَتْ فِي آيَةٍ أُخْرَى بِهَذَا اللَّفْظِ، و﴿مَهْدًا﴾ وهِيَ بمَعْنَى (مِهَاد).

قَولُهُ تعَالَى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ﴾ أَيْ: أَنزَلَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا، فتَجِدُ المَطَرَ ينزِلُ مِنَ السَّماءِ نُقطًا، ولَوْ جَاءَ كأَفْواهِ القِرَبِ لأَفْسَدَ الأَرْضَ وهدَمَ البِنَاءَ، ولكِنْ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ جعلَهُ ينْزِلُ شَيْئًا فشَيْئًا، ومَعَ ذَلِكَ تَسِيلُ مِنْهُ الأودِيَةُ وَهُوَ مِنْ نُقطَةٍ نُقطَةٍ، لكِنْ مَعَ كَثرَتِهِ تَسِيل بِهِ الشِّعابُ.

وقَوْلُه: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ﴾ السَّماءُ هُنَا المُرادُ بهَا العُلُوُّ، واعْلَمْ أَنَّ السَّماءَ يُطلَقُ عَلَى مَعنَيَيْنِ:

المعْنَى الأَوَّل: العُلوُّ.

والمعْنَى الثَّانِي: السَّقْفُ المحفُوظُ الَّذِي هُوَ السَّموات السَّبعُ.

فقَولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤] المُرادُ بالسَّماءِ هُنَا السَّقفُ المحفُوظُ، وكذَلِكَ قَولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢]؛ وأَمَّا قَولُهُ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:٩٩] فالمُرادُ بِهِ العُلوُّ؛

لأَنَّ المَطَرَ لَيْسَ يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ نَفْسِهَا، ولكِنَّهُ ينْزِلُ مِنَ العُلوِّ؛ بدَلِيلِ قَولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والسَّحابُ لَيْسَ فِي السَّماءِ لَاصِقًا، ولكِنَّهُ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ، وهُوَ إِلَى الأَرْضِ أَقْرَبُ.

إِذَنْ: فمِنَ المعْلُومِ أنَّ المَطَرَ لَا يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ الدُّنيا، إنَّما يَنْزِلُ مِنَ السَّحابِ المُسخَّر بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ، والحِكمَةُ أنَّ اللهَ تعالَى أَنْزَلَهُ -أَيِ: المَطَرَ- مِنْ فَوقُ أَنْ يَروِيَ الأَرْضَ عُلويَّها وسُفليَّها، والحِكمَةُ أنَّ اللهَ جعَلَهُ نُقُطًا حتَّى لَا تَفْسَدَ الأَرْضُ ويَتهَدَّمَ البُنيانُ، لَوْ كَانَ ينْزِلُ كأَفْوَاهِ القِرَبِ لفسَدَتِ الأَرْضُ، لكِنْ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ نُقطًا.

وقَوْلُه: ﴿نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ أَيْ: بقَدْرِ حَاجَتِكُمْ إِلَيْهِ، وَلَمْ يُنزِّلْه طُوفَانًا.

قَولُهُ: ﴿بِقَدَرٍ﴾ فسَّرَه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: بقَدْرِ مَا تَحتَاجُونَ إِلَيْهِ] ولَهُ مَعْنًى آخَرُ ﴿بِقَدَرٍ﴾ يَعْنِي: مُقدَّرٌ مُحدَّد، حتَّى النُّقطةُ قَدْ عَلِمَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وعَلِمَ كَيْفَ تَنْزِلُ، وعَلِمَ مَتَى تَنْزِل، وعَلِمَ أَيْنَ تَنزِلُ، كُلُّ شَيْءٍ بقَدَرٍ؛ قَالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

فيَكُون المَعْنَى عَلَى هَذَا: أنَّ هَذَا المطَرَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى كثرَتِهِ وكثْرَةِ عدَدِ نِقَاطِهِ، ينْزِلُ بقَدَرٍ مُحدَّد، والمَعْنَى الَّذِي ذَكَرَهُ المُفَسِّر معْنًى صَحِيحٌ، والْآيَة تَحتَمِلُ هَذَا وهَذَا، والقَاعِدَةُ عنْدَنَا فِي التَّفسِيرِ أنَّ الكلِمَةَ فِي القُرآنِ أَوْ فِي السُّنَّة إِذَا كَانَتْ تَحتَمِلُ معنَيَيْنِ عَلَى السَّواءِ ولَا مُنافَاةَ بينَهُما، فإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ تُحمَلَ علَيهِما؛ تَوسِعَةً للمَعْنَى.

﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾: (أَنشَرْنا) أَيْ: أَحْيَيْنا، كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى؛ فِي قَولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر:٩] فإِذَنْ (أَنشَرْنا) بمَعْنَى: أَحْيينَا،

وهَذَا شَيءٌ مُشاهَد، تجِدُ الأرضَ قَاحِلَةً مُجدبَةً ليسَ فيهَا خَضْراء، فإِذَا نزَلَ المطَرُ أَصبحَتْ تَهتزُّ مِنَ النَّباتِ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ.

وقولُه: [﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مِثْلَ هَذَا الإِحيَاءِ] ﴿تُخْرَجُونَ﴾، يَعْنِي: كَمَا أَحْيَينا الأَرْضَ بالمطَرِ فكذَلِكَ نُحييكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ هَامِدَةً، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أَيْ: عَلَتْ بنبَاتِها، ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَانُ نعمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حيْثُ جعَلَ لَنَا الأَرْضَ مِهَادًا، ولَوْ كَانَتْ صُلبَةً مَا استقَرَرْنا عَلَيْـهَا، ولَا حَرَثْنَاها، ولَا انتَفَعْنـا بِهَا كثِيرًا، ولَوْ كَانَتْ رِخْـوةً كذَلِكَ لَمْ نَنتَفِعْ بِهَا، ولغَاصَتْ أَقْدَامُنا فِيهَا، ولكِنْ مِنْ نِعمَةِ اللهِ أَنْ جعَلَها كالمِهَادِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: نِعمَةُ اللهِ عَلَيْنا بِمَا جَعَلَ لَنَا مِنَ الطُّرُقِ عَلَى تَبَاعُدِ أَقْطَارِهَا، ونَستدِلُّ عَلَى الطُّرقِ بالشِّعابِ والجِبَالِ، وكذَلِكَ بالنُّجُومِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِثْبَاتُ حِكْمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِيمَا يَخْلُقُ فِي قَولِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وحِكْمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِيمَا يَخْلُق وفِيمَا يُشرِّعُ ثَابِتَةٌ، لكِنَّ مِنَ الحِكَم مَا نَعْلَمُ، ومِـنَ الحِكَمِ مَا لَا نَعْلَمُ؛ لقُصورِ أفهَامِنَا، ومِنَ الحِكَمِ مَا يَعْـلَمُه كثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وتَخْفَى عَلَى كَثِيرِينَ آخرِينَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ المَقصُودُ الحِسِّيُّ يَحتَاجُ إِلَى طُرُقٍ، فكَذَلِكَ المَقْصُودُ المَعنويُّ، وهُوَ الوُصُولُ إِلَى دَارِ كَرَامَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فإِنَّهُ يَحتَاجُ إِلَى طُرُقٍ لَا بُدَّ أَنْ نَسلُكَ هَذِهِ الطُّرُقَ حتَّى نَصِلَ إِلَى المَقْصُودِ، فإِنْ لَمْ نَسلُكْها فلَنْ نَصِلَ إِلَى المَقصُودِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: قُدرَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي إِنْزَالِ المطَرِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: رحمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بإنْزَالِ المطَرِ مِنْ فَوقُ؛ لأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ أَسْفَلُ لغَرِقَتِ الأَرْضُ السُّفلَى دُونَ أَنْ يَصِلَ الماءُ إِلَى قِمَمِ الجِبَالِ، ولكِنَّ اللهَ تعَالَى جعَلَهُ يَنزِلُ مِنْ فَوقُ حتَّى يَروِيَ العَالِيَ والنَّاسَ، وإذَا ارْتَوى العَالِي نَزَلَ إِلَى النَّاسِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ هَذَا المَاءَ النَّازِلَ مِنَ السَّماءِ يَنْزِلُ بقَدَرٍ؛ عَلَى المَعنيَيْنِ اللَّذينِ ذكَرْنَاهُمَا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ اللهَ تعَالَى يُحيِي الأَرْضَ بعْدَ مَوتِها بهَذَا المَاءِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إطَلاقُ لفْظِ (المَوْتِ) عَلَى مَا لَا رُوحَ فِيهِ -أَيْ: مَا لَا رُوحَ فِيهِ تُحِسُّ-؛ لقَولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ وإنَّ مِنَ المعلُومِ أَنَّ الأَرْضَ ليْسَتْ كحَيَاةِ الحَيَوَانِ -حيَاةِ إحسَاسٍ- بَلْ هِيَ حيَاةُ نُمُوٍّ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: قِيَاسُ المعقُولِ عَلَى المحسُوسِ، وإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: قِيَاسُ الغَائِبِ عَلَى الحَاضِرِ، لقَولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾، فقد قَاسَ الغَائِبَ -وهُوَ إحيَاءُ المَوتَى- عَلَى الحَاضِرِ الَّذِي تُشاهِدُونَه، وهَذَا مِنْ طُرُقِ التَّعلِيلِ والتَّفهِيمِ.

الفَائِدَةُ الحَادِيَة عَشْرَةَ: إثبَاتُ القِيَاسِ، وأَنَّهُ دَلِيلٌ، وهُوَ دَلِيلٌ عقْليٌّ ثَابِتٌ بالدَّلِيلِ السَّمعيِّ؛ وذَلِكَ أَنَّ العَقْلَ يَنْتَقِلُ مِنَ المَقيسِ عَلَيْهِ إِلَى المَقِيسِ، فهُوَ دَلِيلٌ عَقْليٌّ باعتِبَارِ كيفِيَّةِ الاستِدْلَالِ بِهِ، ودَلِيلٌ سمْعيٌّ لثُبوتِهِ شرْعًا.

• • ۞ • •

الآيــة (١٢)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ [الزخرف:١٢].

قَولُهُ تعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ هذِهِ عطْفٌ عَلَى مَا سَبَقَ، وهُوَ مِنْ بَابِ عطْفِ الصِّفاتِ، ولَيْسَ مِنْ بَابِ عَطْفِ الذَّواتِ، والأصْلُ فِي العطْفِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ مُتغايِرَيْنِ فِي ذَاتِهِما -هَذَا أصْلٌ-؛ فإِذَا قَامَ الدَّليلُ عَلَى أنَّ الذَّاتَ واحِدَةٌ صَارَ مِنْ بَابِ عطْفِ الصِّفاتِ، اقْرَأْ قَولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى:١-٤]، هَذَا العطْفُ مِنْ بَابِ عطْفِ الصِّفاتِ؛ لأنَّ المَوصُوفَ واحِدٌ، لكِنَّ الأصْلَ في العطْفِ أنَّه مِنْ بَابِ تَغَايُرِ الذَّواتِ، مَا لَمْ يَقُمْ دَلِيلٌ عَلَى أنَّ المعطُوفَ علَيْهِ شَيْءٌ واحِدٌ، فيَكُون مِنْ بَابِ عطْفِ الصِّفات بعْضِها عَلَى بَعْضٍ لمَوصُوفٍ وَاحِدٍ.

فالآيَاتُ الَّتِي معَنَا مِنْ بَابِ عطْفِ الصِّفاتِ؛ لأَنَّ المَوصُوفَ وَاحِدٌ.

وقولُه: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾: ﴿ٱلْأَزْوَٰجَ ﴾ بمَعْنَى الأصنَافِ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات:٢٢] أَيْ: أصنَافَهُم. وقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ [ص:٥٨]، فقَولُه: ﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أي: الأصْنَافَ، كُلَّ الأصْنَافِ الخَالِقُ لَهَا هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإِنَّكَ لتَعْجَبُ حينَمَا تَأتِي إِلَى رَوْضَة

تَجِدُ هـذِهِ الأشجَارَ بعضُها زَهرُهَا أحمَرُ، وبعضُها أزرَقُ، وبعـضُها أَصفَرُ، مُلوَّنَةً، الَّذِي خلَقَهَا ولوَّنَها هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

ويُحتَمَلُ فِي الْآيَة مَعْنًى آخَرُ: ﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ يَعْنِي: الشَّيئَينِ المُزدَوَجينِ اللَّذينِ يَتـولَّدُ بينَهُما ثَالِثٌ، كالذَّكَرِ والأُنْثَى، والسَّالبِ والمُوجَـبِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، الْآيَة تَحتَمِلُ المَعْنَيينِ جَمِيعًا، وهُمَا لَا يَتَنَافَيَانِ فتُحْمَلُ عَلَيْهِما جَمِيعًا.

وقولُه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ بمَعْنَى: صيَّر.

وقَولُهُ: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ مَفعُولُ (جَعَل) أَيْ: جَعَلَ لكُمْ مِنَ الفُلْكِ، وهِيَ السُّفُنُ البَحريَّةُ، وكَانَ النَّاسُ لَا يَعرِفُونَ سِوَاهَا فِيمَا سَبَقَ، وأمَّا الْآنَ فجَاءَتِ السُّفنُ الجَوِّيَّةُ، وهِيَ الطَّائرَاتُ، أمَّا الأنْعَامُ فمِثْلُ الإبلِ والبِغَالِ وغيرِهَا ممَّا يُركَبُ ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: الَّذِي تَركَبُونَهُ. وهَذِهِ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

• • ۞ • •

الآيتان (١٣، ١٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف:١٣-١٤].

قَولُهُ: ﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ اللَّام لَامُ العَاقِبةِ، وليْسَتْ لَامَ التَّعلِيل؛ لأنَّه مِنَ المُمكِن أَنْ يَكُونَ عنْدَ الإنسَانِ أنعَامٌ كثِيرَةٌ ولَا يركَبُها، لكِنَّ الَّلامَ للعَاقبَةِ، تَأتِي اللَّامُ للعَاقِبَةِ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ وغَيرِهِ كَثِيرًا، وَمِنْهُ قَولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص:٨] اللَّامُ فِي قَولِهِ: ﴿لِيَكُونَ ﴾ ليسَتْ للتَّعلِيلِ؛ لأنَّ آلَ فِرعَونَ لَمْ يَلْتَقِطُوه لهَذَا الغَرَضِ، لكِنِ التَقَطُوه فصَارَتْ هَذِهِ النَّتيجَةُ. وتُسمَّى اللَّامُ فِي مِثْلِ هَذَا تُسمَّى (لَامَ العَاقِبَةِ).

وقَولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ أَيْ: تَعلُوا عَلَيها، وتَستقِرُّوا عَلَيهَا، ﴿ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ يَقُولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ذكَّر الضَّميرَ وجمَعَ الظَّهر؛ نظرًا للَفْظِ (مَا) ومعْنَاهَا] ﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ جمَعَ الظَّهر، ولَمْ يَقُلْ: (عَلَى ظهرِهِ) وأَفْرَدَ الضَّمِيرَ ولَمْ يَقُلْ: (عَلَى ظُهُورِهَا) نظرًا للَفْظِ (مَا) ومعْنَاهَا؛ لأَنَّ (مَا) تَصْلُحُ للمُفرَدِ والجَمْعِ، فتَارَةً يُراعَى اللَّفْظُ وتَارَةً يُراعَى المَعْنَى، إِذَا رُوعِيَ اللَّفظُ أُفرِد الضَّمِيرُ، وإِذَا رُوعِيَ المَعْنَى صَارَ بحسَبِ المَعْنَى المقصُودِ.

وكذَلِكَ (مَنْ) تَارَة يُراعَى اللَّفظُ وتَارَةً يُرَاعَى معناهُ، اقْرَأْ قَوْلَ اللهِ تعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الطلاق:١١]، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ﴾ رَاعَى اللَّفظَ فأَفْردَهُ، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ رَاعَى المَعْنَى.

فقولُه: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أَيْ: ظُهُورِ مَا تَركَبُون مِنَ الفُلكِ والأنعَامِ، فجَمَعَ باعتبَارِ المَعْنَى، وأَفرَدَهَا باعتِبَارِ اللَّفْظِ.

وقَولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ يَتذكَّرُ نعمَةَ اللهِ علَيْهِ؛ حيْثُ يَسَّر لَهُ هَذَا المَركُوبَ، ولَولَا تَيسِيرُ اللهِ مَا تَمكَّنَ مِنْ هَـذَا، فلَوْ جَعَلَ اللهُ الإِبِلَ صعبَةً لَا يُمكِنُ أَنْ تُركَبَ مَا انْتَفَعَ النَّاسُ بِهَا، ولَوْ فُقِدَتِ السُّفُنُ مَا اسْتَطَاعَ النَّاسُ أَنْ يَعبُرُوا مِنْ يَابِسٍ إِلَى يَابِسٍ، فلْيَـذْكُرِ الإنسَانُ نعْمَةَ اللهِ إِذَا اسْتَـوَى عَلَى ظَهْرِهِ. ﴿وَتَقُولُوا۟﴾ أَيْ: بأَلْسِنَتِكُمْ مُعتَرِفِينَ بقُلُوبِكُمْ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ أَيْ: ذلَّلَـهُ لَنَا ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُطِيقِينَ].

قَولُهُ تعَالَى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف:١٤] قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَمُنصَرِفُونَ].

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: نِعْمَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ؛ حَيْثُ جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الفُلْكِ والأنعَامِ مَا يَركَبُونَهُ.

وذَكَرْنا أنَّ الفُلْكَ يَشْمَلُ الفُلْكَ الجَويَّ والبَحريَّ. ويُمكِنُ أَنْ نَقُولَ: والبرِيَّ أيضًا، كالسَّيَّاراتِ، فهَذِهِ أفلَاكٌ؛ فإِذَنِ الأفلَاكُ جَوِّيَّةٌ وبَحْرِيَّةٌ وبَرِّيَّةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَذْلِيلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الأنعَامَ لَنَا؛ حيْثُ سخَّرَها لنَركَبَهَا ونُحمِّلَها،

وهِيَ ذَلِيلَةٌ بَيْنَ أَيْدِينَا، لقَولِهِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يَنبَغِي للإنسَانِ إذَا رَكِبَ الأنعَامَ -وكذَلِكَ الفُلْكَ- أَنْ يَجْعَلَ مَركَبَهُ مُرِيحًا؛ لقَولِهِ: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ إِذْ إِنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُرِيحًا لَمْ تَتِمَّ النِّعمَةُ، فيَنبَغِي أَنْ يَجعَلَهُ مُرِيحًا بقَدْرِ الإمكَانِ، وعَلَى حسَبِ الحَالِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَنبَغِي للإنسَانِ أَنْ يَتذَكَّرَ نِعمَةَ اللهِ عَلَيْهِ لِمَا سخَّرَ لَهُ مِنَ الفُلْكِ والأنعَامِ؛ لقَولِهِ: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾: (النِّعمَةُ) هُنَا مُفرَدٌ مُضَافٌ، فهَلِ المُرادُ أَنْ نَذكُرَ جَمِيعَ النِّعمِ أَوْ نَذْكُرَ النِّعمَةَ المُناسِبَةَ للحَالِ؟

الجَوابُ: الظَّاهِرُ هُوَ الثَّانِي؛ لأنَّ الإنسَانَ قَدْ لَا يَستَحْضِرُ حينَما يَتذَكَّرُ كُلَّ النِّعمِ مِنَ الأَمْوالِ والأَولَادِ والأَمْنِ والطُّمأنينَةِ، ولكِنْ يَذكُرُ النِّعمَةَ الحَاضِرَةَ.

الفائِدَةُ الخَامِسَةُ: استِحْبَابُ هَذَا الذِّكرِ عنْدَ الرُّكوبِ وهُوَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: لِمَاذَا اخْتِير كلمَةُ (سبْحَان) دُونَ (اللهُ أكبَرُ) مَثَلًا؟

فالجَوابُ: أَنَّ تَسبِيحَ اللهَ يَعنِي تَنزِيهَه عَنْ كُلِّ نقْصٍ وعَيْبٍ، بخِلَافِ الإنسَانِ فإِنَّهُ مُحتَاجٌ إِلَى الرُّكوبِ فهُوَ نَاقِصٌ، فنَاسَبَ أَنْ يَقُولَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ حتَّى إنَّه بحاجَةٍ إِلَى هَذِهِ المَركُوباتِ، وأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ مُنزَّهٌ عَنِ الحَاجَةِ.

يَعنِي لَوْ قال قَائلٌ: لِمَاذَا لَمْ يَقُلْ: مَا أَعْظَمَ نِعمَةَ اللهِ عليَّ! أَوِ اللهُ أكبَرُ!؟

فالجَوابُ: أَنَّهُ لَمَّا رَأَى نفْسَهُ مُحتَاجًا إِلَى الرُّكوبِ نَزَّهَ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عَنِ الحَاجَةِ فقَالَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنْ نَذكُرَ نِعمَةَ اللهِ علَيْنا بتَسخِيرِ هَذِهِ الأنعَامِ؛ لقَولِهِ عَزَّوَجَلَّ:

﴿ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أَيْ: مُطيقِينَ، لَوْلَا أَنَّ اللهَ تعالى سخَّر البَعِيرَ لَنَا مَا أَطَقْنَاهَا، فالبَعِيرُ أَقْوَى منَّا، وأكبَرُ منَّا جِسْمًا، لَوْ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعَلَهَا صَعْبَةً فَلَا يُمكِنُ لأَحَدٍ أَنْ يَستَقِرَّ علَيْهَا، أَوْ أَنْ يَحمِلَ علَيْهَا، أَوْ أَنْ يُدخِلَها إِلَى أيِّ مَكَانٍ شَاءَ، أَوْ أَنْ يُخرِجَها مَتَى شَاءَ، ولكِنَّ اللهَ سخَّر هَذَا لَنَا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: اعتِرَافُ العبْدِ بقُصُورِهِ وضعْفِهِ؛ لقَولِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أَيْ: مُطيقِين.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الإنسَانَ إذَا رَكِبَ هذِهِ المَركُوباتِ يَتَذكَّرُ الرُّكوبَ الَّذِي هُوَ غَايَةُ الدُّنيا؛ لقَولِهِ: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ وتَفْسِيرُ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَهَا بالإِنْصِرَافِ أَيْ: (لَمُنصَرِفُونَ إِلَى اللهِ) فِيه قُصُورٍ، **والصَّوابُ**: مَا ذكَرْنا أَنَّكَ إِذَا رَكِبْتَ تَتذَكَّرُ رُكوبَكَ عَلَى النَّعشِ حِينَ تَنقَلِبُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فيَكُونُ فِي هَذَا تذَكُّرٌ للحَالِ المُستَقْبَلَةِ لبَنِي آدَمَ، وهِيَ حَالُ الانقِلَابِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهَذَا الذِّكرُ عَامٌّ، كُلَّما رَكِبْتَ السَّيَّارَةَ أَوِ البَعِيرَ أَوِ الطَّائِرَةَ تَذْكُرُ هَذَا: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: المصْعَدُ الكهرَبَائيُّ يُشرَعُ فِيهِ هَذَا الدُّعاءُ: (سُبْحَانَ الَّذِي سخَّر لَنَا هَذَا)؟

فالجَوابُ: هَذَا مَحِلُّ نظَرٍ؛ لأَنَّ هَذَا المصعَدَ الكهرَبَائيَّ فِي مَنزِلَةِ الدَّرَجِ، ولَيْسَ بمنْزِلَةِ الرَّاكِبِ الَّذِي يَسِيرُ، بَلْ هَذَا يَصعَدُ إِلَى فَوْقُ، فَفِي كَونِهِ مِنْ بَابِ المَركُوباتِ نَظَرٌ.

مَسْأَلَةٌ: دُعَاءُ نُزُولِ المكَانِ: (أَعُوذُ بكلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ) هَلْ خَاصٌّ بالسَّفرِ أَوْ عَامٌّ؟

فالجَوابُ: عَامٌّ، حتَّى إِذَا نَزَلْتَ بَيْتًا تَقُول: (أَعُوذُ بكلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ)، وعنْـدَ النَّوم تَقُولُ: (أَعُوذُ بكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ)، وفِي أَوْرَادِ اللَّيلِ والنَّهارِ تَقُولُ: (أَعُوذُ بكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ)؛ أَمَّا المَسجِدُ فلَهُ ذِكْرٌ خَاصٌّ، فالإنسَانُ لَيْسَ نَازِلًا في المَسْجِدِ، إنَّما هُوَ مُقِيمٌ لطَاعَةٍ مُعيَّنةٍ ويَمضِي.

الآيــة (١٥)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ [الزخرف:١٥].

قَولُهُ: ﴿ وَجَعَلُواْ ﴾ الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى مُشرِكي قُريشٍ. أَيْ: صَيَّروا ﴿لَهُۥ﴾ أَيْ: لله ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أَيْ: مِنْ مَخلُوقَاتِهِ، وجَمِيعُ المَخلُوقَاتِ عِبَادٌ لله عَزَّوَجَلَّ، والمُرادُ بالعِبَادِ هُنَا: الملائِكَةُ ﴿جُزْءًا﴾ أَيْ: بَعْضًا مِنْهُ، حَيْثُ قَالُوا: الملائِكَةُ بنَاتُ اللهِ، واليَهُودُ قَالُوا: عُزَيرٌ ابْنُ اللهِ، والنَّصارَى: قَالُوا المَسيحُ ابْنُ اللهِ.

وقَولُهُ: ﴿جُزْءًا﴾؛ لأنَّ الولَدَ جُزْءٌ مِنْ أَبيهِ، كَمَا قَالَ النَّبيُّ ﷺ فِي ابْنَتِهِ فاطَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إِنَّهَا بَضْعَةٌ مِنِّي يَرِيبُهَا مَا رَابَنِيْ»[1]، وَذلِكَ حِينَما تَحدَّثَ النَّاسُ أَنَّ عليَّ ابْنَ أَبِي طالِبٍ يُرِيدُ أَنْ يَتزَوَّجَ علَيْها بنْتَ أَبِي جَهْل فأَنْكَرَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ وقَالَ: «لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُوْنَ بِنْتُ نَبِيِّ اللهِ مَعَ بِنْتِ عَدُوِّ اللهِ».

إذَنِ: الجُزْءُ البعْضُ، والقَائِلُ ثلَاثَةُ أصنَافٍ مِنَ النَّاسِ: المُشرِكُونَ، واليَهُودُ، والنَّصارَى.

فهَؤُلاءِ المُشرِكُونَ -والعِيَاذُ باللهِ- جعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا، وتَأَمَّلْ قَولَهُ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النَّبيّ ﷺ، باب ذكر أصهار النَّبيّ ﷺ، رقم (٣٧٢٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النَّبيّ عَلَيْهَا السَّلَامُ، رقم (٢٤٤٩)، من حديث المسور بن مخرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يَتبيَّنْ لَكَ أنَّ كونَهُم مِنْ عِبَادِ اللهِ يَمْنَعُ غَايَةَ المَنْعِ أَنْ يَكُونُوا جُزْءًا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّ المعبُودَ غيرُ العَابِدِ، فَلَا يُمكِنُ أَنْ يكُونَ العَابِدُ جُزءًا مِنَ المَعبُودِ.

وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ المَرادُ الجِنْسُ. يَعْنِي أنَّ جِنْسَ الإنسَانِ ﴿لَكَفُورٌ﴾ بَيِّنُ الكُفْرِ، فَلَا يَرِدُ عَلَى هَذَا أَنْ يُقَال: مِنَ الإنسَانِ مَنْ هُوَ مُؤمِنٌ كَامِلُ الإيمَانِ؛ لأَنَّنَا نَقُولُ: إنَّهُ قَدْ يُرَادُ بِهِ الجِنْسُ، كقَولِهِ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢]، والمُؤمِنُ لَيْسَ ظَلُومًا جَهُولًا، لكِنَّ جِنْسَ الإنسَانِ ظَلُومٌ جَهُولٌ.

وقَولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أَيْ: بيِّنُ الكُفْرِ، وذَلِكَ لأنَّ (بَانَ) بمَعْنَى (ظَهَرَ) تكُونُ بالهَمْزَةِ وتكُونُ بغَيْرِ الهَمْزَةِ، بمَعْنَى أَنَّهُ يَجُوزُ لُغَةً أَنْ تَقُولَ: بَانَ الفَجْرُ، وأبَانَ الفَجْرُ. وعَلَيْه فيَكُونُ مَعْنَى ﴿مُّبِينٌ﴾ أَيْ: وَاضِحُ الكُفْرِ، ولا شَكَّ أنَّ الَّذِي يَقُولُ: الملائِكَةُ بنَاتُ اللهِ، أَوْ عِيسَى ابْنُ اللهِ، أَوْ عُزَيرٌ ابْنُ اللهِ. لَا شكَّ أَنَّهُ قَدْ كَفَرَ كُفرًا بَيِّنًا.

وتُستَعْمَلُ (أبَانَ) بالهمْزَةِ متعـدِّيةً، يُقَالُ: أَبَانَ الشَّيءَ بمَعْنَى: أظْهَرَهُ، ومِنْـهُ قَولُهُ تعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الَّذِي سَبَقَ فِي أوَّلِ السُّورَةِ، أيِ: المُظهِرُ للحقَائِقِ المُبَيِّنُ لَهَا.

فإذَا قَالَ قَائِلٌ: هَلْ كُلَّما جَاءَ مِثْلُ هَذَا التَّعبِيرِ نَحمِلُهُ عَلَى الجِنْسِ؟

فالجَوابُ: لَا نَحمِلُهُ عَلَى الجِنْسِ إلَّا إذَا قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى هَـذَا، وإلَّا فالأَصْلُ العُمُومُ، فقَوْلُهُ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، المُرادُ كُلُّ الإنسَانِ، لكِنْ إذَا تَعَـذَّرَ أَنْ نَحمِلَها عَلَى العُمُومِ جعَلْناهَا للجِنْسِ، وأَضْرِبُ لَكَ مَثَـلًا يَتبَيَّنُ بِهِ المَقَامُ: الرَّجُلُ خَيْرٌ مِنَ المرأَةِ. المُرادُ الجِنْـسُ، ولَيْسَ المَعْنَى: كُلُّ وَاحِـدٍ مِنَ الرِّجالِ

خَيْرٌ مِنْ كُلِّ امرَأةٍ مِنَ النِّساءِ؛ لأَنَّ مِنَ النِّساءِ مَنْ هُـوَ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الرِّجالِ، لكِنَّ المُرادَ الجِنْسُ. يَعْنِي: هَذَا الجِنْسُ خَيْرٌ مِنْ هَذَا الجِنْسِ.

وإِنْ قَالَ قَائِلٌ: بَدَأَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ بقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، ثُمَّ بَعْـدَ ذَلِكَ قَالَ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾، ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾ جَعَلَ، جَعَـلَ، جَعَلَ؛ ثُمَّ جَـاءَ بَعْدَها ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ فهَلْ هُنَاكَ تَنَاسُبٌ بَيْنَ هَذِهِ؟

فالجَوابُ: يُقَالُ: إِنَّ هَـذَا تَنَاسُبٌ لفظِيٌّ؛ لأَنَّه أحيَـانًا يَكُونُ الكَلَامُ -إِذَا كَانَ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ- أَبلَغَ، فيَكُونُ هَذَا مِنْ بَابِ التَّنَاسُبِ اللَّفظيِّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الولَدَ جُـزْءٌ مِنْ وَالِدِهِ؛ لقَـولِهِ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾؛ ولذَلِكَ كَانَ الولَدُ فِي التَّعصِيب فِي بَابِ المِيرَاثِ مُقدَّمًا عَلَى الوَالِدِ، بمَعْنَى: أَنَّه لَوْ مَاتَ ميِّتٌ عَنْ أَبِيـهِ وابْنِهِ، فلأَبِيهِ السُّدُسُ فَرْضًا، والبَاقِي لِلابْنِ تَعْـصِيبًا، فسَهْم الابْنِ الْآنَ خمسَةٌ مِنْ سِتَّةٍ، وسهْمُ الأَبِ وَاحِدٌ مِنْ سِتَّة؛ لأَنَّ الابْنَ جُزْءٌ مِنْ أَبِيهِ فقُدِّم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّه يَجُـوزُ للأَبِ أَنْ يَتمَـلَّك مِنْ مَالِ ولَدِهِ؛ لأَنَّ ولَـدَهُ جُزْؤُه، وإِذَا كَانَ جُزْءًا مِنْـهُ، صَارَ كسَائِرِ جَسَدِهِ، ولهَـذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ**»[1] فلِلْأَبِ أَنْ يَتملَّك مِنْ مَالِ وَلَدِهِ مَا شَاءَ، بشَرْطِ أَنْ لَا يَكُونَ الولَدُ مُحتَاجًا

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٠٤)، وأبو داود: كتاب البيوع، باب في الرجل يأكل من مال ولده، رقم (٣٥٣٠)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، رقم (٢٢٩٢)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إِلَيْهِ، أَوْ تَتعلَّق بِهِ نفْسُهُ، فمَثلًا إِذَا كَانَ عنْدَ الابْنِ أَمَةٌ قَدْ تَسرَّاها وتَعلَّقَتْ بِهَا نفْسُهُ؛ فإِنَّه لَا يَجُوزُ للأَبِ أَنْ يَتمَلَّكها، مَعَ أَنَّهُ لَا يُمكِنُ أَنْ يَطَأَها؛ لأَنَّها حَلِيلَةُ ابْنِه، لكِنْ حتَّى: وَلَا التَّملُّك؛ لأَنَّ حاجَتَهُ مُتعلِّقَةٌ بِهَا.

وكذَلِكَ لَوْ تَعلَّقَتْ بمَالِهِ ضَرُورةٌ، كابْنٍ عنْدَهُ مَالٌ أَعَدَّه للمَهْرِ حِينَ يَتزَوَّجُ، فليسَ للأَبِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا، كذَلِكَ لَوْ كَانَ عنْدَهُ سيَّارةٌ أَعَدَّها لحَاجتِهِ وضَرُورتِهِ، فليْسَ للأَبِ أَنْ يَتملَّكَها، إِنَّما يَتملَّك الفَضْلَ فقَطْ، دَلِيلُ هَذَا قَولُهُ ﷺ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»[1].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَانُ عُتُوِّ الْمُشرِكينَ واليَهودِ والنَّصارَى، حيْثُ جعَلُوا الَّذِي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٣-٤] جعَلُوه وَالِدًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الإِنسَانَ بطبِيعَتِهِ كَفُورٌ مُبِينٌ، هَذَا إِذَا جعَلْنا (الإِنسَانَ) للجِنْسِ، أَمَّا إِذَا جعَلْنا (الإِنسَانَ) يَعُودُ عَلَى الَّذِي جَعَل مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا، فإِنَّه يَكُونُ خَاصًّا، لكِنَّ المَعْنَى الأَوَّلَ هُوَ ظَاهِرُ قَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢] فأَصْلُ الإِنسَانِ الظُّلمُ والجَهْلُ إِلَّا أَنْ يَمُنَّ اللهُ عَلَيْهِ بالعِلْمِ والإِيمَانِ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٢٧)، وابن ماجه: كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، رقم (٢٣٤٠)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه الإمام أحمد (١/ ٣١٣)، وابن ماجه رقم (٢٣٤١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيــة (١٦)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف:١٦].

ثُمَّ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾: ﴿أَمِ﴾ هُنَا مُنقطِعَةٌ، بمَعْنى بَلْ والهمْزَةُ، واعْلَمْ أنَّ (أَمْ) تَأتِي مُتَّصِلَةً إذَا كَانَتْ بَيْنَ شَيْئَينِ مُتسَاوِيَيْن، ومُنقطِعَةً إذَا كَانَ مَا بعْدَها مُنقطِعًا عمَّا قبْلَها، فَفِي قَولِهِ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة:٦] هَذِهِ مُتَّصِلةٌ، وفِي مِثْل هذِهِ الْآيَةِ ﴿أَمْ﴾ مُنقطِعَةٌ، المُنقطِعَةُ يُقدِّرُها النَّحويُّون بـ(بَلْ) والهمْزَةِ.

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمِ﴾ بمَعْنَى هَمْزَةِ الإنْكَارِ، والقَوْلُ مُقدَّر، أَيْ: أَتَقُولُونَ ﴿ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ لنَفْسِهِ ﴿وَأَصْفَىٰكُم﴾ أخْلَصَكُم ﴿بِٱلْبَنِينَ﴾ اللَّازِم مِنْ قَولِكُم السَّابِقِ فهُوَ مِنْ جملَةِ المُنكَرِ].

قَولُهُ تعَالَى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾ قدَّرهُ المفسِّر بمَعْنَى: (بَلْ يَقُولُونَ)، ولَا حَاجَةَ لهَذَا التَّقدِيرِ، بَلْ هُوَ كَلامٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ أَنْكَرَ عَلَى هَؤُلاءِ، يَعْنِي: بَلْ عَلَى قَولِكُم: ﴿ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ لأنَّهُم قَالُوا: الملائكَةُ بنَاتُ اللهِ، ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ يَعْنِي: أَخلَصَكُم بالبَنِينَ وخصَّكُم بهَا؛ لأنَّهُم يَقُولُونَ: البنَاتُ للهِ، والبَنُون لَنَا. فهَلْ هَذَا عَدْلٌ، هَلْ هَذَا حَقٌّ؟!

الجوابُ: هَذَا مُنكَرٌ وجَـوْرٌ، عَلَى الأقَلِّ لَوْ قَالُوا: إنَّهُم سوَاءٌ لكَانَ أهْوَنَ، مَعَ أنَّهُ مُنـكَرٌ، لكِنْ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ هَـذَا غَايَةُ مَا يَكُونُ مِنَ الجَـورِ والظُّلمِ.

وقولُه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ وهُمُ الملَائِكَةُ الَّذِين زَعَمُوا أنَّهُم بنَاتُ اللهِ ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ فالهمْزَةُ إذَنْ مُقدَّرةٌ للإنْكَارِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الإنْكَارُ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِين جعَلُوا لله ولَدًا؛ لقَوْلِهِ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ كيْفَ يَكُونُ المخْـلُوقُ وَلَدًا للخَالِقِ؟! ولهَـذَا قَالَ: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾، وهَذَا لَا يُمكِن؛ لأنَّ المخلُوقَ مُنفصِل بائِنٌ عَنِ الخَالِقِ فلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ وَلَدًا لَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الإشَارَةُ إِلَى جَوْرِ أولَئِكَ القَائِلِينَ بأنَّ الملائِكَةَ بنَاتُ اللهِ؛ لقَولِهِ: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ يَعْنِي: أيُعقَل أَنْ يَكُونَ هكَذَا!.

• • ۞ • •

الآيــة (١٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف:١٧].

قَولُهُ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم ﴾ يَعْنِي: بذَلِكَ قُريشًا وأشبَاهَهم مِمَّنْ يَكرَهُون البنَاتِ ويَئِدُونَهم.

قَولُهُ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم ﴾ أَيْ: أُخبِرَ بأَنَّهُ وُلِدَ لَهُ بنْتٌ ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾.

وقَولُهُ هُنَا: ﴿ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ ولَمْ يقُلْ كَمَا قَالَ فِي الْآيَة الثَّانيَةِ ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾؛ لأنَّها سَبقَها ذِكْرُ قَولِ هَؤُلاءِ: إنَّ الملائِكَةَ بنَاتُ اللهِ. فضَرَبُوها مثَلًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذَا بُشِّر أحدُهُم بهَذَا الَّذِي ضَربَه مَثلًا للرَّحمنِ ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ أَيْ: صَارَ وجهُه مُسوَدًّا.

و(ظَلَّ) هُنَا بالظَّاء المُشالَةِ؛ لأنَّها بمَعْنَى: صَارَ، أمَّا (ضَلَّ) الَّتِي هِيَ بالضَّادِ فهِيَ بمَعْنَى: تَاهَ وضَاعَ، تَقُولُ: ضَلَّ الطَّرِيقَ. بمَعْنَى: تَاهَ وضَاعَ.

أمَّا ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ فهُوَ بمَعْنَى صَارَ وَجْهُه مُسودًّا. أَيْ: بعْدَ أَنْ كَانَ أبْيَض.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: قَولُهُ: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ هذِهِ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ أَمْ فِي الدُّنيَا؟

فالجَوابُ: لَا، فِي الدُّنيَا.

وقَولُهُ: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أَيْ: مُملوءٌ غَيْظًا وحُزْنًا.

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ جعَلَ لَهُ شَبَهًا بنِسبَةِ البنَاتِ؛ لأَنَّ الوَلَدَ يُشبِهُ الوالِدَ، والمَعْنَى: إذَا أُخبِر أحدُهُم بالبِنْتِ تُولَدُ لَهُ، ﴿ظَلَّ﴾ صَارَ، ﴿وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ مُتغيِّرًا تَغيُّرَ مُغتَمٍّ ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مُمتَلِئٌ غمًّا، فكَيْفَ يَنسُب البنَاتِ إلَيْهِ تعَالَى عَنْ ذَلِكَ]، وهَذَا مَعْنَى مَا تَكلَّمْنا فِيهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: ذِكْرُ حَالِ هَؤُلاءِ عنْدَما يُبشَّرون بالبَنَاتِ: أنَّ الوَاحِدَ مِنْهُم يَتغَيَّر ظَاهِرُه وباطِنُه، ظَاهِرُه في اسْوِدادِ وَجْهِهِ، وبَاطنُهُ بامتِلَائِهِ ظنًّا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّنديدُ التَّامُّ بهؤُلاءِ؛ حيْثُ إنَّهُم إذَا بُشِّروا بالأُنْثَى صَارَتْ لهُمْ هذِهِ الحَالُ، وهُمْ يَدَّعونَها للخَالِقِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبَاتُ اسْمِ الرَّحمنِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والرَّحمنُ يَعْنِي: ذُو الرَّحمَةِ الوَاسِعَةِ، وهَـذَا الاسْمُ الكَرِيمُ تُنكِرُه قُريشٌ، قَالَ تَعـالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، ولَمَّا أَرَادَ النَّبيُّ أَنْ يَكتُبَ كتَـابَ الصُّلحِ فِي الحُدَيْبيةِ وقَـالَ للكَاتِبِ: «اكْتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»[1] أَبَى رَسُولُ قُريشٍ وقَالَ: إنَّنا لَا نَعرِفُ الرَّحمنَ، ولكِنِ اكتُبْ: باسْمِكَ اللَّهُمَّ. ولَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ التَّنزُّل، ولكِنْ مِنْ بَابِ التَّأليفِ وإمضَاءِ المُعاهَدَةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم (٢٧٣١)، من حديث المسور ابن مخرمة ومروان بن الحكم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ورَحمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ تشْمَلُ الكَافِرِينَ، فلَوْلَا رَحمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مَا بَقِيَ الكَافِرُ لحْظَةً واحِدَةً، فالكَافِرُ مَرحُومٌ، والمُؤمِن مَرحُومٌ، لكِنَّ الفَرْقَ أنَّ المُؤمِنَ مَرحُوم فِي الدُّنيا والآخِرَةِ، والكَافِرُ مَرحُومٌ فِي الدُّنيا، قَدْ أَغْدَق اللهُ علَيْهِ النِّعَمَ، وعجَّل لَهُ الطَّيِّبات، لكنَّه فِي الآخِرَةِ يُعامَل بالعَدْلِ، ويُجازَى بِمَا يَستَحِقُّ.

إذَنْ نَقُولُ: الرَّحمَةُ العَامَّةُ تشْمَلُ المُؤمِنَ والكَافِرَ، والخَاصَّةُ تَختَصُّ بالمُؤمنِينَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَغـيُّرُ البشَرَةِ بمَا يَسُرُّ أَوْ يَسُوء، فإِذَا بُشِّر الإنسَانُ بمَا يَسُرُّ فـإِنَّ وَجْهَهُ يَبرُقُ مِنَ السُّرورِ، وتُحِسُّ بأَنَّه مَسرُورٌ بِهِ، والعَكْسُ بالعَكْسِ.

ويَتفرَّعُ عَلَى هَذِهِ الفَائِدَةِ: أنَّ الجِسْمَ تبَعٌ للقَلْبِ، فإذَا استَنَـارَ القَلْبُ وفَرِحَ فكذَلِكَ الجِسْمُ، والعَكْسُ بالعَكْسِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ المُشرِكينَ لَا يَرضَوْنَ بتقْـدِيرِ اللهِ فإِنَّهُم يَتَغَـيَّرونَ ظَاهِرًا وبَاطِنًا، ظَاهِرًا باسْوِدَادِ الوُجُوهِ، وبَاطِنًا بالامتِلَاءِ ظنًّا.

• • ۞ • •

الآيــة (١٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:١٨].

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾، الهمزَةُ للاستِفهَامِ، والوَاوُ حرْفُ عطْفٍ، و(مَنْ) اسْمٌ مَوصُولٌ يَعْنِي: أَوِ الَّذِي يُنشَّأُ فِي الحِلْيةِ أَيْ: يُربَّى فِيهَا ويَحتَاجُ إِلَيْهَا.

وقَولُه: ﴿أَوَمَن﴾ يَقُولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [همْزَةُ الإنكَارِ، وَاوُ العَطْف بجُمْلَةٍ أَيْ: يَجعَلُونَ لله ﴿يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾] يَعْنِي: أنَّ العطْفَ هُنَا عَلَى تَقْدِير يَجعَلُون، بَقِيَ عنْدَنا: أيْنَ المُعادِل؟ المُعَادِلُ كمَنْ لَيْسَ كذَلِكَ.

ومَعْنَى ﴿يُنَشَّؤُاْ﴾ أَيْ: يُربَّى ﴿فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾ قَالَ المُفسِّر: [أَيِ: الزِّينَةِ ﴿فِي ٱلْخِصَامِ﴾ عنْدَ الخُصُومَةِ ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ غَيْرُ مُظهِرٍ للحُجَّةِ؛ لضَعْفِهِ عَنْهَا بالأُنوثَةِ].

وقَولُه: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أيْ: مُظهِرٌ لِمَا فِي نَفْسِهِ يَعْنِي: كمَنْ لَيْسَ كذَلِكَ. والإشارَةُ بهَذَا الوصْفِ إِلَى الأُنثَى؛ لأنَّ الأُنثَى تُنشَّأُ فِي الحِليَةِ وتُحلَّى لتَتجَمَّلَ فتَحْتَاجُ إِلَى مَا يُكمِّلُها، وهِيَ أيضًا ليسَتْ ذَاتَ خصُومةٍ، بَلْ هِيَ فِي الخِصَامِ غَيْرُ مُبينٍ، كمَنْ لَيْسَ كذَلِكَ.

فالمرَأةُ ليسَتْ جميلَةً بذَاتِهَا، ولكنَّها مُحتَاجَةٌ إِلَى مَا يُجمِّلُها، ولهَذَا تَجِدُ عنْدَ النِّساءِ

مِنَ المَوضَاتِ، كمَنْ لَيْسَ لهُـنَّ هَمٌّ إلَّا المَوضَاتُ والتَّجمُّل والتَّحسِين، ومَا أشْبَـهَ ذَلِكَ؛ لأنَّها بنَفْسِهَا قَاصِرَةٌ، كذَلِكَ أيضًا بقَولِهَا قَاصِرَةٌ: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ عنْدَ المَخاصمَةِ تَكُونَ مغلُوبَةً لا تُظهِرُ الحُجَّةَ؛ لأنَّها ضَعِيفةٌ بالأُنُوثَةِ.

بَقِي: مَا هُـوَ المُقابِلُ؟ ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ﴾ لا بُدَّ مِنْ مُقَـابِلٍ: كمَنْ لَيْسَ كذَلِكَ، أَيْ: كَمَنْ لَا يَحتَاجُ إِلَى أَنْ يُنَشَّأَ فِي الحِلْيَةِ، وكمَنْ هُوَ فِي الخِصَامِ مُبِينٌ، وهُوَ الذَّكَرُ، المَعْنَى: أنَّ اللهَ يُضِيفُ لَوْمًا إِلَى لَوْمٍ عَلَى هَؤُلَاءِ حيْثُ يَجعَلُون للهِ القَاصِرَ فِي مقَالِهِ وفِعَالِهِ، ويَجعَلُونَ لهُمُ الكَامِلَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: قصُورُ المَرْأَةِ، وأنَّهُ لَا يُمكِنُ أَنْ تُساوِيَ الرَّجُل فِي عَقْلِهَا ودَلِّهَا؛ لقَولِهِ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ...﴾ إِلَى آخِرِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ المَرْأَةَ لَيْسَ لَهَا همٌّ إلَّا التَّجمُّلُ والعِنَايَةُ بمَظْهَرِهَا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ المَرْأَةَ لَيْسَتْ ذَاتَ خِصَامٍ، بَلْ هِيَ ضَعِيـفَةٌ لَا تَستَطِيعُ أَنْ تُخاصِمَ ولَا تُبِين مَا فِي قَلْبِهَا مِنَ الحُجَّةِ؛ ولهَذَا لَمَّا تَولَّت بِنْتُ كِسْرَى عَلَى الفُرْسِ، وبَلَغَ ذَلِكَ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً**»(١).

واختَلَفَ النَّاسُ فِي مَعْنَى قَولِهِ: «**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً**» هَلْ هَذَا خَاصٌّ بهَذِهِ القَضيَّةِ المُعيَّنةِ، بمَعْنَى: أنَّ هؤُلَاءِ لَنْ يُفلِحُوا؛ لأَنَّهُم وَلَّوْا أَمرَهُمُ امرَأَةً، أَوْ أنَّ هَذَا عَامٌّ لكُلِّ مَنْ ولَّى أَمرَهُ امرَأَةً.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب كتاب النَّبيِّ ﷺ إلى كسرى وقيصر، رقم (٤٤٢٥)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإِنْ نظَرْنا إِلَى العُمُومِ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً» قُلْنا: هَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ قَوْمٍ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً، وإِنْ نظَرْنا إِلَى القَضيَّةِ المُعيَّنةِ قُلْنا: إِنَّهُ خَاصٌّ. وإِذَا نظَرْنا إِلَى الوَاقِعِ فهَلِ المرْأَةِ الَّتِي تَتولَّى أُمُورَ الرِّجالِ هَلْ تُفلِحُ؟

الجَوابُ: إِنْ أَفلَحَتْ فذَلِكَ بمَعْونَةِ الرِّجالِ، أَوْ فَلاحٌ نِسبيٌّ؛ يَعْنِي: امرَأةٌ مَثَلًا تَكُونُ رَئيسَةَ وُزارَةٍ، لَنْ يُفلِحَ قَومُها إِلَّا بمُسانَدَةِ الرِّجالِ لَهَا، هذِهِ واحِدَةٌ، أَوْ يُقَالُ: هُوَ فَلاحٌ نِسبيٌّ، فلَوْ تولَّى غيرهَا مِنَ الرِّجالِ؛ لكَانَ ذَلِكَ أفْلَحَ لَهُمْ.

وكذَلِكَ أيضًا لَنْ يُفْلِحوا إِذَا وَلَّوْا أمرَهُمْ فِي غَيْرِ الرِّئاسَةِ كالوَزَارَةِ مَثَلًا، لَنْ يُفلِحُوا، ومَنْ عَرَفَ النِّساءَ وكثْرَةَ خُصُومِهنَّ ومَشاكِلِهنَّ إِذَا تولَّوْا حتَّى إدارَةَ مَدرَسَةٍ؛ عَرَفَ أنَّ المرَأةَ لَا تَصلُح إطْلَاقًا للوَلايَةِ، اللَّهُمَّ إِلَّا عَلَى بَنِي جِنْسِهَا، فهَذَا رُبَّما؛ لأَنَّ الضَّعيفَ للضَّعيفِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الثَّناءُ عَلَى الرِّجالِ؛ لأَنَّهم إِذَا كَانَتِ النِّساءُ لَا تَكمُلُ بذَاتِهَا، ولَا بالفِعْالِ، ولَا بالمَقَالِ، فهَذَا يَعْنِي أنَّ الرِّجالَ كُمَّلٌ، وانْظُرْ إِلَى قَوْلِ اللهِ تعَالَى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢] يَتبيَّنْ لَكَ أنَّ القُنُوتَ والعِبَادَةَ فِي الرِّجالِ أَكْثَرُ؛ ولهَذَا جاءَ فِي الحَدِيثِ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَرْبَعٌ: آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النَّبيِّ ﷺ، باب فضل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٣٧٦٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعَالَى عنهم، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٢٤٣١)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كُلُّ هَذَا نُرِيدُ أَنْ يَبقَى فِي أَذْهَانِنا أنَّ المَرْأَةَ قَاصِرَةٌ، وأنَّ مَنْ يُحاوِلُون أَنْ يَجعَلُوها كالرِّجالِ؛ فإِنَّهم مُخالِفُون للفِطْرةِ والطَّبيعَة، كَما أَنَّهُم مُخالِفُون للشَّريعَةِ.

خطَبَ النَّبيُّ ﷺ النِّساءَ فِي يَوْمِ عِيدٍ، يومَ الفَرَحِ والسُّرورِ، وبيَّنَ حَالَهُنَّ فقَالَ: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»[1] مَعَ أَنَّه يَومُ فَرَحٍ ويَوْمُ سُرُورٍ، كَانَ مِنَ المُتوقَّعِ أَنْ يُدخِلَ عَلَيْهِمُ النَّبيُّ ﷺ السُّرورَ، لكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يُبيِّن حَالَهُنَّ الْآنَ، أُولَئِكَ القَومُ مِنَ الكُفَّارِ وغَيرِهِمُ الَّذِين سَاوَوُا النِّساءَ بالرِّجالِ فِي أَكْثَرِ الأشيَاءِ أحوَالُهُمْ غَيْرُ مُستَقِيمَةٍ، وغَيْرُ تَامَّةٍ، مَعَ أَنَّهُم لَنْ يَستَطِيعُوا أَنْ يُلحِقُوا النِّساءَ بالرِّجالِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، هَذَا مُستَحيلٌ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقص الإيمان، رقم (٨٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (١٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:١٩].

قَولُه تعَالَى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ﴾ الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى المُشرِكينَ، ومَعْنَى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ﴾ أَيْ: صَيَّروا؛ ولذَلِكَ نَصبَتْ مَفْعُولَينِ ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ الَّذِين أَتَمُّوا العُبوديَّةَ عَلَى الوَجْهِ الأكْمَلِ؛ حَيْثُ وَصفَهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأَنَّهُم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٧] ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ﴾ وذَلِكَ بقَوْلِهم: إنَّ الملائِكَةَ بِنَاتُ اللهِ. انْظُرُوا هَذَا الافِتَراءَ!

أوَّلًا: افْتَرَوْا بأَنَّهُم بنَاتُ اللهِ.

ثانِيًا: افْتَرَوْا بأَنَّهُم بنَاتٌ، ومَا يُدْرِيهِمْ أنَّ الملائكَةَ بنَاتٌ؟ لكِنْ لَمَّا كَانَ وَصْفُ الأُنُوثَةِ وَصْفًا رَدِيئًا -عِنْدَهُم- قَالُوا: هُمْ إنَاثٌ وَالبَنُونَ لَهُمْ.

وقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مُنكِرًا علَيْهِم: ﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ﴾ يَعْنِي: أَحَضَرُوا خَلْقَهُم، وعَرَفُوا أنَّهُم إنَاثٌ، والاستِفْهَامُ هُنَا للإنكَارِ أَوْ للتَّحدِّي. يَعْنِي: أنَّ اللهَ أَنْكَرَ علَيْهِمْ، أَوْ تَحدَّاهُم هَلْ حَضَرُوا أَوْ لَا، وهَذَا كقَولِهِ تعَالَى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف:٥١].

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ بأنَّهُم إناثٌ] ﴿سَتُكْتَبُ﴾ تُكتَبُ عَلَى أنَّها فِريَةٌ وشهادَةُ زُورٍ، ويُعاقَبُون عَلَيها، والسِّينُ هُنَا للتَّقرِيبِ والتَّحقِيقِ، وتُكتَبُ لَمْ يُبيِّنْ فَاعِلَ الكِتَابَةِ، فاللهُ أعْلَمُ، هَلْ يَكتُبُها اللهُ أَوِ المَلَائِكَةُ؟ والظَّاهِرُ أنَّهُمُ المَلائِكَةُ؛ لأَنَّ المَلَائِكَةَ مُوَكَّلُون بعَمَلِ بَنِي آدَمَ يَكتُبونَ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عَنْهَا فِي الآخِرَةِ فيَترَتَّبُ عَلَيْهَا العِقَابُ].

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: عَلَى قِرَاءَةِ نَافِعٍ: «وَجَعَلُوا المَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ» عَلَى قِرَاءَةِ نَافِعٍ كَيْفَ نُفسِّرُ عِنْدَهُ؟

فالجَوابُ: ﴿عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ كَمَا جَاءَ فِي القُرْآنِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيَانُ افتِرَاءِ هؤُلَاءِ المُشرِكينَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الوجْهُ الأَوَّلُ: أنَّهُم جعَلُوا المَلائِكَةَ إنَاثًا، ومَا يُدرِيهِمْ؟!

الوجْهُ الثَّانِي: أنَّهُم نَسَبُوهُمْ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَحَدِّي هؤُلَاءِ المُفتَرِينَ بقَوْلِهِ: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ **والجَوابُ**: لَا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَهْدِيدُ أُولَئِكَ المُفتَرِينَ بأَنَّ شَهَادَتَهُم ستُكتَبُ، ويُعاقَبُون عَلَيْهَا؛ لقَولِهِ: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثْبَاتُ الحِسَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ أقْوَالَ الإنسَانِ تُكتَبُ عَلَيْهِ كأفعَالِهِ؛ لأَنَّ الشَّهادَةَ هُنَا بالقَوْلِ.

الآيــة (٢٠)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾ [الزخرف:٢٠].

ثُمَّ قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾ أَيِ: المَلَائِكَةَ فعِبَادَتُنَا إِيَّاهُم بمَشيئَتِهِ، فهُوَ رَاضٍ بِهَا...] إِلَى آخِرِهِ.

﴿ وَقَالُواْ ﴾ أَيِ: المُشرِكُونَ ﴿لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾: ﴿لَوۡ﴾ هَذِهِ حَرْفُ امتِنَاعٍ لامتِنَاعٍ ﴿لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾ لكِنَّنَا عبَدْنَاهُم لَمشيئَةِ اللهِ، والعَجَبُ أَنَّهُم قَالُوا: ﴿مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾ فإِنْ كَانُوا يُرِيدُونَ المَلَائِكَةَ فقَدْ تَنَاقَضُوا، وإِنْ كَانُوا يُرِيدُون الأصنَامَ، فهَذَا لَهُ كَلامٌ آخَرُ، إِذَا كَانُوا يُرِيدُونَ الملائِكَةَ فهُمْ قَالُوا: ﴿مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾ مَعَ أَنَّهُم جَعَلُوا المَلَائِكَةَ إِنَاثًا، وكَانَ مُقتَضَى ذَلِكَ أَنْ يقُولُوا: (مَا عبَدْنَاهُنَّ) فيَرْجِعُ الضَّمِيرُ إِلَى الملائِكَةِ ضَمِيرَ مُؤنَّث، أَمَّا إِذَا كَانَ المُرادُ ﴿مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾ أَيْ: مَا عبْدَنا آلِهَتَنا؛ فَلَا إِشْكَالَ.

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ﴾: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ القَوْلِ مِنَ الرِّضَا بعِبَادَتِها ﴿مِنۡ عِلۡمٍإِنۡ هُمۡ﴾ أَيْ: مَا هُمْ ﴿إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ يَكذِبُون فيَترَتَّب علَيهِمُ العِقَابُ بِهِمْ].

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ﴾: ﴿مِنۡ﴾ هُنَا تُعرَبُ زَائِدَةً إِعْرَابًا،

لكِنَّها فِي المَعْنَى مُفيدَةٌ، تُفِيدُ التَّوكِيدَ، ولَوْلَا القُرآنُ لكَانَ السِّياقُ: (مَا لَهُمْ بذَلِكَ عِلْمٌ)، لكِنْ تُزادُ الحُرُوفُ للتَّوكيدِ؛ لتَوكِيدِ النَّفيِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَعْنِي: أنَّ قَولَهُمْ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ قَوْلٌ مَبنِيٌّ عَلَى الحَرْصِ والظَّنِّ، والمُحَاجَّةِ بالبَاطِلِ، وإلَّا فهُمْ عَمِلُوا وعَبَدُوا بدُونِ أَنْ يَعلَمُوا أَنَّهُ مَكتُوبٌ علَيْهِمْ؛ لأَنَّهُ لَا يُعلَمُ المَكتُوب إلَّا إِذَا وَقَعَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ هؤُلَاءِ احتَجُّوا بالقَدَرِ فقَالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بُطْلَانُ الاحتِجَاجِ بالقَدَر؛ لقَولِهِ: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾.

وقَولُهُمْ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ صَحِيحٌ، لكِنَّ الاحتِجَاجَ بِهِ غَيْرُ صَحِيحٍ، لَوْ شَاءَ الرَّحمنُ مَا عبَدُوهُم كقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٣]، فهَذَا القَوْلُ صَحِيحٌ، لكِنَّ الاحتِجَاجَ بِهِ غَيْرُ صَحِيحٍ، وإنَّما قُلْنا: إنَّهُ صَحِيحٌ؛ لأَنَّ اللهَ تعَالَى يَشَاءُ كُلَّ شَيْءٍ، كُل شَيْءٍ فهُوَ وَاقِعٌ بمَشيئَةِ اللهِ، لكِنْ لَا حُجَّةَ بشَيْءٍ لَا تَعْلَمُه أنْتَ؛ إِذْ إِنَّك لَا تَعْلَمُ أنَّ هَذَا مُقدَّرٌ عَلَيْكَ إِلَّا إذَا وَقَعَ، فالقَدَرُ سِرٌّ مَكْتُومٌ لَا يُعلَم إلَّا إِذَا وَقَعَ المَقْدُورُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الرَّدُّ عَلَى القَدَرِيَّةِ الَّذِينَ يُنكِرُون أنَّ اللهَ تعَالَى يَشَاءُ أفعَالَ العِبَادِ، فالقَدَرِيَّةُ -وهُمُ المُعتَزِلَةُ- يَقُولُون: إنَّ الإنسَانَ خَالِقُ عمَلِهِ، مُريدٌ لَهُ، مُستَقِلٌّ بِهِ، وأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا إرَادَةَ لَهُ بِهِ، سُبْحَانَ اللهِ! أيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩] وتَقُولُون أنْتُم: لَا؟!

قابَلَهُم قَـومٌ آخَرُون، وهُمُ الجَبْرِيَّةُ، وقَالُوا: كُلُّ شَيْءٍ وَاقِعٌ فهُـوَ بمَشيئَةِ اللهِ، والإنسَانُ مُجبَرٌ عَلَى العَمَلِ ولَيْسَ مُختَارًا، وهَذَا أيضًا قَولٌ باطِلٌ، وكلٌّ يَعْرِفُ الفَرْقَ بَيْنَ الفِعْلِ الاختِيَاريِّ وبيْنَ الفِعْلِ الاضْطِرَارِيِّ، فكُلٌّ يعرِفُ الفَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَنْزِلَ الإنسَانُ مِنَ السَّطْحِ مِنْ عَلَى الدَّرَجِ شَيْئًا فشَيْئًا وبَيْنَ أَنْ يَتَدَحْرَجَ بدُونِ اختِيَارٍ مِنْهُ.

وهُمْ -أَعْنِي: الجَبريَّةَ- يَقُولُونَ: إنَّ الكُلَّ سَوَاءٌ، يَنْزِلُ باختِيَارٍ، أَوْ يَتدحْرَجُ بغَيْرِ اختيَارٍ، الكُلُّ سَوَاءٌ، ومَا حرَكَةُ الإنسَانِ إلَّا كحَرَكَةِ السَّعفةِ فِي الرِّيحِ.

وهَذَا أيضًا قَوْلٌ بَاطِلٌ، ولَا يُمكِنُ أَنْ تَقُومَ بِهِ أُمَّةٌ، ولَا أَنْ تَقُومَ بِهِ مِلَّةٌ، ولَا أَنْ تَقُـومَ بِهِ دُنْيَا ولَا أُخْرَى، وإلَّا لقُلْنَـا: كُلُّ إنسَانٍ يَتَسَلَّط عَلَى آخَرَ، ثُمَّ يَقُـولُ: هَذَا بقَضَاءِ اللهِ وقدَرِهِ، مَا أَمْلِكُ، هَلْ يَرضَى هؤُلَاءِ أَنْ يَأتِيَ شَخْصٌ ويَرُضُّهم رَضًّا، ثُمَّ يقُولُ: هَذَا بقَدَرِ اللهِ؟

الجَوابُ: لَا أحَدَ يَرضَى بذَلِكَ، ولَمَّا أَمَرَ عُمرُ بْنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ تُقطَعَ يَدُ السَّارِقِ قَالَ: مَهْلًا يَا أَمِيرَ المُؤمِنِينَ، واللهِ مَا سرَقْتُ إلَّا بقَدَرِ اللهِ. قَالَ: ونحْنُ لَا نَقْطَعُ يَدَكَ إلَّا بقَدَرِ اللهِ.

فكُلُّ إنسَانٍ يَعْرِفُ أنَّ الإنسَانَ مُختَـارٌ، ولَهُ إرادَةٌ تَامَّةٌ بِهَا يَفْـعَلُ، لَوْ أنَّنا قُلْنَا بقَوْلِ الجَبْرِيَّةِ لكَانَتْ عُقُوبةُ اللهِ للمُجرِمِينَ ظُلْمًا؛ لأنَّهُم سيَقُولُون: يَا رَبَّنا فعَلْنا هَذَا بغَيْرِ اختِيَارِنَا، والَّذِين يَقُولُون: إنَّ اللهَ لَا عَلَاقَةَ لَهُ بفِعْلِ العَبْدِ فهُمْ أيضًا مُخطِئُون.

ولهَذَا يُسمَّى هـؤُلَاءِ القدَرِيَّةُ مَجُوسَ هَـذِهِ الأُمَّةِ؛ لأنَّهُم جَعَلُوا للحـوَادِثِ خالِقَيْنِ، حوَادِثُ بشَرِيَّة مِنْ خَلْقِ البشَرِ، وحوَادِثُ إلهيَّةٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فسُمُّوا مَجُوسَ هذِهِ الأُمَّةِ؛ لأنَّ المَجُوسَ يَقُولُونَ: إنَّ الحوادِثَ لَهَا خَالِقَانِ: الشَّرُّ تَخْلُقه الظُّلمَةُ،

والنُّورُ يَخْلُقُ الخَيْرَ، هذِهِ عَقِيدَةُ المَجُوس، وفِي ذَلِكَ يَقُولُ المُتنبِّي فِي مَمْدُوحِهِ:

وكَمْ لِظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تُخَبِّرُ أَنَّ المَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ[1]

ظَلَامُ اللَّيْلِ ظُلْمَةٌ، وَأَنْتَ أَيُّهَا المَمْدُوحُ لَكَ الْكَرَمُ فِي اللَّيلِ والنَّهارِ.

فقولُهُم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ صَحِيحٌ لكِنْ لَيْسَ حُجَّةً؛ ولهَذَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ المُحتَجَّ بالقَدَرِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ. وكَيْفَ لَا يَكُونُ عِنْدَهُ عِلْمٌ، وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا وقَعَ بمَشِيئَةِ اللهِ؟

فالجَوابُ: هُوَ إِنَّما عُلِمَ بعْدَ الوُقُوعِ، لكِنْ قَبْلَ الوُقُوعِ لَا يُعلَمُ؛ إِذَنْ لَا حُجَّةَ لَهُ؛ لأَنَّ الحُجَّةَ دَلِيلٌ، والدَّلِيلُ لَا بُدَّ أَنْ يَسبِقَ المَدلُولَ، فعِلْمُهُم لَاحِقٌ، ولَيْسَ بسَابِقٍ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ قَولَهُمْ هَذَا مَبنيٌّ عَلَى الكَذِبِ؛ لقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أَيْ: يَكْذِبُونَ. ولَنَا أَنْ نَقُولَ: ﴿يَخْرُصُونَ﴾ بمَعْنَى يَظُنُّون، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤].

• • ❁ • •

(١) ديوان المتنبي (ص:٤٦٦).

الآيــة (٢١)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ [الزخرف:٢١].

ثُمَّ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ أي: القُرآنَ بعِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾].

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾: ﴿ أَمْ ﴾ بمَعْنَى (بَلْ)، وهمْزَةٍ للاستِفْهَامِ، والمَعْنَى: بَلْ هَلْ نَحْنُ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِ القُرْآنِ فهُمْ بِهِ مُستَمْسِكُون؟

الجَوابُ: لَا، لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ، فأَوَّلُ كِتَابٍ نَزَلَ عَلَى العَرَبِ هُوَ القُرآنُ، وهُوَ آخِرُ كِتَابٍ؛ لأَنَّه لَمْ يُبعَثْ مِنَ العَرَبِ رَسُولٌ إِلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ، كَمَا قَالَ اللهُ فِي دُعَاءِ إِبْراهِيمَ وإِسمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة:١٢٩].

ولهَذَا لَوْ قَالَ لنَا قَائِلٌ: هَلْ فِي العَرَبِ رَسُولٌ سِوَى مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لقُلْنَا: لَا، لَا يُوجَدُ إِلَّا وَاحِدٌ.

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾؟

الجَوابُ: لَا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تكرَارُ الحُجَجِ بقَدْرِ إنْكَارِ الخَصْمِ، وكُلَّما تكرَّرْتِ الحُجَجُ ازدَادَ الأَمْرُ قوَّةً.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّكَ إذَا أَتَيْتَ بدَلِيلٍ مُقنِعٍ فَلَا لَوْمَ عَلَيكَ، إذَا أَتَيْتَ بدَلِيلٍ آخَرَ وثَالِثٍ، مَا دَامَ المَقَامُ يَقْتَضِي ذَلِكَ، انْظُروا إِلَى الَّذِين يُجادِلُون أَهْلَ البَاطِلِ، وبالأَخَصِّ شَيْخُ الإسلَامِ ابْنُ تَيمِيَّةَ وتِلميذُهُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ -كَيْفَ يَأْتُونَ بالأدِلَّة مُتَتابِعَةً مُتكَاثِرَةً مَعَ أنَّ المَدلُولَ يُمكِنُ أَنْ يَثبُتَ بدَلِيلٍ وَاحِدٍ؟

والجَوابُ: أنَّ هَذا مِنْ أَجْلِ التَّقويةِ، شَيخُ الإسلَامِ لَهُ كِتَابٌ اسْمُه (التِّسعينيَّة فِي الرَّدِّ عَلَى الأَشْعرِيَّة) الَّذِين قَالُوا: إنَّ الكَلَامَ هُوَ المعْنَى القَائِمِ بالنَّفسِ، أَبطَلَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هَذَا القَوْلَ مِنْ تِسعِينَ وَجْهًا، ويَكفِي فِي إبطَالِهِ وَجْهٌ واحِدٌ، يَعْنِي: كُلَّما تَكَرَّرتِ الأدِلَّةُ قَوِيَتِ الحُجَّةُ.

أرَأَيْتُمُ الْآنَ فِي الأُمُورِ المحسُوسَةِ لَوْ أَنَّ شَخْصًا أَتَى وأَخْبَرَكُمْ بخَبَرٍ وهُوَ ثِقَةٌ عِندَكُم صدَّقتُمُوه، فإذَا جَاءَ آخَرُ ازدَادَتِ الثِّقَةُ، وإذَا جَاءَ ثَالِثٌ ازدَادَتِ الثِّقَةُ؛ ولهَذَا قَالَ العُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنَّ المُتواتِرَ يُفِيدُ القَطْعَ؛ لكَثْرَةِ مَنْ رَوَاهُ، المُتواتِرُ يَعْنِي: الحَدِيثُ الَّذِي يَأتِي مِنْ طُرُقٍ كَثِيرَةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ عَلَى العَرَبِ كِتَابٌ سِوَى القُرْآنِ؛ لقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: مِنَّةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى العَرَبِ؛ حَيْثُ أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا وَاحِدًا هِدَايَةً للخَلْقِ أَجْمَعِينَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، بيْنَما الرُّسُلُ الآخَرُونَ تَنْزِلُ عَلَيهِمُ الكُتُب

هدَايةً لأَقْوامِهِمْ، فهِيَ -أيِ: الكُتُبُ- هدَايَةٌ فِي قَوْمٍ مُعيَّنِينَ، وفِي وَقْتٍ مُعيَّنٍ، لكِنَّ هَذَا الكِتَابَ -جعَلَنِي اللهُ وإِيَّاكُم مِنَ المُتمسِّكينَ بِهِ- نَازِلٌ صَالِحًا لكُلِّ زَمَانٍ ومَكَانٍ وأُمَّةٍ.

الآيــة (٢٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٢].

﴿بَلْ﴾ هَذِهِ للإِضْرَابِ، إضرَابُ انتِقَالٍ، يَعْنِي: انتَقَلُوا إِلَى شَيْءٍ آخَرَ، قَالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أَيْ: عَلَى مِلَّةٍ، وإِنَّا مَاشُونَ عَلَى آثَارِهِمْ، مُهتَدُون بِهِمْ، وكَانُوا يَعبُدونَ غَيْرَ اللهِ.

هذِهِ حُجَّة مِنْ حُجَجِهِمُ، احتَجُّوا فِي الأَوَّلِ بالقَدَرِ، الْآنَ احتَجُّوا بالقُدوَةِ، قَالُوا ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ نَتكَلَّمُ عَلَى مَعْنَى (أُمَّةٍ)، يَقُولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِلَّة] وقَدْ ذَكَرْنا قَرِيبًا أَنَّ (أُمَّة) فِي القُرآنِ تَدُلُّ عَلَى عِدَّة معَانٍ:

١ ـ أَنَّها تَكُونُ بمَعْنَى: إمَامٍ، مِثْلَ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ﴾ [النحل:١٢٠].

٢ ـ تَكُونُ بمَعْنى: وَقْتٍ، كقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥].

٣ ـ تَكُونُ بمَعْنَى: طَائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ، كقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾.

٤ ـ تَكُونُ بمَعْنَى الدِّينِ، كقَولِهِ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أَيْ: عَلَى مِلَّة.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذِهِ الكلِمَاتُ الَّتِي تَأْتِي لِعِدَّةِ مَعَانٍ مَا الَّذِي يُعيِّن المَعْنَى؟

فالجَـوابُ: السِّياقُ، وقرَائِنُ الأحْوَالِ، إِذَا قُلْتَ لرَجُـلٍ غَنِيٍّ: الْبَسِ العَبَاءَةَ. ولرَجُلٍ فقِيرٍ: الْبَسْ عَبَاءَةً. هَلْ تَختَلِفُ العَبَاءَتَانِ؟ الأوَّلُ: الغَنِيُّ يَعْنِي: الْبَسْ عَبَاءَةَ غَنِيٍّ، والثَّـاني: الْبَسْ عَبَاءَةَ فَقِيرٍ. اختَلَفَ المَعْنَى لحَـالِ المُخَاطَبِ، فالمُهِمُّ أنَّ الَّذِي يُعيِّنُ المَعْنَى هُوَ السِّياقُ.

ومِنْ ثَمَّ قُلْنَا: إِنَّهُ لَا مجَازَ فِي اللُّغةِ العَربيَّةِ إطْلَاقًا، ولَا فِي الْقُرآنِ أيضًا، والمسأَلَةُ هَذِهِ فِيهَا أقْوَالٌ ثلَاثَةٌ:

القَولُ الأوَّلُ: أنَّ المجَـازَ وَاقِعٌ فِي اللُّغةِ العَربيَّـةِ والقُرآنِ، وهَـذَا الَّذِي عَلَيْهِ جُمهُورُ العُلماءِ.

القَولُ الثَّانِي: أنَّهُ وَاقِعٌ فِي اللُّغـةِ غَيْرُ وَاقِعٍ فِي القُرآنِ، اختَارَهُ طَائِفَـةٌ مِنْهُم: الشَّيخُ مُحَمَّد الأَمِينُ الشِّنْقيطيُّ صاحِبُ كِتَابِ (أضوَاء البَيَانِ).

القَوْلُ الثَّالثُ: منْهُمْ مَنْ قَالَ: لَا مجَـازَ فِي القُرآنِ ولَا فِي اللُّغةِ. وهَذَا اختِيَارُ شَيْـخِ الإسلَامِ ابْنِ تَيمِيَّةَ[1] وتِلمِيـذِهِ ابْنِ القَيِّمِ[2] رَحِمَهُمَا اللَّهُ، وهَذَا هُـوَ الحَقُّ؛ لأَنَّ الكَلِمَةَ ليْسَ لَهَا معْـنًى ذَاتِيٌّ، الكلِمَةُ فِي ضِمْنِ جملَةٍ، فإِذَا دلَّتِ الكلِمَةُ فِي مَوْقِعٍ مَا عَلَى معْنًى مِنَ المعَانِي فهُـوَ الحقِيقَةُ، لَوْ قُلْتَ: رَأَيْتُ أَسَدًا يَحْمِـلُ الحَقيبَةَ إِلَى المسْجِدِ ليَقْرَأَ، لَا يُمكِنُ أَنْ يَتبَادَرَ إِلَى ذِهْنِ واحِدٍ مِنَ النَّاسِ أنَّ المُرادَ بالأَسَدِ السَّبُعُ المعرُوفُ، بَلْ لَوِ ادَّعى هَذَا مُدَّعٍ لرَدَّ علَيْهِ كُلُّ أحَدٍ، فالَّذِي منَعَ هَذَا هُوَ السِّياقُ.

---

(١) انظر: كتاب الإيمان (ص:٧٣).

(٢) انظر: مختصر الصواعق المرسلة (ص:٢٨٧).

إذَنِ: الأَسَدُ هُنَا حقِيقَةٌ فِي مَوضعِها، وهِيَ تَدُلُّ عَلَى الشَّجاعَةِ، فبَدَلًا مِنْ أَنْ أَقُولَ: رَأَيْتُ رَجُلًا شجَاعًا يَحمِلُ حَقيبَةً، أَقُولُ: رأَيْتُ أَسَدًا.

وانتَبِهُوا لهَذَا ففِيهِ فائِدَةٌ عظِيمَةٌ، وكثِيرًا ما يَحتَجُّ النَّاسُ فيَقُولُونَ: كَيْفَ لَا يَكُونُ فِي القُرآنِ مجَازٌ واللهُ يَقُولُ: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف:٧٧]، أَيْ: مَائِلًا، والجِدَارُ لَيْس لَهُ إرَادَةٌ؟

فالجَوابُ:

أَوَّلًا: نَمْنَعُ قَولَكَ: الجِدَارُ لَيْسَ لَهُ إرادَةٌ. بَلْ لَهُ إرادَةٌ، بِلَا شَكٍّ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، فهَذِهِ المخْلُوقَاتُ تُسبِّح بإرادَةٍ بِلَا شَكٍّ، وإِلَّا لَمْ يكُنْ فِي هَذَا ثَنَاءٌ عَلَى اللهِ.

ثَانيًا: نَقُولُ: مَا الَّذِي يَمْنَع الإرادَةَ فِي الجَمَادِ والنَّبيُّ ﷺ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي أُحُدٍ، وهُوَ جَبَلٌ حَصًى: «جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»[1] فأَثْبَتَ المَحبَّةَ لهَذَا الجَبَلِ، والمَحَبَّةُ أَخَصُّ مِنَ الإِرادَةِ.

ثَالِثًا: نَقُولُ: إرادَةُ كُلِّ شَيْءٍ بحَسَبِهِ، فمَيْلُ الجِدَارِ، يَعْنِي أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسقُط، كمَيْلِ الإنسَانِ، فنَعرِفُ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَرْكَعَ مَثَلًا، ولَا مَانِعَ.

قَالُوا: إِذَنْ تَخَلَّصْتُم مِنْ هَذَا، فَمَا تَقُولُون فِي قَولِهِ: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤] المعْنَى: تَواضَعْ لهُمَا رحْمَةً بِهِمَا، فيَقُولُون: الذُّلُّ هَلْ لَهُ جَنَاحٌ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل الخدمة في الغزو، رقم (٢٨٨٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، رقم (١٣٩٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فنَقُولُ: أمَّا الذُّلُّ فهُوَ أمْرٌ مَعنَويٌّ، والإنسَانُ إذَا لَمْ يَذِلَّ تَرفَّع وعَلَا بنَفْسِهِ، فقَالَ: اخفِضْ جَنَاحَ الذُّلِّ، بدَلَ جَنَاحِ التَّرفُّعِ، وذَكَرَ الجَنَاحَ؛ لأنَّهُ هُوَ الَّذِي يَطِيرُ بِهِ الطَّيرُ إلَى السَّماءِ، فالآيَـةُ واضِحَةٌ أنَّ المعْنَى تطَامَن للوَالدِينِ، وتَذَلَّلْ لهُمَا، واخفِضْ لهُمَا الجَنَاحَ، وهَذَا غَايَةُ مَا يَكُونُ مِنَ التَّذلُّل لهُمَا.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا المَحْذُورُ الشَّرعيُّ فِي إثبَاتِ المجَازِ إذَا قُلْنَا بالمجَازِ؟

فالجَوابُ:

أوَّلُ مَحذُورٍ: أنَّ المجَـازَ باتِّفاقِ القَائِلِينَ بِهِ يَصِحُّ نَفْيُهُ، وهَذَا يَعْـنِي: أنَّهُ يَصِحُّ تكـذِيبُ القُرآنِ، فيَقُـولُ مَثَلًا: (﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ الجِـدَارُ لَيْس لَهُ إرادَةٌ)، وهَـذَا لَا يَصِحُّ؛ ولهَذَا اعتَمَدَ الشِّنْقيطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذِهِ الحُجَّةَ اعتِمادًا قوِيًّا، قَالَ: أبرَزُ عَلَامَاتِ المَجَازِ أنَّهُ يَصِحُّ نفْيُه، وليْسَ فِي القُرآنِ شَيْءٌ يَصِحُّ نفْيُه[1].

ثَانيًا: أنَّ هَذَا المجَازَ الَّذِي سَمَّاهُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2] طَاغُوتًا توصَّلوا بِهِ إلَى إنْكَارِ الصِّفاتِ، وقَالُوا: اليَدُ مجَازٌ عَنِ النِّعمَةِ، والاستِوَاءُ مجَازٌ عَنِ الاستِيلَاءِ، والعَيْنُ مجَازٌ عَنِ الإحَاطَةِ، وهَلُمَّ جرًّا، ومَنْ قَالَ: إنَّ شيْخَ الإسلَامِ وابْنَ القَيِّم أنْكَرَا ذَلِكَ -وشـدَّدَا فِي الإنكَارِ- لأنَّ أهْلَ التَّعـطِيل توصَّلُوا بالمجَازِ إلَى إنكَارِ الصِّفـاتِ-، فهَذَا كذِبٌ علَيْهِما، بَلْ هُمَا أنكَرَاه مُطْلَقًا حتَّى فِي أبْسَطِ الأشيَاءِ.

فإنْ قَـالَ قَائِلٌ: مَا الرَّدُّ عَلَى القَائِلِينَ بأنَّ المجَـازَ يَدُلُّ عَلَى فصَاحَتِهِ وإعْجَـازِ القُرآنِ؟

فالجَوابُ: هَذَا غلَطٌ، كيْفَ يَدُلُّ عَلَى فصَاحتِهِ وهُوَ يَصِحُّ أنْ يُنفَى ويُكذَّبَ.

---

(١) انظر: منع جواز المجاز (ص:٧).

(٢) انظر: مختصر الصواعق المرسلة (ص:٢٨٥).

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: فِي كِتَابِ (فتْح رَبِّ البَرِيَّةِ) كأَنَّهُ يُفهَمُ مِنَ الكَلَامِ إثبَاتُ أَصْلِ المَجَازِ؛ لأَنَّكَ قُلْتَ: المعْنَى المجَازِيُّ لا يُقبَل إلَّا بثَلاثَةِ شُرُوطٍ، ومِنْ حُجَجِ الَّذِين يُثبِتُونَ المجَازَ يَقُولُون: إنَّ القُرآنَ جَاءَ عَلَى أَسَالِيبِ اللُّغةِ، فاللُّغةُ فِيهَا مجَازٌ، فمِنْ إعجَازِ القُرآنِ لَمْ يَخرُجْ عَنْ أَسَالِيبِ اللُّغةِ؟

فالجَوابُ: نحْنُ نَقُولُ: اللُّغةُ لَيْسَ فِيهَا مجَازٌ أَصْلًا. يَعْنِي: نُنْكِرُ الأَصْلَ، فنَقُول: اللُّغةُ لَيْسَ فِيهَا مجَازٌ.

ومَا كتبْنَاهُ أَوَّلًا فِي أُصُولِ الفِقْهِ حيْثُ ذكَرْنا المجَازَ، فإنَّنَا مَاشُونَ عَلَى خُطَّةٍ رُسِمتْ لَنَا مِنْ قِبَلِ المَعَاهِدِ، ولَيْسَ عَنِ اعتقَادٍ مِنَّا، ولقَدْ نَبَّهنَاهُم بأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكتُبوا حاشِيَةً عَلَى هَذَا فتَقُولُوا: هَذَا عَلَى القَوْلِ بالمجَازِ، وأَنَّنا لَا نَرى ذَلِكَ.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣].

يَعْنِي: مِثْلُ هَذَا الَّذِي قِيل لَكَ قِيلَ لِمَنْ قَبلَكَ: ﴿مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ والحِكْمَة مِنْ هَذَا تَسليَةُ النَّبيِّ ﷺ مِنْ وَجْهٍ، وإنذَارُ هؤُلَاء المُكذِّبينَ لَهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، وأَنَّه سيُصِيبُهم مَا أَصَابَ غَيرَهُم ممَّا أَصَرُّوا عَلَى تقْلِيدِ آبائِهم البَاطِلَ.

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ أي: مُنَعَّمُوها مِثْلَ قَوْلِ قَومِكَ: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ مِلَّةٍ ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ مُتَّبِعُون].

الحِكمَةُ مِنْهُ هُوَ تَسلِيةُ النَّبيِّ ﷺ، وإنذَارُ هَؤُلاءِ المُكذِّبينَ أنَّ جميعَ الأُمَم السَّابِقَةِ يَقُولُونَ لأقوامِهِمْ: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ أَيْ: عَلَى مِلَّةٍ ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أَيْ: مَا يَسيرُون عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ ﴿مُّقۡتَدُونَ﴾ أَيْ: مُتَّبِعُون مُقلِّدونَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَسليَةُ النَّبيِّ ﷺ بأنَّ هَذَا الَّذِي قِيلَ لَهُ قَدْ قِيلَ لِمَنْ قبْلَهُ، كقَولِهِ تعَالَى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ [فصلت:٤٣].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: اتِّفَاقُ أَهْلِ البَاطِلِ عَلَى هَدَفٍ وَاحِدٍ، أَلَا وَهُوَ تَكْذِيبُ الرُّسلِ، واتِّبَاعُ آبَائِهِمْ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَحرِيمُ التَّقلِيدِ بالبَاطِلِ، وأَمَّا التَّقلِيدُ بالحَقِّ فَلَا بَأْسَ بِهِ، فإِذَا كَانَ رَجُلٌ لَا يَعْرِفُ حُكْمَ مَسأَلَةٍ فِي دِينِ اللهِ، ولَيْسَ عِنْدَهُ قُدرَةٌ عَلَى الاجتِهَادِ، فإِنَّ فَرْضَهُ التَّقلِيدُ؛ لقَولِ اللهِ تعَالَى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النحل:٤٣]؛ ولقَوْلِ اللهِ تعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]؛ ولقَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

وأَمَّا مَنْ حرَّمَ التَّقلِيدَ مُطلَقًا فقَولُهُ بَاطِلٌ مُخالِفٌ لظَاهِرِ القُرآنِ، وأَمَّا مَنْ أَلْزَمَ بِهِ مُطْلَقًا فقَولُهُ بَاطِلٌ مُخالِفٌ لِمَا يَجِبُ الإِيمَانُ بِهِ مِنِ اتِّبَاعِ الرُّسُلِ.

فالصَّوابُ: أَنَّ التَّقلِيدَ للضَّرُورَة جَائِزٌ؛ ولهَذَا قَالَ شيْخُ الإِسلَامِ ابْنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التَّقلِيدُ بمَنزِلَةِ أَكْلِ المَيتَةِ، إِنِ اضطُرَّ إِنسَانٌ إِلَيْهِ فهُوَ جَائِزٌ، وإِلَّا فَلَا»[1].

ولكِنْ لَا يُمكِنُ أَنْ نَقُولَ للعَامِّيِّ صَاحِبِ السُّوقِ: اجْتَهِدْ فِي هذِهِ المسأَلَةِ حتَّى تَعرِفَ حُكْمَ اللهِ، ولَوْ بَقِي يَجْتَهِدُ لخَبَّطَ، لكِنَّ فرضَهُ أَنْ يَسْأَلَ.

فإِنْ قالَ قائِلٌ: هَلْ يَجُوزُ التَّقلِيدُ فِي أُصُولِ الدِّين، أَوْ فِي فُرُوعِ الدِّينِ فَقَطْ؟

فالجَوابُ: أَوَّلًا تَقْسِيمُ الدِّين إِلَى أُصُولٍ وفُرُوعٍ حَادِثٌ لَمْ يَكُنْ مَعرُوفًا فِي عهْدِ الصَّحابَةِ، ويَدُلُّ عَلَى بُطلَانِهِ أَنَّهُم يَجعَلُونَ الصَّلاةَ والزَّكاةَ والصِّيامَ والحَجَّ مِنْ فُرُوعِ الدِّينِ، مَعَ أَنَّها أَركَانُ الإِسلَامِ، فالصَّوابُ: أَنَّ الشَّرعَ لَا يَنْقَسِمُ إِلَى أُصُولٍ وفُرُوع، وأَنَّ هَذَا اصطِلَاحٌ حادِثٌ، لكنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى أُصُولٍ عِلميَّةٍ، وأُصُولٍ عَمَليَّةٍ،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٠٣-٢٠٤)، وإعلام الموقعين لابن القيم (٢/ ١٨٥).

فالأُصُولُ العِلميَّـةُ هُوَ الاعتِقَادَاتُ، والعمَليَّةُ هُوَ العِبَادَاتُ المُكلَّف بِهَا، هَـذَا هُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ النَّصُّ.

إِذَنْ نَقُولُ: قَولُنا: هَلْ يَجُـوزُ التَّقليدُ فِي أُصُولِ الدِّينِ وفُرُوعِهِ، أَوْ فِي فُرُوعِـهِ فَقَطْ؟ أَصْلُ التَّقسيمِ حَـادِثٌ مُبتَدَعٌ، ولَوْ كَانَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ العُلَمَاءِ الْآنَ، وَهُـوَ أَيْضا غَيْرُ صَحِيح. وَجْهُ بُطَلانِهِ أَنَّهُ جَعَل الصَّلاةَ والزَّكاةَ والصِّيامَ والحَجَّ مِنْ فُرُوعِ الدِّينِ وهِيَ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ أَرْكَانِ الإسلَامِ.

ثُمَّ نَقُولُ: التَّقلِيـدُ فِيمَا تُسمِّيه أَصْلَ الدِّينِ وفُرُوعَـه جائِزٌ، قَالَ تعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، والرِّسالَةُ عَلَى تَقْسِيم هـؤُلاءِ إِلَى أُصُول وفُرُوعٍ مِنَ الأُصُولِ، ومَعَ هَذَا يَقُولُ ـ جَلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ اسْأَلُوا: هَلْ أَرْسَلْنا رِجالًا، أَوْ أَرسَلْنا مَلَائِكَةً، ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

والقَاعِدَةُ: أَنَّ كُلَّ مَنْ عَجَزَ أَنْ يُدرِكَ الحقَّ بنَفسِهِ وَجَبَ علَيْهِ التَّقلِيدُ، سَوَاءٌ فِي الأُمُورِ العِلميَّةِ أَوِ العمَليَّةِ، لَا فَرْقَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ هؤُلَاءِ القَوْمَ المُكذِّبينَ للرُّسلِ لَيْسَ عنْدَهُم حُجَّةٌ إِلَّا مُجرَّد مَا كَانَ عَلَيْهِ الآبَاءُ، وهَذَا لَيْسَ بِحُجَّة، وعَلَى هَذَا فلَا يَجُوزُ الاحتِجَاجُ بعَمَلِ النَّاسِ، كَمَا يَفْعَـلُهُ بعضُ القَـومِ، فإِذَا نُهيتَ عَنْ شَيْءٍ يَفعـلُهُ كُلُّ النَّاسِ فهَذَا لَيْسَ بِحُجَّـةٍ، ولَا يُمكِنُ أَنْ تُقـابِلَ اللهَ بهَذِهِ الحُجَّـةِ، كُلُّ النَّاسِ يَفْعَلُون هَذَا، فهَـذَا لَا يُمكِنُ أَنْ يَنْفَعَكَ عنْدَ اللهِ، قُلْ: هَذَا دَلَّ الكِتَابُ أَوِ السُّنَّة عَلَى جَوازِهِ.

الآيــة (٢٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف:٢٤].

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَٰلَ﴾ أَيْ: لهُمْ ﴿أَوَلَوۡ﴾ تَتَّبِعُونَ ذَلِكَ ﴿جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ أَنْتَ وَمَنْ قَبْلَكَ ﴿كَٰفِرُونَ﴾].

﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم﴾: ﴿قَٰلَ﴾ أي: الرَّسُول الَّذِي يُرسِلُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ويُقابَل بأَنَّهُم وجَدُوا آبَاءَهُم عَلَى أُمَّةٍ، ﴿قَٰلَ﴾ لهُمْ: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ يَعْنِي: أَتَرُدُّون قَولِي وتَتَّبِعُون مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُكم ولَوْ جِئْتُكم بأَهْدَى مِنْهُ؟! والاستِفْهَامُ هُنَا وَاضِحٌ أَنَّهُ للإنكَارِ والتَّوبِيخِ. يَعْنِي: كَيْفَ تَتَّبِعُون مَا عَلَيْهِ آبَاؤُكُم، وأَنَا قَدْ جِئْتُكم بأَهْدَى؟! ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ وَهُوَ شَرْعُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَمَعَ هَذَا فالرَّدُّ وَاحِدٌ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وهَذَا غَايَةُ مَا يَكُونُ مِنَ العِنَادِ، يَعْنِي: حتَّى ولَوْ جِئْتَنا بأَهْدَى ممَّا وجَدْنا عَلَيْهِ آبَاءَنا فإِنَّا كَافِرُون، ولَا نَقُولُ كَمَا قُلْنَا أَوَّلًا: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ بَلْ نَقُولُ: كَافِرُون مُطْلَقًا، وهَذَا أبلَغُ مَا يَكُونُ فِي العِنادِ -نَسأَلُ اللهَ العَافِيَةَ- وهَذَا كقَولِ الَّذِين استكْبَرُوا مِنْ قَوْمِ صَالِحٍ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف:٧٦].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيَانُ معَالجَةِ الرُّسلِ عليْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ للمُكذِّبين، أنَّهُم يُدْلُون عليهِمْ بالحُججِ المُقنعَةِ، ولكِنْ الكَافِرُون يُعانِدُون.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: جوَازُ التَّفضِيل بَيْنَ شَيْئَين قَدْ لَا يَكُونُ فِي الطَّرفِ الآخرِ شَيْءٌ مِنَ المعْنَى؛ لقَـولِهِ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾: ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ اسْمُ تَفْضِيلٍ، ومَعَ ذَلِكَ فإنَّا نَقُولُ: مَا وجَدُوا علَيْهِ آباءَهُمْ لَيْسَ فِيهِ هُدًى؛ لكنَّ التَّنزُّلَ مَعَ الخَصْمِ لَا بَأْسَ بِهِ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الطَّرَفِ الآخَرِ شَيْءٌ.

وانْظُرْ إِلَى قوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩] ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هَذِهِ الأصْنَامَ، وهَلْ فِي الأصنَامِ خيرٌ؟

لَا، لكِنْ مِنْ أَجْلِ مُجَادَلَةِ الخَصْمِ نَقُولُ لَهُم: هَـلِ اللهُ خَيْرٌ أَمْ آلِهَتُكَ، وإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ آلِهَتَهُ لَيْسَ فِيهَا خَـيْرٌ؛ فهُنَا قَالَ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ نَعلَمُ أنَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ آباؤُهُمْ لَيْسَ فِيهِ هُدًى، بَلْ هُـوَ ضَلَالٌ، ولكنَّنَا نُخَاطِبُ مَنْ يَرَى أَنَّهُ هُـدًى، فنُخاطِبُهُ عَلَى قَدْرِ مَا عِنْدَهُ مِنَ الفَهْمِ.

ومِنْ ذَلِكَ مَا يَستَعْمِلُهُ شَيْخُ الإسلَامِ ابْنُ تيمِيَّةَ وغَيْرُه مِنَ العُلَماءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي مُجَادَلَةِ أَهْلِ الكَلَامِ؛ حيْثُ يَتمشَّى فِيمَا يُجادِلُهم بِهِ عَلَى حسَبِ اصطِلَاحِهِمْ وإِنْ كَانَ يُنكِر أصْلَ مَا هُـمْ عَلَيْه، لكِنَّ المُجـادَلَةَ مَعَ الخَصْمِ لَا بَأْسَ أَنْ يَنـزِلَ الإنسَانُ عَلَى حسَبِ فَهْمِ الخَصْمِ حتَّى يَكونَ ذَلِكَ أبلَغَ فِي الاحتِجَاجِ عَلَيْهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ أُولئِـكَ المُعانِدِينَ الَّذِين يَتَّبِعُون مَا وَجَـدُوا عَلَيْهِ آباءَهُـمْ لَيْسَ عندَهُم نِيَّةٌ فِي أَنْ يُؤمِنُوا؛ لأَنَّهُم لَمَّا غُلِبُوا فِي الحُجَّةِ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ

كَفِرُونَ﴾ يَعْنِي: لَنْ نُؤمِنَ، مهْمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الحُجَّة فلَنْ نُؤمِنَ، وهَذَا غَايَةُ مَا يَكُونُ مِنَ الاستِكْبَارِ عَنِ الحَقِّ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٢٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف:٢٥].

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ أَيْ: أَنزَلْنا بِهِمُ النِّقمَةَ، وهِيَ العُقُوبةُ، ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ انظُرْ يَا مُحَمَّدُ، أَوِ انظُرْ أَيُّها المخاطَبُ كيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكذِّبينَ، إِذَا نظَرْنَا وَجَدْنا العَاقِبَةَ الهَلاكَ والدَّمارَ، فلْنَعتَبِرْ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَانُ قُدرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُملِي للظَّالِمِ حتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفلِتْه، فإِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنتَقِمَ منهُمْ بأَوَّلِ مَرَّةٍ، لكِنْ يُملِي للظَّالِمِ، فإِذَا أَخَذَهُ أَخَذَهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقتَدِرٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الأَمْرُ بالاعتِبَارِ والنَّظرِ فِي الأُمُورِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ والنَّظرُ هُنَا نَظَرُ قَلْبٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ عاقِبَةَ المُكذِّبينَ الهَلاكُ والدَّمارُ؛ لأَنَّ اللهَ أَهْلَكَ كُلَّ المُكذِّبينَ، أَهْلَكَ قَوْمَ نُوحٍ، وقَوْمَ هُودٍ، وقَوْمَ صَالِحٍ، وقَوْمَ لُوطٍ، وفِرعَونَ، كُلُّ المُكذِّبينَ أهلكَهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ -ولله الحمْدُ- جعَلَ اللهُ هلاكَ عَدُوِّهَا عَلَى يَدِهَا، وذَلِكَ بالحُرُوبِ؛ لأَنَّ هلاكَ عَدُوِّك عَلَى يَدِكَ أَشْفَى للقَلْبِ مِنْ هَلاكِهِ

بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ولهَذَا كَانَ هلَاكُ المُكذِّبين للرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى أَيْدِيهِمْ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:١٤-١٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وُجُوبُ النَّظرِ والاعتِبَارِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ عَاقِبَةَ المُكذِّبينَ للرُّسلِ هِيَ الهَلَاكُ والدَّمارُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: هَـذِهِ الأُمَّةِ مِنْ تكذِيبِ رَسُـولِها أَنْ يُصيبَهُم مَا أَصَـابَ غَيرَهُمْ.

• ● ۞ ● •

الآيتان (٢٦، ٢٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧].

﴿ وَإِذْ ﴾ مَفعُولٌ لِفِعْلٍ محْذُوفٍ، التَّقدِيرُ: واذْكُرْ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ، وإِنَّما ذَكَرَ إِبْرَاهِيمَ لأَنَّ إِبْراهِيمَ تَنْتَمِي إِلَيْهِ جَمِيعُ الأُمَمِ، اليَهودُ قَالُوا: إِنَّهُ يَهودِيٌّ. والنَّصارَى قَالُوا: إِنَّه نَصرَانِيٌّ. والعَرَبُ قَالُوا: إِنَّهُم مُتَّبِعُون مِلَّتَه. فأَرَادَ اللهُ أَنْ يُبيِّن أَنَّ إِبْرَاهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كَانَ بَرِيئًا مِنَ الشِّرْكِ وأَهْلِهِ.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ التَّقدِيرُ: واذْكُرْ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ، إبرَاهِيمُ الخَلِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هُوَ إِمَامُ الحُنَفَاءِ الَّذِي قَالَ اللهُ تعَالَى فِيهِ لنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٣].

وكَانَ إبراهِيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كغَيرِهِ مِنَ الأنبِيَاءِ بُعِثَ إِلَى قَومِهِ خَاصَّةً، كَمَا قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي مِنْهَا: وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»(١).

وقولُه: ﴿لِأَبِيهِ﴾ وهُوَ آزَرُ ﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾ الَّذِين أُرسِلَ إِلَيْهِمْ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم (٥٢١)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وقَدْ ذَكَرَ اللهُ مُحاجَّةَ إبراهِيمَ لأَبِيهِ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ عَلَى وَجْهٍ مَبسُوطٍ، وفِي غَيرِهَا عَلَى وَجْهٍ مُختَصَرٍ أحيانًا، ومُتوسِّطٍ أحيانًا، فجَرَتْ مُحاورَةٌ بينَهُ وبَيْنَ أَبِيهِ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ فقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ إنْ دَعوتَهُ لَمْ يَسمَعْكَ، وإنْ وَافَقْتَهُ لَمْ يَرَكَ، وإنِ استَعَنْتَ بِهِ لَمْ يَنفَعْكَ، ولَا يُغنِي عنْكَ شَيْئًا ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم:٤١-٤٣].

والخِطَابُ الْآنَ مَبنيٌّ عَلَى التَّرقِيقِ، والتَّلطِيفِ، والتَّنزُّلِ أمَامَ الأَبِ؛ قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ولَمْ يَقُلْ: يَا أَبَتِي إنَّك جَاهِلٌ وأنَا عَالِمٌ، بَلْ قَالَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ وهَذَا مِنْ أَدَبِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقَد جَاءَهُ مِنَ العِلْمِ الوَحْيُ وأَبُوهُ لَيْسَ كذَلِكَ، جَاءَهُ مِنَ العِلْمِ التَّوحِيدُ وأَبُوه لَيْسَ كذَلِكَ.

فقَالَ: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ﴾ الولَدُ يَقُولُ لأَبِيهِ: (اتَّبِعْنِي)؛ لأَنَّ الابْنَ معَهُ حَقٌّ، والأَبُ لَيْسَ كذَلِكَ ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم:٤٣-٤٤] ﴿لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ يَعْنِي: عِبَادَةَ الطَّاعَةِ، وكُلُّ مَنْ أَطَاعَ شَيْئًا فقَدْ عبَدَهُ عَلَى حَسَبِ الحَالِ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ أَيْ: عَاصِيًا ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [مريم:٤٥]، أَيْ: يُصيبَكَ ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم:٤٥]، فجعَلَ وَلايَتَهُ للشَّيطَانِ مِنَ العذَابِ؛ لأَنَّ إعْرَاضَ الإنسَانِ عَنِ الحَقِّ مُصيبَةٌ ببعْضِ الذُّنُوبِ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩].

نحْنُ نظُنُّ أنَّ العُقوبَاتِ هِيَ البَلاءُ يَنْزِل بالإنسَانِ مِنْ مرَضٍ وفَقْرٍ، ومَا أَشْبَهَ

ذَلِكَ، وهَذَا -حَقًّا- عُقُوبةٌ، ولكِنْ هُناكَ عُقوبةٌ أشَدُّ وهِيَ الإعْرَاضُ عَنِ الحَقِّ ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ هَـذَا أعظَمُ مِنْ عُقُوبَةِ البَلَاءِ الحِسِّيِّ الجَسَدِيِّ؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم:٤٥] كَانَ جَـوَابُ الأَبِ جَوابًا قَـاسِيًا: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [مريم:٤٦]، أَنكَرَ علَيْـهِ الرَّغبَةَ.

ولهَذَا قَالَ أهْلُ البلَاغَةِ: الَّذِي يَلِي همْزَةَ الاستِفْـهَامِ هُوَ المُنكَر، يَعْنِي: لَمْ يقُلْ: يَا إبراهِيمُ أَرَاغِبٌ. بَلْ بَـدَأَ بالإنكَارِ عَلَى الطَّرِيقَةِ، قَالَ: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ وهَذَا استِفهَامُ إنكَارٍ وتَوبيخٍ.

ثُم قالَ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ يَعْنِي: عَنْ دعوَتِك إيَّايَ عَنِ التَّوحيدِ ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ وعيْدٌ يَقُولُه الأَبُ لابْنِهِ، وابْنُه يَترَقَّقُ لَهُ، ويَتحنَّن إلَيْهِ بقَولِهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ وهَذَا جَوابُ الأَبِ.

وهَذَا القَولُ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ قَالَهُ أيضًا غيرُهُ مِنَ المُكذِّبينَ للرُّسُلِ؛ فِرعَونُ قَالَ لمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩].

ثُم قالَ: ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم:٤٦]، يَعْنِي: اتْرُكْنِي ﴿مَلِيًّا﴾ أَيْ: زَمَنًا طَويلًا، يَعْنِي: يَقُولُ: دَعْنِي عَلَى مَا أَنَا علَيْهِ ولَا تُكلِّمْني، قَالَ: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم:٤٧] هذِهِ النِّهايَةُ مِنْ إبراهِيمَ، فَمَا أَحلَمَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ! ولهَذَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤]، قَالَ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧]، فاستَغْفَرَ لَهُ حتَّى نَهَاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا: أَنَّ أَبَا إبراهِيمَ كَانَ مُشرِكًا اسْمُه آزَرُ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام:٧٤]، العجَبُ أنَّ بعْضَ النَّاسِ

-نَسْأَلُ اللهَ العافيَةَ- حَرَّف كلَامَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا أَرَادَ اللهُ؛ بِنَاءً عَلَى هَوَاهُ، فقَالَ: أَبُو إبراهِيمَ لَيْسَ مُشرِكًا، بَلْ هُوَ عَلَى التَّوحِيدِ، ولَا يُمكِنُ أَنْ يَكُونَ أَبُو النَّبيِّ مُشرِكًا وآزَرُ هُوَ عمُّه ولَيْسَ أَبَاهُ، فانْظُرْ كَيْفَ الهَوَى! ومَنْ قَالَ فِي القُرآنِ برَأْيِهِ فلْيَتَبَوَّأْ مَقعَدَهُ مِنَ النَّارِ، فكَيْفَ نَقُولُ: لَيْسَ أباهُ، وهُوَ عمُّهُ، واللهُ يَقُولُ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ كيْفَ نَقُولُ: إنَّهُ عَمُّه. وهُوَ يقُولَ: يَا أَبَتِي؟!

أَمَا يَستَحِي قَائِلُ هَذَا القَوْلِ! أَمَا يَتَّقِي اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بتَحرِيفِ الكَلِمِ عَنْ مَواضِعِه؛ بِنَاءً عَلَى عقِيدَةٍ فاسِدَةٍ أنَّ أَبَا الرَّسُولِ لَا يُمكِن أَنْ يَكُون كَافرًا!

ونَقُولُ: سبْحَانَ اللهِ! تَأمَّلُوا كَوْنَ أَبِي الرَّسُولِ كَافِرًا وابْنُه نَبيٌّ -أعظَمُ دَلِيلٍ عَلَى قُدرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه يُخرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّت، وأنَّ النَّسبَ لَا يَنْفَعُ أصحَابَهُ.

واللهِ لَو قُلْنَا هَذَا لِعَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ المُسلِمِينَ: إنَّ آزَرَ عَمُّ إبراهِيمَ ولَيْسَ أَبَاهُ. لانْتُقِدْنا، بَلَ نَقُولُ: أَبُو إبراهِيمَ كَافِرٌ، وأَبُو مُحَمَّدٍ كَافرٌ، ومَاذَا يَضُرُّ النَّبيَّ ﷺ إذَا كَانَ أَبُوهُ كَافِرًا؟ لا يَضُرُّه شَيْئًا، بَلْ هَذَا أكبَرُ دَلِيلٍ عَلَى كَمَالِ قُدرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه يُخرِجُ الأنبيَاءَ مِنْ أصْلَاب هؤُلَاءِ الكُفَّارِ، لكِنْ -الحمِدُ لله- لَمْ يَخْرُجْ نبيٌّ أبَدًا مِنْ سِفَاحٍ.

أمَّا مَسأَلَةُ الكُفْر والإيمَانِ فهَذَا لَا يُعَدُّ انتِهَاكًا لأعْرَاضِ الأنبيَاءِ.

الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا أنَّ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لأَبِيهِ صَرَاحَةً وقَالَ لقَوْمِهِ: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ والجُملَةُ هذِهِ مُؤكَّدةٌ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ بـ(إنَّ)، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَرَآءٌ﴾ بَرِيءٌ] وهَذَا نَقْصٌ مِنَ المُفسِّر؛ لأنَّ (بَرَاءٌ) صِفَةٌ مُشبَّهة، وبَرِيءٌ اسْمُ فَاعِلٍ، والصِّفَةُ المُشبَّهة أَعظَمُ؛ لأنَّهَا تَدُلُّ عَلَى الدَّوامِ والثَّباتِ والاستِمْرَار، فـ(بَرَاءٌ) أعظَمُ مِنْ (بَرِيءٍ)، و(براءٌ) يَعْنِي: صِفَةُ البَرَاءَةِ، الصِّفةُ الدَّائِمَةُ الثَّابِتَةُ المُستمِرَّةُ، البَرَاءُ مِمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ.

وقَولُه: ﴿مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ أَيْ: مِنَ الَّذِي تَعبُدُونَهُ.

وقولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ والمُرادُ بالَّذِي يَعبُدُونَه: الأصنَامُ الَّتِي يَنحِتُونَها هُمْ بأيدِيهِمْ، ثُمَّ يَعبُدُونَها؛ ولهَذَا قَالَ لهُمْ إبراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جُملَةِ مُنَاظَرَاتِهِ: ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٥-٩٦]، فكَيْفَ تَعبُدُونَها وهِيَ مخلُوقَةٌ؟! كَيْفَ تَعبُدُونَها وأَنْتُمُ الَّذِين تَنحِتُونَها؟!

وقَولُهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾: ﴿إِلَّا﴾ أَدَاةُ استِثْنَاءٍ، لكِنْ هَلْ الاستثْنَاءُ هُنَا مُنقطِعٌ أَوْ هُوَ مُتَّصِلٌ؟

الجَوابُ: إِنْ كَانُوا يَعبُدُونَ اللهَ وغيرَهُ فالاستِثْنَاءُ مُتَّصِلٌ، وإِنْ كَانُوا لَا يَعبُدونَ اللهَ فالاستِثْنَاءُ مُنقطِعٌ، والاستِثْنَاءُ المُنقَطِعُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ مَا بعْدَ (إِلَّا) مِنْ غَيرِ جِنْسِ الَّذِي قبلَهَا، ومثَّلَ لَهُ النَّحويُّون بقَولِهِمْ: (جَاءَ القَومُ إِلَّا حمَارًا). والحمَارُ مِنْ غَيرِ جِنْسِ القَومِ، فيَكُون الاستِثْنَاءُ مُنقطِعًا، أَمَّا إِذَا قِيلَ: (جَاءَ القَومُ إِلَّا زيدًا). فالاستِثْنَاءُ هُنَا مُتَّصِلٌ؛ لأَنَّ زيدًا مِنْ جِنْسِ المُستثنَى مِنْهُ.

ونُطبِّقُ مَا هُنا عَلَى القَاعِدَةِ، فقَولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ إِنْ كَانُوا يَعبُدُونَ اللهَ وغَيرَهُ فالاستِثْنَاءُ هُنَا مُتَّصِلٌ، وإِنْ كَانُوا لَا يَعبُدُونَ اللهَ فالاستِثْنَاءُ مُنقطِعٌ.

وقَولُهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ لَمْ يَقُلْ: إِلَّا اللهُ. مِنْ أَجْلِ أَنْ يُقِيمَ الدَّليلَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَستحِقُّ العِبَادَةَ إِلَّا هُوَ، فالَّذِي فطَرَكَ أَوَّلَ مَرَّةٍ وأَوْجَدَكَ مِنَ العَدَمِ هُوَ الَّذِي يَستَحِقُّ أَنْ يُعبَدَ؛ لأَنَّهُ الَّذِي خَلَقَكَ، يَعْنِي: لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لِمَاذَا لَمْ يَقُلْ: إِلَّا اللهُ؟

فالجَوابُ: لِيُقِيمَ الحُجَّةَ عَلَى أَنَّه لَا يَنبَغِي أَنْ يُعبَدَ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وهَذَا كقَولِهِ تعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة:٢١]، ومَعلُومٌ أَنَّ الرَّبَّ خَالِقٌ،

لكِنَّهُ أَتَى بقَولِهِ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ وهُوَ معْلُومٌ؛ ليُقِيمَ الحُجَّةَ عَلَى أَنَّه المُستحِقُّ للعِبَادَةِ وَحْدَهُ.

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ خلَقَنِي ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ سَيُرشِدُني لِدِينِهِ] والهِدَايَةُ نَوعَانِ كَمَا سيَأتِي إِنْ شَاءَ اللهُ فِي بَيَانِ الفَوائِدِ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٢٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٨].

قَالَ تعَالَى: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: كلِمَةَ التَّوحِيدِ المَفهُومةَ مِنْ قَولِهِ: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٩]].

وقَولُهُ: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ الضَّميرُ يَعُودُ عَلَى الكلِمَةِ الَّتِي قَالَهَا.

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هِيَ قَولُهُ: [﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾]، وهَذَا غَلَطٌ مِنَ المفسِّر، فالكلِمَةُ الَّتِي قَالَهَا هِيَ أَقْرَبُ كلِمَةٍ وَهِيَ: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وهِيَ كَلِمَةُ التَّوحِيدِ، أمَّا قَولُهُ: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ فَلَا عَلَاقَةَ لَهُ فِي الْآيَة.

إِذَنْ: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ الضَّميرُ عَائِدٌ عَلَى الكلِمَةِ الَّتِي قَالَهَا، وهِيَ ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

ومعْنَى قَولِهِ: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: صيَّرها هِيَ الطَّرِيقَةَ الَّتِي يَسِيرُ عَلَيهَا مَنْ بَعدَهُ، ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ عَقِبَ إبراهِيمَ، قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: ذُرِّيَّتِهِ، فَلَا يَزَالُ فِيهِمْ مَنْ يُوحِّدُ اللهَ] هَكَذَا قَالَ المفسِّر أنَّ المَعْنَى: أنَّ هَذِهِ الكلِمَةَ ستَبْقَى فِي ذُرِّيَّتِهِ، ولَا يُمكِنُ أَنْ تُشرِكَ الذُّرِّيَّةُ كُلُّها، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَبْقَى، والصَّوابُ خِلَافُ هَذَا.

فالصَّوابُ: أنَّ المَعْنَى جَعْلُ هَذِهِ الكلمَةِ هِيَ الكلمَةَ الوَحيدَةَ الَّتِي يَسِيرُ عَلَيْهَا مَنْ بَعدَهُ، سَواءٌ الْتَزَمُوها أَمْ لَمْ يَلْتزِمُوهَا.

وقَولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أَيْ: أَهْلَ مكَّةَ] ولَوْ قِيلَ: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أيْ: عَقبِهِ؛ لأَنَّ الآيَاتِ لَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ أَهْلِ مَكَّةَ، فِيهَا العَقِبُ.

ومَعلُومٌ أنَّ أهلَ مكَّةَ مِنْ عَقبِهِ، وأنَّ بَنِي إسرَائِيلَ مِنْ عَقبِهِ، فإِذَا قُلْنا: إنَّ الضَّميرَ فِي ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يَعُودُ إِلَى ﴿عَقِبِهِۦ﴾ صَارَ أعَمَّ ممَّا قَالَ المفسِّر؛ لأَنَّه خصَّها بجُزْءٍ مِنَ العَقِبِ، وهَذَا قُصُورٌ بِلَا شَكٍّ؛ ولهَذَا اتَّخِذْ هذِهِ القَاعِدَةَ: (لَا تُفسِّر القُرآنَ بأَخَصَّ ممَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ)، بمَعْنَى: إِذَا كَانَ القُرآنُ يَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ عَامٍّ فَلَا تُخصِّصْه، إلَّا إِذَا كَانَ هُناكَ دَلِيلٌ، وإلَّا فأَبْقِه عَلَى عُمُومِهِ.

إذَنْ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى العَقِبِ مِنْ قُرَيشٍ وبَنِي إسرَائِيلَ.

لكِنْ مَا مَعْنَى ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً﴾؟

عَلَى كَلَامِ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَعْنِي: أنَّها ستَبْقَى هَذِهِ الكلمَةُ فِي العَقِبِ، فلَا يُمكِنُ أَنْ يُفقَدَ مِنْهُم التَّوحيدُ.

والصَّوابُ: أنَّ جَعْلَها جَعْلًا شَرْعيًّا، بمَعْنى أنَّهُ عَهِدَ إِلَى عَقبِهِ أَنْ يُوحِّدوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ فمِنْهُمْ مَنْ أَطَاعَ ومِنْهُم مَنْ عَصَى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: مزيَّة عظِيمَةٌ لإِبرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: وهِيَ إعْلَانُهُ البرَاءَةَ ممَّا يَعبُدُ قَومُهُ ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّوحِيدُ الخَالِصُ فِي إبرَاهِيمَ؛ لقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وهَذَا مَعْنَى قَولِي: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ). فـ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ﴾ بإِزَاءِ (لَا إِلَهَ)، و﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ بإِزَاءِ (إِلَّا اللهُ)، إِذَنْ هَذِهِ الكَلِمَةُ ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ بمَعْنَى: لَا إِلَه إِلَّا اللهُ. تَمَامًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي للإِنسَانِ أَنْ يَقْرِنَ الحُكْمَ بالدَّلِيلِ؛ لأَنَّهُ أَبلَغُ، ذَلِكَ حِينَ قَالَ إِبرَاهِيمُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: قُوَّةُ الرَّجَاءِ -أَيْ: رَجَاءِ إِبرَاهِيمَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ-؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ والسِّينُ هَذِهِ تَدُلُّ عَلَى التَّحقِيقِ.

والهِدَايَةُ نَوْعَانِ:

النَّوعُ الأَوَّلُ: هِدَايَةُ الدَّلالَةِ بمَعْنى الدَّلالَة عَلَى الحَقِّ، وهَذِهِ تَكُونُ مِنَ اللهِ، ومِنْ عِبَادِ اللهِ.

النَّوعُ الثَّانِي: هدَايَةُ التَّوفِيقِ للحَقِّ، وهَذِهِ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَا أَحَدَ يَملِكُها، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَهدِينا وإِيَّاكُمْ.

ثُمَّ الآيَاتُ الوَارِدَةُ فِي هَـذَا: مِنْهَا مَا يَتعيَّنُ حَمْلُهُ عَلَى هِدَايَةِ التَّوفيقِ، ومِنْـهَا مَا يَتعيَّنُ حمْلُهُ عَلَى هِدَايَةِ الدَّلالَةِ، ومِنْهَا مَا يَشْمَلُ الأمرَينِ، فالآيَاتُ الوَارِدَةُ فِي الهِدَايَةِ، فقَـوْلُ المُصلِّي: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] يَشْمَلُ الأمرَينِ: هِدَايَةَ الدَّلالَةِ وهِيَ العِلْمُ، وهدَايَةَ التَّوفِيقِ وهِيَ العَمَلُ، فهَلْ أَنْتَ أَيُّها المُصلِّي تَشْعُرُ بهَذَا إِذَا قُلْتَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أو تَشْعُرُ بأَنَّكَ تَتْلُو القُرآنَ فَقَطْ؟

الثَّانِي غَالبًا، فأكثَرُ النَّاسِ يَقُولُ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يَقْرَؤُها عَلَى أَنَّها

آيَةٌ تُقْرَأُ، لَا يَشْعُر بأَنَّ المَعْنَى اهْدِني: عَلِّمْني ووفِّقْني للعَمَلِ، لَا يَشْعُرُ بهَذَا، لكِنِ استَشْعِرْ هَذَا الشَّيءَ حتَّى تَعْرِفَ عَلَى أيِّ شَيْءٍ تُؤمِنُ.

مِثَالُ هِدَايةِ الدَّلالَةِ وَحْدها: قَولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لنَبيِّه مُحَمَّد: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢] هَـذِهِ هدَايَةُ دَلَالَـةٍ يَعْنِي: تَدُلُّ النَّـاسَ إِلَى الصِّرَاطِ المُستَقِيمِ.

ومثَـالُ هدَايَةِ التَّوفِيقِ قَـولُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]، يَقُولُ للرَّسُولِ ﷺ يَعْنِي: لَنْ تُوفِّقَ أحَدًا لِهدَايَةٍ ولَوْ كُنْتَ تُحِبُّه؛ ولهَذَا حَاوَلَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ حَضَرَ عمَّه أبَا طَالِبٍ وهُوَ فِي سِيَاقِ المَوْتِ، حَاوَلَ أَنْ يُوحِّدَ اللهَ ولَكِنْ عَجَزَ، قَالَ فِي سِياقِ المَوْتِ: «**يَا عَمِّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. كلَمِةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**» وكَانَ عِنْدَهُ رَجُلَانِ مِنْ قُرَيشٍ جَلِيسَا سُوْءٍ، فقَالَا لأَبِي طَالِبٍ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ.

يَعْنِي: جَدَّه الَّذِي تَفتَخِرُ بِهِ قرَيشٌ، فكَانَ آخِرُ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّة عبْدِ المُطَّلِبِ[1]. وأَبَى أَنْ يقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

فالهِدَايَةُ الَّتِي عجَزَ عنْهَا النَّبيُّ ﷺ هِيَ هِدَايَةُ التَّوفِيقِ، أمَّا هِدَايَةُ الدَّلالَةِ فقَد قَالَ: «**قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**».

وقَوْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧] مِنْ هِدَايَةِ الدَّلالَةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، رقم (٤٧٧٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، رقم (٢٤)، من حديث المسيب بن حزن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقَـولُهُ تعَالَى: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٨٧] يَشْمَـلُ الأَمْرَينِ جَمِيعًا.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ للإنسَانِ أَنْ يَدْعُـوَ فيَقُولُ: «يَارَبِّ اهْدِنِي هِدَايَةَ التَّوفِيقِ». يُعيِّنُ هِدَايَةً مُعيَّنَةً؟

فالجَوابُ: لَا، يَقُولُ: اللَّهُمَّ اهْدِني. ويَنْوِي الهِدَايتَينِ، أَوْ يَقُولُ: اللَّهُمَّ عَلِّمْنِي ووفِّقنِي للعَمَلِ الصَّالِحِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَمَامُ نُصْحِ إبرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لعَقبِهِ؛ حيْثُ جعَلَ كلِمَةَ التَّوحِيدِ بَاقِيَةً فِيهِ، وهَذَا بمَنْزِلَةِ الوَصيَّة للعَقِبِ أَنْ يَقُومُوا بهَذِهِ الوصيَّةِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الرُّجوعُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الأَسْلَافُ مِنَ الحَقِّ؛ لقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

الآيــة (٢٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف:٢٩].

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿بَلْ﴾ هذِهِ للإِضْرَابِ، إِضْرَابُ انتِقَالٍ؛ لبَيَانِ مِنَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى قُرَيْشٍ.

قَالَ المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المُشرِكين]، أَيْ: أَبقَيْتُهم [﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ ولَمْ أُعاجِلْهُمْ بالعُقُوبَةِ] بَلْ أَبقَاهُمْ بدُونِ عُقُوبةٍ مَعَ شِرْكِهم وكُفْرِهِمْ، واتِّخاذِ أصنامٍ كاللَّاتِ والعُزَّى وهُبَل ومَنَاةَ. ﴿حَتَّىٰ﴾ للغَايَةِ يَعْنِي: إِلَى أَنْ ﴿جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ يَقُولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القُرآنُ] والصَّوابُ مَا هُوَ أَعَمُّ: القُرآنُ، والإِسْلَامُ، والسُّنَّةُ. فهُوَ أَعَمُّ مِمَّا قَالَهُ المُفسِّر.

ونحْنُ نقُولُ بالقَاعِدَةِ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا قَبْلَ قَلِيلٍ، وهِيَ إِبقَاءُ القُرآنِ عَلَى عُمُومِهِ فلا نُخَصِّصُه؛ فنَقُولُ: ﴿جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أَيِ: الَّذِي أَتَى بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ القُرآنِ والسُّنَّةِ وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الشَّرِيعَةِ.

قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ مُظهِرُ عِلْمِ الأحكَامِ الشَّرعيَّةِ، وهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ].

﴿وَرَسُولٌ﴾ نكَّرهُ للعِلْمِ بِهِ، ونكَّرَهُ للتَّعظِيم، وقَولُهُ: ﴿مُّبِينٌ﴾ أَيْ: مُظهِرٌ للأحكَامِ الشَّرعيَّة والأَمْرِ كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَانُ أَنَّ اللهَ بِيَدِهِ كُلُّ شَيْءٍ؛ إِنْ شَاءَ مَتَّعَ النَّاسَ وأَبقَاهُمْ، وإِنْ شَاءَ أهلَكَهُم؛ لقَولِهِ: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فالتَّمتِيعُ عَائِدٌ إِلَيْهِ وَحْدَهُ.

وأفعَالُ اللهِ لَيْسَ لَهَا حَصْرٌ، فالَّذِي مَتَّعهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وكُلُّ مَا فِي الكَوْنِ فهُوَ مِنْ فِعْلِ اللهِ فَلَا حَصْرَ لَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَهُ الحِكْمَةُ فِي إِبقَاءِ الكَافِرِ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، وإِلَّا لأَهْلَكَهُ، لكِنْ لَهُ الحِكْمَةُ، ومِنَ الحِكْمَةِ أَنْ يَأْتِيَ حقٌّ فيُؤمِنُ بِهِ، فيَسعَدُ فِي الدُّنيا والآخِرَةِ، ومِنَ الحِكْمَةِ فِي بقَاءِ الكُفَّارِ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ امتِحَانٌ للمُؤمِنينَ مَعَ هؤُلَاءِ الكُفَّارِ، بجِهَادِ الكُفَّارِ، وظُهُورِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى المُسلِمِينَ بالإِسْلَامِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ فهُوَ حَقٌّ، إِنْ كَانَ أَخْبَارًا فهِيَ صِدْقٌ، وإِنْ كَانَتْ أَحْكَامًا فهِيَ عَدْلٌ، ولَيْسَ فِيمَا جَاءَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ بَاطِلٌ، كُلُّه حَقٌّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رَسُولُ اللهِ حقًّا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بيَّن كُلَّ مَا تَحتَاجُهُ أُمَّتُه إِلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ فتَفْعَلُه، ومِنْ شَرٍّ فتَترُكُه، قَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لقَدْ تُوفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَا مِنْ طَائِرٍ يُقلِّب جَنَاحَيْهِ فِي السَّماءِ إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا[1].

وإِذَا شِئْتَ مِصدَاقَ هَذَا القَوْلِ فانْظُرْ: الشَّرِيعَةُ الإِسْلامِيَّةُ جاءَتْ بتَقْرِيرِ التَّوحِيدِ، وهَذَا أعظَمُ مَا يَكُونُ، جَاءَتْ ببَيَانِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ والحَجِّ والصِّيامِ، جَاءَتْ بآدَابِ الأَكْلِ والشُّربِ، جاءَتْ بآدَابِ التَّخلِّي منْهُما -مِنَ الأَكْلِ والشُّربِ-

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٥٣).

جاءَتْ بآدَابِ اللِّباسِ، حتَّى لُبْسُ الثَّوبِ جاءَتِ الشَّريعَةُ بِهِ؛ تُدخِلُ الكُمَّ الأيمَنَ قَبْلَ الأيْسَرِ، وتَخْلَعُ الأيسَرَ قَبْلَ الأيمَنِ، جاءَتْ بآدَابِ مُعامَلَةِ النَّاسِ بعضِهُم مَعَ بَعْضٍ.

كلُّ شَيْءٍ دَقِيقٍ أوْ جلِيلٍ فالشَّريعَةُ جاءَتْ ببيَانِهِ -ولله الحَمْدُ- لكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَضِلُّ، ويَهتَدِي مَنْ يَهتَدِي.

الآيــة (٣٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف:٣٠].

نَسْأَلُ اللهَ العَافيَةَ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ ويَعْنُون بِهِ القُرآنَ؛ لأَنَّ القُرآنَ أبْينُ الكَلَامِ وأفصَحُ الكَلَامِ، وقَدْ قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا**»(١)؛ ولهَذَا كَانَتْ قُريشٌ تَأتِي خُفيَةً فِي اللَّيلِ لتَستَمِعَ قِرَاءَةَ النَّبيِّ ﷺ، أخَذَ بأَلْبَابِهَا وجَرَّها جرًّا عَنِيفًا إِلَى استِمَاعِهِ فقَالُوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ سَحَرَنا مُحَمَّدٌ، محمَّدٌ سَاحِرٌ، كَاهِنٌ، مَجنُونٌ ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

نَسأَلُ اللهَ العَافيَةَ! فأكَّدُوا أنَّهُم كَافِرُون بِهِ؛ لأَنَّه -عَلَى زَعمِهِمْ- سِحْرٌ، وإِذَا كَانَ القُرآنُ سِحْرًا فالَّذِي جَاءَ بِهِ يَكُونُ سَاحِرًا؛ ولهَذَا لقَّبُوا النَّبيَّ ﷺ بألقَابِ السُّوءِ؛ حتَّى يَنْفِرَ النَّاسُ مِنْ دَعوَتِهِ، ولكِنْ -والحمْدُ للهِ- كُلَّما أَحْدَثُوا شَرًّا أَحْدَثَ اللهُ خَيْرًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: شِدَّةُ عِنَادِ المُكذِّبينَ للرَّسُولِ ﷺ؛ حيْثُ زَعَمُوا أنَّ مَا جَاءَ بِهِ سِحْرٌ مَعَ أنَّهُ حقٌّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٥١٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: شِدَّةُ عِنَادِهِم؛ حيْثُ أَعلَنُوا إعْلَانًا صَرِيحًا أَنَّهُم كَافِرُون بِهِ ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

• • ۞ • •

الآيــة (٣١)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١].

قَالُوا أيضًا لَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا﴾ قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هَلَّا] ﴿نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾: ﴿لَوْلَا﴾ بمَعْنَى: هَلَّا، ولَهَا أمثِلَةٌ: مِثْلُ قَولِهِ: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور:١٣] أَيْ: هَلَّا جَاؤُوا عليْهِ بأَرْبَعَةِ شُهدَاءَ.

وقَولُه: ﴿نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ هذِهِ عِلَّة أُخرَى لرَدِّهم القُرآنَ، يَقُولُون: لَوْ كَانَ هَذَا القُرآنُ نَزَلَ عَلَى رَجُلٍ عظِيمٍ مِنَ القَريتَينِ، وهُمَا مَكَّةُ والطَّائِفُ. يَعْنِي: لكُنَّا قَبِلْنَاهُ، لكِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ عَلَى رَجُلٍ عظِيمٍ مِنَ القَريتَينِ فَلَا نَقْبَلُهُ، -سُبْحَانَ اللهِ- مَا أعظَمَ عِنَادَهم! إنَّ محمَّدًا ﷺ هُوَ أعظَمُ رَجُلٍ فِي قُريشٍ، إنْ نظَرْتَ إِلَى سِلسِلَةِ آبَائِهِ وجَدْتَ الأَمْرَ كذَلِكَ، وإِذَا نظَرْتَ إِلَى خُلُقِهِ ومُعَامَلَتِهِ وَجَدْتَ الأَمْرَ كذَلِكَ، حتَّى كَانُوا يُلقِّبُونَه بالأَمِينِ، ولَمَّا جَاءَ الحَقُّ صَارَ كذَّابًا، صَارَ سَاحِرًا، صَارَ مَجنُونًا، صَارَ كاهِنًا.

إذَنْ: تَعلَّلوا الْآنَ بعِلَّة ثَانيَةٍ -غَيْر أنَّ القُرآنَ سِحْرٌ-، وهِيَ أنَّهُم قَالُوا: لَوْ أنَّ القُرآنَ نَزَلَ عَلَى رَجُلٍ عظِيمٍ مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ، أَوْ أَهْلِ مَكَّةَ لقَبِلْنَاهُ، ولكِنْ نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ، ولَيْسَ عظِيمًا فِي قَومِهِ، فَلَا نَقْبلُهُ.

يقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ أَيْ: مِنْ أَيَّة مِنْهُما] إمَّا مَكَّةَ، وإمَّا الطَّائفِ. ﴿عَظِيمٍ﴾ أَيْ: مُعظَّم فِي قَوْمِهِ، ثُمَّ سمَّاهُمُ: [الوَليدُ بْنُ المغيرَةِ بمَكَّةَ، أَوْ عُروَةُ بْنُ مسعُودٍ الثَّقَفيُّ بالطَّائفِ] وهَذَا التَّعيينُ يَحتَاجُ إِلَى دَليلٍ، فإِذَا صَحَّ -مِنْ حَيْثُ التَّاريخُ- أنَّ أهْلَ مَكَّةَ يَعْنُون هَذَينِ الرَّجُلينِ فَلَا غَرَابَةَ، وإلَّا فتَبْقَى الْآيَةُ عَلَى إبهَامِهَا، وأنَّهُم تَعَلَّلُوا بهَذِهِ العِلَلِ البَاطلَةِ، بأَنَّ القُرآنَ لَمْ يَنْزِلْ عَلَى رَجُلٍ عظِيمٍ مِنَ القَريتَينِ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٣٢)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف:٣٢].

قَولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ الاستِفْهَامُ هُنَا للإنْكَارِ. يَعْنِي: هَلْ هُمُ الَّذِين يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ اللهِ، فيَجْعَلُونَ لهَذَا حظًّا ولهَذَا حظًّا، أَوْ يَقُولُونَ: هَذَا لَا يَستَحِقُّ وهَذَا يَستَحِقُّ. ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ قَالَ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالنُّبوَّةِ] وهَذَا أيضًا مِمَّا يُؤخَذُ عَلَى المُفسِّرُ، لأَنَّهُ خصَّهُ بالنُّبوَّةِ، ونحْنُ نَقُولُ: بالنُّبوَّةِ وغيرِهَا. هُـمْ لَا يَقْسِمُونَ رحمَةَ اللهِ لَا بالنُّبوَّةِ ولَا بالقُوَّة، ولَا بالأكْلِ ولَا بالشُّربِ، ولَا غَـيْرِ ذَلِكَ.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: الْآيَةُ هَذِهِ ﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ مَذكُورَةٌ فِي سِيَاق قولِه تَعالَى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ وهُنا خَصَّ النُّبوَّة بأَنْ تَكُونَ بأَحَدِ الرَّجُلينِ؟

فالجَوابُ: نَقُولُ: نَعَم السِّياقُ فِي النُّبوَّة، لكِنْ إذَا كَانَ عَامًّا دخَلَتْ فِيهِ النُّبوَّةُ؛ ولهَذَا قَالَ الأُصوليُّون: العِبْرَةُ بعُمُومِ اللَّفظِ لَا بخُصُوصِ السَّببِ، والسِّياقُ لَا يَكُونُ دَلِيلًا؛ لأَنَّهُ لَوْ قُلْنا: إنَّهُ عَامٌّ لَمْ يَخْرُجْ مَا دَلَّ عَلَيْهِ السِّياقُ، أمَّا إذَا كَانَ يَخرُجُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ السِّياقُ فمَعْلُومٌ أنَّهُ لَا يَصِحُّ.

وعَلَى هَذَا نَقُولُ: المُرادُ برَحْمَةِ اللهِ مَا هُوَ أعَمُّ مِنَ النُّبوَّةِ. يَعْنِي: النُّبوَّةَ، وسَعَةَ الرِّزقِ، والأمْنَ، وكثْرَةَ الأولَادِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فهُمْ لَا يَقْسِمُونَ هَذَا.

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهَذَا دَلِيلٌ حِسِّيٌّ لَا يُمكِنُ إنكَارُه. يَعْنِي: إنْ كَانُوا صَادِقِينَ هُمُ الَّذِين يَقْسِمُون رَحْمَةَ اللهِ فلْيَنظُرُوا ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ: قدَّرْنَاهَا هَذَا غَنيٌّ، وهَذَا فقِيرٌ، وهَذَا مُتوسِّطٌ، هَذَا قَادِرٌ، وهَذَا عَاجِزٌ، وقُريشٌ لَا تُنْكِرُ هَذَا؛ لأَنَّهُ شَيْءٌ معلُومٌ مَلمُوسٌ مَحسُوسٌ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فجَعَلْنا بعضَهُم غنِيًّا، وبعْضَهُم فقِيرًا، وهَذَا مِثَالٌ، وإلَّا فنَقُولُ: وجعَلْنا بعضَهُم ضَعِيفًا وبعضَهُم قَوِيًّا، وبعضَهُم قَادِرًا وبعضَهُم عَاجِزًا.

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فجَعَلْنا بعضَهُم غَنيًّا، وبعضَهُم فقِيرًا ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ﴾ بالغِنَى ﴿فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾].

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالغِنَى] ولكِنْ هَذَا أيضًا مِنَ القُصُورِ، **والصَّوابُ**: أنَّهُ رَفَعَ بعضَهُم فَوْقَ بعْضٍ درجَاتٍ فِي الغِنَى، والعِلْمِ، والعَقْلِ، والخُلُقِ، وغَيْرِ ذَلِكَ. رَفَعَ اللهُ بعْضَ النَّاسِ عَلَى بعْضٍ درجَاتٍ. أَيْ: درَجَاتٍ واسِعَةً.

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم﴾ الغَنيُّ ﴿بَعْضًا﴾ الفَقِيرَ ﴿سُخْرِيًّا﴾ مُسخَّرًا فِي العَمَلِ لهُمْ بالأُجرَةِ، والياءُ للنَّسَبِ، وقُرِئَ بكَسْرِ السِّينِ].

رَفَعَ اللهُ تعالى بعضَهُم فَوْقَ بعْضٍ درجَاتٍ ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ يَقُولُ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَعْضُهُم﴾ الأغْنِيَاءُ ﴿بَعْضًا﴾ الفُقَرَاءَ] هَذَا قَاصِرٌ؛ لأَنَّ المُرادَ

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ حتَّى فِي غَيْرِ الغِنَى، حتَّى فِي الذَّكاءِ، حتَّى فِي الصِّناعَةِ، فتَجِدُ رَجُلًا مَثَلًا عنْدَهُ خِبرَةٌ فِي الصِّناعَةِ يَأتِي بالعُمَّالِ هُوَ فوقَهُم، كذَلِكَ فِي الذَّكاءِ يَجْلِسُ مَعَ قَومٍ ويَتحَدَّثُ إليْهِمْ بذَكائِهِ المُفرِطِ، وهُمْ دُونَ ذَلِكَ، فيَرفَعُهُمُ اللهُ.

المُهِمُّ: أنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ نُخصِّصَ عُمُومَ القُرآنِ إِلَّا بدَلِيلٍ.

وقَولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [اليَاءُ للنَّسَبِ] أَيْ: لنَسَبِ التَّسخِيرِ.

وقَولُهُ: [قُرِئَ بكَسْرِ السِّينِ] المُفسِّر لَهُ اصطِلَاحٌ لَا بُدَّ أَنْ نَفهَمَهُ، إِذَا قَالَ: (وفِي قِرَاءَةٍ) فهِيَ سَبْعيَّةٌ، وإِذَا قَالَ: (قُرِئَ) فهِيَ شَاذَّة؛ هَذَا اصطِلَاحُهُ، فهُنَا يَقُولُ: [قُرِئَ بكَسْرِ السِّينِ]، فتكُونُ القِرَاءَةُ شَاذَّةً خَارِجَةً عَنِ القِرَاءَاتِ السَّبْعِ، وهَذَا هُوَ الصَّوابُ أنَّها قِرَاءَةٌ شَاذَّةٌ؛ لأنَّ السِّينَ بالكَسْرِ الاستِهْزَاءِ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [ص:٦٣]، فقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أَيْ: هُزُءًا.

وأمَّا بالضَّمِّ (سُخْرِيًّا) فهُوَ مِنَ التَّسخِيرِ، يَعْنِي: التَّذلِيلِ؛ إذَنِ: المُناسِبُ هُنَا الضَّمُّ؛ لأنَّهُ مِنَ التَّسخِيرِ لَوْلَا اختِلَافُ النَّاسِ هَذَا الاختِلَافَ لتَعطَّلَتِ المَصَالِحُ، فلَوْ كَانُوا كُلُّهم أغنيَاءَ فَلَا أحَدَ يَقُومُ بالعَمَلِ؛ لأنَّهُ إِذَا طُلِبَ مِنْهُ أَنْ يَعْمَلَ قَالَ لَهُ: إِذَا كَانَ عِنْدَكَ أَلْفُ رِيَالٍ أَنَا عِنْدِي أَلفانِ. وكذَلِكَ أيضًا بَقِيَّةُ الأوْصَافِ لَولَا هَذَا الاختِلَافُ مَا قَامَتِ الدُّنيَا أَبَدًا، وهَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ هُنَاكَ حِكْمَةٌ أُخْرَى وهِيَ أَنْ يُعرَفَ بهَذَا قُدْرَةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حيْثُ جَعَلَ هَذَا البَشَرَ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ وبقُوَّةٍ وَاحِدَةٍ، ومَعَ ذَلِكَ يَتَفَاضَلُون تَفاضُلًا كَبِيرًا فِيمَا أَعطَاهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الغِنَى وغَيرِهِ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: القَاعِدَةُ العِبرَةُ بعُمُومِ اللَّفظِ لَا بخُصُوصِ السَّبَبِ، الْآيَة: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ لِمَاذَا لَا يَحتَمِلُ المَعنَيَيْنِ السُّخرية، وأيضًا التَّسخِيرَ؟

فالجَوابُ: أنَّ هَذا لَا يَستَقِيمُ؛ لأَنَّ اختِلَافَ الطَّبَقَاتِ لَيْسَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَستَهزِئَ بعضُهُمْ ببعْضٍ، لكِنْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُسخِّر بعضُهُمْ بعْضًا فِي العَمَلِ، ولَا يُمكِنُ أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بحِكْمَتِهِ يَجْعَلُ طبَقَاتٍ مُختَلِفَةً مِنْ أَجْلِ أَنْ يَستَهزِئَ بعضُهُم ببعْضٍ.

قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: الجَنَّةُ ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فِي الدُّنيَا].

قَولُهُ: [﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي: الجَنَّة] فِيهِ أيضًا شَيْءٌ مِنَ القُصُورِ، الرَّحمَةُ تُطلَقُ عَلَى الجَنَّةِ بِلَا شَكٍّ كَمَا قَالَ اللهُ تعَالَى لَهَا يُخَاطِبُها: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مِنْ أَشاءُ»[1]، وقَالَ تعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٦-١٠٧] يَعْنِي: الجَنَّة، لكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ: رَحمَةُ اللهِ أعَمُّ مِنْ هَذَا، حتَّى رحمَةُ اللهِ تَعَالَى للعَبْدِ بِهِدَايتِهِ للإِسلَامِ والإِيمَانِ خَيْرٌ ممَّا يَجْمَعُونَ، فالأَوْلَى التَّعمِيمُ دُونَ التَّخصِيصِ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَولُ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أَيْ: أَنَّه الجَنَّةُ، هَلْ هَذَا مِنْ تَأوِيلِهِ؟

فالجَوابُ: لَا، بل مِنَ التَّقصِيرِ فِي التَّفسِيرِ، لَيْسَ تَأوِيلًا؛ لأَنَّ الجَنَّةَ رَحمَةٌ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وذكَرْنَا أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَالَ للجَنَّةِ: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»(١)، لكِنْ كَوْنُه قَصَرهَا عِلَى وَاحِدٍ مِنَ الرَّحمَةِ فهَذَا قُصُورٌ.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: مُجَادَلَةُ المُشرِكِينَ بالبَاطِلِ؛ لقَوْلِهِمْ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ قُرَيشًا تَعرِفُ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أحقُّ النَّاسِ بالرِّسَالَةِ لَوْ صَدَّقُوا بِهَا؛ لأَنَّهُ مِنْ خِيرَةِ العَرَبِ نَسَبًا، ولأَنَّهُ الأَمِينُ الصَّادِقُ، وهُمْ يُسمُّونَهُ الأمِينَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأتِيَ بالرِّسَالَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ القَرِيَةَ تُطلَقُ عَلَى المُدُنِ الكَبِيرَةِ، بَلْ عَلَى أُمِّ المُدُنِ؛ لقَولِهِ: ﴿مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾؛ ولقَولِهِ تعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد:١٣]، قَريتُهُ الَّتِي أَخْرَجَتْهُ هِيَ مَكَّةُ، فِي عُرْفِنَا الآنَ تُطلَقُ القَرِيَةُ عَلَى المدِينَةِ الصَّغِيرَةِ، ولَوْ أَنَّكَ قُلْتَ لأَهْلِ المدِينَةِ الكَبِيرَةِ: أَنْتُم أَهْلُ القَرِيَةِ. لاشْتَاطُوا غَضَبًا، ولكِنْ يُقَالُ: القُرآنُ بينَنَا، القَرِيَةُ تُطلَقُ حتَّى عَلَى المدِينَةِ الكَبِيرَةِ؛ لأَنَّها مَأخُوذَةٌ مِنَ القَرْيِ، وهُوَ الاجتِمَاعُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إنكَارُ اللهِ علَيْهِمْ، وبيَانُ أَنَّهُم لَيسُوا الَّذِين يَقسِمُون رحمَةَ اللهِ؛ لقَولِهِ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إقَامَةُ الدَّلِيلِ الَّذِي لَا انفِكَاكَ عَنْهُ بأَنَّهُم لَا يَستَطِيعُونَ قَسْمَ رَحمَةِ اللهِ، يُؤخَذُ مِنْ قَولِهِ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ فهَذَا لَا يُمكِنُهم إنكَارُهُ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

هُمْ يَعْرِفُونَ أنَّ فِيهِمُ الغَنِيَّ والفَقِيرَ، والقَوِيَّ والضَّعيفَ، والذَّكيَّ والبَلِيدَ، والعَاقِلَ والسَّفيهَ، هُمْ يَعْرِفُون هَذَا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الحِكْمَةُ فِي أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ جعَلَ النَّاسَ عَلَى درَجَاتٍ؛ لقَولِهِ: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبَاتُ التَّعليلِ والحِكْمَةُ لأفعَالِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أَيْ: أنَّهُ عَزَّوَجَلَّ يَفْعَلُ لِحِكْمَةٍ -لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِحِكْمَةٍ- لقَولِهِ: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾؛ لأَنَّ اللَّامَ هُنَا للتَّعلِيلِ.

وتَعْلِيلُ أحكَامِ اللهِ الكونيَّةِ مَوجُودٌ بكَثْرَةٍ فِي القُرآنِ، والأحكَامُ الشَّرعيَّةُ كالإيجَابِ والتَّحرِيمِ والإباحَةِ مُعلَّلَةٌ، فكُلُّ حُكْمٍ مِنْ أحكَامِ اللهِ الكونيَّةِ أَوِ الشَّرعيَّةِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حِكْمَةٍ.

ولكِنْ هُنَا سُؤَالٌ: هَلْ هَذِهِ الحِكَمُ معلُومَةٌ للخَلْقِ أَوْ لَيْسَتْ معلُومَةً؟

فالجَوابُ: مِنْهَا مَا هُوَ مَعْلُومٌ، ومنْهَا مَا لَيْسَ بمَعلُومٍ؛ لأَنَّ عُقُولَنا قَاصِرَةٌ مهْمَا بلَغْنَا مِنَ العَقْلِ فهُوَ قَاصِرٌ، إِذَنْ خُذْ هَذِهِ الفَائِدَةَ: جَمِيعُ أحْكَامِ اللهِ الكَونيَّةِ والشَّرعيَّةِ مُعَلَّلَةٌ بحِكْمَةٍ، لكِنْ مِنَ الحِكَمِ مَا نَعْلَمُهُ ومِنْهَا مَا لَا نَعْلَمُه، هكَذَا يَجِبُ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أيُّهمَا أبْلَغُ فِي التَّعبُّدِ أَنْ يَعبُدَ اللهَ وهُوَ لَا يَعْرِفُ الحِكْمَةَ، أَوْ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ وَهُوَ يَعرِفُ الحِكْمَةَ؟

فالجَوابُ: أمَّا مِنْ جِهَةِ التَّذلُّلِ المُطلَقِ فتَعبُّدُ الإنسَانِ بشَيْءٍ لَا يَعرِفُ حِكْمَتَهُ أبلَغُ مِنْ تَعبُّدِهِ بشَيْءٍ يَعرِفُ حِكْمَتَهُ؛ لأَنَّهُ إِذَا تَعبَّدَ بشَيْءٍ يَعرِفُ حِكْمَتَهُ فإِنَّهُ قَدْ يَتعبَّد للهِ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الحِكمَةِ، لكِنْ إِذَا لَمْ يَعرِفِ الحِكْمَةَ صَارَ أبلَغَ للتَّذلُّلِ، كَأَنَّهُ

يَقُولُ: سأَعبُدُ اللهَ سَواءٌ عَرَفْتُ الحِكْمَةَ مِنْ هَذَا أَوْ لَا.

مثَالُ ذَلِكَ: رَمْيُ الجمَرَاتِ فِي الحَجِّ، يَأتِي الإنسَانُ بحَصًى مُعيَّنةٍ، ويَرمِيها فِي مَكَانٍ مُعيَّن، بينَما لَوْ أَتَى بأضْعَافِ تِلْكَ الحَصَى بعْدَ عشَرَةِ أيَّامٍ ورَمَى فِي هَذَا المكَانِ؛ لعُدَّ هَذَا عبَثًا، فَمَا الحِكْمَةُ؟

الجَوابُ:

أولًا: الحِكْمَةُ أنَّ ذَلِكَ لإقَامَةِ ذِكْرِ اللهِ؛ ولهَذَا كُلَّما رَمَى الإنسَانُ قَالَ: اللهُ أكبَرُ.

ثَانيًا: أَنْ يَظْهَرَ بذَلِكَ أثَرُ التَّعبُّد المُطلَقُ، حيْثُ يَفعَلُ الإنسَانُ هَذَا الفِعْلَ دُونَ أَنْ يَعْرِفَ الغَايَةَ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ التَّحدِيدِ، وأمثَالُ هَذَا كثِيرٌ، ولهَذَا أَطْلَقَ الفُقَهَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَلَى الأحْكَامِ الَّتِي لَا تُعلَمُ حِكْمَتُهَا اسْمَ تَعبُّديَّة، أَوْ هَذَا تَعبُّدٌ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لأَنَّهُ ليْسَ الغَرَضُ مِنْهُ إلَّا إقَامَةَ العِبَادَةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: جوَازُ استِخْدَامِ العُمَّال، تُؤْخَذُ مِنْ قَولِهِ تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الحِكْمَةُ العظِيمَةُ فِي هَذَا -أَيْ: فِي التَّفاوُتِ- لأَنَّهُ لَوْلَا هَذَا التَّفاوُتُ مَا عُرِف قَدْرُ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى الغَنِيِّ بالغِنَى، وعَلَى العَاقِلِ بالعَقْلِ، وعَلَى القَويِّ بالقُوَّة، وهكَذَا، لَولَا الجُنُونُ مَا عُرِفَ قَدْرُ قِيمَةِ العَقْلِ، ولَوْلَا المَرَضُ مَا عُرِف قَدْرُ قِيمَةِ الصِّحَّةِ، إذَنْ هَذَا مِنَ الحِكْمَةِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ رَحمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومِنْهَا الجَنَّة ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أَيْ: مِنْ كُلِّ مَا يَجمَعُونَ؛ لأَنَّهُ الغَايَةُ الَّتِي يَسعَى إلَيْهَا كُلُّ مُؤمِنٍ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَسْعَى إلَيْهَا كُلُّ عَاقِلٍ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الإِشَارَةُ إِلَى خُطُورَةِ الجَمْعِ -أَيْ: جَمْعِ الأَموَالِ- وأَنَّ ذَلِكَ قَدْ يُنسِي الآخِرَةَ، وهُوَ كذَلِكَ، فجمعُ الأموَالِ يُنسِي الآخِرَةَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّي؛ ولهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا فَتَنَافَسُوْهَا كَمَا تَنَافَسَهَا مَنْ قَبْلَكُمْ، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»(١).

وهَذَا هُوَ الوَاقِعُ، فالدُّنيَا والدِّينُ فِي الغَالِبِ لَا يَجْتَمِعَانِ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ، وكَمْ مِنْ إِنسَانٍ كَانَ فَقِيرًا مُستَقِيمًا عَلَى دِينِ اللهِ فأَغْنَاهُ اللهُ فصَارَ غِنَاهُ سَبَبًا لطُغيَانِهِ واستِغْنَائِهِ عَنْ رَبِّه، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦-٧].

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم (٦٤٢٥)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦١)، من حديث عمرو بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٣٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف:٣٣].

﴿وَلَوْلَآ﴾ هذِهِ حَرْفٌ فِيهَا شَرْطٌ: (لَوْلَا كَذَا لكَانَ كَذَا)، فَهِي حَرْفُ امتِنَاعٍ لِوُجُودٍ ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا﴾ لكِنِ امتَنَعَ الجَعْلُ لئلَّا يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً.

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا﴾ عَلَى الكُفْرِ] بدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾.

﴿لَّجَعَلْنَا﴾ أَيْ: صَيَّرنا ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وهُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بدَلٌ مِنْ ﴿لِمَن﴾] بدَلُ اشتِمَالٍ ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾، والبَدَلُ هُوَ المقْصُودُ بالحُكْم، فيكُونُ المعْنَى: لجعَلْنا لبُيوتِ مَنْ يَكْفُرُ بالرَّحمَنِ.

وقَولُه تعالى: ﴿سُقُفًا﴾ قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بفَتْحِ السِّينِ وسُكُونِ القَافِ، وبِضَمِّهما جمعًا] بفَتْحِ السِّينِ وسُكونِ القَافِ. أَيْ: سَقْفًا، مُفرَدٌ، وبضَمِّها جمْعًا ﴿سُقُفًا﴾، المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ بهَذَا وهَذَا، فهَلْ يَعْنِي: ذَلِكَ أَنَّهُم قِرَاءَتَانِ؟

فالجَوابُ: نعَمْ هُمَا قِراءَتَانِ سَبْعيَّتَان؛ لأَنَّهُ لَمْ يُفضِّلْ أحدَهُما عَلَى الآخَرِ فهُمَا

صَحِيحَانِ، وهَـذَا أيضًا مِنْ أُسلُوبِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أَنَّهُ إِذَا قَـالَ بِكَذَا وكَذَا فهُمَا قِرَاءَتَـانِ سَبْعِيَّتَانِ.

إِذَنْ: يَجُوزُ أَنْ تُقرَأَ: «لبُيُوتِهم سَقْفًا مِنْ فِضَّةٍ» أَوْ ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾.

وقَولُه تعالى: ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ وهِيَ مَعرُوفَةٌ.

وقَولُه تعالى: ﴿وَمَعَارِجَ﴾ قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كالدَّرَجِ مِنْ فِضَّةٍ] أيضًا ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَعْلُونَ إِلَى السَّطْحِ].

الآيــة (٣٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ [الزخرف:٣٤].

وقَولُه تعـالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ أَيْ: وجعَـلْنا لبُيوتِهِمْ أيضًا ﴿أَبْوَابًا﴾ يَعْنِي: مِنْ فِضَّةٍ، ﴿وَ﴾ جَعَلْنا لهُمْ (سُرُرًا) يَعْنِي: مِنْ فِضَّة جمْعُ سَرِيرٍ ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ أَيْ: يَعتَمِدُونَ ﴿وَزُخْرُفًا﴾ ذَهَبًا.

استَمِعْ لهَـذَا التَّصويرِ يَعْنِي: لَوْلَا أَنْ يَكفُرَ النَّاسُ جميعًا لجعَـلْنا للكَافِرِ هَذِهِ البُيُوتَ، ﴿سُقُفًا مِّن فِضَّـةٍ﴾، سُقُـفًا مِنْ فِضَّة يَعْنِي: بدَل مَا يَكُونُ السَّقْـفُ مِنْ خَشَبٍ أَوْ مِنْ صَبَّاتِ أَسمَنْتٍ يَكُونُ مِنْ فِـضَّة، والمُرادُ فِضَّةٌ لامِعَةٌ تَجْـذِبُ النَّظَرَ، وتَسُرُّ العَيْنَ ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ قِيلَ: إنَّها الدَّرَجُ؟

وقَالَ بعْضُ المُتأخِّرينَ: إنَّها المصَاعِدُ الكهربَائيَّةُ الَّتِي تُسمَّى (أَسَانْسِير، ولِفْت، ومَصْعَد)، ومَا أَشْبَـهَ ذَلِكَ؛ لأَنَّ الدَّرَجَ العادِيَّةَ لَا تَلـفِتُ النَّظَرَ كَثِيرًا؛ ولهَـذَا قَالَ: ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أَيْ: يَعْلُون حتَّى يَصِلُوا إِلَى السَّقْفِ، وأَيًّا كَانَ هَذَا أَوْ هَذَا، فإِنَّها درَجٌ غَريبَةٌ لَيْسَتْ كالدَّرجِ المُعتَادِ.

والثَّالِثُ ﴿أَبْوَابًا﴾ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: [مِنْ فِضَّة] بِنَـاءً عَلَى مَا ذُكِرَ فِي أَوَّلِ الآيَة ﴿سُقُفًا مِّن فِضَّـةٍ﴾ ولكِنَّ هَـذَا لَيْسَ بمُتعيِّنٍ، بَلْ نَقُولُ: أبْوابًا فخْمَةً لَيْسَتْ كالمُعتَادِ، سوَاءٌ مِنْ فِضَّة، أَوْ مِنْ حَدِيدٍ، أَوْ مِنْ خَشَبٍ، المُهمُّ أنَّها أبْوابٌ غَيْرُ مُعْتَادَةٍ.

﴿وَسُرُرًا﴾ جمْعُ سَرِيرٍ، وهُوَ مَا يُجلَسُ عَلَيْهِ.

﴿عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ أيضًا مَعَ السُّرُر مُتَّكَأً يُتَّكأُ عَلَيْـهِ. أَيْ: يُعتَـمَدُ، سَوَاءٌ مِنْ خَلْفِ الظَّهرِ، أَوْ مِنَ اليَمِينِ، أَوْ مِنَ الشِّمالِ، وهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ كثرَةِ الإرْفَاهِ.

الآيــة (٣٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٣٥].

قَالَ تعَالَى: ﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ هَذَا الذَّهَبُ، فهِيَ ﴿سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ أبْوابٌ فَخمَةٌ ﴿وَسُرُرًا ﴾ مُريحَةٌ ﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ يَعْنِي: ذهَبًا، خمسَةُ أشيَاءَ. قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المَعْنَى: لَوْلَا خَوْفُ الكُفْرِ عَلَى المُؤمِنِ مِنْ إعطَاءِ الكَافِرِ مَا ذُكِر لأَعْطَيْنَاهُ ذَلِكَ؛ لِقِلَّةِ خَطَرِ الدُّنيا عنْدَنا، وعَدَمِ حَظِّهِ فِي الآخِرَةِ فِي النَّعيمِ].

ووجْهُ ذَلِكَ أنَّ النُّفُوسَ مَيَّالَةٌ إلَى اللَّهْوِ واللَّعِبِ والتَّرَفِ، فإذَا رَأَى الإنسَانُ هَذَا التَّرَفَ للكَافِرِ؛ فإنَّ ذَلِكَ يُغرِيهِ ويَضُرُّهُ، كَمَا يُفعَلُ الْآنَ -بالنِّسبَةِ للمُنصِّرِينَ ضُلَّال النَّصارَى-، يَمشُونَ إلَى الأقَالِيمِ الفَقِيرَةِ ويُزيِّنُون لهُمُ الدُّنيَا، وهؤُلَاءِ الفقَرَاءُ يَتَّبِعُونَهم؛ لأَنَّ النُّفُوسَ مجبُولَةٌ عَلَى محبَّةِ المَالِ، والفَخْرِ والخُيَلَاءِ.

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾.

يَقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(إنْ) مُخفَّفةٌ مِنَ الثَّقيلَةِ] الثَّقيلَةُ: المُشدَّدةُ، والمُخفَّفةُ: مَا حُذِفَ تَشدِيدُها. [﴿كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا ﴾ فَـ(مَا) زَائِدَةٌ، والتَّشدِيدُ بمَعْنَى (إلَّا)]، أَيْ: فِيهِمَا قِرَاءَتَانِ: لَمَا ولَمَّا، [فَـ(إنْ) نَافيَةٌ] خَلَطَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الْآنَ (إنْ) إعرَابُها عَلَى أنَّها مُخفَّفةٌ مِنَ الثَّقيلَةِ، فهِيَ مُؤكِّدَةٌ، ثُمَّ قَالَ فِي الأَخِيرِ: فَـ(إنْ) نَافِيَةٌ.

وفَرْقٌ بَيْنَ الإثْبَاتِ والنَّفيِ، لكنَّ هَـذَا يَنْبَنِي عَلَى (لَمَا) إنْ قُرِئَتْ بالتَّخْـفِيفِ فَـ(إنْ) مُخَفَّفةٌ مِنَ الثَّقيلَةِ، وإنْ قُرِئَتْ بالتَّشدِيدِ فَـ(إنْ) نَافِيَةٌ؛ فصَارَ اختِلَافُ الإعرَابِ فِي (إنْ) مَبنيًّا عَلَى اختِـلَافِ القِرَاءَةِ فِي (لَمَا) فعَلَى قِرَاءَةِ التَّشـدِيد تَكُونُ (إنْ) نَافِيَةً، وَ(لَمَا) بمَعْنَى (إلَّا).

وشَاهِدُ هَذَا قَولُهُ تعَالَى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤] أَيْ: مَا كُلُّ نَفْسٍ إلَّا عَلَيْهَا حَـافِظٌ، وأمَّا إذَا قُرِئَتْ (لَمَا) بالتَّخفِيفِ فَـ(إنْ) مُخَفَّفةٌ مِنَ الثَّقيلَةِ، وتَكُونُ (مَا) زَائِدَةً، ويَكُونُ التَّقدِيرُ: وإنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمتَاعُ الحيَاةِ الدُّنيَا. لأَنَّ (مَا) زَائِدَةٌ.

إذَنْ ﴿لَمَّا﴾ فِيهَا قِرَاءَتَانِ الأُولَى التَّشـدِيدُ، وبِنَاءً عَلَى هَذِهِ القِرَاءَةِ تَكُونُ (إنْ) نَافِيَـةً و﴿لَمَّا﴾ بمَعْنَى (إلَّا)، والشَّاهِـدُ لهَذَا قَولُهُ تعَـالَى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤]، أَيْ: مَا كُلُّ نَفْسٍ إلَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ.

القِرَاءَةُ الثَّـانيَةُ «لمَا» بالتَّخفِيفِ، وعَلَى هَـذِهِ القِرَاءَةِ تَكُونُ (إنْ) مُخَفَّفةً مِنَ الثَّقيلَةِ بمَعْنَى (إنَّ) وتَكُونُ (لَمَا) زَائِدَةً ويَكُونُ تَقدِيرُ الكَلَامِ: إنْ كُلُّ ذَلِكَ لمتَاعُ الحيَاةِ الدُّنيَا. المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ دَمَجَ القِرَاءَتَينِ، ولكِنَّ هَذَا هُوَ التَّفصِيلُ.

قَـالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يُتمَتَّعُ بِهِ فِيـهَا -الدُّنيَا- ثُـمَّ يَزُولُ ﴿وَٱلْأَخِرَةُ﴾ الجَنَّة ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾].

﴿وَٱلْأَخِرَةُ﴾ لَوْ قِيـلَ: كُلُّ الآخِرَة الجَنَّـة وعَرَصَاتُ القِيـامَةِ وسَلامَتُهم مِنْ شِدَّةِ هَولِ القِيامَةِ؛ لَو قِيل ذَلِكَ لكَانَ أعَمَّ، فصَارَتِ الدُّنيا للكُفَّارِ مهْمَا أُعطُوا فإنَّهُ نَعيمُهُم، الآخِرَةُ للمُتَّقِينَ، جعَلَنِي اللهُ وإيَّاكُمْ مِنْهُم.

واعْلَمْ أنَّ هَذِهِ الدُّنيا سِجْنُ المُؤمِنِ وجَنَّةُ الكَافِرِ، مَهْمَا بلَغَتْ مِنَ النَّعِيمِ فإنَّها

سجْنُ المُؤمِنِ، ومَهْما بلَغَتْ مِنَ الجَحِيمِ فإنَّها جَنَّةُ الكَافِرِ.

هذِهِ القِصَّةُ ذكَرَها العُلَماءُ فِي تَرجَمَة ابْنِ حَجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَكَانَ ابْنُ حَجَرٍ قَاضِيَ القُضاةِ فِي مِصْرَ، فمَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ بَيتِهِ إِلَى مَقَرِّ عَمَلِهِ عَلَى العرَبَةِ، تَجُرُّها الخُيولُ، أَوْ البِغَالِ فِي مَرْكَبٍ، مَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ برَجُلٍ يَهودِيٍّ زَيَّاتٍ -يَعْنِي: يَبِيعُ الزَّيتَ- فاستَوْقَفَ اليَهودِيُّ قَاضِيَ القُضاةِ، وقَالَ لَهُ: إِنَّ نَبِيَّكُم يَقُولُ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**»(١) كَيْفَ يَتَّفِقُ هَذَا مَعَ حَالِي وَحَالِكَ، أَنْتَ الْآنَ فِي نَعِيمٍ تَجُرُّكَ الخُيولُ، ولَكَ جَاهٌ وشَرَفٌ ومَنزِلَةٌ، وهُوَ اليَهوديُّ بهَذَا الذُّلِّ؛ ثِيَابٌ وَسِخَةٌ وتَعَبٌ، فكَيْفَ هَذَا؟!

قَالَ: نَعَمْ، مَا أَنَا فِيهِ الْآنَ بالنِّسبَةِ لنَعِيمِ الجنَّة سِجْنٌ؛ لأَنَّ نعِيمَ الجَنَّةِ أعْلَى وأعظَمُ مِنْ هَذَا، أمَّا بالنِّسبَةِ لَكَ فأنْتَ فِي جَنَّةٍ بالنِّسبَةِ لعَذَابِ النَّارِ؛ لأَنَّكَ إِنْ مِتَّ عَلَى اليَهودِيَّةِ فأَنْتَ فِي النَّارِ، ويُعتبَر مَا فِيهِ اليَهودِيُّ الْآنَ: جَنَّةً، لأنَّ هذا اليَهودِيَّ فِيمَا يَبْدُو لِي -وَاللهُ أعلَمُ- أنَّهُ يَنشُدَ الحَقِيقَةَ، يُرِيدُ الحَقِيقَةَ، فلمَّا بيَّن لَهُ ابْنُ حَجَرٍ هَذَا قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ(٢).

سُبْحَانَ اللهِ! فالإنسَانُ العَاقِلُ الَّذِي يُرِيدُ الحَقِيقَةَ لَا بُدَّ أَنْ يَهتَدِيَ.

المُهِمُّ: يقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لَمَّا ذَكَرَ هَذِهِ الأشيَاءَ: ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ قَالَ: مَا هَذَا إِلَّا متَاعُ الحيَاةِ الدُّنيَا.

انْظُرْ: مَتَاعٌ كَالمتَاعِ يَحمِلُهُ المُسافِرُ ﴿وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ الدُّنيَا مَهْمَا طَالَتْ بالإنْسَانِ، فَلَا بُدَّ مِنَ الزَّوالِ، إمَّا أَنْ تَزُولَ الدُّنيَا عَنْهُ، وإمَّا أَنْ يَزُولَ هُوَ عَنِ الدُّنيَا؛ ولهَذَا قَالَ الشَّاعِرُ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكر هذه القصة المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير (٣/ ٥٤٦).

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً لَذَّاتُـهُ بِادِّكَـارِ المَـوْتِ وَالهَـرَمِ[١]

صَحِيحٌ أَنَّ الإِنسَانَ إِذَا تَذكَّر أَيْنَ مَآلُهُ، إِمَّا مَوْتٌ مُبكِّر، وإِمَّا هَرَم مُخرِف، الْآنَ يُوجَـدُ الَّذِين بلَغُوا عُمْرًا طَويلًا، ووَصَلُوا إِلَى حَدِّ الهَرَمَةِ، هُمْ بأنفُسِهم مُتضَايِقُون وأهلُوهُم مُتضَايِقُون، تَجِدُ الإِنسَانَ يَتَضَايَقُ مِنْ أَبِيهِ وأُمِّهِ، وإِنْ كَانَ المُؤمِنُ يَصْبِرُ لكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يَتَضَايَقَ، أَوْ مَوْتٌ عَاجِلٌ ويَنتَهِي المَوضُوعُ.

هَـذَا حَالُ الدُّنيَا فِي الوَاقِعِ، ولذَلِكَ الغَنِيمَةَ الغَنِيمَةَ، بَادِرِ العُمرَ قَبْـلَ فَواتِهِ، اعْمَلْ صَالِحًا، وطَلَبُ العِلْمِ مِنْ أَفْضَلِ الأَعمَالِ، لكِنْ بشَرْطِ أَنْ يَكُونَ العَالِمُ عَامِلًا، أَمَّا عِلْمٌ بلَا عَمَلٍ فالجَهْلُ -واللهِ- خَيْرٌ مِنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ هذِهِ المُتعَةَ الدُّنيويَّةَ مَا هِيَ إِلَّا مَتَاعُ الحيَاةِ الدُّنيا فهِيَ زائِلَةٌ.

ويَتفَرَّعُ عَلَى هـذِهِ الفائِدَةِ: أَنْ لَا يَتعَلَّق الإِنسَـانُ بهَا، وأَنْ لَا يَهتَـمَّ بِهَا، وأَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ عَائِشٌ بدُونِهَا ولَيْسَ لَكَ مِنَ الدُّنيا إِلَّا مَا أَكَلْتَ فأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقت فأَمْضَيْتَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّزهِيدُ فِي هذِهِ الأُمُورِ، وأَنْ لَا تَهتَمَّ بِهَا، لَا تُعلِّقْ قَلْبَكَ بمَظَاهِرِ الدُّنيَا، فإِنَّك إِنْ فعَلْتَ هَلَكْتَ؛ ولهَذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَأَى مِنَ الدُّنيا مَا يُعجِبُه قَالَ: «**لَبَّيْكَ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَة**»[٢]، لَبَّيكَ يَعْنِي: إِجَابَةً لَكَ؛

---

(١) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٣٩)، شرح ابن عقيل (١/ ٢٧٤)، همع الهوامع (١/ ٤٢٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب دعاء النَّبيِّ ﷺ: أصلح الأنصار والمهاجرة، رقم (٣٧٩٥)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٨٠٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لِيَصرِفَ قلْبَه عمَّا يُعجِبُه ممَّا رَآهُ فِي الدُّنيا، ثُمَّ وَطَّن النَّفْسَ وَقَالَ: «**إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَة**» واللهِ هَذَا هَوَ الحَقُّ.

أمَّا عَيْشُ الدُّنيا فإِنَّه مهْمَا طَابَ لَكَ مَحْفُوفٌ بنكَدٍ قَبْلَهُ ونَكَدٍ بعْدَه؛ لأَنَّكَ لَنْ تُحصِّلَه غَالِبًا إلَّا بتعَبٍ، ثُمَّ إِذَا حصَّلتَه هَلْ سيَبْقَى لَكَ هَذَا أَوْ لَا يَبْقَى؟ هَلْ ستَبْقَى لَهُ أَوْ لَا تَبْقَى؟ ولَا بُدَّ مِنْ أحَدِ الأمرْينِ: إمَّا تَمُوتُ وتَتْرُكُه، وإمَّا أَنْ يَهلِكَ وأنْتَ حيٌّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: البُشرَى للمُتَّقِينَ، وأنَّ لهُمُ الآخِرَةَ، فالآخِرَةُ خَيْرٌ للمُتَّقينَ، ففِيهِ البِشَارَةُ وأنَّ الإنسَانَ المُتَّقِيَ إِذَا انتَقَلَ مِنَ الدُّنيا فلَا يَنْدَمُ؛ لأَنَّه انتَقَلَ إِلَى دَارٍ أحسَنَ وأفضَلَ ممَّا فَارَقَهُم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الحَثُّ عَلَى التَّقوَى، وذَلِكَ لأنَّ ذِكْرَ الجزَاءِ والثَّوابِ يَستَثِيرُ النَّفسَ حتَّى يَصِلَ الإنسَانُ إِلَى الوَصْفِ الَّذِي يَحصُلُ بِهِ عَلَى الثَّوابِ.

• ● ۞ ● •

الآيات (٣٦-٣٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٨].

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لَمَّا ذكَرَ أحْوَالَ الدُّنيا، وأنَّهُ لَولَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَى الكُفْرِ لمتَّعَ الكُفَّار بِمَا سمِعْتُم، وهذِهِ الدُّنيا لَا بُدَّ أَنْ تَحمِلَ الإنسَانَ عَلَى الإعْرَاضِ عَنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ قَالَ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾.

قَولُهُ: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ فسَّرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ بـ[يُعرِضُ]، ولكِنَّ التَّفسِيرَ المُطَابِقَ أَنَّ مَعْنَى: ﴿يَعْشُ﴾ أَيْ: يَتَعَامَى حتَّى يَرَى رُؤيَةَ الأعْشَى الَّذِي يُبصِرُ فِي النَّهارِ ولَا يُبْصِرُ فِي اللَّيلِ، فمَعْنَى: ﴿يَعْشُ﴾ أَيْ: يَتَعَامَى كَمَا فَسَّرَهَا بذَلِكَ ابْنُ كَثِيرٍ وغَيرُهُ مِنَ المُفسِّرينَ، ولكِنَّ المُفسِّرَ فسَّرَها بـ[يُعرِضُ]؛ لأَنَّهُ مِنْ لازِمِ التَّعامِي الإعرَاضُ.

قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أَيِ: القُرآنِ] فجعَلَ المُفسِّرُ ذِكْرَ الرَّحمنِ يَعْنِي: القُرآنَ، وأَضَافَهُ إِلَى الرَّحمَنِ؛ لأَنَّ إنزَالَهُ رحمَةٌ للخَلْقِ، هكَذَا مَشَى المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والصَّوابُ: خِلَافُ ذَلِكَ، والمُرادُ بـ﴿ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تَذَكُّر الرَّحمنِ، يَعْنِي: مَنْ

تَعَامَى عَنْ ذِكْرِ الرَّحمَنِ فِي قَلبِهِ واستِحْضَارِهِ لعظَمَةِ رَبِّه وجلَالِهِ؛ فإِنَّه يُقيِّضُ لَهُ الشَّيطانَ، فيَكُونُ هَذَا جَزاءً عَلَى إعرَاضِهِ وتَعَامِيهِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ، وهَذَا كقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن:١٧].

فالصَّوابُ أنَّ المُرادَ بذِكْرِ الرَّحمَنِ لَيْسَ القُرآنَ، بَلِ المُرادُ بذِكْرِ الرَّحمَنِ ذِكْرُ اللهِ نفسِهِ. يَعْنِي: يَغْفُلُ قَلبُهُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ، ولَا يَذكُرُ اللهَ بقَلْبِهِ، فهَذَا هُوَ الَّذِي يُقيَّض لَهُ الشَّيطانُ فيَتَّبِعُ هَوَاهُ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: قَولُهُ: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ هَلْ هَذَا يَكُونُ بالتَّقصِيرِ فِي أُمُورِ الطَّاعاتِ أَوِ انتِهَاكِ المُحرَّماتِ؟

فالجَوابُ: لَا، الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى مَسأَلَةٍ قَلبيَّةٍ ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ يَتَعَامَى. فإِذَا صَلَحَ القَلْبُ صَلَحَتِ الجَوارِحُ.

وقَولُهُ: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نُسبِّبُ لَهُ] وهَذَا قَرِيبٌ مِنَ المعْنَى المُطابِقِ، وإلَّا فإِنَّ مَعْنَى ﴿نُقَيِّضْ﴾ أَيْ: نُهيِّئ لَهُ شَيْطَانًا يَحُلُّ محَلَّ ذِكْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيَستَوْلِي الشَّيطانُ عَلَى قَلْبِهِ، والشَّيطانُ يَأمُرُ بالفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٨].

﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾: ﴿فَهُوَ﴾ أَيِ: الشَّيْطانَ ﴿لَهُۥ﴾ أَيِ: للعَاشِي عَنْ ذِكْرِ اللهِ ﴿قَرِينٌ﴾ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَا يُفارِقُه]، نَعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ.

ووجْهُ ذَلِكَ: أنَّ الإنسَانَ فعَّالٌ مُريدٌ مُتحرِّكٌ قلبًا وقالَبًا، فلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَشتَغِلَ

بشَيْءٍ، فإِمَّا أَنْ يَكُونَ بذِكْرِ اللهِ، وإِمَّا أَنْ يَكُونَ بوَسَاوِسِ الشَّيطانِ، ولَا بُدَّ، لَا تَجِدُ أَحَدًا قلبُهُ ساكِنٌ لَا يَتحرَّكُ ولَا يُرِيدُ، هَذَا مُستحِيلٌ.

ولهَذَا جاءَ فِي الحَدِيثِ فِي الأَسْمَاءِ: «**أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّامٌ**»[1] هَمَّامٌ الإرادَةُ القلبِيَّةُ، والحَارِثُ العَمَلُ، كُلُّ إنسَانٍ هكَذَا لَا بُدَّ. فيُهيِّئُ اللهُ لَهُ هَذَا الشَّيطانَ الَّذِي يُقارِنُهُ ولَا يُفارِقُهُ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: بالنِّسبَةِ لقُرنَاءِ السُّوءِ، إِذَا كَانَ هُنَاكَ إنسَانٌ مُنحَرِفٌ يَظُنُّ الإنسَانُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مَعَهُ رُبَّما يَدْعُوهُ، هَلْ يُصاحِبُه أَوْ يُصادِقُه؟

فالجَوابُ: ليْسَ هَذَا صحيحًا، بَلْ يَجْلِسُ معَهُ للدَّعوةِ للحَقِّ ويُفارِقُه؛ لأَنَّهُ لَا بُدَّ إِذَا لازَمَهُ أَنْ يَتأَثَّر، ولَا نَدْرِي هَلْ يُؤثِّرُ المُستقِيمُ عَلَى المُنحَرِفِ، أَوِ المُنْحَرِفُ عَلَى المُستقِيمِ.

والمُشَاهَدُ الآنَ فِي الغَالِبِ أَنَّ المُنحرِفَ هُوَ الَّذِي يُؤثِّرُ عَلَى المُستَقِيمِ، هَذَا لَا نَعْلَمُه، فأَنْتَ لَا تُقارِنُه، تَأْتِي تَزورُهُ أَوْ تَدْعُوه إِلَى بيْتِكَ فَقَطْ. أَمَّا أَنْ تُلازِمَهُ وتَجعَلَهُ صَاحِبًا لَكَ فأَنْتَ عَلَى خَطَرٍ عظِيمٍ، والإنسَانُ تُسوِّل نفسُهُ أَنَّهُ إِذَا صَاحبَهُ كَانَ سَبَبًا فِي إقَامَتِهِ، ويَكُونُ الأَمْرُ بالعَكْسِ مِثْلَ المرْأَةِ يَخْطِبُها إنسَانٌ مُنحَرِفٌ، وتَرْغَبُ أَنْ تَتَزَوَّجَهُ، وتَقُولُ فِي نفْسِهَا، أَوْ يَقُولُ وَلِيُّها: يَهْدِيهِ اللهُ. لعَلَّ اللهَ يَهدِيهِ إِذَا تَزوَّجَ، ويَكُونُ الأَمْرُ بالعَكْسِ، هذِهِ المَرأَةُ المُستقِيمَةُ تَكُونُ مُنحَرِفَةً بوَاسِطَةِ هَذَا الزَّوجِ.

والوَاجِبُ عَلَى الإنسَانِ إِذَا كَانَ لَهُ أَخٌ مُستقِيمٌ ثُمَّ انحَرَفَ -مِنْ ناحِيَةِ نُصحِهِ أو تَركِهِ بالكُلِّيَّةِ- لأَنَّ الانحِرَافَ ينَصَبُّ عَلَى المعَاصِي وعَلَى الدُّنيَا؛ الواجِبُ أَنْ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٣٤٥)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، رقم (٤٩٥٠)، من حديث أبي وهب الجشمي.

يَدْعُوه، فالنَّبيُّ ﷺ أَلَمْ يَدْعُ عَشِيرتَهُ الأقرَبِينَ، فلِمَاذَا لَا يَدْعُوهُ؟!

وقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أَيِ: الشَّياطِينَ ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أيِ: العَاشِينَ ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أَيْ: طَرِيقِ الهُدَى ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾].

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أيِ: العَاشُونَ الَّذِين صَدَّتْهُمُ الشَّياطِينُ ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي الجَمْعِ رِعَايَةُ مَعْنَى (مَنْ)].

الشَّيْطانُ -نَعُوذُ باللهِ مِنْهُ- إِذَا استَوْلَى عَلَى قَلْبِ الإنسَانِ زيَّن لَهُ سُوءَ عمَلِهِ، وظَنَّ أَنَّهُ عَلَى حَقٍّ، ولكِنَّهُ عَلَى بَاطِلٍ، وهؤُلاءِ هُمْ أَخْسَرُ النَّاسِ أعْمالًا، كَمَا قَالَ تعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ [الكهف:١٠٣]، الجَوابُ بيَّنَهُ اللهُ، قَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤]؛ لأَنَّ الشَّيْطانَ زَيَّن لهُمْ هَذَا، وقَالَ: أَنْتُمْ عَلَى حَقٍّ، أَنْتُمُ الأعْلَونَ. وسَوَّل لهُمْ، وأَمْلَى لهُمْ، حتَّى تَبِعُوه.

ولهَذَا قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أيِ: الشَّياطينَ ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أيِ: العَاشِينَ ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أَيْ: سَبِيلِ الحَقِّ وطَرِيقِ الهُدَى].

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ الوَاوُ تَعُودُ عَلَى العَاشِينَ ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أَيِ: العَاشِينَ ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ أَيْ: عَلَى هُدًى، وهَذَا غَايَةُ مَا يَكُونُ مِنَ الخُسْرَانِ -والعِيَاذُ باللهِ- أَنْ يَتَمَادَى الإنسَانُ بالبَاطِلِ، وهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ عَلَى حَقٍّ.

قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي الجَمْعِ رعَايةُ معْنَى (مَنْ)] الجَمْعُ هُوَ قَولُهُ: ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ ففِيهَا رِعَايَةُ مَعْنَى (مَنْ) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ كَلِمَةُ (مَنْ) وَ(مَا)، ومَا أَشبَهَهُما مِنَ الأَلفَاظِ العَامَّةِ، يَجُوزُ مُراعَاةُ مَعْنَاهَا ومُراعَاةُ لفْظِهَا،

فاللَّفْظُ مُفرَدٌ ﴿وَمَن يَعْشُ﴾؛ ولذَلِكَ عَادَ الضَّمِيرُ إلَيْهِ بالمُفرَدِ ﴿وَمَن يَعْشُ﴾، ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ﴾ أيضًا مُراعَاةُ اللَّفظِ ﴿فَهُوَ لَهُۥ﴾ مُراعَاةُ اللَّفظِ، ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ مُرَاعَاةُ المَعْنَى ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ كذَلِكَ مُراعَاةُ المَعْنَى.

إذَنْ: إذَا أَتَتْكَ (مَنْ) مَوصُولَةً كَانَتْ أَوْ شَرطيَّةً فلَكَ أَنْ تُرَاعِيَ فِي ضَمِيرِهَا اللَّفظَ فتَجعَلَه مُفرَدًا، والمَعْنَى فتَجْعَلَهُ حَسبَ مَا أُرِيدَ بِهَا، وانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الطلاق:١١]، كُلُّ هَذَا مُرَاعَاةُ اللَّفظِ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ مُرَاعَاةُ المَعْنَى ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ مُراعَاةُ اللَّفظِ، فتَجِدُ هَذِهِ الآيَاتِ تَارَةً رُوعِيَ اللَّفظُ، وتَارَةً رُوعِي المَعْنَى.

قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ العَاشِي بقَرِينِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴿قَالَ﴾ لَهُ: (يَا) للتَّنبِيهِ ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أَيْ: مِثْلَ بُعْد مَا بَيْنَ المَشرِقِ والمَغْرِبِ ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أَنْتَ لِي].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ يَعْنِي: الشَّيطانَ وقَرِينَهُ، وذَلِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ تَبرَّأ كلُّ وَاحِدٍ مِنَ الآخَرِ ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ (يَا) هَذِهِ للتَّنبيه، ولَا تَصِحُّ أَنْ تَكُونَ للنِّداءِ؛ لأَنَّ (يَا) الَّتِي للنِّداءِ لَا تَدْخُلُ إلَّا عَلَى اسْمٍ، لَا تَدْخُلُ عَلَى حَرْفٍ كَمَا هُنَا، ولَا عَلَى فِعْلٍ، فإِذَا وُجِدَتْ داخِلَةً عَلَى حَرْفٍ أَوْ فِعْلٍ فهِيَ للتَّنبيهِ ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾ ومِثْلُ ذَلِكَ قَولُهُ تعَالَى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٢٦] فهِيَ للتَّنبِيهِ.

وقِيلَ: إنَّ (يَا) داخِلَةٌ عَلَى مُنادًى محذُوفٍ، والتَّقدِيرُ فِي هَذِهِ الآيَةِ: يَا هَذَا لَيْتَ بَيْنِي وبيْنَكَ بُعْدَ المَشرِقَينِ. يعْنِي: تُقدِّر المُنادَى اسْمًا: يَا هَذَا لَيْتَ بَيْنِي وبيْنَكَ بُعْدَ المَشرِقَينِ.

فإذا قال قائلٌ: أيُّهما أَوْلَى نُقدِّر منادًى مُناسِبًا للسِّياقِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَصِحَّ حُلولُ (يَا) فِي هَذَا المكَانِ، أَوْ نَقُولُ: الأَصْلُ عَدَمُ التَّقدِيرِ. ونَجْعَلُ اليَاءَ للتَّنبيهِ؟

فالجَوابُ: الثَّانِي أَوْلَى؛ لأَنَّهُ إِذَا دَارَ الأمْرُ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ فِي الكلَامِ شَيْءٌ مَحذُوفٌ أَوْ لَا، فالأَوْلَى أَنْ لَا يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ مَحذُوفٌ.

وقَولُهُ: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ يَقُولُ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَا بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ]، وعَلَيْهِ فيَكُونُ فِي الكَلَامِ تَغْلِيبٌ، وهُوَ تَغْلِيبُ المَشْرِق عَلَى المَغْرِبِ، والتَّغلِيبُ هَذَا جارٍ فِي اللُّغةِ العرَبيَّةِ، مِثْلُ قَوْلِهِ ﷺ: «بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ»[1] إِذَا جعَلْنا مُطلقَ الأذَانِ هُوَ الأذَانَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ دُخُولُ الوَقْتِ.

أَمَّا إِذَا جعَلْنا الأذَانَ بمَعْنَى الإعلَامِ فإِنَّ الأَذانَيْنِ لَيْسَ فِيهَا تَغْلِيبٌ؛ لأَنَّ كُلًّا مِنَ الإقَامَةِ والأذَانِ يُسمَّى الأذَانَ، لكِنْ قَولُهم: القَمرَان. يَعنُونَ بذَلِكَ الشَّمسَ والقمَرَ، وقولُهُم: العُمَرَانِ. يَعنُونَ بذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ وعُمَرَ، هَذَا مِنْ بَابِ التَّغْلِيبِ، فيَكُونُ ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أَيْ: بُعْدَ مَا بَيْنَ المَشرِقِ والمغْرِبِ، ولكِنْ ذُكِر بلَفْظِ المَشْرِقِ تَغْلِيبًا.

ويُحتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَولِهِ: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أَيْ: مَشرِقِ الشَّمسِ شِتَاءً ومَشرِقِها صَيْفًا؛ لأَنَّ بينَهُما مسَافَةً عظِيمَةً جِدًّا لَا يَعْلَمُ قَدْرَها إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وكِلَا المَعنَيَيْنِ صحِيحٌ. يَعنِي: سَوَاءٌ جَعَلْنا اللَّفْظَ للتَّغلِيبِ أَوْ لَا، والمُرادُ أَنَّ هَذَا العَاشِيَ الَّذِي أَضَلَّه الشَّيطانُ إِذَا جاءَ مَعَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ تبرَّأَ مِنْهُ، وقَالَ: لَيْتَكَ بَعِيدٌ عَنِّي وأَنَا بعِيدٌ عنْكَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب بين كل أذانين صلاة لمن شاء، رقم (٦٢٧)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب بين كل أذانين صلاة، رقم (٨٣٨)، من حديث عبد الله بن مغفل المزني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: (ربُّ المَشرِقينِ) أَحيَانًا تَأتِي فِي القُرآنِ مُفردَةً، وأحْيَانًا تَأتِي جَمْعًا، وأحيَانًا تَأتِي تَثْنِيةً؟

فالجَوابُ: المَشَارِقُ والمَشرِقُ والمشرِقَينِ، تَأتِي عَلَى هَذِهِ الأوْجُهِ الثَّلاثَةِ ولَا مُنافَاةَ بينَهَا؛ فقَولُهُ تعَالَى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [المزمل:٩] هَذَا مُفرَدٌ.

والمُرَادُ بالمَشْرِقِ هُنَا الجهَةُ؛ لأنَّ الجِهَاتِ أربَعٌ: شَرْقٌ، وغَرْبٌ، وجَنوبٌ، وشَمَالٌ. فالمَشْرِقُ يَعْنِي: جِهَةَ المَشْرِقِ، والمَغْرِبِ يَعْنِي: جِهَةَ المَغْرِبِ.

أمَّا قولُه تعالى: ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج:٤٠] بالجَمْعِ، فالمُرَادُ مَشَارِقُ النُّجومِ والكوَاكِبِ والشَّمسِ والقَمَرِ؛ لأنَّ كُلَّ واحِدٍ منْهَا لَهُ مَشرِقٌ، أَوِ المُرادُ بالمَشَارِقِ مَشَارِقُ الشَّمسِ؛ لأنَّ كُلَّ يَوْمٍ للشَّمسِ مَشرِقٌ، ولَوْلَا ذَلِكَ مَا رَأيتَها تَنْتَقِلُ مِنَ الشَّمالِ إِلَى الجَنُوبِ، ومِنَ الجَنُوبِ إِلَى الشَّمالِ.

أمَّا ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن:١٧] المُثَنَّى، فالمُرادُ بذَلِكَ مَشرِقَا الصَّيفِ والشِّتَاءِ.

وقَولُهُ: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ هذِهِ الجُملَةُ إنشَائيَّةٌ للذَّمِّ، قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أنتَ] يَعْنِي: أنَّهُ قَدْ حُذِفَ فِيهَا المخْصُوصُ؛ لأنَّ (بِئْسَ) و(نِعْمَ) لَا بُدَّ فيهما مِنْ فَاعِلٍ ومَخْصُوصٍ، وتَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي كُتُبِ النَّحْوِ، ولَا علَيْنا مِنْهُ فِي هَذَا المكَانِ.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: التَّحذِيرُ مِنَ الغفلَةِ عَنْ ذِكْرِ اللهِ؛ لأنَّكَ إِذَا غفَلْتَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ تعالى حلَّ محَلَّ ذِكْرِ اللهِ وَساوِسُ الشَّيطَانِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعاقِبُ العبْدَ بِمَا يَقْتَضِيه الذَّنْبُ، وهَذَا كقَولِهِ

تعَالَى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت:٤٠]، فهَذَا الرَّجُلُ لَمَّا أَخْلَى قَلْبَه مِنْ ذِكْرِ اللهِ عُوقِبَ أَنْ يَحُلَّ محَلَّه الشَّيطَانُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحذَرُ مِنْ قُرنَاءِ السُّوءِ؛ لأنَّ الشَّياطِينَ لَيْسَ اسمًا خاصًّا لشَياطِينِ الجِنِّ، بَلْ حتَّى الإنْسُ لهُمْ شَياطِينُ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام:١١٢]، وقَالَ تعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١-٦].

فَفِي هَـذَا التَّحذيرِ مِنْ قُرَنَاء السُّوءِ، وقَدْ حـذَّر النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ قُرَنَاءِ السُّوءِ؛ حيْثُ شبَّه قرِينَ السُّوءِ أَوْ جلِيسَ السُّوءِ بنافِخِ الكِيرِ، إمَّا أَنْ يُحرِقَ ثِيَابَكَ، وإمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً كَرِيهَةً[1]، ثُمَّ إِنَّ الوَاقِعَ كذَلِكَ.

فَمَا أَكْثَرَ مَا يَمُرُّ علَيْنَا مِمَّنْ يَتَّصِلُون بِنَا يَشْكُون مِنْ قَوْمٍ كَانُوا مُستَقِيمِينَ وأئمَّةَ مسَاجِدَ، أَوْ مُؤذِّني مَسَاجِدَ اتَّصَل بِهِمْ أُناسٌ مِنْ أصحَابِ السُّوءِ، فانْحرَفُوا انحِرافًا كامِلًا، ومِثْلُ هؤُلَاءِ -والعِيَاذُ باللهِ- إذَا انحَرَفُوا -نَسأَلُ اللهَ الثَّباتَ- يَكُونُ انحِرافُهُم أشدَّ وأعظَمَ، كالمَاءِ الَّذِي حبَسْتَه ثُمَّ أَطلَقْتَ الحَبْسَ سيَنْدَفِعُ بقُوَّةٍ.

فالمُهِمُّ: أنَّ الإنسَانَ إِذَا أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ قَيَّض اللهُ لَهُ الشَّيطانَ مِنَ الإنْسِ أَوْ مِنَ الجِنِّ، فهُوَ لَهُ قَرِينٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ المُلازِمَ أشدُّ تَأثِيرًا مِنَ العَـابِرِ الَّذِي يُلازِمُك، ويَبقَى قَرِينًا مَعَكَ أشـدَّ تأثيرًا مِنَ العَابِرِ، بمَعْنَى: أنَّك لَوْ جلَسْتَ مَعَ إنسَانٍ صاحِبِ سُوءٍ لُمدَّةٍ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم (٢٦٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

سَاعَةٍ أَوْ سَاعَتَينِ رُبَّما تَأَثَّرْتَ بِهِ ورُبَّما لَا تَتأَثَّرُ، لَكِنْ إِذَا كَانَ مُقَارِنًا فإِنَّهُ سيُؤثِّر؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾.

أَقُولُ هَذَا لتَحذَرُوا مِنَ الاستِمْرارِ مَع قُرَنَاء السُّوء؛ ولتَعلَمُوا أَنَّكُم مَتَى علِمْتُمْ أَنَّه قَرينُ سُوءٍ فإِنَّه يَجِبُ علَيْكُمُ البُعدُ عَنْهُ، لَا تَقُلْ: أَخْشَى أَنْ يَتأَثَّرَ، أَخْشَى أَنْ يَقُولَ: لِمَاذَا كَانَ الرَّجُل صَاحِبًا لِي ثُمَّ فَارَقَني؟ لَا يُهِمُّك هَذَا، الَّذِي يُهِمُّكُ هُوَ نفْسُك فأَنْقِذْها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: العَمَى عَمَى القَلْبِ -والعِياذُ باللهِ- لَمَّا تَعَامَى بعَينِهِ عَنْ ذِكْرِ الرَّحمنِ، وبقَلْبِه أيضًا؛ قُيِّض لَهُ هَذَا الشَّيطانُ الَّذِي يَصُدُّه عَنِ الهُدَى وهُوَ يَحسَبُ أَنَّهُ مُهتَدٍ ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ومَا أكثَرَ هَذَا! أَهْلُ البِدَعِ الَّذِين أَصَرُّوا عَلَى بِدَعِهم، صَغِيرَةً كَانَتْ أَوْ كَبِيرَةً، أَلَمْ يَكُونُوا قَدِ استَحْسَنُوها؟

فلِمَاذَا استَحْسَنُوها وهِيَ بِدْعةٌ مُضلِّلةٌ؛ لأَنَّ الشَّيطَانَ صدَّهُم عَنِ الحَقِّ، أَهْلُ الأفكَارِ الرَّديئَةِ، كالعَلمانيِّينَ، والشُّيوعيِّين، والبَعثِيِّين، ومَنْ أَشبَهَهُم، لِمَاذَا استَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ؟ لأَنَّ الشَّيطانَ رَكِبَ قُلُوبَهُم -والعِياذُ باللهِ- فجعَلَهُم يَظُنُّون أَنَّ هَذَا السَّيِّئَ حسَنٌ، وهَذَا أشدُّ مَا يَكُونُ مِنَ الفِتْنَةِ أَنْ يَرَى الإنسَانُ السَّيِّئَ حسَنًا فيَمْضِي فِيهِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ بعضَ الظَّنِّ إِثْمٌ، وجْهُه أَنَّ هؤُلاءِ ظَنُّوا أَنَّهُم عَلَى حَقٍّ فاستَمَرُّوا فِي البَاطِلِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ هَذَا القَرينَ فِي الدُّنيا يَتبَرَّأ مِنْ صَاحبِهِ يومَ القِيامَةِ يَقُولُ: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّه مَعَ تَمَنِّيهِ هَذَا الَّذِي لَنْ يُدْرِكَ مِنْهُ شَيْئًا، يُثْنِي عَلَى قَرينِهِ هَذَا بالذَّمِّ والقَدْحِ فيَقُولُ: فبِئْسَ القَرينُ أَنْتَ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ مِنَ القُرنَاء مَنْ هُو قَرِينُ خَيْرٍ وقَرِينُ سُوءٍ، وهُوَ كذَلِكَ، وقَدْ بيَّن النَّبيُّ ﷺ هَذَا أبْينَ شَيْءٍ؛ حَيْثُ قَالَ: «**مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ كَحَامِلِ المِسْكِ، إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ**» يَعْنِي: يُعطِيَكَ هَدِيَّة، «**وَإِمَّا أَنْ يَبِيعَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً طَيِّبَةً، وَالجَلِيسُ السُّوْءُ كَنَافِخِ الْكِيرِ، إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ**» بالشَّرَرِ الَّذِي يَتَطَايَرُ مِنَ النَّار إِذَا نُفِخَتْ «**وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً كَرِيهَةً**»[1].

• ● ۞ ● •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم (٢٦٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٣٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف:٣٩].

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ﴾ أي: العَاشِينَ تَمَنِّيكُم ونَدَمُكُم ﴿ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ أَيْ: تَبيَّنَ لكُمْ ظُلمُكُم بالإِشْرَاكِ فِي الدُّنيا ﴿أَنَّكُمْ﴾ مَعَ قُرنَائِكُم ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ عِلَّةٌ لتَقْدِيرِ اللَّامِ؛ لعَدَمِ النَّفْيِ و(إِذْ) بَدَلٌ مِنَ اليَوْمِ].

يَعْنِي: لَا يَنفَعُكُم الإشرَاكُ فِي العذَابِ. هَذَا هُوَ الصَّحيحُ، وعَلَى هَذَا فتكُون ﴿أَنَّكُمْ﴾ ليسَتْ للتَّعليلِ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ المُفسِّر، بَلْ هِيَ فَاعِلُ (يَنْفَع)، والمَعْنَى لَا يَنفَعُكُم اشتِرَاكُكُم فِي العذَابِ.

ووَجْه ذَلِكَ: أَنَّه جَرَتِ العادَةُ أَنَّ الإنسَانَ إِذَا عُذِّب ورَأَى غيْرَهُ يُعذَّب هَانَ عَلَيْه الأمْرُ، وتَسَلَّى، فِي يَوْمِ القِيَامَةِ يَشْتَرِكُ أَهْلُ النَّارِ فِي العذَابِ، لكِنْ لَا يَنفَعُهم هَذَا شيئًا. هَذَا هُوَ الصَّوابُ الَّذِي تَدُلُّ عليْهِ الْآيَة، أَمَّا المفسِّر فجَعَل قوله: ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ عِلَّة فِي تقْدِير اللَّام أَيْ: لأَنَّكُم فِي العذَابِ مُشتَرِكُونَ، ولكِنْ هَذَا بعِيدٌ مِنَ اللَّفظِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ المُشتَرِكِينَ فِي عذَابِ الآخِرَةِ لَا يَنفَعُهم الاشتِرَاكُ، بخِلَافِ الاشتِراكِ فِي العذَابِ فِي الدُّنيا فإنَّه يُسلِّي الإنسَانَ، ويُهوِّنُ علَيْهِ؛ ولهَذَا قَالَتِ الخَنسَاءُ فِي رِثَاءِ أخِيهَا صخْرٍ:

وَلَـوْلَا كَثْـرَةُ الْبَـاكِينَ حَـوْلِي ... عَـلَى إِخْـوَانِهِمْ لَقَتَلْـتُ نَفْـسِي

وَمَـا يَبْكُـونَ مِثْـلَ أَخِـي وَلَكِـنْ ... أُسَـلِّي الـنَّفْسَ عَنْـهُ بِالتَّـأَسِّي[1]

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤُلَاء المُعـذَّبين هُمُ الَّذِين ظَلَمُوا، ومَا ظُلِمُوا لقَولِهِ: ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّهُـم -أيِ: المُعذَّبينَ- يَعرِفُونَ أنَّهُـم مُشترِكُونَ فِي العذَابِ، ولكِنَّ ذَلِكَ لَا يُسلِّيهم ولا يُهوِّن عَنْهُمُ المُصيبَةَ.

• • ❁ • •

(١) ديوان الخنساء ط. دار المعرفة (ص:٧٢)، الكامل للمبرد (١/ ١٦).

الآيــة (٤٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف:٤٠].

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّن، أَيْ: فهُمْ لَا يُؤمِنُونَ.

الهمزَةُ للنَّفْي يَعْنِي: أَنَّكَ لَا تُسمِعُ الصُّمَّ، ولَا تَهْدِي العُمْيَ؛ لأنَّ هَذَا مَركُونٌ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أَيْ: بَيِّنٍ، والمرَادُ بالسَّماعِ هُنَا إِسْمَاعُ الهُدَى، والمرَادُ بالهُدَى هدي الهُدى، وليْسَ المَعْنَى أَنْ تُسمِع الصُّمَّ صَوتَك؛ لأنَّ هَذَا شَيْءٌ يَشْتَرِكُ فِيهِ كُلُّ النَّاسِ، لكِن إِذَا كَانَ الخِطَابُ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صَارَ الإِسمَاعُ هُنَا إِسمَاعَ الحَقِّ، والمرَادُ بالهُدَى الهُدَى إِلَى الحَقِّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حيْثُ كَانَ يَنْدَمُ عَلَى عَدَمِ اهتِدَاءِ النَّاسِ، فبيَّن اللهُ لَهُ أَنَّ الأَمْرَ لَيْسَ إِلَيْهِ، بَلْ إِلَى اللهِ، وحينَئِذٍ تَهُونُ عليْهِ المُصيبَةُ ويَرْضَى ويُسلِّم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الكُفَّارَ بمَنْزِلَةِ أهْلِ الصَّمم الَّذِين لا يَسمَعُونَ، وقَدْ وَصَفَهُمُ اللهُ تعَالَى فِي آيَاتٍ أخْرَى بأنَّهُم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أَوْ ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ العَمَى سبَبٌ لأَنْ يَتِيهَ الإنسَانُ عَنِ الطَّرِيقِ؛ لقَوْلِهِ: ﴿أَوَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ مَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ -أَيْ: مُنغَمِسًا فِي الضَّلالِ- فإِنَّهُ لَا يَهتَدِي فِي الغَالِبِ.

• • ۞ • •

الآيــة (٤١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ [الزخرف:٤١].

(إمَّا) يَقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِيهِ إدْغَامُ نُونِ (إنِ) الشَّرطيَّةِ فِي (مَا) الزَّائِدَة] فإمَّا وأَصْلُهُ، (فإنْ مَا)، لكِنِ اجْتَمَعَتِ النُّونُ السَّاكِنَةُ مَعَ المِيمِ فأُدغِمَتْ إحْدَاهُما فِي الأُخْرَى فصَارَتْ ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ﴾.

وقَـولُهُ: [مَعَ (مَا) الزَّائدَة] اعْلَـمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي القُرآنِ شَيْءٌ زَائِدٌ، كُلُّ مَـا فِي القُرْآنِ فإنَّه فِي مَحَلِّهِ والسِّياقُ يَحتَاجُ إِلَيْهِ، لكِنَّ مُرادَهُم بالزِّيادَةِ هِيَ الَّتِي يَتِمُّ الكَلَامُ بِدُونِها، لَا الَّتِي يُمكِنُ الكلَامُ بدُونِهَا، هَذَا بالنِّسبَةِ للقُرآنِ. يَعْنِي: لَوْ حُذِفَتْ لاستَقَامَ الكَلَامُ، وإلَّا فإنَّ لَهَا معْـنًى، وهُوَ التَّوكِيدُ ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يَقُولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ بأَنْ نُمِيتَكَ قَبْلَ تَعذِيبِهِمْ ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ فِي الآخِرَةِ] كَمَا قَالَ، يَعْنِي: أَنَّنا إنْ ذَهَبْنَا بِكَ، فلَنْ نُغفِلَهُم مِنَ العذَابِ، بَلْ نُعذِّبُهم.

وقَـولُ المُفسِّر: [فِي الآخِرَةِ] فِيهِ نَظَرٌ، والصَّوابُ فِي الدُّنيـا يَعْنِي: أَنَّا إنْ ذَهَبْنَا بِكَ قَبْلَ أَنْ نُعـذِّبَهم فإنَّنا لَا بُدَّ أَنْ نُعـذِّبَهم، وهَذَا تَهْدِيدٌ وَاضِحٌ لهـؤُلَاءِ المُكذِّبينَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

الآيــة (٤٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف:٤٢].

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ فِي حَيَاتِكَ مِنَ العذَابِ ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم﴾ أَيْ: عَلَى عذَابِهِمْ ﴿مُّقْتَدِرُونَ﴾ قَادِرُونَ].

فالمسأَلَةُ إمَّا أَنْ نُعذِّبَهم قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ، وإمَّا أَنْ تَمُوتَ قَبْلَ أَنْ يُعذِّبَهُم، فإِنْ مِتَّ قَبْل أَنْ نُعذِّبَهم، فإنَّهُم لَنْ يُفلِتُوا مِنَ العذَابِ سنَنتَقِمُ منْهُمْ، وإِنْ عذَّبنَاهُم قَبْلَ مَوتِكَ فإنَّا قَادِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، ولَنْ نُؤخِّرَ عنْهُمُ العذَابَ عَجْزًا.

وقَوْلُ المُفسِّر: [﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم﴾ أَيْ: عَلَى عذَابِهِمْ] الصَّوابُ العُمُومُ عَلَى عَذَابِهِمْ وعَلَى ذَوَاتِهِمْ، وعَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ.

وقَولُهُ: [﴿مُّقْتَدِرُونَ﴾ قَادِرُونَ] أيضًا فِيهِ قُصُورٌ؛ لأَنَّ المُقتَدِرَ أَبلَغُ مِنَ القَادِر، فإِنَّ زِيَادَةَ المَبْنَى تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةِ المَعْنَى، فهُوَ أبلَغُ مِنَ القَادِرِ، وعَلَى كُلِّ حَالٍ.

فالْآيَةُ مَعْنَاهَا الإجمَاليُّ: أَنَّنا إِنْ ذهَبْنا بِكَ للمَوْتِ؛ فإِنَّنا لَنْ نُغفِلَهُم عَنِ العذَابِ، وإِنْ عَذَّبنَاهُم فِي حَيَاتِكَ؛ فسترَى عذَابَهُم بنَفْسِكَ.

من فوائد الآيتين الكريمتين (٤١- ٤٢):

الْفَائِدَةُ الأُولَى: التَّهدِيدُ للمُكذِّبين للرَّسولِ ﷺ وأنَّ عذَابَهم وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَسلِيَةُ النَّبيِّ ﷺ فإنَّ رَسُولَ اللهِ جَاءَ بالهُدَى والحَقِّ والآيَاتِ، فإذَا كُذِّب فسَيكُونُ ذَلِكَ ثَقِيلًا عَلَى نفْسِهِ، فسَلَّاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بهَذَا الوَعِيدِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وَصْفُ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَى بالانتِقَامِ، كَمَا وَصَفَهُ فِي آيَاتٍ أُخْرَى.

ولكِنْ هَلْ يُوصَفُ بِهِ عَلَى الإِطْلَاقِ، فيُقَالُ مَثَلًا: المُنتَقِمُ؟

فالجَوابُ: لَا، لأَنَّ كلمَةَ المُنتقِم ليْسَتْ مَدْحًا فِي ذَاتِها حتَّى تُقابَل بِمَا يَكُونُ سَبَبًا للانتِقَامِ؛ ولهَذَا تَمُرُّ بنَا أسمَاءُ اللهِ الحُسْنَى الَّتِي عَدَّهَا بعْضُ النَّاسِ مِنْهَا المُنتقِمَ، وهَـذَا غلَطٌ، فإنَّ ذَلِكَ ليْسَ مِنْ أسْمَاءِ اللهِ؛ لأَنَّ اللهَ لَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ مِنْ أسمَائِهِ، وإنَّما ذكَرَهُ مُقيَّـدًا بحَالٍ مِنَ الأَحْـوَالِ؛ وهُنَا ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ مُقيَّدٌ بحَالٍ مِنَ الأَحْوالِ، وهِيَ تَكْذِيبُ هَؤُلاءِ، وهُوَ كقَوْلِهِ تعَـالَى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: عظَمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حيْثُ وَصَفَ نفْسَهُ بالجَمْعِ، ومِنَ المعْلُومِ أنَّهُ لَيْسَ المرَادُ بالجَمْعِ التَّعدُّدَ؛ لأَنَّ اللهَ إلَهٌ واحِدٌ، لكِنَّ المُرادَ بالجَمْعِ هُنَا التَّعظِيمُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الوَعْـدَ يَأتِي فِي الشَّرِّ والعُقُوبَةِ، خِلَافًا لِمَنْ قَالَ: الوَعْدُ فِي الخَيْرِ والإيعَادُ فِي الشَّرِّ، وأَنشَدُوا عَلَى ذَلِكَ قَولَ الشَّاعِرِ:

وإِنِّي إِنْ أَوْعَدْتُـــهُ أَوْ وَعَدْتُـــهُ ... لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي[1]

---

(١) البيت ينسب لعامر بن الطفيل، انظر: لسان العرب (١/ ٦٣).

فالصَّوابُ أنَّ مَعناهَا أنَّها تُطلَقُ عَلَى هَذَا وَعَلَى هَذَا، فهُنَا قَالَ: ﴿ٱلَّذِى وَعَدۡتَهُمۡ﴾ وعَلَى قِياسِ قَوْلِ البَيْتِ يَكُونُ التَّعبِيرُ: الَّذِي أَوْعَدْنَاهم، ولكِنَّ الصَّحِيحَ أنَّها جَائِزَةٌ لهَذَا وهَذَا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيَانُ غَلَبَةِ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى كُلِّ قُدْرَةٍ؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ وهُوَ كذَلِكَ، ولَمَّا قَالَتْ عَادٌ: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، فَلَا قُوَّةَ تُمَانِع قُوَّة اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَا قُدرَةَ تُمانِعُ قُدْرتَهُ، بَلْ هُوَ العزِيزُ الغَالِبُ عَلَى كُلِّ أحَدٍ.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف:٤٣].

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ أيِ: القُرْآنِ ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ طَرِيقٍ مُستَقِيمٍ].

﴿ فَٱسْتَمْسِكْ ﴾ بمَعْنَى: تَمَسَّكْ، لكِنْ زِيدَتْ حُرُوفُها للمُبَالَغَةِ. أَيْ: تَمَسَّكْ تَمَسُّكًا قَوِيًّا ﴿بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ والمُوحِي هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، والمُوحَى القُرْآنُ، وإِنَّما قَالَ: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ ليُثَبِّتَ رِسَالتَهُ، وإِلَّا لَوْ قَالَ بالقُرْآنِ كَفَى، لكِنْ مِنْ أَجْلِ تَثْبِيتِ الرِّسالَةِ قَالَ: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ والوَحْيُ هُوَ إِنْبَاءُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لرُسلِهِ بِمَا يُشرِّعُه لعِبَادِهِ.

﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أمْرٌ وتَثْبِيتٌ، فالأمْرُ: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ والتَّثبِيتُ: ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، وإِذَا كَانَ عَلَى صِرَاطٍ مُستَقِيم فإِنَّ العَقْلَ يَقْتَضِي أَنْ لَا يَحِيدَ عنْهُ، بَلْ أَنْ يَستَمْسِك بِهِ تَمَامًا، والصِّراطُ هُوَ الطَّرِيقُ الوَاسِعُ المُستَقِيمُ، فالطَّرِيقُ الضَّيِّقُ لا يُسمَّى صِرَاطًا، والطَّرِيقُ المُعوَجُّ يَمِينًا وشِمَالًا لا يُسمَّى صِرَاطًا، لَا يُسمَّى صِراطًا إِلَّا مَا كَانَ طرِيقًا واسِعًا مُستَقيمًا، كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أيِ: الطَّرِيقَ الوَاسِعَ المُستقِيمَ.

الآيــة (٤٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:٤٤].

قَالَ المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ ﴾ لشَرَفٌ ﴿لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾ بنُزُولِهِ بلُغَتِهم ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ عَنِ القِيَامِ بحَقِّه].

﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أيِ: القُرآنَ الَّذِي أُوحِيَ إِلَى الرَّسُول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ﴿لَذِكۡرٞ لَّكَ ﴾ أَيْ: لشَرَفٌ عَلَى مَا فسَّره بِهِ المُفسِّرُ. أَيْ: أَنَّكُم تَشرُفون به؛ لنُزُولِهِ بلُغَتكُم؛ ولكَونِهِ نَزَل عَلَى وَاحِدٍ مِنْكُمْ، فهُوَ شَرَفٌ.

هَـذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ المفسِّر ولَا مَانِعَ مِنْهُ، لكِنَّ الصَّوابَ: أَنَّ المُرادَ بالذِّكْر هُنَـا التَّذكِيرُ يَعْنِي: وإِنَّ هَذَا الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لتَذكِيرٌ لَكَ ولقَومِكَ.

فإِنْ قَالَ قَائِلٌ: يَرِدُ عَلَى هَذَا أَنَّهُ تَذْكِيرٌ لِكُلِّ النَّاسِ.

فالجَوابُ: أَنَّ هَذَا كقَـولِهِ تعَـالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [الجمعة:٢] مَعَ أَنَّهُ بُعِث لجَمِيعِ النَّاسِ.

وقَولُهُ: ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ يَقُولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَنِ القِيَامِ بحَقِّه] ومِنْ حَقِّه العمَلُ بِهِ، ومِنْ حَقِّهِ إبلَاغُهُ للنَّاسِ، ولهَذَا يُعتَبر العَرَبُ هُـمُ الإشعَاعَ لعَامَّة النَّاس فِي نقْلِ الشَّريعَةِ الإسـلَاميَّةِ، ليْسَ فِي الجَزيرَةِ حِينَ نَزَلَ الوَحْيُ إِلَّا عَرَبٌ، هـؤُلَاءِ العرَبُ

بَثُّـوا الإسلَامَ فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ الدُّنيا، وهَـذَا مِنْ حقِّهِ ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عمَّا فِيـهِ مِنَ الأَمْرِ بالجِهَادِ، هَلْ جَاهَدْتُم أَمْ لَا؟ ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عَنْ تَنفِيذِ جمِيعِ شَرَائِعِهِ؛ وهَذَا كَلَامُ المفسِّر هُنَا جَيِّدٌ عَنِ القِيَامِ بحَقِّهِ.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥].

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أَيْ: مِنْ غَـيرِهِ ﴿ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾] (اسْأَلِ) الخِطَابُ للنَّبيِّ ﷺ؛ لقَـولِهِ: ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ وسَوفَ يَكُونُ الجَوَابُ: (لَا).

والمَقصُودُ مِنْ هَذَا الأمْرِ هُوَ إقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَى المُشرِكِينَ الَّذِين يَعبُدُونَ مَعَ اللهِ إلهًا آخَرَ، يَقُولُ للنَّبيِّ: اسْأَلْ جَمِيعَ الرُّسل السَّابِقِينَ، هَلْ جعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحمَنِ آلهَةً يُعبَدُون حتَّى يَقُومَ هؤُلَاءِ المُشرِكُونَ فيَعبُدُونَ مَعَ اللهِ غَيرَهُ.

فَفِيهِ إقَامَةُ الحُجَّة عَلَى المُشرِكينَ، أنَّ جمِيعَ الرُّسُلِ السَّابِقِين ليْسَ فيهِمْ مَنْ يُحِلُّ الإشرَاكَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فإنْ قَالَ قَائِل: كيْفَ يَسأَلُ مَنْ أَرْسَلَ اللهُ مِنَ الرُّسلِ قبْلَه وهُوَ لَمْ يُدرِكْهُم؟

فالجَـوابُ: أنَّ هَذَا مِنْ أَسَاليبِ اللُّغـةِ العربيَّةِ، والمَعْنَى: إنَّك إنْ تَسـأَلْ عَلَى الفَرْضِ والتَّخيِيرِ فلَنْ تُجَـاب بـ(نَعَمْ)، بلْ سيَكُونُ الجَوابُ: (لَا)، فهُـوَ مِنْ بَابِ التَّحَدِّي لهؤُلاءِ المُشرِكِينَ الَّذِين يَدَّعُون أنَّهُم عَلَى حَقٍّ.

وقَولُه: ﴿أَجَعَلْنَا﴾ أَيْ: صَيَّرْنا ﴿مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ قِيلَ: هُوَ عَلَى ظَاهِرِه بأَنَّ جُمِع لَهُ الرُّسلُ ليلَةَ الإسرَاءِ. يَعْنِي: وسأَلْهُم، لكِنَّ هَذَا القَولَ ضعِيفٌ؛ لأَنَّ جمِيعَ الأحادِيثِ الوارِدَةِ فِي الإسْرَاءِ لَيْسَ فِيهَا هَذَا.

ثُمَّ إنَّ المَقصُود بالإِسْراءِ إظهَارُ شَرَفِ النَّبيِّ ﷺ، بَلْ هَذَا مِنْ مَقصُودِ الإسرَاءِ، إظهَارُ شرَفِهِ عَلَى الرُّسلِ، فكَيْفَ يُوجَّه إليهِمْ هَذَا السُّؤالُ؟! فهَذَا القَوْلُ ضعِيفٌ جِدًّا وَلَا وَجْهَ لَهُ.

وقِيلَ: المُرادُ أُمَمٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ، وهَذَا أيضًا ليْسَ بصَوابٍ يَعْنِي: هؤُلَاءِ يَقُولُون: المَعْنَى ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ يَعْنِي: اسأَلِ الأُمَمَ الَّذِين أُرسِل إلَيْهِمْ، وهؤُلاءِ بَاقُونَ إِلَى بعْثَةِ النَّبيِّ ﷺ، وهَذَا ضعِيفٌ مُخالِفٌ لظَاهِرِ القُرآنِ، فالقُرآنُ يَقُولُ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ والأُمَمُ التَّابعَةُ للرُّسلِ فِيهِم مُشرِكُونَ، فالنَّصارَى أَقْرَبُ الأُمَمِ فِيهِمْ مُشرِكُونَ، فَلَا يَتوجَّهُ سُؤالُهُم مَعَ كونِهِمْ مُشرِكِينَ، هَذَا أيضًا ضَعِيفٌ.

قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَلَمْ يَسأَلْ عَلَى وَاحِدٍ مِنَ القَوْلَينِ]؛ لأَنَّ المُرادَ مِنَ الأَمْرِ بالسُّؤالِ التَّقرِيرُ لمُشرِكِي قُرَيْشٍ، أَنَّه لَمْ يَأتِ رَسُولٌ مِنَ اللهِ ولَا كِتَابٌ بعِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ، هَذَا صَحِيحٌ، يَعْنِي: أنَّ السُّؤالَ إنَّما أُرِيد بِهِ إلزَامُ قُرَيْشٍ بأَنَّهُ لَمْ يَأتِ أحدٌ مِنَ الرُّسلِ بإبَاحَةِ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ، هَذَا المقصُودُ، وهَذَا كقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤]، لكِن هُنا السُّؤالُ فِيهَا أعمُّ؛ لأَنَّهُ قَالَ: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ ولَمْ يَخُصَّ ذَلِكَ بالرُّسُلِ.

من فوائد الآيات الكريمة (٤٣- ٤٥):

الْفَائِدَةُ الأُولَى: حثُّ النَّبيِّ ﷺ عَلَى التَّمسُّكِ بِمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، وإِذَا كَانَ النَّبيُّ ﷺ يُحَثُّ عَلَى ذَلِكَ فنَحْنُ مِنْ بَابِ أَوْلَى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَانَ رَسُولَ اللهِ حقًّا؛ لإِثْبَاتِ الوَحْيِ إِلَيْهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَثْبِيتُ النَّبيِّ ﷺ عَلَى الاستِمْسَاكِ بِمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، وذَلِكَ بأَنَّهُ عَلَى صِرَاطٍ مُستَقِيمٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الشَّرِيعَةَ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صِرَاطٌ مُستَقِيمٌ، لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ، ولَا انحِرَافَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هَـذَا القُرآنَ الكرِيمَ فِيهِ ذِكْرٌ للعَرَبِ -أَيْ: شَرَفٌ لَهُـم- وفِيهِ تَذْكِيرٌ لَهُمْ؛ لقَولِهِ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَحْمِيـلُ المَسؤُولِيَّةِ العظِيمَةِ عَلَى العَرَبِ، وهِيَ أَنَّهُـم سَوْفَ يُسأَلُون عَنْ هَذَا الوَحْيِ هَلْ قَامُوا بحقِّه أَوْ لَمْ يَقُومُوا بحَقِّهِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إِقَامَةُ البَيِّنَةِ الكُبْرى عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ الرُّسلِ السَّابِقِينَ: إِنَّ هُنَاكَ آلِهَةً تُعبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ؛ لقَولِهِ: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبَاتُ اسْمِ الرَّحمنِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقَولِهِ: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ والرَّحمنُ هُوَ أَحَدُ الاسْمَينِ اللَّذينِ لَا يُسمَّى بِهِمَا غَيرُ اللهِ، وهُمَا اللهُ والرَّحمنُ، لَا يُوصَف بِهِمَا سِوَى اللهِ، الرَّحيمُ يُوصَفُ بِهِ غَيرُ اللهِ، العَزِيزُ يُوصَفُ بِهِ غَيْرُ اللهِ، السَّمِيعُ يُوصَفُ بِهِ غَيْرُ اللهِ، وهَكَذَا، لكِنَّ هذَيْنِ الاسْمَينِ الكَرِيمَيْنِ -اللهُ والرَّحمن- لَا يُوصَف بِهِمَا أَحَدٌ، ولا يُسمَّى بِهِمَا أَحَدٌ إِلَّا اللهُ تعَالَى وحْدَه لَا شَرِيكَ لَهُ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: اتِّفاقُ الرُّسُل عَلَى التَّوحيدِ، وهَذَا كقَولِهِ تعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وهَذَا قَدِ اتَّفَقَ عَلَيْهِ الرُّسلُ، وَقَالَ اللهُ تعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

والرُّسل مَا جاءَتْ إلَّا لإصلَاحِ الخَلْقِ، والخَلْقُ لَا يُمكِنُ صلَاحُهم وَلَا إصْلاحُهُم إلَّا إذَا قَامُوا بتَوحِيدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنْ لَمْ يَقُومُوا بتَوحِيدِهِ تَشتَّتْ قُلوبُهم، وصَارَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُم يذْهَبُ مَذهَبًا غيرَ الآخَرِ؛ لأَنَّ كُلَّ أُمَّة تُرِيدُ أَنْ يَكُونَ لهَا مَعبُودٌ خَاصٌّ، فتَحصُل الفَوْضَى بَيْنَ العِبَادِ، فإذَا اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ؛ حَصَلَ الاتِّفاقُ بدُونِ فَوْضَى.

• • ۞ • •

وبِذَلِك انتَهَتِ الدُّروس العِلْميَّة الصَّباحيَّة المُسجَّلة صوتيًّا، والتِي كانَ يَعقِدها فَضيلةُ شَيخِنا العلَّامة محمَّد بنُ صالحِ العُثَيْمِين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جامِعه بمَدِينة عُنَيْزَةَ، وكانَ آخِرها يَومَ الأَرْبِعاء ١٠ رَبِيع الآخِر عام ١٤٢١هـ.

رحِم اللهُ شيخَنا رَحمةَ الأبرارِ، وأَسْكنه فَسِيح جناتِه، ومَنَّ عَلَيه بمَغْفِرتِه ورِضْوانِه، وجَزاهُ عمَّا قدَّمه للإِسلامِ والمُسلمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وصلَّى اللهُ وسلَّم وبارَكَ على نَبيِّنا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأصحابِه، ومَن تَبِعَهُم بإِحسانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

ابتدأنا الدروس الصباحية والمسائية في إجازة عام ١٤٩١هـ يوم السبت ١٥ ربيع الأول وانتهينا يوم الأربعاء ١٠ ربيع الثاني فكانت مدة الدراسة خمسة وعشرين يوما نرجو الله تعالى أن يجعل فيها البركة.

وكان موقفنا في الدروس الصباحية:

في التفسير: عند قوله تعالى في سورة الزخرف (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) آية ٤٦

في الحديث: كتاب الزكاة.

وفي أصول الفقه: أثناء باب القياس عند الكلام على الأصل ص ٤٦

وفي الفقه: كتاب النفقات.

وفي النحو: أكملنا الآجرومية.

وفي العقيدة: جعلناها مكان الآجرومية وقرأنا (عقيدة أهل السنة) كاملا

أما في المساء فقرأنا الأربعين

والحمد لله رب العالمين

بخط فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة

«أَلَّا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ» ٩

«مَا لَمْ نَكُنْ جُنُبًا» ١٠

«خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» ١٩

«أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ» ٢١

«لَا، وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا عَهِدَ إِلَيْنَا بِشَيْءٍ، إِلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللهُ تَعَالَى مَنْ شَاءَ فِي الْقُرْآنِ، وَإِلَّا مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ» ٣٤

«إِلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللهُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ» ٣٤

«وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ» ٣٧

«ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ» ٤٧

«فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ» ٤٧

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ» ..... ٤٩، ٥٠

«أَنَّ أَهْلَ الْفَتْرَةِ يُرْسِلُ اللهُ إِلَيْهِمْ رُسُلًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَمْتَحِنُهُمْ مَنْ أَطَاعَ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَى دَخَلَ النَّارَ» ٥١

«مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ» ٦٢

«إِنَّهَا بَضْعَةٌ مِنِّي يَرِيبُهَا مَا رَابَنِي» ٧٧

«لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ بِنْتُ نَبِيِّ اللهِ مَعَ بِنْتِ عَدُوِّ اللهِ» ٧٧

«أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ» ٧٩
«لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ» ٨٠
«اكْتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ٨٤
«لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً» ..... ٨٧، ٨٨
«كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ...» ٨٨
«مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ...» ٨٩
«أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ» ١٠١
«أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي مِنْهَا: وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» ١١٢
«يَا عَمِّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ» ١٢١
«إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا» ١٢٦
«أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ» ..... ١٣٣، ١٣٤
«وَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا فَتَنَافَسُوْهَا كَمَا تَنَافَسَهَا مَنْ قَبْلَكُمْ، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ» ١٣٧
«الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ» ١٤٤
«لَبَّيْكَ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَة» ١٤٦
«أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّامٌ» ١٤٩
«بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ» ١٥٢
«مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ، إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ» ١٥٦

فهرس الفوائد

الفوائد	الصفحة

مَراتِبُ تَفْسير القُرآنِ ٧

لَا يَجُوزُ للإنسَانِ أَنْ يُفسِّرَ القُرآنَ برَأْيِهِ ٧

عقِيدَةُ أهْلِ السُّنَّة فِي القُرآن الكَريم ٨

القُرآنُ الكَرِيمُ لَهُ خَصَائِصُ كَثِيرَةٌ ٩

قِرَاءَة الحَائِضِ القُرآنَ ١٠

الرَّد عَلى مَا كُتب فِي الإعجَاز العدَديّ في القُرآنِ ١٦

البسمَلَةُ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ ٢٣

اللِّسانُ العَربيُّ لمْ تُوضَعْ فِيهِ حُرُوفٌ هِجَائيَّةٌ لَهَا مَعْنًى ٢٨

مَا الفائِدَةُ مِنْ هَذِهِ الحرُوفِ الهِجَائيَّةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا معْنًى فِي حَدِّ ذَاتِهَا؟ ٢٨

هَلْ يَجُوزُ وَصْفُ القُرآنِ بالحُدُوثِ؟ ٣٨

هَلْ فِي القُرآنِ مِنَ الكلِمَاتِ مَا لَيْسَ بعَرَبيٍّ؟ ٣٩

هَلْ يُشتَرَطْ مَعَ بُلُوغِ الرِّسالَةِ أَنْ يَفْهَمَها المُخَاطَبُ؟ ٥٠

مَنِ استَهْزَأَ باللهِ أَوْ آيَاتِهِ أَوْ رَسُولِهِ، أَوْ سَبَّ اللهَ أَوْ كتَابَهُ أَوْ رَسُولَهُ، هَلْ تُقبلُ تَوبتُهُ أَوْ لَا تُقْبَلُ؟ ٥٦

مَا حُكْمُ المُستهْزِئِ بأَهْلِ الدِّينِ؟ ٥٧

فائِدَةُ الإِحَالَاتِ تذْكِيرُ الإنسَانِ مَا سَبَقَ، واهتِمَامُهُ بالكِتَابِ، ورَوَاجُ الكتَابِ كُلِّهِ ٥٩

مَعانِي العِزَّة ثَلاثَةٌ ٦١
دُعَاءُ نُزُولِ المكَانِ: «أَعُوذُ بكلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ» هَلْ خَاصٌّ بالسَّفرِ أَوْ عَامٌّ؟..... ٧٥
الَّذِين يُجادِلُون أهْلَ البَاطِلِ يَأْتُونَ بأدِلَّة مُتَتابِعَةً مُتكَاثِرَةً مَعَ أنَّ المَدلُولَ يُمكِنُ أَنْ يَثبُتَ بدَلِيلٍ وَاحِدٍ..... ٩٧
لَا مجَازَ فِي اللُّغةِ العَربيَّةِ إطْلَاقًا، ولَا فِي الْقُرآنِ أيضًا ١٠٠
بعْضَ النَّاسِ حَرَّف كلَامَ اللهِ عَمَّا أَرَادَ اللهُ؛ بِنَاءً عَلَى هَوَاهُ، فقَالَ: أَبُو إبراهِيمَ لَيْسَ مُشرِكًا، بَلْ هُوَ عَلَى التَّوحِيدِ ١١٤
الهِدَايَةُ نَوْعَانِ ١٢٠
هَلْ للإنسَانِ أَنْ يَدْعُوَ فيَقُولُ: «يَارَبِّ اهْدِنِي هِدَايَةَ التَّوفِيقِ». يُعيَّنُ هِدَايَةً مُعيَّنَةً؟.. ١٢٢
قَولُ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أَيْ: أَنَّه الجَنَّةُ، هَلْ هَذَا مِنْ تَأوِيلِهِ؟ ١٣٣
قِصَّةُ ابنِ حَجَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مَعَ اليَهُودِي ١٤٤
إذَا كَانَ هُنَاكَ إنسَانٌ مُنحَرِفٌ يَظُنُّ الإنسَانُ أَنَّهُ إذَا كَانَ مَعَهُ رُبَّما يَدْعُوهُ، هَلْ يُصاحِبُه أَوْ يُصادِقُه؟..... ١٤٩
هَلْ يُوصَفُ اللهُ بِالانتِقَامِ عَلَى الإطْلَاقِ، فيُقَالُ مَثَلًا: المُنتَقِمُ؟..... ١٦٣

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة

تقديم ٥

سورة الزخرف ٧

البسملة ٢٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حمٓ ۝١﴾ ٢٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ ٣٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ ٣٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ ٤٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾ ٤٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾ ٥٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾ ٥٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ ٥٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾ ٦٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾ ٦٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾ ٦٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ ٧٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ ٧٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ ٧٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾ ٨١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ ٨٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ ... ٨٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ ٩٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ ٩٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ ... ٩٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ٩٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ

إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ١٠٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ ١٠٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ١١٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ١١٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ١١٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ . ١٢٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ ١٢٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ .. ١٢٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ١٣٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ١٣٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ ١٤٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ١٤٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ١٤٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ١٥٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ ١٥٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ١٦١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ١٦٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ .. ١٦٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ١٦٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ١٦٨

فهرس الأحاديث والآثار ١٧٥

فهرس الفوائد ١٧٧

فهرس آيات السورة ١٧٩

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١)

تفسير القرآن الكريم

الحجرات، ق، الذاريات، الطور
النجم، القمر، الرحمن، الواقعة، الحديد

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

دار الثريا للنشر

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١)

تفسير القرآن الكريم

الحجرات، ق، الذاريات، الطور
النجم، القمر، الرحمن، الواقعة، الحديد

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

دار الثريا للنشر

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
إلا لمن أراد طبعه لتوزيعه مجاناً بعد مراجعة
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
عنيزة - ص ب ١٩٢٩
هاتف: ٠٦/٣٦٤٢١٠٧ - ٠٦/٣٦٤٢٠٠٩
www.binothaimeen.com
info@binothaimeen.com

دار الثريا للنشر والتوزيع
فاكس ٤٠٢٢٦١٥ ص.ب ٩٤٣٨ الرياض ١١٤١٣
بريد الكتروني darthurayya@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد:

فإن من توفيق الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يسَّر لفضيلة شيخنا ـ تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه ـ ضمن لقاءات الباب المفتوح تفسير سور: الحجرات، وق، والذاريات، والطور، والنجم، والقمر، والرحمن، والواقعة، والحديد.

وقد عهدت مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية إلى فضيلة الشيخ فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، أثابه الله، بالعمل لإعداد هذا الكتاب للنشر، فجزاه الله خيراً.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، موافقاً لمرضاته، نافعاً لعباده، وأن يجزي فضيلة شيخنا عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ويضاعف له المثوبة والأجر، ويعلي درجته في المهديين، إنه سميع قريب.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللجنة العلمية

في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

تفسير سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد.

فإننا نبدأ بتفسير سور المفصل التي تبتدىء من سورة (ق) عند بعض العلماء، أو من سورة الحجرات عند آخرين.

وسنتكلم على سورة الحجرات لما فيها من الآداب العظيمة النافعة التي ابتدأها الله بقوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١﴾. اعلم أن الله تعالى إذا ابتدأ الخطاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فإنه كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: إما خير تُؤمر به، وإما شر تنهى عنه، فأرعه سمعك، واستمع إليه لما فيه من الخير، وإذا صدَّر الله الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دل ذلك على أن التزام ما خوطب به من مقتضيات الإيمان، وأن مخالفته نقص في الإيمان، يقول الله عز وجل: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ قيل: معنى ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ أي: لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله، والمراد: لا تسبقوا الله ورسوله بقولٍ أو بفعل. وقيل: المعنى لا تقدموا شيئاً بين يدي الله ورسوله. وكلاهما يصبان في مصب واحد، والمعنى: لا تسبقوا الله ورسوله بقولٍ ولا فعلٍ، وقد وقع لذلك أمثلة، فمن ذلك قول النبي ﷺ: «**لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين**»[1] لأن الذي

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب لا يتقدمن رمضان بصوم يوم ولا يومين (١٩١٤)=

يتقدم رمضان بصوم يوم أو يومين كأنه تقدم بين يدي الله ورسوله، فبدأ بالصوم قبل أن يحين وقته، ولهذا قال عمار بن ياسر رضي الله عنهما: «من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ»(١). ومن التقدُّم بين يدي الله ورسوله البدع بجميع أنواعها، فإنها تقدم بين يدي الله ورسوله؛ بل هي أشد التقدم؛ لأن النبي ﷺ قال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، وإياكم ومحدثات الأمور**». وأخبر بأن «**كل بدعة ضلالة**»(٢). وصدق ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإن حقيقة حال المبتدع أنه يستدرك على الله ورسوله ما فات، مما يدعي أنه شرع، كأنه يقول: إن الشريعة لم تكمل، وأنه كملها بما أتى به من البدعة، وهذا معارض تماماً لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. فيقال لهذا الرجل الذي ابتدع: أهذا الذي فعلته كمال في الدين؟ إن قال: نعم، فإن قوله هذا يتضمن أو يستلزم تكذيب قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وإن قال: ليس كمالاً في الدين، قلنا: إذن هو نقص؛ لأن الله يقول: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ فالبدعة كما أنها ضلالة في نفسها فهي في الحقيقة تتضمن الطعن في دين الله، وأنه ناقص، وأن هذا المبتدع كمله بما

= ومسلم، كتاب الصيام، باب لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين (١٠٨٢).

(١) أخرجه البخاري معلقاً، كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ: «إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فافطروا».

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة (٤٦٠٧) والترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٢٦٧٦) وابن ماجه، المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين (٤٢). وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

ادعى أنه من شريعة الله ـ عز وجل ـ فالمبتدعون كلهم تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولم يبالوا بهذا النهي حتى وإن حسن قصدهم؛ فإن فعلهم ضلالة، وقد يُثاب على حسن قصده، ولكنه يؤزر على سوء فعله، ولهذا يجب على كل مبتدع علم أنه على بدعة أن يتوب منها، ويرجع إلى الله ـ عز وجل ـ ويلتزم سنة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، والبدعة أنواع كثيرة: بدع في العقيدة، وبدع في الأقوال، وبدع في الأفعال.

أما البدع في العقيدة، فإنها تدور على شيئين:

إما تمثيل، وإما تعطيل. فالتمثيل أن يثبت لله تعالى الصفات، لكن على وجه المماثلة، فإن هذا بدعة؛ لأنه لم يكن من طريق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وخلفائه الراشدين، فيكون بدعة، فمثلاً يثبت أن لله وجهاً ويجعله مماثلاً لأوجه المخلوقين، أو أن لله يداً ويجعلها مماثلة لأيدي المخلوقين، وهلم جرا، فهؤلاء مبتدعة بلا شك، وبدعتهم تكذيب لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ولقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾. ولقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

أما التعطيل فهو أن ينكر ما وصف الله تعالى به نفسه، فإن كان إنكار جحد وتكذيب، فهو كفر، وإن كان إنكار تأويل فهو تحريف وليس بكفر إذا كان اللفظ يحتمله، فإن كان لا يحتمله فلا فرق بينه وبين إنكار التكذيب، فمثلاً إذا قال إنسان: إن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ والمراد باليدين النعمة نعمة

الدين ونعمة الدنيا، أو نعمة الدنيا ونعمة الآخرة، فهذا تحريف؛ لأن النعمة ليست واحدة، ولا ألف ولا ملايين، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ فليست النعمة اثنتين لا بالجنس ولا بالنوع، فيكون هذا تحريفاً وبدعة، لأنه على خلاف ما تلقاه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه، والأئمة الهداة من بعدهم.

أما البدعة في الأقوال: فمثل أولئك الذين يبتدعون تسبيحات أو تهليلات أو تكبيرات، لم ترد بها السنة، أو يبتدعون أدعية لم ترد بها السنة، وليست من الأدعية المباحة.

وأما بدع الأفعال: فمثل الذين يصفقون عند الذكر، أو يهزون رؤوسهم عند التلاوة تعبداً، أو ما أشبه ذلك من أنواع البدع، وكذلك الذين يتمسحون بالكعبة في غير الحجر الأسود والركن اليماني، وكذلك الذين يتمسَّحون بحجرة النبي ﷺ، حجرة قبره الشريف، وكذلك الذين يتمسَّحون بالمنبر الذي يقال إنه منبر النبي ﷺ في المسجد النبوي، وكذلك الذين يتمسحون بجدران مقبرة البقيع أو بغير ذلك.

والبدع كثيرة: العقدية والقولية والفعلية، وكلها من التقدم بين يدي الله ورسوله، وكلها معصية لله ورسوله، فإن الله يقول: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ والنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول: «**إياكم ومحدثات الأمور**».

ومن البدع ما يُصنع في رجب، كصلاة الرغائب التي تُصلَّى ليلة أول جمعة من شهر رجب، وهي صلاة ألف ركعة يتعبدون لله بذلك، وهذا بدعة لا تزيدهم من الله إلا بعداً؛ لأن كل من تقرَّب

إلى الله بما لم يشرعه فإنه مبتدع ظالم، لا يقبل الله منه تعبده، لما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[1] . ومن التقدم بين يدي الله تعالى ورسوله أن يقول الإنسان قولاً يُحكم به بين عباد الله أو في عباد الله، وليس من شريعة الله، مثل أن يقول: هذا حرام، أو هذا حلال، أو هذا واجب، أو هذا مستحب بدون دليل، فإن هذا من التقدم بين يدي الله ورسوله، وعلى من قال قولاً وتبين له أنه أخطأ فيه أن يرجع إلى الحق حتى لو شاع القول بين الناس وانتشر وعَمِلَ به مَن عمل من الناس، فالواجب عليه أن يرجع وأن يُعلن رجوعه أيضاً، كما أعلن مخالفته التي قد يكون معذوراً فيها إذا كانت صادرة عن اجتهاد، فالواجب الرجوع إلى الحق، فإن تمادى الإنسان في مخالفة الحق فقد تقدم بين يدي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا تعميم بعد تخصيص؛ لأن التقدم بين يدي الله ورسوله مخالف للتقوى، لكن نص عليه وقدمه لأهميته، ومعنى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي اتخذوا وقاية من عذاب الله ـ عز وجل ـ وهذا لا يتحقق إلا إذا قام الإنسان بفعل الأوامر وترك النواهي، بفعل الأوامر تقرُّباً إلى الله تعالى، ومحبة لثوابه، وترك النواهي خوفاً من عذاب الله ـ عز وجل ـ، ومن الناس من إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم، وتصاعد في نفسه وعز في نفسه، وأوغل في

(١) أخرجه مسلم كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٨/١٧١٨).

الإثم، وانتفخت أوداجه، وقال: أمثلي يُقال له: اتق الله! وما علم المسكين أن الله خاطب من هو أشرف منه ومن هو أتقى عباد الله لله، فأمره بالتقوى، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾. وقال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾. ومن الذي لا يستحق أن يُؤمر بتقوى الله؟ فكل واحد منَّا يستحق أن يؤمر بتقوى الله ـ عز وجل ـ والواجب أنه إذا قيل له: اتق الله. أن يزداد خوفاً من الله، وأن يراجع نفسه، وأن ينظر ماذا أمر به، إنه لم يؤمر أن يتقي فلاناً وفلاناً، إنما أمر أن يتقي الله عز وجل، وإذا فسرنا التقوى بأنها اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، تقرباً إليه ومحبة لثوابه، وترك نواهيه خوفاً من عقابه، فإن أي إنسان يترك واجباً فإنه لم يتق الله، وقد نقص من تقواه بقدر ما حصل منه من المخالفة، فالتقوى مخالفتها تختلف، فقد تكون مخالفتها كفراً، وقد تكون دون ذلك، فترك الصلاة مثلاً ترتفع به التقوى نهائياً؛ لأن تارك الصلاة كافر، كما دلَّ على ذلك كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم، حتى إن بعض العلماء حكى إجماع الصحابة على أن تارك الصلاة كافر كفراً مخرجاً عن الملة، ومنهم التابعي المشهور عبدالله بن شقيق ـ رحمه الله ـ حيث قال: (كان أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة)[1]. وكذلك نقل إجماعهم إسحاق بن راهويه، ولم يصح عن أي

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة (رقم ٢٦٢٢).

صحابي أنه قال عن تارك الصلاة: إن تارك الصلاة في الجنة، أو إنه مؤمن، أو ما أشبه ذلك، والزاني لم يتق الله؛ لأنه زنا فخالف أمر الله وعصاه، والسارق لم يتق الله، وشارب الخمر لم يتق الله، والعاق لوالديه لم يتق الله، والقاطع لرحمه لم يتق الله، والأمثلة على هذا كثيرة، فقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ كلمة عامة شاملة تشمل كل الشريعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ هذه الجملة تحذير لنا أن نقع فيما نهانا عنه من التقدُّم بين يدي الله ورسوله، أو أن نخالف ما أمر به من تقواه ﴿سَمِيعٌ﴾ أي سميع لما تقولون ﴿عَلِيمٌ ۝١﴾ أي عليم بما تقولون وما تفعلون؛ لأن العلم أشمل وأعم، إذ إن السمع يتعلق بالمسموعات، والعلم يتعلق بالمعلومات، والله تعالى محيط بكل شيء علماً، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يقول العلماء ـ رحمهم الله ـ: إن السمع الذي اتصف به ربنا ـ عز وجل ـ ينقسم إلى قسمين: سمع إدراك وسمع إجابة، فسمع الإدراك معناه أن الله يسمع كل صوت خفي أو ظهر، حتى إنه ـ عز وجل ـ يقول لنبيه ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد كنت في الحجرة ـ أي حجرة النبي ﷺ ـ والمرأة تجادله وهو يحاورها وإنه ليخفى عليَّ بعض حديثها)[1]. والله

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٦٩ ـ ٧٠) إلى سعيد بن منصور والبخاري تعليقاً وعبد بن حميد والنسائي وابن ماجه، وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه.
وأخرج البخاري الجزء الأول من قولها في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾. والبيهقي في سننه الكبرى (٧/ ٣٨٢).

ـ عز وجل ـ أخبر بأنه سمع كل ما جرى بين هذه المرأة وبين رسول الله ﷺ، فهذا سمع إدراك، ثم إن سمع الإدراك قد يُراد به بيان الإحاطة والشمول، وقد يراد به التهديد، وقد يُراد به التأييد، فهذه ثلاثة أنواع.

الأول: يراد به بيان الإحاطة والشمول مثل هذه الآية.

الثاني: يُراد به التهديد مثل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾. وانظر كيف قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ حين وصفوا الله تعالى بالنقص، قبل أن يقول: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ مما يدلّ على أن وصف الله بالنقص أعظم من قتل الأنبياء.

الثالث: سمع يُراد به التأييد، ومنه قوله ـ تبارك وتعالى ـ لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾، فالمراد بالسمع هنا التأييد يعني: أسمعك وأؤيدك، يعني أسمع ما تقولان وما يُقال لكما.

أما سمع الإجابة فمعناه: أن الله يستجيب لمن دعاه، ومنه قول إبراهيم: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾. أي مجيب الدعاء، ومنه قول المصلي: (سمع الله لمن حمده) يعني استجاب لمن حمده فأثابه، ولا أدري أنحن ندرك معنى ما نقوله في صلاتنا أو أننا نقوله تعبداً ولا ندري ما المعنى؟! عندما نقول: الله أكبر، تكبيرة الإحرام يعني أن الله أكبر من كل شيء ـ عز وجل ـ ولا نحيط بذلك؛ لأنه أعظم من أن تحيط به عقولنا، وعندما نقول: سمع الله

لمن حمده. يعني استجاب الله لمن حمده، وليس المعنى أنه يسمعه فقط، لأن الله يسمع من حمده ومن لا يحمده إذا تكلم، لكن المراد أنه يستجيب لمن حمده بالثواب، فهذا السمع يقتضي الاستجابة لمن دعاه.

أما قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ ١﴾ فالمراد أنه ذو علم واسع، قال الله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا ١٢﴾. فعندما تؤمن بأن الله سميع، وأن الله عليم، هل يمكن وأنت في عقلك الراشد أن تقول ما لا يرضيه؟ لا، لأنه يسمع، فلا ينبغي لك أن تُسمِع الله ما لا يرضاه منك، أسمِعْهُ ما يحبه ويرضاه إذا كنت مؤمناً حقًّا بأن الله سميع، وأعتقد لو أن أباك نهاك عن قول من الأقوال فهل تتجرأ أن تسمعه ما لا يرضاه أو أن تسمعه ما نهاك عنه؟ فالله أعظم وأجلّ، فاحذر أن تسمع الله ما لا يرضاه منك، وإذا آمنت بأنه بكل شيء عليم وهذا أعم من السمع؛ لأنه يشمل القول والفعل وحديث النفس حتى ما توسوس به نفسك يعلمه ـ عز وجل ـ إذا علمت ذلك هل يمكن أن تفعل شيئاً لا يُرضيه؟ لا، لأنه ليس المقصود من إخبار الله لنا بأنه عليم بكل شيء، أن نعلم هذا وأن نعتقده فقط. بل المقصود هذا، والمقصود شيء آخر، وهو الثمرة والنتيجة التي تترتب على أنه بكل شيء عليم، فإذا علمنا بأنه بكل شيء عليم فهل نقول بما لا يرضى؟ لا، لأنه سوف يعلمه، وإذا علمنا بأنه على كل شيء عليم هل نعتقد ما لا يرضى؟ لا، لأننا نعلم أنه يعلم ما في قلوبنا، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾. وقال تعالى:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾، يحول بينك وبين قلبك، فيجب علينا إذا مر بنا اسم من أسماء الله تعالى، أو صفة من صفات الله أن نؤمن بهذا الاسم، وهذه الصفة، وأن نقوم بما هو الثمرة من الإيمان بهذا الاسم، أو الصفة. وما تضمنته الآية الكريمة من أدب عظيم وجه الله تعالى عباده إليه. وهذا هو الأدب الأول.

أما الأدب الثاني ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾، الآية الأولى فيها النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله في أي شيء، سواء من الأقوال أو الأفعال أو غيرها، أما هذه الآية فهي في رفع الصوت وإن لم يكن هناك تقدم في الأحكام من تحليل أو تحريم أو إيجاب، يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ فإذا خاطبك النبي ﷺ بصوت فاخفض صوتك عن صوته، وإذا رفع صوته فارفع صوتك لكن لابد أن يكون دون صوت الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولهذا قال: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾.

﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ يعني لا تنادونه بصوت مرتفع، كما ينادي بعضكم بعضاً، بل يكون جهراً بأدب وتشريف وتعظيم، يليق به صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذا كقوله: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضًاۚ﴾. يعني إذا دعاكم لشيء فلا تجعلوا دعاءه كدعاء بعضكم لبعض، إن شئتم أجبتم وإن شئتم فلا تجيبوا، بل يجب عليكم

الإجابة، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ وهنا قال: ﴿ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ ﴾ كذلك أيضاً لا تنادونه بما تتنادون به، فلا تقولون: يا محمد، ولكن قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، وما أشبه ذلك. ﴿ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ يعني كراهة أن تحبط أعمالكم، والمعنى إنما نهيناكم عن رفع الصوت فوق صوته، وعن الجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض كراهة أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون، ففي هذا دليل على أن الذي يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، أو يجهر له بالقول كجهره لبعض الناس، قد يحبط عمله من حيث لا يشعر؛ لأن هذا قد يجعل في قلب المرء استهانة بالرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والاستهانة بالرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ردَّة عن الإسلام توجب حبوط العمل، ولما نزلت هذه الآية كان ثابت بن قيس بن شماس ـ رضي الله عنه ـ جهوري الصوت، وكان من خطباء النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فلما نزلت هذه الآية تغيَّب في بيته وصار لا يحضر مجالس النبي ﷺ، فافتقده الرسول ﷺ وسأل عنه فأخبروه أنه في بيته منذ نزلت الآية، فأرسل إليه رسولاً يسأله، فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

وإنه قد حبط عمله، وإنه من أهل النار، فدعاه الرسول ﷺ فحضر، وأخبره النبي ﷺ أنه من أهل الجنة، وقال: «**أما ترضى أن**

تعيش حميداً، وتُقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟»[١] قال: بلى رضيت، فقُتل ـ رضي الله عنه ـ شهيداً في وقعة اليمامة، وعاش حميداً، وسيدخل الجنة بشهادة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولذلك كان ثابت ـ رضي الله عنه ـ ممن يُشهد له بأنه من أهل الجنة بعينه؛ لأن كل إنسان يشهد له النبي ﷺ بأنه في الجنة فهو في الجنة، وكل إنسان يشهد له بأنه في النار فهو في النار، وأما من لم يشهد له الرسول ﷺ فنشهد له بالعموم، فنقول: كل مؤمن في الجنة، وكل كافر في النار، ولا نشهد لشخص معين بأنه من أهل النار، أو من أهل الجنة إلا من شهد له الله تعالى ورسوله ﷺ. ففي هذه الآية الكريمة بيان تعظيم الرسول ﷺ، وأنه لا يجوز للإنسان أن يجهر له بالقول كجهره لسائر الناس، وأنه لا يجوز له أن يرفع صوته على صوت الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولما نزت هذه الآية تأدَّب الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بذلك حتى كان بعضهم يكلمه مسارَّة ولا يفهم الرسول ﷺ ما يقول من إسراره، حتى يستثبته مرة أخرى، وفي هذه الآية دليل على أن كل من استهان بأمر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإن عمله حابط؛ لأن الاستهانة بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ردَّة، والاستهزاء به ردَّة كما قال الله تعالى في المنافقين الذين كانوا يستهزئون برسول الله ﷺ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ وكانوا يقولون: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء ـ يعنون الرسول ﷺ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٣٧) والحاكم في المستدرك (٢٣٤٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وأصل القصة في صحيح مسلم.

وأصحابه ـ أرغب بطوناً ـ يعني أوسع ـ ولا أجبن عند اللقاء، ولا أكذب ألسناً، فأنزل الله هذه الآية، ولما سألهم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن ذلك قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، يعني نتكلم بكلام لا نريده، ولكن لنقطع به عنا عناء الطريق، فأنزل الله هذه الآية. ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. ولهذا كان الصحيح أن من سب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان كافراً مرتدًّا، فإن تاب قبلنا توبته لكننا لا نرفع عنه القتل، بل نقتله أخذاً بحق رسول الله ﷺ، وإذا قتلناه بعد توبته النصوح الصادقة صلينا عليه كسائر المسلمين الذين يتوبون من الكفر أو من المعاصي.

ثم أثنى الله تعالى على الذين يغضون أصواتهم عند الرسول ﷺ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ لما نهى عن رفع الصوت فوق صوته، وعن الجهر له بالقول كجهر بعضنا لبعض، أثنى على الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، أي يخفضونها ويتكلمون بأدب، فلا إزعاج ولا صخب، ولا رفع صوت، لكن يتكلمون بأدب وغض، قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أعاد الإشارة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ تعظيماً لشأنهم ورفعة لمنزلتهم، لأن ﴿أُولَٰئِكَ﴾ من أسماء الإشارة الدال على البعد، وذلك لعلو منزلتهم، فأتى باسم الإشارة بياناً لرفعة منزلتهم وعلوها.

﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾. قال العلماء: معناها أخلصها

للتقوى، فكانت قلوبهم مملوءة بتقوى الله ـ عز وجل ـ ولهذا تأدَّبوا بآداب الله تعالى التي وجه لها فغضوا أصواتهم عند الرسول ﷺ، فأخبر عن ثوابهم: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، مغفرة من الله لذنوبهم، وأجر عظيم على أعمالهم الصالحة، وفي هذه الآية إشارة إلى أن الصلاح صلاح القلب، لقوله: ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾. وكما قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الحديث الصحيح: «**التقوى هاهنا**»وأشار إلى صدره الذي هو محل القلب ثلاث مرات: «**التقوى هاهنا، التقوى هاهنا، التقوى هاهنا**»[1] ولا شك أن التقوى تقوى القلب، أما تقوى الجوارح وهي إصلاح ظاهر العمل، فهذا يقع حتى من المنافقين: ﴿۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لكن الكلام على تقوى القلب التي هي بها الصلاح، نسأل الله تعالى أن يرزقنا ذلك. وبعض الناس يفعل المعاصي كإسبال الثوب مثلاً، أو حلق اللحية، أو شرب الدخان، وتنهاه وتخوِّفه من عقاب الله، فيقول: التقوى هاهنا، كأنه يزكي نفسه، وهو قائم بمعصية الله، فنقول له بكل سهولة: لو كان ما هنا متقياً لكانت الجوارح متقية؛ لأن النبي ﷺ يقول: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله**»[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾. هذه الآية تشير إلى قوم أتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وكان معهم قوم جُفاة لا يقدرون الأمور قدرها، فجعلوا ينادون النبي ﷺ من وراء حجراته ـ أي حجرات نسائه ـ ويرفعون أصواتهم بذلك يريدون أن يخرج النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إليهم[1]، يقول الله في هؤلاء: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ يعني ليس عندهم عقل، والمراد بالعقل هنا عقل الرشد؛ لأن العقل عقلان: عقل رشد، وعقل تكليف، فأما عقل الرشد فضده السفه، وأما عقل التكليف فضده الجنون، فمثلاً: إذا قلنا: يشترط لصحة الوضوء أن يكون المتوضىء عاقلاً مميزاً، فالمراد بالعقل هنا عقل التكليف، وإذا قلنا: يشترط للتصرف في المال أن يكون المتصرف عاقلاً، أي عقل رشد، يحسن التصرف، فالمراد بقوله هنا: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ أي عقل رشد؛ لأنهم لو كانوا لا يعقلون عقل تكليف لم يكن عليهم لوم ولا ذم، لأن المجنون فاقد العقل لا يلحقه لوم ولا ذم، وهذا واضح، وقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ يفهم منه أن بعضهم يعقل وأنه لم يحصل منه رفع صوت، بل هو متأدب مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي لو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم من بيتك، وتكلمهم بما يريدون لكان خيراً لهم في أنهم يلتزمون الأدب مع النبي ﷺ وحاجتهم ستقضى؛ لأن رسول الله صلى الله

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٨٨) (٦/ ٣٩٣ - ٣٩٤) وانظر تفسير السيوطي الدر المنثور (٧/ ٥٥٢ - ٥٥٤).

عليه وعلى آله وسلم لم يأته أحد في حاجة إلا قضاها، إذا كان يدركها، وهو أحق الناس بقول الشاعر:

ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ إشارة على أن الله غفر لهم ورحمهم، وهذا من كرمه ـ جل وعلا ـ أنه يغفر ويرحم، وقد أخبر الله تعالى في كتابه أن الله لا يغفر الشرك به، ويغفر ما دون ذلك، أي سوى الشرك لمن يشاء، فكل أحد أذنب ذنباً دون الشرك مهما عظم فإنه تحت مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له ما لم يتب، فإذا تاب فلا عذاب، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠﴾. وقلنا: إن الآية تدل على أن الله غفر لهم ورحمهم؛ لأن الله ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ وهذا يدل على أنه غفر لهم ورحمهم، ولذلك قال العلماء في قول الله تعالى في الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً، قال: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٤﴾. أخذ العلماء من هذه الآية أن هؤلاء

المفسدين المحاربين لله ورسوله، إذا تابوا قبل القدرة عليهم سقط عنهم العذاب، واستدلوا بأن الله ختم الآية بقوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ أي قد غفر لهم فرحمهم، وهذه مسألة ينبغي لطالب العلم أن ينتبه لها في الآيات، إن ختم الآية بعد ذكر الحكم دليل على ما تقتضيه هذه الأسماء التي ختمت بها الآية، ولهذا قرأ رجل فقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ والله غفور رحيم﴾ فسمعه أعرابي عنده فقال له: أعد الآية، فأعادها وقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ والله غفور رحيم﴾ قال له: أعد الآية، فأعادها فقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ فقال: الآن أصبت، ثم علل فقال: لأنه لو غفر ورحم ما قطع، ولا تتناسب المغفرة والرحمة مع القطع، لكنه عز وحكم فقطع، فتأمل هذا الفهم فإنه مفيد جدًّا، والشاهد من هذا أن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ يدل على أن الله غفر لهم ورحمهم.

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ﴾ الفاسق هو من انحرف في دينه وعقيدته ومروءته، وضده العدل وهو من استقام في دينه ومروءته، فإذا جاءنا فاسق منحرف في دينه ومروءته بمعنى أنه مصر على المعاصي تارك للواجبات، لكنه لم يصل إلى حد

الكفر، أو منحرف في مروءته لا يبالي بنفسه يمشي بين الناس مشية الهوجاء، ويتحدث برفع صوت، ويأتي معه بأغراض بيته، يطوف بها في الأسواق وما أشبه ذلك مما يخالف المروءة، فهذا عند العلماء ليس بعدل. ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ أي جاءكم بخبر من الأخبار، وهو فاسق، مثال ذلك: جاءنا رجل حالق للحيته، وحالق اللحية فاسق، لأنه مصر على معصية الله تعالى ورسوله ﷺ، فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «**أعفوا اللحى**»[1]. وهذا لم يعف لحيته، بل حلقها، فهذا الرجل من الفاسقين؛ لأنه مصر على معصية، جاءنا بخبر فلا نقبله لما عنده من الفسق، ولا نرده لاحتمال أن يكون صادقاً، ولهذا قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ ولم يقل فردوه، ولم يقل فاقبلوه، بل يجب علينا أن نتبين، وفي قراءة (فتثبتوا) وهما بمعنى متقارب، والمعنى: أن نتثبت.

فإذا قال قائل: إذن لا فائدة من خبره.

قلنا: لا بل في خبره فائدة، وهو أنه يحرك النفس حتى نسأل ونبحث؛ لأنه لولا خبره ما حركنا ساكناً، لكن لما جاء بالخبر نقول: لعله كان صادقاً، فنتحرك ونسأل ونبحث، فإن شهد له الواقع بالحق قبلناه لوجود القرينة الدالة على صدقه، وإلا رددناه، وقوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ يفيد أنه إن جاءنا عدل فإننا نقبل الخبر، لكن هذا فيه عند العلماء

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب إعفاء اللحى (٥٨٩٣)، ومسلم، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة (٢٥٩).

تفصيل، دل عليه القرآن والسنة، فمثلاً الشهادة بالزنا: لو جاءنا رجل عدل في دينه، مستقيم في مروءته، وشهد أن فلاناً زنا فلا نقبل شهادته، وإن كان عدلاً، بل نجلده ثمانين جلدة؛ لأنه قذف هذا الرجل البريء بالزنا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾، فنجلده ثمانين جلدة ولا نقبل له شهادة أبداً، ونحكم بأنه فاسق، وإن كان عدلاً حتى يتوب، وإذا شهد رجلان عدلان على زيد أنه زنا فلا نقبل شهادتهما، ولا ثلاثة، فإذا كانوا أربعة عدول فنعم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾. وقال تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ﴾ ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ حتى وإن كانوا صادقين، فلو جاءنا ثلاثة نعرف أنهم ثقات عدول وشهدوا بالزنا على شخص فهم عند الله كاذبون غير مقبولين، نجلد كل واحد ثمانين جلدة، وإذا جاءنا رجل شهد على شخص بأنه سرق فلا نقبل شهادته، بل لابد من رجلين، وإذا جاءنا رجل شهد بأنه رأى هلال رمضان فنقبل شهادته، لأن السنة وردت بذلك، فقد قال عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: تراءى الناس الهلال ـ يعني ليلة الثلاثين من شعبان ـ فرأيته فأخبرت النبي ﷺ أني رأيته، فصامه، وأمر الناس بالصيام[1]، وإذا كان رجل غنيًّا ثم أصيب بجائحة ثم جاء يسأل الزكاة، وأتى بشاهد أنه

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الصوم، باب في شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان (٢٣٤٢).

كان غنيًّا وأصابته جائحة وافتقر فلا نقبل شهادة الواحد، ولا نقبل شهادة اثنين، بل لابد من ثلاثة، لأن النبي ﷺ قال لقبيصة: «**إنها لا تحل المسألة**» وذكر منها رجل أصابته جائحة ـ يعني اجتاحت ماله ـ فشهد ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: إن فلاناً قد أصابته جائحة فحلت له المسألة[1] (ثلاثة من ذوي الحجا) يعني من ذوي العقل، وكذلك نقبل رجل مع يمين المدعي كما لو ادعى شخص على آخر بأنه يطلبه ألف ريال، فقلنا للمدعي: هات بينة، قال: عندي رجل واحد، فإذا أتى برجل واحد وحلف معه، حكمنا له بما ادعاه وهناك أشياء أيضاً لا يتسع المجال لذكرها، وعلى هذا فخبر العدل فيه تفصيل على ما تقدم وخبر الفاسق يتوقف فيه حتى يتبين الأمر، ثم بين الله ـ عز وجل ـ الحكمة من كوننا نتبين بخبر الفاسق فقال: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ٦﴾ يعني أمرناكم أن تتثبتوا كراهة أن تصيبوا قوماً بجهالة؛ لأن الإنسان إذا تسرع ولم يتثبت فقد يعتدي على غيره بناءً على الخبر الذي سمعه من الفاسق، وقد يكرهه، وقد يتحدث فيه في المجالس، فيصبح بعد أن يتبين أن خبر الفاسق كذب نادماً على ما جرى منه، وفي هذه الآية دليل على أنه يجب على الإنسان أن يتثبت فيما ينقل من الأخبار ولا سيما مع الهوى والتعصب، فإذا جاءك خبر عن شخص وأنت لم تثق بقول المخبر فيجب أن تتثبت، وألا تتسرع في الحكم؛ لأنك ربما تتسرع وتبني على هذا الخبر الكاذب فتندم فيما بعد، ومن ثم جاء التحذير من النميمة،

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب من تحل له المسألة (١٠٤٤).

وهي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض للإفساد بينهم، حتى قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**لا يدخل الجنة قتَّات**»[١] أي نمَّام، وصح عنه ﷺ أنه مر بقبرين يُعذبان، فقال: «**إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير**» ـ أي في أمر شاق عليهما ـ «**أما أحدهما فكان لا يستتر من البول**»، أو لا يستبرىء أو لا يستنزه من البول «**وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة**» يمشي بين الناس ينمّ الحديث إلى الآخرين ليفسد بين الناس، ثم أخذ جريدة رطبة فشقَّها نصفين وغرز في كل قبر واحدة فقالوا: يا رسول الله، لمَ فعلت هذا؟ قال: «**لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا**»[٢]. ومن هذا النوع ما ينسب إلى بعض العلماء من الفتاوى التي لم يتكلم بها إطلاقاً، أو تكلم ولكن فُهِمَ ما ينقل عنه خطأ، فإن بعض الناس قد يفهم من العالِم كلمة على غير مراد العالِم بها، وقد يسأل العالِم سؤالاً يتصوره العالم على غير ما في نفس هذا السائل، ثم يجيب على حسب ما فهمه، ثم يأتي هذا الرجل وينشر هذا القول الذي ليس بصحيح، وكم من أقوال نسبت إلى علماء أجلاء، لم يكن لها أصل؛ لهذا يجب التثبُّت فيما يُنقل عن العلماء أو غير العلماء، ولا سيما في هذا الزمن الذي كثرت فيه الأهواء، وكثر فيه التعصب، وصار الناس كأنهم يمشون في عمى.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة (٦٠٥٦) ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة (١٠٥) (١٦٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله (٢١٦) ومسلم، كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٢٩٢).

قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ وسبب ما سبق أن النبي ﷺ بلغه عن قوم ما ليس فيهم، فأمر الله تعالى بالتأكد من الأخبار إذا جاء بها من لا تُعرف عدالته، وكأن بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أرادوا من النبي ﷺ أن يُعاقب هؤلاء الذين بلغه عنهم ما بلغه[1]، ولكن النبي ﷺ لم يفعل بعد أن نزلت عليه الآية: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ ولكن العبرة بعموم اللفظ وقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ أي لشق عليكم ما تطلبونه من الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذا له أمثلة كثيرة منها: أن النبي ﷺ قام بأصحابه في رمضان يصلي بهم صلاة القيام فانصرفوا وقد بقي من الليل ما بقي، وقالوا: يا رسول الله، لو نفلتنا بقية ليلتنا ـ يعني طلبوا منه أن يقوم بهم كل الليل ـ ولكنه ﷺ قال لهم: «**من قام مع الإمام حتى ينصرف كُتب له قيام ليلة**»[2] ولم يوافقهم على طلبهم، لما في ذلك من العنت والمشقة، ومنها أن نفراً من أصحاب النبي صلى

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (سورة الحجرات).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب شهر رمضان، باب في قيام شهر رمضان (١٣٧٥) والترمذي، كتاب الصوم، باب ما جاء في قيام شهر رمضان (٨٠٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب قيام شهر رمضان (١٣٢٧).

الله عليه وعلى آله وسلم بحثوا عن أمره في السر ـ يعني فيما لا يظهر للناس ـ وهو العمل الذي يفعله في بيته من العبادات فكأنهم تقالُّوها فقالوا: إن رسول الله ﷺ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأما هم فلم يكن لهم ذلك، فقال أحدهم: أنا أصوم ولا أفطر، وقال الثاني: أنا أقوم ولا أنام، وقال الثالث: أنا لا أتزوج النساء، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: «**أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»(١) فحذرهم أن يعملوا عملاً يشق عليهم، ومن ذلك أيضاً حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه وعن أبيه ـ أنه بلغ النبي ﷺ قوله: إنه ليصومن النهار، وليقومن الليل ما عاش، فدعاه النبي ﷺ قال: «**أنت قلت هذا؟**» قال: نعم، قال: «**إنك لا تطيق ذلك**»(٢) ثم أرشده لما هو أفضل وأهون، والحاصل أنه يوجد من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من له همَّة عالية لكن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يطيعهم في كثير من الأمر؛ لأن ذلك يشق عليهم لو أنه أطاعهم، ثم قال عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾، قد يقول قائل: ما هو ارتباط قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ بقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾؟.

والجواب: أنكم تطيعونه ـ أي الرسول عليه الصلاة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣) ومسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنه... (١٤٠١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب صوم الدهر (١٩٧٦) ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقًّا... (١١٥٩).

والسلام ـ فيما يخالفكم فيه؛ لأن الله حبَّب إليكم الإيمان فتقدمون طاعة النبي ﷺ فيما يخالفكم فيه؛ لأن الله حبَّب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم، وهذا استدراك من أبلغ ما يكون من الاستدراك، يعني: ولكن إذا خالفكم النبي ﷺ في كثير من الأمر الذي تريدونه فإنكم لن تكرهوا ذلك، ولن تخالفوه، ولن تحملوا على الرسول ﷺ بسببه، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ ـ أي جعله محبوباً في قلوبكم ـ ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ بحيث لا تتركونه بعد أن تقوموا به ـ وذلك أن فعل الإنسان الشيء للمحبة قد يكون محبة عارضة، لكن إذا زُيِّن له الشيء ثبت في المحبة ودامت، ولهذا قال: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ وهذا في القلب، ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ أيضاً في القلب، لكن إذا زين الشيء المحبوب للإنسان فإنه يستمر عليه ويثبت عليه ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ كرّه إليكم الكفر الذي هو مقابل الإيمان، والفسوق الذي هو مقابل الاستقامة، والعصيان الذي هو مقابل الإذعان، وهذا تدرج من الأعلى إلى ما دون: فالكفر أعظم من الفسق، والفسق أعظم من العصيان، فالكفر هو الخروج من الإسلام بالكلية، وله أسباب معروفة في كتب أهل العلم ذكرها الفقهاء ـ رحمهم الله ـ في باب أحكام المرتد، وأما الفسق فهو دون الكفر، لكنه فعل كبيرة، مثل أن يفعل الإنسان كبيرة من الكبائر ولم يتب منها، كالزنا، وشرب الخمر، والسرقة، والقذف، وما أشبه ذلك، والعصيان: هو الصغائر التي تكفَّر بالأعمال الصالحة، كما قال النبي ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان،**

مكفِّرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»[١]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾. أولئك: المشار إليه من حبب الله إليهم الإيمان وزيَّنه في قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ يعني الذين سلكوا طريق الرشد، والرشد في الأصل: حسن التصرف، وهو في كل موضع بحسبه، فالرشد في المال أن يحسن الإنسان التصرف فيه، ولا يبذله في غير فائدة، والرشد في الدين: هو الاستقامة على دين الله ـ عز وجل ـ فهؤلاء الذين حبَّب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان هم الراشدون، وهنا تجد هذه الأفعال كلها مضافة إلى الله، ولهذا قال بعدها: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني أن الله أفضل عليكم فضلاً أي تفضُّلاً منه، وليس بكسبكم، ولكنه من الله ـ عز وجل ـ ولكي يُعلم أنّ الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم حيث يجعل الإيمان في الشخص، فمن علم الله منه حُسن النية، وحُسن القصد والإخلاص حبَّب إليه الإيمان وزيَّنه في قلبه، وكرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، ومن لم يعلم الله منه ذلك فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ويقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ فالذنوب سبب للمخالفة والعصيان، فهؤلاء الذين تفضَّل الله عليهم وأنعم عليهم نعمة الدين هم الذين وُفقوا للحق، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ يعني إنعاماً

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان... (٢٣٣) (١٦).

منه عليهم، والنعمة نعمتان: نعمة في الدنيا، ونعمة في الآخرة، فنعمة الدنيا متصلة بنعمة الآخرة في حقهم. وأما الكفار فهم منعَّمون في الدنيا، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي تنعُّم، فهؤلاء الكفار عليهم نعمة في الدنيا، لكن في الآخرة عليهم العذاب واللعنة والعياذ بالله، أما المؤمن فإنه يحصل على النعمتين جميعاً، على نعمة في الدنيا، ونعمة في الآخرة، حتى وإن كان فقيراً أو مريضاً أو عقيماً، أو لا نسب له، فإنه في نعمة، لقول الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

وخلاصة الكلام في النعمة، أن هناك نعمتين: نعمة عامة لجميع الخلق، الكافر والمؤمن، والفاسق والمطيع، ونعمة خاصة للمؤمن، وهذه النعمة الخاصة تتصل بنعمة الدين والدنيا، وأما الأولى فإنها خاصة بنعمة الدنيا فقط لتقوم على الكفار الحجة ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾ هذان إسمان من أسماء الله يقرن الله بينهما دائماً: العلم والحكمة، عليم بكل شيء، قال الله تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾. وقال تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾. فعلم الله تعالى محيط بكل شيء، والإنسان إذا علم أن الله محيط بكل شيء حتى ما يضمره في قلبه، فإنه يخاف ويرهب ويهرب من الله إليه ـ عز وجل ـ ولا يقول قولاً يغضب الله، ولا يفعل فعلاً يغضب الله، ولا يضمر عقيدة تغضب الله؛ لأنه يعلم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم ذلك، لا يخفى عليه، وأما الحكيم فهو ذو الحكمة البالغة، والحكمة هي أن جميع ما يحكم به جل وعلا موافق ومطابق للمصالح، ما من شيء يحكم الله به إلا وهو حكمة عظيمة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾. وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾. فمعنى الحكيم، أي ذو الحكمة البالغة، وله معنى آخر وهو: ذو الحكم التام، فإن الله تعالى له الحكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾. وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ولا أحد يحكم بهواه ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ طائفتان مفردها طائفة، وهي الجماعة من الناس، وقوله: ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ جمع، وإنما جمع لأن الطائفة تشتمل على أفراد كثيرين، فلذلك صح أن يعود

الضمير على مثنى؛ مراعاة للمعنى، وإلا لكان مقتضى اللغة أن يقول: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلا)، ليطابق الضمير مرجعه لكنه عاد إليه بالمعنى.

والاقتتال بين المؤمنين له أسباب متعددة، والشيطان قد يئس أن يُعبد في جزيرة العرب، ولكنه رضي في التحريش بينهم[1]، يحرش بينهم حتى يكون بعضهم يقتل بعضاً، فإذا حصل الاقتتال فالواجب على المؤمنين الآخرين الصلح بينهما، ولهذا قال: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾، أي اسعوا إلى الصلح بكل وسيلة حتى ولو كان ببذل المال، والتنازل عن الحق لأحدهما عن الآخر؛ لأن الصلح لابد فيه من أن يتنازل أحد الطرفين عما يريد من كمال حقه، وإلا لما تم الصلح، ولهذا لما قال الله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ وقال: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾. لأن كل إنسان يريد أن يتم قوله فلابد من التنازل، فإذا أصلحنا بينهما ثم حصل بغي قال الله عز وجل: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ يعني لو فرض أنه بعد الصلح عادت إحدى الطائفتين تقاتل الأخرى فهنا لا صلح، بل نقاتل التي تبغي ﴿حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي ترجع إليه، وأمر الله يعني دينه وشرعه، فانظر في أول الأمر الإصلاح، فإذا تم الصلح وبغت إحداهما على الأخرى، وجب أن نساعد المبغي عليها، فنقاتل معها ﴿فَإِن فَاءَتْ﴾ فإنه يجب الكف عن قتالهم، ولا يجوز أن نجهز على جريح، ولا أن نتبع مدبراً، ولا أن نسلب مالاً

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس... (٢٨١٢).

ولا أن نسبي ذرية، لأن هؤلاء مؤمنون، ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ أي: فإن فاءت إلى أمر الله بعد أن قاتلناها ورجعت ووضعت الحرب، وجب أن نصلح بينهما بالعدل، وهذا غير الإصلاح الأول، الإصلاح الأول لوقف القتال، وهذا الإصلاح بالتقدير فننظر ماذا تلف على كل طائفة، ثم نسوي بينهما، فمثلاً إذا كانت إحدى الطائفتين أتلفت على الأخرى ما قيمته مليون ريال، والثانية أتلفت على الأخرى ما قيمته مليون ريال، فحينئذ تعادل الطائفتان، فإن كانت إحداهما أتلفت على الأخرى ما قيمته ثمانمائة ألف ريال، والأخرى أتلفت ما قيمته مليون فالفرق مائتا ألف ريال تحملها على الأخرى التي أتلفت ما قيمته مليون، ولهذا قال: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ أي يحب العادلين، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن المقسطين على منابر من نور عن يمين الله عز وجل، الذين يعدلون في أهليهم، وما ولوا[1] من أمور المسلمين، ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ هذا كالتعليل لقوله: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ يعني إنما أوجب الله علينا الإصلاح بين الطائفتين المقتتلتين؛ لأن المؤمنين إخوة. الطائفتان المقتتلتان هما أخوان، ونحن أيضاً إخوة لهم حتى مع القتال.

فإذا قال قائل: أليس النبي ﷺ قد قال: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»[2] والكافر ليس أخاً للمؤمن؟

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر... (١٨٢٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر=

فالجواب أن يقال: إن الكفر الذي ذكره النبي عليه الصلاة والسلام هو كفر دون كفر، فليس كل ما أطلق الشرع عليه أنه كفر يكون كفراً، فهنا صرح الله ـ عز وجل ـ بأن هاتين الطائفتين المقتتلتين إخوة لنا مع أن قتال المؤمن كفر. فيقال: هذا كفر دون كفر، وقال النبي ﷺ: «**اثنتان في الناس هما بهما كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت**»(١) ومعلوم أن الطاعن في النسب والنائح على الميت لا يكفر كفراً أكبر، فدل ذلك على أن الكفر في شريعة الله في الكتاب وفي السنة كفران: كفر مخرج عن الملة، وكفر لا يخرج عن الملة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وفي هذا من الحمل على العطف على هاتين الطائفتين المقتتلتين ما هو ظاهر في قوله: ﴿إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ كما أنك تصلح بين أخويك الأشقاء من النسب، فأصلح بين أخويك في الإيمان ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ يعني اتقوا الله تعالى بأن تفعلوا ما أمركم به وتتركوا ما نهاكم عنه؛ لأنكم إذا قمتم بهذا فقد اتخذتم وقاية من عذاب الله، وهذه هي التقوى، وعلى هذا كلما سمعت كلمة تقوى في القرآن فالمعنى أنها اتخاذ الوقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ أي ليرحمكم الله ـ عز وجل ـ إذا اتقيتموه.

= (٤٨) ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: سباب المسلم فسوق وقتاله كفر (٦٤).

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة (٦٧).

ثم قال الله ـ عز وجل ـ في جملة ما بيّن الله لعباده من الآداب والأخلاق الفاضلة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾. السخرية: هي الاستهزاء والازدراء، ومن المعلوم أن الله تعالى جعل الناس في هذه الحياة الدنيا طبقات، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾ أي ليسخِّر بعضهم بعضاً في المصالح، وليس المراد هنا الاستهزاء، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾ إذا ثبت هذا التفضيل بين الناس فهم يتفاضلون في العلم، فبعضهم أعلم من بعض في علوم الشريعة، وعلوم الوسيلة إلى علوم الشريعة كعلوم اللغة العربية من النحو والبلاغة وغيرها، وهم يتفاضلون في الرزق، فمنهم من بسط له في رزقه، ومنهم من قَدَرَ عليه في رزقه، وهم يتفاضلون في الأخلاق، فمنهم ذوي الأخلاق الفاضلة العالية، ومنهم دون ذلك، وهم يتفاضلون في الخلقة، منهم السوي الخلقة، ومنهم من دون ذلك، ويتفاضلون كذلك في الحسب، منهم من هو ذو حسب ونسب، ومنهم دون ذلك، فهل يجوز لأحد أن يسخر ممن دونه؟ يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ فيخاطبنا ـ جل وعلا ـ بوصف الإيمان، وينهانا أن يسخر بعضنا من بعض؛ لأن المفضِّل هو الله ـ عز وجل ـ وإذا كان هو الله لزم من سخريتك بهذا الشخص الذي هو دونك أن تكون ساخراً بتقدير الله ـ عز وجل ـ

وإلى هذا يوحي قول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر**»(١) . وفي الحديث القدسي: «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار**»(٢) . فلماذا تسخر من هذا الرجل الذي هو دونك في العلم أو في المال، أو في الخُلُق، أو في الخلقة، أو في الحسب، أو في النسب، لماذا تسخر منه؟ أليس الذي أعطاك الفضل هو الله الذي حرمه هذا ـ في تصورك ـ فلماذا، ولهذا قال ـ عز وجل ـ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ رب ساخر اليوم مسخوراً منه في الغد، وربما مفضول اليوم يكون فاضلاً في الغد، وهذا شيء مشاهد، وفي بعض الآثار يروى: «**من عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله**»(٣) . وفي الآثار أيضاً: «**لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك**»(٤) . إذن يجب على الإنسان أن يتأدب بما أدبه الله به، فلا يسخر من غيره عسى أن يكون خيراً منه، ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ ونص على النساء والرجال بالتفصيل، حتى لا يقول أحد: إن هذا خاص بالرجال، لو ذكر الرجال وحدهم، أو خاص

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦) (٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾ الآية (٤٨٢٦) ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب رقم ٥٣ (٢٥٠٥) وقال: هذا حديث غريب وليس إسناده بمتصل. وقال الألباني في ضعيف الجامع: موضوع (٥٧١٠).

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب رقم ٥٤ (٢٥٠٦) وقال: هذا حديث حسن غريب، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٢٤٥).

بالنساء وحدهن، وبهذا نعرف الفرق بين القوم والنساء. إذا جمع بين القوم والنساء فالقوم هم الرجال والنساء هن الإناث، وإن ذكر القوم وحدهم شمل الرجال والنساء، مثل ما يذكر في الرسل عليهم الصلاة والسلام أنهم أرسلوا إلى قومهم فهو يشمل الذكور والإناث، لكن إذا ذكر القوم والنساء صار النساء هن الإناث، والقوم هم الذكور.

وهذا الأدب عام لجميع الأمة، ويجب على كل طالب علم أن يكون أول من يمتثل أمر الله ـ عز وجل ـ ويجتنب نهيه؛ لأنه مسؤول عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أنه كغيره من المكلفين.

والثاني: أن طالب العلم قدوة، أي عمل يعمله فسوف يقتدي به الناس، ويحتجون به، فإذا كان طالب العلم هو الذي يسخر من العلماء أو من دون العلماء فهذه بلية في الواقع، فالواجب على الإنسان إذا خالف غيره أن يلتمس له العذر، ثم يتصل بهذا المخالف ويبحث معه، فربما يكون الحق مع من خالفه ويناقشه بأدب واحترام وهدوء، حتى يتبين الحق، وأما سخريته بما خالف رأيه أو رأي شيخه فهذا غلط، وكل إنسان يخالفك في قولك فإن الواجب عليك أن تحمله على أحسن المحامل وأن هذااجتهاده، وأن الله ـ عز وجل ـ سيأجره على اجتهاده إذا أخطأ، وإن أصاب فله أجران، ثم تتصل به وتناقشه، ولا تستحي، فربما تبين أن الحق معك فتكون لك منة على هذا الرجل، وربما يتبين لك أن الحق معه فيكون له منة عليك، وأما السخرية فهذا ليس من

آداب طالب العلم، بل ولا من آداب المؤمن مع أخيه.

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ اللمز: العيب، بأن تقول: فلان بليد، فلان طويل، فلان قصير، فلان أسود، فلان أحمر، وما أشبه ذلك مما يعد عيباً، وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ فسَّر بمعنيين:

المعنى الأول: لا يلمز بعضكم بعضاً، لأن كل واحد منا بمنزلة نفس الإنسان، أخوك بمنزلة نفسك، فإذا لمزته فكأنما لمزت نفسك.

والمعنى الثاني: إن المعنى لا تلمز أخاك، لأنك إذا لمزته لمزك، فلمزك إياه سبباً لكونه يلمزك، وحينئذ تكون كأنك لمزت نفسك، وعليه قول النبي ﷺ: «**لعن الله من لعن والديه**» فقالوا: يا رسول الله كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[1] وعلى كل حال في الآية تحريم عيب المؤمنين بعضهم بعضاً، فلا يجوز لك أن تعيب أخاك بصفة خَلْقية أو صفة خُلُقية، أما الصفة الخَلْقية التي تعود إلى الخلقة فإن عيبك إياه في الحقيقة عيب لخالقه ـ عز وجل ـ فالذي خلق الإنسان هو الله عز وجل، والذي جعله على هذه الصفة هو الله عز وجل، والإنسان لا يمكن أن يكمل خِلقته فيكون الطويل قصيراً، أو القصير طويلاً، أو القبيح جميلاً، أو الجميل قبيحاً؟ فأنت إذا لمزت إنساناً وعبته في خلقته فقد عبت الخالق في الواقع، ولهذا لو وجدنا جداراً مبنيًّا مائلاً وعبنا الجدار فعيبنا لباني الجدار، إذن إذا عبت إنساناً في خلقته فكأنما عبت الخالق ـ عز وجل ـ

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٩٠).

فالمسألة خطيرة، أما عيبه بالخُلُق بأن يكون هذا الرجل سريع الغضب، شديد الانتقام، بذيء اللسان، فلا تعبه؛ لأنه ربما إذا عبته ابتلاك الله بنفس العيب، ولهذا جاء في الأثر: «**لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك**»[1] لكن إذا وجدت فيه سوء خُلُق فالواجب النصيحة، أن تتصل به إن كان يمكن الاتصال به، وتبين له ما كان به من عيب، أو أن تكتب له كتاباً: رسالة باسمك أو باسم ناصح مثلاً، ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ يعني لا ينبز بعضكم بعضاً باللقب، فتقول له مثلاً: يا فاسق، يا فاجر، يا كافر، يا شارب الخمر، يا سارق، يا زاني، لا تفعل هذا؛ لأنك إذا نبزته باللقب فإما أن يكون اللقب فيه، وإما أن لا يكون فيه، فإن كان فيه فقد ارتكبت هذا النهي، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّه وارتكبت النهي أيضاً، ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ يعني بئس لكم أن تنقلوا من وصف الإيمان إلى وصف الفسوق، فإذا ارتكبتم ما نهى الله عنه صرتم فسقة، فالإنسان إذا ارتكب كبيرة واحدة من الكبائر صار فاسقاً، وإذا ارتكب صغيرة وكررها وأصرّ عليها صار فاسقاً، فلا تجعل نفسك بعد الإيمان وكمال الإيمان فاسقاً، هذا معنى قوله: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ لأن هذه الجملة جملة إنشائية تفيد الذم، وما أفاد الذم فإنه منهي عنه بلا شك، فاستفدنا من هذه الآية الكريمة تحريم السخرية، وتحريم لمز الغير، وتحريم التنابز بالألقاب، وأن من صنع ذلك فهو فاسق بعد أن كان مؤمناً، والفسق ليس وصفاً على اللسان فقط، بل

---

(١) تقدم تخريجه ص (٣٨).

يترتب عليه أحكام، فمثلاً قال العلماء: الفاسق لا يصح أن يكون وليًّا على ابنته، فيزوجها من يصح أن يكون وليًّا من أقاربها، فإن لم يكن لها أقارب أو خافوا من أبيها إن زوَّجها فيزوِّجها القاضي، والفاسق لا تقبل شهادته؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ فيشهد عند القاضي بحق، فيقول القاضي: لا نقبلك؛ لأنك فاسق، والفاسق لا يصلح أن يكون إماماً بالناس في الصلاة، والفاسق الذي يظهر فسقه لا يصح أذانه، كل هذا قال به العلماء رحمهم الله، وإن كان في بعض هذه المسائل خلاف، لكني أقول: إن كلمة فاسق ليست بالأمر الهين حتى يقولها الإنسان ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ﴾ ولهذا ذمه الله، فقال: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ يعني من كان يفعل هذه الأشياء الثلاثة، ولم يتب فأولئك هم الظالمون، فالذي لا يتوب يكون ظالماً، والظلم كما قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ «**ظلمات يوم القيامة**»[1]، وإذا كان المؤمنون يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم وبين أيمانهم، فهؤلاء الظلمة ليس لهم نور، فيجب الحذر مما نهى الله ـ عز وجل ـ لأنك أيها العبد، عبد لله تأتمر بأمره، وتنتهي عن نهيه.

فإن قال قائل: ما معنى التوبة؟

فنقول: التوبة من العبد أن ينتقل من معصية الله إلى طاعته، والتوبة من الله أن يقبل الله من العبد فيبدل سيئاته حسنات.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب الظلم ظلمات يوم القيامة (٢٤٤٧) ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٩).

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ إلى أن قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾، وقد تطلق التوبة من الله على توفيقه العبد إلى التوبة، فلله تعالى على العبد توبتان: توبة بمعنى التوفيق للتوبة، وتوبة بمعنى قبول التوبة. والدليل على هذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أي وفقهم للتوبة فتابوا، أما التوبة الأخرى وهي قبول توبة العبد، فمثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وتوبة العبد تحتاج إلى شروط، إذ ليس كل توبة مقبولة، وليس كل من قال: أنا تائب إلى الله يكون تائباً، بل لابد من شروط:

الشرط الأول: أن يخلص لله تعالى في التوبة، أي لا يحمله على التوبة أنه خائف من أبيه، أو خاف من أخيه الأكبر، أو خاف من السلطات، أو تاب لأجل أن يقال: فلان مستقيم، والإخلاص لله في التوبة أن يكون الحامل له على التوبة طلب رضى الله ـ عز وجل ـ والوصول إلى كرامته، والإخلاص شرط في كل عبادة.

الشرط الثاني: الندم على ما فعل، ومعنى يندم أي: يتحسر، ويتكدر أنه وقع منه هذا الشيء. ويخجل من الله عز وجل.

الشرط الثالث: أن يقلع عن الذنب في الحال. وذلك بأن

يأتي بالواجب إن أمكن تداركه، أو بدله إذا لم يكن تداركه، وأن يقلع عن المحرم إذا كان الذنب فعلاً محرماً، فإذا كان الذنب في حق الإنسان بأن يكون شخص سرق من إنسان مالاً، والسرقة حرام، وتاب الرجل وندم وعزم على ألا يعود، فلابد أن يوصل هذا المال إلى صاحبه، ولا يمكن أن تتم التوبة إلا بهذا، فإذا قال: أخشى إن ذهبت إلى هذا الرجل وأعطيته المال أن يترتب على ذلك ضرر عليَّ، وعلى سمعتي، وربما أُحبس، وربما يدعي أن المبلغ المسروق أكثر، وأنا قد تبت إلى الله قبل أن يقدر عليَّ فكيف تكون الحال؟ فهل يجوز أن يتصدق به عن صاحبه؟

والجواب: لا يجوز، لأن صاحبه معلوم، أما لو كان مجهولاً كما لو سرق من أناس نسيهم أو جهلهم ولا يدري أين هم، فهنا يتصدق بما سرق عنهم، لكن إذا كان معلوماً لابد أن يوصله، ويمكن أن يعطي شخصاً يثق به، ويقول: يا فلان، إني سرقت هذا المال من فلان، وقد ندمت وتبت إلى الله، ومن فضلك أعطه إياه، وقل له: هذه دراهم من إنسان تستحقها عليه، وهو الآن يبذلها، ولكن لابد أن يكون هذا الرجل الذي وكله أن يوصل الدراهم موثوقاً عند صاحب المال وأميناً لأنه لو لم يكن موثوقاً لاتهمه صاحب المال، وقال: أنت السارق والمسروق أكثر، فلابد أن يكون ثقة، وإذا لم يمكن فيمكن أن ترسل بالبريد، ويقال: هذه دراهم من شخص تستحقها عليه، وفي هذه الحال من المعلوم أنك لن تكتب اسمك، وأيضاً يحسن أن لا تكتبها بقلمك، لأنه ربما يمر عليه ويعرف خطك يوماً من الدهر، هذا إذا

كان الحق مالياً، أما إذا كان الحق غير مالي، مثل أن يكون شخص اغتبته، في مجلس أو مجالس، فكيف تكون التوبة من هذا؟ قال كثير من العلماء: لابد أن تذهب إليه، وتستحله، وإلا فسيأخذ من حسناتك يوم القيامة، فاذهب إليه وقل له: يا فلان سامحني.

وقال بعض العلماء: لا يجب أن تستحله، وإنما تستغفر له وتثني عليه في المجالس التي كنت تغتابه فيها، والحسنات يذهبن السيئات، وقد جاء في الحديث: «**كفارة من اغتبته أن تستغفر له**»[1].

القول الثالث: وهو قول وسط، ولعله الصواب: إن كان صاحبك الذي اغتبته قد علم بذلك فلابد من أن تذهب إليه وتستحله، لأنه لن يزول ما في قلبه حتى تستحله، أما إذا لم يعلم فيكفي أن تستغفر له، وأن تثني عليه في المجالس التي كنت تغتابه فيها، والله غفور رحيم، وينبغي لمن جاء إليه أخوه يعتذر منه أن يسامحه، ولا ينبغي أن يناقش ويرى ما الذي حصل، لأنه ربما يذكر شيئاً كبيراً فتعجز نفس صاحبه عن أن يحلله، لأن النفس أمارة بالسوء، فالأولى أن لا يسأل، وأن يحتسب الأجر من الله، ويقول: هذا جاء معتذراً، ومن عفا فأجره على الله، ويرجى في المستقبل أن تعود هذه الغيبة ثناء حسناً، وهذا التفصيل هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وهو الحق، وهو أنه إن كان

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (رقم ٢٩٣)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٦٧٨٦) والخطيب البغدادي في تاريخه (٧/ ٣٠٣).

عالماً فلابد أن تستحله حتى يزول ما في قلبه، وإن كان غير عالم فلا حاجة إلى استحلاله، هذا بالنسبة للذي اغتاب غيره، أما الذي اغتيب وطُلب منه السماح فالذي نرى أن الأفضل والأكمل أن يحلله، لأنه أخوه جاءه معتذراً نادماً فليحلله. وثقوا أنه إذا حلله ستكون كبيرة وعظيمة على الشخص الذي استحله، سيرى أنه أهدى إليه أكبر هدية، فتنقلب الكراهية التي كانت من قبل إلى محبة وألفة، وهذا هو المطلوب من المسلمين أن يكون بعضهم لبعض إلفاً محبًّا وادًّا.

الشرط الرابع: أن يعزم على أن لا يعود في المستقبل، أي يكون في نفسه نية عازمة جازمة أن لا يعود لهذا الذنب في المستقبل، فإن تاب وهو يقول: ربما أنه يطرأ علي أن أفعل الذنب، فهذا التائب لا تصح توبته، لأنه لابد أن يعزم على أن لا يعود في المستقبل.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقت قبولها، لأنه يأتي وقت يسد باب التوبة، ولا تقبل من الإنسان، والباب الذي يغلق عن التائبين عام وخاص، أما العام: فهو طلوع الشمس من مغربها، فسيأتي زمن تخرج الشمس من المغرب، والذي يردها الله ـ عز وجل ـ لو اجتمعت الخلائق كلها على أن تردها ما ردتها، لكن يردها الله ـ عز وجل ـ الذي أمره ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ ترجع هذه الشمس العظيمة إذا غربت من مغربها، وإذا طلعت الشمس من مغربها آمن كل من على الأرض، اليهودي، والنصراني، والبوذي، والشيوعي، وغيرهم كلهم

يؤمنون؛ لأنهم يرون شيئاً واضحاً في الدلالة على الرب ـ عز وجل ـ لكن لا ينفعهم الإيمان، لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، وفسَّر النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ أنه خروج الشمس من مغربها[1]، وحينئذ لا تنفع التوبة، مع أن الناس كلهم يؤمنون، لكن لا تنفع، لأنه انسد الباب، وإذا سُدَّ كيف يدخل الناس؟

أما الخاص فهو أن يحضر الإنسان أجله، فإذا حضر الإنسان الأجل فلا تنفع التوبة، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾، وإني أسأل هل أحد منا يعلم متى يموت؟! أبداً، ربما يموت الإنسان وهو على مكتبه، أو وهو على فراشه، أو وهو في صلاته، في أي لحظة، وإذا كنا نعلم هذا ونوقن به، فالواجب أن نبادر بالتوبة لئلا يفجأنا الموت، فينسد الباب، ولهذا كانت التوبة مما يجب على الفور، فلنبادر بالتوبة إلى الله ـ عز وجل ـ ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾، هذا الخبر من الله ـ عز وجل ـ له أمر واقع يدل عليه لما أغرق الله تعالى فرعون وقومه، قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يعني

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى... (رقم ٢٩٤١).

الله ـ عز وجل ـ ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فقيل له: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾ أي: الآن تتوب؟ لماذا لم تتب قبل؟ ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ فلم تقبل توبته ـ والعياذ بالله ـ وإذا تاب العبد فإن الله يفرح بهذا فرحاً عظيماً لا يتصوره إنسان، قال النبي ﷺ: «**لله أشد فرحاً بتوبة أحدكم**» أو قال «**بتوبة عبده من أحدكم براحلته**» الراحلة هي البعير «**كان عليه طعامه وشرابه فأضلها**» يعني ضاعت عنه «**فطلبها فلم يجدها، فنام تحت شجرة ينتظر الموت**» ضعفت قواه وخارت واضطجع ينتظر الموت «**فبينما هو كذلك إذا بناقته متعلقاً زمامها بالشجرة فأخذ الزمام فقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك**» يريد أن يقول: اللهم أنت ربي وأنا عبدك لكنه «**أخطأ من شدة الفرح**»[1] وهل تجدون فرحاً أعظم من هذا؟ لا، لأنه لا فرح أشد من حياة بعد الإشراف على الموت، فالرب ـ عز وجل ـ يفرح بتوبة أحدنا أشد من فرحة هذا الرجل بناقته.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ﴾. تصدير الخطاب بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يدل على العناية به، ولهذا روي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: إذا سمعت الله يقول ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فارعها سمعك: فإما خير تؤمر به، وإما شر تُنهى عنه. ويعني: وإما خير تحصل به العبرة والاتعاظ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ﴾ وهنا يقول ـ عز وجل ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة (٦٣٠٨) ومسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها (٢٧٤٤).

ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾، الظن: هو أن يكون لدى الإنسان احتمالان يترجح أحدهما على الآخر، وهنا عبر الله تعالى بقوله: ﴿كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ولم يقل: اجتنبوا الظن كله، لأن الظن ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ظن خير بالإنسان، وهذا مطلوب أن تظن بإخوانك خيراً ماداموا أهلاً لذلك، وهو المسلم الذي ظاهره العدالة، فإن هذا يُظن به خيراً، ويُثنى عليه بما ظهر لنا من إسلامه وأعماله.

القسم الثاني: ظن السوء، وهذا يحرم بالنسبة لمسلم ظاهره العدالة، فإنه لا يحل أن يظن به ظن السوء، كما صرح بذلك العلماء، فقالوا ـ رحمهم الله ـ: يحرم ظن السوء بمسلم ظاهره العدالة. أما ظن السوء بمن قامت القرينة على أنه أهل لذلك، فهذا لا حرج على الإنسان أن يظن السوء به، ولهذا من الأمثال المضروبة السائرة: (احترسوا من الناس بسوء الظن)، ولكن هذا ليس على إطلاقه، كما هو معلوم، وإنما المراد: احترسوا من الناس الذين هم أهل لظن السوء فلا تثقوا بهم، والإنسان لابد أن يقع في قلبه شيء من الظن بأحد من الناس لقرائن تحتف بذلك، إما لظهور علامة في وجهه، بحيث يظهر من وجهه العبوس والكراهية في مقابلتك وما أشبه ذلك، أو من أحواله التي يعرفها الإنسان منه أو من أقواله التي تصدر منه فيظن به ظن السوء، فهذه إذا قامت القرينة على وجوده فلا حرج على الإنسان أن يظن به ظن السوء.

فإذا قال قائل: أيهما أكثر الظن المنهي عنه أم الظن المباح؟

قلنا: الظن المباح أكثر؛ لأنه يشمل نوعاً كاملاً من أنواع الظن، وهو ظن الخير، ويشمل كثيراً من ظن السوء الذي قامت القرينة على وجوده؛ لأنه إذا لم يكن هناك قرينة تدل على هذا الظن السيء، فإنه لا يجوز للإنسان أن يتصف بهذا الظن، ولهذا قال: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ولم يقل: أكثر الظن، ولا كل الظن، بل قال: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وقد توحي هذه الجملة أن أكثر الظن ليس بإثم، وهو منطبق تماماً على ما بيناه وقسمناه، أن الظن نوعان: ظن خير، وظن سوء، ثم ظن السوء لا يجوز إلا إذا قامت القرينة على وجوده، ولهذا قال: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ فما هو الظن الذي ليس بإثم؟ نقول: هو ظن الخير، وظن السوء الذي قامت عليه القرينة هذا ليس بإثم، لأن ظن الخير هو الأصل، وظن السوء الذي قامت عليه القرينة هذا أيضاً أيدته القرينة. ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ التجسس طلب المعايب من الغير، أي أن الإنسان ينظر ويتصنت ويتسمع لعله يسمع شرًّا من أخيه، أو لعله ينظر سوءاً من أخيه، والذي ينبغي للإنسان أن يعرض عن معايب الناس، وأن لا يحرص على الاطلاع عليها، ولهذا روي عن النبي ﷺ من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لا يخبرني أحد عن أحد شيئاً**»، يعني شيئاً مما يوجب ظن السوء به «**فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**»[1] فلا ينبغي للإنسان أن يتجسس، بل يأخذ الناس على

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في رفع الحديث من المجلس (٤٨٦٠) والترمذي، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ (٣٨٩٦) وقال: هذا حديث غريب=

ظاهرهم، ما لم يكن هناك قرينة تدل على خلاف ذلك الظاهر، وفي هذه الجملة من الآية قراءة أخرى (ولا تحسسوا) فقيل: معناهما واحد، وقيل: بل لكل واحدة منهما معنى، والفرق هو أن التجسس أن يحاول الإنسان الاطلاع على العيب بنفسه، والتحسس أن يلتمسه من غيره، فيقول للناس مثلاً: ما تقولون في فلان، ما تقولون في فلان؟ وعلى هذا فتكون القراءتان مبينتين لمعنيين كلاهما مما نهى الله عنه، لما في هذا من إشغال النفس بمعايب الآخرين، وكون الإنسان ليس له هم إلا أن يطلع على المعايب، ولهذا من ابتلي بالتجسس أو بالتحسس تجده في الحقيقة قلقاً دائماً في حياته، وينشغل بعيوب الناس عن عيوبه، ولا يهتم بنفسه، وهذا يوجد كثيراً من بعض الناس الذين يأتون إلى فلان وإلى فلان، ما تقول في كذا؟ ما تقول في كذا؟ فتجد أوقاتهم ضائعة بلا فائدة، بل ضائعة بمضرة؛ لأن ما وقعوا فيه فهو معصية لله ـ عز وجل ـ هل أنت وكيل عن الله ـ عز وجل ـ تبحث عن معايب عباده، والعاقل هو الذي يتحسس معايب نفسه، وينظر معايب نفسه ليصلحها، لا أن ينظر في معايب الغير ليشيعها ـ والعياذ بالله ـ ولهذا قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فعلى كل حال هذه آداب وتوجيه من الله ـ عز وجل ـ إلى أخلاق فاضلة، مأمور بها، وأخلاق منهي عنها.

﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ الغيبة فسرها النبي ﷺ بقوله:

= من هذا الوجه.

«**ذكرك أخاك بما يكره**» وهذا تفسير من الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو أعلم الناس بمراد الله ـ تبارك وتعالى ـ في كلامه: «**ذكرك أخاك بما يكره**»، سواء كان ذلك في خلقته، أو خلقه، أو في أحواله، أو في عقله، أو في ذكائه، أو في غير ذلك، مثل أن تقول: فلان قبيح المنظر، دميم، فيه كذا، فيه كذا، تريد معايب جسمه، أو في خُلقه بأن تقول: فلان أحمق، سريع الغضب، سيء التصرف، وما أشبه ذلك، أو في خلقته الباطنة كأن تقول: فلان بليد، فلان لا يفهم، فلان سيء الحفظ، وما أشبه هذا، ورسول الله ﷺ حدها بحد واضح بيّن «**ذكرك أخاك بما يكره**»، قالوا: يا رسول الله، أرأيت إن كان فيه ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»[1] أي جمعت بين البهتان والغيبة، وعلى هذا فيجب الكف عن ذكر الناس بما يكرهون، سواء كان ذلك فيهم، أو ليس فيهم، واعلم أنك إذا نشرت عيوب أخيك فإن الله سيسلط عليك من ينشر عيوبك، جزاءً وفاقاً، لا تظن أن الله غافل عما يعمل الظالمون، بل سيسلط عليه من يعامله بمثل ما يعامل الناس، لكن إذا كانت الغيبة للمصلحة فإنه لا بأس بها، ولا حرج فيها، ولهذا لما جاءت فاطمة بنت قيس إلى رسول الله ﷺ تستشيره في رجال خطبوها، بيَّن معايب من يرى أن فيه عيباً، فقد خطبها ثلاثة: معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ وأبو جهم بن حارث، وأسامة بن زيد رضي الله عنهم، فقال لها النبي ﷺ: «**أما معاوية فصعلوك لا مال**

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة (٢٥٨٩).

له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، انكحي أسامة بن زيد»[١] ، فذكر النبي ﷺ عيباً في هذين الرجلين، للنصيحة وبيان الحق، ولا يعد هذا غيبة بلا شك، ولهذا لو جاء إنسان يستشيرك في معاملة رجل، قال: فلان يريد أن يعاملني ببيع، أو شراء، أو إجارة، أو في تزويج أو ما أشبه ذلك، وأنت تعرف أن فيه عيباً فإن الواجب أن تبين له ذلك، ولا يعد هذا كما يقول العامة من قطع الرزق، بل هو من بيان الحق، فإذا عرفت أن في هذا الرجل الذي يريد أن يعامله هذا الشخص ببيع أنه مماطل كذاب محتال، فقل له: يا أخي لا تبع لهذا إنه كذاب مماطل، إنه محتال، ربما يدعي أن في السلعة عيباً وليس فيها عيب، وربما يدعي الغبن وليس مغبوناً، وما أشبه ذلك فتقع معه في صراع ومخاصمة، أو جاء إنسان يستشيرك في شخص خطب منه ابنته، والشخص ظاهره العدالة والاستقامة، وظاهره حسن خلق، ولكنك تعرف فيه خصلة معيبة فيجب عليك أن تبين هذا، فمثلاً: تعرف أن في هذا الرجل كذباً، أو تعرف أنه يشرب الدخان لكنه يجحده ولا يبينه للناس، يجب أن تبين تقول: هذا الرجل ظاهره أنه مستقيم، وأنه خلوق، وأنه طيب، ولكن فيه العيب الفلاني، حتى لو كان هذا متجهاً إلى أن يزوجه، ثم هو بعد ذلك بالخيار؛ لأنه سيدخل على بصيرة، وعلى كل حال يستثنى من الغيبة وهي ذكر الرجل بما يكره، إذا كان على سبيل النصيحة، ومنه ما يذكر في كتب الرجال مثلاً، فلان بن فلان سيء الحفظ، فلان بن فلان كذوب، فلان بن

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها (١٤٨٠).

فلان فيه كذا وكذا، يذكرون ما يكره من أوصافه، نصيحة لله تعالى ورسوله ﷺ فإذا كان الغرض من ذكرك أخاك ما يكره النصيحة فلا بأس.

كذلك لو كان الغرض من ذلك الظلم والتشكي، فإن ذلك لا بأس به، مثل أن يظلمك رجل وتأتي إلى رجل يستطيع أن يزيل هذه المظلمة، فتقول: فلان أخذ مالي، فلان جحد حقي، وما أشبه ذلك، فلا بأس، فإن هند بنت عتبة جاءت إلى النبي ﷺ تشتكي زوجها أبا سفيان، تقول: إنه رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني وولدي، فقال لها الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**»[1] فذكرت وصفاً يكرهه أبو سفيان بلا شك ولكنه من باب التظلم والتشكي، وقد قال الله تعالى في كتابه ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ يعني فله أن يجهر بالسوء من القول لإزالة مظلمته.

ولكن هل يجوز مثل هذا إذا كان قصد الإنسان أن يخفف عليه وطأة الحزن والألم الذي في قلبه بحيث يحكي الحال التي حصلت على صديق له، وصديقه لا يمكن أن يزيل هذه المظلمة لكنه يفرج عنه أو لا؟

الظاهر أنه يجوز؛ لعموم قوله تعالى: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ وهذا يقع كثيراً، كثيراً ما يؤذى الإنسان، ويجنى عليه بجحد مال أو أخذ مال، أو ما أشبه ذلك

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه (٥٣٦٤). ومسلم، كتاب الأقضية، باب قضية هند (١٧١٤).

فيأتي الرجل إلى صديقه ويقول: فلان قال في كذا، يريد أن يخفف ما في قلبه من الألم والحسرة، أو يتكلم في ذلك مع أولاده، أو مع أهله، أو مع زوجته أو ما أشبه ذلك، هذا لا بأس به؛ لأن الظالم ليس له حرمة بالنسبة للمظلوم.

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ التقوى يكثر الأمر بها في القرآن الكريم، وكذلك في السنة، فما هي التقوى التي يكثر ورودها في كتاب الله وعلى لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ إنها كلمة عظيمة، إنها تعني الوقاية من عذاب الله، وتكون الوقاية من عذاب الله بأمرين:

الأمر الأول: امتثال أوامر الله ـ عز وجل ـ بأن يقول القائل إذا سمع أمر الله ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فإن هذا هو قول المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ولا تقل: ما الفرق بين كذا وكذا؟ يعني: لماذا يأمر الله بكذا ولا يأمر بكذا، فمثلاً في لحوم الإبل أمر النبي ﷺ أن نتوضأ من لحومها[1]، ولهذا كان أكل لحوم الإبل ناقض للوضوء على القول الراجح من أقوال العلماء، فلا تقل: لماذا يأمرنا بالوضوء من أكل لحم الإبل، ولا يأمرنا بالوضوء من أكل لحم البقر؟ مع أن كل منهما يسمى بدنة، ولا تقل: لماذا تؤمر الحائض بقضاء شهر الصوم ولا تؤمر بقضاء الصلاة، على سبيل التشكيك، ولكن قل: سمعنا وأطعنا.

الأمر الثاني: اجتناب ما نهى الله عنه، فإذا نهى الله عن شيء

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحيض، باب الوضوء من لحوم الإبل (٣٦٠).

فقل: سمعنا وأطعنا، واجتنبنا. وتأمل قول الله ـ عز وجل ـ في الخمر والميسر والأنصاب والأزلام حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾. أي فبعد هذا التبصير والتبيين هل تنتهون أو لا؟ وهذا الاستفهام بمعنى الأمر، أي فانتهوا، ولهذا قال الصحابة رضي الله عنهم: (انتهينا انتهينا)[1]، فصارت التقوى تتحقق بأمرين:

الأول: امتثال أمر الله ـ عز وجل ـ دون تردد.

والثاني: اجتناب نهي الله ـ عز وجل ـ دون تردد.

يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ هو الله سبحانه وتعالى رحيم وهو رحمن، وقد اجتمع الاسمان في أعظم سورة في كتاب الله، في الفاتحة، قال العلماء: إذا ذكر الرحمن وحده كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أو ذكر الرحيم وحده كما في هذه الآية ﴿تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ فمعناهما واحد، يعني أن الرحيم والرحمن ذو الرحمة الواسعة الشاملة، والرحمن إذا ذكر وحده كذلك هو ذو الرحمة الواسعة الشاملة، أما إذا اجتمعا جميعاً فالرحمن باعتبار الوصف، والرحيم باعتبار الفعل، يعني أنه ـ عز وجل ـ ذو رحمة واسعة، وهو أيضاً راحم وموصل الرحمة إلى من يشاء من عباده، كما قال

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة (رقم ٣٠٤٩)، والإمام أحمد (٢/ ٣٥١).

الله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ أسأل الله أن يعمني وجميع إخواننا المسلمين برحمته، وأن يجعلنا من دعاة الخير والإصلاح، إنه على كل شيء قدير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ الخطاب هنا مصدر بنداء الناس عموماً، مع أن أول السورة وجه الخطاب فيه للذين آمنوا، وسبب ذلك أن هذا الخطاب في هذه الآية موجه لكل إنسان؛ لأنه يقع التفاخر بالأنساب من كل إنسان، فيقول ـ عز وجل ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، والخطاب للمؤمن والكافر، والبر والفاجر، ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ من ذكر هو آدم، وأنثى هي حواء، هذا هو المشهور عند علماء التفسير، وذهب بعضهم إلى أن المقصود بالذكر والأنثى هنا الجنس، يعني أن بني آدم خُلقوا من هذا الجنس من ذكر وأنثى، وفي الآية دليل على أن الإنسان يتكون من أمه وأبيه أي يخلق من الأم والأب، ولا يعارض هذا قول الله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ فإذا قلنا: إن المراد بالصلب صلب الرجل، والترائب ترائب المرأة فلا إشكال، وإن قلنا بالقول الراجح: إن الصلب والترائب وصفان للرجل، يعني الماء الدافق هو ماء الرجل، أما المرأة فلا يكون ماؤها دافقاً[1]، وعلى هذا فيكون الإنسان مخلوقاً من ماء الرجل، لكن ماء الرجل وحده لا يكفي، بل لابد أن يتصل بالبويضة التي يفرزها رحم المرأة فيزدوج هذا بهذا، فيكون الإنسان مخلوقاً من

(١) انظر تفسير جزء عم لفضيلة الشيخ رحمه الله تعالى.

الأمرين جميعاً، أي من أبيه وأمه، ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا﴾ أي صيرناكم شعوباً ﴿وَقَبَآئِلَ﴾ فالله تعالى جعل بني آدم شعوباً وهم أصول القبائل، وقبائل وهم ما دون الشعوب، فمثلاً بنو تميم يعتبرون شعباً، وأفخاذ بني تميم المتفرعون من الأصل يسمون قبائل، ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ هل الحكمة من هذا الجعل أن يتفاخر الناس بعضهم على بعض، فيقول هذا الرجل: أنا من قريش، وهذا يقول أنا من كذا، أنا من كذا؟ ليس هذا المراد، المراد التعارف، أن يعرف الناس بعضهم بعضاً، إذ لولا هذا الذي صيره الله ـ عز وجل ـ ما عرف الإنسان من أي قبيلة، ولهذا كان من كبائر الذنوب أن ينتسب الإنسان إلى غير أبيه[1]، لأنه إذا انتسب إلى غير أبيه غير هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي أنهم شعوب وقبائل من أجل التعارف، فيقال: هذا فلان ابن فلان ابن فلان إلى آخر الجد الذي كان أباً للقبيلة، ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ أي: لا لتفاخروا بالأحساب والأنساب، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ ليس الكرم أن يكون الإنسان من القبيلة الفلانية، أو من الشعب الفلاني، الكرم الحقيقي النافع هو الكرم عند الله، ويكون بالتقوى، فكلما كان الإنسان أتقى لله كان عند الله أكرم، فإذا أحببت أن تكون عند الله كريماً، فعليك بتقوى الله ـ عز وجل ـ والتقوى كلها الخير، وكلها البركة، وكلها سعادة في الدنيا

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الحدود، باب من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه (٢٦٠٩ ـ ٢٦١١). وأخرجه البخاري بلفظ: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم فالجنة عليه حرام»، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف (٤٣٢٦، ٤٣٢٧) ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم (٦١ ـ ٦٣).

والآخرة، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾. وما أكثر ما ترد على أسماعنا كلمة التقوى، وليس لفظاً يجري على الألسن ويمر بالآذان بل يجب أن يكون لفظاً عظيماً موقراً معظماً محترماً، ويفوت الإنسان من التقوى بقدر ما خالف فيه أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، فإذا رأينا مثلاً إنساناً يتقدم إلى المسجد ويصلي مع الجماعة ويخشع في صلاته، ويؤديها بكل طمأنينة، وآخر بالعكس يصلي في بيته ويقتصر فيها على الواجب، فالأول أتقى، إذن فهو أكرم عند الله حتى لو كان مولى من الموالي، والآخر من أرفع الناس نسباً، فإن الأتقى لله هو الأكرم عند الله ـ عز وجل ـ وكل إنسان يحب أن يحظى عند السلطان في الدنيا، ويكون أقرب الناس إليه، فكيف لا نحب أن نكون أقرب الناس إلى الله، وأكرمهم عنده؟! المسألة هوى وشيطان، وإلا لكان الأمر واضحاً، فعليك بتقوى الله ـ عز وجل ـ لتنال الكرم عند الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ بكل شيء، لأنه هنا مطلق، ولم يقيد بحال من الأحوال، ﴿خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ الخبرة هي العلم ببواطن الأمور، والعلم بالظواهر لا شك أنه صفة مدح وكمال، لكن العلم بالبواطن أبلغ، فيكون عليم بالظواهر، وخبير بالبواطن، فإذا اجتمع العلم والخبرة صار هذا أبلغ في الإحاطة، وقد يقال إن الخبرة لها معنى زائد عن العلم، لأن الخبير عند الناس هو العليم بالشيء الحاذق فيه، بخلاف الإنسان الذي عنده علم فقط، ولكن ليس عنده حذق، فإنه لا يسمى خبيراً، فعلى هذا يكون الخبير متضمناً لمعنى زائد على العلم، ثم قال الله تعالى:

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴾ الأعراب اسم جمع لأعرابي، والأعرابي هو ساكن البادية كالبدوي تماماً، فالأعراب افتخروا، فقالوا: آمنا آمنا، افتخروا بإيمانهم، فقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ قيل: إن هؤلاء من المنافقين، لقول الله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ﴾ والمنافق مسلم، ولكنه ليس بمؤمن، لأنه مستثنى في الظاهر، إذ إن حال المنافق أنه كالمسلمين، ولهذا لم يقتلهم النبي عليه الصلاة والسلام، مع علمه بنفاقهم مع أنهم مسلمون ظاهراً لا يخالفون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا.

وقيل: إنهم أعراب غير منافقين، لكنهم ضعفاء الإيمان، يمشون مع الناس في ظاهر الشرع، لكن قلوبهم ضعيفة، وإيمانهم ضعيف.

وعلى القول الأول: يكون قوله: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أنه لم يدخل أصلاً، وعلى الثاني: أي لما يدخل الإيمان الدخول الكامل المطلق، ففيهم إيمان لكن لم يصل الإيمان في قلوبهم على وجه الكمال، والقاعدة عندنا في التفسير أن الآية إذا احتملت معنيين، فإنها تحمل عليهما جميعاً إذا لم يتنافيا، فإن تنافيا طلب المرجح.

فالأعراب الغالب عليهم أنهم لا يعرفون حدود ما أنزل الله على رسوله، فيقولون آمنا، فقال الله تعالى يخاطب النبي ﷺ: ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ ووجه ذلك أن الإسلام في القلب، وهو صعب، والإسلام علامة في

الجوارح، وكل إنسان يمكن أن يعمل بجوارحه عملاً متقناً كأحسن ما يكون، فقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن الخوارج أنهم يقرءون القرآن، وأنهم يصلون، وأن الواحد من الصحابة يحقر صلاته عند صلاتهم، وقراءته عند قراءتهم، ومع ذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**إنهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم**»[1] نسأل الله العافية، وأنهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، وهذا يدل على أن الإسلام يستطيعه كل إنسان يمكن أن يصلي ويسجد ويقرأ ويصوم ويتصدق وقلبه خالٍ من الإيمان، ولهذا قال: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وهنا التعبير يقول: ﴿لما يدخل﴾ ولم يقل: (ولم يدخل)، قال العلماء: إذا أتت (لما) بدل (لم) كان ذلك دليلاً على قرب وقوع ما دخلت عليه، فمثلاً إذا قلت: (فلان لمّا يدخلها) أي أنه قريب منها، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾﴾ أي لم يذوقوه، ولكن قريب منه، وهنا قال: (لما يدخل) أي لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولكنه قريب من الدخول، ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ إن أطعتم الله ورسوله بالقيام بأمره واجتناب نهيه فإنه لن ينقصكم من أعمالكم شيئاً بل سيوفرها لكم كاملة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾. فكل إنسان يجزى على عمله إن خيراً فخير، وإن

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ (رقم ٣٣٤٤) ومسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (رقم ١٠٦٤).

شرًّا فشر، لكن رحمة الله تعالى سبقت غضبه[١] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ وقد يعاقب، وقد يعفو الله عنه، فالسيئات يمكن أن تمحى، والحسنات لا يمكن أن تنقص، ولهذا قال: ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي لا ينقصكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٤﴾ ختم الآية بالمغفرة والرحمة، إشارة إلى أن هؤلاء الذين قالوا إنهم آمنوا، قريبون من المغفرة والرحمة، لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولكنه قريب من دخوله.

في هذه الآية الكريمة فرق بين الإسلام والإيمان، وكذلك في حديث جبريل عليه السلام فرق بين الإسلام والإيمان، ففي حديث جبريل عليه السلام لما سأل النبي ﷺ عن الإسلام قال: «**أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**». وفي الإيمان قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**»[٢]. ففرق بين الإسلام والإيمان، وفي أدلة أخرى يجعل الله الإيمان هو الإسلام، والإسلام هو الإيمان، فهل في هذا تناقض؟

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ (٧٤٠٤) ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان (٥٠) ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه (٨).

والجواب: لا، فإذا قرن الإسلام بالإيمان صارا شيئين، وإذا ذكر الإسلام وحده، أو الإيمان وحده صارا بمعنى واحد، ولهذا نظائر في اللغة العربية كثيرة، ولهذا قال أهل السنة والجماعة: إن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا، يعني إذا ذُكرا في سياق واحد فهما شيئان، وإذا ذُكر أحدهما دون الآخر فهما شيء واحد، ويدل على هذا أن النبي ﷺ عدد أعمالاً هي من الإسلام، وجعلها من الإيمان فقال: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله**» مع أنها من الإسلام، قال: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله**». «**وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**». وإماطة الأذى عن الطريق من الإسلام؛ لأنها عمل، والأعمال جوارح «**والحياء شعبة من الإيمان**»[1] وهذا في القلب، فالمهم الإيمان والإسلام إذا افترقا فهما شيء واحد، وإن اجتمعا فهما شيئان.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ إنما أداة حصر تفيد إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه، أي ما المؤمنون إلا هؤلاء، والمراد: المؤمنون حقًّا الذين تم إيمانهم إلا هؤلاء الذين آمنوا بالله ورسوله، آمنوا أقروا إقراراً مستلزماً للقبول والإذعان، وليس مجرد الإقرار كافياً، بل لابد من قبول وإذعان، والدليل على أن مجرد الإقرار ليس بكاف أن النبي ﷺ أخبر عن عمه أبي طالب أنه في النار، وذلك مع أنه مؤمن بالرسول عليه الصلاة والسلام، مصدق به، يقول في لاميته المشهورة:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان (٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٥) (٥٨).

لقـــد علمـــوا أن ابننـــا لا مكـــذب
لـــدينـــا ولا يعنـــى بقـــول الأبـــاطـــل

ويقول عن دين الرسول:

ولقد علمت أن دين محمد خير أديان البرية دينا

لكنه والعياذ بالله لم يقبل هذا الدين، ولم يذعن له، وكان آخر ما قال: إنه على الشرك على ملة عبدالمطلب[1]، فالذين آمنوا بالله ورسوله، هم الذين أقروا إقراراً تامًّا بما يستحق الله عز وجل، وبما يستحق الرسول عليه الصلاة والسلام، وقبلوا بذلك وأذعنوا، ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ كلمة، ﴿ثم﴾ هنا في موقع من أحسن المواقع؛ لأن (ثم) تدل على الترتيب والمهلة، ثم استقروا وثبتوا على الإيمان مع طول المدة، ﴿لَمْ يَرْتَابُوا﴾: أي لم يلحقهم شك في الإيمان بالله ورسوله.

وهنا ننبه إلى مسألة يكثر السؤال عنها في هذا الوقت ـ وإن كان أصلها موجوداً في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ـ: وهي الوساوس التي يلقيها الشيطان في قلب الإنسان، فيلقي الشيطان في قلب الإنسان أحياناً وساوس وشكوكاً في الإيمان أو في القرآن، أو في الرسول، يحب الإنسان أن يمزق لحمه، ويكسر عظمه ولا يتكلم بذلك، فما موقف الإنسان من هذا؟ موقف الإنسان من هذا أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وينتهي، ويعرض عن هذا، ولا يفكر فيه إطلاقاً، وقد أخبر النبي ـ عليه

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير باب ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾، (رقم ٤٧٧٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت (رقم ٢٤).

الصلاة والسلام ـ أن مثل هذه الوساوس صريح الإيمان، أي خالص الإيمان، وهذا إنما كان خالص الإيمان، لأن الشيطان لا يأتي للإنسان الشاك يشككه في دينه، وإنما يأتي لإنسان ثابت مستقر، ليشككه في دينه، فيفسده عليه[1]، فالمؤمن الذي استقر الإيمان في قلبه واطمأن قلبه بالإيمان هو الذي يأتيه الشيطان ليفسد عليه، أما من ليس بمؤمن فإن الشيطان لا يأتيه بمثل هذه الوساوس، لأنه منته منه، والمهم أن قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ يدل على أنهم ثبتوا على الإيمان، ولو طالت المدة.

فإذا قال قائل: ما الطريقة التي توجب للإنسان ثبوت الإيمان واستقراره؟

قلنا: أولاً: أن يتفكر في مخلوقات الله سبحانه وتعالى، وأن هذه المخلوقات العظيمة لم تكن وليدة الصدفة، ولم تكن وليدة بنفسها.

ثانياً: أن يتفكر في شريعة الله وكمالها.

ثالثاً: أن يتفكر في سيرة النبي ﷺ وآياته وما إلى ذلك.

رابعاً: أن يكثر من ذكر الله ـ عز وجل ـ فإنه بذكر الله تطمئن القلوب، ويكثر من الطاعات والأعمال الصالحة، لأن الطاعات والأعمال الصالحة تزيد في الإيمان، كماهو مذهب أهل السنة والجماعة ـ رحمهم الله ـ.

﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذا أيضاً

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٤٨١) وأبو يعلى في المسند (٥٩٦٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٥٦) (١٦٥٧).

معطوف على قوله: ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي هم مع إيمانهم بالله ـ عز وجل ـ ويقينهم وعدم ارتيابهم يريدون أن يصلحوا عباد الله بالجهاد في سبيل الله، يجاهدون أعداء الله ليرجعوا إلى دين الله ويستقيموا عليه، لا للانتقام منهم، ولا للانتصار لأنفسهم، ولكن ليدخلوا في دين الله ـ عز وجل ـ والجهاد في سبيل الله هو القتال لتكون كلمة الله هي العليا، لا للانتقام، فالقتال للانتقام ليس إلا مدافعة عن النفس، أو أخذاً بالثأر فقط، لكن الجهاد حقيقة هو أن يقاتل الإنسان لتكون كلمة الله هي العليا، أما الجهاد انتصاراً للنفس، أو دفاعاً عن النفس فقط، فليس في سبيل الله، لكن لاشك أن من قاتل دفاعاً عن نفسه فإنه إن قتل فهو شهيد[1]، وإن قتله صاحبه فصاحبه في النار كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ، فيمن أراد أن يأخذ مالك قال: «**لا تعطه**»، قال: يا رسول الله، أرأيت إن قاتلني، قال: «**قاتله**»، قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: «**أنت شهيد**»، قال: إن قتلته؟ قال: «**فهو في النار**»[2]، فالجهاد في سبيل الله هو القتال لتكون كلمة الله هي العليا، هذا هو الذي حده النبي عليه الصلاة والسلام وفصَّله فصلاً قاطعاً، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في إيمانهم وعدم ارتيابهم، أما الذين قالوا من الأعراب

---

(١) أخرج البخاري عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قتل دون ماله فهو شهيد» كتاب المظالم، باب من قاتل دون ماله (٢٤٨٠) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم (١٤١).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في قتال اللصوص (٤٧٧١، ٤٧٧٢)، والترمذي، كتاب الديات، باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد (١٤٢٠، ١٤٢١).

آمنا ولكنهم لم يؤمنوا حقيقة ولكن أسلموا فإنهم ليسوا صادقين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا إنكار لقول الذين قالوا آمنا، يعني أتعلمون الله تعالى بأنكم آمنتم وهو عليم بكل شيء، وتعلمون الله بمعنى: تخبرون الله، وليس المراد أن ترفعوا جهله عن حالكم، فهو يعلم حالهم ـ عز وجل ـ ويعلم أنهم مؤمنون أو غير مؤمنين، لكن تعلمون هنا بمعنى تخبرون، وليس معناه أن ترفعوا الجهل عن الله ـ عز وجل ـ لأن الله ليس جاهلاً بحالهم، بل هو عالم، ﴿أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ حينما قلتم آمنا، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ومنها أي ما في السموات وما في الأرض حالكم إن كنتم مؤمنين أو غير مؤمنين، وفي هذه الآية إشارة إلى أن النطق بالنية في العبادات منكر؛ لأن الإنسان الذي يقول: أريد أن أصلي، يعلّم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما يريد من العمل، والله يعلم، والذي يقول: أريد أن أصوم كذلك، والذي يقول: نويت أن أتصدق كذلك، والذي يقول: نويت أن أحج كذلك أيضاً، ولهذا لا يسن النطق بالنية في العبادات كلها لا في الحج ولا في الصدقة، ولا في الصوم، ولا في الوضوء، ولا الصلاة، ولا في غير ذلك، لأن النية محلها القلب، والله عالم بذلك، ولا حاجة إلى أن تخبر الله بها، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾، فما في السموات عام، وما في الأرض عام، فكل شيء يعلمه الله، وقد تقدم لنا الكلام مراراً على هذه الصفة من صفات الله، والتي هي

من أوسع صفاته ـ جل وعلا ـ ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ خفي أو بين، عام أو خاص، فهو عالم به ـ جل وعلا ـ.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ في هذه الآية تكررت ﴿أن﴾ ثلاث مرات: أي يمنون عليك يا محمد بإسلامهم، وحذف الجملة مع (أن)، مطرد كما قال ابن مالك ـ رحمه الله ـ في الألفية. ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾ أي: بأن أسلموا أي بإسلامهم، ويعني بذلك قوماً أسلموا بدون قتال فجعلوا يمنون على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يذكرون له الفضائل ويقولون: نحن آمنا بك من دون قتال، مع أن المصلحة لهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾، وقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ هذا إضراب لإبطال ما سبق، أي ليس لكم منة على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بإسلامكم، بل المنة لله ـ عز وجل ـ عليكم أن هداكم للإيمان، ولا شك أن هذا أعظم منة أن يمن الله على العبد بالهداية إلى الإيمان، مع أن الله أضل كثيراً من الأمة عنه، وقد أخبر النبي ﷺ أن من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين كلهم في النار وواحداً من الجنة[1]، فمن وفق بأن واحداً في الجنة فإن هذه منة عظيمة، ولهذا كان الأنصار رضي الله عنهم حين جمعهم النبي ﷺ يوم قسم غنائم حنين كلما ذكر إليهم شيئاً قالوا: الله ورسوله

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج (٣٣٤٨) ومسلم، كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين (٢٢٢).

أمن، قال: «**ألم أجدكم في ضلال فهداكم الله بي**»، قالوا: الله ورسوله أمن، قال: «**ألم أجدكم متفرقين فجمعكم الله بي؟**» قالوا: الله ورسوله أمن[1]، كلما ذكر شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن، فالمنة لله على كل من هداه الله بنعمه، فالمنة لله ـ عز وجل ـ عليه وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي إن كنتم من ذوي الصدق القائلين بالصدق، فإن المنة لله عليكم ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

أخبر الله في هذه الآية أنه يعلم كل ما غاب في السموات والأرض، وما ظهر فهو من باب أولى، وأخبر ـ عز وجل ـ أن من جملة ما يعلمه عمل بني آدم، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾، وهذه الآية تفيد مسألة عظيمة في سلوك الإنسان وعمله، وهي أن يعلم بأن الله تعالى بصير بعمله محيط به، فيخشى الله ويتقه، وفيها الترغيب في الأعمال الصالحة فإنها لن تضيع، وفيها الترهيب من العمل السيىء؛ لأن العبد سيجازى عليه؛ لأن الكل معلوم عند الله عز وجل، نسأل الله تعالى أن يمن علينا بالهداية والتوفيق.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف (رقم ٤٣٣٠) ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه (رقم ١٠٦١).

تفسير سورة (ق)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، البسملة سبق الكلام عليها، وأنها آية مستقلة يؤتى بها في ابتداء كل سورة إلا سورة براءة، فإن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لم يكتبوا أمامها بسملة، ولكن جعلوا فاصلاً بينها وبين آخر سورة الأنفال، وليس هناك ذكر يذكر بدلاً عن البسملة، كما يوجد في هامش بعض المصاحف، حيث كتب: (أعوذ بالله من النار، ومن كيد الفجار، ومن غضب الجبار، العزة لله ولرسوله وللمؤمنين)، ولا شك أن هذا كلام بدعي لا أصل له.

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ (ق) حرف من الحروف الهجائية التي يتركب منها الكلام العربي، وهي كسائر الحروف، ليس لها معنى في حد ذاتها، ومن المعلوم أن القرآن نزل بلسان عربي، وإذا كانت هذه الحروف ليس لها معنى باللسان العربي، فهي كذلك ليس لها معنى في كتاب الله ـ عز وجل ـ من حيث المعنى الذاتي لها، وأما بالنسبة للمغزى العظيم الكبير، فلها مغزى عظيم كبير، ألا وهو أن هذا القرآن الذي أعجز العرب مع بلاغتهم وفصاحتهم لم يأت بشيء جديد من حروف لم يعرفونها، بل هو بالحروف التي يعرفونها، ومع ذلك عجزوا أن يأتوا بمثله، فدل ذلك على أنه من كلام العزيز الحميد ـ جل وعلا ـ ولهذا لا تكاد تجد سورة ابتدأت بالحروف الهجائية إلا وبعدها ذكر القران[1] .

---

(١) انظر تفصيل ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾=

﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾ الواو هنا حرف قسم. أقسم الله تعالى بالقرآن، لأن لله تعالى أن يقسم بما شاء، وإقسامه هنا بالقرآن إقسام بكلامه، وكلام الله تعالى من صفاته، وقد ذكر أهل العلم ـ رحمهم الله ـ أنه يجوز الإقسام بالله تعالى، أو بصفة من صفاته، وأما آياته فلا يُقسم بها إلا إذا قصد الإنسان بالآيات كلماته، كالقرآن الكريم، والتوراة، والإنجيل، وما أشبه ذلك، وأما الآيات الكونية كالشمس والقمر فلا يجوز لنا أن نقسم بها، أما الله ـ عز وجل ـ فله أن يقسم بما شاء، والقرآن مأخوذ من قرأ إذا تلي، أو من قرأ إذا جمع، ومنه قرية؛ لأن الناس يجتمعون فيها، والقرآن يتضمن المعنيين، فهو متلو وهو مجموع أيضاً، ﴿ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾ أي ذي المجد، وهو العظمة والسلطان المطلق، فالقرآن له عظمة عظيمة، مهيمن مسيطر على جميع الكتب السابقة، حاكم عليها، ليس محكوماً عليه، وهو أيضاً مجيد، به يمجد ويعلو ويظهر من تمسك به، وهذا كقوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ ﴾

هنا لا يتراءى للإنسان التالي جواب القسم، فاختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ في مثل ذلك: هل له جواب، أو جوابه يعرف من السياق، أو يعرف من المقسم به؟ وأظهر ما يكون أن نقول: إن

= سورة البقرة.

(١) انظر تفسير جزء عم لفضيلة الشيخ رحمه الله تعالى.

مثل هذا التركيب لا يحتاج إلى جواب القسم، لأنه معروف من عظمة المقسم عليه، فكأنه أقسم بالقرآن على صحة القرآن، فالقرآن المجيد لكونه مجيداً كان دليلاً على الحق، وأنه منزل من عند الله ـ عز وجل ـ وحينئذ لا يحتاج القسم إلى جواب؛ لأن الجواب في ضمن القسم: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾ عجبوا: الواو تعود على المكذبين للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذين كذبوا رسالته، كذبوا بالقرآن، وكذبوا بالبعث، وكذبوا باليوم الآخر، ولهذا ﴿عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ عجبوا عجب استغراب واستنكار، وإنما قلنا ذلك لأن العجب تارة يُراد به الاستنكار والتكذيب، وتارة يراد به الاستحسان، فقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «كان الرسول ﷺ يعجبه التيمن في تنعله، وترجله، وطهوره، وفي شأنه كله»[1].

والمراد بالعجب هنا الاستحسان، وقوله هنا: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ المراد به الاستنكار والتكذيب، ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: ليس بعيداً عنهم بل هو منهم نسباً وحسباً ومسكناً، يعرفونه، ومع ذلك قالوا هذا شيء عجيب ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ لما جاءهم محمد رسول الله ﷺ أخبرهم بأن الله سوف يبعثهم، وسوف يجازيهم، ويحاسبهم تعجبوا كيف هذا؟ أيحيى الإنسان بعد أن كان رفاتاً، قال الكافرون: ﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ إذا من المعروف أنها ظرفية، وكل ظرف

(١) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب التيمن في الوضوء والغسل (رقم ١٦٧) ومسلم، كتاب الطهارة، باب التيمن في الطهور وغيره (رقم ٢٦٨)

يحتاج إلى عامل، والعامل محذوف دل عليه ما بعده، والتقدير [﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ نرجع ونبعث] ثم قال: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ ولهذا يحسن عند التلاوة أن تقف على قوله: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ لأن قوله: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ جملة استئنافية لا علاقة لها من حيث الإعراب بما قبلها، والاستفهام هنا بمعنى الإنكار والتكذيب، كأنهم يقولون: لا يمكن أن نرجع ونبعث بعد أن كنا تراباً وعظاماً، ولكن بين الله ـ عز وجل ـ أنه قادر على ذلك، فلما قالوا: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ ومرادهم بالبعد هنا الاستحالة، فهم يرون أن ذلك مستحيل، وربما تلطف بعضهم وقال: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ فهم تارة ينكرون إنكاراً مطلقاً، ويقولون هذا محال، وتارة يقولون: هذا بعيد، قال الله تعالى مبيناً قدرته على ذلك: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ الأرض تأكل الإنسان إذا مات، فالله تعالى يعلم ما تنقص الأرض من أجزاء بدنه ذرة بعد ذرة، ولو أكلته الأرض، وقوله: ﴿ مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ قد يفيد أنها لا تأكل كل الجسم وفي ذلك تفصيل، أما الأنبياء فإن الأرض لا تأكلهم مهما داموا في قبورهم، لقول النبي ﷺ: «**إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»[1] وأما غيرهم فقد يبقى الجسم مدة طويلة لا تأكله الأرض إلى ما شاء الله، وقد تأكله الأرض، لكن إذا أكلته الأرض فإنه يبقى عجب الذنب، وعجب الذنب هو عبارة عن الجزء اليسير من العظم بأسفل الظهر، هذا

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة (١٣٧٢) وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب في فضل الجمعة (١٠٨٥) والدارمي، كتاب الصلاة، باب في فضل يوم الجمعة (١٥٨٠).

يبقى بإذن الله لا تأكله الأرض كأنه يكون نواة للجسم عند بعثه يوم القيامة، فإنه منه يخلق الآدمي في قبره، فإذا تم النفخ في الصور قاموا من قبورهم لله ـ عز وجل ـ وإذا كان الله تعالى عالم بما نقصت الأرض منهم فهو قادر على أن يرد هذا الذي نقصته الأرض عند البعث، ﴿وَعِندَنَا﴾ أي عند الله تعالى ﴿كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝٤﴾، أي: حافظ لكل شيء، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾. قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ بل هنا للإضراب الانتقالي، وليست للإضراب الإبطالي؛ لأن الأول ثابت والثاني زائد عليه، وهذا هو الفرق بين (بل) التي للإضراب الإبطالي، وبين (بل) التي للإضراب الانتقالي، فصارت بل للإضراب دائمة لكن إن كانت تبطل الأول سموها إضراب إبطال، وإن كانت لا تبطله فهو إضراب انتقالي، كأنه انتقل من موضوع إلى آخر ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ ولكن قلوبهم موقنة إلا أن ألسنتهم تكذب، كما قال الله تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ لما هنا بمعنى حين، فهي ظرف وليست حرفاً، ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ الفاء هنا للتعقيب والسببية، والمعنى فهم لما كذبوا بالحق في أمر مريج، أي: مختلط اختلط عليهم الأمر ـ والعياذ بالله ـ وهو كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني لأنهم لم يؤمنوا به أول مرة وظلوا في طغيانهم يعمهون، هؤلاء لما كذبوا صاروا في أمر مريج، التبس عليهم الأمر، وترددوا في أمرهم، وهكذا كل إنسان يرد الحق أول مرة، فليعلم أنه سيبتلى بالشك والريب في قبول الحق في

المستقبل، ولهذا يجب علينا من حين أن نسمع أن هذا الشيء حق أن نقول: سمعنا وأطعنا، خلافاً لبعض الناس الآن، تقول: أمر الرسول ﷺ بهذا؟ فيقول: الأمر للوجوب أم للاستحباب؟ سبحان الله، افعل ما أمرك به سواء على الوجوب أو على الاستحباب، لأن معنى قوله: هل هو للوجوب أو للاستحباب؟ معناه إذا كان للاستحباب فأنا في حل منه، وإذا كان للوجوب فعلته، وهذا خطأ، ولكن قل: سمعنا وأطعنا، ثم إذا وقعت المخالفة فحينئذ ربما يكون السؤال عنه: هل هو واجب أو مستحب؟ ربما يكون وجيهاً، أما قبل فلا.

قد يقول قائل: أنا أسأل هل هو واجب أو مستحب؟ لأن هناك فرقاً بين الواجب والمستحب، والواجب أحب إلى الله، فأنا أفعله من أجل إذا اعتقدت أنه واجب أُثاب عليه ثواب واجب، وإذا اعتقدت أنه سنة أُثاب عليه ثواب سنة.

قلنا: نعم، هذا طيب، لكن ثواب انقيادك للحق لأول مرة وبكل سهولة وبدون سؤال أفضل من كونك تعتقده واجباً أو مستحبًّا، وإذا كان الله قد أوجبه عليك أثابك ثواب الواجب، وإن كنت لا تدري، فالانقياد وتمام الانقياد أفضل بكثير من كون أعتقد هذا واجباً أو مستحبّاً.

ثم قال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ استدل بالآيات الكونية على صحة الآيات الشرعية.

والاستفهام هنا للتوبيخ، يوبخهم ـ عز وجل ـ لماذا لم ينظروا إلى هذا؟ لماذا لم ينظروا إلى السماء وما فيها من عجائب

القدرة الدالة على أن الله تعالى قادر على إحياء الموتى الذي أنكره هؤلاء المكذبون، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يشمل نظر البصر، ونظر البصيرة، نظر البصر يكون بالعين، ونظر البصيرة يكون بالقلب، أي: التفكر، وقوله: ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ قد يقول قائل: إن كلمة: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ لا فائدة منها، لأن السماء معروفة أنها فوق، ولكن نقول: إن النص على كونها فوقهم إشارة إلى عظمة هذه السماء، وأنها مع علوها وارتفاعها وسعتها وعظمتها تدل على كمال خلقه وقدرته ـ جل وعلا ـ ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ بناها الله ـ عز وجل ـ بقوة وجعلها قوية، فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ أي قوية، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ أي بقوة، وهذا البناء لا نعلم كيف بناها الله ـ عز وجل ـ لكننا نعلم أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، خلق الأرض في أربعة، والسماء في يومين، كما قال الله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ وقوله: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ أي حسنَّا منظرها، بما خلق الله تعالى فيها من النجوم العظيمة المنيرة المنتظمة في سيرها، وهذه النجوم قال قتادة ـ رحمه الله ـ وهو من أئمة التابعين: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، وعلامات يُهتدى بها، ورجوماً للشياطين، فمن ابتغى فيها شيئاً سوى ذلك فقد أضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به»[1]. يشير إلى ما ينتحله المنجمون من الاستدلال بحركات هذه النجوم على الحوادث الأرضية، حتى إنهم يبنون سعادة الشخص وشقاءه على

(١) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم كتاب بدء الخلق، باب في النجوم.

هذه النجوم، مثلاً يقولون: إذا ولد في النجم الفلاني فهو سعيد، وإذا ولد في النجم الفلاني فهو شقي، وهذا لا أثر لها، أعني تحركات النجوم في السماء، ليس لها أثر فيما يحدث في الأرض، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ يعني ليس للسماء، من فروج أي من فطور وتشقق، بل مبنية محكمة قوية.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧﴾ هذه ثلاثة أمور، أولاً: الأرض مدها الله ـ عز وجل ـ مع أنها بالنسبة للسماء صغيرة جداً، لكنها ممدودة للخلق، مسطحة لهم كما قال تعالى: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾.

ثانياً: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي جبال ثابتات لا تزعزعها الرياح فهي قاسية، وكذلك أيضاً ترسي للأرض.

ثالثاً: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧﴾ أي من كل زوج سار لناظره، والمراد بالزوج هنا الصنف، يعني أن ما ينبت في الأرض أصناف متعددة متنوعة حتى إنك ترى البقعة من الأرض وهي صغيرة تشتمل على أنواع من هذه الأصناف، تختلف في ألوانها، وتختلف في أحجامها، وتختلف في ملمسها ما بين شديدة ولينة إلى غير ذلك من الاختلافات العظيمة، بل إنها تختلف في مذاقها إذا كانت من ذوات الثمر، كما قال تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ فمن القادر على أن يخلق هذه الأشياء؟ هو الله سبحانه وتعالى، وهذه التي ﴿فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧﴾ مع أنها في مكان واحد وتسقى بماء واحد، والأرض أيضاً واحدة، من يقدر على هذا؟ الجواب: هو الله ـ عزوجل ـ إنك تأتي الأرض المعشبة

التي أنبت الله تعالى فيها من أصناف النبات، فتتعجب ترى هذه مثلاً زهرتها صفراء، وهذه بيضاء، وهذه بنفسجية، وهذه منفتحة، وهذه منضمة إلى غير ذلك من الآيات العظيمة، فهذا أكبر دليل على أن الله قادر على إحياء الموتى الذي أنكره هؤلاء المكذبون لرسول الله ﷺ، وقالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣﴾ فالقادر على خلق هذه المخلوقات العظيمة قادر على إحياء الموتى، ثم يقال: من الذي خلق الإنسان؟ هو الله، وإعادة الخلق أهون من ابتدائه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ فإذا كنتم أيها المشركون تقرون بأن الله هو الخالق، وأنه هو الذي خلقكم وأوجدكم، فلماذا تنكرون أن يعيدكم مع أن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ يعني أن الله تعالى حثنا على أن ننظر إلى السماء وإلى الأرض، وما يحدث فيهما تبصرة، أي لأجل التبصرة والذكرى، قال العلماء: والفرق بين التبصرة والذكرى أن التبصرة مستمرة، والذكرى عند النسيان، فهذه الآيات تذكرك إذا نسيت، وتبصرك إذا جهلت، وقد يقال: إن الفرق بينهما أن التبصرة في مقابل الجهل، والذكرى في مقابل النسيان، وكلا القولان حق، المهم أنك إذا نظرت إلى السماء وإلى الأرض وما فيهما مما أودعه الله ـ عز وجل ـ من النبات فإنك سوف تبصر بقلبك، وتذكر أيضاً إذا نسيت، ولكن لمن هذه التبصرة والذكرى ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، ليست لكل إنسان، ما أكثر ما ينظر الكفار في الآيات، ولكن ما تغني الايات والنذر عن قوم لا

يؤمنون، إنما الذي ينتفع بها هم كل عبد منيب، أي: رجاع إلى الله ـ عز وجل ـ.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾. يقول ـ جل وعلا ـ: ﴿وَنَزَّلْنَا﴾، لأن المطر ينزل شيئاً فشيئاً، وربما يعبر عنه بأنزل لأنه تجيء به الأودية والشعاب، وقوله: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من العلو، لأن هذا المطر ينزل من السحاب وليس من السماء التي هي السقف المحفوظ، بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، إذن هو ينزل من العلو، والحكمة في إنزاله من العلو ليشمل قمم الجبال ومراتع الإبل، والسهل والأودية، لأنه لو جاء يمشي سيحاً من الأرض ما وصل إلى قمم الجبال، ولكن الله ـ عز وجل ـ جعله من فوق، وقوله: ﴿مَآءً مُّبَـٰرَكًا﴾ من بركته أنه يُنبت به﴿جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾، الجنات هي البساتين الكثيرة الأشجار، وسميت البساتين الكثيرة الأشجار جنات، لأنها تُجن أي تستر ما تحتها، وكل بستان ذو شجر ملتف بعضه إلى بعض يسمى جنة، وأما قوله: ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾ يعني به الزروع التي تحصد، فذكر الله هنا الأشجار والزروع، فمن الأشجار تجد الثمار، ومن الزروع تحصد الحبوب، ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾ خص الله النخل لأنها أشرف الأشجار، ولهذا شبه بها المؤمن حيث قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**إن من الشجر شجراً مثلها مثل المؤمن**» قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ فذهب الناس يخوضون في شجر البوادي، كل يقول: هي الشجرة الفلانية،

يقول ابن عمر: فوقع في قلبي أنها النخلة، لكني كنت أصغر القوم ـ يعني فاستحيا أن يتكلم وهو أصغرهم ـ فقال النبي ﷺ: «هي النخلة»(١) وهي الشجرة المذكورة في قول الله تعالى: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾ فلهذا خصها هنا بالذكر فقال: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي عاليات ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾ أي منضود، فالطلع في شماريخه تجده منضوداً من أحسن ما يكون النضد، ومع ذلك تجد هذه الثمرات تسقى بالشمراخ الدقيق اللين مع أنه قد يكون فيه أحياناً فوق ثلاثين حبة أو أكثر. ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ أي فعلنا ذلك، أنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات. فعلنا ذلك رزقاً للعباد أي عطاءً وفضلاً للعباد، والعباد هنا يشمل العباد المؤمنين والعباد الكافرين؛ لأن الكافر عبد لله كما قال الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾. والمراد هنا العبودية الكونية القدرية، أما العبودية الشرعية فلا يكون عبداً لله إلا من كان ممتثلاً لأمره، مجتنباً لنهيه، مصدقاً بخبره، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أحيينا بالماء الذي ننزله من السماء بلدة ميتة، ﴿بَلْدَةً﴾ لما كانت مؤنثة اللفظ، مذكرة المعنى، صح أن توصف بوصف مذكر، ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي بلد ميت، أحياه بهذا الماء الذي نزل من السماء، تجد الأرض هامدة خاشعة ليس فيها نبات، فإذا أنزل الله المطر عجت بالنبات واخضرت وازدهرت، فهذه حياة بعد الموت

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب قول المحدث: حدثنا أو أخبرنا وأنبأنا (٦١) ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب مثل المؤمن مثل النخلة (٢٨١١).

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ أي مثل ذلك الإحياء ﴿ ٱلْخُرُوجُ ﴾، خروج الناس من قبورهم لله ـ عز وجل ـ وإنما ذكر الله تعالى الخروج لأن من عباد الله من أنكر ذلك ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ ﴾ وحجتهم أنهم قالوا من يحيي العظام وهي رميم؟ من يحيي العظام بعد أن أرمت وصارت تراباً؟ هذا مستنكر عندهم بعيد، ولكن الله سبحانه وتعالى بين أنه ليس ببعيد، وأنهم كما يشاهدون الأرض الميتة ينزل عليها المطر فتحيا، إذن فالقادر على إحياء الأرض بعد موتها بنزول المطر قادر على إحياء الأموات بعد موتهم، وهذا قياس جلي واضح، كذلك الخروج.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍۚ ﴾ ذكر الله هؤلاء المكذبين لفائدتين:

الفائدة الأولى: تسلية الرسول ﷺ بأنه ليس أول رسول كُذِّب، بل قد كُذِّبت الرسل من قبل، كما قال الله تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ ﴾. قيل: إنه شاعر، قيل: إنه مجنون، قيل: إنه كاهن. وقد قال الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾، هذه فائدة لذكر قصص الأمم السابقة، وهي تسلية النبي ﷺ؛ لأن الإنسان إذا رأى غيره قد أصيب بمثل مصيبته يتسلى بلا شك، وتهون عليه المصيبة.

الفائدة الثانية: التحذير لمكذبي الرسول ﷺ، ولهذا قال في آخر ما ذكر ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ فحق عليهم وعيد الله بالعذاب، وقد قال عز وجل: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ ﴾ يعني كل واحد من هذه الأمم جوزي بمثل ذنبه فعوقب بمثل ذنبه، ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ

﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يعني تسعمائة وخمسين سنة، وهو يدعوهم إلى الله ـ عز وجل ـ ولكن لم يستفيدوا من ذلك شيئاً، كلما دعاهم ليغفر لهم ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ تغطوا ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾. وبقي فيهم هذه المدة، وقد قال الله تعالى في النهاية: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قليل﴾. ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ قوم جاءهم نبيهم ولكنهم قتلوه بالرس، وهو البئر، أي حفروا بئراً ودفنوه، هذا قول، والقول الثاني: أصحاب الرس، أي أنهم قومٌ حول ماءٍ وليسوا بالكثرة الكافية، ومع هذا كذبوا رسولهم ﴿وَثَمُودُ ۝١٢﴾ وهم قوم صالح في بلاد الحجر المعروفة، كذبوا صالحاً وقالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧٧﴾. وهذا تحدٍّ، فأرسل الله عليهم صيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿وَعَادٌ﴾ كذلك أيضاً عاد أرسل الله إليهم هوداً فكذبوه فأهلكهم الله ـ عز وجل ـ بالريح العقيم ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ وكانوا يفتخرون بقوتهم ويقولون: ﴿من أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾. فأراهم الله ـ عز وجل ـ قوته وأهلكهم بالريح اللطيفة التي لا يرى لها جسم، ومع ذلك دمرتهم تدميراً، ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ الذي أرسل الله إليه نبيه موسى عليه السلام، وفرعون كان معروفاً بالجبروت والعناد والاستكبار، حتى إنه استخف قومه وقال لهم إنه رب ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ فأطاعوه فجاءهم موسى عليه الصلاة والسلام بالآيات البينات، لكنهم كذبوا، وأراهم الله تعالى آية كانوا يفتخرون بما يضاد ما جاء به موسى وهو السحر، فجمعوا لموسى عليه الصلاة والسلام كل

السحرة في مصر، واجتمعوا وألقوا الحبال والعصي، وألقوا عليها السحر فصار الناس يشاهدون هذه الحبال والعصي وكأنها حيات وثعابين، ورهب الناس كما قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾. حتى إن موسى عليه الصلاة والسلام أوجس في نفسه خيفة؛ لأنه شاهد أن كل الجو حوله ثعابين تريد أن تلتهم ما تقابله، فأوحى الله إلى موسى أن ألقِ عصاك، فألقى العصا فالتهمت جميع هذه الحيات، وهذا من آيات الله، إذ إن الحية كما هو معروف ليست بذات الكبر لكي تأكل هذا، وكان هذا يذهب بخاراً، إذا أكلت هذه الحبال والعصي، فالسحرة رأوا أمراً أدهشهم ولم يملكوا أنفسهم إلا أن يؤمنوا، ومع ذلك إيماناً تامًّا ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ ولم يقل سجدوا، كأن شيئاً اضطرهم إلى السجود، كأنهم سجدوا بغير اختيار لقوة ما رأوا من الآية العظيمة، ومع هذه الآية البينة الواضحة على صدق موسى عليه الصلاة والسلام لم يؤمن فرعون بل قال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾، فهمّ بأن يهجم على موسى ومن معه من المؤمنين، فأمر الله موسى أن يخرج من مصر إلى جهة المشرق نحو البحر الأحمر، فامتثل أمر الله، وخرج من مصر إلى هذه الناحية، فتبعهم فرعون بجنوده على حنق، يريد أن يقضي على موسى وقومه، فلما وصلوا إلى البحر قال قوم موسى له: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾. ﴿قَالَ كَلَّآ﴾ يعني لن ندرك ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه البحر، البحر الذي

عرضه مسافات طويلة فضرب البحر فانفلق البحر اثني عشر طريقاً، وصارت قطع الماء كأنها جبال، وصارت هذه الطرق التي كانت رياً من الماء، وطيناً زلقاً، صارت طريقاً يبساً بإذن الله في لحظة، فدخل موسى وقومه عابرين من أفريقيا إلى آسيا من طريق البحر، فلما تكاملوا داخلين وخارجين للناحية الشرقية دخل فرعون وقومه، فلما تكاملوا للدخول أمر الله البحر فانطبق عليهم، فلما أدرك فرعون الغرق أعلن قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ﴾. وتأمل أنه لم يقل: آمنت بالله، بل قال: آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل، لماذا؟ إذلالاً لنفسه، حيث كان ينكر على بني إسرائيل ويهاجمهم، فأصبح عند الموت يقر بأنه تبع لهم، وأنه يمشي خلفهم، ولكن ماذا قيل له: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ تؤمن بالذي آمنت به بنو إسرائيل وأنك من المسلمين ﴿وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾. فلم تقبل توبته، لأنه لم يتب إلا حين حضره الموت، والتوبة بعد حضور الموت لا تنفع، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ لا تنفع التوبة إذا حضر الموت، نسأل الله تعالى أن يمن علينا بتوبة قبل الموت، ولكن الله قال: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾. ننجيك ببدنك لا بروحك، الروح فارقت البدن، لكن البدن بقي طافياً على الماء. وبيَّن الله الحكمة ﴿لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾ لأن بني إسرائيل قد أرعبهم فرعون فلو لم يتبين لهم أنه غرق بنفسه لكانت أوهامهم تذهب كل مذهب، لعله لم يغرق، لعله يخرج إلينا من ناحية أخرى، فأقر الله

أعين بني إسرائيل بأن شاهدوا جسمه غارقاً في الماء، ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾ إخوان لوط يعني قوم لوط، أرسل إليهم لوط عليه الصلاة والسلام، لأنهم كانوا ـ والعياذ بالله ـ يأتون الذكران، ويدعون النساء، أي أن الواحد يجامع الذكر ويدع النساء، كما قال لهم عليه الصلاة والسلام: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾. دعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ وأنذرهم وخوَّفهم من هذا الفعل الرذيل، ولكنهم أصروا عليه، فأرسل الله عليهم حجارة من طين مسومة، يعني معلَّمة، كل حجارة عليها علم، يعني علامة على من تنزل عليه وتصعقه، وهذه الخصلة الرذيلة من أقبح الخصال، ولهذا كان حدها في الشريعة الإسلامية القتل بكل حال، يعني أنها أعظم من الزنا، فإذا كان الزاني لم يتزوج من قبل فإنه يجلد مائة جلدة، ويغرَّب عن البلد سنة كاملة، وإن كان محصناً وهو الذي قد تزوج وجامع زوجته فإنه يرجم حتى يموت، أما اللواط فإن حده القتل بكل حال، يعني لو تلوط شخص بالغ بآخر بالغ باختيار منهما فإنه يجب أن يقتل الفاعل والمفعول به، لقول النبي ﷺ: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»[1]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: إن الصحابة أجمعوا على قتله، لكن اختلفوا كيف يُقتل؟ فقال بعضهم: إنه يحرق بالنار لعظم جرمه، والعياذ بالله، وقال

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي (١٤٥٦).

آخرون: إنه يرجم بالحجارة، وقال آخرون: إنه يلقى من أعلى مكان في البلد ويتبع بالحجارة، والشاهد أن ابن تيمية رحمه الله نقل إجماع الصحابة على قتله، وإجماع الصحابة حجة فيكون مؤيداً للحديث: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**» ولأن هذه الفاحشة الكبرى ـ والعياذ بالله ـ فاحشة مفسدة للمجتمع، لأنه يصبح المجتمع الرجالي مجتمعاً نسائياً، وهو أيضاً لا يمكن التحرز منه، فالزنا يمكن التحرز منه إذا رؤيت امرأة مع رجل في محل ريبة فإنه يمكن مناقشتهما، لكن إذا رؤي ذكر مع ذكر كيف يمكن أن نناقشهما، والأصل أن الرجل مع الرجل يجتمع ولا يتفرق، لهذا كان القول بوجوب قتلهما هو الحق، أما قوم لوط فإن الله تعالى أرسل عليهم حجارة من سجين، مسومة فدمرهم تدميراً، حتى جعل عالي قريتهم سافلها.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ ﴾، يعني الشجرة، أرسل الله تعالى إليهم شعيباً فدعاهم إلى الله وذكَّرهم به، وحذَّرهم من بخس المكيال والميزان، ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ بقوا على كفرهم وعنادهم ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ وهذا العذاب يقال: إن الله تعالى أرسل إليهم حرًّا شديداً ولم يجدوا مفرًّا منه إلا أنه أرسلت غمامة واسعة باردة فصاروا يتدافعون إلى ظلها، يتظللون بها، فأنزل الله عليهم ناراً فأحرقتهم، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾. ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ أيضاً ممن كذبوا الرسل وهم أصحاب تُبّع، وهو ملك من ملوك اليمن أرسل الله إليهم رسولاً فكذبوه ولم ينقادوا له، فيقول ـ عز

وجل ـ: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ أي أن هؤلاء الأمم الذين أشار الله تعالى إلى قصصهم كلهم كذبوا الرسل، فحق عليهم وعد الله ـ والعياذ بالله ـ بعذابه وانتقامه.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ الاستفهام هنا للنفي، وعيينا هنا بمعنى تعبنا، والخلق الأول هو ابتداء الخلائق يعني هل نحن عجزنا عن ابتداء الخلائق حتى نعجز عن إعادة الخلائق؟! من المعلوم أن الجواب: لا، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾. أي لم يتعب بذلك، فإذا كان الله ـ جل وعلا ـ لم يتعب بالخلق الأول فإن إعادة الخلق أهون من ابتدائه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وهذا استدلال عقلي يراد به إقناع هؤلاء الجاحدين لإعادة الخلق، فإن الذين كفروا زعموا أن لن يبعثوا وأنه لا بعث، وأنكروا هذا واستدلوا لذلك بدليل واهٍ جدًّا، فقالوا فيما حكاه الله عنهم: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ فقال الله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾. ثم ساق الأدلة العقلية الدالة على أن الله تعالى قادر على أن يحيي العظام وهي رميم، قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ أي هم مقرون بأننا لم نعِ بالخلق الأول، وأنا أوجدناه لكن هم في لبس من خلق جديد، ولهذا حصل الإضراب هنا، حيث قال: ﴿بَلْ هُمْ﴾ يعني أن هذا عجبٌ من حالهم كيف يقرون بأول الخلق ثم ينكرون البعث بعد الموت، بل هم ﴿فِى لَبْسٍ﴾ أي في شك وتردد ﴿مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ وهو إعادة

الخلق. والقادر على ابتداء الخلق يكون قادراً على إعادته من باب أولى، وهذا دليل عقلي لا يمكن لأي إنسان أن يفر منه، ثم قال ـ عز وجل ـ مستدلاً على قدرته على البعث: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني ابتدأنا خلقه وأوجدناه وجعلنا له عقلاً وسمعاً وبصراً وتفكيراً وحديثاً للنفس، ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ يعني ونحن نعلم ما توسوس به نفسه، أي ما تحدثه به نفسه، دون أن ينطق به، فالله تعالى عالم به، بل إن الله عالم بما سيحدث به نفسه في المستقبل، والإنسان نفسه لا يعلم ما يُحدث به نفسه في المستقبل، والله يعلم ما توسوس به نفسك غداً وبعد غدٍ، وإلى أن تموت وأنت لا تعلم وإذا كان الله يعلم ما توسوس به النفس فهذا العلم يوجب لنا مراقبة الله سبحانه وتعالى، وأن لا نحدث أنفسنا بما يُغضبه وبما يكره. فعلينا أن يكون حديث نفوسنا كله بما يرضيه، لأنه يعلم ذلك، أفلا يليق بنا أن نستحيا من ربنا ـ عز وجل ـ أن توسوس نفوسنا بما لا يرضاه؟!: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾، حبل الوريد هو الأوداج، وهما العرقان العظيمان المحيطان بالحلقوم، يسمى الوريد، ويسمى الودج، وجمعه أوداج، ويضرب المثل بهما في القرب، أقرب شيء إلى قلبك هو حبل الوريد، هذا أقرب إلى المخ، وأقرب من كل شيء فيه الحياة هما الوريدان. واختلف المفسرون في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ هل المراد قرب ذاته ـ جل وعلا ـ أو المراد قرب ملائكته؟.

والصحيح أن المراد قرب ملائكته. ووجه ذلك أن قرب الله تعالى صفة عالية لا يليق أن تكون شاملة لكل إنسان، لأننا لو قلنا:

إن المراد قرب ذات الله لكان قريباً من الكافر وقريباً من المؤمن. لأنه قال: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، أي إنسان المؤمن والكافر ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي إلى هذا الإنسان الذي خلقناه من حبل الوريد، فإذا قلنا الآية الشاملة، وقلنا أن القرب هنا القرب الذاتي صار الله قريباً بذاته من الكافر، وهذا غير لائق، بل الكافر عدو لله ـ عز وجل ـ لكن الراجح ما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أن المراد بالقرب هنا قرب الملائكة، أي أقرب إليه بملائكتنا، ثم استدل لقوله بقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ فإذ بمعنى حين، وهي متعلقة بالقرب، أي أقرب إليه في هذا الحال حين يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد.

فإن قال قائل: كيف يضيف الله القرب المسند إليه والمراد به الملائكة ألهذا نظير؟.

قلنا: نعم، له نظير. يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ قرأناه المراد بذلك جبريل، ونسب الله فعل جبريل إلى نفسه؛ لأنه رسوله، كذلك الملائكة نسب الله قربهم إليه لأنهم رسله، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾. وما اختاره شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ هو الصواب.

فإن قال قائل: وهل الله تعالى قريب من المؤمن على كل حال؟.

قلنا: بل في بعض الأحوال، قال النبي ﷺ: «**إن الذي**

تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[١] . فهذا قربٌ في حال الدعاء، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ . كذلك هو قريب من المؤمن في حال السجود، لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[٢] . وعلى هذا فيكون المؤمن قريباً من الله تعالى حال عبادته لربه، وحال دعائه لربه، أما القرب العام فإن المراد به القرب بالملائكة على القول الراجح .

وقوله: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ هما ملكان بين الله مكانهما من العبد، فقال: ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾، ولم يقل على اليمين وعلى الشمال، لأنهما ليسا على كتفيه، بل هما في مكان قريب، أقرب من حبل الوريد، ولكن قد يقول قائل ملحد: أنا ألتمس حولي لا ألمس أحداً، أين القعيد؟ فنقول: هذا من علم الغيب الذي لا تدركه عقولنا، وعلينا أن نصدق به ونؤمن به، كما لو لمسناه بأيدينا، أو شاهدناه بأعيننا، أو غير ذلك من أدوات الحس، علينا أن نؤمن بذلك، لأنه قول الله ـ عز وجل ـ ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾، قاعد مستقر، أحدهما يكتب الحسنات، والثاني يكتب السيئات، هذا المكتوب عرضة للمحو والإثبات، لأن المكتوب الذي بأيدي الملائكة عرضة للمحو والإثبات لقول الله تعالى: ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٤) (٤٦).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢).

ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾. يعني أصل أم الكتاب هو لوح محفوظ مكتوب فيه ما يستقر عليه العبد، فما يستقر عليه العبد مكتوب، لكن ما كان قابلاً للمحو والإثبات في أيدي الملائكة، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾. حسنة تذهب السيئة وتمحوها بعد أن كتبت، وهذا باعتبار ما في أيدي الملائكة، أما أم الكتاب الأصل مكتوب فيها ما يستقر عليه العبد، نسأل الله أن يجعلنا ممن يستقر على الإيمان والثبات في الدنيا والآخرة.

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ ﴿مَّا يَلْفِظُ﴾: ما هنانافية، و﴿قَوْلٍ﴾ مجرورة بمن الزائدة إعراباً المفيدة معنىً، لكن تأتي حروف الجر أحياناً زائدة في الإعراب، لكنها تفيد معنى التوكيد، ولهذا إذا اقترن المنفي بمن الزائدة، أو بالباء الزائدة مثل ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ فإنه أوكد من النفي المجرد من حرف الجر الزائد، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ إذا جعلنا من زائدة إعراباً مفيدة معنىً ففائدة معناها التوكيد على العموم أي: أي قول يلفظه الإنسان لديه رقيب عتيد، ﴿رَقِيبٌ﴾ مراقب ليلاً ونهاراً، لا ينفك عن الإنسان، ﴿عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ حاضر لا يمكن أن يغيب ويوكل غيره، فهو قاعد مراقب حاضر، لا يفوته شيء ﴿مِن قَوْلٍ﴾ أي قول نقوله، كل قول لأن ﴿مِن﴾ هذه زائدة و﴿قَوْلٍ﴾ نكرة في سياق النفي فهي للعموم، أي قول، وظاهر الآية الكريمة أن القول مهما كان يكتب، سواء كان خيراً أم شرًّا، أم لغواً يكتب، لكن يحاسب على ما كان خيراً أو شرًّا، ولا يلزم من الكتابة أن يحاسب الإنسان عليها، وهذا

ظاهر اللفظ، وهو أحد القولين لأهل العلم.

ومن العلماء من يقول: إنه لا يكتب إلا الحسنات والسيئات فقط، أما اللغو فلا يكتب.

والقول الأول أولى، وهو العموم، أما النتيجة فواحدة، لأنه حتى على القول بأن الكاتب يكتب كل شيء يقولون: إنه لا يحاسب إلا على الحسنات والسيئات، لكن كوننا نقول بالعموم هو المطابق لظاهر الآية، ثم هو الذي فيه الدليل على أن المَلَكين لا يتركان شيئاً، مما يدل على كمال عنايتهما بما ينطق به الإنسان، وبناءً على ذلك يجب علينا أن نحترز غاية الاحتراز من أقوال اللسان، فكم زلة لسانية أوجبت الهلاك ـ والعياذ بالله ـ ففي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ في الرجل الذي قال: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله: «**من ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفر لفلان، قد غفرت له وأحبطت عملك**»[1] قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: إنه تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته، نسأل الله العافية.

احذر لسانك أن تقول فتبتلى ... إن البلاء موكل بالمنطق

احذر آفات اللسان، إن النبي ﷺ جعل حفظ اللسان مَلاك الأمر كله، فقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ: «**أفلا أدلك على ملاك ذلك كله**»؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: فأخذ بلسان نفسه وقال: «**كف عليك هذا**». لا تطلقه، لا تتكلم، قال: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى (٢٦٢١).

له: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبّ الناس على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»[١] فالمؤمن يجب أن يحذر لسانه فإنه آفة عظيمة، ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**»[٢] . وحينئذ نعرف أن الصمت مفضّل على الكلام؛ لأن الكلام قد لا يدري الإنسان أخيراً هو أم شراً، ثم إني أقول: الكلمة إذا أطلقتها وخرجت من فمك فهي كالرصاصة تطلقها، لا يمكنك أن تمنعها إذا خرجت من فوهة البندقية، إذا انطلقت تفسد أو تصلح، كذلك الكلمة، فالعاقل يمنع لسانه ولا يتكلم إلا بخير، والخير إما في ذات المتكلم به، وإما في غيره، يعني قد يكون الكلام ليس خيراً لا بنفسه، لكنه خير من جهة آثاره، قد يتكلم الإنسان بكلام لغو ليس أمراً بالمعروف ولا نهياً عن منكر، وليس إثماً ووزراً، لكن يتكلم من أجل أن يفتح الباب للحاضرين، لأنه أحياناً تستولي على المجلس الهيبة ولا أحد يتكلم، فيبقى الناس كلهم في غم، فيتكلم من أجل أن يفتح الباب للناس، وتنشرح صدورهم، ويحصل تبادل الكلام الذي قد يكون نافعاً، نقول: هذا الكلام الذي تكلم وفتح به باب الكلام وأزال عن الناس الغم يعتبر خيراً لغيره، وهذا داخل إن شاءالله في قول الرسول عليه الصلاة

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٦٠١٨، ٦٠١٩) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت (٤٧).

والسلام: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**».

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾، السكرة هنا: هي تغطية العقل كالإغماء ونحوه، وقد قال النبي ﷺ: «**إن للموت سكرات**»[1]. وقوله: ﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ مفرد مضاف، فيشمل الواحدة أو أكثر، وقول ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: أي أن الموت حق كما جاء في الحديث: «**الموت حق، والجنة حق، والنار حق**»[2] فهي تأتي بالحق، وتأتي أيضاً بحق اليقين، فإن الإنسان عند الموت يشاهد ما تُوُعِّد به، وما وُعِدَ به؛ لأنه إن كان مؤمناً بُشِّر بالجنة، وإن كان كافراً بُشِّر بالنار ـ أعاذنا الله منها ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الموت ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ اختلف المفسرون في (ما) هل هي نافية؟ فيكون المعنى: ذلك الذي لا تحيد منه، ولا تنفك منه، أو أنها موصولة؟ فيكون المعنى ذلك الذي كنت تحيد منه، ولكن لا مفر منه، فعلى الأول يكون معنى الآية، ذلك الذي لا تحيد منه، بل لابد منه، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾. وتأمل يا أخي: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ ولم يقل فإنه يدرككم، وما ظنك بشيء تفر منه وهو يلاقيك، إن فرارك منه يعني دنوك منه في الواقع فلو كنت فارًّا من شيء وهو يقابلك فكلما أسرعت في الجري أسرعت في

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت (٦٥١٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التهجد، باب التهجد بالليل (١١٢٠) ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٦٩).

ملاقاته، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾، لأنه ذكر في هذه الآية أن الإنسان مهما كان في تحصنه فإن الموت سوف يدركه على كل حال، وهنا يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾، وعلى المعنى الثاني، أي: ذلك الذي كنت تحيد منه وتفر منه في حياتك، قد وصلك وأدركك، وعلى كل حال ففي الآية التحذير من التهاون بالأعمال الصالحة، والتكاسل عن التوبة، وأن الإنسان يجب أن يبادر، لأنه لا يدري متى يأتيه الموت، ثم قال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠﴾ النافخ في الصور هو ملك، وَكَّله الله تعالى به يسمى إسرافيل، والنفخ في الصور نفختان:

الأولى: نفخة الصعق فيسبقها فزع، ثم صعق.

والثانية: نفخة البعث. وبينهما أربعون، وقد سئل أبو هريرة راوي الحديث: ما المراد بالأربعين؟ فقال: أبيت[1]. أي أني لا أدري ما المراد بالأربعين التي ذكرها النبي ﷺ، المهم أن المراد بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ النفخة الثانية بدليل قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠﴾ وهذا يعني أنه بهذه النفخة صار يوم القيامة الذي هو يوم الوعيد.

فإن قال قائل: يوم القيامة يوم الوعيد للكفار، ويوم الوعد للمؤمنين، فلماذا ذكر الله تعالى هنا الوعيد دون الوعد؟

فالجواب: لأن السورة كلها مبدوءة بتكذيب المكذبين

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾ (رقم ٤٩٣٥)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين (رقم ٢٩٥٥).

للرسول عليه الصلاة والسلام، فناسب أن يغلب فيها جانب الوعيد ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ﴾ إلخ.. فكان من الحكمة أن يذكر الوعيد دون الوعد، ومع ذلك فقد ذكر الله تعالى أصحاب الجنة فيما بعد، لأن القرآن مثاني.

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝٢١﴾ جاءت يعني يوم القيامة كل نفس، أي كل إنسان كل بشر. ويحتمل أن يكون معنى كل نفس من بني الإنسان ومن الجن أيضاً، ممن يلزمون بالشرائع، لأننا إن نظرنا إلى السياق وهو قوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾ الخ.. قلنا: المراد بالنفس هنا نفس الإنسان، وإذا نظرنا إلى أن الشرائع تلزم الجن كما تلزم الإنس، وأن الجن يحشرون يوم القيامة، ويدخل مؤمنهم الجنة، وكافرهم النار، قلنا: إن هذا عام، فالله أعلم بما أراد، ﴿مَّعَهَا سَآئِقٞ﴾ يسوقها ﴿وَشَهِيدٞ ۝٢١﴾ يشهد عليها بما عملت، لأن هؤلاء الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قد وكلوا بكتابة أعمال بني آدم من خير وشر، وكما سبق أنهم يكتبون كل شيء: الخير والشر واللغو، لكن لا يحاسب الإنسان إلا على الخير أو الشر، ثم قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ ﴿كُنتَ﴾ الخطاب للإنسان، وفيهاالتفات، والالتفات معناه أن ينتقل الإنسان في أسلوبه من خطاب إلى غيبة، أو من غيبة إلى خطاب، أو من تكلم إلى غيبة، وفائدة ذلك الالتفات أنه يشد ذهن السامع، فبينما الكلام على نسق واحد، إذا به يختلف، انظر إلى قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾ ولم

يقل وبعث، وانظر إلى الفاتحة نقرأها كل يوم في كل ركعة من صلواتنا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ولم يقل (نعبده) فالالتفات أسلوب من أساليب اللغة العربية، وفائدته شدُّ ذهن السامع لما يلقى إليه من الكلام ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ ﴿لَّقَدْ كُنتَ﴾ هذه الجملة، يقول العلماء: إنها مؤكدة بثلاث مؤكدات، الأول: القسم، والثاني: اللام، والثالث: قد، والتقدير (والله لقد كنت في غفلة من هذا). فإن قيل: أليس خبر الله تعالى حقًّا وصدقاً. سواءٌ أكد أم لم يؤكد؟

قلنا: بلى، ولا شك، ولكن مادام القرآن نزل باللسان العربي، فإنه لابد أن يكون التأكيد في موضعه، وعدم التأكيد في موضعه، لأن المقصود أن يكون هذا القرآن في أعلى مراتب البلاغة ﴿لَّقَدْ كُنتَ﴾ أي: أيها الإنسان ﴿فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي كنت غافلاً عن هذا اليوم ساهٍ في الدنيا، كأنك خلقت لها ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ يعني هذا اليوم كشف الغطاء، وبان الخفي، واتضح كل شيء ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾ أي قوي بعد أن كان في الدنيا أعشى أعمى، غافل، لكن يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ۝٢٣﴾ قرين الإنسان هو المَلَك الموكل به ليحفظ أعماله؛ لأن الله تعالى وكَّل ببني آدم ملائكة عن اليمين وعن الشمال قعيد، وهذا من عناية الله بك أيها الإنسان، أن وكَّل بك هؤلاء الملائكة يعلمون ما تفعل، ويكتبون، لا يزيدون

فيه ولا ينقصون فيه، فيقول القرين: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: حاضر، ويحضر للإنسان فيقال: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾ قد يشكل على طالب العلم، لأنه قال: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ وقرين مفرد، وهنا ﴿أَلْقِيَا﴾ فيها ألف التثنية، فكيف صح أن يخاطب الواحد بخطاب الاثنين؟

اختلف المفسرون في الجواب عن هذا، فقال بعض العلماء: ألقيا اتصل بها ضمير التثنية بناءً على تكرار الفعل، مثل قوله: ألقي ألقي، فالتكرار للفعل لا للفاعل.

القول الثاني: أن قوله: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ إما أن يكون مفرداً مضافاً، والمعروف أن المفرد المضاف يكون للعموم، فيشمل كل ما ثبت من قرين، وعلى هذا فيكون ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ أي الملكان الموكلان به. فإذا قال قائل: أروني دليلاً أو شاهداً على أن المفرد يكون لأكثر من واحد.

قلنا: يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾. وهل نعمة الله واحدة؟ لا، لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾. لكن نعمة الله مفرد مضاف، فتكون شاملة لكل نعمة.

ويمكن أن يقول قائل: إن قوله: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ هو واحد من الملكين، ولا شك أنه يجوز أن يتكلم واحد من الاثنين باسم الاثنين.

﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ خمسة أوصاف:

﴿كَفَّارٍ﴾، صيغة مبالغة، فإما أن يقال إنه كان صيغة مبالغة، لأن هذا الكافر قد فعل أنواعاً من الكفر، فإذا جمعت الأنواع صارت كثيرة، وقد يقال: إن هذه الصيغة ليست صيغة مبالغة، وإنما هي صيغة نسبة، كما يقال: نجار، وحداد، وما أشبه ذلك ممن ينسب إلى هذه الحرفة، فكفار، أي: كافر، لكنه قد تمكن الكفر في قلبه ـ والعياذ بالله ـ.

﴿عَنِيدٍ﴾ أي: معاند للحق، لا يقبل مهما عرض له الحق بصورة شيقة بينة واضحة لا يقبل.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ فيمنع الدعوة إلى الله، ويمنع بذل أمواله فيما يرضي الله، ويمنع كل خير، لأن قوله: ﴿لِّلْخَيْرِ﴾ لفظ يشمل كل خير، وقوله: مناع كأنه يلتمس كل خير فيمنعه، فتكون هذه الصيغة صيغة مبالغة.

﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: يعتدي على غيره، فلم يمنع غيره من الخير فقط، بل يعتدي عليه، وانظروا إلى كفار قريش ماذا صنعوا مع الرسول ﷺ، منعوه واعتدوا عليه.

﴿مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي: واقع في الريبة والشك والقلق، وكذلك أيضاً يشكك غيره فيدخل في قلبه الريبة، فكلمة ﴿مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ تقتضي وصف الإنسان بها، وحمل هذا الوصف إلى غيره.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، ما أوسع هذه الكلمة، وإذا كانت هذه الكلمة وصفاً للكفَّار العنيد، فالمعنى أنه يعبد مع الله غيره، وكلنا يعلم أن المشركين كانوا يعبدون مع الله غيره، فيعبدون اللات، ويعبدون العزى، ويعبدون مناة، ويعبدون هبل،

وكل قوم لهم طاغية يعبدونها كما يعبدون الله، يركعون لها، ويسجدون لها، ويحبونها كما يحبون الله، ويخافون منها كما يخافون من الله ـ نسأل الله العافية ـ هذا إذا جعلنا قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وصف لهذا الكفَّار العنيد.

أما إذا جعلناه أشمل من ذلك فإنها تعم كل إنسان تعبد لغير الله، وتذلل لغير الله، حتى التاجر الذي ليس له هم إلا تجارته وتنميتها فإنه عابد لها، حتى صاحب الإبل الذي ليس له هم إلا إبله هو عابد لها، والدليل على أن من انشغل بشيء عن طاعة الله فهو عابد له، قول النبي ﷺ: «**تعس عبدالدينار، تعس عبدالدرهم، تعس عبدالخميصة، تعس عبدالخميلة**»[1]. عبدالدينار هذا تاجر الذهب، وعبدالدرهم تاجر الفضة، وعبدالخميصة تاجر الثياب؛ لأن الخميصة هي الثوب الجميل المنقوش، وعبدالخميلة تاجر الفرش، أو ليس بتاجر، يعني لا يتجر بهذه الأشياء لكن مشغول بها عن طاعة الله، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، فسمى النبي ﷺ من اشتغل بهذه الأشياء الأربعة عبداً لها، وفي القرآن الكريم ما يدل على أن العبادة أوسع من هذا، قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾. فدل ذلك على أن كل من قدم هوى نفسه على هدي ربه فهو قد اتخذ إلهاً غيره، ولهذا يمكننا أن نقول: إن جميع المعاصي داخلة في الشرك في هذا المعنى، لأنه قدمها على مرضاة الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٧). وفي رواية: (القطيفة) بدل الخميلة.

وطاعته، فجعل هذا شريكاً لله ـ عز وجل ـ في تعبده له، واتباعه إياه، فالشرك أمره عظيم، وخطره جسيم، حتى الرجل إذا تصدق بدرهم وهو يلاحظ لعل الناس يرونه ليمدحوه ويقولون: إنه رجل كريم. يعتبر مشركاً مرائياً، والرياء شرك، وأخوف ما خاف النبي عليه الصلاة والسلام على أمته الشرك الخفي، وهو الرياء[1]، فعلى هذا نقول: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، إن كانت وصفاً خاصًّا بالكفَّار العنيد، فإنها تختص بمن يعبد الصنم والوثن، وإن كانت للعموم فهي تشمل كل من اشتغل بغير الله عن طاعته، وتقدم ذكر الأمثلة والأدلة على ما ذكرنا.

قال الله تعالى: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ وهو عذاب النار، نسأل الله أن يعيذنا منها بمنه وكرمه، ﴿۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾ هو يدعي أن قرينه هو الذي أطغاه وهو صده عن سبيل الله، فيقول قرينه: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾، ما أمرته أن يكذب، ولا أن يكون عنيداً، ولا أن يكون معتدياً، ولا أن يكون مريباً، ولا أن يكون مشركاً مع الله أحداً، ما فعلت هذا ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾ أي: كان هذا الكافر في ضلال بعيد عن الحق، حينئذ لدينا خصمان: الكفَّار العنيد، والقرين، فالكفَّار العنيد يدعي أن القرين هو الذي أغواه وأطغاه، والقرين ينكر ذلك، فيقول الله ـ عز وجل ـ ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾، الخصومة منقطعة، لأن الحجة قائمة ولا عذر لأحد، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٠) وابن ماجه، كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة (٤٢٠٤).

بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾، أي أوعدتكم على المخالفة فلا حجة لكم، ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾. يعني لا أحد يستطيع أن يبدل قولي؛ لأن الحكم لله ـ عز وجل ـ وحده، فإذا كان الله تعالى قد وعد فهو صادق الوعد سبحانه وتعالى، وأما الإيعاد فقد يغفر ما شاء من الذنوب إلا الشرك ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ يعني لست أظلم أحداً، وكلمة (ظلاَّم) لا تظن أنها صيغة مبالغة، وأن المعنى أني لست كثير الظلم، بل هي من باب النسبة، أي: لست بذي ظلم، والدليل على أن هذا هو المعنى، وأنه يتعين أن يكون هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾، ويقول ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾. ويقول ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾. والآيات في هذا كثيرة، أن الله لا يظلم، بل إننا إذا تأملنا وجدنا أن فضل الله وإحسانه أكثر من عدله. جزاء سيئة سيئة مثلها، وجزاء حسنة عشرة أمثالها، ولو أردنا أن نأخذ بالعدل لكان السيئة بالسيئة، والحسنة بالحسنة، لكن فضل الله زائد على عدله ـ عز وجل ـ فهو سبحانه وتعالى يجزي بالفضل والإحسان لمن كان محسناً، وبالعدل بدون زيادة لمن كان مسيئاً ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ يوم: ظرف زمان، والظروف الزمانية والمكانية، وكذلك حروف الجر لابد لها من متعلق، أي لابد لها من فعل، أو ما كان بمعنى الفعل تتعلق به، فما هو متعلق قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ نقول: هو محذوف،

والتقدير: (اذكر يوم نقول لجهنم) وليعلم أنه يوجد في اللغة العربية كلمات تحذف بل ربما جمل تحذف، وذلك فيما إذا دل عليها السياق، فهنا الكلمة التي تتعلق بها كلمة يوم محذوفة، والتقدير: اذكر ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ يسألها الله ـ عز وجل ـ: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ وهو يعلم سبحانه وتعالى أنها امتلأت، أو لم تمتلىء؛ لأنه لا يخفى عليه شيء، لكنه يسألها هل امتلأت، ليقرر لها ما وعدها سبحانه وتعالى، فإن الله يقول: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾. فيسألها: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ يعني هل حصل ما وعد الله به؛ لأن الله تكفل بأن يملأ الجنة ويملأ النار، فتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾، (هل) أداة استفهام، وهي حرف. وهل هي استفهام طلب، بمعنى: أنها تطلب الزيادة، أو استفهام نفي، بمعنى: أنها تقول: لا مزيد على ما فيها؟ في هذا للعلماء قولان:

القول الأول: إن المعنى: لا مزيد على ما فيَّ، و(هل) تأتي لاستفهام النفي كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ما من خالق؟ وعلى هذا فتكون النار امتلأت إذا قالت: لا مزيد على ذلك، فالمعنى أنها امتلأت.

القول الثاني: أنها استفهام طلب، يعني تطلب الزيادة.

وإذا اختلف العلماء في التفسير أو غير التفسير فلنرجع إلى ما قاله الله تعالى ورسوله ﷺ، فلننظر أي القولين أولى بالصواب، ثبت عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «**لاتزال جهنم تلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة عليها**

قدمه» أو قال عليها رجله «فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط[١] » فأولى القولين بالصواب، إنها استفهام طلب يعني تطلب الزيادة، ولكن رحمة الله سبقت غضبه، يضع عليها عز وجل رجله على الوجه الذي أراد، ثم ينزوي بعضها ينضم إلى بعض وتتضايق وتقول: لا مزيد على ذلك، فحقت كلمة الله أنه ملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين، وفي الحديث الذي سقته إثبات القدم، أو الرجل لله عز وجل، والمراد رجل حقيقة لله عز وجل، إلا أنها لا تشبه أرجل المخلوقين بأي وجه من الوجوه، نعلم علم اليقين أنها ليست مثل أرجل المخلوقين، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾. والمقصود من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ هو تحذير للناس، لأن كل واحد منا لا يدري أيكون من حطب جهنم، أو يكون ممن نجا منها؟ نسأل الله أن ينجينا وإياكم منها.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ أي قربت للمتقين مكاناً غير بعيد ﴿هَٰذَا﴾ أي ما تشاهدون من قرب الجنة ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: هذا الذي توعدون، فإن الله تعالى وعد المؤمنين العاملين الصالحات وعدهم الجنة، وصدق وعده عز وجل، ولكن لمن؟ ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾ الأواب: صيغة مبالغة من أبى يئوب بمعنى رجع، أي لكل أواب إلى الله، أي رجاع إليه، ﴿حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته (٦٦٦١) ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٨).

حفيظ لما أمره الله به، وهذا كقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لعبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «**احفظ الله يحفظك**»(١) والمعنى أنه حفيظ لأوامر الله، لا يضيعها ولا يقابلها بكسل وتوانٍ بل هو نشيط فيها، وإذا عصى بترك واجب، أو فعل محرم تجده يرجع إلى الله، فهو أواب رجاع إلى الله تعالى من المعاصي إلى الطاعات، وكذلك حفيظ حافظ لما أمر الله به، محافظ عليه، قائم به ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ من بدل مما سبقها ﴿خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أي: خافه عن علم وبصيرة، لأن الخشية لا تكون إلا بعلم، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فهي خشية أي خوف ورهبة وتعظيم لله عز وجل، لأنها صادرة عن علم، وقوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ لها معنيان:

المعنى الأول: أنه خشي الرحمن مع أنه لم يره، لكن رأى آياته الدالة عليه.

المعنى الثاني: خشيه بالغيب، أي: بغيبته عن الناس، فهو يخشى الله وهو غائب عن الناس، لأن من الناس من يخشى الله إذا كان بين الناس، وإذا انفرد فإنه لا يخشى الله، مثل المرائي المنافق، إذا كان مع الناس تجده من أحسن الناس خشية، وإذا انفرد لا يخشى الله، كذلك أيضاً من الناس من يكون عنده خشية ظاهرية، لكن القلب ليس خاشياً لله عز وجل ـ فيكون بالغيب، أي ما غاب عن الناس، سواء كان عمله في مكان خاص، أو ما غاب

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب ٥٩ (٢٥١٦) والإمام أحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

عن الناس بقلبه، فإن خشية القلب هي الأصل ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ أي جاء يوم القيامة بقلب منيب يعني رجاع إلى الله ـ عز وجل ـ يعني أنه مات وهو منيب إلى الله فهو كقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ والمعنى أنه بقي على الإنابة والرجوع إلى الله ـ عز وجل ـ إلى أن مات، وإلى أن لقي الله، لأن الأعمال بالخواتيم، نسأل الله أن يختم لنا بالخير.

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾، ادخلوها: أمر، وهل هو أمر إلزام، أو أمر إكرام؟ لا شك أنه أمر إكرام، لأن الآخرة ليس فيها تكليف وإلزام، بل إما إكرام وإما إهانة. فقوله تعالى للمجرمين: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ هذا أمر إهانة، وقوله للمؤمنين هنا ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ هذا أمر إكرام وقوله ﴿بِسَلَٰمٍ﴾، الباء هنا للمصاحبة، والمعنى: دخولاً مصحوباً بسلام، سلام من كل آفة، فأصحاب الجنة سالمون من الأمراض، وسالمون من الهرم، وسالمون من الموت، وسالمون من الغل، وسالمون من الحسد، وسالمون من كل شيء، فأهل الجنة سالمون ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ أي لهؤلاء المتقين ما يشاءون ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ يعني مزيد على ما يتمنون ويشاءون، لأن الإنسان بحكمه مخلوقاً يعجز عن أن يستقصي كل شيء وتنقطع نيته بحيث لا يدري ما يتمنى، لكن هؤلاء أهل الجنة، كل ما يشتهون فيها فإنه موجود طيب، لو اشتهى الإنسان ثمرة معينة كرمان أو عنب أو ما أشبه ذلك يجدها في أي وقت، كل شيء يشتهيه الإنسان ويطلبه فإنه موجود لا ينتهي، بل قال الله ـ عز

وجل ـ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ يعني نعطيهم فوق ما يشتهون ويتمنون. ومن الزيادة النظر إلى وجه الله ـ عز وجل ـ ولهذا استدل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وغيره من أهل العلم بهذه الآية على إثبات رؤية الله ـ عز وجل ـ وقال: إن هذه الآية: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾. كقوله تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم، وأن يرزقنا النظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ لما كانت قريش تكذب النبي عليه الصلاة والسلام وتنكر البعث، وتقول: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ حذرهم الله ـ عز وجل ـ أن يقع بهم ما وقع بمن سبق من الأمم، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: كثيراً من القرون أهلكناهم، والقرن هنا بمعنى القرون، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ فأمم كثيرة أهلكها الله ـ عز وجل ـ لما كذبت الرسل ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي: بحثوا في البلاد يريدون المفر والمجأ من عذاب الله، ولكنهم لم يجدوا مفراً، ولهذا قال: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ أي لا محيص لهم ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ فما أصاب القوم الذين كذبوا الرسل أولاً يصيب من كذب ثانياً؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي ما سبق من الآيات العظيمة ومنها ما قص الله تعالى في هذه الآيات الكريمة من إهلاك الأمم السابقة، فيه ذكرى لنوعين من الناس: الأول ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ أي: من كان له لب وعقل يهتدي به بالتدبر والثاني: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ أي استمع إلى غيره ممن يعظه وهو حاضر القلب فبين الله تعالى أن الذكرى تكون لصنفين من الناس:

الأول: من له عقل ووعي يتدبر ويتأمل بنفسه ويعرف، والثاني: من يستمع إلى غيره، ولكن بشرط أن يكون شاهداً شهيداً أي حاضر القلب، وأما من كان لا يستمع للموعظة، أو يستمع بغير قلب حاضر، أو ليس له عقل يتدبر به، فإنه لا ينتفع بهذه الذكرى، لأنه غافل ميت القلب.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ هذه ثلاثة مخلوقات عظيمة بين الله ـ عز وجل ـ أنه خلقها في ستة أيام، وأكَّد هذا الخبر بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، وقد. لأن تقدير الآية: (والله لقد خلقنا السماوات والأرض)، فالسماوات معلومة لنا جميعاً وهي سبع سماوات طباقاً، والأرض هي الأرض التي نحن عليها، وهي سبع أراضين، كما جاءت به السنة صريحاً[1]، وكما هو ظاهر القرآن في قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾. الثالث:

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين (رقم ٣١٩٥) ومسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها (رقم ١٦١٢).

﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي: بين السماء والأرض، والذي بين السماء والأرض مخلوقات عظيمة، يدل على عظمها أن الله جعلها عديلة لخلق السماوات وخلق الأرض، فهي مخلوقات عظيمة، والآن كلما تقدم العلم بالفلك ظهر من آيات الله ـ عز وجل ـ فيما بين السماء والأرض ما لم يكن معلوماً لكثير من الناس من قبل ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أولها الأحد وآخرها الجمعة، ولو شاء عز وجل لخلقها في لحظة، لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن. فيكون، لكنه ـ جل وعلا ـ يخلق الأشياء بأسباب ومقدمات تتكامل شيئاً فشيئاً حتى تتم، كما لو شاء لخلق الجنين في بطن أمه في لحظة، لكنه يخلقه أطواراً حتى يتكامل، كذلك السماوات لو شاء لخلق السماوات والأرض وما بينهما في لحظة، ولكنه عز وجل يخلق الأشياء تتكامل شيئاً فشيئاً، وقال بعض العلماء: فيه فائدة أخرى، وهي أن يعلّم عباده التأني في الأمور، وأن لا يأخذوا الأمور بسرعة، لأن المهم وهو الإتقان وليس الإعجال والإسراع ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي: ما مسنا من تعب وإعياء، وهذا كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ فهو ـ عز وجل ـ خلق هذه السماوات العظيمة، والأراضين، وما بينها، بدون تعب ولا إعياء، وإنما انتفى عنه التعب ـ جل وعلا ـ لكمال قوته وقدرته ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أمر الله نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يصبر على ما يقولون، وقد قال ـ عز وجل ـ في آية أخرى ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا

صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ اصبر، فإن العاقبة للمتقين ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فهم يقولون: إن محمداً كذاب، وساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون، وأنه لا بعث، وإن كانوا يقرون بالرب عز وجل وأنه خالق السماوات والأرض، لكن لا يقرون بأمور الغيب المستقبلة، فأمره الله أن يصبر على ما يقولون، والصبر على ما يقولون يتضمن شيئين: الأول عدم التضجر مما يقول هؤلاء، وأن يتحمل ما يقوله أعداؤه فيه وفيما جاء به، والثاني: أن يمضي في الدعوة إلى الله، وأن لا يتقاعس ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ سبح تسبيحاً مقروناً بالحمد في هذين الوقتين: قبل طلوع الشمس، وقبل الغروب، قال أغلب المفسرين: المراد بذلك صلاة الفجر وصلاة العصر، وهما أفضل الصلوات الخمس، قال النبي ﷺ: «**من صلى البردين دخل الجنة**»[1] والبردان هما الفجر وفيه برودة الليل، والعصر وفيه برودة النهار، وقال النبي ﷺ: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها**»[2] فالصلاة التي قبل

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر (٥٧٤) ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما (٦٣٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر (٥٥٤) ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما (٦٣٣).

طلوع الشمس هي الفجر، والصلاة التي قبل غروبها هي العصر، وفيه دليل على أن المحافظة على هاتين الصلاتين من أسباب دخول الجنة والنظر إلى وجه الله الكريم، وأفضلهاالعصر، لأن الله تعالى خصها بالذكر حين أمر بالمحافظة على الصلوات فقال: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ وهي العصر، كما فسرها بذلك أعلم الخلق بكتاب الله وهو الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم[1]، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أيضاً سبح الله من الليل و(من) هنا للتبعيض، يعني سبحه أيضاً جزء من الليل، ويدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء، ويدخل في ذلك أيضاً التهجد ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ أي وسبح الله أدبار السجود، أي أدبار الصلوات، وهل المراد بالتسبيح أدبار الصلوات النوافل التي تصلى بعد الصلوات كراتبة الظهر بعدها، وراتبة المغرب بعدها، وراتبة العشاء بعدها، أو المراد التسبيح الخاص؟ وهو سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر. فيه قولان للمفسرين، ولو قيل بهذا وهذا لكان له وجه ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ أي انتظر لهذا النداء الذي يكون عند النفخ في الصور وحشر الناس ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ من القبور ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ (إنا) يقول الله عن نفسه ﴿إِنَّا﴾ تعظيماً له ﴿نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ أي: نحيي بعد الموت، ونميت بعد الحياة، فهو قادر على الإحياء بعد الموت، وعلى الموت بعد

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء على المشركين (٦٣٩٦) ومسلم، كتاب المساجد، باب الدليل لمن قال: الصلاة الوسطى، هي صلاة العصر (٢٠٥).

الإحياء ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ أي المرجع ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ أي مصيرهم إلينا في ذلك الوقت تشقق الأرض، أي: تتفتح عنهم أي عن هؤلاء في قبورهم، تشقق كما تشقق الأرض عند طلوع النبات، ﴿سِرَاعًا﴾ أي يأتون إلى المحشر ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ أي سهل علينا، لأن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ ويقول تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ ويقول تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ وهذا يدل على يسر ذلك على الله عز وجل ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وهذا وعيد لهؤلاء الذين يقولون في رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما يقولون، أخبر الله هنا أنه لا يخفى عليه حالهم، وأنه يعلم ما يقولون، ثم قال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي ليست عليه بذي جبروت فتجبرهم على أن يسلموا ويؤمنوا بك، ولهذا قال في آية أخرى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ أي عظ بالقرآن الكريم من يخاف الوعيد، أي من يخاف وعيدي بالعذاب، لأن هؤلاء هم الذين ينتفعون بالتذكر بالقرآن، فالقرآن يذكر به جميع الناس، ولكن لا ينتفع به إلا من يخاف الله عز وجل، نسأل الله أن يجعلنا من المنتفعين بكتابه، المتعظين بآياته.

تفسير سورة الذاريات

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ تقدم الكلام على البسملة، ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤﴾ أقسم الله تعالى بهذه المخلوقات لأنها دالة على عظمته تبارك وتعالى، ولما فيها من المصالح والمنافع، أما قوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١﴾ فالذاريات هي الرياح تذر التراب وغير التراب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ أي: تفرقه في أمكنة متعددة، وأقسم الله بالذاريات لما فيها من المصالح الكثيرة، ففي تصريفها حكمة بالغة، فمنها الرياح الدافئة، ومنها الرياح الباردة، على حسب ما تقتضيه حكمة الله ـ عز وجل ـ ولأن الرياح تثير سحاباً فيسقي به الله الأرض؛ ولأنها تسير السفن، ففيما سبق كانت السفن تجري على الرياح، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾.

﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢﴾ المراد بها السحاب، تحمل المياه موقرة، أي: مثقلة محملة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢﴾ فهي ثقيلة محملة بمياه عظيمة بحار، ولذلك تمطر فتجري الأرض أنهاراً بإذن الله ـ عز وجل ـ فالذاريات: الرياح، والحاملات: السحب، والارتباط بينهما ظاهر؛ لأن الرياح هي التي تثير السحاب وهي التي تلقح السحاب بالماء، قال الله تعالى:

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ ﴾.

﴿ فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ ﴾ هن السفن ﴿ يُسْرًا ﴿٣﴾ ﴾ أي: بسهولة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾ أي: في السفينة، هذه السفينة ميسرة بإذن الله عز وجل بما يسره الله تعالى من الرياح الطيبة، وكلما كانت الريح مناسبة كان سيرها أيسر، والآن جاءت السفن النارية التي لا تحتاج إلى الرياح فصارت أيسر وأيسر، تجدها قرى كاملة تمخر عباب الماء وتسير بسهولة، والارتباط بين هذه الثلاثة أن الرياح تحمل الأمطار، وأن السحب تحمل الأمطار، فتنزل إلى الأرض، فيكون الرزق للمواشي والآدميين، والجاريات أي السفن، هي أيضاً تحمل الأرزاق من جهة إلى جهة، فلا يمكن أن تصل الأرزاق من جهة إلى جهة أخرى بينها وبينها بحر إلا عن طريق السفن.

﴿ فَٱلْمُقَسِّمَـٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ ﴾ وهم الملائكة، وجمعهم لأنه يجوز جمع المؤنث باعتبار الجماعات، أي: فالجماعات المقسمات ﴿ أَمْرًا ﴿٤﴾ ﴾ التي تقسم الأمر، أي: شئون الخلق، ويحتمل أن يكون ﴿ أَمْرًا ﴿٤﴾ ﴾ أي: بأمر الله، والمعنى صحيح على كلا التقديرين، فإن الملائكة عليهم الصلاة والسلام يقسمون ما يريد الله ـ عز وجل ـ من أرزاق الخلق وغيرها بأمر الله ـ عز وجل ـ هذه أربع جمل: الذاريات، الحاملات، الجاريات، المقسمات، كل هذه مقسم بها، والمقسم عليه: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ ﴾ يعني ما وعدكم الله تعالى فهو وعد صادق، والصادق هو المطابق للواقع، وذلك لأن الخبر نوعان: نوع يخالف الواقع، وهذا يسمى كذباً،

ونوع يطابق الواقع، وهذا يسمى صدقاً، سواء كان المخبر عنه ماضٍ أو مستقبلاً، فأقسم الله ـ عز وجل ـ بهذه المخلوقات على إنما نوعد صادق. فلابد أن يقع إذا وقع ما نوعد، وهوالبعث يوم القيامة يتلوه الجزاء، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ الدين يعني الجزاء، والدين يطلق أحياناً بمعنى الجزاء، وأحياناً بمعنى العمل، ففي قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ المراد به العمل، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ المراد به الجزاء، وهنا ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ أي الجزاء لابد أن يقع، لأن الله على كل شيء قدير. وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ السماء معروفة، ذات: بمعنى صاحبة ﴿ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ يعني الطرق، أي: أنها من حسنها كأنها ذات طرق محبوكة متقنة، كما يكون ذلك في جبال الرمل، يضربها الهواء فتكون مضلعة، إذن السماء كذلك ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ ﴿إِنَّكُمْ﴾ الخطاب للكافرين ﴿لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ يعني يختلف بعضه عن بعض، فبعض الكفار قالوا للرسول عليه الصلاة والسلام: إنه مجنون، وبعضهم قالوا: إنه ساحر، وبعضهم قالوا: إنه كاهن، وبعضهم قال: إنه شاعر، وبعضهم قال: إنه كذاب، فهم مختلفون في النبي ﷺ، واختلاف الأقوال يدل على كذبها وفسادها، وكلما رأيت قولاً مختلفاً متناقضاً فاعلم أنه باطل وليس بصحيح؛ لأن الحق لا يمكن أن يتناقض، فهؤلاء المكذبون للرسول عليه الصلاة والسلام اختلفوا هذا الاختلاف ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ

﴿أُفِكَ ۝٩﴾ بمعنى يصرف ﴿عَنْهُ﴾ قيل: إن الضمير يعود على الرسول عليه الصلاة والسلام، أي يصرف عن الرسول ﷺ من صرف من الناس، وقيل: إن الضمير يعود على القوم، وعلى هذا القول: تكون (عن) بمعنى الباء، أي يؤفك بهذا القول من أفك، يصرف بهذا القول عن الحق من صرف، وهما أي المعنيان متلازمان، والأقرب أن الضمير في قوله ﴿عَنْهُ﴾ يعود على القوم؛ لأنه أقرب مذكور ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾ أي عن هذا القول أي بسببه ﴿مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ أي من صرف عن الحق، وذلك لأن من البيان لسحراً[1] فإذا جاءك رجل بليغ فصيح، وصار يورد عليك الشبهات والشكوك ألست تنخدع بقوله؟ بلى، فهؤلاء المكذبون للرسول عليه الصلاة والسلام عندهم فصاحة وبلاغة وتمويه ودجل، فيصرفون الناس، وقوله ﴿مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ هل المراد من قدر الله عليه أن يصرف، أو المراد من أفك؟ أي من صرفه هؤلاء المختلفون. هما متلازمان أيضاً، فإن هؤلاء الذين يضلون الناس لا يمكن أن يضلوهم إلا بإذن الله ـ عز وجل ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ فهم الذين يأفكون الناس أي: يصرفونهم فهم السبب، لكن المقدر للصرف هو الله ـ عز وجل ـ ولكن اعلم أخي المسلم أنه لا يمكن أن يصرف عن الحق إلا من علم الله منه أنه ليس أهلاً للحق ـ نسأل الله السلامة ـ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ وكذلك الله أعلم حيث يجعل رسالته في الذين يمتثلونها ويؤمنون بها. ويدل على

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الخطبة (٥١٤٦).

هذا الذي قلنا قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ولكن احذر إذا رأيت ضالاً أن تقول: هذا ليس أهلاً للهداية؛ لأن هناك فرقاً بين القول بالعموم، والقول بالتعيين، فالقول بالتعيين حرام؛ لأنك قد ترى شخصاً ضالاً وتقول: هذا لا يهتدي، وإذا به يهديه الله عز وجل، والعكس بالعكس، ربما ترى شخصاً مستقيماً تقول: هذا لا يمكن أن يضل، فإذا به يضله الله، فإياك أن تشهد على معين، لكن حقيقة أنك إذا رأيت ضالاً متمرداً مستكبراً عن الحق فإنك بقلبك تستبعد أن الله يهديه، لكن لا تقل: إن الله لا يهديه، ففي سنن أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لايزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر. فوجده يوماً على ذنب، فقال له: أقصر. فقال: خلني وربي، أبعثت عليَّ رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الجنة، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً، أو كنت على ما في يدي قادراً، وقال للمذنب؟ اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار**». قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وأخراه[1]. وفي رواية مسلم: فقال الله تعالى: «**من ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفر لفلان، إني قد غفرت له، وأحبطت عملك**»[2]

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب النهي عن البغي(٤٩٠١).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله=

نسأل الله العافية، لهذا لا تعجب بنفسك، ولا تيأس من رحمة الله فيما يتعلق بك، ولا فيما يتعلق بغيرك، فإن الله تعالى على كل شيء قدير، لكن نعلم على سبيل العموم أن الإنسان إذا لم يكن أهلاً للهداية فإنه لن يهتدي، فإذا رأينا هذا الشخص منحرفاً مستكبراً معانداً فلا شك أنه يغلب على ظننا أنه ليس أهلاً للهداية، لكن ليس لنا أن ننطق بذلك، ويحرم أن ننطق بذلك، ويخشى أن يقال لنا كما قيل لهذا الرجل: قد غفرت له وأحبطت عملك، وهنا مسألة مهمة وهي الفرق بين التعيين والإطلاق، فنحن مثلاً نشهد لكل مؤمن بأنه في الجنة، لكن إذا رأينا شخصاً مستقيماً، ويصلي ويزكي، ويصوم، ويحج، ويتصدق، ويحسن، ويبر والديه، ويصل رحمه، فلا نشهد بأنه في الجنة؟ لأن التعيين شيء والإجمال شيء آخر، وإذا رأينا رجلاً كافراً ملحداً مسلطاً على المسلمين، يمزق كتاب الله ويدوسه برجليه ويستهزىء بالله ورسوله فلا نقول: هذا من أهل النار، بل نقول: من فعل هذا فهو من أهل النار. بلا تعيين، لأنه من الجائز في آخر لحظة أن يمنّ الله عليه ويهديه، فأنت لا تدري، لذلك يجب التفريق بين التعيين والإطلاق، أوالتعيين والإجمال، فإذا مات رجل ونحن نعرف أنه مات على النصرانية حسب ما يبدو لنا من حاله، فلا نشهد له بالنار؛ لأنه إن كان من أهل النار فسيدخل ولو لم نشهد، وإن لم يكن من أهل النار فشهادتنا شهادة بغير علم، فمثل هذه المسائل لا داعي لها، فلو قال قائل: مات رجل من الروس، من الملحدين،

= تعالى (٢٦٢١).

مات رجل من الأمريكان من الملحدين منهم، مات رجل من اليهود من الملحدين، العنه واشهد له بالنار، نقول: لا يمكن، نحن نقول: من مات على هذا فهو من أهل النار، من مات على هذا لعناه، أما الشخص المعين فلا، ولهذا كان من عقيدة أهل السنة والجماعة قالوا: لا نشهد لأحد بالجنة أو بالنار إلا لمن شهد له النبي ﷺ، ولكننا نرجو للمحسن ونخاف على المسيء، هذه عقيدة أهل السنة والجماعة.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾ ﴿قُتِلَ﴾ كثير من المفسرين يفسرها بلعن، واللعن هوالطرد والإبعاد عن رحمة الله، ولكن الصحيح أنها بمعنى أهلك، لأنه لا داعي أن نصرفها عن ظاهرها، وظاهرها صحيح مستقيم، فمعنى ﴿قُتِلَ﴾: أهلك، و﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾ جمع خراص، وهو الذي يتكلم بالظن والتخمين والارتياب والشك، لأنه منغمر في الجهل والسهو والغفلة، ولهذا وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١﴾ أي في غمرة من الجهل، قد أحاط بهم الجهل من كل جانب، ﴿سَاهُونَ ۝١١﴾: غافلون، لا يحاولون أن يقبلوا على ما أنزل الله على رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ومن جهلهم أنهم ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢﴾، سؤال استبعاد وإنكار، لو كانوا يسألون سؤال استعلام واستخبار، لعذروا، كما قال جبريل للنبي ﷺ: «**أخبرني عن الساعة**»، استفهاماً واستخباراً، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»[1] لكن أولئك الخراصون

---

(١) تقدم تخريجه ص ٦٢.

يسألون: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾﴾ يعني متى هو؟ استبعاداً، ولهذا قال الله عنهم في سورة (ق): ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ يعني أنرجع بعد أن كنا تراباً، هذا رجع بعيد، فهم يسألون عن القيامة لا سؤال استفهام واستخبار ليستيقنوا، ولكنْ سؤال استبعاد وإنكار، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ هذا الجواب يعني يوم القيامة: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ وعلى هذا فيوم هنا ظرف خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: يوم القيامة يوم هم على النار يفتنون، ومعنى: ﴿عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: يعرضون عليها فيحترقون بها، لأن الفتنة بمعنى الاحتراق، ولكنها عديت بعلى، لأنها ضمنت معنى العرض، أي: يعرضون على النار فيحترقون بها، هذا هو يوم الدين ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ ذوقوا هذه جملة مقول لقول محذوف، والتقدير: يقال لهم: ذوقوا فتنتكم، وهذا أمر إهانة وإذلال، أي ذوقوا احتراقكم في النار التي كنتم تنكرونها ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ لأنهم يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، فيستعجلون بالقيامة استبعاداً لها، كما قال الله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ فيقال لهؤلاء: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ ويقال لهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ يفتنون على النار فيحترقون بها، ويقال: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ هذا توبيخ وإهانة وإذلال يكون به:

العذاب القلبي، فيجمع لهم بين العذاب البدني وبين العذاب القلبي، فتجده يكون في أشد ما يكون من الحسرة، يتحسرون يقولون: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾، ولما كان القرآن الكريم مثاني، تثنى فيه المعاني الشرعية والخبرية، إذا ذكر الشيء ذكر ضده، لما ذكر عذاب هؤلاء المكذبين الخراصين قال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥﴾ المتقون هم الذين اتقوا الله، والتقوى ترد في القرآن الكريم على وجوه متعددة: بالوصف تارة، وبالفعل تارة، وبالأمر تارة، وتارة تكون مضافة إلى الله، وتارة تكون مضافة إلى العقوبة وغير ذلك، مما يدل على أن التقوى شأنها عظيم في الإسلام، وليست التقوى قولاً يقال باللسان، بل هي قول يتبعه فعل وتطبيق، فإن سألتم ما هي التقوى؟ قلنا: التقوى كلمتان: فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، علم وبرهان واحتساب وخوف، تفعل ما أمر الله به، لأنك تعلم أن الله أمر به، تفعل ما أمر الله به لأنك تحتسب ثوابه، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، تترك ما نهى الله عنه؛ لأنك تعلم أن الله نهى عنه. تترك ما نهى الله عنه خوفاً من عقاب الله، لأنك موقن بالعذاب، هذه هي التقوى، يقول الله عز وجل عن المتقين: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥﴾ أي: مستقرون في جنات وعيون، والجنات جمع جنة، ويمر في القرآن (جنة) مفرداً و(جنات) جمعاً، فهل هي جنات متعددة أو هي جنة واحدة؟ هي جنات متعددة، لكن ذكرت بلفظ المفرد من باب ذكر الجنس، وإلا فهي جنات، وفي آخر سورة الرحمن، ذكر الله أربع جنات،

قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ وقال النبي ﷺ: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما**»[1] إذن فالجنات متعددة وجمعت باعتبار أنواعها وأصنافها، وقد جاءت في القرآن مفردة، مثل قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

وجاءت أيضاً مجموعة فهي مفردة باعتبار الجنس، ومجموعة باعتبار النوع، و(عيون): جمع عين، وهي الأنهار الجارية، وقد ذكر الله تعالى أنها أربعة أنواع: ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾.

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾. قوله: ﴿ءَاخِذِينَ﴾: حال من الضمير المستتر بالخبر، أي: حال كونهم آخذين ما آتاهم ربهم، أي: ما أعطاهم من النعيم، وهذه الآية كالآية التي في سورة الطور ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾، ثم بيَّن السبب الذي وصلوا به إلى هذا، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ يعني في الدنيا محسنين، أي: قائمين بطاعة الله على الوجه الذي يرضاه الله ـ عز وجل ـ وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[2] هذا الإحسان في العبادة، أما الإحسان في معاملة الخلق، فإنَّ أجمع ما يقال فيه ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام: «**من أحب أن**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ (٤٨٧٨) ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨٠).

(٢) تقدم تخريجه ص ٦٢.

يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه»[١] هذا هو الإحسان إلى الناس، أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، من حسن الخلق، وطلاقة الوجه، وكف الأذى، وبذل الندى إلى غير ذلك مما هو معروف، فهؤلاء محسنون في عبادة الله، ومحسنون إلى عباد الله، ثم ذكر نوعاً من هذا الإحسان فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾. (ما) هنا قيل: إنها زائدة في اللفظ، لكنها زائدة في المعنى، وأن التقدير: كانوا قليلاً يهجعون، أي لا ينامون إلا قليلاً: وماذا يصنعون في هذه اليقظة؟ يصنعون ما ذكره الله تعالى في سورة المزمل: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾. فهم ليسوا يسهرون على اللهو واللغو، أو يستيقظون على مثله، ولكنهم يقل نومهم للتفرغ لطاعة الله عز وجل: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾. الأسحار: جمع سحر، وهو آخر الليل، ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾، يعني يسألون الله المغفرة، وهذا من حسن عملهم وعدم إعجابهم بأنفسهم، وكونهم يشعرون بأنهم وإن اجتهدوا فهم مقصرون، فيستغفرون الله بعد فعل الطاعة جبراً لما حصل فيها من خلل، ويشرع في نهاية العبادات أن يستغفر الإنسان ربه مما قد يكون فيها من خلل، فبعد الصلاة يستغفر الإنسان ربه ثلاثاً، وبعد الحج قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فهم يسألون المغفرة بعد تهجدهم وقيامهم

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الأول فالأول (١٨٤٤).

وسهرهم في طاعة الله، خوفاً من أن يكون هناك تقصير، وهذا مما يدل على معرفتهم بأنفسهم، وأنهم يرون أنفسهم مقصرين، خلافاً لما يفعله بعض الناس الآن إذا تعبد لله تعالى بأدنى عبادة شمخ بنفسه وأدل على الله تعالى بها، وظن أنه من عباد الله الصالحين، صحيح أن الإنسان ينبغي أن يرجو ربه إذا أنعم الله عليه بطاعة أن يقبلها، لكن كونه يرى أنه قد أتم كل شيء. فهذا يخشى أن يحبط عمله وهو لا يشعر. ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ في أموالهم كلها سواء الأموال الزكوية، أو غير الزكوية فيها حق للسائل والمحروم، إذا أتاهم سائل أعطوه، وإذا رأوا محروماً أي ممنوعاً من الرزق، وهو الفقير أعطوه، فمالهم قد أعدوه لما يرضي الله ـ عز وجل ـ من السائلين والمحرومين وغير ذلك من الإنفاق المشروع، فهم يقومون بطاعة الله تهجد في الليل واستغفار وبذل للمال، لكن من غير إسراف ولا مخيلة.

﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ لم يبين الله هذه الآيات بل جاءت منكرة، ليشمل كل آية في الأرض، سواء كانت الآيات فيما يحدث فيها من الحوادث، أو كانت في نفس طبيعة الأرض وتركيب الأرض، فإن فيها آيات عظيمة من حيث التركيب، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ ﴾ فتجد الحجر الواحد يشتمل على عدة معادن وهو حجر واحد، وترى أحياناً في ﴿ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾ ﴾ وتجد فيها الأرض اللينة الرخوة، والأرض الصلبة إلى غير ذلك مما يعرفه علماء الجيولوجيا من الآيات العظيمة، وفيها آيات من جهة

الحوادث التي تحدث فيها من الزلازل والبراكين وغيرها، وفيها آيات أيضاً من جهة طبيعة الجو من حر وبرد، ورياح عاصفة، ورياح باردة، ورياح دافئة، وغير ذلك مما إذا تأمله الإنسان عرف به قدرة الله عز وجل من جهة، وعرف حكمته ورحمته أيضاً من جهة أخرى، لأن آيات الله سبحانه وتعالى يتبصر بها الإنسان من حيث القدرة والعظمة، ومن حيث الحكمة والرحمة، لأن كل شيء تجده مناسباً لمكانه وزمانه، وكل شيء تجده من آثار رحمة الله ـ تبارك وتعالى ـ فكلمة (آيات) نكرة عامة لكل ما يحدث في الأرض من آيات، ولكل ما فيها من طبيعتها وتركيبها وغير ذلك ﴿ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي لمن أيقن بوجود الله عز وجل وعظمته وجلاله، أما من شك ـ والعياذ بالله ـ فإنه لن ينتفع بهذه الآيات، بل قد تكون هذه الآيات ضرراً عليه، فإن الآيات الكونية، أو الشرعية قد تكون خيراً للإنسان، وقد تكون شرًّا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ يعني من القرآن ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ كذلك الآيات الكونية من الناس من ينتفع بها ويستدل بها على ما فيها من آيات الله ـ عز وجل ـ ومن الناس من يكون بالعكس يؤدي ما يجده في الآيات إلى الإلحاد ـ والعياذ بالله ـ ولهذا قال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ يعني لا لكل إنسان بل للموقن، أما الشاك والمتردد والكافر فإنه لن ينتفع بهذه الآيات، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ﴾. أيضاً في

أنفسكم آيات ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ وآيات هنا محذوفة، ولهذا نقول في الإعراب: في أنفسكم، جار ومجرور، خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: وفي أنفسكم آيات. والحكمة ـ والله أعلم ـ ونحن في علمنا القاصر نظن أن الله حذف هذه الآيات لأنها أمس بالإنسان من الأرض وأدخل بالإنسان من الأرض، لأنها هي في نفسه، في أنفسكم آيات: ليس في تركيب الجسم فحسب، وليس فيما أودعه الله تعالى من القوة فحسب، بل حتى في تقلبات الأحوال، فالإنسان تجده يتقلب من سرور إلى حزن، ومن غم إلى فرح، تقلبات عجيبة عظيمة، حتى إن الإنسان في لحظة يجد نفسه متغيراً، وأحياناً يجد نفسه متغيراً بدون سبب، يكون منشرح الصدر واسع البال مسروراً، وإذا به يغتم بدون سبب، وأحياناً بالعكس، هذا بالنسبة للأحوال النفسية، كذلك أيضاً بالنسبة للأحوال الإيمانية، وهي أعظم وأخطر، تجد الإنسان في بعض الأحيان يكون عنده من اليقين ما كأنه يشاهد أمور الغيب مشاهدة حسية، كأنما يرى كل ما أخبر به الله من علوم الغيب، وفي بعض الأحيان يقل هذا اليقين، لأسباب قد تكون معلومة، وقد تكون غير معلومة، لكن من الأسباب المعلومة قلة الطاعة، فإن قلة الطاعة من أسباب ضعف اليقين، فإذا قلت طاعة الإنسان ضعف يقينه، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ ومنها: اللهو، والغفلة، ولهذا قال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لرسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنا إذا كنا عندك وذكرت الجنة والنار فكأنما نراه رأي العين، فإذا ذهبنا إلى أهلنا

عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا[١] . وهكذا الإنسان كلما لهى قل يقينه وقل إيمانه، ومن ثم نهى الشرع عن اللعب واللهو الباطل، الذي يزداد به الإنسان بعداً من الله وبعداً عن طاعة الله وعن التفكير في آيات الله.

أيضاً في النفس آيات في نفوس الناس: فمن الناس من تجده هيناً ليناً طليق الوجه مسروراً، كل من رآه سر بوجهه، وكل من جلس إليه زال عنه الغم والهم، ومن الناس من هو بالعكس قطوب، عبوس، بمجرد ما تراه لو كنت مسروراً لأتاك الحزن والسوء، فهذا أيضاً من آيات النفس وهي كثيرة جداً، ومن أراد المزيد من هذا والاطلاع على قدرة الله تعالى فيما في أنفسنا من الآيات فعليه بمطالعة كلام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتاب (مفتاح دار السعادة) يجد العجب العجاب، وكذلك أيضاً كتابه الصغير وهو كبير في المعنى وهو (التبيان في أقسام القرآن). ذكر من ذلك العجب العجاب ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾، الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار، كأنما يقول الله ـ عز وجل ـ أبصروا في أنفسكم تبصَّروا وتأملوا وتفكروا، فإذا لم تعرفوا هذه الآيات فأنتم لا تبصرون، فيكون الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار ألا نتبصر، وهي دعوة من الله ـ عز وجل ـ لعباده أن يتبصروا في الآيات، فإذا لم تتبصر في الآيات فاعلم أنك محروم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾. إذن إذا لم تنتفع بالآيات

(١) أخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة (٢٧٥٠).

فاعلم أنك محروم، وأن إيمانك ناقص ﴿ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾. فعليك يا أخي أن تتفكر في آيات الله الكونية، وما في هذا الكون العظيم من آيات الله الدالة على عظمته وسلطانه ورحمته وحكمته، وكذلك في آيات الله الشرعية، ومن فتح الله عليه في الآيات الشرعية ينتفع بها أكثر مما ينتفع بالآيات الكونية، إذا تأمل ما أخبر الله به عن نفسه من الأسماء والصفات، والأفعال والأحكام، ازداد إيماناً بالله ـ عز وجل ـ وعرف بذلك الحكمة والرحمة، وإذا تأمل فيما أخبر الله به عن اليوم الآخر، وما يكون فيه من ثواب وعقاب، وجزاء وحساب ازداد إيماناً بالله، وكلما تأمل الإنسان في آيات الله الشرعية ازداد إيماناً، فبعض الناس الموفقين يكون ازدياد إيمانه بالآيات الشرعية أكثر من ازدياد إيمانه بالآيات الكونية، أما الإنسان الذي يفتح الله عليه في هذا وهذا فيا حبذا.

﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ذهب كثير من العلماء أن المراد بالرزق هنا المطر، لأن الله تعالى قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾. وسمي المطر رزقاً؛ لأنه سبب للرزق، فإذا أنزل الله المطر أخرجت الأرض الماء والمرعى، متاعاً لنا ولأنعامنا، وهذا رزق، كم من ناس يكون رزقهم على ما ينزل من المطر من الزروع والحشيش والمياه وغيرها، بل إن الله تعالى قال: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ هل أحد يستطيع أن ينزل من المزن ماءً؟ لا يمكن، وهل أحد يستطيع أن

يخلق في المزن ماءً؟ لا يمكن، وإنما الله عز وجل هو الذي يتولى ذلك، هذا هو مادة الرزق، لولا الماء لهلكت، وتأمل قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾. لم يقل: لو نشاء لم ننزله، مع أنه لو شاء لم ينزله، لكن قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ يعني لو نشاء أنزلناه لكن جعلناه أجاجاً مالحاً، لا يمكن أن يشرب، وحسرة الإنسان على ماء بين يديه ولكن لا يستطيعه ولا يستسيغه أشد من حسرته على ماء مفقود، لأن ماءً موجوداً لا تنتفع به ولا تستطيع شربه أشد حسرة من ماء مفقود، ولهذا ذكرنا الله هذه الحال، أرأيتك الآن لو أن هذا المطر العذب الزلال اللذيذ صار أجاجاً مالحاً، ماذا تكون الحال؟ تكون صعبة جداً، ولهذا قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾. ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ إذن الرزق هو المطر كما في الآية الكريمة ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ ويمكن أن نقول: إن الرزق الذي في السماء أعم من ذلك، فقد يقال: إن في السماء رزقاً من المطر، وما كتبه الله لنا في اللوح المحفوظ من المصالح والمنافع الجسدية من أموال وبنين وغير ذلك، فيكون هذا القول أشمل وأعم، واعلم أنه ينبغي أن يراعي المستدل بالقرآن والسنة قاعدة مفيدة، وهي إذا فسرنا النص القرآني أو النبوي بمعنى أخص وفسرناه بمعنى أعم، فنأخذ بالأعم، لأن الأعم يدخل فيه الأخص ولا عكس، إلا إذا دل دليل على أنه خاص، فهذا يتبع فيه الدليل، لكن عندما لا يدل الدليل، فخذ بالأعم، لأن الأعم يدخل فيه الأخص ولا عكس، فهنا إذا قلنا: المراد بالرزق ما هو أعم من

المطر، فالجواب صحيح، فيدخل فيه المطر وغيره، وقوله: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعني وفيه الذي توعدون، والذي نوعد الجنة، فالجنة في السماء وليست في الأرض، ولهذا قال الله تعالى في قصة آدم: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا﴾. والهبوط يكون من أعلى إلى أسفل، فالجنة في السماء، وقد أخبر النبي ﷺ أن الجنة درجات، وأن أعلاها الفردوس، وأنه أعلاها وأوسطها أيضاً، وهو إشارة إلى أن الجنات مثل القبة أعلاها هو وسطها، قال: «**منه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن**»[1] إذن هي أعلى شيء، ـ نسأل الله أن يجعلنا من ساكنيها إنه على كل شيء قدير ـ، فالذي نوعد هو الجنة، فالرزق في السماء، والجنة التي نوعدها في الآخرة في السماء، إذا نحن أهل الأرض محتاجون إلى السماء في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ففي السماء رزقنا في الدنيا، وفيها ما نوعد في الآخرة وهو الجنة، نسأل الله أن يجعلنا من أهلها.

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الفاء عاطفة، والواو للقسم، ورب السماء والأرض هو الله ـ عز وجل ـ أقسم بنفسه تبارك وتعالى بمقتضى ربوبيته للسماء والأرض، أن ما يوعدون حق؛ لأنه قال: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما توعدون. ويحتمل أن يكون الضمير عائداً للقرآن، ويحتمل أيضاً أنه عائد إلى النبي ﷺ، والمعاني الثلاثة كلها متلازمة، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي: ثابت، لأن الحق والباطل

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله (٢٧٩٠).

متقابلان، فالباطل هو الزائل الضائع سداً، والحق هو الثابت الذي فيه الفائدة، وفيه الخير والصلاح، وقوله: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ يعني كما أن الإنسان يتيقن نطقه، فإن هذا القرآن حق، ومعلوم أن كل واحد منا لا ينكر نطقه، وإذا نطق تيقن أنه نطق، إذن هذا القرآن كلام الله ـ عز وجل ـ حق مثلما أن نطقنا حق.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ الخطاب ليس للنبي ﷺ فحسب، بل له، ولكل من يتأتى خطابه ويصح توجيه الخطاب إليه، كأنه قال: هل أتاك أيها المخاطب ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ والاستفهام هنا للتشويق، كأنه يشوقك إلى أن تسمع هذا الحديث، ونظيره في التشويق قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾. ليس المراد بهذا الاستفهام أنه يستفهم، لكنه أراد أن يشوق المخاطبين إلى ذلك، ويكون الاستفهام للتهديد والإنذار والتخويف في مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾﴾.

فإذا قال قائل: أي شيء يدلنا على أن الاستفهام للتشويق، أو للتهديد، أو للاستخبار أو ما أشبه ذلك؟

نقول: الذي يدلنا على هذا السياق وقرائن الأحوال، والعاقل يفهم هذا وهذا، ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ﴾ أي: خبر ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾، ضيف هنا مفرد، لكنه يستوي فيه الجماعة والواحد، وهم جماعة ملائكة كرام عليهم الصلاة والسلام، ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يعني الذين نزلوا ضيوفاً عنده، وإبراهيم هو الخليل عليه الصلاة

والسلام، وهو أبو العرب، وأبو بني إسرائيل كما قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾. وهو الذي أمرنا الله تعالى أن نتبع ملته، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾. ولهذا ادعت اليهود أن إبراهيم يهودي، والنصارى ادعوا أنه نصراني، ولكن الله تعالى كذبهم في ذلك، فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾. يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ يحتمل أن ﴿إِذْ دَخَلُوا۟﴾ متعلق بقوله (المكرمين) يعني الذين أكرمهم حين دخولهم عليه، ويحتمل أنها مفعول لفعل محذوف، والتقدير: اذكر إذ دخلوا على إبراهيم ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ (قالوا سلاماً)، أي: نسلم سلاماً، وعليه فسلاماً مصدر عامله محذوف، والتقدير: نسلم، ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: عليكم سلام، وعلى هذا فيكون التسليم هنا ابتداؤه بالجملة الفعلية، وجوابه بالجملة الاسمية، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار، ولهذا قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: إن رد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أكمل من تسليم الملائكة، لأن تسليم الملائكة جاء بالصيغة الفعلية، ورد إبراهيم جاء بالصيغة الاسمية، ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، قوم خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: أنتم قوم، وإنما قال إنهم قوم؛ لأنهم بصورة البشر، وقوله: ﴿مُّنكَرُونَ﴾ أي: غير معروفين، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾. في هذه الآية شاهد لحذف المبتدأ، وحذف الخبر، والشاهد

لحذف الخبر (سلام)، لأن التقدير: عليكم سلام. والشاهد لحذف المبتدأ (قوم)، لأن التقدير: أنتم قوم. ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ راغ: انسل بخفية وسرعة، وذلك من حسن ضيافته. لم يقل: انتظروا آتي لكم بالطعام. ولم يقم متباطئاً كأنما يدفع دفعاً، وإنما قام بسرعة منسلاً، لئلا يقوموا إذا رأوه ذهب إلى أهله، فكأنه أخفى الأمر عنهم ﴿أَهْلِهِۦ﴾ يعني أهل بيته ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ وفي آية أخرى: ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ أي مشوي، واللحم إذا شوي يكون أطعم وألذ، لأن طعمه يبقى فيه لا يمتزج بالماء، بخلاف ما إذا طبخ يمتزج بعضه بالماء، فتقل لذته، لكن إذا كان مشوياً صار أطيب وأحسن، ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ يعني أنه عليه الصلاة والسلام لا يتخير للضيوف البهائم العجفاء الهزيلة، وإنما يتخير لهم البهائم السمينة، لأنها ألذ وأطيب وأنفع، واختيار العجل إما أن يكون من عادته عليه الصلاة والسلام أن يكرم الناس بهذا، أو أنه يكرم الضيوف بحسب ما تقتضيه الحال، فإذا كانوا كثيرين أتى بالعجل، وإذا كانوا أقل أتى بالغنم، وما أشبه ذلك حسب عادة الكرماء ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي لم يجعله بعيداً، ويقول: قوموا إلى طعامكم، بل خدمهم حتى جعله بين أيديهم، وقربه إليهم قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ولم يقل: كلوا. إنما عرضه عليهم عرضاً، لأن هذا أبلغ في الإكرام، والعرض أخف وألطف من الأمر، إذ إنه لو قال: كلوا. كان يحتمل أنه أراد أن يستعلي عليهم ويوجه الأمر إليهم، لكن قال: ألا تأكلون؟ والفرق بين العبارتين في الرق، فقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أرق

وأرفق.

مسألة: هل نقول: إن السنة والأفضل أن الإنسان إذا دعا ضيوفاً، أو أتاه ضيوف أن يقرب إليهم الطعام في مجلس الجلوس أو نقول: هذا يختلف باختلاف الأحوال؟

الثاني هو الأظهر، لأن عموم قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه**»[1] يدل على أنك تكرمهم بما جرت العادة بإكرامهم به، وعندنا الآن إذا دعوت أصحابك وأصدقاءك وهم قلة فلا يعدون تقديم الطعام في مكان جلوسهم إهانة، لأنهم إخوانكم وأصدقاؤكم، لكن لو نزل بك ضيف أو دعوت ضيفاً ليس بينك وبينه صلة تامة فإنه في عرف الناس الآن ليس من إكرامه أن تقدم الطعام في محل الجلوس، اللهم إلا لضرورة، إذا لم يكن عندك مكان، والآن الإكرام أن تجعل الطعام في مكانه، ثم إذا أراد أن يأكلوا يقول: تفضلوا، ألا تتفضلوا، أو ما أشبه ذلك من الكلمات المتداولة، فالمهم أن قوله تبارك وتعالى عن إبراهيم: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧﴾ ينبغي أن يجعل هذا حسب عادة الناس، إذا كان من الإكرام أن تأتي بالطعام إلى محل جلوسهم فأت به، وإذا كان من الإكرام أن تجعله في محل آخر فافعل، دليل ذلك قوله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**».

﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ أي: أحس بنفسه بخيفة منهم، وسبب تلك الخيفة أنه عليه الصلاة والسلام لما قدَّم إليهم الطعام لم

---

(١) تقدم تخريجه ص ٩٤.

يأكلوا منه ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لأن العادة أن الضيف يأكل مما قدم له المضيف، لكن هؤلاء الملائكة، لم يأكلوا؛ لأن الملائكة صمد أي ليس لهم أجواف، كما جاء ذلك مأثوراً عن السلف، ولهذا لا يحتاجون إلى أكل ولا إلى شرب، فأوجس منهم خيفة ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ طمأنوه، قالوا: لا تخف لما رأوا على وجهه من علامة الإنكار والخوف، وكل إنسان يعرف حال قلب المرء المواجه له، هل هو في سرور؟ هل هو في انشراح؟ هل هو خائف؟ هل هو مطمئن؟ لأن هذا أمر معلوم بالفطرة، ولا يحتاج إلى كبير فراسة ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ البشارة هي الإخبار بما يسر، أي أخبروه بما يسره وهو الغلام العليم، وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد بلغ من الكبر عتيًّا قبل أن يولد له، فبشروه بهذا الغلام، وبشروه بأنه عليم أي سيكون عالماً؛ لأن الله تعالى جعله من الأنبياء، والأنبياء هم أعلم الخلق بالله ـ عز وجل ـ وأسمائه وصفاته وأحكامه وأفعاله، وهذا الغلام العليم غير الغلام الحليم، لأن في القرآن أن إبراهيم بُشر بغلام عليم في آيتين من كتاب الله، وبشر بغلام حليم في آية واحدة، وهما غلامان، أما الغلام الحليم فإنه إسماعيل أبو العرب، وأما الغلام العليم فإنه إسحاق أبو بني إسرائيل، ولذلك تجد قصتهما مختلفة، ولقد أبعد عن الصواب، من قال: إن الغلام الحليم هو الغلام العليم، بل ونص صريح في سورة الصافات أنهما غلامان مختلفان، فإن الله تعالى لما ذكر قصة الذبيح في سورة الصافات قال بعدها: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ فكيف يبشر بمن أمر بذبحه، وكان عنده وبلغ معه

السعي، كل هذا مما يدل على أن الغلام الحليم غير الغلام العليم، بشروه بغلام عليم، وهذه بشارة بثلاثة أشياء: أولاً بأنه سيأتيه مولود يصل إلى أن يكون غلاماً، ثانياً: أن هذا المولود ذكر لا أنثى لقوله (غلام)، ثالثاً: أنه عليم أي ذو علم، وكل هذه البشارات عظيمة، كل واحدة تكفي أن تكون بشارة ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ امرأته هذه: سارة أم إسحاق، أقبلت لما سمعت البشرى ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ في صيحة سرور، لأنها جاءتها هذه البشرى بعد أن تقدمت بها السن، تصيح وكأنها والله أعلم تقول: غلام غلام، ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي ضربته بيدها كالمتعجبة، كما يصنع الناس إلى اليوم إذا أتاهم خبر نادى: الله أكبر. وضرب على وجهه ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ عجوز خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: أنا عجوز عقيم، فكأنها تعجبت أن تحصل لها البشرى بهذا الغلام العليم، بعد أن تقدمت بها السن وعقمت من الولد، ولكنهم بينوا لها السبب الوحيد الذي به وجد هذا الولد، فقالوا: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي مثلما قلنا وبشرنا به، قال الله ـ عز وجل ـ وانظر إلى قوله: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ حيث أضاف الربوبية هنا إلى هذه المرأة العجوز العقيم الكبيرة، إشارة إلى أن هذا من عناية الله بها، لأن إضافة الربوبية إلى الشخص المعين تكون ربوبية خاصة، والربوبية العامة لكل أحد، والله رب كل شيء، والخاصة ليست لأحد إلا لمن كان خاصًّا بالله، قال الله عز وجل: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ الربوبية العامة ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾، والربوبية الخاصة ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾، هنا قالوا لها: ﴿قَالَ

رَبُّكِ﴾ من باب الربوبية الخاصة التي تقتضي عناية خاصة ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ إن شئت فقل: (الحكيم) خبر إن و(هو) ضمير فصل لا محل له من الإعراب، وإن شئت فقل: (هو) مبتدأ و(الحكيم) خبر هو، والجملة خبر إن، وهنا قدَّم الحكيم على العليم؛ لأن المقام يقتضي هنا تقديم الحكمة على العلم، والحكمة هنا في شيئين: أولاً: تأخير الولادة بالنسبة لهذه المرأة، إن الله لم يؤخر ولادتها إلى أن تبلغ العجز إلا لحكمة، ثانياً: كونها ولدت بعد أن أيست واعتقدت أنها عقيم، فهاهنا حكمتان: حكمة سابقة، وحكمة لاحقة، ومن ثم قدَّم اسم الحكيم على اسم العليم، والقرآن إذا جمع الله فيه بين هذين الاسمين الكريمين: العليم والحكيم يقدم غالباً العليم، لكن هنا قدَّم الحكيم؛ لأن المقام يقتضي ذلك ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ وأكثر الناس يظنون أن معنى (الحكيم) أنه المتصف بالحكمة، والحكمة هي وضع الشيء في مواضعه، ولكن الواقع أن الحكيم له معنيان: حكيم من الحكمة، وحكيم من الحكم، فالله ـ عز وجل ـ حكيم من الحكمة، لأن الله تعالى هو الحكم بين العباد، والحاكم في العباد هو حاكم فيهم، وهو الحكم بينهم، وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾. وهذا استفهام للتقرير، يعني أن الله تعالى أحكم الحاكمين، وكلاهما في محله المناسب، ففي سورة المائدة ذكر الله ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾. ﴿الظالمون﴾. ﴿الفاسقون﴾،

وتتابعت الآيات حتى قال: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾. فكأن المقام مقام مفاضلة بين الأحكام فبين أن حكم الله أحسن الأحكام، لكن في سورة التين المقام مقام سلطة وقوة، والله أحكم الحاكمين يعني أن حكمه نافذ وسلطته تامة، ولا أحد يعارض حكمه أبداً مهما قويت شوكته، وانظر إلى قول الله تعالى عن عاد ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾. يعني لا أحد أشد منا قوة، فقال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ ﴾. وعذبهم بألطف الأشياء عذبهم بالريح، الهواء اللطيف الذي لا تحس بملمسه، وإن كان قوياً بأن يدفع كل شيء، وهو أقوى من الماء كما هو معروف، وهذا الهواء اللطيف أهلك به هؤلاء القوم الذين يقولون: من أشد منا قوة، أهلكهم به، فالحاصل أن الله أحكم الحاكمين حكمه نافذ صادر عن قوة وسلطان، ثم إن أحكم الحاكمين تضمن أيضاً حسن الحكم، فصار حكم الله ـ عز وجل ـ يتضمن أنه الحاكم في العباد، وأنه الحاكم بين العباد، وأن حكمه أحسن الأحكام، وأنه تعالى أحكم الحاكمين، والحكمة البالغة لله ولا شيء من الأفعال القائمة بالوجود أحكم من حكمة الله، وإذا آمنت بهذا أيها المؤمن سهل عليك أمور كثيرة تشكل على كثير من الناس، منها بعض الأحكام الشرعية لا يدرك الناس، أو أكثرهم، أو بعضهم حكمته، فهل نقول: إذا لم يدرك الحكمة إنه لا حكمة لها، أو نقول: إن لها حكمة، لكن عقولنا قاصرة، نقول: لها حكمة ولكن عقولنا قاصرة، وإذا آمنا هذا الإيمان اطمأننا إلى كثير من الأمور الشرعية التي تخفى علينا حكمتها، فنحن لا ندرك

الحكمة في كون الصلوات الخمس خمساً، أو أنها سبع عشرة ركعة، وأشياء كثيرة من الأمور الشرعية لا يدرك الإنسان حكمتها، لكن إذا آمنت أن الله حكيم آمنت بأنه لابد لهذا الشيء من حكمة تقتضيه، كذلك في الأمور القدرية قد يرسل الله سبحانه وتعالى عذاباً يشمل الصالح والطالح، وقد يرسل الله عذاباً على قوم لا تتوقع أن يصيبهم العذاب، فهل تقول: ما الحكمة؟ أو تقول: إن الله عز وجل لابد أن يكون تقديره لهذا عن حكمة؟ ولذلك أقول: إن الواجب علينا فيما أمر الله به من الشرائع، وفيما قضاه من الأقدار أن نستسلم غاية التسليم، وأن لا نعترض قال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾. أقسم الله ـ عز وجل ـ أنه لا يمكن لأحد أن يؤمن إلا بهذه الشروط الثلاثة، هي: أن يحكموك فيما شجر بينهم، والثاني: ألا يجدوا في أنفسهم حرجاً، يعني لا تضيق صدورهم بحكم الله، الثالث: أن يسلموا تسليماً، وأكد هذا المصدر تسليماً يعني تسليماً تامًّا، فلا يتهاون الإنسان ويتباطأ في تنفيذ حكم الله، فإذا وجدت من نفسك عيباً يتعلق بهذه الأمور الثلاثة فصحح إيمانك، فإذا رأيت أنك تود أن يكون التحاكم إلى غير الله ورسوله فصحح الإيمان، وإذا رأيت من قبلك أنك لا تريد إلا حكم الله ورسوله لكن يضيق صدرك بحكم الله ورسوله تحدث نفسك أنك لا يمكن تتحاكم إلى غير الله ورسوله لكن يضيق صدرك فأنت ناقص الإيمان، وإذا كنت لا يضيق صدرك ولا تريد التحاكم لغير الله ورسوله وأنت

منشرح الصدر لحكم الله ورسوله، لكن تتباطأ وتتهاون فأنت ناقص الإيمان، اقرأ قول الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾. لما لم يؤمنوا به أول مرة ولم يقبلوه من أول مرة صارت ـ والعياذ بالله ـ قلوبهم متقلبة، وتركهم الله في طغيانهم يعمهون، ولهذا يجب عليك أيها المؤمن أن تبادر بانقياد التام لحكم الله تعالى القدري.

وأتكلم على آداب السلام، حيث إن الملائكة قالوا: (سلاماً)، فقال إبراهيم: (سلام)، ذكرنا فيما سبق أن رد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أحسن من ابتداء الملائكة؛ لأن رد إبراهيم عليه السلام جملة اسمية تفيد الثبوت والاستمرار، بخلاف سلام الملائكة عليهم السلام، واعلم أن رد التحية واجب، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾. فقال: ﴿إذا حييتم﴾ ولم يذكر من يحيينا، فيشمل أي إنسان يحيينا، فإننا نحيه ونرد عليه أحسن من تحيته، أو مثلها كما قال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾. فبدأ بالأحسن، لأنه هو الأفضل، أو ردوها، أي: ردوا مثلها، ويشمل هذا ما إذا سلم علينا أحد من اليهود، أو النصارى، أو البوذيين، أو غيرهم، فنرد عليهم، لكننا لا نبدأ اليهود والنصارى بالسلام، لنهي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن ذلك[1]، ثم إن السلام

(١) حيث قال: «لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام. فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه». أخرجه مسلم، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (رقم ٢١٦٧).

المشروع هو: السلام عليكم، وأما أهلاً وسهلاً، ومرحباً، وكيف حالك وما أشبهها، فهذا ليس بمشروع، المشروع أن تبدأ أولاً بالسلام، ولهذا في حديث المعراج حين كان النبي ﷺ يمر بالأنبياء فيسلم عليهم، قال: فرد عليه السلام، وقال: مرحباً بالنبي الصالح[1]، فابدأ أولاً بقولك السلام عليكم، والجواب يكون مثل ذلك أو أحسن، يكون: عليكم السلام، أو وعليكم السلام، أو عليكم السلام ورحمة الله، أو عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، كل هذا من المشروع، ونرى كثيراً من الناس إذا سُلِّم عليه يقول: أهلاً وسهلاً، أو يقول: مرحباً بأبي فلان، وهذا لا يجزىء، فلو قال: أهلاً وسهلاً، مدى الدهر فإنه لا يجزىء؛ لأن الله يقول: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾، ومعلوم أن الذي يقول: السلام عليك، يدعو لك بالسلام من كل نقص ومن كل آفة، ومن كل مرض في القلب والبدن، ولا يكفي أن تقول مرحباً وأهلاً، بل لابد أن تقول: عليك السلام، أو وعليكم السلام، وإن زدت ورحمة الله وبركاته كان أحسن.

ثانياً: من السنة أن يسلم الصغير على الكبير؛ لأن حق الكبير على الصغير أعظم من حق الصغير على الكبير، فيبدأ الصغير بالسلام على الكبير، ولكن إذا قدر أن الصغير لم يسلم فهل يدع الكبير السلام، لأن الحق له، أو يسلم لئلا تفوت السنة؟

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء (٣٤٩) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات (١٦٣).

والجواب: يسلم لئلا تفوت السنة، فكون الإنسان يقول: أنا صاحب الحق، لماذا لم يسلم عليَّ، هذا خطأ، صحيح أنك صاحب الحق وأن المشروع أن يسلم هو عليك، لكن إذا لم يفعل فسلم أنت.

ثالثاً: يسلم الماشي على القاعد[١]، ولو كان القاعد أصغر، فإذا مر شخص بإنسان قاعد فليسلم عليه، ولو كان أصغر منه سنًّا، أو قدراً، وقد كان من هدي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه يسلم على الصبيان إذا مر بهم[٢]، وفي ذلك فوائد عظيمة منها: التواضع، أن الإنسان يضع نفسه إذا سلم على من هو دونه، ومنها الرحمة؛ لأن سلامك على الصغار نوع من الرحمة، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن الراحمين يرحمهم الله[٣] ـ عز وجل ـ، ومنها تعويد هؤلاء الصبيان على السلام، يعني أن الصبي يعرف شعار المسلمين أن يسلم بعضهم على بعض، فيأخذ من هذا أدباً وخلقاً ينتفع به في شبابه وبعد هرمه.

رابعاً: يسلم القليل على الكثير كالصغير مع الكبير، فإذا تقابل جماعة خمسة وستة فيسلم الخمسة على الستة، لأن الستة فيهم زيادة، فهذه الزيادة لها حق الزائد، فيسلم القليل على

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب يسلم الراكب على الماشي (٦٢٣٢) ومسلم، كتاب السلام، باب يسلم الراكب على الماشي والقليل على الكثير (٢١٦٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب التسليم على الصبيان (رقم ٦٢٤٧) ومسلم، كتاب السلام، باب استحباب السلام على الصبيان (رقم ٢١٦٨).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الناس (١٩٢٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

الكثير، وإذا لم يفعلوا فليسلم الكثير على القليل، لئلا تفوت السنة بينهم.

خامساً: يسلم الراكب على الماشي، فإذا تقابل رجلان أحدهما يمشي، والثاني راكب في سيارته أو على بعيره فيسلم الراكب على الماشي، لأن الراكب له علو فيسلم على الماشي، لأن السنة جاءت بهذا[1]، كذلك الصاعد على النازل، فلو أن اثنين التقيا في درجة سلم فإن الصاعد هو الذي يسلم على النازل، وإذا لم تأت السنة ممن عليه أن يبدأ بها فليبدأ بها الثاني، قال النبي ﷺ: «**لا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**»[2] قال: خيرهما، فدل ذلك على أن من بدأ غيره بالسلام فهو خير، وهو كذلك لأنك إذا سلمت حصلت عشر حسنات، ثم إذا رد صاحبك حصل عشر حسنات، والسبب الذي جعله يحصل عشر حسنات هو البادي، لولا أنه سلم ما رد، فتكون أنت متسبباً لهذا الذي عمل عملاً صالحاً فلك أجره، ولهذا قال العلماء: ابتداء السلام سنة، ورده واجب، ثم أوردوا على هذا إشكالاً فقالوا: ابتداء السلام أفضل من رده، فكيف تكون السنة أفضل من الواجب؟ والقاعدة الشرعية أن الواجب أفضل، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**ما تقرَّب إليَّ بشيء أحبّ إليَّ مما افترضت**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب يسلم الراكب على الماشي (رقم ٦٢٣٢) ومسلم، كتاب السلام، باب يسلم الراكب على الماشي والقليل على الكثير (رقم ٢١٦٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الهجرة (٦٠٧٧) ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الهجر فوق ثلاث بلا عذر شرعي (٢٥٦٠).

عليه»[١] أجابوا عن ذلك قالوا هذا الإشكال جوابه: أن هذا الواجب كان مبنيًّا على السنة، فصارت السنة التي بني عليها الواجب، لمن أتى بها ثواب أجره الخاص وثواب أجر الراد.

سادساً: ينبغي أن يكون بصوت مسموع، فبعض الناس يلاقيك ويسلم لكن تشك: هل سلم أو لا؟ لأنه لم يرفع صوته، وهذا غلط، ارفع الصوت على وجه يدل على أنك فرح بهذا الأخ الذي قابلك أو الذي سلمت عليه لا بصوت مزعج ولا بخافت لا يسمع، وعلى العكس من ذلك، بعض الناس يسلم بصوت مزعج، والدين وسط بين الغالي والجافي، فنقول: سلم سلاماً مسموعاً يسمعه أخوك ويكون بأدب واحترام.

سابعاً: من آداب السلام أيضاً: أن يكون المسلم منبسط الوجه منشرح الصدر، فإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق[٢]، فإن طلاقة الوجه وانشراح الصدر والابتسامة في وجه أخيك لا شك أنها من الأمور المطلوبة لما فيها من إدخال السرور على إخوانك، وإدخال السرور على إخوانك من الأمور المستحبة التي تُؤجر عليها، لقول النبي ﷺ: «**كل معروف صدقة**»[٣].

ثامناً: رد السلام المحمول إن كان الحامل له شخصاً وقال: فلان يسلم عليك. فقل: عليك وعليه السلام، وإن شئت فقل: عليه السلام، أي على الذي حمله، أما إذا كان محمولاً بكتابة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع (٦٥٠٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٤٤، ٣٦٠).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب كل معروف صدقة (٦٠٢١).

يعني إنسان كتب لك كتاباً، وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فإن كنت تريد أن تجيبه بكتاب فرد عليه بجوابك، مثلاً: كتب إليك إنسان كتاباً وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تكتب إليه: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، قرأت كتابك وفهمت ما فيه، والجواب كذا وكذا، وأكثر الناس الآن لا يهتمون بهذا، تجده يكتب الجواب ويقول في ابتدائه: السلام عليكم ورحمة الله. هذا طيب، لكن الذي سلم عليك يريد جواباً فقل: جواب ـ يعني ـ: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وصلني كتابك أو قرأت كتابك، وفهمت ما فيه، وهذا الجواب، وتجيبه بما سألك، وإذا كان لا يحتاج إلى جواب مثل أن يكون الشخص كتب إليك كتاباً يخبرك بخبر لا يحتاج إلى جواب، فهنا إذا قرأت الكتاب فقل: عليك السلام ورحمة الله وبركاته، لا أقول وجوباً، لأن صاحبك لن يسمع، لكن على سبيل الاستحباب، رجل دعا لك بظهر الغيب فادع له أنت بظهر الغيب.

﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ القائل: ما خطبكم هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أي ما شأنكم أيهاالمرسلون وهم الملائكة ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ يعني أرسلنا الله ـ عز وجل ـ، لأنه من المعلوم أنه لا يرسل أحداً من الملائكة إلا خالقهم سبحانه وتعالى ﴿ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ أي: ذوي جرم عظيم ألا وهو اللواط ـ والعياذ بالله ـ، فإنهم كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، فيأتون ما لم يخلق لهم، ويدعون ما خلق لهم، كما قال لهم نبيهم لوط عليه

الصلاة والسلام: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾، وهذه الفاحشة فاحشة نكراء، لا يقرها عقل، ولا فطرة، ولا دين، ولهذا كانت عقوبتها القتل للفاعل والمفعول به، إذا كانا بالغين عاقلين، سواء كان محصنين أم غير محصنين، بخلاف الزنى، فالزنى أهون عقوبة، لأن الزنى من لم يكن محصناً فعقوبته أن يجلد مائة جلدة ويغرب عن البلد سنة كاملة، وإن كان محصناً وهو الذي قد تزوج وجامع: فعقوبته أن يرجم بالحجارة حتى يموت، أما هذا فعقوبته القتل بكل حال، كما جاء في الحديث: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»[1] ووقعت هذه الفاحشة في عهد أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فأمر أن يحرق كل من الفاعل والمفعول به، لأن الإحراق أعظم عقوبة يعاقب بها بنو آدم، وكذلك جاء عن بعض الخلفاء أنهم أمروا بإحراق اللوطي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: أجمع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على قتل اللوطي فاعلاً كان أو مفعولاً به، لكنهم اختلفوا: كيف يقتل؟ منهم من قال: يحرق، ومنهم من قال: يرمى بالحجارة حتى يموت كالزاني المحصن، ومنهم من قال: يلقى من أعلى شاهق في البلد، يعني في مكان مرتفع، أعلى ما يكون في البلد، ثم يتبع بالحجارة حتى يموت، فالمهم أنهم متفقون على قتله، ولا شك أن قتله هو الحكمة، لأن هذه الفاحشة متى دبت في الرجال صار الرجال كالنساء، وبدأ الذل والعار والخزي على وجه المفعول به، لا ينساه حتى يموت، ثم استغنى الرجال

---

(١) تقدم ص ٨٦، وهو عند الترمذي (١٤٥٦).

بالرجال وبقيت النساء، لأن هذه الفاحشة ـ والعياذ بالله ـ إذا ابتلي بها الإنسان لا يلتفت إلى غيرها، لأنها مرض، فتاك ساري، فإذا أعدم هؤلاء وهم في الحقيقة جرثومة فاسدة مفسدة للإنسان، كان ذلك عين المصلحة، ثم اللواط ـ والعياذ بالله ـ لا يمكن التحرز منه، لأنه بين ذكرين لا يمكن لأي إنسان يجد ذكرين يمشيان في السوق أن ينكر عليهما اجتماعهما، ولكن الزنى إذا رأيت رجلاً مع امرأة تستنكره أو تتهمه وتتكلم معه، لذلك كانت عقوبة الإعدام في حق اللوطي أوفق ما يكون للحكمة وللرحمة، فهي رحمة بالفاعلين، يعني باللائط والملوط به، حتى لا يبقيا في حياتهما يكتسبان الإثم وتزداد العقوبة عليهما، ورحمة بالمجتمع فتكون عقوبتهما نكالاً حتى لا يفسد المجتمع، لهذا قالت الملائكة لإبراهيم: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ وجرمهم ـ والعياذ بالله ـ ما سبقوا عليه، كما قال لهم نبيهم ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾. ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ حجارة من طين، لكنه ليس الطين الذي يتفتت بل الصلب العظيم الذي إذا أصابت هذه الحجارة أحداً من الناس وضربته على رأسه خرجت من دبره، لا يردها عظم ولا لحم، لقوتها وشدتها وصلابتها ـ والعياذ بالله ـ ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: معلمة عند الله، يعني عليها علامة، لأن كل شيء عند الله بمقدار، لا تظن أن الأمور التي يقدرها الله ـ عز وجل ـ تأتي هكذا صدفة، بل هي بمقدار، حتى تباعد ما بين النجوم، وتفاوت ما بينها من الكبر والإضاءة بمقدار، لم يجيء هكذا فلتة أو جاء صدفة، كل

شيء عند الله بمقدار ولابد، فهذه الحجارة معلمة عند الله، وهل هي معلمة بمعنى أن هذه مكتوب عليها مثلاً حجارة عقوبة؟ أو مسومة بالنسبة لمن تقع عليه؟ الجواب: الثاني، لأن هذا أدق، هذه الحجارة لفلان، هذه الحجارة لفلان، مسومة عند ربك ﴿لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: للمتجاوزين حدودهم، ولا شك أن اللواط مجاوزة للحد والإسراف ـ والعياذ بالله ـ قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾ أخرجناهم أي: أمرناهم أمراً قدرياً فخرجوا، قال الله تعالى للوط: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾. فأخرج الله من كان فيها من المؤمنين، وهم لوط وأهله إلا امرأته، ولهذا ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ بيت واحد، قرية كاملة يدعوهم نبيهم إلى توحيد الله وإلى ترك هذه الفاحشة ما اتبعه أحد حتى أهل بيته لم يخلصوا، فيهم من لم يؤمن بلوط، فانتبه يا أخي الداعية، لا تجزع إذا دعوت فلم يستجب لك من المائة إلا عشرة، فالرسل عليهم الصلاة والسلام يبقون في أممهم دهوراً كثيرة ولا يتبعهم إلا القليل، ولوط عليه الصلاة والسلام لم يتبعه من القرية أحد، وتخلف عن دعوته من تخلف، ولهذا قال: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ وهنا يتساءل الإنسان في نفسه: كيف قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾، هل المسلمون هنا بمعنى المؤمنين في الآية التي قبلها؟ ذهب بعض العلماء إلى ذلك، وقالوا: إن في هذا دليلاً على أن الإيمان والإسلام شيء واحد، وذهب الآخرون إلى

الفرق، وقالوا: أما المؤمنون فقد نجوا، وأما البيت فهو بيت إسلام، لأن المظهر في هذا البيت ـ بيت لوط ـ أنه بيت إسلامي، حتى امرأته لم تتظاهر بالكفر، تظاهرت بأنها مسلمة، ولهذا قال الله تعالى في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ ليس المعنى خانتاهما بالفاحشة، بل خانتاهما بالكفر، لكنه كفر مستور، وهو خيانة من جنس النفاق، ولهذا يقال للمجتمع الذي فيه المنافقون: إنه مجتمع مسلم، وإن كان فيه المنافقون، لأن المظهر مظهر إسلام، إذن نقول: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ إنما قال: من المسلمين، لأن امرأته ليست مؤمنة، ولكنها مسلمة.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ تركنا فيها آية أي علامة، فما العلامة؟ أهي علامة حسية، أم علامة معنوية، أم علامتان معنوية وحسية؟ والقاعدة المفيدة في التفسير: (إذا احتملت الآية أكثر من معنى لا مرجح لأحدهما على الآخر ولا منافاة بينهما، وجب حملها على المعنيين جميعاً) فهذه الآية حسية ومعنوية، أما الحسية: فما نشاهد مكان قريتهم التي تسمى بحيرة لوط، فإن هذا كان موضع القرية، كل يمر به ويراه ويشاهده، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ وآية معنوية كل من قرأ قصتهم في جميع ما وردت فيه من السور الكريمة اعتبر واتعظ وخاف، لكن من الذي ينتبه لهذه الآيات؟ ومن يتعظ؟ ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ أما المنكرون الذين

قست قلوبهم فإنهم لن ينتفعوا بالآيات، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ نسأل الله أن يجعلنا من المنتفعين بالآيات.

﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ يعني في موسى آيات من آيات الله عز وجل، حين أرسله الله تعالى إلى فرعون، وفرعون علم جنس على كل من حكم مصر وهو كافر، وموسى بن عمران عليه السلام أفضل أنبياء بني إسرائيل، وهو في المرتبة الثالثة من الفضل بالنسبة لأولي العزم الخمسة، فإن أفضلهم محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم نوح، وعيسى عليهم الصلاة والسلام، أرسله الله تعالى ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾، أي: بحجة بينة في نفسها مبينة لغيرها، فالآيات التي جاء بها الأنبياء بينات واضحة لكل ذي عدل وإنصاف، وهي أيضاً مبينة لصدق ما جاءت به الرسل، ولهذا اعلم أنه كلما جاء في القرآن كلمة: (مبين) فهي بمعنى مبين في ذاته، مبين لغيره، إلا ما دل السياق أن المراد البين في ذاته، فمن الآيات العظيمة التي جاء بها موسى، عصا موسى، التي كان يستعملها ويتوكأ عليها عند الحاجة، ويهش بها على غنمه أوراق الشجر عند رعيها، وله فيها حاجات أخرى، كما قال هو عليه الصلاة والسلام لما سأله الله ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾. فهي آية في كونه إذا وضعها على الأرض صارت ثعباناً مبيناً، أي: حية عظيمة تخيف من رآها، ولهذا رهب منها موسى عليه الصلاة والسلام

حين ألقاها وولى هارباً، فناداه الله ـ عز وجل ـ (لا تخف) ومنها أنه يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء في الحال، بيضاء لكن بدون سوء. أي بدون عيب يعني ليست بيضاء برص، ولكنها بيضاء مخالفة للون جلده في الحال، حقيقة لا تخيلاً، وقال الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ المهم أنه أتى إلى فرعون بسلطان مبين وحجة دامغة بالغة، لكنه ـ والعياذ بالله ـ ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: بقوته وسلطانه وجنده، أعرض عن موسى استكباراً وجحوداً وظلماً وعدواناً، قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾. ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ يعني أنه اتهم عليه الصلاة والسلام بأنه ساحر، لأنه أتى بآيات تشبه ما يصنعه السحرة، عصا من خشب توضع في الأرض وتكون ثعباناً مبيناً، ويد تدخل في الجيب وتخرج بيضاء في الحال، هذا يشبه السحر، أو ﴿مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾، وذلك بكونه يدعي أن الله وحده خالق السموات والأرض وهو الرب وهو الإله، لأنهم كانوا لا يعرفون الإله إلا فرعون، فإذا جاء شخص يقول: إن الله هو رب العالمين، وأن فرعون ليس إلهاً ولا ربًّا. فإنهم يرمونه بالجنون، هذا مجنون خرج عما نعهد، قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي طرحناهم فيه، واليم هو البحر، والبحر الذي هلك فيه فرعون هو البحر الأحمر، الذي بين آسيا وأفريقيا، وذلك أن فرعون جمع جنوده وحشدهم وأراد أن يقضي على موسى وقومه، فخرج موسى عليه السلام وقومه من مصر متجهين إلى الشرق، ولكن حال بينهم وبين مرادهم البحر، فلما وصلوا إلى البحر كان

البحر بين أيديهم، وفرعون وقومه خلفهم، فقال قوم موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ يعني هلكنا، لأن فرعون خلفنا والبحر أمامنا فكيف النجاة؟! فقال موسى: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾. وهذه معية خاصة، تقتضي النصر والتأييد، قال: ﴿سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ ولم يقل: سوف يهدين، بل قال: ﴿سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ إشارة إلى قرب هذا الحصر وأنه سيزول قريباً، وهذا هو الذي حصل، فأوحى الله تعالى إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق اثنتي عشرة طريقاً في الحال ويبس في الحال، وصار صالحاً للمشي عليه في الحال، كما قال عز وجل: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾. فعبر موسى وقومه من هذه الطرق العظيمة التي كان الماء بينها كالجبال ولما انتهوا خارجين كان فرعون في أثرهم وانتهوا داخلين، فأمر الله ـ عز وجل ـ بقدرته وسلطانه البحر أن يعود إلى ما كان عليه، فانطبق على فرعون وقومه فهلكوا عن آخرهم والحمد لله، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي: فرعون فاعل ما يلام عليه ولا شك أن رده للرسالة الإلهية، وادعائه أنه الرب وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ وما أشبه ذلك من الكلمات لا شك أنها كلمات يلام عليها، لأنه قد تبين له الحق، ولكنه عاند وأبى أن ينقاد للحق، كما قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يعني يا فرعون ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ يعني وفي عاد آيات ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ عاد في جنوب

الجزيرة العربية، وكانوا قوماً أشداء حتى إنهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾. فأصابهم القحط والجدب، فجعلوا يترقبون المطر، فأرسل الله عليهم الريح العظيمة الشديدة ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤)﴾. فأرسل الله عليهم هذه الريح العقيم التي ليس لهم فيها ثمرة ولم تحمل ماء: كالمرأة العقيم التي لا تلد، هذه أيضاً ريح عظيمة لا تحمل سحاباً ولا مطراً، هذه الريح العقيم هي الريح الغربية، كما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام: «**نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور**»[1] أي: بالريح الغربية، أرسل الله عليهم هذه الريح العقيم ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)﴾ كل شيء تأتي إليه تجعله كالرميم هامداً، حتى إنها تأخذ الرجل ـ والعياذ بالله ـ إلى فوق ثم ترده إلى الأرض ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧)﴾. ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠)﴾. هلكوا عن آخرهم، تأمل الآية، قوم عاد قوم أقوياء أشداء هلكوا بهذه الريح اللطيفة، التي لا ترى لها جسماً، وإنما تحس بها بدون أن ترى شيئاً، ومع ذلك قضت عليهم بأمر الله ـ عز وجل ـ، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)﴾ فهذا فيه آيات من آيات الله ـ عز وجل ـ، أرسل الله عليهم هذه الريح، فأهلكتهم عن آخرهم.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٤١٠٥) ومسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور (٩٠٠).

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾ ثمود هم الذين أرسل الله إليهم نبيه صالحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فوعظهم وذكرهم، وجعل لهم آية وهي الناقة التي شرفها الله تعالى بإضافتها إلى نفسه الكريمة، حيث قال تبارك وتعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾﴾ أي احذروا ناقة الله أن تعبثوا فيها، أو أن تنكروها، وهذه الآية (لها شرب) تشرب من البئر التي تسمى بئر الناقة، ولهم شرب يوم معلوم يشربونه، فالناقة تشرب يوماً وهم يشربون يوماً، وهذه الناقة ذكروا أنهم: ما جاء أحد يستقي من هذا البئر في يومها التي تشرب منه إلا أخذ بدل شربها شيئاً من لبنها بقدر ما شربت، فالله أعلم: هل هذا هو الواقع أو يختلف؟ لكن على كل حال هذه الناقة لا شك أنها ناقة ليست كسائر النوق، إذ إنها آية من آيات الله ـ عز وجل ـ، لكنهم كذبوا وأبوا وتوعدهم عليه الصلاة والسلام أن يتمتعوا في دارهم ثلاثة أيام، ولكنهم مازالوا على كفرهم وإنكارهم، ولهذا قال: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾ وديارهم معروفة الآن، موجودة في مكان يسمى الحجر، ويسمى الآن ديار ثمود، وقد مر بها النبي ﷺ في ذهابه إلى تبوك، لكنه عليه الصلاة والسلام أسرع حين مر بهذه الديار وقنع رأسه، ونهى أمته أن يدخلوا إلى هذه الأماكن، أماكن المعذبين إلا أن يكونوا باكين، قال: «**فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوها أن يصيبكم ما أصابهم**»[1] وقوله: «**أن يصيبكم ما**

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب (٤٣٣)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم (٢٩٨٠)=

أصابهم». لا يلزم منه أن يراد به ما أصابهم من العذاب الجسمي قد يكون المراد ما أصابهم من العذاب الحسي، وما أصابهم من الإعراض والكفر.

فلو قال قائل: إنه يوجد أناس يذهبون إلى هذه الأماكن وهم غير باكين ولم يصابوا بشيء.

فنقول: الجواب عن هذا من وجهين:

أولاً: أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يؤكد أن يصابوا بهذا، ولكن قال: «**حذار أن يصيبكم مثل ما أصابهم**»[1].

الوجه الثاني: أن نقول: لا يتعين أن يكون المراد بذلك أن يأخذوا بما أخذ به هؤلاء من العقوبة الحسية الظاهرة، وهي الرجفة والصيحة التي أماتتهم عن آخرهم، فقد يكون المراد مرض القلب، الذي هو الاستكبار والإعراض ورد الحق.

﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾، هذا الحين هو ثلاثة أيام ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: فأبوا ولم يرجعوا عن غيهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ التي صعقتهم، وهي رجفة وصيحة، ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ينظر بعضهم إلى بعض يتهاوون ويتساقطون أمواتاً ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ أي: ما استطاعوا أن يقوموا ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾، أي: لم يتمكن بعضهم أن ينصر بعضاً، بل كلهم هلكوا عن آخرهم، وهكذا يفعل الله تعالى بمن كذب أولياءه، وهكذا يفعل الله تعالى بمن كذب رسله عليهم الصلاة والسلام،

= (٣٨).

(١) أخرجه مسلم في الموضع السابق (٢٩٨٠) (٣٩).

إلا أن العذاب المستأصل رفع عن هذه الأمة، فإن النبي ﷺ دعا ربه سبحانه وتعالى ألا يأخذهم بسنة بعامة، أي بعقوبة عامة، لكن ابتلوا بشيء آخر وهو أن يقتل بعضهم بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً[1]، والأمر كذلك وقع، فإن هذه الأمة لم تصب بعذاب عام كما أصيبت به الأمم التي قبلها، لكن أصيبت بأن جعل الله بأسهم بينهم منذ زمن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم لما اختلفوا على عثمان وعلي ـ رضي الله عنهما ـ وحصلت الفتن تتوالى إلى يومنا هذا، ثم هذه الأمة التي جُعل بأسها بينها ليست هي أمة الإجابة فقط، بل أمة الإجابة وأمة الدعوة، ولهذا نقول: ما حصل من الفتن والبلاء في الأرض مشارقها ومغاربها من الكفار وغير الكفار فإنما هو نتيجة للمعاصي، وهي عقوبة هذه الأمة أن الله يذيقهم بأس بعض.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ يعني اذكر قوم نوح من قبل، وهم أول أمة أرسل إليهم الرسول، ولكنهم كذبوا، ونوح عليه الصلاة والسلام بقي فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ويذكرهم ويعظهم، ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ لم يؤمنوا، ما آمن معهم إلا قليل حتى أنه عليه الصلاة والسلام يقول: ﴿ كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾، جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا ما يقول، واستغشوا ثيابهم أي تغطوا بها لئلا يبصرون، نسأل الله العافية، وهذا غاية ما يكون من البغضاء لما يقول ولما يفعل، ﴿وأصروا﴾

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفتن، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٢٨٨٩).

على باطلهم ﴿ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ فكان آخر ما قال عليه الصلاة والسلام: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ودعا ربه أني مغلوب فانتصر، قال الله تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ ولهذا والله أعلم سيكون عليهم نصيب من عذاب المكذبين لأنهم هم أول أمة كذبت الرسل، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة[1]، كما أن من قتل نفساً فإن على ابن آدم الذي قتل أخاه كفلاً ونصيباً من عذاب القاتل إلى يوم القيامة[2].

ثم قال عز وجل: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ السماء مفعول لفعل محذوف والتقدير، وبنينا السماء، وقوله: ﴿ بِأَيْيْدٍ ﴾ أي: بقوة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾ فالأيد هنا أي القوة، وليست جمع يد كما يتوهم بعض الناس، ويظنون أن الله تعالى بنى السماء بيديه عز وجل؛ لأن الأيد هنا مصدر آد يئد بمعنى القوة، كما يقال باع يبيع بيعاً، ولهذا لم يضف الله هذه الكلمة إلى نفسه الكريمة كما أضافها إلى نفسه الكريمة في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا ﴾ فمن فسر الأيد بالقوة هنا فإنه لا يقال: إنه من أهل التأويل الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، بل هو من التأويل الصحيح، والإنسان إذا تأمل وتفكر في السماوات عرف أنها قوية شديدة

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة (١٠١٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته (٣٣٣٥)، ومسلم، كتاب القسامة، باب بيان إثم من سن القتل (١٦٧٧).

عظيمة، وأن قوتها تدل على قوة بانيها ـ عز وجل ـ ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: لموسعون لأرجائها، لأنها واسعة عظيمة، ولهذا كانت السماوات أكبر بكثير من الأرض، وهي محيطة بالأرض من كل جانب، وعلى هذا فتكون أوسع من الأرض، وليست الأرض بالنسبة للسماء إلا شيئاً يسيراً، ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي: فرشنا لأهلها، جعلناها لهم كالفراش يأوون إليها ويتمتعون بها، لم يجعلها الله تعالى صعبة ولا سهلة، بل هي متوسطة لو كانت لينة رخوة ما تمكن أحد من البقاء عليها، ولو كانت صعبة ما تمكن أحد من الانتفاع بها، ولكنها كانت كما وصفها الله ـ عز وجل ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أثنى على نفسه تبارك وتعالى بذلك، لأنه أهل للثناء، وقد جعل الله تبارك وتعالى الأرض على مستوى نافع للعباد، ليست بالقاسية التي يعجز الناس عن الانتفاع بها، وليست باللينة التي لا يستقرون عليها، بل هي مناسبة تماماً لهم، على أن فيها اختلافاً في الليونة وفي الصلابة، لكن هذا لا يمنع الانتفاع بها.

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ خلق الله تبارك وتعالى من كل شيء زوجين متقابلين، حتى تتم الحال وتصلح باجتماع بعضهما إلى بعض، فالحيوان كله من إنسان وغيره يكون من زوجين بين ذكر وأنثى، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ إلا أن آدم عليه

الصلاة والسلام خلقه الله بيده من غير أم ولا أب، وحواء خلقت من أب بلا أم، وعيسى ابن مريم خلق من أم بلا أب، ولهذا ينقسم الناس إلى أربعة أقسام: الأول: من خلق بلا أم ولا أب وهو: آدم، والثاني: من خلق من أب بلا أم وهي: حواء، والثالث: من خلق من أم بلا أب وهو: عيسى، والرابع: بقية البشر خلقوا من ذكر وأنثى، فمن كل شيء خلق الله زوجين، اليابس والرطب، والحرارة والبرودة، واللين والقسوة، وغيره مما إذا تأمله الإنسان عرف بذلك حكمة الله سبحانه وتعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾، أي: بينا ذلك لكم، لأجل أن تذكروا وتتعظوا بآيات الله تبارك وتعالى، فإن الإنسان كلما كان أعلم بآيات الله الكونية أو الشرعية كان أكثر اتعاظاً واعتباراً، ولهذا حث الله على النظر في الآيات الكونية فقال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ومدح الله تعالى الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض بقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾. لهذا ينبغي الإنسان أن يتعظ ويتذكر ويتدبر آيات الله سبحانه وتعالى الكونية والشرعية.

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ هذا كأنه على لسان النبي ﷺ أي قل لهم ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي: من

الله، والفرار إلى الله يكون بالقيام بطاعته واجتناب نواهيه، لأنه لا ينقذك من عذاب الله، إلا أن تقوم بطاعة الله، فكأن الإنسان إذا قام بطاعة الله عز وجل كأنه فر من عدو، أرأيت لو أن وادياً عرماً يهدر، أقبل عليك فإنك لن تقف أمامه، بل تهرب منه وتفر منه، كذلك لو أن حريقاً ملتهباً أقبل إليك فإنك لن تقف بل تفر، كذلك نار جهنم أشد وأعظم وأولى بالفرار منها، ولهذا قال: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾، أي: من عذاب الله ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ ﴾ أي: منذر ﴿ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ أي: مظهر لما أنذر به ومبين له، فهو عليه الصلاة والسلام نذير من الله تعالى لعباده، ينذر من خالف أمره بالعذاب، ومع هذا هو ﷺ بشير لمن آمن وأطاع بالجنة والسعادة في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ لكن الله تبارك وتعالى يذكر الإنذار فقط في مقام التهديد والوعيد، وهذه السورة كلها ذكر للأمم السابقين وما حل بهم من العقوبة لمخالفتهم أمر الله تبارك وتعالى، ﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ ﴾، أي: لا تجعلوا معه معبوداً تعبدونه، والمعبود أنواع وأصناف، فمن الناس من يعبد الشمس، ومنهم من يعبد القمر، ومنهم من يعبد النجوم، ومنهم من يعبد الحيوان، ومنهم من يعبد الشجر، ومنهم من يعبد الحجر، ومنهم من يعبد المال، كما قال النبي ﷺ: «**تعس عبدالدينار، تعس عبدالدرهم، تعس عبدالخميصة، تعس عبدالخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط**

سخط»[1] فبين الرسول عليه الصلاة والسلام أن الذي ليس لهم همٌّ إلا المال فإنه عابد له في الحقيقة، وإن كان لا يركع له ولا يسجد، لكن تعلق قلبه به واهتمامه به، وكونه يرضى لحصوله، ويسخط لمنعه، لا شك أنه قد استولى على قلبه استيلاء تامًّا، لكن المعبود تختلف عبادته في الحكم، فإن كان يصرف له شيء من العبادة، فهذا شرك أكبر، وإن كان لا يصرف له شيء من العبادة، ولكنه يتعلق به القلب تعلقاً كاملاً حتى إنه ليدع الواجبات ويقع في المحرمات من أجل الحصول عليه، فهذه عبادة لا تخرج من الدين لكنها حقًّا عبادة ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥١﴾ كرر ذلك لأهمية الموضوع، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا الاتعاظ والانتفاع بآيات الله تعالى، إنه على كل شيء قدير.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ يعني أن الأمر الذي حصل لك يا محمد حصل لمن قبلك، فقوله (كذلك) خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: الأمر كذلك، يعني أن أمر الأمم السابقة كأمر هؤلاء الذين كذبوك يا محمد، وفسر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ بقوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ يعني ما أتاهم رسول إلا قالوا كذا، و(من) في قوله (من رسول) زائدة من حيث الإعراب، كقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ والمعنى ما جاءنا بشير ونذير، لكن تزاد الحروف في بعض الجمل للتأكيد، فما أتى الذين من قبلهم من رسول يعني ما أتاهم رسول إلا وصفوه بهذين الوصفين إلا قالوا:

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٠١).

ساحر أو مجنون، ساحر باعتبار تأثيره وبيانه وبلاغته، لأن النبي ﷺ قال: «**إن من البيان لسحراً**»(١) أو مجنون يعني أو قالوا مجنون باعتبار تصرفاته، لأن هذا التصرف في نظر هؤلاء المكذبين جنون، نسأل الله العافية، وفي هذا تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام، لأن الإنسان إذا علم أن غيره أصابه ما أصابه تسلى بذلك، وهان عليه الأمر، ولهذا قالت الخنساء تماضر وهي ترثي أخاها صخراً:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

وقد دل لذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾. لأن الإنسان إذا شاركه غيره في العذاب هان عليه، لكن يوم القيامة لا ينفع الإنسان أن يشاركه غيره في عقوبته، والمهم أن في هذه الجملة بالنسبة للرسول عليه الصلاة والسلام تسلية حتى لا يحزن، فإن ما أصابه قد أصاب غيره، وفيها أيضاً دليل على أن المكذبين للرسل طريقهم واحدة، ولو تباعدت أزمانهم، ولو تباعدت أقطارهم، لأن المجرم أخو المجرم، فالطريقة واحدة، قال الله تعالى: ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِۦ ﴾ أي بهذا القول ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ يعني هل هؤلاء المكذبين للرسل الذين اتفقوا على وصف الرسل بأنهم سحرة ومجانين، هل هم تواصوا بذلك؟ يعني هل كل واحد من هؤلاء الأمم كتب وصية إلى الأمم اللاحقة: أن قولوا لأنبيائكم:

---

(١) تقدم ص ١١٨ وهو عند البخاري (٥١٤٦).

إنكم سحرة ومجانين؟ الجواب: لا، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ وهذا إضراب إبطال يعني لم يحصل تواصٍ، ولكن تواردت الخواطر، لأن الهدف واحد وهو تكذيب الرسل، فاتفقت الكلمة، وفي قوله (طاغون) وصف بأن هؤلاء طغاة معتدون، وهذا من أعظم الطغيان ـ والعياذ بالله ـ أن يوصف دعاة الحق بأنهم سحرة ومجانين، قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عن هؤلاء ولا تهتم بهم ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤﴾ يعني لا أحد يلومك لأنك بلَّغت الرسالة، وأدَّيت الأمانة، وصبرت وصابرت، فلقد صبر النبي ﷺ، وصابر على أذى قريش وامتهانهم إياه، ولكنه كانت له العاقبة ولله الحمد، ولهذا قال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، بمعنى أنك لا تتعب نفسك بهم، ولا تهلك نفسك فيهم، فأنت في هذه الحال لا تلام على ذلك، لأنه ﷺ قام بما يجب عليه، وفي قوله ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤﴾ أمران:

الأمر الأول: عذر النبي عليه الصلاة والسلام وإقامة العذر له.

والثاني: تهديد هؤلاء المكذبين: فالله تعالى يهددهم بتولي الرسول عنهم، لأنهم لا خير فيهم.

ثم قال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ أي: ذكر الناس بآيات الله وبأيامه، وشرائعه وما أوجب الله على العباد. وبأيامه: عقابه تبارك وتعالى للمكذبين وإثابته للطائعين، لكن أطلق الله الذكرى وقال: ﴿وَذَكِّرْ﴾ ولم يقل: وذكر المؤمنين، لكن بين أن الذي ينتفع بالذكرى هم المؤمنون فقال: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ لأن المؤمن إذا ذكر فهو كما وصفه الله عز

وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ بل يقبلونها بكل رحابة صدر وبكل طمأنينة، وفي الآية الدليل على وجوب التذكير على كل حال، وفيها أن الذي ينتفع بالذكرى هم المؤمنون، وأن من لا ينتفع بالذكر فهو ليس بمؤمن: إما فاقد الإيمان، وإما ناقص الإيمان، وهنا فتش عن نفسك: هل أنت إذا ذكرت بآيات الله وخوفت من الله عز وجل هل أنت تتذكر أم يبقى قلبك كما هو قاسياً، إن كانت الأولى فاحمد الله فإنك من المؤمنين، وإن كانت الثانية فحاسب نفسك، ولا تلومن إلا نفسك، وعليك أن ترجع إلى الله ـ عز وجل ـ حتى تنتفع بالذكرى، وفي الآية دليل على أنه كلما كان الإيمان أقوى كان الانتفاع بالذكرى أعظم وأشد، وذلك من قاعدة معروفة عند العلماء، وهي: أن الحكم إذا علق بوصف ازداد بزيادته ونقص بنقصانه.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ أي ما أوجدتهم بعد العدم إلا لهذه الحكمة العظيمة، وهي عبادة الله تبارك وتعالى، وحده لا شريك له، واللام في قوله ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ للتعليل، لكن هذا التعليل تعليل شرعي، أي لأجل أن يعبدون، حيث آمرهم فيمتثلوا أمري، وليست اللام هنا تعليلاً قدرياً، لأنه لو كان تعليلاً قدرياً للزم أن يعبده جميع الجن والإنس، لكن اللام هنا لبيان الحكمة الشرعية في خلق الجن والإنس، والجن عالم غيبي خلقوا من نار، لأن أباهم هو إبليس كما قال الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ فسموا جنًّا

لأنهم مستترون عن الأعين، حيث إنهم يروننا ولا نراهم، هذا هو الأصل أنهم عالم غيبي، لكن قد يظهرون أحياناً، والأصل فيهم أنهم كالإنس منهم المسلمون، ومنهم غير المسلمين، ومنهم الصالحون ومنهم دون ذلك، لكن الإنس يفضلونهم بأنهم أحسن منهم من حيث الابتداء، حيث إنهم خلقوا من الطين، من التراب، من صلصال كالفخار، وأما أولئك الجن فخلقوا من النار، كذلك يمتاز الإنس عنهم بأن منهم الرسل والأنبياء، وأما الجن فليس منهم رسل، ولكن منهم نُذر، يبلغونهم الرسالات من الإنس، كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فانظر إلى أدبهم في قولهم: أنصتوا ثم بقائهم حتى انتهى المجلس، ثم ذهبوا دعاة لما سمعوا، قالوا: ﴿أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ إلى آخر الآية، وأما الإنس فهم بنو آدم البشر، هؤلاء خلقوا لشيء واحد، لعبادة الله، لا لأجل أن ينفعوا الله بطاعتهم، ولا أن يضروه بمعاصيهم، ولا أن يطعموه، ولهذا قال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ يعني ما أطلب منهم رزقاً أي عطاءً أنتفع به، ولا أن يطعمون فأنتفع بإطعامهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، فهو سبحانه وتعالى له الجود والغنى والكرم وهو غني عما سواه، فالحكمة من خلق الجن والإنس العبادة، فلم يخلقوا لأجل أن يعمروا الأرض ،ولا لأجل أن يأكلوا، ولا لأجل أن

يشربوا، ولا أن يتمتعوا كما تتمتع الأنعام، وإنما خلقوا لعبادة الله، وخلق لهم ما في الأرض، فنحن مخلوقون للعبادة، وكل ما في الأرض مخلوق لنا، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ والعجب أن قومنا الآن اشتغلوا فيما خلق لهم عما خلقوا له، وهذامن السفه أن يشتغلوا بشيء خلق لهم، عن شيء خلقوا من أجله. والعبادة تطلق على معنيين:

المعنى الأول: التعبد، يعني فعل العبد، فيقال: تعبد لله عبادة.

والثاني: المتعبد به، وهذا المعنى قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: إنه (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة)، فهي اسم جامع لكل شيء، فالصلاة عبادة، والصدقة عبادة، والصوم عبادة، والحج عبادة، والأمر بالمعروف عبادة، والنهي عن المنكر عبادة، وكل ما يقرب إلى الله من قول، أو فعل فإنه عبادة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ هو الرزاق يعني هو صاحب العطاء الذي يعطي، فالرزق بمعنى العطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أي: أعطوهم، وكلمة (الرزاق) أبلغ من كلمة (الرازق)؛ لأن (الرزاق) صيغة مبالغة تدل على كثرة الرزق، وعلى كثرة المرزوق، فرزق الله تعالى كثير باعتبار كثرة المرزوقين، فكل دابة في الأرض على الله رزقها، من إنسان وحيوان، ومن طائر وزاحف، ومن صغير وكبير، ولا يمكن أن نحصي أنواع المخلوقات على الأرض، ولو قلت لك أحص

العوالم التي في الأرض ما استطعت، فضلاً عن أفرادها، فكل فرد منها فإن الله تعالى متكلف برزقه ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ فإذا كان الأمر كذلك صار رزق الله كثيراً باعتبار المرزوق، مَن يحصي المرزوقين؟ لا أحد يحصيهم أبداً، ورزقه كثير باعتبار الواحد، فكم لله عليك من رزق كثير لا يحصى، رزق الله لك دارٌّ عليك ليلاً ونهاراً، رزقك عقلاً، وصحة، ومالاً، وولداً، وأمناً وأشياء لا تحصى، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾، ولهذا جاء اسم الرزَّاق بالتشديد الدال على الكثرة، وقوله: ﴿ ذُو ٱلْقُوَّةِ ﴾ أي: صاحب القوة التي لا قوة تضادها، كما قال الشاعر الجاهلي:

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

فقوة الله عز وجل لا يضاهيها قوة، قوته ـ عز وجل ـ لا يعتريها ضعف، بخلاف قوة المخلوق، فقوته تنتهي إلى ضعف، كما قال الله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ أما الرب عز وجل فقوته لا يلحقها ضعف بأي وجه من الوجوه، ولما قالت عاد: من أشد منا قوة؟ قال الله؟ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ وصدق الله ـ عز وجل ـ وقوله: ﴿المتين﴾ يعني الشديد، شديد في قوته، شديد في عقابه، شديد في كل ما تقتضي الحكمة الشدة فيه، انظر إلى قول الله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾. هذه شدة، والله ـ عز وجل ـ أرحم الراحمين، ومع ذلك ينهانا أن تأخذنا الرأفة، في الزانية والزاني ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ ﴾، وهذا دليل على القوة، ومن قوته ـ عز وجل ـ أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ولم يعِ بخلقهن، ومن قوته وقدرته أنه جل وعلا يبعث الناس كنفس واحدة ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾ والأمثلة على هذا كثيرة، فهو جل وعلا له القوة البالغة التي لا يمكن أن تضاهيها أي قوة.

ثم قال الله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾ أي: الذين ظلموا بالكفر لهم ﴿ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ ﴾ والذنوب في الأصل هو الدلو، أو ما يستقى به، وشاهد ذلك قوله ﷺ: «**أريقوا على بوله ذنوباً من ماء**»[1] والمعنى: هؤلاء الظالمون لهم نصيب مثل نصيب من سبقهم ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ ﴾ أي نصيباً من العذاب مثل نصيب أصحابهم، وانظر كيف سمى الله تعالى السابقين بأزمان بعيدة أصحاباً لهؤلاء، وذلك لاتفاقهم في التكذيب، ورمي الرسل بما لا يستحقون، فهم أصحاب في الواقع وإن تباعدت الأزمان والأماكن ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾، النون هنا مكسورة على أنها نون الوقاية وحذف الضمير: الياء، وأصله فلا يستعجلوني، فحذفت الياء تخفيفاً، ولهذا لا يشكل على الإنسان فيقول: كيف كانت

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد (٢٢٠) ومسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات... (٢٨٤) (٩٩).

النون مع أن (لا) ناهية؟ والجواب أن نقول: هذه النون ليست نون الإعراب، ولكنها نون الوقاية، فالفعل إذاً مجزوم، والنون للوقاية، والياء التي هي المفعول محذوفة، وفي قوله: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩﴾ تهديد واضح أن هؤلاء سيأتيهم العذاب لا محالة، ولكن لا يستعجلون الله ـ عز وجل ـ لأن الله تعالى يملي للظالم ويمهله حتى إذا أخذه لم يفلته، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»[1] وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾ ويل: بمعنى الوعيد والعذاب، يعني أنه يتوعدهم ـ عز وجل ـ من هذا اليوم الذي يوعدون وهو يوم القيامة؛ لأنهم سيجدون ما أرسل إليهم حقًّا، وسيجدون الذل والعار ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾. ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٢﴾. فيكونون من بين هذا العالم ـ نسأل الله العافية ـ على هذا الوجه، ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾ وسيكون هذا اليوم يوماً عسيراً عليهم، لأنهم كفرة والعياذ بالله.

تم تفسير سورة الذاريات.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى﴾ (٤٦٨٦) ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٨٣).

تفسير سورة الطور

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ البسملة تقدم الكلام عليها، ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾ هذه أشياء أقسم الله بها، الأول: الطور وهوالجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، فإن الله تعالى كلمه أول ما كلمه على جبل الطور، فكان لهذا الجبل من الشرف والفضل ما سبق به غيره من الجبال، ولهذا أطلق كثير من العلماء أن جبل الطور أفضل الجبال وأشرفها، وعلى هذا يكون أشرف وأفضل من جبل حراء الذي ابتدأ فيه الوحي لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، هذا ظاهر إطلاق كثير من العلماء، ولكن في هذا الظاهر نظراً، لأن جبل حراء كُلِّم منه الرسول عليه الصلاة والسلام لكن كلمه جبريل عليه السلام مرسلاً من عند الله، فمنه ابتدأت أفضل الرسالات على أفضل الرسل، وأيضاً حراء داخل الحرم المكي، لأنه من الحرم الذي لا يحل صيده ولا قطع شجره، وبقعة الحرم أفضل البقاع، ويمكن أن يحمل إطلاق كثير من العلماء على هذا، فيقال: إلا جبل حراء ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣﴾ الكتاب المسطور في الرق، اختلف فيه العلماء، وهذا الخلاف ينبني على كلمة (رق) هل الرق كل ما يكتب فيه من جلد وورق وعظم وحجر وغير ذلك؟ أو هو خاص بما يكتب فيه من جلود ونحوها؟ إن قلنا بالأول صار المراد بالكتاب عدة أشياء،

منها اللوح المحفوظ، ومنها الكتب التي بأيدي الملائكة، ومنها القرآن الكريم، ومنها التوراة، فيشمل عدة كتب، وإذا قلنا إن الرق هوالورق وشبهه مما يكتب فيه عادة، فاللوح المحفوظ لا يدخل في هذا، وإنما المراد به إما التوراة، وإما القرآن، فالذين قالوا: إنه التوراة رجحوا قولهم بأنه قرن بالطور، والطور هو الذي كلَّم منه موسى عليه الصلاة والسلام، فكان الكتاب المسطور هو التوراة التي جاء بها موسى، ومن قال: إن المراد به القرآن الكريم رجح ذلك بأن الله ذكر الطور الذي أوحي منه إلى موسى، وذكر الكتاب الذي هو القرآن أوحي إلى محمد ﷺ، فيكون الله تبارك وتعالى ذكر أشرف الرسالات في بني إسرائيل إيماء بذكر الطور، وذكر أشرف الرسالات التي بعث بها من بني إسماعيل محمد ﷺ، وعلى هذا فيتعين أن يكون المراد بالكتاب المسطور القرآن الكريم ﴿مَّنشُورٍ ۝٣﴾ صفة لكتاب، ويحتمل أن تكون صفة لرق، والمعنى واحد، والمراد بالمنشور يعني المفرق الذي يكون بأيدي كل قارىء، وهذا يصدق تماماً على القرآن الكريم، فإنه - ولله الحمد - بين يدي كل قارىء حتى الصغار من المسلمين يقرؤونه، ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾ هذا هو الثالث مما أقسم الله به في هذه الآيات، وهو بيت في السماء السابعة يقال له: الضراح، هذا البيت يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه[1]، فبناءً على هذا كم عدد الملائكة؟ لا يحصيهم إلا الله، من

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (رقم ٣٢٠٧) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات (رقم ١٦٤).

يحصي الأيام؟ ثم من يحصي سبعين ألفاً كل يوم يدخلون هذا البيت المعمور ولا يعودون إليه.

وقيل: إن المراد بالبيت المعمور بيت الله في الأرض وهو الكعبة؛ لأنه معمور بالطائفين والعاكفين، والقائمين، والركع السجود، فهل يمكن أن تحمل الآية على المعنيين جميعاً؟ القاعدة في التفسير: أن الآية إذا احتملت معنيين على السواء، وليس بينهما منافاة وجب أن تحمل على كل منهما، لأن المتكلم بها وهو الله ـ جل وعلا ـ عالم بما تحتمله من المعاني، وإذا لم يبين أن المراد أحد المعاني فإنه يجب أن تحمل على كل ما تحتمله من المعاني الصحيحة لا المعاني الباطلة، وليس هناك منافاة بين أن يكون المقسم به الكعبة، أو البيت المعمور في السماء، لأن كلا البيتين معظم، ذاك معظم في أهل السماء، وهذا معظم في أهل الأرض، ولا مانع، فالصواب أن الآية شاملة لهذا وهذا، إلا إذا وُجد قرينة ترجح أن المراد به البيت المعمور في السماء ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾ أقسم الله تعالى بالسقف المرفوع وهو السماء، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ۝٣٢﴾. فالسماء سقف، والسماء مرفوعة، إذن فالسقف المرفوع هو السماء، وسماه الله سقفاً لأنه قد غمر جميع الأرض من جميع الجوانب، كما يغمر السقف الحجرة من جميع الجوانب، وإنما أقسم الله تعالى بالسماء لما فيها من الآيات العظيمة من نجوم وشمس وقمر، وإحكام وإتقان، قال الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ

سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ . يعني مرة بعد مرة ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾﴾ وأخبر أنه ليست للسماء فروج، وليس فيها تشقق وليس فيها عيب، وليس فيها تصدُّع، ولا تبلى على طول المدة، فهي جديرة بأن يقسم الله بها ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴿٦﴾﴾ كلمة البحر قيل: إن المراد به البحر الذي عليه عرش الرحمن ـ عز وجل ـ كما قال تعالى، ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾، وقيل: المراد به البحر الذي في الأرض لأنه المشاهد المعلوم الذي فيه من آيات الله ما يبهر العقول، والصحيح أن المراد به بحر الأرض، لأن (ال) في البحر للعهد الذهني، يعني البحر المعهود الذي تعرفونه، فأقسم الله به لما فيه من آيات الله العظيمة من أسماك وأمواج وغير هذا مما نعلمه وما لا نعلمه، ومن أعظم ما فيه من آيات الله ما أشار إليه تعالى في قوله: ﴿ٱلۡمَسۡجُورِ ﴿٦﴾﴾ يعني الممنوع، ومنه سجرت الكلب يعني ربطته حتى لا يهرب، فالبحر ممنوع بقدرة الله عز وجل، إننا نعلم جميعاً أن الأرض كروية، وهذا البحر لو نظرنا إليه بمقتضى الطبيعة لكان يفيض على الأرض، لأنه لا جدران تمنع، والأرض كروية مثل الكرة فلو نظرنا إلى هذا البحر بمقتضى الطبيعة، لقلنا: لابد أن يفيض على الأرض فيغرقها، ولكن الله تبارك وتعالى أمسكه بقدرته سبحانه وتعالى، فهو مسجور، أي: ممنوع من أن يفيض على الأرض فيغرق أهلها، وهذه آية من آيات الله، فلو صب فوق الكرة ماء، لذهب يغمرها يميناً وشمالاً، لكن هذا البحر لا يمكن أن يفيض

على الأرض بقدرة الله سبحانه وتعالى، وانظر إلى الحكمة تأتي أيام المد والجزر، نفس البحر يمتد امتداداً عظيماً لعدة أمتار وربما أميال، ثم ينحسر، مَن الذي مده؟ ولو شاء لبقي ممتداً حتى يغرق الأرض، ومن الذي رده؟ هو الله، ولهذا كان هذا البحر جديراً بأن يقسم الله به، وفي البحر آيات عظيمة، يقال: إنه ما من شيء على البر من حيوان وأشجار إلا وله نظير في البحر بل أزيد، لأن البحر بالنسبة لليابس يمثل أكثر من سبعين في المائة، وفيه أشياء لا نرى لها نظيراً في البر، وهذا من آيات الله عز وجل، وأعظم آية في البحر هو أنه مسجور، أي ممنوع من أن يفيض على الأرض فيغرق أهلها.

وقيل: المراد بالمسجور الذي سيسجر، أي: يوقد كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾. أي: أوقدت. وهذا يكون يوم القيامة، هذا الماء الذي نشاهده الآن والذي لو سقطت فيه جمرة، أو مر على جمرة لأطفأها، يوم القيامة يكون ناراً يسجر، وهذا من آيات الله ـ عز وجل ـ والمراد به المعنيان جميعاً؛ لأنه لا منافاة بين هذا وهذا، فكلاهما من آيات الله ـ عز وجل ـ أي سواء قلنا المسجور الممنوع من أن يفيض على الأرض، أو المسجور الذي سيسجر أي يوقد، فكل ذلك من آيات الله، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ هذا هو جواب القسم، وهذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم بخمسة أشياء، وإذا كان قسماً بخمسة أشياء صار كأنه أقسم عليها خمس مرات، والثاني: بأن، والثالث: باللام، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ يعني لابد أن يقع عذاب الله الذي وعد

به، هذه والله جملة عظيمة مؤثرة، لكنها لا تؤثر إلا على قلب لين كلين الزبد أو أشد، أما القلب القاسي فلا يهتم بها، تمر عليه وكأنه حجارة، وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ إذا قرأ هذه الآية يمرض حتى يعُاد، يمرض من شدة ما يقع على قلبه من التأثر حتى يُعاد، فإذا كان واقعاً وليس له دافع أليس الجدير بنا أن نخاف؟ بلى والله، هذا هو الجدير، وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ يعني لابد أن يقع، ولكن هل هذا التأكيد بالنسبة لعذاب المؤمنين أو لعذاب الكافرين؟ لننظر قال الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾. فضم هذه الآية إلى الآية التي في الطور تجد أن قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾. على الكافرين، فعذاب الله على الكافرين ليس له دافع، لا أحد يدفعه، لا قبل وقوعه ولا بعد وقوعه، ولهذا لا تنفعهم الشفاعة فيرفع عنهم العذاب، أما عذاب الله للمؤمن المذنب فإن الأصل أنه واقع، كل ذنب توعد الله عليه بالعذاب فالأصل أنه واقع، لكنه مع ذلك قد يرفع بفضل من الله ـ عز وجل ـ وقد يرفع بالشفاعة، وقد يرفع بأعمال صالحة تغمر الأعمال السيئة، أما ترى أن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. ألم تعلم أن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفَّعهم الله فيه**»[1] فيرتفع عنه العذاب. وعلى هذا نقول: عذاب الله واقع على الكافرين لا محالة، ولا دافع له، أما على

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، باب من صلى عليه مائة شفعوا فيه (٩٤٧).

عصاة المؤمنين فإن الأصل الوقوع، وقد أنذر الله العباد وخوّفهم، وبيّن لهم، لكن مع ذلك قد يرتفع بأسباب متعددة، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾، (ما) نافية، و(دافع) مبتدأ مؤخر، دخلت عليها (من) الزائدة للتوكيد، يعني ما من أحد ولو عظمت منزلته وقوته يدفع أو يرفع عذاب الله ـ عز وجل ـ لأن (دافع) هنا تشمل المنع قبل الوقوع، والرفع بعد الوقوع، لا أحد يدفع عذاب الله ولا يمنعه عن أن ينزل ولا يرفعه إذا نزل، وإنما ذلك إلى الله وحده، نسأل الله تعالى أن يعاملنا بعفوه، وأن يغفر لنا ما سلف من ذنوبنا وما حضر، إنه على كل شيء قدير.

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩﴾ متعلقة بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ يعني أن العذاب يقع في ذلك اليوم، قوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩﴾ قد يظن الظانّ أن المصدر هنا (موراً) لمجرد التوكيد، ولكنه ليس كذلك، بل هو لبيان تعظيم هذا المور، والمور بمعنى الاضطراب، يعني أن السماء تضطرب وتتشقق، وتتفتح وتختلف عما هي عليه اليوم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾. ولا إنسان يتصور أو يعلم حقيقة ذلك اليوم، ولكننا نعلم المعنى بما أخبر الله به عنه، أما الحقيقة فهي شيء فوق ما نتصوره الآن، ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾ أي: تسير سيراً عظيماً، وذلك أن الجبال تكون هباءً منثوراً، وتتطاير كما تتطاير الغيوم، وتسير سيراً عظيماً هائلاً،

لشدة هول ذلك اليوم، وهذه الآية تدل على أن قول الله تبارك وتعالى في سورة النمل: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾. فإن هذه الآية هي نفس هذه الآية التي في الطور من حيث المعنى، فيكون قوله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ يعني يوم القيامة ولا شك، ومن فسرها بأن ذلك في الدنيا وأنه دليل على أن الأرض تدور فقد حرَّف الكَلم عن مواضعه، وقال على الله ما لا يعلم، وتفسير القرآن ليس بالأمر الهين، لأن تفسير القرآن يعني أنك تشهد على أن الله أراد به كذا وكذا، فلابد أن يكون هناك دليل: إما من القرآن نفسه، وإما من السنة، وإما من تفسير الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أما أن يحول الإنسان القرآن على المعنى الذي يراه بعقله أو برأيه، فقد قال النبي ﷺ: «**من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**»[1].

والمهم أن تفسير قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ يراد به ما في الدنيا، تفسير باطل لا يجوز الاعتماد عليه، ولا المعول عليه، أما كون الأرض تدور أو لا تدور، فهذا يعلم من دليل آخر، إما بحسب الواقع، وإما بالقرآن، وإما بالسنة، ولا يجوز أبداً أن نحمل القرآن معاني لا يدل عليها من أجل أن نؤيد نظرية أو أمراً واقعاً، لكنه لا يدل عليه اللفظ، لأن هذا أمر خطير جداً.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه (٢٩٥٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

قال الله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ ويل كلمة وعيد وتهديد، وإن كان قد روي أنها واد في جهنم[1]، لكن الصواب أنها كلمة تهديد ووعيد، ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ أي: المكذبين لله ورسوله، الجاحدين لما قامت الأدلة على ثبوته فإنهم سيجدون في ذلك اليوم من العذاب والنكال ما لا يخطر لهم على بال ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ أي في الدنيا ﴿ فِي خَوْضٍ ﴾ أي: في كلام باطل ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ أي: لا يقولون الجد ولا يعملون بالجد، وإنما أعمالهم كلها لعب ولهو، ولذلك تجد أعمارهم ليس فيها بركة، تمر بهم الليالي والأيام لا يستفيدون شيئاً ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ هذه متعلقة بما سبق أيضاً، ويُدَعُّون بمعنى يدفعون بعنف وشدة إلى نار جهنم دعًّا؛ لأنهم ـ والعياذ بالله ـ تمثل لهم النار كأنها سراب، أي كأنها حوض نهر، وهم على أشد ما يكونوا من العطش، فيذهبون إليها سراعاً، يريدون أن يشربوا منها حتى يزول عنهم العطش، فإذا بلغوها وإذا هي النار ـ والعياذ بالله ـ فكأنهم ـ والله أعلم ـ يتوقفون لئلا يتساقطوا فيها، فيدعُّون إليها دعًّا، أي يُدفعون بعنف وشدة فيتساقطون فيها ـ أجارنا الله من ذلك ويقال لهم: ﴿ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ كانوا في الدنيا يقولون: لا بعث ولا جزاء، ولا عقوبة ولا نار، وإنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع ولا بعث، فيقال لهم توبيخاً على هذا الإنكار: ﴿ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنبياء عليهم السلام (٣١٦٤) وقال: هذا حديث غريب.

تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ فما أشد حسرتهم إذا وُبِّخوا على أمر كان في إمكانهم أن يتخلوا عنه، ولكنهم الآن لا يستطيعون لذلك سبيلاً، يقولون إذا وقفوا على النار: ﴿ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾. قال الله تعالى: ﴿ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾. أي: حتى لو ردوا إلى الدنيا عادوا وكذبوا، فلن يستقيموا على أمر الله، لكن يقولون هذا تمنياً. ﴿ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ يعني أفهذا الذي ترون اليوم سحر كما كنتم تقولون ذلك في الدنيا، حيث يقولون: إن ما جاءت به الرسل سحر، ويصفون الرسول بأنه ساحر، فيقال: أسحر هذا أم أنتم لا تبصرون، يعني لا تبصرون بعين البصيرة، بل أنتم عمي عن الحق ـ والعياذ بالله ـ ﴿ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ أي: احترقوا بها، والأمر هنا للإهانة، كقوله تعالى: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾. فانظر إلى هؤلاء كيف تتهكم بهم الملائكة وتذلهم وتخزيهم ـ والعياذ بالله ـ وتهينهم، ﴿ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾ يعني أن الصبر وعدمه سواء عليكم، ومعنى هذا أنه لن يفرج عنكم، سواء صبرتم أم لم تصبروا، مع أنه في الدنيا إذا أصيب الإنسان بشيء وصبر فإنه يفرج عنه، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً**»[1]. ﴿ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ يعني ما تجزون إلا ما عملتم فلم

---

(١) الإمام أحمد في المسند- ج١/ ٣٠٧، والحاكم في المستدرك - ج٣/ ٦٢٤.

تُظلموا شيئاً، ثم ذكر الله تعالى جزاء المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ هذه الجملة خبرية مؤكدة بإن، والتوكيد أسلوب من أساليب اللغة العربية، مستعمل عند العرب، وهذا القرآن نزل بلغة العرب، وإلا ففي الواقع أن خبر الله ـ عز وجل ـ لا يحتاج إلى توكيد؛ لأنه أصدق القول، فالرب ـ عز وجل ـ إذا أخبر بخبر فإنه لا يحتاج إلى أن يؤكد، لأن خبر الله صدق، لكن لما كان القرآن العظيم نزل بلسان عربي صار جارياً على ما كان يعرفه العرب في لغتهم، فهنا أكد الله ـ عز وجل ـ هذه الجملة: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ والمتقون هم الذين قاموا بطاعة الله امتثالاً لأمره واجتناباً لنهيه، هذه هي التقوى، فالتقوى طاعة الله في امتثال أمره واجتناب نهيه، فالذي يصلي امتثالاً لأمر الله نقول: هو متق، والذي يدع الزنا نقول: هو متقٍ بترك الزنا، وإنما سمي ذلك تقوى لأنه وقاية من عذاب الله، فإن الإنسان إذا قام بطاعة الله فقد اتخذ وقاية من عذاب الله ـ عز وجل ـ هؤلاء المتقون يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾، وجنات جمع جنة، وهي الدار التي أعدها الله تعالى للمتقين في الآخرة، بدليل قول الله تبارك وتعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ وإذا قلنا: إن الجنة هي الدار التي أعدها الله تعالى لعباده في الدار الآخرة، فهل يمكن أن تكون في الدنيا؟ نقول: أما بالنسبة لدخول الجنة التي هي الجنة فهذا لا يمكن في الدنيا، أما بالنسبة لكون الإنسان يأتيه من نعيم الجنة ما يأتيه، فهذا يمكن، وذلك في القبر إذا سُئل

الإنسان عن ربه، ودينه، ونبيه، فأجاب الصواب، فإنه يفرش له فراش من الجنة، ويُفتح له باب إلى الجنة، ويُفسح له في قبره مُدَّ البصر[1]، وجمعت الجنات في الآية لأنها أنواع، ذكر الله في سورة الرحمن أربعة أنواع ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾. ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾. هذه الجنان الأربع تختلف بما جاء في وصفها في سورة الرحمن، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ أي نعيم البدن، ونعيم القلب، فهم في سرور دائم، وهم في صحة دائمة، وهم في حياة دائمة، فجميع أنواع النعيم كاملة لهم، نسأل الله أن يجعلنا منهم ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾، الفاكه هو المسرور، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾. أي: مسرورين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: بما أعطاهم ربهم من النعيم، ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾ فحصلوا على السلامة من الشرور بوقاية الجحيم، وعلى تمام السرور في جنات النعيم ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ (كلوا واشربوا) فعل أمر، وهذا الأمر ليس تكليفاً وإنما الأمر هنا للتكريم، أي يقال لهم: كلوا من كل ما في الجنة من النعيم ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾. ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾. وفيها من كل النعيم، ﴿وَٱشْرَبُواْ﴾ مما فيها من الأنهار، وأنهار الجنة ذكرها الله تعالى أربعة في سورة القتال ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب المسألة في القبر وعذاب القبر (رقم ٤٧٥٣) وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى (رقم ٤٢٦٩).

مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾. هذه أربعة أنهار: من ماء غير آسن، أي: غير متغير، والمياه في الدنيا إذا لم يأتها ما يمدها وبقيت راكدة لابد أن تتغير فتكون آسنة، وماء الجنة لا يتغير، غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، واللبن في الدنيا إذا أبقي يتغير ويفسد، لكن في الآخرة لا يتغير، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وخمر الدنيا فيه رائحة كريهة ثم أنه يقلب العاقل إلى مجنون، وفيه أيضاً الصداع، وفيه فساد المعدة، لكنه في الجنة أنهار من خمر لذة للشاربين، وقد قال الله تعالى في سورة الصافات: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾. والرابع ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ ﴿هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ الهنيء هو الذي لا يكون له عاقبة سيئة، ولا تبعة من تجاوز، أو إسراف ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب ما كنتم تعملون، (فالباء) هنا للسببية، وليست الباء للعوض، لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «**لن يدخل الجنة أحد بعمله**»[1].

فإن قيل: إن الله تعالى قال: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾، فجعل الله تعالى ذلك بسبب العمل، والرسول ﷺ يقول: «**لن يدخل الجنة أحد بعمله**» مع أن الله يقول: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾؟

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المرضى، باب نهي تمني المريض الموت (٥٦٧٣) ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٦).

والجواب على هذا الإشكال أن يقال: الباء تأتي للسببية، وتأتي للبدلية، فإذا قيل: دخل الرجل الجنة بعمله، فالمعنى السببية، وإذا قال: لن يدخل الجنة أحد بعمله، فالمعنى البدلية، وأضرب مثلاً يبين هذا: بعتك الثوب بدرهم، فالباء للبدلية، لأن الدرهم صار عوضاً عن الثوب، وإذا قلت: أدبت الولد بعبثه، هذه للسببية، إذن كلنا لن يدخل الجنة بعمله؛ لأن الله سبحانه وتعالى لو حاسبنا على عملنا ما قابل عملنا نعمة من نعم الله، نعمة واحدة. فالنفس الآن الذي هو من ضرورة الحياة يخرج منك ويدخل بدون تعب، وبدون مشقة، وكم يتنفس الإنسان في الدقيقة؟! فلو أننا حوسبنا على أعمالنا بالمعاوضة والمبادلة لكانت نعمة واحدة تستوعب جميع العمل، ونحن الآن لا نحس بنعمة النفس لكن لو أصيب أحد منا بكتم النفس لوجد أن النفس من أكبر نعم الله، لذلك نقول: إن الباء في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ للسببية وليست للبدلية، وفي قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ شمول لكل العمل: الجوارح، والقلب، واللسان. فالجوارح: كالأفعال، كالركوع، والسجود. والأقوال: كالأذكار. والقلوب: كالخوف، والرجاء، والتوكل وما أشبه ذلك، فكل هذه تسمى أعمالنا.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ متكئين حال، أي: حال كونهم متكئين، والمتكىء تدل هيئته على أنه في سرور وانشراح وطمأنينة، لأن الاتكاء يدل على ذلك، والسرر جمع سرير، وهي الكراسي الفخمة المهيئة أحسن تهيئة للجالس عليها، ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾

أي مصفوف بعضها إلى بعض، يصفها الخدم والولدان، ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٢٠﴾، أي: قرناهم بحور عين، والحور جمع حوراء، والعين جمع عيناء، والأصل الحور هو البياض، وأما العيناء فهي التي كانت جميلة العين في سوادها وبياضها، فهن حسان الوجوه، حسان الأعين، ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: الذين آمنوا واتبعتهم الذرية بالإيمان، والذرية التي يكون إيمانها تبعاً هي الذرية الصغار، فيقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: جعلنا ذريتهم تلحقهم في درجاتهم، وأما الكبار الذين تزوجوا فهم مستقلون بأنفسهم في درجاتهم في الجنة، لا يلحقون بآبائهم، لأن لهم ذرية فهم في مقرهم، أما الذرية الصغار التابعون لآبائهم فإنهم يرقون إلى آبائهم، وهذه الترقية لا تستلزم النقص من ثواب ودرجات الآباء، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: نقصناهم، يعني أن ذريتهم تلحق بهم، ولا يقال: أخصم من درجات الآباء بقدر ما رفعت من درجات الذرية، ﴿كُلُّ ٱمْرِيءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝٢١﴾ هذه قاعدة عامة في جميع العاملين أن كل واحد فإنه رهين بعمله لا ينقص منه شيء، أما الزيادة فهي فضل من الله تبارك وتعالى على من شاء من عباده ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢﴾ أمدهم الله تعالى، أي: أعطاهم عطاء مستمراً إلى الأمد وإلى الأبد بفاكهة وهي ما يتفكه به من المأكولات، ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢﴾ أي: مما يشتهونه ويستلذونه، وقد بين الله تبارك وتعالى نوع هذا اللحم بأنه لحم طير، وهو أشهى ما يكون

من اللحم وأبرأه وأمرأه ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾ أي: أن أهل الجنة ينازع بعضهم بعضاً على سبيل المداعبة، وعلى سبيل الأنس والانشراح ﴿كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣﴾ والمراد بها كأس الخمر، ومعنى ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣﴾ أنه لا يحصل بها ما يحصل من خمر الدنيا، فإن خمر الدنيا يحصل بها السكر والهذيان، ولكن خمر الآخرة ليس فيها لغو ولا تأثيم، أي: لا يلغو بعضهم على بعض، ولا يتكلمون بالهذيان، ولا يعتدي بعضهم على بعض ﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: يتردد على أهل الجنة وهم على سررهم متكئين ﴿غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾ أي: غلمان مهيئون لهم في الخدمة التامة المريحة ﴿كَأَنَّهُمۡ﴾ أي: الغلمان ﴿لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤﴾ أي: محفوظ عن الرياح وعن الغبار وعن غير ذلك مما يفسده، ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥﴾ أي صار بعضهم يسائل بعضاً، لكنه على وجه الأدب يتكلم معه وهو مقابل له لوجهه فلا يصعر خده له ولا يستدبره، بل يتكلم معه بأدب ومقابلة تامة ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦﴾ أي خائفين من عذاب الله ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ أي: أنعم علينا بنعمة عظيمة، ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ أي: عذاب النار ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ﴾ أي: قبل أن نصل إلى هذا المقر، وذلك في الدنيا ﴿نَدۡعُوهُ﴾ أي: نعبده ونسأله، لأن الدعاء يطلق على معنيين: على العبادة، وعلى السؤال، فمن إطلاقه على العبادة قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾.

وأما الدعاء بمعنى السؤال ففي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾. فقولهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ يشمل دعاء العبادة كالصلاة، والصدقة، والصيام، والحج، وبر الوالدين وصلة الأرحام، كل هذا دعاء، وإن كان هو عبادة، فلو سألت الداعي لماذا تعبد الله، ولو سألت العابد لماذا تعبد الله؟ لقال: أرجو رحمته وأخاف عذابه، فتكون هذه العبادة بمعنى الدعاء، كذلك ندعوه دعاء مسألة، لا يسألون غير الله ولا يلجئون إلا إلى الله، لأنهم يعلمون أنهم مفتقرون إليه، وأنه هو القادر على كل شيء ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ (البر) بمعنى الواسع الإحسان والرحمة، ومن ذلك البرية، للمكان الخالي من الأبنية، فالمعنى أنه جل وعلا واسع الإحسان والعطاء والجود (الرحيم) أي ذو الرحمة البالغة، يرحم بها من يشاء من عباده تبارك وتعالى، وفي هذه الآيات بيان نعيم أهل الجنة، وفيها أيضاً أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر عذاب أهل النار ذكر نعيم أهل الجنة، لأن هذا القرآن الكريم مثاني تثنى فيه المعاني، إذا ذكر فيه الخير ذكر فيه الشر، وإذا ذكر فيه نعيم المتقين ذكر فيه جحيم الكافرين، وهكذا حتى يكون قارىء القرآن بين الخوف والرجاء، إن قرأ آيات النعيم رجا، وإن قرأ آيات العذاب خاف، فيعبد الله تبارك وتعالى بهذا وهذا، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل الجنات الناجين من الدركات، إنه على كل شيء قدير.

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾،

الخطاب للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والمذكر محذوف، والتقدير: ذكر الناس، أو إن شئت فقل: ذكر من أرسلت إليهم من الجن والإنس، ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ هذا نفي لما ادعاه المكذبون للرسول ﷺ بأنه كاهن أو مجنون، قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي بإنعام ربك عليك بما أنزل عليك، من الوحي لست ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾، والكاهن هو الذي يخبر عن الغيبيات في المستقبل، وكانت الكهانة في الجاهلية مشهورة، يكون للإنسان رئي من الجن يصحبه ويخدمه، ثم يصعد الجني إلى السماء يستمع ما يقال في السماء، وينزل به على هذا الكاهن، فيكون هذا علم غيب عن أهل الأرض، لكن الكاهن يزيد عليه أشياء كثيرة يتخرصها، فإذا وقع ما سمعه من السماء صار عظيماً في قومه، لأنه أخبر عن شيء مستقبل فوقع، فالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما جاء بالوحي رده المشركون وكذبوه، وقالوا: إنما جاء به محمد من الكهانة، لأن الكهان يخبرون عن الشيء فيقع، ولأن الكهان أيضاً يأتون بكلام مسجوع يشبه القرآن، والقرآن آيات مفصلة، أتى بها النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولهذا قال النبي ﷺ في كلام حمل بن النابغة الذي قال: (يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، فمثل ذلك يطل) فقال النبي ﷺ: «**إنما هو من إخوان الكهان**»[1] من أجل سجعه الذي سجع، فهم

(١) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب الكهانة (٥٧٥٨) ومسلم، كتاب القسامة، باب دية الجنين ووجوب الدية في قتل الخطأ (١٦٨١) (٣٦).

يقولون: إن محمداً رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كاهن، فنفى الله ذلك، ثم قالوا: إنه مجنون يأتي بما لا يعرف، فكذبهم الله فقال: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ هذه الجملة منفية مؤكدة بالباء، الباء الزائدة إعراباً، المفيدة معنى، وأصلها (فما أنت بنعمة ربك كاهناً ولا مجنوناً) لكن زيدت الباء توكيداً للنفي، ثم قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ يعني بل أيقولون، و(أم) هذه تسمى عند المعربين منقطعة، يعني لا عاطفة، لأن (أم) تأتي عاطفة وتأتي منقطعة، فهنا منقطعة، والتقدير (بل أيقولون شاعر؟) والاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار عليهم، والشاعر هو الذي يأتي بكلام مقفى ويتضمن شعره أحياناً حكماً، ولهذا جاء في الحديث: «**إن من البيان لسحراً**»[1] «**وإن من الشعر لحكمة**»[2] فيقولون: محمد شاعر ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ﴾ أي ننتظر به ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: حوادث الدهر وقوارعه، فيهلك كما هلك الشعراء من قبله، ولا يكون له أثر، فانظر ـ والعياذ بالله ـ كيف يترقبون موت الرسول عليه الصلاة والسلام يقولون: هذا شاعر من جنس الشعراء يهلك وينتهي أمره، وقوله: ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾، قيل: إن المنون هو الدهر، وقيل: إن المنون هو الموت، وهما متلازمان، والمراد بذلك حوادث الدهر المهلكة المبيدة. ﴿قُلْ﴾ في جوابهم ﴿تَرَبَّصُوا۟﴾ والأمر هنا للتهديد

(١) تقدم ص ١١٨ وهو عند البخاري (٥١٤٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه (٦١٤٥).

والتحدي أيضاً، تربصوا بهذا الشاعر ريب المنون، وانظروا هل يموت وتموت دعوته، أو أنكم أنتم تموتون وتموت معارضتكم، ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ يعني فأنا منتظر أيضاً، انتظروا أنتم، وأنا أنتظر لمن تكون العاقبة، وصارت العاقبة والحمد لله للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ﴾ أم هنا نقول: إنها منقطعة، وأم المنقطعة تقدر ببل، والتقدير: بل أتأمرهم؟ وهذا انتقال من الأول إلى الثاني ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ فيقولون: إنه مجنون إنه كاهن، إنه شاعر، هل عقولهم تأمرهم بهذا؟ الجواب: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ أي بل لا تأمرهم عقولهم بهذا، وكثير منهم يعلم أن محمداً رسول الله ﷺ حق، لكن غلبتهم الكبرياء ـ والعياذ بالله ـ فأنكروا وكذبوا ولهذا قال: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: بل هم قوم طاغون معتدون ظالمون، وأصل الطغيان مجاوزة الحد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ أي: ازداد وارتفع عن عادته ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ بل هم قوم طاغون.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أم هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة، والمعنى بل أيقولون تقوله أي: اختلقه وكذب به، وهذاقسم منهم، قالوا: محمد عليه الصلاة والسلام تقوَّل هذا القرآن واختلقه من عنده، وبعضهم يقولون: إنما يعلمه بشر ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ يعني بل هم لا يؤمنون، ولو آمنوا لعلموا أن القرآن لا يمكن أن يتقوَّله بشر، لأن كلام الله عز وجل لا يشبهه أي كلام، ثم تحداهم فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ يعني إذا

كنت أنت تقوَّلته فأنت مثلهم بشر تتكلم كما يتكلمون، وتخطب كما يخطبون، وتقول كما يقولون، فإذا كنت متقوِّلاً له وهو من عندك فليأتوا بحديث مثله، لأن البشر يمكن أن يأتي بكلام يشبه كلام البشر الآخر، فإذا كان محمد ﷺ تقوَّله فهاتوا مثله ﴿فَلْيَأْتُوا﴾، اللام هنا للأمر، والمقصود به التحدي والتعجيز، ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾، وهذا غاية التحدي، فعجزوا وما استطاعوا أن يأتوا بحديث مثله، مع أنهم أمراء البلاغة، وسلاطين الفصاحة، لكن عجزوا، فدل عجزهم على أن القرآن ليس من كلام البشر، بل هو من كلام الله ـ عز وجل ـ ولهذا قال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ ومع قوة المعارضة وقوة البلاغة والفصاحة عجزوا أن يأتوا بحديث مثله فما استطاعوا، فدل ذلك على أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يتقوله، ولن يستطيع أن يأتي بمثله، وفي قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ كلمة (حديث) نكرة، والنكرة تدل على الإطلاق، لكن جاء في آية أخرى أن الله قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾. وجاء في آية أخرى الإخبار بأنه لن يستطيع أحد أن يعارض القرآن، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾. فتبين بطلان قولهم: إنه تقوَّله؛ لأن الله تحداهم أن يأتوا بمثله، إن كانوا صادقين في دعواهم أنك تقوَّلته فليأتوا

بحديث مثله ولكنهم عجزوا. ثم قال الله تعالى مستدلاً بربوبيته على ألوهيته قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ بمعنى بل، والهمزة (بل أخلقوا من غير شيء) أي: من غير خالق، أم هم الخالقون، والجواب: لا خلقوا من غير خالق، ولا هم الخالقون، أما كونهم لم يخلقوا من غير خالق، فلأن القاعدة العقلية الحسية التي أجمع عليها العقلاء أن كل محدث لابد له من محدث، فإذا كان كل محدث لابد له من محدث، فإذا نظرنا في أنفسنا فنحن حادثون قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾. فالواحد منا الذي له عشرون سنة، هو قبل اثنتين وعشرين سنة ليس شيئاً مذكوراً، ولا يعرف ولا يدرى عنه، إذن نحن حادثون، وكل حادث لابد له من مُحدث، فهل أنتم خلقتم بغير محدث؟ الجواب: لا، وهذا جواب عقلي لا ينكر، أم هم الخالقون لأنفسهم؟ الجواب: لا، لأنهم قبل أن يوجدوا عدم، وكيف يمكن للعدم أن يخلق؟ لا يمكن هذا، فإذا تبين أنهم لم يخلقوا من غير خالق، وأنهم لم يخلقوا أنفسهم تعين أن يكون لهم خالق قادر على إيجادهم وهو الله عز وجل، ولا يستطيع أحد منهم أن يقول: إن الذي خلقني أبي أو أمي، فإذا لم يكن كذلك تعين أن يكون لهم خالق وهو الله تبارك وتعالى، وإذا كان لهم خالق وهم مخلوقون مربوبون مدبرون، فالواجب أن يخضعوا لهذا الخالق، وأن يعبدوه وحده، كما أنه هو الخالق وحده، وهذه الآية سمعها جبير بن مطعم وكان قد قدم إلى المدينة وهو مشرك، على النبي ﷺ في طلب الفداء لأسرى بدر، وغزوة

بدر انتصر فيها النبي ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم والحمد لله ـ وقتلوا من قريش سبعين رجلاً، وأسروا سبعين رجلاً، وجاءوا بهم إلى المدينة، وانقسموا إلى أقسام، منهم من أطلقه النبي عليه الصلاة والسلام، ومنّ عليه، ومنهم من فداه بمال، ومنهم من فداه بأسير ومنهم من فداه بتعليم أهل المدينة الكتابة، وجبير بن مطعم أتى إلى النبي عليه الصلاة والسلام يطلب فداء أسرى بدر لأنه من صميم قريش، والأسرى أيضاً من قريش، ويظهر لي ـ والله أعلم ـ أن جبيراً سمع قول النبي ﷺ: «**لو كان المطعم بن عدي حيًّا فكلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له**»[1]. وذلك أن مطعم بن عدي لما رجع النبي عليه الصلاة والسلام من الطائف أجاره، وصار يمشي معه من حين دخل مكة إلى أن وصل إلى الكعبة، وأمر أبناءه وهم متقلدي السيوف أن يقف كل واحد على ركن من أركان الكعبة حتى لا يعتدي على الرسول أحد، وقال لرسول الله ﷺ: طف. واحتبوا بحمائل سيوفهم في المطاف فأقبل أبو سفيان إلى مطعم، فقال: أمجير أم تابع؟ قال: لا بل مجير. قال: إذاً لا تُخْفَر. فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه، فلما انصرف انصرفوا معه. فهو أحسن إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فقال النبي عليه الصلاة والسلام وهو أوفى الناس عليه الصلاة والسلام بكرمه قال: «**لو كان المطعم بن عدي حيًّا فكلمني في هؤلاء النتنى**» أي: الأسرى، ووصفهم بأنهم نتنى؛ لأن

(١) أخرجه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما منّ النبي ﷺ على الأسارى من غير أن يخمس (٣١٣٩).

المشركين نجس، والنتن هو الرائحة الكريهة «**في هؤلاء النتنى لتركتهم له**» وجبير ابنه فلعله ـ والله أعلم ـ سمع بهذه المقالة فجاء إلى النبي ﷺ يطلب فداء الأسرى، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يقرأ في المغرب بسورة الطور ولما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ قال جبير: (كاد قلبي يطير) لأن هذه حجة ملزمة لا يمكن أن يتخلص منها أحد، قال: (ووقر الإيمان في قلبي) يعني معناه أنه دخل الإيمان في قلبه، سبحان الله، فانظر تأثير القرآن الكريم مع أن الرسول ﷺ ما دعاه في تلك الساعة، لكن سمع هذه الآية العجيبة العظيمة، فكاد قلبه يطير، ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ والجواب بكل سهولة: لا، في الأمرين، لا خلقوا من غير شيء، ولا هم الخالقون، بل لهم خالق وهو الله سبحانه وتعالى، ولا أحد يمكن أن ينكر هاتين المقدمتين كلها حجة قطعية تدمغ كل كافر، يعني إذا قال: نعم لي خالق خلقني قلنا: إذن لماذا لا تعبده، لأنك عبد له مملوك له ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ انتقل من الأدنى إلى الأعلى خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، فانتقل من الأدنى إلى الأعلى ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ والجواب: لا، لأن أم هنا مثل سابقاتها، بل أخلقوا السموات والأرض، والجواب: لا، وهم يقرون بهذا ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾. ولكن مع ذلك لا يعترفون بالرسالة، ولهذا قال: ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾، يعني ليس عندهم إيقان في خلق السموات والأرض أن الذي خلقهم هو الله، لأنه لو كان عندهم

يقين لحملهم هذا اليقين على تصديق النبي ﷺ والإقرار برسالته. وهذه الإلزامات العظيمة التي ألزم الله تعالى بها قريشاً كل هذا من أجل إقامة الحجة عليهم، ولو شاء سبحانه وتعالى لعاقبهم بدون أن تكون هذه المجادلة وهذه المناقشة.

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ أم هنا بمعنى بل، والهمزة، يعني بل أعندهم خزائن الله، يعني خزائن رزق الله - عز وجل - حتى يمنعوا من شاءوا، ويعطوا من شاءوا، والجواب: ليس عندهم ذلك، ولا يملكون شيئاً من هذا، بل الذي يملك الرزق عطاء ومنعاً هو الله تبارك وتعالى، ولما نفى أن يكون عندهم خزائن الله، قال: ﴿ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ يعني بل أهم الذين لهم السيطرة والغلبة والسلطان والكلمة؟ والجواب: لا، فإذا لم يكن لهم شيء من هذا صاروا مربوبين، وصاروا أذلاء أمام قوة الله - عز وجل -، ثم قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ يعني بل ألهم سلم يستمعون فيه، والسلم هو المصعد والمرقى، والمعنى: هل لهم سلم يصعدون فيه على السماء يستمعون ما يقال في السماء؟ والجواب: لا، فإن ادعوا ذلك ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي: بحجة بينة ظاهرة على أنه استمع ما يقال في السماء، والجواب: لن يجدوا إلى ذلك سبيلاً، اللهم إلا الكهنة الذين لهم رئي من الجن يستمع إلى ما يقال في السماء، ثم يكذب مئة كذبة على ما سمع، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعها من السماء، ثم قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ وهذا أيضاً بمعنى بل، والاستفهام للتوبيخ والإنكار، يعني أيكون لله

البنات ولهم البنون، لأنهم ادعوا أن جند الله تعالى بنات، وأن لهم البنين، ومعلوم أن من له البنين غالب على من له البنات، لأن جنده رجال ذكور، أقوى وأحزم وأقدم من النساء، وقد جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، كما قال الله تعالى عنهم ذلك قال: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾. يعني لم يشهدوا خلقهم حتى يقولوا: إنهم بنات ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ ﴾ أي شهادتهم هذه التي هي زور وكذب، ﴿ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾، فهؤلاء المكذبون للرسول عليه الصلاة والسلام من قريش قالوا: لهم البنون ولله البنات، قال الله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾. والذين يشتهون هم الذكور حتى إن أحدهم إذا بُشِّر بالأنثى ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾. أي: مملوء غيظاً وغمًّا ﴿ يَتَوَرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ ﴾ يختبىء من القوم ﴿ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ ﴾. ثم يتردد ﴿ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ ﴾ أي: على ذل وهوان ﴿ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ ﴾ يرمه فيه وهذه المؤودة ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ يعني بل أتسألهم، والاستفهام هنا للنفي وكل (أم) هنا الاستفهام للنفي والتوبيخ، يعني هل أنت يا محمد حين دعوتهم إلى الله ـ عز وجل ـ هل أنت تقول أعطوني أجراً مثقلاً كبيراً لا يستطيعونه حتى يردوك، والجواب: لا، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾. فالنبي ﷺ لم يقل لأي واحد: أعطني أجراً على دعوتي إياك، بل هو ﷺ يبذل المال ليؤلف القلوب، كما أعطى

المؤلفة قلوبهم من الأموال شيئاً عظيماً، وليس يطلب من أحد أي عوض على ما جاء به من الرسالة، واستدل بعض أهل العلم على أنه لا يجوز للإنسان أن يأخذ أجراً على تعليم العلم بمعنى مؤاجرة، يقول الإنسان: لا أعلمك إلا بكذا وكذا، لكن هذا فيه نظر، لأن النبي ﷺ قال: «**إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله**»[1]. ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: ماغاب عن الناس فهم يحفظونه، والجواب: لا، ليس عندهم علم الغيب، بل إن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه لا يعلم شيئاً من الغيب، يكون الشيء في داره لا يعلمه، حتى إنه دخل ذات يوم والبرمة على النار تغلي باللحم، ولم يعلم ما هو، وحتى إن أبا هريرة كان معه فانخنس منه ولم يعلم لأي شيء ذهب، فالحاصل أن الرسول نفسه لا يعلم الغيب، فمن دونه من باب أولى، وقد أمره الله تعالى أن يعلن بأنه لا يعلم الغيب، فقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾. وهنا يقول تعالى لهؤلاء المكذبين ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾، والجواب: لا، ثم قال: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ يعني أيريد هؤلاء أن يكيدوا لك يا محمد بإبطال دعوتك، وإهلاكك وإماتتك، الجواب: نعم، ولكن كيدهم ليس بشيء بالنسبة إلى كيد الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾. وقد كادوا له أعظم كيد، فإنهم اجتمعوا ماذا يصنعون بمحمد لما رأوا دعوته تنتشر، وأنه لا قبل لهم بردها، اجتمعوا يتشاورون، وذكروا ثلاثة

(١) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب الشرط في الرقية بقطيع من الغنم (٥٧٣٧).

آراء: الحبس، والقتل والإخراج، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: يحبسوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾، قال الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ واستقر رأيهم على القتل، لكن من يستطيع أن يقتله، لأن بني هاشم سوف يطالبون؟ قالوا: يجتمع عشرة شبان من قبائل متفرقة من العرب، ويعطى كل واحد منهم سيفاً صارماً، ويضربون محمداً ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل فتعجز بنو هاشم عن المطالبة، فعلوا ذلك، ولكنهم مكروا ومكر الله ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ فأنجاه الله منهم ثم أذن له أن يهاجر، فهاجر إلى المدينة، ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ الجملة هنا جملة اسمية معرف طرفاها مفصولة بضمير الفصل، مما يدل على التوكيد والحصر يعني فالكيد للذين كفروا. وهنا قال تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ لم يقل: أم يريدون كيداً فهم المكيدون، وهذا الأسلوب عند علماء البلاغة يسمى الإظهار في موضع الإضمار، ومعناه بدل أن يقال: (فهم المكيدون) قال الله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ولهذا فائدة بل أكثر، إذا قال (فالذين كفروا) معناه أن هؤلاء كفار، ومعناه أن من كان كافراً فهو المكيد، وإن كان من غير هؤلاء، هاتان فائدتان معنويتان، الفائدة الثالثة: تنبيه المخاطب، لأن الكلام إذا كان على نسق واحد ربما يغفل الإنسان، لكن إذا جاء شيء يخرج الكلام عن النسق انتبه، ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يعني بل ألهم إله غير الله؟ والجواب حقيقة: لا. وادعاءً: نعم لهم آلهة غير الله يعبدونها: اللات

والعزى ومناة، وهبل وغيرها من الأصنام المعروفة عند العرب، ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ فنزه الله سبحانه وتعالى نفسه عما يشرك به هؤلاء، ليبين أن هذه الأصنام باطلة، وأن الله منزه عن كل شريك.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ الكسف معناه قطع العذاب، ﴿يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ وهذا يدل على أنهم يرون أنهم على حق، وأنهم غير مستحقين للعذاب، وأن هذا الكسف النازل قطع العذاب ما هي إلا سحب متراكمة، وهذا كقول عاد حين رأوا الرياح مقبلة عليهم قالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾. لأن هؤلاء المكذبين ـ والعياذ بالله ـ معاندون يرون أنهم على حق، وأنهم غير مستحقين للعذاب، فإذا رأوا العذاب قالوا: هذا شيء عادي، ولن نهابه ولن نخافه، قال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أتركهم ﴿فِى خَوْضِهِمْ﴾ بأقوالهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ بأفعالهم ويلهو في الدنيا ويروا أنهم على حق ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾ وهو يوم موتهم، يعني اترك هؤلاء فإن مآلهم إلى الموت وإن فروا، وهم إذا لاقوا يومهم الذي يوعدون عرفوا أنهم على باطل، وأن محمداً ﷺ على الحق ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ فإذا جاءهم الموت ما أغنى عنهم كيدهم شيئاً؛ لأنهم في قبضة الله، وقد انتهى استعتابهم، وليس أمامهم إلا العذاب ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ والمراد بهم الكفار، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾. ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، يعني دون عذاب الموت، وهو ما أصيبوا به من الجدب والقحط والخوف

والحروب وغير ذلك مما كان قبل الموت ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾، بل أكثرهم في غفلة عن هذا، ولا يظنون أن ذلك من العذاب في شيء.

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ اصبر يا محمد عليه الصلاة والسلام، والصبر حبس النفس عما لا ينبغي فعله، وقوله ﴿ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ يشمل الحكم الكوني، والحكم الشرعي، يعني اصبر لما حكم به ربك من وجوب إبلاغ الرسالة وإن أصابك ما يصيبك، واصبر لحكم ربك القدري الكوني، وهو ما يقدره الله تعالى عليك من هؤلاء السفهاء من السخرية والعدوان والظلم، ولقد أوذي النبي ﷺ كما أوذي إخوانه من المرسلين، أوذي إيذاءً عظيماً، وضع الكفار سلا الجزور على ظهره وهو ساجد تحت الكعبة، في أأمن مكان[1]، وضرب، ورمي بالحجارة حين خرج إلى أهل الطائف حتى أدموا عقبه صلوات الله وسلامه عليه، ولم يفق إلا وهو في قرن الثعالب[2]، ويلقون القاذورات والأنتان على عتبة بابه عليه الصلاة والسلام، ويقول: «أي جوار هذا» وهذا من امتثال أمر الله، حيث قال الله له: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي: فإننا نراك بأعيننا ونراقبك ونلاحظك، ونعتني بك، وهذا كما يقول القائل لمن أشفق عليه وأحبه: أنت في عيني، ومن المعلوم أن

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته (رقم ٢٤٠) ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (رقم ١٧٩٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين (رقم ٣٢٣١)، ومسلم كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (رقم ١٧٩٥).

مثل هذا الأسلوب لا يعني أن مخاطبه حال في عينه، بل المعنى أنت مني على مرأى، وعلى رقابة، وعلى حماية. وفي هذه الآية إثبات العين لله ـ عز وجل ـ وهي حقيقية ولكنها لا تماثل أعين الخلق، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ أي: قل: سبحان الله وبحمده ﴿حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ من أي شيء، حين تقوم من مجلسك، أو حين تقوم من منامك، فهي عامة، ولهذا كان كفارة المجلس أن يقول الإنسان: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك**»[1]، فينبغي للإنسان كلما قام من مجلس أن يختم مجلسه بهذا: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك**»، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يعني وسبح ربك من الليل لا كل الليل، و(من) هنا للتبعيض، ولهذا لما سمع النبي ﷺ بأقوام من أصحابه قال أحدهم: (أنا أقوم ولا أنام) قال النبي ﷺ: «**أما أنا فأقوم وأنام، ومن رغب عن سنتي فليس مني**»[2] ولذلك يكره للإنسان أن يقوم الليل كله حتى لو كان فيه قوة ونشاط، فلا يقوم الليل كله إلا في العشر الأواخر من رمضان، فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يحيي ليلها كله[3]، ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ يعني وقت أدبارها، وهل المراد

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا قام من المجلس (٣٤٣٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(٢) تقدم ص ٢٩.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب فضل ليلة القدر، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان=

أدبار ضوئها بانتشار نور الشمس، أو أدبار ذواتها عند الغروب؟ فالجواب هذا وهذا، والمراد بذلك صلاة الفجر، لأن صلاة الفجر بها تدبر النجوم، وصلاة الفجر وصلاة العصر هما أفضل الصلوات الخمس، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها فافعلوا**»[1] والمراد بالصلاة قبل طلوع الشمس أي صلاة الفجر، وقبل غروبها صلاة العصر، وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**من صلى البردين دخل الجنة**»[2] والبردان هما صلاة الفجر، وصلاة العصر، فصلاة الفجر براد الليل، وصلاة العصر براد النهار، ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ وبهذا انتهى الكلام بما يسر الله عز وجل على سورة الطور، نسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علمنا، وأن يهدينا صراطه المستقيم، وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب.

= (رقم ٢٠٢٤) ومسلم، كتاب الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (رقم ١١٧٤).

(١) تقدم ص ١١١.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر (رقم ٥٧٤) ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما (رقم ٦٣٥).

تفسير سورة النجم

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، تقدم الكلام عليها، ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ النجم اسم جنس يُراد به جميع النجوم، وقوله ﴿إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾: لها معنيان، المعنى الأول: إذا غاب، والمعنى الثاني: إذا سقط منه شهاب على الشياطين التي تسترق السمع وهو مقسم به ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ هذا جواب القسم، أي المقسم عليه ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾ أي: ما جهل، ﴿وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ أي: ما عاند، لأن مخالفة الحق إما أن تكون عن جهل، وأما أن تكون عن غي، قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ فإذا انتفى عن النبي ﷺ الجهل، وانتفى عنه الغي تبين أن منهجه ﷺ علم ورشد، علم ضد الجهل وهو الضلال، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾ ورشد ضد الغي ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ إذاً النبي عليه الصلاة والسلام كلامه حق وشريعته حق، لأنها عن علم ورشد، وقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾ يخاطب قريشاً، جاء بهذا الوصف لفائدتين:

الأولى: الإشارة إلى أنهم يعرفونه، ويعرفون نسبه، ويعرفون صدقه، ويعرفون أمانته، فهو ليس شخصاً غريباً عنهم حتى يقولوا لا نؤمن به، لأننا لا نعرفه، بل هو صاحبهم الذي نشأ فيهم، فكيف بالأمس يصفونه بالأمين، والآن يصفونه بالكاذب الخائن.

الثانية: أنه إذا كان صاحبهم فإن مقتضى الصحبة أن يصدقوه وينصروه لا أن يكونوا أعداء له. فهو لم يقل «ما ضل

رسول الله» أو«ما ضل محمد»، بل قال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾، فالفائدة من هذا هو أن مقتضى الصحبة أن يكونوا عارفين به، ومقتضى الصحبة أن يكونوا مناصرين له ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ أي: لا يتكلم بشيء صادر عن الهوى بأي حال من الأحوال، فما حكم بشيء من أجل الهوى، ولكنه ينطق بما أوحي إليه من القرآن، وما أوحي إليه من السنة، وما اجتهد به صلى الله عليه وعلى آله وسلم اجتهاداً يريد به المصلحة، فنطقه عليه الصلاة والسلام ثلاثة أقسام: الأول: أن ينطق بالقرآن. الثاني: أن ينطق بالسنة الموحاة إليه التي أقرها الله تعالى على لسانه. الثالث: أن ينطق باجتهاد لا يريد به إلا المصلحة، أما نحن فننطق عما نريد به المصلحة، وننطق عن الهوى، وليس كل إنسان منا سالم من الهوى، يميل مع صاحبه، ويميل مع قريبه، ويميل مع الغني، ويميل مع الفقير، لكن النبي ﷺ لا يمكن أن يتكلم عن هوى، وإذا كان لايمكن أن ينطق عن الهوى صار لا ينطق إلا بحق ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ يعني ما القرآن ﴿إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾، أي: وحي من الله ـ عز وجل ـ والواسطة بين الله وبين الرسول ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ يعني علم النبي ﷺ هذا الوحي شديد القوى، أي: ذو القوة الشديدة، فهو من إضافة الصفة إلى موصوفها، وهو جبريل عليه السلام، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠﴾ فجبريل عليه السلام قوي شديد أمين كريم، لا يمكن أبداً أن يفرط بهذا الوحي الذي نقله إلى محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ

قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾. ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾ المرة: الهيئة الحسنة، فهو ذو قوة، وذو جمال وحسن، وقد راه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح قد سد الأفق[1]، فهو الذي نزل بهذا القرآن، حتى ألقاه على رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾. وقوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾ أي فعلى، أو فكمل؛ لأن الاستواء في اللغة العربية تارة يذكر مطلقاً دون أن يقيد، فيكون معناه الكمال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: كمل، وتارة يقيد بعلى فيكون معناه العلو، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ فقال: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾، وقال: ﴿إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: علوتم عليه، ومنه قوله تعالى فيما وصف به نفسه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ أي: علا عليه ـ عز وجل ـ العلو الخاص بالعرش، وهذا غير العلو المطلق على جميع المخلوقات، وتارة يتعدى بإلى، ويقال: استوى إلى كذا، فيفسر بأنه القصد والانتهاء، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ وتارة يقيد بالواو فيكون معناه التساوي مثل قولهم: استوى الماء والخشبة، أي ساواه، فقوله هنا: ﴿فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾ يحتمل أن

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين (رقم ٣٢٣٢) و(رقم ٣٢٣٥) ومسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ (رقم ١٧٧) (٢٩٠).

المعنى استوى على؛ لأن جبريل ينزل من السماء، فيلقي الوحي على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم يصعد إلى السماء، ويحتمل معناه كمل، ويكون كامل القوة، والهيئة، وكامل من كل وجه مما يليق بالمخلوقات، ﴿وَهُوَ﴾، أي جبريل عليه الصلاة والسلام﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ أي: الأرفع، وهو أفق السماء، ﴿ثُمَّ دَنَا﴾أي من النبي ﷺ، ﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ أي: قرب من فوق، ﴿فَكَانَ﴾ أي: جبريل من النبي ﷺ ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾، وهذا مثل يضرب للقرب، ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ يعني قريباً جداً، بل أدنى، فقوله ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ بمعنى بل، أي بل هو أدنى من ذلك، ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ أي: جبريل ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ أي: إلى عبدالله، فالضمير في ﴿أَوْحَىٰ﴾ يعود على جبريل والضمير في ﴿عَبْدِهِۦ﴾ يعود إلى الله عز وجل، أي: أوحى جبريل إلى عبدالله ما أوحى، ولم يبين ما أوحى به تعظيماً له، لأن الإبهام يأتي مراداً به التفخيم والتعظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: غشيهم شيء عظيم، وهنا أوحى إلى عبده ما أوحى أي من الشيء العظيم، ولا كلام أعظم من القرآن الكريم؛ لأنه كلام الله ـ عز وجل ـ.

ثم قال الله تبارك وتعالى في قصة المعراج: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ اعلم أيها الأخ المسلم أن للنبي ﷺ إسراءً ومعراجاً، فالإسراء ذكره الله في سورة الإسراء. والمعراج ذكره الله في سورة النجم وكلاهما في ليلة واحدة قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين، أو سنة ونصف، اختلف المؤرخون في هذا، ثم إن الإسراء والمعراج كان ببدن الرسول ﷺ وروحه، وليس بروحه

فقط، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ فالمراد بها رؤية العين، لا رؤية المنام، يقول الله تعالى في سياق الآيات في المعراج: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ الفؤاد القلب، والمعنى أن ما رآه النبي ﷺ بعينه فإنه رآه بقلبه وتيقنه وعلمه، وذلك أن العين قد ترى شيئاً فيكذبها القلب، وقد يرى القلب شيئاً فتكذبه العين، فمثلاً قد يرى الإنسان شبحاً بعينه فيظنه فلاناً ابن فلان، ولكن القلب يأبى هذا، لأنه يعلم أن فلاناً ابن فلان لم يكن في هذا المكان، فهنا العين رأت، والقلب كذَّب، أو بالعكس، قد يتخيل الإنسان الشيء بقلبه ولكن العين تكذبه، أما ما رآه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليلة المعراج فإنه رآه حقًّا ببصره وبصيرته، ولهذا قال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ بل تطابق القلب مع رؤية العين، فلم يكن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كاذباً فما رآه من الآيات العظيمة في تلك الليلة بل هو صادق، ولكن المشركين كذبوه، وقالوا: كيف يمكن أن يصل إلى بيت المقدس ويعرج إلى السماء في ليلة واحدة، ولهذا قال: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ والاستفهام هنا للإنكار والتعجب، ومعنى تمارونه أي: تجادلونه بقصد الغلبة، لهذا عداها بعلى دون(في)، فلم يقل: (أفتمارونه في ما يرى) بل قال ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾، إشارة إلى أن الفعل ضمن معنى المغالبة، أي أفتجادلونه تريدون أن تغلبوه على ما يرى، أي: على شيء رآه، ولكنه عبر عن الماضي بالمضارع إشارة إلى استحضار هذا الشيء، وأنه عليه الصلاة والسلام حين أخبر به كأنما يراه الآن، لأن الإنسان إذا حدث عن ماضي فربما

يقول قائل: لعله نسي فأخطأ، ولكن إذا عبر بالمضارع صار كأنه يتحدث عن شيء هو يشاهده، فالمعنى على ما رأى من قبل، ولكن عبر عمّا رأى من قبل بالمضارع لحكمة بالغة، والحكمة البالغة، حيث تكون تعبيرات القرآن الكريم إذا عبر بخلاف ما يتوقع فلابد أن يكون هناك حكمة تظهر للمتأمل ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ رآه الفاعل محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والمفعول به جبريل، أي رأى محمدٌ جبريلَ ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾، أي: مرة أخرى حين نزل، والمرة الأولى رأى الرسولُ عليه الصلاة والسلام جبريلَ وهو في غار حراء، رآه على خلقته التي كان عليها، رآه وله ستمائة جناح قد سد الأفق، كل الأفق الذي حول الرسول عليه الصلاة والسلام في حراء انسد من أجنحة هذا الملك الكريم، وهذا يدل على عظمته، ولهذا وصفه الله أنه ذو قوة عند ذي العرش مكين، وبأنه ذو مرة أي هيئة حسنة كما سبق في هذه السورة، والمرة الثانية: في السماء فوق السماء، فتارة رآه من تحت السماء من فوق الأرض، وتارة من فوق السماء، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أي مرة أخرى ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾، أي رآه عند السدرة، والسدرة شجرة معروفة في الأرض، لكن السدرة التي في السماء السابعة ليست كصفة السدرة التي في الدنيا، بل نبقها كالقلال، وأوراقها كآذان الفيلة[1]، فهي شجرة عظيمة، وسميت سدرة المنتهى لأنه ينتهي إليها كل صاعد من الأرض، وينتهي إليها كل نازل من عند الله عز

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (١٦٢) ٢٥٩.

وجل[١] ، فهي منتهى من الطرفين: الطرف الأول: ما يصعد من الأرض إلى السماء، ينتهي عند هذه السدرة، وما ينزل من الرب عز وجل ينتهي عند هذه السدرة، ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾، أي: عند هذه السدرة جنة المأوى، إذاً الجنة فوق السماء السابعة، لأنه إذا كانت السدرة فوق السماء السابعة وكانت الجنة عندها لزم أن تكون الجنة فوق السماء السابعة، وهو كذلك، وأعلاها وأوسطها الفردوس، ـ جعلنا الله من أهلها ـ فوقها عرش الرحمن جل وعلا، ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ وعليين مبالغة من العلو، يعني في أعلى الشيء، ﴿ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ يعني المصير، مأوى من جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، يأوون إليها ويخلدون فيها، وأما النار فهي مأوى الكافرين والعياذ بالله، وفي هذا دليل واضح على أن غاية الخلائق الجن والإنس إما إلى الجنة وإما إلى النار، ولا ثالث لهما، فالجن والإنس إما في النار وإما في الجنة، قال السفاريني ـ رحمه الله ـ في عقيدته:

وكل إنسان وكل جِنةٍ ... في دار نارٍ أو نعيم جنة

ويستفاد من قوله ﴿ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ أن القبور ليست هي المأوى والمثوى، لأن القبور ممر ومعبر، إذ إن وراء القبور بعث، ويذكر أن بعض الأعراب في البادية سمع قارئاً يقرأ قول الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ فقال الأعرابي بفطرته وعربيته: «والله ما الزائر بمقيم، وإن وراء ذلك شيئاً»، لأن الزائر يزور ويمشي، والقبور يمكث الناس فيها ما شاءالله أن يمكثوا، ثم

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى (١٧٣) ٢٧٩.

يخرجون منها، قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ فالناس لابد أن يبعثوا، والعبارة التي نسمعها أو نقرأها أحياناً أن الرجل حملوه إلى مثواه الأخير، يعني إلى المقبرة عبارة غير صحيحة، لأن القبور ليست المثوى الأخير، ولو كان قائلها يعتقد معناها لكان لازم ذلك أنه ينكر البعث ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ السدرة هي سدرة المنتهى، لأنه تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ﴾ وأل في مثل هذه العبارة تسمى عند النحويين (ال) للعهد الذكري كقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ ﴿مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾، أبهم الله ذلك للتفخيم والتعظيم، يعني غشيها شيء عظيم بأمر الله عزوجل بلحظة، كن فيكون، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إنه غشيها من الحسن والبهاء ما لايستطيع أحد أن يصفها[1]، ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ البصر بصر النبي ﷺ، يقول العلماء: ﴿زَاغَ﴾ أي انحرف يميناً وشمالاً، ﴿وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ أي: تجاوز أمامه، فالرسول ﷺ كان على كمال الأدب في هذا المقام العظيم، لم يلتفت يميناً وشمالاً، ولم يتقدم بصره أكثر مما أذن له فيه، وهذا من كمال أدبه عليه الصلاة والسلام، وجرت العادة أن الإنسان إذا دخل منزلاً غريباً تجده ينظر يميناً وشمالاً في هذا المنزل، وخصوصاً إذا تغير تغيراً عظيماً في هذه اللحظة، لابد أن ينظر ما الذي حدث، لكن لكمال أدب النبي ﷺ ورباطة جأشه صلوات الله وسلامه عليه وتحمله ما لا

(١) انظر تفسير الدر المنثور (٧/ ٦٤٣ - ٦٥٢).

يتحمله بشر سواه صار في هذا الأدب العظيم، ولهذا قال تعالى عنه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ وأنت أخي المسلم القارىء للقرآن يمر بك مثل هذا التعبير دائماً ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ ﴾، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ والأمثلة كثيرة، هذه الجملة يقول العلماء: إنها مؤكدة بأنواع ثلاثة من المؤكدات: الأول: قسم مقدر، والثاني: اللام. والثالث: قد، لأن المعنى: (والله لقد) فتكون جملة مؤكدة بالقسم واللام، وقد، والقسم مقدر لكن دل عليه السياق، ورأى يعني النبي ﷺ ﴿ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾، الآية هي العلامة المخصصة لمدلولها التي لا يشركه فيها أحد، وإلا لم تكن آية، فالآية لابد أن تكون خاصة بمدلوها، فليس كل علامة آية، بل هي التي تختص بمدلولها، فهذا الذي رآه النبي عليه الصلاة والسلام من آيات الله كبير عظيم، وقوله ﴿ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ قيل: إنها مفعول ثان لرأى، أي: لقد رأى من آيات ربه الكبرى، وقيل: إن الكبرى صفة لآياته، والمعنى أنه رأى من آيات الله الكبيرة، والثاني أصح وأقرب، يعني أنه رأى من الآيات الكبرى ما رأى، وليس ما رآه أكبر شيء، بل قد يكون هناك شيء أكبر لا نعلمه، والحاصل أن الرسول ﷺ رأى في هذا المعراج من آيات الله الكبير ما لم يكن يره من قبل، وما لا يستطيع الصبر عليه أحد من البشر، ونحن لو رأينا سرادقاً عظيماً لملك من الملوك لانبهرنا وتعجبنا، وجعلنا نلتفت يميناً وشمالاً، لكن الرسول عليه

الصلاة والسلام لم يتغير عقله ولا اتزانه، بل كان على أكمل ما يكون الاتزان، وإلا فقد أسري به من المسجد الحرام من الحجر عند الكعبة ـ والحجر من الكعبة ـ أسري به من ذلك المكان إلى بيت المقدس مسيرة شهرين، في لحظة لأنه ركب البراق، والبراق دابة عظيمة قوية سريعة، خطوته مد بصره، وسريع جداً وصل إلى هناك وصلى بالأنبياء، ثم عُرج به إلى السماء، والسماء بعيدة جداً، ثم من سماء إلى سماء وتتلقاه الملائكة تسأل جبريل: من معك؟ فيقول: محمد، فيسألونه هل أرسله إلى الناس؟ فيقول: نعم، ثم يسلم على بعض من في السموات من أنبياء، ثم تفرض عليه الصلاة ويتردد بين الله عز وجل وموسى كل هذا وهو ثابت الجأش عليه الصلاة والسلام، وهذا شيء حقيقي هو بنفسه عليه الصلاة والسلام صعد، ولهذا لما جاء وحدث الناس من الغد أنكرته قريش، لأنها تنكر ما لا يمكن في عقلها، وإنكار ما لا يمكن في العقل ليس خاصًّا بكفار قريش حتى فيمن ينتسب إلى هذه الأمة أنكروا من صفات الله ما أثبته الله لنفسه، لأنه على زعمهم لا يمكن في العقل، فقريش أنكرت هذا المعراج: ولو كان مناماً لم تنكره قريش، لأن المنامات يكون فيها مثل هذا، لكنه أمر حسي حقيقي أسري بالرسول عليه الصلاة والسلام بجسده وعُرج به في ليلة واحدة، وحصلت كل هذه الأمور ثم عاد إلى الأرض وصلى الفجر في مكة عليه الصلاة والسلام. ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾، وفي هذا إشارة إلى أن آيات الله ـ عز وجل ـ منها الكبير ومنها ما دون ذلك، ولا نقول: منها الصغير. لأن الكبرى

اسم تفضيل. وغلط من قال من المفسرين المتأخرين: إن الكبرى اسم فاعل، بل هي اسم تفضيل، لأن آيات الله ـ عز وجل ـ إما كبيرة، وإما كبرى عظمى، فالمعراج الذي حصل لا شك أنه من الآيات الكبرى العظيمة.

ولما بين الله سبحانه وتعالى ما رآه النبي ﷺ من آيات ربه العظيمة في الآفاق، قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ وهذا الاستفهام للتحقير وانحطاط رتبة هذه الأصنام التي ذكرها الله ـ عز وجل ـ يعني أخبروني بعد أن سمعتم من آيات الله الكبرى ما سمعتم، أخبروني عن شأن هذه الأصنام وما قيمتها، وما مرتبتها، وما عزتها ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ هذه ثلاثة أصنام مشهورة عند العرب يعبدونها من دون الله، ويخضعون لها كما يخضعون لله، ويتقربون إليها كما يتقربون لله ـ عز وجل ـ، ومع ذلك هم يعتقدون أنها لا تنفعهم عند الشدة، فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، وعلموا أنه لا منجي من هذه الشدة إلا رب العالمين، لكن الشيطان سوَّل لهم وأملى لهم في عبادة هذه الأصنام التي يدعون أنها تقربهم من الله تعالى، كما قال الله عنهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ ولكن في الحقيقة لا تقربهم إلى الله بل تبعدهم منه، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ الثالثة بالنسبة لاثنتين قبلها ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ يعني المتأخرة وكأنها ـ والله أعلم ـ دون اللات والعزى في المرتبة عند العرب، ثم قال تعالى منكراً على هؤلاء المشركين ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ يعني أتجعلون لكم الذكور،

ولله الإناث، وذلك بقولهم إن الملائكة بنات الله، وهم لم يشهدوا خلق الملائكة، ولم يطلعوا على ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ والجواب: لا، لم يشهدوا خلقهم، ولكن مع ذلك ستكتب هذه الشهادة عليهم ويسألون، نسأل الله العافية، وهم ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾، ومع ذلك يجعلون لرب العالمين الذي خلق الذكر والأنثى البنات، ويجعلون لأنفسهم البنين، وهذه القسمة قسمة جور، ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾، يعني تلك القسمة، وهي أن يجعل لله البنات ولهم البنين ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ أي: جائرة مائلة عن الحق، لأننا لو قلنا بأنه جائز أن يكون لله ولد لكان الأولى أن يكون له البنون، لأن البنين أعلى من البنات بلا شك، وهو سبحانه وتعالى أعلى من المخلوقين، فيجب أن يكون الأعلى للأعلى، والأدنى للأدنى، هذه القسمة العادلة، ثم هناك قسمة أخرى دونها في العدل، ولكن فيها عدل أن يجعلوا لله البنات ولهم بنات، ولله البنين، ولهم بنين لكن ما فعلوا هذا، جعلوا الأدنى للخالق، والأعلى لهم، ولهذا قال عز وجل: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ ثم عاد الله ـ عز وجل ـ إلى بيان حقيقة هذه الأصنام المعبودة، فقال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ ﴿إِنْ﴾ هنا نافية بمعنى ما، وهذا ضابط ينتفع به طالب العلم أنه إذا أتت (إلا) مثبته بعد (أن) فإن (إن) هنا تكون نافية مثل: إن هذا إلا بشر، إن هذا إلا مجتهد، وما أشبه ذلك فـ(إن) هنا نافية بمعنى، ما هي إلا أسماء سميتموها، يعني ما

هذه الأصنام إلا مجردأسماء لا حقيقة لها، سموها إلهاً معبوداً، ولكنه لا حقيقة لذلك، ما هي إلا مجرد أسماء، والاسم لا يدل على مسماه، فلو أنك سميت الحديد خشباً، ما صار خشباً، ولو سميت الخشب حديداً، ما صار حديداً، ولو سميت البغل حماراً، لم يكن حماراً، وهكذا هذه الأصنام يسمونها آلهة، ولا تكون إلهاً، بل مجرد اسم، والاسم بلا مسمى لا فائدة منه، ولهذا قال ﴿إِنْ هِيَ﴾، أي: ما هذه الأصنام والمسميات ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾، المخاطبون هم الذين أدركوا البعثة. وآباؤكم يعني الأجداد السابقين مجرد أسماء ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ (ما) نافية، والمعنى أن الله ـ عز وجل ـ لم ينزل بها دليلاً، وسمي الدليل سلطاناً لأن صاحب الدليل معه سلطة يعلو بها على خصمه، ومن ليس له دليل ليس له سلطان، فالسلطان يأتي دائماً بمعنى الحجة أي الدليل، لأن من معه الدليل ذو سلطة على خصمه ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾. (إن) نافية بمعنى (ما) ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ أي: هؤلاء وآباؤهم ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، أي: الوهم الذي لا حقيقة له، لأنهم يقولون هذه آلهة، واعتمدوا في ذلك على الوهم، فالظن هنا بمعنى الوهم، يعني ما يتبع هؤلاء بقولهم إنها آلهة إلا الظن، أي الوهم الخيال الذي لا حقيقة له، ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ﴾، يعني وما تميل إليه نفوسهم من الباطل، ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ الجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المحذوف، واللام، وقد، وتقديره: والله لقد جاءهم من ربهم الهدى، فيؤكد الله هنا أنه قد جاءهم من ربهم

الهدى، وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمُ﴾ ولم يقل: من الله. إشارة إلى أنه لا يجوز تلقي الشريعة إلا من عند الله، لأن الله سبحانه وتعالى هو الرب، والرب هو الخالق المالك المدبر ﴿ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾، فاعل والمراد به العلم المقابل بقوله ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ فهم يتبعون الظن، والعلم جاء من عند الله، ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ أي: العلم على لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام، الذين خُتموا بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ (أم) هنا منقطعة؛ لأنها تأتي منقطعة وتأتي متصلة، فإذا كان هناك مقابل فهي متصلة، وإذا لم يكن مقابل فهي منقطعة، فإذا قلت: أعندك زيد أم عمرو؟ فهي متصلة، وإذا قلت في مثل هذه الآية ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ فهي بمعنى بل، وهمزة استفهام، يعني بل أللإنسان ما تمنى، والاستفهام هنا للإنكار والنفي، أي ليس للإنسان ما تمنى، كم يتمنى الإنسان من شيء ولكن لا يحصل، لأن هناك مدبراً، وهو الله ـ عز وجل ـ فليس للإنسان ما تمنى، وفي هذا إشارة إلى رد صنيع هؤلاء المشركين الذين يعبدون الأصنام، ويقولون: إنها تقربهم إلى الله، وليس لهم ذلك، وأيضاً رد لقولهم: إن لله البنات ولهم البنين، وليس لهم ذلك، وهم وإن تمنوا ذلك وصار في مخيلتهم فإنه لا يحصل، وليس للإنسان ما تمنى، كثيراً ما يتمنى الإنسان شيئاً ولكن لا يحصل، كثيراً ما يتمنى الشيء ويسعى في أسبابه ولكن لا يحصل، لأن الأمر بيد الله ـ جل وعلا ـ ولهذا قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ وبدأ بالآخرة، لأن ملك الله ـ عز وجل ـ في الآخرة يظهر أكثر مما في الدنيا،

فالدنيا فيها ملوك، وفيها رؤساء، وفيها زعماء، يرى العامة أن لهم تدبيراً، لكن في الآخرة لا يوجد هذا ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ قال الله ـ عز وجل ـ ﴿۞وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ كم تكثيرية لأنها تأتي تكثيرية، وتأتي استفهامية، فإذا قلت: كم مالك؟ فهي استفهامية، وهنا ﴿۞وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني كثير من الملائكة في السماوات لا تغني شفاعتهم وهنا نقول: كم من ملك وما أكرم الملائكة، كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لا في الأرض، والسماوات أعلى من الأرض وإذا كان هؤلاء الملائكة الكرام الذين مقرهم السماوات ـ إلا من أذن له ينزل الأرض ـ إذا كانت شفاعتهم لا تنفع، فهل يمكن أن تنفع شفاعة اللات والعزى ومناة؟ الجواب: لا، كأن الله تعالى يقول لهؤلاء: ما أصنامكم هذه التي تشفعون بها إلى الله، كم من ملك وهو أشرف من هذه الأصنام في السماوات وهي أشرف من الأرض، لا تغني شفاعتهم شيئاً لو شفع إلا بثلاثة شروط: الأول: أن يأذن الله لمن يشاء من الملائكة بأن يشفع فيشفع، الثاني: أن يرضى عن المشفوع له، الثالث: يرضى عن الشافع لأنه لا يمكن أن يأذن للشافع إلا بعد أن يرضى عنه، ولابد أن يرضى عن المشفوع له وإلا فلا تنفع الشفاعة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فأصنامكم هذه لن تنفع ولن يقبل الله شفاعتها، فشروط الشفاعة ثلاثة: الأول: رضى الله عن الشافع

بأن يكون أهلاً للشفاعة لكونه من المقربين لله ـ عز وجل ـ والثاني: أن يرضى عن المشفوع له، بأن يكون أهلاً لأن يشفع له، أما الكافر فما تنفعهم شفاعة الشافعين. الثالث: الإذن لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ وقوله تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ وهذا فيه تيئيس هؤلاء المشركين من شفاعة آلهتهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ أكد الله هذا الخبر بمؤكدين هما القسم المقدر واللام: ومعنى ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: لا يصدقون بها ولا بما فيها من الثواب والعقاب، إذ إن الإيمان بالآخرة لابد أن يكون إيماناً بأن هذا اليوم سيكون، وإيماناً بكل ما ثبت من حصوله ووقعه فيه، إما في القرآن وإما في السنة، حتى إن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ قال: إن مما يدخل في الإيمان بالله واليوم الآخر الإيمان بما يكون بعد الموت من فتنة القبر، وعذاب القبر، ونعيم القبر، وصدق رحمه الله، لأن الإنسان إذا مات قامت قيامته، وانتهى من الدنيا كأن لم يكن، فكما أنه أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، فسيأتي عليه حين من الدهر لم يكن إلا خبراً من الأخبار، كما قال الشاعر الحكيم:

في الدنيا بين يرى الإنسان فيه مخبراً
حتى يرى خبراً من الأخبار

فأنت الآن تخبر تقول: حصل كذا وحصل كذا، وقال فلان كذا وفي يوم من الأيام. سوف يخبر عنك، قال فلان كذا وأنت

رميم، فالإيمان باليوم الآخر يتضمن ثلاثة أمور: الأول: الإيمان بوقوع اليوم الآخر أنه لابد كائن. الثاني: الإيمان بما سيكون في هذا اليوم من: أهوال، وحساب، وموازين، وصراط، وجنة، ونار لابد من هذا، الثالث: الإيمان باليوم الآخر الإيمان بما يكون في القبر من فتنة القبر، سؤال الملكين الميت عن ثلاثة أشياء: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ هل أحد من الناس لا يؤمن بالآخرة؟ نعم كثير من الناس، أكثر الناس لا يؤمنون بالآخرة، حتى إن الله سبحانه وتعالى قال في الإنسان: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ يعجزنا فيه ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ ما أحسن قوله: ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ قبل أن يقول مقالة هذا الإنسان، يعني هذا الإنسان قال: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾، ما هو خلقه؟ إنه لم يكن شيئاً، خلق من ماء دافق، فصار عظاماً وعصباً ولحماً، وصار إنساناً ينطق ويخاصم ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ وذكر الأدلة على إمكان ذلك[1]، فمن الناس من ينكر اليوم الآخر، ويقول: لا بعث. وهذا من سفهه في عقله وضلاله في دينه، وإلا فهل من الحكمة أن تخلق هذه الخليقة وتبتلى بالأمر والنهي، ويحصل الجهاد وقتال الأعداء، واستحلال دمائهم وأموالهم، ونسائهم ثم يكون نتيجة هذا لا شيء، هذا لا يمكن، وتأباه الحكمة، إذاً

(١) انظر تفصيل ذلك في تفسير فضيلة الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ لسورة يس.

الذين لا يؤمنون بالآخرة، سفهاء عقولاً، ضلال ديناً ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ يعني يجعلون الملائكة إناثاً كالمشركين، قالوا: الملائكة بنات الله، فسموا الملائكة تسمية الأنثى، وهي البنت، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، ولو آمنوا بالعقاب ما قالوا هذا، لكنهم لا يؤمنون، فيقولون ما يريدون، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ نفى أن يكون لهم بذلك علم، لأن هذا هو الواقع: هل شهدوا خلق الملائكة؟ ولهذا قال الله في آية أخرى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ﴾ والجواب: لا، لكن ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ حين لا يجدون جواباً فهؤلاء الذين قالوا: الملائكة بنات الله، يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ وعلم هنا مجرورة بحرف الجر وحرف الجر، هنا عند المعربين، حرف جر زائد، الفائدة منه توكيد النفي، ولهذا هنا قاعدة مفيدة: جميع الحروف الزائدة يقصد بها التوكيد، وهي من أدوات التوكيد.

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني لا قليل ولا كثير، لأنهم لم يشهدوا خلقهم ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، ﴿إِن﴾ هنا بمعنى ما، والضابط أنه إذا جاءت ﴿إِلَّا﴾ بعد ﴿إِن﴾ فهي بمعنى ما، ﴿إن هذا إلا بشر﴾ أي: ما هذا إلا بشر ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ أي: ما هذا إلا ملك كريم ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: ما أنتم إلا بشر مثلنا: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما هم إلا يظنون، والأمثلة على هذا كثيرة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ يعني ما يتبعون إلا الظن، والمراد بالظن هنا الوهم الكاذب، وليس المراد بالظن هنا الراجح من أحد

الاحتمالين، وانتبه لهذا فالظن يأتي بمعنى التهمة، ويأتي بمعنى رجحان الشيء، ويأتي بمعنى اليقين. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ والمراد: اليقين ولا يكفي الظن في اليوم الآخر، بل لابد تيقن، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إذا شك أحدكم في صلاته فليتحر الصواب**[1]» والتحري هنا يعني هو الظن الغالب.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ظن الاتهام يعني يظنون ظنًّا، هو وهم، ليس له أصل، وبعض العلماء أخذ من هذه الآية أنه لا يجوز العمل بالظن في المسائل الفقهية وغيرها، وهذا خطأ، لأن كثيراً من المسائل الفقهية ظنية: إما لخفاء الدليل، أو خفاء الدلالة: ليس كل مسألة في الفقه يقول بها الإنسان على سبيل اليقين أبداً، بل بعضها يقين وبعضها ظن، والظن إذا تعذر اليقين مما أحل الله، ومن نعمة الله أنه إذا تعذر اليقين رجعنا إلى غلبة الظن، فليس كل ظن منكراً، لكن الظن الذي ليس له أصل يبنى عليه منكر. فهؤلاء الذين سموا الملائكة تسمية الأنثى لا علم لهم بذلك بل هو ظن مبني على وهم، وربما يكون مبنياً على أهواء، يعني لم يطرأ على بالهم أنهم إناث، ولكن تبعوا آباءهم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ أي: هذا الظن المبني على الوهم لا على القرائن لا يغني من الحق شيئاً، أي لا يفيد شيئاً من الحق، لأنه وهم باطل، والوهم الباطل لا يمكن أن يفيد، ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان (٤٠١) ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له (٥٧٢).

مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ﴾ ﴿فَأَعْرِضْ﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أو المراد به كل من يصح أن يوجه إليه الخطاب، فعلى الأول يكون المعنى: أعرض يا محمد، وعلى الثاني يكون: أعرض أيها الإنسان المؤمن ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ يعني أعرض عنه لا تتبعه ولا يهمنك أمره، وليس المعنى: أعرض عنه لا تنصحه. لأن التذكير واجب، قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ يعني ذكر كل أحد، فمن الناس من ينتفع، ومنهم لا ينتفع، والذي ينتفع هو المؤمن، فعلى هذا نقول معنى أعرض يعني لا تبالي به ولا يهمنك أمره، ولا تستحسر من أجل توليه، بل ادع إلى سبيل الله ـ عز وجل ـ أيا كان، لكن من أعرض وتولى لا يهمك أمره، ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ هو القرآن، ويحتمل أن يكون الذكر بمعنى التذكير، أي عن تذكيرنا، وكلا المعنيين متلازمان صحيحان. لأن القرآن ذكر كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ أو المعنى ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: عن تذكيرنا بالمواعظ التي ينزلها الله ـ عز وجل ـ ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ يعني لا يريد الآخرة ولا يهتم بها، بل همه الدنيا ما المركوب؟ وما الملبوس؟ وما المسكن؟ فلا يهتم بالآخرة، وأهم شيء عنده الدنيا، أما ذكر الله القرآن، أو تذكير الله فإنه متول عنه ـ والعياذ بالله ـ نسأل الله السلامة والعافية، والحياة الدنيا وصفها بالدنيا من الدنو وهو القرب، وذلك لانحطاط مرتبتها، ولسبقها على الآخرة، لأن الدار الدنيا هي أول دار ينزلها الإنسان، وهي سابقة

في الزمن على الآخرة، فهي دنيا قريبة، وهي أيضاً دنيا من حيث المرتبة، ليست بشيء بالنسبة للآخرة، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام فيما صح عنه: «**لموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها**[1]» فليست خيراً من الدنيا التي أنت فيها فقط؛ بل من الدنيا منذ أن خلقها الله إلى أن تفنى، موضع السوط الذي يكون بقدر المتر في الجنة خير من الدنيا وما فيها، إذاً هي دنيا حقيقة، ولهذا إذا مات الإنسان وهو مؤمن ـ جعلنا الله منهم ـ ثم حمل من بيته الذي يسكنه ويأوي إليه، وفيه أهله وماله وحشمه، إذا خرج تقول روحه: قدموني قدموني، لأن ما ستذهب إليه خير مما تخرج منه، قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ لكن لمن؟ ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ لكنها شر لمن لم يتق، ويذكر أن ابن حجر ـ رحمه الله ـ وكان رئيس القضاء في مصر، مر يوماً من الأيام في موكبه على العربة تجرها البغال، وحوله الجنود برجل يهودي زيَّات يبيع الزيت، قد تدنست ثيابه بالزيت، وشقي في طلب المعيشة فأوقفه اليهودي وقال لابن حَجَر: إن نبيكم يزعم أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر! فكيف يتفق هذا الحديث مع الواقع، أنت الآن مؤمن وهو يهودي فأيهما الشقي؟ قال: نعم ما أنا فيه الآن بالنسبة للآخرة سجن، لأن الآخرة خير لمن اتقى، وما أنت فيه بالنسبة للآخرة جنة، لأن الآخرة ليس لك فيها إلا النار وبئس القرار، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فانظر كيف فتح الله عليه

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٨٩٢).

حيث ظهر صدق كلام الرسول عليه الصلاة والسلام بكل سهولة، فالآخرة خير من الدنيا وما فيها، ولهذا ذم الله تعالى الذي أعرض عن ذكر الله، ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ ومن أراد الحياة الدنيا لن تحصل له قطعاً، قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ أي: ما يشاء الله، لا ما يشاء هو ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾. وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ لأنه يعطى الدنيا والآخرة ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي بعضها وليس كلها ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ والمشار إليه كونهم متولين معرضين، لا يريدون إلا الحياة الدنيا، يعني ذلك منتهى بلوغ علمهم، لأن علمهم قاصر، لا ينظرون إلى المستقبل، ولا يصدقون بخبر، فتجد أكبر همهم أن يصلحوا حالهم في الدنيا معرضين عن حالهم في الآخرة، وفي الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا»(١)، ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ هو أعلم ـ عز وجل ـ بمن ضل عن سبيله فعلاً، ومن سيضل، لأنه عالم بما كان وبما يكون، فقوله: ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ لا تعني أنه لا يعلم إلا من حصل منه الضلال بالفعل بل هو يعلم من حصل منه الضلال

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب رقم ٧٩ (رقم ٣٥٠٢) وقال: هذا حديث حسن غريب.

بالفعل، ومن سيحصل منه، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ موصوف بالعلم التام في الحاضر والمستقبل والماضي، وقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ ضد الضلال، فالناس بين فئتين: إما مهتدٍ وإما ضال، وإنما بيَّن الله سبحانه وتعالى أنه أعلم بمن ضل عن سبيله، وبمن اهتدى؛ لفائدتين:

الفائدة الأولى: أن نعلم أن ما وقع من الضلال والهداية فهو صادر عن علم الله وبإرادته، إذ لا يمكن أن يوجد في خلقه خلاف معلومه، ولو قدر أن يوجد في خلقه خلاف معلومه لكان الله جاهلاً ـ وحاشاه من ذلك ـ.

الفائدة الثانية: التحذير من الضلال، والترغيب في الاهتداء، مادام الإنسان يعلم أن أي عمل صدر منه فعلمه عند الله، فإنه سوف يخشى أن يعصي الله، وسوف يسعى أن يرضي الله ـ عز وجل ـ.

كأنه يقول: إن ضللت فالله أعلم بك، وإن اهتديت فالله أعلم بك، فيجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يقول علماء البلاغة: إنه إذا تقدم شيء حقه التأخير فهو دليل على الحصر والتخصيص، فلننظر في هذه الآية هل فيه تأخير وتقديم: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (لله) خبر مقدم (وما في السموات) مبتدأ مؤخر، إذاً قدم فيها ما حقه التأخير وهو الخبر؛ لأن حق الخبر أن يكون متأخراً عن المبتدأ. تقول: الرجل قائم ولا تقول: قائم الرجل،

فالأصل أن المبتدأ على اسمه يكون هو الأول والخبر هو الثاني، لكن أحياناً يقدم الخبر لفائدة، فهنا الفائدة: الحصر يعني: لله لا لغيره ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولا أحد يملك ما في السماوات ولا ما في الأرض إلا الله تبارك وتعالى، ونحن نملك ما نملك من أموالنا ولكن ملكنا ليس عاماً، فملكي ليس ملكاً لك، وملكك ليس ملكاً لي، فأملاكنا ليست عامة، ثم نحن لا نملك التصرف بما هو ملكنا كما نشاء، فتصرفنا محدود حسب الشريعة، ولهذا لو تراضى اثنان في بيع الربا قلنا: لا تملكان ذلك، ولو أراد الإنسان أن يحرق ماله قلنا: هذا ممنوع، فملك غير الله قاصر، وغير شامل، والملك التام الواسع الشامل لله ـ عز وجل ـ ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فهو مالك لذواتهما، ومالك لما فيهما أيضاً، وكم من ملك في السماوات، وكم من مخلوق في الأرض كله ملك لله ـ عز وجل ـ يتصرف فيه كما يشاء حسب ما تقتضيه حكمته، وإيماننا بأن لله ملك السماوات والأرض يفيد فائدتين عظيمتين:

الفائدة الأولى: الرضى بقضاء الله، وأن الله عز وجل لو قضى عليك مرضاً فلا تعترض، ولو قضى عليك فقراً فلا تعترض، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء، فهو كما يتصرف في السحاب يمطر أو لا يمطر، يمضي أو لا يمضي، ويتصرف في الشمس والقمر، ويتصرف في المخلوقات، يتصرف فيك أيضاً كما يشاء، إن شاء أعطاك صحة، وإن شاء سلبها، إن شاء أعطاك عقلاً، وإن شاء سلبك، إن شاء أعطاك مالاً، وإن شاء سلبك، أنت ملكه، فإذا آمنت بهذا رضيت بقضائه.

الفائدة الثانية: الرضا بشرعه وقبول شرعه والقيام به، لأنك ملكه، إذا قال لك: افعل. فافعل، وإذا قال: لا تفعل. فلا تفعل، أرأيت لو كان لك عبد رقيق فأمرته، ولكنه لم يفعل، أو نهيته ففعل، فالسيادة ناقصة، إذاً أنت إذا عصيت ربك: إما بفعل محرم وإما بترك واجب، فإنك خرجت عن مقتضى العبودية التامة؛ لأن مقتضى العبودية التامة أن تخضع لشرعه، كما أنك خاضع كرهاً أو طائعاً لقضائه وقدره، فانتبه ليس معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أن يخبرنا أنه مالك فقط، لكن لأجل أن نعتقد مقتضى هذا الملك، وهو الرضا بقضائه، والرضا بشرعه، هذه حقيقة الملك. ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ جاءت كلمة ﴿لِيَجْزِيَ﴾ كأن قائلاً يقول: وإذا تبين أن الملك لله ـ عز وجل ـ فما النتيجة؟ النتيجة أن الناس بين محسن وبين مسيء كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ وإذا كانوا بين محسن ومسيء فما جزاء كل واحد ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ الذين أساءوا هم الذين خالفوا المأمور أو ارتكبوا المحظور، هؤلاء الذين أساءوا ليجزيهم بما عملوا، السيئة بالسيئة لا تزيد، أو يعفو ـ عز وجل ـ عمن يستحق العفو، وهو كل من مات على غير الشرك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فلا يمكن أن يزيد سيئة لم يعملها الإنسان، ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾. بدون زيادة ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ ولم يقل: بما عملوا، لأن فضل الله أوسع من أعمالنا، يجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فأنت إذا فعلت حسنة

فتكون عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ونضرب مثلاً قريباً، الصلاة المفروضة عندما تتوضأ وتسبغ الوضوء ثم تخرج إلى الصلاة لا يخرجك من بيتك إلا الصلاة فما الثمرات التي تحصل عليها؟ كل خطوة تخطوها يرفع الله لك بها درجة، ويحط عنك بها خطيئة، فخطواتك لا يحصيها إلا الله عز وجل، مع أن المقصود شيء واحد وهو الصلاة، لكن سعيك إلى الصلاة فيه أجر مادمت خرجت من بيتك لا يخرجك إلا الصلاة، وتأهبت في بيتك، أسبغت الوضوء في بيتك، فأنت لا تخطو خطوة إلا رفع الله لك بها درجة، وحط عنك بها خطيئة، والخطوات لا يحصيها إلا الله، ثم إذا وصلت المسجد وصليت ما شاء الله، ثم انتظرت الصلاة ولو تأخر مجيء الإمام لصلاة الجماعة يكتب لك أجر المصلي، «**لا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة**»[1] ، وهذا أحسن من أعمالنا ولهذا قال: ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ أي بما هو أحسن وأكثر من عملهم، وهذا يدلك على سعة فضل الله ـ عز وجل ـ وإحسانه وكمال عدله. فالمسيئون يجازيهم بالعدل أو يعفو، والمحسنون يجازيهم بالفضل ثم ذكر شيئاً من أوصافهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ أي: يبتعدون عنه، وسمي الابتعاد اجتناباً؛ لأن الإنسان في جانب، والذي أبعد عنه في جانب آخر، فيبعدون، ولا يتصلون بكبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في القعود في المسجد وانتظار الصلاة من الفضل (رقم ٣٣٠) وقال: حديث حسن صحيح.

كبائر جمع كبيرة، والكبيرة بعض العلماء عدها، وبعض العلماء حدها، والصواب الحد، أي أنها محدودة وليست معدودة، والذين ذكروا عدداً الظاهر ـ والله أعلم ـ أنهم أرادوا المثال، فمثلاً إذا قال الإنسان: هي الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، هذه سبع، إذا قال الإنسان هذه هي الكبائر ليس معنى قوله إنها محصورة في هذا، إذ من الممكن أن يحمل كلامه أن ذلك على سبيل التمثيل فقط، أما الذين حدوها يعني جعلوا له ضابطاً. فقالوا في ضابطها: (كل ذنب رتب الله عليه لعنة، أو غضباً، أو سخطاً، أو تبرأ منه، أو ما أشبه ذلك فهو كبيرة)، ورأيت لبعضهم ومنهم شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أنه قال: (كل ذنب جعلت له عقوبة خاصة إما في الدنيا، أو في الآخرة فهو كبيرة)، فالزنا كبيرة، لأن فيه عقوبة وهو الجلد أو الرجم، والسرقة كبيرة، وقطع الطرق كبيرة، وعقوق الوالدين كبيرة، وهلم جرا، فكلما رأيت شيئاً من الذنوب جعل الشارع له عقوبة خاصة فهو كبيرة، أما الذنب الذي نهى عنه فقط فهو صغيرة: كنظر الرجل للمرأة الأجنبية للشهوة، هذا ليس كبيرة هو صغيرة من الصغائر، لكن إن أصر الإنسان عليه وصار هذا ديدنه، صار كبيرة بالإصرار لا بالفعل. ومكالمة المرأة الأجنبية على وجه التلذذ حرام وليس بكبيرة، ولكن إذا أصر الإنسان عليه وصار ليس له هم إلا أن يشغل الهاتف على هؤلاء النساء ويتحدث إليهن صار كبيرة، فالإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة من حيث

الإصرار، لأن إصراره على الصغيرة يدل على تهاونه بالله ـ عز وجل ـ، وأنه غير مبال بما حرم الله، وقوله: ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي: كبائر الكبائر، لأن الكبائر منه ما هو فاحش يستفحش ويستعظم ويستقبح بشدة، ومنها ما هو دون ذلك، فمثلاً الزنا فاحشة ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ واللواط فاحشة أعظم من الزنا، لأن الله قال في الزنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ وقال في اللواط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ فأتى بأل الدالة على القبح، وأنها جامعة لكل أنواع الفواحش، ونكاح المحارم فاحشة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ فهو أشد من الزنا، فلو زنا الإنسان بامرأة أجنبية منه، وبأم زوجته مثلاً صار زناه بأم زوجته أعظم وأشد وأشنع، ولهذا كان القول الراجح من أقوال العلماء: أن من زنا بامرأة من محارمه وإن لم يكن محصناً فإنه يرجم، لأن الله فرق بين الزنا وبين نكاح ذوات المحارم فالزنا بذوات المحارم وصفه الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ والزنا وصفه بوصف بواحد وهو: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ وجاءت السنة بالتفريق بين من زنا بامرأة من محارمه أو بامرأة أجنبية، فجعلت حد الأول القتل بكل حال، وإن لم يتزوج وإن لم يكن ثيباً، لأن هذا أعظم والعياذ بالله، إنسان يزني بأمه أو أخته أو أم زوجته، أو بنت زوجته التي دخل بها هذا فاحشة عظيمة، إذاً هم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، والفواحش كبائر الكبائر وأعظم، ونأخذ من هذه الآية الكريمة أن

الكبائر والفواحش تختلف؛ لأن كبائر وصف كل ما كان أعظم صار أشد كبيرة، والفواحش كذلك، وفيما سقناه من الآيات دليل على ذلك: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ففرق الله بينها، مع أنها كلها فواحش، لكن بعضها أعظم من بعض.

قوله: ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ قيل: إنه استثناء متصل. وقيل: إنه استثناء منقطع، لأن اللمم الشيء القليل، فهل المعنى إلا الشيء القليل من الكبائر، أي أنهم يأتون الشيء القليل من الكبائر، أو المعنى إلا الصغائر من الذنوب. إن قلنا بالأول، فالاستثناء متصل، وإن قلنا بالثاني، فالاستثناء منقطع. وتكون بمعنى لكن، والمعنى الثاني أقرب من حيث التقسيم، لأن الله ذكر الكبائر والفواحش والصغائر، وعلى هذا فيكون معنى ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ يعني: أن هؤلاء الذين أحسنوا يأتون الصغائر، والصغائر والحمد لله مكفرة بالحسنات، قال الله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «العمرة إلى العمرة كفارة لما

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان . . . (رقم ٢٣٣) (١٦).

بينهما»[١] ، وعلى هذا فيكون المعنى أن الصغائر تقع مكفرة إما باجتناب الكبائر، أو باجتناب الكبائر مضموماً إليها فعل هذه الحسنات العظيمة: الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، والخلاصة أن الصغائر التي تقع مغفورة للإنسان إذا اجتنب الكبائر، وإذا أحسن في الصلوات الخمس والجمعة ورمضان ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ في هذه الجملة إشارة إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ يعني أن اللمم يقع في سعة مغفرة الله ـ عز وجل ـ فيغفره الله ـ عز وجل ـ والمغفرة هي ستر الذنب مع التجاوز عنه، ولا يكفي ستر الذنب بل لابد من تجاوز، والدليل على هذا أمران: لغوي وسمعي، أما اللغوي فلأن المغفرة مشتقة من المغفر، والمغفر وهو ما يوضع على الرأس عند القتال ويسمى خوذة، ويسمى بيضة، يوضع على الرأس ليتقي السهم. هذا الذي يوضع على الرأس جمع بين أمرين الوقاية والستر، فإذا المغفرة لابد من ستر ووقاية، وأما السمعي فهو أن الله تبارك وتعالى إذا خلا بعبده المؤمن يوم القيامة وقرره بذنوبه وأقر قال: «**قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»[٢] فدل هذا على أن الوقاية من الذنوب وعدم المؤاخذة من المغفرة، نسأل الله تعالى أن يغفر لنا ما تقدم من ذنوبنا وما تأخر.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العمرة، باب وجوب العمرة وفضلها (١٧٧٣) ومسلم، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (١٣٤٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه (٦٠٧٠) ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٨).

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ إشارة إلى أن الصغائر تغفر، وقد ثبت في القرآن الكريم أن الصغائر تغفر باجتناب الكبائر، فقال جل وعلا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾. ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أما إذا قلنا: اللمم القليل من الفواحش والكبائر، فيكون قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ إشارة إلى أن الكبائر إذا تاب الإنسان منها غفر الله له، وكأنها لم تكن، وإن لم يتب منها فهو تحت المشيئة: إن شاء غفر الله له، وإن شاء عاقبه بما يستحق، هذه الكبيرة، وللأسف يوجد قوم من هذه الأمة يقولون: إن الكبيرة لا تغفر، وهم الخوارج والمعتزلة يقولون: إن الإنسان إذا فعل كبيرة خرج من الإيمان، لكن الخوارج يقولون: خارج من الإيمان داخل في الكفر. والمعتزلة يقولون: خارج من الإيمان غير داخل في الكفر بل هو في منزلة بين منزلتين، لكن قولهم باطل، والصواب: أن فاعل الكبيرة داخل تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فلو قال قائل: إذا قلت هذا فتحت الباب على مصراعيه لفعل الكبائر، لأن أي إنسان يفعل كبيرة ويقول: أنا يمكن أن يغفر الله لي، وهذا يحتج به العوام، يقول: إذا كان الله يقول: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي ما دون الشرك لمن يشاء، إذاً سأفعل الكبائر، ويغفر الله لي، فهذه حجة فكيف تجيبه؟

نجيبه: أن الله تعالى قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ولم يقل لكل أحد بل قال: ﴿لمن يشاء﴾ فهل أنت تتيقن أنك ممن

يغفر الله له، أأحد يتيقن هذا؟ لا أحد يتيقن، إذاً لا حجة في هذه للعاصي، ثم إن قوله تعالى: ﴿لمن يشاء﴾ نعلم أن الله حكيم، لا يشاء أن يغفر للمذنب غير الشرك إلا إذا اقتضت الحكمة أن يغفر ذلك، ومن منا يستطيع أن يقول إن حكمة الله تقتضي أن يغفر لي؟ لا أحد يقول هذا، بل لو قال هذا لقلنا: إن قولك هذا من أسباب المؤاخذة والمعاقبة؛ لأنك تأليت على الله.

ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أعلم بنا من ذاك الوقت الطويل البعيد ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾، أي بخلق أبينا آدم، لأن آدم خلق من التراب، ثم صار طيناً، ثم صار صلصالاً، ثم خلقه الله بيده جسماً ونفخ فيه الروح، فصار آدميًّا إنساناً، هذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾، إذاً نحن من الأرض أول نشأة: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ أي الإخراج الذي ليس بعده وفاة يوم القيامة، ولذلك الآن بنو آدم كالأرض تماماً، فيهم الحزم الصلب الشديد، وفيهم السهل، وفيهم ما بين ذلك، وفيهم الأبيض، وفيهم الأحمر، وفيهم الأسود، لأن الأراضي تختلف، هكذا، وقد ذُكر أن الله لما أراد أن يخلق آدم أخذ من كل الأرض سهلها وحزنها، وأسودها وأبيضها كلها[1]: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ هذه النشأة الثانية (أجنة) جمع جنين وهو الحمل، وسمي الحمل جنيناً، لأنه مستتر ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ أي مستترين ﴿فِي بُطُونِ

(١) أخرجه الترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة البقرة (رقم ٢٩٥٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، أي من حين كان الإنسان نطفة، ومن النطفة يخلق، وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ فمن حين يكون نطفة يكون جنيناً ثم يتطور أربعة، أولاً: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة، ثم أنشأناه خلقاً آخر. الطور الأخير الذي تحل فيه الروح، إذاً هو عالم بنا حين النشأة الأولى، وحين النشأة الثانية في بطون أمهاتنا: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تزكوها وتقول عملت كذا وكذا، وصليت، وزكيت، وصمت، وجاهدت، وحججت، لا تقل هكذا، تُدل بعملك على ربك، هذا لا يجوز.

فإن قال قائل: أليس الله يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾؟

فالجواب: بلى، لكن معنى ﴿مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ أي: من عمل عملاً تزكو به نفسه، وليس المعنى من زكاها من أثنى عليها ومدحها بأنها عملت وعملت، بل المراد عمل عملاً تزكو به نفسه، فلا معارضة بين الآيتين، ولهذا نقول: من زكى نفسه بذكر ما عمل من الصالحات فإنه لم يزك نفسه. فمن زكى نفسه بمدحها فإنه لم يزكِّ نفسه، وفرق بينهما، فالتزكية التي يحمد عليها الإنسان أن يعمل الإنسان عملاً صالحاً تزكو به نفسه، والتزكية التي يذم عليها أن يدل بعمله على ربه ويمدح، وكأنه يمن على الله، يقول: صليت، وتصدقت، وصمت، وحججت، وجاهدت، وبريت والدي وما أشبه ذلك، فلا يجوز للإنسان أن يزكي نفسه، وفي هذا رد على أولئك الصوفية الذين يدعون أنهم أئمة ويزكون أنفسهم، ويقولون: وصلنا إلى حد لا تلزمنا الطاعة،

وصلنا: إلى عالم الملكوت فليس علينا صلاة، ولا صدقة، ولا صيام، ولا يحرم علينا شيء، وهؤلاء منسلخون من الدين انسلاخاً تامًّا، ولذلك نقول: هؤلاء الذين يزكون أنفسهم هم أبعد الناس عن الزكاة، لأنهم أعجبوا بأعمالهم، وأدلوا بها على الله ـ عز وجل ـ وجعلوا لأنفسهم منصباً لم يجعله الله تعالى لهم ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ كأنه يقول: لماذا تزكون أنفسكم؟ أتريدون أن تعلموا الله بما أنتم عليه؟ الجواب: لا، ولهذا قال: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ يعني إن كنت متقٍ لله، فالله أعلم بك، ولا حاجة أن تقول لله: إني فعلت وفعلت، وفي هذا إشارة إلى أن النطق بالنية عند فعل العبادة قد يدخل في نوع من التزكية، فإذا أردت أن تتوضأ فلا تقل: اللهم إني نويت أن أتوضأ وبعض العلماء يقول: قلها سرًّا، بينك وبين نفسك، وعللوا هذا قالوا: من أجل أن يطابق اللسان القلب، فالقلب نوى، لكن قل باللسان: اللهم إني نويت أن أتوضأ، وأنت تصلي قل: اللهم نويت أن أصلي الظهر مثلاً أو العصر، وبعض العلماء يقول هكذا، وهم علماء أجلاء من الفقهاء.

فيقال: هذا غلط، وهذا قياس في مقابلة النص: والرسول عليه الصلاة والسلام لم يشرع لأمته النطق بالنية، لا في حديث صحيح ولا ضعيف، ومن الطرف الطريفة أن رجلاً عامياً في المسجد الحرام سمع شخصاً يريد أن يصلي، فقال بعد أن أقيمت الصلاة: اللهم إني نويت أن أصلي الظهر أربع ركعات في المسجد الحرام، ولما أراد أن يكبر قال الرجل: باقي عليك، قال: ما

الباقي؟ قال: باقي التاريخ، قل: في اليوم الفلاني. أنت الآن ذكرت المكان، وذكرت العمل، فاذكر التاريخ قل: في اليوم الفلاني، من الشهر الفلاني، من السنة الفلانية. فانتبه الرجل فقال: هل أنت تعلم ربك بنيتك؟ الله أعلم بنيتك ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ وعند الصيام مثلاً إذا تسحر الإنسان وأراد أن يصوم فإنه لا يقول: اللهم إني نويت الصيام من الليل؟ لأن هذا من البدع، بقي أن يقال في الحج هل تقول: اللهم إني نويت العمرة، أو نويت الحج، أو نية القران أو التمتع؟ لا تقل هذا، حتى عندما تغتسل وتلبس الإحرام، لا تقل: اللهم إني نويت العمرة أو نويت الحج، تكفي التلبية لأنك سوف تقول: لبيك عمرة، إن كنت في عمرة، أو لبيك حجًّا، إن كنت في حج، أو لبيك عمرة وحجًّا، إن كنت قارناً، فلا حاجة إلى التلفظ بالنية فكل العبادات لا ينطق فيها بالنية، ولهذا قال عز وجل: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ الخطاب في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ويجوز أن يراد به كل من يتوجه إليه الخطاب، فيكون المعنى على الأول: أفرأيت يا محمد، وعلى القول الثاني: أفرأيت أنت أيها المخاطب أي أخبرني وكلماجاءت (أرأيت) في القرآن فهي بمعنى أخبرني ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾، أي: عن طاعة الله ـ عز وجل ـ وعن الإيمان بالله ورسوله ﷺ وعن إقامة شعائر الإسلام، ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ يعني أحياناً يعطي، وإذا أعطى أعطى قليلاً، وأحياناً

يكدي، أي: يمنع فلا يعطي شيئاً، لأنه ليس ينفق المال ابتغاء وجه الله، فلذلك كانت حاله بين أمرين: إما المن، أو الإعطاء قليلاً، قالوا: وأكدى مأخوذة من الكدية، وهي الصخرة الشديدة التي لا تتفتت إلا بالمعاول، فهذا الرجل ليس مطيعاً لله وليس نافعاً لعباد الله فهو متولٍ عن طاعة الله، وهو مانع فضل الله عز وجل، ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾وهذا الاستخبار ليس لعدم علمه جل وعلا، ولكن لشحذ النفوس والهمم إلى الاستماع إلى ما يلقى، وهذا الذي أعطى قليلاً وأكدى، يزعم أنه إذا بعث فإنه سوف يعطي المال الكثير، وهذه عادة من ينكر البعث، كما في صاحب الجنة الذي قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ فهو يظن أنه سوف يمتع في الدنيا ويمتع في الآخرة أكثر وأكثر إن كان آمن بها، قال الله تعالى: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ وهذا الاستفهام استفهام استنكار بمعنى النفي، يعني ليس عنده علم الغيب، وهو يرى أنه سينتقل إلى دار أفضل من التي هو فيها، وعلى هذا فتكون الجملة جملة نفي، وليست جملة إثبات، وليست جملة استخبار، بل هي جملة نفي واستنكار، إذ لا أحد عنده علم الغيب، ولولا ما أخبر الله به من النعيم في الجنة والجحيم لأهل النار، ما علمنا بهذا شيء. ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾ أم هنا للإضراب والمعنى بل: ﴿لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾ ذكر موسى لأن موسى عليه السلام أفضل أنبياء بني إسرائيل والتوراة هي التي عليها عمدة ما نزل على بني إسرائيل. وصحف إبراهيم عليه

السلام أنزلها الله تعالى على إبراهيم فيها المواعظ، وفيها الأحكام، لكن لم يبين لنا منها شيئاً سوى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان على التوحيد وعلى الملة المستقيمة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ ذكر إبراهيم عليه السلام لأنه أبو الأنبياء، فهو أبو الأنبياء في بني إسماعيل، وأبو الأنبياء في بني إسرائيل، وهنا قدم موسى على إبراهيم، وفي سورة الأعلى قدم إبراهيم على موسى، ولا شك أن الأحق بالتقديم إبراهيم عليه السلام؛ لأنه أسبق زمناً وأعلى مرتبة، ولكن مراعاة لفواصل الآيات قدم موسى، ولأجل الثناء الخاص بإبراهيم قدم موسى، وقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ أي وفَّى بما أمر به ربه، ومن أعظم ما وفاه أنه أمر بذبح ابنه فامتثل أمر الله ـ عز وجل ـ وصمم على تنفيذه، حتى إنه تله على جبينه ليمر السكين على رقبته، ولكن الفرج من عند الله ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ والذي في هذه الصحف قال: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ هذه بيان ما في صحف إبراهيم وموسى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ أي: لا تحمل إثم ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ أي: أن الإنسان لا يحمل ذنب غيره، إلا أنه يستثنى من ذلك، إذا كان صاحب سنة آثمة فإن عليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، ولكن الحقيقة أن هذا لا يتحمل وزر غيره، لأن غيره قد وزر وأثم، لكن هو تحمل إثم السنة السيئة والبدء بالشر، فيكون حقيقة أنه لم يوزر وزر غيره ولكنه وزر بوزر نفسه ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ وقد

كذَّب الله تعالى قول الذين كفروا للذين آمنوا ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ فقال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ﴾ حتى لو قال لك القائل: افعل هذا الذنب والإثم عليَّ فإنه لا يتمكن من هذا، ولا يمكن، فإن فعل هذا، وقيل له: الإثم عليَّ فالإثم على الفاعل، ثم إن كان الفاعل ممن يغتر بالقول ولا يفهم، فعلى القائل إثم التغرير، أي أنه غرر وخدع ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ يعني ليس للإنسان من الثواب إلا ثواب ما سعى وما عمل، فلا يمكن أن يعطى من ثواب غيره، يعني لا يمكن أن نأخذ من أجر زيد ونعطيه عمراً، كما لا يمكن أن نأخذ من سيئات زيد ونضيفها إلى سيئات عمرو، فهذا لا يمكن إلا ما ورد من اقتصاص المظلوم من الظالم، فصار الإنسان مرتهن بكسبه: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ فلا يمكن أن يؤخذ من حسناته إلى غيره، ولا أن يؤخذ من أوزار غيره فيحمل عليها إلا ما ورد من اقتصاص المظلوم من الظالم.

وقد استدل بعض أهل العلم على أنه لا يمكن أن ينتفع الميت بثواب عمل غيره، لأن الله قال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ وعلى هذا فلو أنك صليت ركعتين لزيد وهو ميت، أو صمت يوماً لزيد وهو ميت فإنه لا ينفعه، لعموم قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ فإذا أورد عليهم أن النبي ﷺ قال: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه»[1] قالوا: هذا في الواجب، لأن

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب من مات وعليه صوم (١٩٥٢) ومسلم، كتاب الصيام، باب قضاء الصيام عن الميت (١١٤٧).

عليه صيام وليس في التطوع، وكذلك الحج الواجب لحديث: «أفحج عنه؟» قال: «نعم»[١]، وإذا أورد عليهم أن رجلاً قال يا رسول الله، إن أمي افتلتت نفسها، وأظنها لو بقيت لتصدقت أفأتصدق عنها؟ قال: «نعم»[٢]، قالوا: هذا مستثنى بالنص، وليس لنا أن نرد النص. والعام يجوز تخصيصه بحكم مخالف، وإذا أورد عليهم قول سعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ في مخارفه أي في نخله الذي يخرف أنه يريد أن يجعله صدقة لأمه فأجاز النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم[٣] قالوا: هذا ورد به النص، وما ورد به النص فإنه لا يمكن أن يرد، لأن نصوص الشريعة الإسلامية جاءت بتخصيص العام، يعني بإخراج بعض أفراد العام، فيحكم له بحكم مخالف لأحكام العام، وعلى هذا نقول: لا يمكن أن ينتفع الإنسان بعمل غيره حيًّا كان أو ميتاً إلا ما وردت به السنة، ولا شك أن هذا القول له وجهة نظر قوية، ولكن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ قال: أي قربة فعلها وجعل ثوابها لميت أو حي من المسلمين فإن ذلك ينفعه، وقال: إن الذي وقع قضايا أعيان، بمعنى أن رجلاً حصلت له حادثة فسأل النبي ﷺ فأجازها، فإذا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصيد، باب حج المرأة عن الرجل (رقم ١٨٥٥) ومسلم، كتاب الحج، باب الحج عن العاجز لزمانة أو هرم ونحوهما أو للموت (رقم ١٣٣٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب موت الفجأة البغتة (١٣٨٨) ومسلم، كتاب الزكاة، باب وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه (١٠٠٤).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الوصايا، باب إذا قال: أرضي أو بستاني صدقة لله عن أمي فهو جائز (رقم ٢٧٥٦).

أجاز الرسول عليه الصلاة والسلام جنس العبادات ولو كانت مالية دل ذلك على جواز جنس جميع العبادات، وقالوا أيضاً: الصيام ليس عبادة مالية، ومع ذلك قال: «**من مات وعليه صيام صام عنه وليه**» وإذا أجيز هذا في الواجب، والواجب متحتم، فهو كالدين، والدين إذا قضاه الغير عن المدين أجزى، وحملوا قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ على أن المعنى أنه لا يمكن أن يأخذ من عمل غيره، لكن إذا أهدى إليه غيره من العمل فإنه لا بأس به، كما أن الإنسان ليس له التصرف في مال غيره، ولو أعطاه شخص مالاً لتصرف فيه. وقد نقل الجمل في حاشيته على الجلالين (الفتوحات الإلهية) في هذا الموضع عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنه يجوز إهداء القرب وأن الميت ينتفع بذلك، وذكر لهذا أكثر من عشرين وجهاً، فمن أحب أن يراجعه فليراجعه. وعلى كل حال حتى ولو قلنا بما ذهب إليه الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ من أي قربة فعلها الإنسان وجعلها لمسلم فإن ما عليه عمل الناس اليوم مخالف لهذا الكلام، إذ إن الناس اليوم تجدهم يهدون كثيراً من العمل الصالح للأموات، يعتمر للميت دائماً ويصوم عنه تطوعاً دائماً، ويضحي عنه دائماً، ولو ضحى لنفسه كل هذا ليس من عمل السلف، والسلف يهتدون بهدي الرسول عليه الصلاة والسلام، وهدي النبي ﷺ هو أنه قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[1] فأرشد إلى الدعاء للميت، لكن كونك

(١) أخرجه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته=

كل ما سبحت قلت: اللهم اجعل ثوابه لأبي، لأمي، وكل ما عملت تقول: اجعل ثوابه إلى أبي إلى أمي، أو جدي، أو خالي، أو عمي فهذا غير صحيح، وأنت محتاج إلى العمل كما هم محتاجون للعمل، فلا تجعل عملك لهم، اجعل لهما ما أرشدك إليه الرسول ﷺ وهو الدعاء، أما العمل فخص به نفسك. ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ سعيه يعني عمله سوف يرى، وهل المراد ثواب السعي يرى في الآخرة عند الجزاء، أو أن السعي يرى في الدنيا ويعرف، الجواب: أن هذا عام سوف يرى في الدنيا وفي الآخرة، الذي يرى في الآخرة وفي الدنيا هو نفس العمل، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني عملكم لن يخفى علي ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

وبهذه المناسبة أود أن أنبه إلى أن بعض الناس إذا عمل عملاً كمكتبة، أو مسجد، أو عمارة للفقراء أو ما أشبه ذلك كتب: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وهذا لا يجوز، لأن أحد الأطراف الثلاثة لا يمكن أن يراه، وهو الرسول عليه الصلاة والسلام، صحيح أن الله ـ عز وجل ـ يرى والمؤمنون في هذا الوقت يرون، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يرى، ثم هذا في المنافقين وهو تهديد لهم وليس ثناء عليهم، وعلى كل حال نقول: سعي الإنسان سوف يرى، ولكن قد يستر الله تعالى عن العبد ذنوبه فضلاً منه ومنة، وإذا لاقاه في الآخرة خلا به سبحانه وتعالى وقرره بذنوبه وقال: «**قد سترتها عليك في الدنيا وأنا**

= (١٦٣١).

أغفرها لك اليوم»[١] ، لكن في الأصل أن سعي الإنسان سوف يرى ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ أي: بعد أن يرى يجزى عليه الجزاء الأوفى، أي: الأكمل، والأوفى في الصالح زيادة المثوبة، والأوفى في السيء العدل بحيث لا يزاد في سيئاته، وعلى هذا فالأوفى يفسر بمعنى العدل، ويفسر بالزيادة والفضل، العدل في السيئة لا يمكن أن يزاد سيئة. والفضل في الحسنات، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ هذه الآية فيها قراءتان: القراءة الأولى فتح الهمزة: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ والثانية كسر الهمزة ﴿وإنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ وكلاهما قراءتان صحيحتان سبعيتان، إذا قرأ الإنسان بإحداهما صح، بل الأولى للإنسان الذي يعرف القراءات أن يقرأ بهذه القراءة مرة، وبهذه القراءة مرة أخرى، لكن لا يقرأ على ملأ من الناس وسماع منهم، لأن العامة إذا سمعوك تقرأ على خلاف ما يقرأون فسيحصل بذلك مفسدة، إما أن يقولوا: إن هذا الرجل لا يعرف القرآن، وإما أن يتشككوا في القرآن، حيث يظن العامي أن القرآن يمكن أن يبدل أو يغير، لذلك ننصح إخواننا الذين أعطاهم الله تعالى علماً في القراءات أن لا يقرأوا إلا بالقراءة المعروفة عند العامة حتى لا يحصل اللبس، لكن فيما بينك وبين نفسك إذا كنت تدرك القراءة الثانية إدراكاً تامًّا فاقرأ بها أحياناً؛ لأن الكل كلام الله ـ عز وجل ـ فإذا كانت بالكسر: ﴿وإنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ صارت هذه الجملة وما بعدها

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٣٤.

ليست في ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ بل تكون استئنافية، وإذا كانت بالفتح صارت الجملة وما بعدها مما جاء في صحف إبراهيم وموسى، وعلى كلٍّ فهي كلام الله عز وجل. ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ أي: المنتهى في أمور الدين والدنيا، فإلى الله المنتهى في مسائل العلم، فعندما تشكل علينا مسألة من مسائل العلم فننتهي إلى الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ والنبي ﷺ لا يقول شيئاً من عنده، إنما هو من عند الله ـ عز وجل ـ فيكون المنتهى إلى الله في الحكم بين الناس وفي الحكم للناس: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ أي منتهى الخلائق أيضاً؛ لأن هذا الخلق الموجود الآن سوف يفنى وينتقل إلى خلق آخر، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ والمنتهى على هذا التقدير هو يوم القيامة، فإلى الله المنتهى، وإلى الله المصير، فمنتهى أحوالنا وأحكامنا وجميع ما يصدر منا وعلينا إلى الله ـ عز وجل ـ وإذا كان إلى الله المنتهى، فإلى من تشكو إذا أصابك الضر؟ إلى الله ـ عز وجل ـ وإذا أردت النفع فتطلبه من الله عز وجل، لأنه المنتهى، وكم من إنسان انعقدت له أسباب الرزق وإذا هو يحرم منها في آخر لحظة، إذاً لا يجلب لك الخير إلا الله، ولا يمنع عنك الضرر إلا الله ـ عز وجل ـ فاجعله منتهاك في كل أمورك، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ هل المراد حقيقة الضحك، أو المراد لازم ذلك وهو الفرح، وكذلك يقال في أبكى: هل المراد حقيقة البكاء، أو المراد الحزن، إذا نظرنا إلى ظاهر اللفظ قلنا: الضحك الحقيقي،

والضحك الحقيقي لا ينشأ إلا عن سرور، وأبكى البكاء الحقيقي، وهو لا يحصل إلا عن حزن، فالله تعالى أضحك في الدنيا وأبكى، وأضحك في الآخرة، وأبكى، والكفار في الدنيا يضحكون على المسلمين، وعلى المؤمنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ لكن هذا الضحك سيعقبه بكاء يوم القيامة ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ فالذي أضحك في الدنيا وأبكى، والذي أضحك في الآخرة وأبكى هو الله عز وجل، إذاً هو مقدر ما يكون به الضحك، ومقدر ما يكون به البكاء، وأتى بالأمرين وهما متقابلان، ليعلم بذلك أن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، وهوالقادر على خلق الضدين، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ أي: أمات في الدنيا وأحيا في الدنيا، وأمات في الدنيا وأحيا في الآخرة، أمات وأحيا البشر، تجد هذا تنفخ فيه الروح اليوم، فيكون الله قد أحياه، والآخر تنزع روحه من بدنه ويكون الله قد أماته، وهكذا دواليك، هو الذي أمات وأحيا، وهناك أيضاً ميتة عامة وحياة عامة، أمات العالم في الدنيا، وأحياهم في الآخرة، فهو الذي خلق الموت، وهو الذي خلق الحياة، وهذان أيضاً متضادان، حياة وموت، كلها من عند الله ـ عز وجل ـ، لأن الله تعالى على كل شيء قدير، ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾، الزوج بمعنى الصنف، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي: أصناف، وقوله تعالى: ﴿۞ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ ليس المراد زوجاتهم، بل المراد بأزواجهم، أي: أصنافهم، إذاً الزوجين يعني الصنفين، ثم بين هذين الزوجين

فقال: ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ من مادة واحدة، ﴿نطفة﴾ وهي المني ﴿إذا تمنى﴾ أي: تراق وتصب في رحم المرأة، فالله ـ عز وجل ـ خلق هذين الصنفين المختلفين خلقاً، والمختلفين مزاجاً، والمختلفين عقلاً، والمختلفين فكراً، خلقهما من شيء واحد من نطفة، ولهذا قال الله تبارك وتعالى في آخر سورة القيامة: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ الجواب: بلى، فالله تعالى خلق الزوجين من شيء واحد، وهذا يدل على كمال قدرته ـ جل وعلا ـ إذ إنه خلق صنفين مختلفين في كل الأحوال: في القوة البدنية والعقلية، والفكرية، والتنظيمية يختلف الذكر عن الأنثى، وبذلك نعرف ضلال أولئك القوم الذين يريدون أن يلحقوا المرأة بالرجل في أعمال تختص بالرجل، فإنهم سفهاء العقول، ضلال الأديان، فكيف يمكن أن نسوي بين صنفين، فرَّق الله بينهما خلقة وشرعاً، فهناك أحكام يطالب بها الرجل ولا تطالب بها المرأة، وأحكام تطالب بها المرأة ولا يطالب بها الرجل، وأما قدراً وخلقة فالأمر واضح، لكن هؤلاء الذين لم يوفقوا وسلب الله عقولهم وأضعف أديانهم يحاولون الآن أن يلحقوا النساء بالرجال، وهذه لا شك أنها فكرة خاطئة مخالفة للفطرة، ومخالفة للطبيعة كما أنها مخالفة للشريعة ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ أي: على الله، وفي هذا دليل على أن الله أوجب على نفسه أن يبعث الناس، لأنه لو كان الناس يحيون ويموتون بلا إرجاع لكان هذا عبثاً محضاً؛ لأننا نعلم الآن أن الناس في الدنيا يختلفون في الغنى والفقر، والقوة والضعف،

والذكاء والعقل وغير ذلك، ولو كان الخلق هكذا فقط بدون إرجاع لكان هذا منافٍ للحكمة تماماً، لكن لابد من رجوع، ولهذا قال: ﴿وأن عليه تصدى﴾ وعلى تفيد الوجوب، فيكون الله أوجب على نفسه أن ينشأ الناس مرة أخرى، ولا مانع من أن الله يفرض على نفسه ما شاء، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي: أوجب على نفسه الرحمة، كذلك هنا قال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ أي أن الله أوجب على نفسه أن ينشىء الناس نشأة أخرى للجزاء، كل بحسب عمله، والنشأة الأخرى تفيد بأن هناك نشأة قبل وهي النشأة الأولى، وهي خلق الناس فابتداء خلق الناس من عند الله ـ عز وجل ـ وفي قوله: ﴿ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ فائدة عظيمة وهي الإشارة إلى أن القادر على الأولى قادر على الآخرة، والنشأة الآخرة أهون من الأولى، كما قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ والهين يختلف باعتبار ذاته لا باعتبار قدرة الله فإنها لا تختلف: كن. فيكون، سواء كان أعلى شيء أو أدنى شيء، لكن بالنسبة للمقدور عليه الإعادة أهون، أما بالنسبة لقدرة الله فكلها واحد، لأن المسألة لا تعدو أن يقول: كن. فيكون، وبهذا نعرف أن بعض المفسرين ـ رحمهم الله وعفا عنهم ـ قالوا في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (أي: وهو هين عليه) وهذا غلط، كيف يقول الله عن نفسه ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ويقول: وهو هين، لكن نقول الهون له نسبتان: نسبة للمفعول، ونسبة للفاعل، بالنسبة للفاعل هما سواء، لأن كل شيء منهما يتكون بكلمة واحدة كن فيكون، وبالنسبة للمفعول

الأول أشد من الثاني.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ﴾ أي: أن الله تعالى هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، فهو الذي أغنى من شاء من خلقه ﴿وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ قيل: المعنى أفقر؛ لأنها في مقابلة (أغنى) وقيل: أغنى بالكفاية، وأقنى بما زاد على الكفاية، فالله عز وجل بسط لعباده الرزق، فمنهم من أغناه عن غيره، ومنهم من أقناه، أي: جعل له قنية وهي الزائد عن الكفاية، والقاعدة: أن الكلمة إذا كانت تحتمل معنيين لا منافاة بينهما ولا مرجح لأحدهما على الآخر فإنها تحمل عليهما؛ لأنه أعم للمعنى، فالذي يغني هو الله عز وجل، والذي يقني هو الله عز وجل، وليست هذه الأصنام التي هي مناة والعزى، بل ذلك إلى الله عز وجل.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ أتى بضمير الفصل تأكيداً للجملة، و﴿رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ أي: هو خالقها ومالكها ومدبرها، والشعرى هي النجم المضيء الذي يخرج في شدة الحر، ونص على هذا النجم؛ لأن بعض العرب كانوا يعبدونها ويعظمونها، فبين تبارك وتعالى أن الشعرى من جملة المخلوقات المربوبات وليست إلهاً، ولا تستحق أن تعبد، ﴿وَأَنَّهُۥٓ﴾ أي: الله ـ عز وجل ـ ﴿أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ وهم قوم هود، و(الأولى) وصف كاشف، وليس وصفاً مقيداً، يعني ليس هناك عاد أولى وعاد ثانية، بل هي واحدة، لكنها عاد قديمة سابقة، ولهذا وصفها بأنها الأولى أي: أنها القديمة السابقة وليس ثمة عاد أخرى، وهم قوم هود، وكان الله تعالى قد أعطاهم من القوة والنشاط وشدة البطش ما ليس

لغيرهم، حتى إنهم قالوا من أشد منا قوة، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ فهؤلاء القوم يفتخرون بشدتهم وقوتهم فأهلكهم الله بألطف الأشياء، أهلكهم ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ ابتدأت من بعد الفجر وانتهت عند الغروب فصارت الأيام ثمانية، والليالي سبعاً، ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ تحمل الإنسان إلى القمة ثم تقذف به على الأرض فصاورا ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ والعياذ بالله، فهؤلاء القوم مع شدة بطشهم وشدة بأسهم لم يمنعهم ذلك من عذاب الله ـ عز وجل ـ وقوله: ﴿وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَى ﴿٥١﴾﴾ أي: وأهلك ثموداً وما أبقاهم، وثمود هم أصحاب الحجر، أرسل الله إليهم صالحاً فكذبوه، وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة، وأعطاهم معرفة وعلماً بهندسة البناء، لكن مع ذلك ما دفعوا ما أراد الله بهم، صيح بهم ورجفت بهم الأرض ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ والعياذ بالله ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ يعني وأهلك قوم نوح من قبل بالغرق، كما قال الله تعالى عن نبيهم نوح ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ وفي قراءة ﴿ففتَّحنا﴾ مما يدل على الكثرة وشدة الانفتاح ﴿أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ يعني نازل بشدة: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ الأرض كلها كانت عيوناً يعني ليس فيها موضع شبر إلا وهو يفور، حتى إن التنور الذي هو محل الإيقاد صار يفور مع أن محل الإيقاد أبعد ما يكون عن الرطوبة لكنه فار، فصارت

الأرض كلها عيوناً والسماء تمطر، والتقى الماء، ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قدر، يعني أمر مقدر محدد بدون زيادة ولا نقص، فغرق القوم حتى بلغ الماء قمم الجبال، ويذكر أن امرأة كان معها صبي فكلما علا الماء صعدت الجبل، كلما علا الماء صعدت الجبل، حتى وصل الماء إلى قمة الجبل ووصل إلى المرأة وارتفع إلى جسدها، وكان معها صبي، فحملت الصبي على يديها ترفعه، لئلا يغرق قبلها، وجاء في الحديث: «**لو رحم الله أحداً لرحم أم الصبي**»(١) لكن إذا حقت كلمة الله فلا راد لقضاء الله تعالى، أجارني الله وإياكم من العذاب الأليم، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ اختلف المفسرون في مرجع الضمير فقيل: إن الضمير يعود على قوم نوح فقط.

وقيل: إنه يعود على كل الأمم التي ذكرها الله ـ عز وجل ـ ممن أهلكهم.

فعلى القول الأول يكون المعنى أن قوم نوح أظلم وأطغى من قوم ثمود وعاد، ووجه ذلك أنهم حصل منهم عتو واستكبار مع طول المدة، حيث إن نوحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يقول الله تبارك وتعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٢) (٢/ ٥٤٧) وقال في الموضعين: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي في الموضع الأول بقوله: إسناده مظلم، وموسى ليس بذاك. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٠٣) رواه الطبراني في الأوسط وفيه موسى بن يعقوب الزمعي وثقه ابن معين وغيره وضعفه ابن المديني وبقية رجاله ثقات.

لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ حتى لا يسمعوا ﴿ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ ﴾ تغطوا بها حتى لا يبصروا، وهذا يدل على شدة كراهتهم لما يدعوهم إليه عليه الصلاة والسلام، ﴿ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾ أي: استكباراً عظيماً فلم يخضعوا لعبادة الله ـ عز وجل ـ، فكانوا أظلم وأطغى من عاد ومن ثمود.

وعلى القول الثاني: أن الضمير يعود على كل هؤلاء الأمم، يكون المعنى: أن هؤلاء كانوا أظلم وأطغى من قريش الذين كذبوك يا محمد، فيكون في هذا تسلية للرسول ﷺ بأن الله أهلك هؤلاء القوم مع أنهم أظلم وأطغى من قومك، والذي أهلك من سبق قادر على أن يهلك من لحق، وكلا المعنيين صحيح، فهؤلاء الأمم أظلم وأطغى من قريش، وقوم نوح أظلم وأطغى من عاد وثمود، ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ أي: أسقط، والمؤتفكة هي قرى قوم لوط، وأهوى بمعنى أنزل، واختلف المفسرون في قوله ﴿ أَهْوَىٰ ﴾ هل المعنى أنه أهوى بها من فوق إلى أسفل بناءً على أن الله تعالى رفع هذه القرى إلى فوق ثم قلبها. أو أن المعنى أنه أهوى أسقطها، أي: أرسل عليها الحجارة حتى تهدم البناء فصار أعلى البناء أسفله، المهم أن الله تعالى أخبر عن قوم لوط بأنه أهواهم أي أسقطهم، سواء من الجو، أو من سقوط أعلى البناء على أسفله[1] ﴿ فَغَشَّىٰهَا ﴾ أي: غطاها، ﴿ مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ مبهم للتعظيم والتفخيم، كقوله تعالى: ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾ أي غشيهم شيء عظيم، فالإبهام أحياناً يراد به

(١) انظر وفقك الله تفسير فضيلة الشيخ رحمه الله تعالى لسورة الصافات ص (٢٨٩).

التعظيم والتهويل والتفخيم، كما في هذه الآية.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ و﴿ءَالَآءِ﴾: النعم، و﴿تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ أي: تتشكك، أي: بأي نعم الله تتشكك أيها الإنسان، إذ إن الواجب أن الإنسان يقر بنعم الله ويشكر الله عليها، لا أن يتشكك، ويقول: هذا من عملي. هذا من كذا. هذا من كذا، كما كانت العرب تقول: مطرنا بنوء كذا وكذا، يعني بالنجم وينسون الخالق ـ عز وجل ـ ثم قال ـ جل وعلا ـ: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾ المشار إليه الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ﴿نَذِيرٌ﴾ بمعنى منذر، والمنذر هو الذي يعلم بالشيء على وجه التخويف، لأن الإنذار هو إعلام بتخويف، والبشارة إعلام برجاء: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾ ولم يقل بشير؛ لأن المقام لا يقتضي إلا ذكر الإنذار، إذ إن الله تحدث من أول السورة إلى آخرها عن قريش، وتكذيبها للرسول ﷺ وعبادتها للأصنام، فيقول محمد ﷺ ﴿نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾ أي: من الرسل السابقين، وكما أن الذين كذبوا الرسل حل بهم العقاب والنكال فأنتم أيها المكذبون لرسول الله ﷺ يوشك أن يحل بكم النكال والعقوبة، لأن محمداً ﷺ مثل غيره نذير من النذر، فإذا كان نذير من النذر فإن من كذبه سوف يقع به مثل ما وقع بالأمم السابقة ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧﴾ أي: قربت القيامة، ومنه قول الشاعر:

أزف الترحل غير أن ركابنا ... لما تزل برحالنا وكأن قد

فالآزفة هي القيامة، لأن الساعة قريبة، كما قال الله

تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ وقال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ فهي قريبة، ويدل لقربها أن محمداً ﷺ خاتم الرسل، فمعناه أن الأمر قريب، وأما كون الله تعالى يذكر أن الأمر قريب وبيننا وبين نزول القرآن أربعة عشر قرناً، ونحن في القرن الخامس عشر، ومع ذلك يذكر الله ـ عز وجل ـ أن الساعة قريبة، ومن هنا نعرف أن عُمر الدنيا طويل وبعيد، ولكن هل نأخذ بقول هؤلاء الذين يتخرصون، ويقولون: عمر الدنيا الماضي كذا وكذا؟ والجواب: لا نأخذ بقولهم، ولا نصدقهم ولا نكذبهم، أحياناً يقولون: إنهم عثروا على آثار حيوان له كذا وكذا من ملايين السنين، أو على أحجار، فهذا لا نصدق ولا نكذب، لأنهم لا يعلمون الغيب الماضي، وإنما يقيسونه بحال الحاضر، أي يقيسون عمر هذا الأثر بحسب المؤثرات في الوقت الحاضر، لكن من يعلمنا أن المؤثرات في الوقت الحاضر هي المؤثرات في الوقت الماضي لا ندري، قد يتغير الطقس من حرارة إلى برودة، ومن برودة إلى حرارة، وقد تتغير الرياح والأمطار وغير ذلك، وما نقرأه أو نسمع به من علوم هؤلاء موقفنا نحوه أن لا نصدق ولا نكذب، أما في المستقبل فيجب أن نكذب كل من أخبر عن شيء مستقبل؛ لأنه يدعي الغيب، والله عز وجل يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فعليه: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ أي قربت القيامة لكن هل يمكن أن نحدد مدى القرب؟ لا يمكن، ومن ادعى أنه يعلم أنه متى تقوم الساعة فإنه مكذب لله ورسوله، أما الله فقد قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ

﴿ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ وأما الرسول عليه الصلاة والسلام فإن جبريل لما سأله قال: «أخبرني عن الساعة؟» قال له النبي ﷺ: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»[1] يعني إذا كنت تجهلها فأنا مثلك، فمن ادعى أن الساعة تقوم بعد مليون سنة، أو مائة ألف سنة، أو أقل، أو أكثر فإننا يجب علينا أن نكذبه، ونقول: إنه كافر، لأنه مكذب لله ورسوله.

﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ لها معنيان: المعنى الأول: كاشفة يعني مانعة، يعني لا أحد يكشفها أي: يمنعها، كما في قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾. والمعنى الثاني: كاشفة يعني عالمة تكشفها وتبينها، وعلى كل حال فلا أحد يمنع الساعة إذا شاء الله، ولا أحد اطلع على الساعة متى تكون.

﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ الخطاب هنا للمكذبين لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والاستفهام في قوله: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ للإنكار والتعجب من هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ الذي جاء بالآيات البينات، وأخبر عن الأمم السابقة، وبيَّن أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم نذير من النذر الأولى، ويخشى على من كذبه أن يناله من العذاب ما نال المكذبين للنذر الأولى، يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أيها المكذبون للنبي ﷺ، ومعنى ﴿تَعۡجَبُونَ﴾ أي: ترونه عجباً منكراً، ولهذا قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾

---

(١) تقدم في ص ٦٢.

وقال الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ فهم يتخذون ما جاء به الرسول ﷺ عجباً، والمراد عجب الإنكار والاستبعاد، ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾: يعني استهزاء بهذا الحديث الذي هو القرآن، وكذلك يضحكون بشرائع هذا الحديث، حيث كانوا يضحكون من رسول الله ﷺ وعباداته ويسخرون به، إذاً ﴿تَعْجَبُونَ ۝٥٩﴾ إنكاراً ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء ﴿وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠﴾، أي: لا تبكون من هذا الحديث خشية وخوفاً وإنابة إلى الله ـ عز وجل ـ بل هم أقسى الناس قلوباً، ـ والعياذ بالله ـ أو من أقسى الناس قلوباً لا تلين قلوبهم ولا يبكون من خشية الله ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ أي: غافلون بما تمارسونه من اللغو والغناء وغير ذلك، لأن منهم من إذا سمعوا كلام الله ـ عز وجل ـ جعلوا يغنون، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾ فسامدون قيل: المعنى مغنون، وقيل: المعنى غافلون، والصواب أن المراد غافلون عنه بالغناء وغيره مما تتلهون به، حتى لا تسمعوا كلام الله ـ عز وجل ـ، وهذا نظير ما قاله المكذبون لأول رسول أرسل إلى بني آدم، حيث قال الله تبارك وتعالى عن قوم نوح: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ حتى لا يسمعوا ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: تغطوا بها حتى لا يروا ولا يبصروا ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ فما كان في أول أمة كان في آخر أمة، ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ ۝٦٢﴾ اسجدوا لله خضوعاً وذلاً، والمراد بالسجود هنا الصلوات كلها، وليس الركن الخاص الذي هو السجود، وليس أيضاً سجود

التلاوة بل هو عام في كل الصلوات، ﴿وَٱعۡبُدُواْ﴾، هذا عام لكل العبادات، وخص الصلاة بالذكر وقدَّمها؛ لأنها أهم العبادات البدنية الظاهرة بعد الشهادتين، وعلى هذا فيكون العطف في قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ﴾ على قوله ﴿فَٱسۡجُدُواْ﴾ من باب عطف العام على الخاص كما أن قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ من باب عطف الخاص على العام، وبهذا انتهى الكلام الذي منَّ الله به في تفسير هذه السورة، سورة النجم، أسأل الله تعالى أن ينفعني وإياكم به.

تفسير سورة القمر

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾ اقتربت بمعنى قربت، لكن العلماء يقولون: إن زيادة المبنى يدل على زيادة المعنى، وهنا اقتربت فيها زيادة المبنى على قربت، والزيادة: الهمزة والتاء، فيدل على أن القرب قريب جداً، فمعنى اقتربت أي قربت جداً، والساعة هي يوم القيامة، وقد قال الله تعالى فيها: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾ أي: علاماتها، ومن علاماتها بعثة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإن بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام وكونه خاتم الأنبياء دليل على أنه قد قربت الساعة، ولهذا حقق النبي عليه الصلاة والسلام هذا بقوله: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[1] وقال بإصبعه الوسطى والسبابة، والسبابة قريبة من الوسطى ليس بينهما إلا جزء يسير مقدار الظفر، وهذا يدل على قربها، لكن مع ذلك كم بيننا وبين الرسول ﷺ؟ نحن في القرن الخامس عشر الهجري بعد بعثة الرسول ﷺ بثلاث عشرة سنة، ومع ذلك مازالت الدنيا باقية مما يدل على أن ما مضى طويل جداً، حتى إن الرسول ﷺ عند غروب الشمس قال: «إنه لم يبق من الدنيا ـ يعني بالنسبة لمن سبقكم ـ إلا كما بقي من يومكم هذا»[2]، ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾ كأن الله أشار

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: بعثت أنا والساعة كهاتين (٦٥٠٤) ومسلم، كتاب الفتنة وأشراط الساعة، باب قرب الساعة (٢٩٥١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب=

إلى أن هذا من أشراط الساعة، ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ والمعنى أنه صار فرقتين تميز بعضهما عن بعض، أحدهماعلى جبل أبي قبيس، والثانية على جبل قعيقعان يعني فلقة على الصفا وفلقة على المروة، والمسافة السماوية في رؤيا العين ما بين الصفا والمروة بعيدة جداً، قد تستغرق سنوات، انشق القمر بلحظة بأمر الله ـ عز وجل ـ وتباعدت أجزاؤه بلحظة، لأن قريشاً كانوا يتحدون الرسول عليه الصلاة والسلام ويطلبون منه الآيات، وقد قال الله ردًّا عليهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ لكن لم يكفهم، لأنهم معاندون لا يريدون الحق، أتوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام قالوا: يا محمد أنت تقول إنك رسول، وإنك يأتيك الخبر من السماء وكذا وكذا فأرنا آية، فأشار النبي ﷺ إلى القمر ودعا ربه فانفلق فرقتين بلحظة[1]، ومن يفلق هذا الجسم العظيم الأفقي العالي إلا رب العالمين ـ عز وجل ـ؟! أراهم إياه، ولكن لم ينفعهم، وقالوا: سحرنا محمد، وبعضهم قال: سحر القمر، وأنكروا، فقال بعضهم لبعض: اسألوا المسافرين إذا قدموا هل رأوه أم لا؟ فصاروا يسألون المسافرين من كل وجه: هل رأوه أم لا؟ فيقولون: نعم، رأيناه في الليلة الفلانية كذا وكذا، وهذا بالنسبة للقريبين منهم كأهل الجزيرة مثلاً، أما البعيدون فقد لا

= (رقم ٥٥٧).

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ (رقم ٤٨٦٤) ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب انشقاق القمر (رقم ٢٨٠٠).

يرونه، وكما نعلم الآن أن الليل هنا يكون نهاراً في مكان آخر، أو لوجود غيوم وضباب كثير يمنع الرؤيا؛ ولهذا لا يمكن أبداً لأي عاقل أن ينكر انشقاق القمر انشقاقاً حسيًّا، لأنه لم يذكر في تاريخ اليونان، ولم يذكر في تاريخ الهند ولم يذكر في كذا وكذا، هذا ليس حجة يبطل به ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من أن القمر انشق فعلاً انشقاقاً حسيًّا، ونحن نؤمن بأن القادر على أن يطوي السماوات بيمينه كطي السجل للكتب، قادر على أن يفرق القمر فرقتين، ولا شيء يعجزه، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ ولهذا لا وجه لإنكار من أنكر ذلك ممن ينتسبون إلى الإسلام، ويقولون: إن الأفلاك السماوية لا يمكن أن تتغير، نقول: الله أكبر، مَن الذي خلق الأفلاك السماوية أليس الله؟ بلى، إذن هو قادر على أن يغيرها ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾، فانشقاق القمر انشقاق حسي، انفلق فرقتين، ورآه الناس وشاهدوه، ولكن المكابر المعاند لا يقبل شيئاً، ولهذا قال: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ ﴿ءَايَةً﴾ نكرة في سياق الشرط، أي آية يرونها يعرضون عنها ولا يقبلونها، ويجمعون بين الإعراض وبين الإنكار باللسان، ﴿يُعْرِضُوا۟﴾ أي: بقلوبهم وأبدانهم، ويقولوا بألسنتهم: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾، أي: هذا سحر، والسحر لا يؤثر في قلب الأعيان، ولكن يؤثر في رؤية الأعيان، والدليل أن موسى عليه الصلاة والسلام لما ألقى السحرة سحرهم، كان يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى حية، وانقلب الوادي كله حيات تسعى،

حتى إن موسى أوجس في نفسه خيفة من هول ما رأى، لكن هذه الحبال والعصي لم تنقلب إلى حيات، لكن حسب نظر الرائي أنها حيات، فهم يقولون: سحرنا محمد حتى كانت أعيننا ترى القمر وهو واحد تراه فرقتين ﴿وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ مستمر، قيل: إن المعنى زائل ذاهب من مر بالشيء إذا تجاوزه، يقولون: هذا سحر ولن يستقر ولا قرار له، وقيل: مستمر يعني أن كل الآيات التي يأتي بها سحر، أي مستمر من مرار الشيء ودوام الشيء، وأيًّا كان فإنهم أنكروا وكذبوا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ﴾، أي: كذبوا النبي ﷺ، وكذبوا بآياته، ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: ما يريدون من الباطل ﴿وكل أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾، أي: كل أمر لابد له من قرار، فهؤلاء المكذبون قرارهم الذل والخسران في الدنيا، والنار في الآخرة، والنبي ﷺ ومن اتبعه أمرهم مستقر بالنصر والتأييد في الدنيا، والجنة في الآخرة، جعلنا الله منهم.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾ هذه الجملة فيها اللام وقد، وهما من أدوات التوكيد، وفيها قسم مقدر دلت عليه اللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾، وعليه فتكون هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، القسم واللام وقد، والله سبحانه وتعالى صادق بغير توكيد لخبره، لكن هذا القرآن بلسان عربي مبين، واللسان العربي من بلاغته تأكيد الأشياء الهامة حتى تثبت وترسخ في الذهن، ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ أي: قريشاً جاءهم من الأنباء التي فيها رشدهم وصلاحهم وفلاحهم ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾ أي: ازدجار عن الشرك والعصيان، ولكنهم لم ينتفعوا بذلك.

﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ﴾ يعني أن الأنباء التي جاءتهم حكمة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ والحكمة هي تنزيل الشيء منزلته اللائقة به، ولا شك أن شريعة الله حكمة كلها ومطابقة لما فيه صلاح العباد في معاشهم ومعادهم، وقوله: ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ أي: تامة واصلة إلى الغرض المقصود منها ﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ ﴾ (ما) يحتمل أن تكون نافية، يعني أن النذر لا تغنيهم شيئاً، ويحتمل أن تكون استفهاماً على وجه التوبيخ، يعني فأي شيء تغنيهم، وكلاهما صحيح، فالنذر لم تغنهم شيئاً، وإذا لم تغنهم هذه النذر المشتملة على حكمة بالغة فأي شيء يغنيهم؟ الجواب: لا شيء، لأنهم معاندون مستكبرون، لهذا قال ـ عز وجل ـ: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾، الخطاب للرسول ﷺ تول عن هؤلاء؛ لأنهم معاندون مستكبرون، سوف يأتيهم ما وُعدوا به، وسوف يتحقق لك ما وُعدت به، ويحسن أن يقف القارىء على قوله: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ ثم يستأنف ويقول: ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ ﴾، لأن القارىء لو وصل لأوهم أن التولي يكون يوم يدع الداع، ومعلوم أن التولي في الدنيا وليس يوم يدع الداع، وقوله: ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ ظرف، والظرف لابد له من عامل، كالجار والمجرور، لابد له من عامل، وكجميع المفعولات لابد لها من عامل، فما هو العامل؟ العامل قوله: يخرجون ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ ﴾ فهي متعلقة بـ(يخرجون) أي: سوف يأتيهم العذاب في ذلك الوقت يوم ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ ﴾ وقوله: ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ ﴾ هو داعي يوم القيامة ﴿ إِلَىٰ شَىْءٍ

نُّكُرٍ ﴿٦﴾ ﴾ أي: منكر عظيم لشدة أهواله، فإنه لا شيء أنكر على النفوس من ذلك اليوم؛ لأنهم لم يشاهدوا له نظيراً ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ يعني أن أبصارهم خاشعة ذليلة، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ هم الآن مستكبرون رافعو رؤوسهم، يرون أن الناس تحتهم، وأنهم فوق الناس، لكن سيأتي اليوم الذي يكونون بالعكس ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ ﴾، الأجداث هي القبور، والجراد المنتشر هو المنبث في الأرض الذي لا يدري أين وجهه ليس له طريق قائمة، لا يعرف كيف ينتهي، ولكنهم منتشرون، وهذا من أدق التشبيهات، لأن الجراد المنتشر تجده يذهب يميناً ويساراً لا يدري أين يذهب، فهم سيخرجون من الأجداث على هذا الوجه، بينما هم في الدنيا لهم قائد، ولهم أمير، ولهم موجِّه يعرفون طريقهم، وإن كان طريقاً فاسداً ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ يعني أنهم مسرعون خاضعو الأعناق، كالرجل إذا أسرع وركض تجده يقدم رأسه يخضعه، فهم يخرجون من الأجداث مهطعين إلى الداعي، أي مسرعين خافضو رؤوسهم من الفزع والهول والشدة ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ وتأمل قوله: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ولم يقل: يقول الناس، لأن هذا اليوم العسر لا شك أنه في حد ذاته عسر شديد عظيم ولكنه على الكافرين عسير، وعلى المؤمنين يسير، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ وقال تعالى: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾ وأما على المؤمنين فهو يسير، ولله الحمد جعلنا الله منهم.

ثم بدأ الله ـ عز وجل ـ بقصص الأنبياء على وجه مختصر في هذه السورة، لكنه مؤثر تأثيراً بالغاً، لو قرأتها بتمهل وتدبر لوجدت أنها مؤثرة جدًّا، كلمات مختصرة لكنها رادعة تماماً ﴿ ۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ونوح هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض بدلالة القرآن والسنة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ ۞إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ وبهذا نعرف أن ما ذكره بعض المؤرخين من أن إدريس هو الجد لنوح، كذب لا شك فيه، وليس قبل نوح رسول وفي حديث الشفاعة التصريح بأنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض[1]، ولذلك كان من عقيدتنا أن أول الرسل نوح، وأن آخر الأنبياء والرسل محمد ﷺ، ﴿ ۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ لم يفصل الله عز وجل هذا التكذيب، لكنه أنزل في ذلك سورة تامة وهي سورة نوح، فصل الله فيها تفصيلاً تامًّا في تكذيبهم وأخذهم، ﴿ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا ﴾ وهو نوح وصفه الله بالعبودية، لأن العبودية أشرف ألقاب البشر، وهي التذلل لله بالطاعة والإنابة والتوكل وغير ذلك، والعبودية من حيث هي ثلاثة أنواع:

عبودية عامة: تشمل جميع الخلق، وهي التذلل للأمر الكوني كقوله تبارك وتعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾. أي: ما كل من في السموات والأرض إلا

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾ (٤٧١٢) ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٤).

هذه حاله: أنه آتي الرحمن عبداً، وهذه العبودية للأمر الكوني، لأن أمر الله عز وجل الكوني لا يمكن لأحد أن يفر منه، مهما كانت قوته.

النوع الثاني: العبودية الخاصة بالمؤمنين: مثل قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ فهذه عامة لكل مؤمن.

الثالث: العبودية الخاصة بالأنبياء: وهذه مثل قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾. ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾. ومن ذلك هذه الآية: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾.

وقد لبث فيهم نوح عليه الصلاة والسلام ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، لكنهم كلما دعاهم إلى الله ليغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا قوله، واستغشوا ثيابهم حتى لا يروه، ولا أبلغ من هذا الاستكبار أن يضع الإنسان يده في أذنيه حتى لا يسمع قول الداعي، وأن يستغشي ثوبه فيتغطى به حتى لا يراه ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾ المجنون فاقد العقل الذي يهذي بما لا يدري قالوا: إنه مجنون، وهذه القولة قيلت لكل الرسل، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ و(أو) هنا إما للتنويع يعني بعضهم يقول: ساحر، وبعضهم يقول: مجنون، أو أنها للتنويع يعني بمعنى أن بعض المكذبين يقول ساحر، وبعضهم يقول: مجنون، أو أنهم يقولون هذا وهذا. ﴿وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ أي: زجر زجراً شديداً، والزجر هو

النهر بشدة وعنف، والدال هنا منقلبة عن تاء، وقد قال العلماء: إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، والمعنى: أنه زجرٌ شديدٌ، وقوله: ﴿وَٱزۡدُجِرَ ۝٩﴾ ينبغي ألا توصل بما قبلها، لأنك لو وصلت وقلت: ﴿وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ۝٩﴾ لتوهَّم السامع أنهم يقولون مجنون وازدجر، يعني زجره غيرنا، لكن المعنى خلاف ذلك، المعنى كذبوا وازدجروه، فإذن الأولَى أن تقف على قوله، ﴿وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ﴾ ثم تصل وتقول: ﴿وَٱزۡدُجِرَ ۝٩﴾ فيكون هنا لم يقتصر هؤلاء المكذبون على أن كذبوا بل كذبوا وزجروا وتوعدوا وسخروا، ولما طال الأمد ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ۝١٠﴾ الله أكبر، كلمتان ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ۝١٠﴾ ولقد دعا أهلاً للإجابة ـ جل وعلا ـ فأجاب الله قال: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١﴾، وفي قراءة (فتَّحْنَا) وكلاهما حق، وينبغي لمن علم القراءة الأخرى أن يقرأ بهذه تارة وهذه تارة، بشرط ألا يكون ذلك بحضرة العوام، لأن العوام لا ينبغي أن تقرأ عليهم قراءة خارجة عن المصحف الذي بأيديهم فتحدث لهم تشويشاً، وربما تهبط منزلة القرآن في نفوسهم، أو ينسبوك إلى الغلط والتحريف، لكن عند طلبة العلم وعند التعليم، أو بينك وبين نفسك ينبغي أن تقرأ بالقراءات الثابتة مرة بهذه ومرة بهذه، كما نقول هذا أيضاً في العبادات المتنوعة تفعل هذه مرة وهذه مرة، كالاستفتاحات ونحوها ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كل باب في السماء انفتح ﴿بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١﴾ أي: منصب صبًّا شديداً، فكان كأفواه القرب، ليس كالذرات المعروفة، بل أشد، ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾، أي عيوناً من المياه، وتأمل قوله

تعالى: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ ولم يقل فجرنا عيون الأرض، كأن الأرض كلها كانت عيوناً متفجرة، حتى التنور الذي هو أبعد ما يكون عن الماء لحرارته ويبوسته صار يفور، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ وفي هذا من الدلالة على قدرة الله تبارك وتعالى ما لا يخفى، وأن هذه الفيضانات التي تحدث إنما تحدث بأمر الله ـ عز وجل ـ، وليست كما قال الطبيعيون: إنها من الطبيعة، يقولون: هاجت الطبيعة، غضبت الطبيعة، وما أشبه ذلك نسأل الله العافية، بل هي بأمر من يقول للشيء كن فيكون، ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ هنا ماءان: ماء نازل من السماء دل عليه قوله: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ وما ء من الأرض نابع دل عليه قوله: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ فلماذا لم يقل فالتقى الماءان، لأن المراد ماء السماء وماء الأرض؟ قال العلماء: إنه أراد الجنس، لأن الجنس هنا واحد، ماء الأرض وماء السماء، أو يقال: لأنه لما كان المقصود بهذين الماءين شيئاً واحداً وهو عذابهم صح إفراده ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ أي: على شيء قد قضاه الله تعالى وقدره في الأزل، فإنه ما من شيء يحدث إلا وهو مكتوب، قال الله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ يعني من أعمال بني آدم، ومما يقع في الأرض كل شيء محصى، ولهذا قال ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ أي: حملنا نوحاً وأهله إلا من سبق عليه القول منهم، وأمره الله تعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ومن آمن معه، وما آمن معه إلا قليل، حمله الله على

ذات ألواح ودسر، يعني على سفينة ذات ألواح ودسر، وكان نوح عليه الصلاة والسلام يصنعها، فيمر به قومه ويسخرون منه قال الله عز وجل: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ وهذه السفينة وصفها الله بأنها ذات ألواح، وألواح جمع منكر يدل على شيئين: الشيء الأول كثرة ألواحها، والثاني: عظمة هذه الألواح، ومتانتها، وحق لسفينة تحمل البشر على ظهرها أن تكون ذات ألواح عظيمة ﴿وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ أي: مسامير، وقيل: إن الدسر ما تربط به الأخشاب فيكون أعم من المسامير، لأن الأخشاب قد تربط بالمسامير وقد تربط بالحبال، فالمهم أن توثيق هذه الألواح بعضها ببعض كان قويًّا، وإنما ذكر الله سبحانه وتعالى مادة صنع السفينة، وأنها من الأخشاب والمسامير، أو الروابط التي تربط بين تلك الأخشاب؛ ليكون ذلك تعليماً للبشر أن يصنعوا السفن على هذا النحو، ﴿تجري﴾ أي: تسير على هذا الماء العظيم الذي بلغ قمم الجبال، والتقى فيه ماء الأرض وماء السماء، ﴿بأعيننا﴾ أي: ونحن نراها بأعيننا، ونكلأها ونحفظها، والباء في قوله: ﴿بأعيننا﴾ للمصاحبة يعني أن عين الله ـ عز وجل ـ تصحب هذه السفينة، فيراها الله ـ عز وجل ـ ويكلأها ويحفظها، لأنها سفينة بنيت لتقوى الله ـ عز وجل ـ وإنجاء أولياءه من الغرق، الذي شمل أعداءه ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ أي: مكافأة لمن كان كُفِر به وهو نوح عليه الصلاة والسلام ـ لأن قومه كفروا به وكذبوه ـ فبين الله ـ عز وجل ـ أن

إنجاء نوح بهذه السفينة كان جزاء له، والله سبحانه وتعالى يجزي المحسنين أكثر من إحسانهم ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ الضمير (هاء) اختلف فيها المفسرون هل المعنى: ولقد تركنا هذه القصة ـ وهي قصة نوح ـ وإغراق قومه، أبقيناها آية لمن يأتي بعدهم، الوجه الثاني: ولقد تركناها، أي: السفينة، والمراد الجنس، أي جنس هذه السفينة أبقيناها آية لمن بعد نوح، وكلا الأمرين محتمل، والقاعدة في التفسير: أن الآية إذا احتملت معنيين لا ينافي بعضهما الآخر، وليس أحدهما بأرجح من الآخر، فإنها تحمل على المعنيين جميعاً، فنقول: إن الله ترك القصة آية وعبرة لمن يأتي بعد نوح، وترك السفينة آية وعبرة يصنع مثلها من يأتي بعده، ويدل لهذا القول وأنه غير ممتنع، أن الضمائر أحياناً تعود إلى الجنس لا إلى الفرد، نظير قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ المراد بالإنسان آدم، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ ليس آدم هو الذي جعل نطفة في قرار مكين، بل الإنسان الذي هو جنس آدم، وهم بنو آدم، ومثل ذلك عند بعض العلماء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ ليست المصابيح التي في السماء هي التي ترجم الشياطين، ولكنها شهب تخرج منها فترجم الشياطين.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ الاستفهام هنا للتشويق، يعني هل أحد يدَّكر ويتعظ بما جرى للمكذبين للرسل من إهلاكهم وتدميرهم،

وقيل: إن الاستفهام للأمر، وأن المعنى فادكروا، وسواء قلنا للتشويق أو للأمر، فإن الواجب علينا أن نتذكر وأن نخشى من عقاب الله تبارك وتعالى، وعقاب الله تعالى لهذه الأمة خاصة لا يمكن أن يشملهم جميعاً، لكن قد يشمل مناطق معينة تؤخذ بالعذاب بما فعل السفهاء منهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ كيف هنا للتفخيم والتعجب، يعني: ما أعظم العذاب والنذر! وقيل: إن الاستفهام للتقرير، يعني أن الله يقررنا بالعذاب وبالنذر، لكن المعنى الأول أقرب للتفخيم والتعظيم، أي ما أعظم عذابي النازل بأعدائي، وما أعظم نذري التي تنذر وتخوف من العقاب أن ينزل بمن خالف، فهذا العذاب الذي حصل لقوم نوح عذاب يعتبر من النذر المخوفة لنا من مخالفة أمر الله ورسوله، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ يعني سهلنا، والقرآن هو كتاب الله الذي نزل على محمد ﷺ، وسمي قرآناً، لأنه يقرأ أي يتلى، وقوله ﴿لِلذِّكْرِ﴾، قال بعضهم: للحفظ، وأن القرآن ميسر لمن أراد أن يحفظه، وقيل: يسر معانيه لمن تدبر، ويسر ألفاظه لمن حفظ، وقيل المراد بالذكر الادكار والاتعاظ، يعني أن من قرأ القرآن ليتذكر به ويتعظ به سهل عليه ذلك واتعظ وانتفع، وهذا المعنى أقرب للصواب بدليل قوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ يعني: هل أحد يدكر، مع أن الله سهل القرآن للذكر، أفلا يليق بنا وقد سهل الله القرآن للذكر أن نتعظ ونتذكر؟ بلى هذا هو اللائق، فهل من مدكر.

﴿كذبت عاد﴾ هذه هي الأمة الثانية ممن قصهم الله علينا في هذه السورة الكريمة، وعاد تتلوا قوم نوح غالباً، وقد تتقدم عليها كما في سورة (الذاريات)، ولكن الغالب أن قصة نوح هي الأولى في قصص الأنبياء لأنه أول نبي أرسل إلى أهل الأرض، وعاد هم قوم هود، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ كذبوا نبيهم هوداً عليه الصلاة والسلام، وكانوا أقوياء أشداء، وكانوا يفتخرون بشدتهم وقوتهم، ويقولون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ يقول هنا ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾، والجواب: كان شديداً عظيماً واقعاً موقعه، فالاستفهام للتفخيم والتعظيم والتقرير، وهو أن عذاب الله كان عظيماً، وكان واقعاً موقعه، ﴿وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾ يعني: آياته، كذلك كانت عظيمة واقعة موقعها، فبماذا أهلكهم الله؟ أهلكهم الله بألطف شيء وهو الريح التي تملأ الآفاق، ومع ذلك لا يحس الإنسان بها، لأنها سهلة لينة يخترقها الإنسان بسهولة، مكاننا الذي نحن فيه مملوء بالهواء ومع ذلك نخترقه ولا نحس به، فهي من ألطف الأشياء، فأهلك الله عاداً الذين يفتخرون بقوتهم بهذه الريح، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾ الجملة هنا مؤكدة بإن و﴿أَرْسَلْنَا﴾ يعني الرب ـ عز وجل ـ نفسه، وجمع الضمير للتعظيم ﴿عَلَيْهِمْ﴾، أي على عاد ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾، أي: ذات صرير لقوتها وشدتها، حتى إن مجرد نفوذها يسمع له صرير، وإن لم تصطدم بما يقتضي الصرير، لأنها قوية جداً، وهي الريح

الغربية، أتت من جهة الغرب لعاد، فقالوا: هذا عارض ممطرنا. وكانوا قد أجدبوا قبل ذلك سنوات، فلما أقبلت بسوادها وعظمتها وزمجرتها قالوا: هذا عارض ممطرنا، ولكن الأمر كان بالعكس، كانت ريحاً فيها عذاب أليم، كانت ريحاً عقيمة ليس فيها مطر، ولا يرجى أن يأتي منها مطر، ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾، أي: في يوم شؤم مستمر بالنسبة لعاد، وليس كل وقت، فاليوم الذي أهلكوا فيه ليس هو نفسه نحساً مستمر، ولكنه بالنسبة لهؤلاء كان يوم نحس مستمراً، كما قال الله تعالى عن قوم نوح: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ هؤلاء أهلكوا بالريح فأدخلوا النار، فالنحس أي الشؤم كان مستمراً معهم، فعذاب الآخرة متصل بعذاب الدنيا ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: تأخذهم بشدة وقوة وترفعهم إلى السماء ـ نسأل الله العافية ـ حتى قال بعضهم: ترفعهم حتى يغيب الإنسان عن الرؤية من علوه، ثم تطرحه في الأرض، وإذا سقطوا على الأرض سقطوا على أم رؤوسهم ثم انفصل الرأس عن الجسد من شدة الصدمة، تنزع الناس ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في حال سقوطهم الأرض ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾، أعجاز أي أصول، والنخل معروف، والمنقعر الساقط من أصله، يعني كأنهم نخل سقط من أصله بقيت جثته، وصاروا كأعواد النخل؛ لأنه ليس لهم رؤوس على ما قال المفسرون، حيث إن رؤوسهم انفصلت من شدة الصدمة، فسبحان القوي العزيز، هؤلاء القوم الأشداء الأقوياء وصلوا إلى هذه الحال بريح من عند الله ـ عز وجل ـ تنزع الناس: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

وهنا قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾، وفي الحاقة قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾، والمعنى متقارب، لكن من بلاغة القرآن أن يجري الكلام فيه على نسق واحد، فهناك ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ مناسب للفواصل التي في الحاقة، أما هنا ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ مناسب للفواصل التي في سورة القمر، لأن تناسب الكلام واتساقه من كمال بلاغته ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾، كرر الله تعالى هذا عند آخر كل قصة من أجل أن نحرص على التذكر بالقرآن، وتدبر القرآن، وتفهم القرآن؛ لأنه ميسر، والجملة مؤكدة بمؤكدات ثلاثة: القسم، واللام، وقد، مما يدل على الترغيب في تذكر القرآن والتذكر به، فهل من مدكر، نرجو الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من المدكرين بكتاب الله ـ عز وجل ـ.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ أي: بما جاءهم من النذر، وهي الآيات التي جاء بها صالح عليه الصلاة والسلام، وديارهم معروفة الآن ببلاد الحجر في طريق تبوك من المدينة، وكان صالح عليه الصلاة والسلام أُرسل إلى قومه، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له كسائر الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أرسله الله عز وجل إلى قومه، وأعطاه آية وهي ناقة لها شرب ولهم شرب، أي

أن بئر الناقة الكبير الغزير الماء، وقد ذكروا أنها إذا شربت إناء من الماء فإن الذي يسقيها إناء من الماء يحلب من لبنها بقدر ما أسقاها، وهذا من آيات الله أن ناقة تشرب ماء ثم تخرجه في الحال لبناً، فإن هذا ليس له عادة، ولكنها آية من آيات الله ـ عز وجل ـ أراهم الله تبارك وتعالى إياها حتى يعتبروا، لأن الله لم يرسل رسولاً إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، رحمة منه وحكمة، لأنه لا يعقل أن رجلاً من بين الناس يأتي ويقول: إني رسول الله إليكم. إلا إذا أتاه الله آيات تدل على صدقه. قال العلماء: وما من آية أوتيها نبي من أنبياء الله السابقين إلا كان لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مثلها أو أشد، ولكن قد تكون غير متوفرة في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ولكنها موجودة في أمته الذين اتبعوه، ولهذا كان من القواعد المقررة عند العلماء. (أن كل كرامة لولي فهي آية للنبي الذي اتبعه)، لأن هذه الكرامة تشهد بصدق ما كان عليه الولي، وهذا الولي تابع لرسول سابق، فيكون في ذلك آية على أن هذا الشرع الذي عليه هذا الولي حق، وهذه تكون آية للنبي، وعليه فنقول: من آيات موسى أنه يضرب الحجر، وإذا ضربه انفجر عيوناً، تنبع ماء من حجر يابس، فهل كان لرسول الله ﷺ مثله؟ الجواب: كان له أعظم، فإن النبي ﷺ جيء إليه بقدح من ماء وليس مع الناس ماء إلا ما في هذه الركوة فوضع يده فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابع يده

كالعيون[١] ، سبحان الله، وهذا أعظم من آية موسى، لأن آية موسى يخرج الماء من الحجر، وخروج الماء من الحجر معتاد، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لكن لم تجر العادة أن يخرج الماء من الإناء الذي بينه وبين الأرض فاصل إذن هذه أعظم، وموسى عليه الصلاة والسلام ضرب البحر فانفلق فكان أسواقاً يابسة، وهذه لا شك آية عظيمة، وجرى لهذه الأمة أعظم من هذه، مشوا على الماء دون أن يضرب لهم طريق يبس، مشوا على الماء المائع الهين الذي يغوص فيه من يقع فيه، مشوا بدوابهم وأرجلهم ولم يغرقوا، وذلك في قصة العلاء بن الحضرمي[٢] ، وفي قصة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم، مشوا على الماء، وهذا أعظم من أن يمشوا على الأرض التي تفرق عنها الماء، وآية صالح عليه السلام هذه الناقة لها شرب ولثمود شرب، لها يوم ولهؤلاء يوم، وقد وقع مثلها لرسول الله عليه الصلاة والسلام في الهجرة، فإنه مر براعي غنم وعنده ماعز أو ضأن ليس فيها لبن، فمسح النبي ﷺ ضرعها فجعلت تبش من اللبن[٣] ، فالمهم أنه ما من نبي بعثه الله إلا أعطاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، قلنا: هذا رحمة وحكمة: رحمة بالناس من أجل أن تحملهم هذه الآيات على التصديق فينجو من عذاب الله، وحكمة، لأنه ليس من الحكمة أن يقوم إنسان من بين الناس

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأشربة، باب شرب البركة والماء المبارك (رقم ٥٦٣٩).

(٢) انظر: صفة الصفوة (١/ ٣٥٢ - ٣٥٣).

(٣) انظر: صفة الصفوة ١/ ٧٠ - ٧١).

ويقول: أنا رسول الله. حتى يؤتى آيات. يقول عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ النذر جمع نذير، والمراد به الآيات التي أوتيها صالح عليه الصلاة والسلام، فقالوا من جملة ما قالوا في تكذيبهم ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ أنكروا الآيات وما كأنها أتت، يعني أنتبع بشراً منا واحداً، لا نقبل، وهذا النفي بمعنى الإنكار، يعني لا يمكن أن نتبع واحداً منا ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ يعني إنا إن اتبعناه لفي ضلال وسعر، أي لفي جهل وفي عذاب، كأنه وعدهم بأنهم إن اتبعوه اهتدوا ونجوا من النار، فقالوا بالعكس: لو اتبعناه لضللنا واحترقنا بالسعر بالنار، عكس ما قال، وهذا من أشد المراغمة للرسل عليهم الصلاة والسلام، والمحادة لله تبارك وتعالى، ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ هذا أيضاً استفهام احتقار، يعني كيف يلقى الذكر عليه من بيننا، ما الذي ميزه، وكل ما ذكروا شبهات، لا دلالات، فكونه بشراً لا يمنع أن يكون رسولاً، بل لابد أن يكون رسول البشر بشراً، لأن الله قال: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ يعني لو أرسلنا ملكاً للزم أن نجعله في صورة البشر حتى يمكن أن يختلط بالناس ويأتلف بهم، وإذا جعلنا الملك بشراً لبسنا عليهم ما يلبسون، فعادت المسألة مختلطة. الشبهة الثانية: أنه منا لا يتميز علينا بشيء، الثالثة: أنه واحد لم يؤيد، والله عز وجل يقول: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ وهؤلاء يقولون: واحد لابد يعزز بثاني وثالث، الرابعة: أألقي الذكر عليه من بيننا؟ يعني كيف يلقى عليه

الذكر والوحي من بيننا؟ هذا لا يمكن، أربع شبهات وهم يرونها حججاً توجب رد صالح عليه الصلاة والسلام، والواقع إنها ليست بحجج، بل هي شبه وتضليل، وهكذا المبطلون في كل زمان ومكان يوردون الشبه على الحق، ولكن الله سبحانه وتعالى لابد أن يبين الحق، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة، ثم قالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ ﴿بَلْ﴾ هنا لإبطال دعواه أنه حق ﴿كَذَّابٌ﴾ صيغة مبالغة وفي نفس الوقت وصف، لأن كلمة فعال تأتي للمبالغة وتأتي للوصف، فإذا قلت: فلان نجار، يعني من النجارين، وإن لم ينجر إلا مرة واحدة، وإذا قلت فلان نجار لكثرة النجارة صارت مبالغة، فهم يرون ـ والعياذ بالله ـ أنه كذاب موصوف بالكذب، ليس له صفة إلا الكذب، وكثير الكذب أيضاً ﴿أَشِرٌ﴾ أي: بطر متعال، متعاظم مستكبر، مدع ما ليس له، قال الله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ سيعلمون غداً أي: يوم القيامة، والسين هنا للتحقيق والتقريب، لأنك إذا قلت سيقوم زيد فهذا تأكيد وتقريب أيضاً، فإذا قال قائل: التقرير معروف أن الساعة آتية لا ريب فيها، لكن كيف التقريب؟ قلنا: إن الله يقول: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ ومن الأمثال العابرة (كل آت قريب)، والذي بقي عليه ألف سنة أقرب من الذي لم يمض عليه إلا عشر دقائق، لأن الذي مضى عليه عشر دقائق لا يمكن أن يرجع، لكن المستقبل لابد أن يأتي، ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ وسمي يوم القيامة غداً لأنه يأتي بعد يومه، ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾، أصالح هو أم هؤلاء

الكذاب الأشر، وهذا وعيد عظيم، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ والإنسان في غفلة عن هذا اليوم العظيم، قال الله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ يعني من عمل الآخرة، ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ مغطاة عن عمل الآخرة، ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ يعني أعمال الدنيا هم لها عاملون، وأتى بجملة اسمية يعني أنهم محققون للعمل فيها لا يتركونها ولا يفرطون فيها، وأماالآخرة فهم في غفلة منها ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ ﴿إِنَّا﴾ يعني نفسه ـ جل وعلا ـ وأتى بصيغة الجمع تعظيماً له ـ جل وعلا ـ لعظمة صفاته، وكثرة كلماته، وكثرة جنوده، فلذلك يكني عن نفسه بصيغة التعظيم، ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾، يعني باعثوها فتنة لهم واختباراً، هل يؤمنون أو لا يؤمنون، فلم يؤمنوا، وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى قد يظهر للإنسان من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، حتى إذا استكبر كان استكباره عن علم، فكان عقابه أشد وأوجع، ولهذا جعل الله الناقة فتنة، لأنها أظهرت الحق لهم، ولكن لم يقبلوه، وانتبه لهذا الاستدراج من الله ـ عز وجل ـ إذا يسر الله لك أسباب المعصية، فلا تفعل، فإن الله ربما ييسر أسباب المعصية للإنسان فتنة له، أرأيتم أصحاب السبت من بني إسرائيل يسرت لهم أسباب المعصية فتنة، وهي أن الله حرَّم عليهم صيد السمك يوم السبت فكانت الحوت تأتي يوم السبت شرَّعاً على وجه الماء وبكثرة عظيمة، لكنهم ملتزمون لم يصيدوا السمك في يوم السبت، فلما طال عليهم الأمد عجزوا عن ملك أنفسهم، فرجعوا إلى طبيعتهم وهي الغدر والحيلة والمكر،

فاحتالوا على صيد السمك، صاروا يجعلون شباكاً يوم الجمعة فتأتي الحيتان وتدخل في الشباك، فإذا كان يوم الأحد أخذوا الحيتان، وهذه حيلة واضحة، فقلبهم الله قردة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ وفي صدر هذه الأمة حرم الله على المحرمين الصيد ﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ فبعث الله الصيد عليهم وهم محرمون تناله أيديهم ورماحهم، يعني أن الذي يمشي على الأرض يمسكونه باليد مثل الأرنب والغزال يمسكه الواحد باليد. والطائر الذي كان لا ينال إلا بالسهم لأنه بعيد، صار يطير وكأنه على الأرض، الرمح يدركه، فتنة، فهنا يسر الله لهم أسباب المعصية، لكن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وهم خير الناس لم يأخذ أحد منهم صيدة واحدة رضي الله عنهم، بينما بنو إسرائيل تحيلوا وخادعوا الله، أما سلف هذه الأمة، وفقنا الله لموافقتهم في الدنيا في أعمالهم وفي الآخرة في مساكنهم فإنهم لم يأخذوا.

وهذه الناقة أرسلها الله تعالى فتنة لثمود لكن ما أغنتهم ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي: ارتقب عذابهم، أو ارتقب أفعالهم، وانظر ماذا يفعلون ﴿ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ ﴾ يعني اصبر، وأصل اصطبر (اصتبر) بالتاء للمبالغة، لكن قلبت التاء طاء لعلة تصريفية اقتضتها اللغة العربية، يعني أن الله قال لرسولهم صالح عليه السلام: ارتقب هؤلاء واصطبر فالنصر قريب، ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ﴾، أخبرهم أن الماء قسمة بينهم كل له شرب وللناقة شرب، ولهذا قال ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾، يعني كل شرب يحضره

من يستحقه، إما الناقة وإما هم، وبقواعلى هذا لكن لم يستمروا، ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ الذي يرونه قويًّا شجاعاً، وقالوا له: هذه الناقة ضايقتنا لو أننا عقرناها لكنا نشرب كل يوم، فطلبوا منه أن يعقرها ـ نسأل الله العافية ـ وهذا الصاحب القوي الشجاع الذي يرونه أشد منهم إقداماً، بقطع النظر عن اسمه، فبعض المفسرين سماه، لكن لا يهمنا لم يتأخر، بل بادر ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ تعاطى تفاعل من العطاء يعني بذل نفسه وبسرعة، ويدل على السرعة الفاء في قوله ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ من حين نادوه، وافق ﴿فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾، عقر الناقة ـ نسأل الله العافية ـ قطع أطرافها أولاً، ثم نحرها ثانياً، وهي من آيات الله ـ عز وجل ـ ومن مصالحهم ـ لكن نسأل الله العافية ـ نفوسهم لا تقبل، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾ يقول الله ـ عز وجل ـ مخاطباً الإنسان: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾؟ هل وقع موقعه؟ وهل كان شديداً؟ الجواب: نعم، كان في موقعه، وكان شديداً، ما هذا العذاب؟ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صيح بهم ـ والعياذ بالله ـ مع الرجفة، ففي السماء أصوات، وفي الأرض رجفان، أخذتهم الرجفة والصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأنهم لم يغنوا فيها، كأنهم ما وجدوا ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ يعني الحضار يجعله الإنسان لغنمه فالأعرابي في البادية يجعل على الغنم حضار من الشجر اليابس ومن عسب النخل، وما أشبه ذلك، لئلا تخرج، ولئلا تعدو عليها السباع. هذا الحضار مع طول الزمن والشمس والرياح يتفتت حتى يتلاشى، كان هؤلاء الأقوياء الأشداء المكذبين لرسولهم كانوا كهشيم المحتضر، أي كالحضار حينما

يتلف، وهذا من آيات الله ـ عز وجل ـ وتمام قدرته وسلطانه ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ فكانوا كهشيم المحتضر ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾ سبق تفسيرها، والمعنى أن الله تعالى يسر القرآن، أي يسر معانيه لمن تدبره، ويسر ألفاظه لمن حفظه، فإذا اتجهت اتجاهاً سليماً للقرآن للحفظ يسره الله عليك، وإذا اتجهت اتجاهاً حقيقيًّا إلى التدبر وتفهم المعاني يسره الله عليك ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾ وهل للتشويق، يشوقنا الله ـ عز وجل ـ إلى أن ندكر القرآن فنتعظ به، جعلنا الله ممن يتلونه حق تلاوته لفظاً ومعنى وعملاً، إنه على كل شيء قدير.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ﴾ قوم لوط هم أناس كفروا بالله ـ عز وجل ـ وأشركوا به، وكان مما اختصوا به من المعاصي هذه الفعلة القبيحة الشنيعة وهي اللواط، أي إتيان الذكر، وحذرهم نبيهم من هذا وقال لهم ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ استمروا على هذا حتى جاءهم العذاب ﴿بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾ النذر: جمع نذير، وهي الكلمات التي أنذرهم بها لوط عليه الصلاة والسلام، وجمعها يدل على أنه كان يكرر عليهم هذا، ولكنهم أبوا وأصروا على هذا الفعل، فبين الله عقوبتهم بقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ ﴿حَاصِبًا﴾ أي: شيئاً يحصبهم من السماء، أمطر الله عليهم حجارة من سجيل، فهدمت بيوتهم حتى كان عاليها سافلها، لأن البناء إذا تهدم صار أعلاه أسفله ﴿إِلَّآ ءَالَ

﴿لُوطٍ﴾، آل لوط هم أهل بيته، إلا زوجته كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ وانظر نبي يبعث إلى قومه ولم يتبعه إلا آل بيته إلا امرأته أيضاً فكانت كافرة ومع ذلك فهو صابر حتى أذن له بالخروج ﴿نَجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ أي: في السحر بالصباح، وذلك أن هؤلاء القوم أخذهم العذاب صباحاً، كما ابتدأ عذاب عاد بالصباح، سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، لأنه ابتدأ بالصباح فأخذهم العذاب ـ والعياذ بالله ـ في الصباح، فأهلكهم الله ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، أي: أنعمنا على آل لوط نعمة من عند الله ـ عز وجل ـ من وجهين:

الوجه الأول: أن الله أنجاهم.

والوجه الثاني: أن الله أهلك عدوهم، لأن إهلاك العدو من نعمة الله، فصارت نعمة الله على آل لوط بالنجاة وإهلاك العدو ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: مثل هذا الجزاء، وهو الإنجاء والنعمة ﴿نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ نعمة الله، وشكر نعمة الله تعالى هي القيام بطاعته، وليست مجرد قول الإنسان: أشكر الله، بل لابد من القيام بالطاعة، ولهذا من قال أشكر الله، وهو مقيم على معاصيه فإنه ليس بشاكر، بل هو كافر بالنعمة مستهزىء بالله ـ عز وجل ـ، إذ إن مقتضى النعمة أن يشكر الله، ولكنه عكس الأمر، قال الله تعالى: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ فكل من شكر الله فإن الله تعالى ينجيه ويهلك عدوه، ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ يعني أن لوطاً عليه الصلاة والسلام أنذر قومه البطشة، وهي الأخذ بالقوة

﴿ فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ ﴾ أي: تشككوا فيه ولم يؤمنوا به، ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ ﴾، أي: راودوا لوطاً عن ضيفه الذي جاء إليه من الملائكة، وكان الله تعالى قد بعث إليه الملائكة على صورة شباب مُرد، ذوي جمال وهيئة، امتحاناً من الله ـ عز وجل ـ، فلما سمع قوم لوط بهؤلاء الضيف أتوا يهرعون إليه يسرعون، يريدون هؤلاء الضيف، ليفعلوا بهم الفاحشة ـ والعياذ بالله ـ ﴿ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾ أي: فطمس الله أعينهم، أما كيف طمس أعينهم هل جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه أو غير ذلك؟ الله أعلم، إنما علينا أن نؤمن بأن الله تعالى طمس أعينهم، حتى أصبحوا لا يبصرون، ﴿ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾ الأمر هنا للامتهان، أو إنه أمر كوني، يعني أن الله أمرهم أمر إهانة، أو أمراً كونياً أن يذوقوا العذاب، ومثل هذا قول الله تبارك وتعالى عن صاحب الجحيم ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ فإن هذا الأمر أمر إهانة بلا شك وليس أمر إكرام ولا أمر إباحة، ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ ﴾ يعني أن العذاب صبحهم أتاهم في الصباح على حين قيامهم من النوم، واستقبالهم يومهم وهم فرحون، كل واحد منهم يفكر فيما يفعل هذا اليوم، فإذا بالعذاب يقع بهم، نسأل الله العافية ﴿ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ من العبر في هذه الآية أن هؤلاء الذين قلب الله فطرتهم وطبيعتهم قلب الله عليهم البنيان برميهم بحجارة من سجيل، فتهدم البنيان حتى صار أعلاه أسفله، وقيل: إن الله تعالى قلب بهم ديارهم اقتلعها من أساسها حتى رفعها ثم قلبها، فإن صح هذا فالله على كل شيء

قدير، وإن لم يصح فليس لنا إلا أن نأخذ بظاهر القرآن، أنهم أمطروا بحجارة من سجيل، فتهدم البناء عليهم[١] ، وأخذ أهل العلم من ذلك أن اللوطي يقتل بكل حال، الفاعل والمفعول به، وهذا هو القول الراجح أن اللواط يجب فيه القتل على كل حال وليس كالزنا، فالزنا يفرق فيه بين المتزوج وغير المتزوج، أما اللواط فيقتل فيه على كل حال مادام الفاعل والمفعول به بالغين عاقلين، فإنه يجب قتلهما بكل حال إلا المكره، فليس عليه شيء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: أجمع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على قتل الفاعل والمفعول به، إلا أنهم اختلفوا كيف يقتلان، فقال بعضهم: يقتلان بالرجم بالحجارة حتى يموتا، وقال بعضهم: يقتلان بأن يلقيا من أعلى مكان في البلد ويتبعان بالحجارة، وحرق أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ اللوطي بالنار، وكذلك خالد بن الوليد وأحد خلفاء بني أمية حرقوهم بالنار لعظم جرمهم ـ والعياذ بالله ـ، ولأن هذه الفاحشة إذا انتشرت في قوم صار الرجال نساء، وصار الواحد منهم يتتبع فحول الرجال حتى يفعلوا به الفاحشة ـ والعياذ بالله ـ وانقلبت الأوضاع وضاع النسل بمعنى أن الناس ينصرفون إلى الذكور، ويدعون النساء اللاتي هن حرث للرجال، والتحرز منه صعب، لأنه لا يمكن أن نجد اثنين ونقول: كيف صحبت هذا؟ لكن لو وجدنا رجلاً وامرأة يمكن التحرز منهما، فلذلك كان دواء المجتمع من هذه الفعلة القبيحة الشنيعة أن يقتل الفاعل والمفعول به، وقد جاء في ذلك حديث

---

(١) انظر تفسير فضيلة الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ سورة الصافات، الآيات: ١٣٣ ـ ١٣٨ .

عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»[١] ولهذا يجب علينا أن نحترز من هذا غاية الاحتراز، وأن نتفقد أبناءنا أين ذهبوا ومن أين جاءوا، ومَن أصدقاءهم، وهل هم على الاستقامة أو لا؛ حتى نحمي المجتمع من هذا العمل الخبيث، ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾ يسر الله ـ عز وجل ـ القرآن للذكر لحفظه ولفهم معناه، وهذا الخبر يراد به الحث على حفظ القرآن وعلى تدبر معناه؛ لأنه ميسر سهل، وأنت جرب تدبَّر في آيات الله ـ عز وجل ـ لتفهم معناها، وانظر كيف ييسر الله ـ عز وجل ـ لك فهمها حتى تفهم منها ما لا يفهمه كثير من الناس، ولهذا قال ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾؟ والاستفهام هنا للتشويق، والمعنى هل أحد يدكر ويتعظ بما في القرآن الكريم.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ الجملة مؤكدة بالقسم المقدر واللام وقد، ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾ يعني قومه وعلى رأسهم فرعون، كما أخبر الله تعالى في آيات أخرى متعددة أنه أرسل موسى إلى فرعون وملأه والنذر قيل: بمعنى الإنذار والتخويف. وقيل: إنه جمع نذير وهو كل ما ينذر به العبد، والمراد به الآيات التي جاء بها موسى، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ وهذا الأخير هو الصحيح أن النذر جمع نذير، وليست بمعنى الإنذار، ويدل لهذا قوله ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ أي: كل الآيات الدالة

---

(١) تقدم (ص ٨٦).

على صدق رسالة موسى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كذبوا بها وقالوا: إن موسى مجنون، وإنه ساحر، حتى إن فرعون من كبريائه قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾، ولما كذبوا بالآيات أخذهم الله ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ أي: غالب، ﴿مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ أي: قادر، ولكنها أبلغ من كلمة (قادر) لما فيها من زيادة الحروف، وإنما ذكر الله تعالى أنه أخذهم ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ لأن فرعون كان متكبراً، وكان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾، وكان يسخر من موسى ومن أرسله، فناسب أن يذكر الله تعالى أخذه أخذ عزيز مقتدر، وقد أجمل الله تعالى هذه القصة في هذه الآية، ولكنه بينها في آيات كثيرة، وأن أخذهم كان بإغراقهم في البحر، فأغرقه الله ـ عز وجل ـ بمثل ما كان يفتخر به، لأنه كان يقول لقومه: يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، يقررهم بهذا، سيقولون: بلى، أفلا تبصرون. ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾، يعني بذلك موسى، فأغرقهم الله في اليم حين جمع فرعون جنوده واتبع موسى ومن اتبعه ليقضي عليهم، ولكن الله بحمده وعزته قضى عليهم، ثم قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ الخطاب هنا لقريش، أي: يعني هل كفاركم خير من هذه الأمم السابقة التي أهلكها الله؟ ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ يعني أم لكم براءة في الكتب أن الله مبرئكم من عاقبة أفعالكم؟ والجواب لا هذا ولا هذا، يعني إما أن يكون كفاركم خير من الكفار السابقين، وإما أن يكون لكم براءة من الله ـ عز وجل ـ كتبها الله لكم ألا يعاقبكم، وكل هذا لم يكن، فليس كفارهم خيراً من

الكفار السابقين، وليس لهم براءة في الزبر، ولهم دعوى ثالثة ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾، أم هنا بمعنى بل الإضرابية، وهي إضراب الانتقال، يعني: بل يقولون نحن، والضمير لقريش ﴿جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾، جميع هنا بمعنى جمع، ولهذا قال ﴿مُّنتَصِرٌ﴾، ولم يقل منتصرون، يعني جمع كثير منتصر على محمد وقومه، هذا معنى كلامهم، فأعجبوا بأنفسهم، وظنوا أنهم قادرون على القضاء على محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ورسالته، فماذا كان جوابهم من الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: يخذلون شر خذيلة، ويولون الدبر، ولا يستطيعون المقاومة ولا المدافعة ولا المهاجمة، مع أنهم كانوا يقولون نحن جميع منتصر، ولكن لا انتصار لهم، وهذا هو الذي وقع ولله الحمد، وأول ما وقع في غزوة بدر حين اجتمع كبراؤهم ورؤساؤهم وصناديدهم في نحو ما بين تسعمائة إلى ألف رجل، في مقابل ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً مع النبي ﷺ فهزموا ـ والحمد لله ـ شر هزيمة، وتحدثت بهم الأخبار، وألقي أربعة وعشرون نفراً من رؤسائهم في قليب من قلب بدر خبيثة منتنة، وهذه شر هزيمة لا شك، ولذا قال: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾، هذه عقوبتهم في الدنيا، أما في الآخرة: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ يعني أضف إلى ذلك أن الساعة موعدهم وهو يوم البعث ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ أي: أشد فتكاً، وأمرُّ مذاقاً، لأن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، ثم قال الله ـ عز وجل ـ مبيناً ماذا يحدث لهم ولأمثالهم فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾

الضلال في الدنيا لا يهتدون، والسعر في الآخرة، أي: في نار شديدة التأجج تحرقهم، كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها، ليذوقوا العذاب. ويحتمل أن قوله ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ أي: في ضلال عن الطريق الذي يهتدون به إلى الجنة، لأنهم ضلوا في الدنيا فضلوا في الآخرة ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يسحبون سحباً كما تسحب الجيفة، ليبعد بها عن المنازل، وليسوا يسحبون على ظهورهم ولكن على وجوههم ـ والعياذ بالله ـ ويقال: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ ولقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يتقي بوجهه وكان يتقي في الدنيا الحر بيديه لوقاية وجهه، لكنه في النار ليس له ما يقي وجهه النار، بل يتقي بوجهه نسأل الله العافية، فهم يسحبون في النار على وجوههم، وهذه ليست أساطير الأولين، وليست قصصاً تقال، هذه حقيقة نشهد بها ـ والله ـ كأننا نراها رأي العين، لابد أن يكون هذا لكل مجرم ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ الساحب هم الملائكة الموكلين بهم، لأن للنار ملائكة موكلين بها، ويقال ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾، انظر إلى الإذلال: جسدي وقلبي، الجسدي هو أنهم يسحبون على وجوههم، والقلبي أنهم يوبخون، ويقال: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾، مس أي: صلاها، وسقر من أسماء النار ـ نسأل الله العافية ثم قال ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ لما ذكر عذاب أهل النار ثم سيذكر نعيم أهل الجنة، ذكر بينهما أن هذا الخلق وتفاوته بقدر الله ـ عز وجل ـ فكل شيء مخلوق فهو بقدر، كل ذرة في رملة فهي مخلوقة بقدر،

وكل نقطة تقع على الأرض من السحاب فهي مخلوقة بقدر، وكل شيء تعم ما سوى الخالق، لأنه ما ثم إلا مخلوق وخالق، فإذا كان كل شيء مخلوقاً كان الخالق وحده الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، قال النبي ﷺ: «**كل شيء بقدر حتى العجز والكيس**»[1] العجز يعني تكاسل الإنسان، والكيس يعني حزم الإنسان ونشاطه في طلب ما ينفعه والبعد عما يضره، وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الإنسان مخلوق لله تعالى، وأن أفعاله مخلوقة لله، وأن كل شيء قد قدر وانتهى، وإذا كان كذلك فيلجأ الإنسان إذا أصابته ضراء إلى الله الخالق، وإذا أراد السراء أيضاً يلتجىء إلى الله الخالق، لا يفخرن ويعجبن بنفسه إذا حصل له مطلوب، ولا ييأسن إذا أصابه المكروب، فالأمر بيد الله، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف**»[2] القوي في إيمانه، والقوي في إرادته وهمته ونشاطه، وليس المراد القوي في بدنه، فقوة البدن إما لك وإما عليك، إن استعملتها في العمل الصالح فهي لك، وإن عجزت عنه مع فعلك إياه في حال القوة كتب لك، وإن استعملت هذه القوة في معصية الله كانت عليك، لكن المراد بقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «القوي» أي: في إيمانه وإرادته، أما قوة البدن فهي لك أو عليك، قال: «**وفي كلٍّ خير**» أي: في كل

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كل شيء بقدر (٢٦٥٥).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز (٢٦٦٤).

من القوي والضعيف خير، وهذه الجملة يسميها علماء البلاغة جملة احترازية، لأنه لما قال: «**المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف**» يظن الظان أن المؤمن الضعيف ليس فيه خير، فقال: «**وفي كل خير**». ولها نظائر قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ يعني من قبل صلح الحديبية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ كلاًّ من هؤلاء وهؤلاء، يعني فلا تظنوا أن هذا التفاوت يحط من قدر الآخرين ويحرمهم الخير، وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ فهنا قال النبي ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**»[1] فإذا فعلت ذلك حرصت على ما ينفع واستعنت بالله، وكنت حازماً نشيطاً وقويًّا في مرادك، إن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله يعني هذا قدر الله، وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان، أنت عليك أن تسعى للخير، وليس عليك أن يتم لك ما تريد، المهم أن كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس، فمن قدر الله له الهداية، ومن قدر له الشقاء فهو بقدر، ولكن السبب لتقدير الله الشقاء على العبد هو نفس العبد، لقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾.

---

(١) تقدم ص ٢٩٢.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ يعني ما أمرنا فيما نريد أن يكون ﴿إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ أي: إلا مرة واحدة، بدون تكرار ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ بدون تأخر ـ سبحان الله ـ أمر الله ـ عز وجل ـ واحدة لا تكرار، بسرعة فورية أسرع ما يمكن أن يكون كلمح للبصر، كن فيكون، واشتهر عند العوام يقولون: يا من أمره بين الكاف والنون، وهذا غلط ليس أمر الله بين الكاف والنون، بل بعد الكاف والنون، لأن الله قال: كن فيكون، بعد كن، فقولهم بين الكاف والنون غلط لأنه لا يتم الأمر بين الكاف والنون، بل لا يتم الأمر إلا بالكاف والنون، أي بعد الكاف والنون فوراً كلمح بالبصر، وإن شئت أن ترى عجائب ذلك فانظر إلى الزلازل تصيب مئات القرى، أو آلاف القرى وبلحظة واحدة تعدمها، لو جاءت المعاول والدركترات والقنابل ما فعلت مثل فعل لحظة واحدة من أمر الله ـ عز وجل ـ، واسأل الخبراء بالزلازل تجد الجواب، وانظر إلى ما هو أعظم من ذلك، الموتى في قبورهم، والحشرات والحيوانات وكل الأشياء تبعث يوم القيامة بكلمة واحدة، كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣﴾ صيحة واحدة فقط، ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾، كلهم ﴿لَّدَيْنَا﴾ أي عندنا ﴿مُحْضَرُونَ ۝٥٣﴾ فصدق الله ـ عز وجل ـ وعده ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ مثل لمح البصر.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١﴾ الخطاب لكفار قريش، وقوله: ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي: أشباهكم من الكفار السابقين، وقد قص الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه السورة من

نبئهم ما فيه عبرة وعظة، قص علينا ما حصل لقوم نوح، وما حصل لعاد، ولثمود، ولقوم لوط، ولآل فرعون، وفي هذا مدكر لمن أراد الادكار، ولهذا قال: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ ﴾، يعني هل من متعظ ومعتبر بما جرى على السابقين أن يجري على اللاحقين، لأن الله سبحانه وتعالى ليس بينه وبين عباده محاباة أو نسب، بل أكرمهم عند الله أتقاهم له من أي جنس كان، وفي أي مكان كان، وفي أي زمان كان، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ثم قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ ﴾ كل مبتدأ ﴿ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ ﴾ خبره، وليس هذا من باب الاشتغال، بل هو خبر محض، لأن (كل) لا يمكن أن تكون مفعولاً لفعلوه، بل هي مبتدأ، ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ ﴾ أي: فعلته الأمم السابقة، أو الأمم اللاحقة، فإنه مكتوب ﴿ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ أي في الكتب، وكتابة الأعمال كتابة سابقة، وكتابة لاحقة. والكتابة السابقة كتابة على أن هذا سيفعل كذا، وهذه الكتابة لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب، لأن المرء لم يكلف بها بعد، وكتابة لاحقة وهي كتابة أنه فعل، فإذا فعل الإنسان حسنة كتبها الله، وإذا فعل سيئة كتبها الله، وهذه الكتابة اللاحقة هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، وبما قررناه يزول الإشكال عند بعض الناس في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ فإن بعض الناس قد يشكل عليه هذه الآية، كيف يقول ـ عز وجل ـ ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ﴾ وهو

قد علم؟ فيقال: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ يعني العلم الذي يترتب عليه الثواب، وأما علم الله السابق فإنه لا يترتب عليه الثواب ولا العقاب.

والكتابة السابقة معناها أن الله سبحانه وتعالى كتب في اللوح المحفوظ كل شيء، كما جاء في الحديث الصحيح: «**أن الله لما خلق القلم قال له: اكتب، قال: ربي وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فجرى في تلك الساعة ما هو كائن إلى يوم القيامة**»(١). فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، نؤمن بهذا، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾. وقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ أما الكتابة اللاحقة فهي أن الله سبحانه وتعالى إذا عمل الإنسان عملاً كتبه، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ وهذه الكتابة هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾، ومعنى الآية: أن كل شيء يفعله الإنسان فإنه مكتوب، فلا تظن أنه يضيع عليك شيء أبداً، كما قال عز وجل: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾. سبحان الله، بعد

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ن والقلم (رقم ٣٣١٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

مئات السنين التي لا يعلمها إلا الله يجدونه حاضراً، لا يظلم ربك أحداً، ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ ﴾، كل صغير وكبير مما يحدث في هذا الكون من المخلوقات، وأوصافها، وأعمالها، ﴿مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ ﴾، أي: مسطر في الكتاب العزيز، اللوح المحفوظ، كل صغير وكبير حتى الشوكة يشاكها الإنسان تكتب، حتى ما يزن مثقال ذرة من الأعمال يكتب، كل صغير وكبير، وإذا آمنت بذلك ويجب عليك أن تؤمن به، فإنه يجب عليك الحذر من المخالفة، فإياك أن تخالف بقولك، أو فعلك، أو تركك، لأن كل شيء مكتوب، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ وما يفعل من فعل كذلك لديه رقيب عتيد، لأنه إذا كانت الأقوال تكتب وهي أكثر بآلاف المرات من الأفعال، فما تنطق به لا يحصى، فإذا كانت الأقوال تكتب، فالأفعال من باب أولى، فعليك أن تتقي الله ـ عز وجل ـ ولا تخالف الله، إذا سمعت الله يقول خبراً، فقل: آمنت به وصدقت، وإذا سمعت الله يقول شيئاً أمراً، فقل: آمنت به سمعاً وطاعة، نهياً آمنت به، وسمعاً وطاعة. فاترك المنهي عنه، وافعل المأمور به، ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ هذا مقابل قوله: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ الجنات جمع جنة، وقد ذكر الله تعالى أصنافها في سورة الرحمن فقال: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ ثم قال: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ فهي إذن أربع ذكرها الله في سورة الرحمن، إذاً ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ يعني في هذه الجنات الأربع، هذه الأصناف لكن أنواعها

كثيرة، والجنات نفسرها بأنها شرعاً هي: (الدار التي أعدها الله للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)، لكن عندما تقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ تفسر الجنة بأنها البستان الكثير الأشجار، وعندما تقرأ: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ تفسر بأنها بستان كثير الأشجار، لكن لا تفسر جنة النعيم في الآخرة بهذا التفسير، لأنك إن فسرتها بهذا التفسير قلَّت الرغبة فيها وهبطت عظمتها في قلوب الناس، لكن قل: هي الدار التي أعدها الله لأوليائه، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، سكانها خير البشر، النبيون، والصديقون، والشهداء والصالحون، حتى تحفز النفوس على العمل لها، وحتى لا يتصور الجاهل أن ما فيها كأمثال ما في الدنيا وقوله: ﴿وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ يعني بذلك الأنهار، وذكر الله تعالى أصنافها أربعة في سورة القتال: ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾. أما المكان: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ﴾ يعني في مقعد صدق ليس فيه كذب لا في الخبر عنه ولا في وصفه، كله حق وعند من؟ ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ وهو الله جل وعلا، ـ اللهم اجعلنا منهم ـ عند مليك مقتدر، يتنعمون بلذة النظر إلى الله ـ عز وجل ـ وهو أنعم ما يكون لأهل الجنة، قال الله تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله، وقال تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ يعني حسنة بهية يكسوها الله تعالى نضراً، أي: حسناً وجمالاً وبهاءً؛ لتكون مستعدة للنظر إلى الله ـ عز وجل ـ

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ ثم ينظرون إلى الله فيزدادون حسناً إلى حسنهم، ولهذا إذا رجعوا إلى أهلهم، قال لهم أهلوهم: إنكم ازددتم بعدنا حسناً بالنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى[1]، اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى، وصفاتك العليا أن تجعلنا من هؤلاء بمنك وكرمك، إنك على كل شيء قدير.

* * *

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في سوق الجنة وما ينالون فيها من النعيم الجمال (رقم ٢٨٣٣).

تفسير سورة الرحمن

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ البسملة تقدم الكلام عليها، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١﴾ مبتدأ، وجملة ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾ خبر، ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣﴾ خبر ثان، ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ خبر ثالث، والمعنى أن هذا الرب العظيم، الذي سمى نفسه بالرحمن تفضل على عباده بهذه النعم، والرحمن هو ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾. وابتدأ هذه السورة بالرحمن عنواناً على أن ما بعده كله من رحمة الله تعالى، ومن نعمه ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾ أي: علمه من شاء من عباده، فعلمه جبريل عليه السلام أولاً، ثم نزل به جبريل على قلب النبي ﷺ ثانياً، ثم بلغه محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثالثاً إلى جميع الناس، والقرآن هو هذا الكتاب العزيز الذي أنزله الله تعالى باللغة العربية، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣﴾ وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥﴾ وتعليم القرآن يشمل تعليم لفظه، وتعليم معناه، وتعليم كيف العمل به، فهو يشمل ثلاثة أشياء، ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣﴾ المراد الجنس، فيشمل آدم وذريته، أي: أوجده من العدم، فالإنسان كان معدوماً قبل وجوده، وقبل خلقه، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا

﴿مَّذْكُورًا ۝١﴾ يعني أتى عليه حين من الدهر قبل أن يوجد، وليس شيئاً مذكوراً ولا يعلم عنه، وبدأ الله تعالى بتعليم القرآن قبل خلق الإنسان إشارة إلى أن نعمة الله علينا بتعليم القرآن أشد وأبلغ من نعمته بخلق الإنسان وإلا فمن المعلوم أن خلق الإنسان سابق على تعليم القرآن، لكن لما كان تعليم القرآن أعظم منة من الله ـ عز وجل ـ على العبد قدمه على خلقه ﴿عَلَّمَهُ﴾ أي: علم الإنسان ﴿ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾، أي: ما يبين به عما في قلبه، وأيضاً ما يستبين به عند المخاطبة، فهنا بيانان: البيان الأول من المتكلم، والبيان الثاني من المخاطب، فالبيان من المتكلم يعني التعبير عما في قلبه، ويكون باللسان نطقاً، ويكون بالبنان كتابة، فعندما يكون في قلبك شيء تريد أن تخبر به، تارة تخبر به بالنطق، وتارة بالكتابة، كلاهما داخل في قوله ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾، وأيضاً ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ كيف يستبين الشيء وذلك بالنسبة للمخاطب يعلم ويعرف وما يقول صاحبه، ولو شاء الله تعالى لأسمع المخاطب الصوت دون أن يفهم المعنى فالبيان سواء من المتكلم، أو من المخاطب كلاهما منة من الله ـ عز وجل ـ فهذه ثلاث نعم: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾.

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ لما تكلم عن العالم السفلي بين العالم العلوي فقال: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ أي: بحساب دقيق معلوم متقن منتظم أشد الانتظام، يجريان كما أمرهما الله ـ عز وجل ـ ولم تتغير الشمس والقمر منذ خلقهما الله

عز وجل إلى أن يفنيهما يسيران على خط واحد، كما أمرهما الله، وهذا دليل على كمال قدرة الله تعالى، وكمال سلطانه، وكمال علمه أن تكون هذه الأجرام العظيمة تسير سيراً منظماً، لا تتغير على مدى السنين الطوال، ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾ النجم اسم جنس، والمراد به النجوم تسجد لله ـ عز وجل ـ فهذه النجوم العليا التي نشاهدها في السماء تسجد لله ـ عز وجل ـ سجوداً حقيقياً، لكننا لا نعلم كيفيته، لأن هذا من الأمور التي لا تدركها العقول، والشجر يسجد لله عز وجل سجوداً حقيقياً، لكن لا ندري كيف ذلك، والله على كل شيء قدير، وانظر إلى الأشجار إذا طلعت الشمس تتجه أوراقها إلى الشمس تشاهدها بعينك، وكلما ارتفعت، ارتفعت الأشجار، وإذا مالت للغروب مالت، لكن هذا ليس هو السجود، إنما السجود حقيقة لا يُعلم، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ فالنجوم كلها تسجدلله، والأشجار كلها تسجد لله ـ عز وجل ـ قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ويقابله، ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ فلا يسجد ـ والعياذ بالله ـ ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا ﴾ يعني ورفع السماء ولم يحدد في القرآن الكريم مقدار هذا الرفع، لكن جاءت السنة بذلك، فهي رفيعة عظيمة ارتفاعاً عظيماً شاهقاً، ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾ أي: وضع العدل، والدليل على أن المراد بالميزان هنا العدل قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ

أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ يعني العدل، وليس المراد بالميزان هنا الميزان ذا الكفتين المعروف ولكن المراد بالميزان العدل، ومعنى وضع الميزان أي أثبته للناس، ليقوموا بالقسط أي بالعدل ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾ يعني ألا تطغوا في العدل، يعني وضع العدل لئلا تطغوا في العدل فتجوروا، فتحكم للشخص وهو لا يستحق، أو على الشخص وهو لا يستحق، ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾، يعني وزنكم للأشياء، أقيموه ولا تبخسوه فتنقصوا، لهذا قال: ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ أي لا تخسروا الموزون، فصار الميزان يختلف في مواضعه الثلاثة: ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾ أي: العدل ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾ لا تجوروا في الوزن ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ أي: الموزون.

﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ يعني: أن من نعم الله ـ عز وجل ـ أن الله وضع الأرض للأنام أي: أنزلها بالنسبة للسماء، والأنام هم الخلق، ففيها الإنس، وفيها الجن، وفيها الملائكة، تنزل بأمر الله ـ عز وجل ـ من السماء، وإن كان مقر الملائكة في السماء لكن ينزلون إلى الأرض، مثل الملكين اللذين عن اليمين وعن الشمال قعيد، والملائكة الذين يحفظون من أمر الله المعقبات، والملائكة الذين ينزلون في ليلة القدر وغير ذلك، ﴿ فِيهَا ﴾، أي في الأرض ﴿ فَٰكِهَةٌ ﴾ أي: ثمار يتفكه بها الناس، وأنواع الفاكهة كثيرة، كالعنب والرمان والتفاح والبرتقال وغيرها ﴿ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ ﴾ نص على النخل، لأن ثمرتها أفضل

الثمار فهي حلوى وغذاء وفاكهة، وشجرتها من أبرك الأشجار وأنفعها، حتى إن النبي ﷺ شبه النخلة بالمؤمن فقال: «**إن من الشجر شجرة مثلها مثل المؤمن**»، فخاض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في الشجر حتى أخبرهم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنها النخلة[1] وقوله: ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾﴾ جمع كم وهو غلاف الثمرة، فإن ثمرة النخل أول ما تخرج يكون عليها كم قوي، ثم تنمو في ذلك الكم حتى يتفطر وتخرج الثمرة، ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ الحب يعني الذي يؤكل من الحنطة والذرة والدخن والأرز وغير ذلك، وقوله: ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ يعني ما يحصل من ساقه عند يبسه وهو ما يعرف بالتبن؛ لأنه يعصف أي تطؤه البهائم بأقدامها حتى ينعصف، ﴿وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾ هذا الشجر ذو الرائحة الطيبة، فذكر الله في الأرض الفواكه، والنخل، والحب، والريحان، لأن كل واحد من هذه الأربع له اختصاص يختص به، وكل ذلك من أجل مصلحة العباد ومنفعتهم ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ الخطاب للجن والإنس، والاستفهام للإنكار، أي: أي نعمة تكذبون بها ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ خلق الإنسان يعني جنسه من صلصال، والصلصال هو الطين اليابس الذي له صوت، عندما تنقره بظفرك يكون له صوت كالفخار، هو الطين المشوي، وهذا باعتبار خلق آدم عليه السلام، فإن الله خلقه من تراب، من طين، من صلصال كالفخار، من حمأ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب قول المحدث: حدثنا أو أخبرنا وأنبأنا (رقم ٦١) ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب مثل المؤمن مثل النخلة (رقم ٢٨١١).

مسنون، كل هذه أوصاف للتراب ينتقل من كونه تراباً، إلى كونه طيناً، إلى كونه حمأ، إلى كونه صلصالاً، إلى كونه كالفخار، حتى إذا استتم نفخ الله فيه من روحه فصار آدمياً، ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ وهم الجن ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾، المارج هو المختلط الذي يكون في اللهب إذا ارتفع صار مختلطاً بالدخان، فيكون له لون بين الحمرة والصفرة، فهذا هو المارج من نار، والجان، خلق قبل الإنس، ولهذا قال إبليس لله ـ عز وجل ـ: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾ أي: بأي نعمة من نعم الله تكذبون، حيث خلق الله ـ عز وجل ـ الإنسان من هذه المادة، والجن من هذه المادة، وأيهما خير التراب أم النار؟ التراب خير، لا شك فيه، ومن أراد أن يطلع على ذلك فليرجع إلى كلام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتاب «إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان» ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ يعني هو رب، فهي خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هو رب المشرقين ورب المغربين، يعني أنه مالكهما ومدبرهما، فما من شيء يشرق إلا بإذن الله، ولا يغرب إلا بإذن الله وما من شيء يحوزه المشرق والمغرب إلا لله ـ عز وجل ـ وثنى المشرق هنا باعتبار مشرق الشتاء ومشرق الصيف، فالشمس في الشتاء تشرق من أقصى الجنوب، وفي الصيف بالعكس، والقمر في الشهر الواحد يشرق من أقصى الجنوب ومن أقصى الشمال، وفي آية أخرى قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ فجمعها، وفي آية ثالثة ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ فما

الجمع بينها؟ نقول: أما التثنية فباعتبار مشرقي الشتاء والصيف، أما جمع المغارب والمشارق فباعتبار مشرق كل يوم ومغربه، لأن الشمس كل يوم تشرق من غير المكان الذي أشرقت منه بالأمس، فالشمس يتغير شروقها وغروبها كل يوم، ولاسيما عند تساوي الليل والنهار، فتجد الفرق دقيقة، أو دقيقة ونصفاً بين غروبها بالأمس واليوم، وكذلك الغروب، أو باعتبار الشارقات والغاربات، لأنها تشمل الشمس والقمر والنجوم، وهذه لا يحصيها إلا الله ـ عز وجل ـ، أما قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ فباعتبار الناحية، لأن النواحي أربع: مشرق، ومغرب، وشمال، وجنوب، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾ أي: بأي شيء من نعم الله تكذبان يا معشر الجن والإنس؟ فما جوابنا على هذه الاستفهامات بهذه الآيات كلها؟ جوابنا: ألا نكذب بشيء من آلائك يا ربنا، ولهذا ورد حديث في إسناده ضعف عن جابر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: «**لقد قرأتها على الجن، ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله** ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾ **قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد**». لكن هذا الحديث ضعيف[1]، يذكره المفسرون هنا، وكل آية أعقبت ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾ فهي تتضمن نعماً عظيمة، فما النعم التي يتضمنها اختلاف المشرق

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الرحمن (٣٢٩١) وقال: هذا حديث غريب.

والمغرب؟ النعم ما يترتب على ذلك من مصالح الخلق: صيفاً، وشتاء، ربيعاً، وخريفاً، وغير ذلك مما لا نعلم، فهي نعم عظيمة باختلاف المشرق والمغرب، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾ مرج بمعنى أرسل البحرين، يعني المالح والعذب ﴿يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾، يلتقي بعضهما ببعض، البحر المالح هذه البحار العظيمة، البحر الأحمر، والبحر الأبيض، والبحر الأطلسي، وهذه البحار كلها مالحة، وجعلها الله تبارك وتعالى مالحة، لأنها لو كانت عذبة لفسد الهواء وأنتنت، لكن الملح يمنع الإنتان والفساد، والبحر الآخر البحر العذب وهو الأنهار التي تأتي: إما من كثرة الأمطار، وإما من ثلوج تذوب وتسيح في الأرض، فالله سبحانه وتعالى أرسلهما بحكمته وقدرته حيث شاء ـ عز وجل ـ ﴿يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾ أي: يلتقي بعضهما ببعض عند مصب النهر في البحر فيمتزج بعضهما ببعض، لكن حين سيرهما أو حين انفرادهما، يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ وهو اليابس من الأرض ﴿لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: لا يبغي أحدهما على الآخر، ولو شاء الله تعالى لسلط البحار ولفاضت على الأرض وأغرقت الأرض، لأن البحر عندما تقف على الساحل لا تجد جداراً يمنع انسيابه إلى اليابس مع أن الأرض كروية، ومع ذلك لا يسيح البحر لا هاهنا، ولا هاهنا بقدرة الله عز وجل، ولو شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ لساحت مياه البحر على اليابس من الأرض ودمرتها، إذن البرزخ الذي بينهما هو اليابس من الأرض هذا قول علماء الجغرافيا، وقال بعض أهل العلم: بل البرزخ أمر معنوي يحول

بين المالح والعذب أن يختلط بعضهما ببعض، وقالوا: إنه يوجد الآن في عمق البحار عيون عذبة تنبع من الأرض، حتى إن الغواصين يغوصون إليها ويشربون منها كأعذب ماء، ومع ذلك لا تفسدها مياه البحار، فإذا ثبت ذلك فلا مانع من أن نقول بقول علماء الجغرافيا وقول علماء التفسير، والله على كل شيء قدير ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ أي: يخرج من البحرين العذب والمالح اللؤلؤ والمرجان، وهو قطع من اللؤلؤ أحمر جميل الشكل واللون مع أنها مياه، وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمَا﴾ أضاف الخروج إلى البحرين العذب والمالح، وقد قيل: إن اللؤلؤ لا يخرج إلا من المالح ولا يخرج من العذب، والذين قالوا بهذا اضطربوا في معنى الآية، كيف يقول الله ﴿مِنْهُمَا﴾ وهو من أحدهما؟ فأجابوا: بأن هذا من باب التغليب، والتغليب أن يغلب أحد الجانبين على الآخر، مثلما يقال: العمران، لأبي بكر وعمر، ويقال: القمران، للشمس والقمر، فهذا من باب التغليب، فـ ﴿مِنْهُمَا﴾ المراد واحد منهما، وقال بعضهم: بل هذا على حذف مضاف، والتقدير: يخرج: من أحدهما، وهناك قول ثالث: أن تبقى الآية على ظاهرها لا تغليب ولا حذف، ويقول ﴿مِنْهُمَا﴾ أي: منهما جميعاً يخرج اللؤلؤ والمرجان، وإن امتاز المالح بأنه أكثر وأطيب.

فبأي هذه الأقوال الثلاثة، نأخذ؟ نأخذ بما يوافق ظاهر القرآن، فالله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ وهو خالقهما وهو يعلم ماذا يخرج منهما، فإذا كانت الآية ظاهرها أن اللؤلؤ يخرج

منهما جميعاً وجب الأخذ بظاهرها، لكن لا شك أن اللؤلؤ من الماء المالح أكثر وأطيب، لكن لا يمنع أن نقول بظاهر الآية، بل يتعين أن نقول بظاهر الآية، وهذه قاعدة في القرآن والسنة: إننا نحمل الشيء على ظاهره، ولا نؤول، اللهم إلا لضرورة، فإذا كان هناك ضرورة، فلابد أن نتمشى على ما تقتضيه الضرورة، أما بغير ضرورة فيجب أن نحمل القرآن والسنة على ظاهرهما ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾ لأن ما في هذه البحار وما يحصل من المنافع العظيمة، نِعم كثيرة لا يمكن للإنسان أن ينكرها أبداً.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ أي لله ـ عز وجل ـ ملكاً وتدبيراً وتيسيراً ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ بحذف الياء للتخفيف، وأصلها الجواري جمع جارية، وهي السفينة تجري في البحر كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ أي: التي أنشأها صانعوها ليسيروا عليها في البحر، وقوله: ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ متعلق بالجواري أي الجواري في البحر، وليست فيما يظهر متعلقة بالمنشآت، يعني الجواري التي تصنع في البحر، لأن السفن تصنع في البر أولاً، ثم تنزل في البحر، وقوله: ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ تشبيه، والأعلام جمع علم وهو الجبل، كما قال الشاعر:

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

كأنه جبل، ومن شاهد السفن في البحار رأى أن هذا التشبيه منطبق تماماً عليها، فهي كالجبال تسير في البحر بأمر الله ـ عز وجل ـ، وإنما نص الله عليها لأنها تحمل الأرزاق من جانب إلى

جانب، ولولا أن الله تعالى يسرها لكان في ذلك فوات خير كثير للبلاد التي تنقل منها والبلاد التي تنقل إليها، وفي هذا العصر جعل الله تبارك وتعالى جواري أخرى، لكنها تجري في الجو، كما تجري هذه في البحر، وهي الطائرات، فهي منة من الله ـ عز وجل ـ كمنته على عباده في جواري البحار، بل ربما نقول: إن السيارات أيضاً من جواري البر، فتكون الجواري ثلاثة أصناف: بحرية، وبرية، وجوية، وكلها من نعم الله ـ عز وجل ـ، ولهذا قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي بأي: نعمة من نعم الله تكذبان، والخطاب للإنس والجن، ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: كل من على الأرض ﴿فَانٍ﴾ أي: ذاهب من الجن والإنس والحيوان والأشجار، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ أي: خالية، وقال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾ أي: يذر الأرض قاعاً صفصفاً، أو يذر الجبال بعد أن كانت عالية شامخة قاعاً كالقيعان مساوية لغيرها، صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ أي: يبقى الله ـ عز وجل ـ ذو الوجه الكريم، وكان بعض السلف إذا قرأ هاتين الآيتين وصل بعضهما ببعض، قال: ليتبين بذلك كمال الخالق ونقص المخلوق[1]؛ لأن المخلوق فانٍ والرب باقٍ، وهذه الملاحظة

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير رحمه الله سورة الرحمن حيث نسبه للشعبي رحمه الله.

جيدة أن تصل فتقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ وهذا هو محط الثناء والحمد على الله ـ عز وجل ـ أن تفنى الخلائق ويبقى الله ـ عز وجل ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ فيه إثبات الوجه لله ـ سبحانه وتعالى ـ ولكنه وجه لا يشبه أوجه المخلوقين، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ يعني أنت تؤمن بأن لله وجهاً، لكن يجب أن تؤمن بأنه لا يماثل أوجه المخلوقين بأي حال من الأحوال، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ ولما ظن بعض أهل التعطيل أن إثبات الوجه يستلزم التمثيل أنكروا أن يكون لله وقالوا: المراد بقوله ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي ثوابه، أو أن كلمة ﴿وَجْهُ﴾ زائدة، وأن المعنى: ويبقى ربك! ولكنهم ضلوا سواء السبيل، وخرجوا عن ظاهر القرآن وحرفوه وخرجوا عن طريق السلف الصالح، ونحن نقول: إن لله وجهاً، لإثباته له في هذه الآية، ولا يماثل أوجه المخلوقين لنفي المماثلة في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ وبذلك نسلم ونجري النصوص على ظاهرها، المراد بها، وقوله: ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ أي: ذو العظمة ﴿وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ أي: إكرام من يطيع الله ـ عز وجل ـ كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فالإكرام أي أنه يكرم من يستحق الإكرام من خلقه، ويحتمل أن يكون لها معنى آخر وهو أنه يُكْرَم من أهل العبادة من خلقه، فيكون الإكرام هذا المصدر صالحاً للمفعول والفاعل، فهو مكرَم ومكرِم ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾ وهذه الآية تكررت عدة مرات في هذه

السورة، ومعناها أنه بأي نعمة من نعم الله تكذبان يا معشر الجن والإنس، وهذا كالتحدي لهم، لأنه لن يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذه النعم، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ أي: يسأل الله من في السماوات والأرض، والذي في السماوات هم الملائكة يسألون الله ـ عز وجل ـ ومن سؤالهم أنهم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ إلى آخره، ويسأله من في الأرض من الخلائق، وسؤال أهل الأرض لله ـ عز وجل ـ قسمان: الأول: السؤال بلسان المقال، وهذا إنما يكون من المؤمنين، فالمؤمن يسأل ربه دائماً حاجاته، لأنه يعلم أنه لا يقضيها إلا الله ـ عز وجل ـ وسؤال المؤمن ربه عبادة، سواء حصل مقصوده أم لم يحصل، فإذا قلت: يا رب أعطني كذا. فهذه عبادة، كما جاء في الحديث: «**الدعاء عبادة**[1] ». وقال تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ فقال ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ وهذا دليل على أن الدعاء عبادة، النوع الثاني: دعاء بلسان الحال، وهو أن كل مخلوق مفتقر إلى الله ينظر إلى رحمته، فالكفار مثلاً ينظرون إلى الغيث النازل من السماء، وإلى نبات الأرض، وإلى صحة الحيوان، وإلى كثرة الأرزاق وهم يعلمون إنهم لا

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة (٢٩٦٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

يستطيعون أن يجدوا ذلك بأنفسهم، فهم إذن يسألون الله بلسان الحال، ولذلك إذا مستهم ضراء اضطروا إلى سؤال الله بلسان المقال ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾. ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ من يحصي الأيام؟ لا أحد إلا الله ـ عز وجل ـ ومن يحصي الشهور؟ لا أحد إلا الله ـ عز وجل ـ ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾، يغني فقيراً، ويفقر غنيًّا، ويمرض صحيحاً، ويشفي سقيماً، ويؤمّن خائفاً ويخوف آمناً، وهلم جرا، كل يوم يفعل الله تعالى ذلك، هذه الشئون التي تتبدل عن حكمة ولا شك، قال الله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ فنحن نؤمن أن الله لا يقدر قدراً إلا لحكمة، لكن قد نعلم هذه الحكمة وقد لا نعلم، ولهذا قال: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾، ولكن اعلم أيها المؤمن أن الله تعالى لا يقدر لك قدراً إلا كان خيراً لك، إن أصابتك ضراء فاصبر وانتظر الفرج، وقل: الحمد لله على كل حال. وكما يقال: دوام الحال من المحال، فينتظر الفرج فيكون خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس هذا لأحد إلا للمؤمن ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ نقول فيها ما قلنا في الآيات السابقة أن المعنى بأي نعمة من نعم الله تكذبان؟ والجواب: لا نكذب بشيء من نعم الله، بل نقول: هي من عند الله، فله الحمد وله الشكر، ومن نسب النعمة إلى غير الله فهو مكذب. وإن لم يقل إنه مكذب قال الله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ وهذه الآية يعني بها قولهم: مطرنا بنوء كذا وكذا، وقد قال النبي ﷺ وهو يحدث

أصحابه على إثر مطر كان، قال لهم بعد صلاة الصبح: «**هل تدرون ماذا قال ربكم**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي، كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا، وكذا، فذلك كافر بي، مؤمن بالكوكب**»[1].

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾ هذه الجملة المقصود بها الوعيد، كما يقول قائل لمن يتوعده سأتفرغ لك، وأجازيك. وليس المعنى أن الله تعالى يشغله شأن عن شأن ثم يفرغ من هذا، ويأتي إلى هذا، هو سبحانه يدبر كل شيء في آن واحد في مشارق الأرض ومغاربها وفي السماوات، وفي كل مكان يدبره في آن واحد، ولا يعجزه. فلا تتوهمن أن قوله: ﴿سَنَفْرُغُ﴾ أنه الآن مشغول وسيفرغ. بل هذه جملة وعيدية تعبر بها العرب، والقرآن الكريم نزل بلغة العرب وفي قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ من التعظيم ما هو ظاهر حيث أتى بضمير الجمع، ﴿سَنَفْرُغُ﴾ تعظيماً لنفسه ـ جل وعلا ـ وإلا فهو واحد، وقوله: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ يعني الجن والإنس، وإنما وجه هذا الوعيد إليهما، لأنهما مناط التكليف، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾ سبق تفسيرها فلا حاجة إلى التكرار ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ بعد الوعيد قال: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟﴾ أي: مما نريده بكم ﴿مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم (٨٤٦) ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (٧١).

فَٱنفُذُوٓاْ﴾ ولكنكم لا تستطيعون هذا، فالأمر هنا للتعجيز، ولهذا قال: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ يعني ولا سلطان لكم، ولا يمكن أحد أن ينفذ من أقطار السماوات والأرض إلى أين يذهب؟ لا يمكن ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ يعني لو استطعتم، أو لو حاولتم لكان هذا الجزاء ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ أي: محمى بالنار ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ أي: فلا ينصر بعضكم بعضاً، وهذه الآية في مقام التحدي، وقد أخطأ غاية الخطأ من زعم أنها تشير إلى ما توصل إليه العلماء من الطيران، حتى يخرجوا من أقطار الأرض ومن جاذبيتها، وإلى أن يصلوا كما يزعمون إلى القمر أو إلى ما فوق القمر، فالآية ظاهرة في التحدي، والتحدي هو توجيه الخطاب إلى من لا يستطيع، ثم نقول: إن هؤلاء هل استطاعوا أن ينفذوا من أقطار السماوات، لو فرضنا أنهم نفذوا من أقطار الأرض ما نفذوا من أقطار السماوات، فالآية واضحة أنها في مقام التحدي، وأنها لا تشير إلى ما زعم هؤلاء أنها تشير إليه، ونحن نقول الشيء الواقع لا نكذبه، ولكن لا يلزم من تصديقه أن يكون القرآن دل عليه أو السنة، الواقع واقع، فهم خرجوا من أقطار الأرض، وهذا واقع لا يحتاج إلى دليل، وهذه الآية في سياقها إذا تأملتها وجدت أن هذا التحدي يوم القيامة، لأنه قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾، ثم ذكر ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم ذكر ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾، ثم ذكر ما بعدها يوم القيامة، ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ يعني تفتحت وذلك يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ

مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ أي: مثل الوردة في الحمرة ﴿كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾، كالجلد المدهون، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: إذا انشقت ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ لماذا؟ لأن كل شيء معلوم، والمراد لا يسأل سؤال استرشاد واستعلام، لأن كل شيء معلوم، أما سؤال تبكيت فيسأل مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ وقال ـ عز وجل ـ: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ وقال ـ عز وجل ـ لأهل النار وهم يلقون فيها: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ وأمثالها كثير، إذن لا يسأل عن ذنبه سؤال استرشاد واستعلام، وإنما يسألون سؤال تبكيت وتوبيخ، وما جاء من سؤال الإنس والجن عن ذنوبهم: هل أنت عملت أو لم تعمل؟ فهو سؤال تبكيت وتوبيخ، وهناك فرق بين سؤال الاسترشاد وسؤال التوبيخ فلا تتناقض الآيات، فما جاء أنهم يسألون فهو سؤال توبيخ، وما جاء أنهم لا يسألون فهو سؤال استرشاد واستعلام، لأن الكل معلوم ومكتوب، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: بعلامتهم يعرفون، ومن علاماتهم ـ والعياذ بالله ـ أنهم سود الوجوه، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وأنهم يحشرون يوم القيامة زرقاً إما أنهم زرق أحياناً وسود أحياناً، وإما أنهم سود الوجوه زرق العيون، وإما

أنهم زرق زرقة يعني بالغة يحسبها الإنسان سوداء ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ النواصي مقدم الرأس، والأقدام معروفة، فتؤخذ رجله إلى ناصيته، هكذا يطوى طيًّا إهانة له وخزياً له، فيؤخذ بالنواصي والأقدام، ويلقون في النار ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ يعني يقال هذه جهنم التي تكذبون بها، وقال ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ولم يقل: تكذبون بها، إشارة إلى أنهم مجرمون، وما أعظم جرم الكفار الذين كفروا بالله ورسوله، واستهزؤا بآيات الله واتخذوها هزواً ولعباً، ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ أي: يترددون بينها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي: شديد الحرارة ـ والعياذ بالله ـ. أما كيف يكون ذلك فالله أعلم، لكننا نؤمن بأنهم يطوفون بينها وبين الحميم الحار الشديد الحرارة، والله أعلم بذلك، ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾، ثم ذكر جزاء أهل الجنة فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ يعني أن من خاف المقام بين يدي الله يوم القيامة، فإن له جنتين. وهذا الخوف يستلزم شيئين: الشيء الأول: الإيمان بلقاء الله ـ عز وجل ـ لأن الإنسان لا يخاف من شيء إلا وقد تيقنه. والثاني: أن يتجنب محارم الله، وأن يقوم بما أوجبه الله خوفاً من عقاب الله تعالى، فعليه يلزم كل إنسان أن يؤمن بلقاء الله ـ عز وجل ـ، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾، وأن يقوم بما أوجبه الله، وأن يجتنب محارم الله فمن خاف هذا المقام بين يدي الله ـ عز وجل ـ فله جنتان ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ سبق الكلام عليها ﴿ذَوَاتَآ

﴿أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ أي صاحبتا أفنان، والأفنان جمع فنن وهو الغصن، أي أنهما مشتملتان على أشجار عظيمة ذواتي أغصان كثيرة وهذه الأغصان كلها تبهج الناظرين ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾، ثم قال ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾ أي: في الجنتين عينان تجريان، وقد ذكر الله تعالى أن في الجنة أنهاراً من أربعة أصناف، فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ والعينان اللتان تجريان، يظهر ـ والله أعلم ـ أنهما سوى هذه الأنهار الأربعة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾﴾ وقوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ أي: في هاتين الجنتين من كل فاكهة، والفاكهة كل ما يتفكه الإنسان به مذاقاً ونظراً، فيشمل أنواع الفاكهة الموجودة في الدنيا، وربما يكون هناك فواكه أخرى ليس لها نظير في الدنيا، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾﴾ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي: يتنعمون بهذه الفاكهة حال كونهم متكئين، وعلى هذا فكلمة متكئين حال من فاعل والفعل المحذوف، أي: يتنعمون ويتفكهون، متكئين، والاتكاء قيل: إنه التربع، لأن الإنسان أريح ما يكون إذا كان متربعاً، وقيل ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ أي: معتمدين على مساند من اليمين والشمال ووراء الظهر ﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ يعني جالسين ﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ﴾ يعني بطانة الفراش وهو ما يدحى به الفراش من استبرق وهو غليظ الديباج، وأما أعلى هذه الفرش فهو من سندس، وهو رقيق الديباج، وكله من الحرير ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ تأمل أو تصور هذه الحال إنسان متكىء مطمئن

مستريح يريد أن يتفكه من هذه الفواكه هل يقوم من مكانه الذي هو مستقر فيه متكىء فيه ليتناول الثمرة؟ بيّن الله بقوله تعالى ذلك ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ قال أهل العلم: إنه كلما نظر إلى ثمرة وهو يشتهيها، مال الغصن حتى كانت الثمرة بين يديه لا يحتاج إلى تعب وإلى قيام، بل هو متكىء، ينظر إلى الثمرة مشتهياً إياها، فتتدلى له بأمر الله ـ عز وجل ـ مع أنها جماد، لكن الله تعالى أعطاها إحساساً بأن تتدلى عليه إذا اشتهاها ولا تستغرب فهاهي الأشجار في الغالب تستقبل الشمس، انظر إلى وجوه الأوراق أول النهار تجدها متجهة إلى المشرق، وفي آخر النهار تجدها متجهة إلى المغرب ففيها إحساس، كذلك أيضاً جنى الجنتين دان قريب يحس، إذا نظر إليه الرجل أو المرأة فإنه يتدلى حتى يكون بين يديه، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ ﴿فِيهِنَّ﴾ أكثر العلماء يقولون: إن الضمير يعود إلى الجنتين، وأن الجمع باعتبار أن لكل واحد من الناس جنة خاصة به، فيكون ﴿فِيهِنَّ﴾ أي في جنة كل واحد ممن هو في هاتين الجنتين قاصرات الطرف، وعندي أن قوله ﴿فِيهِنَّ﴾ يشمل الجنات الأربع، هاتين الجنتين، والجنتين اللتين بعدهما، ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ يعني أنها تقصر طرفها أي نظرها على زوجها فلا تريد غيره، والوجه الآخر: قاصرات الطرف، أي: أنها تقصر طرف زوجها عليها فلا يريد غيرها، وعلى القول الأول يكون قاصرات مضافة إلى الفاعل، وعلى الثاني مضاف إلى المفعول ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ أي: لم يجامعهن، وقيل: إن الطمث مجامعة البكر، والمعنى

أنهن أبكار لم يجامعهن أحد من قبل لا إنس ولا جن، وفي هذا دليل واضح على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ أي: في الحسن والصفاء كالياقوت والمرجان، وهما جوهران نفيسان، الياقوت في الصفاء، والمرجان في الحمرة، يعني أنهن مشربات بالحمرة مع صفاء تام ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾، ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ يعني ما جزاء الإحسان إلا الإحسان، الإحسان الأول: العمل، والإحسان الثاني: الثواب، أي: ما جزاء إحسان العمل إلا إحسان الثواب، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ أي: من دون الجنتين السابقتين جنتان من نوع آخر، وقد جاء ذلك مبيناً في السنة، حيث قال النبي ﷺ: «**جنتان من ذهب آنيتهما، وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما**[1]» والآية صريحة أن هاتين الجنتين دون الأوليان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ أي: سوداوان من كثرة الأشجار ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾ أي: تنضخ بالماء، أي: تنبع، وفي الجنتين السابقتين قال: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾، والجري أكمل من النبع، لأن النبع لايزال في مكانه لكنه لا ينضب، أما الذي يجري فإنه يسيح، فهو أعلى وأكمل، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ وهناك يقول: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾، أما هذا فقال ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾، والنخل والرمان معروفان في الدنيا، ولكن

---

(١) تقدم ص (١٢٤).

يجب أن تعلم أنه لا يستوي هذا وهذا. الاسم واحد والمسمى يختلف اختلافاً كثيراً، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ ولو كانت النخل والرمان كالنخل والرمان في الدنيا لكنا نعلم، لكننا لا نعلم، فالاسم واحد، ولكن الحقيقة مختلفة، ولهذا قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط»[1]، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ ﴿فِيهِنَّ﴾ وهذا جمع، وقد قال قبل ذلك ﴿فِيهِمَا﴾، لأن هذا الجمع يعود على الجنان الأربع، ففي الجنان الأربع قاصرات الطرف كما سبق، وفي الجنان الأربع ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ أي: في الأخلاق. الأخلاق طيبة، حسان الوجوه والبدن، فالأول حسن الباطن وهذا حسن الظاهر ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ الحوراء هي الجميلة، التي جملت في جميع خلقها، وبالأخص العين: شديدة البياض، شديدة السواد، واسعة مستديرة من أحسن ما يكون، ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ أي: مخبئات، ﴿فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾: جمع خيمة، والخيمة معروفة هي بناء له عمود وأروقة، لكن الخيمة في الآخرة ليست كالخيمة في الدنيا، بل هي خيمة من لؤلؤة طولها في السماء مرتفع جداً، ويرى من في باطنها من ظاهرها، ولا تسأل عن حسنها وجمالها، هؤلاء الحور مقصورات مخبئات في هذه الخيام على أكمل ما يكون من الدلال والتنعيم ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾ يعني لم يجامعهن

(١) أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة (رقم ١٢٤).

أحد، بل هي باقية على بكارتها إلى أن يغشاها زوجها، جعلنا الله منهم، ﴿وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾ أي: ولا جن، وهذا يدل على أن الجن يدخلون الجنة مع الإنس وهو كذلك، لأن الله لا يظلم أحداً، والجن منهم صالحون، ومنهم دون ذلك، ومنهم مسلمون ومنهم كافرون، كالإنس تماماً، كما أن الإنس فيهم مطيع وعاصٍ، وفيهم كافر ومؤمن، كذلك الجن، والجن المسلم فيه خير، ويدل على الخير، وينبىء بالخير، ويساعد أهل الصلاح من الإنس، والجن الفاسق أو الكافر مثل الفاسق أوالكافر من بني آدم سواء بسواء، وكافرهم يدخل النار، بإجماع المسلمين كما في القرآن: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ وهذا نص القرآن، وأجمع العلماء على أن الكافر من الجن يدخل النار، ومؤمن الجن يدخل الجنة، وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾ يدل على أن الجن يدخلون الجنة، وهو كذلك ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾ أي: معتمدين بأيديهم وظهورهم ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾ أي: على مساند ترفرف مثل ما يكون على أطراف المساند، ويكون في الأسرّة، هكذا يرفرف، ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾، لأن اللون الأخضر أنسب ما يكون للنظر، وأشد ما يكون بهجة للقلب، ﴿وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾، العبقري هو الفرش الجيدة جداً، ولهذا يسمى الجيد من كل شيء عبقري، كما قال النبي ﷺ في الرؤية التي رآها حين نزع عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «**فما رأيت عبقرياً يفري فريه**»[1] أي:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذاً=

ينزع نزعه: من قوته رضي الله عنه، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ ﴾ المعنى التقرير، يعني أن النعم واضحة فبأي شيء تكذبون؟ الجواب: لا نكذب بشيء، نعترف بآلاء الله ونعمه ونقر بها ونعترف بأننا مقصرون، لم نشكر الله تعالى حق شكره، ولكننا نؤمن بأن الله أوسع من ذنوبنا، وأن الله تبارك وتعالى عفو كريم يحب توبة عبده، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، حتى قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم**» وذكر الرجل في فلاة أضل راحلته، وعليها طعامه وشرابه، فطلبها ولم يجدها، فأيس منها فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، آيس من الحياة، فإذا بخطام ناقته متعلقاً بالشجرة، فأخذه وقال: «**اللهم أنت عبدي وأنا ربك**»[1]، يريد أنت ربي وأنا عبدك، لكن من شدة الفرح أخطأ فقال: «**اللهم أنت عبدي وأنا ربك**»، فالله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا الرجل بناقته، اللهم تب علينا يا رب العالمين ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ ختم الله تبارك وتعالى هذه السورة بهذه الجملة العظيمة، أي ما أعظم بركة الله ـ عز وجل ـ وما أعظم البركة باسمه، حتى إن اسم الله يحلل الذبيحة أو يحرمها، لو ذبح الإنسان ذبيحة ولم يقل باسم الله تكون ميتة حراماً نجسة مضرة على البدن، حتى لو ذبح ونسي

= خليلاً (٣٦٧٦) ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه (٢٣٩٣).

(١) أخرجه البخاري كتاب الدعوات، باب التوبة (٦٣٠٨، ٦٣٠٩) ومسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها (٢٧٤٧).

أن يقول: بسم الله. فهي حرام نجسة تفسد البدن، فيجب أن يسحبها للكلاب، لأنها نجسة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ فانظر البركة، والإنسان إذا توضأ ولم يسم فوضوؤه عند بعض العلماء فاسد لابد من الإعادة، لأن البسملة واجبة عند بعض أهل العلم، والإنسان إذا رأى الصيد الزاحف، أو الطائر فيرميه ولم يسمِ يكون هذا الصيد حراماً ميتة نجساً مضراً على البدن، فانظر البركة، والإنسان إذا أتى أهله يعني جامع زوجته وقال: «**بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا**» كان هذا حماية لهذا الولد الذي ينشأ من هذا الجماع، حماية له من الشيطان، قال النبي ﷺ: «**لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: «بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا. فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً**[1]» والإنسان يسعى يميناً وشمالاً لحماية ولده ويخسر الدراهم الكثيرة، وهنا هذا الدواء من الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يسير من ناحية العمل، وسهل، وكل هذا دليل على بركة اسم الله عز وجل، ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ أي: ذي العظمة والإكرام، ﴿ذِي﴾: بمعنى صاحب، وهي صفة لرب، لا لـ(اسم) ولو كانت صفة لـ(اسم) لكانت ذو، والإكرام يعني هو يُكرِم وهو يُكرَم، فهو يكرم ويحترم ويعظم ـ عز وجل ـ وهو أيضاً يكرم، قال الله تعالى في أصحاب الجنة ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فهو

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب الاتسمية على كل حال وعند الوقاع (١٤١) ومسلم، كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع (١٤٣٤).

ذو الجلال والإكرام يكرم من يستحق الإكرام، وهو يكرمه ـ عز وجل ـ عباده الصالحون جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

تفسير سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم، البسملة تقدم الكلام عليها ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾ حذف الله جواب الشرط في هذه الآيات من أجل أن يذهب الذهن في تقديره كل مذهب، يعني إذا وقعت الواقعة صارت الأهوال العظيمة، وصار انقسام الناس، وحصل ما حصل مما أخبر به الله ورسوله مما يكون في يوم القيامة، وقوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾ كقوله: ﴿ٱلْحَاقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٢﴾ والمراد بذلك يوم القيامة ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ أي: ليست لوقعتها كذب، بل وقعتها حق ولابد، والإيمان بيوم القيامة أحد أركان الإيمان الستة التي أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم جبريل عليه السلام حين سأله عن الإيمان قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**»[1] وكثيراً ما يقرن الله الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر، لأن الإيمان باليوم الآخر يحدو بالإنسان أن يعمل العمل الصالح، وأن يبتعد عن العمل السيء لأنه يؤمن أن هناك يوماً آخر يجازى فيه الإنسان المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ يعني هي خافضة رافعة، أي: يخفض فيها الناس ويرفع فيها آخرون. ولكن من الذي يرفع؟ قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ فأهل العلم والإيمان هم الذين لهم الرفعة

---

(١) تقدم ص (٦٢).

في الدنيا والآخرة، ومن سواهم فإنهم موضوعون بحسب بعدهم عن الإيمان والعلم، وتخفض أهل الجهل والعصيان، وكم من إنسان في الدنيا رفيع الجاه، معظم عند الناس يكون يوم القيامة من أحقر عباد الله، والجبارون المتكبرون يحشرون يوم القيامة كأمثال الذر يطؤهم الناس بأقدامهم[1]، مع أنهم في الدنيا متبخترون مستكبرون عالون على عباد الله، لكنهم يوم القيامة موضوعون مهينون قد أخزاهم الله ـ عز وجل ـ ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾﴾ يعني زلزلت زلزلة عظيمة، ولهذا قال: ﴿رَجًّا ﴿٤﴾﴾ أي: رجًّا عظيماً، وأنت تصور أنك ترج إناء فيه ماء كيف يكون اضطراب الماء فيه، فالأرض يوم القيامة ترج بأمر الله ـ عز وجل ـ، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾، ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾ أي: بعثرت وهبطت وصارت كثيباً مهيلاً، ولهذاقال: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ كالهباء الذي نراه حينما تنعكس أنوار الشمس في حجرة مظلمة، ترى هذا الهباء من خلال ضوء الشمس منبثًّا متفرقاً، هذه الجبال الصم الصلبة التي يكون الصخر فيها أكبر من الجبال، بل ربما يكون الجبل الواحد صخرة واحدة يكون يوم القيامة هباء منبثًّا بأمر الله ـ عز وجل ـ، فتبقى الأرض ليس فيها جبال ولا شجر ولا أودية ولا رمال، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ

(١) أخرجه الترمذي، كتاب صفةالقيامة، باب ٤٧ (رقم ٢٤٩٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا﴾ أي الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ ﴿وَكُنتُمْ﴾ الخطاب للآدميين عموماً ﴿أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾ أي أصنافاً، كما قال الله عز وجل: ﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: أصنافهم، وقال تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَاجٌ﴾ أي: أصنافاً، فمعنى أزواجاً يعني أصنافاً (ثلاثة) لا رابع لها: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، فينقسم الناس يوم القيامة ثلاثة أقسام لا رابع لها ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ ذكرهم الله تعالى غير مرتبين في الفضل، فبدأ الله بأصحاب الميمنة ثم ثنّى بأصحاب الشمال، ثم ثلّث بالسابقين، لكن عند التفصيل بدأ بهم مرتبين على حسب الفضل فبدأ بالسابقين، ثم بأصحاب اليمين، ثم بأصحاب الشمال، وهذا التفصيل المرتب خلاف الترتيب المجمل، وهو من أساليب البلاغة، ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾. يعني أنه ـ عز وجل ـ أخبر بأن أحد الأصناف أصحاب الميمنة، ثم قال ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾ من هم، وسيأتي إن شاءالله ذكرهم مفصلاً، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: ذوو الشؤم، وسيأتي أيضاً ذكرهم مفصلاً، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ هؤلاء أفضل الأصناف، وقوله ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾. أصح الأعاريب فيها أن قوله ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، يعني أن السابقين إلى الأعمال الصالحة هم السابقون إلى الثواب في الآخرة، فكأنه قال: السابقون في الدنيا بالأعمال الصالحة هم السابقون في الآخرة بالثواب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾، أي: إلى الله

ـ عز وجل ـ فهم في أعلى الجنان، وأعلى الجنان أقرب إلى الرحمن ـ عز وجل ـ، لأن الفردوس وهو أعلى درجات الجنة فوقه عرش الله ـ عز وجل ـ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ذكر منزلتهم قبل ذكر منزلهم، وكما يقال: الجار قبل الدار، وكما قالت امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ﴾ بدأت بالجوار ﴿بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ وهنا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ قبل أن يبدأ بذكر الثواب؛ لأن قربهم من الله ـ عز وجل ـ فوق كل شيء، جعلنا الله منهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ أي في هذا المقر العظيم الذي فيه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأضاف الجنات إلى النعيم، لأن ساكنها منعم في بدنه، ومنعم في قلبه، كما قال ـ عز وجل ـ في سورة الإنسان: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ نضرة في الوجوه، وسروراً في القلوب، فهم في نعمتين: هما نعيم البدن، ونعيم القلب، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ هذا من نعيم البدن أيضاً ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ هذا من نعيم البدن إلى غير ذلك مما ذكره الله ـ عز وجل ـ من النعيم في الجنة، ولو لم يكن فيها إلا أن الإنسان يخلد فيها لا يموت، ويصح فلا يسقم، ويشب يكون شابًّا دائماً فلا يهرم، وفوق ذلك كله النظر إلى وجه الله ـ عز وجل ـ، كما قال الله تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ يعني فوق الحسنى وفسر النبي صلى الله عليه وعلى آله

وسلم الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله[١] ، اللهم اجعلنا ممن ينظرون إليك في جنات النعيم ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ قيل: إن المراد بذلك الأمم السابقة ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ يعني أمة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وعلى هذا القول تكون قلة هذه الأمة باعتبار كثرة الأمم السابقة، وليس المعنى أن الذين يدخلون الجنة من الأمم السابقين باعتبار كل نبي أكثر من الذين يدخلون الجنة من هذه الأمة، وقيل: المراد بالأولين أول هذه الأمة، أي: ثلة من أول هذه الأمة، وقليل من آخرها، وهذا القول هو الصحيح، بل هو المتعين، لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «**إني أرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة**»[٢] أي نصفهم، وفي حديث آخر: «**إن أهل الجنة مائة وعشرون صفًّا منهم ثمانون من هذه الأمة**»[٣] وعلى هذا لا يصح أن نقول قليل من هذه الأمة، وكثير من الأمم السابقة، بل نقول: ثلة أي كثير من هذه الأمة من أولها، وقليل من آخرها، ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾ سرر جمع سرير، وهو ما يتخذه الإنسان للجلوس والنوم، ﴿ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾ قال العلماء: منسوجة من الذهب، ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا ﴾ أي: معتمدين

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (رقم ١٨١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج (٣٣٤٨) ومسلم، كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين (٢٢٢).

(٣) أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة (رقم ٢٣٩) والترمذي، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة أهل الجنة (رقم ٢٥٤٦) وقال: هذا حديث حسن.

على أيديهم وعلى ظهورهم، فهم في راحة في اليد وفي الظهر ﴿مُتَقَٰبِلِينَ ١٦﴾ أي: يقابل بعضهم بعضاً، وهذا يدل على سعة المكان، لأن المكان إذا كان ضيقاً لا يمكن أن يكون الناس متقابلين، وهذه الآية تدل على أن الأمكنة واسعة وهو كذلك، ولهذا كان أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه ألفي عام[1]، ينظر أقصاه كما ينظر أدناه، والله على كل شيء قدير، والجنة عرضها كعرض السماوات والأرض، ومن يحيط بسماء واحدة، كيف وهي عرض السماوات السبع، والسماوات السبع بعضها من فوق بعض؟! وكلما كان الشيء فوق كانت دائرته أوسع، فمن يحيط بهذا إلا الله ـ عز وجل ـ، إذن هم متقابلون لأن أمكنتهم واسعة، ولأن لديهم من كمال الأدب ما لا يمكن أن يستدبر أحدهم الآخر، كلهم مؤدبون، كلهم قلوب صافية، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧﴾ ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن التدابر[2]. والتدابر يشمل التدابر القلبي بحيث يكون كل واحد متجه إلى وجه، والتدابر البدني إلا عند الحاجة أو الضرورة، وإلا فمتى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٣، ٦٤) وعبد بن حميد (رقم ٨١٩) والترمذي، كتاب صفة الجنة، باب منه رقم ١٧ (رقم ٢٥٥٣) وفي كتاب التفسير، باب ومن سورة القيامة (رقم ٣٣٣٠).

(٢) قال ﷺ: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام». أخرجه البخاري، كتاب الآدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر (رقم ٦٠٦٥) ومسلم، كتاب البر والصلة والآدب، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر (رقم ٢٥٥٩).

أمكن التقابل فهو أفضل، فلو أن أحداً يكلمك وقد ولاَّك ظهره هل يكون سماعك له ومحبتك له كما لو كان يحدثك مستقبلاً إياك؟ وهذا شيء مشاهد معلوم، فأهل الجنة على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين، وفي حال الاتكاء ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ الولدان جمع ولد، أو جمع وليد: كغلمان جمع غلام ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ يتردد عليهم، ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: خلقوا ليخلدوا، وهم غلمان شباب إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً، لجمالهم وصفائهم وكثرتهم وانتشارهم في أملاك أسيادهم، إذا رأيتهم أي: إذا رأيت الولدان، فإذا كان الولدان تحسبهم لؤلؤاً منثوراً، فكيف بالسادة؟ أعظم وأعظم ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ أكواب هي عبارة عن كؤوس لها عرى، والأباريق أيضاً أواني لها عرى ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ ليس له عروة، قوله: ﴿مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ أي: من خمر معين ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ يعني لا يوجع بها الرأس، ولا ينزف بها العقل، بخلاف خمر الدنيا فإنها تؤلم الرأس وتذهب العقل، ﴿وَفَاكِهَةٍ﴾ معطوفة على قوله بأكواب، أي: ويطوف عليهم الولدان بفاكهة ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ لطيبها منظراً، وطيبها مشمًّا، وطيبها مأكلاً، وهذه الفاكهة طيبة في منظرها، وطيبة في رائحتها، وطيبة في مأكلها ومذاقها؛ لأن الله قال: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ والإنسان لايعاف الشيء إلا لقبح منظره، أو لقبح رائحته، أو لقبح مأكله، والفاكهة في الجنة طيبة في لونها، وحجمها، وريحها، ومذاقها، وسبحان الله يؤتون بها متشابهة في اللون والحجم والرائحة، لكن

في المذاق مختلفة، وهذا مما يزيد الإنسان فرحاً وسروراً وإيماناً بقدرة الله ـ عز وجل ـ ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: ويطوف عليهم هؤلاء الولدان بلحم طير، وذكر لحم الطير؛ لأن لحوم الطير أنعم اللحوم وألذها، وهذا الطير من أين يتغذى؟ الجواب: ليس لنا أن نسأل عن هذا، لأن أمور الغيب يجب علينا أن نؤمن بها بدون سؤال، فنقول: إن كانت هذه الطيور تحتاج إلى غذاء فما أكثر ما تتغذى به، لأنها في الجنة، وإن كان لا تحتاج إلى غذاء، فالله على كل شيء قدير.

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ الحور هن البيض، وعين: أي حسنات الأعين، وهن ذات العيون الواسعة الجميلة ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أي: المغطى حتى لا تفسده الشمس ولا الهواء ولا الغبار فيكون صافياً من أحسن اللؤلؤ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يجزون بهذا الثواب الجزيل ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بعملهم، أو بالذي كانوا يعملونه لأن (ما) في قوله ﴿بِمَا﴾ يصح أن تكون مصدرية، ويصح أن تكون اسماً موصولاً، والباء هنا للسببية، والباء لها معانٍ كثيرة بحسب السياق فتكون للعوض كقولهم: بعت الثوب بدينار، وتكون للسببية كما في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ فقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بسببه، ولا يصح أن تكون الباء في قوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ للعوض؛ لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**لن يدخل الجنة أحد بعمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا**

أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»[١] فالباء في قوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ أي: بسبب عملهم، وليس المعنى أنه عوض؛ لأن الله تعالى لو أراد أن يعاوضنا لكانت نعمة واحدة تحيط بجميع أعمالنا ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ فانتبه لهذا، ولذلك استشكل بعض العلماء قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ والنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «**لن يدخل أحد الجنة بعمله**» والجواب أن الباء في النفي باء العوض، والباء في الإثبات باء السببية ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾ أي: أهل الجنة لا يسمعون كلاماً لا فائدة منه، ولا كلاماً يأثم به الإنسان، فالكلام الذي لا خير فيه، والكلام القبيح لا يوجد في الجنة ﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾ الاستثناء هنا استثناء منقطع؛ لأن المستثنى من غير جنس المستثنى منه، فالسلام ليس من اللغو ولا من التأثيم، وعلامة الاستثناء المنقطع أن تجعل بدل ﴿إِلَّا﴾ (لكن) فيستقيم الكلام، وهنا لو قيل في غير القرآن: لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ولكن قيلاً سلاماً سلاماً لاستقام الكلام. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ٢٤﴾ فالاستثناء هنا ﴿إِلَّا مَن﴾ منقطع؛ لأن ما بعد ﴿إِلَّا﴾ ليس من جنس ما قبلها؛ لأن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليس

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المرضى، باب نهي تمني المريض الموت (رقم ٥٦٧٣) ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة الله تعالى (رقم ٢٨١٦).

بمصيطر لا على الكافرين ولا على غيرهم، فتكون ﴿ إِلَّا﴾ بمعنى لكن، ولهذا جاءت الفاء ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ وعليه لو أن قارئاً وقف على قوله تعالى: ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ فالوقف صحيح.

﴿ سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ أي: إلا قول فيه السلامة وإدخال السرور والفرح بين أهل الجنة جعلنا الله منهم ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ هذه الطبقة الثانية وهي دون الأولى، والاستفهام في قوله: ﴿ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ استفهام تعجب وتفخيم، يعني: أي قوم هؤلاء؟! ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ السدر شجر معروف ظله بارد ومنشط، ولكن السدر الذي في الجنة ليس كالسدر الذي في الدنيا، الاسم واحد والمعنى مختلف، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ ولو كان ما في الجنة كالذي في الدنيا لكنا نعلم. والمخضود الذي لا شوك فيه ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾ الطلح قيل: إنه شجر الموز، والمنضود الذي ملىء ثمرة ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي: لا نهاية له؛ لأن الجنة ليس فيها شمس بل هي ظل، وصفها بعض السلف بأنها كالنور الذي يكون قرب طلوع الشمس، تجد الأرض مملوءة نوراً ولكن لا تشاهد شمساً، فهو ظل ممدود في المساحة والزمن ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾ أي: ماء مستمر دائماً، كما قال تعالى: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾ وغير الماء أنهار أخرى من عسل ولبن وخمر، فالأنواع أربعة، وقد ورد أن هذه الأنهار تجري في غير أخدود، قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في النونية:

أنهارها في غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان

فإذا قال قائل: هل هذا ممكن؟!

فالجواب: نقول لا تتحدث هل هذا ممكن، بل صدق، وأخبار الغيب لا يمكن أن يرد عليها هذا السؤال، أليس النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أخبر أن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر[1]؟ الجواب: بلى، والواجب التصديق، وأن لا نقول: كيف؟ ولِمَ؟ لأن أمور الغيب ثابتة في القرآن والسنة فلا تسأل مثل هذا السؤال، لأنه لا يمكن الإحاطة بها، بل قل: آمنت بالله ورسوله، واستقم.

﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢﴾ الفاكهة كل طعام أو شراب يتفكه به الإنسان؛ لأن الطعام والشراب يكون أحياناً ضرورياً معتاداً لا تتفكه به بل هو ضروري للبقاء، وأحياناً يكون الطعام والشراب فاكهة يتفكه به الإنسان ﴿كَثِيرَةٖ ٣٢﴾ أي: في أي وقت من الأوقات تجد هذه الفاكهة بينما في الدنيا الفواكه لها أوقات معينة تنقطع، ولهذا قال تعالى: ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ﴾ أي: لا تقطع أبداً في كل الأوقات ﴿وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣﴾ أي: لا أحد يمنعها، بل قد قال الله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ﴾ أي: ما يقطفه الإنسان من الثمرة داني، حتى إنه إذا اشتهى الإنسان الثمرة وهي فوق تدلى الغصن حتى يكون بين يديه بدون تعب، وفاكهة الدنيا مقطوعة تأتي في وقت

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل (رقم ١١٤٥) ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه (رقم ٧٥٨).

دون وقت، وممنوعة فلا يمكن أن تدخل بستان أحدٍ إلا بإذنه، أما في الآخرة فلا ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ الفراش ما ينام عليه الإنسان ﴿مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ أي عالية، ولما كان الذي مع الإنسان في الفراش الحور العين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ أي: أنشأناهن إنشاءً عجيباً غريباً بديعاً، وفسر هذا الإنشاء بقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾ أي: هؤلاء الزوجات أبكار مهما أتاها زوجها عادت بكراً ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ونساء الدنيا إذا افتض الزوج بكارة الزوجة لا تعود، ولكن في الآخرة تعود بكراً ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ العرب المتحببات إلى أزواجهن، وهذا يدل على كمال المتعة أن تكون الزوجة تتحبب إلى زوجها وتتقرب إليه وتغريه بنفسها، وتفعل كل ما يوجب محبته لها، ﴿أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ أي: على سن واحدة لا تختلف ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ أي: ذلك المذكور من النعيم النفسي والبدني لأصحاب اليمين.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ هؤلاء هم أصحاب اليمين الذين هم في المرتبة الثانية، والمرتبة الأولى السابقون السابقون، قال الله تعالى فيهم: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ يعني ثلة من الأولين من هذه الأمة، وقليل من الآخرين، فإن خير قرون الأمة القرن الأول الذي هو قرن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم تتناقص، أما أصحاب اليمين فقال الله تعالى فيهم: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: جماعة من هؤلاء وجماعة من هؤلاء، ثم ذكر الله القسم الثالث، فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ

ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ ﴾ وهم الكفار والمنافقون ﴿ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ هذا القسم في سموم، أي: حرارة شديدة ـ والعياذ بالله ـ، وقد بيَّن الله تبارك وتعالى في آيات كثيرة كيفيتها، فقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ وأخبر أنه ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة، وقوله: ﴿حميم﴾، الحميم هو الماء الحار الشديد الحرارة، فهم ـ والعياذ بالله ـ محاطون بالحرارة من كل وجه، ومن كل جانب ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ اليحموم هو الدخان المحض، وقد وصفه الله بأنه ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ يعني ليس بارداً يقيهم الحر، ولا كريم حسن المنظر يتنعمون به، ويستريحون فيه فهو لا بارد كما هو الشأن في الظل، ولا كريم، أي: حسن المظهر لأنه دخان كريه منظره حار مخبره ـ نسأل الله العافية ـ، ثم بين حالهم من قبل فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾، وذلك في الدنيا، قد أترف الله أبدانهم، وهيأ لهم من نعيم البدن ما وصلوا فيه إلى حد الترف، لكن هذا لم ينفعهم ـ والعياذ بالله ـ ولم ينجهم من النار، ﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾، يصرون أي: يستمرون عليه، والحنث العظيم هو الشرك؛ لأن الأصل في الحنث الإثم، والعظيم هو الشرك، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وكانوا أيضاً ينكرون البعث: ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ينكرون هذا إنكاراً عظيماً،

يقولون: أإذا بليت عظامنا وصارت رفاتاً هل نبعث؟ وأيضاً هل يبعث آباؤنا الأولون؟ ولهذا يحتجون يقولون: ﴿ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾، وهذه حجة باطلة؛ لأنه لا يقال لهم: إنكم ستبعثون اليوم، وإنما تبعثون يوم القيامة، فكيف تتحدون وتقولون هاتوا آباءنا؟ فاليوم الآخر ليس هو اليوم الحاضر حتى يتحدوا ويقولوا هاتوا آباءنا نقول: إن هذا يكون يوم القيامة، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ الأولون من المخلوقين والآخرون كلهم سيبعثون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، لا جبال ولا أشجار، ولا كروية بل تمد الأرض مسطحة، يرى أقصاهم كما يرى أدناهم، والآن لما كانت الأرض كروية فإن البعيد لا تراه؛ لأنه منخفض، لكن إذا كان يوم القيامة سطحت الأرض، وصارت كالأديم، أي: كالجلد الممدود، فيبعث الخلائق كلهم على هذا الصعيد، وقوله: ﴿ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ أي: عند الله ـ عز وجل ـ لقول الله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ أي بعد البعث ﴿ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ الضالون في العمل فهم لا يعملون، المكذبون للخبر فهم لا يصدقون ـ والعياذ بالله ـ ﴿ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ أي: آكلون من شجر، وهذا الشجر نوعه من زقوم، كما تقول: خاتم من حديد، وباب من خشب، وجدار من طين، فقوله ﴿ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ من شجر متعلقة بأكلهم، ومن زقوم بيان للشجر، وسمي زقوماً لأن الإنسان ـ والعياذ بالله ـ إذا أكله يتزقمه تزقماً، لشدة بلعه لا يبتلعه

بسهولة ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: أنهم يملأون البطون من هذا الشجر، مع أن هذا الشجر مرّ خبيث الرائحة، كريه المنظر، لكن لشدة جوعهم يأكلونه كما يأكل الجائع المضطر، فهم يأكلونه على تكره، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾، فهم يأكلون من هذا الشجر، ويملأون البطون منها، يأتيهم شغف عظيم جداً للأكل، حتى يملأوا بطونهم مما يكرهونه، وهذا أشد في العذاب ـ نسأل الله العافية ـ ثم إذا ملأوا بطونهم من هذا الطعام اشتدت حاجتهم إلى الشرب، فكيف يشربون؟ قال الله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾ الحميم: هو الماء الحار، يشربون ماءً حارًّا بعد أن يستغيثوا مدة طويلة، وقد وصف الله هذا الماء بقوله: ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ وقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ فتأمل يا أخي هذا: إذا قربوه من الوجه يشويه وإذا دخل بطونهم قطع أمعاءهم، ومع ذلك يشربونه بشدة: ﴿شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾، أي: شرب الإبل، والهيم: جمع هائمة، أو جمع هيماء، يعني أنها شديدة العطش لا يرويها الشيء القليل، فيملأون بطونهم ـ والعياذ بالله ـ من الشجر الزقوم، ويشربون من الحميم شرب الهيم، أسأل الله أن يجيرني وإياكم من النار.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ أي: هذه ضيافتهم، بخلاف المؤمنين فإن ضيافتهم جنات الفردوس ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا

حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ وهذا أمر لا أحد ينكره: أن خالقنا هو الله، حتى المشركون الذين يشركون مع الله إذا سئلوا: من خلقهم؟ قالوا: الله، ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ أي: أول مرة ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ أي: في إعادتكم ثاني مرة، ولولا هنا بمعنى هلا تصدقون، كان الواجب عليهم وهم يصدقون بأن خالقهم أول مرة هو الله، أن يصدقوا بالخلق الآخر؛ لأن القادر على الخلق الأول قادر على الخلق الآخر من باب أولى، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾. وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾ ثم ضرب الله تعالى أمثالاً بما فيه وجودنا، وما فيه بقاؤنا، وما فيه استمتاعنا، فقال: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ أي: أخبروني عن هذا المني الذي يخرج منكم: هل أنتم تخلقونه أم الله؟ والجواب: الله ـ عز وجل ـ هو الذي يخلقه، فيخرج من بين الصلب والترائب، وهو الذي يخلقه في الرحم خلقاً من بعد خلق، فنحن لا نوجد هذا المني ولا نطوره في الرحم، بل ذلك إلى الله ـ عز وجل ـ ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ الجواب: بل أنت يا ربنا. ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ أي: قضيناه بينكم، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾، ولابد حتى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ أي: لا أحد يسبقنا فيمنعنا أن نبدل أمثالكم، بل نحن قادرون على ذلك، وسوف

يبدل الله تعالى أمثالنا أي ينشئنا خلقاً آخر وذلك يوم القيامة. ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ وذلك يوم القيامة ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ وهي أنكم نشأتم في بطون أمهاتكم، وأخرجكم الله ـ عز وجل ـ من العدم ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: فهلا تذكرون وتتعظون، وهذا دليل عقلي من الله ـ عز وجل ـ يعرضه على عباده ومعناه: إنا بدأناكم أول مرة فإذا بدأناكم أول مرة، فلسنا بمسبوقين على أن نعيدكم ثاني مرة.

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: أخبروني أيها المكذبون بالبعث عن الذي تزرعونه بالحرث: هل أنتم الذين تخرجونه زرعاً بعد الحب أم نحن الزارعون؟ الجواب: بل أنت يا ربنا، أنت الذي تزرعه، أي تنبته حتى يكون زرعاً، كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ فلا أحد يستطيع أن يفلق هذه الحبة حتى تكون زرعاً، ولا هذه النواة حتى تكون نخلاً، إلا الله ـ عز وجل ـ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ ولم يقل ـ عز وجل ـ لو نشاء لم نخرجه بل قال: ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ أي: بعد أن يخرج ويكون زرعاً وتتعلق به النفوس يجعله الله تعالى حطاماً، وهذا أشد ما يكون سبباً للحزن والأسى؛ لأن الشيء قبل أن يخرج لا تتعلق به النفوس، فإذا خرج وصار زرعاً ثم سلط الله عليهم آفة، فكان حطاماً، أي: محطوماً لا فائدة منه، فهو أشد حسرة ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: تتفكهون بالكلام تريدون أن تذهبوا الحزن عنكم، فتقولون ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي لحقنا الغرم بهذا الزرع الذي صار حطاماً، ثم تستأنفون فتقولون: ﴿بَلْ نَحْنُ

﴿مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: حرمنا هذا الزرع، وصار حطاماً ففقدناه، ثم انتقل الله ـ عز وجل ـ إلى مادة أخرى، وهي مادة الحياة، وهي الماء فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: أخبرونا عنه من الذي خلقه؟ من الذي أوجده ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾؟ والجواب: بل أنت يا ربنا، والمعنى: هل أنتم أنزلتم الماء الذي تشربونه من المزن أي من السحاب أم نحن المنزلون؟ الجواب: هو الله ـ عز وجل ـ، لأنه يرسل إلينا السحاب فينزل المطر فمنه ما يبقى على الأرض، وما شربته الأرض يسلكه الله تعالى ينابيع في الأرض، ويستخرج من الآبار، ويجري من العيون، فأصل الماء الذي نشرب من المزن، من السحاب، ولذلك إذا قلَّ المطر في بعض الجهات قل الماء وغار، واحتاج الناس إلى الماء ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ أي: جعلناه مالحاً، كريه الطعم لا يمكن أن يشرب، وهنا يقول: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ ولم يقل: لو نشاء لغورناه، أو منعنا إنزاله؛ لأن كونهم ينظرون إلى الماء رأي العين ولكن لا يمكنهم شربه، أشد حسرة مما لو لم يكن موجوداً، والله ـ عز وجل ـ يريد أن يتحداهم بما هو أعظم شيء في حسرة نفوسهم ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي فهلا تشكرون الله ـ عز وجل ـ على إنزاله من المزن، وعلى كونه سائغاً عذباً لذيذ الطعم سريع الهضم، ثم انتقل الله تعالى إلى أمر ثالث يصلح به الطعام والشراب وهو النار، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ أي: توقدون ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ والجواب: بل أنت يا ربنا، وشجرة النار هي شجر معروف في

الحجاز، وربما يكون معروفاً في غيره، يسمى المرخ والعفار، وهذا الشجر له خاصية إذا ضرب بالمرو أو بشيء ينقدح مع المماسة، اشتعل ناراً يوقد منه وهو معروف، ولهذا يقال:

في كل شجر النار واستنجد المرخ والعفار

يعني صار أعظمها، هذه النار التي نوقدها، ونطبخ عليها طعامنا، ونسخن مياهنا وننتفع بها أنشأها الله عز وجل ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ أي: تذكر هذه النار بنار الآخرة، مع أن نار الآخرة فضلت بتسعة وستين جزءاً على نار الدنيا كلها، لما فيها من النيران الحارة الشديدة ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: للمسافرين يتمتعون بالنار بالتدفئة، والدلالة على المكان، لأنهم في ذلك الوقت، وإلى وقت قريب كان الناس يستدلون على الأمكنة بنار يضعونها على مكان مرتفع تهدي الضال، ويضرب المثل في الدلالة بالعلم عليه النار، كما قالت الخنساء ترثي أخاها صخراً:

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ أي: سبح الله ـ عز وجل ـ بهذا الاسم، فقل: سبحان ربي العظيم، والتسبيح يعني أن الله تعالى منزه عن كل نقص وعيب، فإذا قلت: سبحان الله، فالمعنى أني أنزهك يا ربي من كل نقص وعيب، وقوله: ﴿ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ أي: ذو العظمة البالغة، ولما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**اجعلوها في ركوعكم**». ولما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ قال: «**اجعلوها في سجودكم**»[1]، ولهذا

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (رقم ٨٦٩)=

ينبغي للإنسان إذا كان يصلي وقال: سبحان ربي العظيم. أن يستحضر أمر الله في قوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ وأمر الرسول ﷺ في قوله: «**اجعلوها في ركوعكم**» حتى يجمع بين الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ يخبر الله تبارك وتعالى أنه يقسم بمواقع النجوم، ولا في قوله ﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ ﴾ للتنبيه والتوكيد وليست للنفي؛ لأن المراد إثبات القسم وليس نفيه وهذا كقوله تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وأمثال ذلك يؤتى بـ (لا) بصورة النفي، والمراد بذلك التوكيد والتنبيه. والقسم تأكيد الشيء بذكر معظم بأدوات مخصوصة، وهي الواو والباء والتاء، وقوله: ﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ ﴾ اختلف فيها العلماء رحمهم الله، فمنهم من قال: إن المراد بذلك أوقات نزول القرآن؛ لأن القرآن نزل مفرقاً، والشيء المفرق يسمى منجماً، كما يقال في الدين المقسط على سنوات أو أشهر، يقال: إنه دين منجم، وقيل: المراد بمواقع النجوم مواقع الطلوع والغروب؛ لأن مواقع غروبها إيذان بالنهار، ومواقع طلوعها إيذان بالليل، وتعاقب الليل والنهار من آيات الله العظيمة الكبيرة التي لا يقدر عليها إلا الله ـ عز وجل ـ فيكون الله تبارك وتعالى أقسم بما يدل على إقبال الليل وإدباره، وقيل المراد

= وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب التسبيح في الركوع والسجود (رقم ٨٨٧).

بمواقع النجوم: الأنواء، وكانوا في الجاهلية يعظمونها حتى إنهم يقولون: إن المطر ينزل بالنوء. ويقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، والمهم أن الله تعالى أقسم بمواقع النجوم على أمر من أعظم الأمور، وهو قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ لكن الله بين عظم هذا القسم قبل أن يبين المقسم عليه، فقال ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ وأتى بالجملة الاعتراضية في قوله: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ إشارة على أنه يجب أن نتفطن لهذا القسم وعظمته حتى نكون ذوي علم به ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ أي: إن الذي نزل على محمد ﷺ ﴿لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾، والكرم يراد به الحسن والبهاء والجمال، كما في قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لمعاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ حين بعثه إلى اليمن وأمره أن يبين للناس أن عليهم زكاة في أموالهم قال: «**إياك وكرائم أموالهم**»[1] والكرائم جمع كريمة، والمراد بها الشاة الحسنة الجميلة، وهو كريم أعني القرآن كريم في ثوابه، فالحرف بحسنة، والحسنة بعشرة أمثالها، وهو كريم في آثاره على القلوب وصلاحها، فإن قراءة القرآن تلين القلوب، وتوجب الخشوع لله ـ عز وجل ـ وكريم في آثاره بدعوة الناس إلى شريعة الله كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ فالمهم أن القرآن كريم بكل معنى الكرم ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ في

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء (١٤٩٦) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١٩).

الكتاب المكنون، فقيل: إنه اللوح المحفوظ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾. وقيل: المراد به الكتب التي بأيدي الملائكة كما قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ وهذا القول رجحه ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه «التبيان في أقسام القرآن» وأكثر المفسرين على أن المراد به اللوح المحفوظ.

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ أي: لا يمس هذا الكتاب المكنون ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ وهم الملائكة طهرهم الله تعالى من الشرك والمعاصي، ولهذا لا تقع من الملائكة معصية، بل هم ممتثلون لأمر الله قائمون به على ما أراد الله، وذهب بعض المفسرين إلى قول غريب، وقالوا: المراد بقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي لا يمس القرآن إلا طاهر، ولكن هذا قول ضعيف لا تدل عليه الآية[1]، لأنه لو كان المراد ذلك لقال (إلا المتطهرون) يعني المتطهرين ولكنه قال: ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي من قبل الله ـ عز وجل ـ، فهذا القول ضعيف، ولولا أنه يوجد في بعض التفاسير التي بأيدي الناس ما تعرضنا له، لأنه لا قيمة له، والصواب أن المراد بذلك الملائكة، فإن قلنا: إن المراد بالكتاب المكنون الصحف التي بأيديهم فواضح في قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ وإذا قيل المراد به اللوح المحفوظ فكذلك المطهرون قد يمسونه بأمر الله ـ عز وجل ـ، وقد لا يمسونه.

---

(١) انظر حكم مس المصحف بغير طهارة في فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ (١١/ ٢١٢).

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: هذا القرآن تنزيل من رب العالمين، نزل من عند الله ـ عز وجل ـ، لأنه كلامه، وكلام الله تعالى منزل غير مخلوق، ويستفاد من هذه الآية الكريمة أن القرآن ليس بمخلوق، لأنه نزل من الله فهو كلامه، وكلامه من صفاته تعالى، وصفاته غير مخلوقة، وفي قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ إشارة إلى أنه يجب علينا أن نعمل به؛ لأن الذي أنزله هو الرب المطاع الخالق الرازق، الذي يجب أن نطيعه بما أمر، وننتهي عما نهى عنه وزجر و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ كل من سوى الله، وسموا عالمين؛ لأنهم علم على خالقهم، فإن هذا الخلق إذا تأمله الإنسان دله على ما لله ـ عز وجل ـ من عظمة وسلطان ورحمة وغير ذلك من صفاته ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ يعني أبعد هذا البيان لعظمة القرآن الكريم تدهنون به الكفار وتسكتون عن بيانه وعن العمل به، وهذا الاستفهام للإنكار، لأن الواجب على من آمن بأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾، وأنه قرآناً كريماً، وأنه لا يمسه إلا المطهرون الواجب أن يصارح ويصرح ولا يدهن، وقد قال الله تعالى في آيات أخرى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ ولكن هذا ليس بحاصل، فالواجب على المؤمن أن يبرز بدينه ويفتخر به ويظهره، خلاف ما كان عليه كثير من الناس اليوم مع الأسف، تجد الرجل منهم إذا قام ليصلي يستحي أن يصلي، وربما يداهن ويؤخر الصلاة عن وقتها موافقة لهؤلاء الذين لا يصلون، وهذا غلط عظيم، بل الواجب أن يكون الإنسان صريحاً فلا يداهن في دين الله ـ عز وجل ـ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ

﴿تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: تجعلون عطاء الله إياكم تكذيباً له كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ ومن ذلك أن ينسب الإنسان نعمة الله ـ عز وجل ـ إلى السبب متناسياً المسبب سبحانه وتعالى، كقوله مثلاً: مطرنا بنوء كذا فينسب المطر إلى النوء لا إلى الخالق ـ عز وجل ـ، فهذا نوع من الشرك، كما جاء ذلك صريحاً في حديث زيد بن خالد الجهني ـ رضي الله عنه ـ أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلى بهم صلاة الصبح ذات يوم في الحديبية وقد نزل مطر، فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**قال أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر**» يعني انقسموا إلى قسمين مؤمن وكافر، «**فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»[1].

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: الروح، والذي يعين المرجع هنا السياق كما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: الشمس، ولم يسبق لها ذكر، ولكن السياق يدل على ذلك، فمرجع الضمير تارة يكون مذكوراً، وتارة يكون معلوماً: إما بالسياق وإما بشيء آخر، والحلقوم هو مجرى النفس، وفي جانب الرقبة الأسفل مجريان: مجرى الطعام والشراب، ويسمى المريء، ومجرى

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية (رقم ٤١٤٧) ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (رقم ٧١).

النفس وهو الحلقوم، وهو عبارة عن خرزات دائرية لينة منفتحة، أما المريء فإنه بالعكس فإنه كواحد من الأمعاء، ووجه ذلك أن مجرى النفس لابد أن يكون مفتوحاً، لأن النفس لو كان مجراه مغلقاً لكان التنفس شديداً، لكن برحمة الله جعل الله هذا مثل الأنبوب، لكنه لين، خرزات مستديرة، حتى يهون على المرء رفع رأسه وخفضه، أما المريء فهو مثل الأمعاء العادية، والطعام والشراب قوي يفتحه عند النزول إليه، وذكر الله الحلقوم دون المريء، لأن الحلقوم مجرى النفس، وبانقطاعه يموت الإنسان، فإذا بلغت الروح الحلقوم وهي صاعدة من أسفل البدن إلى هذا الموضع، حينئذ تنقطع العلائق من الدنيا، ويعرف الإنسان أنه أقبل على الآخرة وانتهى من الدنيا ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أي تنظرون إلى الميت وما يعانيه من المشاق والسكرات، ولا تستطيعون أن تردوا ذلك عنه، ولو كنتم أقرب قريب إليه، وأحب حبيب إليه فإنه لا يقدر أحد على منع الروح إذا بلغت الحلقوم ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ يعني أن الله تعالى أقرب إلى الحلقوم من أهله، ولكن المراد أقرب بملائكتنا، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ والله تعالى يضيف الشيء إلى نفسه إذا قامت به ملائكته، لأن الملائكة رسله عليهم السلام، وليس هذا من باب تحريف الكلم عن مواضعه، ولكنه من باب تفسير الشيء بما يقتضيه السياق، لأنه ربما يقول قائل: إن ظاهر الآية ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أن الأقرب هو الله ـ عز وجل ـ فلماذا تحرفونه؟ فنقول: نحن لا نحرفها، بل فسرناها بما يقتضيه ظاهرها، لأن الله

قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ وهذا يدل على أن هذا القريب في نفس المكان ولكن لا نبصره، وهذا يعين أن يكون المراد قرب الملائكة لاستحالة ذلك في حق الله تعالى، وأيضاً فإن القرب مقيد بحال الاحتضار، والذي يحضر الميت عند موته هم الملائكة لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾، فإن قيل: كيف يضيف الله الشيء إلى نفسه والمراد الملائكة؟

قلنا: لا غرابة في ذلك، فإن الله يضيف الشيء إلى نفسه وهو من فعل الملائكة لأنهم رسله، ففعلهم فعله، ألم تر إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ والمراد قراءة جبريل عليه السلام لا قراءة الله، لكنه أضاف فعل جبريل إليه لأنه بأمره، وهو الذي أرسله به، إذن ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ يعني ملائكتنا أقرب إليه منكم، لأنهم حضروا لقبض الروح، والله تبارك وتعالى قد حفظ الإنسان في حياته وبعد مماته، ففي حياته هناك ملائكة يحفظونه من أمر الله، وبعد مماته ملائكة يقبضون الروح ويحفظونها لا يفرطون فيها إطلاقاً، فهم قريبون من الميت ولكننا نحن لا نبصرهم، لأن الملائكة عالم غيبي لا يُرون ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ﴾ أي: فهلا إن كنتم غير مجزيين: أي غير مبعوثين ومجازين على أعمالكم ترجعونها إن كنتم صادقين، الجواب: لا يمكن، وحينئذ يجب أن تصدقوا بالبعث والجزاء، لأنكم لا تقدرون على رد الروح حتى لا تجازى، فأيقنوا بالبعث.

ثم قسم الله تعالى المحتضرين إلى ثلاثة أقسام فقال في القسم الأول: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ ـ اللهم اجعلنا منهم ـ وهم الذين أتوا بالواجبات، وتركوا المحرمات، وأتوا بالمستحبات، وتنزهوا عن المكروهات، أي: أكملوا دينهم، والمقربون هم السابقون، الذين ذكروا في أول السورة، السابقون إلى الخيرات ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ اختلف المفسرون ـ رحمهم الله ـ في قوله: ﴿ فَرَوْحٌ ﴾، فقيل: فراحة، لأن المؤمن وإن كان يكره الموت لكنه يستريح به، لأنه يبشر عند النزع بروح وريحان، ورب غير غضبان، فيسر ويبتهج ولا يكره الموت حينئذ بل يحب لقاء الله ـ عز وجل ـ، وهذا لا شك راحة له من نكد الدنيا ونصبها وهمومها، وقيل: الروح بمعنى الرحمة، كما قال الله تعالى عن يعقوب عليه السلام حين قال لبنيه: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾ أي: من رحمته، وهذا المعنى أعم من الأول، لأن الرحمة أعم من أن تكون راحة، أو راحة مع حصول المقصود، وإذا كان المعنى أعم كان حمل الآية عليه أولى، إذن ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ أي: رحمة، ومن الرحمة الراحة ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ قيل: المراد بالريحان كل ما يسر النفس، وليس خاصًّا بالريحان ذي الرائحة الطيبة، بل كل ما فيه راحة النفس ولذتها من مأكول، ومشروب، وملبوس، ومنكوح ومشموم، فهو شامل، وقيل: المراد بالريحان الرائحة الطيبة كالريحان المعروف، والأول: أشمل. فتحمل الآية عليه ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ أي: جنة

ينعم بها، وهي الدار التي أعدها الله لأوليائه ـ جعلنا الله منهم ـ ينعم الإنسان فيها ببدنه وقلبه، فهو لا يتعب ولا ينصب، ولا يمرض ولا يحزن، ولا يهتم ولا يغتم، بل هو في نعيم دائم، والدنيا فيها نعيم لكنه نعيم منغص على حد قول الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

وهكذا الدنيا إذا سرَّت يوماً فاستعد للإساءة من غد، وإذا أساءت يوم فقد تنعم في الثاني، أو لا تنعم، أما الجنة في الآخرة فهي دار نعيم في القلب ونعيم في البدن ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾﴾ وهم الذين أتوا بالواجبات وتركوا المحرمات، لكنَّ فيهم نقصاً في المستحبات والتنزه عن المكروهات ﴿فَسَلَٰمٌ﴾ أي: سلامة ﴿لَّكَ﴾ أي: أيها المحتضر ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ أي: أنت من أصحاب اليمين، والمعنى: فسلام لك حال كونك من أصحاب اليمين، والأولون هم المقربون إليهم، وأصحاب اليمين لا سابقين ولا مخذولين، بين بين، لكنهم ناجون من العذاب، ولهذا قال: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ وهذا القسم الثاني، أما القسم الثالث: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالخبر ﴿ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾﴾ في العمل فلا تصديق ولا التزام، فكل كافر داخل في هذه الآية حتى المنافق ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾ أي: فله نزل من حميم، والنزل بمعنى الضيافة التي تقدم للضيف أول ما يقدم، فهؤلاء ـ والعياذ بالله ـ حظهم هذا النزل نزل من حميم، والحميم هو شديد الحرارة ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ أي يصلون الجحيم فيخلدون فيها، والجحيم من أسماء النار ـ أعاذنا الله وإياكم منها ـ

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾ أي: إن هذا المذكور لكم، وهو انقسام الناس إلى هذه الأقسام الثلاثة ﴿ لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾ أي: اليقين المتحقق المتأكد وصدق الله ـ عز وجل ـ لا يمكن أن يخرج الناس عن هذه الأقسام الثلاثة. وهم المقربون، وأصحاب اليمين، والمكذبون الضالون، لا يمكن يخرجوا عن هذا ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ سبح بمعنى نزه، والذي ينزه الله ـ عز وجل ـ عنه كل نقص وعيب، أو مماثلة للمخلوق، فهو منزه عن كل نقص لكمال صفاته وعن مماثلة المخلوق، قال الله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي: من تعب وإعياء، وقوله: ﴿ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ قيل: إن الباء زائدة، وأن المعنى سبح اسم ربك، كما قال الله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ وقيل: إنها ليست بزائدة، وأن المعنى سبح الله باسمه فلابد من النطق بالتسبيح، فتقول: سبحان الله، أما لو نزهته بقلبك فهذا لا يكفي، فعلى هذا تكون الباء للمصاحبة يعني سبح الله تسبيحاً مصحوباً باسمه ﴿ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ الرب هو الخالق المالك المدبر، والعظيم ذو العظمة والجلال ـ جل وعلا ـ.

هذه السورة لو لم ينزل في القرآن إلا هي، لكانت كافية في الحث على فعل الخير وترك الشر، فقد ذكر الله تعالى في أولها يوم القيامة ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ ﴾ ثم قسم الناس فيها إلى ثلاثة أقسام: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، ثم ذكر الله في آخرها حال الإنسان عند الموت، وقسم كل الناس إلى ثلاثة

أقسام: مقربون، وأصحاب يمين، ومكذبون ضالون، وكذلك ذكر الله فيها ابتدأ الخلق في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ والرزق من طعام وشراب وما يصلحهما فهي سورة متكاملة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يتدبرها إذا قرأها، كما يتدبر سائر القرآن لكن هي اشتملت على معاني عظيمة والله الموفق.

تفسير سورة الحديد

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ تقدم الكلام عليها، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ معنى سبح أي نزه الله ـ عز وجل ـ عن كل عيب ونقص، وعن مماثلة المخلوقين، ودليل تنزهه عن كل عيب ونقص قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ واللغوب يعني التعب والإعياء، وهذا يدل على كمال قوته ـ عز وجل ـ وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فنزه الله تعالى نفسه عن الغفلة، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ فنزه نفسه عن العجز، ودليل تنزهه عن مماثلة المخلوقين، قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وأثبت الله لنفسه وجهاً في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، وأثبت الله لنفسه أنه استوى على العرش، والإنسان يستوي على البعير، أي يركب البعير ويستقر عليه ويعلو عليه، ليس استواؤه سبحانه وتعالى على العرش كاستواء الإنسان على البعير، والدليل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فكل صفة يثبتها الله لنفسه وللمخلوق مثلها فإن ذلك موافقة للاسم فقط، أما في الحقيقة فليس كمثله شيء، مثال ذلك: أثبت الله لنفسه علماً، وأثبت للمخلوق علماً، فقال الله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ فأثبت الله لنا علماً، وأثبت لنفسه علماً ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ

أَنفُسِكُمْ﴾ وليس العلم الذي أثبته لنفسه كعلم المخلوق والدليل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ فالله ـ عزوجل ـ لا يمكن أن يماثله شيء من المخلوقات لا في ذاته، ولا في صفاته، ولهذا لا يمكننا أن ندرك الله ـ عز وجل ـ نعلمه بآياته وصفاته وأفعاله، لكنا لا ندرك حقيقته ـ عز وجل ـ لأنه مهما قدرت من شيء فالله تعالى مخالف له غير مماثل، وقوله: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كل ما في السماوات والأرض، فإنه يسبح الله ـ عز وجل ـ وينزهه، ويشمل الآدمي، والجن، والملائكة، والحشرات، والحيوانات، وكل شيء، فكل ما في السماوات والأرض يسبح الله، وهل يسبحه بلسان المقال بمعنى يقول: سبحان الله، أو بلسان الحال، بمعنى أن تنظيم السماوات والأرض والمخلوقات على ما هي عليه يدل على كمال الله ـ عز وجل ـ وتنزهه عن كل نقص، الجواب: أنه يسبح الله بلسان الحال وبلسان المقال، إلا الكافر، فإنه يسبح الله بلسان الحال لا بلسان المقال؛ لأن الكافر يصف الله بكل نقص، يقول: اتخذ الله ولداً، ويقول: إن معه إلهاً، وربما ينكر الخالق أصلاً، لكن حاله وخلقته وتصرفه تسبيح لله ـ عز وجل ـ. وهل الحشرات والحيوانات تسبح الله بلسان المقال؟ الجواب: نعم، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ الحشرات كلها تسبح الله بلسان المقال، والحصى يسبح الله كما كان ذلك بين يدي رسول الله ﷺ[1] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العزيز يعني ذو العزة، والعزة هي

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٥٩٢) حيث عزاه الحافظ ابن حجر إلى البزار والطبراني في الأوسط.

الكبرياء والغلبة والسلطان وما أشبه ذلك، فالعزيز هو ذو السلطان الكامل والغلبة الكاملة، فلا أحد يغلبه ـ عز وجل ـ يقول الشاعر الجاهلي:

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

والحكيم لها معنيان: المعنى الأول: ذو الحكمة، والمعنى الثاني: ذو الحكم التام، فهي مشتقة من شيئين: من الحكمة والحكم، فالحكمة هي أن جميع أفعاله وأقواله وشرعه حكمة، وليس فيه سفه بأي حال من الأحوال، ولهذا قيل في تعريف الحكمة: (إنها وضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها)، فما من شيء من أفعال الله، أو من شرع الله إلا وله حكمة، فإذا قدر الله الحر الشديد الذي يهلك الثمار فهو حكمة لا شك، وإذا منع الله المطر فهو حكمة، وإذا ألقى الله الموت بين الناس فهو حكمة، وكل شيء فهو حكمة، والشرائع كلها حكمة فإذا أحل الله البيع وحرم الربا فهو حكمة، لأنا نعلم أن الله حكيم، ففرق الله ـ عز وجل ـ بين البيع والربا، فالبيع أحله الله، والربا حرمه، فإذا قال قائل: لماذا؟ قلنا: الله أعلم، الله حكيم ـ عز وجل ـ، ولهذا لما قالت المرأة لعائشة ـ رضي الله عنها ـ يا أم المؤمنين ما بال الحائض تقضي الصوم ـ يعني إذا حاضت في رمضان ـ ولا تقضي الصلاة؟ سؤال فيه إشكال، لماذا الحائض إذا أفطرت في رمضان يلزمها قضاء الصوم، وإذا تركت الصلاة لا يلزمها قضاء الصلاة، وكلاهما فرض، قالت لها ـ رضي الله عنها ـ: «**كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة**[1] » فاستدلت ـ رضي

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة (٣٢١) ومسلم، =

الله عنها- بالحكم على الحكمة، لأنا نعلم أن الله حكيم - عز وجل - فلم يوجب عليها قضاء الصوم دون قضاء الصلاة إلا لحكمة، لكن أحياناً نعرف الحكمة وأحياناً لا نعرفها، لماذا أحل الله البيع وحرم الربا؟ نقول: لأن الله أحل البيع وحرم الربا، ولذلك لما قال أهل الربا: إنما البيع مثل الربا. رد الله قولهم فقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، فإذا حكم الله بشيء شرعاً، أو حكم بشيء قدراً فلا يشكل عليك، إن وفقك الله لمعرفة الحكمة فهذا خير، وإن لم تعرف فاعلم أن الله حكيم وله أيضاً الحكم - عز وجل - قال الله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ من يستطيع أن يرفع حكم الله - عز وجل - فيما إذا نزل به الموت؟ لا أحد، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ لا يمكن، لأن الله حكم بهذا، وإذا حكم - عز وجل - بحروب وفتن من يرفع هذا إلا الله عز وجل، والله تعالى له الحكم في الأمور الشرعية قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فالحكم لله - عز وجل - فإذا عرفت أن الله تعالى له الحكمة فيما شرع، وفيما خلق، وقدر، حينئذ تستسلم ولا تجادل، لأن الذي حكم بذلك هو الله، وإذا علمت أن الحكم لله - عز وجل - بين العباد فترجع في الأمور الشرعية، إلى الكتاب والسنة، وفي الأمور القدرية ترجع إلى الله، فإذا حكم عليك بالمرض تفزع إلى الله - عز وجل -، وإذا حكم عليك بالفقر تفزع إلى الله، اللهم

= كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة (٣٣٥) (٦٩).

أغنني من الفقر، واقضِ عني الدين، فإذا آمن الإنسان بأن الحكم كله لله إن كان حكماً قدرياً استسلم، وقال: هذا أمر الله، وأنا عبدالله ولا يمكن أن يكون سوى ما كان، وإذا كان شرعيًّا. قال الله ـ عز وجل ـ أعلم وأحكم بما يصلح العباد.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لله تعالى وحده ملك السماوات والأرض خلقاً وتدبيراً، فلا يملك السماوات والأرض أحد إلا الله عزوجل ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يجعل الجماد حياً، ويميت ما كان حياً، فبينما نرى الإنسان ليس شيئاً مذكوراً إذا به يكون شيئاً مذكوراً كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ ثم يبقى في الأرض ثم يعدم ويفنى، فإذا هو خبر من الأخبار ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذه جملة خبرية عامة في كل شيء من موجود ومعدوم، والقدرة صفة تقوم بالقادر حيث يفعل الفعل بلا عجز.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ أربعة أشياء ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ أي الذي ليس قبله شيء، لأنه لو كان قبله شيء لكان الله مخلوقاً، وهو عز وجل الخالق، ولهذا فسر النبي ﷺ ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ الذي ليس قبله شيء[1]، فكل الموجودات بعد الله فليس معه أحد ولا قبله ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ الذي ليس بعده شيء، لأنه لو كان بعده شيء لكان ما يأتي بعده غير مخلوق لله، والمخلوقات كلها مخلوقة لله عز وجل، فهو الأول لا ابتداء له، والآخر لا انتهاء له، ليس بعده شيء ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾، قال النبي ﷺ: في تفسيرها: «**الذي ليس فوقه شيء**» فكل المخلوقات تحته جل وعلا، فليس فوقه شيء

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم (رقم ٢٧١٣).

﴿ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ قال النبي ﷺ: «**الذي ليس دونه شيء**»[١] أي: لا يحول دونه شيء، خبير عليم بكل شي، لا يحول دونه جبال، ولا أشجار، ولا جدران ولا غير ذلك، ليس دونه شيء، ﴿ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ﴾ اشتملا على عموم الزمان، ﴿ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ على عموم المكان.

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾، كل شيء فالله عليم به، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ فلو عمل الإنسان في جوف بيته في حجرة مظلمة فإن الله تعالى يعلم عمله، بل زد على ذلك أنه يعلم ما توسوس به نفسك كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾. وأنت إذا فكرت في شيء فالله يعلم به قبل أن يكون، ويعلم الماضي البعيد، ويعلم المستقبل البعيد ويعلم بكل شيء، ولهذا قال موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما سأله فرعون: ﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ يعني شأنها قصها علينا ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ لا يضل معناه لا يجهل، لأن الضلال معناه الجهل، كما قال الله ـ عز وجل ـ في نبيه: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ ضال ليس معناها فاسق، بل معناه أنه جاهل لا يدري كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ إذن الله بكل شيء عليم، وإذا علمت أن الله بكل شيء عليم هل يمكنك أن تقدم على معصية الله وأنت في خفاء عن الناس؟ لا، لأنك تعلم أن الله يعلمك، قال الله ـ عز

---

(١) تقدم تخريجه في ص ٣٦١.

وجل ـ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ الجواب: بلى، ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾، فإذن إذا آمنت بأن الله ـ جل وعلا ـ عليم بكل شيء فإنه يستلزم أن لا تقوم بمعصيته ولو في الخفاء، وأن لا تترك طاعته ولو في الخفاء، ولقد قال الله ـ عز وجل ـ عن نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ لأجل أن لا يسمعوا، ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ لئلا يبصروا بها ـ والعياذ بالله ـ لأنهم يكرهون الحق وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ يشمل أفعال العباد وأقوال العباد، بل إنه يعلم سبحانه وتعالى ما في قلب الإنسان وإن لم يظهره، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ فإياك أن تضمر في قلبك شيئاً يحاسبك الله عليه، لكن الوساوس التي تطرأ على القلب ولا يميل الإنسان إليها بل يحاربها، ويحاول البعد عنها بقدر إمكانه لا تضره شيئاً، بل هي دليل على إيمانه لأن الشيطان إنما يأتي إلى القلب فيلقي عليه الوساوس إذا كان قلباً سليماً، أما إذا كان قلباً غير سليم فإن الشيطان لا يوسوس له، لأنه قد انتهى.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلق السماوات والأرض أي: أوجدها ـ عز وجل ـ بكل نظام وتقدير، والسماوات سبع والأرضون سبع، والأرض سابقة على السماء، لأن الله تعالى قال في سورة فصلت لما ذكر خلق الأرض قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ۖ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾، لكن الله يبدأ بالسماوات لأنها

أشرف من الأرض وأعلى من الأرض، والسماوات بينها مسافة بعيدة جداً جداً، وهذا يلزم أن يكون أصغر السماوات سماء الدنيا ويليها الثانية والثالثة، كل واحدة أوسع من الأخرى سعة عظيمة، وهي طباق متطابقة بعضها فوق بعض، وفي حديث المعراج أن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم كلما صعد إلى سماء استفتح ففتح له[1]، والأرض جعلها تعالى في القرآن بصيغة الإفراد، لكن الله تعالى أشار إلى أنها متعددة في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: مثلهن في العدد لا في الصفة، لأن التماثل في الصفة بين الأرض والسماء بعيد جداً، لكن مثلهن في العدد، وصرحت بذلك السنة في قول النبي ﷺ: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله يوم القيامة به من سبع أراضين**»[2] وخلقها الله عزوجل في ستة أيام، والأيام أطلقها الله ـ عز وجل ـ ولم يبين أن اليوم خمسين ألف سنة، أو أقل، أو أكثر، وإذا أطلق يحمل على المعروف المعهود وهي أيامنا هذه، وقد جاء في الحديث أنها الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة،[3] فالجمعة منتهى خلق السماوات

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء (رقم ٣٤٩)، ومسلم، كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (رقم ١٦٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض (٢٤٥٣) ومسلم كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها (١٦١٠).

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله عز وجل التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين. وخلق =

والأرض ومبتدئه الأحد، والسبت ليس فيه خلق لا ابتداء ولا انتهاء.

فإذا قال قائل: أليس الله قادراً على أن يخلقها في لحظة؟

فالجواب: بلى، لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن. فيكون، وإنما خلقها في ستة أيام ـ والله أعلم ـ لحكمتين: الحكمة الأولى: أن هذه المخلوقات يترتب بعضها على بعض، فرتب الله تعالى بعضها على بعض حتى أحكمها، وانتهى منها في ستة أيام. الحكمة الثانية: أن الله علّم عباده التؤدة والتأني، وأن الأهم إحكام الشيء لا الفراغ منه، حتى يتأنى الإنسان فيما يصنعه، فعلم الله سبحانه عباده التأني في الأمور التي هم قادرون عليها، وكلا الأمرين وجيه، وقد تكون هناك حكم أخرى لا نعلمها، ومع هذا لا نجزم به ونقول: الله أعلم ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، استوى عليه يعني على وجه يليق بجلاله، ولا يمكن أن نمثله بخلقه لأن الله ليس كمثله شيء، والعرش مخلوق عظيم لا يعلم قدره إلا الذي خلقه ـ عز وجل ـ، وقد جاء في الحديث: أن السماوات السبع، والأرضين السبع في الكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، الحلقة حلقة الدرع المكون من حلق من الحديد، فالحلقة من الحديد من الدرع تكون بالنسبة للفلاة لا شيء، فلاة من الأرض واسعة ضاع فيها حلقة من حلق الدرع ماذا تكون نسبتها وماذا

= المكروه يوم الثلاثاء. وخلق النور يوم الأربعاء. وبث فيها الدواب يوم الخميس. وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة. . . ».

وأخرجه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام (رقم ٢٧٨٩).

تشغل من الأرض؟! لا شيء، قال ﷺ: «ما السماوات السبع والأرضين السبع في الكرسي إلا كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة»(١) إذن لا يعلم قدره إلا الله ـ عز وجل ـ وليس لنا أن نسأل: من أين مادة الكرسي؟ من ذهب، من فضة، من لؤلؤ؟ ليس لنا الحق في أن نتكلم في هذا. هو عرش عظيم كما وصفه الله ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٦﴾ ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥﴾، عرش عظيم جداً جداً، لا يعلم قدره إلا الله، استوى الله عليه لكمال سلطانه ـ جل وعلا ـ و(ثم) في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تدل على الترتيب، أي أن خلق السماوات والأرض سابق على الاستواء على العرش، ومعنى ﴿استوى﴾ أي: على؛ لأن الاستواء في اللغة العربية إذا تعد بـ (على) كان معناها العلو، مثاله قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣﴾، ومن ذلك قوله تعالى عن نوح: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٨﴾.

فقوله: ﴿ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ يعني علوت عليه،

---

(١) أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب العظمة (٢/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠رقم ٢٠٦). وابن حبان كما في الموارد (١/ ١٩١ - ١٩٢ رقم ٩٤) والحديث صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (رقم ١٠٩).

إذن ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يعني على العرش، وإذا رأيت من يقول استوى على العرش أي استولى على العرش، فقد كذب على الله ـ عز وجل ـ لأن الله تعالى نزل هذا القرآن العظيم باللغة العربية، واللغة العربية تدل على أن استوى إذا تعدت بعلى فهي بمعنى العلو لا غيره، فيكون الذي يفسرها باستولى كاذب على الله ـ عز وجل ـ جانياً على نصوص الكتاب، محرفاً لها، وجنايته عليها من وجهين:

الوجه الأول: صرفها عن ظاهرها.

والوجه الثاني: إحداث معنى لا يدل عليه الظاهر، وهذا قد يوجد كثيراً في كتب الأشاعرة، سواء كانوا مفسرين أو غير مفسرين لكنهم بهذا والله والله والله قد ضلوا ضلالاً مبيناً، نسأل الله العافية، فمن الذي استولى على العرش حين خلق السماوات والأرض؟! إذا كان الله لم يستولِ عليه إلا بعد خلق السماوات والأرض فهو لمن من قبل؟! نعم يلزمهم أن يقولوا لغير الله، وإلا فقد أخطأوا يعني تبين خطأهم وهم مخطئون والحمد لله، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما يدخل فيها من جثث الموتى، ومن الحبوب التي تنبت بإذن الله، ومن المياه التي يسلكها الله ينابيع في الأرض ثم يخرجها، وغير ذلك من الحشرات وغيرها، فكل ما يلج في الأرض يعلمه الله.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: من النبات والمياه والمعادن وغيرها، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من الملائكة والأمطار والشرائع وغير ذلك، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: إليها، لكن جاءت بلفظ

﴿ فِيهَا ﴾ بدل إليها لنستفيد فائدتين:

الفائدة الأولى: العروج يعني الصعود.

الفائدة الثانية: الدخول، لأن ﴿ فِي ﴾ يناسبها من الأفعال الدخول، تقول: دخل في المكان، أما عرج ويعرج فالذي يناسبها إلى، لكن الله ـ عز وجل ـ عدل عن قوله (يعرج إليها) إلى قوله ﴿ يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ ليفيد الصعود، والدخول.

وضمن يعرج معنى يدخل. والتضمين موجود في القرآن الكريم، وفي اللغة العربية قال الله تعالى: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ المناسب ليشرب (من) كما قال تعالى: ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ يعني منه، ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ وهنا قال: ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ قال العلماء: الحكمة أن يشرب هنا ضمنت معنى يروى، أي: يروى بها. ومعلوم أنك إذا قلت: يروى بها. فقد تضمن معنى يشرب، وزيادة. والتضمين فن مهم في باب البلاغة، ينبغي لطالب العلم أن يدرسه ويحققه، حتى يستفيد إذا اختلفت الحروف مع عواملها، ﴿ يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ من الأشياء ما يصل إلى السماء الدنيا ويقف، ومنها ما يعرج في السماء الدنيا حتى يصل إلى الله ـ عزوجل ـ ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ هو الضمير يعود إلى الله ـ عز وجل ـ ﴿ مَعَكُمْ ﴾ أي: مصاحب لكم، كما قال النبي ﷺ: «**اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل**»[1] لكن هذه الصحبة ليست صحبة مكان. بمعنى أننا إذا كنا

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره (١٣٤٢).

في مكان كان الله معنا. حاشا وكلا، لا يمكن هذا، وكيف يتصور عاقل أن الله معنا في مكاننا، وكرسيه وسع السماوات والأرض؟! هذا مستحيل، والكرسي موضع القدمين، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه[1]، فإذا كان كذلك هل يعقل أن رب السماوات والأرض الذي يوم القيامة تكون السماوات مطويات بيمينه، والأرض جميعاً قبضته هل يمكن أن يكون معنا في أماكننا الضيقة والواسعة؟ لا يمكن، إذا ﴿مَعَكُمْ﴾ أي: مصاحب لكم، والمصاحب قد يكون بعيد عنك، يقول العرب في أسلوبهم: ما زلنا نسير والقمر معنا، مازلنا نسير والقطب معنا. ما زلنا نسير والجبل الفلاني معنا، وليس معهم في مكانهم. ومعلوم أن القمر في السماء، والنجم في السماء، والجبل قد يكون بينك وبينه مسافة أيام، ومع ذلك فالعرب تطلق عليه المعية مع البعد في المكان، وكوننا نؤمن بأن الله معنا إذن هوعالم بنا، سميع لأقوالنا، بصير بأفعالنا، له القدرة علينا والسلطان، ومدبر لنا بكل معنى تقتضيه المعية، واعلم أن من الضلال من يقول: إن الله معنا في أمكنتنا، نسأل الله العافية، وينكرون أن الله في السماء عالياً فأتوا داهيتين عظيمتين، الأولى: إنكار علو الله. والثانية: اعتقاد أنه في الأرض. سبحان الله! هل يعقل أن يعتقد عاقل فضلاً عن مؤمن أنه إذا كان في المرحاض كان الله معه؟ أعوذ بالله، الذي

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٢/ ٣٩ رقم ١٢٤٠٤) والحاكم (٢/ ٢٨٢) والخطيب البغدادي في تاريخه (٩/ ٢٥١ - ٢٥٢) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣١٣): رجاله رجال الصحيح.

يعتقد هذا أشهد بالله أنه كافر، لأن أعظم استهزاء بالله وأعظم حط من قدر الله هو هذا، ثم نقول: إذا كان الله ـ كما يقولون ـ في كل مكان يعني أنه في الحجرة، وفي السوق، وفي المسجد، ثم من الذي يكون مع أناس في الحجرة، وأناس في الشارع؟ أهما إلهان؟ لا يمكن أن يقولوا إنه متعدد، هل هو متجزء؟ إذن بطل أن يكون معنا بذاته في أمكنتنا لأنه إما أن يكون متعدداً، وإما أن يكون متجزءاً، وكلاهماباطل، قررت هذا لأنه يوجد من يعتقد أن الله في كل مكان فنقول: المعية هي المصاحبة، ولا يلزم من المصاحبة المقارة في المكان، وكيف يمكن أن يكون الله معك في مكانك وهو سبحانه وتعالى وسع كرسيه السماوات والأرض، ولكن هؤلاء الذين يعتقدون أنه في كل مكان ما قدروا الله حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، ولا عرفوا عظمته وجلاله قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ فكيف يعتقد أن الله معنا في مكاننا، فيجب على الإنسان أن يعرف نعمة الله عليه بكونه يؤمن بالقرآن الكريم ظاهره معظماً لله حق تعظيمه ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أي: في أي مكان، لأن أين ظرف مكان ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: بما تعملون من الأعمال كلها بصير، والبصر هنا يشمل بصر الرؤية قال النبي ﷺ عن ربه: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[1] ويشمل بصر العلم، فمن المعلوم أن

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: إن الله لا ينام وفي=

أعمالنا قد تكون مرئية الحركة، وقد تكون مسموعة كالأقوال، فرؤية المسموع العلم.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لله تعالى وحده ملك السماوات والأرض خلقاً وتدبيراً، فلا يملك السماوات والأرض أحد إلا الله ـ عز وجل ـ لا استقلالاً ولا مشاركة، قال تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ فنفى الاستقلال ونفى المشاركة ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي: ما لله ﴿مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي: من مساعد ساعده على خلق السماوات والأرض، فله ملك السماوات والأرض وعددها سبع، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ والأرضون أيضاً عددهم سبع كما جاء ذلك ظاهراً في القرآن وصريحاً في السنة، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ يعني في العدد، وثبت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه يوم القيامة من سبع أراضين**»[1] ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، كل الأمور أي الشؤون العامة والخاصة، الدينية، والدنيوية، والأخروية كلها ترجع إلى الله ـ عز وجل ـ يتصرف كما شاء يحكم بما شاء ولا معقب لحكمه ـ عز وجل ـ فكل أمور الإنسان الخاصة ترجع إلى الله، ولذلك يجب عليك إذا ألمَّت بك ملمة أن ترجع

= قوله حجابة النور... (رقم ١٧٩).

(١) تقدم ص ٣٦٤.

إلى الله ـ عز وجل ـ لأن المشركين وهم مشركون ـ إذا ألمت بهم الملمات التي يعجزون عنها يرجعون إلى الله ـ عز وجل ـ فإذا عصفت بهم الرياح في أعماق البحار على السفن يلجئون إلى الله عز وجل، ويرجعون إلى الله، ويسألونه أن ينجيهم وهم مشركون، فكيف بك أنت أيها المسلم، فالجأ إلى الله في كل صغير أو كبير، ديني أو دنيوي خاص بك أو بأهلك، لا تلجأ لغير الله، فمن أنزل حاجته بالله قُضيت، ومن أنزل حاجته بغير الله وُكل إليه، فنقول: إلى الله ترجع الأمور عامة: الأمور الدينية والدنيوية والأخروية، والخاصة والعامة، وإذا آمنت بهذا ويجب أن تؤمن به صرت لا تلجأ إلا إلى الله ـ عز وجل ـ ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾، يولج أي يُدخل الليل في النهار، ويولج النهار أي يُدخله في الليل، وهذا يعني اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر، أحياناً يبدأ الليل في الزيادة فيدخل على النهار، فهذا ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾. وأحياناً يبدأ الليل ينقص ويزيد النهار، فيدخل النهار على الليل، ولا أحد يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى، لو اجتمع الخلق كلهم إنسهم وجنهم، والملائكة ما استطاعوا أن يولجوا دقيقة واحدة من الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، والله ـ عز وجل ـ يولج الليل في النهار أو من النهار في الليل، ثم هذا الإيلاج لا يأتي دفعة واحدة، ولكنه يأتي تدريجياً شيئاً فشيئاً، أول ما يبدأ بالزيادة تجده يأخذ قليلاً في اليومين أو الثلاثة دقيقة واحدة، ثم يبدأ يزداد حتى يكون عند تساوي الليل والنهار يأخذ حوالي دقيقتين في اليوم تدريجيًا،

أرأيتم لو جاء دفعة واحدة، كنا مثلاً في أطول يوم في السنة وإذا بنا في اليوم الثاني إلى أقصر يوم في السنة، فيترتب على ذلك مفاسد عظيمة؛ لأن الناس سينقلبون من حر مزعج إلى برد مؤلم في خلال أربع وعشرين ساعة، وهذا لا شك أنه مضر بالأبدان والنبات والجو، ولكنه ـ عز وجل ـ يولجه على تنظيم موافق للحكمة تماماً، ولا أحد يستطيع أن يفعل هذا أبداً مهما بلغ من القوة، ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾، أي: صاحبة الصدور يعني القلوب، والدليل أنها القلوب قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ إذن هو عليم بما في القلب، وإذا كنت تصدق بذلك فهل يمكن أن تضمر في قلبك ما لا يرضاه الله، إن كنت مؤمناً؟ لا يمكن، فطهِّر قلبك من الرياء والنفاق، والغل على المسلمين والحقد والبغضاء، لأن قلبك معلوم عند الله ـ عز وجل ـ، اللهم طهر قلوبنا، اللهم طهر قلوبنا، اللهم طهر قلوبنا. فطهر القلب من هذا، واملأه محبة لله تعالى وتعظيماً، كما يليق به ومحبة للرسول ﷺ وتعظيماً، كما يليق به، ومحبة للمؤمنين، ومحبة لشريعة الله تعالى، فلا تضمر في هذا القلب شيئاً يكرهه الله، فإن فعلت فالله عليم به لا يخفى عليه، فطهر قلبك حتى يكون نقياً سليماً، لأنه لا ينفع يوم القيامة إلا من أتى الله بقلب سليم كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ وتغيرات القلب تغيرات سريعة وعجيبة، ربما ينتقل من كفر إلى إيمان، أو من إيمان إلى كفر في لحظة، نسأل الله الثبات، وتغير القلب يكون على حسب

ما يحيط بالإنسان، وأكثر ما يوجب تغير القلب إلى الفساد حب الدنيا، فحب الدنيا آفة، والعجب أننا متعلقون بها، ونحن نعلم أنها متاع الغرور، وأن الإنسان إذا سرّ يوماً أسيء يوماً آخر، كما قال الشاعر:

ويوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

كل لذة في الدنيا فهي محوطة بمنغص، لذلك احرص على تطهير القلب من التعلق بالدنيا إلا فيما ينفعك في الآخرة، كأن تتعلق بالدنيا لتصبح غنياً تنفق مالك في سبيل الله وفيما يرضي الله، ـ عز وجل ـ فهذا شيء آخر، وطلب المال للأعمال الصالحة خير، لكن طلب المال لمزاحمة أهل الدنيا في دنياهم شر.

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ ﴾

﴿ ءَامِنُواْ ﴾، الخطاب للعباد كلهم، ﴿ بِٱللَّهِ ﴾ رب العالمين ﴿ وَرَسُولِهِۦ ﴾ محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والأمر هنا للوجوب الذي هو أشد أنواع الوجوب تحتماً، والإيمان بالله أن تؤمن بأنه رب العالمين، وأن تؤمن بأنه الإله المعبود حقًّا الذي لا يستحق العبادة إلا هو، وأن تؤمن بأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا، وأن تؤمن بأنه الفعال لما يريد، وأن تؤمن أنه لا معقب لحكمه وهو السميع العليم، وأن تؤمن أن مرجع الخلائق إليه في الأحكام الشرعية والأحكام الكونية، فمن يدبر الخلق إلا الله ـ عز وجل ـ والذي يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون هو الله ـ عز وجل ـ ﴿ وَرَسُولِهِۦ ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام، أرسله الله تعالى إلى جميع الخلق والإنس والجن. وختم به النبوات، فلا

نبي بعده، والدليل ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾. يعني كان رسول الله خاتم النبيين فلا نبي بعده، فمن ادعى النبوة بعده فهو كافر، يجب أن يقص عنقه إلا أن يتوب ويرجع، ﴿وَأَنفِقُواْ﴾، الإنفاق البذل، ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يعني المال؛ لأن الله جعلنا مستخلفين في المال فهو الذي ملكنا إياه، فلا منة لنا على الله بما ننفق، بل المنة لله علينا بما أعطى، والمنة له علينا بما شرع لنا من الإنفاق، ولولا أن الله شرع لنا أن ننفق لكان الإنفاق ضياعاً وبدعة، ولكن شرع لنا أن ننفق، فلله تعالى المنة أولاً فيما ملكنا من المال، وله المنة ثانياً بما شرع لنا من إنفاقه، وله المنة ثالثاً بالإثابة عليه ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ أي: آمنوا بالله ورسوله؛ لأنه قال: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ﴾ أي مما جعلهم مستخلفين فيه، ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾، والآيات في هذا كثيرة﴿ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾، ﴿ولهم أجر عظيم﴾ ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾، فوصف الله الأجور على العمل بأنه كبير عظيم كثير، الكثير نأخذه من قوله: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وبهذا نعرف منة الله علينا: يأمرنا بالعمل ونعمل به ويأجرنا عليه أجراً كثيراً، أجراً عظيماً، أجراً كبيراً، منة عظيمة كبيرة، فعلينا أن نشكر الله، وأن ننفق مما جعلنا مستخلفين فيه، فهل ننفق كل ما نملك أو بعض ما نملك؟ قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا﴾ ومن هذه هل هي للتبعيض أو هي لبيان ما ينفق منه إذا كانت للتبعيض فالمعنى أنفقوا بعض ما رزقكم وليس كله.

إذا جعلناها للبيان، فالمعنى أنفقوا مما جعلكم حسب ما تقتضيه المصلحة: إما الكل وإما البعض، والأحسن أن تجعل ﴿مما﴾ للبيان، وإذا جعلناها للبيان صار الإنسان مخيراً ينفق كل ماله، أو بعض ماله، أكثره أو أقله، حسب ما تقتضيه المصلحة، ومعلوم أنه كلما كان المعنى أوسع كان الأخذ به كان أولى، والقرآن الكريم العظيم معانيه واسعة عظيمة، ولذلك حث النبي ﷺ مرة على الصدقة، وكان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يتسابقون إلى الخير، كل واحد يحب أن يكون هو السابق، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: اليوم أسبق أبا بكر؛ لأن هذين الرجلين هما أخص الصحابة بالرسول عليه الصلاة والسلام، وأحب الصحابة إلى الرسول ﷺ، والنبي ﷺ يحب أبا بكر أشد من حب علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، مع أن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ابن عمه وزوج ابنته، لكن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ يحبه أشد وأكثر، فقد سئل: من أحب الناس إليك؟ قال: «**أبو بكر**[1]» وقال: «**لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر**[2]» والمهم أن عمر كان هو وأبو بكر ـ رضي الله عنهما ـ كفرسي رهان، يحب أن يسبقه لا حسداً لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ولكن حبًّا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذاً خليلاً (٣٦٦٢) ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر (رقم ٣٦٥٤) ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨٢).

للفضل لنفسه، قال: اليوم أسبق أبا بكر، فجاء بنصف ماله لينفقه، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: يا عمر، «**ماذا تركت لأهلك**»؟ قال: تركت لهم الشطر، يعني النصف، وجاء أبو بكر فقال: «**ما تركت لأهلك**»؟ قال: تركت لهم الله ورسوله، أي أتى بكل ماله، فقال عمر: ـ رضي الله عنه ـ والله لا أسابقك على شيء بعد هذا[1]، عرف أنه يعجز أن يسبق أبا بكر، والشاهد من هذا الحديث أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ تصدق بجميع ماله، فإذا رأى الإنسان المصلحة في أن يتصدق بجميع ماله، وأن عنده من قوة التوكل والاعتماد على الله واكتساب الرزق ما يمكنه أن يسترد شيئاً من المال لأهله ونفسه، فحينئذ نقول: تصدق بجميع مالك، وإذا كان الأمر بالعكس فكان رجلاً أخرق لا يعرف أن يكتسب، وليس هناك داع أن ينفق كثيراً، فهنا نقول: الأولى أن تنفق بعض المال، وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يحقق إيمانه ويثبته، وكلما رأى فيه تزعزعاً استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ومضى إلى سبيله، وأن ينفق من المال، والمال محبوب قال الله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ وقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ ولا يمكن أن يبذل الإنسان شيئاً محبوباً إليه إلا لما هو أحب، فإذا بذل الإنسان المحبوب إليه ابتغاءً لرضوان الله، علمنا أن الرجل يحب رضوان الله أكثر من المال، وبذلك يتحقق الإيمان، أسأل الله تعالى أن يجعلنا من ذوي العلم الراسخ

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كليهما (رقم ٣٦٧٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

والإيمان الثابت، إنه على كل شيء قدير.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ هذا معطوف على الآية التي قبلها وهي ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يعني أي شيء يمنعكم من الإيمان بالله، وقد تمت أسباب وجوب الإيمان به، وذلك بدعوة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما قال عز وجل: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ يعني أخذ الله تعالى العهد أن تؤمنوا به وبرسوله، فصار هناك سببان للإيمان، الأول: دعوة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إليه، والثاني: الميثاق الذي أخذه الله علينا، وذلك بما أعطانا ـ عز وجل ـ من الفطرة والعقل والفهم الذي ندرك به ما ينفعنا ويضرنا، هذا هو الصحيح في معنى الميثاق، وقيل: إنه الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم حين أخرجهم من ظهره، إن صح الحديث الوارد في ذلك[1] المهم أن الله تعالى ينكر على من لم يؤمن فيقول: ما الذي حملك على أن لا تؤمن، وقد تمت أسباب وجوب الإيمان بدعوة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وبأخذ الميثاق ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ يعني إن كنتم مؤمنين فالزموا الإيمان بالله ورسوله، ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ لما ذكر أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يدعو إلى الإيمان بين

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٢٧ - ٢٨) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبر. ووافقه الذهبي وأخرجه أيضاً في (٢/ ٥٤٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

أنه نزل عليه ﷺ ﴿ءَايَٰتٍ﴾ أي: علامات دالة على صدقه، وأن ما جاء به هو الحق، ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ ظاهرات بما اشتملت عليه من القصص النافعة، والأخبار الصادقة، والأحكام العادلة، والفصاحة التامة، والبيان العجيب، حتى إن العرب وهم أئمة البلاغة وأمراؤها تحداهم الله ـ عز وجل ـ عدة مرات أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولم يستطيعوا، ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ قوله: ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ يحتمل أن يكون المراد بذلك الرسول ﷺ أي يكون سبباً في إخراجكم من الظلمات إلى النور، ويحتمل أن يعود إلى الله ـ عز وجل ـ أي ليخرجكم الله تعالى بهذه الآيات من الظلمات إلى النور، وكلا المعنيين حق، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وقال الله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فالنبي ﷺ سبب في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأما المخرج حقيقة فهو الله ـ عز وجل ـ، والمراد بالظلمات: ظلمات الجهل، وظلمات الشرك، وظلمات العدوان، وظلمات العصيان، وكل ما خالف الحق فهو ظلمة، وكل ما وافقه فهو نور، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾، هذه الجملة خبرية مؤكدة بإن، واللام ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ الرأفة أرق الرحمة، والرحمة أعم، فهو ـ عز وجل ـ رؤوف رحيم، أي ذو رحمة بالمؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ ورحمة الله سبحانه وتعالى إما عامة وإما خاصة، فالعامة الشاملة لجميع الناس، والخاصة بالمؤمنين، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ **فإذا قال قائل:**

أي رحمة من الله للكافر؟ فالجواب: أمده بأنعام وبنين، وعقل، وأمن، ورزق، بل الكفار قد عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فإذا سألك سائل: هل لله رحمة على الكافر؟ لا تقل: نعم ولا لا، أما بالمعنى العام فنعم رحمة، ولولا رحمة الله به لهلك، وأما بالمعنى الخاص فلا، الرحمة الخاصة للمؤمنين فقط قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ ولما أمرنا أن ننفق مما جعلنا مستخلفين قال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني أي شيء يمنعهم، والإنفاق في سبيل الله يشمل كل شيء أمر الله بالإنفاق فيه، ففي سبيل الله هنا عامة، وعليه يدخل في ذلك الإنفاق على النفس، والإنفاق على الزوجة، والإنفاق على الأهل، والإنفاق على الفقراء واليتامى، والإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فكل ما أمر الله تعالى بالإنفاق فيه فهو داخل في هذه الآية حتى إنفاقك على نفسك صدقة، وإنفاقك على زوجك صدقة، ولكن لاحظ النية، لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لسعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ «**واعلم أنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها**»[1]، فلزم هذا القيد، لابد أن تبتغي بها وجه الله إلا أجرت، أي: أثبت عليها، ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني كيف لا تنفق والذي سيرث السماوات

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب رقى النبي ﷺ سعد بن خولة (١٢٩٥) ومسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث (١٦٢٨).

والأرض هو الله، ومن جملة ذلك مالك الذي بخلت به سيرثه الله ـ عز وجل ـ وترجع الأمور كلها لله سبحانه وتعالى. قال أهل العلم: إن الشح في إنفاق المال سفه في العقل، لأن هذا المال إما أن يفنى في حياتك فتعدمه، وإما أن يبقى بعد موتك فإذا ورث مالك من بعدك فإما أن يرثه صالح فيكون أسعد به منك، وإما أن يرثه مفسد فتكون خلفت له ما يستعين به على إفساده، فإذا خلفت المال فإما أن تخلفه إلى من ينفقه في سبيل الله فيكون هو أسعد بمالك منك، وإما أن تخلفه لمفسد يستعين به على معصية الله فتكون أعنته على معصية الله، بما خلفت له من المال، إذن اللائق بك أن تنفقه في سبيل الله حتى يكون لك غنم وتسلم من غائلته لو ورثه من يفسد به، فتذكر يا أخي عندما تفكر في الإنفاق فيأتيك الشيطان فيأمرك بالبخل ويعدك الفقر، فكر أنك إذا خلفت هذا المال فلابد أن يورث، لن يدفن معك، لابد أن يورث ويكون الإرث دائراً بين الأمرين السابقين. ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ دين الإسلام دين العدل في العمل والجزاء، وانتبه دين العدل في العمل والجزاء وليس كما يقول المحدَثون: «إنه دين المساواة»، هذا غلط عظيم، لكن يتوصل به أهل الآراء والأفكار الفاسدة إلى مقاصد ذميمة، حتى يقول: المرأة والرجل، والمؤمن والكافر سواء، ولا فرق، وسبحان الله إنك لن تجد في القرآن كلمة المساواة بين الناس، بل لابد من فرق، بل أكثر ما في القرآن نفي المساواة ﴿قل هل يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وآيات كثيرة، فاحذر أن تتابع فتكون كالذي ينعق بما لا يسمع إلا

دعاء ونداء، بدل من أن تقول: (الدين الإسلامي دين مساواة) قل: (دين العدل الذي أمر الله به، يعطي كل ذي حق حقه)، أرأيت المرأة مع الرجل في الإرث، وفي الدية، وفي العقيقة، وفك الرهان يختلفون. وفي الدين: المرأة ناقصة إذا حاضت لم تصل ولم تصم، وفي العقل المرأة ناقصة: شهادة الرجل بشهادة امرأتين، وهلم جرا، والذين ينطقون بكلمة مساواة إذا قررنا هذا وأنه من القواعد الشرعية الإسلامية ألزمونا بالمساواة في هذه الأمور، وإلا لصرنا متناقضين، فنقول: دين الإسلام هو دين العدل يعطي كل إنسان ما يستحق، حتى جاء في الحديث: «**أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود**[1]» يعني إذا أخطا الإنسان الشريف الوجيه في غير الحدود فاحفظ عليه كرامته وأقله، هذا الذي تقيله إذا كان من الشرفاء، إقالتك إياه أعظم تربية من أن تجلده ألف جلدة، لأنه كما قيل: الكريم إذا أكرمته ملكته، لكن لو وجد إنسان فاسق ماجن فهذا اشدد عليه العقوبة وأعزره، ولهذا لما كثر شرب الخمر في عهد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ضاعف العقوبة بدل أربعين جعلها ثمانين[2]، كذلك الحديث الصحيح الذي رواه أهل السنن: «**من شرب فاجلدوه، ثم إن شرب فاجلدوه، ثم إن شرب فاجلدوه، ثم إن شرب فاقتلوه**»[3]، لأن لا

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الحدود، باب في الحد يشفع (٤٣٧٥). وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١١٨٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب الضرب بالجريد والنعال (رقم ٦٧٧٩).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب الحدود، باب ما جاء من شرب الخمر فاجلدوه ومن عاد في الرابعة فاقتلوه (١٤٤٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٣٠٩).

فائدة في جلده، ثلاث مرات نعاقبه ولا فائدة إذن خير له ولغيره أن يقتل، وإذا قتلناه استراح من الإثم، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ والخلاصة أن التعبير بأن دين الإسلام دين المساواة غلط وليس بصحيح، بل هو دين العدل ولا شك، والعجب أن هؤلاء الذين يقولون هذا الكلام، يقولون إن النبي ﷺ قال: «**لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**[1]» فيتناقضون، والحديث لم ينف مطلقاً، وإنما قال: «**إلا بالتقوى**» فهم يختلفون بالتقوى، ثم إن هذا الحديث لا يصح عن النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه قال: «**إن الله اصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**[2]» ففضل، ولا شك أن جنس العرب أفضل من جنس غير العرب لا شك عندنا في هذا، والدليل على هذا أن الله جعل في العرب أكمل نبوة ورسالة، محمد ﷺ، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ فالأجناس تختلف، وقال عليه الصلاة والسلام: «**خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**[3]» فاحذر أن تتابع في العبارات التي ترد من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٤١١). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٦٩): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (رقم ٢٢٧٦).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ (٣٣٥٣) ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل يوسف عليه السلام (٢٣٧٨).

المحدِثين المحدَثين حتى تتأملها وما فيها من الإيحاءات التي تدل على مفاسد ولو على المدى البعيد، أسأل الله أن يهدينا صراطه المستقيم وأن يتولانا في الدنيا والآخرة، إنه على كل شيء قدير.

﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ ﴾ أي: لا يكونوا سواء، والمراد بالفتح هنا صلح الحديبية الذي جرى بين النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وبين قريش، وذلك في ذي القعدة من عام ستة من الهجرة، وسمي فتحاً، لأنه صار فيه توسيع للمسلمين وتوسيع أيضاً للمشركين. واختلط الناس بعضهم ببعض، وأمن الناس بعضهم بعض حتى يسر الله ـ عز وجل ـ أن نقضت قريش العهد، فكان من بعد ذلك الفتح الأعظم، فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة في رمضان قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ ﴾ وذلك لأن الأولين أنفقوا وقاتلوا وسبقوا إلى الإسلام وكان الإسلام في حاجة لهم ولإنفاقهم، فكانوا أفضل ممن أنفق من بعد وقاتل، والله سبحانه وتعالى يجزي بالعدل بين عباده، ولكن لما كان تفضيل السابقين قد يفهم منه أن لا فضل للاحقين قال: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ أي: كل من الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، والذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وعدهم الله الحسنى، يعني الجنة، ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي: عليم ببواطن أموركم كظواهركم لا يخفى عليه شيء، وإذا كان عالماً بها فسوف يجازي ـ جل وعلا ـ كل عامل بما عمل، قال الله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾. ثم قال ـ عز وجل ـ: حاثًّا ومرغباً في الإنفاق في سبيله، فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ أي: أين الذين يقرضون الله قرضاً حسناً، أي: ينفقون فيما أمرهم بالإنفاق فيه، وأشار الله في هذا إلى شيئين: إلى الإخلاص في قوله، ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ يعني لا يرى سوى الله ـ عز وجل ـ والمتابعة في قوله: ﴿حَسَنًا﴾؛ لأن العمل الحسن ما كان موافقاً للشريعة الإسلامية، والإخلاص والمتابعة هما شرطان في كل عمل: أن يكون مخلصاً لله، وأن يكون متابعاً فيه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ووصف الله تعالى الإنفاق في سبيله بالقرض تشبيهاً بالقرض الذي يقرضه الإنسان غيره، لأنك إذا أقرضت غيرك فإنك واثق من أنه سيرده عليك، هكذا أيضاً العمل الصالح سيرد على الإنسان بلا شك، بل ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ والمضاعفة هنا الزيادة، وقد بين الله تبارك وتعالى قدرها في سورة البقرة، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ﴾ فأنت إذا أنفقت درهماً فجزاؤه سبعمائة درهم، ثواباً من عند الله ـ عز وجل ـ والله فضله أكثر من عدله وأوسع، ورحمته سبقت غضبه، فيضاعفه له إلى سبعمائة بل إلى أكثر كما جاء في الحديث إلى أضعاف كثيرة، ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾، أي: حسن واسع، وذلك فيما يجده في الجنة، ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: أذكر للأمة يوم ترى أيها الإنسان ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ

﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ يوم القيامة ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أمامهم ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ يكون من الأمام ومن اليمين، أما من الأمام فلأجل أن يقتدي الإنسان به، وأما عن اليمين فتكريماً لليمين يكون بين أيديهم وبأيمانهم، وقوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ يفيد أن هذا النور على حسب الإيمان، لأن الحكم إذا علق بوصف كان قويًّا بقوة ذلك الوصف، وضعيفاً بضعفه، إذن نورهم على حسب إيمانهم الذكر والأنثى.

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ تقول الملائكة لهم ﴿بُشْرَىٰكُمُ﴾ أي: ما تبشرون به ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني يوم القيامة ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ هذه الجنات فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فيها ما يشاءون، كما قال الله عز وجل: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ وجمعها لأنها جنات متعددة متنوعة، ودرجات مختلفة حسب قوة الإيمان والعمل وقوله ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تسير، وقد بين الله تبارك وتعالى في سورة القتال أنها أربعة ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ وهذه الأنهار لا تحتاج إلى حفر ساقية ولا إلى جدول، بل تسير على سطح الأرض، حيث شاء أهلها، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

أنهارها من غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

فلا تذهب يميناً ولا شمالاً إلا حيث أراد أهلها، وقوله ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ إشارة إلى علو قصورها وأشجارها، يعني تكون هذه الأنهار من تحت هذه القصور العالية والأشجار الرفيعة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي:

ماكثين فيها، وقد جاءت آيات متعددة بأن هذا المكث دائم ليس فيه زوال ولا انقطاع ولا تغير، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ المشار إليه ما وعدهم الله به الجنات التي تجري من تحتها الأنهار هو الفوز العظيم، و﴿هُوَ﴾ يسميها العلماء ضمير فصل، وهو مفيد للتوكيد والاختصاص، أي هذا الذي ذكر هو الفوز العظيم، لأنه لا فوز مثله، كما أنه لا فوز أعظم منه، نسأل الله أن يجعلنا من أهله إنه على كل شيء قدير.

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ أي: اذكر يوم يقول، فكلمة ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ ظرف زمان، ولابد للظرف الزماني والمكاني، والجار والمجرور من شيء تتعلق به، والعلماء يقدرون المحذوف في كل مكان بما يناسب، وهنا المناسب أن يكون التقدير: اذكر أيها الإنسان يوم يقول المنافقون، هذا اليوم هو يوم القيامة، والمنافقون هم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ ولم يظهر النفاق إلا بعد أن قويت شوكة المسلمين بعد غزوة بدر، وكانت غزوة بدر في رمضان في السنة الثانية من الهجرة، انتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقاً على الكفار، فلما بزغ فجر الإسلام وقويت شوكته ظهر النفاق. والنفاق هو أن الإنسان يظهر الإسلام ويبطن الكفر، فظهر ذلك في المسلمين، فكانوا يأتون إلى الناس ويحضرون الجماعة لكنها ثقيلة عليهم، «**وأثقل الصلوات على المنافقين صلاة العشاء**

وصلاة الفجر[١] »، لأنه ليس هناك أضواء يشاهدون فيها، وهم إنما يصلون يراءون الناس، وفي يوم القيامة يظهر نور للمؤمنين والمنافقين، ثم ينطفىء نور المنافقين، وأنت تعلم أيها الإنسان أن انطفاء النور بعد ظهوره يكون أشد ظلمة مما لو لم يكن هناك نور، ولهذا لو أطفأت النور القوي ثم فتحت عينيك لم تر شيئاً إلا بعد برهة من الزمن، فيكون انطفاء النور بعد وجوده أشد عليهم مما لو لم يكن هناك نور، ثم تكون الحسرة أشد، فيقول المنافقون للذين آمنوا: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾، أي: نأخذ شيئاً قليلاً بقدر الحاجة، ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾، والقيل هذا إما من المؤمنين، أو من الملائكة، فالله أعلم لا ندري. ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ وهل هو حقيقة يريدون أن يذهبوا إلى مكان النور، الذي انطفأ فيه النور لعله يتجدد النور، أو أن هذا من الاستهزاء بهم والسخرية؟ الآية محتملة هذا وهذا ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم﴾ أي بين المنافقين والمؤمنين ﴿بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ﴾ هذا سور عظيم، له باب يمنع من القفز، له باب يدخل منه المؤمنون ويمنع منه المنافقون، ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾ أي: باطن هذا السور فيه الرحمة للمؤمنين، ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣﴾ للمنافقين، وأنت لا تستطيع أن تتصور هذه الحال، لأن الحال أعظم من أن نتصورها، حال عظيمة ﴿يُنَادُونَهُمۡ﴾، المنادى المنافقون، والمنادى المؤمنون، ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ يعني

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب فضل العشاء في الجماعة (٦٥٧) ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها (٦٥١) (٢٥٢).

في الدنيا كنا نصلي معكم ونتصدق ونذكر الله، ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ يعني أنتم معنا، ولكن في الظاهر دون الباطن، ولهذا قالوا: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعني أضللتموها ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾، انتظرتم بنا الدوائر ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ شككتم في الأمر، فليس عندكم إيمان ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ أي: ظننتم أنكم محسنون لأنكم تقولون إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً، نوفق بين المؤمنين والكافرين، وبين الإيمان والكفر، إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا فهم مع المؤمنين، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم، فهم مع الكفار، ظنوا أنهم بهذه المداهنة كسبوا المعركة، فغرتهم الأماني ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، وذلك بموتهم ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾. الغرور هو الشيطان ودليل هذا قول الله تبارك وتعالى عنه حين وسوس إلى أبوينا قال الله عنه ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾، فالغرور هو الشيطان، ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ الأسير في الدنيا يمكن أن يفدي نفسه ويبذل المال فيسلم، لكن في الآخرة ليس فيه فدية، ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ أيها المنافقون، ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الذين أعلنوا الكفر وصاروا أشجع من هؤلاء المنافقين فلا فدية لا لهؤلاء ولا لهؤلاء، ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مثواكم ومآلكم النار ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ الذي تتولونه، والتي تتولاكم، فهم يتولون النار بعمل أهلها، والنار تتولاهم لأنهم مستحقون لها ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ أي: المرجع وهذا تقبيح لها، أعاذنا الله منها، نسأل الله أن يجعلنا ممن زحزح عن النار وأدخل الجنة، ومن الفائزين المتقين المفلحين.

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ألم

يحق لهؤلاء المؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي: أن تذل وتنقاد غاية الانقياد لذكر الله تعالى في القلوب واللسان والجوارح ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، يعني القرآن الكريم، وهو من ذكر الله، وذكره بخصوصه لأهميته، ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾، الذين أوتوا الكتاب من قبل هم اليهود والنصارى ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ يعني طال بهم الزمن ونسوا حظهم مما ذكروا به فقست قلوبهم ـ والعياذ بالله ـ وكثير منهم فاسقون وبعضهم مستقيم، ففي هذه الآية الكريمة يبين الله ـ تبارك وتعالى ـ أنه قد حق للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ولكتاب الله، وأن لا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم لبعدهم عن زمن الرسالات، وفي هذا إشارة إلى أن أول الأمة خير من آخرها، وأخشع قلوباً؛ وذلك لقربهم من عهد الرسالة، وقد صح بذلك الحديث عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[1] وفي هذا التنديد التام باليهود والنصارى لأنها قست قلوبهم لما طال عليهم الأمد، وفيه العدالة التامة في حكم الله ـ عز وجل ـ حيث قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ ولم يعمم، وهذا هو الواجب على من تحدث عن قوم أن يبين الواقع؛ لأن بعض الناس إذا رأى من قوم زيغاً في

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد (٢٦٥٢) ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٢٥٣٣).

بعضهم عمم الحكم على الجميع، والواجب العدل إن كان الأكثر هم الفاسقون، فقل: أكثرهم، وإن كان كثير منهم فاسقين فعبر بالكثير على حسب ما تقتضيه الحال، لأن الواجب أن يقوم الإنسان بالعدل ولو على نفسه أو والديه والأقربين.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾ اعلموا: فعل أمر، فأمر بالعلم بهذه القضية الهامة، وهي أن الله يحيي الأرض بعد موتها، يعني أن الأرض تجدها يابسة ليس بها نبات فينزل الله عليها المطر فتنبت وتحيا وتنمو، إذا علمنا هذا ونحن عالمون به ونشاهده، فإننا نستدل به على قدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ على إحياء الموتى، فإن الناس أحياء الآن، ثم يموتون، ثم يبعثون يوم القيامة، فالقادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأجسام بعد موتها من أجل الحساب والجزاء؛ لأنه ليس من الحكمة أن يخلق الله ـ تبارك وتعالى ـ خلقاً يأمرهم وينهاهم ويبيح دماء من لم يستجب وأموالهم ثم تكون النتيجة أن يموت الإنسان فقط، بل لابد من حياة، هي الحياة الحقيقية، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ ومعنى الحيوان، أي: الحياة الحقيقية التامة الكاملة التي ليس بعدها موت، وليس المراد بالحيوان الحيوانات الدواب، فالقادر على أن يجعل العيدان اليابسة خضراء نامية، قادر على أن يحيي الموتى وبكلمة واحدة، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣﴾ ﴿فإذا هم بالساهرة﴾ وقال عز وجل: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٥٣﴾ وقال

ـ عز وجل ـ: . ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: أظهرناها لكم، والآيات هي العلامات الدالة على كمال قدرة الله ـ جل وعلا ـ وعلى كمال رحمته وسلطانه، وأضرب لذلك مثلاً: إذا أنزل الله المطر ونبتت الأرض، وشبعت البهائم، وطابت الأجواء فهذا من آثار رحمته، فنستدل بهذا على رحمة الله، ونستدل بما خلق الله في الكون من الشمس والقمر والنجوم، وما خلق الله تعالى في الأرض من الجبال والأنهار وغيرها على كمال حكمة الله ـ عز وجل ـ لأنك إذا تدبرتها وجدت فيها من الحكمة ما يبهر العقل، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ لعل هنا للتعليل وليست للرجاء، مع أنها في اللغة العربية تأتي للرجاء كثيراً، لكنها هنا للتعليل؛ لأن الرجاء لا يمكن في حق الله، إذ إن الرجاء طلب شيء فيه نوع من العسر، لكن الله ـ عز وجل ـ لا يتصور في حقه الرجاء، لكن تأتي لعل للتعليل، أي لأجل أن تعقلوا، والمراد بالعقل هنا: عقل الرشد، أي: تعقلوا عقلاً ترشدون به، ويكون دليلاً لكم على ما فيه الخير ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾، ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ أصلها: إن المتصدقين، لكن قلبت التاء صاداً لعلة تصريفية معروفة عند أهل النحو، ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: أنفقوا في سبيل الله إنفاقاً حسناً، والإنفاق الحسن ما جمع شرطين، الأول: الإخلاص لله ـ عز وجل ـ. والثاني: المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فالمرائي الذي ينفق رياء لم يقرض الله قرضاً حسناً، ومثال ذلك:

إنسان تصدق على فقير من أجل أن يراه الناس، فيقولون: إن فلاناً كثير الصدقة، فهذا مرائي وصدقته لا تنفعه، ولا تقبل منه؛ لأن كل عمل يراد به غير الله فهو غير مقبول، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[1] وإنسان آخر يتعبد لله تعالى بعبادات غير مشروعة، صاحب بدعة لكنه مخلص، لو سألته لِمَ فعلت هذا؟ قال: أريد ثواب الله، وأريد التقرب إلى الله، فلا تنفعه هذه العبادة، لعدم المتابعة، فقوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: مخلصين فيه لله، متبعين لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فإن قال قائل: لماذا عبر الله تعالى بالقرض وهو الغني سبحانه وتعالى؟

فالجواب: يقول هذا ـ جل وعلا ـ ليبين أن أجرهم مضمون، كما أن القرض مضمون، وسيرد عليه الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، لكن كيف تكون الواحدة بعشرة وهي ربا في القرض، كيف يكون هذا؟ الجواب: أولاً: لا ربا بين العبد وبين ربه. ثانياً: القرض إذا أعطاك المقترض شيئاً بدون شرط فهو حلال؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم استقرض بكراً، والبكر يعني بعيراً صغيراً، وردَّ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥).

خيراً منه وقال: «**خيركم، أحسنكم قضاء**»[١] ، ولهذا عبارة الفقهاء: (كل شرط جر نفعاً للمقرض فهو ربا)، ولم يقولوا كل زيادة، ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمۡ﴾ هذا خبر (إن) يعني إن المتصدقين والمتصدقات وأقرضوا قرضاً حسناً يضاعف لهم، أي: يعطون أجرهم مضاعفاً، عشرة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ﴿وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١٨﴾ أي: ثواب كريم، والكريم هو الحسن الطيب، وذلك أن الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأصل الكرم الحسن، ودليل ذلك قول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ لما بعثه لليمن: «**إياك وكرائم أموالهم**» يعني إذا أخذت الزكاة اجتنب كرائم الأموال، يعني أحاسنه، «**واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب**»[٢] ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾ الإيمان بالله يتضمن أربعة أشياء:

الأول: الإيمان بوجوده.

الثاني: الإيمان بربوبيته.

الثالث: الإيمان بألوهيته.

والرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب المساقاة، باب من استسلف شيئاً فقضى خيراً منه (رقم ١٦٠١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء (رقم ١٤٩٦)، ومسلم كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (رقم ١٩).

والإيمان بوجود الله لا ينكره إلا مكابر في الواقع، لأن كل إنسان يعرف أن هذا الكون المستقر المنظم لابد له من موجد ومنظم، والموجد والمنظِّم هو الله ـ عز وجل ـ لأن كل إنسان يعلم أنه لا يستطيع أحد من البشر أن يتصرف بهذا الكون، مَن الذي يأتي بالليل مع وجود النهار؟ ومن الذي يأتي بالنهار مع وجود الليل؟ لا أحد يقدر، إذن كل إنسان عاقل فهو مؤمن بقلبه وإن أنكر بلسانه، مؤمن بوجود الله ـ عز وجل ـ، وجه ذلك أن هذه الخليقة العظيمة لابد لها من مدبر، لو قال قائل: إنها جاءت هكذا صدفة، فنقول: إن الشيء إذا جاء صدفة لا يكون منظماً، ولو قال قائل: هي أوجدت نفسها، نقول: هذا أيضاً محال عقلاً، كيف توجد نفسها وهي عدم، هذا لا يمكن، إذن لابد لها من موجد، ولهذا قال الله تعالى في سورة الطور: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ والجواب: بل أنت يا ربنا، نحن لا نقدر أن نخلق جنيناً في بطن أمه أبداً، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ استمعوا يا أيها الناس، خطاب للناس كلهم: الكافر والمؤمن، ولهذا إذا قرأت الآية يجب أن تستمع ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ هذا الذباب المهين لا يمكن أن يخلقوه ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾، كل المعبودات لا يمكن أن تخلق ذباباً وهو من أصغر الحيوان وأذلها، زد على هذا، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ﴾ يعني لو أن الذباب أخذ من هذه الأصنام شيئاً ما استطاعت أن تستنقذه منه، قال أهل العلم: المعنى لو وقع الذباب على أحد هذه الأصنام

وامتص من الطيب الذي فيها، لأنهم يطيبون أصنامهم، ما استطاعت الأصنام أن تستنقذه، ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾، فلا يمكن لأحد أن ينكر من صميم قلبه وجود الله ـ عز وجل ـ أبداً، لأنه باتفاق العقلاء أن كل حادث لابد له من مُحدث، ولا أحد يحدث هذا الكون إلا الله ـ عز وجل ـ.

الثاني: الإيمان بربوبيته، أي أنه وحده الخالق المالك المدبر لجميع الأمور، فلا خالق إلا الله، ولا مدبر للكون إلا الله، ولا مالك للكون إلا الله ـ عز وجل ـ حتى ملك الإنسان ما في يده ليس ملكاً حقيقيًّا، والدليل أنه لا يمكن أن يتصرف فيما في يده كما يشاء، لو أردت أن أحرقه منعت شرعاً، وحرام عليَّ؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم نهى عن إضاعة المال[1]، إذن ملك الإنسان ما بيده ليس ملكاً حقيقياً، بل إنه يختص به عن غيره فقط.

الثالث: الألوهية: هي أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق إلا الله ـ عز وجل ـ وعبادة الأصنام غير حق، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ إذن الألوهية أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله، أي لا معبود حق إلا الله ـ عز وجل ـ وما عبد من دونه فهو باطل، وعليه فلا تصرف العبادة إلا لله.

الرابع: الإيمان بالأسماء والصفات: قال الله ـ عز وجل ـ:

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى (ص ٢٧٨).

﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ وصفاته كذلك عليا ليس فيها صفة نقص، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ﴾ أي الوصف الأعلى، وأسماء الله تعالى كثيرة لا يمكن حصرها مهما أردت، والدليل على ذلك حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ «**ما من إنسان يصيبه هم أو غم أو حزن ثم يقول: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك اللهم بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»[1]. فجعل الله الأسماء ثلاثة أقسام، ما أنزله في كتابه، مثال الاسم الذي جاء في القرآن (الرحمن) أو علمته أحداً من خلقك مثل (الرب، الشافي)، جاء في السنة، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب**»[2]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**أما الركوع فعظموا فيه الرب**»[3] فهذا مما علمه أحداً من خلقه. «**أو استأثرت به في علم الغيب عندك**» هذا القسم الثالث ما استأثر الله به في علم الغيب، واستأثر بمعنى انفرد، وما انفرد الله بعلمه فلم ينزله في الكتاب ولم يعلمه أحداً من الخلق لا يمكن الإحاطة به

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢) والحاكم (١/ ٥٠٩ ـ ٥١٠) وأبو يعلى (رقم ٥٢٩٧) وابن السني (رقم ٣٣٩، ٣٤٠).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً مجزوماً به، كتاب الصوم، باب السواك الرطب واليابس للصائم (ص ٣٦٧).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود (٤٧٩).

إذن أسماء الله لا يمكن الإحاطة بها ولا هي محصورة بعدد، لأننا لا نعلمها، وأما قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة**»[1] فالمعنى أن من الأسماء تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة هذا المعنى، ومعنى (أحصاها) أي: عرفها لفظاً، وعرفها معنى، وتعبد لله بمقتضاها، وليس المراد أن تحفظها فقط، بل لابد من حفظ اللفظ وفهم المعنى، والتعبد لله بها بمقتضاها، فمثلاً: إذا علمت أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ غفور فتعرض للمغفرة، لا تقل: الله غفور، وتفعل الذنب متى شئت، بل تعرض للمغفرة واستغفر الله تجد الله غفوراً رحيماً، وإذا علمت أن الله عزيز فتتعبد الله بمقتضى هذا وتخاف منه وتحذر، وهلم جرا.

أما الإيمان بالرسل فإنه يتضمن تصديقهم كلهم من أولهم إلى آخرهم بما أخبروا به، إذا صح عنهم، وأما العمل بشرائعهم فإننا لا يلزمنا العمل إلا بشريعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وذلك لأن الشرائع السابقة كلها نسخت بهذه الشريعة، لقول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ وقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة** ـ يعني أمة الدعوة ـ **يهودي ولا**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحداً (٧٣٩٢) ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (٢٦٧٧) (٦).

نصراني ثم يموت ولم يؤمن بما جئت به إلا كان من أصحاب النار»[١] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: الذين آمنوا بالله ورسله ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ أي: البالغون في الصدق مبلغاً كبيراً، لأن الصديق صيغة مبالغة، والصدق يكون بالقصد وبالقول وبالفعل، فأما الصدق بالقصد فأن يقصد الإنسان بعبادته وجه الله تبارك وتعالى لا يقصد غيره، وإذا قصد بعبادته شيئاً غير الله فقد أشرك ولا يقبل عمله، لقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الحديث القدسي عن الله تبارك وتعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[٢]. الثاني: الصدق في القول بأن يكون الإنسان صادقاً فيما يخبر به، وقد أثنى الله تعالى على الصادقين، وأمرنا أن نكون معهم، فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ وأثنى على المهاجرين الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون، وأمر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالصدق وحث عليه، ورغَّب فيه، فقال: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولايزال الرجل يصدق ويتحرَّى الصدق حتى يُكتب عند الله صدِّيقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى**

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١٥٣).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله (رقم ٢٩٨٥).

الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولايزال الرجل يكذب ويتحرَّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً»[١] . أما الصدق بالفعل فمتابعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لأن من كان صادقاً فيما يدعي من محبة الله تعالى ورسوله ﷺ فليتبع الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ وقد سمى بعض السلف هذه الآية آية المحنة، يعني الامتحان، فمن ادعى حب الله ورسوله قلنا له: عليك باتباع الرسول ﷺ، فإن اتبعه فهو صادق، وإن خالفه فليس بصادق، ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ الشهداء جمع شهيد، والمراد بهم من قُتلوا في سبيل الله، والقتال في سبيل الله: أن يقاتل الإنسان عدو الله لتكون كلمة الله هي العليا، قال ذلك النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين سئل عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل ليُرى مكانه: أي ذلك في سبيل الله؟ قال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[٢] .

فالشجاع يحب القتال، كالصياد يحب أن يصيد، ويخرج ويتجشم المصائب ليصيد الصيد، وإذا صادها صارت عنده

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ (٦٠٩٤) ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٢٦٠٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من سأل وهو قائم عالماً جالساً (١٢٣) ومسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (١٩٠٤).

أرخص من كل شيء، فهذا يقاتل شجاعة، لأنه شجاع يحب أن يقاتل، ويقاتل حمية يعني عصبية لقومه، ويقاتل ليُرى مكانه، أي: رياء كما جاء في اللفظ الآخر، «ويقاتل رياء» قال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**» ومن قاتل ليسترد أرضه المغصوبة فهو من باب الحمية إلا إذا قال: أريد أن أستردها لأقيم عليها شعائر الإسلام، فهذا في سبيل الله، أما من قاتل لأن هذه أرضه ويريد أن ترد إليه، فهذا حمية ليس له أجر الشهداء إذا قتل، هؤلاء الشهداء ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثوابهم العظيم كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ ولما ذكر ـ عز وجل ـ أهل الإيمان وثوابهم ذكر أصحاب الشمال بعد ذلك قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ لأن القرآن مثاني، تثنى فيه الأمور والمعاني، ولهذا تجد القرآن الكريم في الغالب إذا ذكر الله الجنة ذكر النار، وإذا ذكر أولياء الله ذكر أعداء الله، والحكمة من ذلك أن لا يمل الإنسان، لأنه كلما تنقل المعنى إلى معنى آخر نشط الإنسان، وحكمة أخرى أن يكون الإنسان سائراً إلى الله، أي متعبداً إلى الله بين الخوف والرجاء؛ لأنه إذا مرت به صفات المؤمنين قوي جانب الرجاء، وإذا ذكرت أحوال الكافرين غلب جانب الخوف.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ عطف التكذيب على

الكفر وهو نوع منه؛ لأنه أشد، فالذي يكفر ولم يكذب أهون من الذي يكفر ويكذب، فعطف كذبوا بآياتنا على كفروا من باب عطف الخاص على العام، كعطف الروح على الملائكة وهو منهم، قال الله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ والروح جبريل وهو من الملائكة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾. الجحيم اسم من أسماء النار، وأصحابها يعني الملازمين لها، ولهذا إذا مرت آية فيها (أصحاب) فالمعنى أنهم ملازمون لها مخلدون فيها، نسأل الله العافية، وفي هذه الآيات الترغيب بالأوصاف التي توصل إلى الجنات، لأن الله تعالى لم يذكر لنا هذه الأمور لنتطلع عليها فقط، ولكن لنسعى لها، وفيها التحذير من الكفر والتكذيب؛ لئلا يقع الإنسان في هذا العقاب الأليم.

لما ذكر الله أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين وهم في الدنيا، كل يعمل على شاكلته، بين حقيقة الدنيا ما هي، وأمرنا أن نعلم من أجل أن يجتهد الإنسان في التأمل والتفكر، فالأمر بالعلم بشيء واقع يعني أن المطلوب أن تتأمل كثيراً حتى يتبين لك الأمر، ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ وهي حياتنا هذه ﴿ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾، خمسة أشياء: اللعب بالجوارح، بأن يعمل الإنسان أعمالاً تصده عن ذكر الله وعن الصلاة، وأما اللهو بالقلوب فهو الغفلة، وهذا أشد وأعظم، وغفلة القلب ـ أعاذنا الله منها وأحيا قلوبنا ـ الغفلة عظيمة تفقدك جميع لذات الطاعة، وتحرم من جميع آثارها لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ لم يقل: لا تطع من أسكتنا لسانه،

بل قال: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾، وما أكثر ذكرنا باللسان مع غفلة الجنان، وهذا لا شك أنه ينقص الثواب، وينقص الآثار المترتبة على الذكر من صلاح القلب، والاتجاه إلى الله، والإنابة إليه وغير ذلك: ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي: زينة بالملابس، وزينة بالمراكب، وزينة بالمساكن، وزينة في كل شيء، ولذلك تجد الإنسان ولو كان فقيراً يحب أن يزين بيته، وكذلك سيارته عند الزواج إذا أراد الزواج يركب سيارة يجعلون عليها عقوداً من الأزهار وغيرها من الزينة ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ أي: كل واحد يفخر على الثاني، إما بالقبيلة، أو بالعلم، يكون هذاعنده علم بالطب، وهذا لا يعرف، وهذا علمه بالهندسة وهذا لا يعرف، فيفخر عليه، وأقبح من ذلك التفاخر بالعلم الشرعي، لأن العلم الشرعي يجب على الإنسان إذا اكتسبه ومنَّ الله عليه به أن يزداد تواضعاً، وأن يعرف نفسه وقدر نفسه، ومن ذلك ما يحصل بين الشعراء في بعض الأحيان من التطاول على الآخرين ومن التفاخر كما يوجد في بعض الأفراح وبعض المناسبات مما نسمع. ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي يحب أن يكون أكثر أموالاً وأكثر أولاداً. وهذا كقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هذه حقيقة الدنيا، ومع هذا اللهو واللعب والتفاخر والزينة لا تبقى، فلابد أن تزول، وإذا طال الزمان عاد الإنسان إلى الهرم، وفي هذا يقول الشاعر:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة لذاته بادكار الموت والهرم

كل إنسان إذا فكر في عيشه وأنه في نعيم يقول: ما بعد ذلك؟! ما الذي بعده، إما موت أو هرم، إما أن تموت وتنتهي من الدنيا، وإما أن تهرم، وتكون عالة على ابنك وبنتك حتى أهلك يملونك، ولهذا أشار الله ـ عز وجل ـ إلى هذه الحالة فقال: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ لأنهما إذا بلغاالكبر اختل تفكيرهما وصارا يتعبان، فأنت إما أن تموت وإلا تصل إلى حال الهرم، هذا إن بقيت لك الدنيا، وإلا فقد تسلب إياها قبل أن تصل إلى الهرم وقبل أن تموت، فنأخذ من هذا الحذر من فتنة الدنيا، وكم من إنسان أطغته الحياة الدنيا فهلك، وفي الحديث القدسي: «**إن من عبادي من إذا أغنيته أفسده الغنى**» بل قد قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**والله ما الفقر أخشى عليكم، وإنما أخشى عليكم أن تفتح الدنيا فتنافسوا فيها كما تنافس فيها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم**»[1] وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام، فأكثر الفسقة، وأكثر الكفرة من الملأ والأشراف، واقرأوا القرآن، مَن يكذب الرسل؟ هم الملأ والأشراف، واعتبروا بالواقع الآن، أكثر من يفسد الدنيا هم الأثرياء والأغنياء، الذين فتحت عليهم الدنيا، فليحذرها العاقل اللبيب، وليقتصر منها على ما ينفعه في الآخرة.

ثم ضرب الله لها مثلاً؛ لأن الأمثال تقرب المعاني، إذ إن المثل يعني قياس المعنى على المحسوس ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أي:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب ١٢ (٤٠١٥) ومسلم، كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦١).

مطر تنبت به الأرض وتزول به الشدة، ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ **أي النبات الناشىء عنه، وأعجبهم: أي استحسنوه**، والكفار هم الكافرون بالله ـ عز وجل ـ لأن الكافر تعجبه الدنيا ويفرح بها ويسر بها، وقلبه متعلق بها ليس له هم إلا ما يراه من زينتها ولهوها، فهو قد أعجب الكفار بالله، وخص الكفار لأن الكفار هم الذين يستحسنون الدنيا ويعجبون بها وتتعلق قلوبهم بها، أما المؤمنون فهم على العكس لا يهمهم إلا ما فيه مصلحة الآخرة، وقيل: إن المراد بالكفار هنا الزراع، ولكن هذا ليس بصحيح؛ لأن إطلاق الكفار على الزراع نادر جداً، هذا إن صح، والذين يقولون: إن المراد بهم الزراع يقولون: لأن الزارع يكفر الحب، أي: يستره في الأرض، ولكن ما قررناه أولاً هو الصواب: أن المراد بالكفار، هم الكفار بالله، يعجب الكفار نباته ثم بعدما يظهر ويعجب الكفار ويستحسنونه ويتعجبون منه ﴿ يَهِيجُ ﴾ أي: ييبس ويجف، ﴿ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ﴾ بعد أن كان أخضر نامياً يكون مصفرًّا دائماً، ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ يعني: يتحطم ويتكسر؛ لأنه يبس، فماذا كانت النتيجة لهذا الزرع؟ التلف، والزوال، هذه حال الدنيا، تزهو للإنسان بنعيمها وقصورها ومراكبها وأموالها وأولادها وغير ذلك، وإذا بها تتحطم، كم من غني كان مسروراً في أهله، منعماً في بيته وفي مركوبه وفي ثيابه، وفي كل أحواله، وإذا به يعود فقيراً، فتتحطم دنياه، فإن لم تكن مات وتحطمت دنياه بفراق هذه الدنيا، فلابد من أحد أمرين: فإما أن تفارقك الدنيا، وإما أن تفارقها، هذه حال الدنيا، وهذا أمر لا يشك فيه في

الواقع، لكن النفوس معها غفلة يسهو بها الإنسان عن مثل هذا الأمر الواقع، فيظن أن كل شيء على ما يرام، ويستبعد زوال الدنيا، أو زواله هو عن الدنيا، أما الآخرة فاستمع إليها، قال: ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للكافرين، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ للمؤمنين، فأيما أحق أن يؤثر الإنسان؟ الدنيا التي مآلها الفناء والزوال، أو الآخرة؟! يؤثر الآخرة هذا العقل، لأنك إن آثرت الدنيا ففي الآخرة عذاب شديد، وإن آثرت الآخرة ففيها مغفرة من الله ورضوان، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ للذنوب ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ بالحسنات، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ هذه الجملة فيها حصر طريقة النفي والإثبات، وهو أعلى طرق الحصر، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾، يغتر بها الإنسان، فيلهو ويلعب ويفرح ويبطر ثم تزول، كل هذه الجمل وهذه الأوصاف يريد الله عز وجل ـ وهو أعلم ـ أن يزهد الإنسان في الدنيا ويرغبه في الآخرة، ومن زهد بالدنيا ورغب في الآخرة لم يفته شيء من نعيم الدنيا حتى وإن افتقر، فإنه لا يفوته نعيم الدنيا، ودليل هذا من القرآن والسنة، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ لم يقل لنكثرن ماله وأولاده وقصوره ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ مطمئنة مستريح البال فيها، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾، وبين النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذلك في قوله: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته ضراء فصبر فكان**

خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له»[١] .

ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أمر بالمسابقة، وقد جاء الأمر في آية أخرى بالمسارعة فيجمع الإنسان بين المسابقة وهي شدة العدو في حال السير، وبين المسارعة يعني المبادرة إلى فعل الخير ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وذلك بفعل أسباب المغفرة، ومن أسباب المغفرة أن تسأل الله المغفرة، تقول: اللهم اغفر لي، أو تقول: أستغفر الله وأتوب إليه، ومن أسباب المغفرة فعل ما تكون به المغفرة كقول النبي ﷺ: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر الله ما تقدم من ذنبه**»[٢] وكقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيمن توضأ فأسبغ الوضوء ثم صلى ركعتين لا يحدث بهما نفسه، غفر الله بهما ما تقدم من ذنبه[٣] ، وكقوله ﷺ: «**من قال سبحان الله وبحمده، مائة مرة غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر**»[٤] والأمثلة على هذا كثيرة، ﴿وَجَنَّةٍ﴾ هي دار النعيم التي أعدها الله ـ عز وجل ـ للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيها فاكهة ونخل ورمان، وعسل ولبن وغير ذلك،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان (٣٨) ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان (٧٥٩).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب المضمضة في الوضوء (١٦٤) ومسلم، كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله (٢٢٦).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح (٦٤٠٥) ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩١).

لكن لا تظن أن ما فيها يشابه ما في الدنيا؛ لأن الله يقول: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط، اسم رمان لكن يختلف عن رمان الدنيا، فاكهة تختلف عن فاكهة الدنيا، فرش يختلف عن فرش الدنيا، وهلم جرا، وفي الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[1] ﴿ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، وفي سورة آل عمران: ﴿ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ولا منافاة لأن الأول: عرضها كعرض السماء تشبيه. والثاني: عرضها السماوات والأرض أيضاً تشبيه، لكن يسميه أهل البلاغة تشبيه بليغ ﴿ كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، ومَن يستطيع أن يقدر عرض السماء والأرض؟ لا أحد يستطيع، السماوات بسعتها، السماء الدنيا واسعة جدًّا، كم بينها وبين الأرض من مسافة وهي محيطة بها، والسماء الثانية فوقها وهي أوسع منها، والثالثة أوسع وهلم جرا، إلى أن تصل إلى الكرسي. والكرسي يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**ما السماوات السبع والأرضين السبع في الكرسي إلا كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض**»[2] حلقة المغفر صغيرة، ألقها في فلاة في الأرض ماذا تكون بالنسبة للفلاة؟ لا شيء، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ (٧٤٩٨) ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤).

(٢) تقدم ص ٣٦٥.

الحلقة»[١] فلن نستطيع أن ندرك عرض السماوات والأرض، والجنة عرضها كعرض السماء والأرض، ولذلك كان أقل أهل الجنة منزلة من ينظر إلى ملكه مسافة ألفي سنة[٢]، وإنما ذكر الله تعالى أن عرضها عرض السماوات والأرض من أجل أن نحرص على ملء هذه الأرض أرض الجنة، وفي الحديث: «**أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: اقرىء أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة قيعان، وإن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»[٣] فاحرص يا أخي على أن تملأ ما تستحقه من هذه الجنة بذكر الله، وتلاوة كتابه، وغير ذلك مما يقرب إلى الله ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أعدها الله ـ عز وجل ـ كما قال ـ عز وجل ـ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ومعنى الإعداد التهيئة للشيء، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ آمنوا بالله، وبكل ما أوجب الله الإيمان به، من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وقوله ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ يشمل جميع الرسل الذين أولهم نوح وآخرهم محمد عليهم الصلاة والسلام، لكن إيماننا بالرسل يختلف عن إيماننا بمحمد عليه الصلاة والسلام، فإيماننا بالرسل بأن نؤمن بأنهم صادقون مبلغون عن الله، ونؤمن بكل ما

---

(١) تقدم ص ٣٦٥.

(٢) تقدم ص ٣٣٢.

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٥٨ (٣٤٦٢) وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

صح من أخبارهم، أما اتباعهم فلا اتباع إلا للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فهم يشتركون مع الرسول بأن نؤمن بأنهم صادقون، وأن كل ما أخبروا به صدق، وأن كل ما جاءوا به فهو عدل ومناسب لأحوال أممهم في وقتهم، أما الاتباع فلا نتبع إلا واحداً منهم وهو محمد ﷺ، وقوله: ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ يدل على أن أهل الكتاب اليهود والنصارى ليسوا من أهل الجنة، لأنهم لم يؤمنوا برسل الله، والدليل أنهم كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام، والكافر برسول من الرسل كافر بالجميع، كيف وقد جاء محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم بنسخ جميع الشرائع السابقة، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ مع أنه لم يسبق نوحاً أحد من الرسل؛ لأن من كذب رسولاً من الرسل فقد كذب جميع الرسل، فكيف بمن كذب محمداً ﷺ الذي نسخت شريعته جميع الشرائع، والذي قال الله فيه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ أخذ ميثاق النبيين كلهم. ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ﴾ وهذا الرسول هو محمد ﷺ، الرسل كلهم يؤمنون بالرسول عليه الصلاة والسلام، ولهذا في ليلة الإسراء كان محمد ﷺ إمامهم في صلاتهم، فاليهود والنصارى ليسوا من أهل الجنة بعد بعثة الرسول ﷺ، لأنهم لم يؤمنوا برسله، لأنهم كفروا بمحمد، بل هم كفروا برسلهم أيضاً، لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ ولأن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بشرهم بمحمد، قال الله ـ عز وجل ـ في

سورة الصف ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ فلما جاءهم هذا الرسول الذي بشر به عيسى، قالوا: هذا سحر مبين، وكفروا به، فهم كفروا بعيسى وردوا بشارته وأنكروها، ولا يجوز لنا أبداً أن نقول أو نعتقد أن أديان اليهود والنصارى اليوم أديان صحيحة أبداً، بل هي أديان باطلة، غير مقبولة عند الله، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي ما أعد الله لهؤلاء المؤمنين بالله ورسله فضل الله في أنهم آمنوا بالله وآمنوا برسله واتبعوا الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم أثيبوا بهذه الجنات، ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ المشيئة هنا مقترنة بالحكمة، يعني من كان أهلاً للفضل آتاه الله الفضل، ومن لم يكن أهلاً له لم يؤته، والدليل قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ فلن يجعل رسالته إلا فيمن هو أهل لها، وقال الله ـ عز وجل ـ ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وقال ـ عز وجل ـ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ فلا تظن أن الله يعطي الفضل لمن شاء بدون سبب، لابد من سبب، فمتى علم الله في قلب الإنسان خيراً آتاه الخير، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ فأصلح قلبك فيما بينك وبين الله تجد الخير كله، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: صاحب الفضل العظيم ـ عز وجل ـ، فلا أحد أعظم منة من الله تعالى، أوجدك من

العدم، وأعدك وأمدك بالنعم، يسر لك الهدى، فلا أحد أعظم منة من الله، ولهذا قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ ولما جمع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الأنصار في غزوة حنين حين قسم الغنائم بين المؤلفة قلوبهم كان يقرر عليهم قال لهم: «**ألم أجدكم ضلاَّلاً فهداكم الله بي**» قالوا: الله ورسوله أمن. قال: «**ألم أجدكم متفرقين فألف الله قلوبكم بي**»؟[1] قالوا: الله ورسوله أمن. كلما قال قولاً قالوا: الله ورسوله أمن، يعني أعظم منة، فالحاصل أن الله تعالى ذو الفضل العظيم، ولكن يؤتي فضله من هو مستحق له، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ اللهم إني أسألك من فضلك العظيم أن تهدي قلوبنا وتصلح أعمالنا، وتختم لنا بخير إنك على كل شيء قدير.

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ يعني جميع المصائب التي تصيب الإنسان في الأرض أو في نفسه قد كتبت من قبل. والمصيبة في الأرض كالجدب، وقلة الأمطار، وغور المياه وصعوبة منالها، وربما يقال أيضاً الفتن والحروب وغيرها ﴿ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ أي: في نفس الإنسان ذاته من مرض، أو فقد حبيب، أو فقد مال، أو نحو ذلك، حتى الشوكة يشاكها ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾، هذا الكتاب هو اللوح المحفوظ، كتب الله فيه مقادير كل شيء، لما خلق الله سبحانه وتعالى القلم قال له: اكتب

---

(١) تقدم ص ٦٩.

قال: ربي وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة[1]. سبحان الله ما أعظم هذا اللوح الذي يسع كل شيء إلى يوم القيامة، ولكن ليس هذا بغريب على قدرة الله ـ عز وجل ـ، لأن أمر الله تعالى إذا أراد شيئاً، يقول له: كن. فيكون، ولقد كان الإنسان يتعجب من قبل ولكن لا يستبعد أن يكتب في هذا اللوح مقادير كل شيء، فقد ظهر الآن من صنع الآدمي قطعة صغيرة يسجل فيها آلاف الكلمات وهي عبارة عن لوحة صغيرة كالقرص تسجل فيها آلاف الكلمات، وقد يسجل فيها جميع كتب الحديث المؤلفة، أو جميع التفاسير، أو جميع كتب الفقهاء وهي من صنع الآدمي، فكيف بصنع من يقول للشيء كن فيكون، ولما قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. كتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فالمصائب التي تصيب الناس هي في أمر سابق، ولهذا قال: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾، وقوله: ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾ قيل: إنها تعود على المصيبة، وقيل: على الأرض، وقيل: على النفس، وقيل: على الجميع، والصحيح أنها على الجميع، أي من قبل أن نبرأ كل هذه الأشياء، أي: أن نخلقها، وذلك لأن الله كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني إن كتابة هذه المصائب يسير على الله ـ عز وجل ـ لأنه قال للقلم اكتب فكتب وهذا يسير، كلمة واحدة حصل بها كل شيء ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، كل شيء فهو يسير على الله،

---

(١) تقدم ص ٢٩٦.

لأن الأمر كلمة واحدة كن فيكون، أرأيتم الخلائق يوم القيامة تبعث بكلمة واحدة، قال الله عز وجل: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ وقال ـ عز وجل ـ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ أي: على وجه الأرض خرجوا من القبور، هذا يسير، ولما قال زكريا لله ـ عز وجل ـ حين بشره بالولد قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾ يعني من الكبر ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ فالله ـ عز وجل ـ لا يعجزه شيء، ولا يستعصي عنه شيء، ولا يتأخر عن أمره الكوني شيء، ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي: أخبرناكم بأن كل مصيبة تقع فهي في كتاب، ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ اللام للتعليل، وكي بمعنى أن، أي: لأن لا تأسوا، ومعنى تأسوا تندموا على ما فاتكم مما تحبون ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ أي: لا تفرحوا فرح بطر واستغناء عن الله بما آتاكم من فضله، فإذا علمت أن الشيء مكتوب من قبل فلا تندم على ما فات لأنه مكتوب، والمكتوب لابد أن يقع، ولا تفرح فرح بطر واستغناء إذا آتاك الله الفضل، لأنه من الله مكتوب من قبل، فكن متوسطاً لا تندم على ما مضى، ولا تفرح فرح بطر واستغناء بما آتاك الله من فضله، لأنه من الله، وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**». القوي في إيمانه وليس القوي في بدنه، وأصحاب الرياضة يجعلون هذا عنواناً: «**المؤمن**

القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» ويقول: المراد بالمؤمن القوي في بدنه. وهذا غلط، (المؤمن القوي) هنا وصف يعود إلى ما سبقه وهو الإيمان، «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**»، وهذا يسميه البلاغيون الاحتراس، بمعنى أنه قد يظن الظان أن الضعيف لا خير فيه، قال: «**وفي كل خير**» ثم قال: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**»[1] والإنسان إذا علم أن كل شيء مقدر ولابد أن يقع رضي بما وقع، وعلم أنه لا يمكن رفع ما وقع أبداً، ولهذا يقال: دوام الحال من المحال، وتغيير الحال ـ بمعنى رفع الشيء بعد وقوعه ـ من المحال، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾، مختال في فعله، فخور في قوله، ومن الاختيال في الفعل أن يجر ثوبه، أو مشلحه، أو عباءته، أو غير ذلك مما يدل على الخيلاء، حتى وإن لبس ثوباً وإن لم يكن نازلاً لكنه يعد خيلاء فهو خيلاء، الفخور هو المعجب بنفسه الذي يقول: فعلت وفعلت وفعلت، يفخر به على الناس، لأنك مادمت فاعلاً الشيء تريد ثواب الله فلا حاجة أن تفخر به على الناس، بل اشكر الله عليه، وحدِّث به على أنه من نعمة الله عليك. ثم ذكر الله تعالى أوصافهم فيما بعد فقال ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ أي: يمنعون ما يجب عليهم بذله من مال، أو

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله (٢٦٦٤).

جاه، أو علم، مثال الأول: الذي يبخل بالزكاة وهي أعظم وأوجب ما ينفق، والإنفاق على من تجب نفقته من الأقارب والزوجات. ومثال الثاني: أن يجد الإنسان شخصاً مسلماً واقعاً في مظلمة يتطلب المقام أن يشفع فيها، ليرفع عنه هذا الظلم ولكنه يبخل، فهذا بخل بجاه. ومثال الثالث: أن يبخل بتعليم الناس مما علمه الله ـ عز وجل ـ وأن يبخل بالجواب والفتوى إذا استفتي عن مسألة دينية وتعين عليه أن يفتي فيها، وفي حديث عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «**البخيل من إذا ذكرت عنده ولم يصلِّ عليَّ**»[1] اللهم صلِّ وسلم عليه، وهذا نوع من البخل، لأنه بخل بما يجب عليه، إذ إن القول الراجح أنه إذا ذكر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وجب على من سمعه أن يصلي عليه، بدليل الحديث الذي في السنن أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**رغم أنف امرء ذكرت عنده فلم يصلِّ عليك. قل: آمين. فقال: آمين**»[2] ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ أي: يقولون للرجل: لا تنقص من مالك، لا تتعب نفسك في الشفاعة لفلان، لا تتعب نفسك في تعليم العلم، فهؤلاء أمروا بالبخل فصاروا ـ والعياذ بالله ـ فاسدين مفسدين، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: يعرض عن طاعة الله، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب قول رسول الله ﷺ: رغم أنف رجل (٣٣٤٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب قول رسول الله ﷺ: رغم أنف رجل (٣٥٤٥) وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

﴿ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾، من يتول فإن الله ليس بحاجة إليه فهو ـ عز وجل ـ غني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهوالحميد، أي: المحمود على غناه، لأنه ليس كل غني يكون محموداً، فالغني البخيل غير محمود، لكن الله ـ عز وجل ـ غني حميد يحمد على غناه؛ لأن الله ـ عز وجل ـ واسع العطاء، كثير العطاء، وفي هذه الآية دليل على أن الإنسان الذي يتولى عن طاعة الله إنما يضر نفسه، ولا يضر الله شيئاً، فإن الله غني، وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً**»[1].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ هذه جملة مؤكدة باللام وقد، والقسم المقدر، والتقدير: والله لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، ولعل قائلاً يقول: كيف يقسم الله ـ عز وجل ـ؟ وكيف يؤكد الله خبره بالقسم وهو الصادق بدون ذلك؟

والجواب أن يقال: القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، واللسان العربي المبين يؤكد الأشياء الهامة، أو الأشياء المنكرة بأنواع المؤكدات حتى يطمئن المخاطب ولا يرتاب المرتاب، وهذا يذكر في القرآن كثيراً، والتوكيد هنا ليس منصباً على إرسال الرسل، لأن إرسال الرسل معلوم ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ لكنه منصب على قوله بالبينات أي أن الرسل جاءوا بالبينات، والبينات صفة لموصوف محذوف، والتقدير بالآيات البينات أي العلامات البينة الدالة على صدق رسالتهم وصحتها،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (رقم ٢٥٧٧).

فإن الله تعالى ما بعث نبياً إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهذا من الحكمة والرحمة، أما كونه من الحكمة فليس من الحكمة أن يأتي رجل من بني آدم ويقول للناس: أنا رسول الله إليكم بدون آية، بدون بينة، ولو كلف الناس بالإيمان برسل الله بدون بينة لكان في ذلك مشقة عظيمة، ومن رحمة الله أن الله أيد الرسول بالآيات البينات الظاهرة، قال العلماء: والله تعالى من حكمته ورحمته جعل لكل نبي من الآيات ما يتبين به رسالتهم، مثال ذلك أرسل الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام إلى فرعون وأعطاه آيات بينات، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ منها العصا العجيبة، عصا عادية فيها آيات من آيات الله، منها أنه لما اجتمع السحرة الفجار بأمر فرعون ومساندته وألقوا حبالهم وعصيهم، وصارت هذه الحبال والعصي كأنها حيات وثعابين أرهبت الناس حتى موسى عليه الصلاة والسلام أوجس في نفسه خيفة، لأنها فوق ما يتصور، سحرة مهرة أتوا بكل قوتهم وألقوا فملؤوا الأرض حبالاً وعصياً، فجعلت هذه الحبال والعصي كأنها حيات وثعابين، ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾، أوحى الله إليه أن يلقي العصا، فانقلبت هذه العصا حية، وجعلت تلقف ما يأفكون. كل الحبال التي جاءوا بها أكلتها هذه الحية، فهذه من آيات الله العظيمة، كيف تكون هذه الحية تأكل كل هذه الحبال والعصي، أين تذهب؟ لكنها ـ والله أعلم ـ بمجرد ما تأكلها تكون كالبخار، وإلا فبطن هذه الحية لا يسعها، لكن هذه آية، ونحن نتصور هذه

الواقعة خبراً، ولكن لو رأيناها نظراً كان الأمر أشد وأعظم، فنحن الآن لا نتصورها إلا في الخبر وفي الذهن فقط، ولكن لو شاهدت عرفت أن الآية عظيمة. والآية الثانية في هذه العصا أن موسى استسقاه قومه وطلبوا منه الماء فضرب حجراً من الحجارة فتفجر عيوناً، اثنتا عشرة عيناً، لأن بني إسرائيل كانوا اثنتي عشرة قبيلة، والآية الثالثة: أن موسى عليه الصلاة والسلام لما أدركه فرعون وحشره إلى البحر أيقن أصحاب موسى عليه الصلاة والسلام أنهم هالكون، وقالوا: إنا لمدركون، ليس لنا مفر، البحر أمامنا، إن خضناه غرقنا، وفرعون وجنوده خلفنا سيقضون علينا، قال أصحابه: إنا لمدركون. ولكن انظر إلى الإيمان واليقين، قال: ﴿كَلَّآ﴾ لن ندرك، ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ أي: سيدلني على ما فيه النجاة. فأوحى الله إليه بأن اضرب بعصاك البحر فانفلق، فضرب البحر مرة واحدة بالعصا فانفلق اثني عشر طريقاً على عدد قبائل بني إسرائيل، وكان كل فرق كالطود العظيم أي كالجبل، وانظر إلى الإيمان أيضاً كيف دخلوا في هذه الطرق والمياه على أيمانهم وعلى شمائلهم ولكنه الإيمان، لأنهم عرفوا أنهم ناجون ولابد. وعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام أعطاه الله تعالى آيات بينات، كان يبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله، وهذان المرضان لا حيلة للأطباء فيهما إلى الآن، اللهم إلا الأكمه، وكان يحيي الموتى بإذن الله، يقول للجنازة أمام الناس: احيي. فتحيا بإذن الله، وكان يخرج الموتى من قبورهم، يقف على القبر ويأمر صاحب القبر بأن يخرج ويخرج حيًّا، من يستطيع هذا إلا الله ـ عز

وجل ـ وجعله آية لهذا النبي عليه السلام. وكان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخه فيطير، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وفي قراءة ثانية: (يكون طائراً)، وإذا جمعت بين القراءتين صار المعنى طيراً بإذن الله يطير، لأنه ما كل طير يطير، فالنعامة لها جناح ولكنها لا تطير، لكن يكون طيراً يطير يشاهد في الجو وهو خلقه من طين، وهذا لا يقدر عليه إلا الله، وجعله الله آية لعيسى.

فإن قال قائل: لماذا خص الله موسى بالعصا وخص عيسى بإحياء الموتى وخلق الطيور؟

قال أهل العلم: إن الله ـ عز وجل ـ حكيم يجعل لكل نبي من الآيات ما يناسب الوقت، وحال الناس حتى يعجزهم، فالسحر ترقى إلى حد بعيد في عهد موسى عليه الصلاة والسلام فأراهم الله آية يعجزون عنها بالسحر، ولهذا السحرة في قصة موسى العارفون بالسحر ما ملكوا أنفسهم إلا أن يؤمنوا، ألقي السحرة ساجدين، كأنهم بغير اختيار، فسجدوا وقالوا إعلاناً: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ وعيسى عليه الصلاة والسلام ترقى في عهده الطب ترقياً عظيماً فأعطاه الله آية لا يستطيع الأطباء أن يأتوا بمثلها، أما محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم فإنه بعث في زمن البلاغة العظيمة التي ترقت إلى أعلى ما يكون في العرب واللسان العربي المبين أفصح الألسنة وأدلها على ما في الضمير، فبعثه الله ـ عز وجل ـ بقرآن كريم أعجز العرب أن يأتوا بمثله، ولن يأتي أحد بمثله لا الجن ولا الإنس، قال الله ـ عز

وجل ـ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ وصدق الله ـ عز وجل ـ فالقرآن كلام الله فكما أن الله ليس كمثله شيء، فكلامه ليس مثله كلام، وفي الحديث عن النبي ﷺ أن الله تعالى ما بعث نبيًّا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر حتى تقوم الحجة، قال: «**وإنما الذي أوتيته وحي أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً**»(١)، وحصل ما توقع والحمد لله، لأن آيته الكبرى هي القرآن العظيم، والقرآن العظيم باق، وكل الناس يقرأونه ويستنتجون منه من الآيات ما يزدادون به إيماناً، ويعلمون به صدق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإن قال قائل: ما الحاجة إلى إعطاء الأنبياء آيات؟ فنقول: الحاجة واقعة بل للضرورة، بل العقل أيضاً، لأنه ليس من العقل أن يأتي شخص ويقول: إنه رسول ثم يتبع، لابد أن يكون هناك بينة تدل على أنه رسول، ولو جاء إنسان في غير أمة محمد عليه الصلاة والسلام وقال: إنه رسول ولم يأت بآية، فالناس معذورون إذا لم يتبعوه، وإلا لكان كل واحد يدعي أنه رسول، أما بعد النبي ﷺ فالنبوة انقطعت؛ لأنه كان خاتم النبيين، لذلك لابد أن يكون مع الأنبياء آيات تدل على صدقهم وعلى صحة ما جاءوا به من الشريعة ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ الكتاب: هو الوحي الذي

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: بعثت بجوامع الكلم (رقم ٧٢٧٤). ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس (رقم ١٥٢).

أوحاه الله تعالى إليهم وما من رسول إلا معه كتاب، بخلاف النبي، فالنبي قد لا يكون معه كتاب، لكن الرسول لابد أن يكون معه كتاب، لأن الرسول لابد أن يعطي الناس الذين يدعوهم ما يشاهدونه بأعينهم. وفيه الأمر والنهي، والخبر والقصص وغير ذلك مما تقتضيه الحال. وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ المراد الجنس، يعني الكتب، وقوله: ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي: العدل الذي توزن به الأشياء ويعرف قدرها وحالها، وهذا يدل دلالة واضحة على أن القياس الصحيح مما بعث به الرسل، لأن القياس تسوية فرع بأصل في حكم لعلة جامعة، وقد قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي: العدل والمقايسة بين الأمور ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي ليقوم الناس في الدين والدنيا بالقسط بالعدل في حق الله، وفي حق العباد، والعدل في حق الله ما ذكره النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين قال له: «**أتدري يا معاذ ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟**» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً**»[1]. يعني أن لا يعذب من يعبده ولا يشرك به شيئاً، أما حق المخلوق، فقد قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأت منيته وهو يؤمن**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٧٣٧٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٣٠).

بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه»[١] هذا الشاهد، أي: أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، ولو أننا عاملنا الناس بهذا لاستقام العدل ولم يتجرأ أحد على ظلم أحد، ولو أننا شعرنا للناس بما نشعر به لأنفسنا لحلت في قلوبنا الرحمة والتواضع، لأن كل إنسان يحب أن يعامله الناس بالرحمة والتواضع، فعامل الناس أيضاً بالرحمة والتواضع.

فاللام في قوله ﴿لِيَقُومَ﴾ للتعليل يعني أرسلنا الرسل وأنزلنا معهم الكتاب، وأنزلنا معهم الميزان لهذه الحكمة، ليقوم الناس بالقسط، ولهذا لا تجد أعدل من دين الله ـ عز وجل ـ في كل زمان ومكان، وكل ما خالف دين الله ـ عز وجل ـ فهو جور وظلم، ولهذا أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن أظلم الظلم أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك. ثم سئل: أي الظلم أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»[٢] فلو مشى الناس على شريعة الله لقاموا بالقسط، لكن كل من لم يتمش على شريعة الله فهو جائر، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ يعني من السبيل ما هو جائر وهو سبيل الظالمين، ثم ذكر الله تبارك وتعالى ما يحصل به النصر من جهة أخرى، لأن النصر يكون بالوحي ويكون بالبأس وهو ما ذكره في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (١٨٤٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى ﴿ولا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ (رقم ٤٤٧٧) ومسلم، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده (رقم ٨٦).

أنزلنا الحديد يعني خلقناه لهم من المعادن واستنبط بعض العلماء من قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ على أن المعدن إذا كان في قمم الجبال فهو أقوى وأنفع مما إذا كان في أسفل، لأن النزول إنما يكون من أعلى، فالله أعلم هذا يرجع إلى علم الجيولوجيا، لكن أنزلنا بمعنى وضعنا لهم الحديد، وهو معدن معروف من أقوى المعادن ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي: في الحرب، تصنع منه السيوف والخناجر وجميع آلات الحرب، وإنما ذكره بعد ذكر الكتب، لأن الدين لا يقوم إلا بهذا: بالدعوة والقتال. فإذا أبى الكفار أن يكون دين الله هو العالي فحينئذ يقاتلون، بالحديد ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ جمع المنافع لأنها لا تحصى أجناسها، فضلاً عن أنواعها وأفرادها، فمن يحصي المنافع التي تحصل بالحديد؟! ولهذا جاءت بالجمع المعروف بصيغة منتهى الجموع، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ دينية ودنيوية، فردية وجماعية ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ معطوفة على ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ والمراد علم الظهور الذي يترتب عليه الثواب أو العقاب، أما علم أنه سيكون، فهذا سابق على إرسال الرسل وإنزال الكتب، لأنه سبحانه لم يزل ولايزال عالماً بكل شيء، ولكن لا يشكل عليك الأمر، لا تقل: إن الله لا يعلم إلا بعد هذا، نقول: العلم علمان: علم بالشيء قبل وجوده، وعلم بالشيء بعد وجوده. والعلم السابق لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب حتى يمتحن للناس، ﴿مَن يَنصُرُهُۥ﴾، أي: ينصر دينه، وليس المعنى ينصر نفس الله، لأن الله غني عن العالمين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم

بِبَعْضٍۖ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾. فلو قال قائل: كيف تفسر الآية ينصر دينه والله يقول: ﴿مَن يَنصُرُهُۥ﴾ هذا تفسير مخالف للفظ وأنتم تنكرون على من يفسر القرآن بما يخالف ظاهر اللفظ، فما الجواب؟ فالجواب: نحن لا ننكر على الناس إذا فسروا القرآن بما يخالف ظاهر اللفظ إذا كان ذلك بدليل، ولهذا إذا قال قائل في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ المعنى إذا قرأت القرآن أي أردت قراءته، فهذا فسره بخلاف ظاهره، ولكنه تفسير صحيح، لأن الإنسان يستعيذ بالله إذا أراد أن يقرأ، وليس إذا تم القراءة. بدليل فعل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولأن هذا هو الذي يفيد أن يستعيذ الإنسان بالله قبل أن يقرأ ليقرأ والشيطان بعيد عنه، على كل حال إذا قال لك قائل: كيف تفسر قوله تعالى: ﴿مَن يَنصُرُهُۥ﴾ أي من ينصر دينه وأنت تنكر على من يفسر القرآن بخلاف ظاهره، فالجواب: أننا لا ننكر على من يفسر القرآن بخلاف ظاهره إذا كان في ذلك دليل صحيح، والدليل على أن المراد ينصر دينه قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ ليس به حاجة، ولا يحتاج إلى أحد، فهو قوي عزيز غالب، غالب بقوة، لا يلحقها ضعف، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَرُسُلَهُۥ﴾ نصر الرسل، إذا كان الرسول حيًّا فالمراد ينصر الرسول نفسه وشريعته، وبعد موته ينصر شريعته، وفي هذا دليل على أن نصر الشريعة نصر لمن جاء بها، فلا يشكل على هذا أن الله سبحانه وتعالى قد يميت الرسول قبل أن يرى النصر الواسع له، لأننا نقول: نصر شريعته نصر له، وقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِۚ﴾ أي: أنه ينصر الله

ـ عز وجل ـ وينصر رسله وهو لم ير الله، لأن الله تعالى ينصر ولا يُبصَر في الدنيا، ولهذا قال بعض السلف: (ينصرونه ولا يبصرونه) تفسيراً لقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ ينصرونه ولا يبصرونه، فالمراد لا يبصرونه في الدنيا، أما في الآخرة فنظر الله تعالى حق ثابت بالقرآن والسنة وإجماع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إذن بالغيب، أي: ينصرون الله وهو غائب، ويحتمل أن يكون المعنى بالغيب، أي: بغيبتهم عن الناس، فيكون في هذا دليل على إخلاصهم، وأنهم ليسوا ممن يعبدون الله إذا كانوا بين الناس، بل يعبدون الله تعالى في الغيب والشهادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ هذه الجملة استئنافية لبيان أن نصر الله ـ عز وجل ـ ليس عن ضعف ولا عن قهر، بل هو قوي عزيز لا يحتاج إلى أحد ينصره بنفسه، ولكن النصر لدينه، نسأل الله أن يجعلنا من أنصار دينه إنه على كل شيء قدير.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، الأول: القسم المحذوف. والثاني: اللام. والثالث: قد، ونوح عليه الصلاة والسلام هو أول الرسل عليه الصلاة والسلام من أولي العزم الخمسة، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام هو أبو الأنبياء من بعده، وإليه يرجع الأنبياء، أي: إلى ملته، ولهذا يتنازع فيه المسلمون واليهود والنصارى، فاليهود يقولون: إنه يهودي، والنصارى يقولون: إنه نصراني، والمسلمون يقولون: إنه حنيف مسلم، وهذا هو الحق، والعجب أن اليهود والنصارى يقولون: إنه يهودي

أو نصراني، وما كانوا يهوداً ونصارى إلا من بعده، ولكنهم ليس لهم عقول، ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ أي: ذرية نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام النبوة والكتاب، يعني الرسل عليهم الصلاة والسلام. وفي هذا دليل على أن آدم ليس برسول، وأن إدريس ليس قبل نوح كما ذكره بعض المؤرخين، وهو خطأ مخالف للقرآن الكريم، فليس قبل نوح رسول، وآدم نبي مكلم كلمه الله ـ عز وجل ـ بما شاء من وحيه، ثم سار على نهجه بنوه من بعده، فلما انتشر الناس وكثروا صار بينهم اختلاف، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾. وقوله: ﴿الْكِتَابَ﴾، المراد الجنس، لأن كل رسول معه كتاب، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ أي: بعضهم مهتد، وحذفت الياء كما هي القاعدة في اللغة العربية، وأصلها مهتدي بالياء، لكن حذفت للتخفيف ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: غير مهتدين، وهذا هو الواقع أن بني آدم أكثرهم ضال، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾. ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ قفينا بمعنى اتبعنا، مأخوذ من القفا، لأن من يمشى من قفاك هو تابع لك ﴿عَلَىٰ آثَارِهِم﴾ أي: آثار نوح وإبراهيم ومن كان من الرسل الآخرين عليهم الصلاة والسلام ﴿بِرُسُلِنَا﴾ أي: التابعين لهم، ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ نص على عيسى عليه السلام لأنه ليس

بينه وبين محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم رسول، بل ولا نبي أيضاً، ليس بينه رسول ولا نبي، وما يقال: إن خالد بن معادن وغيره له النبوة فكله كذب، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ هو كتاب أنزله الله ـ عز وجل ـ على عيسى، ويعتبر مكملاً للتوراة، لأن التوراة هي أم الكتب في بني إسرائيل، ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾، ثلاثة أشياء جعلها الله في قلوب النصارى الذين اتبعوا عيسى ﴿رَأْفَةً﴾ الرأفة نوع من الرحمة ولكنها أرق وألطف ﴿وَرَحْمَةً﴾ فهم من أرق الناس قلوباً، وأرحمهم بالخلق لما كانوا على شريعة عيسى عليه السلام، ولكن بعد أن كفروا بمحمد صاروا أغلظ الناس، أو من أغلظ الناس، كما جرى بين المسلمين وبين النصارى في الحروب الصليبية وغيرها ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ الانقطاع عن الدنيا للعبادة، ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ يعني من عند أنفسهم، كما فعلت بعض فرق المسلمين، ابتدعوا رهبانية ما أنزل الله بها من سلطان، لكن معهم رقة ورحمة ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ يعني أنا لم نفرضها عليهم، ولكن هم طلبوا رضوان الله، ولهذا نقول: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء منقطع، ولكن مع كونهم ابتدعوها واختاروا بأنفسهم ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ يعني ما قاموا برعايتها الواجبة من إحسان هذه الرهبانية التي ابتدعوها، وإنما تصرفوا فيها كما يشاؤون، ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: ثوابهم ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: كثير من هؤلاء النصارى فاسق، أي: خارج عن طاعة الله ـ عز وجل ـ، وفي هذا دليل على أن الإنسان إذا ابتدع بدعة فإنه لا

يوفق لإقامتها، فيكون ضالاً في الأصل، وضالاً في الفرع، حتى لو اجتهد، حتى لو خشع، إنك تجد كثيراً من الناس الذين ابتدعوا أذكاراً، أو صلوات، أو أدعية، أو ما أشبه ذلك تجدهم خاشعين، قلوبهم باكية، قلوبهم خاشعة لكن لا ينفعهم ذلك، لأنهم على ضلال، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ يا أيها الذين آمنوا، المراد بهم هذه الأمة، فيكون قوله: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾ يعني اثبتوا على الإيمان، ولا تبدلوا الإيمان، لأن الإيمان قد حصل، حيث قال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، فيكون المعنى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بقلوبكم ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ بجوارحكم ﴿ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾ أي: حققوا الإيمان واثبتوا عليه، وليس كل من آمن يكون مؤمناً حقًّا، وهذا هو ما يعنيه العلماء بقولهم، هذا نفي كمال الإيمان مثل قوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[1]، ليس المراد نفي مطلق الإيمان، بل نفي الإيمان المطلق الكامل، وقد زعم بعض المفسرين أن هذه الآية في أهل الكتاب، لأنه قال: ﴿ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾، ولكن هذا قول ضعيف جدًّا، ولا يمكن أن ينادي الله ـ عز وجل ـ أهل الكتاب وهم كفرة بوصف الإيمان أبداً، لا يمكن أن يكون المراد بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (رقم ١٣) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير (رقم ٤٥).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يا أيها اليهود والنصارى، لأنهم حين نزول القرآن إذا بقوا على يهوديتهم ونصرانيتهم ليسوا بمؤمنين، والمراد برسوله هنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والإيمان بالرسول ﷺ يتضمن الإيمان بجميع الرسل، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ يعني في الإيمان به، لا في الاتباع، ففي الاتباع نفرق بين الرسل، فتبع منهم محمداً ﷺ، لكن الإيمان كلهم على حد سواء، نؤمن بأنهم رسل الله حقًّا، ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ أي: نصيبين من رحمة الله، ولهذا مثل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، هذه الأمة بالنسبة لما قبلها كرجل استأجر أجراء، منهم طائفة من أول النهار إلى نصف النهار، وطائفة من نصف النهار إلى العصر، وطائفة من العصر إلى غروب الشمس، فالطائفة الأولى أعطى كل واحد منهم ديناراً، والطائفة الثانية أعطى كل واحد ديناراً، والثالثة أعطى كل واحد دينارين فاحتج الأولون: لماذا تعطي هؤلاء دينارين، وهم أقل منا عملاً؟ فأجابهم بقوله: «**هل نقصتكم من أجركم شيئاً**»؟ قالوا: لا، قال: «**ذلك فضلي أوتيه من أشاء**»[1]، فالحمد لله هذه الأمة لها مثل أجر الأمم السابقة مرتين، ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾، أي: أنكم إذا آمنتم وحققتم الإيمان مع التقوى يثبكم ثوابين ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ أي: علماً تسيرون به إلى الله

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب (رقم ٥٥٧).

ـ عز وجل ـ على بصيرة، وفي هذا دليل على أن التقوى من أسباب حصول العلم، وما أكثر الذين ينشدون العلم، وينشدون الحفظ، ويطلبون الفهم، فنقول: إن تحصيله يسير، وذلك بتقوى الله ـ عز وجل ـ وتحقيق الإيمان، الذي هو موجب العلم، فاعمل بما علمت يحصل لك علم ما لم تعلم، فتقوى الله ـ عز وجل ـ من أسباب زيادة العلم ولا شك، ولهذا قال﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ أي: تسيرون به، أي: بسببه سيراً صحيحاً يوصلكم إلى الله ـ عز وجل ـ ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: يسترها عليكم، ويعفو عنكم، فلا عقاب ولا فضيحة ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي: ذو مغفرة ورحمة، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ فالغفور يعني ذا المغفرة، والرحيم يعني ذي الرحمة، وذلك أن الإنسان محتاج إلى مغفرة ذنوب وقعت منه، وإلى رحمة تسدده ويتجنب بها المعاصي، ويهتدي إلى التوبة إن عصى، ثم قال: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: جعل لكم هذا الثواب، ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله، وأنهم لا يستطيعون أن يحسدوكم على ما آتاكم الله من فضله، مع محاولتهم الشديدة أن يحسدوا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ فيقول ـ عز وجل ـ هنا ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ لا إعطاء ولا منعاً ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ ﴾ ـ عز

وجل ـ وهو المدبر لكل ما يريد على حسب ما تقتضيه حكمته ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩﴾ أي: صاحب الفضل العظيم، وما أعظم فضل الله ـ عز وجل ـ على عباده، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣﴾ نسأل الله تعالى أن يؤتينا من فضله، وأن يهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهرس

تفسير سورة الحجرات ٧
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ ﴾ ٧
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ... ٢ ﴾ ٧
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ... ٣ ﴾ ١٦
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤ ﴾ ٢٠
﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ ﴾ ٢١
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ... ٦ ﴾ ٢٣
﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ... ٧ ﴾ ٢٨
﴿ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨ ﴾ ٣١
﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ... ٩ ﴾ ٣٣
﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠ ﴾ ٣٥
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ... ١١ ﴾ ٣٧
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ... ١٢ ﴾ ٤٨
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ... ١٣ ﴾ ٥٧
﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا... ١٤ ﴾ ٦٠
﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ... ١٥ ﴾ ٦٣
﴿ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ... ١٦ ﴾ ... ٦٧
﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ... ١٧ ﴾ ٦٨
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾ ٦٩
تفسير سورة ق ٧١
﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١ ﴾ ٧١
﴿ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢ ﴾ ٧٢
﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣ ﴾ ٧٣

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ ٧٤
﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ ٧٥
﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾ ٧٦
﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ ﴾ ٧٨
﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ ٧٩
﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ ﴾ ٨٠
﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾ ٨٠
﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ ٨١
﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ ﴾ ٨٢
﴿ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ ﴾ ٨٣
﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ ٨٧
﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ ٨٨
﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ ٨٩
﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ٩١
﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ٩٢
﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ ٩٥
﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ ﴾ ٩٦
﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ ٩٧
﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ ٩٧
﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ٩٨
﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ ، ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ ٩٩
﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾ ١٠٠
﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ ١٠٢
﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ﴾ ١٠٢

﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ١٠٣
﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ ١٠٣
﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ ﴾ ، ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ ... ١٠٥
﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ ١٠٦
﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ﴾ ، ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ ١٠٧
﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ... ﴿٣٦﴾ ﴾ ١٠٨
﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ ١٠٩
﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ... ﴿٣٨﴾ ﴾ ١٠٩
﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ ١١١
﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾ ١١٢
﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ ﴾ ١١٢
﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾ ١١٢
﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ﴾ ١١٢
﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ ١١٣
﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ ١١٣
تفسير سورة الذاريات ١١٥
﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ ﴾ ، ﴿ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ ﴾ ١١٥
﴿ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ ﴾ ، ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ ﴾ ١١٦
﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾ ، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ ﴾ ، ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ ﴾ ... ١١٧
﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ ﴾ ١١٨
﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ، ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ١٢١
﴿ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ ﴾ ١٢١
﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ ، ﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .. ١٢٢
﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ﴾ ١٢٣

﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ ١٢٤
﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ، ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ١٢٥
﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ ، ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ١٢٦
﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ١٢٧
﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ١٣٠
﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ١٣٢
﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ١٣٣
﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ١٣٤
﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ ، ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ... ١٣٥
﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ ١٣٦
﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ ١٣٨
﴿ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾ ١٣٨
﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ ، ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ... ١٤٧
﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ ، ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ١٤٩
﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ، ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ١٥٠
﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ١٥١
﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ ١٥٢
﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ ١٥٣
﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ ١٥٣
﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾ ١٥٤
﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ ١٥٥
﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ ١٥٦
﴿ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ١٥٧
﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ١٥٧

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ١٥٨
﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ١٥٩
﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ١٦٠
﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ١٦٠
﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ ١٦١
﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾ ١٦٢
﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ ١٦٣
﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ١٦٤
﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ ، ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .. ١٦٥
﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ ١٦٦
﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾ ١٦٧
﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ ١٦٨
﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾ ١٧٠
﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ١٧١
تفسير سورة الطور ١٧٣
﴿ وَالطُّورِ ﴿١﴾ ﴾ ، ﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ ﴾ ، ﴿ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ ﴾ ١٧٣
﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ ﴾ ١٧٤
﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ ﴾ ١٧٥
﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ ﴾ ١٧٦
﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾ ١٧٧
﴿ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ ﴾ ١٧٨
﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ ﴾ ، ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾ ١٧٩
﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ ، ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ١٨١
﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ ١٨١

﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ١٨١
﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ١٨٢
﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ١٨٢
﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾ ١٨٣
﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ ﴾ ١٨٤
﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ١٨٤
﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ ١٨٦
﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ... ﴿٢١﴾ ﴾ ١٨٧
﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ١٨٧
﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ١٨٨
﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ١٨٨
﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ١٨٨
﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ١٨٨
﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ ١٨٨
﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ ١٨٨
﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ ١٨٩
﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ ١٩١
﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ١٩١
﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ١٩٢
﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ١٩٢
﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ١٩٢
﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ١٩٤
﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ١٩٦
﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ١٩٧

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ ١٩٧
﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ١٩٧
﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ١٩٨
﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ١٩٩
﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ١٩٩
﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ٢٠٠
﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ ٢٠١
﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ٢٠١
﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ٢٠١
﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ٢٠١
﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ ٢٠٢
﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾ ٢٠٣
تفسير سورة النجم ٢٠٥
﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ ﴾ ، ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ ٢٠٥
﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ ، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ ، ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ ٢٠٦
﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ ٢٠٨
﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾ ، ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ ٢٠٨
﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ ، ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ ٢٠٨
﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ ٢٠٩
﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ ، ﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ ٢١٠
﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ ﴾ ٢١١
﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ ، ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ ٢١٢
﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ ٢١٣
﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ ، ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ ٢١٥

﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ ٢١٥
﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾ ٢١٦
﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ... ﴿٢٣﴾ ﴾ ٢١٦
﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ ، ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ﴾ ٢١٨
﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا... ﴿٢٦﴾ ﴾ ٢١٩
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ ﴾ ٢٢٠
﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾ ٢٢٢
﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ﴾ ٢٢٣
﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾ ٢٢٦
﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟... ﴿٣١﴾ ﴾ ٢٢٧
﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ... ﴿٣٢﴾ ﴾ ٢٣٠
﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ ﴾ ، ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ ﴾ ٢٣٩
﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾ ، ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ ٢٤٠
﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ ، ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ ٢٤١
﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ ٢٤٢
﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ ٢٤٥
﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ ٢٤٦
﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ ٢٤٧
﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ ٢٤٨
﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ ٢٤٨
﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾ ٢٤٩
﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ ٢٥١
﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ ٢٥١
﴿ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ ، ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ ﴾ ٢٥٢

﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ ، ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ ٢٥٤
﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ ، ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ ﴾ ٢٥٥
﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ ﴾ ٢٥٥
﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ ، ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ٢٥٧
﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ، ﴿ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ، ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾ . ٢٥٨
تفسير سورة القمر ٢٦١
﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ ٢٦١
﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾ ٢٦٣
﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ ﴾ ٢٦٤
﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ ﴾ ٢٦٤
﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾ ٢٦٥
﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ ﴾ ٢٦٥
﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ ﴾ ٢٦٥
﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ ٢٦٦
﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ ﴾ ٢٦٧
﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾ ، ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾ ٢٦٩
﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ ٢٦٩
﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ ٢٧٠
﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ ٢٧١
﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾ ٢٧٢
﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾ ٢٧٣
﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ ٢٧٣
﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ ﴾ ٢٧٤
﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾ ٢٧٤

﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ ٢٧٥
﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ ﴾ ٢٧٦
﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ ، ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ﴾ ٢٧٦
﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ ٢٧٩
﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ ٢٧٩
﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾ ٢٨٠
﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ ﴾ ٢٨١
﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ ٢٨٢
﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ ﴾ ٢٨٣
﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾ ٢٨٣
﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ ، ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ ﴾ ٢٨٤
﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ ٢٨٤
﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ٢٨٥
﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ ﴾ ٢٨٥
﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾ ٢٨٦
﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ ﴾ ، ﴿ فَذُوقُوا۟ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ ﴾ ٢٨٦
﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ ٢٨٦
﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ ﴾ ٢٨٨
﴿ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ ٢٨٨
﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ ٢٨٩
﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ ، ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ٢٩٠
﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ ٢٩٠
﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ ٢٩٠
﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ٢٩١

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ ٢٩١
﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾ ٢٩٤
﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ ﴾ ٢٩٤
﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ ﴾ ٢٩٥
﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ ، ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ ٢٩٧
﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾ ٢٩٨
تفسير سورة الرحمن ٣٠١
﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ ﴾ ، ﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ ﴾ ، ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ ﴾ ٣٠١
﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ ، ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾ ٣٠٢
﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾ ، ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾ ٣٠٣
﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾ ، ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ ٣٠٤
﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ ، ﴿ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ ﴾ ٣٠٤
﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ ﴾ ، ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ ٣٠٥
﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ ٣٠٥
﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ ، ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾ ... ٣٠٦
﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾ ٣٠٦
﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾ ، ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ ﴾ ٣٠٨
﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ ٣٠٨
﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ ﴾ ، ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾ ٣٠٩
﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ ﴾ ، ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ ٣١٠
﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾ ، ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ ٣١١
﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ ٣١١
﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ ﴾ ٣١٢
﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ ٣١٣

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾ ٣١٤
﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾ ، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ ﴾ ٣١٥
﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ... ﴿٣٣﴾ ﴾ ... ٣١٥
﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ ﴾ ٣١٦
﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾ ٣١٦
﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾ ٣١٦
﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾ ٣١٦
﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ ﴾ ٣١٧
﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ ٣١٧
﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ ﴾ ٣١٧
﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾ ٣١٧
﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ ﴾ ، ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ٣١٨
﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ ، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾ ٣١٨
﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ ، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ﴾ ٣١٨
﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ ﴾ ، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ ﴾ ، ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ ﴾ .. ٣١٩
﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ ﴾ ، ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ ﴾ ٣١٩
﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ ﴾ ٣١٩
﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ ٣١٩
﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ ﴾ ٣٢٠
﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ ﴾ ٣٢٠
﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ ﴾ ، ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ ﴾ ٣٢١
﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ ﴾ ، ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ ٣٢١
﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾ ، ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾ ٣٢١
﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ ﴾ ، ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾ ٣٢١

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ ﴾ ، ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ ﴾ ٣٢١
﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ ﴾ ، ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ ٣٢١
﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ ﴾ ، ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ ٣٢٢
﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ ﴾ ، ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾ ٣٢٢
﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ ﴾ ، ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ ﴾ ٣٢٢
﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ ﴾ ، ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ ٣٢٣
﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ ﴾ ، ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ ٣٢٤
تفسير سورة الواقعة ٣٢٧
﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ ﴾ ، ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ ﴾ ، ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ ... ٣٢٧
﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ ﴾ ، ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ ﴾ ٣٢٨
﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾ ٣٢٨
﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ ﴾ ، ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ ﴾ ٣٢٩
﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ ﴾ ، ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ٣٢٩
﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ٣٢٩
﴿ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ ٣٣٠
﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ ، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ ٣٣١
﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾ ، ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ ٣٣١
﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ، ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ ٣٣٣
﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ، ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ٣٣٣
﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ، ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ ٣٣٤
﴿ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ ، ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ٣٣٤
﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ ، ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ٣٣٥
﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ ، ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ ٣٣٦
﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ ، ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ ، ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ ﴾ ٣٣٦

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾﴾ ، ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ ٣٣٧
﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ ، ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ ٣٣٨
﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾ ، ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ ، ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ ٣٣٨
﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾﴾ ، ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ ٣٣٨
﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾ ٣٣٨
﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾ ، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ ، ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ ٣٣٩
﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ ، ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ ٣٣٩
﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ٣٣٩
﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ٣٣٩
﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ ، ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ ٣٤٠
﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾ ، ﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾ ٣٤٠
﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾ ، ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾ ٣٤١
﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ ، ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ ٣٤١
﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ ، ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ ٣٤٢
﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ٣٤٢
﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ ٣٤٢
﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ ٣٤٢
﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ، ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ٣٤٣
﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ٣٤٣
﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ٣٤٣
﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ، ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ٣٤٣
﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ٣٤٣
﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ٣٤٣
﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ٣٤٣

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ ٣٤٣
﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ ٣٤٤
﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ ، ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ . ٣٤٥
﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ ٣٤٦
﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ ٣٤٦
﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ ، ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ ٣٤٧
﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ ٣٤٨
﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ ، ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ ٣٤٩
﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ٣٤٩
﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ ٣٥٠
﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ ، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ٣٥١
﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ ، ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ ٣٥٢
﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾ ، ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ ٣٥٣
﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾﴾ ، ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ ٣٥٤
﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾﴾ ، ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾ ٣٥٤
﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ ، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ ٣٥٤
﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ ٣٥٤
تفسير سورة الحديد ٣٥٧
﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ ٣٥٧
﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾ ٣٦١
﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ ٣٦١
﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ... ﴿٤﴾﴾ ٣٦٣
﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾﴾ ٣٧١
﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾ ٣٧٢

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ... ﴿٧﴾ ﴾ ٣٧٤
﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ... ﴿٨﴾ ﴾ ٣٧٨
﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ... ﴿٩﴾ ﴾ .. ٣٧٨
﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴿١٠﴾ ﴾ ٣٨٠
﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ ٣٨٥
﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ... ﴿١٢﴾ ﴾ ٣٨٥
﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ... ﴿١٣﴾ ﴾ ٣٨٧
﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ... ﴿١٤﴾ ﴾ ٣٨٨
﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ... ﴿١٥﴾ ﴾ ٣٨٩
﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ... ﴿١٦﴾ ﴾ ٣٨٩
﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ٣٩١
﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ ... ﴿١٨﴾ ﴾ ٣٩٢
﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ ... ﴿١٩﴾ ﴾ ٣٩٤
﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ ... ﴿٢٠﴾ ﴾ ٤٠٢
﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴿٢١﴾ ﴾ ٤٠٧
﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ... ﴿٢٢﴾ ﴾ ٤١٢
﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ... ﴿٢٣﴾ ﴾ ٤١٤
﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ... ﴿٢٤﴾ ﴾ ٤١٥
﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ... ﴿٢٥﴾ ﴾ ٤١٧
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ... ﴿٢٦﴾ ﴾ ٤٢٦
﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ... ﴿٢٧﴾ ﴾ ٤٢٧
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ ... ﴿٢٨﴾ ﴾ ٤٢٩
﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ ٤٣١
الفهرس ٤٣٣

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١)

تفسير القرآن الكريم

جزء عم

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

دار الثريا للنشر

تفسير جزء عم

لفضيلة الشيخ العلامه

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

إعداد وتخريج

فهد بن ناصر السليمان

دار الثريا للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف إلا لمن أراد طبعه لتوزيعه مجاناً بعد مراجعة مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية.

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَةُ
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

دار الثريا للنشر والتوزيع
فاكس ٤٠٢٢٦١٥ ص.ب ٩٤٣٨ الرياض ١١٤١٣
بريد الكتروني darthurayya@hotmail.com

المقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فإن كتاب الله عز وجل هو حبله المتين، وصراطه المستقيم، وصفه الله عز وجل بأوصاف عظيمة فقال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾. [النساء: ١٧٤].

وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾. [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. [يونس: ٥٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾. [النحل: ٨٩].

وقال جل وعلا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾. [ص: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾. [فصلت: ٤٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد** ﷺ»[1].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧) (٤٣).

وقد اعتنى علماء الإسلام ـ رحمهم الله تعالى ـ بكتاب الله عز وجل أيما عناية، ومن وجوه هذه العناية تفسير القرآن وبيان معانيه، واستنباط الأحكام والفوائد من آياته، على حسب ما آتاهم الله عز وجل من العلم والإيمان، والفهم والتقوى.

ومن هؤلاء العلماء شيخنا العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته ـ فقد عقد المجالس لتفسير كتاب الله عز وجل، واستنباط الفوائد والأحكام منه، في حله وترحاله، ومن هذه المجالس اللقاء المسمى بلقاء الباب المفتوح، حيث منَّ الله عز وجل على فضيلته بإتمام تفسير جزء عم، وقدم بسورة الفاتحة، وقد عرضت على فضيلة شيخنا - رحمه الله تعالى - إخراج هذا التفسير فوافق على ذلك، ولكنه لم يتمكن من مراجعته بعد تفريغه من الأشرطة سوى سورة الفاتحة، ولا يخفى أن المنقول من الأشرطة ليس كالمحرر من حيث انتقاء الألفاظ، وتحرير العبارة، والبعد عن التكرار، وغير ذلك.

وقد بيَّن الشيخ ـ رحمه الله ـ منهجه في تفسير هذا الجزء من القرآن فقال في ختام تفسير سورة (عبس): هذا الكلام الذي نتكلم به على هذه الآيات لا نريد به البسط ولكن نريد به التوضيح المقرب للمعنى. وقال رحمه الله: اخترنا هذا الجزء لأنه يقرأ كثيراً في الصلوات، فيحسن أن يعرف معاني هذا الجزء، والقرآن أنزل لأمور ثلاثة: الأمر الأول: التعبد لله بتلاوته. والثاني: التدبر لمعانيه. والثالث: الاتعاظ به. قال الله تبارك وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. ولا يمكن لأحد أن يتذكر بالقرآن إلا إذا عرف المعنى؛ لأن

الذي لا يعرف المعنى بمنزلة الذي لا يقرأ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي: إلا قراءة، لهذا ينبغي للمسلم أن يحرص على معرفة معنى القرآن الكريم حتى ينتفع به، وحتى يكون متبعاً لآثار السلف، فإنهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل[1] . وقال رحمه الله: حري بطلبة العلم أن يحرصوا في كل مناسبة إذا اجتمعوا بالعامة أن يأتوا بآية من كتاب الله يفسرونها، لاسيما ما يكثر ترداده على العامة مثل الفاتحة، فإنك لو سألت عاميًّا بل الكثير من الناس عن معنى سورة الفاتحة لم يعرف شيئاً منها.

وامتاز تفسير فضيلة الشيخ - رحمه الله - بوضوح العبارة، ودقة المعنى، وتفسير القرآن بالقرآن، والبعد عن التكلف، إضافة إلى الوعظ بالقرآن الكريم، وكفى به موعظة، فجمع رحمه الله تعالى في هذا التفسير بين بيان المعنى والوعظ بكتاب الله تعالى، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وأعلى درجته في المهديين، وأسكنه فسيح جناته إنه سميع مجيب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهد بن ناصر السليمان

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/ ٨٠)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

تفسير سورة الفاتحة

سورة الفاتحة سميت بذلك؛ لأنه افتتح بها القرآن الكريم؛ وقد قيل: إنها أول سورة نزلت كاملة.

هذه السورة قال العلماء: إنها تشتمل على مجمل معاني القرآن في التوحيد، والأحكام، والجزاء، وطرق بني آدم، وغير ذلك؛ ولذلك سميت «**أم القرآن**»[١]، والمرجع للشيء يسمى «أُمًّا».

وهذه السورة لها مميزات تتميز بها عن غيرها؛ منها أنها ركن في الصلوات التي هي أفضل أركان الإسلام بعد الشهادتين: فلا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب؛ ومنها أنها رقية: إذا قرىء بها على المريض شُفي بإذن الله؛ لأن النبي ﷺ قال للذي قرأ على اللديغ، فبرىء: «**وما يدريك أنها رقية**»[٢].

وقد ابتدع بعض الناس اليوم في هذه السورة بدعة، فصاروا يختمون بها الدعاء، ويبتدئون بها الخُطب ويقرؤونها عند بعض المناسبات، وهذا غلط: تجده مثلاً إذا دعا، ثم دعا قال لمن حوله: «الفاتحة»: يعني اقرؤوا الفاتحة؛ وبعض الناس يبتدىء بها في خطبه، أو في أحواله ـ وهذا أيضاً غلط؛ لأن العبادات مبناها على التوقيف، والاتِّباع.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب القراءة في الفجر، (٧٧٢)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، حديث [٣٨] (٣٩٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإجارة، باب: ما يُعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب، (٢٢٧٦)، ومسلم، كتاب السلام، باب: جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار، [٦٥] ٢٢٠١.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

قوله تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾: الجار والمجرور متعلق بمحذوف؛ وهذا المحذوف يقدَّر فعلاً متأخراً مناسباً؛ فإذا قلت: «باسم الله» وأنت تريد أن تأكل؛ تقدر الفعل: «باسم الله آكل».

قلنا: إنه يجب أن يكون متعلقاً بمحذوف؛ لأن الجار والمجرور معمولان؛ ولابد لكل معمول من عامل.

وقدرناه متأخراً لفائدتين:

الفائدة الأولى: التبرك بتقديم اسم الله عز وجل.

والفائدة الثانية: الحصر؛ لأن تأخير العامل يفيد الحصر، كأنك تقول: لا آكل باسم أحد متبركاً به، ومستعيناً به إلا باسم الله عز وجل.

وقدرناه فعلاً؛ لأن الأصل في العمل الأفعال، وهذه يعرفها أهل النحو؛ ولهذا لا تعمل الأسماء إلا بشروط.

وقدرناه مناسباً؛ لأنه أدلّ على المقصود؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «**ومن كان لم يذبح فليذبح باسم الله**»[1]، أو قال ﷺ: «**على اسم الله**»[2]. فخص الفعل.

و﴿الله﴾: اسم الله رب العالمين لا يسمى به غيره؛ وهو أصل الأسماء؛ ولهذا تأتي الأسماء تابعة له.

و﴿الرحمن﴾ أي ذو الرحمة الواسعة؛ ولهذا جاء على وزن «فَعْلان» الذي يدل على السعة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العيدين، باب: كلام الإمام والناس في خطبة العيد، ٩٨٥، مسلم، كتاب الأضاحي، باب: وقتها [١] ١٩٦٠.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب: قول النبي ﷺ: «فليذبح على اسم الله»، ٥٥٠٠، ومسلم، كتاب الأضاحي، باب: وقتها، [٢] ١٩٦٠.

و﴿الرحيم﴾ أي الموصل للرحمة من يشاء من عباده؛ ولهذا جاءت على وزن «فعيل» الدال على وقوع الفعل. فهنا رحمة هي صفته ـ هذه دل عليها ﴿الرحمن﴾، ورحمة هي فعله ـ أي إيصال الرحمة إلى المرحوم ـ دلّ عليها ﴿الرحيم﴾. و﴿الرحمن الرحيم﴾: اسمان من أسماء الله يدلان على الذات، وعلى صفة الرحمة، وعلى الأثر: أي الحكم الذي تقتضيه هذه الصفة.

والرحمة التي أثبتها الله لنفسه رحمة حقيقية دل عليها السمع، والعقل؛ أما السمع فهو ما جاء في الكتاب، والسنة من إثبات الرحمة لله ـ وهو كثير جداً؛ وأما العقل: فكل ما حصل من نعمة، أو اندفع من نقمة فهو من آثار رحمة الله.

هذا وقد أنكر قوم وصف الله تعالى بالرحمة الحقيقية، وحرّفوها إلى الإنعام، أو إرادة الإنعام، زعماً منهم أن العقل يحيل وصف الله بذلك؛ قالوا: «لأن الرحمة انعطاف، ولين، وخضوع، ورقة؛ وهذا لا يليق بالله عز وجل»، والرد عليهم من وجهين:

الوجه الأول: منع أن يكون في الرحمة خضوع، وانكسار، ورقة؛ لأننا نجد من الملوك الأقوياء رحمة دون أن يكون منهم خضوع، ورقة، وانكسار.

الوجه الثاني: أنه لو كان هذا من لوازم الرحمة، ومقتضياتها فإنما هي رحمة المخلوق؛ أما رحمة الخالق سبحانه وتعالى فهي تليق بعظمته، وجلاله، وسلطانه؛ ولا تقتضي نقصاً بوجه من الوجوه.

ثم نقول: إن العقل يدل على ثبوت الرحمة الحقيقية لله عز وجل: فإن ما نشاهده في المخلوقات من الرحمة بَيْنها يدل على رحمة الله عز وجل؛ ولأن الرحمة كمال؛ والله أحق بالكمال؛ ثم إن ما نشاهده من

الرحمة التي يختص الله بها ـ كإنزال المطر، وإزالة الجدب، وما أشبه ذلك ـ يدل على رحمة الله.

والعجب أن منكري وصف الله بالرحمة الحقيقية بحجة أن العقل لا يدل عليها، أو أنه يحيلها، قد أثبتوا لله إرادة حقيقية بحجة عقلية أخفى من الحجة العقلية على رحمة الله، حيث قالوا: إن تخصيص بعض المخلوقات بما تتميز به يدل عقلاً على الإرادة؛ ولا شك أن هذا صحيح؛ ولكنه بالنسبة لدلالة آثار الرحمة عليها أخفى بكثير؛ لأنه لا يتفطن له إلا أهل النباهة؛ وأما آثار الرحمة فيعرفه حتى العوام: فإنك لو سألت عامياً صباح ليلة المطر: «بِمَ مطرنا؟» لقال: «بفضل الله، ورحمته».

مسألة: هل البسملة آية من الفاتحة؛ أو لا؟

في هذا خلاف بين العلماء؛ **فمنهم من يقول**: إنها آية من الفاتحة، ويقرأ بها جهراً في الصلاة الجهرية، ويرى أنها لا تصح إلا بقراءة البسملة؛ لأنها من الفاتحة. **ومنهم من يقول**: إنها ليست من الفاتحة؛ ولكنها آية مستقلة من كتاب الله، وهذا القول هو الحق؛ ودليل هذا النص، وسياق السورة.

أما النص: فقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين: فإذا قال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرحمن الرحيم﴾، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي؛ فإذا قال: ﴿مالك يوم الدين﴾، قال الله تعالى: مجّدني عبدي، فإذا قال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، قال الله تعالى: هذا بيني وبين عبدي نصفين؛ وإذا قال: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ قال الله تعالى: هذا لعبدي؛ ولعبدي ما**

سأل»[١] ، وهذا كالنص على أن البسملة ليست من الفاتحة؛ وفي الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**صليت خلف النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان؛ فكانوا يستفتحون بـ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ لا يذكرون ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ في أول قراءة، ولا في آخرها**»[٢] . والمراد لا يجهرون؛ والتمييز بينها وبين الفاتحة في الجهر، وعدمه يدل على أنها ليست منها.

أما من جهة السياق من حيث المعنى: فالفاتحة سبع آيات بالاتفاق؛ وإذا أردت أن توزع سبع الآيات على موضوع السورة وجدت أن نصفها هو قوله تعالى: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ وهي الآية التي قال الله فيها: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين**»؛ لأن ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾: واحدة؛ ﴿**الرحمن الرحيم**﴾: الثانية؛ ﴿**مالك يوم الدين**﴾: الثالثة؛ وكلها حق لله عز وجل: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾: الرابعة ـ يعني الوسط ـ وهي قسمان: قسم منها حق لله؛ وقسم حق للعبد؛ ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ للعبد؛ ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم**﴾ للعبد؛ ﴿**غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾ للعبد.

فتكون ثلاث آيات لله عز وجل وهي الثلاث الأولى؛ وثلاث آيات للعبد وهي الثلاث الأخيرة؛ وواحدة بين العبد وربه وهي الرابعة الوسطى.

ثم من جهة السياق من حيث اللفظ فإذا قلنا: إن البسملة آية من الفاتحة لزم أن تكون الآية السابعة طويلة على قدر آيتين؛ ومن المعلوم أن

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، [٣٨] ٣٩٥.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب: حجة من قال: لا يجهر بالبسملة، حديث رقم [٥٢] ٣٩٩.

تقارب الآيات في الطول والقصر هو الأصل.

فالصواب الذي لا شك فيه أن البسملة ليست من الفاتحة كما أن البسملة ليست من بقية السور.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾: ﴿الحمد﴾ وصف المحمود بالكمال مع المحبة، والتعظيم؛ الكمال الذاتي، والوصفي، والفعلي؛ فهو كامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله؛ ولابد من قيد وهو «المحبة، والتعظيم»؛ قال أهل العلم: «لأن مجرد وصفه بالكمال بدون محبة، ولا تعظيم: لا يسمى حمداً؛ وإنما يسمى مدحاً»؛ ولهذا يقع من إنسان لا يحب الممدوح؛ لكنه يريد أن ينال منه شيئاً؛ تجد بعض الشعراء يقف أمام الأمراء، ثم يأتي لهم بأوصاف عظيمة لا محبة فيهم؛ ولكن محبة في المال الذي يعطونه، أو خوفاً منهم؛ ولكن حمدنا لربنا عز وجل حمد محبة، وتعظيم؛ فلذلك صار لابد من القيد في الحمد أنه وصف المحمود بالكمال مع المحبة، والتعظيم؛ و«أل» في ﴿الحمد﴾ للاستغراق: أي استغراق جميع المحامد.

وقوله تعالى: ﴿لله﴾ اللام للاختصاص، والاستحقاق؛ و«الله» اسم ربنا عز وجل؛ لا يسمى به غيره؛ ومعناه: المألوه ـ أي المعبود حبّاً، وتعظيماً.

وقوله تعالى: ﴿رب العالمين﴾؛ «الرب»: هو من اجتمع فيه ثلاثة أوصاف: الخلق، والملك، والتدبير؛ فهو الخالق، المالك لكل شيء، المدبر لجميع الأمور؛ و﴿العالمين﴾: قال العلماء: كل ما سوى الله فهو من العالَم؛ وصفوا بذلك؛ لأنهم علم على خالقهم سبحانه وتعالى؛ ففي كل شيء من المخلوقات آية تدل على الخالق: على قدرته،

وحكمته، ورحمته، وعزته، وغير ذلك من معاني ربوبيته.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: إثبات الحمد الكامل لله عز وجل، وذلك من «أل» في قوله تعالى: ﴿**الحمد**﴾؛ لأنها دالة على الاستغراق.

٢ ـ **ومنها**: أن الله تعالى مستحق مختص بالحمد الكامل من جميع الوجوه؛ ولهذا كان النبي ﷺ إذا أصابه ما يسره قال: «**الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات**»؛ وإذا أصابه خلاف ذلك قال: «**الحمد لله على كل حال**»[1].

٣ ـ **ومنها**: تقديم وصف الله بالألوهية على وصفه بالربوبية؛ وهذا إما لأن «الله» هو الاسم العلَم الخاص به، والذي تتبعه جميع الأسماء؛ وإما لأن الذين جاءتهم الرسل ينكرون الألوهية فقط.

٤ ـ **ومنها**: عموم ربوبية الله تعالى لجميع العالم؛ لقوله تعالى: ﴿**العالمين**﴾.

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

قوله تعالى: ﴿**الرحمن الرحيم**﴾: ﴿**الرحمن**﴾ صفة للفظ الجلالة؛ و﴿**الرحيم**﴾ صفة أخرى؛ و﴿**الرحمن**﴾ هو ذو الرحمة الواسعة؛ و﴿**الرحيم**﴾ هو ذو الرحمة الواصلة؛ فـ﴿**الرحمن**﴾ وصفه؛ و﴿**الرحيم**﴾ فعله؛ ولو أنه جيء بـ«**الرحمن**» وحده، أو بـ«**الرحيم**» وحده لشمل الوصف، والفعل؛ لكن إذا اقترنا فُسر ﴿**الرحمن**﴾ بالوصف؛ و﴿**الرحيم**﴾ بالفعل.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في أبواب الأدب، باب: فضل الحامدين، ٣٨٠٣، والحاكم في المستدرك ١/ ٤٤٩، كتاب الدعاء، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وأقره الذهبي.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إثبات هذين الاسمين الكريمين ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ لله عز وجل؛ وإثبات ما تضمناه من الرحمة التي هي الوصف، ومن الرحمة التي هي الفعل.

٢ ـ **ومنها**: أن ربوبية الله عز وجل مبنية على الرحمة الواسعة للخلق الواصلة؛ لأنه تعالى لما قال: ﴿**رب العالمين**﴾ كأن سائلاً يسأل: «ما نوع هذه الربوبية؟ هل هي ربوبية أخذ، وانتقام؟ أو ربوبية رحمة، وإنعام؟» قال تعالى: ﴿**الرحمن الرحيم**﴾.

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

قوله تعالى: ﴿**مالك يوم الدين**﴾ صفة لـ﴿**الله**﴾؛ و﴿**يوم الدين**﴾ هو يوم القيامة؛ و﴿**الدين**﴾ هنا بمعنى الجزاء؛ يعني أنه سبحانه وتعالى مالك لذلك اليوم الذي يجازى فيه الخلائق؛ فلا مالك غيره في ذلك اليوم؛ و«**الدين**» تارة يراد به الجزاء، كما في هذه الآية؛ وتارة يراد به العمل، كما في قوله تعالى: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ [الكافرون: ٦]، ويقال: «كما تدين تُدان» أي كما تعمل تُجازى.

وفي قوله تعالى: ﴿**مالك**﴾ قراءة سبعية: ﴿**مَلِك**﴾، و«**الملك**» أخص من «**المالك**».

وفي الجمع بين القراءتين فائدة عظيمة؛ وهو أن ملكه جل وعلا ملك حقيقي؛ لأن من الخلق من يكون ملكاً، ولكن ليس بمالك: يسمى ملكاً اسماً وليس له من التدبير شيء؛ ومن الناس من يكون مالكاً، ولا يكون ملكاً: كعامة الناس؛ ولكن الرب عز وجل مالك ملك.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** إثبات ملك الله عز وجل، وملكوته يوم الدين؛ لأن في ذلك اليوم تتلاشى جميع الملكيات، والملوك.

فإن قال قائل: أليس مالك يوم الدين، والدنيا؟

فالجواب: بلى؛ لكن ظهور ملكوته، وملكه، وسلطانه إنما يكون في ذلك اليوم؛ لأن الله تعالى ينادي: ﴿لمن الملك اليوم﴾ [غافر: ١٦] فلا يجيب أحد؛ فيقول تعالى: ﴿لله الواحد القهار﴾ [غافر: ١٦]؛ في الدنيا يظهر ملوك؛ بل يظهر ملوك يعتقد شعوبهم أنه لا مالك إلا هم؛ فالشيوعيون مثلاً لا يرون أن هناك ربًّا للسموات والأرض؛ يرون أن الحياة: أرحام تدفع، وأرض تبلع؛ وأن ربهم هو رئيسهم.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** إثبات البعث، والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿**مالك يوم الدين**﴾.

٣ ـ **ومنها:** حث الإنسان على أن يعمل لذلك اليوم الذي يُدان فيه العاملون.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

قوله تعالى: ﴿**إياك نعبد**﴾؛ ﴿**إياك**﴾: مفعول به مقدم؛ وعامله: ﴿**نعبد**﴾؛ وقُدِّم على عامله لإفادة الحصر؛ فمعناه: لا نعبد إلا إياك؛ وكان منفصلاً لتعذر الوصل حينئذ؛ و﴿**نعبد**﴾ أي نتذلل لك أكمل ذلّ؛ ولهذا تجد المؤمنين يضعون أشرف ما في أجسامهم في موطىء الأقدام ذلاً لله عز وجل: يسجد على التراب؛ تمتلىء جبهته من التراب ـ كل هذا ذلاً لله؛ ولو أن إنساناً قال: «أنا أعطيك الدنيا كلها واسجد لي» ما وافق المؤمن أبداً؛ لأن هذا الذل لله عز وجل وحده.

و«**العبادة**» تتضمن فعل كل ما أمر الله به، وترك كل ما نهى الله عنه؛ لأن من لم يكن كذلك فليس بعابد: لو لم يفعل المأمور به لم يكن عابداً حقًّا؛ ولو لم يترك المنهي عنه لم يكن عابداً حقًّا؛ العبد: هو الذي يوافق المعبود في مراده الشرعي؛ فـ«**العبادة**» تستلزم أن يقوم الإنسان بكل ما أُمر به، وأن يترك كل ما نُهي عنه؛ ولا يمكن أن يكون قيامه هذا بغير معونة الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وإياك نستعين**﴾ أي لا نستعين إلا إياك على العبادة، وغيرها؛ و«**الاستعانة**» طلب العون؛ والله سبحانه وتعالى يجمع بين العبادة، والاستعانة، أو التوكل في مواطن عدة في القرآن الكريم؛ لأنه لا قيام بالعبادة على الوجه الأكمل إلا بمعونة الله، والتفويض إليه، والتوكل عليه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: إخلاص العبادة لله؛ لقوله تعالى: ﴿**إياك نعبد**﴾؛ ووجه الإخلاص: تقديم المعمول.

٢ ـ ومنها: إخلاص الاستعانة بالله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿**وإياك نستعين**﴾ حيث قدم المفعول.

فإن قال قائل: كيف يقال: إخلاص الاستعانة بالله وقد جاء في قوله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ [المائدة: ٢] إثبات المعونة من غير الله عز وجل، وقال النبي ﷺ: «**تعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة**»(١).

فالجواب: أن الاستعانة نوعان: استعانة تفويض؛ بمعنى أنك تعتمد على الله عز وجل، وتتبرأ من حولك، وقوتك؛ وهذا خاص بالله

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب: فضل من حمل متاع صاحبه في السفر، ٢٨٩١؛ ومسلم، كتاب الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، [٥٦] ١٠٠٩.

عز وجل؛ واستعانة بمعنى المشاركة فيما تريد أن تقوم به: فهذه جائزة إذا كان المستعان به حيًّا قادراً على الإعانة؛ لأنه ليس عبادة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ [المائدة: ٢].

فإن قال قائل: وهل الاستعانة بالمخلوق جائزة في جميع الأحوال؟

فالجواب: لا؛ الاستعانة بالمخلوق إنما تجوز حيث كان المستعان به قادراً عليها؛ وأما إذا لم يكن قادراً فإنه لا يجوز أن تستعين به: كما لو استعان بصاحب قبر فهذا حرام؛ بل شرك أكبر؛ لأن صاحب القبر لا يغني عن نفسه شيئاً؛ فكيف يعينه! وكما لو استعان بغائب في أمر لا يقدر عليه، مثل أن يعتقد أن الوليّ الذي في شرق الدنيا يعينه على مهمته في بلده: فهذا أيضاً شرك أكبر؛ لأنه لا يقدر أن يعينه وهو هناك.

فإن قال قائل: هل يجوز أن يستعين المخلوق فيما تجوز استعانته به؟

فالجواب: الأولى أن لا يستعين بأحد إلا عند الحاجة، أو إذا علم أن صاحبه يُسر بذلك، فيستعين به من أجل إدخال السرور عليه؛ وينبغي لمن طلبت منه الإعانة على غير الإثم والعدوان أن يستجيب لذلك.

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾: ﴿**الصراط**﴾ فيه قراءتان: بالسين: ﴿**السراط**﴾، وبالصاد الخالصة: ﴿**الصراط**﴾؛ والمراد بـ﴿**الصراط**﴾ الطريق؛ والمراد بـ«**الهداية**» هداية الإرشاد، وهداية التوفيق؛ فأنت بقولك: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ تسأل الله

تعالى علماً نافعاً، وعملاً صالحاً؛ و﴿المستقيم﴾ أي الذي لا اعوجاج فيه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: لجوء الإنسان إلى الله عز وجل بعد استعانته به على العبادة أن يهديه الصراط المستقيم؛ لأنه لابد في العبادة من إخلاص؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿**إياك نعبد**﴾؛ ومن استعانة يتقوى بها على العبادة؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿**وإياك نستعين**﴾؛ ومن اتباع للشريعة؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾؛ لأن ﴿**الصراط المستقيم**﴾ هو الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: بلاغة القرآن، حيث حذف حرف الجر من ﴿**اهدنا**﴾؛ والفائدة من ذلك: لأجل أن تتضمن طلب الهداية: التي هي هداية العلم، وهداية التوفيق؛ لأن الهداية تنقسم إلى قسمين: هداية علم وإرشاد؛ وهداية توفيق، وعمل؛ فالأولى ليس فيها إلا مجرد الدلالة؛ والله عز وجل قد هدى بهذا المعنى جميع الناس، كما في قوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدىً للناس﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ والثانية فيها التوفيق للهدى، واتباع الشريعة، كما في قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ [البقرة: ٢]؛ وهذه قد يحرمها بعض الناس، كما قال تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ [فصلت: ١٧] ﴿فهديناهم﴾ أي بيّنا لهم الحق، ودَلَلْناهم عليه؛ ولكنهم لم يوفقوا.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الصراط ينقسم إلى قسمين: مستقيم، ومعوج؛ فما كان موافقاً للحق فهو مستقيم، كما قال الله تعالى: ﴿وأن

هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ وما كان مخالفاً فهو معوج.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم**﴾ عطف بيان لقوله تعالى: ﴿**الصراط المستقيم**﴾؛ والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾. [النساء: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿**غير المغضوب عليهم**﴾: هم اليهود، وكل من علم بالحق ولم يعمل به.

قوله تعالى: ﴿**ولا الضالين**﴾: هم النصارى قبل بعثة النبي ﷺ، وكل من عمل بغير الحق جاهلاً به.

وفي قوله تعالى: ﴿**عليهم**﴾ قراءتان سبعيتان: إحداهما ضم الهاء؛ والثانية كسرها.

واعلم أن القراءة التي ليست في المصحف الذي بين أيدي الناس لا تنبغي القراءة بها عند العامة لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن العامة إذا رأوا هذا القرآن العظيم الذي قد ملأ قلوبهم تعظيمه، واحترامه إذا رأوه مرة كذا، ومرة كذا تنزل منزلته عندهم؛ لأنهم عوام لا يُفرقون.

الوجه الثاني: أن القارىء يتهم بأنه لا يعرف؛ لأنه قرأ عند العامة بما لا يعرفونه؛ فيبقى هذا القارىء حديث العوام في مجالسهم.

الوجه الثالث: أنه إذا أحسن العامي الظن بهذا القارىء، وأن

عنده علماً بما قرأ، فذهب يقلده، فربما يخطىء، ثم يقرأ القرآن لا على قراءة المصحف، ولا على قراءة التالي الذي قرأها، وهذه مفسدة.

ولهذا قال عليّ: «**حدثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يكذب الله ورسوله**»[١]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «**إنك لا تحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة**»[٢]، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما سمع هشام بن حكيم يقرأ آية لم يسمعها عمر على الوجه الذي قرأها هشام خاصمه إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ لهشام: «**اقرأ**»، فلما قرأ قال النبي ﷺ: «**هكذا أنزلت**»، ثم قال النبي ﷺ لعمر: «**اقرأ**»، فلما قرأ قال النبي ﷺ: «**هكذا أُنزلت**»[٣]؛ لأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فكان الناس يقرؤون بها حتى جمعها عثمان رضي الله عنه على حرف واحد حين تنازع الناس في هذه الأحرف، فخاف رضي الله عنه أن يشتد الخلاف، فجمعها في حرف واحد ـ وهو حرف قريش؛ لأن النبي ﷺ الذي نزل عليه القرآن بُعث منهم؛ ونُسيت الأحرف الأخرى؛ فإذا كان عمر رضي الله عنه فعل ما فعل بصحابي، فما بالك بعامي يسمعك تقرأ غير قراءة المصحف المعروف عنده! والحمد لله: مادام العلماء متفقين على أنه لا يجب أن يقرأ الإنسان بكل قراءة، وأنه لو اقتصر على واحدة من القراءات فلا بأس؛ فدع الفتنة، وأسبابها.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب: من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا، (١٢٧) معلقاً.

(٢) أخرجه مسلم، مقدمة الكتاب، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع (١٤).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف (٤٩٩٢). وأخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف وبيان معناها، [٢٧٠] ٨١٨.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: ذكر التفصيل بعد الإجمال؛ لقوله تعالى: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾: وهذا مجمل؛ ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم**﴾: وهذا مفصل؛ لأن الإجمال، ثم التفصيل فيه فائدة: فإن النفس إذا جاء المجمل تترقب، وتتشوف للتفصيل، والبيان، فإذا جاء التفصيل ورد على نفس مستعدة لقبوله متشوفة إليه؛ ثم فيه فائدة ثانية هنا: وهي بيان أن الذين أنعم الله عليهم على الصراط المستقيم.

٢ ـ **ومنها**: إسناد النعمة إلى الله تعالى وحده في هداية الذين أنعم عليهم؛ لأنها فضل محض من الله.

٣ ـ **ومنها**: انقسام الناس إلى ثلاثة أقسام؛ قسم أنعم الله عليهم؛ وقسم مغضوب عليهم؛ وقسم ضالون؛ وقد سبق بيان هذه الأقسام.

وأسباب الخروج عن الصراط المستقيم: إما الجهل؛ أو العناد؛ والذين سبب خروجهم العناد هم المغضوب عليهم، وعلى رأسهم اليهود؛ والآخرون الذين سبب خروجهم الجهل كل من لا يعلم الحق، وعلى رأسهم النصارى؛ وهذا بالنسبة لحالهم قبل البعثة ـ أعني النصارى؛ أما بعد البعثة فقد علموا الحق، وخالفوه؛ فصاروا هم، واليهود سواءً ـ كلهم مغضوب عليهم.

٤ ـ **ومن فوائد الآيتين**: بلاغة القرآن، حيث جاء التعبير عن المغضوب عليهم باسم المفعول الدال على أن الغضب عليهم حاصل من الله تعالى، ومن أوليائه.

٥ ـ **ومنها**: أنه يقدم الأشد، فالأشد؛ لأنه تعالى قدم المغضوب عليهم على الضالين؛ لأنهم أشد مخالفة للحق من الضالين؛ فإن المخالف عن علم يصعب رجوعه بخلاف المخالف عن جهل.

وعلى كل حال السورة هذه عظيمة؛ ولا يمكن لا لي، ولا لغيري أن يحيط بمعانيها العظيمة؛ لكن هذا قطرة من بحر؛ ومن أراد التوسع في ذلك فعليه بكتاب «مدارج السالكين» لابن القيم رحمه الله.

* * *

تفسير سورة النبأ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿عم يتساءلون﴾ يعني عم يتساءل هؤلاء، ثم أجاب الله عز وجل عن هذا السؤال فقال: ﴿عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون﴾ وهذا النبأ هو ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم من البينات والهدى، ولاسيما ما جاء به من الأخبار عن اليوم الآخر والبعث والجزاء، وقد اختلف الناس في هذا النبأ الذي جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم: فمنهم من آمن به وصدق، ومنهم من كفر به وكذب، فبين الله أن هؤلاء الذين كذبوا سيعلمون ما كذبوا به علم اليقين، وذلك إذا رأوا يوم القيامة يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق، ولهذا قال سبحانه هنا: ﴿كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون﴾ والجملة الثانية توكيدٌ للأولى من حيث المعنى، وإن كانت ليست توكيداً باعتبار اصطلاح النحويين؛ لأنه فُصل بينها وبين التي قبلها بحرف العطف، والتوكيد لا يُفصل بينه وبين مؤكدة بشيء من

الحروف. والمراد بالعلم الذي توعدهم الله به هو علم اليقين الذي يشاهدونه على حسب ما أخبروا به.

ثم بين الله تعالى نعمه على عباده ليقرر هذه النعم فيلزمهم شكرها فقال: ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً﴾ أي جعل الله الأرض مهاداً ممهدة للخلق ليست بالصلبة التي لا يستطيعون حرثها، ولا المشي عليها إلا بصعوبة، وليست باللينة الرخوة التي لا ينتفعون بها، ولكنها ممهدة لهم على حسب مصالحهم وعلى حسب ما ينتفعون به. ﴿والجبال أوتاداً﴾ أي جعلها الله تعالى أوتاداً بمنزلة الوتد للخيمة حيث يثبتها فتثبت به، وهو أيضاً ثابت كما قال تعالى: ﴿وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها﴾ [فصلت: ١٠]. وهذه الأوتاد قال علماء الأرض: إن هذه الجبال لها جذور راسخة في الأرض كما يرسخ جذر الوتد بالجدار، ولذلك تجدها صلبة قوية لا تزعزعها الرياح وهذا من تمام قدرته ونعمته. ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾ أي أصنافاً ما بين ذكر وأنثى، وصغير وكبير، وأسود وأحمر، وشقي وسعيد إلى غير ذلك مما يختلف الناس فيه، فهم أزواج مختلفون على حسب ما أراده الله عز وجل واقتضته حكمته ليعتبر الناس بقدرة الله تعالى، وأنه قادر على أن يجعل هذا البشر الذين خلقوا من مادة واحدة ومن أب واحد على هذه الأصناف المتنوعة المتباينة. ﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾ أي قاطعاً للتعب، فالنوم يقطع ما سبقه من التعب، ويستجد به الإنسان نشاطاً للمستقبل، ولذلك تجد الرجل إذا تعب ثم نام استراح وتجدد نشاطه، وهذا من النعمة وهو أيضاً من آيات الله كما قال الله تعالى: ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله﴾. [الروم: ٢٣]. ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ أي جعل الله هذا الليل على الأرض بمنزلة اللباس كأن الأرض تلبسه ويكون جلباباً لها،

وهذا لا يعرفه تمام المعرفة إلا إذا صعد فوق ظل الأرض، وقد رأينا ذلك من الآيات العجيبة إذا صعدت في الطائرة وارتفعت وقد غابت الشمس عن سطح الأرض ثم تبينت لك الشمس بعد أن ترتفع تجد الأرض وكأنما كسيت بلباس أسود. ﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾ أي معاشاً يعيش الناس فيه في طلب الرزق على حسب درجاتهم وعلى حسب أحوالهم، وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى على العباد. ﴿وبنينا فوقكم سبعاً شداداً﴾ وهي السماوات السبع، وصفها الله تعالى بالشداد لأنها قوية كما قال تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون﴾ [الذاريات: ٤٧]. أي بنيناها بقوة. ﴿وجعلنا سراجاً وهَّاجاً﴾ يعني بذلك الشمس فهي سراج مضيء، وهي أيضاً ذات حرارة عظيمة. ﴿وهاجاً﴾ أي وقَّادة، وحرارتها في أيام الصيف حرارة شديدة مع بعدها الساحق عن الأرض، فما ظنك بما يقرب منها، ثم إنها تكون في أيام الحر في شدة حرها من فيح جهنم، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم**»[1]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**اشتكت النار إلى الله فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين، نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من البرد من زمهرير جهنم، وأشد ما يكون من الحر من فيح جهنم**»[2]. ومع ذلك فإن فيها مصلحة عظيمة للخلق فهي توفر على الخلق أموالاً عظيمة في أيام النهار حيث يستغني الناس بها عن إيقاد الأنوار، وكذلك الطاقة التي تستخرج منها تكون فيها فوائد كثيرة،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الإبراد بالظهر في شدة الحر (٥٣٦). ومسلم، كتاب المساجد، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر (٦١٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة (٣٦٢٠). ومسلم، كتاب المساجد، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر (٦١٧).

وكذلك إنضاج الثمار وغير هذا من الفوائد العديدة من هذا السراج الذي جعله الله عز وجل لعباده.

ولما ذكر السراج الوهاج الذي به الحرارة واليبوسة ذكر ما يقابل ذلك فقال: ﴿وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجَّاجاً﴾ والماء فيه رطوبة وفيه برودة، وهذا الماء أيضاً تنبت به الأرض وتحيا به، فإذا انضاف إلى هذا ماء السماء وحرارة الشمس حصل في هذا إنضاج للثمار ونمو لها على أكمل ما يكون. ﴿وأنزلنا من المعصرات﴾ يعني من السحاب، ووصفها الله بأنها معصرات كأنما تعصر هذا الماء عند نزوله عصراً، كما يعصر الثوب، فإن هذا الماء يتخلل هذا السحاب ويخرج منه كما يخرج الماء من الثوب المعصور، وقوله: ﴿ماء ثجَّاجاً﴾ أي كثير التدفق واسعاً. ﴿لنخرج به حبًّا ونباتاً﴾ أي لنخرج بهذا الماء الذي أنزل من السماء إلى الأرض فتنبت الأرض ويخرج الله به من الحب بجميع أصنافه وأنواعه البر والشعير والذرة وغيرها. ﴿وجنات ألفافا﴾ أي بساتين ملتفاً بعضها إلى بعض، من كثرتها وحسنها وبهائها حتى إنها لتستر من فيها لكثرتها، والتفاف بعضها إلى بعض، وهي الأشجار التي لها ساق، فيخرج من هذا الماء الثجاج الزروع والنخيل والأعناب وغيرها سواء خرج منه مباشرة أو خرج منه بواسطة استخراج الماء من باطن الأرض؛ لأن الماء الذي في باطن الأرض هو من المطر كما قال تعالى: ﴿فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾ [الحجر: ٢٢]. وقال تعالى في آية أخرى: ﴿فسلكه ينابيع في الأرض﴾. [الزمر: ٢١].

ولما ذكر الله تعالى ما أنعم به على العباد ذكر حال اليوم الآخر وأنه ميقات يجمع الله به الأولين والآخرين فقال تعالى:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

قال تعالى: ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتاً﴾ وهو يوم القيامة، وسمي يوم فصل لأن الله يفصل فيه بين العباد فيما شجر بينهم، وفيما كانوا يختلفون فيه، فيفصل بين أهل الحق وأهل الباطل، وأهل الكفر وأهل الإيمان، وأهل العدوان وأهل الاعتدال، ويفصل فيه أيضاً بين أهل الجنة والنار، فريق في الجنة وفريق في السعير. ﴿كان ميقاتاً﴾ يعني موقوتاً لأجل معدود كما قال تعالى: ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ [هود: ١٠٤]. وما ظنك بشيء له أجل معدود وأنت ترى الأجل كيف يذهب سريعاً يوماً بعد يوم حتى ينتهي الإنسان إلى آخر مرحلة، فكذلك الدنيا كلها تسير يوماً بعد يوم حتى تنتهي إلى آخر مرحلة، ولهذا قال تعالى: ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ كل شيء معدود فإنه ينتهي. ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾ والنافخ الموكل فيها إسرافيل، ينفخ فيها نفختين: الأولى: يفزع الناس ثم يصعقون فيموتون، والثانية: يبعثون من قبورهم تعود إليهم أرواحهم، ولهذا قال هنا: ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾ وفي الآية إيجاز بالحذف أي فتحيون فتأتون أفواجاً؛ فوجاً مع فوج أو يتلو فوجاً، وهذه الأفواج

ـ والله أعلم ـ بحسب الأمم كل أمة تدعى إلى كتابها لتحاسب عليه، فيأتي الناس أفواجاً في هذا الموقف العظيم الذي تسوى فيه الأرض فيذرها الله عز وجل قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، وفي هذا اليوم يقول الله عز وجل: ﴿وفتحت السماء فكانت أبواباً﴾ فتحت وانفرجت فتكون أبواباً يشاهدها الناس بعد أن كانت سقفاً محفوظاً تكون في ذلك اليوم أبواباً مفتوحة، وفي هذا دليل على كمال قدرة الله عز وجل أن هذه السبع الشداد يجعلها الله تعالى يوم القيامة كأن لم تكن، تكون أبواباً ﴿يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن. ولا يسأل حميم حميماً. يبصرونهم﴾ [المعارج: ٨ ـ ١١]. ﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾ أي أن الجبال العظيمة الصماء تُدك فتكون كالرمل ثم تكون كالسراب تسير ﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾. قوله تعالى: ﴿إن جهنم كانت مرصاداً. للطاغين مئاباً. لابثين فيها أحقاباً﴾ الطغيان مجاوزة الحد، وحد الإنسان مذكور في قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾. [الذاريات: ٥٦]. فمن جاوز حده ولم يعبد الله فهو الطاغي، فجهنم كانت للطاغين مآبهم ومرجعهم وأنهم لابثون فيها أحقاباً. ﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً﴾ نفى الله سبحانه وتعالى عنهم البرد الذي تبرد به ظواهر أبدانهم، والشراب الذي تبرد به أجوافهم. ﴿إلا حميماً وغساقاً﴾ الاستثناء هنا منقطع عند النحويين لأن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، والمعنى ليس لهم إلا هذا الحميم وهو الماء الحار المنتهي في الحرارة. ﴿يغاثون بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ [الكهف: ٢٩]. ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾. [محمد: ١٥]. ﴿وغساقاً﴾ قال المفسرون: إن الغساق هو شراب منتن الرائحة شديد البرودة، فيجمع لهم ـ والعياذ بالله ـ بين الماء الحار الشديد الحرارة، والماء البارد الشديد

البرودة ليذوقوا العذاب من الناحيتين: من ناحية الحرارة، ومن ناحية البرودة، بل إن بعض أهل التفسير قالوا: إن المراد بالغساق صديد أهل النار، وما يخرج من أجوافهم من النتن والعرق وغير ذلك. وعلى كل حال فالآية الكريمة تدل على أنهم لا يذوقون إلا هذا الشراب الذي يقطع أمعاءهم من حرارته، ويفطّر أكبادهم من برودته، نسأل الله العافية. وإذا اجتمعت هذه الأنواع من العذاب كان ذلك زيادة في مضاعفة العذاب عليهم. ﴿جزاء وفاقاً﴾ أي يجزون بذلك جزاء موافقاً لأعمالهم من غير أن يظلموا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ [يونس: ٤٤]. فهذا الجزاء موافق مطابق لأعمالهم. ثم بين وجه الموافقة أي موافقة هذا العذاب للأعمال فقال: ﴿إنهم كانوا لا يرجون حساباً. وكذبوا بآياتنا كِذَّاباً﴾ فذكر انحرافهم في العقيدة وانحرافهم في القول، ﴿إنهم كانوا لا يرجون حساباً﴾ أي لا يؤملون أن يحاسبوا بل ينكرون الحساب، ينكرون البعث يقولون: ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ فلا يرجون حساباً يحاسبون به لأنهم ينكرون ذلك، هذه عقيدة قلوبهم، أما ألسنتهم فيكذبون يقولون هذا كذب، هذا سحر، هذا جنون، وما أشبه ذلك كما جاء في كتاب الله ما يصف به هؤلاء المكذبون رسل الله، كما قال عز وجل: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ [الذاريات: ٥٢]. وقال الله تعالى عن المكذبين لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾ [ص: ٤]. وقالوا إنه شاعر ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ [الطور: ٣٠]. ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين﴾ [الحجر: ٧]. ولولا أن الله ثبت أقدام

الرسل وصبرهم على قومهم ما صبروا على هذا الأمر، ثم إن قومهم المكذبين لهم لم يقتصروا على هذا بل آذوهم بالفعل كما فعلوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام من الأذية العظيمة بل آذوهم بحمل السلاح عليهم، فمن كانت هذه حاله فجزاؤه جهنم جزاءً موافقاً مطابقاً لعمله كما في هذه الآية الكريمة: ﴿**جزاء وفاقاً. إنهم كانوا لا يرجون حساباً. وكذبوا بآياتنا كذاباً**﴾. قوله تعالى: ﴿**وكل شيء أحصيناه كتاباً**﴾ ﴿**كل شيء**﴾ يشمل ما يفعله الله عز وجل من الخلق والتدبير في الكون، ويشمل ما يعمله العباد من أقوال وأفعال، ويشمل كل صغير وكبير ﴿**أحصيناه**﴾ أي ضبطناه بالإحصاء الدقيق الذي لا يختلف. ﴿**كتاباً**﴾ يعني كتباً، وقد ثبت في الحديث الصحيح أن الله تعالى كتب مقادير كل شيء إلى أن تقوم الساعة[1]، ومن جملة ذلك أعمال بني آدم فإنها مكتوبة، بل كل قول يكتب، قال الله تعالى: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ [ق: ١٨]. رقيب يعني مراقب، والعتيد يعني الحاضر. ودخل رجل على الإمام أحمد رحمه الله وهو مريض يئن من مرضه فقال له: يا أبا عبدالله إن طاووساً وهو أحد التابعين المشهورين يقول: إن أنين المريض يكتب، فتوقف رحمه الله عن الأنين خوفاً من أن يكتب عليه أنين مرضه. فكيف بأقوال لا حدّ لها ولا ممسك لها، ألفاظ تترى طوال الليل والنهار ولا يحسب لها الحساب، فكل شيء يكتب حتى الهم يكتب إما لك وإما عليك، من همّ بالسيئة فلم يعملها عاجزاً عنها فإنها تكتب عليه، وإن هم بها وتركها لله فإنها تكتب له[2]، فلا يضيع شيء كل شيء أحصيناه كتاباً.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى صلى الله عليهما وسلم (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة (٦٤٩١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (٢٠٣) (١٢٨).

﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ هذا الأمر للإهانة والتوبيخ، يعني يقال لأهل النار: ذوقوا العذاب إهانة وتوبيخاً فلن نزيدكم إلا عذاباً ولن نخفف عنكم بل ولا نبقيكم على ما أنتم عليه لا نزيدكم إلا عذاباً في قوته ومدته ونوعه، وفي آية أخرى أنهم يقولون لخزنة جهنم: ﴿ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب﴾ [غافر: ٤٩]. تأمل هذه الكلمة من عدة أوجه:

أولاً: أنهم لم يسألوا الله سبحانه وتعالى وإنما طلبوا من خزنة جهنم أن يدعوا لهم. لأن الله قال لهم: ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾. [المؤمنون: ١٠٨]. فرأوا أنفسهم أنهم ليسوا أهلاً لأن يسألوا الله ويدعوه إلا بواسطة.

ثانياً: أنهم قالوا: ﴿ادعوا ربكم﴾ ولم يقولوا: ادعوا ربنا، لأن وجوههم وقلوبهم لا تستطيع أن تتحدث أو أن تتكلم بإضافة ربوبية الله لهم أي بأن يقولوا ربنا، عندهم من العار والخزي ما يرون أنهم ليسوا أهلاً لأن تضاف ربوبية الله إليهم بل قالوا ﴿ربكم﴾.

ثالثاً: لم يقولوا يرفع عنا العذاب بل قالوا: ﴿يخفف﴾ لأنهم آيسون نعوذ بالله، آيسون من أن يرفع عنهم.

رابعاً: أنهم لم يقولوا يخفف عنا العذاب دائماً، بل قالوا ﴿يوماً من العذاب﴾ يوماً واحداً، بهذا يتبين ما هم عليه من العذاب والهوان والذل ﴿وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي﴾ [الشورى: ٤٥]. أعاذنا الله منها.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾.

ذكر الله عز وجل ما للمتقين من النعيم بعد قوله: ﴿**إن جهنم كانت مرصاداً. للطاغين مآباً**﴾. لأن القرآن مثاني إذا ذكر فيه العقاب ذكر فيه الثواب، وإذا ذكر الثواب ذكر العقاب، وإذا ذكر أهل الخير ذكر أهل الشر، وإذا ذكر الحق ذكر الباطل، مثاني حتى يكون سير الإنسان إلى ربه بين الخوف والرجاء؛ لأنه إن غلب عليه الرجاء وقع في الأمن من مكر الله، وإن غلب عليه الخوف وقع في القنوط من رحمة الله، وكلاهما من كبائر الذنوب، كلاهما شر، قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «ينبغي أن يكون الإنسان في عبادته لربه بين الخوف والرجاء، فأيهما غلب هلك صاحبه». لذلك تجد القرآن الكريم يأتي بهذا وبهذا، ولئلا تمل النفوس من ذكر حال واحدة والإسهاب فيها دون ما يقابلها. وهكذا، لأجل أن يكون الإنسان حين يقرأ القرآن راغباً راهباً، وهذا من بلاغة القرآن الكريم.

﴿**إن للمتقين مفازاً**﴾ المتقون هم الذين اتقوا عقاب الله، وذلك بفعل أوامر الله واجتناب نواهيه، وأحياناً يأمر الله بتقواه، وأحياناً يأمر بتقوى يوم الحساب، وأحياناً يأمر بتقوى النار، قال الله تعالى: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون واتقوا النار﴾ [آل عمران: ١٣٠]. فجمع بين الأمر بتقواه والأمر بتقوى النار، وقال تعالى: ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ [البقرة: ٢٨١]. فأمر بتقوى يوم الحساب، وكل هذا يدور على معنى واحد وهو: أن يتقي الإنسان محارم ربه فيقوم بطاعته وينتهي عن معصيته، فالمتقون هم الذين قاموا بأوامر الله واجتنبوا نواهي الله،

هؤلاء لهم ﴿مفازاً﴾، والمفاز هو مكان الفوز وزمان الفوز أيضاً، فهم فائزون في أمكنتهم، وفائزون في أيامهم. ﴿حدائق وأعنابا﴾ هذا نوع المفاز، ﴿حدائق﴾ أي بساتين أشجارها عظيمة وكثيرة ومنوعة الأشجار. ﴿وأعناباً﴾ الأعناب جمع عنب وهي من جملة الحدائق لكنه خصها بالذكر. ﴿وكواعب أترابا﴾ الكواعب جمع كاعب وهي التي تبين ثديها ولم يتدل، بل برز وظهر كالكعب، وهذا أكمل ما يكون في جمال الصدر. ﴿وأتراباً﴾ أي على سن واحدة لا تختلف إحداهن عن الأخرى كبراً كما في نساء الدنيا، لأنها لو اختلفت إحداهن عن الأخرى كبراً فربما تختل الموازنة بينهما، وربما تكون إحداهما محزونة إذا لم تساوي الأخرى، لكنهن أتراب. ﴿وكأساً دهاقاً﴾ أي كأساً ممتلئة، والمراد بالكأس هنا كأس الخمر. وربما يكون للخمر وغيره، لأن الجنة فيها ﴿أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾ [محمد: ١٥]. ﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ لا يسمعون في الجنة لغواً أي كلاماً باطلاً لا خير فيه. ﴿ولا كذاباً﴾ أي ولا كذباً فلا يكذبون، ولا يكذب بعضهم بعضاً، لأنهم على سرر متقابلين قد نزع الله ما في صدورهم من غل وجعلهم أخواناً. ﴿جزاء من ربك عطاء﴾ أي أنهم يجزون بهذا جزاء من الله سبحانه وتعالى على أعمالهم الحسنة التي عملوها في الدنيا واتقوا بها محارم الله. ﴿حساباً﴾ أي كافياً، مأخوذة من الحسب وهو الكفاية أي أن هذا الكأس كأس كافٍ لا يحتاجون معه إلى غيره لكمال لذته وتمام منفعته.

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن﴾ فالله سبحانه وتعالى هو رب كل شيء، قال الله تعالى: ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء﴾ [النمل: ٩١]. فهو رب السماوات السبع الطباق، ورب الأرض وهي سبع كما ثبت ذلك في السنة عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم[١]. ﴿وما بينهما﴾ أي ما بين السماوات والأرض من المخلوقات العظيمة كالغيوم والسحب والأفلاك وغيرها مما نعلمه، ومما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. وقوله: ﴿لا يملكون منه خطاباً﴾ يعني أن الناس لا يملكون الخطاب من الله، ولا يستطيع أحد أن يتكلم إلا بإذن الله، وذلك ﴿يوم يقوم الروح﴾ وهو جبريل ﴿والملائكة صفًّا﴾ أي صفوفاً. صفًّا بعد صف، لأنه كما جاء في الحديث: «**تنزل ملائكة السماء الدنيا فتحيط بالخلق، ثم ملائكة السماء الثانية من وراءهم، ثم الثالثة والرابعة والخامسة**»[٢] وهكذا.. صفوفاً لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين (٣١٩٥) (٣١٩٦) ومسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها (١٦١٠) (١٦١١) (١٦١٢).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير، (فصل في مجيء الرب سبحانه وتعالى) ١٩/٤٧٣. والحاكم، (٤/ ٦١٤) وقال الذهبي: إسناده قوي.

﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾ أي لا يتكلمون ملائكة ولا غيرهم كما قال تعالى: ﴿وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً﴾ [طه: ١٠٨]. ﴿إلا من أذن له الرحمن﴾ بالكلام فإنه يتكلم كما أُذن له. ﴿وقال صواباً﴾ أي قال قولاً صواباً موافقاً لمرضات الله سبحانه وتعالى وذلك بالشفاعة إذا أذن الله لأحد أن يشفع شفع فيما أذن له فيه على حسب ما أُذن له. ﴿ذلك اليوم الحق﴾ أي ذلك الذي أخبرناكم عنه هو اليوم الحق، والحق ضد الباطل أي الثابت الذي يقوم فيه الحق، ويقوم فيه العدل يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً﴾ أي من شاء عمل عملاً يؤوب به إلى الله ويرجع به إلى الله، وذلك العمل الصالح الموافق لمرضاة الله تعالى. وقوله: ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً﴾ قيدتها آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]. يعني أننا لنا الخيار فيما نذهب إليه لا أحد يكرهنا على شيء؛ لكن مع ذلك خيارنا وإرادتنا ومشيئتنا راجعة إلى الله ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾ وإنما بين الله ذلك في كتابه من أجل أن لا يعتمد الإنسان على نفسه وعلى مشيئته بل يعلم أنها مرتبطة بمشيئة الله، حتى يلجأ إلى الله في سؤال الهداية لما يحب ويرضى. لا يقول الإنسان أنا حر أريد ما شئت وأتصرف كما شئت، نقول الأمر كذلك لكنك مربوط بإرادة الله عز وجل. ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً﴾ أي خوفناكم من عذاب قريب وهو يوم القيامة. ويوم القيامة قريب، ولو بقيت الدنيا ملايين السنين فإنه قريب ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ [النازعات: ٤٦]. فهذا العذاب الذي أنذرنا الله قريب، ليس بين الإنسان وبينه إلا أن يموت، والإنسان لا يدري متى يموت قد

يصبح ولا يمسي، أو يمسي ولا يصبح، ولهذا كان علينا أن نحزم في أعمالنا، وأن نستغل الفرصة قبل فوات الأوان. ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾ المرء: أي كل امرىء ينظر ما قدمت يداه ويكون بين يديه ويعطى كتابه، ويقال: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ [الإسراء: ١٤]. ويقول الكافر من شدة ما يرى من الهول وما يشاهده من العذاب: ﴿يا ليتني كنت تراباً﴾ أي ليتني لم أخلق، أو ليتني لم أبعث، أو إذا رأى البهائم التي يقضي الله بينها ثم يقول كوني تراباً فتكون تراباً يتمنى أن يكون مثل البهائم فقوله: ﴿كنت تراباً﴾ تحتمل ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: يا ليتني كنت تراباً فلم أُخلق، لأن الإنسان خُلق من تراب.

المعنى الثاني: ياليتني كنت ترابًا فلم أُبعث، يعني كنت ترابًا في أجواف القبور.

المعنى الثالث: أنه إذا رأى البهائم التي قضى الله بينها وقال لها كوني تراباً فكانت تراباً قال: ليتني كنت تراباً أي كما كانت هذه البهائم ـ والله أعلم ـ وإلى هنا تنتهي سورة النبأ، وفيها من المواعظ والحكم وآيات الله عز وجل ما يكون موجباً للإيقان والإيمان، نسأل الله أن ينفعنا وإياكم بكتابه، وأن يجعله موعظة لقلوبنا، وشفاء لما في صدورنا، إنه جواد كريم.

تفسير سورة النازعات

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿**والنازعات غرقا**﴾ يعني الملائكة الموكلة بقبض أرواح الكفار تنزعها ﴿**غرقا**﴾ أي نزعاً بشدة. ﴿**والناشطات نشطا**﴾ يعني الملائكة الموكلة بقبض أرواح المؤمنين، تنشطها نشطاً: أي تسلها برفق كالأنشوطة، والأنشوطة: الربط الذي يسمونه عندنا (التكة) أو ما أشبه ذلك من الكلمات، يعني يكون ربطاً بحيث إذا سللت أحد الطرفين انفكت العقدة هذا ينحل بسرعة وبسهولة، فهؤلاء الملائكة الموكلة بقبض أرواح المؤمنين تنشطها نشطاً أي: تسلها برفق، وسبب ذلك أن الملائكة الموكلة بقبض أرواح الكفار إذا دعت الروح إلى الخروج تناديها بأقبح الأوصاف تقول الملائكة لروح الكافر: اخرجي أيتها النفس الخبيثة التي كانت في الجسد الخبيث، اخرجي إلى غضب الله، فتنفر الروح لا تريد أن تخرج إلى هذا، وتتفرق في الجسد حتى يقبضوها بشدة، وينزعوها نزعاً يكاد يتمزق الجسد منها من شدة النزع. أما

أرواح المؤمنين ـ جعلني الله وإياكم منهم ـ فإن الملائكة إذا نزلت لقبضها تبشرها: أخرجي يا أيتها النفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب أخرجي إلى رضوان الله، وما أشبه هذا من الكلام الذي يهون عليها أن تفارق جسدها الذي ألفته فتخرج بسهولة[1]، ولهذا لما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**». قالت عائشة: يا رسول الله: إنَّا لنكره الموت، فقال: «**ليس ذلك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه**»[2]، لأنه في تلك اللحظة يرى أنه سينتقل إلى دار أحسن من الدار التي فارقها فيفرح كما يفرح أحدنا إذا قيل له أخرج من بيت الطين إلى بيت المسلح القصر المشيد الطيب، فيفرح فيحب لقاء الله، والكافر ـ والعياذ بالله ـ بالعكس إذا بشر بالغضب والعذاب فإنه يكره أن يموت، يكره لقاء الله فيكره الله لقاءه. ﴿**والسابحات سبحا**﴾ هي الملائكة تسبح بأمر الله، أي تسرع فيه كما يسرع السابح في الماء، وكما قال تعالى عن الشمس والقمر والليل والنهار ﴿كل في فلك يسبحون﴾ فالمعنى أنها تسبح بأمر الله عز وجل على حسب ما أراد الله سبحانه وتعالى، وهم أي الملائكة أقوى من الجن، والجن أقوى من البشر، انظر إلى قوله تعالى عن سليمان: ﴿يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين. قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده علمٌ من الكتاب أنا آتيك

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/ ٢٨٧). وأبو داود كتاب السنة، باب المسألة في القبر (٤٧٥٣)، والحاكم (١/ ٣٧) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (٦٥٠٧).

به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٠]. يعني إذا مددت طرفك ثم رجعته فقبل أن يرجع إليك آتيك به ﴿فلما رآه مستقرّاً عنده﴾ في الحال رآه ﴿قال هذا من فضل ربي ليبلوني ءَأَشكر أم أكفر﴾ قال العلماء: إنه حملته الملائكة حتى جاءت به إلى سليمان من اليمن، وسليمان بالشام بلحظة فدل هذا على أن قوة الملائكة أكبر بكثير من قوة الجن، وقوة الجن أكبر من بني آدم؛ لأنه لا يستطيع أحد من بني آدم أن يأتي بعرش ملكة سبأ من اليمن إلى الشام قبل مدة طويلة، فالحاصل أن الملائكة تسبح بأمر الله عز وجل بما يأمرها به. ﴿فالسابقات سبقاً﴾ أيضاً هي الملائكة تسبق إلى أمر الله عز وجل، ولهذا كانت الملائكة أسبق إلى أمر الله وأقوم بأمر الله من بني آدم، قال الله تعالى في وصف ملائكة النار: ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾. [التحريم: ٦]. وقال عز وجل: ﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون. يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]. فهم سباقون إلى أمر الله عز وجل بما يأمرهم لا يعصونه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لقوتهم وقدرتهم على فعل أوامر الله عز وجل. ﴿فالمدبرات أمراً﴾ أيضاً وصف للملائكة تدبر الأمر، وهو واحد الأمور يعني أمور الله عز وجل لها ملائكة تدبرها، فجبرائيل موكل بالوحي يتلقاه من الله وينزل به على الرسل، وإسرافيل موكل بنفخ الصور الذي يكون عند يوم القيامة ينفخ في الصور فيفزع الناس ويموتون، ثم ينفخ فيه أخرى فيبعثون، وهو أيضاً من حملة العرش، وميكائيل موكل بالقطر وبالمطر والنبات، وملك الموت موكل بالأرواح، ومالك موكل بالنار، ورضوان موكل بالجنة، وعن اليمين وعن الشمال قعيد موكل بالأعمال، كلٌّ يدبر ما أمره الله عز وجل به.

فهذه الأوصاف كلها أوصاف للملائكة على حسب أعمالهم، وأقسم الله سبحانه وتعالى بالملائكة لأنهم من خير المخلوقات، ولا يقسم الله سبحانه وتعالى بشيء إلا وله شأن عظيم إما في ذاته، وإما لكونه من آيات الله عز وجل. ثم قال تعالى: ﴿**يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة**﴾ هذه ﴿**يوم ترجف**﴾ متعلقة بمحذوف والتقدير أذكر يا محمد وذكّر الناس بهذا اليوم العظيم: ﴿**يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة**﴾، وهما النفختان في الصور، النفخة الأولى ترجف الناس ويفزعون ثم يموتون عن آخرهم إلا من شاءالله، والنفخة الثانية يبعثون من قبورهم فيقوم الناس من قبورهم مرة واحدة، قال الله تعالى: ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]. إذا رجفت الراجفة وتبعتها الرافدة انقسم الناس إلى قسمين: ﴿**قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون إنا لمردودون في الحافرة. أإذا كنا عظاماً نخرة قالوا تلك إذاً كرة خاسرة**﴾ وهذه قلوب الكفار ﴿**واجفة**﴾ أي: خائفة خوفاً شديداً. ﴿**أبصارها خاشعة**﴾ يعني ذليلة لا تكاد تحدق أو تنظر بقوة ولكنه قد غضت أبصارهم ـ والعياذ بالله ـ لذلهم قال الله تعالى: ﴿وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي﴾[الشورى: ٤٥]. ﴿**فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة**﴾ زجرة من الله عز وجل يزجرون ويصاح بهم فيقومون من قبورهم قيام رجل واحد على ظهر الأرض بعد أن كانوا في بطنها قال الله تبارك وتعالى: ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ [يس: ٥٣]. كل الخلق في هذه الكلمة الواحدة يخرجون من قبورهم أحياء، ثم يحضرون إلى الله عز وجل ليجازيهم، ولهذا قال: ﴿**فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة**﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وما أمرنا إلا

واحدة كلمح بالبصر﴾ [القمر: ٥٠]. يعني أنَّ الله إذا أراد شيئاً إنما يقول له: (كن) مرة واحدة فقط فيكون ولا يتأخر هذا عن قول الله لحظة ﴿إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ والله عز وجل لا يعجزه شيء، فإذا كان الخلق كلهم يقومون من قبورهم لله عز وجل بكلمة واحدة فهذا أدل دليل على أن الله تعالى على كل شيء قدير، وأن الله لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض كما قال تعالى: ﴿وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً﴾ **﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾**.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم قال تعالى مبيناً ما جرى للأمم قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم[1]، فقال الله تعالى: **﴿هل أتاك حديث موسى﴾** والخطاب في

---

(١) قصص القرآن أصدق القصص، لقوله تعالى: ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾. [النساء: ٨٧] وذلك لتمام مطابقتها للواقع.
وأحسن القصص؛ لقوله تعالى: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ [يوسف: ٣]. وذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى.
وأنفع القصص، لقوله تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ [يونس: ١١١]. وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.
وهي ثلاثة أقسام:
=

. . . . . .

= * قسم عن الأنبياء والرسل، وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين.
* وقسم عن أفراد وطوائف، جرى لهم ما فيه عبرة، فنقله الله تعالى عنهم، كقصة مريم، ولقمان، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود، وغير ذلك.
* وقسم عن حوادث وأقوام في عهد النبي ﷺ، كقصة غزوة بدر وأحد، والأحزاب، وبني قريظة، وبني النضير، وزيد بن حارثة، وأبي لهب، وغير ذلك.
وللقصص في القرآن حكم كثيرة عظيمة منها:
١ ـ بيان حكمة الله تعالى فيما تضمنته هذه القصص؛ لقوله تعالى: ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر. حكمة بالغة فما تغن النذر﴾ [القمر: ٤، ٥].
٢ ـ بيان عدله تعالى بعقوبة المكذبين؛ لقوله تعالى عن المكذبين: ﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك﴾. [هود: ١٠١].
٣ ـ بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إلا آل لوط نجيناهم بسحر نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر﴾. [القمر: ٣٤، ٣٥].
٤ ـ تسلية النبي ﷺ عما أصابه من المكذبين له؛ لقوله تعالى: ﴿وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر والكتاب المنير. ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير﴾ [فاطر: ٢٥، ٢٦].
٥ ـ ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه، إذ علموا نجاة المؤمنين السابقين، وانتصار من أمروا بالجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾ [الأنبياء: ٨٨]. وقوله: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين﴾ [الروم: ٤٧].
٦ ـ تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾ [محمد: ١٠].
٧ ـ إثبات رسالة النبي ﷺ فإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ [هود: ٤٩]، وقوله: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾ [إبراهيم: ٩].
ومن القصص القرآنية ما لا يأتي إلا مرة واحدة، مثل قصة لقمان، وأصحاب الكهف، ومنها ما يأتي متكرراً حسب ما تدعو إليه الحاجة، وتقتضيه المصلحة، ولا يكون هذا المتكرر على وجه واحد، بل يختلف في الطول والقصر واللين والشدة وذكر بعض جوانب القصة في موضع دون آخر.
ومن الحكمة في هذا التكرار:

قوله: ﴿هل أتاك﴾ للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يتأتى خطابه ويصح توجيه الخطاب إليه، ويكون على المعنى الأول (هل أتاك يا محمد)، وعلى المعنى الثاني: (هل أتاك أيها الإنسان) ﴿حديث موسى﴾ وهو ابن عمران عليه الصلاة والسلام أفضل أنبياء بني إسرائيل، وهو أحد أولي العزم الخمسة الذين هم: محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونوح عليهم الصلاة والسلام، وقد ذكر هؤلاء الخمسة في القرآن في موضعين، أحدهما في الأحزاب في قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم﴾ [الأحزاب: ٧]. والثاني في قوله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى﴾ [الشورى: ١٣]. وحديث موسى عليه الصلاة والسلام ذكر في القرآن أكثر من غيره؛ لأن موسى هو نبي اليهود وهم كثيرون في المدينة وحولها في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فكانت قصص موسى أكثر ما قص علينا من نبأ الأنبياء وأشملها وأوسعها وفي قوله: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ تشويق للسامع ليستمع إلى ما جرى في هذه القصة. ﴿إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى﴾ ناداه الله عز وجل نداءً سمعه بصوت الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيًّا﴾[مريم: ٥٢]. وقوله:

= ١ ـ بيان أهمية تلك القصة لأن تكرارها يدل على العناية بها.

٢ ـ توكيد تلك القصة؛ لتثبت في قلوب الناس.

٣ ـ مراعاة الزمن وحال المخاطبين بها، ولهذا تجد الإيجاز والشدة غالباً فيما أتى من القصص في السور المكية والعكس فيما أتى في السور المدنية.

٤ ـ بيان بلاغة القرآن في ظهور هذه القصص على هذا الوجه وذاك الوجه على ما تقتضيه الحال.

٥ ـ ظهور صدق القرآن، وأنه من عند الله تعالى، حيث تأتي هذه القصص متنوعة بدون تناقض. (أصول في التفسير لفضيلة الشيخ رحمه الله).

﴿بالواد المقدس﴾ هو الطور، والوادي هو مجرى الماء، وسماه الله مقدساً لأنه كان فيه الوحي إلى موسى عليه الصلاة والسلام. وقوله: ﴿طوى﴾ اسم للوادي. ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ فرعون كان ملك مصر، وكان يقول لقومه إنه ربهم الأعلى، وأنه لا إله غيره ﴿قال يا أيها الملا ما علمت لكم من إله غيري﴾ فادعى ما ليس له، وأنكر حق غيره وهو الله عز وجل، وأمر الله نبيه موسى عليه الصلاة والسلام أن يذهب إلى فرعون وهذه هي الرسالة، وبين سبب ذلك وهو طغيان هذا الرجل ـ أعني فرعون ـ وفي سورة طه قال: ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى﴾ [طه: ٤٣]. ولا منافاة بين الآيتين وذلك أن الله تعالى أرسل موسى أولاً ثم طلب موسى صلى الله عليه وآله وسلم من ربه أن يشد أزره بأخيه هارون فأرسل هارون عليه الصلاة والسلام مع موسى فصار موسى وهارون كلاهما مرسل إلى فرعون. وقوله تعالى: ﴿إنه طغى﴾ أي: زاد على حده؛ لأن الطغيان هو الزيادة، ومنه قوله تعالى: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾ [الحاقة: ١١]. ومنه الطاغوت: لأن فيه مجاوزة الحد. ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى﴾ الاستفهام هنا للتشويق، تشويق فرعون أن يتزكى مما هو عليه من الشر والفساد، وأصل الزكاة النمو والزيادة، وتطلق بمعنى الإسلام والتوحيد، ومنه قوله تعالى: ﴿وويل للمشركين. الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾ [فصلت: ٦، ٧]. ومنه قوله تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠]. ﴿وأهديك إلى ربك﴾ أي أدلك إلى ربك أي إلى دين الله عز وجل الموصل إلى الله. ﴿فتخشى﴾ أي فتخاف الله عز وجل على علم منك؛ لأن الخشية هي الخوف المقرون بالعلم، فإن لم يكن علم فهو خوف مجرد، وهذا هو الفرق بين الخشية والخوف. الفرق

بينهما أن الخشية عن علم قال الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر: ٢٨]. وأما الخوف فهو خوف مجرد ذعر يحصل للإنسان ولو بلا علم، ولهذا قد يخاف الإنسان من شيء يتوهمه، قد يرى في الليلة الظلماء شبحاً لا حقيقة له فيخاف منه، فهذا ذعر مبني على وهم، لكن الخشية تكون عن علم. أي فذهب موسى عليه الصلاة والسلام وقال لفرعون ما أمره الله به ﴿**هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى**﴾ ولما كان البشر لا يؤمنون ولا يقبلون دعوى شخص أنه رسول إلا بآية كما هو ظاهر أن الإنسان لا يقبل من أحد دعوى إلا ببينة جعل الله سبحانه وتعالى مع كل رسول آية تدل على صدقه، وهنا قال: ﴿**فأراه الآية الكبرى**﴾ يعني أرى موسى فرعون الآية الكبرى، فما هي هذه الآية؟ الآية أن معه عصاً من خشب من فروع الشجر كما هو معروف، فكان إذا وضعها في الأرض صارت حية تسعى ثم يحملها فتعود عصا، وهذا من آيات الله أن شيئاً جماداً إذا وضع على الأرض صار حية تسعى، وإذا حمل من الأرض عاد في الحال فوراً إلى حاله الأولى عصا من جملة العصي، وإنما بعثه عليه الصلاة والسلام بهذه الآية، وبكونه يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء أي من غير عيب، أي: بيضاء بياضاً ليس بياض البرص ولكنه بياض جعله الله آية، إنما بعثه الله بالعصا واليد؛ لأنه كان في زمن موسى السحر منتشراً شائعاً فأرسله الله عز وجل بشيء يغلب السحرة الذين تصدوا لموسى عليه الصلاة والسلام. قال أهل العلم: وفي عهد عيسى صلى الله عليه وآله وسلم انتشر الطب انتشاراً عظيماً، فجاء عيسى بأمر يعجز الأطباء، وهو أنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برىء، إذا جيء إليه بشخص فيه عاهة أي عاهة تكون مسحه بيده ثم برىء بإذن الله ﴿يبرىء

الأكمه والأبرص﴾ مع أن البرص لا دواء له لكن هو يبرىء الأبرص بإذن الله عز وجل، ويبرىء الأكمه الذي خلق بلا عيون، وأشد من هذا وأعظم أنه يحيي الموتى بإذن الله، يؤتى إليه بالميت فيتكلم معه ثم تعود إليه الحياة، وأشد من ذلك وأبلغ أنه يخرج الموتى بإذن الله من قبورهم، يقف على القبر وينادي صاحب القبر فيخرج من القبر حيًّا، هذا شيء لا يمكن لأي طب أن يبلغه، ولهذا كانت آية عيسى في هذا الوقت مناسبة تماماً لما كان عليه الناس. قال أهل العلم: أما رسول الله محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقد أتى إلى العرب وهم يتفاخرون في الفصاحة، ويرون أن الفصاحة أعظم منقبة للإنسان فجاء محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بهذا القرآن العظيم الذي أعجز أمراء الفصاحة، وعجزوا عن أن يأتوا بمثله، قال الله تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]. يعني لو كان بعضهم يعاون بعضاً فإنهم لن يأتوا بمثله. حينئذ نقول إن موسى عليه الصلاة والسلام أرى فرعون الآية الكبرى ولكن لم ينتفع بالآيات ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ [يونس: ١٠١]. ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب﴾ فالذين ليس في قلوبهم استعداد للهداية لا يهتدون ولو جاءتهم كل آية ـ والعياذ بالله ـ ولهذا قال: ﴿فكذب وعصى﴾ كذب الخبر، وعصى الأمر، يعني قال لموسى إنك لست رسولاً بل قال ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ [الشعراء: ٢٧]. وعصى الأمر فلم يمتثل أمر موسى ولم ينقد لشرعه. ﴿ثم أدبر يسعى﴾ أي تولى مدبراً يسعى حثيثاً. ﴿فحشر فنادى﴾ حشر الناس أي جمعهم ونادى فيهم بصوت مرتفع ليكون ذلك أبلغ في نهيهم عما يريد منهم موسى عليه الصلاة والسلام. ﴿فقال أنا

ربكم الأعلى﴾ يعني لا أحد فوقي لأن ﴿الأعلى﴾ اسم تفضيل من العلو، فانظر كيف استكبر هذا الرجل وادعى لنفسه ما ليس له في قوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ وكان يفتخر بالأنهار والمُلك الواسع يقول لقومه في ما قال لهم ﴿يا قومِ أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢]. فما الذي حصل؟ أغرقه الله عز وجل بالماء الذي كان يفتخر به، وأورث الله ملك مصر بني إسرائيل الذين كان يستضعفهم. ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، ﴿نكال الآخرة والأولى﴾ يعني أنه نكّل به في الآخرة وفي الأولى، فكان عبرة في زمنه، وعبرة فيما بعد زمنه إلى يوم القيامة، كل من قرأ كتاب الله وما صنع الله بفرعون فإنه يتخذ ذلك عبرة يعتبر به، وكيف أهلكه الله مع هذا الملك العظيم وهذا الجبروت وهذا الطغيان فصار أهون على الله تعالى من كل هين. ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ ﴿إن في ذلك﴾ أي فيما جرى من إرسال موسى إلى فرعون ومحاورته إياه واستهتار فرعون به واستكباره عن الانقياد له عبرة، ﴿لمن يخشى﴾ أي يخشى الله عز وجل، فمن كان عنده خشية من الله وتدبر ما حصل لموسى مع فرعون والنتيجة التي كانت لهذا ولهذا فإنه يعتبر ويأخذ من ذلك عبرة، والعبر في قصة موسى كثيرة ولو أن أحداً انتدب لجمع القصة من الآيات في كل سورة ثم يستنتج ما حصل في هذه القصة من العبر لكان جيداً، يعني يأتي بالقصة كلها في كل الآيات، لأن السور في بعضها شيء ليس في البعض الآخر، فإذا جمعها وقال مثلاً يؤخذ من هذه القصة العظيمة العبر التالية ثم يسردها، كيف أرسله الله عز وجل إلى فرعون؟ كيف قال لهما ﴿فقولا له قولاً ليناً﴾ [طه: ٤٤]. مع أنه

مستكبر خبيث؟ وكيف كانت النتيجة؟ وكيف كان موسى عليه الصلاة والسلام خرج من مصر خائفاً على نفسه يترقب كما خرج الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة يترقب، وصارت العاقبة للرسول عليه الصلاة والسلام ولموسى عليه الصلاة والسلام، لكن العاقبة للرسول ﷺ بفعله وأصحابه، عذب الله أعداءهم بأيديهم، وعاقبة موسى بفعل الله عز وجل، فهي عبر يعتبر بها الإنسان يصلح بها نفسه وقلبه حتى يتبين الأمر.

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ءأنتم أشد خلقاً أم السماء﴾ هذا الاستفهام لتقرير إمكان البعث؛ لأن المشركين كذبوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالبعث وقالوا: ﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾ [يس: ٧٨]. فيقول الله عز وجل: ﴿ءأنتم أشد خلقاً أم السماء﴾ الجواب معلوم لكل أحد أنه السماء كما قال تعالى: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [غافر: ٥٧]. ﴿بناها﴾ هذه الجملة لا تتعلق بالتي قبلها، ولهذا ينبغي للقارىء إذا قرأ أن يقف على قوله ﴿أم السماء﴾ ثم يستأنف فيقول: ﴿بناها﴾ فالجملة استئنافية لبيان عظمة السماء، ﴿بناها﴾ أي بناها الله عز وجل وقد بين الله سبحانه وتعالى في آية أخرى في سورة الذاريات أنه بناها بقوة فقال: ﴿والسماء بنيناها بأيد﴾ أي

بقوة ﴿وإنا لموسعون﴾. ﴿رفع سمكها فسواها﴾ رفعه يعني عن الأرض ورفعه عز وجل بغير عمد كما قال الله تعالى: ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها﴾ [الرعد: ٢]. ﴿فسواها﴾ أي جعلها مستوية، وجعلها تامة كاملة كما قال تعالى في خلق الإنسان: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك﴾ [الانفطار: ٦، ٧]. فسواك: أي جعلك سويًّا تام الخلقة، فالسماء كذلك سواها الله عز وجل. ﴿وأغطش ليلها﴾ أغطشه أي أظلمه، فالليل مظلم، قال الله تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ [الإسراء: ١٢]. ﴿وأخرج ضحاها﴾ بينه بالشمس التي تخرج كل يوم من مطلعها وتغيب من مغربها. ﴿والأرض بعد ذلك﴾ أي بعد خلق السماوات والأرض ﴿دحاها﴾ بين سبحانه هذا الدحو بقوله: ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ وكانت الأرض مخلوقة قبل السماء كما قال الله تعالى: ﴿قل أئِنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سماوات في يومين﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢]. فالأرض مخلوقة من قبل السماء لكن دحوها وإخراج الماء منها والمرعى كان بعد خلق السماوات. ﴿والجبال أرساها﴾ أي جعلها راسية في الأرض تمسك الأرض لئلا تضطرب بالخلق. ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ أي جعل الله تعالى ذلك متاعاً لنا نتمتع به فيما نأكل ونشرب، ولأنعامنا أي مواشينا من الإبل والبقر والغنم وغيرها.

ولما ذكَّر الله عز وجل عباده بهذه النعم الدالة على كمال قدرته ذكرهم بمآلهم الحتمي الذي لابد منه، فقال عز وجل:

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى﴾ وذلك قيام الساعة، وسماها طامة لأنها داهية عظيمة تطم كل شيء سبقها. ﴿الكبرى﴾ يعني أكبر من كل طامة. ﴿يوم يتذكر الإنسان ما سعى﴾ لهذا اليوم الذي تكون فيه الطامة الكبرى وهو اليوم الذي يتذكر فيه الإنسان ما سعى، يتذكره مكتوباً، عنده يقرأه هو بنفسه قال الله تعالى: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]. إذا قرأه تذكر ما سعى أي ما عمل، أما اليوم فإننا قد نسينا ما عملنا، عملنا أعمالاً كثيرة منها الصالح، ومنها اللغو، ومنها السيىء، لكن كل هذا ننساه، وفي يوم القيامة يعرض علينا هذا في كتاب ويقال اقرأ كتابك أنت بنفسك ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ [الإسراء: ١٤]. فحينئذ يتذكر ما سعى ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ [النبأ: ٤٠]. ﴿وبُرِّزت الجحيم لمن يرى﴾ ﴿برزت﴾ أظهرت تجيء تقاد بسبعين ألف زمام كل زمام فيه سبعون ألف ملك يجرونها[1]، إذا ألقي منها الظالمون مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً تأتي ـ والعياذ بالله ـ لمن

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنة، باب جهنم (٢٨٤٢) (٢٩).

يرى ويبصر فتنخلع القلوب ويشيب المولود ولهذا قال: ﴿فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا﴾ هذان وصفان هما وصفا أهل النار، الطغيان وهو مجاوزة الحد، وإيثار الدنيا على الآخرة بتقديمها على الآخرة وكونها أكبر هم الإنسان، والطغيان مجاوزة الحد، وحد الإنسان مذكور في قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦]. فمن جاوز حده ولم يعبد الله فهذا هو الطاغي لأنه تجاوز الحد، أنت مخلوق لا لتأكل وتتنعم وتتمتع كما تتمتع الأنعام، أنت مخلوق لعبادة الله فاعبد الله عز وجل، فإن لم تفعل فقد طغيت هذا هو الطغيان ألا يقوم الإنسان بعبادة الله. ﴿وآثر الحياة الدنيا﴾ هما متلازمان فإن الطاغي عن عبادة الله مؤثر للحياة الدنيا لأنه يتعلل بها عن طاعة الله، ويتلهى بها عن طاعة الله، إذا أذن الفجر آثر النوم على الصلاة، إذا قيل له أذكر الله آثر اللغو على ذكر الله وهكذا... ﴿فإن الجحيم هي المأوى﴾ أي هي مأواه، والمأوى هو المرجع والمقر وبئس المقر مقر جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ ﴿وأما من خاف مقام ربه﴾ يعني خاف القيام بين يديه؛ لأن الإنسان يوم القيامة سوف يقرره الله عز وجل بذنوبه ويقول عملت كذا، عملت كذا، عملت كذا كما جاء في الصحيح، فإذا أقر قال الله له: «**قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»[1]، هذا الذي خاف هذا المقام، ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾ أي عن هواها، والنفس أمَّارة بالسوء لا تأمر إلا بالشر. ولكن هناك نفس أخرى تقابلها وهي النفس المطمئنة؛ وللإنسان ثلاث نفوس: مطمئنة، وأمارة، ولوامة، وكلها في القرآن، أما المطمئنة ففي قوله تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ (٢٤٤١)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله على المؤمنين (٢٧٦٨) (٥٢).

راضية مرضية. فادخلي في عبادي. وادخلي جنتي﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]. وأما الأمَّارة بالسوء ففي قوله تعالى: ﴿وما أبرىء نفسي إن النفس لأمَّارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾ [يوسف: ٥٣]. وأما اللوامة ففي قوله تعالى: ﴿لا أقسم بيوم القيامة. ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ [القيامة: ١، ٢]. والإنسان يحس بنفسه بهذه الأنفس؛ يرى في نفسه أحياناً نزعة خير يحب الخير يفعله هذه هي النفس المطمئنة، يرى أحياناً في نفسه نزعة شر يفعله هذه نفس أمارة بالسوء، تأتي بعد ذلك النفس اللوامة التي تلومه على ما فعل فتجده يندم على ما فعل من المعصية، أو لوامة أخرى تلومه على ما فعل من الخير، فإن من الناس من قد يلوم نفسه على فعل الخير وعلى مصاحبة أهل الخير ويقول: كيف أصاحب هؤلاء الذين صدوني عن حياتي.. عن شهواتي.. عن لهوي، وما أشبه ذلك. فاللوامة نفس تلوم الأمارة بالسوء مرة، وتلوم المطمئنة مرة أخرى، فهي في الحقيقة نفس بين نفسين تلوم النفس الأمارة بالسوء إذا فعلت السوء، وتندم الإنسان، وقد تلوم النفس المطمئنة إذا فعلت الخير. ﴿**فإن الجنة هي المأوى**﴾ الجنة هي دار النعيم التي أعدها الله عز وجل لأوليائه فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال الله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ [السجدة: ١٧]. هكذا جاء في القرآن، وجاء في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[١]، هذه الجنة يدركها الإنسان قبل أن يموت، إذا حضر الأجل ودعت الملائكة النفس للخروج قالت: أخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى رضوان الله[٢]،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة (٣٢٤٤)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب صفة الجنة (٢٨٢٤) (٢).

(٢) تقدم تخريجه ص (٤٠).

وتبشر النفس بالجنة، قال الله تعالى: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم﴾ [النحل: ٣٢]. يقولونه حين التوفي ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ فيبشر بالجنة فتخرج روحه راضية متيسرة سهلة، ولهذا لما حدث النبي عليه الصلاة والسلام فقال: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**» قالت عائشة: يا رسول الله: كلنا يكره الموت، قال: ليس الأمر ذلك ـ كلنا يكره الموت بمقتضى الطبيعة ـ ولكن المؤمن إذا بشر بما يبشر به عند الموت أحب لقاء الله أحب الموت وسهل عليه»[1]، وإن الكافر إذا بشر ـ والعياذ بالله ـ بما يسوؤه عند الموت كره لقاء الله وهربت نفسه تفرقت في جسده حتى ينتزعوها منه كما ينتزع السفود من الشعر المبلول، والشعر المبلول إذا جر عليه السفود وهو معروف عند الغزالين يكاد يمزقه من شدة سحبه عليه هكذا روح الكافر والعياذ بالله ـ تتفرق في جسده لأنها تبشر بالعذاب فتخاف[2]، فالجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والإنسان قد يدركها قبل أن يموت بما يبشر به، وقد قال أنس بن النضر ـ رضي الله عنه ـ: «يا رسول الله، والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد»[3]، وهذا ليس معناه الوجدان الذوقي، وجدان حقيقي، قال ابن القيم رحمه الله: (إن بعض الناس قد يدرك الآخرة وهو في الدينا)، ثم انطلق فقاتل وقُتل رضي الله عنه، فالحاصل أن الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٤٠).

(٢) تقدم تخريجه ص (٤٠).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد (٤٠٤٨).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

﴿يسألونك عن الساعة إيَّان مرسها﴾ ﴿يسألونك﴾ يعني يسألك الناس كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله﴾ [الأحزاب: ٦٣]. سؤال الناس عن الساعة ينقسم إلى قسمين: سؤال استبعاد وإنكار وهذا كفر كما سأل المشركون النبي ﷺ عن الساعة واستعجلوها، وقد قال الله عن هؤلاء: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾. وسؤال عن الساعة يسأل متى الساعة ليستعد لها وهذا لا بأس به، وقد قال رجل للنبي عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله متى الساعة؟ قال له: «**ماذا أعددت لها؟** قال: حب الله ورسوله. قال: «**المرء مع من أحب**»[1]، فالناس يسألون النبي عليه الصلاة والسلام ولكن تختلف نياتهم في هذا السؤال، ومهما كانت نياتهم ومهما كانت أسئلتهم فعلم الساعة عند الله ولهذا قال: ﴿فيمَ أنت من ذكراها﴾ يعني أنه لا يمكن أن تذكر لهم الساعة، لأن علمها عند الله كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿قل إنما علمها عند الله﴾ [الأحزاب: ٦٣]. وقد سأل جبريل عليه السلام وهو أعلم الملائكة، سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو أعلم الخلق من البشر قال: أخبرني عن الساعة. فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»[2]، يعني أنت إذا

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل «ويلك» (٦١٦٧). ومسلم، كتاب البر والصلة، باب المرء مع من أحب (٢٦٣٩) (١٦١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان=

كانت خافية عليك فأنا خافية علي، وإذا كان أعلم الملائكة وأعلم البشر لا يعلمان متى الساعة فما بالك بمن دونهما، وبهذا نعرف أن ما يشيعه بعض الناس من أن الساعة تكون في كذا وفي كذا وفي زمن معين كله كذب، نعلم أنه كذب؛ لأنه لا يعلم متى الساعة إلا الله عز وجل.

﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ يعني ليس عندك علم منها ولكنك منذر ﴿من يخشاها﴾ أي يخافها وهم المؤمنون، أما من أنكرها واستبعدها وكذبها فإن الإنذار لا ينفع فيه ﴿وما تغني الايات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ [يونس: ١٠١]. ولهذا نقول أنت لا تسأل متى تموت ولا أين تموت لأن هذا أمر لا يحتاج إلى سؤال أمر مفروغ منه ولابد أن يكون ومهما طالت بك الدنيا فكأنما بقيت يوماً واحداً بل كما قال تعالى هنا: ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ ولكن السؤال الذي يجب أن يرد على النفس ويجب أن يكون لديك جواب عليه هو على أي حال تموت؟! ولست أريد على أي حال تموت هل أنت غني أو فقير، أو قوي أو ضعيف، أو ذو عيال أو عقيم، بل على أي حال تموت في العمل، فإذا كنت تساءل نفسك هذا السؤال فلابد أن تستعد؛ لأنك لا تدري متى يفجَؤُك الموت، كم من إنسان خرج يقود سيارته ورجع به محمولاً على الأكتاف، وكم من إنسان خرج من أهله يقول هيئوا لي طعام الغداء أو العشاء ولكن لم يأكله، وكم من إنسان لبس قيمصه وزر أزرته ولم يفكها إلا الغاسل يغسله، هذا أمر مشاهد بحوادث بغتة. فانظر الآن وفكر على أي حال تموت، ولهذا ينبغي لك أن تكثر من الاستغفار ما استطعت، فإن الاستغفار فيه من كل هم فرج، ومن كل ضيق مخرج، حتى إن بعض العلماء يقول إذا استفتاك شخص فاستغفر

= الإيمان والإسلام (١).

الله قبل أن تفتيه، لأن الذنوب تحول بين الإنسان وبين الهدى واستنبط ذلك من قول الله تبارك وتعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً. واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ [النساء: ١٠٥، ١٠٦]. وهذا استنباط جيد، ويمكن أيضاً أن يستنبط من قوله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ [محمد: ١٧]. والاستغفار هو الهدى، لذلك أوصيكم بالمراقبة، وكثرة الاستغفار، ومحاسبة النفس حتى نكون على أهبة الاستعداد خشية أن يفجؤنا الموت ـ نسأل الله أن يحسن لنا الخاتمة ـ. ﴿**كأنهم يوم يرونها**﴾ أي يرون القيامة ﴿**لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها**﴾ العشية من الزوال إلى غروب الشمس، والضحى من طلوع الشمس إلى زوالها، يعني كأنهم لم يلبثوا إلا نصف يوم، وهذا هو الواقع لو سألنا الآن كم مضى من السنوات علينا؟ هل نشعر الآن بأنه سنوات أو كأنه يوم واحد؟ لا شك أنه كأنه يوم واحد. والإنسان الآن بين ثلاثة أشياء: يوم مضى فهذا قد فاته، ويوم مستقبل لا يدري أيدركه أو لا يدركه، ووقت حاضر هو المسؤول عنه، وأما ما مضى فقد فات وما فات فقد مات، هلك عنك الذي مضى، والمستقبل لا تدري أتدركه أم لا، والحاضر هو الذي أنت مسؤول عنه. نسأل الله تعالى أن يحسن لنا العاقبة، وأن يجعل عاقبتنا حميدة، وخاتمتنا سعيدة إنه جواد كريم.

* * *

تفسير سورة عبس

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿عبس وتولى﴾ هذا العابس والمتولي هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ومعنى ﴿عبس﴾ أي كلح في وجهه يعني استنكر الشيء بوجهه. ومعنى ﴿تولى﴾ أعرض. ﴿أن جاءه الأعمى﴾ الأعمى هو عبدالله بن عمرو ابن أم مكتوم رضي الله عنه، فإنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل الهجرة وهو في مكة، وكان عنده قوم من عظماء قريش يطمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في إسلامهم، ـ ومن المعلوم أن العظماء والأشراف إذا أسلموا كان ذلك سبباً لإسلام من تحتهم وكان طمع النبي ﷺ فيهم شديداً ـ فجاء هذا الأعمى يسأل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وذكروا أنه كان يقول: علمني مما علمك الله ويستقرىء النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فكان النبي عليه الصلاة والسلام يعرض عنه وعبس في وجهه رجاءً وطمعاً في

إسلام هؤلاء العظماء[1] وكأنه خاف أن هؤلاء العظماء يزدرون النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا وجه وجهه لهذا الرجل الأعمى وأعرض عن هؤلاء العظماء، فكان النبي عليه الصلاة والسلام في عبوسه وتوليه يلاحظ هذين الأمرين. الأمر الأول: الرجاء في إسلام هؤلاء العظماء. والأمر الثاني: ألا يزدروا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في كونه يلتفت إلى هذا الرجل الأعمى الذي هو محتقر عندهم، ولا شك أن هذا اجتهاد من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وليس احتقاراً لابن أم مكتوم؛ لأننا نعلم أن النبي ﷺ لا يهمه إلا أن تنتشر دعوته الحق بين عباد الله، وأن الناس عنده سواء بل من كان أشد إقبالاً على الإسلام فهو أحب إليه. ﴿وما يدريك﴾ أي: أي شيء يريبك أن يتزكى هذا الرجل ويقوي إيمانه. ﴿لعله﴾ أي لعل ابن أم مكتوم ﴿يزكى﴾ أي يتطهر من الذنوب والأخلاق التي لا تليق بأمثاله، فإذا كان هذا هو المرجو منه فإنه أحق أن يلتفت إليه. ﴿أو يذكر فتنفعه الذكرى﴾ يعني وما يدريك لعله يذكر أي يتعظ فتنفعه الموعظة فإنه رضي الله عنه أرجى من هؤلاء أن يتعظ ويتذكر. ﴿أما من استغنى﴾ يعني استغنى بماله لكثرته، واستغنى بجاهه لقوته فهذا ﴿فأنت له تصدى﴾ أي تتعرض وتطلب إقباله عليك وتقبل عليه. ﴿وما عليك ألا يزكى﴾ يعني ليس عليك شيء إذا لم يتزكى هذا المستغني؛ لأنه ليس عليك إلا البلاغ، فبيّن الله سبحانه وتعالى أن ابن أم مكتوم رضي الله عنه أقرب إلى التزكي من هؤلاء العظماء، وأن هؤلاء إذا لم يتزكوا مع إقبال الرسول عليه الصلاة والسلام عليهم فإنه ليس عليه منهم شيء. ﴿وما عليك ألا يزكى﴾ يعني ليس عليك شيء إذا لم يتزكى لأن إثمه عليه وليس عليك

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب (سورة عبس) (٣٣٣١).

إلا البلاغ. ثم قال تعالى: ﴿وأما من جاءك يسعى. وهو يخشى. فأنت عنه تلهى﴾ هذا مقابل قوله: ﴿أما من استغنى. فأنت له تصدى﴾. ﴿وأما من جاءك يسعى﴾ أي يستعجل من أجل انتهاز الفرصة إلى حضور مجلس النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ﴿وهو يخشى﴾ أي يخاف الله عز وجل بقلبه. ﴿فأنت عنه تلهى﴾ أي تتلهى عنه وتتغافل لأنه انشغل برؤساء القوم لعلهم يهتدون. ﴿كلا﴾ يعني لا تفعل مثل هذا ولهذا نقول: إن ﴿كلا﴾ هنا حرف ردع وزجر أي لا تفعل مثل ما فعلت. ﴿إنها تذكرة﴾ ﴿إنها﴾ أي الآيات القرآنية التي أنزلها الله على رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. ﴿تذكرة﴾ تذكر الإنسان بما ينفعه وتحثه عليه، وتذكر له ما يضره وتحذره منه ويتعظ بها القلب. ﴿فمن شاء ذكره﴾ أي فمن شاء ذكر ما نزل من الموعظة فاتعظ، ومن شاء لم يتعظ لقول الله تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [الكهف: ٢٩]. فالله جعل للإنسان الخيار قدراً بين أن يؤمن ويكفر، أما شرعاً فإنه لا يرضى لعباده الكفر، وليس الإنسان مخير شرعاً بين الكفر والإيمان بل هو مأمور بالإيمان ومفروض عليه الإيمان، لكن من حيث القدر هو مخير وليس كما يزعم بعض الناس مسير مجبر على عمله، بل هذا قول مبتدع ابتدعه الجبرية من الجهمية وغيرهم[1]. ﴿فمن شاء ذكره﴾ أي ذكر ما نزل من الوحي فاتعظ به، ومن شاء لم يذكره، والموفق من وفقه الله عز وجل. ﴿في صحف مكرمة. مرفوعة مطهرة﴾ أي أن هذا الذكر الذي تضمنته هذه الآيات ﴿في صحف مكرمة. مرفوعة مطهرة﴾ معظمة عند الله، والصحف جمع صحائف، والصحائف جمع صحيفة وهي ما يكتب فيه القول. ﴿بأيدي

(١) انظر تفصيل ذلك في مجموع فتاوى ورسائل فضيلة شيخنا رحمه الله ٢/٩٠ فتوى رقم (١٩٥).

سفرة﴾ السفرة الملائكة، وسموا سفرة لأنهم كتبة مأخوذة من السَّفَر أو من السَّفْرِ وهو الكتاب كقوله تعالى: ﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ [الجمعة: ٥]. وقيل: السفرة الوسطاء بين الله وبين خلقه، من السفير وهو الواسطة بين الناس، ومنه حديث أبي رافع رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تزوج ميمونة قبل أن يحرم قال: «وكنت السفير بينهما»[1] أي الواسطة. المهم أن السفرة هم الملائكة وسموا سفرة لأنهم كتبة يكتبون، وسموا سفرة لأنهم سفراء بين الله وبين الخلق، فجبريل عليه الصلاة والسلام واسطة بين الله وبين الخلق في النزول بالوحي، والكتبة الذين يكتبون ما يعمل الإنسان أيضاً يكتبونه ويبلغونه إلى الله عز وجل، والله تعالى عالم به حين كتابته وقبل كتابته. ﴿كرام بررة﴾ كرام في أخلاقهم.. كرام في خلقتهم لأنهم على أحسن خلقة، وعلى أحسن خُلق، ولهذا وصف الله الملائكة بأنهم كرام كاتبين يعلمون ما تفعلون، وأنهم عليهم الصلاة والسلام لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يستحسرون. يسبحون الليل والنهار لا يفترون. وهذه الآيات فيها تأديب من الله عز وجل للخلق ألا يكون همهم همًّا شخصيًّا بل يكون همهم همًّا معنويًّا وألا يفضلوا في الدعوة إلى الله شريفاً لشرفه، ولا عظيماً لعظمته، ولا قريباً لقربه، بل يكون الناس عندهم سواء في الدعوة إلى الله الفقير والغني، الكبير والصغير، القريب والبعيد، وفيها أيضاً تلطف الله عز وجل بمخاطبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال في أولها: ﴿عبس وتولى. أن جاءه الأعمى﴾ ثلاث جمل لم يخاطب الله فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنها عتاب فلو وجهت إلى الرسول بالخطاب لكان فيه ما فيه لكن جاءت بالغيبة ﴿عبس﴾ فجعل الحكم

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب النكاح، باب تحريم نكاح المحرم (١٤١١) (٤٨).

للغائب كراهية أن يخاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الكلمات الغليظة الشديدة، ولأجل ألا يقع بمثل ذلك من يقع من هذه الأمة، والله سبحانه وتعالى وصف كتابه العزيز بأنه بلسان عربي مبين، وهذا من بيانه، وفي الآيات أيضاً دليل على جواز لقب الإنسان بوصفه مثل الأعمى والأعرج والأعمش، وقد كان العلماء يفعلون هذا، الأعرج عن أبي هريرة، الأعمش عن ابن مسعود. . . وهكذا، قال أهل العلم واللقب بالعيب إذا كان المقصود به تعيين الشخص فلا بأس به، وأما إذا كان المقصود به تعيير الشخص فإنه حرام؛ لأن الأول ـ إذا كان المقصود به تبيين الشخص ـ تدعو الحاجة إليه، والثانية ـ إذا كان المقصود به التعيير ـ فإنه لا يقصد به التبيين وإنما يقصد به الشماتة وقد جاء في الأثر «**لا تظهر الشماتة في أخيك فيرحمه الله ويبتليك**»(١) .

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

﴿قتل الإنسان﴾ ﴿قتل﴾ تأتي في القرآن كثيراً فمن العلماء من يقول: إن معناها لعن، والذي يظهر أن معناها أُهلك؛ لأن القتل يكون به الهلاك وهو أسلوب تستعمله العرب في تقبيح ما كان عليه صاحبه

---

(١) أخرجه الترمذي، باب صفة القيامة، باب لا تظهر الشماتة لأخيك (٢٥٠٦) وقال: حديث حسن غريب.

فيقولون مثلاً: قتل فلان ما أسوأ خلقه، قتل فلان ما أخبثه وما أشبه ذلك. وقوله تعالى: ﴿**قتل الإنسان**﴾ قال بعض العلماء: المراد بالإنسان هنا الكافر خاصة، وليس كل إنسان لقوله فيما بعد ﴿**ما أكفره**﴾ ويحتمل أن يكون المراد بالإنسان الجنس، لأن أكثر بني آدم كفار كما ثبت في الحديث الصحيح: أن الله يقول يقوم القيامة: «**يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول له الله عز وجل: أخرج من ذريتك بعثاً إلى النار. فيقول: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين**»[1]، فيكون المراد بالإنسان هنا الجنس ويخرج المؤمن من ذلك بما دلت عليه النصوص الأخرى. ﴿**ما أكفره**﴾ قال بعض العلماء إن ﴿**ما**﴾ هنا استفهامية أي: أي شيء أكفره؟ ما الذي حمله على الكفر؟ وقال بعض العلماء: إن هذا من باب التعجب يعني ما أعظم كفره! وإنما كان كفر الإنسان عظيماً لأن الله أعطاه عقلاً، وأرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب وأمده بكل ما يحتاج إلى التصديق، ومع ذلك كفر فيكون كفره عظيماً. والفرق بين القولين أنه على القول الأول تكون ﴿**ما**﴾ استفهامية أي: ما الذي أكفره؟ وعلى القول الثاني تكون تعجبية يعني عجباً له كيف كفر مع أن كل شيء متوفر لديه في بيان الحق والهدى!! والكفر هنا يشمل كل أنواع الكفر، ومنه إنكار البعث فإن كثيراً من الكفار كذبوا بالبعث، وقالوا: لا يمكن أن يُبعث الناس بعد أن كانت عظامهم رميماً كما قال تعالى: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾ [يس: ٧٨]. ولهذا قال: ﴿**من أي شيء خلقه**﴾ استفهام تقرير لما يأتي بعده في قوله: ﴿**من نطفة خلقه**﴾ يعني أنت أيها الإنسان كيف تكفر بالبعث؟ من أي شيء خلقت؟ ألم تخلق من

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ (٦٥٣٠).

العدم لم تكن شيئاً مذكوراً من قبل فوجدت وصرت إنساناً فكيف تكفر بالبعث؟ ولهذا قال: ﴿من نطفة خلقه﴾ والنطفة هي في الأصل الماء القليل، والمراد به هنا ماء الرجل الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب يلقيه في رحم المرأة فتحمل ﴿فقدره﴾ أي جعله مقدراً أطواراً: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، كما في الحديث الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق فقال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»[1] . فالإنسان مقدر في بطن أمه من الذي يقدره هذا التقدير؟ من الذي يوصل إليه ما ينمو به من الدم الذي يتصل به بواسطة السرة من دم أمه؟ إلا الله عز وجل، ولهذا قال: ﴿ثم السبيل يسره﴾ السبيل هنا بمعنى الطريق يعني يسر له الطريق ليخرج من بطن أمه إلى عالم المشاهدة، ويسر له أيضاً بعد ذلك ما ذكره تعالى في قوله: ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد: ١٠]. يسر له ثديي أمه يتغذى بهما، ويسر له بعد ذلك ما فتح له من خزائن الرزق، ويسر له فوق هذا كله وما هو أهم وهو طريق الهدى والفلاح وذلك بما أرسل إليه من

---

(١) مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٣) (١).

الرسالات، وأنزل عليه من الكتب، ثم بعد هذا ﴿أماته﴾ الموت مفارقة الروح للبدن. ﴿فأقبره﴾ أي جعله في قبر، أي مدفوناً ستراً عليه وإكراماً واحتراماً؛ لأن البشر لو كانوا إذا ماتوا كسائر الميتات جثثاً ترمى في الزبال لكان في ذلك إهانة عظيمة للميت ولأهل الميت، ولكن من نعمة الله سبحانه وتعالى أن شرع لعباده هذا الدفن، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فأقبره﴾ قال: أكرمه بدفنه. ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ أي إذا شاء الله عز وجل ﴿أنشره﴾ أي بعثه يوم النشور ليجازيه على عمله. وقوله: ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ يعني أنه لا يعجزه عز وجل أن ينشره لكن لم يأتِ أمر الله بعد ولهذا قال: ﴿كلا لما يقضي ما أمره﴾ ﴿لما﴾ هنا بمعنى (لم) لكنها تفارقها في بعض الأشياء، والمعنى أن الله تعالى لم يقضِ ما أمره، أي ما أمر به كوناً وقدراً، أي أن الأمر لم يتم لنشر أو لانشار هذا الميت بل له موعد منتظر، وفي هذا رد على المكذبين بالبعث الذين يقولون لو كان البعث حقًّا لوجدنا آباءنا الآن، وهذا القول منهم تحدي مكذوب؛ لأن الرسل لم تقل لهم إنكم تبعثون الآن، ولكنهم قالوا لهم إنكم تبعثون جميعاً بعد أن تموتوا جميعاً. ثم قال عز وجل مذكراً للإنسان بما أنعم الله عليه ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾. أي فلينظر إلى طعامه من أين جاء؟ ومن جاء به؟ وهل أحدٌ خلقه؟ وينبغي للإنسان أن يتذكر عند هذه الآية قول الله تبارك وتعالى: ﴿أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون. إنا لمغرمون بل نحن محرومون﴾ [الواقعة: ٦٥، ٦٧]. من الذي زرع هذا الزرع حتى استوى ويسر الحصول عليه حتى كان طعاماً لنا؟ هو الله عز وجل، ولهذا قال ﴿لو نشاء لجعلناه حطاماً﴾ أي بعد أن نخرجه نحطمه حتى لا تنتفعوا به. ﴿أنا

صببنا الماء صبًّا﴾ يعني من السحاب ﴿ثم شققنا الأرض شقًّا﴾ بعد نزول المطر عليها تتشقق بالنبات. ﴿فأنبتنا فيها﴾ أي في الأرض ﴿حبًّا﴾ كالبر والرز والذرة والشعير وغير ذلك من الحبوب الكثيرة ﴿وعنباً﴾ معروف ﴿وقضباً﴾ قيل: إنه القت المعروف ﴿وزيتوناً﴾ معروف ﴿ونخلاً﴾ معروف ﴿وحدائق غلباً﴾ حدائق جمع حديقة، والغلب كثير الأشجار ﴿وفاكهة﴾ يعني ما يتفكه به الإنسان من أنواع الفواكه ﴿وأبًّا﴾ الأب نبات معروف عند العرب ترعاه الإبل ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ يعني أننا فعلنا ذلك متعة لكم، يقوم بها أودكم، وتتمتعون بها أيضاً بالتفكه بهذه النعم.

ثم لما ذكر الله عز وجل الإنسان بحاله منذ خلق من نطفة حتى بقي في الدنيا وعاش، ذكر حاله الآخرة في قوله:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فإذا جاءت الصاخة﴾ يعني الصيحة العظيمة التي تصخ الآذان، وهذا هو يوم القيامة ﴿يوم يفر المرء من أخيه﴾ من أخيه شقيقه أو لأبيه أو لأمه ﴿وأمه وأبيه﴾ الأم والأب المباشر، والأجداد أيضاً، والجدات يفر من هؤلاء كلهم ﴿وصاحبته﴾ زوجته ﴿وبنيه﴾ وهم أقرب الناس إليه وأحب الناس إليه. ويفر من هؤلاء كلهم. قال أهل

العلم: يفر منهم لئلا يطالبوه بما فرط به في حقهم من أدب وغيره، لأن كل واحد في ذلك اليوم لا يحب أبداً أن يكون له أحد يطالبه بشيء ﴿**لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه**﴾ كل إنسان مشتغل بنفسه لا ينظر إلى غيره، ولهذا لما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إنكم تحشرون يوم القيامة حفاة، عراة، غرلاً**» قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض»؟ قال النبي ﷺ: «**الأمر أعظم من أن ينظر بعضهم إلى بعض**»[1]، ثم قسّم الله الناس في ذلك اليوم إلى قسمين فقال: ﴿**وجوه يومئذ مسفرة**﴾ مسفرة من الإسفار وهو الوضوح لأنها وجوه المؤمنين تُسفر عما في قلوبهم من السرور والانشراح ﴿**ضاحكة**﴾ يعني متبسمة، وهذا من كمال سرورهم ﴿**مستبشرة**﴾ أي قد بشرت بالخير لأنها تتلقاهم الملائكة بالبشرى يقولون ﴿سلام عليكم﴾ ﴿**ووجوه يومئذ**﴾ يعني يوم القيامة ﴿**عليها غبرة**﴾ أي شيء كالغبار؛ لأنها ذميمة قبيحة ﴿**ترهقها قترة**﴾ أي ظلمة ﴿**أولئك هم الكفرة الفجرة**﴾ الذين جمعوا بين الكفر والفجور، نسأل الله العافية، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن وجوههم مسفرة ضاحكة مستبشرة إنه جواد كريم.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب الحشر (٦٥٢٧). ومسلم، كتاب صفة الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٩) (٥٦).

تفسير سورة التكوير

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

البسملة: تقدم الكلام عليها.

﴿إذا الشمس كورت﴾ هذا يكون يوم القيامة، والتكوير: جمع الشيء بعضه إلى بعض ولفّه كما تكوّر العمامة على الرأس، والشمس كتلة عظيمة كبيرة واسعة في يوم القيامة يكورها الله عز وجل فيلفها جميعاً ويطوي بعضها على بعض فيذهب نورها[1]، ويلقيها في النار عز وجل إغاظة للذين يعبدونها من دون الله، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ أي تحصبون في جهنم ﴿أنتم لها واردون﴾ [الأنبياء: ٩٨]. ويستثني من ذلك من عُبد من دون الله من أولياء الله فإنه لا يلقى في النار كما قال الله تعالى بعد هذه الآية ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون. لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون﴾ [الأنبياء: ١٠١، ١٠٢].

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر.

﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ انكدرت يعني تساقطت كما تفسره الآية الثانية. ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾ [الانفطار: ٢]. فالنجوم يوم القيامة تتناثر وتزول عن أماكنها ﴿وإذا الجبال سُيرت﴾ هذه الجبال العظيمة الصلبة العالية الرفيعة تكون هباءً يوم القيامة وتسيّر كما قال الله تعالى: ﴿وسيّرت الجبال فكانت سراباً﴾ [النبأ: ٢٠]. ﴿وإذا العشار عُطلت﴾ العشار جمع عشراء، وهي الناقة الحامل التي تم لحملها عشرة أشهر وهي من أنفس الأموال عند العرب، وتجد صاحبها يرقبها ويلاحظها، ويعتني بها ويأوي إليها ويحف بها في الدنيا، لكن في الآخرة تعطل ولا يلتفت إليها؛ لأن الإنسان في شأن عظيم مزعج ينسيه كل شيء كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧]. ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ الوحوش جمع وحش، والمراد بها جميع الدواب، لقول الله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أُمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾ [الأنعام: ٣٨]. تحشر الدواب يوم القيامة ويشاهدها الناس ويُقتص لبعضها من بعض، حتى إنه يقتص للبهيمة الجلحاء التي ليس لها قرن من البهيمة القرناء[1]، فإذا اقتص من بعض هذه الوحوش لبعض أمرها الله تعالى فكانت تراباً، وإنما يفعل ذلك سبحانه وتعالى لإظهار عدله بين خلقه ﴿وإذا البحار سُجّرت﴾ البحار جمع بحر وجمعت لعظمتها وكثرتها، فإنها تمثل ثلاثة أرباع الأرض تقريباً أو أكثر. هذه البحار العظيمة إذا كان يوم القيامة فإنها تُسجر، أي توقد ناراً، تشتعل ناراً عظيمة وحينئذ تيبس الأرض ولا يبق فيها ماء؛ لأن بحارها المياه العظيمة تسجّر حتى تكون

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٢٥٨٢).

ناراً ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ النفوس جمع نفس، والمراد بها الإنسان كله، فتزوّج النفوس يعني يُضم كل صنف إلى صنفه؛ لأن الزوج يراد به الصنف كما قال الله تعالى: ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة﴾ [الواقعة: ٧]. أي أصنافاً ثلاثة وقال تعالى: ﴿وآخر من شكله أزواج﴾ [ص: ٥٨]. أي أصناف، وقال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ [الصافات: ٢٢]. أي أصنافهم وأشكالهم فيوم القيامة يضم كل شكل إلى مثله، أهل الخير إلى أهل الخير، وأهل الشر إلى أهل الشر، وهذه الأمة يضم بعضها إلى بعض ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ لوحدها ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾ [الجاثية ٢٨]. إذاً ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ يعني شكّلت وضُم بعضها إلى بعض كل صنف إلى صنفه، كل أمة إلى أمتها ﴿وإذا المؤودة سُئلت بأي ذنب قُتلت﴾ الموؤدة هي الأنثى تدفن حية، وذلك أنه في الجاهلية لجهلهم وسوء ظنهم بالله، وعدم تحملهم يعيّر بعضهم بعضاً إذا أتته الأنثى، فإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، ممتلىء همًّا وغمًّا ﴿يتوارى من القوم﴾ يعني يختفي منهم ﴿من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب﴾ [النحل ٥٩]. يعني إذا قيل لأحدهم نبشرك أن الله جاء لك بأنثى ـ ببنت ـ اغتم واهتم، وامتلأ من الغم والهم، وصار يفكر هل يبقي هذه الأنثى على هون وذل؟ أو يدسها في التراب ويستريح منها؟ فكان بعضهم هكذا، وبعضهم هكذا. فمنهم من يدفن البنت وهي حية، إما قبل أن تميز أو بعد أن تميز، حتى إن بعضهم كان يحفر الحفرة لبنته فإذا أصاب لحيته شيء من التراب نفضته عن لحيته وهو يحفر لها ليدفنها ولا يكون في قلبه لها رحمة، وهذا يدلك على أن الجاهلية أمرها سفال، فإن الوحوش تحنو على أولادها وهي وحوش، وهؤلاء لا يحنون على أولادهم، يقول

عز وجل: ﴿**وإذا المؤودة سئلت**﴾ تسأل يوم القيامة ﴿**بأي ذنب قتلت**﴾ هل أذنبت؟ **فإذا قال قائل**: كيف تُسأل وهي المظلومة... هي المدفونة، ثم هي قد تدفن وهي لا تميز، ولم يجر عليها قلم التكليف، فكيف تسأل؟ **قيل**: إنها تُسأل توبيخاً للذي وأدها، لأنها تُسأل أمامه فيقال: بأي ذنب قُتِلْتِ أو قُتِلَتْ؟ نظير ذلك لو أن شخصاً اعتدى على آخر في الدنيا فأتوا إلى السلطان إلى الأمير فقال للمظلوم: بأي ذنب ضربك هذا الرجل؟ وهو يعرف أنه معتداً عليه ليس له ذنب. لكن من أجل التوبيخ للظالم، فالموؤدة تُسأل بأي ذنب قتلت توبيخاً لظالمها وقاتلها ودافنها نسأل الله العافية. ﴿**وإذا الصحف نشرت**﴾ الصحف جمع صحيفة، وهي ما يكتب فيها الأعمال. واعلم أيها الإنسان أن كل عمل تعمله من قول أو فعل فإنه يكتب ويسجل بصحائف على يد أمناء كرام كاتبين يعلمون ما تفعلون، يسجل كل شيء تعمله فإذا كان يوم القيامة فإن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾ يعني عمله في عنقه ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ مفتوحاً ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ [الإسراء ١٤]، كلامنا الآن ونحن نتكلم يكتب، كلام بعضكم مع بعض يكتب، كل كلام يكتب ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ [ق: ١٨]. ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[١]، وقال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**»[٢]، لأن كل شيء سيكتب عليه، ومن كثُر كلمُه كثُر

---

(١) أخرجه الترمذي، الزهد، باب من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه (٢٣١٧) وقال حديث غريب.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٦٠١٨). ومسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير (٤٧) (٧٤).

سقطه، يعني الذي يُكثر الكلام يكثر منه السقط والزلات، فاحفظ لسانك فإن الصحف سوف يكتب فيها كل ما تقول وسوف تنشر لك يوم القيامة. ﴿**وإذا السماء كشطت**﴾ السماء فوقنا الآن سقف محفوظ قوي شديد. قال تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد﴾ [الذاريات: ٤٧]. أي بقوة. وقال تعالى: ﴿وبنينا فوقكم سبعاً شداداً﴾ [النبأ: ١٢]. أي قوية. في يوم القيامة تكشط يعني تُزال عن مكانها كما يكشط الجلد عند سلخ البعير عن اللحم يكشطها الله عز وجل ثم يطويها جل وعلا بيمينه كما قال تعالى: ﴿والسموات مطويات بيمينه﴾ [الزمر: ٦٧]. ﴿كطي السجل للكتب﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. يعني كما يطوي السجل الكتب، يعني الكاتب إذا فرغ من كتابته طوى الورقة حفظاً لها عن التمزق وعن المحي، فالسماء تكشط يوم القيامة ويبقى الأمر فضاء إلا أن الله تعالى يقول: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ [الحاقة: ١٧]. يكون بدل السماء التي فوقنا الآن يكون الذي فوقنا هو العرش؛ لأن السماء تطوى بيمين الله عز وجل يطويها بيمينه ويهزها وكذلك يقبض الأرض ويقول: «**أنا الملك، أين ملوك الأرض**»[1]، ﴿**وإذا الجحيم سعرت**﴾ الجحيم هي النار، وسميت بذلك لبعد قعرها وظلمة مرءاها. تُسعر أي توقد. وما وقودها الذي توقد به؟ وقودها الذي وقد به قال الله عنه: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾ [التحريم: ٦]. بدل ما توقد بالحطب والورق يكون الوقود الناس يعني الكفار. والحجارة حجارة من نارٍ عظيمة شديدة الاشتعال شديدة الحرارة، هذا تسعير جهنم ﴿**وإذا الجنة أزلفت**﴾ الجنة دار المتقين

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة (٦٥١٩)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين، باب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٧) (٢٣).

فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿أزلفت﴾ يعني قُرِّبت وزُيِّنت للمؤمنين، وانظر الفرق بين هذا وذاك. دار الكفار تسعّر، توقد، ودار المؤمنين تزيّن وتقرّب ﴿وإذا الجنة أزلفت﴾ كل هذا يكون يوم القيامة، إذا قرأنا هذه الآيات: ﴿إذا الشمس كورت. وإذا النجوم انكدرت. وإذا الجبال سيرت. وإذا العشار عطلت. وإذا الوحوش حشرت. وإذا البحار سجرت. وإذا النفوس زوجت. وإذا الموؤدة سئلت. بأي ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت. وإذا الشماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت﴾ هذه اثنتا عشرة جملة إلى الآن لم يأت بالجواب. لأن كلها في ضمن الشرط ﴿إذا الشمس كورت﴾ فالجواب لم يأت بعد ماذا يكون إذا كانت هذه الأشياء؟ قال الله تعالى: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ أي ما قدمته من خير وشر ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء﴾ [آل عمران: ٣٠]. يعني يكون محضراً أيضاً ﴿تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه﴾ [آل عمران: ٣٠]. فتعلم في ذلك اليوم كل نفس ما أحضرت من خير أو شر، في الدنيا نعلم ما نعمل من خير وشر لكن سرعان ما ننسى. نسينا الشيء الكثير لا من الطاعات ولا من المعاصي، ولكن هذا لن يذهب سدى كما نسيناه؟ بل والله هو باق، فإذا كان يوم القيامة أحضرته أنت بإقرارك على نفسك بأنك عملته، ولهذا قال تعالى: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ فينبغي بل يجب على الإنسان أن يتأمل في هذه الآيات العظيمة وأن يتعظ بما فيها من المواعظ، وأن يؤمن بها كأنه يراها رأي عين؛ لأن ما أخبر الله به وعلمنا مدلوله فإنه أشد يقيناً عندنا مما شاهدناه بأعيننا أو سمعناه بأذاننا؛ لأن خبر الله لا يكذب، صدق، لكن ما نراه أو نسمعه كثيراً ما يقع فيه الوهم. قد ترى

الشيء البعيد شبحاً تعيّنه في تصورك وهو خلاف الواقع، وقد تسمع الصوت فتظنه شيئاً معيناً في ذهنك وهو خلاف الواقع، فالوهم يرد على الحواس، لكن خبر الله عز وجل إذا علم مدلوله لا يمكن أبداً أن يرد عليه شيء من الوهم؛ لأنه خبر صدق، فهذه الأمور التي ذكر الله في هذه الآيات أمور حقيقية يجب أن تؤمن بها كأنك تراها رأي عين، ثم بعد الإيمان بها يجب أن تعمل بمقتضى ما تدل عليه من الاتعاظ والانزجار، والقيام بالواجب، وترك المنهيات حتى تكون من أهل القرآن الذين يتلونه حق تلاوته.

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿فلا أقسم بالخنس﴾ قوله تعالى: ﴿فلا أقسم﴾ قد يظن بعض الناس أن ﴿لا﴾ نافية وليس كذلك، بل هي مثبتة للقسم ويؤتى بها بمثل هذا التركيب للتأكيد. فالمعنى ﴿أقسم بالخنس﴾ والخنس جمع خانسة، وهي النجوم التي تخنس، أي ترجع فبينما تراها في أعلى الأفق إذا بها راجعة إلى آخر الأفق، وذلك والله أعلم لارتفاعها وبُعدها فيكون ما تحتها من النجوم أسرع منها في الجري بحسب رؤية العين،

﴿الجوار﴾ أصلها (الجواري) بالياء لكن حذفت الياء للتخفيف و﴿الكنس﴾ هي التي تكنس أي تدخل في مغيبها. فأقسم الله بهذه النجوم ثم أقسم بالليل والنهار فقال: ﴿والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس﴾ معنى قوله: ﴿عسعس﴾ يعني أقبل، وقيل: معناه أدبر، وذلك أن الكلمة ﴿عسعس﴾ في اللغة العربية تصلح لهذا وهذا. لكن الذي يظهر أن معناها «أقبل» ليوافق أو ليطابق ما بعده من القسم. وهو قوله: ﴿والصبح إذا تنفس﴾ فيكون الله أقسم بالليل حال إقباله، وبالنهار حال إقباله. وإنما أقسم الله تعالى بهذه المخلوقات لعظمها وكونها من آياته الكبرى، فمن يستطيع أن يأتي بالنهار إذا كان الليل، ومن يستطيع أن يأتي بالليل إذا كان النهار، قال الله عز وجل: ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة مَن إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون. قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة مَن إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾. [القصص: ٧١]. ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ [القصص: ٧٣]. فهذه المخلوقات العظيمة يقسم الله بها لعظم المقسم عليه وهو قوله: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ ﴿إنه﴾ أي القرآن ﴿لقول رسول كريم﴾ هو جبريل عليه الصلاة والسلام، فإنه رسول الله إلى الرسل بالوحي الذي ينزله عليهم. ووصفه الله بالكرم لحسن منظره كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ذو مرة فاستوى﴾ [النجم: ٦]. ﴿ذو مرة﴾ قال العلماء: المرة: الخلق الحسن والهيئة الجميلة، فكان جبريل عليه الصلاة والسلام موصوفاً بهذا الوصف: ﴿كريم﴾ ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾ ﴿ذي قوة﴾ وصفه الله تعالى بالقوة العظيمة، فإن الرسول ﷺ رآه على

صورته التي خلقه الله عليها له ست مئة جناح قد سدّ الأفق كله[1] من عظمته عليه الصلاة والسلام، وقوله: ﴿**عند ذي العرش**﴾ أي عند صاحب العرش وهو الله جل وعلا، والعرش فوق كل شيء، وفوق العرش رب العالمين عز وجل. قال الله تعالى: ﴿رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ [غافر: ١٥]. فذو العرش هو الله. وقوله: ﴿**مكين**﴾ أي ذو مكانة، أي أن جبريل عند الله ذو مكانة وشرف، ولهذا خصه الله بأكبر النعم التي أنزلها الله على عباده، وهو الوحي فإن النعم لو نظرنا إليها لوجدنا أنها قسمان: نِعَم يستوي فيها البهائم والإنسان، وهي متعة البدن الأكل والشرب، والنكاح والسكن، هذه النعم يستوي فيها الإنسان والحيوان، فالإنسان يتمتع بما يأكل، وبما يشرب، وبما ينكح، وبما يسكن، والبهائم كذلك. ونِعمٌ أخرى يختص بها الإنسان، وهي الشرائع التي أنزلها الله على الرسل لتستقيم حياة الخلق، لأنه لا يمكن أن تستقيم حياة الخلق أو تطيب حياة الخلق إلا بالشرائع ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل: ٩٧]. المؤمن العامل بالصالحات هو الذي له الحياة الطيبة في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة. والله لو فتشت الملوك وأبناء الملوك، والوزراء وأبناء الوزراء، والأمراء وأبناء الأمراء، والأغنياء وأبناء الأغنياء، لو فتشتهم وفتشت من آمن وعمل صالحاً لوجدت الثاني أطيب عيشة، وأنعم بالاً، وأشرح صدراً، لأن الله عز وجل الذي بيده مقاليد السموات والأرض تكفل. قال: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ تجد المؤمن العامل للصالحات

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم (٣٢٣٢) (٣٢٣٥).

مسرور القلب، منشرح الصدر، راضياً بقضاء الله وقدره، إن أصابه خير شكر الله على ذلك، وإن أصابه ضده صبر على ذلك واعتذر إلى الله مما صنع، وعلم أنه إنما أصابه بذنوبه فرجع إلى الله عز وجل، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**عجباً للمؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له**»[1]، وصدق النبي عليه الصلاة والسلام، إذن أكبر نعمة أنزلها الله على الخلق هي نعمة الدين الذي به قوام حياة الإنسان في الدنيا والآخرة، والحياة الحقيقية هي حياة الآخرة، والدليل قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿يقول يا ليتني قدمت لحياتي﴾ [الفجر: ٢٤]. فالدنيا ليست بشيء. الحياة حقيقة حياة الآخرة، والذي يعمل للآخرة يحيا حياة طيبة في الدنيا، فالمؤمن العامل للصالحات هو الذي كسب الحياتين: حياة الدنيا، وحياة الآخرة. والكافر هو الذي خسر الدنيا والآخرة ﴿قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين﴾ [الزمر: ١٥]. ﴿**مطاع ثمَّ**﴾ أي هناك ﴿**أمين**﴾ على ما كُلف به. جبريل هو المطاع فمن الذي يطيعه؟ قال العلماء: تطيعه الملائكة لأنه ينزل بالأمر من الله فيأمر الملائكة فتطيع، فله إمرة وله طاعة على الملائكة. ثم الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين ينزل جبريل عليهم بالوحي لهم إمرة وطاعة على المكلفين ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾. [المائدة: ٩٢].

في هذه الآيات ﴿**إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين**﴾ أقسم الله عز وجل على أن هذا القرآن قول هذا الرسول الكريم

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩) (٦٤).

الملكي جبريل عليه الصلاة والسلام، وفي آية أخرى بين الله سبحانه وتعالى وأقسم أن هذا القرآن قول رسول كريم بشري في قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون. إنه لقول رسول كريم. وما هو بقول شاعر﴾ [الحاقة: ٣٨ـ٤١]. فالرسول هنا في سورة التكوير رسول ملكي أي من الملائكة وهو جبريل عليه الصلاة والسلام، والرسول هناك رسول بشري وهو محمد عليه الصلاة والسلام، والدليل على هذا واضح. هنا قال: ﴿**إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين**﴾ وهذا الوصف لجبريل، لأنه هو الذي عند الله، أما محمد عليه الصلاة والسلام فهو في الأرض. هناك قال: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر﴾ ردًّا لقول الكفار الذين قالوا إن محمداً شاعر ﴿ولا بقول كاهن﴾ فأيهما أعظم قسماً ﴿**فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس إنه لقول رسول كريم ذي قوة**﴾ أو ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم﴾، الثاني أعظم، ليس فيه شيء أعمّ منه ﴿بما تبصرون وما لا تبصرون﴾ كل الأشياء إما نبصرها أو لا نبصرها. إذن أقسم الله بكل شيء. وهنا أقسم بالآيات العلوية ﴿**فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس. والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس**﴾ هذه آيات علوية أفقية تناسب الرسول الذي أُقسم على أنه قوله وهو جبريل؛ لأن جبريل عند الله.

فإذا قال قائل: كيف يصف الله القرآن بأنه قول الرسول البشري، والرسول الملكي؟

فنقول: نعم الرسول الملكي بلّغه إلى الرسول البشري، والرسول البشري بلغه إلى الأمة، فصار قول هذا بالنيابة، قول جبريل بالنيابة

وقول محمد بالنيابة، والقائل الأول هو الله عز وجل، فالقرآن قول الله حقيقة، وقول جبريل باعتبار أنه بلغه لمحمد، وقول محمد باعتبار أنه بلغه إلى الأمة.

﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ أي محمد رسول الله ﷺ وتأمل أنه قال: ﴿وما صاحبكم﴾ كأنه قال: ما صاحبكم الذي تعرفونه وأنتم وإياه دائماً، بقي فيهم أربعين سنة في مكة قبل النبوة يعرفونه، ويعرفون صدقه وأمانته، حتى كانوا يطلقون عليه اسم الأمين ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ يعني ليس مجنوناً، بل هو أعقل العقلاء عليه الصلاة والسلام، أكمل الناس عقلاً بلا شك وأسدّهم رأياً. ﴿ولقد رآه﴾ أي رأى جبريل ﴿بالأفق المبين﴾ أي البين الظاهر العالي، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام رأى جبريل على صورته التي خُلق عليها مرتين: مرة في غار حراء[1]، ومرة في السماء السابعة لما عُرج به عليه الصلاة والسلام[2]، وهذه الرؤية هي التي في غار حراء، لأنه يقول ﴿رآه بالأفق﴾ إذن محمد في الأرض ﴿وما هو﴾ يعني ما محمد ﷺ ﴿على الغيب﴾ يعني على الوحي الذي جاءه من عند الله ﴿بضنين﴾ بالضاد أي ببخيل، فهو عليه الصلاة والسلام ليس بمتهم في الوحي ولا باخل به، بل هو أشد الناس بذلاً لما أوحي إليه، يعلم الناس في كل مناسبة، وهو أبعد الناس عن التهمة لكمال صدقه عليه الصلاة والسلام، وفي قراءة ﴿بظنين﴾ بالظاء المشالة، أي: بمتهم، من الظن وهو التهمة. ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ أي ليس بقول أحد من الشياطين، وهم الكهنة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٤). ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، (١٦٠) (٢٥٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء (٣٤٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (١٦٢) (٢٥٩).

الذين توحي إليهم الشياطين الوحي ويكذبون معه ويخبرون الناس فيظنونهم صادقين. ﴿فأين تذهبون. إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ ﴿إن﴾ هنا بمعنى (ما) وهذه قاعدة: «أنه إذا جاءت (إلا) بعد (إن) فهي بمعنى (ما)» أي أنها تكون نافية لأن «إن» تأتي نافية، وتأتي شرطية، وتأتي مخففة من الثقيلة، والذي يبين هذه المعاني هو السياق فإذا جاءت (إن وبعدها إلا) فهي نافية، أي ما هو أي القرآن الذي جاء به محمد ﷺ ونزل به جبريل على قلبه ﴿إلا ذكر للعالمين﴾، ذكر يشمل التذكير والتذكّر، فهو تذكير للعالمين، وتذكر لهم، أي أنهم يتذكرون به ويتعظون به (والمراد بالعالمين) من بُعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما قال الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال تعالى: ﴿تبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ [الفرقان: ١]. فالمراد بالعالمين هنا من أرسل إليهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ ﴿لمن شاء﴾ هذه الجملة بدل مما قبلها لكنها بإعادة العامل وهي (إلا) أي: «إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم» وأما من لا يشاء الاستقامة فإنه لا يتذكر بهذا القرآن ولا ينتفع به كما قال تعالى: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [ق: ٣٧]. فالإنسان الذي لا يريد الاستقامة لا يمكن أن ينتفع بهذا القرآن، ولكن إذا قال قائل: هل مشيئة الإنسان باختياره؟

نقول: نعم مشيئة الإنسان باختياره. فالله عز وجل جعل للإنسان اختياراً وإرادة، إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل؛ لأنه لو لم يكن كذلك لم تقم الحجة على الخلق الذين أرسلت إليه الرسل بإرسال الرسل، فما نفعله هو باختيارنا وإرادتنا، ولولا ذلك ما كان لإرسال

الرسل حجة علينا إذ أننا نستطيع أن نقول نحن لا نقدر على الاختيار، فالإنسان لا شك فاعل باختياره، وكل إنسان يعرف أنه إذا أراد أن يذهب إلى مكة فهو باختياره، وإذا أراد أن يذهب إلى المدينة فهو باختياره، وإذا أراد أن يذهب إلى بيت المقدس فهو باختياره وإذا أراد أن يذهب إلى الرياض فهو باختياره، أو إلى أي شيء أراده فهو باختياره لا يرى أن أحداً أجبره عليه، ولا يشعر أن أحداً أجبره على ذلك، كذلك أيضاً من أراد أن يقوم بطاعة الله فهو باختياره ومن أراد أن يعصي الله فهو باختياره، فللإنسان مشيئة ولكن نعلم علم اليقين أنه ما شاء شيئاً إلا وقد شاءه الله من قبل، ولهذا قال: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ ما نشاء شيئاً إلا بعد أن يكون الله قد شاءه، فإذا شئنا الشيء علمنا أن الله قد شاءه، ولولا أن الله شاءه ما شئناه. كما قال تعالى: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ [البقرة: ٢٥٣]. فنحن إذا عملنا الشيء نعمله بمشيئتنا واختيارنا، ولكن نعلم أن هذه المشيئة والاختيار كانت بعد مشيئة الله عز وجل، ولو شاء الله ما فعلنا.

فإن قال قائل: إذن لنا حجة في المعصية لأننا ما شئناها إلا بعد أن شاءها الله.

فالجواب: أنه لا حجة لنا لأننا لم نعلم أن الله شاءها إلا بعد أن فعلناها، وفعلنا إياها باختيارنا، ولهذا لا يمكن أن نقول إن الله شاء كذا إلا بعد أن يقع، فإذا وقع فبأي شيء وقع؟ وقع بإرادتنا ومشيئتنا، لهذا لا يتجه أن يكون للعاصي حجة على الله عز وجل وقد أبطل الله هذه الحجة في قوله: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا

بأسنا﴾. [الأنعام: ١٤٨]. فلولا أنه لا حجة لهم ما ذاقوا بأس الله، لسَلِموا من بأس الله، ولكنه لا حجة لهم فلهذا ذاقوا بأس الله، وكلنا نعلم أن الإنسان لو ذُكر له أن بلداً آمناً مطمئناً، يأتيه رزقه رغداً من كل مكان، فيه من المتاجر والمكاسب ما لا يوجد في البلاد الأخرى، وأن بلداً آخر بلدٌ خائف غير مستقر، مضطرب في الاقتصاد، مضطرب في الخوف والأمن، فإلى أيهما يذهب؟ بالتأكيد سيذهب إلى الأول ولا شك، ولا يرى أن أحداً أجبره أن يذهب إلى الأول، يرى أنه ذهب إلى الأول بمحض إرادته، وهكذا الآن طريق الخير وطريق الشر، فالله بيّن لنا: هذه طريق جهنم وهذه طريق الجنة، وبيّن لنا ما في الجنة من النعيم، وما في النار من العذاب. فأيهما نسلك؟ بالقياس الواضح الجلي أننا سنسلك طريق الجنة لا شك، كما أننا في المثال الذي قبل نسلك طريق البلد الآمن الذي يأتيه رزقه رغداً من كل مكان. لو أننا سلكنا طريق النار فإنه سيكون علينا العتب والتوبيخ واللوم، ويُنادى علينا بالسفه، كما لو سلكنا في المثال الأول طريق البلد المخوف المتزعزع الذي ليس فيه استقرار، فإن كل أحد يلومنا ويوبخنا، إذاً ففي قوله: ﴿لمن شاء أن يستقيم﴾ تقرير لكون الإنسان يفعل الشيء بمشيئته واختياره، ولكن بعد أن يفعل الشيء ويشاء الشيء نعلم أن الله قد شاءه من قبل ولو شاء الله ما فعله، وكثيراً ما يعزم الإنسان على شيء يتجه بعد العزيمة على هذا الشيء وفي لحظة ما يجد نفسه منصرفاً عنه، أو يجد نفسه مصروفاً عنه؛ لأن الله لم يشأه، كثيراً ما نريد أن نذهب مثلاً إلى المسجد لنستمع إلى محاضرة، وإذا بنا ننصرف بسبب أو بغير سبب، أحياناً بسبب بحيث نتذكر أن لنا شغلاً فنرجع، وأحياناً نرجع بدون سبب لا ندري إلا وقد صرف الله تعالى همتنا عن ذلك فرجعنا. ولهذا

قيل لأعرابي بم عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم وصرف الهمم. (بنقض العزائم) يعني الإنسان يعزم على الشيء عزماً مؤكداً وإذا به ينتقض!! من نقض عزيمته، لا يشعر، ما يشعر أن هناك مرجحاً أوجب أن يعدل عن العزيمة الأولى بل بمحض إرادة الله (صرف الهمم) يهم الإنسان بالشيء ويتجه إليه تماماً وإذا به يجد نفسه منصرفاً عنه سواء كان الصارف مانعاً حسيًّا أو كان الصارف مجرد اختيار.. اختار الإنسان أن ينصرف، كل هذا من الله عز وجل[1] . فالحاصل أن الله يقول: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ والاستقامة هي الاعتدال، ولا عدل أقوم من عدل الله عز وجل في شريعته، في الشرائع السابقة كانت الشرائع تناسب حال الأمم زماناً ومكاناً وحالاً، وبعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام، كانت شريعته تناسب الأمة التي بُعث النبي ﷺ إليها من أول بعثته إلى نهاية الدنيا. ولهذا كان من العبارات المعروفة «أن الدين الإسلامي صالح لكل زمان ومكان وحال». لو تمسك الناس به لأصلح الله الخلق. انظر مثلاً الإنسان يصلي أولاً قائماً، فإن عجز فقاعداً، فإن عجز فعلى جنب، إذن الشريعة تتطور بحسب حال الشخص؛ لأن الدين صالح لكل زمان ومكان. يجب على المحدث أن يتطهر بالماء، فإن تعذر استعمال الماء لعجز أو عدم. عدل إلى التيمم، فإن لم يوجد ولا تراب، أو كان عاجزاً عن استعمال التراب فإنه يصلي بلا شيء، لا بطهارة ماء ولا بطهارة تيمم، كل هذا لأن شريعة الله عز وجل كلها مبنية على العدل، ليس فيها جور، ليس فيها ظلم، ليس فيها حرج، ليس فيها مشقة، ولهذا قال: ﴿أن يستقيم﴾ وضد

---

(١) انظر فتاوى القضاء والقدر من كتاب مجموع فتاوى ورسائل فضيلة شيخنا ـ رحمه الله ـ ج ٢/ ٧٧ ـ ١٢٠.

الاستقامة انحرافان: انحراف إلى جانب الإفراط والغلو، وانحراف إلى جانب التفريط والتقصير، ولهذا كان الناس في دين الله عز وجل ثلاثة أشكال: طرفان ووسط، طرف غالٍ مبالغ متنطع متعنت، وطرف آخر مفرّط مقصر مهمل. الثالث: وسط بين الإفراط والتفريط، مستقيم على دين الله هذا هو الذي يُحمَد. أما الأول الغالي، والثاني الجافي فكلاهما هالك.. هالك بحسب ما عنده من الغلو، أو من التقصير، وقد نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن الغلو والإفراط والتعنت والتنطع حتى إنه قال: «**هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون**»[1]، لأن التنطع فيه إشقاق على النفس وفيه خروج عن دين الله عز وجل، كما أنه ذمّ المفرطين المهملين وقال في وصف المنافقين: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾ [النساء: ١٤٢]. فدين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، ولهذا قال هنا: ﴿**لمن شاء منكم أن يستقيم**﴾ لا يميل يميناً ولا شمالاً، يكون سيره سير استقامة على دين الله عز وجل والاستقامة كما تكون في معاملة الخالق عز وجل وهي العبادة تكون أيضاً في معاملة المخلوق، فكن مع الناس بين طرفين، بين طرفي الشدة والغلظة والعبوس، وطرف التراخي والتهاون وبذل النفس وانحطاط الرتبة، كن حازماً من وجه، ولين من وجه، ولهذا قال الفقهاء ـ رحمهم الله ـ في القاضي: «ينبغي أن يكون ليناً من غير ضعف، قويًّا من غير عنف». فلا يكون لينه يشطح به إلى الضعف، ولا قوته إلى العنف، يكون بين ذلك، ليناً من غير ضعف، قويًّا من غير عنف حتى تستقيم الأمور، فبعض الناس مثلاً يعامل الناس دائماً بالعبوس والشدة وإشعار نفسه بأنه فوق الناس وأن الناس تحته، وهذا خطأ،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون (٢٦٧٠) (٧).

ومن الناس من يحط قدر نفسه ويتواضع إلى حد التهاون وعدم المبالاة بحيث يبقى بين الناس ولا حرمة له، وهذا أيضاً خطأ، فالواجب أن يكون الإنسان بين هذا وبين هذا كما هو هدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه عليه الصلاة والسلام يشتدّ في موضع الشدة، ويلين في موضع اللين. فيجمع الإنسان هنا بين الحزم والعزم، واللين والعطف والرحمة ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ يعني لا يمكن أن تشاؤا شيئاً إلا وقد شاءه الله من قبل، فمشيئة الإنسان ما كانت إلا بعد مشيئة الله عز جل، لو شاء الله لم يشأ، ولو شاء الله أن لا يكون الشيء ما كان ولو شئته. حتى لو شئت والله تعالى لم يشأ فإنه لن يكون، بل يقيض الله تعالى أسباباً تحول بينك وبينه حتى لا يقع، وهذه مسألة يجب على الإنسان أن ينتبه لها، أن يعلم أن فعله بمشيئته مشيئة تامة بلا إكراه، لكن هذه المشيئة مقترنة بمشيئة الله. يعلم أنه ما شاء الشيء إلا بعد أن شاء الله، وأن الله لو شاء ألا يكون لم يشأه الإنسان، أو شاءه الإنسان ولكن يحول الله بينه وبينه بأسباب وموانع، ﴿رب العالمين﴾ قال: ﴿رب العالمين﴾ إشارة إلى عموم ربوبية الله، وأن ربوبية الله تعالى عامة ولكن يجب أن نعلم أن العالمين هنا ليست كالعالمين في قوله ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ فالعالمين الأولى ﴿ذكر للعالمين﴾ من أُرسل إليهم الرسول، أما هنا ﴿رب العالمين﴾ فالمراد بالعالمين كل من سوى الله، فكل من سوى الله فهو عالم؛ لأنه ما ثمّ إلا رب ومربوب، فإذا قيل رب العالمين تعيّن أن يكون المراد بالعالمين كل من سوى الله، كما قال الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ: «وكل ما سوى الله فهو عالم، وأنا واحد من ذلك العالم»[1].

---

(١) انظر ثلاثة الأصول لشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ بشرح شيخنا ـ رحمه الله ـ ص ٤٦.

والحاصل أن هذه السورة سورة عظيمة، فيها تذكرة وموعظة ينبغي للمؤمن أن يقرأها بتدبر وتمهل، وأن يتعظ بما فيها، كما أن الواجب عليه في جميع سور القرآن وآياته أن يكون كذلك حتى يكون ممن اتعظ بكتاب الله وانتفع به، نسأل الله تعالى أن يعظنا وإياكم بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وآياته الكونية إنه على كل شيء قدير.

* * *

تفسير سورة الانفطار

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾.

البسملة سبق الكلام عليها.

﴿إذا السماء انفطرت﴾ يعني انشقت كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إذا السماء انشقت. وأذنت لربها وحقت﴾ [الانشقاق: ١، ٢]. ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾ يعني النجوم صغيرها وكبيرها تنتثر وتتفرق وتتساقط لأن العالم انتهى، ﴿وإذا البحار فجِّرت﴾ أي فُجر بعضها على بعض وملئت الأرض ﴿وإذا القبور بعثرت﴾ أي أخرج ما فيها من الأموات حتى قاموا لله عز وجل، فهذه الأمور الأربعة إذا حصلت ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ ﴿نفس﴾ هنا نكرة لكنها بمعنى العموم إذ أن المعنى: علمت كل نفس ما قدمت وأخرت، وذلك بما يُعرض عليها من الكتاب، فكل إنسان ألزمه الله طائره في عنقه ويخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً. وفي ذلك اليوم يقول المجرمون: مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فيعلم الإنسان ما قدم وأخر، بينما هو

في الدنيا قد نسي، لكن يوم القيامة يعرض العمل فتعلم كل نفس ما قدمت وأخرت، والغرض من هذا التحذير تحذير العبد من أن يعمل مخالفة لله ورسوله؛ لأنه سوف يعلم بذلك ويحاسب عليه، ﴿**يا أيها الإنسان**﴾ المراد بالإنسان هنا قيل: هو الكافر، وقيل: الإنسان من حيث هو إنسان؛ لأن الإنسان من حيث هو إنسان ظلوم جهول، ظلوم كفار ﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾ [إبراهيم: ٣٤]. فيقول الله عز وجل: ﴿**يا أيها الإنسان**﴾ ويخاطب الإنسان من حيث هو إنسان بقطع النظر عن ديانته ﴿**ما غرك بربك الكريم**﴾ يعني أي شيء غرك بالله حيث تكذبه في البعث، تعصيه في الأمر والنهي، بل ربما يوجد من ينكر الله عز وجل فما الذي غرك؟! قال بعض العلماء: إن قوله تعالى: ﴿**ما غرك بربك الكريم**﴾ إشارة إلى الجواب، وهو أن الذي غر الإنسان كرم الله عز وجل وإمهاله وحلمه، لكنه لا يجوز أن يغتر الإنسان بذلك فإن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، إذاً ما غرك بربك الكريم؟ الجواب: كرمه وحلمه هذا هو الذي غر الإنسان وصار يتمادى في المعصية في التكذيب، يتمادى في المخالفة ﴿**الذي خلقك**﴾ خلقك من العدم، وأوجدك من العدم، ﴿**فسواك**﴾ أي جعلك مستوي الخلقة ليست يد أطول من يد، ولا رجل أطول من رجل، ولا أصبع أطول من أصبع، بحسب اليدين والرجلين، فتجد الطويل في يد هو الطويل في اليد الأخرى، والقصير هو القصير، وهلم جرى، سوّى الله عز وجل الإنسان من كل ناحية من ناحية الخلقة ﴿**فعدَلك**﴾ وفي قراءة سبعية ﴿**فعدَّلك**﴾ أي جعلك معتدل القامة، مستوي الخلقة لست كالبهائم التي لم تكن معدّلة بل تسير على يديها ورجليها، أما الإنسان فإنه خصّه الله بهذه الخصيصة ﴿**في أي صورة ما شاء ركبك**﴾ يعني الله ركبك في أي

صورة شاء، من الناس من هو جميل، ومنهم من هو قبيح، ومنهم المتوسط، ومنهم الأبيض، ومنهم الأحمر، ومنهم الأسود، ومنهم ما بين ذلك، أي صورة يركبك الله عز وجل على حسب مشيئته، ولكنه عز وجل شاء للإنسان أن تكون صورته أحسن الصور ثم قال: ﴿**كلا بل تكذبون بالدين**﴾ ﴿**كلا**﴾ للاضراب يعني مع هذا الخلق والإمداد والإعداد تكذبون بالدين أي بالجزاء، وتقولون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين، فتكذبون بالدين أي بالجزاء، وربما نقول: وتكذبون أيضاً بالدين نفسه، فلا تقرّون بالدين الذي جاءت به الرسل والآية شاملة لهذا وهذا؛ لأن القاعدة في علم التفسير وعلم شرح الحديث: «أنه إذا كان النص يحتمل معنيين لا ينافي أحدهما الآخر فإنه يُحمل عليهما». ﴿**وإن عليكم لحافظين. كراماً كاتبين. يعلمون ما تفعلون**﴾ تأكيد بمؤكدين «إن» و«اللام» ﴿**وإن عليكم لحافظين**﴾ الإنسان عليه حافظ يحفظه ويكتب كل ما عمل، قال الله تعالى: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ [ق: ١٨]. فعلى كل إنسان حفظة يكتبون كل ما قال وكل ما فعل، وهؤلاء الحفظة كرام ليسوا لئاماً، بل عندهم من الكرم ما ينافي أن يظلموا أحداً، فيكتبوا عليه ما لم يعمل، أو يهدروا ما عمل؛ لأنهم موصوفون بالكرم ﴿**يعلمون ما تفعلون**﴾ إما بالمشاهدة إن كان فعلاً، وإما بالسماع إن كان قولاً، بل إن عمل القلب يطلعهم الله عليه فيكتبونه كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**من هم بالحسنة فلم يعملها كتبت حسنة، ومن همّ بالسيئة ولم يعملها كتبت حسنة كاملة**»[1]، لأنه تركها لله عز وجل والأول يثاب على مجرد الهم بالحسنة.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٣٢).

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ هذا بيان للنهاية والجزاء ﴿إن الأبرار﴾ جمع بر وهم كثيروا فعل الخير، المتباعدون عن الشر ﴿لفي نعيم﴾ أي نعيم في القلب، ونعيم في البدن ولهذا لا تجد أحداً أطيب قلباً، ولا أنعم بالاً من الأبرار أهل البر، حتى قال بعض السلف: «لو يعلم الملوك، وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف»، وهذا النعيم الحاصل يكون في الدنيا وفي الآخرة، أما في الآخرة فالجنة، وأما في الدنيا فنعيم القلب وطمأنينته ورضاه بقضاء الله وقدره، فإن هذا هو النعيم الحقيقي، ليس النعيم في الدنيا أن تترف بدنيًا، النعيم نعيم القلب ﴿وإن الفجار﴾ الفجار هم الكفار ضد الأبرار ﴿لفي جحيم﴾ أي في نار حامية ﴿يصلونها﴾ يعني يحترقون بها ﴿يوم الدين﴾ أي يوم الجزاء وذلك يوم القيامة ﴿وما هم عنها بغائبين﴾ أي لن يغيبوا عنها فيخرجوا منها كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وما هم بخارجين منها﴾ [المائدة: ٣٧]. لأنهم مخلدون بها أبداً ـ والعياذ بالله ـ ﴿وما أدراك ما يوم الدين. ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾ هذا الاستفهام للتفخيم والتعظيم يعني أي شيء أعلمك بيوم الدين؟ والمعنى أعلم هذا اليوم، وأقدره قدره ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً﴾ في يوم القيامة لا أحد يملك لأحد شيئاً لا بجلب خير ولا بدفع ضرر إلا بإذن الله عز وجل لقوله: ﴿والأمر يومئذ لله﴾ في الدنيا هناك أناس يأمرون من الأمراء، والوزراء، والرؤساء، والآباء، والأمهات، لكن في الآخرة الأمر لله عز

وجل، ولا تملك نفس لنفس شيئاً إلا بإذن الله، ولهذا كان الناس في ذلك اليوم يلحقهم من الغم والكرب ما لا يطيقون، ثم يطلبون الشفاعة من آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم الصلاة والسلام حتى تنتهي إلى نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيشفع بإذن الله فيريح الله العالم من الموقف[1] ، ﴿**والأمر يومئذ لله**﴾.

فإن قال قائل: أليس الأمر لله في ذلك اليوم وفي غيره؟

قلنا: بلى الأمر لله تعالى في يوم الدين وفيما قبله، لكن ظهور أمره في ذلك اليوم أكثر بكثير من ظهور أمره في الدنيا؛ لأن في الدنيا يخالف الإنسان أوامر الله عز وجل ويطيع أمر سيده، فلا يكون الأمر لله بالنسبة لهذا، لكن في الآخرة ليس فيه إلا أمر لله عز وجل. وهذا كقوله تعالى: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ [غافر: ١٦]. والملك لله في الدنيا وفي الآخرة، لكن في ذلك اليوم يظهر ملكوت الله عز وجل وأمره، ويتبين أنه ليس هناك آمر في ذلك اليوم إلا الله عز وجل، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿ذرية من حملنا مع نوح﴾ (٤٧١٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣).

تفسير سورة المطففين

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ .

البسملة تقدم الكلام عليها .

﴿ويل﴾ كلمة ويل تكررت في القرآن كثيراً، وهي على الأصح كلمة وعيد يتوعد الله سبحانه وتعالى بها من خالف أمره، أو ارتكب نهيه على الوجه المفيد في الجملة التي بعدها فهنا يقول عز وجل ﴿ويل للمطففين﴾ فمن هؤلاء المطففون؟ هؤلاء المطففون فسرتهم الآيات التي بعدها فقال: ﴿الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ . ﴿إذا اكتالوا على الناس يستوفون﴾ يعني اشتروا منهم ما يكال استوفوا منهم الحق كاملاً بدون نقص ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم﴾ يعني إذا كالوا لهم أي هم الذين باعوا الطعام كيلاً، فإنهم إذا كالوا للناس أو باعوا عليهم شيئاً وزناً إذا وزنوا نقصوا ﴿يخسرون﴾ فهؤلاء يستوفون حقهم كاملاً، وينقصون حق غيرهم، فجمعوا بين الأمرين، بين الشح والبخل، الشح: في طلب حقهم كاملاً بدون مراعاة أو مسامحة، والبخل: بمنع ما يجب عليهم من إتمام الكيل والوزن، وهذا المثال الذي ذكره الله عز وجل في الكيل والوزن هو مثال، فيقاس عليه كل ما أشبه، كل من طلب حقه كاملاً ممن هو عليه

ومنع الحق الذي عليه فإنه داخل في الآية الكريمة، فمثلاً الزوج يريد من زوجته أن تعطيه حقه كاملاً ولا يتهاون في شيء من حقه، لكنه عند أداء حقها يتهاون ولا يعطيها الذي لها، وما أكثر ما تشكي النساء من هذا الطراز من الأزواج ـ والعياذ بالله ـ حيث إن كثيراً من النساء يريد منها الزوج أن تقوم بحقه كاملاً، لكنه هو لا يعطيها حقها كاملاً، ربما ينقص أكثر حقها من النفقة والعشرة بالمعروف وغير ذلك، إن ظلم الناس أشد من ظلم الإنسان نفسه في حق الله؛ لأن ظلم الإنسان نفسه في حق الله تحت المشيئة إذا كان دون الشرك، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عاقبه عليه، لكن حق الآدميين ليس داخلاً تحت المشيئة لابد أن يوفى، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**من تعدون المفلس فيكم؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم عنده ولا متاع، فقال: «**إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال ـ كثيرة ـ فيأتي وقد ظلم هذا، وشتم هذا، وضرب هذا، وأخذ مال هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار**»[1]، فنصيحتي لهؤلاء الذين يفرطون في حق أزواجهم أن يتقوا الله عز وجل فإن النبي ﷺ أوصى بذلك في أكبر مجمع شهده العالم الإسلامي في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام في يوم عرفة في حجة الوداع، قال: «**اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله**»[2]، فأمرنا أن نتقي الله تعالى في النساء وقال: «**اتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم**»[3] أي بمنزلة الأسرى لأن

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٢٥٨١) (٥٩).
(٢) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨) (١٤٧).
(٣) أخرجه الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة (١١٦٣) وقال: حسن صحيح.

الأسير إن شاء فكه الذي أسره وإن شاء أبقاه، والمرأة عند زوجها كذلك إن شاء طلقها وإن شاء أبقاها، فهي بمنزلة الأسير عنده فليتق الله فيها، كذلك أيضاً نجد بعض الناس يريد من أولاده أن يقوموا بحقه على التمام لكنه مفرط في حقهم، فيريد من أولاده أن يبروه ويقوموا بحقه، أن يبروه في المال، وفي البدن، وفي كل شيء يكون به البر، لكنه هو مضيع لهؤلاء الأولاد، غير قائم بما يجب عليه نحوهم، نقول هذا مطفف، كما نقول في المسألة الأولى في مسألة الزوج مع زوجته إنه إذا أراد منها أن تقوم بحقه كاملاً وهو يبخس حقها نقول إنه «مطفف» هذا الأب الذي أراد من أولاده أن يبروه تمام البر وهو مقصر في حقهم نقول إنك «مطفف» ونقول له تذكر قول الله تعالى: ﴿**ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون**﴾ ثم قال تعالى: ﴿**ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون**﴾ يعني ألا يتيقن هؤلاء ويعلموا علم اليقين؛ لأن الظن هنا بمعنى اليقين، والظن بمعنى اليقين يأتي كثيراً في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ [البقرة: ٤٦]. فقال: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾ وهم يتيقنون أنهم ملاقوا الله، لكن الظن يستعمل بمعنى اليقين كثيراً في اللغة العربية، وهنا يقول عز وجل: ﴿**ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون**﴾ ألا يتيقن هؤلاء أنهم مبعوثون أي مخرجون من قبورهم لله رب العالمين ﴿**ليوم عظيم**﴾ هذا اليوم عظيم ولا شك أنه عظيم كما قال تعالى: ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ [الحج: ١]. عظيم في طوله، في أهواله، فيما يحدث فيه، في كل معنى تحمله كلمة عظيم، لكن هذا العظيم هو على قوم عسير، وعلى قوم يسير، قال تعالى: ﴿على الكافرين غير يسير﴾ [المدثر: ١٠]. وقال تعالى: ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾ [القمر: ٨].

لكنه بالنسبة للمؤمنين ـ جعلنا الله منهم ـ يسير كأنما يؤدي به صلاة فريضة من سهولته عليه ويسره عليه، لاسيما إذا كان ممن استحق هذه الوقاية العظيمة، وكان من الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فهذا اليوم عظيم لكنه بالنسبة للناس يكون يسيراً ويكون عسيراً ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ يعني هذا اليوم العظيم هو ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ يقومون من قبورهم حفاة ليس لهم نعال ولا خفاف، عراة ليس عليهم ثياب لا قُمص ولا سراويل ولا أزر ولا أردية، غرلاً أي غير مختونين بمعنى أن القلفة التي تقطع في الختان تعود يوم القيامة مع صاحبها كما قال الله تعالى: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. ويعيده الله عز وجل لبيان كمال قدرته تعالى، وأنه يعيد الخلق كما بدأهم، والقلفة إنما قطعت في الدنيا من أجل النزاهة عن الأقذار؛ لأنها إن بقيت فإنه ينحبس فيها شيء من البول وتكون عرضة للتلويث، لكن هذا في الآخرة لا حاجة إليه؛ لأن الآخرة ليست دار تكليف بل هي دار جزاء إلا أن الله سبحانه وتعالى قد يكلف فيها امتحاناً كما قال تعالى: ﴿يوم يكشف عن ساق ويُدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون﴾ [القلم: ٤٣]. فالناس يقومون على هذا الوصف حفاة، عراة، غرلاً[١] ، وفي بعض الأحاديث بُهماً[٢] قال العلماء: البهم يعني الذين لا مال معهم، ففي يوم القيامة لا مال يفدي به الإنسان نفسه من العذاب في يوم القيامة، ليس هناك ابن يجزي عن أبيه شيئاً، ولا أب يجزي عن ابنه شيئاً، ولا صاحبة ولا قبيلة كلٌّ يقول

---

(١) تقدم تخريجه ص (٦٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٩٥)، والحاكم (٢/ ٤٣٧) وقال: صحيح الإسناد.

نفسي نفسي. ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ [عبس: ٣٧]. نسأل الله تعالى أن يعيننا على أهواله وأن ييسره علينا.

قال تعالى: ﴿لرب العالمين﴾ وهو الله جل وعلا، وفي هذا اليوم تتلاشى جميع الأملاك إلا ملك رب العالمين جل وعلا، قال الله تعالى: ﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيئاً. لمن الملك اليوم لله الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ [غافر: ١٦ ـ ١٧].

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿كلا إن كتاب الفجار لفي سجين﴾ ﴿كلا﴾ إذا وردت في القرآن لها معانٍ حسب السياق، قد تكون حرف ردع وزجر، وقد تكون بمعنى حقًّا، وقد يكون لها معانٍ أخرى يعينها السياق؛ لأن الكلمات في اللغة العربية ليس لها معنى ذاتي لا تتجاوزه، بل كثير من الكلمات العربية لها معانٍ تختلف بحسب سياق الكلام، في هذه الآية يقول الله عز وجل: ﴿كلا إن كتاب الفجار لفي سجين﴾ فتحتمل أن تكون بمعنى حقًّا إن كتاب الفجار لفي سجين، أو تكون بمعنى: الردع عن التكذيب بيوم الدين، وعلى كل حال فبين الله تعالى في هذه الآية

الكريمة أن كتاب الفجار في سجين، والسجين قال العلماء: إنه مأخوذ من السجن وهو الضيق، أي في مكان ضيق، وهذا المكان الضيق هو نار جهنم ـ والعياذ بالله ـ كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً. لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ [الفرقان ١٣، ١٤]. وجاء في حديث البراء بن عازب الطويل المشهور في قصة المحتضر وما يكون بعد الموت أن الله سبحانه وتعالى يقول: «اكتبوا كتاب عبدي في السجين يعني ـ الكافر ـ في الأرض السابعة السفلى»[1] فسجين هو أسفل ما يكون من الأرض الذي هو مقر النار نعوذ بالله منها فهذا الكتاب في سجين ثم عظم الله عز وجل هذا السجين بقوله: ﴿وما أدراك ما سجين﴾ فالاستفهام هنا للتعظيم أي ما الذي أعلمك بسجين؟ وهل بحثت عنه؟ وهل سألت عنه حتى يبين لك، والتعظيم قد يكون لعظمة الشيء رفعة، وقد يكون لعظمة الشيء نزولاً، وهذا التعظيم في سجين ليس لرفعته وعلوه ولكنه لسفوله ونزوله، ثم قال تعالى: ﴿كتاب مرقوم﴾ كتاب هذه لا تعود على سجين وإنما تعود على كتاب في قوله: ﴿كلا إن كتاب الفجار﴾ فما هذا الكتاب فقال: ﴿كتاب مرقوم﴾ يعني مكتوب لا يزاد فيه ولا ينقص ولا يبدل ولا يغيّر، بل هذا مآلهم ومقرهم ـ والعياذ بالله ـ أبد الآبدين ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ ويل سبق الكلام عليها في أول هذه السورة ﴿الذين يكذبون بيوم الدين﴾ الكلام من أول السورة إلى آخرها كله في يوم الدين والجزاء، هؤلاء الذين يكذبون بيوم الدين توعدهم الله بالويل؛ لأن هؤلاء المكذبين بيوم الدين لا يمكن أن يستقيموا على شريعة الله. لا يستقيم على شريعة الله إلا من آمن بيوم الدين؛ لأن من لم

---

(١) تقدم تخريجه ص (٤٠).

يؤمن به وإنما آمن بالحياة فقط، فهو لا يهتم بما ورائها، ولا يعمل لذلك، وإنما يبقى كالأنعام يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم. والله يقرن الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر دائماً؛ لأن الإيمان بالله ابتداء والإيمان باليوم الآخر انتهاء. فتؤمن بالله ثم تعمل لليوم الآخر الذي هو المقر، فهؤلاء ـ والعياذ بالله ـ كذبوا بيوم الدين، ومن كذب به لا يمكن أن يعمل له أبداً؛ لأن العمل مبني على عقيدة، فإذا لم يكن هناك عقيدة فكيف يعمل، ولهذا قال: ﴿وما يكذب به إلا كل معتدٍ أثيم﴾ أي ما يكذب بيوم الدين وينكره ﴿إلا كل معتد أثيم﴾: ﴿معتد﴾ في أفعاله ﴿أثيم﴾ في أقواله، وقيل: ﴿معتد﴾ في أفعاله ﴿أثيم﴾ في كسبه أي أن مآله إلى الإثم، والمعنيان متقاربان فلا يمكن أن يكذب بيوم الدين إلا رجل معتد أثيم، آثم كاسب للآثام التي تؤدي به إلى نار جهنم نعوذ بالله ﴿إذا تتلى عليه آياتنا﴾ يعني إذا تلاها عليه أحد، وهو يدل على أن هذا الرجل لا يفكر أن يتلو آيات الله ولكنها تتلى عليه فإذا تليت عليه ﴿قال أساطير الأولين﴾ أي هذه أساطير الأولين وأساطير: جمع أسطورة وهي الكلام الذي يذكر للتسلي ولا حقيقة له ولا أصل له، فيقول: هذا القرآن أساطير الأولين، ولم ينتفع بالقرآن وهو أبلغ الكلام وأشده تأثيراً على القلب حتى قال الله تعالى: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [ق: ٣٧]. لأنه يكذب بيوم الدين، وما يكذب به إلا كل معتدٍ أثيم، فلم يكن مؤمناً فلم يصل نور آيات الله عز وجل إلى قلبه، بل يراها مثل أساطير الأولين التي يتكلم بها العجائز وليس لها أي حقيقة وليس فيها أي جد. قال الله عز وجل ﴿كلا بل﴾ أي ليست أساطير الأولين ولكن هؤلاء ﴿ران على قلوبهم﴾ أي اجتمع عليها وحجبها عن الحق ﴿ما كانوا يكسبون﴾ أي

من الأعمال السيئات؛ لأن الأعمال السيئات تحول بين المرء وبين الهدى كما قال الله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ [محمد: ١٧]. فمن اهتدى بهدي الله واتبع ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، وصدق بما أخبر الله به، وفعل مثل ذلك فيما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فلا شك أن قلبه يستنير وأنه يرى الحق حقًّا، ويرى الباطل باطلاً، ويعظم آيات الله عز وجل، ويرى أنها فوق كل كلام، وأن هدي محمد ﷺ فوق كل هدي، هذا من أنار الله قلبه بالإيمان، أما من تلطخ قلبه بأرجاس المعاصي وأنجاسها فإنه لا يرى هذه الآيات حقًّا بل لا يراها إلا أساطير الأولين كما في هذه الآية.

﴿**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾ وفي ﴿**بل**﴾ سكتة لطيفة عند بعض القراء وعند آخرين لا سكتة فيجوز على هذا أن تقول ﴿**كلا بل. ران**﴾ ويجوز أن تقول: ﴿**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾ وهذه لا تغير المعنى سواء سكتّ أم لم تسكت فالمعنى لا يتغير. ﴿**كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون**﴾ أي حقًّا إنهم عن ربهم لمحجوبون، وذلك في يوم القيامة فإنهم يحجبون عن رؤية الله عز وجل كما حُجبوا عن رؤية شريعته وآياته فرأوا أنها أساطير الأولين. وبهذه الآية استدل أهل السنة والجماعة على ثبوت رؤية الله عز وجل، ووجه الدلالة ظاهر فإنه ما حجب هؤلاء في حال السخط إلا وقد مكن للأبرار من رؤيته تعالى في حال الرضا، فإذا كان هؤلاء محجوبون فإن الأبرار غير محجوبين، ولو كان الحجب لكل منهم لم يكن لتخصيصه بالفجار فائدة إطلاقاً. ورؤية الله عز وجل ثابتة بالكتاب، ومتواتر السنة، وإجماع الصحابة والأئمة، لا إشكال في هذا أنه تعالى يُرى حقًّا بالعين كما قال تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ [يونس: ٢٦]. وقد فسر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله تعالى[١] ، وكما في قوله تعالى: ﴿لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد﴾ [ق: ٣٥]. والمزيد هنا هو بمعنى الزيادة في قوله ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ وكما قال تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣]. فإن نفي الإدراك يدل على ثبوت أصل الرؤية، ولهذا كانت هذه الآية مما استدل به السلف على رؤية الله، واستدل به الخلف على عدم رؤية الله، ولا شك أن الآية دليل عليهم، لأن الله لم ينف بها الرؤية وإنما نفى الإدراك، ونفي الإدارك يدل على ثبوت أصل الرؤية. فالحاصل أن القرآن دل على ثبوت رؤية الله عز وجل حقًّا بالعين، وكذلك جاءت السنة الصحيحة بذلك حيث قال النبي عليه الصلاة والسلام «**إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون الشمس صحواً ليس دونها سحاب**»[٢] ، وقال عليه الصلاة والسلام: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته**»[٣] ، وقد آمن بذلك الصحابة رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان من سلف هذه الأمة وأئمتها، وأنكر ذلك من حُجبت عقولهم وقلوبهم عن الحق فقالوا: إن الله لا يمكن أن يُرى بالعين، وإنما المراد بالرؤية في الآيات هي رؤية القلب أي اليقين، ولا شك أن هذا قول باطل مخالف للقرآن والسنة

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨٠) (٢٩٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة﴾ (٧٤٣٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، (١٨٠) (٢٩٦).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة﴾ (٧٤٣٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨٠) (٢٩٦).

وإجماع السلف، ثم إن اليقين ثابت لغيرهم أيضاً حتى الفجار يوم القيامة سوف يرون ما وُعدوا به حقًّا ويقينًا، وليس هذا موضع الإطالة في إثبات رؤية الله عز وجل والمناقشة في أدلة الفريقين؛ لأن الأمر ولله الحمد من الوضوح أوضح من أن يطال الكلام فيه[1]، ﴿ثم إنهم لصالوا الجحيم﴾ أي هؤلاء الفجار ﴿لصالوا الجحيم﴾ أي يصلونها يصلون حرارتها أو عذابها نسأل الله العافية، ثم يقال تقريعاً لهم وتوبيخاً ﴿هذا الذي كنتم به تكذبون﴾ فيجتمع عليهم العذاب البدني والألم البدني بصلي النار وكذلك العذاب القلبي بالتوبيخ والتنديم حيث يقال: ﴿هذا الذي كنتم به تكذبون﴾ ولهذا يقولون يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾. [الأنعام: ٢٨].

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين﴾ هذه الآية يذكر الله عز وجل خبراً مؤكدا «بإن» لأن ﴿إن﴾ في اللغة العربية من أدوات التوكيد. فإنك إذا قلت: الرجل قائم، هذا خبر غير مؤكد، فإذا قلت: إن الرجل قائم. صار خبراً مؤكداً فيقول الله عز وجل: ﴿إن كتاب الأبرار

(١) انظر مجموع فتاوى ورسائل فضيلة شيخنا رحمه الله ٨/٤٦٩.

لفي عليين﴾ وهذا مقابل ﴿إن كتاب الفجار لفي سجين﴾ فكتاب الفجار في سجين في أسفل الأرض، وكتاب الأبرار في عليين في أعلى الجنة، أي أنهم في هذا المكان العالي قد كُتب ذلك عند الله عز وجل قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ﴿وما أدراك ما عليون﴾ أي ما الذي أعلمك ما عليون؟ وهذا الاستفهام يراد به التفخيم والتعظيم. يعني أي شيء أدراك به فإنه عظيم قال الله تعالى: ﴿كتاب مرقوم﴾ هذا بيان لقوله: ﴿إن كتاب الأبرار﴾ أي أن كتاب الأبرار كتاب مرقوم مكتوب لا يتغير ولا يتبدل ﴿يشهده المقربون﴾ يشهده أي يحضره، أو يشهد به المقربون، و﴿المقربون﴾ عند الله هم الذين تقربوا إلى الله سبحانه وتعالى بطاعته. وكلما كان الإنسان أكثر طاعة لله كان أقرب إلى الله. وكلما كان الإنسان أشد تواضعاً لله كان أعز عند الله، وكان أرفع عند الله، قال الله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ [المجادلة: ١١]. فالمقربون هم الذين تقربوا إلى الله تعالى بصالح الأعمال، فقربهم الله من عنده ﴿إن الأبرار﴾ الأبرار: جمع بر، والبر كثير الخير، كثير الطاعة، كثير الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى عباد الله، فهؤلاء الأبرار الذين منّ الله عليهم بفعل الخيرات، وترك المنكرات ﴿لفي نعيم﴾ والنعيم هنا يشمل نعيم البدن ونعيم القلب، أما نعيم البدن فلا تسأل عنه فإن الله سبحانه وتعالى قال في الجنة: ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾ [الزخرف: ٧١]. وقال تعالى: ﴿فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون﴾ [السجدة: ١٧]. وأما نعيم القلب فلا تسأل عنه أيضاً فإنهم يقال لهم وقد شاهدوا الموت قد ذبح يقال لهم: يا أهل الجنة خلود ولا

موت[١] ويقال لهم: ادخلوها بسلام، ويقال لهم: إن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، وأن تصحوا فلا تمرضوا أبداً، وأن تشبوا فلا تهرموا أبداً[٢]، وكل هذا مما يدخل السرور على القلب فيحصل لهم بذلك نعيم القلب ونعيم البدن، والملائكة يدخون عليهم من كل باب يقولون لهم ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ [الرعد: ٢٤]. جعلنا الله منهم، وقوله تعالى: ﴿على الأرائك﴾ الأرائك جمع أريكة وهي السرير المزخرف المزيّن الذي وَضع عليه مثل الظل، وهو من أفخر أنواع الأسرة فهم على الأرائك على هذه الأسرة الناعمة الحسنة البهية ﴿ينظرون﴾ يعني ينظرون ما أنعم الله به عليهم من النعيم الذي لا تدركه الأنفس الآن ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ [السجدة: ١٧]. وقال بعض العلماء: إن هذا النظر يشمل حتى النظر إلى وجه الله، وجعلوا هذه الآية من الأدلة على ثبوت رؤية الله عز وجل في الجنة ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ أي تعرف أيها الناظر إليهم ﴿في وجوههم نضرة النعيم﴾ أي حسن النعيم وبهاءه، أي التنعم، وأنتم تشاهدون الآن في الدنيا أن المنعمين المترفين وجوههم غير وجوه الكادحين العاملين. تجدها نضرة، تجدها حسنة، تجدها منعمة، فأهل الجنة تعرف في وجوههم نضرة النعيم أي التنعم والسرور؛ لأنهم أسرّ ما يكون، وأنعم ما يكون، ثم قال الله تعالى في بيان ما لهم من النعيم ﴿يسقون من رحيق مختوم﴾ الضمير في قوله: ﴿يسقون﴾ يعني الأبرار، يسقيهم الله عز وجل بأيدي الخدم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين. لا يصدعون

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٦٥٤٨)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٩) (٤٠).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة (٨٣٧) (٢٢).

عنها ولا ينزفون﴾ [الواقعة: ١٧، ١٩]. ﴿يسقون من رحيق﴾ أي من شراب خالص لا شوب فيه ولا ضرر فيه على العقل، ولا ألم فيه في الرأس، بخلاف شراب الدنيا فإنه يغتال العقل ويصدع الرأس. أما هذا فإنه رحيق خالص ليس فيه أي أذى ﴿مختوم. ختامه مسك﴾ أي بقيته وآخره مسك أي طيّب الريح. بخلاف خمر الدنيا فإنه خبيث الرائحة. فهؤلاء القوم الأبرار لما حبسوا أنفسهم عن الملاذ التي حرمها الله عليهم في الدنيا أعطوها يوم القيامة. ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ أي وفي هذا الثواب والجزاء ﴿فليتنافس المتنافسون﴾ أي فليتسابق المتسابقون سباقاً يصل بهم إلى حد النفس، وهو كناية عن السرعة في المسابقة. يقال: نافسته أي سابقته سباقاً بلغ بي النفس، والمنافسة في الخير هي المسابقة إلى طاعة الله عز وجل وإلى ما يرضي الله سبحانه وتعالى، والبعد عما يسخط الله ثم قال عز وجل: ﴿ومزاجه من تسنيم. عيناً يشرب بها المقربون﴾ أي مزاج هذا الشراب الذي يُسقاه هؤلاء الأبرار ﴿من تسنيم﴾: أي من عين رفيعة معنى وحسًّا، وذلك لأن أنهار الجنة تفجّر من الفردوس، والفردوس هو أعلى الجنة، وأوسط الجنة، وفوقه عرش الرب عز وجل كما ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1]، فهذا الشراب يمزج بهذا الطيب الذي يأتي من التسنيم أي: من المكان المسنَّم الرفيع العالي، وهو جنة عدن ﴿عيناً يشرب بها المقربون﴾ أي أن هذه العين والمياه النابعة، والأنهار الجارية يشرب بها المقربون.

وهنا سيقول قائل: لماذا قال: ﴿يشرب بها﴾؟ هل هي إناء يُحمل حتى يقال شرب بالإناء؟

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب «وكان عرشه على الماء» (٧٤٢٣).

فالجواب: لا. لأن العين والنهر لا يُحمل. إذن لماذا لم يقل يشرب منها المقربون؟ والجواب عن هذا الإشكال من أحد وجهين: **فمن العلماء** من قال: (الباء) بمعنى (من) فمعنى ﴿يشرب بها﴾ أي يشرب منها. **ومنهم من قال**: إن يشرب بمعنى يروى ضمّنت معنى يروى فمعنى ﴿يشرب بها﴾ أي يروى بها المقربون. وهذا المعنى أو هذا الوجه أحسن من الوجه الذي قبله؛ لأن هذا الوجه يتضمن شيئين يرجحانه وهما: أولاً: إبقاء حرف الجر على معناه الأصلي. والثاني: أن الفعل ﴿يشرب﴾ ضمَّن معنى أعلى من الشرب وهو الري، فكم من إنسان يشرب ولا يروى، لكن إذا روي فقد شرب، وعلى هذا فالوجه الثاني أحسن وهو أن يضمّن الفعل ﴿يشرب﴾ بمعنى يروى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿إن الذين أجرموا﴾ أي قاموا بالجرم وهو المعصية والمخالفة ﴿كانوا﴾ أي في الدنيا ﴿من الذين آمنوا يضحكون﴾ استهزاءاً وسخرية واستصغاراً لهم، ﴿وإذا مروا﴾ الفاعل يصح أن يكون إذا مر المؤمنون بالمجرمين، أو إذا مر المجرمون بالمؤمنين، والقاعدة التي ينبغي أن تفهم في التفسير: أن الآية إذا احتملت معنيين لا ينافي أحدهما الآخر وجب

حملها على المعنيين؛ لأن ذلك أعم، فإذا جعلناها للأمرين صار المعنى: أن المجرمين إذا مروا بالمؤمنين وهم جلوس تغامزوا، وإذا مر المؤمنون بالمجرمين وهم جلوس تغامزوا أيضاً فتكون شاملة للحالين: حال مرور المجرمين بالمؤمنين، وحال مرور المؤمنين بالمجرمين. ﴿يتغامزون﴾ يعني يغمز بعضهم بعضاً، انظر إلى هؤلاء سخرة واستهزاء واستصغاراً. ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين﴾ إذا انقلب المجرمون إلى أهلهم ﴿انقلبوا فكهين﴾ يعني متفكهين بما نالوه من السخرية بهؤلاء المؤمنين، فهم يستهزؤن ويسخرون ويتفكهون بهذا، ظنًّا منهم أنهم نجحوا وأنهم غلبوا المؤمنين، ولكن الأمر بالعكس. ثم قال تعالى: ﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾ ﴿إذا رأوهم﴾ أي رأى المجرمون المؤمنين ﴿قالوا إن هؤلاء لضالون﴾، ضالون عن الصواب، متأخرون، متزمتون متشددون إلى غير ذلك من الألقاب، ولقد كان لهؤلاء السلف خلف في زماننا اليوم وما قبله وما بعده، من الناس من يقول عن أهل الخير: إنهم رجعيون، إنهم متخلفون ويقولون عن المستقيم: إنه متشدد متزمت، وفوق هذا كله من قالوا للرسل عليهم الصلاة والسلام إنهم سحرة أو مجانين، قال الله تعالى: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾. [الذاريات: ٥٢]. فورثة الرسل من أهل العلم والدين سينالهم من أعداء الرسل ما نال الرسل من ألقاب السوء والسخرية وما أشبه ذلك، ومن هذا تلقيب أهل البدع أهل التعطيل للسلف أهل الإثبات بأنهم حشوية مجسمة مشبهة وما أشبه ذلك من ألقاب السوء التي ينفرون بها الناس عن الطريق السوي ﴿وما أرسلوا عليهم حافظين﴾ أي أن هؤلاء المجرمين ما بعثوا حافظين لهؤلاء يرقبونهم ويحكمون عليهم، بل

الحكم لله عز وجل ثم قال تعالى: ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ اليوم يعني يوم القيامة، الذين آمنوا يضحكون من الكفار فـ﴿فالذين﴾ مبتدأ و﴿يضحكون﴾ خبره و﴿من الكفار﴾ متعلق بيضحكون، والمعنى: فالذين آمنوا يضحكون اليوم من الكفار، وهذا والله هو الضحك الذي لا بكاء بعده، أما ضحك المجرمين بالمؤمنين في الدنيا فسيعقبه البكاء والحزن والويل والثبور ﴿على الأرائك ينظرون﴾ أي أن المؤمنين على الأرائك في الجنة، والأرائك هي السرر الفخمة الحسنة النضيرة ﴿ينظرون﴾ أي ينظرون ما أعد الله لهم من الثواب، وينظرون أولئك الذين يسخرون بهم في الدنيا، ينظرون إليهم وهم في عذاب الله كما قال الله تعالى: ﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أئنك لمن المصدقين أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمدينون. قال هل أنتم مطلعون﴾ [الصافات: ٥١ ـ ٥٤]. يقول لأصحابه في الجنة يعرض عليهم أن يطلعوا إلى قرينه الذي كان في الدنيا ينكر البعث ويكذب به ﴿فاطلع فرآه في سواء الجحيم﴾ في قعره وأصله قال له: ﴿تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين﴾ فأنت ترى أن المؤمنين يرون الكفار وهم يعذبون في قعر النار والمؤمنون في الجنة. ثم قال تعالى: ﴿هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ ﴿ثوب﴾ أي جوزي، و﴿هل﴾ هنا للتقرير أي أن الله تعالى قد ثوب الكفار وجازاهم جزاء فعلهم في الدنيا، وهو سبحانه وتعالى حكم عدل. فحكمه دائر بين العدل والفضل، بالنسبة للذين آمنوا حكمه وجزاؤه فضل، وبالنسبة للكافرين حكمه وجزاؤه عدل، فالحمد لله رب العالمين، وبهذا تم الكلام الذي يسره الله عز وجل على سورة المطففين نسأل الله تعالى أن ينفعنا وإياكم به، وأن يجعلنا من المتعظين الواعظين. إنه جواد كريم.

تفسير سورة الانشقاق

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ١﴾

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ٢ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ٥ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ١٢ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ١٣ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ١٥﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿إذا السماء انشقت﴾ انشقت: انفتحت وانفرجت كقوله تعالى: ﴿وإذا السماء فُرجت﴾ [المرسلات: ٩]. وكقوله تعالى: ﴿فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان. فبأي ألاء ربكما تكذبان. فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ [الرحمن: ٣٩]. إذاً فانشقاقها يوم القيامة. ﴿وأذنت لربها﴾ أذنت: بمعنى استمعت وأطاعت أمر ربها عز وجل أن تنشق فانشقت بينما هي كانت كما وصفها الله تعالى ﴿سبعاً شداداً﴾ [النبأ: ١٢]. قوية كما قال تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد﴾ [الذاريات: ٤٧]. أي بقوة فهذه السماء القوية العظيمة تنشق يوم القيامة تتشقق تتفرج بإذن الله سبحانه وتعالى ﴿وحقت﴾ أي حق لها أن تأذن، أي تسمع وتطيع؛ لأن الذي أمرها الله ربها خالقها عز وجل، فتسمع وتطيع،

كما أنها سمعت وأطاعت في ابتداء خلقها، ففي ابتداء خلقها قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ [فصلت: ١١]. فتأمل أيها الآدمي البشر الضعيف كيف كانت هذه المخلوقات العظيمة تسمع وتطيع لله عز وجل، هذه الطاعة العظيمة في ابتداء الخلق وفي انتهاء الخلق. في ابتداء الخلق قال: ﴿ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ في انتهاء الخلق ﴿إذا السماء انشقت. وأذنت لربها وحقت﴾ حُق لها أن تأذن تسمع وتطيع. ثم أعاد قال: ﴿وأذنت لربها وحقت﴾ تأكيداً لاستماعها لربها وطاعتها لربها. ﴿وإذا الأرض مدت﴾ هذه الأرض التي نحن عليها الآن هي غير ممدودة، **أولاً**: أنها كرة مدورة، وإن كانت جوانبها الشمالية والجنوبية منفتحة قليلاً ـ أي ممتدة قليلاً ـ فهي مدورة الآن، **ثانياً**: ثم هي أيضاً معرجة فيها المرتفع جداً، وفيها المنخفض، فيها الأودية، فيها السهول، فيها الرمال، فهي غير مستوية لكن يوم القيامة ﴿وإذا الأرض مدت﴾ أي تمد مدًّا واحداً كمد الأديم يعني كمد الجلد، كأنما تفرش جلداً أو سماطاً، تُمد حتى إن الذين عليها ـ وهم الخلائق ـ يُسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، لكن الآن لا ينفذهم البصر، لو امتد الناس على الأرض لوجدت البعيدين منخفضين لا تراهم لكن يوم القيامة إذا مُدت صار أقصاهم مثل أدناهم كما جاء في الحديث: «يجمع الله تعالى يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي، وينفُذُهُم البصر»[1]. ﴿وألقت ما فيها وتخلت﴾ أي جثث بني آدم تلقيها يوم القيامة، تلقي هذه الجثث فيخرجون من قبورهم لله عز

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب «ذرية من حملنا مع نوح» (٤٧١٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٤) (٣٢٧).

وجل، كما بدأهم أول خلق، أي كما خرجوا من بطون أمهاتهم يخرجون من بطون الأرض، وأنت خرجت من بطن أمك حافياً، عارياً، أغرل إلا أن بعض الناس قد يخلق مختوناً لكن عامة الناس يخرجون من بطون أمهاتهم غرلاً كذلك تخرج من بطن الأرض يوم القيامة حافياً ليس عليك نعال، عارياً ليس عليك كساء، أغرل لست مختوناً، ولما حدّث النبي عليه الصلاة والسلام بذلك قالت عائشة: يا رسول الله: الرجال والنساء جميعاً، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «**يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض**»[1] ، الأمر شديد، كل إنسان لاهٍ عن نفسه ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ [عبس: ٣٧]. والإنسان إذا تصور الناس في ذلك الوقت مجرد تصور فإنه يرتعب ويخاف، وإذا كان عاقلاً مؤمناً عمل لهذا اليوم، ﴿**وأذنت لربها وحقت**﴾ أذنت يعني استمعت وأطاعت لربها وحقت فبعد أن كانت مدورة فيها المرتفع والنازل صارت كأنها جلد ممتدة امتداداً واحداً. ثم قال عز وجل: ﴿**يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً**﴾ الكادح: هو الساعي بجد ونوع مشقة وقوله: ﴿**إلى ربك**﴾ يعني أنك تكدح كدحاً يوصلك إلى ربك، كدحاً يوصل إلى الله، يعني أن منتهى كدحك مهما كنت ينتهي إلى الله، لأننا سنموت وإذا متنا رجعنا إلى الله عز وجل، فمهما عملت فإن المنتهى هو الله عز وجل ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ [النجم: ٤٢]. ولهذا قال: ﴿**كادح إلى ربك كدحاً**﴾ حتى العاصي كادح كادحًا غايته الله عز وجل ﴿إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]. لكن الفرق بين المطيع والعاصي: أن المطيع يعمل عملاً يرضاه الله، يصل به إلى مرضاة الله يوم القيامة، والعاصي

---

(١) تقدم تخريجه ص (٦٨).

يعمل عملاً يغضب الله، لكن مع ذلك ينتهي إلى الله عز وجل إذاً قوله: ﴿**يا أيها الإنسان**﴾ يعم كل إنسان مؤمن وكافر ﴿**إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه**﴾ الفاء يقول النحويون: إنها تدل على الترتيب والتعقيب، يعني، فأنت ملاقيه عن قرب ﴿إن ما توعدون لآت﴾ [الأنعام: ١٣٤]. وكل آت قريب ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ [الشورى: ١٧]. وإذا شئت أن يتبين لك أن ملاقاة الرب عز وجل قريبة فانظر ما مضى من عمرك الآن، لو مضى لك مئة سنة كأنما هذه السنوات ساعة واحدة. كل الذي مضى من أعمارنا كأنه ساعة واحدة. إذاً هو قريب، ثم إذا مات الإنسان، فالبرزخ الذي بين الحياة الدنيا والآخرة قريب قريب كاللحظة، والإنسان إذا نام نوماً هادئاً ولنقل نام أربعاً وعشرين ساعة، وقام فإنه يقدر النوم بدقيقة واحدة مع أنه نام أربعاً وعشرين ساعة، فإذا كان هذا في مفارقة الروح في الحياة يمضي الوقت بهذه السرعة، فما بالك إذا كانت الروح بعد خروجها من البدن مشغولة إما بنعيم أو جحيم، ستمر السنوات على الإنسان كأنها لا شيء، لأن امتداد الزمن في حال يقظتنا ليس كامتداد الزمن في حال نومنا، فالإنسان المستيقظ من طلوع الشمس إلى زوال الشمس مسافة يحس بأن الوقت طويل، لكن لو كان نائماً ما كأنها شيء، والذي أماته الله مئة عام ثم بعثه ﴿قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم﴾. وأصحاب الكهف لبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وتسع سنين، فلما بُعثوا قال بعضهم لبعض: كم لبثتم؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم، وهذا يدل على أن الإنسان يتعجب كيف تذهب السنوات على هؤلاء الأموات؟ نقول نعم، السنوات ما كأنها إلا دقيقة واحدة، لأن حال الإنسان بعد أن تفارق الروح بدنه سواء كانت مفارقة كلية أو جزئية غير

حاله إذا كانت الروح في البدن، فإذا كانت الروح في البدن يعاني من المشقة والمشاكل والهواجيس والوساوس أشياء تطيل عليه الزمن، لكن في النوم يتقلص الزمن كثيراً، في الموت يتقلص أكثر وأكثر، فهؤلاء الذين ماتوا منذ سنين طويلة كأنهم لم يموتوا إلا اليوم لو بعثوا لقيل لهم كم لبثتم؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم، وهذه مسألة قد يرد على الإنسان فيها إشكال، ولكن لا إشكال في الموضوع مهما طالت المدة بأهل القبور فإنها قصيرة، ولهذا قال: ﴿**فملاقيه**﴾ أي (بالفاء) الدالة على الترتيب والتعقيب، وما أسرع أن تلاقي الله عز وجل.

ثم قسم الله عز وجل الناس عند ملاقاته تعالى إلى قسمين: منهم من يأخذ كتابه بيمينه، ومنهم من يأخذ كتابه من وراء ظهره، ﴿**فأما من أوتي كتابه بيمينه. فسوف يحاسب حساباً يسيراً**﴾ لما ذكر أن الإنسان كادح إلى ربه ﴿**كادحاً**﴾ أي عامل بجد ونشاط وأن عمله هذا ينتهي إلى الله عز وجل كما قال الله تعالى: ﴿ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله﴾ [هود: ١٢٣]. لما ذكر هذا قال: ﴿**فأما من أوتي كتابه بيمينه**﴾، إشارة إلى أن هؤلاء العاملين منهم من يؤتى كتابه بيمينه، ومنهم من يؤتى كتابه من وراء ظهره ﴿**فأما من أوتي كتابه بيمينه**﴾ و﴿**أوتي**﴾ هنا فعل مبني لما لم يسم فاعله، فمن الذي يؤتيه؟ يحتمل أنه الملائكة، أو غير ذلك لا ندري، المهم أنه يعطى كتابه بيمينه أي يستلمه باليمنى. ﴿**فسوف يحاسب حساباً يسيراً**﴾ أي يحاسبه الله تعالى بإحصاء عمله عليه، لكنه حساب يسير، ليس فيه أي عسر كما جاءت بذلك السنة: أن الله عز وجل يخلو بعبده المؤمن، ويقرره بذنوبه، فيقول: عملت كذا، عملت كذا، عملت كذا، ويقر بذلك ولا ينكر فيقول الله تعالى: «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك

اليوم»[١] ، ولا شك أن هذا حساب يسير يظهر فيه منّة الله على العبد، وفرحه بذلك واستبشاره. والمحاسب له هو الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿إن إلينا إيابهم. ثم إن علينا حسابهم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]. ﴿وينقلب إلى أهله مسروراً﴾ ينقلب من الحساب إلى أهله في الجنة مسروراً، أي مسرور القلب، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر[٢] ، ثم هم بعد ذلك درجات، وهذا يدل على سرور القلب؛ لأن القلب إذا سُر استنار الوجه ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره. فسوف يدعو ثبورًا. ويصلى سعيرًا﴾ هؤلاء هم الأشقياء والعياذ بالله، يؤتى كتابه وراء ظهره وليس عن يمينه، وفي الآية الأخرى في سورة الحاقة ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله﴾ [الحاقة: ٢٥]. فقيل: إن من لا يؤتى كتابه بيمينه ينقسم إلى قسمين: منهم من يؤتى كتابه بالشمال، ومنهم من يؤتى كتابه وراء ظهره، والأقرب والله أعلم أنه يؤتى كتابه بالشمال، ولكن تلوى يده حتى تكون من وراء ظهره، إشارة إلى أنه نبذ كتاب الله وراء ظهره، فيكون الأخذ بالشمال ثم تلوى يده إلى الخلف إشارة إلى أنه قد ولى ظهره كتاب الله عز وجل ولم يبال به، ولم يرفع به رأساً، ولم ير بمخالفته بأساً. ﴿فسوف يدعو ثبوراً﴾ أي يدعو على نفسه بالثبور، يقول: واثبوراه يا ويلاه، وما أشبه ذلك من كلمات الندم والحسرة، ولكن هذا لا ينفع في ذلك اليوم؛ لأنه انتهى وقت العمل فوقت العمل، هو في الدنيا، أما في الآخرة فلا عمل وإنما هو الجزاء ﴿ويصلى سعيرًا﴾ أي يصلى النار التي

---

(١) تقدم تخريجه ص (٥٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٦). ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة (٢٨٣٤) (١٤).

تسعر به ويكون مخلداً فيها أبداً، لأنه كافر ﴿إنه كان في أهله مسروراً﴾ إنه كان في الدينا في أهله مسروراً، ولكن هذا السرور أعقبه الندم والحزن الدائم المستمر، واربط بين قوله تعالى فيمن أوتي كتابه بيمينه ﴿وينقلب إلى أهله مسروراً﴾، وهذا ﴿كان في أهله مسروراً﴾ تجد فرقاً بين السرورين، فسرور الأول سرور دائم ـ نسأل الله أن يجعلنا منهم ـ وسرور الثاني سرور زائل، ذهب ﴿كان في أهله مسروراً﴾ أما الآن فلا سرور عنده ﴿إنه ظن أن لن يحور﴾ أي: ألا يرجع بعد الموت، ولهذا كانوا ينكرون البعث ويقولون لا بعث، ويقولون: من يحيي العظام وهي رميم ﴿إنه ظن أن لن يحور﴾ قال تعالى: ﴿بلى﴾ أي سيحور ويرجع ﴿إن ربه كان به بصيراً﴾ يعني أنه سيرجع إلى الله عز وجل الذي هو بصير بأعماله، وسوف يحاسبه عليها على ما تقتضيه حكمته وعدله.

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق. لتركبن طبقاً عن طبق﴾. هذه الجملة مكونة من قسم، ومُقسم به، ومقسم عليه، ومُقسِم، فالقسم في قوله: ﴿لا أقسم بالشفق﴾ قد يظن الظان أن معنى ﴿لا أقسم﴾ نفي، وليس كذلك بل هو إثبات و﴿لا﴾

هنا جيء بها للتنبيه، ولو حذفت في غير القرآن لاستقام الكلام ولها نظائر مثل ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾. ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾. ﴿فلا أقسم برب المشارق﴾. ﴿فلا أقسم بما تبصرون﴾. وكلها يقول العلماء: إن (لا) فيها للتنبيه، وأن القسم مثبت، أما المقسِم فهو الله عز وجل فهو مُقْسِم ومُقْسَم به، فهو سبحانه مقسم، أما المقسَم به في هذه الآية فهو الشفق وما عطف عليه.

فإن قال قائل: لماذا يقسم الله على خبره وهو سبحانه الصادق بلا قسم؟ وكذلك يقسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على خبره وهو صادق بلا قسم؟

قلنا: إن القسم يؤكد الكلام، والقرآن الكريم نزل باللسان العربي وإذا كان من عادتهم أنهم يؤكدون الكلام بالقسم صار هذا الأسلوب جارياً على اللسان العربي الذي نزل به القرآن.

وقوله: ﴿بالشفق﴾ الشفق هو الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس. وإذا غابت هذه الحمرة خرج وقت المغرب ودخل وقت العشاء، هذا قول أكثر العلماء وبعضهم قال إذا غاب البياض وهو يغيب بعد الحمرة بنحو نصف ساعة، لكن الذي عليه الجمهور، ويقال: إن أبا حنيفة رحمه الله رجع إليه: هو أن الشفق هو الحمرة وإذا غاب هذا الشفق فإنه يدخل وقت العشاء ويخرج وقت المغرب ﴿**والليل وما وسق**﴾ هذا أيضاً مقسم به معطوف على الشفق، يعني وأقسم بالليل وما وسق وهذان قسمان ﴿**والليل وما وسق**﴾ الليل معروف ﴿**وما وسق**﴾ أي ما جمع، لأن الليل يجمع الوحوش والهوام وما أشبه ذلك، تجتمع وتخرج وتبرز من جحورها وبيوتها، وكذلك ربما يشير إلى اجتماع الناس بعضهم إلى بعض. ﴿**والقمر إذا اتسق**﴾ القمر معروف.

ومعنى ﴿إذا اتسق﴾ يعني إذا جتمع نوره وتم وكمل، وذلك في ليالي الإبدار. فأقسم الله عز وجل ﴿بالليل وما وسق﴾ أي ما جمع. وبالقمر لأنه آية الليل، ثم قال بعد ذلك: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ والخطاب هنا لجميع الناس، أي لتركبن حالاً عن حال، وهو يعني أن الأحوال تتغير فيشمل أحوال الزمان، وأحوال المكان، وأحوال الأبدان، وأحوال القلوب:

الأول: أحوال الزمان تتنقل ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ [آل عمران: ١٤٠]. فيوم يكون فيه السرور والانشراح وانبساط النفس، ويوم آخر يكون بالعكس، حتى إن الإنسان ليشعر بهذا من غير أن يكون هناك سبب معلوم، وفي هذا يقول الشاعر:

ويوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

وهذا شيء يعرفه كل واحد بنفسه تصبح اليوم فرحاً مسروراً وفي اليوم الثاني بالعكس بدون سبب لكن هكذا لابد أن الإنسان يركب طبقاً عن طبق.

الثاني: الأمكنة ينزل الإنسان هذا اليوم منزلاً، وفي اليوم التالي منزلاً آخر، وثالثاً ورابعاً إلى أن تنتهي به المنازل في الآخرة، وما قبل الآخرة وهي القبور هي منازل مؤقتة. القبور ليست هي آخر المنازل بل هي مرحلة. وسمع أعرابي رجلاً يقرأ قول الله تعالى: ﴿ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر﴾ فقال الأعرابي: «والله ما الزائر بمقيم» فالأعرابي بفطرته عرف أن وراء هذه القبور شيئاً يكون المصير إليه، لأنه كما هو معلوم الزائر يزور ويمشي، وبه نعرف أن ما نقرؤه في الجرائد «فلان توفي ثم نقلوه إلى مثواه الأخير» أن هذه الكلمة غلط كبير ومدلولها كفر بالله عز وجل كفر باليوم الآخر، لأنك إذا جعلت القبر هو المثوى

الأخير فهذا يعني أنه ليس بعده شيء، والذي يرى أن القبر هو المثوى الأخير وليس بعده مثوى، كافر، فالمثوى الأخير إما جنة وإما نار.

الثالث: الأبدان يركب الإنسان فيها طبقاً عن طبق واستمع إلى قول الله تعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ [الروم: ٥٤]. أول ما يخلق الإنسان طفلاً صغيراً يمكن أن تجمع يديه ورجليه بيد واحدة منك وتحمله بهذه اليد ضعيفًا، ثم لايزال يقوى رويداً رويداً حتى يكون شاباً جلداً قوياً، ثم إذا استكمل القوة عاد فرجع إلى الضعف، وقد شبه بعض العلماء حال البدن بحال القمر يبدو هلالاً ضعيفاً، ثم يكبر شيئاً فشيئاً حتى يمتلىء نوراً، ثم يعود ينقص شيئاً فشيئاً حتى يضمحل، نسأل الله أن يحسن لنا ولكم الخاتمة.

الرابع: حال القلوب وما أدراك ما أحوال القلوب؟! أحوال القلوب هي النعمة وهي النقمة، القلوب كل قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء[١]، فإن شاء أزاغه وإن شاء هداه، ولما حدّث النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث قال: «**اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[٢]، فالقلوب لها أحوال عجيبة، تارة يتعلق القلب بالدنيا، وتارة يتعلق بشيء من الدنيا، تارة يتعلق بالمال ويكون المال أكبر همه، تارة يتعلق بالنساء وتكون النساء أكبر همه، تارة يتعلق بالقصور والمنازل ويكون ذلك أكبر همه، تارة يتعلق بالمركوبات والسيارات ويكون ذلك أكبر همه، تارة يكون مع الله

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء (٢٦٥٤) (١٧).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، (٢١٤٠) وقال: حديث حسن صحيح.

عز وجل دائماً مع الله يتعلق بالله سبحانه وتعالى، ويرى أن الدنيا كلها وسيلة إلى عبادة الله، وإلى طاعة الله، فيستخدم الدنيا؛ لأنها خلقت له ولا تستخدمه الدنيا. وأصحاب الدنيا هم الذين يخدمونها، هم الذين أتعبوا أنفسهم في تحصيلها. لكن أصحاب الآخرة هم الذين استخدموا الدنيا وخدمتهم الدنيا، ولذلك لا يأخذونها إلا عن طريق رضى الله، ولا يصرفونها إلا في رضى الله عز وجل، فاستخدموها أخذاً وصرفاً، لكن أصحاب الدنيا الذين تعبوا بها سهروا الليالي يراجعون الدفاتر، يراجعون الشيكات، يراجعون المصروفات، يراجعون المدفوعات، يراجعون ما أخذوا وما صرفوا، هؤلاء في الحقيقة استخدمتهم الدنيا ولم يستخدموها، لكن الرجل المطمئن الذي جعل الله رزقه كفافاً يستغني به عن الناس، ولا يشقى به عن طاعة الله، هذا هو الذي خدمته الدنيا، هذه أحوال القلوب، وأحوال القلوب هي أعظم الأحوال الأربع، ولهذا يجب علينا جميعاً أن نراجع قلوبنا كل ساعة كل لحظة أين صرفت أيها القلب؟ أين ذهبت؟ لماذا تنصرف عن الله؟ لماذا تلتفت يميناً وشمالاً؟ ولكن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وغلب على كثير من الناس، حتى إنه ليصرف الإنسان عن صلاته التي هي رأس ماله بعد الشهادتين فتجده إذا دخل في صلاته ذهب قلبه يميناً وشمالاً، حتى يخرج من صلاته ولم يعقل منها شيئاً، والناس يصيحون يقولون صلاتنا لا تنهانا عن الفحشاء والمنكر أين وعد الله؟ فيقال: يا أخي هل صلاتك صلاة إذا كنت من حين تكبر تفتح لك باب الهواجيس التي لا نهاية لها، فهل أنت مصل؟ صليت بجسمك لكن لم تصل بقلبك، وقد جاء في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام: «**إنه ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها نصفها، ربعها، ثلثها، عشرها،**

خمسها»[١] حسب ما تعقل منها، إذاً فالقلوب تركب طبقاً عن طبق ثم قال تعالى: ﴿فما لهم لا يؤمنون. وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون﴾ ﴿ما لهم﴾ أي شيء يمنعهم من الإيمان، وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله، أي شيء يمنعهم من الإيمان، وأي شيء يضرهم إذا آمنوا، قال مؤمن آل فرعون: ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم فإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم﴾ [غافر: ٢٨]. فأي شيء على الإنسان إذا آمن؟ ولهذا قال موبخاً لهم: ﴿فما لهم لا يؤمنون. وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون﴾ أي لا يخضعون لله عز وجل فالسجود هنا بمعنى الخضوع لله، وإن لم تسجد على الأرض لكن يسجد القلب ويلين ويذل إن كان الأمر كذلك فأنت من المؤمنين ﴿إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾ [الأنفال: ٢]. وإن لم يكن قلبك كذلك ففيك شبهٌ من المشركين الذين إذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون، ومن علامات الخضوع لله عز وجل عند قراءة القرآن أن الإنسان إذا قرأ آية سجدة سجد لله ذلاً له وخضوعاً، وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب سجود التلاوة. وقال: إن الإنسان إذا مر بآية سجدة ولم يسجد كان آثماً. والصحيح: أنها ليست بواجبة وإن كان هذا القول أعني القول بالوجوب هو مذهب أبي حنيفة واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، لكن هذا قول مرجوح، وذلك أنه ثبت في الصحيح عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه خطب الناس يوماً فقرأ سورة النحل فلما وصل آية السجدة نزل من المنبر فسجد، ثم قرأها من الجمعة الثانية فمر بها ولم يسجد فقال رضي الله عنه: إن الله لم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/ ٣١٩).

يفرض علينا السجود إلا أن نشاء[١] ، وكان ذلك بمحضر من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ولم يُنكر عليه أحد. وسنته رضي الله عنه من السنن التي أُمرنا باتباعها، وعلى هذا فالقول الراجح أن سجود التلاوة ليس بواجب، لكنه سنة مؤكدة، فإذا مررت بآية سجدة فاسجد في أي وقت كنت في الصباح، أو في المساء، في الليل، أو في النهار، تكبر عند السجود، وإذا رفعت فلا تكبر ولا تسلم هذا إذا سجدت خارج الصلاة، أما إن سجدت في الصلاة فلابد أن تكبر إذا سجدت، وأن تكبر إذا نهضت؛ لأنها لما كانت في الصلاة كان لها حكم السجود في الصلاة. قال الله تعالى: ﴿**بل الذين كفروا يكذبون. والله أعلم بما يوعون**﴾ لما ذكر سبحانه وتعالى أنهم إذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون بيّن سبحانه وتعالى أن سبب تركهم السجود هو تكذيبهم بما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، لأن كل من كان إيمانه صادقاً فلا بد أن يمتثل الأمر، وأن يجتنب النهي، لأن الإيمان الصادق يحمل صاحبه على ذلك، ولا تجد شخصاً ينتهك المحارم أو يترك الواجبات إلا بسبب ضعف إيمانه، ولهذا كان الإيمان عند أهل السنة والجماعة هو التصديق المستلزم للقبول والإذعان، فمتى رأيت الرجل يترك الواجبات، أو بعضاً منها، أو يفعل المحرمات فاعلم أن إيمانه ضعيف إذ لو كان إيمانه قوياً ما أضاع الواجبات ولا انتهك المحظورات، ولهذا قال تعالى هنا: ﴿**بل الذين كفروا يكذبون**﴾ أي في تركهم السجود كان ذلك بسبب تكذيبهم لما جاءت به الرسل ﴿**والله أعلم بما يوعون**﴾ أي أنه سبحانه وتعالى أعلم بما يوعونه أي بما يجمعونه في صدورهم، وما

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب سجود القرآن، باب من رأى أن الله عز وجل لم يوجب السجود (١٠٧٧).

يجمعونه من أموالهم، وما يجتمعون عليه من منابذة الرسل ومخالفة الرسل، بل محاربة الرسل وقتالهم، والكفار أعداء للرسل من حين بعث الله الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأنهم يجمعون لهم ويكيدون لهم فتوعدهم الله تعالى في هذه الآية ﴿والله أعلم بما يوعون﴾ أي بما يجمعون من أقوال، وأفعال، وضغائن، وعداوات، وأموال ضد الرسل عليهم الصلاة والسلام، ثم قال: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ أخبرهم بالعذاب الأليم الذي لابد أن يكون، والخطاب في قوله: ﴿فبشرهم﴾ عام للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولكل من يصح خطابه فإنه داخل في هذا، وأن نبشر كل كافر بعذاب أليم، فنحن نبشر كل كافر بعذاب أليم ينتظره، كما قال تعالى: ﴿وانتظر إنهم منتظرون﴾ [السجدة: ٣٠]. ثم قال: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ ﴿إلا﴾ هذه بمعنى لكن ولا تصح أن تكون استثناء متصلاً، لأن الذين آمنوا ليسوا من المكذبين في شيء، بل هم مؤمنون مصدقون، وهذا هو الاستثناء المنقطع، أي إذا كان المستثنى ليس من جنس المستثنى منه فهو استثناء منقطع وتقدر ﴿إلا﴾ بـ(لكن) أي لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجرٌ غير ممنون. الذين آمنوا بقلوبهم، واستلزم إيمانهم قيامهم بالعمل الصالح، هؤلاء هم الذين ليس لهم عذاب ولا ينتظرون العذاب لهم أجر غير ممنون.

فإن قيل: ما هو العمل الصالح؟

فالجواب: أن العمل الصالح ما جمع شيئين:

الأول: الإخلاص لله تعالى بأن يكون الحامل على العمل هو الإخلاص لله عز وجل ابتغاء مرضاته، وابتغاء ثوابه، وابتغاء النجاة من النار لا يريد الإنسان بعمله شيئاً من الدنيا.

الثاني: أن يكون متبعاً فيه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أي أن يتبع الإنسان رسول الله ﷺ في عمله فعلاً لما فعل، وتركاً لما ترك. فما فعله النبي ﷺ مع وجود سببه فالسنة فعله إذا وجد سببه. وما وجد سببه في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولم يفعله فإن السنة تركه.

﴿لهم أجر﴾ أي ثواب ﴿غير ممنون﴾ أي غير مقطوع، بل هو مستمر أبد الآبدين، والآيات في تأبيد الجنة كثيرة معلومة في الكتاب والسنة، فأجر الآخرة لا ينقطع أبداً، ليس كالدنيا فيه وقت تثمر الأشجار ووقت لا تثمر، أو وقت تنبت الأرض ووقت لا تنبت، والجنة الأجر فيها دائم، ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً﴾ نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المؤمنين العاملين بالصالحات، المجتنبين للسيئات، إنه جواد كريم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

سورة البروج

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿والسماء ذات البروج﴾ الواو هذه حرف قسم يعني يقسم تعالى بالسماء ﴿ذات البروج﴾ أي صاحبة البروج، والبروج جمع برج، وهو المجموعة العظيمة من النجوم وسميت بروجاً لعلوها وارتفاعها وظهورها وبيانها، والبروج عند الفلكيين اثني عشر برجاً جمعت في قول الناظم:

حمـلٌ فثـور فجـوزاء ... فسرطـان فـأسـدٌ سنبلـة ميـزان
فعقـربٌ قـوسٌ فجـدي وكـ ... ذا دلـو وذي آخـرهـا الحيتـان

فهي اثنا عشر برجاً، ثلاثة منها للربيع، وثلاثة للصيف، وثلاثة للخريف، وثلاثة للشتاء، فيقسم الله تعالى بالسماء ذات البروج وله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه، أما نحن فلا نقسم إلا بالله بأسمائه

وصفاته، ولا نقسم بشيء من المخلوقات لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**»[١] ولقوله عليه الصلاة والسلام: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»[٢]، قوله تعالى: ﴿**واليوم الموعود**﴾ اليوم الموعود هو يوم القيامة، وعد الله تعالى به وبينه في كتابه، ونصب عليه الأدلة العقلية التي تدل على أنه واقع حتماً، كما قال تعالى: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنَّا كنا فاعلين﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. ﴿**وشاهد ومشهود**﴾ ذكر علماء التفسير في الشاهد والمشهود عدة أقوال يجمعها أن الله أقسم بكل شاهد وبكل مشهود، والشهود كثيرون منهم محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم شهيداً علينا، ومنهم هذه الأمة شهداء على الناس، وأعضاء الإنسان يوم القيامة تشهد عليه بما عمل من خير وشر، ومن الملائكة يشهدون يوم القيامة فكل من شهد بحق فهو داخل في قوله ﴿**وشاهد**﴾ وأما ﴿**المشهود**﴾ فهو يوم القيامة وما يعرض فيه من الأهوال العظيمة كما قال تعالى: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾ [هود: ١٠٣]. فأقسم الله بكل شاهد وبكل مشهود. ﴿**قتل أصحاب الأخدود**﴾ ﴿**قتل**﴾ يعني أهلك، وقيل: القتل هنا بمعنى اللعن، وهو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، و﴿**أصحاب الأخدود**﴾ هم قوم كفار أحرقوا المؤمنين بالنار، وقد وردت قصص متعددة في هؤلاء القوم منها شيء في الشام، ومنها شيء في اليمن، والمقصود أن هؤلاء الكفار حاولوا بالمؤمنين أن يرتدوا عن دينهم، ولكنهم عجزوا فحفروا أخدوداً حُفراً

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف (٢٦٧٩). ومسلم، كتاب الإيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى (١٦٤٦) (٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٤/ ٢، والترمذي، أبواب النذور والأيمان، باب ما جاء في أن من حلف بغير الله فقد أشرك (١٥٣٥) وقال: حديث حسن.

ممدودة في الأرض كالنهر وجمعوا الحطب الكثير وأحرقوا المؤمنين بها ـ والعياذ بالله ـ ولهذا قال: ﴿النار ذات الوقود﴾ يعني أن الأخدود هي أخدود النار. ﴿ذات الوقود﴾ أي الحطب الكثير المتأجج. ﴿إذ هم عليها قعود﴾ يعني أن هؤلاء الذين حفروا الأخاديد وألقوا فيها المؤمنين كانوا ـ والعياذ بالله ـ عندهم قوة وجبروت يرون النار تلتهم هؤلاء البشر وهم قعود عليها على الأسرة، فكهون كأن شيئاً لم يكن، وهذا من الجبروت أن يرى الإنسان البشر تلتهمه النار وهو جالس على سريره يتفكه بالحديث ولا يبالي. ﴿وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾ يعني هم شهود على ما يفعلون بالمؤمنين أي حضور لا يغيب عنهم ما فعلوه بالمؤمنين، ولذلك استحقوا هذا الوعيد، بل استحقوا هذه العقوبة أن الله أهلكهم ولعنهم وطردهم وأبعدهم عن رحمته. ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ أي ما أنكر هؤلاء الذين سعروا النار بأجساد هؤلاء المؤمنين إلا هذا، أي: إلا أنهم آمنوا بالله عز وجل ﴿إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ وهذا الإنكار أحق أن ينكر؛ لأن المؤمن بالله العزيز الحميد يجب أن يساعد ويعان، وأن تسهل له الطرق، أما أن يمنع ويردع حتى يصل الحد إلى أن يحرق بالنار فلا شك أن هذا عدوان كبير، وليس هذا بمنكر عليهم، بل هم يحمدون على ذلك؛ لأنهم عبدوا من هو أهل للعبادة، وهو الله جل وعلا، الذي خلق الخلق ليقوموا بعبادته، فمن قام بهذه العبادة فقد عرف الحكمة من الخلق وأعطاها حقها. وقوله: ﴿إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ العزيز هو الغالب الذي لا يغلبه شيء، فهو سبحانه وتعالى له الغلبة والعزة على كل أحد، ولما قال المنافقون: ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ قال الله تبارك وتعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين

ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ [المنافقون: ٨]. وقوله: ﴿الحميد﴾ بمعنى المحمود فالله سبحانه وتعالى محمود على كل حال وكان من هدي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه إذا جاءه ما يُسر به قال: «**الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات**»، وإذا جاءه خلاف ذلك قال: «**الحمد لله على كل حال**»[١]، وهذا هو الذي ينبغي للإنسان أن يقول عند المكروه «**الحمد لله على كل حال**» أما ما يقوله بعض الناس (الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه) فهذا خلاف ما جاءت به السنة به، قل كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**الحمد لله على كل حال**» أما أن تقول: (الذي لا يحمد على مكروه سواه) فكأنك الآن تعلن أنك كاره ما قدر الله عليك، وهذا لا ينبغي، بل الواجب أن يصبر الإنسان على ما قدر الله عليه مما يسوؤه أو يُسره، لأن الذي قدره الله عز وجل هو ربك وأنت عبده، هو مالكك وأنت مملوك له، فإذا كان الله هو الذي قدر عليك ما تكره فلا تجزع، يجب عليك الصبر وألا تتسخط لا بقلبك ولا بلسانك ولا بجوارحك، اصبر وتحمل والأمر سيزول ودوام الحال من المحال، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً**»[٢]، فالله عز وجل محمود على كل حال من السراء أو الضراء؛ لأنه إن قدر السراء فهو ابتلاء وامتحان، قال الله تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ [الأنبياء: ٣٥]. ولما رأى سليمان عرش بلقيس بين يديه قال: ﴿هذا من فضل ربي ليبلوني ءأشكر﴾ [النمل: ٤٠]. فإذا أصبت بالنعمة لا تأخذها على أنها نعمة فتمرح وتفرح، هي نعمة لا شك لكن اعلم أنك ممتحن بها هل

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/٣٠٧.

تؤدي شكرها أو لا تؤدي، إن أصابتك ضراء فاصبر فإن ذلك أيضاً ابتلاء وامتحان من الله عز وجل ليبلوك هل تصبر أو لا تصبر، وإذا صبرت واحتسبت الأجر من الله فإن الله يقول: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ [الزمر: ١٠].

ويجوز أن يكون معنى قوله: ﴿الحميد﴾ أنه هو الحامد، فإنه سبحانه وتعالى يحمد من يستحق الحمد، يثني على عباده من المرسلين والأنبياء والصالحين، والثناء عليهم حمدٌ لهم، فهو جل وعلا حامد، وهو كذلك محمود، وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أن الله يرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها[1] ، لأنه لولا أن الله يسر لك هذه الأكلة والشربة ما حصلت عليها، قال الله تبارك وتعالى: ﴿أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ [الواقعة: ٦٤]. الله يسألنا، أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون؟ الجواب: بل أنت يا ربنا ﴿لو نشاء لجعلناه حطاماً﴾ بعد أن يخرج وتتعلق به النفوس يجعله الله حطاماً، ولم يأت التعبير «لو نشاء لم ننبته» لأن كونه ينبت وتتعلق به النفس ثم يكون حطاماً أشد وقعاً على النفس من كونه لا ينبت أصلاً ﴿لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون إنا لمغرمون بل نحن محرومون﴾ ثم ذكر الشرب فقال: ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون. أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾ الجواب: بل أنت يا ربنا ﴿لو نشاء لجعلناه أجاجاً﴾ أي مالحاً غير عذب لا يستطيع الإنسان أن يشربه ﴿فلولا تشكرون﴾ يعني فهلا تشكرون الله على ذلك، وهنا لم يأت التعبير «لو نشاء لم ننزله من المزن»، لأن كونه ينزل

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب (٢٧٣٤) (٨٩).

ولكن لا يشرب لا يطاق أشد من كونه لم ينزل أصلاً فتأملوا القرآن الكريم تجدون فيه من الأسرار والحكم الشيء الكثير.

﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد. الذي له ملك السماوات والأرض﴾ ﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾ له وحده ملك السماوات والأرض، لا يملكها إلا هو عز وجل، فهو يملك السماوات ومن فيها، والأراضين ومن فيها، وما بينهما، وما فيها كل شيء ملك لله ولا يشاركه أحد في ملكه، وما يضاف إلينا من الملك فيقال: مثلاً هذا البيت ملك لفلان، هذه السيارة ملك لفلان فهو ملك قاصر وليس ملكاً حقيقياً؛ لأنه لو أن إنسان أراد أن يهدم بيته بدون سبب فلا يملك ذلك، لأن النبي ﷺ نهى عن إضاعة المال[1]، لو أراد إنسان أن يحرق سيارته بدون سبب فلا يملك هذا. ولو أنه فعل لحجر القاضي عليه بمنعه من التصرف في ماله، مع أن الله منعه قبل، إذن ملكنا قاصر، والملك التام لله، ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ أي: مطلع عز وجل على كل شيء، ومن جملته ما يفعله هؤلاء الكفار بالمؤمنين من الإحراق بالنار، وسوف يجازيهم، ولكن مع ذلك ومع فعلهم هذه الفعلة الشنيعة قال: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ قال بعض السلف: انظر إلى حلم الله عز وجل يحرقون أولياءه، ثم يعرض عليهم التوبة يقول: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا﴾.

قال العلماء: ﴿فتنوا﴾ بمعنى أحرقوا كما قال تعالى: ﴿يوم هم على النار يفتنون. ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يكره من قيل وقال (٦٤٧٣) ومسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (١٧١٥) (٨٩).

[الذاريات: ١٣، ١٤]. فهؤلاء أحرقوا المؤمنين وأحرقوا المؤمنات في النار.

وقيل: فتنوهم أي صدوهم عن دينهم. والصحيح: أن الآية شاملة للمعنيين جميعاً، لأنه ينبغي أن نعلم أن القرآن الكريم معانيه أوسع من أفهامنا، وأنه مهما بلغنا من الذكاء والفطنة فلن نحيط به علماً، والقاعدة في علم التفسير أنه إذا كانت الآية تحتمل معنيين لا يتضادان فإنها تحمل عليهما جميعاً، فنقول: هم فتوا المؤمنين بصدهم عن سبيل الله، وفتنوهم بالإحراق أيضاً. ﴿**ثم لم يتوبوا**﴾ أي يرجعوا إلى الله ﴿**فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق**﴾ لأنهم أحرقوا أولياء الله فكان جزاؤهم مثل عملهم جزاء وفاقاً.

في هذه الآيات من العبر: أن الله سبحانه وتعالى قد يسلط أعداءه على أوليائه، فلا تستغرب إذا سلط الله عز وجل الكفار على المؤمنين وقتلوهم وحرقوهم، وانتهكوا أعراضهم، لا تستغرب فلله تعالى في هذا حكمة، المصابون من المؤمنين أجرهم عند الله عظيم، وهؤلاء الكفار المعتدون أملى لهم الله سبحانه وتعالى ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، والمسلمون الباقون لهم عبرة وعظة فيما حصل لإخوانهم، فمثلاً نحن نسمع ما يحصل من الانتهاكات العظيمة، انتهاك الأعراض، وإتلاف الأموال، وتجويع الصغار والعجائز، نسمع أشياء تبكي، فنقول: سبحان الله ما هذا التسليط الذي سلطه الله على هؤلاء المؤمنين؟ نقول يا أخي لا تستغرب فالله سبحانه وتعالى ضرب لنا أمثالاً فيمن سبق يحرقون المؤمنين بالنار، فهؤلاء الذين سلطوا على إخواننا في بلاد المسلمين هذا رفعة درجات للمصابين، وتكفير السيئات، وهو عبرة للباقين، وهو أيضاً إغراء لهؤلاء الكافرين حتى يتسلطوا فيأخذهم الله عز وجل أخذ عزيز مقتدر.

وفي هذه الآيات من العبر: أن هؤلاء الكفار لم يأخذوا على المسلمين بذنب إلا شيئاً واحداً وهو: أنهم يؤمنون بالله العزيز الحميد، وهذا ليس بذنب، بل هذا هو الحق، ومن أنكره فهو الذي ينكر عليه، نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينصر المسلمين في كل مكان، وأن يقينا شر أعدائنا، وأن يجعل كيدهم في نحورهم إنه على كل شيء قدير.

وفي الآية إشارة إلى أن التوبة تهدم ما قبلها، ولكن التوبة لا تكون توبة نصوحاً مقبولة عند الله إلا إذا اشتملت على شروط خمسة:

الأول: الإخلاص لله عز وجل بأن يكون الحامل للإنسان على التوبة خوف الله عز وجل ورجاء ثوابه؛ لأن الإنسان قد يتوب من الذنب من أجل أن يمدحه الناس، أو من أجل دفع مذمة الناس له، أو من أجل مرتبة يصل إليها، أو من أجل مال يحصل عليه، كل هؤلاء لا تقبل توبتهم، لأن التوبة يجب أن تكون خالصة، وأما من أراد بعمله الدنيا فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾. [هود: ١٥، ١٦].

الثاني: من شروط كون التوبة نصوحاً: الندم على ما حصل من الذنب بمعنى ألا يكون الإنسان كأنه لم يذنب، لا يتحسر ولا يحزن، لابد أن يندم، إذا ذكر عظمة الله ندم، كيف أعصي ربي وهو الذي خلقني ورزقني وهداني، فيندم.

الثالث: أن يقلع عن الذنب فلا تصح التوبة مع الإصرار على الذنب، لأن التائب هو الراجع، فإذا كان الإنسان يقول: أستغفر الله وأتوب إليه من أكل الربا، ولكنه لايزال يرابي فلا تصح توبته، لو قال: أستغفر الله من الغيبة، والغيبة ذكرك أخاك بما يكره ولكنه في كل مجلس

يغتاب الناس فلا تصح توبته، كيف تصح وهو مصر على المعصية، فلابد أن يقلع، إذا تاب من أكل أموال الناس وقد سرق من هذا، وأخذ مال هذا بخداع وغش فلا تصح توبته، حتى يرد ما أخذ من أموال الناس إلى الناس، لو فرضنا أن شخصاً أدخل مراسيمه في ملك جاره واقتطع جزءًا من أرضه وقال إني تائب، فنقول له: رد المراسيم إلى حدودها الأولى وإلا فإن توبتك لا تقبل، لأنه لابد من الإقلاع عن الذنب الذي تاب منه.

الشرط الرابع: أن يعزم عزماً تاماً ألا يعود إلى الذنب، فإن تاب وهو في نفسه لو حصل له فرصة لعاد إلى الذنب فإن توبته لا تقبل، بل لابد أن يعزم عزماً أكيداً على ألا يعود.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقت تقبل فيه التوبة، لأنه يأتي أوقات لا تقبل فيها التوبة، وذلك في حالين:

الحال الأولى: إذا حضره الموت فإن توبته لا تقبل لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ [النساء: ١٨]. بعدما عاين الموت وشاهد العذاب يقول تبت فلا ينفع هذا، ومثال واقع لهذه المسألة أن فرعون لما أدركه الغرق ﴿قال آمنت بالذي آمنت به بنوا إسرائيل﴾ يعني بالله ولم يقل آمنت بالله إذلالاً لنفسه حيث كان يحارب بني إسرائيل على الإيمان بالله، والآن يقول آمنت بالذي آمنوا به فكأنه جعل نفسه تابعاً لبني إسرائيل إلى هذا الحد بلغ به الذل ومع ذلك قيل له ﴿آلآن﴾ تتوب، آلآن تؤمن بالذي آمنت به بنوا إسرائيل ﴿وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ [يونس: ٩١]. إذاً إذا حضر الموت فإن التوبة لا تقبل، فلابد من المبادرة بالتوبة لأنك لا تدري في أي وقت يحضرك الموت، ألم تعلم

أن من الناس من نام على فراشه في صحة وعافية ثم حمل من فراشه إلى سرير تغسيله؟! ألم تعلم أن بعض الناس جلس على كرسي العمل يعمل ثم حمل من كرسي العمل إلى سرير الغسل؟! كل هذا واقع، لذا يجب أن تبادر بالتوبة قبل أن تغلق الأبواب.

الحال الثانية: إذا طلعت الشمس من مغربها، فإن الشمس إذا طلعت من مغربها ورآها الناس آمنوا لكن الله يقول: ﴿لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ [الأنعام: ١٥٨].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير﴾ لما ذكر عقاب المجرمين ذكر ثواب المؤمنين، وهذه هي الطريقة المتبعة فيما يراد به الترغيب والترهيب، والقرآن الكريم مثاني، تذكر فيه المعاني المتقابلة، فيذكر فيه عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة، صفات المؤمنين وصفات الكافرين، من أجل أن يكون الإنسان سائراً إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء، ويعرف نعمة الله عليه في الإسلام، ويعرف حكمة الله تعالى في وجود هؤلاء الكافرين المجرمين. ﴿إن الذين آمنوا﴾ هم الذين آمنوا بالله،

وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره فإن هذا هو الإيمان كما فسره النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين سأله جبريل عن الإيمان فقال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**»[١]، وأما قوله: ﴿**وعملوا الصالحات**﴾ فالمراد عملوا الأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة هي التي بنيت على الإخلاص لله، واتباع شريعة الله، فمن عمل عملاً أشرك به مع الله غيره فعمله مردود عليه؛ لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرويه عن ربه أنه تعالى قال: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[٢].

وأما المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فإن من عمل عملاً ليس على شريعة الله فإنه باطل مردود، لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٣]، وبناء على ذلك تكون عبادة المرائي الذي يعبد الله لكن يرائي الناس أي يظهر العبادة ليراه الناس فيمدحوه وهو لا يريد التقرب إلى الناس، يريد التقرب إلى الله لكن يريد أن يمدحه الناس على تقربه إلى الله وعبادته لله فهذا مراءٍ وعمله مردود أيضاً، كذلك من تكلم بكلام قرآن أو ذكر ورفع صوته ليسمعه الناس فيمدحوه على ذكره لله فهذا أيضاً مراءٍ، عمله مردودٌ عليه؛ لأنه أشرك فيه مع الله غيره، أراد أن يمدحه الناس على عبادة الله، أما من تعبد للناس فهذا مشرك شرك أكبر يعني من قام يصلي أمام شخص تعظيماً له، لا لله، وركع للشخص وسجد

---

(١) تقدم تخريجه ص (٥٦).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الزهد، باب تحريم الرياء (٢٩٨٥) (٤٦).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة (١٧١٨) (١٨).

للشخص فهذا مشرك شركاً أكبر مخرج عن الملة، وكذلك أيضاً من ابتدع في دين الله ما ليس منه كما لو رتب أذكاراً معينة في وقت معين فإن ذلك لا يقبل منه، حتى ولو كان ذكر الله لو كان تسبيحاً، أو تحميداً، أو تكبيراً، أو تهليلاً ولكنه رتبه على وجه لم ترد به السنة فإن ذلك ليس مقبولاً عند الله عز وجل؛ لأنه عمل عملاً ليس عليه أمر الله ورسوله، فالمهم أن الله اشترط مع الإيمان العمل الصالح، وبهذا نعرف أنه لا ينبغي لنا أن نركز دائماً على العقيدة، ونقول: نحن على العقيدة الإسلامية وعلى كذا، وعلى كذا، ولا نذكر العمل؛ لأن مجرد العقيدة لا يكفي لابد من عمل، فينبغي عندما تذكر أننا على العقيدة الإسلامية ينبغي أن تقول ونعمل العمل الصالح؛ لأن الله يقرن دائماً بين الإيمان المتضمن للعقيدة وبين العمل الصالح، حتى لا يخلو الإنسان من عمل صالح، أما مجرد العقيدة فلا ينفع لو أن الإنسان يقول أنا مؤمن بالله لكن لا يعمل فأين الإيمان بالله؟ ولهذا كان القول الراجح من أقوال العلماء أن تارك الصلاة كافر كفراً مخرج عن الملة وقد بينا أدلة ذلك في رسالة لنا صغيرة، يغني عن إعادتها هنا. ﴿**لهم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ ﴿**لهم**﴾ يعني عند الله ﴿**جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ وذلك بعد البعث فإنهم يدخلون هذه الجنات التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ [السجدة: ١٧]. وقال الله في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[1]. لأن فيها من النعيم ما لا يتصوره الإنسان والله تعالى يذكر في الجنات: نخل،

(١) تقدم تخريجه ص (٥٤).

ورمان، وفاكهة، ولحم طير، وعسل، ولبن، وماء، وخمر، لكن حقائق هذه الأشياء ليست كحقائق ما في الدنيا أبداً، لأنها لو كانت حقائقها كحقائق ما في الدنيا لكنا نعلم ما أخفي لنا من هذا، ولكنها أعظم وأعظم بكثير مما تتصوره، فالرمان وإن كنا نعرف معنى الرمان، ونعرف أنه على شكل معين، وطعم معين، وذو حبات معينة، لكن ليس الرمان الذي في الآخرة كهذه فهو أعظم بكثير، لا من جهة الحجم، ولا من جهة اللون، ولا من جهة المذاق، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء فقط)[1]، أما الحقائق فهي غير معلومة. وقوله: ﴿**تجري من تحتها الأنهار**﴾ قال العلماء: ﴿**من تحتها**﴾ أي من تحت أشجارها وقصورها وإلا فهي على السطح فوق، ثم هذه الأنهار جاء في الأحاديث أنها لا تحتاج إلى حفر ولا تحتاج إلى بناء أخدود[2]، وفي هذا يقول ابن القيم في النونية:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

الأنهار في المعروف عندنا تحتاج إلى حفر، أو إلى أخدود تمنع من تسرب الماء يميناً وشمالاً، لكن في الجنة لا تحتاج إلى أخدود، تجري حيث شاء الإنسان، يعني يوجهها كما شاء بدون حفر، وبدون إقامة أخدود، والأنهار في هذه الآية وفي آيات كثيرة مجملة لكنه فصلت في سورة القتال ـ سورة محمد ـ قال: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (للآية ٢٥ من سورة البقرة)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» للموضع المذكور، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ١٣/ ٩٧، وهناد في «الزهد» (٩٥) والطبري في «تفسيره» (للآية ٢٥ من سورة البقرة)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٣١٥). وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ص٢٧١، عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً.

للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾ [محمد: ١٥]. ﴿ذلك الفوز الكبير﴾ ﴿ذلك﴾ المشار إليه الجنات وما فيها من النعيم ﴿الفوز الكبير﴾ يعني الذي به النجاة من كل مرهوب وحصول كل مطلوب؛ لأن الفوز هو عبارة عن حصول المطلوب وزوال المكروه، والجنة كذلك فيها كل مطلوب، وقد زال عنها كل مرهوب، فلا يذوقون فيها الموت، ولا المرض، ولا السقم، ولا الهم، ولا النصب.

ثم قال تعالى: ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ ﴿بطش﴾ يعني أخذه بالعقاب شديد كما قال تعالى: ﴿اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم﴾ [المائدة: ٩٨]. فبطش الله يعني انتقامه وأخذه شديد عظيم ولكنه لمن يستحق ذلك، أما من لا يستحق ذلك فإن رحمة الله تعالى أوسع، ما أكثر ما يعفو الله عن الذنوب، ما أكثر ما يستر من العيوب، ما أكثر ما يدفع من النقم، وما أكثر ما يجري من النعم، لكن إذا أخذ الظالم لم يفلته كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»، وتلى قوله تعالى: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾[1]، وعلى هذا فنقول: ﴿بطش ربك﴾ أي فيمن يستحق البطش، أما من لا يستحقه فإن الله تعالى يعامله بالرحمة، ويعامله بالكرم، ويعامله بالجود، ورحمة الله تعالى سبقت غضبه ﴿إنه هو يبدىء ويعيد﴾ يعني أن الأمر إليه ابتداء وإعادة وهذا كقوله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ فهو الذي بدأ الأشياء، وإليه تنتهي الأشياء، الأشياء منه وإليه في كل شيء، الخلق من الله وإليه، الشرائع من الله وإليه، كل الأمور من الله وإليه، ولهذا قال

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ (٤٦٨٦). ومسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٢٥٨٣) (٦١).

﴿يبدأ﴾ ولم يذكر ما الذي يبدؤه، فمعناه ﴿يبدأ﴾ كل شيء، ويعيد كل شيء، فكل الأمر بيده عز وجل، فاعرف أيها العبد من أين أنت، وأنك ابتدأت من عدم، واعرف منتهاك وغايتك، وأن غايتك إلى الله عز وجل ﴿وهو الغفور الودود﴾ ﴿الغفور﴾ يعني ذا المغفرة، والمغفرة ستر الذنب والعفو عنه فليست المغفرة ستر الذنب فقط بل ستره وعدم المؤاخذة عليه كما جاء في الحديث الصحيح: «**إن الله يخلو بعبده المؤمن يوم القيامة ويقرره بذنوبه حتى يقربها ويعترف فيقول الله عز وجل: قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»[1]، ويُذكر أن بني إسرائيل كانوا إذا أذنب الواحد منهم ذنباً وجده مكتوباً على باب بيته فضيحة وعاراً[2]، لكننا نحن ولله الحمد قد ستر الله علينا، فعلينا أن نتوب إلى الله ونستغفره من الذنب فتمحى آثاره، ولهذا قال: ﴿وهو الغفور﴾ أي الساتر لذنوب عباده المتجاوز عنها. ﴿الودود﴾ مأخوذة من الود، والود هو خالص المحبة فهو جل وعلا ودود، ومعنى ودود أنه محبوب وأنه حاب، فهو يشمل الوجهين جميعاً، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ [المائدة: ٥٤]. فهو جل وعلا واد يحب الأعمال، ويحب الأشخاص، ويحب الأمكنة وهو كذلك أيضاً محبوب يحبه أولياؤه ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران: ٣١]. فكلما كان الإنسان أتبع لرسول الله ﷺ كان أحب إلى الله، فهو جل وعلا واد وهو أيضاً مودود، أي أنه يُحِب ويُحَب، يُحِب سبحانه وتعالى الأعمال ويحب العاملين، ويحب الأشخاص يعني أن محبة الله قد تتعلق بشخص

---

(١) تقدم تخريجه ص (٥٣).

(٢) البيهقي في الشعب (٢/ ١٤٥، ٥/ ٤٢٦).

معين مثل قول الرسول عليه الصلاة والسلام في يوم خيبر: «**لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**» فبات الناس ثم غدوا إلى رسول الله ﷺ كلهم يرجوا أن يُعطاها فقال: «**أين علي بن أبي طالب**»؟ قالوا: يشتكي عينيه فدعا به فأتى فبصق في عينه فبرأ كأن لم يكن به وجع في الحال، ثم أعطاه الراية وقال: «**انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام**»[١] . الشاهد قوله: (يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله) فهنا أثبت أن الله يحب هذا الرجل بعينه علي بن أبي طالب، ولما بعث على سرية صار يقرأ لهم في الصلاة ويختم القراءة بـ﴿قل هو الله أحد﴾ فلما رجعوا إلى النبي ﷺ أخبروه بذلك، لأن عمله هذا وهو أنه يختم القراءة بـ ﴿قل هو الله أحد﴾ غير معروف، فقال: «سلوه لأي شيء كان يصنع ذلك»؟ فسألوه فقال: إنها صفة الله وأنا أحب أن أقرأها. فقال النبي ﷺ: «**أخبروه إن الله يحبه**»[٢] ، فهنا المحبة علقت بشخص معين يحبه الله، وقد تكون محبة الله بمعينين بأوصافهم مثل: ﴿إن الله يحب المتقين﴾ ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص﴾ [الصف: ٤]. هذا ليست في شخص معين لكن في شخص موصوف بصفة، كذلك يحب الله سبحانه وتعالى الأماكن «أحب البقاع إلى الله مساجدها»[٣] ، وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن مكة أحب

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٣٧٠٢) ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٦) (٣٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٧٣٧٥) ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل ﴿قل هو الله أحد﴾ (٨١٣) (٢٦٣).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب المساجد، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد (٦٧١) (٢٨٨).

البقاع إلى الله[١] هذه المحبة متعلقة بالأماكن فالله تعالى يُحِب ويُحَب ولهذا قال: ﴿وهو الغفور الودود﴾. ثم بين عظمته وتمام سلطانه في قوله: ﴿ذو العرش المجيد. فعال لما يريد﴾ ﴿ذو العرش﴾ أي صاحب العرش، والعرش هو الذي استوى عليه الله عز وجل، وهو أعظم المخلوقات وأكبرها وأوسعها، وقد جاء في الأثر أن السماوات السبع والأراضين السبع بالنسبة إلى الكرسي كحلقة ألقيت في فلاة في الأرض، وأن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة[٢]، حلقة الدرع صغيرة ألقيت في فلاة من الأرض ليست بشيء بالنسبة لها، «وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة»، إذن لا أحد يقدر سعته، وإذا كنا نشاهد من المخلوقات المشهودة الآن التباين العظيم في أحجامها. ولقد أطلعني رجل على صورة الشمس وصورة الأرض، فوجدت أن الأرض بالنسبة لهذه الشمس كنقطة غير كبيرة في صحن واسع كبير، وأنها لا تنسب إلى الشمس إطلاقاً، فإذا كان هذا في الأشياء المشهودة التي تدرك بالتلسكوب وغيره فما بالك بالأشياء الغائبة عنا لأن ما غـاب عنا أعظم مما نشاهد قال الله تعالى: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]. فالحاصل أن العرش هو سقف المخلوقات كلها، عرش عظيم استوى عليه الرحمن ـ جل وعلا ـ كما قال تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه: ٥]. وقوله:

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب المناقب، باب في فضل مكة (٣٩٢٥). وقال: حديث حسن غريب صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير ٣/٧، وابن أبي شيبة في كتاب العرش رقم (٥٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٢) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٠٩) وقال: «واعلم أنه لا يصح حديث مرفوع عن النبي ﷺ في صفة العرش إلا هذا الحديث». وانظر شرح العقيدة الواسطية لفضيلة شيخنا رحمه الله تعالى ص (١٤٠) من إعداد كاتبه.

﴿المجيد﴾ فيها قراءتان (المجيدِ) و(المجيدُ) فعلى القراءة الأولى تكون وصفاً للعرش، وعلى الثانية تكون وصفًا للرب عز وجل، وكلاهما صحيح فالعرش مجيد، وكذلك الرب عز وجل مجيد، ونحن نقول في التشهد إنك حميد مجيد. ﴿فعال لما يريد﴾ كل ما يريده فإنه يفعله عز وجل؛ لأنه تام السلطان لا أحد يمانعه، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾ [الرعد: ١١]. فكل ما يريده فإنه يفعله، لكن ملوك الدنيا وإن عظمت ملكيتهم لا يفعلون كل ما يريدون، ما أكثر ما يريدون ثم يوجد مانع يمنع، أما الرب فهو ذو السلطان الأعظم الذي لا يرد ما أراده شيء ﴿فعال لما يريد﴾ وفي هذا دليل على أن جميع ما وقع في الكون فإنه بإرادة الله عز وجل؛ لأن الله هو الذي خلقه فيكون واقعاً بإرادته، ولكن الله لا يريد شيئاً إلا لحكمة، فكل ما يقع من أفعال الله فإنه لحكمة عظيمة قد نعلمها وقد لا نعلمها. ﴿هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود. بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط﴾ ﴿الذين كفروا﴾ يشمل كل من كفر بالله ورسوله سواء كان من المشركين، أو من اليهود، أو النصارى أو غيرهم؛ وذلك لأن اليهود والنصارى الآن وبعد بعثة الرسول ﷺ ليسوا على دين ولا تنفعهم أديانهم لأنه ـ أي النبي ﷺ ـ خاتم الأنبياء فمن لم يؤمن به فليس على شيء من دينه، بل إن من لم يؤمن برسول واحد من الرسل فهو كافر بجميع الرسل، فمثلاً من لم يؤمن بنوح أنه رسول ولو آمن بغيره من الأنبياء فإنه مكذب لغيره من الرسل، فإذا ادعت اليهود أنهم على دين وأنهم يتبعون التوراة التي جاء بها موسى نقول لهم: أنتم كافرون بموسى كافرون بالتوراة، وإذا ادعت النصارى الذين يسمون أنفسهم اليوم (بالمسيحيين) أنهم مؤمنون

بعيسى قلنا لهم: كذبتم أنتم كافرون بعيسى؛ لأنكم كافرون بمحمد عليه الصلاة والسلام، والعجب أن هؤلاء اليهود والنصارى يكفرون بمحمد عليه الصلاة والسلام مع أنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، لكن العناد والكبرياء والحسد منعهم أن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ [البقرة: ١٠٩]. فالحاصل أن قوله تعالى: ﴿**بل الذين كفروا**﴾ يشمل كل من كفر بمحمد حتى من اليهود والنصارى، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي من هذه الأمة يعني أمة الدعوة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بما جئت به إلا كان من أصحاب النار**»[1] ، كل الكفار في تكذيب وقال ﴿**في تكذيب**﴾ فجعل التكذيب كالظرف لهم يعني أنه محيط بهم من كل جانب ﴿**والله من ورائهم محيط**﴾ يعني أن الله تعالى محيط بهم من كل جانب لا يشذون عنه لا عن علمه ولا سلطانه ولا عقابه، ولكنه عز وجل قد يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. ﴿**بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ**﴾ ﴿**بل هو**﴾ أي ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿**قرآن مجيد**﴾ أي ذو عظمة ومجد، ووصف القرآن بأنه مجيد لا يعني أن المجد وصف للقرآن نفسه فقط، بل هو وصف للقرآن، ولمن تحمل هذا القرآن فحمله وقام بواجبه من تلاوته حق تلاوته، فإنه سيكون لهم

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته (١٥٣) (٢٤١).

المجد والعزة والرفعة. وقوله تعالى: ﴿في لوح محفوظ﴾ يعني بذلك اللوح المحفوظ عند الله عز وجل الذي هو أم الكتاب كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ [الرعد: ٣٩]. وهذا اللوح كتب الله به مقادير كل شيء، ومن جملة ما كتب به أن هذا القرآن سينزل على محمد ﷺ فهو في لوح محفوظ، قال العلماء ﴿محفوظ﴾ لا يناله أحد، محفوظ عن التغيير والتبديل، والتبديل والتغيير إنما يكون في الكتب الأخرى؛ لأن الكتابة من الله عز وجل أنواع:

النوع الأول: الكتابة في اللوح المحفوظ وهذه الكتابة لا تبدل ولا تغير، ولهذا سماه الله لوحاً محفوظاً، لا يمكن أن يبدل أو يغير ما فيه.

الثاني: الكتابة على بني آدم وهم في بطون أمهاتهم، لأن الإنسان في بطن أمه إذا تم له أربعة أشهر، بعث الله إليه ملكاً موكلاً بالأرحام، فينفخ فيه الروح بإذن الله، لأن الجسد عبارة عن قطعة من لحم إذا نفخت فيه الروح صار إنسانًا، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد[1].

النوع الثالث: كتابة حولية كل سنة، وهي الكتابة التي تكون في ليلة القدر، فإن الله سبحانه وتعالى يقدر في هذه الليلة ما يكون في تلك السنة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ [الدخان: ٤]. فيكتب في هذه الليلة ما يكون في تلك السنة.

النوع الرابع: كتابة الصحف التي في أيدي الملائكة، وهذه الكتابة تكون بعد العمل، والكتابات الثلاث السابقة كلها قبل العمل،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٣) (١).

لكن الكتابة الأخيرة هذه تكون بعد العمل، يكتب على الإنسان ما يعمل من قول بلسانه، أو فعل بجوارحه، أو اعتقاد بقلبه، فإن الملائكة الموكلين بحفظ بني آدم أي بحفظ أعمالهم يكتبون قال الله تعالى: ﴿كلا بل تكذبون بالدين. وإن عليكم لحافظين. كراماً كاتبين. يعلمون ما تفعلون﴾ [الانفطار: ٩ ـ ١٢]. فإذا كان يوم القيامة فإنه يعطى هذا الكتاب كما قال تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]. يعني تعطى الكتاب ويقال لك أنت: اقرأ وحاسب نفسك، قال بعض السلف: لقد أنصفك من جعلك حسيباً على نفسك، وهذا صحيح أي إنصاف أبلغ من أن يقال للشخص تفضل هذا ما عملت حاسب نفسك، أليس هذا هو الإنصاف؟! بل أكبر إنصاف هو هذا، فيوم القيامة تعطى هذا الكتاب منشوراً مفتوحًا أمامك ليس مغلقاً، تقرأ ويتبين لك أنك عملت في يوم كذا، في مكان كذا، كذا وكذا، فهو شيء مضبوط لا يتغير، وإذا أنكرت فهناك من يشهد عليك ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم﴾ يقول اللسان: نطقت بكذا ﴿وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ تقول اليد: بطشت، تقول الرجل: مشيت، بل يقول الجلد أيضاً، الجلود تشهد بما لمست ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾ [فصلت: ٢١]. فالأمر ليس بالأمر الهين ـ نسأل الله تعالى أن يتولانا وإياكم بعفوه ومغفرته ـ وإلى هنا ينتهي الكلام على هذه السورة العظيمة التي ابتدأها الله تعالى بالقسم بالسماء ذات البروج وأنهاها بقوله: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ فمن تمسك بهذا القرآن العظيم فله المجد والعزة والكرامة والرفعة، ولهذا

ننصح أمتنا الإسلامية بادئين بأفراد شعوبها أن يتمسكوا بالقرآن العظيم، ونوجه الدعوة على وجه أوكد إلى ولاة أمورها أن يتمسكوا بالقرآن العظيم، وأن لا يغرهم البهرج المزخرف الذي يرد من الأمم الكافرة التي تضع القوانين المخالفة للشريعة، المخالفة للعدل، المخالفة لإصلاح الخلق، أن يضعوها موضع التنفيذ، ثم ينبذوا كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وراء ظهورهم، فإن هذا والله سبب التأخر ولا أظن أحداً يتصور أن أمة بهذا العدد الهائل تكون متأخرة هذا التأخر، وكأنها إمارة في قرية بالنسبة للدول الكافرة، لكن سبب ذلك لا شك معلوم هو أننا تركنا ما به عزتنا وكرامتنا وهو: التمسك بهذا القرآن العظيم، وذهبنا نلهث وراء أنظمة بائدة فاسدة مخالفة للعدل، مبنية على الظلم والجور، فنحن نناشد ولاة أمور المسلمين جميعاً، أناشدهم أن يتقوا الله عز وجل، وأن يرجعوا رجوعاً حقيقيًا إلى كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ حتى يستتب لهم الأمن والاستقرار، وتحصل لهم العزة والمجد والرفعة، وتطيعهم شعوبهم، ولا يكون في قلوب شعوبهم عليهم شيء؛ وذلك لأن الإنسان إذا أصلح ما بينه وبين ربه، أصلح الله ما بينه وبين الناس، فإذا كان ولاة الأمور يريدون أن تذعن لهم الشعوب، وأن يطيعوا الله فيهم، فليطيعوا الله أولاً حتى تطيعهم أممهم، وإلا فليس من المعقول أن يعصوا مالك الملك وهو الله عز وجل، ثم يريدون أن تطيعهم شعوبهم هذا بعيد جدًّا، بل كلما بَعُد القلب عن الله بعد الناس عن صاحبه، وكلما قَرُب من الله قرب الناس منه، فنسأل الله أن يعيد لهذه الأمة الإسلامية مجدها وكرامتها، وأن يذل أعداء المسلمين في كل مكان، وأن يكبتهم، وأن يردهم على أعقابهم خائبين، إنه على كل شيء قدير.

تفسير سورة الطارق

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾.

البسملة سبق الكلام عليها.

﴿والسماء والطارق﴾ ابتدأالله عز وجل هذه السورة بالقسم، أقسم الله تعالى بالسماء والطارق وقد يشكل على بعض الناس كيف يقسم الله سبحانه وتعالى بالمخلوقات مع أن القسم بالمخلوقات شرك لقول النبي ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**»[2]. فلا يجوز الحلف بغير الله لا بالأنبياء، ولا بالملائكة، ولا بالكعبة، ولا بالوطن، ولا بأي شيء من المخلوقات؟

والجواب على هذا الإشكال أن نقول: إن الله سبحانه وتعالى له أن يقسم بما شاء من خلقه، وإقسامه بما يقسم به من خلقه يدل على عظمة الله عز وجل، لأن عِظم المخلوق يدل على عِظم الخالق، وقد

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٢٥).

(٢) تقدم تخريجه ص (١٢٥).

أقسم الله تعالى بأشياء كثيرة من خلقه، ومن أحسن ما رأيته تكلم على هذا الموضوع ابن القيم رحمه الله في كتابه (التبيان في أقسام القرآن) وهو كتاب جيد ينفع طالب العلم كثيراً، فهنا يقسم الله تعالى بالسماء، والسماء هو كل ما علاك، فكل ما علاك فهو سماء، حتى السحاب الذي ينزل منه المطر يسمى سماءً، كما قال الله تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾ [الرعد: ١٧]. وإذا كان يطلق على كل ما علاك فإنه يشمل ما بين السماء والأرض ويشمل السماوات كلها لأنها كلها قد علتك وهي فوقك. وأما قوله: ﴿والطارق﴾ فهو قسم ثان، أي أن الله أقسم بالطارق فما هو الطارق؟ ليس الطارق هو الذي يطرق أهله ليلاً بل فسره الله عز وجل بقوله: ﴿النجم الثاقب﴾ هذا هو الطارق، والنجم هنا يحتمل أن يكون المراد به جميع النجوم فتكون (ال) للجنس، ويحتمل أنه النجم الثاقب، أي: النجم اللامع، قوي اللمعان، لأنه يثقب الظلام بنوره، وأيًّا كان فإن هذه النجوم من آيات الله عز وجل الدالة على كمال قدرته، في سيرها وانتظامها، واختلاف أشكالها واختلاف منافعها أيضاً، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ [النحل: ١٦]. وقال تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ [الملك: ٥]. فهي زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها. ثم بين الله المقسم عليه بقوله: ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ ﴿إن﴾ هنا نافية يعني ما كل نفس، و﴿لما﴾ بمعنى (إلا) يعني ما كل نفس إلا عليها حافظ من الله، وبين الله سبحانه وتعالى مهمة هذا الحافظ بقوله: ﴿وإن عليكم لحافظين. كراماً كاتبين. يعلمون ما تفعلون﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]. هؤلاء الحفظة يحفظون على الإنسان عمله، ما له وما عليه، ويجده يوم القيامة

كتاباً منشوراً يقول له: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ [الإسراء: ١٤]. هؤلاء الحفظة يكتبون ما يقوم به الإنسان من قول، وما يقوم به من فعل، سواء كان ظاهراً كأقوال اللسان، وأعمال الجوارح، أو باطناً حتى ما في القلب مما يعتقده الإنسان فإنه يكتب عليه لقوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. إذ يتلقى المتلقيان عن اليمن وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ [قٓ ١٦ ـ ١٨]. هذا الحافظ يحفظ عمل بني آدم، وهناك حفظة آخرون ذكرهم الله في قوله: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ [الرعد: ١١]. ﴿فلينظر الإنسان مما خلق﴾ (اللام) هنا للأمر، والمراد بالنظر هنا نظر الاعتبار وهو النظر بالبصيرة، يعني ليفكر الإنسان مما خلق؟ هل خلق من حديد؟ هل خلق من فولاذ؟ هل خلق من شيء قاسٍ قوي؟ والجواب على هذه التساؤلات: أنه ﴿خلق من ماء دافق﴾ وهو ماء الرجل، ووصفه الله تعالى في آيات أخرى بأنه ماء مهين ضعيف السيلان ليس كالماء العادي المنطلق، ووصفه الله تعالى في آية أخرى أنه نطفة أي قليل من الماء، هذا الذي خلق منه الإنسان، والعجب أن يخلق الإنسان من هذا الماء المهين، ثم يكون قلبه أقسى من الحجارة ـ والعياذ بالله ـ إلا من ألان الله قلبه لدين الله، ثم بين أن هذا الماء الدافق ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ من بين صلب الرجل وترائبه أعلى صدره، وهذا يدل على عمق مخرج هذا الماء، وأنه يخرج من مكان مكين في الجسد، وقال بعض العلماء: ﴿يخرج من بين الصلب﴾ أي صلب الرجل ﴿والترائب﴾ ترائب المرأة. ولكن هذا خلاف ظاهر اللفظ، والصواب أن الذي يخرج من بين الصلب والترائب هو ماء الرجل، لأن الله تعالى

وصفه بذلك. ثم قال تعالى: ﴿إنه على رجعه لقادر﴾ ﴿إنه﴾ أي الله عز وجل. ﴿على رجعه﴾ أي على رجع الإنسان ﴿لقادر﴾ وذلك يوم القيامة لقوله ﴿يوم تبلى السرائر﴾ فالذي قدر على أن يخلق الإنسان من هذا الماء الدافق المهين، قادر على أن يعيده يوم القيامة، وهذا من باب الاستدلال بالمحسوس على المنظور المترقب، وهو قياس عقلي، فإن الإنسان بعقله يقول إذا كان الله قادراً على أن يخلق الإنسان من هذا الماء المهين ويحييه قادر على أن يعيده مرة ثانية ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ [الروم: ٢٧]. ولهذا يستدل الله عز وجل بالمبدأ على المعاد لأنه قياس جلي واضح، ينتقل العقل من هذا إلى هذا بسرعة وبدون كلفة، وقوله: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ أي تختبر السرائر، وهي القلوب، فإن الحساب يوم القيامة على ما في القلوب، والحساب في الدنيا على ما في الجوارح، ولهذا عامل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم المنافقين معاملة المسلمين حيث كان يُستأذن في قتلهم فيقول: «**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»[1]، فكان لا يقتلهم وهو يعلم أن فلانًا منافق، وفلانًا منافق، لكن العمل في الدنيا على الظاهر ويوم القيامة على الباطن ﴿يوم تبلى السرائر﴾ أي تختبر وهذا كقوله: ﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور. وحصل ما في الصدور﴾ [العاديات: ٩، ١٠]. ولهذا يجب علينا العناية بعمل القلب أكثر من العناية بعمل الجوارح، عمل الجوارح علامة ظاهرة، لكن عمل القلب هو الذي عليه المدار، ولهذا أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن الخوارج يخاطب الصحابة يقول: «**يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم** ـ يعني أنهم يجتهدون في الأعمال الظاهرة لكن قلوبهم خالية والعياذ بالله ـ لا

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوة الجاهلية (٣٥١٨).

يتجاوز الإسلام حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية»[١] ، قال الحسن البصري رحمه الله: (والله ما سبقهم أبو بكر بصلاة ولا صوم، وإنما سبقهم بما وقر في قلبه من الإيمان) والإيمان إذا وقر في القلب حمل الإنسان على العمل، لكن العمل الظاهر قد لا يحمل الإنسان على إصلاح قلبه، فعلينا أن نعتني بقلوبنا وأعمالها، وعقائدها، واتجاهاتها، وإصلاحها وتخليصها من شوائب الشرك والبدع، والحقد والبغضاء، وكراهة ما أنزل الله على رسوله وكراهة الصحابة رضي الله عنهم، وغير ذلك مما يجب تنزيه القلب عنه.

ثم قال تعالى: ﴿**فما له من قوة**﴾ يعني يوم القيامة ما للإنسان من قوة ذاتية ﴿**ولا ناصر**﴾ وهي القوة الخارجية، هو بنفسه لا يستطيع أن يدافع عن نفسه، ولا أحد يستطيع أن يدافع عنه، قال الله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ [المؤمنون: ١٠١]. في الدنيا يتساءلون، يسأل بعضهم بعضاً، ويحتمي بعضهم ببعض، لكن يوم القيامة لا أنساب يعني لا قرابة، لا تنفع القرابة ولا يتساءلون.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

بعد أن ذكر الله تعالى الإقسام ﴿**والسماء والطارق**﴾ إلى

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾ وقوله جل ذكره: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ (٧٤٣٢)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (١٠٦٣) (١٤٢).

آخره. . . إلى قوله ﴿يوم تبلى السرائر. فما له من قوة ولا ناصر﴾ قال تعالى: ﴿والسماء ذات الرجع. والأرض ذات الصدع﴾ هذا هو القسم الثاني للسماء، والقسم الأول ما كان في أول السورة، فهناك قال: ﴿والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب﴾ هنا قال: ﴿والسماء ذات الرجع. والأرض ذات الصدع. إنه لقول فصل﴾ والمناسبة بين القسمين ـ والله أعلم ـ أن الأول فيه إشارة إلى الطارق الذي هو النجم، والنجم تُرمى به الشياطين الذين يسترقون السمع، وفي رمي الشياطين بذلك حفظ لكتاب الله عز وجل، أما هنا فأقسم بالسماء ذات الرجع أن هذا القرآن قول فصل، فأقسم على أن القرآن قول فصل، فصار القسم الأول مناسبته أن فيه الإشارة إلى ما يحفظ به هذا القرآن حال إنزاله، وفي القسم الثاني الإشارة إلى أن القرآن حياة، يعني يقال: ﴿والسماء ذات الرجع﴾ الرجع هو المطر، يسمى رجعاً لأنه يرجع ويتكرر، ومعلوم أن المطر به حياة الأرض. ﴿والأرض ذات الصدع﴾ الصدع هو الانشقاق يعني الشتقق بخروج النبات منه، فأقسم بالمطر الذي هو سبب خروج النبات، وبالتشقق الذي يخرج منه النبات، وكله إشارة إلى حياة الأرض بعد موتها، والقرآن به حياة القلوب بعد موتها، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ [الشورى: ٥٢]. فسمى الله القرآن روحاً لأنه تحيى به القلوب.

يقول عز وجل: ﴿والسماء ذات الرجع﴾ أي ذات المطر. ﴿والأرض ذات الصدع﴾ أي ذات الانشقاق لخروج النبات منها. ﴿إنه﴾ أي القرآن ﴿لقول فصل﴾ وصفه الله تعالى بأنه قول فصل، وهو قول الله عز وجل، فهو الذي تكلم به وألقاه إلى جبريل عليه الصلاة

والسلام، ثم نزل به جبريل على قلب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وقد أضاف الله القرآن قولاً إلى جبريل، وإلى محمد عليهما الصلاة والسلام، فقال تعالى في الأول: ﴿إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثمَّ أمين﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]. وقال في الثاني إضافته إلى الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿إنه لقول رسول كريم. وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١]. ففي الأول أضاف القول إلى جبريل عليه الصلاة والسلام، لأنه بلغه عن الله إلى محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وفي الثاني أضافه إلى محمد ﷺ لأنه بلغه إلى الناس، وإلا فإن الذي قاله ابتداءً هو الله سبحانه وتعالى. ﴿إنه لقول فصل﴾ فصل يفصل بين الحق والباطل، وبين المتقين والظالمين، بل إنه فصل أي قاطع لكل من ناوأه وعاداه، ولهذا نجد المسلمين لما كانوا يجاهدون الكفار بالقرآن نجدهم غلبوا الكفار، وقطعوا دابرهم، وقضي بينهم، فلما أعرضوا عن القرآن هُزموا وأذلوا بقدر بُعدهم عن القرآن، وكلما أبعد الإنسان عن كتاب الله ابتعدت عنه العزة، وابتعد عنه النصر حتى يرجع إلى كتاب الله عز وجل. ﴿وما هو بالهزل﴾ أي ما هو باللعب والعبث واللغو، بل هو حق، كلماته كلها حق، أخباره صدق، وأحكامه عدل، وتلاوته أجر، لو تلاه الإنسان كل أوانه لم يمل منه، وإذا تلاه بتدبر وتفكر فتح الله عليه من المعاني ما لم يكن عنده من قبل، وهذا شيء مشاهد، اقرأ القرآن وتدبره، كلما قرأته وتدبرته حصل لك من معانيه ما لم يكن يحصل لك من قبل، كل هذا لأنه فصل وليس بالهزل، لكن الكلام اللغو من كلام الناس كلما كررته مججته وكرهته ومللته أما كتاب الله فلا. ثم قال تعالى: ﴿إنهم يكيدون كيداً﴾ ﴿إنهم﴾ يعني الكفار المكذبين للرسول صلى الله عليه

وعلى آله وسلم ﴿يكيدون كيداً﴾ أي كيداً عظيماً، يكيدون للرسول عليه الصلاة والسلام، ويكيدون لمن اتبعه، وانظر ماذا كانوا يفعلون بالمؤمنين أيام كانوا في مكة من التعذيب والتوبيخ والتشريد، هاجر المسلمون مرتين إلى الحبشة، ثم هاجروا إلى المدينة كل ذلك فراراً بدينهم من هؤلاء المجرمين، الذين آذوهم بكل كيد، وأعظم ما فعلوه بالنبي عليه الصلاة والسلام حين الهجرة حيث اجتمع رؤساؤهم وأشرافهم يتشاورون ماذا يفعلون بمحمد؟ فكلما ذكروا رأياً نقضوه، قالوا هذا لا يصلح، حتى أشار إليهم فيما ذكره أهل التاريخ الشيطان الذي جاء بصورة رجل وقال لهم: إني أرى أن تختاروا عشرة شبان من قبائل متفرقة، وتعطوا كل واحد منهم سيفاً حتى يقتلوا محمداً قتلة رجل واحد، فإذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل، فلم تستطع بنو هاشم أن تقتص من القبائل كلها فيرضخون إلى أخذ الدية. وهذا هو الذي يريدون، فأجمعوا على هذا الرأي واستحسنوا هذا الرأي، وفعلاً جلس الشبان العشرة ينتظرون خروج النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليقتلوه، ولكن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم خرج من الباب وهم جلوس ولم يشاهدوه، وذكر التاريخ[1] أنه جعل يذر التراب على رؤوسهم إذلالاً لهم، ويقرأ قول الله تعالى: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ [يس: ٩]. ولا تتعجب كيف خرج النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من بينهم ولم يشاهدوه، لا تعجب من هذا، فها هم قريش حين اختبأ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الغار لما خرج من مكة يريد المدينة اختبأ في الغار ثلاثة أيام ليخف عنه الطلب؛ لأن قريش صارت تطلبه، وجعلت لمن

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير رحمه الله ٤/ ٤٤١.

جاء به مئة بعير، ولمن جاء به مع أبي بكر مئتي بعير، وهذه جائزة كبيرة، فوقفوا على الغار الذي فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر، وكلنا يعلم أن الغار المفتوح إذا كان فيه أحد فسوف يُرى، ولكنهم لم يروا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولا أبا بكر رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى قدمه لأبصرنا. فقال: «**لا تحزن إن الله معنا، ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»[1] . فاطمأن أبو بكر. هؤلاء القوم الذين وقفوا على الغار ليس عندهم قصور في السمع، ولا قصور في البصر، ولا قصور في الذكاء، ولكن أعمى الله أبصارهم عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وصاحبه، فلا تعجبوا أن خرج من بين هؤلاء الشبان العشرة كما قال أهل التاريخ، وجعل يذر التراب على رؤوسهم ويقول: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾. وقال الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك﴾ يعني يحبسوك ﴿أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ [الأنفال: ٣٠]. ﴿**إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً**﴾ ثم قال عز وجل: ﴿**فمهل الكافرين أمهلهم رويداً**﴾ مهل وأمهل معناهما واحد يعني انتظر بمهلة ولا تنتظر بمهلة طويلة، ﴿**رويداً**﴾ أي قليلاً، ورويداً تصغير رود أو إرواد، والمراد به الشيء القليل. وفي هذه الآية تهديد لقريش، وتسلية للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ووعد له بالنصر. وحصل الأمر كما أخبر الله عز وجل، خرج النبي عليه الصلاة والسلام مهاجراً منهم، وحصل بينه وبينهم حروب، وفي السنة الثانية من الهجرة قُتل من صناديد قريش

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم (٣٦٥٣). ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨١) (١).

وكبرائهم وزعمائهم نحو أربعة وعشرين رجلاً، منهم قائدهم أبو جهل، وبعد ثماني سنوات بل أقل من ثماني سنوات دخل النبي ﷺ مكة فاتحاً منصوراً ظافراً، حتى إنه قال - كما جاء في التاريخ - وهو ممسك بعضادتي باب الكعبة وقريش تحته قال لهم: «**ما ترون أني فاعل بكم**»؟ لأن أمرهم أصبح بيده عليه الصلاة والسلام، «**ما ترون أني فاعل بكم**»؟ قالوا: أخٌ كريم، وابن أخ كريم. فقال: «**إني أقول لكم كما قال يوسف لأخوته: ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾** [يوسف: ٩٢]. **اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[1]، وإنما منّ عليهم هذه المنة عليه الصلاة والسلام لأنهم أسلموا، وقد قال الله تعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ [الأنفال: ٣٨].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يتلون كتاب الله حق تلاوته، وأن ينفعنا به، وأن يجعله شفيعاً لنا يوم القيامة، إنه على كل شيء قدير، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) انظر زاد المعاد لابن القيم رحمه الله تعالى.

تفسير سورة الأعلى

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (١٣)﴾.

البسملة سبق الكلام عليها، وإنها آية من كتاب الله مستقلة ليست من الفاتحة ولا من البقرة، ولا من آل عمران، ولا من أي سورة من القرآن، لكنها آية مستقلة تنزل في ابتداء كل سورة سوى سورة (براءة).

﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ الخطاب هنا للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والخطاب الموجه للرسول في القرآن الكريم على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يقوم الدليل على أنه خاص به فيختص به.

القسم الثاني: أن يقوم الدليل على أنه عام فيعم.

القسم الثالث: أن لا يدل دليل على هذا ولا على هذا، فيكون خاصًا به لفظاً، عامًا له وللأمة حكماً.

مثال الأول: قوله تبارك وتعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك.

ووضعنا عنك وزرك﴾ [الشرح: ١، ٢]. ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وأرسلناك للناس رسولاً﴾ [النساء: ٧٩]. فإن هذا من المعلوم أنه خاص بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ومثال الثاني الموجه للرسول عليه الصلاة والسلام، وفيه قرينة تدل على العموم: قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ [الطلاق: ١]. فوجه الخطاب أولاً للرسول عليه الصلاة والسلام قال: ﴿يا أيها النبي﴾ ولم يقل «يا أيها الذين آمنوا إذا طلقتم» قال: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم﴾، ولم يقل: (يا أيها النبي إذا طلقت) قال: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم﴾ فدل هذا على أن الخطاب الموجه للرسول عليه الصلاة والسلام موجه له وللأمة.

وأما أمثلة الثالث: فهي كثيرة جداً يوجه الله الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام، والمراد الخطاب له لفظاً وللعموم حكماً.

هنا يقول الله عز وجل: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ ﴿سبح﴾ يعني نزه الله عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، فإن التسبيح يعني التنزيه، إذا قلت: سبحان الله، يعني أنني أنزه الله عن كل سوء، عن كل عيب، عن كل نقص، ولهذا كان من أسماء الله تعالى (السلام، القدوس) لأنه منزه عن كل عيب. وأضرب أمثلة: من صفات الله تعالى: الحياة ليس فيها نقص بوجه من الوجوه، وحياة المخلوق فيها نقص، أولاً: لأنها مسبوقة بالعدم فالإنسان ليس أزلياً. وثانياً: أنها ملحوقة بالفناء ﴿كل من عليها فان﴾ [الرحمن: ٢٦].

مثال آخر: سمع الله عز وجل ليس فيه نقص يسمع كل شيء، حتى إن المرأة التي جاءت تشتكي إلى النبي ﷺ والتي ذكر الله تعالى قصتها في سورة المجادلة، كانت تُحدث النبي صلى الله عليه وعلى آله

وسلم وعائشة في الحجرة يخفى عليها بعض حديثها، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾ [المجادلة: ١]. ولهذا قالت عائشة: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات)[1]، إن المرأة المجادلة لتشتكي إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وإنه ليخفى علي بعض حديثها. إذن معنى ﴿سبح﴾ نزه الله عن كل عيب ونقص.

وقوله: ﴿اسم ربك الأعلى﴾ قال بعض المفسرين: إن قوله ﴿اسم ربك﴾ يعني مسمى ربك؛ لأن التسبيح ليس للاسم بل لله نفسه، ولكن الصحيح أن معناها: سبح ربك ذاكراً اسمه، يعني لا تسبحه بالقلب فقط بل سبحه بالقلب واللسان، وذلك بذكر اسمه تعالى، ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ [الواقعة: ٩٦]. يعني سبح تسبيحاً مقروناً باسم، وذلك لأن تسبيح الله تعالى قد يكون بالقلب، بالعقيدة، وقد يكون باللسان، وقد يكون بهما جميعاً، والمقصود أن يسبح بهما جميعاً بقلبه لافظاً بلسانه. وقوله ﴿ربك﴾ الرب معناه الخالق المالك المدبر لجميع الأمور، فالله تعالى هو الخالق، وهو المالك، وهو المدبر لجميع الأمور، والمشركون يقرون بذلك ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾ [لقمان: ٢٥]. ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ [الزخرف: ٨٧]. وأخبر الله سبحانه وتعالى أنهم إذا سئلوا ﴿أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله﴾ [يونس: ٣١]. فهم يقرون بأن الله له الملك، وله التدبير، وله الخلق، لكن يعبدون معه غيره، وهذا من الجهل، كيف تقر بأن الله وحده هو الخالق، المالك، المدبر

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً، كتاب التوحيد، باب ﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾ (٩). ووصله الإمام أحمد في المسند (٦/٤٦).

للأمور كلها وتعبد معه غيره!! إذن معنى الرب هو الخالق، المالك، المدبر لجميع الأمور، وكل إنسان يقر بذلك يلزمه أن لا يعبد إلا الله، كما تدل عليه الآيات الكثيرة: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم﴾ [البقرة: ٢١]. قال: ﴿اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾ يعني لا تعبدون غيره. ﴿الأعلى﴾ من العلو، وعلو الله عز وجل نوعان: علو صفة، وعلو ذات، أما علو الصفة: فإن أكمل الصفات لله عز وجل، قال تعالى: ﴿ولله المثل الأعلى﴾ [النحل: ٦٠].

وأما علو الذات: فهو أن الله تعالى فوق عباده مستو على عرشه، والإنسان إذا قال: يا الله أين يتجه؟ يتجه إلى السماء إلى فوق، فالله جل وعلا فوق كل شيء مستو على عرشه. إذن ﴿الأعلى﴾ إذا قرأتها فاستشعر بنفسك أن الله عال بصفاته، وعال بذاته، ولهذا كان الإنسان إذا سجد يقول: سبحان ربي الأعلى، يتذكر بسفوله هو، لأنه هو الآن نزل، فأشرف ما في الإنسان وأعلى ما في الإنسان هو وجهه ومع ذلك يجعله في الأرض التي تداس بالأقدام، فكان من الحكمة أن تقول: سبحان ربي الأعلى، يعني أنزه ربي الذي هو فوق كل شيء، لأني نزلت أنا أسفل كل شيء، فتسبح الله الأعلى بصفاته، والأعلى بذاته، وتشعر عندما تقول: سبحان ربي الأعلى، أن ربك تعالى فوق كل شيء، وأنه أكمل كل شيء في الصفات. ثم قال: ﴿الذي خلق فسوى﴾ ﴿خلق﴾ يعني أوجد من العدم، كل المخلوقات أوجدها الله عز وجل، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾ [الحج: ٢٣]. وهو مثل عظيم، كل الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً، ولو اجتمعوا له، لو يجتمع جميع الآلهة التي تعبد

من دون الله وجميع السلاطين وجميع الرؤساء وجميع المهندسين على أن يخلقوا ذباباً واحداً ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ونحن في هذا العصر وقد تقدمت الصناعة هذا التقدم الهائل لو اجتمع كل هؤلاء الخلق أن يخلقوا ذباباً ما استطاعوا، حتى لو أنهم كما يقولون: صنعوا آدمياً آلياً ما يستطيعون أن يخلقوا ذبابة، هذا الآدمي الآلي ما هو إلا الآلات تتحرك فقط، لكن لا تجوع، ولا تعطش، ولا تحتر، ولا تبرد، ولا تتحرك إلا بتحريك، الذباب لا يمكن أن يخلقه كل من سوى الله، فالله سبحانه وتعالى وحده هو الخالق وبماذا يخلق؟ بكلمة واحدة ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ [آل عمران: ٥٩]. ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ [يس: ٨٢]. كلمة واحدة، الخلائق كلها تموت وتفنى وتأكلها الأرض، وتأكلها السباع، وتحرقها النيران، وإذا كان يوم القيامة زجرها الله زجرة واحدة أخرجي فتخرج. ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾ [النازعات: ١٣]. ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ [يس: ٥٣]. كل العالم من إنس وجن، ووحوش وحشرات وغيرها كلها يوم القيامة تحشر بكلمة واحدة. إذن فالله عز وجل وحده هو الخالق ولا أحد يخلق معه، والخلق لا يعسره ولا يعجزه وهو سهل عليه ويكون بكلمة واحدة. وقوله ﴿فسوى﴾ يعني سوى ما خلقه على أحسن صورة، وعلى الصورة المتناسبة، الإنسان مثلاً قال الله تعالى في سورة الانفطار: ﴿الذي خلقك فسواك فعدلك. في أي صورة ما شاء ركبك﴾ [الانفطار: ٧، ٨]. ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [التين: ٤]. لا يوجد في الخلائق شيء أحسن من خلقة الإنسان، رأسه فوق، وقلبه في الصدر، وعلى هيئة تامة، ولهذا أول من يدخل في قوله:

﴿فسوى﴾ هو تسوية الإنسان ﴿الذي خلق فسوى﴾ كل شيء يسوى على الوجه الذي يكون لائقاً به. ﴿والذي قدر فهدى﴾ قدر كل شيء عز وجل كما قال تعالى: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ [الفرقان: ٢]. قدره في حاله، وفي مآله، وفي ذاته، وفي صفاته، كل شيء له قدر محدود، فالآجال محدودة، والأحوال محدودة، والأجسام محدودة، وكل شيء مقدر تقديراً كما قال تعالى: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾. وقوله: ﴿فهدى﴾ يشمل الهداية الشرعية، والهداية الكونية، الهداية الكونية: أن الله هدى كل شيء لما خلق له، قال فرعون لموسى: ﴿فمن ربكما يا موسى. قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ [طه: ٤٩، ٥٠]. تجد كل مخلوق قد هداه الله تعالى لما يحتاج إليه، فالطفل إذا خرج من بطن أمه وأراد أن يرضع يهديه الله عز وجل إلى هذا الثدي يرتضع منه، وانظر إلى أدنى الحشرات النمل مثلاً لا تصنع بيوتها إلا في مكان مرتفع على ربوة من الأرض تخشى من السيول تدخل بيوتها فتفسدها، وإذا جاء المطر وكان في جحورها، أو في بيوتها طعام من الحبوب تخرج به إذا طلعت الشمس تنشره لئلا يعفن، وهي قبل أن تدخره تأكل أطراف الحبة لئلا تنبت فتفسد عليهم، هذا الشيء مشاهد مجرب من الذي هداها لذلك؟ إنه الله عز وجل، وهذه هداية كونية أي: أنه هدى كل مخلوق لما يحتاج إليه.

أما الهداية الشرعية ـ وهي الأهم بالنسبة لبني آدم ـ فهي أيضاً بينها الله عز وجل حتى الكفار قد هداهم الله يعني بيّن لهم، قال الله تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ [فصلت: ١٧]. والهداية الشرعية هي المقصود من حياة بني آدم ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦]. وإنما أخبرنا الله بذلك لأجل أن

نلجأ إليه في جميع أمورنا، إذا علمنا أنه هو الخالق بعد العدم وأصابنا المرض نلجأ إلى الله لأن الذي خلقك وأوجدك من العدم قادر على أن يصحح بدنك، إذاً الجأ إلى ربك، اعتمد عليه، ولا حرج أن تتناول ما أباح لك من الدواء، لكن مع اعتقاد أن هذا الدواء سبب من الأسباب جعله الله عز وجل، وإذا شفيت بهذا السبب فالذي شفاك هو الله عز وجل، هو الذي جعل هذا الدواء سبباً لشفائك، ولو شاء لجعل هذا الدواء سبباً لهلاكك، فإذا علمنا أن الله هو الخالق فنحن نلجأ في أمورنا كلها إلى الله عز وجل، إذا علمنا أنه هو الهادي فإننا نستهدي بهدايته، بشريعته حتى نصل إلى ما أعد لنا ربنا عز وجل من الكرامة. ﴿**سنقرئك فلا تنسى. إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى**﴾ هذا وعد من الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه يقرئه القرآن ولا ينساه الرسول، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يتعجل إذا جاء جبريل يُلقي عليه الوحي فقال الله له: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩]. فصار النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ينصت حتى ينتهي جبريل من قراءة الوحي ثم يقرأه، وهنا يقول: ﴿**سنقرئك فلا تنسى. إلا ما شاء الله**﴾ يعني إلا ما شاء أن تنساه فإن الأمر بيده عز وجل ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ [الرعد: ٣٩]. ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير. ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ [البقرة: ١٠٦، ١٠٧]. وربما نُسِّي النبي صلى الله عليه وآله وسلم آية من كتاب الله ولكنه سرعان ما يذكرها عليه الصلاة والسلام، وقوله تعالى: ﴿**إنه يعلم الجهر**﴾ أي أن الله تعالى يعلم الجهر، والجهر:

ما يجهر به الإنسان ويتكلم به مسموعاً. ﴿وما يخفى﴾ أي ما يكون خفيًّا لا يُظهر فإن الله يعلمه كما قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ [ق: ١٦]. فهو يعلم عز وجل الجهر ويعلم أيضاً ما يخفى. ﴿ونيسرك لليسرى﴾ وهذا أيضاً وعد من الله عز وجل لرسوله عليه الصلاة والسلام أن ييسره لليسرى، واليسرى أن تكون أموره ميسرة، ولاسيما في طاعة الله عز وجل، ولما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنه ما من أحد من الناس إلا وقد كتب مقعده من الجنة، ومقعده من النار، كل بني آدم مكتوب مقعده من الجنة إن كان من أهل الجنة، ومقعده من النار إن كان من أهل النار، قالوا: (يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل ـ يعني على ما كتب ـ قال: «**لا. اعملوا فكلٌّ ميسر لما خلق له**» فأهل السعادة ييسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة ييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسرة لليسرى﴾[1] وهذا الحديث يقطع حُجة من يحتج بالقدر على معاصي الله فيعصي الله ويقول: هذا مكتوب علي. وهذا ليس بحجة؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «**اعملوا فكلٌّ ميسر لما خلق له**» هل أحد يحجزك عن العمل الصالح لو أردته؟ أبداً. هل أحد يجبرك على المعصية لو لم تردها؟ أبداً لا أحد، ولهذا لو أن أحداً أجبرك على المعصية وأكرهك عليها لم يكن عليك إثم، ولا يترتب على فعلك لها ما يترتب على فعل المختار لها، حتى إن الكفر وهو أعظم الذنوب، قال الله تعالى فيه: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب موعظة المحدث (١٣٦٢). ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٧).

بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ [النحل: ١٠٦].
إذن نقول اعمل أيها الإنسان، اعمل الخير وتجنب الشر، حتى ييسرك الله لليسرى ويجنبك العسرى، فرسول الله ﷺ وعده الله بأن ييسره لليسرى فيسهل عليه الأمور، ولهذا لم يقع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في شدة وضنك إلا وجد له مخرجاً عليه الصلاة والسلام. ثم أمره تعالى أن يذكر فقال: ﴿فذكر إن نفعت الذكرى﴾ يعني ذكر الناس، ذكرهم بآيات الله، ذكرهم بأيام الله، عظهم، ﴿إن نفعت الذكرى﴾ يعني في محل تنفع فيه الذكرى، وعلى هذا فتكون ﴿إن﴾ شرطية والمعنى إن نفعت الذكرى فذكر، وإن لم تنفع فلا تذكر، لأنه لا فائدة من تذكير قوم نعلم أنهم لا ينتفعون، هذا ما قيل في هذه الآية.

وقال بعض العلماء: المعنى ذكر على كل حال، إن كان هؤلاء القوم تنفع فيهم الذكرى فيكون الشرط هنا ليس المقصود به أنه لا يُذكر إلا إذا نفعت، بل المعنى ذكر إن كان هؤلاء القوم ينفع فيهم التذكير، فالمعنى على هذا القول: ذكر بكل حال، والذكرى سوف تنفع. تنفع المؤمنين، وتنفع المُذكِّر أيضاً، فالمذكر منتفع على كل حال، والمذكر إن انتفع بها فهو مؤمن، وإن لم ينتفع بها فإن ذلك لا ينقص من أجر المذكر شيئاً، فذكر سواء نفعت الذكرى أم لم تنفع.

وقال بعض العلماء: إن ظن أن الذكرى تنفع وجبت، وإن ظن أنها لا تنفع فهو مخير إن شاء ذكر وإن شاء لم يذكر.

ولكن على كل حال نقول: لابد من التذكير حتى وإن ظننت أنها لا تنفع، فإنها سوف تنفعك أنت، وسوف يعلم الناس أن هذا الشيء الذي ذكرت عنه إما واجب، وإما حرام، وإذا سكتَّ والناس يفعلون المحرم، قال الناس: لو كان هذا محرماً لذكَّر به العلماء، أو لو كان هذا

واجباً لذكَّر به العلماء، فلابد من التذكير ولابد من نشر الشريعة سواء نفعت أم لم تنفع. ثم ذكر الله عز وجل من سيذكر ومن لا يتذكر فقال: ﴿سيذكر من يخشى. ويتجنبها الأشقى﴾ فبين تعالى أن الناس ينقسمون بعد الذكرى إلى قسمين:

القسم الأول: من يخشى الله عز وجل، أي يخافه خوفاً عن علم بعظمة الخالق جل وعلا، فهذا إذا ذكر بآيات ربه تذكر كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًّا وعمياناً﴾ [الفرقان: ٧٣]. فمن يخشى الله ويخاف الله إذا ذكر ووعظ بآيات الله اتعظ وانتفع.

أما القسم الثاني: فقال: ﴿ويتجنبها الأشقى﴾ أي يتجنب هذه الذكرى ولا ينتفع بها الأشقى و﴿الأشقى﴾ هنا اسم تفضيل من الشقاء وهو ضد السعادة كما في سورة هود: ﴿فأما الذين شقوا ففي النار﴾ [هود: ١٠٦]. ﴿وأما الذين سعدوا ففي الجنة﴾ [هود: ١٠٨]. فالأشقى المتصف بالشقاوة يتجنب الذكرى ولا ينتفع بها، والأشقى هو البالغ في الشقاوة غايتها وهذا هو الكافر، فإن الكافر يذكر ولا ينتفع بالذكرى، ولهذا قال: ﴿الذي يصلى النار الكبرى. ثم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ الذي يصلى النار الموصوفة بأنها ﴿الكبرى﴾ وهي نار جهنم؛ لأن نار الدنيا صغرى بالنسبة لها، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**أن نار الدنيا جزء من سبعين جزءاً من نار الآخرة**»[1]، أي أن نار الآخرة فضلت على نار الدنيا بتسعة وستين جزءاً، والمراد بنار الدنيا كلها أشد ما يكون من نار الدنيا فإن نار الآخرة فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً ولهذا وصفها بقوله: ﴿النار الكبرى﴾ ثم إذا صلاها ﴿لا

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنة، باب جهنم (٢٨٤٣) (٤٣).

يموت فيها ولا يحيى﴾ المعنى لا يموت فيستريح، ولا يحيى حياة سعيدة، وإلا فهم أحياء في الواقع لكن أحياء يعذبون ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها﴾ [النساء: ٥٦]. كما قال الله عز وجل ﴿ونادوا يا مالك﴾ وهو خازن النار ﴿ليقض علينا ربك﴾ يعني ليهلكنا ويريحنا من هذا العذاب ﴿قال إنكم ماكثون﴾ ولا راحة ويقال لهم: ﴿لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون﴾ [الزخرف: ٧٨]. هذا معنى قوله: ﴿لا يموت فيها ولا يحيى﴾ لأنه قد يشكل على بعض الناس كيف يكون الإنسان لا حي ولا ميت؟ والإنسان إما حي وإما ميت؟

فيقال: لا يموت فيها ميتة يستريح بها، ولا يحيى حياة يسعد بها، فهو في عذاب وجحيم، وشدة يتمنى الموت ولكن لا يحصل له، هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ثم لا يموت فيها ولا يحيى﴾.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى﴾ ﴿أفلح﴾ مأخوذ من الفلاح، والفلاح كلمة جامعة، وهو: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، هذا هو معنى الفلاح فهي كلمة جامعة لكل خير، دافعة لكل شر. وقوله: ﴿من تزكى﴾ مأخوذة من التزكية وهو التطهير، ومنه سميت الزكاة زكاة؛ لأنها تطهر الإنسان من الأخلاق الرذيلة، أخلاق البخل كما قال تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم﴾ [التوبة:

١٠٣]. إذن ﴿تزكى﴾ يعني تطهر، ظاهره وباطنه، يتزكى أولاً من الشرك بالنسبة لمعاملة الله، فيعبد الله مخلصاً له الدين، لا يرائي، ولا يسمع، ولا يطلب جاهاً، ولا رئاسة فيما يتعبد به الله عز وجل، وإنما يريد بهذا وجه الله والدار الآخرة. تزكى في اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام بحيث لا يبتدع في شريعته لا بقليل ولا كثير، لا في الاعتقاد، ولا في الأقوال ولا في الأفعال، وهذا أعني التزكي بالنسبة للرسول عليه الصلاة والسلام، وهو اتباعه من غير ابتداع لا ينطبق تماماً إلا على الطريقة السلفية طريقة أهل السنة والجماعة الذين يؤمنون بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، على الطريقة السلفية الذين لا يبتدعون في العبادات القولية، ولا في العبادات الفعلية شيئاً في دين الله، تجدهم يتبعون ما جاء به الشرع، خلافاً لما يصنعه بعض المبتدعة في الأذكار المبتدعة، إما في نوعها، وإما في كيفيتها وصفتها، وإما في أدائها كما يفعله بعض أصحاب الطرق من الصوفية وغيرهم. كذلك يتزكى بالنسبة لمعاملة الخلق بحيث يطهر قلبه من الغل والحقد على إخوانه المسلمين فتجده دائماً طاهر القلب يحب لإخوانه ما يحب لنفسه لا يرضى لأحد أن يمسه سوء، بل يود أن جميع الناس سالمون من كل شر، موفقون لكل خير. فـ﴿من تزكى﴾ أي من تطهر ظاهره وباطنه، فتطهر باطنه من الشرك بالله عز وجل، ومن الشك، ومن النفاق، ومن العداوة للمسلمين والبغضاء، وغير ذلك مما يجب أن يتطهر القلب منه، وتطهر ظاهره من إطلاق لسانه وجوارحه في العدوان على عبادالله عز وجل، فلا يغتاب أحداً، ولا ينم عن أحد، ولا يسب أحداً، ولا يعتدي على أحد بضرب، أو جحد مال أو غير ذلك، فالتزكي كلمة عامة تشمل التطهر

من كل درن ظاهر أو باطن، فصارت التزكية لها ثلاث متعلقات: الأول: في حق الله. والثاني: في حق الرسول. والثالث: في حق عامة الناس. في حق الله تعالى يتزكى من الشرك فيعبد الله تعالى مخلصاً له الدين. في حق الرسول يتزكى من الابتداع فيعبد الله على مقتضى شريعة النبي ﷺ في العقيدة، والقول، والعمل. في معاملة الناس يتزكى من الغل والحقد والعداوة والبغضاء، وكل ما يجلب العداوة والبغضاء بين المسلمين يتجنبه، ويفعل كل ما فيه المودة والمحبة ومن ذلك: إفشاء السلام الذي قال فيه الرسول عليه الصلاة والسلام: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم**»[1]، فالسلام من أقوى الأسباب التي تجلب المحبة والمودة بين المسلمين وهذا الشيء مشاهد، لو مر بك رجل ولم يسلم عليك صار في نفسك شيء، وإذا لم تسلم عليه أنت صار في نفسه شيء، لكن لو سلمت عليه، أو سلم عليك صار هذا كالرباط بينكما يوجب المودة والمحبة، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام في السلام: «**وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف**»[2]، وأكثر الناس اليوم إذا سلم يسلم على من يعرف، وأما من لا يعرفه فلا يسلم عليه، وهذا غلط، لأنك إذا سلمت على من تعرف لم يكن السلام خالصاً لله، سلم على من عرفت ومن لم تعرف من المسلمين حتى تنال بذلك محبة المسلمين بعضهم لبعض، وتمام الإيمان، والنهاية دخول الجنة جعلنا الله من أهلها.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن إفشاء السلام سبب لحصولها (٥٤) (٩٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب السلام للمعرفة وغير المعرفة (٦٢٣٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل (٦٣) (٣٩).

وقوله: ﴿وذكر اسم ربه فصلى﴾ أي: ذكر الله، ولكنه ذكر سبحانه وتعالى الاسم من أجل أن يكون الذكر باللسان؛ لأنه ينطق فيه باسم الله فيقول مثلاً: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، فيذكر اسم الله، ويعني أيضاً ذكر اسم الله تعالى بالتعبد له، ويدخل في ذكر اسم الله الوضوء، فالوضوء من ذكر اسم الله، أولاً: لأن الإنسان لا يتوضأ إلا امتثالاً لأمر الله. وثانياً: أنه إذا ابتدأ وضوءه قال: بسم الله، وإذا انتهى قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين. ومن ذكر الله عز وجل خطبة الجمعة، فإن خطبة الجمعة من ذكر الله، لقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع﴾ [الجمعة: ٩]. وعلى هذا قال بعض العلماء: ﴿وذكر اسم ربه﴾ يعني الخطيب يوم الجمعة ﴿فصلى﴾ أي صلاة الجمعة. فهذه الآية تشمل كل الصلوات التي يسبقها ذكر، وما من صلاة إلا ويسبقها ذكر؛ لأن الإنسان يتوضأ قبيل الصلاة فيذكر اسم الله ثم يصلي.

لكن الصحيح: أنها أعم من هذا، وأن المراد به كل ذكر لاسم الله عز وجل، أي كلما ذكر الإنسان اسم الله اتعظ وأقبل إلى الله وصلى. والصلاة معروفة هي عبادة ذات أقوال وأفعال، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم. ثم قال تعالى: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى﴾ ﴿بل﴾ هنا للإضراب الانتقالي، لأن ﴿بل﴾ تأتي للإضراب الإبطالي، وتأي للإضراب الانتقالي، أي أنه سبحانه وتعالى انتقل ليبين حال الإنسان أنه مؤثر للحياة الدنيا لأنها عاجلة، والإنسان خلق من عجل، ويحب ما فيه العجلة، فتجده يؤثر الحياة الدنيا، وهي في الحقيقة على وصفها دنيا، دنيا زمناً، ودنيا وصفاً، أما كونها دنيا زمناً فلأنها

سابقة على الآخرة فهي متقدمة عليها، والدنو بمعنى القرب. وأما كونها دنيا ناقصة فكذلك هو الواقع فإن الدنيا مهما طالت بالإنسان فإن أمدها الفناء، ومنتهاها الفناء، ومهما ازدهرت للإنسان فإن عاقبتها الذبول، ولهذا لا يكاد يمر بك يوم في سرور إلا وعقبه حزن، وفي هذا يقول الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

تأمل حالك في الدنيا تجد أنه لا يمر بك وقت ويكون الصفو فيه دائماً بل لابد من كدر، ولا يكون السرور دائماً بل لابد من حزن، ولا تكون راحة دائماً بل لابد من تعب، فالدنيا على اسمها دنيا. ﴿**والآخرة خير وأبقى**﴾ الآخرة خير من الدنيا وأبقى، خير بما فيها من النعيم والسرور الدائم الذي لا ينغص بكدر ﴿لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين﴾ [الحجر: ٤٨]. كذلك أيضاً هي أبقى من الدنيا؛ لأن بقاء الدنيا كما أسلفنا قليل زائل مضمحل، بخلاف بقاء الآخرة فإنه أبد الآبدين. ﴿**إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى**﴾ ﴿**إن هذا**﴾ أي ما ذكر من كون الإنسان يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة وينسى الآخرة، وكذلك ما تضمنته الآيات من المواعظ ﴿**في الصحف الأولى**﴾ أي السابقة على هذه الأمة ﴿**صحف إبراهيم وموسى**﴾ وهي صحف جاء بها إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام، وفيها من المواعظ ما تلين به القلوب وتصلح به الأحوال، نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن أوتي في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووقاه الله عذاب النار، إنه جواد كريم.

تفسير سورة الغاشية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧)﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿**هل أتاك حديث الغاشية**﴾ يجوز أن يكون الخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وحده وأمته تبعاً له، ويجوز أن يكون عاماً لكل من يتأتى خطابه، والاستفهام هنا للتشويق فهو كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ [الصف: ١٠]. ويجوز أن يكون للتعظيم لعظم هذا الحديث عن الغاشية. ﴿**حديث الغاشية**﴾ أي نبأها، و﴿**الغاشية**﴾ هي الداهية العظيمة التي تغشى الناس، وهي يوم القيامة التي تحدث الله عنها في القرآن كثيراً، ووصفها بأوصاف عظيمة مثل قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ [الحج: ١، ٢]. ثم قسم الله سبحانه وتعالى الناس في هذا اليوم إلى قسمين فقال: ﴿**وجوه يومئذ خاشعة**﴾ ﴿**خاشعة**﴾ أي ذليلة كما قال الله تعالى: ﴿وتراهم يعرضون

عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي﴾ [الشورى: ٤٥]. فمعنى خاشعة يعني ذليلة. ﴿عاملة ناصبة﴾ عاملة عملاً يكون به النصب وهو التعب. قال العلماء: وذلك أنهم يكلفون يوم القيامة بجر السلاسل والأغلال، والخوض في نار جهنم، كما يخوض الرجل في الوحل، فهي عاملة تعبة من العمل الذي تكلف به يوم القيامة؛ لأنه عمل عذاب وعقاب، وليس المعنى كما قال بعضهم أن المراد بها: الكفار الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وذلك لأن الله قيد هذا بقوله: ﴿وجوه يومئذ﴾ أي يومئذ تأتي الغاشية، وهذا لا يكون إلا يوم القيامة. إذن فهي عاملة ناصبة بما تكلف به من جر السلاسل والأغلال، والخوض في نار جهنم أعاذنا الله منها. ﴿تصلى ناراً حامية﴾ أي تدخل في نار جهنم، والنار الحامية التي بلغت من حموها أنها فضلت على نار الدنيا بتسعة وستين جزءًا، يعني نار الدنيا كلها بما فيها من أشد ما يكون من حرارة نار جهنم أشد منها بتسعة وستين جزءًا، ويدلك على شدة حرارتها أن هذه الشمس حرارتها تصل إلينا مع بعد ما بيننا وبينها، ومع أنها تنفذ من خلال أجواء باردة غاية البرودة وتصل لنا هذه الحرارة التي تدرك ولاسيما في أيام الصيف، فالنار نار حامية، ولما بين مكانهم، وأنهم في نار جهنم الحامية، بين طعامهم وشرابهم فقال: ﴿تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ ﴿تسقى﴾ أي هذه الوجوه ﴿من عين آنية﴾ أي شديدة الحرارة، هذا بالنسبة لشرابهم، ومع هذا لا يأتي هذا الشراب بكل سهولة، أو كلما عطشوا سقوا، وإنما يأتي كلما اشتد عطشهم واستغاثوا كما قال تعالى: ﴿وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب﴾ [الكهف: ٢٩]. هذا الماء إذا قرب من وجوههم شواها وتساقط لحمها، وإذا دخل في

أجوافهم قطعها، يقول عز وجل: ﴿وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعائهم﴾ [محمد: ١٥]. إذن لا يستفيدون منه لا ظاهراً ولا باطناً، لا ظاهراً بالبرودة ببرد الوجوه، ولا باطناً بالري، ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ يغاثون بهذا الماء ولهذا قال: ﴿**تسقى من عين آنية**﴾.

فإذا قال قائل: كيف تكون هذه العين في نار جهنم والعادة أن الماء يطفىء النار؟

فالجواب: **أولاً**: أن أمور الآخرة لا تقاس بأمور الدنيا، لو أنها قيست بأمور الدنيا ما استطعنا أن نتصور كيف يكون، أليس الشمس تدنو يوم القيامة من رؤوس الناس على قدر ميل، والميل إما ميل المكحلة وهو نصف الإصبع أو ميل المسافة كيلو وثلث أو نحو ذلك، وحتى لو كان كذلك فإنه لو كانت الآخرة كالدنيا لشوت الناس شيًّا، لكن الآخرة لا تقاس بالدنيا. أيضاً يحشر الناس يوم القيامة في مكان واحد، منهم من هو في ظلمة شديدة، ومنهم من هو في نور ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم﴾ [التحريم: ٨]. يحشرون في مكان واحد ويعرقون منهم من يصل العرق إلى كعبه، ومنهم من يصل إلى ركبتيته، ومنهم من يصل إلى حِقويه، ومع ذلك هم في مكان واحد. إذن أحوال الآخرة لا يجوز أن تقاس بأحوال الدنيا.

ثانياً: أن الله على كل شيء قدير. ها نحن الآن نجد أن الشجر الأخضر توقد منه النار كما قال تعالى: ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾ [يس: ٨٠]. الشجر الأخضر رَطِب، ومع ذلك إذا ضرب بعضه ببعض، أو ضرب بالزند انقدح خرج منه نار حارة يابسة، وهو رطب بارد، فالله على كل شيء قدير، فهم يسقون من عين آنية في النار ولا يتنافى ذلك مع قدرة الله عز وجل.

أما طعامهم فقال: ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع﴾ الضريع قالوا: إنه شجر ذو شوك عظيم إذا يبس لا يرعاه ولا البهائم، وإن كان أخضر رعته الإبل ويسمى عندنا الشبرق. فهم ـ والعياذ بالله ـ في نار جهنم ليس لهم طعام إلا من هذا الضريع، ولكن لا تظن أن الضريع الذي في نار جهنم كالضريع الذي في الدنيا فهو يختلف عنه اختلافاً عظيماً، ولهذا قال: ﴿لا يسمن﴾ فلا ينفع الأبدان في ظاهرها ﴿ولا يغني من جوع﴾ فلا ينفعها في باطنها فهو لا خير فيه ليس فيه إلا الشوك، والتجرع العظيم، والمرارة، والرائحة المنتنة التي لا يستفيدون منها شيئاً.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

ثم ذكر الله عز وجل القسم الثاني من أقسام الناس في يوم الغاشية فقال: ﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾ أي ناعمة بما أعطاها الله عز وجل من السرور والثواب الجزيل؛ لأنها علمت ذلك وهي في قبورها، فإن الإنسان في قبره ينعم، يفتح له باب إلى الجنة فيأتيه من روحها ونعيمها، فهي ناعمة ﴿لسعيها راضية﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا راضية لأنها وصلت به إلى هذا النعيم وهذا السرور وهذا الفرح، فهي راضية لسعيها بخلاف الوجوه الأولى فإنها غاضبة ـ والعياذ بالله ـ غير راضية على ما قدمت. ﴿في جنة عالية﴾ الجنة هي دار النعيم التي أعدها الله عز وجل لأوليائه يوم القيامة، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا

خطر على قلب بشر، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ [السجدة: ١١]. وقال تبارك وتعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم للزكاة فاعلون﴾ إلى قوله: ﴿أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١]. وقال الله تعالى: ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾ [الزخرف: ٧١]. فهم في ﴿**جنة عالية**﴾ العلو ضد السفول فهي فوق السماوات السبع، ومن المعلوم أنه في يوم القيامة تزول السماوات السبع والأرضون ولا يبقى إلا الجنة والنار فهي عالية وأعلاها ووسطها الفردوس الذي فوقه عرش الرب جل وعلا. ﴿**لا تسمع فيها لاغية**﴾ أي لا تسمع في هذه الجنة قولةً لاغية، أو نفساً لاغية، بل كل ما فيها جد، كل ما فيها سلام، كل ما فيها تسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس، أي أنه لا يشق عليهم ولا يتأثرون به، فهم دائماً في ذكر الله عز وجل، وتسبيح وأنس وسرور، يأتي بعضهم إلى بعض يزور بعضهم بعضاً في حبور لا نظير له. ﴿**فيها عين جارية**﴾ وهذه العين بين الله عز وجل أنها أنهار ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾ [محمد: ١٥]. ﴿**جارية**﴾ أي تجري حيث أراد أهلها لا تحتاج إلى حفر ساقية، ولا إقامة أخدود كما قال ابن القيم رحمه الله:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

﴿**فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة**﴾ انظر للتقابل ﴿**فيها سرر مرفوعة**﴾ عالية يجلسون عليها

يتفكهون ﴿هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾ [يس: ٥٦]. ﴿وأكواب موضوعة﴾ الأكواب جمع كوب وهو الكأس ونحوه ﴿موضوعة﴾ يعني ليست مرفوعة عنهم، بل هي موضوعة لهم متى شاءوا شربوا فيها من هذه الأنهار الأربعة التي سبق ذكرها. ﴿ونمارق مصفوفة﴾ النمارق جمع نمرقة وهي الوسادة أو ما يتكىء عليه. ﴿مصفوفة﴾ على أحسن وجه تلتذ العين بها قبل أن يلتذ البدن بالاتكاء إليها. ﴿وزرابي مبثوثة﴾ الزرابي أعلى أنواع الفرش ﴿مبثوثة﴾ منشورة في كل مكان، ولا تظن أن هذه النمارق، وهذه الأكواب، وهذه السرر، وهذه الزرابي لا تظن أنها تشبه ما في الدنيا؛ لأنها لو كانت تشبه ما في الدنيا لكنا نعلم نعيم الآخرة، ونعلم حقيقته لكنها لا تشبهه لقول الله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ [السجدة: ١٧]. إنما الأسماء واحدة والحقائق مختلفة، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ليس في الآخرة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط)[1]، فنحن لا نعلم حقيقة هذه النعم المذكورة في الجنة وإن كنا نشاهد ما يوافقها في الاسم في الدنيا لكنه فرق بين هذا وهذا.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٣٦).

لما قرر الله عز وجل في هذه السورة حديث الغاشية وهي يوم القيامة، وبين أن الناس ينقسمون إلى قسمين: وجوه خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية، ووجوه ناعمة لسعيها راضية، وبين جزاء هؤلاء وهؤلاء، قال: ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت**﴾ وهذا الاستفهام للتوبيخ، أي إن الله يوبخ هؤلاء الذين أنكروا ما أخبر الله به عن يوم القيامة، وعن الثواب والعقاب، أنكر عليهم إعراضهم عن النظر في آيات الله تعالى التي بين أيديهم، وبدأ بالإبل؛ لأن أكثر ما يلابس الناس في ذلك الوقت الإبل، فهم يركبونها، ويحلبونها، ويأكلون لحمها، وينتفعون من أوبارها إلى غير ذلك من المنافع فقال: ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل**﴾ وهي الأباعر ﴿**كيف خلقت**﴾ يعني كيف خلقها الله عز وجل، هذا الجسم الكبير المتحمل، تجد البعير تمشي مسافات طويلة لا يبلغها الإنسان إلا بشق الأنفس وهي متحملة، وتجد البعير أيضاً يحمل الأثقال وهو بارك ثم يقوم في حمله لا يحتاج إلى مساعدة، والعادة أن الحيوان لا يكاد يقوم إذا حمل وهو بارك لكن هذه الإبل أعطاها الله عز وجل قوة وقدرة من أجل مصلحة الإنسان، لأن الإنسان لا يمكن أن يحمل عليها وهي قائمة لعلوها، ولكن الله تعالى يسر لهم الحمل عليها وهي باركة ثم تقوم بحملها، وكما قال الله تعالى في سورة يس: ﴿ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون﴾ [يس: ٧٣]. منافعها كثيرة لا تحصى، وأهلها الذين يمارسونها أعلم منا بذلك، فلهذا قال: ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت**﴾ ولم يذكر سواها من الحيوان كالغنم والبقر والظبي وغيرها لأنها أعم الحيوانات نفعاً وأكثرها مصلحة للعباد. ﴿**وإلى السماء كيف رفعت**﴾ يعني وينظرون إلى السماء كيف رفعت بما فيها من النجوم، والشمس، والقمر وغير هذا من

الآيات العظيمة التي لم يتبين كثير منها إلى الآن، ولا نقول إن هذه الآيات السماوية هي كل الآيات، بل لعل هناك آيات كبيرة عظيمة لا ندركها حتى الآن، وقوله: ﴿كيف رفعت﴾ أي رفعت هذا الارتفاع العظيم، ومع هذا فليس لها عمد مع أن العادة أن السقوف لا تكون إلا على عمد، لكن هذا السقف العظيم المحفوظ قام على غير عمد ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها﴾ [الرعد: ٢]. ﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾ هذه الجبال العظيمة التي تحمل الصخور والقطع المتجاورات المتباينات، الجبال مكونة من أحجار كثيرة وأنواع كثيرة، فيها المعادن المتنوعة وهي متجاورة ومع ذلك تجد مثلاً هذا الخط في وسط الصخر تجده يشتمل على معادن لا توجد فيما قرب منه من هذا الصخر، ويعرف هذا علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) كيف نصب الله هذه الجبال العظيمة، ونصبها جل وعلا بهذا الارتفاع لتكون رواسي في الأرض لئلا تميد بالناس، لولا أن الله عز وجل خلق هذه الجبال لمادت الأرض بأهلها، لأن الأرض في وسط الماء، الماء محيط بها من كل جانب، وما ظنك بكرة تجعلها في وسط ماء سوف تتحرك وتضطرب، وتتدحرج أحياناً، وتنقلب أحياناً لكن الله جعل هذه الجبال رواسي تمسك الأرض كما تمسك الأطناب الخيمة، وهي راسية ثابتة على ما يحصل في الأرض من الأعاصير العظيمة التي تهدم البنايات التي بناها الآدميون لكن هذه الجبال لا تتزحزح راسية ولو جاءت الأعاصير العظيمة، بل إن من فوائدها: أنها تحجب الأعاصير العظيمة البالغة التي تنطلق من البحار، أو من غير البحار لئلا تعصف بالناس، وهذا شيء مشاهد تجد الذين في سفوح الجبال وتحتها في الأرض تجدهم في مأمن من أعاصير الرياح العظيمة التي تأتي من خلف الجبل، ففيها

فوائد عظيمة، وهي رواسي لو أن الخلق اجتمعوا على أن يضعوا سلسلة مثل هذه السلسلة من الجبال ما استطاعوا إلى هذا سبيلاً مهما بلغت صنعتهم، وقوتهم، وقدرتهم، وطال أمدهم فإنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذه الجبال. وقد قال بعض العلماء: إن هذه الجبال راسية في الأرض بمقدار علوها في السماء، يعني أن الجبل له جرثومة وجذر في داخل الأرض في عمق يساوي ارتفاعه في السماء، وليس هذا ببعيد أن يُمكّن الله لهذا الجبل في الأرض حتى يكون بقدر ما هو في السماء لئلا تزعزعه الرياح فلهذا يقول الله عز وجل: ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ [النحل: ١٥، ١٦]. يقول عز وجل: ﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾ أي وانظروا كيف سطح الله هذه الأرض الواسعة، وجعلها سطحاً واسعاً ليتمكن الناس من العيش فيه بالزراعة والبناء وغير هذا، وما ظنكم لو كانت الأرض صبباً غير مسطحة يعني مثل الجبال يرقى لها ويصعد لكانت شاقة، ولما استقر الناس عليها، لكن الله عز وجل جعلها سطحاً ممهداً للخلق، وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الأرض ليست كروية بل سطح ممتد لكن هذا الاستدلال فيه نظر، لأن هناك آيات تدل على أن الأرض كروية، والواقع شاهد بذلك فيقول الله عز وجل: ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾ [الزمر: ٥]. والتكوير التدوير، ومعلوم أن الليل والنهار يتعاقبان على الأرض، فإذا كانا مكورين لزم أن تكون الأرض مكورة، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إذا السماء انشقت. وأذنت لربها وحقت. وإذا الأرض مدت. وألقت ما فيها وتخلت﴾ [الانشقاق: ١ ـ ٤]. فقال: ﴿وإذا الأرض مدت﴾ وقد جاء في الحديث أنها يوم القيامة تمد مد الأديم أي مد

الجلد[١] حتى لا يكون فيها جبال، ولا أودية، ولا أشجار، ولا بناء، يذرها الرب عز وجل قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، فقوله: ﴿إذا السماء انشقت﴾ والسماء لا تنشق إلا يوم القيامة وهي الآن غير منشقة إذاً قوله: ﴿إذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت﴾ يعني يوم القيامة فهي إذاً الآن غير ممدودة، إذاً مكورة، والواقع المحسوس المتيقن الآن أنها كروية لا شك[٢]، والدليل على هذا أنك لو سرت بخط مستقيم من هنا من المملكة متجهاً غرباً لأتيت من ناحية الشرق، تدور على الأرض ثم تأتي إلى النقطة التي انطلقت منها، وكذلك بالعكس لو سرت متجهاً نحو المشرق وجدتك راجعاً إلى النقطة التي قمت منها من نحو المغرب، إذاً فهي الآن أمر لا شك فيه أنها كروية.

فإذا قال الإنسان: إذا كانت كما ذكرت كروية فكيف تثبت المياه، مياه البحار عليها وهي كروية؟

نقول في الجواب عن ذلك: الذي أمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه يمسك البحار أن تفيض على الناس فتغرقهم، والله على كل شيء قدير، قال بعض أهل العلم: ﴿وإذا البحار سجرت﴾ أي حبست ومنعت من أن تفيض على الناس كالشيء الذي يُسجر (يربط)، وعلى كل حال القدرة الإلهية لا يمكن لنا أن نعارض فيها. نقول قدرة الله عز وجل أمسكت هذه البحار أن تفيض على أهل الأرض فتغرقهم، وإن كانت الأرض كروية.

ثم قال عز وجل لما بين من آياته هذه الآيات الأربع: الإبل، والسماء، والجبال، والأرض قال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/٣٧٥، وسنن ابن ماجة، أبواب الفتن، باب فتنة الدجال (٤٠٨١).

(٢) انظر مجموع فتاوى ورسائل فضيلة شيخنا رحمه الله ١/٧٠.

﴿فذكر﴾ أمره الله أن يذكر ولم يخصص أحداً بالتذكير، أي لم يقل ذكّر فلاناً وفلاناً فالتذكير عام، لأن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم بُعث إلى الناس كافة، ذكّر كل أحد في كل حال وفي كل مكان، فذكر النبي عليه الصلاة والسلام، وذكّر خلفاؤه من بعده الذين خلفوه في أمته في العلم والعمل والدعوة، ولكن هذه الذكرى هل ينتفع بها كل الناس؟ الجواب: لا، ﴿فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ [الذاريات: ٥٥]. أما غير المؤمن فإن الذكرى تقيم عليه الحجة لكن لا تنفعه، لا تنفع الذكرى إلا المؤمن، ونقول إذا رأيت قلبك لا يتذكر بالذكرى فاتهمه، لأن الله يقول: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ فإذا ذُكرت ولم تجد من قلبك تأثراً وانتفاعاً فاتهم نفسك، واعلم أن فيك نقص إيمان، لأنه لو كان إيمانك كاملاً لانتفعت بالذكرى، لأن الذكرى لابد أن تنفع المؤمنين.

﴿إنما أنت مذكر﴾ يعني أن محمداً عليه الصلاة والسلام ليس إلا مذكراً مبلغاً، وأماالهداية فبيد الله عز وجل، ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقد قام صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالذكرى والتذكير إلى آخر رمق من حياته حتى أنه في آخر حياته يقول: «**الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم**»[1]، حتى جعل يغرغر بها عليه الصلاة والسلام، فذكّر صلوات الله وسلامه عليه منذ بعث وقيل له ﴿قم فأنذر﴾ [المدثر: ٢]. إلى أن توفاه الله، لم يأل جهداً في التذكير في كل موقف، وفي كل زمان على ما أصابه من الأذى من قومه ومن غير قومه، والذي قرأ التاريخ ـ السيرة النبوية ـ يعرف ما جرى له من أهل مكة من قومه الذين هم أقرب الناس إليه، والذين كانوا يعرفونه، ويلقبونه

---

(١) مسند الإمام أحمد (٣/١١٧)، وسنن ابن ماجة، كتاب الوصايا، باب هل أوصى رسول الله ﷺ؟ (٢٦٩٨).

بالأمين يلقبونه بذلك ويثقون به حتى حكّموه في وضع الحجر الأسود في الكعبة حينما هدموا الكعبة ووصلوا إلى حد الحجر قالوا من ينصب الحجر، فتنازعوا بينهم كل قبيلة تقول نحن الذين نتولى وضع الحجر في مكانه، حتى جاء النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وحكموه فيما بينهم وأمر أن يوضع رداء وأن تمسك كل طائفة من هذه القبيلة أن يمسك كل واحد من هذه القبائل بطرف من هذا الرداء حتى يرفعوه، فإذا حاذوا محله أخذه هو بيده الكريمة ونصبه في مكانه[1] ، فكانوا يلقبونه بالأمين لكن لما أكرمه الله تعالى بالنبوة انقلبت المعايير، فصاروا يقولون إنه ساحر وكاهن وشاعر ومجنون وكذاب، ورموه بكل سب، فالرسول عليه الصلاة والسلام يذكّر وليس عليه إلا التذكير، ومن هنا نأخذ أن الهداية بيد الله، لا يمكن أن نهدي أقرب الناس إلينا ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [القصص: ٥٦]. فلا تجزع إذا ذكّرنا إنساناً ووجدناه يعاند، أو يخاصم، أو يقول أنا أعمل ما شئت، أو ما أشبه ذلك. قال الله تعالى لنبيه: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ [الشعراء: ٣]. لا تهلك نفسك إذا لم يؤمنوا، إيمانهم لهم وكفرهم ليس عليك ولهذا قال: ﴿لست عليهم بمصيطر﴾ يعني ليس لك سلطة عليهم، ولا سيطرة عليهم، السلطة لله رب العالمين، أنت عليك البلاغ بلغ، والسلطان والسيطرة لله عز وجل. ﴿إلا من تولى وكفر. فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ قال العلماء: ﴿إلا﴾ هنا بمعنى لكن يعني أن الاستثناء في الآية منقطع وليس بمتصل، والفرق بين المتصل والمنقطع أن المتصل يكون فيه المستثنى من جنس المستثنى منه، والمنقطع يكون أجنبيًا منه، فمثلاً لو قلنا إنه متصل لصار معنى الآية

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير رحمه الله (٣/٤٧٩).

(لست عليهم بمصيطر إلا من تولى وكفر فأنت عليهم مصيطر) وليس الأمر كذلك بل المعنى: لكن من تولى وكفر بعد أن ذكرته فيعذبه الله العذاب الأكبر. فمن تولى وكفر بعد أن بلغه الوحي النازل على رسول الله ﷺ فإنه سيعذب ﴿إلا من تولى وكفر﴾ التولي يعني الإعراض فلا يتجه للحق، ولا يقبل الحق، ولا يسمع الحق، حتى لو سمعه بأذنه لم يسمعه بقلبه كما قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون. ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ [الأنفال: ٢٠، ٢١]. أي لا ينقادون. فهنا يقول عز وجل: ﴿إلا من تولى وكفر﴾ ﴿تولى﴾ أعرض، ﴿وكفر﴾ أي استكبر ولم يقبل ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ والعذاب الأكبر يوم القيامة وهنا قال ﴿الأكبر﴾ ولم يذكر المفضل عليه يعني لم يقل الأكبر من كذا فهو قد بلغ الغاية في الكبر والمشقة والإهانة، وكل من تولى وكفر فإن الله يعذبه العذاب الأكبر. وهناك عذاب أصغر في الدنيا قد يبتلى المتولي المعرض بأمراض في بدنه، في عقله، في أهله، في ماله، في مجتمعه، وكل هذا بالنسبة لعذاب النار عذاب أصغر، لكن العذاب الأكبر إنما يكون يوم القيامة ولهذا قال بعدها: ﴿إن إلينا إيابهم﴾ أي مرجعهم، فالرجوع إلى الله مهما فر الإنسان فإنه راجع إلى ربه عز وجل لو طالت به الحياة راجع إلى الله، ولهذا قال تعالى: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ [الانشقاق: ٦]. فاستعد يا أخي لهذه الملاقاة لأنك سوف تلاقي ربك، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان** ـ مباشرة بدون مترجم يكلمه الله يوم القيامة ـ **فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه** ـ يعني على اليسار ـ **فلا يرى إلا**

ما قدم، وينظر تلقاء وجهه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»[١] ، كلنا سيخلو به ربه عز وجل يوم القيامة ويقرره بذنوبه، يقول: فعلت كذا في يوم كذا، حتى يقر ويعترف، فإذا أقر واعترف قال الله تعالى: «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[٢] ، وكم من ذنوب سترها الله عز وجل، كم من ذنوب اقترفناها لم يعلم بها أحد ولكن الله تعالى علم بها، فموقفنا من هذه الذنوب أن نستغفر الله عز وجل، وأن نكثر من الأعمال الصالحة المكفرة للسيئات حتى نلقى الله عز وجل ونحن على ما يرضيه سبحانه وتعالى. ﴿ثم إن علينا حسابهم﴾ نحاسبهم، قال العلماء: وكيفية الحساب ليس مناقشة يناقش الإنسان، لأنه لو يناقش هلك، لو يناقشك الله عز وجل على كل حساب هلكت، لو ناقشك في نعمة من النعم كالبصر لا يمكن أن تجد أي شيء تعمله يقابل نعمة البصر، نعمة النفس، الذي يخرج ويدخل بدون أي مشقة، وبدون أي عناء، الإنسان يتكلم وينام، يأكل ويشرب، ومع ذلك لا يحس بالنفس، ولا يعرف قدر النفس إلا إذا أصيب بما يمنع النفس، حينئذ يذكر نعمة الله، لكن مادام في عافية يقول هذا شيء طبيعي، لكن لو أنه أصيب بكتم النفس لعرف قدر النعمة، فلو نوقش لهلك كما قال النبي عليه الصلاة والسلام لعائشة: «من نوقش الحساب هلك»[٣] أو قال «عذب»[٤] ، لكن كيفية الحساب:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل الرد (١٤١٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة (١٠١٦) ٦٧.

(٢) تقدم تخريجه ص (٥٣).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ (٤٩٣٩)، ومسلم، كتاب الجنة ونعيمها، باب إثبات الحساب (٢٨٧٦) (٨٠).

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الجنة ونعيمها، باب إثبات الحساب (٢٧٨٦) (٧٩).

أما المؤمن فإن الله تعالى يخلو به بنفسه ليس عندهما أحد ويقرره بذنوبه فعلت كذا فعلت كذا، فعلت كذا حتى إذا أقر بها قال الله تعالى: «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»، أما الكفار فلا يحاسبون هذا الحساب لأنه ليس لهم حسنات تمحو سيئاتهم لكنها تحصى عليهم أعمالهم، ويقررون بها أمام العالم، ويحصون بها، وينادى على رؤوس الأشهاد ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ [هود: ١٨]. ـ نعوذ بالله من الخذلان ـ وبهذا ينتهي الكلام على هذه السورة العظيمة وهي إحدى السورتين اللتين كان النبي ﷺ يقرأ بهما في المجامع الكبيرة، فقد كان يقرأ في صلاتي العيدين ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ و﴿**هل أتاك حديث الغاشية**﴾ وكذلك في صلاة الجمعة[١]، ويقرأ أحياناً في العيدين ﴿ق. والقرآن المجيد﴾ و﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾[٢]، وفي الجمعة سورة الجمعة والمنافقين[٣]، ينوع مرة هذا، ومرة هذا، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا ممن تكون وجوههم ناعمة لسعيها راضية، وأن يتولانا بعنايته في الدنيا والآخرة، إنه على كل شيء قدير.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة (٨٧٨) (٦٢).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة العيدين، باب ما يقرأ في صلاة العيدين (٨٩١) (١٤).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة (٨٧٨) (٦١).

تفسير سورة الفجر

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾.

البسملة: تقدم الكلام عليها.

﴿والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر﴾ كل هذه إقسامات بالفجر، وليال عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر، خمسة أشياء أقسم الله تعالى بها، الأول: الفجر **﴿والفجر﴾** هو النور الساطع الذي يكون في الأفق الشرقي قرب طلوع الشمس، وبينه وبين طلوع الشمس ما بين ساعة واثنتين وثلاثين دقيقة، إلى ساعة وسبع عشرة دقيقة، ويختلف باختلاف الفصول، فأحياناً تطول الحصة ما بين الفجر وطلوع الشمس، وأحياناً تقصر حسب الفصول، والفجر فجران: فجر صادق، وفجر كاذب، والمقصود بالفجر هنا الفجر الصادق، والفرق بين الفجر الصادق والكاذب من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: الفجر الكاذب يكون مستطيلاً في السماء ليس

عرضاً ولكنه طولاً، وأما الفجر الصادق يكون عرضاً يمتد من الشمال إلى الجنوب.

الفرق الثاني: أن الفجر الصادق لا ظلمة بعده، بل يزداد الضياء حتى تطلع الشمس، وأما الفجر الكاذب فإنه يحدث بعده ظلمة بعد أن يكون هذا الضياء، ولهذا سمي كاذباً؛ لأنه يضمحل ويزول.

الفرق الثالث: أن الفجر الصادق متصل بالأفق، أما الفجر الكاذب فبينه وبين الأفق ظلمة، هذه ثلاثة فروق آفاقية حسية يعرفها الناس إذا كانوا في البر، أما في المدن فلا يعرفون ذلك، لأن الأنوار تحجب هذه العلامات.

وأقسم الله بالفجر لأنه ابتداء النهار، وهو انتقال من ظلمة دامسة إلى فجر ساطع، وأقسم الله به لأنه لا يقدر على الإتيان بهذا الفجر إلا الله عز وجل كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون﴾ [القصص: ٧١] وأقسم الله بالفجر لأنه يترتب عليه أحكام شرعية، مثل: إمساك الصائم، فإنه إذا طلع الفجر وجب على الصائم أن يمسك إذا كان صومه فرضاً أو نفلاً إذا أراد أن يتم صومه، ويترتب عليه أيضاً: دخول وقت صلاة الفجر، وهما حكمان شرعيان عظيمان، أهمهما دخول وقت الصلاة، أي أنه يجب أن نراعي الفجر من أجل دخول وقت الصلاة أكثر مما نراعيه من أجل الإمساك في حالة الصوم، لأننا في الإمساك عن المفطرات في الصيام لو فرضنا أننا أخطأنا فإننا بنينا على أصل وهو بقاء الليل، لكن في الصلاة لو أخطأنا وصلينا قبل الفجر لم نكن بنينا على أصل، لأن الأصل بقاء الليل وعدم دخول وقت الصلاة، ولهذا لو أن الإنسان صلى الفجر قبل دخول وقت الصلاة

بدقيقة واحدة فصلاته نفل ولا تبرأ بها ذمته، ومن ثَمَّ ندعوكم إلى ملاحظة هذه المسألة، أعني العناية بدخول وقت صلاة الفجر، لأن كثيراً من المؤذنين يؤذنون قبل الفجر وهذا غلط، لأن الأذان قبل الوقت ليس بمشروع لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم**»[١]، ويكون حضور الصلاة إذا دخل وقتها، فلو أذن الإنسان قبل دخول وقت الصلاة فأذانه غير صحيح يجب عليه الإعادة، والعناية بدخول الفجر مهمة جداً من أجل مراعاة وقت الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿**وليال عشر**﴾ قيل المراد بـ﴿**ليال عشر**﴾ عشر ذي الحجة، وأطلق على الأيام ليالي، لأن اللغة العربية واسعة، قد تطلق الليالي ويراد بها الأيام، والأيام يراد بها الليالي، وقيل المراد بـ﴿**ليال عشر**﴾ ليال العشر الأخيرة من رمضان، أما على الأول الذين يقولون المراد بالليال العشر عشر ذي الحجة، فلأن عشر ذي الحجة أيام فاضلة قال فيها النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر**» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء**»[٢].

وأما الذين قالوا: إن المراد بالليال العشر هي ليال عشر رمضان الأخيرة، فقالوا: إن الأصل في الليالي أنها الليالي وليست الأيام، وقالوا: أن ليال العشر الأخيرة من رمضان فيها ليلة القدر التي قال الله

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر (٦٣١) ومسلم، كتاب المساجد، باب من أحق بالإمامة (٦٧٤) (٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق (٩٦٩).

عنها ﴿خير من ألف شهر﴾، وقال: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين. فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ [الدخان: ٣، ٤]، وهذا القول أرجح من القول الأول، وإن كان القول الأول هو قول الجمهور، لكن اللفظ لا يسعف قول الجمهور، وإنما يرجح القول الثاني أنها الليالي العشر الأواخر من رمضان، وأقسم الله بها لشرفها، ولأن فيها ليلة القدر، ولأن المسلمين يختمون بها شهر رمضان الذي هو وقت فريضة من فرائض الإسلام وأركان الإسلام، فلذلك أقسم الله بهذه الليالي.

وقوله: ﴿والشفع والوتر﴾ قيل: إن المراد به كل الخلق، فالخلق إما شفع وإما وتر، والله عز وجل يقول: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾. [الذاريات: ٤٩] والعبادات إما شفع وإما وتر، فيكون المراد بالشفع والوتر كل ما كان مخلوقاً من شفع ووتر، وكل ما كان مشروعاً من شفع ووتر، وقيل: المراد بالشفع الخلق كلهم، والمراد بالوتر الله عز وجل.

واعلم أن قوله والوتر فيها قراءتان صحيحتان (والوِتر) و(الوَتر) يعني لو قلت (والشفع والوِتر) صح ولو قلت (والشفع والوَتْر) صح أيضاً، فقالوا إن الشفع هو الخلق؛ لأن المخلوقات كلها مكونة من شيئين ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ والوَتْر أو الوِتر هو الله لقول النبي ﷺ: «إن الله وتر يحب الوتر»[1]، وإذا كانت الآية تحتمل معنيين ولا منافاة بينهما فلتكن لكل المعاني التي تحتملها الآية، وهذه القاعدة في علم التفسير أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين وأحدهما لا ينافي الآخر فهي محمولة على المعنيين جميعاً. قال تعالى: ﴿والليل إذا يسر﴾ أقسم الله

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحدة (٦٤١٠). ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (٢٦٧٧) (٥).

أيضاً بالليل إذا يسري، والسري هو السير في الليل، والليل يسير يبدأ بالمغرب وينتهي بطلوع الفجر فهو يمشي زمناً لا يتوقف، فهو دائماً في سريان، فأقسم الله به لما في ساعاته من العبادات كصلاة المغرب، والعشاء، وقيام الليل، والوتر وغير ذلك، ولأن في الليل مناسبة عظيمة وهي أن الله عز وجل ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: «من يسألني فأعطيه، من يدعوني فأستجيب له، من يستغفرني فأغفر له»[1] ولهذا نقول: إن الثلث الآخر من الليل وقت إجابة، فينبغي أن ينتهز الإنسان هذه الفرصة فيقوم لله عز وجل يتهجد ويدعو الله سبحانه بما شاء من خير الدنيا والآخرة لعله يصادف ساعة إجابة ينتفع بها في دنياه وأخراه. ﴿**هل في ذلك قسم لذي حجر**﴾ لذي عقل، ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد**﴾ الخطاب هنا لكل من يوجه إليه هذا الكتاب العزيز وهم البشر كلهم بل والجن أيضاً ألم ترى أيها المخاطب ﴿**كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد**﴾ يعني ما الذي فعل بهم؟ وعاد قبيلة معروفة في جنوب الجزيرة العربية، أرسل الله تعالى إليهم هوداً عليه الصلاة والسلام فبلغهم الرسالة ولكنهم عتوا وبغوا وقالوا من أشد منا قوة قال الله تعالى: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون﴾ [فصلت: ١٥]. فهم افتخروا في قوتهم ولكن الله بين أنهم ضعفاء أمام قوة الله ولهذا قال: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلقهم﴾ وعبّر ـ والله أعلم ـ بقوله ﴿الذي خلقهم﴾ ليبين ضعفهم وأنه جل وعلا أقوى منهم، لأن الخالق أقوى من المخلوق ﴿أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء نصف الليل (٦٣٢١)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه (٧٥٨) (١٦٨).

بآياتنا يجحدون. فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون﴾. [فصلت: ١٥، ١٦]. والذي فعل الله بعاد أنه أرسل عليهم الريح العقيم سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، فترى القوى فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وهذا الاستفهام الذي لفت الله فيه النظر إلى ما فعل بهؤلاء يراد به الاعتبار يعني اعتبر أيها المكذب للرسول محمد ﷺ بهؤلاء كيف أُذيقوا هذا العذاب، وقد قال الله تعالى: ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ [هود: ٨٣]. وقوله: ﴿إرم﴾ هذه اسم للقبيلة، وقيل اسم للقرية، وقيل غير ذلك، فسواء كانت اسم للقبيلة أو اسم للقرية فإن الله تعالى نكل بهم نكالاً عظيماً مع أنهم أقوياء. وقوله: ﴿ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ يعني أصحاب ﴿العماد﴾ الأبنية القوية ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ أي لم يصنع مثلها في البلاد؛ لأنها قوية ومحكمة، وهذا هو الذي غرهم وقالوا: مَن أشد منا قوة؟ وفي قوله: ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ مع أن الذي صنعها الآدمي دليل على أن الآدمي قد يوصف بالخلق فيقال خلق كذا، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام في المصورين «**يقال لهم أحيوا ما خلقتم**»[1] ، لكن الخلق الذي ينسب للمخلوق ليس هو الخلق المنسوب إلى الله. الخلق المنسوب إلى الله إيجاد بعد عدم وتحويل وتغيير، أما الخلق المنسوب لغير الله فهو مجرد تحويل وتغيير، وأضرب لكم مثلاً: هذا الباب من خشب، الذي خلق الخشب الله، ولا يمكن للبشر أن يخلقوه، لكن البشر يستطيع أن يحول جذوع

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب عذاب المصورين يوم القيامة (٥٩٥٠). ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة حيوان (٢١٠٤) (٩٦).

الخشب وأغصان الخشب إلى أبواب إلى كرسي وما أشبه ذلك، فالخلق المنسوب للمخلوق ليس هو الخلق المنسوب للخالق؛ لأن الخلق المنسوب للخالق إيجاد من عدم وهذا لا يستطيعه أحد، والمنسوب للمخلوق تغير وتحويل يحول الشيء من صفة إلى صفة، أما أن يغير الذوات بمعنى يجعل الذهب فضة، أو يجعل الفضة حديداً، أو ما أشبه ذلك فهذا مستحيل لا يمكن إلا لله وحده لا شريك له. ثم قال: ﴿**وثمود الذين جابوا الصخر بالواد**﴾ ثمود هم قوم صالح ومساكنهم معروفة الآن كما قال تعالى: ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين﴾ [الحجر: ٨٠]. في سورة (الٓر) ذكر الله أن ثمود كانوا في بلاد الحجر وهي معروفة مر عليها النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في طريقه إلى تبوك وأسرع وقنّع رأسه ﷺ وقال: «**لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم**»[1]، هؤلاء القوم أعطاهم الله قوة حتى صاروا يخرقون الجبال والصخور العظيمة ويصنعون منها بيوتاً ولهذا قال: ﴿**جابوا الصخر بالواد**﴾ أي: وادي ثمود، وهو معروف، هؤلاء أيضاً فعل الله بهم ما فعل من العذاب والنكال حيث قيل لهم تمتعوا في داركم ثلاثة أيام، ثم بعد الثلاثة الأيام أخذتهم الصيحة والرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، فعلينا أن نعتبر بحال هؤلاء المكذبين الذين صار مآلهم إلى الهلاك والدمار، وليُعلم أن هذه الأمة لن تهُلك بما أهلكت به الأمم السابقة بهذا العذاب العام، فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير قوله تعالى: ﴿لقد كذب أصحاب الحجر المرسلين﴾ (٤٧٠٢). ومسلم، كتاب الزهد، باب النهي عن الدخول على أهل الحجر إلا من يدخل باكياً (٢٩٨٠) (٣٨).

وسلم سأل الله تعالى أن لا يهلكهم بسنة بعامة[١] ولكن قد تهلك هذه الأمة بأن يجعل الله بأسهم بينهم، فتجري بينهم الحروب والمقاتلة، ويكون هلاك بعضهم على يد بعض، لا بشيء ينزل من السماء كما صنع الله تعالى بالأمم السابقة، ولهذا يجب علينا أن نحذر الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن نبتعد عن كل ما يثير الناس بعضهم على بعض، وأن نلزم دائماً الهدوء، وأن نبتعد عن القيل والقال وكثرة السؤال، فإ ذلك مما نهى عنه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم[٢]، وكم من كلمة واحدة صنعت ما تصنعه السيوف الباترة، فالواجب الحذر من الفتن، وأن نكون أمة متآلفة متحابة، يتطلب كل واحد منا العذر لأخيه إذا رأى منه ما يكره. ﴿وفرعون﴾ فرعون هو الذي أرسل الله إليه موسى عليه الصلاة والسلام، وكان قد استذل بني إسرائيل في مصر، يذبح أبنائهم ويستحيي نسائهم، وقد اختلف العلماء في السبب الذي أدى به إلى هذه الفعلة القبيحة، لماذا يقتل الأبناء ويبقي النساء؟! فقال بعض العلماء: إن كهنته قالوا له إنه سيولد في بني إسرائيل رجل يكون هلاكك على يده فصار يقتل الأبناء ويستبقي النساء.

ومن العلماء من قال: إنه فعل ذلك من أجل أن يضعف بني إسرائيل؛ لأن الأمة إذا قُتلت رجالها واستبقيت نسائها ذلت بلا شك، فالأول تعليل أهل الأثر، والثاني تعليل أهل النظر ـ أهل العقل ـ ولا يبعد أن يكون الأمران جميعاً قد صارا علة لهذا الفعل، ولكن بقدرة الله عز وجل أن هذا الرجل الذي كان هلاك فرعون على يده تربى في نفس

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٧٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يكره من قيل وقال (٦٤٧٣)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (١٧١٥) (١٢).

بيت فرعون، فإن امرأة فرعون التقطته وربته في بيت فرعون، وفرعون استكبر في الأرض وعلا في الأرض وقال لقومه: (أنا ربكم الأعلى) وقال لهم: (ما علمت لكم من إله غيري) وقال لهم: (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين) يعني موسى (ولا يكاد يبين) قال الله تعالى: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ [الزخرف: ٥٤]. وقال لقومه مقرراً لهم: ﴿أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون﴾ [الزخرف: ٥١]. افتخر بالأنهار وهي المياه فأغرق بالماء. ﴿ذي الأوتاد﴾ أي ذي القوة، لأن جنوده كانوا له بمنزلة الوتد، والوتد تربط به حبال الخيمة فتستقر وتثبت، فله جنود أمم عظيمة ما بين ساحر وكاهن وغير ذلك لكن الله سبحانه فوق كل شيء. ﴿الذين طغوا في البلاد﴾ الطغيان مجاوزة الحد ومنه قوله تعالى: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾ [الحاقة: ١١]. أي لما زاد الماء حملناكم في الجارية يعني بذلك السفينة التي صنعها نوح عليه الصلاة والسلام، فمعنى ﴿طغوا في البلاد﴾ أي: زادوا عن حدهم واعتدوا على عباد الله. ﴿فأكثروا فيها الفساد﴾ أي: الفساد المعنوي، والفساد المعنوي يتبعه الفساد الحسي، ودليل ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ [الأعراف: ٩٦]. ولهذا قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ [الأعراف: ٥٦]. قالوا: لا تفسدوها بالمعاصي، وعلى هذا فيكون قوله ﴿فأكثروا فيها الفساد﴾ أي: الفساد المعنوي، لكن الفساد المعنوي يتبعه الفساد الحسي، وكان فيما سبق من الأمم أن الله تعالى يدمر هؤلاء المكذبين عن آخرهم، لكن هذه الأمة رفع الله عنها هذا النوع من العقوبة.وجعل عقوبتها أن يكون بأسهم

بينهم، يدمر بعضهم بعضاً، وعلى هذا فما حصل من المسلمين من اقتتال بعضهم بعضاً، ومن تدمير بعضهم بعضاً إنما هو بسبب المعاصي والذنوب، يسلط الله بعضهم على بعض ويكون هذا عقوبة من الله سبحانه وتعالى، ﴿فصب عليهم ربك﴾ الصب معروف أنه يكون من فوق، والعذاب الذي أتى هؤلا من فوق من عند الله عز وجل ﴿سوط عذاب﴾ السوط هو العصا الذي يضرب به، ومعلوم أن الضرب بالعصا نوع عذاب، لكن هل هذاالسوط الذي صبه الله تعالى على عاد، وثمود، وفرعون، هل هو العصا المعروف الذي نعرف، أو أنه عصا عذاب أهلكهم؟ الجواب: الثاني عصا عذاب أهلكهم وأبادهم. نسأل الله تعالى أن يجعل لنا فيما سبق من الأمم عبرة نتعظ بها وننتفع بها، ونكون طائعين لله عز وجل غير طاغين، إنه على كل شيء قدير. ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أو لكل من يتوجه إليه الخطاب، يبين الله عز وجل أنه بالمرصاد لكل من طغى واعتدى وتكبر، فإنه له بالمرصاد سوف يعاقبه ويؤاخذه، وهذا المعنى له نظائر في القرآن الكريم منها قوله تبارك وتعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾ [محمد: ١٠]. وكقول شعيب لقومه: ﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ [هود: ٨٩]. فسنة الله سبحانه وتعالى واحدة في المكذبين لرسله، المستكبرين عن عبادته هو لهم بالمرصاد، وهذه الآية تفيد التهديد والوعيد لمن حاول، أو لمن استكبر عن عبادة الله، أو كذب خبره.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿**فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول رب أكرمن. وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن**﴾ الابتلاء من الله عز وجل يكون بالخير وبالشر كما قال تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ [الأنبياء: ٣٥]. فيُبتلى الإنسان بالخير ليبلوه الله عز وجل أيشكر أم يكفر، ويبتلى بالشر ليبلوه أيصبر أم يفجر، وأحوال الإنسان دائرة بين خير وشر، بين خير يلائمه ويسره، وبين شر لا يلائمه ولا يسره، وكله ابتلاء من الله، والإنسان بطبيعته الإنسانية المبنية على الظلم والجهل إذا ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه يقول ﴿**رب أكرمن**﴾ يعني أنني أهل للإكرام ولا يعترف بفضل الله عز وجل، وهذا كقوله تعالى: ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ [القصص: ٧٨]. لما ذكر بنعمة الله عليه قال: ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾ ولم يعترف بفضل الله، وما أكثر الناس الذين هذه حالهم إذا أكرمهم الله عز وجل ونعمهم، قالوا: هذا إكرام من الله لنا؛ لأننا أهل لذلك، ولو أن الإنسان قال: إن الله أكرمني بكذا اعترافاً بفضله وتحدثاً بنعمته لم يكن عليه في ذلك بأس، لكن إذا قال: أكرمني، يعني أنني أهل للإكرام، كما يقول مثلاً كبير القوم إذا نزل ضيفاً على أحدهم قال: أكرمني فلان؛ لأنني أهل لذلك. ﴿**وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه**﴾ يعني ضيق عليه الرزق ﴿**فيقول ربي أهانن**﴾ يعني يقول إن الله تعالى ظلمني

فأهانني ولم يرزقني كما رزق فلاناً، ولم يكرمني كما أكرم فلاناً، فصار عند الرخاء لا يشكر، يعجب بنفسه ويقول هذا حق لي، وعند الشدة لا يصبر بل يعترض على ربه ويقول ﴿ربي أهانن﴾ وهذا حال الإنسان باعتباره إنساناً، أما المؤمن فليس كذلك، المؤمن إذا أكرمه الله ونعّمه شكر ربه على ذلك، ورأى أن هذا فضل من الله عز وجل وإحسان، وليس من باب الإكرام الذي يقدم لصاحبه على أنه مستحق، وإذا ابتلاه الله عز وجل وقدر عليه رزقه صبر واحتسب، وقال هذا بذنبي، والرب عز وجل لم يهني ولم يظلمني، فيكون صابراً عند البلاء، شاكراً عند الرخاء، وفي الآيتين إشارة إلى أنه يجب على الإنسان أن يتبصر فيقول مثلاً: لماذا أعطاني الله المال؟ ماذا يريد مني؟ يريد مني أن أشكر. لماذا ابتلاني الله بالفقر، بالمرض وما أشبه ذلك؟ يريد مني أن أصبر. فليكن محاسباً لنفسه حتى لا يكون مثل حال الإنسان المبنية على الجهل والظلم ولهذا قال تعالى: ﴿كلا﴾ يعني لم يعطك ما أعطاك إكراماً لك لأنك مستحق ولكنه تفضل منه، ولم يهنك حين قدر عليك رزقه، بل هذا مقتضى حكمته وعدله. ثم قال تعالى: ﴿بل لا تكرمون اليتيم﴾ يعني أنتم إذا أكرمكم الله عز وجل بالنعم لا تعطفون على المستحقين للإكرام وهم اليتامى، فاليتيم هنا اسم جنس، ليس المراد يتيماً واحداً بل جنس اليتامى، واليتيم قال العلماء: هو الذي مات أبوه قبل بلوغه من ذكر أو أنثى، وأما من ماتت أمه فليس بيتيم، وقوله تعالى: ﴿اليتيم﴾ يشمل الفقير من اليتامى، والغني من اليتامى لأنه ينبغي الإحسان إليه وإكرامه لأنه انكسر قلبه بفقد أبيه ومن يقوم بمصالحه، فأوصى الله تعالى به حتى يزول هذا الكسر الذي أصابه. ﴿ولا تحاضون على طعام المسكين﴾ يعني لا يحض بعضكم بعضاً على أن يطعم المسكين، وإذا كان لا يحض غيره

فهو أيضاً لا يفعله بنفسه، فهو لا يطعم المسكين ولا يحض على طعام المسكين، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي لنا أن نكرم الأيتام، وأن يحض بعضنا بعضاً على إطعام المساكين؛ لأنهم في حاجة، والله تعالى في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه. ﴿وتأكلون التراث أكلاً لما﴾ ﴿التراث﴾ ما يورثه الله العبد من المال، سواء ورثه عن ميت، أو باع واشترى وكسب، أو خرج إلى البر وأتى بما يأتي به من عشب وحطب وغير ذلك، فالتراث ما يرثه الإنسان، أو ما يورثه الله الإنسان من المال فإن بني آدم يأكلونه أكلاً لما، وأما المال فقال: ﴿وتحبون المال حبًّا جمًّا﴾ أي عظيماً، وهذا هو طبيعة الإنسان، لكن الإيمان له مؤثراته قد يكون الإنسان بإيمانه لا يهتم بالمال وإن جاءه شكر الله عليه، وأدى ما يجب وإن ذهب لا يهتم به، لكن طبيعة الإنسان من حيث هو كما وصفه الله عز وجل في هاتين الآيتين.

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿كلا إذا دكت الأرض دكًّا دكًّا. وجاء ربك والملك صفًّا صفًّا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾ يذكر الله سبحانه وتعالى الناس بيوم القيامة ﴿إذا دكت الأرض دكًّا دكًّا﴾ حتى لا

ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، تُدك الجبال، ولا بناء، ولا أشجار، تمد الأرض كمد الأديم، يكون الناس عليها في مكان واحد يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر في هذا اليوم ﴿يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي﴾ ولكن قد فات الأوان، لأننا في الدنيا في مجال العمل في زمن المهلة يمكن للإنسان أن يكتسب لمستقره، كما قال مؤمن آل فرعون ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار﴾ [غافر: ٣٩]. متاع يتمتع به الإنسان كما يتمتع المسافر بمتاع السفر حتى ينتهي سفره، فهكذا الدنيا، واعتبر ما يستقبل بما مضى، كل ما مضى كأنه ساعة من نهار، كأننا الآن مخلوقون، فكذلك ما يستقبل سوف يمر بنا سريعاً ويمضي جميعاً، وينتهي السفر إلى مكان آخر ليس مستقرًا، إلى الأجداث إلى القبور ومع هذا فإنها ليست محل استقرار لقول الله تعالى: ﴿ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر﴾ [التكاثر: ١، ٢]. سمع أعرابي رجلاً يقرأ هذه الآية فقال: (والله ما الزائر بمقيم ولابد من مفارقة لهذا المكان)، وهذا استنباط قوي وفهم جيد يؤيده الآيات الكثيرة الصريحة في ذلك كقوله تعالى: ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون. ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦]. وذكر الله سبحانه وتعالى ما يكون في هذا اليوم فقال: ﴿وجاء ربك والملك صفًّا صفًّا﴾ أي صفًّا بعد صف، ﴿وجاء ربك﴾ هذا المجيء هو مجيئه ـ عز وجل ـ لأن الفعل أسند إلى الله، وكل فعل يسند إلى الله فهو قائم به لا بغيره، هذه القاعدة في اللغة العربية، والقاعدة في أسماء الله وصفاته كل ما أسنده الله إلى نفسه فهو له نفسه لا لغيره، وعلى هذا فالذي يأتي هو الله عز وجل، وليس كما حرفه أهل التعطيل حيث قالوا إنه جاء أمر الله، فإن هذا إخراج للكلام عن ظاهره بلا دليل، فنحن من عقيدتنا أن

نجري كلام الله تعالى، ورسوله ﷺ على ظاهره وأن لا نحرف فيه. ونقول: إن الله تعالى يجيء يوم القيامة هو نفسه، ولكن كيف هذا المجيء؟ هذا هو الذي لا علم لنا به لا ندري كيف يجيء؟ والسؤال عن مثل هذا بدعة كما قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ حين سُئل عن قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه: ٥]. فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء ـ يعني العرق ـ لشدة هذا السؤال على قلبه، لأنه سؤال عظيم سؤال متنطع، سؤال متعنت أو مبتدع يريد السوء، ثم رفع رأسه وقال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)، الشاهد الكلمة الأخيرة ـ السؤال عنه بدعة ـ واعتبر هذا في جميع صفات الله فلو سألنا سائل قال: إن الله يقول: ﴿لما خلقت بيدي﴾ [صٓ ٧٥]. يعني آدم، كيف خلقه بيده؟ نقول: هذا السؤال بدعة، قال: أنا أريد العلم لا أحب أن يخفى علي شيء من صفات ربي فأريد أن أعلم كيف خلقه؟ نقول: نحن نسألك أسئلة سهلة هل أنت أحرص على العلم من الصحابة رضي الله عنهم؟ إما أن يقول نعم، وإما أن يقول لا، والمتوقع أن يقول لا. هل الذي وجهت إليه السؤال أعلم بكيفية صفات الله عز وجل أم الرسول عليه الصلاة والسلام؟ سيقول: الرسول، إذاً الصحابة أحرص منك على العلم والمسؤول الذي يوجه إليه السؤال أعلم من الذي تسأله ومع ذلك ما سألوا؛ لأنهم يلتزمون الأدب مع الله عز وجل، ويقولون بقلوبهم وربما بألسنتهم إن الله أجل وأعظم من أن تحيط أفهامنا وعقولنا بكيفيات صفاته، والله عز وجل يقول في كتابه في الأمور المعقولة ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ [طه: ١١٠]. وفي الأمور المحسوسة: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣]. فنقول: يا أخي إلزم

الأدب، لا تسأل كيف خلق الله آدم بيده؟ فإن هذا السؤال بدعة، وكذلك بقية الصفات لو سأل كيف عين الله عز وجل؟ قلنا له: هذا بدعة، لو سأل كيف يد الله عز وجل قلنا: هذا بدعة وعليك أن تلزم الأدب، وأن لا تسأل عن كيفية صفات الله عز وجل. لما قال هنا في الآية الكريمة ﴿وجاء ربك﴾ وسأل كيف يجيء؟ نقول: هذا بدعة ـ هذه القاعدة التزموها ـ وكل إنسان يسأل عن كيفية صفات الله فهو مبتدع متنطع، سائل عما لا يمكن الوصول إليه، فموقفنا من مثل هذه الآية ﴿وجاء ربك﴾ أن نؤمن بأن الله يجيء لكن على أي كيفية الله؟ الله أعلم. والدليل قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١]. فنحن نعلم النفي ولا نعلم الإثبات، يعني نعلم أنه لا يمكن أن يأتي على كيفية إتيان البشر، ولكننا لا نثبت كيفيته وهذا هو الواجب علينا، وقوله: ﴿الملك﴾ (ال) هنا للعموم يعني جميع الملائكة يأتون ينزلون ويحيطون بالخلق، تنزل ملائكة السماء الدنيا، ثم ملائكة السماء الثانية وهلم جرا يحيطون بالخلق إظهاراً للعظمة، وإلا فإن الخلق لا يمكن أن يفروا يميناً ولا شمالاً لكن إظهاراً لعظمة الله وتهويلاً لهذا اليوم العظيم، تنزل الملائكة يحيطون بالخلق، وهذا اليوم يوم مشهود يشهده الملائكة والإنس والجن والحشرات وكل شيء ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ [التكوير: ٥]. فهو يوم عظيم لا ندركه الآن ولا نتصوره لأنه أعظم مما نتصور. الأمر الثالث مما به الإنذار في هذا اليوم بعد أن عرفنا الأمر الأول وهو مجيء الله، ثم صفوف الملائكة قال: ﴿وجيء يومئذ بجهنم﴾ ﴿جيء يومئذ﴾ ولم يذكر الجائي لكن قد دلت السنة أنه يؤتى بالنار تقاد بسبعين ألف زمام كل زمام منها يقوده سبعون ألف ملك[1]،

(١) تقدم تخريجه ص (٥٢).

وما أدراك ما قوة الملائكة؟ قوة ليست كقوة البشر، ولا كقوة الجن بل هي أعظم وأعظم بكثير، ولهذا لما قال عفريت من الجن لسليمان ﴿أنا آتيك به﴾ بعرش بلقيس ﴿قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرًّا عنده﴾ [النمل: ٣٩، ٤٠]. قال العلماء: لأن الرجل هذا دعا الله، فحملته الملائكة من اليمن فجاءت به إلى سليمان في الشام، فقوة الملائكة عظيمة، وهم يجرون هذه النار بسبعين ألف زمام، كل زمام يجره سبعون ألف ملك، إذاً هي عظيمة، هذه النار إذا رأت أهلها من مكان بعيد، سمعوا لها تغيظاً وزفيراً، وليست كزفير الطائرات أو المعدات، زفير تنخلع منه القلوب، ﴿كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير﴾ [الملك: ٨]. وقال الله عز وجل: ﴿تكاد تميز من الغيظ﴾ تكاد تقطع من شدة الغيظ على أهلها، فلهذا أنذرنا الله تعالى منها فهذه ثلاثة أمور كلها إنذار: مجيء الرب جل جلاله، صفوف الملائكة، الثالث: الإتيان بجهنم. ﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾ يعني إذا جاء الله في يوم القيامة، وجاء الملك الملائكة صفوفاً صفوفاً، وأحاطوا بالخلق، وحصلت الأهوال والأفزاع يتذكر الإنسان، يتذكر أنه وعد بهذا اليوم، وأنه أعلم به من قبل الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأنذروا وخوفوا، ولكن من حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يؤمن ولو جاءته كل آية، حينئذ يتذكر لكن يقول الله عز وجل ﴿وأنى له الذكرى﴾ أين يكون له الذكرى في هذا اليوم الذي رأى فيه ما أخبر عنه يقيناً؟! وأنى له الاتعاظ فات الأوان؟! والإيمان عن مشاهدة لا ينفع لأن كل إنسان يؤمن بما شاهد، الإيمان النافع هو الإيمان بالغيب ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ [البقرة: ٣]. فيصدق بما

أخبرت به الرسل عن الله عز وجل وعن اليوم الآخر، في ذلك اليوم يتذكر الإنسان ولكن قال الله عز وجل: ﴿أنى له الذكرى﴾ أي بعيد أن ينتفع بهذه الذكرى التي حصلت منه حين شاهد الحق يقول الإنسان: ﴿يا ليتني قدمت لحياتي﴾ يتمنى أنه قدم لحياته وما هي حياته؟ أهي حياة الدنيا؟ لا والله، الحياة الدنيا انتهت وقضت، وليست الحياة الدنيا حياة في الواقع، الواقع أنها هموم وأكدار، كل صفو يعقبه كدر، كل عافية يتبعها مرض، كل اجتماع يعقبه تفرق، انظروا ما حصل أين الآباء؟ أين الإخوان؟ أين الأبناء؟ أين الأزواج؟ هل هذه حياة؟ ولهذا قال بعض الشعراء الحكماء:

لا طيب للعيش مادامت منغصة ... لذاته بادكار الموت والهرم

كل إنسان يتذكر أن مآله أحد أمرين: إما الموت، وإما الهرم، نحن نعرف أناساً كانوا شباباً في عنفوان الشباب عُمّروا لكن رجعوا إلى أرذل العمر، يَرِقُ لهم الإنسان إذا رآهم في حالة بؤس، حتى وإن كان عندهم من الأموال ما عندهم، وعندهم من الأهل ما عندهم، لكنهم في حالة بؤس، وهكذا كل نسان إما أن يموت مبكراً، وإما أن يُعمّر فيرد إلى أرذل العمر فهل هذه حياة؟ الحياة هي ما بينه الله عز وجل: ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ يعني لهي الحياة التامة ﴿لو كانوا يعلمون﴾ [العنكبوت: ٦٤]. يقول هذا: ﴿يا ليتني قدمت لحياتي﴾ يتمني لكن لا يحصل ﴿أنى له الذكرى﴾. قال تعالى: ﴿فيومئذ لا يعذِّب عذابه أحد، ولا يُوثَق وثاقه أحد﴾ فيها قراءتان: الأولى ﴿لا يعذِّب عذابه أحد ولا يوثِقُ وَثاقه أحد﴾ أي لا يعذب عذاب الله أحد، بل عذاب الله أشد، ولا يوثق وثاق الله أحد، بل هو أشد. القراءة الثانية: ﴿لا يعذَّب عذابه أحد ولا يُوثَق وثاقه أحد﴾ يعني في هذا اليوم لا أحد

يعذب عذاب هذا الرجل، ولا أحد يوثق وثاقه، ومعلوم أن هذا الكافر لا يعذب أحد عذابه في ذلك اليوم، لأنه يُلقى على أهل النار في الموقف العطش الشديد، فينظرون إلى النار كأنها السراب، والسراب هو ما يشاهده الإنسان في أيام الصيف في شدة الحر من البقاع حتى يخيل إليه أنه الماء، ينظرون إلى النار كأنها سراب وهم عطاش، فيتهافتون عليها يذهبون إليها سراعاً يريدون أي شيء؟ يريدون الشرب، فإذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها: ﴿ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ [الزمر: ٧١]. قد قامت عليكم الحجة فيوبخونهم قبل أن يدخلوا النار، والتوبيخ عذاب قلبي وألم نفسي قبل أن يذوقوا ألم النار، وفي النار يوبخهم الجبار عز وجل توبيخاً أعظم من هذا. ويقولون ﴿ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين. ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ قال الله تعالى وهو أرحم الراحمين: ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ [المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٨]. أبلغ من هذا الإذلال ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ يقوله أرحم الراحمين، فمن يرحمهم بعد الرحمن؟! لا راحم لهم، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأن أهون أهل النار عذاباً من عليه نعلان يغلي منهما دماغه، ولا يرى أن أحداً أشد منه عذاباً[1] يرى أنه أشد الناس عذاباً وهو أهونهم عذاباً، وعليه نعلان يغلي منهما الدماغ، النعلان في أسفل البدن والدماغ في أعلاه، فإذا كان أعلى البدن يغلي من أسفله، فالوسط من باب أشد ـ أجارنا الله وإياكم من النار ـ ﴿**فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد**﴾ لأنهم ـ والعياذ بالله ـ يوثقون ﴿ثم في

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب (٣٨٨٥). ومسلم، كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذاباً (٢١١) (٣٦١).

سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾ [الحاقة: ٣٢]. أدخلوه في هذه السلسلة تغل أيديهم ـ نسأل الله العافية ـ ولا أحد يتصور الآن ما هم فيه من البؤس والشقاء والعذاب. إذن على الإنسان أن يستعد قبل أن **﴿يقول يا ليتني قدمت لحياتي فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد﴾**.

ثم ختم الله تعالى هذه السورة بما يبهج القلب ويشرح الصدر فقال: **﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾** **﴿ارجعي إلى ربك﴾** يقال هذا القول للإنسان عند النزع في آخر لحظة من الدنيا، يقال لروحه: اخرجي أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى رحمة من الله ورضوان، فتستبشر وتفرح، ويسهل خروجها من البدن، لأنها بشرت بما هو أنعم مما في الدنيا كلها، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[1]، سوط الإنسان العصا القصير، موضع السوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، وليست دنياك أنت، بل الدنيا من أولها إلى آخرها، بما فيها من النعيم، والملك، والرفاهية وغيرها، موضع سوط خير من الدنيا وما فيها، فكيف بمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي عام، ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه، نعيم لا يمكن أن ندركه بنفوسنا ولا بتصورنا ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون﴾ [السجدة: ١٧]. **﴿النفس المطمئنة﴾** يعني المؤمنة الآمنة، لأنك لا تجد نفسًا أطمن من نفس المؤمن أبداً، المؤمن نفسه طيبة مطمئنة، ولهذا تعجب الرسول ﷺ من المؤمن قال: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته ضَّراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً**

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب مثل الدنيا في الآخرة (٦٤١٥).

له»[١] ، مطمئن راض بقضاء الله وقدره، لا يسخط عند المصائب، ولا يبطر عند النعم، بل هو شاكر عند النعم، صابر عند البلاء، فتجده مطمئناً، لكن الكافر أو ضعيف الإيمان لا يطمئن، إذا أصابه البلاء جزع وسخط، ورأى أنه مظلوم من قبل الله ـ والعياذ بالله ـ حتى إن بعضهم ينتحر ولا يصبر، ولا يطمئن، بل يكون دائماً في قلق، ينظر إلى نفسه وإذا هو قليل المال، قليل العيال ليس عنده زوجة، ليس له قوم يحمونه، فيقول: أنا لست في نعمة، لأن فلانًا عنده مال، عنده زوجات، عنده أولاد، عنده قبيلة تحميه، أنا ليس عندي، فلا يرى لله عليه نعمة، لأنه ضعيف الإيمان فليس بمطمئن، دائماً في قلق، ولهذا نجد الناس الآن يذهبون إلى كل مكان ليرفهوا عن أنفسهم ليزيلوا عنها الألم والتعب، لكن لايزيل ذلك حقاً إلا الإيمان، الإيمان الحقيقي الذي يؤدي إلى الطمأنينة، فالنفس المطمئنة هي المؤمنة، مؤمنة في الدنيا، آمنة من عذاب الله يوم القيامة، قال بعض السلف كلمة عجيبة قال: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف، هل تجدون أنعم في الدنيا من الملوك وأبنائهم، لا يوجد أحد أنعم منهم في الظاهر يعني نعومة الجسد، لكن قلوبهم ليست كقلوب المؤمنين، المؤمن الذي ليس عليه إلا ثوب مرقع، وكوخ لا يحميه من المطر، ولا من الحر، ولكنه مؤمن، دنياه ونعيمه في الدنيا أفضل من الملوك وأبناء الملوك، لأن قلبه مستنير بنور الله، بنور الإيمان، وها هو شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ حبس وأوذي في الله عز وجل، فلما أدخل الحبس وأغلقوا عليه الباب قال رحمه الله: ﴿فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ [الحديد: ١٣]. يقول هذا تحدثاً

---

(١) تقدم تخريجه ص (٧٨).

بنعمة الله لا افتخاراً ثم قال: (ما يصنع أعدائي بي ـ أي شيء يصنعون ـ إن جنتي في صدري ـ أي الإيمان والعلم واليقين ـ وإن حبسي خلوة، ونفيي ـ إن نفوه من البلد ـ سياحة وقتلي شهادة) هذا هو اليقين، هذه الطمأنينة، والإنسان لو دخل الحبس كان يفكر ما مستقبلي، ما مستقبل أولادي، وأهلي، وقومي، وشيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ يقول: (جنتي في صدري) وصدق. ولعل هذا هو السر في قوله تبارك وتعالى: ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ [الدخان: ٥٦]. يعني في الجنة لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى، ومعلوم أن الجنة لا موت فها لا أولى ولا ثانية، لكن لما كان نعيم القلب ممتداً من الدنيا إلى دخول الجنة صارت كأن الدنيا والآخرة كلها جنة وليس فيها إلا موتة واحدة. ﴿راضية﴾ بما أعطاك الله من النعيم ﴿مرضية﴾ عند الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ [المجادلة: ٢٢]. ﴿فادخلي في عبادي﴾ أي: ادخلي في عبادي الصالحين، من جملتهم، لأن الصالحين من عباد الله الذين أنعم الله عليهم، الذين هم خير طبقات البشر، والبشر طبقاته ثلاث: منعم عليهم، ومغضوب عليهم، وضالون، وكل هذه الطبقات مذكورة في سورة الفاتحة ﴿اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾.

الطبقة الأولى: الذين أنعم الله عليهم وهم: النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون.

والثانية: ﴿المغضوب عليهم﴾ وهم اليهود وأشباه اليهود من كل من علم الحق وخالفه، فكل من علم الحق وخالفه ففيه شبه من اليهود، كما قال سفيان بن عيينة ـ رحمه الله ـ: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود.

والثالثة: ﴿الضالون﴾ وهم النصارى الذين جهلوا الحق، أرادوه لكن عموا عنه، ما اهتدوا إليه، قال ابن عيينة: وكل من فسد من عبّادنا ففيه شبه من النصارى؛ لأن العبّاد يريدون الخير يريدون العبادة لكن لا علم عندهم، فهم ضالون.

﴿ادخلي في عبادي﴾ أي الطبقة الأولى المنعم عليهم. ﴿وادخلي جنتي﴾ أي جنته التي أعدها الله عز وجل لأوليائه، أضافها الله إلى نفسه تشريفاً لها وتعظيماً، وإعلاماً للخلق بعنايته بها جل وعلا، والله سبحانه وتعالى قد خلقها خلقاً غير خلق الدنيا، خلق لنا في الدنيا فاكهة، ونخل، ورمان، وفي الجنة فاكهة، ونخل، ورمان ولكن ما في الجنة ليس كالذي في الدنيا أبداً، لأن الله يقول: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ [السجدة: ١٧]. ولو كان ما في الجنة كالذي في الدنيا لكنا نعلم، إذاً هو مثله في الاسم، لكن ليس مثله في الحقيقة ولا في الكيفية ولهذا قال: ﴿ادخلي جنتي﴾ فأضافها الله إلى نفسه للدلالة على شرفها وعناية الله بها، وهذا يوجب للإنسان أن يرغب فيها غاية الرغبة، كما أنه يرغب في بيوت الله التي هي المساجد، لأن الله أضافها إلى نفسه، فكذلك يرغب في هذه الدار التي أضافها الله إلى نفسه، والأمر يسير، قال رجل للرسول ﷺ: دلني على عمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، فقال: لقد سألت عن عظيم، وهو عظيم، ﴿فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وذكر الحديث[1]، فالدين والحمد لله يسير وسهل، لكن

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان فضل الإيمان الذي يدخل به الجنة، وأن من تمسك بما أمر به الله دخل الجنة (١٣ ـ ١٨).

النفوس الأمّارة بالسوء، والشهوات، والشبهات، هي التي تحول بيننا وبين ديننا، ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.

تفسير سورة البلد

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾.

البسملة: تقدم الحديث عليها.

﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ ﴿لا﴾ للاستفتاح، أي: استفتاح الكلام وتوكيده، وليست نافية، لأن المراد إثبات القسم، يعني أنا أقسم بهذا البلد لكن (لا) هذه تأتي هنا للتنبيه والتأكيد و﴿أقسم﴾ القسم تأكيد الشيء بذكر معظم على وجه مخصوص. فكل شيء محلوف به لابد أن يكون معظماً لدى الحالف، وقد لا يكون معظمًا في حد ذاته. فمثلاً الذين يحلفون باللات والعزى هي معظمة عندهم، لكن هي في الواقع ليست عظيمة ولا معظمة. فالحلف، أو القسم، أو اليمين المعنى واحد، هي تأكيد الشيء بذكر معظم عند الحالف على صفة مخصوصة. وحروف القسم هي: الباء، والواو، والتاء، والذي في الآية الكريمة هنا ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ (الباء). ﴿بهذا البلد﴾ البلد هنا مكة، وأقسم الله بها لشرفها وعظمها، فهي أعظم بقاع الأرض حرمة وأحب بقاع الأرض إلى الله عز وجل، ولهذا بعث منها رسول الله ﷺ الذي هو سيد

البشر صلوات الله وسلامه عليه، فجدير بهذا البلد الأمين أن يقسم به. ولكن نحن لا نقسم به، لأنه مخلوق، وليس لنا الحق أن نقسم بمخلوق. كما قال النبي ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»[1]، أما الله عز وجل فإنه سبحانه يقسم بما شاء، ولهذا أقسم هنا بمكة ﴿**لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد**﴾ قيل المعنى: أقسم بهذا البلد حال كونك حالاً فيه، لأن حلول النبي ﷺ في مكة يزيدها شرفاً إلى شرفها. وقيل المعنى: وأنت تستحل هذا البلد، فيكون إقسام الله تعالى بمكة حال كونها حلاًّ للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وذلك عام الفتح؛ لأن مكة عام الفتح أُحلت للرسول عليه الصلاة والسلام ولم تحل لأحد قبله، ولا تحل لأحد بعد ذلك، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس**»[2]، فيكون إقسام الله تعالى بهذا البلد مقيداً بما إذا كانت حلاًّ للرسول ﷺ عام الفتح؛ لأنها في ذلك اليوم تزداد شرفاً إلى شرفها، حيث طُهِّرت من الأصنام وهزم المشركون، وفتحت عليهم بلادهم عنوة، وصارت هذه البلد بعد أن كانت بلد كفر صارت بلاد إيمان، وبعد أن كانت بلاد شرك صارت بلاد توحيد، وبعد أن كانت بلاد عناد صارت بلاد إسلام، فأشرف حال لمكة كانت عند الفتح. ﴿**ووالد وما ولد**﴾ يعني وأقسم بالوالد وما ولد، فمن المراد بالوالد ومن المراد بالولد؟

قيل: المراد بالوالد آدم، وبالولد بنو آدم وعلى هذا تكون (ما)

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٢٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب جزاء الصيد، باب لا يعضد شجر الحرم (١٨٣٢)، ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة (١٣٥٤) (٤٤٦).

بمعنى (من) أي: ووالد ومن ولد، لأن (من) للعقلاء، و(ما) لغير العقلاء.

وقيل: المراد بالوالد وما ولد كل والد وما ولد، الإنسان والبهائم وكل شيء، لأن الوالد والمولود كلاهما من آيات الله عز وجل، كيف يخرج هذا المولود حيًّا سويًّا سميعاً بصيراً من نطفة من ماء، فهذا دليل على كمال قدرة الله عز وجل، هذا الولد السوي يخرج من نطفة ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ [يس: ٧٧]. كذلك الحشرات وغيرها تخرج ضعيفة هزيلة، ثم تكبر إلى ما شاء الله تعالى من حد. والصحيح أن هذه عامة تشمل كل والد وكل مولود ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ اللام هنا واقعة في جواب القسم، لتزيد الجملة تأكيداً، و(قد) تزيد الجملة تأكيداً أيضاً فتكون جملة ﴿**لقد خلقنا الإنسان**﴾ مؤكدة بثلاثة مؤكدات، وهي: القسم، واللام، وقد. ﴿**خلقنا الإنسان**﴾ الإنسان اسم جنس يشمل كل واحد من بني آدم ﴿في كبد﴾ فيها معنيان:

المعنى الأول: في استقامة، يعني أنه خلق على أكمل وجه في الخِلقة، مستقيماً يمشي على قدميه، ويرفع رأسه، وبدنه معتدلاً. والبهائم بالعكس الرأس على حذاء الدبر، أما بنو آدم فالرأس مرتفع أعلى البدن، فهو كما قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾. [التين: ٤].

وقيل: المراد بـ﴿كبد﴾ مكابدة الأشياء ومعاناتها، وأن الإنسان يعاني المشقة في أمور الدنيا، وفي طلب الرزق، وفي إصلاح الحرث وغير ذلك. ويعاني أيضاً معاناة أشد مع نفسه ومجاهدتها على طاعة الله،

واجتناب معاصي الله، وهذا الجهاد الذي هو أشق من معاناة طلب الرزق، ولاسيما إذا ابتلي الإنسان ببيئة منحرفة وصار بينهم غريباً، فإنه سيجد المشقة في معاناة نفسه، وفي معاناة الناس أيضاً.

فإن قال قائل: أفلا يمكن أن تكون الآية شاملة للمعنيين؟

فالجواب: بلى، وهكذا ينبغي إذا وجدت في الكتاب العزيز آية تحتمل معنيين وليس بينهما مناقضة فاحملها على المعنيين، لأن القرآن أشمل وأوسع، فإن كان بينهما مناقضة فانظر الراجح. فمثلاً، قوله تعالى: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ [البقرة: ٢٢٨]. (قروء) جمع قرء بفتح القاف فما هو (القرء)؟ قيل: هو الحيض، وقيل: هو الطهر. هنا لا يمكن أن تحمل الآية على المعنيين جميعاً للتناقض، لكن اطلب المرجح لأحد القولين وخذ به. فهنا نقول: ﴿**لقد خلقنا الإنسان في كبد**﴾ يصح أن تكون الآية شاملة للمعنيين أي في حسن قامة واستقامة، و﴿في كبد﴾ في معاناة لمشاق الأمور. ﴿**أيحسب أن لن يقدر عليه أحد**﴾ أي: أن الإنسان في نفسه وقوته يظن أن لن يقدر عليه أحد، لأنه في عنفوان شبابه وقوته وكبريائه وغطرسته، فيقول لا أحد يقدر علي، أنا أعمل ما شئت، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة﴾. قال الله تعالى: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾ [فصلت: ١٥]. إذاً، فالإنسان في حال صحته وعنفوان شبابه يظن أنه لا يقدر عليه أحد، حتى الرب عز وجل يظن أنه لا يقدر عليه، وهذا لا شك بالنسبة للكافر، أما المؤمن فإنه يعلم أن الله قادر عليه، وأنه على كل شيء قدير فيخاف منه. ﴿**يقول**﴾ أي يقول الإنسان أيضاً في حال غناه وبسط الرزق له ﴿**أهلكت مالاً لبداً**﴾ أي: مالاً كثيراً في شهواته وفي ملذاته.

يقول الله عز وجل: ﴿أيحسب أن لم يره أحد﴾ أيظن هذا أنه لا يراه أحد في تبذيره المال، وصرفه في ما لا ينفع، وكل هذا تهديد للإنسان أن يتغطرس، وأن يستكبر من أجل قوته البدنية، أو كثرة ماله. قال الله تعالى: ﴿ألم نجعل له عينين. ولساناً وشفتين. وهديناه النجدين﴾. هذه ثلاث نعم من أكبر النعم على الإنسان ﴿ألم نجعل له عينين﴾ يعني يبصر بهما ويرى فيهما، وهاتان العينان تؤديان إلى القلب ما نظر إليه الإنسان، فإن نظر نظرة محرمة كان آثماً، وإن نظر نظراً يقربه إلى الله كان غانماً، وإذا نظر إلى ما يباح له فإنه لا يحمد ولا يذم ما لم يكن هذا النظر مفضياً إلى محظور شرعي فيكون آثماً بهذا النظر. ﴿ولساناً وشفتين﴾ لساناً ينطق به، وشفتين يضبط بهما النطق، وهذه من نعم الله العظيمة، لأنه بهذا اللسان والشفتين يستطيع أن يعبر عما في نفسه، ولولا هذا ما استطاع، لو كان لا يتكلم فكيف يعبر عما ما في قلبه؟ كيف يعلم الناس بما في نفسه؟ اللهم إلا بإشارة تتعب، يتعب المشير ويتعب الذين أشير إليهم. ولكن من نعمة الله أن جعل له لساناً ناطقاً، وشفتين يضبط بهما النطق، وهذا من نعمة الله، وهو أيضاً من عجائب قدرته: يأتي النطق من هواء يكون من الرئة يخرج من مخارج معينة، إن مر بشيء صار حرفاً، وإن مر بشيء آخر صار حرفاً آخر، وهو هواء واحد من مخرج واحد، لكن يمر بشعيرات دقيقة في الحلق، وفي الشفتين، وفي اللثة هذه الشعرات تكون الحروف. فتجد مثلاً الباء والشين كلها بهواء يندفع من الرئة ومع ذلك تختلف باختلاف ما تمر عليه في هذا الفم، ومخارج الحروف المعروفة، هذا من تمام قدرة الله عز وجل. ﴿وهديناه النجدين﴾ قيل: أي بينا له طريق الخير، وطريق الشر. القول الثاني: ﴿هديناه النجدين﴾ دللناه على ما به غذاؤه وهو الثديان؛ فإنهما نجدان

لارتفاعهما فوق الصدر، فهداه الله تعالى وهو رضيع لا يعرف، فمن حين أن يخرج وتضعه أمه يطلب الثدي، والذي أعلمه الله عز وجل، فبين الله عز وجل منته على هذا الإنسان من حين أن يخرج يهتدي إلى النجدين. وفي بطن أمه يتغذى عن طريق السرة؛ لأنه لا يستطيع أن يتغذى من غير هذا، فلو تغذى عن طريق الفم لاحتاج إلى بول وغائط، وكيف ذلك؟ لكنه عن طريق السرة يأتيه الدم من دم أمه وينتشر في عروقه حتى يحيا إلى أن يأذن الله تعالى بإخراجه.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿فلا اقتحم العقبة﴾ أي الإنسان الذي كان يقول ﴿أهلكت مالاً لبداً﴾ ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ يعني هلا اقتحم العقبة؟ والاقتحام هو التجاوز بمشقة يسمى اقتحاماً. و﴿العقبة﴾ هي الطريق في الجبل الوعر ولا شك أن اقتحام هذه العقبة شاق على النفوس، لا يتجاوزه أو لا يقوم به إلا من كان عنده نية صادقة في تجاوز هذه العقبة. ﴿وما أدراك ما العقبة﴾ هذا الاستفهام للتشويق والتفخيم أيضاً، يعني: ما الذي أعلمك شأن هذه العقبة التي قال الله عنها ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ بينها الله في قوله ﴿فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيماً ذا مقربة. أو مسكيناً ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا﴾ فقوله: ﴿فك رقبة﴾ هي

خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: «هي فك رقبة» وفك الرقبة له معنيان:

المعنى الأول: فكها من الرق، بحيث يعتق الإنسان العبيد المملوكين سواء كانوا في ملكه فيعتقهم، أو كانوا في ملك غيره فيشتريهم ويعتقهم.

المعنى الثاني: فك رقبة من الأسير، فإن فكاك الأسير من أفضل الأعمال إلى الله عز وجل. والأسير ربما لا يفكه العدو إلا بفدية مالية، وربما تكون هذه الفدية فدية باهظة كثيرة لا يقتحمها إلا من كان عنده إيمان بالله عز وجل بأن يخلف عليه ما أنفق، وأن يثيبه على ما تصدق. ﴿**أو إطعام في يوم ذي مسغبة**﴾ ﴿**أو**﴾ هذه للتنويع يعني وإما ﴿**إطعام في يوم ذي مسغبة**﴾ أي: ذي مجاعة شديدة، لأن الناس قد يصابون بالمجاعة الشديدة، إما لقلة الحاصل من الثمار والزروع، وإما لأمراض في أجسامهم يأكل الإنسان ولا يشبع، وهذا قد وقع فيما نسمع عنه في البلاد النجدية وربما في غيرها أيضاً. أن الناس يأكلون ولا يشبعون، يأكل الواحد مأكل العشرة ولا يشبع، ويموتون من الجوع في الأسواق ويتساقطون في الأسواق من الجوع، هذه من المساغب. أو قلة المحصول بحيث لا تثمر الأشجار، ولا تنبت الزروع، فيقل الحاصل وتحصل المسغبة، ويموت الناس جوعاً، وربما يهاجرون عن بلادهم. ﴿**يتيماً**﴾ اليتيم هو من مات أبوه قبل أن يبلغ سواءً كان ذكراً أم أنثى. فإن بلغ فإنه لا يكون يتيماً؛ لأنه بلغ وانفصل. وكذلك لو ماتت أمه فإنه لا يكون يتيماً، خلافاً لما يظنه بعض العامة، أن اليتيم من ماتت أمه وهذا ليس بصحيح، فاليتيم من مات أبوه؛ لأنه إذا مات أبوه لم يكن له كاسب من الخلق يكسب له. وقوله: ﴿**ذا مقربة**﴾ ذا قرابة من الإنسان لأنه إذا كان يتيماً كان له حظ

من الإكرام والصدقات، وإذا كان قريباً ازداد حظه من ذلك؛ لأنه يكون واجب الصلة، فمن جمع هذين الوصفين اليتم والقرابة فإن الإنفاق عليه من اقتحام العقبة إذا كان ذلك في يوم ذي مسغبة. ﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ يعني: أو إطعام في يوم ذي مسغبة ﴿مسكيناً ذا متربة﴾، المسكين: هو الذي لا يجد قوته ولا قوت عياله. المتربة: مكان التراب، والمعنى: أنه مسكين ليس بيديه شيء إلا التراب. ومعلوم أنه إذا قيل عن الرجل: ليس عنده إلا التراب، فالمعنى: أنه فقير جداً ليس عنده طعام، وليس عنده كساء، وليس عنده مال فهو مسكين ذو متربة. ﴿ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾ ﴿ثم كان﴾ يعني: ثم هو بعد ذلك ليس محسناً على اليتامى والمساكين فقط، بل هو ذو إيمان، آمن بكل ما يجب الإيمان به. وقد بين الرسول ﷺ الذي يجب الإيمان به، فقال حين سأله جبريل عن الإيمان: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره»[1]. وقوله: ﴿وتواصوا بالصبر﴾ أي: أوصى بعضهم بعضاً بالصبر، والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، فهم صابرون متواصون بالصبر بهذه الأنواع: الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله المؤلمة. وقد اجتمعت هذه الأنواع الثلاثة، في الرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم، فها هو الرسول عليه الصلاة والسلام صابر على طاعة الله، يجاهد في سبيل الله، ويدعو إلى الله، ويؤذى ويعتدى عليه بالضرب، حتى هم المشركون بقتله وهو مع ذلك صابر محتسب، وهو أيضاً صابر عن معصية الله، لا يمكن أن

---

(١) تقدم تخريجه ص (٥٦).

يغدر بأحد، ولا أن يكذب أحداً، ولا أن يخون أحداً، وهو أيضاً متق لله تعالى بقدر ما يستطيع. كذلك صابر على أقدار الله، كم أوذي في الله عز وجل من أجل طاعته، أليست قريش قد آذوه حتى إذا رأوه ساجداً تحت الكعبة أمروا من يأتي بسلا ناقة فيضعه على ظهره، وهو ساجد عليه الصلاة والسلام[1] ؟! وهو صابر في ذلك كله. ويوسف عليه الصلاة والسلام، صبر على أقدار الله فقد أُلقي في البئر في غيابة الجب، وأوذي في الله بالسجن، ومع ذلك فهو صابر محتسب لم يتضجر ولم ينكر ما وقع به. وقوله: ﴿وتواصوا بالمرحمة﴾ أي: أوصى بعضهم بعضاً أن يرحم الآخر، ورحمة الإنسان للمخلوقات تكون في البهائم وتكون في الناطق. فهو يرحم آباءَه، وأمهاته، وأبناءَه، وبناته، وإخوانه، وأخواته، وأعمامه، وعماته، وهكذا. ويرحم كذلك سائر البشر، وهو أيضاً يرحم الحيوان البهيم فيرحم ناقته، وفرسه، وحماره، وبقرته، وشاته، وغير ذلك، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»[2] . ﴿أولئك﴾ أي هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات ﴿أصحاب الميمنة﴾ أي: أصحاب اليمين، الذين يُؤتون كتابهم يوم القيامة بأيمانهم، فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً. ثم قال عز وجل: ﴿والذين كفروا بآياتنا﴾ أي: جحدوا بها ﴿هم أصحاب المشئمة﴾ ﴿هم﴾: الضمير هنا جاء للتوكيد، ولو قيل في غير القرآن: والذين كفروا بآياتنا أصحاب المشئمة. لصح لكن هذا من باب التوكيد.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة (٣٨٥٤). ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٤).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في رحمة الناس (١٩٢٤) وقال: حديث حسن صحيح.

﴿المشئمة﴾ يعني: الشمال أو الشؤم. ﴿عليهم نار مؤصدة﴾ أي عليهم نار مغلقة، لا يخرجون منها ولا يستطيعون، نسأل الله أن يجعلنا من الذين آمنوا، وعملوا الصالحات، وتواصوا بالصبر، وتواصوا بالمرحمة إنه سميع مجيب.

تفسير سورة الشمس

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿**والشمس وضحاها**﴾ أقسم الله تعالى بالشمس وضحاها وهو ضوءها لما في ذلك من الآيات العظيمة الدالة على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى، وكمال علمه ورحمته. فإن في هذه الشمس من الآيات ما لا يدركه بعض الناس، فإذا طلعت الشمس فكم توفر على العالم من طاقة كهربائية؟ توفر آلاف الملايين، لأنهم يستغنون بها عن هذه الطاقة، وكم يحصل للأرض من حرارتها، من نضج الثمار، وطيب الأشجار، ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، ويحصل فيها فوائد كثيرة لا أستطيع أن أعدها؛ لأن غالبها يتعلق في علم الفلك وعلم الأرض والجيولوجيا لكنها من آيات الله العظيمة.

﴿**والقمر إذا تلاها**﴾. **قيل**: إذا تلاها في السير.

وقيل: إذا تلاها في الإضاءة، ومادامت الآية تحتمل هذا وهذا فإن القاعدة في علم التفسير أن الآية إذا احتملت معنيين لا تعارض

بينهما وجب الأخذ بهما جميعاً، لأن الأخذ بالمعنيين جميعاً أوسع للمعنى. فنقول: إذا تلاها في السير؛ لأن القمر يتأخر كل يوم عن الشمس، فبينما تجده في أول الشهر قريباً منها في المغرب، إذا هو في نصف الشهر أبعد ما يكون عنها في المشرق، لأنه يتأخر كل يوم. أو إذا تلاها في الإضاءة، لأنها إذا غابت بدأ ضوء القمر لاسيما في الربع الثاني إلى نهاية الربع الثالث فإن ضوء القمر يكون بيناً واضحاً. يعني: إذا مضى سبعة أيام إلى أن يبقى سبعة أيام يكون الضوء قويًّا، وأما في السبعة الأولى والأخيرة فهو ضعيف، وعلى كل حال فإن إضاءة القمر لا تكون إلا بعد ذهاب ضوء الشمس كما هو ظاهر. فأقسم الله تعالى بالشمس لأنها آية النهار، وبالقمر لأنه آية الليل. ﴿**والنهار إذا جلاها**. **والليل إذا يغشاها**﴾ متقابلات، ﴿**والنهار إذا جلاها**﴾ إذا جلى الأرض وبينها ووضحها؛ لأنه نهار تتبين به الأشياء وتتضح ﴿**والليل إذا يغشاها**﴾ إذا يغطي الأرض حتى يكون كالعباءة المفروشة على شيء من الأشياء، وهذا يتضح جلياً فيما إذا غابت الشمس وأنت في الطائرة تجد أن الأرض سوداء تحتك، لأنك أنت الآن تشاهد الشمس لارتفاعك، لكن الأرض التي تحتك حيث غربت عليها الشمس تجدها سوداء كأنها مغطاة بعباءة سوداء وهذا معنى قوله: ﴿**والليل إذا يغشاها**﴾. ﴿**والسماء وما بناها. والأرض**...﴾ السماء والأرض متقابلات. ﴿**والسماء وما بناها**﴾ قال المفسرون: إن ﴿**ما**﴾ هنا مصدرية أي: والسماء وبنائها؛ لأن السماء عظيمة بارتفاعها وسعتها وقوتها، وغير ذلك مما هو من آيات الله فيها، وكذلك بناؤها بناء محكم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو

حسير﴾. [الملك: ٣، ٤]. ﴿والأرض وما طحاها﴾ يعني: الأرض وما سواها حتى كانت مستوية، وحتى كانت ليست لينة جداً، وليست قوية صلبة جداً، بل هي مناسبة للخلق على حسب ما تقوم به حوائجهم، وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى على عباده أن سوى لهم الأرض وجعلها بين اللين والخشونة إلا في مواضع لكن هذا القليل لا يحكم به على الكثير. ﴿ونفس وما سواها﴾ نفس هنا وإن كانت واحدة لكن المراد العموم. يعني كل نفس ﴿وما سواها﴾ يعني سواها خِلقة وسواها فطرة، سواها خلقة حيث خلق كل شيء على الوجه الذي يناسبه ويناسب حاله. قال الله تعالى: ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه﴾ أي خلقه المناسب له ﴿ثم هدى﴾ [طه: ٥٠]. أي: هداه لمصالحه، وكذلك سواه فطرة ولا سيما البشر فإن الله جعل فطرتهم هي الإخلاص والتوحيد كما قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾. [الروم: ٣٠]. ﴿فألهمها﴾ أي الله عز وجل ألهم هذه النفوس ﴿فجورها وتقواها﴾ بدأ بالفجور قبل التقوى مع أن التقوى لا شك أفضل، قالوا: مراعاة لفواصل الآيات. ﴿فجورها وتقواها﴾ الفجور هو ما يقابل التقوى، والتقوى طاعة الله، فالفجور معصية الله، فكل عاص فهو فاجر. وإن كان الفاجر خصَّ عرفاً بأنه من ليس بعفيف، لكن هو شرعاً يعم كل من خرج عن طاعة الله كما قال تعالى: ﴿كلا إن كتاب الفجار لفي سجين﴾ [المطففين: ٧]. والمراد الكفار. وألهامها تقواها هو الموافق للفطرة؛ لأن الفجور خارج عن الفطرة، لكن قد يلهمه الله بعض النفوس لانحرافها لقوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥]. والله تعالى لا يظلم أحدًا، لكن من علم منه أنه لا يريد الحق أزاغ الله قلبه. ﴿قد أفلح من زكاها﴾ ﴿قد أفلح﴾ أي: فاز بالمطلوب

ونجا من المرهوب، ﴿من زكاها﴾ أي: من زكى نفسه، وليس المراد بالتزكية هنا التزكية المنهي عنها في قوله: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ [النجم: ٣٢]. المراد بالتزكية هنا: أن يزكي نفسه بإخلاصها من الشرك وشوائب المعاصي، حتى تبقى زكية طاهرة نقية. ﴿وقد خاب من دساها﴾ أي من أرداها في المهالك والمعاصي، وهذا يحتاج إلى دعاء الله سبحانه وتعالى أن يثبت الإنسان على طاعته، وعلى القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. فعليك دائماً أن تسأل الله الثبات والعلم النافع، والعمل الصالح فإن الله تعالى قال: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾. [البقرة: ١٨٦].

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ ﴿كذبت ثمود﴾ ثمود اسم قبيلة ونبيهم صالح عليه الصلاة والسلام، وديارهم في الحجر معروفة في طريق الناس، هؤلاء كذبوا نبيهم صالحًا. ونبيهم صالح عليه الصلاة والسلام كغيره من الأنبياء يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له. كما قال الله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ [الأنبياء: ٢٥]. دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأعطاه الله سبحانه آية تدل على نبوته وهي الناقة العظيمة التي تشرب من البئر يوماً وتسقيهم لبناً في اليوم الثاني. وقد قال بعض

العلماء: إنه كلما جاء إنسان وأعطاها من الماء بقدر أعطته من اللبن بقدره، ولكن الذي يظهر من القرآن خلاف ذلك. لقوله تعالى: ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ [الشعراء: ١٥٥]. فالناقة تشرب من البئر يوماً، ثم تدر اللبن في اليوم الثاني، ولكن لم تنفعهم هذه الآية: ﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ أي بطغيانها وعتوها، والباء هنا للسببية، أي: بسبب كونها طاغية كذبت الرسول. ﴿إذ انبعث أشقاها﴾ هذا بيان للطغيان الذي ذكره الله عز وجل وذلك حين انبعث أشقاها. و﴿انبعث﴾ يعني: انطلق بسرعة. ﴿أشقاها﴾ أي أشقى ثمود أي: أعلاهم في الشقاء ـ والعياذ بالله ـ يريد أن يقضي على هذه الناقة. فقال لهم صالح: ﴿ناقة الله وسقياها﴾ أي ذروا ناقة الله، لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ [الأعراف: ٧٣]. يعني اتركوا الناقة لا تقتلوها ولا تتعرضوا لها بسوء ولكن كانت النتيجة بالعكس. ﴿فكذبوه﴾ أي: كذبوا صالحاً وقالوا: إنك لست برسول، وهكذا كل الرسل الذين أرسلوا إلى أقوامهم يصمهم أقوامهم بالعيب. كما قال الله تعالى: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾. [الذاريات: ٥٢]. كل الرسل قيل لهم هذا ساحر أو مجنون، كما قيل للرسول عليه الصلاة والسلام: إنه ساحر، كذاب، مجنون، شاعر، كاهن، ولكن ألقاب السوء التي يلقبها الأعداء لأولياء الله لا تضرهم، بل يزدادون بذلك رفعة عند الله سبحانه وتعالى، وإذا احتسبوا الأجر أثيبوا على ذلك. فيقول عز وجل: ﴿فعقروها﴾ أي: عقروا الناقة عقراً حصل به الهلاك. ﴿فدمدم عليهم ربهم﴾ يعني: أطبق عليهم فأهلكهم كما تقول: دمدمت البئر: أي أطبقت عليها التراب. ﴿بذنبهم﴾ أي: بسبب ذنوبهم؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا

يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون، فالذنوب سبب للهلاك والدمار والفساد لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ [الروم: ٤١]. وقال تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾. [الإسراء: ١٦]. وقال الله تعالى يخاطب أشرف الخلق وخير القرون: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم﴾. [آل عمران: ١٦٥]. فالإنسان يصاب بالمصائب من عند نفسه، ولهذا قال: ﴿فدمدم عليهم ربهم بذنبهم﴾ أي: بسبب ذنبهم. ﴿فسواها﴾ أي: عمها بالهلاك حتى لم يبق منهم أحد وأصبحوا في ديارهم جاثمين. ﴿ولا يخاف عقباها﴾ يعني: أن الله لا يخاف من عاقبة هؤلاء الذين عذبهم، ولا يخاف من تبعتهم، لأن له الملك وبيده كل شيء، بخلاف غيره من الملوك لو انتصروا على غيرهم، أو عاقبوا غيرهم تجدهم في خوف يخشون أن تكون الكرة عليهم. أما الله عز وجل فإنه لا يخاف عقباها. أي: لا يخاف عاقبة من عذبهم، لأنه سبحانه وتعالى له الملك كله، والحمد كله، فسبحانه وتعالى ما أعظمه، وما أجل سلطانه.

تفسير سورة الليل

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ .

البسملة تقدم الكلام عليها .

﴿**والليل إذا يغشى**﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى بالليل إذا يغشى يعني حين يغشى الأرض ويغطيها بظلامه، لأن الغشاء بمعنى الغطاء. ﴿**والنهار إذا تجلى**﴾ أي: إذا ظهر وبان، وذلك بطلوع الفجر الذي هو النور الذي هو مقدمة طلوع الشمس، والشمس هي آية النهار كما أن القمر آية الليل. ﴿**وما خلق الذكر والأنثى**﴾ يعني وخَلْق الذكر والأنثى على أحد التفسيرين الذي جعل (ما) هنا مصدرية، والذي خَلَق الذكر والأنثى وهو الله عز وجل على التفسير الآخر. فعلى المعنى الأول: يكون الله سبحانه وتعالى أقسم بخلق الذكر والأنثى. وعلى الثاني: يكون الله تعالى أقسم بنفسه، لأنه هو الذي خلق الذكر والأنثى. ﴿**إن سعيكم لشتى**﴾ يعني إن عملكم ﴿**لشتى**﴾ أي لمتفرق تفرقاً عظيماً.

فالله عز وجل أقسم بأشياء متضادة على أشياء متضادة: الليل ضد النهار، الذكر ضد الأنثى، السعي متضاد صالح وسيىء، فتناسب

المقسم به والمقسم عليه، وهذا من بلاغة القرآن. فالمعنى أن اختلاف الليل والنهار والذكر والأنثى أمر ظاهر لا يخفى، فكذلك أعمال العباد متباينة متفاوتة، منها الصالح، ومنها الفاسد، ومنها ما يخلط صالحاً وفاسداً، كل ذلك بتقدير الله عز وجل، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ثم فصّل هذا السعي المتفرق فقال: ﴿فأما من أعطى واتقى. وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى﴾. ﴿فأما من أعطى﴾ أي: أعطى ما أمر بإعطائه من مال، أو جاه، أو علم. ﴿واتقى﴾ اتقى ما أمر باتقائه من المحرمات. ﴿وصدق بالحسنى﴾ أي: صدق بالقولة الحسنى وهي قول الله عز وجل، وقول رسوله ﷺ، لأن أصدق الكلام، وأحسن الكلام كلام الله عز وجل. ﴿فسنيسره لليسرى﴾ السين: هنا للتحقيق أي: أن من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، فسييسره الله عز وجل لليسرى في أموره كلها، في أمور دينه ودنياه، ولهذا تجد أيسر الناس عملاً هو من اتقى الله عز وجل، من أعطى واتقى وصدق بالحسنى. وكلما كان الإنسان أتقى لله كانت أموره أيسر له. قال تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرًا﴾. [الطلاق: ٤]. وكلما كان الإنسان أبعد عن الله كان أشد عسراً في أموره ولهذا قال: ﴿وأما من بخل﴾ فلم يعط ما أمر بإعطائه ﴿واستغنى﴾ استغنى عن الله عز وجل، ولم يتق ربه، بل رأى أنه في غنى عن رحمة الله. ﴿وكذب بالحسنى﴾ أي: بالقولة الحسنى، وهي قول الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. ﴿فسنيسره للعسرى﴾ ييسر للعسرى في أموره كلها، ولكن قد يأتي الشيطان للإنسان فيقول: نجد أن الكفار تيسر أمورهم فيقال: نعم. قد تيسر أمورهم، لكن قلوبهم تشتعل ناراً وضيقاً وحرجاً كما قال تعالى: ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد

في السماء﴾. [الأنعام: ١٢٥]. ثم ما ينعمون به فهو تنعيم جسد فقط، لا تنعيم روح، ثم هو أيضاً وبال عليهم لقول الله تعالى فيهم: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين﴾. [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]. وقال النبي ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»[١]. وتلا قوله تعالى: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾. [هود: ١٠٢]. وهؤلاء عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، ومع ذلك فإن هذه الدنيا جنة لهم بالنسبة للآخرة. وقد ذكروا عن ابن حجر العسقلاني شارح البخاري بالشرح الذي سماه (فتح الباري) وكان قاضي القضاة بمصر، أنه مر ذات يوم وهو على عربته تجره البغال والناس حوله، مر برجل يهودي سمان يعني: يبيع السمن والزيت، ومن المعلوم أن الذي يبيع السمن والزيت تكون ثيابه وسخة وحاله سيئة فأوقف العربة وقال لابن حجر: إن نبيكم يقول: «الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر»[٢]، فكيف أنا أكون بهذه الحال وأنت بهذه الحال؟ فقال له ابن حجر على البديهة: أنا في سجن بالنسبة لما أعد الله للمؤمنين من الثواب والنعيم، لأن الدنيا بالنسبة للآخرة ليست بشيء كما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم «**الموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[٣]، وأما أنت أيها اليهودي: فأنت في جنة بالنسبة لما أعد لك من العذاب إن مت على الكفر فاقتنع بذلك اليهودي وصار ذلك سبباً في إسلامه وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٣٧).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الزهد، باب الدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر (٢٩٥٦) (١).

(٣) تقدم تخريجه ص (٢٠٥).

ثم قال عز وجل: ﴿وما يغني عنه ماله إذا تردى﴾ يعني أي شيء يغني عنه ماله إذا بخل به وتردى هو. أي: هلك أي شيء يغني المال؟ لا يغني شيئاً.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

﴿إن علينا للهدى﴾ فيه التزام من الله عز وجل أن يبين للخلق ما يهتدون به إليه. والمراد بالهدى هنا: هدى البيان والإرشاد فإن الله تعالى التزم على نفسه بيان ذلك حتى لا يكون للناس على الله حجة وهذا في قوله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ [النساء: ١٦٣]. إلى أن قال: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾. [النساء: ١٦٥]. فلا يمكن للعقل البشري أن يستقل بمعرفة الهدى، ولذلك التزم الله عز وجل بأن يبين الهدى للإنسان ﴿إن علينا للهدى﴾ وليُعلم أن الهدى نوعان:

١ ـ هدى التوفيق. فهذا لا يقدر عليه إلا الله.

٢ ـ هدى إرشاد ودلالة، فهذا يكون من الله، ويكون من الخلق: من الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن العلماء.

كما قال الله لنبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾. [الشورى: ٥٢]. أما هداية التوفيق فهي إلى الله لا أحد يستطيع أن يوفق شخصاً إلى الخير كما قال الله تعالى: ﴿إنك لا

تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [القصص: ٥٦]. وإذا نظرنا إلى هذه الآية الكريمة ﴿**إن علينا للهدى**﴾ وجدنا أن الله تعالى بين كل شيء. بين ما يلزم الناس في العقيدة، وما يلزمهم في العبادة، وما يلزمهم في الأخلاق، وما يلزمهم في المعاملات، وما يجب عليهم اجتنابه في هذا كله. حتى قال أبو ذر رضي الله عنه: لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً[1]. وقال رجل من المشركين لسلمان الفارسي: علمكم نبيكم حتى الخراءة، قال: أجل علمنا حتى الخراءة[2]. يعني: حتى آداب قضاء الحاجة علمها النبي ﷺ أمته، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾. [المائدة: ٣]. ﴿**وإن لنا للآخرة والأولى**﴾ يعني: لنا الآخرة والأولى. الأولى متقدمة على الآخرة في الزمن، لكنه في هذه الآية أخرها لفائدتين:

الفائدة الأولى: معنوية.

الفائدة الثانية: لفظية.

أما المعنوية فلأن الآخرة أهم من الدنيا، ولأن الآخرة يظهر فيها ملك الله تعالى تماماً. في الدنيا هناك رؤساء، وهناك ملوك، وهناك أمراء يملكون ما أعطاهم الله عز وجل من الملك، لكن في الآخرة لا ملك لأحد ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ [غافر: ١٦]. فلهذا قدم ذكر الآخرة من أجل هذه الفائدة المعنوية.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٥٣).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب الاستطابة (٢٦٢) (٥٧).

أما الفائدة اللفظية: فهي مراعاة الفواصل يعني: أواخر الآيات كلها آخرها ألف.

فإن قيل: إن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿**إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى**﴾ فما الفرق؟

الجواب: الفرق أن الهدى التزم الله تعالى ببيانه وإيضاحه للخلق، أما الملك فهو لله ملك الآخرة والأولى، ولهذا قال: ﴿**وإن لنا للآخرة والأولى**﴾ ثم قال عز وجل: ﴿**فأنذرتكم نارًا تلظى**﴾ ﴿**فأنذرتكم**﴾ يعني: خوفتكم ﴿**ناراً**﴾ يعني بها نار الآخرة. ﴿**تلظى**﴾ تشتعل، ولها أوصاف كثيرة في القرآن والسنة. ﴿**لا يصلاها إلا الأشقى**﴾ ﴿**لا يصلاها**﴾ يعني: لا يحترق بها ﴿**إلا الأشقى**﴾ يعني الذي قدرت له الشقاوة. والشقاوة ضد السعادة لقوله تعالى: ﴿فأما الذين شقوا ففي النار﴾ [هود: ١٠٦]. وقوله: ﴿وأما الذين سعدوا ففي الجنة﴾ [هود: ١٠٨]. فالمراد بالأشقى يعني: الذي لم تكتب له السعادة، هذا هو الذي يصلى النار التي تلظى. ثم بين هذا بقوله: ﴿**الذي كذب وتولى**﴾ التكذيب في مقابل الخبر، والتولي في مقابل الأمر والنهي. فهذا كذب الخبر ولم يصدق، قيل له: إنك ستبعث. قال: لا أبعث. قيل له: هناك جنة ونار. قال: ليس هناك جنة ونار. قيل له: سيكون كذا وكذا، قال: ما يكون. هذا تكذيب. ﴿**تولى**﴾ يعني أعرض عن طاعة الله، وأعرض عما جاءت به رسله، فهذا هو الشقي. ﴿**وسيجنبها**﴾ أي: يجنب هذه النار التي تلظى ﴿**الأتقى**﴾ والأتقى اسم تفضيل من التقوى يعني: الذي اتقى الله تعالى حق تقاته. ﴿**الذي يؤتي ماله يتزكى**﴾ يعني: يعطي ماله من يستحقه على وجه يتزكى به، أي: يتطهر به، قال الله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم

إن صلاتك سكن لهم﴾. [التوبة: ١٠٣]. فقوله: ﴿**الذي يؤتي ماله يتزكى**﴾ يفيد أنه لا يبذر ولا يبخل، وإنما يؤتي المال على وجه يكون به التزكية، وضابط ذلك ما ذكره الله في سورة الفرقان ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾. [الفرقان: ٦٧]. نجد بعض الناس يعطيه الله مالاً، ولكنه يبخل يقتر حتى الواجب عليه لزوجته وأولاده وأقاربه لا يقوم به. ونرى بعض الناس قدر الله عليه الرزق وضيق عليه بعض الشيء، ومع هذا يذهب يتدين من الناس من أجل أن يكمل بيته حتى يكون مثل: بيت فلان وفلان، أو من أجل أن يشتري سيارة فخمة كسيارة فلان وفلان، وكلا المنهجين والطريقين منهج باطل. الأول: قصر. والثاني: أفرط. والواجب على الإنسان أن يكون إنفاقه بحسب حاله.

فإن قال قائل: هل يجوز أن يتدين الإنسان ليتصدق؟

فالجواب: لا. لأن الصدقة تطوع، والتزام الدّين خطر عظيم، لأن الدين ليس بالأمر الهين، فالإنسان إذا مات وعليه دين فإن نفسه معلقة بدينه حتى يقضى عنه، وكثير من الورثة لا يهتم بدين الميت، تجده يتأخر يماطل وربما لا يوفيه. وقد كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا قدمت إليه جنازة سأل هل عليه دين له وفاء؟ فإن قالوا لا، قال: «**صلوا على صاحبكم**»[1]. وأخبر صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن الشهادة في سبيل الله تكفر كل شيء إلا الدين[2]، فالدين أمره عظيم، لا يجوز للإنسان أن يتهاون به ثم قال: ﴿**وما لأحد عنده من**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الكفالة، باب من تكفل عن ميت ديناً (٢٢٩٥). ومسلم، كتاب الفرائض، باب من ترك مالاً فلورثته (١٦١٩) (١٤).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين (١٨٨٥) (١١٧).

نعمة تجزى﴾ يعني أنه لا يعطي المال مكافأة على نعمة سابقة من شخص فليس لأحد عليه فضل حتى يعطيه مكافأة، ولكنه يعطي ابتغاء وجه الله ولهذا قال: ﴿**إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى**﴾. فهو لا ينفق إلا طلب وجه الله، أي طلب الوصول إلى دار كرامة الله التي يكون بها رؤية الله عز وجل. ﴿**ولسوف يرضى**﴾ يعني سوف يرضيه الله عز وجل بما يعطيه من الثواب الكثير وقد بين الله ذلك في قوله: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾ [البقرة: ٢٦١]. نسأل الله أن يجعلنا من هؤلاء البررة الأطهار الكرام، إنه على كل شيء قدير.

سورة الضحى

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿والضحى﴾ ﴿الضحى﴾ هو أول النهار، وفيه النور والضياء ﴿والليل إذا سجى﴾ أي: الليل إذا غطى الأرض وسدل عليها ظلامه، فأقسم الله تعالى بشيئين متباينين أولهما: الضحى وفيه الضياء والنور، والثاني: الليل إذا يغشى وفيه الظلمة. ﴿ما ودعك ربك﴾ أي ما تركك ﴿وما قلى﴾ أي: وما أبغض، بل أحب الخلق إليه فيما نعلم محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولهذا اختاره الله لأعظم الرسالات، وأفضل الأمم، وجعله خاتم النبيين، فلا نبي بعده صلى الله عليه وآله وسلم، يقول عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ [الطور: ٤٨]. فعين الله تعالى تكلأه وترعاه وتحميه وتحفظه وهو الذي قال له صلى الله عليه وعلى آله وسلم ﴿الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين﴾ [الشعراء: ٢١٩]. فما تركه الله عز وجل بل أحاطه بعلمه، ورحمته، وعنايته وغير ذلك مما يقتضي رفعته في الدنيا والآخرة. كما قال في السورة التي تليها: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾. [الشرح: ٤]. ﴿وللآخرة خير

لك من الأولى﴾ هذه الجملة مؤكدة باللام، لام الابتداء و﴿الآخرة﴾ هي اليوم الذي يبعث فيه الناس، ويأوون إلى مثواهم الأخير إلى الجنة أو إلى النار، فيقول الله لنبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ أي: من الدنيا، وذلك لأن الآخرة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وموضع سوط أحدنا في الجنة خير من الدنيا وما فيها، كما جاء ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم[1] . ولهذا لما خير الله نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم في مرضه بين أن يعيش في الدنيا ما يعيش وبين ما عند الله، اختار ما عند الله، كما أعلن ذلك صلى الله عليه وعلى آله وسلم في خطبته حيث قال وهو على المنبر: «**إن عبداً من عباد الله خيره الله بين أن يعيش في الدنيا ما شاء الله أن يعيش وبين ما عنده فاختار ما عنده**»، فبكى أبو بكر رضي الله عنه وتعجب الناس من بكائه كيف يبكي من هذا، ولكنه رضي الله عنه كان أعلم الناس برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. علم أن المخير هو الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأنه اختار ما عند الله وهو الآخرة، وأن هذا إيذان بقرب أجله[2] .

﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ ﴿ولسوف﴾ اللام هذه أيضاً للتوكيد وهي موطئة للقسم، و﴿سوف﴾ تدل على تحقق الشيء لكن بعد مهلة وزمن ﴿يعطيك ربك﴾ أي يعطيك ما يرضيك فترضى، ولقد أعطاه الله ما يرضيه ﷺ، فإن الله تعالى يبعثه يوم القيامة مقاماً محموداً، يحمده فيه الأولون والآخرون، حتى الأنبياء وأولو العزم من الرسل لا يستطيعون

---

(١) تقدم ص (٢٠٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩٠٤). ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨٢) (٢).

الوصول إلى ما وصل إليه. فإذا كان يوم القيامة، وعظم الكرب والغم على الخلق، وضاقت عليهم الأمور طلب بعضهم من بعض أن يلتمسوا من يشفع لهم إلى الله عز وجل فيأتون إلى آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، هؤلاء خمسة أولهم أبو البشر، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وهؤلاء الأربعة عليهم الصلاة والسلام من أولي العزم، كلهم يعتذرون عن الشفاعة للخلق حتى تصل إلى النبي ﷺ فيقوم ويشفع[1]، ولا شك أن هذا عطاء عظيم لم ينله أحد من الخلق، ثم بين الله سبحانه وتعالى نعمه عليه السابقة حتى يستدل بها على النعم اللاحقة. فقال: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾ والاستفهام هنا للتقرير، يعني قد وجدك الله تعالى يتيماً فأواك، يتيماً من الأب، ويتيماً من الأم، فإن أباه توفي قبل أن يولد، وأمه توفيت قبل أن تتم إرضاعه، ولكن الله تعالى تكفل به ويسر له من يقوم بتربيته والدفاع عنه، حتى وصل إلى الغاية التي أرادها الله عز وجل. وقوله: ﴿يتيماً فآوى﴾ وجاء التعبير ـ والله أعلم ـ بـ﴿فآوى﴾ لسبب لفظي، وسبب معنوي. أما السبب اللفظي: فلأجل أن تتوافق رؤوس الآيات من أول السورة، وأما السبب المعنوي: فإنه لو كان التعبير (فآواك) اختص الإيواء به صلى الله عليه وعلى آله وسلم والأمر أوسع من ذلك، فإن الله تعالى آواه، وآوى به، آوى به المؤمنين فنصرهم وأيدهم، ودفع عنهم بل دافع عنهم سبحانه وتعالى. ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ ﴿وجدك ضالاً﴾ أي غير عالم؛ لأن النبي ﷺ لم يكن يعلم شيئاً قبل أن ينزل عليه الوحي، كما قال تعالى: ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾ [النساء: ١١٣]. وقال: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ [العنكبوت: ٤٨]. فهو ﷺ

---

(١) تقدم تخريجه ص (١١٠) وهو طرف حديث (يسمعهم الداعي).

لم يكن يعلم شيئاً بل هو من الأميين ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾ [الجمعة: ٢]. لا يقرأ ولا يكتب، لكن وصل إلى هذه الغاية العظيمة بالوحي الذي أنزله الله عليه، فعلم وعلَّم وهنا قال ﴿فهدى﴾ ولم يأت التعبير ـ والله أعلم ـ فهداك، ليكون هذا أشمل وأوسع فهو قد هدى عليه الصلاة والسلام، وهدى الله به، فهو هاد مهدي عليه الصلاة والسلام. إذاً فهدى أي فهداك وهدى بك. ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ أي وجدك فقيراً لا تملك شيئاً ﴿فأغنى﴾ أي أغناك وأغنى بك قال الله تعالى: ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾ [الفتح: ٢٠]. وما أكثر ما غنم المسلمون من الكفار تحت ظلال السيوف، غنائم عظيمة كثيرة كلها بسبب هذا الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام حين اهتدوا بهديه، واتبعوا سنته فنصرهم الله تعالى به وغنموا من مشارق الأرض ومغاربها، ولو أن الأمة الإسلامية عادت إلى ما كان عليه السلف الصالح لعاد النصر إليهم، والغنى، والعزة، والقوة ولكن مع الأسف أن الأمة الإسلامية في الوقت الحاضر كل منها ينظر إلى حظوظ نفسه بقطع النظر عما يكون به نصرة الإسلام أو خذلان الإسلام. ولا يخفى على من تأمل الوقائع التي حدثت أخيراً أنها في الحقيقة إذلال للمسلمين، وأنها سبب لشر عظيم كبير يترقب من وراء ما حدث، ولاسيما من اليهود والنصارى الذين هم أولياء بعضهم لبعض كما قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض﴾ [المائدة: ٥١]. وهم أعني اليهود والنصارى متفقون على عداوة المسلمين، كل لا يريد الإسلام، ولا يريد أهل الإسلام، ولا يريد عز الإسلام. ولكن سينصر الله تعالى دينه مهما كانت الأحوال، فالله تعالى ناصر دينه وكتابه، وإن حصل على المسلمين

ما يحصل فإن الله يقول: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ [آل عمران: ١٤٠]. فربما يأتي اليوم الذي يجاهد فيه المسلمون اليهود حتى يختبىء اليهودي تحت الشجر فينادي الشجر يا مسلم، يا عبدالله هذا يهودي تحتي، فيأتي المسلم ويقتله[١]، وما ذلك على الله بعزيز. ولكن المسلمين يحتاجون إلى قيادة حكيمة عليمة بأحكام الشريعة قبل كل شيء، لأن القيادة بغير الاستفادة بنور الشريعة عاقبتها الوبال، مهما علت ولو علت إلى أعلى قمة فإنها سوف تنزل إلى أسفل قعر. الهداية بالإسلام، بنور الإسلام، لا بالقومية، ولا بالعصبية، ولا بالوطنية ولا بغير ذلك، بالإسلام فقط. فالإسلام وحده هو الكفيل بعزة الأمة، لكن تحتاج إلى قيادة حكيمة تضع الأشياء مواضعها، وتتأنى في الأمور ولا تستعجل، لا يمكن أن يصلح الناس بين عشية وضحاها، ومن أراد ذلك فإنه قد أراد أن يغير الله سنته، والله سبحانه وتعالى لا يغير سنته، فهذا نبي الله عليه الصلاة والسلام بقي في مكة ثلاث عشرة سنة ينزل عليه الوحي، ويدعو إلى الله بالتي هي أحسن، ومع ذلك في النهاية خرج من مكة خائفاً مختفياً لم تتم الدعوة في مكة، فلماذا نريد أن نغير الأمة التي مضى عليها قرون وهي في غفلة وفي نوم بين عشية وضحاها، هذا سفه في العقل، وضلال في الدين. الأمة تحتاج إلى علاج رفيق هادىء يدعو بالتي هي أحسن، الأمة الإسلامية تحتاج بعد الفقه في دين الله والحكمة في الدعوة إلى الله، تحتاج إلى العلم بالواقع والفطنة والخبرة، ونظر في الأمور التي تحتاج إلى نظر بعيد، لأن النتائج قد لا تتبين في شهر، أو شهرين، أو سنة، أو سنتين، لكن العاقل يصبر

---

(١) انظر صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل (٢٩٢٢) (٨٢).

وينظر ويتأمل حتى يعرف، والأمور تحتاج أيضاً إلى عزم وتصميم وصبر؛ لأنه لابد من هذا لابد من عزم يندفع به الإنسان، ولابد من صبر يثبت به الإنسان وإلا لفاتت الأمور أو فات كثير منها والله المستعان.

قال عز وجل: ﴿**فأما اليتيم فلا تقهر**﴾ هذا في مقابلة ﴿**ألم يجدك يتيماً فآوى**﴾، فإذا كان الله آواك في يتمك فلا تقهر اليتيم، بل أكرم اليتيم، والإحسان إلى اليتامى وإكرامهم من أوامر الشريعة ومن حسنات الشريعة، لأن اليتيم الذي مات أبوه قبل أن يبلغ منكسر الخاطر، يحتاج إلى جبر، يحتاج إلى من يسليه، وإلى من يدخل عليه السرور لاسيما إذا كان قد بلغ سنًّا يعرف به الأمور كالسابعة والعاشرة وما أشبه ذلك ﴿**وأما السائل فلا تنهر**﴾ هذا في مقابل ﴿**ووجدك ضالاً فهدى**﴾ ﴿**وأما السائل فلا تنهر**﴾ أول ما يدخل في السائل، السائل عن الشريعة عن العلم لا تنهره؛ لأنه إذا سألك يريد أن تبين له الشريعة وجب عليك أن تبينها له لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾ [آل عمران: ١٨٧]. لا تنهره إن نهرته نفرته، ثم إنك إذا نهرته وهو يعتقد أنك فوقه؛ لأنه لم يأت يسأل إلا أنه يعتقد أنك فوقه، إذا نهرته وهو يشعر أنك فوقه أصابه الرعب واختلفت حواسه، وربما لا يفقه ما يلقي إليك من السؤال، أو لا يفقه ما تلقيه إليه من الجواب، وقس نفسك أنت لو كلمت رجلاً أكبر منك منزلة ثم نهرك ضاعت حواسك، ولم تستطع أن ترتب فكرك وعقلك، لهذا لا تنهر السائل، وربما يدخل في ذلك أيضاً سائل المال، يعني إذا جاءك سائل يسألك مالاً فلا تنهره، لكن هذا العموم يدخله التخصيص: إذا عرفت أن السائل في العلم إنما يريد التعنت، وأخذ

رأيك وأخذ رأي فلان وفلان حتى يضرب آراء العلماء بعضها ببعض، فإذا علمت ذلك فهنا لك الحق أن تنهره، وأن تقول: يا فلان اتق الله ألم تسأل فلاناً كيف تسألني بعدما سألته؟! أتلعب بدين الله؟! أتريد إن أفتاك الناس بما تحب سكتّ، وإن أفتوك بما لا تحب ذهبت تسأل؟!. هذا لا بأس، لأن هذا النهر تأديب له. وكذلك سائل المال إذا علمت أن الذي سألك المال غني فلك الحق أن تنهره ولك الحق أيضاً أن توبخه على سؤاله وهو غني، إذاً هذا العموم ﴿**السائل فلا تنهر**﴾ مخصوص فيما إذا اقتضت المصلحة أن ينهر فلا بأس ﴿**وأما بنعمة ربك فحدث**﴾ نعمة الله تعالى على الرسول ﷺ التي ذكرت في هذه الآيات ثلاث ﴿**ألم يجدك يتيماً فآوى. ووجدك ضالاً فهدى. ووجدك عائلاً فأغنى**﴾ وبهذه الثلاث تتم النعم. حدث بنعمة الله قل: كنت يتيماً فآواني الله، كنت ضالاً فهداني الله، كنت عائلاً فأغناني الله، لكن تحدث بها إظهاراً للنعمة وشكراً للمنعم، لا افتخاراً بها على الخلق؛ لأنك إذا فعلت ذلك افتخاراً على الخلق كان هذا مذموماً. أما إذا قلت أو إذا ذكرت نعمة الله عليك تحدثاً بالنعم، وشكراً للمنعم فهذا مما أمر الله به.

هذه كلمات يسيرة على هذه السورة العظيمة، وما نقوله نحن أو غيرنا من أهل العلم فإنه لا يستوعب ما دل عليه القرآن من المعاني العظيمة، نسأل الله أن يرزقنا الفهم في دين الله، والعمل بما علمنا إنه على كل شيء قدير.

تفسير سورة الشرح

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

قال الله سبحانه وتعالى مبيناً نعمته على نبيه محمد ﷺ: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ هذا الاستفهام يقول العلماء إنه استفهام تقرير، واستفهام التقرير يرد في القرآن كثيراً، ويقدّر الفعل بفعل ماضٍ مقرون بقد. ففي قوله ﴿ألم نشرح لك﴾ يقدّر بأن المعنى قد شرحنا لك صدرك؛ لأن الله يقرر أنه شرح له صدره، وهكذا جميع ما يمر بك من استفهام التقرير فإنه يقدر بفعل ماضٍ مقرون بقد، أما كونه يقدر بفعل ماضٍ؛ فلأنه قد تم وحصل، وأما كونه مقروناً بقد؛ فلأن قد تفيد التحقيق إذا دخلت على الماضي، وتفيد التقليل إذا دخلت على المضارع، وقد تفيد التحقيق، ففي قول الناس: (قد يجود البخيل) قد هذه للتقليل، لكن في قوله تعالى: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾ [النور: ٦٤]. هذه للتحقيق ولا شك. يقول الله تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ أي: نوسعه، وهذا الشرح شرح معنوي ليس شرحاً حسيًّا، وشرح الصدر أن يكون متسعاً لحكم الله عز وجل بنوعيه، حكم الله الشرعي وهو

الدين، وحكم الله القدري وهو المصائب التي تحدث على الإنسان؛ وذلك لأن الشرع فيه مخالفة للهوى فيجد الإنسان ثقلاً في تنفيذ أوامر الله، وثقلاً في اجتناب محارم الله، لأنه مخالف لهوى النفس، والنفس الأمارة بالسوء لا تنشرح لأوامر الله ولا لنواهيه، تجد بعض الناس تثقل عليه الصلاة كما قال الله تعالى في المنافقين: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾ [النساء: ١٤٢]. ومن الناس من تخف عليه الصلاة بل يشتاق إليها ويترقب حصولها كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**جعلت قرة عيني في الصلاة**»[1] ، إذاً فالشرع فيه ثقل على النفوس، كاجتناب المحرمات، فبعض الناس يهوى أشياء محرمة عليه كالزنا وشرب الخمر وما أشبه ذلك فتثقل عليه، ومن الناس من ينشرح صدره لذلك ويبتعد عما حرم الله، وانظر إلى يوسف عليه الصلاة والسلام لما دعته امرأة العزيز بعد أن غلقت الأبواب وقالت: هيت لك وتهيأت له بأحسن ملبس وأحسن صورة، والمكان آمن أن يدخل أحد، غلقت الأبواب، وقالت: هيت لك، قال: معاذ الله، استعاذ بربه لأن هذه حال حرجة، شاب وامرأة العزيز، ومكان خالٍ وآمن، والإنسان بشر ربما تسوّل له نفسه أن يفعل ولهذا قال: ﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه﴾ [يوسف]. وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت**

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/ ١٢٨).

عيناه»[١] ، والشاهد من هذا قوله: «**رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله**» فشرح الصدر للحكم الشرعي معناه قبول الحكم الشرعي والرضا به وامتثاله، وأن يقول القائل سمعنا وأطعنا، وأنت بنفسك أحياناً تجد قلبك منشرحاً للعبادة تفعلها بسهولة وانقياد وطمأنينة ورضا، وأحياناً بالعكس لولا خوفك من الإثم ما فعلت، فإذا كان هذا الاختلاف في الشخص الواحد فما بالك بالأشخاص.

وأما انشراح الصدر للحكم القدري، فالإنسان الذي شرح الله صدره للحكم الكوني تجده راضياً بقضاء الله وقدره، مطمئناً إليه، يقول: أنا عبد، والله رب يفعل ما يشاء، هذا الرجل الذي على هذه الحال سيكون دائماً في سرور لا يغتم ولا يهتم، هو يتألم لكنه لا يصل إلى أن يحمل همًّا أو غمًّا ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له**»[٢] ، إذاً شرح الصدر يعني توسعته وتهيئته لأحكام الله الشرعية والقدرية، لا يضيق بأحكام الله ذرعاً إطلاقاً، ونبينا محمد ﷺ له الحظ الأوفر من ذلك، ولهذا تجده أتقى الناس لله، وأشدهم قياماً بطاعة الله، وأكثرهم صبراً على أقدار الله، ماذا فعل الناس به حين قام بالدعوة؟ وماذا يصيبه من الأمراض؟ حتى إنه يوعك كما يوعك الرجلان منا يعني من المرض يشدد عليه يعني كرجلين منا، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب فضل من ترك الفواحش (٦٨٠٦)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١) (٩١).

(٢) تقدم تخريجه ص (٧٨).

يوعك، فقلت: يا رسول الله إنك توعك وعكاً شديداً، قال: «**أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم**»[١] . وحتى أنه شدد عليه عند النزع عند الموت عليه الصلاة والسلام حتى يفارق الدنيا وهو أصبر الصابرين، والصبر درجة عالية لا تنال إلا بوجود شيء يصبر عليه، أما الشيء اليسير البارد فلا صبر عليه، لهذا نجد الأنبياء أكثر الناس بلاء ثم الصالحين الأمثل فالأمثل. ﴿**ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك**﴾ قد يقول قائل: إن بين الجملتين تنافر، الجملة الأولى فعل مضارع ﴿**نشرح**﴾ والثانية فعل ماض ﴿**وضعنا**﴾ لكن بناء على التقرير الذي قلت وهو أن ﴿**ألم نشرح**﴾ بمعنى قد شرحنا يكون عطف ووضعنا عطفه على نظيره ومثيله ﴿**ووضعنا عنك وزرك**﴾ وضعناه أي طرحناه وعفونا وسامحنا وتجاوزنا عنك ﴿**وزرك**﴾ أي إثمك ﴿**الذي أنقض ظهرك**﴾ يعني أقضه وآلمه؛ لأن الظهر هو محل الحمل، فإذا كان هناك حمل يتعب الظهر فإتعاب غيره من باب أولى، لأن أقوى عضو في أعضائك للحمل هو الظهر، وانظر للفرق بين أن تحمل كيساً على ظهرك أو تحمله بين يديك بينهما فرق، فالمعنى أن الله تعالى غفر للنبي ﷺ وزره وخطيئته حتى بقي مغفوراً له، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾. [الفتح: ١، ٢]. وقيل للنبي ﷺ وهو يقوم الليل ويطيل القيام حتى تتورم قدماه أو تتفطر قيل له: أتصنع هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»[٢] ، إذاً مغفرة الذنوب

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المرضى، باب أشد الناس بلاء الأنبياء (٥٦٤٨)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك (٢٥٧١) (٤٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ (١١٣٠)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨٢٠) (٨١).

المتقدمة والمتأخرة ثابتة بالقرآن والسنة، وهذا من خصائص الرسول عليه الصلاة والسلام، لا أحد من الناس يغفر له ما تقدم وما تأخر إلا الرسول ﷺ، أما غيره فيحتاج إلى توبة من الذنب، وقد يغفر الله له سبحانه وتعالى بدون توبة ما دون الشرك، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام نجزم بأنه قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ولهذا قال: ﴿**ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك**﴾.

فإن قال قائل: هذه الآية وما سقناه شاهداً لها يدل على أن الرسول ﷺ قد يذنب فهل النبي ﷺ يذنب؟ فالجواب: نعم، ولا يمكن أن نرد النصوص لمجرد أن نستبعد وقوع الذنب منه صلى الله عليه وآله وسلم، ونحن لا نقول الشأن ألا يذنب الإنسان بل الشأن أن يغفر للإنسان، هذا هو المهم أن يغفر له، أما أن لا يقع منه الذنب فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»[1]، لابد من خطيئة لكن هناك أشياء لا يمكن أن تقع من الأنبياء مثل الكذب والخيانة، فإن هذا لا يمكن أن يقع منهم إطلاقاً، لأن هذا لو فرض وقوعه لكان طعناً في رسالتهم وهذا شيء مستحيل، وسفاسف الأخلاق من الزنا وشبهه هذا أيضاً ممتنع، لأنه ينافي أصل الرسالة، فالرسالة إنما وجدت لتتميم مكارم الأخلاق كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[2]، فالحاصل أن الله سبحانه وتعالى وضع عن محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم وزره، وبين أن هذا الوزر قد أنقض ظهره أي أقضه وأتعبه، وإذا كان هذا وزر الرسول عليه الصلاة والسلام فكيف بأوزار غيره،

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب استعظام المؤمن ذنوبه (٢٤٤٩) وقال: حديث غريب.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ البخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣).

أوزارنا تقض ظهورنا وتنقضها وتتعبها، ولكن كأننا لم نحمل شيئاً، وذلك لضعف إيماننا وبصيرتنا وكثرة غفلتنا، نسأل الله أن يعاملنا بالعفو، في بعض الآثار أن المؤمن إذا أذنب ذنباً صار عنده كالجبل فوق رأسه وإن المنافق إذا أذنب ذنباً صار عنده كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا[1] ، يعني أنه لا يهتم، فالمؤمن تهمه خطاياه وتلحقه الهم حتى يتخلص منها بتوبة واستغفار، أو حسنات جليلة تمحو آثار هذه السيئة، وأنت إذا رأيت من قلبك الغفلة عن ذنوبك فاعلم أن قلبك مريض، لأن القلب الحي لا يمكن أن يرضى بالمرض، ومرض القلوب هي الذنوب كما قال عبدالله بن المبارك رحمه الله:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

فيجب علينا أن نهتم بأنفسنا وأن نحاسبها، وإذا كان التجار لا ينامون حتى يراجعوا دفاتر تجارتهم، ماذا صرفوا، وماذا أنفقوا، وماذا كسبوا، فإن تجار الآخرة ينبغي أن يكونوا أشد اهتماماً؛ لأن تجارتهم أعظم، فتجارة أهل الدنيا غاية ما تفيدهم إن أفادتهم هو إتراف البدن فقط، على أن هذه التجارة يلحقها من الهم والغم ما هو معلوم، وإذا خسر في سلعة اهتم لذلك، وإذا كان في بلده مخاوف: قطاع طريق، أو سراق صار أشد قلقاً، لكن تجارة الآخرة على العكس من هذا ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٢]. تنجي من العذاب، ويغفر الله بها الذنوب،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة (٦٣٠٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

ويدخل بها الجنات، جنات عدن أي جنات إقامة، ومساكن طيبة في جنات عدن، مساكن طيبة في بنايتها وفي مادة البناء، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما**»[١] ، والله لو يبقى الإنسان في سجدة منذ بلغ إلى أن يموت لكان هذا ثمناً قليلاً بالنسبة إلى هذه الغنيمة العظيمة، ولو لم يكن إلا أن ينجو الإنسان من النار لكفى، أحياناً الإنسان يفكر يقول ليتني لم أولد أو يكفيني أن أنجو من النار، وها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ليتني شجرة تعضد، ليت أمي لم تلدني[٢] ، لأن الإنسان يظن أنه آمن لأنه يصلي، ويصوم، ويتصدق، ويحج ويبر الوالدين وما أشبه ذلك، لكن قد يكون في قلبه حسيكة تؤدي إلى سوء الخاتمة، ـ والعياذ بالله ـ كما قال النبي ﷺ: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع**» يعني مدة قريبة لموته ما هو إلا ذراع في العمل؛ لأن عمله كله هباء، هو يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار كما جاء في الحديث الصحيح، لكن قوله: «**حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع**» ليس معناه أن عمله أوصله إلى قريب من الجنة، وإنما المعنى حتى لا يبقى عليه إلا مدة قليلة في الحياة «**ثم يعمل بعمل أهل النار فيدخلها**» لكن هذا فيما إذا كان عمل الإنسان للناس كما قال عليه الصلاة والسلام: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار**»[٣] ، والإنسان إذا مر على مثل هذه النصوص يخاف على نفسه، يخاف من الرياء، يخاف من

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ (٤٨٧٨).

(٢) أخرج البخاري نحوه بلفظ: (لو أن لي طلاع الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه) (٣٦٩٢).

(٣) تقدم تخريجه ص (٦٥).

العجب، يخاف من الإذلال. ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ رفع ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام لا أحد يشك فيه؛ أولاً: لأنه يرفع ذكره عند كل صلاة في أعلى مكان وذلك في الأذان: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمد رسول الله.

ثانياً: يرفع ذكره في كل صلاة فرضاً في التشهد، فإن التشهد مفروض، وفيه أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

ثالثاً: يرفع ذكره عند كل عبادة، كل عبادة مرفوع فيها ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك لأن كل عبادة لابد فيها من شرطين أساسيين هما: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام، ومن المعلوم أن المتابع للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم سوف يستحضر عند العبادة أنه متبع فيها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فهذا من رفع ذكره.

قوله: ﴿فإن مع العسر يسراً. إن مع العسر يسراً﴾ هذا بشارة من الله عز وجل للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولسائر الأمة، وجرى على الرسول عليه الصلاة والسلام عسر حينما كان بمكة يضيق عليه، وفي الطائف، وكذلك أيضاً في المدينة من المنافقين فالله يقول: ﴿فإن مع العسر يسراً﴾ يعني كما شرحنا لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، ورفعنا لك ذكرك، وهذه نعم عظيمة كذلك هذا العسر الذي يصيبك لابد أن يكون له يسر ﴿فإن مع العسر يسراً. إن مع العسر يسراً﴾ قال ابن عباس عند هذه الآية: «لن يغلب عسرٌ يسرين»[1]،

---

(١) الموطأ ٢/ ٤٤٦، ابن أبي شيبة ٥/ ٣٣٥، ١٣/ ٣٠٨، البيهقي شعب الإيمان ٧/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦، الحاكم ٢/ ٣٠١.

وتوجيه كلامه ـ رضي الله عنه ـ مع أن العسر ذكر مرتين واليسر ذكر مرتين. قال أهل البلاغة: توجيه كلامه أن العسر لم يذكر إلا مرة واحدة ﴿**فإن مع العسر يسراً. إن مع العسر يسراً**﴾ العسر الأول أعيد في الثانية بال، فال هنا للعهد الذكري، وأما يسر فإنه لم يأت معرفاً بل جاء منكراً، والقاعدة: أنه إذا كرر الاسم مرتين بصيغة التعريف فالثاني هو الأول إلا ما ندر، وإذا كرر الاسم مرتين بصيغة التنكير فالثاني غير الأول، لأن الثاني نكرة، فهو غير الأول، إذاً في الآيتين الكريمتين يسران وفيهما عسر واحد، لأن العسر كرر مرتين بصيغة التعريف ﴿**فإن مع العسر يسراً**﴾ هذا الكلام خبر من الله عز وجل، وخبره جل وعلا أكمل الأخبار صدقاً، ووعده لا يخلف، فكلما تعسر عليك الأمر فانتظر التيسير، أما في الأمور الشرعية فظاهر، ففي الصلاة: صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب، فهذا تيسير، إذا شق عليك القيام اجلس، إن شق عليك الجلوس صل وأنت على جنبك، وفي الصيام إن قدرت وأنت في الحضر فصم، وإن لم تقدر فأفطر، إذا كنت مسافراً فأفطر، في الحج إن استطعت إليه سبيلاً فحج، وإن لم تستطع فلا حج عليك، بل إذا شرعت في الحج وأحصرت ولم تتمكن معه من إكمال الحج فتحلل، وافسخ الحج واهدِ لقول الله تعالى: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي﴾ [البقرة: ١٩٦]. إذاً كل عسر يحدث للإنسان في العبادة يجد التسهيل واليسر. كذلك في القضاء والقدر، يعني تقدير الله على الإنسان من مصائب، وضيق عيش، وضيق صدر وغيره لا ييأس، فإن مع العسر يسراً، والتيسير قد يكون أمراً ظاهراً حسيًّا، مثل: أن يكون الإنسان فقيراً فتضيق عليه الأمور فييسر الله له الغنى، مثال آخر: إنسان مريض

يتعب يشق عليه المرض فيشفيه الله عز وجل، هذا أيضاً تيسير حسي، هناك تيسير معنوي وهو معونة الله الإنسان على الصبر هذا تيسير، فإذا أعانك الله على الصبر تيسر لك العسير، وصار هذا الأمر العسير الذي لو نزل على الجبال لدكها، صار بما أعانك الله عليه من الصبر أمراً يسيراً، وليس اليسر معناه أن ينفرج الشيء تماماً فقط، اليسر أن ينفرج الكرب ويزول وهذا يسر حسي، وأن يعين الله الإنسان على الصبر حتى يكون هذا الأمر الشديد العسير أمراً سهلاً عليه، نقول هذا لأننا واثقون بوعد الله. ﴿فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب﴾ أي إذا فرغت من أعمالك فانصب لعمل آخر، يعني اتعب لعمل آخر، لا تجعل الدنيا تضيع عليك، ولهذا كانت حياة الإنسان العاقل حياة جد، كلما فرغ من عمل شرع في عمل آخر، وهكذا؛ لأن الزمن يفوت على الإنسان في حال يقظته ومنامه، وشغله وفراغه، يسير ولا يمكن لأحد أن يمسك الزمن، لو اجتمع الخلق كلهم ليوقفوا الشمس حتى يطول النهار ما تمكنوا، فالزمن لا يمكن لأحد أن يمسكه، إذاً اجعل حياتك حياة جد، إذا فرغت من عمل فانصب في عمل آخر، إذا فرغت من عمل الدنياعليك بعمل الآخرة، فرغت من عمل الآخرة اشتغلت بأمر الدنيا فإذا قضيت الصلاة يوم الجمعة فانتشر في الأرض وابتغِ من فضل الله، وصلاة الجمعة يكتنفها عملان دنيويان ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة﴾ يعني وأنتم مشتغلون في دنياكم ﴿فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ [الجمعة: ٩، ١٠]. فإذا فرغنا من شغل اشتغلنا في آخر، وإذا فرغنا منه اشتغلنا في آخر وهكذا ينبغي أن يكون الإنسان دائماً في جد.

فإذا قال قائل: لو أنني استعملت الجد في كل حياتي لتعبت ومللت.

قلنا: إن استراحتك لتنشيط نفسك وإعادة النشاط يعتبر شغلاً وعملاً، يعني لا يلزم الشغل بالحركات ففراغك من أجل أن تنشط للعمل الآخر يعتبر عملاً، المهم أن تجعل حياتك كلها جدًّا وعملاً. ﴿وإلى ربك فارغب﴾ يعني إذا عملت الأعمال التي فرغت منها ونصبت في الأخرى، فارغب إلى الله عز وجل في حصول الثواب، وفي حصول الأجر، وفي الإعانة كن مع الله عز وجل قبل العمل وبعد العمل، قبل العمل كن مع الله تستعينه عز وجل، وبعده ترجو منه الثواب. وفي قوله: ﴿إلى ربك فارغب﴾ فائدة بلاغية ﴿إلى ربك﴾ متعلقة من حيث الإعراب بـ(ارغب) وهي مقدمة عليها، وتقديم المعمول يفيد الحصر، يعني إلى الله لا إلى غيره فارغب في جميع أمورك، وثق بأنك متى علقت رغبتك بالله عز وجل فإنه سوف ييسر لك الأمور، وكثير من الناس تنقصهم هذه الحال أي ينقصهم أن يكونوا دائماً راغبين إلى الله، فتجدهم يختل كثير من أعمالهم؛ لأنهم لم يكن بينهم وبين الله تعالى صلة في أعمالهم. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا ممتثلين لأوامره، مصدقين بأخباره، إنه على كل شيء قدير.

تفسير سورة التين

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨)﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿والتين والزيتون وطور سينين. وهذا البلد الأمين﴾ إقسام الله تعالى بهذه الأشياء الأربعة: بالتين، والزيتون، وبطور سينين، وهذا البلد الأمين يعني مكة، لأن السورة مكية فالمشار إليه قريب وهو مكة، ﴿والتين﴾ هو الثمر المعروف، ﴿والزيتون﴾ معروف، وأقسم الله بهما لأنهما يكثران في فلسطين، ﴿وطور سينين﴾ أقسم الله به لأنه الجبل الذي كلم الله عنده موسى صلى الله عليه وعلى آله وسلم. ﴿وهذا البلد الأمين﴾ أقسم الله به أعني مكة لأنها أحب البقاع إلى الله، وأشرف البقاع عند الله عز وجل.

قال بعض أهل العلم: أقسم الله بهذه الثلاثة، لأن الأول ﴿والتين والزيتون﴾ أرض فلسطين التي فيها الأنبياء، وآخر أنبياء بني إسرائيل هو عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، وبطور سينين لأنه الجبل الذي أوحى الله تعالى إلى موسى حوله، وأما البلد الأمين فهو مكة

الذي بعث الله منه محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم. قال العلماء: ومعنى قوله: ﴿وطور سينين﴾ أي طور البركة لأن الله تعالى وصفه أو وصف ما حوله بالوادي المقدس. ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ هذا هو المقسم عليه، أقسم الله تعالى أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهذه الجملة التي فيها المقسم عليه مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، وقد، أقسم الله أنه خلق الإنسان ﴿في أحسن تقويم﴾ في أحسن هيئة وخِلقة و﴿في أحسن تقويم﴾ فطرة وقصداً، لأنه لا يوجد أحد من المخلوقات أحسن من بني آدم خلقة، فالمخلوقات الأرضية كلها دون بني آدم في الخلقة، لأن الله تعالى قال: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ قوله: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ هذه الردة التي ذكرها الله عز وجل تعني أن الله تعالى يرد الإنسان أسفل سافلين خِلقة كما قال الله تعالى: ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ [النحل: ٧٠]. فكلما ازدادت السن في الإنسان تغير إلى أردأ في القوة الجسدية، وفي الهيئة الجسدية، وفي نضارة الوجه وغير ذلك يرد أسفل سافلين، وإذا قلنا إن أحسن تقويم تشمل حتى الفطرة التي جبل الله الخلق عليها، والعبادة التي تترتب أو تتبنى على هذه الفطرة، فإن هذا إشارة إلى أن من الناس من تعود به حاله ـ والعياذ بالله ـ إلى أن يكون أسفل سافلين بعد أن كان في الأعلى والقمة من الإيمان والعلم، والآية تشمل المعنيين جميعاً ثم قال تعالى: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾ هذا استثناء من قوله: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ يعني إلا المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنهم لا يردون إلى أسفل السافلين، لأنهم متمسكون بإيمانهم وأعمالهم، فيبقون عليها إلى أن يموتوا. وقوله: ﴿فلهم أجر﴾ أي ثواب ﴿غير

ممنون﴾ غير مقطوع، ولا ممنون به أيضاً فكلمه ﴿ممنون﴾ صالحه لمعنى القطع، وصالحة لمعنى المنة، فهم لهم أجر لا ينقطع، ولا يمن عليهم به، يعني أنهم إذا استوفوا هذا الأجر لا يمن عليهم فيقال أعطيناكم وفعلنا وفعلنا، وإن كانت المنة لله عز وجل عليهم بالإيمان والعمل الصالح والثواب، كلها منّة من الله لكن لا يمن عليهم به، أي: لا يؤذون بالمن كما يجري ذلك في أمور الدنيا، إذا أحسن إليك أحد من الناس فربما يؤذيك بمنه عليك، في كل مناسبة يقول: فعلت بك، أعطيتك وما أشبه ذلك. ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ انتقل الله تعالى من الكلام على وجه الغيبة إلى الكلام على وجه المقابلة والخطاب قال: ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ أي: أي شيء يكذبك أيها الإنسان بعد هذا البيان ﴿بالدين﴾ أي بما أمر الله به من الدين، ولهذا كلما نظر الإنسان إلى نفسه وأصله وخلقته، وأن الله اجتباه وأحسن خلقته، وأحسن فطرته فإنه يزداد إيماناً بالله عز وجل، وتصديقاً بكتابه وبما أخبرت به رسله. ثم قال: ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ وهذا الاستفهام للتقرير يقرر الله عز وجل أنه أحكم الحاكمين، وأحكم هنا اسم تفضيل وهو مأخوذ من الحكمة، ومن الحكم، فالحكم الأكبر الأعظم الذي لا يعارضه شيء هو حكم الله عز وجل، والحكمة العليا البالغة هي حكمة الله عز وجل فهو سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين قدراً وشرعاً، وله الحكم، وإليه يرجع الأمر كله. نسأل الله تعالى أن يرزقنا العلم بكتابه، وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، إنه على كل شيء قدير.

تفسير سورة العلق

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾ هذه الآيات أول ما نزل على الرسول عليه الصلاة والسلام من القرآن الكريم[1]، نزلت عليه وهو يتعبد في غار حراء وكان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أول ما بدء بالوحي أنه يرى الرؤيا في المنام، فتأتي مثل فلق الصبح[2] يعني يحدث ما يصدق هذه الرؤيا، وأول ما كان يرى هذه الرؤيا في ربيع الأول فبقي ستة أشهر يرى مثل هذه الرؤيا ويراها تجيء مثل فلق الصبح، وفي رمضان نزل الوحي الذي في اليقظة، والمدة بين ربيع الأول ورمضان ستة شهور، وزمن الوحي ثلاث وعشرون سنة، ولهذا جاء في الحديث «**أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة**»[3]، لما كان يرى هذه الرؤيا التي

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب (٣) كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، وكتاب التعبير، باب أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي (٦٩٨٢). ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠) (٢٥٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠) (٢٥٤).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التعبير، باب رؤيا الصالحين (٦٩٨٣). ومسلم، كتاب الرؤيا، باب=

تجيء مثل فلق الصبح حُبب إليه الخلاء، يعني أن يخلو بنفسه ويبتعد عن هذا المجتمع الجاهلي، فرأى عليه الصلاة والسلام أن أحسن ما يخلو به هذا الغار الذي في جبل حراء وهو غار في قمة الجبل لا يكاد يصعد إليه الإنسان القوي إلا بمشقة، فكان يصعده عليه الصلاة والسلام ويتحنث، يتعبد لله عز وجل بما فتح الله عليه في هذا الغار الليالي ذوات العدد، يعني عدة ليال، ومعه زاد أخذه يتزود به من طعام وشراب، ثم ينزل ويتزود لمثلها من أهله، ويرجع ويتحنث لله عز وجل، إلى أن نزل عليه الوحي وهو في هذا الغار، أتاه جبريل وأمره أن يقرأ فقال: «ما أنا بقارىء» ومعنى «ما أنا بقارىء» يعني لست من ذوي القراءة، وليس مراده المعصية لأمر جبريل، لكنه لا يستطيع، ليس من ذوي القراءة، إذ أنه ﷺ كان أميًّا كما قال الله تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي﴾ [الأعراف: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾ [الجمعة: ٢]. فكان لا يقرأ ولا يكتب، وهذا من حكمة الله أنه لا يقرأ ولا يكتب، حتى تتبين حاجته وضرورته إلى هذه الرسالة، وحتى لا يبقى لشاك شك في صدقه، وقد أشار الله إلى هذه في قوله: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾ [العنكبوت: ٤٨]. قال له: «ما أنا بقارىء» فغطه مرتين أو ثلاثاً، ثم قال له ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾ خمس آيات نزلت فرجع بها النبي ﷺ يرجف فؤاده من الخوف والفزع حتى أتى إلى خديجة، وحديث الوحي وابتداءه موجود في أول صحيح البخاري[1] من أحب

= كون الرؤيا من الله وأنها جزء من النبوة (٢٢٦١) (١).

(١) تقدم تخريجه أول السورة.

أن يرجع إليه فليرجع يقول الله عز وجل: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ قوله: ﴿باسم ربك﴾ قيل معناه متلبساً بذلك، وقيل مستعيناً بذلك، يعني اقرأ مستعيناً باسم الله؛ لأن أسماء الله تعالى كلها خير، وكلها إعانة يستعين بها الإنسان، ويستعين بها على وضوئه، ويستعين بها على أكله، ويستعين بها على جماعه فهي كلها عون، وقال: ﴿باسم ربك﴾ دون أن يقول باسم الله لأن المقام مقام ربوبية وتصرف وتدبير للأمور وابتداء رسالة فلهذا قال: ﴿باسم ربك﴾ إلا أنه عليه الصلاة والسلام قد رباه الله تعالى تربية خاصة ورباه كذلك ربوبية خاصة.

﴿الذي خلق﴾ أي خلق كل شيء كما قال تعالى: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ [الفرقان: ٢]. وقال تعالى: ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾ [الزمر: ٦٢]. فما من شيء في السماء ولا في الأرض، من خفي وظاهر، وصغير وكبير إلا وهو مخلوق لله عز وجل ولهذا قال: ﴿خلق﴾ وحذف المفعول إشارة للعموم؛ لأن حذف المفعول يفيد العموم، إذ لو ذكر المفعول لتقيد الفعل به، لو قال خلق كذا تقيد الخلق بما ذكر فقط، لكن إذا قال ﴿خلق﴾ وأطلق صار عامًّا فهو خالق كل شيء جل وعلا. ثم قال: ﴿خلق الإنسان من علق﴾ خص الله تعالى خلق الإنسان تكريماً للإنسان وتشريفاً له؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠]. فلهذا نص على خلق الإنسان ﴿خلق الإنسان﴾ أي ابتدأ خلقه ﴿من علق﴾ جمع، أو اسم جمع علقة، كشجر اسم جمع شجرة، والعلق عبارة عن دودة حمراء من الدم صغيرة وهذا هو المنشأ الذي به الحياة؛ لأن الإنسان دم لو تفرغ من الدم لهلك.

وقد بين الله عز وجل أنه خلق الإنسان من علق، ولكنه يتطور، وبين في آيات أخرى أنه خلق الإنسان من تراب، وفي آيات أخرى خلقه من طين، وفي آيات أخرى من صلصال كالفخار، وفي آيات أخرى من ماء دافق، وفي آيات أخرى من ماء مهين، وفي هذه الآية من علق فهل في هذا تناقض؟

الجواب: ليس هناك تناقض، ولا يمكن أن يكون في كلام الله تعالى، أو ما صح عن رسوله ﷺ شيء من التناقض أبداً، فإن الله يقول: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [النساء: ٨٢]. لكنه سبحانه وتعالى يذكر أحياناً مبدأ الخلق من وجه، ومبدأ الخلق من وجه آخر، فخلقه من تراب؛ لأن أول ما خلق الإنسان من التراب ثم صب عليه الماء فكان طيناً ثم استمر مدة فكان حمئاً مسنوناً، ثم طالت مدته فكان صلصالاً، يعني إذا ضربته بيدك تسمع له صلصلة كالفخار، ثم خلقه عز وجل لحماً، وعظماً، وعصباً إلى آخره، هذا ابتداء الخلق المتعلق بآدم. والخلق الآخر من بنيه أول منشئهم من نطفة، وهي الماء المهين وهي الماء الدافق، هذه النطفة تبقى في الرحم أربعين يوماً، ثم تتحول شيئاً فشيئاً وبتمام الأربعين تتقلب بالتطور والتدريج حتى تكون دماً علقة، ثم تبدأ بالنمو والثخونة وتتطور شيئاً فشيئاً، فإذا تمت ثمانين يوماً انتقلت إلى مضغة ـ قطعة من لحم بقدر ما يمضغه الإنسان ـ وتبقى كذلك أربعين يوماً فهذه مائة وعشرون يوماً، وهي بالأشهر أربعة أشهر، بعد أربعة أشهر يبعث الله إليه الملك الموكل بالأرحام، فينفخ فيه الروح، فتدخل الروح في الجسد بإذن الله عز وجل، والروح لا نستطيع أن نعرف كنهها وحقيقتها ومادتها، أما الجسد فأصله من التراب، ثم في أرحام النساء من النطفة، لكن الروح

لا نعرف من أي جوهر هي؟ ولا من أي مادة ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]. فينفخ الملك الروح في هذا الجنين فيبدأ يتحرك، لأن نماءه الأول كنماء الأشجار بدون إحساس، بعد أن تنتفخ فيه الروح يكون آدمياً يتحرك، ولهذا إذا سقط الحمل من البطن قبل أربعة أشهر دفن في أي مكان من الأرض، بدون تغسيل، ولا تكفين، ولا صلاة عليه، ولا يبعث؛ لأنه ليس آدميًّا، وبعد أربعة أشهر إذا سقط يجب أن يغسل، ويكفن، ويصلى عليه، ويدفن في المقابر؛ لأنه صار إنساناً، ويسمى أيضاً؛ لأنه يوم القيامة سيدعى باسمه، ويعق عنه، لكن العقيقة عنه ليست في التأكيد كالعقيقة عمن بلغ سبعة أيام بعد خروجه، على كل حال هذا الجنين في بطن أمه يتطور حتى يكون بشراً، ثم يأذن الله عز وجل له بعد المدة التي أكثر ما تكون عادة تسعة أشهر فيخرج إلى الدنيا.

وبهذه المناسبة أبين أن للإنسان أربع دور:

الدار الأولى: في بطن أمه.

الدار الثانية: في الدنيا.

الدار الثالثة: في البرزخ.

الدار الرابعة: في الجنة أو النار وهي المنتهى.

﴿اقرأ وربك الأكرم﴾ ﴿اقرأ﴾ تكرار للأولى لكن هل هي توكيد أو هي تأسيس؟ الصحيح أنها تأسيس وأن الأولى ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ قرنت بما يتعلق بالربوبية، و﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم﴾ قرنت بما يتعلق بالشرع، فالأولى بما يتعلق بالقدر، والثانية بما يتعلق بالشرع، لأن التعليم بالقلم أكثر ما يعتمد الشرع عليه، إذ أن الشرع يكتب ويحفظ، والقرآن يكتب ويحفظ، والسنة

تكتب وتحفظ، وكلام العلماء، يكتب ويحفظ، فلهذا أعادها الله مرة ثانية.

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾.

قال الله تعالى: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى﴾ ﴿كلا﴾ في القرآن الكريم ترد على عدة معاني منها: أن تكون بمعنى حقًّا كما في هذه الآية فـ﴿كلا﴾ بمعنى حقًّا، يعني أن الله تعالى يثبت هذا إثباتاً لا مرية فيه ﴿إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى﴾ الإنسان هنا ليس شخصاً معيناً، بل المراد الجنس، كل إنسان من بني آدم إذا رأى نفسه استغنى فإنه يطغى، من الطغيان وهو مجاوزة الحد، إذا رأى أنه استغنى عن رحمة الله طغى ولم يبالِ، إذا رأى أنه استغنى عن الله عز وجل في كشف الكربات وحصول المطلوبات صار لا يلتفت إلى الله ولا يبالي، إذا رأى أنه استغنى بالصحة نسي المرض، وإذا رأى أنه استغنى بالشبع نسي الجوع، إذا رأى أنه استغنى بالكسوة نسي العري، وهكذا فالإنسان من طبيعته الطغيان والتمرد متى رأى نفسه في غنى، ولكن هذا يخرج منه المؤمن، لأن المؤمن لا يرى أنه استغنى عن الله طرفة عين، فهو دائماً مفتقر إلى الله سبحانه وتعالى، يسأل ربه كل حاجة، ويلجأ إليه عند كل مكروه،

ويرى أنه إن وكله الله إلى نفسه وكله إلى ضعف وعجز وعورة، وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًا، هذا هو المؤمن، لكن الإنسان من حيث هو إنسان من طبيعته الطغيان، وهذا كقوله تعالى: ﴿وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢]. ثم قال عز وجل مهدداً هذا الطاغية ﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ أي المرجع يعني مهما طغيت وعلوت واستكبرت واستغنيت فإن مرجعك إلى الله عز وجل، كما قال الله تبارك وتعالى ﴿إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر. إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم﴾ [الغاشية: ٢٣ ـ ٢٦]. وإذا كان المرجع إلى الله في كل الأمور فإنه لا يمكن لأحد أن يفر من قضاء الله أبداً، ولا من ثواب الله وعدله، وقوله: ﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ ربما نقول إنه أعم من الوعيد والتهديد يعني أنه يشمل الوعيد والتهديد، ويشمل ما هو أعم فيكون المعنى أن إلى الله المرجع في كل شيء في الأمور الشرعية التحاكم إلى الكتاب والسنة ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ [النساء: ٥٩]. والأمور الكونية المرجع فيها إلى الله ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم﴾ [الأنفال: ٩]. فلا رجوع للعبد إلا إلى الله، كل الأمور ترجع إلى الله عز وجل، يفعل ما يشاء، حتى ما يحصل بين الناس من الحروب والفتن والشرور فإن الله هو الذي قدرها، لكنه قدرها لحكمة كما قال الله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ [البقرة: ٢٥٣]. إذن ﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ يكون فيها تهديد لهذا الإنسان الذي طغى حين رأى نفسه مستغنياً عن ربه، وفيها أيضاً ما هو أشمل وأعم وهو أن المرجع إلى الله تعالى في كل الأمور. ثم قال: ﴿أرأيت الذي ينهى. عبداً

إذا صلى﴾ يعني أخبرني عن حال هذا الرجل وتعجب من حال هذا الرجل الذي ينهى عبداً إذا صلى، ففي الآية ناهي ومنهي، فالناهي هو طاغية قريش أبو جهل، وكان يسمى في قريش أبا الحكم؛ لأنهم يتحاكمون إليه، ويرجعون إليه فاغتر بنفسه، وشرق بالإسلام ومات على الكفر كما هو معروف، هذا الرجل سماه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أبا جهل[1] ضد تسميتهم إياه أبا الحكم. وأما المنهي فهو محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو العبد ﴿عبداً إذا صلى﴾ أبو جهل قيل له: إن محمداً يصلي عند الكعبة أمام الناس، يفتن الناس ويصدهم عن أصنامهم وآلهتهم، فمر به ذات يوم وهو ساجد فنهى النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: لقد نهيتك فلماذا تفعل؟ فانتهره النبي عليه الصلاة والسلام فرجع، ثم قيل لأبي جهل إنه أي محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم مازال يصلي فقال: والله لئن رأيته لأطأن عنقه بقدمي، ولأعفرن وجهه بالتراب، فلما رآه ذات يوم ساجداً تحت الكعبة وأقبل عليه يريد أن يبر بيمينه وقسمه، لما أقبل عليه وجد بينه وبينه خندقاً من النار وأهوالاً عظيمة، فنكص على عقبيه وعجز أن يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم[2]، هذا العبد الذي ينهى عبداً إذا صلى يتعجب من حاله كيف يفعل هذا؟ ولهذا جاء في آخر الآيات ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ وأنه سيجازيه ثم قال: ﴿أرأيت إن كان على الهدى﴾ ﴿أرأيت﴾ يعني أخبرني أيها المخاطب إن كان هذا الساجد محمد ﷺ على الهدى فكيف تنهاه عنه. ﴿أو أمر بالتقوى﴾ قال

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل (٣٩٦٢). ومسلم، كتاب الجهاد، باب قتل أبي جهل (١٨٠٠) (١١٨).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صفات المنافقين، باب قوله: ﴿إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى﴾ (٢٧٩٧) (٣٨).

بعض المفسرين ﴿أو﴾ هنا بمعنى الواو يعني وأمر بالتقوى، ولكن الصحيح أنها على بابها للتنويع، يعني أرأيت إن كان على الهدى فيما فعل من السجود والصلاة، أو أمر غيره بالتقوى؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يأمر بالتقوى بلا شك فهو صالح بنفسه مصلح لغيره. ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ يعني يرى المنهي وهو الساجد محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم الآمر بالتقوى ويرى هذا العبد الطاغية الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ يرى سبحانه وتعالى علماً ورؤية، فهو سبحانه يرى كل شيء مهما خفي ودق، ويعلم كل شيء مهما بعد، ومهما كثر أو قل، فيعلم الآمر والناهي ويعلم المصلي والساجد، ويعلم من طغى، ومن خضع لله عز وجل، وسيجازي كل إنسان بعمله، والمقصود من هذا تهديد الذي ينهى عبداً إذا صلى، وبيان أن الله تعالى يعلم بحاله، وحال من ينهاه، وسيجازي كلاًّ منهما بما يستحق. فهذا تهديد لهذا الرجل الذي كان ينهى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن الصلاة، يعني ألم يعلم هذا الرجل أن الله تعالى يراه ويعلمه، وهو سبحانه وتعالى محيط بعمله، فيجازيه عليه إما في الدنيا، وإما في الدنيا والآخرة. ثم قال: ﴿كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية﴾ ﴿كلا﴾ هذه بمعنى حقًّا، ويحتمل أن تكون للردع، أي لردعه عن فعله السيىء الذي كان يقوم به تجاه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أو بمعنى حقًّا ﴿لنسفعن بالناصية﴾ جملة ﴿لنسفعن﴾ جواب لقسم مقدر والتقدير: والله لئن لم ينته لنسفعن بالناصية، وحذف جواب الشرط وبقي جواب القسم، لأن هذه هي القاعدة في اللغة العربية أنه إذا اجتمع قسم وشرط فإنه يحذف جواب المتأخر، قال ابن مالك في ألفيته:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

وهنا المتأخر هو الشرط ﴿لئن﴾ والقسم مقدر قبله إذ تقديره: والله لئن لم ينته لنسفعن، ومعنى ﴿لنسفعن﴾ أي لنأخذن بشدة و﴿الناصية﴾ مقدم الرأس و(الـ) فيها أي: في الناصية للعهد الذهني، والمراد بالناصية هنا ناصية أبي جهل الذي توعد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على صلاته ونهاه عنها، أي لنسفعن بناصيته، وهل المراد الأخذ بالناصية في الدنيا، أو في الآخرة يجر بناصيته إلى النار؟ يحتمل هذا وهذا، يحتمل أنه يؤخذ بالناصية وقد أخذ بناصيته في يوم بدر حين قتل مع من قتل من المشركين، ويحتمل أن يكون يؤخذ بناصيته يوم القيامة فيقذف في النار كما قال الله تعالى: ﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ [الرحمن: ٤١]. وإذا كانت الآية صالحة لمعنيين لا يناقض أحدهما الآخر فإن الواجب حملها على المعنيين جميعاً كما هو المعروف والذي قررناه سابقاً وهو أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين لا ينافي أحدهما الآخر فالواجب الأخذ بالمعنيين جميعاً. قوله تعالى: ﴿ناصية كاذبة خاطئة﴾ ناصية بدل من الناصية الأولى، وهي بدل نكرة من معرفة، وهي جائزة في اللغة العربية وإنما قال: ﴿ناصية﴾ من أجل أن يكون ذلك توطئة للوصف الآتي بعدها وهو قوله ﴿كاذبة خاطئة﴾ ﴿كاذبة﴾ أي أنها موصوفة بالكذب، ولا شك أن من أكبر ما يكون كذباً ما يحصل من الكفار الذين يدعون أن مع الله ألهة أخرى، فإن هذا أكذب القول وأقبح الفعل، ﴿خاطئة﴾ أي مرتكبة للخطأ عمداً، وليعلم أن هناك فرقاً بين خاطىء ومخطىء، الخاطىء من ارتكب الخطأ عمداً، والمخطىء من ارتكبه جهلاً، والثاني معذور، والأول غير معذور، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لا يأكله إلا الخاطئون﴾ [الحاقة: ٣٧].

أي المذنبون ذنباً عن عمد، وقال تعالى: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فقال الله قد فعلت[١]، ومثل ذلك القاسط والمقسط، القاسط هو الجائر، والمقسط هو العادل، قال الله تعالى: ﴿وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ [الحجرات: ٩]. وقال تعالى: ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾ [الجن: ١٥]. إذاً ﴿خاطئة﴾ أي مرتكبة للإثم عمداً. ﴿فليدع ناديه﴾ اللام هنا للتحدي، يعني إن كان صادقاً وعنده قوة، وعنده قدرة فليدع ناديه، والنادي هو مجتمع القوم للتحدث بينهم والتخاطب والتفاهم والاستئناس بعضهم ببعض، وكان أبو جهل معظمًا في قريش، وله نادي يجتمع الناس إليه فيه، ويتكلمون في شؤونهم فهنا يقول الله عز وجل إن كان صادقاً فليدع ناديه، وهذا لا شك أنه تحدي، كما تقول لعدوك إن كان لك قوم فتقدم وما أشبه ذلك من الكلمات الدالة على التحدي. ﴿سندع الزبانية﴾ يعني عندنا من هم أعظم من نادي هذا الرجل وهم الزبانية ملائكة النار، وقد وصف الله ملائكة النار بأنهم غلاظ شداد، غلاظ في الطباع، شداد في القوة ﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾ [التحريم: ٦]. بل يمتثلون كل ما أمرهم الله به ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾ لا يعجزون عن ذلك فوصفهم بوصفين أنهم في تمام الانقياد لله عز وجل ﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾ وأنهم في تمام القدرة ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾ وعدم تنفيذ أمر الله عز وجل إما أن يكون للعجز، وإما أن يكون للمعصية، فمثلاً الذي لا يصلي الفرض قائماً قد يكون للعجز، وقد يكون للعناد فهو لا ينفذ أمر الله، لكن الملائكة الذين على النار ليس عندهم عجز، بل عندهم قوة وقدرة، وليس عندهم استكبار عن الأمر، بل عندهم تمام

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس (١٢٦) (٢٠٠).

التذلل والخضوع، هؤلاء الزبانية لا يمكن لهذا وقومه وناديه أن يقابلوهم أبداً ولهذا قال: ﴿**سندع الزبانية**﴾ فإن قال قائل: أين الواو في قوله ﴿**سندع**﴾؟ قلنا: إنها محذوفة لالتقاء الساكنين، لأن الواو ساكنة والهمزة همزة الوصل ساكنة، وإذا التقى ساكنان فإنه إن كان الحرف صحيحاً كسر، وإن كان غير صحيح حذف، قال ابن مالك رحمه الله في ألفيته:

إن ساكنان التقيا اكسر ما سبق وإن يكن ليناً فحذفه استحق

يعني إذا التقى ساكنان إن كان الحرف الأول صحيحاً ليس من حروف العلة كسر مثل قوله تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا﴾ وأصلها ﴿لم يكنْ﴾ لأن لم إذا دخلت على الفعل جزمته كما في قوله تعالى: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ لكن هنا التقى ساكنان، وكان الأول حرفاً صحيحاً فكسر، أما إذا كان الأول حرف لين، يعني حرف من حروف العلة فإنه يحذف كما في هذه الآية ﴿**سندع الزبانية**﴾.

﴿**كلا لا تطعه واسجد واقترب**﴾ يقال في ﴿**كلا**﴾ ما قيل في الأولى التي قبلها والخطاب في قوله: ﴿**لا تطعه**﴾ أي لا تطع هذا الذي ينهاك عن الصلاة، بل اسجد ولا تبالي به، وإذا كان الله نهى نبيه ﷺ أن يطيع هذا الرجل فهذا يعني أنه جل وعلا سيدافع عنه، يعني افعل ما تؤمر ولا يهمنك هذا الرجل، واسجد لله عز وجل، والمراد بالسجود هنا الصلاة، لكن عبر بالسجود عن الصلاة لأن السجود ركن في الصلاة لا تصح إلا به، فلهذا عبر به عنها. وقوله: ﴿**واقترب**﴾ أي اقترب من الله عز وجل؛ لأن الساجد أقرب ما يكون من ربه كما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حيث قال: «**أقرب ما**

يكون العبد من ربه وهو ساجد»[١] ، وقال عليه الصلاة والسلام: «**ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً، فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فأكثروا فيه من الدعاء فَقَمِنٌ أن يستجاب لكم»**[٢] ، أي حري أن يستجاب لكم.

هذه السورة (العلق) سورة عظيمة ابتدأها الله تعالى بما منّ به على رسوله عليه الصلاة والسلام من الوحي، ثم اختتمها بالسجود والاقتراب من الله عز وجل، نسأل الله تعالى أن يرزقنا القيام بطاعته والقرب منه، وأن يجعلنا من أوليائه المتقين، وحزبه المفلحين، وعباده الصالحين، إنه على كل شيء قدير.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢) (٢١٥).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود (٤٧٩) (٢٠٧).

تفسير سورة القدر

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿**إنا أنزلناه في ليلة القدر**﴾ ﴿**إنا أنزلناه**﴾ الضمير هنا يعود إلى الله عز وجل، والهاء في قوله ﴿**أنزلناه**﴾ يعود إلى القرآن، وذكر الله تعالى نفسه بالعظمة ﴿**إنا أنزلناه**﴾ لأنه سبحانه وتعالى العظيم الذي لا شيء أعظم منه، والله تعالى يذكر نفسه أحياناً بصيغة العظمة مثل هذه الآية الكريمة ﴿**إنا أنزلناه في ليلة القدر**﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩]. ومثل قوله تعالى: ﴿إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ [يس: ١١]. وأحياناً يذكر نفسه بصيغة الواحد مثل ﴿إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ [طه: ١٤]. وذلك لأنه واحد عظيم، فباعتبار الصفة يأتي ضمير العظمة، وباعتبار الوحدانية يأتي ضمير الواحد. والضمير في قوله: ﴿**أنزلناه**﴾ ضمير المفعول به وهي الهاء يعود إلى القرآن وإن لم يسبق له ذكر؛ لأن هذا أمر معلوم، ولا يمتري أحد في أن المراد بذلك إنزال القرآن الكريم، أنزله الله تعالى في ليلة القدر

فما معنى إنزاله في ليلة القدر؟ الصحيح أن معناها: ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر، وليلة القدر في رمضان لا شك في هذا ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ [البقرة: ١٨٥]. فإذا جمعت هذه الآية أعني ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ إلى هذه الآية: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ تبين أن ليلة القدر في رمضان، وبهذا نعرف أن ما اشتهر عند بعض العامة من أن ليلة القدر هي ليلة النصف من شهر شعبان لا أصل له، ولا حقيقة له، فإن ليلة القدر في رمضان، وليلة النصف من شعبان كليلة النصف من رجب، وجمادى، وربيع، وصفر، ومحرم وغيرهن من الشهور لا تختص بشيء، حتى ما ورد في فضل القيام فيها فهو أحاديث ضعيفة لا تقوم بها حجة، وكذلك ما ورد من تخصيص يومها وهو يوم النصف من شعبان بصيام فإنها أحاديث ضعيفة لا تقوم بها حجة، لكن بعض العلماء ـ رحمهم الله ـ يتساهلون في ذكر الأحاديث الضعيفة فيما يتعلق بالفضائل: فضائل الأعمال، أو الشهور، أو الأماكن وهذا أمر لا ينبغي، وذلك لأنك إذا سقت الأحاديث الضعيفة في فضل شيء ما، فإن السامع سوف يعتقد أن ذلك صحيح، وينسبه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وهذا شيء كبير، فالمهم أن يوم النصف من شعبان وليلة النصف من شعبان لا يختصان بشيء دون سائر الشهور، فليلة النصف لا تختص بفضل قيام، وليلة النصف ليست ليلة القدر، ويوم النصف لا يختص بصيام، نعم شهر شعبان ثبتت السنة بأن النبي ﷺ يكثر الصيام فيه حتى لا يفطر منه إلا قليلاً[1] وما سوى ذلك مما يتعلق

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب صوم شعبان (١٩٦٩). ومسلم، كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ في رمضان وغيره واستحباب أن لا يخلي شهر من صوم (١١٥٦) (١٧٥ ـ ١٧٦).

بصيامه لم يثبت عن النبي ﷺ إلا ما لسائر الشهور كفضل صوم ثلاثة أيام من كل شهر[١] وأن تكون في الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، وهي أيام البيض.

وقوله تعالى: ﴿في ليلة القدر﴾ من العلماء من قال: القدر هو الشرف كما يقال (فلان ذو قدر عظيم، أو ذو قدر كبير) أي ذو شرف كبير، ومن العلماء من قال: المراد بالقدر التقدير، لأنه يقدر فيها ما يكون في السنة لقول الله تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين. فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ [الدخان: ٣، ٤]. أي يفصل ويبين.

والصحيح أنه شامل للمعنيين، فليلة القدر لا شك أنها ذات قدر عظيم، وشرف كبير، وأنه يقدر فيها ما يكون في تلك السنة من الإحياء والإماتة والأرزاق وغير ذلك. ثم قال جل وعلا: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ هذه الجملة بهذه الصيغة يستفاد منها التعظيم والتفخيم، وهي مطردة في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨]. وقال تعالى: ﴿الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة﴾ [الحاقة: ١ ـ ٣]. ﴿القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة﴾ فهذه الصيغة تعني التفخيم والتعظيم فهنا قال: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ أي ما أعلمك ليلة القدر وشأنها وشرفها وعظمها، ثم بين هذا بقوله: ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ وهذه الجملة كالجواب للاستفهام الذي سبقها، وهو قوله: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ الجواب: ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ أي من ألف شهر ليس فيه ليلة القدر، والمراد بالخيرية هنا ثواب العمل فيها، وما

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب صيام البيض ثلاث عشرة، وأربع عشرة وخمس عشرة (١٩٨١). ومسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر (١١٦٠) (١٩٤).

ينزل الله تعالى فيها من الخير والبركة على هذه الأمة، ولذلك كان من قامها إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ثم ذكر ما يحدث في تلك الليلة فقال: ﴿تنزل الملائكة والروح فيها﴾ أي تنزل شيئاً فشيئاً؛ لأن الملائكة سكان السموات، والسموات سبع فتتنزل الملائكة إلى الأرض شيئاً فشيئاً حتى تملأ الأرض، ونزول الملائكة في الأرض عنوان على الرحمة والخير والبركة، ولهذا إذا امتنعت الملائكة من دخول شيء كان ذلك دليلاً على أن هذا المكان الذي امتنعت الملائكة من دخوله قد يخلو من الخير والبركة كالمكان الذي فيه الصور، فإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة[1]، يعني صورة محرمة؛ لأن الصورة إذا كانت ممتهنة في فراش أو مخدة، فأكثر العلماء على أنها جائزة، وعلى هذا فلا تمتنع الملائكة من دخول المكان، لأنه لو امتنعت لكان ذلك ممنوعاً، فالملائكة تتنزل في ليلة القدر بكثرة، ونزولهم خير وبركة. ﴿والروح﴾ هو جبريل عليه السلام خصه الله بالذكر لشرفه وفضله، وقوله تعالى: ﴿بإذن ربهم﴾ أي بأمره، والمراد به الإذن الكوني؛ لأن إذن الله ـ أي أمره ـ ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، وإذن شرعي، فقوله تعالى: ﴿شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ [الشورى: ٢١]. أي ما لم يأذن به شرعاً، لأنه قد أذن به قدراً، فقد شرع من دون الله، لكنه ليس بإذن الله الشرعي، وإذن قدري كما في هذه الآية ﴿بإذن ربهم﴾ أي بأمره القدري وقوله: ﴿من كل أمر﴾ قيل إن ﴿من﴾ بمعنى الباء أي بكل أمر مما يأمرهم الله به، وهو مبهم لا نعلم ما هو، لكننا نقول إن تنزل الملائكة في الأرض عنوان على الخير والرحمة والبركة. ﴿سلام هي﴾ الجملة هنا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة (٥٩٦٠). ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، وأن الملائكة عليهم السلام لا يدخلون بيتاً فيه صورة أو كلب (٢١٠٦).

مكونة من مبتدأ وخبر، والخبر فيها مقدم، والتقدير: «هي سلام» أي هذه الليلة سلام، ووصفها الله تعالى بالسلام، لكثرة من يسلم فيها من الآثام وعقوباتها، قال النبي ﷺ: «**من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»[١]، ومغفرة الذنوب لا شك أنها سلامة من وبائها وعقوباتها. ﴿**حتى مطلع الفجر**﴾ أي تتنزل الملائكة في هذه الليلة حتى مطلع الفجر، أي إلى مطلع الفجر، وإذا طلع الفجر انتهت ليلة القدر.

تنبيه: سبق أن قلنا إن ليلة القدر في رمضان، لكن في أي جزء من رمضان أفي أوله، أو وسطه، أو آخره؟

نقول في الجواب على هذا: إن النبي ﷺ اعتكف العشر الأول، ثم العشر الأوسط تحرياً لليلة القدر، ثم قيل له: إنها في العشر الأواخر فاعتكف العشر الأواخر[٢]، إذاً فليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان. وفي أي ليلة منها؟ الله أعلم قد تكون في ليلة إحدى وعشرين، أو في ليلة الثلاثين، أو فيما بينهما، فلم يأت تحديد لها في ليلة معينة كل عام، ولهذا أري النبي ﷺ ليلة القدر ليلة إحدى وعشرين ورأى في المنام أنه يسجد في صبيحتها في ماء وطين، فأمطرت السماء تلك الليلة أي ليلة إحدى وعشرين، فصلى النبي ﷺ في مسجده، وكان مسجده من عريش لا يمنع تسرب الماء من السقف، فسجد النبي ﷺ صباحها أي في صلاة الفجر في الماء والطين، ورأى الصحابة رضي الله عنهم على جبهته أثر الماء والطين[٣]، ففي تلك الليلة كانت في ليلة إحدى

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضل ليلة القدر، باب فضل ليلة القدر (٢٠١٤). ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦٠) (١٧٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب السجود...(٨١٣)، ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل ليلة القدر (١١٦٧) (٢١٥).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب فضل ليلة القدر، باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر (٢٠١٦).=

وعشرين، ومع ذلك قال: «**التمسوها في العشر الأواخر**»[١]، وفي رواية: «**في الوتر من العشر الأواخر**»[٢]، ورآها الصحابة ذات سنة من السنين في السبع الأواخر، فقال ﷺ: «**أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر**»[٣]، يعني في تلك السنة، أما في بقية الأعوام فهي في كل العشر، فليست معينة، ولكن أرجاها ليلة سبع وعشرين، وقد تكون (مثلاً) في هذا العام ليلة سبع وعشرين، وفي العام الثاني ليلة إحدى وعشرين، وفي العام الثالث ليلة خمس وعشرين وهكذا.. وإنما أبهمها الله عز وجل لفائدتين عظيمتين:

الفائدة الأولى: بيان الصادق في طلبها من المتكاسل، لأن الصادق في طلبها لا يهمه أن يتعب عشر ليال من أجل أن يدركها، والمتكاسل يكسل أن يقوم عشر ليال من أجل ليلة واحدة.

الفائدة الثانية: كثرة ثواب المسلمين بكثرة الأعمال؛ لأنه كلما كثر العمل كثر الثواب.

وبهذه المناسبة أود أن أنبه إلى غلط كثير من الناس في الوقت الحاضر حيث يتحرون ليلة سبع وعشرين في أداء العمرة، فإنك في ليلة سبع وعشرين تجد المسجد الحرام قد غص بالناس وكثروا، وتخصيص

= ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها (١١٦٧) (٢١٣).

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضل ليلة القدر، باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر (٢٠٢١). ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها (١١٦٥) (٢١٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب فضل ليلة القدر، باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر (٢٠١٧). ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها (١١٦٥) (٢٠٧).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب فضل ليلة القدر، باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر (٢٠١٥). ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها (١١٦٥) (٢٠٥).

ليلة سبع وعشرين بالعمرة من البدع، لأن رسول الله ﷺ لم يخصصها بعمرة في فعله، ولم يخصصها أي ليلة سبع وعشرين بعمرة في قوله، فلم يعتمر ليلة سبع وعشرين من رمضان مع أنه في عام الفتح ليلة سبع وعشرين من رمضان كان في مكة ولم يعتمر، ولم يقل للأمة تحروا ليلة سبع وعشرين بالعمرة، وإنما أمر أن نتحرى ليلة سبع وعشرين بالقيام فيها لا بالعمرة، وبه يتبين خطأ كثير من الناس، وبه أيضاً يتبين أن الناس ربما يأخذون دينهم كابراً عن كابر، على غير أساس من الشرع، فاحذر أن تعبد الله إلا على بصيرة، بدليل من كتاب الله، أو سنة رسوله ﷺ أو عمل الخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباع سنتهم.

وفي هذه السورة الكريمة فضائل متعددة لليلة القدر:

الفضيلة الأولى: أن الله أنزل فيها القرآن الذي به هداية البشر وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

الفضيلة الثانية: ما يدل عليه الاستفهام من التفخيم والتعظيم في قوله: ﴿**وما أدراك ما ليلة القدر**﴾.

الفضيلة الثالثة: أنها خير من ألف شهر.

الفضيلة الرابعة: أن الملائكة تتنزل فيها، وهم لا ينزلون إلا بالخير والبركة والرحمة.

الفضيلة الخامسة: أنها سلام، لكثرة السلامة فيها من العقاب والعذاب بما يقوم به العبد من طاعة الله عز وجل.

الفضيلة السادسة: أن الله أنزل في فضلها سورة كاملة تتلى إلى يوم القيامة.

ومن فضائل ليلة القدر ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من قام ليلة القدر إيماناً**

واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه»[١] ، فقوله: «**إيماناً واحتساباً**» يعني إيماناً بالله وبما أعد الله من الثواب للقائمين فيها، واحتساباً للأجر وطلب الثواب. وهذا حاصل لمن علم بها ومن لم يعلم، لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يشترط العلم بها في حصول هذا الأجر.

وبهذا انتهى الكلام على سورة القدر.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٧٢).

تفسير سورة البينة

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

يقول الله عز وجل: ﴿**لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين**﴾ يعني ما كان الكفار من ﴿**أهل الكتاب**﴾ وهم اليهود والنصارى، سموا بذلك لأن صحفهم بقيت إلى أن بعث النبي ﷺ مع ما فيها من التحريف والتبديل والتغيير، ولكن هم أهل الكتاب، فاليهود لهم التوراة، والنصارى لهم الإنجيل ﴿**والمشركين**﴾ المشركون هم عبدة الأوثان من كل جنس من بني إسرائيل ومن غيرهم، لم يكن هؤلاء ﴿**منفكين**﴾ أي تاركين لما هم عليه من الشرك والكفر ومنفكين عنه ﴿**حتى تأتيهم البينة**﴾ والبينة ما يبين به الحق في كل شيء، فكل شيء يبين به الحق فإنه يسمى بينة، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**البينة على المدعي**»[1]، فكل ما بان به الحق فهو بينة، ويكون في كل شيء بحسبه، فما هي البينة التي ذكرها الله هنا؟ البينة قال ﴿**رسول من الله**﴾ وهذا الرسول هو النبي ﷺ محمد رسول الله ابن

(١) أخرجه الترمذي، أبواب الأحكام، باب ما جاء في أن البينة على المدعي (١٣٤١).

عبدالله الهاشمي القرشي صلوات الله وسلامه عليه، وجاء بصيغة النكرة ﴿رسول﴾ تعظيماً له؛ لأنه عليه الصلاة والسلام جدير بأن يعظم التعظيم اللائق به من غير نقص ولا غلو ﴿رسول من الله﴾ يعني أن الله أرسله إلى العالمين بشيراً ونذيراً، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وأرسلناك للناس رسولاً﴾ [النساء: ٧٩]. وقال: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ [الفرقان: ١]. فهو محمد عليه الصلاة والسلام مرسل من عند الله بواسطة جبريل عليه الصلاة والسلام؛ لأن جبريل هو رسول رب العالمين إلى رسله موكل بالوحي ينزل به على من شاء الله من عباده. ﴿يتلو صحفاً مطهرة﴾ يعني يقرأ لنفسه وللناس، ﴿صحفاً﴾ جمع صحيفة وهي الورقة أو اللوح أو ما أشبه ذلك مما يكتب به ﴿مطهرة﴾ أي منقاة من الشرك، ومن رذائل الأخلاق، ومن كل ما يسوء، لأنها نزيهة مقدسة ﴿فيها﴾ أي في هذه الصحف ﴿كتب قيمة﴾ كتب: أي مكتوبات قيمة، فكتب جمع كتاب، بمعنى مكتوب، والمعنى أن في هذه الصحف مكتوبات قيمة كتبها الله عز وجل، ومن المعلوم أن الإنسان إذا تصفح القرآن وجده كذلك، وجده يتضمن كتباً أي مكتوبات قيمة، انظر إلى ما جاء به القرآن من توحيد الله عز وجل، والثناء عليه، وحمده وتسبيحه تجده مملوءاً بذلك، انظر إلى ما في القرآن من وصف النبي ﷺ ووصف أصحابه المهاجرين والأنصار ووصف التابعين لهم بإحسان، انظر إلى ما جاء به القرآن من الأمر بالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وغير ذلك من الأخلاق الفاضلة تجد أن كل ما جاء به القرآن فهو قيم بنفسه، وكذلك هو مقيم لغيره ﴿فيها كتب قيمة﴾. إذاً أخبر الله في هذه الآية أنه لا يمكن أن ينفك هؤلاء الكفار من أهل الكتاب والمشركين حتى تأتيهم البينة، فلما

جاءتهم البينة هل انفكوا عن دينهم، عن كفرهم وشركهم؟ الجواب قال الله تعالى: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ يعني لما جاءتهم البينة اختلفوا، منهم من آمن، ومنهم من كفر، فمن النصارى من آمن مثل النجاشي ملك الحبشة، ومن اليهود من آمن أيضاً مثل عبدالله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، فمن علم الله منه أنه يريد الخير، ويريد الدين لله آمن ووفق للإيمان، ومن لم يكن كذلك وفق للكفر، كذلك أيضاً من المشركين من آمن، وما أكثر المشركين من قريش الذين آمنوا، فصار الناس قبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام لم يزالوا على ما هم عليه من الكفر حتى جاءتهم البينة، ثم لما جاءتهم البينة تفرقوا واختلفوا كما قال تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ [آل عمران: ١٠٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾.

﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية﴾ بين الله تعالى في هذه الآية بياناً مؤكداً بـ(إن) إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴿في نار جهنم﴾ أي في النار التي تسمى جهنم، وسميت جهنم، لبعد قعرها

وسوادها، فهو مأخوذ من الجُهمة، وقيل: إنه اسم أعجمي عربته العرب. وأيًّا كان فإنه أعني لفظ ﴿جهنم﴾ اسم من أسماء النار، وقوله: ﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين﴾ ﴿من﴾ هنا بيان للإبهام، أعني إبهام الإسم الموصول في قوله: ﴿إن الذين كفروا﴾ وعلى هذا فيقتضي أن أهل الكتاب كفار وهم (اليهود والنصارى)، والأمر كذلك، فإن اليهود والنصارى كفار حين لم يؤمنوا برسول الله محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وإن قالوا: إنهم مؤمنون بالله واليوم الآخر، ويدعون لموتاهم بالرحمة وما أشبه ذلك من العبارات التي يتزلفون بها فإنهم كاذبون، إذ لو كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر لآمنوا بمحمد ﷺ، بل لآمنوا برسلهم، لأن النبي ﷺ قد وجد وصفه في التوراة والإنجيل كما قال الله تبارك وتعالى في سورة الأعراف ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾ [الأعراف: ١٥٧]. بل إن عيسى ﷺ قال لبني إسرائيل ﴿يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ [الصف: ٦]. فلما جاء هذا الرسول الذي بشر به عيسى بالبينات، قالوا: هذا سحر مبين، وكذبوه ولم يتبعوه إلا نفراً قليلاً من اليهود والنصارى، فقد آمنوا بمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم واتبعوه. ﴿أولئك هم شر البرية﴾ أي شر الخليقة؛ لأن البرية هي الخليقة، وعلى هذا فيكون الكفار من بني آدم من (اليهود والنصارى والمشركين) شر البرية (شر الخلائق) وقد بين الله ذلك تماماً في قوله: ﴿إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ [الأنفال: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا

يعقلون، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ [الأنفال: ٢٢]. فهؤلاء الكفار من اليهود والنصارى والمشركين هم شر البرية عند الله عز وجل، وإذا كانوا هم شر البرية فلن نتوقع منهم إلا كل شر، لأن الشرير ينبثق منه الشر، ولا يمكن أبداً أن نحسن الظن بهم، قد نثق بالصادقين منهم كما وثق النبي ﷺ بالمشرك، عبدالله بن أريقط، حين استأجره ليدله على طريق الهجرة[1]، لكن غالبهم وجمهورهم لا يوثق منهم، لأنهم شر، ولما ذكر الله حكم هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى والمشركين ذكر حكم المؤمنين فقال: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية**﴾ والقرآن الكريم مثاني تثنى فيه المعاني، فيؤتى بالمعنى وما يقابله، ويأتي بأصحاب النار وأصحاب الجنة، ويأتي بآيات الترهيب وآيات الترغيب، وهلم جرا، لأجل أن يكون الإنسان سائراً إلى الله عز وجل بين الخوف والرجاء، ولئلا يمل، فإن تنويع الأساليب وتنويع المواضيع لا شك أنه يعطي النفس قوة واندفاعاً، بخلاف ما لو كان الكلام على وتيرة واحدة، فإن الإنسان قد يمل ولا تتحرك نفسه ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية**﴾ فخير خلق الله عز وجل هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم على طبقات أربع بينها الله في قوله: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ [النساء: ٦٩]. هذه الطبقات الأربع هي طبقات المؤمنين أعلاها: طبقة النبوة، وأعلى طبقات النبوة طبقة الرسالة، ثم بعد النبوة الصديقية، وعلى رأس الصديقين أبو بكر رضي الله عنه.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩٠٥) عدا الاسم.

الطبقة الثالثة: الشهداء، قيل: إنهم أُولوا العلم. وقيل: إنهم الذين قتلوا في سبيل الله، والآية تحتمل المعنيين جميعاً بدون مناقضة، والذي ينبغي لمفسر القرآن أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين بدون مناقضة أن يحملها على المعنيين جميعاً، فالشهداء هم أولوا العلم، وهم الذين قتلوا في سبيل الله، وكلهم مرتبتهم عالية فوق سائر المتبعين للرسل إلا الصديقين؛ قال تعالى: ﴿والصالحين﴾ وهم أدنى الطبقات، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات على اختلاف طبقاتهم هم خير البرية، أي خير ما خلق الله عز وجل من البرايا، ثم بين جزاءهم فقال ﴿**جزاؤهم عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ وهنا قدم الله الثناء على المؤمنين الذين عملوا الصالحات على ذكر جزائهم، لأن ثناء الله عليهم أعظم مرتبة وأعلى منقبة، فلذلك قدمه على الجزاء الذي هو جزاؤهم في يوم القيامة ﴿**جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار**﴾ ﴿**جنات**﴾ جمعها لاختلاف أنواعها، لأن النبي ﷺ قال: إن الجنات «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما**»[1]، وإلى هذا يشير قول الله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ [الرحمن: ٤٦]. ثم ذكر أوصاف هاتين الجنتين، ثم قال: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ [الرحمن: ٦٢]. فلهم جنات والجنات التي ذكرها الله تعالى جزاء للمؤمنين العاملين الصالحات هي عبارة عن منازل عظيمة أعدها الله عز وجل للمؤمنين المتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولا يمكن لإنسان في هذه الدنيا أن يتصور كيف نعيم الآخرة أبداً، لأنه أعلى وأجل مما نتصور، قال ابن عباس رضي الله عنهما (ليس في الجنة مما في الدنيا إلا

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٤٧).

الأسماء)[١] ، لكنها الحقائق تختلف اختلافاً عظيماً، قال عز وجل: ﴿**جنات عدن**﴾ العدن بمعنى الإقامة في المكان وعدم النزوح عنه، ومن تمام نعيم أهل الجنة أن كل واحد منهم لا يطلب تحولاً عما هو عليه من النعيم، لأنه لا يرى أن أحداً أكمل منه، ولا يحس في قلبه أنه في غضاضة بالنسبة لمن هو أرقى منه وأكمل قال الله تبارك وتعالى: ﴿لا يبغون عنها حولاً﴾ [الكهف: ١٠٨]. أي لا يبغون تحولاً عما هم عليه لأن الله قد أقنعهم بما أعطاهم فلا يجدون أحداً أكمل نعيماً منهم، ولهذا سمى الله تعالى هذه الجنات جنات عدن ﴿**تجري من تحتها الأنهار**﴾ ﴿**من تحتها**﴾ قال العلماء: من تحت قصورها وأشجارها وإلا فهو على سطحها وليس أسفل، إنما هو من تحت هذه القصور والأشجار، والأنهار التي ذكرها الله عز وجل هنا مجملة فصلها في سورة (محمد) فقال: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾ [محمد: ١٥]. وقد جاء في الآثار من وصف هذه الأنهار أنها تجري بغير أخدود وبغير خنادق[٢] بمعنى أن النهر يجري على سطح الأرض يتوجه حيث وجهه الإنسان، ولا يحتاج إلى شق خنادق، ولا إلى بناء أخدود تمنع سيلان الماء يميناً وشمالاً، وفي هذا يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه النونية:

أنهارها من غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

﴿**خالدين فيها أبداً**﴾ أي ماكثين فيها أبداً، لا يموتون، ولا يمرضون، ولا ييأسون، ولا يألمون، ولا يحزنون، ولا يمسهم فيها

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٣٦).
(٢) تقدم تخريجه ص (١٣٦).

نصب، فهم في أكمل النعيم دائماً وأبداً ـ أبد الآبدين ـ ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ وهذا أكمل نعيم أن الله تعالى يرضى عنهم، فيحل عليهم رضوانه فلا يسخط بعده أبداً، بل وينظرون إلى الله تبارك وتعالى بأعينهم كما يرون القمر ليلة البدر لا يشكون في ذلك، ولا يمترون في ذلك، ولا يتضامون في ذلك، أي لا ينضم بعضهم إلى بعض ليريه الآخر، بل كل إنسان يراه في مكانه حسب ما أراد الله عز وجل. ثم قال عز وجل: ﴿ذلك لمن خشي ربه﴾ أي ذلك الجزاء لمن خشي الله عز وجل، والخشية هي خوف الله عز وجل المقرون بالهيبة والتعظيم ولا يصدر ذلك إلا من عالم بالله كما قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾ [فاطر: ٢٨]. أي العلماء بعظمته وكمال سلطانه، فالخشية أخص من الخوف، ويتضح الفرق بينهما بالمثال: إذا خفت من شخص لا تدري هل هو قادر عليك أم لا؟ فهذا خوف، وإذا خفت من شخص تعلم أنه قادر عليك فهذه خشية[1] . وبهذا تمت هذه السورة العظيمة وتم ما تيسر لنا من الكلام على تفسيرها، ونسأل الله أن يجعلنا ممن يتلون كتاب الله حق تلاوته إنه على كل شيء قدير.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في شرح ثلاثة الأصول لفضيلة الشيخ رحمه الله.

تفسير سورة الزلزلة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ المراد بذلك ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ [الحج: ١، ٢]. وقوله: ﴿زلزالها﴾ يعني الزلزال العظيم الذي لم يكن مثله قط، ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿ترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾ يعني من شدة ذهولهم وما أصابهم تجدهم كأنهم سكارى، وما هم بسكارى بل هم صحاة، لكن لشدة الهول صار الإنسان كأنه سكران لا يدري كيف يتصرف، ولا كيف يفعل. ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ المراد بهم: أصحاب القبور، فإنه إذا نفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم نفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون، يخرجون من قبورهم لرب العالمين عز وجل كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ [المطففين: ٦]. ﴿وقال الإنسان مالها﴾ الإنسان المراد به الجنس، يعني أن الإنسان البشر يقول: ما لها؟ أي

شيء لها هذا الزلزال؟ ولأنه يخرج وكأنه كما قال الله تعالى: ﴿سكارى﴾ [الحج: ٢]. فيقول: ما الذي حدث لها وما شأنها؟ لشدة الهول. ﴿يومئذ﴾ أي في ذلك اليوم إذا زلزلت ﴿تحدث أخبارها﴾ أي تخبر عما فعل الناس عليها من خير أو شر، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن المؤذن إذا أذن فإنه لا يسمع صوته شجر، ولا مدر، ولا حجر، ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة[1]، فتشهد الأرض بما صنع عليها من خير أو شر، وهذه الشهادة من أجل بيان عدل الله عز وجل، وأنه سبحانه وتعالى لا يؤاخذ الناس إلا بما عملوه، وإلا فإن الله تعالى بكل شيء محيط، ويكفي أن يقول لعباده جل وعلا عملتم كذا وعملتم كذا.. لكن من باب إقامة العدل وعدم إنكار المجرم؛ لأن المجرمين ينكرون أن يكونوا مشركين، قال الله تعالى: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: ٢٣]. لأنهم إذا رأوا أهل التوحيد قد خلصوا من العذاب ونجوا منه أنكروا الشرك لعلهم ينجون، ولكنهم يختم على أفواههم، وتكلم الأيدي، وتشهد الأرجل والجلود والألسن كلها تشهد على الإنسان بما عمل، وحينئذ لا يستطيع أن يبقى على إنكاره بل يقر ويعترف، إلا أنه لا ينفع الندم في ذلك الوقت. وقوله: ﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾ هو جواب الشرط في قوله تعالى: ﴿**إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان ما لها**﴾. قوله: ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ أي بسبب أن الله أوحى لها، يعني أذن لها في أن تحدث أخبارها، وهو سبحانه وتعالى على كل شيء قدير إذا أمر شيئاً بأمر فإنه لابد أن يقع، يخاطب الله الجماد فيتكلم الجماد كما قال الله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب رفع الصوت بالنداء (٦٠٩).

فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ [فصلت: ١١]. وقال الله تعالى للقلم اكتب، قال: ربِّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة[١] . وقال الله تعالى: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ [يس: ٦٥]. فالله عز وجل إذا وجه الكلام إلى شيء ولو جماداً فإنه يخاطب الله ويتكلم ولهذا قال: ﴿يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها﴾ قوله: ﴿يومئذ﴾ يعني يومئذ تزلزل الأرض زلزالها. ﴿يصدر الناس أشتاتاً﴾ أي جماعات متفرقين، يصدرون كل يتجه إلى مأواه، فأهل الجنة ـ جعلنا الله منهم ـ يتجهون إليها، وأهل النار ـ والعياذ بالله ـ يساقون إليها ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً. ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً. لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ [مريم: ٨٥ ـ ٨٧]. فيصدر الناس جماعات وزمراً على أصناف متباينة تختلف اختلافاً كبيراً كما قال الله تعالى: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ [الإسراء: ٢١]. ﴿ليروا أعمالهم﴾ يعني يصدرون أشتاتاً فيروا أعمالهم، يريهم الله تعالى أعمالهم إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر، وذلك بالحساب وبالكتاب، فيعطى الإنسان كتابه إما بيمينه، وإما بشماله، ثم يحاسب على ضوء ما في هذا الكتاب، يحاسبه الله عز وجل، أما المؤمن فإن الله تعالى يخلو به وحده ويقرره بذنوبه ويقول: فعلت كذا، وفعلت كذا وكذا، وفعلت كذا، حتى يقر ويعترف، فإذا رأى أنه هلك، قال الله عز وجل: «إني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[٢] ، وأما الكافر ـ والعياذ بالله ـ فإنه

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر (٤٧٠٠). والترمذي، أبواب القدر، باب إعظام أمر الإيمان بالقدر (٢١٥٥) وقال: حديث غريب.

(٢) تقدم تخريجه ص (٥٣).

لا يعامل هذه المعاملة بل ينادى على رؤوس الأشهاد ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ [هود: ١٨]. وقوله: ﴿ليروا أعمالهم﴾ هذا مضاف والمضاف يقتضي العموم وظاهره أنهم يرون الأعمال الصغير والكبير وهو كذلك، إلا ما غفره الله من قبل بحسنات، أو دعاء أو ما أشبه ذلك فهذا يمحى كما قال الله تعالى ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ [هود: ١١٤]. فيرى الإنسان عمله، يرى عمله القليل والكثير حتى يتبين له الأمر جليًا ويعطى كتابه ويقال: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ [الإسراء: ٦٤]. ولهذا يجب على الإنسان أن لا يقدم على شيء لا يرضي الله عز وجل؛ لأنه يعلم أنه مكتوب عليه، وأنه سوف يحاسب عليه.

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره﴾

﴿من﴾ شرطية تفيد العموم، يعني: أي إنسان يعمل مثقال ذرة فإنه سيراه، سواء من الخير، أو من الشر ﴿مثقال ذرة﴾ يعني وزن ذرة، والمراد بالذرة: صغار النمل كما هو معروف، وليس المراد بالذرة: الذرة المتعارف عليها اليوم كما ادعاه بعضهم، لأن هذه الذرة المتعارف عليها اليوم ليست معروفة في ذلك الوقت، والله عز وجل لا يخاطب الناس إلا بما يفهمون، وإنما ذكر الذرة لأنها مضرب المثل في القلة، كما قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها﴾ [النساء: ٤٠]. ومن المعلوم أن من عمل ولو أدنى من الذرة فإنه سوف يجده، لكن لما كانت الذرة مضرب المثل في القلة قال الله تعالى ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿مثقال ذرة﴾ يفيد أن الذي يوزن هو الأعمال، وهذه المسألة اختلف فيها أهل العلم:

فمن العلماء من قال: إن الذي يوزن العمل.

ومنهم من قال: إن الذي يوزن صحائف الأعمال.

ومنهم من قال: إن الذي يوزن هو العامل نفسه.

ولكل دليل، أما من قال: إن الذي يوزن هو العمل فاستدل بهذه الآية ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة**﴾ لأن تقدير الآية فمن يعمل عملاً مثقال ذرة. واستدلوا أيضاً بقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»[1].

لكن يشكل على هذا أن العمل ليس جسماً يمكن أن يوضع في الميزان بل العمل عمل انتهى وانقضى.

ويجاب عن هذا بأن يقال:

أولاً: على المرء أن يصدق بما أخبر الله تعالى به ورسوله ﷺ من أمور الغيب، وإن كان عقله قد يحار فيه، ويتعجب ويقول كيف يكون هذا؟ فعليه التصديق لأن قدرة الله تعالى فوق ما نتصور، فالواجب على المسلم أن يسلم ويستسلم ولا يقول كيف؟ لأن أمور الغيب فوق ما يتصور.

ثانياً: أن الله تعالى يجعل هذه الأعمال أجساماً توضع في الميزان وتثقل وتخف، والله تعالى قادر على أن يجعل الأمور المعنوية أجساماً، كما صح عن النبي ﷺ في أن الموت يؤتى به على صورة كبش ويوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة فيشرئبون ويطلعون ويقال: يا أهل النار فيشرئبون ويطلعون فيقال لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح (٦٤٠٦) (٦٦٨٣). ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٤) (٣١).

نعم، هذا الموت، مع أنه في صورة كبش والموت (معنى) ليس جسماً ولكن الله تعالى يجعله جسماً يوم القيامة، فيقولون: هذا الموت فيذبح أمامهم ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت[١]، وبهذا يزول الإشكال الوارد على هذا القول.

أما من قال: إن الذي يوزن هو صحائف الأعمال فاستدلوا بحديث صاحب البطاقة الذي يؤتى يوم القيامة به، ويقال: انظر إلى عملك فتمد له سجلات مكتوب فيها العمل السيىء، سجلات عظيمة، فإذا رأى أنه قد هلك أتي ببطاقة صغيرة فيها لا إله إلا الله فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال له: إنك لا تظلم شيئاً، ثم توزن البطاقة في كفة، والسجلات في كفة، فترجح بهن البطاقة وهي لا إله إلا الله[٢] قالوا فهذا دليل على أن الذي يوزن هو صحائف الأعمال.

وأما الذين قالوا: إن الذي يوزن هو العامل نفسه فاستدلوا بحديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان ذات يوم مع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فهبت ريح شديدة، فقام عبدالله بن مسعود رضي الله عنه فجعلت الريح تكفئه؛ لأنه نحيف القدمين والساقين، فجعل الناس يضحكون، فقال النبي ﷺ: «**مما تضحكون؟ أو مما تعجبون؟ والذي نفسي بيده إن ساقيه في الميزان أثقل من أحد**»[٣] وهذا يدل على أن الذي يوزن هو العامل.

فيقال: نأخذ بالقول الأول: أن الذي يوزن العمل، ولكن ربما

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي، أبواب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٢٦٣٩) وقال: حديث حسن غريب.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ٤٥٠).

يكون بعض الناس توزن صحائف أعماله، وبعض الناس يوزن هو بنفسه.

فإن قال قائل: على هذا القول أن الذي يوزن هو العامل هل ينبني هذا على أجسام الناس في الدنيا وأن صاحب الجسم الكبير العظيم يثقل ميزانه يوم القيامة؟

فالجواب: لا ينبني على أجسام الدنيا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة**»[1]، **وقال: اقرؤا ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾**. [الكهف: ١٠٥]. وهذا عبدالله بن مسعود يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إن ساقيه في الميزان أثقل من أحد»، فالعبرة بثقل الجسم أو عدمه، ثقله يوم القيامة بما كان معه من أعمال صالحة. يقول عز وجل: **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره﴾**.

وهذه السورة كلها التحذير والتخويف من زلزلة الأرض، وفيها الحث على الأعمال الصالحة، وفيها أن العمل لا يضيع مهما قل، حتى لو كان مثقال ذرة، أو أقل فإنه لابد أن يراه الإنسان ويطلع عليه يوم القيامة. نسأل الله تعالى أن يختم لنا بالخير والسعادة والصلاح والفلاح، وأن يجعلنا ممن يحشرون إلى الرحمن وفداً إنه على كل شيء قدير.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم﴾ (٤٧٢٩) ومسلم، كتاب صفات المنافقين، باب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٥) (١٨).

تفسير سورة العاديات

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١)﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿والعاديات ضبحاً﴾ هذا قسم، والعاديات صفة لموصوف محذوف فما هو هذا الموصوف؟ هل المراد الخيل يعني (والخيل العاديات) أو المراد الإبل يعني (والإبل العاديات)؟ في هذا قولان للمفسرين: فمنهم من قال: إن الموصوف هي الإبل، والتقدير (والإبل العاديات) ويعني بها الإبل التي تعدوا من عرفة إلى مزدلفة، ثم إلى منى، وذلك في مناسك الحج، واستدلوا لهذا بأن هذه السورة مكية، وأنه ليس في مكة جهاد على الخيل حتى يقسم بها.

أما القول الثاني لجمهور المفسرين وهو الصحيح فإن الموصوف هو الخيل والتقدير (والخيل العاديات) والخيل العاديات معلومة للعرب حتى قبل مشروعية الجهاد، هناك خيل تعدو على أعدائها سواء بحق أو بغير حق فيما قبل الإسلام، أما بعد الإسلام فالخيل تعدوا على أعدائها بحق. يقول الله تعالى: ﴿والعاديات﴾ والعادي اسم فاعل من العدو

وهو سرعة المشي والانطلاق، وقوله: ﴿ضبحاً﴾ الضبح ما يسمع من أجواف الخيل حين تعدوا بسرعة، يكون لها صوت يخرج من صدورها، وهذا يدل على قوة سعيها وشدته. ﴿فالموريات قدحاً﴾ الموريات من أورى أو وري بمعنى قدح، ويعني بذلك قدح النار حينما يضرب الأحجار بعضها بعضاً، كما هو مشهور عندنا في حجر المرو، فإنك إذا ضربت بعضه ببعض انقدح، هذه الخيل لقوة سعيها وشدته، وضربها الأرض، إذا ضربت الحجر ضرب الحجر الحجر الثاني ثم يقدح ناراً، وذلك لقوتها وقوة سعيها وضربها الأرض. ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ أي التي تغير على عدوها في الصباح، وهذا أحسن ما يكون في الإغارة على العدو أن يكون في الصباح لأنه في غفلة ونوم، وحتى لو استيقظ من الغارة فسوف يكون على كسل وعلى إعياء، فاختار الله عز وجل للقسم بهذه الخيول أحسن وقت للإغارة وهو الصباح، وكان النبي ﷺ لا يغير على قوم في الليل بل ينتظر فإذا أصبح إن سمع أذان كف وإلا أغار[1]. ﴿فأثرن به﴾ أي أثرن بهذا العدو، وهذه الإغارة ﴿نقعاً﴾ وهو الغبار الذي يثور من شدة السعي، فإن الخيل إذا سعت إذا اشتد عدوها في الأرض، وصار لها غبار من الكر والفر. ﴿فوسطن به﴾ أي توسطن بهذا الغبار ﴿جمعاً﴾ أي جموعاً من الأعداء أي أنها ليس لها غاية، ولا تنتهي غايتها إلا وسط الأعداء، وهذه غاية ما يكون من منافع الخيل، مع أن الخيل كلها خير، كما قال النبي ﷺ: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**»[2]. أقسم الله تعالى بهذه العاديات ـ بهذه الخيل التي بلغت الغاية ـ وهو الإغارة على العدو وتوسط العدو، من غير

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب ما يحقن الأذان من الدماء (٦١٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٥٠). ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الخيل وأن الخير معقود بنواصيها (١٨٧٢) (٩٧).

خوف ولا تعب ولا ملل. أما المقسم عليه فهو الإنسان فقال: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ والمراد بالإنسان هنا الجنس، أي أن جنس الإنسان، إذا لم يوفق للهداية فإنه ﴿لكنود﴾ أي كفور لنعمة الله عز وجل كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢]. وقيل: المراد بالإنسان هو الكافر، فعلى هذا يكون عامًّا أريد به الخاص، والأظهر أن المراد به العموم، وأن جنس الإنسان لولا هداية الله لكان كنوداً لربه عز وجل، والكنود هو الكفر، أي كافر لنعمة الله عز وجل، يرزقه الله عز وجل فيزداد بهذا الرزق عتواً ونفوراً، فإن من الناس من يطغى إذا رآه قد استغنى عن الله، وما أكثر ما أفسد الغنى من بني آدم فهو كفور بنعمة الله عز وجل، يجحد نعمة الله، ولا يقوم بشكرها، ولا يقوم بطاعة الله لأنه كنود لنعمة الله.

﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ ﴿إنه﴾ الضمير قيل: يعود على الله، أي أن الله تعالى يشهد على العبد بأنه كفور لنعمة الله.

وقيل: إنه عائد على الإنسان نفسه، أي أن الإنسان يشهد على نفسه بكفر نعمة الله عز وجل.

والصواب أن الآية شاملة لهذا وهذا، فالله شهيد على ما في قلب ابن آدم، وشهيد على عمله، والإنسان أيضاً شهيد على نفسه، لكن قد يقر بهذه الشهادة في الدنيا، وقد لا يقر بها فيشهد على نفسه يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ [النور: ٢٤]. ﴿وإنه﴾ أي الإنسان ﴿لحب الخير لشديد﴾ الخير هو المال كما قال الله تعالى ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية﴾ [البقرة: ١٨٠]. أي: إن ترك مالاً كثيراً. فالخير هو المال، والإنسان حبه للمال أمر ظاهر، قال الله تعالى: ﴿وتحبون المال

حبًّا جمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]. ولا تكاد تجد أحداً يسلم من الحب الشديد للمال، أما الحب مطلق الحب فهذا ثابت لكل أحد، ما من إنسان إلا ويحب المال، لكن الشدة ليست لكل أحد، بعض الناس يحب المال الذي تقوم به الكفاية، ويستغني به عن عبادالله، وبعض الناس يريد أكثر، وبعض الناس يريد أوسع وأوسع. فالمهم أن كل إنسان فإنه محب للخير أي للمال، لكن الشدة تختلف، ويختلف فيها الناس من شخص لآخر، ثم إن الله تعالى ذكَّر الإنسان حالاً لابد له منها فقال: ﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور﴾ فيعمل لذلك، ولا يكن همه المال ﴿أفلا يعلم﴾ أي يتيقن. ﴿إذا بعثر ما في القبور﴾ أي: نشر وأظهر فإن الناس يخرجون من قبورهم لرب العالمين، كأنهم جراد منتشر، يخرجون جميعاً بصيحة واحدة ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ [يس: ٥٣]. ﴿وحصل ما في الصدور﴾ أي ما في القلوب من النيات، وأعمال القلب كالتوكل، والرغبة، والرهبة، والخوف، والرجاء وما أشبه ذلك. وهنا جعل الله عز وجل العمدة ما في الصدور كما قال تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر. فما له من قوة ولا ناصر﴾ [الطارق: ٩، ١٠]. لأنه في الدنيا يعامل الناس معاملة الظاهر، حتى المنافق يعامل كما يعامل المسلم حقًّا، لكن في الآخرة العمل على ما في القلب، ولهذا يجب علينا أن نعتني بقلوبنا قبل كل شيء قبل الأعمال؛ لأن القلب هو الذي عليه المدار، وهو الذي سيكون الجزاء عليه يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿وحصل ما في الصدور﴾ ومناسبة الآيتين بعضهما لبعض أن بعثرة ما في القبور إخراج للأجساد من بواطن الأرض، وتحصيل ما في الصدور إخراج لما في الصدور، مما تكنه الصدور، فالبعثرة بعثرة ما في القبور عما تكنه الأرض، وهنا عما يكنه الصدر، والتناسب بينهما ظاهر.

﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾ أي إن الله عز وجل بهم: أي: بالعباد لخبير، وجاء التعبير ﴿بهم﴾ ولم يقل (به) مع أن الإنسان مفرد، باعتبار المعنى، أي: أنه أعاد الضمير على الإنسان باعتبار المعنى، لأن معنى ﴿إن الإنسان﴾ أي: أن كل إنسان، وعلق العلم بذلك اليوم ﴿إن ربهم بهم يومئذ﴾ لأنه يوم الجزاء، والحساب، وإلا فإن الله تعالى عليم خبير في ذلك اليوم وفيما قبله، فهو جل وعلا عالم بما كان، وما يكون لو كان كيف يكون.

هذا هو التفسير اليسير لهذه السورة العظيمة، ومن أراد البسط فعليه بكتب التفاسير التي تبسط القول في هذا، ونحن إنما نشير إلى المعاني إشارة موجزة. نسأل الله تعالى الهداية والتوفيق، وأن يجعلنا ممن يتلون كتاب الله حق تلاوته، إنه على كل شيء قدير.

تفسير سورة القارعة

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿**القارعة**﴾ اسم فاعل من قرع، والمراد: التي تقرع القلوب وتفزعها وذلك عند النفخ في الصور، كما قال تعالى: ﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاءالله وكل أتوه داخرين﴾ [النمل: ٨٧]. فهي تقرع القلوب بعد قرع الأسماع، وهذه القارعة هي قارعة عظيمة لا نظير لها قبل ذلك، وهي من أسماء يوم القيامة، كما تسمى الغاشية، والحاقة، وقوله: ﴿**ما القارعة**﴾ ﴿**ما**﴾ هنا استفهام بمعنى التعظيم والتفخيم يعني: ما هي القارعة التي ينوه عنها؟ ﴿**وما أدراك ما القارعة**﴾ هذا زيادة في التفخيم والتعظيم والتهويل، يعني أي شيء أعلمك عن هذه القارعة؟ أي ما أعظمها وما أشدها، ثم بين متى تكون؟ فقال جل وعلا: ﴿**يوم يكون الناس كالفراش المبثوث**﴾ أي: أنها تكون في ذلك الوقت، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث حين يخرجون من قبورهم. قال العلماء: يكونون

كالفراش المبثوث، والفراش هو هذه الطيور الصغيرة التي تتزاحم عند وجود النار في الليل وهي ضعيفة وتكاد تمشي بدون هدي، وتتراكم وربما لطيشها تقع في النار وهي لا تدري، فهم يشبهون الفراش في ضعفه وحيرته وتراكمه وسيره إلى غير هدى. و﴿المبثوث﴾ يعني المنتشر، فهو كقوله تعالى: ﴿يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر﴾ [القمر: ٧]. لو تصورت هذا المشهد يخرج الناس من قبورهم على هذا الوجه لتصورت أمراً عظيماً لا نظير له، هؤلاء العالم من آدم إلى أن تقوم الساعة كلهم يخرجون خروج رجل واحد في آن واحد من هذه القبور المبعثرة في مشارق الأرض ومغاربها، ومن غير القبور كالذي ألقي في لجة البحر، وأكلته الحيتان، أو في فلوات الأرض، وأكلته السباع، أو ما أشبه ذلك، كلهم سيخرجون مرة واحدة، يصولون ويجولون في هذه الأرض. أما الجبال وهي تلك الجبال العظيمة الراسية الصلبة فتكون ﴿كالعهن المنفوش﴾ ﴿العهن﴾ الصوف. وقيل: القطن. ﴿المنفوش﴾ المبعثر أي: أن هذه الجبال بعد أن كانت صلبة قوية راسخة تكون مثل العهن الصوف، أو القطن المبعثر ـ سواء نفشته بيدك أو بالمنداف فإنه يكون خفيفاً يتطاير مع أدنى ريح، وقد قال الله تعالى في آيات أخرى أن الجبال تكون هباء منبثًّا ﴿وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثًّا﴾ [الواقعة: ٥، ٦]. وقال جل وعلا هنا: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾. ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينة فأمه هاوية. وما أدراك ما هي. نار حامية﴾. قسم الله تعالى الناس إلى قسمين:

القسم الأول: من ثقلت موازينه وهو الذي رجحت حسناته على سيئاته. **والثاني**: من خفت موازينه وهو الذي رجحت سيئاته على

حسناته، أو الذي ليس له حسنة أصلاً كالكافر، يقول الله تعالى: ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية﴾ العيشة مأخوذة من العيش وهو الحياة، يقال: عاش الرجل زمناً طويلاً، أي: بقي وحيي زمناً طويلاً، والعيشة هنا على وزن فعلة فهي هيئة وليست مصدراً، المصدر الدال على الوحدة أن تقول عيشة، وأما إذا قلت عِيْشَة فهي فعلة تدل على الهيئة، كما قال ابن مالك رحمه الله:

وفعلة لمرة كجَلسةٍ وفعلة لهيئة كجِلسةً

المعنى: أنه في حياة طيبة راضية. ﴿راضية﴾ قيل: إنها اسم فاعل بمعنى اسم المفعول، أي: مرضية. وقيل: إنها اسم فاعل من باب النسبة أي ذات رضى، وكلا المعنيين واحد، والمعنى: أنها عيشة طيبة ليس فيها نكد، وليس فيها صخب، وليس فيها نصب، كاملة من كل وجه، وهذا يعني العيش في الجنة جعلنا الله منهم. هذا العيش لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين، لا يحزنون، ولا يخافون، في أنعم عيش، وأطيب بال، وأسر حال فهي عيشة راضية. ﴿وأما من خفت موازينه﴾ إما أنه الكافر الذي ليس له أي حسنة، لأن حسنات الكافر يجازى بها في الدنيا ولا تنفعه في الآخرة، أو أنه مسلم ولكنه مسرف على نفسه وسيئاته أكثر. ﴿فأمه هاوية﴾ أم هنا بمعنى مقصوده، أي: الذي يقصده الهاوية، والهاوية من أسماء النار، يعني أنه مآله إلى نار جهنم ـ والعياذ بالله ـ.

وقيل: إن المراد بالأم هنا: أم الدماغ، والمعنى: أنه يلقى في النار على أم رأسه. نسأل الله السلامة. وإذا كانت الآية تحتمل معنيين لا يترجح أحدهما على الآخر ولا يتنافيان فإنه يؤخذ بالمعنيين جميعاً فيقال: يرمى في النار على أم رأسه، وأيضاً ليس له مأوى ولا مقصد إلا النار.

﴿وما أدراك ما هيه﴾ هذا من باب التفخيم والتعظيم لهذه الهوية، يسأل ما هي؟ أتدري ما هي؟ إنها لشيء عظيم، إنها نار حامية في غاية ما يكون من الحمو، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إنها فضلت على نار الدنيا بتسعة وستين جزءاً**»[1] . إذا تأملت نار الدنيا كلها سواء نار الحطب، أو الورق، أو البتغاز أو أشد من ذلك فإن نار جهنم مفضلة عليها بتسعة وستين جزءاً نسأل الله العافية. وفي هذه الآية التخويف والتحذير من هذا اليوم وأن الناس لا يخرجون عن حالين:

إما رجل رجحت حسناته، أو رجل رجحت سيئاته.

وفيها أيضاً دليل على أن يوم القيامة فيه موازين، وقد جاء في بعض النصوص أنه ميزان فهل هو واحد أو متعدد[2] ؟

قال بعض أهل العلم: إنه واحد وإنماجمع باعتبار الموزون، لأنه يوزن فيه الحسنات والسيئات، وتوزن فيه حسنات فلان وفلان، وتوزن فيه حسنات هذه الأمة والأمة الأخرى، فهو مجموع باعتبار الموزون لا باعتبار الميزان، وإلا فالميزان واحد.

وقال بعض أهل العلم: إنها موازين متعددة، لكل أمة ميزان، ولكل عمل ميزان فلهذا جمعت.

والأظهر ـ والله أعلم أنه ميزان واحد ـ لكنه جمع باعتبار الموزون على حسب الأعمال، أو على حسب الأمم، أو على حسب الأفراد.

وفي هذه الآية دليل على أن الإنسان إذا تساوت حسناته وسيئاته فإنه قد سكت عنه في هذه الآية، ولكن بين الله تعالى في سورة الأعراف أنهم لا يدخلون النار وإنما يحبسون في مكان يقال له الأعراف، وذكر

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٦٥).

(٢) انظر مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ رحمه الله، ٢/ ٤٣ فتوى رقم (١٦٨) عقيدة.

الله تعالى في سورة الأعراف ما يجري بينهم وبين المؤمنين، وأنهم إذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. نسأل الله عز وجل أن يجعلنا ممن رجحت حسناته على سيئاته، وأن يغفر لنا، ويعاملنا بعفوه، إنه على كل شيء قدير.

تفسير سورة التكاثر

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿**ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر**﴾ هذه الجملة جملة خبرية يخبر الله عز وجل بها العباد مخاطباً لهم يقول: ﴿**ألهاكم التكاثر**﴾ ومعنى ﴿**ألهاكم**﴾ أي شغلكم حتى لهوتم عن ما هو أهم من ذكر الله تعالى والقيام بطاعته، والخطاب هنا لجميع الأمة إلا أنه يخصص بمن شغلتهم أمور الآخرة عن أمور الدنيا وهم قليل، وإنما نقول هم قليل لأنه ثبت في الصحيحين أن الله تبارك وتعالى يقول يوم القيامة: «**يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألفٍ تسع مئة وتسعة وتسعين**»[1]، واحد في الجنة والباقي في النار، وهذا عدد هائل! إذا لم يكن من بني آدم إلا واحداً من الألف من أهل الجنة والباقون من أهل النار، إذاً فالخطاب بالعموم في مثل هذه الآية جار على أصله، لأن الواحد من الألف ليس بشيء بالنسبة إليه، وأما قوله: ﴿**التكاثر**﴾ فهو

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ (٦٥٣٠). ومسلم، كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم أخرج بعث النار (٢٢٢) (٣٧٩).

يشمل التكاثر بالمال، والتكاثر بالقبيلة، والتكاثر بالجاه، والتكاثر بالعلم، وبكل ما يمكن أن يقع فيه التفاخر، ويدل لذلك قول صاحب الجنة لصاحبه: ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ [الكهف: ٣٤]. فالإنسان قد يتكاثر بماله فيطلب أن يكون أكثر من الآخر مالاً وأوسع تجارة، وقد يتكاثر الإنسان بقبيلته، يقول نحن أكثر منهم عدداً، كما قال الشاعر:

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكاثر

أكثر منهم حصى؛ لأنهم كانوا فيما سبق يعدون الأشياء بالحصى. فمثلاً: إذا كان هؤلاء حصاهم عشرة آلاف، والآخرون حصاهم ثمانية آلاف صار الأول أكثر وأعز، فيقول الشاعر:

لست بالأكثر منهم حصى وإنما العزةُ للكاثر

كذلك يتكاثر الإنسان بالعلم، فتجده يكاثر على غيره بالعلم لكن إن كان بالعلم الشرعي فهو خير، وإن كان بالعلم غير الشرعي فهو إما مباح وإما محرم. وهذا هو الغالب على بني آدم التكاثر. فيتكاثرون في هذه الأمور عما خلقوا له من عبادة الله عز وجل. وقوله: ﴿حتى زرتم المقابر﴾ يعني إلى أن زرتم المقابر، يعني إلى أن مُتم، فالإنسان مجبول على التكاثر إلى أن يموت، بل كلما ازداد به الكِبر ازداد به الأمل، فهو يشيب في السن ويشب في الأمل، حتى إن الرجل له تسعون سنة مثلاً تجد عنده من الآمال وطول الأمل ما ليس عند الشاب الذي له خمس عشرة سنة. هذا هو معنى الآية الكريمة. أي: أنكم تلهوتم بالتكاثر عن الآخرة إلى أن متم.

وقيل: إن معنى ﴿حتى زرتم المقابر﴾ حتى أصبحتم تتكاثرون بالأموات كما تتكاثرون بالأحياء، فيأتي الإنسان فيقول: أنا قبيلتي

أكثر من قبيلتك وإذا شئت فاذهب إلى القبور عد القبور منا، وعد القبور منكم فأينا أكثر؟ لكن هذا قول ضعيف بعيد من سياق الآية. والمعنى الأول هو الصحيح أنكم تتكاثرون إلى أن تموتوا. وقوله: ﴿**حتى زرتم المقابر**﴾ استدل به عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ على أن الزائر لابد أن يرجع إلى وطنه، وأن القبور ليست بدار إقامة، وكذلك يذكر عن بعض الأعراب أنه سمع قارىء يقرأ: ﴿**ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر**﴾ فقال: «والله ما الزائر بمقيم والله لنبعثن»، لأن الزائر كما هو معروف يزور ويرجع، فقال: والله لنبعثن. وهذا هو الحق. وبهذا نعرف أن ما يذكره بعض الناس الآن في الجرائد وغيرها. يقول عن الرجل إذا مات: «إنه انتقل إلى مثواه الأخير»، إن هذا كلام باطل وكذب؛ لأن القبور ليس هي المثوى الخير، بل لو أن الإنسان اعتقد مدلول هذا اللفظ لصار كافراً بالبعث، والكفر بالبعث ردة عن الإسلام، لكن كثيرًا من الناس يأخذون الكلمات ولا يدرون ما معناها، ولعل هذه موروثة عن الملحدين الذين لا يقرون بالبعث بعد الموت، لهذا يجب تجنب هذه العبارة، فلا يقال عن القبر إنه المثوى الأخير؛ لأن المثوى الأخير إما الجنة، وإما النار في يوم القيامة[1]. ثم قال الله تعالى: ﴿**كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون**﴾ قيل: إن ﴿**كلا**﴾ بمعنى الردع يعني: ارتدعوا عن هذا التكاثر، وقيل: إنها بمعنى حقًّا، ومعنى ﴿**سوف تعلمون**﴾ أي: سوف تعلمون عاقبة أمركم إذا رجعتم إلى الآخرة، وأن هذا التكاثر لا ينفعكم. وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيما رواه مسلم «**يقول ابن آدم: مالي ومالي** ـ يعني: يفتخر به ـ **وليس لك من مالك إلا ما**

(١) انظر مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ رحمه الله (٣/ ١٣٣) فتوى رقم ٥٠٢.

أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»[١] والباقي تاركه لغيرك وهذا هو الحق، أموالنا التي بين أيدينا. إما أن نأكلها فتفنى، وإما أن نلبسها فتبلى، وإما أن نتصدق بها فنمضيها وتكون أمامنا يوم القيامة. وإما أن نتركها لغيرنا لا يمكن أن يخرج المال الذي بأيدينا عن هذه القسمة الرباعية. ﴿**كلا سوف تعلمون**﴾ أي: سوف تعلمون عاقبة أمركم بالتكاثر الذي ألهاكم عن الآخرة ﴿**ثم كلا سوف تعلمون**﴾ وهذه الجملة تأكيد للردع مرة ثانية، ثم قال: ﴿**كلا لو تعلمون علم اليقين**﴾ يعني: حقًّا لو تعلمون علم اليقين لعرفتم أنكم في ضلال، ولكنكم لا تعلمون علم اليقين، لأنكم غافلون لاهون في هذه الدنيا، ولو علمتم علم اليقين لعرفتم أنكم في ضلال وفي خطأ عظيم. ثم قال تعالى: ﴿**لترون الجحيم. ثم لترونها عين اليقين**﴾ ﴿**لترون**﴾ هذه الجملة مستقلة ليست جواب «لو» ولهذا يجب على القارىء أن يقف عند قوله: ﴿**كلا لو تعلمون علم اليقين**﴾ ونحن نسمع كثيراً من الأئمة يصلون فيقولون ﴿**كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم**﴾ وهذا الوصل إما غفلة منهم ونسيان، وإما أنهم لم يتأملوا الآية حق التأمل، وإلا لو تأملوها حق التأمل لوجدوا أن الوصل يفسد المعنى لأنه إذا قال «كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم» صار رؤية الجحيم مشروطة بعلمهم، وهذا ليس بصحيح، لذلك يجب التنبه والتنبيه لهذا من سمع أحد يقرأ «كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم» ينبه ويقول له: يا أخي هذا الوصل يوهم فساد المعنى، فلا تصل وقف، أولاً: لأنها رأس آية، والمشروع أن يقف الإنسان عند رأس كل آية، وثانياً: أن الوصل

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد، باب الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (٢٩٥٨) (٣).

يفسد المعنى «كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم» إذاً ﴿**لترون الجحيم**﴾ جملة مستأنفة لا صلة لها بما قبلها، وهي جملة قسمية، فيما قسم مقدر والتقدير: والله لترون الجحيم، ولهذا يقول المعربون في إعرابها: إن اللام موطئة للقسم، وجملة «ترون» هي جواب القسم، والقسم محذوف والتقدير «والله لترون الجحيم» و﴿**الجحيم**﴾ اسم من أسماء النار ﴿**ثم لترونها عين اليقين**﴾ تأكيد لرؤيتها، ومتى ترى؟ تُرى يوم القيامة، يؤتى بها تُجر بسبعين ألف زمام، كل زمام يجره سبعون ألف ملك، فما ظنك بهذه النار ـ والعياذ بالله ـ إنها نار كبيرة عظيمة لأن فيها سبعين ألف زمام، كل زمام يجره سبعون ألف ملك، والملائكة عظام شداد فهي نار عظيمة ـ أعاذنا الله منها. ﴿**ثم لتسألن يومئذ عن النعيم**﴾ يعني: ثم في ذلك الوقت في ذلك الموقف العظيم تسألن عن النعيم، واختلف العلماء رحمهم الله في قوله: ﴿**لتسألن يومئذ عن النعيم**﴾ هل المراد الكافر، أو المراد المؤمن والكافر؟

والصواب: أن المراد المؤمن والكافر كل يسأل عن النعيم، لكن الكافر يسأل سؤال توبيخ وتقريع، والمؤمن يسأل سؤال تذكير، والدليل على أنه عام ما جرى في قصة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأبي بكر وعمر، فعن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «**ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟**» قالا: الجوع، يا رسول الله! قال: «**وأنا، والذي نفسي بيده! لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا**» فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً! وأهلاً! فقال لها رسول الله ﷺ: «**أين فلان؟**» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبه، ثم قال:

الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني، قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بُسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: «**إياك! والحلوب**» فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**والذي نفسي بيده! لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم**»[1]. وفي رواية أخرى: «**هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة، ظل بارد، ورطب طيب، وماء بارد**»[2]. وهذا دليل على أن الذي يُسأل المؤمن والكافر. ولكن يختلف السؤال، سؤال المؤمن سؤال تذكير بنعمة الله عز وجل عليه حتى يفرح، ويعلم أن الذي أنعم عليه في الدنيا ينعم عليه في الآخرة، بمعنى أنه إذا تكرم بنعمته عليه في الدنيا تكرم عليه بنعمته في الآخرة، أما الكافر فإنه سؤال توبيخ وتنديم. نسأل الله تعالى أن يستعملنا في طاعته، وأن يجعل ما رزقنا عونًا على طاعته، إنه على كل شيء قدير.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك (٢٠٣٨) (١٤٠).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في معيشة النبي ﷺ (٢٣٦٩) وقال: حديث حسن صحيح غريب.

تفسير سورة العصر

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

يقول الله عز وجل: ﴿والعصر. إن الإنسان لفي خسر﴾ أقسم الله تعالى بالعصر، والعصر قيل: إن المراد به آخر النهار، لأن آخر النهار أفضله، وصلاة العصر تسمى الصلاة الوسطى، أي: الفضلى كما سماها النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بذلك[1].

وقيل: إن العصر هو الزمان. وهذا هو الأصح أقسم الله به لما يقع فيه من اختلاف الأحوال، وتقلبات الأمور، ومداولة الأيام بين الناس وغير ذلك مما هو مشاهد في الحاضر، ومتحدث عنه في الغائب. فالعصر هو الزمان الذي يعيشه الخلق، وتختلف أوقاته شدة ورخاء، وحرباً وسلماً، وصحة ومرضاً، وعملاً صالحاً وعملاً سيئاً إلى غير ذلك مما هو معلوم للجميع. أقسم الله به على قوله: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ والإنسان هنا عام، لأن المراد به الجنس، وعلامة الإنسان الذي

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة (٢٩٣١). ومسلم، كتاب المساجد، باب الدليل لمن قال: الصلاة الوسطى هي صلاة العصر (٦٢٨) (٢٠٦).

يراد به العموم أن يحل محل «ال» كلمة «كل» فهنا لو قيل: كل إنسان في خسر لكان هذا هو المعنى. ومعنى الآية الكريمة أن الله أقسم قسماً على حال الإنسان أنه في خسر أي: في خسران ونقصان في كل أحواله، في الدنيا وفي الآخرة إلا من استثنى الله عز وجل. وهذه الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات، الأول: القسم، والثاني: (إنّ) والثالث: (اللام) وأتى بقوله ﴿لفي خسر﴾ ليكون أبلغ من قوله: (لخاسر) وذلك أن «في» للظرفية فكأن الإنسان منغمس في الخسر، والخسران محيط به من كل جانب. ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾. استثنى الله سبحانه وتعالى هؤلاء المتصفين بهذه الصفات الأربع:

الصفة الأولى: الإيمان الذي لا يخالجه شك ولا تردد بما بينه الرسول ﷺ حين سأله جبريل عن الإيمان قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[1]. وشرح هذا الحديث يطول وتكلمنا عليه في مواطن كثيرة[2]، فالذين آمنوا بهذه الأصول الستة هم المؤمنون، ولكن يجب أن يكون إيماناً لا شك معه ولا تردد. بمعنى: أنك تؤمن بهذه الأشياء وكأنك تراها رأي العين. والناس في هذا المقام ثلاثة أقسام:

القسم الأول: مؤمن خالص الإيمان؛ إيماناً لا شك فيه ولا تردد.

والقسم الثاني: كافر جاحد منكر.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٥٦).

(٢) انظر شرح هذا الحديث في مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ رحمه الله (٣/ ١٤٤).

والقسم الثالث: متردد. والناجي من هؤلاء القسم الأول الذي يؤمن إيماناً لا تردد فيه، يؤمن بوجود الله، وربوبيته، وألوهيته، وبأسمائه وصفاته عز وجل، ويؤمن بالملائكة وهم عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، وكلفهم بأعمال منها ما هو معلوم، ومنها ما ليس بمعلوم، فجبريل عليه الصلاة والسلام مكلف بالوحي ينزل به من عند الله إلى الأنبياء والرسل، وميكائيل مكلف بالقطر والنبات يعني: وكله الله على المطر وكل ما يتعلق بالمطر وعلى النبات. وإسرافيل: موكل بالنفخ بالصور، ومالك: موكل بالنار، ورضوان موكل بالجنة. ومن الملائكة من لا نعلم أسمائهم ولا نعلم أعمالهم أيضاً، لكن جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه ما من موضع أربع أصابع في السماء إلا وفيه ملك قائم لله أو راكع، أو ساجد»[1] ، كذلك نؤمن بالكتب التي أنزلها الله على الرسل عليهم الصلاة والسلام، ونؤمن بالرسل الذين قصهم الله علينا، نؤمن بهم بأعيانهم، والذين لم يقصهم علينا نؤمن بهم إجمالاً؛ لأن الله لم يقص علينا جميع أنباء الرسل، قال الله تعالى: ﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ [غافر: ٧٨]. واليوم الآخر هو يوم البعث يوم يخرج الناس من قبورهم للجزاء حفاة، عراة، غرلاً، بهماً. فالحفاة يعني الذين ليس عليهم نعال ولا خفاف أي: أقدامهم عارية، والعراة: الذين ليس عليهم ثياب، والغرل: الذين لم يُختنوا. والبهم: الذين ليس معهم مال يحشرون كذلك، ولما حدث النبي عليه الصلاة والسلام بأنهم عراة قالت عائشة: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال:

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في قول النبي ﷺ «لو تعلمون ما أعلم...» (٢٣١٢) وقال: حديث حسن غريب.

«الأمر أعظم من ذلك»[١] أي من أن ينظر بعضهم إلى بعض، لأن الناس كل مشغول بنفسه. قال شيخ الإسلام رحمه الله: ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم مما يكون بعد الموت، فيجب أن تؤمن بفتنة القبر أي: بالاختبار الذي يكون للميت إذا دفن وتولى عنه أصحابه، فإنه يأتيه ملكان يسألانه عن ربه، ودينه، ونبيه، وتؤمن كذلك بأن القبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار. أي أن فيه العذاب أو الثواب، وتؤمن كذلك بالجنة والنار وكل ما يتعلق باليوم الآخر فإنه داخل في قولنا «أن تؤمن بالله واليوم الآخر» والقدر: تقدير الله عز وجل يعني: يجب أن تؤمن بأن الله تعالى قدر كل شيء وذلك أن الله خلق القلم فقال له: اكتب. قال: وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة[٢]. إذاً فالإيمان في قوله: ﴿إلا الذين آمنوا﴾ يشمل الإيمان بالأصول الستة التي بينها الرسول عليه الصلاة والسلام. أما قوله: ﴿وعملوا الصالحات﴾ فمعناه: أنهم قاموا بالأعمال الصالحة: من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج، وبر للوالدين، وصلة الأرحام وغير ذلك فلم يقتصروا على مجرد ما في القلب بل عملوا وأنتجوا و﴿الصالحات﴾ هي التي اشتملت على شيئين:

الأول: الإخلاص لله عز وجل.

والثاني: المتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٦٨).
(٢) تقدم تخريجه ص (٣٢).

وذلك أن العمل إذا لم يكن خالصاً لله فهو مردود. قال الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي الذي يرويه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال الله: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[1]. فلو قمت تصلي مراءاة للناس، أو تصدقت مراءاة للناس، أو طلبت العلم مراءاة للناس، أو وصلت الرحم مراءاة للناس أو غير ذلك. فالعمل مردود حتى وإن كان صالحاً في ظاهره. كذلك الاتباع لو أنك عملت عملاً لم يعمله الرسول عليه الصلاة والسلام وتقربت به إلى الله مع الإخلاص لله فإنه لا يقبل منك لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[2]. إذاً العمل الصالح ما جمع وصفين: **الأول**: الإخلاص لله عز وجل. **والثاني**: المتابعة للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم. ﴿**وتواصوا بالحق**﴾ أي: صار بعضهم يوصي بعضاً بالحق. والحق: هو الشرع. يعني كل واحد منهم يوصي الآخر إذا رآه مفرطاً في واجب. أوصاه وقال: يا أخي قم بالواجب، إذا رآه فاعلاً لمحرم أوصاه قال: يا أخي اجتنب الحرام، فهم لم يقتصروا على نفع أنفسهم بل نفعوا أنفسهم وغيرهم، ﴿**وتواصوا بالصبر**﴾ أي: يوصي بعضهم بعضاً بالصبر، والصبر حبس النفس عما لا ينبغي فعله، وقسمه أهل العلم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: صبر على طاعة الله.

القسم الثاني: صبر عن محارم الله.

القسم الثالث: صبر على أقدار الله.

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٣٤).

(٢) تقدم تخريجه ص (١٣٤).

الصبر على الطاعة، كثير من الناس يكون فيه كسل عن الصلاة مع الجماعة مثلاً: لا يذهب إلى المسجد يقول أصلي في البيت وأديت الواجب فيكسل فقال له: يا أخي أصبر نفسك، احبسها كلفها على أن تصلي مع الجماعة. كثير من الناس إذا رأى زكاة ماله كثيرة شح وبخل وصار يتردد. أُخرج هذا المال الكثير، أو أتركه وما أشبه ذلك. فيقال له: يا أخي اصبر نفسك على أداء الزكاة، وهكذا بقية العبادات فإن العبادات كما قال الله تعالى في الصلاة: ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ [البقرة: ٤٥]. أكثر عباد الله تجد أن العبادات عليهم ثقيلة، فهم يتواصون بالصبر على الطاعة، كذلك الصبر عن المعصية بعض الناس مثلاً تجره نفسه إلى أكساب محرمة إما بالربا، وإما بالغش، وإما بالتدليس أو بغير ذلك من أنواع الحرام فيقال له: اصبر يا أخي أصبر نفسك لا تتعامل على وجه محرم. بعض الناس أيضاً يبتلى بالنظر إلى النساء تجده ماشياً في السوق وكل ما مرت امرأة أتبعها بصره فيقال له: يا أخي اصبر نفسك عن هذا الشيء.

ويتواصون على أقدار الله، يصاب الإنسان بمرض في بدنه، يصاب الإنسان بفقد شيء من ماله، يصاب الإنسان بفقد أحبته فيجزع ويتسخط ويتألم فيتواصون فيما بينهم، اصبر يا أخي هذا أمر مقدر والجزع لا يفيد شيئاً، واستمرار الحزن لا يرفع الحزن، إنسان امتحن بموت ابنه نقول: يا أخي اصبر، قدر أن هذا الابن لم يُخلق، ثم كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام لإحدى بناته: «**إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمرها فلتصبر ولتحتسب**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه» (١٢٨٤) ومسلم، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت (٩٢٣) (١١).

الأمر كله لله، فإذا أخذ الله تعالى ملكه كيف تعتب على ربك؟ كيف تتسخط.

فإن قيل: أي أنواع الصبر أشق على النفوس؟

فالجواب: هذا يختلف، فبعض الناس يشق عليه القيام بالطاعة وتكون ثقيلة عليه جداً، وبعض الناس بالعكس الطاعة هينة عليه، لكن ترك المعصية صعب، شاق مشقة كبيرة، وبعض الناس يسهل عليه الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، لكن لا يتحمل الصبر على المصائب، يعجز حتى إنه قد تصل به الحال إلى أن يرتد ـ والعياذ بالله ـ كما قال الله تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ [الحج: ١١]. إذاً نأخذ من هذه السورة أن الله سبحانه وتعالى أكد بالقسم المؤكد بإن، واللام أن جميع بني آدم في خسر، والخسر محيط بهم من كل جانب، إلا من اتصف بهذه الصفات الأربع: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ: «لو لم ينزل الله على عباده حجة إلا هذه السورة لكفتهم». يعني: كفتهم موعظة وحثاً على التمسك بالإيمان والعمل الصالح، والدعوة إلى الله، والصبر على ذلك. وليس مراده أن هذه السورة كافية للخلق في جميع الشريعة، لكن كفتهم موعظة، فكل إنسان عاقل يعرف أنه في خُسر إلا إذا اتصف بهذه الصفات الأربع، فإنه سوف يحاول بقدر ما يستطيع أن يتصف بهذه الصفات الأربع، وإلى تخليص نفسه من الخسران. نسأل الله أن يجعلنا من الرابحين الموفقين، إنه على كل شيء قدير.

تفسير سورة الهمزة

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿ويل لكل همزة﴾ في هذه السورة يبتدىء الله سبحانه وتعالى بكلمة ﴿ويل﴾ وهي كلمة وعيد، أي أنها تدل على ثبوت وعيد لمن اتصف بهذه الصفات. ﴿همزة لمزة﴾ إلى آخره، وقيل: إن ﴿ويل﴾ اسم لوادٍ في جهنم ولكن الأول أصح. ﴿لكل همزة لمزة﴾ كل من صيغ العموم، والهمزة واللمزة وصفان لموصوف واحد، فهل هما بمعنى واحد؟ أو يختلفان في المعنى؟

قال بعض العلماء: إنهما لفظان لمعنى واحد، يعني أن الهمزة هو اللمزة. وقال بعضهم: بل لكل واحد منهما معنى غير المعنى الآخر.

وثم قاعدة أحب أن أنبه عليها في التفسير وغير التفسير وهي: أنه إذا دار الأمر بين أن تكون الكلمة مع الأخرى بمعنى واحد، أو لكل كلمة معنى، فإننا نجعل لكل واحدة معنى، لأننا إذا جعلنا الكلمتين بمعنى واحد صار في هذا تكرار لا داعي له، لكن إذا جعلنا كل واحدة

لها معنى صار هذا تأسيسًا وتفريقًا بين الكلمتين، والصحيح في هذه الآية ﴿لكل همزة لمزة﴾ أن بينهما فرقًا: فالهمزة: بالفعل. واللمز: باللسان، كما قال الله تعالى: ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ [التوبة: ٥٨]. فالهمز بالفعل يعني أنه يسخر من الناس بفعله إما أن يلوي وجهه، أو يعبس بوجهه. أو ما أشبه ذلك، أو بالإشارة يشير إلى شخص، انظروا إليه ليعيبه أو ما أشبه ذلك، فالهمز يكون بالفعل، واللمز باللسان، وبعض الناس ـ والعياذ بالله ـ مشغوف بعيب البشر إما بفعله وهو الهمَّاز، وإما بقوله وهو اللمَّاز، وهذا كقوله تعالى: ﴿ولا تطع كل حلاَّف مهين. هَمَّاز مشاء بنميم﴾ [القلم: ١٠، ١١]. ﴿الذي جمع مالاً وعدده﴾ هذه أيضاً من أوصافه القبيحة جماع مناع، يجمع المال، ويمنع العطاء، فهو بخيل لا يعطي يجمع المال ويعدده. ﴿وعدده﴾ وقيل: معنى التعديد يعني الإحصاء يعني لشغفه بالمال كل مرة يذهب إلى الصندوق ويعد، يعد الدراهم في الصندوق في الصباح، وفي آخر النهار يعدها، وهو يعرف أنه لم يأخذ منه شيئاً ولم يضف إليه شيئاً لكن لشدة شغفه بالمال يتردد عليه ويعدده، ولهذا جاءت بصيغة المبالغة ﴿عدده﴾ يعني أكثر تعداده لشدة شغفه ومحبته له يخشى أن يكون نقص، أو يريد أن يطمئن زيادة على ما سبق فهو دائماً يعدد المال.

وقيل معنى ﴿عدده﴾ أي جعله عُدة له يعني ادخره لنوائب الدهر، وهذا وإن كان اللفظ يحتمله لكنه بعيد، لأن إعداد المال لنوائب الدهر مع القيام بالواجب بأداء ما يجب فيه من زكاة وحقوق ليس مذموماً، وإنما المذموم أن يكون أكبر هم الإنسان هو المال، يتردد إليه ويعدده، وينظر هل زاد، هل نقص، فالقول بأن المراد عدده أي: جمعه

للمستقبل قول ضعيف. ﴿يحسب أن ماله أخلده﴾ يعني يظن هذا الرجل أن ماله سيخلده ويبقيه، إما بجسمه وإما بذكره، لأن عمر الإنسان ليس ما بقي في الدنيا، بل عمر الإنسان حقيقة ما يخلده بعد موته، ويكون ذكراه في قلوب الناس وعلى ألسنتهم، فيقول في هذه الآية: ﴿يحسب أن ماله أخلده﴾ أي: أخلد ذكره أو أطال عمره، والأمر ليس كذلك. فإن أهل الأموال إذا لم يُعرفوا بالبذل والكرم فإنهم يخلدون لكن بالذكر السيىء. فيقال: أبخل من فلان، وأبخل من فلان ويذكر في المجالس ويعاب، ولهذا قال: ﴿كلا لينبذن في الحطمة﴾ ﴿كلا﴾ هنا يسميها العلماء حرف ردع أي: تردع هذا القائل أو هذا الحاسب عن قوله أو عن حسبانه. ويحتمل أن تكون بمعنى حقًّا «يعني حقاً لينبذن» وكلاهما صحيح، هذا الرجل لن يخلده ماله، ولن يخلد ذكراه، بل سينسى ويطوى ذكره، وربما يذكر بالسوء لعدم قيامه بما أوجب الله عليه من البذل. ﴿لينبذن في الحطمة﴾ اللام هذه واقعة في جواب القسم المقدر، والتقدير «والله لينبذن في الحطمة» أي: يطرح طرحاً. وإذا قلنا: أن اللام لجواب القسم صارت هذه الجملة مؤكدة باللام، ونون التوكيد، والقسم المحذوف. ومثل هذا كثير في القرآن الكريم، أي تأكيد الشيء باليمين، واللام، والنون. والله تعالى يقسم بالشيء تأكيداً له وتعظيماً لشأنه. وقوله: ﴿لينبذن﴾ ما الذي يُنبذ هل هو صاحب المال أو المال؟ كلاهما ينبذ، أما صاحب المال فإن الله يقول في آية أخرى: ﴿يوم يدَّعون إلى نار جهنم دعًّا﴾ [الطور: ١٣]. أي: يدفعون، وهنا يقول: «ينبذ» أي يطرح في الحطمة، والحطمة هي التي تحطم الشيء، أي: تفتته وتكسره فما هي؟ قال الله تعالى: ﴿وما أدراك ما الحطمة﴾ وهذه الصيغة للتعظيم والتفخيم ﴿نار الله الموقدة﴾ هذا

الجواب أي: هي نار الله الموقدة. وأضافها الله سبحانه وتعالى إلى نفسه؛ لأنه يعذب بها من يستحق العذاب فهي عقوبة عدل وليست عقوبة ظلم. أي: نار يحرق الله بها من يستحق أن يُعذب بها، إذاً هي نار عدل وليست نار ظلم. لأن الإحراق بالنار قد يكون ظلماً وقد يكون عدلاً، فتعذيب الكافرين في النار لا شك أنه عدل، وأنه يُثنى به على الرب عز وجل حيث عامل هؤلاء بما يستحقون. وتأمل قوله: ﴿الحطمة﴾ مع فعل هذا الفاعل ﴿همزة لمزة﴾ حطمة، وهمزة لمزة، على وزن واحد ليكون الجزاء مطابقاً للعمل حتى في اللفظ ﴿نار الله الموقدة﴾ أي: المسجّرة المسعرة. ﴿التي تطلع على الأفئدة﴾ الأفئدة جمع فؤاد وهو القلب. والمعنى: أنها تصل إلى القلوب ـ والعياذ بالله ـ من شدة حرارتها، مع أن القلوب مكنونة في الصدور وبينها وبين الجلد الظاهر ما بينها من الطبقات لكن مع ذلك تصل هذه النار إلى الأفئدة. ﴿إنها عليهم﴾ أي: الحطمة وهي نار الله الموقدة أي على الهمَّاز واللمَّاز الجمَّاع للمال المناع للخير، وأعاد الضمير بلفظ الجمع مع أن المرجع مفرد باعتبار المعنى، لأن ﴿لكل همزة﴾ عام يشمل جميع الهمَّازين وجميع اللمَّازين ﴿مؤصدة﴾ أي: مغلقة، مغلقة الأبواب لا يُرجى لهم فرج ـ والعياذ بالله ـ ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾ يعني: يرفعون إلى أبوابها حتى يطمعوا في الخروج ثم بعد ذلك يركسون فيها ويعادون فيها، كل هذا لشدة التعذيب؛ لأن الإنسان إذا طمع في الفرج وأنه سوف ينجو ويخلص يفرح، فإذا أعيد صارت انتكاسة جديدة، فهكذا يعذبون بضمائرهم وأبدانهم، وعذاب أهل النار مذكور مفصل في القرآن الكريم والسنة النبوية. تأمل الآن لو أن إنسانًا كان في حجرة أو في سيارة اتقدت النيران فيها وليس له مهرب، الأبواب مغلقة ماذا

يكون؟ في حسرة عظيمة لا يمكن أن يماثلها حسرة. فهم ـ والعياذ بالله ـ هكذا في النار، النار عليهم مؤصدة ﴿في عمد ممددة﴾ أي: أن هذه النار مؤصدة، وعليها أعمدة ممدة أي ممدودة على جميع النواحي والزوايا حتى لا يتمكن أحد من فتحها أو الخروج منها.

حكى الله سبحانه وتعالى ذلك علينا وبينه لنا في هذه السورة لا لمجرد أن نتلوه بألسنتنا، أو نعرف معناه بأفهامنا، لكن المراد أن نحذر من هذه الأوصاف الذميمة: عيب الناس بالقول، وعيب الناس بالفعل، والحرص على المال حتى كأن الإنسان إنما خلق للمال ليخلد له، أو يخلد المال له، ونعلم أن من كانت هذه حاله فإن جزاءه هذه النار التي هي كما وصفها الله، الحطمة، تطلع على الأفئدة، مؤصدة، في عمد ممدة. نسأل الله تعالى أن يجيرنا منها، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل والاستقامة على دينه.

تفسير سورة الفيل

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ يخاطب الله تعالى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أو يخاطب كل من يصح توجيه الخطاب إليه، فعلى الأول يكون خطاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم خطاب له وللأمة؛ لأن أمته تابعة له، وعلى الثاني يكون الخطاب عام له ولأمته، ابتداءً، وعلى كلٍّ فإن الله تعالى يقرر ما فعل سبحانه وتعالى بأصحاب الفيل، وأصحاب الفيل هم أهل اليمن الذين جاؤوا لهدم الكعبة بفيل عظيم أرسله إليهم ملك الحبشة، وسبب ذلك أن ملك اليمن أراد أن يصد الناس عن الحج إلى الكعبة، بيت الله عز وجل فبنى بيتاً يشبه الكعبة، ودعى الناس إلى حجه ليصدهم عن حج بيت الله فغضب لذلك العرب، وذهب رجل منهم إلى هذا البيت الذي جعله ملك اليمن بدلاً عن الكعبة وتغوَّط فيه، ولطخ جدرانه بالقذر، فغضب ملك اليمن غضباً شديداً، وأخبر ملك الحبشة بذلك فأرسل إليه هذا الفيل العظيم قيل: وكان معه ستة فيلة لتساعده فجاء ملك اليمن بجنوده ليهدم الكعبة على زعمه، ولكن الله سبحانه حافظ بيته، فلما وصلوا إلى مكان يسمى المغمَّس وقف الفيل وحرن، وأبى أن يتجه

إلى الكعبة فزجره سايسه ولكنه أبى، فإذا وجهوه إلى اليمن انطلق يهرول، وإن وجهوه إلى مكة وقف[١]، وهذه آية من آيات الله عز وجل، ثم بقوا حتى أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ﴿ألم يجعل كيدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل﴾ قال العلماء: ﴿طيراً أبابيل﴾ يعني: جماعات متفرقة، كل طير في منقاره حجر صلب ﴿من سجيل﴾ وهو الطين المشوي؛ لأنه يكون أصلب، وهذا الحجر ليس كبيراً، بل هو صغير يضرب الواحد من هؤلاء مع رأسه ويخرج من دبره ـ والعياذ بالله ـ ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾ أي: كزرع أكلته الدواب ووطئته بأقدامها حتى تفتت.

هذا مجمل هذه السورة العظيمة التي بين الله سبحانه وتعالى فيها ما فعل بأصحاب الفيل وأن كيدهم صار في نحورهم، وهكذا كل من أراد الحق بسوء فإن الله تعالى يجعل كيده في نحره، وإنما حمى الله عز وجل الكعبة عن هذا الفيل مع أنه في آخر الزمان سوف يُسلط عليها رجل من الحبشة يهدمها حجراً حجراً حتى تتساوى بالأرض[٢] لأن قصة أصحاب الفيل مقدمة لبعثة الرسول محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم التي يكون فيها تعظيم البيت. أما في آخر الزمان فإن أهل البيت إذا أهانوه وأرادوا فيه بإلحاد بظلم، ولم يعرفوا قدره حينئذ يسلط الله عليهم من يهدمه حتى لا يبقى على وجه الأرض، ولهذا يجب على أهل مكة خاصة أن يحترزوا من المعاصي والذنوب والكبائر، لئلا يُهينوا الكعبة فيذلهم الله عز وجل. نسأل الله تعالى أن يحمي ديننا وبيته الحرام من كيد كل كائد، إنه على كل شيء قدير.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ـ رحمه الله ـ (٣/ ١٣٩).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب هدم الكعبة (١٥٩٥ ـ ١٥٩٦).

تفسير سورة قريش

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

هذه السورة لها صلة بالسورة التي قبلها، إذ أن السورة التي قبلها فيها بيان منة الله عز وجل على أهل مكة بما فعل بأصحاب الفيل الذين قصدوا مكة لهدم الكعبة، فبين الله في هذه السورة نعمة أخرى كبيرة على أهل مكة، (على قريش) وهو إلا فهم مرتين في السنة، مرة في الصيف ومرة في الشتاء، ﴿**لإيلف قريش. إلا فهم رحلة الشتاء والصيف**﴾ والإلف بمعنى الجمع والضم، ويراد به التجارة التي كانوا يقومون بها مرة في الشتاء، ومرة في الصيف، أما في الشتاء فيتجهون نحو اليمن للمحصولات الزراعية فيه، ولأن الجو مناسب، وأما في الصيف فيتجهون إلى الشام لأن غالب تجارة الفواكه وغيرها تكون في هذا الوقت في الصيف مع مناسبة الجو البارد، فهي نعمة من الله سبحانه وتعالى على قريش في هاتين الرحلتين؛ لأنه يحصل منها فوائد كثيرة ومكاسب كبيرة من هذه التجارة، أمرهم الله أن يعبدوا رب هذا البيت قال: ﴿**فليعبدوا رب هذا البيت**﴾ شكراً له على هذه النعمة، والفاء هذه إما أن تكون فاء السببية، أي فبسبب هاتين الرحلتين ليعبدوا رب هذا

البيت، أو أن تكون فاء التفريع، وأيًّا كان فهي مبنية على ما سبق، أي فبهذه النعم العظيمة يجب عليهم أن يعبدوا الله، والعبادة هي التذلل لله عز وجل محبة وتعظيماً. أن يتعبد الإنسان لله يتذلل له بالسمع والطاعة، فإذا بلغه عن الله ورسوله أمر قال: سمعنا وأطعنا، وإذا بلغه خبر قال: سمعنا وآمنا، على وجه المحبة والتعظيم، فبالمحبة يقوم الإنسان بفعل الأوامر، وبالتعظيم يترك النواهي خوفاً من هذا العظيم عز وجل، هذا معنى من معاني العبادة، وتطلق العبادة على نفس المتعبد به، وقد حدّها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بهذا المعنى فقال: إن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال، والأعمال الظاهرة، والباطنة. وقوله: ﴿رب هذا البيت﴾ يعني به الكعبة المعظمة، وقد أضافها الله تعالى إلى نفسه في قوله تعالى: ﴿وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾ [الحج: ٢٦]. وهنا أضاف ربوبيته إليه قال: ﴿رب هذا البيت﴾ وإضافة الربوبية إليه على سبيل التشريف والتعظيم ﴿طهر بيتي للطائفين﴾ أضاف الله البيت إليه تشريفاً وتعظيماً، إذاً خصص البيت بالربوبية مرة، وأضافه إلى نفسة مرة أخرى تشريفاً وتعظيماً، وفي آية ثانية قال: ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها﴾ وبعدها قال: ﴿وله كل شيء﴾ احتراز من أن يتوهم واهم بأنه رب البلدة وحدها فقال: ﴿وله كل شيء﴾، ولكل مقام صيغة مناسبة، ففي قوله: ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء﴾ [النمل: ٩١]. مناسبة بيان عموم ملكه، لئلا يدعي المشركون أنه رب للبلدة فقط، أما هنا فالمقام مقام تعظيم للبيت فناسب ذكره وحده قوله: ﴿الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ ﴿الذي﴾ هذه صفة للرب، إذاً فمحلها النصب، ولهذا يحسن

أن تقف فتقول ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ ثم تقول: ﴿الذي أطعمهم﴾ لأنك لو وصلت فقلت: «رب هذا البيت الذي أطعمهم» لظن السامع أن «الذي» صفة للبيت، وهذا بعيد من المعنى ولا يستقيم به المعنى. ﴿الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ بين الله نعمته عليهم، النعمة الظاهرة والباطنة، فإطعامهم من الجوع وقاية من الهلاك في أمر باطن، وهو الطعام الذي يأكلونه، ﴿وآمنهم من خوف﴾ وقاية من الخوف في الأمر الظاهر؛ لأن الخوف ظاهر، إذا كانت البلاد محوطة بالعدو، وخاف أهلها وامتنعوا عن الخروج، وبقوا في ملاجئهم، فذكرهم الله بهذه النعمة، ﴿وآمنهم من خوف﴾ آمن مكان في الأرض هو مكة، ولذلك لا يُقطع شجرها، ولا يُحش حشيشها، ولا تُلتقط ساقطتها، ولا يصاد صيدها، ولا يسفك فيها دم، وهذه الخصائص لا توجد في البلاد الأخرى حتى المدينة، محرمة ولها حرم، لكن حرمها دون حرم مكة بكثير، حرم مكة لا يمكن أن يأتيه أحد من المسلمين لم يأتها ولا مرة إلا محرماً، والمدينة ليست كذلك، حرم مكة يحرم حشيشه وشجره مطلقاً، وأما حرم المدينة فرخص في بعض شجره للحرث ونحوه. صيد مكة حرام وفيه الجزاء، وصيد المدينة ليس فيه الجزاء، فأعظم مكان آمن هو مكة، حتى الأشجار آمنة فيه، وحتى الصيود آمنة فيه، ولولا أن الله تعالى يسر على عباده لكان حتى البهائم التي ليست صيوداً تحرم، لكن الله تعالى رحم العباد وأذن لهم أن يذبحوا وينحروا في هذا المكان. وهذه النعمة ذكرهم الله بها في قوله: ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾ [العنكبوت: ٦٧]. يعني أفلا يشكرون الله على هذا؟! فهذه السورة كلها تذكير لقريش بما أنعم الله عليهم في هذا البيت العظيم، وفي الأمن من

الخوف، وفي الإطعام من الجوع.

فإذا قال قائل: ما واجب قريش نحو هذه النعمة؟ وكذلك ما واجب من حلّ في مكة الآن من قريش أو غيرهم؟

قلنا: الواجب الشكر لله تعالى بالقيام بطاعته، بامتثال أمره واجتناب نهيه. ولهذا إذا كثرت المعاصي في الحرم فالخطر على أهله أكثر من الخطر على غيرهم، لأن المعصية في مكان فاضل أعظم من المعصية في مكان مفضول، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ [الحج: ٢٥]. فتوعد الله تعالى من أراد فيه أي من هم به فيه بإلحاد فضلاً عمن ألحد. والواجب على المرء أن يذكر نعمة الله عليه في كل مكان، لا في مكة فحسب، فبلادنا ـ ولله الحمد ـ اليوم من آمن بلاد العالم، وهي من أشد بلاد العالم رغداً وعيشاً. أطعمنا الله تعالى من الجوع، وآمننا من الخوف، فعلينا أن نشكر هذه النعمة، وأن نتعاون على البر والتقوى، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى الدعوة إلى الله على بصيرة وتأنٍ وتثبت، وأن نكون إخوة متآلفين، والواجب علينا ولاسيما على طلبة العلم إذا اختلفوا فيما بينهم أن يجلسوا للتشاور، وللمناقشة الهادئة التي يقصد منها الوصول إلى الحق، ومتى تبين الحق للإنسان وجب عليه اتباعه، ولا يجوز أن ينتصر لرأيه؛ لأنه ليس مشرعاً معصوماً حتى يقول إن رأيه هو الصواب، وأن ما عداه هو الخطأ. الواجب على الإنسان المؤمن أن يكون كما أراد الله منه، ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾ [الأحزاب: ٣٦]. أما كون الإنسان ينتصر لرأيه ويصر على ما هو عليه، ولو تبين له أنه باطل فهذا خطأ، وهذا من دأب المشركين الذين أبوا أن

يتبعوا الرسول وقالوا: ﴿إنا وجدنا أباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾ [الزخرف: ٢٢]. نسأل الله أن يديم علينا نعمة الإسلام، والأمن في الأوطان، وأن يجعلنا إخوة متآلفين على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، إنه على كل شيء قدير.

تفسير سورة الماعون

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾ ﴿أرأيت﴾ الخطاب هل هو للرسول صلى الله عليه وسلم لأنه الذي أنزل عليه القرآن؟ أو هو عام لكل من يتوجه إليه الخطاب؟ العموم أولى فنقول: ﴿أرأيت الذي﴾ عام لكل من يتوجه إليه الخطاب، ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾ أي بالجزاء، وهؤلاء هم الذين ينكرون البعث ويقولون: ﴿أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون. أوءاباؤنا الأولون﴾ [الصافات: ١٦، ١٧]. ويقول القائل منهم: ﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾ [يس: ٧٨]. هؤلاء يكذبون بيوم الدين أي: بالجزاء. ﴿فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين﴾ فجمع بين أمرين:

الأمر الأول: عدم الرحمة بالأيتام الذين هم محل الرحمة؛ لأن الأيتام هم الذين مات آباؤهم قبل أن يبلغوا، وهم محل الشفقة والرحمة؛ لأنهم فاقدون لآبائهم فقلوبهم منكسرة يحتاجون إلى جابر. ولهذا وردت النصوص بفضل الإحسان إلى الأيتام. لكن هذا ـ والعياذ

بالله ـ ﴿يدع اليتيم﴾ أي: يدفعه بعنف، لأن الدع هو الدفع بعنف كما قال الله تعالى: ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعًّا﴾ [الطور: ١٣]. أي: دفعاً شديداً، فتجد اليتيم إذا جاء إليه يستجديه شيئاً، أو يكلمه في شيء يحتقره ويدفعه بشدة فلا يرحمه.

الأمر الثاني: لا يحثون على رحمة الغير ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ فالمسكين الفقير المحتاج إلى الطعام لا يحض هذا الرجل على إطعامه؛ لأن قلبه حجر قاسٍ، فقلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة. إذاً ليس فيه رحمة لا للأيتام ولا للمساكين، فهو قاسي القلب.

ثم قال عز وجل: ﴿فويل للمصلين﴾ ويل: هذه كلمة وعيد وهي تتكرر في القرآن كثيراً، والمعنى الوعيد الشديد على هؤلاء، ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ هؤلاء مصلون يصلون مع الناس أو أفراداً لكنهم ﴿عن صلاتهم ساهون﴾ أي: غافلون عنها، لا يقيمونها على ما ينبغي، يؤخرونها عن الوقت الفاضل، لا يقيمون ركوعها، ولا سجودها، ولا قيامها، ولا قعودها، لا يقرأون ما يجب فيها من قراءة سواء كانت قرآناً أو ذكراً، إذا دخل في صلاته هو غافل، قلبه يتجول يميناً وشمالاً، فهو ساهٍ عن صلاته، وهذا مذموم، الذي يسهو عن الصلاة ويغفل عنها ويتهاون بها لا شك أنه مذموم. أما الساهي في صلاته فهذا لا يُلام، والفرق بينهما أن الساهي في الصلاة معناه أنه نسي شيئاً، نسي عدد الركعات، نسي شيئًا من الواجبات وما أشبه ذلك. ولهذا وقع السهو من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهو أشد الناس إقبالاً على صلاته بل إنه قال عليه الصلاة والسلام: «**جعلت قرة عيني في الصلاة**»[1]، ومع ذلك سهى في صلاته لأن السهو في الشيء

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٤٢).

معناه أنه نسي شيئًا على وجه لا يلام عليه. أما الساهي عن صلاته فهو متعمد للتهاون في صلاته، ومن السهو عن الصلاة أولئك القوم الذين يدعون للصلاة مع الجماعة، فإنهم لا شك عن صلاتهم ساهون فيدخلون في هذا الوعيد. ﴿فويل للمصلين. الذين هم عن صلاتهم ساهون. الذين هم يرآءون﴾ أيضاً إذا فعلوا الطاعة فإنما يقصدون بها التزلف إلى الناس، وأن يكون لهم قيمة في المجتمع، ليس قصدهم التقرب إلى الله عز وجل، فهذا المرائي يتصدق من أجل أن يقول الناس ما أكرمه، هذا المصلي يحسن صلاته من أجل أن يقول الناس ما أحسن صلاته وما أشبه ذلك. هؤلاء يراءون، فأصل العبادة لله، لكن يريدون مع ذلك أن يحمدهم الناس عليها، ويتقربون إلى الناس بتقربهم إلى الله، هؤلاء هم المراءون. أما من يصلي لأجل الناس بمعنى أنه يصلي بين يدي الملك مثلاً أو غيره يخضع له ركوعاً، أو سجوداً فهذا مشرك كافر قد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار. لكن هذا يصلي لله مع مراعاة أن يحمده الناس على عبادته، على أنه عابد لله عز وجل. وهذا يقع كثيراً في المنافقين. كما قال الله تعالى: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ [النساء: ١٤٢]. انظر إلى هذا الوصف إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، إذاً هم عن صلاتهم ساهون. يراءون الناس. وهنا يقول الله عز وجل: ﴿الذين هم يراؤن﴾ فهل الذين يسمّعون مثلهم؟ يعني إنسان يقرأ قرآنًا ويجهر بالقراءة ويحسن القراءة، ويحسن الأداء والصوت من أجل أن يقال ما أقرأه. هل يكون مثل الذي يرائي؟ الجواب: نعم كما جاء في الحديث، «**من سمَّع سمَّع الله به، ومن راءى راءى الله به**»[1]، المعنى من سمّع فضحه الله

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة (٦٤٩٩). ومسلم، كتاب الزهد، باب=

وبين للناس أن الرجل ليس مخلصاً، ولكنه يريد أن يسمعه الناس: فيمدحوه على عبادته، ومن راءى كذلك راءى الله به، فالإنسان الذي يرائي الناس، أو يسمّع الناس سوف يفضحه الله، وسوف يتبين أمره إن عاجلاً أم آجلاً. ﴿ويمنعون الماعون﴾ أي: يمنعون ما يجب بذله من المواعين وهي الأواني، يعني يأتي الإنسان إليهم يستعير آنية. يقول: أنا محتاج إلى دلو، أو محتاج إلى إناء أشرب به، أو محتاج إلى مصباح كهرباء وما أشبه ذلك، فيمنع. فهذا أيضاً مذموم. ومنع الماعون ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: قسم يأثم به الإنسان.

القسم الثاني: قسم لا يأثم به، لكن يفوته الخير.

فما وجب بذله فإن الإنسان يأثم بمنعه، وما لم يجب بذله فإن الإنسان لا يأثم بمنعه لكن يفوته الخير. مثال ذلك: إنسان جاءه رجل مضطر يقول: أعطني ماءً أشربه، فإن لم أشرب مت، فبذل الإناء له واجب يأثم بتركه الإنسان، حتى إن بعض العلماء يقول: لو مات هذا الإنسان فإنه يضمنه بالدية، لأنه هو سبب موته ويجب عليه بذل ما طلبه.

فيجب على المرء أن ينظر في نفسه هل هو ممن اتصف بهذه الصفات أو لا؟ إن كان ممن اتصف بهذه الصفات قد أضاع الصلاة وسها عنها، ومنع الخير عن الغير فليتب وليرجع إلى الله، وإلا فليبشر بالويل ـ والعياذ بالله ـ وإن كان قد تنزه عن ذلك فليبشر بالخير، والقرآن الكريم ليس المقصود منه أن يتلوه الإنسان، ليتعبد لله تعالى

= تحريم الرياء (٢٩٨٦) (٤٧).

بتلاوته فقط، المقصود أن يتأدب به ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «إن النبي ﷺ كان خلقه القرآن»[١] . خُلقه يعني أخلاقه التي يتخلق بها يأخذها من القرآن. وفقنا الله لما فيه الخير والصلاح في الدنيا والآخرة. إنه على كل شيء قدير.

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل (٧٤٦) (١٣٩).

تفسير سورة الكوثر

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

هذه السورة قيل إنها مكية، وقيل: إنها مدنية. والمكي هو الذي نزل قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة سواء نزل في مكة، أو في المدينة، أو في الطريق في السفر، فكل ما نزل بعد الهجرة فهو مدني، وما نزل قبلها فهو مكي، هذا هو القول الراجح من أقوال العلماء، يقول الله عز وجل مخاطباً النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ الكوثر: في اللغة العربية هو الخير الكثير. وهكذا كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أعطاه الله تعالى خيراً كثيراً في الدنيا والآخرة. فمن ذلك النهر العظيم الذي في الجنة والذي يصبّ منه ميزابان على حوضه المورود ﷺ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى مذاقاً من العسل، (وأطيب رائحة من المسك)[1]، وهذا الحوض في القيامة في عرصات القيامة يرده المؤمنون من أمة النبي ﷺ. وآنيته كنجوم السماء كثرة وحسناً[2]، فمن كان وارداً على شريعته في الدنيا

---

(١) من رواية الترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة الكوثر (٣٣٦١) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٢٣٠٠ ـ ٢٣٠١).

كان وارداً على حوضه في الآخرة، ومن لم يكن وارداً على شريعته فإنه محروم منه في الآخرة. ومن الخيرات الكثيرة التي أعطيها النبي ﷺ في الدنيا ما ثبت في الصحيحين من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**أعطيت خمساً لم يُعطهن أحداً من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجلاً من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأعطيت الشفاعة، وأحلت لي المغانم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة**»[1]. هذا من الخير الكثير، لأن بعثه إلى الناس عامة يستلزم أن يكون أكثر الأنبياء اتباعاً وهو كذلك فهو أكثرهم أتباعاً عليه الصلاة والسلام، ومن المعلوم أن الدال على الخير كفاعل الخير، والذي دل هذه الأمة العظيمة التي فاقت الأمم كثرة هو محمد ﷺ، وعلى هذا فيكون للرسول عليه الصلاة والسلام من أجر كل واحد من أمته نصيب. ومن يحصي الأمة إلا الله عز وجل، ومن الخير الذي أعطيه في الآخرة المقام المحمود، ومنه الشفاعة العظمى، فإن الناس في يوم القيامة يلحقهم من الكرب والغم ما لا يطيقون، فيطلبون الشفاعة، فيأتون إلى آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليه الصلاة والسلام حتى تصل إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيقوم ويشفع، ويقضي الله تعالى بين العباد بشفاعته[2]، وهذا مقام يحمده عليه الأولون والآخرون وداخل في قوله تعالى: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ [الإسراء: ٧٩]. إذاً الكوثر يعني الخير الكثير، ومنه النهر الذي في الجنة، فالنهر الذي في الجنة هو الكوثر لا شك، ويسمى كوثراً لكنه ليس هو فقط الذي أعطاه

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التيمم، باب قول الله تعالى: ﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ (٣٣٥). ومسلم، كتاب الصلاة، باب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) (٣).

(٢) تقدم تخريجه ص (١١٠).

الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الخير، ولما ذكر منته عليه بهذا الخير الكثير قال: ﴿فصل لربك وانحر﴾ شكراً لله على هذه النعمة العظيمة، أن تصلي وتنحر لله، والمراد بالصلاة هنا جميع الصلوات، وأول ما يدخل فيها الصلاة المقرونة بالنحر وهي صلاة عيد الأضحى لكن الآية شاملة عامة ﴿فصل لربك﴾ الصلوات المفروضة والنوافل. صلوات العيد والجمعة ﴿وانحر﴾ أي: تقرب إليه بالنحر، والنحر يختص بالإبل، والذبح للبقر والغنم، لكنه ذكر النحر، لأن الإبل أنفع من غيرها بالنسبة للمساكين، ولهذا أهدى النبي ﷺ في حجة الوداع مائة بعير، ونحر منها ثلاثة وستين بيده، وأعطى علي بن أبي طالب رضي الله عنه الباقي فنحرها. وتصدق بجميع أجزائها إلا بضعة واحدة من كل ناقة، فأخذها وجعلت في قدر، فطبخها فأكل من لحمها، وشرب من مرقها، وأمر بالصدقة حتى بجلالها وجلودها[1] عليه الصلاة والسلام، والأمر في الآية أمر له وللأمة، فعلينا أن نخلص الصلاة لله، وأن نخلص النحر لله كما أُمر بذلك نبينا ﷺ ثم قال ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ هذا في مقابل إعطاء الكوثر قال: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ ﴿شانئك﴾ أي مبغضك، والشنئان هو البغض، ومنه قوله تعالى: ﴿ولا يجرمنكم شنئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾ [المائدة: ٢]. أي: لا يحملنكم بغضهم أن تعتدوا. ﴿ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا﴾ [المائدة: ٨]. أي: لا يحملنكم بغضهم على ترك العدل ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ فشانئك في قوله: ﴿إن شانئك﴾ يعني مبغضك ﴿هو الأبتر﴾ الأبتر: اسم تفضيل من بتر

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب يتصدق بجلال البدن (١٧١٨). ومسلم، كتاب الحج، باب الصدقة بلحوم الهدايا وجلالها (١٣١٧) (٣٤٨).

بمعنى قطع، يعني هو الأقطع. المنقطع من كل خير، وذلك أن كفار قريش يقولون: محمد أبتر، لا خير فيه ولا بركة فيه ولا في اتباعه، أبتر لما مات ابنه القاسم رضي الله عنه قالوا: محمد أبتر، لا يولد له، ولو ولد له فهو مقطوع النسل، فبين الله عز وجل أن الأبتر هو مبغض الرسول عليه الصلاة والسلام فهو الأبتر المقطوع عن كل خير. الذي ليس فيه بركة، وحياته ندامة عليه، وإذا كان هذا في مبغضه فهو أيضاً في مبغض شرعه. فمن أبغض شريعة الرسول عليه الصلاة والسلام، أو أبغض شعيرة من شعائر الإسلام، أو أبغض أي طاعة مما يتعبد به الناس في دين الإسلام فإنه كافر، خارج عن الدين لقول الله تعالى: ﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم﴾ [محمد: ٩]. ولا حبوط للعمل إلا بالكفر، فمن كره فرض الصلوات فهو كافر ولو صلى، ومن كره فرض الزكاة فهو كافر ولو صلى، لكن من استثقلها مع عدم الكراهة فهذا فيه خصلة من خصال النفاق لكنه لا يكفر. وفرق بين من استثقل الشيء ومن كره الشيء.

إذاً هذه السورة تضمنت بيان نعمة الله على رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بإعطائه الخير الكثير، ثم الأمر بالإخلاص لله عز وجل في الصلوات والنحر، وكذلك في سائر العبادات، ثم بيان أن من أبغض الرسول عليه الصلاة والسلام، أو أبغض شيئاً من شريعته فإنه هو الأقطع الذي لا خير فيه ولا بركة فيه، نسأل الله العافية والسلامة.

تفسير سورة الكافرون

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

هذه السورة هي إحدى سورتي الإخلاص، لأن سورتي الإخلاص ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و﴿قل هو الله أحد﴾ وكان النبي ﷺ يقرأ بهما في سُنة الفجر[1] وفي سنة المغرب[2]، وفي ركعتي الطواف[3] لما تضمنتاه من الإخلاص لله عز وجل، والثناء عليه بالصفات الكاملة في سورة ﴿قل هو الله أحد﴾. ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ يناديهم يعلن لهم بالنداء ﴿يا أيها الكافرون﴾ وهذا يشمل كل كافر سواء كان من المشركين، أو من اليهود، أو من النصارى، أو من الشيوعيين أو من غيرهم. كل كافر يجب أن تناديه بقلبك أو بلسانك إن كان حاضراً لتتبرأ منه ومن عبادته ﴿قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب بيان استحباب ركعتي سنة الفجر، وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما (٧٢٦) (٩٨).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في الركعتين بعد المغرب والقراءة فيهما (٤٣١) وقال: حديث غريب. وابن ماجه، أبواب إقامة الصلوات، باب ما يقرأ في الركعتين بعد المغرب (١١٦٦).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨) (١٤٧).

عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ كُررت الجمل على مرتينْ مرتين **﴿لا أعبد ما تعبدون﴾** أي: لا أعبد الذين تعبدونهم، وهم الأصنام **﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾** وهو الله، و«ما» هنا في قوله: **﴿ما أعبد﴾** بمعنى «من» لأن اسم الموصول إذا عاد إلى الله فإنه يأتي بلفظ «من» **﴿لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾** يعني: أنا لا أعبد أصنامكم وأنتم لا تعبدون الله. **﴿ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾** قد يظن الظان أن هذه مكررة للتوكيد، وليس كذلك لأن الصيغة مختلفة **﴿لا أعبد ما تعبدون﴾** فعل. **﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾** «عابد» و«عابدون» اسم، والتوكيد لابد أن تكون الجملة الثانية كالأولى. إذاً القول بأنه كرر للتوكيد ضعيف، إذاً لماذا هذا التكرار؟

قال بعض العلماء: **﴿لا أعبد ما تعبدون﴾** أي: الآن **﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾** في المستقبل، فصار **﴿لا أعبد ما تعبدون﴾** أي: في الحال، **﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾** يعني في المستقبل؛ لأن الفعل المضارع يدل على الحال، واسم الفاعل يدل على الاستقبال. بدليل أنه عمل، واسم الفاعل لا يعمل إلا إذا كان للاستقبال، **﴿لا أعبد ما تعبدون﴾** الآن **﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾** يعني الآن. **﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾** يعني في المستقبل **﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾** يعني في المستقبل.

لكن أورد على هذا القول إيراد كيف قال: **﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾** مع أنهم قد يؤمنون فيعبدون الله؟! وعلى هذا فيكون في هذا القول نوع من الضعف.

وأجابوا عن ذلك بأن قوله: **﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾** يخاطب المشركين الذين عَلِم الله تعالى أنهم لن يؤمنوا. فيكون الخطاب ليس

عامًّا، وهذا مما يضعف القول بعض الشيء.

فعندنا الآن قولان:

الأول: إنها توكيد.

والثاني: إنها في المستقبل.

القول الثالث: ﴿**لا أعبد ما تعبدون**﴾ أي: لا أعبد الأصنام التي تعبدونها. ﴿**ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾ أي: لا تعبدون الله. ﴿**ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾ أي: في العبادة يعني ليست عبادتي كعبادتكم، ولا عبادتكم كعبادتي، فيكون هذا نفي للفعل لا للمفعول به، يعني ليس نفيًا للمعبود. لكنه نفي للعبادة أي لا أعبد كعبادتكم، ولا تعبدون أنتم كعبادتي، لأن عبادتي خالصة لله، وعبادتكم عبادة شرك.

القول الرابع: واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله [1] ـ أن قوله ﴿**لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾ هذا الفعل. فوافق القول الأول في هذه الجملة. ﴿**ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾ أي: في القبول، بمعنى ولن أقبل غير عبادتي، ولن أقبل عبادتكم، وأنتم كذلك لن تقبلوا. فتكون الجملة الأولى عائدة على الفعل. والجملة الثانية عائدة على القبول والرضا، يعني: لا أعبده ولا أرضاه، وأنتم كذلك. لا تعبدون الله ولا ترضون بعبادته.

وهذا القول إذا تأملته لا يرد عليه شيء من الهفوات السابقة، فيكون قولاً حسناً جيداً، ومن هنا نأخذ أن القرآن الكريم ليس فيه شيء مكرر لغير فائدة إطلاقاً، ليس فيه شيء مكرر إلا وله فائدة. لأننا لو

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: جمع الشيخ عبدالرحمن بن قاسم (١٦/ ٥٣٤).

قلنا: إن في القرآن شيئاً مكرراً بدون فائدة لكان في القرآن ما هو لغو، وهو منزه عن ذلك، وعلى هذا فالتكرار في سورة الرحمن ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ وفي سورة المرسلات ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ تكرار لفائدة عظيمة، وهي أن كل آية مما بين هذه الآية المكررة، فإنها تشمل على نعم عظيمة، وآلاء جسيمة، ثم إن فيها من الفائدة اللفظية التنبيه للمخاطب حيث يكرر عليه ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ويكرر عليه ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ ﴿لكم دينكم﴾ الذي أنتم عليه وتدينون به. ولي ديني، فأنا برىء من دينكم، وأنتم بريؤون من ديني.

قال بعض أهل العلم: وهذه السورة نزلت قبل فرض الجهاد؛ لأنه بعد الجهاد لا يقر الكافر على دينه إلا بالجزية إن كانوا من أهل الكتاب. وعلى القول الراجح أو من غيرهم.

ولكن الصحيح أنها لا تنافي الأمر بالجهاد حتى نقول إنها منسوخة، بل هي باقية ويجب أن نتبرأ من دين اليهود والنصارى والمشركين، في كل وقت وحين، ولهذا نقر اليهود والنصارى على دينهم بالجزية، ونحن نعبد الله، وهم يعبدون ما يعبدون، فهذه السورة فيها البراءة والتخلي من عبادة غير الله عز وجل، سواء في المعبود أو في نوع الفعل، وفيها الإخلاص لله عز وجل، وأن لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له. وإلى هنا ينتهي ما تيسر من الكلام على هذه السورة.

تفسير سورة النصر

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ﴿**نصر الله**﴾ النصر هو تسليط الله الإنسان على عدوه بحيث يتمكن منه ويخذله ويكبته، والنصر أعظم سرور يحصل للعبد في أعماله، لأن المنتصر يجد نشوة عظيمة، وفرحاً وطرباً، لكنه إذا كان بحق فهو خير، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**»[1] أي أن عدوه مرعوب منه إذا كان بينه وبينه مسافة شهر، والرعب أشد شيء يفتك بالعدو، لأن من حصل في قلبه الرعب لا يمكن أن يثبت أبداً، بل سيطير طيران الريح فقوله: ﴿**إذا جاء نصر الله**﴾ أي نصر الله إياك على عدوك ﴿**والفتح**﴾ معطوف على النصر، وعطفه على النصر مع أن الفتح من النصر تنويه بشأنه، وهو من باب عطف الخاص على العام، كقوله تعالى: ﴿تنزل الملائكة والروح فيها﴾ [القدر: ٤]. أي في ليلة القدر فجبريل من الملائكة وخصه لشرفه، و(ال) في الفتح للعهد الذهني، أي: الفتح المعهود المعروف في أذهانكم، وهو فتح مكة، وكان فتح مكة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة، وسببه

---

(١) تقدم تخريجه ص (٣٣٢).

أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما صالح قريش في الحديبية في السنة السادسة ـ الصلح المشهور ـ نقضت قريش العهد فغزاهم النبي ﷺ وخرج إليهم من المدينة بنحو عشرة آلاف مقاتل خرج مختفياً وقال: «**اللهم عمي أخبارنا عنهم**»[1] فلم يفاجأهم إلا وهو محيط بهم ودخل مكة في العشرين من رمضان، من السنة الثامنة للهجرة، مظفراً منصوراً مؤيداً، حتى إنه في النهاية اجتمع إليه كفار قريش حول الكعبة فوقف على الباب وقريش تحته ينتظرون ما يفعل، فأخذ بعضادتي الباب وقال: يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟ وهو الذي كان قبل ثمان سنوات هارباً منهم وكانوا الآن في قبضته وتحت تصرفه، قال: ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لأخوته ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم﴾ [يوسف: ٩٢]. اذهبوا فأنتم الطلقاء[2]، فعفى عنهم عليه الصلاة والسلام، هذا الفتح سماه الله فتحاً مبيناً، فقال تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ [الفتح: ١]. أي بيناً عظيماً واضحاً، ولما حصل عرف الناس جميعاً أن العاقبة لمحمد ﷺ وأن دور قريش واتباعه قد انقضى فصار الناس ﴿**يدخلون في دين الله أفواجاً**﴾ أي جماعات بعد أن كانوا يدخلون فيه أفراداً، ولا يدخل فيه الإنسان في بعض الأحوال إلا مختفياً، صاروا يدخلون في دين الله أفواجاً، وصارت الوفود ترد على النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة من كل جانب حتى سمي العام التاسع (عام الوفود) يقول الله عز وجل إذا رأيت هذه العلامة ﴿**فسبح بحمد ربك واستغفره**﴾ كان المتوقع أن يكون الجواب فاشكر الله على

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٢٣/ (١٠٥٢)، وفي «الصغير» (٦٨).

(٢) تقدم تخريجه ص (١٥٥).

هذه النعمة واحمد الله عليها ولكن ﴿**فسبح بحمد ربك واستغفره**﴾ وهذا نظير قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً. فاصبر لحكم ربك﴾ [الإنسان: ٢٣، ٢٤]. كان المتوقع فاشكر ربك على هذا التنزيل وقم بحقه، ولكن قال: ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ إيذاناً بأنه سوف ينال أذىً بواسطة إبلاغ هذا القرآن ونشره بين الأمة ﴿**فسبح بحمد ربك واستغفره**﴾ عند التأمل تتبين الحكمة فالمعنى أنه إذا جاء نصر الله والفتح فقد قرب أجلك وما بقي عليك إلا التسبيح بحمد ربك والاستغفار ﴿**فسبح بحمد ربك**﴾ أي سبحه تسبيحاً مقروناً بالحمد. والتسبيح: تنزيه الله تعالى عما لا يليق بجلاله. والحمد: هو الثناء عليه بالكمال مع المحبة والتعظيم. اجمع بين التنزيه وبين الحمد ﴿**واستغفره**﴾ يعني اسأله المغفرة. فأمره الله تعالى بأمرين:

الأمر الأول: التسبيح المقرون بالحمد.

والثاني: الاستغفار. والاستغفار هو طلب المغفرة. والمغفرة ستر الله تعالى على عبده ذنوبه مع محوها والتجاوز عنها. وهذا غاية ما يريد العبد، لأن العبد كثير الذنب يحتاج إلى مغفرة إن لم يتغمده الله برحمته هلك، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**»[1]. لأن عملك هذا لو أردت أن تجعله في مقابلة نعمة من النعم، نعمة واحدة لأحاطت به النعم، فكيف يكون عوضاً تدخل به الجنة؟ ولهذا قال بعض العارفين في نظم له:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٣). ومسلم، كتاب صفات المنافقين، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة الله (٢٨١٦) (٧٢).

إذا كان بشكري نعمة الله نعمة ... علي لـه في مثلهـا يجـب الشكـر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر

﴿**إنه كان تواباً**﴾ أي: لم يزل عز وجل تواباً على عباده، فإذا استغفرته تاب عليك، هذا هو معنى السورة.

لكن السورة لها مغزى عظيم لا يتفطن له إلا الأذكياء، ولهذا لما سمع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن الناس انتقدوه في كونه يُدني عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مع صغر سنه ولا يدني أمثاله من شباب المسلمين، وعمر ـ رضي الله عنه ـ من أعدل الخلفاء أراد أن يبين للناس أنه لم يحابِ ابن عباس في شيء، فجمع كبار المهاجرين والأنصار في يوم من الأيام ومعهم عبدالله بن عباس وقال لهم: ما تقولون في هذه السورة ﴿**إذاجاء نصر الله والفتح**﴾ حتى ختم السورة ففسروها بحسب ما يظهر فقط، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، ولم يقل بعضهم شيئاً. فقال: ما تقول ياابن عباس قال: يا أمير المؤمنين هو أجل رسول الله ﷺ، أعلمه الله له: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ فتح مكة فذاك علامة أجلك، ﴿**ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً**﴾ فقال عمر: «والله ما أعلم منها إلا ما تعلم»[1]. فتبين بذلك فضل ابن عباس وتميزه، وأن عنده من الذكاء والمعرفة بمراد الله عز وجل.

لما نزلت هذه السورة جعل رسول الله ﷺ الذي هو أشد الناس عبادة لله وأتقاهم لله جعل يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب (٥٢) (٤٢٩٤).

«سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»[١] . فنقول: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين.

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة ﴿إذا جاء نصر الله﴾ (٤٩٦٨)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤) (٢١٧).

تفسير سورة المسد

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

هذا القرآن فيه من الدلالات الكثيرة ما يدل دلالة واضحة على أن رسول الله ﷺ حق، ليس يدعو لملك ولا لجاه، ولا لرئاسة قومه، وأعمام الرسول عليه الصلاة والسلام انقسموا في معاملته ومعاملة ربه عز وجل إلى ثلاثة أقسام:

قسم آمن به وجاهد معه، وأسلم لله رب العالمين.

وقسم ساند وساعد، لكنه باق على الكفر.

وقسم عاند وعارض، وهو كافر.

فأما الأول: فالعباس بن عبدالمطلب، وحمزة بن عبدالمطلب. والثاني: أفضل من الأول؛ لأن الثاني من أفضل الشهداء عند الله عز وجل، ووصفه النبي عليه الصلاة والسلام بأنه أسد الله، وأسد رسوله[1]، واستشهد رضي الله عنه في أحد في السنة الثانية من الهجرة[2].

---

(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» ٨/ ٤٣٨، وابن أبي عاصم في «الجهاد» (٢٤٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب قتل حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه (٤٠٧٢).

أما الذي ساند وساعد مع بقائه على الكفر فهو أبو طالب، فأبو طالب قام مع النبي ﷺ خير قيام في الدفاع عنه ومساندته ولكنه ـ والعياذ بالله ـ قد سبقت له كلمة العذاب، لم يُسلم حتى في آخر حياته في آخر لحظة من الدنيا عرض عليه النبي ﷺ أن يسلم لكنه أبى بل ومات على قوله: إنه على ملة عبدالمطلب[١]، فشفع له النبي عليه الصلاة والسلام حتى كان في ضحضاح من نار، وعليه نعلان يغلي منهما دماغه[٢].

أما الثالث: الذي عاند وعارض فهو أبو لهب. أنزل الله فيه سورة كاملة تُتلى في الصلوات فرضها ونفلها، في السر والعلن، يُثاب المرء على تلاوتها، على كل حرف عشر حسنات. يقول الله عز وجل: ﴿**تبت يدا أبي لهب وتب**﴾ وهذا رد على أبي لهب حين جمعهم النبي ﷺ ليدعوهم إلى الله فبشر وأنذر، قال أبو لهب: تبًّا لك ألهذا جمعتنا[٣]، قوله: «ألهذا جمعتنا» إشارة للتحقير، يعني هذا أمر حقير ما يحتاج أن يُجمع له زعماء قريش وهذا كقوله: ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ [الأنبياء: ٣٦]. والمعنى تحقيره، فليس بشيء ولا يهتم به كما قالوا: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: ٣١]. فالحاصل أن أبا لهب قال: تبًّا لك ألهذا جمعتنا، فرد الله عليه بهذه السورة: ﴿**تبت يدا أبي لهب وتب**﴾ والتباب الخسار. كما قال تعالى: ﴿وما كيد فرعون إلا في تباب﴾ [غافر: ٣٧]. أي: خسار. وبدأ بيديه قبل

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ (٤٧٧٢) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، والدليل على أن من مات على الشرك فهو من أصحاب الجحيم (٢٤) (٣٩).

(٢) تقدم تخريجه ص (٢٠٤).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿سيصلى ناراً ذات لهب﴾ (٤٩٧٣).

ذاته؛ لأن اليدين هما آلتا العمل والحركة، والأخذ والعطاء وما أشبه ذلك. وهذا اللقب أبو لهب، لقب مناسب تماماً لحاله ومآله، وجه المناسبة أن هذا الرجل سوف يكون في نار تلظى، تتلظى لهباً عظيماً مطابقة لحاله ومآله. يقول الشاعر:

قل إن أبصرت عيناك ذا لقب إلا ومعناه إن فكرت في لقبه

ولما أقبل سهيل بن عمرو في قصة غزوة الحديبية قال الرسول ﷺ: «**هذا سهيل بن عمرو، وما أراه إلا سهل لكم من أمركم**»[1]، لأن الاسم مطابق للفعل. يقول الله عز وجل: ﴿**ما أغنى عنه ماله**﴾ «ما» هذه يحتمل أن تكون استفهامية والمعنى: أي شيء أغنى عنه ماله وما كسب؟ والجواب: لا شيء، ويحتمل أن تكون (ما) نافية. أي ما أغنى عنه، أي لم يغنِ عنه ماله وما كسب شيئاً، وكلا المعنيين متلازمان، ومعناهما: أن ماله وما كسب لم يغنِ عنه شيئاً، مع أن العادة أن المال ينفع، فالمال يفدي به الإنسان نفسه لو تسلط عليه عدو وقال: أنا أعطيك كذا وكذا من المال وأطلقني، يطلقه، لكن قد يطلب مالاً كثيراً أو قليلاً، ولو مرض انتفع بماله، ولو جاع انتفع بماله، فالمال ينفع، لكن النفع الذي لا ينجي صاحبه من النار، ليس بنفع. ولهذا قال: ﴿**ما أغنى عنه ماله**﴾. يعني من الله شيئاً قوله: ﴿**وما كسب**﴾ قيل المعنى: وما كسب من الولد. كأنه قال: ما أغنى عنه ماله وولده. كقول نوح: ﴿واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً﴾ [نوح: ٢١]. فجعلوا قوله: ﴿**وما كسب**﴾ يعني بذلك الولد. وأيدوا هذا القول بقول النبي ﷺ: «**إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٢٧٣١).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الأحكام، باب ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده (١٣٥٨) وقال: حديث حسن صحيح.

والصواب أن الآية أعم من هذا، وأن الآية تشمل الأولاد، وتشمل المال المكتسب الذي ليس في يده الآن، وتشمل ما كسبه من شرف وجاه. كل ما كسبه مما يزيده شرفاً وعزًّا فإنه لا يُغني عنه شيئاً ﴿**ما أغنى عنه ماله وما كسب**﴾. ﴿**سيصلى ناراً ذات لهب**﴾ السين في قوله: ﴿**سيصلى**﴾ للتنفيس المفيد للحقيقة والقرب. يعني أن الله تعالى توعده بأنه سيصلى ناراً ذات لهب عن قريب؛ لأن متاع الدنيا والبقاء في الدنيا مهما طال فإن الآخرة قريبة، حتى الناس في البرزخ وإن مرت عليهم السنين الطوال فكأنها ساعة ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وشيء مقدر بساعة من نهار فإنه قريب. ﴿**وامرأته حمالة الحطب**﴾ يعني كذلك امرأته معه، وهي امرأة من أشراف قريش لكن لم يغنِ عنها شرفها شيئاً لكونها شاركت زوجها في العداء والإثم، والبقاء على الكفر. وقوله: ﴿**حمالة الحطب**﴾ قُرأت بالنصب والرفع، أما النصب فإنها تكون حالاً لامرأة، يعني وامرأته حال كونها حمالة الحطب. أو تكون منصوبة على الذم لأن النعت المقطوع يجوز نصبه على الذم. أي أذم حمالة الحطب. وأما على قراءة الرفع فهي صفة لامرأة ﴿**حمالة الحطب**﴾ ﴿**حمالة**﴾ صيغة مبالغة أي تحمله بكثرة، وذكروا أنها تحمل الحطب الذي فيه الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ من أجل أذى الرسول ﷺ. ﴿**في جيدها حبل من مسد**﴾ الجيد: العنق، والحبل معروف، والمسد: الليف. يعني أنها متقلدة حبلاً من الليف تخرج به إلى الصحراء لتربط به الحطب الذي تأتي به لتضعه في طريق النبي ﷺ، نعوذ بالله من ذلك، وهو إشارة إلى دنو نظرتها، وأنها أهانت نفسها، امرأة من قريش من أكابر قبائل قريش

تخرج إلى الصحراء وتضع هذا الحبل في عنقها، وهو من الليف مع ما فيـه من المهانة، لكن من أجل أذية الرسول عليه الصلاة والسلام. نسأل الله العافية. وبهذا ينتهي الكلام بما يسر الله عز وجل على هذه السورة.

تفسير سورة الإخلاص

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾.

البسملة سبق الكلام عليها.

ذكر في سبب نزول هذه السورة: أن المشركين أو اليهود قالوا للنبي ﷺ: صف لنا ربك؟ فأنزل الله هذه السورة[1].

﴿قل﴾ الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام، وللأمة أيضاً و﴿هو الله أحد﴾ ﴿هو﴾ ضمير الشأن عند المعربين. ولفظ الجلالة ﴿الله﴾ هو خبر المبتدأ و﴿أحد﴾ خبر ثان. ﴿الله الصمد﴾ جملة مستقلة. ﴿الله أحد﴾ أي هو الله الذي تتحدثون عنه وتسألون عنه ﴿أحد﴾ أي: متوحد بجلاله وعظمته، ليس له مثيل، وليس له شريك، بل هو متفرد بالجلال والعظمة عز وجل. ﴿الله الصمد﴾ جملة مستقلة، بين الله تعالى أنه ﴿الصمد﴾ أجمع ما قيل في معناه: أنه الكامل في صفاته، الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته. فقد روي عن ابن عباس أن الصمد هو الكامل في علمه، الكامل في حلمه، الكامل في عزته، الكامل في قدرته، إلى آخر ما ذكر في الأثر[2]. وهذا يعني أنه مستغنٍ عن جميع

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ١٣٣). والترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة الإخلاص (٣٣٦٤).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٣٠/ ٣٤٦، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص ٥٨ـ ٥٩.

المخلوقات لأنه كامل، وورد أيضاً في تفسيرها أن الصمد هو الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها، وهذا يعني أن جميع المخلوقات مفتقرة إليه، وعلى هذا فيكون المعنى الجامع للصمد هو: الكامل في صفاته الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته. ﴿لم يلد﴾ لأنه جل وعلا لا مثيل له، والولد مشتق من والده وجزء منه كما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في فاطمة: «إنها بَضْعَةٌ مني»[1]، والله جل وعلا لا مثيل له، ثم إن الولد إنما يكون للحاجة إليه إما في المعونة على مكابدة الدنيا، وإما في الحاجة إلى بقاء النسل. والله عز وجل مستغنٍ عن ذلك. فلهذا لم يلد لأنه لا مثيل له؛ ولأنه مستغنٍ عن كل أحد عز وجل. وقد أشار الله عز وجل إلى امتناع ولادته أيضاً في قوله تعالى: ﴿أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾ [الأنعام: ١٠١]. فالولد يحتاج إلى صاحبة تلده، وكذلك هو خالق كل شيء، فإذا كان خالق كل شيء فكل شيء منفصل عنه بائن منه. وفي قوله: ﴿لم يلد﴾ رد على ثلاث طوائف منحرفة من بني آدم، وهم: المشركون، واليهود، والنصارى، لأن المشركين جعلوا الملائكة الذين هم عبادالرحمن إناثاً، وقالوا: إن الملائكة بنات الله. واليهود قالوا: عزير ابن الله. والنصارى قالوا: المسيح ابن الله. فكذبهم الله بقوله: ﴿لم يلد ولم يولد﴾ لأنه عز وجل هو الأول الذي ليس قبله شيء، فكيف يكون مولوداً؟! ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ أي لم يكن له أحد مساوياً في جميع صفاته، فنفى الله سبحانه وتعالى عن نفسه أن يكون والداً، أو مولوداً، أو له مثيل، وهذه

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ ومنقبة فاطمة (٣٧١٤). ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل بنت النبي رضي الله عنها (٢٤٤٩) (٩٣).

السورة لها فضل عظيم. قال النبي ﷺ: «**إنها تعدل ثلث القرآن**»[١]، لكنها تعدله ولا تقوم مقامه، فهي تعدل ثلث القرآن لكن لا تقوم مقام ثلث القرآن. بدليل أن الإنسان لو كررها في الصلاة الفريضة ثلاث مرات لم تكفه عن الفاتحة، مع أنه إذا قرأها ثلاث مرات فكأنما قرأ القرآن كله، لكنها لا تجزىء عنه، ولا تستغرب أن يكون الشيء معادلاً للشيء ولا يجزىء عنه. فها هو النبي عليه الصلاة والسلام أخبر أن من قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، فكأنما أعتق أربعة أنفس من بني إسماعيل، أو من ولد إسماعيل»[٢]، ومع ذلك لو كان عليه رقبة كفارة، وقال هذا الذكر، لم يكفه عن الكفارة فلا يلزم من معادلة الشيء للشيء أن يكون قائماً مقامه في الإجزاء.

هذه السورة كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقرأ بها في الركعة الثانية في سنة الفجر[٣]، وفي سنة المغرب[٤]، وفي ركعتي الطواف[٥]، وكذلك يقرأ بها في الوتر[٦]، لأنها مبنية على الإخلاص التام لله، ولهذا تسمى سورة الإخلاص.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل ﴿قل هو الله أحد﴾ (٥٠١٥). ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة ﴿قل هو الله أحد﴾ (٨١١) (٢٥٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الذكر، باب فضل التهليل (٢٦٩٣) (٣٠).

(٣) تقدم تخريجه ص (٣٣٥).

(٤) تقدم تخريجه ص (٣٣٥).

(٥) تقدم تخريجه ص (٣٣٥).

(٦) أخرجه الترمذي، أبواب الوتر، باب ما جاء في ما يقرأ به الوتر (٤٦٣) وقال: حديث حسن غريب.

تفسير سورة الفلق

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾ رب الفلق هو الله، والفلق: الإصباح. ويجوز أن يكون أعم من ذلك أن الفلق كل ما يطلقه الله تعالى من الإصباح، والنوى، والحب. كما قال الله تعالى: ﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾ وقال: ﴿فالق الإصباح﴾. ﴿**من شر ما خلق**﴾ أي من شر جميع المخلوقات حتى من شر نفسه، لأن النفس أمارة بالسوء، فإذا قلت من شر ما خلق فأول ما يدخل فيه نفسك، كما جاء في خطبة الحاجة «**نعوذ بالله من شرور أنفسنا**»[1]، وقوله: ﴿**من شر ما خلق**﴾ يشمل شياطين الإنس والجن والهوام وغير ذلك. ﴿**ومن شر غاسق إذا وقب**﴾ الغاسق قيل: إنه الليل. وقيل: إنه القمر، والصحيح إنه عام لهذا وهذا، أما كونه الليل، فلأن الله تعالى قال: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل﴾ [الإسراء: ٧٨]. والليل تكثر فيه الهوام والوحوش، فلذلك استعاذ من شر الغاسق أي: الليل.

وأما القمر فقد جاء في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أن النبي ﷺ أرى عائشة القمر. وقال: «**هذا هو الغاسق**»[2]، وإنما

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» ١/ ٣٠٢.

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة المعوذتين (٣٣٦٦) وقال: حديث حسن صحيح.

كان غاسقاً لأن سلطانه يكون في الليل. وقوله: ﴿من شر غاسق إذا وقب﴾ هو معطوف على ﴿من شر ما خلق﴾ من باب عطف الخاص على العام، لأن الغاسق من مخلوقات الله عز وجل وقوله: ﴿إذا وقب﴾ أي: إذا دخل. فالليل إذا دخل بظلامه غاسق، وكذلك القمر إذا أضاء بنوره فإنه غاسق، ولا يكون ذلك إلا بالليل. ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ ﴿النفاثات في العقد﴾ هن الساحرات. يعقدن الحبال وغيرها، وتنفث بقراءة مطلسمة فيها أسماء الشياطين على كل عقدة تعقد ثم تنفث، تعقد ثم تنفث، تعقد ثم تنفث، وهي بنفسها الخبيثة تريد شخصاً معيناً، فيؤثر هذا السحر بالنسبة للمسحور. وذكر الله النفاثات دون النفاثين؛ لأن الغالب أن الذي يستعمل هذا النوع من السحر هن النساء، فلهذا قال: ﴿النفاثات في العقد﴾ ويحتمل أن يقال: إن النفاثات يعني الأنفس النفاثات فيشمل الرجال والنساء. ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ الحاسد هو الذي يكره نعمة الله على غيره، فتجده يضيق ذرعاً إذا أنعم الله على هذا الإنسان بمال، أو جاه، أو علم أو غير ذلك. فيحسده ولكن الحسّاد نوعان: نوع يحسد ويكره في قلبه نعمة الله على غيره، لكن لا يتعرض للمحسود بشيء، تجده مهموماً مغموماً من نعم الله على غيره، لكنه لا يعتدي على صاحبه. والشر والبلاء إنما هو بالحاسد إذا حسد. ولهذا قال: ﴿إذا حسد﴾. ومن حسد الحاسد العين التي تصيب المُعان يكون هذا الرجل عنده كراهة لنعم الله على الغير فإذا أحس بنفسه أن الله أنعم على فلان بنعمة خرج من نفسه الخبيثة (معنى) لا نستطيع أن نصفه لأنه مجهول، فيصيب بالعين، ومن تسلط عليه أحياناً يموت، وأحياناً يمرض، وأحياناً يُجن، حتى الحاسد يتسلط على الحديد فيوقف اشتغاله، وربما يصيب السيارة بالعين وتنكسر أو

تتعطل، وربما يصيب رفَّاعة الماء، أو حراثة الأرض، فالعين حق تصيب بإذن الله عز وجل، وذكر الله عز وجل الغاسق إذا وقب، والنفاثات في العقد، والحاسد إذا حسد؛ لأن البلاء كله في هذه الأحوال الثلاثة يكون خفيًا. الليل ستر وغشاء. ﴿والليل إذا يغشى﴾ [الليل: ١]. يكمن به الشر ولا يعلم به. ﴿**النفاثات في العقد**﴾ أيضاً السحر خفي لا يعلم. ﴿**الحاسد إذا حسد**﴾ العائن أيضاً خفي تأتي العين من شخص تظن أنه من أحب الناس إليك وأنت من أحب الناس إليه ومع ذلك يصيبك بالعين. لهذا السبب خص الله هذه الأمور الثلاثة. الغاسق إذا وقب، والنفاثات في العقد، والحاسد إذا حسد، وإلا فهي داخلة في قوله: ﴿**من شر ما خلق**﴾.

فإذا قال قائل: ما هو الطريق للتخلص من هذه الشرور الثلاثة؟

قلنا: الطريق للتخلص أن يعلق الإنسان قلبه بربه، ويفوض أمره إليه، ويحقق التوكل على الله، ويستعمل الأوراد الشرعية التي بها يحصن نفسه ويحفظها من شر هؤلاء، وما كثر الأمر في الناس في الآونة الأخير من السحرة والحساد وما أشبه ذلك إلا من أجل غفلتهم عن الله، وضعف توكلهم على الله عز وجل، وقلة استعمالهم للأوراد الشرعية التي بها يتحصنون، وإلا فنحن نعلم أن الأوراد الشرعية حصن منيع، أشد من سد يأجوج ومأجوج. لكن مع الأسف أن كثيرًا من الناس لا يعرف عن هذه الأوراد شيئاً، ومن عرف فقد يغفل كثيراً، ومن قرأها فقلبه غير حاضر، وكل هذا نقص، ولو أن الناس استعملوا الأوراد على ما جاءت به الشريعة لسلموا من شرور كثيرة، نسأل الله العافية والسلامة.

تفسير سورة الناس

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

البسملة تقدم الكلام عليها.

﴿قل أعوذ برب الناس﴾ وهو الله عز وجل، وهو رب الناس وغيرهم، رب الناس، ورب الملائكة، ورب الجن، ورب السموات، ورب الأرض، ورب الشمس، ورب القمر، ورب كل شيء، لكن للمناسبة خص الناس. ﴿ملك الناس﴾ أي الملك الذي له السلطة العليا في الناس، والتصرف الكامل هو الله عز وجل. ﴿إله الناس﴾ أي مألوههم ومعبودهم، فالمعبود حقًّا الذي تألهه القلوب وتحبه وتعظمه هو الله عز وجل. ﴿من شر الوسواس الخناس. الذي يوسوس في صدور الناس. من الجنة والناس﴾ ﴿الوسواس﴾ قال العلماء: إنها مصدر يراد به اسم الفاعل أي: الموسوس. والوسوسة هي: ما يلقى في القلب من الأفكار والأوهام والتخيلات التي لا حقيقة لها. ﴿الخناس﴾ الذي يخنس وينهزم ويولي ويدبر عند ذكر الله عز وجل وهو الشيطان. ولهذا إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان له ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي النداء أقبل حتى إذا ثوب للصلاة أدبر، حتى إذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول: اذكر كذا،

اذكر كذا، لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى[١] . ولهذا جاء في الأثر: «إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان»[٢] ، والغيلان هي الشياطين التي تتخيل للمسافر في سفره وكأنها أشياء مهولة، أو عدو أو ما أشبه ذلك فإذا كبر الإنسان انصرفت. وقوله: ﴿من الجنة والناس﴾ أي أن الوساوس تكون من الجن، وتكون من بني آدم، أما وسوسة الجن فظاهر لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وأما وسوسة بني آدم فما أكثر الذين يأتون إلى الإنسان يوحون إليه بالشر، ويزينونه في قلبه حتى يأخذ هذا الكلام بلبه وينصرف إليه.

هذه السور الثلاث: الإخلاص، والفلق، والناس كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفث في كفه ومسح بذلك وجهه، وما استطاع من بدنه[٣] ، وربما قرأها خلف الصلوات الخمس[٤] . فينبغي للإنسان أن يتحرى السنة في تلاوتها في مواضعها كما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبهذا نختم آخر جزء من القرآن وهو جزء النبأ. والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب فضل التأذين (٦٠٨). ومسلم، كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهروب الشيطان عند سماعه (٣٨٩) (٨٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٤٢٧٧).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات (٥٠١٧).

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب الوتر، باب في الاستغفار (١٥٢٣). والنسائي، كتاب السهو، باب الأمر بقراءة المعوذات بعد التسليم من الصلاة (١٣٣٧). والحاكم (١/ ٢٥٣) وصححه على شرط مسلم.

الفهرس

السورة	الصفحة
المقدمة	٥
الفاتحة	٩
النبأ	٢٥
النازعات	٣٩
عبس	٥٩
التكوير	٦٩
الانفطار	٨٨
المطففين	٩٣
الانشقاق	١٠٩
البروج	١٢٤
الطارق	١٤٦
الأعلى	١٥٦
الغاشية	١٧١
الفجر	١٨٦
البلد	٢١٠
الشمس	٢٢٠
الليل	٢٢٦
الضحى	٢٣٤
الشرح	٢٤١

التين ٢٥٢
العلق ٢٥٥
القدر ٢٦٨
البينة ٢٧٦
الزلزلة ٢٨٤
العاديات ٢٩١
القارعة ٢٩٦
التكاثر ٣٠١
العصر ٣٠٧
الهمزة ٣١٤
الفيل ٣١٩
قريش ٣٢١
الماعون ٣٢٦
الكوثر ٣٣١
الكافرون ٣٣٥
النصر ٣٣٩
المسد ٣٤٤
الإخلاص ٣٤٩
الفلق ٣٥٢
الناس ٣٥٥
الفهرس ٣٥٧

إصدارات دار الثريا من مؤلفات

فضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله

جمع وإعداد فهد بن ناصر السليمان – وفقه الله

١- مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين ١٥ مجلداً

٢- شرح كشف الشبهات مجلد

٣- شرح ثلاثة الأصول مجلد

٤- شرح العقيدة الواسطية مجلد

٥- كتاب العلم مجلد

٦- مجالس رمضان مجلد

٧- فتاوى أركان الإسلام مجلد